

كِتَابٌ

صِيحُ الْأَسَدِ

تَالِيفُ

الْشَيْخِ أَبِي الْغُبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِي

(حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب المصرية)

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

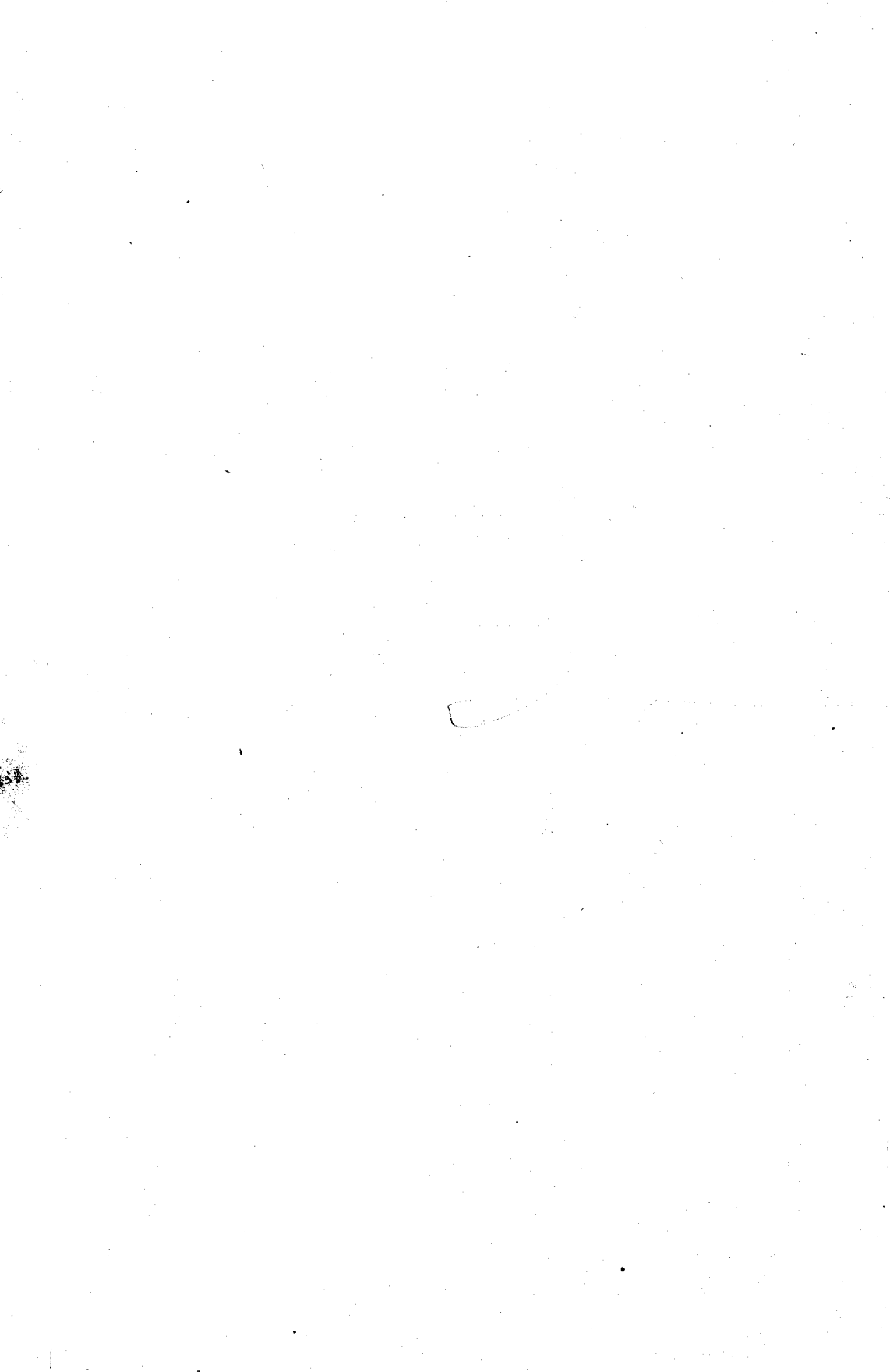
دار الكتب المصرية

صنح الأسيك

الجزء الأول

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٢ - ١٣٤٠ م



كِتَابٌ

صِيحُ الْأَسَدِ

تَالِيفُ

الْشَيْخِ أَبِي الْغُبَّانِ أَحْمَدَ الْقَلَقَشَنْدِي

الجزء الأول

(حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب المصرية)

طبع

بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٢٢ - ١٣٤٠ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه . والمتكلم بأجمليه، فصاحته وبيانه .
راقم حقائق المعاني بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم على
ترجمة ما في الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذي حفظ برسوم الخطوط ما تكل
الأذهان السليمة عن حفظه . وتبلغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديته
بصورة معناه ولفظه .

أحمده على أن وهب من بنات الأفكار ما يربو في الفخر على ذكُور الصوارم .
ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكارم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُوقَّع لصاحبها بالنجاة من النار .
ويُكْتَب قائلها في ديوان الأبرار . وأن محمدا عبده ورسوله الذي آهتت لهيبته
الأسيرة وشرفت بذكره المنابر . وضافت عن درك وصفه الطروس ونفدت دون
إحصاء فضله المحابر . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قلدوا أمور الدين فقاموا
بواجبها . وحملوا أعباء الشريعة فانتشرت بهم في مشارق الأرض ومغاربها . صلاة
تُسَطَّر في الصحف . وتفوق بهجتها الروض الأنف .

وبعد فلما كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأريج البضائع وأنفعها . وأفضل المآثر وأعلاها . وآثر الفضائل وأغلاها . لاسيما كتابة الإنشاء التي هي منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانها . لا تلتفت الملوكة إلا إليها . ولا تعول في المهمات إلا عليها . يعظمون أصحابها ويقربون كتابها . خليفها أبدا خليف بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تَسْرَجَانِيهَا إِذَا مَا جَنَى الظَّمَا * وَتُرْوَى بِمَجَارِيهَا إِذَا بَجَلَ القَطْر

وكانت الديار المصرية . والمملكة اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها ! . وضاعف علاها ! قد تعلقت من الثريا بأقراطها . وربحت سائر الأقاليم بغيراطها . بشرى بفتحها الصادق الأمين ، فكانت أعظم بشرى . وأخبر سيد المسلمين أن لأهلها نسبا وصهرا . فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق فحاسوا خلال الديار وعمرها وسهلها . وأقتطعتها أيدي المسلمين من الكفار (وكانوا أحق بها وأهلها) .

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلى أن صارت دار الخلافة العباسيه . وقرار المملكة الإسلامية . وتقرت مملكتها بخدمة الحرمين . وخدمها سائر الملوك والأمم لحيازة القبلتين .

تَنَاهَتْ عِلَاءً وَالشَّبَابُ رَدَاؤُهَا * فَمَا ظَنُّكُمْ بِالْفَضْلِ والرَّأْسِ أَشَيْبُ؟

وحظيت من فضلاء الكتاب بما لم تحظ مملكة من الممالك ، ولا مصر من الأمصار . وحوث من أهل الفضل والأدب مالم يحوقطر من الأقطار . فبارحت متوجهة بأهل الأدب في الحديث والتقديم . مطرزة من فضلاء الكتاب بكل مكين

أمين ، وحفيظ عليم .

نُجُومُ سَمَاءٍ كُلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ * بَدَا كَوْكَبٌ تَأْوِي إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ

هذا . والمؤلفون في هذه الصنعة قد اختلفت مقاصدهم في التصنيف . وتباينت
 مواردُهم في الجمع والتأليف . ففرقة أخذت في بيان أصول الصنعة وذكر شواهدِها .
 وأخرى جنحت إلى ذكر المصطلحات وبيان مقاصدها . وطائفة آهتت بتدوين
 الرسائل ليقتبس من معانيها ويتمسك بأذيالها . وتكون أئموذجا لمن بعدهم يسلك
 سبيلها، من أراد أن ينسج على منوالها . ولم يكن فيها تصنيف، جامع لمقاصدها .
 ولا تأليف، كافل بمصادرها الخلية ومواردها . بل أكثر الكتب المصنفة في بابها .
 والتأليف الدائرة بين أربابها . لا يخرج عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ
 الرائقة مما وقع اختيار الكُتاب عليه . أو طرف من اصطلاح قد رُفِض . وتغير
 أئموذجه وتُقضى . فلا يغني النظر فيه المقلد من كُتاب الزمان . ولا يكتفي به القاصر
 في أوانٍ بعد أوان . على أن معرفة المصطلح هي اللزوم المحتم . والمهمُّ المقدم .
 لعموم الحاجة إليه . واقتصار القاصر عليه .

إِنَّ الصَّنِيعَةَ لَا تَكُونُ صَنِيعَةً * حَتَّى يُصَابَ بِهَا طَرِيقُ المَصْنَعِ

وكان الأئستور الموسوم "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضل
 الألمعي . والمصنّع اللوذعي . ملك الكتابة وإمامها . وسلطان البلاغة ومالك زمامها .
 المقر الشهابي "أحمد بن فضل الله العدوي العمري" سقى الله تعالى عهده العهاد ! .
 وألبسه سواغ الرحمة والرضوان يوم المعاد ! . هو أنفَس الكُتُبِ المصنفة في هذا الباب
 عقدا . وأعد لها طريقا وأعدبها ورذا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأعقمت
 الأفكار عن مثله ففاز من الصنعة بأحمد مذاهبها . فكان حقيقا بقوله في خطبته :

"يا طالبَ الإنشاءِ خُذْ عِلْمَهُ * عَنِّي فِعْلِي غيرَ مَنْكُورٍ !"

"ولا تَقِفْ في بابِ غَيْرِي فما * تَدْخُلُهُ (إلا بدُستُوري)"

إلا أنه قد أهمل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسوغ تركها . ولا ينبغي بالفدية لدى القوات نُسكها . كالبطاق ، والملطفات ، والمطلقات . المكبرة في جملة كثيرة من المكاتبات . فلم يقع الغنى به عما سواه . ولا الأكتفاء بالنظر فيه عما عداه .

ثم تلاه المقر التقوى ابن ناظر الجيش (رحمه الله!) بوضع دستور المسعى "بتتقيف التعريف" مقتنيا أثره في الوضع ، وجاريا على سَنَه في التأليف . مع إيراد ما أهمله في تعريفه . وذِكْر ما فاته من مصطلح ما يُكْتَب أو حَدَثَ بعد تأليفه . فاشتهر ذكره وعز وجوده . ووقع الضنُّ به حتى بخل بإعارته من عُرف كرمه وجوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنته التعريف مقاصد لا غنى بالكاتب عنها . ولا بد للنبلس بهذه الصناعة منها . كالوصايا والأوصاف ، التي هي عمدة الكاتب . ومرا كرا البريد وأبراج الحمام ، وغير ذلك من ممتات الواجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كلُّ من الدستورين منفرداً عن الآخر بقدر زائد . ولم تقع الغنية بأحدهما عن الآخر ، وإن كانا في معنى واحد .

وكيفما كان فالأقتصار على معرفة المصطلح قُصور . والإضراب عن تعرف أصول الصنعة ضَعْف همةٍ وفُتُور . والمقلد لا يوصف بالأجتهد . وشتانَ بين من يعرف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جزم الاعتقاد .
وَلَمْ أَرِ فِي عُيُوبِ النَّاسِ شَيْئاً * كَنَقْصِ الْقَادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وقد ثبت في العُقُول أن البناء لا يقوم على غير أساس . والفرع لا ينبت إلا على أصل ، والثمر لا يُجْتَنَى من غير غراس .

وكننت في حدود سنة إحدى وتسعين وسبعائة عند استقرارى في كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية ، عظم الله تعالى شأنها! . ورفع قدرها! وأعز سلطانها!

أنشأت مقامة بنيتها على أنه لا بد للإنسان من حرفة يتعلق بها . ومعيشة يمسك بسببها .
 وأن الكتابة هي الصناعة التي لا يلبق بطالب العلم من المكاسب سواها . ولا يجوز له
 العُدول عنها إلى ما عداها . وجنحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها .
 وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها . ونهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء
 من المواد . وما ينبغي أن يسلكه من الجَوَاد . وضمنتها من أصول الصنعة ما أُرْبِتْ به
 على المطولات وزادت . وأودعتها من قوانين الكتابة ما استولت به على جميع مقاصدها
 أو كادت . وأشرت فيها إلى وجه تعلق بحال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها مَلِيًّا .
 وأنسابي إلى أهلها وإن كنت في النسبة إليها دَعِيًّا .

وَيْسَ دَعِيَ الْقَوْمِ فِي الْقَوْمِ كَالَّذِي * حَوَى نَسَبًا فِي الْأَكْرَمِينَ عَرِيقًا

إلا أنها قد وقعت موقع الوسخ والإشارة . ومالت إلى الإيجاز فاكتفت بالتلويح
 عن واسع العبارة . فعز بذلك مطلبها . وفات على المحتجني بعد تناول أطيبها . فأشار من
 رأيه مقرون بالصواب . ومشورته عريّة عن الأرتياب . أن أتبعها بمصنّف مبسوط
 يشتمل على أصولها وقواعدها . ويتكفل بحل رموزها وذكر شواهدِها . ليكون
 كالشرح عليها . والبيان لما أجملته والتتمة لما لم يسقهُ الفكر إليها . فامتثلت أمره
 بالسمع والطاعة . ولم أتلكأ وإن لم أكن من أهل هذه الصناعة . غير أن القرية
 بذلك لم تسمع . وصار المقتضى يضعف والمانع يترجّح . لأعذار قد تشابه مُحْكَمُهَا .
 وضرورات ، إن لم يعلمها الخلق فانه يعلمها . إلى أن لاحت لي بوارق الفتح . وظهرت
 والله الحمد آثار المنح . فعند ذلك بلغت النفس أمَلَهَا . وأضفت مواهب الأمتنان
 حللها . وتلا لسان العناية على الغبي الحاسد ﴿ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ
 لَهَا ﴾ .

فشرعت في ذلك بعد أن استخرت الله تعالى (وما خاب من استخار) .
 وراجعت أهل المشورة (وما ندم من استشار) . مستوعبا من المصطلح ما أشتمل عليه
 "التعريف" و"التثقيف" . موضعا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرب المآخذ وحُسن
 التأليف . متبرعا بأموار زائدة على المصطلح الشريف لا يسع الكاتب جهلها . مُتَنَقِّلاً
 من توجيه المقاصد ، وتبيين الشواهد ، بما يُعرف به فرع كل قضية وأصلها . آتياً من
 معالم الكتابة بكل معنى غريب . ناقلاً الناظر في هذا المصنّف عن رتبة أن يسأل فلا
 يجاب إلى رتبة أن يُسأل فيجيب . منبها على ما يحتاج إليه الكاتب من الفنون ، التي
 يخرج بمعرفة عن عهدة الكتابة ودرّكها . ذاكراً من أحوال الممالك المكتّبة عن هذه
 المملكة ما يُعرف به قدر كل مملكة وملكها . مبيّناً جهة قاعدتها ، التي هي محل الملك
 شرقاً أو غرباً ، أو جنوباً أو شمالاً . معرّفاً الطريق الموصل إليها ، براً وبحراً ، وأنقطعا
 واتصالاً . ذاكراً مع كل قاعدة مشاهير بلدانها ، إكمالاً للتعريف . ضابطاً لأسمائها .
 بالحروف كي لا يدخلها التبديل والتحريف .

وسمّيته (صبح الأعشى في كتابة الإنشأ) راجياً من الله تعالى أن يكون
 بالمقصود وأفياً . وللخليل شافياً .

ويُعذر الواقف عليه ، فتأجج الأفكار على اختلاف القرائح لا تنتهي . وإنما ينفق
 كل أحد على قدر سعته ﴿لَا يُكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ . ورحم الله من وقف فيه
 على سهو أو خطيأ فأصلحه عاذراً لا عاذلاً . ومُنِيلاً لا نائلاً . فليس المبرأ من الخطل
 إلا من وقى الله وعظم . وقد قيل : الكتاب كالمكلف لا يسلم من المؤاخذة ولا يرتفع
 عنه القلم ؛ والله تعالى يقرّنه بالتوفيق ! . ويُرشد فيه إلى أوضح طريق ! ﴿وما توفّيق
 إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ .

وقد رتبته على مقدّمة ، وعشر مقالات ، وخاتمة .

المقدمة

في مبادي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء ؛ وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حقايم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في فضل الكتابة .

الفصل الثاني - في مدح فضلاء الكُتَّاب وذم حقايم .

الباب الثاني

في ذكر مدلول الكتابة لغةً وأصطلاحاً، وبيان معنى الإنشاء، وإضافة الكتابة إليه، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عُرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل، وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

الفصل الأول - في ذكر مدلولها، وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه . ومرادفة

التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل .

الفصل الثاني - في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة .

الفصل الثالث - في ترجيح النثر على الشعر .

الباب الثالث

في صفات الكُتَّاب وآدابهم ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في صفاتهم الواجبة والعرفية .

الفصل الثاني - في آدابهم .

الباب الرابع

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه في الإسلام

وتفرّقه بعد ذلك في الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في التعريف بحقيقته .

الفصل الثاني — في أصل وضعه في الإسلام وتفرّقه بعد ذلك في الممالك بالديار

المصرية وغيرها .

الباب الخامس

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله ، وآداب أهله ؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله

ولقبه الجارى عليه في القديم والحديث .

الفصل الثاني — في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه .

الفصل الثالث — فيما يتصرف فيه متولى هذا الديوان ويديره ويصرفه بقلمه .

الفصل الرابع — في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم رب

كل وظيفة منهم ، وما كان عليه الأمر في الزمن القديم ، وما آسستقرّ عليه الحال

بعد ذلك ✕

المقالة الأولى

فيما يحتاج إليه الكاتب ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في الأمور العلمية ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما يحتاج إليه الكاتب في الجملة .

الفصل الثاني — فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء ، من معرفة اللغة والنحو والتصريف والمعاني والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالى ، والكثير من الأحاديث النبوية ، وخطب البلغاء ورسائلهم ومكاتباتهم ومحاوراتهم ومراوضاتهم ، (وأشعار العرب) والمولدين والمحدثين ، (وأمثال العرب) ومن جرى مجراهم ؛ والمعرفة بالتاريخ (وأنساب العرب) ، ومفانراتهم ، ومنافراتهم ، وحروبهم ، وأوابدهم في الجاهلية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانية ، وأصناف العلوم ، ومن برع في كل علم منها ، والكتب الفاتحة في كل فن من فنونها وما يجري مجرى ذلك ؛ والمعرفة بصناعة الكلام وكيفية إنشائه ونظمه ، وتأليفه ، وترصيفه ، وما يحدد من ذلك وما يذم .

الفصل الثالث — في معرفة الأزمنة والأوقات : من الأيام والشهور والسنين على اختلاف الأمم فيها وتفصيل أجزائها ، وما ينخرط في سلك ذلك من الفصول الأربعة وأعياد الأمم .

الباب الثاني

فما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية ، من الخط وتوابعه ولواحقه ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر آلات الخط من الدوى وما تُتخذ منه ومقاديرها وكيفياتها ، ومعرفة أصناف الأقلام وصناعة برآيتها : فتحا ونحنا وشقا وقطبا ؛ ومقادير أطوالها وعدد ما يكون في الدواة منها ، وكيفية عمل الحبر ، وحل الذهب ، وإذابة اللازورد والمغرة العراقية ، وغير ذلك مما يُحتاج إليه في كتابة الديوان .

الفصل الثاني — في الكلام على نفس الخط وأصل وضعه واختلاف الأمم فيه ، وما يختص من ذلك بالخط العربي من تنويع أقلامه التي أحدثها أئمة الكتابة وتبين

أشكالها وأختلاف أوضاعها؛ وما يستعمل منها في ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النقط والشكل والهجاء .

المقالة الثانية

في المسالك والممالك؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في ذكر الأرض على سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها، وبين جهاتها الأربع، وما آسّمت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية؛ وبين موقع الأقاليم العرفية كصمر والشام من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصل الثاني — في ذكر البحار التي يتكرر ذكرها بذكر البلدان في التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبثّة في أقطار الأرض ونواحي الممالك مما هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهورة .

الفصل الثالث — في استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها .

الباب الثاني

في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم في القديم وما أنطوت عليه

ممالكهم من الأقطار؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر الخلافة ومنّ وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة

(رضوان الله عليهم)، وخلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء بني العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بني أمية بالأندلس، والمدعين الخلفاء من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصل الثاني — فيما أنطوت عليه الخلافة العباسية في الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هي عليه الآن .

الباب الثالث

في ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها؛

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في الديار المصرية وذكر فضائلها ومحاسنها ، وخواصها وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نبيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه ، ومقاييسه ، وما انتهى اليه في الزيادة وما يصل اليه في النقص ، والخلجان المتفرعة عنه ، وجسورها الحابسة لمياه النيل على أرضها ، وبحيرات الديار المصرية ، وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها ، ومواشيتها ووحوشها وطيورها ؛ وذكر حدودها وأبتداء عمارتها وتسميتها مصر، وتفرع الأقاليم التي حولها عنها ؛ وذكر أعمالها وقواعدها القديمة، والمباني العظيمة الباقية على ممر الأزمان ، وقواعدها المستقرة وما آشمت عليه من محاسن الأبنية ؛ وذكر من ملكها جاهليةً وإسلاماً قبل الطوفان وبعده ؛ وترتيب أحوالها ؛ وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتها في القديم والحديث ؛ وبيان وظائف دولها القديمة والمستقرة لأرباب السيوف والأقلام .

الفصل الثاني — في البلاد الشامية وما يتصل بها من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن — ببلاد الأرمن — وبلاد الدربندات المعروفة الآن — ببلاد الروم — مما هو مضاف إلى مملكة الديار المصرية ، وفضل الشام وخواصه

وعجائبه وحدوده وأبتداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشيه ووحوشه وطيوره ، وذكر أعماله وجهاته وأجناده وكوره القديمة والمستقرة وقواعده العظام وما كانت عليه في الزمن السابق ومن ملكها جاهلية وإسلاما وما آستقرت عليه الآن من النيابات ، وترتيب أحوالها ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب نياباتها وما بها من وظائف أرباب السيوف والأقلام وما آشملت عليه من العربان .^(١)

الفصل الثالث — في البلاد الحجازية وما يخترط في سلكها ، وذكر فضل الحجاز وخواصه وعجائبه وأبتداء عمارته وتسميته حجازا ، وذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وقواعده وأعماله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

الباب الرابع

في الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الأربع

والطرق الموصلة اليها ، وفيه أربعة فصول

الفصل الأول — في الممالك والبلدان الشرقية عن الديار المصرية ، وما سامت ذلك ووالاه من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية ، وما آشملت عليه هذه الجهة من مملكة إيران التي هي مملكة الفرس قديما ، وما آنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خوزستان وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كرمان وبلاد سيستان وبلاد أرمينية وأذربيجان وبلاد الجبال المعبر عنها بعراق العجم وبلاد الديلم وبلاد الجبل المعبر عنها بكيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغور

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعر عليه في معجم اللغة التي بأيدينا وإن كان القياس لا يباه .

وغيرها ، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديماً ، وما آشملت عليه من قسم ماوراء النهر من بخارى وسمرقند ومضافاتهما وبلاد تركستان وما مع ذلك ، وقسم خوارزم ودشت القبچاق المشتمل على خوارزم والدشت وأعمال السراى وبلاد القرم وبلاد الأزق وما ينضم إلى ذلك من بلاد السرب والبغار وبلاد الأوقاق وبلاد الآص وبلاد الروس وغيرها ، وقسم ما بيد صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل على بلاد الخطا وبلاد الصين ، وما اتصل بهاتين المملكتين مما يلي الجنوب من بلاد البحرين ومملكة الين وما منها بيد أولاد رسول وما منها بيد إمام الزيدية ، وممالك الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة في جزائر البحر الهندي .

الفصل الثاني — في الممالك والبلدان الغربية عن مملكة الديار المصرية ، من مملكة تونس المشتملة على بلاد أفريقية ، ومملكة تلمسان المشتملة على بلاد الغرب الأوسط ، ومملكة فاس المشتملة على بلاد الغرب الأقصى إلى البحر المحيط وما إلى ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقي منها بيد المسلمين وما استعاده منها ملوك الكفر .

الفصل الثالث — في الممالك والبلدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية وما آشملت عليه من بلاد السودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى ومملكة الحبشة ، وبيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر .

الفصل الرابع — في الممالك والبلدان الشمالية عن مملكة الديار المصرية مما بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارى من جزائر بحر الروم كجزيرة قبرس وجزيرة رودس وجزيرة أقریطش وجزيرة المصطكى وجزيرة صقلية وغيرها وما إلى ذلك مما شمالي بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغير ذلك .

المقالة الثالثة

في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات وغيرها من ذكر الأسماء والكنى والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات ونحوها على كُتَّاب الإنشاء، ومقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض في أول الدرَج وحاشيته وبعده ما بين السطور في الكُتَّابات، وبيان المستندات التي يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها، وكتابة الملخصات، وبيان الفواتح والخواتم؛ وفيها أربعة أبواب .

الباب الأول

في الأسماء والكنى والألقاب؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأسماء والكنى ومواضع ذكرهما في المكاتبات والولايات وما يجري مجراها .

الفصل الثاني — في ذكر الألقاب وأصل وضعها وما استعمله الكُتَّاب منها وما كان يلقَّب به أهل كل دولة وما حدث من الزيادة بعد ذلك حتى صار الأمر إلى ما عليه الحال في زماننا، والألقاب التي أصطلح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وضع منها لأهل الكفر، وبيان معنى كل لقب في اللغة ومن يقع عليه في الاصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها على بعض .

الباب الثاني

في بيان مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، ومقادير

البياض الذي يراعيه الكاتب في كتابته؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقادير قطع الورق المستعملة بدواوين الإنشاء في القديم والحديث

الفصل الثاني — في بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البياض الذي يراعيه الكاتب في أعلى الدرّج وحاشيته وبعده ما بين السطور في الكتابة .

الباب الثالث

في بيان المستندات وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في بيان المستندات التي يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلقى كاتب السر الأمر في ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلقى كتاب الدست بدار العدل ، أو شمول القصة بالخط الشريف ، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمة من ديوان الخصاص وغيره ، وكتابة الملخصات التي تكتب من الكتب المطولات الواردة على الديوان ، وترجمة الكتب الواردة بغير العربية إلى العربية .

الفصل الثاني — في بيان كيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات وما في معناها ، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل في دواوين الإنشاء من الكامل والثلاثين والنصف والثالث والعادة وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقل الثلث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المرعية في الكتابة في أعلى الدرّج وحاشيته وبعده ما بين السطور .

الباب الرابع

في الفواتح والخواتم واللواحق ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الفواتح من البسملة والحمدلة والتصلية والسلام في أول الكتب والبعديّة التي يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعته.

الفصل الثاني — في الخواتم واللواحق من كتابة إن شاء الله في آخر المكتوب وكتابة التاريخ ومعرفة معناه ومعرفة التواريخ القديمة وأصل وضع التاريخ في الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذي يؤرخ فيه ؛ وبيان بناء التاريخ العربي على الليالي دون الأيام، واختلاف مذاهب النحاة والكتّاب في التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليالي، ومعرفة استخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخر، وكتابة المستند والحمدلة في آخر الكتب والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها، والاختتام بالحسبة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه .

المقالة الرابعة

في المكاتبات ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أمور كلية : تتعلق بالمكاتبات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدمات المكاتبات من أصول يعتمدها الكتّاب فيها من حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال وتقديم مقدمة تناسب المكتوب فيه في أول المكتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية في الخطاب ونحوه في المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيان لكل مقصد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب اليهم على قدر طبقة

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة في الكتابة إلى من يتعاناها، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الاختتام وما يجري مجرى ذلك، وبيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز وما يلائمها من المعاني، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصل الثاني — في بيان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومذاهب الكُتَّاب فيما تُفتمَّح به المكاتبات في القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر في المكاتبات، وبيان كيفية طي الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفضه وقراءته وحفظه في الإضبارة .

الباب الثاني

في مُصْطَلَحِ المكاتبات الدائرة بين كُتَّابِ الإسلام في كل زمن من الصدر

الأوَّل وإلى زماننا؛ وفيه ثمانية فصول

الفصل الأوَّل — في الكُتُبِ الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام وملوك الكفر، واختلاف أفتتاحها بحسب المقاصد .

الفصل الثاني — في الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بني أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية : آبتداء وجوابا .

الفصل الثالث — في الكتب الصادرة عن الملوك ومن في معناهم مما كُتِبَ به إلى النبي صلى الله عليه وسلم، والخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وخلفاء

بني أمية بالأندلس ، وبقايا الموحدين بأفريقية ؛ وما كتب به عن الملوك ومن في معناهم إلى الملوك ومن في معناهم من المكاتب الدائرة بين ملوك الديار المصرية وملوك الشرق والغرب ، ووزراء الخلفاء ومنقذى أمر الخلافة اللاحقين بشأو الملوك ، وما يتحقق بذلك من المكاتب الصادرة إلى ملوك الكفر وأختلاف الأفتتاح في ذلك .

الفصل الرابع - في الكتب الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة مما أكثره مأخوذ من ترتيب الدولة الأيوبية ، التي هي أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلى خلفاء بني العباس ، وإلى أهل المملكة بمصر والشام والحجاز ، وإلى عطاء القانات بمالك الشرق كقنان مملكة إيران الجامع لحدودها على ما كان الأمر عليه إلى آخر أيام أبي سعيد ثم من بعده ممن يبلغ شأوه من القانات الصغار كالشيخ واويس ومن تلاه إلى زماننا ، ومن بهذه المملكة من صغار الملوك والحكام ، وقانات مملكة توران من صاحب ما وراء النهر من بخارى وسمرقند وما معها ، وصاحب خوارزم والدشت والقان الكبير صاحب التخت ، وصاحب الهند ، وصاحب اليمن وإمام الزيدية بها . وملوك بلاد المغرب كصاحب تونس ، وصاحب تلمسان ، وصاحب فاس ، وصاحب غرناطة من الأندلس ، وملوك بلاد السودان كملك البرنو وملك الكانم ، وصاحب مالي ، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم من الجهة الشمالية ، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجنوبية وملك القسطنطينية وسائر ملوك الفرنج وحكامهم بجزائر الروم وغيرها ممن تقدم ذكره في الكلام على المسالك والممالك .

الفصل الخامس - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المصرية من ملوك الممالك المتقدمة الذكر وحكامها من أهل الإسلام والكفر ممن ترد مكاتبته على هذه المملكة .

الفصل السادس — في المكاتبات الإخوانيات مما كان عليه مُصطَلح السلف
فمن بعدهم في كل زمن وما استقرّ عليه الحال في زماننا .

الفصل السابع — في مقاصد المكاتبات من الأمور الخاصة بالملوك والخلفاء .
كالكتب بالإشارة بولاية الخلافة ، والجلوس على تخت السلطنة ، والدعاية إلى الدين ،
والحث على الجهاد ، والإخبار عن الفتوحات ، والأمر بلزوم الطاعة ، والتنبيه على مواسم
العبادة ، والموعظ عند حدوث الآيات السماوية ، والأوامر والنواهي ، والنهي عن
التنازع في الدين ، والكتب إلى من نكت العهد أو خلع الطاعة ، والتضييق على أهل
الجرائم ، والإشارة بالمواسم ، والأعياد ، ووفاء النيل ، وركوب الميادين ، والعود من الغزو ،
والكتب بالتلقيب على ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم ، وبالإحجام والإذمام ،
والكتب قرين الإنعام السلطاني من الخيل والجوارح ، وسائر أصناف الإنعام ،
والاعتذار عن السلطان في الهزيمة ونحوها ، والأجوبة عن ذلك ، وما يشترك فيه الملوك
ومن عدّاهم من التهانى كالتهنئة بالوظائف ، وتمكئة السلطان ، وتجدد الأولاد ،
والمساكن ، والعود من الحج ، والقُدوم من السفر ، والإبلال من المرض ، ورضا السلطان
وغزاة السنة ، وشهر رمضان ، وعيد الفطر ، وعيد الأضحى ، والنيروز ، والمهرجان ،
والدخول في دين الإسلام ، والصرف عن الخدمة في سلامة ؛ ومن التعازى كالتعزية
بالأب والأم والولد والقريب والصديق ، والتشوّقات ، والشّفاعات ، والتهادى ،
والاستراحة ، وأسماحة الحوائج ، واختطاب المودّة ، وخطبة الترويح ، والشكر ،
والشكوى ، والاعتذار ، والعتاب ، والمداعبة ، وغير ذلك .

الفصل الثامن — في معرفة إخفاء ما في الكتب من السرّ إقاماً بطريق المترجم ،
وإقاماً بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار ، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقالة الخامسة

في الولايات ، وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ، وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — في بيان طبقات الولايات وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابتها مما يكتب في ولاية الخلافة والسلطنة والولايات الصادرة عن الخلفاء والملوك ، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الديوانية والوظائف الدينية ، وغير ذلك .

الفصل الثاني — في بيان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات على

سبيل الإجمال .

الفصل الثالث — في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات .

الباب الثاني

في البيعات ، وفيه فصلان

الفصل الأول — في معنى البيعات .

الفصل الثاني — في ذكر تنوع البيعات مما يكتب للخلفاء ، وأصل مشروعيتها ، وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ، وما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة ، وبيان صورة ما يكتب فيها ، واختلاف مذاهب الكُتَّاب في ذلك ، وذكر نسخ من بيعات الخلفاء مما كان يُكتب به في الخلافة العباسية بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء بني أمية بالأندلس وما يلتحق بذلك مما يكتب به لخلفاء بني العباس الآن بالديار المصرية ، وما يكتب من البيعات للملوك على ما اصطاح عليه كُتَّاب بلاد الغرب والأندلس .

الباب الثالث

في العهود؛ وفيه فصلات

الفصل الأول — في معنى العهد .

الفصل الثاني — في بيان أنواع العهود مما يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، وما يكتب به للملوك عن الخلفاء، وما يكتب به عن الملوك لولاة العهد بالسلطنة والملوك المنفردين بصغار البلدان، ومذاهب الكُتَّاب في ذلك، وذكر نُسُخ من ذلك جميعه مما كتب به ببلاد المشرق والمغرب والديار المصرية .

الباب الرابع

في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيف

والأقلام وغيرهم؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء بني العباس بالعراق، وخلفاء بني أمية بالأندلس، وخلفاء الفاطميين بمصر، ومدعين الخلافة من بقايا الموحيدين ببلاد المغرب، ومذاهب كُتَّاب الدول في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السيف والأقلام وغيرهم من مصطلح كُتَّاب المشرق بعد انقراض الخلافة العباسية من العراق، ومصطلح كُتَّاب المغرب والاندلس في القديم والحديث، ومصطلح كُتَّاب الديار المصرية في الدولة الطولونية وماولياها من الدولة الإخشيدية، والدولة الأيوبية وماولياها من الدولة التركية، وما استقرَّ عليه الحال فيها الى زماننا، مما يكتب لأرباب السيف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية من التقاليد والتفاويض والمراسيم والتواقيع على اختلاف مراتبها .

الفصل الثالث — فيما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية لأرباب السيف والأقلام وغيرهم ، وذكر نسخ من ذلك .

المقالة السادسة

في الوصايا الدينية، والمساحات، والإطلاقات، والطرخانيات، وتحويل السنين، والتذاكر؛ وذكر نسخ من ذلك؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الوصايا الدينية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما لقدماء الكتاب من ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب من ذلك، في زماننا .

الباب الثاني

في المساحات، والإطلاقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يكتب في المساحات .

الفصل الثاني — فيما يكتب في الإطلاقات .

الباب الثالث

في الطرخانيات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في طرخانيات أرباب السيوف .

الفصل الثاني — في طرخانيات أرباب الأقلام .

الباب الرابع

في تحويل السنين ، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية ،

وما يكتب في التذاكر ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصل الثاني — في التذاكر .

المقالة السابعة

في الإقطاعات والمقاطع ، وذكر نسخ من ذلك ؛ وفيها بابان

الباب الأول

في ذكر مقدمات الإقطاعات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات : من بيان معناها ، وأصل

وضعها في الشرع ، وأول من وضع ديوان الجيوش في الإسلام ، ومن يستحق إثباته في الديوان ، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصل الثاني — في بيان حكم الإقطاع وانقسامه إلى إقطاع تملك واستغلال .

الباب الثاني

فيما يكتب في الإقطاعات في القديم والحديث؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصل ذلك في الشرع، وبيان ما أقطعه النبي صلى الله عليه

وسلم من البلاد والأرضين .

الفصل الثاني — في صورة ما كان يكتب في الإقطاعات في الزمن القديم عن

خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ بِالْعِرَاقِ، وَخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ بِمِصْرَ، وَعَنِ الْمُلُوكِ الْقَائِمِينَ عَلَى الْخُلَفَاءِ

بِالْعِرَاقِ، وَمُلُوكِ بَنِي أَبِي بَالِدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ، وَمَا يَكْتُبُ فِي الْإِقْطَاعَاتِ فِي زَمَانِنَا مِمَّا

اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ، وَمَا يَكْتُبُ فِي ذَلِكَ مِنْ دِيْوَانِ الْجَيْشِ مِنَ الْمُرَبَّعَاتِ وَمَاهِي مِثْرَبَةِ

عَلَيْهِ، وَمَا يَكْتُبُ فِي ذَلِكَ مِنْ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ مِنَ الْمُنَاشِيرِ، وَبَيَانِ مَرَاتِبِهَا؛ وَذَكَرَ قِطْعَ

الْوَرَقِ الَّذِي يَكْتُبُ فِيهِ؛ وَمَا يَكْتُبُ فِي طُرَرِ الْمُنَاشِيرِ وَمَا يَلْتَحِقُ بِذَلِكَ مِنَ الطُّغْرَاوَاتِ

الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى الْأَلْقَابِ السُّلْطَانِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ تُلْصَقُ بِأَعْلَى الْمُنَاشِيرِ بَيْنَ الطُّرَّةِ وَالْبَسْمَلَةِ؛

وَمَا يَخْتَصُّ مِنْ ذَلِكَ بِالزِّيَادَاتِ وَالتَّجْدِيدَاتِ .

المقالة الثامنة

في الأيمان؛ وفيها بابان

الباب الأول

في أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض في الأيمان؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما يقع به القسم من الأقسام التي أقسم الله تعالى بها، والأقسام

التي يُقسِمُ بِهَا الْخَلْقُ مِنْ أَقْسَامِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَالْأَقْسَامِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي يَحْلِفُ بِهَا

الفصل الثاني - في بيان اليمين الغموس ولغو اليمين ، والتحذير من اِحْتِثِ والوقوع في اليمين الغموس .

الباب الثاني

في نسخ الأيمان الملوكية ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء .

الفصل الثاني - في الأيمان المتعلقة بالملوك مما يحلف به المسامون من أهل السنة وأرباب البدع وأهل الملل من اليهود والنصارى ، والمجوس وما يحلف به الحكماء .

المقالة التاسعة

في عقود الصلح والقُسُوح الواردة على ذلك ؛ وفيه خمسة أبواب

الباب الأول

في الأمانات ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصل الثاني - في كتابة الأمانات لأهل الإسلام ، وذكر أصل ذلك من السنة ،

وإيراد نسخ من ذلك .

الباب الثاني

في الدفن ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في أصله وكونه مأخوذاً عن العرب .

الفصل الثاني - فيما يكتب في الدفن عن الملوك .

الباب الثالث

فيما يكتب في عقد الذمة وما يتفرع على ذلك؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في الأصول التي يرجع إليها هذا العقد .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في متعلقات أهل الذمة، وإلزامهم بالجرى

على ما يقتضيه عقد الذمة لهم .

الباب الرابع

في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام، وملوك الكفر؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهدنة

وما يرادفها من الألفاظ، وبيان أصل وضعها في الشرع، وما يجب على الكاتب مراعاته

في كتابتها .

الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادئات وأختلاف مذاهب كُتاب

الشرق والغرب والديار المصرية في ذلك، وذكر نسخ منها، وبيان ما يكتب من ذلك

من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرد من ذلك مما يكتب

عن ملوك الكفر .

الباب الخامس

في عقود الصلح الواقعة بين مالكيين مسلمين؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في أصول تُعتمد في ذلك .

الفصل الثاني — فيما يكتب في عقد الصلح، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به

عن الخلفاء والملوك في القديم والحديث إلى زماننا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكُتّاب ويتنافسون في عملها ليس لها تعلق
بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها؛ وفيها بابان

الباب الأول

في الحِديّات ؛ وفيه ستة فصول

الفصل الأول — في المقامات وذكر نُسخ منها .

الفصل الثاني — في الرسائل : من الرسائل الملوكية المشتملة على الغزو والصيد
ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورد المدح ، والرسائل الواردة مورد الذم ، ورسائل
المفاجرات بين الأشياء النفيسة : كالمفاجرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك ،
والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتبة بالحوادث والمآجريات
وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصل الثالث — في قدمات البندق ، وذكر نسخ منه .

الفصل الرابع — في الصّدقات الملوكية ، وصدقات الأعيان .

الفصل الخامس — فيما يُكتب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفتاوى
وعراضات الكتب والمرويات ، وما يكتب على الكُتب المصنّفة والقصائد من
التقريظات ، وما يكتب عن القضاة من التقاليد الحُكمية وإسجالات العدالة والمطلقات
وغير ذلك .

الفصل السادس — في العُمرات التي تكتب للحاج .

الباب الثاني

في الهزليات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فيما آعتنت الملوك ببعضه .

الفصل الثاني — في سائر أنواع الهزل .

الخاتمة

في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها: من معرفة معنى البريد

وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام، وبيان معاملة .

الفصل الثاني — في ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشامية على

اختلاف طرقها .

الباب الثاني

في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بالديار المصرية

والبلاد الشامية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — في ذكر مطاراته وآعتناء الملوك بشأنه في القديم والحديث

ومسافات طيرانه .

الفصل الثاني — في الأبراج المقررة له بالديار المصرية والبلاد الشامية .

الباب الثالث

في ذكر مراكز الثلج الواصل من البلاد الشامية إلى الملوك
بالديار المصرية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في مراكزه .

الفصل الثاني - في هجته .

الباب الرابع

في المناور والمحرقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول - في المناورات التي كان يُستعمل بها حركة التار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثاني - في المحرقات التي كان يتوسل بها إلى إحراق زروع التار

ومراعيهم بأطراف بلادهم .

المقدمة

في المبادئ التي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء؛

وفيها خمسة أبواب

الباب الأول

في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَمَقاهم؛

وفيه فصلان

الفصل الأول

(في فضل الكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوى دليل على رفعة شأنها، أن الله تعالى! نسب تعليمها إلى نفسه، وأعتده من وافر كرمه وإفضاله فقال عز اسمه: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ مع ما يروى أن هذه الآية والتي قبلها مفتح الوحي، وأول التنزيل على أشرف نبي، وأكرم مرسل صلى الله عليه وسلم! وفي ذلك من الأهتمام بشأنها ورفعة محلها ما لا يخفاء فيه.

ثم بين شرفها بأن وصف بها الحفظة الكرام من ملائكته فقال جلت قدرته: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ ولا أعلى رتبة وأبذخ شرفاً مما وصف الله تعالى به ملائكته ونعت به حفظته؛ ثم زاد ذلك تأكيداً ووفر محله إجلالاً وتمظيهاً بأن أقسم بالقلم الذي هو آلة الكتابة وما يسطر به فقال تقدست عظمته: ﴿بِالنَّوْمِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما اخترع : كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجة تفضيلها، وأثرة تعظيمها وتجميلها، أن الشارع ندب إلى مقصدها الأسنى، وحث على مطلبها الأغنى، فقال صلى الله عليه وسلم : ”قَيِّدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ“ مشيراً إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المحتناة من ثمرتها؛ وذلك أن كل ذى صنعة لا بد له في معاناتها من مادة جسمية تظهر فيها الصورة، وآلة تؤدي إلى تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُستثمر من صنعته .

والكتابة إحدى الصنائع فلا بد فيها من الأمور الأربعة .

فأداتها، الألفاظ التي تحيلها الكاتب في أوهامه، وتصوّر من ضمّ بعضها إلى بعض صورة باطنة تامة في نفسه بالقوة؛ والخط الذي يخطه القلم، ويقيد به تلك الصور . وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذي ينقطع الفعل عنده تقييد الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكفل قوة النطق وتحصل فائدته للأبعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ صورته، ويؤمن عليه من التغير والتبدل والضَياع . وغايتها الشيء المستثمر منها، وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة، العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسمية في أمور الدين والدنيا . ولما كان التقييد بالكتابة هو المطلوب، وقع الحُص من الشارع عليه، والحث على الاعتناء به تنبيها على أن الكتابة من تمام الكمال، من حيث إن العمر قصير والوقائع متسعة؛ وما ذا عسى أن يحفظه الإنسان بقلبه أو يحصله في ذهنه .

قال ذو الرمة لعيسى بن عمر : ”أُكْتُبُ شِعْرِي فَالْكِتَابُ أُعْجِبُ إِلَى مِنَ الْحِفْظِ
إِنَّ الْأَعْرَابِيَّ لَيَنْسِي الْكَلِمَةَ قَدْ سَهَرْتُ فِي طَلَبِهَا لَيْلَةً فَيَضَعُ مَوْضِعَهَا كَلِمَةً فِي وَزْنِهَا
لَاتَسَاوِيهَا، وَالْكِتَابُ لَا يَنْسِي وَلَا يَبْتَلُ كَلَامًا بِكَلَامٍ“ .

وقد أطنب السلف في مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأواً لمادح حتى قال سعيد بن العاص: "من لم يكتب فيمينه يسرى". وقال معن بن زائدة: "إذا لم تكتب اليد فهي رجل". وبالغ مكحول فقال: "لادية ليد لا تكتب". قال الجاحظ: ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسجل نبي سجلاً ولا خليفة مرضى ولا يقرأ كتاب على منبر من منابر الدنيا إلا إذا استفتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور في السجلات التي سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل تجران وغيرهم وأكثرها بخط أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في شرفه ونبله وسابقته ونجدته .

ومن ثم قال المؤيد: "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة؛ إليها ينتهي الفضل، وعندها تقف الرغبة".

ومن كلام أبي جعفر "الفضل بن أحمد" في جملة رسالة "الكتابة أس الملك، وعماد المملكة، وأغصان متفرقة من شجرة واحدة. والكتابة قُطب الأدب، وملاك الحكمة، ولسان ناطق بالفصل، وميزان يدل على رجاحة العقل. والكتابة نور العلم، وفدامة^(١) العقول وديان الفضل والعدل. والكتابة حلية وزينة وليبوس وجمال وهيبة وروح جارية في أقسام متفرقة، والكتابة أفضل درجة وأرفع منزلة، ومن جهل حق الكتابة فقد وسِم بوسم الغواة الجهلة؛ وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلاً ونبلاً تصوراً جميعاً تصورت الكتابة، ولو أن في الصناعات صناعةً مربوبة لكانت الكتابة رباً لكل صناعة .

قال صاحب مواد البيان: ومن المعلوم أن جميع الصنائع وسائل إلى درك المطالب ونبيل الرغائب، وأن عوائدها متفاضلة في الكثرة والقلة بحسب تفاضلها في الرفعة

(١) من معاني الفدامة المصفاة وهي مناسبة هنا .

والضَّعَّة؛ إذا كان منها ما لا يفي بالبُلْغَة من قِوَام العيش : نحو الصنائع المهيّنة السُّوقِيَّة الداخلة في المرافق العامية، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويمجاوز حدَّ الكفاية ويُحظى بالمال والنِّعم الخطيرة وهي الصنائع الخاصَّة، وإذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها علِمَ أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها في هذا النوع، ولا ما يُكسب ما تُكسبه من الفوائد والمعاون مع حصول الرِّفاهِيَّة والتنزّه عن دَنَاءة المكاسب ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورفاهية العيش ومشاركة الملوك في اقتناء المساكن الفسيحة، والملابس الرقيقة، والمرائب النبيلة، والدوابّ النفيسة، والخدم المستحسنين وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات المملوكية في أقرب المدد وأقلّ الأزمنة؛ وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشمرفها وارتفاع خَطَرها وسموّ قَدَرها إذ كان لها سعة لمثل هذه الجدوى التي لا يوجد مثلها في غيرها من الصنائع .

وكفى بالكتابة شرفاً أن صاحب السيف يزاحم الكاتب في قلمه ولا يزاحمه الكاتب في سيفه .

قال في موادّ البيان : "ومن ثمَّ صار السلطان الذي هو رئيس الناس ومستخدِم أرباب كلِّ صناعة ومُصرفهم على أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلَةً له مع ترفعه عن التلبس بصناعة من الصنائع الحسنة، وأنفته أن يقع اسمٌ من أسماءها عليه" قال : وذلك أنا نرى كل ملك وسلطان يُؤثر أن يكون له حظ من بلاغة العبارة وجودة الخط، وفي ذلك ما يدل على أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضل من سائر المتحايين غيرها من الصنائع الأخر فقد علِم أن الصنائع كلّها معاين ومرافق، لا تنتظم عمارة العالم إلا بتضافرها ومُرافدة بعضها لبعض . وإنما على خريين : خاصة وعامية، فالعامية صنائع المهنة وأهل الأسواق والحرف وإن شاركهم الخاصَّة في الحاجة إليها لأنَّها تنتظم أمور المعاملات وتعمُر

البلاد؛ والخاصية التي تقع في حيز الملوك والسلاطين، وتوزعها أعوانهم وأتباعهم؛ وهذه الصنائع إنما يقع التمييز بين أقدارها بالنظر إلى مقدار عائدتها في أمور الملك والسلطان والرعية مما كان معلقا بالأمر الأهم، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أحجم، والفساد العائد بوقوع خلل فيه على أسباب المملكة أعظم؛ وممر تبته في الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعة تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج في آتظام أمور سلطانه إلى ثلاثة أشياء لا ينظم ملكه مع وقوع خلل فيها . أحدها رسم ما يجب أن يرسم لكل من العمال والمكاتبين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعد، وإحماد وإذمام . والثاني استخراج الأموال من وجوهها . وأستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها في مستحقها من أعوان الدولة وأولياؤها الذين يحجون حوزتها، ويسدون ثغورها ويحفظون أطرافها، ويذبون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة؛ ومعلوم أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا الكُتَّاب السلطان ولا سبيل للكُتَّاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدبير في صنعة الكتابة، فهي إذن من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ : ” من أئین فضلها أن جعلت في عليّة الناس “ قال صاحب موادّ البيان : ” وقد عُرِفَ أن الذين وضعوها وأبتدئوها ورسّموا رسومها هم الأنبياء عليهم السلام “ .

وقد ذكر علماء التاريخ : أن يوسف عليه السلام كان يكتب للعزير، وهارون ويوشع بن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام، وسليمان بن داود كان يكتب لأبيه، وأصف بن برخيا ويوسف بن عتقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيى بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد أنتقل جماعة منها إلى الخلافة . فأبو بكر كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمّر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفان ثم صار الأمر إليه فيما بعد . وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلى غير هؤلاء من أهل هذه الصنعة ممن قرع الذروة العلية من السيادة ، والسنام الباذخ من الرياسة ، على تغير الدول وتنقلها بين العرب والعجم ؛ وفي ذلك ما يدل على علو خطرهما ، وأرتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبه قوم بالكتابة بعد الحؤول ، وصاروا إلى الرتب العلية ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومي كان رومياً خاملاً فرَفَعته الكتابة وكتب لمعاوية ويزيد بن معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان . ومنهم حسّانُ النَّبَطِيّ كاتب المجلج ، وسالمُ مولى هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبد الصمد ، وجبلة بن عبد الرحمن ، وقُذَمِّ جَدُّ المِحْجَاجِ بن هشام القَحْدَمِيّ ، وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيع ، والفضل بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيى بن خالد ، وجعفر بن يحيى ، وآبن المقفّع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وآبن عبد السلام الحُنْدَيْسِيّ البُورِيّ ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن بن وهب ، وإبراهيم بن العباس ،

(١) في العقد الفريد جدّ الوليد بن هشام .

ونجاح بن سلامة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والربيعان : مروان^(١) ابن الحكم، وعبد الملك بن مروان . قلت : وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو أعتبر من شرف بالكتابة وارتفع قدره بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحد . وهذا الوزير المهلب كان في أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى في سفره ضيقة حتى اشتبهى اللحم ولم يقدر عليه فقال أرتجالا :

أَلَا مَوْتُ يَسَاعُ فَأَشْتَرِيهِ ! * فِهَذَا الْعَيْشُ مَا لَا خَيْرَ فِيهِ !
 أَلَا مَوْتُ لَذِيذُ الطَّعْمِ يَأْتِي * يُحَلِّصُنِي مِنَ الْمَوْتِ الْكَرِيهِ !
 أَلَا رِحْمَ الْمُهَيِّمِ نَفْسَ حُرٍّ * تَصَدَّقُ بِالْوَفَاةِ عَلَى أَخِيهِ !

وكان معه رفيق له فاشترى لحما وأطعمه . ثم ترقى بالكتابة حتى وُزِّرَ لمعز الدولة ابن بويه الديلمي في جلالة قدره . وهذا القاضي الفاضل أصله من بيتان من غير بيت الوزارة رفعت به الكتابة حتى وُزِّرَ للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلت رتبته عنده حتى بلغ من رتبته لديه أن كان يكتب في كتب السلطان صلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرة السلام على الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين في كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وغيرية قد جئت فيها أولا * ومن اقتفاها كان بعدي الثاني
 فرسولي السلطان في إرسالها * والناس رسلهم إلى السلطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابي صاحب الرسائل المشهورة، كان على دين الصابئة مشددا في دينه، وبلغت به الكتابة إلى أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أي فيمن نهبوا بالكتابة . وأما عدما السابق ففي المكتوب لهم .

والمطيع وعن الدولة بن بويه : وجَّهَ فيه عن الدولة أن يسلم فلم يقع له ؛ ولما مات
رثاه الشريف الرضي بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال : انما
رثيت فضله .

قال في مواد البيان : ”ولا عبرة بمن قعد به الجُدُّ ، وتخلَّف عنه الحَظُّ من أهل هذه
الصناعة ؛ إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر . على أن المبرِّز في هذه الصناعة إن قعدت
به الأيام في حالٍ فلا بد أن يُرْفَع قدره في أخرى : لأنَّ دَوْلَةَ الفاضل من الواجبات ،
ودَوْلَةَ الجاهل من الممكنات ؛ خصوصا إذا صادف الكاتبُ الفاضلُ ملكا فاضلا
أورئيسا كاملا ، فإنه يوفيه حقه ويرقيه إلى حيثُ استحقاقه . فن كلام بعض
الحكماء : تسقط الحظوظ في دولة الملك الفاضل فلا يتسمُّ الرتبة العلية إلا مستوجبها
بالفضيلة .

وبالجملة ففضل الكتابة أكثر من أن يُحصى وأجل من أن يُستقصى ؛ وانما حرمت
الكتابة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ردا على الملحدين حيثُ نسبوه إلى الاقتباس
من كتب المتقدمين كما أخبر تعالى بقوله ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكِتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى
عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَحِطُّهُ
بَيِّنَاتٍ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ .

وقد كان ، صلى الله عليه وسلم ! يأتي من القصص والأخبار الماضية من غير
مُدَارسة ولا نظر في كتاب بما لا يعلمه إلا النبي ، كما روى أن قرينا بمكة وجَّهت
إلى اليهود : أن عرفونا شيئا نسأله عنه ؛ فبعثوا إليهم أن سلوه عن أنبياء أخذوا
أحدهم فرموه في بئر وباعوه ، فسألوه فزلت سورة يوسف جملة واحدة بما عندهم
في التوراة وزيادة .

قال العتبي: "الأمية في رسول الله، صلى الله عليه وسلم! فضيلة وفي غيره تقيصة لأن الله تعالى لم يعلمه الكتابة لتمكّن الإنسان بها من الحيلة في تأليف الكلام، وأستنباط المعاني فيتوسل الكفّار إلى أن يقولوا أقدر بها على ما جاء به".

قال صاحب موادّ البيان: "وذلك أن الإنسان يتوصل بها إلى تأليف الكلام المنشور وإخراجه في الصّور التي تأخذ بمجامع القلوب؛ فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج على تكذيب معانديه، وحسم أسباب الشك فيه".

وقد حكى أبو جعفر النّحاس: أن المأمون قال لأبي العلاء المنقري "بلغني أنك أمي، وأنتك لا تقيم الشعر، وأنتك تلحن في كلامك" فقال: "يا أمير المؤمنين! أما اللحن فربما سبقني لساني بالشيء منه؛ وأما الأمية وكسر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً وكان لا ينشد الشعر". فقال له المأمون: "سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعا وهو الجهل؛ يا جاهل! ذلك في النبي، صلى الله عليه وسلم! فضيلة وفيك وفي أمثالك تقيصة".

قال الجاحظ: "وكلام أبي العلاء المنقري هذا من أواد ما تكلم به الجهال".
على أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكوا وجهين في أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يعلم الكتابة أم لا وصححوا أنه لم يكن يعلمها معجزة في حقه كما تقدم.
قال أبو الوليد الباجي من المالكية: "ولو كتب، صلى الله عليه وسلم! لكان معجزة نخرق العادة. قال: وليست بأول معجزاته صلى الله عليه وسلم!".

وإذا كانت الكتابة من بين سائر الصناعات بهذه الرتبة الشريفة والذروة المنيفة، كان الكتاب كذلك من بين سائر الناس. قال الزبير بن بكار: "الكتاب ملوك وسائر الناس سوقة". وقال ابن المقفع: "الملوك أحوج إلى الكتاب من الكتاب إلى الملوك".
ومن كلام المؤيد "كتاب الملوك عيونهم المبصرة، وأذانهم الواعية، وألسنتهم الناطقة".

وكانت ملوك الفرس تقول: "الكتاب نظام الأمور، وجمال الملك، وبهاء السلطان
وخران أمواله، والأمناء على رعيته وبلاده وهم أولى الناس بالحباء والكرامة، وأحقهم
بمحنة السلام".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "للكتاب أقرت الملوك بالفاقة والحاجة،
وإليهم ألقيت الأمانة والأزمة، وبهم اعتصموا في النازلة والنكبة، وعليهم أتكلوا
في الأهل والولد والذخائر والعقد وولاية العهد وتدير الملك وقراع الأعداء، وتوفير
الفيء، وحياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب".

قال في مواد البيان: "وما من أحد يتوسل إلى السلاطين بالأدب، ويمت إليهم من
العلم بسبب، إلا وهو باقله لا ينول ما يتولاه إلا على وجه الإرفاق، خلا الكاتب فإنه يتول
الريائب العظيمة من طريق الاستحقاق، لموضع الافتقار إليه والحاجة؛ ومن المعلوم
أنه لا بد من واسطة تقوم بين الملوك والرعية لبعدهما بين الطبقتين: العليا والدنيا، وليس
من طبقات الناس من يساهم الملوك في جلالته القدر وعظيم الخطر، ويشارك العامة
في اتواضع والاقتصاد سوى الكتاب فاحتيج إليهم للسفارة في مصالح الرعية عند
السلاطين، واستيفاء حقوق السلاطين من الرعية والتلطف في الصلة بينهما". قال:
"ولعلم الملوك بخطر هذه الصناعة وأهلها وعائدتها في أمور السلطان صرفوا العناية
إلى الكتبة وخصوهم بالحظوة وعرفوا لهم فضل ما جمعوه من الرأي والصناعة،
وكانت ملوك الفرس لرفعة رتبة الكتابة عندهم تجمع أحداث الكتاب ونواشئهم
المعترضين لأعمال الملك ويأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم فمن رضى أقر بالباب
ليستعان به، ثم يأمر الملك بضمهم إلى العمال، واستعمالهم في الأعمال، وينقلهم
في الخدم على قدر طبقاتهم من حال إلى حال حتى ينتهي بكل واحد منهم إلى

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يمكن أحد من عرض اسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا بأذن الملك .

وفي عهد سابور - "ولكن كاتبك مقبول القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنع مكانه منك وما يظن به من لطافة موضعه عندك من الضراعة لأحد والمداهنة له ، ليحملة ما أوليته من الإحسان على محض النصيحة لك ، ومناجزة من أراد عيبك وانتقاص حقلك" . ولم يكن يركب الهاليج في أيامهم إلا الملك والكاتب والقاضي .

قلت : ولشرف الكتابة وفضل الكتاب صرف كثير من أهل البلاغة عنايتهم إلا وضع رسائل في المفاخرة بين السيف والقلم ، إشارة إلى أن بهما قوام الملك وترتيب السلطنة ، بل ربما فضل القلم على السيف ورجح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلاً للقلم بقسم الله تعالى به :

ان أفتخر الأبطال يوماً بسيفهم * وعدوه مما يكسب المجد والكرم
كفى قلم الكتاب عزاً ورفعة * مدى الدهر أن الله أقسم بالقلم
وكما قال ابن الرومي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب ودانت خوفه الأمم
فالموت ، والموت لاشيء يغالبه ، * ما زال يتبع ما يجرى به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبريت * أن السيوف لها مذأرهفت خدم

والمعنى في ذلك أنها تؤثر في إرهاب العدو على بُعد السيوف لا تؤثر إلا عن قرب مع ما فضل به القلم من زيادة الجدوى والكرم ، وإلى ذلك يشير بعضهم بقوله مشيراً للقلم

فلكم يقل الجيش ، وهو عزم ، * والبيض ما سلت من الأعماد
وهبت له الآجام حين نشأ بها * كرم السيل وصوله الآساد

الفصل الثاني

(في مدح فضلاء الكتاب وذم حقايم)

أما فضلاء الكتاب فلم يزل الشعراء يلهمون بمدح أشراف الكتاب وتقريظهم ويتغالبون في وصف بلاغاتهم وحسن خطوطهم . فمن أحسن ما مدح به كاتب قول ابن المعتز :

إذا أخذ القِرطاسَ خلتَ يمينُهُ * تفتّحَ نوراً أو تُنظّمَ جوهرًا

وقول الآخر :

يؤلّف اللؤلؤَ المنشورَ منطِقُهُ * وينظّم الدرّ بالأقلام في الكُتب

وقول الآخر :

وكاتب يرُقّم في طرِسِهِ * روضاً به ترتع الحاضِطُهُ
فالدرّ ما تنظّم أقلامُهُ * والسحر ما تنثر ألفاظُهُ

وقول الآخر :

إن هزّ أقلامُهُ يوماً ليعملها * أنساك كلِّ كَبِيٍّ هزَّ عامِلُهُ
وإن أقرَّ على رِقِّ أناملِهِ * أقرَّ بالرقِّ كُتّابُ الأناملِ لَهُ

وقول الآخر :

لا يُخَطِرُ الفِكرُ في كُتابِهِ * كات أقلامُهُ لها خاطِرُ
القولُ والفِعلُ يجريانِ مَعًا * لا أوّلُ فيهِما ولا آخِرُ

وقول الآخر :

وشادنٍ من بني الكُتّابِ مُقتدِرٍ * على البلاغة أحلّى الناسَ إنشاءً
فلا يُجارِيهِ في ميدانِهِ أحدٌ * يريك سحبانَ في الإنشاءِ إن شاء

وكذلك أولعوا بدمم حتى الكُتاب ولهجوا بهجوهم في كل زمن .
فمن ذلك قول بعض المتقدمين يهجو كاتباً :

حمارٌ في الكتابة يدعيها * كدعوى آل حربٍ في زياد
فدع عنك الكتابة لست منها! * ولو غرقت ثيابك في المداد

وقول الآخر :

وكانت كُتبه تُدكرني القُرءان حتى أظلل في عجب
فاللفظ "قالوا قلوبنا غلغ" . * والخط "تبت يدا أبي لهب"

وقول الآخر :

يحي غير ما قلنا ويكتب غير ما * يعيه ويقرا غير ما هو كاتب

وقول الآخر :

وكانت أعلامه * معودات بالغلط
يكشط ما يكتبه * ثم يعيد ما كشط

وقول ابن أبي العيناء يهجو أسد بن جهور الكاتب .

أوما ترى أسد بن جهور قد غدا * منسبها بأجله الكُتاب؟
لكن يُخرق ألف طومارٍ إذا * ما أحتج منه إلى جوابِ كتاب

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكُتاب مما صاروا
به هزواً على ممر الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ
على بعض الخلفاء كتاباً يذكر فيه حاضرطى فصحفه حاضرطى فسخر منه أهل المجلس .

ويروى إن كُتاب الدواوين ألزموا بعض العمال مآلاً مخرجاً عليه فبعث بحسابه إلى
عبيد الله بن سليمان فوقع عليه "هذا هذا" ورد الحساب إلى العامل فقدر العامل

بضعف آدابه أنه صحح حجتَه وقبِل الحساب منه كما يقال في تثبت الشيء هو هو وأخرج التوقيع إلى الكُتَّاب وناظرهم على أن ذلك يوجب إزالة المال الذي لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فردَّ التوقيع إلى عبيد الله فلم يزدَه في الجواب على أن شدد الكلمة الأخيرة ووقع تحتها "الله المستعان" إعلاماً له أن لفظ هذا بالنشيد بمعنى الهديان .

وحكى العباس بن أسد : أن أبا الحسن علي بن عيسى كتب إلى أبي الطيب أحمد بن عيسى كتاباً من مكة فقرأه ثم رمى به إلى فقال : اقرأ . فقرأت : كتابي إليك يوم القتر ، بالرفع . فقال : ما معنى يوم القتر ؟ فقلت : القتر البرد فقال : إنما هو يوم القتر بالفتح ، حين يقرّ الناس بمئى ، وهو اليوم الثانى من النحر . ومثل ذلك كثير .

قال صاحب نهاية الأرب : "وقد اتسع الخرق في ذلك ودخل في الكتابة من لا يعرفها البتة ، وزادوا عن الإحصاء ، حتى إن فيهم من لا يفرق بين الضاد والطاء . قال : ولقد بلغنى عن بعض من أدخل نفسه في الكتابة وتوسّل إلى أن كتب في ديوان الرسائل : أنه رُسم له بكتاب يكتبه في حق رجل اسمه طرنطاي فقال لكتّاب إلى جانبه طرنطاي يكتب بالساقط أو بالقائم . قال : وصار الآن حدّ الكاتب عند هؤلاء الجهال أنه يكتب على المجود مدّة ويتقن بزعمه أسطرا فاذا رأى من نفسه أن خطه قد جاد أدنى جودة أصلح بزّته ، وركب برّذونه أو بغلته ، وسعى في الدخول إلى ديوان الإنشاء والأنضمام إلى أهله ؛ ولعل الكتابة إنما يحصل ذمها بسبب هؤلاء وأمثالهم . والله دتر القائل !

تعبس الزمان ! فقد أتى بعجاب^(٢) * ومحا فنون الفضل والآداب
وأتى بكتّاب لو أنبسطت يدي * فيهم رددتهم إلى الكُتَّاب^(١)

(١) في ضوء الصبح (من مئى) .

(٢) في الأصل بعجاب وقد اخترنا رواية الضوء .

قلت : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل في صناعة الكتابة والأخذ منها بالخط الأوفى لاستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها، حتى صار الفصح لديهم أعجم، والبليغ في مخاطبتهم أبكم؛ ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وَصِنَاعَتِي عَرَبِيَّةٌ وَكَأَنِّي * أَلْقَى بَاكَرًا مَا أَقُولُ الرُّومَا
فَلِمَنْ أَقُولُ؟ وَمَا أَقُولُ؟ وَأَيْنَ لِي؟ * فَاسِيرًا، لَا بَلَّ أَيْنَ لِي فَأُقِيمَا؟

وقد حكى أبو جعفر النحاس عن بعضهم أنه قال : حضرت مجلس رجل فأجمتُ عن مسألة حاجتي لكثرة جمعه، فرأيتُه وقد أملى على كاتبه "ولم أكتب بخطي إليك خوفا من أن تقف على رداوته" فكتب كاتبه "رداءته" على ما يجب فقال: أما تحسن الهجاء؟ أين الواو؟ فأثبتها الكاتب فحس حينئذ في عيني، فأجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتي .

وحكى صاحب ذخيرة الكتاب عن بعض الوزراء : أنه تقدم إلى كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها على بُرج أنشأه فكتب "أمر بعمارة هذا البرج أبو فلان فلان" وأستوفى ألقابه إلى آخرها، ودفَع المثل إلى الوزير ليوقف عليه فلما قرأه غضب حتى ظهر الغضب في وجهه ، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبى فلان بالياء محتجا عليه بأن أبو من ألقاب العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب : إن الحال اقتضت رفعه من حيث إنه في هذا الموضع فاعل؛ فزاد إنكاره عليه وقال : متى رأيت الأمير فاعلا في هذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة على رأسه حتى تنسبه إلى هذا؟ والله لولا سالف خدمتك لفعلت بك ! .

(١) في الأصل أعجما . . . أبكا .

قال ابن حاجب النعمان: ولما كان أرباب الأمور وولاتها من الخلفاء فمن دونهم يتقدمون ما يكتب به الكتاب عنهم وما يرد عليهم من الكتب، ويناقشون على ما يقع فيها من خطأ أو يدخلها من خلل، ويقدمون الفاضل ويرفعون درجته، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته، كان الكتاب حينئذ يتبارون على اقتناء الفضيلة. ويترفعون عن أن يعلق بهم من الجهل أدنى رذيلة. ويجهدون في معرفة ما يحسن ألفاظهم، ويزين مكاتبتهم، لينالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة.

ولما انعكست القضية في تقديم من غلط بهم الزمان. وغفل عنهم الحدثان. وأستولت عليهم شرّة الجهل. ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضل. وصار العالم لديهم حشفاً، والأديب محارفاً، والمعرفة منكراً، والفضيلة منقصة، والصمت لُكنه، والفصاحة هُجّنة، أجتنبت الآداب آجتنب المحارم، وهُجرت العلوم هُجرت المآثم. ولو أنصف أحدهؤلاء الجهّال، لكان بالحشَف أولى، وبالحرُفة والمنقصة أجدر وأحرى، لكنه جهل الواجبات وأضاعها. وسَفِه حقَّ المروءة وأفسد أوضاعها^(١) ويوصف بالحيّ الناطق، والصامت أُرجى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق.

الباب الثاني

من المقدمة

في ذكر مدلول الكتابة لغة وأصطلاحاً؛ وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه؛ ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء في عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل؛ وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر؛ وفيه ثلاثة فصول.

(١) في الأصل وأوضاعها بواو زائدة وهي من زيادة الناصح كما هو ظاهر.

الفصل الأول

في ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع لكتابة
الإنشاء في عُرف الزمان، والتعير عنها بصناعة الترسل

الكتابة في اللغة مصدر كتب يقال كتب كُتِبَ وكتبا وكتاباً وكتابةً ومكتبةً وكتبةً
فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتبت القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل
كتيبة، وكتبت البغلة إذا جمعت بين شفرها بحلقة أو سير ونحوه، ومن ثم سمي
الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض كما سمي خرز القرية كتابةً لضم بعض
الخرز إلى بعض. قال ابن الأعرابي: وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالى
(أَمْ عِنْدَهُمُ الْعَيْبُ فَمَهُمْ يَكْتُبُونَ) أي يعلمون. وعلى حد ذلك قوله صلى الله عليه
وسلم في كتابه لأهل اليمن حين بعث إليهم معاذاً وغيره "إِنِّي بَعَثْتُ إِلَيْكُمْ كَاتِبًا".
قال ابن الأثير في غريب الحديث "أراد عالماً سمي بذلك لأن الغالب على من كان
يعلم الكتابة أن عنده عالماً ومعرفةً وكان الكاتب عندهم قليلاً وفيهم عزيزاً".

أما في الاصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان: بأنها صناعة روحانية تظهر
بالآلة، جُمَانِيَّةٌ، دالّةٌ على المراد بتوسط نظمها. ولم يبين مقاصد الحد ولا ما دخل فيه
ولا ما خرج عنه، غير أنه فسّر في موضع آخر معنى الروحانية فيها بالألفاظ التي يتخللها
الكاتب في أوامره ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه.
والجُمَانِيَّةُ بالخط الذي يُحطُّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورةً
معقولةً باطنة صورةً محسوسةً ظاهرة. وفسر الآلة بالقلم وبذلك يظهر معنى الحد
وما يدخل فيه ويخرج عنه، ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطَّره القلم
ما يتصوره الذهن ويتخلله الوهم فيدخل تحته مطلق الكتابة كما هو المستفاد من

المعنى اللغوي. على أن الكتابة، وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها، لا تخرج عن أصلين : هما كتابة الإنشاء، وكتابة الأموال وما في معناهما على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أن العرف فيما تقدم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصناعة الإنشاء حتى كانت الكتابة إذا أُطلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكتاب إذا أُطلق لا يراد به غير كتابها حتى سُمي العسكريّ كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء، وسُمي ابن الأثير كتابه "المثل السائر، في أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لما يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب في زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب على كاتب المال حتى صار الكاتب إذا أُطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء اسمان : خاص يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الإنشاء، وعام يتلفظ به عامة الناس وهو التوقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذي هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشيء إذا ابتدأه أو اخترعه على غير مثال يحتذيه، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلفه من الكلام ويتكره من المعاني فيما يكتبه من المكاتبات والولايات وغيرها أو أن المكاتبات والولايات ونحوها تنشأ عنه .

وأما تسميتها بالتوقيع فأصله من التوقيع على حواشي القصص وظهورها كالتوقيع بخط الخليفة أو السلطان أو الوزير أو صاحب ديوان الإنشاء أو كُتِّب الدست ومن جرى مجراهم بما يعتمد في القضية التي رُفعت القصة بسببها، ثم أُطلق على كتابة الإنشاء جملة .

قال ابن حاجب النعمان في ذخيرة الكُتَّاب : ومعناه في كلام العرب التأثير القليل الخفيف، يقال : جنب هذه الناقة موقّع إذا أثرت فيه حبال الأحمال تأثيراً خفيفاً.

وحكى أن أعرابية قالت لجارتها "حديثك تزويج وزيارتك توقيح" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت: ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَعَ الأمر إذا حَقَّ ولزِمَ ومنه قوله تعالى (وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا) أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَعَ الصَّيْقُلُ السَّيْفَ إذا أقبل عليه بميقته يجلوه لأنه بتوقيعه فى الرقعة يجلو اللبس بالإرشاد إلى ما يُعتمد فى الواقعة، أو من مَوْعَةِ الطائر - وهى المكان الذى يألفه من حيث إن الموقَّع على الرقعة يألف مكاناً منها يُوقَّع فيه كحاشية القصة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين - وهو المكان المرتفع فى الجبل لارتفاع مكان الموقَّع فى الناس وعلو شأنه أو غير ذلك .

وجه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقمتم أن التوقيع فى الأصل اسم لما يُكتب على القصص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات ونحوها إنما يبنى على ما يخرج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو تُكتب الدست ومن فى معناهم؛ وحينئذ فىكون التوقيع هو الأصل الذى يبنى عليه المنشىء، وقد يكون سُمى بأصله الذى نشأ عنه مجازاً، وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشئ بأعم أجزائه إذ الترسُّل والمكاتبات أعظم كتابة الإنشاء وأعمها من حيث إنه لا يستغنى عنها ملك ولا سُوقَةٌ، بخلاف الولايات فإنها مختصة بأرباب المناصب العلية دون غيرهم؛ وعلى ذلك بنى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تسمية كتابه "حُسن التوسُّل، إلى صناعة الترسُّل".

(١) عبارة اللسان والقاموس والواقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل . فلعل ما فى الأصول من تصحيف

الفصل الثاني

(في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة)

قد تقدم في الفصل الذي قبله أن الكتابة وإن كثرت أقسامها وتعددت أنواعها لا تخرج عن أصليين : كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال .

فأما كتابة الإنشاء فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعاني : من المكاتبات والولايات والمسامحات والاطلاقات ومناشير الأقطاعات والمُهدن والأمانات والأيمان وما في معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المال وصرفه وما يجري مجرى ذلك ككتابة بيت المال والخزائن السلطانية ، وما يُجىء إليها من أموال الخراج وما في معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والتنفقات وغير ذلك ، وما في معنى ذلك ككتابة الجيوش ونحوها مما ينبجّر القول فيه إلى صنعة الحساب ، ولا شك أن لكل من النوعين قدرًا عظيمًا وخطراً جسيماً ، إلا أن أهل التحقيق من علماء الأدب ما برحوا يرجحون كتابة الإنشاء ويفضلونها ويميزونها على سائر الكتابات ويقدمونها ، ويحتجون لذلك بأمر .

منها أن كتابة الإنشاء مستلزمة للعلم بكل نوع من الكتابة ، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبه من ولاياته ومكاتباته مما يتعلق بكتابة الأموال إلى أن يمثل لهم في وصاياه من صناعتهم ما يعتمدونه ، وبين لهم ما يأتونه ويذرونه ، فلا بد أن يكون عالماً بصناعة من يكتب له . بخلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد على رسوم مقررة وأموذجات محتررة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيها إلى تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها أشتَمَلُ كتابة الإنشاء على البيان الدال على لطائف المعاني التي هي زُبد الأفكار وجواهر الألفاظ، التي هي حلية الألسنة، وفيها يتنافس أصحاب المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثر من تنافسهم في الدرّ والجوهر .

ومنها ما تستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذكاء القريحة، وجودة الروية : لما يحتاج إليه من التصرف في المعاني المتداولة والعبارة عنها بالألفاظ غير الألفاظ التي عبر بها من سبق إلى استعمالها مع حفظ صورتها وتأديتها إلى حقائقها؛ وفي ذلك من المشقة ما لا يخفاء فيه على من مارس الصناعة، خصوصاً إذا طلب الزيادة والعلو على من تقدمه في استعمالها، أو حداً حدّورسوم المبرزين الذين يتحلون الكلام ويوقعونه مواقع مع مراعاة رشاقة اللفظ، وحلاوة المعنى، وبلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من اختراع المعاني الأبيكار للأمور الحادثة التي لم يقع مثلها، ولا سبق سابق إلى كتابتها - لأن الحوادث والوقائع لا تنتهي ولا تقف عند حد .

ومن هنا تنقص الوزير ضياء الدين بن الأثير في المشل السائر المقامات الحريية وأزدرها جانحاً إلى أنها صور موضوعة في قوالب حكايات مبنية على مبدأ ومقطع بخلاف الكتابة فإن أهوالها غير متناهية؛ ولوروعى حال ما يكتبه الكاتب في أدنى مدة لكان مثل المقامات مرات .

ومنها اختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقربه منه وإعظام خواصه وأعمادهم في المهمات عليه، مع كونه أحرز بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين في الأموال .

وقد قال بعض الحكماء : الكتاب كالجوارح كل جارحة منها ترغد الأخرى في عملها بما به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح المازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسه .

(١) لعله مصحف عن أجدر أو أخرى - كما سيأتي له بعد .

قال في موادّ البيان "ولا شك في صحة هذا التمثيل : لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل في تقليده ما يعتمد عليه ويتصفح ما يرد منه ويصرفه بالأمر والنهى على ما يؤدّى إلى استقامة ماعدق به ، وهو حلية المملكة وزينتها لما يصدر عنه من (١) البيان الذى يرفع قدرها ، ويُعلي ذكراها ، ويعظم خَطَرها ، ويدلُّ على فضل ملكها ، وهو المتصرف عن السلطان في الوعد والوعيد ، والترغيب ، والإحماذ والإذمات ، وأقتضاب المعانى التى تُقتر الوالى على ولايته وطاعته ، وتُعطف العدو العاصى عن عداوته ومعصيته . على أن بعض المتعصبين قد رَجَّح كتابة الأموال على كتابة الإنشاء بمغالطات أوردتها ، وتزويرات زخرفها وتمقَّها ، لا تخفى على متأمل ، ولا تنغضى على ذى ذهن سليم .

وقد أورد الحريرى في "المقامة الثانية والعشرين" المعروفة بالقراتية ألفاظا قلائل في المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال على لسان أبى زيد السروجى .

"اعلموا أنّ صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ، وقلم المكتبة خاطب ، وقلم المحاسبة حاطب ، وأساطير البلاغة تُسَخَّ لتُدْرَس ، ودساتير الحُسابات تنسخ وتُدْرَس ، والمنشئ جُهينة الأخبار ، وحقية الأسرار ، ونجى العطاء ، وكبير الندماء ؛ وقلمه لسان الدولة ، وفارس الحولة ، ولقمان الحكمة ، وترجمان الهمم ، وهو البشير والندير ، والشفيع والسفير ؛ به تُستخلص الصياصى ، وتملك النواصي ، ويُقتاد العاصى ، ويُستدنى القاصى ؛ وصاحبه برىء من التيجات ، آمن كيد السعات ، مقرّظ بين الجماعات ، غير معترض لنظم الجماعات .

ثم عقب كلامه بأن قال :

(١) فى الضوء عزق بالعين المهملة والزاي وهو المناسب ولعل ما فى الاصل تصحيف .

”إلا أن صناعة الحسَاب موضوعةٌ على التحقيق، وصناعة الإنشاء مبنيةٌ على التلْفِيق، وقلم الحاسب ضابط، وقلم المنشىء خابط، وبين إتَاوة توظيف المعاملات، وتلاوة طوامير السجلات، بون لا يُدركه قياس، ولا يعْتوره التباس؛ إذ الإتَاوة تملأ الأيكاس، والتلاوة تفرغ الراس، وخراج الأورج يُغني الناظر، وأستخراج المدارج يعنى الخاطر.

ثم إن الحسبة حفظة الأموال، وحملة الأثقال؛ والنقلة الأثبات، والسفرة الثقات، وأعلام الإنصاف والانتصاف، والشهود المقانع في الاختلاف؛ ومنهم المستوفى الذى هو يدُ السلطان، وقطبُ الديوان، وقسطاس الأعمال، والمهيمن على العمال، وإليه المال فى السلم والهرج، وعليه المدار فى الدخل والخرج؛ وبه مناط الضر والنفع، وفى يده رباط الإعطاء والمنع؛ ولولا قلم الحسَاب، لأودت ثمره الأكتساب، ولا تصل التغابن إلى يوم الحساب؛ ولكان نظام المعاملات محلولا، وجرح الظلمات مظلولا، وجيد التناصف مغلولا، وسيف النظام مسلولا. على أن يراع الإنشاء متقول، ويراع الحساب متأول، والحاسب مناقش، والمنشىء أبو براقيش؛ ولكلهم ما حمة حين يرقى، إلى أن يلقى ويرقى، وإعنات فيما ينشأ، حتى يغشى ويرشى ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم﴾.

قلت : وقد أوردت فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء المشار إليها بالذكر فى خطبة هذا الكتاب من فضل الكتابة ما يشدو بذكره المترجم، وأودعتها من شرف الكتاب ما يُدعن له الخصم ويسلم.

الفصل الثالث

(في ترجيح النثر على الشعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّده باعتدال أقسامه وتوازُن أجزائه وتساوي قوافي قصائده، مما لا يوجد في غيره من سائر أنواع الكلام، مع طول بقائه على ممر الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوله على ألسنة الرواة وأفواه النقلة لتمكّن القوة الحافظة منه بارتباط أجزائه وتعلّق بعضها ببعض، مع شيوعه وأستفاضته وسرعة أنتشاره وبعُد مسيره وما يؤثّر من الرّفعة والضّعة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده يجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعدد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المّجيد من الجاء الجسيم والمنح الفائق، الذي يستحقّه بحسن موقع كلامه من النفوس وما يحدثه فيها من الأريحيّة، وقبوله لما يرد عليه من الألحان المطربة المؤثّرة في النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجري مجراها وما يُستدلّ به منها في تفسير القرآن الكريم وكلام من أوتي جوامع الكلم، ومجامع الحكّم، صلى الله عليه وسلم! وكونه ديوان العرب ومجتمع تمكّنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمّة، والمفآخر الضّخمة، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقامًا، وأحسن نظامًا، إذ الشعر محصور في وزن وقافية يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر المدود ومدّ المقصور، وصرف ما لا ينصرف ومنع ما ينصرف من الصرف، وأستعمال الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك مما تُلجئ إليه ضرورة الشعر فتكون معانيه تابعة لألفاظه؛ والكلام المشور لا يحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعة لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا آعتبرت ما نقل

من معاني النثر إلى النظم وجدته قد انحطت رتبته . ألا ترى إلى قول أمير المؤمنين
على كرم الله وجهه ! ” قِيمَةُ كُلِّ أَمْرٍ مَيْحُسِنٌ “ : أنه لما نقله الشاعر إلى قوله
فِي الْأَيْمِي دَعْنِي أَعَالِي بَقِيمَتِي * فَقِيمَةُ كُلِّ نَاسٍ مَائِحُسُونُهُ

قد زادت ألفاظه وزهبت طلاوته ، وإن كان قد أفرد المعنى في نصف بيت فإنه
قد احتاج إلى زيادة مثل ألفاظه مرّة أخرى توطئة له في صدر البيت ومراعاة
لإقامة الوزن ، وزاد في قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ أمرئ
بلفظ الناس ولا شك أن لفظ أمرئ هنا أعذب وألطف ، وغير قوله يُحْسِنُ إلى قوله
يُحْسِنُونُهُ ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتد به مستوخم ، وإذا
اعتبرت . انقل من معاني النظم إلى النثر وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حسنا ورونقا
ألا ترى إلى قول المتنبي يصف بلدا قد علقت القتلى على أسوارها ؟ :

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمٌ

كيف نثره الوزير ضياء الدين بن الأثير في قوله يصف بلدا بالوصف المتقدم :
” وكأما كان بها جنون فبعث لها من عزائمها عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم “
فإنه قد جاء في غاية الطلاوة خصوصا مع التورية الواقعة في ذكر العزائم مع ذكر
الجنون ؛ وهذا في النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بما عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلة أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونوره المبين الذي (لا يأتيه
الباطل من بين يديه ولا من خلفه) ولم يتزل على صفة نظم الشعر بل نزهه عنه بقوله
(وما هو بقول شاعرٍ قَبِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ) وحرّم نظمه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم
تشريقاً لمحله وتزريهاً لمقامه منها على ذلك بقوله (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) وذلك
أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل على الأمور المستحيلة ، والصفات

المجاوِزة للحدِّ، والنعوتِ الخارجة عن العادة، وقذفِ المُحصَّات، وشهادة الزُّور، وقول
 البهتان، وسبِّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي
 صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأخله. بخلاف
 النثر فإن المقصود الأعظم منه الخُطْب والترسُّل، وكلاهما شريف الموضوع حسن
 التعلق؛ إذ الخُطْب كلام مبنّى على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء
 عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتذكير والترغيب في الآخرة والترهيد
 في الدنيا والحض على طلب الثواب، والأمر بالصَّلاح والإصلاح، والحث على
 التعاضد والتعاطف، ورَفْض التباغُض والتقاطُع، وطاعة الأئمة، وصللة الرحم، ورعاية
 الدم، وغير ذلك مما يجري هذا الجرى مما هو مستحسن شرعاً وعقلاً. وحسبُك
 رتبةً قام بها النبي صلى الله عليه وسلم! والخُلَفَاءُ الراشدون بعده. والترسُّل مبنّى
 على مصالح الأمة وقوام الرعية لما يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسرّاة الناس
 في مهمّات الدِّين وصالح الحال وبيعات الخلفاء وعُهُودهم، وما يصدر عنهم
 من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من ولايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم
 أركان الدولة وقواعدها. إلى غير ذلك من المصالح التي لا تكاد تدخل تحت الإحصاء
 ولا يأخذها الحصر.

قال في موادّ البيان ” وقد أحسَّت العرب بانحطاط رتبة الشعر عن الكلام
 المنشور كما حكي أن أمراً القيس بنِ حُجر هم أبوه بقتله حين سمعه يترنم في مجلس
 شرا به بقوله :

اسْقِيَا حُجْرًا عَلَى عِلَّاتِهِ * مِنْ كَيْتٍ لَوْهَا لَوْنُ الْعَاقِ

وما يروى أن النابغة الجعدي كان سيذا في قومه لا يقطعون أمرا دونه وأن قول الشعر نقصه وخطأ رتبته". قال: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر على النثر أتباعا لهواه بدون دليل واضح".

قال في الصناعتين: "ومع ذلك فإن أكل صفات الخطيب والكاآب أن يكونا شاعرين كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتباً". قال: "والذى قصر بالشعر كثرتُه وتعاطى كل أحد له حتى العامة والسفلة فلحقه بالنقص ما لحق الشطرنج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام على أحتياج الكاتب للشعر في بيان ما يحتاج إليه الكاتب فيما بعد إن شاء الله تعالى!

الباب الثالث

في صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(في صفاتهم؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الصفات الواجبة التي لا يسع إهمالها؛ وهي عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام— ليؤمن فيما يكتبه ويمليه. ويوثق به فيما يذره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهب للعدو بوقع كلامه، والجادب للقلوب بلطف خطابه فلا يجوز أن يوثق أحد من أهل الكفر؛ إذ يكون عينا للكفار على المسلمين، ومطلعا لهم على خفائهم فيصلون به إلى ما لا يمكن استدراكه، وقد قال تعالى ﴿بِأَيِّهَا الَّذِينَ

أَمْنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ) والمراد بالبطانة في الآية من يطَّلَع على حال المسلمين كالأطَّلَاع على مقدار خزائهم من المال، وأعداد جيشهم من الخيل والرجال .

قال أبو الفضل الصُّورِي في تذكرته "وإن من الفِطْرَةِ التي جُبِل كل أحد عليها حينَ كل شخص من الناس إلى مَنْ يرى رأيه ويدين دينه" قال : "وهذا أمرٌ يجده كل أحد في نفسه ، ولذلك شرط بعضهم في الكاتب أن يكون على مذهب الملك الذي يتمذهب به من مذاهب المسلمين ليكون موافقا له من كل وجه".

ولما فتحت الصحابة (رضوان الله عليهم) مصر ، بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل في عمل من أعمال المسلمين كافرين فأجابه عمرو : بأن المسلمين إلى الآن لم يعرفوا حقيقة البلاد ، ولم يطَّلعوا على مقادير خراجها ، وقد آجتهدتُ في نصراني عارف منسوب إلى أمانة إلى حين معرفتنا بها فنزل به ، فغضب عمر رضى الله عنه وقال : كيف تؤمّنهم وقد خونهم الله؟ وكيف تعزّمهم وقد أذلمهم الله؟ وكيف تقربهم وقد أبعدهم الله؟ ثم تلا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ) الآية وقال في آخر كتابه "مات النصراني والسلام".

وقد روى أن أبا موسى الأشعري رضى الله عنه قدم على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومعه كاتب نصراني فأعجب عمر بخطه وحسابه ، فقال عمر "أحضر كاتبك ليقرأ" فقال أبو موسى "إنه نصراني لا يدخل المسجد" فزَّبره عمر رضى الله عنه وقال "لا تؤمّنوهم ، وقد خونهم الله ، ولا تُدنوهم ، وقد أبعدهم الله ، ولا تعزّوهم وقد أذلمهم الله".

وقد قال الشافعي رضى الله عنه في كتابه الأم : "ما ينبغي لقايض ولا وائل أن يتخذ كاتباً ذمياً ، ولا يضع الذمى موضعاً يفضّل به مساماً . ويعزّ على المسلمين أن يكون لهم

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردي والقاضي أبو الطيب والبندنجي وأبن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط في كاتب القاضي أن يكون مسلما وهو الأصح الذي عليه الفتيا في المذهب .

وإذا اشترط الإسلام في كاتب القاضي والوالي ففي كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرر به .

قال أبو الفضل الصوري : "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيه وأوامره ، والتدبر لقوارعه وزواجره ، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات ، وهو الذي يَشُدُّ قُوَى الكلام ، ويثبّت صحته في الأفهام ؛ فتي خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عارية من الفضائل : لأنه الحجّة التي لا تُدْحَضُ ، والحقيقة التي لا تُرْفَضُ ؛ فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شيء ، وكانت كتابته مغسولة من أفضل الكلام . وخالية مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصرة عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . فإن تعاطى الكاتب الذمّي حفظ شيء منه وكتبه فقد أيجت حرمة كتاب الله تعالى وأتتهكت ، وأمّن منه من يتخذ هزوا ولعبا والله سبحانه يقول في كتابه المكنون ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم" قال : "ولا يُحتج بالصابي وأنه كتب للطبع والطائع من خلفاء بني العباس ، ومعز الدولة ، وعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذ عمدة الإسلام وعُضُدُ الخلافة ، وهو على دين الصابئة . فإن الصابي كان من أهل ملة قليلة أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتخشى غائلته وتخاف عاقبته .

الصفة الثانية، المذكورة — فقد صرّح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشترط في كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا اشترط ذلك في كاتب القاضى ففي كاتب السلطان أولى لما تقدّم من عموم النفع والضرّ به . وقد روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال في حق النساء ”جنبوهُنَّ الكُتّابَةَ، ولا تُسكنوهنَّ العُرفَ، وأسَعِنُوا عليهن بلا : فإنَّ نَعْمَ تُضَرِّينَّ في المسألة“ . ومرّ على كرم الله وجهه على رجل يعلم امرأة الخط . فقال ”لَا تَزِدِ الشَّرَّ شَرًّا“ .

ورأى بعض الحكماء امرأة تتعلم الكتابة فقال : ”أفغى تُسقى سُمًّا“ والله البسامى حيث يقول ! :

مَا لِلنِّسَاءِ وَلِلْكَتَّابَةِ * بِيَةِ الْعَمَلَةِ وَالْخَطَّابَةِ !
هَذَا لَنَا وَهَذَا مِنْنَا * أَنْ يَتَّعِنَ عَلَى جَنَابَةِ

فإن قيل : قد كُنَّ جماعة من النساء يكتبن ولم يرد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روى أبو جعفر النحاس بسنده إلى الحسن أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ! كانت تكتب في مكاتباتها بعد البسمة : من المبرأة عائشة بنت أبى بكرٍ حبيبة حبيب الله . وحكى جعفر بن سعيد أنه ذكر لعمر بن مسعدة كاتب المأمون توقيعات جعفر بن يحيى فقال : ”قرأت لأُمّ جعفر توقيعات في حواشى الكُتُبِ وأسافلها فوجدتها أجود أختصارا وأجمع للعانى“ . وذكر محمد بن على المدائنى في كتاب القلم والدواة أن عاملا لزيدة كتب إليها كتابا فوقعت في ظهره ”أن أصلح كتابك وإلا صرفناك عن عمك“ فتأمل فلم يظهر له فيه شيء، فعرضه على بعض إخوانه فرأى فيه في الدعاء لها وأدام كرامتك، فقال : ”إنها تحيلت أنك دعوت عليها فإن كرامة النساء دفنن“ فغير ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته ؛ ومن كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرح فيه بأنها كتبت بنفسها ولعلها أمرت من يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دونه، وإن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها، ومن عداها من النساء لأعتره به .

الصفة الثالثة، الحرّية — فقد شرطوا في كاتب القاضي أن يكون حرا : لما في العبد من النقص ، فلا يُعتمد في كل القضايا ، ولا يُوثق به في كل الأحوال ؛ فكاتب السلطان كذلك بل أولى كما تقدم .

الصفة الرابعة ، التكليف — كما في كتاب القاضي فلا يعول على الصبي في الكتابة إذ لا يُوثق به ولا اعتماد عليه .

الصفة الخامسة ، العدالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة، ورتبة خطيرة، يحكم بها في أرواح الناس وأموالهم : لأنه لو زاد أدنى كلمة أو حذف أيسر حرفٍ أو كتّم شيئا قد علمه أو تأول لفظا بغير معناه أو حرّفه عن جهته ، أدى ذلك إلى ضرر من لا يستوجب الضرر، ونفع من يجب الإضرار به، وكان قد موّه على الملك حتى مدح المذموم وذم المدوح . ففتى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المآثم ويزعه عن احتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع ، وأثر فعله من الأضرار ما لم تؤثّر السيوف ، ولله القائل !

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبِ بِنَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامِ
قَوْمٍ إِذَا عَزَمُوا عَدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ

وأیضا فإنه لا يُقبل قول الفاسق فتضيع به المصالح، وربما حمله الفسق وعدم الاكتراث بأمور الدين على وهن يدخله على الدين بقلبه، أو ضرر يجلبه بلسانه .

وأيضاً فالكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيئاً من أمور المسلمين ؛ وقد أطلق القاضي أبو الطيب والماورديُّ من أصحابنا الشافعية القولَ باشتراط العدالة في كاتب القاضي فيجب مثله في كاتب السلطان بل أولى على ما تقدّم .

الصفة السادسة ، البلاغة — بحيث يكون منها بأعلى رتبة وأسنى منزلة ؛ فإنه لسان السلطان الذي ينطق به ، ويده التي بها يكتب . ورب كاتبٍ بلغ أصاب الغرض في كتابته فأغنى عن الكتاب ، وأعمل القلم فكفاه إعمال البيض القواضب ؛ وإذا كان جيد الفطنة صائب الرأي حسن الألفاظ ، ثنأى له المعاني الجزلة فيجلوها في الألفاظ السهلة ، ويختصر حيث يكون الاختصار ، ويطيل حيث لايجد عن الإطالة بدأً ويهدد فيملاً القلوب روعةً ، ويشكر فيلبي على النفوس مسرةً ؛ وإن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطير عظم مملكة سلطانه ونخمها في معارض كلامه من غير أن يوجد أن ذلك قصده .

الصفة السابعة ، وفور العقل ، وجرالة الرأي — فان العقل أسُّ الفضائل وأصل المناقب ؛ ومن لا عقل له لا آتفاع به ، وكلام المرء ورأيه على قدر عقله ؛ فاذا كان تام العقل كامل الرأي ، وضع الأشياء في مكاتباته ومخاطباته في مواضعها ، وأتى بالكلام من وجهه ، وخاطب كل أحد عن سلطانه بما يقتضيه الحال التي يكون عليها ؛ فيشتد ما كانت الشدة نافعة ، ويلين حين يكون إلى اللين محتاجاً ، ويوبخ من لا يقتضى فعله أكثر من التوبيخ ، ويذم من تعدى إلى ما يستوجب الذم ؛ ويأتى بالمكاتبات التي يقتضيها اختلاف الأحوال واقعةً مواقعها صائبةً مرامياً .

الصفة الثامنة ، العلم بمواد الأحكام الشرعية ، والفنون الأدبية ، وغيرها مما يأتي بيانه — إذ الجاهل لا تميزه بين الحق والباطل ، ولا معرفة تُرشده إلى الطرق المعبرة في الكتابة ؛ ومن سلك طريقاً بغير دليل ضل . أو تمسك بغير أصل زل .

الصفة التاسعة ، قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس — فإنه يكتب الملوك عن ملكه . وكل كاتب يجذبه طبعه وجبيلته وخيمه في الكتابة إلى ما يميل إليه ، ومكاتبة الملوك أحوج شيء إلى التفخيم والتعظيم ، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة ؛ فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشدّ عزما وأعلى همة ، كان في ذلك أمضى وعليه أقدر ، ومهما نقص في ذلك نقص من كتابته .

الصفة العاشرة ، الكفاية لما يتولاه — لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن في أمر المسامين ؛ وربما عاد عليهم عجزه بالو بال ، أو أدى بهم ضعفه إلى الأضطراب والاختلال .

الضرب الثاني

(الصفات العرفية)

قال المهذب بن ممان في كتابه "قوانين الدواوين" : "ينبغي أن يكون الكاتب أدبيا ، حادّ الذهن ، قوى النفس ، حاضر الحس ، جيد الحدس ، حلوّ اللسان ، له جرأة يثبت بها الأمور على حكم البديهة ، وفيه تودة يقف بها فيما لا يظهر له على حدّ الروية ، شريف الأنفة ، عظيم النزاهة ، كريم الأخلاق ، مأمون الغائلة ، مؤدب الخدام ."

قال محمد بن ابراهيم الشيباني : من صفة الكاتب اعتدال التامة ، وصغر الهامة ، وخفة الهازم وكثافة اللحية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشمائل ، وخطف الإشارة ، وملاحة الزبي . قال : ومن حاله أيضا أن يكون بهي الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ، دقيق الذهن ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلو الإشارة ، مليح الاستعارة ، لطيف المسلك ، مستفرد المركب ،

ولا يكون مع ذلك فَضْفَاصَ الجئمة، متفاوت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفظنة؛ والله القائل !

وَسَمُولٍ كَأَنَّمَا أَعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكُتَّابِ“

وقال أبو الفضل الصوري : ”ينبغي أن يكون الكاتب فصيحاً بليغاً أدبياً، سنيّ الرتبة، قوى الحجّة، شديد العارضة، حسن الألفاظ؛ له ملكة يقتدر بها على مدح المذموم وذم المحمود“ .

قال المهذب بن ممتى : ”أما حسن الهيئة فإنه يرجع في ذلك إلى ما يعلمه من حال خدمومه من إيثاره إظهار نعمته على من هو في خدمته أو إخفاءها“ . قلت : وهذا قد يخالف ما تقدم : من أنه ينبغي أن يكون الكاتب بهي الملبس . وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدم في صناعة الكتابة هو الذي يرفع الرجل ويعظمه دون أتوابه البهية، وهيئته الزاهية . بل ربما كان التعظيم في الفضل لرتب الحالة المنحط الجانب أكثر، وترجيحه على غيره أقرب .

وقد قال سهل بن هرون كاتب المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة : ”لو أن رجلين خطبأ أو تحدّثا أو احتجّأ أو وصفا وكان أحدهما جميلا بهيا، ولبّاسا نبيلاً . وذا حسب شريف؛ وكان الآخر قليلا قبيئاً : وبأدّ الهيئة دميماً، وخامل الذكراً، مجهولاً : ثم كان كلامهما في مقدار واحد من البلاغة، وفي درج واحد من الصواب، لتصدع عنهما الجمع وعامتهم يقضى للقليل الدميم على النبيل الجسيم، وللبأدّ الهيئة على ذى الهيئة؛ ويشغلهم التعجب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب على مساواته له سبباً للتعجب به، والإكثار في شأنه علة للإكثار في مدحه . لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أياس، ومن حسده أبعده؛ فلما ظهر منه خلاف ما قدره وتضاعف

(١) في الأصل المعارضة وهو تصحيف من التامخ .

(٢) هو فعل من دم الرجل باهمال الدال بمعنى قبح منظره وإعجابه في الأصول تصحيف فتنه .

حُسْنُ كلامه في صدورهم كِبُرٌ في عيونهم: لأن الشيء من غير معدنه أغرب؛ وكلما كان أبعد في الوهم كان أظرف؛ وكلما كان أظرف كان أعجب؛ وكلما كان أعجب كان أبداع؛ وإنما ذلك كنوادر الصبيان وملح المجانين؛ فإن استغراب السامعين لذلك أعجب، وتعجبهم منه أكثر. قال: "والناس موكِّلون بتعظيم الغريب وأستظراف البديع، وليس لهم في الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى مثل الذي معهم في الغريب القليل وفي النادر الشاذ؛ وعلى هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم، ويرحلون إلى النازح عنهم، ويتركون من هو أعمُّ نفعاً، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً، وأخف مؤنةً وأكثر فائدةً".

الفصل الثاني

(في آداب الكتاب؛ وهي على نوعين)

النوع الأول

(حُسْنُ السيرة وشرف المذهب؛ ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوى الله تعالى في الأسرار والإعلان، والإظهار والإبطان، والمحافظة عليها، والاستناد إليها في مبادئ الأمور وعواقبها. فإنها العروة التي لا تنفصم، والحبل الذي لا ينصرم، والركن الذي لا ينهدم، والطريق التي من سلكها آهتدى، ومن حاد عنها ضلَّ وتردى؛ والمحافظة على شرائع الدين التي فرضها الله تعالى على خلقه، والحذر من الاستخفاف فيها بحقه، وتوقُّ غضبه بتأديتها، والاستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقُّها^(١).

(١) كذا في الأصول من الوقاية ولعله بتوفيتها من الوفاء تأمل.

(١) ومنها طلب الأجر بما يُبيله من عز سلطانه ويُجديه من فواضل نعمائه؛ وهذا هو أصح الأغراض التي يجب على كل عاقل أن يقدمه على كل غرض، ويحصل منه على السهم الوافر؛ فلا خير في دنيا تنقطع السعادة عنها، وإنما السعادة بعد الموت ﴿وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾؛ ومن آختر الفاني المنصرم على الباقي الدائم، فقد خسرت صفقته، وبارت تجارتُه.

والطريق الموصل إلى هذا المقصد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان، وقصدُ النفع العام له ولرعيته، والاجتهادُ في إغاثة الملهوف، والأخذ بيد الضعيف، والنفع بجماهه عند سلطانه، وحمله على العدل في الرعية، فإذا توشى ذلك فاز بثواب الله تعالى، وقضى حقَّ السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر، وقابل نعمة الله التي أقدره بها على هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقر بها لديه.

ومنها: بجانب الرِّيب والتزُّه عنها، والطهارةُ منها. فانها تُسخط الله تعالى، وتذهب بمهابة المرء، وتُسقطه من العيون والقلوب. وأحقُّ من راعى ذلك من نفسه من بين أتباع السلطان أهل هذه الصناعة لأختصاصهم به، ولطف منزلتهم عنده. إذ المشهور عند قلة الأتار أن الذين تقدموا من صدورهم ومشايخها كانوا من جلة العلماء، وسادة الفقهاء، وأفاضل أهل الورع، المبرئين من الدَّسِّ والطَّمَع، المميزين على القضاء والحُكْم، في الاستقلال بعلوم الإسلام؛ المتميزين عنهم بفضل الآداب، ورواية الأشعار، والعلم بالأيام والسير، والأرتياض بأداب الملوك وعشرتهم ورسوم صحبتهم، وغير ذلك مما ينتظم في صناعتهم. فقد ساوَوْهم في علم الدِّين، وفاقَوْهم فيما تقدم ذكره مما لا يشاركونهم فيه. والسلطان والدِّين قرينان لا يفترقان، وعونان على صلاح البلاد والعباد، فلا يحتمل السلطان ما ينكره الدِّين لأنه تابعه ورديفه.

(١) أى الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق.

ومنها لزوم العَفَافِ والصَّيَانَةِ فيما يتولاه للسلطان من أعماله ، ويتصرف فيه من أشغاله ، والتعفف عن المطامع الذميمة . والمطاعم الوخيمة ، والترفع عن المكاسب اللثيمة ؛ فان ذلك يجمع القُرْبَةَ إلى الله تعالى والحُطْوَةَ عند السلطان ، وجَمِيلَ السيرة عند الرعية — حتى إن هذه الطريقة قد تقدم بها عند السلطان المتخلفون في الفهم والمعرفة ، وسادوا على مَنْ لا يقاربونه في غِنَاءٍ ولا كفاية ، وحصلوا على الأحوال السنية ، والمنازل العلية ؛ وقرب بها مَنْ كان بعيدا على من كان قريبا ، ومن لا مكانة له ولا حرمة على من له مكانة وحرمة ، وأستدنى لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان . ثم الذي يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَافِ الذي عليه نظام معيشته ، والأرتفاق فيما يحل ويطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل ”الزم الصحة يلزمك العمل“ .^(١)

لا أنه يمتنع من المنافع التي تصل إليه من أطيب المكاسب ، وتسلم من تبعات العاجل والآجل ، وتخلص من قبيح الأحدثثة وإطلاق ألسن الحَسَدَةِ بالظعن والتأنيب ، وينال بجاه السلطان وتفوذ الأمر من غير خيانة للوَتَمين ولا اشتكاء للرعية — فانه أولا هذه المنافع لغني الانسان بالقناعة ، ورضى بالكفَاف ، وسلم من المخاطرة بدينه وديناه في سلامة السلطان . اذ لا يجوز أن يستفرغ وسعه ويعرض نفسه للخطر فيما لا تحسن له عائلته ، ولا تخلص منه فائده ، في جاه ولا مال . وقد علم ما كان عليه أهل هذه الطبقة في سائر الدول وما حصلوه من الذخائر وأقتنوه من القُنِيَاتِ النفيسة ، التي أقدرتهم على إظهار مراءتهم ، واتخاذ الصنائع عند الأحرار ، وحراسة النعم على الدوائر والأعقاب .^(٢)

وإنما حصلوا على ذلك من حيث معرفتهم بوجوه المكاسب ، وأبواب المرافق ، لا من الخيانة وذميمة الطعم — لأنهم كانوا في أزمنة لا يبغي فيها عن متكسب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وإن جلت منزلته وعظمت مرتبته

(١) هكذا بالأصل . (٢) لعله على الذراري تأمل . (٣) لعله الطمع .

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلىها رتبة — لأنه يتلو الأجر في البقاء والدوام ، وكلما كانت المهمة أعظم وأشرف ، كانت إليه أرغَبَ وبه أكثَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعلية الناس حتى قال الخليل عليه السلام ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ . وأولى الناس باقتناء ذخائر الحمد وأقراض فرض الشكر من عرض الله تعالى جاهه ، وطول يده ، وأمضى عند السلطان لسانه ، فينبغي أن يختار هذه المكرمة ، ويقوم بالنصيب الأوفر منها ، ولا يتغل بجأه ولا ماله على قاصد ولا مؤمل ولا ذى رحم وذمام ، ولا يُضجّع في أمر بطانته وحاشيته وأصحابه ، ولا يضيّق عليهم مع سَعَتِهِ ، ولا يقصّر بهم في كفايته ، ويجعل آكتسابها بجأه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ما أوثموا عليه في هذا الغرض ورَضُوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوال النعم ، وسقوط الرتبة وذهاب المال ، والوسم بميسم الخيانة والبوار إلى الأبد . ولا يبلغ في آبتناء المعالي واقتناء المحامد وبذل الرغائب وارتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغي لأحد من أتباعهم من كاتب ولا غيره الإقدام عليه مُفَاخِرًا ولا مُكَاثِرًا ولا مقاييسا ، فيكون قد عدا طوره ، وأضلّ رُشدَه ، وتعرض للعطب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلى سوء الظن به ، وفوق سهام الحسدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالظعن عليه ؛ وربما أدى به ذلك إلى سقوط المنزلة ان سامت نفسه .

ومنها الاقتصاد في طلب اللذة ، والاقتصار من ذلك على ما يُقيم المروءة من أفضل الأخلاق وأشرفها : بأن يكون تناوُلُهُم ما يتناولونه من ذلك بسلك طريقة مجودة يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال على اللذات . والانهماك في الشهوات . فان ذلك غير مستحسن للملك ولا سؤفة لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي يجب صرف العناية إليها في صلاح المعاش

وأمر الآخرة؛ ولكن لا يكلف ترك اللذات جملة - اذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبِّلت عليه الطباع من الميل إليها والرغبة في الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم في آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النوع الثانى

حُسن العِشرة - التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعاً والحاصلة بالتخلق تكسباً وتطبعاً ، وأعوذها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامة وحصول الشاء والشكر والمودة من الأفاضل الأخيار ، وكفاية الأراذل الأشرار ، وان لم يلتزمها الكاتب طوعاً حمل عليها كرها .

وأعلم أن أدب المعاشرة على خمسة اضرب :

الضرب الأول

(عِشرة الملوك والعظماء)

قال على بن خلف : ولا يُقُوم بأدائها وأكل رسومها إلا مَنْ علَّتْ فى الأدب درجته ، وسمتْ فى رِجَاحة العقل منزلته ، وتميَّزَ بغريزة فاضلة وأدب مكنتسب ، وصبرَ على المشاقِّ فى التحلَّى بالهمم الشريفة ، والسموِّ إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلطان ومساعدة الزمان ، وتمكَّنَ من تصريف النَّفسينِ الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخذَهما بقبول ما تُرشد إليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبه راكب خطَر جسم ، بملكه نفسه لمتحكم فى شعره وبشره ، قادر على نفعه

وَضْرَهُ؛ لا يردّه عن مقابلته على يسير الخيانة بكبير النكايّة إلا ما يؤمّل من صَفْحِهِ ومسامحته، ويرجو من عَطْفِهِ ورأفته . وأوّل ما يجب على المتصل بخدمة السلطان النظرُ في عواقب أموره وحفظ نفسه من جريرة يُجرّها عليها باغفاله فرضا من فروض طاعته، وتضييعه المحافظة على حقوق خدمته، والعلم بأن لكل مصحوب خُلُقًا يغلب عليه، ويرجع بغريزة الطبع اليه، لا يمكنه النزوع عنه ولا المفارقة له؛ إذ الانتقال عن الطّباع، شديد الامتناع، في الخدم والأتباع؛ فكيف الملوك والرؤساء الذين لا يقابلون بلوم على خُلُقٍ مذموم؛ بل العادة جارية في أدب خدمتهم بأن يصوّبوا ما يركبونه من خطأ ويحسنوا ما يواقعونه من قبح. فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانه، وما خالف سجيته في إصلاح زمانه؛ وأن ينزل عن هواه لهواه، ويتبع فيما يسخطه ويأباه، ما يؤثره سلطانه ويرضاه . وينبغي أن لا يعرض نفسه لما يسقط منزلته ويُفسد عاقبته ولا يوجد للزمن طريقا إلى التنكر له، ويعينه بتفويق سهامه والتصدي لمواقعها . وقد علم أن الزمان وان عمّ بنوائبه فإنه يخصّ صاحب السلطان منها بما يزيد على نصيب غيره . ومن أشق الأحوال أن يدفع الإنسان إلى تغيير السلطان مع كون السبب في ذلك شيئا جزه إلى نفسه بسوء اختياره، لما يجتمع عليه في ذلك من مرارة النكبة، وحرارة المغبة، وتقرّيع من يُزرى على عقله، ويؤنبه بجعله . ثم انه يلزمه بعد الاحتياط فيما تقدم عدّة خصال أيضا .

منها الإخلاص وهو قوام الأمر في المصاحبة؛ فإن من صحب سلطانا بعقيدة مدخولة في ولايته، مشوبة في محبته، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر : لأن الضمائر المدوّقة والنيات السقيمة لا بد أن يصرّح بما فيها ويظهر ما في دخيلتها؛ وإذا اتضح ذلك للسلطان لم يقنع إلا بياتلاف نفسه، وإذهاب مُهْجته .

(١) لعله المدوّقة . أى غير الخالصة من قولهم مذاق فلان الورد إذا لم يخلصه . تأمل .

ومنها النصيحة ، وهي ترب الإخلاص . والطريق الموصل إلى التوفية بها أن يطالع السلطان بكل ما يفتقر إلى العلم به من خاص أموره وعامها ؛ وعلى من استخلصه السلطان لنفسه ، وأتمته على رعيته ، وأنطقه بلسانه ، وأخذ وأعطى بيده ، وأورد وأصدر برأيه ، وتخير هذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته : أن لا يستر عنه دقيقاً ولا جليلاً من أحوال ما فوضه إليه ، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجملة توقيماً من لوم لائم ، ولا يحمله فرط النصح له على الإضرار برعيته ، ولا الرغبة في إثبات حقه على تضييع حقوقها ، ولا القيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به وهو بها . ومنها الاجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يبقى في ذلك ممكناً ، ولا يدع فيه شأواً للاحق .

ومنها كتمان السر . وهو من أفضل الآداب في محبة السلطان وغيره ، وأعودها بالفلاح على صاحبها : لأن كثرة الانتشار الداخل على الدول إنما توجه بتفريط بطائنها وصاحبها في أسرارها ، وإظهارهم بما تقرّر في أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهره ؛ فيجد العدو بذلك الطريق إلى معالجة آرائهم بما ينقضها ، ومقابلتها بما يُفسدها . على أن إفشاء السر من الأخلاق التي تُطبع أكثر الناس عليها ، وحيل بينهم وبين الإقلاع عنها ؛ فمن علم من نفسه ذلك فليحذر معاملة السلطان في أسراره وبواطن أموره ، ولا سيما ما وجد منها في باب حروبه ومكايده ، فإنه إن ظهر منه على خيانة في السر ، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشكر فإنه وإن كان واجبا على الإنسان مع أ كفائه ونظرائه فإنه مع السلطان الذي يستظل بظله ، ويستدرّ أخلاف فضله أوجب . إذ المرء قد يقدر على مكافأة عارفة صديقه بما يضاهاها ويزيد عليها ، ولا يقدر على مكافأة سلطانه إلا

بُشكر نعمته، والمحافظة على حقوق خدمته . ثم الشكر بالقول يرتفع بين الرئيس والمرءوس، والخادم والمخدوم، إلا السير الذي يقضى به حق الخدمة : لأن الإكثار منه داخل في حكم الملق والتثقل؛ وإنما يظهر شكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهم الخصال اللازمة وأكدها؛ إذ هو الطريق إلى صلاح العباد وعمارة البلاد؛ بل هو رأس مال الكاتب وربحهُ ودوام عمله، والسبب الذي لأجله ترغّب السلاطين في صحبته : لأنهم ما برحوا يقرّبون صاحب هذه الخصلة ويرونه أهلاً للاختصاص، موضعاً للثقة؛ ولا أسوأ حالاً من نزل هذه المنزلة وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصد المخالصة، ومقابلة كل نعمة تُفاض عليه بالنهضة فيما أسند إليه : ليدعو ذلك سلطانه إلى ربّ النعمة لديه، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، في حال سعادته، وإقبال دولته، وفي حال تولّيها عنه وعُطلته . أمّا في حال إقبال الدولة عليه فإن يصحبه بقلبه دون بدنه ولا يتطلب صاحباً غيره ينتقل إلى صحبته، ويستبدل بخدمته من خدمته؛ ولا يحدث نفسه بأنه متى وجد أنفع منه عدل إليه؛ ولا أن يرتب له جهة أخرى يجعله مقدّمة لأمر يترقّبه : لما في ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدم وجوبه . وأمّا في حال أنصراف الدولة عن صاحبه، فإنه لا يباينه مباينة المساعد للزمان عليه، الموافق للقادير فيه، ولا يجوز له عند حاجته إليه، ولا يُضيع حقوقه عنده وصنائه لديه؛ ولا ينحاز بكليته إلى من أقبلت أمور السلطان عليه؛ فإن ذلك

(١) في الضوء . أسند . وهي أوضح .

(٢) أى زيادة النعمة .

ما يدل على حُبِّ السجِّية ومقابلتها على الإحسان بالإساءة ، وأستعمال العُقوق ،
وأطراح الحُقوق .

ومنها مجانبة الإدلال . إذ الدالَّة على السلطان والرئيس من أعظم مصارع التلّف ،
وأقرب الأشياء إلى زوال النعم ، ولأجلها هلك من هلك من بطانة السلطان وخاصته
وزرائه ؛ وفي قصصهم عبرة لمن أنعم النظر في تأملها . وعليه أن يعول في الاعتداد
بخدمته ونصائحه له على أشتهارها وظهورها ، ولا يفيض في تعديدها وذكرها ، ولا
يواصل التثقييل بأغراضه والإلحاف بأسئته ، ولا يظهر التشحّب عند التقصير به ،
ولا الغضب أتكالا على سالف خدمة ، وقليل حرمة ؛ وأن يتناسى ما أسلفه من
الخدمة والصحة ، ويكون في كل حال عارفا بعوارفه ، معتدا بفواضله ، موجبا
الفروض له لاعياه ، فإن السلطان مجبول على أنفة النفس وعزّتها ، ولا يحتمل التنازل
لأحد : لتزيله الكلّ منازل الخدم والأرقاء ، وأعتقاده أنه سبب النعمة السابغة على
الكافة ، وثقته بوجود العوض عمّن يفقده من الأعوان والأصحاب ، ومنابرة الناس
على خدمته والانتساب إلى متابعتة لما يصلون إليه من الحظوة ، وينالونه من الجاه
والثروة . وإن كان في باطن حاله على خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والاعتداد وتلطف
في بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمه كاتباً ، ولا لسانه مخاطباً ؛ فإن ذلك
إزراء على همة المصحوب ، ودلالة على إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة
وسُبُوحها ، والمنّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يفضى ببلوغ
آماله ، وسداد أموره ، وسهولة مطالبه . وإذا زاده السلطان رفعة وتشريفاً أزداد له
تعظيماً وتوقيراً . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل ما يشينه ، وإذا خصه بأثرة
وتقريب أن يزيد الخاصة والعامة بشراً وإناساً ، وإن آتهم بهفوة لم ياتمه في إقامة
العُدْر والاحتجاج على براءة الساحة إلى الغاية القُصوى . بل يتوسط في ذلك ويسأل

من حُسْنِ الصَّفْحِ والإِقَالَةِ وَجَمِيلِ التَّعْمَدِ^(١) وَالْعَفْوِ مَا يَجْعَلُ لِلإِحْسَانِ وَجْهًا ، وَلِتَعَقُّبِهِ
لِلسُّخْطِ سَبِيحًا . فَإِنَّهُ إِذَا صَدَعَ بِالْمُحْجَةِ فِي بَرَاءَةِ السَّاحَةِ ، فَلَا وَجْهَ لِمُعْذَرَتِهِ وَفِيهِ تَكْذِيبٌ
لرئيسه ، وَرَبْمَا أَتَى إِلَى فِسَادٍ وَمُفَاقَّةٍ .

وَمِنْهَا التَّمَسُّكُ بِأَدَابِ الخِدْمَةِ بِالمَوَاطِبَةِ عَلَيْهَا ، وَصَرَفِ الأَهْتِمَامِ إِلَيْهَا ؛ إِذْ هِيَ أَعْظَمُ
الذَّرَائِعِ إِلَى نَيْلِ الرُّتَبِ وَبُلُوغِ المَآرَبِ ، وَالسَّبَبُ الَّذِي يَقْرَبُ البُعْدَاءَ ، وَيَرْفَعُهُمْ عَلَى
أَهْلِ الوَسَائِلِ وَالحُرْمِ ، وَذَوِي المَوَاتِ^(٢) وَالخَدَمِ ؛ وَيُعْمَى عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ، وَيُصَمُّ عَنْ كُلِّ
طَعْنٍ . وَمَا نَالَ أَحَدٌ عِنْدَ السُّلْطَانِ مَرْتَبَةً إِلَّا وَالمَوَاطِبَةَ عَلَى خِدْمَتِهِ سَبَبًا وَالمَوَاصِلَةَ
مَوْجِبًا . وَأَوْلَى النَّاسِ بِلِزُومِ السُّلْطَانِ كُتَّابُهُ الَّذِينَ لا غِنَى بِهِ عَنْ حُضُورِهِمْ ، فِي لَيْلِهِ
وَنَهَارِهِ ، وَأَحْيَانٍ شَغَلَهُ وَفِرَاعُهُ : لِأَنَّهُ رُبَّمَا بَدَّهَ مَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِكْفَائِهِ إِيَّاهُ وَإِسْنَادِهِ
إِلَيْهِ ، وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ فِي تِلْكَ الحَالِ اسْتَدْعَى مِنْ مَوْجِدَتِهِ وَأَسْتَجَرَ مِنْ لَأْمَتِهِ مَا لَا
يُزِيلُهُ العِذْرُ إِلَّا فِي المَدَّةِ الطَّوِيلَةِ . وَرُبَّمَا أَضْطُرَّ لَغَيْبَتِهِ إِلَى احْتِضَارِ مَنْ يَسْتَكْفِيهِ
مَاعْرَضَ لَهُ وَأَدَّى ذَلِكَ إِلَى أَصْطِنَاعِهِ وَتَصْيِيرِهِ فِي مَقَامِهِ وَإِنْ كَانَ لا يَسَاوِيهِ فِي فَضْلِ
وَلَا عِلْمٍ وَلَا غِنَاءٍ ، بِخِلَافِ مَا إِذَا وَجَدَهُ مُسَارِعًا إِلَى أَمْتَلْتَهُ ؛ فَإِنْ ذَلِكَ يَزِيدُ فِي حُظُوتِهِ ،
وَيَدْعُو إِلَى اسْتِخْلَاصِ مَوَدَّتِهِ .

فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يُخَصَّ سُلْطَانَتَهُ مِنْ زَمَانِهِ بِالقِسْمِ الأَوْفَرِ ، وَالنَّصِيبِ الأَغْزَرِ ، وَلَا
يُؤَثِّرُ نَيْلُ لَذَّةٍ عَلَيْهِ ، وَلَا بُلُوغُ وَطَرٍ إِذَا أَتَى إِلَى تَنَكُّرِهِ ؛ فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يُوَافِقَهُ عَلَى
وَقْتٍ يَفْرِضُهُ لَهُ يَتِمَّكُنُ فِيهِ مِنْ بُلُوغِ أَوطَارِهِ ، وَالْوَصُولِ إِلَى مَقَاصِدِهِ ، كَانَ أَحْمَدَ لِعَاقِبَتِهِ
وَأَبْلَغَ لِقَصْدِهِ ، وَأَحْسَمَ لِأَسْبَابِ اللَّائِمَةِ فِي غَيْبَتِهِ . وَلَا يَنْهَمُكَ فِي المَلَأْدِ أَنَّهُمَاكَ الآمِنُ

(١) التعمد السر من قولهم تعمد الله برحمته أي ستره .

(٢) جمع مائة — وهي الحرمة والوسيلة .

بل يقف عند الحد الذي يُبقي فيه فضلةً لعوارض السلطان ومهماته الحادثة في آناء الليل، وساعات النهار . فإن تعبه في صلاح زمانه وراحة سلطانه نستبقي لنعمته ، مستدج زيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يتبع بما أصلحه منها حتى ينظر في عواقبه ، ويسوس ما رُد إليه بالسياسة الفاضلة : قيلين في غير ضعف ، ويستد في غير عنف ، ويعفو عن غير حور ، ويسطو من غير جور ، ويقرب بغير تدله ، ويبعد بغير نكر ، ويخص في غير مجازاة ، ويعم في غير تضييع ، فلا يشقى به المحق وإن كان عدواً ، ولا يسعد به وإن كان ولياً .

ومنها إذا حضر بين يدي سلطانه أو رئيسه في المجلس الخاص أو العام أن يعتمد مقابته بالإجلال والإعظام، والتوقير والإكرام، ولا يحمله تأكيد الخدمة وتناول الصحبة على إهمال ذلك بل يحفظ رسمه ولا يغير عاداته .

ومنها أن يتخير لخطابه في الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلق سره فيها، وفرآغ باله ، وأنشراح صدره، وأرتفاع الأفكار عن خاطره : إلا إن كان ما يخاطبه فيه أمراً عائداً بانتظام سلطانه ، وأستقامة زمانه ، داخلاً في مهمات أعماله التي متى أخرها نُسب إلى التقصير، فيقدم الكلام فيها خف أو ثقل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره في أمر من الأمور ، فعليه أن يُرعيه عينه ويُصت إليه سمعه ، ويشغل به فكره ، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتى يستوعب ما يلقىه إليه ، ويحبه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت في حال إقباله عليه إلى غيره ، ولا يصغى إلى كلام متكلم ، ولا حديث متحدث ، حتى لو أمتحنه باستعادة ما فاضه فيه وجده قد أحرز جميعه ؛ فإن التقصير في ذلك مما ينكره الملوك والرؤساء ، ويستدلون به على ضعف المخاطب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالاعتذار عنه : للإلا ينسب إلى التقصير بتأخيره عند الكشف عنه ؛ وإن كان فيه ما يخالف الصواب

أمضاه؛ وإن تعذر السبيلُ إلى فعله لم يظهر التقاعُسُ عنه لتخطئته، بل يقابله بالاستصواب. ثم يتلطف في تعريفه مكان الخطأ فيما رآه.

ومنها أن يجرى في الحال في مجالسه على ما يعود بوفائه وإرادته. فإن مال إلى الانبساط أطلق عَنانَه فيه إطلاق المتجنب للهجر والفحش، ورَفَثَ القول تابعاً لإيثاره، قاضياً لأوطاره. وإن أظهر الأقباض ذهب مذهبه في ذلك، ولا ينبغي أن يخالفه في حال من أحواله، فإن من شروط هذه الخدمة أن يتصرف صاحبها في كل ما يُصَرَّفُ فيه، ويُسرِعَ الاتقيادَ إلى كل ما يُدعى إليه؛ ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر على ما يوليه من العوارف فإن مثل ذلك يستثقل.

ومنها أن لا يحضُرُ سلطانه في ملبسه التي جرت العادة أن ينفرد بها كالوشى ونحوه؛ إلا أن يكون هو الذي يشرفه بها، وأن يقتصد في لباسه: فينحط عما يلبسه سلطانه ويرتفع عما يلبسه السوقة، ويصرف عنايته إلى التنظيف والتعطر، وقطع الرائحة الكريهة من العرق وغيره، حتى لا تقع عينُ رئيسه على دَنَسٍ في أثوابه، ولا يجد منه كريه رائحة في حال دنوه منه؛ ويواصل استعمال الطيب والبخور الفائق والتضمخ بالمسك؛ فإن الملوك ترى أن من أغفل تعهد نفسه كان لغيرها أشدَّ إغفالا.

ومنها أن يتجنب التفاسيح والتعمق في مخاطبة رئيسه، والافتخار عليه بالبلاغة والبيان: لما في ذلك من الترفع عليه في الكلام. بل يجعل ما يُلقيه إليه ضمن ألفاظ تدلُّ على معانيها بسهولة مع غضٍّ من صوته، وخفيض من طَرَفه، وسكونٍ من أعضائه: لأنه إنما يُتَسَاحَ بالإتيان بالفصاحة والذهاب بمذهب الحرّالة للخطباء الذين يُنْبِئون على الملوك في المواقف العامة ضرورة احتياجهم إلى استعمال ألفاظ تقع في الأسماع أحسن المواقع.

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وارتفعت رتبته لديه أن يُجمل القول في خاصته وعامته ،
ويحسن الوساطة لحاشيته ورعيته ، ويتجنب القدح عنده في أكفائه ونظرائه من
بطانته ، والمقربين من حضرته ، ليكون ذلك داعيا إلى محبته والشناء عليه مكافأة له
وإمسالك الألسن عن الطعن فيه .

ومنها أن يبادر إلى المشورة عليه بالصواب فيما يستشير فيه ، ويورده إيراد
مستفيد لا مفيد ، ومتعلم لا معلم ، ويتلطف في أن يوقعه من نفسه موقعا يدعوه إلى
العمل به . فإن من عادة الملوك والرؤساء الأنفة من الانقياد إلى ما ينتحله غيرهم من
الآراء ولو كانت صائبة ؛ وإن تمكن من صياغة حديث يودعه فيه فعل محادعة بذلك
لنفسه الأبية وعزته المتعاسة .

الضرب الثاني

(آداب عشرة الأكفاء والنظراء)

قال علي بن خلف : ولا شك أن طريقة الاعتدال في ذلك الموافاة في الإخاء ،
والمساواة في الصفاء ، ومقابلة كل حالة بما يضاهاها . أما المسامحة بالحقوق والإغضاء
عن قصر ، والمحافظة على ود من فرط ، فلا خلاف في فضله والتمدح بمثله ، لا سيما
لمثل أهل هذه الصناعة التي يرتفع حق الاعتراء اليها عن حقوق القرابات الدانية ،
والأنساب الراسخة . ولذلك وقع في كلام بعضهم « الكتابة نسب » . قال علي
ابن خلف : والمعنى فيه أن التناسب الحاصل بين أهلها تناسب نفساني لا جسماني ،
يحصل عن تناسب الصور القائمة في نفوسهم بالقوة ، وعن تناسبها بعد خروجها
وظهورها من القوة إلى الفعل ، بدليل ما نراه من اتفاق خواطهم على كثير من
المعاني التي يستنبطونها ، وتواردهم فيها . ولولا تناسب الغرائز وتشابهها ، لم يكن
أن يتواطئوا في أكثر الأحوال على معاني متكافئة متوافية .

قال: «وإذا كنا نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب الجسمية التي لاتعارف بينها فأولى أن نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب النفسانية التي يصح منها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب: «الكتابة نفسٌ واحدة تجزأت في أبدان متفرقة» . وقال : لآبرة بما يقع بين بعضهم من التنافر والتباين ، لأن المناسبة إنما تقع عند المساواة . أما من وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصيرُ القاصر حاسدا لمن فوقه ، للتقصير الذي فيه» .

وبكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم ، ويحفظ مناسبتهم ، ويتوَّخى مساهمتهم ، ويتلقَّاهم بالإكرام والتميز ، ويجعلهم في أعلى المراتب عنده ، ويزيدهم على الإنصاف ولا يقصِّرهم عما يستوجبونه ويستحقونه ، ويتخول بمثل ذلك نظراء في الرياسة من غير الكُتَّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلى ملتصمهم أطاب قلوبهم بالوعد الجميل في المستقبل ، وأجتهد في الوفاء به .

الضرب الثالث

(آداب عشرة الأتباع)

قال علي بن خلف : وهي لاحقة بعشرة الأكفاء : لأن الذين يستعين بهم الكاتبُ يدعون كُتَّاباً ولا يدعون أعواناً ، وإنما الأعوان حُدَّام الشرطة ومن يجرى مجراهم . قال : «وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءوسيه وأتباعه ، فاسم الكتابة يجمع بينه وبينهم ، ومعاشرتهم داخلية في باب التكرم ، والتفضيل ، والاستئثار بحاسن الأفعال ومكارم الشيم» .

ثم قال بعد ذلك : «ويبني أن يخصهم بالنصيب الأوفر ، من إكرامه ، والقسم الأغزر ، من ملاحظته وأهتمامه ، ويفرض لهم من التقديم والأختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذي يتهى إليه أمل المرءوس من الرئيس : ليجهل خدمتهم له بذلك خدمة مئة ومودة، لخدمة خوف ورهبة ؛ وأن يجب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتصديق عليهم ؛ وإنا لنتهم من الترفيه في بعض الأوقات ما يجحدون به السبيل إلى الأخذ بنصيب من لذاتهم وأوطارهم التي تميل النفوس إليها، وتهافت عليها ؛ فإنهم متى لحقهم التعب والنصب ، أعترضهم الضجر والملال، فقصروا في الأعمال، وتهاونوا بالأشغال ؛ فلا بد لهم من راحة تصفوها أذهانهم ويزول عنها الكلال ، ولا يفسح لهم في مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ؛ فإن ذلك يجعل على سوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يحفظ لهم حقوق الصعبة والخدمة ويؤجدهم من الإعانة ما فيه صلاح حالهم ؛ فإنه يستعبدهم بذلك ويستخلص مودتهم إذ القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها .

الضرب الرابع

(آداب عشرة الرعية)

قال ابن خلف : "وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاضٍ بالسلامة . إذ لا يطيب لأحد عيش مع بغض الرعية له ، ونفورهم عنه ، وإن علت عند السلطان رتبته ، وأرتفعت طبقته ، وطق بنفسه الاستغناء عنهم" . قال : "فينبغي أن يوفّر^(١) العناية على استصلاحهم له ، واستمالة أهوائهم إليه ، ولين الجانب ، ووطأة الكنف ، وخفض الجناح ، والبسط والإيناس وتأليفهم : كما يوفرها على استصلاح السلطان وسياسته ، لتصح له رتبة التوسط بين الطبقتين ، ويسلم من طعن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويرأ من البغض والشحناء ، وينقلهم عما تسرع إليه الطباع الرديئة :

(١) أى دمامة الأخلاق كما يؤخذ من القاموس .

من الحسد والإيذاء إلى التألف والمودة . وقد أذب الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنْفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ .

الضرب الخامس

(آداب عشرة من يمت إليه بجرمة ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدبِّل بحقّ
المفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة في الصِّبا ، والصدّاقة
بين الآباء وغير ذلك من الحُرْم التي لا يَطْرِحها أهل المروءات)

قال ابن خلف : ”وينبغي أن يوفيهم حقوقهم ، وينهض بما يسنح من أوطارهم ومهماتهم ، ويعينهم على ما يحدث من نوائب زمانهم ، ويسعد في بلوغ مطالبهم من سلطانهم ، ولا يرضن عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُحَيِّب أمل آملهم ولا قفضه ، ويفرض لهم من إذعانه وأعتنائه ما يعزّج جانبهم ، ويسهل مآربهم ، ويكف الضيم والظلم عنهم ، ويسيطر العدل والإنصاف عليهم . فإنه إذا التزم ذلك لهم الترمواله الإعظام والأجلال ، وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والأعتداد بأياديه ، وأشاعوا ذلك بين أمثالهم فاجتلبوا له مودتهم وتعصّبهم له“ .

قلت : ومن تمام آداب الكاتب وكالها أن يعرف حقوق مشايخ الصناعة وأئمتها الذين فتحوا أبوابها ، ودلّوا سبلها ، وسهّلوا طرقها ؛ ويعاملهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرهم ، وأتعبوا فيه رويّاتهم فينزّهم منازلهم ولا يخسبهم حقوقهم . فمن آفات هذه الصنعة على ذوى الفضل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادعاء منزلة المبرّز بل لا يعفيه من ادعاء التقدّم في الفضل عليه ، والمبرّز في الفضل لا يقدر على إثبات نقص المتخلف ﴿والله يعلم المُقْسِد من المُصْلِح﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليه، ويَبُوعها الذى تفجرت منه، رسالة عبد الحميد بن يحيى الكاتب، التى كتبها إلى الكُتّاب يوصيهم فيها . وهى :

أما بعدُ، حفظكم الله يا أهل صناعة الكُتّابة، وحاطكم ووفّقكم وأرشدكم ! فإن الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين؛ ومن بعد الملوك المكرمين أصنافاً، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصرفهم فى صنوف الصناعات، وضروب المحاولات إلى أسباب معاشهم، وأبواب أرزاقهم؛ فجعلكم معشر الكُتّاب فى أشرف الجهات أهل الأدب، والمروءة، والعلم، والرواية . بكم تنتظم للخلافة محاسنها، وتستقيم أمورها؛ وبنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم، وتعمّر بلادهم . لا يستغنى الملك عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم؛ فموقعكم من الملوك موقعُ أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يبصرون، وألسنتهم التى بها ينطقون، وأيديهم التى بها يبطشون . فامتكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ! ولا تنزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم ! .

وليس أحدٌ أحوَج إلى اجتماعِ خلال الخير المحمودة، وخصال الفضل المذكورة المعدودة، منكم أيها الكُتّاب، إذا كنتم على ما يأتى فى هذا الكُتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مهمات أموره أن يكون حليماً فى موضع الحلم، فهياً فى موضع الحُكم، ومقداماً فى موضع الإقدام، ومحجاً فى موضع الإحجام؛ مؤثراً للعفاف، والعدل والإنصاف، كتموا للأسرار، وفاقاً عند الشدائد، عالماً بما يأتى من النوازل؛ ويضع الأمور مواضعها، والطوارق أما كنها . قد نظر فى كل فنّ من فنون العلوم فأحكّمه، فإن لم يُحْكِمه أخذ منه بمقدار يكتفى به . يعرف بغيرِة عقله، وحسن أدبه، وفضل تجربته، ما يرد عليه قبل وروده

وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره؛ فيعد لكل أمر عدته وعتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته. فتناقسوا يامعشر الكُتَّاب، في صنوف الآداب، وتفقهوا في الدين؛ وأبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربية فإنها ثِقَاف ألسنتكم .

ثم أجدوا الخط فإنه حلية كتبكم، وارووا الأشعار، وأعرفوا غريبها ومعانيها؛ وأيام العرب والعجم، وأحاديثها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم على ما تسمو إليه هممكم . ولا تضيّعوا النظر في الحساب فإنه قوام كُتَّاب الخراج؛ وأرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودينها، وسفساف الأمور ومحآقرها، فإنها مدلّة للرقاب، مفسدة للكُتَّاب؛ ونزهوا صناعتكم عن الدنآآت، وآرؤوا بأنفسكم عن السّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات؛ وإياكم والكبر والصلف والعظمة، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنة، وتحابؤا في الله عز وجل في صناعتكم، وتواصؤا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والتبلى من سلفكم .

وإن نبا الزمان برجل منكم فأعطفؤا عليه ووأسوه حتى يرجع إليه حاله، ويثوب إليه أمره؛ وإن أقعد أحدكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وأستظهروا بفضل تجربته، وقدم معرفته . وليكن الرجل منكم على من أصطنعه وأستظهر به ليوم حاجته إليه أحفظ منه على ولده وأخيه . فان عرضت في الشغل محمّدة فلا يضيفها إلا إلى صاحبه، وإن عرضت مدّمة فليحملها هو من دونه . وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال، فان العيب إليكم معشر الكُتَّاب أسرع منه إلى الفراء؛ وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم إذا صحبه الرجل، يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، وأحتماله، وصبوره، ونصيحته، وكتمان سره، وتديبر أمره، ما هو جزاء لحقه . ويصدق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والأضطرار إلى مآلديه .

فاستشعروا ذلكم وفقكم الله من أنفسكم في حالة الرخاء، والشدة، والحرمان،
 والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء؛ فنعمت الشيمة هذه لمن وُسم بها من
 أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا ولى الرجل منكم أو صير إليه من أمر خلق الله
 وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته، وليكن على الضعيف رفيقا،
 وللظلم منصفا، فإن الخلق عيال الله وأحبهم إليه أرفقهم بعياله . ثم ليكن بالعدل
 حاكما وللأشراف مكرما، وللغنى موقرا، وللبلاد عامرا، وللرعية متألفا، وعن
 إيدائهم متخلفا؛ وليكن في مجلسه متواضعا حلما، وفي سحلات خراجة، وأستقضاء
 حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلأته، فإذا عرف حسنها وقبيحها
 أعانه على ما يوافق من الحسن وأحتال لصفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة،
 وأبجل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة
 أخلاقها، فإن كانت رموحا لم يهجمها إذا ركبها، وإن كانت شبوبا اتقاها من قبل
 يديها، وإن خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها، وإن كانت حرونا قمع برفق
 هواها في طريقها، فإن آسمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها . وفي هذا الوصف
 من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وخدمهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره
 من الناس وينظره، ويفهم عنه أو يخاف سطوته، أو يلقى بالرفق بصاحبه، ومداراته،
 وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تُحير جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم
 خطابا، إلا بقدر ما يصيرها إليه صاحبها الراكب عليها . ألا فامعنوا رحمكم الله
 في النظر، واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتهموه
 النبوة، والأستتقال والحقوة؛ ويصير منكم إلى الموافقة، وتصيروا منه إلى المؤاخاة
 والشفقة إن شاء الله تعالى .

ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه
 وخدمه وغير ذلك من فنون أمره، قدر حقه . فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف
 صنعكم خدمة لا تُحْمَلون في خدمتكم على التقصير، وحفظة لا تُحْتَمَل منكم أفعال
 التضييع والتبذير : وأستمعوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته
 عليكم . وأحذروا متآلف السرف، وسوء عاقبة الترف؛ فإنهما يُعْقِبَان الفقر ويُدْلَان
 الرقاب؛ ويفضحان أهلها ولا سيم الكُتَاب، وأرباب الآداب؛ وللأمور أشباه
 وبعضها دليل على بعض، فاستدلوا على مؤتلف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم؛
 ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضَحها محجة، وأصدقها حجة، وأحمدها عاقبة .

وأعلموا أن للتدبير آفةً مُتَلَفَةً — وهي الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله
 ورؤيته؛ فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته، وليؤخر في ابتدائه
 وجوابه؛ وليأخذ بِجَمَاعٍ مُحَجَّجَةٍ؛ فإن ذلك مصلحة لفعله، ومدفعة للتشاغل عن
 إكثاره . وليضرع إلى الله في صِلَاة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافة وقوعه في الغلط
 المضربيدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظاناً، أو قال قائل، إن الذي برز من
 جميل صنعته وقوة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تدييره، فقد تعرّض
 بظنه أو مقالته إلى أن يكَلِّه الله عز وجل إلى نفسه، فيصير منها إلى غير كاف،
 وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقل أحد منكم إنه أبصر بالأمور وأحمل لعبء التدبير من مُرَافِقِهِ في صناعته
 ومُصَاحِبِهِ في خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الأبواب من رمى بالعُجْب وراء
 ظهره، ورأى أن صاحبه أعقل منه وأحد في طريقته . وعلى كل واحد من الفريقين
 أن يعرف فضل نعم الله جلّ شأؤه من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثر

على أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيرته، وحمد الله واجب على الجميع : وذلك بالتواضع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدث بنعمته“ .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثل (من يلزم الصحة يلزمه العمل) وهو جوهر هذا الكتاب وغرّة كلامه، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخرًا وتممته به . تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده! فإن ذلك إليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الباب الرابع

من المقدمة

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه في الإسلام،

وتفرقه بعد ذلك في الممالك ؛ وفيه فصلان

الفصل الأول

(في التعريف بحقيقته)

لا خفاء في أنه أسمٌ مرَّكبٌ من مضاف وهو ديوان ومضاف إليه وهو الإنشاء ، أما الديوان فاسمٌ للموضع الذي يجلس فيه الكُتّاب وهو بكسر الدال . قال النحاس في صناعة الكتاب ” وفتحها خطأ“ قال : ”وأصله دِوان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان“ ويجمع على دواوين . وأختلف في أصله ، فذهب قوم إلى أنه عربي . قال النحاس : ”والمعروف في لغة العرب أن الديوان الأصل الذي يُرجع إليه ويُعمل

بما فيه“ ومنه قول ابن عباس : « إذا سألتُموني عن شَيْءٍ من غريب القرآن فالتمسود في الشَّعر فإن الشَّعر ديوانُ العَرَب ». ويقال دَوْنته أى أثبتته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلى أنه عجمي وهو قول الأَصمعيّ وعليه أقتصر الجوهريّ في صحاحه ، فقال الديوان « فارسيّ معرّب ». وقد حكى الماورديّ « في الأحكام السلطانية » في سبب تسميته بذلك وجهين :

أحدهما — أن كِسرى ذات يوم أطلع على كُتَّابِ ديوانه في مكانٍ لهم وهم يحسبون مع أنفسهم فقال « ديوانه » أى مجانين فسمي موضعهم بهذا الأسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الاستعمال تخفيفاً ، ف قيل ديوان وعليه أقتصر أبو جعفر النحاس في صناعة الكتاب .

والثاني — أن الديوان بالفارسية أسم للشياطين ، وسمي الكتاب بذلك لحِدْقهم بالأمور ووقوفهم على الجليّ منها والخفيّ .

وأما الإنشاء فقد تقدم أنه مصدر أنشأ الشيء ينشئه إذا ابتدأه وأخترعه ، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتل أمرين :

أحدهما — أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتبتدأ منه .

والثاني — أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان في الزمن المتقدم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التي تصدر عنه لأن الرسائل أكثر أنواع كتابة الإنشاء وأعمّها ، وربما قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الأسم وشهر به وأستمر عليه إلى الآن .

الفصل الثاني

(في أصل وضعه في الإسلام وتفترقه عنه بعد ذلك في الممالك)

اعلم أن هذا الديوان أول ديوان وضع في الإسلام؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب أمراءه، وأصحاب سراياه من الصحابة؛ رضوان الله عليهم! ويكتبونه. وكتب إلى من قرب من ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام؛ وبعث إليهم رُسُلَه بكتبه: فبعث عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة، وعبد الله بن حذافة إلى كسرى أبرويز ملك الفرس، ودحية الكلبي إلى هرقل ملك الروم، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر، وسليط بن عمرو إلى هوزة بن علي ملك اليمامة، والعلاء بن الحضرمي إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين إلى غير ذلك من المكاتبات. وكتب لعمرو بن حزم عهداً حين وجهه إلى اليمن. وكتب لتميم الداري وإخوته بإقطاع بالشام. وكتب كتاب القضية بعقد الهدنة بينه وبين قريش عام الحديبية. وكتب الأمانات أحياناً. إلى غير ذلك مما يأتي ذكره في الاستشهاد به في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه المكتوبات كلها متعلقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش، فإن أول من وضعه وربته أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته.

على أن الفضايح قد ذكر في تاريخه "عيون المعارف". وفنون أخبار الخلائف "أن الزبير بن العوام، وجهيم بن الصلت كانا يكتبان للنبي صلى الله عليه وسلم أموال الصدقات، وأن حذيفة بن اليمان كان يكتب له حرص النخل، وأن المغيرة بن شعبة والحصين بن نمير كانا يكتبان المداينات والمعاملات. فإن صح ذلك فتكون هذه الدواوين أيضاً قد وضعت في زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أنها ليست في الشهرة وتواتر الكتابة في زمانه صلى الله عليه وسلم: كما تقدم من متعلقات كتابة الإنشاء.

وقد رأيت في سيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبي صلى الله عليه وسلم نيفٌ وثلاثون كاتباً : أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعامر بن فهيرة، وخالد بن سعيد بن العاص بن أمية، وأبان أخوه، وسعيد أخوهما، وعبد الله بن الأرقم الزهري، وحنظلة بن الربيع الأسدي، وأبي بن كعب، وثابت بن قيس بن شماس، وزيد بن ثابت، وشريحيل بن حسنة، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة، وعبد الله بن زيد، وجهم بن الصلت، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، والعلاء بن الحضرمي، وعمرو بن العاص، وعبد الله بن رباح، ومحمد بن مسلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أبي، ومعيقب بن أبي فاطمة، وطلحة بن زيد بن أبي سفيان، والأرقم بن الأرقم الزهري، والعلاء بن عتبة، وأبو أيوب الأنصاري، وبريدة بن الحصيب، والحصين بن نمير، وأبو سلمة المخزومي، وحويطب بن عبد العزى، وأبو سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وكان ألزمهم له في الكتابة معاوية بن أبي سفيان، وزيد بن ثابت .

وكتب لأبي بكر عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت، وعثمان هو الذي كتب عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالخلافة عن أبي بكر رضوان الله عليه كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضي الله عنه زيد بن ثابت، وعبد الله بن خلف .

وكتب لعثمان رضي الله عنه مروان بن الحكم .

وكتب لعلي عبد الله بن أبي رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسعيد ابن نجران الهمداني .

وكتب للحسن بن علي رضي الله عنهما عبد الله بن أبي رافع كاتب أبيه .
ثم كانت دولة بني أمية فتوالت خلفاؤهم من معاوية بن أبي سفيان فبن بعده ،
وأمر ديوان الإنشاء في زمن كل أحد مفوض إلى كاتب يُقيمه إلى حين آنقراض
دولتهم . وكان الخليفة هو الذي يوقع على القصص ويُحدّثها بنفسه ، والكاتب يكتب
ما يبرز إليه من توقيعه ويصرفه بقلمه على حكمه . وكان ممن اشتهر من كتّابهم بالبلاغة
وقوة الملكة في الكتابة حتى سار ذكره في الآفاق ، وصار يُضرب به المثل على ممتز
الأزمان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد آخر خلفائهم .

فلما بزغت شمس الخلافة العباسية بالعراق وولي الخلافة أبو العباس السّفاح
أول خلفاء بني العباس ، أستوزر أبا سلمة الخلال . وهو أول من لُقّب بالوزارة
في الإسلام على ما سيأتي ، وتوالت الوزراء بعده لخلفاء بني العباس من يومئذ .
وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلى الوزارة ، فيكون الوزير هو الذي ينفذ أموره
بقلمه ، ويتولى أحواله بنفسه ؛ وتارة يُفرد عنه بكاتب ينظر في أمره ، ويكون الوزير
هو الذي ينفذ أموره بكلامه ، ويصرفها بتوقيعه على القصص ونحوها ؛ وصاحب
ديوان الإنشاء يعتمد ما يرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشي على ما يلقي إليه من
توقيعه ؛ وربما وقع الخليفة بنفسه حتى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبني
سلجوق وغيرهم على الأمر والأمر على ذلك تارة وتارة إلى آنقراض الخلافة من بغداد .

وكان ممن اشتهر من وزراءهم بالبلاغة حتى صار يضرب به المثل يحيى بن خالد
وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون ، وأبن المقفّع
مترجم كتاب "كليلة ودمنة" ، وسهل بن هرون الذي ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل
أبن العميد ، والصاحب كافي الكفّاة إسماعيل بن عبّاد ، وأبو إسحاق الصابى في جماعة
آخرين منهم .

ثم لما انقرضت الخلافة من بغداد في وقعة هولاكو ملك التتار في سنة (ست وخمسين وستائة) وأستولت المغل والأعاجم على بغداد ، بطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يُكْتَب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية ، والأمر على ذلك إلى زماننا على ماسياتى بيانه في الكلام على دواوين الأمصار في المكاتب والولايات وغيرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت بلاد الغرب والأندلس بأيدي نواب الخلفاء من حين الفتح الإسلامي في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ولا عناية لهم بديوان الإنشاء للتقرب من البداوة ، وغايته المكاتب إلى ديوان الخلافة ونحو ذلك ، فلما غلب بنو العباس على الخلافة هرب طائفة من بني أمية إلى بلاد المغرب ، وجازت البحر إلى الأندلس فآترعوه من التواب الذين كانوا به وملكوه ، وصاروا ينصبون فيه خليفة بعد خليفة ، جارين على سنن ما كانوا عليه بالشام من ألقاب الخلافة ، مضاهين خلافة بني العباس ببغداد : من إقامة شعار الخلافة ، واتخاذ ديوان الإنشاء ، وأستخدام بلغاء الكُتاب وتعدت دولتهم إلى بر العُدوة من بلاد المغرب فحكوه . ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا باستيلاء المستولين المستبدين عليهم بالأمر إلى أن انقرضت دولتهم من الأندلس وبلاد المغرب ، وأستولت عليهما طوائف من الملوك وتقلت بهم الأحوال في أستيلاء الملوك على كل ناحية منهما ، وتتابعت الدول في كل حين كلما خبت دولة نجت أخرى على ما سياتى ذكره في مكاتب ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحضارة والبداوة ، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعناية لهم بكتابة الإنشاء ، وإذا أستحضرت الدولة صرفت آهتمامها إلى ديوان الإنشاء وترتيبه إلى أن استقر ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعته الفرج منه بأيدي بني الأحمر ، والغرب الأقصى بيد بني مرين ،

والغرب الأوسط بيد بنى عبد الواد، وإفريقية بيد بقايا الموحدين من أتباع المهدي
 ابن تومرت، وداخلتهم الحضارة، فأخذوا في ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك،
 ومعاونة البلاغة في المكاتب ونحوها، وأستمر الحال على ذلك إلى زماننا .

ومن أشهر بالبلاغة من كُتّاب المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زيدون،
 والوزير أبو حفص بن برد الأصغر الأندلسي، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن خزم،
 والوزير أبو القاسم محمد بن الحد في جماعة أخرى من متقدمي كُتّابهم . ومن متأخريهم
 عبد المهيم كاتب السلطان أبي الحسن المريني، وأربى على كثير من المتقدمين ابن
 الخطيب وزير ابن الأحمر صاحب غرناطة من الأندلس ممن أدركه من عصرناه .

أما الديار المصرية فلدواوين الإنشاء بها خمس حالات :

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه من حين الفتح وإلى بداية الدولة
 الطولونية، ونواب الخلفاء تتوالى عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةً بديوان
 الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه : للاقتصار على المكاتب لأبواب الخلافة، والزر
 اليسير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدر عنهم ما يُدَوّن في الكتب ولا
 يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية من ابتداء ولاية
 أحمد بن طولون، وأستفحال ملك الديار المصرية في الإسلام، وترتيب أمرها، وإلى
 حين آقراض الدولة الاخشيدية، وفي خلال ذلك ترتب ديوان الإنشاء بها، وانتظم
 أمر المكاتب والولايات، وكان ممن أشهر من كُتّابهم بالبلاغة وحسن الكتابة،
 أبو جعفر محمد بن أحمد بن مؤدود بن عبد : كان كاتب أحمد بن طولون، وكان
 مبدأ الكُتّاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمارويه بن أحمد بن طولون إسحق بن
 نصر العبادي النصراني، وتوالى الكُتّاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة - ما كان الأمر عليه من ابتداء الدولة الفاطمية وإلى انقراضها .
ولما ولي الفاطميون الديار المصرية ، صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء
وكتابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء عنهم جماعة
من أفاضل الكُتّاب وبلغائهم : ما بين مسلم وذمى ؛ فكتب للعزير بالله ابن المعز
أبو المنصور بن سوردين النصراني ، ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ،
فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر البهزكي ، ثم كتب بعده لابنه الظاهر . وكتب
للسنصر القاضي ولي الدين بن خيران ، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل أنتقاله
إلى الوزارة ، وأبو سعيد العميدى . وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن
على بن أبي أسامة الحلبي إلى أن توفى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة . فكتب بعده
ولده الأجل أبو المكارم إلى أن توفى في أيام الحافظ ؛ وكان يكتب بين يديهما الشيخ
الأمين تاج الرأسة أبو القاسم على بن سليمان بن منجد البصرى المعروف بابن
الصيرفى ، والقاضى كافى الكفامة محمود ابن القاضى الموفق أسعد بن قادوس ، وابن
أبى الدم اليهودى . ثم كتب بهد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدم ذكره
القاضى الموفق ابن الخلال أيام الحافظ ، وإلى آخر أيام العاضد ؛ وبه تخرج القاضى
الفاضل البيسانى . ثم شرك العاضد مع الموفق ابن الخلال فى ديوان الإنشاء القاضى
جلال الملك محمود بن الأنصارى وكان فى أيامه القاضى المؤتمن كاسيويه . ثم كتب
القاضى الفاضل بين يدى الموفق ابن الخلال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة
فى وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة
سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم .

الحالة الرابعة - ما كان الأمر عليه من ابتداء دولة بنى أيوب إلى آخر

انقراضها .

قد تقدم أن القاضي الفاضل رحمه الله كان قد كتب بين يدي الموفق ابن الخلال في وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين، فلما استقل السلطان صلاح الدين المذكور بالملك وخطب لبني العباس على ما تقدم في الكلام على ملوك مصر، ففوض إلى الفاضل الوزارة وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا، وأقام على ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فكتب بعده لابنه العزيز وأخيه العادل أبي بكر. ثم مات، وكتب للكامل بن العادل القاضي أمين الدين سليمان المعروف بكاتب الدرّج إلى أن توفي، فكتب بعده للكامل الشيخ أمين الدين عبد المحسن الحلبي مدة قليلة، وتوالت كتاب الإنشاء في الولاية إلى أن ولي الملك الصالح نجم الدين أيوب فوئى ديوان الإنشاء للصاحب بهاء الدين زهيراً. ثم صرفه وولى بعده الصاحب نحر الدين إبراهيم بن لقمان الإسعدي، فبقى إلى انقراض الدولة الأيوبية.

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه في الدولة التركية مما هو مستقر إلى الآن .
قد تقدم أن الصاحب نحر الدين بن لقمان بقى في ديوان الإنشاء إلى آخر الدولة الأيوبية .

ولما صارت المملكة إلى الدولة التركية، بقى في صحابة ديوان الإنشاء أيام أيك التركمانى، ثم أيام المظفر قطز، ثم أيام الظاهر بيبرس، ثم أيام المنصور قلاوون . فباشر ديوان الإنشاء في أيامه مدة، ثم نقله إلى الوزارة، وولى مكانه بديوان الإنشاء القاضي فتح الدين بن القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر في حياة والده، فبقى حتى توفي المنصور قلاوون، وأستقر بعده ابنه الأشرف خليل، وأستمرّ عنده في كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معه إلى الشام، فمات بالشام فوئى الأشرف مكانه القاضي تاج الدين أحمد بن الأثير، وقفل السلطان راجعا إلى مصر، فمات

القاضي تاج الدين في أثناء الطريق بمضى شهر من ولايته ، فوثى مكانه القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيام أخيه الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الأولى ، وأيام العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاجين ، وأيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثانية ، وأيام مظفر بيبرس الجاشنكير ، وبرهة من أيام الناصر محمد بن قلاوون في سلطته الثالثة .

ثم نقله إلى كتابة السرّ بدمشق المحروسة عوضاً عن أخيه القاضي محيي الدين بن فضل الله ، ووثى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعده منه حين كان معه في الكرك ، وبقي حتى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فأستدعى الملك الناصر القاضي محيي الدين بن فضل الله من الشام ، فولّاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية في المحرم سنة تسع وعشرين وسبعائة .

وكان ولده القاضي شهاب الدين هو الذي يقرأ البريد على السلطان وينفذ المهمات إلى سنة اثنتين وثلاثين وسبعائة فأعادهما الملك الناصر إلى دمشق ، ووثى مكانهما القاضي شرف الدين بن الشهاب محمود في شعبان من السنة المذكورة ، فبقي حتى حجّ السلطان وعاد إلى مصر ، فأعاد القاضي محيي الدين ولده القاضي شهاب الدين إلى ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلى سنة ثمان وثلاثين وسبعائة .

وفي أواخر ذلك تغير السلطان على القاضي شهاب الدين المذكور وصرّفه عن المباشرة وأقام أخاه القاضي علاء الدين مكانه يباشر مع والده ، وبقي الأمر على ذلك مدة لطيفة .

ثم سأل القاضي محيي الدين السلطان في العود إلى دمشق ، وقد كبرت سنه وضعفت حركته ، فأعاده وصحبته ولده القاضي شهاب الدين وكتب له تقليد في قطع

الثَّلاثين : بأن يستمر على صحابة دواوين الإنشاء بالملك الإسلامية ، وأن يكون جميع المباشرين لهذه الوظيفة بالبواب الشريف فمن دونه نُوبه ، وأنه حيث حلَّ يقرأ القِصص والمظالم ، ويقرر الولايات والعزل والرواتب وغير ذلك ، ويوقع فيها بما يراه ، ويُجهز إلى مصر ليعلّم عليها العلامة الشريفة ؛ وفوض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضي علاء الدين استقلالاً ، وتجهز القاضي محي الدين للسفر ، فمضى ومات بعد أيام قلائل في شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعائة بالقاهرة . ثم نُقل إلى دمشق سنة تسع ، وبقي ولده القاضي علاء الدين فبقي في الوظيفة بقية أيام الملك الناصر ، ثم أيام ولده المنصور أبي بكر ، ثم أخيه الأشرف بكك ، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خلع الناصر أحمد نفسه في سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلى الكرك ، توجه القاضي علاء الدين معه ، فأقام عنده ؛ وأستقرّ الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون في السلطنة بعد أخيه أحمد ، فمقرّر في ديوان الإنشاء القاضي بدر الدين محمد بن محي الدين بن فضل الله ، فبقي في الوظيفة إلى أن عاد أخوه القاضي علاء الدين من الكرك ، فأعيد إلى منصبه ، وبقي بقية أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيام أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفر حاجي ، ثم أيام أخيه الناصر حسن في سلطته الأولى ، ثم أيام أخيه الصالح صالح ، ثم أيام الناصر حسن ثانياً ، ثم أيام المنصور محمد بن حاجي بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون فتوفي ؛ وولي الوظيفة بعده ولده القاضي بدر الدين محمد ، فبقي بقية أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور علي ، ثم أيام أخيه الصالح حاجي بن شعبان إلى أن خلع ؛ وجاءت الدولة الظاهرية برقوق فقترّر في ديوان الإنشاء القاضي أوحد الدين عبد الواحد بن التركماني ، فبقي حتى توفي فأعيد القاضي بدر الدين

المذكور وبقي حتى خلع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجي بن الأشرف شعبان إلى السلطنة وهو مستمرّ المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكرك حضر معه القاضي علاء الدين عليّ الكركي ، فولاه كتابة السرّ وبقي حتى توجه صحبة السلطان إلى الشام في طلب منطاش ، فمات القاضي علاء الدين ، وكان القاضي بدر الدين صحبته فأعيد إلى الوظيفة في سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد مولى صحبة الركاب الشريف السلطاني . ثم توجه صحبته إلى الشام عند وصول تمر لبغداد ، فمرض ومات هناك ، فوئى الظاهر مكانه القاضي بدر الدين محمود السراي الكستاني في شوال سنة ست وتسعين وسبعمائة ، وحضر صحبة الركاب الشريف إلى الديار المصرية ، فبقي حتى توفى في جمادى الأولى سنة إحدى وثمانمائة ، فوئى الظاهر مكانه المقرّ العالی الفتحي فتحّ الله ، ففتح الله به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مغلقا ، وأصغى به من ورده ما كان مكذرا .

وأنقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلى ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم على عادة أبيه . ثم صرفه عن الوظيفة في شهور سنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه في الوظيفة المقرّ السعدى إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله في وظائف الديار المصرية والمشار إليه . وأقام بها مدة لطيفة ، وعادت إلى المقرّ الفتحي فتحّ الله المشار إليه ، وقيل : ﴿ هَذِهِ بَصَاعَتَنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ جفرا فيما على الأسلوب الأول والمهيج السابق : من العدل والإنصاف ، والإحسان إلى الخلق ، وإيصال البرّ إلى مستحقه ، والمساعدة في الله لمن عرف ومن لم يعرف ؛ والله هو المكفى لعباده على جميل الصنع !

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَمْ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ * لَنْ يَذْهَبَ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

الباب الخامس

من المقدمة

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأول

(في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله

ولقبه الجارى عليه في القديم والحديث)

أما رفعة محله وشرف قدره، فأرفع محل وأشرف قدر؛ يكاد أن لا يكون عند الملك أخض منه ولا أزم مجالسته؛ ولم يزل صاحب هذا الديوان معظماً عند الملوك في كل زمن، مقدماً لديهم على من عداه: يُلَقَّون إليه أسرارهم، ويخصونه بخفايا أمورهم، ويُطلعونه على ما لم يطلع عليه أخص الأخصاء: من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبة هذا محلها!

قال صاحب مواد البيان "ليس في منزلة خدام السلطان والمتصرفين في مهماته أخض من كاتب الرسائل. فإنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه، ولا غنى له عن مفاوضته في آرائه، والإفضاء إليه بمهماته، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصته ثمته به، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب ركونه إليه، ومحلّه منه في عائدة خدمته وأثرة دولته محلّ قلبه الذي يؤامره في مشكل رأيه حتى يتفحّ، ويراجعه في مهمّ تديره حتى يتضح؛ ولسانه الذي يقرر بتربيته أولياءه على الطاعة والموافقة، ويستقر بتربيته عن المعصية والمشاققة، ويقرب بأوامره

(١) كذا في الأصل ولعله مصحف عن بفر. أو يستقر كما يقتضيه المقام

ونواهيه أمور سلطانه، ويُتْرَافُ منازلها في متمدّد مجالسها، ويتمكّن من سياسة أجناده، وعمارة بلاده، ومصالحة رعيته، وأجتلاب مودّتهم، وأستخلاص نيّاتهم؛ وعينه التي تلاحظ أحوال سلطانه، ويُرْعِيها مهمات شأنه؛ وأذنه التي يثق بما وَعَنه، ولا يرتاب بما سمعته؛ ويده التي يبسطها بالإنعام، ويبطشُ بها في النقض والإبرام .

قال : ومن كانت هذه رتبته فالسبب الذي رتبّه فيها أفضل الأسباب، وأجدرها بالتقديم على الاستحقاق والاستيجاب .

قال ابن الطوير في ترتيب الدولة الفاطمية ” وكان هذا المنصب لا يتولّاه في الدولة الفاطمية إلا أجلُّ كتاب البلاغة، ويُخاطَب بالأجلّ، وإليه تسلّم المكتّبة واردة مختمة فيعرضها على الخليفة من يده؛ وهو الذي يأمر بتزليلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالي؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره “ . قال ” وهو أوّل أرباب الإقطاعات في الكسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله في مجلسه المرتبة العظيمة والمخّاذ والمُسند، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دواته أستاذ من خواص الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة “ .

قلت : ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة، ومحلّه أعظم محل؛ إليه تلقى أسرار المملكة وخفّاياها، وبرأيه يُستضاء في مشكلاتها، وعلى تديره يعول في مهماتها، وإليه تردّ المكتّبات، وعنه تصدر؛ ومن ديوانه تُكْتَب الولايات السلطانية كافّة، ويقوم توقيعُه على القِصص في نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان؛ وجميع ما يعلم عليه السلطان من جليل وحقير في مزرتّه حتّى ما يُكْتَب من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكْتَب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرهما من المرّبعات ونحوها . وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرُّض لأخذ علامة سلطانية البتة، وناهيك بذلك رفعةً وشرفاً باذخاً .

وأما لقبه الجارى عليه فى كل زمن فقد تقدم أنهم كانوا فى زمن بنى أمية وما قبله يعبرون عنه بالكاتب، لا يعرفون غير ذلك كما أشار اليه القضاعى فى "عيون المعارف". فلما جاءت الدولة العباسية، وأستقر السَّفاح أول خلفائهم فى الخلافة، لُقّب كاتبه أبا سلمة الخلال بالوزارة وترك اسم الكاتب؛ وأستقر لقب الوزارة على من يليها من أرباب السيوف والأفلام إلى انقراض الخلافة من بغداد . وتقدم أيضا أن هذا الديوان كان تارة يضاف إلى الوزارة فيكون الوزير هو الذى يباشره بنفسه أو يفوضه إلى من يتحدث فيه عنه، وتارة ينفرد عنها، فحيت أنفرد عن الوزارة لُقّب متوليه بما يتضمن إضافته إلى صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان فى ذلك الزمن .

فحيت كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل، كما كان فى الزمن الأول، لُقّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولّى ديوان الرسائل، وربما قيل صاحب ديوان المكاتب، أو متولّى ديوان المكاتب، وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الإنشاء كما فى زماننا بالديار المصرية لُقّب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء . وربما جمعوا لفظ الديوان تعظيما لمتوليه، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية . وعلى هذا مصطلح كُتاب الديوان فى زماننا فى تعريفه فيما يكتب له من تقليد أو غيره؛ على أنه لو قيل ناظر دواوين الإنشاء لكان أعلى فى الرتبة لما أشتهر فى العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلى من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير : "وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطمية بالديار المصرية كاتب

قلت : وأتتهى الأمر إلى أوائل الدولة التركية والحال في ذلك مختلف ، فتارة يلى الديوان كاتبٌ واحد يعبر عنه بكاتب الدَّست ، وربما عُبِّر عنه بكاتب الدَّرَج ، وتارة يليه جماعةٌ يعبر عنهم بِكُتَّاب الدَّست . ويقال إنهم كانوا في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر، أرفعهم درجةً القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر . وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولى الديوانَ القاضي فُحَّحُ الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون على ما تقدّم ذكره ، فلقَّب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدَّست إلى طبقة دُونَه من كُتَّاب الديوان . واستمر ذلك لقباً على كل من ولى الديوان إلى زماننا على ما سيأتى ذكره . ويضاهيه في ذلك من العُرف العام متولى ديوان الإنشاء بدمشق ، وبحلب ، وبطرابلس ، وبجماه ، وبصَفد؛ إلا أنه لا يقال في واحد منهم في مصطلح الديوان صاحب دواوين الإنشاء كما يقال في متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية؛ بل يقال في متولى ديوان دمشق صاحب ديوان الإنشاء بالشام ، وفي متولى ديوان حَلَب صاحب ديوان المكتَّبات بحلب ، وكذا في الباقيات . أما غزّة ، والكرك ، والإسكندرية وغيرها من النيابات الصَّغار فإنما يقال في متولى شئ من دواوينها كاتب درَج ولا يطلق عليه كاتب سرّ بوجه .

وأعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السَّرِّم فيقولون كاتب السر، وهو صحيح المعنى؛ إما لأنه يكتم سرّ الملك ، أو من باب إبدال الباء بالميم على لغة ربيعة وإن كانوا لا يعرفون الثانى .

الفصل الثانى

(في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه)

قال أبو الفضل الصورى في مقدمة تذكرته : ” يجب أن يكون صبيح الوجه ، فصيح الألفاظ ، طلق اللسان ، أصيلاً في قومه ، رفيحاً في حيّه ، وقوراً ، حلماً

مؤثراً للجد على الهزل، كثير الأناة والرفق، قليل العجلة والخرق، نزر الضحك، مهيب المجلس، ساكن الظل، وقور النادى، شديد الذكاء، متوقد الفهم، حسن الكلام إذا حدث، حسن الإصغاء إذا حدث، سريع الرضا، بطيء الغضب، رؤوفا بأهل الدين، ساعيا في مصالحهم، محباً لأهل العلم والأدب، راغبا في فمهم، وأن يكون محبا للشغل أكثر من محبته للفراغ، مقسماً للزمان على أشغاله : يجعل لكل منها جزءا منه حتى يستوعبه في جميع أقسامها، ملازما لمجلس الملك إذا كان جالسا، وملازما للديوان إذا لم يكن الملك جالسا : ليتأشى به سائر كتاب الديوان، ولا يجحدوا رخصة في الغيبة عن ديوانهم ؛ وأن يغلب هوى الملك على هواه ورضاه على رضاه — مالم ير في ذلك خلا على الملكة، فإنه يجب أن يهدى النصيحة فيها للملك من غير أن يوجد فيهما تقدم من رأيه فسادا أو نقصا، لكن يتحيل لتقص ذلك وتهجينه في نفسه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأنُّ وأفضل تطف؛ وأن يتحلَّ الملك صائب الآراء ولا ينتحلها عليه ؛ ومهما حدث من الملك : من رأي صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه ونغمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمده عليه وشكره . وإذا قال الملك قولاً في مجلسه أو بحضور جماعة ممن يخدمه فلم يره موافقا للصواب، فلا يجبهه بالرد عليه واستهجان ما أتى به — فان ذلك خطأ كبير؛ بل يصبر الى حين الخلو، ويدخل في أثناء كلامه ما يوضح به نهج الصواب من غير تلقُّ برد، ولا يتبجح بما عنده، ويكون مائبا للملك على أخلاقه الفاضلة، وطباعه الشريفة : من بسط المعدلة ومد رواق الأمانة، ونشر جناح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وجبر الكسير، والإنعام على المعتبر المستحق، والتوفُّر على الصدقات، وعمارة بيوت الله تعالى، وصرف الهمم الى مصالحها، والنظر في أحوال الفقهاء، وحملة كتاب الله العزيز بما يصلح، والاتفات الى عمارة البلاد، وجهاد الأعداء،

ونشر الهيبة، وإقامة الحدود في مواضعها، وتعظيم الشريعة، والعمل بأحكامها .
فيكون لجميع ذلك مؤكّداً ، ولأفعاله فيه موطّداً ممهداً . وإن أحسّ منه بحجّة تُناقى
هذه الخلال، أو فعلةٍ تخالف هذه الأفعال، نقله عنها بأطف سعى وأحسن تدرّيج،
ولا يدعُ ممكناً في تبين قُبْحها، وإصلاح رداءة عاقبتها، وفضيلة مخالفتها إلا بينه
وأوضحه الى أن يعيده إلى الفضائل التي هي بالملك النبلاء أليقُ، وأن يكون مع
ذلك بأعلى مكانة من اليقظة والاستدلال بقليل القول على كثيره، وبيعض الشيء
على جميعه، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء، بل الرمز والإيحاء: لينبه الملك
على الأمور من أوائلها، ويعترفه خواتم الأشياء من مُفتَحاتها، ويحدّده حين تبدوله
لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل— كما حكى عن خالد بن برمك:
”أنه كان مع قُطْبَةِ في معسكر، جالسين في خيمة إذ نظر خالد إلى سِرْب من الطباء
قد أتى حتّى كاذ يخالط العسكر، فأشار على قُطْبَةِ بالركوب فسأله عن السبب،
فقال الأمر أعجل أن أئين سببه . فركب وأركب العسكر، فلم يستتموا الركوب إلا
والعدو قد دهمهم، وقد استعدّوا له فكانت النُصرة لهم على العدو . فلما أُنقضى
الحربُ سأل قُطْبَةُ خالداً من أين أدرك ذلك؟ فقال: رأيت الطباء وقد أقبلت حتّى
خالطت العسكر، فعرفتُ أنها لم تفعل ذلك مع نُفورها من الإنس إلا لأمر عظيم
قد دهمها من ورائها“ . وأن لا يكتب عن الملك إلا ما يقيم مَنار دولته ويعظّمها،
ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها، ولا يكتب ما يكون فيه عيب على المملكة:
ولا ذم لها على غابر الأيام، ومستأنف الأحقاب؛ وإن أمر بشيء يخرج عن ذلك،
تلطّف في المراجعة بسببه، وبين وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به الى الواجب .
وأن يكون من كتمان السر بالمنزلة التي لا يُدانيه فيها أحد، ولا يقاربه فيها بشر، حتّى
يقرّر في نفسه إمامة كل حديث يعلمه، ويتناسى كلّ خبر يسمعه . وأن لا يُطلع والدا

ولا ولدا؛ ولا أبا شقيقا، ولا صديقا صدوقا، على ما دقَّ أو جلَّ؛ ولا يعلمه بما كُتِر منه ولا قلَّ؛ ويتوهم بل يتحقق أن في إذاعته ما يعلم به وُضِعَ منزلته وحطَّ رتبته، ويجتهد في أن يصير له ذلك طَبْعاً مرَّجاً وأمرأ ضرورياً .

قلت : وهذه الصفة هي الشرط اللازم، والواجب المحتم : بها شهر، وبالإضافة إليها عُرِف . وقد قال المأمون وهو من أعلى الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علماً : "الملوك تحتمل كلَّ شيء إلا ثلاثة أشياء : القُدْح في الملك، وإفشاء السرِّ، والتعرُّض للحرم" .

ومن كلام بعض الحكماء : "سرك من دمك" قال صاحب العقد : يعنون أنه ربَّما كان في إفشاء سرك سَفْكُ دمك . وإلى ذلك يشير أبو مَحَجَّنَ الثقفى بقوله :

قد أظعن الطعنة النجلاء عن عريض * وأكتم السرَّ فيه ضربة العنق

وقال الوليد بن عتبة لأبيه : "إن أمير المؤمنين أسرَّ إلىَّ حديثاً أفلا أُخبرك به ؟ قال يا بُحَيَّ : إنَّ من كتم سرِّه كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه ؛ فلا تكن مملوكاً بعد أن كنتَ مالكا" . وقد كانت ملوك الفرس تقول "أعظمُ الناس حقاً على جميع الطبقات من ولي أسرار الملوك" .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ إِفْشَاءُ السَّرِّ بِمَا أَفْضَى إِلَى الْهَلَكَةِ خُصُوصاً أَسْرَارَ الْمُلُوكِ ، فَعَلَى صَاحِبِ هَذِهِ الْوِظِيْفَةِ الْقِيَامُ مِنْ ذَلِكَ بِوَأَجِبِهِ وَكَيْتَانُ السَّرِّ حَتَّى عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَقَدْ حَكَى صَاحِبُ "الرَّيْحَانِ وَالرَّيْعَانِ" : أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ طَاهِرٍ تَذَاكَرَ النَّاسَ فِي مَجْلِسِهِ حَفْظَ السَّرِّ ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ :

وَمُسْتَوْدِعِي سِرًّا تَضَمَّنَتْ سَرَّهُ * فَأَوْدَعْتُهُ فِي مُسْتَقَرِّ الْحَشَا قَبْرًا

فَقَالَ ابْنُهُ عِبِيدُ اللَّهِ ، وَهُوَ صَبِيٌّ :

وَمَا السَّرُّ مِنْ قَلْبِي كَتَاوٍ بِحُفْرَةٍ * لِأَنِّي أَرَى الْمَدْفُونِ يَنْتَظِرُ الْحَشْرًا
وَلِكَيْنِي أَخْفِيهِ حَتَّى كَانَتْنِي * مِنْ الدَّهْرِ يَوْمًا أَحْطَتْ بِهِ خُبْرًا

وعلى صاحب هذه الرتبة الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك بأن لا يتلقاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أن بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : " لا ينبغي للملك أن يستشير منّا أحداً إلا خالياً فإنه أصون للسر وأحزم للرأى وأجدر بالسلامة وأعنى لبعضنا من غائلة بعض ، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أو ثقت من إفشائه إلى اثنين وإفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رهن بما أفشى اليه . والثاني مُطلق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، وإذا كان السر عند واحد كان أخرى أن لا يظهره رغبةً أو رهبةً ، وإن كان عند اثنين كان على شبهة وآسعت عن الرجلين المعارض ، فإن عاقبهما عاقب اثنين بذنب واحد ، وإن آتهمها آتهم بريئاً بجنابة مجرم ، وإن عفا عنهما كان العفو عن أحدهما ولا ذنب له ، وعن الآخر ولا حجة معه " .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقى السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعاً ، ولا يخاطب فيه أحدهما بحضرة الآخر لتكون العهدة في دركه على واحد بعينه . على أنه ربما أفشى السر مع أحتراز صاحبه عن إفشائه ، فقد قيل : إن الجن تنقل الأخبار ، وتُفشى ما تطلع عليه من الأسرار . وقد حكى عن علي بن الجهم أنه قال : دخلت على أمير المؤمنين المتوكل فرأيت الفتح بن خاقان وزيره واقفاً على غير مرتبته التي يقوم عليها ، متكئاً على سيفه ، مطرقاً إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلى ، وإذا صرفت وجهي إلى نحو الخليفة أطرق ؛ فقال لي الخليفة يا علي أنكرت شيئاً ؟ - قلت نعم يا أمير المؤمنين ! - قال : ما هو ؟ - قلت : وقوف الفتح بن خاقان في غير منزلته ، - قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام ، - قلت :

(١) في الأصل أموت . وهو تصحيف ظاهر .

(٢) لعل الأظهر على .

ما السبب يا أمير المؤمنين؟ — قال: خرجت من عند جارية لي فأسررت إليه سرا
 فما عداني السر أن عاد إلى. — قلت لعلك أسررت الى غيره، — قال: ما كان
 هذا! — قلت فلعل مستمعا أستمع إليك، — قال لا ولا هذا أيضا. قال فأطرقت
 مليا ثم رفعت رأسي، فقلت: يا أمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا. —
 قال وما هو؟ — قلت: خبر أبي الجوزاء، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين قال حدثنا
 المعتمر بن سليمان عن أبي الجوزاء قال: طلقت امرأتى في نفسى وأنا بالمسجد ثم
 أنصرفت إلى منزلى، فقالت لي امرأتى: طلقتنى يا أبا الجوزاء! قلت من أين لك
 هذا؟ قالت حدثتنى به جارتى الأنصارية قلت: ومن أين لها هذا؟ قالت ذكرت
 أن زوجها خبرها بذلك قال: فغدوت على ابن عباس رضى الله عنهما فقصصت
 عليه القصة فقال: أما علمت أن سواس الرجل يحدث سواس الرجل؟ فمن
 هنا يفشو السر، فضحك المتوكل، وقال إلى يا فتح! فصب عليه خلعة، وحمله
 على فرس، وأمر له بمال، وأمر لي بدونه فانصرفت إلى منزلى، وقد شاطرنى
 الفتح فيما أخذ فصار إلى الأكثر.

قال أبو نعيم وكان في نفسى من حديث أبي الجوزاء شيء حتى حدثني حمزة
 ابن حبيب الزيات. قال: خرجت سنة أريد مكة فينا أنا في الطريق إذ ضللت
 راحلتى فخرجت أطلبها فإذا أنا بأثنين قد قبضا على أحس حسمها ولا أرى شخصهما
 بل أسمع كلامهما، فأخذانى إلى شيخ قاعد وهو حسن الشيبة فسأمت عليه فرد على
 السلام فأفوخ روعى. ثم قال من أين والى أين؟ قلت من الكوفة إلى مكة.
 قال: ولم تخلفت عن أصحابك؟ قلت ضللت راحلتى فبحثت أطلبها، فرفع رأسه
 الى قوم عنده، وقال: أينجوا راحلته، فأينجت بين يدي. ثم قال: تقرأ القرآن؟

(١) فى الأصول بالجيم وهو تصحيف. وصوابه بالحاء المعجمة يقال أفرخ روعه أى زال فزعه. أنظر القاموس.

قلت نعم . قال فافراً ، فقرأت حم الأحقاف حتى أتيت ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً
من الجن﴾ فقال مكانك ، أندري كم كانوا ، قلت لا . قال كُأ أربعة : وكنْتُ
أنا المخاطب عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت : ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾
ثم قال أتقول الشعر ؟ قلت لا . قال فترويه ؟ قلت نعم . قال هاتمه ، فأنشدته
قصيدة زهير بن أبي سلمى "أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى" فقال لمن هذه ؟ قلت لزهير بن أبي سلمى
قال الجنى ؟ قلت لا بل الإنسى . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال اتنوني بزهير
فأتى بشيخ كأنه قطعة لحم فألقى بين يديه — قال يا زهير — قال لبيك ! قال "أمن
أم أوفى" لمن هي ؟ قال لي — قال هذا حمزة الزيات يذكر أنها لزهير بن أبي سلمى ؛
قال : صدق وصدق ، قال وكيف هذا ؟ قال هو إلفي من الإنس وأنا تابعه
من الجن ، أقول الشيء فألقيه اليه في فهمه ويقول الشيء فأخذ عنه ، فأنا قائلها في الجن
وهو قائلها في الإنس . قال أبو نعيم : فصدق عندي حديث أبي الجوزاء أن وسواس
الرجل يحدث وسواس الرجل .

الفصل الثالث

(فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدييره ، ويصرفه بقلمه ،

ومتعلق ذلك اثنا عشر أمراً)

الأمر الأول

(التوقيع والتعيين)

أما التوقيع فهو الكتابة على الرقاع والقصاص بما يعتمده المكاتب من أمر الولايات
والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالملكة ، والتحدث في المظالم ؛ وهو أمر جليل ،
ومنصب حفيظ ، إذ هو سبيل الاطلاق والمنع ، والوصل والقطع ، والولاية والعزل

إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السنية . وأعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء ، فكان الخليفة هو الذى يُوقَّع فى الأمور السلطانية ، وفصل المظالم ، وغيرهما .

الأمر الثانى

(نظره فى الكُتُب الواردة عليه)

قال أبو الفضل الصورى : ” كان الواجب أن لا يقرأ الكُتُب الواردة على الملك إلا هو بنفسه ؛ ولما كان ذلك متعذرا عليه لوفورها ، وآتساع الدولة ، وكثرة المكاتبين من أصناف أرباب الخدم ، ووصول الكُتُب إليه من الأقطار النائية ، والممالك المتباعدة ، وضيق الزمان عن تفرغه لذلك ، وجب تفويضه إلى متولى ديوان رسائله .“
قال : ” ولما كان حال متولى صاحب الديوان كذلك لأشغاله بالحضور عند الملك فى بعض الأوقات لقراءة الكُتُب الواردة ، وتقرير ما يجاب به عن كل منها ، مع شغله بتصفُّح ما يكتب فى الديوان والمقابلة به ، احتاج أن يرد أمرها إلى كاتب يقوم مقامه“
على ما سيذكر فى صفات كُتَّاب الديوان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نظره فيما يتعلق برده الأجوبة عن الكُتُب الواردة على لسانه)

قال أبو الفضل الصورى : ” ومن أهم ما يلزم صاحب هذا الديوان إشعار الملك ما يراه من الآراء الصائبة ويعلمه أن من أعظمها خطرا أن يُصدَّر جواب كل كتاب يصل إليه فى يومه ولا يؤخره إلى غده ويؤرخ فى آخره بتاريخ ذلك اليوم“
فيقال : ” وكُتِب فى يوم وصول كتابك ، وهو يوم كذا“
فإن ذلك يقيم للملك هبة كبيرة ، ويدل

على تطلّعه للأُمور، وانتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأُمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شُؤونها، ويؤثّر في نفس المكاتبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حدّرا وخيفة“.

قال : ”ووينبغي أن يأخذ جميع أرباب الخدم في البلاد بتاريخ كتبهم ويحدّثهم من ترك ذلك؛ فإن في إهماله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرّخ لم يعلم بعدّ العهد بما ذكر فيه من قُربه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمّنه أم لا؛ وإذا كان مؤرّخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل إليه كتاب اقتضى تاريخه زيادة زمن على مسافة الطريق، أنكر ذلك على حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجّة على أنه لم يتأخّر به قدرا زائدا على مسافة طريقه، وأن العذر من تقدّم التاريخ قبل إرساله، أنكر ذلك على مرسله إنكارا يردّعه عن ذلك ويزجره عنه .

الأمر الرابع

(نظره فيما تفتاوت به المراتب في المكاتب والولايات : من الأفتتاح

والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب في الزمن المتقدم في غاية الضبط والتحرير، خصوصا في زمن الخلفاء من بنى العباس والفاطميين؛ لا يُزاد أحد في الألقاب على ما لقبه به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها. أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلى نظر صاحب ديوان الإنشاء ينزل كل أحد من المكاتبين وأرباب الولايات منزلة على ما يقتضيه مصطلح الزمان من علو وهبوط؛ وحينئذ فعليه أن يحتاط في ذلك ويؤاخذ كتاب الإنشاء بالمشاحة فيه، والوقوف عند ما حدّ لهم من غير إفراط ولا تفريط. فقد قال صاحب موادّ البيان : ”إن الملوك تسمّح ببدرات المال، ولا تسمّح بالدعوة الواحدة“ وناهيك بذلك تشديدا واحتياطاً .

الأمر الخامس

(نظره فيما يكتب من ديوانه وتصفحه قبل إخراجِه من الديوان)

قال أبو الفضل الصموري : " على متولى الديوان أن يتصفح ما يكتب من ديوانه من الولايات والمناشير والمكتبات ؛ إذ الكاتب غير معصوم من الخطأ واللحن وسبق القلم ؛ وعيب الإنسان يظهر منه لغيره مالا يظهر له ، فما أبصره من لحن أو خطأ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحذر من مثله فيما يستأنفه ، فإن تكرر منه زجره عن ذلك ، وردعه عن العود إلى مثله ؛ إذ الغرض الأعظم أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأ ولفظاً ومعنى وإعراباً حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً ، فربما زلَّ الكاتب في شيء فيزل بسببه متولى الديوان . بل السلطان . بل الدولة بأسرها . قال : فإذا فرغ من عرض الكتاب والوقوف عليه ، كتب عليه بخطه ما يدل على وقوفه عليه ليكون ملزماً بذكره " .

وكانه يشير إلى ما تقدم من كلامه : من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه ؛ وإن كان منشوراً ونحوه ، كتب تاريخه بخطه .

ثم قال : " فإن كان متولى الديوان مشغلاً بحضور مجلس السلطان ومخاطباته والتلقُّ عنه ، ولا يمكنه مع ضيق الزمان توفية كل ما يكتب بالديوان حق النظر فيه وتصفح ألفاظه ومعانيه ، نصب له في ذلك نائباً كامل الصنعة حسن الفطنة موثقاً به فيما يأتي ويذكر ، يقوم مقامه في ذلك " . قال : " وليس ذلك لأنه يغنى عن نظر متولى الديوان ، ولكن ليتحمل عنه أكثر الكل ويصير إليه وقد قارب الصحة أو بلغها فيحصل على الراحة من تعبها ، ويصرف نظره إلى ما لعله خفى على المتصفح من دقائق المعاني وعويص المدارك ، فيقلُّ زمن النظر عليه ، ويظفر بالغرض المطلوب في أقرب وقت " .

(١) العويص بالهمزة وهو ما يعسر فهمه . وانجمامه في الأصول تصحيف .

الأمر السادس

(نظره في أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان،

وأكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه : ”وليتك حجابي وعزيتك عن أربع : هذا المنادي إلى الله في الصلاة والفلاح فلا توجّهني عنى ، ولا سلطان لك عليه ؛ وصاحب الطعام ، فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد ؛ وطارق الليل فلا تحجبه فشرّ ما جاء به ، ولو كان خيرا ما جاء في تلك الساعة ؛ ورسول الثغر ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سنة فادخله على ولو كنت في الحافي“ . وقد تقدم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يتلقى المكاتبات الواردة ويقرؤها على السلطان ويجاوب عنها ، فيجب على صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقظا لما يرد على السلطان من نواحي ممالكه وقاصيات أعماله فإنه المعتمد عليه في ذلك والمعول عليه في أمره .

وقد كان أمر البريد في الزمن المتقدم والدوادارية يومئذ أمراء صغار وأجناد معدون لصاحب ديوان الإنشاء ، تخرج رسالة السلطان على لسان بعض الدوادارية بما يرسم به لمن يركب البريد في المهمات السلطانية وغيرها ويأتى بها إلى صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته على ما تقدم في تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نحاس كل لوح منها بقدر راحة الكف أو نحوها منقوش على أحد وجهيه ألقاب السلطان ، وعلى الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . وفي رقبة شربة من حير أصفر يجعلها راكب البريد في عنقه ويرسل اللوح على صدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلى كاتب السر دفع إلى البريدي لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلى أمير اخور البريد بالإصطبل السطاني بما تبرزه الرسالة من الخيل ،

ويكتبُ اسمه في آخر الكتاب الذي يُنفذ معه بين السطور، ويختم الكتاب،
ويُسَلِّمُ إليه، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلى جهة قصده، وحمله على ما رَسِمَ
له به من خيل البريد على ما سيأتي ذكره في الكلام على كتابة أوراق الطريق،
ويترك اسمه وتاريخ سفره، والجهة التي توجه إليها، والشغل الذي توجه بسببه بدفتر
بالديوان.

فلما عظم أمر الدوادارية وأستقرت عند الدوادار كاتب من كتّاب الدست يعلق
عنه الرسالة على ما تقدم في الكلام على تعليق الرسالة، رجع أكثر الأمر في ذلك إلى
الدوادار، وصار كاتب الدست الذي يخدمه يعلق الرسالة عنه بذلك كما يعلقها عنه
في غيره على ما تقدم. فإن كان البريد إلى جهة الشام كتب في ورقة لطيفة يرسم
برسالة المقرّ المحذوم الفلاني أمير دوادار الناصري أو الظاهري مثلا أعز الله تعالى
أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلاني المرسوم له بالتوجه إلى
الجهة الفلانية، ويحمل على فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد. ثم يؤرخ.
وإن كان البريد إلى الوجه القبلي أو البحري أو غير ذلك كتب: أن يكتب ورقة
فرس بريد باسم فلان الفلاني من غير تعرض لذكر ورقة طريق، وباقي الكلام على
نحو ما تقدم، ويؤرخ ويجهز تلك الورقة صحبة البريدي إلى صاحب ديوان الإنشاء
فيخلد الورقة بديوانه عند دواداره في جملة أضياب الديوان، ويكتب له في ورقة
صغيرة أيضا ما مثاله: أميرأخور البريد المنصور، يحمل فلان الفلاني على فرس واحد
أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلى الجهة الفلانية ويؤرخ، ويدفع
إلى البريدي ليدفعها إلى أميرأخور البريد تخلد عنده، ويكتب اسم البريدي
في آخر الكتاب على ما سيأتي في أول المكاتبات إن شاء الله تعالى، ويختم الكتاب
ويدفع إليه.

قلت : وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت ، وصار كل بريدي عنده سُرابة حرير صفراء يجعلها في عنقه من غير لوح . اللهم إلا أن يتوجه البريدي إلى مملكة من الممالك النائية ، فيحتاج إلى اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة . وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلى الأبواب السلطانية من نيابة من نيابات المملكة في ورقة الطريق وخيل البريد . ولصاحب ديوان الإنشاء التنبه على مصالح مراكز خيل البريد في الديار المصرية وغيرها .

وسأتي الكلام على مراكز البريد بمصر والشام ، مفصلة في موضعها إن شاء الله تعالى .
وأعلم أنه يجب على الناظر في أمر البريد : من الملك فمن دونه أن يحتاط فيمن يرسله في الأمور السلطانية ، فيوجه في كل قضية من يقوم بكفائها وينهض بأعبائها ، ويختص الملوكة وأكابر النواب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التجارب منهم ، خصوصا في المهمات العظيمة التي يحتاج الرسول فيها إلى تميم الكلام ، وتحسين العبارة ، وسماع شبهة المرسل إليه ، ورد جوابه واقامة الحجج عليه ، فإنه يقال : يُستدل على عقل الرجل بكتابه وبرسوله . وقد قيل : من الحق على رسول الملك أن يكون صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ولين وأستحكام منعة ؛ وأن يكون بصيرا بخارج الكلام وأجوبته ، مؤديا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صدوقا بريئا من الطمع . وعلى مرسله امتحانه قبل توجيهه في مقاصده ؛ ولا يرسل إلى الملوكة الأجانب ، إلا من آخبره بتكرير الرسائل إلى نوابه وأهل مملكته . فقد كان الملوكة فيما سلف من الزمن إذا آثروا إرسال شخص لمهم ، قدموا امتحانه بإرساله إلى بعض خواص الملك ممن في قرار داره ، في شيء من مهماته ، ثم يجعل عليه عينا فيما يرسل به من حيث لا يشعر ، فإذا أدى الرسول رسالته رجع بجوابها وسأل الملك عينه ، فإن

(١) في الأصل ويرد وهو تصحيف ظاهر .

طابق ما قاله الرسول ما أتى به من هو عين عليه وتكرر ذلك منه ، صارت له الميزة
والتقدمة عند الملك ووجهه حينئذ في مهمات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخر ملوك الفرس يقول : ”حق على الملك الحازم إذا وجهه
رسولا إلى ملك أن يرده بأخر ، وإن وجهه برسولين وجه بعدهما باثنين ، وإن أمكنه
أن لا يجمع بين رسله في طريق فعل“ .

ومن الحزم أن الرسول إذا أتاه برسالة أو كتاب في خير أو شر أن لا يحدث في ذلك
شيئا حتى يرسل مع رسول آخر يحكى له كتابه أو رسالته حرفا حرفا ومعنى معنى فإن الرسول
ربما فاته بعض ما يؤمله فأفعل الكتب ، وغير ماشوفه به فأفسد ما بين المرسل والمرسل
إليه : من ملك أو نائب ونحوهما ؛ وربما أدى ذلك إلى وقوع فتنة بين الملكين ،
أو خروج النائب عن الطاعة وتفانم الأمر بسبب ذلك وسرى إلى ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجه رسولا إلى بعض ملوك الشرق بخفاء برسالة شك
الإسكندر في حرف منها فقال له : ”وَيْلَكَ ! إن الملوك لا تخلو من مقوم ومسدد
إذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعاني ، وقد وجدت فيها حرفا
ينقضها ؛ أفعلين أنت من هذا الحرف أم شك فيهِ ؟ فقال بل على يقين منه
أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تكتب الألفاظ حرفا حرفا ويعاد إلى الملك الذى جاء
ذلك الرسول من عنده مع رسول آخر فيقرأ عليه ويترجم له . فلما وصل الرسول
الثانى إلى ذلك الملك وقرأ عليه ما كتب إليه به الإسكندر في أمر ذلك الرسول ،
أنكر ذلك الحرف الذى أنكره الإسكندر وقال للترجم : ”ضع يدك على هذا الحرف“
فوضعبها فأمر أن يعلم بعلامة وقال : ”إنى أجل ما وصل عن الملك أن أقطعه
بالسكين ، ولكن ليصنع هو فيه وفى قائله ما شاء“ . وكتب إلى الإسكندر :
”إن من أسس المملكة صحة لهجة الرسول ؛ إذ كان عن لسانه ينطق ، وإلى أذنه

يؤدى". فلما عاد الرسول إلى الإسكندر دعا برسوله الأول وقال: "ما حملك على كلمة قصدت بها إفساد ما بين ملكين؟" فأقر أن ذلك كان منه لتقصير رآه من الملك، فقال له الإسكندر: "فأراك قد سعيت لنفسك لا لنا! فاتك ما أملت بما لا تستحقه على من أرسلت إليه فجعلت ذلك نارا تُوقعه في الأنفس الخطيرة الرفيعة! ثم أمر بلسانه فتزع من قفاه." وكأنه رأى إتلاف نفس واحدة أولى من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقعه بين الملكين من العداوة ويشير من الإحن وضعائن الصدور.

وقد كان أردشير بن بابك يقول: "كم من ديم سفك الرسول بغير حله! وكم من جيوش هزمت وقيل أكثرها! وكم حرمة انتهكت! وكم مال هُيب وعقد نُقض بخيانة الرسل وأكاذيب ما يأتون به!"

الأمر السابع

(نظره في أمر أبراج الحمام ومتعلقاته)

سيأتى فيما بعد أن شاء الله تعالى أن بالديار المصرية أبراج الحمام الرسائلى يجمل البطائق في أجنحته من مكان إلى مكان؛ منها برج بقلعة الجبل، وأبراج بطريق الشام بمدينة بلبس، وأبراج بطريق الإسكندرية. وكان قبل ذلك يدرج إلى قوص، ومنها إلى أسوان وعيذاب ما يقطع ^(١) ذلك الآن. وحمام كل برج يُنقل منه في كل يوم إلى البرج الذى يليه ليطلب برجه الذى هو مستوطنه إذا أرسل. فإذا عرض أمر مهم أو ورد بريد أو غيره ممن يحتاج إلى مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام، كتب إليها المتحدث فيها بذلك للأبواب السلطانية، وبعث بها على أجنحة الحمام. وقد جرت العادة

(١) كذا في الأصل ولعله فاقطع ذلك الآن.

(٢) صوابه كما هو واضح.

أن تكتب بطاقتان وتؤرخان بساعة كتابتهما من النهار، ويعلق كل منهما في جناح طائر من الحمام الرسائلي ويُرسلان، ولا يكتفى بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنع من الوصول إلى مقصده. فاذا وصل الطائر إلى البرج الذي وجه به إليه، أمسكه البراج وأخذ البطاقة من جناحه وعلقها بجناح طائر من حمام البرج الذي يليه أى من المتقول إلى ذلك البرج، وعلى ذلك حتى ينتهي إلى برج القلعة فيأخذ البراج الطائر والبطاقة في جناحه ويحضره بين يدي الدوادر الكبير فيعرض عليه، فيضع البطاقة عن جناحه بيده. فإن كان الأمر الذي حضرت البطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلى مطالعة السلطان به، استقل الدوادر به، وإن كان مهماً يحتاج إلى إعلام السلطان به، استدعى كاتب السر وطبع لقراءة البطاقة على السلطان كما يفعل في المكاتبات الواردة. وكذلك الحكم فيما يطراً من المهمات بالأبواب السلطانية فإنه يوجه بالحمام من برج القلعة إلى الجهة المتعلقة بذلك المهم. وفي معنى ذلك كل نيابة من النيابات العظام بالممالك الشامية كدمشق، وحلب، وطرابلس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات، على ما سيأتى ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

الأمر الثامن

(نظره في أمور النداوية)

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه!، من فاطمة بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وهم فرقة من الشيعة معتقدتهم معتقد غيرهم من سائر الشيعة أن الإمامة بعد النبي صلى الله عليه وسلم!

انتقلت بالنص إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، ثم إلى ابنه الحسن ، ثم إلى أخيه الحسين ، ثم تنقلت في بني الحسين إلى جعفر الصادق ، ثم هم يدعون انتقال الإمامة من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل ، ثم تنقلت في بنه .

وسموا الفداوية لأنهم يقادون بالمال على من يقتلونه . ويسمون في بلاد العجم بالباطنية لأنهم يبطنون مذهبهم ويخفونه ، وتارة بالملاحدة لأن مذهبهم كله إلحاد . وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية . وسأى الكلام عند ذكر تخليفهم في الكلام على الأيمان إن شاء الله تعالى . وكانوا في الزمن المتقدم قد علت كلمتهم ، وأشدت شكيمةهم ، وقويت شوكتهم ، وأستولوا على عدة قلاع ببلاد العجم وبلاد الشام . فأما بلاد العجم فكان بداية قوتهم وانتشار دعوتهم في دولة السلطان ملكشاه السلجوقي في المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدميهم رجل اسمه عطاش فنشأ له ولد يسمى أحمد فتقدم في مذهبهم وارتفع شأنه فيهم ، وألم به من في بلاد العجم منهم ، فغلب على قلعة بأصبهان ، كان قد بناها السلطان ملكشاه المتقدم ذكره ، وقلعة بالطالقان تعرف بقلعة الموت ؛ وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن الصياح ذو شهامة وتقدم في علم الهندسة والحساب والنجوم والسحر ، فآتهم بالدعوة للخلفاء الفاطميين ، وهم من جملة طوائف الإسماعيلية ففر الحسن بن الصياح منه هاربا إلى مصر ، وبها يومئذ المستنصر بالله خامس خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن نزهة ، وأمره بأن يخرج إلى البلاد للدعوة إلى إمامته فأجابته إلى ذلك ، وسأله من الإمام بعده ، فقال له : ابني نزار وهو الذى تنسب إليه التزارية منهم . فخرج ابن الصياح من مصر وسار إلى الشام ، والجزيرة ، وديار بكر ، وبلاد الروم يدعو إلى إمامة المستنصر . ثم آبنه نزار من بعده ، وسار إلى نخراسان وجاوزها إلى ما وراء النهر ، ودخل كاشغر يدعو إلى ذلك ، ثم عاد إلى الطالقان وأستولى على قلعة الموت في سنة ثلاث وثمانين

وأربعمائة ، ثم استولى على قلعة أصبهان وأستضاف إليها عدّة قلاع بتلك النواحي في سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وقويت شوكة هذه الطائفة بتلك البلاد ، وعظّم أمرها ، وخافها الملوك وسائر الناس ، وبقي ابن الصياح على ذلك حتى مات في سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وتقلّت تلك القلاع بعده حتى صار أمرها إلى شخص من عقبه يسمى جلال الدين بن حسن الكيما الصياحي فأظهر التوبة في سنة سبع وخمسين وخمسمائة ، وبقي على ذلك إلى سنة ثمان وستمائة ، فأظهر شعائر الإسلام ، وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام ، فأقيمت فيها ، وبقي حتى توفّي سنة ثمان عشرة وستمائة ، وقام بعده ابنه علاء الدين محمد ، وتداول مقدّموهم تلك القلاع إلى أن خرج هولاكو على بلاد العجم في سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عيّنهم وفسادهم ، فخرّب قلاعهم عن آخرها .

وأما بلاد الشام فكان أول قوتهم بها أنه دخل منهم إلى الشام رجل يسمى بهرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسد ابادي ببغداد في أيام تاج الملوك بوري صاحب الشام ، وصار إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها ، وعاضده سعيد المردغاني وزير بوري حتى علت كلمته في دمشق وسلم له قلعة بانياس ، فعظّم أمر بهرام وملك عدّة حصون بالجبال أظنها القلاع المعروفة بهم إلى الآن ، وهي سبع قلاع بين حماه وحمص متصلة بالبحر الرومي على القرب من طرابلس : وهي مضياف ، والرصافة ، والحوّابي . والقُدُموس ، والكهف ، والعليقة ، والمينقة ، ومن هنا سمّيت بقلاع الدعوة . وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتل في حرب جرّت بينه وبين أهل وادي التيم ، وقام مقامه بقلعة بانياس رجل منهم اسمه إسماعيل ، وأقام الوزير المردغاني عوض بهرام بدمشق رجلا منهم اسمه أبو الوفاء فعظّم أمره بدمشق حتى صار الحكم له بها ، وهمّ بتسليمها

(١) لعلها بُلُنْيَاس . قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص .

للفرنج على أن يسأموه صورَ عوضاً منها، فشعر به بورى صاحب دمشق فقتله وقتل وزيره المردغاني ومن كان بدمشق من هذه الطائفة، ولم يزل أمرهم يتنقل بالشام لواحد بعد واحد من مقدميهم إلى أن كان المقدم عليهم في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشد الدين سنان البصرى وكان بينهم وبين السلطان صلاح الدين مباينةً ووثبوا عليه مراتٍ ليقتلوه فلم يظفروا بذلك إلى أن حاصر قلاعهم في سنة اثنتين وسبعين وخمسة مائة وضيق عليهم، فسألوه الصَّفح عنهم فأجابهم إلى ذلك وبقي راشد الدين سنان مقدماً عليهم حتى مات في سنة ثمان وثمانين وخمسة مائة .

قال في مسالك الأبصار: "وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهرًا لهم، ولذلك يتولونه ويرون إتلاف نفوسهم في طاعته لما ينتقل إليه من النعم الأكبر بزعمهم". قال: "ولصاحب مصر بمشايعتهم منيةً يخافه بها أعداؤه لأنه يرسل منهم من يقتله ولا يبالي أن يقتل بعده، ومن بعثه إلى عدوله فجبن عن قتله قتله أهله إذا عاد إليهم، وإن هرب تبعوه وقتلوه".

قلت: وكانوا في الزمن المتقدم يُسمون كبيرهم المتحدث عليهم تارة مقدم الفداوية، وتارة شيخ الفداوية. أما الآن فقد سمو أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين؛ وقد كانت السلاطين في الزمن المتقدم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلى غيرها إلا من رُسم له بالخروج لما يتعلق بالسلطان ولا يُمكن أحد من التجار من الدُّخول إلى بلادهم لشراء قماش وغيره. وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجه بها لئيب الشام المحروس. وسيأتي إيراء شيء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر مرسوم أتابكهم في الولايات إن شاء الله تعالى!

الأمر التاسع

(نظره في أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أسس الملك وعماد المملكة . وعلى صاحب ديوان الإنشاء مداره وإليه رجوع تديره واختيار رجاله وتصريفهم . فيجب عليه الاحتياط في أمر الجواسيس أكثر مما يحتاط في أمر البريدية والرسل : لأن الرسول قد يتوجه إلى الصديق وقد يتوجه إلى العدو والجاسوس لا يتوجه إلا إلى العدو ، وإذا موثق بجاسوسه فإنه إلى ما يأتي به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا في الجاسوس شروطا :

منها أن يكون ممن يؤثق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا يُتفَع بجبره وإن كان صادقا لأنه ربما أخبر بالصدق فأثمهم فيه فتفوت فيه المصلحة . بل ربما آثر الضرر لمن هو عين له إذ المتهم في الحقيقة عينٌ عليك لا عون لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حدس صائب وفراسة تامة : ليدرك بوقور عقله وصائب حدسه من أحوال العدو والمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدل فيما هو فيه ببعض الأمور على بعض فإذا تفرس في قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوى بحثه فيها بانضمام بعض القرائن إلى بعض .

ومنها أن يكون كثير الدهاء والحيل والخديعة : ليتوصل بدهائه إلى كل موصل ، ويدخل بجيلته في كل مدخل ، ويدرك مقصده من أى طريق أمكنه . فإنه متى كان قاصرا في هذا الباب أو شك أن يقع ظفر العدو به أو يعود صقر اليدين من طلبته .

ومنها أن يكون له دُرْبَةٌ بالأسفار ومعرفةً بالبلاد التي يتوجه إليها : ليكون أغنى له عن السؤال عنها وعن أهلها ، فربما كان في السؤال تنبُّه له وتيقُّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه ؛ بل ربما وقع في العقوبة وسئل عن حال ملكه فدلَّ عليه وكان عينا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التي يتوجه إليها لِيَلْتَقَطَ مَا يَقَعُ مِنَ الْكَلَامِ فَمَا يَذْهَبُ بِسَبَبِهِ مِمَّنْ يَخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ وَسُكَّانِ الْبِلَادِ الْعَالَمِينَ بِأَخْبَارِهَا ، وَلَا يَكُونُ مَعَ ذَلِكَ مِمَّنْ يُتَمِّمُ بِمَمْلَأَةِ أَهْلِ ذَلِكَ اللِّسَانِ مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْغَالِبَ عَلَى أَهْلِ كُلِّ لِسَانٍ آتِحَادُ الْجَنْسِ ، وَالْجَنْسِيَّةُ عِلَّةُ الضَّمِّ .

ومنها أن يكون صَبُورًا عَلَى مَا لَعَلَهُ يَصِيرُ إِلَيْهِ مِنْ عُقُوبَةٍ إِنْ ظَفَرَ بِهِ الْعَدُوُّ بِحَيْثُ لَا يَخْبِرُ بِأَحْوَالِ مَلِكِهِ وَلَا يُطْلِعُ عَلَى وَهْنٍ فِي مَمْلَكَتِهِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يَنْجُلِصُهُ مِنْ يَدِ عَدُوِّهِ ، وَلَا يَدْفَعُ سَطْوَتَهُ عَنْهُ . بَلْ وَلَا يَعْتَرِفُ أَنَّهُ جَاسُوسٌ أَصْلًا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَحْتَمُّ هَلَاكَهُ وَيُقْضَى إِلَى حَتْفِهِ : إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا يَسِعُ اسْتِعَابُهَا . فَإِذَا وَجَدَ مِنَ الْعِيُونَ وَالْجَوَاسِيسِ مَنْ هُوَ مُسْتَكْمَلٌ لِهَذِهِ الشَّرَائِطِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، فَعَلَيْهِ أَنْ يُظَهِّرَ لَهُمُ الْوُدَّ وَالْمَصَافَاةَ وَلَا يُطْلِعَ أَحَدًا مِنْهُمْ فِي زَمَنِ تَصَرُّفِهِ لَهُ أَنَّهُ يَتَمَمُّ وَلَا أَنَّهُ غَيْرُ مَأْمُونٍ لَدَيْهِ ؛ فَرَبْمَا أَذَاهُ ذَلِكَ فِي أَضْيَاقِ الْأَوْقَاتِ أَنْ يَكُونَ عَيْنًا عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ الضَّرُورَةَ قَدْ تَلَجَّئَتْ لِمِثْلِ ذَلِكَ ، خُصُوصًا إِنْ جَدَّ بِهِ إِلَى ذَلِكَ جَاذِبٌ يَسْتَمِيلُهُ عَنْهُ مَعَ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ الضَّرُورَةِ ، وَالضَّرُورَةُ قَدْ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ عَلَى مَفَاسِدِ الْأُمُورِ ، وَيُجْزِلُ لَهُمُ الْإِحْسَانَ وَالْبِرَّ ، وَلَا يُغْفَلُ تَعَاهُدُهُمُ بِالصَّلَاتِ قَبْلَ أَحْتِيَاجِهِ إِلَيْهِمْ . وَيَزِيدُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ تَوَجُّهِهِمْ إِلَى الْمَهْمَاتِ ، وَتِيْعَهْدِ أَهْلِيهِمْ فِي حُضُورِهِمْ وَغَيْبَتِهِمْ لِيَمْلِكَ بِذَلِكَ قُلُوبَهُمْ وَيَسْتَصْفِي بِهِ خُوطَرَهُمْ . وَإِنْ قُضِيَ عَلَى مَنْ بَعَثَهُ مِنْهُمْ بِقَضَاءِ أَحْسَنَ إِلَى مَنْ خَلَّفَهُ مِنْ أَهْلِهِ ، وَجَعَلَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِهِ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا كَانَ يَجْعَلُهُ لَهُ

إذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعيا لغيره على النصيحة . وإن قُدِّرَ أن عاد منهم أحد غير ظافر بقصد أو حاصل على طلبية وهو ثقة، فلا يستوحش منه بل يؤليه الجميل، ويعامله بالإحسان؛ فانه إن لم ينجح المرة نجع الأخرى . وعليه أن يحترز عن أن تعرف جواسيسه بعضهم بعضا لا سيما عند التوجه للمهمات . وإن استطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطة فعل، وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولى إيصاله إليه فإنه إذا علم بعضهم ببعض ربما أظهره، بخلاف ما إذا أختص الواحد بالسر . وأيضا فانه لا يؤمن اتفاقهم عليه وممالأتهم لعدوه . وكذلك يحترز عن تعزف أحد من عسكره عيونَه وجواسيسه؛ فان ذلك ربما يؤدى إلى أنتشار السرّ والعود بالمفسدة . وعليه أن يصنع إلى ما يليق به إليه كل من جواسيسه وعيونَه وإن اختلفت أخبارهم ويأخذ بالأحوط فيما يؤدبه إليه أجهته من ذلك ولا يجعل إختلافهم ذنبا لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله؛ إذ كل واحد قد يرى ما لا يرى الآخر، ويسمع ما لا يسمعه . وإذا عثر على أحد من جواسيسه بزلة فليسترها عنه وعليه، ولا يعاقبه على ذلك ولا يوبخه عليه فان وبخه ففي خلوة بلطف مذكرا له أمر الآخرة وما في ممالأة العدو والخيانة من الوبال في الآخرة . ولا بأس بأن يجرى له ذكر ما عليه من مصافاته ومودته وأنه مع العدو على غرر لا يدري ما هو صائر إليه؛ فان ذلك أذعى لأستصلاحه . ولا شك أن أستصلاحه إما في الوقت أو فيما بعد خير من ثبات فساده، فربما أذاه ذلك الى ممالأة العدو ومباطئته، لا سيما اذا كان العدو معروفا بالحلم والصفح، وكثرة البذل والعطاء . وإذا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوه أستعمل فيه التثبت ودوام البشر ولا يظهر تهافتا عليه تظهر معه الخفة، ولا إعراضا عنه يفوت معه قدر المناصحة، ولا يُظهر له كراهة ما يأتيه به من الأخبار المكروهة فان ذلك مما يستدعى فيه كتمان السرّ عنه فيما يكره فيؤدى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثر مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارة .

واعلم أنه لا يمكن أحدا ممن يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوه . فيجب الاحتراز منهم بكتبان السرّ وبسترّ العورة ما أمكنه ؛ على أنه ربما دعت الضرورة في بعض الأحيان إلى أن يعترف الملكُ عدوّه بعض أموره على حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق في ذلك أن يتلطف الى أن يصير جاسوسَ عدوه جاسوسا له بأن يتودّد اليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتى يستخرج نصيحته ، فيئنذ يلقى إليه ما أراد تبليغه إلى صاحبه الاوّل مما فيه المكيّدة فيوصله إليه فيكون أقرب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتهمه .

الأمر العاشر

(نظرة في أمور القُصّاد الذين يسافرون بالمطّقات من الكتب

عند تعذر وصول البرد إلى ناحية من النواحي)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وأكدها . وقد ذكر ابن الأثير في تاريخه : أن أوّل من اتخذ السّعاة من الملوك معز الدولة بن بويه أوّل ملوك الديلم بعد الثلاثين والثلاثمائة :

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركن الدولة ابن بويه بأصبهان وماعها فأراد معز الدولة سرعة إعلام أخيه ركن الدولة بتجدّات الأخبار فأحدث السّعاة وانتشّى في أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخر مرعوش ، وكان أحدهما ساعى السنة والآخر ساعى الشّبيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

(١) كذا في الأصل . ولعل صوابه "لا يمكن أحدا أن يمنع الخ" فتنبه .

واحد منهما كان يسير في كل يوم نيّفاً وأربعين فرسخاً ، وأستمرّ حكم السعاة ببغداد إلى زماننا حتى إنّ منهم ساعين لركاب السلطان يمشان أمامه في المواكب وغيرها على قرب .

قلت : ”وقد رأيتهما في خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر في دولة الظاهر برقوق فازا من تمر“ . أما الديار المصرية فإنه لا يتعانى ذلك عندهم إلا خفاف الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدة العدو إلا أنه إذا طرأ مهم سلطانيّ يقتضى إيصال ما طّف مكاتبته عن الأبواب السلطانية إلى بعض النواحي وتعدّر إيصاله على البريد لحيولة عدوّ في الطريق أو انقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، أنتدب كاتب السرّ بأمر السلطان من يعرف بسرعة المشى وشدة العدو للسفر ليوصل ذلك الملطّف إلى المكتوب إليه والإتيان بجوابه . وربما كُتِب الكتابان فأكثر إلى الشخص الواحد في المعنى الواحد ويجهز كل منهما صحبة قاصد مفرد خوف أن يعترض واحد فيمضي الآخر إلى مقصده كما تقدّم في بطائق الحمام الرسائليّ . وقد أخبرني بعض من سافر في المهمات السلطانية من هؤلاء أنهم في الغالب عند خوف العدو يمشون ليلاً ويكفون نهاراً وإذا مشوا في الليل يأخذون جانبا عن الطريق الجادة ، يكون بين كل اثنين منهم مقدار رمية سهم حتى لا يسمع لهم حسّ فاذا طلع عليهم النهار كمنوا متفرّقين مع مواعدهم على مكان يتلاقون فيه في وقت المسير .

الأمر الحادى عشر

(نظره في أمر المناور والمحرقات)

أما المناور فسيأتى أنه في الزمن المتقدم عند وقوع الحروب بين التتار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفترات بأحر الممالك الشامية وإلى قريب من بلييس من أعمال

الديار المصرية أمكنةً مرتبةً برءوس جبال عوالي، بها أقوام مقيمون فيها، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدو من بلاد التتار، وأتصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحليية : فإن كان ذلك في الليل أُوقِدَت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبال فينظره من بعده، فيوقد النار فينظره من بعده، فيوقد النار وهكذا حتى ينتهي الوقود إلى المكان الذي بالقرب من بليس في يوم أو بعض يوم، فيرسل بطاقته على أجنحة الحمام بالإعلام بذلك فيعلم أنه قد تحرك عدو في الجملة فيؤخذ في التأهب له حتى تصل البرد بالخبر مفصلاً .

وأما الحُرقات فسيأتي أنه كان أيضا قوم من هذه المملكة مرتبون بالقرب من بلاد التتار يحيلون على إحراق زروعهم بأن تُمسك الثعالب ونحوها وتربط الخرق المغموسة في الزيت بأذنان تلك الثعالب وتوقد بالنار وترسل في زروعهم إذا يست يأخذها الدُعر من تلك النار المربوطة بأذنانها فتذهب في الزروع آخذة يمينا وشمالا فامرت بشيء منه إلا أحرقتة وتواصلت النار من بعضها إلى بعض فتحرق المزرعة عن آخرها .

قلت : وهذان الأمران قد بطل حكمهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار على ما سيأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثاني عشر

(نظره في الأمور العاقمة مما يعود نفعه على السلطان والمملكة)

قد تقدم في أول هذا الفصل في الكلام على بيان رتبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب مواد البيان أنه ليس في منزلة خدام السلطان والمتصرفين في مهماته

أخص منه ، من حيث إنه أول داخل على الملك وآخر خارج عنه وأنه لاغنى به عن مفاوضته في آرائه والإفضاء إليه بمهمات ، وتقريبه من نفسه في آناء ليله وساعات نهاره ، وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمات مملكته ، وأنه لا يثق بأحد من خاصته ثقتَه به ، ولا يركن إلى قريب ولا نسيب رُكُونَه إليه ؛ ومن كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه ، وجب عليه أن لا يألوه نُصْحاً فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأعمار لبلاده وأرغم لأعدائه وحُسادِه وأثبت لدولته وأقوى لأسباب مملكته .

فقد حكى عن علي بن زيد الكاتب : أنه صحب بعض الملوك فقال للملك : "أصحبك علي ثلاث خلال - قال وما هي ؟ - قال لا تهتك لي سترًا ، ولا تشتم لي عِرْضًا ، ولا تقبل في قول قائل حتى تستبرئ . فقال له الملك - هذه لك عندي فمالي عندك ؟ قال : لا أفشى لك سرًا ، ولا أُوخِّرُ عنك نصيحةً ، ولا أُوثرُ عليك أحدا - قال نعم الصاحبُ المستصحَب أنت ! .

فإذا انتهى إلى صاحب الديوان خبر يتعلق بجلب منفعة إلى المملكة أو دفع مضرة عنها ، أطلع السلطان عليه في أسرع وقت وأعجله قبل فوات النظر فيه ونحوه فيه صائب رأيه ، ثم رد النظر فيه إلى رأى السلطان ليخرج عن عهده . وإن أرتاب في خبر المخبر أحضره معه إلى السلطان ليشافهه فيه حتى يكون بريئًا عن تبعته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرد الريبة لأحتمال صحته في نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه . وكذلك الحال في سائر ما يرجع إلى صلاح المملكة وحسن تديرها .

الفصل الرابع

(في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، وما يلزم ربّ كل وظيفة منهم
 فيما كان الأمر عليه في الزمن القديم وأستقرّ عليه الحال في زماننا)
 أما في الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصوريّ في مقدّمة تذكّره أن أرباب
 الوظائف فيه على ضربين :

الضرب الأول - الكُتّاب

(١) وقد عدّاهم إلى سبع كتاب

الأول - كاتب ينشئ ما يُكْتَب من المكاتبات ، والولايات ، نتصدّي للإنشاء ملكته
 وغريزة طبعه . قال : ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقاً بصفات متولّي الديوان
 بحيث يكون كاملاً في الصفات ، مستوفياً لشروط الكتابة ، عارفاً بالفنون التي يحتاج
 إليها الكاتب ، مشتملاً على التقدّم في الفصاحة والبلاغة ، قوى الحجّة في المعارضة ،
 واسع الباع في الكلام بحيث يقتدر بملكته على مدح المذموم وذم المحمود وصرف
 عَنان القول إلى حيث شاء ، والإطناب في موضع الإطناب ، والإيجاز في موضع
 الإيجاز ؛ فإنه أجلُّ كُتّاب الديوان ، وأرفعهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه ،
 وتلقى إليه الكلمة الواحدة والمعنى المفرد فينشئ على ذلك كلاماً طويلاً ، ويأتى منه
 بالعبارة الواسعة ؛ وهو لسانُ الملك المتكلمُ عنه ، فهما كان كلامه أبدع ، وفي النفوس
 أوقع ، عظمت رتبة الملك ، وأرتفعت منزلته على غيره من الملوك . وهو الذي ينشئ
 العهود والتقاليد في الولايات والكُتّاب في الحوادث الجار ، والمهمّات العظيمة التي

(١) الصواب تأنيث أسم العدد كما هو واضح .

تتلى فيها الكتب على صياصي المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكى أن يزيد بن الوليد كتب إلى إبراهيم بن الوليد، وقد همَّ بالعصيان: أما بعد فإنى أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فأعتمد على أيهما شئت والسلام؛ فكان سبباً لإقلاعه عما همَّ به .

الثانى - كاتب يكتب مكاتبات الملوك عن ملكه؛ وقد شرط فيه مع ما شرط فى المتصدى للانشاء المتقدم ذكره أن كان هو الذى ينشئ المكاتبات بنفسه عن الملك أن يكون على دين الملك الذى يكتب عنه ومذهبه؛ لما يحتاج إليه فى مكتبة الملك المخالف من الاحتجاج على صحة عقيدته، ونصرة مذهبه، وإقامة الدلائل على صحة ذلك، ولن يحتاج للملة أو المذهب من اعتقد خلافه بل المخالف إنما تبدوله مواضع الطعن لا مواضع الحجج . وكذلك أن يكون من علو الهمة، وقوة العزم، وشرف النفس بالمحل الأعلى، والمكان الأرفع؛ فإنه يكتب عن ملكه، وكل كاتب فإنه يجزه طبعه وجيلته وخيمته إلى ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوى جانباً وأشدَّ عزماً وأعلى همة، كان على التفضيم والتعظيم، والتحويل والترغيب والترهيب أقدر، وكلما نقص من ذلك نقص من كتابته بقدره؛ وأن يكون عالماً بقدر طبقة المكتوب إليه فى معرفة اللسان العربى فيخاطب كل قوم على قدر رتبتهم فى ذلك وما يعرف من فهمهم .

الثالث - كاتب يكتب مكاتبات أهل الدولة وكبرائها، وولاتها، ووجوهها من الثواب والقضاة والكتاب والمشارفين والعمال، وإنشاء تقليدات ذوى الخدم الصغار والأمانات، وكتب الأيمان والقسمات . قال : وهى وإن كانت دون الرتبتين المتقدمتين فهى جليلة الخطر عالية القدر؛ ويجب أن يكون لاحقاً برتب الخدمة منها، وأن يكون مأموناً على الأسرار، كآف اليد، نزه النفس عن العرض

الذنيوي لأنه يطّلع على أكثر ما يجري في الدولة، ويعلم بالوالى قبل تولّيه والمصروف قبل صرفه، ويكون مع ذلك سريع اليد في الكتابة، حسن الخط اذ كان هذا الفن أكثر ما يُستعمل ولا يكاد يقلّ في وقت من الأوقات

الرابع - كاتب يكتب المناشير والكتب اللطاف والنسخ . قال : وهذه المنزلة لاحقة بالمنزلة التي قبلها وكأنها جزء منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كئوماً للسر؛ فيه من الأدب ما يأمّن معه من الخط واللحن في لفظه وخطه، ويكون حسن الخط أو بالغاً فيه القدر الكافي . ولكن لما كان هذا الشغل واسعاً وهو أكثر عمل الديوان والذي لا ينفك منه، لم يكدر يستقلّ به رجل واحد فيحتاج إلى معاضدته بآخر يكون دونه في المنزلة، ويجعل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها مما يملكه صاحب الديوان ويصدر عنه في نسخ تكون مخلدة فيه لا تُعاد المبيّضه بحرف لتكون موجودة متى احتيج اليها .
الخامس - كاتب يبيّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلى حسن الخط، كالعهود والبيعات ونحوها . قال الصوري : لما كانت البلاغة التامة التي يصلح صاحبها للإنشاء وحسن الخط قلما يجتمعان في أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيّض يرسم الإنشاءات والسجلات والتقليدات، ومكاتبات الملوك، وأن يكون حسن الخط إلى الغاية الموجودة بحيث لا يكاد يوجد في وقته أحسن خطاً منه لتصدر الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكل للملكة، وأكثر تفخيماً عند من يكتبه وتعظيماً لها في صدره . ويجب أن يكون مع ذلك في الأمانة، وكتمان السر، ونزاهة النفس على ما تقدّم .

السادس - كاتب يتصفح ما يكتب في الديوان . قد تقدم أنه لما كان كل واحد من تقدم ذكره غير معصوم من السهو والزلل والخطأ واللحن ومثرات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه ويظهر له عيب غيره، وكان زمن متولّى الديوان أضيّق من أن يُوفى بكل ما يكتب بديوانه حقّ النظر، وكان القصد أن يكون كل ما يكتب عن الملك كامل الفضيلة خطأ ولفظاً ومعنى وإعراباً، حتى لا يجد طاعن فيه مطعناً، وجب أن يستخدم متولّى الديوان معينا يتصفح جميع الإنشاءات والتقليدات والمكاتبات وسائر ما يُسَطَّر في ديوانه .

قال أبو الفضل الصورى : وينبغي أن يكون هذا المتصفح على المنزلة في اللغة والنحو وحفظ كتاب الله تعالى، ذكياً، حسن الفطنة، عاقلاً، مأموناً وأن يكون مع ذلك بعيداً من الغرض والعداوة والشحناء حتى لا يخس أحداً حقه، ولا يُجأب أحداً فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده في الحق على حدّ واحد لا يترجح واحد منهم على الآخر . وعليه أن يلزم الكُتاب بعرض جميع ما يكتبونه وينشئونه عليه قبل عرضه على متولّى الديوان — فاذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعرّف رضاه عنه ليلتم بدرك ما فيه ويرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمّنة لمتعلّقات الديوان .

قال الصورى : ويجب أن يُختار لذلك كاتبٌ مأمونٌ، طويل الروح، صبور على التعب؛ قال : والذي يلزمه من متعلّقات الديوان أمور :

أحدها — أن يضع في الديوان تذاكر تشتمل على مهمّات الأمور التي تُنهى في ضمن الكتب، ويظن أنه ربما سُئل عنها أو أحتج إليها، فيكون أستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقيب عنها من الأضابير . قال : ويجب أن تسلّم إليه جميع الكتب الواردة بعد أن يُكتب بالإجابة عنها ليتأملها وينقل منها في تذاكره ما يحتاج إليه، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله، ويجعل لكل صفقة

أوراقا من هذه النذاكر على حدة ، تكون على رؤوس الأوراق علاماتٍ باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب على هذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى ، أو المشارف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلى أن تفرغ السنة يستجد للسنة الأخرى التى تلوها تذكرة أخرى . وكذلك يجعل له تذكرة يسطر فيها مهمات ما تخرج به الأوامر فى الكتب الصادرة لئلا تغفل ولا يجاب عنها ؛ وتكون على الهيئة المتقدمة من ذكر النواحي وأرباب الخدم . وإذا ورد جواب عن شىء مهم نزل عنده فيقول : ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمّن كذا ، فإنه إذا اعتمد هذا وجد السلطان جميع ما يسأل عنه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثانى — أن يضع فى الديوان دفترا بالقب الولاة وغيرهم من ذوى الخدم ، وأسمائهم ، وترتيب مخاطباتهم ؛ وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطب : بكاف الخطاب أو هاء الكفاية ، ومقدار الدعاء الذى يدعى له به فى السجلات والمكاتبات والمنشير ، والتوقيعات : لاختلاف ذلك فى عرف الوقت . وكذلك يضع فيه ألقاب الملوك الأبعد والمكاتبين من الآفاق وكنائهم وأسماءهم ، وترتيب الدعاء لهم ، ومقداره . ويكون هذا دفتر حاضرا لدى كتاب الإنشاء ينقلون منه فى المكاتبات ما يحتاجون إليه : لأنه ربما تعدد حفظ ذلك عليهم — ومتى تغير شىء منه كتبه تحته . ويكون لكل خدمة ورقة مفردة فيها اسم متوليها ولقبه ودعائه — ومتى صرف كتب عليه صرف بتاريخ كذا ، وأستخدم عوضا منه فلان بتاريخ كذا وأجرى فى الدعاء على مناجه ، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافل عن ذلك : فإنه متى أهمل شىء من ذلك زلّ بزله الكتاب وصاحب الديوان بل والسلطان نفسه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترًا للحوادث العظيمة وما يتلوهما مما يجري في جميع المملكة؛ ويذكر كلا منها في تاريخه؛ فإن المنفعة به كثيرة حتى إنه لو جمع من هذين الدفتريين تاريخ لأجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستا للكُتُب الصادرة والواردة مفصلاً مُسَانِهَةً ومُشَاهِرَةً ومُيَاوِمَةً، ويكتب تحت اسم كل من ورد من جهته "كتاب ورد بتاريخ كذا"، ويشير إلى مضمونه إشارة تدل عليه أو ينسخه جميعه إن دعت الحاجة إلى ذلك، ويسلمه بعد ذلك إلى الخازن ليتولى الاحتفاظ به على ما سيأتي ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستا للأنشاءات، والتقاليد، والأمانات، والمناسير وغير ذلك مشاهرة في كل سنة بجميع شهورها؛ وإذا أنقضت سنة أستجدَّ آخر، وعمل فيه على مثل ما تقدم .

السادس — أن يعمل فهرستا لترجمة ما يترجم من الكتب الواردة على الديوان بغير اللسان العربي من الرومي والفرنجي وغيرهما مصرحاً بمعنى كل كتاب ومن ترجمه على ما تقدمت الإشارة إليه . قال الصوري: فإذا روعيت هذه القوانين أنضبطت أموره ولم يكدر بخيل منه شيء، وكان جميع ما يلتمس منه موجوداً بأيسر سعي في أسرع وقت .

الضرب الثاني

(غير الكتاب؛ وهما آشان)

أحدهما الخازن . قال الصوري: "ينبغي أن يختار لهذه الخدمة رجلٌ ذكيٌّ فطن عاقلٌ مأمونٌ بالغٌ في الأمانة والثقة ونزاهة النفس وقلة الطمع إلى الحد الذي لا يزيد عليه: فإن زمام جميع الديوان بيده؛ فمتى كان قليل الأمانة ربمّا أمالته الرشوة إلى

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرّ من الأسرار فيضراً بالدولة ضرراً كبيراً . ويجب أن يكون ملازماً للحضور بين يدي كُتّاب الديوان فتى كتب المنشئ أو المنتصدي لمكتبة الملوك، أو المنتصدي لمكتبة أهل الدولة، أو لكتابة المناشير وغيرها شيئاً، سلمه لمنتصدي للنسخ فينسخه حرفاً بحرف، ويكتب بأعلى نسخه كتاب كذا— ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته على ما تقدم في موضعه؛ ويسلمه للخازن . وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خطّ الكاتب الذي كتب جوابها بما مثاله . «ورد هذا الكتاب من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لاجواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لاجواب عنه تبرأ ذمته منه ولا يتأول عليه في وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يعلم به . ثم يجمع كل نوع إلى مثله، ويجمع متعلقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجعل لكل شهر إضبارة، يجمع فيها كُتُب من يكاتب من أهل تلك الأعمال، ويجعل عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية في الشهر الفلاني» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارةً واحدةً لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقةً بذلك ليسهل أستخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال : ويجب على هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما في هذا الديوان من الكتب الواردة ونسخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمات، وضرائب الرسوم احتفاظاً شديداً .

الثاني — حاجب الديوان . قال الصوري : ” ينبغي لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقيم لديوانه حاجباً لا يمكن أحداً من سائر الناس أن يدخل إليه، ما خلا أهله الذين هو معدوق بهم، فإنه يجمع أسرار السلطان الخفية فن الواجب كتبها ومتى أهمل

(١) في الضوء معزوق بهم بالعين المهملة والزاي [وهي أصرح في المقام ففي القاموس عزق به كفرح لصق] .

ذلك لم يؤمن أن يُطلع منها على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته وإذا كثرت الغاشون له والداخلون إليه، أمكن أهل الديوان معه إظهار الأسرار أتكالا على أنها تُنسب إلى أولئك، فإذا كان الأمر قاصرا عليهم أحتاجوا إلى كتمان ما يعلمونه خشية أن ينسب إليهم إذا ظهر".

وأما ما استقر عليه الحال في زماننا فكتب الديوان على طبقتين :

الطبقة الأولى — كُتِّب الدست ؛ وهم الذين يجلسون مع كاتب السر يجلس السلطان بدار العدل في المواعيد على ترتيب منازلهم بالقدمة ^(١) ويقرءون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر على ترتيب جلوسهم ويوقعون على القصص كما يوقع عليها كاتب السر . وسُموا كُتِّب الدست إضافة إلى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه : لجلوسهم للكتابة بين يديه ؛ وهؤلاء هم أحقُّ كُتِّب ديوان الإنشاء باسم الموقعين : لتوقيعهم على جوانب القصص بخلاف غيرهم .

وقد تقدم أنهم كانوا في أوائل الدولة التركية في الأيام الظاهرية ببيرس وما والاها قبل أن يلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثة كُتِّب ، رأسهم القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، ثم زادوا بعد ذلك قليلا إلى أن صاروا في آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها ، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا خصوصا في سلطنة الظاهر برقوق ، وأبنة الناصر فرج حتى جاوزوا العشرين وهم أخذون في التزايد .

وقد كانت هذه الرتبة لاحقة بشاؤ كتابة السر في الرفعة والرياسة إلى أن دخل فيها الدخيل ، وقدم فيها غير المستحق ، ووليها من لا يؤهل لها هو دونها ، وأنحطت رتبتها وصار أهلها في الحضيض الأوهد من الرياسة بعد أوجها الا الأفذاذ من علت رتبته وقليل ما هم .

(١) المقدمة بالضم السابق . ولعل مراده السابق في الفضل .

الطبقة الثانية — كُتِّبَ الدَّرَجُ ، وهم الذين يَكْتُبُونَ ما يُوَفَّقُ به كاتبُ السِّرِّ أو كُتِّبَ الدست أو إشارة النائب أو الوزير ، أو رسالة الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمان والأمانات ونحو ذلك مما يجرى مجراه . وُسِّمُوا كُتِّبَ الدَّرَجُ لكاتبهم هذه المكتوبات ونحوها في دُرُوجِ الورق ، والمراد بالدَّرَجِ في العُرفِ العامِّ الورق المستطيل المركَّب من عدَّة أوصال ، وهو في عُرف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لا غير . قال ابن حجب النعمان في ذخيرة الكُتَّابِ : وهو في الأصل اسمٌ للفعل أخذنا من درجت الكتاب أدرجه درجا اذا أسرعَ طيه وأدرجته إدراجا فهو مُدرَج إذا أعدته على مطاويه وأصله الإسراع في حالة ، ومنه مدرجة الطريق التي يُسْرِعُ الناس فيها وناقَّةٌ دُرُوجٌ اذا كانت سريعة . ويجوز أن يطلق عليهم كتاب الإنشاء لأنهم يَكْتُبُونَ ما يُنشَأ من المكاتبات وغيرها مما تقدّم ذكره ؛ ولا يجوز أن يطلق عليهم لقب الموقعين لما تقدّم من أن المراد من التوقيع الكتابةُ على جوانب القصص ونحوها . وكما زاد كُتِّبَ الدست في العدد زاد كتاب الدَّرَجِ حتى خرجوا عن الحدِّ ، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كتابا ، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وأنحط مقدارها حتى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلا . على أن كُتِّبَ الدست الآن هم المتصدّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرَجِ : كمتعلقات البريد المختصة بالسلطان من المكاتبات والعهود والتقاليد وكبار التواقيع والمراسيم والمناشير ، وصار كتاب الدَّرَجِ في الغالب مخصوصين بالمكاتبات في خلاص الحقوق وما في معناها . وكذلك صغار التواقيع والمراسيم والمناشير مما يكتب في القُطْعِ الصغير ، وربما شارك أعلاهم كُتِّبَ الدست في التقاليد وكبار التواقيع وما في معناها إذا كان حسن الخط ، ولا نظر إلى البلاغة جملة بل كل أحد يَلْفِقُ ما يتهيأ له من كلام المتقدمين غير مُبالٍ بتحريفه ولا تصحيفه مبهجا بذلك مطالعا

لغيره في أنه الذي آبتدعه وإبتكره . وكل من لفق منهم شيئاً أو أنشأه كتبه بخطه على
أى طبقة كان في الخط، ما خلا عهد السلطنة ومكاتب القانات من ملوك الشرق
فانه رُبما آتخِب لها أعلى أهل الزمان خطاً، تنويهاً بذكرها، ورفعاً لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمراً في بعضها ككتابة ما في المكاتب
الواردة والصادرة بدفتر في الديوان إلى آخر مباشرة القاضي بدر الدين بن فضل الله
في الدولة الظاهرية برقوق، ثم رُفِض ذلك وتُرك وأقتصر على ما يرد من المكاتب
وما يكتب من الملخصات وكتابة الموقع الذي يكتب الجواب بسد كل فصل تحته
ليس إلا وترك ما وراء ذلك، وأكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر، وصار هو
المتولى لحفظ ذلك وإيداعه في الأضابير على نحو ما تقدم؛ وكذلك صار أمر حجابة
الديوان إليه . ثم للديوان أعوان يسمون المدرا جمع مدير، شأنهم أخذ القصص
ونحوها وإدارتها على كاتب السر فمن دونه من كتاب الديوان ليكتب كل منهم
ما يلزمه من متعلقها ولذلك سُموا بهذا الاسم .

المقالة الأولى

بعد المقدمة

(في بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان)

الباب الأول

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العِلْمِيَّة، وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الأول

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد اختلفت مقاصدُ المصنِّفين في ذلك : فابنُ قتيبة بعد أن بنى كتابه أدب الكاتب على أمور من اللُّغة والتصريف وطرف من الهجاء قال : " وليس كتابنا هذا لمن لم يتعلَّق من الإنسانية إلا بالجسم ، ولا من الكتابة إلا بالرَّسم ، ولم يتقدم من الأداء ، إلا بالقلم والدواء : ولكنه لمن شدا شيئا من الإعراب فعرف الصَّدر والمصدر ، وأنقلبَ الياء عن الواو ، والألف عن الياء ، وأشبهه ذلك من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفة ، والقسي ، والمدورات ، والعمودين ؛ وتمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الدفاتر، فإن المخبر عنه ليس كالمعائن . وذكر أن العجم كانت تقول : من لم يكن عالما باجراء المياه، وحفر فُرُض

(١) كذا في الأصل وأدب الكاتب . وفي القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنى مناسب هنا .

والذي في الضوء سدد .

المشارب وردد المهاوى ، ومجارى الأيام فى الزيادة والنقصان ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر فى آسئلاله وأتصاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر ، والجسور ، والدوالي ، والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناعات ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا فى حال كتابته . ثم قال : ولا بد له مع ذلك من النظر فى جمل من الفقه والحديث ، ودراسة أخبار الناس ، وحفظ عيون الأخبار ليدخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاور . وختم ذلك بأن قال : ومدار الأمر فى ذلك كله على القطب وهو العقل وجودة القريحة ؛ فإن القليل معهما بإذن الله تعالى كاف ، والكثير مع غيرهما مقصر .

وتابعه أبو هلال العسكري فى بعض ذلك فقال فى بعض أبواب كتابه «الصناعتين» :
 ”ينبغى أن تعلم أن الكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدوات جمّة : من معرفة العربية لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ؛ وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزمنة والشهور والأهلة وغير ذلك مما ليس هذا موضع ذكره وشرحه“ .

ولا ينبغى أن ما ذكره بعض ما ذكره ابن قتيبة ، يتواردان فيه فى المعنى وإن اختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس فى كثير من ذلك فذكر فى أول كتابه ”صناعة الكتاب“ فى المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط : أن من أدوات الكتابة البلاغة ، ومعرفة الأضداد مما يقع فى الكتب والرسائل ، والعلم بترتيب أعمال الدواوين ، والخبرة بمجارى الأعمال ، والذرية بوجوه استخراج الأموال ، مما يجب ويمتنع . ثم قال : فهذه الآلات ليس لواحد منها تميز بذاته ، ولا أنفراد باسم يخصه ؛ وإنما هو جزء من الكتابة وأصل من أركانها . أما الفقه والفرائض والعلم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنجوم ، والمعرفة بأجزاء المياه ، والعلم بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشياء منها نحو ما يُكْتَبُ بالألف والياء، وإلى شيء من المقصور والمدود. ولو كلف الكاتب ما ذكره من ذكره لجعل الأصبغ طريقاً للأسهل والأشقق مفتاحاً للأهون وفي طباع الناس التفار عما أُرْمِهَم من جميع هذه الأشياء .

قلت : والتحقق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوعها، فكل نوع من أنواعها يحتاج إلى معرفة فق أو فنون تختص به .

وقد حكى أن عمرو بن مسعدة وزير المعتصم قال : لما خرج المعتصم من بلاد الروم وصار بناحية الرقة، قال لي ويحك يا عمرو! لم تزل تحذعني حتى وليت عُمر بن الفرج الرَّحْمِيُّ الأهواز، وقد قعد في سرّة الدنيا يأكلها خضماً وقضاً! فقلت يا أمير المؤمنين فإنا أبعث إليه حتى يؤخذ بالأموال ولو على أجنحة الطير— قال : كلاً بل تخرج إليه بنفسك كما أشرت به— فقلت لنفسي : إن هذه منزلة خسيصة، بعد الوزارة أكون مستحقاً لعامل خراج! ولم أجد بداً من الخروج رضاءً لأمر المؤمنين— فقلت : ها أنا خارج إليه بنفسى يا أمير المؤمنين! قال : فضع يدك على رأسك وأحلف أنك لا تقيم ببغداد، ففعلت وأحدثت عهداً باخوانى ومنزلى وأنى إلى بزورق ففرش لي فيه، ومضيت حتى إذا صرت بين دير هرقل ودير العاقول إذا شاب على الشط يقول: يا ملاح! رجل غريب يريد دير العاقول فاحملنى يا جرك الله!— فقلت: يا غلام

(١) فى الأصل عمرو الرحى . والصواب ما أثبتناه فقد قال ياقوت فى الكلام على رُحج مثال رُحج : وينسب الى الخرج فرج وابنه عُمر بن فرج وكانا من أعيان الكُتاب فى أيام المأمون الى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعدل يهجو عمر بن فرج . فن قوله فيه يخاطب نجاح بن سلة أبلغ نجاح فى الكُتاب مألوفة * تمضى بها الريح إصدارا وإيرادا لا يخرج المال عفواً من يدى عمر * أو تغمده السيف فى فوديه إغماذا الرُحجيون لا يوفون ما وعدوا * والرُحجيات لا يخلفن ميعادا

قَرَّبَ له — فقال : جُعِلتِ فِدَاكَ ! يُؤذِيكَ وَيُضَيِّقُ عَلَيْكَ — فقلت : قَرَّبَ له لا أَمَّ لك ! فقَرَّبَ له وحملة على مؤخَّر الزورق . وحضر الطعام ، فهممْتُ أن لا أدعوه إلى طعامي ، ثم قلت : هَلُمَّ يَا قَتِي ، فوثبَ وجلس ، فأكلَ أَكْلَ جَائِعٍ نَهْمَ إلا أَنه نظيف الأكل ، فلما فرغ من الطعام أَحَبَبْتُ أن يفعلَ ما يفعلُ العوامُ فيتنجسُ ويغسلَ يديه ناحيةً فلم يفعلْ ، فغمزه الغلمانُ ليقومَ فلم يفعلْ ، فتناوَمْتُ عمداً لينهَضَ فلم يفعلْ ، فاستويت جالسا وقلت يا قَتِي ! ما صناعتك ؟ فقال جعلت فداك ! أنا حائك . فقلت في نفسي : أنا والله جَلَبْتُ هذه البليةَ ، وتغير لوني ، ففِطِنَ أُنَى اسْتَثْقَلْتُهُ ، فقال : جَعِلتِ فِدَاكَ ! انك قد سألتني عن صناعتِي فأجبتك ، فأنت ما صناعتك ؟ فقلتُ : هذه والله أضرُّ من الأولى ألا ينظر إلى غلماي ونِعْمَتِي فيعلمَ أن مثل هذا لا يُسْئَلُ عن الحِرْفَةِ؟ ولم أجدُ بُدًّا من الجواب ، فلم أذهب إلى المرتبة العظمى من الوزارة لكنني قَرَّبْتُ عليه ، فقلت : أنا كاتب — فقال جَعِلتِ فِدَاكَ الكُتَّابُ خمسة فأبهم أنت ؟ فأورد عليّ ما لم أسمع به قَبْلُ — فقلت : يَبْنَهُم لِي — قال نعم ، هُمُ كاتِبُ رسائلٍ يحتاج إلى أن يَعْرِفَ المَفْصُولَ والمَوْصُولَ ، والمَقْصُورَ والمَمْدُودَ ، والابْتِدَاءَ والجوابَ ؛ حاذقا بالعقود والفتوح — قلت : أجل وماذا ؟ قال : كاتب نَحْرَاجٍ يحتاج أن يَعْرِفَ السُّطُوحَ^(١) والمِيساحَةَ والتَّقْسِيطَ ، خبيراً بالحِسابِ والمُقاسِمَاتِ . قلت : وماذا ؟ قال : كاتب قاضٍ يحتاج أن يَعْرِفَ الحَلَالَ والحَرَامَ ، والتَّأْوِيلَ والتَّنْزِيلَ — والمُتَشَابِهَ والحُدُودَ القائمةَ والفرائضَ ، والاختلافَ في الأموال والفروج ، حافظا للأحكام ، حاذقا بالشروط — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ جُنْدٍ يحتاج أن يَعْرِفَ الحِلَى والشِّياتِ — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ شُرْطَةِ يحتاج أن يَعْرِفَ القِصَاصَ والجِراحاتِ ، وموضعَ الحُدُودِ ، ومواقعَ العَفْوَ في الجنائيات — قلت حَسَنَ . قال : فأبهم أنت ؟ فَكُنْتُ مَتَكِنًا فاستويت جالسا متعجِّبا من قوله ، فقلت :

(١) في نسخة الطسوج . وهو كتور الناحية ، وربع دائق مرعب اه قانوس .

أنا كاتبُ رسائلٍ — قال : فإنَّ أحَّ من إخوانك واجبَ الحقِّ عليك معتنياً بأمرِكَ لا يُغفلُ منها عن صغير ولا كبير يكاتبك في كل محبوب ومكروه وأنت له على مثل ذلك تزوجتُ أمه كيف تكتب إليه ؟ أهنئه أم تُعزِّيه ؟ — قلتُ أهنئه . قال فهنَّه فلم ينجِّه لي شيء — فقلت : لا أعزِّيه ولا أهنئه ، فقال : إنك لا تغفلُ له عن شيء ولا تبيدُ بداً من أن تكتب إليه — فقلت : أقلني فأنا كاتب خراج — قال : فإنَّ أمير المؤمنين وجه بك إلى ناحيةٍ من عمله ، وأمرك بالعدل والإنصاف وأنك لا تدع شيئاً من حقِّ السلطان يذهب ضياعاً ، وحدرك الظلم والجور ، فخرجت حتى قدمت الناحية فوق قوق على قراج أرض خطه قابل قسيا كيف تمسحه — قلت : أخذ وسطه وأخذ طولَه فأضربه فيه — قال : تختلف عليك العطوف — قلت : أخذ طولَه وعرضه من ثلاثة مواضع — قال : إن طرفيه محدودان وفي تحديده تقويس وذلك يختلف فأعياى ذلك — فقلت : أقلني فأنا كاتب قاضٍ — قال : فإنَّ رجلاً هلك وخلف زوجة حرةً وسريَّةً حاملتين فوضعتا في ليلة واحدة وضعت الحرة جاريةً ، ووضعت السريَّة غلاماً ، فوضعت الجارية في مهد السريَّة ، فلما أصبحت السريَّة قالت الغلام لي ، وقالت الحرة بل هو لي كيف تحكم بينهما ؟ — قلت : لأدرى فأقلني ، فأنا كاتب جندي ، قال : فإنَّ رجلين من أصحاب السلطان أتياك أسمهما واحد ، وأحدهما مشقوق الشفة العليا ، والآخر مشقوق الشفة السفلى ، ورزق أحدهما مائة والآخر ألف كيف تُحليهما ؟ — قلت : فلان الأعم وفلان الأعم ، قال : إذن يجيء هذا ورزقه مائة فيأخذ الألف ، ويجيء هذا ورزقه ألف فيأخذ المائة — قلتُ أقلني : فأنا كاتب شرطة ، — قال : فإنَّ رجلين تواتبا فشج أحدهما صاحبه موصحةً ، وشبه الآخر مأمومةً كيف يكون الحكم فيهما ؟ — قلت : لا أدرى فأقلني ، . قال فقلت : إنك قد سألتني فبين لي — قال نعم .

أما الذى تزوجت أمه فكتب إليه : أما بعد فإن الأمور تجري على غير محابٍ
المخلوقين والله يختار لعباده، نفاً الله لك فى قبضها إليه فإن القبور أكرم الأكفاء
والسلام .

وأما القراح من الأرض ، فإنك تسمع أعوجاجه حتى تعلم كم قبضة تكون فيه
إذا استوى فى يدك عقده تعرفه ضربت طرفه فى وسطه . وأما الحرة والسرية
فيوزن لهنما فأيهما كان لبناً أخف فالبنت لها . وأما المشقوق الشفة العليا فأعلم
والمشقوق الشفة السفلى فأفليح . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون
من الإبل وثلث . وأما الموضحة ففيها خمس من الإبل . فقلت : ألسنت تزعم أنك
حائك ؟ فقال : أنا حائك كلام لا حائك نساء . قال عمرو بن مسعدة : فأحسن
جائزته وأستصحبته معى حتى عدت إلى المعتصم ، فسألنى عما لقيت فى طريقى ،
فقصصت عليه القصة فأعجب به وقال : لم يصلح ؟ فقلت : للعائر . فقتره فيها
وعلت رتبته ، فكنت ألقاه فى الموكب النبيل فيترجل لى فأناه ، فيقول : هذه
نعمتك وأنت أقدتها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادة يحتاج إليها بمفردها ، وآلة
تخصصها لا يستغنى عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنى عن علم ولا يسعه الوقوف عند فن ،
فقد قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعة يحتاج
إلى التشبث بكل فن من الفنون حتى إنه يحتاج إلى معرفة ما تقوله النادبة بين النساء ،
والماشطة عند جلوة العروس ، وإلى ما يقوله المنادى فى السوق على السلعة فما ظنك
بما فوق هذا وذلك لأنه مؤهل أن يهيم فى كل واد ، فيحتاج إلى أن يتعلق بكل فن .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنسب إليه ، فيقال فلان النحوى ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها ، فلا يقال فلان الكاتب لما يفتقر إليه من الخوض في كل فن .

وأعلم أن كاتب الإنشاء وإن كان يحتاج إلى التعلق بجميع العلوم والخوض في سائر الفنون فليس احتياجه إلى ذلك على حد واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهي مواد الإنشاء التي يستمد منها ويقتبس من مقاصدها : كاللغة التي منها استمداد الألفاظ ، والنحو الذي به استقامة الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعاني والبيان والبديع التي هي مناط التحقيق والتحسين والتقييح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى . وعلى هذا أقصر الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" وتبعه على ذلك الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يحتاج إليه بطريق العرض كالطب والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ، فإنه يحتاج إلى معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، وإلى معرفة المشهورين من أهله ومشاهير الكتب المصنفة فيه لينظم ذلك في خلال كلامه فيما يكتب به من متعلقات كل فن من هذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يكتب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتب به لمنجم ، ونحوه من الهندسة فيما يكتب به لمهندس . وربما احتاج إلى معرفة مأهولون ذلك في الرتبة كعرفة مصطلح رماة البندق فيما يكتب به في قدمات البندق ، ومعرفة مصطلح الفيان فيما يكتب به في دسكرة فتوة ونحو ذلك ، بل ربما احتاج إلى معرفة مصطلح سفل الناس لكتابة أمور هزلية : كعرفة أحوال الطفيلية فيما يكتب به لطفيل أقتراحا أو امتحانا للخاطر أو ترويجا للنفس ، مع معرفة ما يجب عليه من وصف ما يحتاج إلى

وصفه كأوصاف الأبطال والشجعان، والحواري والغلمان، والحيل والإبل، وجليل
الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والحمائم الهدى،
وسائر أنواع الطير؛ والسلاح بأنواعه؛ وآلات الحصار، والآلات الملوَّكِيَّة، وآلات
السفر، وآلات الصَّيد، وآلات المعاملة، وآلات اللُّهُو والطَّرَب، وآلات اللعب،
وآلات الشربة؛ والمدن، والحصون؛ والمساجد، وبيوت العبادات؛ والرياض،
والأشجار، والأزهار، والثمار؛ والبراري، والقفار، والمفاوز، والجبال، والرمال،
والأودية؛ والبحار، والأنهار، وسائر المياه؛ والسفن، والكواكب، والعناصر،
والأزمنة، والأنواء، والرياح، والمطر، والحر، والبرد، والثلج، وما يتعلق بكل واحد
من هذه الأشياء أو يخطر في سلكه؛ ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلى وصفه في حالة
من حالات الكتابة على ماسياتي بيانه في آخر الفصل الثاني من هذا الباب إن شاء
الله تعالى .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الأولى

(فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل الغرض منه على خمسة عشر نوعاً)

النوع الأول

(المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأول

(في فضلها وما آخضت به على سائر اللغات)

أما فضلها فقد أخرج ابنُ أبي شَيْبَةَ بسنده إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال: "تعلّموا اللّغَنَ والفرائضَ فإنّه من دينكم". قال يزيد بن هارون: "اللّغَنُ هو اللّغة". ولا خفاء أنها أمتن اللغات وأصحّها بياناً، وأذلقها لساناً، وأمدّها رواقاً، وأعدبها مذاقاً؛ ومن ثمّ اختارها الله تعالى لأشرف رُسُلِهِ، وخاتم أنبيائه، وخيرته من خَلْقِهِ، وصفوته من بريته؛ وجعلها لغة أهل سماءه وسكان جتته، وأنزل بها كتابه المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

قال في صناعة الكتاب: "وقد أنقادت اللغات كلّها للغة العرب، فأقبلت الأمم

إليها يتعلّمونها".

وأما ما آخِصَّتْ به على غيرها من اللغات، فقد حكى في "صناعة الكتاب" أنها اللغة التامة الحروف، الكاملة الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيشبهها نقصانها، ولم يزد فيها شيء فيعيها زيادته؛ وإن كان لها فروع أخرى من الحروف فهي راجعة إلى الحروف الأصلية؛ وسائر اللغات فيها حروف مولدة، وينقص عنها حروف أصلية: كاللغة الفارسية: تجد فيها زيادة ونقصانا. وكذلك يوجد فيها من الأسماء ما لا يوجد في الفارسية وغيرها: كالحق والباطل، والصواب والخطأ، والحلال والحرام، فلا ينطق به أهل تلك اللغة إلا عربيا. قال الفراء: "وجدنا للغة العرب فضلا على لغة جميع الأمم آختصاصا من الله تعالى وكرامة أكرمهم بها؛ ومن خصائصها أنه يوجد فيها من الإيجاز ما لا يوجد في غيرها من اللغات". قال: "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضرب كلمة واحدة فتوسعوا فيها، فقالوا للضرب في الوجه لطم، وفي القفا صفع، وفي الرأس إذا آدمى شج؛ فكان قولهم لطم أوجز من ضرب على وجهه". قال في "المثل السائر": "حضرت مع رجل يهودي عارف باللغات بفرى ذكر اسم الجمل فقال: لا شك أن العربية أوجز اللغات، فإن اسم الجمل بالعبرانية كومل فسقط منه الواو وحولت الكاف إلى الجيم". قال أبو عبيد: وللغرب في كلامها علامات لا يشتركون فيها أحد من الأمم كعلامة إدخالهم الألف واللام في أول الاسم، وإلزامهم إياه الإعراب في كل وجه مع نقلهم كل ما احتاجوا إليه من كلام العجم إلى كلامهم؛ فقد قيل ما قالت حكاء العجم والفلاسفة إلى العربية ولم يقدر أحد من الأمم على نقل القرآن إلى لغته لكمال لغة العرب. على أن الكثير من الناس حاولوا ذلك فعسر عليهم نقله، وتعددت عليهم ترجمته؛ بل لم يصلوا إلى ترجمة البسمة إلا بنقل بعيد.

المقصد الثاني

(في وجه احتياج الكاتب إلى اللغة)

لامرئية في أن اللغة هي رأس مال الكاتب، وأُسُّ كلامه، وكُنز إنفاقه؛ من حيث إن الألفاظ قوالبٌ للمعاني التي يقع التصرف فيها بالكتابة؛ وحينئذ يحتاج إلى طول الباع فيها، وسعة الخطو، ومعرفة بسائطها: من الأسماء والأفعال والحروف، والتصريف في وجوه دلالتها الظاهرة والخفية: ليقندر بذلك على استعمالها في محالها، ووضعها في مواضعها اللاتقة بها، ويجد السبيل إلى التوسع في العبارة عن الصور الأئمة في نفسه فيتسع عليه نطاق النطق، وينفسح له المجال في العبارة، ويفتح له باب الأوصاف فيما يحتاج إلى وصفه، وتدعو الضرورة إلى نعته؛ فيستظهر على ما ينشيه، ويحيط علماً بما يدره ويأتيه؛ إذ المعاني وإن كانت كامنة في نفس المعبر عنها فإنما يقوى على إبرازها وإبانها من توفر حظها من الألفاظ، وأقناده على التعرف فيها: ليأمن تداخلها وتكريرها المهجّنين للمعاني — وناهيك أن ابن قتيبة لم يضمّن كتابه "أدب الكاتب" غير اللغة إلا التزر اليسير من الهجاء؛ وأبا جعفر النحاس ضمّن كتابه "صناعة الكتاب" جزءاً وافراً من اللغة؛ وأبا الفتح كُشاجم لم يزد في كتابه "كنز الكتاب" على ذكر الألفاظ وصورة تركيبها .

المقصد الثالث

(في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من اللغة؛ ويرجع المقصود منه إلى خمسة أصناف)

الصنف الأول — الغريب، وهو ما ليس بمألوف الاستعمال، ولادائر على الألسنة وذلك أن مدار الكتابة على استخراج المعاني من القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والشعر؛ وألفاظها لا تخلو عن الغريب؛ بل ربما غلب الغريب منها في الشعر على

المألوف لاسيما الشعر الجاهلي . وقد قال الأصمعي "توسلت بالملح ونلت بالغريب" . قال صاحب "الريحان والريهان" : والغريب وإن لم يُنفق منه الكاتب فإنه يجب أن يُعلم ويُتطلع إليه ويُستشرف ؛ فربّ لفظه في خلال شعر أو خطبة أو مثل نادر أو حكاية ، فإن بقيت مُقفلة دون أن تُفتح لك ، بقي في الصدر منها حُرارة تُنحوج إلى السؤال ؛ وإن صُنّت وجهك عن السؤال ، رضيت بمنزلة الجهال . وقد عاب ابن قتيبة رجلا كتب في وصف برذون : "وقد بعثت به أبيض الظهر والشفيتين" فقيل له : هلا قلت في بياض الشفتين أرثم ألمظ ؛ فقال لهم : بياض الظهر ، قالوا لا ندرى ، فقال : انما جهلت من الشفتين ما جهلتم من الظهر . وذم قوما من وجوه الكُتاب بأنه اجتمع معهم في مجلس فتذاكروا عيوب الرقيق فلم يكن فيهم من يُفترق بين الوركع والكوع ، ولا بين الحنف والفدع ، ولا بين اللى واللطع . ثم قال : "وأى مقام أحرزى لصاحبه من رجل من الكُتاب أصطفاه بعض الخلفاء ، وآرتضاه لسيره ، فقرأ عليه يوما كتابا فيه مطرنا مطرا كثر عنه الكلا ، فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكلا ؟ فتردد في الجواب ، وتعثرت لسانه ثم قال : لا أدري ؛ فقال : سل عنه" . قال أبو القاسم الزجاجي في شرح مقدمة أدب الكاتب : وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عمار ، وكان يتقلد العرض عليه ؛ وكان المعتصم ضعيف البصر بالعربية ؛ فلما قرأ عليه أحمد بن عمار الكتاب وسأله عن الكلا فلم يعرفه ، قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ! خليفة أمي ، وكاتب عامي ؛ ثم قال من يُقرب منا من كُتاب الدار فعرف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف على قهزيمة الدار فأمر بإشخاضه ، فلما مثل بين يديه ، قال له ما الكلا ؟ قال : النبات كله رطبه

(١) هو بالفاء والذال المهملة اعوجاج الرُسع من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أو القدم الى انسيها . قاموس . وفي الأصل القذع بالقاف والذال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فتنبه .

(٢) هو من باب دخل كما في المختار .

ويابسُه ، فإذا كان رطباً قيل له خَلًّا ، وإذا كان يابساً قيل له حَشِيش ، وأخذ في ذكر النبات من ابتدائه إلى آكتهاله إلى هيجه ، فقال المعتصم "ليتقلد هذا العرّص علينا ."
ثم حُصَّ به حتى أستوزره .

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضرورية للكاتب التي هي من أهم شأنه ، وأغنى مقاصده . وجُلَّ كتب اللغة المصنّفة في شأنها راجعة إليه ، كصاح الجوهري ، ومُحْكَمَ ابن سيده ، ومُجَمَّلَ ابن فارس وغيرها من المصنّفات التي لا تكاد تُحصى كثرةً والصّاح أقربها مأخذًا ، والمُحْكَمُ أمثلها طريقةً ، وأكثرها جمعًا ، وأكملها تحقيقًا . وقد صرف قوم من المصنّفين العناية من ذلك إلى الأقتصار على ذكر الأسماء والأوصاف : كأوصاف الرجال والنساء المحمودة والمذمومة ، وما يختص من ذلك بالرجال والنساء ؛ وأوصاف الخيل ، وأعضائها ، وألوانها ، وشيئاتها ، وأسنانها ، وسيرها ، وعدوها وما يخص الذكور والإناث منها ؛ وأوصاف الوحوش : من السباع والظباء والوعول والبقر والحمر الوحشيين ؛ وأسماء الطير : من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة ، وبغاث الطير كالرّخم ، وصغاره كالنحل والجراد ؛ وأوصاف الهوام كالْحَشْرَات : من الحيات والورغ ونحو ذلك ؛ وأوصاف العُويّات : من السماء والسحاب والرياح والأمطار ؛ والأزمنة كأوقات الليل والنهار ، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك ؛ وأسماء النَّبَات : من الشجر البرّي كالطَّلح والأراك ، والبستاني كالنخل والعنب ؛ والنبات البرّي كالشّيح والقيصوم ؛ وأنواع المرعى ؛ وأسماء الأماكن : من البراري والقفار ، والرمال والجبال والأحجار ، والمياه والبحار والأنهار والعيون والسيول ؛ والرياض والمَحَالِّ والأبنية ؛ وأسماء جواهر الأرض : من اليواقيت ونحوها ؛ وسائر مستخرجات المعادن ، كالنحاس والرصاص وما يجري مجراها ؛ ومستخرجات البحر : من اللؤلؤ والعنبر والمرجان وغيرها ؛ وأسماء المأكولات : من الحبوب ، والفواكه ، والأطعمة

المصنوعة والأطبخة؛ وأسماء الأشربة: كالماء، واللبن، والعسل، والتمر، وأسماء السلاح: من السيوف، والرماح، والقسي، والسهام، والدروع وغيرها؛ وأسماء اللباس: من الثياب على اختلافها؛ وأسماء الأمتعة، والآنية وسائر الآلات؛ وأسماء الطيب: من المسك، والند، والغالية، والزعفران، وما أشبهها. وكذلك كل ما يجري هذا الجرى. و"كفاية المتحفظ" لابن الأجدابي، و"المذهبة والمعقبة" لابن أصبغ كافتان بالكثير من ذلك. وفي "أدب الكاتب" لابن قتيبة و"فقه اللغة" للشعالبي الجزء الوافر من ذلك.

وصرف آخرون عنايتهم إلى التأليف في الأفعال وتصاريفها كابن درستويه وغيره. وفي "فصيح ثعلب" جزء وافر من ذلك؛ ولعصريتنا الشيخ مقبل الصرعتمشيّ النحويّ كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا.

الصنف الثاني - الفروع المتشعبة في المعاني المختلفة، وهي فروع كثيرة متسعة الأجزاء، متباينة المقاصد؛ لا يكاد يجمعها مصنف، وإن كان الكاتب لا يستغني عن شيء منها، ولا يحسن به تركه.

منها المتباين والمترادف. فأما المتباين فهو ما دلّ لفظ الكلمة منه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى، كالسواد والبياض، والطول والعرض؛ ويحتاج إليه في التعبير عن المعاني المختلفة لاتساع نطاق الكلام. وأما المترادف فهو المتوارد الألفاظ على مسمى واحد كالأسد والسبع للحيوان المفترس؛ والثنية والقلوص للناقاة، ونحو ذلك. ويحتاج إلى معرفة ذلك للخلص عند ضيق الكلام عليه في موضع لطول لفظة أو قصرها أو اختلاف وزنها في شعر، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة في ثر، أو غير ذلك مما يضطر فيه إلى إيراد بعض الألفاظ بدل بعض، كما في قوله:

وَتَيْنِيَةٌ جَاوَزَتْهَا بَثْنِيَةٌ * حَرَفٌ يُعَارِضُهَا جَنِيبٌ أَدْهَمٌ

فإنه أراد بالثنية الأولى العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ؛ والجَنِيبُ الأدهم استعارةٌ لظلمها . فالثنية من حيث وقوعها على الناقة والعقبة أوفقٌ للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التي هي الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب الفقه ونحوها .^(١)

ومنها الحقيقة والمجاز . والحقيقة هي اللفظ الدالُّ على موضوعه الأصلي كالأسد للحيوان المقترس ، والحمار للحيوان المعروف . والمجاز هو ما أريد به غير الموضوع له في أصل اللغة ، كالأسد للرجل الشجاع بعلاقة الشجاعة في كل منهما ، والحمار للبليد بعلاقة البلادة في كل منهما ؛ ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلى الاستعارة والتثيل والكتابة لما بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليد فإنها في أصل اللغة للبحارحة أُطْلِقَتْ على القوة والنعمة مجازاً ، من حيث إن القوة تَظْهَرُ في اليد والنعمة تُوَلَّى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما في معناها .

ومنها الألفاظ المتضادة وهي التي تقع كل لفظة منها على ضد ما تقع عليه الأخرى كالأمانة والخيانة ، والنصيحة والغش ، والفتق والرتق ، والنقض والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيراً ما يبني على الأضداد وربما غلط الكاتب بفعل مقابل الشيء غير ضده فيلزمه النقص في صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطباق اللذين هما من أحسن أنواع البديع . وفي "صناعة الكتاب" لأبي جعفر النحاس جملةٌ صالحة من ذلك ، وفي "كثرة الكتاب" لأبي الفتح كُشَّاحِمٌ جملةٌ جيدة منه أيضاً . ومنها تسمية المتضادين باسم واحد كالجون للأسود والأبيض ، والقرء للطهر والحيض ، والصريم لليل والنهار ، ووراء خلف وقدام ، ونحو ذلك . ويحتاج إليه للتمييز بين الحقائق التي يقع اللبس فيها . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) لعله كتب أصول الفقه .

ومنها المقصور والمدود كالندى للجود وندى الأرض ، والحفا لكلال القدام
والحافر ، والمدود كالسما للفلك وكل ما علاك ، والبقاء لضد الفناء ، وبحود ذلك ؛
وما يجوز فيه المد والقصر جميعا كالزناء والشراء وما أشبههما . ويحتاج إليه الكاتب^(١)
من ثلاثة أوجه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبار المد والقصر كلفظ الهوى فإنه
إن قصر كان بمعنى هوى النفس ، وإن مد كان بمعنى ما بين السماء والأرض . الثاني
أنه إذا أضيف المدود أضيف زيادة واو في الكتابة في حالة الرفع وزيادة ياء في حالة
الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يُتَّجَّح إلى زيادة واو ولا ياء ؛ ولو كان مما يجوز^(٢)
فيه المد والقصر ، جاز فيه بعض حركاته . ربما يمد كالبلاء والقلاء ، فإنه إذا كسر أولها
قُصِرَا وكُتِبَا بالياء وإذا فتح مُدَا وكُتِبَا بالألف . وكالباقلاء فإنه إذا خفف مُدَّ وإذا
شدد قُصِرَ ؛ فحتى لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا في صناعته ، وفي "أدب الكاتب"
من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلف أحواله باعتبار التذكير والتأنيث في كثير من
الأمر . وذلك أن المؤنث على ضريين : أحدهما ما فيه علامة من علامات التأنيث
الثلاث ؛ وهي الهاء نحو حمزة وطلحة ، والألف المدودة نحو حمراء ، والألف المقصورة
نحو حُبلى . وضرب لا علامة فيه وإنما يؤخذ من السماع : كالسما ، والأرض ،
والقوس ، والحرب ، وما أشبهها . وربما كان منه ما يجوز فيه التذكير والتأنيث
كالطريق ، والسبيل ، والموسى ، واللسان ، والسلطان ، وما أشبهها ؛ فإن من العرب
من يذكّر ذلك ومنهم من يؤنثه . وربما وقع لفظ التأنيث على الذكر والأُنثى جميعا

(١) أهمله في الأصل وهو من إهمال النسخ .

(٢) قوله ولو كان مما يجوز الخ كذا في الأصل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محل الوجه الثالث
الذي سقط من قلم النسخ وحاصله أن الداعي إلى معرفتها إما أن يرجع إلى المعنى وهو الأول أو إلى الرسم
والكتابة وهو الثاني أو إلى النطق والرسم وهو الثالث الساقط فتأمل .

كالسُّخْلَةِ وَالْحَيَّةِ وَالْحَمَامَةِ وَالنَّعَامَةِ وَالْبَطَّةِ وَنَحْوَهَا . وَأَيْضًا فَإِنَّ مِنْ وَصْفِ الْمُؤَنَّثِ مَا يُحْدَفُ مِنْهُ الْهَاءُ بِاعْتِبَارِ تَأْوِيلِ آخِرِ كَصَيْغَةِ فَعِيلٍ : فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَقَتِيلٍ بِمَعْنَى مَقْتُولٍ وَخَضِيبٍ بِمَعْنَى مَخْضُوبٍ ، حُذِفَتِ الْهَاءُ مِنْ مُؤَنَّثِهِ : فَيُقَالُ أَمْرَأَةٌ قَتِيلٌ وَكُفٌّ خَضِيبٌ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَعَلِيمٍ بِمَعْنَى عَالِمٍ وَرَحِيمٍ بِمَعْنَى رَاحِمٍ ، تَثَبَّتِ الْهَاءُ فِي مُؤَنَّثِهِ : فَتَقُولُ فِيهِ عَلِيمَةٌ وَرَحِيمَةٌ . وَعَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَعُولٌ فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ بِمَعْنَى فَاعِلٍ كَانَ بِغَيْرِ هَاءٍ نَحْوَ امْرَأَةٍ صَبُورٍ وَشُكُورٍ بِمَعْنَى صَابِرَةٍ شَاكِرَةٍ ، وَإِنْ كَانَ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَانَ مُؤَنَّثُهُ بِالْهَاءِ كَالْحَلُوبَةِ بِمَعْنَى الْحَلُوبَةِ ، وَالرَّكُوبَةِ بِمَعْنَى الْمُرْكُوبَةِ ؛ وَصَيْغَةُ مُفْعَلٍ مِمَّا لَا يُوصَفُ بِهِ الذَّكُورُ تَكُونُ بِغَيْرِ هَاءٍ كَامْرَأَةٍ مُرْضِعٍ ، فَإِنْ أَرَادُوا الْفِعْلَ قَالُوا مُرْضِعَةٌ ؛ وَصَيْغَةُ فَاعِلٍ مِمَّا لَا يَكُونُ وَصْفًا لِمَذْكَرٍ تَكُونُ بِغَيْرِ هَاءٍ أَيْضًا نَحْوَ امْرَأَةٍ طَالِقٍ وَحَامِلٍ ، وَرَبَّمَا حُذِفَتِ الْهَاءُ مِمَّا يَكُونُ لِلذَّكَرِ وَالْمُؤَنَّثِ جَمِيعًا فَتَقُولُ امْرَأَةٌ عَاقِرٌ وَرَجُلٌ عَاقِرٌ . وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" وَ"فَصِيحِ ثَعْلَبِ" جَمَلَةٌ مِنْ ذَلِكَ . وَفِي كِتَابِ النُّحُوِّ الْمَبْسُوطَةِ قَوَاعِدُ مُوصَلَةٌ إِلَى مَقَاصِدِهِ .

وَمِنْهَا الْمُتَهَمُوزُ وَغَيْرُ الْمُتَهَمُوزِ فَإِنَّ الْمَعْنَى قَدْ يَخْتَلِفُ فِي اللَّفْظِ الْوَاحِدِ بِاعْتِبَارِ الْهَمْزِ وَعَدَمِهِ : كَمَا تَقُولُ عَبَّاتُ الْمَتَاعِ بِالْهَمْزِ ، وَعَبَّيْتُ الْجَيْشَ بِغَيْرِ هَمْزٍ ، وَبَارَأْتُ الْكَرِيمِيَّ بِالْهَمْزِ مِنَ الْإِبْرَاءِ ، وَبَارَيْتُ فَلَانًا مِنَ الْمَفَاخِرَةِ بِغَيْرِ هَمْزٍ . وَتَقُولُ زَيْنًا مِنَ الزَّانَا بِغَيْرِ هَمْزٍ ، وَزَنَا فِي الْجَبَلِ إِذَا رَقِيَ فِيهِ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَرَبَّمَا جَاءَ الْهَمْزُ وَعَدَمُهُ فِي الْكَلِمَةِ الْوَاحِدَةِ كَمَا تَقُولُ شَيْتٌ بِالْهَمْزِ وَشَيْتٌ بِإِسْكَانِ الْيَاءِ مِنْ غَيْرِ هَمْزٍ وَنَحْوَ ذَلِكَ . فَتَمَّتْ لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ عَارِفًا بِالْهَمْزِ وَمَوَاضِعِهِ ضَلَّ فِي طَرِيقِ الْكِتَابَةِ . وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" بَابُ مَفْرَدٌ لِذَلِكَ .

وَمِنْهَا مَا وَرَدَ مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ مُرْدَوِجًا كَقَوْلِهِمُ الطَّمُّ وَالرَّمُّ ، يَرِيدُونَ بِالطَّمِّ الْبَحْرَ وَبِالرَّمِّ الثَّرَى ، وَكَقَوْلِهِمُ الْحَجْرَ وَالْمَدْرَ ، فَالْحَجْرُ مَعْرُوفٌ وَالْمَدْرُ التَّرَابُ النَّدَى وَنَحْوَ ذَلِكَ .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكن من وضعه في مواضعه لتحسين الكلام وتميقه في الطباق والمقابلة؛ وفي "أدب الكاتب" نبذة من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مثنى إما على سبيل التغليب : كقولهم القمران يريدون الشمس والقمر، والعمران يريدون أبا بكر وعمر، وإما على الحقيقة : كقولهم ذهب منه الأطيبان، يريدون الأكل والنكاح واختلف عليه الملوآن أو الحديدان، يريدون الليل والنهار، ونحو ذلك؛ وفي "أدب الكاتب" أيضا طرف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتباً كقولهم أوّل النوم النعاس، وهو الاحتياج إلى النوم؛ ثم الوسن، وهو ثقل النعاس؛ ثم الكرى والغمض، وهو أن يكون بين النائم واليقظان؛ ثم التفتيق، وهو النوم وأنت تسمع كلام القوم؛ ثم الإغفاء، وهو النوم الخفيف؛ ثم التهجاع، وهو النوم القليل؛ ثم الرقاد، وهو النوم الطويل؛ ثم الهجوع، وهو النوم الغرق؛ ثم التسبيخ^(١)، وهو أشدّ النوم، وما أشبه ذلك، وفي "فقه اللغة" للتعالي قدر صالح من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مورد الدعاء : إما على بابه في الدعاء كقولهم "أستأصل الله شأفته" يريدون أذهب الله أثره كما يذهب أثر الشأفة، وهى قرحة تخرج في القدم فتكوى فتذهب؛ وقولهم "أباد الله خضراءهم" أى سوادهم ومُعظمهم . أو لم يقصد به حقيقة الدعاء، كقولهم "تربت يدك" أى ألصقت بالتراب من الفاقة، وقولهم "أرغم الله أنفه" أى ألصقه بالرغام، وهم لا يقصدون به الدعاء . وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) أهمله في الأصل وهو من إهمال الناسخ .

ومنها ما تختلف أسماءه مع المشابهة في المعنى كالظفر للإنسان، والحافر للفرس والبغل والحمار، والظلف للبقرة، والمنسم للبعير، والبُرثن للسمك، وما يجرى هذا المجرى. وفي "فقه اللغة" جزء وافر منه .

ومنها ما تختلف أسماءه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يُقال فيه كأس إلا إذا كان فيه شراب وإلا فهو قَدَح ، ولا مائدة إلا إذا كان عليها طعام وإلا فهي خِوَان ، ولا قلم إلا إذا كان مبرياً وإلا فهو أُنبُوبَة ، ولا حاتم إلا وفيه فص وإلا فهو فَتْحَة ونحو ذلك، وفي "فقه اللغة" جملة منه .

ومنها معرفة الأصول التي تُشتق منها الأسماء كتسمية القمر قرّاً لبياضه، إذ الأقر هو الأبيض، وتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلة البدر لمبادرة الشمس القمر بالطلوع، أو لتمامه وأمتلائه حينئذ من حيث إن كل تام يقال له بدر، وتسمية النجم نجماً، أخذاً من قولهم نجم إذا طلع ونحو ذلك، وفي "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) ومنها ما نطقت به العجم على وفق لغة العرب، لعدم وجوده في لغتهم وهو المعرب كالكَفّ والساق والدلال والوزان والصراف والجمال والقصاب والبيطار وما أشبه ذلك؛ وفي "فقه اللغة" جزء من ذلك كاف .

ومنها ما أشرك فيه العربية والفارسية، كاللثور، والنجير، والدينار، والدرهم، والصابون، وما أشبه ذلك؛ وفي "فقه اللغة" أيضاً نبذة منه .

ومنها ما اضطرت العرب إلى تعريبه وأستعماله في لغتهم من اللغة العجمية كالكوز، والإبريق، والطست، والخوان، والطبق، وغيرها من الآنية؛ والسجاج، والزيرباج، والطبايح، والجوداب، ونحوها من الأطعمة؛ والجلاب، والسكنجيين، ونحوهما

(١) قوله وهو المعرب كذا في الأصل .

من الأشربة، والخولنجان، والكافور، والصندل، وغيرها من الأفاويه، والطيب ونحو ذلك؛ وفي "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيدة. إلى غير ذلك من الأمور التي لا يسع استيفؤها مما في أدب الكاتب وفقه اللغة الكثير منه.

ومنها ما تعددت لغاتها؛ وتعلم أن لغة العرب متعددة اللغات متسعة أرجاء الألسن بحيث لا تُساويها في ذلك لغة. فمن ذلك ما فيه لغتان كقولهم رَطْلٌ ورَطْلٌ بكسر الراء وفتحها وسمٌ وسمٌ بفتح السين وضمها؛ وما فيه ثلاث لغات مثل بَرُقِعَ بضم القاف و بَرُقِعَ بفتحها و بَرُقُوعَ بضم الباء وزيادة الواو، وخاتمٌ بكسر التاء وخاتمٌ بفتحها وخَيْتامٌ؛ وما فيه أربع لغات مثل نَطَعَ بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونَطَعَ بفتح النون والطاء جميعا وكَسَرَ النون؛ وصدّاقٌ بفتح الصاد وصدّاقٌ بكسرهما وصدّاقٌ بضمها وصدّقةٌ بضم الصاد وسكون الدال؛ وما فيه خمس لغات كقولهم رِيحَ الشَّمَالِ بفتح الشين من غير همز، والشَّمَالُ بالهمز، والشَّامِلُ بغير همز، والشَّمْلُ بفتح الميم، والشَّمْلُ بسكونها؛ وما فيه ستُّ لغات كفُسَطَطَ بضم الفاء وفِسْطَطَ بكسرهما، وفُسْطَطَ بضم الفاء وإبدال الطاء تاء، وفِسْطَطَ بكسر الفاء، وفُسَّطَطَ بضم الفاء وتشديد السين، وفِسَّطَطَ بكسر الفاء؛ وما فيه تسع لغات كالأئملة بفتح الهمزة وضمها وكسرهما مع فتح الميم وضمها وكسرهما؛ وما فيه عشر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمها وكسرهما مع فتح الباء وضمها وكسرهما والعاشر أصبوع. وفي "أدب الكاتب" جملة من هذا النمط.

الصنف الثالث - الفصيح من اللغة. وأعلم أن اللغة العربية قد تنوعت وأختلفت بحسب تنوع العرب واختلاف ألسنتهم؛ والذي اعتمده حدّاق اللغة وجهابذة العربية من ذلك ما نطق به فصحاء العرب، وهم الذين حلّوا أوساط بلاد العرب، ولم يخالطهم من سواهم من الأمم كثير مخالطة، ولم يصابوا بلاد العجم

فبقيت ألفاظهم سالمة من التغيير والاختلاط بلغة غيرهم : ككقرش ، وهذيل ،
 وكنانة ، وبعض تميم ، وقيس عيلان ، ونحوهم من عرب الحجاز ، وأوساط نجد .
 بخلاف الذين حلوا في أطراف بلاد العرب ، وجاوروا الأعجم فتغيرت ألفاظهم
 بنحالتهم : كحمير ، وهمدان ، وخولان ، والأزد : لجاورتهم بلاد الحبشة ، وطبي
 وغسان : لجاورتهم بلاد الروم بالشام ، وبعض تميم ، وعبد القيس : لجاورتهم أهل
 الجزيرة وفارس .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّغْيِيرَ يَدْخُلُ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مِنْ عِدَّةِ وَجُوهِ :

منها أن تُبدل كلمةً بغيرها : كما يستعمل أهل اللغة الحميرية "ثب" بمعنى 'أجلس' ،
 وهي في عامة لغة العرب للأمر بالطرفة . قال القاضي الرشيد في شرح أمينة الأملعي
 "وربما غلبت العجمة على أحدهم حتى لا يفهم عنه شيء" .

ومنها أن تُبدل حرفاً من الكلمة بحرف آخر : كما تُبدل حير كاف الخطاب شينا
 معجمة فيقولون في قلت لك قلت لَش ؛ وربما أبدلوا التاء أيضاً كافاً فيقولون
 في قلت قلتك ، وكما تُبدل ربيعة الباء الموحدة ميماً فيقولون في بكر مكر ونحو ذلك ،
 وكما يُبدل بعض العرب الصاد المهملة بالسين المهملة فيقولون في صابر سابر ، وكما
 يُبدل بعضهم الطاء المهملة بتاء مثناة فوق فيقولون في طال تال وتُسَمَّعُ من عرب
 أهل الشرق كثيراً ، وكما يبدل قوم التاء المثناة فوق بضاد معجمة فيقولون في أترأضر .
 ومنها أن يعاقب بين حرفين في الكلمة كما يقول بعضهم في بلخ فلبخ ، وفي أصبهان
 أصفهان .

ومنها أن يأتي بحرف بين حرفين فيأتون بكاف بحيم فيقولون في كل جمل . قال
 ابن دريد : "وهي لغة في اليمن كثيرة في أهل بغداد" ويأتون بحيم ككاف

على العكس من الأول فيقولون في رَجُلٍ رَكَلَ يَقْرَبُونَهَا مِنَ الْكَافِ، وَيَأْتُونَ بِشَيْنٍ
معجمة بحيم فيقولون في أَجْتَمَعُوا أَشْتَمَعُوا، وَيَأْتُونَ بِصَادٍ مَهْمَلَةٍ كَرَايَ فَيَقُولُونَ
فِي صِرَاطِ زِرَاطٍ، وَيَأْتُونَ بِجِيمٍ كَرَايَ فَيَقُولُونَ فِي جَارِ زَابِرٍ، وَيَأْتُونَ بِقَافٍ بَيْنَ
القَافِ وَالْكَافِ الْمَعْقُودَةِ، قَالَ أَبُو سَعِيدٍ عَنْ سَمَاعِهِ مِنَ الْعَرَبِ؛ وَلَا يَكَادُ يَوْجَدُ
مِنْهُمْ مَنْ يَنْطِقُ بِهَا عَلَى أَصْلِهَا الْمُوصُوفِ فِي كِتَابِ النُّحُوْبِينِ . وَقَدْ ذَكَرَ الشَّيْخُ
أَبِي الدُّنْيَا أَبُو حَيَّانٍ ذَلِكَ جَمِيعَهُ فِي شَرْحِهِ عَلَى تَسْهِيلِ أَبِي مَالِكٍ .

الصنف الرابع — ما تَأَخَّرَ فِيهِ الْعَامَّةُ وَتَغَيَّرَ عَنْ مَوْضِعِهِ بَأَنَّ يَكُونُ مَفْتُوحَ
الأوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَكْسِرُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي جَفْنِ الْعَيْنِ بَفَتْحِ الْجِيمِ جَفْنٌ بِكَسْرِهَا ؛ أَوْ مَفْتُوحِ
الأوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَضُمَّهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْقَبُولِ الَّذِي هُوَ خِلَافُ الرَّدِّ قَبُولٌ بِضَمِّهَا ؛ أَوْ مَكْسُورِ
الأوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي دِرْهِمٍ بِكَسْرِ الدَّالِ دَرِّهْمٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَكْسُورِ الأوَّلِ
وَالْعَامَّةُ تَضُمَّهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي التَّمْسَاحِ بِكَسْرِ التَّاءِ تُمْسَاحٌ بِضَمِّهَا ؛ أَوْ مَضْمُومِ الأوَّلِ
وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي العُضْفُورِ بِضَمِّ الْعَيْنِ عَضْفُورٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَضْمُومِ الأوَّلِ
وَالْعَامَّةُ تَكْسِرُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الظُّفْرِ بِضَمِّ الظَّاءِ ظِفْرٌ بِكَسْرِهَا ؛ أَوْ مَفْتُوحِ الوَسْطِ : كَقَوْلِهِمْ
فِي الْقَالِبِ بِفَتْحِ اللَّامِ قَالِبٌ بِكَسْرِهَا ؛ أَوْ مَكْسُورِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ : كَقَوْلِهِمْ
فِي الرَّجْلِ المَوْسُوسِ ، وَالبُرِّ المَسُوسِ ، وَالجَبَنِ المَدُودِ بِكَسْرِ الواوِ فِي الثَّلَاثَةِ : مُوسُوسٌ
وَمُسُوسٌ وَمَدُودٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَضْمُومِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَفْتَحُهُ كَقَوْلِهِمْ فِي الجُدِّ جَمْعُ
جَدِيدٍ جُدَّدٌ بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مَحْرُوكِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَسْكُنُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي التُّحْفَةِ بِفَتْحِ الحَاءِ
تُحْفَةٌ بِإِسْكَانِهَا ؛ أَوْ سَاكِنِ الوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَحْرُوكُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الحَلْقَةِ بِإِسْكَانِ اللَّامِ حَلَقَةٌ
بِفَتْحِهَا ؛ أَوْ مُشَدَّدَا الْعَامَّةُ تَخَفِّفُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الْعَارِيَةِ بِتَشْدِيدِ الياءِ عَارِيَةٌ بِتَخْفِيفِهَا ؛
أَوْ مُخَفَّفَا الْعَامَّةُ تُشَدِّدُهُ : كَقَوْلِهِمْ فِي الكَرَاهِيَةِ بِتَخْفِيفِ الياءِ كَرَاهِيَةٌ بِتَشْدِيدِهَا ؛
أَوْ مَهْمُوزَا الْعَامَّةُ تَحْذِفُ الهمزَ مِنْ أَوَّلِهِ : كَقَوْلِهِمْ فِي الإِهْلِيلِجِ بِإِثْبَاتِ هَمْزَةٍ فِي أَوَّلِهِ

هَلِيَجْ بِحَذْفِهَا؛ أَوْ مَهْمُوزِ الْوَسْطِ وَالْعَامَّةُ تَسْهَلُ: كَقَوْلِهِمْ فِي الْمِرْءَاةِ بِإِثْبَاتِ الْهَمْزَةِ مِرَاةً بِحَذْفِهَا، أَوْ غَيْرِ مَهْمُوزِ الْأَوَّلِ وَالْعَامَّةُ تَثْبِتُ الْهَمْزَةَ فِي أَوَّلِهِ: كَقَوْلِهِمْ فِي الْكُرَّةِ، أَوْ كُرَّةً^(١)؛ أَوْ كَانَ بِالظَّاءِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالضَّادِ الْمَعْجَمَةُ كَالْوِظِيفَةِ وَنَحْوِهَا، أَوْ بِالضَّادِ بِفَعْلَتِهِ بِالظَّاءِ: كَقَوْلِهِمْ فِي الْبَيْضَةِ بَيْظَةً، أَوْ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةُ بِفَعْلَتِهِ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ كَالذَّرَاعِ، أَوْ كَانَ بِالجِيمِ بِفَعْلَتِهِ بِالْقَافِ: كَقَوْلِهِمْ فِي مَجَادِيْفِ السَّفِينَةِ مَقَادِيْفٍ؛ أَوْ بِالذَّالِ الْمَهْمَلَةِ بِفَعْلَتِهِ بِالنَّاءِ الْمُثَنَّى فَوْقَ: كَقَوْلِهِمْ فِي دَخَارِيصِ الْقَمِيصِ تَخَارِيصَ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا شَاعَ وَذَاعَ وَفِي "أَدَبِ الْكَاتِبِ" لِأَبْنِ قَتَيْبَةَ نُبْدَةٌ مِنْ لَحْنِ أَهْلِ الْمَشْرِقِ، وَكُتِبَ "تَثْقِيفُ اللِّسَانِ" لِأَبْنِ مَكِّي التُّونِسِيِّ مَوْضُوعٌ فِي لَحْنِ أَهْلِ الْغَرْبِ، وَفَصِيحٌ نَعَلَبَ مُشْتَمَلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ هَذَا الْمَقْصِدِ.

الصنف الخامس - الألفاظ الكتابية، وهي ألفاظٌ أُنْتُخِبَ الْكُتَّابُ وَأَنْتَقَوْهَا مِنْ اللُّغَةِ اسْتِحْسَانًا لَهَا وَتَمْيِيزًا لَهَا فِي الطَّلَاوَةِ وَالرِّشَاقَةِ عَلَى غَيْرِهَا. قَالَ الْجَاهِظُ "مَا رَأَيْتُ أُمَّثَلَ طَرِيقَةً مِنْ هَوْلَاءِ الْكُتَّابِ، فَإِنَّهُمْ أَلْتَسُّوا مِنْ الْأَلْفَاظِ مَا لَمْ يَكُنْ مَتَوَعَّرًا حُوشِيًّا، وَلَا سَاقِطًا سُوقِيًّا". وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ": أَنْ الْكُتَّابَ غَرِبَلُوا اللُّغَةَ وَأَنْتَقَوْا مِنْهَا أَلْفَاظًا رَائِقَةً اسْتَعْمَلُوهَا.

ثم هذه الألفاظ أسماء وأفعال: فالأسماء كقولك في المدح فلانٌ غرّةُ القبيلة، وسنامها، وذؤابتها، وذروتها؛ وهو نبتة أرومتها وأبلقٌ كتبتته ومدره عشيرته ونحو ذلك. والأفعال كقولك في إصلاح الفاسد: أصلح الفاسد، ولم الشعث، ورأب الشعب، وضمّ النثر، ورمّ الرث، وجمع الشتات، وجبر الكسر، وأسا الكلم، ورفق الخرق، ورتق الفتق، وشعب الصدع. وفي "كتاب الألفاظ" لعبد الرحمن ابن عيسى الكاتب كفايةً من ذلك. وله مختصر أربى عليه. وفي "كثرة الكتاب" لكشاحم ما فيه مقنع.

(١) هي لغة كما في القاموس.

المقصد الرابع

(في كيفية تصرف الكاتب في الألفاظ اللغوية . وتصريفها في وجوه الكتابة)

لاخفاء أنه إذا أكثر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعرف الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد والمتقاربة المعاني ، تمكن من التعبير عن المعاني التي يضطر إلى الكتابة فيها بالعبارات المختلفة ، والألفاظ المتباينة ؛ وسهل عليه التعبير عن مقصوده ، وهان عليه إنشاء الكلام وترتيبه . وفي الأمثلة التي أوردها كشاف في "كثر الكتاب" ، حيث يعبر عن المعنى الواحد بعبارات متعددة ما يرشد إلى الطريق في ذلك ، ويهدي إلى سلوك الجادة الموصلة إلى القصد منه .

وهذه نسخة مكتوبة منه في التهنئة بمولود يستضاء بها في ذلك ، وهي :

قد جعلك الله من نبع طابت مغارسها ، أرومة رنخت عروقها ؛ شجرة زكت
عصونها ؛ فرع شرفت منابته ، معدن زكت علائقه ؛ جوهر شاعت مكارمه ؛ عنصر
بسقت فروعها ؛ محمد ذاعت محامده ؛ أصل نجبت ماثره ؛ سنخ خلصت مناقبه ؛
نصاب صرحت مفاخره ؛ بحر تمت مساعيه ؛ أصل فضلت معالمه ؛ عنصر نصرت
محاسنه ؛ متمى كثرت مناقبه . فالزيادة فيها زيادة في جوهر الكرم ، مظاهر في محور
ثرى الإفضال ، ذخيرة نفيسة لذوى الآمال ، نعمة كاملة السعادة ، غبطة شاملة
البشاشة ، سرور يواجه الأولياء ، حبور تجتويه الأعداء ، غبطة تصل إلى الأحرار ،
آبهاج لذوى الأخطار . فتولى الله نعمه عندك بالحراسة الوافية ، بالولاية الكافية ،
الكفاية المتظاهرة ، الدفاع الكالى ، الحفاظ الداعى ، الصنع الجميل ، الدفاع الحسن ،
العافية المتكافئة . وبلغنى الخبر هبة الله المستحدة ، الولد المبارك ، الفرع الطيب ،
السليل الرضى ، الولد الصالح ، الابن السار ، الثمرة المثمرة ، السلالة الزكية ، والنجل

الميمون، الذي عمر أُنِيَّةَ السِّيادة . زاد في مواثيق العهد والرياسة ، أرسى قَوَاعِدَ السيادة ، ثَبَّتَ أَسَاسَ الرَّفْعَةِ ، أوثق عُرى المجد ، مَكَّنَ أركان الفضل ، وَطَّدَ أَسَاسَ المَكَارِمِ ، أَكَّدَ علائِقَ الشَّرَفِ ، أَبَدَ أَوَانِي الكرم ، أَرَمَ جِبَالَ الجُودِ ، أَمَرَ أَسْبَابَ الطُّولِ ، شَيَّدَ بُنْيَانَ الكِجَالِ ، أَحْصَفَ أَيْدِيَ السَّمَاحَةِ ، أَحْكَمَ قُوَى الرَّجَاحَةِ ، أوثق عَقْدَ العُلَا ، رَفَعَ دَعَائِمَ الظُّهَارَةِ ، أَنَارَ أَعْلَامَ العَارَةِ ، أَظْهَرَ عِلَامَاتِ الخَيْرِ . فتبَاشَرْتُ بِهِ ، أَتَهَجَّجْتُ ، أَجْتَدِلْتُ ، أَغْتَبِطُ ، فَرِحْتُ ، سُرِرْتُ ، اسْتَبَشَرْتُ . جعله الله بَرًّا نَقِيًّا ، سَيِّدًا ، حَمِيدًا ، مَيْمُونًا ، مُبَارَكًا ، طَيِّبًا ، عَزِيزًا ، سَعِيدًا ، ظَهِيرًا ، عَوْنًا ، نَاصِرًا ، رَاجِحًا ، زَيْكًا ، وَزَرًا ، مَلْجَأًا . يَتَّقِلُ سَلْفَهُ ، وَيَقْتَنِي أَثَرَهُمْ ، يَسْلُكُ مِنْهَا جِهَهُمْ ، يَسُنُّ سُنَّتَهُمْ ، يَتَّبِعُ قَصْدَهُمْ ، يَسِيرُ سِيَرَتَهُمْ ، يَسْعَى مَسَاعِيَهُمْ ، يَتَّخُو مِثَالَهُمْ ، يَحْدُو حَذْوَهُمْ ، يَتَخَلَّقُ بِأَخْلَاقِهِمْ ، يَبْصُرُ بِصِيَرَتِهِمْ ، يَنْوُطُ أَعْمَالَهُمْ ، يَتَرَسَّمُ رُسُومَهُمْ . وَأَيُّنَ بِهِ عَدْدُكَ ، كَثُرَ بِهِ ذُرِّيَّتُكَ ، أَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمَلِكُ ، شَفَعَهُ اللهُ بِأَخْوَةِ بَرَّةٍ ، وَفَقَّهُ اللهُ لِأَدَاءِ حَقِّكَ ، جعله خَيْرَ خَلْفٍ كَمَا هُوَ خَيْرُ سَلْفٍ . زَيْنَ بِهِ العَشِيرَةَ ، وَهَبَ لَهُ التَّمَاءَ ، بَلَغَ بِهِ أَكْلًا العُمُرِ ، مَكَّنَ لَهُ فِي رَفِيعِ المَرَاتِبِ ، حَقَّقَ فِيهِ فِرَاسَتَكَ ، وَهَبَ لَهُ تَمَامَ الفَضِيلَةِ ، وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ ، أَجَارَكَ فِيهِ مِنَ التُّكْلِ ، سَرَّكَ بِفَائِدَتِهِ ، أَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْتِهِ ، أَطَابَ عَيْشَكَ بِهِ ، مَتَّعَكَ بِعَطِيَّتِهِ ، أَلْهَمَكَ شُكْرَ مَاخَوْلِكَ ، وَأَصَلَ لَكَ المَزِيدَ بِرَحْمَتِهِ .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عدة كتب بتهنئة بولد، فعل . كما إذا قال : قد جعلك الله من نَبْعَةٍ طَابَتْ مَغَارِسُهَا ، فَالزِّيَادَةُ فِيهَا زِيَادَةٌ فِي جَوْهَرِ الكَرَمِ ، فَتَوَلَّى اللهُ نِعْمَهُ عِنْدَكَ بِالحِرَاسَةِ ، وَبَلَّغْنِي الخُبْرُ بِهَبَةِ اللهُ الحَدِيدَةَ المَسْتَجِدَّةَ ، الوَلَدِ المَبَارَكِ الَّذِي عَمَّرَ أُنِيَّةَ السِّيَادَةِ ، فَتَبَاشَرْتُ بِهِ ، جعله الله تَعَالَى بَرًّا

تقيا، يتقبل سلفه، وأيمن به عدوك، وأوزعك الشكر عليه، وواصل لك المزيد برحمته، كان ذلك كتابا كافيا في هذا النوع. فتأمل ذلك وقس عليه .

النوع الثاني

(المعرفة باللغة العجمية، وهي كل ما عدا العربية : من التركية، والفارسية، والرومية، والفريجية، والبربرية، والسودان، وغيرهم، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إلى معرفة اللغات العجمية)

لا يخفى أن الكاتب يحتاج في كماله إلى معرفة لغة الكتب التي ترد عليه للملكه أو أميره ليفهمها ويحيب عنها من غير اطلاع ترجمان عليها، فإنه أصون لستملكه، وأبلغ في بلوغ مقاصده .

وقد روى محمد بن عمر المدائني في "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((إنه يرد على أشياء من كلام السريانية لا أحسنها فتعلم كلام السريانية فتعلمتها في ستة عشر يوما)) وفي رواية قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((أحسن السريانية؟ فإنه يأتيني كتب بها، قلت لا . قال فتعلمها فتعلمتها في سبعة عشر يوما، فكنت أجيب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرأ كتب يهود إذا وردت عليه)) وفي رواية، قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((يا زيد تعلم كتاب يهود فأني والله لا آمن يهود على كتابي قال فتعلمت كتابهم فما مر لي ست عشرة ليلة حتى حدقته فكنت أقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه وأجيب إذا كتب)) وفي رواية العبرانية بدل السريانية .

قال محمد بن عمر المدائني بل قد قيل إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفهم اللغات كلها وإن كان عربياً لأن الله تعالى بعثه إلى الناس كافةً ولم يكن الله بالذي يبعث نبياً إلى قومٍ لا يفهم عنهم، ولذلك كَلَّمَ سَلْمَانَ بِالْفَارْسِيَّةِ . وساق بسنده إلى عكرمة أنه قال: سئِلَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَلْ تَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفَارْسِيَّةِ قَالَ نَعَمْ، دَخَلَ عَلَيْهِ سَلْمَانٌ فَقَالَ لَهُ دَرَسْتَهُ وَسَادَتَهُ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَمِيَلٍ: أَظْنَهُ مَرَّحِبًا وَأَهْلًا .
 وحينئذ فيكون النبي صلى الله عليه وسلم إنما أمر زيدا بتعلم كتابة السريانية أو العبرانية لتحریم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعلم لغتهم .

المقصد الثاني

(في بيان ما يتصرف فيه الكاتب من اللغة العجمية)

اعلم أن الذي ينبغي له تعلمه من اللغات العجمية هو ما تتعلق به حاجته في المخاطبة والمكاتبة .

أما المخاطبة فبأن يكون لسان ملكه بعض الألسن العجمية أو كان الغالب عليه لسان عجمي مع معرفته بالعربية : كما غلبت اللغة التركية على ملوك الديار المصرية ، وكما غلبت اللغة الفارسية على ملوك بلاد العراق وفارس ، وكما غلب لسان البربر على ملوك بلاد المغرب مع تبعية عسكر كل ملك في اللسان الغالب عليه له في ذلك فيحتاج الكاتب إلى معرفة لسان السلطان الذي يتكلم به هو وعسكره ليكون أقرب إلى حصول قصده : من فهم الخطاب وتفهمه ، وسرعة إدراك ما يليق إليه من ذلك ، وتأدية ما يقصد تأديته منه ؛ مع ما يحصل له من الحظوة والتقريب بالموافقة في اللسان ؛ فإن الشخص يميل إلى من يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوس ملوك الديار المصرية وأمرائها وجُنُدها لمن يتكلم بالتركية: من العلماء والكتّاب ومن في معانهم على ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكتوبة فبأن يكون يعرف لسان الكتّاب الواردة على ملكه ليرجمها له ويحيب عنها بلغتها التي وردت بها؛ فإن في ذلك وقعاً في النفوس، وأستجلاباً للقلوب، وصوناً للسر عن أطلاع ترجمان عليه؛ وأمرُ النبي صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلم السريانية أو العبرانية على ما تقدم ظاهرٌ في طلب ذلك من الكاتب وحثه عليه .

ثم اللغات العجمية على ضربين: أحدهما ماله قلم يكتب به في تلك اللغة كاللغة الفارسية، واللغة الرومية، واللغة الفرنجية ونحوها؛ فإن لكل منها قلماً يخصه يكتب به في تلك اللغة . والثاني ما ليس له قلم يكتب به، وهي لغات القوم الذين تغلب عليهم البدأوة كالترك والسودان . ولأجل ذلك ترد الكتّاب من القانات ملوك الترك بلاد الشمال المعروف في القديم بيت بركة، والآن بمملكة أذربك باللغة المغلية بالخط العربي . وترد الكتّاب الصادرة عن ملوك السودان باللفظ العربي والخط العربي . أما اللغات التي لها أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم : كالكتّاب الواردة من ملوك الروم والفرنج ونحوهما ممن لغته قلم يخصه على اختلاف الألسنة واللغات .

النوع الثالث

(المعرفة بالنحو؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إليه)

لا نزاع أن النحو هو قانون اللغة العربية، وميزان تقويمها؛ وقد تقدم في النوع الأول أن اللغة العربية هي رأس مال الكاتب، وأُسُّ مقالته، وكثر إنفاقه . وحينئذ

فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرق الإعراب، والأخذ في تعاطي ذلك حتى يجعله دأبه، ويُصيره ديدنه : ليرتسم الإعرابُ في فكره، ويدور على لسانه، وينطلق به مقال قلمه وكمه، ويزول به الوهم عن سببته، ويكون على بصيرة من عبارته . فإنه إذا أتى من البلاغة بأعلى رتبة ولحن في كلامه، ذهب محاسن ما أتى به، وأنهدمت طبقة كلامه وألغى جميع ما حسنه، ووقف به عند ما جهله . قال في "المثل السائر": وهو أول ما ينبغي إثبات معرفته؛ على أنه ليس مختصاً بهذا العلم خاصة بل بكل علم؛ لا : بل ينبغي معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي ليأمن معزة اللحن . قال صاحب "الريحان والريعان" ولم يزل الخلفاء الراشدون بعد النبي صلى الله عليه وسلم يحثون على تعلم العربية، وحفظها والرعاية لمعانيها، إذ هي من الدين بالمكان المعلوم، والمحل المخصوص . قال عثمان المهري : « أتانا كتاب عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ونحن بأذربيجان يأمرنا بأشياء، ويدكر فيها : "تعلموا العربية فإنها تثبت العقل، وتزيد في المروءة" . وكان لخالد بن يزيد بن معاوية أخٌ بجاءه يوماً فقال : إن الوليد ابن عبد الملك يعبث بي ويحتقرني، فدخل خالد على عبد الملك والوليد عنده فقال يأمر المؤمنين ! : إن الوليد قد احتقر ابن عمه عبد الله وأستصغره، وعبد الملك مطرق فرجع رأسه وقال : (إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها) الآية - فقال خالد : (وإذا أردنا أن نهلك قرية) الآية - فقال عبد الملك : أفى عبد الله تكلمنى؟ وقد دخل على ف أقام لسانه لحنًا - فقال خالد : أفى الوليد تعول؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلحن فإن أخاه سليمان - فقال خالد : وإن كان عبد الله يلحن فإن أخاه خالد في كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره .

وقال الرشيد يوماً لبنيه : "ما ضر أحدكم لو تعلم من العربية ما يصلح به لسانه؟ أيسر أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمتيه؟" . ومن كلام مالك بن أنس

”الإعراب حَلَى اللِّسَانِ فلا تَمَنَّعُوا ألسنتكم حُلِيِّهَا“ . والله دَرَّ أبى سعيد البصرى !
حيث يقول :

النَّحْوُ يَسُطُّ مِنْ لِسَانِ الْأَلْكَنِ * وَالْمَرْءُ تُكْرِمُهُ إِذَا لَمْ يَلْحَرْبِ
وَإِذَا طَلَبَتْ مِنَ الْعُلُومِ أَجْلَهَا * فَأَجَلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ

قال صاحب ”الريحان والريهان“ واللحن قبيح في كبراء الناس وسرآتهم ، كما أن الإعرابَ جمال لهم ، وهو يرفع الساقط من السفلة ويرتقي به إلى مرتبة تُلحِّقه بمن كان فوقَ نمطه وصنفته . قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنى ؛ فإن اللحن يغير المعنى واللفظ ويقلبه عن المراد به إلى ضده حتى يفهم السامعُ خلاف المقصود منه . وقد روى أن أعرابيا سمع قارئاً يقرأ ﴿إِنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾ بجزء رسوله فتوهم عطفه على المشركين فقال : أو برى الله من رسوله ؟ ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يقرأ القرآن إلا من يُحسن العربية . على أن الحسن قد قرأها بالجزء على التقسم وقد ذهب على الأعرابي فهم ذلك لخفائه . وقرأ آخر ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ برفع الأول ونصب الثانى ، فوقع في الكفر بنقل فتحة إلى ضمة وضمة إلى فتحة فقبل له : يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا ! فتنبه لذلك وتفظن له . وسمع أعرابى رجلا يقول : أشهد أن محمدا رسول الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على التعت فقال يفعل ماذا ؟ . وقال رجل لآخر ما شأنك ؟ بالنصب فظن أنه يسأل عن شين به فقال عظم في وجهى . وقال رجل لأعرابى : كيف أهلك ؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهله فتوهم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صلبا . ودخل رجل على زياد بن أبيه فقال : إن أبونا مات وإن أخينا وثب على مال أبانا فأكله — فقال زياد للذى أضعته من كلامك أضر عليك مما أضعته من مالك . وقيل لرجل من أين أقبلت ؟ فقال من عند أهلونا ، ففسده آخر

حين سمعه وظن ذلك فصاحةً فقال أنا والله أعلم من أين أخذها ؟ من قوله ﴿شَعَلْنَا
أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا﴾ فأضحك كلُّ منهما من نفسه . قال صاحب "الريحان والرياحان"
وكان من يُؤثر عقله من الخلفاء يعاقب على اللحن وينفر من خطأ القول ، ولا يبيح أن
يُخاطب به في الرسائل البُلدانية ، ولا أن يُوقف به على رءوسهم في الخطب المَقَامِيَّة
قال : وهو الوجه . فأندبهم مَطْلَب الكمال ، ومَطْأ الصواب في إحكام الأفعال ، فكيف
في إحكام الأقوال . قال ابن قادم النحوى : "وجه إلى إسحاق بن إبراهيم المصعبى : وهو
أمير فأحضرني فلم أدري ما السبب ، فلما قُرِبت من مجلسه تلقاني كاتبه على الرسائل
ميمون بن إبراهيم وهو على ذاية الهلع والجزع ، فقال لى بصوت خفى إنه إسحاق ! ومررت
غير متلبث حتى رجع إلى إسحاق ، فأعنى ما سمعت ، فلما مثلت بين يديه ، قال كيف
يقال وهذا المال مالٌ أو وهذا المالٌ مالا ، فعلمت ما أراد ميمون الكاتب فقلت له
الوجهُ وهذا المالٌ مالٌ ويموز وهذا المالٌ مالا ، فأقبل إسحاق على ميمون كاتبه بغلظة
وفظاظة ثم قال : «ألزم الوجه في كُتُبك ودع ما يجوز ! » ورمى بكتاب كان في يديه ،
فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم
وذكر مالا حملة إليه فقال «وهذا المالٌ مالا» ، فخط المأمون على الموضع من الكتاب
ووقع بخطه في حاشيته تَكَاتِبِنِي باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجاوز موضع اللحن في قراءة
الكتاب فقامت عند إسحاق ، فكان ميمون الكاتب بعد ذلك يقول : لا أدري
كيف أشكر ابن قادم ببق على رُوحى ونعمتى . ووقف بعض الخلفاء على كتاب
لبعض عماله فيه لحن في لفظه فكتب إلى عامله : قنع كتابك هذا سوطاً معاينة على
لحنه . قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدار أهل العلم ، وبحسبه كانت الرغبة في طلبه
والحذر من الزلل . قال صاحب "الريحان والرياحان" : فكيف لو أبصر بعض كتاب
زماننا هذا ؟ . قلت قد قال ذلك في زمانه هو وفي الناس بعض الرمق والعلم ظاهر
وأهله مكرمون ، وإلا فلو عمر إلى زماننا نحن لقال ﴿تلك أمة قد خلت﴾ .

ثم المرجع في معرفة النحو إلى التلقّي من أفواه العلماء الماهرين فيه ، والنظر في الكتب المعتمّدة في ذلك من كتب المتقدمين والمتأخرين .

وأعلم أن كتب النحو : من المبسوطات والمختصرات والمتوسّطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمّدة في زماننا عند أبناء المشرق "المفصل" للزمخشري و"الكافية" لابن الحاجب . وعند المصريين كتبُ ابن مالك : كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب ابن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعن على متعلّمي العربية جهلا وتعديا حتى إنهم يحتجّون بما يزعمون أن القاسم بن مُحمّمة قال : « النحو أوله سُغْلٌ وآخره بَغْيٌ » قال : وهذا كلام لا معنى له لأن أول الفقه سُغْلٌ وأول الحساب سُغْلٌ وكذا أوائل العلوم . أفترى الناس تاركين العلوم من أجل أن أولها سُغْلٌ ؟ . قال وأما قوله « وآخره بغي » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذفه صار فيه زهواً واستحقاراً من يلحن فهذا موجود في غيره من العلوم : من الفقه وغيره في بعض الناس وإن كان مكروهاً . وإن كان يريد بالبغي التجاوز فيما لا يحلُّ فهذا كلامٌ محالٌ فإن النحو إنما هو العلم باللغة التي نزل بها القرآن وهي لغة النبي صلى الله عليه وسلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل : وقد كان الكتابُ فيما مضى أرعبَ الناس في علم النحو وأكثرهم تعظيماً للعلماء حتى دخل فيهم من لا يستحقُّ هذا الاسم فصعب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب ، وبعُدت عليهم معرفة الهمزة التي ينضمُّ وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لا معنى لها : في كلامٍ آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . — أما التعمق في الإعراب والمبالغة فيه فإن حكاه في الاستكراه حكمُ الثعور في الغريب ؛ وقد كانوا يذمون من يتعاناه ، ويسخرون من يتعاطاه . قال الأصمعي

خاصم عيسى بن عمير النحوي رجلا إلى بلال بن أبي بردة فجعل عيسى يُسبِع الإعراب ويتعمق في الألفاظ، وجعل الرجل ينظر إليه - فقال له القاضي: "لأن يذهب بعض حق هذا أحب إليه من تركه الإعراب، فلا تشاغل به وأقصد بحجتك". وخاصم نحويّ نحوياً آخر عند بعض القضاة في دين عليه فقال: "أصلح الله القاضي! لي على هذا درهمان" - فقال خصمه: "والله أصلحك الله! إن هي إلا ثلاثة دراهم ولكنه لظهور الإعراب ترك من حقه درهما". فهذا وشبهه قد صار مذموماً والمتشبهت به ملوماً؛ ولذلك كان بعض الكتاب لشدة اقتداره على الإعراب يُعرب كلامه ولا يُحَيِّل إلى السامع أنه يُعرب، فإن عرض مع التعمق في الإعراب لحن، كان ذلك أبلغ في الشناعة، وأجدر بتوجه اللوم على صاحبه والسخرية من المتكلم به. وقد قال الجاحظ: «إن أقبح اللحن لحن أصحاب التعيير والتشديق والتعطيط والجمهوريّة والتفخيم». قال «وأقبح من ذلك لحن الأعراب النازلين على طريق السابلة وبُقرّب مجامع الأسواق». وعلى الجملة فالنحو لا يُستغنى عنه ولا يوجد بد منه، إذ هو حليّ الكلام، وهو له كما قيل كالمُملح في الطعام. قال في "المثل السائر": والجهل بالنحو لا يُقدح في فصاحته ولا بلاغته ولكنه يُقدح في الجهل به نفسه لأنه رُسوم قوم تواضعوا عليه وهم الناطقون باللغة فوجب آتباعهم؛ ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وعرضه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مجرأهما وإنما غرضه إيراد المعنى الحسن في اللفظ الحسن المتصفين بصفة الفصاحة والبلاغة. قال: ولذلك لم يكن اللحن قادحا في نفس الكلام: لأنه إذا قيل جاء زيد راكباً بالرفع لو لم يكن حسنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا في حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشعر إقامة إعراب كلماته وإنما الغرض أمر وراء ذلك - وهكذا يجري الحكم في الخطب والرسائل من المنشور مع

ما حكي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدمين في شعرهم ، كقول أبي نؤاس في ممد الأمين :

يا خير من كان ومن يكون * إلا النبي الطاهر المأمون

فرغ المستثنى من الموجب . وكقول المنبئ :

أرأيت همة ناقتي في ناقة * نقلت يدا سرحا وخفا مجمرًا
تركت دُخان الرمث في أوطانها * طلبًا لقوم يُوقدون العنبرًا
وتكرمت ركباتها عن مبرك * تقعان فيه وليس مسكا أذفرًا

بجمع في حالة التثنية ، لأن الناقة ليس لها إلا رُكبتان وقد قال رُكباتها .

وأعلم أن اللحن قد فشا في الناس ، والألسنة قد تغيرت حتى صار التكلم بالإعراب عيبًا ، والنطق بالكلام الفصيح عيبًا . قلت : والذي يقتضيه حال الزمان ، والجرى على منهاج الناس أن يحافظ على الإعراب في القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية ، وفي الشعر والكلام المسجوع ، وما يدون من الكلام ، ويكتب من المراسلات ونحوها ؛ ويفتخر اللحن في الكلام الشائع بين الناس الدائر على ألسنتهم مما يتداولونه بينهم ويتحاورون به في مخاطباتهم ؛ وعلى ذلك جرت سنة الناس في الكلام مذسدت الألسنة ، وتغيرت اللغة حتى حكي أن الفراء مع جلالة قدره وعلو رتبته في النحو دخل يوما على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ؛ فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفراء أتلحن يا يحيى؟ فقال يا أمير المؤمنين ! : إن طباع أهل البدو الإعراب وطباع أهل الحضرة اللحن فاذا حفظت أو كتبت لم أَلحن وإذا رجعت الى الطبع لَحنت — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ في كتابه "البيان والتبيين" « ومتى سمعت حفظك الله نادرة من كلام الأعراب فإياك أن

تَحْكِيهَا إِلَّا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ؛ فإنك إن غيرتها بأن لَحَنْتَ في إعرابها أو أخرجتها تَخْرَجَ كلام المولدين والبلديين ، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبيرٌ ؛ وإن سمعتَ نادرة من نوادر العوام ومُلْحَةً من مُلَحِّهم فإياك أن تستعمل لها الإعرابَ أو تُخَيِّرَ لها لفظا حسنا ، فإن ذلك يُفْسِدُ الإمتاعَ بها ويُخْرِجُها من صورتها التي وُضِعَتْ لها وَيُذْهِبُ اسْتِطَابَتَهُمْ إياها . قال : «واللحن من الجوارى الظرف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الخدور أيسرُ وربما اسْتَمْلَحَ الرجلُ ذلكَ منهنَّ ما لم تكن الجارية صاحبة تكلفٍ» ولكن إذا كان اللحن على سبجية سُكَّانِ البلد كما يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن فإذا أسنت وأكثلت سُمِّ ذلك الاستملاح . قال : «ومن استملح اللحن في النساء مالك بن أسماء فقال في بعض نسائه :

أُغَطِّي مَنِيَّ عَلَى بَصْرِي لِلْحُبِّ أَمْ أَنْتِ أَكَلِ النَّاسِ حُسْنًا؟
وَحَدِيثُ اللَّهِ هُوَ مِمَّا * تَشْتَبِيهِ الْأَسْمَاعُ يُوزَنُ وَزَنًا
مَنْطِقُ صَائِبٍ وَتَلْحَنُ أَحْيَا * نَأْ وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لَحْنًا

والناس في ذلك كله بحسب البلاد وأهلها ، ألا ترى أن العرب وإن تغيرت ألسنتهم بمخالطة مَنْ عداهم فإنهم لا يَخْلُو كَلَامُهُمْ من مُوافقة الإعراب في بعض الكلام والجري على قواعد العربية خصوصا عَرَبِ الحجاز وأهل البادية منهم . وقد قال الجاحظ في أثناء كلامه «ولأهل المدينة ألسنة ذلقة ، وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة ؛ واللحن في عوامهم فإش وعلى مَنْ لم ينظر منهم في النحو غالبٌ» .

المقصد الثاني

(في كيفية تصرّف الكاتب في علم العربية)

وأعلم أن أنتفاع الكاتب بالنحو من وجهين : أحدهما الإعراب وما يلحق به . ومن أهم ما يُعتنى به من ذلك النَّسَبُ لكثرة استعماله في الألقاب ونحوها ، وكذلك العددُ فإنه مما يقع فيه اللَّبْسُ على المبتدئ ؛ ومحل ذلك كله كتب النحو . الثاني فيما يقع الكاتب فيه بطريق العَرَضِ ، فيحتاج من ذلك إلى معرفة النُّحاة ومشاهير أهل العربية كأبي الأسود الدؤلي ، وسيبويه ، والقرءاء ، وأبي علي ، وأبي عثمان المازني وغيرهم من المتقدمين ؛ وأبن عُصفور وأبن مالك وأبن مُعْطَى وغيرهم من المتأخرين ؛ وكذلك أسماء كتبهم المشهورة في هذا الفن : من المبسوطات والمختصرات من كتب المتقدمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التي اصطَلَحُوا عليها : من ذكر الأسم ، والفعل ؛ والمعرفة ، والنكرة ؛ والمبتدأ ، والخبر ؛ والحال ، والتمييز ؛ وألقاب الإعراب : من الرفع والنصب والجر والحزم وغير ذلك مما تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم في استعمالهم : من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك يُدْرَجُ ما عَنَ له من ذلك في خلال كلامه حيث أحتاج إليه في التواقيع والمكاتبات وغيرها .

قال في «التعريف» في وصية نحوي : وهو زيد الزَّمان ، الذي يضربُ به المثل ، وعمرو الأوان ؛ وقد كُتِرَ من سيبويه المَلَلُ ومازنيُّ الوقت لكنه لم يَسْتَبِحِ الإبل ، وكسائيُّ الدهر الذي لو تقدَّم لما اختار غيره الرشيدُ للأمان ، وذو السُّودد لأبوالأسود على أنه ذو السابقة والأجر المننون . وهو ذو البرِّ الماثور ، والقدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذيلُ نَخَّاره المجرور . والمعروف بما لا يُنْكَرُ لمثله من الحزْم ، والذهابُ عمله الصالح بكلِّ العوامل التي لم يبق منها لحسوده إلا الحزْم . وهو ذو الأبيَّة التي

لا يفصح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعرف أفصح منها فيما أُخذ عن الأعراب .
والذي أصبح أهدأه فوق عمائم الغائم ثلاث ، ولم يزل طول الدهر يُشكر
منه أمسه ويومه وغده وإنما الكلمات ثلاث . فليتصد للإفاده ، وليعلمهم مثل
ما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزياده . وليكن للطلبة نجا به يهتدى ، ويرفع
بتعليمه قدر كل حبر يكون خبراً له وهو المبتدا . ويقدم منهم كل من صلح للتبريز ،
وأستحق أن ينصب إماماً بالتميز . ويورد من موارد أعذب النطاف ، وليجز إليه كل
مضاف إليه ومضاف . وليوقفهم على حقائق الأسماء ، ويعرفهم دقائق البحوث
حتى اشتقاق الاسم هل هو من السموات أو من السماء . وليبين لهم الأسماء العجمية
المنقولة والعربية الخالصة ، ويدلهم على أحسن الأفعال لا ما يتشبهه بصفات كان
وأخواتها من الأفعال الناقصة ، وليحفظهم المثل وكلمات الشعراء ، ولينصب نفسه لحد
أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء . ويعامل جماعة المستفيدين منه بالعطف ،
ومع هذا كله فليترفق بهم فما بلغ أحدٌ علماً بقوة ولا غايةً بعسف .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من جملة توقيع مدرس : «ولأنه
في البيان ذو الانتقاد والانتقاء . والعربي الذي كان لرقاب الفضلاء ابن مالك فإن
قريبه أبو البقاء .

وكما كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في رسالة أقترحت عليه في هذا
الباب وهي : «حرس الله نعمة مولاي ! ، ولا زال كلم السعد من اسمه ، وفعله ،
وحرف قلبه يأتلف ، ومنادى جوده لا يرخم وأحد عيشه لا ينصرف . ولا عديم
مستوصل الرزق من براعته التي لا تقف الوصل^(١) ولا عدت نحا الجود

من نَوَّالِه كَلِّ موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود . ولا خاطبت الأيام مُلتَمِسَه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوّه إلا بلام الجحد . هذه المفاوضة اليه أعزّه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدنا له فعلا غدا به متصبا للتكايد ومعتلا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذلك إلا لأن معرفتها داخلها التنكير ، وقدر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . ونعوت صُحْبته تكررت بخاز قطعها بسبب ذلك التكرير . وسيدنا يعلم بالعلمية المدكُون من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالته من الأتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيشه به خفضا على الإضافة . وكان الظن أن الأشغال التى جُمعت له لا تكون جمع تكسير بل جمع سلامة ، وآية لا تكلف تعليما على وصول لأنه في الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرف ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصبح معرب إحصانه مبنيا ، وأن نزيل كرمه يكون للنكرات بأى محكيّا أو أن يأتى سيدنا بالماضى من الأفعال فى معنى الأستقبال ، أو أن يجعل بدل غلظه الإبدال للأشتمال . أو يدغم من مودته مُظَهرا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُخبرا ، أو أن لا يكون له من أبنية تدير سيدنا مصدرا . ولا يرح سيدنا نسيج وحده فى أموره ! ولا زال حالمه يتناسى الهفوات لا يشتغل مفعوله عن فعله بضميره .

النوع الرابع

(المعرفة بالتصريف)

ويجب على الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، وزيادتها ، وحذفها ، وإبدالها فيتصرف فيها بالجمع والتصغير والنسبة إليها وغير ذلك : لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرها أو النسبة إليها ولم يعرف الأصل فى حروف الكلمة وزيادتها وحذفها وإبدالها ، ضلّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن .

(١) كذا فى الاصل بالبدال المهملة . ودُكِّن المتاع تضديد بعضه على بعض وهو غير مناسب لفعله مصحف عن المزكون بالزاي بمعنى المعلوم فتأمل .

قال ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر": وتظهر لك فائدة ذلك ظهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوى الجاهل بعلم التصريف كيف تصغر لفظة اضطراب فإنه يقول ضطرب^(١)، ولا يلام في ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة على خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفه منها، نحو قولهم في منطلق مطبق وفي جحمرش جحمرش^(٢) . ولفظة منطلق على خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها المعنى فلذلك لم تُحذف وحُذفت النون . وأما لفظة جحمرش فخاسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا . فإذا بنى النحوى على هذا الأصل ، فإما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء ، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلي فيصغر لفظة اضطراب حينئذ على ضطرب ، ولم يعلم النحوى أن الطاء فى اضطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلى الأصل الذى كانت عليه . فيقال ضطرب فإن هذا مما لا يعلمه إلا التصريف والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك أتكالا منهم على تحقيقه من علم التصريف ، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه ، فتكليف النحوى الجاهل بعلم التصريف إلى معرفة ذلك كتكليفه ما ليس من علمه .

قال : فثبت بما ذكر أن علم التصريف مما يحتاج إليه لئلا يغلط في مثل ذلك . قال : ومن العجب أن يقال إنه لا يحتاج إلى معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القراء السبعة قدرا وأخفهم شأنًا قد قال فى معائش معائش بالهمز ، وهذه اللفظة مما لا يجوز همزه بإجماع من علماء العربية : لأن الياء فيها ليست

(١) أى باثبات الباء بعد الراء وهى ياء التصغير وليست منقلبة عن ألف الأفعال كما قد يتوهم بل ألف الأفعال محذوفة .

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحمرش كما تقتضيه القواعد الصرفية . أنظر باب التصغير من الكتاب .

مبدلة من همزة وإنما الياء التي تبدل من الهمزة في هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكون بعدها حرف واحد ولا يكون عينا نحو سَفَانٌ ، ولم يعلم نافع الأصل في ذلك فأخذ عليه وعيب عليه من أجله وذلك أنه اعتقد أن مَعِيشَةً على وزن فَعِيلَةٍ تجمع على فَعَائِلٍ ولم ينظر إلى أن الأصل في مَعِيشَةٍ مَعِيشَةٌ على وزن مَفْعَلَةٍ لأن أصل هذه الكلمة من عاش لكن أصلها عيش على وزن فَعَلَ ، ويلزم مضارع فَعَلَ المعتل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعِيشُ ثم تنتقل حركة العين إلى الفاء فتصير يَعِيشُ ثم يبنى من يَعِيشُ مفعول فيقال مَعِيشٌ به كما يقال مَسِيرٌ به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال مَعِيش به كما يقال مَسِير به ثم تؤنث هذه اللفظة فتصير مَعِيشَةٌ . ومن جملة من عابه أبو عثمان المازني فقال في كتابه في التصريف : إن نافعاً لم يدر ما العريئة .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر في بعض كُتُبِ الكُتَّابِ فإذا فيه حرف مُصْلَحٌ هو : وقد هَوَّتْ عن جباية الخراج ، فاغتاط وقال لا يحكه غيرى فخَّكهُ فأصلحه وقد هَمَيْتْ بالياء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدّمه في الكتابة أنه قال : وكانت رسومهم مُسَانَةً ثم صارت مشاهرة ثم صارت مُيَاوِمَةً ثم صارت مُسَاعَةً ، فأخطأ ، وكان يجب أن يقول مُسَاوَعَةٌ . قال في "المثل السائر" : وكثيراً ما يقع أهلُ العلم في مثل هذه المواضع فكيف الجهال الذين لا معرفة لهم بها ولا أَطْلَاعَ لهم عليها ؛ وإذا علم حقيقة الأمر في ذلك لم يقع الغلط فيما يُوجِبُ قَدْحًا ولا طَعْنًا . قال : وقد وقع الغلط لأبي نُوَّاسٍ فيما هو أظهر من ذلك ، وهو قوله في صفة الخمر :

كَانَتْ صُغْرَى وَكُبْرَى مِنْ فَوَاقِعِهَا * حَصْبَاءُ دَرَّ عَلَى أَرْضٍ مِنَ الذَّهَبِ ^(٣)

- (١) أى التي تكون الهمزة بدلا منها .
 (٢) لعله التي كما يقتضيه السياق .
 (٣) المشهور فقاتعها . انظر شرح الأشموني في باب أفعل التفضيل .

فإن فُعِلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعِلْ
التي لا أفعَلَ لها نحو حُبِلْ إلا أن تكون فُعِلْ أفعَلَ مضافةً، وها هنا قد عرّيت عن
الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كأن الصغرى والكبرى أو كأن
صغرها وكبرها . فانظر كيف وقع أبو نؤاس في مثل هذا الموضع مع قُربه
وسهولته . وغلط أبو تمام أيضا في قوله :

بِالْقَائِمِ الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ أَطَّادَتْ * قَوَاعِدُ الْمُلْكِ مُتَمَدًّا هَا الطُّوْلُ

فقال أَطَّادَتْ والصواب أَتَطَدَّتْ لأن التاء تُبدل من الواو في موضعين أحدهما
مقيس عليه كهذا الموضع : لأنك إذا بنيت أفتعل من الوعد قلت أتعَدَ وكذلك
أَتَطَدَّتْ في البيت فإنه من وَطَدَ يَطْدُ كما يقال وَعَدَ يَعِدُ، فإذا بُني منه أفتعل قيل
أَتَطَدَّتْ ولا يقال أَطَّادَ . وأما غير المقيس فقولهم في وَجَاهِ نُجَاهٍ وَقَالُوا تُكْلَانُ وَأَصْلُهُ
الواو لأنه من وَكَلٍ فأبدلت الواو تاء للاستحسان . ثم قال : إن المخطئ في التصريف
أندر وقوعا من المخطئ في النحو لأنه قلما تقع له كلمة يحتاج في استعمالها إلى الإبدال
والنقل في حروفها . والمعصوم من عصمه الله، والكلام في تصرف الكاتب
في التصريف على ما تقدم في النحو .

النوع الخامس

(المعرفة بعلوم المعاني ، والبيان، والبدیع؛ وفيه مقصدان)

المَقْصِدُ الْأَوَّلُ

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أنه لما كانت صناعة الكتابة مبنية على سلوك سُبُلِ الفصاحة وأقتفاء سَبَنِ

البلاغة، وكانت هذه العلوم هي قاعدة عمود الفصاحة ومسقط حجر البلاغة، اضطرب الكاتب إلى معرفتها، والإحاطة بمقاصدها: ليتوصل بذلك إلى فهم الخطاب، وإنشاء الجواب، جاريا في ذلك على قوانين اللغة في التركيب، مع قوة الملكة على إنشاء الأقوال المركبة المأخوذة عن الفصحاء والبلغاء: من الخطب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخلوها عن اللكن، وتأدية المطلوب بها، وتكامل الأقاويل الشعرية ثرا كانت أو نظما، في بلوغها غايتها وتأدية ما هو مطلوب بها، وأنها كيف نعتين بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخييل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشئ يذكّر بضده، فيذكر المحاسن بالذات والعيوب بالعرض.

قال أبو هلال العسكري: "فإن صاحب العربية إذا أخلّ بطلب هذه العلوم، وقرط في التماسها، فأنته فضيلتها، وعالقت به رذيلة فوثها، وعفى على جميع محاسنه، وعمى سائر فضائله، لأنه إذا لم يفرق بين كلام جيد، وآخر رديء؛ ولفظ حسن، وآخر قبيح؛ وشعر نادر، وآخر بارد، بأن جهله، وظهر نقصه؛ وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يضع قصيدة وقد فانتته هذه العلوم، مزج الصفو بالكدر، وخلط الغرر بالغرر؛ فجعل نفسه مهزأة للجاهل، وعبرة للعاقل. وكذلك إذا أراد تصنيف كلام منثور أو تأليف شعر منظوم وتخطى هذه، ساء اختياره، وقبح آثاره؛ فأخذ الرديء المردود، وترك الجيد المقبول؛ فدل على قصور فهمه، وتأخر معرفته؛ مع ما في هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلى فهم كتاب الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذين منهما يستمدُّ الكاتب شريف المعاني، ويستعير فصيح الألفاظ؛ بل منهما تُستفاد سائر العلوم، وتقتبس نفائس الفضائل". قال: "وقبيح لعمرى بالفقيه المؤتم به، والقارئ المقتدى بهديه، والمتكلم المشار إليه في حسن

مناظرته ، وتمام الله في مجادلته ، وشدة شكيمة في حجاجه ، وبالعربيّ الصليب ،
والقُرشيّ الصريح ، أن لا يعرف فهمَ إيجاز كتاب الله إلا من الجهة التي يعرفها منها
الزنجيّ والنبطيّ ، وأن يستدلّ عليه بما يستدلّ به الجاهل الغيّ ” .

على أن الشيخ بهاء الدين السبكي رحمه الله قد ذكر في شرح تلخيص المفتاح أن
أهل مصر لا يحتاجون إلى هذه العلوم وأنهم يدرّونها بالطبع ، فقال في أثناء خطبته :
”أما أهل بلادنا فهم مستغنون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذوق السليم ،
والفهم المستقيم ، والأذهان التي هي أرقّ من النسيم ، وألطف من ماء الحياة في الحيا
الوسيم ، أكسبهم النيل تلك الحلاوة ، وأشار إليهم بأصابعه فظهرت عليهم هذه
الطلاوة ؛ فهم يدركون بطباعهم ما أفنت فيه العلماء فضلا عن الأعمار ، الأعمار ،
ويرون في مرآة قلوبهم الصقيلة ما أحتجب من الأسرار ، خلف الأستار .

والسيف لم يلف فيه صيقل * من طبعه لم يتففع بصقال

فيا لها غنيمَةٌ لم يُوجف عليها من خيل ولا ركاب ، ولم يُزحف إليها بعد وعيديّة^(١)
ولا بلحاق لاحق وأنسكاب سكاب ؛ فلذلك صرفوا همهم إلى العلوم التي هي
نتيجة أو مادة لعلم البيان ، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرآن ” . ثم قال :
”وأما أهل بلاد الشرق الذين لهم اليد الطولى في العلوم ، ولا سيم العلوم العقلية
والمنتطق ، فاستوفوا همهم الشاخحة في تحصيله ، وآستولوا بجدهم على جملته وتفصيله .
ووردوا مناهل هذا العلم فصّدروا عنها بملء سجلهم ، وكيف لا وقد أجلسوا عليه
بجيلهم ورجلهم . فلذلك عمروا منه كل دارس ، وعبروا من حصونه المشيدة ما رقد
عنه الحارس . وبلغوا عنان السماء في طلبه ، ولو كان الدين في الثريا لناله رجال من

(١) أي نوق نجائب منسوبة إلى بني العبد حتى من العرب . ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران .
انظر اللسان .

فارس". إلى أن خرج عنهم المفتاح، فكأن الباب أُغلق دُونهم، وظهر من مشكاة بلاد الغرب المصباح، فكأما حيل بينه وبينهم . وأدارت المنون على قُطبهم الدوائر، فعمَّطت بوفاته من علومه أفواهَ المخابر وبُطون الدفاتر . وأنقطعت زهراهم الطيبة عن المقتطف، وتسلَّط على العُضد لسانٌ من يعرف "كَيْفَ تُؤَكَّلُ الكَتِيفُ" . فلم نظفر بعد هؤلاء الأئمة رحيمهم الله من أهل تلك البلاد بمن مَحَضَ هذا العلم فألقى للطالب زُبْدته، ومَحَضَ النُّصح فنشر على أعطاف العارى بُردته، ولا حملت قبول القبول إلينا عنهم بطاقه، ولا حصلت للتطلعين لهذا العلم على تلك الأبواب طاقه، ولا رأينا بعد أن أنطمست تلك الشموس المشرقة، وأندرست طبقة تحترى الفرقه، ولم يبق إلا رسوم هي من فضائلهم مسترقه . من أطلع عُصن قلمه من روض الأذهان زهرة على ورقه، ولا من علق شنه بطبقتهم فيقال وافق شُن طبقه، بل ركَّدت بينهم في هذا الزمان ريجه، وخبَّت مصابجه، وناداهم الأدب سواكم أعني: و"رُبَّ كلمة تقول دَعني".

وما بعض الإقامة في ديارٍ * يهانُ بها الفتى إلا بلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل، وأذن بالتحول .

وإذا الكريم رأى الخمول نزيله * في منزلٍ فالرأى أن يتحولاً

وفزع إلى مصر فألقى بها عصا التسيار، وأنشد من نادى من تلك الديار .

أقمت بأرضٍ مِصرَ فلا ورأى * تحبُّ بي الركبُ ولا أمامي

ولقد أحسن رحمه الله في بيان السبب، والتعويل في أنجبال أهل مصر على هذا العلم على علاقة الصهر والنسب . حيث قال في أوائل خطبته في أثناء الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما خفقت للبلاغة راية

عجدي في بنى غالب بنِ فِهْرٍ ، وتعلقت بأزمة الفصاحة أهل مصر : لما لهم من نسب وصهر” .

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في كتابه ” حسن التوسل إلى صناعة الترسل“ : وهذه العلوم وإن لم يُضطرَّ إليها ذو الذهن الناقب ، والطبع السليم ، والقرينة المطاوعة والفكرة المنقحة ، والبديهة المحيية ، والروية المتصرفة ، لكن العالم بها متمكن من أزمة المعاني ، وصناعة الكلام ؛ يقول عن علم ، ويتصرف عن معرفة ، وينتقد بحجة ، ويختير بدليل ، ويستحسن ببرهان ، ويصوغ الكلام بترتيب” .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاظم العارفين عن هذه العلوم قاصران عن أدنى رتب الكمال يجيدان ، ولا يدريان كيف يُجيبان . فلو سئل كل منهما عن علة معنى استحسنه أو لفظ استحلاه أو تركيب استجاده ، لم يقدر على الإتيان بدليل على ذلك .

وقد حكى الإمام عبد القادر الجُرْجاني قال : ” ركب الكِنْدِيُّ المتفلسفُ إلى أبي العباس وقال له : إني أجد في كلام العرب حشواً — فقال له أبو العباس في أيّ موضع — قال : وجدت العرب تقول عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد — فقال له أبو العباس : لا ، بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ ، فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولهم إن عبد الله قائم جواب عن سؤال سائل ، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب على إنكار منكر قيامه ، فما أحرار المتفلسفُ جواباً . فإذا ذهب مثل هذا على الكِنْدِيُّ فما الظنُّ بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم في أمتراجه بالقلوب غير الذوق الصحيح كما قال الشاعر :

شَيْءٌ بِهِ قُتِنَ الْوَرَى غَيْرَ الَّذِي * يُدْعَى الْجَمَالَ وَلَسْتُ أُدْرِى مَا هُوَ
 لكن الغالب في الكلام أن يعلم سبب تحسينه ، وتعليل مواد تمكينه . ويُجَاب
 عن العلة في انحطاطه وارتفاعه ، ويذكر المعنى في ارتفاعه من حضيض القول
 إلى يَفَاعه .

قلت : وهذا العلم وإن شُخِنَ أُمَّةُ الْكُتَّابِ ^(١) — كما قال أبو هلال العسكري في كتابه
 ”الصناعتين“ والوزير ضياء الدين بن الأثير في ”المثل السائر“ والشيخ شهاب الدين
 محمود الحلبي في ”حسن التوسل“ فإنه ليس مختصا بفن الكتابة بل هو آلة لكل
 كلامٍ أقتضى البلاغة ، كما أن المنطق آلة لكل العلوم العقلية ، التي يُحتاج منها إلى
 تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنّفات فيه كالرّماني والجرجاني وغيرهما ؛ وأكثر اعتماد
 أهل الزمان فيه على تلخيص المفتاح للقاضي جلال الدين القزويني فأغنى ما وضع
 فيه عن إيراده هنا .

المقصد الثاني

(في كيفية انتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طرقها ، أتى في كلامه بالسحر الحلال ؛ وصاغ
 من ألفاظه ومعانيه ما يقضى له بالفصاحة التامة ، والبلاغة الكاملة ، من وجوه تحقيق
 الكلام ، وتحسينه وتديبجه وتنميته . وإذا فانتت هذه العلوم ، أو كان ناقصا فيها ،
 نقصت صناعته بقدر ما ينقص من ذلك . ثم كما يحتاج إلى هذه العلوم بطريق
 الذات ، كذلك يحتاج إليها بطريق العَرَض من جهة المعرفة بالبلغاء الذين يُضربُ

(١) لعله وإن شُخِنَ به أُمَّةُ الْكُتَّابِ كتبهم وحرر .

بهم المثل في البلاغة كقُتس بن ساعدة ، وسخبان وائل ، وعمرو بن الأهم ، ونحوهم من بلغاء العرب ؛ وآبن المقفع ونحوه من المحدثين . وكما قيل في عيِّ باقيل - وهو رجل آتبهى به العيُّ إلى أنه آشترى ظيبا بأحد عشر درهما ، فسأله سائل في الطريق ، وهو ممسك الظبي : بكم آشتريته ؟ فلم يُحسن التعبير عن أحد عشر ، ففرق أصابعه العشرة وأخرج لسانه مشيرا إلى أحد عشر فتلفت الظبي وفر هاربا - . وكعرفة أئمة الصنّاعة : كالجرجاني والرّماني . وكذلك المعرفة بالأسماء التي أصطلح عليها أهلها : من الفصل ، والوصل ، والتشبيه كما تقدّم ، والمقابلة ، والمطابقة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما احتياجه إلى المعرفة بأسماء البلغاء ولغة أهل الصنّاعة ، فلأنه ربما احتاج إلى تفضيل بعض من يكتب له ممن يُنسب مثله إلى البلاغة فيفضله بمساواته لبلغ من البلغاء ، أو إمام من أئمة الصنّاعة : كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير في ذم كاتب : هَذَا وهو يدعى أنه في الفصاحة أئمة وحده ، ومن قُس إياد وسخبان وائل عنده ؛ وكما قال بعضهم يهجو ضيفا له :

أَنَا وَمَا دَانَاهُ سَخْبَانُ وَائِلٌ * بَيَانًا وَعِلْمًا بِالذِي هُوَ قَائِلٌ
فَمَا زَالَ عِنْدَ اللَّقْمِ حَتَّى كَانَهُ * مِنَ الْعِيِّ لَمَّا أَنْ تَكَلَّمَ بِاقِلٌ

ومما أتى على ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولِي في كلام قليل جاء ذكره في آخر رسالة كتبتُ بها في تقرّيط المقرّ الفتحي ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية - وهو : "على أني أستقبل من التقصير في إطرائه ، والتعريض في مدحه لما لا أنهض بأعبائه . فلو أن الحافظ نصيري ، وآبن المقفع ظهيري ، وقُتس بن ساعدة يُسعدني ، وسخبان وائل يُخجدي ، وعمرو

أبن الأهم يُرشدني ؛ لكان أعترافي بالتقصير أبلغ مما آتبه ، وإقرارى بالقصور أولى مما أخفيه ، من توالى طوله وأياديه .

وأما احتياجه إلى معرفة ألفاظ أهل الصناعة ، فلا أنه ربما ورى بها في تفاصيل كلامه ونحو ذلك — كما كتب الشيخ زين الدين أبو بكر بن العجمي على البديعية التي نظمها عيسى العالية الشاعر ، مضاهيا بها بديعية الصفي الحلي فقال :

”وبعد فقد وقفتُ على هذه المعجزة التي أحيا بها عيسى ميتَ البديع ، وجود ماشاء فيها من التصريح والترصيع ، ورقم لأعطافها حلل التوشيح والتوشيع ، ونظم لأجساد أبياتها فرائد المعاني المستخرجة من بحر فكره على يد يراع المريع ، وقلدها من درر لفظه بما هو أزهى من زهر الزهر على نهر الحجر وهالات البذور ، وشفت المسامع منها بما هو أبهى من النور في العيون وأوقع من الشفاء في الصدور ؛ وأولج الليل في النهار بما طرس به الطروس ، وأطلع في ذلك الليل من ناصع معانيه نجومًا تزهى على الشمس ، وأودع المهارق شُدورا تُزيّف ذهب الأصائل ؛ وسُفِر عن وجوه حسان تفوق أبْتسامُ ثغور الأزاهر بين الخمائل ؛ وسلك في البديع طريقة مثلى ، أظهر فيها من شهد ألفاظه وجواهر معانيه ما حلا وحل ؛ ولم يدع للحلي في بهجتها محلا ؛ وأحسن التذييل والترشيح والتهكم عليه ، من غير التفات لما أهمله ولم يتعرض إليه ؛ وعادت المعاني تأوى من حُسن تصرفه إلى ركنٍ شديد ، وتحوى بسبأ أقلامه كل مارامه من تأييد التأييد ؛ وتلقى مقاليدها منه إلى ملي بحسن التحليل والتحول في نظمه ونثره ، وتحكم لمن حكم له بكمال وصفه ووصف كماله بأنه نسيحٌ وحده وفريد عصره ؛ وأجرى في حلبة البديع جياد أقلامه مخازن قصب الرهان ، وأصفي لها موارد النفس فارتوت وأستخرجت من ظلماته جواهر البيان ؛ ونظقت بما هو

المالوف من غرائب حِكْمِهِ الحسان؛ وتأملتها فوجدتها قد أجاد فيها براعة المَطَّلَع، وبالغ في تحسين المَتَرَعِ والمَقْطَعِ؛ ودخل جنان الجناس فاجتنى من قُطوفها الدانية مَراق، وأطردت له أنهارها فاستطرد منها في أعلى الطَّبَاق؛ وقابل وجوه حُورها أحسن المقابلة، آمنًا فيها من الأشتراك والمثاله؛ وأوضح الفروق بين التَّوْرِيَةِ والإِبْهَامِ، والتوجيه والاستخدام؛ وأبان في التتميم نقصَ أبي تَمَّام، وأوجب في إبهامه عقدَ الخناصر على نظمه، وفوض بزاهته التسليمَ له وطلبَ سَائِمِهِ؛ ولم يقع بما فيه الأكتفاء من التذليل والتذنيب، بل أتى في الاستدراك على من تقدمه بالعجب العجيب؛ معتمدًا في تكميل مقاصده الأقتصار والإيجاز، ولو ادعى الإعجاز على الحقيقة لا المجاز لجاز؛ وتحققت أن ليس له في هذا الفن مُقاوِ ولا مقاوم، ولا مساوٍ ولا مساوم؛ فكم جلب من بحر براعته دُرَّةُ أشرفت في ليالي الفترة المسوِّدة، وكم حلب من ثدى يراعته دِرَّةٌ لها ألف زُبْدَةٍ؛ وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع البحرين، وسمع ورأى من فصله الجزل وفضله الجزيل ما هو عين المراد ومراد العين؛ وكم جلا من عرائس أفكاره وأبتكاره صَبَاحَ الوجوه الصُّباح، وخَفَقَ في الخافقين لمقاصده وبصائرهِ جَنَاحَ النجاح. قد أصبحت كلماته نُحُصُورَ الفرائد مناطق، ولبُدُورِ الفوائد مَشَارِقَ؛ واطلائع أسرار المَبَانِي، آلات، ولمَطالِعِ أقمار المعاني، حالات؛ وقد وقفتُ حين وقفتُ على بديعته هذه بين دأين كل منهما الأخطر، وبين أمرين أمرين كل منهما الأعسر؛ إن لم أكتب عليها شيئًا فقد أخللت بالفرض الواجب، وإن كتبتُ فقد فضحتُ نفسي وعرضتها للعائب؛ ولكنني رُحْتُ على ظُلْمِي متعاملا، وغدوتُ على حسب طاقتي في هذا الباب قائلًا:

(١) الدرّة بالفتح المرة وبالكسرية الدرّة وكثرة. مصباح [وقد أعجم الدال في الأصل وهو من إهمال

عَاشَ الْبَدِيعُ وَكَانَ مَيِّتًا وَأَنْتَى * بَادَى الْحَاسِنِ زَاهِيًا مَحْرُوسًا
أَحْيَاهُ عَيْسَى نَجْلُ حَجَّاجٍ وَكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أَحْيَاهُ قَدَمَا عَيْسَى

النوع السادس

(حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان أحتياج الكاتب إلى ذلك في كتابته)

قال في "حسن التوسل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالى، وإدامة قراءته، وملازمة درسه، وتدبر معانيه، حتى لا يزال مصورًا في فكره، دائرًا على لسانه، ممثلًا في قلبه ليكون ذا كراه في كلامه وكل ما يرد عليه من الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلى قيام قواطع الأدلة عليها ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ وكفى بذلك معينًا له على قصده، ومُغْنِيًا له عن غيره. قال تعالى ﴿مَا فَرَّقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تَبَيَّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ . قال في "المثل السائر" كان بعضهم يقول: لو ضاع لي عقال لوجدته في القرآن الكريم. قال في "حسن التوسل" وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهد لكل ما يدور بين الناس في محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قصور كل لفظ ومعنى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلًا سأل بعض العلماء أين تجد في كتاب الله معنى قولهم "الجار قبل الدار"؟ قال في قوله تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتٍ فَرِعُونَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبل الدار، ونظائر ذلك كثيرة.

وقد اختلف في جواز الاستشهاد بالقرءان الكريم في المكاتبات ونحوها: فذهب أكثر العلماء إلى جواز ذلك ما لم يُحَلَّ عن لفظه ولم يتغير معناه. فقد ثبت في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، كتب في كتابه إلى هرقل (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ) إلى قوله مسلمون؛ وروى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، فكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه في عهده لعمر بن الخطاب (وَلِكُلِّ أَمْرِي مَا آكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ . وَسِعِلْمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) على ما سيأتي في ذكر عهود الخلفاء عن الخلفاء إن شاء الله تعالى .

وكتب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في آخر كتاب إلى معاوية "وقد علمت مواقع سيوفنا في جدك وخالك وأخيك (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٌ) . وقال للغيرة ابن شعبة لما أشار عليه بتولية معاوية (وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا) .

وكتب إلى عامل من عماله بعد البسمة (قَدْ جَاءَتْكُمْ بِنْتَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةَ اللَّهِ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ) . وقال الحسن بن علي لمعاوية حين نازعه في الخلافة (وَأِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ) . ويروى عن ابن عباس مثله . وكتب الحسن إلى معاوية : أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وكافة للناس أجمعين (لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ) .

وكتب محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي إلى المنصور في صدر كتاب (طَسَمَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ؛ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبِيِّ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله (وَأُزْرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) . ولم يزل العلماء وفضلاء الكُتُب يستشهدون بالقرءان الكريم في مكاتباتهم في القديم والحديث، من غير تكبر؛ وذلك كله دليل الجواز . ونقل عن الحسن البصري ما يدل على كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر على رجل آستشهد بآية فقال : أنسى نفسه حين كتب إلى عبد الملك بن مروان : بلغنى أن أمير المؤمنين عَطَسَ فشمته من حضر فرد عليهم **(يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزُ فَوْزًا عَظِيمًا)** . قال في "حسن التوسل" : وإذا صححت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره على الحجاج لكونه أنكر على غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلى أن كل ما أراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به إلا فيما يضاف إلى الله سبحانه مثل قوله **(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ)** وقوله **(بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ)** ونحو ذلك مما يقتضيه الأدب مع الله تعالى .

فأما تغيير شيء من اللفظ أو إحالة معنى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال في "المثل السائر" وإذا ضُمَّت الآيات في أماكنها اللانثقة بها ، وموضعها المناسبة لها ، فلا شبهة فيما يصير للكلام من الفخامة والجزالة والرونق . قال في "حسن التوسل" : ومن شرف الاستشهاد بالقرآن الكريم إقامة الحجّة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال في "حسن التوسل" : وأين قول العرب - القتلُ أنفى للقتل - لمن أراد الاستشهاد في هذا المعنى من قوله تعالى **(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ)** . وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتني على ذلك بشاهد من كتاب الله تعالى وإلا قتلتك فقرأ عليه **(وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ)** فعيسى ابن بنته فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدة تقوم في بلوغ الغرض ، وتوفية المقاصد ما لا تقوم به الكتب المطولة والأدلة القاطعة .

فمن أخصر ما وقع في ذلك وأبلغ أنه كان على الروم بهرقلة في أيام الرشيد امرأة منهم ، وكانت تُلطف الرشيد ولها ابن صغير ، فلما نشأ فوضت الأمر إليه فعاش

وأفسد وخاشن الرشيد؛ فخافت على ملك الروم فقتلت ولدها، فغضب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له يقفور فقتلها وأستولى على الملك وكتب إلى الرشيد: أما بعد، فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه، ووضعت نفسها موضع الرُخ، وينبغي أن تعلم أني أنا الشاه وأنت الرُخ فإد إلى ما كانت المرأة تؤدي إليك! فلما قرأ الكتاب . قال للكاتب: أجيئوا عنه فأتوا بما لم يرتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا . فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى يقفور كلب الروم .
أما بعد، فقد فهمت كتابك، والجواب ما تراه لا ماتسمعه، والسلام على من أتبع الهدى .

ثم خرج في جمع له لم يسمع بمثله فتوغل في بلاده وفك وسي . فأوقد يقفور في طريقة نارا شديدة فخاضها محمد بن يزيد الشيباني، وتبعه الناس حتى صاروا من ورائها؛ فلما رأى يقفور أنه لا قبيل له به، صالحه على الجزية يؤديها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته .

وكتب ملك الروم إلى المعتصم يتوعده ويتهده فأمر الكتاب أن يكتبوا جوابه فلم يعجبه مما كتبوا شيء فقال لبعضهم اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجواب ما ترى لا ماتسمع (وسيعلم الكافر لمن عقي الدار). هذا مع ما ينسب إليه المعتصم من ضعف البصر بالعربية كما تقدم في الكلام على اللغة . ولا يستكثر مثل ذلك على الطبع السليم، والرجوع إلى سلامة العنصر وطيب المختد .

ومثل ذلك في الجواب وأخصر منه أن الأدفونش ملك الفرنج بالأندلس .
كتب إلى يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، بخط وزيره يقال له

أَبْنُ الْفَخَّارِ : بِأَسْمِكَ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالصَّلَاةِ عَلَى السَّيِّدِ الْمَسِيحِ
 أَبْنِ مَرْيَمَ الْفَصِيحِ ، أَمَا بَعْدُ : فَلَا يَخْفَى عَلَى ذِي ذَهْنٍ ثَاقِبٍ ، وَعَقْلٍ لَازِبٍ ، أُنَى أَمِيرِ
 الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ ، كَمَا أَنَّكَ أَمِيرُ الْمَلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ ، وَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُمْ عَلَيْهِ رُؤْسَاءُ جُزِيرَةِ
 الْأَنْدَلُسِ مِنَ التَّخَاذُلِ وَالتَّوَاكُلِ وَالْإِخْلَادِ إِلَى الرَّاحَةِ وَأَنَا أَسُوْمُهُمُ الْخَسْفُ وَأُخْلِي
 مِنْهُمْ الدِّيَارَ ، وَأَجُوسُ الْبِلَادِ ، وَأَسْبَى الذَّرَارِيَّ ، وَأَقْتُلُ الْكُهُولَ وَالشَّبَّانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ
 دِفَاعًا ، وَلَا يُطِيقُونَ آمْتِنَاعًا ، فَلَا عِذْرَ لَكَ فِي التَّخَلُّفِ عَنِ نَصْرِهِمْ ، وَقَدْ أَمَكَّتَكَ يَدُ
 الْقُدْرَةِ ، وَأَنْتُمْ تَعْتَقِدُونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فَرَضَ عَلَيْكُمْ قِتَالَ عَشْرَةِ مَنَا بَوَاحِدٍ مِنْكُمْ ،
 وَالْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَلْتُقَاتِلْ عَشْرَةَ مِنْكُمْ الْوَاحِدَ مَنَا ؛
 ثُمَّ بَلَّغْنِي أَنَّكَ أَخَذْتَ فِي الْأَحْتِفَالِ ، وَأَشْرَفْتَ عَلَى رِبْوَةِ الْإِقْبَالِ ، وَتَمَاطَلْ نَفْسَكَ عَامَا
 بَعْدَ عَامٍ : وَأَرَاكَ تَقْدِّمُ رَجُلًا وَتُوَخِّرُ أُخْرَى ؛ وَلَسْتُ أَدْرِي إِنْ كَانَ الْجُنُبُ أَبْطَاكَ
 أَوِ التَّكْذِيبُ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْكَ رَبُّكَ ؛ ثُمَّ حُكِيَ لِي أَنَّكَ لَا تَجِدُ إِلَى الْجَوَازِ سَبِيلًا لَعَلَّةَ
 لَا يَجُوزُ لَكَ التَّفَخُّمُ بِهِ مَعَهَا ؛ فَأَنَا أَقُولُ مَا فِيهِ الرَّاحَةُ لَكَ ، وَأَعْتَدِرُكَ وَعَنْكَ ، عَلَى
 أَنْ تَقْبَلْ لِي بِالْعُهُودِ وَالْمَوَائِقِ وَالْأَسْتِكْثَارِ مِنَ الرَّهْنِ ، وَتُرْسِلَ لِي بِجَمَلَةٍ مِنْ عَيْدِكَ
 بِالْمَرَكَبِ وَالشَّوَانِي ، وَأَجُوزَ بَجَلْتِي إِلَيْكَ ، وَأَبَارِزَكَ فِي أَعْرَ الْأَمَاكِنِ عَلَيْكَ ؛ فَإِنْ كَانَتْ
 لَكَ فَغَنِيمَةٌ وَجَّهَتْ إِلَيْكَ ، وَهَدِيَّةٌ عَظِيمَةٌ مَثَلَتْ بَيْنَ يَدَيْكَ . وَإِنْ كَانَتْ لِي كَانَتْ
 يَدِي الْعُلْيَا عَلَيْكَ وَأَسْتَوْجِبُ سِيَادَةَ الْمَلْتِينَ ، وَالْحَكْمَ عَلَى الدِّينَيْنِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَسَهِّلُ
 مَا فِيهِ الْإِرَادَةَ ، وَيُوفِّقُ لِلسَّعَادَةِ ؛ لِأَرْبِ غَيْرِهِ ، وَلَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُهُ .

فكتب رحمه الله جوابا على أعلى كتابه ﴿ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا
 وَلَنَخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

(١) كذا في الأصل بالفاء والحاء المعجمة ويظهر أنه تصحيف عن التضم بالفاء والحاء المهمل
 والتضم في الشيء الاقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل .

ونظير ذلك أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب كتب إلى الديوان العزيزبيغداد كتابا يعدد فيه موافقه في إقامة دعوة بنى العباس بمصر . فكتب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصد الثاني

(في كيفية استعمال آيات القرآن الكريم)

وأعلم أن تضمين الكلام بعض آى القرآن الكريم ينقسم عند أهل البلاغة إلى قسمين :

أحدهما - الاستشهاد بالقرآن الكريم ، وهو أقلهما وقوعا في الكلام ودوراناً في الاستعمال : وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرآن الكريم وينبه عليه مثل قول الحريري في مقاماته : فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ . وقول أبي إسحاق في عهد لملك عن خليفة بعد الأمر بالقوى والحث عليها : فإذا أطلع الله منه على نقاء جيبه ، وطهارة ذيله ، وصحة مرءوته ، وأستقامة سيرته ، أعانه على حفظ ما أستحفظه ، وأنهضه بثقل ما حمله ، وجعل له مخلصا من الشبهة ، ومخرجا من الحيرة . فقد قال الله تعالى ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ وقال عز اسمه ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلى آى كثيرة حضا بها على كرم الخلق ، وأسلم الطرق ، فالسعيد من نصّبها رأى ناظره ، والشقي من نبذها وراء ظهره ، وأشقى منه من يحث عليها وهو صادق عنها ، فأجاب إليها وهو بعيد منها . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَسُونَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١﴾ وأكثر مشى الصابى في كتابه على هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه على آى القرآن في خلال كلامه، دون الإشارة إليه؛ والاقْتِصَارُ على اقتباس معناه .

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة قَدَمَةٌ كَتَبَ بِهَا لِمُظَفَّرِ الدِّينِ موسى بن أقوش وقد صَرَخَ لَغْلَغَةً، وأدعى بها للملك المؤيد صاحب حماه : نحمده على توفيقه الذى ساد به من ساد وسمأ، وأصاب بتفويقه بمعونة ربه طير السماء، فحسُنَ أن يتلى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ .

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام على فضل الكتابة : فقد نطق القرآن الكريم بفضليها، وجاءت السنة الغراء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأخبر تعالى أنه علّم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلى أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذاناً بأن منحتها من أوفر جوده وفائض ديمه؛ وقال جلت قدرته ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتى بذلك فى أكد قسم، فكان من أعظم الأقسام . وقال جلت عظمته ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ﴾ . فجعل الكتابة من وصف الكرام، كما قد جاء فعلها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما منعتها النبىُّ صلى الله عليه وسلم معجزة قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا﴾ .

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقر البدري بن فضل الله :

(١) أى ان الخطبة عملت لتقال تحية لقدم المظفر بعد صرخ العدو المسمى لغلغة .

قلت حَسْبُكَ قد دلتني عليه عُرْفُهُ ، وأرشدني إليه وَصْفُهُ ؛ وبان لي مَحْتَدُهُ الفَاخِرُ
وَحَسْبُهُ الصَّمِيمُ ، وعرفت أصله الزَّاكِيَّ وفرعه الكَرِيمُ ﴿ ذَلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ
يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وقولي في آخِتامِ هذه المقامة معبراً عن المقرِّ البدرىّ المشار إليه : فلما تحققت
أنى قد أُثْبِتُ في ديوانه ، وكنت من جُملة غلمانِه ، رجعتُ القهقريّ عن طلب
الكسبِ ، وتساوى عندى المحلُّ والحِصْبُ ؛ فأستغنيتُ بنظرى إليه عن الطعام
والشرابِ ، وتحققتُ أن نظرة منه تُرَقِّبُنِي إلى السحابِ ، وتلوتُ بلسانِ الصّدقِ على
الملاّ وهم يسمعون ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا
يَجْمَعُونَ ﴾ .

وقولي في بيعة خليفه أنشأتها بعد ذكر تخليف أهل البيعة : وأشهدوا عليهم بذلك
من حضر مجلس العقد من الأئمة الأعلام ، والشهود والحكّام ، وجعلوا الله على
ما يقولون ويكلمون ، فأستحق عليهم الوفاء بقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْضُوا الْآيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يُضَاعَفَ
لهم بحسن نيتهم الأجور ، ويلجئون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله
﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا
عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ .

وقولي في بيعة أخرى : والله يجعل أنتقالهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يسرى إلى
يمنى ، ويحقق لهم بمن أستخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

الثانى - الأقباس وهو أن يضمّن الكلام شيئاً من القران، ولا ينبه عليه :
كقوله فى خطبة "التعريف" : نحمده على فواضل زادت محاسن العلوم . وعرفت
تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ . وقوله بعد ذلك :
وسماء الشيبية بضحي المشيب قد تجلّت ، والنفس قد ﴿ أَلْقَتْ مَا فِيهَا وَخَلَّتْ ﴾ .

وقول ابن نباتة السعدى فى بعض خطبه : فىأياها الغفلة المطرِقون . أما أتم
بهذا الحديث مُصدِّقون . مالكم لا تسمعون . ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ
مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وقوله يوم يبعث الله العالمين خلقاً جديداً ، ويجعل الظالمين
لنار جهنم وقوداً . يوم تكونوا^(١) شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً .
﴿ يَوْمَ يُجَدُّ كُلُّ نَفْسٍ مَا مَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا
وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وقول غيره : أنظنون أنكم دون غيركم محلّدون ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ
تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقول الحريرى : فلم يكن ﴿ إِلَّا كَمَنْحَ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ . حتى أنشد فأغرب .
وقوله : ﴿ أَنَا أَنبِئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . وأميز صحيح القول من عليه .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى فصل من كتاب فى مدح الجود وذم البخل :
وقد علم أن المال الذى يُحْتَرَن ، كالماء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل
الأيدى عن امتياح مشاربه . فكذلك يَأْجُنُ هذا بتعطيل الأيدى عن امتناع^(٢)
مواهبه . وأى فرق بين وجوده وعدمه لولا أن تُملِك به القلوب . وتُفَلِّ به الخُطوب .
ويُرْكَب به ظهر العزم الذى ليس برُكُوب ؛ ومن بسط يده فيه ثم قبضها مجلّه ، فإنه

(١) فى الضوء . ثم تكونون شهداء الخ .

(٢) لعله امتناع بالحاء المهملة .

يقف دون الرجال مغمورا . ويقعد عن نيل المعالي محسورا . وإذا أدركته منيته مضى وكأنه لم يكن شيئا مذكورا * وقوله في وصف كاتب : له بنت فكري ما تخضت بعني إلا أمتجت من غير ما تمهله . و(أتت به قومها تجمله) . ولم تعرض على ملا من البلغاء إلا ألقوا أفلامهم أيهم يستعيره لا أيهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي من عهد لسلطان : وجمع بك شمل الأمة بعد أن كاد يزيد قلوب فريق منهم ، وعضدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضى الله عنهم ، وخصك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم فارهون (وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) . وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاجين : وجعل عدوه وإن أعرض بجوش الرعب محسورا . وكفاه بالنصر على الأعداء التوغل في سفك الدماء فلم (يسرف في القتل إنه كان منصورا) . وقوله في خطبة صداق في وصف نكاح : وأحيا به الأمم وقد قضى دينهم . وجمع بين متفرقين (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم) . وقوله من توقيع بإمامة صلاة : وليعلم أنه في المحراب مناج لربه . واقف بين يدي من (يحول بين المرء وقلبه) .

وقولى في خطبة هذا الكتاب في الإشارة إلى فتح الديار المصرية : فتوجهت إليها عزائم الصحابة زمن الفاروق نجاسوا خلال الديار ، وعمرها وسهلها . وأقطعنها أيدي المسلمين من الكفار ، وكانوا أحق بها وأهلها . وقولى في المقامة المتقدمة الذكر : قال إذن قد تعلقت من الصنعة بأسبابها . وأنت البيوت من أبوابها . وقولى فيها : قلت قد بانت لى علومها . فما رسوماها؟ — قال إن أعباءها لباهظة خملا . وإنها لكبيرة إلا . ولكن سأحدث لك ذكرا . وأنبئك بما لم يحط به خبرا .

وقولِي في المفاخرة بين السيف والقلم في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم :
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم دولة الإسلام فسمت بهم على
سائر الدول . وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعاتت مخلوق النصر لا بجمرة أنجل .
صلاة ينقضى دون أنقضائها تعاقب الأيام . وتكل السنة الأقالم عن وصفها
ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام .

وربما اقتصر على التلويح والإشارة خاصة : كقول القاضي الفاضل فيما كتب به
عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى الديوان العزيز ببغداد في الاستصراخ
وتهويل أمر الفرنج : رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي ، وها هي في سبيلك مبدولة ،
وأني وقد هاجر إليك هجرة يرجوها مقبولة .

وقول ضياء الدين بن الأثير في وصف غبار الحرب : وعقد العجاج سقفا فانهقد .
وأرانا كيف رفع السماء بغير عمد . غير أنها سماء بنيت بسنابك الجياد . وزينت
ببحوم الصعاد . ففيها ما يوعد من المنايا لا ما يوعد من الأرزاق . ومنها تُقَدَّف
شياطين الحرب لا شياطين الأستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله : ”والطريق في استنباط المعاني من
القرآن الكريم وأستعمال الآيات في خلال الكلام أن تعمد إلى سورة من القرآن ،
وتأخذ في تلاوتها وكلمة مرة بك معنى أثبتته في ورقة مفردة حتى تنتهي إلى آخرها ،
ثم تأخذ في استعمال تلك المعاني التي ظهرت وإدخالها في خلال الكلام وكلمة عاودت
التلاوة وكررتها ظهر لك من المعاني ما لم يظهر لك في المرة التي قبلها“ .

ولتعلم أن الآية الواحدة قد تقع في الاستعمال على عدة وجوه يورده النثر
في معنى ثم ينقله لمعنى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير في قوله تعالى حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ . فقال في دعاء كتاب : وصل كتاب من الحضرة السامية أحسن الله أثرها ، وأعلى خطرها ، وقضى من العلياء وطرها ، وأظهر على أيديها آيات المكارم وسورها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسها وقمرها . ثم أبرزه في معنى آخر فقال أكرم النعم ما كان فيه ذكرى للعابدين . وتقدمه إلى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين . فهذه النعمة هي التي تأتي بتيسير العسير . وتجلو ظلمة الخطب بإيضاح المنير . فأنظر إلى أثر رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير . ثم نقله إلى معنى آخر فقال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء : وقد علم أن أمير المؤمنين أدنى مجلسه من سمائه ، وآسسه على وحدة الأفراد بحفل نعائه . ورفعته حتى ودت الشمس لو كانت من أتراه والقمر لو كان من ندمائه . وذلك مقام لا تستطيع الحدود أن ترقى إلى رتبته . ولا الآمال أن تطوف حول كعبته ، ولا الشفاه أن تتشرف بتقبيل تربته . فليردد إعجابا بما نالته من مواطن أقدامه ، ولينظر إلى سجود الكواكب له في يقظته لا في منامه .

قال في " حسن التوسل " والناس في استخراج المعاني من القرآن الكريم ، وأستعمالها في الكلام على قدر طبقاتهم وتفاوت درجاتهم . ففطرط في الحسن ومفطرط وفوق كل ذي علم عليم .

قلت : وكما يحتاج الكاتب إلى حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقبس من معانيه كذلك يحتاج إلى معرفة العلوم المختصة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ ، ومعرفة رجالها ، ومن أشهر منهم وعرف بجودة القراءة ، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم ؛ ليمائل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم ؛ في خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقاً لذلك كما قال في "التعريف" في وصية مقرئ في القسم الثالث من الكتاب :
 وليدُمْ على ما هو عليه من تلاوة القرآن، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُربِه ، وصَباح
 القبول المؤذن له برضا ربه ؛ وليجعل سُورَه له أسواراً ، وآياتِه تَظهر بين عينيه
 أنواراً . وليلت القرآن بحروفه وإذا قرأ استعاذ ، وليجمع طُرقَه ، وهى التى عليها الجمهور
 ويترك الشواذ . ولا يرتدّ دون غاية لإفصار ، ولا يقف فبعد أن أتمّ لم يبق بحمد الله
 إحصار ، وليتوسع في مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار ، وليبذل
 للطلبة الرّغاب ، وليشبع فإن ذوى النّهمة سغاب . وليرّ الناس ما وهبه الله من
 الأقتدار فإنه آحتضن السّبع ودخل الغاب ، وليتمّ مبانى ما أتمّ ابن عامر وأبو عمرو
 له التعمير ، ولقّه الكسائى في كسائه ولم يقل جدى ابن كثير ، وحُمّ به لجزء أن يعود
 ذاهب الزمان ، وعرف أنه لا عاصم من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطوفان ، وتدقق
 يتفجّر علماً وقد وقفت السيول الدوافع ، وضراً أكثر قراء الزمان لعدم تفهيمهم
 وهو نافع ، وليقبل على ذوى الإقبال على الطلب ، وليأخذهم بالتربية فما منهم إلا
 من هو إليه قد أنتسب . وهو يعلم ما من الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النعماء ،
 ووصل سببه منه بجبل الله المتدّ من الأرض إلى السماء . فليقدر حقّ هذه النعمة
 بحسن إقباله على التعليم ، والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهى فوق كلّ ذى علمٍ عليهم .

النوع السابع

(الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية على قائلها أفضل الصلاة والسلام ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى بيان وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قال "فى حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية ،
 والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم ؛ وخصوصاً فى السير ، والمغازى ،

والأحكام؛ وتأمل فصاحتها، والنظر في معرفة معانيها وغريبها؛ وفقه ما لا بد من معرفته من أحكامها لينفق منها على سعة، ويستشهد بكل شيء في موضعه، ويحجج بمكان الحجّة، ويستدل بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبنى كلامه على أصل لا يُزَلُّ، ويسوق مقاصده إلى سبيل لا يضل عنه، فإن الدليل على المقصد إذا استند إلى النص قويت فيه الحجّة، وسلم له الخصم، وأدعن له المعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طليت غايتها فإنها بعد كتاب الله في كلام من أوتي جوامع الكلم وقال: "أنا أفصح من نطق بالصاد".

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث، ويستدلون به في مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجموح ويستسهل الصعب، وقد رجع الأنصار يوم السقيفة إلى حديث "الأئمة من قریش" حيث رواه لهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه، وأذعنوا له، وبايعوه بعد ما اجتمعوا إلى سعد بن عبادة وقالوا: "منا أمير ومنكم أمير". على ما سيأتى بيانه في موضعه إن شاء الله. ورجع عمر رضى الله عنه لحديث النهى عن دخول بلد الطاعون فعاد إلى المدينة بعد أن قارب الشام حين بلغه أن به الطاعون. وقال على رضى الله عنه في حق الأنصار: "لو زلوا لزلت معهم" لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أزول معكم حيث ما زلتم".

ثم الذى أشار إليه ابن قتيبة في "أدب الكاتب" أن الأحاديث التي ينبغي للكاتب حفظها الأحاديث المتعلقة بالفقه وأحكامه: كقوله صلى الله عليه وسلم: "البينة على المدعى، واليمين على المدعى عليه". والخراج بالظمان. وجرح العجاء جبار.

(١) ولا يَغْلَقُ الرهنُ . والمنحةُ مردودة . والعارية مؤداة . والزَّعيمُ غريم . ولا وصيةٌ لوارث . ولا قَطْعٌ في ثمرٍ ولا كَثْر . ولا قودٌ إلا بمجيدة . والمرأة تُعاقَل الرجل إلى ثلثِ ديتها . ولا تعقلُ العاقلةُ عمدا ولا عبدا ولا صلحا ولا أعترافا . ولا طلاقٌ في إغلاق ، والبيعانِ بالخيار ما لم يتفرقا . والجارُ أحقُّ بصقبة . والطلاقُ بالرجال والعدة بالنساء . وكنهيه في البيوع عن المخاربة والمحاقلة ، والمزانية ، والمعاومة ، والثنيا ، وعن ربح ما لم يُضْمَن ، وعن بيع ما لم يُقبض ، وعن بيعتين في بيعة ، وعن شرطين في بيع ، وعن بيعٍ وسلف ، وعن بيع الغرور وبيع الموصفة ، وعن الكالئ بالكالئ ، وعن تلقى الركبان . وما أشبه ذلك ليغتنى بحفظها وتدبر معانيها عن إطلاقات الفقهاء .“

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بما هو أعم من ذلك خصوصا الحكم والأمثال والسير وما أشبه ذلك مما يكثر الاستشهاد به في الكتابة والافتباس من معانيه . قال في ”المثل السائر“ : وينبغي أن يكون أول ما يحفظه من الأخبار ما تضمنته كتاب ”الشهاب في المواعظ والآداب“ للقضاعي ، فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيه يستعمل لأنه يتضمن حكما وآدابا ، فإذا حفظته وتدرت بأستعماله ، حصل عندك قوة على التصرف والمعرفة بما يدخل في الاستعمال وما لا يدخل ، وعند ذلك نتصح كتاب صحيح البخاري ، ومسلم ، والموطأ ، والترمذي ، وسنن أبي داود ، وسنن النسائي ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، و”أهل مكة أخبر بشعائهم“ . قال والذي تأخذه إن أمكنك

(١) الحديث في المصباح لا يغلَقُ الرهن بما فيه . أى لا يستحقه المرتهن بالدين الذي هو

درسه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فليست منه على ثقة؛ وإن كان لك محفوظات كثيرة: كالقرءان الكريم، ودواوين كثيرة من الشعر، وما ورد من الأمثال السائرة، وغير ذلك مما تقدمت الإشارة إليه وما يأتي ذكره، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار، والإكثار من استعمالها في كلامك، حتى ترتقم على خاطرِكَ فتكون إذا احتجت منها إلى شيء وجدته، وسهل عليك أن تأتي به آرتجالاً؛ فأمل ذلك وأعمل به. ثم قال وكنت جردت من الأخبار النبوية كتاباً يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها في الاستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدة تزيد على عشرين سنين، فكنت أنهي مطالعته في كل أسبوع مرة حتى دار على ناظري وخطري ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظاً لا يشذ منه عنى شيء.

المقصد الثاني

(في بيان كيفية استعمال الأحاديث والآثار في الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير: وأعلم أن أكثر الأحاديث تدخل في الاستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بيني وبين بعض علماء الأدب في هذا الأسلوب كلامٌ فأستوعره وأستنكره، وقال: هذا لا يتهيأ إلا في الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا؛ بل يتهيأ في الأكثر منها — فقال قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم: **«أنه أختصم إليه في جنين فقضى على من أسقطه بغزة عبد أو أمة»**، فأين تستعمل هذا؟ فأفكرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه وهو: **«قد كثُر الجهل حتى لا يقال فلان عالم وفلان جاهل وضرب المثل بياقل وكَم في هذه الصورة المثلثة من باقل، ولو عرف كل إنسان قدره لما مشى بدنٌ إلا تحت رأسه، ولا أنتصب رأسٌ إلا على بدنه، ولكان صاحبُ العمامة**

أحق بعلمته وصاحب الرسن أحق برسنه . وكنت سمعتُ بكاتب من الكُتاب كَلِمَهُ إلى عَثَانِهِ ، وَقَلَمُهُ بُعَاثَهُ لَا يَسْتَنْسِرُ وَأَيُّ بَطْشٍ لُبُعَاثَهُ . وإذا وجب الوضوء على غيره بالخارج من السبيلين ، وجب عليه من سُبُلِ ثَلَاثِهِ . هذا وهو يدعى أنه في الفصاحة أُمَّةٌ وَحِدَةٌ ، وَمَنْ قَسَّ إِيَادِيَهُ أَوْ سَجَبَانُ وَأَيْلٌ عِنْدَهُ ؛ وَإِذَا كُشِفَ خَاطِرُهُ وَجَدَ بَلِيدًا لَا يَخْرُجُ عَنِ الْعَمَةِ وَالْكَمَةِ ، وَإِنْ رَامَ أَنْ يَسْتَنْجِبَهُ فِي حِينٍ مِنَ الْأَحْيَانِ قَضَى عَلَيْهِ بَغْتَةً عَبْدٌ أَوْ أُمَّةٌ ؛ وَكَثِيرًا مَا يَتَقَدَّمُ وَنَقِصْتُهُ هَذِهِ عَلَى الْأَفْضَلِ مِنَ الْعُلَمَاءِ ، وَقَدْ صَارَ النَّاسُ إِلَى زَمَانٍ يَعلُوفِيهِ حَضِيضُ الْأَرْضِ عَلَى هَامِ السَّمَاءِ .“ فلما أوردته عليه ، ظهرت أَمَارَةُ الْحَسَدِ عَلَى صَفْحَاتِ وَجْهِهِ مَعَ إِعْجَابِهِ بِهِ وَاسْتِغْرَابِهِ فِيهِ إِيَاهُ .

ثم قال : وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو ”لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ وَلَا تَمَثَّلُ“ فهذا أين يُسْتَعْمَلُ مِنَ الْمَكْتُوبَاتِ؟ فترويت في قوله تَرْوِيًا سِيرًا ثم قلت : هذا يستعمل في كتاب إلى ديوان الخلافة ، وأملت عليه الكُتاب ، فجاء هذا الحديث في فصل منه ، وهو : ”إِذَا أَفَاضَ الْخَادِمُ فِي وَصْفِ وَلَائِهِ ، نَكَصَتْ هِمُّ الْأَوْلِيَاءِ عَنِ مَقَامِهِ ؛ وَعَلِمُوا أَنَّهُ أَخَذَ الْأَمْرَ بِزِمَامِهِ ؛ فَقَدْ أَصْبَحَ وَلَيْسَ بَقَلْبِهِ سِوَى الْوَلَاءِ وَالْإِيمَانِ ، فَهَذَا يَظْهَرُ أَثْرُهُ فِي طَاعَةِ السَّرِّ وَهَذَا فِي طَاعَةِ الْإِعْلَانِ ؛ وَمَا عَدَاهُمَا فَإِنْ دَخَلَهُ إِلَى قَلْبِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ الْحَظُورَةِ ، وَالْمَلَائِكَةُ لَا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ تَمَثَّلُ وَلَا صُورَةٌ ، فَيَعْمَلُ الدِّيْوَانُ الْعَزِيزُ مِنْهُ عَلَى سَيْفٍ مِنْ سَيْوْفِ اللَّهِ يَقْرِي ، بِلَا ضَارِبٍ ؛ وَيَسْرِي ، بِلَا حَامِلٍ ؛ وَلَا يُسَلُّ إِلَّا بِبَيْدِ حَقِّ ، وَلَا يُعْمَدُ إِلَّا فِي ظَهْرِ بَاطِلٍ . وَلْيَعْلَمْ أَنَّ كَرِيشَهُ وَعَيْبَتَهُ فِي تَضْمُنِ الْأَسْرَارِ ، وَأَنَّهُ أَحَدُ سَاعِدِيهِ إِذَا عُدَّتْ مَوَاقِفُ الْأَنْصَارِ“ . فلما رأى هذا الفصل بُهِتَ لَهُ وَعَجِبَ مِنْهُ . قال : ولم أقتنع بإيراد الحديث الذي ذكر حتى أضفتُ إليه حديثًا آخر ، وهو قول النبي صلى الله عليه وسلم : ”الأنصار كَرِيشِي وَعَيْبَتِي“ .

ثم تضمين الكلام شيئاً من الأحاديث على ما تقدم في القرآن الكريم؛ فينقسم إلى الاستشهاد والاقباس على ما تقدم .

فأما الاستشهاد فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث، وينبه عليه : كقول أبي إسحاق الصابي في وصية عهد من خليفة لسلطان : وأن يقوم بما يعقده الرجل من عرض المسلمين ، فإن ذمته ذمة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” المسالمون يسعون بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ” .

وكما كتب بغض الكتاب في صدر كتاب لديوان الخلافة : والحمد لله على أن صار إلى أمير المؤمنين ميراث الطاهرين من آبائه ، وخصه بما حازله من جريل الفضل وحبائه ، وحقق للدولة العباسية وعد النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعمة العباس رضوان الله عليه ” ألا أبشرك يا عم ! بي ختمت النبوة وبولدك كُتِمَ الخلافة ” . وكقوله من عهد آخر : وأمره أن يضع الرصد على من يختار في الجمالة من أباقي العبيد، والأحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم : إلى أن قال وأن يعرفوا اللقط ويتبعوا أثرها ، ويُسبِعُوا خَبَرَهَا ، فإذا حضر صاحبها وعلم أنه مستوجبها ، سلمت إليه ، ولم يعترض فيها عليه . والله جل وعز يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ” ضالة المؤمن حرق النار ” إلى غير ذلك من الاستشهادات .

وأما الاقتباسات فهو أن يضمن الكلام شيئاً من الحديث ولا ينبه عليه . فن ذلك ، ما ذكره الحريري في مقاماته من قوله : وَكِتَابُ الْفَقْرَ زَهَادِهِ ، وَأَنْتَظَرُ الْفَرَجَ بِالصَّبْرِ عِبَادِهِ . وقوله : شَاهَتِ الْوُجُوهُ ، وَقَبِحَ اللَّكْحُ وَمَنْ يَرْجُوهُ . وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

فمن ذلك قوله في دعاء كتاب: "أعاذ الله أيامه من الغير، وبين بخطره مجده نقص كل خطر . وجعل ذكره زاداً لكل ركب ، وأنساً لكل سمر . ومنحه من فضله ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم في وصف نعيم الجنة "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر" فنقله إلى الدعاء .

ومن ذلك ما ذكره في النصر على العدو في مواطن القتال ، وهو : "أخذنا بسنة رسول الله في النصر الذي نزجوه ، ونبذنا في وجه العدو كفاً من التراب وقلنا شأهت الوجوه؛ فثبت الله ماتزلزل من أقدامنا، وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا" . أخذ المعنى الأول من حديث غزوة حنين وأن النبي صلى الله عليه وسلم أخذ قبضة من التراب وألقى بها في وجوه الكفار وقال : "شأهت الوجوه" . وأخذ المعنى الثاني من حديث غزوة بدر : وذلك أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من المشركين وأراد أن يضربه نخر على الأرض ميتاً قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتاً من فوقه وهو يقول أقدم حيزوم فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "ذلك من مدد السماء الثالثة" .

ومن ذلك ما ذكره في ضيق مجال الحرب ، وهو : "وضاق الضرب بين الفريقين حتى اتصلت مواقع البيض الذكور ، وتصاحت الغرر بالغرر والصدور بالصدور . وأستظلل حينئذ بالسيوف لأشبتك مجالها وتبوت مقاعد الجنة التي هي تحت ظلالها" . أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم "الجنة تحت ظلال السيف" .

ومن ذلك ما ذكره في وصف بعض البلاد الوحمة ، وهو : "ومن صفاتها أنها مدرة مستوية الطينه ، مجموع لها بين حرمكة ولأواء المدينة . إلا أنها لم يؤمن

حرَّها من الخطفه، ولا تُقِلَّت حُمَّها إلى الجحفة . أخذ المعنى الأول من قوله صلى الله عليه وسلم ”مَنْ صَبَرَ عَلَى حَرِّ مَكَّةَ وَلَا وَاءِ الْمَدِينَةِ ضَمِنْتُ لَهُ عَلَى اللَّهِ الْجَنَّةَ“ . والمعنى الثانى من قوله صلى الله عليه وسلم فى دُعائه للمدينة : ”اللَّهُمَّ حَبِّبْهَا إِلَيْنَا كَمَا حَبَّبْتَ إِلَيْنَا مَكَّةَ وَأَنْتَ قُلُّ حُمَّهَا إِلَى الْجُحْفَةِ“ . ورشح ذلك بمعنى قوله تعالى ﴿ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسَ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ حيث قال إلا أنها لم يؤمن حرَّها من الخطفة .

ومن ذلك ما ذكره فى وصف كريم ، وهو : ”فأغنى بجموده إغناء المطر، وسَمَّا إلى المعالي سُمُو الشمس وسار فى منازلها مسير القمر . ونَبَّح من أبكار فضائله ما إذا ادعاه غيره قيل للعاهر الحجر“ . أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم ”الْوَلَدُ لِلْفِرَاشِ وَلِلْعَاهِرِ الْحَجَرُ“ . إلى غير ذلك من مقتبساته المستكثرة، وأستنباطاته التى هى غير قاصرة ولا مستنكرة .

ومن ذلك ما ذكرته أنا فى المفاخرة بين السيف والقلم ، وهو : ”وبدأ القلم فتكلم ، ومضى فى الكلام بصدق عزم فما توقَّف ولا تلعمَّ ؛ فقال بأسم الله تعالى أستفتح ، وبجمده أتمنُّ وأستنجح ؛ إذ من شأنى الكتابة ، ومن فى الخطابه ، وكلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبدَأُ فيه بأسم الله تعالى فهو أجذم ، وكل كلام لا يُفتتحُ بجمد الله فأساسه غير مُحكم“ . أخذت ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم ”كلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبدَأُ فيه بأسم الله أو بجمد الله فهو أجذم“ على اختلاف الرواية فى ذلك .

وأعلم أنه كما يحتاج الكاتب إلى حفظ الأحاديث والآثار بطريق الذات للأستشهاد بها ، والأقتباس من معانيها على ما تقدم بيانه : كذلك يحتاج إلى المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها : كالصحيح ، والحسن ، والمرسل ، والمرفوع ، والمُسند ، والمتصل ، والمنقطع ، ونحو ذلك . وكذلك المعرفة بأسماء الرجال ، والمشاهير من المحدثين :

كالبخارى، ومسلم، وأبي داود، والنسائي وغيرهم : ليورد ما يحتاج إليه من ذلك في غُضُون كلامه عند احتياجه إليه في كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدث ونحوه كما قال في " التعريف " في وصية لمحدث في قسم الوصايا من الكتاب " وقد أصبح بالسنة النبوية مضطلعا ، وعلى ما جمعه طُرق أهل الحديث مُطلعا ، وصح الصحيح أن حديثه الحسن ، وأن المرسل منه في الطلب مقطوع عنه كل ذى لسن . وأن مسنده هو المأخوذ عن العوالى ، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى . وأن مثله لا يوجد في نسبة المعرق ، ولا يُعرف مثله للمحافظين : ابن عبد البر بالمغرب وخطيب بغداد بالمشرق . وهو يعرف مقدار طلب الطالب فإنه طال ما شد له النطاق ، وسعى له سعيه وتجشم المشاق . ورحل له يشتد به حرصه والمطايا مزومة ، وينبهه له طلبه والجفون مقلقة والعيون مهمومة . ووقف على الأبواب لا يُضجره طول الوقوف حتى يؤذن له في ولوجها ، وقعد القرفصاء في المجالس لا تنصيق به فروجها .

فليعامل الطلبة إذا أتوه للفائدة معاملة من جرب ، وليسسط للأقرباء منهم ويؤنس الغرباء فما هو إلا ممن طلب آونة من قريب وآونة تغرب . وليسفر لهم صباح قصده عن النجاح ، وليقتق لهم من عقوده الصحاح ، وليوضح لهم الحديث ، وليرخ خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السير الخثيث ، وليؤتهم مما وسع الله عليه فيه المجال ، ويعانهم ما يجب تعليمه من التون والرجال ، ويصبرهم بمواقع الجرح والتعديل ، والتوجيه والتعليل ، والصحيح والمعتل الذى تنتثر أعضاؤه سقما كالعليل .

وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عناية ، وما ينقب فيه عن دراية أو يقنع فيه بجزد روايه . ومثله ما يزداد حلما ، ولا يعزف بمن رخص في حديث موضوع أو كتم علما . وسيأتى ذكر هذه الوصية في موضعها إن شاء الله تعالى .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرسي الشام :
 ”ولأنه الحافظ الذي أحيا ذكر ابن نُقْطَةَ بعد ما دارت عليه الدوائر، وأغنى وحده
 دمشق عن أتى في النسب بعساكر“ .

النوع الثامن

(الإكثار من حفظ حُطَبِ البلقاء، والتفنن في أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قال أبو جعفر النحاس : ”وهي من أكد ما يحتاج إليه الكاتب ، وذلك أن
 الخطب من مستودعات سرِّ البلاغة ، ومجامع الحكم ؛ بها تفاخرت العرب
 في مشاهدهم ، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم ؛ بها يميز الكلام ، وبها
 يُخاطَب الخَاصُّ والعامُّ ، وعلى منوال الخطابة نُسِجَت الكتابه ، وعلى طريق الخطباء
 مَشَتِ الكُتَّاب . وقد قال أبو هلال العسكري رحمه الله في ”الصناعتين“ : والرسائل
 والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضا
 من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتَّاب في السهولة
 والعدوبة ؛ وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل“ . قال : ”والفرق بينهما
 أن الخطبة يُشَافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة
 في أيسر كلفة“ .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غايةُ الأعتناء حتى قال صاحب ”الريحان
 والريعان“ : إن ماتت كلمت به العرب من أهل المدّر والوبر من جيّد المنشور ومزدوج

الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون إلا أنه لم يُحفظ من المنشور عشره ، ولا ضاع من الموزون عشره . لأن الخطيب إنما كان يُحطّب في المقام الذي يقوم فيه في مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أو خطبة النكاح ؛ فإذا آنقضى المقام حفظه من حفظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد . قال : ” ولولا أن خطبة قُسن بن ساعدة كان سندها مما يتنافسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي رواها عنه فأطارذ كرها ، ما تميزت عما سواها “ .

قلت : وليس ما أشار إليه لرفض النثر عندهم وقلة اعتنائهم به ؛ بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه في حاضرهم وباديهم ، وخاصتهم وعامتهم ؛ بخلاف الخطابة فإنه لم يتعاطها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المصّاع : فلذلك عزّ حفظها وقلّ عنهم نقلها . وقد كانت تقوم بها في الجاهلية سادات العرب ، ورؤسائهم ممن فاز بقُدح الفضل ، وسبق إلى ذرى المجد ، ويُحْصون ذلك بالمواقف الكرام ، والمشاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحفيلة ، فيقوم الخطيب في قومه فيحمد الله ويُثني عليه . ثم يذكر ما سنع له من مطابق قصده وموافق طلبه : من وعظ يذكّر أو نخر أو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خطبهم في الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جد النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكري في كتاب الأوائل . وهي : اسمعوا وعوا ، وتعلموا وتعلموا ، وتفهموا وتفهموا ، ليل ساج . ونهاراً صباح ، والأرض مهّاد ، والجبال أوتاد ، والأولون كالآخرين ، كل ذلك إلى بلاء ، فصلوا أرحامكم ، وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم من

(١) لعله ساج من قولهم ضجّ القوم يضحون إذا صاحوا وعلبوا . وفي الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع، أوميتا نُشِر، الدار أمامكم والظن خلاف ماتقولون، زينوا حرمكم وعظموه،
وتمسكوا به ولا تُفارقوه، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم . ثم قال :

نَهَارٌ وَلَيْلٌ وَأَخْتِلَافٌ حَوَادِثٍ * سَوَاءٌ عَلَيْنَا حُلُوهَا وَمَرِيْرُهَا
يَتُوبَانِ بِالْأَحْدَاثِ حَتَّى تَأْتِيَا * وَبِالنَّعْمِ الضَّافِي عَلَيْنَا سَتُورُهَا
صُرُوفٌ وَأَنْبَاءٌ تَقَلِّبُ أَهْلُهَا * لَهَا عَقْدٌ مَا يَسْتَحِيلُ مَرِيْرُهَا
عَلَى غَفْلَةٍ يَأْتِي النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ * فَيُخْبِرُ أَخْبَارًا صَدُوقًا خَيْرُهَا

ثم قال :

يَا لَيْتَنِي شَاهِدٌ فُجُوءَ دَعْوَتِهِ ! * حِينَ الْعَشِيرَةِ تَبْعِي الْحَقَّ خِذْلَانَا

ومن ذلك خطبة قُوس بن ساعدة الإيادي ، بسوق عكاظ فيما نقله أصحاب
السيرة عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عنه وهي : أيها الناس ! اسمعوا وعوا، من
عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماء
ذات أبراج، ونجوم تزهّر، وبحار تزخر، وجبال مرساه، وأرض مدحاه، وأنهار مجراه .
إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً ! ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون .
أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا . يُقسّم قُوس بالله قسماً لا إثم فيه إن الله ديناً هو أرضى
له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه ؛ إنكم لتأتون من الأمر منكراً ! . ويروى أن
قُوساً أنشأ بعد ذلك يقول :

فِي الدَّاهِيَيْنِ الأُولَى * ن مِنَ القُرُونِ لَنَا بَصَائِرُ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا * لِمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرُ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا * تَمْضِي : الأَكَابِرُ والأَصَاغِرُ
لَا يَرْجِعُ المَاضِي إِلَى وَلَا مِنَ البَاقِيْنَ غَايِرُ
أَيَقْنَتُ أُنَى لَأَحْمَا * لَهَّ حَيْثُ صَارَ القَوْمُ صَائِرُ

قال صاحب الأوائل : ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” يعرض هذا الكلام يوم القيامة على قُوس بن ساعدة فإن كان قاله الله فهو من أهل الجنة “ .

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خطب النبي صلى الله عليه وسلم خديجة وهي : الحمد لله الذي جمعنا من زرع إبراهيم ، وذرية إسماعيل ، وجعل لنا بيتنا محجوجا ، وحرما آمنا . ثم إن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي من لا يوازن بأحد إلا رجمه ، ولا يعدل بأحد إلا فضله ، وإن كان في المال قُل فإن المال ظل زائل ؛ وله في خديجة رغبة ولها فيه مثلها ؛ وما كان من صداق فني مالي ؛ وله نبأ عظيم وخبر شائع .

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم ” أيها الناس كأن الموت فيما على غيرنا قد كُتب ، وكأن الحق فيما على غيرنا قد وجب ، وكأن الذي تُسبغ من الأموات سفرٌ عما قليل إلينا راجعون ، نبؤهم أجداً لهم ، وأنا كل من تراهم كأننا نخلدون بعدهم ، ونسينا كل واعظة وأمناء كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالا أكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وحالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليفته ، وطابت سريرته ، وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة ! “

ومن خطب أبي بكر الصديق رضي الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس في ” صناعة الكتاب “ وهي : ألا إن أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، الملك إذا ملك زهده الله جل وعز فيما عنده ، ورغبه فيما في يدي غيره ، وانتقصه شطر أهله ، وأشرب قلبه الإشفاق ، وإذا وجبت نفسه ، ونضب عمره وصحأ ظله ،

حاسبه الله جل ثناؤه وأشدّ حسابه، وأقلّ عَفْوَه؛ وسَتَرُونِ بَعْدِي مُلْكًا عَضُوضًا،
وأُمَّةً سِحَاحًا، ودَمًا مُبَاحًا؛ وإن كانت للباطل نَزْوَةٌ، ولأهل الحق جَوْلَةٌ، يعْفُو لها
الأثر وتموت السنن، فألزموا المساجد واستشيروا القرآن^(١)، وليكن الإبرام بعد التشاور،
والصَّفْقَةُ بعد التناظر .

ومن خطب عمر رضى الله عنه: أيها الناس! إنّه أتى على حين وأنا أحسب
أنّ من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده؛ ألا وإنه قد خيل إلى أن أقواما يقرءون
القرآن يريدون ما عند الناس! ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم، فإنما
كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحي
وذهب النبي عليه السلام، فإنما أعرفكم بما أقول لكم: ألا فمن أظهر لنا خيرا ظننا
به خيرا وأثينا به عليه!، ومن أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه!، أقدعوا
هذه النفوس عن شهواتها، فإنها لملّقة، وإنكم إلّا تقدعوها تنزع بكم إلى شرّ غاية .
إن هذا الحق ثقيل مرىء، وإن الباطل خفيف ويىء، وترك الخطيئة خير من
مُعالجة التّوبة؛ وربّ نظرة زرعت شهوة، وشهوة ساعة أورثت حُرنا طويلا! .

ومن خطب عثمان رضى الله عنه: وقد أنكروا عليه تة تديم بنى أمية على غيرهم:
أما بعد فإن لكلّ شيء آفة، وآفة هذا الدين وعاهة هذه الملة قوم عيابون،
طعانون، يُظهرون لكم ما يُحبون ويُسرّون ما تكرهون. أما والله يامعشر المهاجرين
والأنصار! لقد عبتم على أشياء ونقمتم منى أموراً قد أقرتم لابن الخطاب بمثلها
ولكنه وقمكم وقما، ودمغكم حتى لا يجترئ أحد منكم يملأ بصره منه ولا يُشير بظرفه^(٢)

(١) كذا في الأصول بالسين المعجمة ولعله تصحيف عن الناء المثلثة في السان وتور القرآن بحث عن معانيه
وعن عليه . وأورد في ذلك حديث عبد الله أنه أثيروا القرآن فان فيه خير الأولين والآخرين . وحديثنا آخر . من
أراد العلم فليتور القرآن . (٢) في غير هذا الكتاب وقمكم والوقم والدمغ والقهر والإذلال .

إلا مُسَارَقَةً إِلَيْهِ ؛ أما والله لَأَنَا أَكْثَرُ مِنْ أبنِ الخَطَّابِ عَدَدًا ، وَأَقْرَبُ نَاصِرًا وَأَجْدَرُ
 إِنْ قَالَ هَلُمَّ أَنْ يُجَابَ . هل تَفْقِدُونَ مِنْ حَقُوقِكُمْ وَأَعْطَيْتُمْ شَيْئًا فَإِنِّي إِلَّا أَفْعَلُ^(١)
 فِي الْفَضْلِ مَا أُرِيدُ فَلِمَ كُنْتَ إِمَامًا إِذَنْ ؟ أما والله ما عَابَ عَلِيٌّ مَنْ عَابَ مِنْكُمْ أَمْرًا
 أَجْهَلُهُ وَلَا أَتَيْتُ الَّذِي أَتَيْتُ إِلَّا وَأَنَا أَعْرِفُهُ .

ومن خطب على كرم الله وجهه : حين بُويع بالخِلافة : إِنْ اللهُ أَنْزَلَ كِتَابًا
 هَادِيًا بَيْنَ فِيهِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، نَحْذُوا بِالْخَيْرِ وَدَعُوا الشَّرَّ ؛ الْفَرَائِضَ أَدِّوْهَا إِلَى اللهِ
 تَوَدِّعِكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ . إِنْ اللهُ حَرَّمَ حُرْمًا غَيْرَ مَجْهُولَةٍ ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى الْحَرَمِ
 كُلِّهَا ، وَسَدَّدَ بِالْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ حَقُوقَ الْمُسْلِمِينَ . فَالْمُسْلِمُ مِنْ سَلَمِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ
 لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلَّا بِالْحَقِّ ؛ لَا يَجِلُّ أَذَى الْمُسْلِمِ إِلَّا بِمَا يَجِبُ ، فَأَدِّوْا أَمْرَ الْعَامَّةِ ، وَخَاصَّةً
 أَحَدِكُمُ الْمَوْتَ . فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ وَإِنَّمَا خَلْفُكُمْ السَّاعَةُ تُدَكِّرُكُمْ . تَحَفَّفُوا تَلَحُّقُوا ، فَإِنَّمَا
 يَنْتَظِرُ بِالنَّاسِ أَنْحَرَاهُمْ . اتَّقُوا اللهَ عِبَادَةَ اللهِ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ ، فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّى عَنْ
 الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ ؛ أَطِيعُوا اللهَ وَلَا تَعْصُوهُ . وَإِذَا رَأَيْتُمُ الْخَيْرَ نَحْذُوا بِهِ ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ
 الشَّرَّ فَدَعُوهُ ، وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعِفُونَ فِي الْأَرْضِ .

ومن خطب الحسن بن علي رضي الله عنه : اعلموا أن الحلم زين ، والوقار
 مودة ، وأصلة نعمة ، والإكثار صلف ، والعجلة سفه ، والسفه ضعف ، والفتق
 ورطة ، ومجالسة أهل الدناءة شين ، ومخالطة أهل الفسوق ريبة .

ومن خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بصفيين : أيها الناس !
 إن الحرب صعبة ، وإن السلم من مبرة ! ألا وقد زبنتنا الحرب وزبناها

(١) في غير هذا الكتاب وأقن إن قلت لهم أن تجاب دعوتك من عمر . والروايات متقاربة .

وَأَلْفَتْنَا وَالْفُنَاهَا، فَتَحْنُ بَنُوهَا وَهِيَ أُمَّنَا . أَيُّهَا النَّاسُ ! اسْتَقِيمُوا عَلَى سَبِيلِ الْهُدَى ،
وَدَعُوا الْأَهْوَاءَ الْمُضِلَّةَ ، وَالْبِدَعَ الْمُرْدِيَةَ ، وَلَسْتُ أَرَاكُمْ تَزْدَادُونَ بَعْدَ الْوَصَاةِ
إِلَّا اسْتَجْرَاءً ، وَلَنْ أَزْدَادَ بَعْدَ الْإِعْذَارِ وَالْحِجَّةِ عَلَيْكُمْ إِلَّا عَقُوبَةٌ ! ، وَقَدْ أَلْتَقَيْنَا نَحْنُ
وَأْتَمَّ عِنْدَ السَّيْفِ فَمَنْ شَاءَ فَلْيَتَحَرَّكَ أَوْ يَتَقَهَّرْ وَمَا مَتَلِي وَمِثْلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ ابْنُ قَيْسٍ
ابْنُ رِفَاعَةَ الْأَنْصَارِيُّ .

مَنْ يَصِلَ نَارِي بِلا ذَنْبٍ وَلَا تِرَةٍ * يَصُلِّي بِنَارِ كَرِيمٍ غَيْرِ غَدَّارٍ
أَنَا النَّذِيرُ لَكُمْ مَنِّي جَاهِرَةٌ * كُنْ لَا أَلَامَ عَلَى نَهْيِي وَإِنْ ذَارِي

ومن خطب عتبة بن أبي سفيان ، وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها
أمر أن صعد المنبر وقال : ^(١) يا حَامِلِي الْأُمِّ أَنْوِفِ رَكِبْتُ بَيْنَ أَعْيُنٍ ! إِنَّمَا قَلَّمْتُ
أَظْفَارِي عِنْدَكُمْ لَيْلِينَ مَسَى إِيَّاكُمْ ، وَسَأَلْتُمْ صَلَاحَكُمْ لَكُمْ إِذْ كَانَ فَسَادُكُمْ رَاجِعًا عَلَيْكُمْ ؛
فَأَمَّا إِذْ أَبَيْتُمْ إِلَّا الطَّعْنَ عَلَى الْأَمْرَاءِ وَالْعَتَبَ عَلَى السَّلَفِ وَالْخُلَفَاءِ ، فَوَاللَّهِ لَأَقُطَّعَنَّ
بُطُونَ السَّيَاطِ عَلَى ظَهْرِكُمْ ! فَاِنْ حَسَمْتُ مُسْتَشْرِي دَائِكُمْ وَإِلَّا فَالسَّيْفُ مِنْ
وَرَائِكُمْ . فَكُمْ مِنْ عِظَةٍ لَنَا قَدْ صَمَّتْ عَنْهَا آذَانُكُمْ ، وَزَجْرَةٍ مِنَّا قَدْ مَجَّتْهَا قُلُوبُكُمْ ؛
وَلَسْتُ أَبْجُلُ عَلَيْكُمْ بِالْعَقُوبَةِ إِذَا جَدْتُمْ عَلَيْنَا بِالْمَعْصِيَةِ ، وَلَا مَوْسِيسًا لَكُمْ مِنَ الْمُرَاجَعَةِ
إِلَى الْحَسَنِ إِنْ صَرْتُمْ إِلَى التِّي هِيَ أَبْرُ وَأَتْقَى .

س ومن خطب زياد بن أبيه حين قدم إلى البصرة : أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ الْجَهْلَةَ
الْجَهْلَاءَ ، وَالضَّلَالَةَ الْعَمِيَاءَ ، وَالغَيَّ الْمُوْفِي بَاهِلِهِ عَلَى النَّارِ مَا فِيهِ سَفْهَائُكُمْ ، وَيَشْتَمَلُ
عَلَيْهِ حُلْمَاؤُكُمْ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَنْبُتُ فِيهَا الصَّغِيرُ ، وَلَا يَتَحَاشَى عَنْهَا الْكَبِيرُ ؛ كَأَنَّكُمْ
لَمْ تَقْرَءُوا كِتَابَ اللَّهِ وَلَمْ تَسْمَعُوا مَا أَعَدَّ اللَّهُ مِنَ الثَّوَابِ الْكَرِيمِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْعَذَابِ

(١) لعل عامل أن محذوف والأصل فإ كان منه إلا أن الخ .

الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . إنه ليس منكم إلا من
 طرقت عينه الدنيا ، وسدت مسامعه الشهوات ، واختار الفانية على الباقية ؛ ولا
 تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدّث الذي لم تُسبقوا إليه : من تركم الضعيف
 يُقهره ، والضعيفة المسلوبة في النهار لا تُتصر ، والعدد غير قليل ، والجمع غير مفترق .
 ألم يكن منكم نهايةً يمنعون الغواة عن دجّ الليل وغارة النهار ! قرّبتم القرابة ! وبعدم
 الدين ؛ تعتذرون بغير العذر ، وتغضون على النكر . كل أمرئ منكم يرذ عن سفيهه
 صنّع من لا يخاف عقابا ولا يرجو معادا . فلم يزل بهم ما ترون من قيامكم دونهم
 حتى آتتهوا حرم الإسلام ثم أطرفوا وراءكم كُنُوسا في مكائس الرب ، حرام على
 الطعام والشراب حتى أضع هذه المواخير بالأرض هدمًا وإحراقا ! . إني رأيت آخر هذا
 الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : أين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ،
 وإني لأقسم بالله لا أخذن الولي بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصي ، حتى يلقي
 الرجل أخاه فيقول " آئج سعد فقد هلك سعيد " أو تستقيم لي قناتكم . إنا كذبة
 الأمير بقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، وقد كان بيني
 وبين قوم إحنٌ بجمعت ذلك دبر أذني وتحت قدمي . إني لو علمت أن أحدكم قد
 قتله السُّل من بغضى لم أكشف له قناعا ، ولم أهتك له سترًا ، حتى يُبدى لي صفحته ،
 فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وراعوا على أنفسكم ، فربّ مبيّس
 بقدمونا سيسر ، ومسرور بقدمونا سيبتيس ! . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم
 ساسةً ، وعنكم ذادةٌ نسوسكم بسطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي
 خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا ، ولكم علينا العدل فيما ولينا ، فاستوجبوا
 عدلنا وقيتنا بمناصحتكم لنا ،

(١) في العقد الفريد والصفحة المسلوبة في النهار المبر . (٢) وقع في الأصل المناخير وهو تصحيف
 عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد . (٣) في العقد الفريد وأعينوا .

فقام إليه عبد الله بن الأهمم وقال : " أشهد أيها الأمير لقد أوتيت الحكمة وفصل الخطاب " قال : " كذبت " ذلك نبي الله داود !

ومن خطب عبد الملك بن مروان ، لما قتل عمرا الأشدق بن سعيد بن العاص : إرموا بأبصاركم نحو أهل المعصية ، وأجعلوا سلفكم لمن غير منكم عظة ، ولا تكونوا أغفالا من حسن الاعتبار ، فتنزل بكم جائحة السطوات ، وتجوس خلالكم بوادئ النقيات ، وتطأ رقابكم بثقلها العقوبة فتجعلكم همدا رفانا ، وتشتمل عليكم بطون الأرض أمواتا . فإياي من قول قائل ، ورشقة جاهل ! وإنما بيني وبينكم أن أسمع النعوة فأصم تصميم الحسام المطرور ، وأصول صيال الحرق الموتور ، وإنما هي المصاحفة والمكافئة بظبات السيوف وأسنة الرماح ، والمعاودة لكم بسوء الصباح ، فتاب تائب ، وهذل خائب ، والتوب مقبول ، والإحسان مبذول ، لمن عرف رُشدَه وأبصر حظه . فأنظروا لأنفسكم ، وأقبلوا على حظوظكم ، ولتكن أهل الطاعة يدا على أهل الجهل من سفهائكم ، وأستديموا النعمة التي آبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها ، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجل الخفض والدعة ، وأجل الجزاء والثوبة عصمكم الله من الشيطان وقتته ونزغه ، وأمدكم بحسن معزته وحفظه . انهضوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم غير مقطوعة عنكم ، ولا مكدرية عليكم .
نخرج القوم من عنده يدارا كلهم يخاف أن تكون السطوة به .

ومن خطب الحجاج بن يوسف الثقفي عند قدومه الكوفة أميرا على العراق : يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

(١) كذا في الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة . والنقوة والنغية أول الخير قيل أن تستينه .
(٢) المطرور برأين المحدود المشحوذ في الأصل بالدال المهملة وهو تصحيف .
(٣) في الأصل بالها . واهمال الدال وإعجام حائب ولعله بالميم وإعجام الذال بمعنى ضمير قلق واهمال الحاء من حائب فخر .

أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَّلَاعُ النَّسَايَا * مَتَى أَضَعُ الْعَامَةَ تَعْرِفُونِي

والله يا أهل العراق: إني لأرى رعو سا قد أينعت وحن قطافها، وإني لصاحبها!
والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العائم واللى . يا أهل العراق ما يُعْمَزُ جانبي كَتَمَازِ
التنين، ولا يُقَعِّعُ لي بالشنان. ولقد فُرِّتْ عن ذكاء، وقُشِّتْ عن تجربة، وأجريتُ
من الغاية؛ وإن أمير المؤمنين عبد الملك تَرَكَاتَه بين يديه فعجم عيدانها عودا
عودا فوجدني أمرها عودا . وأشدّها مَكْسِرا، فوجهني اليكم ورامكم بي يا أهل
الكوفة، أهل الشقاق والنفاق، ومساوى الأخلاق: لأنكم طالما أوضعتم في الفتنة،
وأضطجعتهم في منام الضلال، وسننتم سنن العمى، وأيم الله لأخونكم لحو العود،
ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السامة، ولأضربنكم ضرب غريبة
الإبل . إني والله لأحلف إلا صدقت، ولا أعد إلا وفيت . إياي وهذه الزرافات،
وقال وما يقول، وكان وما يكون . وما أتم وذاك يا أهل العراق . إنما أتم أهل
قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيا رزقها رغدا من كل مكان فكتمت بأنعم الله، فاتاها
وعيد القرى من رها . فاستوثقوا وأعدلوا ولا تميلوا، وأسمعوا وأطيعوا، وشايعوا
وبايعوا .

وآعلموا أن ليس مني الإكثار والإهذار ولا مع ذلك التفار ولا الفرار؛ إنما هو
انتضاء هذا السيف، ثم لا يُغمد الشتاء ولا الصيف، حتى يندل الله لأمر المؤمنين
عنكم، ويُقيم له أودكم وصعركم . ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر
في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار . وإن
أمير المؤمنين أمرني أن أعطيكم أعطيائكم، وأشخصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير
المؤمنين؛ وقد أمرت لكم بذلك وأجلكم ثلاثا، وأعطيت الله عهدا يؤاخذني به
ويستوفيه مني: لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه وأنهبن ماله .

ثم أَلْتَفَتَ الى أهل الشام فقال أتمّ البطانةُ والعشيرة ! والله لريحكم أطيّب من ريح المسك الأذفر، وإنما أتمّ كما قال الله تعالى ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية .
وَأَلْتَفَتَ الى أهل العراق فقال والله لريحكم أتمّ من ريح الأبخر، وإنما أتمّ كما قال الله ﴿وَمِثْلَ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لما قدم البصرة يتهدّد أهل العراق ويتوعدهم :
أيها الناس : من أعياه داؤه فعندى دواؤه ! ، ومن آستطال أجله ، فعلى أن أُعْجَلَه ؛
ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله ، ومن آستطال ماضى عمره قصرت عليه
باقيه . إن للشيطان طيفا ، وللسلطان سيفا ! ، فمن سَقِمْتُ سريره ، صحّت عقوبته ؛
ومن وضعه ذنبه ، رفعه صُلبه ؛ ومن لم تسعه العافية ، لم تضق عنه الهلكة ؛ ومن سبقته
بادرة فمه ، سبق بدنه بسفك دمه ؛ إني أنذركم لا أنظر ، وأحذركم لا أعذر ؛ وأتوعد
كم لا أعفو . إنما أفسدكم ترنيق ولاتكم ؛ ومن آسترخى لبه ، ساء أدبه . إن الحزم
والعزم سكا في سطي ، وأبدلاني به سيفي : فقامه في يدي ، وبنجاده في عنقي ، وذبابه
قلادة لمن عصاني ! ؛ والله لا أمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد
فيخرج من الباب الذي يليه إلا ضربت عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية ؛ وأبي جعفر
المنصور ، وهارون الرشيد ، وآبئنه المأمون من خلفاء بني العباس وغيرهم ، من خلفاء
الدولتين وأمراءهم خطب فائقة ، وبلاغات معجبة رائقة ، يضيق هذا الكتاب
عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبي بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية على ساكنها أفضل
الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة أنهم يتالون
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسعِفُهُم آخرون على ذلك :

أيها الناس ! إني قائل قولاً فمن وعاه وأذاه فعلى الله جزاؤه ، ومن لم يعه فلا يعد من ذمامها ؛ إن قصرتم عن تفصيله ، فلن تعجزوا عن تحصيله . فأرعوه أبصاركم وأوعوه أسماعكم وأشعروه قلوبكم ؛ فالموعظة حياة ؛ والمؤمنون إخوة ؛ وعلى الله قصد السبيل ولو شاء لهداكم أجمعين . فأتوا الهدى تهتدوا ، واجتنبوا النى ترشدوا . وأنيبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون . والله جل جلاله . وتقديست أسمائه أمركم بالجماعة ورضيها لكم . ونهاكم عن الفرقة وخطها منكم . فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وأذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها . جعلنا الله وإياكم من يتبع رضوانه ويحجب سخطه إنا نحن به وله . وإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم بالدين ، وأختره على العالمين ، وأختر له أصحاباً على الحق وزرء دون الخلق . إختصهم به وأنتخبهم له ، فصدقوه ونصروه وعزروه ووقروه ؛ فلم يقدموا إلا بأمره ، ولم يججموا إلا عن رأيه ، وكانوا أعوانه بعهد ، وخلفاءه من بعده . فوصفهم فأحسن وصفهم وذكركم فاشئ عليهم فقال وقوله الحق ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ﴾ إلى قوله ﴿ مغفرة وأجرًا عظيماً ﴾ فمن غاظه كفر وخاب وبخر وخسر . وقال الله جل وعز ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ﴾ إلى قوله ﴿ ربنا إنك رؤوف رحيم ﴾ فمن خالف شريطة الله عليه لهم وأمره إياه فيهم فلا حق له في النى ، ولا سهم له في الإسلام في أى كثيرة من القرآن ، ففرق مارقة من الدين . وفارقوا المسلمين وجعلوهم عييين . وحرزوا أحزاباً ، أشابات وأوشاباً . نخلفوا كتاب الله فيهم نخابوا وخسروا

(١) كذا فى الأصل ولكن باهال الباء من يعد ولعل مراده فلا يخرج عن حرمتها أى المقالة .

الدنيا والآخرة . ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِين . أَقْمَنَ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَذِبَ زَيْنٍ لَهُ
سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ . مَالِي أَرَىٰ عِيُونًَا خُزْرًا ، وَرِقَابًا صُغْرًا ، وَبُطُونًا يَجْرِي ،
شَجِيحًا لَا يُسِيغُهُ الْمَاءُ ، وَدَاءٌ لَا يُشْرَبُ فِيهِ الدَّوَاءُ . أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ
كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ . كَلَّا وَاللَّهِ بَلْ هُوَ الْهِنَاءُ وَالطَّلَاءُ حَتَّىٰ يَظْهَرَ الْعُذْرُ ، وَيُوحِ
السِّرَّ ، وَيَضْحَعُ الْعَيْبَ ، وَيَشُوسُ الْجَيْبَ . فَإِنَّكُمْ لَمْ تُخْلَقُوا عِبْنَا وَلَمْ تَتْرَكُوا سُدَىٰ ،
وَيَحْكُمُ إِنِّي لَسْتُ أَتَاوِيًّا أُعْلَمُ ، وَلَا بَدْوِيًّا أَفْهَمُ . قَدْ حَلَبْتُمْ أَشْطُرًا ، وَقَلَبْتُمْ أَبْطُنًا
وَأَظْهَرًا . فَعَرَفْتُمْ أَنْحَاءَكُمْ وَأَهْوَاءَكُمْ ، وَعَلِمْتُمْ أَنَّ قَوْمًا أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ بِالسُّتْمِ ،
وَأَسْرَوْا الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ ، فَضَرَبُوا بَعْضُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِبَعْضٍ ، وَوَلَدُوا الرِّوَايَاتِ فِيهِمْ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ ، وَوَجَدُوا عَلَىٰ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ
الْجَهْلِ مِنْ أَبْنَائِهِمْ أَعْوَانًا يَأْتُونَ لَهُمْ ، وَيَصْعَقُونَ إِلَيْهِمْ ، مَهْلًا مَهْلًا ! قَبْلَ وَقُوعِ
القَوَارِعِ وَطُولِ الرِّوَايَةِ . هَذَا لِهَذَا وَمَعَ هَذَا ، فَلَسْتُ أَعْتَشُ أَنْبَا وَلَا تَائِبًا ، عَقَّا اللَّهُ
عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ . فَاسِرُّوا خَيْرًا وَأَظْهَرُوهُ ،
وَأَجْهَرُوا بِهِ وَأَخْلَصُوهُ . وَطَالَمَا مَشَيْتُمُ الْقَهْقَرَىٰ نَاكِسِينَ . وَلْيَعْلَمْ مَنْ أَدْبَرَ وَأَصْرَّ
أَنَّهَا مَوْعِظَةٌ بَيْنَ يَدَيْ نِقْمَةٍ ، وَلَسْتُ أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ هَوَىٰ يَتَّبِعُ ، وَلَا إِلَىٰ رَأْيٍ يَبْتَدِعُ .
إِنَّمَا أَدْعُوكُمْ إِلَىٰ الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيَّةِ ، الَّتِي فِيهَا خَيْرُ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ، فَمَنْ أَجَابَ فَلِي رُشْدُهُ ،
وَمَنْ عَمِيَ فَعَنَ قَصْدُهُ . فَهَلُمَّ إِلَى الشَّرَائِعِ ، الْجَدَائِعِ ، وَلَا تَوَلُّوا عَنْ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَلَا تَسْتَبَدُّوا الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ (نَسْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا) . إِنِّي أَيْدِيكُمْ وَبُنْيَاتِ
الطَّرِيقِ ، فَعِنْدَهَا التَّرْنِيقُ وَالتَّرْهِيْقُ . وَعَلَيْكُمْ بِالْجَادَةِ فَهِيَ أَسَدُّ وَأُورِدُ ، وَدَعُوا الْأَمَانِيَّةَ

(١) لعله يُجْرَا جمع أجمروالبحر عظم البطن .

(٢) الأتاويّ الغريب الذي ليس في وطنه .

(٣) أى أظلم راجعا ولا تائبا عما حصل . ووقع في الأصل أعيش وهو تصحيف لا معنى له هنا .

فقد أودت من كان قبلكم . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . والله الآخرة والأولى .
ولا تفتروا على الله الكذب فيسحقكم بعدايب وقد خاب من أفتري . ربنا لا تزرغ قلوبنا
بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب .

ومن خطب خالد بن عبد الله أمير البصرة : أيها الناس ! نافسوا في المكارم
وسارعوا إلى المغامم . واشتروا الحمد بالجود ، ولا تكسبوا بالمطل ذمًا ، ولا تعتدوا
بالمعروف ما لم تعجلوه ، ومهما يكن لأحد منكم عند أحد منعمة فلم يبلغ شكرها ، فالله
أحسن لها جزاء ، وأجزل عليها عطاء . وأعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمة من
الله عليكم ؛ فلا تملوا النعم فتحوّلوا نقيًا . وأعلموا أن أفضل المال ما أكتسب أجرا ،
وأورث ذكرا . ولورأيت المعروف رجلا ، رأيتوه حسنا جميلا يسر الناظرين .
ولو رأيت البخل رجلا ، رأيتوه مشوها قبيحا تنفر عنه القلوب ، وتغضي عنه الأبصار .
أيها الناس ! إن أجود الناس من أعطى من لا يرجوه ، وأعظم الناس عفوا من
عفا عن قدرة ، وأوصل الناس من وصل من قطعه ؛ ومن لم يطب حرثه لم يرك
نبتة ؛ والأصول عن معارسها تنمو ، وبأصولها تسمو . أقول قولي هذا وأستغفر الله
لي ولكم .

ومن خطب قطري بن الفجاءة خطبته المشهورة في ذم الدنيا والتحذير
عنها ، وهي :

أما بعد : فإني أحذركم الدنيا ، فإنها حلوة خصرة ، حفت بالشهوات ، وراقت
بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحليت بالآمال ، وترينت بالغرور . لا تدوم نضرتها ،
ولا تؤمن بجمعها . غرارة ، ضرارة . وخاتلة ، زائلة . وناقصة ، بائدة . أكالة ،
عوالة . لا تعدوا إذا تاهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال
الله تعالى ﴿ كجاء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه

الرَّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا) مع أن أمرًا لم يكن منها في حبرة، إلا أعتبته^(١) بعدها عبرة؛ ولم يلق من سرائها بطنا، إلا منحتَه من ضرائها ظهرًا. ولم تصله غيثة رخاء، إلا هطلت عليه مزنَةٌ بلاء. وحرية إذا أصبحت له متصرة أن تُسمى له خاذلة متكررة. وأي جانبٍ منها أعدوذب وأحلولى، أمرٌ عليه منها جانب وأوبا. فإن آتت أمرًا من غصونها ورقًا أرهقته من نوائها تعبًا. ولم يُميس منها أمرؤ في جناح أمن إلا أصبح منها على قوادم خوف؛ غرارة غرور ما فيها؛ فانية، فإن من عليها؛ لا خير في شيء من زادها إلا التقوى. من أقل منها استكثر مما يؤمنه. ومن استكثر منها، استكثر مما يوبقه ويُطيل حزنه، ويُبكي عينه. كم واثق بها قد بفعته، وذى حُكم ثنته إليها قد صرعته، وذى أختيال فيها قد خدعته. وكم ذى أبهة فيها قد صيرته حقيرًا، وذى نخوة قد ردتَه ذليلًا. ومن ذى تاج قد كبتَه للدين والغم. سلطانها دُول. وعيشها رنق، وعذبها أجاج، وحلواها صبر، وغذاؤها سَمام، وأسبابها رِمام. قِطافُها سَلع. حيثُها بعرض موت، وصحيحُها بعرض سُقم. منيعُها بعرض آهتضام. ومُلكُها مسلوب، وعزيزها مغلوب. وسليمها منكوب، وجارُها محروب. مع أن وراء ذلك سكرات الموت، وهول المَطْلَع، والوقوف بين يدي الحَكم العَدْل (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى). أَلَسْتُمْ فِي مَسَاكِنٍ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَعْمَارًا، وَأَوْضَحَ مِنْكُمْ آثَارًا، وَأَعَدَّ عَدِيدًا، وَأَكْتَفَى جُنُودًا. وَأَشَدَّ عُنُودًا. تَعْبُدُوا لِلدُّنْيَا أَى تَعْبُدُوا، وَأَثْرُهَا أَى إِثَارًا، وَظَعَنُوا عَنْهَا بِالْكِرْهِ وَالصَّخَارِ. فَهَلْ بَلَغَكُمْ أَنَّ الدُّنْيَا سَمَّ حَمَّتْ لَهَا نَفْسًا بَفْدِيَّةً، أَوْ أَغْنَتْ عَنْهَا فِيمَا قَدْ أَهْلَكْتُمْ بِخَطْبِ بِلْ أَرْهَقْتُمْ بِالْقَوَادِحِ، وَضَعَضْتُمْ بِالنَّوَائِبِ،

(١) في غير هذا الكتاب ولم تطله من الطل. و يظهر أن غيثة مصحفة عن غيبة. والغيبة الدفعة من المطر.

(٢) في نسخة وأولى.

وعقرتهم بالفجائع . وقد رأيتم تتكروها لمن رادها وآثرها وأخذ إليها ، حين ظعنوا عنها لفراق إلى الأبد إلى آخر الأمد . هل زودتهم إلا السغب ؟ ، وأحلتهم إلا الضنك ، أو نورت لهم إلا الظلمة ، أو أعقبتمهم إلا الندامة ؟ أفهذه تؤثرون ، أم على هذه تحرصون أم إليها تطمئنون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيِّنَتْهَا نُوْفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ ﴾ بنست الدار لمن أقام فيها ! فاعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، فإنما هي كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

إلى غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ، ويخرج الكتاب بذكره عن حده .

المقصد الثاني

(في كيفية تصرف الكاتب في الخطب)

قد تقدم في أول المقصد الأول من هذا النوع قول أبي هلال العسكري : إن الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية والمشاكل في الفواصل وإن الخطب يشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة . وحينئذ إذا أراد الكاتب نقل الخطبة إلى الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخطابة وموارد الفصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مصابيح الخطباء ومشاهيرهم ، أتسع له المجال في الكلام وسهأت عليه مستوعرات النثر ، ودللت له صعب المعاني ، وفاض على لسانه في وقت الحاجة ما كمن من ذلك بين ضلوعه فأودعه في ثره ، وضمنه في رسائله ،

فاستغنى عن شغل الفكر في استنباط المعاني البديعة، ومشقة التعب في تتبع الألفاظ الفصيحة، التي لا تنهض فكرته بمثلها ولو جهد، ولا يسمع خاطره بنظيرها ولو دأب. إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة، ونوع من أنواعها، يحتاج الكتاب إليها في صدور بعض المكاتبات، وفي البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض وكرار التواقيع والمراسيم، والمناشير، على ماسياتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى؛ وما لعله ينشئه من خطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك. وكذلك يعرف مصابيح الخطباء، ومشاهير الفصحاء، والبلغاء، كقُتس بن ساعدة الإيادي الذي تقدمت خطبته أنفاً في صدر الخطب. وسحبان الوائلي: وهو رجل من بني وائل، لسن بليغ يضرب به المثل في البيان، وغيرهما ممن يضرب به المثل في الفصاحة والبلاغة؛ ومن ينسب إلى العي والغباوة بكامل: وهو رجل من العرب اشترى ظيياً بأحد عشر درهماً فقيل له بكم اشتريته ففتح كفيه وفتق أصابعه العشرة وأخرج لسانه؛ يشير بذلك إلى أحد عشر ولم يحسن التعبير عنها، فانفلت الظبي فضرب به المثل في العي. فإذا عرف البليغ وغير البليغ، وعالي الرتبة وسافلها، عرض حينئذ بذكر من أراد منهم مقاييساً للفاضل بمثله، وللغي بنظيره: كما قال القاضي الفاضل في بعض رسائله، في جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه:

فأما شوقه لعبده فالمولى قد أبقاه الله قد أوتي فصاحة لسان. وسحب ذيل العي على سحبان.

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبي من رسالة كتب بها للشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، يصف رسالة وردت منه عليه: إن كلها يمس في صدورها وأعجازها، وتثال عليها أعراض المعاني بين إسبابها وإيجازها؛ فهي فرائد آتلفت في أبقار الوائلي والإيادي.

النوع التاسع

(١) مما يحتاج إليه الكاتب من حفظ جانب جيد من مكاتبات الصدر الأول، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر في رسائل المتقدمين : من بلغاء الكتاب ؛ وفيه ثلاثة مقاصد

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأول ورسائلهم فلأنها مع (٢) مبتدع البلاغة وكثر الفصاحة غير ملائمة لطريقة الكتاب في أكثر الأمور ؛ فيستعان بحفظها على مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالأتكال على إيراد فصل منها برمته لمخالفته لأسلوب الكتاب في أكثر الأمور .

وأما النظر في رسائل البلغاء من فضلاء الكتاب، فلما في ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطرق، والنسج على منوال المجيد، والافتداء بطريقة المحسن، وأستدراك مافات، والاحتراز مما أظهره النقد، ورد ما بهرجه السبك . وأقتصر على النظر فيها دون حفظها لثلاث يتكل الخاطر على ما يأتي به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يعط فيكون كلابس ثوبي زور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضرة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظ دون غيره .

(١) كذا بالأصل بزيادة من وفي الضوء إسقاطها وهو الصواب .

(٢) بياض بالأصل .

المقصد الثاني

(في ذكر شيء من مكاتبات الصدر الأول يكون مدخلا إلى معرفة

ما يحتاج إلى حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملة على المحاورة والمراجعة ، فمنها ما كتب به معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه إلى أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضى الله عنه في زمن المشاجرة بينهما ، وهي ^(١) :

أما بعد ، فإن الله أصطفى محمداً ، وجعله الأمين على وحيه ، والرسول إلى خلقه ؛ وأختار له من المسالمين أعواناً أيدهم ، وكانوا في منازلهم عنده على قدر فضائلهم في الإسلام ؛ فكان أفضلهم في الإسلام ، وأنصحهم لله ولرسوله الخليفة ، وخليفة الخليفة ، والخليفة الثالث ؛ فكلهم حسدت ، وعلى كلهم بغيت . عرفنا ذلك في نظرك الشزر ، وتنفسك الصعداء ، وإبطائك على الخلفاء ، وأنت في كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير الخشوش حتى تُباع وأنت كاره ، ولم تكن لأحد منهم أشد حسداً منك لأبن عمك عثمان ، وكان أحقهم أن لاتفعل ذلك به ، في قرابته وصهره ؛ فقطعت رحمة ، وقبحت محاسنه ، وألبت عليه الناس حتى ضربت إليه أباط الإبل ، وشهر عليه السلاح في حرم الرسول ، فقتل معك في المحلة وأنت تسمع في داره الهائعة ؛ لاتؤدى عن نفسك في أمره بقول ولا فعلٍ يرّ ؛ أقسم قسماً صادقاً ! لو قتت في أمره مقاماً واحداً تنهين الناس عنه ، ما عدل بك ممن قبلنا من الناس أحد ، ولمحاً ذلك عنك ما كانوا يعرفونك به : من المجانبة لعثمان والبغى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

(١) كتاب معاوية بيض له في الأصل فتقنائه من العقد الفريد لأبن عبد ربه جزء ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجهول فيه الخشاش . وهو عود يجعل في عظم أنف البعير . مضياح .

(٣) الهائعة الصوت المنزع .

ابن عفان ضنين ، إيواؤك قتلة عثمان ، فهم بطانتك ، وعضدك وأنصارك . فقد بلغني أنك تنفي من دمه فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتله تقتلهم به . ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ! والذي نفس معاوية بيده لأطبن قتلة عثمان في الجبال ، والرمال ، والبر ، والبحر ؛ حتى تقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ! .

فكتب إليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه في جواب ذلك :

أما بعد فقد أتاني كتابك ! تذكرفيه أصطفاء الله تعالى مجدا صلى الله عليه وسلم لدينه وتأييده إياه بمن أيده به من أصحابه ، فلقد خبا لنا الدهر منك عجباً ! أطفقت نخبرنا بألاء الله عندنا ، فكنت ككافل التمر إلى هجر أو داعي مدره إلى النضال ؛ وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان فذكرت أمرا إن تم أعتلك كله ، وإن نقص لم يلحقك قلبه ؛ وما أنت والفاضل والمفضول والسائل والمسئول ! . وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ؛ هيئات لقد حن قدح ليس منها ، وطبق يحكم فيها من عليه الحكم لها ، ألا تربع على ظلك ، وتعرف قصور ذرعك ، وتتأخر حيث أتحرك القدر ، فما عليك غلبة المغلوب . ولا لك ظفر الظافر . وإنك لذهب في التيه ، رواغ عن القصد . ألا ترى غير مخبرك ولكن بنعمة الله أحدث ، أن قوما استشهدوا في سبيل الله ولكل فضل حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ، أولا ترى أن قوما قطعت أيديهم في سبيل الله ولكل فضل حتى إذا فعل بواحد منا ما فعل بواحد منهم قيل الطيار في الجنة وذو الجناحين ، ولولا ما نهى عن تزكية المرء نفسه لذكر ذا كرفضائل جمّة ،

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فذع عنك من مالت به الرمية
 فإننا صنائع ربنا ، والناس بعدُ صنائع لنا ، لم يمنعنا قديمُ عزنا ، ومديد طَوْلنا على قومك
 أن خلطناهم بأنفسنا : فنكحنا وأنكحنا ، فَعَل الأَكفَاء ولستم هناك ، وأنى يكون
 ذلك كذلك ! ومنا النبي ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا
 سيدا شبابِ أهل الجنة ، ومنكم صبية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حمالة
 الحطب ، فإسلامنا قد سمع وجاهلينا لا تدفع ، كتابُ الله يجمع لنا ما شدَّ عنا وهو قوله
 سبحانه وتعالى ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ وقوله تعالى
 ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
 فتحن مرةً أولى بالقرابة وتارة أولى بالطاعة . ولما أحتج المهاجرون على الأنصار
 يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلقجوا عليهم ، فإن يكن الفلج به فالحق
 لنا دونكم ، وإن يكن بغيره فالأنصار على دعواهم . وزعمت أنى لكل الخلفاء
 حسدت ، وعلى كلهم بغيتُ ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فتكون
 المعذرة إليك * وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارها *

وقلت إنى كنتُ أفاد كما يُقاد الجمل الخشوش حتى أبايع . ولعمرك الله ! لقد
 أردت أن تدم فحمدت ، وأن تفضح فأفتضحت ؛ وما على المسلم من غضاضة
 فى أن يكون مظلوما ما لم يكن شاكاً فى دينه ، ولا مُرتاباً فى يقينه . وهذه حججى إلى
 غيرك قصدها ، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنع لك من ذكراها .

ثم ذكرت ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فأبنا كان أعدى له وأهدى إلى مقاتله :
 أمن بذل له نصرته فاستعمده واستكفّه أم من استنصره فترأخى عنه وبثَّ المنون
 إليه ، حتى أتى قدره عليه . كلا والله ! لقد علم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم
 هممٌ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا . وما كنتُ أعتذر من أنى كنتُ أنقم عليه

أحدانا فإن يكن الذنب إليه إرشادى وهدايتى له "فُرُبَّ مُلُومٌ لاذِبٌ له . وقد يَسْتَفِيدُ
الظَّنَّةَ الْمُتَّصِحَّ" وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما أَسْتَطَعْتُ وما تَوْفِيقِي إلا بالله عليه
تَوَكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف فلقد أضحكت بعد أستعبار ! متى
ألفيت بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين؟ أو بالسيوف مخوفين .
(و) لَبَّثَ قَلِيلًا يَلْحَقِ أَهْيَجًا حَمَلٌ * سَيَطْلُبُكَ مَنْ تَطْلُبُ ، وَيَقْرُبُ مَنْكَ مَا تَسْتَبْعِدُ ،
وأنا مُرْقِلٌ نَحْوَكُ فِي بَحْفَلٍ مِنَ الْمَاهِجِينَ ، وَالْأَنْصَارِ وَالْتَابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، شَدِيدٍ
زَحَامِهِمْ ، سَاطِعِ قَتَامِهِمْ ، مُسْرَبِلِينَ سَرَابِيلَ الْمَوْتِ . أَحَبُّ اللَّقَاءِ إِلَيْهِمْ لِقَاءُ رَبِّهِمْ .
قد صحبتهم ذُرِّيَّةَ بَدْرِيَّةٍ وَسُيُوفِ هَاشِمِيَّةٍ قَدْ عَامَتَ مَوَاقِعَ نِصَالِهَا فِي أَخِيكَ وَخَالِكَ ،
وَجَدَّكَ ، وَأَهْلِكَ (وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِنَعِيدٍ) .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس ، وهو يومئذ خليفة ،
إلى محمد بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط ، حين بُويعَ له بِالْخِلَافَةِ
وخرج على المنصور يريد أتراجها منه . من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن
عبد الله . أما بعد : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ
الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ
قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . ولك ذمَّة الله وعهده وميثاقه
وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن بُتَّ من قبل أن يُقدَّرَ عليك أن أوْثَمَكَ على
نفسك وولدك وإخوتك ومنْ بايعك وجميع شيعتك ، وأن أعطيك ألف ألف
درهم ، وأنزلك من البلاد حيث شئت ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات ، وأن
أطلق من في سجنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك ، ثم لا أتبع أحدا منكم بمكروه

وإن شئت أن تتوثق لنفسك فوجهه إلى من يأخذك من الميثاق والعهد والأيمان ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه :

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلى عبد الله بن محمد . أما بعد : ﴿ طَسَمَ ، تَلَكَّ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ نَتَلَوُا عَلَيْكَ مِنْ نَبِيٍّ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنَرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذي أعطيتني ، فقد تعلم أن الحق حقتنا ، وأنكم إنما أعطيتموه بنا ، ونهضتم فيه بسعينا وحطتموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصي والإمام ، فكيف ورثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بني هاشم يمت بمثل فضلنا ولا يفخر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبنا ، وإنا بنو أم أبي رسول الله : فاطمة بنت عمرو في الجاهلية دونكم ، وبنو آبنته فاطمة في الإسلام من بينكم ، فأنا أوسط بني هاشم نسباً ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدني العجم ، ولم تُعرق في أمهات الأولاد . وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا قَوْلَ دُنِي مِنَ النَّبِيِّينَ أَفْضَلُهُمْ : محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أصحابه أقدمهم إسلاماً ، وأوسعهم علماً ، وأكثرهم جهاداً : علي بن أبي طالب ، ومن نسائه أفضلهن : خديجة بنت خويلد أول من آمن بالله وصلى إلى القبلة ، ومن بناته أفضلهن ، وسيدة نساء أهل الجنة ، ومن المولودين في الإسلام الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشماً ولد عليا مرتين ، وأت عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولَدَنِي مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلِ جَدِّي الْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ ، فَمَا زَالَ الْإِلَهُ يُخْتَارُ لِي حَتَّى آخْتَارَ لِي فِي النَّارِ فَوَلَدَنِي أَرْفَعُ النَّاسَ دَرَجَةً فِي الْجَنَّةِ ، وَأَهْوَنُ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ؛ فَأَنَا أَبُو خَيْرِ الْأَخْيَارِ ، وَأَبْنُ خَيْرِ الْأَشْرَارِ ، وَأَبْنُ خَيْرِ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَأَبْنُ خَيْرِ أَهْلِ النَّارِ . وَلَكَ عَهْدُ اللَّهِ إِنْ دَخَلْتَ فِي بَيْعَتِي أَنْ أَوْمِنَكَ عَلَيَّ نَفْسَكَ وَوَلَدِكَ وَكُلَّ مَا أَصَبْتَهُ إِلَّا حُدًّا مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوْ حَقًّا لِمُسْلِمٍ أَوْ مَعَاهِدٍ . فَقَدْ عَلِمْتَ مَا يَلْزِمُكَ فِي ذَلِكَ فَأَنَا أَوْفَى بِالْعَهْدِ مِنْكَ ، وَأَنْتَ أَحْرَى بِقَبُولِ الْأَمَانِ مِنِّي . فَأَمَا أَمَانُكَ الَّذِي عَرَضْتَ عَلَيَّ فَأَيُّ الْأَمَانَاتِ هُوَ ؟ أَأَمَانُ أَبِي هَبِيرَةَ ، أَمْ أَمَانُ عَمِّكَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَلِيٍّ ، أَمْ أَمَانُ مُسْلِمٍ وَالسَّلَامُ .

فأجابه المنصور : من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتاني كتابك ، وبلغني كلامك ، فإذا جُلُّ نَفْرِكَ بِالنِّسَاءِ ، لَتُضِلَّ بِهِ الْجُفَاءُ وَالغَوَاةُ ، وَلَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ النَّسَاءَ كَالْعُمُومَةِ ، وَلَا الْآبَاءَ كَالْعَصْبَةِ وَالْأَوْلِيَاءِ . وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْعَمَّ أَبَا ، وَبَدَأَ بِهِ عَلِيُّ الْوَالِدِ الْأَدْنَى . فَقَالَ جُلُّ ثَنَاؤِهِ عَنْ نَبِيِّهِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ .

ولقد علمت أن الله تبارك وتعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعمومته أربعة فأجاب اثنين أحدهما أبي ، وكفر اثنين أحدهما أبوك .

وأما ما ذكرت من النساء وقرباتهن ، فلو أعطيت علي قدر الأنساب ، وحق الأحساب ، لكان الخير كله لآمنة بنت وهب ، ولكن الله يختار لدينه من يشاء من خلقه .

وأما ما ذكرت من فاطمة بنت أسد أم علي بن أبي طالب ، وفاطمة بنت الحسين وأن هاشما ولد عليا مرتين ، وأن عبد المطلب ولد الحسن مرتين ، نفي الأولين

والآخرين رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يَلِدْه هاشم إلا مرة واحدة ، ولم يَلِدْه عبد المطلب إلا مرة واحدة .

وأما ما ذكرت من أنك ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبى ذلك فقال ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ ولكنكم قرابة آبنته ، وإنها قرابة ذريته ، غير أنها امرأة لا تحوز الميراث ، ولا يجوز أن تُؤمَّ فكيف تُورث الإمامة من قبلها ! ولقد ظلمها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخَاصِمَ ، ومَرَّضها سراً ، ودفنها ليلاً ، فأبى الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر بالصلاة غيره . ثم أخذ الناس رجلاً فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان في أصحاب الشورى فكلُّ دفعه عنها ، وبايع عبد الرحمن عثمان وقبلها عثمان وحارب أباك طلحة والزبير ، ودعا سعدا إلى بيعته فأغلق بابه دونه . ثم بايع معاوية بعده ، وأفضى أمر جدك إلى أبيك الحسن فسلمه إلى معاوية بحرق ودراهم وخرج إلى المدينة ، فدفع الأمر إلى غير أهله ، وأخذ ما لا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بتموه .

وأما قولك إن الله آختر لك في الكُفْرُ بِجَعَلِ أبوك أهونَ أهل النار عذابا فليس في الشر خيار ، ولا من عذاب الله هين ، ولا ينبغي لمسلمٍ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يفتخر بالنار . سترِد فتعلم ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

وأما قولك إنه لم تَلِدْكَ العجم ، ولم تُعرق فيك أمهات الأولاد ، وإنك أوسط بنى هاشم نسبا ، وخيرهم أمًّا وأبا ، فقد رأيتك نُحِرْتَ على بنى هاشم طراً ، وقدمت نفسك على من هو خير منك أولاً وآخرًا ، وأصلاً وفصلاً . نُحِرْتَ على إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى والدٍ ولده ، فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غداً وما أولد فيكم مولود بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من على

ابن الحسين وهو لأُم ولد، ولقد كان خيرا من جدك حسن بن حسن . ثم ابنه محمد بن
 علي خير من أبيك وجدته أم ولد . ثم ابنه جعفر وهو خير منك ولدته أم ولد .
 ولقد علمت أن جدك عليا حَكَمَ حَكِيمِينَ وَأَعْطَاهُمَا عَهْدَهُ وَمِيثَاقَهُ عَلَى الرضا بما حَكَمَا
 بِهِ فَأَجْتَمَعَا عَلَى خَلْعِهِ ، ثم خرج عمك الحسين على ابن مرجانة وكان الناس معه
 عليه حتى قتلوه ، ثم أتوا بكم على الأفتاب من غير أوطية كالتسبي المجلوب إلى الشام .
 ثم خرج منكم غير واحد فقتلكم بنو أمية وحرَقوكم بالنار وصلَبوكم على جذوع النخل
 حتى خرجنا عليهم فأدركنا بشاركم إذ لم تُدرِكوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضهم
 وديارهم بعد أن كانوا يلعنون أباك في أدبار الصلاة المكتوبة كما تلعن الكفرة فنحنهم
 وكفروناهم ، وبيننا فضله وأشدنا بذكره ، فأتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا بما
 ذكرنا من فضل علي قَدَمناه على حمزة والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين
 سلما منهم وأبنتي أبوك بالكرماء . ولقد علمت أن ماثرنا في الجاهلية سقاية الحاج
 الأعظم ، وولاية زمزم ، وكانت للعباس دون إخوته فزاع فيها أبوك إلى عمر
 ففضي لنا عمر بها . وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحد حيا
 إلا العباس فكان وارثه دون بنى عبد المطلب ، فطلب الخلافة غير واحد من بنى
 هاشم فلم ينلها إلا ولده . فأجتمع للعباس أنه أبو رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم
 الأنبياء ، وبنوه القادة الخلفاء ، فقد ذهب بفضل القديم والحديث ، ولولا العباس
 أُخرج إلى بدر كرها لمات عمك طالب وعقيل جوعا أو يتجشمان جفان عتبة وشيبة ،
 فأذهب عنهما العار والشنار . ولقد جاء الإسلام والعباس يمون أبا طالب للأزمة
 التي أصابهم . ثم فدى عقيل يوم بدر فقد مناكم في الكفر ، وفديناكم من الأسر ،
 وورثنا دونكم خاتم الأنبياء ، وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا بشاركم إذ عجزتم عنه
 ووضعناكم حيث لم تَضَعُوا أنفسكم والسلام .

ومن مكاتبات ملوك الفرس البلغاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر :
 إنه إنما تملك الرعية بالإحسان إليها، وتظفر بالحبّة منها؛ فإنّ طلبك ذلك بإحسانك،
 هو أدومُ بقاءٍ منه باعتسافك بعنفك. وأعلم أنه إنما تُملك الأبدان، فأجمع إليها القلوب
 بالحبّة. وأعلم أن الرعية إذا قدرت على أن تقول قدرت أن تفعل؛ فأجتهد أن لا تقول
 تسلّم من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه : ليكن من تختاره
 لولايتك رجلا كان في وضيعة فرغتته، وذا شرف كان مهملا فأصطنعته . ولا تجعله
 امرأ أصبته بعقوبة فأتضع لها ، ولا أحدا من يقع بقلبك أن إزالة سلطانتك أحب
 إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضريعا، غمرا، كثيرا إعجابُه بنفسه، قليلا تجربته
 في غيره، ولا كبيرا مُدبرا، قد أخذ الدهر من عقله، كما أخذت السن من جسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى ابنه شيرويه أيضا : إن كلمة منك تُسفك دما، وأخرى
 تحقن دما، وإن سخّطك سيف مسلول على من سخّطت عليه، وإن رضاك بركة مفيدة
 على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فأحترس في غضبك من
 قولك أن يُخطئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخف؛ فإن الملوك تعاقب
 جرما، وتعفو حاما .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته : من أردشير المؤيد، ملك الملوك، وارث العطاء،
 إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساورة الذين هم حفظة البيضة ، والكُتاب
 الذين هم زين الملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم، فإننا نحمد
 إليك الله سالمين، وقد وضعنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتها للموظفة عليها، ونحن
 مع ذلك كاتبون بوصية : لا تستشعروا الحقد فيدّهمكم العدو، ولا تحتكروا فيشملمكم

الفحط، وتزوجوا القرائب فإنه أمس للرحم، وأثبت في النسب، ولا تعدوا هذه الدنيا شيئا، ولا ترفضوها، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومحاطباتهم . فن ذلك رسالة الصديق رضى الله عنه إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين تلکاً عن مبايعته، على لسان أبي عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، مع ما أنضم إلى ذلك من كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علي عنها .

قال أبو حيان علي بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرْنَا لَيْلَةً عِنْدَ الْقَاضِي أَبِي حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ بَشْرِ الْمُرُورُودِيِّ بِبَغْدَادٍ ، فَتَصَرَّفَ فِي الْحَدِيثِ كُلِّ مَتَصَرَّفٍ ؛ وَكَانَ غَزِيرِ الرَّوَايَةِ ، لَطِيفَ الدَّرَايَةِ ، بَخْرِيَّ حَدِيثِ السَّقِيفَةِ ، فَرَكِبَ كُلَّ مَرَكَبًا ، وَقَالَ قَوْلًا ، وَعَرَّضَ بَشِيءًا ، وَنَزَعَ إِلَى فَنٍ . فَقَالَ : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَحْفَظُ رِسَالَةَ الْأَبِيِّ بَكْرِ الصَّدِيقِ ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ ، وَجَوَابَ عَلِيِّ عَنْهَا ، وَمَبَايَعَتِهِ إِيَّاهُ عَقِيبَ تِلْكَ الْمَنَازَرَةِ . فَقَالَ الْجَمَاعَةُ : لَا وَاللَّهِ ، فَقَالَ : هِيَ وَاللَّهِ مِنْ بَنَاتِ الْحَقَائِقِ ، وَمَحَبَّاتِ الصَّنَادِقِ ؛ وَمِنْذَ حَفِظْتَهَا مَارَوَيْتَهَا إِلَّا لِأَبِي مُحَمَّدٍ الْمُهَلَّبِيِّ فِي وَزَارَتِهِ ، فَمَكْتَبَتِهَا عِنِّي بِيَدِهِ ، وَقَالَ : لَا أَعْرِفُ رِسَالَةَ أَعْقَلَ مِنْهَا وَلَا أَيْبَنَ ؛ وَإِنَّمَا لَتَدُلُّ عَلِيَّ عِلْمَ وَحِلْمَ ، وَفِصَاحَةَ وَنَبَاهَةَ ، وَبُعْدَ غُورٍ ، وَشِدَّةَ غَوْصٍ — فَقَالَ لَهُ الْعَبَّادَانِي : أَيُّهَا الْقَاضِي فَلَوْ أَعْتَمَتِ الْمِنَّةُ عَلَيْنَا بِرَوَايَتِهَا ، أَسْمِعْنَاهَا ، فَنَحْنُ أَوْعَى لَكَ مِنَ الْمُهَلَّبِيِّ ، وَأَوْجِبُ ذِمَامَا عَلِيكَ ، فَأَنْدَفِعُ وَقَالَ :

” حَدَّثَنَا الْخَزَاعِيُّ بِمَكَّةَ ، عَنْ أَبِي مَيْسَرَةَ ، قَالَ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي فُلَيْحٍ عَنْ عَيْسَى بْنِ دَوَّابٍ بْنِ الْمَتَّاحِ ، قَالَ : سَمِعْتُ مَوْلَايَ أَبَا عُبَيْدَةَ يَقُولُ : لَمَّا اسْتَقَامَتِ الْخِلَافَةُ لِأَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ، بَعْدَ فِتْنَةِ كَادِ الشَّيْطَانِ بَيْنَهُمَا ، فَدَفَعَ اللَّهُ شَرَّهَا وَيَسَّرَ خَيْرَهَا ، بَلَغَ أَبَا بَكْرٍ عَنْ عَلِيٍّ تَلْكَؤُ وَشِمَاسَ ، وَتَهَمُّمَ وَنِفَاسَ ،

فكره أن يتمادى الحال فتبدو العورة، وتشتعل الجمره، وتفترق ذات البين؛ فدعاني بحضرتة في خلوة، وكان عنده عمر بن الخطاب رضى الله عنه وحده فقال: يا أبا عبيدة ما أئمن ناصيتك، وأئمن الخيرين عينك؛ وطالما أعز الله بك الإسلام وأصلح شأنه على يديك، ولقد كنت من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمكان المحوط، والمحل المغبوط؛ ولقد قال فيك في يوم مشهود "لكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة" ولم تزل للدين ملتجا، وللمؤمنين مرتجا؛ ولأهلك ركا، ولإخوانك رداً. قد أردت لك لأمرٍ خطر مخوف، وإصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم يندمل جرحه بيسارك ورفقك، ولم يُجِب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل اليأس؛ واحتيج بعد ذلك إلى ما هو أمر منه وأعلق، وأعسر منه وأغلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه على يديك. فتأت له أبا عبيدة وتلطف فيه، وأنصح الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولهذا العصابة غير آل جهدا، ولا قال حمدا، والله كالك وناصرك، وهاديك ومبصرك، إن شاء الله. امض إلى على وأخفض له جناحك، وأغضض عنده صوتك، وأعلم أنه سلاله أبي طالب، ومكانه ممن فقدناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانه، وقل له البحر مغرقة، والبر مفرقة، والحق أكلف، والليل أغدق، والسماء جلاء، والأرض صلعاء، والصعود متعذر، والهبوط متعسر، والحق عطوف رؤوف، والباطل عنوف عسوف، والعجب قداحة الشر، والضغن رائد البوار؛ والتعريض شجار الفتنة، والقيحة ثقب العداوة، وهذا الشيطان متكى على شِمَالِه، متحيل يمينه، نافخ خُصِييه لأهله، ينتظر الشَّتات والفرقة، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة، عنادا لله عز وجل أولا، ولآدم ثانياً، ولنبيه صلى الله عليه وسلم ودينه ثالثاً، يوسوس بالفجور، ويُدبني بالغرور، ويمني أهل الشرور. يوحى إلى أوليائه زخرف القول غرورا بالباطل، دأبا له منذ

(١) تأتي فلان للامر تها له وأتاه من وجهه .

كان على عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم ، وعادة له منذ أهانه الله تعالى في سالف
 الدهر لا منجى منه إلا بعض الناجذ على الحق ، وغض الطرف عن الباطل ، ووطء
 هامة عدو الله بالأشد فالأشد ، والآكد فالآكد ، وإسلام النفس لله عز وجل في آبتغاء
 رضاه . ولا بُد الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخيف غيبه ؛ ولقد أرشدك
 من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحياء مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من أثر البقاء
 معك ؛ ما هذا الذي تُسول لك نفسك ، ويدوى به قلبك ، ويلتوى عليه رأيك ،
 ويتخاوض دونه طرفك ، ويسرى فيه ظعنك ، ويراد معك نفسك ، وتكثر عنده
 صعداؤك ، ولا يقبض به لسانك . أجممة بعد إفصاح ؟ أتلبيس بعد إفصاح ؟
 أدين غير دين الله ؟ أخلق غير خلق القرآن ؟ أهدي غير هدى النبي صلى الله عليه
 وسلم ، أمثلى " تمشى له الضراء وتدب له الخمر " (١) ، أم مثلك يتقبض عليه الفضاء ،
 ويكسف في عينه القمر ، ماهذه القعقة بالشنان ؟ وما هذه الوعوة باللسان ؟
 إنك والله جد عارف بأستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبخروجنا
 عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا ، هجرة إلى الله عز وجل ، ونصرة لدينه
 في زمان أنت فيه في كن الصبا ، وحذر الغرارة ، وعنفوان الشبية ، غافل عما يُشيب
 ويُرِيب ، لاتبى ما يراد ويُسَاد ، ولا تحصل ما يساق ويُقاد ، سوى ما أنت جارٍ عليه
 إلى غايته التي إليها عدل بك ، وعندها حط رحلك ، غير مجهول القدر ولا محدود
 الفضل ؛ ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيل الرؤاسى ، وتُقاسى أهوالاً تُشيب
 النواصي ، خائضين غمارها ، راكبين تيارها ، نتجرع صابها ، ونسرح عيائها ، ونحكم
 أساسها ، ونبرم أمراسها ، والعيون تُحدج بالحسد ، والأنوف تعطس بالكبر ، والأصدور
 تستعير بالغيظ ، والأعناق تتناول بالفخر ، والشفار تُشحد بالمكر ، والأرض تمسد

(١) مثل يضرب لمن يختل صاحبه .

بالخوف ؛ لا تنتظر عند المساء صباحا ، ولا عند الصباح مساء ، ولا تدفع في نحر
 أمرئ إلا بعد أن نحسو الموت دونه ، ولا تبلغ مرادا إلا بعد الإياس من الحياة
 عنده ؛ فادين في جميع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأب والأم ، والحال
 والعم ، والمال والنسب ، والسيد واللبد ، والهبة والبلة ، بطيب أنفُس ، وقوة
 أعين ، ورَحِبِ أعطان ، وثبات عزائم ، وصحة عقول ، وطلاقة أوجه ، وذلافة
 ألسُن ؛ هذا مع خفيات أسرار ، ومكنونات أخبار ، كنت عنها غافلا ، ولولا سنك
 لم تكن عن شيء منها ناكلا ، كيف وفؤادك مشهورم ؟ ، وعودك معجوم . والآن
 قد بلغ الله بك وأنهض الخير لك ، وجعل مُرادك بين يديك ، وعن علم أقول
 ماتسمع ؛ فأرتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التّعس والتجسس لمن لا يطلع
 لك إذا خطا ، ولا يترشح عنك إذا عطا ؛ فالأمرُ غض ، والنفوس فيها مَض ،
 وإنك أديمُ هذه الأمة فلا تحلمُ لجأجا ، وسيفُها العَضْب ، فلا تنبُ أعوجاجا ، وماؤها
 العذب ، فلا تحلُ أجاجا . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا
 الأمر ، فقال لي يا أبا بكر هو لمن يرغبُ عنه لالمن يُباحش عليه ، ولمن يتضاءلُ عنه
 لالمن يتنفعُ إليه ؛ هو لمن يُقال هو لك لالمن يقول هو لي .

ولقد شاورني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصهر ، فذكر فينا من قريش
 فقلت أين أنت من علي ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني أكره لفاطمة مِعة شبايه ،
 وحدائثة سنه . فقلت له متى كفته يدك ورعته عينك ، حفّت بهما البركة ،
 وأسبغت عليهما النعمة ؛ مع كلام كثير خاطبته به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت
 منك في ذلك لاحوجاء ولا لوجاء ، فقلت ما قلت وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد راحة
 سواك ؛ وكننتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لي ؛ ولئن كان عرض بك رسول الله
 صلى الله عليه وسلم في هذا الأمر ، فلم يكن مُعرضاً عن غيرك ، وإن كان قال فيك

فما سكت عن سواك؛ وإن تلجلج في نفسك شيء، فهلم فالحكم مرضى، والصواب مسموع، والحق مطاع. ولقد ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل، وهو عن هذه العصابة راض وعليها حذر: يسره ماسرها، ويسوءه ماساها، ويكيده ما كادها، ويرضيه ما أرضاها، ويُسَخِطُه ما أسخطها. أما تعلم أنه لم يدع أحدا من أصحابه، وأقاربه، وسُجْرَانِهٖ^(١)، إلا أبانه بفضيلة، وخصه بمزية، وأفرده بحالة. أتظن أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمة سدى بددا، عباهل، مباهل، طلاحى مفتونة بالباطل، مغبونة عن الحق، لا رائد ولا زائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقى ولا واقى، ولا هادى ولا حادى كلا!، والله ما أشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقربه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهدى، وأبان الصوى، وأتمن المسالك والمطارح، وسهل المبارك والمهاج، وإلا بعد أن شدخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشرم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجدع أنف الفتنة في ذات الله، وتفل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة واحدة، ودار جامعة، إن استقلوني لك، وأشاروا عندى بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك. وإن تكن الأخرى فادخل فيما دخل فيه المسلمون، وكن العون على مصالحهم، والفتاح لمغاليقهم، والمرشد لضالتهم، والرادع لغوايتهم. فقد أمر الله تعالى بالتعاون على البر والتقوى، والتناصر على الحق. ودعنا نقضى هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغل، ونلقى الله تعالى بقلوب سليمة من الضغن.

وبعد فالناس ثمامة فأرفق بهم، وأحن عليهم ولين لهم، ولا تشق نفسك بنا خاصة

(١) بالسين المهملة جمع سيجر كأمير وهو الصديق.

(٢) بالباء الموحدة في الوزين ومعناها مهملة. أنظر اللسان.

فيهم ، وأترك ناجم الحقد حصيدا ، وطائر الشر واقعا ، وباب الفتنة مغلقا ، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما تقول شهيد ، وبما نحن عليه بصير .

قال أبو عبيدة : فلما تأهبت للنهوض ، قال عمر رضى الله عنه كن لدى الباب هنيهة فلي معك دور من القول ، فوفقت وما أدري ما كان بعدى ، إلا أنه لحقنى بوجه يندى تهللا ، وقال لى قل لعل الرقاد محلمه ، والهوى مقصمه ، وما منا إلا له مقام معلوم ، وحق مشاع أو مقسوم ، ونبا ظاهر أو مكتوم ، وإن أكيس الكيس من منح الشارد تألفا ، وقارب البعيد تلطفا ، ووزن كل شىء بيزانه ، ولم يخاط خبره بعيانه ، ولم يجعل فتره مكان شبره ديناً كان أو دنياً ، ضلالا كان أو هدى . ولا خير فى علم مستعمل فى جهل ، ولا خير فى معرفة مشوية بنكر . ولسنا بكلمة رُفِعَ البعير بين العجان والذنب ، وكل صالٍ فبناره ، وكل سيل فى قراره . وما كان سكوت هذه العصابة إلى هذه الغاية لى وشى ، ولا كلامها اليوم لفرق أوقف . وقد جدع الله بمحمد صلى الله عليه وسلم أنف كل ذى كبر ، وقصم ظهر كل جبار ، وقطع لسان كل كدوب ، فإذا بعد الحق إلا الضلال . ما هذه الخنزوانة التى فى قرأش رأسك ؟ ما هذا الشجا المعترض فى مدارج أنفاسك ؟ ما هذه القداة التى تغشت ناظرى ؟ وما هذه الوحة التى أكلت شراسيفك ؟ وما هذا الذى ليست بسببه جلد النمر ، وأشتلت عليه بالشحناء والذكر ، ولسنا فى كسروية كسرى ، ولا فى قيصرية قيصر ! تأمل لإخوان فارس وأبناء الأصفر ! قد جعلهم الله جزرا لسيوفنا ، ودرية لريماحنا ، ومرمى ليطعانا ، وتبعنا لسلاطيننا ، بل نحن فى نور نبوة ، وضياء رسالة ، وثرة حكمة ، وأثرة رحمة ، وعنوان نعمة ، وظل عصمه ، بل أمة مهدية بالحق والصدق ، مأمونة على الرقى والفتق ، لها من الله قلب أبى ، وساعد قوى ، ويد ناصره ، وعين باصره . أتظن ظنا ياعلى أن أبا بكر وثب على هذا الأمر مفتاتا على الأمة خادعا لها ،

أو متسلطا عليها؟ أترأه حل عقودها وأحال عقولها؟ أترأه جعل نهارها ليلا، ووزنها كيلا، ويقظتها رقادا، وصلاحها فسادا؛ لا والله سلا عنها فولهت له، وتطامن لها فاصقت به، ومال عنها فالت إليه، وأشماز دونها فاشتمت عليه، حبوة جباه الله بها، وعاقبة بلغه الله إليها، ونعمة سربله جمالها، ويد أوجب الله عليه شكرها، وأمة نظر الله به إليها. والله أعلم بخلقته، وأرأف بعباده، يختار ما كان لهم الخيرة. وإنك بحيث لا يُجهل موضعك من بيت النبوة، ومعدن الرسالة، ولا يُحدد حُكك فيما آتاك الله، ولكن لك من يزاحك بمنكب أضخم من منكبك، وقرب أسس من قرباتك، وسن أعلى من سنك، وشيية أروع من شيتك، وسيادة لها أصل في الجاهلية، وفرع في الإسلام، ومواقف ليس لك فيها جمل ولا ناقة، ولا تُذكر منها في مقدمة ولا ساقه، ولا تضرب فيها بذراع ولا إصبع، ولا تخرج منها بيازل ولا هُبع. ولم يزل أبو بكر حبة قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعلاقة نفسه، وعيبة سره، ومفزع رأيه ومشورته، وراحة كفه، ومرمق طرفه. وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار، شهرته مغنية عن الدليل عليه. ولعمري إنك أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، ولكنه أقرب منك قرابة، والقرابة لحم ودم، والقرابة نفس وروح. وهذا فرق عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون، ومهما شككت في ذلك، فلا تشك أن يد الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فأدخل فيما هو خير لك اليوم، وأنفع لك غدا، وألفظ من فيك ما يعلق بلهاتك، وأنفت سخيمة صدرك عن ثقاتك، فإن يك في الأمد طول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريئا أو غير مريء، وستشربه هنيئا أو غير هنيء، حين لا راد لقولك إلا من كان آيسا منك، ولا تابع لك إلا من كان طامعا فيك يمش إهابك، ويعرك أديمك، ويؤزى على هديك. هنالك تقرع السن من ندم،

وتجرع الماء ممزوجا بدم ، حينئذ تأسى على ما مضى من عمرك ، ودارج قوتك ، فتود أن لو سُقيت بالكأس التي أبيتها ، ورُدِدت إلى حالتك التي أَسْتغويتها ، والله تعالى فينا وفيك أمر هو بالغه ، وغيب هو شاهده ، وعاقبة هو المرجو لسرأها وضرأها ، وهو الولي الحميد ، الغفور الودود .

قال أبو عبيدة ، فتمشيت مترملا أنوء كأنما أخطو على رأسي ، فرقا من الفرقة ، وشفقا على الأمة ، حتى وصلت إلى علي رضي الله عنه في خلاء ، فأبتثته بطني كله ، وبرئت إليه منه ، ورفقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسرت في مفاصله جميها ، قال : ” حَلَّتْ مُعْلَوِّطُهُ ، وَوَلَّتْ مُحْرَوِّطُهُ “ ، وأنشأ يقول :

إحدى ليأليكَ فيهِسِي هِيسِي * لَاتَنَعِمِي اللَّيْلَةَ بِالتَّعْرِيسِ

نعم يا أبا عبيدة أكل هذا في نفس القوم ، ويحسون به ، ويضطربون عليه ؟ قال أبو عبيدة : فقلت لاجواب لك عندي إنما أنا قايض حق الدين ، وراثق فتق المسلمين ، وساد ثلثة الأمة . يعلم الله ذلك من جلجلان قلبي ، وقرارة نفسي .

فقال علي رضي الله عنه : والله ما كان قعودي في كِنْتِ هذا البيت قصدا للخلاف ، ولا إنكارا للعروف ، ولا زراية على مسلم ؛ بل لما قد وقَدِنِي به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فراقه ، وأودعني من الحزن لفقده . وذلك أني لم أشهد بعده مشهدا إلا جدد علي حُرْنا ، ودَكرني تَجَبُّنا . وإن الشوق إلى الخلق به كافي عن الطمع في غيره . وقد عكفتُ على عهد الله أنظر فيه ، وأجمع ما تفرق ، رجاء ثواب معد لمن أخلص لله عمله ، وسلم لعلمه ومشيئته ، وأمره ونهيه . على أني ما علمت أن النظاهر على واقع ، ولا عن الحق الذي سبق إلى دافع ؛ وإذ قد أقم الوادي بي ، وحشد النادى من أجلي ، فلا مرحبا بما أساء أحدا من المسلمين وسرني . وفي النفس كلام لولا

سابق عقد ، وسالف عهد ، لسفيت غيظي بجنصري وبنصري ، وخضت لجته
بأنحصى ومفريق ، ولكنى ملجم إلى أن ألقى الله ربي ، وعنده أحسب ما نزل بي .
وإني غاد إلى جماعتكم ، مبيع صاحبكم ، صابر على ما ساءنى وسركم (ليقضى الله
أمرًا كان مفعولاً) .

قال أبو عبيدة : فعدت إلى أبي بكر رضى الله عنه فقصصت عليه القول على
غره ، ولم أحتل شيئاً من حلوه ومره ، وبكرت غدوة إلى المسجد ، فلما كان صباح
يومئذ وإذا على مخترق الجماعة إلى أبي بكر رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيراً ،
ووصف جميلاً ، وجلس زميتاً ، وأستاذن للقيام فضى^(١) وتبعه عمر مكرماً له ، مستأثراً
لما عنده .

فقال على رضى الله عنه : ما قعدت عن صاحبكم كارهاً ، ولا أتيته فرقا ، ولا أقول
ما أقول تعلقة . وإني لأعرف منتهى طرفي ومحط قدمي ومترع قوسي ، وموقع
سهمي ؛ ولكن قد أزمتم على فأسى ثقة برى في الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كفكف غربك ، وأستوقف سربك ، ودع العصى
بلحائها ، والدلاء على رشائها . فإننا من خلفها وورائها ، إن قدحنا أورينا ، وإن متحنا
أروينا ، وإن قرحنا أدمينا ، ولقد سمعت أماتيك التي لغزت بها عن صدر أكل
بالجوى ، ولو شئت لقلت على مقاتلك ما إن سمعته ندمت على ما قلت . وزعمت أنك
قعدت في كن بيتك لما وقدك به رسول الله صلى الله عليه وسلم من قمده ، فهو
وقنك ولم يقد غيرك ؟ بل مصابه أعظم وأعم من ذلك ، وإن من حق مصابه أن
لا تصدع شمل الجماعة بفرقة لا عصام لها ، ولا يؤمن كيد الشيطان في بقائها . هذه

(١) أى حلياً وقوراً .

العرب حولنا، والله لو تداعت علينا في صُبح نهار لم نلتق في مسائه . وزعمت أن الشوق إلى الخالق به كافٍ عن الطمع في غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرته دينه ، وموازة أوليائه ، ومعاونتهم . وزعمت أنك عكفت على عهد الله تجمع ما تفرق منه ؛ فمن العكوف على عهد الله النصيحة لعباد الله ، والرافة على خلق الله ، وبذل ما يصلحون به ، ويرشدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهر واقع عليك وأى حق لظ^(١) دونك . قد سمعت وعلمت ما قال الأنصار بالأمس سرا وجهرا ، وتقلبت عليه بطننا وظهرا ، فهل ذكرت أو أشارت بك أو وجدت رضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلح لهذا الأمر ؟ أو أوما بعينه ؟ أو هم في نفسه ؟ أتظن أن الناس ضلوا من أجلك ، وعادوا كفقارا زهدا فيك ، وباعوا الله تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءني عقيل بن زياد الخزرجي في نفر من أصحابه ومعهم شرحبيل بن يعقوب الخزرجي وقالوا : إن علينا ينتظر الإمامة ، ويزعم أنه أولى بها من غيره ، وينكر على من يعقد الخلافة ، فأنكرت عليهم ، ورددت القول في نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحي ويتوكل في مناجاة الملك . فقلت ذاك أمر طواه الله بعد نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أكان الأمر معقودا بأشوطه ، أو مشدودا بأطراف ليطه ؟ كلا ! والله لا عجاء بحمد الله إلا أفصحت ، ولا شكاء إلا وقد تفتحت . ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابق عقد ، لشفيت غيظي ؛ وهل ترك الدين لأهله أن يشفوا غيظهم بيد أو بلسان ؟ تلك جاهلية وقد استأصل الله شاقها وأقلع جرثومتها ، وهور ليلها ، وغور سيلها ، وأبدل منها الروح والريحان ، والهدى والبرهان . وزعمت أنك ملجم ؛ ولعمري إن من أتق الله ، وآثر رضاه ، وطلب ما عنده ، أمسك لسانه وأطبق فاه ، وجعل سعيه لما وراه .

(١) لظ . أى محمد . ووقع في بعض النسخ لك وفي بعضها ليط وكلاهما تصحيف .

فقال عليّ رضي الله عنه : مهلاً يا أبا حفص والله ما بدلت ما بدلت وأنا أريد نكته ، ولا أقررت ما أقررت وأنا أبتغي حولا عنه . وإن أخسر الناس صفقة عند الله من آثر النفاق ، وأحتضن الشقاق وفي الله سلوة عن كل حادث ، وعليه التوكّل في جميع الحوادث . ارجع يا أبا حفص إلى مجاسك نافع القلب ، مبرود الغليل ، فسيح اللبان ، فصيح اللسان ؛ فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشد الأزر ، ويحط الوزر ، ويضع الإصر ، ويجمع الألفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضي الله عنه : فأنصرف عليّ وعمر رضي الله عنهما . وهذا أصعب ما مرّ عليّ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كلام عائشة رضي الله عنها في الانتصار لأبيها .

يروى أنه بلغ عائشة رضي الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضي الله عنه ، فأرسلت إلى أزفلة من الناس فلما حضروا ، أسدلت أستارها ، وعلت وسادها . ثم قالت أبي : وما أبيه ! أبي والله لا تعطوه الأيدي ، ذاك طود منيف ؛ وفرع مديد ، هيات كذبت الظنون ، أنجح إذ أكديتم ، وسبق إذ نيتتم * سبق الجواد إذا استولى على الأمد * فتى قريش ناشئا ، وكهفها كهلا ، يفك عانيها ويريش مملقها ، ويرأب شعبها ، ويلم شعها حتى حليت قلبها ، ثم استشرى في دين الله فما برحت شكيمته في ذات الله عز وجل حتى آخذ يفنائه مسجدا يحيي فيه ما أمات المبطلون ؛ وكان رحمه الله غزير الدمعة ، وقيد الجوائح ، شجي النسيج ، فانقضت إليه نسوان مكة وولدائها يسخرون منه ويستهنون به (الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون) فأكبرت ذلك رجالاً من قريش فحنت قسيها وفوقت سهامها وأنتلوه غرضا ، فما فلوا له صفاة ، ولا قصفوا له قناة ، ومرّ على سيسائه ، حتى إذا ضرب الدين بجرانه ،

ورسّت أوتاده ، ودخل الناس فيه أفواجا ، ومن كل فرقة أرسلوا وأستانتا ، آختر
الله لنبيه ما عنده ؛ فلما قبض الله نبيه صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رؤوفه ،
ومتد طنبه ، ونصب حباله ، وأجاب بحيله ورجله ، وأضطرب حبل الإسلام ،
ومرج عهدُه وماج أهله ، وبغى الغوائل ، وظنّت رجال أن قد أكتبت أطاعهم
نهزها ولات حين الذي يرجون ، وأنى والصديق بين أظهرهم . فقام حاسرا
مشمرا ، بجمع حاشيته ورفع قطريه ، فرد رسن الإسلام على غرّبه ، ولم شعثه
ببطبه ، وأتتاش الدين فنعسه ، فلما أراح الحق على أهله ، وقرّر الرؤوس على كواهلها ،
وحقن الدماء في أهبها ، أنته منيته ، فسدّ ثلثته بنظيره في الرحمة ، وشقيقه في السيرة
والمعدلة . ذلك ابن الخطاب لله دَرّ أم حملت به ودرت عليه ! لقد أوحدت به ،
ففتح الكفرة ودينها ، وشرد الشرك شذر مذر ، وبجع الأرض وبنجها فقاءت
أكلها ، ولفظت خباها ، ترأمة ويصدف عنها ، وتصدى له ويأبأها . ثم وزع فيها
فياها وودعها كما صحبها . فأروني ماذا ترتئون وأي يومي أبي تتقمون : أيوم إقامته
إذ عدل فيكم أم يوم ظعنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم .
ثم أقبلت على الناس بوجهها فقالت أنشدكم الله هل أنكرتم مما قلت شيئا ؟ قالوا
آللهم لا .

ومن ذلك كلام أم الخير : بنت الحريش البارقية يوم صفين في الانتصار
لعلي رضي الله عنه .

يروى أن معاوية كتب إلى واليه بالكوفة أن يحمل إليه أم الخير بنت الحريش
البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) في بعض الكتب فردّ نشر الدين على غره ولم شعثه بطبه .

عليه كتابه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت أما أنا فغير زائفة عن طاعة ولا معتلة بكذب! ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمر تختلج في صدرى. فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير: إن أمير المؤمنين كتب إلى أنه يجازيني بقولك في بالخير خيرا وبالشر شرا، فما عندك؟ قالت يا هذا لا يطعمنك برك بي أن أسرك باطل، ولا تؤيسك معرفتي بك أن أقول فيك غير الحق. فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية فأزلهما مع حريمه، ثم أدخلها عليه في اليوم الرابع، وعنده جلساؤه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال لها وعليك السلام يا أم الخير، وبالرغم منك دعوتيني بهذا الاسم. قالت مه يا أمير المؤمنين! فإن بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه ((ولكل أجل كتاب)). قال صدقت. فكيف حالك يا خالة؟ وكيف كنت في مسيرك؟ قالت لم أزل في عافية وسلامة حتى صرت إليك فأنا في مجلس أنيق، عند ملك رقيق - قال معاوية بحسن نيتي ظفرت بكم - قالت يا أمير المؤمنين أعيدك بالله من دحض المقال وما تُردى عاقبته قال ليس هذا أردنا. أخبريني كيف كان كلامك يوم قتل عمار بن ياسر؟ قالت لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد. وإنما كانت كلمات نقهن لسانى حين الصدمة فإن شئت أن أحدث لك مقالا غير ذلك فعلت - قال لا أشاء ذلك. ثم التفت إلى أصحابه فقال أيكم يحفظ كلام أم الخير فقال رجل من القوم أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد - قال هاته - قال: نعم كأتى بها يا أمير المؤمنين في ذلك اليوم عليها برد زيبدي كثيف الحاشية، وهى على حمل أرمك وقد أحيط حولها، ويدها سوط منتشر الظفر، وهى كالفضل يهدر في شقشيقته تقول:

(١) لعله الضفر بالضاد المعجمة أى القتل.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴾ ! إن الله قد أوضح الحق ، وأبان الدليل ، ونور السبيل ، ورفع العلم ، فلم يدعكم في عمياء مبهمة ! ولا سوداء مدلهمة فإلى أين تريدون رحمكم الله . أفرارا عن أمير المؤمنين ، أم فرارا من الزحف ، أم رغبة عن الإسلام ، أم أردادا عن الحق . أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعت رأسها إلى السماء وهي تقول .

قد عيل الصبر، وضعف اليقين، وانتشرت الرغبة، وبيدك يارب أزمة القلوب جامع الكلمة على التقوى، وألف القلوب على الهدى، هاموا رحمكم الله إلى الإمام العادل، والوصى الوفي، والصديق الأكبر! إنها إحن بدرية، وأحقاد جاهلية، وضغائن أحديه، وثب بها معاوية حين الغفلة ليُدرك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت ﴿ قَاتِلُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴾ . صبرا معشر المهاجرين والأنصار، قاتلوا على بصيرة من ربكم، وثبات من دينكم، وكأني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام حُمر مستنفرة، فرّت من قسورة . لا تدرى أين يسلك بها من بجاج الأرض، باعوا الآخرة بالدنيا، واشتروا الضلالة بالهدى، وباعوا البصيرة بالعمى وعمّا قليل ليصبحن نادمين، حين تحلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة! إنه والله من ضلّ عن الحق وقع في الباطل، ومن لم يسكن الجنة نزل في النار . أيها الناس إن الأيكاس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبسطوا مدة الآخرة فسعوا لها . والله أيها الناس لولا أن تبطل الحقوق، وتعطل الحدود، ويظهر الظالمون، وتقوى كلمة الشيطان، لما آخترنا ورود المناها على خفض العيش وطيبه؛ فإلى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي أبنيه؟ خلق

من طينته ، وتفترع عن نبعته ، وخصه بسره ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان بغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى على سنن استقامته ؛ لا يعرج لراحة اللذات ؛ وهو مُفلق الهام ، ومكسر الأصنام إذ صلب الناس مشركون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزى بدر ، وأفنى أهل أحد ، وفرق جمع هوازن ؛ فيالها وقائع ! زرعت في قلوب قوم نفاقا ، ورودة وشقاقا ، وقد آجتهت في القول ، وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يأثم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي ! والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك .

قالت : والله ما يسوعنى يابن هند أن يُجِرَى الله ذلك على يدي من يسعدنى الله بشقائه — قال هيات يا كثيرة الفضول ، ماتقولين في عثمان بن عفان؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : استخلفه الناس وهم كارهون ، وقتلوه وهم راضون — فقال إيه يا أم الخير هذا والله أصلك الذى تبين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سبأقا إلى الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة — قال فما تقولين في طلحة بن عبيد الله؟ — قالت وما عسى أن أقول في طلحة أغتيل من مأمنه ، وأتى من حيث لم يحدر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنة — قال فما تقولين في الزبير؟ قالت يا هذا لا تدعنى كرجيع الضبع يعرك في المركن — قال حقا لتقولن ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول في الزبير ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سبأقا إلى كل مكرومة في الإسلام . وإنى أسألك بحق الله يا معاوية فإن قرئشا تحدث أنك من أحلمها أن تسعني بفضل حاملك ،

وأن تُعفيني من هذه المسائل، وأمض لما شئت من غيرها — قال نعم وكرامةً قد أعفيتك؛ وردّها مكرمة إلى بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية يوم صفين أيضا .
 يروى أنها ذُكرت عند معاوية يوماً، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه يا أمير المؤمنين — قال فأشيروا على في أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بأس الرأي أيحسُن بمثل أن يقتل امرأة؟ . ثم كتب إلى عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثقةٍ من ذوى محرمها وعدة من فرسان قومها ، وأن يمهّد لها وطء لينا، ويسرّها بستر خفيف، ويوسع لها في النفقة . فلما دخلت على معاوية، قال مرحبا بك وأهلا! قَدِمْتِ خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين أدام الله لك النعمة! — قال كيف كنتِ في مسيرك؟ قالت ربيبة بيتٍ أو طفلاً مُمهّداً — قال بذلك أمرناهم . أتدريين فيم بعثت إليك — قالت وأتى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألسنت الراكبة الجمّل الأحمر، والواقفة بين الصقيين بصقيين تحضين الناس على القتال، وتوقدين الحرب؟ فما حملك على ذلك؟ — قالت يا أمير المؤمنين مات الرأس، وبتر الذنب، ولن يعود مذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لها معاوية أتخفظين كلامك يومئذ؟ — قالت : لا والله ولقد أنسيته — قال لكني أحفظه لله أبوك حين تقولين :

أيها الناس ارجعوا وارجعوا ! إنكم أصبحتم في فتنة غشتكم جلايب الظلم ، وجارت بكم عن قصد الحجّة . فيا لها فتنة عمياء ، صماء ، بكاء لا تسمع لناعقها ، ولا تسلس لقائدها . إن المصباح لأبيض في الشمس ، والكواكب لا تير مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد . ألا من استرشد أرشدناه ، ومن سألنا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلب ضائته فأصابها ! فصبراً يامعاشر المهاجرين
والأنصار على الغصص ؛ فكان قد أندمل شعب الشتات ، والتأمت كلمة التقوى ،
ودمغ الحق باطله ! فلا يجهل أحد فيقول كيف العدل وأتى : ليقضى الله أمراً
كان مفعولاً . ألا وإن خضاب النساء الحنأ ، وخضاب الرجال الدماء ! ولهذا
اليوم مابعده ، والصبر خير في عواقب الأمور . إيها ل حرب قُدمًا غير ناكسين ،
ولا متشا كسين .

ثم قال لها يازرفاء لقد شركت عليا في كل دم سفكه — قالت أحسن الله بشارتك ،
وأدام سلامتك ؛ فثلك من بشر نجير وسر جلسه — قال ويسرك ذلك ؟ — قالت : نعم
سُررت بالخبر فأثى لى بتصديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : لوفأؤكم له بعد
موته أعجب عندى من حُجكم له في حياته ! اذ كرى حاجتك . قالت يا أمير المؤمنين
آليت على نفسى أن لأسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا ، ومثلك من أعطى من غير مسألة ،
وجاد من غير طلبة — قال صدقت ، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكسا .

وقريب من ذلك كلام عكرشة بنت الأطرش يوم صفين أيضا .
يروى أنها دخلت على معاوية متوكئة على عُكاز لها فسلمت عليه بالخلافة ،
ثم جلست — فقال لها معاوية : الآن صرتُ عندك أمير المؤمنين ؟ قالت : نعم
إذ لاعلى حتى ! — قال ألسيت المتقلدة حائل السيف بصفين ؟ وأنت واقفة بين
الصفين تقولين : أيها الناس ! عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم . إن
الجنة لا يجزن من قطنها ، ولا يهرم من سكنها ، ولا يموت من دخلها ؛ فآبتاعوها
بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم همومها . وكونوا قوما مستبصرين في دينهم
مستظهرين على حقهم ؛ إن معاوية دلف إليكم بعجم العرب ، لا يفقهون الإيمان ،
ولا يدرون ما الحكمة . دعاهم إلى الباطل فأجابوه ، وأستدعاهم إلى الدنيا فلبؤه .

فَاللَّهُ اللَّهُ عِبَادَ اللَّهِ فِي دِينِ اللَّهِ ! وَإِيَّاكُمْ وَالتَّوَأَكُلَ فَإِنَّ ذَلِكَ يَنْقُضُ عُمْرِي الْإِسْلَامَ ،
وَيُطْفِئُ نَوْرَ الْحَقِّ . هَذِهِ بَدْرُ الصَّغْرَى ، وَالْعُقْبَةُ الْأُخْرَى ، يَامَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
أَمْضُوا عَلَيَّ بِصِيرَتِكُمْ ، وَاصْبِرُوا عَلَيَّ عَزِيمَتِكُمْ . فَكَأَنِّي بِكُمْ غَدًا وَقَدْ لَقِيتُمْ أَهْلَ الشَّامِ
كَالْحُمْرِ النَّاهِقَةِ تَقْصَعُ قُصْعُ الْبَعِيرِ :

ثم قال : فكأنني أراك على عصاك هذه قد أنكفأ عليك العسكران يقولون هذه
عكرشة بنت الأطرش فإن كدت لتفليين أهل الشام لولا قدر الله وكان أمر الله قدرًا
مقدورًا؛ فما حملك على ذلك؟ - قالت يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره ﴿يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَسْوُؤٌ﴾ الآية، وإن اللبيب إذا كره
أمرًا لا يجب إعادته - قال صدقتِ فاذا كرى حاجتك - قالت كانت صدقاتنا تؤخذ
من أغنيائنا فترد على فقرائنا وقد فقدنا ذلك، فما يُجبر لنا كسير، ولا يُعش لنا فقير .
فإن كان عن رأيك فمثلك من أنتبه من الغفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير
رأيك فما مثلك من استعان بالحنونة ولا استعمل الظلمة - قال معاوية : يا هذه،
لأنه ينوبنا من أمور رعيئنا ثغور نتفتق، وبحور نتدقق . - قالت سبحان الله ! والله
ما فرض الله لنا حقًا بفعل فيه ضررًا لغيرنا وهو علام الغيوب - قال معاوية هيهات
يا أهل العراق نهبكم على فلن تطاقوا . ثم أمر برّد صدقاتهم فيهم وإنصافهم .

والشاهد في هذه الحكايات كلام هؤلاء النسوة مع ما فيها : من المراجعات ،
والمخاطبات، والمقاولات، والمحاورات، الصالحة للاستشهاد للفصل المتقدم قبل
ذلك . وهذا باب متسع لا يسع استيفاءه، ولا يمكن استيعابه وفيما ذكرنا مَنع .

ومن ذلك ما روى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! أرسل إلى معاوية
بالشام كتابًا صحبة صعصعة بن صوحان، فساربه حتى أتى دمشق؛ فأتى باب معاوية
فقال لأذنه : أستاذن لرسول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وبالباب جماعة

من بنى أمية ، فأخذته النعال والأيدى لقوله : " أمير المؤمنين " . وكثرت عليه
 الجلبة ، فاتصل ذلك بمعوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يا بن
 أبي سفيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أما إنه لو كانت الرسل تُقتل
 في جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية في الكلام ، وأراد أن يستخبره ليعرف
 طبعا أو تكلفا — فقال له ممن الرجل — قال من نزار — قال وما كان نزار قال كان
 اذا غزا انكش ، واذا لقي افترش ، واذا أنصرف أحترش . قال فن أي أولاده أنت ؟ —
 قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال : كان يطيل النجاد ، ويعول العباد ،
 ويضرب ببقاع الأرض العباد — قال : فن أي أولاده أنت ؟ — قال من جديلة —
 قال وما كان جديلة ؟ — قال كان في الحرب سيفا قاطعا ، وفي المكرمات غيثا نافعا ،
 وفي اللقاء لهبا ساطعا — قال فن أي أولاده أنت ؟ — قال : من عبد القيس — قال
 وما كان عبد القيس ؟ — قال كان حسنا أبيض وهابا ، يقدم لضيغه ما وجد ،
 ولا يسأل عما فقد ، كثير المرق ، طيب العرق ، يقوم للناس مقام الغيث من السماء —
 قال ويحك يا بن صوحان ! فما تركت لهذا الحى من قرين مجدا ولا نفرا ، — قال بلى
 والله يا بن أبي سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض
 والأصفر ، والسرير والمنبر ، والملك إلى المحشر ، ففرح معاوية وظن أن كلامه
 يشتمل على قرين كلها ، قال صدقت يا بن صوحان إن ذلك لكذلك فعرف صعصعة
 ما أراد ، فقال ليس لك ولا لقومك في ذلك إصدار ولا إيراد . بعدتم عن أنف
 المرعى ، وعلوتم عن عدب الماء — قال ولم ذلك ويحك يا بن صوحان ! فقال الويل
 لأهل النار ، ذلك لبني هاشم — قال قم فأخرجوه — فقال : صعصعة الوعد بيني

(١) أي جد . الأصمى انكش في أمره وانشمر وجد بمعنى واحد . وقوله افترش أي صرع . يقال لقي فلان

فلانا فاقتشه إذا صرعه وهو مناسب هنا . وقوله احترش أي كسب أو صاد .

وبينك لا الوعيد من أراد المناجزة ^(١) يتبّل المحاجزة - فقال معاوية لشيء مما سؤده قومه ووددت أنى من صُلبه ؛ ثم ألتفت إلى بنى أمية فقال : هكذا فلتكن الرجال .

ومن ذلك ما روى أن سعيد بن عثمان بن عفان رضى الله عنه دخل على معاوية وابنه يزيد إلى جانبه فقال له : ائتمك أبى ، وأصطنعتك حتى بلغك باصطناعه إياك المدى الذى لا يحارى ، والغاية التى لا تُسامى ؛ فما جازيت أبى بالائه حتى قدمت هذا على ، وجعلت له الأمر دُونى . ”وأوما إلى يزيد“ والله لأبى خير من أبيه وأمى خير من أمته ولأنا خير منه ! - فقال له معاوية . أما ما ذكرت يابن أنحى من تواتر الآئكم على ، وتظأهر نعمائكم لدى ، فقد كان ذلك ووجب على المكافأة والمجازاة ، وكان من سُكرى إياه أن طلبتُ بدمه حتى كابدت أهوال البلاء ، وعَشِيتُ عساكر المنايا إلى أن شُفيت حَزازات الصدور وتجلَّت تلك الأمور . ولست لنفسى باللائم فى التشمير ، ولا الزارى عليها فى التقصير .

وذكرت أن أباك خير من أبى هذا ”وأشار بيده إلى يزيد“ فصدمت لعمر الله لعثمان خير من معاوية ! أكرم كريما ، وأفضل قديما ، وأقرب إلى مجد صلى الله عليه وسلم رحما . وذكرت أن أئمك خير من أمه فالعمرى إن امرأة من قريش خير من امرأة من بنى كلب . وذكرت أنك خير من يزيد فوالله يابن أنحى ما يسرنى أن العُوطة عليها رجال مثل يزيد . فقال له يزيد ”مه يا أمير المؤمنين ! ابن أخيك آستعمل الدالة عليك ، وآستعتبك لنفسه ، وآستراد منك فزده وأجمل له فى ردك ، وآحمل على نفسك ، وولّه خراسان بشفاعتى وأعنه بمال يظهر به موروثه“ فؤلاه معاوية خراسان ، وأجازه بمائة ألف درهم ؛ فكان ذلك أعجب ما ظهر من حلم يزيد .

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجزة فقبل المناجزة . ولعل ما هنا تصحيف ان لم يكن من تصرف المنشى .

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منبه قدم على معاوية فشكا إليه ديناً لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بن أبي سفيان قد تزوج أبنه يعلى أختي زيد بن منبه، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية : الحق بصهرك ”يعنى عتبة“ فقدم عليه مصر فقال : ”إني سرت إليك شهرين أخوض فيهما المتألف : ألبس أردية الليل مرة وأخوض في لبح السراب أخرى، مؤقراً من حُسن الظن بك، وهاربا من دهر قَطم، ودين أزم، بعد غنى جدعنا به أنوف الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مهرباً وعلية معولاً — فقال عتبة : مرحباً بك وأهلاً! إن الدهر أعاركم غنى وخطبكم بنا ثم آسرتد وأخذ ما أمكنه أخذه، وقد أبقى لكم منا ما لا ضيقة معه وأنا رافع إليك يدي بيد الله“ فأعطاه ستين ألفاً كما أعطاه معاوية .

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزى بن زُرارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوبر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال يا أمير المؤمنين لم أزل أهرُّ ذوائب الرجاء إليك ، ولم أجد معولاً إلا عليك ، أمتطى الليل بعد النهار، وأسيمُ الجاهل بالآثار، يقودنى إليك أمل، ويسوقنى إليك بلوى، والمجتهد يُعذر، وإذ بلغتك فقط . فقال معاوية فاحطط عن راحلتك رحّلها .

وخرج عبد العزى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زُرارة عند معاوية فهلك هناك : فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزرارة : أتانى اليوم نعى سيد شباب العرب — قال زُرارة يا أمير المؤمنين هو أبى أو أبنك؟ — قال بل أبنك فقال ”للموت ما تلد الوالدة“ . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وَلِلْمَوْتِ تَغْدُو الْوَالِدَتُ سِخَالَهَا * كَمَا لِحَرَابِ الدَّهْرِ تُبْنِي الْمَسَاكِنُ

ومن ذلك ما يروى، أن مروان بن الحكم، وهو والٍ على المدينة في خلافة معاوية حبس غلاماً من بني ليث في جناية جناها بالمدينة، فأنته جدّة الغلام ”وهى أم

(١) سِنَانِ بِنْتُ جَشْمِيَةَ بْنِ خَرْشَةَ الْمَذْحِجِيَّةِ، فَكَلَّمَتْهُ فِي الْغَلَامِ، فَأَغْلَظَ لَهَا مِرْوَانَ، فَخَرَجَتْ إِلَى مَعَاوِيَةَ فَدَخَلَتْ عَلَيْهِ فَأَتَسَبَّطَ لَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَرَحِبًا بَابِنَةِ جَشْمِيَةَ مَا أَقْدَمَكَ أَرْضَنَا؟ وَقَدْ عَهَدْتُكَ تَسْتَمِينَا، وَتُحْضِينِ عَلَيْنَا عِدْوَنَا، قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! إِنَّ لِبْنِي عَبْدِ مَنَاةٍ أَخْلَاقًا طَاهِرَةً، وَأَعْلَامًا ظَاهِرَةً، لَا يَجْهَلُونَ بَعْدَ عِلْمٍ، وَلَا يَسْفَهُونَ بَعْدَ حِلْمٍ، وَلَا يَسْتَمُونَ بَعْدَ عَفْوٍ، وَإِنْ أَوْلَى النَّاسِ بِاتِّبَاعِ مَا سَنَّ آبَاؤُهُ لِأَنْتَ، قَالَ: "صَدَقْتَ نَحْنُ كَذَلِكَ فَكَيْفَ قَوْلُكَ:"

عَرَبَ الرَّقَادُ فَمُقَلَّتِي لَا تَرْقُدُ * وَاللَّيْلُ يُصْدِرُ بِالْهُمُومِ وَيُورِدُ
يَا آلَ مَذْحِجٍ لَا مُقَامَ فَشَمِّرُوا * إِنَّ الْعَدُوَّ لَالَ مَذْحِجٍ يَقْصِدُ
هَذَا عَلَيَّ كَالْهَلَالِ تَحْفُهُ * وَسَطَ السَّمَاءِ مِنَ الْكَوَاكِبِ أَسْعَدُ
خَيْرُ الْخَلَائِقِ وَأَبْنُ عَمِّ مُحَمَّدٍ * إِنَّ يَهْدِيَكُمْ بِالنُّورِ مِنْهُ تَهْتَدُوا
مَا زَالَ مُدَّ شَهْدِ الْحُرُوبِ مَظْفَرًا * وَالنَّصْرُ فَوْقَ لُؤَائِهِ مَا يُفْقَدُ،

قَالَتْ قَدْ كَانَ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْجُو أَنْ تَكُونَ لَنَا خَلْفًا بَعْدَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ
مَنْ جِلْسَائِهِ كَيْفَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ وَهِيَ الْقَائِلَةُ:

إِنَّمَا هَلَكْتَ يَا أبا الْحُسَيْنِ فَلَمْ تَزَلْ * بِالْحَقِّ تُعْرِفُ هَادِيًا مَهْدِيًا
فَأَذْهَبَ عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ مَا دَعَتْ * فَوْقَ الْعُصُونِ حَمَامَةٌ قُرْبِيًا
قَدْ كُنْتَ بَعْدَ مُحَمَّدٍ خَلْفًا لَنَا * أَوْصِي إِلَيْكَ بِنَا وَكُنْتَ وَفِيًا
وَالْيَوْمَ لَا خَلْفَ يُؤْمَلُ بَعْدَهُ * هِيَاتَ نَأْمَلُ بَعْدَهُ إِنْ سِيَا

قَالَتْ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: لِسَانُ نَطْقٍ، وَقَوْلُ صَدَقٍ، وَلِئِنْ تَحَقَّقَ فِيكَ مَا ظَنَّنَاهُ،
فَحَفْظُكَ الْأَوْفَرُ، وَاللَّهِ مَا أَوْرَثَكَ الشَّنَّانَ، فِي قُلُوبِ الْمَسَامِينِ إِلَّا هَوْلَاءُ، فَأَدْحِضْ

(١) لم نعثر على أسم هذه الصيغة فليحرق.

مقاتلهم، وأبعد منزلتهم، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قُرباً، ومن المسلمين حُباً. قال وإنك لتقولين ذلك؟ قالت: سبحان الله! والله ما مثلك من مدح باطل، ولا أعتد إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلبنا. كان عليّ - والله أحب إلينا منك، وأنت أحب إلينا من غيرك. قال ممن؟ قالت من مروان وسعيد بن العاص - قال وبم استحققت ذلك عندك؟ - قالت بسعة حاكم، وكريم عَفوك - قال وإنيهما يطمعان في ذلك - قالت هما والله من الرأي علي ما كنت عليه لعثمان بن عفان - قال لقد قاربت فما حاجتك؟ - قالت: يا أمير المؤمنين! إن مروان تبتك^(١) في المدينة تبتك من لا يريد منها البرّاح، لا يحكم بعدل، ولا يقضى بسنة، يتبع عورات المؤمنين؛ حبس ابن أبي فأتيتسه فقال كيّت وكيّت، فأسمعتُه أحسن من الحجر، وألقمته أمر من الصبر. ثم رجعت إلى نفسي باللائمة، وقلت لم لأصرف ذلك إلى من هو أولى بالعمو منه؛ فأنتك يا أمير المؤمنين، لتكون في أمرى ناظراً، وعليه معديا - قال صدقت لأسألك عن ذنبه، والقيام بحجته، اكتبوا لها بإطلاقه - قالت يا أمير المؤمنين وأنى بالرجعة وقد نَفد زادي، وكَلَّت راحتي، فأمر لها براحة موطأة وخمسة آلاف درهم.

ومن ذلك ما روى أن معاوية حج فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل الجحون يقال لها الدارميّة، وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها فحجى بها، فقال ما حالك يا أبنة حاتم؟ - قالت لست لحام أدعى، إن عبتني أنا امرأة من بنى كنانة - قال: صدقت أتدرين لم أرسلت إليك؟ قالت لا يعلم الغيب إلا الله - قال: بعثت إليك لأسألك علام أحببت عليا وأبغضتيني، وواليتيه وعاديتيني؟ - قالت أو تعفيني

يا أمير المؤمنين - قال لا أُعْفِيكَ - قالت أما إذا أُبِت ، فإني أحببت عليا علي عَدْلِهِ
 فِي الرعية ، وَقَسَمَهُ بالسوية ؛ وَأَبْغَضْتُكَ علي قَتَالِكَ مَنْ هُوَ أَوْلَى بِالْأَمْرِ مِنْكَ ، وَطَلَبِكَ
 مَا لَيْسَ لَكَ بِحَقِّ ؛ وَوَالَيْتُ عليا علي مَا عَقِدَ لَهُ مِنَ الْوَالِيَةِ ، وَعَلَى حَبِّهِ الْمَسَاكِينَ ،
 وَإِعْظَامِهِ لِأَهْلِ الدِّينِ ؛ وَعَادِيَتِكَ علي سَفْكَكَ الدَّمَاءِ ، وَجَوْرِكَ فِي الْقَضَاءِ ، وَحِكْمِكَ
 بِالْهَوَى - قال ولذلك آتَنَفَخَ بَطْنُكَ ، وَعَظُمَ ثَدْيَاكَ ، وَرَبَّتْ عَجِيزَتُكَ - قالت يا هذا بهند
 كانت تضرب الأمثال ، لابي - قال يا هذه أربعي فإنما لم نقل إلا خيرا إنه إذا آتَنَفَخَ
 بطن المرأة تَمَّ حَلْقُ ولدها ، وَإِذَا عَظُمَ ثَدْيَاهَا تَرَوَى رَضِيعَهَا ، وَإِذَا عَظُمَتْ عَجِيزَتُهَا رَزُنَ
 مجلسها فرجعت وسكنت - قال لها فهل رأيت عليا؟ قالت لقد كنت رأيتُه -
 قال كيف كنت رأيتُه ، قالت رأيتُه لم يفتنه المَلِكُ الذي فتنتك ، ولم تشغله النعمة
 التي شغلتك - قال لها : فهل سمعتِ كلامه؟ قالت : نعم ، والله كان يجلو القلوب من
 العمى ، كما يجلو الزيت الطست من الصدا - قال : صدقت فهل لك من حاجة ؟
 قالت : وتفعل إذا سألتك؟ - قال نعم - قالت : تعطيني مائة ناقة حمراء فيها خيلها وراعيها -
 قال تصنعين بها ماذا؟ - قالت أُغْذِي بِالْبَانِهَا الصَّغَارَ ، وَأَسْتَحْيِي بِهَا الْكِبَارَ ، وَأُصْلِحَ
 بها بين العشائر - قال فإن أعطيتك ذلك فهل أحلُّ عندك محلَّ علي؟ - قالت ماءٌ
 ولا كصدا ، ومرعى ولا كالسعدان ، وفقى ولا كالك ، ياسبحان الله أودونه ، فأنشأ
 معاوية يقول :

إِذَا لَمْ أَعُدْ بِالْحِلْمِ مَنِّي إِلَيْكُمْ * فَمَنْ ذَا الَّذِي بَعْدِي يُؤْمَلُ لِلْحِلْمِ ؟
 خُذِيهَا هَيْئًا وَأَذْكَرِي فِعْلَ مَا جِدَّ * جَزَاكَ عَلَى حَرْبِ الْعَدَاوَةِ بِالسَّلْمِ .

ثم قال : أما والله ! لو كان عليا ما أعطاك منها شيئا - قالت والله ولا وبرة واحدة

من مال المسلمين .

ومن ذلك ما يروى أن أم البراء بنت صفوان آستأذنت على معاوية فأذن لها فدخلت عليه، وعليها ثلاثة دروع برود تسحبها ذراعا، قد لاثت على رأسها كورا كالمنسف فسأمت وجلست؛ فقال لها معاوية كيف أنت يا ابنة صفوان؟ - قالت بخير يا أمير المؤمنين - قال كيف حالك؟ - قالت كَيْسْتُ بعد نشاط - قال شتان بينك اليوم وحين تقولين :

يَا زَيْدُ دُونَكَ صَارِمًا ذَا رَوْنِقٍ * عَضِبَ الْمَهْزَةَ لَيْسَ بِالْحَوَّارِ
أَسْرِحْ جَوَادَكَ مُسْرِعًا وَمَشْمَرًا * لِلْغُرَبِ غَيْرَ مَعُودٍ لِفِرَارِ
أَجِبِ الْإِمَامَ وَذُبُّ تَحْتَ لَوَائِهِ * وَالقَّ الْعَدُوَّ بِصَارِمٍ بَتَّارِ
يَا لَيْتَنِي أَصْبَحْتُ لَسْتُ قَعِيدَةً * فَادَّبَ عَنْهُ عَسَاكِرَ الْفُجَّارِ

قالت قد كان ذلك، ومثلك من عفا عما سلف (وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ). قال هيئات، أما والله لو عاد لعديت، ولكنه اخترم منك - قالت أجل! والله إني لعلى بيته من ربي وهدي من أمرى - قال كيف كان قولك حين قتل؟ - قالت أنسيته؛ قال بعض جلسائه هو والله حين تقول :

يَا لِلرِّجَالِ لِعُظْمِ هَوْلِ مُصِيبَةٍ * فَدَحَتْ فَلَيْسَ مُصَابَهَا بِالْحَائِلِ
الشَّمْسُ كَأَسِيفَةٍ لَفَقْدِ إِمَامِنَا * خَيْرِ الْخَلَائِقِ وَالْإِمَامِ الْعَادِلِ
حَاشَى النَّبِيِّ لَقَدْ هَدَدَتْ قُوءَانَا ^(١) * فَالْحَقُّ أَصْبَحَ حَاضِعًا لِلْبَاطِلِ

فقال معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل ، أذكري حاجتك - قالت أما الآن فلا ، وقامت فعثرت ، فقالت تعس شاني على! فقال زعمت أن لا؛ قالت هو كما علمت ؛ فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة ، وقال إذا ضيعت الحلم فَنَ يَحْفَظُهُ ؟

(١) جمع القوة قوى مقصور وإنما مد للضرورة.

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدى بن أرطاة : أن أجمع بين إياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة فولّ القضاء أنفذهما ، بجمع بينهما ، وكانا غير راغبين في القضاء . فقال إياس : أيها الرجل سلّ عنى وعن القاسم فقيهى المصر الحسن وأبن سيرين ، وكان القاسم يأتى الحسن وأبن سيرين ، وإياس لا يأتيهما ، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به ، فقال له : لا تسأل عنى ولا عنه ، فوالله الذى لا إله إلا هو إن إياس بن معاوية أفتقه منى وأعلم بالقضاء ، فإن كنت كاذبا فما أشير عليك أن تولينى وأنا كاذب ، وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفت به على شفير جهنم فنجى نفسه منها يمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان — قال له عدى : أما إذ فهمتها فأنت لها فاستقضاه .

ومن ذلك : ما حكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال "خطب أبو جعفر المنصور ، فحمد الله ، وأثنى عليه ؛ ثم قال : أيها الناس اتقوا الله ، فقام إليه رجل من عرض الناس ، فقال أذكرك الذى ذكرتنا به . فأجابه أبو جعفر بلا فكرولا رويّة : سمعنا سمعنا لمن ذكر بالله ، وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه فتأخذنى العزة بالإثم ؟ لقد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ؛ وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ، ولكن ليقال قام فقال ، فعوقب فصبر ، وأهون بها لو كانت ؛ وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعدة علينا نزلت ، وفيها أنبئت . ثم رجع إلى مكانه من الخطبة .

ومن ذلك : ما يحكى عن الربيع قال : كنا وقفا على رأس المنصور ، وقد طُرحت للهدى بن المنصور وسادة إذ أقبل صالح بن المنصور ، وكان قد رشحه أن يوليه بعض أمره ، فقام بين السماطين والناس على قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فمد

المنصورُ يده إليه ، ثم قال يا بُنَيَّ ! وأعتنقه ، ونظر في وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكُر مقامه ويصف فضله ، فكلهم كره ذلك وهاب المهديّ ، فقام شبة بن عقّال التيميّ ، فقال : "لله درّ خطيب قام عندك يا أمير المؤمنين ! ما أفصح لسانه ! وأحسن بيانه ! وأمضى جناته ! وأبل ريقه ! وأسهل طريقه ! . وكيف لا يكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه ، والمهديّ أخوه ، وهو كما قال زهير بن أبي سُلميّ :

يَطْلُبُ شَأْوَ أَمْرَيْنِ قَدَمًا حَسَنًا * بَدَأَ الْمَلُوكَ وَبَدَأَ هَذِهِ السُّوقَا
هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقُ بَشَأَوْهُمَا * عَلَى تَكَالُفِهِ فَمَثَلُهُ لِحَقَا
أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهَلٍ * فَمَثَلٌ مَا قَدَمَا مِنْ صَالِحٍ سَبَقَا

قال الربيع : فأقبل عليّ بعض من حضر ، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلّصاً ^(١) أرضى أمير المؤمنين ، ومدح الغلام ، وسلم من المهديّ . فالتفت إلى المنصور ، وقال : ياربيع لا ينصرف التيمي إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أنّ رجلاً دخل على المهديّ وليّ عهد المنصور ، فقال يا أمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصور شتمني وقذف أمي ، فإما أمرتني أن أحلله ، وإما عوّضتني فاستغفرت له — قال ولم شتمك ؟ — قال شتمت عدوّه بحضرتة ، فغضب — فقال ومن عدوّه الذي غضب لشمته — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمسّ به رحماً ، وأوجبّ عليه حقاً ، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رحمة ذبّ ، وعن عرضه دفع ، وما أساء من أنتصر لأبن عمه — قال فإنه كان عدوّه — قال فلم ينتصر للعداوة ، وإنما أنتصر للرحم ، فأسكت الرجل ، فلما ذهب ليوتّي قال : لعلك أردت أمراً فلم تجد له ذريعةً عندك أبلغ من هذه الدعوى؟ — قال نعم ، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ما حكى: أن المنصور قال لبعض قواده: صدق الذى قال "أَجْعُ كَلْبَكَ يَتَّبِعُكَ" فقال له أبو العباس الطوسى: أما تخشى يا أمير المؤمنين أن يلوح له غيرك رغيفا فيتبعه ويدعك .

ومن ذلك ما يحكى: أنه وفد أهل الحجاز من قريش على هشام بن عبد الملك بن مروان، وفيهم محمد بن أبي الجهم بن حذيفة العدوى، وكان أعظمهم قدرا، وأكبرهم سنا؛ فقال - أصلح الله أمير المؤمنين، إن خطباء قريش قد قالت فيك، وأقلت وأكثرت وأطنبت، وما بلغ قائلهم قدرك، ولا أحصى مطئبيهم فضلك؛ وإن أذنت فى القول قلت - قال قُلْ وأوجز - قال تولاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنى، وزينك بالتقوى، وجمع لك خير الآخرة والأولى! إن لى حوائج أفأذكرها، قال هاتها - قال كبرت سنى ودق عظمى، ونال الدهر منى؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يجبر كسرى، وينفى فقرى - قال: وما الذى ينفى فقرى ويجبر كسرك؟ - قال ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار. فأطرق هشام طويلا، ثم قال: هيات يا بن أبي الجهم، بيت المال لا يحتمل ما سألت - فقال: أما إن الأمر لواحد، ولكن الله أترك لمجلسك فإن تعطنا خفتنا أدت، وإن تمنعنا نسال الذى بيده ما حوت؛ إن الله جعل العطاء محبة، والمنع مبغضة، ولأن أجبك أحب^(١) إلى من أن أبغضك - قال: فألف دينار لماذا؟ - قال أفضى بها دينا قد حُم قضاؤه، وحنانى حمله، وأضربى أهله - قال: فلا بأس تُنفس كربة، وتودى أمانة؛ وألف دينار لماذا؟ - قال أزوج بها من بلغ من ولدى - قال: نعم المسلك سلكت، أغضضت بصرا، وأعققت ذكرا، ورؤجت نسلا؛ وألف دينار لماذا؟ - قال

(١) فى الأصل . ولئن وهو خطأ فى الرسم .

أشترى بها أرضا يعيش بها ولدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون
 ذُنْحرا لمن بعدى ؛ قال : فإننا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالمحمودُ اللهُ على ذلك ،
 ونخرج — فقال هشام : ما رأيت رجلا أوجز في مقال ، ولا أبلغ في بيان منه ، وإنا لتعرف
 الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبخل ، وما نُعطى تبذيرا ، ولا نمنع تقتيرا ، وما
 نحن إلا خُرَّان الله في بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإن أُذِنَ أعطينا ، وإذا منع أبينا ،
 ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحق ، وما جبهنا قائلًا ، ولا ردَّدنا سائلًا ؛
 فنسأل الذى بيده ما أسْتَحْفَظْنَا أَنْ يُجْرِيَهُ عَلَى أَيْدِينَا فَإِنَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَسَاءُ
 وَيَقْدِرُ ، إِنَّهُ كَانَ بَعْبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلمت فأبلغت ،
 وما بلغ في كلامه ما قصصت ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُتدى .

والحكايات والأخبار في ذلك كثيرة ، والإطناب يُخرج عن المقصود ، ويؤدى
 إلى الملل ، وفيما ذكرنا من ذلك مقنع والله أعلم .

المقصود الثالث

(في كيفية تصرف الكاتب في مثل هذه المكاتبات والرسائل)

غير خاف على من تعاطى صناعة النثر والنظم أنه لا يستقلُّ أحد باستخراج جميع
 المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر في كلام من تقدمه : لاقتباس ما فيه من المعانى
 الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وأصطلاحهم ، فينسج
 على منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ؛ وتوارد الكتاب والشعراء على المعانى غير
 مجهول ، فإن التوارد يقع في الشعر الذى هو مبنى على أصل واحد من وزن وقافية ،
 فإنه إذا وقف على المعنى وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسج الكلام ؛ مثل أن

يكتب في تهئة بمولود: قد جعلك الله من نَبْعَة طابَتْ مَغَارِسُهَا ، ورَسَخَتْ عُرْوَقُهَا ، فالزِيَادَةُ فِيهَا زِيَادَةٌ فِي جَوْهَرِ الْكَرَمِ ، وَذَخِيرَةٌ نَفِيسَةٌ لِدَوَى الْإِقْبَالِ ، فتَوَلَّى اللهُ نِعْمَهُ عِنْدَكَ بِالْحِرَاسَةِ الْوَاقِيَةِ ، وَالْوَالِيَةِ الْكَافِيَةِ . وقد بَلَغَنِي الْخَبْرُ بِحُدُوثِ الْوَلَدِ الْمُبَارِكِ ، وَالْفَرَعِ الطَّيِّبِ ، الَّذِي عَمَرَ أَفْنِيَةَ السِّيَادَةِ ، وَأَضْحَكَ مَطْلَعَ السَّعَادَةِ ، فَبَاشَرْتُ بِذَلِكَ وَأَتَهَجَّتُ بِهِ ، فَعَمِلَهُ اللهُ بَرًّا تَقِيًّا ، سَعِيدًا حَمِيدًا ، يَتَقَبَّلُ سَلْفَهُ ، وَيَقْتَنِي أَثْرَهُمْ ؛ وَأَيَّمَنَ بِهِ عِدْدَكَ ، وَكَثَّرَ بِهِ ذُرِّيَّتَكَ ، وَأَوْزَعَكَ الشُّكْرَ عَلَيْهِ ، وَأَجَارَكَ فِيهِ مِنَ التُّكْلِ بِرَحْمَتِهِ .

فِيأخذ آخر المعنى ، ويورده بألفاظ أخرى ، فيقول : قد جعلك الله من شجرة زَكَتْ عُصُونُهَا ، وَفَرَعٌ شَرُفَ مَنَابِتِهِ ، فَانْمَوْ فِيهَا نِعْمَةٌ كَامِلَةٌ السَّعَادَةِ ، وَغِبْطَةٌ شَامِلَةٌ السَّرُورِ ، فتَوَلَّى اللهُ فَضْلَهُ عَلَيْكَ بِالْحِفَاطِ الرَّاعِي ، وَالِدِّافِعِ الْكَالِي ؛ وَقَدْ أَتَصَلَ بِي خَبْرُ السَّلِيلِ الرَّضِيِّ ، وَالْوَلَدِ الصَّالِحِ الَّذِي جَدَّدَ فَوَائِدَ السِّيَادَةِ ، وَثَبَّتَ أَسَاسَ الرَّفْعَةِ ، فَاعْتَبْتُ بِهِ وَأَسْتَبَشَرْتُ ، جَعَلَهُ اللهُ تَعَالَى وَلَدًا مَيْمُونًا ، وَنَجْلًا سَعِيدًا ، يَسْلُكُ مَنَاحِجَ سَلْفِهِ ، وَيَحْدُو فِي الْحَاسِنِ حَذْوَهُمْ ، وَزَادَ بِهِ فِي ثَرْوَتِكَ ، وَأَرَاكَ فِيهِ غَايَةَ أَمَلِكَ ، وَسَرَّكَ بِوَجُودِهِ ، وَأَسْعَدَكَ بِرُؤْيَيْتِهِ .

فالمعنى والفصل واحد ، والألفاظ مختلفة . وكذلك ما يجري هذا المجرى وما في معناه .

قلت : ولا ينهض بمثل ذلك إلا من رَسَخَتْ فِي صِنْعَةِ الْكِتَابَةِ قَدَمُهُ ، وَأَمْتَرَجَ بِأَجْزَاءِ الْفَصَاحَةِ وَالْبَلَاغَةِ لِحْمِهِ وَدَمُهُ ؛ وَهَذَا الْمَنْهَجُ هُوَ أَحَدُ أَنْوَاعِ الْإِعْجَازِ فِي الْقِرْآنِ الْكَرِيمِ ، فَإِنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ تَتَكَرَّرُ فِيهِ مَرَارًا فِي سُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ ، تَرْدُ فِي كُلِّ سُورَةٍ بِلَفْظٍ وَتَرْكِيْبٍ غَيْرِ الَّذِي وَرَدَتْ بِهِ فِي الْأُخْرَى ، مَعَ اسْتِيفَاءِ حُدِّ الْبَلَاغَةِ وَنَهَايَةِ أَمْدِ الْفَصَاحَةِ ؛ وَلِذَلِكَ قَلَّ مَنْ سَلَكَ هَذَا الْمَنْهَجَ ، أَوْ رَتَبِي هَذِهِ الذُّرُورَةَ ، وَقَدْ أَتَى عَلِيَّ بْنَ

حمزة بن طلحة في كتابه "الأقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعجب العجيب، فإنه قد استحسن كلام الخطيب ابن نباتة الفارقي، والأمير قابوس الخراساني، والوزير أبي القاسم المقرئ، والصاحب ابن عباد، وأبي إسحاق الصابي، الذين هم رؤساء الكتابة، وأئمة الخطابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخطب الموجزة الرائقة، فجرد معانيها من ألفاظها، وأخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تميم، ومراعاة ترصيف، على أتم نظام، وأحسن ألتتام .

وهاتان نسختا كتابين، الأولى منهما كتب بها أبو إسحاق الصابي عن عز الدولة ابن بويه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عضد الدولة يخبره بمولود ولد له .
والثانية عارض بها علي بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابي في ذلك بألفاظ أخرى مع اتحاد المعنى .

فأما التي كتب بها أبو إسحاق الصابي عن عز الدولة إلى عضد الدولة فهي :

"وصل كتاب سيدي الأمير عضد الدولة أطال الله بقاءه بالخبر السار للأولياء ، الكابيت للأعداء، في الولد الحبيب الأثير، والسيد المقيّل الخطير، الذي زاد الله به في عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالنا والآمال لنا، فأخذ ذلك مني مأخذ الأغباط ونزل عندي أعلى منازل الأتجاج، وسألت الله تعالى أن يختصه بالبقاء الطويل، والعمر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير ناميةً بنموه، ناشيةً بنشوّه : ليكون كل يوم من أيامه مُمدّا له من فضله عاده، وواعدّا له من غده زياده، ومُحدّثا لديه منحةً تُتضاعف إلى ما سبق من أمثاله، ومُحدّدا له عازمة تتلو ما سلف من أشكالها؛ وأن يريه إياه غزوةً في وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمزنته، قائما لللك قيامه، وسادا منه مكانه؛ ويهبّ له بعد الأكارب النجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

• تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجاراة المشفوع، في فائدة تقدم بمقدمه، وعائدة ترد بمورده؛ ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض اتصالها، أو فترة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها، أو تنغصها، أو رزية تشلها، أو تنقصها. إلا أنها الأمد الأبعد^(١) والعمر الأطول؛ ثم تفضي به غصارة هذه الدار الدنيا، إلى قرارة الدار الأخرى، مبقاً أو في مراتبها، مبلغاً أقصى مبالغها، حالاً أرفع درجاتها، مختصاً بأنعمها، مبتهجاً بها، مستثمراً ما قدمه لصالح سعيه، ومستوفياً ما أفاءه عليه متجره الراجح، وآثاره البادية لإنفاقه في أيام نظرى التي استشعرت نورا من سنائه، وآنتت جمالا من بهائه، وثابت مصالحها ببركته، وتوافت خيراتها بيمينه؛ واعتقدت أن السعادات طالعة على بمطاعه، وأسبابها ناجمة إلى بمنجمه؛ فلو استطعت أن أكون مكان كتابي هذا مشافها بالتهنئة لسيدى الأمير عضد الدولة أطل الله بقاءه ومقبلاً لبساطه، لكنت أولى عبده بالمسارعة إلى بابه، وأحقتهم بالمبادرة إلى فيئائه: لأننى معوق عن تلك الخدمة بخدمة أنافيا من قبله، ومقيم بهذه الحضرة، إقامة المتصرفين تحت أمره، وقد وفت نعمه الله تعالى، الواهب منه أيده الله تعالى ما يقتر عين الولي، ويقذني عين العدو ويطرفها، حقتها من الشكر الممتري للقيام والمزيد، بدوام العز والتأييد؛ وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك مقبولاً عنه، ونافعاً له، وعائداً عليه وعلينا بطول العمر وبياهى النشوق والنماء، وأن يعزف سيدى الأمير عضد الدولة أيده الله بركة مولده، ويؤمن مورده، ويبقيه حتى يراه والأمرء السابقين أيدهم الله تعالى آباء أمنائهم، وأشياخ ذريتهم، مبلغاً في كل منهم أفضل ما رشحت له أمانيه، وأعلى ما أنبسطت آماله فيه، بقدرته. وأنا أتوقع الكتاب بما يقتر عليه اسم الأمير السيد وكينته، أعلاها الله تعالى لأستأنف إقامة الرسم في مكاتبته، وتأدية الفرض في خدمته؛ وسيدى عضد الدولة،

(١) لعله إلى إنهاء كما يفيد السياق . (٢) كذا في الأصول وليحرر .

أطال الله بقاءه، أعلى عينا فيما يراه بمطالعتي بذلك وبكل ما يؤليه الله من مستأنف
نعمه، ويجتده له في حادث مواهبه له، لآخذ بحظي منهما، فأضرب بسهمي فيهما،
وتصريفى بين أمره ونهيه، وتشريفى بعوارض خدمته، إن شاء الله تعالى .

وأما التى عارضها بها على بن حمزة بن طلحة فهى :

وصلنى كُتَّابُ سِيدى الأَميرِ عضدِ الدولة ، أطال الله بقاءه ، بالبشرى المبتسمة
عن ناجذ السعد الآنف ، والتَّعمى المتَّسِّمة عن صبا المجد المتضاعف ؛ التى أشرقَتْ
مطالع الإقبال عن مُحَيَّاهَا ، وتضوَّعتُ نَفَحَاتُ دَرَكِ الآمالِ عن رِيَّاهَا ، وصدقت
من الأولياء ظُنُونهم المرتَّبة ، وآتَّخَبَتْ من الأعداء عُيُونهم المرتَّبة ؛ بالولد النجيب
الخطير ، الأمير الحبيب الظَّهير ، المجد المعمر ، المقيِّل المؤمَّر ، الذى كثر الله به عدَدنا
معشر أهليه ، وُعدَدنا بما نرتَّبه منه ونُراعيه ، وهو تَكْرِمَةٌ مُحَقِّقٌ ظنونا بما له نزيجه ،
وما نُؤمِّله من السعادة المقبلة فيه ؛ فاستفزتنى غِبْطَةٌ آستحوذتْ على جوامع لُبِّي ،
وتملكتنى بهجَّةٌ ثوَّتْ فى مَرَّابِ قلبى ؛ وطفِقتُ مبتهلا ، وتضرَّعت متوسلا ، إلى ذى
العَرشِ المَجدِ ، الفَعَّالِ لِمَا يُريدُ ، أن يجمع له بين العُمرِ المديد ، والحَدِّ السعيد ، كِفَاءً
ماقرن له بين المجد العتيد ، والمُلْكِ الوطيد ؛ وأن يجعل تَحِيَّاتِ أَيْاديهِ لِدَى سِيدى
الأَميرِ متضاعفة الأعداد ، مترادفة الأمداد ، مبشرة بُحْبَاءِ الأولاد ، يربى آنفها على
السالف بسعده ، ويُلْهِى عن تالدها الطارف بعلو مجده ؛ وأن يريه إِيَّاه على مَفْرَقِ
دولته ، وُغْرَةٍ تُشْرِقُ فى جبهة ذرئته ، وناهضا بأعباء مملكته ، وقائما بنصرة دَعْوَتِهِ ،
حتى يرى أولاد أولاده جُدودا ، مظفرا سعيدا ؛ وأن يُتَّبِعَهُ أترابا من الإخوة النجباء ؛
الأمجاد السعداء ؛ متجارين فى حَلَباتِ علو الهمم ، متبارين فى مَرَيَّاتِ إيلاء النعم ؛
ليتراد آزدحام وُفود السعادة فى عَتَباتِ بابهِ ، ويتراقد أقتحام جنود الإقبال رحيب
جَنَابِهِ ، ويحرس لديه ماخوله من مواهبه وأَيْاديهِ ، ويحفظ عليه ما به فضله من مناقبه

ومعاليه ؛ و يقيه من كيد عائد إذا عند ، ويحميه من شر حاسد إذا حسد ؛ وأن يؤتية عائدتي العاجلة والعقبى ، ويحظيه بسعادتي الآخرة والأولى ؛ وأن يجعل سعيه في مصالح عباده مشكوراً ، ونظره في منابح بلاده مبروراً ؛ وأن يغادر متاجر بره وتقواه رابحاً ، كما جعل خواطر سره ونجواه صالحه ؛ فرياض الأيام بعده نواضر ، ونواظر الأنام إلى فضله نواظر ؛ ومصالحهم يمينه وبركته موافيه ، وبراعتهم بهمته وسعادته موافيه ؛ وإني لأعتقد أن مقبلي في آفياء السعادة ، ونبلي كل مأمول وإرادته ، وتوفيق فيما أوفق فيه ، بما أعتمده وآتية ، جَدول من تيار فضله وسعادته ، منوط العرى بسمو همته ؛ وأود أن أكون عوضاً عن كتابي هذا إليه ، وخطابي الوارد آنفاً عليه ؛ لأسعد بالألاء غرته ، وأحظى بالأشرف من خدمته ؛ أدام الله أيام دولته : لأني أجدر عبيده بالمهاجرة إلى بابه ، وأولى خدمه بالمبادرة إلى جنابه ؛ ولولا تحلى أعباء خدمته التي طوقنيها ، وكوني نائبه لدى هذه الحضرة فيها ، تاوياً بأوامره ونواهيها في مغانيها ، لما شق غباري من أم ذراه ، ولا أتبع آثارى مسرع رام لقياه . ولقد قمت بالواجب على للنعمة أيده الله المنزلة إلى ، والموهبة بمقدمه كلاًه الله المكملة لدى ، التي أضحت بها نواجذ المخلص ضاحكة مستبشرة ، وأمست بسببها وجوه الكاشحين عابسة مستبشرة : من وافر شكر يمتري المزيد ، وعتق الإماء والعبيد ، والصدقة الدايزة على التأييد ؛ وأنا أرغب إلى الله تعالى رغبة متوسل إليه ، أمل بما لديه ، أن يجعل بركة كل خير درت به أخلافه ، وكرت لأجله أحلافه ، عائدة عليه ، وميامنه نائبة إليه ، مؤذنة بتعميره ملكاً حلاًحلاً ، لا يلقى مؤملوه ليم فضله ساحلاً ؛ وأن يمد لسيدى عضد الدولة في البقاء ، ويمتعه به وبسابقه من إخوته الأمراء ؛ ويريه فيهم وفيه ، قُصوى ماتسمو إليه هممه وأمانيه . وإني لمتوكف لما يصلني من كتاب نبي عن اسمه الكريم وكنيته ، لأعتمد ما أستوجبه في خدمته ومكاتبته ؛

وسيدى عضد الدولة أدام الله علاه، ولّى ما يستصوبه ويراه : من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم ، وأوانف المواهب الغالية التميم ، لآخذ وافرسهمى من السرور، وجريل قسّمى من الحَدَل والحبور، وتصريفى بين أمره الممثل المطاع، ونبيه المقابل بالاتباع، إن شاء الله تعالى .

النوع العاشر

الأستكثار من حفظ الأشعار الرائقة، خصوصا أشعار العرب وما توفرت دواعى العلماء بها على آختياره : كالحماسة، والمفضّليات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك ؛ وفهم معانيها وآستكشاف غوامضها، والتوفر على مطالعة شروحها ؛ ويلتحق بذلك شعر المولدين من العرب، وهم الذين كانوا فى أوّل الإسلام : كجبرير والفرزدق، والأخطل وغيرهم ؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلّحين من المحدّين : كأبى تمام، ومسلم بن الوليد، والبحترى، وأبن الرومى، والمتنبى ونحوهم ؛ وفيه مقصدان :

المقصد الأول

(فى بيان أحتياج الكاتب إلى ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة المواد، وصحة الأستشهاد، وكثرة النقل، وصقل مرآة العقل، وأنتزاع الأمثال، والأحتذاء فى أختراع المعانى على أصح مثال ؛ والأطلاع على أصول اللغة وشواهداها ، والأضطلاع من نوادر العربية وشواردها . وقد كان الصدر الأوّل يعتمون بذلك غاية الأعتناء . قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه ” كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر. وذكر صاحب "الريحان والريحان" عن سعيد بن المسيب أنه قال :
كان أبو بكر وعمر وعليّ يجيدون الشعر وعليّ أشعر الثلاثة . قال : وكان عمر بن
الخطاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدمها بين يدي حاجته
يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم . وقد ذكر عن الشافعيّ رضي الله عنه
أو غيره من بعض الأئمة الأربعة : أنه كان يحفظ ديوان هذيل ، وأما قول الشافعيّ
رضي الله عنه .

وَلَوْلَا الشَّعْرُ بِالْعُلَمَاءِ يُرَى * لَكُنْتُ الْيَوْمَ أَشْعَرَ مِنْ لَيْدٍ

فإنه يريد منّ صرف همته إلى الشعر، بحيث صار شأنه ودينّه، وهو المعنى بقوله
صلى الله عليه وسلم "لَإِنَّ يَمَلَأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَهُ قَيْحًا خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَمَلَأَهُ شَعْرًا" أى أراد
صرف همته إليه حتى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ
لِحِكْمَةٌ" . وكان عمر رضي الله عنه يسمع البيت يُعجبه فيكرره مراراً كما ذكره
الحافظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنباريّ في كتاب "طبقات الأدباء"
في ترجمة أبي جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنباريّ : أنه كان فقيهاً ،
علماً ، واسع الأدب وتقلد القضاء لعدّة من الخلفاء . ثم حكى عن ولده أبي طالب
أنه قال كنت مع والدي في جنازة بعض أهل بغداد من وجود الناس وإلى جانبه
أبو جعفر الطبريّ ، فأخذ أبي يعظ صاحب المصيبة ويسلّيّه ، ويُشدد أشعاراً ،
ويروى له أخباراً ، فداخله الطبريّ في ذلك ، ثم أتسع الأمر بينهما في المذاكرة ،
وخرجا الى فنون كثيرة من الأدب والعلم استحسناها الحاضرون وأُعجبوا بها ، وتعالى
النهار وأفترقنا ، فقال لي أبي يا بُنَيَّ مَنْ هذا الشيخ الذي داخلنا في المذاكرة؟ فقلت :
يا سيدي كأنك لم تعرفه ، فقال لا ، فقلت : هذا أبو جعفر الطبريّ ، فقال إنا لله !
ما أحسنّت عِشْرَتِي معه ؛ فقلت كيف ياسيدي ؟ قال : ألا نَبّهْتِي في الحال ،

فكنت أذاكره بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والاتساع في صنوف العلوم ، ماذا كرته بحسبها ، ومضت على ذلك مدة فحضرنا في حق آخر وجلسنا ، وإذا بالطبري قد دخل إلى الحق . فقلت له : أيها القاضي هذا أبو جعفر الطبري قد جاء مقبلا ، فأوما إليه بالجلوس عنده ، فعدل إليه وجلس إلى جانبه ، وأخذ يحاربه ، فكما جاء إلى قصيدة ذكر الطبري منها أبياتا ، قال أبي : هاتها يا أبا جعفر إلى آخرها فيتلثم الطبري فينشدها أبي إلى آخرها ، وكلما ذكر شيئا من السير ، قال أبي هذا كان في قصة فلان ، ويوم بنى فلان ، مر يا أبا جعفر فيه فرمما مر فيه ، وربما تلثم ، فيمر أبي في جميعه . ثم قمنا ، فقال لي أبي : الآن شفيت صدري .

وأما أشعار المحدثين ، فللطيف مأخذهم ، ودوران الصناعة في كلامهم ، ودقة توليد المعاني في أشعارهم ، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخطابة ، والكتابة ، وخصوصا المتنبي ، الذي كأنه ينطق عن ألسنة الناس في محاوراتهم ، وكثير الاستشهاد بشعره حتى قل من يجمله ؛ فإذا أكثر المترشح للكتابة من حفظ الأشعار وتدبر معانيها ، ساقه الكلام إلى إبراز ذخيرة ما في حفظه منها ، فاستعملها في محلها ، ووضعها في أماكنها ، على حسب ما يقتضيه الحال في إيرادها وأقتباس معانيها .

المقصد الثاني

(في كيفية استعمال الشعر في صناعة الكتابة)

علم أن للكتاب في استعمال الشعر في كتابته ثلاث حالات :

الحالة الأولى

(الاستشهاد)

وهو أن يُورد البيت من الشعر، أو البيتين، أو أكثر في خلال الكلام المشور مطابقا لمعنى ما تقدم من النثر، ولا يشترط فيه أن ينه عليه بقال ونحوه كما يشترط في الاستشهاد بآيات القرآن والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوزنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلى التنبيه عليه. وأكثر ما يكون ذلك في المكاتبات الإخوانيات: مثل ما كتب به القاضي الفاضل إلى بعض إخوانه يستوحش منه، ويتشوق إليه:

فِيَارَبِّ إِنْ الْبَيْنَ أَحْصَحْتُ صُرُوفُهُ * عَلَى، وَمَالِي مِنْ مُعِينٍ فَكُنْ مَعِي
عَلَى قُرْبِ عُدَّالِي وَبُعْدِ أَحِبَّتِي * وَأَمْوَاهِ أَجْفَانِي وَنِيرَانِ أَضْلَعِي!

هذه تحية القلب المعدب، وسريرة الصبر المدبذب، وظلامه عزم السلوق المكذب، أصدرتها إلى المجلس وقد وقَد في الحشا نارها، الزفير أوارها، والدموع شرارها، والشوق آثارها، وفي الفؤاد نارها:

لَوْ زَارَنِي مِنْكُمْ خِيَالٌ هَاجِرٌ * لَهَدَّتْهُ فِي ظُلْمَانِهِ أَنْوَارُهَا

أسفا على أيام الأجماع التي كانت مواسم السرور والأسرار، ومباسم الثغور والأوطار، وتذكرا لأوقات عذب مذاقها، وأمتد بالأنس رواقها، وزوجت بكرها، ودوعب ذكرها:

وَاللَّهِ مَا نَسِيتَ نَفْسِي حَلَاوَتَهَا! * فَكَيْفَ أَذْكُرُ أَيُّ الْيَوْمِ أَذْكُرُهَا؟

ومذ فارقت الحناب، لا زال جنا جنايه نظيرا، وسنا سناناه مستطيرا، ومملكه في الخافقين خافق الأعلام، وعزّه على الحديدين جديد الأيام، لم أقف منه على

كُتِبَ تَحْتَهُ سَطورهُ مَا غَسَلَ الدَّمْعُ مِنْ سَوَادِ نَاطِرِي ، وَيُقَدِّمُ بِيَاضِ مَنْظومِهِ
وَمَنْثورِهِ مَا وَزَعَهُ الْبَيْنَ مِنْ سُودِيَاءِ خَاطِرِي

وَلَمْ يَتَّقِ فِي الْأَحْشَاءِ إِلَّا صُبَابَهُ * مِنَ الصَّبْرِ تَجْرِي فِي الدَّمُوعِ الْبَوَادِرِ

وَأَسْأَلُهُ الْمَنَابَ ، بِشَرِيفِ الْجَنَابِ ؛ وَأَدَاءَ فَرَضِ ، تَقْيِيلِ الْأَرْضِ ؛ حَيْثُ تَلْتَقِي
وَفُودَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَتَعْمُرُ الْبُيُوتَ الْعَامِرَةَ ، الْمُنَى الْغَامِرَةَ ، وَفَضْلُ الظِّلِّ غَيْرِ
مَنْسُوخِ بَهْجِيرِهِ ، وَيُبَشِّرُ الْمَجْدُ بِشَخْصٍ لَا تَسْمَحُ الدُّنْيَا بِظَنِيهِ :

تَظَاهَرَ فِي الدُّنْيَا بِأَشْرَفِ ظَاهِرِي * فَلَمْ نَرَ أَنْفًا مِنْهُ غَيْرَ صَمِيرِهِ !

كَفَانِي نَفْرًا أَنْ أَسْمَى بَعْبِدِهِ * وَحَسْبِي هَدْيًا أَنْ أُسِيرَ بِنُورِهِ !

فَأَيْ أَمِيرٍ لَيْسَ يَشْرَفُ قَدْرُهُ * إِذَا مَا دَعَاهُ صَادِقًا بِأَمِيرِهِ ؟

وَإِنِّي فِي السُّؤَالِ بِكُتْبِهِ أَنْ يُوَصِّلَهَا لِيُوصِلَ بِهَا لَدَى تَهَانِي تَمْلَأُ يَدَيَّ وَيُودِعُ بِهَا
عِنْدِي مَسْرَةً تَقْدَحُ فِي الشُّكْرِ زَيْدِي .

عَهْدُكَ ذَا عَهْدِهِ هُوَ الْوَرْدُ نَضْرَةً * وَمَا هُوَ مِثْلُ الْوَرْدِ فِي قِصْرِ الْعَهْدِ

وَأَنَا أَتَرَقَّبُ كِتَابَهُ أَرْتَقَابُ الْهَلَالَ : لَتُفْطِرَ عَيْنَ عَنِ الْكَرَى صَائِمَهُ ، وَتَرَدَّ نَفْسُ

عَنْ مَوَازِدِ الْمَاءِ حَائِمَهُ اه .

بَلْ رُبَّمَا كَانَ كُلُّ الْمَكَاتِبَةِ أَوْ جَلُّهَا شِعْرًا ، وَقَدْ يَكُونُ صَدْرُ الْمَكَاتِبَةِ شِعْرًا وَذَيْلُهَا
نَثْرًا ، وَبِالْعَكْسِ . وَقَدْ يَكُونُ طَرَفَاهَا نَثْرًا وَأَوْسَطُهَا شِعْرًا ، وَعَكْسُ ذَلِكَ بِحَسَبِ
مَا يَقْتَضِيهِ التَّرْتِيبُ ، وَيَسُوقُ إِلَيْهِ التَّرْكِيبُ ؛ وَرُبَّمَا آكُفْنِي بِالْبَيْتِ الْوَاحِدِ مِنَ الشُّعْرِ
فِي الدَّلَالَةِ عَلَيَّ الْمَقْصِدِ وَبَلُوغِ الْغَرَضِ فِي الْمَكَاتِبَةِ : كَمَا كَتَبَ بَعْضُ مَلُوكِ الْغَرْبِ
إِلَى مَنْ كَرَّرَ كُتْبَهُ وَرَسَلَهُ إِلَيْهِ بِقَوْلِ الْمُنْبِيِّ :

وَلَا تُكْتُبْ إِلَّا الْمَشْرِفَةَ عِنْدَهُ * وَلَا رَسُلًا إِلَّا الْإِنْجِيْسُ الْعَرْمَرَمُ

إلى غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقلّ
أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور، وقد تجيء التليقيات
بأبيات الشعر في غير المكاتبات من الرسائل الموضوعية لرياضة الذهن، وتقيح الفكر
كالرسائل الموضوعية في صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك، وقد أودعت المقامة التي
أنشأها في كتابة الإنشاء جملةً من الأبيات الشعرية، وأردتها مورد الاستشهاد على
ما يقتضيه المقام، ويسوق إليه سياق الكلام، على ما سلف ذكره عند الكلام على
فضل الكتابة فيما تقدم . وعند مطالعة كلامهم، والوقوف على رسائلهم، ترى من
أصناف الاستشهادات ما يروقك نظره، ويُطربك سمعه .

الحالة الثانية

(التضمين)

وهو أن يضم البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة . أما
تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به
القاضي الفاضل :

وصل من الحضرة

كُتِبَ بِهِ مَاءُ الْحَيَاةِ وَنَقَعَهُ السَّحَابُ فَكَأَنِّي إِذْ ظَفِرْتُ بِهِ الْخَضِرُ

فوقفت عنده منه على

عقود، هي الدر الذي أنت بحره * وذلك ما لا يدعى مثله البحر

ورعت منه في

رياض يد تجني وعين وخاطر * تسابق فيها النور والزهر والتمر

وكرعت منه في حياض

سرى مجانيها إذا ما جنى الظل * وتروى مجاريها إذا بجلى القطر

وما زلت منه أنشده

كأني سار في سريرة ليلتي * فلما بدأ كبرت إذ طلع الفجر
ووافي على ما كنت أعهد

نخلت بأن العين من سحِب كفه * فمن ذا ومن ذا فيه يتثر الدر
وأسترجع فانت الدماء من مؤرده

وما كان عندي بعد ذنب فراقه * بأني أرى يوماً به بعد الدهر
ونفس عن النفس بأبيض أثماده وعين العين بأسود إثمده

به لهما سبج طويل فهذه * على خاطر برد ، وفي خاطر بدر
وجدد إليه أشواقاً جديدها

يمر به ثوب الجديدين دائماً * فيبلى ولا يبلى وإن بلى الدهر
وذكر أياماً لا يزال يستعيدها :

وهيات أن يأتي من الأمر فائت * فدع عنك هذا الأمر قد قضى الأمر
وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضى الفاضل :

وصل كتاب مولاى بعدما ... * أجب المنادى للصلاة فأعتما
فلما استقر لدى ... * تجلى الذى من جانب البدر أظلمما
فقرأته ... * بعين إذا استمطرها أمطرت دما
وساءلته ... * فسألت مصروفا عن النطق أعجما

(١) فى نسخة سمح . وفى أخرى سمح . وكلاهما تصحيف كما هو ظاهر اذ يشير إلى الآية الكريمة (إن لك فى النهار

سبعا طويلا) .

ولم يردّ جواباً، ... * ... * ... * وما ذَا عَلَيْهِ لَوْ أَجَابَ الْمُتَمَيِّمًا ؟
 ورددته قراءَةً، ... * ... * ... * فَعُوجِلْتُ دُونَ الْجِلْمِ أَنْ أَتَحَلَّمَا
 وحفظته، ... * ... * ... * كَمَا يَحْفَظُ الْحُرُّ الْحَدِيثَ الْمُكْتَمَا
 وكثرته، ... * ... * ... * فَمَنْ حَيْثُ مَا وَاجَهْتُهُ قَدْ تَبَسَّمَا
 وقبّلته، ... * ... * ... * فَقبَلْتُ دُرًّا فِي الْعُقُودِ مَنْظَّمَا
 وقُتُّ له، ... * ... * ... * فَكُنْتُ بِمَفْرُوضِ الْحَبِيَّةِ قِيَمَا
 وأخلصتُ لكتابهِ، ... * ... * ... * وَليْسَ عَلَى حُكْمِ الْحَوَادِثِ مُحْكَمَا
 ولم أصدقه ! ... * ... * ... * وَلِكِنَّهُ قَدْ خَالَطَ اللَّحْمَ وَالِدَمَا
 وأزخت وصوله، ... * ... * ... * فَكَانَ لايْدِي الْوَسَائِمِ مَوْسِمَا^(١)
 وشفيتُ به غليل ... * ... * ... * فَوَادٍ أُمْنِيَّهِ وَقَدْ بَلَغَ الظَّمَا
 وداويت عليل ... * ... * ... * حَشَا ضَرَّمَا فِيهِ مِنَ النَّارِ ضَرَّمَا
 فأما تلك الأيام التي ... * ... * ... * حَمَاهَا عَلَى اللُّوْمِ الْمُقَامُ عَلَى الْحِمَا
 والليالي العذاب التي ... * ... * ... * مَلَأَتْ بِجُورِ اللَّيْلِ بِيضًا وَأُنْجِمَا
 وأرسلتُ الزفرة ... * ... * ... * فَلَوْ صَاحَتِ رَضْوَى رُضٍّ وَهُدَمَا
 وأسبلتُ العبرة ... * ... * ... * كَمَا أَنشَأَ الْأَفُقُ السَّحَابَ الْمُدَيَّمَا
 وخطبتُ السَّلْوَةَ ... * ... * ... * فَاسْأَلْ مَعْدُومًا وَأْمَلْ مَعْدِمَا
 فأما الشكر فإنما ... * ... * ... * أُنْفِضْ بِهِ مِسْكًَا عَلَيْهِ مُحْتَمَا
 وأقوم منه بفرض ... * ... * ... * أَرَانِي بِهِ دُونََ الْبَرِيَّةِ أَفْوَمَا
 وأوفى واجب فرض ... * ... * ... * وَكَيْفَ تُوفِّي الْأَرْضُ فَرَضًا مِنَ السَّمَا

(١) كذا في الأصل ولعله جمع يد وأضيف للتكلم .

وربما ركبت القرينة الكاملة على البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضى
الفاضل أيضا :

ورد كتاب الحضرة بعد أن عدت }
* وقد عشتُ دَهْرًا لا أعدُّ الليالي }
الليالي ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه

وبعد أن أنتظرتُ القيظَ والشتاءَ }
* فما للنسوى ترمي بليلى المَراييا؟ }
لفصل ربيعِهِ

وأستروحتُ إلى نسيم سحرِهِ ... }
* إذا الصَّيفُ ألقى في الديارِ المَراييا

ومددتُ يدي لأقتطفَ ثمرِهِ ... }
* فله ما أحلى وأحلى المَجانيا !

ووقفتُ على شكواه من زمانِهِ ... }
* فبتُ لشكواه من الدهرِ شاكيًا

وعجبتُ لعمى اللُحْظِ عن مكانِهِ ... }
* وقد جمعَ الرحمنُ فيه المَعانيًا

وتوقَّعتُ له دولةً يعلو بها الفضلُ ... }
* إذا هزَّ من تلكَ اليراعِ عواليًا

ورتبةً يرتقى صهوتها بحُكمِ العدلِ ... }
* فربَّ مَراقٍ يُعتدِّدُ مَهاريًا

وإلى الله أرغبُ في إطلاعِ سعوده ... }
* زواهِرَ في أفقِ العلاءِ زواهِيا

وفي إنهاضِ عثراتِ جُوده ... }
* فقد عثرتُ بعدَ النهوضِ العواليًا

وربما رُكِبَ نصف البيت على نصف القرينة ؛ كما ذكرتُ في المفارقة بين
السيف والقلم في الكلام على لسان السيف في مخاطبته للقلم . وهو : وأنت وإن
ذُكرت في التنزيل ، وتمسكت من الامتنان بك في قوله ((عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)) بِشبهة التفضيل ،
فقد حرم الله تعالى تعلم خطك على رسوله ، وحرمك من مس أنامله الشريفة ما يؤسى
على فوته ويسرِّ بمحصله ؛ لكنى قد نلت من هذه الرتبة أسنى المقاصد ، وشهدت
معه من الوقائع ما لم تُشاهد ، وحلاني من كفه شرفًا لا يزول حلُّه أبدًا ، وحثت بنصره

في كل مُعْتَرِك . ، * فَسَلْ حُنَيْنًا وَسَلْ بَدْرًا وَسَلْ أَحَدًا * ؛ فَرَكِبْتَ نَصْفَ بَيْتِ
البردة على نصف قرينية . وما ذكرته في الرسالة التي كتبها للمقرّ الفتحيّ صاحب
ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد ليس شرفا
لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطعّ الزمان إلى نزعها ، وآتتهى إليه المجد فوقف ،
وعرف الكرم مكانه فانحاز إليه وعطف ، وحلّت الرئاسةُ بفنائها فاستغنت به عن
السّوى ، وأناخت السيادةُ بأفئائه * فألقت عصاها وأستقرّ بها النوى *

وقد يضمن الكاتب بعض القرينة نصف بيت ، ثم يستطرد فيذكر أبياتاً كاملة
الأجزاء على نمط أنصاف الأبيات التي يوردها ، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن
عمر بن يوسف القرطبيّ في رسالته للشيخ تقيّ الدين بن دقيق العيد تعمدهما الله
برحمته في قوله :

وينهى ورود عذرائه التي ... * لَهَا الشَّمْسُ خِذْنُهَا وَالتُّجُومُ وَلَا تُدْ
وحسنائه التي ... * لَهَا الدَّرُّ لَفْظُهَا وَالدَّرَارِيُّ قَلَانِدُ
ومشرفته التي ... * لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ
وكريمته التي ... * لَهَا الْفَضْلُ وَرَدُهَا وَالْمَعَالِي مَوَارِدُ
وآيتها الكبرى التي دلّ فضلها * عَلَى أَنَّ مَنْ لَمْ يَشْهَدْ الْفَضْلَ جَا حِدُ
وأنتك سيفٌ سلّه الله للهدى * وَليْسَ لِسَيْفٍ سَلَهُ اللهُ غَامِدُ

وقد يخالف بين قوافي أنصاف الأبيات التي يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين
فواصل القرائن : كما في قول البديع الهمداني

أنا لقرب دار مولاي ... * كَمَا طَرَبَ النَّشْوَانُ مَا لَتْ بِهِ الْخَمْرُ
ومن الأرياح إلى لقائه ... * كَمَا أَنْتَفَضَ الْعُصْفُورُ بِلَلِّهِ الْقَطْرُ

ومن الأمتراج بولائه ... * كما التقت الصهباء والبارد العذب
ومن الأبتهاج بمزاره ... * كما اهترت تحت البارح الغصن الرطب

إلى غير ذلك من فنون الأمتراج التي يزواج فيها بين المثور والمنظوم، وينتهي فيها الكاتب إلى ما يبلغ به القدر المحتموم .

أما تضمين بعض أبيات العرب في بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضي الأرجاني في قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء :

وأهد إلى الوزير المدح يَجْمَلُ * لَكَ المِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفَايَا
وَرَأْفِقِ رُفْقَةً رَحَلُوا إِلَيْهِ * فَأَبُوا بِالنَّهَابِ وَالسَّبَايَا
وَقُلْ لِلرَّاحِلِينَ إِلَى ذُرَاهِ * أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا
وَلَا تَسْلُكُ سِوَى طُرُقِي فَإِنِّي * أَنَا أَبْنُ جَلَا وَطَلَّاعُ الثَّنَايَا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، وإن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد أشار في كتابه "حسن التوسل" إلى التمثيل بذلك لما نحن بصددده .

الحالة الثالثة

(الحل)

وهو أن يعمد الكاتب إلى الأبيات من الشعر ذوات المعاني فيحلها من عقل الشعر، ويسبكها في كلامه المثور، فإن الشعر هو المادة الثالثة للكتابة بعد القرآن الكريم والأخبار النبوية، على فائدها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصاً أشعار العرب فإنها ديوان أدبهم، ومستودع حكمتهم، وأنقُسُ علومهم في الجاهلية؛ به يفتخرون، وإليه يحتكمون . فإذا أكرر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غزرت لديه المواد، وترادفت عليه المعاني، وتواردت على فكره، فيسهل عليه حينئذ حلها، ووضعها

في مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والرياعن" :
وهو شأنُ حُذَّاقِ الكُتَّابِ في زماننا ، وفيه من الجمال فنون .

منها أنه يدل على حَفَاةِ أدبِ المُجيدِ ، وَاتِّسَاعِ الحِفظِ ، والتيسير والتأني لسبك
اللفظ .

ومنها أنه ليس يُشهرُ منها إلا النادر للغاية في الحُسنِ ، فهي إذا حُلَّتْ يحاورها
المنشئ بما يناسب حسنها في البراعة ، وهذا كثير في هذه الصنعة . قال في "المثل
السائر" وإنما جعل المنظوم مادةً للثبور بخلاف العكس لأن الأشعار أكثر ،
والمعاني فيها أغزر ، قال : وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهل الفصاحة كان
جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنشور في كلامهم إلا يسيرا ، ولو كثرة فإنه لم
يُنقل عنهم بل المنقول عنهم الشعر فأودعوا أشعارهم كل المعاني كما قال الله تعالى
(أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَمِيمُونَ) . ثم جاء الطراز الأول من المُخَضَّمين فلم يكن لهم إلا
الشعر . ثم استمر الحال على ذلك فكان الشعر هو الأكثر ، والكلامُ المنشور بالنسبة
إليه قطرةٌ من بحر ، فلذلك صارت المعاني كلها مُودعة في الأشعار . قال في "حسن
التوسل" والحلُّ باب متسع على المجيد بحاله ، وتتصرف في كلام العارف به رويته
وآرتجاله .

قال صاحب "الريحان والرياعن" وأول من فك رقاب الشعر ، وسرح مقيدته إلى
النثر ، عبد الحميد الأكبر ، كاتب بني أمية إلى أنقضاء خلافتهم . قال : وربما رامه
غير المطبوع المتصرف فعقده وأفسده كما قال القائل : وبعضهم يحل فيعقد . قال :
وكيفية الحل أن يتوشى هذا البيت المنظوم وحلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيب
تلك الفرائد وما شابهها ترتيباً ممكن لم يحظره الوزن ولا أضطرته القافية ، ويرزها

في أحسن سلك، وأجمل قالبٍ وأصح سبك، ويكلمها بما يناسبها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة، ويختير لها القرائن. وإذا تم معه المعنى المحلول في قرينة واحدة فيفرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، ما يناسبه. وله أن ينقل المعنى إذا لم يفسده إلى ما شاء؛ فإن كان نسيبا وتأثى له أن يجعله مديحا فليفعل؛ وكذلك غيره من الأنواع. وإذا أراد الحل بالمعنى فلتكن ألفاظه مناسبة لألفاظ البيت المحلول غير قاصرة عنها، فتمت قصرت ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدَّ معيبا. وإذا حلَّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدبير الفصاحة، واجتناب ما ينقص المعنى أو يُحطُّ رتبته.

قال: وهذا الباب لا تحصر المقاصد فيه، ولا حجر على المتصرف فيه.

ثم حل الأبيات الشعرية وأستعملها في النثر على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

(أن يأخذ الناثر البيت من الشعر فينثره بلفظه، وهو أدنى مراتب الحل)

قال في "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد في نثره على أنه أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير. قال ومثله كمن أخذ عقدا قد أتمن نظمه، وأحسن تأليفه، فأوهاه وبدده؛ وكان يقوم عذره في ذلك لو نقله عن كونه عقدا إلى ضرورة أخرى مثله أو أحسن منه. وأيضا فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورا السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء.

وبالجملة حل الشعر بلفظه لا يخرج عن حالين:

الجال الأول — أن يكون الشعر مما يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها، وله في حله طريقتان:

الطريق الأول — أن يُحمله بالتقديم والتأخير من غير زيادة في لفظه : كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتاب أنه حلّ قول البحترى :

أَطْلَ جَفْوَةَ الدُّنْيَا وَتَهْوِينَ شَأْنِهَا * فَمَا الْغَافِلُ الْمَغْرُورُ فِيهَا بِعَاقِلٍ
يَرْجَى مَعْشَرَ ضَلَّ سَعِيمِهِمْ * وَدُونَ الَّذِي يَرْجُونَ غَوْلَ الْغَوَائِلِ
إِذَا مَا حَرِيزُ الْقَوْمِ بَاتَ وَمَا لَهُ * مِنْ اللَّهِ وَاقٍ فَهُوَ بَادِي الْمَقَاتِلِ

فقال في نثرها : أَطْلَ تهوينَ شأنِ الدنيا وَجَفْوَتَهَا، فَمَا الْمَغْرُورُ الْغَافِلُ فِيهَا بِعَاقِلٍ .
وَيَرْجُو مَعْشَرَ ضَلَّ سَعِيمِهِمْ الْخَلُودَ ، وَغَوْلَ الْغَوَائِلِ دُونَ مَا يَرْجُونَ . وَإِذَا بَاتَ حَرِيزُ
الْقَوْمِ وَمَالَهُ مِنَ اللَّهِ وَاقٍ فَهُوَ بَادِي الْمَقَاتِلِ . فلم يزد في ألفاظها شيئا .

الطريق الثاني — أن يُحمله بزيادة على لفظه كما حكى الجاحظ عن قلب المعترى
أنه سمع منشدا يُنشد للعتبي .

أَفَلْتَ بِطَالْتَهُ وَرَاجِعَهُ * حِلْمٌ وَأَعْقَبَهُ الْهَوَى نَدْمًا
أَلْقَى عَلَيْهِ الدَّهْرُ كَلْكَلَهُ * وَأَعَارَهُ الْإِقْتَارُ وَالْعَدَمًا
فَإِذَا أَلَمَ بِهِ أَخُو نِقَمَةٍ * غَضَّ الْجُفُونَ وَبَجَّحَ الْكَلِمَا

فنثرها فقال يستعطف بعض الملوك على رجل من أهله : جعلني الله فِدَاكَ
ليس هو اليوم كما كان ، إنه وحياتِكَ أَفَلْتَ بِطَالْتَهُ ، إِي وَالله وَرَاجِعَهُ حِلْمَهُ ، وَأَعْقَبَهُ
وَحَقَكَ الْهَوَى نَدْمًا . أَخَى الدَّهْرُ عَلَيْهِ وَاللهُ بِكَلْكَلِهِ ، فَهُوَ الْيَوْمَ إِذَا رَأَى أَخَا ثِقَةٍ
غَضَّ بَصْرَهُ وَبَجَّحَ كَلَامَهُ . فزاد في نثره ألفاظا على ألفاظ الشعر .

ونحو ذلك ما حكاه ضياء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض
شعراء الحماسة :

وَأَلَدٌ ذِي حَنْقٍ عَلَى كَأَمَّا * تَغْلِي عَدَاوَةَ صَدْرِهِ فِي مِرْجَلٍ
أَرْجِيئُهُ عَنِّي فَأَبْصَرَ قَصْدَهُ * وَكَوَيْئُهُ فَوْقَ النَّوَظِرِ مِنْ عَلٍ

فقال في نثره : فكم لقي ألد ذا حنق كأنه ينظر إلى الكواكب من عل وتغلي
عداوة صدره في مِرْجَل فكواه فوق ناظريه ، وأكبه لقمه ويديه .

الحال الثاني — أن يكون الشعر مما لا يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، فيحتاج في نثره إلى الزيادة فيه ، والنقص منه ، وتغيير بعض ألفاظه حتى يستقيم كقول الشاعر :

لِسَانُ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُوَادُهُ * فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ

فإن المصراع الثاني من البيت لا يمكن حله بالتقديم والتأخير لأنك تقول في المصراع الأول : فُوَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ وَلَا يُمْكِنُ ذَلِكَ فِي الْمِصْرَاعِ الثَّانِي حَتَّى تَزِيدَ فِيهِ أَوْ تَنْقُصَ مِنْهُ فَتَقُولُ مِثْلًا فُوَادُ الْفَتَى نِصْفٌ وَلِسَانُهُ نِصْفٌ عَلَى مَا تَقْدِمُ . ثُمَّ تَقُولُ وَصُورَتُهُ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ فَضَلَّةٌ لِأَغْنَاءِ بَهَا دُونَهُمَا ، وَلَا مَعْوَلٌ عَلَيْهَا إِلَّا مَعَهُمَا .

قال في "الصناعتين" : وزيادة الألفاظ التي تحصل فيه ليست بضائرة لأن بسط الألفاظ في أنواع المنشور شائع ؛ ألا ترى أنها تحتاج إلى الأزواج ؛ ومن الأزواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنى واحد وليس ذلك بقبیح ؛ إلا إذا اتفق لفظاهما ؛ إلا أن أكثر ما يحسن فيه إيراد المعنى على غاية ما يمكن من الإيجاز ، ومعنى قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل في قوله * لسان الفتى نصف ونصف فُوَادُهُ * والمصراع الثاني تذييل للمصراع الأول . قال : فإذا أردت أن تحله حلا مقتصرًا بغير لفظه ، قلت الإنسان شطران : لسان وجنان ؛ وقريب من ذلك قول أبي نُوَاس .

أَلَا يَا بَنَ الَّذِينَ فَنُوا وَبَادُوا * أَمَا وَاللَّهِ مَا ذَهَبُوا لَتَبِقُ
فإن المصراع الأول يمكن حله بأن تقول ألا يابن الذين بادوا وفنوا فيكون
مستقيماً . أما المصراع الثاني فإنه إن قُدم فيه أو أخر بأن قيل ما ذهبوا لتبِقُ أما والله
فإنه لا يستقيم فمحتاج في نثره إلى تغيير وزيادة فنقول : ألا يا ابن الذين ماتوا ومضوا
وظعنوا ونأوا أما والله ما طعنوا لتقيم ، ولا راموا لتريم ، ولا موتوا لتجيا ، ولا فنوا
لتبِقُ . قال في "الصناعتين" وفي هذه الألفاظ طول وليس بضائر على ما تقدم .
قال : وإن أردت اختصاره قلت أما والله إن الموت لم يصبك في أيك إلا
لُصِبِكَ فيك .

الضرب الثاني

(وهو أعلى من الضرب الأول أن يثُر المنظوم ببعض ألفاظه ويعرَم عن

البعض ألفاظاً آخر . ويحسن ذلك في حالين)

الحال الأول — أن يكون في الشعر ألفاظ لا يقوم غيرها من الألفاظ مقامها بأن

تكون مثلاً سائراً أو جارية مجرى المثل : كقول بعض شعراء الحماسة :

لَوْ كُنْتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَسْتَبِحْ إِيَّي * بَنُو اللَّقِيْطَةِ مِنْ دُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ

فإن لفظ بنى اللقيطة لا يقوم غيره من الألفاظ مقامه لكونه علماً على قوم
مخصوصين فيحتاج الناثر أن يبقيه بلفظه ، كما فعل "ضياء الدين بن الأثير" في قوله
في نثر البيت المذكور : لست ممن تسبيح إبلة بنو اللقيطة ، ولا الذي إذا هم بأمر
كانت الآمال إليه وسيطه ، ولكنني أحمي الهمل ، وأفوت الأمل ، وأقول مسبق
السيف العدل . وكذلك كل ما جرى هذا المجرى ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق : قد أخذ من الفصاحة بزمامها ، وأحاط من البلاغة بجوانبها ؛ فيقيه على حاله ، وبقرنه بلفظ يماثله ويوازنه ، قال فى "المثل السائر" : وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشاكلة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد ، قد تقحه وصححه ، فقرنه بما لا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ؛ ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والأستهداف للطعن . قال : وهو عندى أصعب مثلا من نثر الشعر بغير لفظه ؛ لأنه يسلك مضيقا ، لما فيه من التعرض للمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن نثره يتصرف فيه على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيدا فيه بمثال يضطر إلى مؤاخاته ؛ ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له :

حَدَاءَ تَمْلَأُ كُلَّ أُذُنٍ حِكْمَةً * وَبِلَاغَةٍ وَتُدْرِكُ كُلَّ وَرِيدٍ

ثم قال : فقوله تملأ كل أذن حكمة من الكلام الحسن ، وهو أحسن ما فى البيت وأشهر ، فلو قال قائل لمن هذا؟ قيل وهل يخفى القمر ، وإذا عُرِفَ الكلام صارت المعرفة له غلامه ، ولم يخش عليه سرقة إذ لو سُرِقَ لدلت عليه الوسامة ، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كل أذن حكمة ، ويعمل فصاحة كل لسان مجمه . فبقى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة . ونحو ذلك ما ذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي : أنه يؤاخى القرينة المحلولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقليد فقال : * فكم مل ضوء الصبح مما يغيره * ثم قال : وظلام النقع مما يثيره . وقال أيضا : وفل حديد الهند مما يلاطمه * ثم قال : والأجل مما يساقفه إلى قبض النفوس وإراحته . والقرينتان الأوليان نصفان بيتين للتنبي فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها . قال : وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة .

الضرب الثالث .

(وهو أعلى من الضربين الأولين أن يأخذ المعنى فيكسوه ألفاظا من عنده

ويصوغه بألفاظ غير ألفاظه)

قال في "المثل السائر" : "وَمَّ يَتَبَيَّنُ حِدَقُ الصَّائِعِ فِي صِيَاغَتِهِ ؛ فَإِنْ أَسْتَطَاعَ الزِّيَادَةَ عَلَى الْمَعْنَى فَتِلْكَ الدَّرَجَةُ الْعَالِيَةُ ، وَإِلَّا أَحْسَنَ النَّصْرَفُ وَأَتَقَنَ التَّأْلِيفُ ؛ لِيَكُونَ أَوْلَىٰ بِذَلِكَ الْمَعْنَىٰ مِنْ صَاحِبِهِ الْأَوَّلِ .

وتعلم أن الأبيات الشعرية في حلها بالمعنى لها حالان .

الحال الأول — أن يكون البيت الشعر مما يتسع المجال لثوره في ثره فيورده بضروب من العبارات . قال ابن الأثير "وذلك عندى شبيه بالمسائل السائلة في الحساب التي يجاب عنها بعدة من الأجوبة" . فمن ذلك قول أبي الطيب المتنبي :

لَا تَعْدِلِ الْمُشْتَقَّ فِي أَشْوَاقِهِ * حَتَّىٰ تَكُونَ حَشَاكَ فِي أَحْسَانِهِ

فهذا البيت يُتَصَرَّفُ فِي ثَرِهِ فِي وَجْهِهِ مِنَ الْمَعَانِي . وَقَدْ نَرَىٰ ابْنَ الْأَثِيرِ هَذَا الْبَيْتَ فَقَالَ : "لَا تَعْدِلِ الْمَحَبَّ فِيمَا يَهْوَاهُ ، حَتَّىٰ تَطْوِيَ الْقَلْبَ عَلَىٰ مَا طَوَاهُ" . وَثَرَهُ عَلَىٰ وَجْهِ آخَرٍ فَقَالَ : "إِذَا آخَرَفْتَ الْعَيْنَانَ فِي النَّظَرِ ، فَالْعَدْلُ ضَرْبٌ مِنَ الْمَهْدَرِ" . وَكَذَلِكَ قَوْلُ الْمَتْنِيِّ أَيْضًا :

إِنَّ الْقَتِيلَ مُضَرَّجًا بِدَمَوِعِهِ * مِثْلُ الْقَتِيلِ مُضَرَّجًا بِدِمَائِهِ

ثَرَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ فَقَالَ : "الْقَتِيلُ بِسَيْفِ الْعُيُونِ ، كَالْقَتِيلِ بِسَيْفِ الْمُنُونِ ؛ غَيْرَ أَنَّ ذَلِكَ لَا يُجْرَدُ مِنْ غَمْدِهِ ، وَلَا يُقَادُ صَاحِبَهُ بَعْمَدِهِ" . فَزَادَ عَلَىٰ الْمَعْنَىٰ الَّذِي تَضَمَّنَهُ الْبَيْتَ عَدَمَ الْقَوْدِ بِالْعَمْدِ . وَثَرَهُ عَلَىٰ وَجْهِ آخَرٍ فَقَالَ : "دَمُ الْمَحَبِّ وَدَمُ الْقَتِيلِ ، مِتَّفَقَانِ فِي التَّشْبِيهِ وَالتَّمثِيلِ ؛ وَلَا تَجِدُ بَيْنَهُمَا بَوْنًا ، سِوَىٰ أَنَّهُمَا يَخْتَلِفَانِ لَوْنًا" . قَالَ وَهَذَا أَحْسَنُ مِنَ الْأَوَّلِ .

وعلى هذا النهج يجري قول ابن الرومي في وصف الحديث :

وَحَدِيثُهَا السَّحْرُ الْحَلَالُ لَوْ أَنَّهُ * لَمْ يَجْنِ قَتْلَ الْمُسْلِمِ الْمُتَحَرِّزِ

ثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في وصف السيوف فقال : وكفى السيوف
نفرا أنها للجنة ظلال ، وإلى النصر مال ؛ وإذا كان من بيان الحديث سحر ، فإن بيان
حديثها عن كلمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلى وصف الأسننة فقال : حسب
السننة الأسننة شرفاً أن كشف خبايا القلوب يدم إلا منها ، وأن بث أسرار الضمائر
تكره روايته إلا عنها ؛ فمكرر حديثها في ذلك لا يفضى إلى ملال ، وإذا لم يكن
حسن حديثها الذي يسحر الأبواب مما يحل ، فليس في الحديث سحر حلال .
ثم نقله إلى وصف البلاغة فقال : البلاغة تسجر الأبواب حتى تخيل العرض جوهراً
وتحيل الهواء المدرك بالسمع لأنسجامة وعدوبته في الذوق نهراً ؛ لكنه سحر لم يجن
قتل المسلم المتحزز ، فيتأول في حله ، وإذا كان في الحديث ما هو عقلة للمستوفز ،
فهذا أنشودة نشاط البليغ وحل عقال عقله . ونقله إلى وصف الكتابة . فقال :
خطه شرك العقول ، وفننة تشغل المطمئن بملاحة المرئي المكتوب ، عن فصاحة
المسموع المقول ؛ ولو لم يكن البيان سحراً ، لما تجسدت منه في طرسه هذه الدرر ،
ولو لم يكن بعض السحر حلالاً ، لما أنجلي ظلام النقس عما يهدئ به من هذه
الأوضاع والقرر .

الحال الثاني — أن يكون البيت الشعر مما يضيق المجال فيه فيعسر على الناثر
تبديل ألفاظه ، وذلك قليل بالنسبة إلى ما يتسع في حله المجال . قال في "المثل السائر"
وسببه أن المعنى يمحصر في مقصد من المقاصد حتى لا يكاد يأتي إلا فداً . فن ذلك
قول أبي تمام الطائي من قصيدة .

تَرْدِي ثِيَابَ الْمَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى * بِهَا اللَّيْلُ إِلَّا وَهِيَ مِنْ سُنْدِسٍ خُضِرِ
فإن أبا تمام قصد المؤاخاة في ذكر لوني الثياب بين الأحمر والأخضر، وجاء
ذلك واقعا على المعنى الذى أرادته : من لون ثياب القتلى وثياب الجنة ؛ فإن ثياب
القتلى حُمْر وثياب الجنة خضر .

قال ابن الأثير : فإذا فُكَّ نظم هذا البيت وأريد صوغُه بغير لفظه لم يمكن ؛
فيجب على الناثر أن يحسن الصنعة في فكِّ نظامه ؛ لأنه يتصدى لشعره بالفاظه ؛ فإن
كان عنده قوَّةُ تصرُّفٍ ، وبَسْطَةُ عبارة ، فإنه يأتي به حسنا رائقا . وقد نثر هذا
البيت فقال : لم تكسه المنايا نَسْجَ شِفَارِهَا ، حتى كسته الجنة نَسْجَ شِعَارِهَا : فبدل
أحمر ثوبه بأخضره ، وكأس حَمَامِهِ بكأس كَوَثِرِهِ . قال : وهذا من الحُسن على
غاية يكون كمدُّ حُسودها ، من جملة شُهودها . ومن ذلك قول أبي الطيب :
وَكَانَ يَهَامِثُ الْجُنُونَ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُثَّتِ الْقَتْلَى عَلَيْهَا تَمَائِمٌ

فإن أبا الطيب بنى بيته على واقعة مخصوصة . وذلك أن حصنا من حصون
سيف الدولة قصده الروم ، وأنترعوه ، وحربوه ؛ فهد سيف الدولة إليه وأسترجه ،
وجدد بناءه ، وهزم الروم ، ونصب جملة من جُثَّتِ القتلى على السور ؛ فنظم أبو الطيب
في هذا قصيدا أوله .

* على قدر أهل العزم تأتي العزائم *

ولما انتهى إلى ذكر الحصن ، جاء بهذا البيت في جملة أبيات ، فشرح صورة
الحال ، في ارتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتلى عليه ؛ وأبرز ذلك في معنى التمثيل
بالجنون والتمايم . وهذا لا يمكن تبديل لفظه ؛ فيجب على الناثر حسن الصنعة
في حله ونثره . وقد نثره ابن الأثير أيضا فقال : سرى إلى حصن كذا مستعيذا منه
سبية نزعها العدو اختلاسا ، وأخذها محادعة لا أقتراسا ؛ فما نزلها حتى استقادها ؛

ولا نازلها حتى آستعدها؛ فكأتما كان بها جنون فبعث لها من عزائمها عزائم، وعلق عليها من رعوس القتلى تمام؛ ثم قال: وفي هذا من الحسن ما لا خفاء فيه. فمن شاء أن ينثر شعرا فليثر هكذا وإلا فليترك. ثم نقله إلى معنى آخر، وأبرزه في صورة أخرى فأضاف إليه البيت الذي قبله من القصيدة فصار على هذه الصورة.

بَنَاهَا فَأَعْلَى وَالْقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا * وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوَّلَهَا مُتَلَاطِمٌ
وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جُنْثِ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَامٌ

ثم نثرهما فقال: بناها والأسنة في بناها متخاصمه، وأمواج المنايا فوق أيدي البائين متلاطمه؛ وما أجلت الحرب عنها حتى زلزلت أقطارها برخص الجياد، وأصيبت بمثل الجنون فعلقت عليها تمام من الرعوس والأجساد. ولا شك أن الحرب تعرد عن عز جانبها، وتقول ألا هكذا فليكسب المجد كاسبه. قال وهذا أحسن من الأول وأتم معنى. ثم تصرف فيه بزيادة على هذا المعنى فقال: بناها، ودون ذلك البناء شوك الأسل، وطوفان المنايا الذي لا يقال ساوى منه إلى جبل؛ ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هدمت رعوس عن أعناق، وكأنما أصيبت بجنون فعلقت القتلى عليها مكان التمام أو شينت بعتل فعلقت مكان الأطواق. قال وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذي قبله.

قلت: وكما ينبغي الإكثار من حفظ الأشعار على ما تقدم ليوردها في خلال كلامه أستشهادا وتضمينا أو يحلها ويقتبس معانيها في نثره على ما تقدم بيانه كذلك ينبغي له معرفة المشاهير من الشعراء الطائري السمعة: من شعراء الجاهلية كأمرئ القيس ابن حجر، والنابغة الذبياني، وطرفة بن العبد، وأوس بن حجر، وزهير ابن أبي سلمي، والأفوه الأودي، والمتلمس، والأعشى، وعلقمة بن عبدة، وعمرو

(١) أى تفرّ وتجنُّ يقال عرّد الرجل عن قرنه إذا فرونكل . انظر اللسان .

أبن كلثوم، والمرقش، والنمر بن تَوْلِب، ومَهْلِيل، وطُفَيْل الغنَوِيّ، وعُرْوَة بن الورد،
وقيس بن الحَطِيم، والشَّمَّاح بن ضِرَار، وعنقرة، والسَّمُوْءَل بن عَادِيَا، ومن
جرى مجراهم .

ومن المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهليّة والإسلام جميعا : حَسَّان بن ثابت
رضى الله عنه، وليد بن أبي ربيعة، وكعب بن زُهَيْر، وزيد الخليل الطائي، والنابعة
الجعديّ، وأمّية بن أبي الصلت، والحطيئة، وعمرو بن معدى كرب، والزُّبَيْرَان
أبن بدر التميمي، والعبّاس بن مُرداس السَّامِيّ، والحَنَسَاء بنت عمرو بن الشَّريد،
ومن في معانهم .

ومن المولّدين، وهم الذين وُلِدوا من العرب في الإسلام : كالفَرَزْدَق، وجَرِير
والأخطل، والقَطَامِيّ، والكُمَيْت بن زيد الأَسَدِيّ، والمُساوِر بن هند، وعدى بن
الرَّقَاع، وكثير عَزّة، وعمر بن أبي ربيعة، والراعي، وأبن مُقْبِل، وأبن مُفَرِّغ، ولبلى
الأخيلية، ومن انحرف في سلوكهم .

ومن المُحدّثين، وهم الذين أتوا بعد المولّدين كإبراهيم بن هِرْمَة، وأبن أُدَيْنَة،
وأبن نُوَّاس، وأبن العتاهية، وطُفَيْل الككائيّ، وسلم الخاسر، وأبن مِيَادَة، وصالح
أبن عبد القدوس، وأبن عيينة، والعبّاس بن الأحنف، والعتّابيّ، وأشجع السَّلمِيّ،
والعكوك، وأبن أبي زُرعة الدَّمَشْقِيّ، وأبن الشَّيص، والحمدونيّ، والعُتْبِيّ، ودِعْبِل
الخُزَاعِيّ، وإسحاق بن إبراهيم الموصليّ، وإسحاق بن إسحاق الموصليّ، وأبن عليّ
البصير، وأبن تَمَّام الطائيّ، وأبن عبّادة البُحْتَرِيّ، وأبن الطيّب المنبجيّ، وأبن
بِسَّام، والسريّ الموصليّ، وأبن الفتح كُشَّاجِم، وأبن الفتح العبّسيّ، وأبن الفرج
الببغا، وأبن الساعاتي، وأبن قلاقيس، والواو الدَّمَشْقِيّ، والعفيف التماسانيّ، وأبنه،
وأبن سَنَّا الملك، وأبن شمس الخلافة، وأبن النبيه، والصفنيّ الحلّيّ ونحوهم .

ومعرفة الفرسان منهم : كأمريء القيس ، وخفاف بن نُدبة ، والزُّبرقان بن بدر وعنترة ، وعمرو بن معدى كرب ، ودريد بن الصِّمة .

ومن كان منهم راجلا يسعى على رجليه كسليك بن السلكة ، وابن براق ، وتابط شراً ، والشنفرى وغيرهم .

ومن تقدّم منهم في نوع من الشعر ، كمعرفة طفيل الغنوى بوصف الخيل ، وأمية بن أبي الصلت في أمر الآخرة وذكر الحرب ، وعمر بن أبي ربيعة في وصف النساء ، وعُتبية بن مرداس بمرآك الإبل ، وكثير في الأمثال ، والفرزدق في الأخبار ، وجرير في المعاني .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظاً : كالأغلب الشاعر : قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة ، ومعرفة أى القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كهذيل ؛ فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعراً مُقلِّقاً كلهم يعدّو على رجليه ، ليس فيهم فارس ؛ وأى قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ : كشيّان ، وكلب ؛ فقد قيل إنه ليس في الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكلب في الجاهلية شاعر قديم على أنها مثل شيّان أربع مرات .

وقد ذكر ابن رشيقي في "عمدته" عن عبيد الله بن سلام الجحفي وغيره : أن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة فكان منهم مهلهل بن ربيعة ، وهو خال أمريء القيس بن حُجر ، ويقال إنه أول من قصّد القصائد والمُرَقَّشان الأكبر والأصغر ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن قميّة ، والحارث بن حلزة ، والمتلمس ، والأعشى ، والمسئب بن علس وغيرهم ؛ ثم تحوّل الشعر إلى قيس فكان منهم النابغتان الدُّبَيّانيّ والجمعدى ، وزهير بن أبي سُهمى ، وأبنة كعب ، ولييد ، والحطيئة ، والشماخ . ثم استقرّ الشعر في تميم فكان منهم أوس بن حُجر ، ولم يتقدمه أحد حتى كان النابغة زهير فأحمله .

قلت : والمراد أن الشعر غلب في هذه القبائل وظهر فيها ، وكان فيها الشعراء المحيدون ؛ وإلا فالشعر موجود في قبائل العرب قبل ذلك ، كحِمير وكَهْلان من اليمن ؛ بل في عادٍ وثمودٍ على ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك ، أستعان به في المساواة بمن شاء منهم في التقریظات والتفضيل عليه كما كتبت في تقریظ شاعر : فاهرو القيس يفرق في مقياس معانيه ، والنابغة الدبباني يقصر عن أن يبلغ مدى شأوه أو يدانيه ، وزهير يقتطف زهرات البلاغة من أفانينه ، وأوس بن حجر ينسج على منواله ويأتم بقوانينه ، وطقيل الغنوي يتطقل على موائد شعره ، وطرفة بن العبد يقصر عنه في شيوخ ذكره ، والأعشى يعشو إلى ضوء ناره ، وعمرو بن كلثوم يسعى إلى بابه ويقف بفناء داره ، وكثير في أمثاله لا يعد من أمثاله ، وجرير في مفاخره يتمسك من الفخار بأذياله ، والفرزدق في أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله ؛ فلورآه عبد الملك بن مروان لاختاره على الأخطل ، أو اجتمع مع أبي نواس لدى الأمين لقال هذا هو المقدم الأفضل ؛ أو أدركه أبو تمام ، لأعترف له بالتمام ؛ أو بصره أبو عبادة لقال أنا له عبد و غلام ؛ أو عاصره المتنبي لأعترف بفضلته ، أو ابن الساعاتي لقال لا يأتي الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى .

وكذلك ينبغي أن يعرف مصطلح أهل العروض الذي هو ميزان الشعر مثل الوتد ، والسبب ، والفاصلة ، والعروض ، والضرب ؛ وأسماء البحور : من الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وأخواتها ؛ وألقاب الزحاف : كالتخين ، والتخيل ، والقبض وغيرها : ليدخلها تضاعيف كلامه عند احتياجه إلى ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآناري في أول ألفيته في العروض .

الحمد لله المليك الغافر * ذى الطول والفضل المديد الوافر
 سبحانه ماذا يقول البارع * فى كامل ليس له مضارع
 ورزقه فى عدله بسيط * وعلمه بخلقه محيط
 وما يخطر فى هذا السلك من الكلام المنشور أيضا .

النوع الحادى عشر (الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(فى وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى النظر فى كتب الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك : كأمثال الميدانى ؛ والمفضل بن سلمة الضبى ، وحمزة الأصبهاني ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولدين الواردة فى أشعارهم : كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوهما ، إلى غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم : كأبي العتاهية ، وأبي تمام ، والمنتبى ؛ فحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدثين حكم أمثال العرب الشعرية ؛ أما فى شعر المولدين فلجريهم على أسلوب العرب ، وركوب جادتهم ؛ وأما المحدثين فللطافة مأخذهم ، وأستطراف ما يأتون به مما يجرى مجرى النثر والنظم : من الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ؛ فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنى عليه ، وذلك أن المثل له مقدمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ؛ وهذه

(١) لعل لفظ كتب زائد من قلم الناصح .

الألفاظ الواردة في المثل دالة عليها، معبرة عن المراد بها، بأخصر لفظ وأوجزه، ولولا تلك المقدمات المعلومة، والأسباب المعروفة، لما فهم من هذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطولات؛ وأما الأمثال الواردة نثراً، فإنها كلمات مختصرة، تورد للدلالة على أمور كناية مبسطة، كما تقدمت الإشارة إليه، وليس في كلامهم أوجز منها. ولما كانت الأمثال كالرموز والإشارة التي يلوح بها على المعاني تلويحاً، صارت من أوجز الكلام وأكثره اختصاراً. وحيث كانت بهذه المكانة لا ينبغي الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هي وشي الكلام، وجوهر اللفظ، وحل المعاني، والتي تخيرتها العرب، وقدمتها العجم، ونطق بها في كل زمان على كل لسان، فهي أبقى من الشعر، وأشرف من الخطابة، لم يسر شيء كسيرها، ولا عمّ عمومها، حتى قالوا: أسير من مثل، قال الشاعر:

ما أنت إلا مثل سائر * يعرفه الجاهل والخبير

وقد ضرب الله تعالى الأمثال في كتابه فقال (ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء)، وقال تعالى (ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه مناً رزقاً حسناً) الآية، وقال (وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أيمناً يوجهه لآياتٍ يخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل) الآية، وقال (وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة) الآية وقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) إلى غير ذلك من آي القرآن.

وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمثال فقال "ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى رأس الصراط داع يقول ادخلوا الصراط ولا تعرجوا: فالصراط الإسلام، والستور

حدود الله ، والأبواب محارم الله ، والداعي القراءن ، إلى غير ذلك من الأمثال التي ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام على أمثال القراءن وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ما تقدم من الكلام على القراءن الكريم والأخبار .

ثم هي على ضربين : قريب الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين الناس ؛ وبعيد الفهم لخبائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثير الدوران على الألسنة مثل قولهم ، ”عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرْيَ“ ، وهو مثل يُضْرَبُ للترغيب في السير في الليل ، والحث عليه ؛ وأول من أرسله مثلاً خالد بن الوليد رضى الله عنه ، قاله في صبح ليلة قطع فيها مفازة كانت في طريقه من العراق إلى الشام ؛ وقولهم ”أَسَاءَ سَمِعًا فَأَسَاءَ جَابَةً“ . وأول من قال ذلك سهيل بن عمرو وكان تزوج صفيّة بنت أبي جهل فولدت له أبنه أنسا ، فرآه الأخنس بن شريق الثقفي معه فقال من هذا ؟ فقال سهيل أبني — فقال الأخنس حيّاك الله يابني ! أين أمك ؟ فقال : لا والله ما أمي ثم ، أنطلقت إلى بيت أم حنظلة تطحن دقيقا — فقال أبوه أساء سمعا فأساء جابة — فلما رجعا قال أبوه فضحني أبنك اليوم قال كذا وكذا — فقالت إنما أبني صبي وأنت لا تجبه — فقال ”أشبه أمرؤ بعض بزّه“ فأرسلها مثلاً . والبعيد من الفهم ، مثل قولهم ”إِنْ يَبِغْ عَلَيْكَ قَوْمُكَ لَا يَبِغْ عَلَيْكَ الْقَمَرُ“ . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عنادا . والأصل في ذلك كما ذكره المفضل بن سلمة الضبي أن بنى ثعلبة بن سعد بن ضبة في الجاهلية تراهنوا على الشمس ، فقالت طائفة : تَطْلُعُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يُرَى ، وقالت طائفة : يَغِيبُ الْقَمَرُ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ ، فتراضوا برجل جعلوه بينهم حكما ، فقال واحد منهم : إن قومي يبغون على ، فقال الحكم إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ، بقرت مثلاً . ومن المعلوم أن قول القائل إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر ، إذا أخذ على حقيقته

من غير نظر إلى القرائن المنوطة به، والأسباب التي قيل من أجلها، لا يعطى من المعنى ما قد أعطاه المثل؛ بل ما كان يفهم من هذا القول معنى يفيد لأن البنى هو الظلم، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا، فكان يصير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر — وهو كلام مختل المعنى ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس في تصنيف كتب الأمثال، فمن ذلك الأمثال لأبي عبيد، وهو مرتب على ترتيب الوقائع التي تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميداني، وهي مرتبة على حروف المعجم وفي آخرها جملة من أيام حروب العرب، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة في هذا الباب : كأمثال الضبي، والقمي، وغيرها .

وأما الأمثال الواردة نظماً، فهي كلمات أستحسننت في الشعر . وطابقت وقائع عامة جارية بين الناس، فتداولها الناس، وأجروها مجرى الأمثال النثرية . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يتمثل بقول طرفة .

* وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ *

وهو نصف بيت مجموعه :

سُبْدِي لَكَ الْيَوْمَ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودِ

ويروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخرجه عن الوزن، ويُجيله عن طريق الشعر فكان يقول : ” وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزُودِ بِالْأَخْبَارِ ” فرارا من قول الشعر المنزه عنه مقامه العلي، وشرفه الرفيع، لكن ثبت في الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم قال : ” أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةٌ لِيَدِ :

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ * ”

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم ، إنما هو نظم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك في كتابي المسمى "بالغيوث الهوامع ، في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع" في الفقه فراجعه هناك ، ويروى أن عمر رضى الله عنه تمثل بقول النابغة :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبِقٍ أَحَا لَا تَلْمُهُ * عَلَى شَعَثِ أَى الرَّجَالِ الْمُهَدَّبِ

ثم قال : لمن هذا؟ فقيل له للنابغة ، فقال : ذاك أشعر شعرائكم ؛ والمثل السائر فيه في قوله : أَى الرَّجَالِ الْمُهَدَّبِ ؛ وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثير ، ولذلك وقع في أمثال المحدثين الواردة في أشعارهم ما يستظرف ويستحلى كقول القاضي الأترجاني :

تَأْمَلُ مِنْهُ تَحْتَ الصُّدُغِ خَالًا * لِتَعْلَمَ كَمْ خَبَايَا فِي الزَّوَايَا

يشير بذلك إلى المثل الجارى على ألسنة الناس في قولهم "في الزوايا خبايا" وهو من الأمثلة المستفيضة على ألسنة العامة الشائعة بينهم ، وقول ابن عبد ربه .

قَالُوا شَبَابَكَ قَدْ وَثَى فُقِلْتُ لَهُمْ : * هَلْ مِنْ جَدِيدٍ عَلَى كَرِّ الْجَدِيدِينَ ؟

صَلِّ مَنْ هَوَيْتَ وَإِنْ أَبَدَى مُعَاتَبَةً * فَأَطِيبِ الْعَيْشَ وَصَلِّ بَيْنَ الْفَيْنِ !

وَأَقْطَعْ حَبَائِلَ خَدْنٍ لَا تَلَامُهُ * فُرُبَمَا ضَاقَتِ الدُّنْيَا بِإِثْنَيْنِ .

وقول الآخر :

وَعَادَ مَنْ أَهْوَاهُ بَعْدَ الْقَلْبِ * شَقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ

وَأَصْبَحَ الدَّاخِلُ مَا بَيْنَنَا * كَسَا قِطْبَيْنِ فِرَاشَيْنِ

قَدْ أَلْبَسَ الْبَغْضَاءَ مِنْ ذَا وَذَا * لَا يَصْلُحُ الْغَمْدُ لِسَيْفَيْنِ

مَا بَالُ مَنْ لَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أَنْفَايَيْنِ عَيْنَيْنِ ؟

قال الأصمعي : ولم أجد في شعر شاعر بيتا أوله مثل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيتُ الخطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ

وبيتا امرئ القيس :

وَأَفْلَتَهُنَّ عِلْبَاءُ جَرِيضًا * وَلَوْ أَدْرَكْتُهُ صَفِرَ الْوِطَابُ

وَقَاهُمْ جَدُّهُمْ بَنِي أَبِيهِمْ * وَبِالْأَشْقِينِ مَا كَانَ الْعِقَابُ

قال صاحب القمد : "ومثل هذا كثير في القديم والحديث ، ولا أدري كيف أغفل القديم منه الأصمعي ، ومنه

* سَتَيْدِي لَكَ الْيَأْمُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدم؟ وهو من أشرف الأبيات وأعظمها بابا .

وأما الأمثال الموضوعة على ألسنة الحيوانات ، فكما روى أن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، حين رأى خلاف أصحابه وتخاذلهم ، تمثل بقولهم "إِنَّمَا أَكَلْتُ يَوْمَ أَكَلِ الثَّورُ الْأَبْيَضُ" ، يعني إنما خذلت يوم خذلت عثمان ؛ وحكاية هذا المثل أنهم قالوا : أصطحب أسد ، وثور أحمر ، وثور أبيض ، وثور أسود في أجمه ؛ فقال الأسد للأحمر والأسود : هذا الأبيض يفضحنا بلونه ، ويطمع فينا من يقصدنا ! فلو تركتاني آكله ، أمنا فضيحة لونه ؛ فأذنا له في ذلك فأكله ؛ ثم قال للأحمر : هذا الأسود يخالف لوني ولونك ولو بقيت أنا وأنت ، ظنك من يراك أسدا مثل فدعني آكله ، فسكت عنه فأكله ؛ ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت ، وأريد أن آكلك ! فقال إن كنت فاعلا ولا بد ، فدعني أصعد تلك الهضبة ، وأصيح ثلاثة أصوات ، فقال : أفعل ماتريد ، فصعد وصاح ثلاثة أصوات : "إلا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض" ، فحرت مثلا .

ويحكى أن عبد الملك بن مروان حج وقدم المدينة ، فقال على المنبر : يا أهل المدينة إنكم قُتلَ عثمانُ بين أظهركم فنحن لآنحِبكم ! وأرسلنا مسَلمة بن عُقبة فقتلكم في وقعة الحرة ، فأنتم لآنحِبُوننا ، فمثلنا ومثلكم كما قال النابغة :

كَمَا لَقِيتُ ذَاتَ الصَّفَامِينَ حَلِيفِهَا * وَكَانَتْ تُرِيهِ الْمَالَ غِيَا وَظَاهِرَهُ
فَلَمَّا رَأَى أَنْ قَدْ تَمَّ مَالُهُ * وَأَثَلُ مَوْجُودًا وَسَدَّ مَقَاوِرَهُ
أَكْبَّ عَلَى فَاسٍ يَحُدُّ غُرَابَهَا * مُدَّ كَرَّةً مِنَ الْمَعَاوِلِ بَاتِرَهُ
فَلَمَّا وَقَاهَا اللَّهُ ضَرْبَةَ فَاؤِسِهِ * وَلِلَّهِ عَيْنٌ لَا تُغْمَضُ نَاطِرَهُ
فَقَالَ تَعَالَى تَجَعَّلِ اللَّهُ بَيْنَنَا * عَلَى مَالِنَا أَوْ تُحْزِي لِي آخِرَهُ
فَقَالَتْ يَمِينَ اللَّهِ أَفْعَلُ لِأَنِّي * رَأَيْتُكَ سُخْرِيًّا يَمِينُكَ فَاجِرَهُ
أَبِي لِي قَبْرٌ لَا يَزَالُ مُقَابِلِي * وَضَرْبُهُ فَاؤِسٍ فَوْقَ رَأْسِي فَاقِرَهُ

وهذه الحكاية مشهورة في الموضوعات على ألسن الحيوان؛ وهي أن أخوين هبطا بغنمهما واديا يريغان فيه ، فخرجت حية من تحت الصفا وفي فيها دينار فألقته إليهما وأقامت كذلك أياما؛ فقال أحدهما لابده من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز! ففناه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس في يده ، فشجها وشدت عليه فقتلته ، ودفنه أخوه مقابليها؛ فلما خرجت قال لها هل لك أن نتعاهد على المودة وعدم الأذية ، وتعطيني ذلك الدينار كل يوم؟ فقالت : لا! - قال ولم؟ - قالت لأنك كلما نظرت إلى قبر أخيك لاتصفولي ، وكلما ذكرت الشجة التي في رأسي لأصفوك .

المقصود الثاني

(في كيفية استعمال الأمثال في الكتابة)

إذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها ، أنقادت إليه معانيها ، وسيقت إليه ألفاظها ، في وقت الاحتياج إلى نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها في مكانها ، وأستشهد بها في موضعها . والطريق في أستعمالها في النثر ، كما في حل الأشعار وأستعمالها ، إلا أن الأمثال لا يجوز تبادل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها : لأنها بذلك قد عُرِفَتْ وأشتهرت .

فما أستعمله أهل الصناعة من الأمثال المثورة وأوردوه في كلامهم قول المتر الشهابي "أبن فضل الله في "التعريف" في وصية أمير مكة المعظمة "ولأنه أحقُّ بنى الزهراء بما أبقته له آباؤه ، وألقته إليه من حديث قصى جدّه الأقصى أبناءه ؛ وهو أجدر منّ طهر هذا المسجد من أشياء تنزهه أن يلحق به فحش عايبها ، وسنعا هو يعرف كيف يتبعها "وأهل مكة أخبر بشعابها" ، فاستعمل المثل السائر في قوله : وأهل مكة أخبر بشعابها ؛ وقد وقع هذا المثل في كلامه أحسن موقع ، وجاء على أجمال نظام : لأنه قد أتى به في مكانه اللائق به ، ومحلّه الخصوص بوصفه ؛ وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله فأستعمله في غير هذا المعنى ، بقاء منحنطاً عن هذه الدرجة ، وقاصراً عن رتبها ، فقال في وصية خطيب ، : ووصايا هذه الرتبة متشعبة ، وهو كأهل مكة أخبر بشعابها ، وأحوالها مترتبة ، وهو على كل حال أدرب وأدرى بها ؛ إلا أنه قد ظُرف بذكر الجناس الاشتقائي في قوله متشعبة مع قوله بشعابها .

ومن ذلك قول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في خطبة تقليد بفتوة عن ملك : "ونشهد أن محمدا عبده ورسوله" ، الذي نُورُ شريعته جليّ ، وجاء شفاعته مليّ ، وبسيفه وبه جاء النصر والشرف من آتائنا إليه ، فلا سيف إلا ذو الفقار ولا قتيّ إلا عليّ . وهذا عليّ ما هو شائع على الألسنة ، وأن ذلك قيل في يوم ضرب عليّ رضي عنه كافراً أسمه مَرَحَب ، فسُقّ البيضة على رأسه نصفين ، وتمادى السيف فيه وفي جواده فسقهُما كذلك وخلص السيف بينهما فغاص في الأرض شبرين ؛ إلا أن المعروف عند المحذنين وأصحاب السير أن ذا الفقار أسم سيف للنبي صلى الله عليه

وسلم ، أصطفاه من خير لنفسه حين أصطفى صفية بنت حبي بن أخطب رضى الله عنها ، ولعله صلى الله عليه وسلم ، أعطاه علياً رضى الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته في المفاخرة بين السيف والقلم في الكلام على لسان القلم : وهو "أنا جذيلها المحكك ، وعديقها المرجب ؛ وكريمها المجل ، وعلمها المهذب" . فالقرينة الأولى فيها مثلان ، وأول من قالها الحباب بن المنذر الأنصارى يوم السقيفة ، حين أجمع الأنصار إلى سعد بن عبادة ، يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم في سقيفة بنى ساعدة ؛ وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر ، وأبو عبيدة ابن الجراح ؛ وقال الحباب بن المنذر : منّا أمير ومنكم أمير ، إلى أن كان من كلامه هذان المثالان (١) . والجذيل تصغير جذل ، واحد الأجدال ؛ وهى أصول الشجر العظام ؛ وكانت العرب إذا جربت الإبل نصبت لها جذلاً فى باطن الوادى تحتك فيه ، فلذلك قال جذيلها المحكك ، أراد أنه يستشفى برأيه ، كما تستشفى الإبل بالحك فى ذلك الجذل ؛ والعذق بفتح العين النخلة بجمعها ؛ وكان من عادتهم أن النخلة الكريمة يبنى حولها بناء يمنعها من السقوط ، فذلك هو الترجيب ؛ أراد أنه كريم فى قومه عزيز عليهم . وما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم أيضاً على لسان السيف وهو : "فالشمس من شعاعى فى نجل ، والليل من ضوى فى وجل ؛ وما أسرع فى طلب نار الإقيل فات ما ذبح ، وسبق السيف العذل" . ففى القرينة الأخيرة مثلان أحدهما "فات ما ذبح" وهو مثل يضرب لمن طلب الشىء بعد قواته ، وأصله أن بعض الملوك رأى مع أعرابى بازياً ، فأعجبه فأرسل فى طلبه قاصداً ، فأتى الأعرابى ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فدبح البازى وطبخه وقدمه إليه ، غير عالم بقصده ؛ فلما فرغ من أكله ذكر للأعرابى

(١) فى الأصل هذين المثالين ولعله سبق قلم من النسخ .

أمرَ البازي وما كان من طلب الملك له ، فقال ”فات ماذبح“ إنك أتيتني ولم يكن عندي ما أضيفك به ، فذبحت البازي وطبخته ؛ وهو الذي قدمته إليك .
والمثل الثاني ”سَبَقَ السَّيْفُ العَدْلَ“ وهو مثل لمن يلوم على فعل شيء بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حُلَّ من الأمثال الواردة نظماً، وأستعمل في النثر، قول القاضي شهاب الدين ابن فضل الله في ”التعريف“ في وصية أمير مكة المعظمة أيضاً في الوصية على وفود الحجيج : ”وكل هؤلاء إنما يأتون في ذِمَامِ الله بيته الذي من دخله كان آمناً، وإلى محل ابن بنت نبيّه الذي يلزمه من طريق برّ الضيف ما أخذ لهم، وإن لم يكن ضامناً ؛ فليأخذ بمن أطاع من عصي ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد، فإن العبد لا يردعه إلا العصا ، فقله فان العبد لا يردعه إلا العصا يشير به إلى قول ابن دريد في مقصورته .

وَاللُّومُ لِلْحُرِّ مُقِيمٌ رَادِعٌ * وَالْعَبْدُ لَا يَرُدُّهُ إِلَّا الْعَصَا

وقد أشتهر النصف الثاني من هذا البيت حتى جرى مجرى المثل ولعله كان مثلاً سائراً قبل أن ينظمه ابن دريد .

ومنه قول الشيخ جمال الدين بن نباتة رحمه الله من توقيع بنظر مدرسة بعد أن قدم أن أهلها رفعوا قِصصهم في طلب ذلك الناظر : ”وكيف لا وهو نعم الناظرُ والإنسان، وفي مصالح القول والعمل ذو اليمين واللِّسان، وذو العزائم الذي تقيدتُ في حُبِّه الرُّتَبُ ومن وجد الإحسان“ يريد البيت المشهور :

* وَمَنْ وَجَدَ الإِحْسَانَ قَيْدًا تَقِيدًا *

وقد أتى فيه بالألف كِتْفَاءً، فزاد في كلامه حُسناً وطلاوة .

وأعلى منه وأوقع في النفوس قوله بعد ذلك في التوقيع المذكور ”فاقتضى علو الرأي أن يجاب في طلبه إليهم سؤالُ القوم، وأن يتصل أمسُ الإقبال باليوم؛ وأن

يعرب ، بن يسجُب ، بن نابت ، بن إسماعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السلام
 ابن تارح ، وهو آزر ، بن أرغو ، بن فالغ ، بن عابر ، بن أرفخشذ ، بن سام ، بن نوح عليه
 السلام ، ابن يرد ، بن مهليل ، بن قين ، بن تاتش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .
 قال النووي : ”والإتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وليس فيما بعده
 إلى آدم طريق صحيح“ وفيما بعد عدنان ، إلى إسماعيل عليه السلام خلاف كثير ،
 قال القضاة في ”عيون المعارف في أحكام الخلائف“ وقد روى أن النبي صلى الله
 عليه وسلم قال ”لأنجأوزوا معد بن عدنان ، كذب النسأبون ، ثم قرأ وقرونا بين ذلك
 كثيراً ولو شاء أن يعلمه لعلمه“ قال : والصحيح أنه من قول ابن مسعود رضي
 الله عنه .

المقصد الثاني

(في أنساب العرب ؛ وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(في أمور تجب معرفتها قبل الخوض في النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك من يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهري ”العرب
 جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سُكَّان البادية ، والنسبة إلى العرب
 عربى ، وإلى الأعراب أعرابى“ والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع ، وأن
 الأعراب نوع من العرب ، ثم اتفقوا على تنويع العرب إلى نوعين عاربة ومُسْتَعْرَبَة .
 فالعاربة هم العرب الأول الذين فهمهم الله اللغة العربية ابتداءً فتكلموا بها . قال

(١) في القاموس قينان بن أنوش بن شيث .

الجوهري "وقد يقال فيهم العرب العرباء". والمستعربة هم الداخلون في العربية بعد العجمية. قال الجوهري "وربما قيل لهم المتعربة". وقد اختلف في العاربة والمستعربة فذهب ابن إسحاق والطبري إلى أن العاربة هي عاد وثمود وطسم وجديس وأميم وعييل والعمالة وعبد ضخم وجرهم الأولى، ومن في معناهم. والمستعربة بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابرو إسماعيل كانت سريانية أو عبرانية، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان في زمانهم كعاد ونحوهم، وتعلم إسماعيل العربية من جرهم من بني قحطان النازلين على إسماعيل وأمه بمكة. وذهب آخرون منهم المؤيد صاحب حماه إلى أن بنى قحطان هم العاربة، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط، والذي رجحه صاحب العبر الأول.

ثم قد قسم المؤرخون العرب أيضا إلى بائدة وغيرها، فالبائدة هم الذين بادوا ودرست آثارهم كعاد، وثمود، وطسم، وجديس، وغير البائدة هم الباقون في القرون المتأخرة بعد ذلك من القحطانية: كطي، ولحم، وجدام ونحوهم، ومن العدنانية كقزارة وسليم وقريش، ومن في معناهم. ثم قد عدّ الماوردى وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات:

الطبقة الأولى — الشعب بفتح الشين وهو النسب الأبعد الذي تُنسب إليه القبائل كهذنان، ويجمع على شعوب، وسمى شعبا لأن القبائل تنتسب منه.

الطبقة الثانية — القبيلة، وهي ما أنقسم فيه الشعب كربيعة ومضر، وتجمع على قبائل، وسميت قبيلة لتقابل الأنساب فيها، وربما سميت القبائل جماع.

الطبقة الثالثة عد العمارة بكسر العين، وهي ما أنقسم فيه أنساب القبيلة كقريش وكنانة وتجمع على عمائر وعمارات.

الطبقة الرابعة - البطن وهي ما أنقسم فيه أنساب العِمارة كبنى عبد مناف ،
وبنى مخزوم وتجمع على بطون وأبطن .

الطبقة الخامسة - الفخذ ، وهي ما أنقسم فيه أنساب البطن : كبنى هاشم ،
وبنى أمية ، وتجمع على أخاخذ .

الطبقة السادسة - الفصيلة - بالصاد المهملة - وهي ما أنقسم فيه أنساب
الفخذ كبنى العباس وبنى أبي طالب ، وتجمع على فصائل ؛ فالفخذ يجمع الفصائل ،
والبطن يجمع الأخاخذ ، والعمارة تجمع البطون ، والقبيلة تجمع العمار ، والشعب يجمع
القبائل . قال النووي وزاد بعضهم العشيرة قبل الفصيلة ، قال الجوهري "وعشيرة
الرجل رهطه الأذنون" وحكى أبو عبيدة عن ابن الكلبي عن أبيه تقديم الشعب
على القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم الفخذ ، فأقام الفصيلة مقام العمارة في ذكرها
بعد القبيلة ، والعمارة مقام الفصيلة في ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور على
الألسنة من الطبقات الست المذكورة القبيلة ، ثم البطن ، وقيل أن تذكر العمارة
والفخذ والفصيلة ، وربما عبروا عن كل من الطبقات الست بالحى ، إما بالعموم مثل
أن يقال حى من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حى من بنى فلان .

ومما يجب على الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور :

الأول - قال الماوردى إذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبا ، والعمائر
قبائل ؛ يعنى وتصير البطون عمائر ، والأخاخذ بطونا ، والفصائل أخاذا ، والحادث من
النسب بعد ذلك فصائل .

الثانى - قد ذكر الجوهري أن القبيلة هم بنو أب واحد ، وقال ابن حزم جميع
قبائل العرب راجعة إلى أب واحد سوى ثلاث قبائل : وهى تنوخ ، والعنق ، وغسان

فإن كل قبيلة منهم مجتمعة من عدة بطون ، وذلك أن تتوخا أسم لعشر قبائل
اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسُموا بتَنُوخ أخذوا من التَنُوخ وهو المَقَام ، والعُتق جمع
اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم فظفر بهم فأعتقهم فسُموا بذلك . وغَسَّان
عدة بطون من الأزدي نزلوا على ماء يسمى غَسَّان فسُموا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من
قومه بأن يُشهر اسمه بهم لرياسة ، أو شجاعة ، أو كثرة ولد ، أو غيره فنسب بنوه
وسائر أعقابه إليه ، وربما أنضم إلى النسبة إليه غير أعقابه من عشيرته كإخوته
ونحوهم ، فيقال فلان الطائي ، فإذا أتى من عقبه من أشهر منهم أيضا بسبب من
الأسباب المتقدمة نُسبت إليه بنوه ، وجعلت قبيلة ثانية ؛ فإذا أشتمل النسب على
طبقتين فأكثر كهاشم ، وقريش ، ومُضَر ، وعدنان ، جاز لمن في الدرجة الأخيرة من
النسب أن يُنسب إلى الجميع : فيجوز لبني هاشم أن يُنسبوا إلى هاشم ، وإلى
قريش ، وإلى مضر ، وإلى عدنان : فيقال في أحدهم الهاشمي ، والقُرشي ، والمُضري ،
والعدناني ؛ بل قال الجوهري : إن النسبة إلى الأعلى تعني عن النسبة إلى الأسفل
فإذا قلت في النسبة إلى كلب بن وَرَةَ الكَلبيّ أستغنيت أن تنسبه إلى شيء من
أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع في النسب بين الطبقة العليا والطبقة السفلى .
ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى : مثل أن يقال القرشي العدويّ وبعضهم
يرى تقديم السفلى على العليا ، فيقال العدويّ القرشيّ .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والمؤالاة فينسب إليهم : فيقال
فلان حليف بني فلان أو مولاهم .

الخامس — إذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى ، جاز أن ينسب

إلى قبيلته الأولى، وأن ينسب إلى القبيلة الثانية التي دخل فيها، وأن ينسب إليهما جميعاً مثل أن يقال التيميّ ثم الوائليّ، أو الوائليّ ثم التيميّ وما أشبه ذلك .

السادس - القبائل في الغالب تسمى باسم أبي القبيلة : كربيعة ومُضَرَ، والأوس والخزرج، وما أشبه ذلك . وقد تسمى القبيلة باسم الأم : كخندف، وبجيلة ونحوهما؛ وقد تسمى باسم خاصة خَصَّتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب على القبيلة لحدوث سبب كغَسَّانَ ، حيث نزلوا على ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع - أسماء القبائل في اصطلاح العرب على خمسة أضرب :

أولها - أن يطلق على القبيلة لفظ الأب كعاد، وشمود، ومدّين، ومن شاكلهم؛ وبذلك ورد القرءان الكريم (وإلى عادٍ . وإلى ثمودَ . وإلى مدّينَ) يريد بني عاد، وبني ثمود، وبني مدّين، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك في الشعوب والقبائل العظام بخلاف البطون والأخفاذ .

وثانيها - أن يطلق على القبيلة لفظ البنوة : فيقال بنو فلان ؛ وأكثر ما يكون ذلك في البطون والأخفاذ .

وثالثها - أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيين والجعافرة ونحوهما؛ وأكثر ما يكون ذلك في المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها - أن يعبر عنها بأل فلان : كآل ربيعة، وآل فضل، وآل مُرّة، وآل على، وما أشبه ذلك؛ وأكثر ما يكون ذلك في الأزمنة المتأخرة، لاسيما في عرب الشام في زماننا . والمراد بالآل الأهل .

وخامسها — أن يعبر عنها بأولاد فلان؛ ولا يوجد ذلك إلا في المتأخرين من
أنحاذ العرب على قلة : كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قريش ونحو ذلك .

الثامن — أسماء غالب العرب منقولة عمّا يدور في خزّانة خيالهم مما يُخالطونه
ويُجاورونه ؛ إما من الحيوان المفترس كأسد ، وتمير ؛ وإما من النبات كنبت ،
وحنظلّة ؛ وإما من الحشرات كحية ، وحش ؛ وإما من أجزاء الأرض كنهْر، وصخر
ونحو ذلك .

التاسع — الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء : ككلب ، وحنظلّة ،
ومرّة ، وضرار ، وحرب ، وما أشبه ذلك ؛ وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء : كفلاح
وتجّاح ، ونحوهما . والمعنى في ذلك ما حكى أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي^(١) : لم تُسمّون
أبناءكم بِشّر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق وربّاح ؟
فقال : إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (يريد أن الأبناء معدّة للأعداء
فاختاروا لهم شر الأسماء ، والعبيد معدّة لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان في القبيلة آسمان متوافقان : كالحارث والحارث ، وأحدهما
من ولد الآخر أو بعده في الوجود عبّروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر ، وعن
الولد أو المتأخر منهما بالأصغر ؛ وربما وقع ذلك في الأخوين إذا كان أحدهما أكبر
من الآخر .

المهيع الثاني

(في معرفة تفاصيل أنساب العرب)

وأعلم أن العرب على قسمين :

(١) أهمله في الأصل وصوابه الإجماع .

القسم الأول

(العرب البائدة)

وهم الذين بادؤا ، ودرست آثارهم ، وأتقطعت تفاصيل أخبارهم إلا القليل ؛
والمشهور منهم قبائل :

القبيلة الأولى — عاد ؛ وهم بنو عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه
السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعمان : من البحرين إلى حضرموت
والشحر ؛ وهم الذين بعث الله تعالى إليهم هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم
بالريح كما ورد به القرآن الكريم .

القبيلة الثانية — ثمود، وهم بنو ثمود بن جاثر، (ويقال كاثر بالكاف بدل الجيم)
أبن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكانت منازلهم بالجحر ووادى القرى، بين
الحجاز والشام ؛ وكانوا ينيحون بيوتهم من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله
تعالى إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا، فأهلكهم الله بصيحة من السماء كما ورد به
القرآن الكريم .

القبيلة الثالثة — العماقة، وهم بنو عمليق، (ويقال عملاق) بن لاوذ بن إرم بن
سام بن نوح ؛ وهم أمة عظيمة يضرب بهم المثل في الطول والجثمان . قال الطبري
وتفرقت منهم أمم في البلاد، فكان منهم أهل عمان، والبحرين، والحجاز، وملوك
العراق، والجزيرة، وجبارة الشام، وفراعنة مصر .

القبيلة الرابعة — طسم ، وهم بنو طسم . قال ابن الكلبي وهم بنو طسم
أبن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام . وذكر الجوهري أنهم من عاد ،

قال : وكانت منازلهم الأحقاف باليمن . وذكروا في "العبر" أن ديارهم كانت باليمامة ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جدس الآتي ذكرهم .

القبيلة الخامسة — جدس وهم بنو جدس بن إرم بن سام بن نوح . وقال الطبري جدس بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت مساكنهم بجوار طسم المقدم ذكرهم ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عبد ضخم ، وهم بنو عبد ضخم بن إرم بن سام بن نوح . قال في "العبر" : كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال : ويقال إنهم أول من كتب بالخط العربي .

القبيلة السابعة — جرهم الأولى . قال ابن سعيد : وهم قبيلة من العرب كانوا على عهد عاد فبادوا .

القبيلة الثامنة — مدين ، وهم بنو مدين بن إبراهيم عليه السلام ؛ وهم أمة كبيرة قبائل وشعوب ؛ وكانت ديارهم ديار عاد وأرض معان من أطراف الشام مما يلي الحجاز قريبا من عشيرة قوم لوط^(١) بعث الله إليهم شعبيا فلم يؤمنوا .

القسم الثاني

(من العرب الباقية أعقابهم على تعاقب الزمان)

وأكثر من تدعو حاجة الكاتب إلى معرفته من بقى أعقابه منهم متفرقة في أقطار الأرض إلى الآن ، وهم على ثلاثة أضرب :

(١) في سبائك الذهب من أرض قوم لوط فتنه .

الضرب الأول

(العرب العاربة)

قال الجوهري: ويقال فيهم العرب العرباء، وهم بنو قحطان، بن عابر، بن شانخ
 ابن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام، وهم عرب اليمن. والمشهور منهم شعبان.

الشَّعب الأول — جُرهم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهاء) وهم بنو جُرهم بن
 قحطان، وهم غير جُرهم الأولى المقدم ذكرها في جملة العرب البائدة.

وكانت منازلهم أولاً اليمن، ثم أنتقلوا إلى الحجاز فزلوه، فأقاموا به حتى كان من
 نزول إسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان، فنزلوا عليه بمكة، وآستوطنوها على
 ما سيأتي ذكره في الكلام على العرب المستعربة إن شاء الله تعالى.

الشَّعب الثاني — يعرب، وهم بنو يعرب بن قحطان المقدم ذكره. ويقال إن
 العرب إنما سُميت عرباً به، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسلوا
 فولد له يَسْجُب، وولد يَسْجُب سباً، ومنه تفرعت جميع قبائلهم.

ومرجع المشهور فيه إلى قبيلتين:

القبيلة الأولى — حمير وهم حمير بن سبيل (بكسر الحاء وأسمه العرنجج). وقد ذكر
 ابن الكلبي: أنه كان لحمير عشرة أولاد من عقبه وكان غالب وجُلُّ قبائل حمير من
 أبْيَه: الهميسع، ومالك ملوك اليمن؛ وكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما
 حولها. ولحمير بقايا موجودون إلى الآن، ومنه غالب قبائل قُضاعة، ومنه غالب
 قبائل حمير، وهو قُضاعة، بن مالك، بن عمرو، بن مُرّة، بن زيد، بن مالك، بن حمير؛
 وقيل قُضاعة بن مالك بن حمير. وذهب بعض النسابة إلى أن قُضاعة من العدنانية
 الآتي ذكرهم. قال السهيلي: والصحيح أن أم قُضاعة (وهي جكرة) مات عنها مالك

أبن حمير وهى حامل ، فتروجها معدن بن عدنان ، فولدت قضاة على فراشه فتبتاه
فنسب إليه . قال المؤيد صاحب حماه : " وكان قضاة مالكا لبلاد الشحر وقبره يجبل
الشحر موجود " . ولقضاة بقايا إلى الآن ينسب إليهم ، وإليهم ينسب القضاة
المصرى صاحب كتاب " الشهاب فى المواعظ والآداب " فى الحديث ، وخطط مصر
وغيرهما .

والمشهور من قضاة سبعة أحياء :

الحى الأول — بلى (بفتح الباء) وهم بنو بلى ، بن عمرو ، بن الحافى ، بن قضاة ،
ولهم بقايا بالديار المصرية بصعيدها الأعلى ، منهم بنوناب وغيرهم ، وبقايا بالمجاز
وغيرهما ، والنسبة إليهم بلوى بزيادة واو مكسورة قبل ياء النسب .

الحى الثانى — جهينة (بضم الجيم وفتح الهاء والنون) ، وهم بنو جهينة ، بن زيد ،
أبن ليث ، بن سؤد ، بن أسلم ، بن الحافى ، بن قضاة ، وهى قبيلة عظيمة ، ولهم بقايا
ببلاد الصعيد من الديار المصرية وبالمجاز وغيرهما . والنسبة إليهم جهنى بحذف
الياء بعد الهاء .

الحى الثالث — كلب ، وهم بنو كلب ، بن وبرة ، بن ثعلبة ، بن حلوان ، بن عمران ،
أبن الحافى ، بن قضاة ، ومنهم حارثة الكلبي أبو زيد بن حارثة مولى رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

قال صاحب حماه : وكان بنو كلب فى الجاهلية يتزلون دومة الجندل ، وتبوك ،
وأطراف الشام . قال ابن سعيد : ومنهم الآن خلق عظيم على خليج القسطنطينية
مسلمون . قال فى « مسالك الأبصار » : وبشيزر ، وحلب وبلادها ، وتدمر ، والمناظر
أقوام منهم ، والنسبة إليهم كلبي .

الحى الرابع — عذرة (بضم العين المهملة وسكون الذال المعجمة) وهم بنو عذرة

(١) ابن سعيد، بن هذيم، بن زيد، بن ليث، بن سود، بن أسلم، بن الحافي، بن قضاة، وإلى عُدرة هؤلاء ينسب العشق والتيم؛ ومنهم عمرو بن حرام صاحب عَفراء أحد المتيمين وجميل صاحب بُيئة . ومن أحسن ما يحكى أنه قيل لرجل منهم : ما بأل العشق يقتلكم يا بني عُدرة ؟ قال لأن فينا جمالا وعفة : وقيل لآخر منهم : ما بأل الرجل منكم يموت في هوى امرأة ؟ إنما ذلك ضعف فيكم يا بني عُدرة — فقال : أما والله ! لو رأيت النواظر الدمغ ، تحتها المباسم الفلج ، فوقها الحواجب الرج ، لاتخذتموها الآلات والعزى ؛ ولهم بقايا بالدقويلة والمرثاحية من الديار المصرية ، وبقايا بالشام أيضا .

الحى الخامس — بهراء (بفتح الباء الموحدة وسكون الهاء وألف بعد الراء المهملة) ، وهم بنو بهراء ، بن عمرو، بن الحافي : بن قضاة ؛ ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم ، منهم المقداد بن الأسود، أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إن خالد بن برمك من آل بهراء . قال في العبر : وكانت منازلهم شمالي منازل بلن من الينبع إلى عقبة أيلة ، ثم جاور بحر القلزم منهم خلق كثير ، وآنشروا ما بين بلاد الحبشة وصعيد مصر، وكثروا هناك ، وغلبوا على بلاد النوبة ، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن .

الحى السادس — بنو نهد ، بن زيد ، بن ليث ، بن سود ، بن أسلم ، بن الحافي ، بن قضاة ؛ وكانت منازلهم باليمن ، وإليهم كتب النبي صلى الله عليه وسلم كتابه المشهور ؛ وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مشاهير نهد الصقعب ؛ قال صاحب حماه : وكان رئيسا في الإسلام .

(١) في القاموس سعد بن هذيم بدون ياء وهو الصواب وهذيم عبد حبشى حرض سعدا فقتل يله وإلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدا له كما قد يتوهم من العبارة فتنه .

الحى السابع - جرم، وهم بنو جرم وأسمه علاف، بن زبآن، بن حلوان، بن عمران،
 ابن الحافى، بن قضاة. قال الحمدانى: ومنهم بنو جشم، وبنو قدامة، وبنو عوف.
 قال فى العبر: ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم. قلت وهم القاضى ولى
 الدين بن خلدون فجعلهم هم الذين ببلاد غزّة، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طي
 لا جرم قضاة. وعدّ صاحب حماه فى تاريخه منهم تنوخ (بفتح التاء المثناة فوق
 وضم النون وخاء معجمة فى الآخر) قال الجوهرى: ولا تشدد نونه، والتحقيق
 ما قاله أبو عبيد: أنهم ثلاثة أبطن من الفحطانية نزار، والأحلاف^(١). قال: وسموا بذلك
 لأنهم حلفوا على المقام بمكان بالشام والتنخ المقام. قال ابن سعيد: ومن الناس
 من يطلق تنوخ على الضجاعة، ودوس الذين نتنخوا بالبحرين. قال صاحب
 حماه: وكان بينهم وبين التميميين ملوك الحيرة حروب؛ ولتنوخ بقايا بالمعزة من بلاد
 الشام فيما ذكره الحمدانى.

القبيلة الثانية - من الفحطانية كهلان (بفتح الكاف وسكون الهاء)، وهم بنو
 كهلان بن سبيل. قال أبو عبيد: وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كهلان،
 وكانوا متداولين الملك باليمن مع بنى حمير، انفرد بنو حمير بالملك، وبقيت بطون كهلان
 على كثرتها تحت ملكهم. قال فى العبر: ثم تقاصر ملك حمير وبقيت الرياسة على
 العرب بالبادية لبني كهلان، وهم أحياء كثيرة.
 والمشهور منهم أحد عشر حياً:

الحى الأول - الأزدي (بفتح الهمزة وسكون الزاي وبالذال المهملة)، قال
 أبو عبيد: ويقال بالسین بدل الزاي. قال الجوهرى: بالزاي أفصح، وهم بنو
 الأزدي، بن الغوث، بن نبت، بن مالك، بن أدد، بن زيد، بن كهلان، وهم من أعظم
 الأحياء وأكثرهم بطونا. وقد قسم الجوهرى الأزدي إلى ثلاثة أقسام:

(١) أى أسد وغطفان فهما آثنان ووزار الثالث.

أحدهما - أزدُ شِنُوءة، وهم بنو نصر بن الأزد، وشِنُوءة لقب لنصر غلب على بنيه .
الثاني - أزد السَّرَاة، بإضافة أزد إلى السَّرَاة (بالسين المهملة)، وهو موضع
بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعرفوا به .

الثالث - أزدُ عَمَّان بإضافة أزد إلى عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)^(١)،
وهي مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعرفوا بها . وللأزد بقايا ببلاد الشام بزُرْع
وبُصْرَى فيما قاله في "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح الغين المعجمة وتشديد السين المهملة
ونون في الآخر)، قال أبو عبيد : وهم بنو جَفْنَةَ، والحارث وهو مُحْتَرِق، وثعلبة وهو
العنقاء^(٢)، وحارثة، ومالك، وكعب، وخارجة، وعوف بن عمرو، بن عامر ماء السماء،
ابن حارثة الغطريف، بن امرئ القيس البَطْرِيق ويقال البهلُول، ابن ثعلبة، بن
مازن، بن الأزد؛ وإنما سُموا غسان لما نزلوا عليه اسمه غسان فشرَبوا منه فسُموا
به . قال في العبر : وهو على القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد : وفي ذلك يقول
بعض الأنصار :

إِذَا سَأَلْتَ فَإِنَّا مَعْشَرُ نَجَبٍ * الْأَزْدُ نَسَبَتْنَا وَالْمَاءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان ملكُ العرب بالشام بعد سَلِيحِ المَقْدَمِ ذَكَرَهُمْ إِلَى أَنْ كَانَ
أَخْرَجَهُمْ جَبَلَةُ بْنُ الْأَيْهَمِ الَّذِي أَسْلَمَ فِي زَمَنِ عُمَرَ ثُمَّ آرَتَهُ، وَلِحَقِّ بِلَادِ الْكُفْرِ . وَقَدْ
ذَكَرَ فِي «مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ» أَنَّ لَهُمْ بَقَايَا بِلَادِ الشَّامِ بِالْبَلْبَاءِ وَالرِّمُوكِ وَحِمَصَ . وَمِنْهَا
الْأَوْسُ وَالخَزْرَجُ ابْنَا حَارِثَةَ، بِنِ ثَعْلَبَةَ، بِنِ عَمْرٍو مَرْيَقِيَا، بِنِ عَامِرِ مَاءِ السَّمَاءِ، بِنِ حَارِثَةَ
الْغَطْرِيفِ، بِنِ أَمْرِي الْقَيْسِ الْبَطْرِيقِ، بِنِ ثَعْلَبَةَ، بِنِ مَازِنَ، بِنِ الْأَزْدِ؛ وَكَانَتْ مَنَازِلَهُمْ

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهري بالقلم والقاموس أيضا وضبطه شارحه بالعبارة . فقال :
كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت وفيه أيضا أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام فخر .

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع في الأصل بالمتناة وهو تصحيف .

يُثْرِبَ ، ومنهم كانت أنصارُ النبي صلى الله عليه وسلم ، ولهم بقايا كثيرة متفرقة بالمشرق والمغرب . وقد ذكر الحمداني : أن منهم جماعةً بمنقلوطٍ من صعيد مصر من عقب حسان بن ثابت ، وسعد بن معاذ سيد الأوس رضى الله عنهما .

الحى الثاني — من كهلان طيِّء (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر) أخذنا من الطاءة على وزن الطاعة : وهى الإيغال فى المرعى ، وهم بنو طيِّء ، بن أدَدَ ابن زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان ، والنسبة إليهم طائى ، وإليهم ينسب حاتم الطائى المشهور بالكرم ، وأبو تمام الطائى الشاعر المشهور ، وهم كثير . قال فى العبر : وكانت منازلهم بايمن نخرجوا منها على إثر خروج الأزدي عند تفرقهم بسيل العريم ، فزلوا بتجد والمجاز على القرب من بنى أسد ، ثم غلبوا بنى أسد على جبلٍ أجأ وسامى من بلاد نجد ، فزلوهما فعرفا بجبل طيِّء إلى الآن ؛ ثم أفتروا فى أول الإسلام زمن الفتوحات فى الأقطار ، ولهم بطون كثيرة . منهم ثعل (بضم الثاء المتلثة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثعل ، بن عمرو ، بن العوث ، ابن طيِّء . قال أبو عبيد : ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه : ومنهم زيد الخليل .

ومنها جديلة (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر) ، ذكرهم الجوهري ولم يرفع نسبهم ؛ ثم قال : وجديلة أمهم عرفوا بها : وهى جديلة بنت سبيع بن عمرو من حمير .

ومنها نهبان (بفتح النون وسكون الباء الموحدة ونون بعد الألف) ، وهم بنو نهبان ، واسمه سودان ، بن عمرو ، بن العوث ، بن طيِّء .

ومنها بولان (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو بولان ، واسمه غصين ، بن عمرو ، بن العوث ، بن طيِّء . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

لأنهم وضعوا الخط العربي على ما سيأتي ذكره في الكلام على الخط فيما بعد إن شاء الله .

ومنها هِنَاءٌ، وهم بنو هِنَاءَ، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنها إياس بن قبيصة الذي ملك بعد النعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والdal المهملتين وسين مَهْمَلَةٌ في الآخر)، وهم بنو سُدُوس بن أصمَع من بني سعد، بن نَبَاهِ، بن عمرو، بن الغوث، بن طيء .
ومنها جعفر بن عطية الذي يقول :

مَدَحْتَ نَسِيبِي جَعْفَرًا إِنْ جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاهَ النَّدَى وَأَنَا مِثْلُهُ

ومنها سَلَامَانُ (بفتح السين المهملة ونون في الآخر)، وهم بنو سَلَامَانَ، بن ثَعْلَبِ،
أبن الغوث، بن طيء .

ومنها بُحْتَرٌ (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء
مَهْمَلَةٌ في الآخر)، وهم بنو بُحْتَرِ، بن عَتُودِ، بن عُنَيْزِ، بن سَلَامَانَ، بن ثَعْلَبِ،
أبن عمرو، بن الغوث، بن طيء؛ منهم أبو عبادة البصريُّ الشاعر الإسلاميُّ المشهور .

ومنها زُبَيْدٌ (بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وdal مَهْمَلَةٌ
في الآخر)، وهم بنو زُبَيْدِ، بن مَعْنِ، بن عمرو، بن عُنَيْزِ، بن سَلَامَانَ، بن عمرو، بن
الغوث، بن طيء . قال ابن سعيد : وزُبَيْدٌ هؤلاء هم الذين يريّة سنجان من الجزيرة
القراتية، وهم الذين ذكرهم المقرئ الشهابي بن فضل الله، وسماهم زُبَيْدِ الأَحْلافِ .

ومنها سُنَيْسٌ (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مَهْمَلَةٌ
في الآخر) وهم بنو سُنَيْسِ بن معاوية، بن حَرْوَلِ، بن ثَعْلَبِ، بن عمرو، بن الغوث، بن

(١) ضبطه السويدي في سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر في القاموس أنه بالكسر وكذلك هو في الصحاح واللسان بضبط القلم فتنبه .

طبيّ . وقد ذكر الحمدانيّ أن منهم طائفةً بشغردميّاط ، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميّين ، وعدّ منهم ثلاثة بطون : وهم الخزاعلة ، وعبيد ، وجموح . والإمرة في زماننا هذا فيهم ، في الخزاعلة ، في بنى يوسف بمدينة سخا من الأعمال الغربية . قال الحمدانيّ : ومنهم طائفة بالبطنج من بلاد العراق .

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم في الآخر) ، وهم بنو ثعلبة بن عمرو ، بن الغوث ، بن طبيّ . وقال الحمدانيّ جرمُ أمه غلب عليه : وهى جرم بنت الغوث ابن طبيّ ؛ وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غزّة من البلاد الشامية . قال الحمدانيّ : وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام على تدافع الفرنج عن المسلمين ، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد ، دخلت طائفة منهم مصر ، وبقى بقاياهم بمكانهم ببلاد غزّة . وقد ذكر الحمدانيّ منهم ثلاثة بطون : وهم شمجان ، وقران ، وجيآن . ثم قال : والمشهور من جرم الآن جديمة ؛ ويقال إن لهم نسبا في قریش ؛ وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مخزوم ، وقيل بل من جديمة بن مالك ، بن حنبل ، بن عامر ، بن لؤى ، بن غالب ، بن فيهر . ثم قال وجديمة هؤلاء هم آل عوسجة ، وآل أحمد ، وآل محمود . ثم قال : ومنهم أسلم ، وشبل ، ورضيعة ، ونيور ، والقذرة ، والأحامدة ، والرفثة ، وكور ، وموقع . ومنهم من بنى غوث العاجلة ، والعبادلة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ، وبنو مقدم ، وآل نادر . ومنهم من بنى غوث بنو بها ، وبنو خولة ، وبنو هرماس ، وبنو عيسى ، وبنو سهيل ؛ وأرضهم الداروم ؛ وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببنى فهيد . ثم اختلطوا بهم .

ومنها ثعلبة ، وضبطه معروف ؛ وهم بنو ثعلبة بن سلامان ، بن ثعل ؛ بن عمرو ؛ بن الغوث ، بن طبيّ ، وهم رعيان درما وزريق ، أبى عوف بن ثعلبة ، وقيل أبنا ثعلبة وآسم درما عمرو ، ودرما آسم أمه غلب عليه . قال الحمدانيّ : وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المسامين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلاد آتقت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف بلاد الشرقية؛ فمن بطون دَرَمَا سلامة، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحنابل، والمرأونة، والحَيَّانِيَّون؛ ومن بطون زريق بها بنو وهم الطليحيون؛ ومن الطليحيين آل حجاج، وآل عمران، وآل حفصان، والمصاحفة؛ ومن بني زريق أيضا الصبيحيون، ومن الصبيحيين الغيوث، والزُموت، والروايات، والنمورة، والشمخيون، والسَّعَالِي، والرَمَالِي، والمعامرة، والسَّنْدِيَّون، والبَحَّابِجَة، والعُقَيْليون، والمساهرة، والمعافرة؛ ومنهم أيضا العليميون . قال الحمداني: وكان مقدمهم قديما عمرو بن عسيلة أمم بالبوقة والعلم . ومن العليميين القمعة، والرياحين، والغوفة . قال الحمداني: وكان فيهم رجال ذوو ذكرونباهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا . ومنهم من أمم بالبوقة والعلم . ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهرية .

ومنها غَزِيَّة (بفتح الغين المعجمة وكسر الزاي وتشديد الياء المثناة تحت وهاء في الآخر)، وهم بنو غَزِيَّة بن أفلت، بن ثعل، بن عمرو، بن سَلَامان، بن ثعل، بن عمرو، بن العوث، بن طيء . قال الحمداني: وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز . قال في العبر: وفيهم الإمارة في العراق إلى الآن ولهم صولة عظيمة . وهم بطون كثيرة: فمن بطونهم البطين، وأخاذهم، آل دعيج، وآل روق، وآل رفيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود . ومن بطونهم الأجود وأخاذهم آل منيع، وآل سنيد، وآل منال، وآل أبي الحزم، وآل علي، وآل عقيل، وآل مسافر . هذا ما ذكره الحمداني . وزاد في مسالك الأبصار عن نصر بن برجس المشرقي، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبني جميل، وآل أبي مالك . قال في "المسالك": "وديار

آل أجود منهم الرخيمية، والرقي، والفردوس، ولينة، والحدق. وديار آل عمرو بالحوف. وديار بقاياهم النصيف، والكن، واليحموم، والأم، والمعينة. ويلهم مساعدة. وديارهم من الحضرة إلى بركة زرود، إلى سقارة، إلى البقعاء، إلى النيب، إلى الساسة، إلى حضر.

ومنها لام. وهم بنو لام بن عمرو، بن طريف، بن عمرو، بن بجيلة، بن مالك، بن جدعاء، بن ذهل، بن رومان، بن جندب، بن خارجة، بن سعد، بن قطرة، بن طيء. قال ابن سعيد: ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها. وقال الحمداي: ديارهم جبل أجا وسلمى. ثم قال وظفير من لام، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها آل ربيعة، عرب الشام. وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن علي، بن مفرج، بن دغفل، بن جراح، بن شبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حرب، بن السكّن، بن ربيع، ابن علقم، بن حوط، بن عمرو، بن خالد، بن معبد، بن عدى، بن أفلت، بن سلسلة، بن غم، بن ثوب، بن معن، بن عتود، بن عنيز، بن سلامان، بن نعل، بن عمرو، بن القوث، ابن طيء. قال في "مسالك الأبصار": وتقول بنو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيى، بن خالد، بن برمك من العباسية بنت المهدي، أخت الرشيد، ويزعمون أنه كان يجتمع مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه في تزويجها ليحل له نظرها لأجتماعهما يجلسه فعقد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعانقها على حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده. قال: ويقولون في نسبه إنه ربيعة بن سالم، ابن شبيب، بن حازم، بن علي، بن جعفر، بن يحيى، بن خالد، بن برمك، ويزعمون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك. ثم قال: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم:

(١) في العبر ابن معبد بن عمرو.

لأنهم من سلسلة بن عُنَيْز، بن سلامان، بن طي، وهم كرام العرب وأهل البأس
والنجدة، والبرامكة وإن كانوا قوماً كراماً فإنهم قوم عجم وشتان بين العرب والعجم؛
وقد شرف الله تعالى العرب أن بعث منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه،
وجعل فيهم الخلافة والملك، وأبترَّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأستهم تاج كسرى
وقيصر، وكفى بذلك شرفاً لا يُطَاوَل، ونفراً لا يُتَنَاوَل. وذكر في "التعريف" نحوه
قال في العبر: وكانت رياسة طي في أيام الفاطميين لبني الجراح، ثم صارت لآل
ربيعة. قال الحمداني: وكان ربيعة هذا قد نشأ في أيام الأتابك زنكي وأبني نورالدين
الشهيد صاحب الشام ونبغ بين العرب وولد له أربعة أولاد: وهم فضل، ومرا،
وئابث، ودغفل، ومنهم تفرَّعت بطون آل ربيعة. ثم المشهور من آل ربيعة الآن
ثلاثة بطون: وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علي: قال فضل هم بنو فضل بن ربيعة
وآل مرا بنو مرا بن ربيعة. وأما آل علي فمن آل فضل، وهم بنو علي بن حديثة، بن
عُقبَةَ بن فضل المقدم ذكره؛ وقد صارت آل فضل أيضاً بعد ذلك بيوتاً أرفعها قدراً
بيت عيسى بن مهنا، بن مائع، بن حديثة، بن عقبَةَ، بن فضل. قال في "مسالك
الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل. قال: ثم صار آل عيسى بيوتاً، بيت
مهنا بن عيسى، وبيت فضل بن عيسى، وبيت حارث بن عيسى، وبيت محمد
أبن عيسى، وبيت هبة بن عيسى. وسيأتي الكلام على تقسيم الإمرة فيهم في الكلام
على عرب الشام في المسالك والممالك إن شاء الله.

الحى الثالث - من كهلان مَدْحِج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء
المهملة وجيم في الآخر)، وهم بنو مَدْحِج وأسمه مالك، بن أدَد، بن زيد، بن يَشْجُب،
أبن عَرِيب، بن زيد، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرى: مَدْحِج

أَبْنُ يُحَارِبٍ، بَنُ مَالِكٍ، بَنُ زَيْدٍ، بَنُ كَهْلَانَ. وَقَدْ ذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ: أَنَّهُمْ إِنَّمَا سَمَّوْا مَدْحِجَ لَشَجَرَةٍ تَحَالَفُوا عِنْدَهَا أَسْمَهَا مَدْحِجَ، فَسَمَّوْا بِأَسْمِهَا. ثُمَّ لَمَدْحِجَ بَطُونَ كَثِيرَةً:

مِنْهَا حَوَّلَانُ، (بِفَتْحِ الْخَاءِ الْمَعْجَمَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَنُونِ بَعْدِ اللَّامِ أَلْفٌ)، وَهَمُّ بَنُو حَوَّلَانَ بْنِ مَالِكٍ، وَهُوَ مَدْحِجٌ وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ أَبُو إِدْرِيسَ الْحَوَّلَانِيُّ. قَالَ فِي الْعَبْرِ: وَبِلَادِ حَوَّلَانَ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ مِنْ شَرْقِيهِ، قَالَ: وَقَدْ أَفْتَرَقُوا فِي الْفَتْوحَاتِ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ الْيَوْمَ ذُرِّيَّةٌ إِلَّا بِالْيَمَنِ؛ ثُمَّ قَالَ وَهَمُّ غَالِبُونَ عَلَى أَهْلِهِ.

وَمِنْهَا جَنْبٌ (بِفَتْحِ الْجِيمِ وَسُكُونِ النَّونِ وَبَاءِ مُوَحَّدَةٍ فِي الْآخِرِ)، وَهَمُّ بَنُو مُنْبَهٍ، وَالْحَارِثُ، وَالغُلِي، وَسَبْحَانَ، وَشَمْرَانَ، وَهَفَانَ بْنِ يَزِيدٍ، بَنُ حَرْبٍ، بَنُ عَلَّةَ، أَبْنُ جَلْدٍ، بَنُ مَدْحِجٍ. قَالَ أَبُو عَيْسَى: وَسَمَّوْا بِجَنْبٍ لِأَنَّهُمْ جَانَبُوا عَمَّهُمْ صُدَاءَ، وَحَالَفُوا سَعْدَ الْعَشِيرَةِ، وَحَالَفَتْ صُدَاءُ بَنِي الْحَارِثِ بْنِ كَعْبٍ. وَمِنْ جَنْبٍ مَعَاوِيَةَ الْخَلِيفَ الْجَنْبِيُّ صَاحِبَ لُؤَاءِ مَدْحِجٍ فِي حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ.

وَمِنْهَا سَعْدُ الْعَشِيرَةِ، وَهَمُّ بَنُو سَعْدِ الْعَشِيرَةِ بَنُ مَدْحِجٍ، وَسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ لَمْ يَمِتْ حَتَّى رَكِبَ مَعَهُ مِنْ وُلْدِهِ وَوُلْدَ ثَلَاثَةَ رِجَالٍ، فَكَانَ إِذَا سَثَلَ عَنْهُمْ يَقُولُ هُوَ لَاءُ عَشِيرَتِي دَفَعَا لِلْعَيْنِ عَنْهُمْ، فَقِيلَ لَهُ سَعْدُ الْعَشِيرَةِ. ثُمَّ مِنْ بَطُونَ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَوْذٌ (بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ وَسُكُونِ الْوَاوِ وَذَالِ مَعْجَمَةٍ فِي الْآخِرِ)، وَهَمُّ بَنُو أَوْذِ بْنِ صَعْبِ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ، وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ الْأَفْوَهُ الْأَوْذِيُّ الشَّاعِرُ الْمَشْهُورُ. وَمِنْ بَطُونَ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ أَيْضًا جُعْفِيُّ (بِضَمِّ الْجِيمِ وَسُكُونِ الْعَيْنِ الْمَهْمَلَةِ وَكَسْرِ الْفَاءِ وَيَاءِ مَثْنَاةٍ تَحْتَ فِي الْآخِرِ) وَهَمُّ بَنُو جُعْفِيِّ بْنِ سَعْدِ الْعَشِيرَةِ وَالنِّسْبَةُ إِلَيْهِمْ جُعْفِيٌّ عَلَى مِثْلِ لِقْظِهِ، وَإِلَيْهِمْ يَنْسَبُ الْإِمَامُ الْبَخَارِيُّ بِالْمُؤَالَاةِ، فَيُقَالُ الْجُعْفِيُّ مَوْلَاهُمْ. وَمِنْ بَطُونَ سَعْدِ

(١) صوابه ودال مهملة أنظر القاموس وشرحه في مادة أود على أنه لم توجد مادة أود بالمعجمة فيما بأيدينا من المعاجم فتنبه.

العشيرة زُبَيْد (بضم الزاي وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة في الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعرف زُبَيْدٌ هؤلاء بِزُبَيْدِ الأكبر، وهم زُبَيْد الحجاز. قال في مسالك الأبصار: وعليهم دَرَكُ الحَاجِ المِصرِيِّ من الصَّفراءِ إلى الجحفة ورايغ. ومن زُبَيْد هؤلاء بطنٌ تعرف بِزُبَيْدِ الأصغر، وهم بنو مُنَبِّه الأصغر بن ربيعة بن سلمة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر. قال أبو عبيد ومن زُبَيْد هؤلاء عمرو بن معدى كرب.

ومنها النَّخَع ^(١) (بفتح النون وسكون الخاء المعجمة وعين مهلة في الآخر)، وهم بنو النَّخَع وأسمه جَسْر بن عمرو بن عَلَّة بن جَلْد بن مَذْحَج. قال أبو عبيد: وسمى النَّخَع لأنه آتَّخَع عن قومه أي بَعْد، ومنهم الأشتر النَّخَعِيُّ أحد تابعي أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي ولاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه مِصرَ، وكتب له بها عهداً على ماسياتي ذكوة في الكلام على العهود عند ذكر الولايات فيما بعد إن شاء الله تعالى. وإليهم ينسب إبراهيم النَّخَعِيُّ الإمام الكبير المشهور.

ومنها عَنَس (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة في الآخر)، وهم بنو عَنَس بن مَذْحَج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابي المشهور؛ وإليهم ينسب الأسود العنسي الكذاب، الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بخروجه فأدعى النبوة باليمن بعد ذلك.

ومنها بنو الحارث، ويقال بلحارث بن كعب، وهم بنو الحارث بن كعب بن عمرو بن عَلَّة بن جَلْد بن مَذْحَج. قال في "العبر": وديارهم بنواحي نَجْرَانَ من اليمن مجاورون لبني ذُهَل بن مُزَيْقِيَاء، منهم بشير الحارثي الذي قدم على النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: ما أسمك قال: أكبر، قال: بل أنت بشير.

(١) الذي في القاموس النخع بالتحريك قبيلة وفي المصباح والنخع بفتحعين قبيلة من مَذْحَج فليظن.

الحى الرابع - من بني كهلان همدان (بفتح الهاء وسكون الميم ودال مهملة ثم ألف ونون) ، وهم بنو همدان ، بن مالك ، بن زيد ، بن أوسلة ، بن ربيعة ، بن الخيار ، ابن زيد ، بن كهلان ، . قال في "العبر" : وكانت ديارهم بايمن من شرقية ، ولما جاء الإسلام تفرق من تفرق منهم ، وبقى من بقي باليمن . قال : وكانت همدان شيعه لأمير المؤمنين على كرم الله وجهه عند وقوع الفتن بين الصحابة ؛ وفيهم يقول رضى الله عنه :

فَلَوْ كُنْتُ بَوَّابًا عَلَى بَابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ أَدْخُلِي بِسَلَامٍ

قال في "مسالك الأبصار" : وبالجلب المعروف بالطيبين من الشام فرقة من همدان .
الحى الخامس - من بني كهلان كندة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) ، وهم بنو كندة ، وأسمه ثور ، بن عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، بن مرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يسجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان . قال صاحب حماة : وسمى كندة لأنه كند أباه أى كفر نعمته . قال : وبلادهم باليمن قبل حضرموت ، وكان لهم ملك بالحجاز واليمن ؛ ومنهم الأشعث بن قيس الصحابي المشهور ؛ ومنهم أيضا القاضي شريح قاضي على رضى الله عنه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن باللوى من بلاد الشام قوما ينسبون إلى كندة ، ولهم بطون منها السكون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو) ، وهم بنو السكون ابن أشرس بن كندة ؛ ومنهم معاوية بن حديج قاتل محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنهم ؛ وعد منها صاحب حماة السكاسك أيضا (بفتح السين الأولى وكسر الثانية) ، والذي ذكره أبو عبيد أنه من حمير ، وقال : هم بنو السكاسك بن وائلة بن حمير . قال الجوهري : والنسبة إلى السكاسك سكسكي ردا له إلى أصله كما ينسب إلى مساجد مسجدي .

الحى السادس - من بنى كهلان مراد (بضم الميم وفتح الراء المهملة ودال مهملة بعد الألف)، وهم بنو مراد، بن مالك، بن أدد، بن زيد، بن يشجب، بن عريب، ابن زيد، بن كهلان، قال الجوهري: ويقال إن اسمه يُجابر فتمرد فسمى مرادا . وجعلهم في العبر بطنًا من مدحج، فقال مراد بن مدحج . قال صاحب حماه : وبلادهم إلى جانب زبيد من بلاد اليمن، قال : وإلى مراد هذا ينسب كل مرادى من عرب اليمن .

الحى السابع - من بنى كهلان أمار (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء مهملة بعد الألف)، وهم بنو أمار، بن أراش، بن عمرو، بن الغوث، بن نبت، بن مالك، بن زيد، بن كهلان . ولهم بطنان - الأولى بجيلة (بفتح الباء الموحدة وكسر الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر)، وهم بنو عبقر، والغوث، وصهبية، وحزيمة^(١) بن أمار، بن أراش . قال أبو عبيد: وبجيلة أمهم، عرفوا بها - وهى بجيلة بنت صعب بن سعد العشيرة، قال في العبر: وكانت بلادهم فى سروات اليمن والمجاز إلى تبالة . ثم أفترقوا أيام الفتح الإسلامى فى الآفاق، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليل، قال الجوهري: ويقال لمنهم من العدنانية، لأن نزار بن معد بن عدنان ولد له مضر وربيعة وإياد وأمار، وولد لأمار بجيلة وخنعم فصاروا إلى اليمن، وإلى بجيلة هؤلاء ينسب جرير بن عبد الله البجلي، صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان جميلا فائق الجمال، حتى إنه كان يقال له يوسف الأمة، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه :

لَوْلَا جَرِيرٌ هَلَكْتَ بِجِيلِهِ * نَعِمَ الْفَتَىٰ وَيُسْتِ الْقَبِيلَهُ

الثانية - خنعم (بفتح الخاء المعجمة وسكون التاء المثناة وفتح العين المهملة وميم فى الآخر)، وهم بنو خنعم بن أمار بن أراش المقدم ذكره ابن هند بنت مالك

(١) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى كما ضبطه كذلك فى سبائك الذهب .

أبن الغافق بن الشاهد بن عد ، وفيهم مثل ما تقدم من كلام الجوهري في الكلام على بيجيلة أنهم من العدنانية : لأن خَنَعَمَ وبيجيلة يرجعون إلى أنمار . وكانت مساكنهم مع إخوتهم بيجيلة بسراوات اليمن فافترقوا في الفتوحات الإسلامية ، فلم يبق منهم في مواطنهم إلا القليل . ومن خَنَعَم هؤلاء أكلب (بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم اللام وباء موحددة في الآخر) ، وهم بنو أكلب ، بن عُقَيْر ، بن خَلَف ، بن خَنَعَم . قال أبو عبيد : ويقال إن أكلب من ربيعة بن نزار . قال الحمداني : وهم بطون كثيرة ، ومنازلهم بيشة شرق مكة المشرفة . ومن خنعم أيضا بنو منبه والفرع ، وبنو نضلة ومعاوية ، وآل مهدي ، وبنو نصر ، وبنو حام ، والورد ، ونادر ، وآل الصعافير ، والشاء ، وبلوس ، قال الحمداني : ومنازلهم على القرب من بيشة شرق مكة أيضا .

الحى الثامن — من بنى كهلان جُدَام (بضم الجيم وفتح الذال المعجمة وألف ثم ميم) ، وهم بنو جُدَام ، بن عَدِي ، بن الحارث ، بن مُرَّة ، بن أدد ، بن زيد ، ابن يشجب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان ، هذا ما ذكره أبو عبيد : وجعلهم صاحب حماه في تاريخه من ولد عمرو بن سبأ . قال الجوهري ، وتزعم نسابة مضر أنهم من مضر يعنى من العدنانية ، وأنهم أتقلوا إلى اليمن فنزلوها ، فحسبوا من اليمن ، وأستشهد له بقول الكمي يذكروا أنهم أتقلوا إلى اليمن بانسابهم فيهم :

نَعَاءِ جُدَامًا غَيْرَ مَوْتٍ وَلَا قَتْلِ * وَلَكِنْ فِرَاقًا لِلدَّعَائِمِ وَالْأَصْلِ !

وأستشهد له الحمداني أيضا بقول جنادة بن خشرم الجُدَامِي :

وَمَا قَطَّطَانِ لِي بِأَبٍ وَأُمِّ * وَلَا تَصْطَادُنِي شُبَّةُ الضَّلَالِ

وَلَيْسَ إِلَيْهِمْ نُسْبِي وَلَكِنْ * مَعْدِيًّا وَجَدْتُ أَبِي وَخَالِي

(١) أعجمه في الأصل . وقال في سبائك الذهب « حلف بفتح الحاء المهملة بنوه بطن من خنعم » .

قال الحمداني : ويقال إنهم من ولد أعصر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام ، وأستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد جُدَام ، فقال ” مَرَحَبًا بِقَوْمِ شُعَيْبٍ وَأَصْهَارِ مُوسَى ” . قال صاحب حماة : وكان فيهم العَدُدُ والشَّرَفُ . قال الحمداني : وهو أول من سكن مصر من العرب حين جاءوا في الفتح مع عمرو بن العاص رضي الله عنه ، وأقَطَعُوا فيها بلادا بعضها بأيدي بنينهم إلى الآن . وكان لجُدَام ولدان : هما حِشْمُ (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين المعجمة وميم في الآخر) ، وحرَّامُ (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم) ؛ ومن ولد حِشْمِ عَتَيْتُ (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت (٢) وتاء مثناة فوق في الآخر) وهم بنو عَتَيْتِ بن أسلم ، بن مالك ، بن شُوعَةَ ، بن تَدِيلِ ، ابن حِشْمِ بن جُدَام . قال أبو عبيد : وهم اليوم ينتسبون في بني شَيَّان ، ويقولون عَتَيْتُ بن عَوْفِ بن شَيَّان . قال وإليهم تنسب حُفْرَةُ عَتَيْتِ بالبصرة ، قال الجوهري : أغار عليهم بعض الملوك فسبى الرجال ، فكانوا يقولون إذا كبر صبيانا لم يتركونا ، حتى يفتكونا ، فلم يزالوا عنده حتى هلكوا فضرَبَ لهم العرب مثالا فقالوا : أودى عَتَيْتُ ، وفي ذلك يقول الشاعر :

تُرْجِيهَا وقد وَقَعَتْ بِقُرٍّ * كما تَرَجُّوْا صَاغِرَهَا عَتَيْتُ (٢)

ثم لجُدَام الآن بطون كثيرة متفرقة في الأقطار؛ منهم بالشرقية من الديار المصرية من بني زيد بن حرَّام بن جُدَام ، وبني محرمة بن زيد بن حرَّام بن جُدَام ؛ فأما بنو زيد فمنهم بنو سُويد ، وبعجة ، وبردعة ، ورفاعة ونائل ، من بني زيد بن حرَّام بن جُدَام ، فمن ولد سُويد هلبا سويد ، وهم بنو هلبا بن سُويد بن زيد بن حرَّام

(١) في سبائك الذهب . يعفر . (٢) كذا رسم في السبائك أيضا وهو بالياء الموحدة في الصحاح والقاموس وأُنشد الأول البيت بالياء الموحدة ومثله في باقوت فتنه .

أَبْنُ جُدَامٍ . قَالَ الْحَمْدَانِيُّ . وَمِنْهُمْ الْعَطَوِيُّونَ ، وَالْجَابِرِيُّونَ ، وَالغَنَاقِرَةُ ، وَحَمْدَانٌ ،
 وَرُومَانٌ ، وَصَمْرَانٌ ، وَأَسْوَدٌ . وَالْحَمِيدِيُّونَ ، وَمِنْ الْحَمِيدِيِّينَ ، أَوْلَادُ رَاشِدٍ ، وَمِنْهُمْ الْبَرَّاجِسَةُ ،
 وَأَوْلَادُ يَبْرِينَ وَالْجَرَّاشَنَةُ ، وَالْكَعْوَكُ ، وَأَوْلَادُ غَانِمٍ ، وَأَلْحَمُودُ ، وَالْأَخِيوَهُ ، وَالزَّرْقَانُ ،
 وَالْأَسَاوِرَةُ ، وَالْحَمَارِيُّونَ . وَمِنْ بَنِي رَاشِدٍ أَيْضًا الْحَرَّاقِصُ ، وَالْخَنَافِيسُ ، وَأَوْلَادُ
 غَالِيٍّ ، وَأَوْلَادُ جَوَّالٍ ، وَأَلْ زَيْدٍ ، وَمِنْ النَّجَابِيَةِ أَوْلَادُ نَجِيبٍ وَبَنُو فَضِيلٍ .

وَمِنْ هَلْبَا سُؤَيْدٍ أَيْضًا بَنُو الْوَلِيدِ ، وَهُمْ بَنُو الْوَلِيدِ بْنِ سُؤَيْدِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ . وَمِنْهُمْ
 الْحَيَّادَةُ ، وَهُمْ بَنُو حَيْدَرَةَ ، بَنُ يَعْرَبٍ ، بَنُ حَبِيبٍ ، بَنُ الْوَلِيدِ ، بَنُ سُؤَيْدٍ .
 قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَهُمْ طَائِفَةٌ كَثِيرَةٌ ، وَمِنْهُمْ بَنُو عِمَارَةَ ، وَهُوَ عِمَارَةُ بْنُ الْوَلِيدِ . وَمِنْهُمْ
 عِدَدٌ ، وَالْحَيَّيُونَ : وَهُمْ بَنُو حَبَّةِ بْنِ رَاشِدِ بْنِ الْوَلِيدِ . وَمِنْ وَلَدِ الْوَلِيدِ بْنِ سُؤَيْدِ
 الْمَذْكُورِ طَرِيفُ بْنُ بَكْتُوتِ الْمَلْقَبِ زَيْنِ الدَّوْلَةِ ، كَانَ مِنْ أَكْرَمِ الْعَرَبِ ، وَكَانَ
 فِي مَضِيْفَتِهِ أَيَّامَ الْغَلَاءِ اثْنَا عَشَرَ أَلْفًا تَأْكُلُ عِنْدَهُ كُلَّ يَوْمٍ ، وَكَانَ يَهْتَمُّ التَّرِيدَ
 فِي الْمَرَاقِبِ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِ مِنْ أَمْرِ بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ ، وَعَدَّ مِنْ أَحْلَافِهِمْ أَوْلَادُ الْهُوْبَرِيَّةِ ،
 وَالرَّدَالِيِّينَ ، وَالْحَلِيفِيِّينَ ، وَالْحَضِينِيِّينَ ، وَالرَّبِيعِيِّينَ ، وَهُمْ أَوْلَادُ شَرِيفِ النَّجَابِيِّينَ ،
 وَذَكَرَ الْحَمْدَانِيُّ أَنَّ لَهُمْ نَسَبًا فِي قَرِيْشٍ إِلَى عَبْدِ مَنَافٍ ، بَنُ قُصَيٍّ . وَمِنْ هَلْبَا سُؤَيْدِ
 هُوْلَاءِ هَلْبَا مَالِكٍ ، وَهُمْ بَنُو مَالِكِ بْنِ سُؤَيْدٍ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكِ بَنُو عَيْسِدٍ وَهُمْ بَنُو
 عَيْسِدِ بْنِ مَالِكٍ ، وَمِنْ بَنِي عَيْسِدِ الْمَذْكُورِ الْحَسَنِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو الْحَسَنِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ
 مَوْهُوبِ بْنِ عَيْسِدٍ ، وَالغَوَّارَةَ ، وَهُمْ بَنُو الْغَوَّرِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ مَوْهُوبِ بْنِ عَيْسِدٍ ، وَبَنُو
 أُسَيْرٍ ، وَهُمْ بَنُو أُسَيْرِ بْنِ عَيْسِدٍ ، وَمِنْ هَلْبَا مَالِكٍ أَيْضًا اللَّيْدِيُّونَ ، وَالْبَكْرِيُّونَ ،
 وَالْعَقِيلِيُّونَ ، وَهُمْ بَنُو عَقِيلِ بْنِ قُرَّةِ بْنِ مَوْهُوبِ بْنِ عَيْسِدٍ . وَمِنْهُمْ بَنُو رَدِيْنِيٍّ ، وَهُمْ بَنُو
 رَدِيْنِيٍّ بْنِ زِيَادٍ ، بَنُ حُسَيْنٍ ، بَنُ مَسْعُودٍ ، بَنُ مَالِكٍ ، بَنُ سُؤَيْدٍ . وَمِنْ وَلَدِ بَعْجَةَ هَلْبَا بَعْجَةَ ،
 وَهُمْ بَنُو هَلْبَا ، وَمَنْظُورٌ ، وَرَدَا ، وَنَائِلُ بَنِي بَعْجَةَ بْنِ زَيْدِ بْنِ سُؤَيْدِ بْنِ بَعْجَةَ ، فَمِنْ وَلَدِ

هلبا بعجة مُفَرَّج بن سالم ، أمره المعز أليك بالبوق والعلم ، ثم خلفه على إمرته ولده
حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى غياث بن عِصْمَة بن نِجَاد بن هلبا بن بعجة .
ومنهم جَوْشَن بن منظور بن بَعَجَة ، وهو صاحب السَّرَاة المضروب به المشل
في الكرم والشجاعة .

ومن ولد نائل مُهَنَّأ بن علوان بن علي بن زبير بن حبيب بن نائل ، كان
جوادا كريما طرقتُه ضُيُوف في شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال
بَزَّكَات عنده . ومن بنى حَرَام بن جُدَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمداني : وفي جُدَام
نخسُ سَعُود آخِطَلت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام . وسَعْد
أبن مالك بن أَفْصَى بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُدَام ، وإليه ينسب أكثر
السَّعْدِيِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن جُدَام ، وسعد بن سامة بن عَبْس بن
غَطَفَان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ،
والسَّلَاحَة ، وبرشاش ، وجَوْشَن ، وَعَدْلَان ، وفَزَارَة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد
وخفراء ، ولهم مزارع وما كل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنِيَة غمر إلى ريفها .
ومنهم شاور وزير العاضد الفاطمي ، وإليه تنسب أولاد شاور كبار منية غمر
وخفراؤها ؛ علي أن ابن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أَرْضِع فيهم النبي صلى الله
عليه وسلم . وأما بنو محرمة فمنهم الشَّوَاكِر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد
العجار أدلاء الحاج من زمن السلطان صلاح الدين وهلم جراً .

ومن جذام أيضا بالشرقية العائد ، وهم بطن من جذام عليهم درك الحاج إلى
العقبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمداني : وَقَلَّ في عرب مصر مَنْ
يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزهير ، عَدَّ منهم الحمداني الحَضِينِيين ، وردالة ،

(١) في الأصل الخط تكرار في الأسماء. ونقص من العدد ويؤخذ من السبائك أن الساقط هو سعد

أبن ربيع بن إياس بن حرام بن جذام فتنه .

والأحامدة ، والحمارنة ، وهم بنو حمران . قال الحمداني : وفي زهير هؤلاء من
بنى عيرين ، وبنى شبيب ، وبنى عبد الرحمن ، وبنى مالك ، وبنى عبيد ،
وبنى عبد القوي ، وبنى شاكر ، وبنى حسن ، وبنى سمان . وهم يتواردون في أسماء
بعض البطون مع غيرهم .

ومن جذام أيضا ببلاد الشام بنو صخر بالكرك ، وبنو مهدي باللقاء ، وبنو عقبه ،
وبنو زهير بالشوبك . ومنهم بنو سعيد بصرخد ، وحوران ، ومنهم جماعة ببلاد
الغور ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السودان .

الحى التاسع - من بنى كهلان نلح (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم
في الآخر) ، وهم بنو نلح بن عدى بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن يشجب بن
عريب ، بن زيد ، بن كهلان ، و نلح أخو جذام المقدم ذكره ، وكل منهما عم لكندة
المقدم ذكره أيضا . وعد صاحب حماة نلحا من بنى عمرو بن سبأ كما عد جذاما إذ
كانا أخوين كما تقدم . وقد كان للفاويزة من اللخمين ملك بالحيرة من بلاد العراق ،
ثم كان لبني عباد من بقاياهم بالأندلس ملك بإشبيلية . وذكر القضاعى أنهم حضروا
فتح مصر ، وأختلطوا بها ، هم ومن خالطهم من جذام . قال الحمداني : وبصعيد الديار
المصرية منهم قوم يسكنون بالبر الشرقى ، ذكر منهم الحمداني سبع أبطن . الأولى
سماك ، وهم المعروفون بالسماكين ، وبنو مر ، وبنو مليح ، وبنو تهبان ، وبنو عبس ،
و بنو كريم ، وبنو بكير ، وديارهم من طرف بيا بالهنسا إلى منحدر دير الجميزة
فى البر الشرقى . الثانية بنو حدان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو
مدلج ، وبنو عيش ، وديارهم من دير الجميزة ، إلى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ،
وهم بنو معمرو ، وبنو واصل ، وبنو مرآ ، وبنو جان ، وبنو معاد ، وبنو البيض ،
و بنو حجرة ، وبنو شنوءة . وديارهم من مسجد موسى إلى أسكر ، ونصف بلاد

إطفيح . ولبنى البيض الحثي الصغير ، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلى معصرة
 بوش . الرابعة بنو جعد ، وهم بنو مسعود ، وبنو حدير ، وهم المعروفون بالحديريين ،
 وبنو زبير ، وبنو ثمال ، وبنو نصار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو
 عدى ، وهم بنو موسى ، وبنو محرب ، ومسكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو
 بحر ، وهم بنو سهل ، وبنو معطار ، وبنو فهيم ، وهم المعروفون بالفهميين ، وبنو
 عسير ، وبنو مسند ، وبنو سباع ، ومسكنهم الحثي الكبير . السابعة قيس ، وهم
 بنو غنيم ، وبنو عمرو ، وبنو حجرة ، ولبنى غنيم منهم العدوية ، ودير الطين إلى
 جسر مصر ، ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حلوان ، ولبنى حجرة النصف الثاني ،
 ونصف طرا .

ومن بطون نخم بنو الدار رهط تميم الداري صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ،
 وهم بنو الدار بن هاني ، بن حبيب ، بن نمارة ، بن نخم . قال الحمداني وبلد الخليل
 عليه السلام معمور من بني تميم الداري رضى الله عنه ، وبيد بني تميم هؤلاء الرقعة
 التي كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لتميم وإخوته بإقطاعهم بيت حبرون التي هي بلد
 الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة في قطعة من آدم من خف
 أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه ونخطة .

الحثي العاشر — من بني كهلان الأشعريون . وهم بنو الأشعر بن أدد ، بن
 زيد ، بن يشجب ، بن عريب ، بن زيد ، بن كهلان . قال وسُمي الأشعر لأن أمه ولدته
 وهو أشعر . وجعله صاحب حماة من بني أشعر بن سبيل ، وهم رهط أبي موسى
 الأشعري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحثي الحادى عشر — من بني كهلان عاملة . وهم بنو عاملة ، وأسمه الحارث ، بن
 عفير ، بن عدى ، بن الحارث ، بن وبرة ، بن أدد ، بن زيد ، بن يشجب ، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان، وذو كرا أبو عبيد أن بنى عاملة هم بنو الحارث بن مالك،
يعنى ابن الحارث بن مرة بن أدد، وأنه كان تحتها عاملة بنت مالك بن وديع بن عفر،
ابن عدى، بن الحارث، بن مرة بن أدد فعرفوا بها . وذو كرا صاحب حماة لهم من
ولد عاملة بن سبيل. وقد ذكر الحمداني أن يجبال عاملة من بلاد الشام بهم الجمل الغفير.

الضرب الثاني

(من العرب الباقيين على ممر الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهري : ويقال لهم المتعربة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما
السلام، سُموا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العبرانية أو السريانية، فلما
نزل جرهم من القحطانية عليه وعلى أمه بمكة المشرفة، تزوج منهم، وتعلم هو وبنوه
العربية من جرهم المذكورين فسُموا لذلك المستعربة . وأعلم أن الموجودين من
العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عدنان بن أدد المقدم ذكره في عمود
النسب على خلاف في نسبه إلى إسماعيل يطول ذكره . قال في العبر: ومضى عدا عدنان
من ولد إسماعيل قد انقرضوا، ولم يبق لهم عقب، ولذلك عرفت هذه العرب بالعدنانية .

ثم العدنانية صنفان :

الصنف الأول : من بنى إسماعيل بن أدد المقدم ذكره في عمود النسب ستة أصول :

الأصل الأول : بن معد بن عدنان ، والمتفرع منه على حاشية عمود

النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى - إياد (بكسر الهمزة ودال مهملة في الآخر) وهم بنو إياد بن نزار

المقدم ذكره : قال المؤيد صاحب حماة وفارق إياد الحجاز وسار بأهله إلى أطراف

العراق فأقام به .

ومن إياد قُس بن ساعدة الإياديّ، وكعبُ بن مَامة الذي يضرب به المثل في الكرم؛ يقال إنه كان معه ماء لا يفضل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقه ومات عطشا.

القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة في الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدم ذكره؛ وقد اختلف في تعقيبه، فذهب ذاهبون إلى أنه ذهب إلى اليمن ونزل بالسراوات من مشارق اليمن، وتناسل بنوه بها فعدوا في اليمنية؛ وذهب آخرون إلى أنه لا عقب له إلا من بنتٍ له زوجها لأراش من اليمنية، فولدت له أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمنية؛ فبنو أنمار المعدودون في اليمنية هم بنو أنمار بن أراش المقدم ذكره في اليمنية من بنت أنمار بن نزار؛ ولذلك وقع اللبس فيهما، قاله السهيلي.

القبيلة الثالثة — ربيعة، وهم بنو ربيعة بن نزار ويعرف بريعة الفرس: لأن أباه نزاراً أوصى له من ماله بالخليل. قال في "مسالك الأبصار" وبالرحبة قوم منهم. ولربيعه بطنان. وهما أسد، وضبيعة أبنا ربيعة، ولكل منهما عدة أخفاذ، وديارهم إلى الآن بالجزيرة الفراتية تُعرف بديار ربيعة. أما أسد فأكثرهما أخفاذا.

فمن أسد بنو عترة (بفتح العين المهملة والنون والزاي وهاء في الآخر) وهم بنو عترة ابن أسد المقدم ذكره؛ وكانت منازلهم خير من ضواحي المدينة. وجديلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء في الآخر) وهم بنو جديلة بن أسد المقدم ذكره، والنسبة إليهم جدليّ بحذف الياء بعد الدال.

ومن جديلة عبد القيس؛ وهم بنو عبد القيس، بن أفضى، بن دُعْمَى، بن جديلة. قال في العبر: وكانت ديارهم يتهامة حتى خرجوا إلى البحرين وزاحموا من بها من بكر بن وائل وتميم، وقاسم وهم المواطن، والنسبة إليهم عبديّ، ومنهم من ينسب إليهم عبديّ قيسيّ، وبعضهم يقول عبّقيّ.

ومن عبد القيس هؤلاء الأئبج الذي قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم "إنَّ فيك نَحْصَلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الحِلْمُ والأَنَاةُ".

ومن جديلة أيضا بنو النمر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسط بن هنب ابن دُعْمَى بن جديلة . قال في العبر وديارهم رأس العين من أعمال الجزيرة الفُراتية .

ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحت) وهم بنو وائل بن قاسط بن هنب ابن أفضى ، بن دُعْمَى ، بن جديلة المقدم ذكره .

ومن وائل بكر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتغلب (بالتاء المثناة في أوله والغين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب أبني وائل المقدم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب ملك بني وائل الذي قتله جَسَّاس ، وهاجرت بسببه الحرب المعروفة بالبُسُوس أربعين سنة .

ومن تغلب أقوام بزرع ، وبُصْرَى ، وبالقريتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بيجينين وبلادها ، وبالرحبة قوم منهم .

ومن بني تغلب كانت بنو حمدان ملوك حلب قديما .

ومن بكر بن وائل شيبان ، وهم بنو شيبان بن ثعلبة ، بن عكابة ، بن صعب ، بن

علي ، بن بكر .

ومن بني شيبان هؤلاء مرة وأبنة جَسَّاس قاتل كليب المذكور . ومنهم طرفة

ابن العبد الشاعر .

...ومن بني شيبان أيضا سدوس (بفتح السين المهملة في أوله وسين ثانية في آخره)

وهم بنو سدوس بن دُهل بن شيبان .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حنيفة رهط مسيلمة الكذاب الذى تنبأ فى زمن النبى
صلى الله عليه وسلم ، وقيل فى خلافة الصديق رضى الله عنه ، وهم بنو حنيفة بن
لحيم ، بن صعّب ، بن على ، بن بكر ، بن وائل .

ومن بكر أيضا بنو عجل ، بن لحيم ، بن صعّب ، بن على ، بن بكر ، بن وائل . قال
فى العبر : وكانت منازلهم من اليمامة إلى البصرة ؛ قال ثم خلفهم الآن فى تلك البلاد
بنو عامر المتفق ، بن عقيل ، بن عامر ، بن صعصعة . وذكر الحمدانى أن بلادهم
فى زمانه الجزيرة من بلاد حلب وأنه كان لهم دولة بالعراق .

وأما ضبيعة بن ربيعة (بضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة تصغير ضبعة)
وهى قبيلة لم تكثر بطونها . ومنهم المتلمس الشاعر الباهلى المشهور .

الأصل الثانى - مضر (بضم الميم وفتح الضاد المعجمة) وهو مضر بن نزار المقدم
ذكره ، ويعرف بمضر الحمراء : لأن أباه أوصى له من ماله بالذهب وما فى معناه ؛
وهى قبيلة عظيمة إلا أن أكثرها أندرج فيما بعدها لكونها على عمود النسب ،
وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بنابلس من بلاد الشام بقية من مضر ، وبالرحبة
رجال منهم ، وله على حاشية عمود النسب فرع واحد قد جمع عدة قبائل ، وهو قيس
وقد اختلف فى نسبه فقيل قيس بن عيلان (بالعين المهملة) وأسمه الناس (بالنون) ابن
مضر ؛ وقيل هو قيس بن مضر لصلبه ، وعيلان المضاف إليه قيل فرسه وقيل كلبه .
قال صاحب حماة : وجعل الله تعالى لقيس من الكثرة أمرا عظيما ، ولكثرة
بطونه غلب على سائر العدنانية حتى جعل فى المثل فى مقابل عرب اليمن قاطبة
فيقال قيس ويمين .

فمن قبائل قيس هَوَازُنْ ، وهم بنو هَوَازِنَ بن منصور بن عِكْرَمَةَ بن خَصَّفَةَ بن قيس عَيْلَانَ ، وهم الذين أغار عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسباهم .

ومن هوازن بنو سَعْدِ الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رضيعاً فيهم ، وهم بنو سَعْدِ بن بكر بن هوازِنَ . قال في العبر : وقد أفترق بنو سَعْدِ هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم سِجٌّ فَيُطْرَقُ إلا أن منهم فِرْقَةٌ بإفريقية من بلاد المغرب بنواحي باجّة يعسكرون مع جُند السلطان .

وقد ذكر ابن خلكان أن شاور السعدي وزير العاصد الفاطمي خليفة مصر منهم وإن كان الحمداني قد ذكر أنه من سَعْدِ جُندَامِ من القَحْطَانِيَةِ بالشرقية من الديار المصرية على ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعْصَعَةَ . وهم بنو عامر بن صَعْصَعَةَ بن معاوية ابن بكر بن هوازِنَ ، وإليهم يُنسَبُ مجنون بن عامر الشاعر الذي كان يُسَمَّى بليلى . ومن بنو عامر بن صعصعة بنو كلاب ، وهم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال في العبر : وكان لهم في الإسلام دولة باليمامة ، وكانت ديارهم حمى ضَرِيَّةً وهو حمى كُليب ، وحمى الرَبْدَةَ في جهات المدينة النبوية ، وفدك والعوالي ، ثم آتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم في الجزيرة الفراتية صِيَّةٌ وملكوا حَلَبَ ونواحيها ، وكثيرا من مدن الشام ، ثم ضَعُفُوا . قال ، وهم الآن تحت خِفارة الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر في "مسالك الأبصار" أنهم يُنسَبون إلى عبد الوهاب المذكور في سيرة البطلال وذكر أن اسمه عبد الوهاب بن نُوبُحْتِ .

ثم قال ، وهم بأطراف حلب ، وهم عرب غَزَّ يتكلمون بالتركية ، ويركبون الأكاديش ، ولهم غارات عظيمة ، وأبناء الروم وبناتهم لا يزالون يباعون من سباياهم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بني كلاب .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو هلال ، وهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة . قال الحمداني وكان لهم بلادٌ صعيد مصر كلها ؛ وذكرهم ابن سعيد في عرب بركة ؛ وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقية . قال في العبر : وكانت رياستهم أيام الحاكم العبيدي لماضي بن مقرب ، ولما بايعوا لأبي ركوته بالمغرب وقتله الحاكم ، سلط عليهم الحبوش والعرب فأفناهم ؛ وانتقل من بقي منهم إلى المغرب الأقصى فهم مع بني جشم هناك . وذكر الحمداني أن بحلب طائفة منهم ، ثم صار لهم بلاد أسوان وما تحتها . ثم قال : وبنو عجم منهم بنو قرة ، إلى عذاب ؛ وبساقية قلعة منهم بنو عمرو وبنوهم ، وهم بنو رفاعة ، وبنو حجير ، وبنو عزيز . وبأصفون وإسنا منهم بنو عقبه ، وبنو جميلة .

ومن بني هلال حرب فيما ذكره ابن سعيد . قال الحمداني ، وهم ثلاث بطون بنو مسروح ، وبنو سالم ، وبنو عبيد الله . قال : ومساكنهم الحجاز ومن حرب زبيد الحجاز فيما ذكره الحمداني ، وذكر أن منهم بنو عمرو . ثم قال : ومن بني عامر عمير بن عامر ابن صعصعة . قال في العبر : وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام بعددوني الفرات . قال وهم إحدى جمرات العرب ، وكان لهم كثرة وعدة في الجاهلية والإسلام ، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حران وغيرها ، ثم غلبهم عليها خلفاء بني العباس أيام المعتز بالله فهاكوا بعد ذلك وبادوا .

ومن بني عامر بن صعصعة أيضا بنو عقيل (بضم العين المهملة وفتح القاف) وهم بنو عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . قال في العبر : وكانت

مساكنهم بالبحرين في كثير من قبائل العرب، وكان أعظم القبائل هناك بنو عَقِيل هؤلاء، وبنو تغلب وبنو سليم، وكان أظهرهم في الكثرة والغلب بنو تغلب؛ ثم اجتمع بنو عَقِيل وبنو تغلب على بنى سليم فأخرجوهم من البحرين؛ ثم اختلف بنو عَقِيل وبنو تغلب بعد مدة فغلب بنو تغلب على بنى عَقِيل فطردوهم عن البحرين، فساروا إلى العراق، وملكوا الكوفة والبلاد الفراتية وتغلبوا على الجزيرة والموصل، وملكوا تلك البلاد؛ وكان منهم المقلد وقرواش وقريش وأبنة مسلم ملوك الموصل، وبقيت بأيديهم حتى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق، فتحولوا عنها إلى البحرين حيث كانوا أولا فوجدوا بنى تغلب قد ضعف أمرهم فغلبوهم على البحرين، وصار الأمر بالبحرين لبنى عَقِيل .

ومن بنى عَقِيل هؤلاء آل عامر، وهم بنو عامر بن عَقِيل المذكور، وهم الذين بيدهم بلاد البحرين . قال ابن سعيد : سألت أهل البحرين في سنة إحدى وخمسين وسبعائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا : الملكة بها لبنى عامر بن عَقِيل، وبنو تغلب من جملة رعاياهم؛ على أن الحمداني قد وهم فقال : وهم غير عامر المتفق، وعامر بن صعصعة، وتبعه على ذلك في "مسالك الأبصار" . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفة من بنى عَقِيل

ومن بنى عَقِيل أيضا بنو عبادة (بضم العين المهملة و بالباء الموحدة والdal المهملة) وهم بنو عبادة بن عَقِيل . قال ابن سعيد: ومنازلهم بالجزيرة الفراتية مما يلي العراق لهم عدد وكثرة . قال : ومنهم الآن بقية بين الخازر والزاب، يقال لهم عرب شرف الدولة في تجل وعُدَد، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال : وهم عدد قليل نحو المائة فارس .

ومن بنى عُقَيْلٌ أيضا خَفَاجَةَ (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجم مفتوحة بعد الألف وهاء في الآخر) وهم بنو خَفَاجَةَ بن عمرو بن عُقَيْلٍ ، وفيهم الإمرة بالعراق إلى الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو جُشَمٍ (بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وميم في الآخر) وهم بنو جُشَمٍ بن معاوية بن بكر بن هَوَازِنَ . قال في العبر : وكانت مساكنهم بالسَّرَوَاتِ ، وهي تلال تفصل بين تِهَامَةَ ونجد ، متصلة من البحرين إلى الشام كسَرَوَاتِ الجبل . قال : وسَرَوَاتِ جُشَمٍ متصلة بسَرَاةِ هُدَيْلٍ . ثم قال : وقد أنتقل بعضهم إلى المَغْرِبِ ، وهم الآن به ، ولم يبق بالسَّرَاةِ منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة : ومن جُشَمٍ هؤلاء دُرَيْدُ بن الصَّمَّةِ .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح التاء المثناة وكسر القاف وسكون الياء وفاء في الآخر) وهم رَهْطُ الحجاج بن يوسُفَ : وهم بنو ثَقِيفٍ وأسمه قَيْسُ بن مُنَبِّه بن بكر بن هَوَازِنَ ؛ ويقال إنهم من إياد بن نِزَارِ المقدم ذكره . وعن بعض النسابة أن ثَقِيفًا من بقايا ثَمُودَ ، وكان الحجاج ينكره ويقول كذبوا ، قال الله تعالى : ﴿ وَثَمُودَ فَاذْبُقْ ﴾ أى أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال في العبر : وثَقِيفُ بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف : وهي مدينة من أرض نجد على مرحلتين من مكة في شَرْقِيَّهَا وشَمَالِيَّهَا كانت في القديم للعالمقة ، ثم نزلها ثَمُودُ قبل وادي القُرَى : ويقال إن الذي سكنها بعد العالمقة عَدَوَانُ . ثم غلبهم عليها ثَقِيفٌ فهي الآن دارهم .

ومن قبائل قيس أيضا باهَلَةُ ، وهم بنو سَعْدِ مَنَاة بن مالك بن أعْصَرَ ، وأسمه مُنَبِّه ابن سعد بن قَيْسِ عِيلَانَ ؛ وجعلهم في العبر بنى مالك بن أعْصَرَ . وباهلة أُمُّ سَعْدِ مَنَاة عُرْفُوها بها : وهي باهلة بنت صَعْبِ بن سعدِ العشييرة من مَدْحِجٍ ، منهم أبو أمامة الباهلي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازين ، وهم بنو مازين بن منصور بن خصفة بن قيس
عيلان . قال في العبر : وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غطفان بن قيس عيلان . قال في العبر : وهم بطن متسع
كثير الشعوب والبطون . قال : وكانت منازلهم مما يلي وادى القرى وجبلى طي أجا
وسامى ، ثم تفرقوا في الفتوحات الإسلامية ، وأستولى على مواطنهم هناك قبائل طي .

ومن بطون غطفان بنو عبس (بفتح العين وسكون الباء الموحدة وسين مهملة
في الآخر) وهم بنو عبس بن بغيض بن ريث بن غطفان . منهم زهير بن قيس
صاحب حرب داحس والغبراء . وهما فرسان كانت إحداهما وهي داحس لعبس^(١)
والأخرى وهي الغبراء لفزارة فأجريت فوق الحرب بسببهما .

ومن عبس هؤلاء عنزة بن شداد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غطفان أشجع (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة
في الآخر) وهم بنو أشجع بن ريث بن غطفان . قال في العبر : وكانوا هم عرب
المدينة النبوية ، وكان سيدهم معقل بن سنان الصحابي . قال : ولم يبق أحد منهم
ب نجد إلا بقايا حول المدينة . ثم قال : وبالمغرب الأقصى منهم حتى عظيم يطعنون مع
عرب معقل بجهات سجلماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غطفان أيضا ذبيان ، قال الجوهرى (بكسر الذال يعنى المعجمة وضمها) وهم
بنو ذبيان بن ريث بن غطفان ومنهم النابغة الذبياني الشاعر المشهور .

ومن ذبيان فزارة (بفتح الفاء والزاي والراء المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو فزارة
ابن ذبيان . قال في العبر : وكانت فزارة بنجد وادى القرى ، فلم يبق منهم بنجد أحد .

(١) أنت الفرس المسمى بداحس ومقتضى القاموس تكبيره وقد صرفه فيه فليحزر .

ونزل جيرانهم من طيِّم مكانهم . وذكر أن بأرض بركة إلى طرابلس الغرب منهم قبائل : رَواحة ، وهيت ، وفزان . قال : وبإفريقية والمغرب منهم الآن أحياء كثيرة اختلطوا مع أهلها ، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصى إلى الاستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبي الليل من شعوب بني سليم ، يستظهرون بهم في مواقف الحرب ، وقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . ثم قال وفي بركة ببلاد هيت جماعة منهم نازلون بها ، ومنهم طائفة بصحراء المغرب . قال الحمداني : ومنهم بالديار المصرية جماعة بالصعيد ، وجماعة بضواحي القاهرة في قلوب وما حولها ، وبهم عرفت القرية المسماة بخراب فزارة هناك . ومن فزارة بنو مازين ، وبنو بدر ، فأما بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة ، وأما بنو بدر فهم بنو بدر بن عدى بن فزارة : قال في العبر ، وفيهم كانت رئاسة بني فزارة في الجاهلية ، يرأسون جميع غطفان وتدين لهم قيس وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدى ، ومنهم كان حذيفة بن بدر صاحب القرس المعروفة بالقبراء المقدم ذكرها ، ومن بني بدر هؤلاء وبني عمهم بني مازن جماعة بالقبليوية من الديار المصرية .

قلت : وبنو بدر هم قبيلتنا التي إليها نعتري ، وفيها نتاسب ، وأهل بلدتنا قلقشندة نصفهم من بني بدر ونصفهم من بني مازن .

ومن قبائل قيس أيضا بنو سليم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان . قال الحمداني : وهم أكبر قبائل قيس . وكان لسليم من الولد بهته (بضم الباء الموحدة في أوله وفتح المثناة بعد الهاء) ^(١) ومنه جميع أولاده . قال في العبر : وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر .

(١) ذكره في القاموس في باب الناء المثلثة فقال وبهته رجل من سليم فتنبه .

ومن منازلهم حرة سُلَيْم ، وحرة النار بين وادي القرى وتَيْمًا . قال : وليس لهم الآن نجد عدد ولا بقية . ثم قال : وبإفريقية منهم حتى عظيم ، وقد تقدم أنه كان منهم جماعة بالبحرين فغلبهم عليها بنو عقيل بن كعب وبنو تغلب . وقال الحمداني : ومساكنهم بركة مما يلي المغرب ومما يلي مصر . قال : وفيهم الأبطال الأبطال ، والخيال الحيات . قال في العبر : وقد استولوا على بركة ، وهي إقليم طويل واسع الأطراف ، وخرّبوا مدنه ولم يتركوا بها ولاية ولا إمرة إلا لمشايخهم . قال في "مسالك الأبصار" : والإمرة الآن فيهم في بني عزاز ، وهي الآن في زماننا لبني عريف .

ومن سُلَيْم هؤلاء لبيد بركة ، وهم بطون كثيرة العدد .

ومن قبائل قيس عدوان (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون في الآخر) وهم بنو عدوان وأسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . قال أبو عبيد : وسمى عدوان لأنه عدا على أخيه فهم فقتله . قال في العبر : وهم بطن متسع ، وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إبادٍ والعاقلة ، ثم غلبهم عليها ثقيف ، فخرجوا إلى تهامة . وبإفريقية الآن منهم أحياء بادية . وقد عدّ الحمداني عدوان من عرب بركة الحجاز من أحلاف آل فضل من عرب الشام ، فيحتمل أنهم هؤلاء وأنهم غيرهم .

الأصل الثالث - إلياس (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المشناة تحت وسين بعد الألف) وهو إلياس بن مضر المقدم ذكره ، وكانت تحته خندف (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء في الآخر) وهي خندف بنت حُلوان ابن عمران بن الحافي بن قضاة ، فعرف بنوه بها فقيس لهم خندف : لأن زوجها

إلياس رآها يوما تمشى ، فقال لها : مالك تُخَدِّفين ؟ والخَدْفَةُ أن يقلب ظهر قدمه إلى الأرض عند مشيه . وله فرعان علي حاشية عمود النسب .

الفرع الأول — طابِجَةُ (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء في الآخر) وهم بنو طابِجَةَ ، وأسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر ، وسمى طابِجَةَ لأنه كان هو وأخوه مدرِكَةُ الآتى ذكره علي عمود النسب ، وكان اسمه عامرا ، في إبل لهما فصادا صيدا ، وقعدا يطْبُخانه فعدت عادية علي إبلهما فاستاقتها ، فقال عامر لعمرو أتدرك الإبل أم تطبخ الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبخ الصيد ، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاء أباهما أخبراه الخبر ، فقال لعامر : أنت مدرِكَةُ . وقال لعمرو : أنت طابِجَةُ فسميا بذلك .

ويتفرع عن طابِجَةَ قبائل كثيرة .

فن قبائل طابِجَةَ تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر) وهم بنو تميم بن مُرَّ بن مُرَّاد بن طابِجَةَ . قال في العبر : وكانت منازلهم بأرض نجد دائرة من هنالك علي البصرة واليمامة ، وأمتدت إلى العُدَيْب من أرض الكوفة ، ثم تفرقوا بعد ذلك في الحواضر ، ولم يبق منهم بادية ، وورث مساكنهم غزيرة من طي وخفاجة من بني عُقَيْل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر ، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم ، وإليهم يُنسَب جَدِيلَةُ ابن عبد الله العنبري الصحابي .

ومن بطون تميم بنو حَنْظَلَةَ وضبطه معروف ، وهم بنو حَنْظَلَةَ بن مالك ابن زيد مناة بن تميم ، ويقال لهم حَنْظَلَةُ الأكرمون . قال الجوهري : وهم أكبر قبيلة في تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تَحْتُ وسكون الراء المهملة وضم الباء
الموحدة وسكون الواو وعين مهملة في الآخر) ؛ وهم بنو يَرْبُوع بن حنظلة .

ومن بنى يربوع بنو العنبر بن يربوع ؛ ومنهم سَبَّاح التي تنبأت في زمن مسليمة
الكذاب وهم غير بنى العنبر المقدم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضَبَّة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال في العبر :
وكانت ديارهم بالناحية الشمالية من نجد بجوار بنى تميم ثم أنتقلوا في الإسلام إلى
العراق ، وهم الذين قتلوا المنبهي الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزَيْنَة (بضم الميم وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت
وفتح النون وهاء في الآخر) وهم بنو عثمان وأوس ، أبى عمرو ، بن أد بن طابخة ، ومُزَيْنَة
أُمهما عُرْفُوا بها ؛ وهى مزينة بنت كَلْب بنِ وَرَة . ومنهم كَعْبُ بن زهير ناظمُ
الفصيصة المعروفة بِبَانتِ سَعاد ، وإليهم يُنسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزني
صاحب الإمام الشافعي رضى الله عنه .

الفرع الثاني — قَمَّعة (بفتح القاف والميم والعين المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو
قَمَّعة بن إلياس بن مضر . قال الجوهري إن أباه سماه قَمَّعة لما أنقمع في بيته أى
أنقهر وذلل ولم يشتهر عقبه .

الأصل الرابع — مُدْرَكة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة
وفتح الكاف وهاء في الآخر) وهم بنو مدركة بن إلياس بن مضر ؛ وقد تقدم سبب
تسميته مدركة . وله فرع واحد على حاشية عمود النسب وهو هُدَيْل (بضم الهاء
وفتح الدال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام في الآخر) وهم بنو هُدَيْل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لها بطون كثيرة والنسبة إليها هُدَلَى بحذف الياء بعد الذال ، وإليهم يُنسَب عبد الله بن مسعود الصحابى رضى الله عنه .

الأصل الخامس — نُزَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو نُزَيْمَة بن مُدْرِكَة . وله فرعان على حاشية عمود النسب ، وهما الهون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهون بن نُزَيْمَة ، وهى قبيلة مشهورة .

ومن بطون الهون عَضَد (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر) ، وهم بنو عَضَد بن الهون .

ومن بطون الهون أيضا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الديش بن مُلَيْح بن الهون ، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَضَد والديش القارة . قال أبو عبيد : وُسِّمُوا بذلك لأن الشَّدَاخ اللبثى أراد أن يفرقهم فى بطون كناية فقال بعضهم : دَعُونَا قارةً لا نتفرق فُسِّمُوا القارة .

وأما أسد وضبطه معروف ، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر : ومنازلهم مما يلى الكرخ من أرض نجد فى مجاورة طي . قال : ويقال إن بلاد طي كانت لبني أسد ، فلما خرج بنو طي من اليمن تغلبوا على أجا وسلمى ، وتفرق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حى . قال ابن سعيد : وبلادهم الآن لطي . قال فى "مسالك الأبصار" : وبغسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

ومن بطون أسد الكاهلية ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دودان بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كنانة بن خزيمه؛ وهي قبيلة عظيمة اشتهرت على عمود النسب . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بالإخيمية من صعيد الديار المصرية يُعرفون بكنانة طلحة، وذكر في "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قدموا الديار المصرية في وزارة الصالح طلائع بن رزيق ونزلوا دمياط وما حولها . وله على حاشية عمود النسب خمسة فروع:

الفرع الأول — ملكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون في الآخر) ، وهم بنو ملكان بن كنانة .

الفرع الثاني — عبد مناة بإضافة عبد إلى مناة (بميم مفتوحة بعدها نون)، وهم بنو عبد مناة بن كنانة، ولهم عدة بطون .

منهم غفار (بكسر الغين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف) ، وهو بنو غفار ابن عبد مناة بن كنانة ، وهم رهط أبي ذر الغفاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غفار غفر الله لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة؛ ومن بكر هؤلاء الدئل . وهم بنو الدئل بن بكر ابن عبد مناة؛ وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلي واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

ومنهم بنو ليث؛ وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناة منهم الصعب بن جثامة الليثي الصحابي رضي الله عنه . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بساقية قلنة بالإخيمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بلحارث؛ وهم بنو الحارث بن عبد مناة .
 ومنهم بنو مُدْج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجميم في الآخر) ،
 وهم بنو مُدْج بن مُرة بن عبد مناة . وفي بنى مُدْج هؤلاء علم القيافة، وهو إلحاق
 الأب بالأب ونحو ذلك بالشبه . ومنهم طائفة الآن بصرخد وحوران من بلاد الشام،
 وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو صَمْرَةَ (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء
 في الآخر) وهم بنو صَمْرَةَ، بن بكر، بن عبد مناة، وإليهم ينسب عمرو بن أمية الضمري
 صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم طائفة بساقية
 قُلْتَة وما يليها من بلاد إنجيم من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كَنَانَة؛ وإليه ينسب العمرِيُّون من بنى كَنَانَة .

الفرع الرابع — عامر بن كَنَانَة؛ ومنه العامريُّون من كَنَانَة .

الفرع الخامس — مالك بن كَنَانَة . ومن عقبه بنو فراس، بن غنم، بن ثعلبة، بن
 الحارث، بن مالك . وفي بنى فراس هؤلاء يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 رضى الله عنه لبعض من كان معه : "لَوِدِدْتُ أَنْ يَكُونَ لِي بِأَلْفٍ مِنْكُمْ سَبْعَةٌ مِنْ بَنِي
 فِرَاسِ بْنِ غَنَمٍ" . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة بساقية قُلْتَة وما يليها من الإنجيمية
 بمصر . وذكر الحمداني أيضا أن من كَنَانَة بنُ حَزِيمَة طائفة بصعيد مصر بالأشْمُونِيَّينَ
 وما حولها تُعْرَفُ بِكَنَانَة طَلْحَة .

الصنف الثاني من العرب العدنانية — قُرَيْش (بضم القاف وفتح الراء المهملة)،
 وهم بنو النَّضْر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) ابن كَنَانَة وقيل في تسميته بذلك إنه
 كان في سفينة يجمر فارس إذ خرجت عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيْش فخافها أهل

السفينة على أنفسهم فأخرج لهما من كائنه ورمها فأثبتها، ثم قُرِّبَت السفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلى مكة فسُمِّيَ باسمها . وقيل سُمِّيَ بنوه بذلك لغلبيتهم القبائل وقهرهم إياهم، تشبيها بالدابة المقدم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دواب البحر وقيل أخذنا من التقرش، وهو الاجتماع لأن قَصِيًّا جمعهم عليه عند ولايته أمر قريش . وقيل لتجارتهم أخذنا من التقرش، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول على عمود النسب :

الأصل الأول — فِهْر بن مالك، ويتفرع عن فِهْر على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو الحارث، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بنى الحارث هؤلاء بنو الجراح رهط أبي عبيدة بن الجراح، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوع لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فِهْر، المقدم ذكره . ومنهم الضحَّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثاني — غالب بن فِهْر . ويتفرع عنه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة، وهم بنو الأدرم بن لؤي بن غالب^(١)، والأدرم هو الناقص الذَّقْن .

الأصل الثالث — لؤي بن غالب . ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — سعد، وهم بنو سعد بن لؤي بن غالب، كان له من الولد عمار، وعمارى، ومخزوم، من أمرأته بُنَانَة (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفون فيقال لهم بنو بُنَانَة، ومنهم أبو الطَّفِيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فيه نظر فإن تيم الأدرم ابن غالب كما في القاموس في مادة تى م فعل لفظ ابن لؤي بما طغى به فلم الناصح .

القبيلة الثانية — نُزَيْمَة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاي) وهم بنو خزيمية بن لؤي ؛ وكان تحتها عائدة (بالعين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الحِمْس بن خُفَافَة فَعُرِفَ ولده بها فقبيل لهم بنو عائدة .

القبيلة الثالثة — بنو عامر ، وهم بنو عامر بن لؤي ، وكان له من الولد حِمْسَل وبَيْض . ومن ولد حِمْسَل سُهَيْل بن عمرو الذي عقد الصُّلح مع النبي صلى الله عليه وسلم ، يوم الحُدَيْبِيَّة لقريش ؛ ومنهم عمرو بن عبد ود العامريّ فارس العرب الذي قتله عليّ بن أبي طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لؤي بن غالب ، ويتفرع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — هُصَيْص (بضم الهاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت وصاد مهملة في الآخر) . ومن هُصَيْص بنو سَهْم ، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وكانت خُطَّة بنى سَهْم بفسطاط مصر حول الجامع العتيق . وقد ذكر الحمدانيّ أن من بنى عمرو بن العاص أشتناً بالصعيد ، ولهم حصّة في وقف عمرو عليّ أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهملة في الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْص المقدم ذكره ؛ ومنهم أمية بن خلف عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عديّ ، وهم بنو عديّ بن كعب ؛ ومنهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه وسعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالحنّة ؛ وقد ذكر القاضي شهاب الدين بن فضل الله في "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عديّ جماعة إلى الديار المصرية في وزارة الصالح طلائع بن رُزَيْك وزير الفاتر الفاطميّ .

ومنهم رجال من بنى عُمر بن الخطاب رضى الله عنه ومقدمهم خَلَف بن نصر العُمري وأنهم لقوا من الصالح طلائع بن رُزَيْك وافر الإكرام ، ونزلوا بالبُرُس^(١) من سواحل الأعمال الغربية . وذكروا أن من العُمريين ببلاد الشام فرقة بوادى بنى زيد وفرقة بعجلون .

الأصل الخامس — مرة بن كعب ، ويتفرع عنه قبيلتان على حاشية عمود النسب :

القبيلة الأولى — تيم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وطلحة أحد العشرة المقطوع لهم بالحنة . وقد ذكر الحمداني أن من بنى الصديق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبي بكر رضى الله عنه جماعة بالأشْمُونِيْنَ والبهنسائية من صعيد مصر . قال الحمداني ، وهم ثلاث فرقهم وأقرباؤهم وأطلق على الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولى منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنما هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسموا به . والفرقة الثانية فضاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشنات كثيرة في البلاد لاحد لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، ومنازلهم بالبرجين وسفط سُكْرَة ، وطحا المدينة من بلاد الأشْمُونِيْنَ فيما ذكره الحمداني ، وأكثرهم الآن بدھروط من البهنسائية ، وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهبي الإمامين : مالك والشافعي رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يقظة ، وهم بنو يقظة بن مرة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاي وسكون الواو وميم في الآخر) وهم بنو مخزوم بن

(١) قال ياقوت برلس بفتحتين وضم اللام وتشديدها وفي القاموس برلس بالضات وشدة اللام .

يَقْظَةَ بن مُرَّة بن كعب ، وبه أشتهرت القبيلة دون أبيه يَقْظَةَ لكثرة عقبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهل . ابن هشام عدو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخوه العاص بن هشام ، قُتِلَا يوم بدر كافرين ، وأخوهما سلمة بن هشام ، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سعيد بن المسيب التابعي المشهور ، وقد ذكر الحمداني أن من بني مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأشمونين وفيهم بأس وشدّة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الحجاز . وذكر أن كلا منهم يدعى بنوّة خالد بن الوليد رضى الله عنه . ثم قال : وقد أجمع أهل العلم بالنسب على أنقراض عقبه . قال ولعلهم من سواه من بني مخزوم فهم أكثر قریش بقيّة وأشرفهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرَّة ، ويتفرع منه على حاشية عمود النسب قبيلة واحدة ، وهى زُهْرَة (يضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهْرَة بن كلاب بن مُرَّة قاله أبو عبيد وغيره . وقد ذكر الجوهري أن زُهْرَة اسم امرأة كلاب نُسب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف . كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالحنّة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومنهم آمنَةُ بنتُ وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمداني أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَيّ بن كلاب بن مرة ، وكان قُصَيّ عظيماً فى قریش ، وهو الذى جمعهم بعد التفرق ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبُوكُمْ قُصَيٌّ حِينَ يَدْعَى جُمُعًا * بِهِ جَمَعَ اللَّهُ الْقَبَائِلَ مِنْ فِئْرِ

وآرتجح مفاتيح الكعبة من خُرَاعَة بعد أن كانوا آتزعوها من بنى إسماعيل على ما تقدم ذكره . ويتفرع منه على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو عبد الدار ، وهم بنو عبد الدار بن قُصَيٍّ ، ويبدأ بيده كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَيٍّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبي عَبْشَانَ الخُزَاعِيَّ ، أرسلها مع آبنه عبد الدار هذا إلى البيت وقال : يا بنى إسماعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالى إليكم . فبقيت بيده من حينئذ ، ومن ولده عثمان بن طَلْحَةَ الحَجَبِيَّ الذى آتزع النبي صلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّةِ الوداع حين طَلَبها منه لتَدْخُلَ عائِشَةُ رضى الله عنها البيت ليلا فامتنع من ذلك وقال : إن الكعبة لم تُفْتَحَ ليلا قط فانزل الله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأعادها إليه وقال ” هِيَ فِيكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ “ . وقد ذكر فى المسالك أن بجماعة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بنو شيبَةَ بن عثمان المقدم ذكره ، ابن طلحة ، بن أبى طلحة ، بن عبد العزى ، بن عثمان ، بن عبد الدار ، وهم حَجَبَةُ الكعبة ، ومفاتيحها بيدهم إلى الآن . وقد ذكر الحمدانى أن من بنى شيبَةَ هؤلاء قوما بصعيد مصر بسفط وما يليها من بلاد الهندسائية يعرفون بجماعة نَهَار .

القبيلة الثانية — بنو عبد العزى ، وهو عبد العزى بن قُصَيٍّ ، منهم هَبَّار بن الأسود كان يهجو النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فحُسن إسلامه ومدحه . ومن بنى عبد العزى هؤلاء بنو أسد ، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدم ذكره . ومن بنى أسد هؤلاء الزبير بن العوام ، أحدُ العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أم المؤمنين ، زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وورقة بن نوفل الذي
 أنته خديجة في أمر النبي صلى الله عليه وسلم ، في ابتداء النبوة حين جاءه الملك
 بحراء . وقد ذكر الحمداني أن من بنى الزبير طائفة بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما
 يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بنو بدر ، وبنو مصلح ، وبنو رمضان .
 ومن بنى مضعب بن الزبير جماعة يعرفون بجماعة محمد بن وراق . ومن ولد عروة
 ابن الزبير بنو غنى .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصي ، ولبنى عبد مناف في قريش النسب
 الصميم ، والحسب الكريم ، وإلى هذا أشار أبو طالب بقوله :
 إِذَا أَفْخَرْتَ يَوْمًا قُرَيْشٌ بِمَفْخَرٍ * فَعَبْدُ مَنْفٍ أَصْلُهَا وَصِمِيمُهَا
 ويتفرع منه على حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — بنو عبد شمس بن عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أمية ؛ وهم
 بنو أمية الأكبر وأمية الأصغر أبى عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أمية الأكبر ، فكان له عشرة أولاد : أربعة منهم يسمون الأعياص ؛ وهم
 العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ، وستة يسمون العنابس ؛ وهم
 حرب ، وأبو حرب ، وسفيان ، وأبو سفيان ، وعمرو ، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومعاوية بن
 أبى سفيان بن حرب ، والحكم بن العاص . ومن ولده كانت المرأونة خلفاء بنى أمية .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العبلات ، ومن عقب أمية الأصغر الثريا بنت
 عبد الله بن الحارث بن أمية ، التي كان يشبب بها عمر بن أبى ربيعة ، وكان تزوجها
 سهيل بن عبد الرحمن بن عوف ، وفيهما يقول عمر بن أبى ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثَّرِيًّا سُهَيْلًا * عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَتَّقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ * وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي

وقد اختلف في النسبة إلى أمية على مذهبين، أحدهما أنه أموي بضم الهمزة جريا على اللفظ في أمية، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبي حيّان في شرح التسهيل، الثاني أنه ينسب إليها أموي بفتحها لأن أمية تصغير أمة فإذا نسبت رددته إلى أصله وعليه اقتصر الجوهري .

(١)
القبيلة الثانية — نؤفل، وهم بنو نؤفل بن عبد مناف، ومنهم نافع بن طريب ابن عمرو بن نؤفل الذي كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان نؤفل وعبد شمس متآلفين فجرى بنوهما على ذلك .

القبيلة الثالثة — بنو المطلب، وهم بنو المطلب بن عبد مناف، وكان المطلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدم ذكره فجرى بنوهما على ذلك، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم "لم يفترق هاشم والمطلب في جاهلية ولا إسلام" . ومن بنى المطلب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وأسمه عمرو، وسمى هاشما لهشمه الثريد أيام المجاعة، وفي ذلك يقول الشاعر :

عَمْرُو الَّذِي هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِهِ * وَرِجَالُ مَكَّةَ مُسْتِنُونَ عِجَافُ

وآتمت إليه سيادة قريش . وكان له على حاشية عمود النسب أربعة أولاد . وهم نضلة، وأسد، وصيفي، وأبو صيفي، ولم يشتهروا كل الأشتهار .

الأصل العاشر — عبد المطلب بن هاشم، وكان له اثنا عشر ولدا : عبد الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم، وأبو طالب، والزبير، وعبد الكعبة، والعباس،

(١) كذا في سبائك الذهب أيضا والذي في العقد الفريد شافع بن طرب .

وضَرَّار، وحمزة، ومجمل، وأبو لهب، وقثم، والغيداق الملقب بالمقوم، والحارث أعمام النبي صلى الله عليه وسلم على خلاف في العدد فيهم . قال أبو عبيد : والعقب منهم لسته : حمزة والعباس رضى الله عنهما، وأبو لهب، وأبو طالب، والحارث، وعبد الله .

فأما عبد الله فمن ولده النبي صلى الله عليه وسلم، خلاصة الوجود، وزُبدة العالم . وأما العباس فمن ولده الخلفاء من زمن أبي العباس السفاح أول خلفائهم وهم جرا إلى المستعين بن المتوكل خليفة العصر . وأما حمزة فقد ذكر ابن حزم وغيره أن عقبه انقرض . وأما أبو طالب فله ثلاثة أولاد، وهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وجعفر، وعقيل، فمن ولد أمير المؤمنين علي رضى الله عنه الحسن والحسين عليهما السلام، من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعقبهما قد ملأ الشرق والغرب، وقد ذكر الحمداني أن منهم بصعيد مصر جماعة من الجعافرة بنى جعفر الصادق من ولد الحسين بن علي وقال مسكنهم من بحرى منقلوط إلى سملوط غربا وشرقا، وعد من بطونهم الحيادة، وهم أولاد حيدة، والسلطنة، وهم أولاد أبي بجيش، وذكر أنه كان منهم الشريف حصن الدين بن تغلب صاحب دروة سرابم من الأشمونين، وبه عرفت بدروة الشريف، وكان قد سمت نفسه إلى الملك في أواخر الدولة الأيوبية وبقي حتى ملك الظاهر بيبرس، فأعمل له غوائل الغدر حتى قبض عليه وشنقه بالإسكندرية . قال ومن بنى الحسين قوم بحرجة منقلوط، وبنى الحسين هؤلاء تعرف القرية المسماة بنى الحسين . وفي أسبوط جماعة من أولاد جعفر الصادق يعرفون بأولاد الشريف قاسم . وذكر في "مسالك الإبطار" أن بسامية وحلب وبلادهما جماعة من بنى الحسين .

ومن ولد جعفر بن أبي طالب أقوام بلاد الشام بوادي بنى زيد، وبصرخدا
وبلادها جماعة من عامر بن هلال، يدعون أنهم من بنى جعفر بن أبي طالب أيضا .
وفي بعض قُرَى أذربِجات قوم يدعون أنهم منهم . وأما الحارث وأبولهب فقد ذكر
في العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمجمله .

الضرب الثالث

(من العرب الموجودين المتردد في عروبتهم)

وهم البربر (ببائين موحدتين مفتوحتين بينهما راء مهملة ساكنة وراء مهملة
في الآخر) . قال الجوهرى : ويقال فيهم البريرة والهاء للعجمة والنسب ولا يتمتع
حذفها . وقد اختلف في نسبهم اختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلى أنهم
من العرب . ثم اختلف في ذلك ف قيل أوزاع من اليمن ، وقيل من غسان وغيرهم
تفرقوا عند سبيل العرم قاله المسعودى ؛ وقيل خلّفهم أبرهة ذو المنار أحد تبابعة اليمن
حين غزا المغرب ؛ وقيل من ولد لقمان بن حمير بن سبأ ، بعث سرية من بنيهِ إلى
المغرب ليعمره ، فتلوا وتناسلوا فيه ؛ وقيل من نخم وجدام ، كانوا نازلين بفلسطين
من الشام إلى أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلبجئوا إلى مصر فمنعهم ملوكها
من نزولها فذهبوا إلى المغرب فنزلوه ؛ وذهب قوم إلى أنهم من ولد لقشان بن
إبراهيم الخليل عليه السلام . وذكر الحمداني أنهم من ولد بربر بن قيذار بن إسماعيل
عليه السلام ، وأنه ارتكب ذنبا فقال له أبوه البربر أذهب يا برفا أنت يبر ، وقيل
هم من ولد بربر بن ثميلا بن مازيع بن كنعان بن حام بن نوح عليه السلام ، وقيل
من ولد بربر بن كسلاجيم بن حام بن نوح ؛ وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو
ابن عملاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح ؛ وقيل من ولد قبط بن حام بن نوح ؛

وقيل أخلاط من كنعان والعاليق ؛ وقيل من حيمر ومصر والقبط ؛ وقيل من ولد جالوت ملك بني إسرائيل ، وإنه لما قتله داود تفرقوا في البلاد فلما غزا إفريقيش البلاد نقلهم من سواحل الشام إلى المغرب ، وهو الذي رجحه صاحب العبر . وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلى أنهم من العرب وإن لم يتحقق من أي عرب هم ، وهم قبائل متشعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ؛ وبديار مصر منهم طائفة عظيمة ، قال في العبر : وهي على كثرتها راجعة إلى أصلين لا تخرج عنهما : أحدهما البرانس ، وهم بنو برنس بن بربر . والثاني البتر ، وهم بنو مادغش الأبت بن بربر . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلى سبعة أصول ، وهي اردواحة ، ومصمودة ، وأوربة ، وعجبة ، وكامة ، وصنهاجة ، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة ، وهسكورة ، وكرولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الجم الغفير ؛ والذي تدعو الحاجة إلى ذكره من ذلك طائفتان :

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلى ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبه إليهم ، وهم ثلاث قبائل :

القبيلة الأولى — مضمودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر) وهم بنو مضمودة بن برنس بن بربر . قال في العبر : وهم أكبر قبائل البربر ، وأكثرهم عددا ، وأوسعهم شعوبا ، ومنهم الموحدون أصحاب المهدي بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلى الآن .

ومن مضمودة هتاتة (بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء في الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدي بن تومرت المقدم ذكره ، وهو الذي ينسب إليه الحفصيون ملوك إفريقية القائمون بتونس إلى الآن على ما سيأتي ذكره في الكلام على المسالك والممالك .

القبيلة الثانية — زِنَاة (بكسر الزاي وفتح النون وبعد الألف تاء مثناة فوق مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بطن من البُتر بن البربر . قال في العبر : وأسم زِنَاة جانا بالحم ويقال شانا بالشين ، ابن يحيى ، بن صولات ، بن ورساك ، بن ضرى ، بن رحيك ، بن مادغش ، بن بربر . ونقل ابن حزم عن بعضهم أن ضرى ، بن شقعو ، بن تبدواد ، بن ثملا ، بن مادغش ، بن هوك ، بن برسق ، بن كداد ، بن مازيع ، بن هراك ، ابن هريك ، بن بدا ، بن بديان ، بن كنعان ، بن حام ، بن نوح عليه السلام . وقيل : جانا ابن يحيى ، بن ضريس ، بن جالوت ، بن هريك ، بن جديلات ، بن جالود ، بن رديلات ، ابن عصى ، بن بادين ، بن رحيك ، بن مادغش الأبتري ، بن قيس عيلان ، وحينئذ تكون من العرب العدنانية . وقيل : جالوت ، بن جالود ، بن ديال ، بن قحطان ، بن فارس فتكون من الفرس . قال في العبر : وترجم نَسَابَة زِنَاة الآن أنهم من حمير من التبابعة فيكونون من القحطانية ؛ وبعضهم يقول إنهم من العالقة . وقد تقدم عددهم في العرب .

ومن زِنَاة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر) وهم بنو مَرِين ، بن ورتاجن ، بن ماخوخ ، بن وجريج ، بن فاتن ، ابن بدر ، بن يحفت ، بن عبد الله ، بن زرتييص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رحيك ، بن واشين ، بن نصبين ، بن سراء ، بن احيا ، بن ورسيك ، بن اديت ، بن جانا ، وهو زِنَاة .

ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلى الآن على ما يأتي ذكره في الكلام على المسالك والممالك إن شاء الله .

ومن زِنَاة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القائمون بها إلى الآن .

القبيلة الثالثة — صَنَاهَاة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهاء وألف بعدها جيم مفتوحة وهاء في الآخر) وهم بنو صَنَاهَاة ، بن برنس ، بن بربر .

وقيل صنّاج، بن أوريع، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من حمير من عرب اليمن
 قاله ابن الكلبي والطبري والبيهقي والمسعودي وعبد العزيز الجرجاني .
 وحكى ابن حزم : أن صنّاج إنما هو ابن امرأة اسمها بصلى وليس له أب معروف
 وأنها تزوجت بأوريع، وهو معها، فولدت له هوّارة، فكان صنّاج أخا هوّارة لأمة .
 ومن صنّاجة لمتونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المثناة فوق وفتح النون
 وهاء في الآخر) ؛ ومن لمتونة ملوك المرابطين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف
 ابن تاشفين باني مدينة مرّاكش من الغرب الأقصى ، وهم الذين أنقرض ملكهم
 بدولة الموحّدين .

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية . قال في العبر : وهم قبيلتان :
 القبيلة الأولى — هوّارة (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهملّة بعد الألف
 وهاء في الآخر) ، وهم بنو هوّارة بن أوريع ، بن برنس ، بن بربر . وذكر الحمداني أنهم
 من ولد برّ ، بن قيذار ، بن إسماعيل عليه السلام . قال في العبر : ونسأبتهم يقولون
 إنهم من عرب اليمن . فتارة يقولون إنهم من عاملة إحدى بطون قضاة ، وتارة
 يقولون إنهم من ولد المسور ، بن السكاسك ، بن وائل ، بن حمير ، وتارة يقولون من ولد
 السكاسك ، بن أشرس ، بن كندة ، فيقولون هوّار ، بن أوريع ، بن حيور ، بن المثني ،
 ابن المسور . وقد عدّ الحمداني من بطونهم بالديار المصرية بنى مجريش ، وبنى
 اسرات ، وبنى قطران ، وبنى كريب ، ولكنهم الآن قد آتست بطونهم ، وكثرت
 شعوبهم ، وصار لهم بطون كثيرة .

منها بنو محمد ، وأولاد مأمّن ، وبندار ، والعرايا ، والشللة ، وأشخوم ، وأولاد
 مؤمنين ، والرابع ، والروكة ، والبروكية ، والبهايل ، والأصابعة ، والدناجلة ، والمواسية

(١) في العبر بدون هاء التأنيث وقد اختلف الأصل الذي بيدها فتارة يثبتها وتارة يحذفها .

والبلاذ ، والصوامع ، والسدادرة ، والزبانية ، والخياشفة ، والطرده ، والأهله ،
وازلتين ، واسلين ، وبنو قير ، واتييه ، والتبابعة ، والغنائم ، وفزارة ، والعبادة ،
وساورة ، وغلبلان ، وحديد ، والسبعة . وذكروا في "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار
المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلى العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر على
ما ذكره إلى آخر المائة الثامنة في الدولة الظاهرية الشهدية برقوق فغلهم على البحيرة
زنازة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلى صعيد مصر ، ونزلوا به
بالأعمال الإنجمية في جرجا وما حولها . ثم قوى أمرهم ، وأشدت بأسهم ، وكثر
جمعهم ، حتى أنتشروا في معظم الوجه القبلي فيما بين أعمال قوص ، وإلى غربي الأعمال
الهنسائية ، وأقطعوا بها الإقطاعات ، وصارت الإمرة في بلاد إنجم لأولاد عمر ،
وفي أعمال البنسا وما حولها لأولاد غريب ، والأمر على ذلك إلى الآن .

(١)
القبيلة الثانية - لآوآة (بفتح اللام والواو والتاء المثناة وهاء في الآخر) قال
الحمداني : ويقال لآوآا بالألف ، وهم بنو لآوآا الأصغر ، بن لآوآا الأكبر ، بن رحيك ،
آبن مادغش الأبتز ، بن بربر . قال الحمداني : وهم يقولون إنهم من قيس من
غظان ، بن سعد ، بن قيس عيلان . وذكروا عن بعض النسائيين أنهم من ولد بر ، بن
قيدار ، بن إسماعيل عليه السلام ، وأنه تزوج امرأة من العاليق فولدت له أولادا
منهم لآوآة .

وحكى آبن حزم عن بعض النسابة : أن لآوآة من القبط . ثم قال : وليس بصحيح .
قال الحمداني : ولهم بمصر بطون كثيرة ، منهم بنو بلار ، وجد وخاص ، وبنو مجدول
و بنو جديدي ، وقطوفة ، وبركين ، ومالو ، ومزورة . قال : وبنو جديدي تجمع أولاد

(١) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط في باب التاء المثناة من فوق فليتنبه .

قريش، وأولاد زَعَاذِعَ، وهم أشهر مَنْ في الصعيد . وقطوفة تجمع مَغَاةً وواهلة .
وبركين تجمع بنى زيد وبنى روحين . ومزورة تجمع بنى وركان وبنى غرواسن .
ثم قال : فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسية، وهم بنو محمد، وبنو عليّ، وبنو زرار،
ونصف بنى شهلان .

وأما الفرقة التي بالجزية ، فبنو مجدول ، وسقارة، وبنو أبي كَثِيرٍ، وبنو
الجلاليس . قال : ويقال لهذه الفرقة جد وخاص ، ويقال للأولى البلارية ؛ ومنهم
مَغَاةٌ ، ولهم سَمْلُوطٌ إلى الساقية، ولبنى بركين قَلُوسًا وما معها إلى بحرى طَنْبَدِيٍّ ،
ولبنى جد وخاص الكفور الصولية، وسَقَطٌ أبو جرجا إلى طنبدى ، وإهريت . ومنهم
بنو محمد، وبنو عليّ المقدم ذكرهما، وأمرأؤهم بنو زعازع .

وأما مزورة، فبنو وركان ، وبنو غرواسن ، وبنو ججاز، وبنو الحكم ،
وبنو الوليد، وبنو الحجاج، وبنو الحرمة .

وأما بنو زرار . فمن بنى زرية ؛ ومنهم نصف بنى عامر، والحماسنة، والضباعنة ؛
وهم فى إمارة بنى زعازع . ومنهم أيضا بنو زيد وأمرأؤهم أولاد قريش، ومسكنهم
النَّوِيْرَةُ؛ وبالجزية منهم صلامس : عرب البدرشين ، وبنو منصور : عرب منية
رهينة، وبنو بَكْمَ : عرب سقارة، وبنو مجدول، وبنو يرنى، وبنو يوسف، وبنو
تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيى، والسوة، وعبيد،
ومصلة، وبنو مختار . ومن لوائنة هؤلاء زُنَّارَةٌ (بضم الزاى وتشديد النون وألف
ثم راء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم بنو زُنَّارَةَ من ولد بر، بن قيذار، بن إسماعيل
عليه السلام، وقال : إنه أخو هَوَّارَةَ ، وأكثر زُنَّارَةَ ببلاد المغرب ؛ ومنهم جماعة

(١) فى السباتك بنو الجلاليس بالجيم وحرر .

(٢) فى معجم ياقوت طنبدية بالذال المعجمة وهاء التانيث .

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدَّ الحمداني من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش ، وهم مزداشة ، وبنى صالح ، وبنى سام وزمران ، وأوريفة ، وعزهان ، ولفان . وزاد بعضهم بنى حيون ، وواكدة ، وفرطيطة ، وعرجومة ، وطازولة ، ونفات ، وناطورة ، وبنى السعوية ، ومزداشة ، وبنى أبى سعيد ، وهم عرب بدر بن سلام . ومن لوائه أيضاً مزانته (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر) ، وهم بنو مزانته ، بن لوائه الأصغر ، ومنازلهم من البحيرة غرباً إلى العقبة الكبيرة ببرقة .

المقصد الثالث

(فى معرفة أنساب العجم)

وهم من عدا العرب من الفرس ، والترک ، والرؤم ، وغيرهم . ويحتاج إلى ذلك فى المكاتب إلى ملوكهم ، وعقد الهدن معهم ، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة :

الأولى — الترك (بضم التاء المثناة فوق وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر) ، وهم الأمة المشهورة الذين منهم ملوك الديار المصرية الآن ، وهم من بنى ترك ، بن كومر بن يافث ، بن نوح عليه السلام ؛ وقيل من بنى طيراش ، بن يافث ، ونسبهم ابن سعيد إلى ترك ، بن عابر ، بن شمويل ، بن يافث . قال فى العبر : ويدخل فى جنس الترك القفجاق ، وهم الخفشاج ، والطغرغر ؛ وهم التتر . ويقال فيهم التتار بزيادة ألف ، والططر بإبدال التاء طاء ، والخطا ، والخزنجية والخزرب ؛ وهم الغز الذين كان منهم ملوك السلاجقة ، والهياطلة ، وهم الصغندر والغور والعلان ، ويقال : اللان ، والشركس ، والأركش ، والروس فكلهم من جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجرامقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء في الآخر)، وهم أهل الموصل في الزمن القديم . قال ابن سعيد: وهم من ولد جرْموق، بن آشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام . وقال غيره : من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجليل (بكسر الجيم وسكون المشاة تحت ولام في الآخر) ، وهم أهل كيلان من بلاد الشرق . قال ابن سعيد : وهم من بنى باسل، بن آشور، بن سام، ابن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخزر (بفتح الخاء والزاي المعجمتين وراء مهملة في الآخر) ، وهم التركمان . في الإسرائيليات أنهم من ولد توغربحاج، بن كومر، بن يافت، بن نوح؛ وقيل هم من بنى طيراش بن يافت؛ وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المشناة تحت وفتح اللام وميم في الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بني بويه الخارجين على خلفاء بني العبّاس ببغداد . قال في العبر : هم من بنى ماداي ، بن يافت ، بن نوح ؛ وقال ابن سعيد : من بنى باسل ، بن آشور ، بن سام ، بن نوح ، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الروم وضبطهم معروف ، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القُسطنطينية الآن؛ قيل هم من بنى كيثم بن يونان، وهو يابان، بن يافت، بن نوح؛ وقيل من ولد رومي، بن يونان، بن علجان، بن يافت، بن نوح، وقيل من ولد رعويد ابن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهري : من ولد روم، بن عيصو بن إسحاق .

السابعة — السريان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المشناة تحت

وألف ثم نون)، قال ابن الكلبي : من بنى سُورِيان، بن نبيط، بن ماش، بن آدم،
ابن سام، بن نوح .

الثامنة — السُّنْد (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة في الآخر)،
في الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح، وحكى
الطبرى عن ابن إسحاق : أنهم من بنى كوش بن حام .

التاسعة — السُّودان وضبطهم معروف . قال ابن سعيد : جميع أحيائهم من ولد
حام بن نوح ؛ ونقل الطبرى عن ابن إسحاق : أن الحبشة من ولد كوش بن حام
والنوبة، والزَّنج، والزَّغَاوة من ولد كَنْعان بن حام . وذكر ابن سعيد : أن الحبشة
من بنى حَبَش والنوبة من ولد نُوبة أوبى نوبى ، والزَّنج من بنى زَنج ، ولم يرفع
في نسبهم فيحتمل أنهم من بنى حام ، وأنهم من بنى غيبه .

العاشرة — الصَّقَالِبَة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لامٌ مكسورة
وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بنى بازان بن يافث
ابن نوح، وقيل هم من بنى اشكاز، بن توغرما، بن كومر، بن يافث .

الحادية عشرة — الصِّين وضبطهم معروف، قيل هم من بنى صيني، بن ماغوغ
ابن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرخ
الروم أنهم من بنى ماغوغ بن يافث .

الثانية عشرة — العِبْرَانِيُّون (بكسر العين المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح
الراء المهملة وألف بعدها نون مكسورة وياء مثناة تحتٌ مشددة مضمومة وواو
ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلى الآن . قال الطبرى : وهم من
ولد عابر، بن شالخ، بن أرخشد، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة في الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأَكاسرة . قال ابن إسحاق : هم من ولد فارس ، بن لاوذ ، ابن سام ، بن نوح . وقال ابن الكلبي : هم من ولد فارس ، بن طيراش ، بن أشور ، بن سام ، بن نوح ؛ وقيل من ولد طيراش ، بن همدان ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل من بنى أميم ، بن لاوذ ، بن سام . ووقع للطبري : أنهم من ولد رعويل ، بن عيصو ، بن إسحاق ، ابن إبراهيم عليه السلام . قال في العبر : ولا آلتفات إلى هذا القول لأن مُلك الفُرس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجم في الآخر) قيل من ولد طوبال ، بن يافث ؛ وقيل من ولد غطرما ، بن كومر ، بن يافث .

الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم أهل مصر في القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه : هم من بنى قبطيم ، بن قفط ، بن مصر ، بن بيصر ، بن حام ، بن نوح ؛ وعند الإسماعيليين أنهم من ولد قفط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة في الآخر) ، وهم أهل الأندلس في القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماغوغ ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقيل هم من ولد قُوط ، بن حام ، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة في الآخر) ، وهم الذين كان منهم بنو أيوب ملك مصر بعد الفاطميين . قال في العبر : هم من بنى إيران بن أشور ، بن سام ، بن نوح . قال المقتر الشهابي "ابن فضل الله في كتابه "التعريف" : ويقال في المسلمين الكُرد ، وفي الكفار الكرج ، وحينئذ فيكون الكُرد والكُرج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة — الكَنْعَانِيُّونَ (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهملة
 وضم الياء المثناة تحتُ المشددة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان
 ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة — أَلَّانَ (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا
 قصدوا سواحل الشام في الدولة الأيوبيَّة ومواطنهم في شمالي البحر الرومي غربا
 بشمال . قال في العبر : وهم من ولد طوبال ، بن يافث ، بن نوح .

العشرون — النَّبَطُ (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة في الآخر)، وهم أهل
 بابل من العراق في الزمن القديم، وإليهم تنسب الفِلاحة النَّبَطِيَّة لِأَبْنِ وَحْشِيَّة . قال
 ابن الكلبي : هم من بني نبيط ، بن ماس ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح . وقال ابن
 سعيد : هم من بني نبيط ، بن أشور ، بن سام ، بن نوح .

الحادية والعشرون — الهِنْدُ وضبطه معروف . في الإسرائيليات أنهم من ولد
 دادان ، بن رعماء ، بن كوش ، بن حام ، ونقل الطبري عن ابن إسحاق أنهم من بني
 كوش ، بن حام ، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون — الأَرْمَنُ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون
 في الآخر) وهم أهل إرْمِينِيَّة الذين بقاياهم ببلاد سيس ؛ قيل هم من ولد قهويل ، بن
 ناحور ، بن تارخ ، وهو آزر ، وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون — الأَشْبَانُ (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الباء
 الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشع ، بن يافث ، بن نوح . وعند الإسرائيليين
 من ولد ياوان وهو يونان بن يافث ، وعند آخرين أنهم من شعوب بني عيصو بن

إسحاق؛ وقال الطبرى: أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذى قبله .

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحكماء شرقى الخليج القسطنطينى، وهم من ولد يونان، وهو ياوان، بن يافث، بن نوح . وقال البيهقى: هم من ولد يونان، بن خلعجان، بن يافث . وشذ الكندى فقال: يونان، بن عابر، بن شالخ، ابن أرفخشذ، بن سام بن نوح؛ بفعل يونان أخا لقحطان أبى عرب اليمن . وقال: إنه خرج من بلاد العرب مغاضبا لأخيه قحطان فنزل شرقى الخليج القسطنطينى؛ ورد عليه أبو العباس الناشئ بقوله:

تَحَلَّطَ يُونَانًا بِقَحْطَانَ ضَلَّةً * لَعَمْرِي لَقَدْ بَاعَدَتَ بَيْنَهُمَا جِدًّا

ثم اليونانية على ثلاثة أصناف اللطينيون، وهم بنو لطين بن يونان، والإغريقيون وهم بنو إغريق بن يونان، واللكيم، وهم بنو اللكيم بن يونان وهى أصل الروم فيما يقال على ما تقدم .

الخامسة والعشرون زويلة — (بضم الزاى وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم أهل برقة فى القديم، ومنهم الطائفة الذين وصلوا صُحْبَةَ جَوْهَرِ الْمُعَزَّى بنى القاهرة المنسوب إليهم باب زويلة بالقاهرة، يقال إنهم من بنى حو بلا بن كوش بن حام بن نوح .

السادسة والعشرون يأجوج ومأجوج — وضبطهما معروف . قيل إنهم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد كومر، بن يافث .

النوع الثالث عشر

(المعرفة بمفاخر الأمم ومناقراتهم ، وما جرى بينهم في ذلك من المحاورات
والمراجعات والمناقضات ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

(١)
لإخفاء أنه يتعين على الكاتب معرفة المفاخر الواقعة بينهم ، من معرفة وجوه
الافتخار التي يمدح بمثلها : مما يُستعان بمثله على المدح والإطراء الواقع في الولايات
وما يُفضل به كل واحد من البلغاء على خصمه ، وما يردُّ عليه من الأجوبة المبطلّة
له لينسج على منوال ذلك فيما يرد عليه من المخاطبات ، والمكاتبات عند دعاية
ضرورته إليه ، واحتياجه إلى إيراده .

المقصد الثاني

(في ذكر أنموذج من المفاخر ، والمناقرات يُنسج على منواله)

فأما المفاخر ، فمنها ما روي أنه لما وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفد
بني تميم سنة الوفود بعد فتح مكة ، فيهم عطارد بن حاجب ، بن زرارة ، بن عدس
التميمي ، وقيس بن عاصم ، وقيس بن الحارث ، ونعيم بن زيد ، وعتبة بن حصن
أبن حذيفة بن بدر ، والأقرع بن حابس ، في لفهم ولفيفهم ، ودخلوا المسجد
ونادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وراء حجراته أن أخرج إلينا يا محمد ، فتأذى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من صياحهم فخرج إليهم — فقالوا : يا محمد جئناك

(١) لعله والتمكن من معرفة الخ كما يفيد السياق .

لِنْفَاحِرِكَ . فَأَذِنَ لِشَاعِرِنَا وَخَطَبِنَا - قَالَ "قَدْ أَذِنْتُ لَخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ" فَقَامَ عَطَارِدُ بْنُ حَاجِبٍ فَقَالَ :

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهٗ عَلَيْنَا الْفَضْلُ ، وَهُوَ أَهْلُهُ ، الَّذِي جَعَلَنَا مُلُوكًا ، وَوَهَبَ لَنَا أَمْوَالًا عَظِيمًا نَفْعَلُ مِنْهَا الْمَعْرُوفَ ، وَجَعَلَنَا أَعَزَّ أَهْلِ الْمَشْرِقِ وَأَكْثَرَهُ عِدَدًا ، وَأَشَدَّهُ عُدَّةً ، فَمَنْ مِثْلُنَا فِي النَّاسِ ؟ أَلَسْنَا بَرُّوْسَ النَّاسِ وَأَوْلَىٰ فَتَمْلَهُمْ ؟ فَمَنْ فَآخِرُنَا فَيُعَدُّدُ مِثْلَ مَا عَدَدْنَا ، وَإِنَّا لَوْ نَشَاءُ لَا كَثُرْنَا الْكَلَامَ وَلَكِنَّا تَحِيَّيْنَا عَنِ الْإِنِّكَارِ ، وَأَقُولُ هَذَا لِأَنَّ تَأْتُوا بِمِثْلِ قَوْلِنَا ، وَأَمْرٍ أَفْضَلَ مِنْ أَمْرِنَا" ثُمَّ جَلَسَ

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِثَابِتِ بْنِ قَيْسِ الْخَزْرَجِيِّ : "قُمْ فَأَجِبِ الرَّجُلَ فِي خُطْبَتِهِ" فَقَامَ ثَابِتُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ :

"الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ خَلَقَهُ ، قَضَىٰ فِيهِنَّ أَمْرَهُ ، وَوَسِعَ كُرْسِيُّهُ عِلْمَهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَطُّ إِلَّا مِنْ فِعْلِهِ ، ثُمَّ كَانَ مِنْ قُدْرَتِهِ أَنْ جَعَلَنَا مُلُوكًا وَأَصْطَفَىٰ مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ رَسُولًا ، أَكْرَمَهُ نَسَبًا ، وَأَصْدَقَهُ حَدِيثًا وَأَفْضَلَهُ حَسَبًا ، فَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ ، وَائْتَمَنَهُ عَلَىٰ خَلْقِهِ ، وَكَانَ خَيْرَةً مِنَ الْعَالَمِينَ ، ثُمَّ دَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِيمَانِ بِهِ ، فَأَمَّنَ بِرَسُولِ اللَّهِ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قَوْمِهِ وَذَوِي رِيحِهِ ، أَكْرَمُ النَّاسِ أَحْسَابًا ، وَأَحْسَنُهُمْ وَجُوهًا ، وَخَيْرُ النَّاسِ فِعَالًا ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ الْخَلْقِ إِجَابَةً ، وَأَسْتَجَابَ اللَّهُ حِينَ دَعَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْنُ ، فَتَحَنَّنَ أَنْصَارُ اللَّهِ ، وَوَزَّرَاءُ رَسُولِ اللَّهِ ، تُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُتَّعَ بِمَالِهِ وَدَمِهِ ، وَمَنْ كَفَرَ جَاهَدْنَاهُ فِي اللَّهِ أَبَدًا ، وَكَانَ قِتْلُهُ عَلَيْنَا يَسِيرًا ، أَقُولُ هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ" .

فقام الزبرقان بن بدر التيمي فقال :

نَحْنُ الْكِرَامُ فَلَا حَى يُفَاخِرُنَا * مِنَّا الْمُلُوكُ وَفِينَا تُنْصَبُ الْبَيْعُ
وَكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الْأَحْيَاءِ كُلِّهِمْ * عِنْدَ النَّهَابِ وَفَضْلُ الْعِزِّ يُتَّبَعُ
وَنَحْنُ نُطْعِمُ عِنْدَ الْقَحْطِ مُطْعَمَنَا * مِنْ الشَّوَاءِ إِذَا لَمْ يُونَسِ الْقَزْعُ
وهي أبيات .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحسان بن ثابت ”قم فأجب الرجل فيما

قال“ فقال حسان رضى الله عنه :

إِنَّ الذَّوَابَّ مِنْ فِهْرِ وَإِخْوَتِهِمْ * قَدْ بَيْنُوا سُنَّةَ لِلنَّاسِ تَتَّبِعُ
يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُهُ * تَقْوَى الْإِلَهِ وَكُلُّ الْخَيْرِ يُصْطَنَعُ
قَوْمٌ إِذَا حَارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمْ * أَوْ حَاوَلُوا النَّفْعَ فِي أَشْيَاعِهِمْ نَفَعُوا
صَحِيحَةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنْ الْخَلَائِقُ فَاعْلَمْ شَرَّهَا الْبَيْدَعُ
إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ سَبَاقُونَ بَعْدَهُمْ * فَكُلُّ سَبْقٍ لَأَدْنَى سَبْقِهِمْ تَتَّبِعُ
لَا يَرْفَعُ النَّاسُ مَا أَوْهَتْ أَكْفُهُمْ * عِنْدَ الدَّفَاعِ وَلَا يُوهُونَ مَا رَفَعُوا
أَكْرَمُ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللَّهِ شَيْعَتُهُمْ * إِذَا تَفَاوَتَتِ الْأَهْوَاءُ وَالشَّيْعُ
وهي أبيات .

ويروى أن الزبرقان بن بدر قال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمُ النَّاسُ فَضْلَنَا * إِذَا اخْتَلَفُوا عِنْدَ أَحْتِضَارِ الْمَوَاسِمِ
فَإِنَّا فُرُوعُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ * وَأَنْ لَيْسَ فِي أَرْضِ الْحِجَازِ كِدَارِيمِ
وَإِنَّا بُدُورُ الْعَالَمِينَ إِذَا اتَّخَمُوا * وَنَضْرِبُ رَأْسِ الْأَصِيدِ الْمُتَفَاقِمِ
وَإِنَّا لَنَا الْمِرْبَاعُ فِي كُلِّ غَارَةٍ * نَغِيرُ بَنَجِيدٍ أَوْ بَارِضِ الْأَعَاجِمِ

(١) في سيرة ابن هشام . نذرد الملبين .

فقام حسان بن ثابت فأجابه فقال :

هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا السُّودَدُ الْعَوْدُ وَالنَّدَى * وَجَاهُ الْمُلُوكِ وَأَحْتِمَالُ الْعَظَائِمِ
نَصْرُنَا وَأَوَيْنَا النَّبِيَّ مُحَمَّدًا * عَلَى أَنْفِ رَاضٍ مِنْ مَعَدٍّ وَرَاغِمِ
نَصْرِنَاهُ لَمَّا حَلَّ وَسَطَ دِيَارِنَا * بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وَظَالِمِ
جَعَلْنَا بَيْنَنَا دُونَهُ وَبَنَاتِنَا * وَطَبْنَا لَهُ نَفْسًا بِفِيءِ الْمَغَانِمِ
وَنَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتَّى تَتَابَعُوا * عَلَى دِينِهِ بِالْمُرَهَفَاتِ الصَّوَارِمِ
وَنَحْنُ وَلَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَاهَا * وَلَدْنَا نَبِيَّ الْخَيْرِ مِنْ آلِ هَاشِمِ
بَنِي دَارِمٍ لَا تَفْخَرُوا إِنْ فَخَرَكُمُ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْدَ ذِكْرِ الْمَكَارِمِ
هَيْلَتُمْ عَلَيْنَا تَفْخَرُونَ وَأَنْتُمْ * لَنَا خَوْلٌ مِنْ بَيْنِ ظُئْرٍ وَخَادِمِ؟
فَإِنْ كُنْتُمْ جِئْتُمْ لِحَقِّنِ دِمَائِكُمْ * وَأَمْوَالِكُمْ أَنْ تَقْسَمُوا فِي الْمَقَاسِمِ
فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ نِدَاءً وَأَسْأَلُوا * وَلَا تَلْبَسُوا زِيَا كَرِيٍّ الْأَعَاجِمِ

فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبي ! إن هذا الرجل مُراد ،
لخَطِيئِهِ أَخْطَبُ مِنْ خَطِيئِنَا ، وَلشَاعِرِهِ أَشْعَرُ مِنْ شَاعِرِنَا ، وَأَصْوَاتُهُ أَعْلَى مِنْ
أَصْوَاتِنَا ؛ فَاسْلَمُوا وَأَحْسِنِ رِسْوَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، جَوَائِزَهُمْ .

ففي هذا الوفد نزل ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قلت : وهذه مكابرة ظاهرة ، وتجاهل فاحش من بني تميم ، حيث طلبوا المفاخرة
مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلُّ العرب على اختلاف شعوبهم ، وتتابع قبائلهم
معتزفون لبني هاشم بالسبق في الشرف ، والتقدم في الفضل ، مع ما فضل الله تعالى به

رسوله صلى الله عليه وسلم، وخصه به من رفيع الشرف الذي لم يبلغه نبى مرسل، ولا ملك مقرب .

وقد تعرض أبو نؤاس في بعض أشعاره لمدح بنى تميم، وبالغ في نفرهم فأغش، فقال:

نُخْرِمَةُ خَيْرِ بَنِي خَازِمٍ * وَخَازِمٌ خَيْرُ بَنِي دَارِمٍ

وِدَارِمٌ خَيْرُ تَمِيمٍ وَمَا * مِثْلُ تَمِيمٍ فِي بَنِي آدَمِ

ونقضه عليه الشيخ فتح الدين بن سيد الناس اليعمرى، فقال رحمه الله فأجاد

القول، وفاز بالقدح المعلن فقال:

مُحَمَّدٌ خَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ * فَمَنْ تَمِيمٌ وَبَنُو دَارِمٍ؟

وَهَاشِمٌ خَيْرُ قُرَيْشٍ وَمَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فِي بَنِي آدَمِ!

وهو مأخوذ من قول الأول:

قُرَيْشٌ خَيْرُ بَنِي آدَمِ * وَخَيْرُ قُرَيْشٍ بَنُو هَاشِمٍ

وَخَيْرُ بَنِي هَاشِمٍ أَحْمَدٌ * رَسُولُ الْإِلَهِ إِلَى الْعَالَمِ

وإليه ينظر قول ابن عرسية:

لِللَّهِ مِمَّا قَدْ بَرَأَ صَفْوَةٌ * وَصَفْوَةُ الْخَلْقِ بَنُو هَاشِمٍ

وَصَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ بَيْنِهِمْ * مُحَمَّدُ النُّورِ أَبُو الْقَاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلي حيث قال:

إِذَا مَضَى الْجُرَاءُ كَانَتْ أُرُومَتِي * وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَأَبْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفِ شَاخٍ وَتَنَاوَلَتْ * يَدَايَ الثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

فإنه جعل مضر التي هي أرومة رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصل نخره وقعدده

سودده. فأصاب الفخر في قوله، وفاز بالشرف في شعره .

قال المولى صلاح الدين الصفدى رحمه الله في شرح لامية العجم " وإنما ذكر خازما لأنه مولى خزيمة بن خازم التميمي ، وإنما نزل أبوه الموصل فنُسب إليها .
ومن لطيف ما يحكى أن معاوية بن أبي سفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف ، فقال معاوية " من أكرم الناس أبا وأُمَّ ، وجدًا وجدَّة ، وعمًّا وعمَّة ، وخالا وخالة ؟ " - فقام النُّعمان بن العجلان الزُّرقى بعد ما أخذ بيد الحسن فقال " هذا أبوه علي بن أبي طالب ، وأُمُّه فاطمة ، وجدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجدته خديجة ، وعمّه جعفر ، وعمته أم هانئ ابنة أبي طالب ، وخاله القاسم ، وخالته زينب ، فهذا هو الشرف الذى لا يُدانى والفضل الذى لا يُبارى " .

وقريب من ذلك ما يحكى أنه جرى بين عبد الله بن الزبير وبين معاوية كلامٌ طويل فى آخره - " فقال ابن الزبير ، ما منى يهارش ، ولكن عندك من قریش والأَنْصار ، ومن ساكنى الجُحون والآطام من إن سألته حملك على محجة أمين من ظهر الجفيم - قال : ومن ذلك - قال هذا ؟ يعنى أبا الجهم بن حذيفة - فقال معاوية تكلم يا أبا الجهم - فقال أعفى - فقال عزمت عليك لتقولن - قال : نعم : أمك هند ، وأمه أسماء بنت أبي بكر ، وأسماء خير من هند ، وأبوك أبو سفيان وأبوه الزبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثل الزبير ، وأما الدنيا فلك ، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما حكاه ابن الكلبي . قال : قال كسرى للنُّعمان بن المنذر بوما هل فى العرب قبيلة تشرف على قبيلة ؟ قال نعم - قال فبأى شيء ؟ قال : من كانت له ثلاثة آباء متواليه رؤساء ، ثم اتصل ذلك بكال الرابع فاليث من قبيلته فيه ويُنسب إليه - قال فأطلب ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حذيفة بن بدر ، وآل حاجب ابن زُرارة ، وآل ذى الجديين ، وآل الأشعث بن قيس بن كندة - قال فجمع هؤلاء

الرهط ومن تبعهم من عشائرهم وأقعد لهم الحُكَّامَ والعُدول ، وقال ليتكلم كل رجل منكم بماثر قومه وليصدق ، فكان حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم ، وكان ألسن القوم ، فقال : قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم والأعز الأعظم ، ومآثر للصنيع الأكرم — فقال من حوله ولم ذاك يا أخا فزارة ؟ فقال ألسنا الدعائم التي لا ترام ، والعز الذي لا يُضام ؟ قيل صدقت . ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارَةُ بِنْتُ الْعِزِّ وَالْعِزُّ فِيهِمْ ! * فَزَارَةُ قَيْسٌ حَسْبُ قَيْسٍ نِضَالُهَا
لَهَا الْعِزَّةُ الْقَعْسَاءُ وَالْحَسْبُ الَّذِي * بَنَاهُ لَقَيْسٍ فِي الْقَدِيمِ رِجَالُهَا
فَهَيْمَاتٍ قَدْ أَعْيَا الْقُرُونُ الَّتِي مَضَتْ * مَاثِرُ قَيْسٍ مَجْدُهَا وَفِعَالُهَا
وَهَلْ أَحَدٌ إِنْ هَزَّ يَوْمًا بِكَفِّهِ * إِلَى الشَّمْسِ فِي مَجْرَى النُّجُومِ يِنَالُهَا
إِنْ يَصْلِحُوا يَصْلِحْ لَذَلِكَ جَمِيعُهَا * وَإِنْ يَفْسُدُوا يَفْسُدْ مِنَ النَّاسِ حَالُهَا

ثم قام الأشعث الكندي ، وإنما أذن له أن يقوم قبل ربيعة وتميم لقرابته من النعمان بن المنذر ، فقال ، قد علمت العرب أنا تُقاتِل عديدها الأكثر ، وزحفها الأكبر ، وإنا لغياث الكُربات ومعدن المكرمات — قالوا ولم يا أخا كندة ؟ قال لأننا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا مجبوحه الأكرم ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

إِذَا قِسْتَ أَبِيَاتِ الرَّجَالِ بِنَيْتِنَا * وَجَدْتَ لَنَا فَضْلًا عَلَيَّ مَنْ يُفَاخِرُ
فَمَنْ قَالَ كَلًّا أَوْ أَنَا نَابِحُطِيَّةٍ * يِنَا فِرْنَا فِيهَا فَنَحْنُ مُنْحَاطِرُ
تَعَالَوْا فِقُوا كَيْ يَعلَمَ النَّاسُ أَيْبَا * لَهُ الْفَضْلُ فِيمَا أَوْرَثَهُ الْأَكْبَارُ

ثم قام بسطام الشيباني فقال " قد علمت العرب أنا بُناة بيتها الذي لا يزول ، ومغرس عزها الذي لا يحول ، قالوا ولم يا أخا شيبان — قال لأننا أدركهم للثار ، وأضربهم لللك الجبار ، وأقومهم للحكم ، وألدِّهم للنصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لَعَمْرِي بِسْطَامٍ أَحَقُّ بِقَضَائِهَا * وَأَوَّلُ بَيْتِ الْعِزِّ عِزُّ الْقَبَائِلِ
 فَسَائِلُ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنْ عِزِّ قَوْمِهَا * إِذَا جَدَّ يَوْمَ الْفَخْرِ كُلُّ مَنْ قَلِ
 أَلْسِنَا أَعَزَّ النَّاسَ قَوْمًا وَنُصْرَةً * وَأَضْرَبَهُمُ لِلْكَبْشِ بَيْنَ الْقَبَائِلِ
 وَقَائِعُ عِزِّ كُلِّهَا رَبِيعَةٌ * تَذُلُّ لَهَا عِزًّا رِقَابُ الْمَحَافِلِ
 إِذَا ذُكِرَتْ لَمْ يُنْكَرِ النَّاسُ فَضْلَهَا * وَعَادَ بِهَا مِنْ شَرِّهَا كُلُّ وَائِلِ
 وَإِنَّا مُلُوكُ النَّاسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * إِذَا نَزَلَتْ بِالنَّاسِ إِحْدَى الزَّلَازِلِ

ثم قام حاجب بن زرارة التيمي . فقال : قد علمت معداً أنا فروع دعامتيا ، وقادة
 زحفها — قالوا : ولم ذاك يا أخا بني تميم ؟ قال لأنا أكثر الناس عديدا ، وأنجبهم طراً
 وليدا ، وأنا أعطاهم للجزيل ، وأحملهم للثقل ؛ ثم قام شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ أَنْبَاءَ خِنْدِفِ أَنْنَا * لَنَا الْعِزُّ قَدِّمًا فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
 وَأَنَا كِرَامُ أَهْلِ مَجْدٍ وَثَرْوَةٍ * وَعِزٌّ قَدِيمٌ لَيْسَ بِالْمُتَضَائِلِ
 فَكَمْ فِيهِمْ مِنْ سَيِّدٍ وَأَبْنِ سَيِّدٍ * أَعْرَّ نَجِيبِ ذِي فَعَالٍ وَنَائِلِ
 فَسَائِلِ (أَبَيْتَ اللَّعْنِ) عَنَّا فَإِنَّا * دَعَائِمُ هَذَا النَّاسِ عِنْدَ الْجَلَائِلِ

ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال : لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المنكومات
 دعائم ، وأثبتهم في النابثات مقادم ؛ قالوا : ولم ذاك يا أخا بني سعد ؟ قال لأنا
 أدركهم للثار ، وأمنعهم للجار ؛ وأنا لا نتكفل إذا حملنا ، ولا نُرَامُ إذا حملنا . ثم قام
 شاعرهم فقال :

لَقَدْ عَلِمْتَ قَيْسٌ وَخِنْدِفُ أَنْنَا * وَجُلُّ تَمِيمٍ وَالْجَمِيعِ الَّذِي تَرَى
 بَأَنَّا عِمَادٌ فِي الْأُمُورِ وَأَنْنَا * لَنَا الشَّرْفُ الصَّخْمُ الْمَرْكَبُ فِي النَّدَى
 وَأَنَا لِيُوثُ النَّاسِ فِي كُلِّ مَازِقٍ * إِذَا جُرَّ بِالْبَيْضِ الْجَمَاحِمُ وَالطَّلَى^(١)

(١) الطلى بالضم جمع طلبة وهي الأعناق .

فَمَنْ ذَا لِيَوْمِ الْفَخْرِ يَعْمَلُ عَاصِمًا * وَقَيْسًا إِذَا مَرَّتْ أُلُوفٌ إِلَى الْعَلَا
فَهِيَهَاتَ قَدْ أَعْيَا الْجَمِيعَ فِعَالَهُمْ * وَقَامُوا بِيَوْمِ الْفَخْرِ مَسْعَاةً مِنْ سَعَى

فقال كسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى جباةهم ،
وأعظم صلاتهم ، وكرم مأبهم .

قال أبو عبيدة : كانت العرب تعدُّ البيوتات المشهورة بعظم القدر والشرف :
تعدُّ بيت هاشم بن عبد مناف ، وتعدُّ أربعة ، أولها بيت آل حديفة بن بدر ، وبيت
آل زُرارة الدارميين : بيت بنى تميم ، وبيت آل ذى الجديين : عبد الله بن عمرو بن
الحارث بن هشام : بيت بنى شيبان ، وبيت بنى الديان من بنى الحارث بن كعب
بيت اليمن . قال : فأما كندة فلا يعدُّون في البيوتات إنما كانوا ملوكا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَفَاخِرَةَ قَدْ تَكُونُ بِحَقِيقَةِ الْحَسَبِ . وَقَدْ تَكُونُ فِيهَا الْفِصَاحَةُ وَاللِّسَنُ

مَقَامَ الْحَسَبِ : كَقَوْلِ أَبِي تَمَامٍ الطَّائِيِّ يَفْتَخِرُ :

أَنَا ابْنُ الَّذِينَ اسْتَرَضِعَ الْمَجْدُ فِيهِمْ * وَسُمِّيَ فِيهِمْ وَهُوَ كَهَلٌّ وَيَابِعُ
مَضَوْا وَكَانَ الْمَكْرَمَاتِ لَدِيهِمْ * لَكثْرَةِ مَا وَصَّوْا بِهِنَّ شَرَائِعُ
فَأَى يَدٍ فِي الْمَجْدِ مُدَّتْ فَلَمْ يَكُنْ * لَهَا رَاحَةٌ مِنْ مَجْدِهِمْ وَأَصَابِعُ
هُمْ اسْتَوْدَعُوا الْمَعْرُوفَ مَحْفُوظَةً الْبِنَا * فِضَاعَ وَمَا ضَاعَتْ لَدِينَا الْوَدَائِعُ

وقوله أيضا :

جَرَى حَاتِمٌ فِي حَلْبَةٍ مِنْهُ لَوْ جَرَى * بِهَا الْقَطْرُ شَاوًا قِيلَ أَيُّهَا الْقَطْرُ؟
فَتَى ذَحْرَ الدُّنْيَا أَنَا سٌ وَلَمْ يَزَلْ * لَهَا بَازِلًا فَانظُرْ لِمَنْ بَقِيَ الذُّخْرُ
فَمَنْ شَاءَ فَلْيَفْخَرْ بِمَا شَاءَ مِنْ نَدَى * فَلَيْسَ لِحَى غَيْرِنَا ذَلِكَ الْفَخْرُ
جَمَعْنَا الْعَلَا بِالْجُودِ بَعْدَ اقْتِرَاقِهَا * إِلَيْنَا كَمَا الْإِيَّامُ يَجْمَعُهَا الشَّمْرُ

قال في شرح اللامية : وعند أكثر الناس أن أبا تمام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم : قرية من قري حوران من الشام، فغير أسم أبيه وأنس في بني طيء؛ وذكر صاحب الأغاني أن رجلا قال لجرير: من أشعر الناس؟ قال : قم حتى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلى أبيه عطية، وقد أخذ عتراً له فاعتقلها وجعل يَمْصُ صَرَعَهَا، فصاح به أَخْرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دميم، رث الهيئة . وقد سال ابن العزعل الحيتيه، فقال ترى هذا؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبي، أو تدري لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوت الحباب فيطاب منه؛ ثم قال أشعر الناس من فاجر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم .

قال الصلاح الصفدى : ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير في مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بأعترافه لذلك الرجل، وإظهاره بخل أبيه . وربما كان الافتخار بالتورية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامع حقيقة الافتخار والشرف بمجرد السماع، فإذا عرف المقصد تبين له خلاف ذلك، كقول أبي الحسن الجزار :

أَلَا قُلْ لِلَّذِي يَسَأُ * لُ عَنْ قَوْمِي وَعَنْ أَهْلِي
لَقَدْ تَسَأَلُ عَنْ قَوْمٍ * كِرَامِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِي
يُرِيْقُونَ دَمَ الْأَنْعَا * مِ فِي حَزْنٍ وَفِي سَهْلِي
وَمَا زَالُوا لَمَّا يُبْدُو * نَ مِنْ بَائِسٍ وَمِنْ بَدْلِي
يُرْجِيهِمْ بَنُو كَلْبٍ * وَيَحْشَاهُمْ بَنُو عَجَلِي

وقوله أيضا :

إِنِّي لَمِنَ مَعْشِرِ سَفْكَ الدَّمَاءِ لَهُمْ * دَابٌّ، وَسَلَّ عَنْهُمْ مِنْ رَبِّ تَحْقِيقِ

تُضَىٰ بِاللِّدْمِ إِشْرَاقًا قَوَاضِيهِمْ * فَكُلُّ أَيَّامِهِمْ أَيَّامٌ تُشْرِيقِي

وعلى هذا المنهج ما حكاه بعضهم ، قال : وجدت على قبر مكتوبا أنا ابن من كانت الريح طوع أمره ، يجبسها إذا شاء ، ويطلقها إذا شاء ، قال فعظم في عيني ؛ ثم ألقت إلى قبر آخر قبائله فإذا عليه مكتوب : لا يعتر أحد بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدادين ، يجبس الريح في كيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ، قال : فعجبت منهما يتسابقان ميتين ، فإذا طرق السمع شيء من ذلك ظن السامع أنه في غاية الفخر والشرف حتى يعلم حقيقته ؛ وأشبه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضع استيعاب القول في المفارقة الحقيقية ولا غيرها .

وأما أيام المنافرة وهي المحاكمة في الحسب ، فن ذلك ما يحكى أن الأعشى أتى عاقمة ، بن علاثة ، بن عوف ، بن الأحوص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامة ذوفانث الحميري من التبابعة ، فسأل الأعشى علقمة أن يتلوه أي يجيره ، فقال له علقمة : أتليك على بنى الأحوص — قال لا يقنعني — قال : فعلى بنى كلاب قال لا يقنعني — قال : فليس عندي أكثر من هذا ؛ فأتى عامر بن الطفيل بن مالك ابن جعفر بن كلاب ، قال قد أتليك على الجن والإنس ، ثم أتى سلامة فأنصرف من عنده بمجائه .

وكان عامر وعلقمة المذكوران لما أسن أبو براء وهو عامر بن مالك ، بن جعفر ، ابن ملاعب الأسيئة تنازعا في الرياسة .

فقال علقمة كانت لجدى الأحوص وإنما صارت لعمك بسببه وقد قعد عمك عنها وأنا أسترجعها فانا أولى بها منك ، فشرى الشر بينهما وسارا إلى المنافرة ،

(١) وقع في الأصل وأقالفس وهو تصحيف من الناصح .

وقدم الأعشى^(١) على تفيئة ذلك فصار هو وليد مع عامر، وصار مع علقمة الحطيئة،
والسندي، وتافرا .

فقال عامر لعلقمة : والله إني لأكرم منك حسبا ، وأثبت منك نسبا ، وأطول
منك قسبا .

فقال علقمة : والله لأنا خير منك ليلا ونهارا .

فقال عامر : والله لأنا أحب إلى نساءك أن أصبح فيهن منك .

فقال علقمة : أنافرك إني لبر، وإنك لفاجر، وإني لولود، وإنك لعاقرب، وإني
لعف، وإنك لعاهر؛ وإني لوايف، وإنك لغادر .

فقال عامر : أنت رجل ولود وأنا رجل عقيم وقد وقيت لبني عمرو بن تميم .

وقد زعموا أني غدرت بهم وهم كاذبون؛ ولكني أنافرك : أنا أنحر منك للقاح،
وخير منك في الصباح، وأطعم منك في السنة الشباح^(٢) .

فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس تزعم أني جبان ، ولأن تلقى العدو وأنا
أمامك أعز لك من أن تلقاهم وأنا خلفك ؛ وأنت رجل جواد والناس يزعمون أني
بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطى العشيرة إذا ألمت ؛ ولكني أنافرك : أنا خير
منك أثرا، وأحد منك بصرا، وأشرف منك ذكرا .

فقال عامر : أنت رجل فان ، وليس لبني الأحوص فضل على بني مالك
في العدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ؛ ولكني أنافرك أني أسمى منك سمة ،
وأطول منك قبة ، وأحسن منك لمة ، وأجعد منك جمه ، وأسرع منك رحمة ،
وأبعد منك همه .

(١) أي على أثره أنظر القاموس في مادة ف ي أ . (٢) الشباح بالكسر القمحط .

فقال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قَضيف ، وأنت جميل وأنا قبيح ؛
ولكني أنا فرك بآبائي وأعمامي .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنافرك فيهم ؛ ولكني أنا فرك : أنا خير
منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدِّبا .

فقال علقمة : قد علمتُ أن لك عَقِبا وقد أطعمت طيبا ؛ ولكني أنا فرك أنى
خير منك وأولى بالخير منك .

فقال عامر : إني والله لأركبُ منك فى الحُمَاه ، وأقتلُ منك للدكاه ، وخير منك
للوالاه .

فقال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأحوص على بنى مالك بن
جعفر : إنك ابن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنا فرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .
فقال علقمة : له ذلك .

فقال عامر : غير وتيس وتيس وعتر فأرسلها مثلا نعم على مائة من الإبل إلى مائة^(١)
يعطاها الحكم أينا ينفر عليه صاحبه أخرجها ففعلوا ، ووضعوا بها رهنا من أبنائهم على
يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو بن الوحيد فسمى الضمين ، وصارت علما عليه
إلى الآن ، وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد و عامر فيمن معه من بنى مالك وقد
أتى عامر بن الطفيل عمه عامر بن مالك بن جعفر وهو أبو برآء ، فقال : يا عماه
أعنى — فقال : يا ابن أختى سبنى ، فقال : لا أسبُك وأنت عمى — قال : فسبَّ الأحوص —
فقال : عامر ولا أسبُ والله الأحوص وهو عمى ، فقال : ولكن دونك بعلى فإنى قد
رَبَعْتُ فيها أربعين مرَّباعا فاستعِن بها على منافرتك ، وجعلا منافرتهما إلى أبى سفیان

(١) هكذا فى الأغاني .

(٢) لعله إبلى .

أبن حرب بن أمية فلم يقل بينهما شيئا، وكره ذلك لخالهما وحال عشيرتهما، وقال لها
أنتما كركبتي البعير الأدرم، وأبى أن يقضى بينهما، فأطلقا إلى أبي جهل بن هشام،
فأبى أن يقضى بينهما؛ فوثب مروان بن سُرَاقَة، بن قتادة، بن عمرو، بن الأحوص
وكان مع علقمة فقال :

يَا قُرَيْشَ بَيْنُوا الْكَلَامَا * إِنَّا رَضِينَا مِنْكُمْ الْأَحْكَامَا
فَبَيْنُوا إِذْ كُنْتُمْ الْحُكَمَا * كَانِ أَبُوْنَا لَهُمْ إِمَامَا
وَعَبْدُ عَمْرُو مَعَ النَّسَامَا * فِي يَوْمِ نَخَرِ مُعَلَمِ إِعْلَامَا
يُحْسِنُ فِيهِ السَّرَّ وَالْإِقْدَامَا * وَدِعْلَجُ أَقْدَمُهُ إِقْدَامَا
لَوْلَا الَّذِي أَجْشَمْتُمْ إِجْشَامَا * لَأَتَّخَذْتُمْ مَدَجَّ أَنْعَامَا

فأبوا أن يقولوا بينهما شيئا، فأتيا غيلان بن سلمة بن معتب الثقفي فردهما إلى
حرملة بن الأشعر المزني، فردهما إلى هريم بن قُطَبة بن سنان الفرّاري، وإنهما ساقا
الإبل معهما حتى أشتت وأرعت لا يأتیان أحدا إلا هاب أن يقضى بينهما،
فوعدهما هريم إلى العام القابل، فأتيا للوعد، وقال لييد وكان مع عامر يومئذ يرتجز :

يَا هَرِيمُ، وَأَنْتَ أَهْلُ عَدْلِ * هَلْ يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلِي^(١)
إِنْ يَفْخَرِ الْأَحْوَصُ يَوْمًا قَبْلِي * لِيَذْهَبَنَّ أَهْلُهُ بِأَهْلِي
لَا تَجْمَعَنَّ شَكْلَهُمْ وَشَكْلِي * وَتَسْلَ آبَاءَهُمْ وَتَسْلِي
* قَدْ عَلِمُوا أَنَّا كَرَامُ الْأَصْلِ *

وقال أيضا :

إِنِّي أَمْرٌ مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ * عَلِمَ قَدْ نَافَرْتَ غَيْرَ مُنْقَرٍ
* نَافَرْتَ سَقْبًا مِنْ سَقَابِ الْعَرَعَرِ *

(١) لعله بفضل بالباء .

فقال خُفافة بنُ عوف بن الأحوص بن جعفر :

تَهْنِهْ إِلَيْكَ الشَّعْرَ يَا أَيْبُدُ * وَأَصْدُدُ فَقَدْ يَنْفَعُكَ الصَّدُودُ
سَادَ أَبُوْنَا قَبْلَ أَنْ تَسُودُوا * سُودِدْكُمْ صَغِيرُهُ زَهِيدُ

ثم قال :

إِنِّي إِذَا مَا نُسِي الْحَيَاءُ * وَضَاعَ يَوْمَ الْمَشْهَدِ اللُّوَاءُ
أُنْمِي وَقَدْ حَقَّ لِي النَّهَاءُ * إِلَى كُهُولِ ذِكْرهَا سَنَاءُ
إِذْ لَا تَرَالِ حُلُوةَ كَوْمَاءُ * مَبْقُورَةٌ لَسَقِبَهَا رُغَاءُ
لَمْ يَنْهَنَا عَنْ نَحْرِهَا الصَّفَاءُ * لَنَا عَلَيْكُمْ سُورَةٌ وِلَاءُ
* الْمَجْدُ، وَالسُّودُدُ، وَالْعَطَاءُ *

ثم قال :

أَنْتُمْ عَزَلْتُمْ عَامِرَ بْنَ مَالِكٍ * فِي سَنَوَاتِ مُضَرَ الْهَوَالِكِ
* يَا شَرَّ أَحْيَاءٍ وَشَرَّ هَالِكِ *

وكان السندريّ مع علقمة فارتفع صوته، فقبل من ذا؟ فقال :

أَنَا لِمَنْ أَنْكَرَ صَوْتِي السَّنْدَرِيّ * أَنَا الْفَتَى الْجَعْدُ الطُّوَالُ الْجَعْفَرِيّ
* مِنْ وِلْدِ الْأَحْوَصِ أَخْوَالِي غَنِيّ *

فقال عامر للبيد : أجبه ! فرغب عن إجابته، وكان السندريّ يقول لجدته
عيساء، وكانت أمةً لفاخسة ابنة جعفر بن كلاب، امرأة شريح بن الأحوص،
فوقع عليها شريح فولدت له زبّان، ويزيد، وشهابا، فقال لبيد :

لَمَّا دَعَانِي عَامِرٌ لِأُسْبَهُمْ * أَيْبْتُ وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَيْسَاءَ ظَالِمًا
أَلَا أَنِينَا مَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكِ * فَلَا زَالَ يَلْقَى فِي الْحَيَاةِ الْمَلَاوِمَا

لِيَكْلَا يَكُونَ السَّنْدَرِيُّ نَدِيدَنَا ^(١) * وَأَشْتَمُ أَعْمَامًا عُمُومًا عَمَاعِمَا
وَأَنْشُرَ مِنْ تَحْتِ الْقُبُورِ أَبْوَةً * كَرَامًا هُمْ شَدُّوا عَلَى النَّتَائِمَا
لَعِبْتُ عَلَى أَكْثَافِهِمْ وَجُجُورِهِمْ * وَلِيدًا وَسَمُونِي وَلِيدًا وَعَاصِمَا
بَلَى أَيْنَا مَا كَانَ شَرًّا لِمَالِكٍ * فَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا مَلُومًا وَلَا مِيمَا

ووثب الحطيئة فقال :

مَا يُحْسِنُ الْحُكَّامُ بِالْفَضْلِ بَعْدَمَا * بَدَأَ سَابِقُ ذُو عُرَّةٍ وَجُجُولٍ ؟

حتى أتى على قصيدة كاملة ، ثم قال :

يَا عَامٍ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاعٍ وَمَكْرَمَةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْعَاةَ مَنْ جَارِيَتِهِ أُمُّ

وأقام القوم على ذلك أياماً ، فأرسل هريم إلى عامر فأناه سراً لا يعلم به أحد ، فقال : يا عامر كنت أحسب أن لك رأياً ، وأن فيك خيراً ، وما حبستك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أنتما فر رجلا لا تفخر أنت ولا قومك إلا بأبائه ، فما الذى أنت به خير منه؟ فقال عامر : أنشدك الله والرحم أن لا تفضل على علقمة ، فوالله لئن فعلت لا أفلح بعدها أبدا ! هذه ناصيتي لك فأجززها وأحتمك فى مالى ، فإن كنت لا بد فاعلا فسوّ بينى وبينه — فقال أنصرف فسوف أرى رأيي : فخرج عامر وهو لا يشك أنه سيفضله عليه ، ثم أرسل إلى علقمة سرا ، وقال له مثل ما قال لعامر ، فردّ عليه علقمة بما ردّ به عامر وأنصرف وهو لا يشك أنه ينفر عامرا عليه ، ثم إن هريما أرسل إلى أخيه وبنى أخيه : إني قاتل غدا بين هذين الرجلين مقالة ، فإذا فرغت فيلترد بعضكم عشر جزائر فلينجرها عن علقمة ، ويلترد بعضكم مثلها فلينجرها عن عامر ، وفرقوا بين الناس أن لا يكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان نديق وأجعل — أى ندى . وعماعما أى متفرقة .

هَرَمٌ بجلَسِ مجلِسَه وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتى جلسا ، فقال لبيد :

يا هَرَمُ ابْنَ الأَكْرَمِينَ مَنصِبًا * إِنَّكَ قَدْ وَلَيْتَ أَمْرًا مُعْجَبًا
فَأَحْكُمْ وَصَوِّبْ رَأْيَ مَنْ نَصَّوْبا * إِنَّ الَّذِي كُنْتَ عَلَيْهِ تُرْتَبًا
لِحَايِرِنَا خَالًا وَأَمًّا وَأَبَا * وَعَامِرٌ خَيْرُهُمَا مُرَكَّبًا
* وَعَامِرٌ أذْنِي لِقَيْسٍ نَسْبًا *

فقال هَرَمٌ : إنكما يا بني جعفر قد تحاكمتما عندي وأنتما كركبتي البعير الفحلِ تقعان الأرض معا ، فليس منكما واحد إلا وفيه ماليس في صاحبه ، وكلاكما سيدٌ كريم ، فعمد بنو هَرَمٍ وبنو أخيه إلى تلك الجزر فنحروها حيث أمرهم هَرَمٌ ، وفرقوا بين الناس ، ولم يفضل هَرَمٌ واحدا منهما على صاحبه ، وكره أن يجلب بذلك شرًا على الفئتين ، وهما أبنا عم ، فلما رأى ذلك الأعشى ، خرج وهو يقول :

شَاقَكَ مِنْ قَتَلَةِ أَطْلَاهَا * بَالشَّطِّ فالْوَثْرِ إلى حَاجِرِ
وَقَدَّرَاهَا وَسَطَ أَتْرَابِهَا * فِي الحَيِّ ذِي البَهْجَةِ والنَّامِرِ
إِذْ هِيَ مِنْهُلُ الغُضَنِ هَيْالَةً * تَرُوقُ عَيْنِي ذِي الحِجَا الزَائِرِ
كَكَدْمِيَّةٍ صَوْرَ مَحْرَابِهَا * بِمُذْهَبٍ فِي مَرَمِيٍّ مَائِرِ
تَشْفِي غَلِيلَ النَّفْسِ لِأَهْلِهَا * حَوْرَاءُ تَسْبِي نَظَرَ النَّاطِرِ
عَهْدِي بِهَا فِي الحَيِّ قَدْ سُرِبْتَ * هَيْفَاءُ مِثْلُ المُهْرَةِ الضَّامِرِ
مَشْوَقَةٌ القَدِّ غَلَامِيَّةٌ * مَوْصُوفَةٌ بِالخَلْقِ الطَّاهِرِ
قَدْ نَهَدَ النَّثْدَى عَلَى نَحْرِهَا * فِي مُشْرِقِ ذِي صُبْحِ نَائِرِ
لَوْ أَسْنَدْتَ مَيْتًا إِلَى نَحْرِهَا * عَاشَ وَلَمْ يُنْقَلْ إِلَى قَابِرِ
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مِمَّا رَأَوْا * يَا عَجَبًا لِمَيْتِ النَّاشِرِ
عَلَقَمَ مَا أَنْتَ إِلَى عَامِرٍ * الناقِضِ الأوتارِ والوَاتِرِ

والفارس الخيل يجيل إذا * نار غبار الكعبة الشائر
 سدت بني الأحوص لم تعدهم * وعامر ساد بني عامر
 إن الذي فيه تماريتما * بين السامع والناظر
 حكتموه ففضى بينكم * أبلج مثل القمر الزاهر
 لا يأخذ الرشوة في حكمه * ولا يبالي غبن الخاسر
 فأعجب الدهر متى سويا؟ * لم ضاحك من ذا ومن ساحر؟
 فأقن حياء أنت ضيعته * مالك بعد الشيب من عاذر
 ولست بالأكثر منهم حصي * وإنما العزة للكائر
 أقول لما جاءني فخره * سبجان من علقمة الفاجر!
 علقم لا تسفه ولا تجعلن * عرضك للوارد والصادر
 قد قلت قولاً ففضى بينكم * وأعترف المنفور للنافر

وعاش هريم حتى أدرك خلافة عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هريم أى الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : أو قلت ذلك اليوم يا أمير المؤمنين ، عادت جدعة ، وبلغت شعقات هجر — فقال عمر رضى الله عنه : ”نعم مستودع السر أنت يا هريم ! مثلك فليستودع العشيرة أسرارهم ، وإلى مثلك فليستبضع القوم أحكامهم“ .

قال أبو عبيدة : ومات علقمة بجوران وهو والى عمر بن الخطاب . وأما عامر ابن الطفيل فأصابته دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته العدة ومات في بيت سلوية ، فقال : أغدة كغدة البعير وموت في بيت سلوية ؟

وفى هذه القصة مقنع فى المنافرة عن غيرها ، وفى كتاب ”الريحان والريعان“

لبعض الأندلسيين جملة من هذه المفاخرات والمنافرات :

النوع الثالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في وجه احتياج الكاتب إلى ذلك)

قد ذكر في "حسن التوسل" : أن الكاتب يحتاج إلى معرفة أيام العرب ، وتسمية الأيام التي كانت بينهم ، ومعرفة يوم كل قبيلة على الأخرى ، وما جرى بينهم من الأشعار ، والمناقضات ؛ وذكروا فارس مشهور ، أو ملك مذكور ، أو واقعة معينة لشخص خاص ؛ وما أدعاه كل منهم لنفسه أو ليومه : لما في ذلك من العلم بما يستشهد به من واقعة قديمة ، أو يرد عليه في مكاتبة من ذكر يوم مشهور ، أو فارس معين ، ونحو ذلك مما مضى عليه أمر الجاهلية ، أو حدث في الإسلام ؛ فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع ، علما بما جرى منها ، لم يدرك كيف يجب عما يرد عليه من مثلها ، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصد الثاني

(في ذكر أيام من ذلك تُرشد إلى معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا ، وأعظمها حربا . يوم خُراز (خُراز أسم جبل بين البصرة ومكة كانت الواقعة عنده فعرفت به) ؛ وكانت الحرب فيه بين بني ربيعة الفرس ، وهو ربيعة نزار ، وبين قبائل اليمن ؛ وكانت الغلبة فيه لبني ربيعة ، فقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا ، وكان قائد ربيعة كليب بن ربيعة ملك بني وائل (وأسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفرس ؛ وكان قد ملك علي بن معد وقبائل

جموع العرب وهزمهم وعظم شأنه ، وبقى زمانا من الدهر ؛ ثم داخله زهو شديد ، وبغى على قومه فصار يحمي عليهم مواقع السحاب ، ولا يرعى حياه ، ويقول : وحش أرض كذا في جوارى ، فلا يُصاد ؛ ولا ترد إبل مع إبله ؛ ولا تُوقد نار مع ناره ؛ وبقى كذلك حتى قتله جَسَّاس بن مُرَّة الوائلي أيضا ؛ ولما قُتل كَلِيب توالى الحروب بسبب قتله بين بنى تغلب ، وبين بكر أبى وائل ؛ وكان قائد بنى تغلب مُهلهل أخو كليب ، وقائد بنى بكر مُرَّة أبو جَسَّاس المقدم ذكره ؛ فكان بينهم يوم عُنيزة ، وتكافأ فيه الفريقان ، ثم كان بينهم يوم واردة ، وانتصر فيه بنو تغلب على بكر ؛ ثم كان بينهم يوم الحنو ، وانتصرت فيه بكر على تغلب ، ثم كان بينهم يوم العصيات ، وانتصرت فيه تغلب على بكر ، وأصيب بنو بكر حتى ظنوا أنهم قد بادوا ؛ ثم كان بينهم يوم قِصَّة ، وهو يوم التحالُق كثر فيه القتل بين الفريقين ، في أيام أُخرلم يشتد فيها القتال .

ومن أيام غيرهم المشهورة يوم عَيْن أَبَاغ ، وعَيْن أَبَاغ موضع يقال له ذات الخيار ؛ وكان الحرب فيه بين غَسَّان ونلحْم ، وكان قائد غَسَّان الحارثُ الذى طلب أدْرَع امرئ القيس ، وقيل غيره ، وكان قائد نلحْم المنذر بن ماء السماء بغير خلاف ؛ وفي هذا اليوم قُتل المنذر ، وأنهزمت نلحْم ، وتبعتهم غَسَّان إلى الحيرة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مَرَج حليمة ، وكان بين غَسَّان ونلحْم أيضا ؛ وكان من أعظم الأيام وأشدّها حربا ، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظم الثُّبار حتى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكديد ، وكان بين كنانة وسليم ، وانتصرت فيه سليم على كنانة ، وقتل فيه ربيعة بن مُكدم فارس كنانة ؛ وبه يضرب المثل فى الشجاعة ؛ وكان يُعقر على قبره فى الجاهلية ، ولم يُعقر على قبر غيره . ويوم الكلاب الأول ؛ والكلاب موضع بين البصرة والكوفة ؛ وكان بين

الأخوين : شَرَّاحِيلُ وَسَلَمَةُ ابْنِي الْحَارِثِ بْنِ عَمْرِو الْكَنْدِيِّ ؛ وَشَرَّاحِيلُ هُوَ الْأَكْبَرُ وَكَانَ مَعَهُ بَكَرٌ وَائِلٌ وَغَيْرُهُمْ ، وَسَلَمَةُ الْأَصْغَرُ ، وَكَانَ مَعَهُ تَغْلِبُ وَائِلٌ وَغَيْرُهُمْ ، وَأَشْتَدَّ الْقِتَالُ بَيْنَهُمْ ، وَأَنْتَصَرَ سَلَمَةُ وَتَغْلِبُ عَلَى شَرَّاحِيلَ وَبَكَرٍ ، وَأَنْهَزِمُ شَرَّاحِيلُ وَتَبِعْتَهُ خَيْلٌ أَخِيهِ فَقَتَلُوهُ . وَيَوْمَ الْكَلَابِ الثَّانِي ، وَكَانَ بَيْنَ بَكَرٍ وَائِلٍ . وَيَوْمَ أُوَارَةَ ، (وَأُوَارَةَ أَسْمُ جَبَلٍ) وَكَانَتِ الْحَرْبُ فِيهِ بَيْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ أَمْرِئِ الْقَيْسِ مَلِكِ الْحِيَرَةِ ، وَبَيْنَ مُنْذِرِ وَائِلٍ بِسَبَبِ الْحِيَرَةِ ، وَظَفَرَ فِيهِ الْمُنْذِرُ ، وَأَقْسَمَ أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَذْبُجُهُمْ حَتَّى يَسِيلَ دَمُهُمْ مِنْ رَأْسِ أُوَارَةَ إِلَى حَضِيضِهِ ، وَبَقِيَ يَذْبُجُهُمْ وَالدَّمُ يُجْدُ فَسَكَبَ عَلَيْهِ مَاءٌ حَتَّى سَالَ الدَّمُ مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ إِلَى حَضِيضِهِ ، وَبَرَّتْ يَمِينُهُ . وَيَوْمَ رَحْرَحَانَ ، (وَرَحْرَحَانَ أَسْمُ وَادٍ بِالْمَجَازِ) وَكَانَتِ الْحَرْبُ فِيهِ بَيْنَ الْأَحْوَصِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ كِلَابٍ ، وَبَنِي دَارِمٍ ، وَبَنِي مَؤَيَّةَ ، وَبَنِي مَعْبَدِ بْنِ زُرَّارَةَ ، وَبَنِي تَمِيمٍ ، وَأَنْهَزِمَتْ فِيهِ بَنُو تَمِيمٍ وَمَنْ مَعَهُمْ ، وَأَسْرَ مَعْبَدُ بْنُ زُرَّارَةَ ؛ وَقَصَدَ أَخُوهُ لَقِيظُ بْنُ زُرَّارَةَ أَنْ يَسْتَفِكَهُ فَلَمْ يَقْدِرْ ، وَعَدَّبُوا مَعْبَدًا حَتَّى مَاتَ . وَيَوْمَ شَعْبِ جَبَلَةَ ، وَشَعْبُ جَبَلَةَ هَضْبَةٌ حَمْرَاءُ بَيْنَ الشَّرِيفِ وَالشَّرَفِ . وَكَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنَّهُ لَمَّا أَنْقَضَتْ وَقْعَةَ رَحْرَحَانَ الْمُتَقَدِّمَةَ ، وَمَضَى لَهَا سَنَةٌ ، وَذَلِكَ فِي الْعَامِ الَّذِي وُلِدَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أَسْتَجِدَّ لَقِيظُ بْنُ زُرَّارَةَ التَّمِيمِيَّ بْنَ دُبْيَانَ لِثَارِ أَخِيهِ فَأَنْجَدْتَهُ ، وَتَجَمَّعَتْ بَنُو تَمِيمٍ غَيْرَ بَنِي سَعْدٍ ، وَخَرَجَتْ مَعَهُ بَنُو أَسَدٍ ، وَسَارَ بِهِمْ لَقِيظُ إِلَى بَنِي عَامِرٍ وَبَنِي عَبْسٍ فِي طَلَبِ ثَارِ أَخِيهِ مَعْبَدٍ ، فَأَدْخَلَتْ بَنُو عَامِرٍ وَبَنُو عَبْسٍ أَمْوَالَهُمْ فِي شَعْبِ جَبَلَةَ ، فَخَضَرَهُمْ لَقِيظُ فَخَرَجُوا عَلَيْهِ مِنَ الشَّعْبِ وَكَسَرُوا جَمَاعَ لَقِيظٍ وَقَتَلُوا لَقِيظًا ؛ وَأَسْرُوا أَخَاهُ حَاجِبَ بْنَ زُرَّارَةَ ، وَأَنْتَصَرَتْ بَنُو عَامِرٍ وَبَنُو عَبْسٍ نَصْرًا عَظِيمًا ؛ وَقُتِلَ أَيْضًا مِنْ بَنِي دُبْيَانَ وَبَنِي تَمِيمٍ وَمِنْ بَنِي أَسَدٍ جَمَاعَةٌ مُسْتَكْتَرَةٌ ؛ وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ مِنْ أَعْظَمِ أَيَّامِهِمْ . وَيَوْمَ ذِي قَارٍ ، وَهُوَ أَقْرَبُ الْوَقَائِعِ الْمَشْهُورَةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ عَهْدًا ، وَكَانَ فِي سَنَةِ أَرْبَعِينَ مِنْ مَوْلِدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ وَقِيلَ عَامَ بَدْرٍ .

وكان من حديثه أن كسرى أبرويز غضب على النعمان بن المنذر ملك الحيرة ،
 فخبسه فهلك في الحبس ؛ وكان النعمان قد أودع حلقتَه (وهي السلاح والدرع)
 عند هاني بن مسعود البكري ، فأرسل أبرويز يطلبها من هاني ، فقال هذه أمانة ،
 والحرا لا يسلم أمانته ؛ وكان أبرويز لما أمسك النعمان جعل مكانه في ملك الحيرة
 إياس بن قبيصة الطائي ، فاستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس : المصلحة التغافل
 عن هاني بن مسعود حتى يطمئن وتبعه فندركه — فقال أبرويز : إنه من أخوالك
 لا تألوه نصحا — فقال إياس : رأى الملك أفضل ؛ فبعث أبرويز الهزبان^(١) في ألفين
 من الأعاجم ؛ وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن
 ذي قار ، فزلوه ووصلت إليهم الأعاجم ، وأقتلوا ساعة فأنهزمت الأعاجم هزيمة
 قبيحة ؛ فيروى أن النبي صلى الله عليه وسلم ، خبر بذلك أصحابه ، فقال "اليوم أول
 يوم آتتصف فيه العرب من العجم وبى نصرُوا" .

ولأبي عبيدة مصنف مفرد في أيام العرب ، وقد أورد منها ابن عبد ربه في كتاب
 "العقد" جملة مستكثرة ، وفي آخر كتاب الأمثال للبدائي نبذة محزنة من ذلك ،
 وليس بنا حاجة إلى أستيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة في صدر الإسلام . فمنها وقعة الجمل ، وكانت بين علي كرم
 الله وجهه ، ومعه أهل الكوفة ، وبين عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ؛ وكانت
 رابطة يومئذ على جمل اسمه عسكر وبه عرفت الوقعة ، وقيل بين الفريقين خلق
 كثير ، وكانت النضرة فيه لعل ومن معه .

ومنها وقعة صفين ، وكانت بين علي كرم الله وجهه ومعه أهل العراق ، وبين
 معاوية بن أبي سفيان ، ومعه أهل الشام ، وكان ابتداءها في سنة ست وثلاثين ،
 وكان مدّة مقامهم بصفتين مائة وعشرة أيام أوقعوا فيها وقعات كثيرة ؛ قيل تسعين

(١) في العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان .

وقعة ؛ وكانت عدة القتلى بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسة وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ؛ وكان عمار بن ياسر مع علي رضي الله عنه ، وقاتل حتى قُتِل ، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ” يَقْتُلُ عَمَّارَا الْفِئْتَةُ الْبَاغِيَةُ ” ومضت عليهما مدة ، وعلى رضي الله عنه على العراق ، ومعاوية على الشام ومصر إلى أن قتل علي رضي الله عنه .

ولا حاجة بنا إلى الخوض في أكثر من ذلك ، فإن ذلك محمول على آجتهداهم ، والإسكاف عما شجر بينهم واجب .

ومنها وقعة مرج راهط ؛ وكان من حديثها أنه لما هلك يزيد بن معاوية ، كان سعيد بن بجدل على قنسرين ، فوثب عليه زفر بن الحارث فأخرجه منها وبيع عبد الله ابن الزبير ، فلما قعد زفر على المنبر ، قال : الحمد لله الذي أقعدني مقعد الغادر الفاجر وحصر ، فضحك الناس من قوله ؛ وكان حسان بن بجدل على فلسطين ، والأردن ، فأستعمل على فلسطين روح بن زنباع الجذامي ، ونزل هو الأردن ، فوثب ناتل بن قيس الجذامي على روح بن زنباع فأخرجه من فلسطين وبيع ابن الزبير ؛ وكان النعمان ابن بشير على حمص فباع لابن الزبير ، وكان الضحاك بن قيس على دمشق ، فجعل يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، فقدم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم على ابن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق على ذلك بنو أمية ، واليمانيون ؛ فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلى بنو أمية تصدر إليهم ؛ وقال مروان وعمرو بن سعيد : آكتبوا إلى حسان بن بجدل فيسير من الأردن حتى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتى نلقاه فننظر هناك رجلا ترضونه ؛ فلما استقلت رايات الضحاك من دمشق ، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير ، وهو رجل هذه

الأمة، فلما بايعناك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلى إظهار بيعة ابن الزبير، وسار حتى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتى لقي مروان، فسار مع مروان حتى لَقُوا الضحاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحاك في نحو ثلاثين ألفا وأقتلوا، فقتل الضحاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصود الثالث

(في كيفية استعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع في كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان من المعرفة بأيام الحرب، والعلم بتفاصيل أخبارها، ومن يعد من فُرسان حروبها، ومصايق خطبائها، ومُفلق شعرائها، وما جرى بينهم في ذلك من الخطب والأشعار والمناقضات، كان مستعدا لما يستشهد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه في مكاتبة : أو شعر : من ذكر أيام مشهورة، أو ذكر فارس معين؛ كما قال أبو تمام الطائي يمدح بنى شيان :

إذا أَفْتَخَرْتَ يوماً تَمِيمٌ بِقَوْسِهَا * وَزَادَتْ عَلَيَّ مَا وَطَّدَتْ مِنْ مَنَابِ

فَأَتَمَّ بِيذِي قَارِ أَمَالَتْ سِيوفِكُمْ * عُرُوشَ الَّذِينَ أَسْتَرَهُنَا قَوْسَ حَاجِبِ

يشير إلى أن حاجب بن زُرارة التيمي وفد على كسرى في سنة جَدَب فقال الحاجب من أنت؟ قال رجل من العرب، فلما دخل على كسرى قال له من أنت؟ قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب — قال كنت بالباب رجلا منهم فلما حضرت بين يدي الملك سُدَّتْهم ؛ فملا فهِ دُرّاً ؛ وشكا إليه مَحَلَّ الحجاز، وطلب منه حِمْلُ ألفٍ بغير بُرٍّ على أن يعيد قيمتها، — فقال وما ترهني على ذلك — قال قَوْسِي، فاستعظم همته وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْلُ ألفٍ بغير بُرٍّ، ومات حاجب فأحضر بنوه المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

(١) لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر .

فأشار أبو تمام في بيته إلى هذه المنقبة : يقول يابن شيبان في يوم ذى قار أبدتم
جيوش كسرى الذى آسترهن قوس حاجب .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" في خطبة كتابه "فلائد العقيان" : لو جاوره
كُليب ما طرق حمّاه ، أو أستجار به أحد من الدهر حمّاه ؛ أو كان بوادى الأخرم ،
لطاق به ربيعة وأحرم ؛ أو أستنجده الكندي ما كساه الملاء ، أو كان حاضراً
يسطام لما خرّ على الألاء .

وكما قلت في المفاخرة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقرّ الزينى أبو يزيد
الدوادار الذى من أجله وضعت ^١ "فلولقيه فارس عبس لوثى عابسا ، أو طرق حمى
كليب لبات من حمّاه آيسا ؛ أو قارعه ربيعة بن مكدّم لعل بالسيف مفرّقه ؛
أو نازله بسطام لبدد جمعه وفرّقه" .

إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى ويتظم في هذا السلك .

قال في "حسن التوسل" : وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من
هذه الأيام ، عالم بما جرى فيها ؛ لم يدرك كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها ، ولا
ما يقول إذا سئل عنها . قال : وحسبه ذلك تقصا في صناعته ، وقصورا عما يتعين
عليه من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه .^(١)

وأما الوقائع التى وردت في حوادث خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن
الأثير" رحمه الله في "المثل السائر" : إنها كالأمثال في الاستشهاد بها وذكرها أمثلة .
منها قوله من كتاب : ولا يُعدّ البرّ برا حتى يلحق الغيب بالحضور ، ويصل من لم
يصله بجزاء ولا شكور ؛ فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان ، ولهذا نابت شمال
رسول الله عن يمين عثمان . يشير إلى أنّ النبي صلى الله عليه وسلم ، في بيعة الحديبية^(٢)

(١) لعل من زائدة من قلم الناسخ . (٢) في بعض النسخ العقبة .

كان قد أرسل عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى مكة في حاجة ، ولم يحضر البيعة ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيده الشمال على اليمين وقال ”هذه عن عثمان وشمالى خير من يمينه“ .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة : ”وإذا استعنت بأحد على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترص بما عرفته من مبدل حاله ، فإن الأحوال تنتقل بتقل الأجساد ؛ وإياك أن تُخدع بصلاح الظاهر كما خُدع عمر بن الخطاب بالربيع بن زياد .

يشير بذلك إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستدعى أبا موسى الأشعري ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثي ، فذهب الربيع بن زياد إلى بعض موالى عمر وسأله عما يروج عنده ويتفق عليه ، فأشار إلى خشونة العيش فضى ، وليس جبة صوف ، وعمامة رثاء ، وخفا مطابقا ، وحضر بين يديه في جملة العمال ، فصوب عمر نظره وصعده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعري به .

ومنها قوله في معارضة كتاب القاضي الفاضل إلى ديوان الخلافة يعدد فيه مساعى الملك الناصر ”صلاح الدين يوسف بن أيوب“ وما قاساه في الفتوح من الأهوال وهو : ومن حملتها ما فعل الخادم في الدولة المصرية . وقد قام بها منبر وسرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فرد الدعوة العباسية إلى معادها ، وأذكر المنابر ما نسيته بها من زهو أعوادها . يشير بذلك إلى ما تقدم من اجتماع الأنصار في اليوم الذى مات فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، في سقيفة بنى ساعدة إلى سعد بن عبادة ، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وقال الحباب بن المنذر : منا أمير ومنكم أمير ؛ فقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ، وليكأ الأمراء وأنتم الوزراء . إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى وينتظم في هذا السلك .

النوع الرابع عشر (في أوأبد العرب)

وهي أمور كانت العرب عليها في الجاهلية، بعضها يجري مجرى الديانات، وبعضها يجري مجرى الأصطلاحات والعادات، وبعضها يجري مجرى الخرافات، وجاء الإسلام بإبطالها . وهي عدة أمور :

منها الكهانة ، وكان موضوعها عندهم الإخبار عن أمور غيبية بواسطة أستراق الشياطين السمع من السماء، وإلقاء ما يستمعونه من الغيبيات إليهم . وقد كان في العرب قبل البعثة عدة كهنة تعتمد العرب كلامهم، ويرجعون إلى حكمهم فيما يُخبرون به . ومن عجيب أخبارهم في ذلك أن هند أبنة عتبة بن ربيعة كانت تحت الفاكه ابن المغيرة المخزومي، وكان له بيت للضيافة يغشاه الناس من غير إذن ، فحلا البيت يوما فأضطجع الفاكه هو وهند فيه ، ثم نهض الفاكه لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فوجله فلما رآها وثى هاربا وأبصره الفاكه فأقبل إلى هند فركضها برجله وهي نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذي نرج من عندك — فقالت لم أر أحدا وأنت الذي أنبهتني — فقال لها أذهبي إلى بيت أبيك فأقيم عنده ! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قدرميت أبتى بأمر عظيم، فإكفي إلى بعض كهان اليمن، نخرجا في جماعة من قومهما إلى كاهن من كهان اليمن ومعهما هند ونسوة أخر، فلما شارفوا بلاد الكاهن، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بشرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يسمني ميسما يكون علي سبة — فقال أبوها سأختبره لك فصفر لفرسه حتى أدلى، فأدخل في إحليله حبة حنطة وشد عليها بسير، فلما دخلوا على الكاهن، قال له عتبة : إنا قد جئناك في أمر وقد خبات لك خبا أختبرك به فانظر ماهو فقال ثمره في كمره — فقال أريد أئين من هذا — فقال حبة بر، في إحليل

مُهرٌ - فقال له أنظر في أمر هؤلاء النسوة، فجعل يدنو من إحداهن فيضرب بيده على كتفها ويقول أنهضني حتى دنا من هند فقال لها: أنهضني غير رَسْمَاءَ (١) ولا زانية وتلدت ليكا أسمه معاوية؛ فنض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبت يدها من يده، وقالت إليك عني! فوالله لأحرص على أن يكون من غيرك، فترجها أبو سفيان ابن حرب فولدت له معاوية، فكان من أمره ما كان إلى أن آتته به الحال إلى الخلافة. وقد أخبر جماعة من الكهنة بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم قرب ظهوره منهم سطيح الكاهن وغيره.

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم، حُرست السماء ومنعت الشياطين من استراق السمع كما أخبر تعالى بقوله ﴿وَأَنَا كَأَنَّ تَقَعُدُّ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا﴾.

ومنها الزجر والطيرة: وهما في معنى واحد؛ وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركه زجروا الطير حتى يطير؛ فإن طار يمينا كان له حكم، وإن طار شمالا كان له حكم، وإن طار أماما كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم؛ ومن ثم سميت الطيرة أخذًا من أسم الطير؛ وأكثر ما عولوا عليه من ذلك الغراب، ثم تعدوه إلى غير الطير من الحيوان، ثم جاوزوا ذلك إلى ما يحدث في الجمادات من كسر أو صدع أو نحو ذلك؛ وربما آتته بعض الزجر إلى حد الكهانة.

ومما يحكى من زجر الطير أن رجلا من لهيب: وهم بطن من العرب يعرفون بالعبافة، خرج في حاجة له، ومعه سقاء من لبن فسار صدر يومه فعطش فأناخ ليشرب فإذا غراب فنعب فأثار راحته، ثم سار حتى كان وقت الظهره أناخ ليشرب، فنعب الغراب وتمرغ في التراب، ففرض الرجل السقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرساء بالمهملات من النساء القبيحة ووقع في الأصل بانجم الشين وهو تصحيف فأحذره.

ثُعبان عظيم فقتله ، ثم سار فإذا غراب واقع على سِدْرَة فصاح به فوقع على سَلمة ، فصاح به فوقع على صخرة فأنتهى إليها ، فأثار من تحتها كتزا ؛ فلما رجع إلى أبيه قال له ما صنعت ؟ قال سرت صدرَ يومى فأنخت لأشرب فنعب الغراب — فقال : أثيرأحلتك وإلا فلست بآبئى — قال فعلت — قال ثم ماذا ؟ قال سرت حتى وقت الظهر فأنخت لأشرب فنعب الغراب ، وتمرغ في التراب — فقال أضرب السقاء وإلا فلست بآبئى . قال فعلت ؛ فوقع على صخرة قال أثيرأتمتحتها وإلا فلست بآبئى . قال فعلت ؛ فوجدت كتزا .

وقد وردت السنة بإبطال حكم الزجر والطيِّرة بقوله صلى الله عليه وسلم ” أقرُّوا الطَّيْرَ فِي وَكُأَتِهَا “ وقوله صلى الله عليه وسلم ” لَا عَدُوِي وَلَا طَيْرَةَ “ وأستحسن صلى الله عليه وسلم ، الفأل فقال ” وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ وَهِيَ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ أَسْمَعُهَا “ . وقد فرق العلماء بين الفأل والطيِّرة بأن الطيِّرة تُقصد والفأل يأتي من غير قصد .

ومنها الميسر : وهو ضرب من القمار كانوا يقتسمون به لحم الجُزر التي يذبحونها بحسب قِداح يضرُبونها ، لكل قِدَح منها نصيب معلوم : وهي أحد عشر قِدَاحاً : سبعة منها لها حظ إن فازت وعليها غرم إن خابت بقدر ما لها من الحظ عند الفوز ، وأربعة منها تُثَقَّلُ بها القِداح لا حظ لها إن فازت ، ولا غرم عليها إن خابت . فأما السبعة التي لها الحظ إن فازت وعليها الغرم إن خابت . فأولها القَدُّ : وهو قِدَح في صدره حَزٌّ واحد ، وله نصيب واحد في الأخذ والغرم . والثاني التَّوَم ، وفي صدره حَزَّان ، وله نصيبان في الأخذ والغرم . والثالث الضَّرِيب (ويسمى الرقيب) وفيه ثلاثة حُرُوز ، وله ثلاثة أنصباء . والرابع الحُلْس وفيه أربعة حُرُوز وله أربعة أنصباء . والخامس النَّافِئ وفيه خمسة حُرُوز ، وله خمسة أنصباء . والسادس المُسَيْل ، ويسمى المُصَفَّح أيضاً ، وفيه ستة حُرُوز وله ستة أنصباء . والسابع المُعْلَى ،

وفيه سبعة حروز، وله سبعة أنصباء؛ وهو أوفرها حظًا، ولذلك يُضربُ به المثل في الحظ فيقال قَدْحُه المَعْلَى .

وأما الأربعة التي تُثَقَّلُ بها القَدَاحُ فهي السَّفِيحُ، والمَنْيخُ، والمُضَعَّفُ، والوَغْدُ، وكان طريقهم في ذلك أن القوم يجتمعون فيشترُونَ جَزُورًا فينحرونها ويفصّلونها على عشرة أجزاء، ويسترحمون فيها على سبعة أنصباء لا أكثر، وتسمى الأنصباء فيها الأيسار، فإن كانوا أقلّ من سبعة وأراد أحدهم قَدْحين أو أكثر، أخذ وكان له فوزها، وعليه غرمها؛ فإذا جَزُوروا الجزور على ذلك، أتوا برجل يسمونه الحُرْضَةَ^(١)، من شأنه أنه لم يأكل لحماً قطّ بئس، ويؤتى بالقَدَاح فتشُدُّ مجموعة في قطعة جلد تسمى الرِّبَابَةَ، ثم يلفُّ الحُرْضَةَ على يده اليمنى ثوباً لثلاً يجد مس قَدْح، له مع صاحبه هوى فيحابه في إخراجها، ثم يؤتى بثوب أبيض يسمى المِجْوَلُ، فيسبُط بين يدي الحُرْضَةَ، ويقوم على رأسه رجل يسمى الرِّقِيبُ، ويدفع رِيبَةَ القَدَاحِ إلى الحُرْضَةَ، وهو محوّل الوجه عنها، فيأخذ الرِّيبَةَ التي تُجْمَعُ فيها القَدَاحُ، ويدخل يده تحت الثَّوب فينكر القَدَاحَ فإذا نهد فيها قَدْحَ يناوله دُفْعَةً إلى الرِّقِيبِ، فإن كان مما لآحظ له، ردّ إلى الرِّيبَةَ فإن خرج بعده المُسْبِلُ مثلاً أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر، وعلى ذلك أبداً يُفعل بمن فاز ومن خاب، فربما نحروا عدّة جُرُرٍ، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئاً، وإنما الغرم على الذين خابوا، وكان عندهم أنه لايجل للثائين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئاً؛ فإن فاز قَدْحُ الرجل فأرادوا أن يعيدوا قدحه ثانية على خطأ فعلوا ذلك به؛ وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عبّاد أسماء القَدَاحِ التي لها النصيب فوزاً وغرماً في أبيات فقال :

(١) الحُرْضَةُ بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرين . ووقع في الأصل الحُرْضَةُ بالواو والصاد المهملة وهو تصحيف من النسخ فأحذره .

إِنَّ الْقِدَاحَ أَمْرٌهَا حَجِيبٌ * الْفَدُّ وَالْتَّوَمُ وَالرَّقِيبُ
وَالْحِلْسُ ثُمَّ النَّافِسُ الْمِصِيبُ * وَالْمُصْفَحُ الْمَشْتَهَرُ النَّجِيبُ
ثُمَّ الْمَعْلَى حَظَّهُ الرَّغِيبُ * هَاكَ فَقَدْ جَاءَ بِهَا التَّرْتِيبُ

ومنها الأزلام : وهي ضرب من الطَّيْرَةِ، كانوا إذا أرادوا فعل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه ، أخذوا قِدَاحًا مكتوبًا على بعضها أفعَل ، لا تفعَل ، وعلى بعضها نعم ، وعلى بعضها لا ، وعلى بعضها خُدْ ، وعلى بعضها سِرْ ، وعلى بعضها سريع ، فإذا أراد أحدهم سفراً مثلاً أتى سادَنَ الأوثان ؛ فيضرب له بتلك القِدَاحِ ويقول : اللهم أيُّها كان خيرا له فأخرجه فما خرج له عمل به ، وإذا شكوا في نسب رجل أجالوا القِدَاحِ وفي بعضها مكتوبٌ صريح ، وفي بعضها مكتوبٌ مُلْحَقٌ ، فإن خرج الصريح أثبتوا نسبه ، وإن خرج المُلْحَقُ نَفَوَهُ . وإن كان بين اثنين اختلاف في حق سُمِّي كل منهما له سهما وأجالوا القِدَاحِ فمن خرج سهمه فالحق له وقد نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البَحِيرَةُ ، والسَائِبَةُ ، والوَصِيلَةُ ، والحَامِي .

فأما البَحِيرَةُ ، فكانت الناقَة إذا أُنتِجَت خمسة أبطن عمدوا إلى الخامس منها مالم يكن ذكرا فشققوا أذنها وتركوها ، فلا يُحزُّها وبر ، ولا يُحمَلُ عليها شيء ولا يُذكَرُ عليها إن ذُكِّتَ اسمُ الله تعالى ، وتكون ألبانها للرجال دون النساء .

وأما السَائِبَةُ فكان الرجل يُسَيِّبُ الشيء من ماله : بهيمةً أو عبداً ، فيكون حراما أبداً وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوَصِيلَةُ فكانت الشاة إذا ولدت سبعة أبطن عمدوا إلى السابع فإن كان ذكرا ذُبِحَ ، وإن كان أنثى تُرِكَت في الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثى قيل وصات أخاها فحراما جميعا ، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفحل إذا صار من أولاده عشرة أبطن، قالوا حمى ظهره، فترك، ولا يُحمَلُ عليه شيء، ولا يُركب، ولا يُمنَع ماءً، ولا مرعى؛ وقد أخبر الله تعالى ببطلان ذلك بقوله: ﴿مَجَعَلَّ اللَّهُ مِنَ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ .

ومنها إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمود إلى البعير الذى كملت به مائة فأغلق ظهره بأن يترع شيئاً من فقراته ويعقر سنامه كي لا يُركب يُعلم أن إبل صاحبه قد أمأت .

ومنها التَّفَقُّة، والتَّعْمِيَّة . كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً فقأ عين الفحل: وهى التَّفَقُّة، فإن زادت على ذلك فقأ العين الأخرى وهى التعمية، ويرغمون أن ذلك يدفع العين عن الإبل قال الشاعر:

وَهَبْتَهَا وَأَنْتَ دُوَّامَتَانِ * تَفْقَأُ فِيهَا أَعْيُنَ الْبُعْرَانِ

ومنها نكاح المقت: وهو نكاح زوجة الأب— وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا مات قام أكبرُ ولده، فالقَى ثوبه على امرأة أبيه فورث نكاحها، فإن لم يكن له فيها حاجة يُزوجها بعض إخوته بمهر جديد، فكانوا يتوارثون النكاح كما يرثون المال، فأنزل الله تعالى ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾ ، وحرّم زوجة الأب بقوله ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ ومن ثم سُمى نكاح المقت .

ومنها رمى البعرة: كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجها، دخلت حفشاً (يعنى خُصّاً) ولبست شراًيبها ولم تمسّ طيباً حتى تمضى عليها سنة، ثم يُؤتى بدابة: حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتفتض به أى تُمسح به فقلماً تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج بعد ذلك فتعطى بعرة قترى بها، ثم تراجع ما شاءت من طيب أو غيره فنسخ

الإسلام ذلك بقوله تعالى ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ .

ومنها وأد البنات (وهو قتلهن) . كانوا يقتلوهن خشية العار؛ ومن فعل ذلك قيس ابن عاصم المنقرئ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المال، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغزاهم جيشا فسبوا ذراريهم فأناب القوم وسألوه فيهم فقال النعمان : كل امرأة اختارت أباها ردت إليه، وكل من اختارت صاحبها تركت معه، فكلهن اخترن آباءهن إلا ابنة لقيس بن عاصم فإنها اختارت صاحبها عمرو بن الجُموح، فندر قيس أنه لا يولد له ابنة إلا قتلها فكان يقتلن بعد ذلك . وورد القرءان بإعظام ذلك بقوله ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشية الإملاق والفاقة، فكان الرجل منهم يقتل ولده مخافة أن يطعم معه إلى أن نهى الله تعالى عن ذلك بقوله ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا ﴾ .

ومنها حبس البلياء، كانوا إذا مات الرجل يشدون ناقته إلى قبره ويقبلون برأسها إلى ورائها ويغطون رأسها بولية وهي البرذعة فإذا أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حشرت معه في المعاد ليركبها قال أبو زيد :

كالبلياء رؤوسها في الولايا * مانحات السموم حر الخدود

ومنها الهامة — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قتل ولم يطالب بثأره، خرج من رأسه طائر يسمى الهامة، وصاح : أسقوني أسقوني حتى يطالب بثأره ؛ قال ذو الأصبغ :

(١) في الأصل بزية وكذلك جمعها في البيت زلايا وهو تصحيف فأحذره .

(٢) في الأصل أبو زيد وهو تصحيف .

يا عمرو إلاً تدع شئى ومنقصتى * أضر بك حتى تقول الهامة أسقونى
ومنها تأخير البكاء على المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يتكبن المقتول منهم
حتى يؤخذ بثأره، فإذا أخذ به بكينه حينئذ، قال الشاعر :

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ * فَلَئَاتِ نِسْوَتَا بُوْجِهِ نَهَارِ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَهُ * يَلْطَمْنَ حُرَّ الْوَجْهِ بِالْأَنْحَارِ

ومنها تصفيق الضال — كان الرجل منهم إذا ضلَّ في الفلاة، قلب ثيابه وحبس
ناقته وصاح في أذنها كأنه يؤمى إلى إنسان وصدق بيديه قائلاً : الْوَحَا الْوَحَا النَّجَاءُ
النَّجَاءُ هَيْكَل : الساعة الساعة إلى إلى عجل ، ثم يجتزك ناقته فيزعمون أنها تهتدى ،
إلى الطريق حينئذ . قال الشاعر :

وَأَذَنُ بِالْتَّصْفِيقِ مِنْ سَاءِ ظَنِّهِ * فَلَمْ يَدْرِ مِنْ أَىِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا
يريد إذا ساء ظنه بنفسه حين يضل .

ومنها الغول — كانوا يزعمون أن الغول تترأى لأحدهم في الفلاة فيتبعها فتستهويه ،
وربما ادعى أحدهم أنه قابلها وقاتلها قال تابط شراً :

أَلَا مِنْ حُجْرٍ فِتْيَانِ فَهَمٌ ^(١) * بِمَا لَاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا يَطَّانِ
بَأْنِي قَدْ لَقَيْتُ الْغُولَ تَهْوَى * بِسَهْبٍ كَالصَّحِيفَةِ صَحَّاحَانِ
فَقُلْتُ لَهَا كَلَانًا نِضْوُ أَرْضِ * أَخُو سَفَرٍ نَحَلُّ لِي مَكَانِي
فَشَدَّتْ شِدَّةً نَحْوَى فَأَهْوَتْ * لَهَا كَفَى بِمَصْقُولِ يَمَانِي
فَأَضْرِبُهَا بِلَا دَهْشٍ نَحَرْتُ * صَرِيحًا لِلْيَدَيْنِ وَاللِّبْرَانِ

ومنها ضرب الثور ليشرب البقر — كانوا يزعمون أن الجحش تركب الثيران فتصد
البقر عن الشرب، فيضربون الثور ليشرب البقر، قال الشاعر :

(١) فى نسخة فهر . وفى ياقوت قويم . وقوله فى البيت الثانى بسبب فى الأصل بسيف وهو تصحيف .

كَذَلِكَ الثَّوْرُ يَضْرِبُ بِالْهَرَاوِي (١) * إِذَا مَا عَافَتِ الْبَقْرُ الظَّمَاءَ

ومنها تعليق سنّ الثعلب وسنّ الهرة وحيض السمرة — كانوا يزعمون أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شيء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادت له لم تقدر عليه؛ قالت امرأة تصف ولدا:

كَانَتْ عَلَيْهِ سِنَّةٌ مِنْ هِرَّةٍ * وَتَعَلَبَ وَالْحَيْضُ حَيْضُ السَّمْرِه

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلقونه على أنفسهم، ويزعمون أنه وقاية من العين والسحر، قائلين إن الجن تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر:

وَلَا يَنْفَعُ التَّعْشِيرُ إِنْ حُمَّ وَقَعٌ وَلَا وَدَعٌ يُغْنِي وَلَا كَعْبُ أَرْنَبٍ

ومنها تعليق الحلي على السليم (وهو الملسوع) — كانوا إذا ألسع فيهم إنسان علقوا عليه الحلي من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيفيق، قال النابغة:

يُسَهِّدُ مِنْ وَقْتِ الْعِشَاءِ سَائِمَهَا * لِحَلِي النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَايِعُ

ومنها وطء المقاتل القتلى — كانوا يزعمون أن المرأة المقاتلة (وهي التي لا يعيش لها ولد) إذا وطئت قتيلًا شريفًا بقي أولادها، قال بشر بن أبي حازم:

يَظَلُّ مَقَالِيَتُ النِّسَاءِ يَطَّانُهُ * يَقْلَنُ أَلَا يُلْقِي عَلَى الْمَرْءِ مِتْرًا

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طارف عين صاحبه فهاجت فمسح الطارف عين المطروف سبع مرات يقول في كل مرة: بإحدى جاءت من المدينة: باثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئن من المدينة إلى سبع سكن هيجانها.

(١) في الأصل بالهوادى وهو تصحيف فأحذره.

ومنها كىّ السليم من الإبل ليرأ الحرب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُرّ (وهو الحرب) فكوّوا صحيفا إلى جانبه ليشم رائحته برئى، وربما زعموا أنه يؤمن معه العدوى، قال النابغة :

وكَلَّفَتْنِي ذَنْبَ أَمْرِي وَتَرَكْتَهُ * كَذِي الْعَرِي كَوِي غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

ومنها ذهاب الخدر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجل إذا خدرت رجله فذكر أحب الناس إليه ذهب عنه الخدر، قالت امرأة من كلاب :

إِذَا خَدِرْتُ رِجْلِي ذَكَّرْتُ ابْنَ مُصْعَبٍ * فَإِنِ قُلْتُ عَبْدَ اللَّهِ أَجَلِي فُتُورَهَا

ومنها الحلى عن الصبيان بجباية الحى وإطعامه الكلاب — كانوا يرون أن الفتى إذا ظهر فيه الحلى بشفته (وهى بُور تنبت بالشفة) فيأخذ منخلا على رأسه ويمز بين بيوت الحى وينادى الحلى الحلى فيلقى فى منخله من هنا تمرّة، ومن هنا كسرة، ومن هنا قطعة لحم فإذا امتلأ نثره بين الكلاب فيذهب عنه الحلى .

ومنها شق الرداء والبُرُق، لدوام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحببت رجلا أو أحبا ولم تُسَقَّ عليه رداءه ويسقَّ عليها برقعها فسد حبهما، قال الشاعر :

إِذَا سُقِّ بَرْدُ سَقِّ بِالْبُرْدِ بَرُقٌ * دَوَالِيكَ حَتَّى كُنَّا غَيْرُ لَائِسِ

فَكَمْ قَدْ شَقَّقْنَا مِنْ رِءَاءِ مُحَبَّرٍ * وَمِنْ بَرُقِ عَنِ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَائِسِ

ومنها رمى سن الصبى المتغر فى الشمس — يقولون : إن الغلام إذا أنغر فرمى سنّه فى عين الشمس بسبأته وإبهامه وقال أبلدبنى بها أحسن منها ، أمن على أسنانه العوج والفالج والنغل ، قال طرفة :

بَدَّلْتَهُ الشَّمْسُ مِنْ مَنِيَّتِهِ * بَرْدًا أبيضَ مَصْقُولِ الأَشْرِ

(١) لعله دفع الحلى عن الخ . وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز .

ومنها التعشير — زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية نخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشركا ينق الحمار ثم دخلها ، لم يصيبه وباءها ، قال عروة ابن الورد :

لَعَمْرِي لَئِنْ عَشَرْتُ مِنْ خَشِيَةِ الرَّدَى * نُهَاقَ حَمِيرٍ إِنِّي لَجَزُوعٌ
ومنها عقد الرتم — وهو بنت معروف — كان الرجل إذا أراد سفرا عمد إلى رتم فعهقه فإن رجع ورءاه معقودا ، أعتقد أن امرأته لم تتحنه ، وإن رءاه محلولا أعتقد أنها خائنه ، قال الشاعر :

خَائِنَةٌ لَمَّا رَأَتْ شَيْبًا بَمَفْرَقِهِ * وَغَرَّهَ حِلْفُهَا وَالْعَقْدُ لِلرَّتَمِ
ومنها اعتبار دائرة المهقوع — وهي دائرة تكون في عنق الفرس يقال لها الهقعة على ما يأتي ذكره في الكلام على الخيل في الطرف الآتي — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عرق تحت صاحبه آغتمت حليلته ، وطلبت الرجال ، قال الشاعر :

إِذَا عَرِقَ الْمَهْقُوعُ بِالْمَرْءِ أَنْعَظَتْ * حَلِيلَتُهُ وَأَزْدَادَ حَرًّا عَجَانُهَا
ومنها خضاب نحر الفرس السابق — كان من عادتهم إذا أرسلوا خيلا على صيد فسبق أحدها خضبوا صدره بدم الصيد علامة له ، قال الشاعر :

كَأَنَّ دِمَاءَ الْعَاوِيَاتِ بَنَحْرِهِ * عُصَارَةٌ حِنَاءٍ بِشَيْبِ مُرَجَلٍ
ومنها جزناصية الأسير — كانوا إذا أسروا رجلا ثم منوا عليه فأطلقوه ، جزوا ناصيته ووضعوها في كئانة ، قالت الخنساء .

بَرَزْنَا نَوَاصِيَ فُرْسَانِهِمْ * وَكَانُوا يُظُنُّونَ أَنْ لَا تُجْزَأَ

(١) في اللسان في زور الفرس أو عرض زوره . وسيأتي تفسيره بذلك في الدوائر .

(٢) في نسخة العاديات .

النوع الخامس عشر

(في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان)

الصنف الأول

(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" للعرب ثلاث عشرة نارا .
الأولى نار المزدلفة — وهي نار تُوقَد بالمزدلفة من مشاعر الحج ليراهَا مَنْ دفع من
عرفة . وأول مَنْ أوقدها قُصَى بن كلاب ، فهي تُوقَد إلى الآن .

الثانية نار الاستطار — كانوا في الجاهلية الأولى إذا آحتبس المطرُ جمعوا البقر
وعقدوا في أذناها وعراقبها السَّلَع والعُشْر ، ويضعّدون بها في الجبل الوعر ، ويُشعلون
فيها النار ، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر ، قال الشاعر :

أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيَقُورًا مُسَلَّعَةً * وَسِيَلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطْرِ

الثالثة نار الحلف — كانوا إذا أرادوا عقد حلف أوقدوا النار وعقدوا الحلف
عندها ، ويذكرون خيرها ، ويدعون بالحُرمان من خيرها على من نقض العهد ، وحلّ
العقد . قال العسكري " وإنما كانوا يُحصّون النار بذلك لأن منفعتها تختص
بالإنسان ، لا يشاركه فيها شيء من الحيوان غيره " .

الرابعة نار الطرد — وهي نار كانوا يُوقدونها حلف من يمضي ولا يحبون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا ، أوقدوا نارا على

جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم .

السادسة نار الحرّتين : كانت في بلاد عبس فإذا كان الليل تضيء نار تسطع

وفي النهار دخان مرتفع ، وربما بدر منها عُنُق فأحرق من مرّ بها ، فحفر خالد بن سنان النبيُّ ، فدفنها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِي — تُرْفَعُ لِلتَّقَرُّ فَيَتَّبِعُهَا قَهْوِيٌّ بِهِ الْغَوْلُ عَلَى زَعْمِهِمْ كَمَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَوَابِدِ الْعَرَبِ .

الثامنة نار الصيد — وهي نار تُوقَدُ لِلطَّبَاءِ تَغْشَاهَا إِذَا نَظَرَتْ إِلَيْهَا .

التاسعة نار الأسد — وهي نار تُوقَدُ إِذَا خَافُوا الْأَسَدَ لِيَنْفِرَ عَنْهُمْ فَإِنْ مِنْ شَأْنِهِ النَّفَارُ عَنِ النَّارِ، يُقَالُ إِنَّهُ إِذَا رَأَى النَّارَ حَدَثَ لَهُ فَكِرَ يَصِدُّهُ عَنْ قَصْدِهِ .

العاشر نار القِرْيِ — وهي نار تُوقَدُ لِيَلَا لِيَرَاهَا الْأَضْيَافُ فَيَهْتَدُوا إِلَيْهَا .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كانوا يُوقِدُونَ النَّارَ لِلْمَسْوَعِ إِذَا لُدِغَ يُسَاهِرُونَهُ بِهَا، وَكَذَلِكَ الْمَجْرُوحُ إِذَا نَزَفَ دَمُهُ، وَالْمَضْرُوبُ بِالسَّيَاطِ وَمَنْ عَضَّ الْكَلْبُ كَى لَيَنَامُوا فَيَسْتَدُّ الْأَمْرَ بِهِمْ فَيُؤْتِيهِمْ إِلَى الْمَلَكَةِ .

الثانية عشرة نار الفداء — كان الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت إليهم السادة منهم للفداء أو الاستيهاب فيكفون أن يعرضوا النساء نهارا فيفتضحن أو في الظلمة فيخفي قدر ما يحبسونه لأنفسهم من الصفي، فيوقدون النار لعرضهن .

الثالثة عشرة نار الوسم — وهي النار يُسَمُّ بِهَا الرَّجُلُ مِنْهُمْ إِبْلَهُ يُقَالُ لَهُ مَاسِمَةٌ إِبْلَكَ؟ فيقول كذا :

الصنف الثاني

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقِيمُونَهَا فِي شَهْرِ السَّنَةِ، وَيُنْتَقِلُونَ مِنْ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ وَيَحْضُرُهَا سَائِرُ قَبَائِلِ الْعَرَبِ : مِمَّنْ قُرْبُ مِنْهُمْ وَبَعْدُ . فَكَانُوا يَتَزَلُّونَ دُومَةَ الْجَنْدَلِ

أول يوم من ربيع الأول، فيقيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يعيشون فيها أكيدر دومة - وهو ملكها - وربما غلب على السوق كلب، فيعشونهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلى آخر الشهر. ثم ينتقلون إلى سوق هجر من البحرين في شهر ربيع الآخر، فنكون أسواقهم بها، وكان يعيشون في هذا السوق المنذر بن ساوى أحد بني عبد الله بن دارم - وهو ملك البحرين. ثم يتحولون نحو عمان من البحرين أيضا فتقوم سوقهم بها. ثم يتحولون فيتلون إرم وقرى الشجر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما. ثم يتحولون فيتلون عدن من اليمن أيضا فيشترون منه اللطائم وأنواع الطيب. ثم يتحولون فيتلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويحبون منها الخرز والأدم والبُرود، وكانت تجلب إليها من معافر. ثم يتحولون إلى عكاظ في الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار، ويتحاجون؛ ومن له أسير سعى في فدائه، ومن له حكومة أرتفع إلى من له الحكومة؛ وكان الذي يقوم بأمر الحكومة فيها من بني تميم؛ وكان آخر من قام بها منهم الأقرع بن حابس التيمي. ثم يقفون بعرفة ويقضون مناسك الحج. ثم يرجعون إلى أوطانهم قد حصلوا على الغنيمة، وآبوا بالسلامة.

النوع السادس عشر

(الظفر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلى معرفة وقائع التاريخ، وتفصيلها؛ ولا يكاد يستغنى عن العلم بشيء منها لأمر. منها العلم بأزمنة الوقائع والمجريات؛ وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والمجريات الحاصلة بينهم؛ فيحتج بكل واقعة منها في موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك؛ فإنه متى أخل بمعرفة ذلك

أحتج بالقصة في غير موضعها ، أو نسبها إلى غير من هي له ، أو لبس عليه خصمه بالاستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلى غير من هي له ليظهر مُحجته عليه ، وما يجري مجرى ذلك ؛ وفيه مقصدان .

المقصد الأول

(في ذكر نبذة تاريخية لا يسع الكاتب جهلها مما يحتج به الكاتب تارة
ويذاكر به ملكه أو رئيسه أخرى)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف على اختلاف فنونه : ما بين مختصر ، ومبسوط : من مقتصر على فن ، ومستوعب لفنون ، وفي خلال تلك المصنّفات نوادر غريبة ، ولطائف عجيبة ؛ لا يحصل الوقوف عليها إلا بعد استيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظفر بالجوهر في المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل في خلالها بقتة ؛ فإذا التقت الجواهر من المعدن ، سهل تناوُّها لمريدها ؛ وهي على ضربين .

الضرب الأول

(الأوائل)

وهي معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكري بالتصنيف ، وأورد الثعالبي منها في كتابه "لطائف المعارف" نبذة صالحة ، وتضمنت كتب التاريخ منها جملة مما لم يتعرضوا إليه ؛ وقد اقتضت منها على ما تشوف نفوس أكثر الناس إلى معرفته والأطلاع عليه : مما توفرت الدواعي عليه ، فاستمر وجوده ، وأنسحب عليه حكم الاستعمال إلى الآن ، أو أشتهر في مبدئ أمره ، ثم زال بعد ذلك ؛ جاريا في ترتيبه على وجه يقرب تناوله ، مقدما الأهم فالأهم بالنسبة إلى حال الكاتب :

أمور تتعلق بالأنبياء عليهم السلام

(سوى ما يأتي ذكره مما شا كل غيره)

أول من استرقَّ الرقيقَ إدريس عليه السلام . أول من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام ؛ وهو أول من قصَّ شاربته ، وأول من فرق شعره ، وأول من تمضمض ، وأول من استاك ، وأول من قلم الأظفار ، وأول من استنجى ، وأول من آختن ، وأول من رمى الجمار .

الخلافة وما يتعلق بها

أول من سُمي خليفةً أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين ولى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخاطب بخليفة رسول الله ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة إن شاء الله تعالى ؛ وهو أول من استخلف من الخلفاء : استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مرض موته ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على ولاية الخلفاء في المقالة الخامسة ؛ وهو أول خليفة فرض له العطاء في بيت المال عن الخلافة ، ولما أدركته الوفاة أوصى بإعادة جميع ما حمل إليه من ذلك إلى بيت المال من ماله .

أول من سُمي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على هذا اللقب في جملة الألقاب في المقالة الثالثة ؛ وهو أول من رتب بيت المال فيما ذكره العسكري ، لكنه قد ذكر في موضع آخر أن عمر كان على بيت المال من قبل أبي بكر رضي الله عنه ، فيكون أبو بكر قد سبقه إلى ذلك ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على وكالة بيت المال في المقالة الخامسة ؛ وهو أول من كور الكور ومسح أرض السواد ، ورتب الخراج على الأرضين ، والحزبية على

(١) الجَمَاجِمُ؛ وهو أول من حمل الطعام من مصر إلى الحجاز؛ وذلك في عام الرمادة عند غلوة السعربالحجاز. وسيأتي ذكره في الكلام على خليج القاهرة في أوائل المسالك والممالك .
 أول من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ وسيأتي ذكره في الكلام على الإقطاعات في المقالة السادسة، وهو أول من حمى الحمى لنعم الصدقة من الخلفاء، وهو أول من اتخذ صاحب شرطة من الخلفاء .
 أول من اتخذ بيتاً ترمى فيه قصص أهل الظلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبقى حتى كتبت له شتمه في رُقعة، وطُرحت في البيت فتركه؛ ثم اتخذ المهدي بعده، ثم ترك بعد ذلك .

أول من سلّم عليه بالخلافة فقيل السلام عليك يا أمير المؤمنين معاوية؛ وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم؛ وهو أول من عهد إلى ابنه بالخلافة، عهد بها إلى ابنه يزيد، ثم تبعه الكثير من الخلفاء على ذلك؛ وهو أول من استخلف في حال صحته وإلا فأبو بكر لم يستخلف عمر إلا في مرض موته، وعمر لم يجعل الأمر شورى إلا وهو مطعون؛ وسيأتي ذكر ذلك جميعه في الكلام على ولاية الخلفاء في المقالة الخامسة، وهو أول من اتخذ المقصورة في المسجد لصلاة الجمعة؛ وقيل ^(٢) اتخذها مروان قبله، وقيل عثمان؛ وهو أول من نهى عن الكلام بمحضرة من الخلفاء، وكان الناس قبل ذلك يردون على الخليفة ويعترضونه فيما يقول؛ وهو أول من اتخذ ديوان الخاتم لخم الكتب؛ وسيأتي ذكره في الكلام على اللواحق من المقالة الثالثة، وهو أول من اتخذ البريد في الإسلام؛ وسيأتي ذكره في الكلام على البريد في خاتمة الكتاب .

(١) في الأصل الزيادة وهو تصحيف .

(٢) يظهر أن قبله سقطا وما بعده يدل على أن المتكلم فيه الآن عبد الملك بن مروان فإنه أول من

نهى عن الكلام بمحضرة الخلفاء فليحزر .

أول من سار في الناس بالخبيرية من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليد بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل فخاطبه باسمه فأمر به فوطئ .
 أول من رتب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور، وأتخذ في قصره بيتا يجلس فيه الناس حتى يُؤذن لهم ؛ وهو أول من أتخذ الأتراك اتخذ حمادا التركي ، ثم أتخذ المهدي بعده مباركا التركي ، ثم أكثر الخلفاء من الأتراك بعد ذلك .
 أول من جلس للصبائب من الخلفاء على البساط دون الأئمّاط هارون الرشيد حين نعي إليه قريبه : إبراهيم بن علي ؛ فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا في المآتم .
 أول من نعت علي المنبر بنعت الخلافة الأمين بن الرشيد فقيل : اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبد الله محمدا الأمين .

أول من أضيف لقبه من الخلفاء إلى اسم الله المعتصم فقيل المعتصم بالله ، ثم تبعه الخلفاء على ذلك ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على الخلفاء في المقالة الثانية .
 أول من حوّل السنة الشمسية إلى السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكّل ؛ وسيأتي ذكره في تحويل السنين في المقالة السابعة ، وهو أول من أمر بتغيير زي أهل الذمة ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على عمد الصلح لأهل الذمة في المقالة السابعة .

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أول من لبس التاج الضحك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال ؛ وفي زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام .
 أول من مسح الأرضيين ، ووضع الدواوين ، ووضع الخراج على الأرضيين ، ووظف الموظفين على البلاد قيذار أحد ملوك الفرس ، وأتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل .

أول من جلس على السرير من ملوك العرب جَذيمة الأبرش، وهو أول من وقعت له السُّمعة من ملوك العرب، وأول من لبس الطُّوق منهم .

أول من مشّت الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية ملكوه عليهم وتوجّوه .

أول من مشى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ ابن أبيه، وهو أول من جالس الناس بين يديه على الكراسي، وهو أول من أخذ العسس والحرس .

أول من سلّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقبل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم، ثم تبعه الأمراء على ذلك .

أول من حمل إليه الثلج الحجاج بن يوسف، وسيأتي ذكره في الكلام على حمل الثلج لصاحب الديار المصرية في خاتمة الكتاب .

أول من نقش اسمه من الملوك على الدنانير والدرهم مع الخلفاء عن الدولة بن بويه وإخوته ملوك الديلم القائميين على الخلفاء العباسيين ببغداد، في سنة أربع وثلاثة وثلاثين، ثم تبعهم الملوك على ذلك .

أول من حمل السنجق على رأسه من الملوك غازي بن زكي صاحب الموصل، وهو أول من اختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف في أوساطهم والدبابيس تحت ركبهم .

أول من حمل الشمع معه على البغال في الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طنج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل على مؤخر البغل وفراش راكب أمامها، وهو يلتفت في كل قليل يصالحها، فأبدها الملوك بعده هذه الفوانيس التي تحمل على البغال مع الفانوسية أمام ملوك الديار المصرية في الليل .

أول من لقب من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رضوان بن ولخشي وزير الحافظ : لقب بالملك الأفضل، وكان من قبله من الوزراء لا ينعت بالملك .

أول من لف العمامة على الكلوتة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون، وكانت ملوك بني أيوب يلبسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون على أرباب الأقاليم المتعممين في مقابلة أن الجند كانوا بغير عمامم .

أول من أعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند على ذلك وأستمر الأمر على ذلك إلى الآن ، وكان لهم قبل ذلك غدائر شعر مرسله كعرب الحجاز ونحوهم .

الوزراء

أول من سمى وزيرا في الإسلام أحمد بن سليمان الخلال، وزير السقّاح أول خلفاء بني العباس، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك على ذلك، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتباً .

أول من لُقّب بالصاحب من الوزراء، كافي الكفاة إسماعيل بن عبّاد، وكان السبب في ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد فكانوا يقولون صاحب ابن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتى قيل له الصاحب مجّزدا وتبعه الخلفاء على ذلك ، وسيأتي ذكره في الكلام على هذا اللقب في المقالة الثالثة .

أول من لقب بالملك الفلاني من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ولخشي وزير الحافظ، لُقّب الملك الأفضل ، ثم صار رسماً لوزرائهم بعد ذلك ، وتبعهم ملوك الديار المصرية على ذلك إلى الآن .

القضاة

أول قاض كان في الإسلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، أستقضاها أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، في خلافته فكث سنة لا يأتيه أحد في قضية .

أول قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نوفل ، استقضاه عليها أمير المؤمنين عمر
ابن الخطاب رضى الله عنه في خلافته .

أول قاض بالكوفة جبير بن القشعم .

أول قاض بالبصرة أبو مريم الحنفى ، أحد بنى حنيفة ، استقضاه أميرها عمرو
ابن غزوان في سنة أربع عشرة من الهجرة .

أول قاض بمصر قيس بن أبي العاص السهمى ، استقضاه عليها عمر بن الخطاب
رضى الله عنه ، في خلافته في سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أول قاض جمع له القضاء والشرطة بمصر عائش بن سعيد وليهما من قبل أميرها
مسلمة بن مخلد .

أول قاض بمصر نظر في الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أبو محجن توبة في خلافة
هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال :
هذه مآلها إلى الفقراء والمساكين فأنا أضع يدي عليها ، فما مضت له سنة حتى صار
لها ديوان عظيم .

أول قاض بمصر نخرج لرؤية الهلال عبد الله بن لهيعة . قال أبو عمر الكندى ،
وهو أول قاض ولي مصر عن خليفة ، ولها عن أبي جعفر المنصور في أول سنة
خمس وخمسين ومائة .

أول قاض ولي مصر ممن يقول بقول أبي حنيفة أبو الفضل إسماعيل بن اليسع
الكندى ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبي حنيفة ولم يألوه ، وكان يرى
بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلى أبي جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أول قاض بمصر أدخل النصارى في خصوصياتهم إلى المسجد أبو عبد الرحمن محمد
ابن مسروق ، وكانت ولايته لها من قبل الرشيد في سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو
أول من آخذ لمجلسه الشهود من قضاة مصر .

أول قاض ولي مصر ممن يقول بقول مالك أبو نعيم إسحاق بن الفرات مولى معاوية
ابن حديج ، وللشافعي عليه ثناء جميل في معرفة الخلاف ، وهو أول قاض آخذ للشهود
ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قبل الرشيد في سنة بضع وثمانين ومائة .
أول قاض ولي على المصاحف أمينا بجامع القسطنطين الحارث بن مسكين ، وكانت
ولايته في خلافة المتوكل .

أول ما استقرت قضاة الديار المصرية أربعة ، من كل مذهب قاض في سلطنة
الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضى تاج الدين ابن
بنت الأعز وكان شافعيًا ، فكانت تأتيه المكاتيب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فشق
ذلك على السلطان والأمراء فاتفق رأيهم على أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقتضى
كل منهم بمذهبه .

أول ما خص قاضى القضاة الشافعي بالديار المصرية بالتولية في أعمالها دون رفقته
الثلاثة في سلطنة المنصور قلاوون في شوال سنة ثمان وسبعين وستائة ، ذكره ابن
المكرم في تذكرته .

الأمور العلية

أول من أخطأ في القياس إبليس ، حيث قال ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ
مِنْ طِينٍ ﴾ أو لم يعلم أن ما ألقى إلى جوهر الطين زاد ونما ، وما ألقى إلى جوهر النار
اضمحل وتلاشى .

- أول من نطق بالحكمة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .
- أول من دلّ على تركيب الأفلاك ، وقدر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها ، ونبه على عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .
- أول من نظر في الطب أفريدون ملك الفرس بعد الضحاك ، وفي أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا في علومهم .
- أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وهو أول من نقط المصاحف النقط الأول على الإعراب .
- أول من صنّف في علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلي .
- أول من تُرجم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفية خالد بن يزيد ، ثم تلاه المأمون فأكثر من ذلك .
- أول من صنّف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى .
- أول من صنّف في أصول الفقه الإمام الشافعي رضي الله عنه ، صنّف فيه كتابه الرسالة .
- أول من صنّف في الفقه مالك بن أنس صنّف كتابه الموطأ .
- أول من عمل العروض الخليل بن أحمد ، وهو أول من صنّف اللغة مرتبة على حروف المعجم صنّف كتابه " العين " .
- أول من صنّف في علم البديع عبد الله بن المعتز .
- أول من سنّ الإساءة والأجترأ في البحث فرعون ، بينا هو وموسى عليه السلام في مقام المناظرة حيث قال ﴿ وما رب العالمين ﴾ فأجابه موسى بقوله ﴿ ربّ السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين ﴾ إلى آخر المناظرة بينهما إذ قال ﴿ لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ .

الخطابة

أول من جمع قريشا وخطبهم ونبه على أن النبي "صلى الله عليه وسلم" منهم قَصِيءُ
أبن كلاب، وسيأتي ذكره في الكلام على مكة في المسالك والممالك في المقالة الثانية.

أول من خطب على العصا وعلى الراحلة قُس بن ساعدة الإيادي، وقد تقدم
ذكر خطبته التي خطبها على الراحلة في الكلام على الخطب.

أول من عمّل المنبر تميم الداري عمله للنبي صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأى منابر
الكنايس بالشام.

أول من أرنج عليه في الخطبة عثمان بن عفان رضي الله عنه فقال: أيها الناس إن
اللذين كانا من قبلي كانا يُعدّان لهذا المقام مقالا، وأتم إلى إمام عادل أحوج منكم
إلى إمام قائل، وستأتىكم الخطبة على وجهها في الجمعة الأخرى ثم نزل.

أول من خطب جالسا معاوية حين كثر شحمه.

أول من أقام الجمعة بالمدينة قبل مقدّم النبي صلى الله عليه وسلم، أسعد بن زُرارة
الأنصاري بنى بياضة.

أول من رفع يده في الخطبة يوم الجمعة عبيد الله بن عبد الله بن عمر.

أول من أخرج المنبر في العيد مروان بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَج.

الخط

أول من خط بالقلم في الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس.

أول من كتب بالعربية قيل هود عليه السلام أنزل عليه، وقيل إسماعيل،
وقيل ثلاثة نفر من بولان من طيء أصطلحوا على ذلك، وسيأتي ذكره في الكلام
على الخط في الباب الثاني من هذه المقالة.

كُتَابَةُ الْإِنْسَاءِ

أول من كتب في أول الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام ، حين كتب لِبَلْقَيْسَ كما أخبر الله تعالى عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت .

أول من كتب في أول الكتب باسمك اللهم أُمِيَّةُ بن أبي الصَّلْتِ ، فكتبها قُرَيْشٌ في كتبهم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ، يكتبها في ابتداء الأمر ، وسيأتي ذكر جميع ذلك في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .

أول من كتب من فلان إلى فلان قُسُّ بن ساعدة فيما قاله العسكري وأقزوه النبي صلى الله عليه وسلم ، في مكاتباته ، وسيأتي ذكره في الكلام على الفواتح في المقالة الثالثة .

أول من زاد في أوائل الكتب بعد التمجيد ” وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله “ هارون الرشيد ؛ وسيأتي ذكره في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة .
أول من أَرخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه ، وسيأتي ذكره في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة .

أول من كتب في آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أبي بن كعب قاله العسكري .
أول من ختم الكتب سليمان عليه السلام فقد قيل في قوله تعالى حكاية عن بَلْقَيْسَ ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ إن المراد به المختوم . وأول من ختمها في الإسلام النبي صلى الله عليه وسلم ، حين قيل له : إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصحه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب ، وسيأتي ذكر ذلك في الكلام على الخواتم .

أول من آتخذ الطين لخم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

أول من آتخذ ديوان الخاتم معاوية بن أبي سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبي في "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما في معناها

أول من آتخذ الديوان في الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره في الكلام على الإقطاعات في المقالة السادسة .

أول من جعل الحساب في دفاتر خالد بن برمك فيما قاله الثعالبي ، وكان قبل ذلك في أدراج من كاغذ ورق .

أول من نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية المجاج بن يوسف في خلافة عبد الملك بن مروان ؛ نقله له صالح بن عبد الرحمن ؛ كاتب كاتبه زاذان فروخ فكان كتاب العراقيين علماء وتلاميذ^(١) .

أول من نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية عبد الملك بن مروان ، نقله له سليمان بن سعيد مولى الحسين كاتب رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أول من نقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد العزيز بن مروان في إمارته على مصر ، ذكره صاحب "المنهاج في صنعة الخراج" .

أول من وسع في أرزاق الكتاب الفضل بن سهل وزير المأمون .

(١) في الأصل فروج بالمهملة فكان كبار العراقيين وهو تصحيف فأحذره .

الخَرَاجُ وَالْجَزِيَّةُ

أول من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرى أنوشروان؛ وذلك أنه مر على زرع
وأمرأة تمنع ولدها منه؛ فسألها عن ذلك، فقالت : إن للملك فيه حقا، ولا نستحله
حتى يأخذ الملك حقه، فقرر على الزرع قدرا معلوما وخلى بين الغلّة وأصحابها .

أول من وضع الخراج على الأَرْضَيْنِ وَالْجَزِيَّةِ عَلَى الْجَاهِلِيَّةِ فِي الْإِسْلَامِ أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب حين مسح السّواد؛ ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصور حين خرب
السّواد .

أول من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد ابن أبيه فبقى حتى أسقطه زياد
ابن أبيه ^(١) .

أول من عرّف العرفاء على الناس بلجاية المال وغيره زياد، وكان يقول : العرفاء
كالأيدي والمناكب فوقها .

المعاملات

أول من ضرب الدنانير والدرهم في الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشام
من فضة خالصة ، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بديراهم الفرس والرّوم ؛ ولما ضربها
عبد الملك كتب إلى الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك ، فضرب الدراهم ونقش عليها
قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ ، فَسَمِّيَتِ الدَّرَاهِمُ الْأَحَدِيَّةُ ، وَكَرِهَهَا النَّاسُ لِنَقْشِ
الْقُرْآنِ عَلَيْهَا ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ يَجْمَعُهَا الْمَحْدُثُ ، فَسَمِيَتِ الْمَكْرُوهَةُ .

قلت : وقد رأيت درهما من هذه الدراهم الأحادية ، أرانيه بعض أعيان حلب ،
وذكري أن فلاحا أصاب ركاذا لطيفا بها فأحضره إلى نائب حلب خوف عهده ،

(١) كذا في الأصل .

فاقتسمه هو وأهل مجلسه ، وعوّضه من كل درهم أضعافه ، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده .

أول من شدّد في العيار في الدراهم يوسف بن عمر ، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها ، ثم استخفّ درهما فوجده ينقص حبة ، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرائين ألف سوط ، وكانوا مائة ضراب ، فضرب في نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أول من شدّد في خلوص الذهب أحمد بن طولون صاحب مصر والشام ، وذلك أنه حين وجد الكثر المشهور بعين شمس ، وأتى له منه بميت وعلى صدره لوح ذهب مكتوب بالقبطية فعرّب فإذا فيه : أنا أكبر الملوك وذهبي أخلص الذهب ؛ فقال : قاتل الله من يكون هذا اللعين أكبر منه أو ذهبه أخلص من ذهبه ، ثم شدّد في التعليق حتى كان قاضي القضاة يحضّره بنفسه ، وسيأتي الكلام على ذلك في معاملة الديار المصرية في المقالة الثانية .

أول من ضرب الدراهم الزبوف في الإسلام عبيد الله بن زياد .

أول من اتخذ ألسنة الموازين من الحديد عبد الله بن عامر أمير المدينة من قبل عثمان .

أول من عمل الأوزان الحجاج بن يوسف ، عملها له سمير اليهودي ، وذلك أن الحجاج حين ضرب الدراهم الأحديّة على ما تقدّم ضربها سمير اليهودي من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد الحجاج قتله ، فقال : ألا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلي ؛ قال : هاته ، فوضع الأوزان ، وزن ألف ، ووزن خمسمائة ، ووزن ثلثمائة إلى وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتى بها إلى الحجاج فعفا عنه ، وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره .

أول من آتخذ الذراع التي يُذرع بها الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السواد . وقيل أول من آتخذها زياد ، نظر إلى ثلاثة نفر من أطولهم ذراعا وأوسطه وأقصره بجمعها وأخذ ثلثها فجعلها ذراعا .

العمارة

أول بيت وضع في الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ، قال تعالى ﴿ إِنِّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ .

أول من جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أول من سقف بمكة سقفا قصي بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنما يتولون في العريش .

أول من بوب بمكة بابا حاطب بن أبي بلتعة .

أول من آتخذ بمكة رَوْشًا بُدَيْل بنُ ورقاء الخُرَاعِي . وهو أول من بنى بها بيتا مربعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامون التربع في البناء كيلا يُسبَّه بناء الكعبة .

أول قرية بُنيت بعد الطوفان قرية ثمانين ، من الجزيرة الفراتية ، بناها نوح عليه السلام ، وأنزل بها من كان معه في السفينة وهم ثمانون رجلا .

أول مدينة بُنيت بمصر بعد الطوفان مدينة منف وأصلها بالسريانية مافه ومعناها ثلاثون ، سميت باسم جماعة مصر بن بيصر الذين كانوا معه ، وسيأتي ذكرها في جملة قواعد مصر القديمة في المقالة الثانية .

أول من عمل الحمام سليمان عليه السلام ، صنعها له الجحش وعملوا له النورة لإزالة شعر كان علي بلقيس حين تزوجها فيما يقال .

أول من آتخذ الأجرَّ هَامَانُ لفرعون حيث قال له ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا ﴾ .

أول من بنى بالحِصَّ والأجرَّ في الإسلام زياد ابن أبيه بالبصرة .

الزراع

أول من غرس النخلة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

الصناعات

أول من خاط الثياب إدريس عليه السلام، وكان الناس قبل ذلك يلبسون الجلود .

أول من عمل القراطيس يوسف عليه السلام . وقيل غيره ؛ وسيأتي ذكره

في الكلام على ما يُكْتَب فيه في المقالة الثالثة .

أول من عمل الصابون سليمان عليه السلام ؛ قاله الثعالبي .

أول من عمل الكيمياء قارون، ويقال إنه المراد بقوله تعالى حكاية عنه ﴿ قَالَ إِنَّمَا

أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ .

أول من عمل الزجاج ملكي أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وسيأتي ذكره في الكلام

على ملوكها في المقالة الثانية .

أول من آتخذ الرِّحَالِ عَلَافُ بْنُ زَبَانَ الجُمَيْرِيُّ^(١)، وكانت العرب قبل ذلك يركبون

المخاصر .

أول من كسا الكعبة في الجاهلية تبع : أسعدُ أبو كَرَب .

(١) وقع في المخصص ربان بإهمال الزاى وفي القاموس والصحاح بإعجمها وهو الأقرب .

أول من اتخذ المحامل له الحجاج بن يوسف .
 أول من اتخذ السياط الأصبیح بن مالك ، أحد ملوك اليمن فقيل السياط
 الأصبحية .

اللباس

أول من لبس الثياب الحمر قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ . وهو أول من أطال ثيابه وسحبها على الأرض محجبا وتبها .

أول من قور طيلسانا من العرب في الإسلام عبد الله بن عامر أمير المدينة من قبل عثمان . والطيلسان المقور على نحو الطرحة التي يلبسها الوزراء وقضاة القضاة الآن ، وكانت وزراء الفاطميين يلبسونها . وهو أول من لبس الخبز ، فقال أهل المدينة لبس الأمير جلد دب .

أول ما لبس بنو العباس السوداء حين قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية إبراهيم بن محمد الإمام أول قائم منهم بطلب الخلافة حزنا عليه ، فأستمر فيهم ، وفيه كلام يأتي في المقالة الثانية عند الكلام على لبس الخلفاء .

أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة زياد بن أبيه .

أول من آخذى النعال من العرب جذيمة الأبرش .

أول من خلع نعليه عند دخول الكعبة في الجاهلية الوليد بن المغيرة .

أول من لبس النعال الصرارة المرواني كان قصيرا فاتخذ النعال الغلاظ الصرارة لتزيد في طوله وليسمعه جواريه وحرمه عند دخول بيته فتصاح شأنها من كانت على غير هيئة صالحة . قال العسكري : من ثم اتخذ الناس نعال الخشب يعني القباقيب .

أول من أمر بتغيير زي أهل الذمة المتوكل، أمرهم أن يلبسوا العسلي، ويتخذوا ركب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين، وسيأتي ذكره في عقد صلح أهل الذمة في المقالة السابعة .

الحرب وآلاته

أول من ركب الخيل إسماعيل عليه السلام، وكانت قبله وحوشا لا تُركب فراضها وركبها، وتعلم بنوه رياضتها منه، فصارت فيهم إلى الآن. ولذلك العرب أعرف الناس بالخيل. وهو أول من ميز بين العتاق منها والهجن في سهام أصحابها، فسبقت العتاق الهجن.

أول من اتخذ الدروع وليسها داود عليه السلام إذ يقول تعالى ﴿وَأَلَّنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ آتَمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرَ فِي السَّرْدِ﴾ وكانوا قبل ذلك يلبسون تنانير من حديد.^(١)
أول من اتخذ السلاح وجاهد سليمان عليه السلام فيما قاله العسكرى وفيه نظر.
أول من اتخذ الحديد من العرب ذوزن الحميري، وكانت أسنتهم قبل ذلك صياصي البقر.

أول من اتخذ الحصن من الجبل للكائن الإسكندر.

أول من اتخذ المنجنيق الضحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام في النار، وضعه فيه ورمى به في النار فكانت عليه بردا وسلاما. وأول من اتخذ من العرب جذيمة الأبرش.
أول من اتخذ الجواسيس والعيون على العدو الإسكندر.

أول لواء عقده النبي صلى الله عليه وسلم، لواء أبيص لعمه حمزة وقال "خُذْهُ يَا سَدَّ اللَّهِ" وذلك في رمضان من السنة التي هاجر فيها، وحمله له يزيد بن أبي يزيد.

(١) لعل مراده صفائح من حديد كما هو نص الأوائل والتفاسير واللفظة في نسخة الخط غير مجودة .

أول ما عُقدت الرايات في الإسلام يوم حُنين، عقد صلى الله عليه وسلم، راية
سوداء من بُرد عائشة، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الألوية قاله العسكري .

أول من قتله النبي صلى الله عليه وسلم، بيده أبي بن خلف لعنه الله، طعنه صلى
الله عليه وسلم طعنة خفيفة فوجد لها ألماً شديداً فقبل له لن تبالى فقال : لو أن
مابى بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أول حرب كان بين أهل القبلة يوم صفين، بين عائشة وعلي رضي الله عنهما .

الأسماء والألقاب

أول من سُمي المصحف مُصحفاً أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين جمع القرآن .

أول من سُمي باسم النبي صلى الله عليه وسلم، محمد بن حاطب حين وُلد بأرض
الحبشة في الهجرة الأولى .

أول من سُمي بالحسن والحسين السَّبطان ولداً أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو أحمد العسكري في كتابه
”التصحيف والتحريف“ قال المفضل حجب الله هذين الأسمين عن أن يسمي
بهما حتى سُمي بهما النبي صلى الله عليه وسلم، آبنيه عليهما السلام أما حسن وحسين
الموجودان في أنساب طي فالأول بسكون السين والثاني بفتح الحاء وكسر السين .

أول من سُمي عبد الملك في الإسلام عبد الملك بن مروان .

أول من سُمي بعد النبي صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العروض ولذلك
يقال فيه الخليل بن أحمد .

أول من سُمي الغالية غالية معاوية بن أبي سفيان سُمها من عبد الله بن جعفر
فوصفها له فقال إنها غالية .

أول ما سميت العطيّات جوائز في زمن عثمان رضی الله عنه ، وذلك أن ابن عامر كان على العراق من قبل عثمان فبعث جيشا مع قطن بن عبد عوف الهلالي إلى كَرمان ، فخرى الوادى بسيل خيف منه الغرق ، فقال قطن من عبّره فله ألف درهم ، فعبره رجلٌ ثم آخر ثم آخر حتى جاز جميعهم فأعطاهم قطن ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف ، فاستكثرها ابن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها ، وقال : كل ما كان في سبيل الله فهو جائز .

أول ما لُقّب بفلان الدولة في أيام المكتفى بالله .

أول ما لقب بفلان الدين في أيام القادر بالله ؛ وسيأتى ذكره في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة .

الضيّفات

أول من قرئ الضيف إبراهيم الخليل عليه السلام حتى كُنّي أبا الضيّفان لكثرة قرّاه لهم .

أول من سنّ للضيف صدر المجلس بهرام جور : أحد ملوك الفرس .

أول من هشم الثريد للقرى في زمن المحل هاشم بن عبد مناف ، وبذلك سمى هاشما وكان اسمه قبل عمرا .

أول من فطر جيرانه في شهر رمضان عبيد الله بن العباس بن عبد المطاب . وهو أول من حمل الطعام على رءوس الناس لكثرتهم وأول من أنهبه .

وجوه السير

أول من اتخذ البيارستان بالشام للرضى الوليد بن عبد الملك .

أول من اتخذ البيارستان بمصر أحمد بن طولون بناه بالفسطاط ، وهو موجود إلى الآن .

أول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمان بن عفان رضى الله عنه .

الأعياد والمواسم

أول من اتخذ النيروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنى مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدين قبله قد تغير وظهر الجور ، فلما ملك جدد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى يوم جديد عزبته العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نيروز .

أول هدية كانت فى النيروز لجما الملك المتقدم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصب إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاستحلاه فصنع منه السكر فوافق فراغه فى أول يوم ملك فيه جما وهو يوم النيروز فأهدى إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادون فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادوا بغير السكر .

أول ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القائم بعد الضحاك من ملوك الفرس ، وذلك أنه لما ظفر بالضحاك فقيده وأقطع ما كان فى زمنه من الظلم والفساد ستمى اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرى : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النيروز .

أول من آتتج المكاتبه بتهنئه النيروز والمهرجان أحمد بن يوسف أهدى الى المأمون ستمط ذهب فيه قطعه عود هندی فى طوله وعرضه ، وكتب معه "هذا يوم جرت فيه العاده ، بإلطف العبيد الساده" .

الأقوال

أول من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصل الخطاب المشار إليه بقوله تعالى ﴿وَأْتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ﴾ . وقيل أول من قالها قُتُس بن ساعدة .

أول من قال مَرَحَبًا سَيْفُ بن ذِي يَزَنَ ، قال ذلك لعبدالمطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم ، حين وفّد عليه ليهنّته برجوع الملّك إليه ، فقال له ” مَرَحَبًا وَأَهْلًا ، وَنَاقَةً وَرَحْلًا ، وَمُنَاخًا سَهْلًا ؛ وَمَلِكًا رَجُلًا ، يُعْطَى عَطَاءً جَزَلًا ” .

أول من قال جعلت فِدَاكَ عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم القتنة ، فقال ” جَعَلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا أَصْنَعُ ؟ ” . وقيل أول من قالها له عليّ بن أبي طالب حين دعا عمرو بن ودّ العاصريّ إلى المبارزة ، فقال عليّ ” جَعَلْتُ فِدَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَأْذِنُ لِي ؟ ” ثمّ استعملها الكتاب بعد ذلك في مكاتباتهم .

أول من قال أطلال الله بقاءك عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تكلم عليّ رضى الله عنه بحضرته في العدل بكلام أعجبه ، فقال له : صدقت أطلال الله بقاءك ؛ ثمّ نقلها الكتاب إلى استعمالها في مكاتباتهم .

أول من قال أيّدك الله عمر بن الخطاب قاله لعليّ عليه السلام أيضا .

الشعر والغناء

أول من قصّد القصائد مهلهل خال امرئ القيس ؛ والقصيد ما زاد على سبعة أبيات .

(١) في نسخة الخط والمطبوع السابق ونحلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة في اللسان في مادة رب ح ل .

أول من أطال الرِّجَزَ العجاج . قيل إن الرجز كان في الجاهلية إنما يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثة في الحرب ونحوه حتى جاء العجاج ففتح أبوابه وشبهه بالشعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات ، ونعت الإبل والظلول ؛ وكان في أول الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أول من أستخرج اللطيف من المعاني في الشعر وجرى على طريقه البديع مسلم ابن الوليد .

أول من أخرج الغناء العربيّ جرادة جارية ابن جُدعان فيما قاله العسكري . وفيه نظر فإن الغناء معهود من عهد عاد حتى كان من جملة مغنياتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غنته الجرادتان" .

أول من علم الجوارى المُنمنات الغناء إبراهيم الموصلي ، وكان الناس بمكة لا يعلمون الجارية الحسناء الغناء .

النساء

أول امرأة خُفِضت هاجرُ أم إسماعيل ؛ وذلك أنها حين تغيرت عليها سارة^(١) لتسرى إبراهيم عليه السلام بها حلفت لتقطعن شيئا من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تخفضها ، وثقبت أذنيها ، وتجعل فيهما قرطين ففعلت فزادت حسنا .

أول امرأة آكتحلت بالإمد زرقاء اليمامة ، وكانت تنظر مسيرة ثلاثة أيام .

أول امرأة تلبأت بجاج التيمية التي تزوجها مسيمة الكذاب .

(١) في نسخة الخط لبشرى وهو تصحيف ظاهر .

أول امرأة لبست المصبغات في الإسلام شُميلة زوج عباس ، وهي أول من
عبّات الطيب ^(١) .

الموت والدفن

أول امرأة حُملت في نعش زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم .
أول من دُفِنَ بالبقيع عثمان بن مظعون ، وهو أول من مات من المهاجرين بالمدينة .
أول من دُفِنَ بقرافة مصر رجلٌ اسمه عامر فقال عمرو بن العاص : عمّرت والله .

أمور تنسب للجاهلية

أول من حرّم الخمر في الجاهلية الوليد بن المغيرة ؛ وقيل قيس بن عاصم ؛ ثم جاء
الإسلام بتقريره .

أول من حرّم القمار في الجاهلية الأقرع بن حابس التيمي ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره .

أول من رجم في الزنا في الجاهلية ربيع بن حذان ؛ ثم جاء الإسلام بتقريره في المحصن .

أول من حكم أن الولد للفرّاش في الجاهلية أكرم بن صيفي حكيم العرب ، ثم جاء

الإسلام بتقريره .

أول من قطع في السرقة في الجاهلية الوليد بن المغيرة ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أول من سنّ الدية مائة من الإبل عبدُ المطلب جدّ النبي صلى الله عليه وسلم ؛

وذلك أنه نذر إن ولد له عشرة ذكور ليذبحنّ العاشر فولد له عشرة ، وكان عاشرهم

عبدُ الله أبو النبي صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش في أمره ، وأشير عليه

بأن يُقرع بينه وبين الإبل حتى تُخرج القرعة على الإبل ؛ فأقرع بينه وبين عشرة

(١) في اللسان يقال عبّ الطيب ... يعبّؤه عباً صنعته وخلطه .

نفرجت القرعة عليه، ثم زاد عشرة بعد عشرة وهي تقع عليه حتى بلغ مائة من الإبل فوَقعت القُرعةُ عليها فتحرها، فكان النبي صلى الله عليه وسلم، يقول "أنا ابن الدَّبِيحَيْنِ" يعني إسماعيلَ وعبدَ الله، ثم جاء الإسلام بتقريبها .
 أول من أوقد النار بالمزدلفة حتى يراها من بالموقف قصيُّ بن كلاب،
 فهي تُوقد إلى الآن .

أول من أهدى البُدن إلى البيت إلياس بن مُضَر .
 أول من أظهر التوحيد بمكة قبل البعثة قُس بن ساعدة .
 أول من خَصَب بالوَسْمة من قريش عبدُ المطلب .
 أول من نَسَّأَ النسيء، وسيب السوائب، وجعل الوصيلة والحاجي عمرو بن لُحِيٍّ
 وهو أبو خزاعة .

الضرب الثاني

(من النبذ التاريخية التي لا يسع الكاتب جهلها نوادر الأمور ولطائف
 الوقائع والمآجريات)

العراقه وشرف الآباء

قال الثعالبي، أشرف الأنبياء في النبوة يعني تواصل الآباء فيها يوسف بن يعقوب
 ابن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام؛ وشاهد ما قاله أن النبي صلى الله عليه وسلم،
 يقول "الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن
 إبراهيم" ولا يخفى أن إخوته عليهم السلام في هذه الرتبة في العراقه .
 أعرق الأكَسرة في المُلْك شيرويه بن أبرويز بن أردشير بن بابك ملك ابن ملك
 ابن ملك ابن ملك .

(١) مراده أعرق الأنبياء كما تقتضيه العبارة بعد .

أعرق الناس في صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق بن أبي خُفافة رضى الله عنهم ، أربعتهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم ، وصحبوه .

أعرق الخلفاء في الخلافة المنتصر ، بن المتوكل ، بن المعتصم ، بن الرشيد ، بن المهدي ؛ بن المنصور في آبائه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها . وفي معناه أخواه المعتمد والمعتز ؛ أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا في الخلافة فإنه لم تمض عليه مدة تعتبر ، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرخين في جملة الخلفاء .

أعرق الناس في الملك والخلافة جميعا باعتبار الأصول والحواشي من الذكور والإناث يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . أما من جهة الخلافة فهو خليفة ، وأبوه خليفة ، وجدّه خليفة ، وجدّ أبيه خليفة ، وعمومته خلفاء . وأما من جهة الملك فأمه شاهر بنت فيروز ، بن يزيد جد ، بن شهر يار ، وأمها من بنات شيرويه ابن أبرويز ، وأم شيرويه مريم بنت قيصر ، وأم فيروز بنت خاقان ملك الترك .

أعرق الوزراء في الوزارة أبو علي الحسين ، بن القاسم ، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب ، وأخوه أبو جعفر محمد بن القاسم ، فإن القاسم وُزِّرَ للمقتدر ومحمد وُزِّرَ للقائم وأباهما القاسم وُزِّرَ للمعتض ثم للكتفى بعده ، وعبيد الله وُزِّرَ للمعتض ، وسليمان وُزِّرَ للمهدي وبعده للمعتض فكل من الحسين ومحمد وزير ابن وزير ابن وزير يعني في آبائه ثلاثة وزراء ، وهو الرابع فيها .

أعرق الناس في القتل عمارة بن حمزة بن مُصعب بن الزبير بن العوام بن خويلد ، قتل عمارة ، وأبوه حمزة جميعا يوم قديد في حرب الإباضية ، وقتل مُصعب بدير الجلائق في الحرب بينه وبين عبد الملك ، وقتل الزبير بوادي السباع في توبة الجمل ،

وقتل العوام في حرب الفجار ، وقُتِل خُوَيْلِدٌ في حرب نُزَاعَةَ . قال الثعالبي ولا يعرف في العرب والعجم ستة مغبونون في نَسَقٍ واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس في الفقه إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمام الأعظم .

أعرق الناس في القضاء بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : كان بلال قاضيا على البصرة ، وأبو بردة قاضيا على الكوفة ، وأبو موسى قاضيا لأمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .

أعرق الناس في حِجَابَةِ الخلفاء العباس بن الفضل بن الربيع ، فإن العباس حجب الأمين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والربيع حجب المنصور والمهدي ؛ وفي ذلك يقول أبو نؤاس من أبيات :

سَادَ الرَّبِيعُ وَسَادَ فَضْلٌ بَعْدَهُ * وَنَمَتْ بَعْبَاسُ الْكَرِيمِ فُرُوعُ
عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إِذَا أَحْتَدَمَ الْوُغْيُ * وَالْفَضْلُ فَضْلٌ وَالرَّبِيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس في الشعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام ، ستة كلهم شعراء على نَسَقٍ ؛ ثم كانت العرَاقَةُ في الشعر بعده مع زيادة آباء لمتوج ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيى ، بن مروان ، بن الجبوب ، بن مروان ، ابن سليمان ، بن يحيى ، بن أبي حفصة : مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ؛ عشرة على نَسَقٍ :

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس في الأمة نسبا الحسن والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّهما ، والقاسم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم خالهما ، وعلى بن

أبي طالب أبوهما ، وفاطمة بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت حُوَيْلِدٍ جدتهما .

أشرف النساء في النسب والصَّهر فاطمةُ ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعليّ بن أبي طالب زوجها ، والحسن والحسين سيّدَا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ الناس في المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوج إليه أربعة من الخلفاء ؛ تزوج الوليد بن عبد الملك بنته عبدة ، وسليمان بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيد بن عبد الملك بنته أم سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رقية : قال الثعالبي ولا يُعرف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمور تتعلق بالخلفاء

امرأةٌ ولَّدها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وطلحة والزبير ؛ وهي حفصة ابنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ؛ أبوها محمد المدبج ؛ وأمها خديجة بنتُ عثمان بن عمرو بن الزبير ، وأم عمرو أسماء بنت أبي بكر ، وأم المدبج فاطمة بنت الحسين بن عليّ ؛ وأم الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأم فاطمة بنت الحسين أم إسحاق بنت عبيد الله ؛ وأم عبد الله بن عمرو زينب بنتُ عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فهي من ولد كل من المذكورين .

أربع نسوة في الإسلام ولدت كل واحدة منهن خليفتين ؛ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولدت الحسن والحسين ، وقد بُرِّعَ لهما بالخلافة ؛ وولادة بنتُ العباس العبسية زوجةُ عبد الملك بن مروان ولدت له الوليد وسليمان ؛ وهما

خليفتان؛ وساهر بنت فيروز بن يزيد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيد وإبراهيم فوليا الخلافة، والخيزران ولدت للمهدي موسى الهادي وهارون الرشيد .
 امرأة لها اثنا عشر محرما كل منهم خليفة ، وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية ،
 يزيد أبوها ، ومعاوية بن أبي سفيان جدّها ، ومعاوية بن يزيد أخوها ، وعبد الملك
 ابن مروان زوجها ، ومروان بن الحكم حموها ، ويزيد بن عبد الملك أبناها ، والوليد^(١)
 وسليمان وهشام أبناء عبد الملك أولاد زوجها .

ومثلها من بنى العباس زبيدة بنت جعفر بن المنصور ، جدّها المنصور ، وأخو
 جدّها السفاح ، وزوجها الرشيد ، وعمّها المهدي ، وأبناها الأمين ، وأبناء زوجها المأمون
 والمعتمد والواثق والمتوكل .

خليفة سلم عليه بالخلافة عمّه وعم أبيه وعم جدّه ، وهو هارون الرشيد سلم عليه
 سليمان بن المنصور ، والعباس بن محمد عم أبيه المهدي ، وعبد الصمد بن علي عم
 جدّه أبي جعفر المنصور .

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم ابن خليفة ، وهو المتوكل ، سلم عليه
 أحمد بن الواثق ، وأحمد بن المعتصم ، وسليمان بن المأمون ، وعبد الله بن الأمين ،
 وأبو محمد بن الرشيد ، والعباس بن الهادي ، ومنصور بن المهدي .^(٢)

خليفة قبل هو وأبنه يد خليفة فأجاز أبنه بجائزة ثم قبل المقبلة يده هو وأبنه يد
 المقبل أولا وهو خليفة فأجاز أبنه بمثل تلك الجائزة ؛ وهو المعتصم ، وقف لإبراهيم
 ابن المهدي أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبل يده ثم أدنى منه أبنه هارون فقبل
 يده ، وقال يا أمير المؤمنين عبدك هارون أبني فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فلما

(١) المحدود تسعة فقط وكذا في المثل بها فتنه .

(٢) كذا في الأصل .

أَسْتُخْلِفَ المعتصم وقف له إبراهيم بن المهدي ثم ترجل في ذلك الموضع بعينه وقبل يده وأدنى منه آبنه هبة الله فقَبَّلَ يده ، وقال : يا أمير المؤمنين عبدك هبة الله آبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال الصولى ولا يعرف مثل ذلك لخليفتين وابنيهما .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامن أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفى لثمان بقين من شهر ربيع الأول ومن ثم سمي المثنى .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقُس ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ، وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن ابن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة ؛ ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلف فيها الرشيد ؛ ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما ابن الآخر بين قبريهما بُعد كبير ؛ وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطوس وقبر المأمون بطرسوس .

(١) الممدود أولاد إخوة وسقطت الإخوة من قلم الناخ .

خليفة ركب البريد ؛ وهو موسى الهادي ، مات أبوه المهديّ وهو نائبه عليّ جرجان ، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدَة والقضيب فركب البريد وأتى إلى بغداد بعد ثلاثة عشر يوماً من موت المهديّ ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفان أسم كل منهما جعفر قتل كل منهما في يوم الأربعاء وهما المتوكل والمقتدر .

خليفة وليّ الخلافة ستين سنة متوالية ؛ وهو المستنصر بالله الفاطميّ خليفة مصر عليّ أن الثعالبيّ في "لطائف المعارف" قال استقرت ولاية معاوية بن أبي سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوماً أو بعض يوم ، هو عبد الله بن المعتز ، بويع بعد خلع المقتدر ، فلما كان من الغد حاربه غلمان المقتدر وعاونهم العامة فهرب وأختفى ثم ظفر به .

أربعة إخوة ولي كل منهم الخلافة ، وهم الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حتى سوى أبي بكر الصديق والطائع لله وكلاهما أسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة من أبواه هاشميّان سوى الحسن بن عليّ من فاطمة ومحمد الأمين ابن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من أسمه العباس سوى أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس بن المتوكل عليّ الله محمد خليفة العصر ، على كثرة هذا الأسم في أولاد الخلفاء العباسيين وكونه أسم جدّهم الأكبر . قلت : وقد أخبرني أمير المؤمنين المستعين

المشار إليه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشيخ بدر الدين البهنسى بمكة المشرفة، رأى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه فى النوم، وهو يقول له قل لولدى محمد، (يعنى المتوكل على الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .
وسياتى ذكر ذلك فى الكلام على العهد الذى أنشأه قبل ولايته الخلافة بنحو ثمان سنين أمتحانا للخاطر فى جملة العهود فى المقالة الخامسة .

(أعجوبة) قال الصولى : الناس يرون أن كل سادس يقوم بأمر الدين منذ أول الإسلام لا بد أن يخلع، النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والحسن نخلع . ثم معاوية، ويزيد، ومعاوية، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله ابن الزبير نخلع . ثم الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام، والوليد بن يزيد نخلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد، وإبراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فالنبي . ثم كانت الدولة العباسية فكان السقّاح، والمنصور، والمهدى، والهادى، والرشد، والأمين نخلع . ثم المأمون، والمعتمد، والواثق، والمتوكل، والمتنصر، والمستعين نخلع . ثم المعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتمد، والمكتفى، والمقتدر نخلع فى فتنة المعتز . ثم ردّ إلى الخلافة ثم قتل، ولم يعتدّ بخلافة ابن المعتز نخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النديم" والثعالبيّ فى "لطائف المعارف" : ثم القاهر، ثم الراضى، ثم المتقى، ثم المستكفى، ثم المطيع، ثم الطائع نخلع . قال الصلاح الصفدى : ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، نخلع . ثم المقتنى، والمستنجد، والمستضىء، والناصر، والظاهر، والمستعصم نخلع وقتل أيام هولاءكو عند استيلائه على بغداد . قلت : هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدى لا يليق بمثله فإنه أسقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين ابن نباتة في تاريخ الخلفاء أنهم لما بايعوا المستنصر المذكور خلعوه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحيةئذ فيكون من بعد المستنصر المستعصم المذكور ثم المستنصر أحمد ، الذي أتى به الظاهر ببيرس وتوجه إلى الديار المصرية ، ثم الحاكم أحمد ، ثم ابنه المستكفي سليمان ، ثم ابنه المستعصم أحمد ، ثم الواثق ، إبراهيم نخلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكفي ، ثم ابنه المتوكل ، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر ، ثم المستعين أبو الفضل العباس خليفة العصر أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالى أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدي : وكذلك العبيديون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهدي ، والقائم بأمر الله ، والمنصور ، والمُعزُّ بنى القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزیز ، والحاكم قتلته أخته . ثم الظاهر ، والمستنصر ، والمستعلي ، والآمر ، والحافظ ، والظافر نخلع وقتل ؛ ثم الفائز ، والعاقد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب في ملك مصر أولهم صلاح الدين ، ثم ولده العزيز ، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين ، والعاقل الكبير أخو صلاح الدين ، والكامل ولده ، والعاقل الصغير نخلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدين أيوب ، ثم المعظم توران شاه ، ثم أم خليل شجرة الدر ، ثم الأشرف موسى وهو الرابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال : وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أولهم المعز أيك ، وابن المنصور ، والمظفر قطز ، والظاهر ببيرس ، وابن السعيد برتكة ، وأخوه العادل سلامش نخلع ، وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت : ثم ابنه الأشرف خليل ، ثم المعظم بيدرا ولم يعتد به نخلعه من يومه كما لم يعتد بابن المعتز في الخلفاء ، ثم الناصر محمد بن قلاوون ، ثم العادل كتبغا ، ثم المنصور لاجين ، ثم المظفر ببيرس الجاشنكير نخلع ، ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد ، ثم الأشرف بكك ابن الناصر محمد ، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد ، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد ،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجي بن الناصر محمد نخلع ؛ ثم الناصر حسن بن الناصر محمد ، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد ، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجي ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم آبنه المنصور علي ، ثم الصالح حاجي بن الأشرف شعبان نخلع ؛ ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثاني والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلْك وهو في بطن أمه ؛ وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقدوا التاج على رأس أمه على أن يكون من في بطنها هو الملك كائنا من كان ، فلما وضعته ملكوه .

ثلاثة من ملوك فارس آبن وأب وجدّ أسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ؛ ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الشعاليّ : وهذا التناسق لا يقع إلا في الأكابِر والرؤساء وقد جاء من هذا النمط في سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أول أسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أول أسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثاني أبو جعفر المنصور اسمه عبد الله قتل أبا مسلم الخراساني وأسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن علي وعبد الجبار بن عبد الرحمن والي خراسان .

قال الشعاليّ : أربعة في الإسلام قتل كل واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراساني ، وباك ، والبرقي .

قلت : وقد وقع لثيمور كور كان المعروف بتمرنك صاحب ما وراء النهر على رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أكثر من ذلك ، فإنه قد فتح من الهند إلى الخليج القسطنطيني ، وقتل من كل إقليم من الخلق ما لا يحصى حتى كان يبنى بالرؤوس في كل مدينة يفتحها منارا .

غرائب تتعلق بسرّاة الناس

ثلاثة بنو أعمام في زمن واحد ، كل منهم سيد جليل ، لم يصلح للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ابن اسمه محمد كذلك ، وهم علي بن عبد الله بن عباس وأبنة محمد وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وأبنة محمد ، وعلي بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب وأبنة محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق في العالم ، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وأبن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العاص وأبنة عبد الله كان بينهما في السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبي ولا يعهد مثل ذلك . أخوان تباعد ما بينهما في السن تباعدا شديدا وهما موسى بن عبيدة الرّبذلي المحدث^(١) وأخوه عبد الله كان بينهما في السن مائة سنة ولم يعرف مثل ذلك في غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسن من الآخر بعشر سنين ، وهم أولاد أبي طالب كان طالب أسن من عقيل بعشر سنين ، وعقيل أسن من جعفر بعشر سنين ، وجعفر أسن من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا في سنة واحدة وقتلوا في يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة ، وهم زيد ، وزباد ، ومدرّك أولاد المهلب بن أبي صفرة . وهذه من غرائب النوادر .

(١) في الأصل الزبيرى وهو تصحيف عن الرّبذلي كما يعلم من الخلاصة للزرجي .

رجل مكث عشر سنين لا يولد له إلا رجل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلب
أبن أبي صُفرة في غير أولاده الثلاثة المذكورين .

أربعة رجال في الإسلام لم يميت كل منهم حتى رأى من ولده وولد ولده أكثر
من مائة فيما قاله الثعالبي وغيره ، وهم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وخليفة بن براء السعدي ، وعبد الرحمن بن عمر الليثي ، وجعفر بن سليمان
الهاشمي ؛ ومنهم من يذكر بده أبا بكره مولى النبي صلى الله عليه وسلم .

خمسة إخوة تباعدت قبورهم أشد تباعد ، وهم بنو العباس بن عبد المطلب قبر
عبد الله بالطائف ، وقبر عبيد الله بالمدينة ، وقبر معدة بافريقية ، وقبر الفضل بالشام ،
وقبر قثم بسمرقند .

فاض قضى في الإسلام خمسا وسبعين سنة وهو شريح بن الحارث الكندي
استقضاه عمر على الكوفة فبقى بها خلافة عمر وما بعدها إلى تمام المدة المذكورة لم
يتعطل منها سوى ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة ابن الزبير .

أوصاف جماعة من المشاهير

”من كان من الخلفاء أصلع“ قال الثعالبي : كان الصلَع في عمر ، وعثمان ، وعلي ،
ومروان بن الحكم ، وعمر بن عبد العزيز ؛ قال ثم أقطع الصلَع من الخلفاء .

”من كان في غاية الطول“ ، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأنه راكب
والناس يمشون لطوله ؛ وكان عدي بن حاتم إذا ركب تكاد رجلاه تخط في الأرض ؛
وكذلك جرير بن عبد الله البجلي ، وكان قس بن ساعدة في نهاية الطول والجسامَة ،
وكان عبد الله بن زياد إذا رءاه الرائي وهو ماش ، ظن أنه راكب لطوله ؛ وكان
علي بن عبد الله بن عباس في غاية من الطول ، وكان أبوه عبد الله أطول منه ، وجدّه

العباس أطول من أبيه ؛ ويقال إن جَبَلَةَ بن الأيهم النَّسَائِيَّ كان طوله اثني عشر شبرا .

”من كان في غاية القصر“ قال الثعالبي : كان عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه شديدَ القِصَرِ يكاد الجُلُوسُ يوازونه من قصره ؛ وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قصيرا دَحْدَاحا ، وكان الحُطَيْيئة الشاعر مُفْرَط القصر ، ولذلك لُقِّبَ بالحُطَيْيئة ، وكان ذو الرِّمَّة الشاعر قصيرا جدًّا ؛ ورأيت في بعض التواريخ أن كثيرَ عَزَّة كان طوله ثلاثة أشبار ؛ وكان العباس بن الحسن في غاية من القصر وفيه قيل :

لَا تَنْظُرَنَّ إِلَى الْعَبَّاسِ مِنْ قِصَرٍ * وَأَنْظُرْ إِلَى الْفَضْلِ وَالْمُجَدِّ الَّذِي شَادَا
إِنَّ النُّجُومَ نُجُومَ الْجَوِّ أَصْغَرُهَا * فِي الْعَيْنِ أَبْعَدُهَا فِي الْجَوِّ إِصْعَادَا

”من عُرف بالدهاء من العرب“ معاوية بن أبي سفيان ، زيادُ ابن أبيه ، عمرو بن العاص ، المغيرة بن شُعبَةَ ، قيس بن سعد بن عبادة ، عبد الله بن بديل الخُرَاعِي .
”من نُسِبَ منهم إلى الحق“ عامر بن كُرَيْز ، معاوية بن مروان بن الحكم ، بَكَّارُ ابن عبد الملك بن مروان ، العاص بن هشام ، عبد الله بن معاوية بن أبي سفيان ، سهيل بن عمرو وأخوه سُهَيْل ، العاص بن سعيد بن العاص .

”المؤلفة قلوبهم في أول الإسلام“ قال الثعالبي : هم من قرئش أبو سفيان ابنُ حرب ، وسُهَيْلُ بن عمرو ، وَحُوَيْطِبُ بن عبد العُزَّى ، وَهَبَّارُ بن الأسود ، والحارثُ بن هشام ، وَحَكِيمُ بن حِرَام ، وَصَفْوَانُ بن أُمِيَّة ، وَأَنَسُ بن عدى . ومن فزارة عِيْنَةَ بن حِصْن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سُليمان العباس بن مُرداس . ومن ثَقِيف العلاء بن الحارث .

”من أصيبت عينه“ أبو سفيان بن حرب ، ذهب عينه يوم الطائف ثم عمي بعد ذلك . الأشعث بن قيس ، ذهب عينه يوم اليرموك ، المغيرة بن شُعبَةَ كذلك

الأشتر النخعي جُرير بن عبد الله البجليّ، عدى بن حاتم، عتبة بن أبي سفيان، المختار
أبن أبي عبيد، الأحنف بن قيس، المهلب بن أبي صفرة، طاهر بن الحسين، عمرو
أبن الليث الصفار.

”من سُمِلت عيناه من الخلفاء والملوك“ أما من الخلفاء فالقاهر، والمتقى،
والمكتفي؛ وأما من الملوك فهزم بن أنوشروان أحد الملوك الأكَاسرة، صمصام
الدولة بن بويه، منصور بن نوح بن منصور الساماني.

”من كان مكفوف البصر من أشرف الناس“ زهرة بن كلاب بن كعب؛
عبد المطلب بن هاشم؛ العباس بن عبد المطلب؛ الحَكَم بن العاص؛ أبو سفيان بن
حرب؛ الحارث بن العباس بن عبد المطلب؛ مُطعم بن عدى بن نَوفل بن
عبد مناف؛ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام بن المغيرة؛ عتبة بن
مسعود الهذلي، عبد الله بن عبيد الله بن عتبة؛ أبو أحمد بن بَحش بن مسعود
الأسدي؛ جابر بن عبد الله الأنصاري، عبد الله بن أرقم؛ البراء بن عازب؛ حَسَّان
ابن ثابت؛ أبو أُسيد الساعدي؛ قتادة بن دِعامة؛ دُرَيْد بن الصَّمَّة الجُشمي؛ عزيمة
ابن نَوفل الزُهري؛ الفاكه بن المغيرة المخزومي؛ جَدِيمة بن حازم النهشلي؛ أبو العباس
الشاعر؛ علي بن زيد بن جُدعان؛ المغيرة بن مِقْسَم الضبي؛ الترمذي الكبير الحافظ
الفقيه؛ منصور الشاعر المصري؛ ابن سيده اللغوي؛ أبو العلاء المعري؛ بَسَّار بن
بُرْد؛ أبو البقاء العُكبري؛ أبو العيْناء هشام بن معاوية الضرير النحوي الكوفي؛
أبو القاسم السَمِيلِي صاحب الروض الأُنْف؛ أبو القاسم الشاطبي؛ الصرصريّ
الشاعر؛ أبو الحسن عليّ بن عبد الغني الحصري؛ أبو عبد الله بن حَلْصَة المغربي
النحوي؛ أبو عبد الله بن الخياط.

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنف . ومن ملوك الفرس أنوشروان كان أعور، يزدجرد كان أعرج . ومن ملوك العرب جذيمة الوضاح، كان أبرص، النعمان ابن المنذر، كان أحمر العينين والشعر . ومن الخلفاء عبد الملك بن مروان أنجر، يزيد ابن عبد الملك أققم، هشام بن عبد الملك أحوّل، مروان الحمار أشقر أزرق، موسى الهادي شفته العليا متقلصة، حتى كان أبوه المهدي قدرّب له خادما يلازمه متى غفل وفتح فاه قال: موسى أطبق، إبراهيم بن المهدي كان أسود سمينا يلقّب بالثنين .

ومن أشرف قريش وغيرهم أبو طالب أعرج، وأبو جهل أحوّل، أبو لهب كذلك، وكذلك زياد، وعدى بن زيد . الأحنف بن قيس، أحنف متراكب الأسنان، صعل الرأس، مائل الذقن . والربيع بن زياد أبرص، وكذلك الحارث بن حلزة، وأمين بن حريم، والحسن بن حنظلة، وكان عبيدة السلماني أصم، وكذلك ابن سيرين والكبيّ الشاعر، والمرقس الأكبر الشاعر أجدع .

أصحاب النوادر

ابن أبي عتيق، أشعب الطمع، أبو الغصن جحا، أبو العبر، أبو العنّس، ابن الحصص مزيد المدني .

أجواد الإسلام

عبيد الله بن عباس بن عبد المطاب، عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، سعيد ابن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية، عبد الله بن عامر بن كرز، حمزة بن عبد الله بن الزبير بن العوام،^(١) عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي، خالد بن عبد الله

(١) في العقد الفريد اسم الجواد عبيد الله بن معمر القرشي ثم التيمي .

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، عتاب بن أبي
ورقاء الحنظلي ، أسماء بن خارجة بن حصن بن بدر الفراري ، عبد الله بن أبي بكرة
مولي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطلحات المعروفون بالجود

طلحة الفيّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحد العشرة ؛ وطلحة الجود — وهو
طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معمر التيمي ؛ وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله
ابن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق ؛ وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن علي
أبن أبي طالب ؛ وطلحة الندى — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزهري ؛ وطلحة
الطلحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خلف الخزاعي .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسافر بن أبي عمرو بن أمية ، وزمعة^(١)
ابن الأسود بن المطلب بن عبد العزى بن قصي ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن
مخزوم : سُموا بذلك لأنهم لم يترود معهم أحد في سفر قط لجودهم .

من أشتهر عند أهل الأثر بلقبه

غَسِيل الملائكة ، وهو حنظلة بن أبي عامر الأنصاري أصيب يوم أُحد فأخبر
النبي صلى الله عليه وسلم أن الملائكة غَسَلته . قتيل الجن ، هو سعد بن عبادة ،
بال في مجر قتلته الجن . مُصَافِح الملائكة ، هو عمران بن حصين . حمى الدبر ، هو
عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح ، حَمته النحل إلى أن كان الليل . ذو الشهادتين هو
خزيمة بن ثابت الأنصاري ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دين اليهودي
حين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه وفاه ، اعتمادا على خبر النبي صلى الله عليه

(١) في الأصل مسلطة وريبعة وهو سبق قلم من الناسخ والتصحيح من القاموس وشرحه .

وسلم ، فجعل صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين . ذو العَيْن ، هو قتادة بن النعمان ، أصيبت عينه يوم أحد فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ . ذو اليدَيْن هو عبيد بن عبد عمرو والخزاعيّ كان يعمل بيديه معا . ذو العِمامة ، هو أبو أُحِيحة سعيد بن العاص بن أمية ، كان إذا لبس عمامته لم يلبس قرشيّ عمامته حتى يترعها . ذو النُدَيّة ، كانت إحدى يديه مُحَدّجة كاللثدي ، كان رأس الخوارج . ذو الثَّفَنَات ، كان يقال ذلك لعليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ، ولعليّ بن عبد الله بن عباس لما على أعضاء السّجّادات منهما من شبه ثفّنات البعير . ذو السِّيفَيْن ، هو أبو الهيثم ابن التّيّهان ، سمي بذلك لتقلّده في الحرب بسيفين . سيف الله ، هو خالد بن الوليد . أسدُ الله ، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النِّطَاقَيْن ، هي أسماء بنتُ أبي بكر ، سميت بذلك لأنها شقّت نطاقها للسُّفرة في الليلة التي هاجر النبي صلى الله عليه وسلم هو وأبوها إلى المدينة . عُرْوَة الصَّعَالِيك ، هو عُرْوَة بن الوَرْد ، كان إذا شكّا إليه أحد أعطاه فرسا ورُحًا وقال له : إن لم تستغنِ بذلك فلا أعناك الله . ^(١) سُلَيْك المَقَانِب ، هو سُلَيْك بن سُلَيْكَة ، كان أعدى الناس حتى إن الفرس لا يُدركه . طَفِيل الأعراس ، رجل من غَطَفان ؛ وقيل هو من موالى عُثْمَان بن عفّان رضی الله عنه ، كان يتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوَة وإليه تنسب الطُّفَيْلِيَّة . أشجُّ بن أمية هو عمر بن عبد العزيز . جبار بن العباس هو هارون الرشيد : لأنه أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفا ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابة بالسروج والبنم الفضة ، وأغزى عليّ بن عيسى بن ماهان بلاد التُّرك فقتل منهم أربعين ألفا ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هرّ قلة ، وأخذ الجزية من ملك الروم . بنات طارق ، هن بنات العلاء بن طارق بن أمية بن عبد شمس ؛ سُميّن بجدهنّ ، يضرب بهنّ المثل

(١) في الأصل سليل باللام وهو تصحيف انظر اللسان في مادة س ل ك .

في الحسن والشرف . بنات الحارث ، هنّ بنات الحارث بن هشام ؛ يُضرب بهنّ
المثل في الحُسن وغلوّ المهر .

من كان فردا في زمانه بحيث يضرب به المثل في أمثاله

كان الإسكندر ، في طوّفان الأرض ، وكسرى أنوشروان ، في العدل ، وزرقاء
اليمامة ، في حدّة النظر ، وحاتم الطائيّ ، في الكرم ، وكعب بن مامة ، في الإيثار ،
وارسطاطاليس ، في الحكمة ، وبقرات ، في الطب ، وقسّ بن ساعدة ، في الفصاحة ،
وسحبان وائل ، في البلاغة ، وعمرو بن الأهمّ ، في البيان ، وبقول ، في العي ، وأبو بكر
الصدّيق رضي الله عنه ، في معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، في قوّة
الهيبة ، وعثمان بن عفان رضي الله عنه ، في التّلاوة ، وعليّ بن أبي طالب رضي الله
عنه ، في القضاة ، ومعاوية ، في كثرة الاحتمال ، وأبو عبيدة بن الجراح ، في الأمانة ،
وأبو ذرّ ، في صدق اللّهجة ، وأبيّ بن كعب ، في القران ، وزيد بن ثابت ، في الفرائض ،
وأبن عباس ، في تفسير القران ، وعمرو بن العاص ، في الدّهاء ، وأبو موسى الأشعريّ ،
في سلامة الباطن ، والحسن البصريّ ، في الوعظ والتذكير ، ووهب بن منبه ،
في القصص ، وأبن سيرين ، في تعبير الرؤيا ، ونافع ، في القراءة ، وأبو حنيفة ، في القياس
في الفقه ، وأبن إسحاق ، في المغازي ، ومقاتل ، في التأويل ، والكليّ ، في قصص القران ،
وأبن الكلبيّ الصغير ، في النسب ، وأبو الحسن المدائنيّ ، في الأخبار ، ومحمد بن جرير
الطبريّ ، في علوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، في العروض ، وفُضيل بن عياض ، في العبادة ،
ومالك بن أنس ، في العلم ، والشافعيّ ، في فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، في الغريب ، وعليّ
أبن المدينيّ ، في علل الحديث ، ويحيى بن معين ، في رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ،
في السنة ، والبخاريّ ، في نقد الصحيح ، والجنيد ، في التصوّف ، ومحمد بن نصر المروزيّ ،

في الاختلاف، وأبو علي الجبائي، في الاعتزال، وأبو الحسن الأشعري، في علم الكلام، وأبو القاسم الطبراني، في عوالم الحديث، وعبد الرزاق، في آرتحال الناس إليه، وآبن منده، في سعة الرحلة، وأبو بكر الخطيب، في سرعة القراءة، وآبن حزم، في مذهب الظاهر، وسيبويه، في النحو، وأبو الحسن البكري السيري، في الكذب، وإياس بن معاوية، في الذكاء والتفترس، وعبد الحميد، في الكتابة والوفاء، وأبو مسلم الخراساني، في علو الهمة والحزم، وإسحاق الموصليّ النديم، في الغناء، وأبو الفرج الأصفهاني صاحب الأغاني، في المحاضرة، وأبو معشر، في النجوم، والرازي، في الطب، وعمار بن حمزة، في التيه، والفضل بن يحيى، في الجود، وجعفر بن يحيى، في التوقيع، وآبن زيدون، في سعة العبارة، وآبن القرية، في البلاغة، والجاحظ، في الأدب والبيان، والحريري، في المقامات، والبديع الهمداني، في الحفظ، وأبونوأس، في المجون والخلاعة، وآبن حجاج الشاعر، في سخر الألفاظ، وانتبني، في الحكم والأمثال شعرا، والزخشمري، في تعاطي العربية، والنسفي، في الجدل، وجرير الشاعر، في الهجاء الخبيث، وحماد الراوية، في شعر العرب، والاحنف بن قيس، في الحلم، والمأمون، في حبّ العفو، والوليد، في شرب الخمر، وعطاء السلمي، في الخوف من الله تعالى، وآبن البواب، في الكتابة، والقاضي الفاضل، في الترسل، والعياد الكاتب، في الجناس، وأشعب، في الطمع، وأبو نصر الفارابي، في معرفة كلام القدماء ونقله وتفسيره، وحنين بن إسحاق، في ترجمة اليوناني إلى العربي، وآبن سينا، في الفلسفة وعلوم الأوائل، والإمام نغر الدين الرازي، في الأطلاع على العلوم، والجاحظ في سعة العبارة، والسيف الأمدى، في التحقيق، والنصير الطوسي، في معرفة المجسطي، وآبن الهيثم، في الرياض ونجم الدين الكاتبي، في المنطق، وآبن الأعرابي، في الأطلاع على اللغة، وأبو العيناء، في الأجوبة المسكتة، ومزيد، في البخل، والقاضي أحمد بن أبي دواد، في المروءة

وحسن التقاضى؛ وآبن المعتز، فى التشبيه، وآبن الرومى، فى التطير، والصولى
فى الشطرنج، والغزالى، فى الجمع بين المعقول والمنقول، وآبو الوليد بن رُشد، فى تلخيص
كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيى الدين بن عربى، فى علوم التصوف، وجابر
ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب اتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِدَ النبى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وبعث يوم الاثنين،
وهاجر يوم الاثنين، وتُوِّفَى يوم الاثنين .

اتفاقية أخرى — قَتَلَ عبدُ الله بن زياد الحسين بن عليّ عليهما السلام يوم
عاشوراء، وقتله الله على يد إبراهيم بن الأستر فى يوم عاشوراء .

أخرى — قال عبد الملك بن عمير اللبثى : رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس
الحسين بن عليّ بين يدي عبد الله بن زياد على ترُس؛ ثم رأيت فيه رأس عبد الله
آبن زياد بين يدي المختار بن أبى عبيد؛ ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدي مُصعب
آبن الزبير؛ ثم رأيت فيه رأس مُصعب بين يدي عبد الملك بن مروان . قال :
فحدثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى — قال الصولى : حدثنى الحسين بن يحيى الكاتب أنه لما ولى المعتز لم
تمض مدة لطيفة حتى أحضر الناس وأُخرج المؤيد وقيل أشهدوا أنه دُعِيَ فأجاب،
وليس به أثر؛ ثم مضت مدة شهر فأحضر الناس وأُخرج المستعين وقال : إن منيته
أتت عليه ، وها هو لا أثر به فأشهدوا ؛ ثم خلع المعتز ، وأستخلف المهتدى ؛ ولم
يمض إلا مديدة حتى أُخرج المعتز ميتا وقال : أشهدوا ، أنه قد مات حتف أنفه

ولأثر به ، ثم لم تكمل السنة حتى استخلف المعتمد فأخرج المهتدى مينا وقال : اشهدوا أنه قد مات حتف أنفه من جراحته ، فتعجب الناس من تلاخُطهم في مدة يسيرة .
 عبرة - مات المكتفى بالله عن مائة ألف ألف دينار ، ولما غُسل لم توجد بحجرة ينخر فيها إلا بحجرة من خرف أحمر ، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة .
 قال أحمد بن أبي دواد : لقد شددت لحيي المأمون ، والمعتم ، والوائق ، بعد موتهم فلم أجد خرقه أشد بها لحيي واحد منهم إلا ما أخرقه من الدراريح التي تكون على .
 لطيفة - في سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد برد فاضل سهام المواريث على ذوى الأرحام ، وأبطل ديوان المواريث ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

لطيفة - في سنة أربع وثمانين ومائتين أخبر المنجمون بغرق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفظ الناس من ذلك فقلَّت الأمطار حتى استسقوا ببغداد مرَّات .

غريبة - ذكر ابن سينا في المقالة الأولى من كتابه الشفاء أنه نزل ببحر جان صاعقة من الهواء فنشبت في الأرض ، ثم نبت نبوة الكرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفرُوا عليها فإذا هي قطعة من حديد تقدير مائة وخمسين مَنًا ، وهي أجزاء جاورشيَّة صغارٌ مستديرة ؛ التصق بعضها ببعض ، فكتب محمود بن سبكتكين ، صاحب نراسان بانفاذه إليه أو قطعة منه فتعذر نقله لثقله فحاولوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات ، فعُوج كسره فقطع منه قطعة لطيفة ، وحملت إليه فرام أن يطبع منها سيفا فتعذر عليه .

لطيفة أخرى - في سنة إحدى عشرة وخمسة مائة جاء سيلٌ عظيم فغرق مدينة سنجان من بلاد الجزيرة ، وهدم المنازل ، وأغرق خلقا كثيرا . ومن غريب ما حكى

أن السيل حمل مهّدا فيه صبيّ صغير فتعلق المهّد بشجرة زيتون ، وغاض الماء ، وبق المهّد معلقا بالشجرة فسلم الصغير .

أعجوبة — في سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وقَلَسِطِينَ زلزلة عظيمة ، طلع فيها الماء من رؤوس الآبار ، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم ، فزل الناس إلى أرض البحر يلتقطون ما آنكشف البحر عنه مما في أرضه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

ثم في سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلزلة عظيمة خربت شيزر ، وحماة ، وحمص ، وحِصْن الأكراد ، وطرابُلُس وأنطاكية ، وغيرها من البلاد التي حولها ؛ ووقعت الأسواق والقلاع حتى تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة .
فائدة — في سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتدى الخليفةُ باب الكعبة ، وعمل عوضه بابا مصفّحا بالفضة المذهبية ؛ وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتا ليُدْفَن فيه .

نادرة — في سنة خمس وستين وسبعمائة وقع نلجٌ عظيم بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بعُكْبَرَاء وما حولها .

أخرى — في سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وأمتد من مكة إلى الشام ؛ وعظم بحورَات حتى أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأصبغة والقماش ، وسُدَّت أعين الماء خوفا من أن يفسدها ، وكان من شأنه بَعَجُلُون أنه امتلأت منه المدينة وغلّقت الأسواق ، وطُبِّقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسُدَّت الأبواب وحضروا لصلاة الجمعة فملا عليهم الجامع ، وترامى على الخطيب على المنبر حتى شغله عن الخطبة ، وكذلك حير الناس حتى خرجوا من الجامع يُحِبُّون فيه خبا إلى الركب ؛ وأنتنت لكثرة ما قتل منه حتى صار أهل البلد يسمون القطران ليغطي رأئحته (وما يعلم جنود ربك إلا هو) .

أخرى — في سنة اثنتين وسبعين وسبعائة رأى أهل الشام في السماء بعد مغيب الشفق حمرة عظيمة من جهة الشمال ، ثم اشتدت الحمرة حتى صارت كالنار الموقدة وانتشرت في السماء حتى كاد يغطي ثلثها ، وعم بلاد الشام حتى كان يدمشق ، وبعبك وحلب ، وقاقون ، والرملة ، والقدس ، وطرابلس ، حتى خاف جميع أهل هذه البلاد على أنفسهم الهلاك ، وصرعوا إلى الله تعالى ، وأبتلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — : وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر في سنة اثنتي عشرة وثمانائة : وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتى داخلني منه أنه عذاب قد صب على الناس ، ثم أقشع بعد العشاء بقليل فلذلك لم ينتبه له أهل مصر . وبالجملة فوقائع الدهر ومعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

وَاللَّيَالِي كَمَا عَلِمْتَ حَبَالِي * مُقْرِبَاتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبٍ

المقصد الثاني

(في وجه بيان استعمال الكاتب ذلك في خلال كلامه)

لا يخفى أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدمين وسيهرم ، وأخبارهم ، ومن برع منهم ، صار عنده علم بما لعله يسأل عنه ، وأعداد لما يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتج عليه به من صورة قديمة : ليكون على يقين منها ، مع ما يحتاج إلى إيراده في خلال مكاتباته ورسائله : من ذكر من حسن الاحتجاج بذكره في أمر من الأمور أو حالة من الحالات : كما كتب به البديع الهمداني إلى أبي الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر في مجلسه فقال: إن البديع قد نسي حق تعليمنا إياه، وعقنا، وشمخ بأنفه عنا، والحمد لله على فساد الزمان، وتغير نوع الإنسان. فكتب إليه:

” نعم أطل الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الحمأ المسنون، وإن ظننت الظنون؛ والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقادم، وأرتكبت الأضداد، وأختلط الميلاد. والشيخ يقول فسد الزمان، أفلا يقول متى كان صالحا؟ أفي الدولة العباسية، وقد رأينا آخرها وسمعنا أولها؟ أم المدة الروانية، وفي أخبارها ” لا تكسح الشؤل بأغبارها؟ “ أم السنين الحربية، والسيف يُعمد في الطلا، والرُح يُركز في الكلا، وميتٌ جحر في الفلا، والحرتان وكر بلا، أم البيعة الهاشمية، وعلى يقول: لبت العشرة منكم براس، من بنى فراس؟ أم الأيام الأموية، والتغير إلى الحجاز، والعيون إلى الأعمجاز؟ أم الإمارة العدوية، وصاحبها يقول: وهل بعد البزول إلا التزول؟ أم الخلافة التيمية، وصاحبها يقول: طوبى لمن مات في نأاة الإسلام؟ أم على عهد الرسالة ويوم الفتح قيل أسكتي يافلانه، فقد ذهب الأمانه؟ أم في الجاهلية وليد يقول:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَافِهِمْ * وَبَقِيَتْ فِي خَلْفٍ كَلْدُ الْأَجْرِبِ.

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول:

بِلَادٌ بِهَا كُكَّا وَكُكَّا تُحِبُّهَا * إِذِ النَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ.

أم قبل ذلك، ويروي لآدم عليه السلام:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْهَا * فَوَجَّهُ الْأَرْضِ مُسَوِّدٌ قَبِيحٌ!

أم قبل ذلك والملائكة تقول: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾؟

وما قسد الناس، ولكن أطرده القياس؛ ولا ظلمت الأيام، إنما امتد الإظلام؛ وهل

(١) أي في أول الإسلام قبل أن يقوى أنظر اللسان.

يفسُد الشيء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صباح؛ ولعمري ! لئن كان كرم
العهد كتابا يرد وجوابا يصدرُ إنه لقريب المثال، وإنى على توبيخه لى لفقير إلى لقائه،
شفيق على بقائه؛ منتسب إلى ولائه، شاكر لآلائه .

والغاية القصوى في ذلك ما كتب به ذو الوزارتين "أبو الوليد بن زيدون"
رحمه الله على لسان محبوبته ولادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلى إنسان
استمالها عنه إلى نفسه وهى :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورطُ بجهله ، البين سقطة ، الفاحش غلظه ، العائر
فى ذيل أغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سُقوط الذباب ، على الشراب ،
المتهافت تهافت القَراش فى الشَّهاب ؛ فإن العُجبُ أكذبُ ، ومعرفة المرء نفسه
أصوب ؛ وإنك راسلتنى مستهديا من صِلتى ما صَفِرت منه أيدى أمثالك ، متصدِّيا
من خُلِّتى لما قُدِعت فيه أنوف أشكالك ؛ مرسلا خيلتك مر تاده ، مستعملا
عشيقتك قواده ؛ كاذبا نفسك فى أنك ستزل عنها إلى ، وتخلف بعدها على :

وَلَسْتَ بِأَوَّلِ ذِي هِمَّةٍ * دَعْتَهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ !

ولا شكَّ أنها قلَّتْك إذ لم تِضنَّ بك ، وملَّتْك إذ لم تَغْرَ عليك ؛ فإنها أَعذرت
فى السَّفارة لك ، وما قَصَّرت فى النيابة عنك ؛ زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ،
والإنسانية أسم أنت جسمه وهيولاه ؛ قاطعة أنك أنفردت بالجمال ، وأستأثرت
بالكمال واستعليت فى مراتب الخلال ؛ حتى خيلت أن يوسف عليه السلام حاسنك
فغصصت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلَّت عنه ؛ وأن قارون أصاب بعض
ما كترت ، والنظف عثر على فضل ماركرت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى
ماشيتك ؛ والإسكندر قتل دارا فى طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم
عن جماعتك ؛ والضحاك أستدعى مسالمتك ، وجديمة الأبرش تمنى منادمتك ويشيرين

قد نافست بوران فيك ، وبلقيس غيرت الزباء عليك ؛ وأن مالك بن نويرة إنما أردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك ؛ وكليب بن ربيعة إنما حمى المرعى بعزتك ، وجساسا إنما قتله بأنفتك ، ومهلها إنما طلب ناره بهمتك ؛ والسموعل إنما وفى عن عهدك ، والأحنف إنما آحتبى فى بردك ؛ وحاتم إنما جاد بوفرك ، ولقى الأضياف يبشرك ؛ وزيد بن مهلهل إنما ركب بفخذك ، والسليك بن السلكة إنما عدا على رجلك ؛ وعامر بن مالك إنما لاعب الأسننة بيديك ؛ وقيس بن زهير إنما استعان بدهاك ، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ؛ وسحبان وائل إنما تكلم بلسانك ، وعمرو بن الأهم إنما سحر ببيانك . وأن الصلح بين بكر وتغلب تم برسالتك ، والحالات فى دماء عبس وذبيان أسندت إلى كفالتك ؛ وأن آحتيال هريم لعامر وعلقمة حتى رضيا كان عن إشارتك ، وجوابه لعمر ، وقد سأله عن أيهما كان ينفر وقع بعد مشورتك ؛ وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجذك ، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك ؛ والمهلب أوهن شوكة الأزارقة بأيدك ، وأفسد ذات بينهم بكيدك ؛ وأن هرمس أعطى بيلينوس ما أخذ منك ، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما حدث عنك ؛ وبطليموس سوى الإصطراب بتديرك ، وصور الكرة على تقديرك ؛ وأبقراط علم العلال والأمراض بلطف حسك ، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك ؛ وكلاهما قللك فى العلاج ، وسألك عن المزاج ؛ وأستوصفك تركيب الأعضاء ، وأستشارك فى الداء والدواء ؛ وأنت نهجت لأبى معشر طريق القضاء ، وأظهرت جابر بن حيان على سر الكيمياء ؛ وأعطيت النظام أصلا أدرك به الحقائق ، وجعلت للكيندى رسما أستخرج به الدقائق ؛ وأن صناعة الألحان اختراعك ، وتأليف الأنقار توليدك وأبتداعك ؛ وأن عبد الحميد بن يحيى بارى أقلامك ، وسهل بن هارون مدون كلامك ؛ وعمرو بن بحر مستمليك ، ومالك بن أنس مستفتيك ؛ وأنت الذى

أقام البراهين ، ووضع القوانين ؛ وحدّ الماهية ، وبين الكيفية والكيفية ؛ وناظر في الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ؛ وحلّ المعنى ، وفصل بين الأسم والمسمى ؛ وضرب وقسم ، وعدل وقوم ؛ وصنف الأسماء والأفعال ، ويوبّ الظرف والحال ؛ وبنى وأعرب ، ونفى وتعجب ؛ ووصل وقطع ، وثنى وجمع ؛ وأظهر وأخمر ، وأبدأ وأخبر ؛ وأستفهم وأهمل ، وقيد وأرسل ؛ وأسند وبحث ، ونظر وتصفح الأديان ، وزجّح بين مذهبي ماني وغيلان ؛ وأشار بذبح الجعد ؛ وقتل بشرّ آبن بُرد ؛ وأنك لو شئت تحرقت العادات ، وخالفت المعهودات ؛ فأحلت البحار عذبه ، وأعدت السّلام رطبه ؛ ونقلت غداً فصار أمسا ، وزدت في العناصر فكانت نحسا ؛ وأنك المقول فيك "كلّ الصّيد في جوفِ الفراء" ، والمقول فيك :

لَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمَسْتَنَكِرٍ * أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ

والمعنى بقول أبي تمام :

فَلَوْ صَوَّرْتَ نَفْسَكَ لَمْ تَرِدْهَا * عَلَى مَا فِيكَ مِنْ كَرَمِ الطَّبَّاعِ

والمراد بقول أبي الطيّب :

ذُكِرَ الْأَنَامُ لَنَا فَكَانَ قَصِيدَةً * كُنْتَ الْبَدِيعَ الْفَرْدَ مِنْ أَيْبَاتِهَا

فكدمت في غير مكرم ، وأستسمنت ذا ورم ، وففخت في غير ضرم ، ولم تجد لمح مهزاً ، ولا لشفرة محزاً ، بل رضيت من الغنيمة بالإياب ، وتمنت الرجوع بحفني حنين ، لأنني قلت لها :

* لَقَدْ دَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ *

وأنشدت :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبَ

ونخرت وكفرت ، وعبست وبسرت ، وأبدأت وأعدت ، وأبرقت وأرعدت ،

وَهَمَّتْ ولم أفعَل ، وَكِدْتُ وَلِئِنِّي ، وَلَوْلَا أَنْ لِلجِوَارِ ذِمَّةٌ ، وَلِلضَّيَافَةِ حُرْمَةٌ ، لَكَانَ الجَوَابُ فِي قَدَالِ الدُّمُسْتُقِ ؛ وَالنَّعْلُ حَاضِرَةٌ إِنْ عَادَتِ العَقْرَبُ ، وَالعُقُوبَةُ مِمكِنَةٌ إِنْ أَصَرَ المُنْذِبُ ؛ وَهَبَهَا لَمْ تَلَا حِطَّكَ بَعِينَ كَلِيلَةٌ عَنِ عِيُوبِكَ مَأْوَاهَا حَبِيبُهَا وَحَسَنٌ فِيهَا مِنْ تَوَدُّ ؛ وَكَانَتْ إِنَّمَا حَلَّتْكَ بِجِلَاكَ ، وَوَسَمَّتْكَ ، بِسِيَاكَ ، وَلَمْ تُعْرِكَ شَهَادَهُ ، وَلَا تَكَلَّفَتْ لَكَ زِيَادَهُ ؛ بَلْ صَدَقَتْ سِنَّ بَكَرْهَا فِيمَا ذَكَرْتَهُ عَنكَ ، وَوَضَعَتْ الهِنَاءَ مَوَاضِعَ النَّقَبِ فَمَا نَسَبْتَهُ إِلَيْكَ ؛ وَلَمْ تَكُنْ كَاذِبَةً فِيمَا أَثْنْتَ بِهِ عَلَيْكَ ، فَالمُعَيَّدِي تَسْمَعُ بِهِ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَرَاهُ ، هَجِينُ النَّذَالِ ، أَرْعَنُ السَّبَالِ ، طَوِيلُ العُنُقِ وَالعِلَاوَةِ ؛ مُفْرِطُ الحُجُقِ وَالعَبَاوَةِ ؛ جَافِي الطَّبَعِ ، سَيِّئُ الإِجَابَةِ وَالسَّمْعِ ، بَغِيضُ الهَيْئَةِ ، سَخِيفُ الذَّهَابِ وَالجَيْئَةِ ، ظَاهِرُ الوَسْوَاسِ ، مُتَنِّ الأَنْفَاسِ ؛ كَثِيرُ المَعَايِبِ ، مَشْهُورُ المَثَالِبِ ؛ كَلَامِكَ تَمْتَمُهُ ، وَحَدِيثِكَ غَمْغَمُهُ ؛ وَيَبْأُنْكَ فَهَفَفَهُ ، وَضَحْكُكَ قَهْقَهَهُ ، وَمَشِيكَ هَرُولَهُ ، وَغِنَاكَ مَسْأَلَهُ ، وَدِينِكَ زَنْدَقَهُ ، وَعَلَمِكَ مَخْرَقَهُ :

مَسَاوِ لَوْ قُسِمْنَ عَلَى العَوَانِي * لَمَّا أُمْهِرْنَ إِلَّا بِالطَّلَاقِ

حَتَّى إِنْ بَاقِلًا مَوْصُوفٌ بِالبَلَاغَةِ إِذَا قُرِنَ بِكَ ، وَهَبَبَقَّةٌ مَسْتَحَقٌّ لِأَسْمِ العَقْلِ إِذَا أُضِيفَ إِلَيْكَ ؛ وَأَبَا غَبْشَانَ مَجْهُودٌ مِنْهُ سَدَادُ الفِعْلِ إِذَا نَسَبَ إِلَيْكَ ، وَطُوسًا مَأْتُورٌ عَنْهُ يَمُنُّ الطَّائِرُ إِذَا قَيْسَ عَلَيْكَ ، فَوْجُودِكَ عَدَمٌ ، وَالأَعْتَاءُ بِكَ نَدَمٌ ؛ وَالخَلِيَّةُ مِنْكَ ظَفَرٌ ، وَالجَنَّةُ مَعَكَ سَقَرٌ ؛ كَيْفَ رَأَيْتَ لُؤْمَكَ لِكِرْمِي كِفَاءً ! وَضَعْتِكَ لِشَرَفِي وَفَاءً ؛ وَأَتَى جَهَلْتُ أَنْ الأَشْيَاءَ إِنَّمَا تَنْجَذِبُ إِلَى أَشْكَالِهَا ، وَالطَّيْرُ إِنَّمَا تَقَعُ عَلَى الآفَاهَا ، وَهَلَّا عَلِمْتُ أَنْ الشَّرْقُ وَالعَرَبُ لَا يَجْتَمِعَانِ ، وَشَعَرْتُ أَنْ نَارِي المَوْمِنِ وَالكَافِرِ لَا تَتْرَءِيَانِ ، وَقَلْتُ الخَلِيئُ وَالطَّيْبُ لَا يَسْتَوِيَانِ ، وَتَمَثَّلْتُ :

* عَمَّرَكَ اللهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ *

وذكرت أنى علق لأبياع من زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغرض لا يصيبه
إلا من أجاد، فما أحسبك إلا قد كنت تهبأت للتهنيه، وترشحت للترفيه،
لولا أن جرح العجاء جبار، للقيت ما لقي من الكواعب يسار؛ فما هم إلا بدون
ما هممت به، ولا تعرض إلا لأيسر مما تعرضت له؛ أين أدعاؤك رواية الأشعار،
وتعاطيك حفظ السير والأخبار؛ أما ثاب لك قول الشاعر :

بنو دارم أكفاؤهم آل مسمع * وتكح في أكفائها الحببات

وهلا عشت ولم تغتر، وما أمك أن تكون وافد البراجم، أو ترجع بصحيفة
التمس، أو أفل بك ما فعله عقيل بن علفة^(١) بالجهني الذي جاء خاطبا، فذهن
أسته بزيت وأدناه من قرية النمل؛ ومتى كثر تلاقينا، وأتصل ترائينا؟ فيدعوني
إليك مادعا ابنة الخس إلى عبدها من طول السواد، وقرب الوساد؛ وهل فقدت
الأرقام فأنكح في جنب، أو عضلني همام بن مرة، فأقول زوج من عود، خير من
قعود، ولعمري لو بلغت هذا المبلغ لأرتفعت عن هذه الخطئة، وما رضيت بهذه
الخطئة، فالنار ولا العار، والمينة ولا الدنية، والحرة تجوع ولا تأكل بشديها :

فكيف وفي أبناء قومي منكح * وفتيان هزان الطوال الغرائقه

ما كنت لأتخطى المسك إلى الرماد، ولا أمتطي الثور دون الجواد؛ وإنما يتعم من
لا يجد ماء، ويرعى الهشيم، من عدم الجميم؛ ويركب الصعب من لاذلول له؛ ولعلك
إنما عرك من علمت صبوتى إليه، وشهرت مساعفتى له من أقمار العصر، ورياحين
المصر، الذين هم الكواكب علوهم، والرياض طيب شيم .
* من تلق منهم ثقل لاقيت سيدهم *
مهمه

(١) في الأصل علقمة وهو تصحيف أنظر مادة ع ل ف في القاموس .

فَخَنَّ قَدْحَ لَيْسَ مِنْهَا ، مَا أَنْتَ وَهْمٌ ؟ وَأَيْنَ تَقَعُ مِنْهُمْ ؟ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا وَأَوْعَمَرُوا فِيهِمْ ؟
 وَكَالْوَشِيظَةَ فِي الْعِظَمِ بَيْنَهُمْ ؛ وَإِنْ كُنْتَ إِذَا بَلَغْتَ قَعْرَ تَابُوتِكَ ، وَتَجَافَيْتَ لَقَمِيصِكَ
 عَنْ بَعْضِ قُوَّتِكَ ؛ وَعَطَّرْتَ أُرْدَانَكَ ، وَجَرَّرْتَ هَمِيَانَكَ ؛ وَأَخْتَلْتَ فِي مِشِيَّتِكَ ،
 وَحَدَقْتَ فُضُولَ لِحْيَتِكَ ؛ وَأَصَابِحْتَ شَارِبِكَ ، وَمَطَّطْتَ حَاجِبِكَ ؛ وَرَقَّقْتَ خَطَّ
 عِدَارِكَ ، وَأَسْتَأْنَفْتَ عَقْدَ إِزَارِكَ ، رَجَاءَ الْاِكْتِنَانِ فِيهِمْ ، وَطَمَعًا فِي الْاِعْتِدَادِ مِنْهُمْ
 فَظَنَنْتَ عَجْزًا ، وَأَخْطَأْتَ أَسْتِكَ الْحُفْرَةَ . وَاللَّهِ لَوْ كَسَاكَ مَحْرَقُ الْبُرْدَيْنِ ، وَحَلَّتْكَ
 مَارِيَةٌ بِالْقُرْطَيْنِ ، وَقَلَّدَكَ عَمْرُو الصَّمْصَامَةَ ، وَحَمَلَكَ الْحَارِثُ عَلَى النَّعْمَةِ ، مَا شَكَّكَتُ
 فِيكَ ، وَلَا تَكَلَّمْتَ بَمَلءِ فَيْكَ ، وَلَا سَتَرْتُ اِيَّاكَ ، وَلَا كُنْتُ إِلَّا ذَاكَ . وَهَبَكَ سَامِيَتِهِمْ
 فِي ذِرْوَةِ الْمَجْدِ وَالْحَسَبِ ، وَجَارِبَتِهِمْ فِي غَايَةِ الظَّرْفِ وَالْأَدَبِ ؛ أَلَسْتَ تَأْوِي إِلَى
 بَيْتِ قَعِيدَتِهِ لِكَعَاعٍ ، إِذْ كَلَّهِمْ عَزَبَ خَالِي الذَّرَاعِ ، وَأَيْنَ مِنْ أَنْفَرْدِ بِهِ مَنْ لَا غَلَبَ
 إِلَّا عَلَى الْأَقْوَلِ الْأَخْسَّ مِنْهُ ؛ وَكَمْ بَيْنَ مَنْ يِعْتَمِدُنِي بِالْقُوَّةِ الظَّاهِرَةِ ، وَالشَّهْوَةِ الْوَافِرَةِ ،
 وَالنَّفْسِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَى ، وَاللَّذَّةِ الْمَوْقُوفَةِ عَلَى ، وَبَيْنَ آخِرَقَدِ نَزَحَتْ بِرِهِ ، وَنَضَبِ
 غَدِيرِهِ ، وَذَهَبِ نَشَاطِهِ ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ضَرَاطُهُ . وَهَلْ كَانَ يَجْتَمِعُ لِي فِيكَ إِلَّا الْحَشْفُ
 وَسُوءُ الْكِيلَةِ ، وَيَقْتَرِنُ عَلَى بَكَ إِلَّا الْعُنْدَةُ وَالْمَوْتُ فِي بَيْتِ سُلُوبِهِ :

تعالى الله يا سلم بن عمرو * أذلَّ الحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

مَا كَانَ أَحْلَقَكَ بِأَنْ تُقَدَّرَ بِذُرْعِكَ ، وَتَرَبَّعَ بِذَلِكَ عَلَى ظَلْعِكَ ، وَلَا تَكُونَ بَرِاقِشَ
 الدَّالَّةِ عَلَى أَهْلِهَا ، وَعِزَّ السُّوءِ الْمُسْتَثِيرَةِ لِحَتْفِهَا ؛ فَمَا أُرَاكَ إِلَّا قَدْ سَقَطَ الْعِشَاءُ بِكَ عَلَى
 سِرْحَانٍ ، وَبِكَ لَا يَطْبِي أَعْفَرٌ ؛ قَدْ أَعْدَرْتُ إِنْ أَغْنَيْتَ شَيْئًا ، وَأَسْمَعْتُ لَوْ نَادَيْتُ حَيًّا ،
 وَقَرَعْتُ عَصَا الْعِتَابِ ، وَحَدَّرْتُ سُوءَ الْعِقَابِ .

إِنَّ الْعَصَا قُرِعَتْ لِيذِي الْحِلْمِ * وَالشَّيْءُ تَحْقَرُهُ وَقَدْ يَتَّبِعِي

فَإِنْ بَادَرْتُ بِالنَّدَامَةِ ، وَرَجَعْتَ عَلَى نَفْسِكَ بِالْمَلَامَةِ ؛ كُنْتُ قَدْ أَشْتَرَيْتَ الْعَافِيَةَ
 لَكَ بِالْعَافِيَةِ مِنْكَ ؛ وَإِنْ قَلْتُ جَعَجَعَةً وَلَا طِخْنَ ، فُرِبَّ صَلْفٍ تَحْتَ الرَّاعِدَةِ ، وَأَنْشَدْتُ :

لا يُؤسِّنَكَ من مُحدِّرة * قولٌ تغلَّظهُ وإن جَرَحَا

فُعِدَّتْ لما نَهَيْتُ عنه ، وراجعتُ ما أَسْتَعْفَيْتُ منه ، بعثتُ من يُزَعِّجُكَ إلى
الْخَضْرَاءِ دَفْعًا ، وَيَسْتَحِثُّكَ نَحْوَهَا وَكُزًا وَصَفْعًا ، فإذا صرْتَ إليها عَبَثْتَ أَكْارُهَا بِكَ ،
وتسلطُ نَوَاطِيرُهَا عَلَيْكَ : فنِ قَرَعَةٍ مُعْجِجَةٍ تَقُومُ في قَفَاكَ ، ومن فُجَلَةٍ مُنْتِنَةٍ تُرْمَى بِهَا
تَحْتَ خِصَاكَ ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ ، لَكِي تَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِكَ ، وترى مِيزَانَ قَدْرِكَ :
فَمَنْ جَهَلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ * رَأَى غَيْرَهُ مِنْهُ مَا لَا يَرَى

فلولا المعرفة بالتاريخ، والإحاطة بالوقائع والسير، والأقاصيص، والأمثال السائرة
في معنى ذلك، لما تأتى للنائر الأقتدار على سبك هذه الوقائع، والتلويح بمقتضياتها.

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المصنفة فيها
وأسماء الرجال المبرزين في فنونها ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخلفاء والملوك في القديم بها مزيد اهتمام، وكال اعتناء، حتى حصلوا منها
على العدد الجَمِّ، وحصلوا على الخزائن الجليلة . ويقال إن أعظم خزائن الكتب
في الإسلام ثلاثُ خزائن :

إحداها — خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد، فكان فيها من الكتب ما لا يحصى
كثرة، ولا يقوم عليه نفاسة، ولم تزل على ذلك إلى أن دَهَمَت التتر ببغداد، وقتل
ملكهم هولاءكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد، فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب،
وذهبت معالمها، وأعفيت آثارها .

الثانية — خزانة الخلفاء الفاطميين بصر، وكانت من أعظم الخزائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم على ما سيأتى ذكره في الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية في المقالة الثانية. ولم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، وأستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدير ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل.

الثالثة — خزانة خلفاء بني أمية بالأندلس؛ وكانت من أجل خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلى أنقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس، فذهبت كتبها كل مذهب.

أما الآن فقد قلت عناية الملوك بخزائن الكتب، اكتفاء بخزائن كتب المدارس التي آبنوها من حيث إنها بذلك أمس.

واعلم أن الكتب المصنفة أكثر من أن تُحصى، وأجل من أن تُحصَر؛ لا سيما الكتب المصنفة في الملة الإسلامية فإنها لم يصنّف مثلها في ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم؛ إلا أن منها كتب مشهورة قد توفرت الدواعى على نقلها، والإكثار من نسخها، وطارَت سُمعتها في الآفاق ورُغب في اقتنائها.

المقصد الثاني

(في ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنفة فيها ومؤلفيهم ويرجع المقصد فيها إلى سبعة أصول، يتفرع عنها أربعة ونحسون علما)

الأصل الأول

(علم الأدب، وفيه عشرة علوم)

الأول علم اللغة — من الكتب المختصرة فيه المتخَب، والمجرد لكراع؛ وأدب الكاتب لأبن قتيبة، وفتح اللغة للتحالي، والفضيح لثعلب، وكفاية المتحفظ

لأبن الأجدابي، والألفية لأبن أصعب. ومن المتوسطة فيه المجلد لأبن فارس، وديوان الأدب للفارابي، وإصلاح المنطق لأبن السكيت. ومن المبسوطة الجامع للأزهري والعباب الزاهر للصاغاني، والصحاح للجوهري. قال في إرشاد القاصد: ولا أنفع ولا أجمع من المحكم لأبن سيده.

الثاني علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكي لأبن جني والتعريف لأبن مالك. ومن المتوسطة تصريف أبن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوععة فيه وأجمعها. ومن المبسوطة فيه المتع لأبن عصفور، وشرح تصريف أبن الحاجب وغيره.

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لأبن الحاجب، والذرة الألفية لأبن معطى، والخلاصة لأبن مالك. ومن المتوسطة المفصل للزخشي والمقرب لأبن عصفور، والكافية الشافية لأبن مالك، وتسهيل الفوائد له وهو الجامع على شدة اختصاره. ومن المبسوطة كتاب سيبويه وشرحه، وشرح أبن قاسم على الألفية، وشرحه على التسهيل، وشرح شهاب الدين السمين عليه؛ وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبي حيان على التسهيل.

(١)
الرابع علم المعاني — من الكتب المنفردة فيه مصنف تميم الحرسي، وهو عزيز الوجود.

الخامس علم البيان — من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام نخرالدين الرازي، والجامع الكبير لأبن الأثير الجزري.

السادس علم البديع — من الكتب المنفردة به المختصرة فيه زهر الربيع للطريزي. ومن المتوسطة فيه البديع للتيفاشي، وشرح البديعية للصفى الحلي. ومن المبسوطة كتاب التحبير لأبن أبي الأصعب.

(١) هكذا بهذا الرسم في الأصل ولم نعر عليه بعد البحث.

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة على علوم المعاني والبيان والبديع روض الأزهار لابن مالك ، والإيضاح لابن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضي القضاة جلال الدين أنقزويني وعليه عدة شروح . منها شرح الخلخالي ، وشرح الشيخ أكل الدين ، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكي ، وهو من أجل شروحه ، والمعول عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازاني .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عروض ابن مالك ، ولابن الحاجب فيه لامية كافية ، اعتنى الناس بشرحها ، ومن شرحها الشيخ جمال الدين ابن واصل ، والشيخ جمال الدين الأسنوي . وللساوي لامية ضاهي فيها لامية ابن الحاجب ، وللإمام القزويني عليها شرح حسن ، وللأبي في مختصر بديع ، وللجوهري فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عروض ابن القطّاع ، وعروض ابن الخطيب التبريزي . ومن المبسطة كتاب الأمين المحلى ، وعروض الأستاذ أبي الحسن العروضي المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثاري محتسب مصر ألفية فائقة سماها "هداية الضليل إلى علم الخليل" جمع فيها فأوعى .

الثامن علم القوافي — من الكتب المختصرة فيها قوافي الأيكي . ومن المتوسطة قوافي ابن القطّاع ، ومن المبسطة قوافي ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — في أصول الخط ألفية لشعبان الآثاري ، ولابن الحسين كتاب في قلم الثلث ، ولابن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنف في قلم النسخ ، وفي صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبي ، وفي خلال كتب النحو الجامعة كالتمهيد وغيره جملة من الهجاء ، وقد أودعت في هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فيه كتاب التنبيه لأبي عمرو الداني .

الأصل الثاني

(العلوم الشرعية، وفيه تسعة علوم)

الأول علم النواميس المتعلق بالنبوات - وفيه كتاب لأرسطاطاليس ، وكتاب لافلاطن ، وأكثر مسائله في "كتاب المدينة الفاضلة" لأبي نصر الفارابي ، وفي آخر الطوالع والمصباح للبيضاوي مسائل من ذلك .

الثاني علم القراءات - من الكتب المختصة فيه التيسير لأبي عمرو الداني ، ونظمه الشاطبي في قصيدته التي وسمها بحرز الأمانى ، فأغنت عما سواها من كتب القراءات وأعنتى الناس بشرحها ، ولأبن مالك دالية بديعة في علم القراءات لكنها لم تشتهر . ومن الكتب المبسطة فيه كتاب الروضة في القراءات ، وشرح الشاطبية كالفاسي وغيره .

الثالث علم التفسير - من الكتب المختصة فيه زاد المسير لأبن الجوزي ، والوجيز للواحدى ، والنهر لأبي حيان . ومن المتوسطة فيه الوسيط للواحدى والكشاف للزمخشري ، ومعالم التنزيل للبعوي . ومن المبسطة البسيط للواحدى ، وتفسير القرطبي ، وتفسير الامام نجر الدين ، والبحر المحيط لأبي حيان .

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فن من الفنون يميل إليه في تفسيره ، فالتيفاشي تغلب عليه القصص ، وأبن عطية تغلب عليه العربية ، وأبن عطية تغلب عليه أحكام الفقه ، والزجاج تغلب عليه المعاني وغير ذلك .

الرابع علم رواية الحديث - أضبط الكتب المصنفة فيه وأصحها رواية صحيح البخارى ، وصحيح مسلم رضى الله عنهما ، وبعدهما بقية كتب السنن المشهورة ، كسنن أبى داود ، والترمذى ، والنسائى ، وأبن ماجه ، والدارقطنى . والمستندات المشهورة كسنن أحمد ، وابن أبى شيبه ، والبرار ونحوها .

(١) هو كتاب البيضاوي في علم الكلام . (٢) هما مفسران أحدهما متقدم على الآخر وكلاهما مسمى بأبي محمد عبدالله إلا أن المتقدم دمشق والمتأخر غرناطي كذا يؤخذ من كشف الظنون .

ومن كتب السير السيرة لأبن هشام ، وزهر الخمائل لأبن سيد الناس .
ومن الكتب المبسوطة المشتملة على متون الأحاديث دون الرواة جامع الأصول
لأبن الأثير . ومن المتوسطة الجمع في ذلك الجمع بين الصحيحين للحميدى ، ومختصر جامع
الأصول لمصنفه . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام ، الإمام بأحاديث الأحكام ،
للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للمافظ عبد الغنى المقدسى .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووى . ومما يتعلق بالأدعية
كتاب الأذكار له ، وسلاح المؤمن لأبن الامام . إلى غير ذلك من أنواع المصنّفات
المختلفة المقاصد مما لا يحصى كثرة .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول في ذلك علوم الحديث
لأبن الصلاح ، وتقريب التيسير للنووى ، وعلوم الحديث للحاكم ، والكفاية للخطيب
أبى بكر ، وفي أول جامع الأصول المقدم ذكره في كتب رواية الحديث قطعة من
ذلك . ومن الكتب المبسوطة في أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسوطة
في معانى الحديث شرح البخارى لأبن بطلال ، وشرحه لأبن التين المغربى ، وشرحه
لمغلطاي ، وشرحه لاكرمانى ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم
للقاضى عياض ، وشرحه للشيخ محيى الدين النووى ، وشرح سنن أبى داود للخطابى ،
وشرح العمدة للشيخ تقي الدين بن دقيق العيد ، وشرحها للشيخ تاج الدين الفاكهاني .
ومن الكتب في غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى ، والنهاية لأبن السعادات
أبن الأثير ، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطوالع للقاضى ناصر الدين
البيضاوى ، والمصباح له ، وقواعد العقائد للخواجه نصير الدين الطوسى ، وكتاب الأربعين

للقاضى جمال الدين بن واصل . ومن المتوسطة المحصل للإمام نجر الدين ، والصحائف
 للسمرقندى ، وشرح الطوالع للسيد العبرى ، وشرحها للشيخ عز الدين الأصفهاني .
 السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن الحاجب ،
 ومنهاج البيضاوى ، والتنقيح للقرافى ، والقواعد لأبن الساعاتى . ومن المتوسطة فيه
 التحصيل للأرموى . ومن المبسوطه فيه الإحكام للآمدى ، والمحصل للإمام
 نجر الدين ، وشروح مختصر ابن الحاجب : كشرح القطب الشيرازى ، وشرى
 المسيلى ، وشرح الشيخ شمس الدين الأصفهاني ، وأتقن شرح عليه للعصدي ؛ وكشرح
 منهاج البيضاوى لأبن المطهر ، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوى ، وغير ذلك ؛
 وكشرح التنقيح لمصنفه .

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المغنى للأبهري ، والفصول للنسفي
 وأخلاصة للراغى ، والمعونة لأبن إسحاق الشيرازى . ومن المتوسطة فيه النفائس
 للعميدى ، والوسائل للأرموى . ومن المبسوطه تهذيب النكت للأبهري .
 التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصرة مختصر المزني ، ومختصر البويطى
 والوجيز للغزالي ، والتنبيه لأبن إسحاق الشيرازى ، والمحزر للرافعى ، والمنهاج للنووى
 والحاوى الصغير لعبد الغفار القزوينى ، والعجب العجائب ، وجامع المختصرات ،
 ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المتوسطة المهذب لأبن إسحاق
 الشيرازى ، والوسيط للغزالي ، والشرح الصغير للرافعى ، والروضة للنووى ، والجواهر
 للقموى ، وأجمعها على اختصار المتقى للشيخ كمال الدين الشيبانى . ومن المبسوطه
 الأئم للإمام الشافعى ، والحاوى للآوردى ، والبحر للرويانى ، والنهاية لإمام الحرمين ،
 والبسيط للغزالي ، والشامل لأبن الصباغ ، والتتمة للتولى ، والعدة لأبن المكارم
 الرويانى ، والشرح الكبير على الوجيز للرافعى ، وشرح المهذب للنووى انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كل لأغنى عن جُل كتب المذهب ، والكفاية في شرح التنبيه لأبن الرِّقعة ، والمطلب في شرح الوسيط له ، والبحر المحيط في شرح الوسيط للقمولي .
ومن محاسنها المهمّات على الرافعي ، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوي .
ومن كتب الحنفية المختصرة البداية ، والنافع ، والكتز ، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسطة المحيط ، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضي عبد الوهاب ، ومختصر ابن الجلاب ، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكي ، هذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعي ، والجواهر لأبن شاس ، ونظم الدرّ للشارمساحي . ومن المبسطة النوادر لأبن أبي زيد ، والبيان والتحصيل ، وكتاب آبن يونس ؛ وشرح التلقين للآزري ، وليس بكامل ، والذخيرة للقراقي .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الحدّقي ، والنهاية الصغرى لأبن رزين . ومن المتوسطة المُقنِع ، والكافي . ومن المبسطة المغنى لأبن قدامة .
ومن كتب الخلاف في المذاهب الأربعة الاختلاف والجمع لأبن هبيرة الحنبلي .
ومن المشتمل على مذاهب السلف الإشراف لأبن المنذر .

الأصل الثالث

(العلم الطبيعي ، وفيه اثنا عشر علما)

الأوّل علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجز لأبن النفيس ، والفصول لأبقراط ، ومن المتوسطة المختار لأبن هبل ، والمائة للسيحي ، والشافى لأبن القف .
ومن المبسطة كامل الصناعة المعروف بالملكي ، والقانون للرئيس أبي عليّ بن سينا

وهو الذى أخرج الطب من التلفيق إلى التهذيب والترتيب ، وهو أجمع الكتب وأبلغها لفظا وأحسنها تصنيفا .

- الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .
- الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفي كتاب العلاجين لابن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .
- الرابع علم الفِرَاسَة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفِرَاسَة للامام نحر الدين الرازى ، ولقيلن فيه كتاب مختص بالتفريس فى النساء .
- الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لابن الدقاق ، وتعبير الخبلى المرتب على حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للخبلى . ومن المبسطة فيه تأليف أبى سهيل المسيحي ، والبشرى فى شرح كتاب الكومانى .
- السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار ، والجامع الصغير لمحي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لابن هنبتا . ومن المبسطة مجموع ابن سريج . ومن الكتب المنفردة ببعض أجزاء الأدوار لأبى معشر ، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى ، والمواليد للخصيبى ، والتحاويل للسحرتى ، والمسائل للقيصرانى ، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القيصى ، والفهم للبيرونى مدخل إلى هذا الفن ، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .
- السابع علم السحر ، وعلم الحرف والأوقاف — ومن كتب السحر المعتبرة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام نحر الدين ، وكتاب الجمهرة للخوازمى ، وكتاب طيارس لارسطاطاليس ، وفى غاية الحكم للجربطى فصول كافية فى بعض طرقه أيضا .
- ومن كتب علم الحرف كتاب اطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعارف له ، وهو عزيز الوجود ، وفى النسخ المعتبرة من اللغة النورانية للبونى قطعة كافية منه .

الثامن علم الطَّلَسَمَات — في كتاب طبنا الذي نقله ابن وحشية عن النبط أمّوذج لعمل الطَّلَسَمَات ومدخل إلى علمها، وفي غاية الحكم للجريطي قواعد هذا العلم . قال في إرشاد القاصد إلا أنه ضنّ بالتعليم كل الضن، ولأبى يعقوب السكاسكى فيه كتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتبا مجهولة المصنّفين .

العاشر علم الكيمياء — من الكتب المطولة فيه كتب جابر بن حيان . قال في إرشاد القاصد : وأمثلة كتب الإسلاميين في ذلك التذكرة لأبن كونه ، ورثبة الحكيم للجريطي ، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذورى . الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية ، ترجمة أبى بكر بن وحشية .

الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصنفة فيه تجارب العرب ، وفي مثلثات ابن محقق^(١) حصر صورته .

تنبه — لارسطاطاليس ثمانية كتب في الطبيعى يختص كل كتاب منها بجزء جردها أبى سينا في مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصا مفيدا ، والمتأخرون جمعوا في غالب كتبهم بينه وبين الالهى في التصنيف كما في الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصل الرابع

(علم الهندسة، وفيه عشرة علوم)

الأول علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لأبن الهيثم ، ومصنف لالكبرى .

(١) في كشف الظنون محقوق .

- الثاني علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب علي بن عيسى الوزير . ومن المبسوطه كتاب ابن الهيثم .
- الثالث علم المرآيا المحرقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لابن الهيثم .
- الرابع علم مراكز الأثقال — من الكتب المعتره فيه كتاب ابن الهيثم ، وفيه كتاب لأبي سهل الكوهي .
- الخامس علم المساحة — من الكتب المختصرة فيه كتاب ابن مجلي الموصلي . ومن المتوسطة كتاب ابن المختار . ومن المبسوطه ، كتاب ارشميدس .
- السادس علم إنباط المياه — للكرنخي فيه مختصر جليل ، وفي خلال الفلاحة النبطية لابن وحشية مهمات هذا العلم .
- السابع علم جر الأثقال — فيه كتاب لفيلن .
- الثامن علم البنكومات — فيه كتاب لارشميدس عمدة في بابه .
- التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبني موسى بن شاكر .
- العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بجبل بني موسى ، وفيه كتاب مختصر لفيلن ، وكتاب مبسوط للبديع الجزري .

الأصل الخامس

(علم الهيئة ، وفيه خمسة علوم)

- الأول علم الزيجات — قال في إرشاد القاصد : أقرب الزيجات عهدا بالرصد الزيج العلامى . قال وأهل مصر في زماننا إنما يقيمون دقتر السنة من زيح لفقوه من عدة أزياج ولقبوه بالمصطلح ؛ وأتم الزيجات في زماننا الذى نحن فيه زيح الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي ، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

- الثانى علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت فى علم المواقيت . ومن المبسوطه جامع المبادئ والغايات لأبى على المرأكشى .
- الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتره فيه كتاب الأرصاد لابن الهيثم ، وكتاب الآلات العجيبه للهارثى يشتمل عليه .
- الرابع علم تسطيح الكرة — من الكتب القديمه فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس . ومن الكتب المحدثه فيه الكامل للفرغانى ، والأستيعاب للبيرونى ، وآلات التقويم للتراكشى .
- الخامس علم الآلات الظليه — فيه عدّه مصنفات ، ولابراهيم بن سنان الخزانى فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارتماطيق ، وفيه خمسة علوم)

- الأول علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن مجلى الموصلى ومختصر آبن فلوس الماردىنى ، ومختصر السموئل بن يحيى المغربى . ومن المتوسطه الكافى للكرخى . ومن المبسوطه الكامل لأبى القاسم بن السمح .
- الثانى علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه على طريق الهندى كتب معده ، ومن الكتب المصنفة فيه على طريق الغبار كتاب الحصار ، وكتاب المدخل وغيرهما .
- الثالث علم الجبر والمقابله — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لآبن فلوس الماردىنى ، والمفيد لآبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطه فيه كتاب المظفر الطوسى . ومن المبسوطه جامع الأصول لآبن المجلى ، والكامل لأبى شجاع بن أسلم .
- الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعه كتاب لزين الدين المعزى
- الخامس علم حساب الدور والوصايا — من الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الحوىجى .

الأصل السابع

(العلوم العملية ، وفيه ثلاثة علوم)

الأول علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذى ألفه لاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى، وللشيخ تقي الدين ابن تيمية كتاب حسن فى السياسة الشرعية .

الثانى علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيه ، كتاب للشيخ أبى على ابن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبى على بن مسكويه . ومن المبسطة كتاب للامام نجر الدين الرازى .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الانتفاع فيها بالإطلاع على السير الفاضلة المحمودة للملوك وغيرهم ، ولا أنفع من السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام . فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيها من الكتب ، أمكنه التصرف فيها فى كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه ، وذاكر كتاب مصنف فى ذلك حيث تدعو الحاجة إلى ذكره : كما وقع لى فى تقرير مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن ، أبى سيدنا شيخ الإسلام أبى حفص عمر البلقينى الكافى الشافعى ” إن تكلم فى الفقه فكأنما بلسان الشافعى تكلم ، والربيع عنه يروى ، والمنزى منه يتعلم ، أو خاض فى أصول الفقه قال الغزالى هذا هو الإمام بانفاق ، وقطع السيف الآمدى ” بأنه المقدم فى هذا الفن على الإطلاق ، أو جرى فى التفسير قال الواحدى هذا هو العالم الأوحى ، وأعطاه ابن عطية صفقة يده بأن مثله فى التفسير لا يوجد ، وأعترف له صاحب الكشاف بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام نجر الدين هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخلاف واندفع المعارض ، أو أخذ فى القراءات والرسم أزرى بأبى عمرو الدانى ، وعدا شأو الشاطبى

في الرائية وتقدمه في حرز الأمانى ؛ أو تحدث في الحديث شهد له السفيانان بعلو الرتبة في الرواية ، وأعترف له ابن معين في التبريز والتقدم في الدراية ؛ وهتف الخطيب البغدادي يذكره على المتأبر ، وقال ابن الصلاح لمثل هذه الفوائد نثعين الرحلة ، وفي تحصيلها تنفد الحار ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعري بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا في الكلام ؛ أو دقق النظر في المنطق بهر الأبهري في مناظرته ، وكتب الكاشي وثيقة على نفسه بالعجز عن مقاومته ؛ أو ألم بالجدل رمى الأرموى نفسه بين يديه ، وجعل العميدى عمدته في آداب البحث عليه ؛ أو بسط في اللغة لسانه أعترف له ابن سيده بالسيادة ، وأقر بالعجز لديه الجوهرى وجلس ابن فارس بين يديه مجلس الاستفاده ، وأنحا إلى النحو والتصريف أربى فيه على سيبويه ، وصرف الكسائي له عزمه فسار من البعد إليه ، أو وضع أنموذجا في علوم البلاغة ، وقف عنده الجرجاني ، ولم يتعد حده ابن أبي الأصبغ ولم يجاوز وضعه الرماني ؛ أو روى أشعار العرب ، أزرى بالأصمعي في حفظه ، وفاق أبا عبيدة في كثرة روايته وغزير لفظه ؛ أو تعرض للعروض والقوافي استحقهما على الخليل ، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارك وأعترف الجوهرى بأنه ليس له في هذا الفن مثيل ؛ أو أصل في الطب أصلا ، قال ابن سينا هذا هو القانون المعبر في الأصول ، وأقسم الرازى بحبي الموتى إن بقرط لو سمعه لما صنّف الفصول ؛ أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه ، أو جذبه بزمام فاتقاد ذلك العلم إليه ، أو سلك في علوم الهندسة طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم ، وأعرض ابن الهيثم عن حل الشكوك ووثى وهو كظيم ، وحمد المؤمن بن هود عدم إكمال

كتابه الاستكمال، وقال عرفت بذلك نفسى وفوق كل ذى علم عليم، أو عرّج على علوم الهيئة لأعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأتجوبة النادرة، وقال ابن أفلح هذا العالم قطب هذه الدائرة؛ أو صرف إلى علم الحساب نظره لقال السموعلى بن يحيى، لقد أحيا هذا العزّ الدارس، وأنجحت عن هذا العلم غيابه حتى لم يبق عمه لعاميه ولا عمّة على ممارس:

وقد وجدت مكان القول ذا سعة * فإن وجدت لسانا قاتلا فقل

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالى؛ وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم، وقد تقدّم ذكر شىء مما يجرى هذا المجرى فى الكلام على النحو ونحوه.

تم الجزء الأول

ويليه الجزء الثانى، أوله "النوع الثامن عشر—المعرفة بالأحكام السلطانية"

فهرست الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى

صفحة

- خطبة الكتاب ٥
- المقدمة في المبادئ التي يجب تقديمها قبل الخوض في كتابة الإنشاء؛
وفيهما خمسة أبواب... .. ٣٥
- الباب الأول - في فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حماهم؛
وفيه فصلان ٣٥
- الفصل الأول - في فضل الكتابة ٣٥
- الفصل الثاني - في مدح فضلاء الكتاب وذم حماهم... .. ٤٦
- الباب الثاني - في ذكر مدلول الكتابة لغة وأصطلاحاً الخ؛
وفيه ثلاثة فصول ٥٠
- الفصل الأول - في ذكر مدلولها الخ ٥١
- الفصل الثاني - في تفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة ... ٥٤
- الفصل الثالث - في ترجيح الشعر على الشعر ٥٨
- الباب الثالث - في صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان ٦١
- الفصل الأول - في صفاتهم؛ وهي على ضربين ٦١
- الفصل الثاني - في آداب الكتاب؛ وهي على نوعين ... ٦٩
- النوع الأول - حسن السيرة وشرف المذهب، ولذلك شروط ولوازم
النوع الثاني - حسن العشرة التي هي من أفضل الخلائق الخ؛
وهي على خمسة أضرب... .. ٧٣

صحيفة

الباب الرابع - في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء الخ؛ وفيه فصلان ٨٩

الفصل الأول - في التعريف بحقيقته ٨٩

الفصل الثاني - في أصل وضعه في الإسلام وتفترقه عند بعد ذلك

في الممالك ٩١

الباب الخامس - في قوانين ديوان الإنشاء وترتيب أحواله وآداب

أهله؛ وفيه أربعة فصول ١٠١

الفصل الأول - في بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره الخ ١٠١

الفصل الثاني - في صفة صاحب هذا الديوان وآدابه ١٠٤

الفصل الثالث - فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدييره الخ؛

وفيه اثنا عشر أمرا ١١٠

الفصل الرابع - في ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية الخ؛

وفيه ضربان ١٣٠

المقالة الأولى

في بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد؛ وفيه بابان ١٤٠

الباب الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية؛ وفيه

ثلاثة فصول ١٤٠

الفصل الأول - فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال ١٤٠

الفصل الثاني - فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته من مواد الإنشاء؛

وفيه طرفان (صوابه ثلاثة أطراف) ١٤٨

الطرف الأول - فيما يحتاج إليه من الأدوات؛ ويشتمل العرض منه

على خمسة عشر نوعا (صوابه تسعة عشر نوعا) ١٤٨

صحيفة

- النوع الأول — المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد ... ١٤٨
- النوع الثاني — المعرفة باللغة العجمية الخ؛ وفيه مقصدان ... ١٦٥
- النوع الثالث — المعرفة بالنحو؛ وفيه مقصدان ... ١٦٧
- النوع الرابع — المعرفة بالتصريف ... ١٧٧
- النوع الخامس — المعرفة بعلوم المعاني والبيان والبديع؛
وفيه مقصدان ... ١٨٠
- النوع السادس — حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان ... ١٨٩
- النوع السابع — الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية؛
وفيه مقصدان ... ٢٠١
- النوع الثامن — الإكثار من حفظ خطب البلغاء، والتفنن
في أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان ... ٢١٠
- النوع التاسع — مما يحتاج إليه الكاتب الخ؛ وفيه ثلاثة مقاصد ... ٢٢٧
- النوع العاشر — الاستكثار من حفظ الأشعار الراقية الخ؛
وفيه مقصدان ... ٢٧١
- النوع الحادي عشر — الإكثار من حفظ الأمثال؛ وفيه مقصدان ... ٢٩٥
- النوع الثاني عشر — معرفة أنساب الأمم من العرب والعجم ... ٣٠٦
- النوع الثالث عشر — المعرفة بمفاحرات الأمم ووفراتهم الخ؛
وفيه مقصدان ... ٣٧٢
- النوع الثالث عشر (مكرر) المعرفة بأيام الحروب الواقعة؛ وفيه
ثلاثة مقاصد ... ٣٩٠

صفحة

- النوع الرابع عشر - في أوابد العرب ٣٩٨
- النوع الخامس عشر - في معرفة عادات العرب ؛ وهي صنفان ... ٤٠٩
- النوع السادس عشر - النظر في كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال ؛
وفيه مقصدان ٤١١
- النوع السابع عشر - المعرفة بجزائن الكتب وأنواع العلوم الخ ؛
وفيه مقصدان ٤٦٦

كِتَابٌ

صِنْحُ الْأَسَدِ

نَالِفٌ

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثاني

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الاميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣١ هـ
م ١٩١٣

فهرست الجزء الثانى

من كتاب صبح الأعشى

- صيفة
- ٦ النوع الثامن عشر - المعرفة بالأحكام السلطانية
- الطرف الثا - في معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه في أصناف الكتابة
- ٧ الخ، ويشتمل على أنواع
- النوع الأول - مما يحتاج إلى وصفه النوع الإنسانى ، وهو على
- ٨ ضريين
- النوع الثانى - مما يحتاج إلى وصفه هى دواب الركوب، وهى أربعة
- أصناف
- ١٧ النوع الثالث - مما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش الخ ، وهو
- أصناف
- ٣٦ النوع الرابع - فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور ، وهو على أربعة
- أصناف
- ٥٢ النوع الخامس - مما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار ، وفيه اثنا
- عشر صنفا
- ٩٤ النوع السادس - نفيس الطيب ، وفيه أربعة أصناف
- ١١٣ النوع السابع - مما يحتاج إلى وصفه من الآلات، وهى أصناف ...
- ١٢٥ النوع الثامن - مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه
- مقصدان
- ١٤٦ النوع التاسع - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العلويات مما بين السماء
- والأرض ، وهى على أصناف
- ١٦٦

صحيفة

- النوع العاشر - مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،
 ١٧٧ وهي على أصناف
- الطرف الثالث - في صنعة الكلام ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه ،
 ١٨٣ وفيه مقصدان
- الفصل الثالث - في معرفة الأزمنة والأوقات الخ ، وفيه أربعة أطراف
 ٣٢٩
- الطرف الأول - في الأيام ، وفيه ست جمل
 ٣٢٩
- الطرف الثاني - في الشهور ، وهي على قسمين طبيعي واصطلاحى ...
 ٣٥٨
- الطرف الثالث - في السنين ، وفيه ثلاث جمل
 ٣٨٦
- الطرف الرابع - في أعياد الامم ومواسمها ، وفيه خمس جمل
 ٤٠٦
- الباب الثاني -** فيما يحتاج إليه الكاتب من الامور العملية ، وهو الخط
 وتوابعه ولواحقه ، وفيه فصلان
 ٤٣٠
- الفصل الأول - في ذكر آلات الخط ومباده وصوره وأشكاله الخ ،
 وفيه ثلاثة أطراف
 ٤٣٠
- الطرف الأول - في الدواة وآلاتها ، وفيه مقصدان
 ٤٣٠
- الطرف الثاني - في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة
 آلة الخ
 ٤٣٤
- الطرف الثالث - فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة الخ ،
 وفيه ثلاث جمل
 ٤٧٢

(تم فهرست الجزء الثاني من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثاني من الباب الثاني من المقالة الأولى

في الكلام على نفس الخط)

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

النوع الثامن عشر

(المعرفة بالأحكام السلطانية)

ليعرف^(١) كيف يخلص قلمه على حكم الشريعة المطهرة ، وما يشترط في كل ولاية من الشروط ، فينبه عليها ويقف عندها ، وما يلزم ربَّ كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له ، فيورده في وصاياه . وقد أورد أفضى القضاة أبو الحسن عليّ بن حبيب الماوردي رحمه الله في الأحكام السلطانية ما فيه مَقْنَع من ذلك ؛ ونحن نورد في هذا الكتاب ، تَبْدئةً من كل باب ، مما به يستغنى الناظر فيه عن مراجعة غيره . والذي تكلم عليه الماوردي من الوظائف الأصول الإمامة ، والوزارة ، وتقليد الإمارة على البلاد ، وتقليد الإمارة على الجهاد ، والولاية على ضروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية النقابة على ذوى الأنساب ، والولاية على إقامة الصلوات ، والولاية على الحج ، والولاية على الصدقات ، وقَسَم الفئء والغنيمة ، ووضع الجزية والخراج ، ومعرفة ما تختلف أحكامه من البلاد ، وإحياء الموات ، وأستخراج المياه ، والحجى ، والأوقاف ، وأحكام الإقطاع ، وأحكام الديوان ، وأحكام الجرائم ، وأحكام الحسبة . وأنا أقصر من ذلك هنا على ما تفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ، دون ما عداه من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

(١) أى الكاتب . (٢) هو على بن محمد بن حبيب انظر كشف الظنون .

هذه الولايات، وما يوجب توليتها، وما يعتبر في متوليها من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا تولها، وما ينافي أمورها، ويحجب أحوالها، عرف ما أتى من ذلك، وما يذّر، فيكون ما ينشئه من البيعات، والعهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجري مجرى ذلك جارياً منه على السداد، ماشياً على القواعد الشرعية التي من حد عنها ضلّ، ومن سلك خلاف طريقها زلّ. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمهادنات والمفاسحات، وما يجري مجرى ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية، وما يجب على الكاتب فيها، وقآها حقها، وأتى بذكر ما يتعلق بها من الشروط، وجرى في وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها، بجرى الأمر في ذلك على السداد، ومشت كتابته فيها على أتم المراد؛ إن كتب بيعة، أو عهداً الخليفة، تعرّض فيه إلى وجوب القيام بأمر الخلافة، ونصب إمام للناس يقوم بأمرهم، وتعرّض إلى اجتماع شروط الخلافة في الموثى، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرّض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه درج بالوفاة، وأن الموثى استحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرّض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سنن الطريق، والعدول عن منهج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثاني. وإن كان عهداً تعرّض فيه إلى عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب في ذلك الغرض، وجرى فيه على سواء الصراط، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى من سائر الولايات على ما سيأتي ذكره في مواضعه إن شاء الله تعالى.

وهذه فقرة من بيعة أنشأها توضح ما أشرت إليه من ذلك.

فن ذلك ماقلته فيها مشيراً إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى دليل تنقطع دون تقضيه الأَطْمَاعُ؛ وتنبو عن سماع ما يخالفه الأسماع .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى آجتاع شروط الخلافة في الموثى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين ، هو الذى جمع شروطها فوقها ، وأحاط منها بصفات الكمال وأستوفها ؛ ورامت به أدنى مراتبها فبلغت أغياها، وتسور معاليها فرقى إلى أعلاها، وأتخذها فكان صورتها ومعناها .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى عقد البيعة : بجمع أهل الحل والعقد، المعترين للأعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء ، وأهل الخير والصلحاء ؛ وأرباب الرأى والنصحاء ؛ وأستشارهم فى ذلك فصوبوه ، ولم يروا العُدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ما قلته فيها مشيرا إلى القبول ، وقابل عقدها بالقبول محضرا من القضاة والشهود فلزمت ، ومضى حكمها على الصحة فانبرمت ، إلى غير ذلك مما ينخرط فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قلت : وكما يجب عليه معرفة الأحكام الساطانية، يتعين عليه معرفة ما عدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالمهندسة ونحوها، وسيأتى التنبيه فيما يجب على كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالى .

الطرف الثانى

(فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه على اختلاف أنواعها ؛ ويشتمل على أنواع)

النوع الأول

(مما يحتاج إلى وصفه النوعُ الإنساني؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أوصافه الجسمية، وهي على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء؛ وهي عدّة أمور)

منها حُسن اللون؛ والألوانُ في البَشَر؛ ترجع إلى ثلاثة أصول: وهي البياض، والسُّمْرَة، والسَّوَاد؛ ويعبرُ عن السَّوَاد بشدّة الأدمة، وربما عبر عن البياض برِقَّة السُّمْرَة. ويستحسن من هذه الألوان البياض؛ وأحسنُ البياض ما كان مُشْرَبًا بحمرة؛ وقد جاء في حديث ضمام بن ثعلبة أنه حين سأل عن النبي صلى الله عليه وسلم عند وُقُوده عليه بقوله: "أيُّكم ابنُ عبدِ المُطَّلَب؟ قيل هو ذاك الأَمْرُ المُتَكَيُّ"، والأمرُ هو المُشْرَب بحمرة، اخذنا من المُعْرَة: وهي الصَّبغ المعروف. وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم انه "أزهرُ اللَّون". والأزهر هو الأبيضُ بصفرة خفيفة. والسُّمْرَة مستحسنة عند كثير من الناس، وهو الغالب في لون العرب، وقد قيل في قوله صلى الله عليه وسلم، "بُعِثْتُ إلى الأَحْمَرِ والأَسْوَدِ" إن المراد بالأحمر العجم لغلبة البياض فيهم، والمراد بالأسود العربُ لغلبة السُّمْرَة فيهم؛ أما السَّوَاد فإنه غير ممدوح بل قد ذمَّ الله تعالى السَّوَاد، ومدح البياض بقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية. على أن كثيرا من الناس قد جَنَحُوا إلى استحسان السُّودان والميل إليهم، وتأنقوا في الاحتفال بأمرهم؛ وقد نص أصحابنا الشافعية على أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من القمر فانت طالق لم تطلق وإن كانت زنجيةً سوداء، فقد قال تعالى
 ﴿وَصَوِّرْكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ . وبالجملة فالحسن في كل لون مستحسن والله القائل :

إِنَّ الْمَلِيحَ مَلِيحٌ * يُحِبُّ فِي كُلِّ لَوْنٍ

ومنها حُسْنُ القَدِّ؛ وأحسنُ القُدودِ الرَّبْعَةُ: وهو المعتدل القامة، الذى لا طُولَ فيه ولا قَصَرَ، وليس كما يقع فى بعض الأذهان من أن المراد منه دُونَ الاعتدال . وقد جاء فى وصف النبي صلى الله عليه وسلم، "أَنَّهُ كَانَ رَبعَةً" . ويستحسن فى القَدِّ القَوَامُ والرَّشاقَةُ، ويشبهُ بالرحم والغُصنُ، وأكثَرُ ما يشبه به فى ذلك أغصان البان لقوامها .

ومنها سواد الشعر؛ وأكثَرُ ما يكون ذلك فى السُّمُرِ، فإن اجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك فى غاية من الحسن؛ ويشبهُ سواد الشعر بالليل؛ وربما وقعت المبالغة فيه فشبهُ بفتحمة الليل، وبُدجى الليل، وبفتحمة الدجى؛ وقد يشبهُ بالآبنوس ونحوه مما يغلب فيه حلك السواد. وقد اختلف الناس فى جعودة الشعر وسبوطته أيهما احسن؟ فذهب قوم إلى استحسان الجعودة: وهى انقباض الشعر بعض انقباض وهو مما يستحسنه العرب، وإليه ذهب الفقهاء حتى لو شرط البائع فى عبده كونه جعد الشعر وظهور سبوط الشعر رُدَّ بذلك بخلاف العكس. وذهب آخرون إلى استحسان السبوطه، وهى استرسال الشعر وانبساطه من غير انكماش؛ وأكثَرُ ما يوجد ذلك فى الترك ومن فى معناهم . ثم الذاهبون إلى استحسان الجعودة يستحسنون التواء شعر الصُدغ؛ ويشبهُونه بالواو تارة وبالعقرب أخرى .

ومنها وضوح الجبين، وسعة الجبهة، وانحسار الشعر عنها؛ فيستقيح الغم: وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها وسامة الوجه وحسن الحيا . ويشبهُه الوجه فى الحسن بالشمس، والقمر،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس والقمر أتم من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة؛ وقد جاء في بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم: "هل كان وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟ فقال بل كالشمس والقمر".

ويستحسن في الوجه حمرة الوجنتين؛ ويشبه لونهما بالورد، والشقيق، وبالعقيق، وبالعمد، وما يجرى مجرى ذلك مما تغلب فيه الحمرة المشرقة.

ومنها بلج الحاجبين وزججهما، فالبلج انقطاع شعر الحاجبين: بأن لا يكون بينهما شعر يصل ما بينهما، وهو خلاف القرن؛ وربما استحسن الخفى من القرن، وهو الذى دق فيه شعر ما بين الحاجبين حتى لا يظهر فيه إلا خضرة خفية. والزجاج دقة الحاجب مع طوله بحيث يتهى إلى مؤخر العين، وقد جاء في وصف النبي صلى الله عليه وسلم "أنه كان أزج الحاجبين".

ويستحسن في الحاجبين سواد شعرهما، وأن يكونا مقوسين؛ ويشبه تقويسهما بالنون تارة، وبالقوس أخرى.

ومنها حسن العينين؛ ويستحسن في العين الحور: وهو خلوص بياض العين، والتجل وهو سعته ويقال فيه حينئذ أنجل وربما قيل أعين، ومنه قيل للحور عين، والدعج: وهو شدة سواد الحدقة، والكحل: وهو أن تسود مواضع الكحل من العين خلقة.

وتشبه العين بالصاد تارة، وبالجم أخرى. وتشبه بالترجس وربما شبهت بنور الباقلي؛ وأعرض بأن فيه حولا. وربما شبهت العين بالسيف، وبالسم، وبالسنان. وقد يستحسن في العينين الفتور وضعف الأجفان.

ومنها حسن الأنف؛ ويستحسن فيه القنأ: وهو ارتفاع وسط الأنف قليلا عن طرفيه مع دقة فيه، وهو الغالب في العرب؛ وقد جاء في وصفه صلى الله عليه وسلم "أنه كان أفنى الأنف". ويستحسن فيه الشم أيضا: وهو استواء قصبه الأنف وعلو أرنبته. ويشبه الأنف بالسيف في بريقه.

ومنها حسن الفم . ويستحسن فيه الضيق . ويشبهه بالميم ، وبالصاد ، وبالخاتم .
ومنها حسن الشفتين . ويُستحسن فيهما الحمرة . وتشبهه حمرتهما بما نُسبَّه به
الزجاجة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللبي : وهو سمرة
تعلو حمرتهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الشَّنب : وهو بياض وبريق يعلوهما .
وتشبهه الأسنان في البياض وحسن النظم باللؤلؤ ، وبالهدر ، وبالطلع : وهو نبت أبيض ،
ولأفاح ، وبالحبب : وهو الذي يعلو الكأس عند شجته بالماء . وقد تشبهه بالجوهر ،
ويستحسن فيها الأشر : وهو تحديد الأسنان كما يقع في كثير من الصبيان ، ويستحسن
في السنخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه . ويشبهه بالعقيق والورد وسائر ما يشبهه به الخلد
ومنها حسن الحيد : وهو العنق . ويستحسن فيه طوله وبياضه من الأبيض .
ويشبهه بإبريق فضة .

ومنها دقة الخصر ، وهو معقد الإزار حتى إنهم يشبهونه بدور دملج ، ودور
خالخال وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة في الرجال والنساء جميعاً فإنها
في النساء آكد . فإن الأمر في الحسن منوط بهن ، فهما كانت المرأة أحسن كان
أعظم إثنائها ، وأعز لمكانها ؛ وقد قيل لرجل من بني عُذرة : ما بال الرجل منك
يموت في هوى امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يابني عُذرة - فقال "أما والله لو رأيتم
النواظر الدُّعج ، فوقها الحواجب الرُّجج ، تحتمها المباءم الفلجج ، لا تتخذتمودا اللات والعزى !"
وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى
ذكره هنا .

(١) أى مزجه يقال نبح المزج بالماء إذا مزجها به . انظر اللسان

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن اللحية ، وقد قيل في قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ إن المراد اللحية ، على خلاف في ذلك . ويستحسن في اللحية أستاذتها وتوسطها في المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسنت اللحية من الرجل كملت محاسنه . وتزيد الأحداث على الرجال في الحسن بمقدمات ذلك : فيستحسن منهم خضرة الشارب ، وخضرة العارض والعدار ، ويشبه كل منهما بالآس ، وبالريحان ، وبدبيب النمل ونحو ذلك . ويشبه العذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قزح ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ على أن أهل الفراسة قد استحسنوا في الرجل أموراً تحالف ما تقدم .

منها سعة الفم وغلظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين إن ذلك مما يدل على الشجاعة وهو أمر مطلوب في الرجل كما تقدم .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

وما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسمية السمن ، فهو أمر مطلوب في المرأة ما لم يُفِرط ويخرج عن الحد المطلوب ؛ ففي الصحيحين من حديث أم زرع " بنت أبي زرع وما بنت أبي زرع ؟ ملء كسائها ، وغبط جارتها " إشارة إلى امتلائها بالشحم . ووصف أعرابي امرأة فقال " بيضاء رعبوبه ، بالشحم مكروبه ، بالمسك مشبوبة " . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخفة وقلة اللحم لأجل قوة النهضة ، وسرعة الحركة في الحرب وغيره ، والسمن يمنع ذلك ، مع ما يقال إن فيه تليداً للذهن قال بعضهم : " ما رأيت حبراً سمينا إلا محمد بن الحسن " يعني

صاحب أبي حنيفة رضى الله عنه . وربما أستحسن قلة اللحم في المرأة أيضا ،
وتوصف حينئذ بالهَيْف .

ومن ذلك ثِقَل الرِّدْف فهو مما يمدح به في النساء بخلاف الرجل فإن ذلك
فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكى في ذلك أن رجلا أخذ حَطْرًا من قوم على أن يُغَضِب
معاوية بن أبي سُفْيَانَ مع غلبة حَامِهِ ، فعمد إلى معاوية وهو ساجد في الصلاة ،
فوضع يده على عجزته وقال : ما أشبه هذه العجيزة بعجيزة هند ! - - - يعني أم معاوية ، فلما
سلم من صلاته ، التفت إلى ذلك الرجل وقال : ” يا هذا إن أبا سُفْيَانَ كان محتاجا
من هند إلى ذلك وإن كان أحد جعل لك شيئا على ذلك فخذة ” .

ومما يستحسن في المرأة طول الشعر في الرأس ، ودِقَّة العظم ، وصغر القدم ،
ونعومة الجسد ، وقلة شعر البدن ، في أمور أخرى يطول ذكرها .

الضرب الثاني

(الصفات الخارجة عن الجسد ، وهي على ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأول

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلى أصليين : العقل والعِفَّة ، ويدخل تحت كل من هذين الأصلين
عدَّة من أوصاف المدح . فأما العقل فيدخل تحته العلم . وصفاته المعرفة ، والحياء ،
والبيان ، والسياسة ، والكفاية ، والصَّدْع بالْحُجَّة ، والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك
مما يجرى هذا المجرى . ولا يخفى أن هذه الأوصاف مطلوبة في الرجال والنساء
جميعا وإن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العفة فيدخل تحتها القناعة ، وقلة الشره ، وطهارة الإزار، وغير ذلك مما لا يستغنى عنه رجل ولا امرأة؛ وإذا رُكِبَ العقل مع العفة حدث عنهما صفات أخرى مما يتمدح به: كالتزاهة، والرغبة عن المسألة، والاقتصار على أدنى معيشة، ونحو ذلك مما يخرب في هذا السلك .

القسم الثاني

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلى أصليين أيضا : وهما العدل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصليين عدة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخل تحت العدل السماحة ، والتبرع بالنائل ، وإجابة السائل ، وقوى الضيف ، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدة أوصاف كالحماية والدفاع ، والأخذ بانثار ، والنكايه في العدو ، والمهابة ، وقتل الأقران ، والسير في المهامه الموحشة ، وما أشبه ذلك ؛ وإذا رُكِبَ العقل مع الشجاعة حدث عنهما صفات أخرى مما يتمدح به كالصبر على الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النساء)

ويرجع إلى أصليين مذمومين في الرجل : وهما الجبن والبخل ؛ وذلك أن المرأة إذا جبنت كفت عن المساوى خوفا على نفسها أو عرضها ، وإذا بخلت حنفت مال زوجها عن الضياع والإتلاف ؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال المدوحة أربعة أوصاف : آثان يشتركون فيهما مع النساء - وهما العقل والعفة ؛ وآثان ينفردون بهما عن النساء وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء المدوحة أربعة أيضا آثان يشتركن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة ، وآثان ينفردن بهما عن الرجال وهما

الجبن والبخل ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قدامة بن جعفر الكاتب في نقد الشعر : "ومدائح الرجال تنقسم بحسب المدوحين من أصناف الناس في الأرتفاع والاتضاع وضروب الصناعات والتبدي والتحضر، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح المملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلو الرتبة والأفراد عن المثل والقرين : كقول النابغة في النعمان بن المنذر .

ألم تر أن الله أعطاك سورة * ترى كل ملك دونها يتدبذب
بانك شمس والملوك كواكب * إذا طلعت لم يبد منها كوكب

وما يجرى مجرى ذلك ؛ ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والذرية ؛ وحسن التنفيذ والسياسة ؛ فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة في إصابة الحزم ، والاستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكل لللدح كما قيل :

بديهنه مثل تفكيره * متى رمته فهو مستجمع

وكما قيل :

يرى ساكن الأوصال باسط وجهه * يريك الهوينى والأمور تطير

ويمدح القائد يعنى الأمير الذى يقود الجيش بما يجانس البأس والتجدة ، ويدخل فى باب البطش والبسالة ، فإن أضيف إلى ذلك المدح بالجود والسماحة والحدق والبذل والعطية ، كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما فى أكثر الأمور موجودان فى ذوى بُعد الهمة ، والإقدام والصولة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فنى دهره شطران مما ينوبه * فنى بأسه شطر وفى جوده شطر

فَلَا مِنْ بُغَاةِ الْحَيْرِ فِي عَيْنِهِ قَدَى * وَلَا مِنْ زَيْبِ الْحَرْبِ فِي أُذُنِهِ وَقَر
 قال: "وتمدح السُّوقَة والمُتَعِيشُونَ بِأَصْنَافِ الْحَرْفِ وَضُرُوبِ الْمَكَاسِبِ وَالصَّعَالِيكِ
 بِمَا يَضَاهِي الْفَضَائِلَ النَّفْسَانِيَّةَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْعِفَّةِ وَالْعَدْلِ وَالشَّجَاعَةِ، خَالِيًا عَنْ مِثْلِ
 مَدْحِ الْمُلُوكِ وَمَنْ تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ مِنَ الْوُزَرَاءِ وَالْكَتَّابِ وَالْقَوَادِ
 وَيَمْدَحُ ذُوو الشَّجَاعَةِ مِنْهُمْ بِالْإِقْدَامِ وَالْفَتَكِ وَالتَّشْمِيرِ وَالتِّيَقُّظِ وَالصَّبْرِ مَعَ التَّحَدُّقِ
 وَالسَّاحَةِ وَقَلَّةِ الْإِكْتِرَاتِ بِالْخَطُوبِ الْمَلْمُةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ".

قلت : ويؤخذ مما ذكره قدامه أن القضاة والعلماء يُوصَفُونَ بما يليق بمجملهم من
 ذلك فيوصف العالم بِثِقَابَةِ الذَّهْنِ ، وَحِدَّةِ الْفَهْمِ ، وَسَعَةِ الْبَاعِ فِي الْفَضْلِ ، وَمَا يَجْرِي
 بِجَرَى ذَلِكَ ، وَيُوصَفُ الْقُضَاةُ بِذَلِكَ وَبِالْعَدْلِ وَالْعِفَّةِ وَمَبَايِنَةِ الْحُورِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ،
 وَسَتَقِفُ فِي قِسْمِ الْوِلَايَاتِ فِي نَسْخِ الْبَيْعَاتِ وَالْعُهُودِ وَالتَّقَالِيدِ وَالتَّوَاقِعِ وَالتَّفَاوِيضِ
 وَالْمَرَاسِمِ وَنَحْوِهَا مِنْ ذَلِكَ ^(١) بِمَا يَتَضَحُّ لَكَ بِهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكَاتِبَ كَمَا يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَحْمُودَةِ مِنَ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ
 كَذَلِكَ يَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَةِ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مِنْهُ ، فَرَبَّمَا أَحْتَاجُ إِلَى الْكِتَابَةِ بِذِمِّ شَيْءٍ
 مِنْ ذَلِكَ فَيَكُونُ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ بِالصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ مَا يَنْفِقُ مَعَهُ : كَمَا حَكَى أَنَّ بَعْضَ
 الْعَمَالِ بَعَثَ إِلَى الرَّشِيدِ بَعِيدَ أَسْوَدَ فَقَلَّبَ كِتَابَهُ وَقَوَّعَ عَلَيْهِ "أَمَا بَعْدُ فَإِنَّكَ لَوْ وَجَدْتَ
 عَدَدًا أَقَلَّ مِنَ الْوَاحِدِ ، أَوْ لَوْنَا شَرًّا مِنَ السَّوَادِ ، بَعَثْتَ بِهِ إِلَيْنَا وَالسَّلَامَ" .

وَلَا يَخْفَى أَنَّ كُلَّ مَا خَالَفَ صِفَةَ مِنَ الصِّفَاتِ الْمُسْتَحْسِنَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ فَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ
 مَعَ مَا هُوَ مَعْلُومٌ مِنَ الصِّفَاتِ الْمَذْمُومَةِ الْجَسْمِيَّةِ : كَالْحَدَبِ وَالْحَوْلِ وَنَحْوِهَا ، وَمِنْ
 الصِّفَاتِ الْمَعْنَوِيَّةِ : كَسُوءِ الْخُلُقِ وَبَدَاةِ اللِّسَانِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَفِي هَذَا مَقْنَعٌ فِي الْإِرْشَادِ
 إِلَى الْمَرَادِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْقَصْدِ .

(١) أى على ما يتضح . (٢) لعله منه .

النوع الثانى

(مما يحتاج إلى وصفه هى دوابّ الركوب، وهى أربعة أصناف)

الصنف الأول

(الخيـل)

ويحتاج إلى المعرفة بوصفها فى مواضع ؛ من أهمها وصفها عند بعث شئ منها فى الإنعام والهدايا ، والجواب عن ذلك . ووصفها فى ترتيب الجيوش والمواكب وذكرها فى مجالات الحرب، وما يجرى مجرى ذلك . ويشتمل الغرض منه على معرفة أصنافها، وألوانها، وشيئاتها؛ وما يُستحسن ويستقبح من صفاتها؛ ومعرفة الدوائر التى تكون فيها؛ والبصر بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فثلاثة

الأول - العرّاب : وهى أفضلها وأعلىها قيمةً، وأغلاها ثمنًا ، تطلب للسبق واللقاق؛ والملوك تتغالى فى أثمانها وتُعدها لمهم الحرب . وتُوجد ببلاد العرب ومحلاتهم فى أقطار الأرض : كالحجاز، ونجد، واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر ، وبرقة ، وبلاد المغرب وغيرها .

الثانى - العجميّات : وهى البراذين ويقال لها الهماليجُ، وتُعرف الآن بالأكاديش وتُجلب من بلاد الترك، ومن بلاد الروم . وغالب ما تُوجد مشقوقة المناخر، وتطلب للصبر على السير وسرعة المشى .

الثالث - المولّد بين العرب والبراذين : فإن كان الأب عجمياً والأم عربية قيل له هجين، وإن كان بالعكس قيل له مُقرِف؛ وهى تكون فى الجرى والمشي متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانها فقد ذكر ابن أبي أصيبع أن أصول الألوان فيها ترجع إلى أربعة ألوان، وما سواها مفرع عنها .

الأول - البياض : وقيل أن يخلص من لون يجالطه ؛ فإن صفا بياضه قيل فيه أشهب قرطاسي ؛ فإن كان أذناه وقوائمها وعُرفه وذيله سودا ، قيل مُطَرَفٌ ، فإن خالط البياض شعرًا أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهب كافوري ، وإن كان السواد فيه أغلب قيل أشهب حديدي ، وأشهب أشمط ، وأشهب محلس^(١) ، فإن كان فيه نُكْتٌ سود قيل أشهب مفلس ، فإن اتسعت قليلا قيل أشهب مدنر ، فإن كان في شهبته طرائق ، قيل أشهب مجزع ، فإن كان فيه بقع من أي لون كان دون البياض قيل مبقع ، فإن صغرت تلك البقع قيل أبقع ، فإن تفرقت واختلقت مقاديرها قيل أشيم ، فإن تعادل ذلك اللون مع البياض مع صغر النقط من اللونين قيل أمش ، فإن تناهت في الصغر ، قيل أبرش ، فإن كان البياض نُكْتًا صغيرة في ذلك اللون قيل موف ، فإن كان شيء من ذلك كله في عضو واحد قيد به ، مثل قولك موف القطة ، وأمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثاني - السواد : فإذا كان الفرس شديد السواد قيل فيه أدهم ، فإن آشتد سواده قيل أدهم غيبي ، فإن علا السواد خضرة قيل أحوى والجمع حو ، فإن خالط سواده سُقره قيل أدبس ، فإن أنضم إليه أدنى حمرة أو صفرة قيل أحم ، فإن ضرب سواده إلى يسير بياض قيل أورق ، ونحوه الأكهب ، وفي دونه من السواد يقال أربد .

الثالث - الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة ، وعُرفه وذيله أسودان ، قيل فيه أورد والجمع وِرَاد والأثني ورده ؛ فإن خالط حمرة سواد فهو كميته ، الذكر والأثني فيه سواء ؛ فإن صفت حمرة شيئًا قليلا قيل كميته مدمي ، فإن كان صافيا قليل

(١) في الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان في مادة خ ل س .

الحمرة وعُرفه وذيله أشقران قيل أشقر . فإن كان أحمر وذيله وعرفه كذلك قيل أمغر ؛ فإن خالط شقرة الأشقر أو الكيت شقرة بيضاء قيل صنابي أخذاً من الصناب وهو الخردل بالزبيب ، فإن كانت حمرة كصدا الحديد ، قيل أصداً ، فإن زاد فيه السواد شيئاً يسيراً قيل أجاى والأسم الجؤوة .

الرابع - الصفرة : فإن كانت صفرتها خالصةً تُشبه لون الذهب وعُرفه وذيله أصهبان مائلان إلى البياض قيل أصفر خالص ، فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطزف وهو الذى يسمونه فى زماننا الحبشى ، فإن كان أصفر ممتزجاً ببياض قيل أشهب سوسنى ، فإن كان فى أكارعه خطوط سود قيل موشى .

وأما شباتها وهى البياض المخالف للونها ، فمنها الغزة : وهى البياض الذى يكون فى وجه الفرس اذا كان قدره فوق الدرهم ، فإن كان دون الدرهم قيل فى الفرس أفرح^(١) والعامية تقول فيه أغر شعرات ؛ فإن جاوز البياض قدر الدرهم قيل فيه أعرم ، ثم أول رتبة الغزة يقال له النجم ، فإن سالت الغزة ورقت ولم تجاوز جبهته ، قيل فيه أغز عصفورى ، فإن تبادت حتى جالت خيشومه ولم تبلغ بحفلة ، قيل أغر شمراخى ، فإن ملأت جبهته ولم تبلغ العينين قيل أشدخ ، فإن أصابت جميع وجهه إلا أنه ينظر فى سواد ، قيل مبرقع ؛ فإن فشت حتى جاوزت عينيه وأبيضت منها أشفاره ، قيل مغرب ؛ فإن أصابت منه خدًا دون خد قيل لطيم^(٢) أيمن أو أيسر ؛ فإن كان بشفته العليا بياض قيل أرثم ؛ وإن كان بالسفلى بياض قيل ألمط ، فإن نالهما جميعاً قيل أرثم ألمط .

(١) وقع فى الأصل أعرم بإعمام العين وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل أنمط بالنون والطاء وهو تصحيف .

ومنها التحجيل في الرجلين وما في معنى ذلك ؛ إن كان البياض في مؤخر الرُسع لم يستدر عليه قيل في الفرس مُنعل ؛ وإن كان في الأربعة قيل مُنعل الأربعة ؛ أو في بعضها أضيف إليه فقيل مُنعل اليدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليمنى أو اليسرى ؛ فإن استدار على الرُسع وهو المَفْصَل الذي يكتنفه الوظيف والحافر وكان في إحدى الرجلين ، قيل أرجل ، وإن كان في الرجلين جميعا قيل مُخَدَّم وأخدُم ؛ فإن جاوز رُسع الرجل واتصل بالوظيف : وهو ما بين الكعب وبين أسفله ولم يجاوز ثلثيه ، قيل مُحَجَّل ، أخذاً من الحَجَل : وهو الخأخال ؛ فإن كان في رجل واحدة ، قيل مُحَجَّل الرجل اليمنى أو الرجل اليسرى ؛ فإن كان في الرجلين جميعا قيل مُحَجَّل الرجلين ؛ فإن كان معه في إحدى اليدين بياض يجاوز الرُسع إلى دون ثلثي الوظيف قيل مُحَجَّل الثلاث مطلق اليد اليمنى أو اليسرى ؛ فإن كان البياض في اليد الأخرى كذلك ، قيل مُحَجَّل الأربعة ؛ فإن كان البياض في اليدين فقط قيل أعصم ، سواء جاوز الرُسع أم لا ؛ ولا يُطلق التحجيل على اليدين أو إحداهما إلا بانضمام إلى تحجيل الرجلين أو إحداهما ؛ فإن كان في اليد الواحدة قيل أعصم اليد اليمنى أو اليسرى ؛ وإن كان فيهما قيل أعصم اليدين ، وإن كان التحجيل في يد ورجل من جانب واحد قيل مُمَسَّك ؛ وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُمَسَّك الأيمن مطلق الأيسر ؛ وإن كان بالعكس قيل مُمَسَّك الأيسر مطلق الأيمن ؛ وإن كان التحجيل في يد ورجل من خلاف فهو الشَّكَّال . وقيل الشَّكَّال بياض القاءتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائم ، فإن تعدى البياض حتى جاوز عرقوبي الرجلين أو ركبتَي اليدين ، قيل فيه مُجَبَّب ؛ فإن علا البياض حقوى رجله ومرّ فوق يديه قيل أبلق^(١) ، فإن زاد على ذلك حتى بلغ الأنفاذ والأعضاء ، قيل أبلق مسرول ؛ فإن آختص البياض بيديه

(١) كذا في الأصل بالقاف ولعله مصحف عن النون لأن الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه أما الحنو

فهو الاعوجاج والغرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأنفاذ الخ .

وطال حتى بلغ مرقميه قيل أقفز ومقفز ؛ فإن كان البياض في الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعرقوب ولا بالركبة قيل موقف .

ومنها الشيات التي تتخلل سائر جسدتها ؛ فإن كان الفرس مبيض الأذنين أو في أذنيه نقش بياض دون سائر لونه قيل فيه أدرا ، وإن كان مبيض الرأس قيل أصقع ، فإن أبيض فناه قيل أقنف ؛ فإن شابت ناصيته قيل أسعف ، فإن أبيضت جميعها قيل أصبغ الناصية ؛ فإن غشى البياض جميع رأسه قيل أغشى ، وربما قيل فيه أرخم ؛ فإن أبيض رأسه وعنقه جميعا قيل أدرع ؛ فإن أبيض ظهره قيل أرحل ، فإن كان ذلك البياض من أثر الدبر قيل مصرد ، فإن أبيض بطنه قيل أنبط ، فإن أبيض جنباه قيل أخصف ، فإن كان البياض بأحد جنبيه قيل أخصف الجنب الأيمن أو الأيسر ؛ فإن أبيض كفه قيل آزر ؛ فإن أبيض عرض ذنبه من أعلاه قيل أشعل ؛ فإن أبيض بعض هلبه دون بعض قيل محصل ؛ فإن أبيض جميع هلبه قيل أصبغ هلب الذنب ؛ فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بهيم ومضمت من أي لون كان .

وأما ما يستحسن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل : يستحب في الفرس دقة الأذنين وطولهما وانتصابهما ، ودقة أطرافهما ، وقرب ما بينهما ، وكل ذلك من علامات العتق . وفي الناصية اعتدال شعرها في الطول ، بحيث لا تكون خفيفة الشعر ولا مقرطة في كثيره . ويقال في هذه الناصية الجثلة . ويستحب مع ذلك لين الشكير (وهو ما طاف بجنب الناصية من الزغب) . ويستحب عظم الرأس وطوله وسعة الجبهة ، وأسالة الحد ، وملاسته ، ودقته ، وقلة لحم الوجه ، وعري الناهضين (وهما عظامان في الحد) وسعة العين ، وصفاء الحدقة ؛ وذلك كله من علامات العتق . ويستحب في العين السمو والحدّة ورقّة الجفون وبعد نظره . قال ابن قتيبة : وهم يصفونها بالقبل والشوس والخوص ، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقة ، وإنما

تفعله لعزة أنفسها . ويستحب في المنخر السعة : لأنه إذا ضاق شقَّ عليه النفس . قال وربما شقَّ منخره لذلك وبعد ما بين المنخرين . ويستحب في الفم الهرت (وهو طول شقِّ شدقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نفسه ، ورقة المحفّلتين وهما الشفتان لأنه دليل العتق ، وطول اللسان ليكثر ريقه فلا ينهر ، ورقته لأنه أسرع لتضمه العلف ، وصفاء الصهيل لأنه دليل صحة رثته وسهولة نفسه . ويستحب في العنق الطول فقد كان سلمان بن ربعة يفرق بين العتاق والهجن فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيل إليها واحدا واحدا فماتني سُنْبُكِهِ منها ثم شرب هَجْنَهُ ، وما شرب ولم يثن سُنْبُكِهِ جعله عتيقا لأن في أعناق الهجن قصرا فلا تتال الماء حتى تثنى سُنْبُكَيْهَا ؛ وقد روى أنه هَجَّنَ فرس عمرو بن معدى كرب فأستعدى عليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال سلمان أدع بإناء فيه ماء ثم أتى بفرس عتيق لاشك في عتقه فأشعر في الإناء فصصف بين سُنْبُكَيْهِ ومدَّ عتقه فشرب . ثم قال اتنوني بهجين لاشك فيه فأشعر فبرك فشرب ، ثم أتى بفرس عمرو بن معدى كرب فأشعر فصصف بين سُنْبُكَيْهِ ومدَّ عتقه ثم ثنى أحد سُنْبُكَيْهِ قليلا فشرب فقال عمر أنت سلمان الخيل . ويستحب فيها مع ذلك الكبرلأنه أقرب لأنقياده وعطفه ، وغلظ مُرْكَبِ عُنُقِهِ ودقَّةُ مَدْبَجِهِ . ويستحب فيه ارتفاع الكتفين والحارِك والكاهل ، وقصر الظهر وعرض الصهوة (وهي مقعد الفارس من الظهر) وارتفاع القَطَاة (وهي مقعد الرِّدْف من الظهر أيضا) وقلة لحم المتين وهما ماتحت دفتي السرج من الظهر . ويستحب في الكفل الاستواء والأستدارة والمالسة والتدوير . ويستحب طول السَّيْب : وهو الشعر المسترسل في ذيله ، وقصر العَسِيْب : وهو عَظْمُ الذنب وجلده ؛ ولذلك قال بعض الأعراب " اختره طويل الذنب قصير الذنب " يعني طويل الشعر قصير العَسِيْب . قال ابن قتيبة

ويستحب أن يرفع ذنبه عند العدو، ويقال إن ذلك من شدة الصُّلب . ويستحب
عَرَض الصدر : وهو ما عَرَضَ حَيْثُ مَلْتَقَى أَعْلَى لَبِيهِ ، ويسمى اللَّبَانُ وَالكَكَلِكُلُ ؛
وكذلك آرتفاعة عن الأرض مع دِقَّة الزَّوْرِ ، وهو ما استدق من صدره بين يديه ،
بحيث يقرب ما بين المِرْقَيْنِ لِأَنَّهُ أَشَدُّ لَهُ وَأَقْوَى لِحَرِيهِ . ويستحب فيه عِرْضُ
الكتف وغلظه وقصر النَّسَا : وهو عِرْقُ فِي السَّاقِ مَسْتَبِطُنُ الْفِيْخِذِ ، وَشَنَجُهُ ، وَقِصْرُ
وِظِيفِ الْيَدِ : وَهُوَ قَصَبٌ بِيَدَيْهِ ، وَقِصْرُ الرَّسْغِ ، وَدِقَّةُ إِبْرَةِ الْعِرْقُوبِ وَتَحْدِيدُهُ : لِأَنَّهُ
أَشَدُّ لِقَصَبِ السَّاقِ ، وَطُولُ وَظِيفِ الرَّجْلِ لِيُخَذِفَ الْأَرْضَ بِهَا فَيَكُونُ أَشَدَّ لِعَدُوهِ ،
وِغِلْظُ عَظْمِ الْقَوَائِمِ ، وَغِلْظُ الْحَبَالِ : وَهِيَ عَصَبُ الذَّرَاعَيْنِ ، وَطُفُّ الرَّكْبَةِ ، وَقُرْبُ
مَا بَيْنَ الرَّكْبَتَيْنِ ، وَشِدَّةُ كَعْبِهِ : لِأَنَّ ضَعْفَ الْكَعْبِ دَاعِيَةُ الْجُرْدِ ، وَأَنْحَاءُ الرَّجْلَيْنِ
وَتَوَثُّرُهُمَا ، وَبَعْدُ مَا بَيْنَ الرَّجْلَيْنِ : وَهُوَ الْفَحْجُ : لِأَنَّهُ أَشَدُّ لِمُكْنِ رِجْلَيْهِ مِنَ الْأَرْضِ .
ويستحب صفاء الحافر ، وصلابته ، وسعته ، وكونه أزرق أو أخضر غير مشوب ببياض :
لِأَنَّ الْبِيَاضَ دَلِيلُ الضَّعْفِ فِيهِ ، وَأَنْ يَكُونَ مَعَ ذَلِكَ فِيهِ تَعَبٌ ؛ وَطُفُّ سُورِهِ :
وهي شئ في باطن حافره كالنوى : لِأَنَّهُ إِذَا ضَاقَ مَوْضِعُهَا كَانَ أَصْلَبَ لِحَافِرِهِ ؛ وَأَنْ
تَكُونَ أَطْرَافُ سَنَابِكِهِ وَهِيَ مَقَادِمُ حَوَافِرِهِ رَقِيْقَةً . ويستحب فيه مع ذلك كله
اتساع إهابه وهو جلده ، ورقة أديمه ، وصفاء لونه ، ولين شعره ، وكثرة عرفه ، وكثرة
نومه ، وسعة خطوه ، وخفة عنانه ، ولين ظهره ، وحسن استقلاله في أول سيره ،
وخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى ، وشدة وقعها إذا عدا ، مع حدة نفسه وسرعة
عدوه ، واتساع طرقتيه ، وقد يغتفر القَطَافُ فِي الْمَشْيِ فِي دَوَابِّ الْجَرَى . ثم إنه قد
يحتمل فوات آلة الحسن والفرأهة في المشى ولا يُغْتَفَرُ النِّقْصُ فِي آلَةِ الْجُوْدَةِ وَشِدَّةُ
الْعَدُوِّ وَالصَّبْرُ : لِأَنَّ بِيَهُمَا يَدْرِكُ مَا يَطْلُبُ ، وَيَجُودُ مَا يَهْرَبُ .

(١) في اللسان الجرد وزم في مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتى يمنعه المشي والسعي .

وأما ما يُستقبح ويُذم من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب، بعضها خلقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية البدن : وهو بُعد ما بين اليدين، والصّم وهو أن لا يسمع : وعلامته أن يراه يَصُرُّ أذنيه أبدا إلى خلف، وإذا جُرَّ خلفه خشبةً ونحوها لا يشعر ولم ينفر عنها، والحذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحو العينين أو الخدين كما كان الكلاب السلوقية ، والطول وهو أن تطول إحدى أذنيه وتقصر الأخرى، وكونه أسكّ : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السفا : وهو قلة شعر الناصية، والغم : وهو أن يكثر شعر الناصية ويطول حتى يغطّي العين : وهو عيب خفيف والسفا^(١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القرح : وهو أن يكون البياض الذي في الوجه دون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ، فإن كان في وسط البياض في الوجه سواد كان عيبا يتشام به .

ومنها العشا : وهو أن لا يبصر ليلا فيصير بمثابة نصف فرس لأنه لا ينتفع به في الليل دون النهار، وكونه قائم العين : وهو الذي يكون على ناظره سواد يضرب للخصرة والكدرة يقل معها بصره، والحول : وهو أن يكون بإحدى عينيه بياض خارج سواد الحدقة من فوق، ويكون خلاف العين الأخرى وهو مع ذلك مما يتبرك به بعض الناس ويقول : إذا كان ذلك في العينين كان أعظم لبركته، والخيف : وهو أن تكون إحدى عينيه زرقاء : وهو مما يتشام به لاسيما إذا كانت الزرقة في العين اليسرى، فإن أزرقّت العينان جميعا كان أقلّ لشؤمه، وغُور العينين : وهو دخولهما في وجهه، والغرب : وهو بياض أشفار العينين، يكون عنه ضعف بصره في القمر والحز الشديد، والكمنة : وهو أن يبصر قدامه، ولا يبصر عن يمينه ولا شماله .

(١) أى ان السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) في الخط إسقاط لا وفي المطبوع اثباتها وهو الظاهر .

ومنها القناب : وهو أحديداب في الأنف ، ويكون في الهُجْن ، والحنَس : وهو أن يرى فوق منخره منخسفا : لأنه يضيق نفسه إذا ركض .

ومنها القطس : وهو أن تكون أسنانه العليا داخله عن أسنانه السفلى ، والطَّطْبَة وهو أن تسترخي بحفاته السفلى فإذا سار حركها وطبها كالبعير الأهدل ، وأن يكون في حنكه شامة سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها قصر اللسان لأنه إذا قصر لسانه قل ريقه فيسرع إليه العطش ، والخرس وعلامته أن تراه يصمأ ولا يُجِجِم ، وهو عيب لطيف .

ومنها القصر : وهو غلظ في العنق ، واللَّف : وهو استدارة فيه مع قصر ، والدَّرن وهو طمأينة في أصل العنق ، والهنع : وهو طمأينة في وسط العنق ، والقود : وهو يُبس في العنق بحيث لا يقدر الفرس أن يدير عنقه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشى ، وهو عيب شديد ، والجسأ : وهو يُبس المعطف .

ومنها الكتف : وهو انفراج يكون في أعلى كتفي الفرس مما يلي الكاهل ؛ والقعس : وهو أن يطمئن الصُّلب من الظهر وترتفع القطة ، والبزخ : وهو أن يطمئن الصُّلب والقطة جميعا ، وهو عيب رديء يضر بالعمل ؛ وكون الكفل فيه تحديد ويكون العجز صغيرا ، والفرق : وهو نقصان إحدى حرفتي الوركيين ، فإن نقصتا جميعا فهو ممسوح الكفل ولا عيب فيه .

ومنها الدتن : وهو تظامن الصدر ودنوه من الأرض ، وهو من أسوأ العيوب ، والزور : وهو دخول إحدى فهدتي الصدر ونحروج الأخرى .

ومنها الهضم : وهو استقامة الضلوع ودخول أعاليها ؛ والإخطاف : وهو لحوق ما خلف الخزم من بطنه ، والتجل : وهو خروج الخاصرة ورقة الصفاق .

ومنها العَصَل : وهو التواء عَسِيب الذَّنْبِ حتى يبرُز بعضُ باطنه الذي لا شعرَ عليه ، والكَشْف : وهر أكثر من ذلك ، والصَّبغ : وهو بياض الذَّنْبِ ، والشَّعل : وهو أن يبضَّ عَرْضُ الذنب وهو وسطه .

ومنها الفَحَج وهو إفراط بُعد ما بين الكعبين ، والحَلَل : وهو رَخَاوة الكعبين ، ويلمَحُّقُ به تقويسُ اليدين ، وهو عيبٌ فاحشٌ ، والطَّرَق : وهو أن ترى ركبتيه مفسوختين كالملة وتستين إلى داخل ، وهو عيب فاحش ، والقَسَط وهو أن ترى رجلاه متصبتين غير محببتين ، والبَدَد : وهو بُعد ما بين اليدين ، والفَحَج وهو إفراط بُعد ما بين العرقوين ، والقَفَد : وهو أنتصاب الرُشغ وإقباله على الحافر ولا يكون إلا في الرُّجُل ، والصدَف : وهو تداني الفخذين وتباعُد الحافريين في التواء من الرُشغين بحيث ترى رُشغي يديه مفتوحين ، والتَّوَجِيه : وهو نحو منه إلا أنه أقل من ذلك ، والقَدَع وهو التواء الرُشغ من عَرْضه البوحشي من الجانبين من رأس الشَّظي ، ووطؤُه على وحشي حافريه جميعا وهو الجانب الخارج ، والارتماش : وهو أن يصكَّ بهرَض حافره عَرْض عَجائيته من اليد الأخرى وذلك لضعف يده ، والحَنَف : وهو أن يكون حافرا يديه مكبوبين إلى داخل ، والنَقَد : وهو أن يرى الحافر كالمتمشعر ، والشَّرَج : وهو أن يكون ذو الحافر له بيضة واحدة ، والأرْح : وهو أن يمس الأرض بباطن حافره .
ومنها البَدَد في اليدين : وهو أن يكون إذا مشى يدير حافره إلى خارج عند النُّقل وليس فيه ضرر في العمل ، والتلَّقَف وهو أن يخط بيديه مستوي لا يرفعهما إلى بطنه وهو خلاف البَدَد .

ومنها التَّلويح : وهو أن يكون الفرس إذا ضربته حركَ ذنبه ، وهو عيب فاحش في الجُورة لأنه ربما بالَت الحجر ورشَّت به صاحبا .

(١) لعله أو من الجانبين . (٢) في اللسان . في أستانه .

الضرب الثاني

(العيوب الحادثة وهي عِدَّة عيوب)

منها الحَلَب ؛ ويكون في الظهر بمثابة حَدْبَةِ الإنسان، وهو عيبٌ فاحشٌ، والغُدَّة وتكون في الظهر أيضا بإزاء السرة .

ومنها العنق : وهو آنتفاخ وورم بقدر الرمانة أو أقل مما يلي الخاصرة ؛ وهو عيب فاحش لا علاج فيه .

ومنها الحَمْر - وهو عيب يحدث عن ثَجَمَةِ الشعير، وربما كان من شرب الماء على التعب فيحدث عنه ثَقَل الصدر .

ومنها الأنتشار : وهو آنتفاخ العَصَب بواسطة التَّعَب ؛ ويكون من فوق الرُّسْغ إلى آخر الركبة ، وهو عيب فاحش .

ومنها تَحْرُك الشَّظَاة : وهو عظم لاصق بالذراع ؛ وهو على الفرس أشق من الأنتشار .

ومنها الرُّوْح : وهو داء يكون منه غَلَطٌ في القوائم كمثل داء الفيل في البشر .

ومنها المَشَش : وهو داء يكون في بدء أمره ماءً أصفرًا ، ثم يصير دمًا ، ثم يصير عظمًا . ويكون على الوظيف وفي مَفْصَل الركبة ؛ وهو على العَصَب والركبة شر منه على الوظيف .

ومنها القَمَع ، ويكون في الرجلين في طرف العُرْقوبين ؛ وهو غَلَطٌ يعتريهما . والمَلَح ، ويكون في الرجلين تحت القَمَع من خَلْف : وهو آنتفاخٌ مُسْتَطِيلٌ لا يضر بالعمل ؛ والجَرْد : وهو كالعظم النائي يكون في الرجلين تحت العُرْقوبين على المَفْصَل من داخل ومن خارج ؛ وهو عيب فاحش تُؤَل منه الدابة إلى العَطَب ؛ والنَّفَخ :

وهو أنتفاخ يكون في مواضع الجَرْد . وهو من دواعي الجَرْد؛ والعُقَال : وهو أن تَقْلِصَ رجله ، وذلك يكون في عَصَب الرجل الواحدة دون الأخرى ، وربما كان في الرجلين جميعاً ؛ وهو عيب فاحش يضرُّ بالعمل ؛ وهو في البرد أشدُّ منه في الحر . ومنها الشُّقَاق : وهو داء يصيبه في أرساغه ، وربما أرتفع إلى وظيفه ؛ والسَّرَطَان : وهو داء يأخذ في الرُّسْغ فيبَسُّ عروقه حتى ينقلب حافره .

ومنها العَرْنُ : وهو جُسُوءٌ في رُسْغ رجله . والدَّخْس : وهو ورم يكون في حافره . والقَفْد : وهو تَسْنِجُ عصب رُسْغه حتى ينقلب حافره إلى داخل فيمشى على ظاهر الحافر .

ومنها النَّمْلَةُ : وهي شَقٌّ في الحافر من ظاهره ؛ والرَّهْسَةُ : وهي ما يكون في الحافر من صَدْمَةٍ ونحوها ، والعامَّة تقولها بالصاد . والقَشْرُ وهو أن تتقشر حوافره ، وهو عيب فاحش ؛ والنَّسُور : وهو الذي تسميه العامَّة الوُقْرَةَ : وهو داء يحدث في نُسُور الدابة فإذا قُطِع سَالَ الدَّمُ منه .

ومنها الأُدْرَةُ : وهي عِظَمُ الخُصِيَّتَيْنِ ، وربما عَظُمَت خُصِيَّتاهُ في الصَّيْفِ (١) وأحمرت في الشتاء . والمُدْلِي : وهو الذي يدلُّ ذَكَرَهُ ثم لا يرده ؛ وهو عيبٌ قبيحٌ بحيث يقبح ركوب الفرس الذي به هذا العيب .

ومنها البرَص : وهو بياض يعتري الفرس في مرقاته : كالجفلة وجفون العينين وبين الفخذين والخُصِيَّتَيْنِ .

ومنها الخلد : وهو داءٌ شديد يتقب موضع من بدن الدابة يسيل منه ماءٌ أصفرٌ ، فإذا كُربى بالنار برأ وانفتح موضع آخر ، فلا يزال كذلك حتى تعطب الدابة ؛ وهو

عيب فاحش ؛ في عيوب أخرى يطول ذكرها . وفي كتب البيطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله علاج منه وبيان مالا علاج له .

وأما الدوائر التي تكون في الخيل فقد عدّها العرب ثمانى عشرة دائرة ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأولى دائرة أحمياً وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللطاة : وهى دائرة تكون في وسط الجهة . الثالثة دائرة النطّيح : وهى دائرة ثانية في الجهة بأن يكون في الجهة دائرتان . الرابعة دائرة اللّهزيمة : وهى دائرة تكون في لّهزيمة الفرس . الخامسة دائرة المقود^(١) : وهى التي تكون في موضع الفلادة . السادسة دائرة السّامة : وهى دائرة تكون في وسط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البيقتين : وهما دائرتان في نحر الفرس فيما قاله الأصمعي . وقال أبو عبيد البنيقة الشعر المختلف في منتهى الخاصرة والشاكلة . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة في باطن الحلق إلى أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللبد . الحادية عشرة دائرة الهقعة : وهى دائرة تكون في عرض الزور . الثانية عشرة دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون في الزور بأن تكون فيه دائرتان في الشقين في كل شقّ منهما دائرة وتسمى النافذة دائرة الحزام أيضا . الثالثة عشرة والرابعة عشرة دائرتا الحرب : وهما اللتان يكونان تحت الصقرين وهما رأسا المجبتين اللتين هما العظان النائتان المشرفان على الخاصرتين كأنهما صقران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصقرين : وهما دائرتان بين المجبتين والقصريين . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناحس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاعرتين . قال ابن قتيبة وهم يكرهون منها أربع دوائر وهى دائرة الهقعة مع ذكره أن أبقى الخيل المهقوع . ودائرة القالع . ودائرة الناحس . ودائرة النطّيح . قال وما سوى ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

(١) في المخصص . العموم .

(١)
 وذكر صاحب زهر الآداب في اللغة أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المقود،
 ودائرة السَّامة، ودائرة الهقعة احتجاجاً بأن أبق الخيل المهقوع، ويكرهون دائرة
 النطيج، ودائرة اللّهزمة، ودائرة القالع .

ورأيت في بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر دائرة المقود ودائرة
 السَّامة ، ودائرة الهقعة وما عدا ذلك فهو مكروه ، وكره حكاء الهند دوائر أخرى
 ذكروها وهي أن يكون في مقدم يده دائرة ، أو في أصل ذنبه من الجانبين دائرتان
 أو على ناصيته دائرة، أو على مخجرجه دائرة، أو في بحفلة السفلى دائرة، أو على سرتة
 دائرة، أو على منسجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل فأقول ما توضع الحجره جنيهاً قيل مهر، والأثني مهرة . فإذا
 فصل عن أمه قيل فلو . فإذا استكمل حولاً قيل حولي والأثني حولية . فإذا دخل
 في الثانية قيل جدع والأثني جدعة . فإذا دخل في الثالثة قيل ثني والأثني ثنية .
 فإذا دخل في الرابعة قيل رباع والأثني رباعية . فإذا دخل في الخامسة قيل قارح
 للذكر والأثني . وفي الغالب يلقي أسنانه في السنة الثالثة ، وربما تأخر إلقاؤها إلى
 السنة الرابعة : وذلك إذا كان أبواه شابين ، وقد يلقي أسنانه في حول واحد :
 وذلك إذا كان أبواه هيرمين ، ثم لكل مهر اثنتا عشرة سنناً : ست من فوق وست
 من أسفل ، ويليهما من كل جانب ناب ، ويليهما الأضراس . وتبت ثنياه بعد وضعه
 بخمسة أيام . وتبت رباعياته بعد ذلك إلى مدة شهرين . وتبت قوارحه بعد
 ذلك إلى ثمانية أشهر . ويخصص التبديل منها بالأسنان الاثنتي عشرة دون الأنياب
 والأضراس . وربما ألقى المهر بعض أسنانه ، ثم لاتبنت . وإذا قرح المهر أصفرت
 أسنانه ، وأسودت رؤوسها وطالت فيبقى كذلك خمس سنين ، فإذا جاوزت ذلك

أبيضت وحنى رؤوسها ، ثم تتقل فتصير كلون العسل خمس سنين ، ثم تبيض
فتصير كلون الغبار ويزداد طولها . وربما دأس النخاسون فنشروا أسنانها وسووها .
ومما وجد في الكتب القديمة أن الفرس تتحرك ثنانياً في سبع وعشرين سنة ،
وتتحرك الرباعيات في ثمان وعشرين سنة ، وتتحرك القوارح في تسع وعشرين سنة ،
ثم تسقط الثنانيا في ثلاثين سنة ، والرباعيات في إحدى ثلاثين سنة ، والقوارح
في اثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما الفرس في الخيل فاعلم أن المهر وإن ظهرت فيه علامات النجابة أو العكس
لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيصيح منه ما كان حسناً ، ويحسن منه ما كان قبيحاً ،
وإنما يتفرس فيه إذا ركب له العلف ، وذهب عنه لحم الرضاع . وأفضل الفراسة
في المهر أخذه في الجرى ، فإنه صنعته التي خلق عليها وإليها يؤول ، فإذا أحسن
الأخذ في الجرى فهو جواد ، ولكنه ربما تغير أخذه للجرى إذا ركب لضعف
فيه حينئذ ، وقصور عن بلوغ مدى قوته ، وقد لا يجرى جدعاً ويجرى ثنياً ،
وقد لا يجرى ثنياً ويجرى رباعياً ، وقد لا يجرى رباعياً ويجرى قارحاً حين تجتمع
له قوته . ويعرف ضعف الضعيف منها بتأثيره تحت فارسه وعجزه عنه وفترته
إذا نزل عنه .

ومما يدل على جودة الفرس وحسن جريه أنه يراه إذا أخذ في الجرى سمّاً
بهديه ، وأثبت رأسه ، ولم يستعن بهما في حضره وأجمعت قوائمه ، وسبح بيديه
وضرح برجليه ، ولها في حضره ، وامتد ، وبسط ضبعيه حتى لا يجد مزيداً ،
وتكون يدها في قرن ، ورجلاه في قرن ، فإذا كان الفرس كذلك فهو الجواد السابق .
وقد قيل : إن خير الخيل الذي إذا مشى تكفأ ، وإذا عدا بسط يديه ، وإذا أدبر جفأ ،
وإذا أقبل ألقى .

الصف الثاني

(البغال)

وفيها نوعية من الخيل والحَمير: من حيث إنها تتولد بين حصان وأتان، أو بين حمار وحِجْرَة ^(١). وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء: من العلماء، والوزراء، والحكام وسائر رؤساء المتعممين. وإنه صلى الله عليه وسلم، في يوم أحد كان راكبا بغلة، ولولا شرفها ونفاستها وقيامها مقام الخيل لما ركبها النبي صلى الله عليه وسلم في موطن الحرب؛ وألوانها وأسنانها على ما تقدم في الخيل، ويستحسن فيها غالب ما يستحسن في الخيل؛ وقد قيل إن خيار ما يقتنى من البغال ما أشتدت قوائمه، وعظمت قصرته، وعذته وهامتته، وصفت عيناه، ورحب جوفه، وعرض كفله، وسلم من جميع العيوب والعلل،

ومما يستحسن في البغال دون الخيل السفا: وهو خفة شعر الناصية. وأن يكون يديها ورجليها خطوط مختلفة: جل ما تكون للسور: ويقال إن خير ما يختار للسرّج والركوب البغال المصرية: لأن أمهاتها عتاق وهجن، وخيار ما يحتاج إليه للسرّايا والمواكب والرّكض مع الخيل بغال الجزيرة وإفريقية.

ومما ينبغي التنبيه عليه أن في البغلات منها شدة محبة للدواب إذا ربطت معها وفساد للدواب إذا اعتادتها حتى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة. ويحسن في البغال الخصى، وفي البغلات التّحويص، ولا يعاب ركوب شيء منها حينئذ إذا كان نفيسا.

(١) قد تكرر في هذا المقام تأنيث الحجر بالهاء، وفي القاموس مانعه والحجر الأنيث من الخيل وبالهاء.

لحن قال شارحه وهو عامى مسترذل ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فنبه.

الصنف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الغرض منها على معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ؛ وما يُستقبح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلى نوعين . الأول البَحَاتِي : وهي جمال جُفَاة القُدود ، طويلة الوَبَر ، تجلب من بلاد الترك . الثاني العَرَاب وهي الإبل العربية وأصنافها لا يأخذها الحَصْر . وأما ألوانها فترجع إلى ثلاثة أصول .

الأول البياض ، فالجمل إذا كان خالص البياض قيل آدم والأثني أدماء على الضد من بني آدم ، فإن خالط البياض يسير شُقْرة قيل أعيس والأثني عيساء .

الثاني الحمرة فإن أحمر وغلبت عليه الشُقْرة قيل أصهب والأثني صهباء ، فإن خلصت حمرة قيل أحمر والأثني حمراء ؛ فإن خالط حمرة قُبوء قيل كميث ، فإن صفت حمرة قيل أحمر مدمي ، فإن خالط الحمرة خُضرة قيل أحوي ، فإن خالطها صُفرة قيل أحمر رادني بكسر الدال . فإن خالطها سواد قيل أرمك والأثني رمكاء . فإن كانت حمرة كصدا الحديد قيل أجأي .

الثالث السواد ، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أكلف ، فإن خالط السواد صفرة قيل أحوي ، فإن علق بسواده بياض قيل أورق . فإن زادت ورقته حتى أظلم بياضه قيل أدهم ، فإن أشتد سواده قيل جُون ، فإن كان بين الغبرة والحمرة قيل حوَّار والأثني حوَّارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يُعرف أذكر أم أنثى سليل . فإن بان أنه ذكر قيل سَقْب ، وإن بان أنه أنثى قيل حائل . ثم هو حوَّار حتى

يُقَطَّم ، فإذا فُطِمَ وفُصِّلَ عن أمه قيل فصيل . وذلك في آخر السنة الأولى من وضعه ، فإذا دخل في الثانية قيل ابن مَحَاضٍ : لأن أمه فيها تكون من المخاض (وهي الحوامل) والأثني بنت محاض ، فإذا دخل في الثالثة قيل ابن لبون : لأن أمه فيها تكون ذات لبن والأثني بنت لبون ، وإذا دخل في الرابعة قيل حَقٌّ : لأنه يستحق أن يحمل عليه والأثني حَقَّةٌ ، فإذا دخل في الخامسة قيل جَدَعٌ والأثني جَدَعَةٌ ، فإذا دخل في السادسة قيل ثَنِيٌّ لأنه يُلْقَى فيها ثنيتَه والأثني ثَنِيَّةٌ . فإذا دخل في السابعة قيل رَبَاعٌ (بفتح الراء) لأن فيها يلقي رَبَاعِيَّتَه والأثني رَبَاعِيَّةٌ بالتخفيف ، فإذا دخل في الثامنة قيل سَدِيسٌ وسَدَسٌ الذكور والأثني فيه سواء ، وربما قيل في الأثني سَدِيسَةٌ . فإذا دخل في التاسعة قيل بَازِلٌ لأنه فيها يَبْزُلُ نابُه ، والذكر والأثني فيه سواء ؛ وقد يقال فيه فَاطِرٌ ، فإذا دخل في العاشرة قيل مُحْلِفٌ ، وليس وراء ذلك للإبل ضَبْطٌ بل يقال مُحْلِفٌ عامٌ ومُحْلِفٌ عامين فأكثر ، فإذا علا السن بعد ذلك قيل فيه عَوْدٌ والأثني عَوْدَةٌ ، فإن علا عن ذلك قيل حَقْرٌ ، فإن تكسرت أنيابه لطول هَرَمِه قيل ثَلْبٌ والأثني ثَلْبَةٌ ، ويقال في الناقة إذا كان فيها بعض الشباب عَزُومٌ ، وربما قيل شَارِفٌ .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت في بعض المصنِّفات أن كلَّ ما يستحب في الفرس يستحب في البعير خلا عَرَضِ غَارِبِه ، وفنل مِرْفَقِه ، ونكس جاعِرَتِه وهي أعلى الورك ، وأندلاق بطنه ، وتفترش رجليه ، فإن ذلك يستحب في الإبل دون الخيل .

وقد صرح الشعراء في أشعارهم بعدة أوصاف مستحسنة في الناقة ، منها دقة الأذن ، وتحديد أطرافها ، وكبر الرأس ، وأستطالة الوجه ، وعظم الوجنتين ، وقنؤ الأنف ، وطول العنق وغلظه ، ودقة المدبج ، وطول الظهر ، وعظم السنام . وهي الكوماء ، وطول ذنبها ، وكثرة شعره ، غليظة الأطراف ، قليلة لحم القوائم ، ليست

رَهْلَةٌ ، ولا مسترخيةٌ ؛ وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْسَاءَ الجلد ، تَامَةً الخلق ، قَوِيَّةً ، صُلْبَةً ، خَفِيفَةً ، سَرِيعَةَ السَّيْرِ .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هِجَانٌ من نِتَاجِ مَهْرَةٍ : وهى قبيلة من قُضَاعَةَ باليمن ، والعيديَّةُ منسوبة إلى بنى العَيد من قبيلة مَهْرَةَ المذكورة ، والأرْحَبِيَّةُ منسوبة إلى بنى أَرْحَب ، والغُرَيْرِيَّةُ منسوبة إلى غُرَيْرٍ ، وهو فحل كريم مشهور فى العرب . والشَّدَقِيَّةُ منسوبة إلى شَدَقَم : فحل كريم أيضا ، والجَدَيْلِيَّةُ منسوبة إلى جَدِيل : فحل كريم ، والدَّاعِرِيَّةُ منسوبة إلى داعر : فحل كريم كذلك . قال فى كفاية المتحفظ ، والشَّدَنِيَّةُ منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النَّفِيسُ الغالى الثمن وخيرها حُمُرُ الديار المصرية ، وأحسنها ما أتى به من صعيدها . وهى تنتهى فى الأثْمَانِ إلى ما يقارب أثمانِ أوساطِ الخيل ، وربما يميَّزُ العالى القدر منها على المنحط القدر من الخيل ، والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تام الخلق ، حديد النفس . ولا عيب فى ركوب الحمار ولا وهَيْصَةٌ ^(١) فقد ثبت فى الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم ، ”رَكِبَ الحِمَارَ“ ولا عبرة برَفْعٍ من رَفَعٍ عن ركوبه بعد أن ركبه النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) مراده ولا قص ولكن لم تقف فى مادة ره ص ولا وه ص على هذا المعنى .

النوع الثالث

(ما يحتاج إلى وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده؛ وهو أصناف)

الصنف الأول

(جليل الوحش)

وهو ما يتخذهُ الملوكُ للزينة وما في معناها؛ ويحتاج الكاتب إليه لوصفه في الهدايا والمواكب، وما يجري مجراها .

والمعول عليه من ذلك خمسة أضرب .

الأول الأسد - ويجمع على أسد وأسود وأسود وآساد، ويقال له أيضا اللَّيْث والضيغم، والضرعام، والهزبر، والهيصم، والهرماس، والفرافصة، وحيدرة، والقسورة. وله أسماء كثيرة سوى هذه، لا تكاد تدخل تحت الحصر، حتى قال ابن خالويه للأسد خمسمائة اسم. ويقال لولده السَّبل ولأنثاه اللَّبوة. قال ابن السندي في كتابه "المصايد والمطارد": وإذا تأملت أصناف الحيوان وبجنت صورها وما أُعطيت من الأسلحة ومقادير الخلق، وجدت الأسد أعظم خلقة، وأكثر أبدية، وأشد إقداما من جميعها، ليست له غريزة في الهرب البتة .

ومن خصائصه وعجيب خلقه أن عظم عنقه عظم واحد ليست له حرز عظام كما في غيره من الحيوان بدليل أنه لا يلوي عنقه، ولا يلتفت، ومع ذلك فهو يتلع الشيء العظيم، ولبونه لا تلد إلا جروا واحدا، وإنها تضعه كاللحمة ليس فيه حس ولا حركة فحرسه ثلاثة أيام، ثم يأتي أبوه فينفخ فيه المرة بعد المرة حتى يتحرك، ثم تأتي أمه فترضعه، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام؛ ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر، وهو قليل الشرب للساء وإن كان لا يفارق الغياض، وله صبر على

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقه، وليس يُلقي رَجِيعه إلا مرة واحدة في اليوم، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلى خَلْف كما تبول الحِمَال، وهو أشدّ السَّبَاع ضراوة على أكل بنى آدم، وإذا أفتس فريسةً وأكل منها، لا يعود إليها، ولا يطأ أثره شئ من السباع. قال ابن السندی في "المصايد والمطارد" ولا يأكل من فريسة غيره من السباع. وقد قيل إنه يهرب من الهَرَّ، ومن الحِرْو، ومن الدِّيك الأبيض، وإنه إذا رأى النار عرضت له فكرة أورثته بهتة، وأنه يهرب من عَوَاء الحِرْو إذا عُرِكت أذنه، ويقال إن جلده إذا جعل فيما يخاف عليه السُّوس من الثياب وغيرها أمّن من ذلك، وإنه إذا عمل منه وترقوس وأضيف إلى أوتار من قِراء ومِعى أو غيرهما أبطل أصواتها وعلا صوته عليها، ومن طبعه أنه لا يشرب ماء ولَغ فيه كلب وإن مات عطشا.

الثانى النَّمور - جمع نَمِر (بفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا على أَمَار ونِمَار، والأشئ نَمرة؛ وهو حيوان مُرَقَّع اللون بسواد وبياض، أقرب شئ من خِلقة الفَهْد، وهو أَخْبَث من الأسد، لا يملك نفسه عند الغضب حتى إنه ربما قتل نفسه من شدة غضبه. قال: ابن السندی: وهو ودود لجميع الحيوان، عدُو للنَّسر، وينام ثلاثة أيام، والحيوان يُطيف به ويميل إليه، أستحسانا لجلدته.

وهو جنسان أحدهما عظيم الخِنة، صغير الذنب، والثانى صغير الخِنة عظيم الذنب. قال في "المصايد والمطارد" ويصاد بالحجر لأنه يجها. قال: ومن أراد قتله تمسح بشحم ضَبُع ودخل عليه فقتله.

الثالث الكَرَكْدَنُ - (بفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة ونون مشددة فى الآخر) قال الزمخشري فى "ربيع الأبرار": وهو وحش يكون ببلاد الهند يسمى الحمار الهندى، له قرن واحد فى جبهته يبلغ غلظه شهرين؛ وهو

(١) ضبطه فى القاموس بشد الدال أى وتخفيف النون وقال العامة تشدد النون

محدد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة : وأنه ربّما نطح الفيل فبعجه بقرّنه ، وأن أنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئا من الحيوان حتى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبّة له وهو با منه .

الرابع الفيل - وهو حيوان يُؤتى به من بلاد الهند والحيشة . قال الجاحظ :

وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكن الماء ، وهو من ذوات الخراطيم ، وخرطومه أنه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ، وبه يتناول الطعام والشراب ، ومنه يُعنى ويحتر فيه الصوت كما يحتره الزامر فى القصبة بالنفخ . قال :

وأصحابنا يزعمون أن بينه وبين السنور عداوة وأن الفيل يهرب منه هربا شديدا .

وذكر صاحب "الحيل فى الحروب" أنه يقصر عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينفر فى الحروب . وقد ذكر الجوزى أن للفيل إقداما على السبع . قال الجاحظ : وهو يعادى البعوض لأنه يثقب جلده بقرصه ، ومن ثم يرى الفيل دائما يحرك آذانه ليطرد عنه الناموس ، وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه على الأرض إذا مشى حتى لو أن إنسانا كان جالسا وجاء الفيل من خلفه لما شعر به . وذكّر عبد القاهر البغدادي

أن الفيلة تحمل سبع سنين ، وقيل سنتين ، وقيل ثلاث قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرفه داخل حلقه وأصله من خارج على العكس من سائر الحيوان ، وأن ثديها على كبدها وترضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الغزالي أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضراب آرتفع وبرز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزرافة - (بفتح الزاى وضمها) وهى حيوان يؤتى به من بلاد الحيشة واليمن ، طويل اليدين ، قصير الرجلين ، ذنبه وحوافره كذنب البقر وحوافرها ،

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) فى حياة الحيوان عبد اللطيف وسيأتى بعد صحائف على الصواب مرارا .

(٣) كذا فى الاصل وعبارة الحياة ولا ينز عليها اذا وضعت الا بعد ثلاث سنين .

ورقبته ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه موشى بالبياض والصفرة. قال الجاحظ: وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من نوق الحبشة وبين بقر الوحش وبين الذئب - وهو ذكر الضباع. وذلك أن الذئب يعرض للناقة فيسهدّها فتلقح بولد يجيء خلقه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عرّض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى الولد زرافة، وإن كان ذكرا تعرّض للمهاة فألقحها فيأتى الولد زرافة أيضا. قال: ومنهم من يزعم أن الزرافة الأنثى لا تلّتح من الزرافة الذكر. ثم قال وهذا مشهور باليمن والحبشة. ثم إن كانت أسنانها سودا دلت على هرمها، وإن كانت بيضا دلت على حداثة سنّها.

ومن أمراضها الكلب (وهو كالجنون يعترها كما يعترى الكلب فيقتها) وكل من عضته وهى على هذه الحالة قتلته إلا ابن آدم فإنه ربما عولج فسلم. ومن أمراضها أيضا الذئبة والتقرس.

الصنف الثانى

(معلّات الصيد)

وقد يعبر عنها بالضوّارى. وهى كل ما يقبل التعليم من الوحوش كائنا ما كان حتى حكى عن السودان القنّاص أنه بلغ من حدقه أنه ضرى ذبّا حتى أصطاد به الطباء وما دونها، وألفه حتى رجح إليه من ثلاثين فرسخا، وضرى أسدا حتى أصطاد به حمر الوحش. ويقال إن ابن عرس يجعل حبل فى عنقه ويدخل على الثعلب فلا يخرج إلا به. وهى على ضربين.

الأول الفهودة .. جمع فهد بكسر الهاء. وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من أسد وتمرّة أو من نمر ولبوة، وهو من السباع التى تصاد ثم تؤنّس حتى تصيد،

(١) فى المصباح الجمع فهود كفسل وفلوس وكذا بقية معاجم اللغة فعلى ما فى الاصل من التعريف والتصحيح وهو الأقرب.

وهو من الحيوان المحمّد الأستان ، وأسنانه يدخل بعضها في بعض كالكلب وغيره قال : في "التعريف" وأول من صاد به كسرى أنوشروان أحد ملوك الطبقة الأخيرة من الفرس قال : في "المصايد والمطارد" ويصطادونه بضروب من الصيد .
منها الصوت الحسن فإنه يصنعى إليه إصغاء شديدا .

ومنها كده وإتاعبه حتى يحمى ويعيا وينهر ويخفى ، فإذا أخذ غطّيت عيناه وأدخل في وعاء ، وجعل في بيت مادام وحشياً ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدعه يرى الدنيا ، ويجعل له مرّكبا كظهر الدابة يعوده ركوبه ويطعمه على يده فلا يزال كذلك حتى يتأنّس ، فإذا ركب مؤنّخ الدابة فقد صار داجنا وصاد .
وفي طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتى يضرب بنومه المثل فيقال "أنوم من فهّد" . وكثرة الحياء حتى إنه لا يعلم أنه عاطل أتى بين يدي الإنس ، وقد عنى بمراعاته في ذلك فلم يوقّف عليه . وإن كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ابن السندی عن بعض الفهّادة أن سائسه إذا أمرّ يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده على فرجه نفر وعضّ يده .
ومنها الغضب حتى إنه إذا أرسل على صيد فلم يحصله احتد ، وإن لم يأخذ سائسه في تسليته قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب "المصايد والمطارد" والمسّن من الفهود إذا صيد كان أسرع في الصيد من الحر والذى يربّي ويؤدّب ، والأثني أصيد من الذكر كعامّة إناث الجوارح . قال : وليس شيء من الوحش في قدر جرم الفهد إلا والفهد أفضل منه . قال : في "المصايد والمطارد" وضدّ الفهد الطباء والوعول على اختلاف أجناسها .

الثاني الكلاب - جمع كلب ويجمع على أكلب أيضا وعلى كليب كعبد وعبيد والأثني كلبّة ، وتجمع على كليات بالفتح ، وهو حيوان شديد الرياضة ، كثير الوفاء

مَشْتَرِكِ الطَّبَاعِ بَيْنِ السَّبْعِ وَالبَهِيمَةِ: لِأَنَّهُ لَوْ تَمَّ لَهُ طِبَاعُ السَّبْعِيَّةِ لَمَا أَلْفَ النَّاسَ وَلَوْ تَمَّ لَهُ طِبَاعُ البَهِيمِيَّةِ لَمَا أَكَلَ اللَّحْمَ . وَيُقَالُ إِنَّهُ يَحْتَمِلُ وَأُنْثَاهُ تَحِيضٌ ، وَتَحْمِلُ أُنْثَاهُ سَتِينَ يَوْمًا ، وَرَبْمَا حَمَلَتْ أَقَلَّ مِنْ ذَلِكَ ، وَيَسْفِدُ بَعْدَ سَنَةٍ ، وَرَبْمَا تَقَدَّمُ عَلَى ذَلِكَ . وَهِيَ عِنْدَ السَّفَادِ أَشْتَبَاكٌ عَظِيمٌ ، وَإِذَا سَفَدَ الأَثَى كَلْبَانٌ مُخْتَلِفَانِ أُمَّتٌ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ بِلَوْنِهِ . وَفِيهِ مِنْ اقْتِفَاءِ الآثَارِ وَشَمِّ الرَّائِحَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِ مِنَ الحَيَوَانِ ، وَالمَيْتَةُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ اللَّحْمِ الغَرِيضِ .

وَمَنْ طَبَعَهُ أَنَّهُ يَحْرُسُ صَاحِبَهُ شَاهِدًا أَوْ غَائِبًا ، ذَا كِرَا أَوْ غَافِلًا ، وَنَائِمًا أَوْ يَقْظَانَ ، وَهُوَ أَيَقْظُ حَيَوَانٌ فِي اللَّيْلِ ، وَإِذَا نَامَ كَسَرَ أَحْجَافَ عَيْنَيْهِ وَلَا يُطَبِّقُهَا لِحِقَّةِ نَوْدِهِ . وَمَنْ عَجِيبُ شَأْنُهُ أَنَّهُ يَكْرُمُ الرَّئِيسَ مِنَ النَّاسِ فَلَا يَنْبِجُهُ وَإِنَّمَا يَنْبِجُ أَوْ بَاشَ النَّاسَ . وَمَنْ طَبَعَهُ أَنْ الضَّبْعَ إِذَا مَشَتْ عَلَى ظِلِّهِ فِي القَمَرِ رَمَى بِنَفْسِهِ بَيْنَ يَدَيْهَا فَتَأْكَلُهُ ، وَإِذَا ظَفَرَ بِكَلْبٍ غَرِيبٍ كَادَ يَفْتَرِسُهُ .

وَقَدْ أَجَازَ الشَّارِعَ اتِّخَاذَهَا لِلصَّيْدِ وَنَحْوِهِ ، وَأَبَاحَ صَيْدَهَا مَعَ نَجَاسَةِ عَيْنِهَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَأَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَهَا لِلصَّيْدِ دَارًا أَحَدُ مُلُوكِ الفُرْسِ قَالَ فِي "المَصَائِدِ وَالمَطَارِدِ" : وَإِذَا كَسَرَ الكَلْبُ الأَرَانِبَ فَهُوَ نَهَايَةُ وَإِنْ كَانَ يُطَبِّقُ فَوْقَ ذَلِكَ . وَالكَلْبُ يَمْسِكُ لِصَاحِبِهِ ، وَلِذَلِكَ لَا يَأْكُلُ مِنَ الصَّيْدِ بِخِلَافِ سَائِرِ الحَيَوَانِ . قَالَ : وَإِنَاثُهَا أَسْرَعُ تَعَلُّمًا مِنَ الذَّكَورِ ، وَأَطْوَلُ أَعْمَارًا حَتَّىٰ إِنَّمَا تَعِيشُ عَشْرِينَ سَنَةً .

وَمِنْ خَاصِيَةِ الكَلْبِ أَنَّهُ إِذَا عَآيَنَ الطَّبَّاءُ قَرِيبَةً كَانَتْ أَوْ بَعِيدَةً ، عَرَفَ مِنْهَا العَلِيلَ مِنْ غَيْرِهِ ، وَالعَظْمَ مِنَ التَّيْسِ فَيَتَّبِعُ التَّيْسَ مِنْهَا دُونَ العَظْمِ وَإِنْ كَانَ التَّيْسُ أَشَدَّ عَدُوًّا وَأَبْعَدَ وَثْبَةً: لِأَنَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ التَّيْسَ إِذَا عَدَا شَوَّطًا أَوْ شَوَّطِينَ غَلَبَ عَلَيْهِ البَوْلُ وَلَا يَسْتَطِيعُ إِرسَالَهُ فِي عَدْوِهِ فَيَقْلُ عِنْدَ ذَلِكَ عَدُوَّهُ وَيَقْصُرُ مَدَى خُطَاهُ فَيَدْرِكُهُ الكَلْبُ بِخِلَافِ العَظْمِ فَإِنَّمَا إِذَا اعْتَرَاهَا البَوْلُ أَرَسَلَتْهُ لِسَعَةِ مَسِيلِهِ ، وَالكَلْبُ يَعْرِفُ ذَلِكَ كُلَّهُ طَبْعًا ،

وكذلك يعرف حجرة الأرناب والثعالب وإن ركبها الثلج والجليد بسمه فيقف عليه ويشير مافيها من الوحش ، وإذا صعد منه أرنب إلى أعلى جبل شاهق ، كان له من الناطف في الارتقاء والصعود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميت من المتأوت .

ومن خصائص الأئني أنها تحمل ستين يوماً ويبقى جروها بعد الولادة اثني عشر يوماً أعمى . وأكثر ما تضع ثمانية أجزاء ، وربما وضعت واحداً فقط ، ورأس الكلب كله عظمٌ واحد ، والكلب يطرح مقادير أسنانه ويخلفها ولا يكتنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يبقى منها شيئاً حتى ينبت في مكانه غيره ، والفرق بين الذكر والأئني أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأئني تبول مقعياً وربما رفعت رجلها ، والذكر يهيج للسفاد في السنة قبل الأئني ، وأسنان الذكر أكثر ومضغه أشد . قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلى لون الأسد بين الصفرة والحمرة ثم البيض إذا كانت عيونها سوداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" أن الأبيض أفره والأسود أصبر على الحر والبرد . ومن علامة النجابة والفراة فيه أن يكون تحت حنكه طاقة شعر مفردة غليظة ، وأن يكون شعر خديه جافياً . ومن علامة الفراة طول ما بين يديه ورجليه وقصر ظهره وصغر رأسه وطول عنقه وغصاف أذنيه وبعدهما بينهما ، ورزفة عينيه ، وضخامة مقلتيه ، وتوحدته ، وطول خطمه ودقنه ، وسعة شدقه ، وتوقجهته وعرضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين ، طويل الصدر ، غليظه ، قريبه من الأرض ، ناتي الزور ، غليظ العضدين مستقيم اليدين ، منضم الأظافر ، عريض ما بين مفاصل الأعطاف ، عريض ما بين عظمي أصل الفخذين مع طولها وشدتها لحمها ، دقيق الوسط ، مستقيم الرجلين ، قصير الساقين ، غير محني الركبتين ، قصير الذنب إن كان ذكراً مع دقة وصلابة ، وإن الكلبة

إذا ولدت واحدا كان أفره من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفره من الأنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى في شبه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان في الثلاثة ذكر واحد كان أفرهما وإذا ألقيت الجراء وهي صغار في مكان ندى فأياها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكلب (بفتح اللام) وهو داء كالجنون يعترى الكلب يؤثر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جراء صغار .

ومن عجيب ما يحكى في ذلك أن رجلا عضه كلب فلقاه بكمه فأصابته أسنانه ولعابه فشمركمه ساعة ثم نشره فتساقط منه جراء صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سلوقية (بفتح السين) وزغارية (بضم الزاي) . فأما السلوقية فنسوبة إلى سلوق بلدة من اليمن كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماه في تقويم البلدان والمقر الشهابي ابن فضل الله في "التعريف" قال في "التعريف" : وهي مولدة بين الثعالب والكلاب ، ولذلك لا تقبل التعليم إلا في البطن الثالث منها ، قال : ولها سلاح جيد ، قال في "المصايد والمطارد" : ولها أنساب كأنساب الخيل ، قال : وقل أن يعرض لها مرض الكلب . وأما الزغارية فهي ألطف قدا من السلوقية ولم أدر إلى ماذا تنسب .

الصنف الثالث

(ما يعنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضربا)

الأول الحمارة العتابية - وهي حيوان في صورة البرذون موشى الجلد بالبياض والسواد يروق الناظر حسنها ، وقد كان أهدي للظاهر بقوق سني الله عهده حمارة من هذا النوع فأقامت مدة ، ثم أعطاها فقيرا من فقراء العجم فكان يركبها كما تركب

الخليل والحمير ويمشي بها في القاهرة ، ثم عوضه الناصر بن الظاهر سلطان العصر عنها عوضاً ، وأعادها منه ، وأرسلها في هدية لأبن عثمان صاحب بلاد الروم غربى الخليج القسطنطيني .

الثاني البقر الوحشية - وتعرف بالمها ، وهي دون البقر الأهلية في المقدار ، ولها قرنان في رأسها ، في كل قرن منهما شُعب ، وهي من جليل الصيد ، ويقال للفتى منها المها ، وبها يضرب المثل في حُسن العيون وسوادها . ومن طبعه الشبق وشدة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أثناء هربت منه خوفاً من تعبته بها وهي حامل ، وربما ركب الذكر الذكر لشدة شبقه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وكل إناث الحيوان أرق صوتاً من الذكور إلا البقر الوحشية فإن الأئني أغم صوتاً وأظهر من الذكر . ومواقعها من البرية الوهّادات ، وما استوى من الأرض ودنا من الماء والعُشب ، وليست مما يسكن الجبل ، ولذلك عيب في ذلك محمد بن عبد الملك الزيات كاتب المعتصم ووزيره حيث وصف ثورا من ثيرانها برعيه في الجبل . وهي مما يُصَاد بالطرد على الخيل ، ويقال إن أول من طردها على الخيل ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان فإنه أول من ركب الخيل على قول ؛ ولما ركبها رأى بقرة وحشية فطردها فلجأت إلى مكان يمكنه أخذها منه فرق لها وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلق بها ، وأقدر معين له عليها من جوارح الطير العقاب . قال ابن السندي : ودمها أسرع إلى الجُود من دم سائر الحيوان .

الثالث الحمر الوحشية - ويقال للأئني من حمر الوحش أتانٌ وللدكر حمار وعير كما يقال في الحمر الإنسية ، وربما قيل الفراء ، وهو من أشدّ الصيد عدواً ولذلك يُضرب به المثل فيقال "كلّ الصيّد في جنب الفراء" أو "في جوف الفراء" . وبه تشبه العرب خيلها وإبلها في السرعة ، ويقال إن الحمار الوحشي لا ينزو إلا إذا

كان له من العمر ثلاثون شهرا وإن الأثى لا تُلَقَّح منه حتى يتم له ثلاث سنين ،
وقيل سنتان وستة أشهر . ويوصف بشدة الغيرة على أُنثى حتى يقال إن فيها ما إذا
وُلِد له ولد ذَكَرَ كَدَمَ قِصْبِيهِ وَخُصْبِيهِ حتى يقطعهما . قال في " المصايد والمطارد "
وليس يتعلَّق به شىء من الصَّواري ولا الجوارح إلا العُقَاب ، ولا شىء أبلغ في صيده
من الرمي بالشَّاب .

الرابع الغِزْلان - ويقال لها الظِّباء بكسر الظاء واحدها ظبي ، ثم الظِّباء على ثلاثة
أضرب : أحدها البيض ، ويقال لها الآرام جمع رَم ، ومساكنها الرمل ، ويقال هي
ضأن الظِّباء . وثانيها الأدم ، وهي ظبَاءٌ سُمِرَ الظُّهور ، بيضُ البُطون ، طويلةُ
الأعناق والقوائم ، وهي أسرعها عدوا . ومساكنها الجبال والشعاب . وثالثها العُفر
وهو صنف يعلوه مع البياض حُمْرة ، قصار الأعناق ، ومساكنها صلاب الأرض .
ويصيد جميعها الفَهْدُ والكلبُ والعُقَاب . وتُصَاد أيضا بالجَلالة والشَّرَك ، وربما
صِيدَت بايقاد النار بإزائها : لأن الظبي إذا رأى النار في الليل تأملها وأدمن النظر إليها
وعَشِيَ بصره وذَهَل ، وقد يُضاف إلى النار تحريكُ جرس ونحوه فيزداد دُهو له فيؤخذ .
وتصاد بأمور أخرى غير ذلك .

الخامس الأيَّيل - جمع أَيْل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام
في الآخر) . وهو حيوان قريب الشَّبه من الظباء ، له قرنان في رأسه كالظبي . قال
في " المصايد والمطارد " وهو معتصم بالجبل قَلَمًا يَحُلُّ السهل ، وقرونه مُصَمَّمة
لا تجويف فيها ، ويخلفها في كل عام غيرها ، ويتبدى في ذلك بعد مضي سنتين من
ولادته ، وله أربع أسنان في كل ناحية من ناحيتي فيه ؛ وذَكَرُه عَصَبٌ لا لحم فيه
ولا عُضْرُوفٌ ولا عَظْمٌ ؛ ودم كل حيوان يجمد إلا دمه ؛ وليس للأثى منها قرونٌ
البتة ؛ وأصوات ذكورها أحمَد من أصوات إناثها ؛ وهو يرتاح لسماع الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذَّل لها، ويأكل الحيات ولا يضره سمها، وسيأتي في الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيواني من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا بخر بقرنه مع كبريت أحمر هربت الحيات .

السادس الأرناب - جمع أَرْنَب والأرنب مؤنثة^(١) وهي حيوان صغيرة الجثة قصيرة الالدين قريب من لون الثعلب، وليس شيء مما يُوصف بقصر الالدين أسرع منها . ومن خصائصها كثرة الشعر حتى إنه لينبت في بطون شديقها وتحت رجلها . وقضيب ذكر الأرنب من عظم ، وربما ركب الأثنى الذكر في السفاد، ولا ينام الأرنب الا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تظأ الأرض بباطن كفها لتعفى أثرها إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تأوى إلى ساحل البحر، وإذا طردت لجأت إلى الجبال واشتد عدوها فيها، والأثنى لا تسمن، وهي عند العرب مما يحيض، وتُسفد وهي حيل، وتلد الأول والثاني على ما في بطنها .

السابع الذئب - جمع ذئب وهو حيوان في صورة الكلب في لونه بلق بكودة والذئبة أجز من الذئب وأشد عدوا، وأسنانه عظم مخلوق في فكيه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان . قال ابن السدي : وأخبرني أبو بكر الدقيشي أن هذه الحلقة في أسنان الضبع أيضا ، والذئب صاحب خلوة وأنفراد . ومتى رأى الإنسان قبل أن يراه أخفى صوته ؛ وإن رآه جزع منه أجترأ عليه وساوره، وإذا تسافد هو وأنشأ التحما التحاما شديدا حتى يقال إنه إذا هم عليهما داخل في هذه الحالة قتلها كيف شاء ولذلك يبعدان في هذه الحال إلى مكان لا يُريان فيه، وإذا تهارش ذئبان فادعى أحدهما الآخر عدا الذي ادعى على المدعى فقتله خوفا من أخذ الثار ،

(١) في المصباح ويقع على الذكر والانثى وقد يؤنث بالهاء فتدبر .

وإذا عجز الذئب عن الدفع عوى فاجتمع إليه الذئاب نُصْرَةً له ، وإذا لقي الفارس والأرض مثلوجة تَحْمَش الثلج بيديه ورمى به في وجه الفارس ليُدْهِشَه ثم يعقر دابته فيتمكّن منه ، ومتى وطى الفرس أثر الذئب رعد وخرج الدخان من جسده كله ولذلك قلّ مَنْ يطرد من الفُرسان ولا يتفطن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدّم أن السودانيّ ضرّى ذئبا حتى أصطاد له الظباء .

الثامن الثعالب - جمع ثعلب . وهو حيوان معروف ، موصوفٌ بكثرة الروغان في عدوه وبالحيل حتى إنه يتماوت عند رؤية الغراب فينزل عليه الغراب على ظنّ موته ليأكل منه فيقبضه هو . ومن خُبته وحيلته يختاط بكبار الوحوش وجأتها ، قال في "المصايد والمطارد" . ومن فضائله تشبيههم مشية الخيل بمشيته التي يقال لها الثعلبية . ومن عجائبه أن قضيبه في خلقة الأنبوبة أو وسطه عظم في صورة الثقب والباقي عَصَب ولحم . وهو كريم الوبر ، والأسود من وبره في الغاية القُصوى ، والأبيض منه لا يكاد يُفرق بينه وبين الفَنَك .

ومن خصائصه أنه يتمرغ في الزرع فلا ينبت موضعه ، وربما سَفَد الكلبة فولدت كلبا في خلقة السلوقي الذي لا يُقدر على مثله . وقد تقدّم ذكر ذلك في الكلام على الكلاب السلوقية . ومواضع الكروم والآجام ، ويصيده الفهد والكلب وجوارح الطير

التاسع الضبّاع - جمع ضبع ، ويقال لها أم عامر ، وهي مما يؤكل وإن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك ، وتزعم العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثى . ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب في ليلة مقمرة على سطح ووطئت ظلّه وقع فأكلته ، وإذا أفتحم عليها مقتحم وجارها وقد سدّ جميع منافذ حجرها حتى يمتنع

منه الضوء فلا يبقى فيه حرم إبرة، ربطها بجبل ونرح بها؛ وإن بقي ما يدخل منه الضوء، ولو قَدَرَ سَمَّ إبرة وثبت عليه فأكلته. ومن كان معه شئ من الحنظل لم تقربه الضبع.

العاشر سنور البر - وهو النفا، وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما التحريم وصيده يحتاج إلى علاج كبير، وربما وثب على وجوه الناس، وطرده بالخيل من أعسر الطراد، وأولى ما يصاد به الرمي، ومنهم من يعدّه في السباع قال في "المصايد والمطارد" وَقَلَّمَا أَنْتَبِعَ بِهِ فِي صَيْدٍ إِلَّا أَنَّهُ يَثْبُ عَلَى الْكُرْكِيِّ وَمَا فِي مَقْدَارِهِ مِنَ الطُّيُورِ فَيَصِيدُهُ . أما السنور الأهليّ، وهو الهر المعروف بغير ما كوله ولا يصيد إلا الفأر وما في معناه من خَشَاشِ الأَرْضِ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم، فِي الْهَيْرَةِ وَلَكِنَّهَا مِنَ الطَّوَافِينَ عَلَيْكُمْ بِمَعْنَى أَنَّهَا تَطُوفُ عَلَى النَّائِمِ فِي بَيْتِهِ فَتَقْبِضُ مَا لَعَلَّهُ يَسْرَحُ عَلَيْهِ مِنَ الْخَشَاشِ .

الحادي عشر الذب - وهو حيوان قريب في الصورة من السبع، وهو يسكن الجبال والمغاير، والأثني^(١) ترفع ولدها أياما هربا به من الذر والنمل لأنها تضعه كقطعة لحم فلا تزال تتقله وتراعيه حتى تستند أعضائه، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصعدّها فتجمع الجوز في كفها ثم تضرب اليمنى على اليسرى وترمي إليه، فإذا شبع نزلت وربما قطعت من الشجرة العود الذي يعجز الناس عنه وتقبض عليه في موضع مقبض العصا وتشد به على الفارس وغيره فلا تُصِيبُ بِهِ شَيْئًا إِلَّا أَهْلَكَتَهُ . ومن خصيسته أنه يستتر في الشتاء فلا يظهر إلا في الصيف بخلاف سائر الحيوان .

الثاني عشر الخنزير - وهو حرام بنص القرءان، نجس في مذهب الشافعي رضي الله عنه قياسا على الكلب؛ بل قالوا إنه أسوأ حالا منه لعدم حلّ آقتنائه إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد . وهو حيوان في نحو مقدار الحمار وشعره كالإبر

(١) الأولى والمغارات كما لا يخفى .

وله نابان بارزان من فكه الأسفل . ومن خاصته أنه لا يُلْقِي شيئا من أسنانه ، بخلاف سائر الحيوان فإنها تُلْقِي أسنانتها خلا الأضراس ، وهو كثير السِّفاد ، كثير النسل ، حتى إنه ربما بلغت عدّة خنائصه ^(١) وهي أولاده اثني عشر ^(١) خصوصا . قال في "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البري الجاهل الذي لا يقبل التأديب والتعليم ، ويقبل السمن سريعا ، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سميت .

الثالث عشر السمور - (بفتح السين وبالميم المشددة المضمومة على وزن السّفود والكُوب) . وهو حيوان برّي يشبه السنور ، وقد يكون أكبر منه . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو حيوان جرىء ليس في الحيوان أجراً منه على الإنسان ، لا يُصَاد إلا بِالْحَيْلِ ، ووقع للنووي في تهذيب الأسماء واللغات أن السمور طير ، ولعله سبق قلم منه وأغرب ابن هشام البستي في شرح الفصيح فقال : إنه ضرب من الجن . والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم . وحكمه حلُّ أكله ، ومنه يتخذ نفيس الفراء التي لا يلبسها إلا الملوك وأكابر الأعيان من يداني الملوك لحسنها ودِفائتها ، وأحسنه ما كان منه شديد النعومة ما تلا إلى السواد .

الرابع عشر الفَنَك - (بفتح الفاء والنون) وهو دويبة لطيفة ، لها وبر حسن أبيض يخالطه بعض حرمة يُتخذ من جلوده الفراء . قال ابن البيطار : وفروه أطيّب من جميع الفراء ، ومزاجه أبرد من السمور وأحر من السنجاب ، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيرا ما يجلب من بلاد الصقالبية .

الخامس عشر الفاقم - (بقافين الثانية منهما مضمومة) وهو دويبة في قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم ، ومنه يُتخذ الفراء ، وهو أبرد مزاجا وأرطب من السنجاب ، ولذلك كان لونه البياض ، وهو أعز قيمة من السنجاب .

(١) في الأصل بالسين وهو تصحيف أنظر كتب اللغة .

السادس عشر الدَّق - (بفتح الدال المهملة واللام وقاف في الآخر) فارسيّ معرّب ؛ وهو دُوَيْبَة تقرب من السَّمُور . قال عبد اللطيف البغدادي : وهو يقترس في بعض الأحيان ويكرع في الدم . وذكر ابن فارس أنه التمس . وقد ذكر الراجزيّ أنه يسمّى ابن مُقْرِض والمعروف أن الدَّق حيوان يتخذ منه الفراء .

السابع عشر السَّنَجاب - وهو حيوان أكبر من الفأر ووبره في غاية النعومة وجلده في نهاية القوة . وحكمه الحُلّ ، وقال بتحريمه بعض الحنابلة . ويتخذ من جلده الفراء النفيسة التي يلبسها أعيانُ الناس ورؤسأؤهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صعد الشجر العالي ، وفيها يأوي ، ومنها يأكل ، وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالبة ؛ وأحسن ألوانه الأزرق ؛ ثم إنه يقال إنه ربما تبقى زُرْقته^(١) لأنه يُخْتَق ولا يُدَكِّي ، فإن صح ذلك فهو ميتة لا يطهرُ شعره باللباغ على أظهر القولين من مذهب الشافعي رضي الله عنه خلافاً للأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني وابن أبي عَصْرُون فإنهما يريان طهارة الشعر باللباغ وهو رواية الربيع الجيزي عن الشافعي وأختره الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله .

الثامن عشر سَنُور الزَّباد - وهو في صورة السَّنُور الأهليّ إلا أنه أطول ذنباً منه وأكبر جثّة ، ولونه إلى السواد أميل ، وربما كان أتمر ، وهو يُجَاب من بلاد الهند والسند ؛ والزَّباد فيه شبهه بالوسخ الأسود اللزج ، ذفر الرائحة ، يخالطه طيب كطيب المسك ، ويوجد في باطن إبطه ، وباطن أنفخاذه ، وباطن ذنبه ، وحول دبره . فيؤخذ من هذه الأماكن بمعلقة ونحوها .

التاسع عشر السَّنُور الأهليّ - (وهو الهز) ويقال في أصل خلقه إن أهل السفينة شكوا إلى نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح على وجه الأسد بيده فعطس فخرج السَّنُور من أنفه ولذلك هو يشبهه في التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة

(١) كذا بالأصل .

للإنسان في خصال . منها أنه يعطس ، ويتشاءب ، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلعابه كأنه يغسله ، وإذا آتسخ شيء من بدنه نظّفه ، وإذا قضى حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويشمه حتى تخفى رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يشمه الفأر فيهرب ، وهو يهيج للسفاد في آخر الشتاء ، ويكثر الصباح حينئذ ، وتحمل الأثى منه مرة في السنة ، وتقيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألفت منزلا منع غيره من السنابير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تملق لهم وترقق ، وإذا اختطف شيئا هرب به خوف المعاقبة عليه . والهزّة إذا جاءت أكلت أولادها - ويقال إنها تفعل ذلك من شدة الحنوّ . وقد ذكر القزويني أن نوعا من السنابير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذنها إلى ذنبا .

العشرون النمّس - قال الجوهري : وهو دويبة عريضة كأنها قطعة قديد ، تكون بأرض مصر تقتل الثعبان ، والنمّس بمصر معروف - وهو حيوان قصير اليدين والرجلين أغبر اللون ، طويل الذنب ، يصيد الدجاج ، وإذا رأى ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربما صيد وأنس فتأنس .

فإذا علم الكاتب صفات الوحوش وخصائصها ، عرف كيف يُورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها مواردَه في الوصف ، وكيف يصف ضواري الصيد كالقهد وكيف يصف وحوش الصيد كالظباء ، وبقر الوحش ، وحمر الوحش وغيرها . وكذلك ما يقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وتجتنب الأسود وروءاء * إذا كان الكلاب يلعن فيه

وكما أنشد الجاحظ :

جاءت مع الأفشين في هودج * تُرّجى إلى البصرة أجنادها
كأنها في فعلها هرة * تُريد أن تأكل أولادها

مشيرا بذلك إلى ما تقدم من أكل الهرة أولادها وغير ذلك مما يجري هذا المجرى وسيأتى ذكر ما فى معنى ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة المعدّة لذلك إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(فيما يحتاج إلى وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلى ذلك فى رسائل الصيد، وإهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكأية قدم البندق، وما يجرى مجرى ذلك، وهو على أربعة أصناف .

الصنف الأول

(الجوارح)

وهى يُصاد بها الطير والوحش، ويحتاج الكاتب إلى وصفها فى الرسائل الصيدية وفى إهداء شىء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجئنة المعتبر فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى الإناث، أما ذكورها فإنها أطف فى المقدار وأضعف فى الصيد على ما أتى بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى . قال فى "التعريف" ويستحب فى الجوارح كبرها متها، وتتو صدرها، وأنساع حماليقها، وقوة إبصارها، وحدة مناسرها، وصفاء ألوانها، ونعومة ريشها، وقوة قوادمها، وتكاثف خوافيها، وثقل مجملها، وخفة وثباتها، وأشدادها فى الطلب، ونهمها فى الأكل، وقد قسمها فى "التعريف" إلى قسمين : صقور وبرة، وفترق بينهما بأن الصقر ما كان أسود العين والبازى ما كان أصفر العين على اختلاف المسميات، ثم قال "أما العقاب فإنه لا يعد فى الصقور ولا فى البراة وهو معدود فى الجوارح، وفى الطير الجليل". وبالجملة فالجوارح على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(العقاب ، وهو ضربان)

الضرب الأول - المخصوص باسم العقاب وهي مؤنثة لاتذكر، وجمع على عقبان وأعقب . قال في "المصايد والمطارد" وهي من أعظم الجوارح ، وليس بعد النسر في الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فمنها سوداء دجوجية ، وخدارية ؛ وهي التي لايباض فيها . ومنها البقعاء - وهي التي يخالط سوادها بياض . ومنها الشقراء - وهي التي في رأسها نقط بياض . قال أبو عبيدة ويونس : ويقال لذكر العقاب الغرن بفتح الغين والراء المهملة - ويقال إن ذكور العقبان من طير آخر لطاف الجرم ، لأساوى شيئا ، تلعب بها الصبيان . والعقاب من أسرع الطير طيارا ، فقد حكي أن عقابا حملت كفف عبد الرحمن بن عتاب ابن أسيد المسمى ببعسوب قريش ، المقتول يوم الجمل بالكوفة ، فألقمتها بمكة فأخذت فوجد بها حلقة فعرف أنها كفه ، وأرخ ذلك الوقت فتبين أنها ألقمتها يوم الجمل الذي قتل فيه ، وأول من صادها أهل المغرب ، فلما نظرت الروم إلى شدة أمرها وإفراط سلاحها قال حكماؤهم هذا لايفي خيره بشره .

وصفة الوثيق النجيب منها وثاقفة الخلق ، وثبوت الأركان ، وحمرة اللون ، وغور العين بالحليق ؛ وأن تكون صقعاء ، عجزاء ، لا سيما ما كان منها من أرض سرت أو جبال المغرب . وهي تصيد الطباء والثعالب والأرانب ، وقد تصيد حمر الوحش ، وطريق صيدها إياها أنها إذا نظرت حمار الوحش رمت بنفسها في الماء حتى يبتل جناحها ثم تخرج فتقع على التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يعاق بهما ، ثم تطير طيارا تقيلا حتى تقع على هامته فتصقق على عينيه بجناحيها فيمئلان ترابا من ذلك

التراب الذي علق بجناحيها، فلا تستطيع المسير بعد ذلك فيدركها القانص فيأخذها وربما كسرت الأدمى .

ومما يحكى في ذلك أن قيصر ملك الروم أهدى إلى كسرى ملك الفرس عقابا ، وكتب إليه إنها تعمل أكثر من عمل الصقور ، فأمر بها كسرى فأرسلت على ظلي فاقتنصته ، فأعجبه ما رأى منها فأنصرف وجوعها ليصيد بها فوثبت على صبي له فقتلته ، فقال كسرى : إن قيصر قد جعل بيننا وبينه دما نائرا بغير جيش . ثم إن كسرى أهدى إلى قيصر تمرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فهذا يقتل الظباء وأمثالها من الوحش ، وكنتم ماصنعت العقاب فأعجب قيصر حسن النمر ووافق صفتها ما وصف من الفهد وغفل عنه فافترس بعض فتيانه فقال صادنا كسرى .

ومن شأنها أنها لا تطلب شيئا من الوحش الذي تصيده ، وهي لا تقرب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها ، ولا تزال مرقة على مرقة عال ، فإذا رأت بعض سباع الطير قد صاد شيئا آتقتضت عليه ، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها ، فإن جاءت لم يمتنع عليها الذئب في صيدها ، وربما آغتالت البراة فقتلتها ،

ومن خصائصها أنها أشد إخفاء لفرأخها من سائر الطير . قال غطريف بن قدامة الغساني صاحب صيد هشام بن عبد الملك : "وأول من لعب بالعقاب أهل المغرب" ، فلما عرفوا أسرارها نفذوه إلى ملك الروم فاستدعى جميع حكامه فقال لهم : أنظروا في قوة هذا الطير ، وعظم سلاحه ، كيف تجب تربيته ، وتعرفوا أسرارها في صيده وتعليمه ، وكيف ينبغي أن يكون - فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد في سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير - وعند العداوة والغضب كل الأجناس عنده من سائر الحيوان

على اختلاف أنواعه واحد لقوة غضبه وشدة بأسه فهو لا يستعظم آدمى ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثانى - الزُّحج (بضم الزاى وفتح الميم المشددة ثم جيم) والعامّة تبدل الزاى جيما والحيم زايا - وهو طائر معروف تصيد به الملوك الوحش، وأهل البيزرة يعدونه من حخاف الطير الجوارح، إلا أنهم يصفونه بالغدر وقلة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بطف،

ومن عادته أنه يصيد على وجه الأرض . وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث: الزُّحج طائر دون العقاب حمرة غالبه، والعجم تسميه دوبرا دران ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثانى

(من الجوارح البراة . وهى ما أصفرت عينه ،

وهى على خمسة أضرب)

الأول - البازى المختص فى زماننا باسم البازى ؛ وفى ضبطه ثلاث لغات أفصحها بازى بكسر الزاى وتخفيف الياء فى الآخر، والثانى بازٍ بغير ياء فى آخره، والثالث بازى باثبات الياء وتشديدها حكاها ابن سيده ؛ ويقال فى الثانية بازيان وفى الجمع بوازي وبزاة - ولفظه مشتق من البروان - وهو الوئب . وهو خفيف الجناح ، سريع الطيران . وهو من أشرف الطيور الجوارح، وأحرصها على طاب صيده . ففى أخبار نصر بن سيار أن بعض كبراء الدهاقين غدا عليه بطبرستان ومعه منديل فيه شيء ملقّف ، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شلو بازٍ ودراجة ، فأطلقه عليها فأحسّت به ، وكنت قد أمرت بإحراق قصب قد أفسد أرضا لى فتعاملت الدراجة حتى

أفتحمت النار هاربة من البازي، وأشتد طلبه لها وحرصه عليها فلم تردّه النار عنها وأقتحمها في أثرها فأسرعت فيهما فأدركهما وقد أحترقا، فأحضرهما إلى الأمير ليراهما فيرى بهما ثمرة إفراط الحرص وإفراط الجُبن . وهو من أشدّ الحيوان كبرا وأضيقها خُلُقًا . قال القزويني ولا يكون إلا أُنثى، وذكرها نوع آخر من حدأة أو شاهين أو غيرهما . ولذلك تختلف أشكالها . والبازي قليل الصبر على العطش ومأواه مساقطُ الشجر .

ومن فضيلته أن الصيد فيه طبيعةٌ لأنه يؤخذ من وكره فرخا من غير أن يكون يصيد مع أبويه فيصيد آبتداءً وقريحةً من غير تضرية، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يجب ولم يصد، وإذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عود أكثر مما يوجد عنده في تلك الحال وجري على ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومهر فيه . قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعدد ريش جناح البازي عشرون ريشةً ، أربع قوادم، وأربع مناكب، وأربع أباهر، وأربع كلى، وأربع خواف . ويقال سبع قوادم ، وسبع خواف ، وسائر لغب . والحوافى أخف من القوادم .

والمستحب من صفاته صغر المنسر، والرأس، وغلظ العنق، وسعة اللجين، ودائرتى الأذنين والشدقين، وسعة الحدقة، وطول القوادم، وقصر الحوافى والذنب، وشدة اللحم، وعرض ما بين المنكبين والزور، وسعة الحوصلاء، وسعة ما ينتقل إليه طعمه، وعرض الخالب، ورزانة المحمل، وغلظ خطوط الصدر، وذكاء القلب، والتشمير، وكثرة الأكل، ونتاجع النهش، وسرعة الاستمراء، وشدة الانتفاض، وضخامة السلاح، وبعد الذرق . وأن تراه كأنه مقيمًا إذا استقبلته على يد حامله تشبهاً^(١) بالغرأب الأبقع . قال صاحب "المصايد والمطارد" : والمختار من ألوانها الأحمر

(١) كذا في الاصل .

الأكثرُ سواداً ، الغليظُ خُطوطِ الصدر ، والأشهبُ الشديداً الشَّهبة ، الشَّبيه بالابيض ، والأصفر المدبَّج الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ على نجابته ، والبازي يصيد الكلب ، والأرنب ، والغزال ، والكُرْكِي ومافى معناه ، والدَّرَاج ، والمجَل ، وسائر الحمام ؛ والبَط ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازي عدمُ الإباق فإنه إن صاد بَقِيَ على فريسته وإن لم يصد وقف مكانه فلا يحتاج إلى كد ولا تعب ولا طَرْد خيل . وأقول من صاده من الملوك قُسطنطين ملك الروم - وذلك أنه مر يوماً بلحُف جبل فرأى بازياً يطير ثم نزل على شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك ، فأعجبته صورته ، وراقه حسنُ لباسه ؛ فأمر بأن يصاد له جملةٌ من البُرَّاة فصيدت له وحملت إليه فأرتبطها في مجلسه ، فعرض لبعضها في بعض الأيام أيمُ فوثب عليه فقتله - فقال : هذا ملك يُغضبه ما يُغضبُ الملوك فنصب له بين يديه كندرة ، وكان هناك ثعلب داجنٌ ، وهو الذي يربى في البيوت فوثب عليه فما أفت إلا جريحا - فقال هذا ملك جبار لا يمتثل ضمياً - ثم مرَّ به طائرٌ فكسَّره ونهش منه - فقال هذا ملكٌ نوعه لما جاع أخذ طعامه بسُلطان وقدرة - فحمله على يده وصاد به .

الثاني الزُّرْق - (بضم الزاي المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف في الآخر) وهو ذكر البازي قال في "المصايد والمطارد" وهو يصيد ما يصيد البازي من دِق الطير ولا ينتهي إلى صيد الكُرْكِي .

الثالث الفقيمي ^(٢) - وهو بازٍ قَصيفٌ قليل الصيد ذاهلُ النفس .

الرابع الباشق - (بكسر الشين وفتحها) فارسي معرَّب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحية انظر القاموس (٢) في حياة الحيوان العقبى ولم تجدهما في القاموس .

وصفاته الحمودة كصفات البازي الحمودة . وأفضلها أنقلها وزنا قال في ” المصايد والمطارد ” وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال في حياة الحيوان : إنه يصيد أنخر ما يصيده البازي وهو الدُّرَّاج والحَمَام والوَرشَان، وإذا قوى على صيده لا يتركه إلا أن يتلف أحدهما .

الخامس البَيْدَق - وهو دون الباشق، وصيده العصافيرُ .

القسم الثالث

(من الجوارح الصقور - وهي السُّود العيون من الجوارح ؛ وهي ضربان)

الضرب الأوَّل - الشَّواهين (واحدُها شاهين) وهي صنفان . الأوَّل المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلماء بالجوارح أن الشَّواهين هي أسرع الجوارح كلها وأشجعها وأخفها وأحسنها قلبا، وإقبالا، وإدبارا، وأشدّها ضراوة على الصيد؛ إلا أنهم عابوها بالإباق وما يعتريها من شدة الحرص، حتى إنها ربما ضربت نفسها على الغلظ من الأرض فماتت، وهي أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح - ويقال إن صدرها عَصَب مجدول مُنحَم . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تعلق بكفها، وهم يحدِّدون منها ماقرنص داجنًا دون ماقرنص وحشيًّا .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كاسمه يعني كالميزان المسمى بالشاهين، فإنها لا تتجمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع؛ بل حالها معتدل كاعتدال الميزان . ويقال إن الحمام يخافها أكثر مما يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صفاتها فيما ذكره صاحب ” المصايد والمطارد ” الأحمر اللون إذا كان عظيم الهامة، واسع العينين حادهما، سائل السُّفْعَتَيْن، تام المنسر، طويل العنق، رَحْب الصدر، ممتلئ الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويل الجناحين ، قصير الذنب ، سبط الكف ، غليظ دائرة الخصر ، قليل الريش لينه ، تام الخوافي ، ممتلئ العكوة ، رقيق الذنب إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شئ من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هي المحمودة وأن السواد هو أصل لونها وإنما أنقلبت إلى لون البرارى فحالت . قال والحمر منها تكون في الأرياف والمواضع السهلة ، والشهب في الجبال والبرارى . ثم قال ولا يصيد منها الكركى والحبرج إلا البحرية . وأول من صادها فيما يقال قسطنطين ملك الروم أيضا ، وذلك أنه رأى شاهينا معلقا على طير الماء يصطاده فأعجبه ما عاين من فرأهته ، وسرعة طيرانه وحسن صيده ، فإنه رآه يحلق في طيرانه حتى يلحق بعنان الجوث ثم يعود في طرفه عين فيضرب طير الماء فيأخذه قناصا . فقال ينبغي أن يصاد هذا الطائر ويعلم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أعجوبة في أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحمله على يده . قال في "المصايد والمطارد" وأنه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة على رأس الملك حتى ينزل فتقع حوله إلى أن ركب بها ملك منهم ، وساروهى على رأسه فطار طائر فانتقص بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه وأعجب الملك به فصرأها على الصيد وصاد بها .

وقال ابن عفير : كانت ملوك العرب إذا ركبت في مواكبها طيروا الشواهين فوق رؤوسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثانى من الشواهين الأنويه ^(١) قال في "المصايد والمطارد" وهو دون الشاهين فى القوة ، وله سرعة لاتزيد على صيد العصافير .

الضرب الثانى - من الصقور ما عدا الشواهين وهى أصناف .

الأول السنقر . قال فى "التعريف" وهو أشرف الجوارح وإن كان لا ذكر له

(١) لم نعر على هذا الاسم .

في القديم . قال والسناقر تُجلب من البحر الشامي مغالً في أثمانها . ثم قال وكان الواحد منها يبلغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وأنخط عن تلك الهضبة .

الثاني - المخصوص في زماننا باسم الصقر ويجمع على أصقر وصقور وصقورة قال في "التعريف" والعرب تسمى هذا النوع الحُر . ويقال له الأكد، والأجدل .

قال في "المصايد والمطارد" ويقال لها يقال الطير : لأنها أصبر على الأذى، وأحمل لغليظ الغذاء، وأحسن إلفا، وأشد إقداما على جلة الطير، ومزاجه أبرد من البازي والشاهين، وبسبب ذلك يضرى على الغزال والأرنب ولا يضرى على الطير لأنه يفوته، وهو أهدى من البازي نفسا، وأسرع أستئناسا بالناس وأكثرها قنعا، وأبرد مزاجا، لا يشرب ماء وإن أقام دهرا . ونوع يوصف بالبخر وتتن الفم ومسكنه المغائر والكهوف وصدوع الجبال دون رعوس الأشجار وأعلى الجبال، والعرب تحمد من الصقور ما قرنص وحشيا، وتذم ما قرنص داجئا، وتقول إنه يتلد ولا يكاد يفلح . وهي تصيد الكركي وما في معناه، والبط وسائر طير الماء .

والصقور من أثبت الجوارح جنانا في الطيران، وأحرصها في اتباع الصيد، حتى يحكى أن بعض ملوك مصر أرسل صقرا على كركي صبيحة يوم الجمعة بمصر فبينما الناس يصلون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركي بالجامع الأموي بدمشق، فأخذ فوجد فيه لوح السلطان فعرف به، فكتب نائب الشام إلى السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده . قال في "المصايد والمطارد" ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأبغث، وأحوى، وأبيض، وأخرج، وهو الذي فيه نقط بيض . قال ويستحب في الصقر أن يكون أحمر اللون، عظيم الهامة، واسع العينين، تام المنسر، طويل العنق، رطب الصدر، ممتلي الزور، عريض الوسط، جليل الفخذين، قصير الساقين، قريب القدمة من القفا، طويل الجناحين، قصير الذنب، سبط الكف،

غليظ الأصابع فيروزجها، أسود اللسان . قال وتجمع هذه الصفات القراةة والوثاقة والسرعة . قال أدهم بن محرز : وأول من لعب بالصقر الحارث بن معاوية بن كندة الكندي - خرج يوما الى الصيد فرأى صيادين قد نصبوا شبكا عتة ، فوقع فيها عصا فير عتة فحين رآها صقر من الجو أتقض عليها يطلبها فأمر الحارث بنصب الشباك للصقور فنصبت لها فأصطاد منها جملة . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعي له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العش وعلمت أصطادت أجود صيد لأن صيدها طبيعي بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوكر ثم كبر فإنه لا يصطاد غير طعمه فلذلك ينهى عن تربية الصقر .

الثالث الكونج - قال في حياة الحيوان نسبته من الصقور كنسبة الزرق إلى البازي إلا أنه أحر منه ، ولذلك كان أخف جناحا وأقل بجرا . قال ويصيد أشياء من طير المساء ويعجز عن الغزال لصغره .

الرابع الكوهية - وهي موثاة بالبياض والسواد يخاط لونها صفرة ، قال في " التعريف " وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة ، وهي قريبة الشكل من الصقر .

السادس اليؤيو - (بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة بعدها أيضا) قال في " المصايد والمطارد " وتسميه أهل مصر والشام الحلم ، وبهذا سماه في " التعريف " وهو طائر صغير أسود اللون يضرب للزرقعة ، وهي مع صغرها يجتمع الاثنان منها على الذكر فيصيدانه ، وسموه الحلم أخذا من الحلم : وهو المقص تشبيها به لأن له سرعة كسرعة المقص في قطعه ، ومزاجه بالنسبة إلى الباشق بارد رطب لأنه أصبر نفسا منه ، وأثقل حركة . وهو يشرب الماء شربا ضروريا كما يشربه الباشق ، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حار يابس ولذلك هو أشجع منه . ويقال

إن أول من ضمه على الصيد وأصطاد به بهرام جور : أحد ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يُؤيؤا يطارد قنبرة ، ويروغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتى صادها ، فأمر بتأديبه والصيد به .

الصنف الثاني

(الطير الحليل)

وهو المعبر عنه بطير الواجب ، وبه تعنى رماة البندق ونحوها ، وتفتخر بإصابته وصرعه ويحتاج إليه في الرسائل الصيدية ، وفي كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعة عشر طائراً ، وهي على ضربين .

الضرب الأول - طيور الشتاء - وهي التي يكثر وجودها فيه - وهي عشرة طيور .
الأول الكركي - وهو طائر أغبر ، طويل الساقين ، في قدر الإوزة ، ويجمع على كراكي ، وفي طبعه خور يجله على التحارس ، حتى إنه إذا اجتمع جماعة من الكراكي لا بد لها من حارس يجرسها بالنوبة بينها . ومن شأن الذي يجرس منها أن يهتف بصوت خفي كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبته ، قام واحد من كان نأماً يجرس مكانه حتى يقضى كل منها نوبته من الحراسة ، ولا تطير متفرقة بل صفاً واحداً ، يقدمها واحد منها كالرئيس لها وهي تتبعه ، يكون ذلك حيناً ثم يخلفه آخر منها مقدماً حتى يصير الذي كان مقدماً مؤخرًا ، وفي طبعها التناصر والتعاضد .
ومن خاصتها أن أثنائها لاتعد للسفاد بل يسفدها وهي قائمة ، ويكون سفاده سريعاً كالصفرور . وذكر جميع بن عمير التميمي أن الكراكي تبيض في الدهاء ، ولا تقع فراخها ، وكذبه المحدثون في ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القزويني في عجائب المخلوقات ، والكركي لا يمشي على الأرض إلا بإحدى رجليه

ويعلق الأخرى ، وإن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تُخسَف به الأرضُ قال في "المصايد والمطارد" وهو من أبعد الطير صَوْتًا يُسْمَع على أهبال . قال وإذا تقدم مجيئها في الفصل آسْتَدِلَّ بذلك على قوّة الشتاء. ويقال إن الكراكيّ أتى إلى مصر من بلاد الترك . وفي طلبه وصيده نتغالى ملوك مصر تغاليا لا يدرك حدّه ، وتتفق في ذلك الأموال الجمة التي لانهاية لها . وكان لهم من علو الشأن بذلك ما لا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نزاع .

الثانى الإوز - بكسر الهمزة وفتح الواو - واحده إوزة وجمعوه على إوزون والمراد هنا الإوز المعروف بالتركيّ ، وهو طير في قدر الإوز البلديّ أبيض اللون . وله تجنّز في مشيته كالجلجل ، وهو من جملة طير الماء مقطوع بجمل أكله .

الثالث اللّعغ - وهو دون الإوز في المقدار، لونه كلون الإوز الحبشيّ إلى السواد، أبيض الجفن ، أصفر العين . ويعرف في مصر بالعراقيّ ، ويأتى إليها في مبادئ طلوع زرعها في زمن إتيان الكراكيّ إليها . ومن شأنها أن يتقدمها واحد منها كالديل لها ، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدا كالجلجل ودليلها في وسطها متقدّم عليها بعض التقدّم . وقد يصفّ خلفه صفيّ ممتدّين يلقياها في زاوية حادة حتى يصير كأنه حرف جيم بلا عراقة ، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبرت حدث في بياض بطونها وصدورها نقطٌ سود ، والفرخ منها لا يعتره ذلك .

الرابع الحُبرج - (بضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجم في الآخر) - وهو الحباري . قال في "المصايد والمطارد" ويقع على الذكر والأُنثى ويجمع على حُبَارِيَّاتٍ وذكر غيره أنّ واحده وجمعه سواء . وبعضهم يقول إنّ الحُبرج هو ذكر الحباري . قال في "المصايد والمطارد" وهو طائر في قَدْرِ الديك ، كثير الرّيش : ويقال لها دَجاجة البرّ . قال في حياة الحيوان : وهي طائر طويل العنق ،

رَمَادَى اللون ، في مُتْقَارِه بَعْضُ طُول ، يُقَال لَذَكَرِ الحُبَارَى الخَرْبُ (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة في الآخر) - ويجمع على خِرَابٍ وأخْرَابٍ وخِرَابَان .

ومن خاصته أن الجارح إذا أعتنقها أرسلت عليه ذَرْقًا حاصلًا معها ، متى أحبت أرسلته ، فيه حدةٌ تمعّط ريشه ، ولذلك يُقال : سَلَّحُهَا سِلَاحُهَا . قال في حياة الحيوان : وهي من أشد الطير طيرانًا ، وأبعدها شوطًا ، فإنها تُصَاد بالبصرة فيوجد في حواصلها الحبة الخضراء التي شجرها البُطْم ، ومنابتها تُحوم بلاد الشام ، وإذا تُنِف ريشها وأبطأ نباته ماتت كذا - قال وهي من أكثر الطير جَهْدًا في تحصيل الرزق ، ومع ذلك تموت جوعًا بهذا السبب . قال في "المصايد والمطارد" : وهي مما يُعَاف لأنها تأكل كلَّ شيء حتى الخنافس - وقال في حياة الحيوان : حكما الحلُّ لأنها من الطيبات ، وأستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينَةَ مَوْلَى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حُبَارَى" ويقال لولدها اليَجْبُور ، وربما قيل له نَهَارِكَمَا يُقال لولد الكِرْوَان ليل .

الخامس التَّمُّ - بفتح التاء وتشديد الميم - وهو طائرٌ في قدر الإوز أبيض اللون ، طويلُ العنق ، أحمرُ المنقار ، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرًا .

السادس الصوغ - بضم الصاد المهملة وغين معجمة في الآخر - وهو طائرٌ مختلط اللون من السواد والبياض ، أحمرُّ الصدر ، وأكثر ميله إلى الخضرة والأشجار .
السابع العُنَّاز - بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة في الآخر - وهو طائرٌ أسود اللون ، أبيضُ الصدر ، أحمرُّ الرجلين والمنقار .

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره في فصل الضاد المعجمة من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليتنبه .

الثامن العُقاب وقد تقدم ذكره في الكلام على الجوارح حيث هو معلود منها ومن طير الواجب؛ وما يتعلق بهذا المكان أنها منها الأسود، والخواخية، والسُفْع، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يَأْوِي الجبال، وما يَأْوِي الصحارى، وما يَأْوِي الغياض، وما يَأْوِي حول المُدُن.

وقد تقدم ذكر الخلاف في أن ذكرها من جنسها أو من جنس آخر في الكلام على الجوارح. وحكمها تحريم الأكل لأنها من ذوات المَخَاب من الطير، وأختلف في قتلها هل هو مستحب أم لا بجزم الراجح والنووي من أصحابنا الشافعية في الحج باستحباب قتلها. وجزم النووي في شرح المهذب بأنها من القسم الذي لا يستحب قتله ولا يكره، وهو ما يجتمع فيه نفع ومضرة، وبه جزم القاضي أبو الطيب رحمه الله. التاسع النسر بفتح النون، ويجمع في القلة على أنسر. وفي الكثرة على أنسور، وسُمِّي أنسرًا لأنه ينسر الشيء ويتلعه. والنسر ذو منسر وليس بذى مخلب وإنما له أظفار حداد المخالب، وهو يسفد كما يسفد الديك. وزعم قوم أن الأئشي منه تبيض من نظر الذكر إليها وهي لا تحضن بيضها، وإنما تبيض في الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حر الشمس للبيض مقام الحضان. والنسر حاد البصر يرى الحيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسة شمه في الغاية؛ ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته؛ وهو أشد الطير طيراناً وأقواها جناحاً حتى يقال إنه يطير ما بين المشرق والمغرب في يوم واحد. وإذا وقع على جيفة وعليها عقبان تأخرت ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو في غاية الشره والنهم في الأكل إذا وقع على جيفة وأمتلاً منها لم يستطع الطيران حتى يثب وثبات يرفع بها نفسه طبقة في الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس في هذه الحالة، والأئشي منه تخاف على بيضها وفراخها الخفّاش فتقرش في أوكارها ورق الدلب لتنفّر منه

الْحُقَّاشَ ، وهو من أشدَّ الطير حزنًا على فراق إلفه حتى إذا فارق أحدهما الآخر مات حُزْنًا .

وهو من أطول الطير أعمارًا حتى يقال إنه يُعمر ألف سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الحَيْفَ .

العاشر الأنيسة - قال في حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُّمَّةُ وإنما اسمه الأنييس . قال : وهو طائر حادَّ البصر ، يشبه صوته صوتَ الجمل ، ومأواه قرب الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار ؛ وله لونٌ حسن ، وتديير في معاشه . وقال أرسطو : إنه يتولد من الشِّقْرَاق والغراب . وذلك بين في لونه . ويقال إنه يحب الأُنس ، ويقبل الأدب والتربية ، وفي صَفيهِه وقوِّرته أعاجيبٌ ، حتى إنه ربما أفصح بالأصوات كالقمرى ؛ وغذائه الفاكهة واللحم وغير ذلك . ومن شأنه ألفة الغياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستحب . فإن صح تولده من الشِّقْرَاق والغراب فينبغي تحريمه . والأنيسة ذات ألوان مختلفة ، بدنُّها يميل إلى العُبرة ، وعُنُقها يشتمل على خضرة وزُرقة ؛ ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزها وجودًا .

الضرب الثاني طيور الصيف - وهي التي يكثر وجودها فيه ، وهي أربعة أطياف . الأول الكي بضم الكاف : وهو طير أغبر اللون إلى البياض ، أحمر المنقار والحوصلة ، رجلاه تَضِرُّبان إلى السواد .

الثاني العِرْتَوْق - بكسر العين المعجمة وفتح النون - ويقال فيه عُرْتَيْق - بضم العين وفتح النون ، ويجمع على عُرَانِيْق . قال الجوهري : وهو طائر أبيض من طير الماء طويل العنق ، وتبعه الرخشمى على ذلك . وقال أبو خيرة : وسمى عُرْتَيْقًا لبياضه . وقال صاحب "المصايد والمطارِد" العرنيق كركي إلا أنه أخضر طويل المنقار ،

(١) لم نعرطه في حياة الحيوان ولم يذكر في معجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركي إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله دُؤابتان في رأسه .
وقال : ومن خصائصها أن ريشها في شببتها يكون رمادياً ، فإذا كبرت أسوداً وليس
ذلك في سائر الطير ، فإن الريش لا يحول بياضه إلى السواد بل يحول سواده إلى
البياض : كما في الغربان والصفير والخطاطيف .

الثالث المرزم - وهو طير أبيض في أطراف ريشه حمرة ، طويل الرجلين والعنق ،
وهو حلال الأكل .

الرابع الشبيطر - بضم الشين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمى
اللقلق أيضاً ، ويعرف بالبلارح^(١) . وكنيته عند أهل العراق أبو خديج - وهو طائر أبيض ،
أسود طرفي الجناحين ، ورجلاه ومنقاره حمر ، وهو يأكل الحيات ولكنه يوصف
بالفطنة والذكاء . وفي حله عند الشافعية وجهان أحدهما في شرح المهذب والروضة
الحرمة وإن كان من طير الماء .

وسياتى الكلام على ما يحمل من هذه الطيور الأربعة عشر بأعناقها وما يحمل منها
بأسيافه فيما يتعلق بمصطلح الرامة في الكلام على كتابة قدم البندق في موضعه إن شاء
الله تعالى . وطيور الواجب كلها حلال إلا النسر والعقاب .

الصنف الثالث

(ما عدا الطير الجليل مما يُصَاد بالحوارح وغيرها ، وهو على ضربين)

الضرب الأول ما يحمل أكله - وهو أنواع كثيرة لا يأخذه الحصر ، ونحن نقتصر
على ذكر المشهور من أنواعه .

فمنها النعام - وهو اسم جنس الواحدة نعام ، وهو طائر معروف مرتب من

(١) مصحف لم نهند إليه . ولعله البارح .

صورتى جمل و طائر ولذلك تسميه الترك دواقش بمعنى طير جمل ، وتسميه الفرس
أشترمرك ، ومعناه جمل و طائر . ويجمع النعامة على نعامات ، ويسمى ذكرها الظالم ؛
ومن المتكلمين على طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طيرانها ؛
ومن الناس من يظن أنها متولدة من جمل و طير ولم يصح ذلك . ومساكنها الرمل ،
وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مدّ عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن
الأخرى ، ثم تعطى كل بيضة منها نصيبها من الحُصن : لأنها لا تستطيع ضم جميع
البيض تحتها ، وإذا خرجت للطعم فوجدت بيض نعامة أخرى حضنته ونسيت
بيضها ، فربما حضنت هذه بيض هذه ، وربما حضنت هذه بيض هذه ؛
ولذلك توصف في الطير بالحق ؛ ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فمنه ما تحضنه ، ومنه
ما تجعله غذاء لها ، ومنه ما تفتحه وتجعله في الهواء حتى يتولد فيه الدود فتغذى
به أفراخها إذا خرجت . وليس للنعامة حاسة سمع ولكنه قوى الشم ، يستغنى بشمه
عن سماعه حتى يقال إنه يشم رائحة القانص من بعد ؛ والعرب تقول إن النعامة
ذهبت تطلب قرنين فقطعوا أذنيها . وهو لا يشرب ماء ، وإن طال عليه الأمد ،
ولذلك يسكن البرارى التي لا ماء فيها . وأكثر ما يكون عدوها إذا استقبلت الريح .
ومن خصائصها أنها تتلع العظم الصلب والحجر والحديد فتذيقه معدتها حتى تدفعه
كالماء ، وتتلع الجمر فيطفئه جوفها ، وإذا رأت في أذن صغير أو لوة أو حلقة اختطفتها .
وحكمه جل أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سم وحي .

ومنها الإوزة - بكسر الهمزة وفتح الواو - وهو اسم جنس واحدة إوزة ، وجمعوه
على إوزون ، وهو مما يحب السباحة في البحر ، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح
في الحال ، وإذا حضنت الأثني قام الذكر يحرسها لا يفارقها ، ويخرج فرخها في دون
الشهر من البيضة . وهو من الطيبات ، وغذاؤه جيد إلا أنه بطيء الهضم .

ومنها البَطُّ، وهو من طيور الماء واحده بَطَّةٌ للذكر والأُنثى وليس بعربيّ، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القِرِّيُّ - بكسر القاف، ويسمى مُلَاعِبَ ظِلِّهِ . وهو طائر صغير الحرم من طيور الماء، سريع الأختطاف، لا يزال مرفرفاً على وجه الماء على جانب كطيران الحِدَاة، يهوى بإحدى عينيه إلى قعر الماء طمعا، ويرفع الأخرى حذرا؛ فإن أبصر في الماء ما يستقلُّ بجملة من السمك أو غيره أنقضَّ عليه كالسهم المرسل فأخرجه من قعر الماء، وإن أبصر في الجوّ جارحا، مرّ في الأرض . وبه يضرب المثل في الإقبال على الخير والإدبار عن الشرّ، فيقال: "كأنه قِرِّيُّ، إن رأى خيرا تدلّى، أو رأى شرّاً تولى".

ومنها الغَطَّاسُ - ويقال له الغَوَاصُ، وهو طائر أسود نحو الإوزة، يغوص في الماء فيستخرج السمك فيأكله، وهم فيه في حياة الحيوان فجعله القِرِّيُّ .

ومنها الدجَاجُ - بفتح الدال المهملة وكسرهما وضمها، حكاه ابن معن الدمشقيّ وابن مالك وغيرهما، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم، والواحدة دجاجة والذكر والأُنثى فيه سواء . قال ابن سيده: وسميت دجاجة لإقبالها وإدبارها، يقال: دَجَّ القوم إذا مشوا بتقارب خَطْوٍ، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا، والفرخ يخرج من البيضة بالحَضْنِ، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا، ظريفا، سريع الحركة، يُدعى فيُجيب، ثم كلما مرّت عليه الأيام حمق وتقص حسنه . ومما يعرف به الذكر من الأُنثى في حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمنقاره فإن اضطرب فهو ذكر، وإلا فهو أنثى . والدجاج يبيض في جميع السنة، وربما باضت الدجاجة في اليوم مرتين، ويتم خلق البيض في عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فإذا أصابها الهواء تصلبت . وتشتمل البيضة على بياض وُصْفرة ويسمى المَح ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له في البيضة يتغذاه من سُرته ، وربما كان للبيضة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فإذا كبرت الدجاجة ، لم يبق لبيضاها مَحٌ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن في البيوت ، وقد ورد في سُنَنِ ابن ماجه من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أمر الاغنياء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبد اللطيف البغدادي : أمر كل قوم من الكسب بحسب مقدرتهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمر بها سائر السباع فلا تخامها فإذا مرت بها ابن آوى وهى على سطح رمت نفسها إليه ؛ وهى توصف بقلة النوم وسرعة الانتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخور طباعها .

ومن الدجاج نوع يقال له الحبشى . أرقط اللون ، متوحش ، وربما ألف البيوت . والحكم في الجميع الحل .

ومنها الديك - وهو ذكر الدجاج ، ويجمع على دِيكَةٍ ودِيوكٍ ، وهو أبله الطبيعة حتى إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلى دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالى بمعرفة الأوقات حتى ربح الرافعى من مذهب الشافعى رضى الله عنه اعتماد الديك المحترَبِ وَقَافَا لِلْمُتَوَلَّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسيطا لا يُحِلُّ فيه شئ طال الليل أم قصر . لكن قد ورد في معجم الطبرانى وغيره : إنا لله سبحانه وتعالى ديكاً أبيض ، جناحه موشيان بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ ، له جناحٌ بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحت العرش ، وقوائمه في الهواء ، يُؤذِّنُ كلَّ سحر فيسمع تلك

الصبيحة أهل السموات وأهل الأرض إلا الثقلين : الجن والإنس ، فعند ذلك تُجيبه
ديوك الأرض ؛ وحينئذ يكون الديك في ذلك تابعا . وقد ورد عدة أحاديث
في النهى عن سبِّ الديك ، ومدح الديك الأبيض ، والحثُّ على أخذِه .

ومن حميد خصال الديك أنه يسوى بين دجاجة : ولا يُؤثِّرُ واحدة على الأخرى .
ويقال إنه يبيض في السنة بيضة ؛ ويفرق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته
أصغر من بيضة الدجاجة ، وهي مدورة لا تحديد في رأسها .

ومنها القَطَا - بفتح القاف : وهو طائر معروف واحد قطاة ويجمع على قَطَوَاتٍ
وقَطِيَّاتٍ ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات ، ويسمى قَطَاً لحكاية صوته : لأنه يصبح
” قَطَاً قَطَاً “ ، ولذلك تصفها العرب بالصدق . قال الجوهري ، وهو معدود من
الحَمَامِ ، وبه قال ابن قتيبة ، وعليه جرى الرافي في الحج والأطعمة : قال الشيخ
محب الدين الطبري : والمشهور خلافه .

ثم القَطَا نوعان : كُدْرِيٌّ وجُونِيٌّ ، وزاد الجوهري نوعا ثالثا وهو العَطَاطُ ،
فالكُدْرِيٌّ غُبر اللون ، رُقش البطون والظهور ، صفر الحلق ، قصار الاذنان .
والجُونِيٌّ سُودُ بطون الأجنحة والقوادم ، وظهرها أغبر أرقط ، تعلوه صُفرة ، وهي
أكبر جرماً من الكُدْرِيِّ ، تعبدل كلُّ جُونِيَّةٍ كُدْرِيَّتَيْنِ ، والكدرية تُفصح باسمها
في صياحها ، والجُونِيَّةُ لا تفصح بل تُقرِّرُ بصوت في حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض في القفر على مسافة
بعيدة من الماء . وتطلب الماء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من
أفاحيصها في طلب الماء عند طلوع الفجر فتقطع إلى حين طلوع الشمس مسيرة
سبع مراحل ، فترد الماء فتشرب ثم تُقيمُ على الماء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلى

الماء ثانية . والجونية تخرج إلى الماء قبل الكُدْرِيَّةِ ؛ وهي توصف بالهداية فتأتي أفاحيصها ليلا ونهارا فلا تضلَّ عنها ؛ وتوصف بحسن المشي ، وبقلة النوم .

ومنها الكروانُ - بفتح الكاف والراء - وهو طائر في قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينام الليل ؛ ويجمع على كِرَوَانٍ بكسر الكاف والأثني كِرَوَانَةٌ .

ومنها المجلُّ - بفتح الحاء المهملة والجيم ، وهو طائر على قدر الحمام كالقَطَا ، أحمر المنقار والرجلين ؛ ويسمى دَجَاجَ البر؛ ويقع على الذكر والأثني ؛ وقد يقال له القَبِجُ أيضا بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم في الآخر، يقال للذكر والأثني منه قَبِجَةٌ ، ويسمى الذكر منه أَلْعَقُوبُ ؛ والقَبِجُ بفتح القاف والموحدة وجيم في الآخر، ويقال في الأثني منه مَجَلَةٌ . وهو صِفَانٌ : نَجْدِيُّ وَتِهَامِيٌّ ، فالنجديُّ أحمر الرجلين ، والتهاميُّ فيه بياض وخضرة ؛ ومن شأنه أنه يأتي إلى مصر عند هيجان زرعها ويصبح صياحا حَسَنًا ، تقول العائمة : إنه يقول في صياحه : "طَابَ دَقِيقُ السَّبِيلِ" . ومن شأن الأثني منه إذا لم تَلْقَحْ ، أنها تَمْرُغُ في التراب وتصبه على أصول ريشها فَتَلْقَحُ ؛ ويقال : إنها تَلْقَحُ بسمع صوت الذكر ، وبريح يهبُّ من قِبَلِهِ ؛ وإذا باضت ميز الذكر الذكورَ منها فحضنها ، وتحضنُ الأثنيُ الإناثَ . وكذلك في التربية ، وفرخها يخرج كاسيا بزغبِ الريش كما في الدجاج ؛ وفي "المصايد والمطارِد" أن القَبِجَ كثير السَّفَادِ ، وأنه إذا اشتغلت عنه الأثني ورأى بيضها ، كسره . قال التوحيدى : ويعيش المجلُّ عشر سنين ويعمل عَشْرِينَ ، يجلس الذكر في واحد والأثني في واحد ؛ وهو من أشدَّ الطيور غيرةً على أنثاه حتى إن الذكورين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأثني ، فمن غلب منهما دانت له .

(١) هذا معطوف على القَبِجِ الاقوال إشارة الى لغة أخرى وليس معطوفا على البَقُوبِ كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتي عَشَّ غيره فيأخذ بيضه ويحضنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التي باضتها؛ وفيه من قوة الطيران ما يظنه من لم يحققه عند طيرانه أنه حجر رُمِيَّ بِمِقْلَاعٍ لِسُرْعَتِهِ .

ومنها القُمْرِيُّ - بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع على قَمَارِيٍّ غير مصروف . قال في المحكم : ويجمع على قُمْرٍ أَيْضًا ؛ والأثني منه قُمْرِيَّةٌ ، ويقال للذكْر منه الوَرَشَانُ - بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة، ويقال له أَيْضًا سَاقٌ حُرٌّ . قال البَطْلِيُّ سِيٌّ : وَسُمِّيَ سَاقٌ حُرٌّ حِكَايَةً لَصَوْتِهِ كَأَنَّهُ يَقُولُ ذَلِكَ ، وَيَكْنَى أَبُو الْأَخْضَرِ ، وَأَبَا عِمْرَانَ ، وَأَبَا النَّاجِيَةِ . قال ابن السمعاني : والقُمْرِيُّ منسوب إلى القُمْرِ ، وهي بلدة تشبه الحصَّ لبياضها . قال : وأظنها بمصر . وقال ابن سيده القُمْرِيُّ طير صغير، وعده في المحكم من الحمام . ويقال : إن الهوامَّ تهْرُبُ من صوت القَمَارِيِّ . قال القزويني : ومن خاصية القَمَارِيِّ أنها إذا ماتت ذكورها لم تنزواج إناثها ؛ والوَرَشَانُ الذي هو ذكر القُمْرِيِّ يوصف بالحنُونِ على أولاده حتى إنه ربما قتل نفسه إذا رءاها في يد القانص . قال عطاء : وهو يقول في صياحه "لِدُوا لِمَوْتِ وَأَبْنَاوِ الْقُرَابِ" . ومنه نوع أسود حجازي يقال له النوى، شجى الصوت جدًا .

ومنها الفَاخِخَةُ - بالفاء والخاء المعجمة والتاء المثناة والجمع الفواخيت بفتح الفاء وكسر الخاء : وهي طائر من ذوات الأطواق ، حِجَازِيَّةٌ فِي قَدْرِ الْحَمَامِ ، حَسَنَةٌ الصَّوْتِ ، وَيُقَالُ إِنَّ الْحَيَّاتَ تَهْرُبُ مِنْ صَوْتِهَا . حتى يحكى أن الحيات كُثُرَتْ بِأَرْضِ ، فَشَكَأَ أَهْلُهَا ذَلِكَ إِلَى بَعْضِ الْحُكَمَاءِ ، فَأَمَرَهُمْ بِنَقْلِ الْفَوَاحِشِ إِلَيْهَا فَانْقَطَعَتْ الْحَيَّاتُ عَنْهَا ؛ وَفِي طَبْعِهَا الْأَنْسُ بِالنَّاسِ ؛ وَتَعِيشُ فِي الدُّورِ ، إِلَّا أَنَّ الْعَرَبَ تَسْمَعُهَا بِالكَذِبِ فَإِنَّ صَوْتَهَا عِنْدَهُمْ يَقُولُ فِيهِ هَذَا أَوْانِ الرُّطْبِ ، وَهِيَ تَقُولُ ذَلِكَ وَالنَّخْلَ لَمْ يُطْلِعْ بَعْدُ ، وَلِذَلِكَ تَقُولُ الْعَرَبُ فِي أَمْثَالِهِمْ : "أَكْذَبُ مِنْ فَآخِخَتِهِ" .

ومنها الدَّبْسِيُّ - بضم الدال، وهو طائر صغير منسوب إلى دبس الرطب - بكسر الدال، وذلك أنهم يُغَيَّرُونَ في النسب فيقولون في النسبة إلى الدهر دُهَيْرِيٌّ ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام. ثم هو أصناف: مصري، وحجازي، وعراقي؛ وكلها متقاربة، لكن أخفها المصري، ولونه الدكنة، وقيل هو ذكر اليمام. وفي طبع الدَّبْسِيِّ أن لا يرى ساقطاً على وجه الأرض، بل في الشتاء له مَشْتَى، وفي الصيف له مَصِيفٌ، لا يعرف له وَكْرٌ.

(١) ومنها الشَّفِينُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت ثم نون: وهو الذي تسميه العامة بمصر اليمام، وهو دون الحمام في المقدار ولونه الحجرية مع كُودَةٍ، وفي صوته ترجيع وتحزين. ومن شأنها أنها تحسن أصواتها إذا اختلطت. ومن طبعه أنه إذا فقد أنثاه، لم يزل أعزب إلى أن يموت، وكذلك الأثى إذا فقدت ذكرها؛ وفيه ألفة للبيوت، وعنده احتباس.

(٢) ومنها الدرَّاجُ - بفتح الدال، وكنيته أبو الحجاج وأبو خَطَّار: وهو طائر ظاهر جناحيه أغبر وباطنهما أسود، على خِلْقَةِ القَطَا إلا أنه ألطف. وهو يطلق على الذكر والأثى؛ والجاحظ يعدُّه من جنس الحَمَامِ لأنه يجمع بيضه تحت جناحه كما يفعل الحمام، والناس يعبرون عن صوته بأنه يقول "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَمُ". ويقال إنه طائر مبارك؛ وهو كثير التاج، ينشر بقدوم الربيع؛ وهو يصلح بهبوب الشمال، وصفاء الهواء؛ ويسوء حاله بهبوب الجنوب حتى لا يقدر على الطيران.

ومنها العُصْفُورُ - بضم العين، وحكى ابن رَشِيْقٍ في كتاب الغرائب فتحها، والأثى عُصْفُورَةٌ، وكنيته أبو الصَّفْوِ، وأبو مُحْرَزٍ، وأبو مُرَاحِمٍ، وأبو يعقوب. قال حمزة:

(١) الذي في حياة الحيوان أنه بالكسرا ه.

(٢) في حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال أما الذي بالفتح فهو القنفذ.

سمى عصفورا لأنه عصى وفر، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالدورى، ووكره
العمران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلت مدينة من أهلها ذهبت
العصافير منها؛ وهو كثير السفاد حتى إنه ربما سفد في الساعة الواحدة مائة مرة،
ولفرخه تدرّب على الطيران حتى إنه يدعى فيجيب. قال الجاحظ: بلغنى أنه
يرجع من فرسخ.

(١) ومنها الشَّحْرُورُ - بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء المهملة، وهو طائر أسود
فوق العصفور له صوت شجي، ويكون بأرض الشام كثيرا.

ومنها الهَزَّارُ - بفتح الهاء والزاي المعجمة، طائر نحو العصفور له صوت حسن
ويسمى العندليب أيضا ويجمع على عَنَادِلَ.

(٢) ومنها البُلْبُلُ - بضم الموحدين وسكون اللام الأولى والثانية، وهو طائر أسود
فوق العصفور، والبحرى منه فوق ذلك؛ ويقال له النُّغْرُ - بضم النون وفتح الغين
المعجمة وراء مهملة في الآخر، والكُعَيْتُ - بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة
فوقية في الآخر، والجَمِيلُ - بضم الجيم، وقد ثبت في الصحيحين من رواية أنس رضى
الله عنه أنه قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان
لى أخ لأُمِّي فَطِيمٌ يُقال له عُمَيْرٌ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال:
يا أبا عُمَيْر، ما فعل النُّغَيْر؟ لَنُغْرَ كان يلعب به".

ومنها السَّمَانِي - بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدد ميمه، وهو طائر معروف
فوق العصفور ويجمع على سَمَانِيَّاتٍ: وهو من الطيور التي لا يعرف من أين تأتي،
بل يأتي في البحر الملح يغوص بأحد جناحيه في الماء ويقوم الآخر كالقُلْعِ للسفينة

(١) قال في حياة الحيوان انه كسحون وكذلك ضبطه في القاموس بالضم.

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناسخ.

فتدفعه الريح حتى يأتي الساحل ؛ وكثيرا ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت في الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحسون - وتسميه أهل الجزيرة والشام وحلب وتوابعها زيقية ، وهو طائر فطن ، ويسميه الأندلسيون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه سينا ؛ وهو عصفور ذو ألوان : حمرة و صفرة و بياض و سواد و زرقة و خضرة ؛ وهو قابل للتعليم يُعلم أخذ الشيء كالفلس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيان به لصاحبه .

ومنها أبو برّاقش - بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتأون ألوانا ، وبه يضرب المثل في التلون .

ومنها الزاغ - بزاي وغيثن معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغربان صغير أخضر اللون لطيف الشكل حسن المنظر ، وقد يكون أحمر المتقار والرجلين ، وهو الذي يقال له غراب الزيتون ، سمي بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغداف - بضم الغين المعجمة وبالذال المهملة والفاء في آخره ، وهو غراب الغيط ويجمع على غدافان بكسر الغين ؛ قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدري : هو غراب صغير أسود لونه كلون الرماد ، وقد قال النووي في الروضة بتحريمه وإن كان الرافعي قد جزم بحلّه ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع - وهو غراب أسود المتقار ؛ وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثاني - ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس - ويجمع على طاويس ، وهو طائر في نحو مقدار الإوزة حسن

(١) الذي في القاموس وحياة الحيوان غراب القيط .

اللون ، والذكر منه غايَةٌ في الحُسْنِ ؛ له في رأسه ريش خضر قائمة كالشربوش ،
 وفي ذنبه ريش أخضر طويل في أحسن منظرٍ ، وليس للأثني شيء من ذلك ؛ وهو
 في الطير كالفرس في الدواب عزا وحسنا ؛ وفي طبعه الزهو بنفسه والحيلاء والإعجاب
 بريشه ، والأثني منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفي هذا الحد يكمل ريش
 الذكر ويتم لونه ، ويبضه مرة واحدة في السنة ، ويكون بيضه من اثنتي عشرة
 بيضة إلى ما حولها ، ولا يبيض متبعا ، وسفاده في أيام الربيع ، وفي الخريف يُلقى
 ريشه كما يُلقى الشجر ورقه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ؛ وهو
 كثير العبث بالأثني إذا حَضَنْت وربما كسر بيضا ؛ ولذلك يُحْضَنُ بيضه تحت
 الدجاج لكن لا تقوى الدجاجة على حَضْنِ أكثر من بيضتين منها ، وتُعاهدُ الدجاجة
 بالطعمة والسقية وهي راقدة عليه ، كيلا تقوم عنه فيفسد بالهواء إلا أن ما تحضنه
 الدجاجة يكون ناقص الحنة عما تحضنه أثناءه ، وليس له من الحسن والبهجة
 ما لذلك ؛ ومدة حضنه ثلاثون يوما ؛ وفرخه يخرج من البيضة كالفرج كاسيا
 بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها السَّمْنَدُ - بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وبفتح الدال المهملة
 ولام في الآخر ، وقال الجوهرى : السَّمْنَدُ بغير ميم . وقال ابن خَلَّكَانَ : السَّمْنَدُ
 بغير لام ؛ وهو طائر يكون بأرض الصين والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه
 حتى يقال إنه يبيض ويُفْرَخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها ، ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها
 فإذا آتسخت ألقيت في النار فتأكل النار وسخها ولا تتأثر هي في نفسها . قال ابن
 خَلَّكَانَ في ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على
 هيئة حزام الدابة في طوله وعرضه ، فالقيت في النار فأثرت فيها فغمس أحد
 جوانبها في الزيت وجعل في النار فأشعل وبقى زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو على حاله

لم يتغير، قال: ورأيت بخط عبداللطيف البغدادي أنه أُهْدِيَ للظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعةً منه عرض ذراع في طول ذراعين، فغمِست في الزيت وقربت من النار فاشتعلت حتى فني الزيت، ثم عادت بيضاء كما كانت، وبعضهم يقول إنه وحش كالثعلب وإن ذلك يعمل من وبره .

ومنها البيِّغَاء - بيّعين مفتوحين الأولى منهما مخففة والثانية مشددة وغين معجمة بعدها ثم ألف؛ وهو المعبر عنه بالذرة بدال مهمله مضمومة، وقال ابن السمعاني في الألسن: هي باسكان الباء الثانية، وهي طائر أخضر اللون في قدر الحمام يحاكي ما يسمعه من اللفظ؛ ثم هي على ضريين: هِنْدِيٌّ وهي أكبر جثةً ومنقارها أحمر، ونُوْبِيٌّ وهي أدونها ومنقارها أسود، ويقال: إن منها نوعاً أبيض، ويذكر أنه أُهْدِيَ لمعز الدولة ابن بويه ببغَاء بيضاء اللون سوداء المنقار والرجلين، على رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّةٌ؛ وهي طائر دميت الأخلاق، ناقب الفهم، له قوة على حكاية الأصوات وقبول التلقين، تختذه الملوك والأكابريين بما يسمع. ومن شأنه أنه يتناول طعمه برجله كما يتناوله الإنسان بيده؛ والهندي منه أقرب إلى التعليم من النوبي .

ومنها أبو زُرِّيقي - بزاي مضمومة ثم راء مهمله وفي آخره قاف، ويقال له القيق بكسر القاف والزُرِّيَابُ بزاي معجمة مكسورة ثم راء مهمله ساكنة ثم ياء مشناة تحت وبعد الألف باء موحدة؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم، سريع الإدراك لما يعلم، وقد يزيد على البيغاء إذا أنجب، بل إذا تعلم جاء بالحروف مبينة حتى يظن سامعه أنه إنسان، بخلاف البيغاء فإنها لا تُفصح كل الإفصاح .

ومن غريب ما يحكى في أمره ما حكاه صاحب "منطق الطير" أن رجلاً خرج من بغداد ومعه أربعائة درهم، لا يملك غيرها، فوجد في طريقه عتمة من فراخه

فاشترها بما معه ثم رجع إلى بغداد فعلةها في أفاص في حانوته ، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلها إلا واحدا كان أضعفها وأصغرها فتقل ذلك عليه وبات ليلته تلك يتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادى ياغيث المستغيثين أغثنى ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذي بقى يصيح بلسان فصيح : ياغيث المستغيثين أغثنى ، فأجتمع الناس عليه يسمعون صوته فأجتازت جارية للخليفة فأشترته منه بألف درهم .

ومنها الهددُ - بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما ، وهو طائر معروف ذو خطوط موشية وأوان ، ويجمع على هداهدب ، ويذكر عنه أنه يرى الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان في باطن الزجاج ، قُوَّةُ ركبها الله تعالى فيه ، ولذلك عُني به سليمان عليه السلام مع صغره كما قاله البيهقي في "شعب الإيمان" . ويقال : إنه كان دليلا لسليمان عليه السلام على الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة في التنزيل . وقد ذكر الزمخشري أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هُدُداً آخر ، فحكى له عظيم ملك سليمان ، فحكى له ذلك الهددُ عظيمُ ملك بلقيس باليمن ، فذهب ليكشف الخبر فلم يرجع إلا بعد العَصْر ، فلما عاد إليه توعَّده فأرعى رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه ، وقال : يا نبي الله أذكر وقوفك بين يدي الله ! فأرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخُطَّافُ - بضم الخاء المعجمة ويجمع على خَطَّاطيف ، وهو طائر في قدر العصفور ، أسود ، وباطن جناحيه إلى الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعرض عن أقواتهم ويقتات البعوض والذباب . ومن شأنه السكنى في البيوت المعمورة بالناس في أفاحيص بينيها من الطين ، ويختار منها السقوف والأماكن التي لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبي في تفسيره في سورة النمل أن سبب قرب الخُطَّاطيف من الناس أن الله تعالى لما أهبط آدم إلى الأرض ، استوحش ، فأنسه الله تعالى بالخُطَّافِ وألزمه البيوت فهو لا يفارق بني آدم أسلَّهم ، والخُفَّاش يعاديه

فلذلك إذا أفرخ جعل في عُشِّه قُضبانَ الكَرْفِيسِ لينفِّر الحُفَّاشَ عنها .
ومن عادته أنه لا يُفْرِخُ في عُشِّ عتيق حتى يُطَيِّنَهُ بطين جديد، ولا يلقى شيئاً من
ذَرْقِه في عُشِّه بل يلقيه إلى ما شاء ؛ وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت ، ويوجد
في عُشِّه حَجْرُ اليرِقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق على
من به اليرِقَانُ أو شرب من سُحَّالته برئى ؛ وإنما يأتي بهذا الحجر إذا أصاب فراخه
اليرِقَانُ ، ولذلك يحتال بعضُ الناس بلطخ فراخه بالزعفران ليظن أن اليرِقَانُ قد أصابها
فيأتي إليها بهذا الحجر فيؤخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر أَلطَفُ قدرًا من هذا ، يَسْكُنُ شطوط الأنهار وجوانب
المياه ، وعدوا من أنواعه أيضا الذي يسميه أهل مصر الحُضَيْرِي ، وهو طائر أخضر
دون الببغاء في المقدار لا يزال طائرا وهو يصيح ، يقتات الفَرَّاشَ والذباب .

ومنها الصُّرْدُ - بضم الصاد وفتح المزملة ودال مهملة في الآخر ، ويجمع على
صِرْدَان . قال ابن قتيبة : سمي صُرْدًا ، حكاية لصوته ، ويسمى الواق بكسر القاف ،
وكنيته أبو كثير ، وهو طائر فوق العصفور ، نصفه أبيض ونصفه أسود ، ضخ
الرأس ، ضخ المنقار والبرائن ، لا يرى إلا في شَعْفَة أو شجرة بحيث لا يُقدَّر عليه أحد ،
وله صَفير مختلف . ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما في معناها ، فيصفر لكل طير
يريد صيده بلغته ، يدعو إلى التقرب منه فيأكله ، والعرب تتشاءم به
وتفر من صياحه ، وهو مما وردت الشريعة بالنهي عن قتله .

ومنها العَقَّوقُ - بعينين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة ، وربما قيل فيه
القَعَّع على القلب ، قال الجاحظ : سمي بذلك لأنه يعق فراخه فيتركهم أياما بلا
طعم . ويقال لصوته العَقَّعَة : وهو طائر على قدر الحمامة في شكل الغراب وجناحاه
أكبر من جناحي الحمامة ، ذلونين : أبيض وأسود ، طويل الذنب . ومن شأنه أنه

لا يأوى تحت سقف ولا يستظل به ، بل يبئى وكره في المواضع المشرفة ، وفي طبعه الزنا والخيانة ، ويوصف بالسرقة والخُبث ، وإذا رأى حلياً أو عقداً ، آخطفه ؛ والعرب تضرب به المثل في جميع ذلك ، وإذا باضت الأثى منه أخفت بيضها بورق الدلب خوفاً عليه من الخفاش ، فإنه متى قُوب من البيض مَدَرَ وتغير من ساعته . ويقال إنه ينجأ قوته كما ينجؤه الإنسان والنملة إلا أنه ينسى ما ينجؤه ؛ وبعضهم يعدّه في جملة الغربان ؛ وفيه وجه عندنا بحل أكله .

ومنها الشِّقْرَاقُ - بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية ، ويجوز فيه كسر الشين أيضاً ، وربما قلبوه فقالوا الشِّقْرَاقُ ، ويسمى الأخیل أيضاً ، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضر مُشَبَّع الخُضرة ، حسن المنظر في أجنحته سواد ، والعرب تُنشأ به . وفي طبعه الشره حتى إنه يسرق فراخ غيره وعدّه الجاحظ نوعاً من الغربان ، ويكثر ببلاد الشام والروم وخراسان . ولا يزال متباعداً من الإنس ، يألف الروابي ورؤوس الجبال ، إلا أنه يحضن بيضه في عوالى العُمران التي لا تتألف الأيدي . وعُشّه شديد البُنيان ، وله مشقّى ومصيف . قال الجاحظ : وهو كثير الاستغاثة ، إذا مرّ به طائر ضربه ينجأه وصاح كأنه هو المضروب . وفيه وجه بحل أكله .

ومنها الغُرَابُ الأَبْع - قال الجوهري : وهو الذى فيه بياض وسواد ، ويسمى غراب الدين أيضاً ، قال صاحب "المجالسة" سمى بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حين أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع . قال ابن قتيبة : وجعل فاسقاً لأجل ذلك ، ويسمى الأعور إتماً لأنه يُغمض إحدى عينيه لقوة بصره ، وإما لصفاء عينيه وحدة بصره من باب الأضداد . ومن طبعه الخيانة والسرقة والعرب تُنشأ به وتكره صوته . وقد سبق القول على ذلك في أوابد العرب من هذه المقالة .

ومن طبع الغراب الأستتار عند السَّفاد وأنه يَسْفِدُهَا مواجهة مُلقاة على ظهرها ،
والأثى تبيض أربع بيضات ونحسا ، وإذا خرجت الفِراخ من البيض نفر عنها
الأبوان لبشاعة مَنْظَرِهَا حينئذ فتغتنى من البعوض والذباب الكائن في عَشِّهَا حتى
ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها، وعلى الأثى الحِصْنُ وعلى الذكر أن يأتيها بالطَّعم ؛
وفيه حدَرٌ شديد وتناصُر، حتى إنه إذا صاح الغراب مستنصرا أجمع إليه عدة
من الغُربان .

ومنها الغُراب الأسود الكبير - وهو الجبلى ؛ وفيه وجه بجله .

ومنها الحِدَاةُ - بكسر الحاء والهمز الطائر المعروف ويجمع على حَدٍ وحِدَاءٍ .
ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ ، وهي لا تصيد بل تخطف ، ومن طبعها أنها تصفُّفُ
في الطيران وليس ذلك لشيء من الكواسر غيرها ، وزعم ابن وحشية وابن زهر أن
الحِدَاةَ والعُقَابَ يتبدلان فتصير الحِدَاةُ عُقَابًا والعُقَابُ حِدَاةً . وربما قيل الغراب
بدل العقاب ؛ ويقال : إنها تصير سنَّةً ذكرا وسنَّةً أُنثى ، ويقال : إنها أحسن الطير
بجاورة لما جاورها من الطير حتى لو ماتت جوعا لاتعدو على فرخ جارتها . وفي طبعها
أنها إنما تختطف ممن تختطف منه من يده اليمنى دون اليسرى حتى يقال إنها عسراء ؛
وقد ثبت في الصحيحين حل قتلها في الحل والحرم .

ومنها الرِّجَّةُ - بفتح الراء المهملة والحاء المعجمة ، وكنيتها أم جِعْرانَ ، وأم رِسَالَةَ
وأم عَجِيبة ، وأم قَيْسَ ، وأم كثير . ويقال لها الأَنُوقُ بفتح الهمزة ؛ وهي طائر أبقع بياض
وسواد فوق الحِدَاةِ في المقدار تأكل الحِيفَ ، وهي معدودة في بُغَاثِ الطير ، وهي
تسكن رءوس الجبال العالية وأبعدها من أماكن أعدائه ، ولذلك تضرب العرب المثل

(١) الذي في حياة الحيوان "أم كبير" .

بيضه فيقولون : "أَعْرُثُ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوَقِ" والأثني لا تمكن من نفسها غير ذكراها وتبيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البومة - بضم الباء الموحدة وفتح الميم - للذكر والأثني : وهو طائر من طير الليل في قدر الإوزة ، لها وجه مستدير بالريش النابت حوله ، يشبه وجه الآدمي في صفرة عينين وتوقدهما ؛ ويقال للذكر منها الصدى والضوع - بضم الضاد المعجمة - والقياد - بالفاء وتشديد المثناة تحت ، ويقال للأثني الهامة . وكنية الأثني أم الخراب ، وأم الصبيان ؛ ولها في الليل قوة سلطان لا يحتملها شيء من الطير ؛ تدخل على كل طائر في وكره في الليل فتخرجه منه وتأكل فراخه ويبيضه ، ولا تنام الليل ؛ والطير بجملته يعاديا من أجل ذلك ، فإذا رأوها في النهار قتلوها وتتفوا ريشها ، ومن ثم يجعلها الصيادون في شباكهم ليقع عليها الطير فيقتنصونها ؛ فهي لا تظهر بالنهار لذلك . ونقل المسعودي في مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنع من ظهورها في النهار خوفاً من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصور في نفسها أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنى الخراب دون العامر .

ومن غريب ما يحكى ما ذكره الطرطوشي في "سراج الملوك" : أن عبد الملك بن مروان أرق ليلة فاستدعى سميراً يحدثه ، فكان مما حدثه أن قال : يا أمير المؤمنين كان بالبصرة بومة وبالموصل بومة فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بنتها لأبنا - فقالت بومة البصرة : لأفعل حتى تجعلى في صداقها مائة ضيعة خراب - فقالت بومة الموصل : لأقدر على ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلمه الله علينا سنة واحدة فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للظالم .

(١) عبارة حياة الحيوان فاذا رآها الطير . . . قتلها وتنهن وهي أصوب .

(١) ومنها البُؤة - بضم الباء وفتح الهمزة - قال الجوهري : وهو طائر يشبه البومة إلا أنه أصغر منها . وذكر ابن قتيبة في أدب الكاتب نحوه ، ويقال له البُوهة أيضا ، وهي من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التي يسميها الناس في زماننا المصاصة ويزعمون أنها تنزل على الأطفال فتمصُّ أنوفهم .

ومنها الخُفَّاش - بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء وبالشين المعجمة ، ويجمع على خَفَافِيش - وهو طائر غريب الشكل والوصف لاريش عليه ، وأجنحته جلدة لاصقة بيده ، وقيل لا صقعة يجنبه ، وسمى خُفَّاشا لأنه لا يبصر نهارا ، وبه سمي الرجل أخفش ، والعامّة تسميه الوطواط ، وقيل الخُفَّاش الصغير ، والوطواط الكبير ، ويقال إن الوطواط هو الخُطَّاف لا الخُفَّاش . وليس هو من الطير في شيء ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، ويحيط ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويول كما تبول ذوات الأربع ، ويُرِضِع ولده من ثديه . ولما كان لا يبصر نهارا آلتبس وقتا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هيجان البعوض فالبعوض يخرج في ذلك الوقت يطلب قُوته من دماء الحيوان ، والخُفَّاش يخرج اطلب الطعم فيقع طالب رزق على طالب رزق ، ويقال إنه هو الذي خلقه المسيح عليه السلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مبائنا لغيره من الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبغضة له وتسطو عليه ، فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منها لا يأكل اللحم قتله ، وهو شديد الطيران ، سريع التقلب ، يقتات البعوض والذباب وبعض الفواكه ، وهو موصوف بطول العمر حتى يقال : إنه أطول عمرا من النَّسْرِ ، وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يَسْفِد وهو طائر في الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) لم يهزه أحد من اللغويين بل ذكره في باب الهاء وتدرسم في الصحاح بالواو وكذا في القاموس وقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه حنواً عليه، وربما أرضعت الأئشي ولدها وهي طائرة. وفي طباعه أنه متى أصابه ورق الدلب خدر ولم يطر، وقد ورد النهي عن قتله.

فإذا عرف الكاتب أحوال الطير وخواصها، تصرف فيها بحسب ما يحتاج إليه في نظمه ونثره كما في قول الشاعر:

وإذا السعادةُ لاحظتكَ عيونها، * نيم، فالمخاوفُ كلهنَّ أمانُ
وأصطدَّ بها العتقاءُ فهي جائلٌ، * وأقتدَّ بها الجوزاءُ فهي عنانُ

إشارة إلى عظم العتقاء وعدم القدرة على مقاومتها، ومع ذلك تتقاد بالسعد. وكما في قول أبي الفتح كُشاجم، مخاطباً لولده يطلب البر منه:

اتَّخِذْ فِي خَلَّةٍ فِي الْكَرَاكِي * اتَّخِذْ فِيكَ خَلَّةَ الْوَطْوَاطِ
أنا إن لم تَبْرِيَّ فِي عَنَاءِ * فَبِرِّي تَرْجُو جَوَازَ السَّرَاطِ

يشير إلى ما تقدم من أن في طبع الكركي بر والديه إذا كبراً، كما أن في طبع الوطواط بر أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه، وكما في قول الشاعر:

مثل النهار يزيدُ إِبْصَارَ الْوَرَى * نُورًا، وَيُعْنِي أَعْيْنَ الْخُقَافِشِ

إشارة إلى أن الخُقَافِش لا يُبْصِرُ نَهَارًا، بخلاف سائر أرباب الأبصار، وكما قيل في وصف شارذ عن القتال:

وَهُمْ تَرْكُوهُ أَسْلَحَ مِنْ حُبَارَى، * رَأَى صَقْرًا، وَأَشْرَدَ مِنْ نَعَامِ

يريد ما تقدم مما يعرض للحبارى من إرسالها ساجها على الجارح عند اقتناصه لها، وأت النعام في غاية ما يكون في البرية من الشراد والتفار، ونحو ذلك مما يجري هذا المجرى.

الصنف الرابع

(الحمّام)

وقد اختلف في الحمّام في أصل اللغة فنقل الازهرى عن الشافعى رضى الله عنه أن الحمّام يطلق على كل ماعبّ وهدر وإن تفرقت أسماؤه، فيدخل فيه الحمّام، واليمّام، والدّبّاسى، والقمارى، والفواخت وغيرها. وذهب الأصمعى إلى أن الحمّام يطلق على كل ذات طوق كالفواخت والقمارى وأشباهاها. ونقل أبو عبيد عن الكسائى سماعاً منه أن الحمّام هو الذى لا يألف البيوت، وأن اليمّام هو الذى يألف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمّام هذا النوع المخصوص المعروف .

ثم هو على قسمين .

أحدهما ما ليس له أهتداءً في الطيران من المسافة البعيدة . والثانى ماله أهتداء، ويعرف بالحمّام الهدى وهو المراد هنا ؛ وقد أعتنى الناس بشأنه في القديم والحديث، وأهتم بأمره الخلفاء : كالمهدى ثالث خلفاء بنى العباس، والوائق، والناصر وتنافس فيه رؤساء الناس بالعراق، لاسيما بالبصرة . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في أقنائه، ولهجوأ بذكره، وبالغوا في أثمانه حتى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمائة دينار ؛ ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار ؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً ، وإنه كان عندهم دفاتر بأنسب الحمّام كأنسب العرب، وإنه كان لا يتمتع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العدل من اتخاذ الحمّام والمنافسة فيه والإخبار عنها، والوصف لأثرها والنعت لمشهورها، حتى وجه أهل البصرة إلى بكر بن قتيبة البكرانى، قاضى مصر، وكان في فضله وعقله ودينه وورعه ما لم يكن عليه قاض، بجمادات لهم مع ثقات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولّى إرسالها بنفسه ، وكان الحمّام عندهم متجراً من المتاجر لا يروون بذلك بأساً .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ - يعني في الديار المصرية والبلاد الشامية - من الموصيل وأن أول من آعتنى به من الملوك ونقله من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله في سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد آعتنى بعض المصنفين بأمره ، حتى صنف فيه أبو الحسن بن ملاعب القواس البغدادي ، كتابا للناصر لدين الله العباسي ، ذكر فيه أسماء أعضاء الطائر ، ورياشه ، والوشوم التي توشم في كل عضو ، وألوان الطيور ، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعض المسافات التي أرسلت منها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري مجرى ذلك . وذكر في "التعريف" أن القاضي محي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمائم الحمام" ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأول

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القواس : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلى ذكر ألوان ستة .

اللون الأول البياض - ومنه الأبيض الصافي ، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة ؛ فإن كان الغالب في شُقرته البياض ، قيل فضي ؛ فإن زاد ، قيل أشقر .
اللون الثاني الخضرة - إن كانت خضرتة مُشبعة إلى السواد ، قيل أخضر مسني ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل نَبِيُّ الخضرة ؛ فإن كان دون ذلك ، قيل صافي الخضرة ؛ فإن تكثرت خضرتة بأن لم يكن صافي الخضرة ، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرَة - وهي عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلى البياض، فإن كان صافياً، قيل أصفر قرطاسي .

اللون الرابع الحمرة - إذا كان شديد الحمرة، قيل عُنَّابِيّ، فإن كان دون ذلك، قيل نَمْرِيّ، فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقِيّ، فإن كانت حُمْرته تضرب إلى الخضرة، قيل أ كُفَاء، فإن كانت حمرته تضرب إلى البياض، قيل أحمر صدقيّ .

اللون الخامس السواد - إذا كان شديد السواد لا بياض فيه، قيل أسود مُطْبِق، فإن كان لون سواده ناقصاً، قيل أسود أَخْلَس، فإن كان سواده يُضْرَب إلى الخضرة، قيل أسود رَمَادِيّ، فإن كان في سواده مائة، قيل أسود بَرَّاق، فإن كان ساقاه أيضاً أسودين، قيل أسود حالك وأسود زنجي .

اللون السادس النَمْرِيّ - وهو أن يكون في الطائر نقط يخالف بعضها بعضاً، ويختلف الحال فيه باختلاف كبر النقط وصغرها، فتارة يقال مدنر، وتارة يقال مامع، وتارة يقال أبرش، وتارة يقال مُوشَّح، وتارة يقال أبقع، وتارة يقال أبلق، وتارة يقال دبّاسي، وتارة يقال مدرع إلى غير ذلك مما لا يُستوفى كثرة . ثم إن كان الطائر أكل العينين وحول عينيه حمرة، قيل فقيع، فإن كان أصفر العين، قيل أصفر زرينجي، فإن كان أبيض العنق، قيل هلالى، وهو أحسنها، والأصفر العين بعده، فإن كانت العين بيضاء وفيها حمرة، قيل رُمَانِيّ العين .

الأمْر الثاني

(في عدد ريش الجناحين والذنب المعتد به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، في كل جناح منهما عشر ريشات، الأولى منها - وهي التي في طرف الجناح - تسمى الصمة، والثانية وهي التي بعدها تسمى

المُضَافَةُ الرَّئِيسِيَّةُ ، وَالثَّالِثَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْوَاسِطِيَّةُ ، وَالرَّابِعَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُنْتَجِدَةُ ، وَالخَامِسَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُنْتَظَفَةُ ، وَالسَّادِسَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُنْتَجِدَةُ ، وَالسَّابِعَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى النَّاقِصَةُ ، وَالثَّامِنَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُؤَنَسَةُ ، وَالتَّاسِعَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الزَّامِلَةُ ، وَالْعَاشِرَةُ وَهِيَ الَّتِي بَعْدَهَا تُسَمَّى الْمُعِينَةُ .

وَبَعْضُهُمْ يَسْمَى الْأُولَى الصَّغِيرَةَ ، وَالثَّانِيَةَ الرَّيْقَةَ ، وَالثَّالِثَةَ الْمَوْفِيَّةَ ، وَالرَّابِعَةَ الْبَاحِلَةَ ، وَالخَامِسَةَ الْحَيْرَةَ ، وَالسَّادِسَةَ الصَّرَافَةَ ، وَالسَّابِعَةَ مَمْسَكَةَ الرَّمِيِّ ، وَالثَّامِنَةَ وَالتَّاسِعَةَ الْحَافِظَتَيْنِ ، وَالْعَاشِرَةَ الْمَلِكَةَ .

وَرَبْمَا كَانَ فِي كُلِّ جَنَاحٍ إِحْدَى عَشْرَةَ رِيشَةً فَيَسْمَى الطَّائِرُ حِينَئِذٍ أَعْلَمَ .
وَلِهَذِهِ الرِّيشَاتِ الْعِشْرَةَ عَشْرُ رِيشَاتٍ مَعَ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا رَادِفَةٌ : وَهِيَ الرِّيشُ الصَّغَارُ الَّتِي تَغْطِي قِصَبَ الْجَنَاحِ مِنْ ظَاهِرِهِ ، وَلِكُلِّ رِيشَةٍ مِنْ هَذِهِ الرِّيشَاتِ الْعِشْرَةِ رِيشَةٌ صَغِيرَةٌ تَغْطِي قِصْبَتَهَا ، لِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا أَسْمٌ يَخْصُهَا .

وَمِنْ رِيشِ الْجَنَاحِ أَيْضًا الْخَوَافِي ، وَهِيَ الرِّيشُ الْمَسْطَرُّ مَعَ الْعِشْرِ رِيشَاتِ الطَّوَالِ الْمُنْقَلَبُ بِرُؤُوسِهِ إِلَى مُؤَخَّرِ الْجَنَاحِ . وَهِيَ تِسْعُ رِيشَاتٍ ، الْأُولَى مِنْهَا تُسَمَّى الْحَدَقَةُ ، وَالثَّانِيَةُ الرَّئِمَةُ ، وَالثَّالِثَةُ الْغَرَّةُ ، وَالرَّابِعَةُ الْحِزْ ، وَالخَامِسَةُ الْجَائِزَةُ ، وَالسَّادِسَةُ الْمَسَامَةُ ، وَالسَّابِعَةُ الْمَلَاذِمَةُ ، وَالثَّامِنَةُ الشَّعْثَةُ ، وَالتَّاسِعَةُ اللَّامِعَةُ . وَبَعْضُهُمْ يَسْمَى الْأُولَى بِنْتِ الْمَلِكَةِ ، وَالثَّانِيَةَ الْإِبْرَةَ ، وَالثَّالِثَةَ الْمَقْشَعْرَةَ ، وَالرَّابِعَةَ الصَّافِيَّةَ ، وَالخَامِسَةَ الْمَصْفِيَّةَ ، وَالسَّادِسَةَ الْمَصْفُورَةَ ، وَالسَّابِعَةَ الزَّرْقَاءَ ، وَالثَّامِنَةَ السُّودَاءَ ، وَالتَّاسِعَةَ الْمَزْرُقَةَ . وَعَدَّ فِيهَا عَاشِرَةً تُسَمَّى الْمُخْضَرَّةُ - وَلِكُلِّ رِيشَةٍ مِنَ الرِّيشَاتِ التَّسْعِ رِيشَةٌ صَغِيرَةٌ تَغْطِي قِصْبَتَهَا لَهَا أَسْمٌ يَخْصُهَا أَيْضًا .

وَبَعْدَ الْخَوَافِي الْغَفَارُ ، وَلِكُلِّ رِيشَةٍ مِنَ الْغِفَارِ رِيشَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ بَاطِنِهَا تَغْطِي قِصْبَتَهَا .

ومن ريش الجناحين المَقْوَمَات : وهي ثلاث ريشات في طَرْف الجناح ، تسمى الزوائد . ومن فوقها ثلاث ريشات صفراء تغطي قصبتهَا ، تسمى الغَوَاشِي ، وأصلها مع أصل ^(١) أيضا .

وأما الذَّنْبُ ، فالمعتبر فيه اثنتا عشرة ريشة من كل جانب : منه ست ريشات تسمى الأولى منها الغزالة ، والثانية العرُوس ، والثالثة الباشقة ، والرابعة الباقية ، والخامسة المجاورة ، والسادسة العمود ، ومن الجانب الآخر كذلك .

الأمر الثالث

(الفرق بين الذكر والأنثى)

وقد ذكروا بينهما فروقا ، منها أن الأنثى إذا تمشت ، قدّمت الرِّجْل اليسرى ؛ والذكر يُقدّم الرِّجْل اليمّنى . ومنها أن يرى الذكر مُقتدراً في الأرض مُستشيطاً ، والأنثى بالضد من ذلك ؛ ومنها أن ريش الذكر أعرض وأطول وأحسن استواءً من الأنثى ؛ ومنها أن مذبح الذكر يكون عريضاً ومذبح الأنثى دقيقاً ؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريض الخدّ والأنثى بالضد من ذلك ؛ ومنها أن الأنثى إذا طارت فتحت جناحها والذكر إذا طار أخرج عَشْرِيه .

الأمر الرابع

(في بيان صفة الطائر الفاره)

قال أبو الحسن القواس : علامته أن يكون رأسه مكعباً ، وعينه معتدلةً ، غير ناتئة ولا غائرة ، ولا فاترة ، ولا قلقة مزعجة ؛ وأن يكون منقاره غليظاً قصيراً ؛ وأن يكون وسط المنخارين ، مكائم القرطمتين ، أهرت الشدقين ، واسع الصدر ، نقي الريش ،

(١) - لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يفيد المقام تأمل .

طويل الفخذين ، قصير الساقين ، غليظ الاصابع ، شثن البراشن ، طويل القوائم من غير إفراط .

ويستحب فيه قصر الذنب ، ودقته ، واجتماع ريشه من غير تفرق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القصر أقرب ؛ وأن يكون جوجه : وهو جانب الصدر طويلا ممتدا ، وعنقه طويلا منتصبا ، وريش قواده وخوافيه مبنيا متطابقا بعضه مع بعض من غير تفرق ولا تمعط ، وأن يكون شديد اللحم ، مكنترا غير رخو ولا رهيل . ويستحب فيه أيضا أن يكون قليل الرعدة عند الفزع ، سريع اللقط للجب ، خفيف الحركة والنهوض ، والنزول من غير طيش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مسطحا لا أحذب ولا أوقص ؛ ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدره ، ويرفع عنقه ، ويفتح ما بين نخديه شبه البازي .

ومن علامة فراسته أنه إذا طال عليه الطيران وأراد النزول على سطحه أن لا يدلى رجليه حتى يقع صدره على سطحه لانه إذا دلى ساقيه ، كان عيبا عظيما يقولون قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدى جميع ما عنده من القوة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المغرِز ، وطول الذنب ، وتفرق الريش .

الأمر الخامس

(الفِرَاسَة فِي الطَّائِرِ مِنْ حَالِ صَغْرِهِ قَبْلَ الطَّيْرَانِ)

قالوا من علامة الطائر الفاره في صغره أن يكون حديد النظر ، شديد الحدز ، خفيف اللحم ، قليل الريش ، سريع النهضة ، كثير التلقت في الجوّ ، ممتد العظم ، مستويا ، لطيف الذنب ، خارج العنق ، قصير الساقين ، طويل الفخذين ، محجلا ،

(١) لعل الجار ومجوره من زيادة النسخ .

مذيل المتقار، مدور القراطم، مضاعف المحاجر، يلزم موضعا واحدا من صغره إلى ازدواجه، فإذا ازدوج على السطح يكون حريصا على طائرته، حسن الأخلاق معها لا يطردُها طرد الكلاب، ولا يغتال غيلة الذئب، قليل الذرق، كثير الدهن، مُدلاً بنفسه، كأنه يعلم أنه فاره. فإن كان فيه بعض هذه الخصال، كانت فراهته على قدر ما فيه من ذلك .

قال أبو الحسن الكاتب : ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيه الحركة وهو تحت أبيه وأمه، وكلما جمعه لتضمه تحتها، خرج من تحتها ويعتلق للخروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جملحا، وريش جسده وجناحه مستطيلا عند نبعه من جسده، وأن يطول ريشه حتى يغطي ظهره ولا ينتشر إلا بعد ذلك، وأن يكون من جوجو الصدر إلى مغززه أقصر من بطنه إلى رأس برائته .

وفي الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المتقار ليس فيه بياض، ورأس متقاره وأصله سواء، لاتحاديد في رأسه، عريض القراطم، غليظ الشدين، منتشر المنخرين، جهورى الصوت، غائر العين، قال أبو الحسن القواس : ولا تكون هذه الصفة إلا في الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم .

الأمر السادس

(بيان الزمان والمكان اللاتيين بالإفراخ)

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف أيلول، وتشرين الأول، وتشرين الثانى، وأذار، ونيسان، وإيار، فإذا وقع الإفراخ فى شئ من هذه الأوقات كانت الفراخ أقوياء، نجباء، أذكاء، ونهوا عن الإفراخ فى كانون الأول، وكانون الثانى، وشباط، وآب، وتموز، وحزيران، فإن الذى يُفرخ فيه لا يزال ناقص البدن، قليل الفطنة، يلقى ريشه فى السنة مرتين فيضعف .

وأما المكان فقد حكى عن إقليم الهندى أن أولى ما أفرخ الحمام بالسطوح ،
 وذلك أن الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونة الهواء وحرّ الموضع فيصير له عادة
 ثم لا ينهض حتى يعرف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزقّ والعآف فيعرف السطح
 حقّ المعرفة ، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصعود والهبوط . وربما أخذه إلى الرعى
 بالصحراء فلا يكمل حتى يصير شهما عارفا بأموور الطيران . بخلاف ما إذا أفرخ
 بالسفل فإنه يتربى جسده على برودة النىء ولين الهواء ، فإذا كمل وترقى إلى السطح
 لقيه خشونة الهواء وقوة الحرّ، فيحدث له الحرّ الجامد بفؤاده الكجّاد والدقّ .

الأمر السابع

(فى مسافة الطيران)

قد تقسم أن طائرا طار من الخليج التمسطنينى إلى البصرة ، وأن الحمام كان
 يرسل من مصر إلى البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد فى كتابه "جنى المحل وجنى
 النحل" أن العزيز ثانى خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه
 رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يجب أن يراها ، وكان بدمشق حمام من مصر ومصر
 حمام من الشام ، فكتب الوزير بطاقة يأمر فيها من بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام
 المصرى ويعلق فى كل طائر حبات من القراصية البعلبكية وترسل ففعل ذلك فلم
 يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القراصية فطلع بها إلى العزيز من يومه . وذكر
 أيضا فى كتابه "المغرب فى أخبار المغرب" أن الوزير اليازورى المغربى وزير
 المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينة تونس من افريقية من بلاد المغرب إلى
 مصر فجاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القواس في كتابه في الحمام أنّ حماما طار من عبادان إلى الكوفة ، وأن حماما طار من التّرناوذ إلى الأُبلة ونحو ذلك ، وسيأتي الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية في المقالة العاشرة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

النوع الخامس

(ما يحتاج إلى وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطة الملوك فلا بد أن يكون عارفا بصفات الجواهر وأثمانها والنفيس منها وخواصّها لأنه ربما جرى ذكر شيء من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة في رفعة محله ، وعلو مقداره ، وهذا هو الذي عوّل عليه صاحب "موادّ البيان" في احتياج الكاتب إلى ذلك . والثاني أن يحتاج إلى وصف شيء من ذلك مع هدية تصدر عن ملكه أو هدية تصل إليه ، مع ما يحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والاستعارات التي هي عمود البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لا يُحسن التعبير عنها ؛ ألا ترى إلى تشبيهات ابن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقع في نهاية الحُسن ، وغاية الكمال لمعرفته بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبر كالمعاينة" وقد آعتنى الناس بالتصنيف في الأحجار في القديم والحديث .

فمن صنف فيه في القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطا ليس ، وبلينوس ، وياقوس الإنطاكي .

ومن صنّف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبي خالد المعروف بابن الجزار ، ويعقوب بن إسحاق الكيندي وغيرهما . وأحسن مصنّف فيه مصنّف أبي العباس أحمد بن يوسف التيفاشي .

والذي يتعلّق الغرض منه بذلك اثنا عشر صنفا .

الصنف الأول

(اللؤلؤ)

وهو يتكون في باطن الصدف ، وهو حيوان من حيوان البحر الملح له جلد عظمي كالحلزون ، ويغوص عليه الغواصون ، فيستخرجونه من قعر البحر ، ويصعدون به فيستخرجونه منه . وله مغاصات كثيرة ، إلا أن مظان النفيس منه بسرنديب من الهند ، وبكيش ، وعمان ، والبحرين من أرض فارس ، وأفقره أولو جزيرة خارك ، بين كيش والبحرين .

أما ما يوجد منه ببحر القزوم وسائر بحار الحجاز فردى ، ولو كانت الدرّة منه في نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجيد اللؤلؤ في الجملة هو الشفاف الشديد البياض ، الكبير الحجم ، الكثير الوزن ، المستدير الشكل ، الذي لا تضريس فيه ، ولا تفرطح ، ولا أعوجاج . ومن عيوبه أن يكون في الحبة تفرطح ، أو أعوجاج ، أو يلصق بها قشر أو دودة ، أو تكون مخوفة غير مصمتة ، أو يكون ثقبها متسعا .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع في الدرّة أوصاف الجودّة ، فما زاد على وزن درهمين ، ولو حبة يسمّى درّا . فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سميت حبة بلؤلؤ ، وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمى حبة أيضا ، ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجودّة فيها ، وتسمى الحبة المستديرة الشكل عند الجوهريين الفارة ، وفي عرف العامة المدحرجة . ومن طبع الجواهر أنه يتكون قشورا رقاقا طبقة على طبقة حتى لو لم يكن كذلك فليس على أصل الخلق بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سحق وسقى مع سمن البقر نفع من السموم .

وقال ارسطوطاليس : من وقف على حل اللؤلؤ من بكاره وصغاره حتى يصير ماء رَجَاجاً ثم طلى به البرص أذهب به ، وقيمة الدرّة التي زنتها درهمان وحبّة مشلا أو وحبّتان مع اجتماع شرائط الجودّة فيها سبعة دینار ، فإن كان اثنتان على هذه الصفة كانت قيمتهما ألفی دینار كل واحدة ألف دینار لآتفاقهما في النظم ، والتي زنتها مثقال وهي بصفة الجودّة قيمتها ثلثمائة دینار ، فإن كان اثنتان زنتها مثقال وهما بهذه الصفة على شكل واحد لا تفريق بينهما في الشكل والصورة ، كانت قيمتهما أكثر من سبعة دینار . وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية أنه كان عند خلفائهم درّة تسمى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه في المواكب العظام على ماسياتي ذكره في الكلام على ترتيب دولتهم في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ويضّرّه جميع الأدهان ، والمخوضات بأسرها لاسيما الليمون ، ووهج النار ، والعرق ، وذفر الرائحة ، والأحتكاك بالأشياء الخشنة ، ويجلوه ماء حمض الأترج إلا أنه إذا أُسجّ عليه به قشره ونقص وزنه ، فإن كانت صففرته من أصل تكونه في البحر فلا سبيل إلى جلاؤها .

الصنف الثاني

(الياقوت)

قال بلينوس : وهو حجر ذهبي ، وهو حصي يتكوّن بجزيرة خلف سرنديب من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخا ، دورها نحو ستين فرسخا في مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الرّاهون تُحدر منه الرياح والسيول الياقوت فيلتقط ، والياقوت حصاؤه . وهو الجبل الذي أهبط الله تعالى عليه آدم عليه السلام ، فإذا لم تُحدر السيول منه

شيئا، عمد أهل ذلك الموضع إلى حيوان فذبحوه وسلخوا جلده وقطعوه قطعاً كباراً وتركوه في سفح ذلك الجبل فيختطفه سُور تأوى إلى ذلك الجبل فتصعد بالعلم إلى أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذه النسور وتنزل به إلى أسفل فيسقط منه ماعاً به من الياقوت؛ فإذا أخذ كان لونه مظلماً ثم يشف بملاقة الشمس ويظهر لونه على أى لون كان .

ثم هو على أربعة أضرب .

الضرب الأول الأحمر - ومنه البهرمان ، ولونه كلون العصفر الشديد المحرة الناصع في القوة الذى لا يشوب حرته شائبة، ويسمى الرمانى؛ لمشايبته حب الرمان الرائق الحب؛ وهو أعلى أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنا .

ومنه الخيرى : وهو شبيه بلون الخيرى : وهو المنتور، ويتفاضل في قوة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوردى : وهو كلون الورد ويتفاضل في شدة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردى الذى يضرب إلى البياض، والسماقى الذى يضرب إلى السواد. الضرب الثانى الأصفر - وأعلاه الجلتارى، وهو أشده صفرة، وأكثره شعاعاً ومائية، ودونه الخلقى، وهو أقل صفرة منه، ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشعاع .

وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال إلى البياض .

الضرب الثالث الأبيض - ومنه المهائى: وهو أشدها وأكثرها ماءً وأقواها شعاعاً، ومنه الذكر : وهو أثقل من المهائى وأقل شعاعاً وأصلب حجراً؛ وهو أدون أصناف

الياقوت وأقلها ثمنا . وأجود الياقوت الأحمر البهرمانى والرمانى والوردى النير المشرق اللون الشفاف ، الذى ينفذه البصر بسرعة . وعبوه الشعرة : وهى شبه تشقيق يرى فيه ، والسوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شئ من ترابية المعدن .
ومن أردا صفاته قبح الشكل .

ومن خواص الياقوت أنه يقطع كل الحجارة كما يقطعها الماس ، وليس يقطعه هو على أى لون كان غير الماس .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينحك على خشب العُشر الذى تجلى به جميع الأحجار ، بل طريق جلته أن يكسر الجزء اليمانى ويحرق حتى يصير كالثورة ثم يسحق بالماء حتى يصير كأنه الغراء ثم يحك على وجه صفيحة من نحاس حجر الياقوت ، فينجلي ويصير من أشد الجواهر صقالة .

ومن خواصه أنه ليس لشيء من الأحجار المشقة شعاع مثله ، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له فى المقدار ، وأنه يصبر على النار فلا يتكلس بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة ، وإذا خرج من النار برد بسرعة حتى إن الإنسان يضعه فى فيه عقب إخراجها من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصفرة وغيرها يتحول إلى البياض ، أما الحمره فإنها تقوى بالنار ، بل إذا كان فى الفص نكته حراء ، فإنها تبيض بالنار وتنسط فى الحجر . بخلاف النكته السوداء فيه ، فإنها تنقص بالنار فذهب حرته بالنار فليس بياقوت بل ياقوت أبيض مصبوغ ، أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافعه ما ذكره أراطا ليس ، أن التختم به يمنع صاحبه أن يصبه الطاعون إذا ظهر فى بلد هو فيه ، وأنه يعظم لابسه فى عيون الناس ، ويسهل عليه

قضاء الحوائج، وتيسر له أسباب المعاش، ويقوى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لا تقع على من تخم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وأمتحانه أن يُحكَّ به ما يشبهه من الأحجار، فإنه يجرحها بأسرها ولا تؤثر في فيه . قال التيفاشي : وقيمة الأحمر الخالص على ماجرى عليه العُرف بمصر والعراق أن الحجر إذا كان زنته نصف درهم، كانت قيمته ستة مثاقيل من الذهب الخالص، والحجر الذي زنته درهم قيمته ستة عشر دينارا، والحجر الذي زنته مثقال قيمته بدينارين القيراط، والحجر الذي زنته مثقال وثلاث قيمته ثلاثة دنائير القيراط إلى ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائته وكبر جرمه حتى ربما بلغ ما زنته مثقال من جوده مائة مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهاية في الصَّبغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالحك كثير من جرمه، وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بدينارين، وقيمة الأزرق والمهاني كل درهم بأربعة دنائير، وقيمة الأبيض على النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص في الصَّبغ والمائية مع القرب من المعدن والبعد عنه، وقد ذكر ابن الطوير في ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجر ياقوت أحمر في صورة هلال زنته أحد عشر مثقالا يعرف بالحافر، يجعل على جبين الخليفة بين عينيه مع الدرّة المتقدمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

(البَلَّخْشُ)

قال في مسالك الأبصار : ويسمى اللَّعَلُّ . قال بلينوس : وأعتقد في الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعده عن الياقوتية عِلَلٌ من اليُسِّ والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحُمْر، ومعدن البَلَّخْشُ الذي يتكوّن فيه بنواحي بَلَّخْشَان، والعجم

تقول : بَدَخْشَانُ بذال معجمة وهى من بلاد الترك تتاخم الصين . قال التيفاشى :
وأخبرنى من رأى مَعْدَنَه من التَّجَارِ أَنه وجد منه فى المعدن حجرا وفى باطنه ما لم
يكل طبخه وأنعقاده بعد ، والحجر مجتمع عليه ، وهو على ثلاثة أضرب : أحمر معقرب^م
وأخضر زَبْرَجِدِيٌّ ، وأصفر ، والأحمر أجوده . قال التيفاشى : وليس لجميعة شىء من
خواص الياقوت ومنافعه ، وإنما فضيلته تشبهه به فى الصَّبْغِ والمائية والشعاع
لا غير . قال : وقيمته فى الجملة غالبا على النصف من قيمة الياقوت الجيد . قال
فى مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد
لا يوجد بعد التعب والإنفاق ، ولهذا عز وجوده ، وعَلَّتْ قيمته ، وكثر طالبه ،
والتفتت الأعناق إلى التحلى به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلى بلادنا من البَلَّخَشِ
قطعة وصلت مع تاجر فى أيام العادل كتبغا وأحضرت إليه وهو بدمشق ، وكانت
قطعةً جليلةً مثلثة على هيئة المُشِطِ العودى . وهى فى نهاية الحسن وغاية الجودَةِ ،
زنتها خمسون درهما ، كاد المجلس يُضَيء منها ، فأحضر الصاحبُ نَجْمَ الدين الحنفى^ن
الجوهريَّ وسأله عن قيمتها فقال له نجمُ الدين الجوهريُّ : إنما يعرف قيمتها من
رأى مثلها ، وأنا أنت والسلطان ومن حضر لم نرمثلها فكيف نعرف قيمتها ؟
فأُجِبَ بكلامه ، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع

(عينُ الهَرِّ)

قال التيفاشى : وهو فى معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرة به أهدته عن
الياقوتية ، ولذلك إنما يوجد فى مَعْدِنِ الياقوت المتقدم ذكره ، وتخرجه الرياح

(١) فى ياقوت أنها فى أعلى طхарستان متاخمة لبلاد الترك .

والسيول كما تُخرجُ الياقوتَ على ما تقدّم ، قال : ولم أجدّه في كتب الأحجار ، وكأنه مُحدّثُ الظهور بأيدى الناس ، والغالب على لونه البياض بإسراق عظيم ومائية رقيقة شفافة ، إلا أنه ترى في باطنه نُكّته على قدر ناظر الهَرِّ الحامل للنور المتحرك في فَصِّ مقلته وعلى لونه : على السواد ، وإذا تحوَّك الفَصُّ إلى جهة ، تحركت تلك النكتة بخلاف جهته . فإن مال إلى جهة اليمين ، مالت النكتة إلى جهة اليسار وبالعكس ، وكذلك الأعلى والأسفل ، وإن كسر الحجر أو قطع على أقل جزء ، ظهرت تلك النكتة في كل جزء من أجزائه ، ولذلك يسمي عين الهر .

وأجوده ما أشتدّ بياض أبيضه وشفيفه ، وكثرت مائة النكتة التي فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها وإسراقها ، ولا يخفى أن حُسنَ الشكل وكِبَرَ الجرم يزيدان في قيمته كسائر الأحجار . قال التيفاشي : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء . ونقل عن بعض ثقات الجوهريين أنه يجمع سائر الخواص التي في الياقوت البهرماني في منافعه ، ويزيد عليه بأن لا ينقص مال حامله ولا تعثره الآفات ، وأنه إذا كان في يد رجل وحضر مصافّ حرب وهزيم حزبه فالتقى نفسه بين القتلى ، رآه كل من يمرّ به من أعدائه كأنه مقتول متشحط في دمه ، وإن ثمنه بالهند مع قُرب معدنه أغلى من ثمنه ببلاد المغرب بكثير ، لعلمهم بخواصه ، وقيّمته تختلف بحسب الرغبة فيه ، وإذا وقع ببلاد المغرب بيع المثلّال منه بنجسة دنانير ، ويزيد على ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشي عن بعض التجار أن حجرا منه يبيع في المَعْبَر من بلاد الهند بمائة ونحسين ديناراً وأنه يبيع منه حجر ببلاد الفُرس بسبعمائة دينار .

الصف الخامس

(الماس)

قال بليزوس في كتاب الأحجار : وأبتدأ في معدنه لينعقد ذهبا، فأبعده العوارض عن ذلك، وهو يتكون في معدن الياقوت المقدم ذكره وتخرجه الرياح والسيول من معدنه كما تخرج الياقوت، وهو ضربان : أحدهما أبيض شديد البياض يشبه البلور يسمى البلوري لذلك، والثاني يخالط بياضه صفرة فيصير كلون الزجاج الفرعوني، ويعبر عنه بالزيتي . قال الكندي : والذي عينته من هذا الحجر ما بين الخردلة إلى الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمر عليه، وإذا وضع على سندال حديد ودق بالمطرقة لم ينكسر، وغاص في وجه السندال والمطرقة وكسرها، ولا يلتصق بشيء من الأجساد إلا هسماً ويحو النقوش التي في الأحجار كلها . وإنما يكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يجعل داخل شيء من الشمع ويدخل في أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمه الحديد، فينكسر حينئذ؛ أو يجعل في أسرب وهو الرصاص ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتمى أكله فما سقطت منه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وأبتلعها أو طار بها، ومتى أبتلع منه الإنسان قطعة، ولو أصغر ما يكون خرق أمعاءه وقتلته على الفور . قال أرسطوطاليس : وبينه وبين الذهب محبة يتشبه به حيث كان .

ومن خاصته أن كل قطعة تؤخذ منه تكون ذات زوايا قائمة الرأس : ست زوايا وثمان زوايا وأكثر؛ وأقله ثلاث زوايا، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا،

وبه يثقب الدرّ والياقوت والزمرد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يُرَكَّب في رأس منقار حديد منه قطعة بقدر ما يراد من سعة الثقب وضيقة ثم يثقب به، فيثقب بسرعة.

ومن منفعتة فيما ذكره ارسطوطاليس أن من كان به الحصاة الحادثة في المثانة في مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقتها في مروء نحاس مُصْطَكِي الصاقاً مُحْكَمًا ثم أدخل المروء إلى الحصاة فإنها تثقبها. قال أحمد بن أبي خالد: وبذلك عاجلت وصيفا الخادم من حصاة أصابته وأمتع من الشق عليها بالحديد. وقال ابن بوسطر: وإذا علّق على البطن من الخارج، نفع من المغس الشديد ومن فساد المعدة؛ وقيمتة الوسطى فيما ذكره التيفاشي أن زنة قيراط منه دينارين؛ ونقل عن الكندي أن أعلى ما شاهد منه ببغداد المثلث بثمانين ديناراً وأرخص ما شاهد منه ببغداد أيضاً المثلث بخمسة عشر ديناراً، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصلح لقص قدر نصف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلذلة ثلاثة أضعاف وأربعة وخمسة.

الصنف السادس

(الزمرد)

يقال بالذال المعجمة والمهملية. قال بلينوس: والزمرد أبتدأ لينعقد ياقوتاً، وكان لونه أحمر إلا أنه لشدة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عرّض له السواد وامتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضر؛ ومعدنه الذي يتكوّن فيه في التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية، يوجد في جبل هناك ممتد كالجسر فيه معادن. قال في مسالك الأبصار: وبينه وبين قوص ثمانية أيام بالسير

المعتدل ولا عمارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والماء عنده على مسيرة نصف يوم أو أكثر في موضع يعرف بغدير أعين . فنه ما يوجد قطعاً صغاراً كالخصى منبته في تراب المعدن وهي الفصوص وربما أصيب العرق منه متصلاً فيقطع وهو القصب وهو أجوده . قال في مسالك الأبصار : وتلك العروق منبته في حجر أبيض تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشي : ويوجد على بعضه تربة كالكحل الشديد السواد، وهو أشده خضرة وأكثره ماء . وقد ذكر المؤيد صاحب حمّاه في تاريخه أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله لما استولى على قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبه زمرّد طولها أربعة أذرع أو نحوها . وهو على ثلاثة أضرب .

الأول الذبّابي - وهو شديد الخضرة، لا يشوب خضرتة شيء آخر من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرهما، حسن الصبغ، جيد المائية، شديد الشعاع، ويسمى ذبابيا لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي : وهو من أحسن الألوان خضرة وبصيصا . قال في مسالك الأبصار : وهو أقل من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثاني الریحاني - وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الریحان .

الثالث السلقي - وخضرتة أشبه شيء بلون السلقي .

الرابع الصابوني - ولونه كلون الصابون الأخضر، قال في "مسالك الأبصار" : وإذا استخرج الزمرّد من المعدن، جعل في زيت الككان ثم لف في قطن وصر في خرقة ككان ونحوها، ولم يزل العمل في هذا المعدن إلى أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فترك لكثرة كلفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبّابي، ويزداد حسنه بغير الحرم، وأستواء القصبه،

وعدم الأعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابى اختلاف الصِّبغ بحيث يكون موضع منه مخالفاً للموضع الآخر ، وعدم الأستواء فى الشكل ، والشعيرُ : وهو شبه سُقُوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرَّخَاوة ، وخفة الوزن ، وشدة المَلَّاسَة والصِّقَال والنُّعومة ، وزيادة الخضرة والمائية إذا ركب على البطانة ؛ وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها ، ولا يثبت ثبات الياقوت .

ومن خاصية الذبابى التى أمتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعى إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، أنفقت عيونها . قال التيفاشى : وقد جربت ذلك فى قطعة زمرّد ذبابى خالص ، فخصّلت أفعى وجعلتها فى طَشْتِ وأصقته بشمع فى رأس سهم وقربته من عينها فسمعت قعقة خفية كما فى قتل صُؤَابِيَةٍ فنظرت إلى عينها فإذا هما قد برزتا على وجهها وضِعفت حركتها . وبهذه الخاصّة يمتحن الزمرّد الخالص من غيره كما يمتحن الياقوت بالصبر على النار .

ومن منافعهُ أن من أذمن نظره أذهب عن بصره الكلال ؛ ومن تختم به دفع عنه داء الصرع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ؛ ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه على أولادها ؛ وإذا كان فى موضع لم تقربه ذوات السموم ؛ وإذا سُجِلَ منه وزن ثمان شعيرات وسقيته شارب السم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ؛ وإذا تختم به من به نَفَثَ الدم أو إسهاله ، منع من ذلك ؛ وإذا عُلِقَ على المعدة من خارج ، نفع من وجعها ؛ وشرب حكا كته ينفع من الجُدَام . وقيمة الذبابى الخالص فى الحجر الذى زنته درهم أربعة دنانير القيراط ، ويتضاعف بحسب كبره ، وينقص بحسب صغره ؛ إلا أنه لا ينقص بالصغر تقص غيره من الأحجار لوجود خاصيته فى الكبير والصغير والمُعوج والمستقيم . أما بقية أصناف الزمرّد ، فإنه لاقيمة لها يعتد بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابى .

الصنف السابع

(الزبرجد)

وهو حجر أخضر يتكوّن في معدن الزمرّد؛ ولذلك يظنه كثير من الناس نوعاً منه إلا أنه أقل وجوداً من الزمرّد . قال التيفاشي : أما في هذا الزمان فإنه لا يوجد في المعدن أصلاً، وإنما الموجود منه بأيدي الناس فصوص تستخرج بالنش من الآثار القديمة بالإسكندرية؛ وذكر أنه رأى منه فصاً في يد رجل أخبره أنه أستخرجه من هنالك، زنته درهم، لا يكاد البصر يقلع عنه لرقّة مائه، وحسن صفائه . وأجوده الأخضر المعتدل الخضرة، الحسن المائية، الرقيق المستشف، الذي ينقده البصر بسرعة؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون؛ وليس فيه شيء من خواص الزمرّد إلا أن إدمان النظر إليه يجلو البصر . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصنف الثامن

(الفيروزج)

وهو حجر نحاسي يتكوّن في معادن النحاس من الأبخرة الصاعدة منها، إلا أنه لا يوجد في جميع معادن النحاس؛ ومعدنه الذي يوجد فيه نيسابور، ومنه يجلب إلى سائر البلدان؛ ومنه نوع آخر يوجد في نشاور إلا أن النيسابوري خير منه؛ وهو ضربان بسحاق^(١) وخنجني، والخالص منه العتيق هو البسحاق وأجوده الأزرق الصافي اللون، المشرق الصفاء، الشديد الصقالة، المستوى الصبغ؛ وأكثر ما يكون فصوصاً؛ وذكر الكندي أنه رأى منه حجراً زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصفاء الحق ويكدر بكدرته وإذا مسه الدهن أذهب حسنه وغير لونه، والعرق يطفئ لونه، والمسك إذا باشره، أفسده وأذهب حسنه؛

(١) في مفردات ابن البيطار سنجابي ولعل ما في الأصل تصحيف .

وإذا وضع الفص الجيد منه إلى جانب ماهودونه في الجودّة، أذهب بهجته؛ وإذا وضع إلى جانب الدهنّج غلب الدهنّج على لونه فأذهب بهجته ولو كان الفص الفير وزج في غاية الحسن والجودّة .

ومن منافعه أنه يحلو البصر بالنظر إليه؛ وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب؛ وقيمته تختلف باختلاف الجودّة اختلافا كثيرا فربما كان الفصان منه زتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثمان الآخر درهم . وبالجملة فالخلتنجي الجيد على النصف من البسحاق الجيد . قال التيفاشي : وأهل المغرب أكثر الناس له طلبا وأشدهم في ثمنه مغالاة، وربما بلغوا بالفص منه عشرة دنانير مغربية ويحوصون على التحتم به، وربما زعموا أنه يدخل في أعمال الكيمياء .

الصنف التاسع

(الدهنج)

وقد ذكر أرسطوطاليس أنه أيضا حجر نحاسي يتكوّن في معادن النحاس يرتفع من أبنخرتها وينعقد، لكنه لا يوجد في جميع معادن كرمّان وسجستان من بلاد فارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سليم من برية المغرب، في مواضع أخرى كثيرة . وأجود أنواعه أربعة : وهي الافرندي، والهندي، والكرماني، والكركي؛ وأجوده في الجملة الأخضر المشبع الخضرة، الشبيه اللون بالزمرّد، معرّق بخضرة حسنة، فيه أهلة وعيون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صلبا أملس يقبل الصقالة .

ومن خاصته في نفسه أن فيه رخاوة بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نصب للسكاكين ومرت عليه أعداد سنين، ذهب نوره لرخاوته وأنحل؛ ولذلك إذا حكّ أنكح سريعا، وإذا خرط خرزا أو أواني أو غير ذلك، كان في خرطه سهولة،

وإذا نقع في الزيت آشتدت خضرته وحسن، فإن غُفِلَ عنه حتى يطول بُهْتُهُ في الزيت، مال إلى السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به على مواضع لدغ العقرب، سكنه بعض السكون ؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل وذلك به موضع التوبة الحادثة من المرّة السوداء، أذهبها .

ومن عجيب خواصّه أنه إذا سقى من سُحَّالته شارب سُمّ نفعه بعض النفع ؛ وإن شرب منه من لم يشرب سما، كان سما مفرطاً يُنْقِطُ الأمعاء، ويُلبِّبُ البدن ، ويحدث فيه سما لا يبرأ سريعاً، لا سيما إذا حُكَّ بمجديدة ؛ ومن أمسكه في فيه ومصه أضربّه ؛ وقيمته أن الافريديّ الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوبُ بن إسحاق الكنديّ أنه رأى منه صحفةً تسع ثلاثين رطلا .

الصنف العاشر

(البَلُورُ)

قال بلينوس : وهو حجر بُورِقِيٌّ وأصله الياقوتية إلا أنه قعدت به أعراض عن بلوغ رتبة الياقوت ؛ وقد اختلف أصحابنا الشافعية رحمهم الله في نفاسته على وجهين، أحدهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه، والثاني أنه ليس بنفيس لأن نفاسته في صنعته لا في جوهره . ويوجد بأماكن، منها بترية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده ، ومنه ما يؤتى به من الصين وهو دونه ، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو في غاية الجودّة ، ومنه معادن توجد بأرمينية تميل إلى الصفرة الزجاجية . وقد ذكر التيفاشي أنه ظهر في زمنه معدنٌ منه بالقرب من مرّاكش من المغرب

(١) في مفردات ابن البيطار بتر . وهي أرض .

الأقصى إلا أن فيه شعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلس كبير: أرضا وحيطانا. ونقل عن بغض التجار أن بالقرب من غزنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينها وبين كاشغر، جبلين من بلور خالص مطلين على وادٍ بينهما وأنه يُقَطَّعُ في الليل لتأثير شعاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار في العين. وأجوده أصفاه وأقواه وأشفه وأبيضه وأسأمه من التشعير؛ فإن كان مع ذلك كبير الحُرْمِ، آنية أو غيرها كان غاية في نوعه. وقد ذكر الكندي أن في البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المعدن أكبر من مائة من. ونقل التيفاشي: أنه كان بقصر شهاب الدين الغوري صاحب غزاة أربع خوابٍ للماء كل خابية تسع ثلاث رَوَايا ماء على محامل من بلور، كل محمل مائين ثلاثة قناطر إلى أربعة. وذكر أيضا أنه رأى منه صورة ديك مخروط من صنعة الفرنج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه في أظفار الديك.

ومن خاصته ما ذكره أفرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصَّبغ.

ومن خاصته أيضا أنه إذا استقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذي يخرج منه إلى نِرقَةٍ سوداء، احترقت وظهر فيها النار.

ومن منافعه أن من تحتم به أو علقه عليه لم يرمم سوء. وقيمته تختلف بحسب كبر آنيته وصغرها وإحكام صنعتها. قال التيفاشي: وبالجملة فالقطعة التي تحمل منه رطلا إذا كانت شديدة الصفاء سالمة من التشعير، تساوى عشرة دنانير مصرية.

الصنف الحادى عشر (المرجان)

وهو حجر أحمر في صورة الأحجار المتشعبة الأغصان؛ ومعدنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القلزم بساحل إفريقية، يعرف بمرسى الخرز، ينبت بقاعه كما ينبت النبات، وتعمل له شبك قوية مثقلة بالرصاص، وتدار عليه حتى يلتف فيها، ويجذب جذبا عنيقا فيطلع فيها المرجان. وربما وجد ببعض بلاد الفريجة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز، ومنه يجلب إلى بلاد المشرق. ولأهل الهند فيه رغبة عظيمة؛ وإذا أخرج، حك على مسنّ الماء؛ ويجلى بالسنبادج المعجون بالماء على رخامة فيظهر لونه، ويحسن؛ ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقى. وأجوده ما عظم حرمة، وأستوت قصباته، وأشدّت حرته، وسلم من التسويس؛ وهو حروق توجد في باطنه حتى ربما كان منه شئ خاوي كالعظم؛ وأردؤه مامل منه إلى البياض أو كثرت عقده وكان فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سلامته من العقد لوجود التشعب فيه، فإن أتفق أن تقع منه قطعة مضمّنة مستوية لا عقد فيها ولا تشطيب، كانت في نهاية الجودة. وقد يوجد منه قطع كبار فتحمل إلى صاحب إفريقية فيعمل له منها دوى وأنصبه سكاكين. قال التيفاشى: رأيت منها محبرة طول شبر ونصف، في عرض ثلاث أصابع، وأرتفاع مثلها؛ بغطائها في غاية الحمرة وصفاء اللون. وقد ذكر ابن الطوير في تاريخ الدولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها: أنه كان لخلفاء الفاطميين دواة من المرجان تُحمل مع الخليفة إذا ركب في المواكب العظام أمام ركب على فرس، كما سيأتى ذكره في الكلام على المسالك والممالك، في المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ومن خاصته في نفسه أنه إذا ألقى في النخل لأن وأبيض؛ وإن طال مكثه فيه

أحلّ، وإذا آتخذ منه خاتم أو غيره ولبس جميعه بالشمع ثم نقش في الشمع بإبرة بحيث ينكشف حرم المرجان وجعل في خل الخمر الحاذق يوما وليلة أو يومين وليلتين ثم أخرج وأزيل عنه الشمع، ظهرت الكتابة فيه حفرا بتأثير الخلل فيه، وبقية الخاتم على حاله لم يتغير. قال التيفاشي: وقد جربنا ذلك مرارا، ومتى ألقى في الدهن ظهرت حمرته وأشرق لونها.

ومن منافعه فيما ذكره الإسكندر أنه إذا علق على المصروع أو من به التقرس، نفعه، وإن أحرق وأسْتَنَّ به، زاد في بياض الأسنان وقلع الحفر منها وقوى اللثة، وطريق إحراقه أن يجعل في كوز نخار ويطين رأسه ويوضع في تنور ليلة، وإذا سحق وشربه من به عسر البول، نفعه ذلك، ويحال أورام الطحال بشره، وإذا علق على المعدة نفع من جميع علها كما في الزمرد، وإذا أحرق على ما تقدم وشرب منه ثلاثة دوانق مع دائق ونصف صمغ عربي بياض البيض وشرب بماء بارد، نفع من نَقَثِ الدم. قال التيفاشي: وقيمته بإفريقية غشيا الرطل المصري من خمسة دنانير إلى سبعة مغربية، وهي بقدر دينارين إلى ما يقاربهما من الذهب المصري، وبالإسكندرية على ضعفي ذلك وثلاثة أضعافه، ومن إسكندرية يحمل إلى سائر البلاد، ويختلف سعره بحسب قرب البلاد وبعدها، وقلته، وكثرته، وصغره، وجودته، وردائه، وحسن صنعته.

الصنف الثاني عشر

(البادزهر الحيواني)

وهو حجر خفيف هش. وأصل تكوُّنه في الحيوان المعروف بالأيل بتخوم الصين. وإن هذا الحيوان هناك يأكل الحيات، قد اعتاد ذلك غذاء له، فيحدث عن ذلك

وجود هذا الحجر منه على ماسياتي بيانه ، وقد اختلف الناس في أى موضع يكون من هذا الحيوان ، فقيل إنه يتكوّن في مآقي عينيه من الدموع التي تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويترثي الحجر حتى يكبر فيحتمك فيسقط عنه . وقيل يكون في قلبه فيصايد لأجله ويذبح ويستخرج منه . وقيل في مرارته . قال أرسطاطاليس : وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأخضر المشرب بالحمر والمشرب بالبياض . وأعظم ما يوجد منه من مثقال إلى ثلاثة مثاقيل . وأجوده الخالص الأصفر الخفيف الهش . ويستدل على خلوصه بكونه ذا طبقات رقاق متراكبة كما في اللؤلؤ ، وبه نقط خفية سود ، وأن يكون أبيض المحك مرّ المذاق . قال التيفاشي : وكثيرا ما يُغش فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيواني ولكنها تميز عن البادزهر الحقيقي بأن المصنوع أغبر كمد اللون ساذج غير منقط ، والبادزهر الحقيقي الخالص أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالتمش ، وطبقاته أرق من طبقات لمصنوع بكثير ، وهو أحسن من المصنوع وأهش ومحك أبيض .

ومن خاصته في نفسه أن احتكاكه بالأجسام الخشنة يخشنه ويغير لونه وسائر صفاته حتى لا يكاد يعرف . وقد ذكر التيفاشي أنه كان معه حجر منه ، فجعله مع ذهب في كيس وسافر به فأحتك بالذهب فتغير لونه ونقص وزنه حتى ظن أنه غير عليه ، وأنه ربطه بعد ذلك في خرقة وتركه أياما فعاد في الصفة إلى ما كان ، إلا أنه بقي على نقص ما ذهب منه .

ومن منافعه دفع السموم القاتلة وغير القاتلة ، حازة كانت أو باردة : من حيوان كانت أو من نبات ، وأنه ينفع من عضّ الحوام ونهشها ولدغها ، وليس في جميع الأحجار ما يقوم مقامه في دفع السموم . وقد قيل إن معنى لفظ بادزهر النافي للسم ، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلى اثنتي عشرة شعيرة مسحوقة

أو مسحوولة أو محكوكة على المبرّد بزيت الزيتون أو بالماء ، أخرج السم من جسده بالعرق ، وخلصه من الموت . وإذا سحق وذرّ على موضع النهشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله . قال ابن جمع : وإن حُكَّ منه على مسنّ في كل يوم وزن نصف دائق وسقيته الصحيح على طريق الاستعداد والاحتياط ، قاوم السموم القتّالة ولم تحش له غائلة ولا إثارة خلط ؛ ومن تخمّ منه بوزن اثنتي عشرة شعيرة في فصّ خاتم ثم وُضع ذلك الفصّ على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوام ذوات السموم ، نفع منها نفعاً بيناً ، وإن وضع على فم الملدوغ أو من سقى سما نفعه . قلت : هذه هي الأحجار النفيسة الملوكية التي تلتفت الملوك إليها وتعنى بشأنها ، أما غيرها من الأحجار كالبنفس ، والعقيق ، والجَزَع ، والمِغناطيس ، واليشم ، والسبج ، والألازورد وغيرها مما ذكره المصنفون في الأحجار فلا أعتدّاد به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكره .

النوع السادس

(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله في هديّة وما يجري مجرى ذلك ، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصنف الأوّل

(المسك)

وهو أجلّها . قال محمد بن أحمد التيميّ المقدسيّ في كتابه "طيب العروس" : وأصل المسك من دابة ، ذات أربع ، أشبه شيء بالظبي الصغير ، قيل لها قرن واحد ، وقيل قرنان ، غير أن له نايتين رقيقين أبيضين في فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين

في وجهه كالخزير . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضل دموى يجتمع من جسمها إلى سرتها ، بمنزلة المواد التي تنصب إلى الأعضاء في كل سنة في وقت معلوم ، فيقع الورم في سرتها ويجمع إليها دم غليظ أسود فيشتد وجعها حتى تمسك عن الرعي وورود المياه حتى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الظباء تصاد وتذبح وتؤخذ سررها بما عليها من الشعر ، والمسك فيها دم عييط : وهي النواج ، فإن كانت النابغة كثيرة الدم ، أكتفى بما فيها ، وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زيد فيها من غيرها ، ويصب فيها الرصاص المذاب وتحاط بالحوص وتعلق في حلق مستراح أربعين يوما ، ثم تخرج وتعلق في موضع آخر حتى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها ، ثم تُصير النواج في مزود صغار وتخطها التُّجار وتحملها . وقيل انه ينبت لهذه الظباء حين يعرض لها هذا العارض بناء كالنارة في طول عظم الذراع لتأتي الظباء فتحك سررها بذلك البناء فتسقط النواج ، حتى إنه يوجد في تلك المراغة ألوف من النواج ما بين رطب وجامد .

ثم قيل إن هذه الظباء توجد بمغازات بين الصين وبين التبت والصغد من بلاد الترك ، وإن أهل التبت يلتقطون ما قرب إليهم ، وقد قيل إن المسك يحمل إلى التبت من أرض بينها وبين التبت مسيرة شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التي ينسب إليها ، إما باعتبار أصل وجوده فيها ، وإما باعتبار مصيره إليها . وأجوده في الجملة ما طاب مرعى ظيئه ، ومرعى ظبائه النبات الذي يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفى أن بعض نبات الطيب أطيب رائحة من بعض حتى يقال إن منه ما رائحته كرائحة المسك . وقيل أجوده ما كمل في الظبي قبل بينوته عنه . وقال أحمد بن يعقوب : وأجود المسك في الرائحة والنظر ما كان قفاحيا تشبه رائحته رائحة التفاح اللباني ،

وكان لونه يغلب عليه الصفرة ، ومقاديره وسطا بين الحلال والرقاق ، ثم ما هو أشد سوادا منه إلا أنه يقاربه في الرأى والمنظر ، ثم ما هو أشد سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمة . قال : وبلغنى عن تجار الهند أن من المسك صنفين آخرين يُخْذَانِ من نبات أرض : أحدهما لا يفسد بطول المكث ، والثانى يفسد بطول المكث ؛ والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها على ترتيبها في الفضل مقدما منها في الذكر الأفضل فالأفضل على ما رتبته أحمد .

الأول التبتى - وهو ما حمّله التجار من التبت إلى خراسان على الظهر لطيب مرعاه ، وحمّله في البر ، دون البحر .

الثانى الصغدوى - وهو ما حمّله من الصغد من بلاد الترك على الظهر إلى خراسان .
الثالث الصينى - وإنما نقصت رتبته لأن مرعاه في الطيب دون مرعى التبتى ، ولما يلحقه من عفونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصينى ما يؤتى به من خانفو : وهى مدينة الصين العظمى ، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين ، ومنها يحمّل في البحر إلى بحر فارس ، فإذا قرب من بلد الأبلّة ارتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وزهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندى - وهو ما يحمّل من التبت إلى الهند ثم يحمّل من الهند إلى الديبل ثم يحمّل في البحر إلى سيراف من بلاد العجم ، وحمّان من البحرين ، وعدن من اليمن ، وغيرها من النواحي . وسبب انحطاط رتبته عن الصينى وإن كان من جنس التبتى مع أنه أقرب مسافة من الصينى ما ذكره المسعودى : أنه إذا حمل إلى الهند أخذه كفرة الهند فلطّخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يبدّلونه بغيره ، ويبيعه سدنة الأصنام فيطول مكثه على الأصنام تضعف رائحته . على أن محمد بن العباس قد فضل الهندى على الصينى لقرب مسافة حمّله في البحر .

الخامس القنبارى - ويؤتى به من بلد تسمى قنبار بين الصين والتبت . قال أحمد بن يعقوب : وهو مسك جيد إلا أنه دون التبتى فى القيمة ، والجوهر ، واللون ، والرائحة . قال : وربما غلطوا به فنسبوه إلى التبتى .

السادس الطُّغرغزى - وهو مسك رزين يضرب إلى السواد ، يؤتى به من أرض الترك الطغرغز وهم التتر ، وهو بطيء السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربما غلطوا به أيضا .

السابع القصارى - ويؤتى به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين . قال ابن يعقوب : وقد يُلحق بالصينى إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة .

الثامن الجزيرى - وهو مسك أصفر ، حسن الرائحة ، يشابه التبتى إلا أن فيه زعارة .

التاسع الجبلى - وهو مسك يؤتى به من السند من أرض الموليان ، وهو كبير النواجح حسن اللون إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر العصارى - وهو أضعف أصناف المسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج من النابغة التى زنتها أوقية زنة درهم واحد من المسك .

قلت : أما المسك الدارى فإنه منسوب إلى دارين : وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تجار الهند ، ويحمل منها إلى الأقطار وليست بمعدن لسك .

الصنف الثانى

(العنبر)

قال محمد بن أحمد التيمى : والأصل الصحيح فيه أنه ينبع من صخور وعيون فى الأرض ، يجتمع فى قرار البحر ، فإذا تكاثف اجتذبه الدهانة التى هى فيه على

أقنطافه من موضعه الذى تعلّق به ، وطفاً على وجه الماء ، وهو حارّ ذائب فتقطّعه
الريّح وأمواج البحر قطعاً كباراً وصغاراً فترمى به الريح إلى السواحل ، لا يستطيع
أحد أن يدنو منه لشدة حره وفورانته ، فإذا أقام أياماً وضربه الهواء جمد ، فيجمعه
أهل السواحل . قال أحمد بن يعقوب : وربما ابتاعته سمكة عظيمة يقال لها
الكيال وهو فائر فلا يستقرّ في جوفها حتى تموت فتطفو ويطرّحها البحر إلى الساحل
فيشقّ جوفها ويُستخرج منها ؛ ويسمى العنبر السّمكيّ ، والعنبر المبلّوع . قال التميمي :
وهو في لونه شبيه بالنار ، ردىء في الطيب : للشهوكة التى يكتسبها من السمك .
قال : وربما طرح البحر القطعة العنبر فيصيرها طائر أسود كالخُطّاف فيرفرف عليها
بجناحيه ، فإذا سقط عليها ليختطف بمنقاره منها تعلّق بمنقاره ومخاليه بها فيموت
ويبقى ويبقى منقاره ومخاليه فيها ، ويعرف بالعنبر المناقيرى .

قال التميمي : ولأهل سواحل البحر التى يوجد بها العنبر يُحبّ ركوبها مؤدّبةً
تعريف العنبر ، يسرون عليها في ليالى القمر على شاطئ البحر فإذا رأت العنبر وقد نام
راكبها أو غفل ، بركت بصاحبها حتى ينزل عنها فيأخذّه .

قال التميمي : وألوان العنبر مختلفةٌ . منها الأبيض : وهو الأشهب ، والأزرق ،
والرمّادى ، والجزازى : وهو الأبرش ، والصفائح : وهو الأحمر ، وهما أدنى العنبر
قدراً . قال : وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّة رائحةً ، وذكاءً بغير زعارة .

قال أحمد بن يعقوب : وأنواع العنبر كثيرة ، وأصنافه مختلفة ، ومعادنه متباينة .
وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره ، والذى وقفت على ذكره منه ستة أضرب .

الأول الشّحرى - وهو ما يقذفه بحر الهند إلى ساحل الشّحر من أرض
اليمن . قال : وهو أجود أنواع العنبر ، وأرفعه ، وأفضله ، وأحسنه لوناً ، وأصفاه جوهرًا
وأغلاه قيمةً .

الثاني الزنجي - وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذ من بحر الهند في جهة الجنوب إلى سواحل الزنج وما والاها . قال التيمي : وزعم الحسين بن يزيد السيرافي أنه أجود العنبر وأفضله ، ويؤتى به منها إلى عدن ، ولونه البياض .

الثالث السلاهطي - قال التيمي : وأجوده الأزرق الدسم الكثير الدهن ، وهو الذي يستعمل في الغوالي .

الرابع القاقلي - وهو ما يؤتى به من بحر قاقلة من بلاد الهند إلى عدن من بلاد اليمن ، وهو أشهب جيد الريح ، حسن المنظر خفيف ، وفيه يس يسير . وهو دون السلاهطي لا يصلح للغوالي إلا عن ضرورة . وهو صالح للذرائر والمكاسات .

الخامس الهندي - وهو ما يؤتى به من سواحل الهند الداخلة ، ويحمل إلى البصرة وغيرها ، ومنه نوع يؤتى به من الهند يسمى الكرك بالوس ، يأتون به إلى قرب عمان تشتريه منهم أصحاب المراكب .

السادس المغربي - وهو ما يؤتى به من بحر الأندلس فتحمله التجار إلى مصر ، وهو أردأ الأنواع كلها . وهو شبيه في لونه بالعنبر الشحري . قال التيمي : ويقال به فيه . قال التيمي : ومن العنبر صنف يعرف بالند ، وتقل عن جماعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهة ببقر الوحش فتلقيه من دبرها فيؤخذ وهو لين يمتد فما كان منه عذب الرائحة حسن الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصناف أحدها الشحري : وهو أسود فيه صفرة ، يحضب اليد إذا لمس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له على النار . وإنما يستعمل في الغوالي إذا عزر العنبر السلاهطي ، ومنه الزنجي : وهو نظير الشحري في المنظر ودونه في الرائحة : وهو أسود بغير صفرة ، ومنه الخمري : وهو يحضب اليد وأصول الشعر خضبا جيدا ، ولا ينفع في الطيب .

(١)

قلت : أما المعروف في زماننا بالعنبر مما يلبسه النساء فإنما يقال له الند، وفيه جزء من العنبر . قال في نهاية الأرب : وهو على ثلاثة أضرب .

الأول المثلث - وهو أجودها وأعطرها؛ وهو يركب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيب، وجزء من العود الهندي الطيب، وجزء من المسك الطيب .

الثاني وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيب عشرة مثاقيل، ومن الند العتيق الجيد عشرة مثاقيل، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث - وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيل من الخام عشرة مثاقيل من الند العتيق وثلاثون مثقالا من العود، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثالث

(العود)

قال التيمي : أخبرني أبي عن جماعة من أهل المعرفة أنه شجر عظيم تنبت ببلاد الهند، فمنه ما يجلب من أرض قشمير الداخلة : من أرض سرنديب، ومن قسار، وما اتصل بتلك النواحي، وأنه لا تصير له رائحة إلا بعد أن يعتق . ويقشر فإذا قشر وجفف، حمل إلى النواحي حينئذ . قال : وأخبرني بعض العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشجرة، بخلاف ما قارب القشركا في الآبوس والعناب ونحوهما من الأشجار التي داخلها فيه دهانة وما في خارجها خشب أبيض، وأنه يقطع ويقلع ظاهره من الخشب الأبيض، ويدفن في التراب سنين حتى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكى محمد بن العباس أنه يكون في أودية بين جبال شاهقة، لا وصول

(١) مراده باللبس الاستعمال .

لأحد إليهما لصعوبة مسلكهما، فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفن بكثرة السيول لِمَمَرِ
الأزمان فتأكل الأرض ما فيه من الخشب ويبقى صميمُ العود وخالصه فتجزئه السيول
وتُحْرِجُه من الأودية إلى البحر فتقذفه الأمواج إلى السواحل فيلتقطه أهل السواحل
ويجمعونه فيبيعونه . ويقال إنه يأتي به قوم في المراكب إلى ساحل الهند فيقفون على
البعد بحيث لا ترى أشخاصهم، ثم يطلعون ليلا فيضعونه بفرصة تلك البلاد، ويخرج
أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائع ويتركونها إلى الليل، فيأتي أصحابُ العود فمن
أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه وإلا تركه ؛ فيزيدونه حتى يُعَجِبَهُ فأخذه، كما يحكى
في السُّمُورِ وغيره في ساكني أقصى الشمال .

وأجود العود ما كان صلباً، رزينا، ظاهر الرطوبة، كثير المائبة والذهنية، الذي
له صبر على النار، وغليان، وبقاء في الثياب .

أما اللون فأفضله الأسود والأزرق الذي لا يبيض فيه ؛ ثم منهم من يفضل
الأسود على الأزرق ؛ ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .
وهو على ثمانية عشر ضربا .

الأول المندلي - نسبة إلى معدنه ؛ وهو مكان يقال له المندل من بلاد الهند .
قال محمد بن العباس الخشبي : وهو أرفع أنواع العود وأفضلها وأجودها وأبقاها
على النار وأعبقها بالثياب . على أن التجار لم تكن تجلبه في الجاهلية وإلى آخر الدولة
الأموية^(١)، ولا ترغب في حمله للمرارة في رائحته إلى أن دخل الحسين بن برمك إلى بلاد
الهند هاربا من بني أمية ، ورأى العود المندلي فاستجاده ورغب التجار في حمله ،
فلما غلب بنو العباس على بني أمية ، وحضر بنو برمك إليهم وقربوهم ، دخل الحسين

(١) هكذا بالاصل .

أبن برمك يوما على المنصور فرآه يتبخر بالعود القمارى فأعلمه أن عنده ماهو أطيب منه ، فأمره بإحضاره، فأحضره إليه فاستحسنه، وأمر أن يكتب إلى الهند بحمل الكثير منه، فاشتهر بين الناس وعز من يومئذ، وأحتمل ما فيه من مرارة الرائحة وزعارتها لأنها تقتل القمل وتمنع من تكوُّنه^(١) في الثياب :

الثانى القَامِرُونِ - وهو ما يجلب من القَامِرُونِ : وهو مكان مرتفع من الهند . وقيل القَامِرُونِ اسم لشجر من شجر العود ، وهو أعلى العود ثمنا وأرفعه قدرا .

قال التيمى : وهو قليل لا يكاد يُجلب إلا في بعض الحين ، وهو عود رطب جدا ، شديد سواد اللون ، رزِينٌ ، كثير الماء . وذكر الحسين بن يزيد السيرافى أنه ربما ختم عليه فأنطبع وقيل الختم للينه . قال : ويكون فيه ما قيمة المن منه مائتا دينار .

الثالث السَّمندُورِى - وهو ما يجلب من بلاد سَمندُور ، وهى بلد سُفالة الهند ، ويسمى لطيب رائحته رِيحانُ العود ، وبعضه يفضل بعضا . قال التيمى : وتكون القطعة الضخمة منه منّا واحدا .

الرابع القَارِى - وهو ما يجلب من قَمَار ، وهى أرض سُفالة الهند ، وبعضه يفضل بعضا أيضا ، وتكون القطعة منه نصف رطل إلى مادون ذلك .

الخامس القَاقِلِى - وهو ما يجلب من جزائر بحر قَاقِلَة ، وهو عود حسن اللون ، شديد الصلابة دسِم ، فيه رِيحَانِيَّةٌ حُمرة ، وله بقاء في الثياب إلا أن قَتَارَهُ ربما تغير على النار فينبغى أن لا يُستقصى إلى آخره .

السادس الصَّنْفِى - وهو ما يجلب من بلد يقال لها الصَّنْفُ ببلاد الصين ، وهو من أحلى الأعواد وأبقاها في الثياب . قال التيمى : ومنهم من يفضلُه على القَاقِلِى^(٢) ويرى أنه أطيب وأعقب وآمن من القَتَار ، وربما قدموه على القَمَارِى أيضا . قالوا :

(١) في الاصل تلوثه وهو تصحيف (٢) في ياقوت . وهو من أردل العود لافرق بينه وبين الخشب الايسير .

وأجود الصَّنِيِّ الأَسْوَدُ الكثير الماء، وتكون القطعة منه مناً وأكثر وأقل. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندي والقَهَارِيّ .

السابع الصندفوري - وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنِيِّ . ويقال إنه صِنْفٌ منه ولذلك كانت قيمته لاحقاً بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورزانة، وصلابة؛ إلا أنه ليس بالقطع الكبار .

الثامن الصَّبِيّ - ويؤتى به من الصين، وهو عود حسن اللون، أول رائحته تماثل رائحة الهندي إلا أن قناره غير مجود، وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقل .

التاسع القطعي - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصَّبِيِّ .
العاشر القسور - وهو عود رطب حلو طيب الرائحة؛ وهو أعذب رائحة من القطعي إلا أنه دونه في القيمة .

الحادي عشر الكلهي - وهو عود رطب يوضع، وفيه زعارة، وشدة مرارة للدهانة التي فيه، وهو من أعبق الأعواد في الثياب وأبقاها .

الثاني عشر العولاني - وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواحي قمار من أرض الهند .

الثالث عشر اللوقيني - وهو ما يجلب من لوقين : وهي طرف من اطراف الهند وله حجرة في الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد في الرائحة والقيمة .

الرابع عشر المسنطائي - وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثل قيمة اللوقيني، وهو خفيف ليس بالحسن اللون . قال أحمد بن العباس : وهو قطع كبار، ملس لا عقد فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنما يصلح للأدوية .

الخامس عشر القندغلى - ويؤتى به من ناحية كله^(١) ، وهي ساحل الزنج ، وهو يشبه القمارى إلا أنه لا طيب لرائحته .

السادس عشر السمولى - وهو عود حسن المنظر، فيه حمرة وله بقاء في الثياب .

السابع عشر الرانجى - وهو عود يشبه قرون الثيران ، لا ذكاء له ، ولا بقاء في الثياب .

الثامن عشر المحرم - سمي بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشك الناس في أمره ، فخرمه السلطان ومنعه فسمى المحرم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصنفي والفاقلي صنفا يقال له العطلى يؤتى به من الصين ، وهو عود صلب خفيف حسن المنظر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل . منها الأفليق - وهو عود يؤتى به من أرض الصين ، يكون في العظم مثل الخشب الرانجى الغلاظ يباع المن منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح في قشوره ، وداخله خشب خفيف مثل الخلاف ، وإذا وضع على الجمر وجد له في أوله رائحة حلوة طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصنف الرابع

(الصندل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سفالة الهند ، وهو على سبعة أضرب .

الأول المقاصيرى - وهو الأصفر ، الدسم ، الرزين ، الذى كأنه مسح بالزعفران الذى الرائحة . وأختلف في سبب تسميته بالمقاصيرى ف قيل نسبة إلى بلد تسمى

(١) الذى في معجم البلدان لياقوت أنها كوة وأما كة فقد قال إنها فرضة بالهند اه .

مقاصير؛ وقيل إن بعض خلفاء بني العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومخاطبته مقاصير منه؛ وهو شجر عظام يُقَطع رطبا، وأجوده ما أصفّر لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زعارة . قال التيمي : وهو يدخل في طيب النساء : الرطب واليابس؛ وفي البرميكات، والمثلثات، والذرائر؛ ويتخذ منه قلائد، ويدخل في الأدوية؛ ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأسيرة وإنه يأمر بقطع ما يحمل منه من اليمن إلى غيرها من البلاد قطعاً صغارا حتى لا يكون منها ما يعمل سريرا لغيره من الملوك .

الثاني الأبيض منه الطيب الريح - وهو من جنس المقاصيري المتقدم ذكره لا يخالفه في شيء إلا في البياض؛ ويقال إن المقاصيري هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث الجوزي - وهو صلب العود أبيض، يضرب لونه إلى السمرة، ويؤتى به من موضع يقال له الجوز، وهو طيب الرائحة إلا أنه أضعف رائحة من الذي قبله .
الرابع الساوس ويقال الكاوس - وهو صندل أصفّر طيب الرائحة إلا أن في رائحته زعارة؛ ويستعمل في الذرائر، والمثلثات : في الطيب والبخورات .

الخامس، يضرب لونه إلى الحمرة - وهو على نحو من الذي قبله .

السادس صندل جعد الشعرة - لا بساطة فيه إذا شقق بل يكون فيه تجديد كما في خشب الزيتون، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لا يستعمل في شيء سوى البخورات والمثلثات .

السابع أحمر اللون - وهو خشب حسن اللون، ثقيل الوزن لا رائحة له، إلا أنه يتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدوي وقطع الشطرنج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلى وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدى أو يرد هدية، ويجرى ذكره في مكاتبات الملوك، أما ما عدا ذلك من أصناف الطيب كالسُنْبُلِ، والقَرْنَفِلِ، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع

(ما يحتاج إلى وصفه من الآلات : وهي أصناف)

الصنف الأول

(الآلات الملوكية)

ويحتاج الكاتب إلى وصفها عند وصف المواكب الحفيلة ، التي يركب فيها السلطان وهي عدة آلات .

منها الخاتمُ بفتح التاء وكسرها، وحكى فيه ابن قتيبة والجوهري وغيرهما خَيْتَامٌ وخَاتَامٌ، وهو ما يجعل في الإصبع من الخلي، وهو مأخوذ من الختم، وهو الطبع : سمي بذلك لأنه يختم بنقشه على الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتي في الكلام على ختم الكتب ” أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب إلى بعض ملوك الأعاجم فقبل له إنهم لا يقرءون كتابا غير مختوم فأتخذ خاتما من ورق وجعل نقشه محمد رسول الله وأقتدى به في ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلى أن جعلوا للكتب طابعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه ” ديوان الخاتم ” وأقتفى الملوك أثرهم في ذلك ، ثم غلب بمملكتنا وماناهزها الاكتفاء في المكاتبات باللصاق ، وصار اسم الخاتم مقصورا على ما يجعل في الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ، وصارت الملوك إنما تلبس الخواتم بفضوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تجملا ، وربما بعثت بها في تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وأقترفه .

ومنها المنديل بكسر الميم ، وهو منديل يُجعل في المنطقة المشدودة في الوسط مع الصلوق وغيره ، ثم جرى اصطلاح الملوك على البعث به في الأمانات كما تقدم في الخاتم ، والمنديل آلة قديمة للوك ، فقد حكى أنه كان للأفضل بن أمير الجيوش أحد وزراء الفاطميين مائة بدلة معلقة على أوتاد من ذهب ، على كل بدلة منها منديل من لونها ؛ ولم يكن المنديل من آلات الخلافة بل إنما كان من آلات البردة على ما سأتى ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها التخت ، ويقال له السرير : وهو ما يجلس عليه الملوك في المواكب ؛ ولم يزل من رسوم الملوك قديما وحديثا ، رفعة لمكان الملك في الجلوس عن غيره حتى لا يساويه غيره من جلسائه ؛ وقد أخبر تعالى في كتابه العزيز أنه كان لسليمان عليه السلام كرسي بقوله ” وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ” ورأيت في بعض التواريخ أنه كان له كرسي من عاج مغطى بالذهب .

ثم هذه الأسرة تختلف باختلاف حال الملوك ، فتارة تكون من أبنية : رخام ونحوه ، وتارة تكون من خشب ، وتارة من فريش محشوة متراكبة ؛ وقد حكى أنه كان لملوك الفرس سرير من ذهب يجلسون عليه ؛ وكان عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو أمير مصر يجلس مع قومه على الأرض غير مرتفع عليهم ، ويأتيه المقوقس ومعه سرير من ذهب ، يجلس معه على الأيدي ، فيجلس عليه فلا يمنعه عمرو من ذلك ، إجراء له على عادته في الملوك فيما قيل ، لما عقده له من الذمة وأخذته معه من العهد .

ومنها المظلة ، وأسمها بالفارسية الخنز بنون بين الجحيم والزاي المعجمة ، ويعبر عنها العامة الآن بالقبة والطير : وهي قبة من حرير أصفر ، تحمل على رأس الملك ، على رأس رحبيد أمير يكون راجا بجذاء الملك ، يُظله بها حالة الركوب من الشمس في المواكب

العظام، وسيأتى ذكرها في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية . وهذه الدولة في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها الرقبة : وهي لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُرزت بالذهب الزرّكش حتى غلب عليها وصار الحرير غير مرئيّ فيها، تشدّ على رقبة فرس الملك في المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطى لظهر الفرس وكفله .

ومنها الغاشية، وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب، يظنها الناظر كلها ذهباً، يلقبها على يديه يمينا وشمالا .

ومنها الجفتاه، وهي فرسان أشهبان قريبا الشبه، بقرتين من زركش، وعدة تضاهى عدة مركوب السلطان كأنهما معدّان لأن يركبهما السلطان، يعلوهما ملوكان من الممالك السلطانية قريبي الشبه أيضا، على رأس كل منهما قبة من زركش مشابهة للآخر .

ومنها المنطقة بكسر الميم : وهي مايشد في الوسط، وعنها يعبر أهل زماننا بالحياصة، وهي من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : على بن أبي طالب رضی الله عنه كان له منطة . وهذه الآلة قد ذكرها في "التعريف" في الآلات الملوكية، على أن ملوك الزمان لم تجر لهم عادة بشد منطقة، وإنما يلبسها الملك للأمرء عند إلباسهم الخلع والتشريف، وهي تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص، ومنها ما ليس كذلك .

ومنها الأعلام : وهي الرايات التي تُحمل خلف السلطان عند ركوبه، وهي من شعار الملك القديمة، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعقد لأمرء

سراياه الرايات عند بعثها ؛ ثم قد يعبر عن بعضها بالعصائب جمع عصاية : وهي الألوية، أخذنا من عصابة الرأس : لأن الراية تعصب رأس الرمح من أعلاه ، وقد يعبر عنها بالسناجق جمع سنجق ، والسنجق باللغة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون في أعلى الرمح ، والرمح هو آلة الطعن يسمى بذلك مجازا .

ومنها الطبول ، ويقال لها الدبادب ، والبوقات ، والزرمر المعروف بالصهان الذي يضرب به عشية كل ليلة بباب الملك وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها ، وهي المعبر عنها بالطبخاناه ، وهي من شعار الملوك القديم . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن الطبل في بلاد المغرب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة المغرب في المسالك والممالك إن شاء الله تعالى . والسر فيها إرهاب العدو ، وتخذيده كما كتب به أرسطو في كتاب "السياسة" للإسكندر ، أو تقوية النفوس وتشجيعها على الحرب كما قاله الغزالي رحمه الله في "الإحياء" وكلمت كثيرت أعدادها ، كان أنعم لشأن الملك وأبلغ في رفعة شأنه . وقد حكى أن دبادب الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر في "التعريف" من جملة الآلات الملوكية الدواة ، والقلم ، والمِرْملة . ولا يخفى أنها بالآلات الكتاب أليق وإن كان السلطان لا يستغني عنها ؛ وسيأتي الكلام عليها في الكلام على آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(آلات الركوب - وهي عدة آلات)

منها السرج - وهو ما يقعد فيه الراكب على ظهر الفرس ؛ وأشكال قوابله مختلفة ؛ ثم من السرج ما يكون مغشى بالذهب ، وهو مما يصلح للوك .

ومنها ما يكون مغشئاً بالفضة البيضاء، وكل منها قد يكون منقوشاً وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها ما يكون سادجاً .

ومنها اللجام - وهو الذي يكون في ذك الفرس يمنع من الجراح، وقوابله أيضاً مختلفة، ثم منها ما يكون مطلياً بالذهب، ومنها ما يكون مطلياً بالفضة، ومنها ما يكون سادجاً، ومنها ما يكون رأسه وجنباه محلياً بالفضة، ومنها ما يكون غير محلي .

ومنها الكنبوش - وهو ما يستر به مؤخر ظهر الفرس وكفله، وهو تارة يكون من الذهب الزركش، وتارة يكون من الخايش : وهي الفضة الملبسة بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم، وبه يركب القضاة وأهل العلم .

ومنها العباءة بالمد - وهي التي تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المهماز - وهو آلة من حديد تكون في رجل الفارس، فوق كعبه، فوق الخلف وما في معناه، ومؤخره إصبع محدد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في المشي أو جدت في العدو . وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فضة، وتارة يكون من حديد مطلي بالذهب أو الفضة، وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه .

ومنها الكور - وهو ما يقعد فيه الراكب في ظهر النجيب : وهو الهجين، والعرب تسميه الرحل، ثم قد يكون مقدّمه ومؤخره مغشئاً بالذهب أو الفضة، وقد يكون غير مغشئ .

ومنها الزمام - وهو ما يقاد به النجيب، ويضبطه به الراكب كما يضبط الفارس الفرس بالعنان .

ومنها الركاب - وهو ما تجعل فيه الرجل عند الركوب، وكانت العرب تعتاده

من الجلد والخشب ، ثم حُدِلَ عن ذلك إلى الحديد . قال أبو هلال العسكري :
 في كتابه "الأوائل" " وأول من آتخذه من الحديد المَهَلَّبُ بنُ أبي صُفْرَةَ ، وكانت
 رُكْبُ العرب من خَشَبِ فكان الفارس يَصُكُّ الرَّاكِبَ ^(١) بركابه فيوهن مِرْفَقَهُ .
 ومنها السَّوْطُ - وهو ما يكون بيد الرَّاكِبِ يَضْرِبُ به الفرس أو النجيب ،
 وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرَعَة لأنه يُقْرَعُ به المركوب إذا تقاعس ، وهو بدل من
 القضيب الذي كان للخلفاء على ما سياتي ذكره في الكلام على ترتيب الخلافة
 في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث

(آلات السفر؛ وهي عدة آلات)

منها المِحْفَعَةُ بكسر الميم : وهي تَحْمَلُ على أعلاه قُبَّةٌ ، وله أربعة سواعد : ساعدان
 أمامها وساعدان خلفها ، تكون مغطاة بالجوخ تارة وبالحرير أخرى ، تُحْمَلُ على بغلين
 أو بعيرين يكون أحدهما في مقدمتها ، والآخر في مؤخرتها ، إذا رَكِبَ فيها الرَّاكِبُ
 صار كأنه قاعد على سرير ، لا يلحقه أنزعاج ، وقد جرت عادة الملوك والأكابر
 باستصحابها في السفر خشية ما يعرض من المرض .

ومنها المِحْمَلُ بكسر الميم الأولى وفتح الثانية : وهو آلة كالمِحْفَعَةِ إلا أنه يحمل على
 أعلى ظهر الجمل بخلاف المِحْفَعَةِ فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها الفَوَّانِيسُ ، جمع فأنوس ، وهي آلة كُرْبِيَّةٌ ذات أضلاع من حديد ، مغطاة
 بخرقه من رقيق الكَنَّانِ الصافي البياض يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة في أسفل باطنه

(١) لعله المركوب .

(٢) ضبطه في القاموس والصاحح كجلاس . ولعل ما في الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آلة .

فِيَشْفُ عَنْ ضَوْئِهَا ؛ وَمِنْ شَأْنِهَا أَنْ يَجْمَلَ مِنْهَا اثْنَانِ أَمَامَ السُّلْطَانِ أَوْ الْأَمِيرِ فِي السَّفَرِ فِي اللَّيْلِ .

وَمِنْهَا الْمَشَاعِلُ جَمْعُ مَشَعَلٍ : وَهِيَ آلَةٌ مِنْ حَدِيدٍ كَالْقَفْصِ مَفْتُوحُ الْأَعْلَى ، وَفِي أَسْفَلِهَا حُرْقَةٌ لَطِيفَةٌ ، تَوْقِدُ فِيهَا النَّارَ بِالْحَطْبِ فَيَبْسُطُ ضَوْءَهُ ، يَجْمَلُ أَمَامَ السُّلْطَانِ وَنَحْوِهِ فِي السَّفَرِ لَيْلًا أَيْضًا .

وَمِنْهَا الْحِيَامُ جَمْعُ خَيْمَةٍ ، وَيُقَالُ لَهَا الْفُسْطَاطُ وَالْقُبَّةُ أَيْضًا : وَهِيَ بَيْوتٌ تُتَّخَذُ مِنْ نَحْرَقِ الْقَطْنِ الْغَلِيظِ وَنَحْوِهِ ، تَجْمَلُ فِي السَّفَرِ لَوْقَايَةِ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ وَكَانَتْ الْعَرَبُ تُتَّخِذُهَا مِنَ الْأَدِيمِ ، وَقَدْ آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ” وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ” وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي فِي سَعَتِهَا ، وَتَنْتَاهِي بِكِبَرِهَا . وَسَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الدَّوْلَةِ الْفَاعِطِمِيَّةِ أَنَّهُ كَانَ لِبَعْضِ خُلَفَائِهِمْ خَيْمَةٌ تُسَمَّى الْقَاتُولُ سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ فَرَّاشًا مِنَ الْفَرَّاشِينَ وَقَعَ مِنْ أَعْلَى عَمُودِهَا فَتَاتَ لَطْوُهُ .

وَمِنْهَا الْخُرْكَاهُ : وَهِيَ بَيْتٌ مِنْ خَشَبٍ مَصْنُوعٌ عَلَى هَيْئَةٍ مَخْصُوصَةٍ وَيَعْتَشَى بِالْجُوحِ وَنَحْوِهِ ، تَجْمَلُ فِي السَّفَرِ لِتَكُونَ فِي الْخَيْمَةِ لِلْبَيْتِ فِي الشِّتَاءِ لَوْقَايَةِ الْبَرْدِ .

وَمِنْهَا الْقُدُورُ، جَمْعُ قَدْرٍ: وَهِيَ الْآلَةُ الَّتِي يُطْبَخُ فِيهَا وَتَكُونُ مِنْ نُحَاسٍ غَالِبًا، وَرَبَّمَا كَانَتْ مِنْ بَرَامٍ . وَالْمُلُوكُ تَنْتَاهِي بِكَثْرَتِهَا وَعِظَمِهَا : لِأَنَّهَا مِنْ دَلَائِلِ كَرَمِ الْمَلِكِ وَكَثْرَةِ رِجَالِهِ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِعَظِيمِ قَدْرِ مَا كَانَتْ الْجِنُّ تَعْمَلُهُ لَهُ مِنَ الْقُدُورِ بِقَوْلِهِ ” يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ وَمَمَائِيلٍ وَجِحَافٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ” .

وَمِنْهَا الْأَثَابِيُّ ، وَهِيَ الْآلَةُ الْمُنَاثِنَةُ الَّتِي تَعَلَّقُ عَلَيْهَا الْقَدْرُ عِنْدَ الطَّبِيخِ ، وَتَكُونُ مِنْ

حَدِيدٍ .

ومنها النار التي يوقد بها للطبخ ونحوه؛ وقد تقدم في الكلام على نيران العرب ذكر نار القرى، وهي نار كانت تُرْفَعُ ليلاً ليراها الضيف فيمتهدى بها إلى الحى .

ومنها الجفان جمع جفنة : وهي الآنية التي يوضع فيها الطعام؛ وقد تقدم في الكلام على القدور أنها مما كانت الجفن تعمله اسليمان عليه السلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بكبر الجفان لدالاتها على الكرم ، وفي ذلك يقول الأعشى في مدح المَحَلَّقِ لَيْلَةَ بات عليه :

نفى الدَّامَ عن آلِ المَحَلَّقِ جَفْنَةً * بكَأَيَّةِ الشَّيْخِ العِرَاقِيِّ تَفْهَقُ

قيل أراد بالشيخ العراقي كسرى، فشبّه جفنته بجفنته .

ومنها حياض الماء : وهي حياض من جلد تحمل في السفر ليقبى الماء فيها لسقى الدواب ونحوها، وكبر قدرها دليل على رفعة قدر صاحبها ونخامته : لدالاتها على كثرة دوابه، واتساع عسكره .

الصنم الرابع

(آلات السلاح ؛ وهي عدة آلات)

منها السيف : وهو معروف . وسيأتى في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هلك لأنه به يقع الهلك .

وأعلم أن السيف إن كان من حديد ذكّر : وهو المعبر عنه بالفولاذ، قيل سيف فولاذ، وإن كان من حديد أنثى : وهو المعبر عنه في زماننا بالحديد، قيل سيف أنثى ؛ فإن كان منته من حديد أنثى وحداه من حديد ذكر كما في سيوف الفريجة ، قيل سيف مُدَكَّرٌ ، ويقال إن الصاعقة إذا نزلت إلى الأرض وردت ، صارت حديدا، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا، فتحجىء في غاية الحُسْنِ والمَضَاءِ .

(١) هكذا في الأصل ولعلها مصحفة عن بردت .

(١) ثم إن كان عريض الصفيح ، قيل له صفيحة ؛ وإن كان محققا لطيفا ، قيل له قَصِيْبٌ ؛ فإن كان قصيرا قيل أْبْرٌ ؛ فإن كان قصره بحيث يحمل تحت الثياب ويُشتمَل عليه ، قيل مِشْمَلٌ بكسر الميم ؛ فإن كان له حد واحد وجانبه الآخر جاف ، قيل فيه صمّامة ، وهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه حُرُوز مستطيلة قيل فيه فقّارات ، وبذلك سمي سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الفقار ، يروى أنه كان فيه سبع عشرة فقارة . ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذي طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هِنْدِيٌّ ومُهَنْدٌ ، وفيما طبع باليمن يَمَانٍ ، وفيما طبع بالمشّارف : وهى قُرَى من قرى العرب قريبة من ريف العراق ، قيل له مَشْرَفِيٌّ ؛ فإن كان من المعدن المسمى بقُساس : وهو معدن موصوف بجودة الحديد قيل له قُساسِيٌّ ، وتارة ينسب السيف إلى صاحبه كالسيف السُرَيْجِيّ نسبة إلى قَيْن من قِيون العرب اسمه سُرَيْج معروف عندهم بحسن الصنعة . ويوصف السيف بالحسام : وهو القاطع أخذا من الحسم : وهو القطع ، وبالصارم : وهو الذى لا ينبوع عن الضربة . والناس يبالغون فى تحلية السيوف فتارة تُرْصَع بالجواهر ، وتارة يُحْلَوْنَها بالذهب ، وتارة يحلونّها بالفضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحلية .

ومنها الرُّخ : وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما متخذ من القنأ ، وهو قَصَب مسدود الداخل ، ينبت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قنأة ، ويقال لمفصلها أنابيبٌ ، ولعقدتها كُؤوبٌ ؛ فإن كان قد نشأ فى نباته مستقيما بحيث لا يحتاج إلى تثقيب ، قيل له الصَّعْدَة - بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن احتاج إلى تقويم مقوم قيل له مثقَّف . ويوصف القنأ بالخطيِّ - بفتح الخاء المعجمة ، نسبة إلى

(١) لعله مدققا (٢) كذا بالأصل . وصوابه مطمئنة كما فى المخصص واللسان .

الْحَطِّطُ : وهى بلدة بالبحرين تجلبُ إليها الرِّماح من الهند ، وتقل منها إلى بلاد العرب ، وليست تُنبت القَنَا كما توهمه ابن أصبغ في أرجوزته المذهبية .
الثانى ما يُتخذ من الخشب كالزان ونحوه ، ويسمى الذابل (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقال للحديد الذى فى أعلى الرُّخِّ السَّنَان ، وللذى فى أسفله الرُّجُّ والعَقَب .
ويُوصف الرُّخُّ بالأسمر : لأن لون القَنَا السُّمْرُ ، وبالعَسَال : وهو الذى يضطرب فى هزه ، وباللَّذن : وهو اللين ، وبالسُّمهرى نسبة إلى بلدة يقال لها سُمَّهْرَة من بلاد الحبشة ، وقيل إلى السُّمهرة ، وهى الصَّلابة .

ومنها الطَّبْر ، وهو باللغة الفارسية الفأس ، ولذلك يسمى السُّكْر الصُّلب بالطَّبْرَزد يعنى الذى يكسر بالفاس . وإلى الطَّبْر تنسب الطَّبْر داريّة : وهم الذين يحملون الأبطال حول السلطان على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالى .

ومنها السِّكِّين ، وسيأتى ذكرها فى آلات الدَّوَاة فى الكلام على آلات الكتابة وإنما سميت سِكِّيناً لأنها تُسكِّن حركة الحيوان . وتسمى المُدْيَة أيضاً لأنها تقطع مدى الأجل ، وهذه الاشتقاقات أولى بألة الحرب من آلة الكتابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلف أحوالها بحسب الحاجة إليها ، فتكون لكل شىء بحسب ما يناسبه .

ومنها القَوْس ، وهى مؤنثة . والقِسيُّ على ضربين : أحدهما العربية ، وهى التى من خشب فقط ، ثم إن كانت من عودٍ واحد قيل لها قِضيب ، وإن كانت من فلقين قيل لها فلق . الثانى الفارسية : وهى التى تُركَّب من أجزاء : من الخشب والقُرْن والعَقَب والغراء . ولأجزائها أسماء يخصص كل جزء منها اسم ، فوضع إمساك

الرامي من القوس يسمى المَقْبِضُ ، ومجرى السهم فوق قَبِضِ الرامي يسمى كَيْدِ القوس ، وما يُعْطَفُ من القوس يسمى سِيَّةَ القوس ، وما فوق المَقْبِضِ من القوس ، وهو ماعلى يمين الرامي يسمى رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ماعلى يسار الرامي يسمى رَجُلُ القوس .

ومنها النَّشَابُ ، والنَّبَلُ ، فالنَّبَلُ ما يرمى به عن القِسيِّ العربية ، والنَّشَابُ ما يرمى به عن القِسيِّ الفارسيَّة حكاية الأزهرى ، ومجرى الوتر من السهم يسمى الفُوق ؛ وحديده يسمى النَّصْلُ ؛ والرَّيشُ يسمى القُدْدُ ؛ والسهم قبل تركيب الريش يسمى القِدْحُ (بكسر القاف وسكون الدال المهمله) .

ومنها الكِنَانَةُ ، ويقال لها الجَعْبَةُ : وهى بكسر الكاف : وهى ظَرْفُ السهام ، وتكون تارة من جلد ، وتارة من خَشَب .

ومنها الدَّبُّوسُ ، ويسمى العامودَ : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومن فى معناه . ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهى آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدَّبُّوس .

ومنها البِيضَةُ : وهى آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه ما يرسل على القفا والآذان ، وربما كان ذلك من زَرْدٍ .

ومنها المِقْفَرُ ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدولة على قفا اللابس وأذنيه ، وربما جعل منها وقاية لأنفه أيضا ، وقد تكون من زَرْدٍ أيضا .
ومنها الدَّرْعُ : وهو جبة من الزَرْدِ المنسوج يلبسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام ، وهى تذكر وتؤنث ، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه ألين

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ أَنْ أَعْمَلَ سَابِغَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروعُ الفائقةُ إلى نَسِجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السَّلُوقِيَّةُ نسبةً إلى سَلُوقَ ، قريةٌ من قُرَى اليمن ، وربما قيل دُرُوعٌ حَطُومِيَّةٌ بضم الحاء المهملة نسبةً لحطوم رجل من عبد القيس .
وأعلم أن ليس العرب في الحرب كان الزرد ، أما الآن ، فقد غلب عمل القِرَقَلَاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها ببعض .

ومنها الأترس : وهو الآلة التي يتقى بها الضرب والرمي عن الوجه ونحوه ، وتسمى الجُنَّةَ أيضا بضم الجيم أخذًا من الأجتنان وهو الاختفاء ، وربما قيل لها الجَحْفَةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ، ثم هي تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيذان مضموم بعضها إلى بعض بنحيط القطن ونحوه ، فإن كانت من جلد ، قيل لها دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخامس

(آلات الحصار ، وهي عدة آلات)

منها المَنَجْنِيقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقافٍ في الآخر ، وحكى ابن الجواليقي فيه كسر الميم ، وحكى فيه أيضا منجنوق بالواو ومَنَجْمِيقٍ بإبدال النون الثانية ميمًا ، وهو اسم أعجمي ، فإن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية ، ويجمع على مجانيق ومناجيق . قال الجوهرى : وأصله مَنْ جَى نِيكَ وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ابن خلكان : تفسير مَنْ وتفسير جَى ايش ، وتفسير نيك جيد ، قال ابن قتيبة في كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكري

(١) لعلز يادة الواو من تحريف النساخ . والصواب حَطْمِيَّةٌ نسبةً إلى حَطَمَ رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

في "الأوائل" : وهو آلة من خشب لها دَفْتَانِ قَائِمَانِ بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ الْمَنْجَنِيقِ التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئاً إلا أهلكه .

وأول من وضع الْمَنْجَنِيقَ جَذِيمَةُ الْأَبْرَشُ مَلِكُ الْحِيرَةِ على العرب . وذكر الواحدى في تفسير سورة الأنبياء : أن الكفار لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يقدروا على القرب من النار ليلقوه فيها ، فجاءهم الأعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعملوه وألقوه فيه فقتلوا به في النار ، فكان أول مَنْجَنِيقٍ عُمِلَ .

ومما يلتحق بالمنجنيق الزبارات : وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق حتى ينحط أعلاه ليرمى به الحجر .

ومنها السهم الخطاية ^(١) ، وهي سهام عظام يرمى بها عن قسي عظام توتر بلوالب يجزها ويرمى عنها فتكاد تحرق الحجر .

ومنها مكاحل البارود ، وهي المدافع التي يرمى عنها بالنقط . وحالها مختلف : بعضها يرمى عنه بأسمم عظام تكاد تحرق الحجر ، وبعضها يرمى عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرتال بالمصرى إلى ما يزيد على مائة رطل ، وقد رأيت بالإسكندرية في الدولة الأشرفية ، شَعْبَانَ بن حُسَيْن ، في نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرَام رحمه الله ، بها مدفعا قد صنع من نحاس ورسايص وقيد بأطراف الحديد رُمي عنه من الميدان ببندقية من حديد عظيمة محماة ، فوَقَعَتْ في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة .

(١) لعله مصحف والذي يؤخذ من المخصص أن السهم الخطاي هو السهم الغليظ الحادر فلعل هذا منه كما يفيدته التفسير بعد تأمل .

ومنها قوارير النَّفِطِ، وهي قدور ونحوها يجعل فيها النَّفِطُ ويرمى بها على الحصون والقلاع للإحراق، على أن القوارير في اللغة أسم للزجاج وإنما استعيرت في آلات النَّفِطِ مجازاً .

ومنها الستائر، وهي آلات الوقاية من الطوارق، وما في معناها مما يستبره على الأسوار والسفن التي يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد، وهي عدة آلات)

منها قوس البندق (ويسمى الجُلاهق) قوس يتخذ من القنأ ويلف عليه الحرير ويعزى، وفي وسط وتره قطعة دائرة تسمى الجوزة، توضع فيها البندقة عند الرمي .
ومنها الجراوة، وهي آلة من جلد يجعل فيها البندق الطين الذي يرمى به عن القوس المقدم ذكره .

ومنها الشباك، وهي آلة تتخذ تعقد من خيطان وتنصب لأقتناص الصيد، وكذلك تطرح في الماء فيصاد بها السمك .

ومنها الزبطانة^(١)، وهي آلة من خشب مستطيلة كالرُح مجوفة الداخل يجعل الصائد بندقة من طين صغيرة في فيه، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدة فتصيب الطير فترميه، وهي كثيرة الإصابة .

ومنها الفخ، وهو آلة مقوسة لها دفتان تفتحان قسراً، وتعاقدان في طرف شظاة ونحوها إذا أصابها الصيد، أنطقت عليه .

ومنها الصنائر جمع صنارة، وهي حديدة معقفة محددة الرأس يصاد بها السمك .

(١) في الأصل الزبربطانة . والتصحيح من القاموس .

الصفحة السابع

(آلات المعاملة، وهي عدة آلات)

منها الميزان، وهو أحد الآلات التي يقع بها تقدير المقدرات، فالموازين قديمة
الوضع قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا
الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة
القِسْطِ بِالْوَزْنِ كما أخبر تعالى عنه بقوله ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾. قال أبو هلال
العسكري: وأول من اتخذ الموازين من الحديد عبد الله بن عامر. قال: وأول
من وضع الأوزان سمير اليهودي، وذلك أن الحجاج ضرب الدراهم بأمر عبد الملك
ابن مروان ونهى أن يضربها أحد غيره، فضربها سمير فأمر الحجاج بقتله لأجترائه
عليه. فقال سمير: أنا أدلك على ما هو خير للمسلمين من قتلي، فوضع الأوزان: وزن
ألف، وخمسمائة، وثلاثمائة، إلى وزن ربع قيراط، وجعلها حديدا، فعفا عنه. وكان
الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره، وأكثرها يؤخذ عددا.
ومنها الذراع، مؤنثة، وهي إحدى الآلات التي تقدر بها المقادير أيضا، بها تقدر
الأرضون، ويقاس البزوما في معناه، ولم تزل الناس قديما وحديثا يتعاملون بها على
اختلافها، وقد ورد ذكرها في القراءات الكريم في قوله تعالى ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا
سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾. وقد ذكر الماوردي في الأحكام السلطانية سبع أذرع.
إحداها العُمريَّة، وهي الذراع التي قدرها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي
الله عنه لمسح سواد العراق. قال موسى بن طلحة: وطولها ذراع وقبضة وإبهام.
قال الحكم بن عتيبة: عمده عمر رضي الله عنه إلى أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا،
فجمع منها ثلاثة وأخذ الثلث منها وزاد عليها قبضة وإبهاما قائمة، ثم ختم في طرفها
بالرصاص، وبعت بذلك إلى حذيفة وعثمان بن حنيف فسحا بها السواد.

الثانية الهاشمية ، وتسمى الزيادة . قال : وهي أربع وعشرون إصبعاً ، كل إصبع سبع شعيرات مُعتدلات معترضات ، ظَهراً لبطنٍ ، كل شعيرة عرض سبع شعرات من شعر البردُون ؛ وهذه الذراع التي يعتمدها الفقهاء في الشرعيات ، وبها قدروا البريد المعتبر في مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عبّروا عنها بذراع الملك ؛ وسميت بالهاشمية لأن أبا جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس آتبرها وعمل بمقتضاها في المساحة وتبعه سائر خلفائهم على ذلك ، وبنو العباس من بني هاشم ، فنسبت إلى بني هاشم مباينةً لأن تقدمهم من خلفاء بني أمية . قال الماوردي : وتسمى الزيادة : لأن زيادا مسح بها السواد أيضا .

الثالثة البِلاليةُ ، وهي أنقص من الهاشمية المقدم ذكرها ثلاثة أرباع عُشرها ؛ وإنما سميت البِلالية لأن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري هو الذي وضعها ، وذكر أنها ذراعُ جدّه أبي موسى .

الرابعة السّوداءُ ، وهي دون البِلالية باصبعين وثلاثي اصبع ؛ وأول من وضعها الرشيد ، قدرها بذراع خادم أسود ، كان قائماً على رأسه . قال الماوردي : وهي التي يتعامل بها الناس في ذرع البزّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخامسة اليوسُفيّةُ ، وهي دون الذراع السوداء بثاني إصبع ؛ وأول من وضعها أبو يوسف صاحب أبي حنيفة . قال الماوردي : وبها يدرع القضاة الدّور ببغداد .

السادسة القصبة ، وهي أنقص من الذراع السوداء بإصبع وثلاثي إصبع ؛ وأول من وضعها ابن أبي ليلى القاضي . قال الماوردي : وبها يتعامل أهل كَلَوَازِي .

السابعة المهرانية، قال الماوردي : وهي بالذراع السوداء ذراعان وثلاثا ذراع ؛ وأول من وضعها المأمون ، وهي التي يتعامل بها في حفر الأنهار ونحوها .
ومنها المقص (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة ، وينتفع به في أمور مختلفة .

الصف الثامن

(آلات اللَّعب ؛ وهي عدة آلات)

منها التَّرد (بفتح النون وسكون الراء المهملة) وهو من حَمَّ الفُرْس ؛ وضعه أردشير بن بابك أول طبقة الأكاسرة ، من ملوكهم ، ولذلك قيل له نَرْدشِير ، وضعه مثالا للدنيا وأهلها ، فرتب الرقعة اثني عشر بيتا بعدد شهور السنة ، والمهارة ثلاثين قطعة بعدد أيام الشهر ، وجعل الفصوص بثلاثة الأفلاك ، ورميها مثل ثقلها ودورانها ، والنَّقَطَ فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة ، وهي الشمس ، ويقال له اليك ، والبنج ، ويقال له الدو ، والجهار ، ويقال له النا ، وجعل ما يأتي به اللاعب من النقوش كالقضاء والقدر : تارة له وتارة عليه ، وهو يصرف المهارة على ما جاءت به النقوش ، إلا أنه إذا كان عنده حُسن نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل على اللَّعب وقهر خصمه ، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة ؛ لكن قد وردت الشريعة بذمه قال صلى الله عليه وسلم " مَنْ لَعِبَ بِالرَّدشِيرِ فَكَأَنَّمَا عَمَسَ يده في لحم خنزير " وفي رواية " ملعون من لعب بالردشير " . وفي تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان ، أحدهما التحريم ، والثاني الكراهة . وإذا قلنا حرام ، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة .

ومنها الشَّطرنج ، بفتح الشين المعجمة أو السنين المهملة لغتان ، والأولى منهما

(١) الذي في القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوله وفي لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من

أفصح، وهو فارسيّ معرّب، وأصله بالفارسية شش رنك، ومعناه ستة ألوان وهي الشاه (والمراد بها الملك) والفرزان، والفيل، والفرس، والرُّخ، والبيدق، ثم الشُّطْرُنْج من أوضاع حكماء الهند وحِكْمِهِمْ . وضعه صصه بن داهر الهنديّ لبليهب ملك الهند مساواة لأردشير بن بابك في وضعه النرد، وعرضه على حكماء زمانه فقبضوا بتفضيله، ثم عرضه على الملك وعزّفه أمره، فقال: أحْتَكِمْ عَلَيَّ، فتمنّى عليه عددٌ تضعيف بيوته، من قمحة إلى نهاية البيوت، فاستصغره همته وأنكر عليه مواجتهه بطلب نزرٍ يسير، فقال هذه طَلَبْتِي فأمر له بذلك، فحَسَبَهُ أَرَبَابُ دَوَاوِينِهِ فقالوا للملك: إنه لم يكن عندنا ما يقارب القليل من ذلك، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان، فكان إعجاب به بالأمر الثاني أكثر من الأول. قال ابن خَلِّكَانَ: ولقد كان في نفسي من هذه المبالغة شيء حتى آجتمعت بي بعض حساب الإسكندرية فأوضح لي ذلك وبينه، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر، فأثبت فيه اثنين وثلاثين ألفا وسبعائة وثمانية وستين حبة، وقال: تجعل هذه الجملة مقدار قَدَحٍ، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه وية، ثم أنتقل من الويات إلى الإردب، ولم يزل يُضَعِّفُهَا حَتَّى آتَمَّتْهُنَّ فِي الْبَيْتِ الْأَرْبَعِينَ إِلَى مِائَةِ أَلْفِ إِرْدَبٍ وَأَرْبَعَةٍ وَسَبْعِينَ أَلْفِ إِرْدَبٍ وَسَبْعِائَةٍ وَأَتْنِينَ وَسِتِينَ إِرْدَبًا وَثَلَاثِينَ إِرْدَبًا، وقال: هذا المقدار شونة، ثم ضاعف الشَّوْنَ إِلَى بَيْتِ الْخَمْسِينَ فَكَانَتْ الْجُمْلَةُ أَلْفًا وَأَرْبَعًا وَعِشْرِينَ شَوْنَةً، وقال: هذا المقدار مدينة، ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلى الرابع والستين، وهو نهايتها، فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة، وقال: تعلم أنه ليس في الدنيا مدن أكثر من هذا العدد قال الصلاح الصَّفْدِيُّ في شرح اللامية: وأجر ما اقتضاه تضعيف رقعة الشُّطْرُنْج ثمانية عشر ألف ألف ست مرات، وأربعمائة وستة وأربعون ألفا خمس مرات،

وسبعمائة وأربعة وأربعون ألفاً أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفاً ثلاث مرات ،
وسبعمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسة وأحد وخمسون ألفاً وستمائة وخمس عشرة
حبة عددا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصارى : إذا جمع هذا العدد هرماً واحداً مكعباً ، كان
طوله ستين ميلاً ، وعرضه كذلك ، وارتفاعه كذلك ، بالميل الذى هو أربعة
آلاف ذراع .

واللعب بالشطرنج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازى رحمه الله
فى "المهذب" أن سعيد بن جبيرة الإمام الكبير التابعى المشهور كان يلعب الشطرنج
عن استتبار . ومن يضرب به المثل فى لعب الشطرنج الصولى : وهو أبو بكر محمد
أبن يحيى بن عبد الله بن العباس بن صول تكين الكاتب ؛ ويقال إن المأمون كان
لا يجيد لعب الشطرنج ، فكان يقول : عجبا منى كيف أدبر ملك الأرض من الشرق
إلى الغرب ولا أحسن تديبر رقعة : ذراعين فى ذراعين . ثم فى حله عند أصحابنا
الشافعية ثلاثة أوجه أصحها أنه مكروه والثانى أنه مباح والثالث حرام ، فإن أقترن به
رهن من الجانيين أو أحدهما ، فإنه محرم بلا نزاع .

الصنف التاسع

(آلات الطرب : وهى عدة آلات)

منها العود : وهو آلة من خشب محففة ؛ له عنق ورأسه ممال إلى خلفه ، وهو
آلة قديمة ، وتسميه العرب المزهر بكسر الميم ، وهو أخف آلات الطرب وأرفعها قدرا
وأطيبها سماعا ، حتى يقال إنه قيل له هل يُسمع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال
رأسه إلى خلفه فهى مماله لأجل ذلك .

ومنها الجنك، قال في "التعريف": وهو آلة مُحَدَّثَةٌ طيبة النَّعْمَةِ، لذيد السماع يقارب العود في حسنه، وشكله مباين لشكل العود، ورأسه ممال إلى أسفل؛ يقال إنه قيل له: هل يُسَمَعُ أحسنُ منك؟ فقال: نعم، يريد العود.

ومنها الرَّبَابُ (بفتح الراء): وهي آلة مَجُوفَةٌ مركب عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر مُمْتَر عليها بقوس وتره من شعر فيسمع لها حَسٌّ طَيِّبٌ؛ وأكثر من يعانها العرب.

ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكَنْجَة لطيف القدر في تدويره، أطيب حسا وأشجى من الرَّبَاب.

ومنها الدُّفُّ (بضم الدال): وهو معروف، ثم إن كان بغير صُنُوج، وهي المعبر عنها في زمننا بالصرابير، حلَّ سَمَاعُهُ، أو بَصُنُوج، فالأصح كذلك.

ومنها الشَّبَابَةُ (بفتح الشين): وهي الآلة المتخذة من القَصَبِ المَجُوفِ، ويقال لها اليرَاع أيضا تسمية لها بأسم ما اتخذت منه، وهو اليراع يعني القصب، وربما عبر عنها بالمزمار العراقي؛ وتصحيح مذهب الشافعي رضى الله عنه يختلف فيها فالرافعي رحمه الله يميز سماعها والنووي يمنع من ذلك.

الصننف العاشر

(المسكرات وآلاتها؛ وهي عدّة أشياء)

منها الخمر: وهي ما اتخذ من عصير العنب خاصة؛ وهي محرمة بنص القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الخمرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وأبو حنيفة يبيحها للتداوى والعطش، ولم تبح عند الشافعية إلا لإساعة لقمة المغصوم خاصة؛ وشاربها يحد بالأنفاق؛ وحكم بنجاستها تغليظا في الزجر عنها، وأباح أبو حنيفة المُتَثَّثَ: وهو ما ذهب ثلثاه وبقى ثلثه وقال بطهارته، وجرى عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة.

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنه يقال له نبيذ ؛ وقد ذهب الشافعي رضي الله عنه إلى القول بتجسيسه والحدّ بشربه وإن لم ينته منه إلى قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفة الحدّ في القدر الذي لا يُسْكِر ؛

ثم للخمر أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمّى الخمر لأنها تُخمر العقل : أي تغطيه ، والحُمَيّا لأنها تُحَمِّي الجسد ، والعُقَار لأنها تعاقِر الدنن : أي تطول مدتها فيه إلى غير ذلك من الأسماء التي تكاد تتجاوز مائة .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذي يُصبّ منه ؛ والإبريق في أصل اللغة ماله خرطوم يُصبُّ منه .

ومنها القدح : وهو إناء من زجاج ونحوه يُصبُّ فيه من الإبريق المقدم ذكره .
ومنها الكأس : وهو القدح بعد أمثله ، ولا يُسمى كأساً إذا كان فارغاً بل قدحاً كما تقدّم .

ومنها الكُوبُ بالباء الموحدة : وهو الذي لأعرورة له يُسك بها ، أما إذا كانت له عروة ، فإنه يقال له كوز بالزاي المعجمة .

قلت : والعجب ممن يُذهب طبيّاته في حياته الدّنيا ، ويفوز بها وصْفُه المرارة وطبعه إزالة العقل الذي به تُدرَك اللذة ، ويفوت النعيم المقيم في دار البقاء ! فقد ورد "أن من شرب الخمر في الدّنيا لم يطعمها في الآخرة" . قال العلماء : إذا رآها ، لا يشتهيها ولم تطلبها نفسه ، وقد وصف الله تعالى حال نحر الجنة بقوله : "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْفَوْنَ" . وأتبع ذلك بكلمة النعمة في قوله : "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٍ عِينٍ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيهِمُ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا" .

اللهم لا عيشَ إلا عيش الآخرة ! فلا تحرمنا خيرا عندك بشر ما عندنا .
ومنها الحَشِيشَةُ التي يأكلها سَفَلَةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأَطباء الشَّهْدَانِج ،
وعبر عنها ابن البيطار في مفرداته بالقَنْبِ الهِنْدِيِّ . وهي مدمومة شرعا ، مضرّة طبعاً ،
تُفسد المزاج ، وتؤثر فيه الحَفَافَ وغلبة السوداء ، وتفسد الدهن ، وتورث مَسَاءة
الأخلاق ، وتُحطُّ قدرَ متعاطيها عند الناس إلى غير ذلك من الصفات الذميمة
المتكاثرة . وكلام القاضي حُسَيْن يدل على أنه لا يحدّ متعاطيها وإن فُسِّقَ ، فإنه قال :
وغير الخمر مثل البَنجِ ، وجَوَزِ مَائِلٍ ، والأفيون لا يحدّ متعاطيه بحال ، بل إن تعمد تناوله
فُسِّقَ به ، وإن تناوله غَلَطًا أو للتداوى به ، لم يُفَسِّقْ ؛ وقد أفرد ابن القسطلاني
الحشيشة بتصنيف سماه "تَكْرِمَةُ المَعِيشَةِ ، في ذم الحشيشه" ذكر الكثير من معانيها
ومساوى متعاطيها ، أعاذنا الله تعالى من ذلك .

النوع الثامن

(مما يحتاج إلى وصفه الأفلاك والكواكب ، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في بيان ما يقع عليه اسم الفلك وعدد أكرهه^(١) ، وما بين كل كرتين

وحركة الأفلاك في اليوم والليلة)

أما ما يقع عليه اسم الفلك ، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صاحب "مناهج
الفكر" : توأطأت الأمم على تسمية أجرام السموات أفلاكا ، وقال ابن قتيبة
في "أدب الكاتب" : الفلك مدار النجوم الذي يضمها ، وأحتج بقوله تعالى بعد

(١) في القاموس الأكرة لغية في الكرة . وقد جمعها المؤلف على هذه اللغة وفي اللسان أن أكرأ جمع كرة

مقلوب اللام إلى موضع الفاء فانظره .

ذكر النجوم : ”وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ“ قال : وسمى فلَكًا لِأَسْتِدَارَتِهِ وَمِنْهُ قِيلَ فَلَكَةٌ الْمَغْزَلُ لِأَسْتِدَارَتِهَا .

وأما شكل الفلك وهيئته ، فقد اختلف علماء الهيئة في ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِّيَّةٌ لا مسطحة ، لأن أسرع الأشياء حركة السموات وأسرع الأشكال حركة الكُرَّة لأنها لا تثبت على مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أكرهه ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أكرٍ متسقة ، ملتفة بعضها فوق بعض التفاف طبقات البصلة ، بحيث يماس محذب كل كُرَّة سفلى مقعر كُرَّة أخرى عليا إذ لا خلاء بينهما عندهم . قالوا : وأقرب هذه الأكر إلى الأرض كُرَّة القمر ، ثم كُرَّة عطارد ، ثم كُرَّة الزهرة ، ثم كُرَّة الشمس ، ثم كُرَّة المريخ ، ثم كُرَّة المشتري ، ثم كُرَّة زحل ، ثم كُرَّة الكواكب الثابتة ، ثم كُرَّة الفلك الأطلس ، وسمى بالأطلس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفلك المحيط . ويسمى ^(١) فلَك الكل ، وفلك الأفلاك ، والفلك الأعلى ، والفلك الأعظم ، وحكى الومحسى في ”كتاب الآراء والديانات“ أن بعض القدماء ذهب إلى أن كُرَّة الشمس أعلى من سائر كُرَّات الكواكب ، وبعدها كُرَّة القمر ، وبعدها كُرَّة الكواكب المتحركة ، ثم كُرَّة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالاعتصار على ذكر سبع سموات ، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكرسي ، والفلك التاسع هو العرش . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلى أن فوق الكُرَّة التاسعة كُرَّة عاشره هي المحركة لسائر الأكر . وذهب آخرون إلى أن وراء نهاية الأجرام السماوية خلاء لانهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلى أن وراءها عالم الصورة ، ثم عالم النفس ، ثم عالم السياسة ، ثم عالم العلة الأولى ، ويعنون به البارئ تعالى عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أهمله في الأصل ولم نعر عليه بعد البحث .

وأما ما بين كل كُرْتَيْن ، فذهب أهل الهيئة إلى أنها مترابطة لاختلاف بينهما لكن قد ورد الشرع بما يخالف ذلك ، فأطبق القصاص من أهل الأثر على أن بين كل سماء وسماء خمسمائة سنة ؛ وفي سنن الترمذي أن "بين كل سماء وسماء واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة" .

وأما حركة الأفلاك اليومية ، فإن الفلك الأطلس المقدم ذكره يتحرك بما في ضمنه في اليوم والليل حركة واحدة دورية على قطبين مائلين يسميان قطبي العالم أحدهما عظمى تقطع هذا الفلك نصفين تسمى دائرة معدل النهار ، لأن الشمس متى حلت بها ، أعتدل النهار في سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرة دائرة أخرى متوهمة تقسم هذا الفلك نصفين على نقطتين متقابلتين ، يصير نصفها في شمالي معدل النهار ونصفها الآخر في جنوبيه ، ويسمى منطقة البروج ، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصة في السنة الشمسية ، ومن ثم قسمت اثني عشر قسما ويسمى كل قسم منها برجاً .

المقصد الثاني

(في ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الكواكب السبعة السيارة)

وهي زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ، والزهرة ، وعطارد ، والقمر ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وأشتقاق أسمائها ، ومقادير أبعادها من الأرض ، وقدر محط كل كوكب منها .

(١) في المواعظ للقرنبي . [ويقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار] . فلعن في عبارة الأصل سقطا من النسخ وحرر .

فأما القمر ، فأخوذ من القمرة : وهى البياض ، سمي بذلك لبياضه ، وقد تقدم
 أن فلکهُ أقرب الأفلاك إلى الأرض ، وهو المعبر عنه بالسما الدنيا ، ودوره ألف
 ومائة وخمسة وثمانون ميلاً ، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعده
 عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسمائة وتسعون ميلاً . وهو يسمى هلالاً
 الليلة الأولى والثانية والثالثة ، ثم هو قمرٌ إلى آخر الشهر . ويسمى في ليلة أربع عشرة
 بالبدر ، قيل لمبادرته الشمس قبل الغروب ، وقيل لتامه وأمتلئه كما قيل لعشرة آلاف
 بدره لأنها تمام العدد ومتهاه ، ويسمى ليلة في آخر الشهر ، وربما استمرّ ليلتين
 فلا يرى بمعنى أنه يخفى فلا يرى ، ويسمى هذا الاختفاء السرار .

وأما عطارد ، فعناه النافذ في الأمور ، ولذلك سمي الكاتب ، وهو في الفلك الثاني
 بعد فلک القمر ، ودوره قرصه سبعمئة وعشرون ميلاً ، وهو جزء من اثنين وعشرين
 جزءاً من الأرض ، وبعده ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسة آلاف وثمائمائة ميل .
 وأما الزهرة ، فأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ، وهى
 في الفلك الثالث من القمر ، ودوره قرصها ستة آلاف وسبعة وأربعون ميلاً ، وهى
 جزء من ستة وثلاثين جزءاً من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة
 وثلاثون ألفاً وستمئة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس ، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى الحنقة
 لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكب سفلية : وهى القمر وعطارد والزهرة ، وبين
 ثلاثة علوية : وهى المريخ والمشتري وزحل ، وذلك أنها فى الفلك الرابع من القمر ،
 ودور قرصها مائة ألف وثمانمئة وثمانون ميلاً ، وهى مثل الأرض مائة وست
 وستون مرة وربع وثمان مرة ، وبعدها عن الأرض ثلاثة آلاف وخمسة آلاف
 وأثنان وتسعون ألفاً ومائة وثلاثة وأربعون ميلاً .

(١) أى بطلوعه قبل غروب الشمس .

وأما المَرِيحُ، فأخوذ من المَرِخ : وهو شجر تَحْتَكُ أغصانه فتورى النار، فسمى بذلك لشبهه بالنار في أحمراره ، وقيل المَرِيحُ في اللغة هو السهم الذى لا ريش له ، والسهم الذى لا ريش له يتوى فى سيره ، فسمى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه فى سيره ؛ وهو فى الفلك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مرّةً ونصفاً ؛ وبعده عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعمائة ألف وأثنى عشر ألفاً وثمانمائة وستة وستون ميلاً .

وأما المُشْتَرَى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه اشترى الحسن لنفسه ، وقيل لأنه نجم الشراء والبيع عندهم ؛ وهو فى الفلك السادس من القمر، ودور قرصه أحد وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وسبعون ميلاً، وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمن مرّةً، وبعده عن الأرض ثمانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانية وستون ألفاً ومائتا ميل .

وأما زُحَلُ ، فأخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ ، سمي بذلك لبطئه فى سيره ، وقد فسّره بعض المفسرين قوله تعالى "النجم الثاقب" ودور قرصه تسعون ألفاً وسبعمائة وتسعة عشر ميلاً ، وبعده عن الأرض ستة وأربعون ألف ألف ومائتا ألف وسبعمائة وسبعة وسبعون ميلاً ، وأهل المغرب يسمون زُحَلَ المَقَاتِلِ ، ويسمون المَرِيحَ الأحمر ، ويسمون عَطَّارِدَ الكَاتِبِ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعة بأسماء بلغتهم فيسمون زحل كيوان ، والمُشْتَرَى تير ، والمَرِيحَ بهرام ، والشمس مهر ، والزهرة أناهيد ، وعطارد هرمس ، والقمر ماه .
وَأَعْلَمُ أَنَّ لِكُلِّ مِنْ هَذِهِ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ حَرَكَتَيْنِ ، إِحْدَاهُمَا قَسْرِيَّةٌ ، وَهِيَ حَرَكَتُهُ بِحَرَكَةِ فَلَكَ الْكُلِّ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ حَرَكَةً تَامَةً ، وَتَسْمَى الْحَرَكَةُ السَّرِيعَةَ ؛ وَالثَّانِيَةِ حَرَكَةً ذَاتِيَّةً يَتَحَرَّكُ فِيهَا هُوَ بِنَفْسِهِ مِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ وَتَسْمَى الْحَرَكَةُ الْبَطِيئَةَ ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فلكل واحد منها سيرٌ يخصه ؛ وهذه الحركة في القمر أبينُ لسرعة سيره ، إذ يقطع الفلكَ بالسير من المغرب إلى المشرق في كل ثمانية وعشرين يوما مرة . وقد مثل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمنالين ، أحدهما بحركة السفينة براكبها إلى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلى خلاف تلك الجهة ، والثاني تحرك نملة تدبُّ على دُولاب إلى ذات الشمال والدُّولاب يدور إلى ذات اليمين .

الضرب الثاني

(الكواكب الثابتة)

وهي الكواكب التي في الفلك الثامن على رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفلك لا تتحرك من المغرب إلى المشرق ، كما تتحرك السبعة السيارة ، إلا حركة يسيرة جدا ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلك الكل بها من المشرق إلى المغرب في اليوم واللييلة ؛ والذي يحتاج إلى ذكره منها الكواكب المشهورة مما نتعرف به الأزمنة على ما تقدم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه . وهي ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(نجوم البروج التي تنتقل فيها الشمس في فصول السنة)

وهي اثنتا عشرة صورة في آسنى عشر برجاً ، بعضها من منازل القمر ، وبعضها من صور أخرى جنوية وشمالية ، وبعضها من كواكب متفرقة لا تنسب إلى صورة .
الأول الحمل : وهو الكبش ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مقدمه في المغرب ومؤخره لشرق ، وأول ما يطلع منه فهُ وهو الكواكب الجنوبي المنفرد من

الكوكبين الشماليين من مَفْصِلِ اليَدِ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان من الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليمنى الكوكبُ الشَّمَالِيُّ المَضِيءُ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى عينه اليسرى كوكبٌ خَفِيٌّ بِقَرَبِ الشَّمَالِيِّ مِنَ الشَّرْطَيْنِ ، وعلى لَحْيَيْهِ آخَرُ مِثْلُهُ ، وعلى مَفْصِلِ يَدِهِ الكوكبان الشَّمَالِيَانِ اللَّذَانِ عَلَى عَقِبِ الرَّجْلِ اليسرى من الثريا ، وهو الذي يقال له البَطِينُ ، ويده وساقاه ممتدان إلى الشَّمَالِ ، وكأنه إنما يظهر منه يد واحدة ورجلٌ واحدة ، والثريا على طرفِ أَلْيَتِهِ .

الثاني الثَّوْرُ : وهو صورة ثور على خط وسط السماء ، مُقَدَّمُهُ إلى المشرق ومؤخره إلى المغرب ، وظهره إلى الشَّمَالِ ، ويده ورجلاه إلى الجنوب ، وعلى مؤخره أربعة كواكب تسمى القَطْعَ أى هي موضع ذنبه المقطوع ، والدَّبْرَانُ وجهه ، وركن الدَّبْرَانِ قَمَّةُ ، والكوكب المَضِيءُ الذي في الدَّبْرَانِ عينه ، وكوكبان خارجان عن الدَّبْرَانِ فَرْدَةٌ قَرْنِهِ ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدَّبْرَانِ نَفْسِهِ إلى الشَّمَالِ ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبهه بالمقطوع الذي جُعِلَ خَدُّهُ عَلَى رَأْسِ عُنُقِهِ ويده منحطتان إلى الجنوب ، ويظهر منه رجلٌ واحدة ويدان ، وذنبه أُبْتَرُ ، والثريا خارجة عنه إلى الشَّمَالِ وكذلك اللَّطْحَةُ ، وهي ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبْرَانِ وليستا من صورته .

الثالث التَّوَمُ : وهو المعبر عنه في أَلْسِنَةِ النَّاسِ بِالْحَوْزَاءِ . قال الحسين بن يونس الحاسب في كتابه في "هيئة الصُّورِ الفلكية" : والناس مخطئون في ذلك وإنما الحوزاء هي الصورة المعروفة بالجبار في الصور الجنوبية ، وقدم التوأم الأيمن بعض كواكب الجبار التي على تاجه . قال : والتوأم على خط وسط السماء جَسَدَانِ ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهما يد واحدة ورجلٌ واحدة ، والرأسان في جهة المشرق ، ورجلاهما في جهة المغرب ، والذراع الشامخ هو الرأسان ، ويده

اليميني وهي التي في جهة الشمال هي الذراع اليماني والمضىء من الذراع اليماني يسمى الشعري الغميصاء، ويده اليسرى ممتدة إلى التوابع.

الرابع السرطان : وهو صورة سرطانٍ على وسط السماء، رأسه إلى الشمال ومؤخره إلى الجنوب، والثرة على صدره، وعينه كوكبان خفيان تحت الثرة يدعيان بالجمارين وزباناه كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضوا من الآخر، يكونان شماليين من التوعم ومؤخره كف الأسد.

الخامس الاسد، في وسط السماء، فمه مفتوح إلى الثرة، وعلى رأسه كواكب مضئية، والطرف على عنقه، والجهة على صدره، وقلبه الكوكب الجنوبي المضىء من الثرة، وهو عظيم النور، وكأهله كواكب خفية خارجة عن الطرف والجهة إلى الشمال والخراتان خاصرته، والصرفة ذنبه، وكفه المتقدمة في آخر السرطان، وكفه الأخرى بعده هذه الكف إلى المشرق، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلي من الخراطين إلى الجنوب، والأخرى تحت هذه للمشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجهة شمالي منها، وسائر فقاراته إلى المشرق.

السادس العذراء، في وسط السماء. قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السنبلة، وهو خطأ، وإنما هي حامله السنبلة، ورأسها في الشمال بميلة إلى المغرب ورجلاها في الجنوب، وهي مستقبلة المشرق وظهرها إلى المغرب. قال : ورأسها كواكب صغار مستديرة كأستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبي الخراطين ومنكباها أربعة كواكب تحت هذه إلى الشرق، وجناحها الأيمن ستة كواكب كهيئة الجناح.

السابع الميزان، وهو صورة ميزان، كفتها إلى جهة المشرق وقبها إلى جهة المغرب، والسماك الأعزل على قبها من الجهة اليميني ومقابله كوكب آخر على قبها

(١) في المصباح «الميزان مذكر» فلعل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهة الشمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلى المغرب على علاقتها، وهو على قصبة السنبلة، وكوكبان من الغفر على محامله مع كواكب أخر، وزبانيا العقرب كفتاه .

الثامن العقرب، وهو صورة عقرب على وسط السماء، رأسه في المغرب وذنبه في المشرق، وإحدى رجله في الجنوب، والأخرى في الشمال، والغفر على رأسه والزبانيا اللذان هما كفتا الميزان زبانياه، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل، والإكليل على صدره، والقلب هو قلبه، ونياط القلب كوكبان خفيان والقلب في وسطهما، وهو خارج عنهما إلى الشمال، والشولة ذنبه، والكواكب التي على طرفها جهته، وإبرته أطخة مستطيلة فيما بين الشولة والنعائم الصادرة؛ ففيه من منازل القمر خمس منازل : وهي الغفر، والزبانا، والإكليل، والقلب، والشولة؛ وأظهر ما تكون صورة العقرب وهو على الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاث منازل : الإكليل والقلب والشولة .

التاسع القوس، ويسمى الرامي، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلى جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو في جهة المشرق، ورأسه في الشمال ورجلاه في الجنوب؛ والنعائم الواردة على وسطه، وهو على الجسد الذي يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه أطخة مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب دعيان أي (١) النعائم، والبلدة على مقبض القوس ويده اليمنى قابضة على رأس السهم، وهي كواكب تكون تحت لطخة صغيرة قريبة منها .

العاشر الجدي : وهو صورة جدي مستلق على ظهره مقدمه في المغرب ومؤخره في المشرق، وظهره للجنوب ويده ورجلاه إلى الشمال، وهو شبه بالمنقلب إلى القوس

(١) كذا في المخطوط ولم نهند الى ايضاحه .

وقرناه إلى بطنه ، وفه إلى القوس ، وليس له إلا يد واحدة ، والكوكب الشمالي من سعد الذابح أحد قَرَيْتَيْهِ ، والجنوبي منه قرنه الآخر ، وكوكب آخر خفي تحت سهم القوس غربى سعد الذابح فهُ ، وعلى كَتِفَيْهِ سعد بُلَع ، وعلى وَرِكَه سعد السُّعود ، والمضىء من سعد السُّعود حُقُّ وَرِكَه وشق الحوت الجنوبي على ظهره ، وطرف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب اللاحخ فيها خفاء ، وطرف رجله الكوكب المسمى رأس الدلو .

الحادى عشر الدلو : وهو صورة رجل قائم بيده دلو ، رأسه إلى الشمال ، ورجلاه إلى الجنوب ، وظهره إلى المشرق ، ووجهه إلى المغرب ، والكواكب التى تسمى الحباء من سعد الأخبية رأسه ، ويده اليسرى من فوق رأسه حتى تنزل إلى الدلو الذى عن يمينه ، وسعد الأخبية مِرْفَقُهُ الأيسر ، وبطنه يسمى الحزّة ، ودلوه أربعة سعد من السُّعود السبعة التى ليست من منازل القمر ، هى سعد نَاشِرَةٌ ، وسعد الملك ، وسعد الهمام وسعد الماتح ، وكل سعد منها كوكبان ، وعلى رِجْلَيْهِ اليسرى كوكب عظيم النور ، وعلى رِجْلَيْهِ اليمنى كوكب أبيض يقرب فى العظم من الذى قبله ، والفرغ المقدم خارج عن صورته إلى الشمال .

الثانى عشر الحوت : وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التى تسميها أصحاب المنازل بطن الحوت وهى شمالية ، والثانية جنوبية عنها ، وهى أطول منها وأخفى الكواكب ، والكواكب السبعة السيارة تُرسم الجنوبية منهما بمسيرهن ، وشق السمكة الجنوبية ثلاثة من السُّعود السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الهمام وسعد البارِع وسعد الماطر ، وليس الفرغ المؤخر فى جسم الحوت بل خارج عنه ^(١) إلى الشمال والمغرب .

(١) الذى فى القاموس سعد مطر .

الصنف الثاني

(نجوم منازل القمر التي ينتقل فيها القمر من أول الشهر إلى الثامن والعشرين منه) وهي ثمان وعشرون منزلة يداخل أكثرها صور البروج الأثني عشر المتقدمة .
الأولى الشَّرَطَانِ ، والشَّرَطَانِ تثنية شَرَط ، وهو العلامة كأنه سمي بذلك لكونه علامةً على طلوع الفجر عند طلوعه ، وتسمى أيضا النَّطْحَ والنَّاطِحَ : لأنها عند أصحاب الصور قَرْنَا الحَمَلِ ؛ وهما كوكبان يَبْرَانُ بينهما قَابُ قَوْسَيْنِ ، أحدهما في الشِّمَالِ والآخَرُ في الجنوب إلى الجانب الجنوبي ، ومنها كوكب أطف منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمّى بعضهم هذه المنزلة الأشراف على الجمع لا على التثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت في المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكسة ، وواحد منها أحمر مضيء وتحتة آخر خفي والثالث في الشِّمَالِ وهو أحمر مضيء .

الثانية البُطَيْنُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغِرَ فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتي ذكره في جملة المنازل ؛ والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثل أثنافي القِدْرِ : وهي الشكل المثلث الذي ينصب عليه القِدْر عند الطبخ ؛ وهي على القرب منها في موضع بطن الحَمَلِ من الصورة ؛ وواحد منها مضيء وأثنان خفيان ، والخفيان يَطْلَعَانِ قبل المضيء .

الثالثة الثُّرَيَّا ، ويسمى النجم عَما عليها ، وبه فسر قوله تعالى ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ وهي ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعة أنجم ، وهي في شكل مثلث متساوي الساقين ، وبين نجومها نجوم صغار جدا كالرشاش ، ومطلعها إلى الشمال عن مطلع الشَّرَطَيْنِ والبُطَيْنِ ؛ وأول ما يطلع منها ويغيب هو الجانب العريض دون الأنفاذ منها ؛ وهي عند أصحاب الصور بالقرب من محل ذنب الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها آيَّةَ الحمل لقربها منه .

الرابعة الدبران ، ويسمى تالي النجم لكونه يطلع تلو الثريا ، وربما سمي حادي النجم لذلك ، ويسمى أيضا المجدح وعين الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضىء أحمر عظيم النور ، وأسم الدبران واقع عليه في الأصل ثم غلب عليه وعلى باقي المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هي رأس الثور ، وأول ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلى الجنوب وفتحها إلى الشمال ، والكوكب الأحمر المضىء هو آخر ما يطلع منها ، والعرب تقول للكوكبين القرييين منه : كلباه ، والباقي غنمه ، وربما قالوا : قلاصه ، ويقولون في خرافاتهم : إن الدبران خطب الثريا إلى القمر فقالت : ما أصنع بسبروت ؟ فداق إليها الكواكب المسماة بالقلاص مهرا ، فهربت منه فهو يطلبها أبدا ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثم قالوا في أمثالهم : ^(١) "أوفى من الحادي وأندر من الثريا" .

الخامسة الهقمة ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون في عنق الفرس ، وقد مر القول عليها في الكلام على أوصاف الخيل ، وهي ثلاثة كواكب محيية صغار تسمى الأثافي ، وهي على أعلى القدم اليسرى من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهنعة : وهي خمسة أنجم على شكل الصوبلجان : أربعة منها على خط مستقيم ، الثالث منها يسمى قوس الجوزاء ، والخامس منعطف إلى جهة الجنوب مقدار شبر في رأى العين ، وسميت هنعة لأنعطافها أخذنا من قولهم : هنت الشيء إذا عطفته ، وبعضهم يسميها النجعة ، وهي عند أصحاب الصور خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهنعة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم في صورة قوس من مقبضها النجان اللذان يقال

(١) المراد بالحادي الدبران كما تقدم في كلامه وكما يشير إليه قول الشاعر : * كما وفي قلاص النجم حاديها *

ورقع في الأصل الجارى وهو تصحيف .

(٢) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (ه ن ع) أنها تحياة وجمعها تحاي .

لها الهنعة ، وبعضهم يقول : إن الهنعة كوكبان مقترنان ، الشمالي منهما أضوءهما
وحذاءهما ثلاثة كواكب تسمى التَّحَايِي ربما عدل القمر فتزل بها .

السابعة الذراع : وهي كوكبان : أحدهما نير والآخر مظلم ، بينهما قدر سوط في رأى
العين ، وفيما بينهما كواكب صغار تسميها العرب الأظفار ، وسميت هذه المنزلة بالذراع
لأنها عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعات : مقبوضة وفيها ينزل القمر ، وهي
جنوبية ، وسميت مقبوضة لأن الأخرى أرفع منها في السماء ، ولهذا سميت مبسوطة ،
وهي مثلها في الصورة ، وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع في صورة الكلب الأصغر ،
وربما عدل القمر عن المقبوضة فتزل بها .

الثامنة الثرة ، وهي لطفة كقطعة سحب يجعلها أصحاب الصور على صدر
السرطان . وسميت ثرة لأن إلى جانبها نجمين صغيرين هما عند العرب على منخري
الأسد ، وتسميها الحمارين ، وقيل إنها لما كانت أمام جبهة الأسد شبت بشئ نثره
من أنفه ، ويقال إنها فم الأسد ومنخراه ، وتسمى الآهة أيضا وتشبه بالمعلف .

التاسعة الطرف ، وهي كوكبان خفيان مقترنان بين يدي الجبهة ، سميا بذلك
لموقعهما موقع عيني الأسد ، وقدامهما ستة كواكب صغار تسميها العرب الأشفار
أثنان منها في نسق الطرف ، والأربعة البواق بين يديه .

العاشرة الجبهة ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلى الشرق ، فهي لذلك على
شكل مثلث مستطيل القاعدة قصير الساقين ، وإلى الجنوب عنها نجم أحمر مضى
جدا يسمى قلب الأسد يرسمه المنجمون في الأسطراب ، وأصحاب الصور يجعلون
الجبهة على كنف الأسد .

الحادية عشرة الخراتان ، وتسمى الزبرة وعرف الأسد والزبرتين ، وهما كوكبان
نيران بينهما في رأى العين مقدار ذراعين ، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب ،

يتمتدان عند التوسط مع خط الآسواء، وسميا الخراتان تشبيهاً بثقابين في السماء، ومنه تحرت الإبرة، وتحت هذين النجمين تسعة أنجم صغار. وسميت الزهرة لشعر يكون فوق ظهر الأسد مما يلي خاصرته، وعدوا الجميع أحد عشر كوكبا منها نجان هما الخراتان والتسعة الشعر.

الثانية عشرة الصرفة: وهي كوكب نير، وهو عند أصحاب الصور قنب الأسد والقنب وعاء القضيبي، وبالقرب من هذا الكوكب سبعة أنجم صغار طمس ملاصقة له، وسمى هذا الكوكب بالصفة لأنصرف الحر عند طلوعه مع الفجر من المشرق وأنصرف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصرفة ناب الدهر لأنها تفترعن فصل الزمانين، ويشكل مع الخراتان مثلثا له زاوية قائمة وإحدى ساقيه أطول من الأخرى وفي قاعدته قصر.

الثالثة عشرة العواء، وهي خمسة كواكب نيرة على شكل لام، كان اعتبر ابتداءها من الشمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المصطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لها أيضا وركي الأسد، وتشبهها العرب بكلاب تعوى خلف الأسد لأنها وراء، ولذلك سميت العواء، وأصحاب الصور يجعلونها في السنبلة على صدرها.

الرابعة عشرة السماك، وهو السماك الأعزل: وهو كوكب نير يميل لونه إلى الزرقة وسمى سماكا لكونه قريبا من سميت الرأس، وسمت الرأس أعلى ما يكون من الفلك وسمته العرب الأعزل لأنه يطلع إلى جانبه نجم مضى يسمونه السماك الراح لكوكب صغير بين يديه، والأعزل لاشيء بين يديه ففرق بينهما، وأحدهما جنوبي، وهو المتزلة، وأصحاب الصور يثبتون السماكين: الأعزل والراح في صورة العذراء، وهي السنبلة، والعرب تجعلها ساق الأسد، وربما عدل القمر فتزل بعجز الأسد، وهو أربعة كواكب بين يدي السماك الأعزل، يقال لها عرش السماك، وتسمى أيضا

(١) في لسان العرب كأنها كتابة أف... ويقال كأنها نون.

الحبَاء، والأحمال، والغُراب، وهذه المنزلة حد ما بين المنازل اليمانية والمنازل الشامية،
فما كان أسفل من مَطْلَعه فهو يمانى ، وهو شِق الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى،
وهو شِقُّ الشَّمال .

الخامسة عشرة العَفْرُ، ثلاثة كواكب خفية على خَطِّ فيه تقويس، وسميت بذلك
لخفائها مأخوذة من المَعْفِرَةِ التي تسترُ الذنبَ وتخفيه يوم القيامة، ومنه المَعْفِرُ الذي
فوق الرأس، وقيل لأنها زبَانِي العُقب، وقيل مأخوذة من العَفْرَةِ : وهي الشعر الذي
في طرف ذنب الأسد، وأصحاب الصور يجعلونها بين ساقِي الأسد.

السادسة عشرة الزُبَانَانِ ، وهما كوكبان نيران هما عند العرب يد العُقب يترس
بهما : أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصُّور يجعلونهما كَفَتِي الميزان، وبينهما فى رأى
العين قدرُ قامة الرجل .

السابعة عشرة الإكْأِيلُ ، وهو ثلاثة كواكب مجتمعة فى خفاء العَفْرِ مصطفةً
معتضة، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها
فوق جبهة العُقب كالتاج، وهى عند أصحاب الصُّور على عمود الميزان .

الثامنة عشرة القَلْبُ ، وهو كوكب أحمر نير مضطرب قريب من الجبهة بين
كوكبين خفيين تسميهما العرب نِيَاطِي القلب أى علاقته، وسمته أصحاب الصُّور
قَلْبًا لوقوعه موضع القلب من صورة العُقب ، والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى
قَلْبُ السمكة ، والثالث قلب الثور، والرابع قلب الأسد . وحيثُ ذكر القلب على
الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العُقب هذا .

التاسعة عشرة الشَّوْلَةُ، وهى كواكبُ متقاطرة على تقويس فى بُرْج العُقب أشبه
شئً بَدَنب العُقب إذا شالته، ولذلك سميت الشَّوْلَةُ، وفى الشولة كوكبان خفيان

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبرة والحمة ، وخلفهما نجم صغير لا يزيلهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما ينزل القمر الشولة على المحاذاة ولا ينحط إليها لأنها منحدره عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشولة ، وهي ستة كواكب بيض منعطفة .

العشرون النعائم ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نيرة تشكل مربعا فيه أطراف تسمى الواردة وهي المنزلة ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من الحجرة شبت بنعام وردت نهارا ، والأربعة الأخرى تسمى النعائم الصادرة : لأنها لما كانت بعيدة من الحجرة شبت بنعام وردت ثم صدرت ، والواردة التي هي المنزلة عند أصحاب الصور واقعة في يد الرامى الذى يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البلدة ، وهي فرجة في السماء مستديرة شبه الرقعة ليس فيها كواكب ، والبلدة في كلام العرب الفرجة من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البلدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستة كواكب مستديرة صغار خفية تشبه القوس ، وبعضهم يسميها الأُدحى لأن بالقرب منها كواكب تسميها العرب البيض لقربها من النعائم ، وربما عدل القمر فنزل بالأُدحى ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة على جهة الرامى .

الثانية والعشرون سعد الذابح ، وهو كوكبان صغيران بينهما في رأي العين أقل من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع في ناحية الشمال والآخر منخفض في ناحية الجنوب سمي سعدا لأنهمال الأمطار في أيام طلوعه ، وسمى ذابحا لقوة البرد في إبان طلوعه فتموت المواشى ببرده ، وقيل سمي ذابحا لأن بالقرب من نجمة الشمالي نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شأنه التى تُذبح ، ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد

بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعدها كما قاله الزجاج في مقدمة أدب الكاتب ؛ وأصحاب الصُّور يثبتون هذا السعد في موضع قرّنى الجدى من الصورة .

الثالثة والعشرون سعد بُلَع ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الدابج في المسافة التي بينهما لكن أحد الكوكبين خفيّ ، وهو الذي يَلَعه ؛ وهذا السعد عند أصحاب الصُّور على الكعب ساكب الماء القريب من صورة الدلو ، وسمى بُلَع لأنه في أيام طلوعه تغيض الأنهار وتزيد الآبار ، فكأن الأرض ابتلعت ماءها ، وقيل لأنه يطلع في الوقت الذي قيل فيه ” يَا أَرْضُ اْبْلَعِي مَاءَكَ وَيَأَسْمَاءُ اْفْلَعِي “ زمن نوح (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعود ، وعدته كوكبان أيضا على ماتقدم في السعدين من البعد ، وقيل هو ثلاثة كواكب أحدها نير والآخران دونه في النور ؛ وأصحاب الصُّور يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدلو ، وربما قصر القمر فتزل سعد نَاشِرةً ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمى أصحاب الصور نجميه بِالْمُحَيِّنِ ، وهما في مؤخر الجدى ، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأُخْيِيَّة ، والناس مختلفون فيه ؛ فمنهم من يقول : إنه كوكب واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رجل بَطَّة والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء ؛ ومنهم من يجعل الكوكب الذي في وسط الثلاثة عمود الخباء ، وهو عند أصحاب الصُّور على الكَتِفِ الشرقية من جسد ساكب الماء ، وسمى سعد الأُخْيِيَّة لخروج الحَبَّات فيه من الثمار والحشرات ، وكانت العرب تتبرك به لأخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفَرُغُ المقدم ، ويقال فيه مقدم الدلو والفرغ الأول والفرغ الأعلى وعرقوة الدلو العليا ، وهو كوكبان نيران بينهما في رأى العين نحو من خمسة أذرع ؛ وأصحاب الصُّور يزعمون أن الشماليَّ منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون الفَرَعُ المؤخَّر، ويقال له مؤخر الدَّلْوِ السُّفْلَى ، وهو كوكبان يشبهان ما تقدم ، احدهما شمالي والآخر جنوبي ، وهما عند أصحاب الصور على مؤخر الفرس ، وربما قصر القمر فتزل في الكَرَبِ الذي في وسط العَرَّاقِي ، وربما نزل ببلدة الثعلب .

الثامنة والعشرون الحُوتُ ، وهو آخر المنازل ، ويقال لها السَّمَكَةُ ، وتسمى الرِّشَاءُ أيضا ، وهي ثمانية عشر كوكبا تشكل شكل سمكة رأسها في جهة الشمال وذنبها في جهة الجنوب ، وفي الشرق منها كوكب نير ، يسمى سُرَّةَ الحُوتِ ، وبطن الحوت ، وبطن السمكة ، وقلب السمكة ، وربما عدل القمر فتزل بالسمكة الصغرى ، وهي من السمكة الكبرى في الشمال مثل صورتها إلا أنها أعرض منها وأقصر ، وأصحاب الصور يجعلون الكوكب النير من الحوت في حد المرأة المسلسلة ، ورأسها هو الشمالي من الفَرَعِ المؤخَّر .

الصنف الثالث

(من النجوم الثوابت ما ليس داخلا في شيء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرته العرب في شعرها ، وشبهت به ، وضربت به الأمثال)

وهي عدة نجوم .

منها بنات نعش : وهي سبعة أنجم على القرب من القطب الشمالي ، منها أربعة في صورة نعش وثلاثة أمامه مستطيلة ، وهي المعبر عنها بالبنات ، وتعرف هذه بنات نعش الكبرى ، وبالقرب منها سبعة أنجم على شكلها .

ومنها الجدي الذي تعرف به القبلة ، وهو نجم صغير على القرب من القطب الشمالي يستدل به على موضع القطب ، ويقال له جدي بنات نعش الصغرى .

- ومنها الفَرْقَدَانِ ، وهما كوكبان متقاربان معدودان في بنات نَعِيشَ .
- ومنها السُّمَاءُ ، وهو كوكب خفيّ في بنات نَعِيشَ الكبرى ، والناس يَمْتَحِنُونَ به أبصارهم لخفائه .
- ومنها السَّمَاكُ الرَّاحُحُ ، وهو غير الأَعَزَلِ المقدم ذكره في منازل القمر ، سمي راححا لكوكب يقدّمه ، تقول العرب : هو رُحْمُهُ بخلاف الأَعَزَلِ فإنه الذي لأرْمَحُ معه .
- ومنها النَّسْرُ الوَاقِعُ ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثنافى ، سمي الوَاقِعَ لأنهم يجعلون اثنين منه جَنَاحِيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائر وقع .
- ومنها النَّسْرُ الطَّائِرُ ، سمي بذلك لأنهم يجعلون اثنين منه جَنَاحِيه ، ويقولون : قد بسطهما كأنه طائر ، والعامّة تسميه الميزان .
- ومنها الكَفُّ الخَضِيبُ ، وهو كف الثُّرَيَّا المبسوطة ، ولها كف أخرى يقال لها الجُدْمَاءُ ، وهي أسفل من الشَّرْطِينِ .
- ومنها العَيُّوقُ ، وهو في طَرْفِ المَجَرَّةِ الأيمن ، وعلى أثره ثلاثة كواكب بَيِّنَةٌ يقال لها الأَقْلَامُ ، وهي من مواقع العَيُّوقِ .
- ومنها سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمر منفرد عن الكواكب ولقربه من الأَفُقِ كأنه أبداً يضطرب ، وهو من الكواكب اليمانية ، قال ابن قتيبة : ومطلعه عن يسار مُسْتَقْبِلِ قِبَلَةِ العِراقِ . قال : وهو يُرَى في جميع أرض العرب ، ولا يرى في شيء من بلاد أَرْمِينِيَّةَ .
- ومنها الشُّعْرَيَانِ : العَبُورُ ، وكانت تعبد في الجاهلية لقوله تعالى : ” وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى ” وهي في الجوزاء ، والشُّعْرَى الغَمِيصَاءُ ، ومع كل واحدة منهما كوكب يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشرة، وسعد المالك، وسعد البهام، وسعد الهمام، وسعد البارح، وسعد مطرب، وكل سعد منها كوكبان، بين كل كوكبين في رأي العين قدر ذراع فهي متناسقة؛ وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدمة في منازل القمر؛ تكون جملة السعود عشرة .

فإذا عرف الكاتب أحوال الأفلاك والكواكب وأسماءها وصفاتها، عرف كيف يصفها عند احتياجه إلى وصفها، وكيف يعبر عنها عند جريان ذكرها .

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلَّةَ تَتَّقِي وَتَرْقَى لِلْعَالَا أَبَدًا * مادام للسبعة الأفلاك أحكام
مَهْرٌ وَمَاهٌ وَكِيَانٌ وَتِيرٌ مَعَا * وهيرمس وأناهيده وبهرام

مشيرا بذلك إلى ذكر الأفلاك السبعة، وما لها من الكواكب السبعة السيارة بالأسماء الفارسية المقدم ذكرها .

وكما قال الطغراني في لامية العجم :

وَإِنْ عَلَانِي مَنْ دُونِي، فَلَا عَجَبٌ * لِي أَسْوَةٌ بِانْحِطَاطِ الشَّمْسِ عَنْ زُحَلٍ
مشيرا إلى كون فلک زحل أعلى من فلک الشمس لما تقدم أنها في الرابع، وهو في السابع .

وكما قال بعضهم يصف خضرة السماء، وما لها من الكواكب :

كَأَنَّ سَمَاءَنَا، وَالشَّهْبُ فِيهَا * وَأَصْغَرُهَا لِأَكْبَرُهَا مُزَاحِمُ
بِسَاطِ زَمْرُودٍ بُثِرَتْ عَلَيْهِ * دَنَائِيرٌ يَخَالِطُهَا دَرَاهِمُ

وكما قال ذوالرمة وقد ذكر الثريا :

يَدْفَعُ عَلَيَّ آثَارَهَا دَبْرَانُهَا * فَلَا هُوَ مَسْبُوقٌ وَلَا هُوَ يَلْحَقُ
بعشرين من صغرى النجوم كأنها * وإياه في الخضراء لو كان ينطق

قِلَاصٌ حَدَاها رَاكِبٌ مَتَعَمِّمٌ * إلى الماء من جَوْزِ التَّنَوُّفَةِ مُطْلَقٌ

مشيرا إلى ما تقدم من خُطْبَةِ الدَّبْرَانِ الثَّرِيًّا وَهَرَبِها مِنْه وإِمَارِهِ إِيَّاهَا بِالْقِلَاصِ :
وهي النجوم التي حولها .

وكما قال أبو الفرج البَغَا ذَا كَرَا حَالٍ مُخْتَفٍ يُرْجَى لَهُ الظُّهُورُ :

سَتَخُصُّ مِنْ هَذَا السِّرَارِ وَأَيْمًا * هَلَالٌ تَوَارَى فِي السِّرَارِ فَمَا خَلَصَ

مشيرا بذلك إلى حالة تَوَارَى القَمَرِ حَالَةَ السِّرَارِ ثُمَّ خُلُوصِهِ عِنْدَ إِهْلَالِهِ .

النوع التاسع

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه العُلُوبَاتُ مما بين السماء والأرض ،

وهي على أصناف)

الصنف الأول

(الريح)

وهي مؤنثة ، يقال هبت الريح تهبُّ هبوبًا ، وتجمع على رياح ، وقد دل الاستقراء

على أنها حيث وردت في القرآن الكريم في معرض العذاب ، كانت بلفظ الإفراد

وحيث وردت في معرض الرحمة ، كانت بلفظ الجمع . قال تعالى في جانب العذاب :

”فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ“ وقال : ”إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا“ وقال

في جانب الرحمة : ”وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ“ وقال جلَّت

قدرته : ”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“ إلى غير ذلك من الآيات . ومن ثمَّ

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا آسدت الريح قال : ”اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا رِيحًا

وَلَا تَجْعَلْهَا رِيحًا“ وقد ورد القرآن الكريم بأن الله تعالى هو الذي يرسلها ، قال تعالى :

”اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا“

وذهبت الفلاسفة إلى أنها تحدث عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دخان يرتفع من الأرض فيضربه البرد في ارتفاعه فيتناكس ويتعامل على الهواء ويحرك الهواء بشدة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الاولى الصَّبا : وهى التى تأتى من المَشْرِقِ، وتسمى القَبُولُ أيضا : لأنها فى مقابلة مُسْتَقْبِلِ المشرق، قال فى صناعة الكُتَّابِ : وأهل مِصرَ يسمونها الشرقية : لأنها تأتى من مَشْرِقِ الشمس ، وهى التى نُصِرَ بها النبىِّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : ” نُصِرْتُ بالصَّبا “ .

الثانية الدَّبُورُ ، ومهَّبا من مغرب الشمس إلى حدِّ القطب الجنوبيِّ ، وسميت الدَّبُورَ لأنَّ مُسْتَقْبِلَ المشرق يستدبرها ، وتسمى الغربية لَهبوبها من جهة المغرب ، وبها هلكت عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : ” وَأَهْلِيكَ عَادٌ بِالدَّبُورِ “ .

الثالثة الشَّمالُ ، ويقال فيها شَمَالٌ وشَمَالٌ وشَامِلٌ مهموزا وغير مهموز ، ومهَّبا من حدِّ القطب الشماليِّ إلى مغرب الشمس ، وسميت شَمَالًا لأنها على شَمَالٍ من مُسْتَقْبِلِ المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّابِ : وتسمى البحريَّة لأنها يُسَارِها فى البحر على كلِّ حال .

الرابعة الجَنُوبِيَّةُ ، ومهَّبا من حدِّ القطب الأسفل إلى مطلع الشمس ، وتسمى بالديار المصرية القِبْلِيَّةَ لأنها تأتى من القبلة فيها ، وتسمى بها أيضا المِريسيَّةُ لأنَّ فى الجهة القبليَّة بلاد المِريس : وهم ضرب من السُّودان ، وهى أَرْدأُ الرياح عند أهل مصر . وقال النحاس : وكلِّ ريحٍ جاءت من مَهَبٍ ريحين تسمى النَّجَاءُ ، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عن مَهَابِّ هذه الرياح وعدلت عنها ، قال فى ” فقه اللغة “ : وإذا

جاءت بنفيس ضعيف ورويح فهي النسيم ؛ وإن آبتدأت بشدّة قيل لها النابغة ؛ فإن حركت الأغصان تحريكا شديدا وقلعت الأشجار قيل زعزع ؛ فإن جاءت بالخصباء قيل حاصبة ؛ فإذا هبت من الأرض كالعمود نحو السماء قيل لها إعصار . وقد ورد بها القراءان في قوله تعالى : ” فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ” ، والعامّة تسميها الزوبعة ، ويزعمون أن الشيطان هو الذي يثيرها ، ومن ثمّ سماها الترك نعيم بك يعني الشيطان ؛ فإذا كانت باردة ، فهي الصرصر . وقد وقع ذكرها في قوله تعالى : ” إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا ” ؛ فإذا لم تُلقيح شجرا ولم تحمل مطرا ، فهي العقيم . وقد قال تعالى في قصة عاد : ” إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ” كانت لامطر فيها .

الصنف الثاني

(السحاب)

وهو الأجرام التي تحمل المطرين السماء والأرض ينشئها الله سبحانه وتعالى كما أخبر بقوله : ” وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ” ويسوقها إلى حيث يشاء كما ثبت في الصحيح ” أن رجلا سمع صوتا من سحابة : أسقى حديقة فلان ” .

وذهب الحكماء إلى أنه بخار متصاعد من الأرض مرتفع من الطبقة الحارة إلى الطبقة الباردة فيثقل ويتكاثف وينعقد فيصير سحبا . قال الثعالبي في ” فقه اللغة ” : وأول ما ينشأ يقال له النّشء ؛ فإذا آنسحب في الهواء ، قيل له سحاب ؛ فإذا تغيرت به السماء ، قيل له غمام ، فإن سمع صوت رعده من بعيد قيل فيه عقر ؛ فإذا أظلم ، قيل عارض .

وقد أخبر تعالى عن قوم عاد بقوله : ” فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُّطْرِنَا“؛ فَإِنْ كَانَ بِحَيْثُ إِذَا رُؤِيَ ظَنَّ أَنَّ فِيهِ مَطْرًا، قِيلَ لَهُ مُحِيلَةٌ؛
 فَإِنْ كَانَ السَّحَابُ أبيضَ ، قِيلَ لَهُ مُزْنٌ ؛ فَإِذَا هَرَّاقَ مَا فِيهِ ، قِيلَ جَهَامٌ ، وَقِيلَ
 الْجَهَامُ هُوَ الَّذِي لَا مَطْرَ فِيهِ .

وقد أُولِعَ أَهْلُ النِّظْمِ وَالثَّرْبِ بِوصْفِهِ وَتَشْبِيهِهِ .

الصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسْمَعُ مِنَ السَّحَابِ ، وَقَدْ اختلفَ فِي حَقِيقَتِهِ فَرَوَى أَنَّهُ
 صَوْتُ مَلِكٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابُ ، وَقِيلَ غَيْرَ ذَلِكَ ؛ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْخَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
 صَوْتُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَيْثُ زَعَمُوا أَنَّ مَسْكَنَهُ
 السَّحَابُ ؛ وَذَهَبَتِ الْفَلَّاسِفَةُ إِلَى أَنَّهُ دُخَانٌ يَتَصَاعَدُ مِنَ الْأَرْضِ وَيَرْتَفِعُ حَتَّى يَتَّصِلَ
 بِالسَّحَابِ وَيَدْخُلُ فِي تَضَاعُفِهِ وَيَبْرُدُ فَيَصِيرُ رِيحًا فِي وَسْطِ الْغَيْمِ ، فَيَتَحَرَّكُ فِيهِ بِشِدَّةٍ
 فَيَحْصُلُ مِنْهُ صَوْتُ الرَّعْدِ ، وَيَقَالُ مِنْهُ رَعَدَتِ السَّمَاءُ ؛ فَإِذَا زَادَ صَوْتُهَا ، قِيلَ
 أَرْتَجَسَتْ ؛ فَإِذَا زَادَ ، قِيلَ أَرَزَمَتْ وَدَوَّتْ ؛ فَإِذَا أَشْتَدَّتْ ، قِيلَ قَصَفَتْ وَقَعَقَعَتْ ؛
 فَإِذَا بَلَغَ النِّهَايَةَ ، قِيلَ جَلَجَلَتْ وَهَدَّهَدَتْ .

الصنف الرابع

(البرق)

وهو ضوء يُرَى مِنَ جَوَانِبِ السَّحَابِ ، وَقَدْ اختلفَ فِيهِ أَيْضًا فَرَوَى أَنَّ الرَّعْدَ
 صَوْتُ مَلِكٍ يَزْجُرُ بِهِ السَّحَابَ وَأَنَّ الْبَرْقَ صَخَّكُهُ ؛ وَالنَّصِيرِيَّةُ مِنَ الشَّيْخَةِ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ
 صَخَّكُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا ، وَالْفَلَّاسِفَةُ يَقُولُونَ إِنَّهُ دُخَانٌ يَرْتَفِعُ

من الأرض حتى يتصل بالسحاب كما تقدم في الرعد ، ثم تقوى حركته فيشتعل من حرارة الحركة الهواء والدخان فيصير نارا مضيئة وهو البرق ؛ ويقال ومض البرق إذا لمع لمعانا قويا ، وأومض إذا لمع لمعانا خفياً ؛ فإن أطمع في المطر ثم ظهر أن لا مطر فيه ، قيل خلب ^{وهو} .

الصنف الخامس

(المطر)

وهو الماء الذي يخلقه الله تعالى في السحاب ويسوقه إلى حيث يشاء .

وقد ذهب الحكماء إلى أنه يُبحار يتصاعد (من الأرض أيضا فيه أو في حرارة الشمس أو فيهما) فيجتمع ، وربما أعانت الرياح على جمعه بأن تسوق البعض إلى البعض حتى يتلاحق ؛ فإذا آتمى إلى الطبقة الباردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذي يتصاعد من القدر وينتهي إلى غطاء القدر وعند أدنى برودة ينعقد قطرات .

ثم للطور زمان يكثر فيه ، وزمان يقل فيه ؛ وقد رتب العرب ذلك على أنواع الكواكب التي هي منازل القمر ، وجعلوا لكل منها نوءاً ينسب إليه . قال أبو حنيفة الدينوري في " كتاب الأنواء الكبير " : كانت العرب تقول : لا بد لكل نوء كوكب من أن يكون فيه مطر ، أو ريح ، أو غيم ، أو حر ، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد اختلف في معنى النوء فذهب ذاهبون إلى أن النوء في اللغة النهوض ؛ وذهب الفراء إلى أنه السقوط والميلان ؛ وذهب آخرون إلى أنه يطلق على النهوض والسقوط جميعا ، على أنهم متفقون أن العرب كانت ترى الأمر للسقوط

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الأرض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع، فمن ذهب إلى أن المراد بالنوء السقوط يجريه على بابه، ومن ذهب إلى أن المراد بالنوء النهوض يقول: إنما سمي نوءاً لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النوء على السقوط وإن كان موضوعه في اللغة النهوض من باب التفاؤل كما يقال للديع سليم وللهلكة مفازة، على أن بعضهم قد ذهب إلى أن الكوكب ينوء بمعنى ينهض ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضى نوءه ودخل نوء الكوكب الذي بعده، قال أبو حنيفة الدينوري: وهو التأويل المشهور الذي لا ينزع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه، أطل هو على السقوط وكان أشبه حالاً بحال الناهض. وقد عدّها أبو حنيفة ثمانية وعشرين نوءاً بعد منازل القمر المتقدمة الذكر، وذكر أن بعضها أجهر وأشهر من بعض.

الأول نوء الشّريطين، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم.

الثاني نوء البطين، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود. قال ابن الأعرابي: يقال إنه ماناء البطين والدبران أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جدبا.

الثالث نوء الثريّا، وهو خمس ليال وقيل سبع، وأثره محمود عندهم مشهور. الرابع نوء الدبران، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة، وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع في أشعارهم له ذكر.

الخامس نوء الحقعة، وهو ست ليال، ولا يذكر نوءها إلا بنوء الجوزاء التي الحقعة رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة.

السادس نوء الهنعة، وهو ثلاث ليال لا يكاد ينفرد عن نوء الجوزاء.

السابع نوء الدراع المقبوضة، وهي خمس ليال، وقال ابن كفاية: ثلاث ليال،

وهو أول أنواع الأسد ، وأثره محمود عندهم موصوف ؛ وربما نسب إلى المِرْزَمِ ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة ، وربما نسب إلى الشَّعْرَى الغَمِيصَاءِ ، وهو كوكبها الآخر الذي هو أنور من المِرْزَمِ ؛ وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراعَ المبسوطة فتجمعهُمَا معا في النوء ، وهما لا يتوآن معا بل ولا يطلعان معا ، لكن لكثرة صحبة إحداهما للأخرى في الذكر واجتماعهما في أسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَيَّ صورة واحدة ، وهي صورة الأسد .

الثامن نوء النَّثْرَةِ ، وهو سبع ليال ، وله عندهم ذكر مشهور .

التاسع نوء الطَّرْفَةِ ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبة الجهة الآتية الذكر عليه .

العاشر نوء الجهة ، وهو سبع ليال ، وذكره مشهور لديهم .

الحادى عشر نوء الزُّبْرَةِ ، ونوعها أربع ليال ، وقلما تفردا لغلبة الجهة عليها أيضا .

الثانى عشر نوء الصَّرْفَةِ ، وهو ثلاث ليال ، ولا يكاد يوجد لها ذكر عندهم فى أشعارهم .

الثالث عشر نوء العَوَاءِ ، وهو ليلة واحدة ، وليس من الأنواع المشهورة .

الرابع عشر نوء السَّمَاءِ الأعزَلِ ، وهو أربع ليال ، وله ذكر مشهور ، وكثيرا ما يذكر معه السَّمَاءِ الرَّاحِ ، وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان فى الطلوع ، وحينئذ فإفراد السَّمَاءِ الرَّاحِ بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء العَفْرِ ، وهو ثلاث ليال ، وقيل ليلة ، وما بينه وبين نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواع الأسد ، وهى ثمانية أنواع أولها الذراع ، وآخرها نوء السَّمَاءِ ، وليس له فى السماء نظير فى كثرة الأنواع .

- السادس عشر نوء الزباني، وهو ثلاث ليال .
- السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .
- الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .
- التاسع عشر نوء الشولة، وهو ثلاث ليال، وقيلما يذكر .
- العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .
- الحادى والعشرون نوء البلدة، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .
- الثانى والعشرون نوء سعدٍ الذابح، وهو ليلة واحدة .
- الثالث والعشرون نوء سعدٍ بلع، وهو ليلة واحدة .
- الرابع والعشرون نوء سعد السعود، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .
- الخامس والعشرون نوء سعدٍ الأخبية، وهو ليلة واحدة .
- السادس والعشرون نوء الفرغ المقدم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .
- السابع والعشرون نوء الفرغ المؤخر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .
- الثامن والعشرون نوء الحوت، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة الدينورى : والأيام في هذه الأنواء تابعة لليالى لتقدم الليل عليهما، قال : وإنما جعلوا لهذه النجوم أنواءً موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مظنة الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مطر، وقال ابن قنينة : أول المطر الوسمى سمي بذلك لانه يسم الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم . قال الثعالبي عن أبي عمرو : إقبال الشتاء الخريف، ثم الوسمى، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم .^(١)

الصنف السادس

(الثلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع على الجبال وعلى سطح الأرض فتذيب الشمس منه ملاقته شدة حرارتها، ويبقى في أماكن مخصوصة من أعلى الجبال بالأمكنة الباردة جميع السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه يجار يتصاعد من الأرض إلى الهواء كما يتصاعد المطر فيصيبه برد شديد قبل أن يتعقد قطرات فيتساقط أجزاء لطيفة، ثم يتعقد بالأرض إذا نزل إليها؛ ويوصف بشدة البرد وشدة البياض؛ وسيأتي الكلام على ما ينقل منه من الشام إلى ملوك الديار المصرية في خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالى.

الصنف السابع

(البرد بفتح الراء)

وهو حبوب يسقط من الجو؛ وقد ذكر الحكماء أنه يجار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع في الهواء فلا تدركه البرودة حتى يجتمع قطرات، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتتهزم برودتها إلى مواطنها فتتعقد؛ وحب هذا البرد متفاوت المقادير منه ما هو قدر الجحش فما دونه، ومنه ما هو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ما هو بقدر بيض الحمام والدجاج. قال الحكماء: ولا يتصور وقوعه إلا في الخريف والربيع ويوصف بما يوصف به الثلج من شدة البرد وشدة البياض، ويُسببه به أسنان الإنسان الناصعة البياض.

الصنف الثامن

(قوس قُزَح)

وهو قوس يظهر في الجُومن حُمرة وخضرة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوس قُزَح ، وتسميته قوس الله لأن قُزَح اسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنى صقالة صار كالمراة ، والمخاضى له إذا كان الشمس في قفاه يرى الشمس في الهواء كما يرى الشمس في المراة ، ويستتبع ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حُمرة بين خضرتين أو خضرة بين حمرتين ، وربما لا يكون اللون المتوسط ، ويكون مرتفعا ارتفاعا قريبا من الأرض ، فإن كان قبل الزوال ، رُوى ذلك القوس في المغرب ، وإن كان بعد الزوال ، رُوى في المشرق ، وإن كانت الشمس في وسط السماء ، فلا يمكن أن يرى إلا قوسا صغيرا في الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتي ذكرها في آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالى .

الصنف التاسع

(الهالة)

وهى الدائرة التى تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البصر وبين القمر صقيل رطب ، فيرى القمر في جزء منه ، وهو الجزء الذى لو كان فيه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشيء الذى يرى في مرآة من موضع لو كانت فيه مرآة كثيرة محيطة بالبصر ، وكانت موضوعة على تلك النسبة فيرى

الشيء في كل واحدة من المرائى ، فإذا تواصلت المرائى روى في الكل ، فُتْرَى
حيثُتد دائرة .

ولأهل النظم والنثر فيها وصف وتشبيه .

الصفن العاشر

(الحَرُّ)

وسُلْطانه أو اِحْرَ فصل الربيع وأوائل فصل الصيف ، والسبب فيه مسامتة
الشمس للريوس ، فتشتد نائرة في الهواء وحريم الأرض ، لاسيما الحجاز وما في معناه .
وأهل النظم ، والنثر مولعون بوصف شدة حره .

الصفن الحادى عشر

(البَرْدُ)

وسُلْطانه أو اِحْرَ فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .
وأهل النظم والنثر مكثرون من ذكره ووصفه ، حتى إنه ربما أفرد بعض الناس
ما قيل فيه وفي وصفه بالتصنيف .

الصفن الثانى عشر

(الهَبَاءُ)

وهو الذى يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كوة يدخل منها الضوء ، فيكون
شبه عمود ممتد من الكوة إلى حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيه أجزاء
لطيفة متفاوتة تُحَسُّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شبه الله تعالى به أعمال الكفار

في القيامة فقال جل من قائل : ” وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ”
 ومن الناس من يزعم أن الواحدة من أجزائه هي المراد بالذرة المذكورة في القرآن
 بقوله تعالى : ” فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ”
 ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العاشر

(مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية ،

وهي على أصناف)

الصنف الأول

(الجبال ، والأودية ، والفقار)

فأما الجبال فهي أوتاد الأرض ، أرسى الله تعالى بها الأرض حيث مادّت لها
 دحاها الله تعالى على الماء . وقد روى أن الكعبة كانت رابية حمراء طافية على وجه
 الماء قبل أن يدحو الله الأرض ، وأن الأرض منها دُحيت ، فلما مادّت وأُرسيت
 بالجبال ، كان أول جبل أُرسي منها جبل أبي قبيس بمكة المشرفة فلذلك هو أقرب
 الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل أن قاف جبل محيط بالدنيا عنه تتفرع جميع
 جبال الأرض ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصف الجبال بالعظمة في القدر والعلو
 وصعوبة المسلك ، وما يجرى مجرى ذلك .

وأما الأودية ، فهي وهاد في خلال الجبال جعلها الله تعالى مجارى للسيل ونبات
 الزرع ومدارج الطرق وغير ذلك . وتوصف بالآتساع وبُعْد المسافة والعُمق ، وربما
 وصفت بخلاف ذلك .

وأما القفار، فهي البرارى المتسعة الأرجاء الخالية من الساكن . وتوصف بالسعة
وبعد المسافة وقلة الماء والإيجاش وصعوبة المسلك، وما يجرى مجرى ذلك .

الصنف الثانى

(المياه الأرضية ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول - الماء المالح

ووقع فى لغة الإمام الشافعى رضى الله عنه الماء المالح ؛ وهو أحد العناصر
الأربعة ، وسيأتى فى الكلام على الأرض فى المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من
جميع جهاتها إلا ما اقتضته الحكمة الإلهية لعجارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها
الأعلى ، وأنه تفرعت منه بحار منبثة فى جهات الأرض لتجرى السفن فيها بما ينفع
الناس ؛ وقد ذكر الحكماء أن فى الماء المالح كثافة لا توجد فى الماء العذب ، ومن
أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب فى الماء العذب ، حتى يقال : إن
السفن التى تغرق فى البحر المالح لا تبلغ أرضه بخلاف التى تغرق فى الأنهار فإنها تنزل
إلى قعرها . وشاهد ذلك أنك إذا طرحت فى الماء العذب بيضة دجاجة ونحوها
غرقت فيه ، فإذا أذبت فى ذلك الماء ملحا بحيث يغلب على الماء وطرحت
فيه البيضة ، عامت ؛ وقد اختلف فى الماء المالح هل هو كذلك من أصل الحلقة
أو عرضت له الملوحة بسبب ملاقاه من سبخ الأرض على مذهبين ؛ ومن خصائص
البحر المالح أنه فى غاية الصفاء حتى إنه يرى ما فى قعره على القرب من شطه .
ويوصف البحر بالسعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتى يقال فى المثل "حدث
عن البحر ولا حرج" .

الضرب الثاني - الماء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأبحرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل في الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل ويحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها . وهو على ثلاثة أنماط :

النمط الأول - ماء الأنهار ، وهي ما بين صغار وكبار وقرية المدى وبعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار ، وهي سيجون ، وجيحون ، والدجلة ، والفرات ، ونيل مصر ، والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفها ماء على ماسياتى ذكره في المقالة الثانية إن شاء الله تعالى ، وفي الأنهار الجبار تسير السفن .

النمط الثاني - العيون : وهي مياه تنبع من الأرض وتعلو إلى سطح الأرض ثم تسرح في قبي قد حُفرت لها ، وهي منبثة في كثير من الأقطار .

النمط الثالث - البئار : وهي حفائر تخفر حتى ينبع الماء من أسفلها ويرتفع فيها ارتفاعا لا يبلغ أعلاها ، وقد اختلف في الماء الذي ينبع من الأرض هل هو الذي نزل من السماء أو غيره ، فذهب ذاهبون إلى أنه هو الذي نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعالى : ” وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ” الآية ، وذهب آخرون إلى أن الذي ينبع من الأرض غير الذي نزل من السماء محتجين بقوله تعالى : ” فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّهِمَّهِمْ وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا ” . ويوصف الماء للاستحسان بالعدوبة ، والصفاء ، والرفقة ، والحلقة ، وشدة البرد ، وفي معناه الشيم . ويسببه في شدة البرد بالزلال : وهو ما يترش داخل الثلج في تجاويف توجد فيه فيكون من أشد الماء بردا .

الصنف الثالث

(النبات ؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول — في أصل النبات

قد ذكر المسعودي في مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلى الأرض ، خرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قضيبياً مودعة أصناف الثمر ، منها عشرة لها قشر : وهي الجوز ، واللوز ، والجلوز ، والفستق ، والبَلوط ، والشاه بلوط ، والصنوبر ، والتاريخ ، والرمان ، والحشخاش . ومنها عشرة لثمرها نوى : وهي الزيتون ، والرطب ، والمشمش ، والخوخ ، والإجاص ، والغيراء ، والنبق ، والعناب ، والمخيطي^(١) ، والزعرور . ومنها عشرة ليس لها قشر ولا نوى : وهي التفاح ، والسفرجل ، والكثيري ، والعنب ، والتين ، والأترج ، والخرنوب ، والتوت ، والقناء ، والبطيخ .

المقصد الثاني

(فيما تختص به أرض دون أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجد في كثير من الآفاق ، ومنه ما يختص ببعض الأماكن دون بعض ؛ وقد حكى أبو بكر بن وحشية في كتاب الفلاحة النبطية : أن بلاد سبجلماسة من جنوبي بلاد المغرب الأقصى شجرة ترتفع نصف قامة أو أرجح ، ورقها كورق الغار ، إذا عمل منها إكليل ولبسه الرجل على رأسه ومشي أو عدا أو عمل عملاً ، لم ينم مادام ذلك الإكليل على رأسه ، ولا يناله من ضرر السهر وضعف القوة ما يناله من سهر وعمل . وفي بلاد إفريقية شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصف ساعة مات ، وإن مسها ماس أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هزها مات .

(١) كذا في المفردات لأبن البيطار أيضاً ولكن في القاموس (وكثامة وجميز) فاعل فيه لغة ثالثة .

قلت ومما يختص بأرض دون أرض البلسان : وهو شجرة لطيفة على نحو ذراع
تنتفح فروعها ، لا تثبت في سائر الدنيا إلا في الديار المصرية بموضع مخصوص من بلدة
يقال لها المطرية ، على القرب من مدينة عين شمس ، وتسقى من بئر هناك ، ويقال إنه
أغتسل فيها المسيح عليه السلام ولذلك النصراني يعظمون البلسان ويتبركون به .

المقصود الثالث

(في ذكر أصناف النبات التي أولع الكُتَّاب والشعراء بوصفها وتشبيهها :
وهي على ضرب)

الضرب الأول — ماله ساق

وهو الشجر ، وأكثر ما أولع أهل النظم والنثر بثمارها أو نورها ، في الوصف
والتشبيه ترا ونظما : كالأوز ، والفستق ، والجُلُوز ، وهو البندق ، والشاه بلوط :
وهو القِصطل ، والصنوبر ، والرمان ، والجُلتار ، والإجاص ، والقراصيا ، والزعرور ،
والمشمش ، والعناب ، والنبق ، والينب ، والتين ، والتوت ، والتفاح ،
والسفرجل ، والكمثرى ، واللفاح ، والخروب ، والأترج ، والنارج ، والليمون ،
والطلع ، والبلح ، والبسر ، والتمر ، والرائج : وهو جوز الهند ، والتجار يسمونه النارجيل .
وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرهما .

الضرب الثاني — مالميس له ساق

وقد أولعوا بالوصف والتشبيه منه ؛ فمن ذلك الزرع : من البر والشعير ونحوهما ،
ويتبع ذلك نور الباقلاء ، وكذلك الخشخاش ، والكمان ، والبطيخ الهندي : وهو
الأخضر ، وأخراساني : وهو العبدلي ؛ نسبة إلى عبد الله بن طاهر ، فإنه أول من نقله

من حُرَّاسَانِ إِلَى مِصْرَ، وَالْبَطِّيخِ الصِّينِيِّ : وَهُوَ الْأَصْفَرُ، وَالرَّسِينَتِيُّ : وَهُوَ الْمَعْرُوفُ بِاللَّفَّاحِ، وَالْقَنَاءِ، وَالْحِجَارِ، وَالْبَادِئُجَانِ، وَالسَّلْجَمِ : وَهُوَ اللَّقْمَتُ، وَالْحَزْرَةُ، وَالثُّومُ، وَالْبَصَلُ، وَالْكُرَّاثُ، وَالرَّيْبَاسُ، وَالْهَلْيُونُ، وَالنَّعْنَاعُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الثالث — الفواكه المشمومة

وَالَّذِي أَوْلَعَ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْهُ الْوَرْدُ عَلَى اِخْتِلَافِ أَلْوَانِهِ : مِنْ أَحْمَرَ، وَأَبْيَضَ، وَأَصْفَرَ، وَأَزْرَقَ، وَأَسْوَدَ، وَالنَّسْرِينِ، وَالْبَانِ، وَالْحِلَافِ، وَالنِّيْلُوفَرِ، وَالْبَنْفَسَجِ، وَالنَّرْجِسِ، وَالْيَاسْمِينِ، وَالْأَسِّ، وَالزَّعْفَرَانِ، وَالرَّيْحَانِ .

الضرب الرابع — الأزهار

وَالَّذِي وَقَعَ الْوَلُوعُ بِوصفه وَتَشْبِيهه مِنْ ذَلِكَ الْحَيْرِيِّ : وَهُوَ الْمَنْتُورُ : مِنْ أَصْفَرَ أَوْ أَزْرَقَ، وَالسَّوْسَنِ، وَالْأَذْرِيُونَ : وَهُوَ وَرْدٌ أَصْفَرٌ لَهُ رِيحٌ، وَالْحَزْمُ : وَهُوَ الْخُرَامِيُّ، وَالشَّقِيقُ ^(١) . وَيُسَمَّى الشَّقَاقُ، وَيَقَالُ لَهُ شَقَائِقُ النَّعْمَانِ : لِأَنَّ النَّعْمَانَ بْنَ الْمَسْدَرِ حَمِيًّا ظَهَرَ الْكَوْفَةُ بِهِ هَذَا النَّبَاتُ فَعُرِفَ بِهِ، وَالْبَهَّارُ : وَهُوَ نَوْرٌ أَحْمَرٌ، وَالْأَقْحُوَانُ، وَغَيْرَ ذَلِكَ .

الضرب الخامس — الرياض

وَهِيَ الْأَمَاكِنُ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى الْأَشْجَارِ، وَالْأَزْهَارِ، وَالْمِيَاهِ الْحَارِيَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وَقَدْ اتَّفَقَ جَوَابُ الْأَرْضِ عَلَى أَنَّ مَنْتَرَهَاتِ الْأَرْضِ أَرْبَعَةٌ مَوَاضِعَ : وَهِيَ سَعْدٌ بِمَرْقَنْدَ، وَشَعْبُ بَوَّانَ، وَنَهْرُ الْأَبْلَةِ، وَغُوطَةُ دِمَشْقَ .
 وَقَدْ أَكْثَرَ الشَّعْرَاءُ فِي وَصْفِ الرِّيَاضِ وَوَلَّعَ الْكُتَّابَ بِمِثْلِ ذَلِكَ .

(١) لعله والشقيقة ففي اللسان أن الشقائق لا واحد له أو واحده شقيقة وعلل لذلك فانظره .

الطرف الثالث من الباب الأول من المقالة الأولى

(في صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في الأصول التي يبنى الكلام عليها : وهي سبعة أصول)

الأصل الأول

(المعرفة بالمعاني . والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأول

(في شرف المعاني ، وفضلها)

اعلم أن المعاني من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثياب . فالألفاظ تابعة، والمعاني متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعاني؛ بل المعاني أرواح الألفاظ وغايتها التي لأجلها وُضعت، وعليها بُنيت؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلى إصابة المعنى أشد من احتياجه إلى تحسين اللفظ : لأنه إذا كان المعنى صواباً واللفظ منحطاً ساقطاً عن أسلوب الفصاحة، كان الكلام كالإنسان المشوه الصورة مع وجود الروح فيه، وإذا كان المعنى خطأ كان الكلام بمنزلة الإنسان الميت الذي لأرواح فيه، ولو كان على أحسن الصور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" : ومما رأيت من المدعين لهذا الفن الذين حصلوا منه على القشور، وقصروا معرفتهم على الألفاظ المسجوعة الغثة، التي لا حاصل وراءها، أنهم إذا أنكرت هذه الحالة عليهم؛ وقيل لهم إن

الكلام المسجوع ليس عبارة عن تواطؤ الفِقْر على حرف واحد فقط ، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثر الناس أن يأتوا به من غير كلفة ، وإنما هو أمر وراء هذا ، وله شروط متعددة ، فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوهم عن معرفته ؛ وإذا أنكر عليهم الأقتصار على الألفاظ المسجوعة ، وهُدُوا إلى طريق المعاني ، يقولون : لنا أسوة بالعرب الذين هم أرباب الفصاحة ؛ فإنهم إنما آعتنوا بالألفاظ ، ولم يعتنوا بالمعاني آعتناءهم بالألفاظ . فلم يكنهم جهلهم فيما آرتكبوه حتى آدعوا الأسوة بالعرب فيه فصارت جهالتهم جهالتين . قال : ولم يعلموا أن العرب ، وإن كانت تعنى بالألفاظ فُتصلحها وتهديها فإن المعاني أقوى عندها ، وأكرم عليها ، وأشرف قدراً في نفوسها . ولما كانت الألفاظ عنوان المعاني وطريقها إلى إظهار أغراضها أصلحها ، وزينوها وبالغوا في تحسينها : ليكون ذلك أوقع لها في النفس ، وأذهب بها في الدلالة على القصد . ألا ترى أن الكلام إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعه حفظه ، وإذا لم يكن مسجوعاً لم يأنس به أنسه في حالة السجع ؛ فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسّنوها ورقّقوا حواشيها وصقلوا أطرافها ، فلا تظن أن العناية إذ ذاك إنما هي بالألفاظ فقط ؛ بل هي خدمة منهم للمعاني ، فصار ذلك كإبراز صورة الحسناء في الحلل الموشاة والأثواب المحبرة ؛ فإننا قد نجد من المعاني الفاحرة ماشوه من حسنه بدآذة لفظه وسوء العبارة عنه .

قال أبو هلال العسكري رحمه الله : ومن عرف ترتيب المعاني وآستعمل الألفاظ على وجوهها بلغه من اللغات ثم آنتقل إلى لغة أخرى ، تهيأ له فيها من صنعة الكلام ماتياً له في الأولى . ألا ترى أن عبد الحميد الكاتب آستخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، وحوّلها إلى اللسان العربي . فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تكمل لإصابة المعنى وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال .

قال في "المثل السائر": "وأعلم أن المعاني الخطابية قد حُصرت أصولها، وأول من تكلم في ذلك حكاء اليونان؛ غير أن الحصر كلي لا جزئي، ومُحال أن تُحصَر جزئيات المعاني وما يتفرع عليها من التفرعات التي لا نهاية لها، لا جرم أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحب هذا العلم، ولا يفترق إليه؛ فإن البدوي البادي راعي الإبل ما كان يترشئ من ذلك بفهمه، ولا يخاطر بباله، ومع هذا؛ فإنه كان يأتي بالسحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا. قال: ولقد فَاوَضْنِي بعضُ المتفلسفين في هذا، وأنساق الكلام إلى شيء ذكره لأبي علي بن سينا في الخطابة والشعر، وذكر ضربا من ضروب الشعر اليوناني يقال له اللوغاذيا، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبي علي ووقفني على ما ذكره، فلما وقفت عليه أستجھلته؛ فإنه طَوَّل فيه وعَرَّض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل هذا الذي ذكره لغو، لا يستفيد به صاحب الكلام العربي شيئا، ثم مع هذا جميعه فإن معول القوم فيما يذكر من الكلام الخطابي أنه يُورد على مقدمتين ونتيجة، وهذا مما لم يخاطر لأبي علي بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع عمله، وعند إفاضته في صوغ ما صاغه لم تخاطر المقدمتان والنتيجة له ببال، ولو أنه فكر أولا في المقدمتين والنتيجة، ثم أتى بنظم أو نثر بعد ذلك، لما أتى بشيء يُنتفع به، ولطال الخطب عليه. قال: بل إن اليونان أنفسهم لما نظموا ما نظموه من أشعارهم، لم ينظموه في وقت نظمه وعندهم فكرة في مقدمتين ولانتيجة، وإنما هذه أوضاع توضع وتطول بها مصنفات كتبهم في الخطابة والشعر، وهي كما يقال:

قَعَاقِعٌ لَيْسَ لَهَا طَائِلٌ * كَأَنَّهَا شِعْرُ الْأَيُّورِدِيِّ

الوجه الثاني

(في تحقيق المعاني ، ومعرفة صوابها من خطئها ، وحسنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعاني على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(ما كان من المعاني مستقيماً حسناً : كقولك رأيت زيدا ،

وهو أعلى الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال في الصناعتين : والمعنى الصحيح الثابت ينادى على نفسه بالصحة ، ولا يجوز
إلى التكلف لصحته حتى يوجد المعنى فيه خطيئاً .

فأما المعنى المستقيم الحزّل من النظم ، فمن الوعظ قول التمر بن تَوْلَبٍ يذم طول

الحياة :

يُودُّ الْقَتَى طُورَ السَّلَامَةِ وَالْغِنَى * فَكَيْفَ تَرَى طُورَ السَّلَامَةِ يَفْعَلُ ؟

يَكَادُ الْقَتَى بَعْدَ اعْتِدَالِ وَصْحَةِ * يَنْوَأُ إِذَا رَامَ الْقِيَامَ وَيُجْمَلُ

وقول أبي العتاهية في الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانت في حياتك لي عِظَاتٌ * وأنت اليوم أوعظ منك حياً !

وفي وصف الأيام قول أبي تمام :

على أنها الأيامُ قد صرْنَ كُأْهَا * عَجَائِبَ حَتَّى لَيْسَ فِيهَا عَجَائِبُ

ومن الملاح قول أمية بن أبي الصلت :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ * بِسَبِّ وَمَا كُلُّ الْعَطَاءِ يَزِينُ

وليس بسينٍ لِأَمْرِي بَدَلٌ وَجْهَهُ * إِلَيْكَ كَمَا بَعْضُ السُّؤَالِ يَشِينُ

وقول أبي تمام :

يَسْتَعْدِبُونَ مَنَابِهِمْ كَأَنَّهُمْ * لَا يَيْتَسُونَ مِنَ الدُّنْيَا إِذَا قَتَلُوا

وقول الآخر :

هُمُ الْأَوْلَى وَهَبُوا لِلْمَجْدِ أَنْفُسَهُمْ * فَأَيُّالُونَ مَا نَالُوا إِذَا حُمِدُوا

ومن الفخر قول معن بن أوس :

لَعَمْرُكَ مَا أَهَدَيْتُ كَفَى لِرَبِيَّةٍ * وَلَا حَمَلْتَنِي نَحْوَ فَاحِشَةٍ رِجْلِي !

وَلَا قَادَنِي سَمْعِي وَلَا بَصَرِي لَهَا * وَلَا دَلَّنِي رَأْيِي عَلَيْهَا وَلَا عَقْلِي !

وَأَعْلَمُ أَنِّي لَمْ تُصْنِنِي مُصِيبَةٌ * مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا قَدْ أَصَابَتْ قَتْلِي !

وَأَسْتُ بِمَاشٍ مَا حَيَّيْتُ لِمُنْكَرٍ * مِنَ الْأَمْرِ لَا يَمِشِي إِلَى مِثْلِهِ مِثْلِي !

وَلَا مُوَثِّرٍ نَفْسِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ * وَأُوَثِّرُ ضَيْفِي مَا أَقَامَ، عَلَى أَهْلِي !

وقول الآخر :

وَلَسْتُ بِنَظَّارٍ إِلَى جَانِبِ الْغِنَى * إِذَا كَانَتِ الْعَلْيَاءُ فِي جَانِبِ الْفَقْرِ

وقول الشنفرى :

أُطِيلُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أَمِيتَهُ * وَأَضْرِبُ عَنْهُ الْقَلْبَ صَفْحًا فَيَذْهَلُ

وَلَوْلَا اجْتِنَابُ الْعَارِ لَمْ يَلْفَ مَشْرَبٌ * بَعَّاشٌ بِهِ إِلَّا لَدَى وَمَأْكَلٌ

ومن الغزل قول جرير :

إِنَّ الْعُيُونَ الَّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ * قَتَلْنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيَيْنَا قَتْلَانَا

يَصْرَعَنَّ ذَا اللَّبِّ حَتَّى لَا حَرَكَتَ بِهِ * وَهِنَّ أضعُفُ خَلْقِ اللَّهِ أَرْكَانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَهُ طَرْفِي فَأَلَمَ خَدَّهُ * فَصَارَ مَكَانَ الْوَهْمِ مِنْ نَظْرِي أَثْرٌ

وصَاحِفُهُ قَلْبِي فَأَلَمَ كَفَّهِ * فَمِنْ صَفْحِ قَلْبِي فِي أَنَامِلِهِ حَفْرُ
وَمَرَّ بِفِكْرِي خَاطِرًا بِفِرْحَتِهِ * وَلَمْ أَرَ خَلْقًا قَطُّ يَجْرَحُهُ الْفِكْرُ

ومن التشبيب قول القائل :

وَمِنْ عَجَبِ أَنِّي أَحْسَبُ إِلَيْهِمْ * وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا * وَيَسْتَأْفَهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْغِي

وقول الآخر :

إِن لَمْ أُرْزَرْ رَبْعُكُمْ سَعْيًا عَلَى حَدَقِي * فَإِنَّ وَدِّي مَسْئُوبٌ إِلَى الْمَلَقِ
تَبَّتْ يَدِي إِنْ تَنَتْنِي عَنْ زِيَارَتِكُمْ * بِيضُ الصَّفَاحِ وَلَوْ سُدَّتْ بِهَا طَرِيقِي

ومن الحكمة قول المتنبي :

وَالظُّلْمُ مِنْ شِيَمِ النَّفُوسِ فَإِنْ تَجِدْ * ذَا عَفَّةٍ فَاعِلَةٌ لَا يَظْلِمُ

وقول الآخر :

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارًا عَلَى الْقَدَى * ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهُ؟

وقول الآخر :

وَلَسْتَ بِمَسْتَبِقٍ أَخَا لَا تَلْمُهُ * عَلَى شَعَثِ أَيُّ الرَّجَالِ الْمُهْدَبُ؟

ومن الهجو قول الطرمّاح في تميم :

تَمِيمٌ يَطْرُقُ اللَّوْمَ أَهْدَى مِنَ الْقَطَا * وَلَوْ سَلَكْتُ سُبُلَ الْمَكَارِمِ ضَلَّتْ

وقول الآخر :

لَوْ أَطَّلَعَ الْغُرَابُ عَلَى تَمِيمٍ * وَمَا فِيهَا مِنَ السَّوَاتِ شَابًا

إلى غير ذلك من معاني الشعر الحسنة البهيجة الرائقة .

ومما يخرط في هذا السلك من النثر ما يحكى أن أعرابيا وقف على عبد الملك بن مروان برملة اللوى فقال : رحم الله امرأ لم تمنح أذناه كلامي ، وقدم معاذه من سوء مقامي ، فإن البلاد مجدبه ، والحال مسغبه ، والحياء زاجر ، يمنع من كلامكم ، والفقر عاذر ، يدعو إلى إخباركم ، والدعاء إحدى الصدقتين ، فرحم الله امرأ أمر بمير ، أو دعا بخير .

ومعاني القاضى الفاضل هى التى ترقص لها القلوب ، وتطرب لها الألباب ، ويهجم قلوبها على النفوس من غير حاجب ولا بواب . فمن ذلك قوله :

”يا بنى أيوب لو ملكتم الدهر لامتطيتم ليليه أداهم ، وقلدتم أيامه صوارم ، وأفنيتم شموسه وأقماره فى الهباب ، دنانير ودراهم ، وأيامكم أعراس وما تم فيها على الأموال ماتم ، والجود فى أيديكم حاتم ، ونفس حاتم فى نقش ذلك الخاتم“ .

فهذا هو السحر الحلال ، والمعانى التى تخضع لها شم الجبال ، ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصنف الثانى

(ما كان مستقيا قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال فى ”الصناعتين“ وإنما قبح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير . وهذا النوع يسميه علماء المعانى التعقيد . وسماه ابن الاثير فى ”المثل السائر“ المعاطلة المعنوية ، وهو تقديم ما الأولى به التأخير : كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك ؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة : لأن المعنى يختل به ويضطرب . قال فى ”المثل السائر“ وهو ضد

الفصاحة : لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف . فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبحت بعدَ خطِّ بهجتِها * كأنَّ قفَّاراً سُومَهَا قَلْبَا

يريد فأصبحت بعدَ بهجتِها قفَّاراً كأنَّ قلماً خطَّ رسومَهَا فقدمَ خبرَ كَأَنَّ ، وهو خطٌّ عليها فجاءَ مختلاً مضطرباً ، وأقبح منه وأكثرُ اختلالاً قول الفرزدق :

إلى مَلِكٍ مَأْمُومَةٍ من مَحَارِبٍ * أبُوهُ ، ولا كَأَنَّ كُتِبَ تُصَاهِرُهُ

يريد إلى ملكٍ أبوه مأموم من محارب ، والمعنى مأوم أبيه من محارب ، يمدحه بذلك ذمّاً لمحارب . وكذلك قوله ، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مملكا * أبو أمه حتى أبوهُ يُقَارِبُهُ

يريد وما مثله في الناس حتى يقاربه إلا مملكا أبو أمه أبوه ، وهو خاله ، فلمَّا استعمل فيه التقديم والتأخير في غير موضعه جاء مشوهاً رثاً كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين ابن الأثير" : وقد استعمل الفرزدق من التعاضل كثيراً كأنه يقصد ذلك ويتعمده لأن مثله لا يجيء إلا متكلفاً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسه تجرى على سببِها وطبعها في الأسترسال ، لم يعرض له شيء من هذا التعقيد ، إلا ترى أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ، ذهب المراد به . ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الصنف الثالث

(ما كان مستقياً ولكنه كذب : كقولك حملت الجبل ،

وشربت ماء البحر ، وما أشبه ذلك)

وأعلم أن المعاني المستعملة في الشعر والكتابة أكثرها جارٍ على هذا الأسلوب خصوصاً المعاني الشعرية ، فإنه مقدمات تخيلية توجب في النفس انقباضاً وانبساطاً على ما هو مقرر في علم المنطق . وقد قال في "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبنى على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتعة ، والنوع الخارجة عن العادة ، والألفاظ الكاذبة : من قذف المحصنات ، وشهادة الزور ، وقول البهتان ، ولا سيما الشعر الجاهلي الذي هو أقوى الشعر وأفحله . قال : وليس يراد منه إلا حُسن اللفظ وجودة المعنى ، فهذا الذي سوغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب في شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يراد من الأنبياء عليهم السلام . قال الشيخ زكي الدين بن أبي الأصعب رحمه الله في كتابه تحرير التحجير : وأنا أقول قد اختلف في المبالغة ، فقوم يرون أن أجود الشعر كذبه ، وخير الكلام ما بولغ فيه ، ويحتجون بما جرى للناطقة الديباني مع حسان بن ثابت رضي الله عنه في استدراك النابغة عليه تلك المواقع المحيية في قوله :

لنا الحفنات الغر يلمعن بالضحي * وأسيافنا يقطرن من نجدة دماً

فإن النابغة إنما عاب على حسان ترك المبالغة ، والقصة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن روى عنه انقطاعه في يد النابغة ، وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ما خرج مخرج الصدق ، وجاء على متهج الحق ، ويرعمون أن المبالغة من ضعف المتكلم وعجزه عن أن يخترع معنى ، أو يفتح

معنى من معنى، أو يجلّى كلامه شيئاً من البديع، أو ينتخب ألفاظاً موصوفة بصفات الحسن، ويوجد تركيبها؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلى المبالغة يستد بها خلله ويتم نقصه: لما فيها من التهويل على السامع، ويدعون أنها ربما أحالت المعاني فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلى حدّ الأمتناع. قال: وعندى أن هذين المذهبين مردودان. أما الأول فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيه، وهذا قول من لا نظره لأننا نرى كثيراً من الكلام والأشعار جارياً على الصدق المحض خارجاً مخرج البحث، وهو في غاية الجودة، ونهاية الحسن، وتام القوة، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن، والمحاسن لا تُحصَرُ ضرباً؛ فكيف يقال إن هذا الضرب على أنفراده يفضل سائر ضرب المحاسن على كثرتها؛ وهذا شعر زهير والحطيئة وحسان؛ ومن كان مذهبه توخى الصدق في شعره غالباً، ليس فوق أشعارهم غايةً لمترقّ؛ ألا ترى إلى قول زهير:

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ أَمْرِيٍّ مِنْ خَلِيقَةٍ * وَإِنْ خَالَهَا تُخْفِي عَلَى النَّاسِ تُعَلِّمَ
وإلى قول طرفة:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى * لَكَاطَ طَوَّلِ الْمَرْحَى وَثِنْيَاهُ فِي الْيَدِ
وإلى قوله:

سُبْدِي لَكَ الْآيَامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُرَوِّدْ
وإلى قول الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَعْدَمُ جَوَازِيَهُ * لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالنَّاسِ
فإنك تجد هذه الأشعار في الطبقة العليا من البلاغة، وإن خلت من المبالغة؛ والذي يدل على أن مذهب أكثر الفحول ترجيح الصدق في أشعارهم على الكذب

ماروى عن الحرورية امرأة عمران بن حطان قاضى الصُفْرِيَّةِ من الخوارج
أنها قالت له يوما : أنت أعطيت الله تعالى عهدا أن لا تكذب فى شعرك ،
فكيف قلت :

فَهُنَاكَ مَجْرَأَةُ بِنِ ثَوٍّ * رِيكَانَ أَشْبَجَ مِنْ أُسَامَةَ .

فقال : يا هذه إن هذا الرجل فتح مدينةً وحده وما سمعت بأسد فتح مدينة
قط ، وهذا حسان يقول :

وإنما الشعرُ ب المرء يعرضه * على المجلس إن كَيْسًا وإن حمقًا
وإنَّ أشعرَ بيتٍ أنت قائله * بيتٌ يقال إذا أنشدته : صدقا

على أن هؤلاء الفحول وإن ربحوا هذا المذهب ، لا يكرهون ضده ، ولا
يُحَدِّثُونَ فضله ، وقمما تخلو بعض أشعارهم منه إلا ان توتى الصدق كان الغالب
عليهم ، وكانوا يكثرون منه ، ومن أكثر من شيء عُرف به كما أن النابغة ومن تابعه
على مذهبه لا يكرهون ضد المبالغة ، وإلا فكل احتجاج جاء به على النعان فى الاعتذار
جار مجرى الحقيقة كقوله :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك رِيبةً * وليس وراء الله للسرء مذهبٌ

فعائب الكلام الحسن بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة على الإطلاق غير
مصيب ، وخير الأمور أوساطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حد الإمكان ، ولم تجر مجرى الكذب
المحض ، فإنها لا تُدَمِّمُ بحال ، كقول قيس بن الخطيم :

طعنتُ ابنَ عبد القيس طعنةً نائر * لها نَفْدٌ لولا الشعاعُ أضاءها
ملكْتُ بها كفى فأنهتُ فقها * يرى قائمٌ من دونها من وراءها^(١)

(١) فى اللسان ما . ولعلها رواية .

فإن ذلك من جيد المبالغة ، إذ لم يكن خارجاً مخرج الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية في وصف الطعنة ؛ وكذلك قول أبي تمام .

تَكَادُ تَنْتَقِلُ الْأَرْوَاحُ لَوْ تُرِكَتْ * مِنَ الْجُسُومِ إِلَيْهَا حِينَ تَنْتَقِلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضلاً عن الجواز بتقديم كاد ، حتى قال : لَوْ تُرِكَتْ ، قال : وهذا أصح بيت سمعته في المبالغة وأحسنه ، وعلى حدّه ورد قول شاعر الحماسة ، وقد بالغ في مدح ممدوحه فقال :

رَهَنْتُ يَدِي بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِ بَرِّهِ * وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكُورِ مَزِيدٌ
وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتِطَاعَتُهُ * وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدٌ

فإن هذا الشاعر ألقى بيده وأظهر عجزه ، وأعترف بقصوره عن شكر برّ هذا الممدوح ، وفطن أنه لو اقتصر على ذلك ، لأحتمل أن يقال له : عجزك عن شكره لا يدل على كثرة برّه : لأحتمل أن يكون لضعف مادتك عن الشكر ، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شيء تعظيم ذلك الشيء ولا بدّ : لأحتمل أن يكون العجز لضعف الإنسان ، فأحترز عن ذلك بقوله :

* وَمَا فَوْقَ شُكْرِي لِلشُّكُورِ مَزِيدٌ *

ثم تم المعنى بأن قال للشُّكُورِ ، للمبالغة في الشكر ، فإن شكورا معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدّم ؛ ثم أظهر عذره في عجزه بأن قال في البيت الذي يليه :

* وَلَوْ كَانَ مِمَّا يُسْتَطَاعُ اسْتِطَاعَتُهُ *

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مخرج المثل السائر ليكثر دوراً أنه على الألسنة فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين ، والتنويه بذكره في كل زمان حيث قال :

* وَلَكِنْ مَا لَا يُسْتَطَاعُ شَدِيدٌ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حد الإمكان، وجرت مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة في الشرع، وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك، ولا يتحاشون الوقوع فيه. وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله: "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ" وفي قوله صلى الله عليه وسلم: "أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةٌ لِيَبِيدَ: * أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلَا اللَّهَ بَاطِلٌ" *

إشارة لذلك أيضا .

فمن المبالغة في الشعر المنتهية إلى حد الكذب قول البُخترى :

ولو قَسَتْ يَوْمًا حِجْلَهَا بِحَقَائِبِهَا * لَكَانَا سُوءًا، لِأَبْلِ الْجِجْلِ أَوْسَعُ
وَصَفَهَا بِرِقَّةِ الْخَصْرِ وَغَلِظَ السَّاقِ حَتَّى جَعَلَ حِجْلَهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى سَاقِهَا أَوْسَعَ مِنْ
حِقَائِبِهَا الَّذِي يَدُورُ عَلَى خَصْرِهَا؛ وَأَبْلَغُ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ:

مَنْ الْهَيْفَ لَوْ أَنَّ الْخَلَاخِيلَ صُبِّرَتْ * لَهَا وَنُحْمًا، جَاءَتْ عَلَيْهَا الْخَلَاخِيلُ
بِجَعْلِ الْخَلَاخِيلِ يَجُولُ فِي جَمِيعِ بَدَنِهَا، لَكِنَّهُ لَيْسَ مِنَ الْمَدْحِ فِي شَيْءٍ لِأَنَّ الْخَلَاخِيلَ
لَوْ صَارَ وَسَاحًا لِلرَّأَةِ، لَكَانَتْ فِي غَايَةِ الدَّمَامَةِ حَتَّى تُصِيرَ فِي خِلْقَةِ الْحُرِّ وَالْمَهْرِ.^(١)
وَأَبْلَغُ مِنْهُ قَوْلُ الْآخَرِ.

وَرَحْبُ صَدْرِي لَوْ أَنَّ الْأَرْضَ وَسَعَةٌ * كَوْسَعِهِ، لَمْ يَضِقْ عَنْ أَهْلِهِ بَلَدٌ
بِجَعْلِ صَدْرِهِ فِي السَّعَةِ وَالرُّحْبِ أَوْسَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَنُحُوهُ قَوْلُ الْآخَرِ:
وَيَوْمَ كَطُولِ الدَّهْرِ فِي عَرَضِ مِثْلِهِ * وَوَجَدِي مِنْ هَذَا وَهَذَاكَ أَطْوَلُ
إِلَّا أَنَّهُ آسْتَعْمَلَ الْعَرَضَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ، إِذِ الدَّهْرُ يُوصَفُ بِالطُّولِ لَا بِالْعَرَضِ،
وَهُوَ قَدْ جَعَلَ لَهُ طَوْلًا وَعَرَضًا؛ وَيَقْرَبُ مِنْهُ قَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ:

كَفَيْ بِي جَسْمِي نُحُولًا أَنِّي رَجُلٌ * لَوْلَا مَخَاطَبَتِي إِيَّاكَ، لَمْ أَبْنِ^(٢)

(١) الجرو مثلث الجيم (٢) المشهور في الرواية لم ترني وهي التي شرح عليها المعبرى .

فجعل كلامه هو الذى يدل عليه من شدة التحول . قال الشيخ زكى الدين بن أبى الأصابع : ومما يجرى به التمثيل فى باب المبالغة قولُ بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيَغْضَبُ قبل أن يطلبها ، وتكون إليه فيردُّها قبل أن يفهمها . وقول بعض بلغاء الكُتَّاب : إن من النعمة على المُنْتِنِ عليك أن لا يخلو من مساعد ، ولا يَحْشَى من معاند ، ولا تلحقه نقيصة المُكذِّبِ ، ولا يُكْرِهُهُ عَوَزُ الأوصاف بالتطلب ، ولا ينتهى من القول إلى منتهى إلا وجد بعده مقتضى ووراءه منجى . وسيأتى من المبالغة فى أوصاف الخيل والسلاح ، وغيرها فى قسم الأوصاف من ذلك ما فيه مقنعٌ إن شاء الله تعالى .

الصنف الرابع

(ما كان محالا : وهو مالا يمكن كونه البتة : كقولك آتيتك أمس ،
وأتيتك غدا ، وما أشبه ذلك)

قال فى الصناعتين : فإن اتصل الكذب بحال ، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما ، ومررت بيقظان نائم ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع ، ومحال لعدم إمكان الجمع بين النقيضين ، وقد تقدّم فى النوع الثالث أن أكثر الشعر مبنى على الكذب والاستحالة : من الصفات الممتعة ، والنوع الخارجة عن العادة ، وذلك فى الكذب مما لا نزاع فى كثرته فى الشعر كما تقدّم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع ، نادر فى النظم والنثر ، معدود من المعايب ، محكوم عليه بالرد .

فمن ذلك قول عبد الرحمن بن عبد الله القسّ :

وإن إذا ما الموتُ حلَّ بنفسها ، * يُزَالُ بنفسى قبلَ ذاكَ فأقبرُ

قال العسكريّ : هذا من المحال الذي لاوجه له ، قال : وهو شبيهه بقول القائل :
إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال المتنع الذي
لا يجوز . يريد أنه قد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم
الدور ، وهو محال ، فيحكم فيه بالبطان وقطع الدور .

ومما يلتحق بالمحال وينخرط في سلكه تناقض المعاني وأضطرابها .

فمن ذلك قول المُسيّب بن عَليّ بن عَليّ في وصف ناقة :

قَسَلَّ حاجتها إذا هي أعرَضَتْ * بَحْمِيصَةٍ سُرْحِ اليدين وَسَاعِ
فَكَأَنَّ قَنْطَرَةً بموضع كُورِهَا * ملساء بين غَوَامِضِ الأَسَاعِ
وإذا أطفَت بها ، أطفَت بِكَلْكِ * بيضِ القَرَايِصِ مُجَفَّرِ الأَصْلَاعِ

قال في ”الصناعتين“ : وهذا من المتناقض لأنه قال بجميصة ، ثم قال موضع
كورها قنطرة ، وهي مجفرة الأضلاع فكيف تكون جميصة وهذه صفتها ؟
وقريب منه قول الحطيئة :

حَرَجُ يَلاوُذٍ بِالكِناسِ كَأَنَّهُ * مَتَظَوِّفٌ حَتَّى الصَّبَاحِ يَدُورُ
حَتَّى إذا ما الصُّبْحُ شَقَّ عَمودَهُ * وَعِلاهَ أَسْطَعُ من سَنانِهِ مُنِيرُ
وَحَصَى الكَثِيبِ بِصَفْحَتَيْهِ كَأَنَّهُ * خَبَثُ الحَديدِ أَطارِهُنَّ الكِيارُ

زعم أنه لم يزل يطوف حتى أصبح وأشرف على الكثيب ، فمن أين صار الحصى
بصفحته ؟ . وقول المرقش الأصغر :

صَحَّا قَلْبُهُ عَنا عَلَيَّ أَنْبُ دُكْرَةٍ * إذا خَطَرْتُ دارَتُ به الأَرْضُ قائِماً
وكيف صحا عنها من إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصنف الخامس

(ما كان غَلَطًا : وهو أن تريد الكلام بشئ فَيَسْبِقُ لسانك إلى خلافه ، كقولك :

ضَرَبَنِي زَيْدٌ وَأَنْتَ تَرِيدُ ضَرْبَتُ زَيْدًا)

قال في "الصناعتين" : فإن تعمدت ذلك ، صار كذبا ، وهذا النوع أكثر وقوعا من الذى قبله ، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط فى المعانى كثيرة : فمن ذلك الغلط فى الأوصاف ؛ وهى على وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكرة بما ينافيه .

فمن غريب هذا النوع قول الراعى فى وصف المسك :

يَكْسُو الْمَفَارِقَ وَاللَّبَّاتِ ذَا أَرْحِجٍ * مِنْ قُصْبٍ مُعْتَلِفِ الْكَافُورِ دَرَجِجٍ

بجعل المسك من قُصْبِ الطَّيِّبِ ، وهو معاه ، وجعل الطَّيِّبَ يعتلف الكافور فيتولد منه المسك ، وهذا من طرائف الغلط . وقريب منه قول زهير يصف الضفادع :

يَخْرُجْنَ مِنْ شَرَبَاتٍ مَأْوَاهَا طِحْلٌ * عَلَى الْجُدُوعِ تَخَافُ الْعَمَّ وَالْغَرَقَا^(١)

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق ، ونشوءها فيه . وقريب منه قول ذى الرمة :

إِذَا أَنْجَبَتِ الظُّلَمَاءُ ، أَضْحَتْ رُؤُوسَهَا * عَلَيْنِ مِنْ جَهْدِ الْكَرَى وَهِيَ صُلْعٌ

فوصف الرؤوس بالصلع . قال ابن أبى فروة : ما أغفلت هذا ، ولقد قلت لذى الرمة : ما علمت أحدا أضلع الرؤوس غيرك ، قال : أجل .

(١) فى اللسان يخفن فسا فى الاصل رواية له .

قال في الصناعتين : ومما لم يُسمع مثله قط قول عدى بن زيد في الخمر :
 والمُشْرِفُ الهَيْدَبُ يسعى بها * أخضر مطموئاً بماء الحَرِيصِ
 فوصف الخمر بالخضرة ، والحريصُ السحابة تجرُّصُ وجه الأرض أى تقشُّرها ،
 ومنه سميت إحدى الشجاج في الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .
 ومنها وصف الشيء على خلاف المعهود والعادة المعروفة .
 فمن ذلك قول المرار :

وخالٍ على خديك يسدو كأنه * سنا البدر في دَعَجَاءِ بادٍ دُجُونُهَا
 والمعروف أن الحيلان سودٌ أو سمرٌ ، والحدود الحسان إنما هي البيض ، فأتى
 هذا الشاعر بقلب المعنى ؛ ومثله قول الآخر :

كأئما الحيلان في وجهه * كواكبٌ أهدقن بالبدر
 قال أبو هلال العسكري : ويمكن أن يُحتجَّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه
 الحيلان بالكواكب من جهة الاستدارة لا من جهة اللون .
 ومن ذلك قول امرئ القيس في وصف الفرس أيضا :
 وللسوط أهُوبٌ وللساق درّة * وللزجر منه وقعٌ أخرج مهذب
 قال أبو هلال العسكري : فلو وصف أخس حمارٍ وأضعفه ، ما زاد على ذلك ؛
 وقول القائل :

صَبَّنا عليها ظالمينَ سَيَاطِنًا * فطارتُ بها أيدٍ سراعٌ وأرجلُ
 فجعل ضربها بالسوط من باب الظلم لأنها لا تتوجه إلى ذلك ؛ ومن ذلك قول
 امرئ القيس :

وَأرَكَبُ في الرَّوعِ خَيْفَانَةً * كَسَا وَجْهَهَا سَعْفٌ مُنْتَشِرٌ

شبه ناصية الفرس بسعف النخلة أطولها، وإذا غطى الشعر عين الفرس
لم يكن كريما .

ومثله قول طرفة يصف ذنب البعير :

كأن جناحي مضرحي، تكتنفا * حفافيه، شكا في العيب بمسرد
فجعل ذنبه كشيئا، طويلا عريضا، وإنما توصف النجائب بخفة الذنب
ورقة الشعر .

ومنها أن يجرى في مقاصد المعاني على خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول
جنادة :

من حبا أتمنى أن يلاقيني * من نحو بلدتها ناع فينعاهها
لكي يكون فراقك لا لقاء له * وتضمير النفس بأسمائها تسلاها
فإذا تمنى المحب للمحب الموت فماذا عسى أن يتمي البغيض لبغيضه ؟
وقول الآخر :

ولقد هممت بقتلها من حبا * كما تكون خصيمتي في الحشر
فذكر أن شدة الحب حملته على قتل محبوبته حتى تخصصه في الحشر لطلب حقها،
وشدة الحب لا تجعل إلا على الإكرام والبر، على أنها قد تكون تكرهه، فترك حقها
له حتى لا يطول وقوفها معه للخصام، وقول نصيب :

فإن تصلي، أصلك وإن تعودى * بهجر بعد ذاك، فلا أبالي
والعاشق يلاطف قلب محبوبه ولا يحاجه، ويلاينه ولا يلاجه .

الأصل الثاني

(من صناعة إنشاء الكلام النظر في الألفاظ، والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأول

(في فضل الألفاظ وشرفها)

قد تقدم في الكلام على المعاني أن الألفاظ من المعاني بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصييح يزداد حسنا بالحلل الفاحرة، والملابس البهيبة، والقيح يزول عنه بعض القبح: كما أن الحسن ينقص حسنه برثائه ثيابه وعدم بهجة ملبوسه، والقيح يزداد قبحا إلى قبحه. فالألفاظ ظواهر المعاني، تحسن بحسنها وتقبح بقبحها، وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين": "ليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ، وصفائه. وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقائه، وكثرة طلاوته ومائه، مع صحة السبك والتركيب، والخلق من أود النظم والتأليف. قال: وليس يطلب من المعنى إلا أن يكون صوابا، ولا يقنع من اللفظ بذلك حتى يكون على ما تقدم من نعوته. ثم قال: ومن الدليل على أن مدار البلاغة تحسين اللفظ أن الخطب الرائعة، والأشعار الرائقة، ما عملت لإفهام المعاني فقط لأن الرديء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها في الإفهام، وإنما يدل حسن الكلام وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجودة مقاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه، على فضل قائله، وفهم منثنيه، وأكثر هذه الأوصاف ترجع إلى الألفاظ دون المعاني، وتوحي صواب المعاني أحسن من توحي هذه الأمور في الألفاظ، فلماذا يتأق الكاتب في الرسالة، والخطيب في الخطبة، والشاعر في القصيدة، ويالغون في تجويدها، ويغنون في ترتيبها، ليدلوا على براعتهم،

وَحِدْقِهِمْ بِصِنَاعَتِهِمْ ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ فِي الْمَعَانِي لَطَرَحُوا أَكْثَرَ ذَلِكَ فَرَجَّحُوا كَثِيرًا ،
وَأَسْقَطُوا عَنْ أَنْفُسِهِمْ تَعْبًا طَوِيلًا ، وَأَيْضًا فَإِنَّ الْكَلَامَ إِذَا كَانَ لَفْظُهُ حُلُوءًا عَدْبًا ،
وَسَائِسًا سَهْلًا ، وَمَعْنَاهُ وَسَطًا ، دَخَلَ فِي جَمَلَةِ الْجَيْدِ ، وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ ،
كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

وَمَا قَضَيْنَا مِنْ مِثِّي كُلِّ حَاجَةٍ ، * وَمَسَّحَ بِالْأَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَأْسُوحٌ ،
وَشُدَّتْ عَلَى حُدْبِ الْمَهَارِيِّ رِحَالُنَا * وَلَمْ يَنْظُرِ الْغَادِي الَّذِي هُوَ رَائِحٌ ،
أَخَذْنَا بِأَطْرَافِ الْأَحَادِيثِ بَيْنَنَا ، * وَسَأَلْتُ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِحُ

وليس تحت هذه الألفاظ كثير معنى ، وهي رائقة معجبة ، وإنما هي : وما
قَضَيْنَا الْحَجَّ وَمَسَّحْنَا بِالْأَرْكَانِ ، وَشُدَّتْ رِحَالُنَا عَلَى مَهَازِيلِ الْإِبِلِ ، وَلَمْ يَنْظُرْ بَعْضُنَا
بَعْضًا ، جَعَلْنَا نَتَحَدَّثُ وَتَسِيرُنَا الْإِبِلُ فِي بَطُونِ الْأَوْدِيَةِ ، وَإِذَا كَانَ الْمَعْنَى صَوَابًا
وَاللَّفْظُ بَارِدًا فَاتَرَكَتْ مَسْتَجِنًا مَأْفُوظًا ، وَمَذْمُومًا مَرْدُودًا ، كَقَوْلِ أَبِي الْعَتَاهِيَّةِ
فِي أَبِي عَثْمَانَ سَعِيدِ بْنِ وَهَبٍ :

مَاتَ وَاللَّهِ سَعِيدُ بْنُ وَهَبٍ * رَحِمَ اللَّهُ سَعِيدَ بْنَ وَهَبٍ
يَا أَبَا عَثْمَانَ أَبُكَيْتَ عَيْنِي * يَا أَبَا عَثْمَانَ أَوْجَعْتَ قَلْبِي

الوجه الثاني

(الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغى استعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذي ينبغى أن يستعمل في النظم والنثر من الألفاظ هو الرائق البهيج الذي
تقبله النفس ، ويميل إليه الطبع ، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح في أصل اللغة هو الظاهر البين ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان

ضوءه ، وأفصح اللبن إذا تجلت عنه رغوته وظهر ، وأفصح الأعجمي وفصح إذا

أبان بعد أن لم يكن **يُبين** ، وأفصح الرجل عما في نفسه ، إذا أظهره . قال في **المثل** السائر : وأهل البيان **يَقْفُونَ** عند هذا التفسير ، ولا يكشفون عن السر فيه . قال : وبهذا القول لا تبتين حقيقة الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهراً بينا لم يكن فصيحاً جيداً ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحاً ؛ على أنه قد يكون اللفظ ظاهراً الزيد ولا يكون ظاهراً العمرو ، فيكون فصيحاً عند واحد دون آخر ، وليس كذلك ، بل الفصيح مالم **يُخْتَلَفْ** في فصاحته : لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرف ما هي ، لم يبق في اللفظ المختص بها خلاف ؛ وأيضاً فإنه لو جرى بلفظ قبيح ينبو عنه السمع ، وهو مع ذلك ظاهر **بين** ، فينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأن الفصاحة وصفٌ **حُسِنَ** اللفظ لا وصفٌ **قُبِحَ** . قال : وتحقيق القول في ذلك أن يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر **البين** ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لا يحتاج في فهمها إلى استخراج من كتب لغة ، وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفة الاستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرة في كلامهم ؛ وإنما كانت مألوفة الاستعمال دائرة في الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان **حُسْنِها** ، وذلك أن أرباب النظم والنثر **غَرَبُوا** اللغة باعتبار ألفاظها ، و**سَبَرُوا** وقسموا فاختاروا **الحسن** من الألفاظ فاستعملوه ، ونفوا القبيح منها فلم يستعملوه ، فحُسِنَ الألفاظ سبب استعمالها دون غيرها ، واستعمالها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ؛ فالفصيح إذن من الألفاظ هو **الحسن** . ثم قال : والمرجع في تحسين الألفاظ وقبحها إلى حاسة السمع ، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو **الحسن** ، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، بدليل أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت **الشَّعْرُورِ** ، ويميل إليهما ؛ ويكره صوت الغراب وينفر عنه ، وكذلك يكره **نَهيقَ الجمار** ، ولا يبعد ذلك في صهيل الفرس ، والألفاظ جارية هذا المجرى ، فإنه لا خلاف في أن لفظة **المزنة** والديمية يستلذهما السمع ، ولفظة **البعاق**

قبيحة يكرهها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد ، وأنت ترى لفظي المُرْتَنَة والدَّيْمَة وما جرى مجراها ما لوفة الاستعمال وتري لفظ البَعَاق وما جرى مجراه متروكا لا يستعمل ، وإن استعمل وإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذَوْقُه غير سليم ، لا جرم أنه ذم وقدح فيه ، ولم يلتفت إليه ، وإن كان عَرَبِيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين ، فإن حقيقة الشيء إذا علمت ، وجب الوقوف عندها ، ولم يُعْرَجْ على ما خرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحُسْنِ حتى يتصف بأربع صفات :

الصفة الأولى

(أن لا يكون غريبا : وهو ما ليس مأنوس الاستعمال ولا ظاهر المعنى)

ويسمى الوحشي أيضا ، نسبة إلى الوحش لنفاره وعدم تأنسه وتألفه ، وربما قلب فقيل الحَوْشِيّ نسبة إلى الحوش : وهو النَّفَار . قال الجوهري ^(١) : وزعم قوم أن الحوش بلاد الجن وراء رمل يبرين ، لا يسكنها أحد من الناس ، فالغريب والوحشي والحوشي كله بمعنى .

ثم الغريب على ضربين .

الضرب الأول - ما يُعَابَ استعماله مطلقا : وهو ما يحتاج في فهمه إلى بحث

وتنقيب ، وكشفت من كتب اللغة : كقول ابن جحدر .

حَلَقْتُ بِمَا أُرَقَلْتُ حَوْلَهُ * هَمْرَجَلَةٌ خَلَقْتُهَا شَيْطُمُ

وما شَبَقْتُ مِنْ تُوْفِيَّةٍ * بها من وَحَى الْجَنِّ زِيْرِيْمُ

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الحَبَب ، يقال منه أُرَقَلْتُ الناقَةُ تُرْقَلُ

إرقالا ، والهمرجلة الناقة السريعة ، وقال أبو زيد : الهمرجلة الناقة النجبية الراحلة .

(١) كذا في الضوء أيضا وفيه تساهل لان الفارمعي لا نحاش لالحاش انظر القاموس .

وَالشَّيْظُ الشَّدِيدُ الطَّوِيلُ وَهُوَ مِنْ صِفَاتِ الْإِبِلِ وَالخَيْلِ وَالْأَنْثَى شَيْظَمَةٌ . وَالشَّبْرَقَةُ الْقَطْعُ ، يُقَالُ شَبْرَقْتُ الثَّوْبَ أَشْبَرَقَهُ شَبْرَقَةً إِذَا قَطَعْتَهُ ، وَشَبْرَقْتُ الطَّرِيقَ إِذَا قَطَعْتَهَا وَالتَّنَوُّفَةُ الْمَفَازَةُ ، وَيُقَالُ فِيهَا تَنَوُّفِيَّةٌ أَيْضًا . وَالوَحَى هُنَا الصَّوْتُ الْخَفِيُّ ، يُقَالُ سَمِعْتُ وَحَاةَ الرَّعْدِ : وَهُوَ صَوْتُهُ الْمَمْتَدُّ الْخَفِيُّ ، وَقَوْلُهُ زَيْزَمٌ حِكَايَةُ لِأَصْوَاتِ الْجَنِّ إِذَا قَالَتْ زَى زَى ؛ وَحَاصِلُهُ أَنَّهُ يَقُولُ حَلَفْتُ هَذِهِ الْحَلْفَةَ بِمَا سَارَتْ هَذِهِ النَّاقَةُ الشَّدِيدَةَ السَّيْرِ الْعَظِيمَةَ الْخَلْقُ ، وَمَا قَطَعْتَ مِنْ مَفَازَةٍ لَا يُسْمَعُ فِيهَا إِلَّا أَصْوَاتُ الْجَنِّ ؛ وَهَذَا مِمَّا لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَدِّ وَتَعَبٍ فِي كَشْفِهِ وَتَتَبُّعِهِ مِنْ كِتَابِ اللُّغَةِ .

الضرب الثاني - ما يحتاج إلى تدقيق النظر في التصريف وتخريج اللفظ على وجه بعيد : كلفظ مسرَّج من قول العجاج .

وَمُقَلَّةٌ وَحَاجِبًا مُرَبَّجًا * وَفَاحِمًا وَمَرَسِنًا مَسْرَجًا

فَالْمُقَلَّةُ شَحْمَةُ الْعَيْنِ ، وَالْحَاجِبُ مَعْرُوفٌ ، وَالْمُرَبَّجُ الْمُقَوَّسُ مَعَ طَوِيٍّ وَدَقَّةٍ فِي طَرَفِهِ وَالْفَاحِمُ الشَّعْرُ الْأَسْوَدُ الَّذِي لَوْنُهُ كَلَوْنِ الْفَحْمِ ، وَالْمَرَسِنُ الْأَنْفُ ، وَصِفُهُ بِكَوْنِهِ مَسْرَجًا إِمَّا أَنَّهُ كَالسَّيْفِ السَّرِيحِيِّ فِي الدَّقَّةِ وَالْأَسْتَوَاءِ ، وَالسَّرِيحِيُّ نِسْبَةٌ إِلَى قَيْنٍ يُسَمَّى سَرِيحًا تَنْسَبُ إِلَيْهِ السُّيُوفُ ، وَإِمَّا أَنَّهُ كَالسَّرَاجِ فِي الْبَرِيقِ وَاللَّمْعَانِ ؛ أَوْ مِنْ قَوْلِهِمْ سَرَّجَ اللَّهُ وَجْهَهُ إِذَا بَهَّجَهُ وَحَسَّنَهُ . فَهَذَا وَمِثْلُهُ مِمَّا لَا يُقَفُّ عَلَيْهِ مَعْنَاهُ إِلَّا مَنْ عَرَفَ التَّصْرِيفَ وَأَتَقَنَهُ .

إِذَا تَقَرَّرَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ الْفَرْقَ يَخْتَلِفُ فِي الْغَرَابَةِ وَعَدْمِهَا بِاخْتِلَافِ النَّسَبِ وَالْإِضَافَاتِ ؛ فَقَدْ يَكُونُ الْفَرْقُ مَأْلُوفًا مُتَدَاوِلًا لِالِاسْتِعْمَالِ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا فِي زَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ ، وَقَدْ يَكُونُ غَرِيبًا مُتَوَحِّشًا عِنْدَ قَوْمٍ ، مُسْتَعْمَلًا مَأْلُوفًا عِنْدَ آخَرِينَ .

وهو أربعة أصناف .

الصنف الأول

(المألوف المتداول الاستعمال عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما تداول استعماله الأول والآخِر من الزمان القديم وإلى زماننا : كالسما والارض ، والليل والنهار ، والحز والبرد ، وما أشبه ذلك ؛ وهو أحسن الألفاظ ، وأعدبها ، وأعلاها درجة وأغلاها قيمة ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفاً متداولاً كما تقدم ؛ وهذا لا يقع عليه اسم الوحشي بحال . قال في : ” المثل السائر ” وأنت إذا نظرت إلى كتاب الله العزيز الذي هو أفصح الكلام ، وجدته سهلاً سلساً ، وما تضمنه من الكلمات الغربية يسير جداً - وهذا وقد أنزل في زمن العرب العرباء ، وألفاظه كلها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالاً وكفى بالقرءان الكريم قُدوةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ، ” ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل مثل أمّ القرءان وهي السَّبْعُ المثاني ” يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلى ما أشتمت عليه من الألفاظ ، وجدتها سهلة قريبة يفهمها كل أحد حتى صبيان المكاتب وعوام السوق ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبلاغة ، فإن أحسن الكلام ما عرف الخاصة فضله ، وفهم العامة معناه ؛ وهكذا فلتكن الألفاظ المستعملة في سهولة فهمها وقرب متناولها ؛ والمقتدى بالفاظ القرءان يكفي بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنشورة والمنظومة ؛ وقد كانت العرب الأول في الزمن القديم تتعاشى اللفظ الغريب في نظمها ونثرها ، وتميل إلى السهل وتستعذبه ؛ ويكفي من ذلك كلام قبيصة بن نعيم لما قدم على امرئ القيس في أشياخ بني أسد يسألونه العفو عن دم أبيه ، فقال له : ” إنك في المحل والقدر من المعرفة بتصرف الدهر وما تحُدثه أيامه وتنتقل به أحواله بحيث لا تحتاج إلى تذكير من واعظ ، ولا تبصير من مجرب ، ولك من سؤدد منصبك وشرف أعراقك ، وكرم أصلك في العرب محبباً يحتمل ما حمل عليه :

من إقالة العثرة ورجوع عن الهفوة ؛ ولا تتجاوز الهمم إلى غاية إلا رجعت إليك
 فوجدت عندك من فضيلة الرأي ، وبصيرة الفهم ، وكرم الصّفح ما يطول رغباتها ،
 ويستغرق طلباتها ، وقد كان الذي كان : من الخطب الحليل ، الذي عمّت رزيتّه
 نزارا واليمن ، ولم تُخصّص بذلك كندة دوتنا: للشرف البارِع الذي كان مُحجّرًا ، ولو كان
 يُفدى هالك بالأنفس الباقية بعده لما بحت كرائمنا بها على مثله ، ولكنه مضى به
 سبيل لا يرجع أخراه على أولاده ؛ ولا يلحق أقصاه أدناه ؛ فأحد الحالات في ذلك أن
 تعرّف الواجب عليك في إحدى خلال ثلاث : إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها
 بيتا ، وأعلها في بناء المكرّمات صوتا ، فقدناه إليك بنسعة تذهب مع شفرات حُسامك
 بباقي قصرته ، فنقول : رجل امتحن بهالك عزيز فلم يستلّ سخيّمته إلا تمكينه من
 الانتقام . أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها ، فهي أوف تجاوز الحسبة
 فكان ذلك فداء رجعت به القُضب إلى أجنانها لم يرددها تسليط الإحن على البرءاء .
 وإما أن وادعنا إلى أن تضع الحوامل قُسدل الأزر وتعتقد الخمر فوق الرايات .
 فبكي أمرؤ القيس ساعةً ، ثم رفع رأسه فقال .

”لقد علمت العرب أنه لا كفاء لمحجر في دم ، وأنى لن أعتاص به جملا ولا ناقةً ،
 فأكتسب به سبة الأبد ، وفّت العضد ؛ وأما النظرة فقد أوجبتنا الأجنة في بطون
 أمهاتها ، ولن أكون لعطبها سببا ؛ وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك ، تحمل
 في القلوب حقا وفوق الأسته علقا .

إذا جالت الحرب في مازق * تصافح فيه المنايا النفوسا !

أتقيمون أم تتصرفون؟ “ قالوا بل نصرف بأسوا الاختيار وأبلى الاجترار ، بمكروا
 وأذيه ، و حرب و بليّه .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعَلَّكَ أَنْ تَسْتَوْخِمَ الْوَرْدَ إِنْ غَدَتْ * كَتَأْتِنَا فِي مَازِقِ الْحَرْبِ مُمِطِرُ
فقال امرؤ القيس لا والله ! ولكن أستعذبه ، فرويدا ينفرج لك دُجَاهَا عن
فُرسَانِ كِنْدَةَ وَكَتَابِ حَمِيرٍ . ولقد كان ذكر غير هذا بي أولى إذ كنت نازلا بربي ،
ولكنك قلت فأوجبت .

فقال قبيصة ما يتوقع فوق قدر المعاتبة والإعتاب ، فقال امرؤ القيس هو ذاك .
قال في : ” المثل السائر ” فيُنظر إلى هذا الكلام من الرجلين : قبيصة وأمرؤ
القيس حتى يدع المتعمقون تعمقهم في استعمال الوحش من الألفاظ . فإن هذا
الكلام قد كان في الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك هو كلام كل
فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشئ . قال : وهذا المشار إليه هاهنا
هو من جزل كلامهم ، وهو على ما تراه من السلاسة والعدوبة ، وإذا تصفحت
أشعارهم أيضا وجدت الوحش من الألفاظ قليلا بالنسبة إلى المسلسل في الفم
والسمع ، وعلى هذا المنهج في الجزالة والسهولة يجرى من النظم قول أمرؤ القيس :

فَلَوْ أَنَّ مَا سَعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ ، * كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ الْمَالِ
وَلِكِنَّمَا أَسْمَى لِجِدِّ مُؤْتَلٍ * وَقَدْ يُدْرِكُ الْمَجْدَ الْمُؤْتَلُ أَمْثَالِي

فأنظر إلى هذين البيتين ليس فيهما لفظة غريبة ، ولا كره مع ما فيهما من الجزالة
وكذلك أبيات السموعل المشهورة وهي .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَدْنَسْ مِنَ اللَّؤْمِ عِرْضُهُ * فَكُلُّ رِدَاءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَجْعَلْ عَلَى النَّفْسِ ضَمِيمًا ، * فَلَيْسَ إِلَى حُسْنِ الثَّنَاءِ سَبِيلٌ
تَعِيرُنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا * فَقُلْتُ لَهَا إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ
وَمَا ضَرَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ وَجَارُنَا * عَزِيزٌ وَجَارُ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلٌ

يُقَرِّبُ حُبَّ الْمَوْتِ آجَالَنا لَنَا * وَتَكْرَهُهُ أَجَاهُكُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا سَيِّدٌ فِي فِرَاشِهِ * وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قِيْلُ
وَأَسْيَافُنَا فِي كُلِّ غَرْبٍ وَمَشْرِيقٍ * بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعَوَّدَةٌ أَنْ لَا تُسَلَّ نِصَالُهَا * فَتَغْمَدُ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قِيْلُ

فإذا نظرت ماتضمتته هذه الأبيات من الجزالة، خلطها زُبراً من الحديد مع ماهى
عليه من السهولة والعدوبة وأنها غير فظة، ولا غليظة . وقد ورد للعرب في جانب
الرقعة من الأشعار ما يكاد تدوب لرقته القلوب : كقول عروة بن أذينة :

إِن الَّتِي زَعَمْتَ فَوَادِكَ مَلَّهَا * خُلِقْتَ هَوَاكَ كَمَا خُلِقْتَ هَوَى لَهَا
بِيضَاءً بَاكَرَهَا النِّعِيمُ فِصَاعَهَا * بَلْبَاقَةٌ فَادَقَّهَا وَأَجَلَّهَا
حَجَّيْتُ تَحِيَّتَهَا فَقُلْتُ لِصَاحِبِي : * مَا كَانَ أَكْثَرَهَا لَنَا وَأَقْلَبَهَا !
وَإِذَا وَجَدْتُ لَهَا وَسَاوَسَ سَلْوَةً ، * شَفَعَ الضَّمِيرُ إِلَى الْفَوَادِ فَسَلَّهَا

وقول يزيد بن الطثرية في محبوبته من بنى حرم .

بِنَفْسِي مِنْ لَوْمَرٍ بَرْدٌ بَنَانُهُ * عَلَى كَيْدِي ، كَانَتْ شِفَاءً أَنْامِلُهُ

وإذا كان هذا قول ساكن الفلاة، لا يرى إلا شيحة أو قيصومة ولا يأكل إلا
ضبا أو يربوعاً، فما بال قوم سكنوا الحضر، ووجدوا رقعة العيش يتعاطون وحشى
الألفاظ وشظف العبارات ؟ ولا يُجَلِّدُ إِلَى ذَلِكَ إِلَّا جَاهِلٌ بِأَسْرَارِ الْفِصَاحَةِ ،
أو عاجز عن سلوك طريقها ، فإن كل أحد ممن حصل على نبذة من علم الأدب
يمكنه أن يأتي بالوحشى من الكلام ، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة، أو يتلقفه
من أربابها . وأما الفصيح المتصّف بصفة الملاحاة ، فإنه لا يقدر عليه ولو قدر عليه
لما علم أين يضع يده في تأليفه وسبكه .

قال : وإن ماري في ذلك مَمَّارٍ ، فلينظر إلى أشعار علماء الأدب ممن كان يُسَارَ إليه حتى يعلم صحة ذلك ؛ فإن ابن دريد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب وإذا نظرت إلى شعره ، وجدته بالنسبة إلى شعر الشعراء المجيدين مُنَحَطًّا ، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عَشْرَ مِعْشَارِ ما علمه ، وأين شعره من شعر العباس ابن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشعراء المُحَدِّثِينَ ، وشعره كثر نسيم على عَدَبَاتِ أغصان ، أو كاؤلواتِ طَلِّ على طُرُرِ رِيحَانٍ ، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلى أستخراجها من كتاب من كتب اللغة ، كقوله :

وإني ليرضيني قليل نوالكم * وإن كنت لأرضى لكم بقليل
بحرمة ماقد كان بيني وبينكم * من الود إلا عدوهم بجميل

وقوله في محبوبته فوز :

يا فوزُ يا مِئَةَ عَبَّاسٍ * قلبي يفدى قلبك القاسي
أسأت إذ أحسنت ظني بكم * والحزم سوء الظن بالناس
يقلني شوقي فآتيكم * والقلب مملوء من الياس

وهل أعذب من هذه الأبيات؟ وأعلق بالباطر، وأسرى في السمع؟ ومثلها تسهر راقدات الأجنان ، وعن مثلها تتأخر السوايق عند الرهان ، ومن الذي يستطيع أن يسلك هذه الطريق التي هي سهلة وعرة ، قريبة بعيدة؟ . وقد كان أبو العتاهية أيضا في غرة الدولة العباسية ، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا ، وإذا تأملت شعره وجدته كالماء الجاري ، رقة أفاض ، ولطافة سبك ، وليس بريك ولا واه ، وأنظر إلى قصيدته التي يمدح بها المهدي ويشبب بجاريتته عتب وهي :

ألا ما لسيدتي ما لها * تدل ، فأحسل إدلالها

ألا إن جاريةً للإِما * م قد أسكنَ الحُسنَ سرِّهاها
 لقد أتعبَ اللهُ قَلْبِي بها * وَأَتَعَبَ فِي اللّوْمِ عُدَّاهَا
 كأنَّ بعينيَّ في حَيْثُ ما * سلكت من الأرضِ تَمَثَّلهَا
 فلما وصل إلى المديح قال من جملة :

أنته الخِلافةُ متقادةً * إليه تُجَرَّرُ أذْيَاهَا
 فلم تكِ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ * ولم يكِ يَصْلُحُ إِلَّا لها
 ولو رامها أحدٌ غيره، * لزلزلتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا
 ولو لم تُطْعَمْ نِباتُ القلوبِ، * لما قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا

فهذه الأبيات من أرق الشعر غزلاً ومديحاً، وقد أذن لمديحها الشعراء من أهل ذلك العصر، وهي على ما ترى من السلاسة واللطافة على أقصى الغايات، حتى قال بسار عند سماع المهدي لها من أبي العتاهية : "انظروا إلى أمير المؤمنين هل طار عن أعواده" يريد هل زال عن سريره طرباً بهذا المديح . وعلى هذا الأسلوب كان أبو نؤاس في السهولة والسلاسة والرقّة ، ولذلك قدّم على شعراء عصره مع ما فيه من فحول الشعراء ومفلقهم كسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقّة شعره وسهولته : كقوله في محبوبته جنان :

ألم تر أنّي أفنيتُ عمري * بمطلبها ومطلبها عسير
 فلمّا لم أجد سبباً إليها * يقربني وأعيني الأمور
 حججتُ وقلت : قد حججتُ جنان * فيجمعني وإياها المسير

فانظر إلى هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة، وكذلك سائر شعره؛ وكان هو وأبو العتاهية كأنما ينفقان من كيس واحد . ومن لطيف ما يحكى في توافق طريقتهما

وأتحد مأخذهما أن أبا نؤاس جلس يوماً إلى بعض التجّار ببغداد هو وجماعة من الشعراء فاستسقى أبو نؤاس ماءً فلما شرب قال :

* عَذِبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

ثم قال : أجزوه، فأخذ أولئك الشعراء يترددون في إجازته وإذا هم بأبي العتاهية مجتازا فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وَكَيْتَ وقد قال أبو نؤاس :

* عَذِبَ الْمَاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية مجيزاً له :

* حَبَّدَا الْمَاءُ شَرَابَا *

فَعَجِبُوا لقوله على الفور من غير تلبث، فهذا هو الكلام السهل المنتع تراه يُطْمَعُكَ أن تأتي بمثله، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب، وهكذا ينبغي أن يكون من خاض في كتابة أو شعر، فإن خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن .

ومن الثر قول سعيد بن حميد : وأنا من لا يُحَاجُّكَ عن نفسه، ولا يغالطك عن جرمه، ولا يستدعي بك إلا من طريقته، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم، نبت بي عنك غرة الحداثة، وردتني إليك الحنكة، وباعدتني منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصنعة بقبول العذر، وتجدد النعمة باطراح الحقد، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة، وإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة، والمتعة بها وإن كثرت قليلة، فعلت إن شاء الله تعالى .

فانظر إلى قوة هذا الكلام في سهولته، وقرب مأخذه مع بُعد تناوله والإتيان بمشاكله . وأجزل منه مع السهولة قول الشعبي للحجاج، وأراد قتله لخروجه عليه

مع ابن الأشعث : "أجذب بنا الجناب، وأحزن بنا المنزل، فاستحلستنا الحذر، واكتحلنا السهر، وأصابنا فتنة لم تكن فيها بررة أتقيا، ولا فجرة أقويا" فعفا عنه .
قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل على قوم فصاروا يستجيدون الكلام إذا لم يقفوا على معناه إلا بكد ، ويستفصحوه إذا وجدوا ألفاظه كرة غليظة ، وجاسية غريبة ، ويستحقرون الكلام إذا رأوه سلسا عذبا ، وسهلا حلوا ، ولم يعلموا أن السهل أمتع جانبا ، وأعز مطلبا ، وهو أحسن موقعا ، وأعذب مستمعا ، ولهذا قيل "أجود الكلام السهل المتع" وكان المفضل يختار من الشعر ما يقل تداول الرواة له ، ويكثر الغريب فيه . قال العسكري : وهذا خطأ في الاختيار : لأن الغريب لم يكثر في كلام إلا أفسده ، وفيه دلالة على الاستكراه والتكلف .

ووصف الفضل بن سهل عمرو بن مسعدة فقال : هو أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتب مثل كتبه ، فإذا رامها ؛ تعذرت عليه ،
وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب في شعرك ؟ فقال ذلك عي في زمانى ، وتكلف منى لو قتته ، وقد رزقت طبعاً وآتساعاً في الكلام ، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير ، ولا يحتاج إلى تفسير ، ثم أنشدنى :

أيا ربِّ إنى لم أرد بالذى به * مدحتُ علياً غير وجهك فارحم

قال فى الصناعتين : فهذا كلام عاقل يضع الكلام موضعه ، ويستعمله فى إبانة .
ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعانى رفق ، والتشادق فى غير أهله نقص ، والنظر فى وجوه الناس عي ، ومس اللحية هلك ، والأستعانة بالغريب عجز ، والخروج عما بُنى عليه الكلام إسهاب ؛ فأجود الكلام ما كان جراً سهلاً ، لا يتغلق معناه ، ولا يستبهم مغزاه ، ولا يكون مكدوداً مستكراً ، ومتوعراً متقعرّاً ، ويكون بريئاً من

الغثائفة، عاريا من الرثائفة، فالكلام إذا كان لفظه غثًا، ومعرّضه رثًا، كان مردودًا، ولو أحتوى على أجلّ معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله. قال في "المثل السائر": أما البداوة والعنجهية، فتلك أمة قد خلت، ومع أنها قد خلت وكانت في زمن العرب العاربة فإنها قد عيبت على مستعملها في ذلك الوقت فكيف الآن، وقد غلب على الناس رقة الحضر؟

الصنف الثاني

(الغريب المتوحش عند كل قوم في كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الاستعمال في الزمن الاوّل ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هو مرفوض عند غيرهم، ويسمى الوحشيّ الغليظ، والعكبر، والمتوعّر وهو على ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(ما يعاب استعماله في النظم والنثر جميعا)

قال في "المثل السائر": والناس في قبح استعماله سواء، لا يختلف فيه عمر في باد، ولا قروي متحضر. قال: وليس وراءه في القبح درجة أخرى، ولا يستعمله إلا أجهل الناس ممن لم يخطر بباله شيء من معرفة هذا الفن أصلا، وهو ما مجّه سمك، ونبا عنه لسانك، وتقل عليك النطق به؛ على أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المفلّحين من العرب والمحدّثين. فمن ذلك لفظ الجحيش في قول تابط شرا من أبيات الحماسة:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا * جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَسَالِكِ

فإن لفظة جَحِيشٍ من الألفاظ المنكرة القبيحة، قال في "المثل السائر" : وبالله العجب ! أليس أنها بمعنى فَرِيد ؟ وفريدٌ لفظة حَسَنَةٌ رائقة لو وضعت في هذا البيت موضع جَحِيشٍ لما آختل شيء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما استعماله القبيح، والثاني أنه كانت له مندوحة عن استعماله فلم يعدل عنها؛ وأقبح من ذلك لفظ أَطْلَحَمَّ في قول أبي تمام :

فدقلت لما أَطْلَحَمَّ الأمرُ وَأَنْبَعَثَتْ * عَشَوَاءُ تَالِيَةً غُبَسًا دَهَارِيَسَا

فإن لفظة أَطْلَحَمَّ من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة، وأنها غليظة في السمع، كريهة على الدُّوق، وكذلك لفظة دَهَارِيَس في آخر البيت المذكور.

وعلى حد ذلك ورد لفظ جِيدَر في قوله من أبيات في وصف فرس :

نِعْمَ مَتَاعُ الدُّنْيَا حَبَاكَ بِهِ * أَرْوَعُ لِاجِيدَرِّ وَلَا جِبْسُ

لفظة جيدر وحشية غليظة؛ وأغاظ منها لفظة جَفَحَتْ في قول أبي الطَّيِّب المتنبي :

جَفَحَتْ وَهُمْ لَا يَجْفَحُونَ بِهَا بِهِمْ * شِيمٌ عَلَى الْحَسْبِ الْأَغْرِّ دَلَائِلُ

فإن لفظة جَفَحَ مَرَّةً الطعم، وإذا مَرَّتْ عَلَى السَّمْعِ أَقْشَعَرَّتْ مِنْهَا، وكان له مندوحة عن استعمالها فإنَّ جَفَحَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ وَيَفْخَرُونَ مكانَ جَفَحَتْ وَيَجْفَحُونَ، لاستقام وزن البيت وحطى في استعماله بالأحسن، فهو في ذلك كَتَأَبَّطَ شَرًّا في لفظة جَحِيشٍ في توجه الملامة عليه من وجهين.

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء؟

هذا ما أورده ابن الأثير من هذا النوع؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقْلَدُ

في قول زهير :

تَقَى نَقَى لَمْ يَكْثُرْ غَنِيمَةً * بِنَهْكَ ذِي قُرْبَى وَلَا حَقْلَدًا

والْحَقْلَدُ السِّيءُ الْخَلْقُ. (١) قال في «الصناعتين»: وقد أخذ الرواة على زُهَيْرٍ في لفظه الْحَقْلَدُ فاستبشعوها، وقالوا: ليس في لفظ زُهَيْرٍ أَنْكَرُ مِنْهَا، وكذلك لفظ الْجَرِشِيِّ في قول أبي الطَّيِّبِ في مدح سيف الدولة بن حمدان وأسمه عليّ:

مُبَارَكُ الْأَسْمِ أَغْرُ اللَّقَبِ * كَرِيمُ الْجَرِشِيِّ شَرِيفُ النَّسَبِ

فلفظ الْجَرِشِيِّ مما يكرهه السمع، وينبو عنه اللسان، والجَرِشِيُّ بمعنى النَّقِيسِ بفعل اسمه مباركا، ولقبه أغرّ، ونفسه كريمة، ونسبه شريفا، وذلك أنه كان يسمى عليّاً وهو أسم مبارك لمواقفة أسم أمير المؤمنين: عليّ كرم الله وجهه ويلقب سيف الدولة وهو لقب أعرابي مشهور، وأغرّ أخذنا من غزوة الفرس لأنها أشهر ما فيها، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحسب والعراقة، وإما باعتبار بذل المال وكثرة العطاء، وأشار إلى شرف نسبه باعتبار عراقة في بيت الملك وعراقة حسبه.

الضرب الثاني

(ما يعاب آستعماله في النثر دون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه آستخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولاً لغيره. قال: وهذا ينكره من يسمعه حتى ينتهي إلى ما أوردته من الأمثلة، ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منه أمثلة.

منها لفظ شَرَنْبَثَةٌ من قول الفرزدق:

ولولا حيَاءٌ، زِدْتُ رَأْسَكَ شَجَّةً * إِذَا سِيرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي
شَرَنْبَثَةٌ شَمَطَاءٌ مِنْ يَرْمَاهَا * يُشْبَهُ لَوْ بَيْنَ الْإِنْمَاسِيِّ وَالطَّفْلِ

(١) في القاموس «الحقلد في قول زهير الاثم» ومثله في لسان العرب.

قال : فلفظة شَرْنَبَّة من الألفاظ الغريبة التي يسوغ استعمالها في الشعر ، وهي هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت في كلام منشور من كتاب أو خطبة ، لعبت على استعمالها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٌ الواردة في أبيات بُشْرِ في وصفه لقاءه الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المَهْنَدَ عن يميني * فقدَّ له من الأضلاع عَشْرًا

فَخَرَّ مُضْرَجًا بِدَمٍ كَأَنَّ * هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا

وكذلك في قول البُحْرِيِّ في قصيدته التي يصف فيها إيوان كسرى :

مُشْمَخِرٌ تَعَلُّوْهُ شُرُفَاتٌ * رُفِعَتْ فِي رُءُوسِ رَضْوَى وَقُدْسِ

فإن لفظة مُشْمَخِرٌ لا يحسن استعمالها في الخطب والماكتبات ، ولا بأس بها في الشعر؛ وقد وردت في حُطْبِ الشيخ الخطيب ابن نُبَاتَةَ كقوله في خطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : أَقْمَطَرٌ وَبَاهُا، وَأَشْمَخِرٌ نَكَالُها، فما طابت ولا ساغت .

ومنها لفظة الكَنُهورِ من أوصاف السحاب كقول أبي الطَّيِّبِ :

يَا لَيْتَ بَاكِئَةً شَجَابِي دَمْعُها * نَظَرْتُ إِلَيْكَ كَمَا نَظَرْتُ قَتَعِدْرًا

وَتَرَى الْفَضِيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسُ تُشْرِقُ وَالسَّحَابُ كَنُهورًا

فلفظة الكَنُهورِ لا تعاب نظرًا، وتعاب نثرًا .

ومنها لفظة العَرْمِسِ ، وهو اسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ استعمالها

في الشعر ولا يعاب استعمالها كقول المتنبي :

وَهَمَّه جَبْتُهُ عَلَى قَدَمِي * تَعِجْزُ عَنْهُ الْعَرْمِسُ الدُّلُّ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها، ولو استعملت في الكلام المنشور من

الخطب لما طابت ولا ساغت؛ وقد جاءت موحدة في شعر أبي تمام في قوله :

هي العرْمُسُ الوجناء وابن مِلمة * وجأش على ما يُجِدُّ الدهرُ خافِضُ
ومنها لفظة الشَّدنية في قول أبي تمام أيضا .

* يَأْمُوعُ الشَّدنيةِ الوجناء *

وهي ضرب من النوق ، فإن الشَّدنية لاتعاب شعرا وتعاب لو وردت في كتابة أو خطبة . هذا ما أورده في "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال : وهكذا يجري الحكم في أمثال هذه الألفاظ ؛ وعلى هذا فأعلم أن كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنشور يسوغ استعماله في الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ استعماله في الكلام المنظوم يسوغ استعماله في الكلام المنشور . قال : وذلك شيء أستنبطته وأطلعت عليه لكثرة ممارستي هذا الفن ، ولأن الذوق الذي عندي دلني عليه ، فمن شاء أن يقلدني فيه ، وإلا فليدمن النظر حتى يطالع علي ما أطلعت عليه . والأذهان في مثل هذا المقام تتفاوت ، علي أن الشيخ سعد الدين التفتازاني رحمه الله قد تابعه علي ذلك في شرح التلخيص فلا أعلم أقلده في ذلك أم ذوقه أذاه إليه ؟ .

الضرب الثالث

(ما يعاب استعماله بصيغة دون صيغة)

قال في "المثل السائر" : وهذا الضرب من هذه الصناعة بمنزلة عليّة ، ومكانة شريفة ، وجلّ الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مدعي فنّ الفصاحة وفاوضتهم وفاوضوني ، وسألتهم وسألوني ، فما وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضوع كما ينبغي ، وقد استخرجت فيه أشياء لم أسبق إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنتقل من هيئة إلى هيئة، أو من صفة إلى صفة، فننتقل من القُبْح إلى الحُسْنِ وبالعكس فيصير القبيح حسناً، والحسن قبيحاً، والمرجع في ذلك إلى الذوق الصحيح والطبع السليم، وقد نبه منه على تسعة أنماط .

النمط الأول - ما يترجح فيه الأسم في الاستعمال على الفعل، وذلك في مثل لفظ خَوْدٌ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلى صيغة الفعل، قيل خَوَدَ على وزن فَعَّلَ بتشديد العين ومعناها أسرع . يقال : خَوَدَ البعير إذا أسرع في مشيه، فهي على صيغة الأسم حسنة راتمة، قد وردت في النظم والنثر كثيراً، وإذا جاءت على صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبي تمام :

وإلى بنى عبد الكريم تَوَاهَقَتْ * رَتَكَ النَّعَامِ رَأَى الطَّرِيقُ فَخَوَدًا^(١)

إلا أن لفظة خَوَدٌ قد استعملت على غير هذا الوجه في بعض المواضع فزال عنها بعض القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أَقُولُ لِنَفْسِي حِينَ خَوَدَ رَأْهُمَا : * رُوَيْدِكَ لَمَّا تُسْفِقِي حِينَ مَسْفَقِي

رُوَيْدِكَ حَتَّى تَنْظُرِي عَمَّ تَجَلِي * عَمَايَةُ هَذَا الْعَارِضِ الْمُنَالِقِ

والرَّأَى النعام، والمراد أن نفسه فزت وفزعت، شبه بإسراع النعام في فراره وفزعه فلما أورد ذلك على سبيل المجاز، زال بعض القبيح . قال : وهذا يدركه الذوق الصحيح فهي في بيت أبي تمام قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بينَ بينَ، ويقاس على ذلك أشباهه ونظائره .

النمط الثاني - ما يترجح فيه فعل الأمر والمستقبل في الاستعمال على الفعل الماضي وذلك في مثل لفظة وَدَعَ، وهي فعل ماض ثلاثي لا يُنْقَلُ بها على اللسان، ومع ذلك

(١) في المثل السائر . الظلام . وكذا في ديوان أبي تمام .

فإنها لا تستعمل على صيغتها الماضية إلا جاءت غير مُستَحْسَنَةٍ، فإذا استعملت على صيغة الأمر أو الأستقبال، جاءت حسنة بهجة رائقة، أما على صيغة الأمر فكما في قوله تعالى: "فَذَرَهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا"، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هذه الصيغة، وأما على صيغة الأستقبال فكقول النبي صلى الله عليه وسلم وقد واصل في شهر رمضان فواصل معه قوم، فقال: "لَوْ مَدَّ لَنَا الشَّهْرُ لَوَاصِلًا وَصَالًا يَدْعُ لَهُ الْمُتَمَعِّقُونَ تَعَمِّقَهُمْ" وقد استعملها أبو الطَّيِّبِ على هذا الوجه في قوله:

تَسْقُمُ بِقَنَاهَا كُلَّ سَاهِبَةٍ * وَالضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنْكُمْ فَوْقَ مَا يَدْعُ

جاءت في كلامه بهجة رائقة، وأما الماضي من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذًا ولا حُسنَ له، كقول أبي العتاهية:

أَثَرُوا فَلَمْ يَدْخُلُوا قُبُورَهُمْ * شَيْئًا مِنَ الثَّرْوَةِ الَّتِي جَمَعُوا
وَكَانَ مَاقَدَّمُوا لِأَنْفُسِهِمْ * أَعْظَمَ نَفْعًا مِنَ الَّذِي وَدَعُوا

فلم تقع في كلامه من الحسن موقعا، ولا أصابت من الطَّلَاوةِ غَرَضًا؛ وهذه لفظه واحدة لم يتغير شيء من أحوالها سوى أنها نقات من صيغة إلى صيغة؛ وكذلك لفظه وَذَرَ فإنها لا تستعمل ماضية، وتستعمل على صيغة الأمر كقوله تعالى: "ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا"، وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالى: "سَأُصَلِّبُهُ سَقْرًا وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقْرٌ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ"، ولم ترد في القرآن الكريم إلا على هاتين الصيغتين؛ وكذلك في غير القرآن الكريم من فصيح الكلام، أما في حالة الماضي، فإنها أقبح من لفظه وَدَعَ، وقد استعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا.

النقط الثالث - ما يرجح فيه الإفراد في الأستعمال على التثنية، وذلك في مثل لفظ

(١) كان عليه أن يمثل بقوله تعالى: "وَدَعْ أَذَاهُمْ".

الأخْدَج ، فإنها يحسن أستعمالها في حالة الإفراد دون التثنية ؛ فإما وردت فيه مفردة
بجاءت حسنة راقية ، قول الصَّمَّةِ بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَفَّتْ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتَنِي * وَجِئْتُ مِنَ الإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا

ومما ورد فيه لفظ التثنية بجاء ثقيلًا مستكرها قول أبي تَمَّام :

يَادَهُرُ قَوْمٌ مِنْ أَخْدَعِكَ فَقَدْ * أَصْحَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ حُرْقِكَ

هكذا ذكره في المثل السائر، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت موحدة
في أحدهما فَحَسُنَتْ ، وجاءت مشاة في الآخر فَبِحَتْ .

النمط الرابع - ما يترجح فيه الإفراد في الاستعمال على الجمع ، وذلك كلفظة الأرض
فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة ، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما في قوله
تعالى : ” وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الأَرْضِ نَبَاتًا ” أو قُرِنت بالسماء مفردة كما في قوله تعالى :
” وَيَمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ” أو مجموعة كما في قوله تعالى :
” الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ ” ولو كان استعمالها بلفظ الجمع مستحسنًا ،
لكان هذا الموضع وشبهه به أليق لمقابلة الجمع في السموات ، ولما أراد أن يأتي بها
بمجموعة قال : ” اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ” وكذلك لفظه
البُقعة ، وكذلك لفظه طَيْفٌ في ذكر طَيْفِ الخيال ، فإنها تجمع على طُيُوفٍ ، وهي
في حالة الإفراد من أَرْقِ الألفاظ وأطفها ؛ فإذا جمعت زالت عنها تلك الطَّلَاوة ،
وفارقتها تلك البهجة ، ولذلك وردت في القرآن الكريم بلفظ الإفراد قال تعالى :
” إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ” . ولم تزل
الشعراء في القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسن موقع ، ولم يلموا
بأستعماله مجموعًا ، قال في المثل السائر : وبالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

عدّة ووزنا، وهي ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما في الاستعمال حسن رائق، قال: وهذا مما لا يعلم السرّ فيه، والدوق السليم هو الحاكم في الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجري مجراهما، وكذلك يجري الحكم في جميع المصادر، فإنها في حالة الإفراد أحسن منها في حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة بخفات غثة مستكرهة، كما في قول عنتره:

فإن يبرأ فلم أنفت عليه * وإن يفقد فحق له الفقود

فالفقود جمع مصدر من قولنا: فقد يفقد فقدا، وليس له من الرونق والطلاوة ما لمفرده، وهو لفظ فقّد، وإن كان جائزا من جهة العربية.

النمط الخامس - ما يترجح فيه الجمع في الاستعمال على الإفراد كلفظة اللبّ الذي هو العقل، فإن استعملها بصيغة الجمع في غاية الحسن والبهجة والطلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة في غير موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: "وَلَيَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ" وقوله: "وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" إلى غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصيغة الجمع، أما في حالة الإفراد فإنها قليلة الاستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة على النطق، بعيدة المخارج، ليست بمستنقلة ولا مكروهة، قال في المثل السائر: وإذا تأملت القرآن الكريم ودققت النظر في رموزه وأسراره، وجدت هذه اللفظة قد روعي فيها الجمع دون الإفراد فإن أضيفت أو أضيف إليها، حسن استعملها، وساغ في طريق الفصاحة إيرادها. أما إضافتها فكقول النبي صلى الله عليه وسلم في ذكر النساء: "مَا رَأَيْتُ نَاقِصَاتِ عَقْلِ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَا مَعْشَرَ النَّسَاءِ" وأما الإضافة إليها فكقول جرير:

إن العيون التي في طرفها حور * قتلنا، ثم لم يُحِين قتلانا
يصرعن ذال لب حتى لأحرأك به * وهن أضعف خلق الله أنفانا

قال في المثل السائر: فإن عيرت هذه اللفظة عن الجمع والإضافة، لم تأت حسنة. قال: ولا تجد دليلا على ذلك إلا مجرد الذوق السليم، وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة، وهي وإن لم تكن مستقبحة في حالة الإفراد، فإن الجمع فيها أحسن. وأنظر إلى ما عليها من الطلاوة والمائية في قوله تعالى: "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّحَلِّدُونَ بِأُكْوَابٍ وَأُبَارِيْقٍ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ" وعلى هذا النحو لفظ رجاً بالقصر، ومعناه الجانب، فإنها قد وردت في القرآن بلفظ الجمع في قوله تعالى: "وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا" أي جوانبها، ولم تستعمل مفردة: لأن الجمع يُكسبها من الحسن ما لم يوجد لها حالة الإفراد؛ فإن أضيفت حالة الإفراد كرجا البئر ونحوه، حسنت كما في حالة الجمع. قال في المثل السائر: وليس كذلك لفظ الصوف والأصواف، وإن كان لم يرد في القرآن الكريم إلا مجموعا حيث قال تعالى: "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ" لأن لفظ الصوف مستحسن في حالة الإفراد كما في حالة الجمع. قال: وإنما قبح ذكره في قول أبي تمام:

كَأَنُوا بُرُودَ زَمَانِهِمْ فَتَصَدَّعُوا * فَكَأَنَّمَا لَيْسَ الزَّمَانُ الصُّوفًا

لأنها جاءت مجازية في نسبتها إلى الزمان. قال: وعلى هذا النهج وردت لفظة حبر وأخبار فإنها مجموعة أحسن منها مفردة، ولم ترد في القرآن الكريم إلا مجموعة.

النمط السادس - ما يترجح فيه بعض المجموع في الاستعمال على بعض كما في جمع صائب من قولك: سهم صائب، فإنه يقال في الجمع سهام صوائب وصائبات وصيب بالتشديد، وهذه المجموع كلها حسنة، رائقة، معجبة، دائرة على أسنة أرباب النثر والنظم، ويقال في جمعه أيضا صيب على وزن كُتِبَ، وهو جمع قبيح،

مرفوض الاستعمال، ثقيل على النطق، جاف عن السمع، وقد استعمله أبو نؤاس في شعره حيث قال :

مَا أَحَلَّ اللَّهُ مَا صَنَعَتْ * عَيْنُهُ تَلِكِ الْعَشِيَّةِ فِي
قَتَلَتْ إِنْسَانَهَا كَيْدِي * بِسَهَامٍ لِلرَّدَى صُيْبِ

جاءت غنة كريمة نايبة عن السمع، نافرة عن اللسان؛ وكذلك الجمع في قيد، فإنه يجمع على قيود، وهو جمع سائغ القبول، شائع الاستعمال؛ ويقال في جمعه أيضا أقياد، وهو من الجموع المستكرهة الخارجة عن الاستعمال، وقد ورد في قول عوفيف القوافي من أبيات الحماسة :

ذَهَبَ الرُّقَادُ فَمَا يَحْسُ رُقَادُ * مِمَّا شَجَاكَ وَنَامَتِ الْعَوَادُ
لِمَا أَتَانِي مِنْ عَيْنَةٍ أَنَّهُ * أَمَسَتْ عَلَيْهِ تَطَاهِرُ الْأَقْيَادُ

فلم يحسن ولم يرق، وكذلك القول في جمع قبة، فإنه يجمع على قباب وهو جمع حسن دائر على ألسنة الفصحاء من أهل النظم والنثر، ويجمع أيضا على قبب، وليس بمستحسن، وإن كان هو في الكراهة دون أقياد في جمع قيد، وقد استعمله ابن محكان التميمي في قوله :

مَاذَا تَرَيْنَ أُنْدَنِيهِمْ لِأَرْحَانَا * فِي جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبِي لَّهُمْ قُبَيَا؟

فلم يحسن كحسن قباب بل جاءت كريمة مستشعبة؛ وأعجب ما في هذا الباب أن الجمع قد يكون متفقا في لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاستعمال في الجمع باختلاف المعاني حتى لو جرى بجمع في مكان جمع لم يحسن استعماله وإن كان جائزا من جهة العربية : كلفظ العين، فإنها تطلق من جملة مدلولاتها على العين الباصرة، والعين من الناس، وهو النبيه منهم، والعين الباصرة تجمع على

عيون، والعين من الناس تجمع على أعيان، وقد شد هذا الموضع على المتنبي في قوله :
وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ * وَالْحَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبْلُ

بجمع العين الباصرة على أعيان في الموضعين، قال في "المثل السائر": وكأت الذوق
يأبى ذلك ولا يجد له على اللسان حلاوة وإن كان جائزاً، وأعجب من ذلك كله أنك
ترى وزناً واحداً من الألفاظ، فتارة تجد مفردة حسناً، وتارة تجد جمعه حسناً،
وتارة تجدهما جميعاً حسنين .

فما مفردة أحسن من جمعه خبرور : وهو قرخ الحبارى، فإنه يجمع على حبارير
ومفردة أحسن من جمعه، وكذلك طنبور وطنابير، وعرقوب وعراقيب، وما
أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفردة بهلول وبهليل، ولهموم ولهاميم، وهذا ضد الأول .
ومما مفردة حسن وجمعه حسن جمهور وجهير، وعرجون وعراجين وما
أشبه ذلك .

النمط السابع - ما يترجم فيه أحد صور الوزن الواحد باختلافه بالحركة والسكون
كلفظ الثالث والرابع إلى العشر، فإنها في حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال
فإذا تحركت أوساطها فقلت ثلث، ورابع، وخمس وكذلك إلى عشر، فإن الحسن
من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثلث، والخمس، والسدس أما الربع، والسبع، والثمن،
والتسع، والعشر فليس كذلك في حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك في السبع، والتسع،
والعشر خاصة فإن الثقل ظاهر فيها، أما الربع والثمن فانهما في الحسن مع تحريك
الوسط كالثلاث، والخمس، والسدس، وقد ورد القرآن بتحريك الوسط فيهما في سورة
النساء حيث قال تعالى : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ

لَهْنٌ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرَّبِيعُ مِمَّا تَرَكْنَ“ وقوله: ”وَلَهْنُ الرَّبِيعِ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهْنُ الثَّمَنِ مِمَّا تَرَكْتُمْ“ وأى حُسْنٍ وفصاحة بعد وروده في القرآن الكريم؟

النمط الثامن - ما يترجح فيه أبنية بعض أسماء الفاعلين في الاستعمال على بعض كَأَسْمِ الْفَاعِلِ الْمَبْنِيِّ مِنْ فِعْلٍ بَفَتْحِ الْفَاءِ وَكَسْرِ الْعَيْنِ ، فَإِنَّهُ يَبْنَى عَلَى فَاعِلٍ وَفِعْلٍ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَفِعْلَانٍ نَحْوَ حَمِدَ فَهُوَ حَامِدٌ ، وَحَمِدٌ ، وَحَمْدَانٌ ، وَفَرِحَ فَهُوَ فَرِحٌ ، وَفَارِحٌ ، وَفَرِحَانٌ ، وَغَضِبَ فَهُوَ غَضِبَانٌ ، وَغَاضِبٌ ، فَالْأَفْعَالُ الثَّلَاثَةُ عَلَى وَزْنِ وَاحِدٍ ، وَصِيغُ أَسْمَاءِ الْفَاعِلِينَ الْمَبْنِيَةِ مِنْهَا مُخْتَلِفَةٌ فِي الْأَحْسَنِ الْغَالِبِ أَسْتَعْمَلَهُ ، فَحَامِدٌ مِنْ حَمِدَ أَحْسَنُ مِنْ حَمِدٍ وَحَمْدَانٌ ، وَفَرِحٌ مِنْ فَرِحَ أَحْسَنُ مِنْ فَارِحٍ وَفَرِحَانٌ ، وَغَضِبَانٌ مِنْ غَضِبَ أَحْسَنُ مِنْ غَاضِبٍ ، وَإِنْ كَانَ جَائِزًا ؛ وَقَدْ جَاءَ بِنَاءُ أَسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ فَرِحَ عَلَى فَارِحٍ فِي قَوْلِ بَعْضِ شِعْرَاءِ الْحِمَاسَةِ :

فَمَا أَنَا مِنْ حُرَيْنٍ وَإِنْ جَلَّ جَارِعٌ * وَلَا بُرُورٍ بَعْدَ مَوْتِكَ فَارِحٌ

فلم يحسن كحسن فریح ، أما ما جاء منه على وزن فُعَلَةٍ نحو هَمَزَةٍ وَكُنْزَةٍ وَجِنْمَةٍ وَنَوْمَةٍ وَكُنَيْةٍ وَحُنَيْةٍ ، وما أشبه ذلك ، فقد قال في ”المثل السائر“: الغالب على هذه اللفظة أن تكون حسنة .

النمط التاسع - ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها على بعض كلفظة فعل وأفتعل فإن لفظة فعل لها موضع تستعمل فيه : ولفظة أفتعل لها موضع تستعمل فيه ، تقول : قعدت إلى فلان إذا جلست إليه ، وأفتعدت غارب الجمل ، إذا ركبت عليه ، ولا يحسن أن تقول أفتعدت إلى فلان وقعدت على غارب الجمل ، وإن كان ذلك جائزًا ، وكذلك أفعول وأفعول فلانك تقول أعشب المكان ، فإذا كثر عشبهُ قلت : أعشوشب فلفظة أفعول للتكثير ، وهي على ما فيها من تكرار الحروف طيبة

عذبة، وكذلك سائر ما في وزننا نحو آخشوشن المكان، وأغر ورقت العين، وأحلوولى
الطعم، وما أشبه ذلك، قال في "المثل السائر": وهذا كله مما أخذته بالاستقراء،
وفي اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن استقصاؤها.

فانظر إلى ما يفعله اختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقد أمثال هذه الكلمات
لتعلم كيف تضع يدك في استعمالها، فكثيرا ما يقع فحول الخطباء والشعراء في مثلها،
ومؤلف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرّت به الألفاظ عرضا على ذوقه الصحيح،
فما يجده الحسن منها موحّدا وحده، وما يجده الحسن منها مجموعا جمعه، وكذلك
يجرى الحكم فيما سوى ذلك من الألفاظ.

الصنف الثالث

(التوحش في زمن دون زمن)

وهو ما كان متداول الاستعمال في زمن العرب، ثم رُفِضَ وتُرك بعد ذلك،
وبهذا لا يعاب استعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم وحشياً، ولا لديهم غريباً
كما سيأتى التنبيه عليه، وإنما يعاب استعماله على غيرهم ممن قصر فهمهم عنه، وقلّت
معرفة بهم، وقد كان كلام العرب مشحوناً به في نظمهم ونثرهم، دأبوا على ألسنتهم
في مخاطباتهم ومحاوراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه، وأنظر إلى ما تضمنته خطبهم
وأشعارهم من الغريب ترى ذلك عياناً، فمن ذلك قول أبي المثلّم الهذلي:

أبي الهَضِيمَةِ نَابٍ بِالْعَظِيمَةِ مَتَّ * لَأُفِ الْكَرِيمَةِ جَلْدٌ غَيْرُ ثِيَابِ
حَامِي الْحَقِيقَةِ نَسَأُ الْوَدِيقَةَ مَعَّ * تَأَقُّ الْوَسِيقَةَ، لَأَنْكَسُ وَلَاوَانِ
رَبَاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَاعُ مَعْلَبَةٍ * وَهَابُ سَلْهَبَةٍ، قَطَاعُ أَقْرَانِ
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَالُ الْوِيَةِ * شَهَادُ أُنْدِيَةِ سِرْحَانِ فَيَّانِ

وقول أعرابي في وصف إبل : كُومٌ بهَّازر ، مُكَّدٌ خَنَاجِر ، عِظَامُ الحَنَاجِر ، سِبَاطُ المَشَافِر ، أَجوافها رِغَاب ، وأعطانها رِحَاب ؛ تُنَمَّعُ من البَهَم ، وتبرك للجمم . يريد بالكُوم جمع كُوماء ، وهى الناقة العظيمة السَّنام ، والبَهَّازِر جمع بهزرة : وهى الناقة العظيمة ، والمُكَّد جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والحَنَاجِر جمع خُنْجور : وهى بمعنى المَكُود أيضا ، والعِظَام الحَنَاجِر غِلاظُ الأَعناق ، وسِبَاطُ المَشَافِر أى مرسلات المشافر ، والمِشْفَرُ من الناقة كالحِخْفَلَةِ من الفرس ؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى وينخرط فى هذا السِّلْك ؛ فهذا ومثله لا يعاب آستعماله على العرب لأنه لم يكن عندهم غربيا ولا لديهم وَحْشِيًّا ، بل شائعا بينهم ، دائرا على ألسنتهم فى نظمهم وثرهم ؛ وأعظم شاهد لأستحسان آستعماله عندهم ووضوح مَنَهَجِهِ لديهم أن القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد آستهل على ألفاظ من ذلك كقوله تعالى : ” وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَأَصِيبٌ ” وقوله : ” إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ” وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومة المعانى عند المخاطبين : لأت الله تعالى قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ، والخطاب بما لا يفهم بعيد ، وقد قال تعالى : ” وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ” . وكذلك ورد فى الأخبار النبوية جملة مستكثرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كقوله صلى الله عليه وسلم ” مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللهُ تَعَالَى فِيهِ كَانَتْ عَلَيْهِ مِنْ اللهُ تَعَالَى تِرَةٌ ” أى نقص ، وقيل تَبَعَةٌ ، وقيل حَسْرَةٌ . وقوله صلى الله عليه وسلم ” لَيْسَتْ رِجْعُ أَحَدِكُمْ حَتَّى فِي شِسْعِ نَعْلِهِ فَإِنَّمَا مِنَ المَصَائِبِ ” والشَّسْعُ أحدُ سيور النعل ؛ وقوله صلى الله عليه وسلم : ” أَلْطُوا بِيَاذَا الجَلَالَ والإِكْرَامِ ” أى أَلزِمُوا هذه الدعوة وأكثرُوا منها . وقوله صلى الله عليه وسلم فى الدعاء : ” وَأَسْأَلُ حَوَاتِي وَأَسْأَلُ سَخِيمَةَ قَلْبِي ” وأشبه ذلك .

وحدیث أم زرع صریح فی شیوع ذلك فیهم؛ وعمومه فی مخاطباتهم ومکالماتهم؛ وهو ما ثبت فی الصحیحین من حدیث عائشة رضی الله عنها قالت : "جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا یکتمن من أخبار أزواجهن شیئا .

قالت الأولى : زوجی لحم جمل غث علی رأس جبل ، لاسهل فیرتقی ولا سمین فیرتقی ، وفی رواية ینتقل .

قالت الثانية : زوجی لأبث خبره ، إنی أخاف أن لأذره ، إن أذکره أذکره عجره و یجره .

قالت الثالثة : زوجی العشقی ، إن أنطق أطلق ، وإن أسکت أعلق .

قالت الرابعة : زوجی کلیل تہامه ، لآخر ولا قر ولا خوف ولا سامة .

قالت الخامسة : زوجی إن دخل فہد ، وإن نرج أسد ، ولا یسأل عما عہد .

قالت السادسة : زوجی إن أکل لف ، وإن شرب أشتف ، وإن أضطجع آتف ، ولا یوجب الکف ، لیعلم البث .

قالت السابعة : زوجی عیایا طباقا ، کل داء له داء ، شجک أو فلک أو جمع کلک .

قالت الثامنة : زوجی الریح ریح زرب ، والمس مس أرنب .

قالت التاسعة : زوجی رفیع العماد ، طویل النجاد ، عظیم الرماد ، قریب البیت من الناد .

قالت العاشرة : زوجی مالک وما مالک ؟ مالک خیر من ذلك ، له إبل قلیات

المسارح ، کثیرات المبارک ، وإذا سمعن صوت المزهر أیقن أنهن هوالک .

قالت الحادية عشرة : زوجی أبو زرع وما أبو زرع ؟ أناس من حلی أذنی ،

وَمَلَأَ مِنْ شَحْمِ عَضُدِي، وَيَجْعَلُنِي فَبَجَعَتْ إِلَى نَفْسِي، وَجَدَنِي فِي أَهْلِ غَنِيمَةِ بَشِقٍ،
فَجَعَلَنِي فِي أَهْلِ صَهِيلٍ وَأَطِيطٍ وَدَائِسٍ وَمَتَقٍ، فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلَا أَقْبَحُ، وَارْقُدْ نَاتَصِحْ،
وَأَشْرَبُ فَاتَقَمَّحُ، (وفي رواية فَاتَقَمَّحُ) ؛ أُمُّ أَبِي زَرْعٍ فَمَا أُمُّ أَبِي زَرْعٍ ؟ عُوْمَهَا
رَدَّاحٌ، وَبَيْتُهَا فَسَاحٌ ؛ ابْنُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا ابْنُ أَبِي زَرْعٍ ؟ مَضْجَعُهُ كَسَلٌ شَطْبَةٌ،
وَتُسْبِعُهُ ذِرَاعُ الْجَفْرَةِ ؛ بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا بِنْتُ أَبِي زَرْعٍ ؟ طَوْعُ أَبِيهَا، وَطَوْعُ
أُمَّهَا، وَمِلْءُ كِسَائِهَا، وَغَيْظُ جَارِيَتِهَا ؛ جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ فَمَا جَارِيَةُ أَبِي زَرْعٍ ؟
لَا تَلْتُ حَدِيثَنَا تَنْثِيئًا (وفي رواية لَا تَلْتُ حَدِيثَنَا تَنْثِيئًا)، وَلَا تَقْتُ مِيرَتَنَا تَقِيئًا، وَلَا
تَمَلَأُ بَيْنَنَا تَعْشِيئًا. قالت : خرج أبو زرع والأوطاب مُمَخَّصٌ، فَلَقِيَ أَمْرَأَةً مَعَهَا
وَلَدَانِ لَهَا كَالْفَهْدَيْنِ يَلْعَبَانِ مِنْ تَحْتِ خَصْرِهَا بِرُقَاتَيْنِ فَطَلَقَنِي وَنَكَحَهَا، فَنَكَحْتُ
بَعْدَهُ رَجُلًا سَرِيًّا، رَكِبَ شَرِيًّا، وَأَخَذَ خَطِيئًا، وَأَرَّاحَ عَلَيَّ نَعْمًا ثَرِيًّا، وَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ
رَائِحَةٍ زَوْجًا، (وفي رواية فَأَعْطَانِي مِنْ كُلِّ ذَائِحَةٍ زَوْجًا). وقال : كُلِّي أُمَّ زَرْعٍ وَمِيرِي
أَهْلَكِ ؛ فلو جمعتُ كُلَّ شَيْءٍ أَعْطَانِي مَا بَلَغَ أَصْغَرَ آيَةِ أَبِي زَرْعٍ

قالت عائشة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم كنتُ لكِ كَأبي زَرْعٍ لِأُمَّ
زَرْعٍ (وفي رواية غير أُمَّي لَا أَطْلُقُكَ) .

فاذا كان هذا كلام نساءهم الدائر فيما بينهم من محادثاتهم مع بعضهم في خلواتهم،
فما ظنك بقرسان الكلام في نظمهم وثرهم ؟ فأنى يعاب عليهم ذلك، ويتنكر عليهم
الإتيان بمثله ؟

وقد آخضتم رجل وأمرأة إلى يحيى بن يعمر، وهو من أكابر التابعين وجليلهم،
فقال للرجل : أَلَنْ سَأَلْتُكَ ثَمَّنْ شَكْرَهَا وَشَبْرِكَ ، أَنْشَأَتْ تَطْلُهَا وَتَضْمَلُهَا ؟ . أما غير
العرب ممن تكلف ذلك وأتى به في كلامه المعتاد في مخاطباته أو ثثره ونظمه فإنه
يعاب عليه ذلك، ويخطأ به عن درجة الفصاحة ، ويخرج به عن قانونها ؛ إذ

المقصود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كل أحد بما يفهمه ولا يكلف بما لا يعلمه ، وخير الكلام ما جاد وأفاد . قال بشر بن المعتمر : إياك والتوعر ، فإنه يسلمك إلى التعقيد والتقييد ، وهو الذى يستهلك معانيك ، ويمتلك مرَامِيكَ .

قال أبو هلال العسكري : وربما غلب سوء الرأى وقلة العقل على بعض علماء العربية فيخاطبون السوقي ، والمملوك والأعجمي ، بالفاظ أهل نجد ، ومعانى أهل السراة ، وحكاياتهم فى ذلك كثيرة . قال أبو نصر الجوهري : سقط عيسى بن عمر عن حمار له فاجتمع عليه الناس فقال : مَا لَكُمْ تَكَاكُتُمْ عَلَى تَكَاكُوتُمْ عَلَى ذِي جِنَّةٍ ؟ اْفَرْتَقِعُوا عَنِّي . أى مالكم اجتمعتم على اجتماعكم على ذى جنة تفرقوا عني . وذكر الجاحظ هذه الحكاية عن أبى علقمة النحوى بزيادة فقال : مر أبو علقمة ببعض طرُق البصرة فهاجت به مرة فوثب عليه قوم يعرضون إهامة ويؤذنون فى أذنه ، فأقلت من أيديهم وقال : مَا لَكُمْ تَكَاكُتُمْ عَلَى تَكَاكُوتُونَ عَلَى ذِي جِنَّةٍ اْفَرْتَقِعُوا عَنِّي . فقال بعضهم : دَعُوهُ فَإِنَّ شَيْطَانَهُ يَتَكَلَّمُ بِالْهِنْدِيَّةِ .

وقال أبو علقمة يوما لحاجه : أَشَدُّ قَصَبَ اللَّهَازِمِ ، وَأَرْهَفَ طُبَاتِ الْمَشَارِطِ ، وَأَمْرَ الْمَسْحِ ، وَأَسْتَنْجِلَ الرَّشْحِ ، وَخَقَّفَ الْوِطْءِ ، وَعَجَلَ التَّرْعِ ، وَلَا تُكْرِهَنَّ آيَاءُ ، وَلَا تَرْدَنَّ آيَاءُ ؛ فقال له الحجام : ليس لى علم بالحروف .

ونظر إليه رجل وتحتته بغل مصرى حسن المنظر ، فقال : إن كان محبر هذا البغل كمنظره فقد كل ! فقال أبو علقمة : والله لقد خرجت عليه من مصر فتنكبت الطريق مخافة السراق وجور الساطان ، فبينما أنا أسير فى ليلة ظلماء ، قتماء ، طخياء مدهمة ، حنيس ، داجية ، فى صحصح أملس ، إذ أحس بنبأة من صوت نغر ، أو طيران ضوع ، أو نغض سبد ، فحاص عن الطريق متنجبا لعزة نفسه ، وفضل

قُوَّتِهِ ، فبعثته بالجمام فَعَسَلَ ، وحركته بالركاب فَسَلَ ، وأنتعل الطريق يفتاله مُعْتَرِمًا ،
والتحف الليل لايابه مظلماً ، فوالله ماشبهته إلا بطيبة نافرة تحفرها فتحاء شاعية ،
فقال الرجل فادع الله وسأله أن يحشر معك هذا البغل يوم القيامة ، قال : ولم ؟
قال : لِيُجِيزَكَ الصَّرَاطَ بِطَفْرَةٍ .

وكانت امرأة تأكل الطين^(١) فحصل لها بسببه إسهال مَرَضَتْ منه ، وكان لها
ولد يتكلم بالغريب ، فكتب رقاعاً وطرحها في المسجد الجامع بمدينة السلام . فيها
صينَ امرؤ ورعى ، دعا لأمراة إنقحلة مفسنة قد مئنت بأكل الطرموق فأصابها
من أجله الإستمصال أن يمن الله عليها بالأطريغشاش . فكل من قرأ رقعته ، دعا عليه
ولعنه ولعن أمه .

وحكى محمد بن أبي المغازي الضبي عن أبيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم
إلا بالغريب ، فخرج إلى ضيعة له على حجر ، معها مهر فأفلتت ، فذهبت ومعها مهرها
فخرج يسأل عنها ، فترنجحياط فقال : ياذا النصاح وذات السم ، الطاعن بها في غير
وعى لغير عدى ، هل رأيت الخيفانة القباء يتبعها الحاسن المسرهف ؟ كأن غرته
القمر الأزهر ، ينير في حضره كالحلب الأجرد ؛ فقال أنحياط : أطلبها في ترلج ؟
فقال : ويحك ما تقول ! قبحك الله ، فإني ما أعرف رطانتك . قال : لعن الله
أبغضنا لفظاً وأخطأنا منطقا .

وضرب عمر بن هبيرة عيسى بن عمر النحوي ضرباً كثيراً من أجل وديعة
فكان يقول وهو يضرب : ماهي إلا أثيراب في أسيفاط أخذها عشاروك . وسأله
رجل عن مسألة . فقال : ليست مسألتك يتنا : أي ليست مستوية ؛ وأصل اليتن
خروج رجل الولد قبل رأسه . وسأله آخر عن كتابته ، فقال : كتبت حتى أنقطع

(١) كذا في الصناعتين أيضا ولعله مصحف عن الطير بالراء بدلليل بقية الكلام فان الطرموق اسم للخفاش وهو

سوائى أى ظهري ، على ان أبا جعفر النحاس قد عدّ عيسى بن عمر من المطبوعين في ذلك . قال الجاحظ : رأيتم يديرون في كتبهم هذا الكلام فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودقنوه لأنه يدل على فصاحة وبلاغة ، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة ، وإن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العجاج وشعر الطرمّاج وأشعار هُدَيْلٍ تأتي لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأصمعيّ بمثل هذا الكلام ، لظننتُ أنه يستجهل نفسه ، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصف الرابع

(الغريب المتوحش عند قوم دون قوم)

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحَضْرَمَنهم ، فإن أهل الحَضْرَمَ يَأْفُون السَهْلَ من الكلام ، ويستعملون الألفاظ الرقيقة ، ولا يستعملون الغريب إلا في النادر ، وأهل البادية يَأْفُون اللفظ الجَزَلُ ويميلون إلى استعمال الغريب ، وإذا نظرتَ إلى أهل مكة وكلام قريش الذين نزل القرآن بلغتهم وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَرُومَتِهِمْ ، وكلام أهل حَضْرَمَوْتِ وما جاورها من اليمن ومخالف الحجاز ، علمتَ فرقَ ما بين الكلامين ، وتباين ما بين الطرفين ، حتى كأنَّ البادى يَرُطِنُ بالنسبة إلى الحاضر ، ويتكلم بلغة غير العربية ؛ وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التي يتكلم بها على الدوام ، ويخاطب بها النخاص والعالم ، لغة قريش وحاضرة الحجاز ، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أُوتِيَ جوامع الكلم وجمع إلى سُهولة الحاضرة جزالة البادية ، فكان يخاطب أهل نجد وتِهَامَةَ وقبائل اليمن بلغتهم ، ويخاطبهم في الكلام الجَزَلُ على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لَطَهْفَةَ النَّهْدِيِّ وكتابه إلى بنى نَهْدٍ ، وذلك أنه لما قَدِمَ وَفُودُ العرب على النبي صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبي زُهَيْرٍ

النَّهْدِيِّ . فقال : أئتيك يا رسول الله من غورِ تِهَامَةَ على أَكْوَارِ المَيْسِ ، ترعى بنا العيسُ ، نستَحلبُ الصَّيْبِ ، ونستَحلبُ الخَيْرِ ، ونستَعِضِدُ البَرِيرَ ، ونستَحِيلُ الرَّهَامَ ، ونستَحِيلُ الجِهَامَ ، من أرضِ غائلةِ النَّطَاءِ ، غايِظَةِ الوِطَاءِ ، قد جَفَّ المِذْهُنُ ، ويَسَّ الحِجَمِينُ ، وسَقَطَ الأُمْلُوجُ ، وماتَ العُسْلُوجُ ، وهَلَكَ الهَدْيُ ، وفادَ الوَدْيُ ؛ برِثْنَا إليك يا رسول الله من الوَثَنِ والعَمَنِ ، وما يُحَدِثُ الزَّمَنُ ؛ لنا دعوةُ السلامِ ، وشريعةُ الإسلامِ ما طَمَأَ البحرُ ، وقَامَ تِعَارُ ، ولنا نَعْمُ هَمَلٌ أَغْفَالٌ ، ما تَبِضُّ بِيَلَالٍ ؛ ووَقِيرٌ كَثِيرُ الرِّسْلِ ، قليلُ الرِّسْلِ ، أصابَتْها سُدْيَةٌ حَرَاءٌ مُؤْزِلَةٌ ، ليس لها عِلٌّ ولا نَهْلٌ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ” اللّٰهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي مَحْضِهَا وَمَحْضِهَا وَمَذْقِهَا وَفِرْقِهَا ، وَأَبْعَثْ رَاعِيَهَا فِي الدَّثْرِ بِيَانِ الثَّمَرِ ، وَأَفْجِرْ لَهُمُ الثَّمَدَ ، وَبَارِكْ لَهُمْ فِي المَالِ وَالوَلَدِ ، مَنْ أَقَامَ الصَّلَاةَ ، كَانَ مَسْلَمًا . وَمَنْ آتَى الزَّكَاةَ ، كَانَ مُحْسِنًا . وَمَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ ، كَانَ مُحْلِصًا . لَكُمْ يَا بَنِي نَهْدٍ وَدَائِعُ الشَّرْكِ ، وَوَضَائِعُ المُلْكِ ، لا تُلَطِّطُ فِي الزَّكَاةِ ، وَلا تُجِدُّ فِي الحَيَاةِ ، وَلا تُتَنَاقَلُ عَنِ الصَّلَاةِ “ .

وكتب معه كتابا إلى بنى نهد فيه ” بسم الله الرحمن الرحيم السلام على من آمن بالله ورسوله ، لكم يا بنى نهد في الوظيفة الفريضة ، ولكم العارض والفرش وذو العنان الركوب ، والفلمو الضبيس ؛ لا يمنع سرحكم ، ولا يعصد طاحركم ولا يمنع دركم مالم تضمروا الإماق ، وتأكلوا الرباق ؛ من أقر فله الوفاء بالعهد والذمة ؛ ومن أبى فعليه الربوة . “

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى قبيلة همدان ، وذلك أنه لما قدم عليه صلى الله عليه وسلم وفود العرب قدم وفد همدان على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم مالك بن نمط أبو ثور ، وهو ذو المشعار ، ومالك بن أيفع ، وضمام ابن مالك السلماني ، وعميرة بن مالك الخارفي ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

مَرَّجِعُهُمْ مِنْ تَبُوكَ وَعَلَيْهِمْ مُقَطَّعَاتِ الْحَبْرَاتِ وَالْعَائِمِ الْعَدَنِيَّةِ ، بِرَحَالِ الْمَيْسِ عَلَى
المَهْرِيَّةِ وَالْأُرْحِيَّةِ ، وَمَالِكُ بْنُ نَمِطٍ وَرَجُلٌ آخَرٌ يَتَجَزَّانُ بِالْقَوْمِ ، يَقُولُ أَحَدُهُمَا :

هَمْدَانُ خَيْرُ سُوقَةٍ وَأَقْيَالُ * لَيْسَ لَهَا فِي الْعَالَمِينَ أَمْثَالُ

مَحَلُّهَا الْهَضْبُ وَمِنْهَا الْأَبْطَالُ * لَهَا إِطَابَاتُ بِهَا وَتَكَالُ

وَيَقُولُ الْآخَرُ :

إِلَيْكَ جَاوَزَنَ سَوَادَ الرَّيْفِ * فِي هَبَوَاتِ الصَّيْفِ وَالخَرِيفِ

* مَحَطَّامَاتٍ بِجِبَالِ اللَّيْفِ *

فَقَامَ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! نَصِيَّةٌ مِنْ هَمْدَانَ مِنْ كُلِّ
حَاضِرٍ وَبَادِيٍّ ، أَتَوَكَّ عَلَى قُلُوصِ نَوَاجِحِ ، مَتَّصِلَةٌ بِجِبَالِ الْإِسْلَامِ ، لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ
لَا تَمِّمُ ، مِنْ مَخْلَافِ خَارِيفٍ ، وَيَا مِمْ ، وَشَاكِرًا ، أَهْلَ السَّوَادِ وَالْقُرَى ، أَجَابُوا دَعْوَةَ
الرَّسُولِ ، وَفَارَقُوا آلِهَةَ الْأَنْصَابِ ، عَهْدُهُمْ لَا يَنْقُضُ مَا أَقَامَ لَعْنَةً ، وَمَا جَرَى الْعَفْوَرُ بِصَلَعٍ .

فَكَتَبَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا فِيهِ ” بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ !
هَذَا كِتَابٌ مِنْ مَعْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَخْلَافِ خَارِيفٍ وَأَهْلِ جَنَابِ
الْهَضْبِ وَحِقَافِ الرَّمْلِ ، مَعَ وَافِدِهَا ذِي الْمِشْعَارِ : مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ ، وَلِمَنْ أَسْلَمَ مِنْ قَوْمِهِ
عَلَى أَنْ لَهُمْ فِرَاعِهَا وَوَهَاطِهَا مَا أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ ، يَا كَلُونَ عِلَافِهَا وَيَرَعُونَ
عَافِيَهَا ؛ لَهُمْ بِذَلِكَ عَهْدُ اللَّهِ وَذِمَامُ رَسُولِهِ ، وَشَاهِدُهُمُ الْمَهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ . “

فَقَالَ فِي ذَلِكَ مَالِكُ بْنُ نَمِطٍ :

ذَكَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ فِي فَحْمَةِ الدُّجَى * وَنَحْنُ بِأَعْلَى رَحْرَحَانَ وَصَالِدِ

وَهْنٍ بِنَاخِوَصِ طَلَاخِ تَعْتَلِي * بِرُجْبَانِهَا فِي لَاحِبِ مُتَمَدِّدِ

عَلَى كُلِّ قَتْلَاءِ الدَّرَاعِينَ جَسْرَةٍ * تَمْرُنَا مَرَّ الْهَجْفِ الْخَفِيدِ

حَلَفْتُ رَبِّ الرَّاقِصَاتِ إِلَى مَنِي * صَوَادِرَ بِالرَّجَائِنِ مِنْ هَضْبٍ قَرَدِدَ
 بِأَنْ رَسُولَ اللَّهِ فِينَا مُصَدِّقٌ * رَسُولٌ أَتَى مِنْ عِنْدِ ذِي الْعَرْشِ مُهْتَدٍ
 فَاحْتَمَلْتُ مِنْ نَاقَةٍ فَوْقَ رَحْلِهَا * أَبْرًا وَأَوْفَى ذِمَّةً مِنْ مُحَمَّدٍ
 وَأَعْطَى إِذَا مَا طَالِبُ الْعُرْفِ جَاءَهُ * وَأَمْضَى بِحَدِّ الْمَشْرِفِيِّ الْمُهَنْدِ

وفي رواية أن في كتابه إليهم، إن لكم فراعها ووهاطها وعزازها تأكلون علافها
 وترعون عفاءها، لنا من دفيهم وصرامهم ما سأموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة
 الثلب والناب، والفصيل والعارض، والداجن والكبش الحورى، وعليهم فيها
 الصالح والقارح .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لا تكيد دومة. قال أبو عبيدة أنا قرأته فإذا فيه
 "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، لا تكيد حين أجاب إلى الإسلام، وخلع
 الأنداد والأصنام، مع خالد بن الوليد، سيف الله في دومة الجندل وأكافها، إن لنا
 الضاحية من الضحل^(١) والبور والمعامي وأغفال الأرض، والحلقة والسلاح والحافر
 والحصن، ولكم الضامنة من النخل، والمعين من المعمور، لا تعدل سارحتكم، ولا
 تعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها،
 عليكم بذلك عهد الله والميثاق، ولكم بذلك الصدق والوفاء، شهد الله ومن حضر
 من المسلمين".

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حصر موت، وهو
 "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى الأقبال العبايلة من أهل حصر موت
 بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، على التبعة الشاة، والتيمة لصاحبها، وفي السيوب

(١) الضحل بالسكون القليل من الماء ويروى "لكم الضاحية من البعل" وهو النخل

الخميس ، لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ، ولا سِنَاقَ ولا سِغَارَ ، ومن أجبني فقد أربني ، وكل مسكّرٍ حرامٌ . وفي رواية أنه كتب إليهم " إلى الأقبالِ العباهِلةِ والأرواعِ المشايِبِ ، وفي التبعَةِ شاةٌ لا مقورةٌ الألباطُ ولا ضنَّكٌ ، وأنطوا التَّبَجَّةَ وفي السُّيوبِ الخمسُ ، ومن زنى من أميكرٍ فأصقعه مائة ، وأستوفضوه عاماً ، ومن زنى من أميبيٍّ فضرجوه بالأضاميم ، ولا توصيمٍ في الدين ، ولا عُجَّةَ في فرائض الله تعالى ، وكل مسكّرٍ حرامٌ ، ووائل بن محجّرٍ يترقل على الأقبالِ " .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله " في المثل السائر " : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد في كلامه إلا جواباً لمن يخاطبه بمثلها كحديث طهفة وما جرى مجراه ، على أنه قد كان في زمنه أولاً متداولاً بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيراً لأنه أعلم بالفصح والأفصح .

الصفة الثانية

(للفظ الفصح أن لا يكون مبتدلاً عامياً ، ولا ساقطاً سوقياً)

واللفظ المبتدل على قسمين

القسم الأول

مالم تغيره العامة عن موضعه اللغوي إلا أنها أختصت باستعماله دون الخاصة فابتدل لأجل ذلك وسخف لفظه ، وأنحطت رتبته لأختصاص العامة بتداوله ، وصار من استعمله من الخاصة مألوماً على الإتيان به لمشاركة العامة فيه ، وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فعيب عليهم .

فمن ذلك قول الفرزدق من قصيدة :

وأصبح مبيض الضرب كأنه * على سروات التبت قطن مندق

فقوله مبتدأ من الألفاظ العامة المتبدلة ، وإن كان له أصل في اللغة يقال نَدَفَ القُطْنَ إذا ضربه بالْمِنْدَفِ ، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوفِ نَدِيفٌ .
ومن ذلك قول أبي نُؤَاسٍ :

وَمُلِحَّةٌ بِالْعَدْلِ تَحْسَبُ أُنْحَى * بِالْجَهْلِ أَتْرُكُ صُحْبَةَ الشُّطَارِ

فالشطار جمع شاطر، وهو في أصل اللغة اسم لمن أعيأ أهله خُبْنًا ، يقال منه شَطَّرَ وشَطَّرُ بالفتح والضم شَطَّارَةً بالفتح فيهما ، ثم أَسْتَعْمَلَ في الشجاع الذي أعيأ الناس شجاعةً ، وغلب دَوْرَانُهُ على لسان العامة فَأَمْتَنَ وَأَبْتَدَلَ ، فاستعمل أبو نُؤَاسٍ له غير لائق، وكذلك قوله أيضا :

يَأْمَنُ جَفَانِي وَمَلَا * نَسِيتَ أَهْلًا وَسَهْلًا

وَمَا تَمَرَّحْتِ لِمَا * رَأَيْتِ مَالِي قَلًّا

إِنِّي أَظُنُّكَ فِيمَا * فَعَلْتَ تَحْكِي الْقِرْيُثِي

فلفظ القِرْيُثِي من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وهو اسم لطائر صغير من طيور الماء يَخْطُفُ صَغَارَ السَّمَكِ من الماء برجليه وَمِنْقَارَهُ ، فإذا سَقَطَ على الماء ولم يحصل على صيد ، أَرْتَفِعُ بُسْرَعَةً ، فتضرب به العامة المثل تقول : فلان كَأَنَّهُ قِرْيُثِي ، إن وجدَ خيرا تَدَلُّ ، وإن وجدَ شرا تَعَلُّ .

وقوله أيضا :

وَأَمْرٌ الْجِلْدَةِ صَيْرْتَهُ * فِي النَّاسِ زَاغًا وَشِقْرَاقًا

مَا زِلْتُ أُجْرِي كَلْكَلِي فَوْقَهُ * حَتَّى دَعَا مِنْ تَحْتِهِ قَاقًا

فقوله قَاقًا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب ، يقال فعلت بفلان كذا وكذا حتى قال : قاق ؛ وأقبح من ذلك كله في الابتذال بين العامة والسخافة قول المتنبي :

ومن الناس من يَجُوزُ عَلَيْهِمْ * شِعْرَاءُ كَأَنَّهَا الْحَازِبِازِ

قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة الرِسام الذي ذكره في قوله :

إِنْ بَعْضًا مِنَ الْقَرِيضِ هُذَاءُ * لَيْسَ شَيْئًا ، وَبَعْضَهُ أَحْكَامُ -

فِيهِ مَا يَجِبُ الْبِرَاعَةَ وَالْفَهْمُ ، وَفِيهِ مَا يَجِبُ الرِّسَامُ

وعد منه في "المثل السائر" قول البحتري :

وَجُوهٌ حُسَّادِكَ مُسَوِّدَةٌ * أَمْ صُبِغَتْ بَعْدَى بِالزَّاجِ ؟

قال : فلفظة الزاج من أشد ألفاظ العامة ابتذالا ، وكذلك عد منه قول النابغة الذبياني :

أَوْ دُمِيَّةٌ فِي مَرَمِيٍّ مَرْفُوعَةٌ * بِنَيْتِ بَاجِرٍ يُسَادُ بِقَرْمِدِ

قال : فلفظة أجر مبتذلة جدا ، وإذ اشأت أن تعلم شيئا من سر الفصاحة التي تضمنها القراءان الكريم ، فأنظر إلى هذا الموضع فإنه لما جرى فيه بذكر الأجر لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القرمد أيضا ، ولا بلفظ الطوب الذي هو لغة أهل مصر ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر في القراءان على وجه آخر ، وهو قوله تعالى : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا" فعبر عن الأجر بالوقود على الطين ؛ نعم من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الكنس ، وما أشق منه ، ولذلك عابها القاضي الفاضل رحمه الله تعالى على ابن سناء الملك في بعض أشعاره حيث قال من أبيات :

يَزْحَرَفُ مِنْهَا وَجْهَهَا فَهِيَ جَنَّةٌ * وَيَحْضُرُ مِنْهَا نَضْرَةٌ فَهِيَ سِنْدِسٌ
صَلْبِيْنِي وَهَذَا الْحَسَنُ بَاقٍ فَرُبَّمَا * يَعْزَلُ بَيْتَ الْحُسْنِ مِنْهُ وَيَكْنَسُ

فلما وقف القاضي الفاضل رحمه الله على هذه القصيدة، كتب إلى ابن سناء الملك من جملة فصل: وما قلت هذه الغاية، إلا وتعلمني أنها البداية، ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا تلا ما بعده: وَمَا يُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ أَفْسَحَرَ هَذَا أُمَّ أُمَّ لَاتَبْصُرُونَ. ولا عيب في هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لَهَجَ النَّاسُ بِمَا تَحْتَهَا، وَدَوَّنُوا مَا دُونَهَا، وَشَغَلُوا التَّصَانِيفَ وَالْخَوَاطِرَ وَالْأَقْلَامَ بِمَا لَا يِقَارِبُهَا، وَسَارَتِ الْأَشْعَارُ وَطَالَتْ بِمَا لَا يَبْلُغُ مَدَّهَا وَلَا نَصِيفَهُ، وَالْقَصِيدَةُ فَائِقَةٌ فِي حُسْنِهَا، بِدِيعَةٍ فِي قَمَّهَا، وَقَدْ ذَلَّتِ السِّينُ فِيهَا وَأَتَقَادَتِ، فَلَوْ أَنَّهَا الرِّاءَ لَمَا رَادَتِ؛ وَبَيْتُ يُعْزَلُ وَيَكْنَسُ أُرِدْتُ أَنْ أَكُنَّسَهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ، فَإِنَّ لَفْظَةَ الْكَنْسِ غَيْرَ لَائِقَةٍ فِي مَكَانِهَا.

فأجاب ابن سناء الملك قائلا: وعلم المملوك مانبه عليه مولانا من البيت الذي أراد أن يكُنَّسَهُ مِنَ الْقَصِيدَةِ، وَقَدْ كَانَ الْمَمْلُوكُ مَشْغُوفًا بِهَذَا الْبَيْتِ، مُسْتَعْجِلًا لَهُ مُتَعَجِّبًا مِنْهُ، مُعْتَقِدًا أَنَّهُ قَدْ مَلَّحَ فِيهِ، وَأَنَّ قَافِيَةَ بَيْتِهِ أَمِيرَةٌ ذَلِكَ الشَّعْرُ وَسَيِّدَةٌ قَوَافِيهِ، وَمَا أَوْقَعَهُ فِي الْكَنْسِ إِلَّا ابْنُ الْمَعْتَرِ فِي قَوْلِهِ:

وَقَوَائِمِي مِثْلُ الْقَنَآةِ مِنَ الْخَطِّ وَخَدِّي مِنَ الْحَيْثِي مَكْنُوسٌ

والمولى يعلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثَّر، ويطلب مطالبه فتتعرَّس عليه وتتعذر، ولا آتَسَ نَارَهُ إِلَّا لَمَّا وَجَدَ عَلَيْهَا هُدًى، وَلَا مَالَ الْمَمْلُوكِ إِلَّا إِلَى طَرِيقٍ مِنْ مَيْلَةٍ إِلَيْهِ طَبَعُهُ، وَلَا سَارَ قَلْبُهُ إِلَّا إِلَى مَنْ دَلَّهُ عَلَيْهِ سَمْعُهُ، وَرَأَى الْمَمْلُوكُ أَبَا عُبَادَةَ قَدْ قَالَ:

وَيَاعَادِلِي فِي عِبْرَةٍ قَدْ سَفَحَتْهَا * لِيَيْنِ، وَأُخْرِي قَبْلَهَا لِلتَّجَنَّبِ
تُحَاوِلُ مِنِّي شَيْئَةً غَيْرَ شَيْئِي، * وَتَطْلُبُ مِنِّي مَدَّهَا غَيْرَ مَدَّيْ؟

وقال :

وما زَارِنِي إِلَّا وَهَيْتُ صَبَابَةً * إِلَيْهِ ، وَإِلَّا قُلْتُ : أَهْلًا وَمَرْحَبًا
فَعَلِمَ الْمَلُوكُ أَنَّ هَذِهِ طَرِيقَةٌ لَا تُسَلَّكُ ، وَعَقِيْلَةٌ لَا تُمَلَّكُ ، وَغَايَةٌ لَا تُتْرَكُ ؛ وَوَجَدَ
أَبَا تَمَّامٍ قَدْ قَالَ :

* سَلَّمَ عَلَى الرَّبِيعِ مِنْ سَلَمِيْ بِنْدِي سَلَّمَ *

وقال : * خَشِنْتُ عَلَيْهِ أُخْتِ بَنِي خُشَيْنِ * ؛

فَأَشْمَأَزَ مِنْ هَذَا التَّمَطِّ طَبْعُهُ ، وَأَفْشَعَرَ مِنْهُ فَهَمَهُ ، وَنَبَأَ عَنْهُ ذَوْقَهُ ، وَكَادَ سَمِعَهُ
يَتَجَبَّرُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَيِّغُهُ ، وَوَجَدَ هَذَا السَّيِّدَ عَبْدَ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَرِ قَدْ قَالَ :

وَقَفْتُ فِي الرَّوْضِ أَبْكِي فَقَدْ مُشِبِّهِه * حَتَّى بَكَتْ بِدُمُوعِي أَعْيُنَ الرَّهْرِ

لَوْلَمْ أَعْرِهَا دُمُوعَ الْعَيْنِ تَسْفَحُهَا * لِرَحْمَتِي ، لِأَسْتَعَارَتْهَا مِنَ الْمَطْرِ

وقال :

قَدَّكَ غُضْنٌ لِأَشَكِّ فِيهِ كَمَا * وَجْهَكَ شَمْسٌ نَهَارُهُ جَسَدُكَ

فَوَجَدَ الْمَلُوكُ طَبْعَهُ إِلَى هَذَا التَّمَطِّ مَائِلًا ، وَخَاطَرَهُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَيْهِ سَائِلًا ؛
فَنَسَّجَ عَلَى هَذَا الْأَسْلُوبِ ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ خَاطَرُهُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ الْمَغْلُوبُ ؛ ” وَحُبُّكَ الشَّيْءَ
يُعْمِي وَيُصِمُّ ” فَقَدْ أَعْمَاهُ حُبُّهُ وَأَصَمَّهُ إِلَى أَنْ نَظَّمَ تِلْكَ اللَّفْظَةَ فِي تِلْكَ الْأَبْيَاتِ تَقْلِيدًا
لِابْنِ الْمُعْتَرِ حَيْثُ قَالَهَا ، وَحَمَلَ أَثْقَالَهَا ؛ وَهِيَ تُغْفَرُ لِدَاكِ فِي جَنْبِ إِحْسَانِهِ ، فَأَمَّا
الْمَلُوكُ فَهِيَ عَوْرَةٌ ظَهَرَتْ مِنْ لِسَانِهِ ؛

فَأَجَابَهُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ : وَلَا حِجَّةَ فِيهَا أَحْتَجُّ بِهِ عَنِ الْكَنْسِ
فِي بَيْتِ ابْنِ الْمُعْتَرِ ، فَإِنَّهُ غَيْرُ مَعْصُومٍ مِنَ الْغَاظِ ، وَلَا يُقَدَّدُ إِلَّا فِي الصُّوَابِ فَقَطْ ؛
وَقَدْ عَلِمَ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ رَشِيْقٍ فِي عَمْدَتِهِ مِنْ تَهَأُّتِ طَبْعِهِ ، وَتَبَايُنِ وَضْعِهِ ؛ فَذَكَرَ مِنْ
مَحَاسِنِهِ مَا لَا يُعَلَّقُ مَعَهُ كِتَابٌ ، وَمِنْ بَارِدِهِ وَعَثَّةٍ مَا لَا تُلْبَسُ عَلَيْهِ الثِّيَابُ .

وقد تعصّب القاضي السعيد على أبي تمام فنقصه من حظه ، وللبُحترى فأعطاه
أكثر من حقه ، وما أنصفهما :

ولو كان هذا موضع العتب لأشفتي * فؤادى ولكن للعتاب مواضع

قال المولى صلاح الدين الصفدى رحمه الله تعالى فى شرح لامية العجم : وقد
استعمل ابن سناء الملك رحمه الله تعالى هذه اللفظة فى غير هذا الموضع ولم يتعظ
بنهى الفاضل ولا أروعوى ، ولا أزدجر عما قبحه لأنه غلب عليه الهوى ، فقال :

توسوس شعرى به مدّة * وما برح الحلى والوسوسة

وخلصنى من يدى عشقه * ظلام على خده حندسه

كنست فؤادى من عشقه * ولحيتيه كانت المكنسه

قال : وأما القاضي الفاضل ، فما أظنه خلا فى هذا الإيراد ، من ضعف انتقاد ؛
وأحاشى ذاك الذهن الوقاد ، من هذا الاعتقال فى ورطة هذا الاعتقاد ؛ وما أراه
إلا أنه تعمّد أن يعكس مراده ، ويوهى ماشده ويوهن ماشاده ؛ ويرميه ببلاء
البلاء ، إما على سبيل النكال أو النكاده : لأن الفاضل رحمه الله ممن يتونخى هذه
الألفاظ ويقصدها ، وينشئها وينشدها ، ويورى زنادها ويوردها .

فإن كلام القاضي الفاضل فى بعض رسائله ، وما استطاعت أيديهم أن تقبض
بحره ، ولا ألباهم أن تسبخ نمره . ولا سيوفهم أن تكس قيمه . قال فى "المثل
السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام ، وضعت من قدره ولو كان معناه
شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لا يكاد يخلو منه شعر شاعر ، لكن
منهم القليل ومنهم الكثير .

القسم الثاني

(ما كان من الألفاظ دألاً على معنى وضع له في أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دألاً على معنى آخر. وهو على ضربين)

الضرب الأول - ما ليس بمستقيح في الذكر ولا مستكره في السمع . وذلك كتسميتهم الإنسان إذا كان دمث الأخلاق ، حسن الصورة أو اللباس أو ما هذا سبيله ظريفاً ، والظرف في أصل اللغة مخصص بنطق اللسان فقط ، كما أن الصبابة مخصصة بالوجه ، والوضاء مخصصة بالبشرة ، والجمال مخصص بالأنف ، والحلاوة مخصصة بالعينين ، والملاحة مخصصة بالفم ، والرشاقة مخصصة بالقدم ، واللباقة مخصصة بالشئال ؛ فالظرف إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلى أعم من موضوعه كما تقدم ؛ ومن وقع له الذهول عن ذلك فغلط فيه أبو نواس في قوله :

اِحْتَصَمَ الْجُودُ وَالْجَمَالُ * فَيَكُ فَصَارَا إِلَى جِدَالِ

فقال هذا يمينه لى * للعرف والبذل والنوال

وقال هناك وجهه لى * للظرف والحسن والكمال

فاقتربا فيك عن تراض * كلاهما صادق المقال

فوصف الوجه بالظرف ، وهو من صفات النطق كما تقدم ؛ وكذلك أبو تمام في قوله :

لَكَ هَضْبَةُ الْحِلْمِ الَّتِي لَوْ وَازَنْتِ * أَجْأَ إِذَا ثَقُلْتَ ، وَكَانَ خَفِيفَا

وحلاوة الشيم التي لو ما زجت * خلق الزمان القدم ، عاد ظريفا

فوصف الشيم بالحلاوة وهي مخصصة بالعينين ، ووصف الخلق بالظرف وهو

مخصص بالنطق كما تقدم بيانه .

الضرب الثاني - ما يُستقبح ذكره كما في لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والسُّرم بالسين، فإن الصُّرم بالصاد في أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال صرمه يَصْرِمُه صَرْمًا وصرمًا بالفتح والضم إذا قطعه، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة في أشعارها بهذا المعنى فلا يعاب عليها؛ قال أبو صخر الهدليّ:

قد كان صُرْمٌ في أَمَاتٍ لنا * فعَجِلْتُ قَبْلَ المَوْتِ بالصُّرْمِ

فأستعمله بمعنى القطع ولم يُعبَ عليه لأن الألفاظ في زمن العرب لم تتغير بل كانت باقيةً على أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وأستعملت لفظ الصُّرم الذي هو القطع في المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب على أبي الطَّيِّبِ أَسْتَعْمَلَهُ في قوله:

أذاق الغواني حُسْنَهُ ما أذَقْنِي * وَعَفَّ، فجَازَهَتْ عَنِّي بالصُّرْمِ

على أنه إنما يكره أَسْتَعْمَلَهُ بصيغة الأسم لما تقدم، أما إذا أَسْتَعْمَلُ بصيغة الفعل مثل صَرَمَ وَيَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حَجْرُ في أَسْتَعْمَلَهُ، وقد أَسْتَعْمَلَهُ ابن الرومي بالسين على بابهِ فجاء أَقْبَحَ وَأَشْنَعُ، فقال يهجو الوَردَ:

كَأَنَّهُ سُرْمٌ بَغْلٌ حِينِ يُجْرِجُهُ * عِنْدَ البَرَّازِ، وَباقِي الرُّوثِ فِي وَسْطِهِ

قال الصلاح الصَّفْدِيُّ: وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر في الوَردِ أيضا:

كَأَنَّهُ وَجْنَةُ الحَبِيبِ وَقَدْ * نَقَطَها عَاشِقٌ بِدِينارِ

قال: فانظر إلى هذا، وَجْنَةُ، وَحِيبِ، وَدِينارِ؛ وإلى ذلك، سُرْمٌ، وَبَغْلٌ،

وَرَوْثٌ . وَشَتَانٌ ما يَلِينُما .

الصفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح أن لا يكون متنافر الحروف ، فإن كانت حروفه متنافرة بحيث يثقل على اللسان ويعسر النطقُ به فليس بفصيح)
 وذلك نحو لفظ المُعْجَجُ في قول بعض العرب عن ناقة : تَرَكْنَاهَا تَرَعَى الْمُعْجَجَ :
 بانحاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أسود ، وكذلك لفظ مُسْتَشْرَزَاتٍ من قول امرئ القيس في قصيدته اللامية التي من جملة القصائد السبع الطوال :
 غَدَايْرُهُ مُسْتَشْرَزَاتٌ إِلَى الْعُلَى * تَصِلُ الْمَدَارِي فِي مِثْنِي وَمُرْسَلِ

لفظ مستشزرات من المتنافر الذي يثقل على اللسان، ويعسر النطق به. قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر": "ولقد رآني بعض الناس وأنا أعيب على امرئ القيس هذا اللفظ فأكبر ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد في أن امرأ القيس أشعر الشعراء، فمجبت من ارتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له : لا يمنع إحسان امرئ القيس من أستقباح ماله من القبيح ، بل مثال ذلك كمثل غَزَالِ الْمِسْكِ فإنه يخرج منه المسك والبعر ، ولا يمنع طيب ما يخرج من مسكه من خُبث ما يخرج من بعره ، ولا تكون لذآذة ذلك الطيب حامية للخبيث من الاستكراه ، فَأُسْكِتَ الرَّجُلَ عِنْدَ ذَلِكَ .

إذا علمت ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة على ذلك ، لأن الواضع قَسَمَهَا في وضعه إلى ثلاثة أقسام ؛ ثَلَاثِيًّا ، وَرُبَاعِيًّا ، وَخَمَاسِيًّا ، فَالثَلَاثِيّ من الألفاظ هو الأكثر، ولا يوجد فيه ما يكره استعماله إلا النادر؛ والخماسي هو الأقل ، ولا يوجد فيه ما يستعمل إلا الشاذ النادر؛ والرباعي وسط بين الثلاثي والخماسي في الكثرة عدداً وأستعمالاً ، فيكون أكثر اللغة مستعملاً غير مكروه . قال : ولا تقتضي حكمة هذه

اللغة التي هي سيدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسقط الواضعُ منها حروفا كثيرة في تأليف بعضها مع بعض أستقلا وأستكراها، فلم يؤلّف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف ، ولا بين اللام والراء ، ولا بين الزاي والسين ، وذلك دليل على عناية بتأليف المتباعدِ المخارجِ دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُخَلُّ بمثل هذا الأصل الكليّ في تحسين اللغة وقد أعنى بأمور جريئة دون ذلك ؟ كماثلته بين حركات الفعل في الوجود وبين حركات المصدر في النطق كالغَلْيَانِ ، والضَّرْبَانِ ، والتَّقْرَانِ ، والنَّزْوَانِ ؛ وغير ذلك مما يجري هذا المجرى ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهي مماثلة لحركات الفعل في الوجود .

ومن نظر في حكمة وضع هذه اللغة إلى هذه الدقائق التي هي كالأطراف والحواشي فكيف كان يخلّ بالأصل المعول عليه في تأليف الحروف بعضها إلى بعض ؟ . على أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مخارج الحروف عند استعمال الألفاظ ، أهي متباعدة أو متقاربة ؟ لطلال الخطب في ذلك وعسر ، ولما كان الشاعر ينظّم قصيدا ، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا في مدّة طويلة ، والأمر بخلاف ذلك ، فإن حاسة السمع هي الحاكمة في هذا المقام في تحسين لفظ وتقييح آخر ، على أنه قد يجيء من المتقارب المخارج ما هو حسن رائق ، ألا ترى أن الحروف الشجرية : (وهي الجيم والشين والياء) متقاربة المخارج : لأنها تخرج من وسط اللسان بينه وبين الحنك ، وإذا تركب منها لفظ جاء حسنا رائقا ، فإن لفظة جيش قد أجمع فيها الحروف الشجرية الثلاثة ، وهي مع تقارب مخرجها حسنة رائقة ، وكذلك الحروف الشفهية (وهي الباء والميم والفاء) متقاربة المخارج فإن مخرج جميعها من الشفة ، وإذا تركب منها لفظ جاء سليسا غير متنافر ، كقولك أكلت بقمي ، وهو في غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها؛ وقد يبيح من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَع بمعنى عدا، فإن الميم من الشفة والعين من حروف الحلق واللام من وسط اللسان، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريمة الاستعمال، ينبو عنها الذوق السليم، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح؛ على أنه لو عكست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد القبح منها حسنا مع انه لم يتغير شيء من مخارجها، على أن اللام لم تزل فيها وسطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها؛ ولو كانت مخارج الحروف معتبرة في الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشفة إلى الحلق في مَلَع أعسر من إخراجها من الحلق إلى الشفة في عَم، فإن لفظه يَلَع فيها الباء وهي من حروف الشفة واللام وهي من وسط اللسان والعين وهي من حروف الحلق وهي غير مكروهة.

قال في "المثل السائر": ولربما اعترض بعض الجهال بأن الاستتقال في لفظ مستشزرات إنما هو لطولها وليس كذلك، فإننا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر، لكان ثقيلًا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاي، فنقل النطق بها، نعم لو أبدلنا من الزاي راء ومن الراء فاء فقلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك، ومن ثم ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غير معتبر، وقد ورد في القرآن العظيم ألفاظ طوال لا شك في حسنها وفصاحتها كقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَيْسَتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فإن لفظ فسيفيكمهم مركب من تسعة أحرف، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف. قال: والأصل في هذا الباب أن الأصول لا تحسن إلا في الثلاثي وفي بعض الرباعي: كقولك عَدَبَ وَعَسَجَدَ، فالأولى ثلاثية

والثانية رُبَاعِيَّة ، أما الخُمَاسِيَّة من الأصول ، فإنه قبيح كقولك : صَهْصِقْ
وَجَمْرِيَّشْ ، وما جرى مجراها ، ولهذا لا يوجد في القرآن الكريم من الخُمَاسِيَّة الأصول
شيء إلا ما كان من اسم نبيٍّ عَرَّبَ اسمه ، ولم يكن في الأصل عربيًّا كما إبراهيم
وإسماعيل ونحوهما .

الصفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح ، أن لا يكون على خلاف القانون المستنبط
من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية ، وما هو في حكمها)

كوجوب الإعلال في نحو قام والإدغام في نحو مدد ، وغير ذلك مما يشتمل عليه
علم التصريف ، فإنه لو فكَّ الإدغام في مدد فقال مدد ، لم يكن فصيحًا ، وعلى حدِّ
ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمد لله العليُّ الأجلُّ *

فإن قياس بابه الإدغام فيقال الأجل .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح التلخيص : وأما نحو أبي يابى وعور
وَأَسْتَحْوَذَ وَقَطَطَ شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة في شيء
لأنها كذلك ثبتت عن الواضع ، فهي في حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هي عمود الفصاحة في اللفظ المفرد ، وقطب دائرة حسنه ،
فتمت أنصف بها وسلم من أضدادها ، كان بالفصاحة متسماً ، وبالحسن والرونق
مشتملاً ، وللطبع ملائماً ، وللسمع موافقاً ، ومتى عرى عن ذلك نخرج عن
طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلى الهجنة ، فمجهَّه السمع ، وقلاه
الطبع ورفضته النفوس ، ونفرت منه القلوب ، فلزم العيب قائله ، وتوجه العتبُ
على مستعمله . قال ابن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجهال إذا قيل

لا حدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أكر ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلى غاية لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العُسلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسْفِنِط ، وبين لفظة السِّيف ولفظة الخَنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدْوَكِس ، فلا ينبغي أن يُخَاطَبَ بخطاب ، ولا يُجابَ بجواب ، بل يترك وشأنه كما قيل : ” أتركوا الجاهل بجهله ، ولو ألقى الجعفر في رحله “

وما مثاله في ذلك إلا كمن يسوى بين صورة زنجية سوداء مظلمة السواد، شوهاء الخَلْق ذات عين مجترة ، وشَفَّة غليظة ، وشعر قَطَط ، وبين صورة رُومية بيضاء مُشربة بجمرة ، ذات خَدَّ أسيل ، وطَرْف كحيل ، ومَبْسَم كأنما يُظَم من أَفَاح ، وطُرة كأنها ليل على صَبَاح . فإذا كان بإنسان من سُقْم النظر أن يسوى بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقْم الفكر أن يسوى بين هذه الألفاظ وهذه ، ولا فرق بين السمع والنظر في ذلك ، فإن هذه حاسَّة وهذه حاسَّة ، وقياس حاسة على حاسة غير مُمتنع ؛ ولا عبرة بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلى الصورة الشنيعة ، فإن الحكم على الكثير الغالب ، دون الشاذ النادر الخارج عن الاعتدال ، فإننا لورأينا من يُجِبُّ أكل الفَحْم والحِصِّ والتراب ، ويختار ذلك على مَلَأْد الأُطعممة ، فإننا لاستجيد هذه الشهوة بل نحكم عليه بالمرض وفساد المَعِدَةِ ، وأنه يحتاج إلى العلاج والمداواة ، ومن له أدنى بصيرة يعلم أن لالفاظ في الأذن نَغْمَةٌ لذيذة كنعمة الأوتار ، وصوتها مُنكرًا كصوت الحمار ؛ وأن لها في الفم حلاوةً كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل . ولا حجة لاستعمال العرب لهذه الألفاظ ، فإن أستحسن الألفاظ وأستباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مجال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وجدت ، علم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأول

(في بيان فضل المعرفة بذلك، ومسيب حاجة الكاتب إلى معرفته، والإشارة
إلى خفي سره وتوعر مسلكه)

قال أبو هلال العسكري: وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة: الرسائل، والخطب،
والشعر؛ وجميعها يحتاج إلى حُسن التأليف، وجودة التركيب؛ وحسن التأليف يزيد
المعنى وضوحاً وشرحاً، ومع سوء التأليف ورداءة الرصف والتركيب شعبة من
التعمية، فإذا كان المعنى سيئاً، ورصف الكلام رديئاً، لم يوجد له قبول، ولم تظهر
عليه طلاوة. فإذا كان المعنى وسطاً ورصف الكلام جيداً، كان أحسن موقعاً
وأطيب مستمعاً، فهو بمنزلة العقد إذا جعل كل خرزة منه إلى ما يليق بها، كان
رائقاً في المرأى، وإن لم يكن مرتفعاً نبيلاً؛ وإن اختل نظمه فضمت الحبة منه
إلى ما لا يليق بها، أفتحمته العين وإن كان فائقاً ثميناً؛ وحسن الرصف أن توضع
الألفاظ في مواضعها، وتمكن من أماكنها، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير،
والحذف والزيادة إلا حذفاً لا يفسد الكلام، ولا يعمي المعنى، وتضم كل لفظة
منها إلى شكلها وتضاف إلى وقفها؛ وسوء الرصف تقديم ما ينبغي تأخيره منها، وصرفها
عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الاستعمال في نظمها. وقد قال العنابي: الألفاظ
أجساد والمعاني أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدمت منها مؤخرًا وأخرت
منها مقدماً، أفسدت الصورة وغيرت المعنى، كما أنه لو حوّل رأس إلى موضع
يد أو يد إلى موضع رأس أو رجل، لتحوّلت الحلقة وتغيرت الحلية.

قال في "الصناعتين" : وقد أحسن في هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في "المثل السائر" : وهذا الموضع يَضَلُّ في سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهال الذين لم تَنفَحْهُمْ منه رائحة ؟ وَمَنْ الذي يُؤْتِيهِ الله فِطْرَةَ ناصعة يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، حتى ينظر إلى أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعها في مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها، إذ التركيب أعسر وأشق، ألا ترى أن ألفاظ القراءان الكريم من حيث أنفرادها قد استعملتها العرب ومن بعدهم، وهي مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وأنظر إلى قوله تعالى : " وَقِيلَ يَا أَرْضُ أَبْلَغِي مَاءِكَ وَيَأَسِّمَاءُ أَقْلَبِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقِضِي الْأَمْرَ وَاسْتَوْتِ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ " وما أشتملت عليه هذه الآية من الحُسن والطلاوة والرونق والمائية التي لا يقدر البشر على الإتيان بمثلا، ولا يستطيع أفصحُ الناس وأبلغُ العالم مضاهاتها، على أن ألفاظها المفردة كثيرة الاستعمال دائرة على الألسنة، ففوة التركيب وحسن السبك هو الذي ظهر فيه الإعجاز وأخمت فيه البلاغة من حيث لاقت اللفظة الأولى بالثانية والثالثة والرابعة، وكذلك سائر الألفاظ إلى آخر الآية . ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أخواتها لم تكن لا بسنة من الحُسن والرونق ما ليسته في موضعها من الآية، ولكل كلمة مع صاحبها مقام .

قال ابن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترى لفظتين يدلان على معنى واحد، كلاهما في الاستعمال على وزن واحد وعدة واحدة، إلا أنه لا يحسن استعمال هذه في كل موضع تستعمل فيه هذه، بل يُفَرَّقُ بينهما في مواضع السبك، وهذا مما لا يدركه إلا من دقَّ فهمه، وجلَّ نظره . وإذا نظرت إلى قوله تعالى : " مَا جَعَلَ اللهُ

لرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ“ وقوله تعالى : ”رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا“ رأيت ذلك عياناً ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد أَسْتَعْمَلَ الجوف في الآية الأولى والبطن في الآية الثانية ولم يُسْتَعْمَل أحدهما مكان الآخر، وكذلك قوله تعالى : ”مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى“ وقوله : ”إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ“ فالقلب والفؤاد سواء في الدلالة وإن كانا مختلفين في الوزن، ولم يستعمل أحدهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرى قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الْمَوْتِ إِذَا الْمَوْتُ نَزَلَ * لَا عَارَ بِالْمَوْتِ إِذَا حُمَّ الْأَجَلُ

* الموت أحلى عندنا من العسل *

وقول أبي الطيب المتنبي :

إِذَا شِئْتُ حَفَّتْ بِي عَلَى كُلِّ سَابِجٍ * رِجَالُ كَأَنَّ الْمَوْتَ فِي قِمَاهَا شَهْدُ

فلفظة الشهد ولفظة العسل كلاهما حسن مستعمل ، وقد جاءت لفظة الشهد في بيت أبي الطيب أحسن من لفظة العسل في بيت الأعرج ، على أن لفظة العسل قد وردت في القرءان دون لفظة الشهد فجاءت أحلى من الشهد في موضعها ، وكثيرا ما تجد أمثال ذلك في أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ وَبُلْغَاءِ الْكُتَّابِ وَمَصَاقِعِ الْخَطْبَاءِ ، وتحتها دقائق ورموز ، إذا علمت وقيس عليها كان صاحب الكلام قد انتهى في النظم والنثر إلى الغاية القصوى في وضع الألفاظ في مواضعها اللائقة بها . قال : وأعجب من ذلك أنك ترى اللفظة الواحدة تروك في كلام ، ثم تراها في كلام آخر فتركها ، وقد جاءت لفظة في آي القرآن الكريم بهجة رائقة ، ثم جاءت تلك اللفظة بعينها في كلام آخر فجاءت ركيكة نائية عن الذوق ، بعيدة من الاستحسان ، فن ذلك لفظة يؤذى فإنها وردت في قوله تعالى : ”إِنَّ دَائِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

مَنْكُمْ وَاللَّهِ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ“ فجاءت في غاية الحسن ونهاية الطلاوة، ووردت في قول أبي الطيب :

تَلَدُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤَدِّي * وَمَنْ يَعَشَقُ يَلَدُّ لَهُ الْغَرَامُ

جاءت رثهً مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعاني الشريفة، وذلك لقوة تركيبها في الآية وضعف تركيبها في البيت الشعر، والسبب في ذلك أن لفظة تؤدى إنما تحسن في الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتي بعدها متعلقةً به كما في الآية الكريمة حيث قال : ”إِنَّ ذَلِكَ كَانَ يُؤَدِّي النَّيِّ“ وفي بيت المتنبي جاءت منقطعة ليس بعدها شيء لتعلق به حيث قال :

* تَلَدُّ لَهُ الْمَرْوَةُ وَهِيَ تُؤَدِّي *

ثم أستأنف كلاماً آخر فقال :

* وَمَنْ يَعَشَقُ يَلَدُّ لَهُ الْغَرَامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها في الحديث النبويّ مضافةً إلى كاف خطاب ، فأخذت من المحاسن بزمامها ، وأحاطت من الطلاوة بأطرافها ، وذلك أنه لما أشتكى النبيّ صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فرقاه فقال : ”بسم الله أرقيك ، من كلِّ داءٍ يؤذيك“ فصارت إلى الحُسن بزيادة حرف واحد، وهذا من السرّ الخفيّ الذي يدقُّ فهمه . وعلى نهج لفظة يؤذى يردُّ لفظة لى ، فإنها لا تحسن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها ، ولذلك لحقها هاء السكّت في قوله تعالى : ”مَا اغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ“ لما لم يكن بعدها ما يتعلق به ، بخلاف قوله : ”إِنَّ هَذَا أَحْبَبُ إِلَيَّ لَسَعٍ وَتَسْعُونَ نَعْجَةً وَّلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ“ فإنه لم تلحقها هاء السكّت آكتفاء بما هي متعلقة به .

ومما يجرى مثل هذا المجرى لفظة القمّل ، فإنها قد وردت في قوله تعالى :
 ”فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ“ بجاءت في غاية الحسن ،
 ووردت في قول الفرزدق :

مِنْ عِرْهِ أَجْتَحَرَتْ كَلِيبٌ عِنْدَهُ * زَرْبًا كَأَنَّهُمْ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

جاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت في الآية مندرجةً في ضمن كلام
 لم ينقطع الكلام عندها ، وجاءت في البيت قافيةً آتقطع الكلام عندها . هذا
 ماخص ما ذكره ابن الأثير، وقال : إنه لم يُسبق إليه ، وجعل الحاكم فيه الذوق
 السليم دون غيره . وعلى الجملة فلا نزاع في أن تركيب الألفاظ يُعطي الكلام من
 القوّة والضعف ما تزيد به قيمة الألفاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يُحطُّ
 مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلى رتبة القبح والاستهجان .

الوجه الثاني

(في بيان ما يبنى عليه تركيبُ الكلام وترتيبه . وله ركان)

الركن الأوّل - أن يُسلك في تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللكنة والهجنة .
 والفصاحة في المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولى

(أن يكون سليماً من ضعف التاليف)

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام على القانون النحويّ المشتهر فيما بين معظم أصحابه
 حتى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمار قبل الذكر لفظاً أو معنى ، نحو ضرب
 غلامه زيداً ، فإنه غير فصيح وإن كان ما اتصل بالفاعل فيه ضميراً المفعول به

مما أجازته الأخصس وتبعه ابن جني لشدة اقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل ،
وأستشهد بقوله :

لما عصى أصحابه مضعباً * أدى إليه الكيل صاعاً بصاع

وقوله :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر * وحسن فعل كما يحزى سيمار

وقوله :

ألا ليت شعري ، هل يلو من قومه * زهيراً على ما جر من كل جانب

الصفة الثانية

(أن يكون سليماً من التعقيد)

وهو أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المعنى الذي يراد منه ، وهو على

ضربين .

الضرب الأول - وهو الذي يسميه ابن الأثير (المعاطلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب
الألفاظ على وفق ترتيب المعاني بسبب تقديم أو تأخير، أو حذف أو إضمار، أو غير
ذلك مما يوجب صعوبة فهم المراد، وإن كان ثابتاً في الكلام، جارياً على القوانين
كقول الفرزدق، في مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل الخزومي، خال هشام بن
عبد الملك :

وما مثله في الناس إلا مُملكا * أبو أمه حتى أبوه يقاربه

أى وما مثل هذا المدوح في الناس حتى يقاربه ويُشبهه في الفضائل إلا مُملكا،
أبو أم ذلك المملك أبو المدوح، فيكون المدوح خال المملك، والمعنى أنه لا ياتل

أحد هذا الممدوح الذي هو إبراهيم بن هشام إلا ابن أخته هشام، أفسده وعقد معناه، وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلى حدّ الأكنة؛ وكذلك قوله في الوليد بن عبد الملك :
إلى ملك، ما أمته من محارب * أبوه، ولا كانت كليب تصاهره
يريد إلى ملك ما أمّ أبيه من محارب، وقوله :

تعال فإن عاهدتني لا تحونني * نكن مثل من ياذب يصطحبان
يريد نكن ياذب مثل من يصطحبان، وقوله :

وليست نخراسان التي كان خالد * بها أسد، إذ كان سيفاً أميرها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد ولي نخراسان ووليها أسد بعده، فمدح خالداً بأنه كان سيفاً، بعد أن كان أسد أميرها، فكأنه يقول وليست نخراسان بالبلدة التي كان خالد بها سيفاً إذ كان أسد أميرها . قال ابن الأثير : وعلى هذا التقدير ففي كان الثانية ضمير الشأن والحديث ، والجملة بعدها خبر عنها، وقد قدم بعض ما إذ مضافة إليه وهو أسد عليها، وفي تقديم المضاف إليه أو شيء منه على المضاف من القبح إلا خفاء به . قال : وأيضا فإن أسدا أحد جزأى الجملة المفسرة للضمير، والضمير لا يكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدم تفسيره قبله لما احتاج إلى تفسير، ولما سماه الكوفيون الضمير المجهول، وعلى نحو ذلك ورد قول الآخر :

فأصبحت بعد خط بهجتها * كأن قفراً رسوماً قلماً

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً كأن قلماً خط رسوماً، فقدم خبر كأن وهو خط عليها بفاء مختلاً مضطرباً، قال في "المثل السائر" : وهذا البيت من أفصح هذا النوع لأن معانيه قد تداخلت، وركب بعضها بعضاً؛ على أن ذلك قد وقع لجمع من فحول شعراء العرب . كقول امرئ القيس :

ههما أخوفا في الحرب من لأخاله * إذا خاف يوماً نبوة فدعاهما

يريد أخوا من لأخوى له في الحرب، وقول النابغة :

يُثْرِنَ الثَّرِيَّ حَتَّى يَبَاشِرْنَ بَرْدَهُ * ، إذا الشمسُ مجَّت ريقها، بالكلا كل
قال أبو هلال العسكري : وهذا البيت مستهجن جداً لأن المعنى تعمى فيه ،
يريد يُثْرِنُ الثَّرِيَّ حَتَّى يَبَاشِرْنَ بَرْدَهُ بالكلا كل إذا الشمسُ مجَّت ريقها ؛ وقول
أبي حية التميمي :

كَمَا خُطَّ الْكُتَّابُ بِكَفِّ ، يَوْمَا ، * يَهُودِيٌّ يَقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ

يريد كما خط الكتاب بكف يهودي يوما يقارب أو يزيل ؛ وقول ذى الرمة :
نَضًا الْبُرْدَ عَنْهُ وَهُوَ مِنْ ، ذُو ، جُنُونِهِ * أَجَارِيٌّ ، صَهَّالٌ وَصَوْتُ مَبْرَسَمٍ
يريد وهو من جنونه ذو أجاري ؛ قال في "الصناعتين" : كأنه تخطيط كلام مجنون
أو هجر مبرسم ؛ وقول الشماخ :

تَحَامُصٌ عَنْ بَرْدِ الْوِشَاحِ إِذَا مَشَتْ * تَحَامُصٌ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْأَمْعَزِ الْوَجِي

يريد تَحَامُصٌ حَافِي الْخَيْلِ فِي الْوَجِي الْأَمْعَزِ ؛ قال أبو هلال العسكري : وليس
للمحدث أن يجعل هذه الأبيات حجةً ويبنى عليها فإنه لا يعذر في شيء منها ، لإجماع
الناس اليوم على مجانبة أمثاله واستجدادة ما يضح من الكلام ويستبين ، وأستزдал
ما يُشْكِلُ منه ويستهم ؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيراً بأنه لم يكن يعاظم
بين الكلام .

قال في "المثل السائر" : والفردق أكبر الشعراء تعاطلاً وتعقيداً في شعره ، كأنه
كان يقصد ذلك ويتعمده ، لأن مثله لا يجيء إلا متكلفاً مقصوداً ، وإلا فإذا ترك
مؤلف الكلام نفسه تجرى على سجيها وطبعها في الأسترسال لم يعرض له شيء من
هذا التعقيد ، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم في هذا النوع ، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنى ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به ، ولا فرق عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثاني من التعقيد - أن لا يكون الكلام ظاهر الدلالة على المراد بخلل في انتقال الذهن من المعنى الأول المفهوم بحسب اللغة إلى الثاني المقصود، لإيراد اللوازم البعيدة المفتقرة إلى الوسائط الكثيرة، مع خفاء القرائن الدالة على المقصود، كقول العباس بن الأخنف :

سَأَطْلُبُ بَعْدَ الدَّارِ عَنْكُمْ لِتَقْرُبُوا * وَتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدَّمُوعَ لِتَجْمُدَا

يريد إنى أطلب بعد الدار عنكم لتقربوا منى ، وتسكب عيناى الدموع لتجمد وتكف الدمع بحصول التلاقي ، والمعنى أتى طبت نفسا بالبعد والفراق ، ووطنت نفسى على مقاساة الأحران والأشواق ؛ وأتجرع الغصص ، وأحتمل لأجلها حزنا يُفِيضُ الدَّمُوعَ من عيني لا تسبب بذلك إلى وصل يدوم، ومسرة لا تزول، فتجمد عيني ويرقأدمعى ، فإن الصبر مفتاح الفرج ؛ فكنتى بسكب الدموع عن الكابة والحزن ، وهو ظاهر المعنى لأنه كثيرا ما يجعل دليلا عليه ، يقال أبكاني الدهر وأضحكنى بمعنى ساءنى وسرتنى ؛ وكنتى بجمود العين عما يوجهه دوام التلاقي من الفرح والسرور؛ فإن المتبادر إلى الذهن من جمود العين بخلها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ماقصده الشاعر من التعبير به عن الفرح والسرور، وإن كانت حالة جمود الدمع مشتركة بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء، وبين زمن السرور الذى لم يطلب فيه بكاء؛ وكذلك يجرى القول فى كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلى الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلى أحدهما ، كما صرح به الرماني وغيره، خصوصا إذا كان أحد المعنيين الذى يدل عليه اللفظ المشترك

مستقبحا كما نبه عليه ابن الأثير في الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام ، وبين الإهانة بسبب الخيانة التي لا توجب الحد : من الضرب وغيره ، والمعنيان ضدان فحيث وردت معها قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حسنة راقمة ، وكانت في أعلى درجات الفصاحة ؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى : ﴿ لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ ﴾ وقوله : «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ» الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير في الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر في الآية الثانية زال اللبس وحسن الموقع ، ولو وردت مهملةً بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن ، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح ، كما لو قلت عزز القاضي فلاناً وأنت تريد أنه عظمه ، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه ، وعلى هذا النهج يجرى الحكم في الحسن والقبح مع القرينة وعدمها .

قال ابن الأثير رحمه الله : فما ورد مع القرينة بفاء حسنا قول تأبط شرا :

أقول للحَيَّانِ ، وقد صَفَرْتُ لَهُمْ * وَطَائِبِي وَيَوْمِي ضَيْقُ الْجَحْرِ مَعُورٍ

فإنه أضاف الجحْر إلى اليوم فأزال عنه هُجْنَةَ الأَشْتِبَاهِ لأن الجحْر يطلق على كل ثقب

بجحْر الحَيَّةِ واليربوع ونحوهما ، وعلى المحل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملا بغير قرينة مُتَخَصِّصُهُ سبق إلى الفهم المعنى القبيح لأشتماره دون غيره . ومما ورد مهملا بغير قرينة بفاء قبيحا قول أبي تمام :

أعْطَيْتَنِي دِيَةَ الْقَتِيلِ وَليْسَ لِي * عَقْلٌ وَلَا حَقٌّ عَلَيْكَ قَدِيمٌ

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لي عقل أنه من العقل الذي هو ضد

الجنون ولو قال وليس لي عليك عقل لزال اللبس . قال : فيجب إذاً على صاحب هذه الصناعة أن يراعى في كلامه مثل هذا الموضع .

الصفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليماً من تنافر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة)

وقد اختلف في معنى هذا التنافر على ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول - أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون في الكلام ثقل على اللسان ويعسر النطق به على المتكلم ، وإليه ذهب السكاكي وغيره من علماء البيان . وهو على ضربين .

الضرب الأول - أن يكون فيه بعض ثقل ، كقول أبي تمام :

كريم متى أمدحه أمدحه والورى * معى ، وإذا مالمته ، لمته وحدي

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعض الثقل على اللسان في النطق به ، وذلك أن الاء والهاء متقاربان في المخرج ، وقد اجتمعا في قوله أمدحه ، ثم تكررت الكلمة في البيت مع تقارب مخرج الحرفين فنقلت بعض الثقل .

وأول من نبه على ذلك الأستاذ ابن العميد رحمه الله .

ومما يحكى في ذلك أن صاحب بن عبّاد أنشد هذا البيت بحضرة ابن العميد ، فقال له ابن العميد : هل تعرف في هذا البيت شيئاً من الهجنة ؟ فقال : نعم ، مقابلة المدح باللوم وإنما يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقال له ابن العميد : غير هذا أريد ، قال : لا أرى غير ذلك . فقال ابن العميد : هذا التكرير في أمدحه أمدحه مع الجمع بين الاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حد الاعتدال ، نافر كل التنافر ، فاستحسنه صاحب بن عبّاد ذلك .

قال الشيخ سعد الدين التفتازاني في شرح تلخيص المفتاح : ولا يجوز أن يراد أن

الثقل في لفظة أمدحه دون تكرار ، فإن مثل ذلك واقع في التنزيل نحو قوله تعالى :

”فَسَبَّحَهُ“، والقول باشتمال القراءان على كلام غير فصيح مما لا يجترئ عليه المؤمن .
الضرب الثانى - ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة
النطق به ، كقوله :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرٍ * وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرٌ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف ، فصاح واحد منهم
على حَرْبِ بن أُمِيَّة فَمَاتَ ، فقال ذلك الجَنِّيُّ هذا البيت . قال المسعودى فى ”مروج
الذهب“ : والدليل على أنه من شعر الجن أمران ، أحدهما الرواية ، والثانى أنه
لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعَتَّعَ فيه . قال ضياء الدين بن الأثير :
والسبب فى ثقل البيت تكرير حرفى الباء والراء فيه ، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها
سِلْسِلَةٌ ، ولا حَفَاءَ بما فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم فى كل
ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلَقَ على ذلك أسم التنافر ، وجعل التنافر قسما
مستقلا برأسه كما سيأتى ، وعد هذا من أنواع المعاطلة اللفظية ، ثم ذكر من أمثله
قول الحريرى فى مقاماته :

وَأَزَوْرٌ مَنْ كَانَ لَهُ زَائِرًا * وَعَافَ عَافِي الْعُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كُشَاجِم :

وَالزَّهْرُ وَالقَطْرُ فى رُبَاهَا * مَا بَيْنَ نَظْمٍ وَبَيْنَ نَثْرِ
حَدَائِقُ ، كَفُّ كُلِّ رِيحٍ * حَلَّ بِهَا خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلَّتْ مِطَالَ مَوْلُودٍ مُفَدَّى * مَلِيحٍ مَانِعٍ مَنَى مُرَادَى

وقول المتنبي :

كَيْفَ تَرَى التَّى تَرَى كُلَّ جَفْنٍ * رَأَاهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقٍ

وعاب بيت الحريرى لتكرر العين فيه في قوله :

* وَعَافَ عَافِي العُرْفِ عِرْفَانَهُ *^١

وعاب البيت الثاني من بيتي كشاجم لتكرر الكاف فيه في "كَفَّ وَكَلَّ" الاولى و"كَلَّ" الثانية، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلى رِكَاكِ يَضَعُهُ فِي سِدْقِهِ حَتَّى يَدِيرَهُ لَهُ ؛ وعاب البيت الذي يليه لتكرر الميم فيه في أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عَقْدٌ ، متصلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبي لتكرر الجيم والراء في أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنما يَعْرِضُ لِقَائِلِهِ فِي نَوْبَةِ الصَّرْعِ الَّتِي تَتَوْبَهُ فِي بَعْضِ الأَيَّامِ . قال : وكان بعض أهل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسم من المعاطلة كثيرا في كلامه تزا ونظما ، وذلك لعدم معرفته لسلك الطريق كقوله في وصف رجل سخى : "أنت المُرِيحُ كِيدِ الرِيحِ ، والمَلِيحُ إِنْ تَجَهَّمُ المَلِيحُ بِالتَكْلِيحِ ؛ عند سائل يَلُوحُ ، بل تفوق إذ تَرُوقُ مَرَأَى يُوْحُ ، يامغبوق كأس الحمد يامصبُوح ضاق عن نَدَاكَ اللُّوحِ ، وبيابك المفتوح يستريح ويريح ذو التَّبْرِيحِ ، وَيُرْفَهُ الطَّلِيحُ " فانظر إلى حرفي الراء والحاء كيف لزمهما في كل لفظة من هذه الألفاظ بقاء على ما تراه من الثقل والغثائة .

ثم قال : وأعلم أن العرب الذين هم الأصل في هذه اللغة قد عدلوا عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم ، وذلك أنه إذا تكرر الحرف عندهم أدغموه استحسانا ، فقالوا في جعل لك : جَعَلْكَ ، وفي تضربونني تضربوني ، وكذلك قالوا : أَسْتَعِدَّ فلان للأمر إذا تَأَهَّبَ لَهُ ، والأصل فيه أَسْتَعَدَّدُ ، وَأَسْتَتَبَّ الأمر إذا تَهَيَّأَ والأصل فيه أَسْتَتَبَّ ، وأشبهه هذا كثير في كلامهم حتى إنهم لَشِدَّةَ كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفين المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أَمَلَيْتُ

(١) صوابه أحد الحرفين كما هو نص العبارة في المثل السائر .

الكتاب ، والاصل فيه أملت ، فأبدلوا اللامَ ياءً طلباً للخفة وفراراً من الثقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك في اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضاً .

قلت : ليس تكرر الحروف مما يوجب التنافر مطلقاً كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تكرر الحروف وتترادف في الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخصتها على اللسان ، وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَّمٌ سَنَمْتِعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كيف اجتمع فيه ست عشرة ميماً في آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات في موضع وميمان في موضع ، مع ما أشتملت عليه من الطلاوة والروني الذي ليس في قدرة البشر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثاني - أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثاني غير مشاكل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكري في "الصناعتين" فما اختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموءل :

فَنَحْنُ كِجَاءِ الْمُزْنِ مَا فِي نِصَابِنَا * كَهَامٌ وَلَا فِينَا يَعْدُ بِخَيْلُ

فليس بين قوله ما في نصابنا كهامٌ وقوله فنحن كجاء المزن مناسبة لأن المراد بالكهام الذي لا غنَاءَ به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كهامٌ أي لا غنَاءَ عندهم ، ورجل كهامٌ أي مُسِنٌّ ؛ كذلك سَيْبٌ كهامٌ أي كليلٌ ، ولسان كهامٌ أي عيبٌ ، وفرس كهامٌ أي بطيء ، فهو يصف قومه بالنجدة والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يُغْنِي ، وماء المزن إنما يحسن في وصف الجود والكرم . قال في "الصناعتين" : ولو قال : ونحن ليوث الحرب وأولو الصرامة والنجدة ، ما في نصابنا كهامٌ ، لكان الكلام مستوياً ؛

أو فتحن كماء المزن صفاء أخلاق وبذل أكف، لكان جيدا؛ ومن ذلك قول طرفة:
ولست بحلال التلّاع مخافة * ولكن متى يسترفد القوم أرفد

فالمصرع الثاني من البيت غير مشا كل لصورة المصراع الأول وإن كان المعنى صحيحا لأنه أراد ولست بحلال التلّاع مخافة السؤال ولكني أنزل الأمكنة المرتفعة لينتابوني وأرْفِدْهم، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيراً صحيحاً ولكنه خلطه وحذف

منه حذفاً كثيراً فصار كالمتنافر؛ وأدواء الكلام كثيرة؛ ومنه قول الأعشى:

وإن أمراً أسرى إليك ودونه * سهوب ومومةً وبيداء سملق،

لمحتووة أن تستجيب ليصوته * وأن تعلمي أن المعان موفق

فقوله: وأن تعلمي أن المعان موفق غير مشا كل لما قبله؛ وعلى نحو ذلك ورد

قول عنترة:

حرق الجناح كأن لحى رأسه * جمان بالأخبار هش مولع

إن الذين نعبت لي يفراقهم * هم أسلموا ليل التمام وأوجعوا

فليس قوله بالأخبار هش مولع من صفة جناحيه ولحيته؛ وقريب منه قول

أبي تمام:

محمد إن الحاسدين شهود * وإن مصاب المزن حيث تريد

فليس النصف الثاني من النصف الأول في شيء؛ وكذلك قول الطالبي:

قوم هدى الله العباد بجمهم * والمؤثرون الضيف بالأزواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعجزه بوجه .

وعد بعض الأدباء من هذا النوع قول امرئ القيس:

كأنى لم أركب جواداً للدة، * ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

ولم أسيا الزق الروى ولم أقل * ليحلي كرى كرة بعد إجمال

وقال : لو وضع مصراع كل بيت من هذين البيتين في موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل في آستواء النسيج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * لخليلى كرى كرة بعد إجمال

ولم أسبأ الزق الروى للذة، * ولم أتبطن كاعبا ذات خلخال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كروور الخيل أجود، وذكر الخمر مع ذكر الكواعب أحسن . قال في "الصناعتين" : قال أبو أحمد : والذي جاء به أمرؤ القيس هو الصحيح لأن العرب تضع الشيء مع خلافه، فيقولون : الشدة والرخاء، والبؤس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل ما يجرى هذا المجرى . قال أبو هلال العسكري : أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعة من أحداث بغداد ممن يتعاطى الأدب نختلف إلى مُدرِك نتعلم منه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعت الكلمة مع لفقها، كنتم شعراء . ثم قال : أجزوا هذا البيت :

* أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعٌ عُرُورِ *

فأجازه كل واحد منا بشيء، فلم يرضه . فقلت أنا :

* وَإِنْ عَظُمَتْ فِي أَنْفُسِ وَصُدُورِ *

فقال : هذا هو الجيد المختار . قال : وأخبرنى أبو أحمد الشطرنجى قال : حدثنا أبو العباس بن عربى، قال : حدثنا حماد بن يزيد بن جبلة، قال : دفن مسلمة رجلا من أهله ثم قال :

* نَرُوحُ وَنَعْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَلِيْلَةٍ *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فَحَتَّى مَتَى هَذَا الرَّوَّاحُ مَعَ الْغُدُوِّ *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

* فيالك مَعْدَى مَرَّةً وَمَرَّاحًا *

فقال : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : أجز فقال :

* وَعَمَّا قَلِيلٍ لَا نَزُوحٌ وَلَا نَعْوُ *

فقال : الآن تم البيت ، وأشباه ذلك ونظائره كثيرة . ومما اختلف فيه البيت الأول والثاني قول ابن هرمة :

وَإِنِّي وَتَرَكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ * وَقَدْحِي بِكَفِّي زَنْدًا شَحَاحًا

كَمَارَكَةٍ بَيِّضَهَا بِالْعَرَاءِ * وَمُلْبَسَةٍ بِيضَ أُخْرَى جَنَاحًا

وقول الفرزدق :

فإِنَّكَ إِذ تَهْجُو تَمِيمًا وَتَرْتَشِي * سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سُجُوفَ الْعِمَامِ

كَهَرِيْقِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ ، وَغَرَّهُ * سَرَابٌ أَدَاعَتْهُ رِيَّاحُ السَّمَامِ

كان ينبغي أن يكون بيت ابن هرمة الأول مع بيت الفرزدق الثاني ، وبيت الفرزدق الأول مع بيت ابن هرمة الثاني ، فيقال في الأول :

وَإِنِّي وَتَرَكِي نَدَى الْأَكْرَمِينَ * وَقَدْحِي بِكَفِّي زَنْدًا شَحَاحًا

كَهَرِيْقِ مَاءٍ بِالْفَلَاةِ وَغَرَّهُ * سَرَابٌ أَدَاعَتْهُ رِيَّاحُ السَّمَامِ

مع تغيير إحدى القافيتين ، ويقال في الثاني :

وَإِنَّكَ إِذ تَهْجُو تَمِيمًا وَتَرْتَشِي * سَرَابِيلَ قَيْسٍ أَوْ سُجُوفَ الْعِمَامِ

كَمَارَكَةٍ بَيِّضَهَا بِالْعَرَاءِ * وَمُلْبَسَةٍ بِيضَ أُخْرَى جَنَاحًا

مع تغيير إحدى القافيتين حتى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث - أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما في معناها أولى بالذكر، فتجىء الكلمة غير لا ثقة بمكانها، وهو ما أصطلح عليه ابن الاثير في "المثل السائر". وهو على ضربين .

الضرب الأول ، ما يوجد منه في اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو في معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا؛ وهو على أنواع شتى .

منها فك الإدغام في غير موضع فكّه، كقول ابن أمّ صاحب :
 مهلاً أعادل قد جربت من خلقي * أنى أجود لأقوام وإن ضنونا
 فك الإدغام في ضنونا، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضنوا أى بخلوا .
 وعلى حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فلا يبرم الأمر الذى هو حال * ولا يحلل الأمر الذى هو يبرم

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارة في مكانها، غير قلقة ولا نافرة؛ وكذلك كل ما جاء على هذا النهج فلا يحسن أن يقال بلّ الثوب فهو بال؛ ولا سلّ السيف فهو سائل، ولا همّ بالأمر فهو هامم، ولا خط الكتاب فهو خاطط، ولا حنّ إلى كذا فهو حانن؛ وهذا لو عرض على من لا ذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟ لكن لا بد لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف في غير موضعه، كقول دَعْبِلِ :

شفيعك فاشكر في الحوايج، إنّه * يَصُونُكَ عن مكروهها وهو يَخْلُقُ

فالفاء في قوله فاشكر زائدة في غير محلها، نافرة عن مكانها . قال الوزير ضياء

الدين ابن الاثير : أنشدنى بعض الأدباء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، واما صدره فقيح : لأن سبكه قلّق نافر، والفاء في قوله فاشكر كأنها رُكبة البعير،

وهي في زيادتها كزيادة الكرش، فقال : لهذه الفاء في كتاب الله تعالى أشباه : كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أولا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء في قوله تعالى : ” وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ” فهي الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : ” قُمْ فَأَنْذِرْ ” وهي مثل قولك : آمسِمْ فَأَسْرِعْ ، وقُلْ فَأَبْلِغْ ، وليست الفاء التي في قول دِعْبِيلَ : شَفِيعَكَ فَاشْكُرْ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ ، بل هي زائدة ولا موضع لها ، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدم معطوف عليه^(١) ، وحاشا فصاحة القراء من ذلك . فأدعن بالتسليم ورجع إلى الحق . قال : ومثل هذه الدقائق التي ترد في الكلام نظما كان أو نثرا لا يتفطن لها إلا الراشح في علم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع في الشعر وإن كان ذلك جائزا فيه بخلاف النثر كقول أبي تمام :

قَرَأَنِي اللَّهُ وَالْوُدَّ حَتَّى كَأَمَّا * أَفَادَ الْغِنَى مِنْ نَائِلٍ وَفَوَائِدِي
فَأَصْبَحَ يَأْتَانِي الزَّمَانُ مِنْ آجَلِهِ * بِأَعْظَامِ مَوْلُودٍ وَرَأْفَةِ وَالِدِ

فقوله من آجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر؛ وعلى حده ورد قول أبي الطيب :

يُوسِّطُهُ الْمَفَاوِزَ كُلَّ يَوْمٍ * طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَا لِالْتِنَظَارِ

فقوله لا الانتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر .

ومنها قطع همزة الوصل في الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أَرَى إِثْنَيْنِ أَجْمَلَ شِيمَةً * عَلَيَّ حَدَثَانَ الدَّهْرِ مِنِّي وَمِنْ جُمَلِ

(١) لم يذكر الثاني وقد ذكره في ” المثل السائر ” فقال . وأما الذوق فانه ينبوع الفاء الواردة في قول

دعبل ويستقلها ... الى أن قال فلما سمع ما ذكرته أذعن الخ .

وقوله أيضا :

إِذَا جَاوَزَ الْإِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ * بِنَشْرِ وَتَكْثِيرِ الْوُشَاةِ قَمِينٌ

فقطع ألف الوصل في لفظ الإثنين في البيت الأول والثاني .

ومنها أن يفرق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدم ذكره كقول البحترى :

حَلَفْتُ لَهَا بِاللَّهِ يَوْمَ التَّفَرُّقِ * وَبِالْوَجْدِ مِنْ قَلْبِي بِهَا الْمُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبي المتعلق بها، فلما فصل بين الموصوف الذي هو قلبي والصفة التي

هي المتعلق بالضمير الذي هو بها ، قبح ذلك . ولو قال من قلب بها متعلق لزال

ذلك القبح وزهبت تلك الهُجْنَةُ . ونحو ذلك .

الأصل الرابع

(المعرفة بالسجع الذي هو قوام الكلام المنثور وعلو رتبته ،

ويتعلق به ستة أغراض)

الغرض الأول

(في معرفة معناه في اللغة والأصطلاح ، وبيان حكمه في حالتي الدرج والوقف)

أما في اللغة فقال في "مواد البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم

لأستقامته في الكلام ، وأستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة : وهو ترجيعها الصوت

على حمد واحد ، يقال منه سَجَعَتِ الحمامةُ تُسَجِّعُ سَجْجًا فهي ساجعة ؛ سمي السجع

في الكلام بذلك لأن مقاطع الفصول تأتي على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمات

متوازية متماثلة . فأشبه ذلك الترجيع .

وأما في الأصطلاح ، فقال في "مواد البيان" : هو تَقْفِيَةٌ مقاطع الكلام من غير

وزن ، وذكر نحوه في "المثل السائر" فقال : هو تَوَاطُؤُ الفواصل من الكلام المنثور

على حرف واحد ؛ ويقال للجزء الواحد منه سَجْجَةٌ ، وتجمع على سَجْجَاتٍ ، وَفِقْرَةٌ (بكسر

الفاء) أخذنا من فِقْرَةِ الظهر : وهى إحدى عظام الصُّلْبِ ، وتجمع على فِقْرٍ وفِقْرَاتٍ بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها ، وربما فتحت الفاء والقاف جميعا ، ويقال لها أيضا قَرِينَةٌ لمقارنة أختها وتجمع على قرائن ، ويقال للحرف الأخير منها حرف الرُّوى والفاصلة .

وأما بيان حكمه فى الوقف والدرج فأعلم أن موضوع حكم السجع أن تكون كلمات الأبيجاع ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدرج : لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزوجة بين الفِقر، وذلك لا يتم إلا بالوقف . ألا ترى أن قولهم : ما أبعدَ مافات ، وما أقربَ ماهوآت ، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بد من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيه حكم الإعراب فتختلف أواخر القرائن ويفوت الساجع غرضه .

الغرض الثانى

(فى بيان حُسن موقعه من الكلام)

قال فى "الصناعتين" : لا يحسن مشور الكلام ، ولا يلوح حتى يكون مُرَدَّجًا ، ولا تجد لبلِغ كلاما محلولاً من الأزواج ، وناهيك أن القراءن الكريم الذى هو عنصر البلاغة ومناط الإعجاز مشحونٌ به ، لا تخلو منه سورة من سورِهِ وإن قصرت . بل ربما وقع السجع فى فواصل جميع السورة ، كما فى سورة النجم ، وأقربت ، والرحمن وغيرها من السور . بل ربما وقع فى أوساط الآيات ، كقوله تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ وقوله : ﴿ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَأَهُمْ نُورِ يَوْمِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ وقوله : ﴿ وَكَلَّمْتُمْ بِأَخِيهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ ﴾ وما أشبه ذلك . وكذلك وقع فى الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : ” أَفْشُوا السَّلَامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا الْأَرْحَامَ ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ ” . بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها في تصريف اللغة طلبا للزوجة : كقوله في تعويذه لابن أبنته : ” أُعِيذُكَ مِنَ الْهَامَةِ وَالسَّامَةِ ، وَالْعَيْنِ اللَّامَةِ ” ، وأصلها في اللغة الملمة لأنها من ألم ، فعبر عنها باللامه لموافقة الهامة والسامة ؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : ” أَنْصِرْفَنَّ مَازُورَاتٍ غَيْرَ مَأْجُورَاتٍ ” ، والأصل في اللغة أن يقال مَوْزُورَاتٍ أَخَذَا مِنَ الْوِزْرِ ، فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات ؛ وعلى ذلك كان يجري كلام العرب في مهم كلامهم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بابنه : اللهم إِنْ كُنْتُ قَدْ أَبْلَيْتَ ، فَطَلَّمَا عَافَيْتَ . وقول الآخر : اللهم هَبْ لَنَا حَبَكَ ، وَأَرْضِ عَنَا خَلْقَكَ ، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل في الجنين بغرة عبد أو أمة ، فقال الرجل : أَدَّى مِنْ لَأَشْرِبَ وَلَا أَكُلْ ؛ وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَ ، ومثل ذلك يُطَلُّ . فقال النبي صلى الله عليه وسلم ” أَسْبِجَا كَسْبِجِ الْكُهَّانِ ” ، فليس فيه دلالة على كراهة السجع في الكلام وإن تمسك به بعض من نبأ عن السجع طبعه ، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجع الكُهَّانِ ، لما في سجعهم من التكلف والتعسف كما وجهه أبو هلال العسكري ، وإما لجريانه على عادتهم في الجواب في الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ؛ أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لانفس السجع الماتى به كما اختاره صاحب ” المثل السائر ” ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسه ، لاقصر على قوله أسبجعا ولم يقيد بسجع الكُهَّانِ .

الغرض الثالث

(في بيان أقسام السجع ، وهي راجعة إلى صنفين)

الصنف الأول

(أن تكون القرينتان متفتحتين في حرف الروي ، ويسميه الرماني السجع الحالي)
وعليه عمل أكثر الكُتَّاب من زمن القاضي الفاضل ، وهلمَّ جرًّا
إلى زماننا ؛ وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء
ويسمى التصريح ، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه في النثر قوله تعالى :
(**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ**) وقوله : (**إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ
لَفِي جَحِيمٍ**) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم في دعائه : ” **اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي ،
وَأَغْسِلْ حَوْبَتِي** ” . وقوله للأَنْصار ” **إِنكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الْفِرْعَ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ** ”
وقول بعض الأعراب في وصف سنة جذبة : سنة جردت ، وحال جهدت ، وأيد
جمدت ، ونحو ذلك . ومثاله في النظم قول الخنساء :

حَامِي الْحَقِيقَةِ ، مَحْمُودُ الْخَلِيقَةِ ، مَهْدَى الطَّرِيقَةِ ، نَفَّاعٌ وَضَرَّارُ !
جَوَابُ قَاصِيَةِ ، جَرَّازُ نَاصِيَةِ ، * عَدَدُ أَلْوِيَةِ ، لِلْخَيْلِ جَرَّارُ !

المرتبة الثانية - أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفقرتين فقط ، دون
ماعداهما من سائر الألفاظ ، كقوله تعالى : (**فِيهَا سُرُورٌ مَّرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ**)
ثم قال : (**وَمَتَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ**) . وكقول الحريري في مقاماته : **أَبْلَجَانِي
حُكْمٌ دَهْرٌ قَاسِطٌ ، إِلَى أَنْ أَنْتَجِعَ أَرْضَ وَاسِطٍ** . وقوله : **وَأَوْدَى النَاطِقُ وَالصَّامِتُ ،
وَرَبَّنِي لَنَا الْحَاسِدُ وَالشَّامِتُ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ .**

المرتبة الثالثة - أن يقع الاتفاق في حرف الروي مع قطع النظر عن التوازن في شيء من أجزاء الفقرة في آخر ولا غيره، ويسمى المطرف . كقوله تعالى: ﴿مَالِكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولهم: جَنَابَهُ مَحَطُّ الرَّحَالِ، وَمُحِيمٌ الْأَمَالِ . وما يجري هذا المجرى .

الصنف الثاني

(أن يختلف حرف الروي في آخر الفقرتين ، وهو الذي يعبرون عنه بالأزدواج . والرمانى يسميه السجع العاطل ، وعليه كان عمل السلف من الصحابة ومن قارب زمانهم : وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يقع ذلك في النثر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولى - أن يراعى الوزن في جميع كلمات القرينتين أو في أكثرها، مع مقابلة الكلمة بما يعادها وزناً ، ويسمى التوازن وهو أحسنها وأعلىها . كقوله تعالى: ﴿وَأَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَقِيمَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وكقول الحريري: أسود يومى الأبيض، وأبيض فودى الأسود .

المرتبة الثانية - أن لا يراعى التوازن إلا في الكلمتين الأخيرتين من القرينتين فقط، ويسمى التوازن أيضاً ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَائِبُ مَبْثُوثَةٌ﴾، وقولهم: اصْبِرْ عَلَى حَرِّ الْقِتَالِ ، وَمَضِضِ النَّزَالِ ، وَشِدَّةِ النَّصَاعِ ، وَمُدَاوِمَةِ الْبِرَازِ ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثاني

(السجع الواقع في الشعر)

ويسمى التصريح في البيت الأول، ومحل الكلام عليه علم البديع. وقد ذكره في المثال السائر، في أعقاب الكلام على السجع في الكلام المنثور، وجعله على سبع مراتب .
المرتبة الأولى - وهي أعلاها درجة - أن يكون كل مصراع من البيت مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه، ويسمى التصريح الكامل : كقول امرئ القيس :
أَفَاطِمَ مَهَلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ * وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ هَجْرِي فَأَجْبِلِي
فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه في الفهم، وليس له به ارتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية - أن يكون المصراع الأول مستقلاً بنفسه، غير محتاج إلى الذي يليه إلا أنه مرتبط به، كقول امرئ القيس أيضا :
قِفَا نَبْكَ مِنْ ذِكْرِي حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ * سِيقُ اللَّوِيِّ بَيْنَ الدُّخُولِ فَحَوْمَلِ
فإن المصراع الأول منه غير محتاج إلى الثاني في فهم معناه، ولكنه لما جاء الثاني صار مرتبطا به .

المرتبة الثالثة - أن يكون الشاعر مخيراً في وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمى التصريح الموجه، كقول ابن حجاج :

مِنْ شُرُوطِ الصُّبُوحِ فِي الْمَهْرَجَانِ * خِفَّةُ الشَّرْبِ مَعَ حُلُومِ الْمَكَانِ

فإنه لو جعل المصراع الثاني أولاً والآخر ثانياً، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة - أن يكون المصراع الأول غير مستقل بنفسه، ولا يفهم معناه إلا بالثاني، ويسمى التصريح الناقص، وليس بمستحسن . كقول المتنبي :

مَعَانِي الشَّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَعَانِي * بِمَنْزِلَةِ الرَّبِيعِ مِنَ الزَّمَانِ

فإن المصراع الأول لا يستقل بنفسه في فهم معناه دون المصراع الثاني .
المرتبة الخامسة - أن يكون التصريح في البيت بلفظة واحدة في الوسط والقافية،
ويسمى التصريح المكرر؛ ثم اللفظة التي يقع بها التصريح قد تكون حقيقة لا مجاز
فيها، كقول عبيد بن الأبرص :

وكل ذي غيبة يُؤوب * وغائب الموت لا يُؤوب

وقد تكون اللفظة التي يقع بها التصريح مجازية كقول أبي تمام الطائي :

فتي كان شرباً للعفاة ومرتعا * فأصبح للهنديّة البيض مرتعا

المرتبة السادسة - أن يكون المصراع الأول معلقاً على صفة يأتي ذكرها في أول
المصراع الثاني؛ ويسمى التصريح المعلق . كقول امرئ القيس :

ألا أيها الليل الطويلُ ألا أنجلي * يَصْبِحُ وما الإصباحُ فيك بأمثل

فإن المصراع الأول معلق على قوله بَصْبِحُ، وهو مستقبِح في الصنعة .

المرتبة السابعة - أن يكون التصريح في البيت مخالفاً لقافيته؛ ويسمى التصريح
المشطور، وهو أنزل درجات التصريح وأقبحها . كقول أبي نؤاس :

أقلني قد ندمتُ على الذنوبِ * وبالإقرارِ عدتُ من الجُودِ

فإنه قد صرَّع في وسط البيت بالباء ثم في آخره بالذال .

قلت وإنما أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر
لأنه قد يقع مثله في النثر إذ الفقرة من النثر كالبيت من الشعر، فالفقرتان كالبيتين،
وأيضاً فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(في معرفة مقادير السجعات في الطول والقصر، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(السجعات القصار)

وهي ما صيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال في "حسن التوسل": وهي تدل على قوة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل ما يكون من لفظتين كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَأَلْعَافِيَاتِ الْعَصْفَا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثاله في القرآن الكريم كثير إلا أن الزائد على ذلك أكثر. كقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقَّتِ الْقُمْرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكَلَّأْتُمْ مَسْتَقِرًّا﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك .

الضرب الثاني

(السجعات الطوال)

قال في "حسن التوسل": وهي ألد في السمع، يتشوق السامع إلى ما يرد مترايدا على سمعه، وأقل ما تتركب من إحدى عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حوطا، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ وَلَئِن أذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضُرَاءٍ مِّنْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورًا﴾ فالأولى من إحدى عشرة لفظة، والثانية من ثلاث

عشرة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأولى من أربع عشرة لفظة ، والثانية من خمس عشرة ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَوْهُمُ كَثِيرًا لَفَاشْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُوهُمْ إِذِ التَّقِيمِ فِي آعِينِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَالُكُمْ فِي آعِينِهِمْ لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴾ فالأولى عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرة ، وهذا غاية ما انتهى إليه الطول في القراءان الكريم . وينبغي أن يكون ذلك نهاية الطول في السجع وقوفاً مع ماورد به القراءان الكريم الذي هو أفصح كلام ، وأقوم نظام ، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير ، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي وغيرهما ، قد صرحوا بأنه لا ضابط لأكثره .

وأعلم أنه قد جرت عادة كُتَّاب الزمان ومصطاحهم أن تكون السجعة الأولى من افتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرة بحيث لا يتعدى آخرها السطر الثاني في الكتابة ليقع العلم بها بمجرد وقوع النظر على أول المكتوب . وعلى هذا فيختلف القصر فيها باختلاف ضيق الورق وسعته في العرض .

الغرض الخامس

(في ترتيب السجعات بعضها على بعض في التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر ؛ وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن لا يزيد السجع على سبعتين ؛ وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - أن تكون القريبتان متساويتين لا تزيد إحداهما على الأخرى كقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

فَالْمُورِيَّاتِ قَدْحًا فَالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا) وأمثال ذلك .
 المرتبة الثانية - أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولى بقدر يسير كقوله
 تعالى : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ
 بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولى ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ؛ أما
 إذا طالت الثانية عن الأولى طولاً يخرج عن الاعتدال ، فإنه يستقبح حينئذ ،
 ووجهه في "حسن التوسل" بأنه يُبعد دخول القافية على السامع فيقلّ الالتذاذ
 بسماعها . والمرجع في قدر الزيادة والقصر إلى الذوق .

المرتبة الثالثة - أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأولى . قال في "المثل السائر" :
 وهو عندي عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد استوفى أمده من الفصل الأول
 بحكم طوله ، ثم يحيى الفصل الثاني قصيراً فيكون كالشيء المبتور ، فيبقى الإنسان عند
 سماعه كمن يريد الإتياء إلى غاية فيعثر دونها ، وفيما قاله نظر ، فقد تقدم في قوله تعالى :
 ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِكَ قَلِيلًا ﴾ الآيتين أن الأولى عشرون كلمة والثانية تسع
 عشرة ، بل قد آختر تحسين ذلك أبو هلال العسكري في "الصناعتين" محتجاً له بكثرة
 وروده في كلام النبوة كقوله صلى الله عليه وسلم للأَنْصَارِ : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ
 الْفَزَعِ ، وَتَقْلُونَ عِنْدَ الطَّمَعِ " وقوله : " الْمُؤْمِنُونَ تَتَكَافَوُ دِمَاؤُهُمْ ، وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ
 سِوَاهُمْ " وقوله : " رَحِمَ اللَّهُ مَنْ قَالَ خَيْرًا فَعَمِيمٌ ، أَوْ سَكَتَ فَسَلِمٌ " .

الحالة الثانية

(أن يزيد السجع على سجتين . ولها أربع مراتب)

المرتبة الأولى - أن يقع على حد واحد في التساوي ، وهو مستحسن ، وقد ورد
 في القراءات الكريم بعض ذلك كقوله تعالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ) فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية - أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى :
﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا بِآنَ كَذَّوبٍ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرِنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة - أن تكون الأولى والثانية متساويتين، والثالثة زائدة عليهما؛ وقد أشار إلى هذه المرتبة في "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على اثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة، ولم يمثل لها .

المرتبة الرابعة - أن تكون الثانية زائدة على الأولى، والثالثة زائدة على الثانية . قال في "المثل السائر" : وينبغي أن تكون في هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة في الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة، ومثل له في "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا آتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فالأولى من ثمان كلمات، والثانية من تسع، والثالثة من عشر، ومثل له في "المثل السائر" بقوله في وصف صديق : فقلت : الصديق من لم يعتض عنك بخالف، ولم يعاملك معاملة الخالف، وإذا بلغه أذنه وشايبه أقام عليها حد السارق أو القاذف؛ فالأولى : وهي لم يعتض عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغي أن يكون ما يستعمل من هذا القبيل، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدة زادت

الثالثة بالحساب، وإن نقصت الأولى والثانية، فكذلك . لكن قد ضبط في "حسن التوسل" الزيادة في الثالثة بأن لا تتجاوز المثل، والأمر فيما بين الضابطين قريب، ولا يخفى حكم الرابعة في الزيادة مع الثالثة. قال في "حسن التوسل": "ولا بد من الزيادة في آخر القرائن ."

الغرض السادس

(فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيُعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمر أخرى .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف، خاليا من التعسف، محمولا على ما يأتي به الطبع وتبديه الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنى ، بأن يقتصر من اللفظ على ما يحتاج إليه في المعنى دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتى لو حصلت زيادة أو نقص بسبب السجع دون المعنى ، نرح السجع عن حيز المدح إلى حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة، لا غثة ولا باردة، موقنة المعنى، حسنة التركيب، غير قاصرة على صورة السجع الذي هو تواطؤ الفقر، فيكون كمن نقش أثوابا من الكُرسف، أو نظم عقدا من الحرز الملون . قال في "المثل السائر": وهذا مقام تزلُّ عنه الأقدام، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا، ولولا ذلك كان كل أديب سجّاعا إذ مامنهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة في الجملة .

ومنها أن تكون كل واحدة من الفقرتين المسجوعتين دالة على معنى غير المعنى الذى دلت عليه أختها ، لأن أشتمال السجعتين على معنى واحد يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام ، وهو الدلالة على المعنى بالفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها على ما هو مقترن فى علم البيان . قال فى "المثل السائر" : فلا يكون مثل قول الصابى فى وصف مدبر : "يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويسير تديره وهو ناولم يبرح" ، ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويُنحِنُ الحِراج فى عدوه وسيفه فى العمد لم يجرح ، لَسَلِمَ من هُجَّةِ التكرار : فإنه تصير كل سبعة محتوية على معنى بجياله .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار ، كَلَّتِ الأبصار ؛ وقولهم : ما وراء الخلقِ الدِّمِيمِ ، إلا الخلقِ الذمِيمِ ، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعاً فى سجع ، كقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخِيذِهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ فإن قوله : ﴿ على أموالهم ﴾ وقوله : ﴿ على قلوبهم ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها ﴿ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ وقوله : ﴿ بأخذيده ﴾ وقوله : ﴿ تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها : ﴿ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ وعدة العسكرى منه قولهم : عاد تَعْرِبُضُكَ تصريحا ، وتَمْرِبُضُكَ تصحيحا .

وأما قبجه فيعتبر بأمور .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأول بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكى قدامة : أن كاتباً كتب فى جواب كتاب ، وصل كتابك فوصل به

ما يَسْتَعِيدُ الحَرْفَ، وإن كان قديمَ العبودية، وَيَسْتَعْرِقُ الشُّكْرَ، وإن كان سالف فضلك لم يُبْقِ شيئاً منه؛ فإن العبودية بعيدة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قَدَامَةً وغيره : وهو أن يجيء الجزء الأول طويلاً فيحتاج إلى إطالة الثاني بالضرورة . كما حكى قَدَامَةً أن كاتباً كتب في تعزية : إذا كان للحزون في لقاء مثله كبير الراحة في العاجل ، وكان طويل الحزن راتباً إذا رجع إلى الحقائق وغير زائل . قال في "الصناعتين" : وذلك أنه لما أطال الجزء الأول ، وعلم أن الجزء الثاني ينبغي أن يكون مثله أو أطول ، أحتاج إلى تطويل الثاني فأتى باستكراه وتكلف . قال في "مواد البيان" والإطالة بقوله وغير زائل . .

الأصل الخامس

(حسن الاتباع ، والقدرة على الاختراع)

وأعلم أن لكاتب الإثناء مسلكين :

المسلك الأول

(طريقة الاتباع)

وهي نظر الكاتب في كلام من تقدمه من الكُتَّابِ ، وسلوك من جهة ، واقتفاء سبيلهم ، وسمائها ابن الأثير التقليد ؛ وهي على صنفين .

الصنف الأول

(الاتباع في الألفاظ)

وهو اعتماد الكاتب على ما رتبته غيره من الكُتَّابِ ، وأنشأه سواه من أهل صناعة البث ، بأن يَعْتَدَ إلى ما أنشأه أفاضل الكُتَّابِ ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم فيأخذ به برُمَّته ، ويأتي عليه بصيغته ؛ وغايته أن يكون ناسخاً ناقلاً لكلام غيره ، حاكياً

له . ولمثل ذلك توضع الدساتير ، وتُدوّن الدواوين . على أنه ربما غير وبدل ، وحرف وصحّف ، وأزال اللفظ عن وضعه ؛ وأحال المعنى عن حكمه . وبعضهم ربما حملته الألفه والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمته ، فعدل إلى كلام غيره ، فالتقط من كل مكان مجموعتين أو سبعيات ، ورتب بعضها على بعض حتى تقوم بمقصوده ، وينتهى إلى مراده .

فإن كان لطيف الذوق ، حسن الاختيار ، رائق الترتيب ، فاختر من خلال السجع لطيفه ، وأحسن رصفه وتأليفه ، جاء بهجاً رائعاً . لأنه أتى من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراج الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر ، وتفريق ما دُون من كلام الأفاضل ، وتبديد شمله ، ونحروج الكلام عن أن يُعرف قائله ، ويعلم منشئه ، فيقع من القلوب بمكان صاحبه ويهتدى بهديه ، وينسج على منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق ، ولا حسن الاختيار ، جاء مالفقه من كلام غيره رثاً ركيكاً ، نابياً عن الذوق ، يعيدنا عن الصنعة ، يُعاد من النسخ إلى المسخ ، وأخرج الكلام عن موضوعه ، وأفسده في وضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامة الكبرى ، والمُصيبة العظمى . ثم لا يكتفى بذلك حتى يتبجح به ، ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته ، محتجا في ذلك بقول الحريرى : ”إن صناعة الحِسَابِ موضوعة على التحقيق ، وصناعة الإنشاء مبنية على التلفيق“ . ظاناً أن التلفيق هو ضم سبعيات منتظمة ، وفقرات مؤلفة بعضها إلى بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلى أختها ، وإضافة كلمة إلى مشاكلتها . وستأن ما بين التلفيقين ، وبعدا لما بين الطرفين :

وللزُّنُورِ والبَازِىِ جَمِيعًا * لَدَى الطَّيْرَانِ أَجْنَحَةٌ وَخَفَقُ
ولَكِن يَبِينُ مَا يَصْطَاطُهُ بَازٍ * وَمَا يَصْطَاطُهُ الزُّنُورُ فَرَقُ

وقد عابوا أخذ المعنى إذا كان ظاهرا مكشوفاً فما ظنك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخاً لكلام غيره، وناقلا له؟ فأى فضيلة في ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنى بلفظه كان سارقاً، ومن أخذ بعض لفظه كان سانحاً، ومن أخذه فكساه لفظاً من عنده كان أولى به ممن تقدمه، وأين من هو أولى بالشيء ممن سبقه إليه ممن يعدُّ سارقاً وسانحاً؟ ويقال إن أبا عذرة الكلام من سبك لفظه على معناه. ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. هذا فيمن أخذ سجعاً أو سجعيتين في خطبة أو رسالة، أو بيتاً أو بيتين في قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكلمها، أو الخطبة أو الرسالة برمياً، أو لفقها من خطب أو رسائل فذاك إنما يعدُّ ناسخاً إن أحسن النقل، أو ماسخاً إن أفسده.

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّائِرَ الْمَاهِرَ وَالشَّاعِرَ الْمُفْلِقَ قَدْ يَأْتِي بِكَلَامٍ سَبَقَهُ إِلَيْهِ غَيْرُهُ، فَيَأْتِي بِالْبَيْتِ مِنَ الشَّعْرِ أَوْ الْقَرْيَةِ مِنَ النَّثْرِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ بِلَفْظِ الْأَوَّلِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ وَلَا تَقْصَانٍ، أَوْ بِتَغْيِيرِ لَفْظٍ يَسِيرٍ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يُسَمِّيهِ أَهْلُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَقُوعَ الْحَافِرِ عَلَى الْحَافِرِ. وَقَدْ سَأَلَ أَبُو عَمْرٍو بَنَ الْعَلَاءِ عَنِ الشَّاعِرِينَ يَتَّفِقَانِ عَلَى لَفْظٍ وَاحِدٍ وَمَعْنَى، فَقَالَ: عَقُولُ رِجَالٍ تَوَافَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهَا.

والواقع من ذلك في كلامهم على قسمين.

القسم الأول

(ما وقع الاتفاق فيه في المعنى واللفظ جميعاً)

كقول الفرزدق:

وَعُرٌّ قَدْ وَسَقَتْ مُشَمَّرَاتٍ * طَوَالِحَ لَا تُطِيقُ لَهَا جَوَابَا
بِكُلِّ نَيْيَّةٍ وَبِكُلِّ نَعْرِ * غَرَائِمُهُنَّ تَتَسَبَّبُ أَنْتَسَابَا
بَلَّغْنَ الشَّمْسَ حِينَ تَكُونُ شَرْقَا * وَمَسَقَطُ رَأْسِهَا مِنْ حَيْثُ غَابَا

وواقفه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص . و يروى أن عمر بن
أبي ربيعة أنشد ابن عباس رضى الله عنه :

* تَسُطُّ غَدَاً دَارُ جِرَانِنَا *

فقال ابن عباس رضى الله عنه :

* وَلِلدَّارِ بَعْدَ غَدٍ أَعْبَدُ *

فقال عمر: والله ما قلتُ إلا كذلك . قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين":
وأُنشدت الصحاب إسماعيل بن عبَّادٍ رحمه الله :

* كَانَتْ سَرَاةُ النَّاسِ تَحْتَ أَظْلِهِ *

فسبقنى وقال :

* فَعَدَّتْ سَرَاةُ النَّاسِ فَوْقَ سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قُلْتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله في كتابه "المثل
الساءر": ويحكى أن امرأة من عَقِيل يقال لها ليلي، كان يتحدث إليها الشَّبَابُ ،
فدخل الفرزدقُ إليها وجعل يجادها ، وأقبل فتى من قومها كانت تَأَلَّفُهُ فدخل إليها
فأقبلت عليه وتركت الفرزدقَ ، فعاظه ذلك فقال للفتى : أنصاري عني ؟ فقال : ذاك
إليك ، فقام إليه فلم يلبث أن أخذ الفرزدقَ فصرعه وجلس على صدره فصرط ،
فوثب الفتى عنه وقال يا أبا فراسٍ : هذا مقام العائذ بك ، والله ما أردت ما جرى ،
قال : ويحك ! والله ما بي أنك صرعتنى ولكن كأنى بابن الأثان ، (يعنى جريرا) وقد
بلغه خبرى ، فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إِلَى لَيْلَى لَتَحْطَى بِقُرْبِهَا * نَفْسَانِكَ دُبُرٌ لَا يَزَالُ يَحُونُ

فَلَوْ كُنْتَ ذَا حَرَمٍ شَدَدَتْ وَكَأَهُ ، * كَمَا شَدَّ جُرَبَانَ الدَّلَاصِ قِيُونَ

فما مضى إلا أيام حتى بلغ جريراً الخبر، فقال فيه هذين البيتين . قال :
وهذا من أغرب ما يكون في هذا الموضوع وأعجبه ! قال في "الصناعتين" : وإذا كان
القوم في قبيلة واحدة، في أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربة، كما أن أخلاقهم
وشمائلهم تكون متضارعة . قال في "المثل السائر" : ويقال إن الفرزدق وجريراً كانا
ينطقان في بعض الأحوال عن ضمير واحد . قال : وهذا عندي مستبعد، فإن
ظاهر الأمر يدل على خلافه، والباطن لا يعلمه إلا الله تعالى، وإلا فإذا رأينا شاعراً
متقدماً الزمان قد قال قولاً ثم سمعناه من شاعر أتى من بعده، علمنا بشهادة الحال
أنه أخذه منه . وهب أن الخواطر تتفق في أستخراج المعاني الظاهرة المتداولة،
فكيف تتفق الألسنة أيضاً في صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكري في "الصناعتين"
يوافقه بالتعب على المتأخر، وإن ادعى أنه لم يسمع كلام الأول في مثل ذلك .

القسم الثاني

(ما وقع الاتفاق فيه في المعنى وبعض اللفظ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما اتفق فيه المعنى وأكثر اللفظ)

كقول امرئ القيس :

وَقُوفاً بِهَا صَحِي عَلَى مَطِيهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أَسَى ، وَتَجَلِّ

وقول طرفة :

وَقُوفاً بِهَا صَحِي عَلَى مَطِيهِمْ * يَقُولُونَ : لَا تَهْلِكْ أَسَى ، وَتَجَلِّ

فالتخالف بينهما في كلمة القافية فقط .

وقول البعيث :

أترجو كليب^{هـ} أن يحيى حديثها * بخير، وقد أعيأ كليباً قديمها ؟

وقول الفرزدق :

أترجو ربيع^{هـ} أن يحيى صغارها * بخير، وقد أعيأ ربيعا كبارها ؟

فالتخالف بينهما في موضعين من البيت ، كلمة القافية وأسم القبيلة .

وقول بعض المتقدمين يمدح معبداً صاحب الغناء :

أجاد طويس^{هـ} والسريحي^{هـ} بعده * وما قصبات السبق إلا لمعبد

وقول الفرزدق بعده :

محاسن أصناف المغنين جملة * وما قصبات السبق إلا لمعبد

فاتفقا في النصف الثاني، وأختلفا في النصف الأول . إلى غير ذلك من الأشعار

التي وقعت خواطر الشعراء عليها، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثاني

(ما اتفق فيه المعنى مع يسير اللفظ)

فمن ذلك قول البحتري في وصف غلام :

فوق ضعف الصغير إن وكل الأم^{هـ} إليه ، ودون كيد الكبار

أخذه من قول أبي نواس :

لم ينجف من كبر^{هـ} عما يراد به * من الأمور، ولا أزرى به الصغر

وقول أبي تمام :

ولم أمدحك تفخياً بشعري * ولكني مدحت بك المديح

أخذه من قول حسان بن ثابت ، يمدح النبي صلى الله عليه وسلم :
 ما إن مَدَحْتُ مَجْدًا ! بِمَقَالَتِي * لَكِنْ مَدَحْتُ مَقَالَتِي بِمَحَمَّدٍ !
 وقول أبي الطَّيِّبِ :

أين أزمعت أهبذا الهمام * نحن نبت الربا، وأنت الغمام
 أخذه من قول بشار :

كأن الناس حين تغيب عنهم * نبت الأرض أخطاه القطار

الصف الثاني

(التقليد في المعاني)

وهذا مما لا يستغنى عنه ناظم ولا ناثر . قال أبو هلال العسكري رحمه الله في كتابه
 "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غنى عن تناول المعاني ممن تقدمهم
 والصب على قوالب من سبقهم ، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من
 عندهم ، ويبرزوها في معارض من تأليفهم ، ويوردوها في غير حليتها الأولى ، ويزيدوا
 عليها في حسن تأليفها وجودة تركيبها ، وكال حليتها ومعرضها ، فإذا فعلوا ذلك فهم
 أولى بها من سبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدي ما سمع لما كان في طاقته
 أن يقول ، وإنما ينطق الطفل بعد آسماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنين
 على كرم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد ، لنقد . ومن كلام بعضهم : كل
 شيء إذا شئته قصر إلا الكلام ، فإنك إذا شئته طال ، والمعاني مشتركة بين العقلاء ،
 وربما وقع المعنى الجيد للسوقي والتبطي والزنجي . وإنما يتفاضل الناس في الألفاظ
 ورفضها ، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدمون والمتأخرون على تداول المعاني

بينهم ، فليس على أحد فيه عيبٌ إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسده في الأخذ وقصّر فيه عمن تقدّمه . قال في "الصناعتين" : وما يُعرّف للتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر ، وطلب الشركة فيه معه ، إلا بيت عنترة :

وَحَلَا الدُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِيَارِجٍ * غَرِدًا كَفِعَلِ الشَّارِبِ الْمُتَرَنِّمِ
هَزِيحًا يَحْكُ ذِرَاعَهُ بِذِرَاعِهِ * قَدَحَ المِكْبِ عَلَى الزَّنَادِ الأَجْدَمِ

فإنه مأنوزع فيه على جودّته . قال : وقد رامه بعض المحدّثين فافتضح مع العلم بأن ابتكار المعنى والسبق إليه ليس فيه فضيلة ترجع إلى المعنى ، وإنما ترجع الفضيلة فيه إلى الذى ابتكره وسبق إليه ؛ فالمعنى الجيد جيد ، وإن كان مسبوqa إليه ، والوسط وسط ، والردى ردى وإن لم يكن مسبوqa إليهما . على أن بعض علماء الأدب قد ذهب إلى أنه ليس لأحد من المتأخرين معنىٌ مُبتدعٌ ، محتجاً لذلك بأن قول الشعر قديم مذ نطق باللغة العربية ، وأنه لم يبق معنىٌ من المعانى إلا وقد طرّق مرارا . قال في "المثل السائر" : والصحيح أن باب الابتداع مفتوح إلى يوم القيامة ، ومن الذى يحجّر على الخواطر وهى قاذفة بما لانهاية له ؟ إلا أنّ من المعانى ما يتساوى فيه الشعراء ولا يُطّلق عليه اسم الابتداع لأول قبل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلى أتباع الآخر الأوّل . كقولهم فى الغزل :

عَفَتِ الدِّيَارُ وَمَاعَفَتِ * أَنَارُهُنَّ مِنَ القُلُوبِ

وقولهم فى المديح : إن عطائه كالبحر أو كالأسحاب ؛ وإنه لا يمنع عطاء اليوم عطاء غد ؛ وإنه يوجد بما له من غير مسألة ؛ وأشبه ذلك .

وقولهم فى المرأى : إن هذا الرزء أول حادٍ ؛ وإنه آستوى فيه الأبعاد والأقارب ؛ وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلةً ؛ وإن بعد هذا الذاهب لا يعدّ للنية ذنب ؛ وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعانى الظاهرة التى تتوارد عليها الخواطر من

غير كُفَّة؛ وليستوى في إيرادها كلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَقُ على الآخرِ فيه اسمُ السرقة من الأول ، وإنما يطلق اسمُ السرقة في معنى مخصوص . كقول أبي تمام :

لا تُكْرِوا ضَرْبِي له مِنْ دُونِهِ * مَثَلًا شُرُودًا فِي النَّدَى وَالْبَاسِ ،
فَاللهُ قَدْ ضَرَبَ الْأَقْلَّ لِنُورِهِ * مَثَلًا مِنَ الْمَشْكَاتِ وَالنَّبْرَاسِ

فإن هذا معنى ابتدأه مخصوص بأبي تمام ، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي مطلعها :

* مَا فِي وَفُوفِكَ سَاعَةٌ مِنْ بَاسِ *

آتتهى إلى قوله منها :

إِقْدَامِ عَمْرُو فِي سَمَاحَةِ حَاتِمٍ ، * فِي حِلْمِ أَحْنَفٍ ، فِي ذِكَاةِ إِيَّاسِ

فقال الحكيم الكندي : وأى نغز في تشبيه ابن أمير المؤمنين بأجلاف العرب ؟ فاطرق أبو تمام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إياه بعمر وحاتم وإياس . فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنى ، فمن أتى بعده بهذا المعنى أو بجزء منه كان سارقا له ، وكذلك كلُّ ماجرى هذا المجزئ . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من معاني من قبلهم ، ويبنون على بناء من تقدمهم .

فما وقع للشعراء من ذلك قول أبي تمام :

خُلِقْنَا ، رَجَالًا لِلتَّجَدُّدِ وَالْأَسَى * وَتِلْكَ الْغَوَانِي لِلْبُكَاءِ وَالْمَاتِمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزبير لما قتل مُصَعبَ بن الزبير : وإنما التسليم والسُّلُوكُ لِحُزْمَاءِ الرِّجَالِ ، وَإِنْ الْجُرْعَ وَالْهَلْعَ لِرَبَّاتِ الْحِجَالِ ، وقوله أيضا : تَعَجَّبُ أَنْ رَأَتْ جِسْمِي نَحِيفًا * كَأَنَّ الْمَجْدَ يَدْرُكُ بِالصَّرَاعِ

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبي الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف
لأستعملتك ، وقول أبي الأسود له فى جواب ذلك : إن كنت تُريدنى للصراع فإنى
لا أصلح له وإلا فغير شديد أن أمرَ وأنهى ؛ وقوله من قصيدة البيت المتقدم :

أطالَ يَدَى عَلَى الأَيَّامِ حَتَّى * جَزَيْتُ صُرُوفَهَا صَاعًا بِصَاعٍ

أخذه من قول أمير المؤمنين على كرم الله وجهه :

فإن تُقْتَلَا أو يُمَكِّنَ اللهُ مِنْكُمْ ، * نَكَلُ لَكُمَا صَاعًا بِصَاعِ المَكَايِلِ

وقول أبى الطيب المتنبي :

وإذا كانتِ النَّفُوسُ بِكَارًا * تَعَبَتْ فى مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاك

الجسم دون بلوغ الشهوة .

وقول الخاسر :

مَنْ راقبِ النَّاسَ ماتَ عَمًّا * وفازَ بِاللَّدَّةِ الجَسُورُ

أخذه من قول بشار :

مَنْ راقبِ النَّاسَ لم يَظْفَرْ بِجَاجَتِهِ . * وفازَ بِالطَّيِّبَاتِ الفاتِكُ الأَلْهِجُ

فلما سمع بشار بيت الخاسر ، قال : ذهب أبى الفاعلة بيتى . ومثل هذا وأشباهه

ما لا ينحصر كثرة ، ولا يكاد أن يخلو عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للكاتب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العباس من قوله فى فصل

من كتاب : إذا كان للحسن من الثواب ما يُقْنِعُهُ ، وللسيء من العقاب ما يُقْمَعُهُ ،

أزداد المحسن فى الإحسان رغبته ، وأنقاد المسىء للحق رهبة . أخذه من قول على

كرم الله وجهه ! : يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى

لا يَحْفَى عليه إحسان مُحْسِنٍ، ولا إساءة مُسِيءٍ؛ ثم لا يترك واحدا منهما بغير جزاء،
فإن ترك ذلك تهاون المحسن وأجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل .

وما كتب به بعض الكُتَّاب في فصل وهو : لو سكت لسانى عن شُكرك، لنطق
أثرك على . وفي فصل آخر : ولو مجدتك إحسانك، لأكذبني آثارك، وتمت على
شواهدا . أخذه من قول نَصِيبٍ :

* ولو سَكَنُوا أثنت عليك الحَقَائِبُ *

وما كتب به أحمد بن يوسف من فصل، وهو : أحق من أثبت لك العذر في حال
شُغلك، من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك . أخذه من قول على رضي الله
عنه ! : لا تكونن كمن يعجز عن شُكر ما أُولى، ويلتمس الزيادة فيما بقي .

والإقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تقدم الكلام عليه قبل ذلك .
قال في "الصناعتين" : ومن أخفى أسباب السرقة أن يأخذ معنى من نظم فيورده
في نثر؛ أو من نثر فيورده في نظم؛ أو ينقل المعنى المستعمل في صفة نثر فيجعلها
في مدح . أو في مدح فينقله إلى وصف . إلا أنه لا يصل لهذا إلا المبرز الكامل
المقدم .

وقال في "المتل السائر" : أشكل سرقات المعاني، وأدقها، وأغربها، وأبعدها
مذهبا أن يؤخذ المعنى مجردا من اللفظ . قال : وذلك مما يصعب جدا ولا يكاد
يأتى إلا قليلا، ولا يتفطن له ويستخرجه من الأشعار إلا بعض الخواطر دون
بعض .

فمن ذلك قول أبي تمام في المدح :

قَتِي مَاتَ بَيْنَ الضَّرْبِ وَالطَّعْنِ مَيْتَةً * تَقُومُ مَقَامَ النَّصْرِ إِذْ فَاتَهُ النَّصْرُ

أخذه من قول عروة بن الورد من شعراء الحماسة :-

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرًا * مِنَ الْمَالِ ، يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
لِيُبْلِغَ عُذْرًا أَوْ يَبَالَ رَغِيبَةً * وَمُبْلِغُ نَفْسٍ عُذْرَهَا مِثْلُ مَنْجِحِ

فعروة جعل اجتهاده في طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت في الحرب الذي هو غاية اجتهاد المجتهد في لقاء العدو قائما مقام الانتصار . قال في "المثل السائر" : وكلا المعنيين واحد ، غير أن اللفظ مختلف . وأظهر من ذلك أخذنا قول القائل :

وقد عرّى ربيعة أن يوماً * عليها مثل يومك لا يعود

أخذه من قول ابن المقفع في باب المرائي من الحماسة :

وقد جرّ نفعاً فقدناك أننا * أمنا على كل الرزايا من الجرع

على أنه ربما وقع للتأخر معنى سبقه إليه من تقدمه ، من غير أن يلم به المتأخر ولم يسمعه . ولا استبعاد في ذلك كما يستبعد اتفاق اللفظ والمعنى جميعا . قال أبو هلال العسكري : وهذا أمر قد عرفته من نفسي فلا أمتري فيه ! وذلك أني كنت عملت شيئا في صفة النساء ، فقلت :

* سَفَرْنَ بَدُورًا وَأَنْتَقَبْنَ أَهْلَةً *

وظننت أني لم أسبق إلى جمع هذين التشبيهين حتى وجدت ذلك بعينه لبعض البغداديين فكثرتعجبني ، وعزمت على أن لا أحكم على المتأخر بالسرقة من المتقدم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنى المجرد عن اللفظ لا تخرج عن آثني عشر ضربا .

الضرب الأول

أن يؤخذ المعنى ويستخرج منه ما يشبهه ، ولا يكون هو إياه . قال في "المثل السائر" : وهذا من أدق السرقات مذهباً وأحسنها صورة ، ولا يأتي إلا قليلاً . فمن ذلك قول المتنبي :

وإذا أنتك مدمتي من ناقص ، * فهي الشهادة لي بأني كامل

وهذا المعنى أستخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحماسة ، وإن لم يكن صريحاً فيه حيث يقول :

لقد زادني حباً لنفسي أنني * بغض إلى كل أمرئ غير طائل

قال في "المثل السائر" : والمعرفة بأن هذا المعنى من ذلك المعنى عسر غامض غير متبين إلا لمن أعرق في ممارسة الشعر ، وغاص على استخراج المعاني . قال : وبيان ذلك أن الأول يقول : إن بغض الذي هو غير طائل إياي قد زاد نفسي حباً إلى أي قد جملها في عيني وحسنها عندي كون الذي هو غير طائل متقصي ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بغض الذي هو غير طائل نفس ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذاً من هذا الضرب قول البحتري في قصيدة يفخر فيها بقومه :

شِيخَانٍ قَدْ نَقَلَ السَّلَاحَ عَلَيْهِمَا * وَعَدَاهُمَا رَأَى السَّمِيعُ الْمُبْصِرِ

رَبِّمَا الْقَنَا مِنْ بَعْدِ مَا حَمَلَا الْقَنَا * فِي عَسْكَرٍ مِتْحَامِلٍ فِي عَسْكَرِ

أخذه من قول أبي تمام في وصف جميل :

رَعْتَهُ الْفَيَافِي بَعْدَ مَا كَانَ حِقْبَةً * رَعَاهَا ، وَمَاءُ الرَّوْضِ يَهْلُ سَاكِبُهُ

فأبو تمامٍ ذكر أن الجمل رعى الارض ، ثم سار فيها فرعته أى أهنزته ، فكأنها فعلت به مثل ما فعل بها ، والبُحترى نقله إلى وصف الرجل بعلو السن والمهرم ، فقال : إنه كان يجهل الرمح في القتال ، ثم صار يركب الرُحح أى يتوكأ منه على عصا ، كما يفعل الشيخ الكبير .

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا في الأخذ قول البُحترى أيضا :
 أَعَاتِكَ مَا كَانَ الشَّبَابُ مُقَرَّبِي * إِلَيْكَ ، فَالْحَى الشَّيْبُ إِذْ هُوَ مَبْعُدِي
 أخذه من قول أبي تمام :
 لَا أَظْلِمُ النَّأْيَ ، قَدْ كَانَتْ خَلَاتُهَا * مِنْ قَبْلِ وَشِكِ النَّوَى عِنْدِي نَوَى قُدْفَا

الضرب الثانى

أن يؤخذ المعنى فيعكس ، قال في "المثل السائر" : وذلك حسن يكاد يخرج حسنه عن حد السرقة .

فمن ذلك قول أبي نؤاس :
 قالوا : عَشِقْتُ صَغِيرَةً ، فَأَجَبْتَهُمْ * أَشْهَى الْمَطَى إِلَى مَا لَمْ يَرْكَبِ .
 كَمْ بَيْنَ حَبَّةِ لَوْلُوٍ مَثْقُوبَةٍ * نَظْمَتْ وَحَبَّةِ لَوْلُوٍ لَمْ تُثَقِّبْ ؟
 وقول ابن الوليد في عكسه :

إِنَّ الْمَطِيَّةَ لَا بَلَدٌ رُكِبَهَا * حَتَّى تُدَلَّلَ بِالزَّمَامِ وَتُرَكَّبَا .
 وَالذُّرَّ لَيْسَ بِنَافِعٍ أَرَبَابُهُ ، * حَتَّى يُزِينَ بِالنِّظَامِ وَيُثَقَّبَا .

ومنه قول ابن جعفر :

وَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنهَا لَا تُرِيدُنِي * وَأَنَّ هَوَاهَا لَيْسَ عَنِّي بِمُجَلِّي ،
 تَمَنَيْتُ أَنْ تَهْوَى سِوَايَ لَعَلَّهَا * تَدُوقُ صَيَابَاتِ الْهَوَى فَرَقِّي لِي

وقول غيره في عكسه :

وَلَقَدْ سَرَّني صُدُودُكَ عَنِّي * فِي طَلَابِيكَ ، وَامْتِنَاعِكَ مِنِّي
حَدْرًا أَن أَكُونَ مِفْتَاحَ غَيْرِي ، * وَإِذَا مَا خَلَوْتُ ، كُنْتَ التَّمَنِّي

أما ابن جعفر فإنه ألقي عن منكبيه رداء الغيرة ، وأما الآخر ، فإنه جاء بالضد
من ذلك وبالغ غاية المبالغة .

ومنه قول أبي الشَّيْص :

أَجِدُ المَلَامَةَ فِي هَوَاكَ لِذِيذِهِ * شَغَفًا بِذِكْرِكَ ، فَلَئِمْنِي اللُّومُ

وقول ابن الطيب في عكسه :

أَأَحِبُّهُ وَأَحِبُّ فِيهِ مَلَامَةً ، * إِنَّ المَلَامَةَ فِيهِ مِنْ أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبي تمام :

وَلَوْلَا خِلَالُ سَنَنِ الشَّعْرِ مَا دَرَيْ * بُعَاةُ العُلَى مِنْ أَيْنَ تُوتَى المَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير في عكسه :

لَوْلَا الكِرَامُ وَمَا سَنُوهُ مِنْ كَرِيمٍ ، * لَمْ يَدْرِ قَائِلُ شِعْرِ كَيْفَ يَمْتَدِحُ

الضرب الثالث

(أن يؤخذ بعض المعنى دون بعض)

فمن ذلك قول أمية بن أبي الصلت يمدح عبدالله بن جُدعان :

عَطَاؤُكَ زَيْنٌ لِأَمْرِي إِنْ حَبَوْتَهُ * يَسْئَلُ ، وَمَا كَلَّ العَطَاءُ يَزِينُ

وقول أبي تمام بعده :

تُدْعَى عَطَايَاهُ وَفَرَا ، وَهِيَ إِنْ شَهَرْتَ ، * كَانَتْ فَخَارًا لِمَنْ يَعْقُوه مُؤْتِنَفَا

مَا زِلْتُ مَسْتَظِرًّا أُعْجِبُهُ زَمْنًا * حَتَّى رَأَيْتُ سُؤْلًا يُجَنِّئُ شَرَفَا

فامية بن أبي الصلتِ أتى بمعنيين : أحدهما أن عطاءك زين ، والآخر أن عطاء غيرك ليس بزين ؛ وأبو تمام أتى بالمعنى الأول فقط .

ومنه قول علي بن جبلة :

وأثل ما لم يحويه متقدّم ، * وإن نال منه آخر ، فهو تابع

وقول أبي الطيب بعده :

ترفع عن عون المكارم قدره ، * فما يفعل الفعلات إلا عذارياً

فأبن جبلة أتى بمعنيين ، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد من تقدمه ، وإن نال الآخر شيئاً فهو مقتد به وتابع له ؛ وأبو الطيب أتى بالمعنى الأول فقط ، وهو أنه فعل ما لم يفعله غيره مشيراً إلى ذلك بقوله : فما يفعل الفعلات إلا عذارياً أى يستبكرها ويزيل عذرتها .

ومنه قول الآخر :

أنج الفضل أو تحلّ عن الدنيا ، فهأ تان غاية الهمم

وقول البحتري بعده :

إدفع بأمشال أبي غالب * عادية العدم ، أو استعفف

فالبحتري أقصر على بعض المعنى ولم يستوفه

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنى فيزداد عليه معنى آخر . قال في "المثل السائر" : وهذا النوع من

السرققات قليل الوقوع بالنسبة إلى غيره .

فمن ذلك قول الأحنس بن شهاب :

إذا قصرت أسياًفاً ، كان وصلها * خطاناً إلى أعدائنا ، فنضارب

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إِنْ قَصَرَ الرُّمْحُ لَمْ يَمْسِ الخُطَا سَدَا * أَوْ عَزَدَ السِّيفُ لَمْ نَهْمُ بتعريد
أخذ مسلم المعنى الذى أورده الأحنس : وهو وصل السلاح إذا قصر بالخطا
إلى العدو وزاد عليه عدم تعريدهم أى فرارهم إذا عزد السيف . ومنه قول جرير
في وصف أبيات من شعره :

غَرَابِ آفِ إِذَا حَانَ وِرْدُهَا * أَخَذَنَ طَرِيقًا لِلْقَصَائِدِ مُعَلِّمًا

وقول أبي تمام بعده :

غَرَابُ لَاقَتْ فِي فِنَائِكَ أَنْسَهَا * مِنَ المَجْدِ فَهِيَ الآنَ غَيْرُ غَرَابِ
فزاد أبو تمام على جرير قرآن ذلك بالمدوح ومدحه مع الأبيات . ومنه قول
المعدّل بن غيلان :

وَلَسْتُ بِنَظَارٍ إِلَى جَانِبِ الغِنَى * إِذَا كَانَتِ العَالِيَاءُ فِي جَانِبِ الفَقْرِ

وقول أبي تمام بعده :

يَصُدُّ عَنِ الدُّنْيَا إِذَا عَنَّ سُوْدُدُ * وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَدْرَاءِ نَاهِدِ

فزاد عليه قوله :

* وَلَوْ بَرَزَتْ فِي زِيِّ عَدْرَاءِ نَاهِدِ *

ومما أتنفق لى نظمه فى هذا الباب أنه لما عمّرت مدرسة الظاهر برقوق بين
القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القائم بعمارتها الأمير حركس الخليلى أميراخور
الظاهرى ، وكان قد أعمد بناءها بالصخور العظيمة التى لا تُقلُّها الجمال حملا ، ولا
تحمّل إلا على العجل الخشب فأولع الشعراء بالنظم فى هذا المعنى ؛ فنظم بعض الشعراء
أبياتا عرّض فيها بذكر الخليلى وقيامه فى عمارتها ، ثم قال فى آخرها :

وَبَعْضُ خُدَامِهِ طَوْعًا لخدمته * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلِ

وَأَلْزَمَنِي بَعْضُ الْإِخْوَانِ بِنِظْمِ شَيْءٍ فِي الْمَعْنَى، فَوَقَعَ لِي أَيْبَاتٌ مِنْ جَمَلَتِهَا :
 وَبِالْحَلِيلِ قَدْ رَاجَتْ عِمَارَتُهَا * فِي سُرْعَةٍ بَيَّنَّتْ مِنْ غَيْرِ مَا مَهَلٍ
 كَمْ أَظْهَرَتْ عَجَبًا أَسْوَاطُ حِكْمَتِهِ * وَقَدْ غَدَّتْ مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ
 وَكَمْ حُخُورٍ تَخَالُ الْجِنَّ تَنْقُلُهَا * فَإِنَّهَا بِالْوَحَا تَأْتِي وَبِالْعَجَلِ

فزدت عليه ذكر الوحا الذي معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتي به المعزّمون
 في عزائمهم من قولهم الوحا الوحا العجل العجل مع ما تقدّم له من التوطئة بقولي
 تخال الجن تنقلها. على أنى لست من فرسان هذا الميدان، ولا من رجال هذا الوغى

الضرب الخامس

أَنْ يُؤَخِّدَ الْمَعْنَى فَيُكْسِي عِبَارَةً أَحْسَنَ مِنَ الْعِبَارَةِ الْأُولَى قَالَ فِي "الْمَثَلِ السَّائِرِ"
 وَهَذَا هُوَ الْحَمُودُ الَّذِي يُجْرَحُ بِهِ حُسْنُهُ عَنِ بَابِ السَّرْقَةِ؛ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ أَبِي تَمَامٍ :
 إِنَّ الْكِرَامَ كَثِيرٌ فِي الْبِلَادِ وَإِنْ * قَلُّوا كَمَا غَيْرُهُمْ قَلُّوا وَإِنْ كَثُرُوا
 أَخَذَهُ الْبَحْتَرِيُّ فَقَالَ :

قَلَّ الْكِرَامُ فَصَارَ يَكْثُرُ فَهُمْ * وَلَقَدْ يَقِلُّ الشَّيْءُ حَتَّى يَكْثُرَا
 وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي نُوَّاسٍ :

يَدُلُّ عَلَى مَا فِي الضَّمِيرِ مِنَ الْفَتَى * تَقَلَّبُ عَيْنُهُ إِلَى شَخْصٍ مِنْ يَهْوَى
 وَقَوْلُ أَبِي الطَّيِّبِ بَعْدَهُ :

وَإِذَا خَامَرَ الْهَوَى قَلْبَ صَبٍّ * فَعَلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلٌ

وَمِنْهُ قَوْلُ أَبِي الْعَلَاءِ بْنِ سَلِيحَانَ فِي مَرْثِيَّةٍ :

وَمَا كُفِّتُ الْبَدْرِ الْمُنِيرِ قَدِيمَةً * وَلَكِنَّهَا فِي وَجْهِهِ أَثْرُ اللَّطَمِ

وقول القيسراني بعده :

وأهوى الذي يهوى له البدرُ ساجداً * أَلَسْتَ تَرَى فِي وَجْهِهِ أَثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ابن الرومي :

إِذَا شَنَّتْ عَيْنُ أَمْرِي شَيْبَ نَفْسِهِ * فَعَيْنٌ سِوَاهُ بِالشَّنَاءِ أَجْدَرُ

وقول من بعده :

إِذَا كَانَ شَيْبِي بَغِيضًا إِلَيَّ * فَكَيْفَ يَكُونُ إِلَيْهَا حَيِيًّا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنى ويسبك سبكا موجزا قال في "المثل السائر" وهو من أحسن السراقات : لما فيه من الدلالة على بسطة الناظم في القول وسعة بابه في البلاغة ، فمن ذلك قول أبي تمام :

بَرَزْتَ فِي طَلَبِ الْمَعَالِي وَاحِدًا * فِيهَا تَسِيرُ مَغُورًا أَوْ مُنْجِدًا

عَجَبًا بِأَنَّكَ سَأَلْتَ مِنْ وَحْشَةٍ * فِي غَايَةِ مَا زِلْتَ فِيهَا مُفْرِدًا

وقول ابن الرومي بعده :

غَرَبَتْهُ الْخَلَائِقُ الزُّهْرُ فِي النَّأ * سِ وَمَا أَوْحَشَتْهُ بِالتَّغْرِيْبِ

فأخذ معنى البيتين في بيت واحد، ومنه قول أبي العتاهية :

وَإِنِّي لَمَعْدُورٌ عَلَى فِرْطِ حُبِّهَا * لِأَنَّ لَهَا وَجْهًا يَدُلُّ عَلَى عُدْرِي

أخذه أبو تمام فقال :

لَهُ وَجْهٌ إِذَا أَبْصَرَ * تَهُ نَاجَاكَ عَنْ سُدْرِي

فأوجز في هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبي تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كَانَتْ مُسْأَلَةُ الرَّبَّانِ تُخْبِرُنِي * عَنْ أَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ أَطِيبِ الْخَبْرِ

حَتَّى التَّقِينَا فَلَا وَاللَّهِ مَا سَمِعْتُ * أُذْنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدَرَأَى بَصْرِي !
أخذه أبو الطيب فأوجز في أخذه فقال :

وَأَسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ * فَلَمَّا التَّقِينَا صَغَرَ الْخَبَرَ الْخَبْرُ
ومنه قول بعض الشعراء :

أَمِنْ خَوْفٍ فَقَرٍ تَعَجَّلْتُهُ * وَأَخَّرْتَ إِنْفَاقَ مَا تَجْمَعُ ؟
فَصَرَّتَ الْفَقِيرَ وَأَنْتَ الْغَنَى * وَمَا كُنْتَ تَعْدُو الَّذِي تَصْنَعُ
أخذه أبو الطيب فقال :

وَمِنْ يَنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمْعِ مَالِهِ * مَخَافَةَ فَقْرٍ فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة في المعنى، بأن يؤخذ المعنى فيضرب له مثال يوضحه،
فمن ذلك قول أبي تمام :

هُوَ الصَّنْعُ إِنْ يُعْجَلُ فَنَعَجٌ وَإِنْ يَرْتُ * فَلَلرَيْثُ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ أَنْفَعُ
أخذه أبو الطيب فقال :

وَمِنَ الْخَيْرِ بَطْءُ سَيْبِكَ عَنِّي * أَنْتَرَعُ السُّحْبِ فِي الْمَسِيرِ الْجَهَامِ
فزاده وضوحاً بضرب المثال له بالجهام : وهو السحاب الذي لا مطر فيه .
ومنه قول أبي تمام أيضا :

قَدْ قَلَّصْتُ شَفَنَاهُ مِنْ حَفِيطَتِهِ * نَفِيلَ مِنْ شِدَّةِ التَّعْبِيسِ مُبْتَسِمًا
أخذه أبو الطيب فقال :

وَجَاهِلٍ مَدَّهُ فِي جَهْلِهِ صَحْبِي * حَتَّى أَتَتْهُ يَدُ فَرَّاسَةٍ وَفَمَّ
إِذَا رَأَيْتَ نُبُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً * فَلَا تَطْنَنَّ أَنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمٌ

فضرب له مثلا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمام أيضا :

وكذاك لم تُفْرِطْ كَابَةً عَاطِلٍ * حَتَّى يُجَاوِرَهَا الزَّمَانُ بِحَالٍ

أخذه البحرى فقال :

وقد زادها إفراطاً حُسْنِ جَوَارِهَا * لِأَخْلَاقِ أَصْفَارٍ مِنَ الْمَجْدِ خَيْبِ

وَحُسْنِ دَرَارِيِّ الْكَوَاكِبِ أَنْ تُرَى * طَوَالَعٍ فِي دَاجٍ مِنَ اللَّيْلِ غَيْبِ

فضرب له مثلا بالكواكب في ظلام الليل، فأوضحه وزاده حسنا .

الضرب الثامن

اتحاد الطريق واختلاف المقصود، مثل أن يسلك الشاعران طريقا واحدة

فتخرج بهما إلى مَوردين، وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر .

فمن ذلك قول النابغة :

إِذَا مَا غَزَا بِالْحَيْشِ حَاقَ فَوْقَهُ * عَصَابِ طَيْرٍ تَهْتَدِي بِعَصَابِ

جَوَانِحٍ قَدْ أَيْقَنَ أَنَّ قَبِيلَهُ * إِذَا مَا اتَّقَى الْجَمْعَانَ أَوَّلُ غَالِبِ

وهذا المعنى قد توارده الشعراء قديما وحديثا، وأوردوه بضروب من العبارات،

فقال أبو نؤاس :

يَتَوَخَّى الطَّيْرُ غَزْوَتَهُ * ثِقَّةً بِاللَّحْمِ مِنْ جَزَرِهِ

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوَّدَ الطَّيْرُ عَادَاتٍ وَثِقَنَ بِهَا * فَهِنَّ يَتَّبِعْنَهُ فِي كُلِّ مَرْتَحَلِ

وقال أبو تمام :

وقد ظلمت عقبانُ أعلامه صُحَى * بِعِقْبَانِ طَيْرٍ فِي الدَّمَاءِ نَوَاهِلُ

أقامت مع الرّياتِ حتى كأنّها * من الجيـشِ إلّا أنّها لا تُقاتِلُ
وكل هؤلاء قد أتوا بمعنى واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك
أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب في هذا المعنى فسلك هذا الطريق
مع اختلاف مقصده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها * خوفاً فأنفُسها إليك تطيرُ
لو حاكمتك فطالبتك بدخلها * شهدت عليك تعالِبٌ ونسورُ

فهذا قد فضل به مسلم غيره في هذا المعنى ، ولما انتهى الأمر إلى أبي الطيب سلك
هذه الطريق التي سلكها من تقدمه إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذي قصدوه
فأغرب وأبدع ، وحاز الإحسان بجماته ، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره فقال :

سحابٌ من العقبان يزحف تحتها * سحابٌ إذا استسقت سقتها صوارمه
فحوى طرفي الإغراب والإعجاب

الضرب التاسع

بياض بالأصل^(١)

(١) لا يقتصر في الضوء على أحد عشر نوعاً ويجعل العاشر تاسعاً الخ وكذلك عدّها صاحب المثل السائر .

الضرب العاشر

أن يكون المعنى 'عاماً فيجعل خاصاً أو خاصاً فيجعل عاماً، وهو من السرقات التي يسأخ صاحبها؛ فأما جعل العام خاصاً، فمن ذلك قول الأخطل^(١) .

لَاتَنَّهُ عَن خُلُقٍ وَتَأْتِي مِثْلَهُ * عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ

أخذه أبو تمام فقال :

أَلُّومٌ مِّنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَأَعْتَدِي * لِلْبُخْلِ تَرْبًا؟ سَاءَ ذَاكَ صَنِيعًا !

فالأخطل نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقاً بجاء بالخلق منكراً بفعله شائماً في بابهِ ؛ وأبو تمام خصص ذلك بالبخل ، وهو خلق واحد من جملة الأخلاق .
وأما جعل الخاص عاماً، فمن ذلك قول أبي تمام .

وَلَوْ حَارَدَتْ شَوْلٌ عَدْرَتْ لِقَاحَهَا * وَلَكِنْ مَنَّعَ الدَّرَّ وَالضَّرْعُ حَافِلُ

أخذه أبو الطيب بفعله عاماً فقال :

وَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ حَارِمٍ * كَمَا يُؤْلِمُ الْحِرْمَانُ مِنْ كَفِّ رَازِقٍ

الضرب الحادي عشر

قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة . قال في "المثل السائر" وهذا لا يسمى سرقة بل يسمى إصلاحاً وتهذيباً ، فمن ذلك قول أبي نُوَّاسٍ في أرجوزة يصف فيها اللَّعِبَ بِالْكُرَّةِ وَالصُّوبَلْحَانَ فقال من حملتها :

جِنٌّ عَلَى جِنٍّ وَإِنْ كَانُوا بَشَرٌ * كَأَنَّمَا خِيطُوا عَلَيْهَا بِالْإِبْرِ

أخذه المتنبي فقال :

فكَأَنَّهَا نَبِيحَتٌ قِيَامًا تَحْتَهُمْ * وَكَأَنَّهُمْ خُلِقُوا عَلَى صَهَوَاتِهَا

(٢) كذا في "المثل السائر" أيضا - وفي ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للتوكل الليثي .

فهذا في غاية العلو والآرتقاء بالنسبة إلى قول أبي نُوَاس ، ومنه قول أبي الطيب .
 لو كَانَ مَا تُعْطِيهِمْ حُو من قَبْلِ أَنْ * تُعْطِيَهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا التَّامِيلاً
 وقول ابن نباتة السعدي :

لَمْ يُبْقِ جُودَكَ لِي شَيْئاً أَوْمَلُهُ * تَرَكَتَنِي أَصْحَبُ الدُّنْيَا بِلَا أَمَلٍ
 فكلام ابن نباتة أحسن في الصورة من كلام المتنبي هنا، وإن كان مأخوذاً منه .

الضرب الثاني عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ؛ وهو الذي يعبر عنه أهل هذه الصناعة
 بالمشخ ، وهو من أزدل السرقات وأقبحها ، فن ذلك قول أبي تمام :
 قَتِي لَا يَرِي أَنْ الْفَرِيصَةَ مَقْتَلٌ * وَلَكِنْ يَرِي أَنَّ الْعُيُوبَ مَقَاتِلٌ
 أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يَرِي أَنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بِأَقْتَلِ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لَعَابِي
 ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نَعَزِيكَ وَمِنْكَ الْهُدَى * مُسْتَخْرَجٌ وَالصَّبْرُ مُسْتَقْبَلٌ
 أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

وَبِالْفَاظِكَ أَهْتَدِي إِذَا عَزَّكَ قَالَ الَّذِي لَهُ قُلْتُ قَبْلًا

المسلك الثاني

(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" فهي أن لا يتصفح كتابة
 المتقدمين ولا يطالع على شيء منها، بل يصرف همته إلى حفظ القرآن الكريم وكثير
 من الأخبار النبوية وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة

في المعاني والألفاظ ، ثم يأخذ في الاقتباس من القرآن والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ، ويخطئ ويصيب ، ويضل ويهتدى ، حتى يستقيم إلى طريق يفتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة ، لاشركة لأحد من المتقدمين فيها ! . قال : وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماما في الكتابة كما يعد الشافعي وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهدين في علم الفقه ، إلا أنها مستوعرة جدا ، لا يستطيعها إلا من رزقه الله تعالى لسانا هجأما ، وخاطرا رقاما . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرتبطا في كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لا يثبني كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشعار ، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه ، مفتش على دقائمه ، وقلبه ظهرا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤكل الكتيف فيما ينشئه من ذات نفسه ، وأستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية . على أنه لا بد للكاتب المرتقي إلى درجة الاجتهاد في الكتابة مع حفظ القرآن الكريم ، والأستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف في اقتباس المعاني وأستخراجها فيرقى إلى درجة الاجتهاد في الكتابة ، كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ، وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسنة ، والحساب والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، أستخرج بفكره حينئذ ما يؤديه إليه اجتهاده . فالمجتهد في الكتابة يستخرج المعاني من مظانها من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد في الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد في الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرها مما يتعلق بفن الإنشاء

بياض بالأصل

الأصل السادس

(وجود الطبع السليم ، وخلق الفكر عن المشوَّش)

أما وجود الطبع فقال في "مواد البيان" : أول معاين هذه الصناعة الجليلة القرينة الفاضلة ، والغريزة الكاملة ، التي هي مبدأ الكمال ، ومنشأ التمام ، والأساس الذي يبنى عليه ، والركن الذي يُستند إليه ، فإن المرء قد يجتهد في تحصيل الآداب ، ويتوفَّر على آقتناء العلوم وأكتسابها ، وهو مع ذلك غير مطبوع على تأليف الكلام فلا يفيد ما آكتسبه ، بخلاف المطبوع على ذلك ، فإنه وإن قصر في آقتباس العلوم وأكتساب المواد فقد يلحق بأوساط أهل الصناعة ؛ وذلك أن الطبع يخص الله تعالى به المطبوع دون المتطبِّع ، والمناسب بغريزته للصناعة دون المتصنِّع ، ولا سبيل إلى آكتساب سهولة الطبع ولا كرازته ، بل هو موهبة تُحسُّ ولا تُتم ، وتوجد في الواحد وتفقَد في الآخر .

قال ابن أبي الأصعب في "تحرير التحبير" ومن الناس من يكون في البديهة أبرع منه في الروية ، ومن هو مُجيد في الروية وليست له بديهة ؛ وقلمًا يتساويان .

وممنهم مَنْ إذا خاطب أبداع ، وإذا كاتب قَصَّر ؛ ومن هو بضد ذلك ، ومن قَوِي نثره ضَعْف نظمه ، ومن قَوِي نظمه ، ضَعْف نثره ، وقلمها يتساويان . وقد يبرز الشاعر في معنى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد ، ولهذا قيل : أشعرُ الناس امرؤُ القيس إذا ركب ، وزهيرٌ إذا رغب ، والنابغة إذا رهب ، وعنترة إذا كلب ، والأعشى إذا طرب . قال في "المثل السائر" بل ربما نَفَدَ في بعض أنواع الشعر دون بعض فُيرى مُجيدا في المدح دون الهجاء ، أو بالعكس ، أو ماهرا في المقامات ونحوها دون الرسائل ، أو في بعض الرسائل دون بعض . قال ابن أبي الاصبغ : ولربما واتاه العملُ في وقت دون وقت ؛ ولذلك قال الفرزدق : إني ليمرُّ علىَّ الوقت ولقَعُ ضرس من أضراسي أيسرُ علىَّ من قول الشعر ؛ ولذلك عز تآليف الكلام ونظمه على كثير من العلماء باللغة والمهارة في معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُو طباعهم عن تركيب بسائط الكلام الذي قامت صور معانيه في نفوسهم وصَعِب الأمر عليهم في تأليفه ونظمه ؛ فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدمه في اللغة ومهارته في العربية ، وأختراعه علم العروض ، الذي هو ميزان شعر العرب ، لم يكن يتهيأ له تآليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعاني في نفسه على صورة النظم إلا بصعوبة ومشقة ، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول يا باني جيِّدُه وأبي رديئه ، مشيرا بذلك إلى أن طبعه غير مساعد له على التآليف المرضي الذي تحسُن نسبتَه إلى مثله . وقيل للفضل الضبيّ ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به ، فقال علمي به ينعني من قوله وأبشد :

أبي الشعر إلا أن يفِي رديئه * علىَّ ويأبى منه ما كان مُحكما
فيا ليتني إن لم أجد حوك وشيه * ولم أك من فُرسانيه كنت مُفحما

وأشدد أبو عبيدة خَلْفًا الأحمر شعرا له فقال : اخبأ هذا كما تخبأ السُّنُورَةَ حاجتها، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها، وما يجرى مجرى ذلك من مواد تأليف الكلام ونظمه . ويحكى عن أبي العباس المبرد أنه قال : لا أحتاج إلى وصف نفسى : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقين تختلج في نفسه مسألةٌ مُشكلةٌ إلا لقيني بها وأعدنى لها ، فأنا عالم ومُعلِّمٌ ، وحافظ ودارس ، لا يخنئ على مشتبهِه من الشعر، والنحو، والكلام المنثور، وأنحطب، والرسائل ؛ ولربما أحتجت إلى اعتذار من فلانة ، أو التماس حاجة ، فأجعل المعنى الذى أقصد نُصِبَ عيني ثم لأجد سبيلا إلى التعبير عنه بيدٍ ولا لسان؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولت أن أكتب إليه رُقعة أشكره فيها وأعرض ببعض أمورى فأتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر على ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى إلى غيره، ولذلك قيل زيادة المنطق على الأدب خُدعة، وزيادة الأدب على المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك ؛ على أن الطبع بمفرده لا ينهض بالمقصود من ذلك نهوضه مع اشتماله على المواد المساعدة له على ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدم فى أول هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع وحفظ كتاب الله تعالى ، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية والأمثال والشعر والخطب ورسائل المتقدمين وأيام العرب وما يجرى مجرى ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومسهلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت فى العلو والهبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوته ؛ إذ معرفته هذه الأمور قائمة من الإنشاء مقام المادة ، والطبع قائم منه مقام الآلة ، فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم توجد المادة والآلة جميعا ، ولو كان حصول المادة

كافيا في التوصل إلى حسن التأليف الذي هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها على المعاني المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلف من الرسائل والخطب والأشعار سهلة، والمُشاهد بخلاف ذلك : لقصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .
وأما خلط الفكر عن المشوش فإنه يرجع إلى أمرين .

الأمر الأول

(صفاء الزمان)

فقد قال أبو تمام الطائي في وصيته لأبي عبادة البحرى مرشدا له للوقت المناسب لذلك : تخيير الأوقات وأنت قليلُ الهموم ، صفرٌ من الغُوم ؛ وأعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيء أو حفظه أن يختار وقت السحر، فإن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم، وخف عنها ثقلُ الغذاء، وصفاً الدماغ من أكثر الأبخرة والأدخنة، وسكنت الغماغم، ورفقت النساء، وتغنت الجمائم .

وخالف ابن أبي الأصعب في اختيار وقت السحر، وجنح إلى اختيار وسط الليل، أخذاً من قول أبي تمام في قصيدته البائية :

خُذْهَا أَيْبَةَ الْفِكْرِ الْمُهَذَّبِ فِي الدُّجَى * وَاللَّيْلُ أَسْوَدُ رُقْعَةٍ الْجِلْبَابِ

مفسراً للدجى بوسط الليل ، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفس قد أخذت حظها من الراحة، ونالت قسطها من النوم، وخف عنها ثقلُ الغذاء، فيكون الذهن حينئذ صحيحاً ، والصدر منشرحاً ، والبدن نشيطاً، والقلب ساكناً . بخلاف وقت السحر فإنه وإن كان فيه يرقُ النسيم وينهضم الغذاء ، إلا أنه يكون قد آنتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطق وغيره ، ويرتفع معظم الأصوات ، ويجرى الكثير من الحركات، وينتقع بعض الظلماء بطلائع أوائل الضوء ؛ وربما آنهضم عن بعض

الناس الغذاء فتحزكت الشهوة لإخلاف ما أنهضم منه وخرج من فضلاته، فكان ذلك داعيا إلى شغل الخاطر، وبعثا على أنصراف الهم إلى تدبير الحدّث الحاضر، فيقسم الفكر، ويتذبذب القلب، ويتفرق جميع الهم . بخلاف وسط الليل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثاني

(صفاء المكان)

وذلك بأن يكون المكان الذى هو فيه خاليا من الأصوات ، عاريا عن المخوفات والمهولات والطوارق ، وأن يكون مع ذلك مكانا رائقا مُعجبا رقيق الحواشى فسيح الأجزاء ، بسيط الرّحاب ، غير غمّ ولا كدر؛ فإن أنضم إلى ذلك ما فيه بسط للخاطر : من ماء وخضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة ، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر . وقد ذهب بعضهم إلى أنه ينبغى خلو المكان من النقوش الغريبة والمرآئى المعجبة ، فإنها وإن كانت مما ينشط الخاطر فإن فيها شغلا للناظر فيتبعه القلب فيتشتت .

المقصد الثاني

(من الطرف الثالث فى بيان طرق البلاغة ووجوه تحسين الكلام،
وكيفية إنشائه، وتأليفه، وتهذيبه، وتأديته، وبيان ما يستحسن من الكلام
المصنوع، وما يُعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال ابن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير": يجب على كل من كان له ميل إلى عمل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أولا نفسه ويمتنحها بالنظر فى المعانى، وتدقيق الفكر فى استنباط المخترعات؛ فإذا وجد لها فطرة سليمة وجيلة

• موزونة وذكاء وقادا وخطرا سمحا وفكرا ثاقبا وفهما سريعا وبصيرة مبصرة
والمعينة مهذبة وقوة حافظه وقدرة حاكية وهمة عالية ولمحة فصيحة وفطنة
صحيحة ، أخذ حينئذ في العمل ؛ وإن كان بعض ذلك غير لازم لرب الإنشاء ، ولا
يُضطرُّ إليه أكثر الشعراء ، ولكن إذا كملت هذه الصفات في الكاتب والشاعر ، كان
موصوفا في هذه الصناعة بكامل الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكري في "الصناعتين" : إذا أردت أن تصنع كلاما فأخطر
معانيه ببالك ، ونق له كرائم اللفظ ، فأجعلها على دُكر منك ليقرَّب عليك تناوُّها ،
ولا يتعبك تطُّبها ، واعمله مادمت في شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفتور ، وتخونك
الملال ، فأمسك : فإن الكثير مع الملل قليل ، والنفيس مع الضجر خسيس ،
والخواطر كالينابيع يسقي منها شيء بعد شيء فتجد حاجتك من الرى ، وتنال أربك من
المنفعة ، فإذا أكثرت عليها نضب ماؤها ، فقل عنك غناؤها . وينبغي أن تخرج مع
الكلام معارضه ، فإذا مررت بلفظ حسن أخذت برقبته ، أو معنى بديع تعلقت
بذيله . وتحرَّز أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت في تطُّبه ، ولعلك لا تلحقه على
طول الطلب ، ومواصلة الدأب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضيَّعتَ أوَّلَ كلِّ شيءٍ * أبتَ أعجازه إلاَّ النواء

وقد قالوا ينبغي لصانع الكلام أن لا يتقدم الكلام تقدما ولا يتبع ذناباه تتبعًا ،
ولا يجعله على لسانه حملا ، فإنه إن تقدم الكلام لم يتبعه خفيفه وهزيله وأعجفه
والشارد منه ، وإن تبعه فاتته سوابقه ولواحقه ، وتباعدت عنه جياده وغرره ؛ وإن
حملة على لسانه ثقلت عليه أوساقه وأعباؤه ، ودخلت مساويه في محاسنه ، ولكنه
يجرى معه فلا تند عنه نادة تُعجبه سَمنا إلاَّ كبحها ، ولا تخالف عنه مثقلة هزيلة
إلاَّ أرهقها ، وطورا يفرقه ليختار أحسنه ، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر ،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسأط الممل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، يأخذ عَفْوَهُ ويستغزر دَرَّه ، ولا يكره آبيا ولا يدفع آتيا . وإياك والتعقيد والتوعر ، فإنَّ التوعر هو الذى يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ، ومن أراغ معنى كريما ، فليتمس له لفظا كريما ، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن يصونهما عما يندسهما ، ويفسدهما ويهيجهما ، فتصير بهما إلى حدِّ تكون فيه أسوأ حالا منك قبل أن تلتبس البلاغة ، وترتهن نفسك في ملبستها ، وليكن لفظك شريفا ، عذبا ، فخما ، سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفاً ، وقريبا معروفاً ، فإن وجدت اللفظة لم تقع مرقعها ، ولم تصل إلى مركزها ، ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقَةً في موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فلا تُكرِّهها على اغتصاب أماكنها ، والنزول في غير أوطانها ، وإن بُليت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعة في أول وهلة ، وعصت عليك بعد إجاله الفكر ، فلا تعجل ، ودعه سبحانه يومك ، ولا تضجر ، وأمهله سواد ليلتك ، وعادوه عند نشاطك ، فإنك لا تعدم الإجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جريت من الصناعة على عرف ، وينبغي أن تعرف أقدار المعانى ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مقاما ، حتى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مقام من المقال .

قال في "مواد البيان" ويكون استعمال كل من جزل الألفاظ وسهلها ، وفصيحتها وسلسلها وبهجها في موضعه ، وأن يسلك في تأليف الكلام ، الطريق الذى يخرجها عن حكم الكلام المنشور العاطل ، الذى تستعمله العاقبة في المخاطبات ، والمكاتبات ، إلى حكم المؤلف الحالى بجلى البلاغة والبديع ، كالاستعارات ، والتشبيهات ، والأسجاع ، والمقابلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال في "الصناعتين" وإن عملت رسالة أو خطبة فتخطأ ألفاظ المتكلمين : كالجسم ، والجوهر ، والعرض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والناسوت ، فإن ذلك هجنة .

قال في "مواد البيان" وذلك بأن يقصد الكاتب إلى ألفاظ الصناعة فيخرج منها إلى ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانسة لها . قال وإنما يؤتى الكاتب في هذا الباب من جهة أن يكون له شركة في صناعة غير الكتابة ، كصناعة الفقه والكلام وغيرهما : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها ؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات ألفاظ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة والخوض في الصناعة ؛ ومن عادة الإنسان إذا تعاطى بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطره إلى الألفاظ المتعلقة به ، فيوقعها في الكتب التي ينشئها لغلبة عادة استعماله إياها فيهجنها بإدخاله فيها مالميس من أنواعها .

قال في "الصناعتين" وتخير الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التثام الكلام ، وهو من أحسن نعوته وأزین صفاته ، فإن أمكن مع ذلك انتظامه من حروف سهلة المخارج ، كان أحسن له ، وأدعى للقلوب إليه ؛ وإن اتفق له أن يكون موقعه في الإطناب أو الإيجاز أليق بموقعه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جامعاً للحسن ، بارعاً في الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارده تُنبئك عن مصادره ، وأوله يكشف قناع آخره ، كان قد جمع نهاية الحسن ، وبلغ أعلى مراتب التمام .

قال في "مواد البيان" وإذا سلكت طريقاً فتر فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت رفيعة ، ولا ترتفع عنها إن كانت وضیعة . وخالف ابن أبي الاصبع ، فقال : ولا تجعل كل الكلام شريفاً عالياً ، ولا وضعياً نازلاً ، بل فصله تفصيل العقود ، فإن العقد إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسنُ فرائده، ولا بين جمالِ واسطته، فإن الكلام إذا كان متوقفا في البلاغة، أفتنت الأسماع فيه، ولا يلحق النفوس مللٌ من ألفاظه ومعانيه؛ ولا يخرج عن غرض إلى غيره حتى يكمل كل ما ينتظم فيه: كما إذا كان ينشئ كتابا في العدل والتوبيخ، فيشوبُ ألفاظه بألفاظ أخرى تخرج عن الخشونة إلى اللين، فإن اختلاف رُقعة الكلام من أشد عيوبه.

قال في "الصناعتين" "ولا تجعل لفظك حوشيا بدويا، ولا مبتدلا سوقيا، ورتب الألفاظ ترتيبا صحيحا، فتقدم منها ما يحسن تقديمه، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره؛ ولا تقدم منها ما يكون التأخير به أحسن، ولا تؤخر ما كان التقديم به أليق، ولا تكرر الكلمة الواحدة في كلام قصير: كما كتب سعيد بن حميد: "ومثل خادمك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئا ينبي بحقك، ورأى أن تقرئك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصرا عن حقاك أبلغ في أداء ما يجب لك". فكرر ذكر الحق مرتين في مقدار يسير. على أن أبا جعفر النحاس قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير في القرآن الذي هو أفصح كلام، وأنق نظام، في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَنْ لَا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات في مقدار يسير من الكلام، وأمثاله في القرآن الكريم كثير.

قال في "الصناعتين" "فإن أحتاج إلى إعادة المعاني أعادها بغير اللفظ الذي آبتدأ به: كما قال معاوية: "من لم يكن من بني عبد المطلب جوادا فهو دَخِيل، ومن لم يكن من بني الزبير شجاعا فهو لَزِيْق، ومن لم يكن من بني المغيرة تياها فهو سَئِيد". فسال دَخِيل، ثم قال لَزِيْق، ثم قال سَئِيد والمعنى واحد، والكلام على ما ترى

حسن . ولو قال لزيق ثم أعاد لسمع . على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" قد ذكر ماينا في ذلك ، وتعقب أبا إسحاق الصابى في قوله في تجميدة كتاب : الحمد لله الذى لا تُدرِكُه الأعينُ بالحَاطِظِها ، ولا تُحَدِّثُه الألسنُ بالفاطِظِها ، ولا تُحَلِّقُه العُصُورُ بمرورها ، ولا تُهَرِّمُه الدُّهُورُ بِكُرُورِها ، وقوله بعد ذلك في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : لم يرَ لِدُكُفْرِ أثاراً إِلَّا طَمَسَه ومَحَاه ، ولا رَسَمًا إِلَّا أزاله وعَفَاه ، فقال لافرق بين مرور العصور ، وكُرُورِ الدهور ، وكذلك لافرق بين مَحُو الأثر وإِعفاء الرسم ؛ ويحتمل أن يقال إنما كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين في جميع المعنى بخلاف كلام معاوية فإنه متوافق في اللفظة الأخيرة فقط .

قال في "الصناعتين" وتجنَّبَ كلَّ ما يُكسِبُ الكلامَ تعمية : كما كتب سعيد ابن حميد ، يذكر مَظْلَمَةَ إنسان في كتابه : لفلانٍ وله بي حُرْمَةٌ مَظْلَمَةٌ ، يريد لفلانٍ مَظْلَمَةٌ وله بي حرمة ، بمعنى أنه راعى حرمة . قال : وأعلم أن الذى يلزمك في تأليف الرسائل والخُطَب هو أن تجعلها مُزْدَوِجَةً فقط ، ولا يلزمك فيها السجعُ فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسنَ ما لم يكن في سجعك استكراه ، وتنافر ، وتعقيد ؛ وكثيرا ما يقع ذلك في السجع ، وقلمًا يسلم إذا طال من استكراه وتنافر .

قال ابن أبي الأصبغ : ولا تجعل كلامك كله مبدئاً على السجع ، فظهر عليه الكُفَّة ، ويتبين فيه أثر المشقة ، وتكلف لأجل السجع ارتكاب المعنى الساقط ، واللفظ النازل ؛ وربما استدعيت كلمة للقطع رغبةً في السجع فجاءت نافرة من أخواتها ، قلقة في مكانها . بل أصرف كلَّ النظر إلى تجويد الألفاظ وصحة المعانى ، وأجهد في تقويم المباني ، فإن جاء الكلام مسجوعاً عفواً من غير قصد ، وتشابهت مقاطعه من غير كسب كان ، وإن عز ذلك فأتى كره . وإن اختلفت أبعاجه وتباينت

في التقنية مَقَاطِعُه ، فقد كان المتقدمون لا يَحْتَفِلُونَ بالسَّجْعِ جملة ، ولا يَقْصِدُونَهُ ، إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، واتفق من غير قصد ولا اكتساب ؛ وإنما كانت كلماتهم متوازية ، وألفاظهم متساوية ، ومعانيهم ناصعة ، وعبارتهم رائعة ، وفصولهم متقابلة ، وجل كلامهم متمثله ؛ وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن آقنى أثره من فُرسان الكلام : كَابن المقفَّع ، ويزيد بن هارون ، وإبراهيم بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مسعدة ، وأبي عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال في "مواد البيان" : وأقل ما يكون من الأزواج قرينتان .

قال في "الصناعتين" : وينبغي أن يَحْتَنَبُ إعادة حروف الصلّات والرباطات في موضع واحد إذا كتب ، في مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسيله أن يداويه حتى يزيله ، بأن يفصل ما بين الحرفين مثل أن يقول : أقمتُ به شهداءً عليه ، كقول المتنبي :

وَتُسْعِدُنِي فِي عَمْرَةٍ بَعْدَ عَمْرَةٍ * سَبُوحٌ لَهَا مِنْهَا عَلَيْهَا شَوَاهِدُ

قال ابن الأصبغ : وليراع الإيجاز في موضعه ، والإطناب في موضعه ، بحسب ما يقتضيه المقام ويتجنب الإسهاب والتطويل غير المفيد .

قال العسكري : وينبغي أن يأتي في تأليفه الكلام بآيات من الكتاب العزيز في الأمور الجليلة ، والترصيع والتعليق ، والاستشهاد للعاني على ما يقع في موقعه ، ويليق بالمكان الذي يُوقَعُ فيه ، ولكنه لا يستكثر منه حتى يكون هو الغالب على كلامه ، تنزيهاً لكلام الله تعالى عن الأبتدال ، فإنه إنما يستعمله على جهة التبرُّك والزينة ، لا ليُجْعَلَ حَشْوًا في الكلام ؛ وإذا استعير منه شيء أتى به على صورته ؛ ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالى فيه . قال وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يَخْلَى كلامه من شيء منه تحليّةً له ، فإن خَلَقَ الكلام من القراءن يَطْمِسُ محاسنَه ، وَيَنْقُصُ بهِجَتَه ؛ ولذلك كانوا يسمّون الخطبة الخالية من القراءن بترآء .

وينبغي أن لا يستعمل في كتابته ما جاء به القراءن العظيم من الحذف ومخاطبة الخاصّ بالعام ، والعامّ بالخاص ، والجماعة بلفظ الواحد ، والواحد بلفظ الجماعة ، وما يجري هذا المجرى ، لأن القراءن قد نزل بلغة العرب ، وخوطف به فصحاؤهم ، بخلاف الرسائل .

قال في "الصناعتين" لا يجوز أن يستعمل فيها ما يختص بالشعر من صرف مالا ينصرف ، وحذف مالا يُحذف ، وقصر الممدود ، ومدّ المقصور ، والإخفاء في موضع الإظهار ، وتصغير الأسم في موضع تكبيره ، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل "أنا جديها المحكك ، وعديها المرجب" . ومما يُستحسن من وصية أبي تمام لأبي عبادة البُحترى في الشعر مما لا يستغنى الناثر عن المعرفة به ، والنسج على منواله : لانه يجب أن يتناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، ويكون كخيّاط يقدر الثياب على قدر الأجسام ، وأن يجعل شهوته لتأليف الكلام هي الذريعة إلى حسن نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين ! ويعتبر كلامه بما سلف من كلام الماضين ، فما استحسنه العلماء فليقتصد به ، وما استقبحوه فليجتنبه ، وينبغي أن يعمل السجعات مفرقة بحسب ما يوجد به الخاطر ثم يرتبها في الآخر ويحترز عند جمعها من سوء الترتيب ، ويتوشى حسن النسق عند التهذيب ، ليكون كلامه بعضه آخذاً بأعتاق بعض ، فإنه أكل لحسنه ، وأمثلة لرصفه ؛ وأن يجيد المبدأ والمخلص والمقطع ، ويميز في فكره محط الرسالة قبل العمل ، فإنه أسهل للقصد ؛ ويجتهد في تجويد هذه المواضع وتحسينها ؛ ويوضح معانيه ما استطاع .

قلت وقد سبق في أول هذه المقالة في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من الأدوات

وذكر أنواعها بيان كيفية الاقتباس من آيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفية حل الشعر إلى النثر، وتضمينه في خلال الكلام المنثور وما يجري هذا المجرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان ما يُستحسن من الكلام المصنوع فقد قال في "الصناعتين" إن الكلام يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتحير لفظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين معاطفه ، وأستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه أعجازه بهوآديه ، وموافقة أواخره لمبادئه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثرٌ فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطالعه ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه وكال صوغه وتركيبه ؛ فإذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلاسة والنصاعة ، وأشتمل على الروق والطلاوة ، وسلم من ضعف التأليف ، وبعد من سماجة التركيب ، صار بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً ؛ فإذا ورد على السمع المصيب استوعبه ولم يمجّه ، والنفس تقبل اللطيف ، وتتبوع عن الغليظ ، وتقلق عن الجاسي البشع ؛ وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن إلى ما يوافقها وتنفر عما يضادّه ويخالفه ؛ والعين تألف الحسن ، وتقضى بالقيح ؛ والأنف يرتاح للطيب ويعاف المنين ؛ والفم يلتذّ بالحلو ، ويمجّ المترّب ؛ والسمع يتشوق للصوت الرائع ، ويتزوى عن الجهير الهائل ؛ واليد تنعم باللين ، وتتأذى بالحسّن ؛ والفهم يأنس من الكلام المعروف ، ويسكن إلى المألوف ، ويصغى إلى الصواب ، ويهرب من المحال ، ويتقبض عن الوحّم ، ويتأخر عن الجافي الغليظ ، ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والروية الفاسدة .

قال وليس الشأن في إيراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والأعجمي ، والقروي والبدوي ، إنما هو في جودة اللفظ وصفائه ، وحسنه وجماله ، وزاخرته وقائه ، وكثرة

طَلَاوْتُهُ وَمَائِهِ ؛ وَصِحَّةُ السَّبِكِ وَالتَّرْكِيْبِ ، وَاحْتُلُوْهُ مِنْ أَوْدِ النِّظْمِ وَالتَّأْلِيفِ ؛ وَليْسَ يُطَلَّبُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ يَكُونَ صَوَابًا ، وَلاَ يَقْنَعُ مِنَ اللَّفْظِ بِذَلِكَ حَتَّى يَكُونَ عَلَى مَا وُصِفَ مِنْ نَعْوَتِهِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ . أَلَا تَرَى أَنْ ائْتِطَبَ الرَّائِعَةُ ، وَالأَشْعَارُ الرَّائِعَةُ ، لَمْ تُعْمَلْ لِإِفْهَامِ الْمَعَانِي فَقَطْ : لِأَنَّ الرَّدَىءَ مِنَ الأَلْفَاظِ يَقُومُ مَقَامَ الْجَيِّدِ مِنْهَا فِي الإِفْهَامِ ؛ وَإِنَّمَا يَدُلُّ حَسْنَ الكَلَامِ ، وَإِحْكَامَ صِنْعَتِهِ ، وَرَوْنَقَ أَلْفَاظِهِ وَجُودَةَ مَقَاطِعِهِ ، وَبِدْيَعُ مَبَادِيهِ ، وَغَرِيبَ مَبَانِيهِ ، عَلَى فَضْلِ قَائِلِهِ وَمَنْشِيهِ . وَأَيْضًا إِنْ الكَلَامُ إِذَا كَانَ لَفْظًا حُلُوًّا وَعَدْبًا وَسَطًا دَخَلَ فِي جَمَلَةِ الْجَيِّدِ ، وَجَرَى مَعَ الرَّائِعِ النَّادِرِ . وَأَحْسَنُ الكَلَامِ مَا تَلَاَمَّ نَسْجُهُ وَلَمْ يَسْخَفْ ، وَحَسَنُ نِظْمِهِ وَلَمْ يَهْجُنْ ، وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِيهِ الْغَلِيظُ مِنَ الكَلَامِ فَيَكُونَ خَلْقًا بَغِيضًا ، وَلاَ السُّوقِيَّ مِنَ الأَلْفَاظِ فَيَكُونَ مُهْلَهَلًا دُونًَا ، وَلاَ خَيْرَ فِي الْمَعَانِي إِذَا اسْتَكْرَهَتْ قَهْرًا ، وَالأَلْفَاظِ إِذَا أُجْبِرَتْ قَسْرًا ؛ وَلاَ خَيْرَ فِيهَا أَجِيْدٌ لَفْظُهُ إِلَّا مَعَ وَضُوحِ الْمَغْزَى وَظُهُورِ الْمَقْصِدِ . قَالَ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى قَوْمِ الْجَهْلِ فَصَارُوا يَسْتَجِيدُونَ الكَلَامَ إِذَا لَمْ يَقِفُوا عَلَى مَعْنَاهُ إِلَّا بِكَيْدٍ ، وَيَسْتَفْصِحُونَهُ إِذَا وَجَدُوا أَلْفَاظَهُ كَرَّةً غَلِيظَةً وَجَاسِيَّةً غَرِيبَةً ، وَيَسْتَحْقِرُونَ الكَلَامَ إِذَا رَأَوْهُ سَلِيْسًا عَدْبًا ، وَسَهْلًا حُلُوًّا ؛ وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ السَّهْلَ أَمْنَعُ جَانِبًا ، وَأَعَزُّ مَطْلَبًا ؛ وَهُوَ أَحْسَنُ مَوْقِعًا ، وَأَعَدْبُ مَسْتَمَعًا ؛ وَلِهَذَا قِيلَ أَجُودُ الكَلَامِ السَّهْلُ الْمَمْتَنِعُ . وَقَدْ وَصَفَ الْفَضْلُ ابْنَ سَهْلٍ عَمْرُو بْنُ مَسْعَدَةَ فَقَالَ : هُوَ أَبْلَغُ النَّاسِ ، وَمَنْ بَلَغْتَهُ أَنْ كَلَّ أَحَدٌ يَظُنُّ أَنَّهُ يَكْتُبُ مِثْلَ كُتْبِهِ ؛ إِذَا رَامَهَا تَعَدَّرْتُ عَلَيْهِ ؛ وَأَنْشَدَ إِبرَاهِيمُ بْنُ الْعَبَّاسِ لَخَالِهِ الْعَبَّاسِ بْنِ الأَخْنَفِ :

إِنْ قَالَ لَمْ يَفْعَلْ وَإِنْ سِيلَ لَمْ * يَبْسُدْ وَإِنْ عُوْتِبَ لَمْ يُعْتَبَ

صَبٌّ بَعْضِيَانِي وَلَوْ قَالَ لِي * لَا تُشْرِبِ الْبَارِدَ لَمْ أَشْرَبْ

ثُمَّ قَالَ هَذَا وَاللَّهِ الشَّعْرُ الْحَسَنُ الْمَعْنَى ، السَّهْلُ اللَّفْظُ ، الْعَدْبُ الْمَسْتَمَعُ ، الْقَلِيلُ

النظير، العزيز الشبيه، المُطْمَعِ الممتنع، البعيدُ مع قربه، الصَّعْبُ مع سهولته، قال
فجعلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تَسْتَعْمِلُ الغريب
في شعرك؟ فقال: ذلك عِيٌّ في زمانِي، وتكأف مني لوقته، وقد رُزقت طَبْعًا وآسَاءًا
في الكلام فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يَخْتِج إلى تفسير.

وقال أبو داود: رأس الخطابة الطبع، وعمودها الذرْبَةُ، وجناحها رِوَايَةُ الكلام
وحليها الإعراب، وبهاؤها تخييرُ الألفاظ، والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه، وما كان
من الكلام لفظه سهلًا ومعناه مكشوفًا بيننا فهو من جملة الرديء المردود، لا سيما
إذا ارتكبت فيه الضرورات، فأما الجزلُ المختارُ من الكلام، فهو الذي تعرفه العامة
إذا سمعته، ولا تستعمله في محاوراتها؛ وأجودُ الكلام ما كان سهلًا جزلًا، لا يتغلق
معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكون مكدودًا مستكراهًا، ومتوعرًا متقعرًا؛ ويكون
بريثًا من العنائة، عاريا من الرئائة. فمن الجزلُ الجيد من النثر قولُ سعيد بن حميد:
وأنا من لا يحاجك عن نفسه، ولا يفالطك عن جرمه، ولا يلتمس رضاك إلا من جهته،
ولا يستدعي ريك إلا من طريقتة، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب، ولا يستميلك
إلا بالاعتراف بالجرم؛ نبت بي عنك غمرة الحدائث، وردتني إليك الحنكة، وواعدتني
منك الثقة بالأيام، وقادتني إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستقبل الصنيعة بقبول
العذر، وتجدد النعمة بأطراح الحقد، فإنَّ قديم الحُرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما
من الإساءة؛ وإن أيام القدرة وإن طالت قصيرة، والمتعة بها وإن كثرت قليلة، فعلت
إن شاء الله تعالى.

وأجزلُ منه قول الشعبيّ للحجاج، وقد أراد قتله لخروجه عليه مع ابن الأشعث
أجذب بنا الحناب، وأحزن بنا المنزل، فاستطسنا الحدَر، واكتحلنا السهر،
وأصابتنا فنتة لم نكن فيها بررة أتقياء، ولا بفرة أقوياء. فعفا عنه.

ومن النظم قول المزار :

لَا تَسْأَلِي الْقَوْمَ عَن مَالِي وَكَثْرَتِهِ * قَدْ يُقْتَرُ الْمَرْءُ يَوْمًا وَهُوَ مُحَمَّدٌ
أَمْضَى عَلَى سُنَّةٍ مِنَ الْوَالِدِي سَلَفَتْ * وَفِي أَرْوَمَتِهِ مَا يَنْبُتُ الْعُودُ
فهذا وإن لم يكن من كلام العامة فإنهم يعرفون الغرض منه وَيَقْفُونَ عَلَى أَكْثَرِ
معانيه حُسْنِ تَرْتِيبِهِ وَجُودَةِ نَسْجِهِ ؛

قال في "الصناعتين" أما إذا كان لفظ الكلام غثًا، ومعرضه رثًا، فإنه يكون
مردودًا، ولو آخوى على أجل معنى وأنبله، وأرفعه وأفضله، كقول القائل :
أَرَى رِجَالًا بَادُنِي الدِّينِ قَدْ قَبِعُوا * وَلَا أَرَاهُمْ رَضُوا فِي الْعَيْشِ بِالدُّونِ
فاسْتَعْنِ بِالدِّينِ عَن دُنْيَا الْمُلُوكِ كَمَا أَسْتَعْنِي الْمُلُوكُ بِدُنْيَاهُمْ عَنِ الدِّينِ
قال : فهو لا يدخل في جملة المختار، ومعناه كما ترى جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجزل
الردىء الفج، الذي ينبغي ترك استعماله فقد مر في الكلام على الغريب الحوشى .

المقصد الثالث

(في بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقصره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها على
ثلاثة ضروب .

الضرب الأول

(الإيجاز)

وهو جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة، وعليه ورد أكثر آي القرآن الكريم
فمن ذلك قوله تعالى في مفتح سورة الفاتحة : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)) . أنتظم
فيه خلق السموات والأرض وسائر المخلوقات لم يشد عنه شيء في أوجز لفظ وأقربه

وأسهله ؛ ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ استوعب جميع الأشياء على الاستقصاء في كلمتين لم يخرج عنهما شيء ؛ وقوله ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ ﴾ فدخل تحت الأمن جميع المحبوبات لأنه نفى به أن يخافوا شيئا : من الفقر والموت وزوال النعمة والجور وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله في صفة نحر أهل الجنة : ﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْفَوْنَ ﴾ أنتظم بقوله : ولا هم عنها ينزفون عدم ذهاب العقل وذهاب المال ونفاد الشراب ، فلم يكن فيها شيء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فجمع فيها مكارم الأخلاق بأسرها : لأن العفو صلة القاطعين ، وإعطاء المانعين ؛ وفي الأمر بالمعروف تقوى الله تعالى ، وصلة الرحم ، وصون اللسان عن الكذب ، وغض الطرف عن المحرمات ، والتبري من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئا من المنكر ؛ إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى كثرة .

ومن كلام النبوة قوله صلى الله عليه وسلم : " نَبِيَّةُ الْمَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ " وقوله عليه السلام : " حُبُّ الشَّيْءِ يَعْمِي وَيُصِمُّ " إلى غير ذلك من جوامع الكلم .

الضرب الثاني

(الإطناب)

وهو الإشباع في القول ، وترديد الألفاظ المترادفة على المعنى الواحد . وقد وقع منه الكثير في الكتاب العزيز ، مثل قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جلّ وعزّ : ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ في الموضوعين تأكيداً للأمر وإعلاماً أنه كذلك لا محالة . وقوله : ﴿ فَفَرِّزُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَسَمِعٌ مِنْهُ نَذِيرٌ مَبِينٌ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مَبِينٌ ﴾ فكرر إني

لكم منه نذير مبين من حيث إن الكفر وإن تعددت أقسامه لا يخرج عن تعطيل أو شرك ففي قوله ففروا إلى الله نفي التعطيل بإثبات الإله وفي قوله : ولا تجعلوا مع الله إلهًا آخر نفي الشرك . وقد كرر سبحانه في سورة الرحمن قوله : ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمُ تُكذِّبِينَ ﴾ حيثُ عدّد فيها نعمه ، وأذكر عباده آلاءه ، ونبههم على قدرها ، وقدرته عليها ، ولطفه فيها ، وجعلها فاصلةً بين كلِّ نعمة ونعمة ، تنبيهاً على موضع ما أسداه إليهم فيها ؛ وكذلك كرّر في سورة المرسلات : ﴿ وَيَلْ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَذِّبِينَ ﴾ تأكيداً لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد في كلام العرب كثيراً كما في قول الشاعر :

* أَنَاكَ أَنَاكَ اللَّاحِقُونَ أَنَاكَ ^(١) *

وقول الآخر :

* كَمْ نِعْمَةٌ كَانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

إلى غير ذلك مما وقع في كلامهم مما لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثالث

(المساواة)

بأن تكون الألفاظ بإزاء المعاني في القلة والكثرة لا يزيد بعضها على بعض . وقد مثل له العسكري في "الصناعتين" بقوله تعالى : ﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْحِيَامِ ﴾ وقوله : ﴿ وَدُوا لَوْ تَدَهَّنُ فَيُدْهِنُونَ ﴾ وقول النبي صلى الله عليه وسلم " لا تزال أمّتي بخيرٍ ما لم ترّ الأمانة مغنماً والزكاة مغرماً " وقوله " إياك والمشاركة ، فإنها تميت الغرة ^(٢) " .

(١) في الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور في البيت .

(٢) أي العمل الصالح الحسن تشبيهاً له بغرة الفرس . والغرة العمل السيئ تشبيهاً له بالعذرة . انظر اللسان .

وُحِّي العُرَّةُ“ . وقول بعض الكُتَّاب : سألتَ عن خَبْرِي وأنا في عافية لا عَيْبَ فيها إلا فَقَدُكَ ، وَنِعْمَةٌ لَمْزِيدٍ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد عَلَّمْتَنِي نَبْوَتَكَ سَلَوْتُكَ ، وَأَسْلَمْنِي يَا سَيِّ مِنْكَ ، إِلَى الصَّبْرِ عَنْكَ . وقول آخر : فتولَّى اللهُ النِّعْمَةَ عَلَيْكَ وَفِيكَ ، وتولَّى إِصْلَاحَكَ وَالإِصْلَاحَ بكَ ، وَأَجَزَلَ مِنَ الْخَيْرِ حَظُّكَ وَالْحِطُّ مِنْكَ ، وَمَنْ عَلَيْكَ وَعَلَيْنَا بكَ . وقول الشاعر :

أَهَابُكَ إِجْلَالًا وَمَا بِكَ قُدْرَةٌ * عَلَى وَلَكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُهَا
وَمَا هَجَرَتْكَ النَّفْسُ أَنَّكَ عِنْدَهَا * قَلِيلٌ وَلَا أَنْ قَلَّ مِنْكَ نَصِيبُهَا

إذا علمت ذلك فقد اختلف البلغاء في أي الثلاثة أبلغ وأولى بالكلام، فذهب قوم إلى ترجيح الإيجاز، محتجّين له بأنّه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدار الحاجة من الكلام فضلة داخلّة في حيز اللغو والهذر، وهما من أعظم أدواء الكلام، وفيهما دلالة على بلادة صاحب الصنعة وغبأوته . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم بالإيجاز فإن له إفهاما ولإطالة آسئتهما . وقال جعفر بن يحيى لكتابه : إن قدرتم على أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أنجح من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ما البلاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لابن حازم لم لا تطيل القصائد فأنشد :

أبِي أَنْ أَطِيلَ الشَّعْرَ قَصْدِي * إِلَى الْمَعْنَى وَعِلْمِي بِالصَّوَابِ
وإيجازي مختصر قريب * حذفتُ به الفضولَ من الجوابِ

وذهبت طائفة إلى أن الإطناب أرجح، واحتجوا لذلك بأن المنطق إنما هو بيان والبيان لا يحصل إلا بوضوح العبارة، وإيضاح العبارة لا يتها إلا بمرادفة الألفاظ على المعنى حتى تُحيط به إحاطة يؤمن معها من اللبس والإبهام، وإن الكلام الوجيز لا يؤمن وقوع الإشكال فيه . ومن ثم لم يحصل على معانيه إلا خواص أهل اللغة

العارفين بدلالات الألفاظ . بخلاف الكلام المُشَبَّع الشافي فإنه سالم من الالتباس لتساوي الخالص والعام في جهته . ويؤيد ذلك ما حكى أنه قيل لقيس بن خازجة : مَاعِنْدَكَ فِي جَمَالَاتِ ذَاتِ حُسْنٍ ؟ قال : عِنْدِي قِرَى كُلِّ نَازِلٍ ، وَرِضًا كُلِّ سَاخِطٍ ، وَخُطْبَةً مِنْ لَدُنِّ تَطْلُعِ الشَّمْسِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ ، أَمْرٌ فِيهَا بِالتَّوَاصُلِ ، وَأَنْهَى عَنِ التَّقَاطُعِ . فقيل لأبي يعقوب الحرثي هَلَّا أَكْتَفَى بِقَوْلِهِ أَمْرٌ فِيهَا بِالتَّوَاصُلِ عَنِ قَوْلِهِ وَأَنْهَى عَنِ التَّقَاطُعِ ؟ فقال : أَوْ مَاعَلِمْتَ أَنَّ الْكِنْيَاةَ وَالتَّعْرِیضَ لَا تَعْمَلُ عَمَلَ الْإِطْنَابِ وَالتَّكْشُفِ ؟ أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا خَاطَبَ الْعَرَبَ وَالأَحْرَابَ أَخْرَجَ الْكَلَامَ مُخْرَجَ الإِشَارَةِ وَالْوَحَى ، وَإِذَا خَاطَبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَوْ حَكِيَ عَنْهُمْ جَعَلَ الْكَلَامَ مَبْسُوطًا ، وَقَلِمًا تَجِدُ قِصَّةً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْقُرْءَانِ إِلا مَطْوَلَةً مَشْرُوحَةً وَمُكْرَرَةً فِي مَوَاضِعٍ مُعَادَةً لِبَعْدِ فَهْمِهِمْ ، وَتَأخَّرَ مَعْرِفَتُهُمْ ؛ بِخِلَافِ الْكَلَامِ الْمُشَبَّعِ الشَافِي فَإِنَّهُ سَالِمٌ مِنَ الْإِلْتِبَاسِ لِتَسَاوِي الْخَالِصِ وَالْعَامِّ فِي فَهْمِهِ .

وذهبت فرقة إلى ترجيح مساواة اللفظ المعنى، واحتجوا لذلك بأن مترع الفضيلة من الوسط دون الأطراف وأن الحسن إنما يوجد في الشيء المعتدل .

قال في "مواد البيان" : والذي يوجب النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواة صفات موجودة في الكلام ولكل منها موضع لا يخلفه فيه رديقه ، إذا وضع فيه أنتظم في سلك البلاغة ودل على فضل الواضع ، وإذا وضع غيره دل على نقص الواضع وجهله برسوم الصنعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمخاطبة الملوك، وذوى الأخطار العالية، والهمم المستقيمة ، والشؤون السنية ، ومن لا يجوز أن يشغل زمانه بما همته مصروفة إلى مطالعة غيره .

وأما الإطناب فإنه يصلح للمكاتبات الصادرة في الفتوحات ونحوها مما يُقرأ في المحافل، والعهود السلطانية، ومخاطبة من لا يصل المعنى إلى فهمه بأدنى إشارة. وعلى ذلك يحمل ما كتبه المهلب بن أبي صفرة إلى المجاج في فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم على ارتفاع خطر هذا الفتح وطول زمانه وبعده صيته، فإنه كتب فيه: "الحمد لله الذي كفى بالإسلام قصداً ما سواه؛ وجعل الحمد متصلاً بنعمه؛ وقضى أن لا ينقطع المزيد وجبله، حتى ينقطع الشكر من خلقه. ثم إنا كنا وعدونا على حالتين مختلفتين، نرى منهم ما يسرنا أكثر مما يسرهم، ويرون منا ما يسوءهم أكثر مما يسرهم فلم يزل ذلك دأبنا ودأبهم: ينصرون الله ويخذلهم، ويخصصنا ويحققهم، حتى بلغ الكتاب بناديتهم أجله، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

فإن الذي حملة على الاختصار في هذا الكتاب إنما هو كونه إلى السلطان الذي من شأنه اختصار المكاتبات التي تكتب إليه، بخلاف ما لو كتب به عن السلطان إلى غيره، فإنه يتعين فيه بسط القول وإطالته على ماسياتي ذكره في أول المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى.

وأما مساواة اللفظ للمعنى فإنه يصلح لمخاطبة الأكفاء والنظرء والطبقة الوسطى من الرؤساء. فكما أن هذه المرتبة متوسطة بين طرفي الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تختص بها الطبقة الوسطى من الناس. قال أما لو استعمل كاتب ترديد الألفاظ ومرادفها على المعنى في المكتابة إلى ملك مصروف الهممة إلى أمور كثيرة متى أنصرف منها إلى غيرها دخلها الخلل، لربب كلامه في غير رتبته، ودل على جهله بالصناعة. وكذا لو بنى على الإيجاز كتاباً يكتبه في فتح جليل الخطر، حسن الأثر، يُقرأ في المحافل والمساجد الجامعة على رؤوس الأشهاد من العامة ومن يراد منه تفخيم شأن السلطان

في نفسه ، لأوقع كلامه في غير موقعه ، ونزله في غير منزلته : لأنه لا أقبح ولا أسمح من أن يُستنفر الناس لسماع كتاب قد ورد من السلطان في بعض عظام أمور المملكة أو الدين ، فإذا حضر الناس كان الذي يمتز على أسماعهم من الألفاظ واردا مؤرد الإيجاز والأختصار لم يحسن موقعه وخرج من وضع البلاغة لوضعه في غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التي تبنى عليها صنعة الكلام هو القدر اللازم الذي لا يسع الكاتب الجهل بشيء منه ، ولا يُسمح بإخلاء كتاب مصنف في هذا الفن منه .

أما المتممات التي يكمل بها الكاتب : من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوه تحسين الكلام من المعاني والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة ، تكاد تخرج عن الحصر والإحصاء فاقضى الحال من المتقدمين للتصنيف في هذا الفن أن قد قصروا تصانيفهم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" وأبي هلال العسكري في "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حسن التوسل" كما تقدمت الإشارة إليه في مقدمة الكتاب ، فليطلب ذلك من مظانه من هذه الكتب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنما يذكر فيه ما يشق طلبه من كتب متفرقة ، وتصانيف متعددة ، أو يكونُ المصنف الواحد منه النبذة غير الكافية ، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشف الكثير من المصنفات المتفرقة في الفنون المختلفة .

الفصل الثالث

(من الباب الأوّل من المقالة الأولى)

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين على اختلاف
الأمم فيها، وتفصيل أجزائها، والطرق الموصلة إليها، ومعرفة
أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأوّل

(في الأيام ، وفيه ست جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول اليوم ومعناه ، وبيان ابتداء الليل والنهار)

وقد اختلف الناس في مدلول اليوم على مذهبين .

المذهب الأوّل (وهو مذهب أهل الهيئة) - أن اليوم عبارة عن زمانٍ جامعٍ ليل
والنهار ، مدّته ما بين مفارقة الشمس نصف دائرة عظيمة ثابتة الموضع بالحركة
الأولى إلى عودها إلى ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلك نصف
النهار . والحذاق من المنجمين يؤثرون فلك نصف النهار على الأفق بسهولة تحصل
بذلك في بعض أعمالهم ؛ لأن اختلاف دوائره في سائر الأوقات اختلاف واحد ؛
وبعضهم يؤثّر استعمال الأفق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهر للعيان ، وهو
الموافق لما نحن فيه .

ثم منهم من يقدم الليل فيفتح اليوم بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم
القابل ، وعلى ذلك عمل المسلمين وأهل الكتاب ، وهو مذهب العرب : لأن شهورهم
مبنية على مسير القمر ، وأوائلها مقدّرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدّم النهار على الليل فيفتتح اليوم بطلوع الشمس ويختم بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهب الروم والفرس .

ويحكى أن الاسكندر سأل بعض الحكماء عن الليل والنهار أيهما قبل صاحبه فقال : هما في دائرة واحدة، والدائرة لا يُعلم لها أول ولا آخر، ولا أعلى ولا أسفل .

المذهب الثاني (وهو مذهب الفقهاء) - أن اليوم عبارة عن النهار دون الليل حتى لو قال لزوجته أنت طالق يومَ يقدمُ فلان فقدم ليلا لم يقع الطلاق على الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا إلى الليل والنهار باعتبارين : طبعي وشرعي .

أما الطبيعي فالليل من لَدُنْ غروبِ الشمسِ وأستارها بحدبة الأرض إلى طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصفِ قرصِ الشمس من المشرق إلى غيوبة نصفها في الأفق في المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعي - فالليل من غروب الشمس إلى طلوع الفجر الثاني، وهو المراد بالخيط الأبيض من قوله تعالى : ﴿ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ والنهار من الفجر الثاني إلى غروب الشمس ، وبذلك تتعلق الأحكام الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الشَّمْسَ فِي اللَّيْلِ تَكُونُ غَائِبَةً تَحْتَ الْأَرْضِ ، فَإِذَا قَرُبَتْ مِنَّا فِي حَالِ غَيْبَتِهَا أَحْسَسْنَا بَضِيئِهَا الْمَحِيْطِ بِظِلِّ الْأَرْضِ الَّذِي هُوَ اللَّيْلُ ، وَهَذَا الضِّيَاءُ طَلِيعَةٌ أَمَامَهَا يَطْلُعُ ، فِي السَّحَرِ بِيَاضٌ مُسْتَطِيلٌ مُسْتَدِقُّ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْفَجْرُ الْكَاذِبُ إِذْ لَا حَكْمَ لَهُ فِي الشَّرِيعَةِ ، وَيُسَبَّهُ بِذَنبِ السَّرْحَانِ لِاتِّصَابِهِ وَأَسْتِطَالَتِهِ وَدِقَّتِهِ ، وَيَسْقَى مَدَّةً ثُمَّ يَزْدَادُ هَذَا الضَّرْوُ إِلَى أَنْ يَأْخُذَ طَوْلًا وَعَرْضًا وَيَنْبَسِطُ فِي عَرْضِ الْأَفْقِ ، وَهُوَ الْفَجْرُ الثَّانِي وَيُسَمَّى الصَّادِقُ ، وَعَلَيْهِ تَقَرَّبُ جَمِيعُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْمُتَعَلِّقَةِ

(١) لعله المحجوب ظل الأرض كما يفيد المقام .

بالفجر، وبعده يحتر الأفق لأقتراب الشمس وسطوع ضيائها على المدورات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع، وعند غروبها ينعكس الحكم في الترتيب المتقدم فيبقى الأفق محمرا من جهة المغرب بعد الغروب، ثم تزول الحمرة ويبقى البياض الذي هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمها عند الحنفية، ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذب مدة من الليل ثم يذهب، وهذا لا حكم له في الشرعيات. والهند لا يعدون الفجر ولا الشفق من الليل ولا من النهار، ويجعلونهما قسما مستقلا وهذا في غاية البعد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما.

الجملة الثانية

(في اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والأستواء باختلاف الأمكنة)
واعلم أن البلاد والنواحي على قسمين :

القسم الأول

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبدا، لا يختلفان بزيادة ولا نقصان)

وذلك في البلاد التي لا عرض لها. وهي مامرة عليه خط الأستواء؛ والعللة في التساوي هي أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قطبي فلك البروج دائرة عظمى تقسم سطح السماء نصفين على السواء وسموها دائرة معدل النهار، توهموا أيضا في موازاتها دائرة أخرى تقسم سطح الأرض نصفين وسموها دائرة الأستواء، وخط الأستواء؛ وكل بلد يمر عليه هذا الخط لا عرض له: وذلك لأنقسام الكرة فيه وطلوع

الشمس أبداً على رؤوس ساكنيه ، وميلها في ناحيتي الشمال والجنوب بقدر واحد ، ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معدّل النهار بنصفين نصفين ، فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذي من طلوع الشمس إلى غروبها مساوياً لقوس الليل : وهو الزمان الذي من غروب الشمس إلى طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبداً في هذه المواضع في جميع السنة .

القسم الثاني

(ما يختلف فيه الليل والنهار في السنة بالاستواء والزيادة والتقصان ،

وهي البلاد ذوات العروض)

والعلة في الزيادة والتقصان أن المواضع التي تميل عن خطّ الاستواء إلى الشمال تميل في كل موضع منها دائرة معدّل النهار إلى الجنوب وتخطّ الشمس ويرتفع القطب الشمالي من الأفق ويصير للبلد عرض بحسب ذلك الارتفاع ، وبقدر بعده عن الخطّ . وإذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كلّ دائرة من الدوائر الموازية لها بقطعتين مختلفتين ، فيكون ما فوق الأرض من قسّمها أعظم من الذي تحتهما : لأن القطب لما ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثر من نصفها وأنحط مدار الشمس عن سمت الرأس إلى جهة الجنوب فبعد مشرق الصيف عن مشرق الشتاء فطال النهار وقصّر الليل ، وكلما زاد ارتفاع القطب في الأقاليم زاد الاختلاف الذي هو بين هذه القطع إلى أن تكون نهاية الأطوال حيث يكون ارتفاع القطب اثنتي عشرة درجة ونصفاً وربعاً وهو أول المعمور ، اثنتي عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه تسعاً وعشرين درجةً وهو آخر الإقليم الثاني ، ثلاث عشرة ساعة ونصفاً وربعاً ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثاً

وثلاثين درجةً ونصفاً وهو آخر الإقليم الثالث أربع عشرة ساعةً وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه تسعا وثلاثين درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربع عشرة ساعة ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خمس عشرة ساعةً وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الإقليم السادس خمس عشرة ساعةً ونصفا وربعا ، وحيث يكون ارتفاعه خمسين درجةً وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعةً وربعا .

ولا يزال أختلاف مطالع البروج يزداد بالإمعان في الشمال ويتسع شرقا المنقلبين ويتقاربان مع مغربيهما إلى أن يلتقيا في العرض المساوي لتمام الميل الأعظم : وهو حيث يكون ارتفاع القطب ستا وستين درجةً . وفي هذا الموضع يكون قطب فلك البروج في دوره يمر على سمت الرؤوس ، ويكون أول السرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبدا ، ومدار أول الجدى فقط غائبا أبدا . فيكون مقدار النهار الأطول أربعا وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض في هذه المواضع عند موازاة قطب فلك البروج سمت الرؤوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ على دائرة الأفق ، فيكون أول الحمل في المشرق ، وأول الميزان في المغرب ، وأول السرطان في الأفق الشمالي ، وأول الجدى في الأفق الجنوبي . فإذا صار قطب فلك البروج والأفق نصفين وارتفع النصف الشرقي من فلك البروج وانخفض النصف الغربي فيطلع حينئذ ستة بروج دفعةً واحدةً ، وهي من أول الجدى إلى آخر الحوزاء ، وكذلك تغرب الستة الباقية دفعةً واحدةً . وحيث يكون ارتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهناك يكون مدار ما بين النصف من الحوزاء إلى النصف من السرطان ظاهرا فوق الأرض أبدا ، وما بين النصف من القوس إلى النصف من الجدى غائبا أبدا ، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كله لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهر الباقية من السنة كل يوم وليلة أربعاً وعشرين ساعة. وحيث يكون ارتفاع القطب تسعاً وستين درجة ونصفاً وربعا فهناك يكون مدار برجى الجوزاء والسرطان ظاهراً فوق الأرض ، ومدار برجى القوس والجدى غائباً تحت الأرض أبداً . ولذلك يكون مقدار شهرين من الصيف نهراً كله ، وشهرين من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثلاثاً وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلى النصف من الأسد ظاهراً أبداً والأجزاء النظيرة لها غائبة أبداً ، فيكون مقدار ثلاثة أشهر من الصيف نهراً كله ، وثلاثة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب ثماناً وسبعين درجة ونصفاً فهناك يكون مدار الثور والجوزاء والسرطان ظاهراً أبداً والبروج النظيرة لها غائبة أبداً ، فيكون أربعة أشهر من الصيف نهراً كله وأربعة أشهر من الشتاء ليلاً كله . وحيث يكون ارتفاع القطب أربعاً وثمانين درجة فهناك يكون مدار ما بين النصف من الحمل إلى النصف من السنبلة ظاهراً أبداً والبروج النظيرة لها غائبة أبداً فيكون خمسة أشهر من الصيف نهراً كله وخمسة أشهر من الشتاء ليلاً كله .

ومما يعرض في هذه المواضع التي تقدم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج في دائرة نصف النهار مما يلي الجنوب كان أول الحمل في المشرق وأول الميزان في المغرب ، وتكون البروج الشمالية ظاهرة أبداً فوق الأرض والجنوبية غائبة تحتها ، وهناك يطلع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجدى والسرطان منكوساً ، فيطلع الثور قبل الحمل ، والحمل قبل الحوت ، والحوت قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسة ، وحيث يكون ارتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سمت الرأس فهناك تكون دائرة معدل النهار منطبقة على الأفق أبداً ، ويكون دور الفلك

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

رَحْوِيًّا موازيا للأفق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدّل النهار ظاهرا أبدا فوق الأرض والنصف الجنوبي غائبا تحتها، فلذلك إذا كانت الشمس في البروج الشمالية كانت طالعة تدور حول الأفق ويكون أكثر ارتفاعها عنه بمقدار ميلها عن معدّل النهار، وإذا كانت في البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب . فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للأفاق إما دُولَائِيَّة، وهى في خط الأستواء، وإما حَمَائِلِيَّة، وهى في الآفاق المائلة عنه، وإما رَحْوِيَّة : وهى في المواضع التى ينطبق فيها قطب العالم على سمت الرأس فسبحان من أتقن ما صنع !

الجملة الثالثة

(في معرفة زيادة الليل والنهار ونقصانها بتنقل الشمس في البروج)

اعلم أن للشمس حركتين : سريعةً وبطيئةً .

أما السريعة فحركة فلك الكُلُّ بها في اليوم والليلة من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمى الحركة اليومية .

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلك البروج في سنة شمسية من الجنوب إلى الشمال ومن الشمال إلى الجنوب، ولتعلّم أن جهة المشرق وجهة المغرب لاتتغيران في أنفسهما بل جهة المشرق واحدة وكذلك جهة المغرب، وإن اختلفت مطالعتهما . قال تعالى ((رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ)) أى جهة الشروق وجهة الغروب في الجملة، إلا أن الشمس لها غاية ترتفع إليها في الشمال وتلك الغاية مشرق ومغرب وهو مشرق الصيف ومغربها، ومطلعها حينئذ بالقرب من مطلع السماء الراجح، ولها غاية تنحط إليها في الجنوب، وتلك

الغاية أيضا مَشْرِقٌ وَمَغْرِبٌ : وهو مَشْرِقُ الشِّتَاءِ ومغربه ، ومطلعها حينئذٍ بالقرب من مَطَلَعِ بطن العقرب ، وهذان المَشْرِقانِ والمَغْرِبَانِ هما المراد بقوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشْرِقيْنَ وَرَبُّ المَغْرِبِينَ ﴾ وبين هاتين الغائتين مائة وثمانون مَشْرِقا ويقابلها مائة وثمانون مَغْرِبًا ، ففي كل يوم تَطَلُعُ في مَطَلَعٍ من المشرق غير الذي تَطَلُعُ فيه بالأمس ، وتَغْرُبُ في مغرب غير الذي تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالى : ﴿ رَبُّ المَشَارِقِ والمَغَارِبِ ﴾ ونقطة الوسط بين هاتين الغائتين : وهي التي يعتدل فيها الليل والنهار يُسَمَّى مَطَلَعِ الشمس فيها مَشْرِقُ الأَسْتَوَاءِ ، ومَغْرِبُ الأَسْتَوَاءِ ، ومطلعها حينئذٍ بالقرب من مَطَلَعِ السماك الأعزل .

وقد قسّم علماء الهيئة ما بين غاية الأرتفاع وغاية الهبوط اثني عشر قسما ، قالوا : والمعنى في ذلك أن الشمس في المبدأ الأول لما سارت مسيرها الذي جعله الله خاصا بها قطعت دَوْرَ الفلك التاسع في ثلثمائة وستين يوما ، وسميت جملة هذه الأيام سنة شمسية وسميت بحركتها هذه في هذا الفلك دائرة عظمى على ما توهمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلى ثلثمائة وستين جزءا وسموا كل جزء درجة ، ثم قسمت هذه الدرّج إلى اثني عشر قسما على عدد شهور السنة ، وسموا كل قسم منها برجاً ، وجعلوا ابتداء الأقسام من نقطة الاعتدال الربيعي : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا في كل قسم من هذه الأقسام نجوماً تتشكّل منها صورة من الصور فسموا كل قسم بأسم الصورة التي وجدوها عليه ، وكان القسم الأول الذي ابتدؤا به نجوماً إذا جُمِعَ متفرّقا تشكّلت صورة حَمَلٍ ، فسموها بالحمل ، وكذلك البواقي .

قال صاحب "مناهج الفكر" : وذلك في أول ما رصّدوا ، وقد آتت قلت الصور عن أمكتها على ما زعموا فصار مكان الحمل الثور ، وهي تنتقل على رأى بطليموس في ثلاثة آلاف سنة وعلى رأى المتأخرين في ألفي سنة .

إذا علمت ذلك فأعلم أن الدّورة الفلكية في العرُوض الشماليّة تنقسم إلى ثلاثمائة وستين درجة ، كما تقدّمت الإشارة إليه ، والسنة ثلاثمائة وستون يوماً منقسمة على الأثني عشر برجا المتقدم ذكرها ، لكل برج منها ثلاثون يوماً ، وتوزّع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنقصان بحسب سير الشمس في تلك البروج فما نقص من أحدهما زيد في الآخر . وذلك أنها إذا حلّت في رأس الحمل وهي آخذة في الارتفاع إلى جهة الشمال ، وذلك في السابع عشر من برمهات من شهور القبط ، ويوافق الحادى والعشرون من آذار من شهور السريان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حرداماه من شهور الفرس ، أعتدل الليل والنهار ، فكان كل واحد منهما مائة وثمانين درجة ، وهو أحد الاعتدالين في السنة ، ويسمى الاعتدال الربيعي : لوقوعه أول زمن الربيع فيزيد النهار فيه في كل يوم نصف درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة ، والليل على مائة وخمس وستين درجة .

ثم تنقل إلى الثور فيزيد النهار فيه كلّ يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات ، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة . ثم تنقل إلى الجوزاء فيزيد النهار فيها كلّ يوم سدس درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار آخرها على مائتين وعشر درجات والليل على مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية ارتفاعها في جهة الشمال . وهذا أطول يوم في السنة وأقصر ليلة في السنة . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً صاعداً : لصعودها في جهة الشمال .

ثم تتقل الشمس إلى السرطان وتكثر راجعة إلى جهة الجنوب، ويسمى ذلك المُنْقَلَبَ الصيفيَّ، وذلك في العشرين من بؤنة من شهور القبط، وبيق من حزيران من شهور السريان، ويونيه من شهور الروم خمسة أيام، وحينئذ يأخذ الليل في الزيادة والنهار في النقصان، فينقص النهار فيه في كل يوم سدس درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائتين وخمس درجات، والليل على مائة وخمس وخمسين درجة.

ثم تنقل إلى الأسد فينقص النهار فيه كل يوم ثلث درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وتسعين درجة، والليل على مائة وخمس وستين درجة.

ثم تنقل إلى السنبلة فينقص النهار فيها كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيها لمدة ثلاثين يوماً خمسة عشر درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخرها على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار. ويسمى الاعتدال الخريفي: لوقوعه في أول الخريف. ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة شمالياً هابطاً، لهبوطها في الجهة الشمالية.

ثم تنقل إلى الميزان في الثامن عشر من توت من شهور القبط، وهي آخذة في الهبوط، والنهار في النقص والليل في الزيادة، فينقص النهار فيه كل يوم نصف درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة، وزيادة الليل كذلك، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة.

ثم تنقل إلى العقرب ، فينقص النهار في كل يوم ثلث درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى القوس ، فينقص النهار فيه كل يوم سدس درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم في السنة وأطول ليلة في السنة ، وذلك غاية هبوطها في الجهة الجنوبية . ويسمى سير الشمس في هذه البروج جنوبياً هابطاً ، لهبوطها في الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلى الجدى في السابع عشر من كيهك وتكر راجعة ، فتأخذ في الارتفاع وتأخذ النهار في الزيادة والليل في النقصان ، فيزيد النهار فيه كل يوم سدس درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى الدلو ، فيزيد النهار فيه كل يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً عشر درجات ونقص الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلى الحوت فيزيد النهار فيه كل يوم نصف درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدة ثلاثين يوماً خمس عشرة درجة ونقص الليل كذلك ،

ويصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقدم . ويسمى سير الشمس في هذه البروج الثلاثة جنوبياً صاعداً : لصعودها في الجهة الجنوبية ، وهذا شأنها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .

وهذا العمل إنما هو في مصر وأعمالها ؛ فإذا اختلفت العروض كان الأمر في الزيادة والتقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه - إذا أردت أن تعرف الشمس في أي برج من البروج وكَم قطعت منه في أي وقت شئت فأقرب الطرق في ذلك أن تعرف الشهر الذي أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه ^(١)

الجملة الرابعة

(في بيان ما يعرف به ابتداء الليل والنهار)

وقد تقدم أن النهار الطبيعي أوله طلوع الشمس وآخره غروبها، والنهار الشرعي أوله طلوع الفجر الثاني وآخره غروب الشمس ؛ فيخالفه في الابتداء ويوافقه في الانتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاص العام . أما الفجر فإن أمره خفي لا يعرفه كل أحد ؛ وقد تقدم أنقسامه إلى كاذب : وهو الأول ، وصادق : وهو الثاني ، وعليه التعويل في الشرعيات ، فيحتاج إلى توضيح يوضحه ويظهره للعيان . وقد جعل المنجمون وعلماء الميقات له نجوماً تدل عليه بالطلوع والغروب والتوسط ، وهي منازل القمر ، وعددها ثمان وعشرون منزلة : وهي الشرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والحقعة ، والهنة ، والذراع ، والنثرة ، والطرف ، والجهة ،

(١) بياض في الأصل .

والخَرَّتَانِ ، والصَّرْفَةِ ، والعَوَاءِ ، والسَّمَكِ ، والغَفْرِ ، والزَّبَانِ ، والإِكْلِيلِ ، والقَلْبِ ،
والشَّوْلَةِ ، والنَّعَامِ ، والبَلْدَةِ ، وسَعْدُ الذَّابِحِ ، وسَعْدُ بُلْعِ ، وسَعْدُ السُّعُودِ ، وسَعْدُ
الأُخْيِيَةِ ، والفَرَعُ المَقْدَمِ ، والفَرَعُ المُوَنَّرِ ، وبطن الحَوْتِ ،

والمعنى في ذلك أن الشمس إذا قُرِبَتْ من كوكب من الكواكب النابتة
أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون ، فصار يظهر نهاراً ويختفي ليلاً ويكون خفائه
غيبَةً له ، ولا يزال كذلك خافياً إلى أن تبعد عنه الشمس بعداً يمكن أن يظهر معه
للأبصار وهو عند أول طلوع الفجر فإن ضوء الشمس يكون ضعيفاً حينئذ فلا يغلب
نور الكوكب فيرى الكوكب في الأفق الشرقي ظاهراً ، وحصّة كل منزلة من هذه
المنازل من السنة ثلاثة عشر يوماً وربع سبع يوم ونصف ثمن سبع يوم على التقريب
كما سيأتي على المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ما ذكر من العدد والكسور^(٢)
ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوماً : وهي ثلاث عشرة درجة
من درج الفلك وجمع ما فضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوماً بعد انقضاء أيام
المنازل الثمانية والعشرين فكان يوماً وربعاً فجعل يوماً في المنزلة التي توافق آخر السنة
وهي الجهة فكان حصتها أربعة عشر يوماً ، وبقى ربع يوم ونسيء أربع سنين حتى
صار يوماً فزيد على الجهة أيضاً ، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلع مع الفجر
منها أربعة عشر يوماً ثلاث سنين وفي السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوماً .

فأما الشَّرَطَانِ : وهما المنزلة الأولى ، فأول طلوعهما بالفجر في الثالث والعشرين
من برمودة من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من نيسان من شهور السُّريَانِ .

وأما البَطِينِ : وهو المنزلة الثانية فأول طلوعه بالفجر في السادس من بشنس من
شهور القبط ، وهو أول يوم من أيَّار من شهور السُّريَانِ .

(١) لعله يختفي نهاراً ويظهر ليلاً . ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة .

(٢) كذا في الأصل ولعله فإن أيام السنة إذا قسمت على الخ .

- وأما الثُّرَيَّا : وهى المنزلة الثالثة فأول طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السريان .
- وأما الدَّبْرَان : وهو المنزلة الرابعة فطلوعها بالفجر فى الثانى من يؤنه من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .
- وأما الهَقَّعة : وهى المنزلة الخامسة، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من يؤنه من شهور القبط، وهو التاسع من حزيران من شهور السريان .
- وأما الهَنْعة : وهى المنزلة السادسة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن والعشرين من يؤنه من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من حزيران من شهور السريان .
- وأما الدَّرَاع : وهو المنزلة السابعة ، فأول طلوعه بالفجر فى الحادى عشر من أيبب من شهور القبط، وهو الخامس من تموز من شهور السريان .
- وأما النَّثْرَة : وهى المنزلة الثامنة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أيبب من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السريان .
- وأما الطَّرْف : وهو المنزلة التاسعة، فأول طلوعه بالفجر فى السابع من مسرى من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السريان .
- وأما الجبهة : وهى المنزلة العاشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرى من شهور القبط، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .
- وأما الخَرْتَان : وهو المنزلة الحادية عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى الرابع من أيام النسيء القبطى ، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .
- وأما الصَّرْفَة : وهى المنزلة الثانية عشرة، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط، وهو التاسع من أيلول من شهور السريان .

وأما العَوَاء : وهى المنزلة الثالثة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين

من توت من شهور القبط ، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السريان .

وأما السَّمَاك : وهى المنزلة الرابعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه

من شهور القبط ، وهو الخامس من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما العَفْر : وهى المنزلة الخامسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين

من بابه من شهور القبط ، وهو الثامن عشر من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الزُّبَانِ : وهى المنزلة السادسة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الرابع من

هاتور من شهور القبط ، وهو آخر يوم من تشرين الأول من شهور السريان .

وأما الإِكْلِيل : وهو المنزلة السابعة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى السابع عشر

من هاتور من شهور القبط ، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما القَلْب : وهو المنزلة الثامنة عشرة ، فأول طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور

من شهور القبط ، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما الشُّوْلَة : وهى المنزلة التاسعة عشرة ، فأول طلوعها بالفجر فى الثالث عشر

من كيهك من شهور القبط ، وهو التاسع من كانون الأول من شهور السريان .

وأما النَّعَامُ : وهى المنزلة العشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين

من كيهك من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من كانون الأول من شهور

السريان .

وأما البَلْدَة : وهى المنزلة الحادية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى التاسع من

طوبه من شهور القبط ، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الذَّبَابِجُ : وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثاني من شهور
السريان .

وأما سَعْدُ بَلَعٍ : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الخامس
من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السريان .

وأما سَعْدُ السُّعُودِ : وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في الثامن
عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثاني عشر من شباط من شهور السريان .

وأما سَعْدُ الأَخْبِيَّةِ : وهو المنزلة الخامسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر أول
يوم من برمهات من شهور القبط ، وهو الخامس والعشرون من شباط من شهور
السريان .

وأما الفَرَّغُ المُقَدِّمُ : وهو المنزلة السادسة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر
في الرابع عشر من برمهات من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .

وأما الفَرَّغُ المؤخَّرُ : وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في السابع
والعشرين من برمهات من شهور القبط ، وهو الثاني والعشرون من آذار من شهور
السريان .

وأما بَطْنُ الحوتِ : وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأول طلوعها بالفجر في العاشر
من برمودة من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبي عبد الله محمد القرطبي أبياتا ، يعلم منها
مطالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غلط
بعض الناس فنسبها إلى الشيخ عبد العزيز الديريني رحمه الله ، وهي هذه :

تبيص تهكع بحس بكأغ هدز * هيزاء هلق كيجش ككون برز

(١)
 ططب طكبذ أهب أيجس بأخ * بيدم بكرم بيت بكجش رمز
 وليس فيها من الحشوات قط سوى * أوأحر النظم فافهم شرحها لتعز
 وبيان ذلك أن الحرف الأول من كل كلمة أسم للشهر الذي تطلع فيه تلك المنزلة
 والحرف الآخر منها أسم المنزلة وما بين الآخر والأول عدد ما مضى من الشهر بحسب
 الجمل ، مثال ذلك التاء من تبيض كناية عن توت ، والصاد منها كناية عن الصرفة ،
 والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجمل اثنا عشر ، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكأنه
 قال في الثاني عشر من توت تطلع منزلة الصرفة بالفجر ، وكذلك البواقي ، إلا أنه
 لا عبرة بأواخر البيتين ، وهي برز في البيت الأول ، ورمز في البيت الثاني .
 ونظم الإمام محب الدين جار الله الطبري أبياتاً كذلك على شهر السريان ،
 وهي هذه :

تهس تحيغ تلز تجيء * توكق كطش كبكن نزول
 كدب كويذ كلب شيس * شهكح أزم أبكم أول
 نهب نحيش آب * أوكد حطت حبكه ضجول

والحال في هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأوسطها كالحال في الأبيات
 المتقدمة ، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأول والسين إشارة للسمك ، والهاء بينهما
 بخمسة ففي الخامس من تشرين الأول يطلع السمك ؛ وعلى هذا الترتيب في البواقي .
 وأعلم أن هذه المنازل لا تزال أربع عشرة منزلة منها ظاهرة فوق الأرض في نصف
 الفلك وأربع عشرة منزلة منها خافية تحت الأرض في نصف الفلك ، وهي مراقبة
 بعضها لبعض لأستواء مقادير أبعادها ، فإذا طلعت واحدة في الأفق الشرقي غربت
 واحدة في الأفق الغربي ، وكانت أخرى متوسطة في وسط الفلك فهي كذلك أبداً .

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالأصل وبه تكمل الشهور والمنازل .

والقاعدة في معرفة ذلك أنك تبتدىء بأية منزلة شئت ، وتعدّ منها ثمانية من الطالع
فالثامنة هي المتوسطة والخامسة عشرة هي الغاربة ؛ فإذا كان الطالع الشرطين فالمتوسط
الثمرة والغارب الغفر ؛ وكذلك في جميع المنازل ؛ وفي مراقبة الطالع منها للغارب يقول
بعض الشعراء مقيداً لها على الترتيب بادئاً بطلوع النّطّيح : وهو الشرطان وغروب
الغفر حينئذ :

كَمْ أَمَا لَوْ مِنْ نَاطِحٍ بَاغْتَفَارٍ * وَأَحَالُوا عَلَى الْبُطَيْنِ الزُّبَانِي
وَالثُّرَيَّا تَكَلَّتْ فَرَأَيْتَا الْقَلْبَ مِنْهَا يُشَعَّرُ الدَّبْرَانَا
هَقَعُوا شَوْلَةَ وَهَنَعُوا نَعَامَا * بَعْدَ مَا ذَرَعُوا الْبِلَادَ زَمَانَا
نَتَرُوا ذُبُجَهُمْ بِطَرْفِ بُلَيْعٍ * جَبْهَةَ السَّعْدِ فِي خَرَاتِ خَبَانَا
فَانصَرَفْنَا فِي الْمَقْدَمِ عَوَا * آخِرَا وَالسَّمَاءَ مَدَّ رِشَانَا

وقال آخر :

النّطّيح يَغْفِرُ وَالْبُطَيْنُ مُزَابِنُ * ثُمَّ الثُّرَيَّا تَبْنِي إِكْلِيلَا
وَالْقَلْبَ لِلدَّبْرَانِ خِلُّ عَادِرِ * مِنْ أَجْلِ هَقْعَةِ شَوْلَةَ مَا قِيلَا
تَهْوَى الْهَنْيَعَةَ لِلنَّعَامِ مِثْلَ مَا * يَنْوِي الذَّرَاعَ لِبَلَدَةِ تَرْجِيلَا
وَالثُّرَيَّا يَذُحُّ عِنْدَ طَرْفِ بُلُوعِهِ * وَجَبْهَةَ سَعْدٍ غَدَا مَقُولَا
وَلِزُبْرَةِ وَسَطِ الْخِبَاءِ إِقَامَةً * فَاصْرِفْ مَقْدَمَ ذِكْرَهَا تَعْجِيلَا
يَهْوَى الْمُؤَخَّرَانَ سِمَاكَ مَرَّةً * مَدَّ الرَّشَاءَ لِحَيْدِهِ تَتَكَلَّمَا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشوريّ الشمير بالسهرورديّ أرجوزةً ، ذكر
فيها الطالع ، ثم الغارب في بيت وبعده المتوسط ثم الودد وهو الذي يقابله تحت
الارض في بيت ثان - قال :

(١)

إن طلع الشرطان

بُطِينَهَا نُورَ الزُّبَانِ خَلَعٌ * فَنَاعِسُ الطَّرْفِ رَمَى سَعْدِ بَلَعٍ
 مُرِيًّا مَعَ الْإِكْلِيلِ بِالْوُقُودِ * تُنَوِّرُ الْجِهَةَ فِي السُّعُودِ
 وَالذَّبْرَانُ الْقَلْبَ مِنْهُ يَخْفِقُ * فَالْحَرَاتَانُ لِلْجِبَاءِ يَطْرُقُ
 وَهَقْعَةٌ شَوْلَتْهَا مِنْهَزِمَةٌ * وَصَرْفَةٌ بَفَرْغِهَا مُقَدَّمَةٌ
 وَهَنْعَةٌ مِنْهَا النَّعَائِمُ تَفَرَّتْ * بَعْوَةٌ بِالْفَرْغِ قَدْ تَأَخَّرَتْ
 رَمَى الذَّرَاعُ بِلَدَّةٍ أَصَابَهَا * سَمَّاكَ بَطْنِ الْحَوْتِ مَا أَصَابَهَا
 فَهَذِهِ جَمَلَتَا مَكْمَلَةٌ * لِلشَّمْسِ فِي ثَلَاثِ عَشْرٍ مِثْرَلَةٌ

الجملة الخامسة

(في ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة : لما كان الفلك متحركاً حركاتٍ متعددةً يتلو بعضها بعضاً ،
 جعل مقدار كل حركة منها يوماً ، ولما كانت الشمس في حركة من هذه الحركات تارةً
 تكون ظاهرة لاهل الربع المعمور وتارة مستترة عنهم بحدبة الأرض ، آنقسم لذلك
 مقدار تلك الحركة إلى الليل والنهار ، فالنهار عبارة عن الوقت الذي تظهر فيه الشمس
 على ساكني ذلك الموضع من المعمور ، والليل عبارة عن الوقت الذي تخفى عنهم فيه ،
 فإنه يوجد وقت الصبح في موضع وقت طلوع الشمس في موضع آخر ، وفي موضع
 آخر وقت الظهر ، وفي موضع آخر وقت المغرب ، وفي موضع آخر وقت نصف الليل .
 ولما كانت منطقة البروج مقسومة إلى اثني عشر برجاً ، وكل برج إلى ثلاثين
 درجة ، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقة بحركة فلك الكل لها في زمان اليوم

الجامع لليل والنهار، قُسم كل واحد منهما إلى اثني عشر جزءاً، وجعل قسط كل جزء منها خمس عشرة درجة، وسمي ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما على الآخر ويتساويان في الاعتدالين على مامرتنا، اضطررنا إلى أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمى المعتدلة، وزمانية وتسمى المعوجة. فالمستوية تختلف أعدادها في الليل والنهار، وتتفق مقاديرها بحسب طول النهار وقصره. فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وإن قصر كانت ساعاته أقل، مقدار كل ساعة منه خمس عشرة درجة لا تزيد ولا تنقص، والمعوجة تتفق أعدادها وتختلف مقاديرها، فإن زمان النهار طال أو قصر ينقسم أبداً إلى اثنتي عشرة ساعة، مقدار كل واحدة منها نصف سدس الليل والنهار، وهي في النهار الطويل أطول منها في القصير. والذي كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانية دون المستوية، فكانوا يقسمون كلا من الليل والنهار إلى اثنتي عشرة ساعة، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسماءً تخصها.

فأما ساعات الليل فسموا الأولى منها الشاهد، والثانية الغسق، والثالثة العتمة، والرابعة الفحمة، والخامسة الموهن، والسادسة القطع، والسابعة الجوشن، والثامنة الهتكة، والتاسعة التبشير، والحادية عشرة الفجر الأول، والثانية عشرة الفجر المعترض.

وأما النهار فسموا الساعة الأولى منه الدرور، والثانية البزوغ، والثالثة الضحى، والرابعة الغزلة، والخامسة الهاجرة، والسادسة الزوال، والسابعة الدلوك، والثامنة العصر، والتاسعة الأصيل، والعاشره الصبوب، والحادية عشرة الحدود، والثانية عشرة الغروب.

(١) العاشرة غير موجودة في الاصل. وعند في نهاية الأرب بعد التبشير الفجر الأول ثم الفجر الثاني ثم المعترض وبه تعلم ما هنا (٢) لعل صوابه الحدور.

وتروى عنهم على وجه آخر؛ فيقال فيها : البُكُور، ثم الشُّروق ، ثم الإِشراق ،
ثم الرُّاد ، ثم الضُّحى ، ثم المُنُوع ، ثم الهاجرة ، ثم الأصيل ، ثم العَصْر ، ثم الطَّفَل
(بتحريك الفاء) ، ثم العِشى ، ثم الغروب . ذكرهما ابن النحاس في "صناعة الكتاب".
قال في "مناهج الفكر" : ويقال إن أول من قسم النهار إلى اثنتي عشرة ساعة آدم عليه
السلام ، وصن ذلك وصيةً لابنه شيث عليه السلام ، وعرفه ماوظف عليه كل ساعة
من عمل وعبادة والله أعلم .

الجملة السادسة

(في أيام الأسبوع ، وفيها أربعة مدارك)

المُدْرَكُ الأوَّلُ

(في ابتداء خَلْقِهَا وأصل وجودها)

وقد نطق القرآن الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل .
أما الإجمال فقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ .
وأما التفصيل فقولهُ تعالى : ﴿ قُلْ أَنتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ
وَيَجْعَلُونَ لَهُ أُنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ
فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ثُمَّ أَسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا
وَالْأَرْضِ انبِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَفَضَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾
والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومين المتقدمين ، ومثله في كلام العرب كثير ،
ومنهُ قوله صلى الله عليه وسلم " إذا نام أحدكم جاء الشيطان فعقد تحت رأسه ثلاث
عقد ، فإذا استيقظ فذكر الله تعالى انحلت عقدة ، فإذا توضأ انحلت عقدتان ، فإذا
صلى انحلت الثالثة " فالمراد بقوله عقدتان عقدة والعقدة الأولى . وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريحُ الآيات في غير هذه الآية أن خلقَ السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ابنُ جرير من رواية ابن عباس رضى الله عنهما ” أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم ، تسأله عن حَاقِ السموات والأرض ، فقال خلقَ اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثنينِ ، وخلقَ الجبالَ يومَ الثلاثاءِ وما فيهنَّ من منافعَ ، وخلقَ يومَ الأربعاءِ المدائنَ والشجرَ والعمرانَ والحرابَ ، فهذه أربعةُ أيَّامَ ، وخلقَ يومَ الخميسِ السماءَ ، وخلقَ يومَ الجمعةِ النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ إلى ثلاثِ ساعاتٍ بقيتَ منه ؛ وفي الثانية ألقى الآفةَ على كلِّ شيءٍ مما ينتفع به الناسُ ، وفي الثالثة خلقَ آدمَ وأسكنه الجنةَ وأمر إبليسَ بالسُّجودَ له ، وأخرجه منها في آخر ساعةٍ ” قالت اليهود ، ثم ماذا؟ قال ” ثم أستوى على العرش ” قالوا : أصبت لو أتممت ، قالوا : ثم أستراح فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا فترل ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره : وفيه غرابة ، ولا ذكر في هذا الحديث ليوم السبت في أول الخلق ولا في آخره ، نعم ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه ، أنه قال ” أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بيدي فقال خلقَ اللهُ التُّربةَ يومَ السبتِ ، وخلقَ فيها الجبالَ يومَ الأحدِ ، وخلقَ الشجرَ يومَ الاثنينِ ، وخلقَ المكروه يومَ الثلاثاءِ ، وخلقَ النورَ يومَ الأربعاءِ ، وبثَّ فيها الدوابَّ يومَ الخميسِ ، وخلقَ آدمَ بعدَ العصرِ يومَ الجمعةِ آخرَ الخلقِ في آخر ساعةٍ من ساعاتِ الجمعةِ ، فيما بينَ العصرِ إلى الليلِ ” قال ابن كثير وهو من غرائب الصحيح ، وعله البخاريُّ في تاريخه فقال رواه بعضهم عن أبي هريرة عن كعبِ الأحبار ، وهو أصح . فقد ورد التصريح في هذا الحديث بذكر الأيام السبعة ووقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولى من الحديث الذى قبله ، وأستدل بأن الفراغ كان يوم الجمعة ، وخالفه غيره من العلماء الحدائق النظار . وقالوا دليله دليل على خطئه : لأن الخلق فى ستة أيام يوم الجمعة منها كما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدخل فى الأيام لكأن الخلق فى سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . على أن أكثر أهل العلم على حديث ابن عباس ، فتبين أن الأبتداء يوم الأحد إذ كان الآخر يوم الجمعة ، وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : على أن الحديثين ليسا بمتناقضين ، لأننا إن عملنا على الأبتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لا يخلق بعدها شيئا وإن عملنا على الأبتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكى أبو جعفر النحاس أن مقدار كل يوم من أيام خلق السموات والأرض ألف سنة من أيام الدنيا ، وأنه كان بين أبتدائه عز وجل فى خلق ذلك وخلق القلم الذى أمره بكتابة كل ما هو كائن إلى قيام الساعة يوم : وهو ألف عام ، فصار من أبتداء الخلق إلى آتتهائه سبعة آلاف عام ، وعليه يدل قول ابن عباس : إن مدة إقامة الخلق إلى قيام الساعة سبعة أيام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا باب مداره على النقل دون الآراء .

المُدْرَكُ الثَّانِي

(فى أسمائها . وقد آخِطِفَ فى ذلك على ثلاث روايات)

الرواية الأولى - ما نطقت به العرب المستعربة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرى عليه الاستعمال إلى الآن : وهو الأحد والاشان والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت .

والأصل في ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : "إن الله عز وجل خلق يوماً واحداً فسماه الأحد ، ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين ، ثم خلق ثالثاً فسماه الثلاثاء ، ثم خلق رابعاً فسماه الأربعاء ، ثم خلق خامساً فسماه الخميس " ولا ذكر في هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما الله تعالى في كتابه العزيز . قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾ وقال جل وعز ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا ﴾ . وسياطتان في غير هذه الرواية عند ذكر الاختلاف فيما ابتدئ فيه الخلق منها .

فالأحد بمعنى واحد ويقال بمعنى أول ورجحه النحاس ، وهو المطابق لتسمية الثاني بالاثنتين . والثالث بالثلاثاء . وقيل أصله وحده بفتح الواو والحاء كما أن أناة أصلها ونأة ، ويجمع في القسلة على أحادٍ وأحداتٍ ، وفي الكثرة على أحوود وأوحد ويحكي في جمعه أحد أيضاً قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنتان بمعنى الثاني . قال النحاس ، وسبيله أن لا يثنى ، وأن يقال فيه : مضت أيام الاثنين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريون الأثن والجميع الثني . وقال ابن قتيبة في أدب الكاتب : إن شئت أن تجمه فكأنه مني للواحد قلت اثنتين . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفراء في الأيام وقال : إنما يجوز على حيلة بعيدة ، وهي أن يقال اليوم الاثنان فتضم النون فتصير مثل عمران فتثنيه وتجمعه على هذا . وحكى عن الفراء أيضاً في جمع الكثرة اثان فتقول مضت اثان مثل أسماء وأسام قال : وقرأت على أبي إسحاق في كتاب سيويه فيما حكاه اليوم الثني فتقول على هذا في الجمع الاثناء .

والثلاثاء بمعنى الثالث، ويجمع على ثلاثاوات وحقى الفراء أَنَاثًا . قال النحاس
ويجوز أَنَاثِيثٌ ، وكذا ثَلَاثِيثٌ مثل جمع ثلاثة لأن أَنِيثَ التأنِيثِ كالهَاءِ . وتقول
فيه مضت الثلاثاءُ على تأنِيثِ اللفظ ومضى على تذكيرِ اليوم ، وكذا في الجمع تقول
مضت ثلاثٌ ثلاثاوات ، وثلاثةٌ ثلاثاوات .

والأربعاء بمعنى الرابع ، ويجمع على أربعاوات وكذا أربعاءٍ والياء فيه عوضٌ
ما حُذِفَ ، فإن لم تعوّض قلت أربع . وأجاز الفراء أربعاءات مثل ثلاثاءات ومنعه
البصريون للفرق بين ألف التأنِيثِ وغيرها .

والخميس بمعنى الخامس ، ويجمع في القِلَّةِ على أَنْحِمِسة . وفي الكثرة على تُحْمِس
وَحْمِسانِ كُرْعَفٍ ورُغْفانٍ . ويقال أَنْحِمِساءُ كَأَنْصِبَاءِ ، وحقى عن الفراء في الكثرة أَحْمِسانِ .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وأختلف في سبب تسميته بذلك

فقال النحاس : لأَجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر في أن الأسم كان بها قديما وقيل
لأَجتماع الناس للصلاة فيه . ثم اختلف فقيل سميت بذلك في الجاهلية وأُحْتَجَّجَ له

بما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل أن أول من سُمي الجمعة جمعة كعب
أبن لؤى جد النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنه جمع قُرَيْشا وخَطَبهم فسميت جمعة
وكانوا لا يعرفون قبل ذلك إلا العروبة . وقيل إنما سميت بذلك في الإسلام وذلك

أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه بعد كل ستة أيام ، وللنصارى

كذلك فهأُمُوا نجعلُ لنا يوما نجتمع فيه نذكرُ الله تعالى ونُصَلِّي ، فقالوا يوم السبتِ

لليهود ويوم الأحد للنصارى فأجعلوا يوم العروبة لنا فأجتمعوا إلى سعد بن زُرارة

الأنصارى فصلّى بهم يومئذ ركعتين وذكّرهم فسمّوه يوم الجمعة . لأَجتماعهم فيه فأنزّل

الله تعالى سورة الجمعة . على أن السَّهْبِيَّ تقد قال في الروض الأُنْف : إن يوم الجمعة

كان يسمّى بهذا الاسم قبل أن يصلّى الأنصارُ الجمعة .

أما أول جمعة جمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحب الأوائل فإنه لما قدم المدينة مهاجراً نزل على بنى عمرو بن عوف وأقام عندهم أياماً ثم نخرج يوم الجمعة عائداً إلى المدينة فأدركته الصلاة في بنى سالم بن عوف في بطن وادٍ لهم فخطب وصلى بهم الجمعة . وتجمع على جمع وجمعات بالفتح والتسكين .^(١)

والسبت ومعناه القطع بمعنى أنه قُطِعَ فيه الخلق على رأى من يرى أن السبت آخر أيام الجمعة ، وأنه لخلق فيه على ماسياتى ذكره . وقول النحاس إنه مشتق من الراحة أيضا لاعتباره به لمُصَاهَاة قول اليهود فيه على ماسياتى إِبْتِداء الله تعالى . ويجمع في القلّة على أسبُت وسبّات بالتحريك ، وفي الكثرة على سُبُوت بضم السين مثل قَرَحٍ وقُرُوحٍ .

الرواية الثانية - ما يروى عن العرب العاربة من بنى قحطان وجرهم الأولى : وهو أنهم كانوا يُسمّون الأحد أول لأنه أول أعداد الأيام ويسمّون الاثنين أهون أخذنا من الهون والهويين ، وأوهداً أيضا أخذنا من الوهدة : وهى المكان المنخفض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأول فى العدد . ويسمّون الثلاثاء جبّاراً (بضم الجيم) لأنه جبر به العدد . ويسمّون الأربعاء دُبّاراً (بضم الدال المهملة) لأنه دبر ماجبر به العدد بمعنى أنه جاء دبره . ويسمّون الخميس مؤنسا لأنه يؤنس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا فى الإسلام ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتبرك به ولا يسافر إلا فيه وقال : " اللهم بارك لأمتى فى بكورها يوم نحيسها " . ويسمّون الجمعة العروبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفى لغة شاذة عروبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف ، ومعناه اليوم البين أخذنا من قولهم أعرب إذا أبان ، والمراد أنه بين العظمة والشرف ، إذ لم يزل معظما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجمّات أيضا بضمّتين . قال فى المصباح كغرفات فى وجوهها .

تعظيماً ، وقد ثبت في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ” خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ ، وَفِيهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا “ . وَيُسَمُّونَهُ أَيْضاً حَرَّةً بِمَعْنَى أَنَّهُ مَرْتَفِعٌ عَالٍ كَالْحَرَّةِ الَّتِي هِيَ كَالرُّمْحِ ، كَمَا يُقَالُ مِحْرَابٌ لِرَأْفَتَاعِهِ وَعُلُوِّ مَكَانَتِهِ ، وَيُسَمُّونَ السَّبْتَ شَيْئَاراً (بِفَتْحِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَكَسْرِهَا مَعَ الْبَاءِ الْمَثْنَاةِ تَحْتُ) أَخْذًا مِنْ شُرْتِ الشَّيْءِ إِذَا اسْتَخْرَجْتَهُ وَأَظْهَرْتَهُ مِنْ مَكَانِهِ إِمَّا بِمَعْنَى أَنَّهُ اسْتَخْرَجَ مِنَ الْيَوْمِ الَّتِي وَقَعَ فِيهَا الْخَلْقُ عَلَى مَذْهَبٍ مِنْ يَرَى أَنَّهُ أَحْرَاقُ أَيَّامِ الْأَسْبُوعِ وَأَنَّ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ الْأَحَدُ وَأَتَمَّاهُ الْجُمُعَةُ ، وَإِمَّا بِمَعْنَى أَنَّهُ ظَهَرَ أَوَّلَ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ عَلَى مَذْهَبٍ مَنْ يَرَى أَنَّهُ أَوَّلُ الْجُمُعَةِ وَكَانَ ابْتِدَاءَ الْخَلْقِ فِيهِ ، وَإِلَى هَذِهِ الْأَسْمَاءِ يُشِيرُ النَّابِغَةُ بِقَوْلِهِ :

أُوْمَلُ أَنْ أَعِيشَ وَأَنْ يَوْمِي * لِأَوَّلِ أَوْ لِأَهْوَى أَوْ جُبَارِ
أَوْ التَّالِي دُبَارِ فَإِنَّ أَقْتَهُ * فَمُؤْنِسِ أَوْ عَرُوبَةَ أَوْ شِيَارِ

الرواية الثالثة - ما حكاها النحاس عن الضحَّاك : إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ليس منها يوم إلا له اسمٌ أُبجِدَ هُوَ حُطِّي كَلِمَن سَعَفَصَ قَرَشْتُ . وقد حكى السهيلي رحمه الله أن الأسماء المتداولة بين الناس الآن مروية عن أهل الكتاب ، وأن العرب المستعربة لما جاورتهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرفون إلا الأسماء التي وضعتها العرب العاربة : وهي أُبجِدَ هُوَ حُطِّي كَلِمَن سَعَفَصَ قَرَشْتُ التي خلق الله تعالى فيها سائر المخلوقات : عَلُوِيَّهَا وَسُفْلِيَّهَا . وهذا يخالف ما تقدم في الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلى أنها أسماءٌ للأيام التي وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أُبجِدَ اسماً للأحد على مذهب من يرى أن ابتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له في هذه الرواية .

(١) أسقط الناسخ الأجمال الثاني وقد ذكره في الضوء بقوله (ويحتمل أن أُبجِدَ اسم للسبت على رأى من يرى أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُدْرَكُ الثَّالِثُ

(في بيان أول أيام الأسبوع ، وما كان فيه ابتداء الخلق منها .
وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب)

المذهب الأول - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق الأحد . واحتج لذلك بما تقدم من حديث ابن عباس " أن اليهود أتت النبي صلى الله عليه وسلم فسألته عن خلق السموات والأرض فقال خلق الله عز وجل الأرض يوم الأحد " الحديث ومجديته الآخر " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد " وإذا كان ابتداء الخلق الأحد لزم أن يكون أول الأسبوع الأحد .

المذهب الثاني - أن أول أيام الأسبوع وأبتداء الخلق السبت . واحتج له بحديث أبي هريرة المتقدم " أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدي فقال خلق الله التربة يوم السبت " الحديث ، وإذا كان ابتداء الخلق السبت لزم أن يكون أول الأسبوع السبت .

المذهب الثالث - أن أول أيام الأسبوع الأحد ، لحديث " خلق الله يوماً واحداً فسماه الأحد ثم خلق ثانياً فسماه الاثنين " الحديث . وأبتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة المتقدم . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُدْرَكُ الرَّابِعُ

(في التفاؤلِ بأيام الأسبوع والتطيرِ بها وما يُعزى لكلِّ منها
من خير أو شرٍّ ، على ما هو متداول بين الناس)

وأعلم أنه لأصل لذلك من الشريعة ، ولم يرد فيه نص من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعة عن جعفر الصادق رضي الله عنه في توزيع الأعمال على الأيام : أنه قال : السبت يوم مكٍ وخديعة ؛ ويوم الأحد يوم غرسٍ وعمارة ؛ ويوم الاثنين

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة دمٍ وحربٍ ومكافحة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذٍ وعطاءٍ؛ ويقال يوم الخميس مستمرٌّ؛ ويوم الخميس يوم دخول على الأمراء وطلب الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم خلوة ونكاح . ووجهوا هذه الدعوى بأن قریشا مكّرت في دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتداء الخلق يوم الأحد، وأن شعيبا سافر للتجارة يوم الاثنين، وأن حواء حاضت يوم الثلاثاء، وفيه قتل قابيل هابيل أخاه، وأن فرعون غرق هو وقومه يوم الأربعاء، وفيه أهلك الله عاداً وثموداً^(١)، وأن إبراهيم دخل على التمرود يوم الخميس، وأن الأنبياء عليهم السلام كانت تنكح وتخطب يوم الجمعة . وقد نظم بعض الشعراء هذه الاختيارات في أبيات وإن كان قد خالف الواضع في مواضع فقال:

لنعم اليوم يوم السبت حقاً * لصيدٍ إن أردت بلا أمترأ
وفي الأحد البناء فإن فيه * تبدئ الله في خلق السماء
وفي الإثنين إن سافرت فيه * سترجع بالنجاح والغناء
وإن ترد الحجة في الثلاثاء * ففي ساعاته هب رق الدماء
وإن شرب أمرؤ منكم دواءً * فبعم اليوم يوم الأربعاء
وفي يوم الخميس قضاء حاج * فإن الله يأذن بالقضاء
ويوم الجمعة الترويح حقاً * ولذات الرجال مع النساء

وسياتى الكلام على ما يتعلق من ذلك بأيام الشهر في الكلام على الشهر في الفصل السابع من الكتاب إن شاء الله تعالى .

(١) مود بصرف ولا بصرف .

الطرف الثاني

(في الشُّهُورِ ، وهي على قسمين : طبيعيٌّ وأصطلاحِيٌّ)

القسم الأول

(الطبيعيُّ والمراد به القمريُّ)

وهو مدَّة مسير القمر من حين يفارق الشمس إلى حين يفارقها مرة أخرى :
وهي على ضربين :

الضربُ الأولُ

(شُهُورُ الْعَرَبِ)

والشهرُ العربيُّ عبارةٌ عمَّا بين رؤيةِ الهلالِ إلى رؤيته ثانياً ، وعددُ أيامه تسعةٌ وعِشرونَ يوماً ونصفَ يومٍ على التقريب ، ولما كان هذا الكسرُ في العددِ عسراً عدواً جملةَ الشهرين تسعةً وخمسينَ يوماً ، أحدهما ثلاثونَ وهو التام ، والآخَر تسعةٌ وعشرونَ وهو الناقص . وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث أمِّ سلمة رضي الله عنها « أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف لا يدخل على بعض نساءه شهراً فلما مضى تسعةٌ وعشرونَ غداً عليهم أوراخٌ فقبل يارسول الله حلفت لا تدخل عليهن شهراً فقال الشهرُ يكونُ تسعةً وعشرينَ » . وذلك بحسب مسير النيران : الشمسِ والقمرِ بالمسير الأوسط . أما بالمسير المقوم فإنه يتفق إذا استكمل الشهرُ رؤيةَ الهلالِ عياناً أن يتوالى شهران وثلاثةٌ تامةٌ وتوالي كذلك ناقصةٌ وعلى ذلك عملُ العربِ واليهودِ .
ولهم في استعماله طريقتان .

الطريقة الأولى

(طريقة العرب)

ومدة الشهر عندهم من رؤية الهلال إلى رؤية الهلال، وهي أسهل الطرق وأقربها، وعليها جاء الشرع، وبها نطق التنزيل قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(في أحوال الأهلة التي عليها مدار الشهور في ابتدائها وانتهائها)

واعلم أن مسير القمر مقدرٌ بمعرفة الشهور والسنين قال تعالى ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾ والشمس تُعْطِيهِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مَا يَسْتَضِيءُ بِهِ نِصْفَ سَبْعِ قُرْصِهِ حَتَّى يَكْمُلَ ثُمَّ تَسْلُبُهُ مِنَ اللَّيْلِ الْخَامِسَةِ عَشْرَةَ كُلَّ لَيْلَةٍ نِصْفَ سَبْعِ قُرْصِهِ حَتَّى لَا يَبْقَى فِيهِ نُورٌ فَيَسْتَرُ . ويزوي عن جعفر الصادق رضي الله عنه أنه سُئِلَ عَنِ الْقَمَرِ فَقَالَ : يُحَقِّقُ كُلَّ لَيْلَةٍ وَيُولَدُ جَدِيدًا؛ وَيَبْعُدُ مِثْلَ هَذَا عَنِ جَعْفَرِ الصَّادِقِ .

إذا علمت ذلك فالقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدم في الشمس .

أما الحركة السريعة فحركة فلك الكبد به من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق في اليوم واللييلة .

واعلم أن الهلال إذا طلع مع غروب الشمس كان مغيبه على مضي ستة أسابيع ساعة من الليل، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه في كل ليلة ماضية هذا المقدار حتى يكون مغيبه في الليلة السابعة نصف الليل، وفي الليلة الرابعة عشرة طلوع الشمس،

ثم يكون طلوعه في الليلة الخامسة عشرة على مضي ستة أسابيع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه في كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصف الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغدأة .

وإذا أردت أن تعلم على مضي كم من الساعات يغيب أو يطالع من الليل، فإن أردت المغيب وكان قد مضي من الشهر خمس ليال تقديرا فأضربها في ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى اثنان فيكون مغيبه على مضي أربع ساعات وثلاثة^(١) أسابيع ساعة، وكذلك العمل في أي ليلة شئت؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضي من الإبدار ست ليال مثلا فأضرب ستة في ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع، وكذلك العمل في أي ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليالي الشهر بعد استهلاله كل ثلاثة أيام قسما وسمتها بأسم فالثلاث الأول منها هلال، والثلاث الثانية قمر، والثلاث الثالثة بهر، والثلاث الرابعة زهر (والزهر البياض)، والثلاث الخامسة بيض: لأن الليالي تبيض بطلوع القمر فيها من أولها إلى آخرها، والثلاث السادسة درع: لأن أوائلها تكون سودا وسائرها بيض، والثلاث السابعة ظلم، والثلاث الثامنة حنادس، والثلاث التاسعة دادي (الواحدة منها دأداة على وزن فعلة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها محاق وليلة سرار لإمحاق الشمس القمر فيها .

ومنهم من يقول ثلاث غرز: (وغزة كل شيء أوله)، وثلاث شهب، وثلاث زهر، وثلاث تسع: لأن آخريوم منها اليوم التاسع، وثلاث بهر، بهر فيها ظلام الليل، وثلاث بيض، وثلاث درع، وثلاث دهم وغم وحنادس، وثلاث دادي. ويروي عنهم أنهم يسمون ليلة ثمان وعشرين الدجاء، وإيلة تسع وعشرين

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التي قبلها بدليل التعليل .

الدَّهْمَاءُ، وليلة ثلاثين الليلاء، وهم يقولون في أَسْبَاحِهِمْ : القمرَ ابنَ ليله ، رَضَاعُ سُخَيْلِهِ ، حَلَّ أهلها بِرَمَيْلِهِ ؛ وابنَ ليلتين حديثُ أَمْتَيْنِ ، كَذِبٌ وَمِينٌ ؛ وابنَ ثلاث ، قليل اللبَّاثُ ؛ وابنَ أربع ، عَتمَة أم رُبْعٍ ، لاجائع ولا مُرَضِعٍ ؛ وابنَ خمس ، حديثٌ وَأُنْسٌ ، وَعِشَاءٌ خَلِيفَاتُ قُفُسٍ ؛ وابنَ ست ، سِرْوَيْتٌ ؛ وابنَ سبع ، دُبْلَجَةٌ ضَبْعٌ ، وحديثٌ وَجَمْعٌ ؛ وابنَ ثمان ، قَمَرٌ إِصْحِيَانٌ ؛ وابنَ تسع ، مَحْدُو النَّسْعِ ، ويقال الشَّسْعُ ؛ وابنَ عَشْرٍ ، مُحَنَّقُ الفَجْرِ ، وثأثُ الشَّهْرِ .

هذا هو المحفوظ عن العرب في كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت في بعض المجاميع على زيادة إلى آخر الشهر ، وكأها والله أعلم مصنوعه ، وهي على السنة العرب موضوعه ، وهي : وابنَ إحدى عشره ، يُرى عِشَاءً وَيُرى بُكْرَهُ ، وابنَ اثنتي عشرة ، مُرْهَقُ البِشْرِ بالبَدْوِ والحَضْرَةِ ، وابنَ ثلاث عشرة ، قَمَرٌ باهِرٌ ، يُعْشَى الناظر ، وابنَ أربع عشرة مُقْبِلُ الشَّبَابِ ؛ مَضِيٌّ دُجْنَاتُ السَّحَابِ ؛ وابنَ خمس عشرة تَمَّ التَّمَامُ ، وَنَفِدَتِ الأَيَّامُ ، وابنَ ستَّ عشرة نَقَصَ الخَلْقُ ، في الغَرْبِ والشَّرْقِ ، وابنَ سبع عشرة ، أَمَكْنَتِ المُقْتَفِرِ القَفْرَةَ ، وابنَ ثَمَانٍ عَشْرَةَ قَلِيلُ البَقَاءِ ، سَرِيعُ الفَنَاءِ ؛ وابنَ تِسْعَ عَشْرَةَ بَطِيءُ الطَّلُوعِ ، سَرِيعُ الخُشُوعِ ؛ وابنَ عشرين يَطْلُعُ سُحْرَهُ ، وَيَغِيبُ بُكْرَهُ ؛ وابنَ إحدى وعشرين كَالقَبَسِ ، يَطْلُعُ في الغَلَسِ ؛ وابنَ اثنتين وعشرين يُطِيلُ السُّرْيَ ، رَيْثَمَا يُرى ؛ وابنَ ثلاثٍ وعشرين يُرى في ظُلْمَةِ اللَيْلِ ، لا قَمَرٌ ولا هِلَالٌ ؛ وابنَ خمسٍ وعشرين دَنَا الأَجَلَ ، وَأَنْقَطَعَ الأَمَلُ ؛ وابنَ ستَّ وعشرين دَنَا مادَانًا ، فَمَا يُرى إِلاَّ سَنَا ، وابنَ سبعٍ وعشرين يَشُقُّ الشَّمْسَ ، ولا يُرى له حَسٌّ ، وابنَ ثمانٍ وعشرين صَثِيلُ صَغِيرٍ لا يراه إِلاَّ البَصِيرُ .

(١) في بعض الروايات . للشمس . . . والحضرة

وأما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشمال إلى جهة الجنوب ، ومن جهة الجنوب إلى جهة الشمال وتقله في المنازل الثمانية وعشرين في ثمانية وعشرين يوماً بلياليها كالشمس في البروج قال تعالى ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرًا نَاهِ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ فما تقطعه الشمس من الشمال إلى الجنوب وبالعكس في جميع السنة يقطعه القمر في ثمانية وعشرين يوماً . والمنازل للقمر كالبروج للشمس ؛ وذلك أنه لما أتصل إلى العرب ما حققه القدماء برصدهم من الكواكب الثابتة ، وكان لاغنى لهم عن معرفة كواكب ترشدهم إلى العلم بفصول السنة وأزمنتها ، رصدوا كواكب وأمتحنوها ، ولم يستعملوا صور البروج على حقيقتها : لأنهم قسموا فلك الكواكب على مقدار الأيام التي يقطعه القمر فيها ، وهي ثمانية وعشرون يوماً ، وطلبوا في كل قسم منها علامة تكون أبعاداً ما بينها وبين العلامة الأخرى مقدار مسير القمر في يوم وليلة ، وسموها منزلة إلى أن تحقق لهم ثمانية وعشرون على ما تقدم ذكره في الكلام على طلوعها بالفجر : لأن القمر إذا سار سيره الوسط انتهى في اليوم التاسع والعشرين إلى المحاق الذي بدأ منه ، فخذت المتكرر ، فبقية ثمانية وعشرين ويزاد بالشرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحمل ، الذي هو أول البروج .

ثم هذه المنازل على قسمين : شمالي وجنوبي كما في البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالي منها ما كان طلوعه من ناحية الشام ، وتسمى الشامية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال ، التي هي رأس الحمل والميزان صاعداً إلى جهة الشمال ، وهي : الشيطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والمقعة ، والهنتعة ، والدراع ، والنثرة ، والطرف ، والجبهة ، والخرتان ، والصرفة ، والعواء ، والسماك . وبتلوعها يطول الليل ويقصر النهار . والجنوبي منها ما كان طلوعه من ناحية اليمن وتسمى إيمانية : وهو ما كان منها من نقطة الاعتدال المذكور هابطاً إلى جهة الجنوب .

وهي : العَقْر، والزُّبَانان، والإِكْلِيل، والقَلْب، والشَّوْلَة، والنَّعَائِم، والبَلْدَة، وسَعْدُ
الذَّابِح، وسَعْدُ بَلَع، وسَعْدُ السُّعُود، وسَعْدُ الأَخِيَّة، والْفَرَعُ المَقْدَم، والْفَرَعُ المُوخِر،
وبطن الحوت، وبطلوعها يقصر الليل ويطول النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قطعة من الفلك مقدارها رُبْعُ سَبْعِ الدَّوَر، وهو جزء من
ثمانية وعشرين جزءاً من الفلك عبارة عن ^(١) لآعن الكواكب، وإنما
الكواكب حدود تفرق بين كل منزلة وأخرى، فعدل بالتسمية إليها وغلبت عليها .

ونزول القمر في هذه المنازل على ثلاثة أحوال إما في المنزلة نفسها وإما فيما بينها
وبين التي تليها وإما محاذياً لها خارجاً عن السمات شمالاً أو جنوباً . وقد تقدم
الكلام على عدول القمر عن بعض المنازل ونزوله في غيرها .

وتعلم أن المنازل مقسومة على البروج الاثني عشر موزعة عليها : فالشَّرَطان
والبُطَيْن وثلاث الثريا للحمل ، وثلاث الثريا والدبران وثلاث الهقعة للثور، وثلاث الهقعة
والهنعة والذراع للجوزاء ، والنثرة والطرف وثلاث الجبهة للشَّرَطان ، وثلاث الجبهة
والخرتان وثلاث الصرفة للأسد ، وثلاث الصرفة والعواء والسمالك للسنبلة ، والغفر
والزُّبَانان وثلاث الإكليل لليزان، وثلاث الإكليل والقَلْب وثلاث الشولة للعقرب ، وثلاث
الشولة والنعائم والبلدة للقوس، وسعد الذابح وسعد بلع وثلاث سعد السعود للجدي،
وثلاث الفرغ المقدم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمر في أي منزلة هو أو كم مضى له فيها
من الأيام ، فخذ ما مضى من سنة القبط شهوراً كانت أو أياماً أو شهوراً وأياماً

(١) يباح بالاصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطاً هو [.. وثلاث سعد السعود وسعد الأخبية وثلاث الفرغ المقدم للدلو] .

وَأَبْسَطُهَا أَيَامًا ، وَأَضْفَ إِلَى مَا حَصَلَ مِنْ ذَلِكَ يَوْمِينَ ، ثُمَّ أَطْرَحَ الْمَجْمُوعَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ ، وَهُوَ عَدَدُ بُتِّ الْقَمَرِ فِي كُلِّ مَنْزِلَةٍ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَجْعَلُ أَوَّلَ كُلِّ مَنْزِلَةٍ مِنَ الْعَدَدِ الْخَرْتَانِ ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الْأَيَّامِ دُونَ الثَّلَاثَةِ عَشَرَ فَهُوَ عَدَدُ مَا مَضَى مِنَ الْمَنْزِلَةِ الَّتِي آتَتْهُ الْعِدَّةُ إِلَيْهَا .

مثال ذلك أن يمضي من سنة القبط شهر توت وأربعة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بستة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصرفة ثلاثة عشر تبقى عشرة، وهي ماضى من المنزلة الثالثة وهي العواء .

وإن أردت أن تعرف في أي برج هو فاحسب كم مضى من الشهر العربي يوما وزد عليه مثله ثم زد على الجملة خمسة وأعط لكل برج خمسة وأبدأ من البرج الذي فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما تقد حسابك فالقمر في ذلك البرج، والاعتماد في ذلك على كم مضى من الشهر العربي بالحساب دون الرؤية والله أعلم .

الجملة الثانية

(في أسمائها : وفيها روايتان)

الرواية الأولى - ما نطقت به العرب المستعربة ، وجرى عليه الاستعمال إلى الآن وقد نطق القراءان الكريم بصدقها قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القراءان بلغتهم ، ومدارها الأهلة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسعة وعشرين . الشهر الأول منها المحترم؛ سمي بذلك لأنهم كانوا يحرمون فيه القتال، ويجمع على محرمات ومحارم ومحاريم . الشهر الثاني صفر، سمي بذلك لأنهم كانوا يغيرون فيه على بلاد يقال لها

الصَّفْرِيَّة ، ويجمع على صَفْرَات وأصْفار وِصْفُور وِصْفَار. الشهر الثالث ربيع الأول
سمى بذلك لأنهم كانوا يُحْصَلُونَ فيه ما أصابوه في صَفْرَ . والرَّبِيع في اللغة الخِصْب ،
وقيل لأرتباعهم فيه . قال النحاس والأول أولى بالضوابط ، ويقال في التثنية رَبِيعَان
الأولان وفي الجمع رَبِيعَات الأولات . ومن شرط فيه إضافة شهر قال في التثنية شهرا
ربيع الأولان وفي الجمع شَهْرَات ربيع الأولات والأوائل ، وإن شئت قلت في القليل
أشهر وفي الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأربعة الأوائل ، وعن غيره رُبْعُ الأوائل .
الشهر الرابع ربيع الآخر - والكلام في تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام في ربيع
الأول . الشهر الخامس جمادى الأولى ، سمي بذلك لجمود الماء فيه : لأن الوقت
الذي سُمِّي فيه بذلك كان الماء فيه جامداً لشدَّة البرد ، ويقال في التثنية جُمَادِيَان
الأوليان وفي الجمع جُمَادِيَات الأوليات . الشهر السادس جمادى الآخرة - والكلام فيه
تسميةً وتثنيةً وجمعاً كالكلام في جُمَادَى الأولى . الشهر السابع رجب ، سمي بذلك
لتعظيمهم له أخذاً من الترجيب : وهو التعظيم ، ويجمع على رَجَبَات وأرْجَاب ،
وفي الكثرة على رِجَاب ورُجُوب . الشهر الثامن شعبان ، سمي بذلك لتشعبهم فيه لكثرة
الغارات عَقَبَ رَجَب ، وقيل لتشعب العود في الوقت الذي سُمِّي فيه . وقيل لأنه
شَعَب بين شهرى رَجَب ورمضان ويجمع على شَعْبَانَات وشعابة على حذف الزوائد ،
وحكى الكوفيون شَعَابِينَ ، قال النحاس وذلك خطأ على قول سيبويه كما لا يجوز عنده
في جمع عُثْمَانَ عَثَامِينَ . الشهر التاسع رمضان - سمي بذلك أخذاً من الرمضاء لأنه
وافق وقت تسميته زمن الحَرِّ ، ويجمع على رَمَضَانَات وحكى الكوفيون رَمَاضِينَ ،
والقول فيه كالقول في شَعَابِينَ ، ومن شرط فيه لفظ شهر قال في التثنية شَهْرَا رَمَضَانَ
وفي الجمع شَهْرَات رَمَضَانَ وأشهر رمضان وشهور رمضان . الشهر العاشر شَوَّال سمي
بذلك أخذاً من شَالَتِ الإبل بأذنانها إذا حملت : لكونه أول شهور الحج وقيل من

شال يُشول إذا ارتفع : ولذلك كانت الجاهلية تكره الترويح فيه لما فيه من معنى الإشالة والرفع إلى أن جاء الإسلام بهدم ذلك . قالت عائشة رضي الله عنها فيما ثبت في صحيح مسلم ” تزوجني رسول الله صلى الله عليه وسلم في شَوَّالٍ وَبَنِي فِي شَوَّالٍ فَأَيُّ نِسَائِهِ كَانَ أَحْظَى عِنْدَهُ مِنِّي “ ويجمع على شَوَّالَاتٍ وَشَوَّائِلٍ وَشَوَّالٍ . الشهر الحادى عشر ذو القعدة ، ويقال بالفتح والكسر ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقْعُدُونَ فِيهِ عَنِ الْقِتَالِ لِكَوْنِهِ مِنَ الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ ، وَيَجْمَعُ عَلَى ذَوَاتِ الْقَعْدَةِ ، وَحِكَى الْكُوفِيِّونَ أَوْلَاتِ الْقَعْدَةِ ، وَرَبَّمَا قَالُوا فِي الْجَمْعِ ذَاتِ الْقَعْدَةِ أَيْضًا . الشهر الثاني عشر ذو الحجة سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ الْحَجَّ فِيهِ ، وَالْكَلَامُ فِي جَمْعِهِ كَالْكَلَامِ فِي ذِي الْقَعْدَةِ . ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حُرِّمَ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ﴾ وقد أجمعت العلماء على أن الأربعة المذكورة هي رَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ . وقد اختلف في الأبتداء بعددها فذهب أهل المدينة إلى أنه يُبتدأ بِذِي الْقَعْدَةِ فيقال ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ وَرَجَبٌ ، وَيَحْتَجُّونَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدَّهَا فِي خُطْبَةِ حِجَّةِ الْوُدَّاعِ كَذَلِكَ فَقَالَ ” السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ، ثَلَاثَةٌ مَتَوَالِيَاتٌ وَوَاحِدٌ فَرْدٌ : ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمَحْرَمُ وَرَجَبٌ “ وأختره أبو جعفر النحاس . وذهب أهل الكوفة إلى أنه يُبتدأ بِالْمَحْرَمِ فيقال بِالْمَحْرَمِ وَرَجَبٌ وَذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ : لِأَتَوَا بِهَا مِنْ سَنَةٍ وَاحِدَةٍ وَإِلَيْهِ مِيلُ الْكُتَّابِ . قال النحاس : وَلَا مُجَّةَ لَهُمْ فِيهِ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّ الْمَقْصُودَ ذِكْرَهَا فِي كُلِّ سَنَةٍ فَكَيْفَ يَتَوَهَّمُ أَنَّهَا مِنْ سَنَتَيْنِ . وكانت العربُ في الجاهلية مع ما هم عليه من الضلال والكفر يعظمون هذه الأشهرَ ويحزمون القتالَ فيها حتى لولقِي الرجلُ فيها قاتلَ أبيه لم يهجه ، إلى أن حَدَّثَ فِيهِمُ النَّبِيُّ فَكَانُوا يُسْتُونُ الْمَحْرَمَ فَيُؤْخِرُونَهُ إِلَى صَفَرٍ فَيَحْزِمُونَهُ مَكَانَهُ وَيُسْتُونُ رَجَبًا فَيُؤْخِرُونَهُ إِلَى شَعْبَانَ فَيَحْزِمُونَهُ مَكَانَهُ لِيَسْتَبِيحُوا الْقِتَالَ فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ .

وأعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شهر المحرم، وشهر صفر، وشهر ربيع الأول وكذا في البواقي. على أن منها ثلاثة أشهر لم تكدر العرب تنطق بها إلا مضافةً إليها، وهي شهر ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك في رمضان ما ورد به القرآن من إضافته قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال "لا تُقَلُّ رمضان ولكن قل كما قال الله عز وجل شهر رمضان فإنك لا تدري ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعَلَّ رمضان اسمٌ من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت في الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال "إذا جاء رمضان أغلقتِ النيرانُ وصُفدتِ الشياطينُ" الحديث . وهذا صريح في جواز تعريته عن الإضافة .

وقد اختلف الناس في ذلك على ثلاثة مذاهب أصحها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقاً، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصُمت رمضان، وما أشبه ذلك وهو ما رجحه النووي في شرح مسلم . والثاني المنع مطلقاً، والثالث إن حفت قرينة تدلُّ على الشهر كما في قوله صُمت رمضان فقد جازت التعرية، وإن لم تحف قرينة لم تجز؛ وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رجب أيضاً . وقال كل شهر في أوله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة . ويقال في المحرم أيضاً شهر الله المحرم ويقال في الربيعين ربيع الأول وربيع الآخر وفي الجماديين جمادى الأولى وجمادى الآخرة . قال ابن مكي: ولا يقال جمادى الأول بالتذكير وجوزته في كلامه على "تنقيف اللسان"

قال النحاس وإنما قالوا ربيع الآخر وجمادى الآخرة ولم يقولوا ربيع الثاني وجمادى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية: لأنه إنما يقال الثاني والثانية لما له ثالث وثالثة، ولما لم يكن لهذين ثالثٌ ولا ثالثةٌ قيل فيهما الآخر والآخرة

كما قيل الدنيا والآخرة؛ على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيع الثاني وجمادى الثانية . ويقال في رجب القَرْدُ : لأنفراده عن بقية الأشهر الحُرْمِ، ويقال فيه أيضا رجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان، ويقال في شعبان المكرّم لتكريمته وعلوّ قدره، . في رمضان المُعْظَم والمُعْظَم قدره : لعظمته وشرفه، وفي شوال المُبارك : للفرق بينه وبين شعبان خشية الالتباس في الكتابة، ويقال في كلٍّ من ذى القعدة وذى الحجة الحَرَام . قال النحاس وقد جاء في ذى الحجة أيضا الأصمّ ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مُرّة الهمداني عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقية حمراء محضرمية، فقال : أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ يَوْمُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : يوم النحر قال : صدقتم يوم الحج الأكبر، أَتَدْرُونَ أَيُّ شَهْرٍ شَهْرُكُمْ هَذَا ؟ قلنا : ذو الحجة قال : صدقتم شهر الله الأصمّ ."

الرواية الثانية - ما روى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون في المحرم المؤتمِر : أخذنا من أمر القوم إذا كثروا بمعنى أنهم يحرمون فيه القتال فيكثرون . وقيل أخذنا من الأتجار بمعنى أنه يؤتمر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتمرات ومأمير . ويقولون في صفر ناجر إما من النجر والنجاز (بفتح النون وكسرها) الأصل، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يتبدأ فيه بعد المحرم، وإما من النجر وهو السوق الشديد . لشدة سوقهم الخليل إلى الحرب فيه ، وإما من النجر، وهو شدة الحر لشدة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون في شهر ربيع الأول خَوَان (بالحاء المعجمة) : لأن الحرب تشتد فيه فتحونهم فتقتصمهم : ويجمع على خَوَانَات وخَوَاوِين وخَوَاوِن . ويقولون في ربيع الآخر وبصان ، أخذنا من الوبيص وهو البريق : لبريق الحديد فيه : ويجمع على وبصانات، وحكى قطرب في بصان فيجمع على أبصنة

(١) أي قطع طرف أذنهما . قاموس .

وفي الكثرة بَصْنَان . ويقولون لجمادى الأولى حَيْنين : لأنهم يَحْنُون فيه إلى أوطانهم :
 لكونه كان يقع في زمن الربيع ، ويجمع على أَحِنَّة وَحُنٌّ كَرغيف وَرُغْف . ويقولون
 لجمادى الآخرة رُبِّي وَرُبَّة : لأنه يجتمع به جماعة من الشهور التي ليست بحُرْم :
 وهي ما بعد صفر . قال أبو عبيد رُبَّان كل شيء جماعته ، ويجمع على رُبَّيات وَرَبَايَا مثل
 حَبَالِي . ومن قال رُبَّةً جمعه على مَارِيب . ويقولون في رجب الأصمُّ : لما تقدَّم^(١)
 من أنه لا يُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه ، ويجمع على أَصَامٌ . قال النحاس
 ولا تقل صمَّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سميت رجلا أحمر جمعته على أَحَامِر ولم
 تجعه على حُمِر . ويقولون في شعبان عادلٌ ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم
 في القبائل ويجمع على عَوَادِل . ويقولون في رمضان نَاتِقٌ : لكثرة المال عندهم فيه
 لإغارتهم على الأموال في الذي قبله ، ويجمع على نَوَاتِقَ . ويقولون في شَوَالٍ وَعَلٌ
 أخذًا من قولهم : وَعَلَ إلى كذا إذا لجأ إليه لأنهم يهربون فيه من الغارات لأن يعده
 الأشهر الحُرْم فيلجئون فيه إلى أمكنة يتحصنون فيها ، ويجمع على أُوَعَالٍ ككَتِف
 وأكْتاف ، وفي الكثرة وُعُول . ويقولون في ذى القعدة وَرَنَةٌ والواو فيه منقلبة عن
 همزة أخذًا من أَرِنَ إذا تحرك : لأنه الوقت الذي يتحركون فيه إلى الحج ، أو من
 الأُرُون ، وهو الدنو : لقربه من الحج ويجمع على وَرَنَاتٍ وَرَانٍ كَحَدَان . ويقولون
 في ذى الحجة بَرَكٌ ، غير مصروف : لأنه معدول عن بَارِك ، أو على التكثير كما يقال
 رجل حَكَم وهو مأخوذ من البركة : لأن الحج فيه ، أو من بَرَكَ الجمل لأنه الوقت الذي
 تبرك فيه الإبل للوسم ، ويجمع على بَرَكَانٍ مثل نَغِيرٍ وَنَغِرَان .

وفي هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ما تقدم ذكره .

(١) كذا في الضوء أيضا ولعله مصحف عن رَبَابٍ أَوْ رَبِّبٍ تأمل

وقد نظم بعضهم ذلك في أبيات على الترتيب فقال .

بمؤتمِّرٍ وناحِرٍ ابتَدَأْنَا * وبالحَوَانِ يَتَّبَعُهُ البُصَانُ
ورُبِّيْ ثُمَّ أَيْدَةٌ تَلِيهِ * تَعُودُ أَصْمُ صُمَّ بِهِ السَّنَانُ
[وعَادِلَةٌ وَنَاطِلَةٌ جَمِيعًا * وَوَاغِلَةٌ فَهُمُ غُرِّ حِسَانِ^(١)
وَوَرْنَةٌ بَعْدَهَا بَرَكٌ فَتَمَّتْ * شُهُورُ الحَوْلِ يُعْرِبُهَا البَيَانُ

ثم للناس في إخراج أول الشهر العربي طُرُق، أسهلها أن تعرف أول يوم من المحرم، ثم تعدّ كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله وتقسّمها نصفين، فإن كان النصف صحيحاً أضفت على الجملة مثل نصفه، وإن كان مكسوراً كتته وأضفته على الجملة؛ ثم تبتدئ من أول يوم من السنة وتعدّ منه أياماً على التوالي أسماء الأيام بعدد ما حصل معك من الأصل والمضاف فحيث انتهى عدّتك فذلك اليوم هو أول الشهر .

مثال ذلك في الصحيح النصف : إن أردت أن تعرف أول يوم من شعبان وكان أول المحرم يوم الأحد مثلاً فتعدّ من أول المحرم إلى شعبان وتدخل شعبان في العدد فيكون ثمانية أشهر فتقسّمها نصفين يكون نصفها أربعة فتضيف الأربعة إلى الثمانية تكون اثني عشر، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذي هو أول المحرم فتعدّ الأحد والاثني والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت، ثم الأحد والاثني والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون انتهى الاثني عشر في يوم الخميس فيكون أول شعبان يوم الخميس .

ومثاله في المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أول رمضان أيضاً وكان أول

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه في "نهاية الأرب" للنويري فأثبتناه كما ترى وبه

المحرم الأحد كما تقدّم فتعدّ ماضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسّمها نصفين يكون نصفها أربعة ونصفا فتكلمها بنصف تصير خمسة فتضيفها إلى الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعة عشر، ثم تبتدئ عدد الأيام من أول المحرم ، وهو الأحد كما تقدّم فيكون آتهاء الرابع عشر في يوم السبت فيكون أول رمضان يوم السبت .

ومن الطُّرق المعتبرة في ذلك أن تنظر في الثالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضى من الشهر العربىّ فما كان جعلته أصلا لتلك السنة، فإذا أردت أن تعرف أول شهر من الشهور العربية أو كم مضى من الشهر الذى أنت فيه ، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وأنظر كم مضى من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبرها بيوم زيادة حتى تصير زوجا، وزد على ذلك يومين أصلا أبدا، ثم أنظر كم يوما مضى من الشهر القبطى الذى أنت فيه فأضفه على ما آجتمع معك، وأسقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضى من الشهر العربىّ، ومنه يعرف أوله .

ومثال ذلك نظرت في الثالث من أيام النسيء فوجدت الماضى من الشهر العربىّ ثلاثة أيام فكانت أصلا لتلك السنة ثم نظرت في الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلا فتعدّ من أول شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلى أمشير يكون ستة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها على الأصل الذى معك من أيام النسيء : وهو ثلاثة تصير ستة فزد عليها اثنين يصير المجموع ثمانية، ثم تنظر في الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضى منه يومان فتضيفهما على المجموع يكون عشرة، وهو الماضى من الشهر العربىّ الذى أنت فيه ومنه يعرف أوله .

الضرب الثاني

(شهور اليهود)

والشهر عندهم من الاجتماع إلى الاجتماع، وهو اقتران الشمس والقمر في آخر الشهر ولذلك توافق شهورهم في التقدير شهور العرب، ولا تخالف أوائلها إلا بيوم واحد في بعض الأحيان لأسباب في ملتهم ولكنهما لا تطابق شهرا لشهر، فإن شهور العرب غير مكبوسة، وشهور اليهود مكبوسة؛ وهذه الطريقة لا تعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر. ولذلك لا يعرف شهور اليهود منهم إلا الآحاد، وشهورهم وهي اثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون، وبعضها تسعة وعشرون على ما يقتضيه مسير الشمس والقمر؛ وفي السنة الكبيسة تكون شهورهم ثلاثة عشر شهرا كما سيأتي؛ وشهورهم توافق شهور السريان في بعض أسمائها دون بعض، الأول تشرى، الشهر الثاني مرحشوان، الشهر الثالث كسلا، الشهر الرابع طابات، الشهر الخامس شباط، الشهر السادس آذار، الشهر السابع نيسان، الشهر الثامن أيار، الشهر التاسع سيوان، الشهر العاشر تموز، الشهر الحادي عشر آب، الشهر الثاني عشر أيلول؛ وفي السنة التي يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين على ما سيأتي بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم ويسمونه آذار الثاني، وسيأتي ذلك مفصلا في الكلام على السنين إن شاء الله تعالى. وقد تقدم أنها توافق شهور العرب إلا في القليل إلا أنها يدخلها الكبس لأمر في ملتهم، وسيأتي الكلام على كبسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالى.

القسم الثاني

(من الشهور الأصطلاحى والمراد به الشمس ٦)

وهى مدة قطع الشمس مدار بُرج من بروج الفلك الاثني عشر، وذلك ثلاثون يوماً وثلاثة عشر يوماً تقريباً، وعليه عمل القبط، والفرس، والسريان، والروم .
وهى على صنفين :

الصنف الأول

(ما يكون كل شهر من شهور السنة ثلاثين يوماً، وما فضل عن ذلك

جعل نسيئاً بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فأما شهور القبط (وتنسب لدقظيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام النسيء في آخر الثاني عشر منها، وهى خمسة أيام .

الشهر الأول منها توت، ودُخوله في العشرين من آب من شهور السريان، وآخره السادس والعشرون من أيلول منها؛ فيه يدرك الرطب، ويكثر السفرجل والعنب الشتوى، وتبتدى الحمضات . وأول يوم منه يوم التيروز وهو رأس سنة القبط؛ وفي سابعه يتبدى لقط الزيتون؛ وفي سابع عشره عيد الصليب، فيه تفتح أكثر الترع بمصر؛ وفي ثامن عشره أول فصل الخريف؛ وفي تاسع عشره يتبدى هيجان السوداء في البدن؛ وفي العشرين منه يُفصد اللسان؛ وفي الحادى والعشرين منه يتبدى بيض النعام؛ وفي الرابع والعشرين منه أول دى ماه من شهور الفرس؛ وفي الثامن والعشرين منه يذهب الحرب؛ وفي التاسع والعشرين منه أول رعى الكراكي؛ وفي الثلاثين منه وهو آخره يُزرع الهليون .

(١) لعله وثلاثة أعشار يوم .

الشهر الثاني بابه، ودخوله في السابع والعشرين من أيلول، من شهر السريان،
 وآخره السادس والعشرون من تشرين الأول منها، فيه يُدْرَكُ مالا تُسَقُّ له الأرضُ
 كالبرسيم وغيره؛ وفي آخره تُسَقُّ الأرض بالصعيد؛ وفيه يُحصَدُ الأرز، ويطيب
 الرمان، وتضع الضأن والمعز والبقر الخيسية؛ ويستخرج دهن الآس واللينوفر،
 ويدرك الثمر والزبيب وبعض المحمضات؛ وفي ثلثه رأس سنة السريان؛ وفي رابعه
 أول تشرين الأول من شهرهم؛ وفي خامسه عرس النيل؛ وفي سادسه يطيب
 شرب الدواء؛ وفي سابعه نهاية زيادة النيل؛ وفي ثامنه يكره خروج الدم؛ وفي حادي
 عشره يتبدئ النيل في التقص؛ وفي ثالث عشره بداية الوحم؛ وفي رابع عشره
 يكثر التاموس؛ وفي خامس عشره يتبدئ زرع القوط؛ وفي سادس عشره تتبدئ
 كثرة السعال؛ وفي تاسع عشره يتبدئ زرع الساجم، وفي الثاني والعشرين منه
 يتبدئ صلاح المواشي، وفي الثالث والعشرين منه تتبدئ كثرة الغيوم، وفي الرابع
 والعشرين منه تتبدئ أهل مصر الزرع، وفي السابع والعشرين منه يتبدئ سمن
 الحيتان، وفي الثامن والعشرين منه أول المد، وفي التاسع والعشرين منه أول
 الليالي البلق.

الشهر الثالث هتور؛ ودخوله في السابع والعشرين من تشرين الأول؛ وآخره
 الخامس والعشرون من تشرين الثاني. فيه يُزرَعُ القمح ويطلع البنفسج والمنثور،
 وأكثر البقول، ويجمع ما بقي من الباذنجان وما يجرى مجراه، ويحمل العنب من
 قوص، وفي ثانيه يتبدئ حصاد الأرز، وفي خامسه أول تشرين الثاني من شهر
 السريان، وفيه يتبدئ برد المياه، وفي سادسه أول المطر الوسمى، وفي سابعه يتبدئ
 أهل الشام الزرع، وفي ثامنه يتبدئ هبوب الرياح الجنوبية، وفي تاسعه يتبدئ
 زرع الحشخاش، وفي حادي عشره يتبدئ اختفاء الهوام، وفي ثالث عشره يتبدئ

غليان البحر، وفي رابع عشره تَعْمَى الحَيَات، وفي سادس عشره يُجْمَع الزعفران، وفي ثامن عشره تكثر الوحوش، وفي الثامن والعشرين منه يُغَلَقُ البحر الملح وتمتنع السُّفُن من السفر فيه لشدة الرياح، وفي الثالث والعشرين منه يتبدئ سُخُونُهُ بطن الأرض، وفي الرابع والعشرين منه أول اسفيدار ماه من شهور الفُرس .

الشهر الرابع كيهك، ودخوله في السادس والعشرين من تشرين الثاني من شهور السُريان، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأول منها. فيه تدرك الباقلاء، وتزرع الحلبة وأكثر الحبوب، ويُدْرِك النَّجِس والبنفسج، وتلاحق الحمضات، وفي أوله ابتداء أربعيَّات مصر، وفي ثابته يتبدئ موتُ الذُّباب، وفي خامسه أول كانون الأول من شهور السُريان، وفي سابعه آخرُ الليالي البُلقي وأول الليالي السُّود، وفي حادي عشره يتبدئ الشجرُ في رمي أوراقه، وفي ثاني عشره تظهر البراغيث، وفي سابع عشره أول فصل الشتاء: وهو أول أربعيَّات الشام، وفي ثامن عشره يتنفس النهار، وفي الحادي والعشرين منه يكثر الطير الغريب بمصر، وفي الثالث والعشرين منه أول مردوماه من شهور الفُرس^(١)، وهو نوروزهم وأول سنتهم، وفي الخامس والعشرين منه يهيج البلغم، وفي السادس والعشرين منه تَلْقَحُ الإبل، وفي السابع والعشرين منه يكثر شُرب الماء في الليل، وفي الثلاثين منه يتبدئ تقليم الكروم .

الشهر الخامس طوبه، ودخوله في السادس والعشرين من كانون الأول من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثاني منها؛ في زرع البمخ فيه تغرير، وفيه تُسَقُّ الأرض للقصب والقلقاس، ويتكامل النَّجِس؛ وفي أوله تبيثُ الرياح الشديدة، وفي ثانيه يُدْرِك القُرط، وفي سادسه أول كانون الثاني من شهور السُريان،

(١) سيأتي قريباً أن يروى الفرس وأول سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذي ورد في مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر في أسماء الشهور الاتية .

وفي عاشره آخر أربعيَّات مصر، وفي حادى عشره أول نصب الكروم، وفي ثانى عشره يشتد البرد، وفي ثالث عشره يتبدى زرع المقات، وفي سابع عشره يتبدى غرس الأشجار، وفي ثامن عشره تتبدى كثرة الندى؛ وهو آخر الليالى السود، وفي تاسع عشره يتبدى وقوع الثلج بالشام وغيره، وفي الرابع والعشرين منه يتبدى صفو ماء النيل، وفي التاسع والعشرين منه يتبدى اختلاف الرياح.

الشهر السادس أمشير؛ ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهر السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها. فيه تُغرس الأشجار، وتقلّم الكروم، ويُدرك النبق واللوز الأخضر، ويكثر البنفسج والبنثور، وفي رابعه يتبدى إفراخ النخل، وفي سادسه أول شباط من شهر السريان، وفي حادى عشره يتبدى إنتاج الطيور وزرع بقول الصيف، وفي ثانى عشره يتبدى تحرك دواب البحر، وفي الثانى والعشرين منه ثانى جمرة فاترة، ويتبدى مرض الأطفال، ويتبدى خروج ورق الشجر، وفي الثالث والعشرين منه يتبدى خروج الدواب للرعى، وفي الرابع والعشرين منه أول حرادماه من شهر الفرس، وفي الخامس والعشرين منه يتبدى هيجان الرياح، وفي السابع والعشرين منه تتبدى ثالث جمرة حامية، وفي الثامن والعشرين منه أول المفرطات، وفي التاسع والعشرين منه آخرهى ابقراط.

الشهر السابع برمهاث؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شهر السريان، وآخره الخامس والعشرون من آذار. فيه تُزهر الأشجار، ويعقد أكثر الثمار، ويزرع أوائل السمسيم، ويُقلع الكنان، ويُدرك الفول والعدس، وفي ثانيه يجمد خروج الدم، وهو أول الأعجاز، وفي ثالث عشره تفتح الحيات أعينها، وفي خامس عشره تطيب الألبان، وفي سادس عشره يتبدى خروج دود القز، وفي ثامن عشره يبيح الدم، وفي تاسع عشره ظهور الهوام، وفي العشرين منه يزرع السمسيم، وفي

الرابع والعشرين منه أول تيرماه من شهور الفرس ، وفي السادس والعشرين منه
يبتدئ شرب المسهل ، وفي السابع والعشرين منه خروج الدباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده ، ودخوله في السادس والعشرين من آذار من شهور السريان ،
وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تقطف أوائل عسل النحل ، وفيه تكثر
الباقلاء ، وينفض جوز الكنان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطن الأول من الجز ، ويقطع
بعض الشعير ، ويذكر الخيار شنبه . وفي أوله يؤكل الأريك ، وفي رابعه يعصر دهن
البلسان ، وفي خامسه تبتدئ كثرة الزهور ، وفي سادسه أول نيسان من شهور
السريان ، وفي ثاني عشره يحاف على بعض الزرع ، وفي ثامن عشره آحر قلع
الكنان ، وفي العشرين منه ينهي عن أكل البقول ، وفي الثاني والعشرين منه ظهور
السكاة ، وفي الثالث والعشرين منه الحتام الكبير للزرع ، وفي الرابع والعشرين منه أول
تردماه من شهور الفرس ، وفي الخامس والعشرين منه نهاية مد الفرات ، وفي الثامن
والعشرين منه يبيض النعام .

الشهر التاسع بشنس ، ودخوله في الخامس والعشرين من نيسان من شهور
السريان ، وآخره التاسع والعشرون من أيار منها . فيه يكثر التفاح القاسمى ، ويبتدئ
التفاح المسكى ، والبطيخ العبدلي والحوفي ، والمشمش ، والخوخ الزهرى ، والورد
الأبيض . وفي نصفه يبدأ الأرز ، ويحصد القمح ، وفي سادسه أول أيار من شهور
السريان ، وفي رابع عشره يجع الحشخاش ، وفي ثامن عشره يجع العصفر ، وفي
الحادى والعشرين منه تبتدئ برودة الأرض ، وفي الرابع والعشرين منه أول شهر
برماه من شهور الفرس .

الشهر العاشر بئونه ، ودخوله في الخامس والعشرين من أيار من شهور السريان ،
وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحصرم ، ويطيب بعض العنب

والتين البونى وهو الديفور، والحوخ الزهرى والمشعر، والكثيرى البوهى، والقراصيا،
 والثوت، ويطلع البلح، ويقطف جمهور العسل، وفي ثلثه يتسدى توحم النيل،
 وفي سادسه يكمل الدرياق، وفي سابعه أول حزيران من شهور السريان، وفي تاسعه
 يتسدى مهبّ الريح الشمالية، وفي عاشره يتسدى تنفس النيل، وفي خامس عشره
 تحرك شهوة الجماع، وفي ثانى عشره عيد ميكائيل، فى ليلته يوزن من الطين زنة ستة
 عشر درهما عند غروب الشمس ويرفع فى مكان ويوزن عند طلوع الشمس فما
 زاد كان بكل نخوبة زادت على الستة عشر ذراع، وفي ثالث عشره يتسدى نقص
 الفرات، وفي رابع عشره تهب الرياح السائم، وفي تاسع عشره تذهب البراغيث،
 وفي العشرين منه تهب الصفراء، وفي الثانى والعشرين منه يعقد الجوز، ويقوى
 آندفاع النيل، وفي الرابع والعشرين منه يتور وجع العين وهو أول مهرماه من شهور
 الفرس، وفي السابع والعشرين منه يؤخذ قاع النيل، وفي الثامن والعشرين منه
 ينادى عليه، وفي التاسع والعشرين منه يدرك البطيخ.

الشهر الحادى عشر أيب، ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهور
 السريان، وآخره الثالث والعشرون من تموز منها، فيه يكثر العنب والتين ويقل
 البطيخ العبدى ويطيب البلح وتقطف بقايا العسل وتقوى زيادة النيل، وفي رابعه
 أول نمى أبقراط، وفيه يموت الجراد، وفي سابعه أول تموز من شهور السريان،
 وفي عاشره يتسدى وقع الطاعون، وفي ثانى عشره يتسدى قوة السائم، وفي ثالث
 عشره تدرك الفاكهة، وفي سابع عشره تغور العيون، وفي ثامن عشره يجع السماق،
 وفي الثانى والعشرين منه يدرك الفستق، وفي الرابع والعشرين منه أول أبانماه من
 شهور الفرس، وفي السادس والعشرين منه طلوع الشعري اليمنية، وفي التاسع
 والعشرين منه يدرك نخل الحجاز.

الشهر الثاني عشر مسرى؛ ودخوله في الرابع والعشرين من تموز من شهور
السريان، وآخره السابع والعشرون من آب منها. فيه يُعْمَلُ الخَلُّ، ويُدْرِكُ البُسْرُ
والمَوْزُ وتغَيَّرَ طُعوْمُ الفاكهة لغلبة الماء على الأرض، ويُدْرِكُ اللَّيْمُونُ التَّفَاحِيُّ،
ويبتدئ إدراك الرُّمَّانِ، وفي رابعه تُقْصَانُ الدَّجَلَةُ، وفي خامسه أول العَصِيرِ، وفي ثامنه
أول آب من شهور السَّريَانِ، وفي ثاني عشره فَصَالُ المَوَاشِي، وفي رابع عشره تَقَلُّ
الألبان، وفي خامس عشره تَسْحُنُ المِيَاهُ، وفي سابع عشره تَخْتَلِفُ الرِّيحُ، وفي ثامن
عشره يُخْتَلِفُ سَعُ الهَوَامِّ، وفي الثاني والعشرين منه آخرُ العَصِيرِ، وفي الرابع والعشرين
منه يَبْهِجُ النَّعَامُ، وفي الخامس والعشرين منه تَكْثُرُ الغُيُومُ، وفي الثامن والعشرين منه
آخر السَّيَّامِ، وفي التاسع والعشرين منه أول آذرماه من شهور الفرس .

أيام النسيء - ودخولها في الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف
آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضع الناس طُرُقًا لإخراج أول الشهر القبطي بالحساب أقربها أن تعرف يوم
النَّيروز ثم تعدّ ماضياً من الشهور القبطية بالشهر الذي تريد أن تعرف أوله فما كان
فأضعفه فما تحصل فأسقط منه واحداً أبداً، ثم أسقط الباقي سبعة سبعة فما فضل
فعدّ من يوم النَّيروز إلى آخر الباقي بعد الإسقاط على توالي الأيام فأينما انتهى العدد
فذلك اليوم هو أول الشهر المطلوب .

مثال ذلك: كان يوم النيروز الأحد، وأردنا أن نعرف أول أمشير، عددنا كم مضى
من أول الشهور القبطية وعددنا منها أمشير، وجدنا ذلك ستة، أضعفناها صارت
اثني عشر، أسقطنا منها واحداً بقي أحد عشر، أسقطنا منها سبعة بقي أربعة،
عددنا من يوم النيروز وهو الأحد أربعة فكان آخرها يوم الأربعاء فعلمنا أن أول
أمشير الأربعاء .

وأما شهور الفرس، فهي اثنا عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوماً وأيام النسيء خمسة أيام في آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأول منها افرودين ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأول يوم منه نيروز الفرس ورأس سنتهم . الشهر الثاني اريدهشماه، ودخوله في الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهاث من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهاث من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمودة منها . الشهر الخامس تردماه، ودخوله في الرابع والعشرين من برمودة من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برمها، ودخوله في الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرى منها . أيام النسيء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولها في الرابع والعشرين من مسرى، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله في التاسع والعشرين من مسرى من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العاشر دى ماه . ودخوله في الرابع والعشرين من توت من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابه منها . الشهر الحادى عشر بهمن ماه، ودخوله في الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها . الشهر

(١) وقع في الاصل شيء من السقط والتحريف وقد صححناها من نهاية الارب ومن الضوء وبمؤونة ترتيب الشهور القبطية فتنبه .

الثاني عشر [اسفندارماه، ودخوله في الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط،
وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم اسم خاص يزعمون أنه اسم ملك من الملائكة
موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط ما يقع في هذه الشهور من
والفواكه وغيرها .

الصنف الثاني

(من الشهور الاصطلاحية ما يختلف عدده بالزيادة والتقصان،

فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقل ، وبعضها أكثر،

وهو شهور السريان والروم)

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فأثنا عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها
ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الأول
منها تشرين الأول، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في الرابع من بابه من شهور
القبط، وآخره الرابع من هاتور منها، ويوافقها أكتوبر من شهور الروم، وهو الشهر
العاشر منها . الشهر الثاني تشرين الثاني، وهو ثلاثون يوما، ودخوله في الخامس من
هاتور من شهور القبط، وآخره الرابع من كيهك منها، ويوافقها نوفمبر من شهور الروم،
وهو الشهر الحادي عشر منها . الشهر الثالث كانون الأول وهو أحد وثلاثون يوما،
ودخوله في الخامس من كيهك من شهور القبط، وآخره الخامس من طوبه منها،
ويوافقها ديسمبر من شهور الروم، وهو الشهر الثاني عشر منها . الشهر الرابع كانون
الثاني، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله في السادس من طوبه من شهور القبط،

وآخره السادس من أمشير منها ، ويوافقه ينير من شهر الروم ، وهو الشهر الأول منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله في السابع من أمشير ، وآخره الرابع من برمهاث منها ؛ ويوافقه فبراير من شهر الروم ، وهو الثاني من شهرهم . الشهر السادس آذار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الخامس من برمهاث من شهر القبط ، وآخره الخامس من برمودة منها ، ويوافقه مارس من شهر الروم ، وهو الثالث من شهرهم . الشهر السابع نيسان ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من برمودة من شهر القبط ، وآخره الخامس من بشنس منها ، ويوافقه ابريل من شهر الروم ، وهو الرابع من شهرهم . الشهر الثامن أيار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السادس من بشنس من شهر القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقه مايو من شهر الروم ، وهو الخامس من شهرهم . الشهر التاسع حزيران ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من بؤنه من شهر القبط ، وآخره السادس من أيبب منها ، ويوافقه يونيه من شهر الروم ، وهو السادس من شهرهم . الشهر العاشر تموز ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في السابع من أيبب من شهر القبط ، وآخره السابع من مسرى منها ، ويوافقه يوليه من شهر الروم ، وهو السابع من شهرهم . الشهر الحادى عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله في الثامن من مسرى من شهر القبط ، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقه اغشت من شهر الروم ، وهو الثامن من شهرهم . الشهر الثاني عشر أيلول ، وهو ثلاثون يوما ، ودخوله في الرابع من توت من شهر القبط ، وآخره الثالث من بابه منها ، ويوافقه ستمبر من شهر الروم ، وهو التاسع من شهرهم ، وبذهابه يذهب الحرجلة ، وفي ذلك يقول أبو نواس :

مَضَى أَيْلُولٌ وَأَرْفَعَ الْحُرُورُ * وَأَخْبَتَ نَارَهَا الشَّعْرَى الْعَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشورى فى أبيات أبتدأ فيها بأيلول فقال :

وَأَبْدَأُ بِأَيْلُولٍ مِنْ السَّرْيَانِي * تَشْرِينُ الْأَوَّلُ يَتَّبِعُهُ الثَّانِي
كَانُونُ كَانُونُ شَبَاطُ يَطْلُعُ * آذَارُ نَيْسَانَ أَيْارُ يَتَّبِعُ
ثُمَّ حَزِيرَانَ وَمُوزِ وَأَبُ * تَبَارَكَ الرَّحْمَنُ يَهْدِي مَنْ أَحَبَّ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التى منها ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل ،
وهى هذه :

شَهْرُ الرُّومِ أَلْوَانُ * زِيَادَاتُ وَنَقْصَاتُ
فَتَشْرِينُهُمُ الثَّانِي * وَأَيْلُولُ وَنَيْسَانُ
ثَلَاثُونَ ثَلَاثُونَ * سِوَاءُ وَحَزِيرَانُ
شَبَاطُ خُصَّ بِالنَّقْصِ * وَقَدَرُ النَّقْصِ يَوْمَانُ

ونظم صاحب "مناجى الفكر" "تداخلها مع شهور القبط فى أرجوزة بجاءت فى غاية

الحسن والوضوح إلا أن فيها طولا، وهى هذه :

مَتَى تَشَأُ مَعْرِفَةَ التَّدَاخِيلِ * مِنْ أَوَّلِ الشُّهُورِ فِي الْمَنَازِلِ
فَعُدَّ مِنْ تَوْتِ بِلَا تَطْوِيلِ * أَرْبَعَةً فَهِيَ أَيْدَا أَيْلُولِ
وَبَابَةٌ كَذَلِكَ مَعَ تَشْرِينِ * الْأَوَّلِ السَّابِقِ فِي السَّنِينَ
وَالْخَامِسُ الْمَعْدُودُ مِنْ هَتُورِ * أَوَّلُ تَشْرِينِهِمُ الْأَخِيرِ
أَوَّلُ كَانُونٍ بَغَيْرِ دَلْسِهِ * إِذَا نَقَصْتَ مِنْ كَيْمِكِ خَمْسَةَ
وَطُوبَى لِمَنْ مَرَّ مِنْهُ سِتَّةُ * أَنَاكَ كَانُونُ الْأَخِيرِ بَعْتَهُ
وَمِنْ شَبَاطِ أَوَّلِ يُوَافِقِ * سَابِعَ أَمْشِيرِ حَسَابِ صَادِقِ
أَوَّلِ آذَارِ إِذَا جَعَلْتَهُ * لِبَرْمَهَاتِ خَامَسَا وَجَدْتَهُ

أول يسانٍ لدى التجريد * السادس المعدود من برمود
ومثله أبار مع بنس * واحدة مقرونة بخمس
أما حزيان فيحسبونه * أوله السابع من بؤنه
كذلك السابع من أيب * أول تموز بلا تكذيب
أول آب عند من يحصل * ثامن مسرى ذلك مالا يجهل

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنى هذه الأرجوزة في بيت واحد، الحرف الأول من الكلمة منه للشهر السرياني والحرف الأخير للشهر القبطي وما بينهما لعدد الأيام التي إذا مضت من ذلك الشهر القبطي دخل ذلك الشهر السرياني وهو :

أدت تدب ته كهك كوط أزا * أهب نوب أوب حزب ترا أحم

فالألف من أدت إشارة لأيلول من شهور السريان، وهو آخر شهورهم، والتاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أول شهورهم، والذال من أدت بأربعة، ففي الرابع من توت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة لبابه، والذال بينهما بأربعة، ففي الرابع من بابه يدخل تشرين الأول، والتاء من ته إشارة لتشرين الثاني، والهاء الأخيرة إشارة لتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففي الخامس من هاتور يدخل تشرين الثاني، والكاف أول من كهك إشارة لكانون الأول والكاف الأخيرة إشارة لكيمك والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من كيمك يدخل كانون الأول، والكاف من كوط إشارة لكانون الثاني، والطاء إشارة لطوبه، والواو بينهما بستة، ففي السادس من طوبه يدخل كانون الثاني، والألف الأولى من أزا إشارة لأشباط، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاي بينهما بسبعة، ففي السابع من أمشير يدخل أشباط، والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لرمهات، والهاء بينهما بخمسة، ففي الخامس من برمهاث يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من برموده يدخل نيسان ؛ والألف من أوب إشارة لآيار ، والباء إشارة لبشنس ، والواو بينهما بستة ، ففي السادس من بشنس يدخل آيار ؛ والحاء من حزب إشارة لحزيران ، والباء إشارة لبؤنه ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من بؤنه يدخل حزيران ، والتاء من ترأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأيبب ، والزاي بينهما بسبعة ، ففي السابع من أيبب يدخل تموز ، والألف من احم إشارة لآب ، والميم إشارة لمسرى ، والحاء بينهما ثمانية ، ففي الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسب لأغشطش ملك الروم) وهو قيصر الأول ، فأثنا عشر شهرا ؛ بعضها ثلاثون يوما ، وبعضها زائد على الثلاثين ، وبعضها ناقص عنها كما في شهور السريان ؛ وهي مطابقة لشهور السريان في العدد ؛ مخالفة لها في الأسماء والترتيب . الشهر الأول ينير ، ويوافق كانون الثاني من شهور السريان ، وهو الرابع من شهورهم ، وفي أول يوم منه يكون القلداس ، ويوقد أهل الشام في ليلته نيرانا عظيمة ، لاسيا مدينة أنطاكية ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم ، وسائر بلاد النصارى . الشهر الثاني فبراير ، ويوافق شباط من شهور السريان ؛ وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس ، ويوافق آذار من شهور السريان ، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل ؛ ويوافق نيسان من شهور السريان ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايو ، ويوافق آيار من شهور السريان ، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيو ؛ ويوافق حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يولييه ، ويوافق تموز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغشت ، ويوافق آب من شهور السريان ، وهو الحادى عشر من شهورهم . الشهر التاسع شتبر ، ويوافق أيلول من شهور

السريان ، وهو الثاني عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر ، ويوافق تشرين الأول من شهور السريان ، وهو الأول من شهورهم . الشهر الحادي عشر نوفمبر ، ويوافق تشرين الثاني من شهور السريان ، وهو الثاني من شهورهم . الشهر الثاني عشر دجنبر ، ويوافق كانون الأول من شهور السريان ، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشوري فقال :

يَسِيرُ فَبِرِّ مَارَسَ لِلرُّومِ * أْبْرِيْلُ مَائَةٌ خَامِسُ الْمَعْلُومِ
يُنِيهِ وَيُؤَيِّهِ ثُمَّ آغَشَتْ شَتْنِبْرُ * أَكْتُوبِرُ نُوْنَمْبِرُ دَجْنِبْرُ

الطرف الثالث

(في السنين : وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في مدلول السنة والعام)

يقال : السنة ، والعام ، والحول ؛ وقد نطق القراء بالأسماء الثلاثة قال تعالى :
﴿ فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا نَحْسِينَ عَامًا ﴾ فاتى بذكر السنة والعام في آية واحدة ،
وقال جل وعز : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ ﴾ وقد تختص السنة
بالجذب والعام بالخضب ، وبذلك ورد القراء الكريم في بعض الآيات قال تعالى :
﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾ فعبر بالعام عن الخضب
وقال جل ذكره : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ فعبر
بالسنين عن الجذب . على أنه قد وقع التعبير بالسنين عن الخضب أيضا في قوله
تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّوهُ فِي سُنْبُلِهِ ﴾ . أما الحول
فإنه يقع على الخضب والجذب جميعا .

الجملة الثانية

(في حقيقة السنة، وهي على قسمين : طبيعية وأصلاحية كما تقدم في الشهور)

القسم الأول

(السنة الطبيعية : وهي القمرية)

وأقرباً استملال القمر في غرة المحرم ، وآخرها سلخ ذى الحجة من تلك السنة ، وهي اثنا عشر شهراً هلالياً قال تعالى : ﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ . وعدد أيامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوماً وخمسة وسدس يوم تقريباً ، ويجتمع من هذا الخمس والسدس يوم في كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً ، ويبقى من ذلك بعد اليوم الذي اجتمع شيء ، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه في السنة السادسة يوم واحد ، وكذلك إلى أن يبقى الكسر أصلاً بأحد عشر يوماً عند تمام ثلاثين سنة ، وتسمى تلك السنين بكائس العرب .

قال السهيلي : كانوا يؤخرون في كل عام أحد عشر يوماً حتى يئور الدور إلى ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلى وقته ، فلما كانت سنة حجة الوداع : وهي سنة تسع من الهجرة ، عاد الحج إلى وقته اتفاقاً في ذى الحجة كما وضع أولاً فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحج ، ثم قال في خطبته التي خطبها يومئذ : "إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ،" بمعنى أن الحج قد عاد في ذى الحجة . وفي بعض التعاليق أن سني العرب كانت موافقة لسني الفرس في الدخول والأنسلاخ فحدث في أحوالهم انتقالات فسد عليهم بها الكبس في أول السنة السادسة من ملك أعيطش ، وذلك بعد ملك ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوماً فسئوا كبس

الربع من ذلك اليوم في كل سنة فصارت سنينهم بعد ذلك الوقت محفوظةً المواقيت .
وقيل لم تزل العرب في جاهليتها على رسم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لا تنسأ
سنيها إلى أن جاورتهم اليهود في يثرب ، فأرادت العرب أن يكون حجهم في أخصب
وقت من السنة ، وأسهل زمان للتردد بالتجارة فعملوا الكبس من اليهود والله أعلم
أي ذلك كان .

القسم الثاني

(الأصلاحية : وهي الشمسية)

وشهورها اثنا عشر شهراً كما في السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعت عدم
دوران سنيها جعلت في أشهرها زيادة في الأيام إما جملة واحدة وإما متفرقة وسمتها
سنيئاً ، بحسب ما اصطاحوا عليه كما ستقف عليه في مصطلح كل قوم إن شاء الله تعالى .
وعدد أيامها عند جميع الطوائف : من القبط ، والفرس ، والسريان ، والروم ، وغيرهم
ثلاثمائة يوم وخمسة وستون يوماً وربع يوم ، فتكون زيادتها على العربية عشرة أيام
وثمانية أعشار يوم وخمسة أسداس يوم . وقد قال بعض حذاق المفسرين في قوله
تعالى ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ : إنه إن حمل على السنين القمرية
فهو على ظاهره من العدد ، وإن حمل على السنين الشمسية فالتسع الزائدة هي تفاوت
زيادة الشمسية على القمرية لأن في كل ثلاثمائة سنة تسع سنين لا يُحُلُّ بالحساب أصلاً
قال صاحب " مناهج الفكر " ولذلك كانوا في صدر الإسلام يُسقطون عند رأس
كل ثلاث وثلاثين سنة عربية سنةً ويسمونها سنة الأزديلاف : لأن كل ثلاث
وثلاثين سنة عربية اثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريباً . قال وإنما حملهم على ذلك
الفرار من اسم النسيء الذي أخبر الله تعالى أنه زيادة في الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية اختلفت مصطلحاتهم فيها بحسب اختلاف مقاصدهم .
المصطلح الأول - مصطلح القبط، وقد اصطلحوا على أن جعلوا شهرهم ثلاثين
يوما كما تقدم فإذا انقضت الاثنا عشر شهرا اضافوا اليها خمسة أيام يسمونها أيام
النسيء، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية، فإذا كانت السنة الرابعة اضافوا إلى خمسة
النسيء المذكورة ما اجتمع من الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية
فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبيسة في تلك السنة ، وبعض ظرفائهم يسمي الخمسة
المزيدة السنة الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأول ابتدائهم ذلك في زمن أغشطش . وكانوا من قبل
يتكون الربع إلى أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك في ألف سنة وأربعمائة وإحدى
وستين سنة ويسقطونها من سنينهم ؛ وعلى هذا المصطلح استقر عملهم بالديار المصرية
في الإقطاعات، والزرع، والخراج، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثاني - مصطلح الفرس؛ وشهورهم كشمهور القبط في عدد الأيام
على ما تقدم، فإذا كان آخر شهر أبان ماه، وهو الشهر السابع من شهورهم اضافوا إليه
الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما، وتسمى الفرس هذه الأيام الخمسة
الاندرگاه؛ ولكل يوم منها عندهم اسم خاص كما في أيام الشهر؛ ولما لم يجز في معتقدهم
كبس السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخرونه إلى أن يتم
منه في مائة وعشرين سنة شهر كامل فيلقونه ، وتسمى السنة التي يلقي فيها بهرك،
قال المسعودي في "مروج الذهب" وإنما أخروا ذلك إلى مائة وعشرين سنة لأن
أيامهم كانت سعوذا ومجوسا ففكر هو أن يكبسوا في كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك
أيام السعوذ إلى أيام المجوس، ولا يكون التبروز أول يوم من الشهر .

(١) الصواب الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) في مروج الذهب - الهارك، وفي الضوء - بهرك .

وعلى هذا المصطلح كان يُجْبَى الحَرَّاج للخلفاء وتُتمشى الأحوال الديوانية في بداية الأمر وعليه العمل في العراق وبلاد فارس إلى الآن .

المصطلح الثالث - مصطلح السريان ، وشهورهم على ما تقدم : من كونها تارة ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها ، وتارة ناقصة عنها ، وإنما فعلوا ذلك حتى لا يلحقهم النسيء في شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الرائدة على شهور القبط والفُرس مُوزعة على رؤوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سبعة أشهر يزيد كل شهر منها يوما على الثلاثين : وهي تشرين الأول ، وكانون الأول ، وكانون الثاني ، وآذار ، وأيار ، وتموز ، وآب ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقى خمسة أيام ، وهي نظير النسيء في سنة القبط والفُرس ، ويبقى بعد ذلك الربع يوم الزائد على الخمسة أيام في السنة الشمسية ، فإذا أنقضت ثلاث سنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملقاة إلى الربع الرابع فيجتمع منها يوم فيجعلونه نظير اليوم الذي كبسه القبط ويضيفونه إلى شباط ، فيصير تسعة وعشرين يوما .

المصطلح الرابع - مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قَرِيبة كالعربية كما تقدم فقد اضطُروا إلى أن تكون سنتهم شمسية : لأنهم أمروا في التوراة أن يكون عيد الفطر في زمان القَرِيك فلم يتأت لهم ذلك حتى جعلوا سنينهم قسمين : الأول بشيطا ومعناه بسيطة وهي القمرية ، والثاني معبارة ، ومعناه كبيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارة اسم موضوع عندهم على الكامل ، فإنه لما كان في بطنها زيادة عليها كانت هذه السنة مثلها باضافة الشهر المكبوس إليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها حسارين ومعناه ناقصة ، وهي التي يكون الشهر الثاني والثالث منها (وهما مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ،

والنوع الثانى سلاميم ومعناه تامّة ، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تاماً ، والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرها ناقصٌ يتلوه تامٌ ، وهذا يلزم من جهة أنهم لا يميزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعا ولا يوم خميس .

وأما معبارت فإنها تكون فى كل تسع عشرة سنة سبع مرات ، ويسمّون الجملة مخزورا ومعناه الدور؛ وهذه السبعة لا تكون على التوالى ، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوها معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت ، كل ذلك حتى لا تخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أول سنتهم ، فإذا آتقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى ، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعمِلوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطلح المنتجّمين فالسنة عندهم من حلُول الشمس فى أول نقطة من رأس الحمل إلى حلولها فى آخر نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أول نقطة من رأس الميزان إلى حلولها فى آخر نقطة من السنبلة ، والأول هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كونِ الشمس فى نقطة ما من فلَك البروج إلى عودها إلى تلك النقطة ، ويقال إن سنة الجند والمرترقة بالديار المصرية كانت أولا على هذا المصطلح ، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجملة الثالثة

(في فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مهائج)

المهيج الأول

(في الحكمة في تغيير الفصول الأربعة في السنة)

وأعلم أن الفصول تختلف بحسب اختلاف طبائع السنة لتباين مصالح أوقاتها
حكمة من الله تعالى . قال بطليموس : تحتاج الأبدان إلى تغيير الفصول ، فالشتاء
للتجميد ، والصيف للتَّحليل ، والخريف للتَّدرِج ، والربيع للتَّعديل . وعلى ذلك
يقال : إن أصل وَضْع الحَمَام أربعة بيوت بعضها دون بعض على التدرِج ترتيبها
على الفصول الأربعة .

المهيج الثاني

(في كيفية انقسام السنة الشمسية إلى الفصول)

وأعلم أن دائرة منطقة البروج لما قاطعت دائرة معدل النهار على تقطين متقابلتين
مال^(١) عنهما في جهتي الشمال والجنوب بقدر واحد فالنقطة التي تجوز عليها الشمس
من ناحية الجنوب إلى الشمال عن معدل النهار تسمى نقطة الاعتدال الربيعي ،
وهي أول الحمل ، والنقطة التي تجوز عليها من الشمال إلى الجنوب تسمى نقطة الاعتدال
الخريفي : وهي أول الميزان . ويتوهم في الفلك دائرة ثالثة معترضة من الشمال إلى
الجنوب تمر على أقطاب تقابل الدائرة المخطوطة على الفلكين تقطع كل واحد من
فلك معدل النهار وفلك البروج بنصفين ، فوجب أن يكون قطعها لفلك البروج على

(١) لعله مال نصفها في جهة الشمال والآخر في جهة الجنوب كما يستفاد من المقرري .

النقطتين اللتين هما في غاية الميل والبعد عن معدل النهار في جهتي الشمال والجنوب :
تسمى النقطة الشمالية نقطة المنقلب الصيفي : وهي أول السرطان ؛ وتسمى النقطة
الجنوبية نقطة المنقلب الشتوي ، وهي أول الجدي . واختلاف طبائع الفصول
عن حركة الشمس وتقلها في هذه النقط ، فإنها إذا تحركت من الحمل ، وهو أول
البروج الشمالية أخذ الهواء في السخونة لقربها من سمت الرأس وتواتر الإسخان إلى
أن تصل إلى أول السرطان ، وحينئذ يشتد الحر في السرطان والأسد إلى أن تصل
إلى الميزان ، فحينئذ يطيب الهواء ويعتدل ؛ ثم يأخذ الهواء في البرودة ويتواتر إلى
أول الجدي ، وحينئذ يشتد البرد في الجدي والدلو بعد الشمس عن سمت الرأس
إلى أن تصل إلى الحمل فتعود الشمس إلى أول حركتها .

المهيع الثالث

(في ذكر الفصول، وأزمنتها، وطبائعها، وما حصة كل فصل منها)

من البروج والمنازل ؛ وهي أربعة فصول)

الأول - فصل الربيع - وأبداؤه عند حلول الشمس برأس الحمل . وقد تقدم
ومدته أحد وتسعون يوما وربيع يوم ونصف ثمن يوم . وأوله حلول الشمس رأس
الحمل ، وآخره عند قطعها بروج الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر، والزهرة ؛ ومن
المنازل السرطان ، والبطين ، والثريا ، والدبران ، والمقعة ، والمنعة ، والذراع بما
في ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأولى والثانية والثالثة ؛ ومن الرياح
الجنوب ؛ وطبعه حار رطب ؛ وله من السنن الطفولية والحدائة ؛ ومن الأخلاط
الدم ؛ ومن القوى الهاضمة . وفيه تتحرك الطبائع ، وتظهر المواد المتولدة في الشتاء ،
فيطلع النبات ، وتزه الأشجار وتورق ، ويهيج الحيوان للسفاد ، وتدوب الثلوج ،

وتتبع العيون ، وتسيل الأودية ، وأخذت الأرض زحرفها وأزانت فتصير كأنها
عروس تبدت نخطابها ، في مصبغات ثيابها ، ويقال : إذا نزلت الشمس رأس
الحمل . تصرم الشتاء ، وتنفس الربيع ، وأختالت الأرض في وشيها البديع ، وتبرجت
للنظاره ، في معرض الحسن والنضاره .

ومن كلام الوزير المغربي : لو كان زمن الربيع شخصاً لكان مقبلاً ، ولو أن الأيام
حيوان لكان لها حلياً ومجلاً : لأن الشمس تخلص فيه من ظلمات حوت السماء ،
خلاص يونس من ظلمات حوت الماء ، فإذا وردت الحمل وافت أحب الأوطان
إليها ، وأعزّ أماكنها عليها .

وكان عبدوس الخزاعي يقول : من لم يتهيج بالربيع ولم يستمتع بأنواره ،
ولا أستروح بنسيم أزهاره ، فهو فاسد المزاج ، محتاج إلى العلاج .

ويروي عن بقراط الحكيم مثله ، وفيه بدل قوله "فهو فاسد المزاج" فهو عديم
حسب ، أو سقيم نفس . ولحلالة محل هذا الفصل في القلوب ، ولنزوله من النفوس
منزلة الكاعب الخلوب ، كانت الملوك إذا عدته استعملت ما يضاها زهره من
البسط المصورة المنقشه ، والنمارق الموقوفة المرقشه . وقد كان لأنوشروان بساط
يسميه بساط الشتاء مرصع بأزرق الياقوت والجواهر وأصفره وأبيضه وأحمره ،
وقد جعل أخضره مكان أغصان الأشجار ، وألوانه بموضع الزهر والنوار . ولما أخذ
هذا البساط في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في واقعة القادسية ، حمل إليه فيما
افاء الله على المسلمين ، فلما رآه قال : " إن أمة أدت هذا إلى أميرها لأئينة " ثم
مرقه فوقع منه لعل عليه السلام قطعة في قسمه مقدارها شبر في شبر فباعها بخمسة
عشر ألف دينار .

وقد أظن الناس في وصف هذا الفصل ومدحه ، وأتوا بما يقصر عن شرحه ،

وتغالى الشعراء فيه غاية التغالى ، وفصلوا أيامه ولياليه على الأيام والليالي ، وما أحلى قول البحرى ! :

أتالك الربيعُ الطلقُ يخنألُ ضاحِكًا * من الحُسنِ حتى كاد أن يتكلمًا
وقد نبه النوروزُ في غسقِ الدجى * أوائلَ وردٍ كُنَّ بالأمسِ نوما
يفتحها بردُ الندى فكأتمًا * يبتُ حديثًا بينهن مكنما
ومن شجرٍ ردَّ الربيعُ رداءه * كما نشرت نوبًا عليه مئتمنا
أحلُّ فأنبئ للعيون بشاشة * وكان قدى للعين إذ كان محروما
ورقٌ نسيم الحوِّ حتى كأنما * يحيى بأنفاسِ الأحبة نغما
وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوى :

أوما ترى الأيام كيف تبرجت * وربيعها وإلٍ عليها قيم ؟
ليست به الأرض الجمال فحسبها * متازرٌ ببروده متعم
أنظرُ إلى وشى الرياض كأنه * وشى تنشره الأكف يئتم
والنور يهوى كالعقود تبددت * والورد ينجل والأفاحى تئتم
والطلُّ ينظم فوقهن لألئنا * قد زان منهن الفرادى النوع
ويكاد يذرى الدمع نرجسها إذا * أضخى ويقطر من شقائقها الدم

ومنها :

أرض تبهيها السماء إذا دجا * ليلٌ ولاحت في دجاها الأجم
فلخضرة أجوا أخضرارٍ يابها * ولزهرة زهرٌ ونورٌ يجم
وكأيسق سنا الحجره جره * وإد يسق الأرض طام مقم
لم يبق إلا الدهر إذ باهت به * وحيا يجود به ملث مرهم

وقول الآخر:

طَرَقَ الحَيَاءُ بِرِهِ المَشْكَورِ * أهْلَابُهُ مِنْ زَائِرٍ وَمَزُورِ!
 وَحَبَابَ الرِّيَاضِ غِلَالَةً مِنْ وَشِيهِ * بَغْرَابِ التَّفْوِيفِ وَالتَّجْحِيرِ
 وَأَعَارَهَا حَلِيًّا تَأْتِي الغَيْثُ فِي * تَرْصِيعِهِ بِجَوَاهِرِ المَنْشُورِ
 بِمُورِدٍ كَمُورِدِ البِقَابِ قَا * رَبِّ أَيْضًا كَمَصَاعِدِ الكَافُورِ
 وَمُعْصَفِرِ شَرِيْقٍ وَأَصْفَرَ فَاقِعِ * فِي أَخْضِرِ كَالسُّنْدِسِ المَنْشُورِ
 فَكَأَنَّ أَرْزَقَهُ بَقَايَا إِثْمِيدِ * فِي أَعْيُنِ مَكْحُولَةٍ بِفُتُورِ
 كَلَّمْتُ صِفَاتُ الزَّهْرِ فِيهِ فَنَابَ عَمِّ * غَابَ مِنْ أَنْوَاعِهِ بِمُخْضُورِ

وقول الآخر:

اشْرَبْ هَنِئًا قَدْ أَتَاكَ زَمَانُ * مَتَعَطَّرَ مَتَهَلَّلَ تَسْوَانُ
 فَالْأَرْضُ وَشَيْءٌ وَالنَّسِيمُ مَعْبَرٌ * وَالْمَاءُ رَاحٌ وَالطُّيُورُ قِيَانُ

الثاني - فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوماً وربع يوم ونصف ثمن يوم
 وابتدأؤه إذا حلت الشمس رأس السرطان، وانتهائه إذا أتت على آخر درجة من
 السنبلية؛ فيكون له من البروج السرطان، والأسد، والسنبلية . وهذه البروج تدل
 على السكون، وله من الكواكب المريخ والشمس؛ ومن المنازل النثرة، والطرف،
 والجهة، والزبرة، والصفرة، والعواء، والسمك يتداخل فيه؛ وله من الساعات
 الرابعة والخامسة والسادسة، ومن الرياح الصبا، وطبعه حار يابس؛ وله من السنن
 الشباب؛ ومن الأخلاط المرة الصفراء؛ ومن القوى القوة النفسية والحيوانية .
 وللعرب في هذا الفصل وغرات : وهي الحورور؛ منها وغرة الشهرى، ووغرة
 الجوزاء، ووغرة سهيل، أولها أقواها حراً؛ يقال إن الرجل في هذه الوغرة يعطش
 بين الحوض والبر، وإذا طلع سهيل ذهبت الوغرات؛ وتسمى الرياح التي في هذه

الْوَعْرَاتِ الْبَوَارِحَ؛ سُمِّتَ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَأْتِي مِنْ يَسَارِ الْكَعْبَةِ كَمَا بَرِحَ الظُّبِيُّ إِذَا أَتَاكَ مِنْ يَسَارِكَ؛ وَقَدْ أَوْلَعَ النَّاسُ بَيْنَ لَفْحَاتِ الْحَرِّ وَسُمُومِهِ، وَأَتَوِيَ فِيهِ بِيَدَائِعَ تَقْلَعُ مِنْ قَلْبِ الصَّبِّ غَمَامَ غُمُومِهِ. وَفِي ذَلِكَ قَوْلُ بَعْضِهِمْ: أَوْقَدْتَ الظَّهِيرَةَ نَارَهَا، وَأَذَكْتُ أَوَارَهَا، فَأَذَابَتْ دِمَاعَ الصَّبِّ، وَأَلْهَبَتْ قَلْبَ الصَّبِّ؛ هَاجِرَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ قُلُوبِ العُشَّاقِ، إِذَا اشْتَعَلَتْ فِيهَا نَارُ الفِرَاقِ؛ حَرَّتْهُرْبٌ لَهُ الحِرْبَاءُ مِنَ الشَّمْسِ، وَتَسْتَجِيرُ بِمِزَامِ الرُّمْسِ؛ لَا يَطِيبُ مَعَهُ عَيْشٌ، وَلَا يَنْفَعُ مَعَهُ تَلَجٌ وَلَا خَيْشٌ؛ فَهُوَ كَالْقَلْبِ المَهْجُورِ، أَوْ كَالنُّتُورِ المَسْجُورِ. وَوَصَفَ بَعْضُهُمْ: وَهُوَ ذُو الرِّمَّةِ حَرَّ هَاجِرَةٌ فَقَالَ:

وَهَاجِرَةٌ حَرُّهَا وَإِقْدٌ * نَصَبْتُ لِحَاجِبِهَا حَاجِبِي
تَلُودٌ مِنَ الشَّمْسِ أَطْلَاؤُهَا * لِيَأْذَ الغَرِيمِ مِنَ الطَّالِبِ
وَتَسْجُدُ لِلشَّمْسِ حِرْبَاؤُهَا * كَمَا يَسْجُدُ القَسُّ لِلرَّاهِبِ

وقال سوار بن المضر:

وَهَاجِرَةٌ تُشْتَوَى بِالسَّمُومِ * جَنَادِيهَا فِي رُءُوسِ الأَكَمِّ
إِذَا المَوْتُ أَخْطَأَ حِرْبَاءَهَا * رَمَى نَفْسَهُ بِالعَمَى وَالصَّمَمِ

وقال أبو العلاء المعري:

وَهَجِيرَةٌ كَالهَجْرِ مَوْجِ سَرَابِهَا * كَالْبَحْرِ لَيْسَ لِمَائِهَا مِنْ طَحْلِبِ
وَإِخَى بِهِ الحِرْبَاءُ عُدُوِّي مَنِيرِ * لِلظُّهْرِ إِلا أَنَّهُ لَمْ يَخْطِبِ

وقال آخر:

وَرَبَّ يَوْمٍ حَبْرُهُ مَنِيضٌ * كَأَنَّهُ أَحْشَاءُ ظَمَانِ
كَأَنَّهَا الأَرْضُ عَلَى رَضْفَةٍ * وَالجَوُّ مَحْشُوٌّ بِنِيرَانِ

وبالغ الأثير ناصر الدين بن الفقيسي فقال من أبيات:

فِي زَمَانٍ يَسُوى الوُجُوهَ بِحَسْرٍ * وَيَذِيبُ الجُوسِمَ لو كُنَّ صَخْرًا

لَا تَطِيرُ النُّسُورُ فِيهِ إِذَا مَا * وَقَفَتْ تَشْمُسُهُ وَقَارَبَ ظُهُرَا
يُسْتَكِي الصَّبُّ مَا اشْتَكَى الصَّبُّ فِيهِ * وَلِحِرْبَائِهِ إِلَى الظَّلِّ حَرَا
وَيُودُّ الغُصْنُ الرِّطِيبُ بِهِ لَوْ * أَنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يَتَعَرَّى
وقال أيضا يَصِفُ لَيْلَةَ شَدِيدَةِ الحَرِّ

يَا لَيْلَةَ بَتَّ بِهَا سَاهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ وَفَرِطِ الأَوَارِ
كَأَنِّي فِي جُنْحِهَا مُحْرِمٌ * لَوْ أَنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّي اسْتِنَارٌ
وَكَيْفَ لَا أَحْرِمُ فِي لَيْلَةٍ * سَمَاؤُهَا بِالشَّهْبِ تَرْمِي الحِمَارَ

على أن أبا علي بن رَشِيْقٍ قد فَضَّلَهُ على فصل الشتاء فقال :

فَصَلُ الشِّتَاءِ مُبِينٌ لَا حَفَاءَ بِهِ * وَالصَّيْفِ أَفْضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشَاكَ
فِيهِ الَّذِي وَعَدَ اللهُ العِبَادَ بِهِ * فِي جَنَّةِ الخُلْدِ إِنْ جَاءُوه نُسَاكَ
أَنْهَارُ نَحْمِرٍ وَأَطْيَارٌ وَفَاكِهَةٌ * مَا شِئْتَ مِنْ ذَا وَمِنْ هَذَا وَمِنْ ذَاكَ
فَقُلْ لِمَنْ قَالَ لَوْلَا ذَاكَ لَمْ يَكْ ذَا * إِذَا تَفَضَّلَ عَلَى أُخْرَاكَ دُنْيَاكَ
سَمَّ الشِّتَاءَ بعبَّاسٍ تُصَبُّ غَرَضًا * مِنَ الصَّوَابِ وَسَمَّ الصَّيْفَ صَحَّاكَ

الثالث - فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن

يوم . وأوله عند حُلُولِ الشمسِ رأسَ الميزان ؛ وذلك في الثامن عشر من توت وإذا
بَقِيَ من أيلول ثمانية أيام ؛ وآخره إذا أتت الشمسُ على آخر درجة من القوس ؛
فيكون له من البروج الميزانُ والعقربُ والقوسُ ؛ وهذه البروج تدلُّ على الحركة ،
وله من الكواكب زحلُّ ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطالع فيه مع الفجر
من المنازل الغفر والزبانان والإكليل والقلب والشولة والنعام والبدنة يتداخل فيه .
وهو بارد يابس ، له من السن الكهولة ؛ تهيج فيه المرّة السوداء وتقوى فيه القوة
الماسكة ، وتهبُّ فيه الرياح الشمالية ، وفيه يبرد الهواء ، ويتغير الزمان ، وتنصرم

الثَّارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُمزَلُ البهائم، وتموت المواتم، وتَجحُرُ الحشرات، ويطلب الطير المواضع الدَّفينة، وتصير الأرض كأنها كهلةٌ مُدبرة. ويقال: فصل الخريف ربيعُ النفس كما أن الربيعَ ربيعُ العين: فإنه ميقاتُ الأقوات، وموسمُ الثَّارِ وأوانُ شَبَابِ الأشجار، وللنفوس في آثاره مَرَبَعٌ، وللجُسوم بمواقع خيراته مستمتع. وقد وصفه الصَّابي فقال "الخريف أصحُّ فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحدُ الأعتدلين المتوسطين بين الانقلابين، حين أبدت الأرض عن ثمرتها، وصرحت عن زُبدتها، وأطلقت السماء حوافلَ أنوائها، وأذنت بآنسكاب مائها، وصارتِ المَوارد، كُمتون المَبَّارد، صفاءً من كَدَرها، وتهذبا من عَكْرها، وأطرادا مع نَفحاتِ الهواء، وحركاتِ الرِّيحِ الشَّجَواءِ، وآكنت الماشيةُ وبرها القشيب، والطارئُ ريشه العَجيب".

ومن كلام ابن سبيل: كلُّ ما يظهرُ في الربيعِ نُوارُه، ففي الخريفِ نُجنتي ثَمَّارُه.
وقال أبو بكر الصنوبري:

ما قَضَى في الرَّبِيعِ حَقَّ المَسْرَا * تِ مُضِيعٌ لِحَقَّتْهَا في الخَرِيفِ
نَحْنُ مِنْهُ عَلَي تَلَقَّى شِيتَاءِ * يُوجِبُ القِصْفَ أودَاعِ مِصِيفِ
في قَمِيصٍ مِنَ الزَّمَانِ رَقِيقِ * وِرْدَاءِ مِنَ المِهْوَاءِ خَفِيفِ
يَرَعِدُ المِاءُ فِيهِ خَوْفًا إِذَا مَا * لَمَسْتَهُ يَدُ النَّسِيمِ الضَّعِيفِ

وقال ابن الرومي يصفه:

لَوْلَا فَوَاكِهُ أَيْلُولٍ إِذَا أَجْتَمَعَتْ * مِنْ كُلِّ فَنٍّ وَرَقِّ الجُؤِ وَالْمِاءِ
إِذَا لَمَّا حَفَلَتْ نَفْسِي إِذَا أَشْتَمَلْتُ * عَلَي هَائِلَةِ الحَالِينِ غَبْرَاءِ
يَاجِبَدًا لَيْلُ أَيْلُولٍ إِذَا بَرَدَتْ * فِيهِ مَضَاجِعُنَا والرِّيحُ شِجَواءِ!
وَنَحْمَشُ القُرْفِ فِيهِ الحِلْدَ وَالتَّامَتِ * مِنَ الضَّجِيعِينَ أَجْسَامُ وَأَحْشَاءُ

وَأَسْفَرَ الْقَمْرَ السَّارِيَ بِصَفْحِهِ * يَرَى لَهَا فِي صَفَاءِ الْمَاءِ لَأْلَاءُ
 بِلِ حَبْدًا نَفْحَةً مِنْ رِيحِهِ تَحْمَرًا * يَأْتِيكَ فِيهَا مِنَ الرِّيحَانِ أَنْبَاءُ
 قُلْ فِيهِ مَا شِئْتَ مِنْ فَضْلِ تَعَهُدِهِ * فِي كُلِّ يَوْمٍ يَدُّ لَكَ بَيْضَاءُ
 وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله على الصيف من أبيات :

طَابَ شَرْبُ الصُّبُوحِ فِي أَيُّوْلِ * بَرَدَ الظُّلُّ فِي الضُّحَى وَالْأَصِيلِ
 وَخَبَّتْ لَفْحَةُ الْمَوَا حِرْعَنَا * وَأَسْتَرَحْنَا مِنَ النَّهَارِ الطَّوِيلِ
 وَخَرَجْنَا مِنَ السَّمُومِ إِلَى بَرٍّ * دَسِيمٍ وَطِيبِ ظِلِّ ظَالِمِ
 فَكَأَنَّا نَزْدَادُ قُرْبًا مِنَ الْجَنَّةِ فِي كُلِّ شَارِقٍ وَأَصِيلِ
 وَوَجْهُ الْبِقَاعِ تَنْظُرُ الْغَيْثِ * أَنْ تَنْظَرَ الْجُبَّ رَدَّ الرَّسُولِ
 وقريب منه قول الآخر :

اشْرَبْ عَلَى طِيبِ الزَّمَانِ فَقَدْ حَدَا * بِالصَّيْفِ لِلنُّدْمَانِ أُطِيبُ حَادِ
 وَأَشْمَنَا بِاللَّيْلِ بَرْدَ نَسِيمِهِ * فَأَرْتَا حَتِ الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ
 وَأَفَاكَ بِالْأَنْدَاءِ قُدَامَ الْحَيَا * فَالْأَرْضُ لِلْمَطَارِ فِي أَسْتِعْدَادِ
 كَمْ فِي صَمَائِرِ تُرْبِهَا مِنْ رَوْضَةٍ * بِمَسِيلِ بَاءٍ أَوْ قَرَارَةٍ وَادِ
 تَبَدُّو إِذَا جَاءَ السَّحَابُ بِقَطْرِهِ * فَكَأَنَّمَا كُنَّا عَلَى مِعَادِ
 وما يقرب منه قول جحظة البرمكي :

لَا تَصْغَ لَلْوَمِ إِنْ الْوَمَ تَضَلِيلُ * وَأَشْرَبَ فِي الشُّرْبِ لِلْأَحْزَانِ تَحْلِيلُ
 فَقَدْ مَضَى الْقَيْطُ وَأَجْتَمَعَتْ رَوَاحِلُهُ * وَطَابَتْ الرِّيحُ لِمَا آلَ أَيُّوْلُ
 وَليْسَ فِي الْأَرْضِ بَيْتٌ يَشْتَكِي مَرَّهَا * إِلَّا وَنَاطِرُهُ بِالطَّلِّ مَكْحُولُ

وبالغ بعضهم فسوى بينه وبين فصل الربيع فقال في ضمن تهنية لبعض إخوانه :

هَنَيْتَ إِقْبَالَ الْحَرِيرِ * وَفُزْتَ بِالْوَجْهِ الْوَضَّ

تَمَّ اعْتِدَالًا فِي الْكَمَا * لِبِغَاءِ فِي حَلْقِي سَوِي
فَكَى الرَّبِيعَ بِحُسْنِهِ * وَنَسِيمِ رِيَاهُ الدِّكْيِ
وَيُنُوبُ وَرَدَ الزَّعْفَرَا * نِ لَهُ عَنِ الْوَرْدِ الْجَمِي

وأبلغ منه قول الآخر، يفضله على فصل الربيع الذي هو سيد الفصول ورئيسها :

مَحَاسِنُ لِلْحَرِيفِ لَهْنٌ فَخْرُ * عَلَى زَمَنِ الرَّبِيعِ وَأَيُّ فَخْرٍ
بِهِ صَارَ الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدِ * يُرَاقِبُ نَزْحَهُ وَعَقِيبَ حَرِّ

ومع ذلك فالأطباء تذمه لاستيلاء الميزة السوداء فيه، ويقولون إن هواءه ردى

متى تشبث بالجسم لا يمكن تلافيه، وفي ذلك يقول بعض الشعراء :

حَذْفِي التَّدَثُّرِي الْحَرِيفِ فَإِنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ وَنَسِيمُهُ خَطَافُ
يَجْرِي مَعَ الْأَيَّامِ جَرَى نَمَاقِهَا * لِمَصْدِيقِهَا وَمِنَ الصَّدِيقِ يُخَافُ

الرابع - فصل الشتاء : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف من يوم، ودخوله عند حلول الشمس رأس الجدى ، وذلك في الثامن عشر من كيهك وإذا بقي من كانون الأول ثمانية أيام، وآخره إذا أتت الشمس على آخر درجة من الحوت فيكون له من البروج الجدى والدلو والحوت ، وهذه البروج تدل على السكون ، والطالع فيه مع الفجر سعد الذامح ، وسعد بلع ، وسعد السعود ، وسعد الأخيبة ، والفرغ المقدم والفرغ المؤخر ، والرشاء . فيه تهب رياح الدبور ، وهو بارد رطب . فيه يهب البلغم ، وتضعف قوى الأبدان . له من السن الشيخوخة ومن القوى البدنية القوة الدافعة ، وفيه يشتد البرد ، ويحش الهواء ، ويتساقط ورق الشجر ، وتتجحر الحيات ، وتكثر الأنواء ، ويظلم الجو وتصير الأرض كأنها عجوز هرمة ، قد دنا منها الموت . وله من الكواكب المشتري وعطارد . ومن الساعات العاشرة والحادية عشرة . ويقال إذا حلت الشمس الجدى مد الشتاء رواقه ، وحل نطاقه ، ودبت

عقاربُ البردِ لاسِبه ، ونفعُ مدخِرِ الكسبِ كاسِبه . وللبلغاءِ في وصفِ حالِ من أظله ، ملحٌ تدفعُ عنِ المقرورِ متى استعدَّ بها طَلَهْ ووبَلَهْ .

فإن ذلك قول بعضهم يصف شدة البرد: "بردٌ يغيِّرُ الألوانَ، وينشِّفُ الأبدانَ؛ ويجمِّدُ الريقَ في الأشداقِ، والدَّمعُ في الآماقِ؛ بردٌ حالٌ بينِ الكلبِ وهريه، والأسدِ وزئيره؛ والطيرِ وصفيه، والماءِ ونحريه".

ومن كلام الفاضل: "في ليلةِ جمَدِ نحرها، ونجمدِ جمرها؛ إلى يومِ تودَّ البصلةُ لو أزدادت قُصاً إلى قُصها، والشمسُ لو جرتِ النارَ إلى قُرصها؛ أخذه بعضهم فقال:

ويومنا أرياحه قرة * نحمش الأبدان من قرصها

يوم تود الشمس من برده * لو جرت النار إلى قرصها

ولأبن حكينا البغدادى :

اليس إذا قديم الشتاء بروداً * وأفرش على رغم الحصير لبوداً

الريق في اللهوات أصبح جامداً * والدَّمعُ في الآماقِ صار بروداً

وإذا رميت بفضل كأسك في الهوا * عادت إليك من العقيق عقوداً

وترى على برد المياه طيورها * تختار حراً النار والسفوداً

يا صاحب العودين لا تمهلها * حرق لنا عوداً وحرك عوداً

ولبعضهم :

شتاء تقايس الأشداق منه * وبرد يجعل الشبان شيباً

وأرض تزلق الأقدام فيها * فاستمدي بها إلا ديبياً

ومن كلام الزمخشرى :

أقبلت يابرد ببرد أجرد * تفعل بالأوجه فعل المبرد

أُظِلُّ فِي الْبَيْتِ كِمِثْلِ الْمُقْعَدِ * مُتَقِضًا تَحْتَ الْكِسَاءِ الْأَسْوَدِ
لَوْ قِيلَ لِي أَنْتَ أَمِيرُ الْبَلَدِ * فَهَاتِ لِيْبَعَةَ كَفًّا يُعْقَدِ

ومن كلام أبي عبد الله بن أبي الحِصَالِ ، يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ
قد صافحَ خيشومه ذنبه ، وأنكر البيتَ وطنبه ، والتوى التواءَ الجباب ، وأستدار
استدارةَ الجباب ، وجلده الجليد ، وضربه الضرب ، وصعد أنفاسه الصعید ، فحماه
مُبَاح ، ولا هَرِيرٌ ولا نُبَاح .

ومن شعر الحماسة في وصف ليلة شديدة البرد :

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةِ * لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ أُنْدَائِهَا الطُّنْبَا
لَا يَبْحُ الْكَلْبُ فِيهَا غَيْرَ وَاحِدَةٍ * حَتَّى يَلْفَ عَلَى خَيْشُومِهِ الذَّنْبَا
وَلَأَبَى الْقَاسِمِ التَّنُوخَى :

وَلَيْلَةٌ تَرَكَ الْبَرْدُ الْبِلَادَ بِهَا * كَالْقَلْبِ أَسْعَرَ نَارًا فَهُوَ مَثْلُوجُ
فَإِنْ بَسَطْتَ يَدًا لَمْ تَبْسُطْ خَصْرًا * وَإِنْ تَقُلْ فَيَقُولِ فِيهِ تَبْيِجُ
فَنَحْنُ مِنْهُ وَلَمْ نُحْرَسْ ذُووُ نَحْرَسِ * وَنَحْنُ فِيهِ وَلَمْ نُفْلَجْ مَقَالِجِ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثيرا الضباب :

يَوْمٌ مِنَ الزَّمْهِرِيرِ مَقْرُورٌ * عَلَيْهِ جَيْبُ السَّحَابِ مَزْرُورٌ
وَسَمْسُهُ حَرَّةٌ مُحْدَرَةٌ * لَيْسَ لَهَا مِنْ ضَبَابِهِ نُورٌ
كَأَنَّ الْجَوْ حَشَوهُ إِبْرٌ * وَالْأَرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوَارِيرٌ

وحكى أن أعرابياً أشتد به البرد فأضاءت ناراً فدنا منها ليصطلي ، وهو يقول :

اللهم لا تحرمنيها في الدنيا ولا في الآخرة ! . أخذه بعضهم فقال وهو في غاية المبالغة :

أَيَارَبِّ إِنْ الْبَرْدَ أَصْبَحَ كَالْحَيَا * وَأَنْتَ بِحَالِي عَالِمٌ لَا تَعْلَمُ
فَإِنْ كُنْتَ يَوْمًا مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ * فَفِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمَ

وقد أعتنى الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تغيّب فيه
الهوامُ وتنجح الحشرات ، ويموت الذباب ، ويهلك البعوض ، ويبرد الماء ، ويسخن
الجوف ، ويطيب العناق ، ويظهر الفرش ، ويكثر الدخن ، وتلد حمرة البيت .
وتابعه بعض الشعراء فقال :

تركت مقدمة الخريف حميده * وبدا الشتاء جديده لا ينكر
مطر يروق الصحو منه وبعده * صحو يكاد من الغضارة يطر
غيثان : والأنواء غيث ظاهر * لك وجهه والصحو غيث مضمّر

وقال أبو الفتح كشاجم :

أذن الشتاء بلهوه المستقبل * فدنت أوائله بغيث مسبل
متكاثف الأنواء منغدي الحيا * هطل الندى هزج الرعود مجلجل
جاءت بعزل الجذب فيه فبشرت * بالخصب أنواء السماء الأعزل

وقد ولىع الناس بذكر الاعتداد لها قديما وحديثا .

قيل لأعرابي ما أعددت للبرد ؟ فقال طول الرعدة ، وتقرّص القعدة ، وذوب
المعدة . أخذه ابن سكرة ، فقال :

قيل ما أعددت للبر * د وقد جاء بشده
قلت دراعة عري * تحتها جبة رعد

واعلم أن ما تقدم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطلح المعروف ، والطريق
المشهور . وقد ذكر الأبي في كتاب الدر أن العرب قسّمت السنة أربعة أجزاء فجعلوا
الجزء الأول الصيفيّة ، وسمّوا مطره الوسمي ، وأوله عندهم سقوط عرقوة الدلو
السفلى ، وآخره سقوط الحقة ، وجعلوا الجزء الثاني الشتاء ، وأوله سقوط الهنعة ،

(١) لعل الصواب وذرب بالراء بدل الواو .

وآخره سقوطُ الصَّرْفَةِ . وجعلوا الجزء الثالث الصيف ، وأوله سقوطُ العَوَاءِ ، وآخره سقوطُ الشَّوْلَةِ . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظَ ، وسماوا مطَّره الخَرِيفَ ، وأوله سقوطُ النَّعَامِ ، وآخره سقوطُ عَمْرِ قُوَّةِ الدَّائِوِ العُلْيَا .

وذكر ابن قتيبة في "أدب الكاتب" طريقاً آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلى أنه الفصل الذي يتبع الشتاء، ويأتي فيه الورد والكجاء، والنور؛ ولا يعرفون الربيع غيره . والعرب تختلف في ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذي تُدرِك فيه الثمارُ، وهو الخريف ، وبعده فصلُ الشتاء ، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذي تسميه العامةُ الربيعَ ؛ ثم فصلُ القَيْظِ : وهو الذي تسميه العامةُ الصيفَ ، ومنهم من يسمي الفصل الذي تُدرِك فيه الثمارُ : وهو الخريف الربيعَ الأولَ ، ويسمى الفصل الذي يلي الشتاء وتأتي فيه الكجاء والنور الربيعَ الثانيَ ؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع" .

وفي بعض التعليقات أن من العرب من جعل السنة ستة أزمانة . الأول الوسمى وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة : وهي العواء ، والسماك والغفر ، والزبانان ، وثلاث الإكليل . الثاني الشتاء ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة : وهي ثلث الإكليل ، والقلب ، والشولة ، والنعام ، والبلدة ، وثلث الذابح . الثالث الربيع ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة ، وهي ثلث الذابح ، وبلغ ، والسعود ، والأخبية ، والفرغ المقدم . الرابع الصيف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة ، وهي الفرغ المؤخر ، وبطن الحوت ، والشرطان ، والبطين ، وثلث الثريا . الخامس الحميم ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاث منزلة : وهي ثلث الثريا ، والدبران ، والحقعة ، والهنعة ، والذراع وثلث الثرة . السادس

الحريف ، وحصته من السنة شهران ، ومن المنازل أربع منازل وثلاثاً منزلة : وهي ،
ثلاثا النثرة ، والطرف ، والجبهة ، والخرتان ، والصرفة .

والأوائل من علماء الطب يقسمون السنة إلى الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون
الشتاء والصيف أطول زماناً وأزيد مدة من الربيع والحريف ، فيجعلون الشتاء
أربعة أشهر ، والصيف أربعة أشهر ، والربيع شهرين ، والحريف شهرين ، إذ كانا
متوسطين بين الحر والبرد وليس في مدتهما طول ولا في زمانهما اتساع .

وأعلم أن ما تقدم من تفضيل بعض الفصول على بعض إنما هو أقاويل الشعراء
وأفانين الأدباء ، تفننا في البلاغة ، والا فالواضع حكيم جعل هذه الفصول مشتملة على
الحر تارة وعلى البرد أخرى لمصالح العباد ، ورتبها ترتيباً خاصاً على التدرج ، يفهم ذلك
أهل العقول وأرباب الحكمة ، جلّت صنعته أن تكون عريّة عن الحكمة أو موضوعة
في غير موضعها ﴿ ماترى في خلق الرحمن من تفاوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطورٍ
ثم أرجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير ﴾ :

الطرف الرابع

(في أعياد الأمم ومواسمها : وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في أعياد المسلمين)

واعلم أن الذي وردت به الشريعة وجاءت به السنة عيدان : عيد الفطر ،
وعيد الأضحى . والسبب في اتخاذها مارواه أبو داود في سننه عن أنس بن مالك
رضي الله عنه ^١ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة ولأهلها يومان يلعبون
فيهما ، فقال : ما هذان اليومان ؟ فقالوا ^٢ كما نلعب فيهما في الجاهلية ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إن الله عز وجل قد بدلكم خيراً منهما يوم الأضحى، ويوم الفطر، فأول ما بدئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك في سنة اثنتين من الهجرة . وروى ابن بطيش في كتاب الأوائل أن أول عيد ضحى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم سنة اثنتين من الهجرة ونحرج إلى المصلى للصلاة، وحينئذ فيكون العيدان قد شرعا في سنة واحدة؛ نعم قد أتدعت الشيعة عيداً ثالثاً وسموه عيد الغدير . وسبب اتخاذهم له مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم لعلى كرم الله وجهه يوم غدير خم : وهو غدير على ثلاثة أميال من الحنفة يسرة الطريق تصب فيه عين وحوله شجر كثير، وهى الغيضة التى تسمى نحما . وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حجة الوداع نزل بالغدير وأتخى بين الصحابة ولم يؤاخ بين على وبين أحد منهم فرأى النبي صلى الله عليه وسلم منه أنكساراً فضمه إليه وقال "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لاني بعمى والتفت إلى أصحابه وقال من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وآل من وآله، وعاد من عاداه"، وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنة عشر من الهجرة . والشعبة يحون ليلة هذا العيد بالصلاة ويصلون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال وشعارهم فيه لبس الحديد، وعتق العبيد، وذبح الأغنام، وإلحاق الأجانب بالأهل فى الإكرام . والشعراء والمتروكون يهتئون الكبراء منهم بهذا العيد .

الجملة الثانية

(فى أعياد الفرس)

وكان دينهم المحوسية، وأعيادهم كثيرة جداً حتى إن على بن حمزة الأصبهاني عمل فيها كتاباً ذكر فيه أسباب اتخاذهم لها، وسبب سلوكهم فيها، وقد اقتصرنا منها على المشهور الذى وليع الشعراء بذكره، وأعتنى الأهراب بأمره، وهى سبعة أعياد .

العيد الأوّل النَّبْرُوز - وهو تعريب نُورُوز ، ويقال إن أوّل من آتخذه جم شاد أحد ملوك الطبقة الثانية من الفُرس ومعنى شاد الشُّعاع والضياء . وإن سبب آتخاذهم لهذا اليوم عيداً أن الدّين كان قد فسد قبله ، فلما ملك جدّده وأظهره ، فسَمّى اليوم الذي ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد . وفي بعض التعاليق أن جم شاد ملك الأقاليم السبعة والحقّ والإنس ، فأتخذ له عَجَلَةً رَكَبَهَا ، وكان أوّل يوم ركبها فيه أوّل يوم من شهر افرودين ماه ، وكان مدّة ملكه لا يُريهم وجهه ، فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجمال وافراً ، فجعلوا يوم رؤيتهم له عيداً ، وسَمَّوه نوروزاً . ومن الفرس من يزعمُ أنه اليومُ الذي خلق الله فيه النُّور ، وأنه كان معظماً قبل جم شاد . وبعضهم يزعمُ أنه أوّل الزمان الذي آتبدأ الفلكُ فيه بالدوران . ومدّته عندهم ستة أيام أوّلها اليوم الأوّل من شهر افرودين ماه الذي هو أوّل شهر سنتهم . ويسمُّون اليومَ السادس النُّوروزَ الكبير ، لأن الأكَسرة كانوا يقضون في الأيام الخمسة حوائج الناس على طبقاتهم ، ثم ينتقلون إلى مجالس أنسهم مع ظرفاء خواصهم .

وحكى ابن المقفّع أنه كان من عاداتهم فيه أن يأتي الملك رجل من الليل قد أرصد لما يفعله ، ملىح الوجه ، فيقف على الباب حتى يُصيح ، فإذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ، ويقف حيث يراه ، فيقول له : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما أسمك ؟ ولأى شيء وردت ؟ ومامعك ؟ فيقول : أنا المنصور ! وأسمى المبارك ! ومن قبل الله أقبلت ! والملك السعيد أردت ! وبالهناء والسلامة وردت ! ومعى السنّة الجديدة ! ثم يجلس ، ويدخل بعده رجل معه طبق من فِضّة وعليه حنطة ، وشعير ، وجلبان ، وحمص ، وشمس ، وأرز : من كل واحد سبع سنبلات ، وسبع حبات ، وقطعة سكر ، ودينار ودرهم جديان ، فيضع الطبق بين

يدى المَلِك ، ثم تُدخَل عليه الهدايا ، ويكون أول من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخراج ، ثم صاحب المعونة ، ثم الناس على طبقاتهم ؛ ثم يقدم للملك رغيف كبير من تلك الجيوب مصنوع موضوع في سلة ، فيأكل منه ويطعم من حضر ؛ ثم يقول : هذا يوم جديد ، من شهر جديد ، من عام جديد ، يحتاج أن يُجَدِّد فيه ما أخلق من الزمان ؛ وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس : لفضله على سائر الأعضاء . ثم يخلع على وجوه دولته ، ويصلهم ، ويفترق عليهم ما وصل إليه من الهدايا .

وأما عوام الفرس فكانت عادتهم فيه رفع النار في ليلته ، ورش الماء في صبيحته ؛ ويزعمون أن إيقاد النيران فيه لتحليل العفونات التي أبقاها الشتاء في الهواء . ويقال إنما فعلوا ذلك تنويها بذكره ، وإشهارا لأمره . وقالوا في رش الماء : إنما هو بمنزلة الشهرة لتطهير الأبدان مما أنضاف إليها من دخان النار الموقدة في ليلته .

وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فيروز بن يزدجرد لما أستتم سورجى ، وهى أصهبان القديمة لم تمطر سبع سنين في ملكه ؛ ثم مطرت في هذا اليوم ففرح الناس بالمطر وصبوا من مائه على أبدانهم من شدة فرحهم به ، فصارت سنة عندهم في ذلك اليوم من كل عام ، وما أحلى قول بعضهم يخاطب من يهواه ، ويذكر ما يعتمد في التيروز من شب النيران وصب الأمواه :

كَيْفَ آتَيْتَهُ بِالنَّيْرُوزِ يَأْسَكُنِي * وَكُلُّ مَا فِيهِ يَحْكُمُنِي وَأَحْكُمِي

فَنَارَةٌ كَلْهَيْبِ النَّارِ فِي كَيْدِي * وَتَارَةٌ كَتَوَالِي عَابِرِي فِيهِ

أَسَأَلْتَنِي فِيهِ يَا سُوْلِي إِلَى وَصْبِي * فَكَيْفَ تُهْدِي إِلَى مَنْ أَنْتَ تُهْدِيهِ

وأول من رسم هدايا التيروز والمهرجان في الإسلام الحاج بن يوسف الثقفى ،

ثم رفع ذلك عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه ، وأستمر المنع فيه إلى أن فتح باب

الهدية فيه أحمد بن يوسف الكاتب فإنه أهدى فيه للأمون سَفَطَ ذهبٍ فيه قطعة
عودٍ هنديٍّ في طوله وعرضه، وكتب معه : هذا يومُ جرت فيه العادة، بإتحاف
العبيد السادة، وقد قلت :

عَلَى الْعَبْدِ حَقٌّ وَهُوَ لِأَشْكَ فَاعِلُهُ * وَإِنْ عَظُمَ الْمَوْلَى وَجَلَّتْ فَوَاضِلُهُ
أَلَمْ تَرَنَا نُهْدِي إِلَى اللَّهِ مَالَهُ * وَإِنْ كَانَ عَنْهُ ذَاغِيٌّ فَهُوَ قَابِلُهُ
فَلَوْ كَانَ يُهْدَى لِلْجَلِيلِ بِقَدْرِهِ * لَقَصَّرَ عَنْهُ الْبِحْرُ يَوْمًا وَسَاحِلُهُ
وَلَكِنَّا نُهْدِي إِلَى مَنْ نُجِلُّهُ * وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي وَسْعِنَا مَا يُشَاكِلُهُ

وكتب سعيد بن حميد إلى صديق له يومَ نيروز: هذا يومٌ سهلت فيه السنة للعبيد
الإهداء للملوك، فتعلقت كلُّ طائفةٍ من البرِّ بحسب القدرة والهمة، ولم أجِد فيما
أملك ما يفي بحسبك، ووجدتُ تهريظك أبلغ في أداء ما يجب لك، ومن لم يُؤت
في هديته، إلا من جهة قدرته، فلا طعن عليه .

هذا ما يتعلق بنيروز الفرس من ذكر الهدايا فيه، وإيقاد النار، ورش الماء،
واقبل من سنه . وأما تعلُّقه بالخراج فسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى عند
الكلام على جباية الخراج في فنِّ الديونة .

العيد الثاني من أعياد الفرس المهرجَانُ - وهو في السادس والعشرين من تشرين
الأول من شهور السريان، وفي السادس عشر من مهرماه من شهور الفرس، وفي التاسع
من أبيب من شهور القبط؛ وبينه وبين النيروز مائةٌ وسبعةٌ وستون يوماً، وهذا
الأوان في وسط زمان الخريف، وفي ذلك يقول الشاعر :

أَحَبُّ الْمَهْرَجَانِ: لِأَنَّ فِيهِ * سُرُورًا لِلْمُلُوكِ دَوَى السَّنَاءِ
وَبَابًا لِلْخَيْرِ إِلَى أَوَانٍ * تَفْتَحُ فِيهِ أَبْوَابَ السَّمَاءِ

ومدته ستة أيام، ويُسمى اليوم السادس منه المهرجان الأكبر، كما يُسمى اليوم السادس من أيام التّيزوز عندهم التّيزوز الأكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الأسم أنهم كانوا يُسمّون شهورهم بأسماء ملوكهم ، وكان لهم ملك يُسمى مَهْرًا ، يسير فيهم بالعنف والعسف ، فمات في النصف من هذا الشهر، وهو مَهْرَمَاهُ ، فسُمّي ذلك اليوم مهرجانًا ، وتفسيره نفس مهر ذهبية ، والفُرس تقدّم في لغتها ما تؤخره العرب في كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولى . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حَفَاط وجان الروح ، وفى ذلك يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر :

إذا ما تحقّق بالمَهْرَجَا * نِ مِنْ لَيْسَ يَعْرِفُ مَعْنَاهُ غَاظَا

وَمَعْنَاهُ أَنْ غَلَبَ الْفُرسُ فِيهِ * فَسَمَّوْهُ لِلرُّوحِ فِيهِ حِفَاطَا

ويقال إنما ظهر في عهد افريدون الملك ، ومعنى هذا الأسم إدراكُ الثأر ، وذلك أن افريدون أخذ بثار جدّه جم شاد من الضحّاك ، فانه كان أفسد دين الجوسية وخرج على جم شاد فأخذ منه المُلْك وقتله ، فلما غلبه افريدون قتله بجبل دُنباوند ، وأعاد الجوسية إلى ما كانت ، فأتخذ الفُرس يوم قتله عيدًا ، وسَمَّوه مَهْرَجَان ، والمهر الوفاء ، وجان سلطان ، وكان معناه سلطان الوفاء ،

وزعم بعضُ الفُرس أن الضحّاك هو الثمُود وافرِيدون هو إبراهيم عليه السلام ، بلغتهم .

ويقال إن المَهْرَجَان هو اليوم الذى عُقد فيه التاج على رأس اردشير بن بابك ، أول ملوك الفُرس الساسانية . وكان مذهب الفرس في المهرجان أن يَدَّهِن ملكهم بدهن البان تبرُّكا ، وكذلك العوام ، وأن يلبس القصب والوشى ، ويتوج بتاج عليه صورة الشمس وحجلتها الدائرة عليها ، ويكون أول من يدخل إليه المُوبدَان بطبق فيه

أُتْرَجَةٌ، وَقِطْعَةٌ سُكَّرٌ، وَنَبِيْقٌ، وَسَفْرَجَلٌ، وَعَنْابٌ، وَتَفَّاحٌ، وَعَنْقُودٌ عِنَبٌ أبيضٌ،
وسبع طاقَاتِ آسٍ، قد زَمَزَمَ عليها؛ ثم تدخُلُ الناسُ على طبقاتهم بمثل ذلك، وربما
كانوا يذهبون إلى تفضيله على التيروز، وفيه يقول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر:

أَخَا الْفُرْسِ إِنْ الْفُرْسَ تَعَلَّمَ إِنَّهُ * لِأَطْيَبِ مِنْ نِيْرُوْزِهَا مَهْرَجَانِهَا
لِإِدْبَارِ أَيَّامٍ يُغْمُّ هَوَاؤُهَا * وَإِقْبَالِ أَيَّامٍ يَسْرُّ زَمَانِهَا

قال المسعودي: وأهل المروءات بالعراق وغيرها من مدن العجم يعملون هذا
اليوم أوّل يوم من الشتاء فيغيرون فيه الفرس والآلات، وكثيرا من الملابس.

العيد الثالث السّدق - ويسمى أبان روز، ويعمل في ليلة الحادى عشر من شهر
بهمن ماه من شهور الفرس، وسنتهم فيه إيقاد النيران بسائر الأدهان والولوع بها حتى
إنهم يلقون فيها سائر الحبوب؛ ويقال إن سبب آتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأول،
وهو عندهم كيومرت لما كل له من ولده مائة ولد زوج الذكور بالإناث، وصنع لهم
عُرْسًا أكثر فيه وقود النيران، ووافق ذلك الليلة المذكورة فاستسنت ذلك الفرس
بعده. وقد ولعت الشعراء بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرّز يصف سداقا

عمله السلطان ملكشاه بدجلة، أشعل فيه النيران والشموع في السّميريات من أبيات:

وَكُلُّ نَارٍ عَلَى الْعُشَاقِ مُضْرَمَةٌ * مِنْ نَارِ قَلْبِي أَوْ مِنْ لَيْلَةِ السَّدَقِ
نَارٌ تَجَلَّتْ بِهَا الظُّلُمَاءُ وَأَشْتَبَهَتْ * بِهُدُفَةِ اللَّيْلِ فِيهَا غُرَّةُ الْفَلَقِ
وَزَارَتْ الشَّمْسُ فِيهَا الْبَدْرَ وَأَصْطَاحَا * عَلَى الْكَوَاكِبِ بَعْدَ الْغَيْظِ وَالْحَقِّ
مَدَّتْ عَلَى الْأَرْضِ بُسْطًا مِنْ جَوَاهِرِهَا * مَا بَيْنَ مُجْتَمِعِ وَإِمْفَتَرِقِ
مِثْلَ الْمَصَابِيحِ إِلَّا أَنَّهَُا نَزَلَتْ * مِنَ السَّمَاءِ بِبَلَا رَجْمٍ وَلَا حَرِّ
أَعْجَبَ بِنَارٍ وَرِضْوَانٍ يَسْعَرُهَا * وَمَالِكٌ قَائِمٌ مِنْهَا عَلَى فَرَقِ
فِي مَجْلِسٍ صَحَّكَتْ رَوْضَ الْحِنَانِ لَهُ * لَمَّا جَلَّ ثَغْرُهُ عَنِ وَاضِحِ يَقِّقِ

(١) كذا في نهاية الأرب أيضا والظاهر السّميريات وهو اسم لنوع من السفن.

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عضد الدولة :

لَيْتَنَّا حُسْنَهَا عَجِيبٌ * بالقَصْفِ والتَّيِّهِ قد نَحَقَّقُ
لِنَارِهَا فِي السَّمَا لِسَانٌ * عن نُورِ ضَوْءِ الصَّبَاحِ يَنْطِقُ
وَالجَوْ مِنْهَا قد صَارَ جَمْرًا * والنَّجْمُ مِنْهَا قد كَادَ يُحْرِقُ
وَدِجَلَةٌ أَضْرِمَتْ حَرِيقًا * بِأَلْفِ نَارٍ وَأَلْفِ زَوْرِقِ
فَأَوْهَا كَجَلَّةِ حَمِيمٍ * قد فَارَ مِمَّا غَلَى وَبَقِيَ

وقال عبد العزيز بن نباتة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِي لَقَدْ أَذْكَى الِهُمَامُ بِأَرْضِهِ * مُشَهَّرَةً يَنْتَابُهَا الفَخْرُ صَالِيًا
تَغِيبُ النُّجُومُ الزُّهْرَ عِنْدَ طُلُوعِهَا * وَتَحْسُدُ أَيَّامُ الشُّهُورِ اللَّيَالِيَا
قِلَادَةٌ مُجِدِّ أَغْفَلَ الدَّهْرُ نَظْمَهَا ^(١) * عَلَيْهِ وَقَدِ السَّيِّئِينَ الخَوَالِيَا
هِيَ اللَّيَالِيَةُ الغُرَاءُ فِي كُلِّ شَتْوَةٍ * تُعَادِرُ جَيْدَ الدَّهْرِ أَبْلَجَ حَالِيَا

العيد الرابع الشركان - وهو في الثالث عشر من تيرماه من شهور الفرس، زعموا أن أرس رمى سهمه لما وقعت المصالحة بين منوچهر وقراسياب التركي من المملكة على رمية سهم، فأمتد السهم من جبال طبرستان إلى أعلى طخارستان .

العيد الخامس أيام الفرورجان - وهي خمسة أيام؛ أولها السادس والعشرون من أبان ماه من شهور الفرس، ومعناه تربية الروح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمة وأشربة لأرواح موتاهم، ويزعمون أنها تغتدى بها .

العيد السادس ركوب الكوتيج - ويعمل في أول يوم من ادرماه من شهور الفرس، وسنتهم فيه أن يركب في كل بلد من بلادهم رجل كوتيج، قد أعد لما يُصنع

(١) كذا في الاصل . ولعله وقد بذ الخ

به بأكل الأطعمة الحارة كالجوز، والثوم، واللحم السمين ونحوها، ويشرب الشراب
الصّرف أيّما قبل حلول الشهر، فإذا حلّ الشهر لبس غلالةً سابوريةً، وركب بقرة
وأخذ على يده غراباً، ويتبعه الناس يصبون عليه الماء، ويضربونه بالثلج، ويروحون
عليه بالمرّاح، وهو يصيح بالفارسية كرم كرم أى الحرّ الحرّ، يفعل ذلك سبعة أيام،
ومعه أوباش الناس ينهون ما يجذون من الأمتعة في الحوانيت؛ وللسلطان عليهم
مال، فإذا وجدوا بعد عصر اليوم السابع ضربوا وحبسوا .

قال المسعودى : ولا يُعرف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم؛ وأهل الشام
والجزيرة ومصر واليمن لا يعرفون ذلك . ويقال إن هذا الفعل كان يتداوله أهل
كل بيت منهم كوسج، وحكى الزمخشري في كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك
أن كوسجاً كان يشرب في هذه الأيام الدواء، ويطلّي بدنه فيها فغلب عليها، وفي ذلك
يقول الشاعر :

قَد رَكِبَ الكَوْسَجُ يَاصِح * فَانزَلَ على الزّهرة والرّاح
وأَنعم بأدِرمَاهُ عَيشًا وَحُد * من لَذّة العَيشِ بأفِاح

والسنة عندهم منقسمة على أقسام، في أول كل قسم منها خمسة أيام تسمى
الكنبهارات، زعم زرادشت أن في كل يوم خلق الله تعالى نوعاً من الخليفة فهم
يتخذونها أعياداً لذلك .

العيد السابع عيد بهمنجة - ويتخذونه في يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وستهم
فيه أنهم يأكلون فيه البهمن الأبيض باللبن الحامض على أنه ينفع الحفظ؛ ورؤساء
نُراسان يعملون فيه الدّعوات على طعام يطبخون فيه كلّ حبّ ما كويل ولحم حيوان
يؤكل، ويحضر ما يوجد في ذلك الوقت من بقل أو نبات .
فهذه أعياد الفرس المشهورة الدائرة بين عاقمتهم وخاصتهم .

الجملة الثالثة

(في أعياد القبط)

وأعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا على ذكر تفصيلها سردا في خلال شهر القبط مع ذكر غيرها، وأوردنا كل عيد منها في يومه من شهر القبط، وربما ذكرنا بعضها أيضا في شهر السريان والروم، على أن منها ما لا يتعلق بوقت مقيد كالفتح الأكبر عندهم، فإنه متعلق بفطرهم من صومهم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقت معين، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا على ما سيأتي بيان ذلك إن شاء الله تعالى، ونحن نقتصر في هذا الفصل على المشهور من أعيادهم دون غيره، ونبين أوقاتها، ونشرح أسبابها. وهي أربعة عشر عيداً. وهي على ضربين: كبار وصغار.

الضرب الأول

(الكبار: وهي سبعة)

العيد الأول البشارة، ويعنون به إشارة غبريال، (وهو جبريل على زعمهم) لمريم عليها السلام بميلاد عيسى صلوات الله عليه، يعملونه في التاسع والعشرين من برمهات من شهر القبط.

الثاني الزيتونة، وهو عيد الشعانين، وتفسيره بالعريّة التّسبيح، يعملونه في سابع أحد من صومهم. وستّم فيه أن يخرجوا بسعف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليعفور، (وهو الحمار) في القدس ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبحون بين يديه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

الثالث الفصح، وهو العيد الكبير عندهم، يعملونه يوم الفطر من صومهم الأكبر، يزعمون أن المسيح قام فيه بعد الصلوات بثلاثة أيام، وخلص آدم من

الجحيم ، وأقام في الأرض أربعين يوماً آخرها يوم الخميس ، ثم صعد إلى السماء .
قاتلهم الله أنى يؤفكون .

الرابع خميس الأربعين ، ويسميه الشاميون السُّلاق : وهو الثاني والأربعون من
النِّظر ، يقولون إن المسيح عليه السلام تسلَّق فيه من تلاميذه إلى السماء بعد القيام ،
ووعدهم بارسال الفارقليط ، وهو روح القدس عندهم .

الخامس عيد الخميس ، وهو عيد العنصرة يعملونه بعد خمسين يوماً من القيام ؛
وهو في السادس والعشرين من بشنس ، ويقولون إن روح القدس حلت في التلاميذ
وتفرقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة ، وذهب كل واحد منهم إلى بلاد
لسانه الذي تكلم به يدعوهم إلى دين المسيح .

السادس الميلاد ، وهو اليوم الذي يقولون إن المسيح ولد فيه بيت لحم (قرية من
أعمال فلسطين) ويعملونه في التاسع والعشرين من كيهك من شهر القبط ، وهم
يقولون إنه ولد يوم الاثنين ، فيجعلون عشية الأحد ليلة الميلاد ، فيوقدون فيها
المصابيح بالكثائس ويزينونها .

السابع الغطاس ، يعملونه في الحادى عشر من طوبه ، من شهر القبط . يقولون
إن يحيى بن زكريا عليه السلام وينعتونه بالمعمدان غسل عيسى عليه السلام بمجيرة
الأردن ، وأن عيسى لما خرج من الماء أتصل به روح القدس على هيئة حمامة ،
والنصارى يغمسون أولادهم فيه في الماء على أنه يقع في شدة البرد ، إلا أن عقبه
يحيى الوقت ، يقول المصريون : غطستم صيفتم ، ونورزتم شتيتم .

الضرب الثاني

(من أعياد القبط الأعياد الصغار . وهي سبعة أيام)

الأول الحِتَان ، ويعملونه في سادس بئونة من شهر القبط . ويقولون : إن المسيح خُتِنَ في هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثاني الأربعون ، يعملونه في الثامن من شهر أمشير من شهر القبط ، ويقولون : إن سمعان الكاهن دخل بعيسى عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوماً من ميلاده الهيكل وبارك عليه ؛ تلك عقول أضلّها باربيها ، وإلا فإين مقام الكاهن من مقام عيسى عليه السلام . وهو روح الله وكلمته .

الثالث خميس العهد ، يعملونه قبل الفصح بثلاثة أيام ، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملئوه ماء ويزمزموا عليه ، ثم يغسل البطريرك به أرجل جميع النصارى الحاضرين ، ويزعمون أن المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه في هذا اليوم يعلمهم التواضع ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضهم لبعض ، والعاقبة من النصارى يُسمون هذا الخميس خميس العَدَس ؛ وهم يطبخون فيه العَدَس على ألوان .

الرابع سبت الثور ، وهو قبل الفصح بيوم . يقولون : إن الثور يظهر على مقبرة المسيح في هذا اليوم فتشتعل منه مصابيح كنيسة القمامة بالقدس . قال صاحب "مناجح الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخيلاتهم النيرنجية التي يفعلها القسيسون منهم ليستميلوا بها عقول عوامهم الضعيفة . وذلك أنهم يعلقون القناديل في بيت المدبح ويتحيلون في إيصال النار إليها بأن يمدوا على جميعها شريطاً من حديد في غاية الدقة مدهونا بدهن البلسان ودهن الزنبق ، فإذا صلوا وجاء وقت الزوال فتحو المدبح فتدخل الناس إليه ، وقد أشتعلت فيه الشموع ويتوصل بعض القوم إلى أن يعلق

النار بطرف الشريط الحديد قسرى عليه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دهن الباسان علوق النار فيه بسرعة مع أدنى ملامسة ، فيظن من حضر من ذوى العقول الناقصة أن النار نزلت من السماء فأوقدت القناديل ، فالحمد لله على الإسلام .

الخامس حد الحُدود، وهو بعد الفصح بثمانية أيام؛ يعملونه أول أحد بعد الفطر : لأن الآحاد قبله مشغولة بالصوم؛ وفيه يجتدون الآلات وأثاث البيوت ، ومنه يأخذون في الاستعداد للمعاملات والأمور الدنيوية .

السادس التجلي ، ويعملونه في الثالث عشر من مسرى من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد أن رُفِع في هذا اليوم ، وتمنوا عليه أن يُحضّر لهم إيليا وموسى عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلى بيت المقدس ثم صعد وصعدا .

السابع عيد الصليب ، وهو في السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارى يقولون : إن قسطنطين بن هيلاني انتقل عن اعتقاد اليونان إلى اعتقاد النصرانية وبنى كنيسة قسطنطينية العظمى وسائر كنائس الشام ، ويزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبرجان فضاق بهم ذرعا من كثرة غاراتهم على بلاده ، فهم أن يصانهم ويفرض لهم عليه إتاوة في كل عام ليكفوا عنه ، فرأى ليلة في المنام أن ملائكة نزلت من السماء ، ومعها أعلام عليها صلبان فخاربت البرجان فانهزموا ؛ فلما أصبح عمل أعلاما وصور فيها صلبانا ثم قاتل بها البرجان فهزمهم ، فسأل من كان في بلده من التجار هل يعرفون فيما طافوه من البلاد دينا هذا زيّه ؟ فقالوا له دين النصرانية وإنه في بلد القدس والخليل من أرض الشام . فأمر أهل مملكته بالرجوع عن دينهم إليه ، وأن يصبوا شعورهم ويحاثوا لحاهم . وإنما فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البرجان جنس من الروم (قاموس) .

أن رُسل عيسى عليه السلام كانوا قد وردوا على اليونان قبلُ يأمرونهم بالتعبُدَ بدين النصرانية فأعرضوا عنهم ومثّلوا بهم هذه المثلثة نكالا لهم ففعلوا ذلك تأسياً بهم .
ولما تنصّر قسطنطين خرجت أمه هيلاني إلى الشام فبنت به الكائس ، وسارت إلى بيت المقدس وطلبت الخشبة التي زعمت النصارى أن المسيح صُلب عليها فحُملت إليها فغشتها بالذهب ، وأخذت ذلك اليوم عيداً .

وسياقى الكلام على ذلك مفصّلاً في ترجمة قسطنطين في خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين استولوا على الديار المصرية ، وفيما ذكرنا هنا مَقَمَعُ والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد صار من أعيادهم المشهورة بالديار المصرية النيروز؛ وهو أوّل يوم من سنتهم؛ وإن لفظة النيروز فارسية معربة، وكان القبط والله أعلم آخذوا ذلك على طريقة الفُرس وأستعاروا اسمه منهم فسموا اليوم الأوّل من سنتهم أيضاً نيروزاً وجعلوه عيداً .

قال في "مناجى الفكر" وهم يظهرون فيه من الفرح والسرور، وإيقاد النيران، وصَبَّ الأمواه أضعاف مايفعله الفُرس؛ ويشاركهم فيه العوام من المسلمين .

قال المسعودى: وأهل الشام يعملون مثل ذلك في أوّل سنتهم أيضاً، وهو أوّل يوم من ينبر من شهور الروم ويوافقهِ كانون الثانى: وهو الشهر الرابع من شهور السُرّيان؛ وذلك فى السادس من طوبة من شهور القبط، ويسمونه القلنداس، إلا أن أهل مِصرَ يزيدون فيه التّصافُع بالأنطاع، وربما حملهم تركُ الاحتشام على ان يتجرّوا على الرجل المُطاع؛ ولولا أنّ ولاة الأمر يدعُونهم ويمنعونهم من ذلك، لمنعوا الطريق من السالك؛ وهم مع ذلك من ظفروا به لا يتركونه إلا بما يرضيهم .
والذى استقرّ عليه الحال بالديار المصرية إلى آخر سنة إحدى وتسعين وسبعائة أنهم

يقتصرون على رَشِّ الأمواء والتَّصافُع ، وتركِ الاحتشامِ دون إيقاد النيران ، إلا من يفعل ذلك من النصارى في بيته أو خاصَّته .

ولهم أعياد ومواسمُ سوى ما تقدَّم ، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها على ترتيب شهور القبط ، وهي :

عيد سيغورس ، وعيد مَثَى الإنجيلي ، وهما في الثاني من توت . عيد سَمَّعان الحبيس ؛ وهو في الرابع من توت . عيد ماما ؛ وهو في الخامس من توت . عيد شعيا ؛ وهو في السادس من توت . عيد ساويرس ؛ وهو في السابع من توت . عيد موسى النبي عليه السلام ؛ وهو في الثامن من توت . عيد توما التلميذ ؛ وهو في التاسع من توت . وخروج نُوح عليه السلام من السفينة ، ومَوْلِد مَرِّيمَ عليها السلام ، وهما في العاشر من توت . عيد باسيلوس ، وهو في الحادي عشر من توت . عيد ميخائيل ، وصوم جدليا ؛ وهما في الثالث عشر من توت . عيد سمعان الحبيس ، وعيد تادرس الشهيد ؛ وهما في الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس ؛ وهو في السادس عشر من توت . وصوم كبور ؛ وهو في العشرين من توت . ونياحة أبي جرج ؛ وهي في الثاني والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس ؛ وهو في الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات ؛ وهو في السادس والعشرين من توت . عيد اسطاتوا ، وأنتقال يوحنا ؛ وهما في السابع والعشرين من توت . عيد اجرويقون ؛ وهو في أوَّل بابِه . عيد سوسنان ؛ وهو في الثاني من بابِه . عيد يعقوب بن حلفا ؛ وهو في الخامس من بابِه . عيد أبو بولا ؛ وهو في السابع من بابِه . عيد توما ؛ وهو في الثامن من بابِه . عيد أبي مسرجة ؛ وهو في العاشر من بابِه . عيد يعقوب ؛ وهو في الحادي عشر من بابِه . وشهادة مَثَى ؛ وهي في الثاني عشر من بابِه . عيد الفُرَات ؛ وهو في الثالث عشر من بابِه .

وشهادة يُوحنا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السيدة ؛ وهى فى الحادى
والعشرين من بابه . عيد لوقا ؛ وهى فى الثانى والعشرين من بابه . عيد أبى
جرج ؛ وهى فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل ؛ وهى فى الحادى
والعشرين من بابه . عيد يعقوب ويوسف ؛ وهى فى السادس والعشرين من
بابه . عيد أبى مقار ؛ وهى فى السابع والعشرين من بابه . عيد مرقص ؛ وهى
فى آخر يوم من بابه . عيد بطرس البطرک ؛ وهى فى أول يوم من هاتور . عيد
زكريا ؛ وهى فى الرابع من هاتور . واجتماع التلاميذ ؛ وهى فى السادس من هاتور .
وتكريز أبى جرج ؛ وهى فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهى
فى الثامن من هاتور . وتذكار الثلاثمائة وثمانية عشر ؛ وهى فى التاسع من هاتور .
ونياحة إسحاق ؛ وهى فى العاشر من هاتور . عيد ميكايل ؛ وهى فى الثانى عشر من
هاتور . وشهادة أبى مينا ؛ وهى فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول ؛
وهى فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسياس ؛ وهى فى العشرين من هاتور .
عيد سمعون ؛ وهى فى الحادى والعشرين من هاتور . تذكار الشهداء ، وهى فى الثانى
والعشرين من هاتور . عيد مرقوريوس ؛ وهى فى الرابع والعشرين من هاتور .
عيد أبى مقورة ؛ وهى فى الخامس والعشرين من هاتور . عيد ادفانيوس ؛ وهى
فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المقطع ؛ وهى فى السابع والعشرين
من هاتور . عيد ياهور ؛ وهى فى الثانى من كيهك . عيد اندراس ؛ وهى
فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهى فى الخامس من كيهك . عيد بزباره ،
وهى فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهى فى الثامن من كيهك . عيد مارى
نقولا ؛ وهى فى العاشر من كيهك . عيد سمعان ؛ وهى فى الرابع عشر من كيهك
ونياحة يوحنا ؛ وهى فى السادس عشر من كيهك ؛ وصور الميلاد ؛ وهى فى الثالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو في الثالث من طوبه . عيد يوحنا
 الإنجيلي ؛ وهو في الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو في السابع من طوبه .
 عيد الختان ؛ وهو في الثامن من طوبه . عيد إبراهيم ؛ وهو في التاسع من طوبه .
 وصوم الغطاس ؛ وأوله العاشر من طوبه . وصوم العذارى ؛ وهو في الثالث عشر من
 طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو في الرابع عشر من طوبه . عيد غاريوس ؛ وهو
 في الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس ؛ وهو في السادس عشر من طوبه .
 عيد يوحنا ؛ وهو في التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل ، وتذكار السيدة ؛
 وهما في العشرين من طوبه . وصوم نينوى ؛ وهو في الحادي والعشرين من طوبه .
 ومقتل يحيى ؛ وهو في الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبي بشارة ؛ وهو في الخامس
 والعشرين من طوبه . عيد الشهداء ؛ وهو في السادس والعشرين من طوبه .
 عيد طيمارس الرسول ؛ وهو في السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نياحة تقولا ؛
 وهو في اليوم الآخر من طوبه . عيد العذارى ، وعيد يهوذا ؛ وهما في الأول من
 أمشير . عيد مقار ؛ وهو في الثاني من أمشير . ونياحة تيادرس ؛ وهو في السادس
 من أمشير . ونياحة برصوما ، وهو في التاسع من أمشير . عيد بيطن ، وشهادة
 يعقوب ؛ وهما في العاشر من أمشير . عيد أبي مسرحة ؛ وهو في الرابع عشر من أمشير .
 عيد قلانوس ؛ وهو في السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو
 في السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد ؛ وهو في التاسع عشر من أمشير .
 ونزول السيدة من الجبل ؛ وهو في الحادي والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس ؛
 وهو في السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا ؛ وهو في اليوم الآخر من
 أمشير . عيد الجلبانة ؛ وهو في الثالث من شهر برمهاة . عيد أرمانيوس ؛ وهو
 في السابع من برمهاة . عيد المعمودة ؛ وهو في التاسع من برمهاة . وظهور

الصليب ؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الحادى عشر من
 برمهات . عيد ميلانى ؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلباس الشهيد ؛
 وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من
 برمهات . عيد العازر ؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين ؛
 وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة ؛ وهو فى الخامس والعشرين
 من برمهات . وغسل الأرجل ؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة
 الصلבות ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلي ؛ وهو
 فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرک ؛ وهو فى الثانى من برمودة .
 عيد حرقىال النجيب ؛ وهو فى الخامس من برمودة . عيد مرقص ؛ وهو فى السابع
 من برمودة . والأخذ بالحدید ؛ وهو فى الثامن من برمودة . عيد يوحنا الأسقف ؛
 وهو فى الحادى عشر من برمودة . عيد جرجس ؛ وهو فى الثالث عشر من برمودة .
 عيد أبى متى ؛ وهو فى السادس عشر من برمودة . عيد يعقوب ، عيد سنوطه ،
 وهما فى التاسع عشر من برمودة . وذکران الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من
 برمودة . عيد ساويرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من برمودة . عيد أبى
 نيطس ؛ وهو فى السابع والعشرين من برمودة . عيد أصحاب الكهف ؛ وهو
 فى التاسع والعشرين من برمودة . عيد مرقص الإنجيلي ، وهو فى اليوم الآخر من
 برمودة . عيد تيادرس ؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون ؛ وهو فى الثالث
 من بشنس . عيد الحندس ؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحة يعقوب ؛
 وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوم ؛ وهو فى السادس من بشنس .
 عيد أساسياس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من
 بشنس . عيد دير القصير ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السيد

إلى مصر؛ وهو في الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس ؛ وهو في الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميذ ؛ وهو في السادس والعشرين من بشنس . عيد سمعون العجاس ؛ وهو في السابع والعشرين من بشنس . عيد طيارس ؛ وهو في التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشاب ؛ وهو في اليوم الآخر من بشنس . عيد أبي مقار؛ وهو في الثاني من بثونه . ووجود عظام لوقا؛ وهو في الثالث من بثونه . عيد توما، وعيد مامور؛ وهما في الرابع من بثونه . عيد يوحنا ، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام) ؛ وهما في التاسع من بثونه . عيد أبي مينا؛ وهو في الخامس عشر من بثونه . عيد أبي مقار، وهو في السادس عشر من بثونه . عيد السيدة؛ وهو في الحادي والعشرين من بثونه . عيد اتريب وهو في الثالث والعشرين من بثونه . عيد أبي مينا، وهو في ^(١) والعشرين من بثونه ؛ وتذكار تبادرس ؛ وهو في أول أييب . ونياحة بولص؛ وهو في الثاني من أييب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة؛ وعيد القيصرية ؛ وهما في الخامس من أييب . وعيد أبي سنوبة؛ وهو في السابع من أييب . وعيد اسنباط؛ وهو في الثامن من أييب . وشهادة هرود، وعيد سمعان؛ وهما في التاسع من أييب . وعيد تادرس نظيره؛ وهو في العاشر من أييب . وعيد أبي هور؛ وهو في الثاني عشر من أييب . وعيد أبي مقار؛ وهو في الرابع عشر من أييب . وعيد اقدم السرياني ؛ وهو في الخامس عشر من أييب . وعيد يوحنا وزكريا؛ وهو في السادس عشر من أييب . وعيد يعقوب التلميذ ، وهو في السابع عشر من أييب . وعيد بولاق، وهو في التاسع عشر من أييب . وعيد تادرس الشهيد، وهو في العشرين من أييب . وعيد السيدة ، وعيد ميخائيل ؛ وهما في الحادي

والعشرين من أيبب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده؛ وهما في الثالث
والعشرين من أيبب . وعيد سمندو؛ وهو في الرابع والعشرين من أيبب . وعيد
مرقور يوص؛ وهو في الخامس والعشرين من أيبب . وعيد حزقيـل النبي عليه
السلام؛ وهو في السابع والعشرين من أيبب . ورفعة إدريس عليه السلام،
وعيد مريم؛ وهما في الثامن والعشرين من أيبب . وحرم السيد؛ وهو في اليوم
الآخر من أيبب . وعيد الخندق؛ وهو في اليوم الأول من مسرى . وعيد أبي
ميناء؛ وهو في اليوم الثاني من مسرى . وعيد سمعان المعمودى؛ وهو في الثالث
من مسرى . ودخول نوح السفينة؛ وهو في الثامن من مسرى . وعيد طور سيناء،
وعيد السيدة، وهما في التاسع من مسرى . وعيد اللباس؛ وهو في العاشر من
مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو في الخامس عشر من مسرى .
وعيد يعقوب الشهيد، وهو في السابع عشر من مسرى . وعيد أبي مقار؛ وهو
في الثامن عشر من مسرى . وعيد الیسع؛ وهو في التاسع عشر من مسرى . وعيد
أصحاب الكهف؛ وهو في العشرين من مسرى . وصوم الأربعين؛ وهو في الحادى
والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة بدمشق؛ وهو في الثالث والعشرين من
مسرى . وعيد صوفيل؛ وهو في السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم
وإسحاق؛ وهو في الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد؛ وشهادة
يوحنا؛ وهو في اليوم الآخر من مسرى .

الجملة الرابعة

(في أعياد اليهود ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(مانظقت به التوراة بزعمهم ؛ وهي خمسة أعياد)

العيد الأول - رأس السنة ، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمونه عيد رأس هيشا
 أى عيد رأس الشهر ، وهو أول يوم من تشرى يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى
 عندنا ، ويقولون : إن الله تعالى أمر إبراهيم عليه السلام بذبح إسماعيل ابنه فيه
 وفداه بذبح عظيم .

العيد الثاني - عيد صوماريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم
 الذى يقولون : إن الله تعالى فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتِلَ عندهم .
 ومدة هذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبدأ فيها قبل غروب الشمس فى اليوم
 التاسع من شهر تشرى ، وتختتم بمضى ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر ، وربما سمَّوه
 العاشور . ويُستترط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عند الإفطار
 وهى عندهم تمام الأربعين الثالثة التى صامها موسى عليه السلام . ولا يجوز أن
 يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الاحد ، ولا فى يوم الثلاثاء ، ولا فى يوم الجمعة ، ويرعمون
 أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ما خلا الزنا بالمحصنة ، وظلم الرجل أخاه ، وجمده
 ربوبية الله تعالى .

العيد الثالث - عيد المظلة : وهو سبعة أيام أولها الخامس عشر من تشرى
 وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمى عرايا أى شجر الخلاف ، وهو أيضا
 حج لهم ، يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلال من جريد النخل وأغصان الزيتون

والخلاف، وسائر الشجر الذى لا ينتشر ورقه على الأرض؛ ويزعمون أن ذلك تذكّار منهم لإظلال الله إياهم في التيه بالقيام .

العيد الرابع - عيد الفطير : ويسمونه الفصح ، ويكون في الخامس عشر من نيسان، وهو سبعة أيام أيضا، يأكلون فيها الفطير، ويُنظفون بيوتهم فيها من خبز الخمير لأن هذه الأيام عندهم هي الأيام التي خلّص الله فيها بنى إسرائيل من يد فرعون وأغرقه، فخرجوا إلى التيه، فعملوا يأكلون اللحم والخبز الفطير وهم بذلك فرحون ، وفي أحد هذه الأيام غرق فرعون .

العيد الخامس - عيد الأسابيع : ويسمى عيد العنصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ؛ وأتخاذهم لهذا العيد في السادس من سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القبط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طور سيناء، وفي جملة هذا الخطاب العشر كلمات: وهى وصايا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حصلها حفظا ورعا، وهو حج من حجوجهم ؛ وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير، والمظلة ؛ وهم يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفننون في عملها، ويجعلونها بدلا عن المن الذى أنزل الله عليهم في هذا اليوم، ويسمى هذا العيد أيضا عشرتا، ومعناه الاجتماع .

الضرب الثانى

(ما أحدثه اليهود زيادة على ما زعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان)

العيد الأول - الفوز : وهو عندهم عيد سرور ولهو وخلاعة يهْدَى فيه بعضهم إلى بعض ؛ وهم يقولون : إن سبب آتخاذهم له أن يجتصر لما أجلى من كان بيت المقدس من اليهود إلى عراق العجم، أسكنهم بجى، وهى إحدى مدينتى أصفهان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولى والأخيرة فلما ملك أردشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلعتمهم هيمون، واليهود يومئذ حبري^ه يسمي بلعتمهم مردوخاي، فبلغ أردشير أن له ابنة عم من أحسن أهل زمانها وأكلمهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابته لذلك، فخطبت عنده حطوة صار بها مردوخاي قريبا منه، فأراد هيمون إصغاره وأحتقاره حسدا له، وعزم على إهلاك طائفة اليهود التي في جميع مملكة أردشير، فرتب مع نواب الملك في جميع الأعمال أن يقتل كل أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما: وهو النصف من آذار، وإنما خص هذا اليوم دون سائر الأيام: لأن اليهود يزعمون أن موسى ولد فيه وتوفي فيه، وأراد بذلك المبالغة في نكايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وموت موسى فأنضح لمردوخاي ذلك من بعض بطانة هيمون، فأرسل إلى ابنة عمه يعلمها بما عزم عليه هيمون في أمر اليهود، وسألها إعلام الملك بذلك، وحضها على أعمال الحيلة في خلاص نفسها وخلاص قومها فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنما حملة على ذلك الحسد على قربنا منك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتل أهله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبر والإحسان في ذلك اليوم، فأتخذوه عيدا. واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام، وفي هذا العيد يصورون من الورق صورة هيمون ويملئون بطنها نخالة وملحا ويلقونها في النار حتى تحترق، يمدعون بذلك صبيانهم.

العيد الثاني، عيد الحكمة، وهو ثمانية أيام، يؤقدون في الليلة الأولى من لياليه على كل باب من أبوابهم سراجا، وفي الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلى أن يكون في الليلة الثامنة ثمانية سرج. وهم يذكرون أن سبب اتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبارة تغلب على بيت المقدس وفكك باليهود وأقتص أبكارهم، فوثب عليه

أولاً كُفَّهَانُهُمْ وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم ، وطلب اليهود زيتاً لَوْقُودِ الهَيْكَلِ فلم يجدوا إلا يسيراً وزَعَوْهُ عَلَى عِدَدِ مَا يُوقَدُونَهُ مِنَ السُّرُجِ عَلَى أَبْوَابِهِمْ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ إِلَى تَمَامِ ثَمَانِ لَيَالٍ فَاتَّخَذُوا هَذِهِ الْأَيَّامَ عِيدًا وَسَمَّوْهُ الحَنْكَةَ ، ومعناه التنظيف لأنهم نَظَّفُوا فِيهِ الهَيْكَلِ مِنْ أَقْدَارِ شَيْعَةِ الجِبَارِ ، وبعضهم يسميه الرباني .

الجملة الخامسة

(في أعياد الصابئين)

وَمَدَارُ أعيادهم عَلَى الكواكب ؛ وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحصرة : وهى زُحْلُ ، والمَشْتَرِى ، والمِرِّيْحُ ، والزُّهْرَةُ ، وَعُطَّارِدُ فِي بيوت شَرَفِهَا ؛ وذلك أن من البروج ما يقوم لهذه الكواكب مقام قصر العز لللك ، يشتهر فيه ويعلو ويشرف ؛ وفيها درجات معلومة يُنسب الشرف إليها ؛ ومنها ما يُجْمَلُ فِيهِ ويفسُد حاله ، ويكون ذلك أيضاً في درجات معلومة ، تقابل درجات الشرف به من البرج المقابل . ويسمى ذلك هُبُوطاً ؛ فزُحْلُ شرفه في إحدى وعشرين درجة من الميزان ، ويهبط في مثلها من الحَمَلِ ، والمَشْتَرِى يشرف في خمس عشرة درجة من السَّرَطَانِ ، ويهبط في مثلها من الجَدِيِّ ؛ والمِرِّيْحُ يشرف في ثمان عشرة درجة من الجَدِيِّ ، ويهبط في مثلها من السَّرَطَانِ ؛ والزُّهْرَةُ تشرف في تسع وعشرين درجة من الحُوتِ ، وتهبط في مثلها من السَّنْبِلَةِ ؛ وَعُطَّارِدُ شرفه في خمس عشرة درجة من السَّنْبِلَةِ ، ويهبط في مثلها من الحُوتِ ؛ وكذلك الشمس تشرف في تسع عشرة درجة من الحَمَلِ ، وتهبط في مثلها من الميزان ؛ والقمر يشرف في ثلاث درجات من السَّنْبِلَةِ ، ويهبط في مثلها من الحُوتِ . وهم يعظمون اليوم الذى تنزل الشمس فيه الحَمَلِ ، ويأبسون فيه أنفخ ثيابهم . وهو عندهم من أعظم الأعياد . وكانت ملوكهم تَبْنِي الهياكل وتجعل لها أعيادا بحسب الكواكب التى بنيت على أسمها فيه .

الباب الثاني

من المقالة الأولى

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولو احقه ؛

وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في ذكر آلات الخط ، ومبادئه ، وصوره ، وأشكاله ، وما ينخرط في سلك ذلك ؛

وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في الدواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في نفس الدواة ، وفيه أربع جهل)

الجملة الأولى

(في فضلها)

قد أنرح ابن أبي حاتم من رواية أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال "خَلَقَ اللهُ النَّوْنَ : وَهِيَ الدَّوَاةُ" وأنرح ابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال : "لَمَّا خَلَقَ اللهُ النَّوْنَ : وَهِيَ الدَّوَاةُ وَخَلَقَ الْقَلَمَ ، فَقَالَ : آكُتُبْ ، فَقَالَ : وَمَا آكُتُبُ ؟ قَالَ : آكُتُبُ مَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ" . وهذا

الخبر والأثر دالان على أن المراد بالنون في الآية هو الدواة، وإن فسره بعضهم بغير ذلك . إذ الدواة هي المناسبة في الذكر لذكر القلم وتسطير الكتابة في قوله تعالى : ﴿بِالنِّقْمِ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواة هي أم آلات الكتابة، وسمّطها الجامع لها . ولا ينبغي ما يجب من الأهتمام بأمرها ، والأحتفال بشأنها؛ فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ نَحَرَ حَجْرًا مِنْ بَيْتِهِ بِغَيْرِ مِحْبَرَةٍ وَأَدَاةٍ فَقَدْ عَزَمَ عَلَى الصَّدَقَةِ . قال المدائني : يعنى بالأداة مثل السكين ، والمقلمة ، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سabor : مثل الكاتب بغير دواة ، كمثل من يسير إلى الهجاء بغير سلاح .

الجملة الثانية

(في أصلها في اللغة)

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دواة ودويات في أدنى العدد، وفي الكثير دوي ودوي (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دواء، ودواء (بضم الدال وكسرها) ودوآيا مثل حوآيا؛ وأدويت دواة أى آتخذت دواة؛ ورجل دواء (بفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها، كقولك عطار وبنزاز .

الجملة الثالثة

(فيما ينبغي أن نتخذ منه ، وما تحل به)

أما ما نتخذ منه فينبغي أن نتخذ من أجود العيدان وأرفعها ثمننا كالأبنوس، والسّاسم ، والصنّدل ، وهذا اعتماد منه على ما كان يعتاده أهل زمانه ، ويتعانه أهل عصره .

قلت : وقد غلب على الكُتّاب في زماننا من أهل الإنشاء وكُتّاب الأموال آتخاذ الدوي من النحاس الأصفر ، والفولاذ ، وتغالوا في أثمانها وبالغوا في تحسينها .

والنحاس أكثر استعمالاً ، والفولاذ أقل لعزته ونفاسته ، وأختصاصه بأعلى درجات
الرياسة ، كالوزارة وماضاهاها .

وأما دوى الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآبُوس والصنندل الأحمر ، فإنه
يتعانا في زماننا قضاءً الحكم وموقعهم وبعض شهود الدواوين .

وأما التحلية ، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدواة أن يكون عليها من الحلية
أخف ما يكون ويمكن أن تُحَلَّى به الدوى ، في وثاقه ولُطِيف : ليأمن من أن تنكسر
أو تنقصم في مجلسه ، قال : وحق الحلية أن تكون ساذجةً بغير حُفَرٍ ولا ثنِيَّات
فيها : ليأمن من مسارعة القدي واللدنس إليها ، ولا يكون عليها نقش ولا صورة .
وحق هذه الحلية مع ما ذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفضة
والذهب . على أن بعض الكُتَّاب في زماننا قد اعتاد التحلية بالفضة ، ولا ينبغي أن
حكم ذلك حكم الضربة في الإناء فتحرم مع الكبر والزينة ؛ وتكره مع الصغر والزينة
والكبر والحاجة ؛ وتباح مع الصغر والحاجة من كسر ونحوه ، كما قرره أصحابنا الشافعية
رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه إذا كان يحصل
منه بالعرض على النار شيء ، والله أعلم .

الجملة الرابعة

(في قدرها وصفتها)

قال الحسن بن وهب : سبيل الدواة أن تكون متوسطة في قدرها : لا بالقصيرة
فتقصُر أعلامها وتقبُح ، ولا بالكثيفة فيثقل حملها وتُعْجِف . فلا بد لصاحبها أن
يحملها ويضعها بين يدي ملكه أو أميره في أوثان مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولى
ذلك غيره . قال الفضل : ويكون طولها بمقدار عَظْمِ الذراع أو فَوْيَقَ ذلك قليلا

لتكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد اختلفت مقاصد أهل الزمان في هيئة
الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتَّابُ الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة
الرأسين ، لطيفة القدّ ، طلبا للخفّة ، ولأنهم إنما يتعاونون في كتابتهم الدرّج ، وهو غير
لائق بالدواة في الجملة . على أن الصغير من الدرّج لا يأبى جعله في الدواة المدوّرة .
وأما كُتَّابُ الأموال ، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا ، ليجعلوا في باطن غطائها
ما استخفوه مما يحتاجون إليه من ورق الحسّاب الديوانى المناسب لهذه الدواة
في القطع . وعلى هذا الأتموج يتخذ قضاة الحكم وموقعوهم دويهم ، إلا أنها في الغالب
تكون من الخشب كما تقدّم .

وأعلم أنه ينبغي للكاتب أن يجتهد في تحسين الدواة وتجويدها وصونها . والله
المدائنى حيث يقول :

جود دواتك ، وأجتهدي صونها * إن الدوى نزائى الآداب

وأهدى أبو الطيّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلى صديق
له دواة أنوس محلاة وكتب معها .

لم أرسوداء قبلها ملكت * نواظر الخلق والقلوب معاً

لا الطول أزرى بها ولا قصر * لكن أنت للوصول مجتمعا

فوقك جنح من الظلام بها * وبارق بائتلاقها لمعا !

خذا لدرّ ، بها تنظّمه * يروق في الحسن كل من سمعا

أما المحبرة المفردة عن الدواة فقد اختلف الناس فيها : فمنهم من رجّحها ومالوا
إلى اتّخاذها لحفّة حملها ، وقالوا : بها يكتب القرءان والحديث والعلم . وكرهها
بعضهم واستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذى هو من أشدّ الحرف وأتعبها ،
وأقلها مكسبا .

ويروى أن شعبة رأى في يد رجلٍ مَحْبَرَةً، فقال : أرم بها فإنها مشؤومة لا يبقى معها اهل ولا ولد، ولا أم ولا أب .

الطرف الثاني

(في الآلات التي تشتمل عليها الدواة ، وهي سبع عشرة آلة ،

أول كل آلة منها ميم)

الآلة الأولى - المِزْبَرُ (بكسر الميم) ، وهو القلم أخذناه من قولهم زَبَرَتِ الْكُتَابَ إِذَا اتَّقَنَتْ كِتَابَتَهُ ، ومنه سميت الْكُتُبُ زُبْرًا كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَنَبِيُّ رَبِّهِ الْأَوَّلِينَ ﴾ وفي حديث أبي بكر أنه دعا في مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أَى قَلَمٍ .
وفيه جملتان .

الجملة الأولى

(في فضله)

عن الوليد بن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : دَعَانِي أَبِي حِينَ حَضَرَهُ الْمَوْتُ فَقَالَ : إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ”أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ ، فَقَالَ : أَكْتُبْ ، قَالَ : يَارَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : أَكْتُبُ الْقَدَرَ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى الْأَيْدِ“ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَقَالَ : حَسَنٌ غَرِيبٌ ، وَأَبْنُ أَبِي حَاتِمٍ وَاللَّفْظُ لَهُ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يَرْفَعُهُ ”إِنْ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمُ وَالْحَوْتَ ، فَقَالَ لَهُ أَكْتُبْ ، فَقَالَ : يَارَبِّ وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ“ ثُمَّ قَرَأَ ”ن وَالْقَلَمُ“ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَوَقَفَهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ . وَفِي رِوَايَةٍ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ”أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ ، قَالَ : أَكْتُبْ ، قَالَ : وَمَا أَكْتُبُ ؟ قَالَ : أَكْتُبُ الْقَدَرَ ، بَفَرِي بِمَا يَكُونُ مِنْ ذَلِكَ

اليوم إلى يوم قيام الساعة ، ثم خلق النون ورفع بحار الماء ، ففتقت منه السماء
وَبُسِطَتِ الْأَرْضُ عَلَى ظَهْرِ النَّوْنِ ، فَاضْطَرَبَ النَّوْنُ ، فَادَّتِ الْأَرْضُ ، فَأُنْبِتَتْ
بِالْجِبَالِ ، فَإِنهَا لَتَفْخَرُ عَلَى الْأَرْضِ : لأنها أُشْبِتَتْ عليها“ . رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .
وروى محمد بن عمر المدائني بسنده إلى مجاهد ” **إِن أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْبِرَاعَ ،**
ثُمَّ خَلَقَ مِنَ الْبِرَاعِ الْقَلَمَ ، فقال له : **أَكْتُبْ ،** قال : **مَا أَكْتُبُ ؟** قال : **مَا هُوَ**
كَائِنٌ ، قال : **فَزَبَرَ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ** . وأخرج بسنده إلى ابن
عباس ، قال : ” **أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْبِرَاعَ : وَهُوَ الْقَصَبُ الْمُثَقَّبُ ،** فقال : **أَكْتُبْ**
قِضَائِي فِي خَلْقِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . ويروى أنه لما خلقه الله تعالى نظر إليه فانشقَّ
بنصفين ، ثم قال : **أَجْرُ قَالَ : يَارَبِّ بِمَا أَجْرِي ؟** قال : **بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ**
الْقِيَامَةِ ، فجرى على اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه **(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ)** . ويروى
أن خلقه قبل خلق السموات والأرض بنجسين ألف سنة .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْقَلَمَ أَشْرَفُ آلَاتِ الْكِتَابَةِ وَأَعْلَاهَا رَتْبَةً ، إِذْ هُوَ الْمُبَاشِرُ لِلْكِتَابَةِ دُونَ
غِيَرِهِ ، وَغِيَرُهُ مِنْ آلَاتِ الْكِتَابَةِ كَالْأَعْوَانِ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : **(رَبِّ الْقَلَمِ وَمَا**
يَسْطُرُونَ) فأقسم به ، وذلك في غاية الشرف . والله أبو الفتح البُستِيُّ حيث يقول :

إِذَا أَقْسَمَ الْأَبْطَالُ يَوْمًا بِسِيْمِهِمْ * وَعَدَّوْهُ مِمَّا يُكْسِبُ الْمَجْدَ وَالْكَرَّمَ

كَفَى قَلَمَ الْكُتَّابِ عِزًّا وَرِفْعَةً * مَدَى الدَّهْرِ أَنَّ اللَّهَ أَقْسَمَ بِالْقَلَمِ

وقال تعالى : **(أَقْرَبُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ)** فأضاف التعليم بالقلم إلى

نفسه . قال ابن الهيثم : من جلالة القلم ، أن الله عز وجل لم يكتب كتابا إلا به ،
لذلك أقسم به . قال المدائني : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ” **مَنْ**
قَلَّمَ قَلَمًا يَكْتُبُ بِهِ عِلْمًا أَعْطَاهُ اللَّهُ شَجْرَةً فِي الْجَنَّةِ ، خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا . ” . وقد قيل
الأقلام مطايا الفطن ، وُرُسل الكرم . وقال عبد الحميد : القلم شجرة ثمرها الألفاظ ،

والفكر بجزء لؤلؤه الحكمة، وفيه رى العقول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصري ناجيه بما ستر عن الأسماع . وقال ابن المقفع : القلم بريد العلم يحث على البحر، ويحث عن خفي النظر . وقال أحمد بن يوسف : ما عبرت الغواني في حدودهن بأحسن من عبرت الأقلام . وقيل : القلم الطلسم الأكبر . وقيل : البيان أثنان : بيان لسان، وبيان بنان؛ ومن فضل بيان البنان أن ما تثبته الأقلام باق على الأبد، وما ينسسه اللسان تدرسه الأيام . ويقال : عقول الرجال تحت أسنة أقلامها، بنوء الأقلام يصوب غيث الحكمة . وقال جعفر بن يحيى : لم أربابياً احسن تبسماً من القلم .

قال ابن المعتز : القلم مجهز لجيوش الكلام، تخدّمه الإرادة، ولا يمل من الأستزاده، كأنه يقبل بساط سلطان؛ أو يفتح نور بستان .

ومن إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، من جواب كتبه للعقاد الأصفهاني : وكيف لا يكون ذلك ، وقلمها هو اليراع الذي نفتت الفصاحة في روعه ، وكنت الشجاعة بين ضلوعه ! فإذا قال أراك كيف تنسّق الفرائد في الأجياد .

ومن كلام ابى حفص بن برد الأندلسى : ما أعجب شأن القلم ! يشرب ظلمة، ويلفظ نورا؛ قد يكون قلم الكاتب، أمضى من شبة الحارب؛ القلم سهم ينفذ المقاتل، وشفرة تطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمر بن عثمان الكاتب : قلم يطلق الآجال والأرزاق، وينفث السم والدرياق؛ قلم تدق عن الإدارك حركاته، وتحلى بالفئاس فتكاته؛ يسرع ولا أتحدار السيل إلى قراره، وأتقدح الضوء من شراره، معطوفة الغايات على المبادئ، مصروفة الأعجاز إلى الهوادى؛ وإذا صال

أراك كيف أختلف الرماح بين الآساد . وله خصائصٌ أخرى يبدعها إبداعاً ، فإذا لم يأت بها غيره تطبعاً أتى بها هو طبعاً ، فَطَوْرًا يُرَى إماماً يُلقى درساً ، وطَوْرًا يَرَى ماشطة تجلو عرساً ، وطورا يَرَى ورَقَاءَ تصدحُ في الأوراق ، وطورا يَرَى جواداً مخلِّقاً بخلوق السِّباق ؛ وطورا أفعوانا مطرقاً ، والمعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق ! ولطالما نَفَّتِ سِحْرًا ، وجلب عِطْرًا ، وأدار في القِرطاسِ نحرًا ، وتصرف في صنوف الغنَاءِ فكان في الفتح عُمر ، وفي الهدى عَمَّارًا ، وفي الكيد عَمْرًا ، فلا تحطى به دولة إلا نغرت على الدول ، وأستغنت عن الخيل والخول .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيا ، ولا آستقامت المملكة . وكلُّ شيءٍ تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان على كل شيء ، والقلم يريهما صورتين ، ويوجد كهُمَا شكليين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم ، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فاقَتْ صنعة القلم عند سائر الأمم ، جمع الحكم في صحن الكتب . وقال العتابي : بيبكاء القلم تبسم الكتب . وقال البُحْثَرِيُّ : الأفلام مطايا الفطن . وقال أبو دُلف العجليّ : القلم صائغ الكلام ، يفرغ ما يجمعه الفكر ، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضمير ، إذا رُعب أعلن أسراره ، وأبان آثاره . وقال ثمامة : ما أثرتُه الأفلام ، لم تطمع في درسه الأيام . وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم وانحطّ الذي هو جنى العقول . وقال علي بن منصور : بنور القلم تُضيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة في بيان اللسان ، كان بفضل النعمة في بيان القلم أعرف . وقال غيره : بالقلم تُرفُّ بناتُ العقول إلى خُدُور الكُتُب . وقال المأمون : لله درّ القلم كيف يحوك وشي المملكة . وقال بعض الأعراب : القلم ينهض بما يظلع بجملة اللسان ، ويبلغ مالا

يلغنه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعل للكتب ألسنا ناطقة ، وأعيننا ملاحظة ؛ وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : الخط شيء أظهره العقل بواسطة سن القلم ، فلما قابل النفس عشيقته بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : الخط بالقلم ينمى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم على إيقاع الوتر ، والمهنة المنطقية مقدمة على المهنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طيب المنطق . وقال أرسطاطاليس : القلم العلة الفاعلة ، والمداد العلة الهيولانية ، والخط العلة الصورية ، والبلاغة العلة التمامية . وقد أكثر الشعراء القول في شرف القلم وفضله .

فن ذلك قول أبي تمام الطائي :

إن يخدم القلم السيف الذي خضعت * له الرقاب وذلت خوفه الأمم
فالموت والموت لا شيء يغالبه * مازال ينبع ما يجري به القلم
كذا قضى الله للأقلام مذبريت * أن السيوف لها مدأ رهفت خدم
وقوله :

لك القلم الأعلى الذي بسبابه * تُصاب من الأمر الكلى والمفاصل
لُعاب الأفاعي القاتلات لعابه * وأرى الجنى أشتارته أيد عواسل
له ريقة طلل ، وليكن وقعها * بآثاره في الشرق والغرب وأبل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب * وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ما امتطى الخمس اللطاف وأفرغت * عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف الفنا ، وتقوضت * لتجواه تقويض الحيام الجحافل
إذا استغزر الذهن الجلى وأقبلت * أعاليه في القروطاس وهي أسافل

(١) لعله مقدم على أو نحو ذلك .

وقد رففته الحنصران وسددت * ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
 رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف * ضناً، وسميناً خطبه وهو ناحل
 وقول أبي هلال العسكري :

أنظر إلى قلم ينكس رأسه * ليضم بين موصل ومفصل
 تنظر إلى مخلاب ليث ضيغم * وغرار مسنون المضارب مفصل
 يبدو لناظره بلور أصفر * ومدامع سود وجسم منحل
 فالدرج أبيض مثل خد واضح * يثنيه أسود مثل طرف أكل
 قسم العطايا والمنايا في الوري * فإذا نظرت إليه فأحذر وأمل
 طعمان شوب حلاوة بهرارة * كالدهر يخاط شهده بالحنظل
 فإذا تصرف في يدك عنانه، * ألحقت فيه مؤملاً بمؤمل
 ومذلاً بمعزز، ولربما * ألحقت فيه معزراً بمذلل

وقوله :

لك القلم الجاري بيؤس وأنعم * فمنها بوادٍ ترجى وعوائد
 إذا ملأ القرطاس سود سطوره * فتلك أسود تقي وأسود
 وتلك جنان تجتئ ثمراتها * ويلقاك من أنفاسهن بوارد
 وهن برود ما هن مناسج * وهن عقود ما هن معاقد
 وهن حياة للولي رضية * وهن حنوف للعدو رواصد

الجملة الثانية

(في اشتقاقه)

وقد اختلف في ذلك ؛ ف قيل : سمي قَلَمًا لِاسْتِقَامَتِهِ ، كما سميت القِدَاحُ أَقلامًا ، في قوله تعالى : ﴿ إِذْ يُلقُونَ أَقلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ قال بعض المفسرين : تشاؤحوا في كفالها فضربوا عليها بالقِدَاح ، والقِدَاح مما يضرب بها المثل في الاستقامة ؛ وقيل : هو مأخوذ من القَلَامِ : وهو شجر رخو فلما ضارعه القلم في الضعف سمي قلمًا ؛ وقيل : سمي قلمًا لِقَلَمِ رَأْسِهِ ، فقد قيل إنه لا يسمى قلمًا حتى يُبرئ ، أما قبل ذلك ، فهو قَصَبَةٌ . كما لا يسمى الرِّيحُ رُيحًا إلا إذا كان عليه سِنَانٌ وإلا فهو قَنَاةٌ . ومنه قَلَامَةُ الظفر ؛ وإلى ذلك يشير أبو الطَّيِّبِ الأزدى بقوله :

قَلَمٌ قَلَمٌ أَظْفَارَ العِدا * وهو كالإصبع مقصوَصُ الظُّفْرِ
أشبهَ الحَيَّةَ حتى إنه * كَمَا عَمَّرَ في الأيدي قَصْرُ

وقيل لأعرابي : ما القلم ؟ ففكر ساعة وقلب يده ؛ ثم نال : لا أدري ، فقيل له : توهمه . قال : هو عود قَلَمٌ من جوانبه كتقليم الظُّفْرِ ، فسمى قلمًا .

الجملة الثالثة

(في صفته)

قال إبراهيم بن العباس لغلام بين يديه يعلمه الخط : ليكن قلمك صُلْبًا ، بين الدقة والغِلْظ ، ولا تَبْرَه عند عُقْدَةٍ فإن فيه تعقيد الأمور ، ولا تكتب بقلم ملتوى ، ولا ذى شَقٍّ غير مستوى ؛ وإن أعوزك البحرى والفارسي ، واضطرتت إلى الأقلام النبطية فاختر منها ما يميل إلى السُّمرة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني : ينبغي للكاتب أن يتخير من أنابيب القصب أقله عقدا ، وأكثره لحما ، وأصلبه قشرا ، وأعدله استواء . وقال العتابي : سألني الأضمعي يوما بدار الرشيد : أي الأنابيب للكتابة أصلح وعليها أصبر ؟ فقلت : مأنسف بالهجير ماؤه ، وستره من تلويحه غشاؤه ؛ من التبرية القشور ، الدرية الظهور ، الفضية الكسور . وكتب علي بن الأزهر إلى صديق له يستدعي منه أقلاما :

أما بعد فإننا على طول الممارسة لهذه الكتابة ، التي غلبت على الآسم ، ولزمت لزوم الوسم ؛ فحلت محل الأنساب ، وجرت مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخرية اجري في الكواغد ، وأمرت في الجلود ؛ كما أن البحرية منها أسلس في القراطيس ، وألين في المعاطف ، وأشد لتصرف الخط فيها ؛ ونحن في بلد قليل القصب رديته ، وقد أحببت أن نتقدم في اختيار أقلام صخرية ، ونتوق في اقتنائها قبلك ، وتطلبها من مظانها ومنابتها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم ؛ وأن نتمن باختيارك منها الشديدة الصلبة ، النقية الجلود ، القليلة الشحوم ، الكثيرة اللحوم ، الضيقة الأجواف ، الرزينة المحمل : فإنها أبقى على الكتابة ، وأبعد من الحفأ . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القضببان ، المقومات المتون ، الملس المعاهد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القوام ، المستحكمة يئسا ، وهي قائمة على أصولها لم تعجل عن إبان ينعها ، ولم تؤخر إلى الأوقات المخوفة عليها من خصر الشتاء ، وعفن الأنداء . فإذا أستجمعت عندك ، أمرت بقطعها ذراعا [ذراعا]^(٣) قطعاً رقيقاً ، ثم عبأت منها حزمًا فيما يصونها من الأوعية^(٤) ، وتكتب معه بعدتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) في العقد الفريد ثنائق وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سحق لفق تتوقت * به حضرميات الأكف الحوائك

(٢) في العقد الفريد نعيم . (٣) الزيادة عن العقد الفريد . (٤) في العقد . وجهتها مع من يؤدي الامانة في حراستها وحفظها وابصالحها وكتبت الخ .

وأهدى ابن الحرون إلى رجل من إخوانه الكُتَّابِ أقالما، وكتب إليه :
 إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظمَ الأمور ، وقوام الخِلافة ، وعمود المملكة ،
 أتخفتك من آلتها بما يخف محمله ، وتثقل قيمته ، ويعظم نفعه ، ويَجِلُّ خطره ؛
 وهي أقلام من القصب النابت في الصخر ، الذي نَسَفَ بحر الهجير في قشره مأؤه ؛
 وستره من تلويحه غشاؤه ؛ وهي كاللآلئ المكنونة في الصدف ، والأنوار المحجوبة
 في السِّدْفِ ؛ تَبْرِيةُ القشور ، دُرِيَّةُ الظهور ، فِضِّيَّةُ الكسور ؛ قد كستها الطبيعة
 جوهرًا كالوُشْبِيِّ الحَبْر ، ورونقًا كالديباج المنير .

ومن كتاب لأبي الخطاب الصابي ، يصف فيه أقلاما أهداها في جملة اصناف :
 وأضفتُ إليها أقلاما سليمةً من المعايير ، مبرأةً من المثالب ؛ جمَّة المحاسن ، بعيدةً
 عن المطاعن ؛ لم يربها طول ولا قصر ، ولا ينقصها ضعف خور ؛ ولا يشينها لين
 ولا رخاوة ، ولم يعبها كرازة ولا قساوة ؛ وهي آخذة بالفضائل من جميع جهاتها ،
 مستوفية للممدوح بسائر صفاتها ؛ صلبة المعاجم ، لئنة المقاطع ؛ موفية القدود والألوان ،
 محمودة الخبر والعيان ؛ وقد آستوى في الملاسة خارجها وداخلها ، وتناسب
 في السلاسة عاليها وسافلها ؛ نبتت بين الشمس والظل ، وأختلف عليها الحر والقر ؛
 فافحها وقدان الجواهر ، ولفعها سماء شهر ناجر ؛ ووقدها الشفان بصرده ، وقذفها
 الغمام ببرده ، وصابتها الأنواء بصيبتها ، وآستهلت دليها السحاب بشآئيلها ؛ فاستمرت
 مرارها على إحكام ، وآستحصد سيجلها بالإبرام ؛ جاءت شتى الشيات ، متغايرة
 الهيئات ، متباينة الحال والبُلدان ؛ تختلف بتباعد ديارها ، وتألف بكرم نجارها .
 فن أناييب فنًا ناسبت رماح الخط في أجناسها ، وشاكت الذهب في ألوانها ،

(١) لعله وافية القدود . أى تامة كاملة .

(٢) لعله حبلها وحرر .

وضاهت الحرير في لمعانها ، مضابطة الحفاء ، نمرّة القوي ، لا يسيطها القط ، ولا يُسَعَّبُ بها الخط .

ومن مصرية بيض كأنها قباطي مضر نقاء ، وغرقى البيض صفاء ؛ غذاها الصعيد من ثراه بلبه ، وسقاها النيل من نيمره وعذبه ؛ بجاءت ملتئمة الأجزاء ، سليمة من الائتواء ؛ تستقيم شقوقها في أطوالها ، ولا تتكّب عن يمينها ولا شمالها ، مقترن بها صفراء كأنها معها عقيان قرن بجين ، أو ورق خطّ بعين ؛ تختال في صفر ملاحفها ، وتميس في مذهب مطارفها ؛ بلون غياب الشمس ، وصبغ ثياب الورس .

ومن منقوشة تروق العين ، وتونق النفس ؛ ويهدي حسنها الأريحية إلى القلوب ، ويحل الطرف لها حبة الحليم اللبيب ؛ كأنها اختلاف الزهر اللامع ، وأصناف الثريا اليناع .

ومن بحرية موشية الليط ، رائقة التخطيط ؛ كأن داخلها قطرة دم ، او حاشية رداء معلّم ، وكأن خارجها أرقم ، أو متن وإد مفعم ؛ نشرت ألوانا تزرى بورد الحدود ، وأبدت قامات تفضح تأود القُدود .

ومن كلام ابن الزيات : خير الأقلام ما استحکم نُضجُه وخف بزره ؛ قد تساعدت عليه السعود في فلّك البروج حولا كاملا ، تؤلفه بمختلف أركانها وطباعها ، ومتباين أنوائها وأنحاءها ؛ حتى إذا بلغ أشده وأستوى ، وشقت بوازله ، ورقّت شمائله ؛ وأبتسم من غشائه ، وتآدى من لحائه ؛ وتعزى عنه ثوب المصيف ، بانقضاء الحريف ، وكشف عن لون البيض المكنون ، والصّدف المخزون ؛ قطع ولم يعجل عن تمام مصلحته ، ولم يؤخر إلى الأوقات المخوفة عاهتها عليه من خصر الشتاء ، وعفن الأنداء ؛ بجاء مستوى الأنايب معتدلا ، مثقف الكموب مقومها .

وقد حرر الوزير أبو علي بن مقلّة رحمه الله منّا الحاجة من هذه الأوصاف،
وأقتصر على الضرورى منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما استحك نضجه فى جرمه ، ونشّف ماؤه فى قشره ، وقطع بعد إلقاء
بزره ، وبعد أن أصفر لحاؤه ورق شجره ، وصلب شحمه ، وثقل حجمه .

الجملة الرابعة

(فى مساحة الأقلام فى طولها وغلظها)

قال ابن مقلّة : خير الأقلام ما كان طولُه من ستة عشر إصبعا إلى اثنى عشر ،
وأمتلاؤه ما بين غلظ السبابة إلى الخنصر . وهذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام
على اختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسن قُدود القلم أن لا يُجاوزه الشبر بأكثر من جلفته
ويشهد له قول الشاعر :

فتى لو حوى الدنيا لأصبح عارياً * من المال ، معتاضا ثيابا من الشكر
له ترجمان أحرس اللفظ صامت ، * على قاب شبر بل يزيد على الشبر

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أحمد الأقلام ما توسطت حالاته فى الطول
والقصر ، والغلظ والدقة ، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليه الأنامل فىبقى مائلا إلى
ما بين الثلث ، والغلظ المفرط لا تحمله الأنامل .

وقال فى الحلية : إذا كانت الصحيفة لينة ينبغى أن يكون القلم لين الأنبوب ، وفى
لحمه فضل ، وفى قشره صلابة ، وإن كانت صلبة ، كان يابس الأنبوب صلبة ،
ناقص الشحم : لأن حاجته إلى كثرة المداد فى الصحيفة الرخوة أكثر من حاجته إليه
فى الصحيفة الصلبة . فرطوبته ولحمه يحفظان عليه غزارة الاستمداد ؛ ويكفى

في الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل إليها في القلم الصُّلْبِ الخالي من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة

(في بَرَى القلم ، وفيه خمسة أُنظار)

النظر الأول

(في اشتقاقه وأصل معناه)

يقال بَرَيْتَ القلم أَبْرِيه بَرِيًّا وِبَرَاية غير مهموز ، وهو قلم مَبْرِيٌّ ، وأنا بَارٍ للقلم بغير همز أيضا . قال الشاعر :

يا بَارِي القَوَسِ بَرِيًّا ليس مَحْكُهُ * لا تُفْسِدِ القوس ، أَعْطِ القَوَسَ بَارِيهَا
ويقال أيضا بَرَوْتُ القلم والعُودَ بَرَوًّا بالواو ، والياء أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البرى بُرَايَةً (بضم الموحدة في أوله) على وزن نُزَالَةٍ وَحَثَالَةٍ ، والفعالة اسم لكل فضلة تفضل من الشيء ، وتقول في الأمر : أبر قلبك .

النظر الثاني

(في الحث على معرفة البراية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلى خِلال ، منها جودة بَرَى القلم ، وإطالة جِلْفَتِهِ ، وتحريف قَطَّتِهِ ، وحسن التأتى لأمتطاء الأنامل ، وإرسال المدة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك الشكل على الخطأ والإعجام على التصحيف .

ومن كلام المَقْرَّ العَلَّائِي ابن فضل الله ، طيب الله مَهْجَعَهُ ! : من لم يحسن الأستمداد ، وبرى القلم ، والقَطِّ وإمساك الطُّومار ، وقسمة حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة في شيء .

ويحكى أن الضحّاك كان إذا أراد أن يبرئ قلمها، توارى بحيث لا يراه احد ، ويقول : الخط كله القلم . وكان الأنصارى إذا أراد أن يبرى فعل ذلك ، فإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتى لا يراها أحد .

وقال إسحاق بن حمّاد : لاحدق لغير ميمز لصنوف البراية . ورأى إبراهيم بن المحبس رجلا يأخذ على جارية قلم الثلث ، فقال : أعلمتها البراية؟ قال : لا ، قال : كيف تحسن أن تكتب بما لا تحسن برأيته ؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط .

قال المقر العلاءى ابن فضل الله : ورأيت بخط أبى على بن مقلّة رحمه الله ، نعم نعم ملاك الخط حسن البراية ، ومن أحسنها سهل عليه الخط ، ولا يقتصر على علم فن منها دون فن ، فإنه يتعين على من تعاطى هذه الصناعة أن يحفظ كل فن منها على مذهبه : من زيادة في التحريف ، ومن النقصان منه ، ومن اختلاف طبقاته . ومن وعى قلبه كثرة أجناس قَطِّ الأقلام ، كان مقتدرا على الخط ، ولا يتعلم ذلك إلا عاقل ، والقلم للكاتب كالسيف للشجاع .

وقال الضحّاك بن عجلان : القلم من أجناس الأقلام كاللحن من أجناس الألحان في الصناعة ، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك .
ومن كلام المقر العلاءى ابن فضل الله : جودّة البراية نصف الخط .

ومنهم من ذهب إلى أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم ، حتى حكى الغزالي رحمه الله في نصيحة الملوك أن صاحب بن عبّاد كان وزيرا لبعض الملوك ، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسدونه ، ولم يزالوا حتى ذكروا للملك أنه لا يحسن براية القلم ، وعمدوا إلى أقلامه فكسروا رءوسها ، ثم إن الملك أمره بكتب كتاب في المجلس ، فوجد أقلامه كلها مكسرة الرءوس فأخذ قلمها منها ، وكتب به إلى أن انتهى إلى آخر الكتاب بخط فائق رائق ، فسال له الملك : إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن برى القلم ، فقال : إن أبى علمنى كاتباً ولم يعلمنى نجّاراً .

النظر الثالث

(في معرفة محلّ البراية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشيبانيّ : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصبة ،
يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة على أصلها ، فإن محل القلم من الكتاب محل الرح
من الفارس . وإلى هذا المعنى أشار أبو تمام الطائيّ بقوله في أبياته المتقدمة :

وأقبلت * أعاليه في القُرطاس وهي أسافلُ

وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم لبرية فلا يخلو من استقامة في البنية أو أعوجاج
في الحلقة ، فإن كان مستويا فالبرية من رأسه ، وهو حيث استدق ، وإن كان
معوّجا ودعت الضرورة إليه ، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقلّ اتواءً من أعلاه .

النظر الرابع -

(في كيفية إمساك السّكين حال البرى)

قال ابن البربريّ : إذا بدأت بالبراية فأمسك السكين باليد اليمنى ، والأنبوبة
باليسرى ، وضع إبهامك اليمنى على قفا السكين ، ثم اعتمد على الأنبوبة اعتمادا رقيقا .

النظر الخامس

(في صناعة البراية)

قال العتّابيّ : سألت الأضحى يوما بدار الرشيد : أى نوع من البرى أصوبُ
وأكتبُ ؟ فقلت : البرية المستوية القطّة التي عن يمين سنّها برية تأمن معها
المجّة عنه المدة والمطة ، الهواء في شقها فتيق ، والريح في جوفها تحرق ، والمداد
في خرطومها رقيق .

واعلم أنه ربما حَسُنَ الخط باعتبار براية القلم ، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته ، فقد قيل : إن الأحول المحزر كان عجيب البراية للقلم ، فكان خطه رائعا بهجاً من غير إحكام ولا إتقان . قال الأنصاري المحزر : كنت أكتب في ديوان الأحول ، فقربت منه وأخذت من خطه ، وسرقت من دواته قلما من أقلامه ، فجاد خطي به ، فلاحته منه نظرة إلى دواتي ، فأبى القلم فعرفه ، فأخذه وأبعدني . وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْبَرِّيَّ يَشْتَمَلُ عَلَى مَعَانٍ .

المعنى الأول - في صفته ، ومقداره في الطول ، والتقصير .

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : ويجب أن يكون في القلم الصلْبُ أكثر تقعيرا ، وفي الرَّخْوِ أقل ، وفي المعتدل بينهما . وصفته أن تتبدى بتزولك بالسكين على الاستواء ، ثم تُميل القطع إلى مايلي رأس القلم ، ويكون طول الفتحة مقدار عُقْدَةِ الإبهام ، أو كمناقير الحمام ، وإلى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السمرمي رحمه الله في أرجوزته بقوله :

وَطُولُهَا كَعُقْدَةِ الْإِبْهَامِ لَا * أَعْلَى وَلَا أَدْنَى يَكُونُ أَرْدَلَا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله : كل قلم تقصُر جِلْفَتُهُ ، فإن الخط ييجيء به أَوْقَصَ ، والوَقْصُ قِصْرُ العنق ، ولذلك سمي متفاعلا في عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أَوْقَصَ ، وكأنه يريد بالقِصْرِ مادون عقدة الإبهام .

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولي الكاتب : أَطْلُ خُرَطُومِ قَلَمِكَ . فقيل له :

أله خرطوم قال : نعم . وأنشد .

كَأَنَّ أُنُوفَ الطَّيْرِ فِي عَرَصَاتِهَا * خِرَاطِيمُ أَقْلَامٍ تُحُطُّ وَتُعْجَمُ

وقال عبد الحميد بن يحيى 'كاتب مروان لرغبان، وكان يكتب بقلم قصير البرية :
أتريد أن يوجد خطك ؟ قال : نعم . قال : فأطل جلفه قلمك وأسمنها ، وحرف
القطعة وأيمنها ، قال رغبان : ففعلت ذلك بفاد خطي . وقال الشيخ عماد الدين بن
العفيف رحمه الله : إذا طالت البرية ، فإنه يحيى الخط بها أخف وأضعف وأجلى ؛
وإذا قصرت ، جاء الخط بها أصفى وأثقل وأقوى .

المعنى الثاني - النحت .

قال الوزير أبو علي بن مقله : وهو نوعان ، نحت حواشيه ، ونحت بطنه . أما
نحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتي السن معا ، ولا يجعل على
إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا لجلفه القلم دق
أو غلط . قال : ويجب أن يكون جانبا مسيفين ، والتسيف أن يكون أعلاه ذاهبا
نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرى المداد من القلم . قال : وأما نحت
بطنه فيختلف بحسب اختلاف الأقلام في صلابه الشحم ورخاوته ، فأما الصلب
الشحمة فينبغي أن يُنحت وجهه فقط ، ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط
الذي يؤثر الكاتب أن يكتبه . وأما الرخوالشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتى
تنتهي إلى الموضع الصلب من جرم القلم ، لانك إن كتبت بشحمته ، تشطي القلم
ولم يصف جريانه .

ومن كلام ابن البربري : لاتقصع البراية ، ولا تحالف بين حدى القلم ؛ فإن ذلك
حياكة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الجلفه على أنحاء : منها أن يرهف جانبي البرية ، ويسمن وسطها شيئا يسيرا ؛
وهذا يصلح للبسوط والمعلق والمحقق .

ومنها ما تستأصل شحمته كلها ، وهذا يصلح للارسل والمزوج والمفتح .

ومنها ما يرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية في الأيمن؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها ما يرهف من جاتبي وسطه ، ويكون مكان القطة منه أعرض مما تحتمها؛ وهذا يصلح في جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثالث - الشق : وفيه مهيعان .

المهيع الأول

(في فائته)

قال الوزير أبو علي بن مقله رحمه الله : لو كان القلم غير مشقوق ما أستمزت به الأنامل ، ولا أتصل انخط للكاتب ، ولكثر الاستمداد ، وعُدِم المشق ، ولما ل المداد إلى أحد جنبي القلم على قدر قتل الكاتب له .

المهيع الثاني

(في صفة الشق ، وفيه مدركان)

المدرك الأول

(في قدره في الطول)

قال ابن مقله : ويختلف ذلك بحسب اختلاف القلم في صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شقه إلى مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنى فيه أنه إذا زاد على ذلك أنفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد انخط حينئذ . وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغي أن يكون شقه إلى آخر الفتحة ؛ وربما زاد على ذلك

بمقدار إفراطه في الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السمرمري رحمه الله في أرجوزته فقال :

وأعلم بأن الشَّقَّ أيضا يَحْتَلِفُ * بحسب الأقلام، فافهم ما أَصِفُ
فإن يكن معتدلاً شُقَّ إلى * مقدار ثلثِ الحِلْفَةِ آنقل وأقبلا
والرَّخْوُ للنصف أو الثلثين زد * والصُّلْبُ بالفتحة الحِقُّ تَسْتَفِدُ
وربما زادوا على ذاك إذا * أفرط في الصلابة، أعرف ذا وذا

المُدْرَكُ الثَّانِي

(في محله من الحِلْفَةِ في العرض)

وقد تقدم من كلام ابن مقلة رحمه الله في المعنى الثالث أنه يجب أن يكون الشَّقُّ متوسطاً لحِلْفَةِ القلم، وعليه جرى الأستاذ أبو الحسن بن البواب رحمه الله فقال :
وليكن غَاظُ السنين جميعاً سواءً . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظاً من الأيسر
دون العكس على كل حال ؛ وهذا إنما يأتي إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين
إلى جهة اليسار ، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلى جهة اليمين كالقبطية فإنه
يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوى الاعتماد على اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع - القَطْبُ وفيه مهيعان :

المهيع الأول

(أشستاقه ومعناه)

يقال قَطَطْتُ القلم أَقْطُهُ قَطًّا فأنا قاطٌ . وهو مَقْطُوطٌ وَقَطِيطٌ : إذا قطعت سِنَّهُ
وأصل القَطِّ القَطْعُ ، والقَطُّ والقَدُّ متقاربان ، إلا أن القَطَّ أكثر ما يستعمل فيما يقع
السيف في عمرضه ، والقَدُّ ما يقع في طوله . وكان يقال : إذا علا الرجل الشيء

بسيفه قده ، وإذا عرضه قَطَّه . وذلك أن مخرج الطاء وال달 متقاربان ، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه ، ومد حاجبيه .

المهيع الثاني

(في صفته)

وأعلم أن أجناس القَطِّ تختلف بحسب مقاصد الكُتَّاب ، وهو المقصود الأعظم من البراية ، وعليه مدار الكتابة . قال الضَّحَّاك بن عجلان : من وعى قلبه كثرة أجناس قَطِّ الأقلام ، كان مقتدرا على الخط . وقال المقرِّ العلأئى ابن فضل الله تغمده الله برحمته : كان بعض الكُتَّاب إذا أخذ الأنبوبة ليبريها تفرس فيها قبل ذلك ، فإذا أراد أن يَقُطَّ توقف ثم تحرى ، فتوقف ثم يَقُطُّ على تثبت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقَطُّ على نوعين :

النوع الأول - المحترَف ، وطريق بريه أن يحرف السكين في حال القَطِّ ، وهو ضربان ، قائم ومصوب : أما القائم فهو ما جعل فيه ارتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوب ، فهو ما كان القِشْر فيه أعلى من الشحم .

النوع الثاني - المستوى ، وهو ما تساوى سناه ، وأجودهما المحترَف ، وقد صرح بذلك الوزير أبو علي بن مُقَلَّة ، فقال : وأحدها ما كان ذا سنٍّ مرتفع من الجهة اليمنى ارتفاعا قليلا إذا كان القلم مصوبا ، وهذا معنى التحريف ؛ وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلى جهة اليسار كما تقدم عند ذكر سِنِّي القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذًا من جهة اليسار إلى جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف ، وأفسدها المستوية ، لأن المستوى أقلُّ تصرفا من المحترَف . قال : وقد كان بعض من لا يعتدُّ به يقطُّ القلم على ضدِّ

ما يعتمده الأستاذون ، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره ، فكان خطه لا يجيء إلا رديئا ، وإذا كانت القطة على الضد من ذلك ، كان الكاتب متصرفا في الخط ، متمكنا من القراطاس . قال الوزير ابن مقلة : وأججع السكين قليلا إذا عزمتم على القَطِّ ولا تنصّبها نصبا ، يريد بذلك أن تكون القطة أقرب إلى التحريف ، وأن تكون مصوّبة . قال الشيخ شمس الدين بن أبي رقية : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام ، والتحريف والتدوير ، فقال : الرقاع والتواقيع أميل إلى التدوير بين بين ، قطة مربعة ، والنسخ والمحقق والمشعر أميل إلى التحريف ، والمحقق أكثر تحريفا منهما . وقد فسر ابن الوحيد قول ابن البوّاب : لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير ، إن المعنى أن لكل قلم قطة صفة ، فقطة الريحاني أشدها تحريفا ، ثم يقل التحريف في كل نوع من أنواع قط الأقلام حتى تكون الرقاع أقلها تحريفا .

النظر السادس

(في معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالبراية ، وما لكل من سني القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : من لم يدر وجه القلم ، وصدّره ، وعرضه ، فليس من الكتابة في شيء . وقد فسر ذلك الوزير أبو علي بن مقلة فقال : أعلم أن للقلم وجهها وصدرا وعرضا ، فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قطه ، وهو ما يلي لمة القلم وأما صدره فهو ما يلي قشرته ، وأما عرضه ، فهو نزولك فيه على تحريفه . قال : وحرف القلم هو السن العليا وهي اليمنى .

الجملة السادسة

(في مساحة رأس القلم ومقدارها من حيث موضع القطة ، وتفزعها عن قلم الطومار ، ونسبتها من مساحته على اختلاف مقاديرها في الدقة والغليظ والتوسط ، وما ينبغى أن يكون في دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم ، فاعلم أن رؤوس الأقلام تختلف باختلاف الأقلام التي جرى الاصطلاح عليها بين الكُتَّاب ، وأعظمها وأجلها وأكثرها مساحة في العرض هو قلم الطومار : وهو قلم كانت الخلفاء تُعَلِّمُ به في المكاتب وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر ، ويؤخذ منه من أعلى الفتحة ما يسع رؤوس الأنامل ليمكن الكاتب من إمساكه ، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة ، ثقل على الأنامل ولا تحتمله ، ويتخذ أيضا من القصب الفارسي ، ولا بد من ثلاثة شقوق لتسهيل الكتابة به ويجري المداد فيه . ولهم قلمٌ دونه يسمى مختصر الطومار ، وبه يكتب النواب والوزراء ومن ضاهاهم الاعتماد على المراسيم ونحوها . وقدروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون مُعْتَرِضَات ، وهو أصل لما دونه من الأقلام ، فقلم الثلاثين من هذه النسبة مقدر بست عشرة شعرة ، وقلم النصف مقدر باثنتي عشرة شعرة ، وقلم الثلث مقدر بثمان شعرات ، ومختصر الطومار ما بين الكامل منه والثلاثين . وكل من هذا ، الأقلام فيه ثقل وهو ما كان إلى الشَّعْ أَمِيل ، وخفيف ، وهو ما كان إلى الدقة أقرب . إذا تقرر ذلك فطول الألف في كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه في مثله ويجعل طولها نظير ذلك ، ففي قلم الطومار يضرب مقدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة في مثلها خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولها ؛ وفي قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطومار

وهو ثمان شعرات في مثلها بأربع وستين، فيكون طولها أربعاً وستين شعرة وكذلك الجميع فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علي بن مقله : ينبغي أن تكون أقلامه على عدد ما يؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون في دواته قلم مبرى للقلم الذي هو بصدد أن يحتاج إلى تأبته ليجده مهياً ، فلا يتأخر لأجل برايته .

الآلة الثانية - المقلمة : وهي المكان الذي يوضع فيه الأقلام ، سواء كان من نفس الدواة أو اجنبياً عنها ، وقد لاتعد من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالباً .

الآلة الثالثة - المديّة ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأوّل

(في معناها وأشتقاقها)

قال الجاحظ : يقال بضم الميم وفتحها وكسرهما وتجمع على مُدَى : وهي السكين ، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " كانت امرأتان معهما ابناهما بقاء الذئب فذهب ابن إحداهما ، فقالت لصاحبتها : إنما ذهب بابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك . فتحاكما إلى داود فقضى به للكبرى ، فخرجتا إلى سليمان بن داود فأخبرتاها ، فقال : اثنوني بالسكين أشقه بينهما ، فقالت الصغرى : لا تتعلّ رحمك الله هو أبناها ، فقضى به للصغرى " قال أبو هريرة : إن سمعت بالسكين إلا يومئذ ما كنا نقول إلا المديّة .

ثم الأصل في السكين التذكير ، قال أبو ذؤيب :

يُرَى ناصِحاً لِي مابداً ، فإذا خلا ، * فذلك سكينٌ على الخلقِ حاذقٌ^(١)

(١) في اللسان والصحاح يرى ناصحاً فيما بدا .

قال الكسائي : ومن أنت أراد المدينة وأنشد :

فَعَيْتٌ فِي السَّنَامِ غَدَاةٌ قُرٌّ * بِسَكِّينٍ مَوْثِقَةِ النَّصَابِ ^(١)

ويقال سَكِينَةٌ بالهاء، وهو قليل . وفي حديث المَبْعَثِ "أنه لما شَقَّ الْمَلِكُ بطنه صلى الله عليه وسلم قال : ائْتِنِي بِالسَّكِينَةِ" وتجمع على سَكَاكِين، سميت مُدِيَّةً أخذًا من مَدَى الأجل وهو آخره : لأنها تأتي بالأجل في القتل على آخره ، وسميت سَكِينًا لأنها تسكِّن حركة الحيوان بالموت . ونِصَابُ السكِين أصلُها ، ونِصَابُ كلِّ شيءٍ أصله قال الشاعر :

وَإِنَّ نِصَابِي إِنْ سَأَلْتِ ، وَأُسْرَتِي * مِنْ النَّاسِ حَى يَقْتُنُونَ الْمَرْمَى ^(٢)

• أى وإن أصلى . ويقال أَنْصَبْتُ السكِين إذا جعلت لها نِصَابًا ، كما يقال أَقْبَضْتُهَا إذا جعلت لها مَقْبِضًا ، وأقْرَبْتُهَا إذا جعلت لها قَرَابًا ، وأغْلَقْتُهَا إذا جعلت لها غِلَافًا ، والحديدَةُ الذاهبة في النِصَابِ سِيلَانٌ . ويقال أَحَدَدْتُ السكِين فأنَا أَحَدَهُ إِحْدَادٌ وَحَدَّ السكِينُ نَفْسَهُ صَارَ حَادًا ، وَأَحَدٌ فَهُوَ مُحَدٌّ ، وسكِين حَادٌ ، فإذا أمرت مِنْ أَحَدِهِ قَلَّتْ أَحَدُهُ ، ومن حَدَّهُ قَلَّتْ حُدَّهُ .

الوجه الثاني

(في صفتها)

قال بعض الكُتَّابِ : هِيَ مِسْنُ الأَقْلَامِ ، تَسْتَحَدُّهَا إِذَا كَلَّتْ ، وَتَطْلُقُ بِهَا إِذَا وَقَفَتْ ، وَتَلْمُهَا إِذَا تَشَعَّتْ . فتجب المبالغة في سَمِّيها وإحْدَادها ليتمكن من البرى ، فيصفو جوهر القلم ، ولا نَشْطَى قَطَّتُهُ . وينبغي أن لا يستعملها في غير البراية لئلا تَكَاً وتفسد . قال الصولي : وَأَحَدِدُ سَكِينَكَ وَلا تَسْمَعْهَا لغير ذلك . قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : وَأَسْتَحَدُّ السكِين حَدًا ، وَلَتَكُن ماضية جَدًّا ، فإنها

(١) أى أترفي السنام بالسكِين انظر اللسان (٢) المرتم من الابل الكريم تنقطع أذنه ويترك لها زئمة

(٣) أى وحدتها أيضا كما يستفاد من نهاية عبارته .

إذا كانت كآلة جاء الخط رديثاً مضطرباً . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
فساد البراية من بلاد السكين . قال محمد بن عمر المدائني : ينبغي أن تكون لطيفة
القد ، معتدلة الحد . فقد كره المبالغة في سقيها ، لتمكن الباري من بريها . ولا عيب
في حملها في الكرم والخلف ، فقد روى المدائني عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال :
اتخاذ الرجل السكين في خقه من المروءة . قالوا : وأحسنها ما عرض صدره ،
وأرهب حده ، ولم يفضل عن القبضة نصابه ، وأستوى من غير أعوجاج . قال
الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدي وجماعة من الكُتَّاب يستحسنون
العقايبة : وهي التي صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكيننا ، فقال :
وسكين عتيقة الحديد ، وثيقة الشعيرة ، محكمة النصاب ، جامعة الأسباب ، أحد
من البين ، وأحسن من أجتاع محبين ، وأمضى من الحسام ، في برى الأقالم . والله
القائل في وصفها :

أنا إن شئت عدة لعدو * حين يُحشني على النفوس الحمام

أنا في السلم خادم لدواة * وبحدى تقوم الأقالم

الآلة الرابعة - المِقطُ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرى في الصحاح إلا أنه

قال فيه : مِقطَةٌ بالتأنيث .

قال الصولي : ينبغي أن يكون المِقطُ صلباً فتمضى القطة مستوية لامشطية .
قال الوزير أبو علي بن مقله رحمه الله : إذا قططت فلا تقط إلا على مِقطٍ أملس
صلبٍ غير مثلم ولا خشين لئلا يتشظى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف :
ويتعين أن يكون من عود صلبٍ كالآبنوس والعاج ، ويكون مسطح الوجه الذي
يُقطُّ عليه ، ولا يكون مستديراً : لأنه إذا كان مستديراً تشظى القلم ، وربما تهلت
القطة فتأتي الإدارات والتشعيرات غير جيدة . قلت وينبغي أن لا يكون مع ذلك

مانعا كالحديد والنحاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا تجيء القطة صالحة .

الآلة الحامسة - المحبرة، وهي المقصود من الدواة، وتشتمل على ثلاثة أصناف .

الصنف الأول - الجونة، وهي الظرف الذي فيه اللبقة والخبر .

قال بعض فضلاء الكتاب : وينبغي أن تكون شكلا مدور الرأس يجتمع على زاويتين قائمتين، يوقدهما خط، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد في زواياه فيفسد المداد، فإذا كان مستديرا كان أبقى للمداد، وأسهل في الاستمداد .

الصنف الثاني - اللبقة، وتسميها العرب الكرسف تسمية لها بأسم القطن الذي تتخذ منه في بعض الأحوال كما سيأتي، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول

(في اشتقاقها)

يقال أَلَقْتُ الدواة وَلِقْتُهَا، أخذنا من قولهم : فلان لا تُلِيقُ كفه درهماً أي لا تحبسهُ ولا تُمسكه، وأنشد الكسائي :

كَفَّاكَ كَفَّ مَا تُلِيقُ دِرْهَمًا * جُودًا، وَكَفَّ تُعْطِ بِالسَّيْفِ الدَّمَ

يصفه بالجود، أي كَفَّاكَ مَا تُمَسِّكُ دِرْهَمًا، ويقال : ما لاقَتِ المرأة عند زوجها أي ما عاقَت . قال المبرد : دخل الأصمعيّ على الرشيد بعد غيبة غابها، فقال له : كيف حالك يا أصمعيّ؟ فقال : ما ألاقنني نحوك أرض يا أمير المؤمنين : فأمسك الرشيد عنه، فلما تفرق أهل المجلس، قال له : ما معنيّ الألقنني؟ قال : ما حبستني، فقال : لا تكلمني في مجلس العامة بما لا أعلم . قال الجاحظ : ولا تستحق أسم اللبقة حتى تلاق في الدواة بالنفس : وهو المداد .

الوجه الثاني

(فيما نتخذ منه ونتعاهد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصُّوف والقطن ، ويقال فيه الكُرسُف ،
والبرُس ، والطُّوط ، والعُطْبُ ، والأولى أن تكون من الحرير الخشن : لأن أنتفاشها
في المحبرة وعدم تليدها أعونٌ على الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين على الكاتب
أن يتفقد اللِّقَّة ويطيِّبها بأجود ما يكون ، فإنها تُروِّح على طول الزَّمن ، والله القائل :

مُتَطَرِّفٌ شَهِدَتْ عَلَيْهِ دَوَاتُهُ * أن الفتي لا كان غيرَ طَرِيفٍ
إن التَّفَقُّدَ لِلدَّوَاةِ فَضِيلَةٌ * موصوفةٌ للكاتب الموصوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيِّب دواته بأطيب ما عنده من طيب نفسه ، فسئل عن
ذلك ، فقال : لأتى أكتبُ به أسمَ الله تعالى وأسمَ رسوله صلى الله عليه وسلم وأسم
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فلنحسه بالسنتنا ونمحوه
بأكماننا .

قال الشيخ علاء الدين السُّرْمَرِيُّ : ويتعين على الكاتب تجديد اللِّقَّة في كل
شهر ، وأنه حين فراغه من الكتابة يُطبِّق المحبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه ،
يفسد الخط . ونظم ذلك في أرجوزته فقال :

وَجَدِّدِ اللِّقَّةَ كُلَّ شَهْرٍ * فَشَيْخُنَا كَانَ بِهِذَا يُغْرَى
لأجل ما يقع فيها من قذئ * فَيَتَنَبَّئِي مِنْ ذَاكَ فِي الْخَطِّ أَدْنَى

وينبغي له مع ذلك أن يصونها عن الأشياء القادرة كالبصاق ونحوه ، فقد حكى
محمد بن عمر المدائني أن بعض العلماء رأى صبياً يمصق في دواته فزجره ، وقال
لعلامة : أمتع الصبيان عن مثل هذا ، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المدائني : كأنه تخرج أن يكتب القرآن بمداد غير نظيف . قال المدائني : وكان بلغني عن ابن عباس أنه أجاز أن يبصق الرجل في دواته ، فسألت أحمد بن عمرو البزاز عن ذلك فأنكره ، وقال : هذا حديث كذب ، وضعه عاصم بن سليمان الكودن ، وكان كذاباً ذكرته لأبي داود الطيالسي فقال : هو كذاب يجب أن تعرفوا كذبه ، صفوا له مسألة حتى يحدثكم بحديثي ، فقال : بئنت أنا وعمر بن موسى الحارثي في جماعة ، فقال له عمر : ما تقول في الرجل يبزق في الدواة ويستمد منها ؟ وكان قد ذهب بصره ، فقال : حدثنا عبد الله بن نافع عن ابن عمر أنه كان يبزق في الدواة ويستمد منها ، ثم قال : وحدثنا هشام بن حسان عن عكرمة عن ابن عباس مثل ذلك ، قال : فهمز بعض أصحابنا وقال : كان ابن عباس لا يبصر ، قال : ففهم ، فقال : نعم . كان ابن عباس لا يرى بذلك بأساً . .

الصنف الثالث - المداد والخبر وماضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأول

(في تسميتهما وأشتقاقهما)

أما المداد فسمي بذلك لأنه يمد القلم أي يعينه ، وكل شيء مددت به شيئاً فهو مداد ، قال الأخطل :

رَأَتْ بَارِقَاتٍ بِالْأَكْفِ كَأَنَّهَا * مَصَابِيحُ سُجْرٍ أَوْقَدَتْ بِمِدَادٍ ^(١)

سُمِّيَ الزَّيْتُ مِدَادًا لِأَنَّ السَّرَاحَ يَمُدُّ بِهِ ، فَكُلُّ شَيْءٍ أَمَدَدَتْ بِهِ اللَّيْقَةُ مِمَّا يَكْتُبُ بِهِ فَهُوَ مِدَادٌ ، وَقَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ : هُوَ مِنَ الْمِدَادِ لِأَنَّ الْإِمْدَادَ . وَيُقَالُ : أَمَدَ الْقَلَمُ فِي الْخَيْرِ مِثْلَ ﴿ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحِيمٍ ﴾ وَمَدَّهُ فِي الشَّرِّ ، مِثْلَ ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ . وَيُقَالُ فِيهِ أَيْضًا نَفَسٌ

(١) في اللسان رأوا بواو الجماعة .

وتنقّس ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أفصح ، ويجمع على أنقّاس .

وأما الحبر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الحبر يراد به اللون الخالص الصافي من كل شيء ، قال ابن أحمري ذكر أميرة :

تَيْدُهُ بِفَاحِمٍ جَعْدٍ * وَأَبْيَضَ نَاصِعِ الحِبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفي الخبر "يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ رَجُلٌ قَدْ ذَهَبَ حَبْرُهُ وَسَبْرُهُ" بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال ابن الأعرابي : حبره حسنه ، وسبْره هنته ، وقال المبرد : قال التوزي : سألت الفراء عن المداد لم سمي حبرا ؟ فقال يقال للمعلم حبرٌ وحبرٌ يعني بفتح الحاء وكسرهما ، فأرادوا مداد حبر أي مداد عالم ، فخذفوا مداد وجعلوا مكانه حبرا . قال : فذكرت ذلك للأصمعي ، فقال : ليس هذا بشيء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حبرٌ إذا كثرت صُفْرَتُهَا حَتَّى صَارَتْ تَضْرِبُ إِلَى السَّوَادِ ، والحبر الأثري بقى في الجلد ، وأشد :

لَقَدْ أَشْمَتَتْ بِي آلَ قَيْدٍ وَغَادَرَتْ * بِجِلْدِي حَبْرًا بِنْتُ مَصَّانَ بَادِيَا

أراد بالحبر الأثر ، يعني أثر الكتابة في القرطاس ، قال المبرد : وأنا أحسب أنه سمي بذلك لأن الكتاب يُحَبَّرُ به أي يُحَسَّنُ ، أخذوا من قولهم حَبَّرْتُ الشَّيْءَ تَحْبِيرًا إِذَا حَسَّنْتَهُ .

الوجه الثاني

(في شرف المداد والحبر ، واختيار السواد لذلك)

في الخبر "يُوقَى بِمَدَادِ طَالِبِ الْعِلْمِ وَدَمِ الشَّهِيدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيُوضَعُ أَحَدُهُمَا فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ وَالْآخَرُ فِي الْكِفَّةِ الْآخَرَى فَلَا يَرِيحُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ" قال بعض الحكماء : صورة المداد في الأبصار سوداء ، وفي البصائر بيضاء . وقد قيل : كواكبُ

الحِكم في ظلم المداد . ونظر جمعفر بن محمد إلى قتي على ثيابه أثر المداد ، وهو يستره منه ، فقال له : يا هذا ! إن المداد من المروءة . وأنشد أبو زيد :

إذا ما المنسك طيب ريح قوم * كفتني ذاك رائحة المداد

وما شيء بأحسن من ثياب * على حاقاتها حمم السواد

وقال بعض الأدباء : عطروا دفاتر الآداب بسواد الجبر . وكان في حجر إبراهيم ابن العباس قِرطاس يمشق فيه كلاما فأسقط ، فمسحه بكفه ، فقيل له لو مسخته بغيره ؟ فقال المال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد في ذلك :

إمبا الزعفران عطر العذارى * ومداد الدوي عطر الرجال

وأنشد غيره :

من كان يعجبه أن مس عارضه * مسك يطيب منه الريح والنسما

فإن مسكي مداد فوق أنملي * إذا الأصابع يوما مست القلما

على أن بعضهم قد أنكروا ذلك ، وقال : المداد في ثوب الكاتب سخافة ، ودناءة منه وقلة نظافة . قال أبو العالية : تعلمت القراءة والكتابة ، وما شعر بي أهلي ، وما روى في ثوبي مداد قط . وأنشدوا :

دخيل في الكتابة يدعيها * كدعوى آل حرب في زياد

يشبه ثوبه للحو فيه * إذا أبصرته ثوب الحداد

قدع عنك الكتابة لست منها * ولو لطححت وجهك بالمداد

وقال فارس بن حاتم : يريق الجبر تهدي العقول لخبايا الحكم : لأنه أبق على الدهر ، وأنى للدكر ، وأزيد للأجر .

وأعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مدار الربع منها وأنشدوا في ذلك :

رُبْعُ الْكِتَابَةِ فِي سَوَادِ مِدَادِهَا * وَالرُّبْعُ حُسْنُ صِنَاعَةِ الْكُتَّابِ

وَالرُّبْعُ مِنْ قَلَمِ نُسُويَ بَرِيهِ * وَعَلَى الْكَوَاعِدِ رَابِعُ الْأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما أختير فيه السواد دون غيره لمضادته لون الصحيفة . قال : وليس شيء من الألوان يضاد صاحبه كمضادة السواد للبياض . قال الشاعر :

فَالْوَجْهُ مِثْلُ الصَّبْحِ مَبْيُضٌ * وَالقَرَعُ مِثْلُ اللَّيْلِ مَسْوَدٌ

ضِدَّانِ لِمَا اسْتَجْمَعَا حَسَنًا * وَالضِّدُّ يَظْهَرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ويقال في المداد : أسود قاتم ، وهو أول درجة السواد ، وحالك وحانك ، وحلكوك ، وحلبوب ، وداج ، ودجوي ، وديجور ، وأدم ، ومدهام . قال المدائني : حدثني بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبي عبيدة .

كتب جعفر بن حداد بن محمد إلى دعاج بن محمد يستهديه مدادا :

يَا أَحِيَّ لِلدُّوَادِ لَا لِلدِّادِ * وَصَدِيقٍ مِنْ بَيْنِ هَذَا الْعِبَادِ

وَالَّذِي فِيهِ أَلْفٌ مَجْدٍ طَرِيفٍ * قَدْ أَمَدَّتْ بِأَلْفِ مَجْدٍ تِلَادِ

أَنَا أَشْكُو إِلَيْكَ حَالِ دَوَاتِي * أَصَبَحْتُ تَقْتَضِي قَيْصَ حَدَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وَسَوْدَاءُ مَقَاتِهَا مِثْلُهَا * وَأَجْفَانُهَا مِنْ جُحَيْنٍ صَقِيلِ

إِذَا أَدْرَفَتْ عَبْرَةَ خِلْتَهَا * كَغَالِيَةِ فَوْقَ حَدِّ أَسِيلِ

الوجه الثالث

(في صنعتهما، وفيه نظران)

النظر الأول - في مادتهما .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَوَادَّ لِذَلِكَ مِنْهَا مَا يُسْتَعْمَلُ بِأَصْلِهِ وَلَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى كَبِيرِ عِلَاجٍ وَتَدْيِيرٍ كَالْعَفْصِ ، وَالزَّاجِ ، وَالصَّمْغِ ، وَمَا أَشْبَهَهَا . وَمِنْهَا مَا يُحْتَاجُ إِلَى عِلَاجٍ وَتَدْيِيرٍ ، وَهُوَ الدُّخَانُ . قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ خُلُوفُ بْنُ شَعْبَةَ الْكَاتِبُ : وَيَتَوَخَّى فِي الدُّخَانِ أَنْ يَكُونَ مِنْ شَيْءٍ لَهُ دَهْنِيَّةٌ ، وَلَا يَكُونَ مِنْ دُخَانِ شَيْءٍ يَابَسٍ فِي الْأَصْلِ لِأَنَّ دُخَانَ كُلِّ شَيْءٍ مِثْلُهُ وَرَاجِعٌ إِلَيْهِ .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل في أيام نَجَارُويه . بمداد لم أر أنعم منه ، ولا أشد سوادا منه . فسألته من أي شيء أستخر جنته ؟ فكتم ذلك عني ، ثم تَلَطَّفَتْ بِهِ بَعْدَ ذَلِكَ ، فَقَالَ لِي : مِنْ دَهْنِ بَزْرِ الْفُجْلِ وَالكَكَّانِ ، أَضَعُ دُهْنَ ذَلِكَ فِي مَسَارِجٍ وَأَوْقِدُهَا ، ثُمَّ أَجْعَلُ عَلَيْهَا طَاسًا حَتَّى إِذَا نَفِدَ الدَّهْنُ ، رَفَعْتُ الطَّاسَ ، وَجَمَعْتُ مَا فِيهَا بِمَاءِ الْآسِ وَالصَّمْغِ الْعَرَبِيِّ . وَإِنَّمَا جَمَعَهُ بِمَاءِ الْآسِ لِیَكُونَ سَوَادَهُ مَائِلًا إِلَى الْخَضْرَاءِ ، وَالصَّمْغِ يَجْمَعُهُ وَيَمْنَعُهُ مِنَ التَّطَايِرِ .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالِي الْحَمِصِ وشبهه ، وتُلَقِيَ عَلَيْهِ مَاءً ، وَتَأْخُذُ مَا يعلو فوقه وتجمعه بماء الآس ، والعسل والكافور والصمغ العربي والملح ، وتمده وتقطعه شواير ، والدخان الأول أجود والله أعلم .

النظر الثاني - في صنعتهما؛ وفيه مساكن

المسلك الأول

(في صنعة المداد، وبه كانت كتابة الأولين من أهل الصنعة وغيرهم)
 قال الوزير أبو علي بن مقلّة رحمه الله : وأجود المداد ما أُتخذ من سُخَامِ النَّفْطِ ،
 وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرتال ، فيجاء نخله وتصفيته ، ثم يلقى في طنجير ، ويصب
 عليه من الماء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر
 درهما ، ومن الصمغ المسحوق خمسة عشر درهما ، ومن العفص عشرة دراهم ،
 ولا يزال يساط على نار لينة حتى يثخن جرمه ويصير في هيئة الطين ، ثم يترك في إناء
 ويرفع إلى وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلى أنه لا ينحصر في سُخَامِ النَّفْطِ ، بل
 يكون من دُخَانٍ غيره أيضا كما تقدّم . نعم ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك
 إلى الكافور لتطيب رائحته ، والصبر ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن
 الكافور يقوم مقام الملح في غير الطيب .

المسلك الثاني

(في صنعة الحبر، وهو صنفان)

الصنف الأول - ما يناسب الكاغد أي الورق : وهو حبر الدُخَانِ ، ونحن
 نذكر منه صفات إن شاء الله تعالى .

”صفة“ يؤخذ من العفص الشامي قدر رطل يدق جريشا ويُتقع في ستة أرتال
 ماء مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا ، ثم يغلى على النار حتى يصير على النصف
 أو الثلثين ، ثم يصفى من مئرو ويترك ثلاثة أيام ، ثم يصفى ثانيا ، ثم يضاف لكل رطل
 من هذا الماء أوقية من الصمغ العربي ، ومن الزاج القبرسي كذلك ، ثم يضاف إليه
 من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة . ولا بد له مع ذلك من الصبر
 والعسل ليمتنع بالصبر وقوع الذباب فيه ، ويحفظ بالعسل على طول الزمن ؛ ويجعل

(١) بعد أن تُسحق الدخان بأكوة كففك من الدخان لكل رطل من الحبر بالسكر النبات والزعفران والشعر والزنجار إلى أن تُجيد سحقه ، ولا تصحنه في صلابة ولا هاون يفسد عليك .

الصفنف الثاني - ما يناسب الرق ، هو يسمى الحبر الرأس ، ولا دخان فيه ، ولذلك يجيء بصاصاً برافاً ، وبه إضرار للبصر في النظر إليه من جهة بريقه ، ويفسد الكاغد على طول ؛ ونحن نذكر منه .

”صفة حبر“ وهي ، يؤخذ من العفص الشامي رطل واحد فيجرش ، ويلقى عليه من الماء العذب ثلاثة أرطال ، ويجعل في طنجير ، ويوضع على النار ويوقد تحته بنار لينة حتى ينضج ، وعلامة نضجه أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بصاصة ، ثم يلقى عليه من الصمغ العربي ثلاث أواق ، ومن الزاج أوقية ثم يصفى ويودع في إناء جديد ، ويستعمل عند الحاجة .

”صفة حبر سفري“ يعمل على البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيجرش جرشاً جيداً ويسحق لكل أوقية عفش درهم واحد من الزاج ، ودرهم من الصمغ العربي ، ويلقى عليه ويرفع إلى وقت الحاجة . فإذا احتاج إليه صب عليه من الماء قدر الكفاية وأستعمله .

الوجه الرابع

(في ليق الأفتتاحات)

وهي ما يكتب به فواتح الكلام : من الأبواب ، والفصول والابتداءات ونحوها ، ولا مدخل لشيء من ذلك في في الإنشاء والديونة ، إلا الذهب فإنه يكتب به في الطغراوات في كتب القانات ، وفي الأسماء الجليلة منها ، كما سيأتي في موضعه من

(١) بياض بالاصل . وفي الضوء ثلث أوقية بعد الخ .

المكاتبات من فن الإنشاء إن شاء الله تعالى، وبقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتَّاب النَّسخِ إلا أنه لا بأس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .
ونحن نذكر منه ما الغالب آستعماله وهو أصناف :

الصفى الأول - الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُحَلَّ ورقُ الذهب ، وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذى يستعمل فى الطلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافى النقى ، ويقتل فيه فى إناء صينى أو نحوه حتى يضمحلَّ حرْمُه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافى النقى ويفسل من جوانب الإناء حتى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعة حتى يرسب الذهب ، ثم يصفى الماء عنه ويؤخذ مارَسَبَ فى الإناء ، فيجعل فى مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من أليقة ، والزرُّ اليسير من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليل من ماء الصمغ المحلول ، ويكتب به . فإذا جفَّ صقل بمصقلة من بزَع حتى يأخذ حدته ، ثم يزَمِّك بالخبير من جوانب الحرف .

الصفى الثانى - الألازوردُ ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدنى ، وبقى ذلك مصنوع لا يناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى الدهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقى عليه قليل من ماء الصمغ العربى ، ويجعل فى دواة كدواة الذهب المتقدم ذكرها ، وكلما رسب حرك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كي لا يسود ويفسد .

الصفى الثالث - الزُّهْمُرُ ، وأجوده المغربى ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتى ينعم ، وإن سحق بماء الرمان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يلاق بليقة كما يلاق الخبر ، ويجعل فى دواة ويكتب به .

الصفى الرابع - المغرة العِراقية ، وهى بما يكتب به فى نفائس الكتب ،

وربما كتب بها عن الملوك في بعض الأحيان . وطريقه في الكتابة كما في الرَّمْحُفَرِ ، والله أعلم .

الإلة السادسة - المِلْوَأُقُ ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به الدواة أى تحرك به اللقمة . قال بعض الكُتَّابِ : وأحسن ما يكون من الأِنْسِ لثلا يغيره لونُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا ، عريض الرأس ثخينه .

الإلة السابعة - المِرْمَلَة ، وأسماها القديم المِتْرَبَة ، جَعَلًا لها آلة للتراب ، إذ كان هو الذى يُتْرَب به الكُتْبُ . وتشتمل على شيئين :

الأول - الظرف الذى يُجعل فيه الرَمْلُ ، وهو المسمى بذلك . ويكون من جنس الدواة إن كانت الدواة نُحَاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا على حسب ما يختاره رَبُّ الدواة . ومحلها من الدواة ما يلى الكاتب مما بين المحبرة وباطن الدواة مما يقابل المنشأة الآتى ذكرها ، ويكون فى فمها شُبَّاك يمنع من وصول الرمل الخشن إلى باطنها . وربما أُتِّخِذت مِرْمَلَة أخرى أكبر من ذلك تكون فى باطن الدواة لأحتمال أن تضيق تلك عن الكفاية لصغرها . وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْمَلَة كبيرة تقارب حبة الرَّابِجِ^(١) ، لها عتق فى أعلاها ، تكون فى الغالب من جنس الدواة من نُحَاسٍ ونحوه ؛ وربما أُتِّخِذت من خشب لُقْضَاة الحكم ونحوهم .

ومما ألفت فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعز :

ظَرِيفَةُ الشَّكْلِ وَالتَّمثالِ ، قَدْ صُنِعَتْ * نُحِجِي العُرُوسَ وَلَكِنْ لَيْسَ تَغْتَلِمُ
كَأَنَّهَا مِنْ ذَوِي الأَلْبَابِ خَاشِعَةٌ * تَبْكِي الدَّمَاءَ عَلَى مَاسِطَرِ القَلَمِ

(١) أى الجوز الهندى .

وتسمى المتربة أيضا، وفي ذلك يقول الوجيه المناوى :

يا مَادِحًا أمرًا ولم يَأْتِهِ * ولم يَنْلِ منه وَلَا جَرَبَهُ

لَا تَغِيْبُ الكَاتِبَ في حاله ، * فإنه الْمِسْكِينُ ذُو الْمِتْرَبَةِ

الثانى - الرمل، وقد اختار الكُتَّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره ، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة ما لا يكسوه غيره من أصناف الرمل ، وغيره ما كان دقيقا . وهو على أنواع :

النوع الأول - ما يؤتى به من الجبل الأحمر الملاصق للجبل المُقَطَّم من الجهة الشرقية، وهو أكثر الأنواع وأعمها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى - يؤتى به من الوَاحَاتِ، وهو رمل متحجر شديد الحمرة، يتخذ منه الكُتَّابُ حجارة لطافاً نُحِتَتْ بالسكين ونحوها على الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيوم وما والاها .

النوع الثالث - يؤتى به من جزيرة بيجر القلزم من نواحي الطُور، وهو رمل دقيق أصفر اللون، قريب من الزعفران، وله بهجة على الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع - رمل بين الحمرة والصفرة، به سُدُورٌ بَصَاصَةٌ يحالها الناظر سُدُورٌ الذهب ، وهو عزيز الوجود جدا، وبه يُرْمَلُ الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة - المنشأة، وتشتمل على شيئين أيضا .

الأول - الظرف، وحاله كحال المِرملة في الهيئة والمحل من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لأشباك في فمه ليتوصل إلى اللصاق، وربما آتخذ بعض ظرفاء الكُتَّابِ منشأةً أحرخى، غير التي في صدر الدواة من رصاص على هيئة حُقِّ لطيف، ويجعلها

في باطن الدواة كالمِرملة المتوسطة ، فإن اللصاق قد يتغير بمكثته في النحاس ، بخلاف الرصاص .

الثاني - اللصاق ، وهو على نوعين : أحدهما النشا المتخذ من البر ، وطريقه ان يطبخ على النار كما يطبخ للقماش ، إلا أنه يكون أشد منه ، ثم يجعل في المنشأة ، وهو الذي يستعمله كُتَّابُ الإنشاء ولا يعولون على غيره لسرعة اللصاق به ، وموافقة لونه للورق في نضاعة البياض ، والثاني المتخذ من الكثيراء ، وهو أن تَبَلَّ الكثيراء بالماء حتى تصير في قوام اللصاق ، ثم تجعل في المنشأة . وكثيرا ما يستعمله كُتَّابُ الديونة ، وهو سريع التغير إلى الخضرة ولا يسرع اللصاق به . وينبغي أن يستعمل في اللصاق في الجملة المأورد والكافور لتطيب رائحته .

الآلة التاسعة - المنفذ ، وهي آلة تشبه المخرز . تتخذ لخرم الورق ، وينبغي أن يكون محل الحاجة منها متساويا في الدقة والغلظ ، أعلاه وأسفله سواء ، لثلاث تختلف أثقاب الورق في الضيق والسعة ، خلا أن يكون ذبابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ في المقصود ، وحكمه في النصب في الطول والغلظ حكم المديّة ، وقد سبق . وأكثر من يحتاج إلى هذه الآلة من الكُتَّابِ الدواوين ، وربما أحتاج إليها كاتب الإنشاء في بعض أحواله .

الآلة العاشرة - المِزْمَةُ ، قال الجوهري : المِزْمُ بالكسر خشبتان تشدّ أوساطهما بجديدة تكون مع الصياقلة والأبارين ، ولم يزد على ذلك . وهي آلة تتخذ من النحاس ونحوه ، ذات دفتين يلتقيان على رأس الدرّج حال الكتابة لينع الدرّج من الرجوع على الكاتب ، ويُحْبَسُ بِمِجْبَسٍ عَلَى الدَّفَّتَيْنِ .

الآلة الحادية عشرة - المِفرشة ، وهي آلة تتخذ من حرّ كنان : بطانة وظهرهارة ، أو من صوف ونحوه ، تُفرَّشُ تحت الأقلام وما في معناها مما يكون في بطن الدواة .

الآلة الثانية عشرة - الْمَسْحَة، وتسمى الدفتر أيضا، وهي آلة تُتَّخَذُ مِنْ نَحْرِقٍ
مترابكة ذات وجهين ملونين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القماش،
يُمسَحُ الْقَلَمُ بِبَاطِنِهَا عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنَ الْكِتَابَةِ لِثَلَايِجَفِّ عَلَيْهِ الْحَبْرُ فَيَفْسُدُ، وَالغَالِبُ
فِي هَذِهِ الْآلَةِ أَنْ تَكُونَ مَدَوْرَةً مَخْزُومَةً مِنْ وَسْطِهَا. وَرَبْمَا كَانَتْ مُسْتَطِيلَةً، وَيَكُونُ
مَقْدَارُهَا عَلَى قَدْرِ سَعَةِ النَّوَاةِ. وَفِيهَا يَقُولُ الْقَاضِي الْفَاضِلُ رَحِمَهُ اللَّهُ :

مَسْحَةٌ نَهَارُهَا * يُجِنُّ لَيْلَ الظُّلْمِ
كَأَنَّهَا مُدْ خُلِقَتْ * مِنْ دِيلِ كَمِ الْقَلَمِ

وقال نور الدين علي بن سعيد المغربي فيها :

وَمَسْحَةٌ لَاحَتْ كَأَنَّي تَبَدَّدَتْ * بِهِ قَطْعُ الظُّلْمَاءِ، وَالصُّبْحُ طَالِعُ
وَلَا أَطَالَ اللَّيْلُ فِيهَا وَرُودَهُ، * حَكَّتُهُ، وَمُدَّتْ لِلصَّبَاحِ الْمَطَالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

وَمَسْحَةٌ تَنَاهَى الْحُسْنُ فِيهَا * فَأَضْحَتْ فِي الْمَلَاةِ لَا تُبَارَى
وَلَا تُكْرَى عَلَى الْقَلَمِ الْمُوَأَفِي * إِذَا فِي وَصْلِهَا خَلَعَ الْعِذَارَا

الآلة الثالثة عشرة - الْمِسْقَاة، وهي آلة لطيفة تُتَّخَذُ لِصَبِّ الْمَاءِ فِي الْحِجْرَةِ وَتَسْمَى
الْمَأْوَرِدِيَّةَ أَيْضًا : لِأَنَّ الْغَالِبَ أَنْ يَجْعَلَ فِي الْحِجْرَةِ عَوْضَ الْمَاءِ مَا وَرَدَ لِتَطْيِبِ رَائِحَتِهَا،
وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمِيَاهُ الْمُسْتَخْرَجَةَ كَمَا الْوَرْدِ وَالْحَلَّافِ وَالرَّيْحَانَ وَنَحْوِ ذَلِكَ لِأَتَحْمَلُ الْحَبْرُ وَلَا
تَفْسُدُهُ، بِخِلَافِ الْمَاءِ. وَتَكُونُ هَذِهِ الْآلَةُ فِي الْغَالِبِ مِنَ الْحِزْرُونَ الَّذِي يَخْرُجُ مِنْ
الْبَحْرِ الْمَلْحِ، وَرَبْمَا كَانَتْ مِنْ نُحَاسٍ وَنَحْوِهِ، وَالْمَعْنَى فِيهَا أَنْ لَا تَخْرُجَ الْحِجْرَةُ مِنْ
مَكَانِهَا، وَلَا يَصِيبُ مِنْ إِثْنَاءِ وَاسِعِ الْفَمِ كَالْكُوزِ وَنَحْوِهِ، فَرَبْمَا زَادَ الصَّبُّ عَلَى
قَدْرِ الْحَاجَةِ.

الآلة الرابعة عشرة - المِسْطَرَّة، وهي آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها ما يحتاج إلى تسطيره من الكتابة ومتعلقاتها؛ وأكثر من يحتاج إليها المذهب .
الآلة الخامسة عشرة - المِصْقَلَة، وهي التي يُصَقَّلُ بها الذهب بعد الكتابة، وهي من آلات الدواة لاحالة .

الآلة السادسة عشرة - المَهْرَقُ (بضم الميم وفتح الراء) وهو القِرطاس الذي يكتب فيه ، ويجمع على مَهَارِق . قلت : وعد صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري منها المداد، وهو ظاهر، والمِخِيطُ، وفي عدّه بعد .

الآلة السابعة عشرة - المِسنُّ، هو آلة تُتخذ لإحداد السكين؛ وهو نوعان: أكهبُ اللون، ويسمى الرومي، وأخضر، وهو على نوعين : حجازي، وقوصي؛ والرومي أجودها، والحجازي أجوده الأخضر .

الطرف الثالث - فيما يكتب فيه، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه في بعض الأبيات المتقدمة؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملة الأولى

(فما نطق به القراءان الكريم من ذلك)

وقد نطق القراءان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللوح . قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامة بفتح اللام على أن المراد اللوح واحد الألواح؛ سمي بذلك لأن المعاني تلوح بالكتابة فيه؛ ثم اختلفوا : فقرأ نافع برفع محفوظ على أنه نعت للقراءان بتقدير بل هو قرآن مجيد محفوظ في لوح، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغيير والتبديل والتحريف . قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾، وقرأ الباقون بالجر على نعت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة في اللوح المحفوظ تصدق ذلك ، وهو أم القرآن ، منه نُسخَ القرآن الكريم والكتب المنزلة ، ومنه تنسخ الملائكة أعمال الخلق . قال ابن عباس : وهو لوح من دُرّة بيضاء ، طوله ما بين السماء والأرض ، وعرضه ما بين المشرق والمغرب ، وحافته الدر والياقوت ، ودفناه ياقوتة حمراء ، وأصله في حجر ملك . وقال أنس : اللوح المحفوظ في جهة إسرافيل عليه السلام ، وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العرش .

قال ابن عباس : وفي صدر اللوح مكتوب "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبده ورسوله . فمن آمن بالله وصدق بوعده وآتبع رُسُلَهُ أدخله الجنة" . وسُمي محفوظاً لأن الله تعالى حَفِظَهُ عن الشياطين ، وقيل : حَفِظَهُ بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيى بن يعمر في أوج بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والأرض اللوح ، والمعنى أنه شيء يلوح للملائكة فيقرءونه . وهو ذو نور وعلو وشرف . وقد ورد في القرآن بلفظ الجمع ، قال تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبي : كانت من زبرجدة خضراء . وقال سعيد بن جبير : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زُمرّد أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس . من برد : وقال الحسن : خشب : وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم : قال : "الألواح التي أنزلت على موسى من سدر الجنة ، وكان طول كل لوح منها اثني عشر ذراعاً" . وقال وهب بن منبه : من صخرة صماء ألانها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

وَأَخْتَلَفَ فِي عِدْدهَا، فَقِيلَ : سَبْعَةٌ ، رَوَاهُ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ؛ وَقِيلَ لِرُوحَانَ ، رَوَاهُ أَبُو صَالِحٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَيْضًا ، وَجُمِعَتْ عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ فِي إِقْبَاعِ الْجَمْعِ عَلَى التَّثْنِيَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ يَرِيدُ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَأَخْتَارَهُ الْفَرَّاءُ . وَقِيلَ عَشْرَةٌ . قَالَ ابْنُ مَنبَهٍ ، وَقِيلَ تِسْعَةٌ . قَالَه مِقَاتِلٌ . وَقَالَ أَنَسٌ : نَزَلَتْ التَّوْرَةُ وَهِيَ سَبْعُونَ وَقَرَّبِعِيرٌ .

الثاني - الرق (بفتح الراء) قال تعالى : ﴿ وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ قال المبرد : هو ما يرقق من الجلود ليُكْتَبَ فِيهِ . قَالَ الْمَعَانِي بْنُ أَبِي السَّيَّارِ : وَمَنْ ثُمَّ اسْتَبْعِدَ حَمَلَهُ عَلَى اللُّوحِ الْمَحْفُوظِ ، وَالْمَنْشُورِ الْمَبْسُوطِ ؛ وَأَخْتَلَفَ فِي الْكِتَابِ الْمَسْطُورِ فِيهِ : فَقِيلَ اللُّوحُ الْمَحْفُوظُ ، وَقِيلَ الْقِرْءَانُ ، وَقِيلَ مَا كَتَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِمُوسَى وَهُوَ يُسَمَّى صَرِيرَ الْأَقْلَامِ .

الثالث - القرطاس والصحيفة، وهما بمعنى واحد وهو الكاغدُ .

أما القرطاس ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ قَالَ ابْنُ أَبِي السَّيَّارِ : الْقِرْطَاسُ كَافِدٌ يَتَّخِذُهُ بَرْدِيُّ بَصْرًا ، وَكُلُّ كَافِدٍ قِرْطَاسٌ ، قَالَ : وَالْجُمْهُورُ عَلَى كَسْرِهَا ، وَضَمُّهَا أَبُو زَيْدٍ وَعِكْرَمَةُ وَطَلْحَةُ وَيُحْيَى بْنُ يَعْمَرَ ، وَالَّذِي حَكَاهُ الْجَوْهَرِيُّ عَنْ أَبِي زَيْدٍ يَخَالَفُ ذَلِكَ ، فَإِنَّهُ قَالَ فِيهِ قِرْطَاسٌ بِفَتْحِ الْقَافِ مِنْ غَيْرِ أَلْفٍ بَعْدَ الرَّاءِ ؛ وَالْمُرَادُ بِالْكِتَابِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ الْمَكْتُوبُ لِأَنْفُسِ الصَّحِيفَةِ . قَالَه الْمَعَانِي .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ وَقَالَ جَل وَعَزَّ : ﴿ إِنَّ هَذَا لَنَبِيِّ الصُّحُفِ ﴾

(١) يظهر أنه وقع هنا تحليط من النسخ والحاصل على ما يؤخذ من كتب التفسير أنه اختلف في الرق فقيل الجلود وقيل اللوح المحفوظ . واختلف أيضا في الكتاب المسطور فيه فقيل القرءان وقيل ما كتبه الخ . فتنبه .

الأولى صُحِّفَ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى) وتجمع أيضا على صحائف ، وسمى المصحف مُصْحَفًا لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطأ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصِّين يكتبون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكبلا ، وعنهم أخذ الناس صنعة الورق ، وأهل الهند يكتبون فى حرق الحرير الأبيض ، والفُرس يكتبون فى الجلود المدبوعة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون فى اللِّخاف (بالحاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رِفاق ، وفى النُّحاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا حُوص عليه ، واحدها عَسِيب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغنم . وعلى هذا الأسلوب كانت العرب لقربهم منهم . وآسَمَت ذلك إلى أن بُعث النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونزل القرآن والعرب على ذلك ، فكانوا يكتبون القرآن حين ينزل ويقرؤه عليهم النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فى اللِّخاف والعُسب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرآن ” فَعَلْتُ أَنْتَبِعَ الْقُرْآنَ مِنَ الْعُسْبِ وَاللِّخَافِ “ . وفى حديث الزهري ” قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقُرْآنُ فى الْعُسْبِ “ وربما كتب النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعض مكاتباته فى الأَدَمِ كما سياتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وأجمع رأى الصحابة رضى الله عنهم على كتابة القرآن فى الرِّقِّ لَطُولِ بَقَائِهِ ، ولأنه الموجود عندهم حينئذ . وبقى الناس على ذلك إلى أن ولى الرَّشِيدُ الخِلافةَ وقد كَثُرَ الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب الناس إلا فى الكاغد :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق، فإنه متى نُحِيَ منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشْطُهُ . وانتشرت الكتابة في الورق إلى سائر الأقطار، وتعاطاها من قُرْب وبعده، واستمر الناس على ذلك إلى الآن .

الجملة الثالثة

(في بيان أسماء الورق الواردة في اللغة، ومعرفة أجناسه)

الورق (بفتح الراء) أسم جنس يقع على القليل والكثير، واحده ورقة، وجمعه أوراق، وجمع الورقة ورقات . وبه سمي الرجل الذي يكتب ورّاقا . وقد نطق القرءان الكريم بتسميته قرطاسا وصحيفة كما مر بيانه . ويسمى أيضا الكاغد بغين ودال مهملة، ويقال للصحيفة أيضا طرس، ويجمع على طروس، ومهرق (بضم الميم وإسكان الهاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف)، ويجمع على مهارق . وهو فارسي معرب، قاله الجوهري . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غر فاصقيلا، متناسب الأطراف، صبوراً على مرور الزمان . وأعلى أجناس الورق فيما رأيناه البغدادي: وهو ورق ثخين مع ليونة ورقّة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جداً، ولا يكتب فيه في الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربما استعمله كُتّاب الإنشاء في مكاتبات القانات ونحوها كما سيأتي بيانه في المكاتبات السلطانية . ودونه في الرتبة الشامي؛ وهو على نوعين: نوع يعرف بالجموي، وهو دون القطع البغدادي . ودونه في القدر وهو المعروف بالشامي، وقطعه دون القطع الجموي، ودونهما في الرتبة الورق المصري؛ وهو أيضا على قطعين: القطع المنصوري، وقطع العادة والمنصوري أكبر قطعاً . وقلماً يُصقل وجهاه جميعاً . أما العادة فإن فيه ما يصقل وجهاه ويسمى في عرف الوراقين المصلوح . وغيره عندهم على رتبتين: عال

(١) أي نوع دونه الخ فتنبه .

ووسط. وفيه صنف يعرف بالقوى صغير القطع، خشن غليظ خفيف الغرف، لا يُنتفع به في الكتابة يُتخذ للحلوى والعطر ونحو ذلك. وإنما نهت على ذلك وإن كان واضحاً لأمرين: أحدهما أن لأئحلى كتابنا من بيان الورق الذى هو أحد أركان الكتابة؛ الثانى أنه قد ينتقل الكتاب إلى إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرى كما لا يعرف المصريون ورق غير مصر معرفتهم بورق مصر، فيقع الأطلاع على ذلك لمن أرادته. ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجية فهو ردىء جداً؛ سريع البلى، قليل المكث؛ ولذلك يكتبون المصاحف غالباً فى الرق على العادة الأولى طلباً لطول البقاء.

- وسيأتى الكلام على مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الدبونة عند ذكر ورق كل فن، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالى.

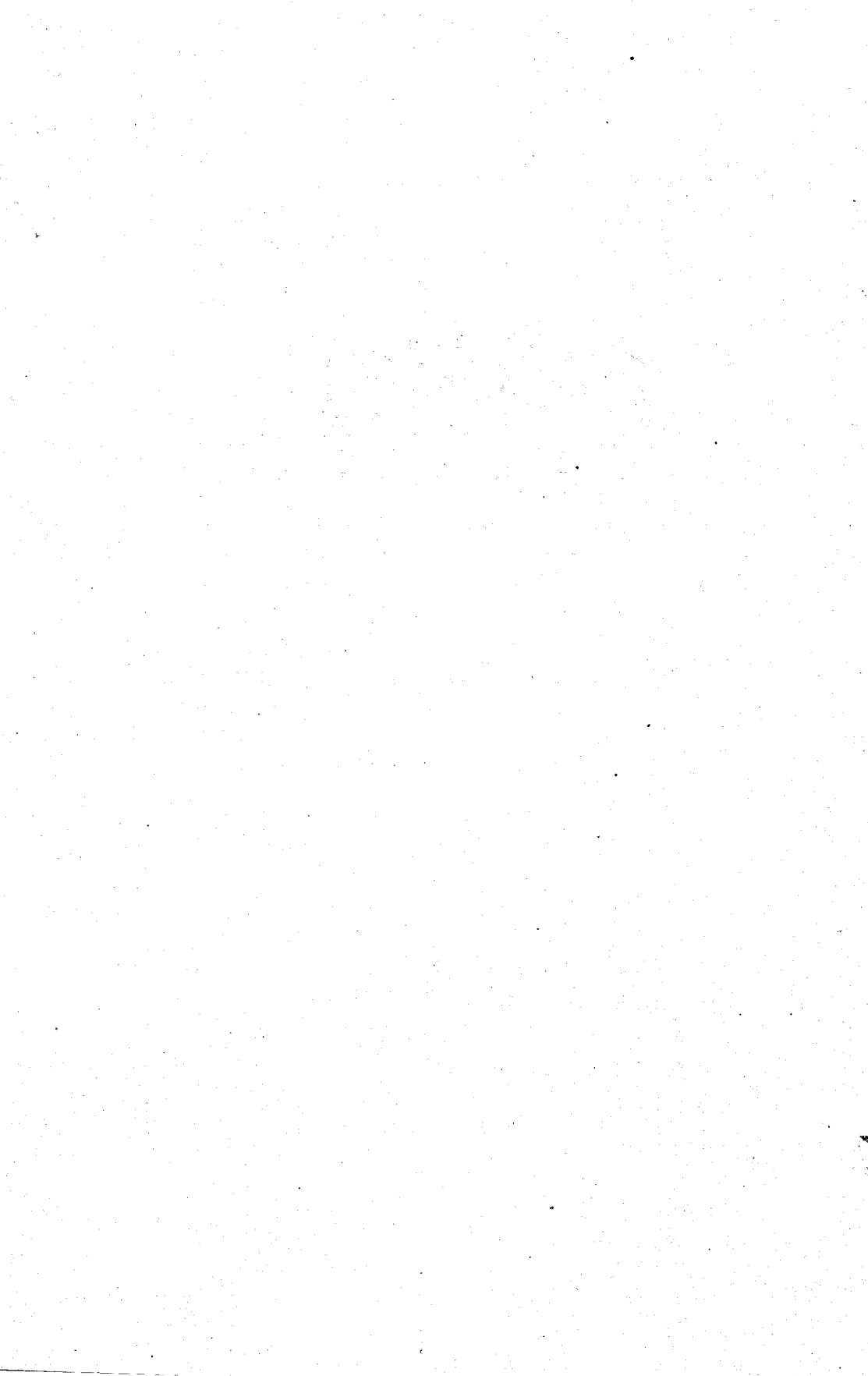
تم الجزء الثانى، ويتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث؛ وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى،

فى الكلام على نفس الخط)

صباح الأستغفار

الجزء الثالث



دار الكتب الخديوية

كتاب

صحيح الأسيوطي

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثالث

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الاميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة الأولى

(في الكلام على نفس الخط ؛ وفيه سبعة أطراف)

الطرف الأول

(في فضيلة الخط)

قال تعالى : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾
فأضاف تعليم الخط إلى نفسه ، وأمتنَّ به على عباده ، وناهيك بذلك شرفاً !

وقال جل وعز : ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بما يَسْطُرُونَه .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿أَوْ أَنَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أنه الخط
كما تقدم الكلام عليه .

ويروى أنَّ سليمان عليه السلام سأل عِفْرِيْتَا عن الكلام فقال : رِيحٌ لَا يَبْقَى !

قال فما قيده ؟ قال : الكتابة .

وقال عبيد الله بن العباس : الخط لسانُ اليد .

وقال جعفر بن يحيى: الخط سبط الحكمة، وبه تفصل شدورها، وينتظم منشورها.

(١)

وقال النّظام: الخط أصل الروح له جسدانية في سائر الأعمال. إلى ما يجري

هذا الجري.

وقال إبراهيم بن محمد الشيباني: الخط لسان اليد، وبهجة الضمير، وسفير العقول،

ووصى الفكر، وسلاح المعرفة، وأسس الإخوان عند الفرقة، ومحدثهم على بعد

المسافة، ومستودع السر، وديوان الأمور.

وقال مسلم بن الوليد: من عجائب الله تعالى في خلقه، وإنعامه عليهم من فضله،

تعليمه إياهم الكتاب المفيد للباقيين، حكم الماضيين، والمخاطب للعيون بسائر القلوب،

على لغات متفرقة، في معانٍ معقولة، بحروف مؤلفة من ألف، وباء، وجيم، ودال،

متبينات الصور مختلفات الجهات، لقاحها التفكير، ونتائجها التأليف، بتحرّس

مُنفردة، وتتنطق مُزدوجة، بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن مزقورة، ولا حركات

ظاهرة؛ ما خلا قلماً جوفً باريه بطنه ليعلق المداد به، وأرهف جانبيه ليردّ

ما آتته منه إليه، وشق رأسه ليحتبس الاستمداد عليه؛ وأربع من شفتيه، يجمعها

حواشي تصويره إليه؛ فهناك أشتد القلم برشفه، وقذف المادة إلى صدره، ثم مجها

من شقه بمقدار ما احتملت شفتاه بتخطيط أجزاء النقط التي أراد بها الخطوط،

فالأبصار لها سامية، فإذا حكمتها الألسن فالآذان لها واعية. وأولى أسمائها بها حينئذ

الكلام الذي سده العقل وأحمه اللسان، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفتان،

وصداه الجوّ، وجرّته الأسماع على أنحاء شتى، وسميت لها الأشياء لتعريف متناكرها،

(٢)

وتمييز متشابهها، وتبيين معلومها من مجهولها. فمن ذلك فضل الكتاب الصناعات.

(١) عبارة الضوء. "قال بعض العلماء: الخط كالروح في الجسد".

(٢) لعله وسمت أي تطلبت ونظرت. أو وسميت بها الخ.

وبالجملة فليس يذكر ذاكر شيئا مما يجرى به الخاطر، أو يميل إليه العقل،
أو يُلقيه الفهم، أو يقع عليه الوهم، أو تُدرِكه الحواس، إلا والكتاب والكلام موكلان
به، مدبران له، معبران عنه .

فلما أن تضمّنت الحروف الدلالة، وقامت الألفاظ بالعبارة، نطقت الأفواه بكل
لغة، وتصرف المنطق بكل جهة، فلم تكف منه أمة بأمة، ولم تستغن عنه ملة دون
ملة، فعرب ذلك بلغة العرب التي هي القاهرة لجميع اللغات، المنظمة لجميع المعاني
في وجيز الصفات .

ولو لم يكن من شرف الخط إلا أن الله تعالى أنزله على آدم أو هودٍ عليهما السلام
كما تقدم ذكره، وأنزل الصحف على الأنبياء مسطورةً، وأنزل الألواح على موسى
عليه السلام مكتوبةً، لكان فيه كفاية .

وأيضاً فإنّ فيه من حفظ الحقوق، ومنع تمرد ذوي العقوق؛ بما يُسَطَّر عليهم من
الشهادات، التي تقع في السجلات، والمكاتبات بين الناس لحوائجهم من المسافات
البعيدة التي لا ينضبط مثل ذلك لحامل رسالة، ولا يناله الحاضر بشأفة وإن كثرت
حفظه وزادت بلاغته . ولذلك قيل : الخط أفضل من اللفظ : لأن اللفظ يفهم
الحاضر فقط، والخط يفهم الحاضر والغائب . والله القائل في ذلك يصف القلم .

وأخرس ينطق بالمحكّمات * وجثمانه صامت أجوف
بمكة ينطق في خفية * وبالشام منطقه يعرف

الطرف الثاني

(في بيان حقيقة الخط)

قال الشيخ شمس الدين بن الاكفاني في كتابه "إرشاد القاصد" في حصر العلوم:

وهو علم نتعرف منه صور الحروف المفردة ، وأوضاعها ، وكيفية تركيبها خطأ ، أو ما يكتب منها في السطور، وكيف سيبله أن يكتب ، وما لا يكتب ؛ وإبدال ما يُبدل منها في الهجاء وبماذا يُبدل . قال : وبه ظهرت خاصة النوع الإنساني من القوة إلى الفعل ، وأماز به عن سائر الحيوان ؛ وضبط الأموال ، وترتيب الأحوال ، وحفظ العلوم في الأدوار ، واستمرارها على الأطوار ، وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحمل السر من مكان إلى مكان .

وبهذه الفضائل حافظت الغريزة الإنسانية على قبوله بطلب تعلمه محافظة لم يحتاج بها إلى تذكّار بعد الغيبة . ولهذا العلة استغنى عن كتاب يصنّف فيه .

ثم قال : وجميع العلوم إنما تعرف بالدلالة عليها : بالإشارة ، أو اللفظ ، أو الخط ؛ والإشارة تتوقف على المشاهدة ؛ واللفظ يتوقف على حضور المخاطب وسماعه ؛ أما الخط فإنه لا يتوقف على شيء فهو أعمها نفعاً وأشرفها .

وأعلم أنه قد تقدّم في الكلام على اللغة في ”النوع الأول مما يحتاج إليه الكاتب“ أنه ينبغي للكاتب أن يتعلم لغة من يحتاج إلى مخاطبته أو مكاتبتها من اللغات غير العربية ، فكذلك ينبغي أن يتعلم من الخطوط غير العربية ما يحتاج إليه من ذلك فقد قال محمد بن عمر المدائني في كتاب ”القلم والدواة“ : إنه يجب عليه أن يتعلم الهندية وغيرها من الخطوط العجمية . ويؤيد ذلك ما تقدّم في الكلام على اللغة أن النبي صلى الله عليه وسلم ”أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم كتاب يهود من السريانية أو العبرانية فتعلمها“ وكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم ويحيهم عنه .

الطرف الثالث

(في وضع الخطب، وفيه جملتان)

الجملة الأولى.

(في بيان المقصود من وضعه، والموازنة بينه وبين اللفظ)

أما بيان المقصود من وضعه أعلم^(١) أن وضع اللفظ لأداء المعنى الحاصل في الذهن المشعور به للسمع، إذ لا وُقوف على ما في الذهن، ووضع الخطب لأداء اللفظ المقصود فهمه للنظر فيه. فإذا أردت إيقافك أحدا على ما في ذهنك من المعاني تكلمت بالفاظ وُضعت لها، وإذا أردت تأدية ألفاظٍ لذلك الإيقاف إلى أحد بغير شفاه، نقشت النقوش الموضوعية لتلك الألفاظ، فيطالع تلك النقوش، ويفهم منها تلك الألفاظ، ومن الألفاظ تلك المعاني؛ ولا علاقة معقولة بين المعاني والألفاظ على الأمر العام، ولا بين الألفاظ والنقوش الموضوعية؛ ومن ثم جاء اختلاف اللغات والخطوط كالعربية والرومية وغيرهما.

وأما الموازنة بينه وبين اللفظ، فالأصل في ذلك أن الخطب واللفظ يتقاسمان فضيلة البيان ويشتركان فيها: من حيث إن الخطب دال على الألفاظ والألفاظ دالة على الأوهام؛ ولاشتراك الخطب واللفظ في هذه الفضيلة. وقع التناسب بينهما في كثير من أحوالهما؛ وذلك أنهما يعبران عن المعاني إلا أن اللفظ معنى متحرك والخطب معنى ساكن، وهو وإن كان ساكنا فإنه يفعل فعل المتحرك بإيصاله كل ما تضمنه إلى الأفهام وهو مستقر في حيزه ومكانه فثام كما أن اللفظ فيه العذب الرشيق السانع^(٢) في الأسماع كذلك الخطب فيه الرائق المستحسن الأشكال والصور. وكما أن اللفظ

(١) أي فنقول أعلم الخ . (٢) لعل وجه الكلام هكذا [مستقر في حيزه، قائم في مكانه، وما الخ] .

فيه الجَزَلُ الفصيح الذي يستعمله مَصَاقِعُ الخُطَبَاءِ، ومَفَالِقِ الشُّعْرَاءِ، والمُبْتَدَلُ السخيف الذي يستعمله العوام في المكاتب والمحاطبة، كذلك الخَطُّ فيه المحرَّرُ المحقق الذي تكتب به الكتب السلطانية والأمور المهمة، وفيه المَطْلُوقُ المرسل الذي يتكاتب به الناس ويستعملونه فيما بينهم . وكما أن اللفظ يقع فيه لحن الإعراب الذي يهيجنه كذلك الخط يقع فيه لحن الهجاء . وكما أن اللفظ إذا كان مقبولا حلوا رفع المعنى الخسيس وقربه من النفوس ، وإن كان غثا مستكراها وضع المعنى الرفيع وبعده من القلوب، كذلك الخط إذا كان جيّدا حسنا، بعث الإنسان على قراءة ما أودع فيه وإن كان قليل الفائدة، وإن كان ركيكا قبيحا، صرفه عن تأمل ما تضمنه وإن كان جليل الفائدة .

ولما أشترك اللفظ والخط في الفوائد العامة التي جُمعت فيهما وقع الاشتراك أيضا بين آتئهما إذ آلة اللفظ للسان، وآلة الخط القلم؛ وكل منهما يفعل فعل الآخر في الإبانة عن المعاني إلا أن اللفظ لما كان دليلا طبيعيا جعلت آتئهُ آلة طبيعية، والخط لما كان دليلا صناعيا جعلت آتئهُ آلة صناعية؛ ولما تقاسمت الآتان الدلالة نابت إحداهما مناب الأخرى فأوقعوا اسم اللسان على القلم فقالوا : الأفلام ألسنة الأفهام، وشركوا بينهما في الأسم فقالوا : القلم أحد اللسانين .

الجملة الثانية

(في أصل وضعه ؛ وفيه مسلكان)

المسلك الأول

(في وضع مطلق الحروف)

قيل إن أول من وضع الخطوط والكتب كلها آدم عليه السلام : كتبها في طين وطبخه ؛ وذلك قبل موته بثلاثمائة سنة ؛ فاما أظَلَّ الأرض الغرق أصاب كل قوم

كتابهم . وقيل أَخْنُوخ (وهو إدريس عليه السلام) . وقيل إنها أنزلت على آدم عليه السلام في إحدى وعشرين صحيفة . وقضية هذه المقالة أنها توقيفية علمها الله تعالى بالوحي، والمقالتان الأوثان محتملتان لأن تكون توقيفية وأن تكون اصطلاحية وضعها آدم وإدريس عليهما السلام . على أنه يحتمل أن يكون بعض ذلك توقيفياً علمه الله تعالى بالوحي، وبعضه اصطلاحياً وضعه البشر : واحد أو جماعة، فيصير الخلاف فيه كالخلاف في اللغة هل هي توقيفية أو اصطلاحية على ما هو مقرر في علم الأصول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسلك الثاني

(في وضع حروف العربية)

قال الشيخ أبو العباس البوني رحمه الله في كتابه "لطائف الإشارات، في أسرار الحروف المعلومات" :

يروى عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه قال : "سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله كل نبي مرسل بم يرسل ؟ - قال بكتاب منزل - قلت يا رسول الله أي كتاب أنزل على آدم ؟ - قال : ا ب ت ث ج إلى آخره - قلت يا رسول الله كم حرف ؟ - قال : تسع وعشرون - قلت يا رسول الله عددت ثمانية وعشرين، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أحمرت عيناه، ثم قال يا أبا ذر: واللذي بعني بالحق نبياً ! ما أنزل الله تعالى على آدم إلا تسعة وعشرين حرفاً - قلت يا رسول الله فيها ألف ولام - فقال عليه السلام : لام ألف حرف واحد، أنزله على آدم في صحيفة واحدة، ومعه سبعون ألف ملك، من خالف لام ألف فقد كفر بما أنزل على آدم ! ومن لم يعد لام ألف فهو بريء مني وأنا بريء منه ! ومن لا يؤمن بالحروف وهي تسعة وعشرون حرفاً لا يخرج من النار أبداً مكانه .

وهذا الخبر ظاهر في أن المراد منه حروف العربية فقط، إذ قد أجاب صلى الله عليه وسلم أبا ذر رضى الله عنه بحروف ا ب ت ث وأثبت منها لام ألف، وليس ذلك في غير حروف العربية، وقضية ذلك أن حروف العربية أنزلت على آدم عليه السلام وهو الموافق لما في أول الفصل قبله، لكن في كتاب "التنبيه على نقط المصاحف وشكلها" للشيخ أبي عمرو الداني رحمه الله أنها أنزلت على هود عليه السلام، ولا تباين بينهما: لجواز أن تنزل على آدم مرة وعلى هود أخرى، فربما نزلت الآية على نبي ثم نزلت على نبي آخر كما قيل في قوله تعالى: ﴿حَمَسَقُ كَذَلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إنه ما بعث الله تعالى نبياً إلا وأنزل عليه ﴿حَمَسَقُ﴾ وقد أنزلت ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ على سليمان عليه السلام، ثم أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم، وربما أنزلت الآية الواحدة على النبي صلى الله عليه وسلم مرتين كما في الفاتحة فإنها نزلت مرة بمكة ومرة بالمدينة على أحد الأقوال.

وعلى الجملة فتضمنته أنها توقيفية وهو الموافق لأحد الأقوال في مطلق الحروف.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من بولان، (وبولان قبيلة من طيء) نزلوا مدينة الأنبار، وهم مرامر بن مرة، وأسلم بن سدره، وعامر بن جدره، اجتمعوا فوضعوا حروفاً مقطعة وموصولة، ثم قاسوها على هجاء السريانية؛ فأما مرامر فوضع الصور، وأما أسلم ففصل ووصل، وأما عامر فوضع الإجماع؛ ثم نقل هذا العلم إلى مكة وتعلمه من تعلمه وكثر في الناس وتداولوه.

ونقل الجوهري عن شريقي بن القطامي أن أول من وضعه رجال من طيء منهم مرامر بن مرة وأنشد عليه: ^(١)

(١) في الأصل مرار. والذي في جميع معاجم اللغة مرامر، ولذا في البيت أيضاً.

تَعَلَّمْتُ بِأَجَادٍ وَآلِ مُرَامِرٍ * وَسَوَّدْتُ أَثْوَابِي وَلَسْتُ بِكَاتِبٍ

قال الجوهري: وإنما قال آل مُرَامِرٍ لأنه كان قد سُمِّي كل واحد من أولاده بكلمة من أبي جاد وهم ثمانية . وذكر غيره نحوه فقال : أول من اخترعه وألف حروفه ستة أشخاص من طَسَمٍ كانوا نُزُولًا عند عدنان بن أدد، وكانت أسماءهم : أبجد، وهوز، وحطى، وكلمن، وسعفص، وقرشت، فوضعوا الكتابة والخط على أسماءهم، فلما وجدوا في الألفاظ حروفًا ليست في أسماءهم أحقوها بها، وسموها الروادف، وهي الثاء المثناة، والحاء، والذال، والطاء، والغين، والضاد المعجمات على حسب ما يلحق من حروف الجمل، ثم انتقل عنهم إلى الأبنار، واتصل بأهل الحيرة، وفشًا في العرب ولم ينتشر كل الانتشار إلى أن كان المبعث .

وقيل إن نفيسًا ونصرًا وتيا ودومة بنى إسماعيل وضعوا كتابًا واحدًا وجعلوه سطرًا واحدًا موصول الحروف كلها غير متفرق، ثم فرقه نبت وهميسع وقيدار، وفرقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر. وعن هشام بن محمد عن أبيه قال : أخبرني قوم من علماء مصر أن أول من كتب الكتاب العربي رجل من بني النضر بن كانه، فكتبته العرب حينئذ .

وقضية هذه المقالات أنها اصطلاحية .

وفي السيرة لابن هشام: أن أول من كتب الخط العربي خير بن سبأ عليه في المنام قال : وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمسند سمي بذلك لأنهم كانوا يسندونه إلى هود عليه السلام . وهو مخالف لما تقدم من كلام أبي عمرو الداني : أن العربي أنزل على هود عليه السلام .

قال السهيلي رحمه الله في "التعريف والإعلام": والأصح ما روينا من طريق أبي عمير بن عبد البر رحمه الله يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أول من كتب بالعربية إسماعيل عليه السلام" قال ابن عبد البر: وهذا أصح من رواية "أول من تكلم بالعربية إسماعيل" وهذا محتمل للتوقيف أيضا: بأن يكون إسماعيل علمها بالوحي، وللأصطلاح: بأن يكون وضعه من نفسه.

ثم أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكة من قبل حرب بن أمية. قال المدائني: حدثني حسان بن عبد الملك الأنصاري قال: حدثني سليمان بن سعيد المري قال: سمعت الفراء يقول حدثني العمري أنه قيل لأبن عباس من أين تعلمت الهجاء والكتابة والشكل؟ قال علمناه من حرب بن أمية؛ قيل: ومن أين علمه حرب بن أمية؟ قال: من طارئ طرأ علينا من اليمن؛ قيل: ومن أين علمه ذلك الطارئ؟ قال: كانت^(١) بالوحي لهود عليه السلام.

وذكر أبو عمرو الداني في كتاب "التنبيه على التمثط والشكل" نحوه. وقيل أول ما ظهرت باليمن من قبل أبي سفيان بن أمية: عم أبي سفيان بن حرب، وأنته من قبل رجل من أهل الحيرة؛ قال أهل الحيرة: أخذناها من أهل الأنبار.

وقال أبو بكر بن أبي داود عن علي بن حرب عن هشام بن محمد بن السائب قال: تعلم بشر بن عبد الملك الكتابة من أهل الأنبار، وخرج إلى مكة، وتزوج الصهباء بنت حرب. وقيل إنه لما تعلم أبو سفيان بن حرب الخط من أبيه تعلمه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من قريش، وتعلمه معاوية بن أبي سفيان من عمه سفيان.

(١) في الضوء [من كاتب الوحي].

أما الأوس والخزرج فقد روى الواقدي بسنده إلى سعد بن سعيد قال : كانت الكتابة العربية قليلاً في الأوس والخزرج ، وكان يهودى من يهود ماسكة قد علمها فكان يعلمها الصبيان بقاء الإسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعيد بن زُرارة ، والمنذر بن عمرو ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، يكتب الكتابين جميعا العربية والعبرانية ، ورافع بن مالك ، وأسيد بن حُضَيْر ، ومعن بن عدى ، وأبو عبس بن كثير ، وأوس بن خولي ، وبشير بن سعد .

قال صاحب " الأبحاث الجميلة في شرح العقيلة " : والخط العربي هو المعروف الآن بالكوفي ومنه استنبطت الأقلام التي هي الآن . وقد ذكر ابن الحسين في كتابه في قلم الثلث أن الخط الكوفي فيه عدة أقلام مرجعها إلى أصلين وهما التقوير والبسط .

فالمتقور هو المعبر عنه الآن باللين : وهو الذي تكون عراقاته وما في معناها منخسفة منحطة إلى أسفل كالثلث والرقاع ونحوهما .

والمبسوط : هو المعبر عنه الآن باليابس وهو مالا أنخساف وأنحطاط فيه كالمحقق وعلى ترتيب هذين الأصلين الأقلام الموجودة الآن . ثم قد ذكر صاحب " إعانة المنشى " أن أول ما نقل الخط العربي من الكوفي إلى ابتداء هذه الأقلام المستعملة الآن في أواخر خلافة بنى أمية وأوائل خلافة بنى العباس .

قلت : على أن الكثير من كتّاب زماننا يزعمون أن الوزير أبا علي بن مقلة (رحمه الله تعالى) هو أول من ابتدع ذلك ، وهو غلط فإننا نجد من الكُتّاب بخط الأولين فيما قبل المسائين ما ليس على صورة الكوفي بل يتغير عنه إلى نحو هذه الأوضاع المستقرّة وإن كان هو إلى الكوفي أميل لقربه من نقله عنه .

قال أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب": ويقال إن جودة الخط آتت إلى رجلين من أهل الشام يقال لهما الضحّاك وإسحاق بن حمّاد، وكانا يخطان الجليل، وكأنه يريد الطومار أو قريبا منه .

قال صاحب "إعانة المنشىء" وكان الضحّاك في خلافة السّفّاح : أول خلفاء بني العباس ، وإسحاق بن حمّاد في خلافة المنصور والمهدى .

قال النحاس : ثم أخذ إبراهيم (يعني الشجرى) عن إسحاق بن حماد الجليل وأخترع منه قلما أخفّ منه سماه قلم الثلثين ، وكان أخفّ أهل دهره به ، ثم اخترع من قلم الثلثين قلما سماه قلم الثالث .

قال صاحب "الأبحاث الجميلة": وأخذ يوسف أخو إبراهيم الشجرى القلم الجليل عن إسحاق أيضا، وأخترع منه قلما أدق منه وكتبه كتابة حسنة فأعجب به ذوالرياستين الفضل بن سهل وزير المأمون ، وأمر أن تحزّر الكتب السلطانية به ، ولا تكتب غيره وسماه القلم الرّياسى . قال بعض المتأخرين : وأظنه قلم التوقيعات .

قال النّحاس : ثم أخذ عن إبراهيم الشجرى الأحول الثلثين والثلاث ، وأخترع منهما قلما سماه قلم النصف ، وقلما أخفّ من الثلث سماه خفيف الثلث ، وقلما متصل الحروف ليس في حروفه شيء ينفصل عن غيره سماه المسلسل ، وقلما سماه غبار الحلية ، وقلما سماه خط المؤامرات ، وقلما سماه خط القصص ، وقلما مقصوعا سماه الحوائجى . قال : وكان خطه يوصف بالبهجة والحسن من غير إحكام ولا إتقان ، وكان عجيب البرى للقلم ، وكان وجه النعجة مقدّما في الجليل . قال : وكان محمد بن معدان يعنى المعروف بأبي ذرّجان مقدّما في خط النصف ، وكان قلمه مستوي السنين ، وكان يشقّ الطاء ، والظاء ، والصاد ، والصاد بعرض النصف ، ويعطف

مثل يا، ويصل كلِّ ياءٍ من يساره إلى يمينه بعرض النصف لا يرى فيه اضطراب .
وكان أحمد بن محمد بن حفص المعروف بزاقف أجلِّ الكُتَّابِ خطأً في الثلث، وكان
أبنُ الزِّيَّاتِ في أيامِ آبنِ طولون وزيرِ المعتصم يعجبه خطُّه ولا يكتب بين يديه غيره،
وأنتهت رياسةُ الخطِّ بمصر إلى طَبْطَبِ المحرِّرِ جودةً وإحكاماً .

قال النحاس : وكان أهل مدينة السلام يحسدون أهل مصر على طَبْطَبِ وآبنِ
عبد كان يعني كاتب الإنشاء لأبنِ طولون، ويقولون بمصر كاتبٌ ومحرَّرٌ ليس لأمير
المؤمنين بمدينة السلام مثلهما .

قلت : ثم أنتهت جودة الخطِّ وتحريره على رأسِ الثلاثمائة إلى الوزير أبي عليّ محمد
أبنِ مقلَّة وأخيه أبي عبد الله .

قال صاحب "إعانة المنشىء" : ووُلِّدَا طريقةً اخترعاها وكتب في زمانهما جماعة
فلم يقاربهما . وتفرد أبو عبد الله بالنسخ، والوزير أبو عليّ بالدَّرَجِ، وكان الكمال
في ذلك للوزير؛ وهو الذى هَنَدَسَ الحروفَ وأجاد تحريرها، وعنه أنتشر الخطُّ
في مشارق الأرض ومغاربها، ولله قول القائل :

سَبَقَ الدَّمْعُ فِي الْمَسِيرِ الْمَطَايَا * إِذْ رَوَى مِنْ أَحَبِّ عَنْهُ بُقْلَهُ
وَأَجَادَ السُّطُورَ فِي صَفْحَةِ الْخَدِّ * وَلَمْ لَا يُجِيدُ وَهُوَ آبنُ مَقْلَهُ

وقول الآخر:

تَسَلَّسَلْ دَمْعِي فَوْقَ خَدِّي أَسْطُرًا * وَلَا عَجَبٌ مِنْ ذَلِكَ وَهُوَ آبنُ مَقْلَةٍ

ثم أخذ عن آبنِ مقلَّة محمد بن السمساني، ومحمد بن أسد؛ وعنهما أخذ الأستاذ
أبو الحسن عليّ بن هلال المعروف بابن البوّاب، وهو الذى أكمل قواعد الخطِّ وتممها
وأخترع غالب الأَقْلَامِ التى أسسها آبنِ مقلَّة؛ ولما مات رثاه بعضهم بقوله :

(١) فى الضوء . وأخترع عدة أقلام .

وَأَسْتَشَعَرَ الْكُتَّابُ قَدْرَكَ سَالِفًا * فَجَرَّتْ بِصِحَّةِ ذَلِكَ الْأَيَّامِ
فَلِذَلِكَ سَوَدَتِ الدُّوَى وَجُوهَهَا * أَسْفًا عَلَيْكَ وَشَقَّتِ الْأَقْلَامُ

ومن أخذ عنه محمد بن عبد الملك، وعن محمد بن عبد الملك أخذت الشيخة
الحديثة الكاتبة زينب الملقبة بشهدة أبنه الابري، وعنهما أخذ أمين الدين ياقوت،
وعنه أخذ الولي العجمي، وعليه كتب العفيف، وعن العفيف أخذ ولده الشيخ
عماد الدين، ويقال إنه كان كآب البواب في زمانه. وعن الشيخ عماد الدين بن
العفيف أخذ الشيخ شمس الدين بن أبي رقية محتسب الفسطاط، وهو من عاصرناه،
وأخذ عنه شيخنا الشيخ شمس الدين محمد بن علي الرقاسي المكتب بالفسطاط،
وصنف مختصرا في قلم الثلث مع قواعد ضمها إليه في صناعة الكتابة، أحسن فيه
الصنيع، وبه تخرج صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان بن محمد بن داود الآثاري
محتسب مصر، ونظم في صناعة الخط ألفية وسمها (بالناية الربانية في الطريقة
الشعبانية) لم يسبق إلى مثلها، ثم توجه بعد ذلك إلى مكة، ثم إلى اليمن والهند،
ثم عاد إلى مكة فأقام بها ونبغ.

قلت: وقد علم مما تقدم ذكره أن ألقاب الأقلام: من الثلثين والنصف والثلث
وخفيف الثلث والمُسَلْسَل والغبار قديمة، وإن وقع في أذهان كثير من الناس أنها
من مخترعات ابن مقلة وابن البواب فن بعدهما.

الطرف الرابع

(في عدد الحروف، وجهة ابتدائها، وكيفية ترتيبها؛ وفيه أربع جمل) ^(١)

الجملة الأولى

(في مطلق الحروف في جميع اللغات)

وأعلم أن الحروف تختلف باختلاف اللغات بحسب تعدد مخارجها، فحروف السريانيين، والروم، والفرس، والصقلب، والترک من أربعة وعشرين حرفاً إلى ستة وعشرين حرفاً؛ وحروف العبرانيين، واليونانيين، والقبط الأول، والهنود وغيرهم من اثنين وثلاثين إلى ستة وثلاثين؛ فيوجد في غير العربية من الحروف ما لا يوجد في العربية كما يوجد في العربية ما لا يوجد في غيرها من اللغات، ويكثر في الاستعمال فيها ما لا يكثر في غيرها. فالحاء المهملة، والظاء المعجمة مما أفردت بها العرب في لغاتها، واختصت بها دون غيرها من أرباب اللغات؛ والعين المهملة قليلة في كلام بعض الأمم ومفقودة في كلام كثير منهم؛ وكذلك الصاد والضاد والذال المعجمة ليست في الفارسية، والثاء المثلثة ليست في الرومية ولا في الفارسية، والفاء ليست في التركية.

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: ولذلك يقولون في فقيه يقيه بالباء الموحدة المشربة القيوية.

الجملة الثانية

(في حروف العربية)

وأعلم أنا لما كتبت بحمد الله أمة وسطاً خير أمة أخرجت للناس، وكان خير الأمور أوسطها، وكانت حروف اللغات ما بين أربعة وعشرين حرفاً إلى ستة وثلاثين كما

تقدّم، كانت حروف الكلام العربيّ التي بها رُقم القرآن الكريم ثمانية وعشرين حرفاً في اللفظ، متوسطةً بين حروف اللغات، وهي ا ب ت ث إلى آخره، وتسمى حروف الهجاء وحروف التهجّي، ويسمّيها سيبويه والخليل حروف العربية أي حروف اللغة العربية، وهي التي يتركّب منها الكلام العربيّ، وتسمى أيضاً حروف المعجم، إما لأنها مقطّعة لا تُفهم إلا بإضافة بعضها إلى بعض، وإما لأنّ منها ما ينقطع النقط المعروف، أو تنقطع كلّها أي تُشكّل إذ النقط قد يكون بمعنى الشكّل. وقال بعض أهل اللغة: النقط بالسواد كمثل التاء عليها نقطتان، يقال منه أعجمت الحروف، ومعناه حرف الخط المعجم. وبعضهم يجعل المعجم مصدراً بمعنى الإعجام من أعجمت الشيء إذا بيّنته فكأنّها مبيّنة للكلام، وتكون الهمزة في أعجمت للإزالة أي أزلت عُجمته إما بنقطه أو شكله.

قال الشيخ عبد الخالق بن أبي القاسم المصريّ: وإذا اعتبرت سائر اللغات بالتحقيق لن يزيد ذلك على ثمانية وعشرين حرفاً (يريد غير اللام ألف) في الحروف العربية والقائل بذلك يجعل اللام ألف مركباً من حرفين فلا يعدّه حرفاً مستقلاً.

قال علماء الحرف: وجعلت ثمانية وعشرين حرفاً على عدد منازل القمر الثمانية والعشرين.

قالوا: ولما كانت المنازل القمرية يُظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلةً ويغيب تحت الأرض أربع عشرة كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة: وهي الألف، والباء، والحاء المهملة،

(١) أي العجم النقط الخ كما في اللسان.

(٢) هو المبرد كما نقله عنه في اللسان.

والحاء المعجمة، والعين المهملة، والغين المعجمة، والفاء، والقاف، والكاف، واللام،
 والميم، والهاء، والواو، والياء المثناة تحت . تقول الألف والباء والحاء فتظهر اللام
 في لفظك وكذلك في البواقي . وما يندغم منها أربعة عشر حرفا أيضا بعدد المنازل
 الغائبة : وهى التاء المثناة من فوق، والتاء المثناة، والدال المهملة، والدال المعجمة،
 والراء، والزاي، والسين المهملة، والسين المعجمة، والصاد المهملة، والصاد المعجمة،
 والطاء المهملة، والطاء المعجمة، والنون . تقول التاء، والتاء، والدال فتخفى في لفظك،
 وكذلك في البواقي .

وقد تقدم في خبر أبي ذر رضي الله عنه أنها نزلت على آدم عليه السلام تسعة
 وعشرين حرفا عد منها اللام ألف وهو الموجود في التصوير فلا يعول إلا عليه
 إن صح الحديث .

ثم للحروف العربية فروعٌ توجد في اللفظ دون الكتابة مستحسنةً ومستقبحةً، تبلغ
 بها الحروف العربية سبعة وأربعين حرفا، ولا يوجد ذلك في لغة أمة من الأمم، أضربنا
 عن ذكرها لعدم تعلقها بالخط الذي نحن بصده، وبالله المستعان .

الجملة الثالثة

(في بيان جهة ابتدأت الحروف)

وأعلم أن أصحاب الأقلام اختلفوا باعتبار مقاصدهم في البداءة بالحروف .
 فمنهم من يبدأ من اليمين إلى اليسار كالعرب والعبرانيين والهنود وأهل الطبيعة
 والسرانيين، آخذًا فيه على سير الفلك من المشرق إلى المغرب، والمشرق عندهم يمين
 الفلك ويقال له مأخذ كورى، وقيل لأن فيه الاستمداد من الكبد إلى القلب .

ومنهم من يبدأ من اليسار إلى اليمين كالرومية واليونانية والقبطية ، وفن من الفارسية آخذاً فيه على سير الكواكب السبعة السيارة من المغرب إلى المشرق . ويقال له مأخذ دُورى ؛ وقيل لأنه ناشئ عن حركة القلب إلى الكبد .

الجملة الرابعة

(في كيفية ترتيب الحروف)

وأعلم أن ترتيب الحروف على ضربين : مفردٍ ومزدوجٍ ؛ وبين أهل الشرق وأهل الغرب في كل من النوعين خلاف في الترتيب .
أما المفرد فأهل الشرق يرتبونه على هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ
ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ي

وأما أهل الغرب فإنهم يرتبونه على هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض
ع غ ف ق س ش ه و لا ي

وأما المزدوجُ فأهل الشرق يرتبونه على هذا الترتيب :

أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضطغ .

وأهل الغرب يرتبونه على هذا الترتيب :

أبجد ، هوز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ظغش^(١) .

(١) كذا في الأصل والضوء ولعل الصواب ظفض .

على أنه قد اختلف في كلمات أجد هل لها معنى أم لا، وهل يكره تعلمها أم لا،
وأكثر الناس في الشرق والغرب على تعلمها .
وقد جاء أنها كانت تُعلم في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ويشهد لذلك
قول الأعرابي في أبياته :

أَتَيْتُ مَهَاجِرِينَ فَعَلَّمُونِي * ثَلَاثَةَ أَسْطُرٍ مُتَتَابِعَاتٍ
وَخَطُّوا لِي أَبَا جَادٍ وَقَالُوا * تَعَلَّمَ سَعْفَصًا وَفَرَيْشَاتٍ

وقيل : إن أجد، وهوز، وحطى، وكلبن، كانت أسماء ملوك مدين، وإن كلبن
كان في زمن شعيب عليه السلام، وقد تقدم أن الأربعة المذكورة كانت أسماء
واضعي الخط العربي على قولٍ والله أعلم .

الجملة الخامسة

(في كيفية صور الحروف العربية وتداخل أشكالها)

قد تقدم أن الحروف العربية على تسع عشرة صورة : وهي صورة الألف،
وصورة الباء والتاء والياء، وصورة الجيم والحاء والحاء، وصورة الدال والذال، وصورة
الراء والزاي، وصورة السين والشين، وصورة الصاد والضاد، وصورة الطاء والظاء،
وصورة العين والغين، وصورة الفاء والقاف^(١)، وصورة الكاف، وصورة اللام، وصورة
الميم، وصورة النون، وصورة الهاء، وصورة الواو، وصورة اللام ألف، وصورة الياء،
وفرقوا بينها بالنقط كما سيأتي، وقصدوا بذلك تقليل الصور للاختصار لأن ذلك
أخف من أن يجعل لكل حرف صورة فتكثر الصور . ثم ترجع الصور التسع عشرة
صورة^(٢) بعد ذلك إلى خمس صور : وهي الألف والجيم والراء والنون والميم، ففي

(١) لعله وصورة القاف ليم العدد ولاختلاف صورتين في الرسم .

(٢) لعله زائد من النسخ والصواب إسقاطه .

صورة الألف إحدى عشرة صورة ألف قائمة : وهي أ وسبع ألفات مسطوحة :
وهي ب ت ث ، ك ل م ، فكل هذه على صورة الألف غير أن فيها
ما تكرر فيه صورة الألف : وهي الكاف واللام ، وألفان مبطوحتان : وهي ط ظ ؛
وألف معطوفة : وهي لا ؛ وفي الجيم سبع صور جيم مُرَقَّلة : وهي ج ح خ ،
وجيمان محذوفتان وهما د ذ ، وجيمان شاخصتان وهما ع غ ؛ وفي الراء ثلاث
صور وهي ر ز و ؛ وفي النون ست صور وهي ن س ش ض ق ؛
وفي الميم صورتان وهما م ه .

الطرف الخامس

(في تحسين الخط ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في الحث على تحسين الخط)

لاخفاء أن حُسن الخط من أحسن الأوصاف التي يتصف بها الكاتب ، وأنه يرفع
قَدْرَه عند الناس ، ويكون وسيلةً إلى نُجْح مقاصده ، وبلوغ مآربه ، مع ما ينضم إلى
ذلك من الفوائد التي لا تكاد تُحصى كثرة .

وقد قال أمير المؤمنين على كرم الله وجهه : " الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً " .

وقال بعض العلماء : الخط كالروح في الجسد ، فإذا كان الإنسان جسيماً وسيماً
حسن الهيئة ، كان في العيون أعظم ، وفي النفوس أنعم ، وإذا كان على ضد ذلك سَمِيئته
النفوس ، ومجئته القلوب ؛ فكذلك الخط إذا كان حسن الوصف ، مليح الرصف ،

(١) لم يذكر إلا ستة ولعل الساقط الفاء فانها لم تذكر في الصور الالية .

مَفَّحَ العُيُونِ، أَمْلَسَ المُتُونِ، كَثِيرَ الأَثَلَفِ، قَلِيلَ الأَخْتَلَفِ، هَشَّتْ إِلَيْهِ النُّفُوسُ، وَأَشْتَهَتْهُ الأُرُوحُ؛ حَتَّى إِنْ الإنسانَ لِيَقْرُوهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ كَلَامٌ دَنَى، وَمَعْنَى رَدَى، مُسْتَرِيدًا مِنْهُ وَلَوْ كَثُرَ، مِنْ غَيْرِ سَامَةٍ تَلَحُّقُهُ؛ وَإِذَا كَانَ الخَطُّ قَبِيحًا بَجَّتْهُ الأَفْهَامُ، وَلَفْظَتُهُ العُيُونُ والأَفْكَارُ، وَسَمَّ قَارِنَهُ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الحِكْمَةِ عَجَائِبُهَا، وَمِنَ الأَلْفَاظِ غَرَائِبُهَا.

ويقال: إِنْ الخَطُّ مُوَازٍ للقراءة، فَأَجُودَ الخَطُّ أَيْبُهُ، كَمَا أَنَّ أَجُودَ القِرَاءَةِ أَيْبُنُهَا؛ وَلَا يَخْفَى أَنَّ الخَطَّ الحَسَنَ هُوَ البَيِّنُ الرَّائِقُ البَهِيحُ. ثُمَّ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الكَلَامِ عَلَى أَصْلِ وَضَعِ الخَطِّ أَنَّ الخَطَّ وَاللَّفْظَ يَتَقَاسِمَانِ فَضِيلَةَ البَيَانِ، وَيَشْتَرِكَانِ فِيهَا.

قال في "مواد البيان": ولما كان الخط قسماً للفظ في البيان الذي آتته الله تعالى بتعليمه على الإنسان، وجب على الكاتب أن يعنى بأمر الخط، ويراعى من تجويده وتصحيحه، ما يراعيه من تهذيب اللفظ وتنقيحه: ليدل على سرعة وسهولة كما يدل اللفظ البليغ البين: لأن الخط وإن كان على الإطلاق في المنزلة التي لا تساوى من الشرف وإنما تحصل فضائله للجميل منه، كما أن المنطق وإن كان من الشرف في هذا الحد وإنما تحصل فضائله التامة لمنطق البليغ اللسن، دون منطق العبي الألكن؛ وكذلك سائر الصنائع الفاضلة على الإطلاق إنما يحصل فضلها للماهر فيها دون المبتدئ.

قال: فينبغي للكاتب أن لا يقدم على تهذيب خطه وتحويره شيئاً من آدابه فإن جودة الخط أول الأدوات التي ينتظم بحصولها له اسم الكتابة، ويحكم عليه إذا حازها بأنه من أهلها. وقد دخل بحسن الخط في الصناعة من إذا فُحص عن مقدار معرفته وجب أن تُتَرَّه الكتابة عن نسبته إليها.

ويجب مع ذلك أن يراعى تأسيس الخط على الوضع الذي أصطلح عليه المجيدون من الكُتَّاب . فقد قسم أهل الصناعة الخط إلى قسمين : محقق ومُطَّلق .

فأما المحقق فما صحَّت أشكاله وحروفه على اعتبارها مفردة .

قال في "موادّ البيان" : وهذا القسم هو الذي يُستعمل في الأمور الجسيمة : ككُتُب العهود، والإسجلات، والتعليكات التي تبقى على الأعقاب، والمكاتبات الصادرة عن الملوك إلى الملوك، الدالة على قدر المكتوب عنه والمكتوب إليه .
وأما المُطَّلق فهو الذي تداخلت حروفه وأتصل بعضها ببعض .

قال في "موادّ البيان" : وهو خط مولد من المحقق، يستعمل في تنفيذ ما لا يمكن تأخيره من المكاتبات المهمة والأمور العامة . قال : ويجب أن يلزم الطريقة في كل واحد من الخطين، ولا يخلط حروف أحدهما بحروف الآخر .

الجملة الثانية

(في الطريق إلى تحسين الخط، ويتوصل إلى ذلك بأمر)

الأول — معرفة تسكيل الحروف

قال في "موادّ البيان" : وهو الأصل في أدب الخط : لأن الخط إنما يسمّى جيداً إذا حسنت أشكال حروفه، وإنما يسمّى رديئاً إذا قُبِحت أشكال حروفه .
وحسن صور حروف الخط في العين شبيهٌ بحسن مخارج اللفظ العذب في السمع .

قال : والوجه في تصحيح الحروف أن يبدأ أولاً بتقويمها مفردةً مبسوطةً لتصح صورة كل حرف منها على حياها، ثم يؤخذ في تقويمها مجموعةً مركبةً، وأن يبدأ

(١) لم يذكر غيره ولعله آكتفى بما تقدم في الأدوات من حسن البراية والحبر والليقة وغير ذلك فليتنبه .

من المركب بالثنائي والثلاثي، ثم بالرباعي، ثم بالخماسي، فإن هذه هي أمثلة الأسماء والحروف الأصلية، وأن يعتمد في التمثيل على توقيف المهرة في الخطوط، العارفين بأوضاعها ورسومها وأستعمال آلاتها، فإن لكل خط من الخطوط قلما من الأقلام يصلح لذلك الخط، وهذه الأقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التي يصنع الصانع بكل آلة منها جزءا من صناعته لا يصنع به غيره، ولا يعول على كتابة خط من الخطوط بنقل مثاله بنفسه فإن ذلك لا يكفيه، إذ لو كان ذلك كافيا لأستغنى في جميع الصنائع عمن يؤقف عليها. على أن كثيرا من أصحاب الخطوط قد كتبوا طبعاً دون التوقيف من أحد على طريقة من طرق المحررين، إلا أن الأفضل أن يبنى الخط على أصل يكون له أساسا، فإذا فصلت أحواله أنكشف فساد كثير من حروفه.

الطرف السادس

(في قواعد تتعلق بالكتابة،

لا يستغنى الكاتب المحيد عن معرفتها، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في هندسة الحروف، ومعرفة اعتبار صحتها ونحن نذكرها على ترتيب الحروف)

الألف

قال الوزير أبو علي بن مقلة: وهي شكل مركب من خط منتصب، يجب أن يكون مستقيما غير مائل إلى أستلقاء ولا أنجاب. قال: وليست مناسبة لحرف في طول ولا قصر.

قال الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : وهي قاعدة الحروف المفردة ، وبقاى الحروف متفرعة عنها ومنسوبة إليها .

ثم الذى ذكره صاحب " رسائل إخوان الصفا " فى رسالة المرسوق ، عند ذكر حروف المعجم أستطرادا أن مساحتها فى الطول تكون ثمانَ نُقْطَ من نُقْطَ القلم الذى تكتب به ليكون العرض ثُمنَ الطُول .

والذى ذكره الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : أنها مقدرة بست نقط .

والذى ذكره الشيخ زين الدين شعبان الآثارى فى ألفيته أنها مقدرة بسبع نقط ، فما زاد على ذلك كان زائدا عن مقدارها وما نقص كان ناقصا عنه .

قال ابن عبد السلام : وتكون النقطة مربعة . قال : ويكون ابتداءها بنقطة وآخرها بِسْطِيَّة .

قال ابن مقلة : وأعتبرها أن تخط إلى جانبها ثلاث أَلِفَاتٍ أو أربع أَلِفَاتٍ فتجد فضاء ما يلينا متساويا .

قال ابن عبد السلام : وتكون تلك الألفات المخطوطة إلى جانبها مناسبات لها فى الطول متساويات الرؤوس والأذنان .

الباء

قال ابن مقلة : هى شكلٌ مرَّكَّبٌ من خطين : منتصبٍ ومنسطح . قال : ونسبته إلى الألف بالمساواة .

قال ابن عبد السلام : ويكون المنتصب طوله بمقدار ثلث أَلِفِ خَطِّه . قال ويبدأ أوله بنقطة ، وكذلك آخره إن كان مُرْسَلا ، فإن كان معطوفاً فليكن بسنِّ القلم

اليسرى، والمستدير فيه مثل المنتصب، ولكن يكون المنتصب أَرْجَحَ من المستدير
بِزْرِيسِيرٍ، وتكون السَّنةُ المبتدأُ بها مترجحةً في الطول على آخرها المعطوف .
قال ابن مقلة : وأعتبارُ صحَّتِها أن تزيد في أَحَدِ سِنِّيها ألفاً فتصير لاما . وزاد
ابن عبد السلام في إيضاحه فقال : أن تزيد المنتصب تكلمة ألف بحيث يكون طول
جملته كطول المنسطح لا أطول ولا أقصر . ثم قال : وهذا الحرف وما يجرى مجراه
من يَمَنَة إلى يَسْرَة، وكلُّ ما كان كذلك فينبغي أن يمال القلم فيه نحو اليَسْرَة قليلا .
ولا يخفى أن التاء والثاء في معنى الباء في ذلك جميعه .

الجيم

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَّب من خَطَّين : مُنكَّبٌ ونصف دائرة؛ وقُطْرُها
مساوٍ للألف . وأبدل ابن عبد السلام المُنكَّبَ بالْمُنْسطَح . ثم قال : والمنسطح
كُلُّهُ أَلِفٌ من خطه، ووربما يكون أُنْقَصَ بِنُقْطة . قال : ومساحة نصف الدائرة
كألفٍ ونصف ألفٍ من قلم الكتابة، ورأسها يكونُ من يَسْرَة إلى يَمَنَة على أَسْتقامَة
تقريباً، وكلُّ ما كان كذلك ينبغي أن يمال برأس القلم فيه إلى اليَمَنَة قليلا، يُبدأُ أوله
بِشَطِيَّةٍ بالسَّنِ اليمنى من القلم، وآخرُ تَعْرِيجِها بالسَّنِ اليسرى منه .
قال ابن مقلة : وأعتبارُ صحَّتِها أن تُحَطَّ عن يمينها وشمالها خَطَّين فلا تتقص عنهما
شيئا يسيرا ولا تخرج .

وقال ابن عبد السلام : وأعتبارُ صحَّةِ رأسها أن تكتبه من يَسْرَة إلى يَمَنَة على
أَسْتقامَة تقريباً . قال : وحسنُها أن تُخَفِّضها من الجهة اليمنى قليلا؛ وميزانُها أن تُسَطَّرَ
سطرا وتأخذ عليه من يَسْرَة إلى يَمَنَة مقدارُ ثلثي ألفٍ من قلم الكتابة، بحيث لا يرتفع

أولها عن آخرها إلا يسيرا، ولا آخرها عن أولها بل تكون منسبكة فيه . وأعتبر
نصف الدائرة أن تقابله بنصف آخر فيصير دائرة . ثم قال : وليقصد أن يجعل رأس
الجيم سـ واءً أخذاً ابتداءً الدائرة في جسد ثلث الرأس، منسبكا فيه ، بحيث يكون
الثلث ضلعاً واحداً .

ولا يخفى أن الحاء والحاء في معنى الجيم في جميع ما تقدم .

الذال

قال ابن مقلة : هي شكْل مرَّكَب من خطين : منكبٌّ ومنسطح ، مجموعهما مساوٍ
للألف . وجعل ابن عبد السلام منها شكلاً آخر مرَّكَبًا من ثلاثة خطوط : منكبٌّ ،
ومنسطح ، ومستدير . وكأنه يريد الذال المجموعة . ثم قال : فالمنكب طولُه بمقدار
نصف ألفِ خطِّه لا غيرُ ، وكذلك المنسطح . وأبتداءً أولها بنقطة ، وآخرها إن كان
مرسلاً بنقطة ، وإن كان معطوفاً بسنِّ القلم اليسرى .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن تصل طرفيها بخطِّ فتجده مثلثاً متساوي الأضلاع .
ولا يخفى أن الذال في معنى ما تقدم .

الراء

قال ابن مقلة : وهي شكْل مرَّكَب من خطِّ مقوَّس هو ربع الدائرة التي قُطَّرها
الألف وفي رأسه سنَّة مقدرة في الفكر .

قال ابن عبد السلام : وتبدأ أولها بنقطة ، وآخرها إن كان مرسلاً فبسنِّ القلم
اليمنى ، وإن كان معطوفاً فبسنِّه اليسرى .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن تصلها بمثلها فتصير نصف دائرة .
ولا يخفى أن الزاى فى معناها .

السين

قال ابن مقلة : وهو شكل مركب من خمسة خطوط : منتصب ، ومقوس ،
ومتصّب ، ومقوس ، ثم مقوس .

قال ابن عبد السلام : ومساحة رأس السين من أول سنّ منها إلى ثالث سنّ كلّفى
ألف خطّه . قال : ومساحة قوسها إن كان معطوفاً مساحة ألف من خطه ، وإن
كان مرسلًا مساحة ألفين من خطه . وطول كل سنّة مثل سدس ألف خطه ،
يبدأ أولها بنقطة ، أما آخرها فإن كان مرسلًا فبسنّ القلم اليمنى ، وإن كان معطوفاً
فبسنّ اليسرى . قال : وإذا ابتدأت بالسنّة وطلعت إلى الثانية فخذ إلى الثالثة
من أعلاها ليصير بياض من أسفلها ، فإنك متى أخذت رأس سنّة من أسفلها صار
أسفلها مصطحبًا ، ويكون البياض الذى بين السنات على السوية فى البياض .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها يعنى صحة رأسها أن تُمَرَّ بأعلاها وأسفلها خطين
فلا تخرج عنهما شيئًا ولا تنقص .

ولا يخفى أن حكم الشين أيضا كذلك .

الصاد

قال ابن مقلة : هى شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوس ، ومنسطح ، ومقوس .

قال ابن عبد السلام : وأبتدأوه بِسَطِيَّةٍ ، أما آتتاؤه فإن كان مرسلا فبسنّ القلم
اليمنى ، وإن كان معطوفاً فبسنه اليسرى . قال : ومساحة رأس الصاد في الطول
كُثْمَى أَلْفِ خطه ، ومساحة قوسها إن كان معطوفاً مساحة أَلْفِ الكتابة ؛ وإن كان
مرسلا فمساحة ألفين من قلم خطه .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن يجعلها مُرَبَّعة فتصير متساوية الزوايا في المقدار .
وقال ابن عبد السلام : أعتبر صحتها أن يكون أعلاها كراء معلقة ، والمنسطح
كباء ، والمقوس كنون ، ويكون رأس النون مُشْرِفاً على آخرها .
ولا يخفى أن الضاد كذلك .

الطاء

قال ابن عبد السلام : هو شكل مُرَكَّب من ثلاثة خطوط : منتصب ، ومقوس ،
ومنسطح ، يبدأ أوله بنقطة وآخره بنقطة . قال : ومساحة ضوء الطاء في الطول كُثْمَى
أَلْفِ خطه .

قال ابن مقلة : وأعتبرها كأعتبر (١) .

وقال ابن عبد السلام : أعتبر صحتها أن يكون المنتصب كألف من خطه
في الأتصاب والطول ، والمقوس كراء معلقة ، والمنسطح كباء مرسله .

ولا يخفى أن حكم الطاء في ذلك كالطاء .

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة .

العين

قال ابن مقلة : وهى شكلٌ مرَّكَّبٌ من خطين : مقوِّسٍ ومنسطحٍ أحدهما نصف الدائرة .

وقال ابن عبدالسلام : هى شكل مرَّكَّبٌ من ثلاثة خطوط : مقوِّسٍ ، ومنكبٍ ،^(١) يبدأ أوَّلاً بِشِطِّيةٍ ، وآخرٍ تعريجها بسنِّ القلم اليسرى ، والتعريجة نصف دائرة ، ومساحة القوس كالفِ وثلاث من قلم الكتابة ، ومساحة الرأس فى الطول ككُلِّى ألف خطه ، ويصوَّر من رأسها رأس صاد .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها كأعتبر الجيم .

وقال ابن عبدالسلام : أعتبرها أن تخط عن يمينها خطأ من أعلاها إلى منتهى تعريجها فلا يقصر ظهر القوس عن يسارها يسيرا بنقطة تكون سدس ألف خطها لاغير .

ولا يخفى أن العين فى الحكم كذلك .

الفاء

قال ابن مقلة : هى شكلٌ مرَّكَّبٌ من أربعة خطوط : منكبٍ ، ومستلقٍ ، ومنتصبٍ ، ومنسطحٍ .

قال ابن عبد السلام : تبدأ أوَّله بنقطة وتأخذه على سطر إلى جهة اليسار ، ثم تأخذ المستلقى إلى أن تنتهى إلى قُبالة المنسطح بحيث يصير كالبدال المقلوبة ، ثم

(١) لعله مقوِّسين . وفى الأصل تضييب إشارة إلى التوقف .

تأخذ من حيث أتمتت إلى أن تَلصق بالمنسطح فيبقى مثلثا متساوي الأضلاع،
مساحة ضوئه نقطة بمقدار سدس ألف خطه، ثم إن كان معطوفا ختمته بسن القلم،
وإن كان مرسلا فبقطته .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحته أن تصل بالخط الثاني منها خطا فيصير مثلثا
قائم الزاوية .

القاف

قال ابن مقلة : هو شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط : منكبٌ ، ومستلقٍ ، ومقوس .
قال ابن عبد السلام : هو مركب من أربعة خطوط ، رأسها كراس الفاء سواء
بجميع ما تقدم ، وإرسالها كالنون على ماسياتي ذكره ، فإن كان آخرها معطوفا فبسن القلم
اليسرى ، وإن كان مرسلا فبسنة اليمنى . قال : ومساحة ضوء القوس من أوله
إلى آخره إن كان معطوفا كألف قلم الكتابة ، وإن كان مرسلا فكألفين .
قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها كأعتبر النون ، وسيأتي ذكره .

الكاف

قال ابن مقلة : شكل مرَّكَّب من أربعة خطوط : منكبٌ ، ومنسطحٌ ، ومتصَّبٌ ،
ومنسطحٌ .
وقال ابن عبد السلام : وهو مرَّكَّب من أربعة خطوط ، مستأني ، ومنسطحٌ ،
طوله مقدار ألف وثلاث ألف من قلم الكتابة ، ومنكبٌ طوله مقدار ثلث ألف

من خطه ، ومنسطح ، طوله مقدار ألفين من خطه ، يفصل منتهى المنسطح ما بين المنسطحين .

قال : ولك أن تزيد الأسفل عن رأس الكاف بمقدار ثلث ألف الكتابة بسبب ما يتصل به ، فيصير فضاء ما بين ما اتصل بآخرها إلى رأس الكاف مثل الفضاء الذي بين المنسطحين .

قال : ولا يجوز أن تكتب مختلصة إذا لم يتصل آخرها بحرف ، بل إذا كانت آخر كلمة تكتب متصلة قائمة لا غير ، وتكتب إذا كانت متصلة كاللام على ما سيأتي بيانه .

قال : وتبدأ أولها بشطية فإذا انتهت إلى اتصال رأسها بالمنسطح تشير بتدويرها دون تحديدها .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن يفصل منها ياءان . قال ابن عبد السلام : يعني مستقيمة ومقلوبة .

اللام

قال ابن مقلة : هي شكل مركب من خطين : متصب ، ومنسطح .

قال ابن عبد السلام : فالمنسطح ألف والمتصب ياء ، فإن كان معطوفا فيسن القلم اليسرى ، وإن كان مرسلا فبقطه .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن تخرج من أولها إلى آخرها خطا يماس الطرفين فيصير مثلثا قائم الزاوية .

قال : وتكتب على الأنواع الثلاثة التي تكتب عليها الباء .

الميم

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَب من أربعة خطوط : مُنَكَّبٌ ، ومَسْتَلَقٌ ، ومنسَطِحٌ ، ومُقَوَّسٌ .

وقال ابن عبد السلام : مرَّكَب من أربعة خطوط : منكبٌ ، ومقوَّسٌ ، ومستلقٌ بتقويس ، ومقوَّس كالراء يكون ربع دائرة ؛ فإن كان آخرها متصبا فهو في الوضع والطول مثل ألفٍ من خطه غير مائل إلى استلقاء ولا أنجاب ، تبدأ أول الميم بشطيةٍ وآخرها بشطيةٍ .

قال : ومساحة ضوئها مثل سدس ألفٍ خطها ؛ وهو مستطيلٌ مستدير كالبيضة منتصب إلى جهة اليمين .

قال ابن مقلة : وأعتبرها كأعتبر الهاء ، وسيأتي .

النون

قال ابن مقلة : هو شكل مرَّكَب من خطِّ مقوَّس ، هو نصف الدائرة ؛ وفيه سِنة مقدرة في الفكر .

قال ابن عبد السلام : يبدأ أوله بنقطة ، وآخره إن كان معطوفاً فبسنِّ القلم اليسرى ومساحة ضوئه ألف من قلم خطه ، وإن كان مُرْسَلاً فبسنِّ القلم اليميني ، ومساحة ضوئه ألفان من قلم خطه .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن يُوصَل بها مثلها فتكون دائرةً .

الهاء

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط ، منكَبٌّ ، ومتصِبٌّ ، ومقوَّس .

وقال ابن عبد السلام : من ثلاثة خطوط ، منكَبٌّ ، ومنسطح بترطيب ، ومستقلٌّ ؛ تبدأ أولها بنقطة وآخرها إرساله بسنِّ القلم اليميني ؛ طول المنكَبِّ كطول نصف ألف من خطه ، وطول المنسطح كثلث ألف من خطه ، وطول المستقلِّ كنصف ألف قلم خطه .

قال ابن مقلة : وأعتبر صحتها أن تجعلها مربعة فتساوى الزاويتان العُلياوان كتساوى الزاويتين السُّفلاويين .

وقال ابن عبد السلام : أعتبر صحتها أن تجعل رَدَّتْها في ثلثيها ، فإذا كل وضعها فأجعلها مربعة فتساوى الزاويتان العاليتان والزاويتان السافلتان .

الواو

قال ابن مقلة : هي شكل مرَّكَّب من ثلاثة خطوط : مستلقٍ ، ومنكَبٌّ ، ومقوَّس .

وقال ابن عبد السلام : هي مركَّبة من أربعة خطوط ، رأسها كراس الفاء ، وتقوييسها كالراء ، وهو ربع دائرة ؛ تبدأ أولها بنقطة ، وآخرها إن كان معطوفاً فيسنِّ القلم اليسرى ، وإن كان مرسلًا فيسنِّه اليميني .

اللام ألف

قال ابن عبد السلام : هي شكل مرَّكَب من ثلاثة خطوط : منكبٌّ ، ومنسطح مستقيم ، ومستلق ؛ طول المنكبِّ كطول ألف من قلم الكتابة ، وطول المنسطح كثنائي ألف الكتابة ، وطول المستلق كطول ألف الكتابة ؛ تبدأ أوَّل المنكبِّ بنقطة ، وكذلك المستلق .

قال : وأعتبرار صحتها أن يكون ثلثها من أسفلها والثلثان من أعلاها ، وأن تحط من رأس اللام إلى رأس الألف خطا مستقيما ، وأن تحط من أعلاها إلى أسفلها خطا فلا يقصر عنها ولا يخرج .

قال : ومنها نوع آخر مرَّكَب من ثلاثة خطوط : منكبٌّ ، ومستدير يقارب ألفا ، ومستلق يقابل طرفه طرف المنكبِّ .

الياء

قال ابن مقلة : شكل مرَّكَب من ثلاثة خطوط ، مستلقٍ ، ومنكبٌّ ، ومقوَّس . قال ابن عبد السلام : وهي كالنون ؛ وتبدأ أولها بشِظِيَّة رأسها كدال مقلوبة ، طول المستلق منها كنصف ألف من خطه ، وكذلك المنكبُّ على ما تقدم في الدال . قال : والمقوَّس إن كان معطوفا فمساحته كألف من خطه وآخره بسنِّ القلم اليسرى وإن كان مرَّسلا فمساحته كألفين من خطه وآخره بسنِّ القلم اليميني .

قال : ومنها نوع كرأس الكاف المستلق والمنسطح سواء .

قال ابن مقلة : وأعتبرارها كأعتبرار الواو .

الجملة الثانية

(في معرفة ما يقع به ابتداء الحروف وأتھاؤها : من نُقْطَة أو شَطِيَّة أو غير ذلك)
أما الأبتداء فعلى ثلاثة أضرب .

الضرب الأوّل

(ما يتبدأ بنقطة ، وهو تسع صور ^(١))

صورة الباء وأختها ، وصورة الدال وأختها ، وصورة السين وأختها ، وصورة اللام ، وصورة النون ، وصورة العين وأختها . وقد جمعها السمرريُّ في أرجوزته في أوائل كلمات بيت واحد ، وهو قوله :

إِذَا بَدَتْ دَعْدُ رَقًا سَنَاهَا * لِعَاشِقٍ نَاحَ عَلَى هَوَاهَا

على أن الشيخ شرف الدين بن عبد السلام قد وهم فعدّ منها الفاء ، وليس كذلك بل هي مما يتبدأ بجملة ^(٢) على ماسياتي ذكره .

الضرب الثاني

(ما يتبدأ بشطية ، وهو صور خمسة أحرف)

الحاء ، والطاء ، والياء ، والصاد ، والكاف

وقد جمعها السمرريُّ في قوله : ”خطي يصك“ .

وجعل ابن عبد السلام الخمسة

الغين ، والطاء ، والحاء ، والكاف ، والصاد

(١) لم يصل العدد إلى التسع لعله سبع وسقطت صورة الراء وأختها كما يظهر بالتأمل في بقية الأضرب .

(٢) لعله بجملة .

وجمعها في قوله : "غَطَّ خَصَّكَ" وألحق بها أشباهها .

الضرب الثالث

(ما يتبدأ بحلقة ^(١) . وهو صور أربعة احرف)

القاف ، والمميم ، والواو ، والفاء

وقد جمعها السمرى في قوله : "قُمْ وَفَّ" .

وأما الأختتام فعلى ثلاثة أضرب أيضا :

الضرب الأول

(ما يختتم بقطة القلم . وهو صور ستة أحرف)

الطاء ، والفاء ، والباء ، واللام ، والذال ، والكاف

وجمعها ابن عبد السلام في قوله : "دَبَّ طِفْلُكَ" ولا يخفى أن أخواتها في معناها .

الضرب الثاني

(ما يختتم بشطية ؛ وهو صورة واحدة)

وهي الألف

الضرب الثالث

(ما يرسل في ختمه إرسالا ، وهو صورة أحد عشر حرفا ، وهي)

السين ، والراء ، والحاء ، والميم ، والنون ، والياء ،

والعين ، والقاف ، والصاد ، والواو ، والهاء .

يجمعها قولك "سرح منيع وقصه".

الطرف السابع

(في مقدمات تتعلق بأوضاع الخط وقوانين الكتابة؛ وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في كيفية إمساك القلم عند الكتابة، ووضعه على الورق)

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله: يجب أن تكون أطراف الأصابع الثلاث: الوسطى والسبابة والإبهام على القلم، وإلى ذلك يشير أبو تمام الطائي بقوله:

وسدت * ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل *

أما قول القائل في وصف القلم أيضا:

وذي عفافٍ راكعٍ ساجد * أخو صلاحٍ دمه جارٍ
ملازم الخمس لأوقاتها * مجتهداً في طاعة الباري

يريد بالخمس الأصابع الخمس، فإنه على سبيل المجاز، من باب مجاز المجاورة.

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف: وتكون الأصابع مبسوطة غير مقبوضة، لأن بسط الأصابع يتمكن الكاتب معه من إدارة القلم، ولا يتكى على القلم الأتكاء الشديد المضعف له، ولا يمسكه الإمساك الضعيف فيضعف اقتداره في الخط، لكن يجعل اعتاده في ذلك معتدلاً.

وقال حنون: إذا أراد الكاتب أن يكتب فإنه يأخذ القلم فيتكى على الخنصر، ويعتمد بسائر أصابعه على القلم، ويعتمد بالوسطى على البنصر، ويرفع السبابة على القلم، ويعمل الإبهام في دورانه وتحريكه.

قال ابن مقلة: ويكون إمساك القلم فَوْيُقِ الفتححة بمقدار عَرْضِ شعيرتين أو ثلاثٍ؛
وتكون أطراف الأصابع متساويةً حولَ القلم لانتفضُل إحداهن على الأخرى .

قال صاحب "الحلية": وتكون الأصابع على القلم منبسطة غير متقبضة ليمكن
من إدارة القلم، ولا يدار حالة الاستمداد .

قال ابن العفيف: وعلى حسب تمكن الكاتب من إدارة قلمه وسرعة يده
في الدوران يكون صفاء جوهر حروفه .

الجملة الثانية

(في كيفية الاستمداد، ووضع القلم على الدرَج)

أما الاستمداد فهو أصل عظيم من أصول الكتابة . وقد قال المقر العلاءي بن
فضل الله: من لم يُحسِّن الاستمدادَ وبرى القلم فليس من الكتابة في شيء .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف: وإذا مدَّ الكاتب فليكن القلم بين أصابعه
على صورة إمساكه له حين الكتابة، ولا يديره للاستمداد: لأن أحسن المذاهب فيه
أن يكون من يد الكاتب على صورة وضعه في الكتاب، ويحرك رأس القلم من باطن
يده إلى خارجها فإنه يمكن معه مقام القلم على نصبتيه من الأصابع، ومتى عدل عن
هذا لحقته المشقة في نقل نصبة الأصابع في كل مدة .

قال: وهذا من أكبر ما يحتاج إليه الكاتب، لأن هذا هو الذي عليه مدار
جودة الخط .

ثم قال: وقبلما يُدرِك علم هذا الفصل إلا العالم الحاذق بهندسة الخط، مع ما يكون
معه من الأناة وحسن التأدية .

ومن كلام المقر العلاءي بن فضل الله : ينبغي للكاتب أن لا يُكثر الاستمداد بل يمدّ مدّاً معتدلاً، ولا يحرك اللقمة من مكانها، ولا يعثر بالقلم فإن ذلك عيب عند الكُتّاب، ولا يردّ القلم إلى اللقمة حتى يستوعب ما فيه من المداد، ولا يُدخل منه الدواة كثيراً، بل إلى حدّ شقّه، ولا يجاوز ذلك إلى آخر الفتحة : ليأمن تسويد أنامله ، وليس ذلك من خصال الكُتّاب .

وأما وضع القلم على الدرّج فقال أبو علي بن مقلة : ويجب أن يكون أزلّ . أي وضع على الدرّج موضع القطعة منكباً .

الجملة الثالثة

(في وضع القلم على الأذن حال الكتابة عند التفكير)

قال محمد بن عمر المدائني : يُستحبُّ للكاتب في كتابته إذا فكر في حاجة أن يضع القلم على أذنه ، وساق بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه أن معاوية بن أبي سفيان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا رأى من النبي صلى الله عليه وسلم أعراضاً وضع القلم في فيه ، فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ” يا معاوية إذا كنت كاتباً فضع القلم على أذنك فإنه أذكرك وللمملي ” .

وساق بسنده أيضاً إلى زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إليه وهو يكتب في حوائجه فقال له : ” ضع القلم على أذنك فإنه أذكرك ” . وأخرج أيضاً من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لكتابه ” ضع القلم على أذنك يكن أذكرك ” .

وفي رواية عن أنس : ” كان معاوية كاتباً للنبي فرآه يوماً قد وضع القلم على الأرض فقال : يا معاوية إذا كتبت كتاباً فضع القلم على أذنك ” .

وأخرج أيضا "أن كعبا كان يتحدث عند عائشة، فذكر إسرائيل فقال : له جناح بالمشرق وجناح بالمغرب وجناح مسربل به والقلم على أذنه فإذا نزل الوحي جرى القلم ودرست الملائكة . فقالت عائشة : هكذا سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ."

الطرف الثامن (١)

(في ذكر قوانين يعتمدها الكاتب في الخط، وفيه ست جمل)

الجملة الأولى

(في كيفية حركة اليد بالقلم في الكتابة، وما يجب أن يراعى في كل حرف)

قال السمرري وأبن عبد السلام وغيرهما : كل خط منتصب ينبغي أن يكون الاعتماد فيه من القلم على سنيته معاً، وكل خط من يمينه إلى يسره ينبغي أن يمال القلم فيه نحو اليسرة قليلا، وكل خط من يسره إلى يمينه ينبغي أن يمال رأس القلم فيه إلى اليمين قليلا، وكل شظية ينبغي أن تكون بالسن اليمنى من القلم، وكل نقطة ينبغي أن تكون بسن القلم، وكل تعير كما في النون وتعريقة الصاد يجب أن تكون بالسن الأيمن وكل إرساله يجب أن تكون بسن القلم اليمنى، وكل تعريح كما في عمارة الحيم والعين يجب أن يكون بسن القلم اليسرى، وكل ما أخذ فيه من يمينه إلى يسره كاللام ونحوها ينبغي أن يمال فيه رأس القلم إلى اليسرة قليلا، وكل ما أخذ فيه من يسره إلى اليمين كراس الحيم ينبغي أن يمال رأس القلم فيه إلى اليمين قليلا، وكل خط منتصب فيجب أن يكون آتماؤه إرساله، وطول كل سنة من السين ونحوها مثل سدس ألف خطها، وقيل مثل سبعة، وكل شظية في أول أو آخر مثل سبع ألف خطها .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : وللسن الأيمن من القلم الألف واللام ورفعة الطاء والنون والباء والكاف إذا كانت قائمة مبتدأة، وأواخر التعريقات والمدات

(١) تقدم أن الأطراف سبعة فهذا زائد عليها .

وطبقة الصاد والضاد، ومدة السين والشين، وللايسر الجيم وأختاها والزّادات وتدوير رءوس الفاءات والقافات والهاءات والواوات والكافات المشقوقة .

قال : وكل ردة من اليسار إلى اليمين تكون بصدر القلم .

قال : ويجب أن تكون المطات الطويلة بسنّ القلم اليمنى مشظاة مماله، فتكون المطّة من رأس شظيئها، وأن تكتب المدات القصيرة بحرف القلم، وإذا ابتدأ بالمدّة وجب أن يُدار القلم على سنّه مثل مطّة الطاء، وإذا وصلت المطّة بحرفٍ مثلها كتبت بوجه القلم مثل مطّة الفاء المفردة . ثم قال : وهذا من أعظم أسرار الكتابة .

الجملة الثانية

(في تناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم)

قال صاحب "رسائل إخوان الصفا" : في رسالة الموسيقى منه : ينبغي لمن يرغب أن يكون خطّه جيّدا وما يكتبه صحيح التناسب، أن يجعل لذلك أصلا يبنى عليه حروفه : ليكون ذلك قانونا له يرجع إليه في حروفه، لا يتجاوزه ولا يقصر دونه .

قال : ومثال ذلك في الخطّ العربى أن تخط ألفا بأى قلم شئت، وتجعل غلظه الذى هو عرضُه مناسبا لطوله وهو الثمن : ليكون الطول مثل العرض ثمان مرّات . ثم تجعل البركار على وسط الألف وتدير دائرة تحيط بالألف لا يخرج دورها عن طرفه، فإن هذا الطريق والمسلك يوصلان إلى معرفة مقادير الحروف على النسبة، ولا تحتاج في مقاييسك ما تقصده إلى شيء يخرج عن الألف وعن الدائرة التي تحيط به .

فالباء وأخواتها : كل واحدة منها يجب أن يكون تسطيحها إذا أضيفت إليه سنّها مساويا لطول الألف، فإن زاد سمج وإن قصر قبح، ومقدار ارتفاع سنّها وجميع

السنن التي في السين والشين ونحوها لا يتجاوز مقدار ثمن الألف . والجيم وأخواتها مقدار مدتها في الابتداء لا يقصر عن نصف طول الألف .

وكذلك يجرى الأمر في العين، والغين، والسين، والشين، والصاد، والضاد، والراء والزاي : كل واحدة منها مثل ربع محيط الدائرة؛ والدال، والذال كل واحدة منهما يجب أن يكون مقدارها إذا أزيل الأثناء الذي فيها وأعيدت إلى النسطيح لا يتجاوز طول الألف ولا يقصر دونه .

والسين، والشين : كل واحدة منهما يجب أن تكون سننها إلى فوق مثل مقدار ثمن الألف، وفي العرض بمقدار نصفها، وفي التعريق مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف . والصاد، والضاد : مقدار عرض كل منهما في مداها مثل مقدار نصف الألف وفتحة البياض فيها مقدار ثمن الألف أو سدسها، وتعريقها إلى أسفل مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف .

والطاء، والظاء : كل واحدة منهما في ناحية يجب أن يكون مقداره مثل مقدار جميع طول الألف وعرضه مثل نصف الألف . والعين، والغين كل واحد منهما مقدار تقويسه في العرض مثل نصف الألف أو مثل الألف إذا أعيدت إلى النسطيح وأزيل تنبيهه، وتقويسه من أسفل مثل نصف محيط الدائرة .

والفاء : يجب أن يكون تسطيحه إلى قدام بعد الطالع منه من فوق مثل طول الألف .

وحلقته وحلقة الواو والميم كلها إلى فوق مثل سدس الألف، وإلى أسفل في الميم . والواو : مثل الراء . والقاف تقويسها من فوق ينبغي أن يكون مثل سدس طول

الالف، وتعريقها مثل مقدار نصف الدائرة .

والكاف : ينبغى أن يكون الأعلى منها طول الألف ، وفتحة الياء التي داخله مثل سدس طول الألف ؛ وتسطيحه من أسفل مثل أعلاه وكسرتة إلى فوق مثل نصف طول الألف .

واللام : يجب أن يكون مقدار طول قائمتها مثل الألف ، ومدتها إلى قدام مثل مقدار نصف الألف .

والنون : يجب أن يكون مقداره مثل نصف محيط الدائرة .

والياء : ينبغى أن يكون مبدؤه دالا مقلوبة لا تتجاوز مقدار طول الألف ، وتعريفها إلى أسفل مثل نصف محيط الدائرة .

ثم قال : وهذه المقادير وكيفية نسبة بعضها إلى بعض هو ما توجه قوانين الهندسة والنسبة الفاضلة ، إلا أن ما يتعارفه الناس ويستعمله الكتاب على غير ذلك .

وقد أشار الشيخ عماد الدين بن العفيف إلى ضوابط في ذلك على ما تقتضيه أوضاع الكتاب يجب الوقوف عندها فقال : وأعلم أن مقادير الحروف متناسبة في كل خط من الخطوط .

وأعلم أن صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثاري في ألفيته قد جعل طول الألف سبع نقط من كل قلم ، ومقتضاه أن يكون العرض سبع الطول .

ثم قال : إن ما زاد عن ذلك فهو زائد في الطول ، وما كان ناقصا عن ذلك فهو ناقص ، وعلى ذلك تختلف المقادير المقدرة بالألف من الحروف بنقص قدر الثمن من الطول .

فالألف واللام قدر سواء في كل خط ، وكذلك الباء وأختها ، والجيم وأختها ، والعين والغين قدر سواء ، والنون ، والصاد ، والضاد ، والسين ، والشين ، والقاف ، والياء المعرّقة قدر سواء ، والراء ، والزاي ، والميم ، والواو قدر سواء .

قال : وكل عرابة بدأت بها في كل خط ما فعلى مثلها يكون انتهاؤها .

ثم قال : فتفهم هذا القدر فإنه كثيرا ما يختلط على الكُتَّاب الحُذَّاق .

وقد ذكر الشيخ شرف الدين بن عبد السلام من ذلك أضربا :

أحدها - ما هو متناسب الطول، وهو خمس صور : صورة الألف، وصورة اللام، وصورة القاف، وصورة التاء، وصورة الكاف ويجمعها قولك "الفتك" وفرع عليها أربع صور يجمعها قولك "بث مى" .

الثاني - ما يجوز مدّه من أول السطر إلى آخره وقصره ما شاء، ما لم يقصر عن طول الألف، وهي الباء، والكاف، واللام، ويجمعها قولك "بكل" ويتفرع عليها أخواتها .

الثالث - ما هو متناسب في المقدار، وهو ثلاث صور : يجمعها قولك "دليل" .
والمنكب من الدال والمستلقي منها والمنسطح والمستلقي منها والمنكب من الياء بمقدار نصف ألف خطّه .

الرابع - ما هو متناسب المساحة في حال العطف والإرسال : وهي القاف، والسين، والباء، والياء، والضاد، ويجمعها قولك "قبس يرض" وكل أخت تُلحَق بأختها .

الخامس - ما هو متناسب في الإرسال وهو الميم، والواو، والزاي، ويجمعها قولك "موز" .

السادس - ما هو متناسب في الضوء والإرسال، وهو ست صور : هي الفاء، والقاف، والهاء، والميم، والواو، واللام، ويجمعها قولك "فقه مولا" .

السابع - ماهو متناسبٌ ضوء الباطن ، وهو ثلاث صور : الصاد ، والطاء ،
والعين وأخواتها .

الثامن - ماهو متناسب الرئوس ، وهو ثلاث : الصاد، والعين ، والطاء ؛
ويجمعها قولك ”صعط“ ويلحق بها أخواتها .

التاسع - ماهو متناسبٌ في التعرّيج ، وهو العين ، والجيم ، ويجمعهما قولك ”عج“ .

الجملة الثالثة

(فيما يجب أعماده لكل ناحية من نواحي القلم)

قد تقدّم في الكلام على برآية القلم أن للقلم سناً أيمنَ وسناً أيسرَ، وعرضاً،
ووجهاً، وصدراً؛ وأنه يتعيّن على الكاتب معرفة كل واحد منها : يُعطى كل واحدٍ
منها حقّه في الموضع الذي يقتضيه الحال . وقد ذكر السمرريُّ في أرجوزته جُملاً كلية
إذا عرفها الكاتب سهل عليه ما يرومه من ذلك فقال :

”إن كل خط منتصب الشّكل كالألف ونحوه يجب في كتابته الاعتماد على سنّي
القلم جميعاً، وكلّ خطّ أخذ من اليمين إلى اليسار يجب إمالة القلم فيه إلى اليسار شيئاً
يسيراً، وكلّ خطّ أخذ من اليسار إلى اليمين يجب إمالة القلم فيه إلى اليمين شيئاً يسيراً،
وكل نقطة يعتمد فيها بسنّيه جميعاً، وكل شظية فإنها تُختلسُ بسنّه اليمنى اختلاسا،
وكل إرسالٍ تعقيب كما في الجيم والعين يُعتمدُ فيها على السن الأيسر، وكلّ تّعير كما
في النون يكتب بالسنّ اليمنى“ .

وأفصح عن ذلك الشيخ عماد الدين بن العفيف فقال :

إن لِسْنِ الأيمنِ الألفَ واللامَ، ورفعَ الطاءَ، والنونَ، والباءَ، والكافَ إذا كانت
قائمة مبتدأة، وأواخرَ التعريقات والمدّات، وطَبقة خِطة الصاد والضاد المستفلة،

وبدء السين والشين . وللسن الأيسر الجيم وأختيها ، والرذات ، وتدوير رؤوس الفاءات والهاءات والواوات والكافات المشقوقة^(١) . ثم قال : وكل ردة من اليسار إلى اليمين تكون بصدر القلم .

الجملة الرابعة

(في الترويس)

والذى يدخله الترويس في الجملة الألف ، والباء ، والجيم ، والدال ، والراء ، والطاء ، والكاف ، واللام المجموعة ، ويختلف الحال في ترويسها وعدمه باختلاف الأقلام .
فمنها ما يرؤس حتما ، ومنها ما يمتنع فيه الترويس ، ومنها ما الكاتب فيه بالخيار بين الترويس وعدمه ، وربما رؤس بعض الحروف في بعض الأقلام ولم يرؤس في بعضها . ثم قد ذكر أهل الصناعة أن ترويس الألف كسببه . وذهب ياقوت إلى الزيادة على ذلك ؛ وترويس الباء وأختيها بقدر نُقْطَتَيْن ؛ وترويس الجيم بقدر نصف نصبها ؛ وترويس الصاد والطاء كالسين ؛ وترويس الفاء والقاف كالباء . وسيأتى الكلام على ترويس كل حرف منها في قلمه إن شاء الله تعالى .

الجملة الخامسة

(فيما يُطمس من الحروف ويفتح)

وهي المعبر عنها بالعتد ، وهي صورة الصاد ، والطاء ، والعين ، والفاء ، والقاف ، والميم والهاء ، والواو ، واللام ألف المخففة ، ويختلف الحال فيها :

(١) لعله المشكولة كما يستفاد من التعريف عن أشكال الحروف الآتى .

فنها ما لا يُطَمَس بحال، وهى الصاد وأختها، والطاء وأختها، والعين المفردة والمبتدأة وأختها .

ومنها ما يطمس فى بعض الأقلام دون بعض وهى : العين المتوسطة، والعين الأخيرة ؛ وكذلك العين، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف .
وسياتى الكلام على ما يُطَمَس ويفتح من ذلك فى كل قلم عند ذكره .
ثم الطمس فيما يُطَمَس منها على سبيل الجواز لاعلى سبيل اللزوم .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والرجوع فى ذلك إلى قانون مضبوط، وهو أنه كلما غلظت الأقلام كان الطمس فيها على خلاف الأصل، وكلما رقت كان الفتح فيها على خلاف الأصل، وذلك أننا عدلنا عن الفتح إلى الطمس لأجل التلطيف .

الجملة السادسة

(فى ذكر الأقلام المستعملة فى ديوان الإنشاء فى زماننا)

وسياتى فى المقالة الثالثة فى الكلام على ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق من الأقلام : أن المقر الشهابى بن فضل الله ذكر فى ذلك خمسة أقلام، وهى : مختصر الطومار، والثُّلث، وخفيف الثُّلث، والتوقيع، والرقاع . مختصر الطومار لقطع البغدادى الكامل، والثُّلث لقطع الثلثين، وخفيف الثلث لقطع النصف، والتوقيع لقطع الثلث، والرقاع لقطع العادة .

ويلتحق بالخمسة التى ذكرها ثلاثة أقلام أخر، وهى : الطومار الكامل، والمحقق، والغبار .

فالطومار : يكتب به السلطان علاماته على المكاتب والولايات ومناشير الاقطاع .

والمحقق : أَسْتَحْدِثْتُ كِتَابَهُ فِي طُغْرَاوَاتٍ كُتِبَ الْقَانَاتُ عَلَى مَا سَيَأْتِي بَيَانَهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَالغُبَارُ : يُكْتَبُ بِهِ بِطَائِقُ الْحَمَامِ وَالْمَطَّافَاتُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا .

وَحِينَئِذٍ فَيَكُونُ الْمُسْتَعْمَلُ بِدِيَوَانِ الْإِنْشَاءِ فِي الْجُمْلَةِ ثَمَانِيَةَ أَقْلَامٍ : الطُّومَارُ، وَمَخْتَصِرُ الطُّومَارِ، وَالثَّلْثُ، وَخَفِيفُ الثَّلْثِ، وَالتَّوْقِيعُ، وَالْوَقَّاعُ، وَالْمَحْقَقُ، وَالغُبَارُ.

وَقَدْ اختلفَ الكُتَّابُ فِي تَسْمِيَةِ قَلَمِ الثَّلْثِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِنَ الْأَقْلَامِ الْمُنَسُوبَةِ إِلَى الكُتُّورِ كَالثَّلْثَيْنِ وَالنَّصْفِ عَلَى مَذْهَبَيْنِ :

المذهب الأول - ما نقله صاحب "منهاج الإصابة" عن الوزير أبي علي بن مقله أن الأصل في ذلك أن الخط الكوفي أصلين من أربع عشرة طريقة ، هما لها كالحاشيتين : وهما قلم الطومار : وهو قلم مبسوط كله ليس فيه شيء مستدير . قال : وكثيرا ما كُتِبَ بِهِ مَصَاحِفُ الْمَدِينَةِ الْقَدِيمَةِ ؛ وَقَلَمُ غُبَارِ الْحَلِيَّةِ : وَهُوَ قَلَمٌ مُسْتَدِيرٌ كُلُّهُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مُسْتَقِيمٌ ؛ فَالْأَقْلَامُ كُلُّهَا تَأْخُذُ مِنَ الْمُسْتَقِيمَةِ وَالْمُسْتَدِيرَةِ نِسْبًا مُخْتَلِفَةً ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَطوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ الثَّلْثُ سُمِّيَ قَلَمَ الثَّلْثِ ، وَإِنْ كَانَ فِيهِ مِنَ الْخَطوطِ الْمُسْتَقِيمَةِ الثَّلَاثَانَ سُمِّيَ قَلَمَ الثَّلْثَيْنِ ، وَعَلَى ذَلِكَ أَقْتَصَرَ صَاحِبُ "مَنْهَاجِ الْإِصَابَةِ" .

المذهب الثاني - ما ذهب إليه بعض الكُتَّابِ أَنَّ هَذِهِ الْأَقْلَامَ مُنَسُوبَةٌ مِنْ نِسْبَةِ قَلَمِ الطُّومَارِ فِي الْمَسَاحَةِ ، وَذَلِكَ أَنَّ قَلَمَ الطُّومَارِ الَّذِي هُوَ أَجْلُّ الْأَقْلَامِ مِسَاحَةٌ عَرْضُهُ أَرْبَعٌ وَعِشْرُونَ شَعْرَةً مِنْ شَعْرِ الْبُرْدُونِ كَمَا سَيَأْتِي ، وَقَلَمُ الثَّلْثِ مِنْهُ بِمَقْدَارِ ثُلُثِهِ : وَهُوَ ثَمَانِ شَعْرَاتٍ ، وَقَلَمُ النِّصْفِ بِمَقْدَارِ نِصْفِهِ ، وَهُوَ اثْنَتَا عَشْرَةَ شَعْرَةً ، وَقَلَمُ الثَّلْثَيْنِ بِمَقْدَارِ ثُلُثَيْهِ : وَهُوَ ثَمَانِ عَشْرَةَ شَعْرَةً . وَإِلَى ذَلِكَ كَانَ يَذْهَبُ بَعْضُ مَشَائِخِ الكُتَّابِ الَّذِينَ أَدْرَكَاهُمْ ، وَعَلَيْهِ أَقْتَصَرَ الْمَوْلَى زَيْنُ الدِّينِ شَعْبَانَ الْآتَارِيُّ فِي الْفَيْتَةِ .

وهذه صور حروف الأرقام السبعة التي تستعمل في ديوان الإنشاء ولوازمه وهي :
 الطومار، ومختصره، والثالث، وخفيف الثالث، والرّاقع، والمحقق، والغبار في حالتها
 الأفراد والتركيب .

القلم الأول

(قلم الطومار بإضافة قلم إلى الطومار)

والمراد بالطومار الكامل من مقادير قطع الورق أصل عمله ، وهو المعبر عنه في زماننا
 بالقرحة ؛ فأضيف هذا القلم إليه لمناسبة الكتابة به فيه . وقد تقدم أنه قلم جليل قدر
 الكتاب مساحة عرضة بأربع وعشرين شعرة من شعر البرذون ؛ وبه كانت الخلفاء
 تكتب علاماتهم في الزمن المتقدم في أيام نبي أمية فمن بعدهم .

فقد حكى أحمد بن إبراهيم الدورقي في مناقب عمر بن عبد العزيز : أن عمر بن
 عبد العزيز أتى بطومار ليكتب فيه فامتنع وقال : فيه ضياع الورق وهو من بيت
 مال المسلمين ؛ وبالضرورة فلا يكتب في الطومار إلا بقلم الطومار ؛ وهذا دليل على
 أنه كان موجودا فيما قبله ، وأظنه من الامور التي رتبها معاوية بن أبي سفيان ، إذ
 هو أول من قرأ أمور الخلافة ، ورتب أحوال الملك ، وبه استقرت كتابة ملوك
 الديار المصرية من لدن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون "وهلم جراً إلى زماننا .

قال صاحب "مناهج الإصابة" : ويكون من لبّ الجريد الاخضر ، ويؤخذ منه
 من أعلى الفتحة ما يسع رؤوس الأنامل . قال : ويمكن أن يكون من القصب الفارسي .

قلت : والذي استقر عليه الحال في كتابة اليهود بالديار المصرية بقصب البوص
 الأبيض الغليظ الأنايب ؛ ينتقى قصبه من جزائر الصعيد بالوجه القبلي ؛ وفي كل سنة

يجهز بريدى بطلب هذه الأقلام من ولاية الوجه القبلى، ويؤتى بها فحفظ عند كاتب السرويرى منها ما يحتاج إليه (١) يوضع فى دواته بقدر الحاجة .

قال فى "منهاج الإصابة" : ولا بد فيه (١) بقدر ما يحتاج إليه فى حج القلم الحبر فى القرطاس .

وأعلم أن للكاتب فيه طريقتين :

إحدهما - طريقة الثلث فتجرى الحال فيه على الميل إلى (١)

الثانية - طريقة المحقق فتجرى الحال فيه على الميل إلى (١) بطريقتين،

وكيفية تشكل (١) والفاء والقاف فيه أوسطها لحدده (١) مدورة

البا (١) الأحرف كمشله (١) الرابع أن يكون فيه صاد مدورة (١)

وكاف مشكولة .

وذكر المولى زين الدين شعبان الآنارى فى ألفيته : (١) فيه الترويس

فى الألف، والباء، والجيم، والذال (١) واللام والنون فى الإفراد والتركيب عند

الابتداء وأنه (١) الطمس فى شىء من عقده كالصاد، والطاء، والقاف،

والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة بحال، والمعنى فيه أن الطمس

لا يليق بالخط الجليل .

(١) وقع طمس بالحبر فى هذه الصحيفة فى مواضع .

وهذه صورة كتابة أسم السلطان في المكاتب والولايات وغيرها منسوباً للسلطان

السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون

صورة ما يكتب في جليل المكاتب

السلطان

صورة مايكتب في متوسطات المكاتب

اللي محمد

صورة ما يكتب في صغار المكاتب



وهذه صورة كتابة العلامة على المناشير للإقطاع لمن علامته
الله أملي بيباء راجعة

للسلام

القلم الثاني

(قلم مختصر الطومار)

بإضافة قلم إلى مختصر، وربما قيل فيه مختصر الطومار بحذف المضاف؛ وهو الذى يكتب به فى قَطْعِ البغدادىِّ الكامل .

وقد ذكر المولى زين الدين شعبان الآثرىِّ فى أَلْفِيَّتِهِ : أن مقدار مساحته ما بين كامل الطومار وبين قلم الثلثين، وحينئذ يكون مقداره ما بين عرض ست عشرة شعرةً من شعر البردُونِ وبين أربع وعشرين شعرةً؛ والحامل له على ذلك أن أعلى ما وضعوه من الأقلام المنسوبة لكسِرٍ من الكسور قلمُ الثلثين، وهو عرض ستَّ عشرة شعرة؛ فلو كان مرادهم مختصر الطومار هذا المقدار، لعبروا عنه بقلم الثلثين دون مختصر الطومار، فتعين أن يكون فوق ذلك ودون الطومار الكامل، فيكون ما بين عرض ثمان عشرة شعرة وعرض أربع وعشرين شعرة .

ثم هذا القلم يجوز أن يُكْتَبَ به على طريقة الثلث فى الميل فى حروفه إلى التقوير وعلى ذلك يكتب كُتَّابُ ديوان الإنشاء فى عهود الملوك عن الخلفاء، والمكاتب إلى القانات العظام من ملوك بلاد الشرق . ويجوز أن يكتب به على طريقة المحقق فى الميل فى حروفه إلى البسط كما فى الطريقة الثانية من قلم الطومار، وسيأتى ذكر تشكيل الثلث فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولا يخفى أن هذا القلم بالنسبة إلى الترويس وعدم الطمس على ما تقدم فى الطومار للوقفه به فى الجلالة وسعة مساحة العرض .

وهذه ص

هو

—ورة كتابة—ه

مهملة

القلم الثالث

قلم الثلث

بإضافة قلم إلى الثلث، ويقال فيه الثلث بجذف المضاف وهو الذي يُكْتَب به في قَطْع الثلثين .

وقد تقدم اختلاف الكُتَّاب في نسبته هل هو باعتبار التقوير والبسط أو باعتبار أنه ثلث مساحة الطومار، من حيث إن عَرَض الطومار أربع وعشرون شعرةً من شعر البرْدُون، وعرض الثلث ثمانُ شعرات وهي الثلث من ذلك؛ وقَطَّة هذا القلم محرّفة: لأنه يحتاج فيه إلى تشعيرات لانتأني إلا بحرف القلم، وهو إلى التقوير أميل منه إلى البَسْط، بخلاف المحقّق على ما سياتي ذكره، والترويس فيه لازم .

وقد ذكر المولى زين الدين شعبان الآثاريّ في ألفيته: أنه يروى فيه من الحروف الألف المفردة، والجيم وأختاها، والطاء، والكاف المجموعة، واللام المفردة، والسنة المبتدأة؛ وعقده من الصاد وأختها، والطاء وأختها، والعين وأختها؛ والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة كلّها مفتحة لا يجوز فيها الطمس بحال . وهو على نوعين :

النوع الأول

(الثلث الثقيل)

وربما قيل فيه ثقل الثلث، وهو المقدرة مساحته بثمان شعرات على ما تقدم ذكره، وهذه صورته مفردة ومركبة .

الألف على ضربين مفردة ومركبة، فالمفردة على ثلاثة أنواع .

الأول - الألف المطلق

أ

وطريقه: أن تبتدئ فيه بصدر القلم من قفا الألف، ثم تصعد إلى هامتها فإذا بلغتها نزلت بعرض القلم إلى وجهه، ثم تنزل بوجه القلم معتمدا في نزولك على السن اليمنى حتى إذا بلغت شاكلة الألف أدرت القلم برفق حتى تختمه بحرفه .

الثاني - المشعر

ج

وطريقه: كالذي قبله إلا أنه إذا جئت آخر الألف عطفت ذنبها ويكون موصولا بغيره، فإن لم يوصل بغيره فالغالب أن يكون مطلقا .

الثالث - المحرف

ا

وطريقه: أن يبدأ فيه من هامة الألف بوجه القلم فتضعه على تحريفه وتنزل به مستويا، حتى إذا بلغت شاكلته أدرت حرف القلم على مامضى من الشرط في المطلق والمشعر .

الضرب الثاني

(المركب مع غيره من الحروف)

ولا يكون إلا طرفاً أخيراً، إذ لا يوصل بما بعده، لأن الألف مطية يُركب عليها ولا تُركب، وطريقه أنك تصعد به بعد تمام الحرف الذي قبله بصدر القلم عكسا لنزولك بالألف المحرف، فإذا بلغت هامة الألف وقفت بالقلم حتى يكون بمنزلة رأس الألف المحرف.

وكذلك يفعل في اللام الطالع، وهذه صورته .

الطالع

الصورة الثانية

(صورة الباء)

وهي على ضربين

الضرب الأول

المفردة

وهي ثلاثة أنواع : مجموعة، وموقوفة، ومبسوطة . ولك في آبتدائها في الثلاث الصور وجهان : إن شئت بدأت من قفاها بتشعيرة على ما مضى من صفة الألف المطلق، وهو مذهب الأستاذ أبي الحسن، وإن شئت بصدر القلم . ثم لكل صورة منها طريقة تخصها .

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم حتى إذا بلغت فتلة الباء وهي الإدارة الخفية التي تجمع بين الخط القائم والمبسوط، فتلقت القلم ومططت الباء بصدره، حتى إذا صرت إلى آخرها ختمت بحرف القلم الأيمن، ونثرت يدك برفق حتى ترفع ذنب الباء، حتى يجيء رأسها في نهاية الدقة .

المجموعة



وأما الموقوفة : فطريقها كطريق المجموعة في جميع ما تقدم، إلا أنك إذا بلغت المكان الذي ترفع فيه من ذنب المجموعة، وقفت فيه بعرض القلم فتأتي مطة محرّفة كتحرّيف القلم .

الموقوفة



وأما المبسوطة^(١) :

المبسوطة



وأما المركبة^(٢) : فعمل نوعين : متوسطة، ومتطرّفة .

فأما المتوسطة : فلها حالان .

أحدهما - أن يكون قبلها وبعدها مثلها، فتكون الوسطى مرتفعة على أخواتها .
وإذا رفعتها أكثر من أخواتها، رجعت في خط يلاصقها . وهذا في كل حرف صغير كالنون، والباء، والتاء .

الثاني - أن لا يكون قبلها وبعدها مثلها، فهي كإحدى السنتات .

(١) لم يتكلم عليها . (٢) هذا هو الضرب الثاني من ضربى الباء وهي المركبة .

وأما المتطرفة : فلها حالان أيضا .

أحدهما - أن تكون مبتدأة : وهي التي تكون في أول الكلمة ، فطريقها أن تبدأ فيها بعرض القلم تحذرا من يمينك إلى يسارك ، وهي تصحب الجيم وأختها .
الثاني - أن تكون في آخر الكلمة ، وتكون محذوفة الرأس للتركيب كرأس السين المبسوطة ، وتكون صورة مثلتها كصورة المفردة سواء في جميع أحوالها : في الجمع والبسط والوقف ؛ وهذه صورها .

مركبة مبسوطة

مركبة موقوفة

مركبة مجموعة

ل ل ل

الصورة الثالثة

(صورة الجيم وما شاكلها)

وهي على أربعة أضرب : مرسلّة ، ومسبّلة ، ومجموعة ، وملوّزة ؛
وآبتداء جميع الصور على وجهين ، من رأسها ومن جبهتها .

فأما المبتدأة من رأسها فيخير الكاتب فيها بين أمرين : إن شاء جعلها جزأ ، وإن شاء جعلها مشعّرة ، فإنها يبدأ فيها بصدر القلم ، وهو مذهب الأستاذ أبي الحسن ، والمشعّرة يحطّفها بحرف القلم أو بصدره على ما مضى ؛ فإذا بلغت جبهتها أدت بحررت بوجه القلم ، وأنت في الجزّة بالخيار : إن شئت جئت بها على خط مستقيم ، وإن شئت رطبتّها شيئا يسيرا ؛ فإذا بلغت قفاها ، كنت أيضا بخيرا : إن شئت رجعت في الخط الذي جئت فيه ، وإن شئت رجعت في خط تحته يلاصقه بصدر القلم ؛ فإذا وصلت تحت هامة الجيم أدت القلم على تحريفه فنزلت بعرضه حتى إذا بلغت آخر عجز الجيم ختمتها بحرف القلم . ولا يخرج صدر الجيم عن الخط الموازي

لجبتها، كما لا يجوز أن يخرج طرف ذنبها عن الخط الموازي لقفأها، حتى لو نصب عليها خطوطا تناسبت أعاليها أسافلها، وهذه صورتها .

مفردة مرسللة



وأما المسبللة : فإنها كالمرسللة في الصورة والصفة، والفرق بينهما أنك في المرسللة إذا بلغت الصدر ونزلت فيه، أسبلت ذنبها، وهذه صورتها .

مفردة مسبللة



وأما المجموعة : فإنها كالمرسللة أيضا في جميع أوصافها ويزيد عليها أنك إذا وفيت بها على ماضئ من صفة المرسللة رددت ذنبها على عجزها فصارت هنالك دائرة، وهذه صورتها .

مفردة مجموعة



وأما الملوّزة: فإنها لا تكون إلا قبل الألف، وطريقها أن تبدأ بعرض القلم من تحت الألف فيما تقدّر، فإذا بلغت جبهة الجيم، جررت بوجه القلم جرةً مبطنّة حتى يصير البياض الأوسط لوزةً محفّقة، فترفع الألف مع جبهة الجيم وتبقى تحت ذنب الألف بقية رأس الجيم، وهذه صورتها .

مبتدأة مركبة ملوّزة

ح

وزاد المتأخرون صورة أخرى تسمى الترقاء، وصورتها أنك تبتدىء برأس واو من واوات الثلث مفردة، وتكون مرتفعة الرأس بقدر نقطة من نقط الخط، ثم تكمل عليها بقية العمل المتقدم ذكره على الثلاث حالات المتقدمة في الباب، وهي المرسلة والمسبلة، والمجموعة، وهذه صورتها .

ترقاء مجموعة

ترقاء مسبلة

ترقاء مرسلة

ح

ح

ح

وزاد للمتأخرون صوراً أخرى في التركيب: وهي ثلاث: أولى: **م** ووسطى: **م** وأخيرة: **م**
 أما الأولى: فأبتداء العمل فيها كابتداء العمل في الثلاث حالات الأول، ثم تكمل
 بالحرف الذي تريد، وهذه صورتها .

مركة مبتدأة محققة

م

وتارة تكون **م** ملوزة وهي التي تصحب الألف وما شابهها كاللال، واللام،
 واللام ألف، وقد صوروها مع الألف فتقاس على ما عداها .

وهذه صورتها مع اللام	وهذه صورتها مع اللام ألف	وهذه صورتها مع اللام
مركة مبتدأة ملوزة	مركة مبتدأة ملوزة	مركة مبتدأة ملوزة
مع شبه الألف	مع شبه الألف	مع شبه الألف

م م م

وأما المتوسطة: فالعمل فيها كالعمل في المبتدأة المحققة المركبة كما تقدم ولكن
 بغير ترويس، وهذه صورتها .

مركة متوسطة محققة

م

وأما الأخيرة: فالعمل فيها كالعمل في الثلاث حالات الأول: المرسلة، والمسبلة،
والمجموعة، ولكن بغير ترويس، وهذه صورها .

مركبة مختتمة بمجموعة

مركبة مختتمة مسبلة

مركبة مختتمة مرسلة



الصورة الرابعة

(صورة الدال وأختها)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

ولها صورة واحدة، وهي شكل مُثَلَّثٍ على زاوية واحدة، ويجمع طرفها جمعاً يسيراً،

وهذه صورتها :

مفردة



الضرب الثانى

المركبة

ولها أربعة أشكال : مجموعة ، ومبسوطة ، ومخطوفة ، ومقطوفة .

أما المجموعة : فإنك ترفعها بعد فراغك من الحرف الذى قبلها ، ولك فى ذلك مذهبان :

أحدهما - مذهب الوزير أبى على بن مقلة^(١) .

والثانى - مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البواب ، وطريقه أن ترفعها مائلا إلى اليسار ميلا خفيفا .

ثم على كلا المذهبين ترجع بخط يلاصق الخط الذى صعدت به وبظهر القطة فى الانتهاء ، وتأتى بالعراقة على شكل عراقة الدال المفردة فى الجمع ، وهذه صورتها :

مجموعة مركبة

ك

وأما المبسوطة : فحكها فى جميع صفاتها حكم المجموعة ، إلا أنك إذا نزلت فى المبسوطة إلى العراقة وفتلتها ، أرسلت العراقة بعرض القلم ، وهذه صورتها :

مركبة مبسوطة

ك

(١) لم يبين طريقه ولعله سقط من قلم الناسخ فحزر .

وأما المخطوفة : فهي كالمجموعة أيضا، إلا أنك تخطفها بحرف القلم وتختتمها بأدق ما تقدر عليه من الحافة، وهذه صورتها :

مركبة مخطوفة

وأما المقطوفة : فهي كالمخطوفة، إلا أنك بعد الفتلة تُبقي لها ذنباً صغيراً بحرف القلم وهذه صورتها :

مركبة مقطوفة

الصورة الخامسة

(صورة الراء وأختها)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

ولها ثلاثة أشكال : مجموعة، ومبسوطة، ومقورة؛ وأبتداؤها في جميع الصور على وجهين .

أحدهما - أن تبدأ من قفاها صاعداً إلى هامتها ثم تنزل إلى وجهها .

والثاني - أن تبدأ بها حذاً من رأسها، وهو مذهب الأستاذ أبي الحسن بن البواب .

ثم لكل واحدة منها بعد ذلك عمل يخصها . فأما المجموعة فطريقها أن تبدأ فيها بوجه القلم وتنزل على خط الأستواء بقدر ربعها ، ثم تدير القلم وتبدأ في العراقة بصدر القلم ، ويكون تنزليك إياها أكثر صبا من الباء المفردة قليلا ، فإذا عرقت مثل ما نزلت به أولا على خط الأستواء نثرت يدك بالقلم إلى فوق وأنت تريد ذات اليمين بإشارة لطيفة ، ويكون ختمها بسن القلم اليمنى ، وهذه صورتها :

مفردة مجموعة



وأما المبسوطة : فطريقها أن تنزل بها على ما ذكرناه ، وترسل ما عرقت منها على ما تقدم في الدال المجموعة وتنقص منها النثرة الأخيرة ، وتحدد طرفها ؛ وهذه صورتها :

مفردة مبسوطة



وأما المقورة : فطريقها أن تنزل بأقل مما ذكرناه شيئا يسيرا ، وهذه صورتها :

مفردة مقورة



الضرب الثاني

المركبة

ولها أربعة أشكال : مخطوفة، ومقطوفة، وبراء، ومدغمة .

فأما المخطوفة : فهي كالمقورة في الصورة، غير أن عراقمتها بحرف القلم، وهذه

صورتها :

مركبة مخطوفة

س

وأما المقطوفة : فإنك تبقى لها ذنباً صغيراً، وهذه صورتها :

مركبة مقورة

س

وأما البراء : فإنك تقطفها من الثلاثين فتحذف ثلثها وتأتي بها مستدقة الطرف ،

وهذه صورتها :

مركبة مقطوفة

عس

وأما المدغمة : فإنها تصلح بعد كل حرف وتبجح بعد المد، وسميت مدغمة مجازاً

وإلا فالحرف الذي قبلها هو الذي يدغم فيها، لكنهم لما حذفوا منها شيئاً لقبوها بذلك ،

ولابد أن تحذف من الحرف الذي قبلها شيئاً من آخره وتحذف منها شيئاً من أولها .

وتُتَّق من كل واحد منهما ما يدل عليه ؛ وهذه صورتها :

مركبة مدغمة

س

الصورة السادسة

(صورة السين)

وحكمها في حالتى الأفراد والتركيب سواء، غير أنها في حالة الأفراد تزيد العراقة ، وعراقها كعراقة النون في الجمع والبسط والتقوير؛ وسيأتى الكلام على ذلك في حرف النون إن شاء الله تعالى .

ثم هي على نوعين : محققة ، ومعلقة .

فأما المحققة : فلها شكلان ، مُظَهَّرة ، ومدغمة .

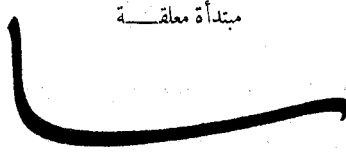
فطريق المظهرة أن تبدأ بوجه القلم ثم تدير القلم منها إلى أختها إدارة لطيفة في نهاية الاعتدال ، وتحدد رأس الثانية بسن القلم اليمنى ، ويكون الذى بين الأولى والثانية أقل مما بين الثانية والثالثة ، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البواب . وإذا كان قبلها شيء يكون سواء ، ويجوز أن تكون مصدرة مقلوبة ؛ وهذه صفتها :

محققة مظهرة

س

وأما المعلقة : فصفتها أنك تحذف السين حذفاً وتقيم جرّةً مقامها، وتبدأها بوجه القلم عاملاً إلى آخرها .

هذا إذا كانت مبتدأة، فإن كانت متوسطة، فالأولى أن تكون محققة، ولا بد من جتر فوق المعلقة تقطت أو لم تقط، وهذه صورتها :



وتحسن قبل الكاف المشكولة وقبل الألف، ولا تكون قبل الصاد والعين والكاف المعرّاة، وقيل إنها لم ترفى خط أبن البوّاب إلا مفردة .

الصورة السابعة

(صورة الصاد)

والكلام في عراقها كالكلام في عراقه السين : من الجمع، والبسط، والتقوير، وسيأتي الكلام على ذلك في حرف النون .

نعم لا تكون عراقها إلا حديدة الطرف في جميع صورها، ولا يجوز فيها الوقف بحال. أما نفس الصاد فلها شكل واحد، وهي تقارب التلويزة. وللناس فيها مذهبان : الأول إظهار مبدأ الصاد تحت رأس العراقة، والآخر إخفاؤه؛ وفي كلا المذهبين لا بد من ظهور رأسها شيئاً يسيراً . فإن كانت متوسطة، فيكون رأسها بحرف القلم

محدد الطرف . . وإن كانت مفردة أو متطرفة فإنها تكون عريضة الرأس بوجه القلم .
وإذا ركبت على خط قبلها ، لا يكون خطأ على خط ولا يظهر أكثر من خط واحد ،
وهذه صورتها :

مجموعة

ص

الصورة الثامنة

(صورة الطاء وأختها)

وهي ثلاثة أنواع : موقوفة ، ومرسلة ، ومحقة

فأما الموقوفة : فطريقها أن تبدأ بها على صورة الألف المطلق . فإذا وفيت به ،
رجعت طالعا من تلقاء ذنب الألف حتى تقارب شاكلته ، فترجع إلى يمينك ، فتركب
عليه شكلا على صورة اللوزة ، وتخرج ذنب اللوزة من تحت الألف وتقف عليه
بعرض القلم فتظهر القطعة ، وهذه صفتها .

مفردة موقوفة

ط

وأما المرسلة : فهي على نحو ما تقدم في الموقوفة غير أن الجزة السفلى هاهنا مبطنه ،
وفي الموقوفة على خط مستقيم ، وهذه صفتها .

مفردة مبسوطة

ط

وقد اختلف الكُتَّاب في رأس الطاء، فكان بعضهم يذهب أن يكون على طَرْف اللُّوزة من غير ركوب عليها، وهو أحد المذاهب فيها .

قال الشيخ أبو القاسم : سألت بعض مشايخي عن "طى" كيف يكون وضع الياء فيها ؟ بحضرة جماعة من الكُتَّاب، فقال : تُكْتَب طاء جيدة بعدها ياء حسنة، فقلت : الحمد لله الذى أبقي على جديد الأرض من يُحَسِّنُ صفة الخط بمثل هذا الضبط . فلما أردت الانصراف أشار إلى أن أجلسُ فجلست حتى أنصرف القوم، فقال : قد كنتُ سألتُ عنها شيخنا أبا الحسن بن هلال فقال لى : إذا فرغت من الطاء فاحذف رأس الياء وألصق قفا الياء بَدَنِبِ الطاء، ثم تممها على مذهبك فى الياء أئى شئت، ولا تخرج صدر الياء من تحت رأس الطاء . وعلامة صحتها أنك إذا حذف لوزة الطاء بقيت فى نهاية الصلحة إن كان بعدها ياء . وإن كان بعدها واو بقيت أيضا فى نهاية الكمال .

قال الشيخ أبو القاسم : فينبغى أن يكون رأسها فى آخر اللوزة، ولا يكون مربكا على ظهرها لانه إذا تركب بطل هذا القياس .

وأما المحققة : فإنك تبدأ فيها على صورة اللام المبتدأة المعلقة، ويأتى الكلام على ذلك فى حرف اللام إن شاء الله تعالى .

وأكثر ما تستعمل هذه الطاء إذا كانت مشعرة بألف قبلها وألف بعدها فستحسن به وهذه صفتها .

متوسطة بين قائمين

لطا

وأعلم أنه لا بد للطاء من مدّة قبلها تتركب عليها، ويكون طرفها ينتهي إلى تحت رأس الطاء من غير زيادة ولا نقصان، ويجوز في طرف هذه المدّة الجمع وعدمه، وكلا المذهبين حسن .

الصورة التاسعة

(صورة العين وأختها، ولها حالان)

الحال الأول : أن لا تكون متصلة بما قبلها، وهي على نوعين : ملوّزة، ومركّبة .
فأما الملوّزة : فإنك تبدأ فيها من رأس العين بحرف القلم في غاية الدقة، حتى إذا وصلت إلى هامتها، مكّنت إدارة قلمك فصرت عاملاً بوجهه إلى قَمَحْدُوَةِ العين فتصير على صورة اللوزة؛ وتكون هذه العين قبل الهاء المدغمة؛ وهذه صفتها .

ملوّزة

وتكون أيضا قبل هاء الردف؛ وهذه صورتها .

ملوّزة مع هاء الردف

وأما المركبة : فهي مركبة من راءين محققة ومعلقة، وأبتداؤها على ما تقدّم في الملوّزة؛ غير أنك إذا صرت إلى هامتها وأدرت القَمَحْدُوَةَ، نزلت على خطّ مستقيم أو قريب من الاستقامة . والذي وجد بخط الأستاذ أبي الحسن بن البوّاب على

الاستقامة ، وهذه العين لا يكون بعدها إلا حرف طالع كالألف واللام وما جرى مجراهما ، وهذه صفتها .

مركبة ونعيلة

ا

وكثيراً من الكُتَّاب يخطونها مع ما قبلها كالجماعة والبضاعة ، فإنهم يردون من الألف إلى العين جزة مبطنة يجعلونها عالية العين ، وهي مستحسنة ، ولا بد لها من ألف قبلها وحرف طالع بعدها ، وهذه صفتها .

مردوفة ومشكولة

ا

الحال الثاني : أن يكون قبلها شيء متصل بها ، وتسمى المربعة ، وهي على نوعين : متورة ، ومطموسة .

فأما المتورة : وتسمى المحققة ، فإنك إذا خرجت من الحرف الذي قبلها أتبعته خطاً محدوداً مبطناً إلى يسارك ، بصدر القلم ، ثم حررت عالية العين بوجه القلم ثم على الجزة الأولى جزة تناقضها مثلها في الصدر والمساحة بقطع الخط الأول ، ثم إن كانت معرقة عرقت . وإن كانت غير ذلك اتبعها ما بعدها .

وعلاصة صحتها أن تلتبس البياض الذي في وسطها فإن تناسبت زواياه فهو في غاية الصحة وقد تم تركيبها، وإلا فتحرر حتى يصح ما رسم؛ وهذه صفتها .

مربعة مفتوحة

لعد

وأما المطموسة ، وتسمى المعلقة ولا تكون إلا في قلم التوقيعات والرقاع ، فصفتها أن تكون وقصاء غير مفتوحة ، ولا يجوز فيها من العراقات غير المجموعة ، وهذه صورتها .

معلقة مطموسة

لعد

ثم إن كانت معرقة مفردة أو مركبة ، فالعراقة على ثلاثة أنواع : مسبلة ، ومرسلة ، ومجموعة ، كعراقات الجيم .

فأما المسبلة : فإنك إذا نزلت من ظهرها أسبلت العراقة فتكون أكثر من نصف الدائرة ، ولا يخرج الصدر عن الرأس ولا الظهر عن القمّحْدُوة ، بل يكون كل واحد منهما مساويا لما فوقه ، غير زائد عليه ولا ناقص عنه . وكان الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله يقول : " المرء على ترك شيء مما يعمله أقدر منه على تكلف شيء لم يعتده " . ويأمر الطلبة بإخراج دَنَبِ العين من تحت صدرها ؛ وهذه صورتها .

مفردة مسبلة

ع

وأما المرسلة : فإنك تأتي بالعراقة نصف دائرة محققة ، وتتأمل فيها من المسامحة ما وصف في المسبلة والمسبلة تكون حديدة الطرف ، والمرسلة يجوز فيها التحديد والوقف ، والتحديد مذهب الأستاذ أبي الحسن بن البواب ؛ وهذه صورة التحديد ، وهذه صورة الوقف .

مفردة مرسلة

ع

وأما المجموعة : فإنها كالمرسلة أيضا في جميع أوصافها ، وتزيد عليها أنك إذا وقَّيت بها على ما مضى من صفة المرسلة ، رددت ذنبها على عجزها فصارت هنالك دائرة ؛ وهذه صفتها .

مفردة مجموعة

٨

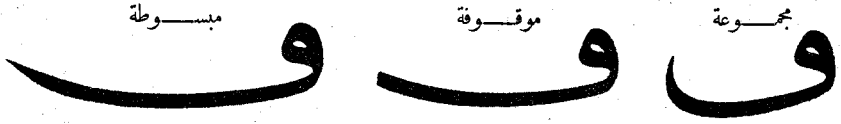
الصورة العاشرة

(صورة الفاء)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فعلى ثلاثة أقسام : مجموعة، ومبسوطة، وموقوفة. وقد تقدم الكلام على هذه العراقات في حرف الباء، فأغنى عن إعادته هنا، وهذه صفة العراقات الثلاث.

مجموعة موقوفة مبسوطة



وأما المركبة : فإنها تكون مقلوبة ، وذلك أن بياضها يكون الحاد منه في ملتقى الخطين اللذين يتقاطعان في ذهابها ومجيئها ، ويكون عرضه عند هامتها ؛ وهذه صفة المتوسطة .

متوسطة



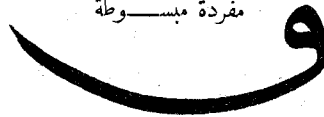
الصورة الحادية عشرة

(صورة القاف)

وهي على ضربين أيضا : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فحكم رأسها حكم الفاء، وحكم عراقتها حكم النون، وستأني، غير أنها تكون مفردة مبسوطة وهي مستحسنة بخلاف النون ؛ وهذه صفتها .

مفردة مبسوطة



وأما المركبة : فإنها كالفاء في جميع ما تقدم، فلا حاجة إلى تمثيلها .

الصورة الثانية عشرة

(صورة الكاف)

وهي على ثلاثة أنواع : مبسولة ، ومشكولة ، ومعتراة ؛

ولكل واحدة منها موضع يخصها

فأما المبسولة : فتكون مفردة ومركبة ، وإفرادها قليل ؛ والمركبة منها موضعها
الابتداءات والوسط ، ولا تكون طرفاً أخيراً بحال ؛ وطريقها أن تبدأ فيها بصدر القلم
من رأسها حتى ترد جبهتها فتخط عاليتها بوجه القلم وتفتل على هذا المنهج إلى المطّة
السفلى ، وتمطها بصدر القلم وتقط ذنبها ؛ وتوشى في عاليتها أن تكون على خط مستقيم
لتجعلها قالباً للطة السفلى ؛ وأعتبر صحتها باعتبار البياض الذى فى وسطها إذا استقام
استقامت ؛ وهذه صورتها فى الإفراد ، والتركيب ، والابتداء .

متوسطة مبسولة

مبتدأة مبسولة

مفردة مبسولة

ك ك ك

وأما المشكولة : فلا تكون إلا مركبة ؛ وموضعها الابتداءات والوسط ، ولا تنفرد
البتة ؛ وتكون على هيئة شق لوزة فإن وصلت بألف أو لام تديننت ولا يخرج الحرف
الذى يكون بعدها من تحت رأسها أصلاً لأن الكاف المبسولة والمشكولة لا يجوز

أن يأتي بعدهما مئة، وإنما سميت مشكولة للجزء التي عليها، وهذه صورتها في الابتداء وفي الوسط .

متوسطة مشكولة

مبتدأة مشكولة

ك ك

وأما المعزاة : فلا تكون إلا طرفاً أخيراً وهي في الصورة والشبه كاللام المطابقة، والفرق بين اللام والكاف المعزاة أن القائم من الكاف ثلثا المبسوط، والمبسوط من اللام كالقائم فيها، وهذه الكاف لا تجمع أبداً، فإن موضعها أواخر السطور؛ وهذه صفتها .

مفردة معزاة

ك

الصورة الثالثة عشرة

(صورة اللام)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

وهي على نوعين : مجموعة، ومطلقة

فأما المجموعة : فطريقها ان تبدأ من قفاها على نحو ما وصف في الألف المطلق لأن الألف واللام يجريان على نظام واحد في كل خط لأنهما صاحبان، كالباء والتاء، وكالحاء والخاء، وكالعين والغين . فإذا وصلت إلى شاكلته عرقت اللام عرقة أكثر حُدُورا من الباء، وجمعت ذنبها كما تقدم في حرف الراء، وهذه صفتها .

مطلقة

مجموعة

الضرب الثاني

المركبة

وهي على قسمين : محققة ، ومبتدأة معلقة .

فأما المبتدأة المحققة : فهي كالمرسلة غير أنها محذوفة المطّة لأجل التركيب ؛

وهذه صفتها .

مبتدأة محققة

ل

وأما المبتدأة المعلقة : فتنزّل فيها بعرض القلم مائلاً من يمينك إلى يسارك ، وهي

تختص بثلاثة أحرف من سائر الحروف وهي الجيم ، والحاء ، والفاء ، ويكون مبتدؤها

يوازي قفا الجيم من غير زيادة ولا إشارة إلى العراقة ؛ وهذه صفتها :

مبتدأة معلقة

لحا

الصورة الرابعة عشرة

(صورة الميم)

وهي على خمسة أضرب : محققة ، ومعلقة ، ومسبلة ، ومبسوطة ، ومفتولة .

الضرب الأول

المحققة

وهي على نوعين : مبتدأة ، وغير مبتدأة

فأما المحققة المبتدأة : فإنها كثيرا ما تصحب اللام ، وصفتها إذا أردت وضعها ^(١) أنك إذا صرت إلى آخر الحرف الذي تريد منه الميم المحققة ، تميل فيه يسيرا ثم ترجع بخط آخر بجواره طالعا فيه ، ثم تعرق كتعريق الميم المعلقة ؛ وهذه صفتها .

مبتدأة محققة

وكان الشيخ عماد الدين بن العفيف إذا آتته من الحرف الذي قبل هذه الميم ، يقف فيه ثم يبدأ من يمينه براء مدغمة ؛ وهذه صفتها .

محققة محتمة

وأما المحققة غير المبتدأة : (٢)

(١) في العبارة شيء يظهر للتأمل . (٢) سقط الكلام عليها من النسخة .

الضرب الثاني

المعلّقة

وهي على نوعين، مبتدأة، وغير مبتدأة

فأما المعلقة المبتدأة: فإنها لا تحسن إلا مشعّرة مع ما قبلها، ولا تكون إلا قبل الألف؛ وهذه صفتها.

معلقة مبتدأة

ما

وأما المعلقة غير المبتدأة: فإنها تخص بالبسملة على مذهب الحدائق.

وطريقها: أنك إذا مططت إلى آخر المطة، رجعت بالميم في الخط الذي جئت

فيه، حتى إذا بلغت هامتها فارقت ذلك الخط لثلاثي منافرة؛ فإذا وصلت إلى

جبهة الميم، عرّقتها على ما رسم في الرء المجموعة والمقورة والمبسوطة والمخطوفة.

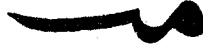
وكان الأستاذ أبو الحسن بن البواب لا يفرد لها؛ وهذه صفتها.

معلقة مختمة

س

وأما المعاقمة المبتدأة : فإنك تبدأ فيها كابتداء المحققة ، فإذا بلغت فتلتها أصقت مدتها بقفاها ، والأولى أن تكون مطموسة ، فإذا بلغت جبهتها عرقت كتعريق الراء المدعّمة ، لا يستعمل فيها غير ذلك ؛ وهذه صفتها .

معلقة مبتدأة



الضرب الثالث

المُسَبَّلَة

ولا بأس بتركيبها وأفرادها ، غير أنك إذا وصلت إلى جبهتها أسبلت عراقه كهيئة الألف الأولى من فوق ، وتكون حديدة الطرف ؛ وهذه صفتها .

مركبة

مفردة مسبلة



الضرب الرابع

المبسوطة

وهي كالمحققة ، وهي مفردة ؛ وهذه صفتها .

مبسوطة



الضرب الخامس

المفتولة

وأكثر مواضعها بعد الهاء المدغمة على مذهب الحدّاق. وبعض الكتاب يجيزها مع غير الهاء، والأول أجود .

وطريقها أنك إذا جئت بها بعد الهاء المدغمة تقوس بصدر القلم ثم تنزل بقدر ما قوست، ثم تدير الميم عن يمينك وتردّ إلى يسارك شكلا مدورا، وتعرّفها على ماتقدم في المعلقة والمحقة؛ وهذه صفتها .

مفتولة



الصورة الخامسة عشرة

(صورة النون)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

وهي على أربعة أنواع : مجموعة، ومقوّرة، ومبسّطة، ومدغمة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بوجه القلم على خطّ مستقيم . فإذا نزلت منها بمقدار ما ينزل من الباء وبلغت الفتلة، أدرت القلم برفق من الفتلة بصدر القلم،

ثم تصير العراقة جمعا بصدر القلم ، حتى إذا بلغت ذنبها ختمت بحرف القلم ؛
وهذه صفتها .

مفردة مجموعة



وأما المقورة : فإنها تكون كنصف دائرة ، ويكون ذنبها موازيا لرأسها من غير زيادة
عليه ؛ ويجوز أن يكون ناقصا عنه شيئا يسيرا ، وذلك قليل ؛ وهذه صفتها .

مفردة مقورة



وأما المبسوطة : فأكثر ما تكون متطرفة ولا تكون مفردة بحال . وطريقها أنك
إذا نزلت على ما وصف في المجموعة وبلغت بها الفتلة وأدرت صدر القلم إلى العراقة ،
جعلتها قطعة قوس من دائرة عظمى ، حتى يكون فيها تبطين يسير ، وتحتها بحرف
القلم ، ولا يجوز في شيء من مبسوبات العراقة أن يكون مرفوعا ؛ ولا يجوز أن يكون
إلا حديد الطرف ؛ وهذه صفتها :

مفردة مبسوطة



وأما المدغمة : فإنها لا تنفرد البتة ؛ ولا تحسن إلا مع ثلاثة أحرف ، مع الميم وهي
كثيرة المؤاخاة لها ، ومع الكاف ومع العين .
وكان بعض الكتاب يأبى إدغام النون ويكرهه ، إلا الأستاذ أبا الحسن بن البواب .

ولا يتقدم هذه النون من سائر الحروف إلا ثلاثة أحرف : الميم المعلقة من سائر الميمات، والعين الملوّزة : وهي الصادية من أشكال العين خاصة، والكاف المشكولة من أشكال الكاف خاصة .

وطريقها أنك إذا بلغت قفا الميم أو صدر العين أو قاعدة الكاف، صببت النون صباً في عرض اللام المتبدأة المعلقة، فإذا صببت ثلثيها، ختمت العرّاقة على مارسم في الرء المدغمة وعرّاقة الميم المدغمة؛ وهذه صورها :

مدغمة مع العين

مدغمة مع الكاف

مدغمة مع الميم

م ك ع

الصورة السادسة عشرة

(صورة الهاء)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

وهي على نوعين : معرّاة، ومركبة

فأما المعرّاة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم ثم تنزل إلى عجزها ممبلاً إلى ذات اليمين شيئاً يسيراً، ثم تفتل إلى قاعدتها بصدر القلم إلى صدرها، ثم تصعد بمثل ما كنت آنحدرت به من وجهها إلى قفاها، وهذه صفتها .

معرّاة

لا

وأما المركبة : فهي في الصورة قريبة من المُعْتَاة إلى صدرها ؛ فإذا بلغت صدرها وأنت طالع إلى وجهها، رفعتة بعرض القلم وأخرجت وجه الهاء إلى قفاها؛ والكاتب مخير بين التقليل والكثير في ذلك. ويكون الطرف الخارج إلى قفاها محددًا؛ وهذه صفتها :

مركبة

وإنما سميت مُرْكَبَةً وإن كانت مفردة مجازا للتركيب طرفها وإلا فالمراد بالمرْكَب كيفما وقع في المصطلح المختلط بغيره .

الضرب الثاني

المركبة

وهي على قسمين

القسم الأول

المشقوقة

وهي على ستة أنواع : ملوَّزة، ووجه الهر، ومشقوقة طولًا،

- ومشقوقة عرضًا، ومختلِّسة، ومدعَّمة

فأما الملوَّزة : فتكون مبتدأة، ومتوسطة؛ ولا تتأخر بحال . فإن كانت مبتدأة فطريقها أن تبدأ بصدر القلم مقدار نصف الهاء المفردة، ثم تدير القلم من يسارك إلى يمينك حتى إذا وصلت إلى المكان الذي آبتدأت منه أدت إلى يمينك أيضا حتى يصير مركز نصف دائرة محققة لطيفة بصدر القلم، وتقف عليها وقفة خفيفة، ثم تنزل بوجه القلم من غير إدارة حتى تصير إلى المكان الذي آبتدأت منه أولا، فيصير رأس الهاء حادًا في الغاية .

ومذهب الأستاذ أبي الحسن أن يكون النصف الأعلى أصغر من النصف الأسفل
بجزء يسير ؛ وهذه صفتها .

مقورة



وإن كانت متوسطة : فهي غير مستحسنة إلا قبل الألف ، وطريقها على ما تقدم
ولها حكم : وهو أنك تجيء بالخط الذي قبلها حتى يشقها متصلا بالألف ، حتى لو
طرحت الهاء لاتصل الألف بما قبله مستغنيا عن الهاء كما ركبت من فوقه تركيبا ،
ويكون هذا العمل في كل حرف يقع معها ؛ وهذه صفتها .

مقورة مستديرة



وأما وجه الهر : فتكون أيضا مبتدأة ، ومتوسطة ؛ ولا يجوز تأخيرها . وطريقها
في الابتداء والتوسط أنك تبدأ من رأسها بوجه القلم معتدل النزول شيئا قليلا ، ثم تردّها
عن يمينك إلى يسارك صاعدة معتدلة ، ثم يصير جميعها دائرة على مركزين ، فإذا بلغت
المكان الذي آبتدأت منه تكففتها طولا حذارا من أن يقع فيها حوّل ، وهو أن يكون
أحد شقيها أوسع من الآخر . وكثيرا ما يكون شقها بحرف القلم إذا كانت متوسطة .

فإن كانت مبتدأة فشقها بوجه القلم .

وهذه صورتها في الابتداء

وجه الهر

وهذه صورتها في التوسط

وجه الهر متوسطة

ه هـ

وأما المشقوقة طولاً: فإنها لا تكون إلا متوسطة؛ ولا يجوز تقديمها ولا تأخيرها؛ ولا تصحب من حروف المعجم غير اللام وحدها؛ وطريقها كطريق وجه الهر، ويفترقان في القاعدة فتكون قاعدتها مستديرة، وتكون اللام نازلة عليها من فوقها؛ وعلامة صحتها أنك إذا حذفت الهاء صارت اللام متصلة بما بعدها كأنما زيدت الهاء عليها؛ وهذه صفتها .

مشقوقة طولاً

هل

وأما المشقوقة عرضاً: فلا تكون إلا صحبة اللام أيضاً؛ وطريقها أنك إذا نزلت باللام معتدلة، أدت الهاء فأصقتها بوجه اللام وشققت الهاء عرضاً، ولا بد من مدة لطيفة تكون بعدها؛ وهذه صفتها .

مشقوقة عرضاً

له

وأما المختلّسة: فإنها لا تكون إلا مبتدأة، ويكون بعدها من الحروف حروف المدّ واللين: وهى الألف، والواو، والياء؛ وهى مطموسة؛ وهذه صفتها.

مختلّسة

هى

وأما المدغمة: فلا تكون إلا متوسطة؛ وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها أدّرت منه إدارة لطيفة، ونزلت بها نزلة إلى ذات اليمين، ثم صعدت فى خط يلاصق الخط الذى هبطت فيه من غير وخز يكون بينهما؛ وتكون مطموسة أيضا ولا يكون أسفلها أوسع من أعلاها بل يكون أعلاها أوسع شيئا يسيرا؛ ويتوشح فيها الترطيب: وهو شدّة الأستدارات، فحتى كان العمل فيها يابساً كان رديئاً؛ وهذه صورتها:

مدغمة

مها

القسم الثاني

ما يقع في آخر الكلمة وهي على نوعين

هاء الرِّدْف، والمُخْفَاة

فأما هاء الردف : فطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذي قبلها طلعت فيه بصدر القلم، ثم نزلت في الخط الذي صعدت فيه .

هذا مذهب الأستاذ أبي الحسن بن البواب .

ومذهب الوزير أبي علي بن مقلة أن تنزل في خط يلاصق الخط الذي صعدت فيه ، وكلاهما مستحسن ؛ فإذا بلغت ثلثي ماصعدت به جئت بصدر القلم إلى وجه الهاء ولا تخرج رأسها إلى قفاها البتة ؛ وهذه صفتها :

مردوفة

ه ه

وأما المُخْفَاة: فأكثر ما تصحب الحروف القصار، وهي يمين أليق، وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذي قبلها أدت منه إلى الهاء إدارة لطيفة مهللة، ثم تأتي بنصف راء مدغمة حديدة الطَّرف مخطوفة؛ وهذه صفتها :

مخطوفة

س

الصورة السابعة عشرة

(صورة الواو)

ونظيرها في التركيب الفاء، وفي الإفراد القاف، لكن القاف أكبر مساحة من الواو، وتكون على خمسة أنواع: مجموعة، ومبسوطة، ومقورة، وبتراء، ومخطوفة؛ ويكون ذلك في الإفراد والتركيب.

وكان بعض الكتاب يجعلها معلقة كالراء المدغمة لأنها قدرها. وقد تقدم أن الراء والزاي، والميم، والواو قدر سواء في كل خط.

مقورة

مبسوطة

مجموعة

(١)
معلقة

مخطوفة

بتراء

الصورة الثامنة عشرة

(صورة اللام ألف)

ولها ثلاث صور: محققة، ومخففة، ووراقية

فأما المحققة: فلا تكون إلا مفردة ولا يجوز تركيبها بحال؛ وطريقها أن تبدأ بوجه القلم ثم تنزل به على تلك الصورة، ثم تفتل إلى قاعدتها بوجه القلم، ثم ترفع القلم

(١) لم يضع لها رسماً في الأصل.

وقد بَطَّنتَ قلمك فصيرت بطنه مما يلي يمينك وظهره عن يسارك؛ ويكون قدر الألف واللام قدرا سواء في الطول والالتواء والغِلَظِ والنَحَافَةِ؛ ويكون ما بينهما كواحد منهما؛ وتكون القاعدة على هيئة رأس الفاء المبسوطة لكنها مقلوبة؛ وهذه صورتها:

محفقة مفردة

وأما المحففة : فيجوز فيها التركيب والإفراد وكلاهما مستحسن جيد . وصورتها في التركيب كصورتها في الأفراد؛ وطريقها أن تأتي بلام معلقة على ما تقدم في اللام المعلقة في حرف اللام، ثم ترمى عليها ألفا معوجةً إلى ذات اليمين ويكون ذنب الألف موزونا على الخط الذي لامست به الحرف الذي قبل اللام إن كانت مركبة؛ وهذه صفتها :

محفقة مركبة

وإن لم تكن مركبة فتشعرهما معا؛ وهذه صورتها في الأفراد :

وأما الوراقية : فإنها كالمحفقة ، فإذا كتبت اللام ركبت عليها الألف وأخرجتها عنها، ثم صيرت لها منها قاعدة مثلثة حادة الزوايا، والأولى أن تكون مفردة .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولا يكون هذا الشكل إلا في قلم
النسخ وما شاكلة وفي قلم المحقق وما شابهه ؛ وهذه صفتها :

وراقية

لا

الصورة التاسعة عشرة

(صورة الياء)

وهي على ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأول

المفردة

وهي على ثلاثة أنواع : مجموعة، ومقوّزة، ومبسّوطة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بصدر القلم فتعمل رأسها دالا مقلوّبة وصدرها
أيضا دالا مستوية، فإذا تركبت الدالان جررت العراقة، وعلامة صحتها أن تكون
الدالان صحيحين كما تقدّم . وإذا ركبت خطأ من ذنبها إلى صدرها، صار صادًا
جيدة، وهذه صفتها :

مفردة مجموعة

ى

وأما المقورة : فبدؤها كبدء المجموعة ، غير أنك إذا وصلت إلى صدرها عرقت نصف دائرة ؛ ويكون ذنها يحاذي صدرها ؛ وتكون حديدة الطرف ؛ ولا يجوز فيها الوقف ولا الجمع ؛ ويكون رأسها موزونا على صدرها ، لا يجاوزها ، سواء أنفردت أو تركبت ؛ وهذه صورتها :

مقورة



وأما المبسوطة : فعلى ما تقدم في المقورة ؛ وتفارقها من الصدر فتكون العراقة قطعة قوس مهاللة ، وتكون حديدة الطرف ولا يجوز فيها الوقف ؛ وهذه صورتها :

مبسوطة



الضرب الثاني

المركبة

وهي على ثلاثة أنواع : مبتدأة ، ومتوسطة ، ومتأخرة

فأما المبتدأة والمتوسطة : فحكهما حكم الباء ، والتاء ، والنون ؛ وما شابهها .

وأما المتأخرة : فعلى ثلاث صور ، محققة ، وراجعة ، ومعلقة .

فأما المحققة: فعلى ما تقدم أولا، غير أنك تحذف رأسها للتركيب؛ وهذه صورتها:

محققة

م

وأما الراجعة: فتختص ببعض الكلم دون بعض: كالفاء، واللام، وهي مع الفاء أكثر استعمالا.

وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها بطته شيئا يسيرا وجئت برأس كرأس الباء، ويكون فيها شيء من تبطين، ثم تجرّ القلم إلى ذات اليمين جرّة معتدلة في التكميف، فإذا بلغت ثلاثة أرباعها أدرت القلم برفق، ولا تظهر الإدارة، ثم تمرّ وأنت مديرٌ لقلمك حتى تختتمها بحرف القلم في نهاية الدقة والتحديد؛ وهذه صورتها:

راجعة

م

وأما المعلقة: فتكون على صورة اللام المجموعة واللام المرسلّة؛ وهذه صفتها:

معلقة

م

النوع الثاني

قلم الثلث الخفيف

ويقال فيه خفيف الثلث، وهو الذي يكتب به في قَطْع النصف، وصوره كصور الثلث الثقيل المتقدمة الذكر لا تختلف، إلا أنه أدق منه قليلا وألطف مقادير منه بنزير يسير .

قال الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ : والفرق بينه وبين الثلث الثقيل أن الثقيل تكون منتصباته ومبسوطاته قدر سَعِّ نَقَط على ما في قلبه، على ما تقدم، والثلث الخفيف يكون مقدار ذلك منه خمس تقط . فإن نقص عن ذلك قليلا، سمي القلم اللؤلؤي .

القلم الرابع

قلم التوقيع

بإضافة قلم إلى التوقيع، سمي بذلك لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به على ظهور القصاص، ويقال فيه قلم التوقيعات على الجمع أيضا، وقد يقال فيه التوقيع والتوقيعات بخذف المضاف إليه . ثم هو على نوعين .

النوع الأول

قلم التوقيع المطلق

وهو الذي يكتب به في قَطْع الثلث، وقد تقدم أن أول من اخترعه يوسف أخو إبراهيم الشجري، وأن ذا الرياستين: الفضل بن هارون أُعْجِب به، وأمر أن تحزركتابه السلطانية به دون غيره وسماه القلم الرياسي، ولعله إنما سمي الرياسي لما تقدم من اختصاص الكتب السلطانية به أخذًا من الرياسة؛ وقواعد حروفه وأوضاعه في الأصل قواعد قلم الثلث إلا أنه يخالفه في أمور .

أحدها - أن قَطَّته إلى التدوير أميل ، بخلاف الثلث فإن قَطَّته إلى التحريف أميل . وذلك أن التوقيع أمتلاء حروفه على السواء بخلاف الثلث ، فإن فيه تشعيرات تحتاج إلى التحريف .

الثانى - أن حروفه إلى التقوير أميل من الثلث ، وإن كان فى الثلث ميل إلى التقوير فإنه لا يبلغ فى ذلك مبلغ التوقيع .
قال لى الشيخ عبد الرحمن المَكْتَبُ^(١) الشهير بـ بن الصائغ : ويكون فى سطره تقوير ما على نسبة تقوير حروفه .

قال الشيخ زين الدين شعبان فى ألفيته : وتكون منتصباته مرسومة كما فى الثلث .
قال لى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ المَكْتَبُ : ويموز ترك الترويس فى بعض حروفه .

قال الشيخ زين الدين شعبان الآنارى : ويخبر فيه بين الطمس والفتح فى العين المتوسطة ، والفاء ، والقاف ، والميم ، والواو ، وعقدة اللام ألف المحققة . وخص الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ طمس العين بالآخرة .

قال الشيخ زين الدين شعبان الآنارى : ويختص من الحروف الزائدة على الثلث ، بالراء المقورة ، والراء البتراء ، والراء المخطوفة ، والواو المقورة ، والواو البتراء ، والواو المخطوفة ، والعين البتراء ؛ وسيأتى ذكرها عند تشكيل الحروف فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(١) قال فى الصحاح للجوهري : والمَكْتَبُ الذى يعلم الكتابة ، قال الحسن : كان الحجاج مَكْتَبًا بالطائف

يعنى معلمها . وفى المصباح كتبت الغلام تكتيبا علمته الكتابة . [فقيه لغتان] .

حرف الألف

مركب

محرف

مشم

مطلق

ا

ا

ا

ا

الباء

مبسوطة

موقوفة

مجموعة

ب

ب

ب

مركبة مبتدأة . مركبة متوسطة

مدغمة مبسوطة

مدغمة مجموعة

ب

ب

ب

مركبة مبسوطة

مركبة موقوفة

ب

ب

الجيم

مجموعة

ح

مسبلة

ح

مرسلة

ح

رتقاء مفردة مجموعة

ح

رتقاء مقوَّرة مسبلة

ح

رتقاء مفردة مرسلة

ح

مركبة متوسطة

ح

رتقاء مبتدأة

ح

مركبة مبتدأة ملوَّزة

ح

مجموعة

ح

مركبة مسبلة

ح

مركبة مختتمة مرسلة

ح

الذال

مركبة مجموعة	مختلصة	مفردة مجموعة
عد	د	ذ
مركبة مشعرة	مركبة مخطوفة	مركبة مختلصة
هد	حذ	عذ

الراء

مفردة مبسوطة	مخطوفة	مقوّرة
ر	ر	ر
مركبة مدغمة	مركبة مبسوطة	مفردة مدغمة
عر	حر	ر
مركبة مجموعة	مفردة مجموعة	
صهر	ر	

السين

مبسوطة

مجموعة

مخسوفة

س س س

مخسوفة

متوسطة

مبتدأة مركبة

ساحس عس

مفردة معلقة

مطرقة مجموعة

مطرقة مبسوطة

عس عس س

مركبة متوسطة معلقة

مركبة مطرقة معلقة

عس حسا

الصاد

مبسوطة

مجموعة

مخسوفة

ص ص ص

مطرقة مخسوفة

متوسطة

مبتدأة

صا صا صا

مطرقة مبسوطة

مطرقة مجموعة

ص ص

الطاء

مركبة ملفوفة

مفردة موقوفة

مفردة مرسلة

طا ط ط

مبتدأة مبسوطة

متوسطة لقائمين

متوسطة لمبسوطين

طس طس لطا سطا

مطرقة موقوفة

مطرقة مرسلّة

وط و ط

العين

مرسلّة

مسبلة

مجموعة

نعلية بينها منتصب

ع ع ع ع

نعلية بينها ما هو في حكم المنتصب

صادية بينها مبسوط

صادية بينها ما هو في حكم المبسوط

ع ع ع ع ع

مولفة مع الإفراد

مولفة مع التركيب

بـتراء

ماع صالما حم

الفاء

بمجموعة

موقوفة

مبسوطة

ف

ف

ف

مبتدأة

متوسطة

متطرفة مجموعة

فر

فر

فر

مطرفة موقوفة

مطرفة مبسوطة

ف

ف

القاف

مفردة مجموعة محسوفة مبسوطة
ف ف ف

مطرقة مجموعة مطرقة محسوفة مطرقة مبسوطة
ح ح ح

الكاف

مجموعة مفردة موقوفة مبسوطة
ك ك ك

مشكولة مبتدأة متوسطة مبسوطة مبتدأة
كا مكف كبا

وسطى

مشكولة مبتدأة

متوسطة

ملكه كهف هلك

مبسوطة

منزول عليها

مشكولة مركبة مطرفة مجموعة بزورقها

اسك عك حل

اللام

يخرج منها قاف على طريقة يا قوت

يخرج منها نون على رأى ابن البواب

مفردة

ل لى لى

مطرفة

وسطى

مركبة مبتدأة

أوباء على طريقة ابن العفيف

لى لى لى لى

الميم

مبتدأة مشعرة

مسبلة

مخطوفة

مفردة

م م م م

مسبلة ملوزة

مسبلة ملفوفة

وسطى محققة

وسطى مقلوبة

م م م م

النون

وسطى

مختلصة

مدغمة

مفردة مجموعة

ن ن ن ن

مختلصة

مدغمة

مركبة مطرفة مجموعة

ن ن ن ن

الهاء

مركبة مبتدأ متوزة

هلا

مفردة مثلثة

ه

مفردة مربعة

لا

طالعة

هلا

مدغمة

هها

وجه المر

هه

مردوفة

ههه

محفقة

ههه

محدودة

ههه

مخطوفة

ههه

الواو

مبسوطة مفتوحة

مجموعة مفتوحة

مبسوطة مشدودة

مجموعة مشدودة

و

و

و

و

بـتراء

مخلوطة منوارة

مقوارة

و

و

و

اللام الف

مركبة محققة

مرشوقة مفردة

محققة مفردة

لا لا حلا علا

الياء

راجعة

مركبة

مفردة بمجموعة

ي ي ي

مركبة مبسوطة

مركبة بمجموعة

مبتدأة ثم وسطى

ي ي ي

مركبة مبسوطة

مركبة مخسوفة

مركبة راجعة

ي ي ي

القلم الخامس

من الأقلام المستعملة بديوان الإنشاء

قلم الرِّقَاع

بإضافة قلم إلى الرِّقَاع، والمعنى أنه يُكْتَبُ به في الرِّقَاع جمع رُقْعَةٍ، والمراد الورقة الصغيرة التي تكتب فيها المكاتبات اللطيفة والقِصَص وما في معناها، وهو الذي يكتب به في قَطْع العادة من المنصوري والقطع الصغير، وصُورَه في الأصل كصُور حروف الثلث والرِّقَاع^(١) في الإفراد والتركيب إلا أنه يخالفه في أمور :

أحدها - أن قلمه أميل إلى التدوير من قلم التوقيع الذي هو أميل إلى التدوير من قلم الثلث .

قال لى الشيخ عبد الرحمن بن الصائغ المُكْتَبُ : وتكون جَلْفَةٌ قلمه في البراية أقصر من الثلث والتوقيع .

الثانى - أن حروفه تكون أدقَّ وألطف من حروف التوقيع .

الثالث - أن الترويس لا يقع في متصباته من الألف المفردة وأخواتها إلا في القليل، بخلاف الثلث والتوقيع فإن الترويس فيهما لازم .

الرابع - أنه يغلب فيه الطمس في العين المتوسطة والأخيرة، وكذلك الفاء، والقاف، والميم، والواو، وعقدة اللام ألف المحققة. أما الصاد والطاء والعين المفردة والمبتدأة فإنها لا تكون الا مفتوحة .

الخامس - أنه يوجد فيه من الحروف ما لا يوجد في غيره كالألف المائلة إلى جهة اليمين على ماسياتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

(١) لعل الصواب . والتوقيع .

وهذه صورة حروفه إفراداً وتركيباً

الألف

مطلق مشمر محزف طالع

ا ل ا ما

الباء

مجموعة مدغمة مفردة مدغمة مبسوطة مفردة موقوفة

ب ب ب ب

ابتداءً . وسطى . مطرفة مطرفة موقوفة مطرفة مبسوطة

ب ب ب

الجسيم

مفردة مجموعة

مفردة مسبلة

مفردة مرسلة

ح

ح

ح

رتقاء مسبلة

رتقاء مجموعة

رتقاء مرسلة

ح

ح

ح

وسطى مفتوحة

وسطى

مبتدأة

لح

ح

حسد

مطرقة مجموعة

مطرقة مسبلة

مطرقة مرسلة

ح

ح

ح

الذال

مشعرة

هد

مخطوفة

د

مختلصة

ذ

مفردة مجموعة

ذ

مخطوفة

مد

مختلصة

عد

مركبة مجموعة

مد

الراء

بترء

ر

مخطوفة

ر

مقورة

ر

مجموعة

ر

مقطوفة

ر

مدغمة

ر

محفقة

ر

السين

مخسوفة

س

معلقة

س

مجموعة

س

متوسطة

س

متدأة

س

مبسوطة

س

معلقة

س

مخسوفة

س

مبسوطة

س

مطرقة مجموعة

س

الصاد

مجموعه

ص

مبسوطه

ص

مخسوفه

ص

أولى مركبة

صد

وسطى مركبة

صم

مطرقة مجموعة

صص

مطرقة مبسوطه

صص

مطرقة مخسوفه

صص

الطاء

مبتدأ

موقوفة

مرسلة

طا

ط

ط

مطرقة موقوفة

مطرقة مرسلة

متوسطة

عط

حط

حط

العين

مجموعة

مسبلة

مرسلة

ع

ع

ع

متوسطة

مبتدأ صادية

مبتدأ نعلية

عاد

ع

عا

مطرقة مجموعة

مطرقة مسبلة

مطرقة مرسلة

وع

وع

وع

الفاء

مبسوطة

و

موقوفة

و

مجموعة

و

مطرقة مجموعة

مف

وسطى

معد

أولى مركبة

و

مطرقة مبسوطة

مف

مطرقة موقوفة

مف

القاف

مبتدأة	مبسوطة	مخسوفة	مفردة مجموعة
مر	و	و	و

مبسوطة	مطرقة مخسوفة	مطرقة مجموعة	متوسطة
هو	هو	هو	حص

الكاف

أولى مشكولة	مبسوطة	موقوفة	مجموعة
كلا	ل	ل	ل

مركبة مجموعة	وسطى مشكولة	
لكم	لكم	لكم

أولى مبسوطة

ك

مركبة مقورة

ك

مركبة موقوفة

ك

مشكولة مفصولة

ك

مشكولة موصولة

ك

وسطى مبسوطة

ك

اللام

مبتدأة

ل

مبسوطة

ل

موقوفة

ل

مفردة بمجموعة

ل

موقوفة

ل

مبسوطة

ل

مجموعة مركبة

ل

متوسطة

ل

الميم

مفردة معلقة	مخطوفة	مسبلة	مبتدأة مركبة
مر	مر	م	ما
وسطى مركبة	مطرفة معلقة	مركبة مسبلة	مختتمة محققة
ممر	محر	عم	ممر

النون

مجموعة	مدغمة مجموعة	مدغمة مبسطة
ن	ن	ن
مبسطة	مخسوفة	أولى . وسطى
ن	ن	ن
مجموعة مركبة	مبسطة مركبة	مخسوفة مركبة
ن	ن	ن

الهاء

مدغمة

وجه الهاء

مدورة

مريضة

هدا

هي

ه

لا

محدودة

مشقوقة طولاً

ماوزة

مشقوقة عرضاً

مس

ها

هن

حها

مختلطة

مختلطة

محققة

وه

و

ود

الواو

مبسوطة مركبة

مجموعة مركبة

مبسوطة مفردة

مجموعة مفردة

عو

فو

و

و

اللام ألف

مرفلة

فلا

محققة مركبة

حلا

مفردة

لا

محققة مفردة

لا

الياء

مبتدأه . وسطى

د

راجعة

د

مخسوفة

د

مجموعة مفردة

د

راجعة مركبة مختمة

د

مخسوفة مركبة

د

مجموعة مركبة

د

وهذه الصورة المصطلح عليها الآن : (وقد أجازوا فيها الفتح والطمس جميعاً)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 قَالَ الْأَمِيرُ الْمُؤْمِنُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
 الْمَعْرُوفُ قُرُوصٌ وَالْأَيُّمُ دُرُودٌ وَمَنْ تَوَانَى
 عَرَفَ نَفْسَهُ ضَاعَ وَمَنْ قَاهَرَ الْحَقَّ قَهَرَ وَالسَّلَامُ

الجملة السابعة

(في كتابة البسملة)

وبيان صورتها في كل قلم من الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء، وفيها مهيعان

المهيع الأول.

(في ذكر قواعد جامعة للبسملة في جميع الأقلام، وتشتمل على ثمان قواعد)

الأولى - قد اتفق الكُتَّابُ على تطويل باء البسملة أكثر مما يطول به غيرها من الباءات التي في أول الكلمة . وسيأتي في الكلام على البسملة في المقالة الثالثة أنها طوّلت بدلا من الألف المحذوفة بينها وبين السين لكثرة تكرارها . وقد ذكر بعض المصنِّفين في الخط أنها تكون بمقدار ثلثي ألف ذلك الخط .

وقد سبق القول على مقدار ألف كل قلم فيما تقدم، وهذا أصل يترتب عليه غيره .

الثانية - في البسملة خمس أخوات متساويات في الطول والانتصاب، وهي:

ألف الجلالة، والألف واللام من الرحمن، والألف واللام من الرحيم، فكُلُّها على

مقدار واحد، وقد سبق .

الثالثة - فيها أربع أخوات متساويات في الإرسال: وهى إرسالَةُ الميم من بسم وإرسالَةُ الراء من الرحمن، وإرسالَةُ الراء من الرحيم، وإرسالَةُ الميم من الرحيم .

الرابعة - فيها أربع أخوات متساويات في الضوء: وهى الميم من بسم، والهاء من الجلالة، والميم من الرحمن، والميم من الرحيم .

الخامسة - فيها أختان متناسبتان في المقدار: وهما الهاء من الرحمن، والحاء من الرحيم .

السادسة - أن لامات الجلالة تكون موازيةً من أعلاها للباء في أول البسملة إلا أن اللام الثانية من لامات الجلالة تكون أخفض من اللام الأولى بيسير .

قال ابن عبد السلام في الميزان: بحيث لا يُدرك ذلك إلا بتأمل . والذي ذكره الشيخ زين الدين الآنارى أنها تكون ناقصة عنها بقدر نُقْطَة (يعنى من نُقْط قلم كتابتها) وتكون الهاء أخفض من اللام الثانية مثل ذلك .

السابعة - أن يكون بين الباء والسين قدر رُبْعِ أَلِفٍ من أَلِفَاتِ ذلك الخط، وتكون أسنان السين منها محدّدة الأطراف، ويكون الأخذ من كل سِنَّ من أسنان السين من أعلاها آخذاً فيها إلى أسفل مع التساوى من الأعلى وكذا من الأسفل، بحيث إنه إذا خُطَّ خُطٌّ من أسفل الباء إلى آخر السين لاصق بهما وقع على الاستقامة، ثم يأخذ في مد السين من أعلى السنة الأخيرة منها، وتكون أصابعه مقدّمة وكُلُوَّة يده مؤخّرة .

الثامنة - أن يكون البسط بين اللام الأولى والثانية منخسفاً لمستوياً، وكذلك ما بين اللام الثانية والهاء .

المهيج الثانى

(فى بيان صورة البسمة فى كل قلم من الأقلام التى تستعمل
فى ديوان الإنشاء)

قد تقدم أن الأقلام التى تستعمل فى ديوان الإنشاء مما يكتب به كُتَّابُه ستة أقلام
وهى : مختصر الطومار، وقلم الثلث الثقيل والخفيف، وقلم التوقيعات، وقلم الرقاع،
وقلم الغبار، إلا أن المحقق لا بسمة له فى ديوان الإنشاء : لأنه إنما يستعمل فى كتابة
طغرة كتاب على ما تقدم ذكره، ولا بسمة للطغرة .

اللهم إلا أن يكتب مختصر الطومار على طريقة المحقق فتكتب البسمة فيه على
طريقة المحقق، بخلاف قلم الغبار فإنه يكتب به فى الملقطات فيحتاج إلى البسمة
وإن لم يحتج إليها فى البطائق .

ولتعلم أن صورة البسمة فى هذه الأقلام تختلف ما بين صورة واحدة لكل
قلم فأكثر . وقد ذكر صاحب العناية الزبانية صوراً من ذلك : وأنا أوردتها على
الترتيب إن شاء الله تعالى .

فأما بسمة قلم مختصر الطومار، فقد تقدم أن طريقته طريقة الطومار، وأن الطومار
تارة يكتب على طريقة المحقق وهو الأكثر، وتارة يكتب على طريقة الثلث، وعليه
عمل كُتَّاب الإنشاء، وربما عملوا على طريقة المحقق؛ وحينئذ إن كان المكتوب
على طريقة المحقق فبسملته على طريقة المحقق مع امتلاء قلمه على حد قلم مختصر
الطومار على ما تقدم بيانه .

وهذه صورة بسملته

لس
ال

على طريقة الثلث

بسم الله
هم

وأما قلم الثلث الثقيل وقلم الثلث الخفيف فطريتهما واحدة لا خُلفَ بينهما إلا في رِقَّةِ القَمِّ وغلظته على ما تقدم بيانه في الكلام على أصل الأقلام.
وللبسمة فيهما ثلاثُ صور.

الصورة الأولى - أن تكون الراء في الرحمن وفي الرحيم محسونة؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثانية - أن تكون الراء فيها مجموعة والنون في الرحمن مجموعة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثالثة : أن تكون الراء فيهما مدعومة والنون في الرحمن مدعومة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما بسملة قلم التوقيع فلها ثلاث صور :

الصورة الأولى - مختصرة من قلم الثلث فتكون كهي ، إلا أنها أدق قلما منها ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثانية - أن تكون الحاء في الرحمن مقبولة وفي الرحيم مألوفة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثالثة - أن تكون الحاء في الرحمن والرحيم مقبولة ؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما بسملة قلم الرقاع، فإن السين تكون فيها بالتدرج، كل سنّ دون التي قبلها
 بيسير؛ والكاتب فيها غير بين وصل أسنانها وفصلها فصلاً يسيراً . وقد أصطلحوا
 على أن تكتب الألف التي قبل الجلالة فيها متصلةً بيم بسم، وتكون مثل الألف
 والصاعد في قلم الرقاع، ثم يجعل لها ذيلٌ وتُوصَلُ بالجلالة؛ ولها ثلاث صور .
 الصورة الأولى - أن تكون الراء فيها مدغمة، والحاء في الرحمن والرحيم مقلوبة؛

وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثانية - أن تكون الراء فيها مدغمة والحاء رتقاء؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الصورة الثالثة - أن توصل الألف بالجلالة من أعلاها؛ وهذه صورتها :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وأما بسملة الغبار^(١)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) لعله فلها صورة واحدة وهي هذه .

الجملة الثامنة

(في وجوه تجويد الكتابة وتحسينها ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(حسن التشكيل)

قال الوزير أبو علي بن مقلة : وتحتاج الحروف في تصحيح أشكالها إلى خمسة أشياء :

الأول - التوفية ؛ وهي أن يؤتى كل حرف من الحروف حظه من الخطوط التي يركب منها : من مقوس ومُنحنٍ ومُنسطح .

الثاني - الإتمام ؛ وهو أن يعطى كل حرف قسمته من الأقدار التي يجب أن يكون عليها : من طول أو قصر أو دقة أو غلط .

الثالث - الإكمال ؛ وهو أن يؤتى كل خط حظه من الهيئات التي ينبغي أن يكون عليها : من انتصاب ، وتسطيح ، وأنجاب ، واستلقاء ، وتقويس .

الرابع - الإشباع ؛ وهو أن يؤتى كل خط حظه من صدر القلم حتى يتساوى به فلا يكون بعض أجزائه أدق من بعض ولا أغلظ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف من الدقة عن باقية مثل الألف والراء ونحوهما .

الخامس - الإرسال ؛ وهو أن يرسل يده بالقلم في كل شكل يجري بسرعة من غير احتباس يُضرسه ولا توقّف يرعشه .

الضرب الثاني

(حسن الوضع)

قال الوزير: ويحتاج إلى تصحيح أربعة أشياء .

الأول - التصریف؛ وهو وصل كل حرف متصل إلى حرف .

الثاني - التأليف؛ وهو جمع كل حرف غير متصل إلى غيره على أفضل ما ينبغي

ويحسن .

الثالث - التسطير؛ وهو إضافة الكلمة إلى الكلمة حتى تصير سطرا منتظما

الوضع كالمسطرة .

الرابع - التنصیل؛ وهو مواقع المدّات المستحسنة من الحروف المتصلة .

وأعلم أن المدّ في الخطّ قديم، فقد حكى أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب":

أن أهل الأنبار كانوا يكتبون المشق . وكأنه يريد أنهم كانوا على ذلك في القديم،

فقد تقدم أن أول ما تعلم أهل الحجاز الخطّ من أهل الأنبار . على أن صاحب

"موادّ البيان" قد حكى أن جماعة من المحرّرين كانوا يكرهون المشق لإفساده خطّ

المبتدئ ودلالته على تهاون المنتهى .

قال : ولذلك كرهوا كتابة البسملة بغير سين مبيّنة ثم صارت كراهة ذلك سنة

وعرفا . والذي عليه حدّاق المحرّرين استعمال المدّ .

قال في "موادّ البيان" وهذه المدّات تستعمل لأمرين: أحدهما أنها تحسّن الخطّ

وتفتّحه في مكان كما يحسّن مدّ الصوت اللفظ ويفخّمه في مكان . الثاني أنها ربما

أوقعت ليم السطر إذا فضل منه مالا يتسع لحرف آخر: لأن السطر ربما ضاق

عن كلمتين وفضل عن كلمة فتمدّ التي وقعت في آخر السطر لتقع الأخرى في أول

السطر الذي يليه .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : مواضع المدِّ أواخر السطور ، وتكره إذا كانت سينا مدغمة .

قال في "مواد البيان" : فيجب على الكاتب أن يعرف أحكامها لئلا يوقعها في غير المواضع اللاتقة بها فيشتبه الحرف بغيره ويفسد المعنى ، مثل أن يوقع المد في متعلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستعلم ، أو يوقع المد في متسلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستسلم . ثم قال : وبالجمله فالكلمة الأصلية أسما كانت أو حرفا أو فعلا لا تخرج عن أربعة أصناف :

الصنف الأول

(الثنائية)

وهي إما أسماء مضاعفة أو أفعال أو حروف .

فالأسماء : نحو ندّ، وضر، وسرّ، وشرّ، وظلّ، وظلّ، وما أشبه ذلك .

والأفعال : نحو قُلْ، وكُلْ، وقُمْ، وعدّ، وتمّ، وسرّ، ونحو ذلك .

والحروف : نحو هل ، وبل ، وقط ، وقد ، ومد ، وعن ، ولو ، ولم ، ومن ، وما ،

وما يجري مجرى ذلك .

فأما الأسماء والأفعال الثنائية فقد ذكر في "مواد البيان" : أنه لا يحسن المد في شيء

منها إلا في سرّ، وشرّ، من الأسماء وسر من الأفعال لأن السين أو الشين وإن كان

كل منهما حرفا على حياله في صورة ثلاثة أحرف .

قال : وقد يحسن في نحو ظل ، وظلّ ، في بعض المواضع .

وأما الحروف الثنائية فقد ذكر في "مواد البيان" : أنه لا يحسن المد فيها .

وحكى صاحب "منهاج الإصابة": أن بعض الكتاب كان يمدّ في أواخر السطور مثل ماء، وهل، وعن . ثم حكى عن أبي القاسم بن خلوف : أن ذلك لا يجوز في عن في أول السطر ولا في آخره .

الصنف الثاني

(الثلاثية)

قال في "مواد البيان": والمدّ فيها على الأكثر قبيح لأنها لا تنقسم بقسمين متساويين . قال : ومنها ما يُسمَح في مدّه للضرورة كما إذا وقع في آخر سطر يحتاج إلى التتميم فيمدّ كبيع وقطع ونحوهما . وعلى نحو من ذلك جرى صاحب "منهاج الإصابة" ثم قال : ويجوز أن تمدّ إذا كان ثالثها ألفا أو لاما .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : كان والدى يمدّ في الكلمة الثلاثية إذا كان أولها الجيم وأختاها، والطاء، والسين، والعين . قال في "مواد البيان": وينبغي إذا مدّ أن يُقدّم الحرفان الأولان وتوضع المدة بينهما وبين الثالث . أما عسى، ومتى، وفقى، ونحوها فانها لا تحتمل المدّ بحال .

الصنف الثالث

(الرباعية نحو محمد وجعفر)

قال أبو القاسم بن خلوف : والمدّ فيه جائز بل المدّ فيه أحسن من القصر . قال في "مواد البيان": ولا يجوز أن يقدم منها ثلاثة أحرف ويوقع المدة بينها وبين الحرف الرابع ولا بالعكس بل يوقع المدّ بين الحرفين الأولين والحرفين الآخرين فقط . قال : على أن منها ما لا يحسن المدّ فيه نحو تغلب، وخبير، ونمير .

الصنف الرابع

(النجاسية)

نحو : مشتمل ، ومستقل ، ومسيطر ، ومهيمن .

وقد اختلف علماء الخط فيه على مذهبين : فذهب صاحب "مواد البيان" إلا أن المدَّ فيها لا يحسن ، فإنها لا تنقسم بقسمين متساويين كما في الثلاثية ، وذهب أبو القاسم بن خلوف إلى أن المدَّ فيها لازم ، لا يجوز تركه . ثم إذا مدَّ فالذى ذكره في "مواد البيان" أن الأحسن أن يُقدّم حرفين ويُوَقِّع المدَّ بينهما وبين الثلاثة الأحرى الأخر .

أما ما كان زائدا على خمسة فقد ذكر صاحب "العناية الربانية" أنه يُرجع فيه إلى الأصول . ويعتبر من السُداسي^(١) فإنه مدَّ فيما بعد السين من مسلمون وبعد التاء من معتبر .

قال في "مواد البيان" : ويصح المدُّ فيما جاء من الأسماء والأفعال والحروف موصولا بضمير كناية مثل ، كتبه ، وعلمته ، وفيه ، ومنه ، وعليه ، وإليه ، إذا وقعت المدَّة بين تمام الكلمة والضمير .

قال : ومَشَقَّ السين يُحسِّن الخطَّ في بعض المواضع ، ويقبَحُ إذا وقعت طرفا نحو مَشَقَّ السين من العباس والحواس ، وأقبِحُ من ذلك مشقُّها إذا كانت موصولة بحرف واحد يتقدِّمها نحو يَأْسُ ، وعانس ، وجالس ، وناعس . وإذا توالى سينان أو سين وشين ، فالأحسن أن يفصل بينهما في الخط المحزَّر بمَدَّة لطيفة نحو مَسَسْتُ وغَشَشْتُ ورَشَشْتُ .

(١) لعل الصواب من الثلاثي بالتاءين المثبتين .

قال أبو القاسم بن خلوف : ومن الحروف ما لا يحسن المدُّ بعده إذا كان مبتدأ وهو الباء وأختها، والياء، والفاء، والقاف، واللام، وأما الكاف المشكولة فإنه لا يجوز مدُّ ما بعدها في ابتداءٍ ولا توسطٍ .

وقد ذكر الشيخ زين الدين شعبان الآنارى في ألفيته حروفاً يجوز مدُّها في مواضع :
أحدها - الباء وأختها، فتمدُّ إذا كان بعدها دال مثل بدر، أو راء مثل بر، أو ميم مثل تم، أو هاء مثل بهز، وأنه ربما مُدَّت إذا كان بعدها لام مثل بل، أو لام ألف مثل بلا .

الثاني - الجيم وأختها، فتمدُّ إذا كان بعدها دال مثل حداد، أو راء مثل حرير، أو ميم مثل حم، أو هاء مثل جهر .
الثالث - السين وأختها، وتمدُّ إذا كان بعدها راء مثل سر، أو ميم مثل سم، أو هاء مثل سهم .

الرابع، والخامس - الصاد وأختها، والطاء وأختها، فلا يجوز مدُّ واحدٍ منها بحال .
السادس - العين وأختها، فتمدُّ إذا كان بعدها دال مثل عد، أو راء مثل عر، أو ميم مثل عم، أو هاء مثل عهن .

السابع، والثامن، والتاسع، والعاشر، والحادي عشر - الفاء، والقاف، واللام، والميم، والهاء، فحكمها حكم العين وأختها في جواز المدِّ فيما تقدم .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ولا يجوز الجمع بين مدتين في كلمة واحدة و"على" تمدُّ إذا كانت الياء معرّقة، فإن كانت راجعة لم يجز المدُّ أصلاً : لأنه يجتمع في كلمة ثلاثية مدتان .

قال في "موادّ البيان" : ويقبَح أن تمدَّ حرفين توالي بينهما في سطر واحد، وأن تُوقِعَ حرفين ممدودين في سطرين : أعلى وأسفل على تقابلي وتخاذٍ .

(١) الكلام فيما يجوز مده فائبات هذا القسم سهو عن المقسم .

- قال السمرى: وإن كان في آخر الكلمة ياء لم يجز المد قبل الياء. قال: ولذلك لا يجوز المد بعد السين في أسم موسى، ولا قبل السين في أسم عيسى^(١).
- قال الآنارى: وأجاز بعضهم مد العين منه بخلاف السين.
- قال ابن العفيف: ولا تُدغم الواو والنون بعد مد أصلا في خفيف ولا ثقيل.
- قال: ولا يحسن إدغام السين بعد الكاف المشكولة، ويجوز بعد اللام والميم.
- قال في "مواد البيان": ويقبح أن تكتب ياءان معطوفتان متقاربتان في سطر واحد.
- قال الشيخ عماد الدين بن الشيرازي: وإذا توالى العراقات وكان فيها الياء وجب أن تكون راجعة إلى ذات اليمين.
- قال ابن أبي ربيعة: سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف: هل يكون ذلك في كل قلم؟ قال نعم! إذا تمكّن الكاتب من وضعها إلا في المحقق فإنه غير جائز.
- قال السمرى: وإن أتت ياءان متقاربتان مثل قول القائل "لى صلى" ردّ ياء الأخرى من الكلمتين دون الأولى، وإن شئت عرّقتهما جميعا، وهو اختيار الوزير ابن مقلة. قال: وتردّ الياء بعد الأنف واللام مثل إلى في خفيف الأقلام دون ثقلها على الأحسن.
- قال الآنارى: وإذا توالى حروف متشابهة كتبت التصير منه مقدّما على الطويل.

(٢) الصنف الخامس

(مراعاة فواصل الكلام)

قال في "مواد البيان": وذلك بأن تميز الفصول المشتمل كل فصل منها على نوع من الكلام عما تقدمه: لتعرف مبادئ الكلام ومقاطعها، فإن الكلام ينقسم فصولا طويلا

(١) كذا في الضوء أيضا والمراد سواء اتصل المد بالياء أو كان قبله في كفته.

(٢) لم يترجم في الضوء بخامس، ولا بسادس، وأقتصر في الترجمة على ما بهما وهو المناسب.

وقصارا، فالطَّوَالُ كتقسيمٍ منشور المترسل إلى رسائله، ومنظوم الشاعر إلى قصائده .
ومثل هذا لا يحتاج إلى تفصيل : لأنه لا يشكل الحال فيه في الرسالة أو القصيدة
بغيرها اتصالاً وأنفصالاً .

والفصول القصار كانتقسام الرسالة إلى الفصول ، والقصيدة إلى الأبيات . ومثل
هذا قد يشكل ، فينبغي أن يُمَيِّزَ تَمِيْزًا يُؤَمِّنُ معه من الاختلاط ، فإن ترتيب الخط
يفيد ما يفيد ترتيب اللفظ . وذلك أن اللفظ إذا كان مرتباً تَخَصَّصَ بعضُ المعاني
من بعض ، وإذا كان مُخَطَّطاً أشكلت معانيه ، وتعذر على سامعه إدراك محموله .
وكذلك الخط إذا كان متميزاً الفُصول ، وصل معنى كلِّ فصل منه إلى النفس على
صورته ، وإذا كان متصلاً دعا إلى إعمال الفكر في تخليص أغراضه .

وقد اختلفت طُرُقُ الكُتَّابِ في فصول الكلام الذي لم يُمَيِّزْ بذكر باب أو فصل
ونحوه . فالنُسخُ يجعلون لذلك دائرة تَفْصِلُ بين الكلامين ، وكُتَّابُ الرسائل يجعلون
للفواصل بياضاً يكون بين الكلامين من سجع أو فصل كلام ، إلا أن بياضَ فَصْلِ
الكلامين يكون في قدر رأس إبهام ، وفصل السجعتين يكون في قدر رأسِ خَنْصَرِ .
قال في "موادِّ البيان" : وينبغي أن لا تكون الجملة في آخر السطر والفاصلة في أول
السطر الذي يليه ، فإنه مُلَبِّسٌ لأنصال الكلام ، بل لا يجعل في أول السطر بياضاً أصلاً
لأنه يقبح بذلك لخروجه عن نسبة السطور ، ولا أن يُفَسِّحَ بين السطر والذي يليه
إفْسَاحًا زائداً عما بين كل سطرين ، ولكن يُرَاعَى ذلك من أول شروعه في كتابة السطر
فيقتدر الخط بالجمع والمشق حتى يخلص من هذا العيب .

الصنف السادس

(حسن التدبير في قطع الكلام ووصله في أواخر السطور وأوائلها)

لأن السطور في المنظر كالفصول، فإذا قطع السطر على شيء يتعلّق بما بعده كان قبيحا، كما إذا كتب بعض حروف الكلمة في آخر السطر وبعضها في أول السطر الذي يليه .

ثم للفصل المستقيم في آخر السطر وأول الذي يليه صنفان :

الصنف الأول

(فصلُ بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض، وتفريقها في السطر والذي يليه) مثل أن تقع معه لفظة "كتاب" في آخر السطر، فيكتب الكاف والتاء والألف في آخر السطر والباء في أول السطر الذي يليه؛ أو يقع في آخر السطر لفظ "مسرور" فيكتب الميم والسين والراء فيه والواو والراء الثانية في أول السطر الذي يليه ونحو ذلك .

قال في "موادّ البيان" : وهو قبيح جداً لأنه لا يجوز فصل الأسم عن بعضه . قال : وأكثر ما يوجد ذلك في مصاحف العامة وخطوط الورّاقين ؛ والحامل لهم على ذلك في الغالب هو ضيق آخر السطر عن الكلمة بكاملها؛ ومن هنا أحتاج الكاتب إلى النظر في ذلك بالجمع والمشتق من حين شروعه في كتابة أول السطر على ما تقدّم . قال صاحب "منهاج الإصابة" : وإنما وقع مثل ذلك في المصاحف التي كتبت في زمن أمير المؤمنين : عثمان بن عفان رضي الله عنه لأنها كتبت بقلم جليل مبسوط، وربما وقع في بعض الأماكن اللفظة فيقطعها في آخر السطر ويجعل باقية في السطر الثاني .

وعلى ذلك حمل ما روى أن عثمان رضى الله عنه . قال : ” إنَّ في المصحفِ لحنًا سقيمُهُ العربُ بألسنتِها “ إذ لا جائز أن يكون ذلك لحنًا في اللفظ فقد أجمع الصحابة رضوان الله عليهم على أن ما بين دفتي المصحف قرءانٌ ، ومحالٌ أن يجتمعوا على لحن . على أن هذه الرواية غير مشهورة عن عثمان رضى الله عنه كما أشار إلى ذلك الشاطبي بقوله في الرائية :

وَمَنْ رَوَى سَقِيمُ الْعُرْبِ أَلْسِنَهَا * لَحْنًا بِهِ قَوْلَ عُمَانَ فَمَا شُهِرَا

الصنف الثاني

(فصل الكلمة التامة وصلتها)

مثل ان يكتب ”وصل كتابك وأيدك الله“ مفصلات ، فيكتب ”وصل“ في آخر السطر و”كتابك“ في أول الذى يليه ، أو يكتب ”أيدك“ في آخر سطر وأسم ”الله“ تعالى في أول الذى يليه ، وما جرى مجرى ذلك .

قال في ”مواد البيان“ : والأحسن نجبته إذا أمكن ، فإن لم يمكن فيتجنب القبيح منه ، وهو الفصل بين المضاف والمضاف إليه : كعبد الله و غلام زيد وما أشبه ذلك : لأنَّ المضاف والمضاف إليه بمنزلة الأسم الواحد ، والفصل بين الأسم وما يتلوه في النسب : كقولك زيد بن محمد ، فلا يجوز أن يفصل بين الأسم والمنسوب إليه كما لا يجوز أن يفصل بين المضاف والمضاف إليه . قال : فإن كان المراد بلفظة ابن تثبيت البتوة كقولك لزيد ابن جاز قطع الابن عما تقدمه . وكأنه إنما امتنع ذلك لأن زيد لا يستقل بنفسه فلا يدخله لبس بخلاف غلام زيد ونحوه . ثم قال : ومما يقبح فصله الفصل بين كل اسمين جعلاً أسماً واحداً نحو حضرموت ، وتأبط شراً ، وذى يزن ، وأحد عشر .

قلت : وباب الخط وأقلامه وحسن تدييره متسع لا يسع أستيفاؤه .

الفصل الثالث

من الباب الثاني من المقالة الأولى

(في لواحق الخط، وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في النقط، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(في ميسس الحاجة إليه)

قال محمد بن عمر المدائني : ينبغي للكاتب أن يعجم كتابه، ويبيّن إعرابه، فإنه متى أعراه عن الضبط، وأخلاه عن الشكل والنقط، كثّر فيه التصحيف، وغلب عليه التحريف . وأخرج بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنه أنه قال "لكل شيء نور، ونور الكتاب العجم" . وعن الأوزاعي نحوه .

وقال أبو مالك الحضرمي : أي قلم لم تعجم فصوله، استعجم محموله . ومن كلام بعضهم "الخطوط المعجمة، كالبرود المعلمة" .

ثم قد تقدّم في الكلام على عدد الحروف أن حروف المعجم تسعة وعشرون حرفاً، وقد وضعت أشكالها على تسعة عشر شكلاً . فمنها ما يشترك في الصورة الواحدة منه الحرفان : كالذال والذال، والراء والزاي، والسين والشين . ومنها ما يشترك في الصورة الواحدة منه الثلاثة : كالباء والتاء والثاء، والجيم والحاء والحاء . ومنها ما ينفرد بصورة واحدة كالألف . ومنها ما لا يتبس حالة الأفراد، فإذا ركب ووصل بغيره التيس : كالنون والقاف، فإن النون في حالة الأفراد منفردة بصورة،

فإذا رُكِّبت مع غيرها في أول كلمة أو وَسَطَها، آسْتَمِيت بالبَاء وما في معناها، والقاف إذا كانت منفردة لا تلتبس، فإذا وصلت بغيرها أولاً أو وسطاً التبتست بالفاء، فاحتيج إلى مميِّزٍ يميِّز بعض الحروف من بعض : من نقط أو إهمال ليزول اللبس، ويذهب الاشتراك .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : ولذلك ينبغي أن القاف والنون إذا كتبا في حالة الإفراد على صورتها الخاصة بهما لا يُنْقَطَان، لأنه لا شبه بينهما ولا يُشبهان غيرهما، فيكونان إذ ذاك كالكاف واللام . قال : ومنع بعض مشايخنا الاشتراك في صورة الحروف . وقال : الصورة والنقط مجموعهما دالٌّ على كل الحرف ؛

إذا تقرّر ذلك فالتقط مطلوب عند خوف اللبس، لأنه إنما وُضِعَ لذلك ؛ أما مع أمن اللبس فالأولى تركه لئلا يُظلم الحَطُّ من غير فائدة .

فقد حكى أنه عُرِضَ على عبدالله بن طاهر خطُّ بعض الكُتَّاب فقال ما أحسنه ! لولا أنه أكثر شؤنيه .

وقد حكى محمد بن عمر المدائني أن جعفرًا المتوكل كتب إلى بعض عمّاله أن أحص من قبلك من المدنيين وعرفنا بمبلغ عددهم، فوقع على الحاء نقطة بجمع العامل من كان في عمله منهم وخصّاهم فماتوا غير رجلين أو واحد .

وقد حكى المدائني عن بعض الأدباء أنه قال : كثرة النقط في الكتاب سوء ظنٌّ بالمتكوب إليه .

أما كُتَّاب الأموال فإنهم لا يرون النقط بحال ؛ بل تعاطيه عندهم عيبٌ في الكتابة .

الجملة الثانية

(في ذكر أول من وضع النقط)

قد تقدّم في الكلام على وضع الحروف العربية أن أول من وضع الحروف العربية ثلاثة رجال من قبيلة بولان على أحد الأقوال . وهم : مُرَار بن مُرَّة^(١) ، وأسلم ابن سُدرة ، وعامر بن جَدرة ، وأن مرارا وضع الصور ، وأسلم فصل ووصل ، وعامرا وضع الإعجام . وقضية هذا أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف .

وقد روى أن أول من نَقَطَ المصاحف ووضع العربية أبو الأسود الدؤلي من تلقين أمير المؤمنين : "على كرم الله وجهه" . فإن أريد بالنقط في ذلك الإعجام ، فيحتمل أن يكون ذلك ابتداء لوضع الإعجام ، والظاهر ما تقدّم ، إذ يبعد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عربيّة عن النقط إلى حين نَقَطَ المصحف .

وقد روى أن الصحابة رضوان الله عليهم جردوا المصحف من كل شيء حتى من النقط والشكل . على أنه يحتمل أن يكون المراد بالنقط الذي وضعه أبو الأسود الشكل على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الجملة الثالثة

(في بيان صورة النقط ، وكيفية وضعه)

قال الوزير أبو علي بن مقلة رحمه الله : ولننقُط صورتان : إحداهما شكلُ مربعٍ والأخرى شكلُ مستدير .

قال : وإذا كانت نقطتان على حرف ، فإن شئت جعلت واحدة فوق الأخرى ، وإن شئت جعلتهما في سطرين معاً ، وإذا كان يجوار ذلك الحرف حرفٌ يُنقَط لم يجز أن يكون النقط إذا اتسعت إلا واحدة فوق الأخرى ، والعلة في ذلك أن النقط إذا كُنَّ

(١) تقدّم التنبيه عليه .

في سطر خرجن عن حروفهن فوق اللبس في الأشكال، فإذا جعل بعضها على بعض كان على كل حرف قسطه من النقط فزال الإشكال .

قلت : وإذا كان على الحرف ثلاث نُقط ، فإن كانت ثاء جعلت واحدة فوق اثنتين، وإن كانت شينا فبعض الكُتاب ينقطه كذلك ، وبعضهم ينقطه ثلاث نقط سطرًا، وذلك لسعة حرف الشين بخلاف الثاء المثلثة .

أما السين إذا تقطت من أسفلها فإنهم يتقطنها ثلاثة سطرًا واحدًا .

الجملة الرابعة

(فيما يختص بكل حرف من النقط وما لا تقط له)

قد تقدم أن حروف المعجم ثمانية وعشرون حرفًا سوى اللام ألف، وإن ذلك على عدد منازل القمر الثمانية والعشرين، وأن المنازل أبدأ منها أربعة عشر فوق الأرض، وأربعة عشر تحت الأرض، ثم إنه لا بد أن يبقى مما فوق الأرض منزلة مختفية تحت الشفق، فكانت الحروف المتوسطة خمسة عشر حرفًا بعدد المنازل المختفية : وهي الأربعة عشر التي تحت الأرض، والواحدة التي تحت الشعاع، إشارة إلى أنها تحتاج إلى الإظهار لأختفائها : وهي الباء، والتاء، والثاء، والجيم، والحاء، والذال، والزاي، والشين، والضاد، والطاء، والغين، والفاء، والقاف، والنون، والياء، وآخر الحروف .

وكانت الحروف العاطلة ثلاثة عشر بعدد المنازل الظاهرة : وهي الألف، والحاء، والذال، والراء، والسين، والضاد، والطاء، والعين، والكاف، واللام، والميم، والهاء، والواو .

فأما الألف فإنها لا تُنْقَطُ لِأَنفِرَادِهَا بِصُورَةٍ وَاحِدَةٍ، إِذْ لَيْسَ فِي الْحُرُوفِ مَا يُشَبِّهُهَا فِي حَالَتِي الْإِفْرَادِ وَالتَّرْكِيبِ .

وَأَمَّا الْبَاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ مِنْ أَسْفَلٍ لِتُخَالِفِ التَّاءَ الْمُثَنَاءَ مِنْ فَوْقٍ، وَالتَّاءَ الْمُثَلَّثَةَ فِي حَالَتِي الْإِفْرَادِ وَالتَّرْكِيبِ، وَالياءَ الْمُثَنَاءَ مِنْ تَحْتٍ، وَالنُّونَ فِي حَالَةِ التَّرْكِيبِ أَبْتَدَاءً أَوْ وَسَطًا وَنُقِطَتْ مِنْ أَسْفَلٍ لِثَلَاثِ تَلْتَبَسُ بِالنُّونِ حَالَةَ التَّرْكِيبِ .

وَأَمَّا التَّاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِأَثْنَتَيْنِ مِنْ فَوْقٍ لِتُخَالِفَ مَا قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَهَا مِنَ الصُّورَتَيْنِ فِي حَالَةِ الْإِفْرَادِ وَتُخَالِفُهُمَا مَعَ الْيَاءِ وَالنُّونِ حَالَةَ التَّرْكِيبِ أَبْتَدَاءً أَوْ وَسَطًا .

وَأَمَّا الثَّاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِثَلَاثٍ مِنْ فَوْقٍ لِتُخَالِفَ مَا قَبْلَهَا مِنَ الصُّورَتَيْنِ فِي الْإِفْرَادِ وَتُخَالِفُهُمَا مَعَ النَّونِ وَالْيَاءِ أَيْضًا فِي التَّرْكِيبِ أَبْتَدَاءً أَوْ وَسَطًا .

وَأَمَّا الْجِيمُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ تَحْتٍ لِتُخَالِفِ الصُّورَتَيْنِ بَعْدَهَا .

وَأَمَّا الْحَاءُ فَإِنَّهَا لَا تُنْقَطُ، وَيَكُونُ الْإِهْمَالُ لَهَا عَلَامَةً بِهِ، حُدَاقَ الْكُتُبِ يَجْعَلُونَ لَهَا عَلَامَةً غَيْرَ النُّقْطَةِ: وَهِيَ حَاءٌ صَغِيرَةٌ مَكَانَ النُّقْطَةِ مِنَ الْجِيمِ .

وَأَمَّا الْخَاءُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَعْلَاهَا لِتُخَالِفِ مَا قَبْلَهَا: مِنَ الْجِيمِ وَالْحَاءِ .

وَأَمَّا الدَّالُ فَإِنَّهَا لَا تُنْقَطُ وَلَا تَعَلَّمُ، وَيَكُونُ تَرْكُ الْعَلَامَةِ لَهَا عَلَامَةً .

وَأَمَّا الذَّالُ فَتُنْقَطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ فَوْقٍ فَرَقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ أُخْتِهَا .

وَأَمَّا الرَّاءُ فَإِنَّهَا لَا تُنْقَطُ وَلَا تَعَلَّمُ، وَيَكُونُ الْإِهْمَالُ لَهَا عَلَامَةً .

وَأَمَّا الزَّايُ فَإِنَّهَا تُنْقَطُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ فَوْقٍ فَرَقًا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الرَّاءِ .

وَأَمَّا السَّيْنُ فَإِنَّهَا لَا تُنْقَطُ، وَتَكُونُ عَلَامَتُهَا الْإِهْمَالُ كَعِزِّهَا؛ وَبَعْضُ الْكُتَّابِ

يُنْقِطُهَا بِثَلَاثِ نُقُطٍ مِنْ أَسْفَلِهَا .

وأما الشين فإنها تُنْقَطُ بثلاث من فوق فَرَقًا بينها وبين أختها، فإن كانت مدغمة فلا بد من جَرَّة فوقها؛ ثم إن كانت محققة فاللائق التأسيس بنقطتين وجعل نقط ثالث من أعلاهما؛ وإن كانت مدغمة فالأولى جعل الثلاث نقط سطرًا واحدًا .
وأما الصاد فإنها لا تنقط؛ نعم حُدِّقَ الكُتَّاب يجعلون لها علامة كالحاء، وهي صاد صغيرة تحتها .

وأما الضاد فإنها تنقطُ بواحدة من أعلاها فَرَقًا بينها وبين أختها .
وأما الطاء فإنها لا تُنْقَطُ لكن لها علامة كالصاد والحاء، وهي طاء صغيرة تحتها .
وأما الظاء فإنها تنقطُ بواحدة من فوقها فَرَقًا بينها وبين أختها .
وأما العين فإنها لا تُنْقَطُ، ولها علامة كالحاء، والصاد، والطاء، وهي عين صغيرة في بطنها .

وأما الغين فإنها تنقطُ بواحدة فَرَقًا بينها وبين أختها .
وأما الفاء فمذهب أهل الشرق أنها تنقط بواحدة من أعلاها، ومذهب أهل الغرب أنها تنقط بواحدة من أسفلها .
وأما القاف فلا خلاف بين أهل الخط أنها تنقط من أعلاها إلا أن من نقط الفاء بواحدة من أعلاها نقط القاف بأثنين من أعلاها ليحصل الفرق بينهما، ومن نقط الفاء من أسفلها نقط القاف بواحدة من أعلاها .

وقد تقدم من كلام الشيخ أمير الدين أبي حيان رحمه الله عن بعض مشايخه: أن القاف إذا كتبت على صورتها الخاصة بها ينبغي أن لا تُنْقَطُ إذ لا شبهة بينهما وذلك في حالتى الأفراد والتطرف أخيرا .

وأما الكاف فإنها لا تنقط، إلا أنها إذا كانت مشكولة علمت بشكلة، وإن كانت معرفة رسم عليها كاف صغيرة مبسوطة لأنها ربما ألتبست باللام .

وأما اللام فإنها لا تُنقط ولا تعلم، وترك العلامة لها علامة .

وأما الميم فإنها لا تنقط ولا تعلم أيضا لأنفرادها بصورة .

وأما النون فإنها تنقط بواحدة من أعلاها، وكان ينبغي اختصاص النقط بحالة التركيب ابتداءً أو وسطاً لانتباسها حينئذ بالباء، والتاء، والياء أوائل الحروف، والياء آخر الحروف؛ بخلاف حالة الإفراد والتطرف في التركيب أخيراً فإنها تختص بصورة فلا تلتبس كما أشار إليه الشيخ أمير الدين أبوحيان رحمه الله، إلا أنها غلبت فيها حالة التركيب فروعيت .

وأما الهاء فإنها لا تنقط بجميع أشكالها، وإن كثرت؛ لأنه ليس في أشكالها ما يلتبس بغيره من الحروف .

وأما الواو فإنها لا تنقط وإن كانت في حالة التركيب تقاربُ الفاء، وفي حالة الإفراد تقارب القاف : لأن الفاء لا تشابهها كل المشابهة ، ولأن القاف أكبر مساحةً منها .

وأما اللام ألف فإنها لا تنقط لأنفرادها بصورة لا يشابهها غيرها .

وأما الياء فإنها تنقط بنقطتين من أسفلها ، وإن كانت في حالة الإفراد والتطرف في التركيب لها صورة تخصها : لأنها في حالة التركيب في الابتداء والتوسط تشابهُ الباء، والتاء، والياء، والنون، فيحتاج إلى بيانها بالنقط لتغليب حالة التركيب على حالة الإفراد كما في النون، وربما نقطها بعض الكُتّاب في حالة الإفراد بنقطتين في بطنها والله سبحانه وتعالى أعلم .

المقصد الثاني

(في الشكل، وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في أشتقاقه ومعناه)

قال بعض أهل اللغة : هو مأخوذ من شكل الدابة ، لأن الحروف تُضَبَطُ بقيد
 فلا يلتبس إعرابها كما تُضَبَطُ الدابة بالشكال فيمنعها من الهروب . قال أبو تمام :
 ترى الأمر معجوماً إذا كان معجماً * لديه ومشكولاً إذا كان مشكولاً

الجملة الثانية

(في أول من وضع الشكل)

وقد اختلفت الرواية في ذلك على ثلاث مقالات ، فذهب بعضهم إلى أن المبتدئ
 بذلك أبو الأسود الدؤلي : وذلك أنه أراد أن يعمل كتاباً في العربية يقوم الناس
 به مافسد من كلامهم : إذ كان ذلك قد فشا في الناس .

فقال : أرى أن أبتدئ بإعراب القرآن أولاً ، فأحضر من يمسك المصحف ،
 وأحضر صبغاً يخالف لون المداد . وقال للذي يمسك المصحف عليه : إذا فتحتُ
 فإى فاجعل نقطة فوق الحرف ، وإذا كسرتُ فإى فاجعل نقطة تحت الحرف ، وإذا
 ضمنتُ فإى فاجعل نقطة أمام الحرف ، فإن أتبعت شيئاً من هذه الحركات غنة
 (يعنى تنوينا) فاجعل نقطتين . ففعل ذلك حتى أتى على آخر المصحف .

وذهب آخرون : إلى أن المبتدئ بذلك نصر بن عاصم الليثي ، وأنه الذي

نحسها وعشرها .

وذهب آخرون : إلى أن المبتدئ بذلك يحيى بن يعمر .
 قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله : وهؤلاء الثلاثة من جلة تابعي البصريين .
 وأكثر العلماء على أن أبا الأسود جعل الحركات والتنوين لاغير . وأن الخليل
 ابن أحمد هو الذي جعل الهمزة والتشديد عن الروم والإشمام ^(١) .

الجملة الثالثة

(في الترغيب في الشكل والترهيب عنه)

وقد اختلفت مقاصد الكُتَّاب في ذلك ، فذهب بعضهم إلى الرغبة فيه ، والحث
 عليه : لما فيه من البيان والضبط والتقيد .

قال هشام بن عبد الملك : أشكّلوا قرائن الآداب ، لئلا تنبذ عن الصواب .
 وقال عليّ بن منصور : حلّوا غرائب الكلم بالتقيد ، وحصّنها عن شبه
 التصحيف والتحريف .

ويقال : إجمام الكُتُب يمنع من استعجامها ، وشكلها يصونها عن إشكالها ،
 والله القائل :

وكانَّ أَحرفَ خَطِّه شَجَرٌ * والشَّكْلُ في أَغصَانِهِ ثَمَرٌ

وذهب بعضهم إلى كراهته ، والرغبة عنه .

قال سعيد بن حميد الكاتب : لأنَّ يُشكِل الحرف على القارئ أحبُّ إلى من أن
 يُعاب الكاتب بالشكل . ونظر محمد بن عبّاد إلى أبي عبيد وهو يقيد البسمة
 فقال : لو عرفته ما شكنته . وقد جرد الصحابة رضوان الله عليهم المصحف حين
 جمعوا القراءان من النقط والشكل وهو أجدر بهما ، فلو كان مطلوباً لما جردوه منه .

(١) كذا في الأصل .

قال الشيخ أبو عمرو الداني: وقد وردت الكراهة بنقط المصاحف عن عبد الله
آ بن عمر، وقال بذلك جماعة من التابعين .

وأعلم أن كُتَابِ الدِّيُونَةِ لا يَعْرِجُونَ عَلَى النِّقْطِ وَالشَّكْلِ بِحَالٍ، وَكُتَابِ الْإِنشَاءِ
مِنْهُمْ مَنْ مَنَعَ ذَلِكَ مُحَاشَاةً لِلْكَتُوبِ إِلَيْهِ عَنِ نَسْبَتِهِ لِلْجَهْلِ بِأَنَّهُ لَا يَقْرَأُ إِلَّا مَا نُقِطَ
أَوْ شُكِّلَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَدَبَ إِلَيْهِ : لِلضَّبْطِ وَالتَّقْيِيدِ كَمَا تَقَدَّمَ .

والحق التفريق في ذلك بين ما يقع فيه اللبس ويتطرق إليه التحريف لغلقته
أو غرابته وبين ما تسهل قراءته لوضوحه وسهولته .

وقد رخص في نقط المصاحف بالإعراب جماعة: منهم ربيعة بن عبد الرحمن ،
وآ بن وهب . وصرح أصحابنا الشافعية رضي الله عنهم بأنه يُنْدَبُ نَقْطُ الْمَصْحَفِ
وَشُكْلُهُ ؛ أَمَا تَجْرِدُ الصَّحَابَةُ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ لَهُ مِنْ ذَلِكَ فَذَلِكَ حِينَ أَبْتَدَأَ جَمْعَهُ
حَتَّى لَا يَدْخُلُوا بَيْنَ دَقِي الْمَصْحَفِ شَيْئًا سِوَى الْقِرَاءَانِ ، وَلِذَلِكَ كَرِهَهُ مَنْ كَرِهَهُ .

وأما أهل التوقيع في زماننا فإنهم يرغبون عنه خشية الإلزام بالنقط والشكل
إلا ما فيه إلباس على مامرء وأهل الدِّيُونَةِ لا يرون بشيء من ذلك أصلاً ويعتدون
ذلك من عيوب الكتابة وإن دعت الحاجة إليه ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

الجملة الرابعة

(فيما ينشأ عنه الشكل ويترب عليه)

وأعلم أن الشكل جارٍ مع الإعراب كيفما جرى ، فينقسم إلى السكون (وهو الجزم) ،
وإلى الفتح (وهو النصب) ، وإلى الضم (وهو الرفع) ، وإلى الجزر (وهو الخفض) .
أما السكون فلأنه الأصل . وأما الحركات الثلاث فقد قيل إنها مشاكلة
لحركات الطبيعية : فالرفع مشاكلة لحركة الفلك لأرتفاعها ، والجزر مشاكلة لحركة

الأرض والماء لأنخفاضها، والنصب مشا كل حركة النار والهواء لتوسطها؛ ومن ثم لم يكن في اللغة العربية أكثر من ثلاثة أحرف بعدها ساكن إلا ما كان معدولا . فسبحان من أتقن . اصنع ! .

ثم الذى عليه أكثر النحاة أن الحركات الثلاث مأخوذة من حروف المد واللين وهى الألف، والواو، والياء، اعتمادا على أن الحروف قبل الحركات والثانى مأخوذ من الأول . فالفتحة مأخوذة من الألف إذ الفتحة علامة النصب فى قولك : رأيت زيدا، ولقيت عمرا، وضربت بكرا، والألف علامة النصب فى الأسماء المعتلة المضافة كقولك : رأيت أباك، وأكرمت أخاك، ويكون إطلاقا للروى المنصوب كقولك : المذهب، وأنت تريد المذهب، فلما أشبعت الفتحة نشأت عنها الألف، والكسرة مأخوذة من الياء لأنها أختها ومن مخرجها، والكسرة علامة الخفض فى قولك مررت بزيدا، وأخذت عن زيد حديثا، والياء علامة الخفض أيضا فى الأسماء المعتلة المضافة كقولك : مررت بأبيك وأخيك وذى مال، والضممة من الواو لأنها من مخرجها : من الشفتين، وهى علامة الرفع فى قولك : جاءنى زيد، وقام عمرو، ونرج بكر، والواو علامة الرفع فى الأسماء المعتلة المضافة كقولك : جاءنى أخوك وأبوك وذو مال .

وذهب بعض النحاة إلى أن هذه الحروف مأخوذة من الحركات الثلاث، الألف من الفتحة، والواو من الضمة، والياء من الكسرة اعتمادا على أن الحركات قبل الحروف، بدليل أن هذه الحروف تحدث عند هذه الحركات إذا أشبعت، وأن العرب قد أستغنت فى بعض كلامها بهذه الحركات عن هذه الحروف آكتفاء بالأصل عن الفرع : لدلالة الأصل على فرعه .

(١) أى الأسماء الخمسة أو الستة على الخلاف .

وزهب آخرون إلى أن الحروف ليست مأخوذةً من الحركات ، ولا الحركات مأخوذة من الحروف ، اعتماداً على أن أحدهما لم يسبق الآخر، وصححه بعض النحاة .

الجملة الخامسة

(في صور الشكل ومحالّ وضعه على طريقة المتقدمين والمتأخرين)

وأعلم أن المتقدمين ... (١) ... في غالب الصور إلى النقط بلون يخالف لون الكتابة .

وقال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله : وأرى أن أستعمل النقط لوتين ، الحمرة والصفرة ، فتكون الحمرة للحركات ، والتنوين ، والتشديد ، والتخفيف ، والسكون ، والوصل ، والمدّ ، وتكون الصفرة للهمزة خاصة .

قال : وعلى ذلك مصاحف أهل المدينة . ثم قال : وإن أستعملت الخضرة للابتداء بالفتات الوصل على ما أحدثه أهل بلدنا ، فلا أرى بذلك بأساً . قال : ولا أستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم . وقد وردت الكراهة لذلك عن عبد الله بن مسعود وعن غيره من علماء الأمة .

وأما المتأخرون فقد أحدثوا لذلك صوراً مختلفة الأشكال لمناسبة تخص كل شكل منها ، ومن أجل اختلاف صورها وتباين أشكالها رخصوا في رسمها بالسواد . ويتعلق بالمقصود من ذلك سبع صور .

الأولى

(علامة السكون)

والمتقدمون يجعلون علامة ذلك جرّةً بالحُمرة فوق الحرف ، سواء كان الحرف المسكّن همزة كما في قولك : لم يَسْأُ ، أو غيرها من الحروف كالذال من قولك : أذهب .

(١) لعل المراد يميلون في شكل غالب الخ . وفي الضوء كانوا يجعلون الشكل تقطاً الخ .

أما المتأخرون فإنهم رسموا لها دائرة تشبه الميم إشارة إلى الجزم إذ الميم آحر حرف من الجزم، وحذفوا عرافة الميم أستخفافاً، وسمّوا تلك الدائرة جزمة، أخذوا من الجزم الذى هو لقب السكون، ويحتمل أن يكونوا أتوا بتلك الدائرة على صورة الصّفر فى حساب الهندود ونحوهم إشارة إلى خلوت تلك المرتبة من الأعداد لأن الصفر هو الخالى، ومنه قولهم : "صِفْرُ اليَدَيْنِ" بمعنى أنه فقير ليس فى يديه شىء من المال. وحَدِّاقُ الحُجَّابِ يجعلونها جيا لطيفة بغير عرافة إشارة إلى الجزم .

الثانية

(علامة الفتح)

أما المتقدمون فإنهم يجعلون علامة الفتح نُقْطَةً بالجمرة فوق الحرف . فإن أتبع حركة الفتح تنويناً، جعلت نقطتين، إحداهما للحركة، والأخرى للتبوين . والمتأخرون يجعلون علامتها ألفاً مضطجعة . لما تقدّم من أن الألف علامة الفتح فى الأسماء المعتلة ورسموها بأعلى الحرف موافقةً للمتقدمين فى ذلك، وسمّوا تلك الألف المضطجعة نُصْبَةً أخذوا من النصب؛ ويجعلون حالة التنوين خطين مضطجعتين من فوقه كما جعل المتقدمون لذلك نقطتين، وعبروا عن الخطين بنصبتين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ويكون بينهما بقدر واحدة منهما .

الثالثة

(علامة الضم)

أما المتقدمون فإنهم يجعلون علامة الضمة نقطة بالجمرة وسط الحرف أو أمامه، فإن لحق حركة الضم تنويناً، رسموا لذلك نقطتين : إحداهما للحركة، والأخرى للتبوين على ما تقدّم فى الفتح .

وأما المتأخرون فإنهم يجعلون علامة الضمة واوا صغيرة : لما تقدم أن الواو من علامة الرفع في الأسماء المعتلة، وسموها رفعة لذلك، وسموها بأعلى الحرف ولم يجعلوها في وسطه كيلا تسيء الحرف، بخلاف المتقدمين لمخالفة الواو ولطافة النقطة . فإن لحق حركة الضم تنوينٌ رسموا لذلك واوا صغيرة بخطِّة بعدها : الواو إشارة للضم، والخطِّة إشارة للتونين، وعبروا عنهما برفعتين . وبعضهم يجعل عوض الخطِّة واوا أخرى مردودة الآخر على رأس الأولى .

الرابعة

(علامة الكسر)

والمتقدمون يجعلون علامة الجرّة نقطة بالجرّة تحت الحرف . فإن لحق حركة الكسر تنوين رسموا لذلك نقطتين .

والمتأخرون جعلوا علامة الكسر شظيئة من أسفل الحرف إشارة إلى الياء التي هي علامة الجرّ في الأسماء المعتلة على ما مر، وسموا تلك الشظيئة خفضة، أخذاً من الخفض الذي هو لقب الكسر، ولم يخالفوا بينها وبين علامة النصب لاختلاف محلها . فإن لحق حركة الكسر تنوينٌ رسموا له خطتين من أسفله : إحداهما للحركة، والأخرى للتونين .

الخامسة

(علامة التشديد)

والمتقدمون اختلفوا : فذهب أهل المدينة أنهم يرسمون علامة التشديد على هذه الصورة (١) ولا يجعلون معها علامات الإعراب بل يجعلون علامة الشد مع الفتح فوق الحرف، ومع الكسر تحت الحرف، ومع الضم أمام الحرف .

(١) بياض في الأصل والضوء .

قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله : وعليه عامة أهل بلدنا . قال : ومنهم من يجعل مع ذلك نقطة علامة للإعراب ، وهو عندى حسن .
وعامة أهل الشرق على أنهم يرمون علامة التشديد صورة شين من غير عرارة على هذه الصورة (س) كأنهم يريدون أول شديد، ويجعلون تلك العلامة فوق الحرف أبداً ويُعربونه بالحركات . فإن كان مفتوحاً جعلوا مع الشدة نقطة فوق الحرف علامة الفتح ، وإن كان مضموماً جعلوا مع الشدة نقطة أمام الحرف علامة الضم ، وإن كان مكسوراً ، جعلوا مع الشدة نقطة تحت الحرف علامة الكسر . وعلى هذا المذهب استقر رأي المتأخرين أيضاً ؛ غير أنهم يجعلون بدل النقط الدالة على الإعراب علامات الإعراب التي أصطلحوا عليها من النصب ، والرفعة ، والخفضة . فيجعلون النصب والرفعة بأعلى الشدة ، ويجعلون الخفضة أسفل الحرف الذي عليه الشدة . وبعضهم يجعلها أسفل الشدة من فوق الحرف . ولا فرق في ذلك بين أن يكون المشدد من كلمة واحدة أو من كلمتين كالإدغام من كلمتين .

السادسة

(علامة الهمزة)

والمتقدمون يجعلونها نقطة صفراء ليخالفوا بها نطق الإعراب كما تقدم في كلام الشيخ أبي عمرو الداني رحمه الله : ويرسمونها فوق الحرف أبداً ، إلا أنهم يأتون معها بنقط الإعراب الدالة على السكون والحركات الثلاث بالهمزة على ما تقدم . وسواء في ذلك كانت صورة الهمزة واوا أو ياء أو ألفاً ، إذ حق الهمزة أن تلزم مكاناً واحداً من السطر : لأنها حرف من حروف المعجم . والمتأخرون يجعلونها عيناً بلا عرارة ، وذلك لقرب مخرج الهمزة من العين ، ولأنها تمتحن بها كما سيأتي .

ثم إن كانت الهمزة مصوّرة بصورة حرف من الحروف: فإن كانت الهمزة ساكنة، جعلت الهمزة من أعلى الحرف مع جرمة بأعلاها. وإن كانت مفتوحة، جعلت بأعلى الحرف أيضا مع نصبة بأعلاها. وإن كانت مضمومة، جعلت بأعلى الحرف مع رفعة بأعلاها. وإن كانت مكسورة، جعلت بأسفل الحرف مع خفضة بأسفلها. وربما جعلت بأعلى الحرف والخفضة بأسفله.

وقد اختلف القدماء من النحويين في أيّ الطّرفين من اللام ألف هي الهمزة. فحكى عن الخليل بن أحمد رحمه الله أنه قال: الطّرف الأول هو الهمزة، والطّرف الثاني هو اللام.

قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله: وإلى هذا ذهب عامة أهل التقط، وأستدلوا على صحة ذلك بأن رسم هذه الكلمة كانت أولا لاما مبسوطة في طرفها ألف على هذه الصورة "لا" كتنحو رسم ما أشبه ذلك مما هو على حرفين من سائر حروف المعجم مثل "يا، وها" وما أشبههما إلا أنه أستثقل رسم ذلك كذلك في اللام ألف خاصة لأعتدال طرفيه لمشابهة كتابة الأعاجم فحسن رسمه بالتضفير فضم أحد الطرفين إلى الآخر فأيهما ضم إلى صاحبه كانت الهمزة أولى ضرورة. وتعتبر حقيقة ذلك بأن يؤخذ شيء من خيط ونحوه فيصفر ويخرج كل واحد من الطرفين إلى جهة، ثم يقام الطرفان فيتين من الوجهين أن الأول هو الثاني في الأصل، وأن الثاني هو الأول لأحالة في التضفير.

وأیضا فقد آتفق أهل صناعة الخط من الكُتّاب القدماء وغيرهم على أنه يرسم الطّرف الأيسر قبل الطّرف الأيمن، ولا يخالف ذلك إلا من جهل صناعة الرسم إذ هو بمنزلة من أبتدأ يرسم الألف قبل الميم في "ما" وشبهه مما هو على حرفين، فنبت بذلك

أن الطرف الأول هو الهمزة، وأن الطرف الثاني هو اللام : إذ الأول في أصل القاعدة هو الثاني، والثاني هو الأول على ما مر، وإنما اختلف طرفاها من أجل التضمير .

وخالف الأخفش : فزعم أن الطرف الأول هو اللام، والطرف الثاني هو الهمزة، وأستشهد لذلك بأن ما تلفظ به أولا هو المرسوم أولا وما تلفظ به آخره هو المرسوم آخره، ونحن إذا قرأنا لأنت ولأنه ونحوهما لفظنا باللام أولا ثم بالهمزة بعدها. ونازعه في ذلك الشيخ أبو عمرو الداني . والحق أن ذلك يختلف باختلاف اللام ألف على ما رتبته متأخرو الكتاب الآن . ففي المضمرة على ما تقدم، وفي المصورة بهذه الصورة " لا " بالعكس .

وإن كانت الهمزة غير مصورة بحرف من الحروف كالهمزة في جزء وخبء، جعلت العلامة في محل الهمزة من الكلمة مع علامة الإعراب : من سكون، وفتح، وضم، وكسر . فإن عرض للهمزة مع حركة من الحركات الثلاث تنوين، جعل مع الهمزة علامة التنوين : من نصبتين أو رفعتين أو خفضتين على ما مر في غير الهمزة . قال الشيخ أبو عمرو الداني رحمه الله : وتمتحن الهمزة في موضعها من الكلام بالعين ، فحيث وقعت العين وقعت الهمزة مكانها، وسواء كانت متحركة أو ساكنة لحقها التنوين أو لم يلحقها، فتقول في آمنوا عامنوا، وفي وءأتى المال وعأتى المال، وفي مستهزئين مستهزعين، وفي خاسئين خاسعين، وفي مبرءون مبرعون، وفي متكئون متكعون، وفي ماء ماع، وفي سوء سوع، وفي أولياء أولباع، وفي تنوء تنوع، وفي لتنوء لتنوع، وفي أن تبوءا أن تبوعا، وفي تبوء تبوع، وفي من شاطي من شاطع، وكذلك ما أشبهه حيث وقع فالقياس فيه مطرد .

السابعة

(علامة الصلة في ألفات الوصل)

أما المتقدمون فإنهم رسموا لها جزة بالحمرة في سائر أحوالها ، وجعلوا محلها تابعا للحركة التي قبل ألف الوصل . فإن وليها فتحة كما في قوله تعالى : ” نَتَقُونَ الَّذِي ” جعلت الصلة جزة حمراء على رأس الألف على هذه الصورة (آ) وإن وليها كسرة كما في قوله تعالى : ” رَبِّ الْعَالَمِينَ ” جعلت الصلة جزة حمراء تحت الألف على هذه الصورة (١) وإن وليها ضمة كما في قوله تعالى : ” نَسْتَعِينُ أَهْدِنَا ” جعلت الصلة جزة حمراء في وسطها على هذه الصورة (+) . فإن لحق شيئا من الحركات التنوين جعلت الصلة أبدا تحت الألف ، لأن التنوين مكسور للساكنين ما لم يأت بعد الساكن الواقع بعد ألف الوصل ضمة لازمة نحو قوله تعالى : ” فَتِيْلًا أَنْظُرُ ” و ” عِيُونَ أَدْخُلُوهَا ” . قال بعضهم بضم التنوين فتجعل الجزة على ذلك في وسط الألف .

وأما المتأخرون [فإنهم رسموا لذلك صاداً لطيفة إشارة إلى الوصل] وجعلوها بأعلى الحرف دائماً ولم يراعوا في ذلك الحركات ، آكتفاءً باللفظ .

تنبيه

قد تقدم في (١) ... الأول من الهجاء أن اللفظ قد يتعين في الهجاء إلى الزيادة والنقصان ، ولاشك أن الشكل يتغير بتغير ذلك ، ونحن نذكر من ذلك ما يختص بالهجاء العرفي دون الرسمي باعتبار الزيادة والنقص .

(١) ما بين الدائرتين بيض له في الأصل وأخذناه عن ” ضوء الصبح ” .

(٢) بياض في الأصل .

أما الزيادة، فمثل أولئك، وأولو، وأولات ونحوها .

قال الشيخ أبو عمرو الداني : وسبيلك أن تجعل علامة الهمزة نقطة بالصفرة في وسط ألف أولئك وأولو وأولات، وتجعل نقطة بالحمرة أمامها في السطر لتدل على الضمة . قال : وإن شئت جعلتها في الواو الزائدة : لأنها صورتها ، وهو قول عامة أهل النقط . هذه طريقة المتقدمين .

أما المتأخرون : فإنهم يجعلون علامة الهمزة على الواو وهو مخالف لما تقدم من اعتبار الهمزة بالعين فإنها لو امتحنت بالعين، لكان لفظها عولتك وكذلك البواقي .
وأما النقص فمثل النبئ إذا كتبت بياء واحدة، وهؤلاء، وياء ادم إذا كتبت بحذف الألف بعد الهاء في هؤلاء والألف الثانية في ياء ادم فترسم علامة الهمزة من النقطة الصفراء وحركتها على رأى المتقدمين، وصورة العين على رأى المتأخرين قبل الياء الثانية في النبئين . وتجعل ذلك على الألف الثانية في ياء ادم لأنها صورتها وعلى الواو في هؤلاء لأنها صورتها .

ووراء ما تقدم من الشكل أمور تتعلق بالإدغام، والإظهار، والإخفاء، والإقلاب، والمد وغيرها : من متعلقات القراءة ليس هذا موضع ذكرها والله أعلم .

(فائدة)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولا بد من تناسب الشكل والنقط وتناسب البياضات في ذلك للحروف .

الفصل الرابع

من الباب الثاني من المقالة الأولى

(في الهجاء؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في مصطلحه الخاص؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(المصطلح الرسمي)

وهو ما أصطلح عليه الصحابة رضوان الله عليهم في كتابة المصحف عند جمع القرآن الكريم، على ما كتبه زيد بن ثابت رضى الله عنه، ويسمى الاصطلاح السلّفى أيضا، ونحن نورد منه ما جرّ إليه الكلام أو وافق المصطلح العرفى .

الضرب الثاني

(المصطلح العروضى)

وهو ما أصطلح عليه أهل العروض في تقطيع الشعر، وأعتادهم في ذلك على ما يقع في السمع دون المعنى، إذ المعتدّ به في صنعة العروض إنما هو اللفظ: لأنهم يريدون به عدد الحروف التي يقوم بها الوزن متحرّكا وساكا فيكتبون التنوين نونا، ولا يُراعون حذفها في الوقف، ويكتبون الحرف المدغم بحرفين، ويجذّفون اللام وغيره مما يدغم في الحرف الذي بعده: كالرّمّن والذاهب والضارب، ويعتمدون في الحروف على أجزاء التفعيل، فقد نتقطع الكلمة بحسب ما يقع من تبين الأجزاء كما في قول الشاعر:

سَبَدِي لَكَ الْإِيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تَزُودَ .
فيكتبونه على هذه الصورة :

سَبَدِي ، لَكَ لَأَيَّامًا ، مِمَّا كُنْ ، تَجَاهِلًا * وَيَأْتِي ، كَمَا لَأَخْبَارًا ، رِمْلًا ، تَزُودِي .

المقصد الثاني

(في المصطلح العام)

وهو ما اصطاح عليه الكُتَّاب في غير هذين الاصطلاحين ، وهو المقصود من الباب ، وفيه جملتان :

الجملة الأولى

(في الإفراد ، والحذف ، والإثبات ، والإبدال ، وفيه مُدْرَكَان)

المُدْرَكُ الْأَوَّلُ

(في بيان الأصل المعتمد في ذلك ، وما يكتب على الأصل)

وأعلم أن الأصل في الكتابة مطابقة المنطوق المفهوم ، وقد يزيدون في وزن الكلمة [ما ليس في وزنها ليفصلوا بالزيادة بينه وبين المشبه له ، وينقصون من الكلمة] عما هو في وزنها أستخفافا وأستغناء بما أبقى عما أنتقص إذا كان فيه دليل على ما يحذفون : كما أن العرب نسرف في الكلمة بالزيادة والنقصان ، ويحذفون ما لا يتم الكلام في الحقيقة إلا به أستخفافا وإيجازا إذا عرّف المخاطب ما يقصدون .

قال ابن قتيبة : ورُبَّمَا تركوا الأشتباه على حاله ، ولم يفصلوا بين المتشابهين وأكتفوا بما يدل عليه من متقدم أو متأخر : كقولك للرجل الواحد : يغزوا ، وللاثنتين

(١) سقطت هذه الجملة من الأصل ووجدناها " في أدب الكاتب " و " في ضوء الصبح " فأثبتناها

لأنها مرادة له وليستقيم الكلام .

لن يَغزُواً ولجميع لِن يَغزُوا بالواو والألف في الجميع من غير تفريق بين الواحد والأثنين والجمع، وبقوّه على أصله .

إذا علمت ذلك، فالمكتوب على المصطلح المعروف هو على قسمين .

القسم الأول

(ماله صورة تخصّه من الحروف ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو على أصله المعتبر فيه في ذوات الحروف وعددها)

بتقدير الأبتداء بها والوقوف عليها، سواء بقي لفظه على حاله

أم أنقلب النطق به إلى حرفٍ آخر)

فيكتب لفظ "إمحي" بغير نون بعد الألف، وإن كان أصله أمحى على وزن

أنفعل من المحو : لأن الإدغام من كلمة واحدة؛ بخلاف ما إذا كان الإدغام من كلمتين؛ فيكتب لفظ "من مال" بنون في من منفصلةً من ميم مالٍ وإن كانت النون الساكنة تدغم في الميم .

ويكتب لفظ خنق مصدر خنق ولفظ أنت وما أشبهها بنون، وإن كانت النون

مُحْفَاة في القاف من خنق وفي التاء من أنت . وكذلك حالة التركيب نحو من كافر .

ويكتب عنبر وما أشبهها بنون أيضا وإن كانت النون الساكنة تنقلب عند الباء

ميا؛ وكذلك في حالة التركيب نحو من بعد . ويكتب مثل أضربوا القوم ويغزو

الرجل بواو، وكذلك كل ما فيه حرف مد حذف لساكن يليه لأنه لولا التقاء الساكنين

لثبتت هذه الواو لفظا . ويكتب أنا بألف بعد النون وإن كانت في وصل الكلام

لا إشباع في الفتحة لأن الوقف عليه بألف . ومن أجل ذلك كتبت (لِكِنَّا هُوَ اللهُ)

(١) في المصباح أن فعل خنق من باب قتل ومصدره ككتف ويسكن للتخفيف .

بألف بعد النون في لكذا إذ أصله لكن أنا . ويكتب المتون المنصوب مثل زيداً وعمراً من قولك : رأيت زيداً وضربت عمراً بالألف لأنه يوقف عليه بالألف بخلاف المتون المرفوع والمجروح نحو جاء زيد ومررت بزيد، إذ الوقف عليه بحذف نون التنوين وإسكان الآخر على الصحيح . وتكتب إذاً المتونة بالألف على رأى المازني رحمه الله ومن تابعه : لأن الوقف عليها بالألف لضعفها، والمبرد والا كثرون على أنها تكتب بالنون . قال الأستاذ ابن عصفور : وهو الصحيح : لأن كل نون يوقف عليها بالألف كتبت بالألف وما يوقف عليها نفسها كما توصل كتبت بالنون وهذه يوقف عليها عنده بالنون؛ وأيضاً فإنها إذا كتبت بالنون كانت فرقا بينها وبين إذا الطرفية لثلاث يقع الإلباس . وفصل الفراق قال : إن ألغيت كتبت بالألف، وإن أعلمت كتبت بالنون لقوتها . ويحكى عن أبي العباس محمد بن يزيد أنه كان يقول : أشتهى أن أكوى يد من يكتب إذن بالألف لأنها مثل أن ولن، ولا يدخل التنوين في الحروف .

ويكتب نحو لئسفاً بالألف لأن الوقف عليها بالألف، وكذلك يكتب اضرباً زيداً ولا تضرباً عمراً بالألف على رأى من ادعى أنه الأكثر، ووجهه بأن النون الخفيفة تنقلب ألفاً إذا كان ما قبلها مفتوحاً في الوقف .

(١)
 وذهب بعضهم إلى أنها تكتب بالنون تشبيهاً لنونه بنون الجمع نحو اضربن للجمع المذكور وبه جزم الشيخ أثير الدين أبو حيان . ووجهه بأنه لو كتبت بالألف لالتبس بأمر الاثنين ونهيهما في الخط، وإن كنت إذا وقفت عليه وقفت بالألف فلم تراع حالة الوقف في ذلك لأن الوقف منع من اعتباره ما عرض فيه من كثرة الإلباس :

(١) أى تشبيهاً لنون التوكيد التى فى الفعل المسند الى المفرد بنون التوكيد التى فى الفعل المسند الى الجمع .

لأنهم لو أرادوا (على الوقف بالألف) كتابته بالألف، كَثُرَ اللَّابِسُ بالوقف والخط ، فتجنبوا ما كثر به الإلباس . ويكتب كل اسم في آخره ياء نحو قاضى وغازى وداعى وحادى وسارى ومُشْتَرَى ومُهْتَدَى ومُسْتَدْعَى ومُقْتَرَى في حالتى الرفع والجر بغير ياء ، كما فى قولك جاء قاضٍ ومررت بقاضٍ ، وكذا فى الباقيات ، وفى حالة النصب بالياء مع زيادة ألف بعدها كما فى قولك : رأيتُ قاضياً وغازياً وداعياً وما أشبهه .

وإن كان جمعاً : فإن كان غير منصرف كُتِبَ فى حالتى الرفع والخفض بغير ياء على ما تقدم .

فِيكُتِبُ فى الرفع هؤلاءِ جوارٍ وغواشٍ وسوارٍ ودواعٍ ، وفى الخفض مررت بجوارٍ وسوارٍ وغواشٍ ودواعٍ بغير ياء فى الحالتين .

ويكتب فى النصب بالياء إلا أنه لا تزد الألف بعدها ، فتكتب رأيت جوارى وسوارى ودواعى .

فإذا دخلت الألف واللام فى جميع هذه الأسماء ، أثبتت فيها الياء سواء المنصرف وغير المنصرف ، فيكتب هذا الداعى والغازى والقاضى والمستدعى وهؤلاء الجوارى والسوارى والدواعى بالياء فى الجميع .

قال ابن قتيبة : وقد يجوز حذفها ، وليس بمستعمل إلا فى كتابة المصحف .
ويكتب نحو ره أمرأ بالرؤية ، ولم يره نفيأ للرؤية ، وقه أمرأ بالوقاية ، ولم يقه نفيأ لذلك وما أشبهه بالهاء وإن كانت الهاء تسقط منه حالة الدرَج ، لأن الوقف عليها بالهاء . وكذلك قولهم : مه أنت ، ومجىء مه جئت : لأن الوقف على ما الاستفهامية بعد حذف ألفه بالهاء فيكتب بالهاء ، بخلاف ما إذا وقعت ما المحذوف ألفها بعد

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله [بمه آيت] .

الجار نحو حَتَّامَ وإِلَامَ وَعَلَامَ فإنه لا تلحقها الهاء لشدة الاتصال فلا تكتب بالهاء .
وتكتب تاء التأنيث في نحو رحمة ونعمة ونقمة وقسمة وخدمة وطلحة وقمحة بالهاء
لأن الوقف عليها بالهاء على الصحيح ، وبعضهم يقف عليها بالتاء ، وهى لغة قليلة
فتكتب بالتاء موافقةً للوقف . وقد وقع في رسم المصحف الكريم مواضع من ذلك
نحو قوله تعالى : ﴿ أَفِينِعَمَتِ اللهُ يَكْفُرُونَ ﴾ كتبوا أَفِينِعَمَتِ بالتاء ، والأكثر ما تقدم .

قال ابن قتيبة : وأجمع الكُتَّابُ على كتابة السَّلامِ عليك ورحمت الله وبركاته
في أول الكتاب وآخره بالتاء . قال : فإن أضفت تاء التأنيث إلى مضمرة ، صارت تاء
فتكتب شَجَرَتِكَ وناقَتِكَ ورحمتِكَ وما أشبهه بالتاء .

أما أخت و بنت ، وجمع المؤنث السالم مثل قائمات وصائمات وتائبات ، وتاء
التأنيث الساكنة في آخر الفعل نحو قامت وقعدت ، وما أشبه ذلك ، فإنه يكتب
بجميع ذلك بالتاء لأن الوقف عليها بالتاء .

قال ابن قتيبة : وهَيَّاتَ يوقف عليها بالهاء والتاء ، والإجماع على كتابتها بالتاء .
ثم اللفظ الذى يكتب على نوعين :

النوع الأول

(أن يكون أسما لحرف من حروف الهجاء ؛ وهو على وجهين)

الوجه الأول

(أن يكون أسما قاصرا على الحرف لم يسم به غيره ؛ وله حالان)

أحدهما - أن يقصد اسم ذلك الحرف لا مسماه فيكتب المفوظ به نحو جيم إذا

سئل كتابته فيكتب بجيم وياء وميم .

الثاني - أن يقصد مسماه لا اسمه فيجب الإقتصار في الكتابة على أول حرف في الكلمة، ويكتب بصورة ذلك الحرف مثل ق ق ن ص، ولذلك كتبت الحروف المفتوح بها السور على نحو ما كتبوا حروف المعجم. وذلك لأنهم أرادوا أن يضعوا أشكالاً لهذه الحروف تميز بها، فهي أسماء مدلولاتها أشكال خطية، ولو لم يضعوا لها هذه الأشكال الخطية، لم يكن للخط دلالة على المنطوق. ولو اقتصروا على كتبها على حسب النطق ولم يضعوا لها أشكالاً مفردة تميز بها لم يمكن ذلك: لأن الكتابة بحسب النطق متوقفة على معرفة كل حرف وشكل كل حرف غير موضوع، فأستحال كتبها على حسب النطق. ألا ترى أنك إذا قيل لك: آ كتب جيم، عين، فاء، راء؛ وإنما تكتب هذه الصورة "جعفر" والمفوض بلسان الأمر بالكتابة جيم والمكتوب ج. ولو كان تصوير اللفظ بصور هجائه، لكان المكتوب "جيم" كالمفوض على قياس غيره من الألفاظ.

ويشهد لذلك ما حكى أن الخليل رحمه الله قال يوماً لطلبته: كيف تنطقون بالجيم من جعفر؟ فقالوا جيم فقال: إنما نطقتم بالأسم ولم تلفظوا بالمسؤول عنه، ثم قال: الجواب جه لأنه المسمى من الكتاب (يريد جيم مفتوحة، وإنما أتى فيها بالهاء ليتمكن الوقف عليها).

الوجه الثاني

(أن لا يكون الأسم قاصراً على الحرف بأن يسمى به غيره أيضاً كما إذا سُمي رجل بقاف أو ياسين، فلكتاب فيه مذهبان):

أحدهما - أن تكتب صورة الحرف هكذا ق ويس.

والثاني - أن يكتب المفوض به هكذا "قاف" و"ياسين" وهو اختيار أبي

عمرو بن الحاجب رحمه الله.

النوع الثاني

(أن لا يكون أسما لحرف من حروف المعجم ، وهو على وجهين أيضا)

الوجه الأول

(أن يكون له معنى واحد فقط)

فيكتب هكذا (زيد) إذا طلب كتابة زاي ، ياء ، دال .

الوجه الثاني

(أن يكون له أكثر من معنى واحد)

فيكتب بحسب القرينة كما إذا قيل لك : أكتب شعرا فإن دلت القرينة على أن المراد هذا اللفظ كتب هكذا (شعرا) وإلا فيكتب ما ينطبق عليه الشعر إذ هو معنى الشعر .

الضرب الثاني

(ما تغير عن أصله ، وهو على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ما تغير بالزيادة . والزيادة تقع في الكتابة بثلاثة أحرف)

الحرف الأول

(الألف ، وتزداد في مواضع)

(منها) تزداد بعد الميم في مائة فتكتب على هذه الصورة (مائة) فرقا بيننا وبين منته ، وإنما كانت الزيادة من حروف العلة دون غيرها لأنها تكثر زيادتها ، وكان حرف العلة ألفا لأنها تشبه الهمزة ، ولأن الفتحة من جنس الألف . ولم تكن الزيادة ياء ، لأنه يستعمل في الخلط أن يجمع بين حرفين مثاين في موضع مأمون فيه اللبس .

(١) عبارة الضوء فان كان له معنى (أى واحد) كتب على هذه الصورة "زيد" وهى أوضح .

ألا ترى إلى كتابهم خطيئة على وزن فعيلة بياء واحدة ولو كتبت على صيغة لفظها، لوجب أن تكتب بياءين، ياء لبناء فعيلة، وياء هي صورة الهمزة . ولم تكن الزيادة واوا لاستئصال الجمع بين الياء والواو، وجعل الفرق في مائة ولم يجعل في منه لأن مائة أسم ومنه حرف والأسم أحمل للزيادة من الحرف، ولأن المائة محذوفة اللام بدليل قولهم: أمأيت الدراهم، فجعل الفرق في مائة بدلا من المحذوف مع كثرة الاستعمال؛ ثم اختلف في المثني منه فقييل لا يزداد في مائتين لأن موجب الزيادة اللبس ولا لبس في الثنية، والراجح الزيادة كما في الإفراد: لأن الثنية لا تغير الواحد عما كان عليه . أما في حالة الجمع، فقد آتفقا على منع الزيادة فكتبوا "مئتين ومئات" بغير ألف بعد الميم: لأن جمع التكسير يتغير فيه الواحد وجمع السلامة ربما تغير فيه أيضا فغلبت .

قال الشيخ أنير الدين أبو حيان رحمه الله: وقد رأيت بخط بعض النحاة "مأة" على هذه الصورة بألف عليها نبرة الهمزة دون ياء . قال: وكثيرا ما أكتبُ أنا "مئة" بغير ألف كما تكتب "مئة" لأن كُتِبَ مائة بالألف خارج عن القياس . فالذي أختره أن تكتب بالألف دون الياء على وجه تحقيق الهمزة، أو بالياء دون الألف على وجه تسميلها .

(ومنها) تراد بعد واو الجمع المتطرفة في آخر الكلمة إذا اتصلت بفعل ماض أو فعل أمر مثل صَرَبُوا وأضَرَبُوا وما أشبههما فتكتب بألف بعد الواو . وسمى ابن قتيبة هذه الألف أَلْفَ الفِصْلِ لأنها تفصل بين الفعل كي لا تلتبس الواو في آخر الفعل بواو العطف . فإنك لو كتبت أوردُوا وصدرُوا مثلا بغير ألف ثم اتصلت بكلام

(١) لعل الأظهر لأنها تفصل بين الفعل وما بعده من الكلام .

بعدها، ظن القارئ أنها واو العطف. ولما فعلوا ذلك في الأفعال التي تتقطع وأوها عن الحرف كالفعلين المتقدمين، فعلوا ذلك في الأفعال التي تتصل وأوها بالحرف قبلها نحو كانوا وبنوا ليكون حكم هذه الواو في جميع المواضع واحدا. أما إذا لم تقع طرفا في آخر الكلام نحو ضربوهم وكألوهم ووزنوهم، لم تلحق به الألف. فلو اتصلت واو الجمع المذكورة بفعل مضارع نحو لن يضربوا ولن يذهبوا. فذهب بعض البصريين أنه لا تلحقها الألف. ومذهب الأخفش لحوقها كالمضى والأمر. ولو اتصلت باسم نحو ضاربوهم وضاربو زيد. فذهب البصريين أنها لا تلحق بل يجعل الأسم تلو الواو. ومذهب الكوفيين أنها تلحق فيكتبون ضاربوا زيد وقاتلوا عمرو وهما بألف بعد الواو في الجميع، والراجح الأول.

(ومنها) زادها الفراء في يدعو ويغزو في المفرد حالة الرفع خاصة تشبيها بواو الجمع. وأطلق ابن قتيبة النقل عن بعض كتّاب زمانه بأنها لا تلحق في مثل ذلك : لأن العلة التي أدخلت هذه الألف لأجلها في الجمع لا تلزم هنا : لأنك إذا كتبت الفعل الذي تتصل واوه به من هذا الباب مثل أنا أرجو وأنا أدعو لم تشبه واوه واو العطف أيضا إلا بأن تزيل الكلمة عن معناها لأن الواو من نفس الفعل لا تفارقه إلا في حال جزمه، والواو في صدرها، ووردوا وأوجع مكثف بنفسه يمكن أن يجعل للواحد وتوهم الواو عاطفة لشيء عليه. قال : وقد ذهبوا مذهبا. غير أن متقدمي الكتّاب لم يزالوا على إلحاق ألف الفصل بهذه الواوات كلها ليكون الحكم في كل موضع واحدا.

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : وفصل الكسائي في حالة النصب فقال : إن لم يتصل به ضمير نحو لن يدعوك، كتب بغير ألف فرقا بين الحالين.

(١) لعل الصواب [إن لم يتصل به ضمير نحو لن يدعوك كتب بألف . وإن اتصل به ضمير نحو الخ] .

(ومنها) تزداد شذوذاً بعد الواو المبدلة من الألف في الربو فتكتب بألف بعد الواو على هذه الصورة (الربوا) تنبيهاً على أن الأصل أن يكتب بالألف . ووجه الشذوذ أنه من ذوات الواو فكان قياسه أن يكتب بالألف .

وقد زيدت في مواضع من المصحف، كما في قوله تعالى: "إِنْ أَمْرٌؤَا هَلَكَ" تنبيهاً على أنه كان ينبغي أن تكون صورة الهمزة ألفاً على كل حال ولا يعتد بالضم والكسرة إذ اللغة الأصلية فيها إنما هي فتح الراء دائماً، والقياس كتابته بصورة الحركة التي قبل الهمزة، وكذلك كتبوا "لَا أَوْضَعُوا" بزيادة ألف بعد اللام ألف، وذلك يختص برسم المصحف الكريم دون غيره، فلا يقاس عليه والله أعلم .

الحرف الثاني

(الواو، وتزداد في مواضع أيضاً)

(منها) تزداد في عمرو بعد الراء إذا كان عالماً في حالتى الرفع والجر فترقا بينه وبين عمراً . وكانت الزيادة واوا ولم تكن ياء لئلا يلتبس بالمضاف إلى ياء المتكلم، ولا ألفاً لئلا يلتبس المرفوع بالمنصوب . وجعلت الزيادة في عمرو دون عمراً، لأن عمراً أخف من عمراً من حيث بناؤه على فعل ومن حيث أنصرأفه . أما في حالة النصب فلا تزداد فيه الواو ويكتب عمرو بألف وعمراً لا يكتب بألف لأنه لا ينصرف، وكذلك المحلى باللام كالعمراً والمضاف كعمره والواقع قافية شعر كقول الشاعر :

إِنَّمَا أَنْتَ فِي سُلَيْمٍ كَوَاوٍ * أُلْحِقْتَ فِي الْمِهْجَاءِ ظُلْمًا بِعَمْرِ

وكذلك عمراً واحداً كعمور الأسنان : وهو اللحم الذي بينها، وما هو بمعنى المصدر مثل قولهم : لعمر الله لا تزداد فيه الواو إذ لا لبس . ولم يفرقوا في الكتابة بين عمراً العلم وعمراً جمع عمرة لأنهما ليسا من جنس واحد فلا يلتبان .

(ومنها) تزداد في أولئك بين الألف واللام فرقا بينها وبين إليك إذ حذفوا ألف أولئك الذي بعد اللام لكثرة الاستعمال فالتبست بإليك، وكانت الواو أولى بالزيادة من الياء: لمناسبة ضمة الهمزة، ومن الألف: لاجتماع صورتى الألف وهم يحدفون الواحدة إذا اجتمعت صورتها، وجعلت الزيادة في أولئك دون إليك: لأن الأسم أحمل للزيادة من الحرف ولأن أولئك قد حذف منه الألف فكان أولى بالزيادة لتكون كالعوض من المحذوف .

قال ابن الحاجب: وحملوا أولى عليه مع عدم اللبس كما حملوا مائتين على مائة . (ومنها) تزداد في أولى وفي أولو بين الألف واللام، أما في أولى فللفرق بينها وبين إلى، وأما في أولو فبالحمل على أولى بالياء، صرح به الشيخ أبو عمرو بن الحاجب، وقاله الشيخ أثير الدين أبو حيان بجنا وأدعى أنه لم يظفر في تعليقه بنص . قال: وحمل التائيت في أولات على التذكير في أولى .

(ومنها) تزداد في أونحى تصغير أحي بين الألف والحاء، والتغير يأنس بالتغير . وجعلت الزيادة واوا لمناسبة ضمة الهمزة كما في أولئك ونحوه . وأكثر أهل الخط لا يزيدونها لأن التصغير فرع عن التكبير وليس ببناء أصلي .

الحرف الثالث

(الياء المنشأة تحت)

وتزداد في مواضع من رسم المصحف الكريم فيكتبون قوله تعالى: (بَنِيهَا بِأَيْدٍ) بياءين بين الألف والdal من قوله: "بِأَيْدٍ". وقوله تعالى: (من نَبِيٍّ الْمُرْسَلِينَ) بياء بعد الألف من نبيا، وقوله تعالى: (من مَلَايِهِ) و(من مَلَايِهِمْ) بياء قبل الهاء فيهما. وهذا مما يجب الاتقياد إليه في المصحف اقتداءً بالصحابة رضوان الله عليهم .

أما في غير المصحف فيكتب بأيد بياء واحدة لأن الهمزة فيه أول كلمة فتصوّر ألفا كغيرها من الهمزات الواقعة أولا على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى . ويكتب من نبي ومن ملئه ومن ملهم بغير ياء لأن الهمزة في نبي وملا أخيرة بعد فتحة فتصوّر ألفا كما في نحو كإٍ وخطإٍ، وكذلك إذا أضيف إليه الضمير .

وذهب بعضهم إلى أنها تكتب في هذا ياءً على ما يناسب حركتها سواء أضيفت نحو من كلئه أو لم تضاف نحو من الكلئ .

قال بعضهم : والأقيس أن يكتب ياء مع الضمير المتصل نحو من خطئه لأنها صارت معه كالمتوسطة ويكتب ألفا إذا تطرفت نحو من خطإٍ اعتبارا بما يؤول إليه في التخفيف والله أعلم .

النوع الثاني

(ما يغير بالنقص)

والنقص يقع في الكتابة على وجهين .

الوجه الأول

(ما لا يختص بحرف من الحروف ، وهو المدغم)

فيكتب كل مشدد من كلمة واحدة حرفا واحدا نحو شدّ ومدّ وآد كر ومقرّ وأقشعّر فيكتب بدال واحدة في شدّ ومدّ وآد كر وراء واحدة في مقرّ وأقشعّر وإن كان في اللفظ حرفان ، فإن الحرف المدغم فيما بعده هو متلفظ به ساكنا مدغما ، فكان قياسه أن تكتب له صورة بحسب النطق ، لكنه لما أدغم ضعّف بالإدغام ، إذ صار النطق به وبالمدغم فيه نطقا واحدا فأقتصر في الكتابة على حرف واحد ولم يجعل للأول صورة أختصارا . وسواء كان المدغم إدغام مثل نحو ردّ أو مقارب نحو أطّجع أصله

أضطجع . وأجروا نحو قنَّتْ مجرئاً ما هو من كلمة واحدة وإن كان من كلمتين لشدة اتصال الفعل بالفاعل مع كون الحرفين مثلين .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : وكذلك نحو مِّمَّ وعمِّ وإلآم^(١) .

الوجه الثاني

(ما يختص بحرف من الحروف)

ويختص ذلك في خمسة أحرف :

الحرف الأول

(الألف ، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف مع لام التعريف إذا دخلت عليها لام الجرّ، فيكتب للقوم وللغلام وللناس بلامين متواليين من غير ألف ، بخلاف ما إذا دخلت عليها باء الجرّ فإنها لا تُحذف، فيكتب بالقوم وبالغلام وبالناس بألف بين الباء واللام . وإن كان في أول الكلمة ألف ولام من نفس الكلمة ليستا اللتين للتعريف نحو الألف واللام في ألقاء وألقفات وألباس . ثم دخلت لام الجرّ أو باؤه شبت الألف ، فيكتب بالتقائنا ولألقفاتنا ولألباس الأمر على وبألباسه ، فإن أدخلت ألف التعريف ولامه على الألف واللام اللتين من نفس الكلمة للتعريف ولم تصل الكلمة بلام الجرّ وبائه لم تحذف شيئاً ، فيكتب الألقاء والألقفات والألباس بلامين ولامين^(٢) ، وكذلك إذا وصلتهما بلام الجرّ أو بائه ، فيكتب بالألقاء وبالألقفات وبالألباس وبالألقفات ولألقفات ولألباس .

(ومنها) تُحذف بعد اللام الثانية من لفظ الله تعالى، وبعد الميم من الرحمن إذا دخلت عليها الألف واللام، فيكتب الله بلامين بعدهما هاء على هذه الصورة "الله"

(١) ليس من الباب فالصواب حذفه كما وقع في الضوء . . (٢) لعله بألفين ولامين .

وإن كانت المدة بعد اللام الثانية توجب ألفاً بعدها، ويكتب الرحمن بنون بعد الميم على هذه الصورة "الرحمن" وإن كانت المدة على الميم توجب ألفاً بعدها : لأنه لا التباس في هذين اليمين ، ولكثرة الاستعمال . فلو تجردا عن الألف واللام كتبنا بالألف كما قالوا : لآه أبوك يريدون لله أبوك ، فحذفوا حرف الجز والألف واللام وكتبوه بالألف . وكقولك : رحمان الدنيا والآخرة فيكتبونه بالألف .

(ومنها) تحذف بعد اللام من السلام في عبد السلام وفي السلام عليكم ، فيكتبان على هذه الصورة : "عبد السلم" و "السلم عليكم" .

(ومنها) تحذف بعد اللام من ملائكة ، فتكتب على هذه الصورة : "ملككة" . قال أحمد بن يحيى : لأنه لا يشبهه لفظ مثله ، ولكثرة الاستعمال .

(ومنها) تحذف بعد الميم من سموات ، فتكتب على هذه الصورة : "سموات" .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : وعلة الحذف فيه علة الحذف في الملائكة من كثرة الاستعمال وعدم الشبه . وأما الألف الثانية منه وهي التي بعد الواو ، فإنها لا تحذف : لأنها دليل الجمع ، ولأنها لو حذفت لاجتمع في الكلمة حذفان ، وقد كُتِبَتْ في المصحف بحذف الألفين جميعاً فيجب الإتيان إليه في المصحف خاصة .

(ومنها) تحذف بعد اللام في أولئك ، وبعد الذال من ذلك فيكتبان على هذه الصورة : "وأولئك" و "وذلك" . فلو تجرد أولاء وذا عن حرف الخطاب وهو الكاف ، كتبنا بالألف فيكتبان على هذه الصورة : "وأولاء" و "وذا" .

(ومنها) تحذف بعد ها التبيه إذا اتصلت بذا التي للإشارة وكانت خالية من كاف الخطاب في آخر الكلمة ؛ فتحذف من هذا وهذه وهؤلاء ، فيكتب الجميع بغير ألف ، فان اتصلت بأسم الإشارة الكاف نحو ذاك أمتنع الحذف ، فيكتب بألف

(١) أي وأولاء كما يؤخذ من التمثيل .

بعد الهاء على هذه الصورة "ها ذاك" ولا يضر اختلاف حرف الخطاب بالنسبة للإفراد والجمع والتذكير والتأنيث . وأما تا وتي في الإشارة بتا^(١) للذكر وتي للثؤنث ، فإن الألف لا تحذف معهما إذا اتصلت بهما ها التنبيه ، فيكتب هاتا وهاتي وهاتان . وذكر أحمد بن يحيى : أنها حذفت من هاتم وهانا وهانت أيضا ، فتكتب بألف واحدة بعد الهاء في جميع ذلك . قال : وهو القياس ، وكان الأصل أن تكتب بالين على هذه الصورة : ها أتم وها أنا وها أنت ؛ ثم تلى الهمزة . ودليل أن ألف ها قد حذفت من ها التنبيه في غير اتصالها بذا وما والها من رسم المصحف في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم في النور ﴿ آيَةُ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وفي الزخرف ﴿ يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ﴾ وفي الرحمن ﴿ آيَةُ التَّقْوَانِ ﴾ .

قال ابن قتيبة : ويكتب أيها الرجل وأيها الأمير بالألف وإن كان قد كتب في القرآن الكريم بالألف وغير الألف لاختلافهم في الوقف عليها .

(ومنها) تحذف من ثمانية عشر وثمانى نساء ، بخلاف ما إذا حذفت الياء منها نحو ثمان عشرة وعندى من النساء ثمان فإنه لا تحذف الألف ، بل تكتب على هذه الصورة : "ثمان عشرة وعندى من النساء ثمان" لأنه قد حذفت منه الياء فلو حذفت الألف ، لتوالى الحذف فيكثر : فمثل قول الشاعر :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ ثَمَنِيًّا وَثَمَنِيًّا * وَثَمَانَ عَشْرَةَ وَأَثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعًا

يكتب الأؤلان بغير ألف والثالثة بالألف . وفي ثمانين وجهان : أحدهما إثبات الألف بعد الميم فيها : لأنه قد حذفت منه الياء إذ الياء في ثمانين ليست ياء ثمانية لأنها حرف الإعراب المنقلب عن الواو في حالة الرفع ، فلو حذفت الألف أيضا لتوالى فيه الحذف . والوجه الثانى الحذف : لأن الياء منه كأنها لم تحذف بدليل أنه قد عاقبتها

(١) كذا في الضوء أيضا ولعله سهو أو سبق قلم فان تا وتي للثؤنث كما هو واضح .

ياء أخرى فهما لا يجتمعان، فكأن الياء موجودة إجراء للعاقب مجرى المعاقب . وإذا قلت ثمانون بالواو، فحكمه حكم ثمانين بالياء في جواز الوجهين .

(ومنها) تحذف بعد اللام من ثلاث فيكتب على هذه الصورة : ”ثَلث“ سواء كانت مفردة، نحو عندي ثَلث من البَطَّ، أو مضافة نحو ثَلث نساء، أو مركبة نحو ثَلث عشرة امرأة، أو معطوفة نحو ثَلث وثلثون جارية، وحكم ثلثة بالتاء كذلك في جميع الصور .

وكذلك تحذف أيضا من ثلاثين وثلثون بالياء والواو، فيكتبان على هذه الصورة : ”ثَلثين“ و”ثَلثون“ .

فأما ثَلث المعدول كما في قوله تعالى : ”مَثْنِي وَثُلَاثَ“ . فقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : لم أقف فيه على نقل . قال : والذي اختاره أن يكتب بالألف لوجهين : أحدهما أنه لم يكثر كثرة ثَلث، وثَلثة، وثَلثين، وثَلثون . والثاني أنها لو حذفت لآلتهست بثَلث الذي ليس بمعدول .

قال ابن قاسم رحمه الله : وقد ذكر في ”المقنع“ أنه محذوف في الرسم .

(ومنها) تحذف من - يا - التي للنداء إذا اتصلت بهمزة نحو يا أحمد، يا إبراهيم، يا أبا بكر، يا أبانا، فكتب على هذه الصورة : يا أحمد، يا إبراهيم، يا أبا بكر، يا أبانا . ثم الأظهر أن المحذوف هو أَلَف يا لا صورة الهمزة .

وقال أحمد بن يحيى : المحذوف صورة الهمزة لا الألف من يا نعم إذا كانت الهمزة المتصلة بيا كهمزة آدم أمتنع الحذف، وكتبت بألفين على هذه الصورة : يا آدم : لأنهم قد حذفوا أَلَفًا من آدم لتوالي أَلْفَيْنِ، وحرف النداء مع المنادى كالكلمة الواحدة بدليل أنه لا يجوز الفصل بينهما فلو حذفت الألف من يا لآجمع فيما هو كالكلمة الواحدة حذف أَلْفَيْنِ .

أما إذا لم يَلِ يا همزةً البتة نحو يازيد، وياجعفر، فالذى يستعمله الكُتَّابُ فيه إثبات الألف في يا . وفي كلام أحمد بن يحيى تجويز كتابته بغير ألف أيضا، توجيهها بأنهم جملوا يا مع ما بعدها شيئا واحدا، إذ أقاموا يا مقام الألف واللام بدليل أنهم لا ينادون ما فيه ألف ولام، فلا يقولون يا الرجل .

(ومنها) تحذف من الحارث إذا كان علما ودخلت عليه الألف واللام، فيكتب على هذه الصورة: الحِث . أما إذا عرِيَ عن الألف واللام، فإنه يثبت فيه الألف لئلا يلتبس بحرب بالباء الموحدة إذ قد سمي به، وإنما أمتنع اللبس مع الألف واللام لأنهما إنما يدخلان من الأعلام على ما كان صفةً إذا أريد به معنى التفاؤل وحرب ليس بصفة فلم يدخل عليه وإن كانا قد دخلا على بعض المصادر كالعلاء. وكذلك إذا كان حارث أسم فاعل من الحِث فإنه يكتب بالألف أيضا كما إذا عرِيَ عن الألف واللام .

(ومنها) تحذف مما كثر استعماله من الأعلام الزائدة على ثلاثة أحرف إذا لم يحذف منها شيء، سواء كان ذلك العلم من اللغة العربية نحو مالك، وصالح، وخالد، أو من اللغة العجمية نحو إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وهارون، وسليمان، فكتبت على هذه الصورة: ملك، وصالح، وخلد، وإبراهيم، وإسماعيل، وهرون، وسليمان. بخلاف ما إذا لم يكثر استعماله كحاتم، وجابر، وحامد، وسالم، وطالوت، وجالوت، وهاروت وماروت، وهامان، وقارون، فإنها لا تحذف ألفها .

وقد حذف في بعض المصاحف من هاروت، وماروت، وهامان، وقارون، فكتبت على هذه الصورة: هروت، ومروت، وهمن، وقرون .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: وذكر بعض شيوخنا أن إثباتها في نحو صالح، وخالد، ومالك جيد .

وقال أحمد بن يحيى : يجوز فيه الوجهان ، وهو قضية كلام ابن قتيبة .

أما إذا كان العلم الذي كثر استعماله على ثلاثة أحرف فما دونها نحو هالة وأوس^(١) ولام ، فإنه لا تحذف ألفه ، وكذلك إذا حذف منه شيء غير الألف نحو إسرائيل وداود ، لأنهم قد حذفوا من إسرائيل صورة الهمزة ، ومن داود الواو فأمتنع حذف الألف لتلا يتوالى الحذف .

ويلتحق بذلك في الإثبات ما لو خيف بالحذف التباسه : كعامر ، وعباس ، فلا تحذف منه الألف أيضا ، لأنه لو كتب بغير ألف ، لآتبس عامر بعمر ، وعباس بعيس .

(ومنها) تحذف أستحسانا مما كثر استعماله ، مما في آخره الألف والنون نحو شعبان ، وعثمان وما أشبههما ، فيكتبان على هذه الصورة "شعبن" و "عثمن" .

قال الشيخ أنير الدين أبو حيان رحمه الله : إلا أنهم لم يحذفوا ألف عمّان والإثبات في نحو شعبان حسن أيضا .

قال ابن قتيبة : فأما شيطان ، ودهقان ، وإثبات الألف فيهما حسن . وكان القياس إذا دخلت عليهما الألف واللام أن يكتبيا بغير ألف ، إلا أن الكتاب مجعون على ترك القياس في ذلك .

(ومنها) تحذف من كل جمع على وزن مفاعل أو وزن مفاعيل ، إذا لم يحصل بالحذف التباس الجمع فيه بالواحد لموافقته له في الصورة ، فحيث لا يقع اللبس مثل خواتم ودواق في وزن مفاعل ومحاريب وتمائيل وشياطين في وزن مفاعيل

(١) كذا في الأصل والبضوء أيضا .

تحذف الألف فيكتب على هذه الصورة : حَوَاتِمٌ ، ودَوَاتِقٌ ، ومحْرِبٌ ، ومَثِيلٌ ،
 وشَيْطَانٌ ، ودهْقِينٌ . إذ المفرد منها خَاتِمٌ ، ودَاتِقٌ ، ومحْرَابٌ ، ومِثَالٌ ، وشَيْطَانٌ ،
 ودهْقَانٌ ، وهي لاتشابه صور الجمع فيها . بخلاف ما إذا كان يلتبس فيه الجمع بالواحد ،
 مثل مساكين في وزن مفاعيل جمع مسكين فإنه يكتب بالألف لئلا يلتبس بالواحد .
 فلو كان الحذف يؤدي إلى موافقته للواحد في الصورة لكنه في غير موضع المفرد
 نحو ثلاثة دراهم ، ودراهم جياذ ، ودراهم معدودة ، حذفت منه الألف وكتب على
 هذه الصورة : ثلثة دراهم ، ودراهم جياذ ، ودراهم معدودة ، لأنه لا يلتبس حينئذ .
 بخلاف عندى دراهم ونحوه فإنه لو حذفت الألف منه ، لالتبس بدرهم المفرد .

ثم الحذف في مفاعل ومفاعيل على ما تقدم إنما هو على سبيل الجواز ، وإلا
 فالإثبات أجود .

وشرط بعض المغاربة في جواز الحذف شرطا : وهو أن لا تكون الألف فاصلا
 بين حرفين متماثلين ، فلا تحذف الألف من نحو سكاكين ، ودكاكين ، ودنانير ، لئلا
 يجتمع مثلان في الخط وهو مكروه في الخط ككراهته في اللفظ .

وقد كتبت في المصحف مساكين ، ومساكنهم بغير ألف على هذه الصورة مساكين ،
 ومسكينهم ، وإن كان اللبس موجودا .

قال الشيخ أمير الدين أبو حيان رحمه الله : وإنما كتبنا كذلك لأنهما قد قرئا
 بالافراد فكتبنا على ما يصلح فيهما من القراءة . كما كتبوا ﴿ وَمَا يُجَادِعُونَ ﴾ بغير ألف
 على هذه الصورة ﴿ وَمَا يُجَدُّعُونَ ﴾ لأنه يصلح لقراءة يُجَدُّعُونَ من الثلاثي .

(ومنها) تحذف الألف الأولى مما كان فيه ألفان ، مما جمع بالألف والتاء المزيدتين
 نحو صالحات ، وعبادات ، وقاتنات ، وذاكرات ، فكتبت على هذه الصورة "صالحات ،
 وعبادات ، وقتنات ، وذاكرات" .

وكذلك تحذف من صفات جمع المذكر السالم نحو الصالحين ، والقانتين ، فيكتب على هذه الصورة : ”الصلحين“ و”القنتين“ وإن لم يكن فيه ألف أخرى حملا على المؤنث .

وقال بعض المغاربة: إن كان مع ألف الجمع ألف أخرى كالسماوات، والصالحات، فيختار حذف ألف الجمع وإبقاء الأخرى . وثبت في المصحف بحذف الألفين جميعا على هذه الصورة : ”سموت، وصلحت“ وكذلك سياحات، وغيابات . وإن كان ليس فيه ألف أخرى فالخيار إثبات الألف كالمسلمات ، وثبت أيضا في المصحف محذوف الألف على هذه الصورة : مسامت .

قال: وتحذف أيضا في جمع المذكر السالم من الصفات المستعملة كثيرا: كالشاكرين، والصادقين، والחסارين، والكافرين، والظالمين، وما أشبهها في كثرة الاستعمال فتكتب على هذه الصورة ”الشكرين، والصدقين، والחסرين، والكافرين، والظالمين“ .

نعم إن خيف اللبس فيما جمع بالألف والتاء مثل طالحات، آمتنع الحذف لأنه لو حذفت الألف منه، لآلتبس بطَلَحَاتٍ جمع طَلَحَةٍ . وكذلك لو خيف اللبس فيما جمع بالواو والنون، نحو حاذرين، وفارهين، وفارحين . فلو حذفت الألف منه، لآلتبس بجَذَرين، وفَرِهين ، وفَرِحين، وهما مختلفان في الدلالة، لأن فاعلا من هذا النوع مذهب به مذهب الزمان، وقيل يدل على المبالغة لاعلى الزمان .

وكذلك لو كان مضعفا مثل شَابَات ، والعاديين ، فلا يجوز فيه حذف الألف لأنه بالإدغام نقص في الخط إذ جعلوا الصورة للُدْغَمِ والمُدْغَمِ فيه شكلا واحدا . ولذلك كتبوا في المصحف الضَّالِّين والعاديين بالألف . وقد أجرى مجرى المضعف في الإنبات ما بعد ألفه همزة نحو الخائنين . وقد حذفت ألفه في بعض

المصاحف، فكتب على هذه الصورة "الْحَيْنِ". ويتعين الإثبات أيضا فيما هو معتل اللام مثل دانيات حملا على داني، كما حذف من الصالحين حملا على الصالحات، ومثل الرامين لأنه قد حذف منه لام الفعل . وحمل . جامع بالألف والتاء عليه كما حمل الصالحين على الصالحات في حذف الألف، وإن كانت العلة فيهما مفقودة .

قال ابن قتيبة : وكذلك ما كان من ذوات الياء والواو لا يجوز فيه حذف الألف نحوهم القاضون ، والرامون ، والساعون : لأنهم حذفوا الياء لالتقاء الساكنين لما استتقلوا ضمة في الياء بعد كسرة فسكنوا ثم حذفوا الياء، فكروها أن يحذفوا الألف أيضا لثلاثا يخلوا بالكلمة .

(ومنها) تحذف إحدى الألفين مما اجتمع فيه ألفان مثل آدم، وأزر، وأمن ، وأمين، وأتين، وأنفا، ووراك، وقراءة، وبرأة، وشنان، وشبهه، فكتب على هذه الصورة "آدم، وأزر، وأمن ، وأمين، وآتين، وأنفا، ووراك، وقراءة، وبرأة، وشنان" فلو أنفتح الأول منهما كما في قرأ الفعل الآتين من القراءة، كتب بألفين على هذه الصورة : (قرأ) ، لثلاثا يلبس بفعل الواحد، إذ المفرد تقول فيه قرأ فكتبه بألف واحدة. وذهب قوم إلى أنه في التثنية يكتب أيضا بألف واحدة مسندا إلى ألف الآتين، وبه قال أحمد بن يحيى . والذي عليه المتأخرون وهو الأجود عند ابن قتيبة ما تقدم .

(ومنها) تحذف إحدى الألفات مما اجتمع فيه ثلاث ألفات ، مثل برأت جمع براءة ، ومسأت جمع مساءة ، فكتب بألفين فقط على هذه الصورة : "برأت" و"مسأت" لأنها في الجمع ثلاث ألفات . فلو حذفوا آتين، أحلوا بالكلمة .

(ومنها) تحذف من أول الكلمة في الاستفهام في اسم ، أو فعل ، نحو الله أذن لكم ؟ السحر إن الله سيبيطه ؟ الذكركين حرم أم الأنثيين ؟ أصفى البنات على البنين ؟

أالرجل في الدار؟ أاسمك زيد أم عمرو؟ فكتبت بألف واحدة على هذه الصورة:
 اللَّهُ؟ أَلَسَّحْرُ؟ أَلَذَكَرَيْنِ؟ أالرجل؟ أاسمك؟ أالآن؟ .

ثم مذهب أحمد بن يحيى، وعليه جرى ابن مالك رحمه الله : أنه لافرق بين
 المكسورة، والمضمومة. والذي ذهب إليه المغاربة أنها تكتب بالهين، إحداهما
 ألف الوصل، والأخرى همزة الأستفهام .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : وجاز في نحو أالرجل الأامران،
 ورسمت في المصحف بألف واحدة نحو أالذكرين، أالآن .

ومنها) تحذف من ما الأستفهامية إذا دخل عليها حرف من حروف الجر، نحو
 عمّ تسأل؟ وفيم تفكر؟ وممّ فرقت؟ ولم تكلمت؟ وممّ علمت؟ وحتام تغضب؟
 وعلام تدأب؟ فكتبت كلها بغير ألف في آخرها فرقا بينها وبين ما الموصولة، ويصير
 حرف الجر كأنه عوض من الألف المحذوفة . وكان الحذف من الأستفهامية دون
 الموصولة لأن آخرها منتهى الأسم، والأطراف محل التغيير. بخلاف الموصولة: لأنها
 متوسطة من حيث إنها تحتاج إلى صلة .
 وحكى الكوفيون ثبوتها في الأستفهامية أيضا، والله أعلم .

تذنيب

تحذف همزة المصوّرة بصورة الألف في أربعة مواضع :

الأول - تحذف بعد الباء من بِسْمِ اللّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فكتبت بغير ألف على
 هذه الصورة: "بسم". والقياس إثباتها كما تكتب أيها بالألف لكنها حذفت لكثرة
 الأستعمال، أما في غير بسم الله الرحمن الرحيم، فظاهر كلام ابن مالك أنها لا تحذف،
 فتثبت في بأسم ربك، وفي باسم الله، مفردا .

وقال بعضهم : إن كان مضافا إلى لفظ الله تعالى وليس متعلقا بالباء ملفوظا به ،
حذفت وإلا فلا ، فنثبت في بآسم ربك لأنه غير مضاف إلى لفظ الله تعالى ، وفي نحو
قولك تبركت بآسم الله : لأن متعلقه ملفوظ به .

وقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إن شئت أثبتت
وإن شئت حذفت ، فمن أثبت قال : ليست مبتدأ بها ، وليس معها الرحمن الرحيم ؛
ومن حذف ، قال : كان معها الرحمن الرحيم في الأصل ، فحذفت في الاستعمال . فإن
أضفت الأسم إلى الرحمن أو القاهر ونحوه ، فقال الكسائي : تحذف ، وقال الفراء :
لا يجوز أن تحذف إلا مع الله لأنها كررت معه ، فإذا عدوت ذلك أثبت الألف .

الثاني - تحذف بين الفاء والواو ، وبين همزة هي فاء الفعل من وزن الكلمة ،
مثل قولك فأت وأت : لأنهم لو أثبتوا لها صورة الألف ، لكان ذلك جمعا بين ألفين :
إحدهما صورة همزة الوصل ، والأخرى صورة الهمزة التي هي فاء الفعل ، مع أن الواو
والفاء شديدتا الاتصال بما بعدهما لا يوقف عليهما دونه ، وهم لم يجعوا بين ألفين
في سائر هجائهم إلا على خلاف في المتطرفة كما مر ، لأن الأطراف محل التغيرات
والزيادة ، فلذلك حذفوها في نحو فأذن ، وأتمن فلان ، وعليه كتبوا ﴿ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ ﴾
فلو كانت الهمزة بين غير الفاء والواو وبين الهمزة التي هي فاء الفعل شئت ، نحو أئتو
و﴿ أَلَّذِي أَوْتَمِنَ ﴾ . ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ أُنْذِنَ لِي ﴾ وكذلك لو كانت ابتداء والهمزة
فاء الفعل ، نحو أُنْذِنَ لِي ، أَوْتَمِنَ فلان ، ثبت أيضا ؛ أو ليست فاء ، نحو ثم أضرب ،
وأضرب ، فاضرب . وكذلك في ﴿ وَأَتُوا الْبُيُوتَ ﴾ .

الثالث - تحذف في ابن وأبنة مما وقع فيه ابن مفردا صفة بين علمين ، غير
مفصول ، فيكتب نحو جاء فلان بن فلان ، أو فلانة بنة فلان بغير ألف في ابن وأبنة .
ولا فرق في ذلك بين أن يكون العلمان اسمين ، نحو هذا أحمد بن عمر ، أو كنيين ،

نحو هذا أبو بكر بن أبي عبد الله، أو لقبين، نحو هذا نبت بن بطة، أو أسما وكنية،
نحو هذا زيد بن أبي قحافة، أو لقباً وأسماً، نحو هذا أنف الناقة بن زيد، أو كنية
ولقباً، نحو هذا أبو الحرث بن نبت، أو لقباً وكنية، نحو هذا بدر الدين بن أبي بكر.

فهذه سبع صور: تسقط فيها الألف من ابن ولا تسقط فيما عداها، فلوقلت هذا
زيد أبوك، وابن أخيك، وابن عمك، ونحو ذلك مما ليس له صيغة بين علمين، أثبت^(١)
فيه الألف. وكذلك إذا كان خبراً كقولك: أظن زيدا ابن عمرو، وكأن بكراً
ابن خالد، وإن زيدا ابن عمرو، فثبت الألف في الجميع. ومنه في القراءان الكريم:
(وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِّيْرُ ابْنِ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ) كتبنا في المصحف
بالألف. فلوثبت الابن، ألحقت فيه الألف صفة كان أو خبراً، فتكتب قال
عبدالله: وزيد أبنا محمد كذا وكذا، وأظن عبد الله وزيدا أبني محمد فعلاً كذا بالألف.
وكذلك إذا ذكرت ابناً بغير اسم، فتكتب: جاء ابن عبد الله بالألف أيضاً. وحكم
أبنة مؤنثاً في جميع ما ذكر حكم الابن، تقول: جاءت هندُ بنةُ قيس، فتحذف الألف.
وشرط الأستاذ أبو الحسن بن عصفور أن يكون مذكراً فلا تسقط من أبنة.

ونقل أحمد بن يحيى عن أصحاب الكسائي: أنه متى كان منسوباً إلى اسم أبيه
أو أمه أو كنية أبيه أو أمه وكان نعتاً، حذفوا الألف فلم يُجزه في غير الاسم والكنية
في الأب والأم. قال: وأما الكسائي فقال: إذا أضفت إلى اسم أبيه أو كنية أبيه،
وكانت الكنية معروفة بها كما يعرف بأسمه، جاز الحذف، لأن القياس عنده الإثبات،
والحذف استعمال؛ فإذا عدى الاستعمال، رُجع إلى الأصل.

وحكى ابن جنى عن متأخري الكُتّاب: أنهم لا يحذفون الألف مع الكنية، تقدمت
أو تأخرت. قال: وهو مردود عند العلماء على قياس مذاهبهم.

(١) في الضوء [مما ليس بين علمين] وهي أوضح. [ولعل الأصل مما ليس صفة]

والألف تحذف من الخط في كل موضع يحذف منه التنوين وهو حُدْفَ مع الكُنْى .

الرابع - تحذف من كل مُعَرَّف بالألف واللام إذا دخلت عليه لامُ الأبتداء، نحو ﴿وَلَا حِرَّةَ يُجِيرُكَ مِنَ الْأُولَى﴾ أو لامُ الجزء، نحو للدار ألف ساكن غيرك؛ وقياسها الإثبات كما أثبتوها في لأبئك قائم، ولأبيك مال؛ وسبب حذفها التباسها بلا النافية .

وذهب بعضهم : إلى أنها لا تحذف مع لام الأبتداء فرقا بينها وبين الجازة . ولم يحذفوها من نحو مررت بالرجل والله أعلم .

الحرف الثاني

(اللام، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف من الذى للزومها، فكأنها ليست منفصلة، وكذلك تحذف من جمعه وهو الذين لأنه يشبه مفردة في لزوم البناء، ولفظ الواحد كأنه باق فيه، ولم يحذفوه من المثنى كما في قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذِينَ أَضَلَّانَا﴾ فكتبوه بلامين فرقا بينه وبين الجمع . وإنما آخضت التثنية بالإثبات، لأنها أسبق من الجمع، واللبس إنما حصل بالجمع .

(ومنها) تحذف من التى للزومها كما تقدم، ومن تثنيها وهى التان، وجمعها : وهى الآتى لأنهما لا يتبسان، بخلاف تثنية الذى وحروفه .

وقال أحمد بن يحيى : كتبوا اللاتى (التى) واللائى (الشى) وأسقطوا لاما من أولها وألغا من آخرها . قال : وهذا للاستعمال لأنه يقل في الكلام مثله ، ويدل عليه ما قبله وما بعده، ولو كتب على لفظه كان أولى .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله: والذي عهدناه من الكُتّاب أنه لا تحذف الألف لثلاثا يلتبس بالمفرد .

(ومنها) تحذف من الليل واللييلة على أجود الوجهين ، فيكتبان بلام واحدة على هذه الصورة : ” اللَّيْلُ وَاللَّيْلَةُ ” : لأن فيه آتباع المصحف ، وأجاز بعضهم كتابته بلامين . قال أبو حيان : وهو القياس .

(ومنها) تحذف من ... (١) ... ونحوه ، مما دخل عليه لام الحرف فيكتب بلامين وإن كان في اللفظ ثلاث لامات .

(ومنها) قال أحمد بن يحيى : يكتب الطيف بلام واحدة لأنه قد عُرِفَ فحذف ، وهذا بخلاف اللّهُو، واللّعب، واللّعبة، واللّاعبين، واللّغو، واللؤلؤ، واللّات، واللّهم، واللّهَب واللّوامة ، فإنها لا تحذف منها اللام .

قال ابن قتيبة : وكل اسم كان أوله لاماً ثم أدخلت عليه لام التعريف ، كتبت بلامين ، نحو اللهم ، والابن ، واللحم ، والجمام ، وما أشبه ذلك . وإن كانوا قد اختلفوا في الليل واللييلة لموافقة المصحف كما تقدّم .

الحرف الثالث

(النون، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف من عن إذا وصلت بمن أو بما ، فتكتب عنن وعمم وعمم .

(ومنها) تحذف من من الجارة إذا وصلت بمن أو ما ، فتكتب ممن ومما .

(ومنها) تحذف من إن إذا وصلت بلم ، فتكتب إلم .

(ومنها) تحذف من أن المفتوحة إذا وصلت بلا ، فتكتب ألا .

(١) بياض بالأصل ولعله من اللّعب ونحوه الخ .

الحرف الرابع

(الواو، وتحذف في مواضع)

(منها) تحذف لأمن اللبس ، مثل ما كتبوا من قوله تعالى : (يَدْعُ الدَّاعِ) .
 (وَيَمَحُّ اللَّهُ الْبَاطِلَ) بغير واو في يدعو ويمحو ، لأن ذكر الداع في الأول ،
 وذكر الله تعالى في الثاني يمنع أن يكون الفاعل جماعة فلا يحصل اللبس ، بخلاف
 قولك لا تضربوا الرجل : فإنه لو حذف لالتبس الجمع فيه بالواحد .

(ومنها) تحذف مما توالى فيه واوان في كلمة واحدة ، مثل داوود ، وطاووس ،
 ورؤوس ، ويستون ، ويلون ، وأووا إلى الكهف ، ويسوا ، وتبوؤوا ، وجأؤوا ،
 وبأؤوا ، وأسأؤوا ، ويؤوده ، ويؤوس ، وفادرؤوا ، ومبرؤون ، فيكتب باووا واحدة .
 وكتب بعضهم طاووس ونحوه باووين على الأصل ، والقياس الاقتصار على واو
 واحدة كراهة اجتماع المثليين .

وأستثنى ابن عصفور من ذلك موضعاً ، وهو أن لا يؤدى إلى اللبس ، نحو قول
 وصؤول على وزن فعول فإنه يلتبس بقول وصول ، وأختره أحمد بن يحيى .

(ومنها) تحذف مما توالى فيه ثلاث واوات في كلمتين ككلمة ، مثل ليسوعوا ،
 وينوعون ، فكتب ليسوعوا ، وينوعون ، باووين فقط ، ويكتب لؤوا ، وأجتؤوا ،
 وآلتؤوا ، باووين ، لأنه لو حذف إحدى الواوين لالتبس الجمع بالمفرد .

ووقع في المصحف كتابة يستون ، ويلون ، باووا واحدة ، وذلك لأن في يستون
 ونحوه أجمع واوان وضمة ، فناسب الحذف ، وفي لؤوا رؤوسهم ، ونحوه أنفتح ما قبل
 الواو فناسب الإثبات .

(ومنها) تحذف للجزم كما في قولك لم يَغْدُ فتحذف الواو علامة للجزم ، والله سبحانه
 وتعالى أعلم .

الحرف الخامس

(الياء، وتحذف في مواضع)

- (منها) للجزم كما في قولك : لم يَقْضِ ، فتحذف الياء من آخره علامة للجزم .
 (ومنها) تحذف لمراعاة الفواصل ، نحو قوله تعالى : "وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ" بغير ياء
 في آخرها لمراعاة ما قبله من قوله "وَالفَجْرِ" .
 (ومنها) تحذف فيما توالي فيه ياءان أو ثلاثة ، فَكُتِبَ النَّبِيِّينَ ، وَخَاسِئِينَ ، وَخَاطِئِينَ ،
 وَإِسْرَائِيلَ ، وما أشبه ذلك بياءين فقط ، وإن كان في اللفظ ثلاث ياءات .
 (ومنها) تحذف لأمن اللبس ، فَكُتِبَ قَارِعِينَ جمع قارئ بياء واحدة ، فرقا بينها
 وبين قَارِعِينَ تثنية قارئ فإنها تكتب بياءين .
 (ومنها) تحذف مدة ضمير الغائب مثل قولك : ضربه ، فكتبه بغير واو ، وإن كنت
 تلفظ به لأنك إذا وقفت حذفها ووقفت على المياء ساكنة ، وكذلك مدة ضمير
 الغائبين ، مثل قولك : ضربهم في لغة من وصل الميم ، وكذلك حذفها إذا وليت
 الكاف ، نحو ضربكم زيد ولكم في لغة من وصل الميم بواو وبياء ، لأنه إذا وقف
 حذف الصلة والله أعلم .

النوع الثالث

(ما يُغَيَّرُ بِالْبَدَلِ)

والحروف التي يدخلها البدل ثلاثة أحرف : الألف ، والواو ، والياء ، والألف والياء
 أكثرهما تعاقبا .

فتنوب الياء عن الألف في ثلاثة محال :

(١) لعل في العبارة سقطا والأصل فيكتب بياء فقط وإن كان في اللفظ يامين وبيامين فقط وإن كان الخ .

(٢) تعلق هذا بالحرف الرابع أكثر منه بالخامس .

المحل الأول

(الاسم، وهو ثلاثة أحوال)

الحال الأول - أن تكون الألف فيه رابعة فصاعداً، نحو المِعْزَى، والمُسْتَدْعَى، والحُبْلَى، والمرْضَى، والمَلْهَى، والمدْعَى، والمُشْتَرَى، ومِثْلَى، ومِثْنَى، وكذلك أَعْمَى، وأَعْشَى، وأَطْمَى، وأَقْنَى، وأَدْنَى، وأَعْلَى، ومُعَافَى، ومُنَادَى، وما أشبه ذلك، فتكتب الألف في جميع ذلك ياءً سواء كان منقلبا عن واو أو منقلبا عن ياء، لأنك إذا ثبتته ثبته بالياء، ومن ثم كتبت ياويلتى، وياحسرتى، وياأسفى، بالياء إشعاراً بأنها مما تمال أو تقلبها عند التثنية ياءً، إلا فيما قبلها ياء نحو الدنيا، والعُلْيَا، والقُصْبَا، وهُدْيَا، ومَعْيَا، ومُحْيَا، وعام حياً ورؤْيَا، وسُقْيَا، فإنك لا تكتب الألف فيها ياءً كراهة أن تجتمع ياءان في الخط. نعم يغتفر ذلك في نحو يحيى ورَيْى عَمِينَ: للفرق بين يحيى علما وبينه فعلا وبين رَيْى علما وبينه وصفا، وكان البدل في العلم دون الوصف والفعل لأن الفعل والصفة أثقل.

قال ابن قتيبة: وأحسبهم أتبعوا في يحيى رسم المصحف.

(١)
فلو كان مهموزاً، نحو مستقراً ومستنبثاً، أو قبل آخره ياء نحو خطايا، وزوايا، وركايا، والحوايا، والحيا، وما أشبهه كتب بالألف.

الحال الثاني - أن تكون الألف فيه ثالثة، فإن كانت مبدلة عن ياء، نحو قَتَى، ورحى، وسوى، وأهدى، والمدى للغاية، والهوى لهوى النفس، وندى الأرض، وندى الجود، وحفى الدابة، والكرى النوم، والقذى، والأذى، والحنى: بفتح القول، والضنى: المرض، والردى: الهلاك، والطوى: الجوع، والأسى: الحزن، والعمى: في القلب والعين، والحنى: جنى الثمرة، والصدى: العطش، والشرى: في الجسد، والضوى:

(١) كذا في الضو. أيضا وليس مما نحن فيه.

الهْزَالُ، والثَّرَى : التراب النَّدِيّ، والجَوَى : داء في الجوف، والسَّرَى : [سَيْرٌ] الليل، والسَّلَى : سَلَى الناقَةَ، وَمِنِّي : المكان المعروف، والمددُ الغاية، والصَّدَى اسم طائر يقال إنه ذكر البوم، والنَّسَى : عرق في الفِخْذِ، وطَوَى : وَاِد، والوَعَى : الحربُ، والوَحَى : العَجَلُ، والوَرَى : الخَلْقُ، والدَّرَى : الناحية وأنا في ذرى فلان، والمعَى واحد الأمعاء، والحجَى والنهى العَقْلُ، والحشَى واحد الأحشاء، وما أشبه ذلك كتب بالياء .

وإن كانت منقلبة عن واو، نحو عصا، ومنا للقدْر، ورجا لجانب البئر، والقنا في الأنف، والرما والقرأ للظهر، والعشا في العين، والقفا: قفا الإنسان، والصغا: ميلك للرجل، ووطا جمع وطاة، و[لها جمع] لهاة، والقلا جمع فلاة، كتب بالألف .
وتفترق الواو من الياء فيه بطرق أقربها التثنية تقول في الأول فتيان، ورحيان، وسويان .

قال ابن قتيبة: فلو ورد عليك اسم قد تُثني بالواو والياء عَمِلت على الأكثر الأعم .
وذلك نحو رَحَى، فإن من العرب من يقول رحوت الرِّحَاء؛ ومنهم من يقول رَحِيْت، قال: وكتبها بالياء أحبُّ إلى لأنها اللغة العالية .

وكذلك الرِّضَا من العرب من يقول في تثنيته رضيان؛ ومنهم من يقول رضوان، قال: وكتبته بالألف أحبُّ إلى: لأن الواو فيه أكثر، وهو من الرضوان. وكذلك الحكم في متى، لأنها لو سُمِّي بها وُثِنِي، لقلت متيان، فيعلم أنه من ذوات الياء. وتقول في الثاني: عَصَوَانٌ وَمَتَوَانٌ وَرَجَوَانٌ، فيعلم أنه من ذوات الواو. فإذا أشكل عليك شيء فلم تعلم أهو من ذوات الواو [أو من ذوات الياء]؟^(٢) نحو خَسَا بالخاء المعجمة والسين المهملة، كتبته بالألف لأنه هو الأصل .

(١) تقدم فهو مكرر . (٢) الزيادة عن ضوء الصبح .

ومنهم من يكتب الباب كله بالألف على الأصل وهو أسهل للكتاب . وعلى تقدير كتبها بالياء فلو كان متونا فاختار عندهم أنها تكتب بالياء أيضا ، وهو قياس المبرد وقياس المازني أن يكتب بألف إذ هي ألف التنوين عنده في جميع الأحوال .
وقاس سيويه المنصوب بالألف لأنه للتنوين فقط .^(١)

قال ابن قتيبة : وتعتبر المصادر بأن يرجع فيها إلى المؤنث ، فما كان في المؤنث بالياء كتبته بالياء ، نحو العمى ، والظمى ، لأنك تقول عمياء وظمياء ، وما كان المؤنث فيه بالواو كتبته بالألف ، نحو العشا في العين ، والعنا وهو كثرة شعر الوجه ، والقنا في الأنف ، لأنك تقول عشاء ، وقنواء ، وعثواء .

قال : وكل جمع ليس بين جمعه وبين واحده في الهجاء إلا الهاء من المقصور ، نحو الحصى ، والقطا ، والنوى ، فما كان جمعه بالواو كتبته بالألف ، وما كان جمعه بالياء كتبته بالياء .

وكتبت لدى بالياء لأنقلابها ياء في لديك .

وأما كلاً ، فالصحيح من مذهب البصريين أنها تكتب بالألف ، لأن ألفه عن واو . ومن زعم أنها عن ياء كالمعى ، كتبها بالياء . وأجاز الكوفيون كتبها بالياء وهو خطأ على مذهبهم لأن الألف عندهم للتثنية ، وألف التثنية لا يجوز أن تكتب ياء لثلاثا يلتبس المرفوع بغيره . وقياس كلنا عند البصريين أن تكتب ياء ، وشذ كتابتها بالألف .

قال ابن قتيبة : والذي أستحبه أن تكتب كلاً وكلنا في حال الرفع بالألف ، وفي حالتي الجز والنصب بالياء . فإذا قلت : أتاني كلاً الرجلين أو كلنا المرأتين ، كتبته بالألف . وإذا قلت : رأيت كل الرجلين أو كلتي المرأتين كتبته بالياء ، لأن العرب قد فرقت بينهما في اللفظ فقالوا : رأيت الرجلين كليهما ، ومررت بالرجلين كليهما ، ومررت بالمرأتين كلتيهما . وقالوا : جاءني الرجلان كلاهما ، والمرأتان كلتاها .

(١) لعله المنصوب فقط فقال يكتب بالألف الخ . (٢) أى مع المكى كما هي عبارة ابن قتيبة .

وتترى إن لم تتون، فألفها للتأنيث وإن تونت فهي للإلحاق، وقياسها أن تكتب بالياء . ومن زعم أنه فعل، فألفه بدل التنوين كألف صبرا، فهو قياسه .
ووقع في كلام ابن البادس أن تترى في الخط بياء، وهو خلاف المعروف .

تنتيه

لو اتصل الأسم الذي يكتب بالياء بضمير متصل، نحو رَحَاكَ، وَقَفَاكَ، وَمَلَّهَاكَ، وَمَرَعَاكَ، ففعل يكتب بالياء كحال عدم اتصالها، فيكتب على هذه الصورة: رَحِيكَ، وَقَفِيكَ، وَمَلَّهِيكَ، وَمَرَعِيكَ .

قال الشيخ أثير الدين أبوحيان رحمه الله : واختيار أصحابنا فيه بالألف إذا اتصل به ضمير خفض أو ضمير نصب، سواء كان ثلاثيا أم أزيدا، إلا إحدى خاصة فإنها تكتب بالياء حال اتصالها بضمير الخفض، نحو من إحديهما كحاله دون الاتصال، واختلفوا إذا اتصلت بياء تأنيث تنقلب هاء في الوقف، فذهب البصريون إلى كتابتها ألفا، نحو الحصاة، واختار الكوفيون كتابتها بالياء نحو الحصية .

الحال الثالث - أن تكون الألف فيه ثانية، نحو ما وذا إذا كانا آسيتين، فيكتب بالألف على صورة النطق به .

المحل الثاني

(الفعل، وله حالات)

الحال الأول - أن تكون الألف فيه رابعة فصاعداً، نحو أعطى، وأستعلى، وتَدَاعَى، وتَدَادَى، وأستدنى، وما أشبهه فتكتبه كله بالياء إلا أن يكون مهموزا، نحو أخطأ، وأنبأ، وتخطأ، وأستنبأ، فإنه يكتب بالألف . وكذلك إذا كان قبل آخره ياءً، نحو أستحيا، وتحايا، وأعيا، وتعايا، وأستعيا، وما أشبهه فإنك تكتبه بالألف .

ووقع في بعض المصاحف (نَحْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ) بالألف في آخر نحشى ،
وفي بعض المصاحف بالياء .

الحال الثاني - أن تكون الألف ثالثة ، فترده إلى نفسك ، فإن ظهرت فيه
الواو فأكتبه بالألف ، نحو قولك : عدا ، ودعا ، ومحا ، وغزا ، وسلا ، وعلا من العلو ،
لأنك تقول : عدوت ، ودَعَوْتُ ، ومحوْتُ ، وغزوت ، وسلوت ، وعلوت . وشذ زكى ،
فكتب بالياء وإن كان من ذوات الواو ، لأنه من زكى يزكو ، إلا أن العرب يُميلون
الأفعال ذوات الواو . وإن ظهرت فيه الياء فأكتبه بالياء ، نحو قولك : قضى ، ومشى ،
وسعى ، وعسى ، لأنك تقول : قضيت ، ومشيت ، وسعيت ، وعسيت ، ويجوز كتابته
بالألف أيضا .

تنبیه

لو اتصل بالفعل ضمير متصل ، نحو رماه ، وجزاه ، ورعاه ، فقبل يكتب على حاله
بالياء ، فيكتب على هذه الصورة : رميه ، وجزاه ، ورعاه ، والصحيح كتابته بالألف .
قال ابن قتيبة : وكل ما لحقته الزيادة من الفعل لم تنظر إلى أصله ، وكتبته كله
بالياء ، فتكتب أغزى فلان فلانا ، وأدنى فلان فلانا ، وألهى فلان فلانا بالياء . وهو
من غزوت ، ودنوت ، ولهوت ، لأنك تقول فيه : أغزيت ، وأدريت ، وألهيت .
وكذلك تكتب يُغزى ، ويُدنى ، ويُلهى ، على البناء لما لم يسم فاعله بالياء ، لأنك تقول
في تثنيته : يُغزيان ، ويُدنيان ، ويُلهيان .

الحال الثالث

(بعض الحروف)

وأعلم أن الحرف الذى فى آخره ألف فى اللفظ إنما يكتب ألفاً على صورة لفظه ،
نحو ما ، ولا ، وألا ، وما أشبهها ، وأستثنوا من ذلك أربع صور فكتبوها بالياء .

إحداها - بلي، قال بعض النحاة لإمالتها: وقال سيديويه: لأنه إذا سمي بها وثنيت قيل بليان كما يقال في متى متيان .

الثانية - إلى، وكتبت بالياء لأنها تُردُّ إلى الياء في قولهم إليك .

الثالثة - على، وكتبت بالياء لأنها تُردُّ إلى الياء أيضا في قولهم عليك .

قال ابن قتيبة: وكان القياس فيها وفي إلى أن تكتب بالألف لعدم جواز الإمالة فيهما .

الرابعة - حتى، وكتبت بالياء حملا على إلى لكونهما بمعنى الانتهاء والغاية، ولأنه قد روى فيها الإمالة عن بعض العرب فروعى حكما .

تنبيه

لو وليت ما الاستفهامية حتى، أو إلى، أو على، كُتِبَ بالألف على هذه الصورة: حَتَّام، وإلام، وعلَّام، لأنها شديدة الاتصال بما الاستفهامية بدليل أن ما بعدها لا يوقف عليه إلا بذكرها معه، فكأن الألف وقعت وسطاً فصارت كحال ما كتب بالياء إذا اتصل بضمير خفض أو ضمير نصب، فإنه يكتب بالألف .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله: فإن وُصل في حَتَّام وإلى الهاء الحائرة، فلك أن تجريها على الاتصال ولا تَعْتَدَّ بها، ولك أن تعتدَّ بها وترجع الألف في حتى، وإلى، وعلى، إلى أصلها، فتكتب بالياء يعني على هذه الصورة حتى مه، وإلى مه، وعلى مه .

(فائدة)

قد يُكْتَبُ بالياء ما هو من ذوات الألف للجاورة كما في قوله تعالى: ﴿ وَالضُّحَىٰ ﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ فإن الضحى ونحوه قياسه عند البصريين

أن يكتب بالألف لأنه من ذوات الواو، ولكنه كتب بالياء لمجاورة سيجي، وسجى وإن كان من ذوات الواو أيضا، كتب بالياء لمجاورة قلى الذى هو من ذوات الياء، فسجى مجاور، والضحى مجاور المجاور .

وأما الواو فقد نابت عن الألف فى مواضع من رسم المصحف الكريم : وهى الصلاة، والزكاة، والحياة، والنجاة، ومِسْكَاة، ومِنَاة، فتكتب على هذه الصورة : الصلوة، والزكوة، والحياة، والنجوة، ومِنْوَةٌ، ومِسْكَوَةٌ . فمنهم من كتبها كذلك فى غير المصحف أيضا أتباعا للسلف فى ذلك، ومنهم من كتبها بالألف وهو القياس، ووجه بأن رسم المصحف متبع فى القرءان خاصة . ولا يكتب شىء من نظائر ذلك إلا بالألف . كالقناة، والقناة، وأقتصارا على ما ورد به الرسم السلفى .

قال ابن قتيبة : وقال بعض أهل الإعراب : إنهم كتبوا هذه الكلمات بالواو على لغات الأعراب، وكانوا يميلون فى اللفظ بها إلى الواو شيئا . وقيل بل كتبت على الأصل، إذ الأصل فيها واو، لأنك إذا جمعت قلت : صلوات، وزكوات، وحيوات، وإنما قلبت أَلْفًا، لما أُنْفَتْحت وأُنْفَتْحت ما قبلها .

قال : ولولا اعتياد الناس لذلك فى هذه الأحرف الثلاثة : أى الصلاة، والزكاة، والحياة، لكان من أحب الأشياء إلى أن تكتب كلها بالألف . وجمعوا فى الربا بين العوض والعوض منه، فكتبوه بواو وألف بعدها على هذه الصورة : الربوا . وفى بعض المصاحف ﴿ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبًّا ﴾ بألف بغير واو، وما سواه فلا خلاف فيه .

تنبیه

لو أتصل بشىء مما أبدلت ألفه واوا ضمير، نحو صلاتهم، وزكاتهم، وحياتك، ونجاته، ومِسْكَاتِه، ورباه، كتبت بالألف دون الياء، والله أعلم .

القسم الثاني

(ما ليس له صورة تخصه)

وهو الهمزة، إذ تقع على الألف والواو والياء، وعلى غير صورة، ولها ثلاثة أحوال .

الحال الأول

(أن تكون في أول الكلمة)

فكتبت ألفا بأى حركة تحركت : من فتحة، مثل أحمد، وأيوب، وأحد، أو ضمة : نحو أخذ، وأكرم، وأوحى، وأولئك، أو كسرة : نحو إبراهيم، وإسماعيل، وإسحق، وإئتمد، وإيل، وإذ، وإذا، وإلى، وإلا، وإما، سواء في ذلك همزة القطع مثل أكرم، وهمزة الوصل مثل آتخذ، والهمزة الأصلية مثل أمرئ، والهمزة الزائدة مثل إشاح . وذلك لأن الهمزة المبتدأة لا تخفف أصلا من حيث إن التخفيف يقربها من الساكن، والساكن لا يقع أولا، فجعلت لذلك على صورة واحدة . واختصت الألف بذلك دون الياء والواو حيث شاركت الهمزة في المخرج، وفارقت أختيها في الحقيقة، ولا فرق في ذلك بين أن تكون الهمزة مبدأة كما في الصور المذكورة، أو تقدمها لفظ آخر، نحو ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ وفِآئِي، وأفأنت، وبأنه، وكأنه، وكأين، وبإيمان، وإيلاف، ولبيامام، وسأترك، ولأقطعن، ومررت بأحمد، وجئت لأكرمك، وأكتحلت بالإئتمد، إلا فيما شدد من ذلك، نحو هؤلاء، وأبنؤم، ولئن، ولئلا، ويومئذ، وحينئذ، وما أشبهها، فإنه كان القياس أن تكتب الهمزة فيها ألفا لأنها وقعت أولا، لكنهم خالفوا فكتبوا همزة هؤلاء، وأبنؤم بالواو، وإن كانت في الحقيقة مبدأة . دليل أن ها حرف تنبيه وهو منفصل عن أسم الإشارة . وكذلك ابن أضيف إلى الأم، لكنهم شبهوها بهمزة لؤم، فكتبوها بالواو، وراعوا في ذلك كثرة لزوم

هاء الإشارة، وعدم انفكالك أبزوم الواقع في القرآن، فكأنها صارت همزة متوسطة .
 وكتبوا همزة لئن ، ولئلا ، وحينئذ ، ويومئذ ، وما أشبهها ياء وإن كانت أول كلمة
 وكان القياس أن تكتب بالألف . أما لئن ، فلأن أصلها لئن بلام ألف ونون . وأما
 لئسلاً ، فلأن أصلها لئناً ، بلام ألف ونون منفصلة من لا ، بدليل أنهم إذا لم يحيثوا
 بعدها بلا ، كتبوها لئناً ، نحو جئت لأن تقرأ ، لكنهم جعلوا اللام مع أن كالشئ
 الواحد . وكذلك حينئذ ، ويومئذ ، فإن الأصل أن يفصل الظرف المضاف للجمله
 التي تبقى منها إذ المتونة توين العوض وأن يكتب بالألف ، لكن جعل الظرف مع
 إذ كالشئ الواحد ، فوصل بإذ ، وجعلت صورة الألف ياءً كما جعلوها في يئس .
 وكذلك الحكم في كل ظرف أضيف إلى ما ذكر ، سواء المفرد : كالأمثلة المذكورة ،
 والجمع نحو أزمانئذ . وسيأتي الكلام على ما يتعلق من ذلك في الفصل والوصل
 إن شاء الله تعالى .

الحال الثاني

(أن تكون متوسطة ، ولها حالتان)

الأولى - أن تكون ساكنة ، فلا يكون ما قبلها إلا متحركاً وتكتب بحركة
 ما قبلها . فإن كان ما قبلها مفتوحاً ، كتبت ألفاً نحو رأس ، وكأس ، وبأس ، ويأس ،
 وضأن ، وشأن ، ودأب ، وتأمر ، وتأكل . وإن كان ما قبلها مضموماً ، كتبت واواً ،
 نحو مؤمن ، وتؤمن ، وتؤوى ، وتؤتى ، ومؤتى ، ويؤفك ، وما أشبهها . وإن كان ما قبلها
 مكسوراً ، كتبت ياء ، نحو بئر ، وذئب ، وبئس ، وأنيبهم ، ونبتنا ، وجئت ، وجئنا ،
 وشئت ، وشئنا ، ولمئت ، وما أشبهها .

الثانية - أن تكون الهمزة متحركة ، والنظر فيها باعتبارين .

الاعتبار الأول - أن يكون ما قبلها ساكناً، وحينئذ فلا يخلو: إما أن يكون حرفاً من حروف العلة (وهي الألف والواو والياء) أو حرفاً صحيحاً. فإن كان الساكن الذي قبلها حرف علة نُظِرَ: إن كان حرف العلة ألفاً، فإن كانت حركة الهمزة فتحةً، فلا تثبت للهمزة صورة نحو ساءل، وأبناءكم، وأبناءكم، ونساءنا، ونساءكم، وجاءنا، وجاءكم، (وساءل، فأعل من السؤال) وما أشبهه. وإن كانت ضمة تثبت لها صورة الواو، نحو التَّسْأُلُ، وأباؤكم، وأبناؤكم، وأولياؤكم، وبآبائنا،^(١) وشبه ذلك، وإن كان حرف العلة واواً أو ياءً: فإما أن تكونا زائدين للذَّ، أو تكون الياء للتصغير أو أصليتين أو ملحقتين بالأصل. فإن كانتا زائدين للذَّ نحو خطيئة، ومقروءة، وهنيئاً، مريئاً، أو ياء تصغير نحو أقيس تصغير أقيس جمع فاس، فلا صورة للهمزة. وإن كانتا أصليتين نحو سوءة، وهيئة، أو ملحقتين بالأصل نحو جيئل (وهو الضبع)، وحوءبة (وهو الدلو العظيم)، والحوءب (أسم موضع)، والسَّموئل (أسم رجل)، فإنك تحذفها وتنقل حركتها إلى الساكن قبلها فتقول: سؤة، وهيئة، وجيئل، وحوءبة، وحوب وسمول. ولا صورة للهمزة حينئذ في تحقيقها ولا في حذفها. وإن كان الساكن الذي قبلها حرفاً صحيحاً، نحو المرأة، والكمأة، ويسام، ويسام، ويلؤم ونحو ذلك، فتنتقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها وتحذف الهمزة. والأحسن الأقيس أن لا تثبت لها صورة في الخط لافي التحقيق ولا في الحذف والنقل.

ومنهم من يجعل صورتها الألف على كل حال، فيكتبها على هذه الصورة: المرأة والكمأة، ويسام، ويسام، ويلؤم، وهو أقل استعمالاً. وقد كتب منه حرف في القرآن بالألف، وهو قوله تعالى: "يَسْأَلُونَ عَن آبَائِكُمْ".

(١) كذا في الأصل، وليس هذا موضعها كما هو ظاهر.

ومنهم من يجعل صورتها على حسب حركتها، فيكتب المرأة، والكتابة، ويسام، بالألف، ويكتب يسيم بالياء، ويكتب يلوم بالواو. وأستثنى بعضهم من ذلك ما إذا كان بعدها حرف علة، نحو سؤل، ومشؤم، فلم يجعل لها صورة أصلا، وإذا كان مثل رءوس يكتب بواو واحدة فلا صورة لها. وكذلك الموعودة في قوله تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ) على ما كتبت في المصحف بواو واحدة لا يجعل لها صورة.

الاعتبار الثاني - أن يكون ما قبلها متحركا فينظر: إن كانت مفتوحة مفتوحا ما قبلها، كتبت ألفا نحو سأل، ورأيت، ورأوك، وبدأكم، وأنشأكم، وقرأه، وليقرأه، وشبه ذلك. إلا إن كان بعدها ألف فلا صورة لها، نحو مآل ومآب. وذهب بعضهم إلى أنها تصوّر ألفا فتكتب بألفين. وإن كانت مفتوحة مكسورا ما قبلها نحو خاطئة، وناشئة وليبطن، وموطئا، وخاسئا، وينشئكم، وشانئك، صورت بجانس ما قبلها (وهو الكسرة) فتصوّر ياء. وإن كانت مفتوحة، مضموما ما قبلها نحو الفؤاد، والسؤال، ويؤده إليك، ويؤلف، ومؤجلا، ومؤذن، وهزوا، وشبهه، صورتها بجانس ما قبلها. وإن كانت مضمومة، مضموما ما قبلها، نحو نؤم، كصبر جمع صبور، أو مضمومة، مفتوحا ما قبلها نحو لؤم، كتبت بالواو في الحالتين، إلا إن كان بعدها في الصورتين واو، نحو رءوس، ونؤم، وإن كانت مضمومة، مكسورا ما قبلها نحو يستهزون، وأنيشكم، ولا يلبئك، وستقرئك، كتبت بواو على مذهب سيويه، وياء وواو بعدها على مذهب الأخفش.

(١) أى فلا صورة لها. (٢) هذا خاص بنحو يستهزون ويقرهون.

الحال الثالث

(أن تكون الهمزة آخرًا، ولها حالتان أيضا)

الأولى

(أن يكون ما قبلها ساكنًا، والنظر فيها باعتبارين)

الاعتبار الأول - أن يكون ما قبلها صحيحًا، فتحذف الهمزة وتلقى حركتها على ما قبلها ولاصورة لها في الخط، نحو جزء، وخبء، ودفء، والمرء، وملء. سواء في ذلك حالة الرفع والنصب والجر. وقيل: إن كان ما قبل الساكن مفتوحًا، فلا صورة لها. وإن كان مضمومًا، فصورتها الواو، وإن كان مكسورًا، فصورتها الياء مطلقًا. وقيل: إن كان مضمومًا أو مكسورًا فعلى حسب حركة الهمزة، فيكتب الجزء، والدفء، بالواو في الرفع وبالألف في النصب وبالياء في الجر. وإن كان شيء من ذلك منصوبًا متونًا فيكتب بالألف واحدة، هي البدل من التنوين. وقيل: يكتب بالفتحة، إحداهما صورة الهمزة، والأخرى صورة البدل من التنوين.

الاعتبار الثاني - أن يكون ما قبلها معتلًا، فينظر: إن كان حرف العلة زائدًا للمد، فلا صورة لها نحو نبيء، ووضوء، وسماء، والسوء، والمسيء، وقترء، وشاء، ويشاء،^(١) والماء، وجاء، إلا إن كان متونًا منصوبًا فيكتبه البصريون بالفتحة، والكوفيون وبعض البصريين بواحدة، وهذا إذا كان حرف العلة ألفًا نحو سماء: الألف الواحدة حرف العلة، والأخرى البدل من التنوين. فإن اتصل ما قبله ألف بضمير مخاطب أو غائب، فتصوّر الهمزة واوا رفعًا، نحو هذا سماءك، وياءً جرًا نحو نظرت إلى سماءك، وألفًا واحدة هي ألف المدّ نصبًا، نحو رأيت سماءك. أما إذا كان حرف

(١) هذه الألفاظ الأربعة ليس فيها مدزائد ولعله مصحف وأصله [وبناء ونساء والمساء وخباء الخ]. فليحذر.

العلة ياء أو واو نحو رأيت وضوءاً، فيكتب بالالف واحدة. وإن كان حرف العلة غير زائد للذ، فلا صورة للهمزة في الخط .

الحالة الثانية

(أن يكون ما قبل الهمزة متحركاً)

فكتب صورة الهمزة على حسب الحركة قبلها. فإن كانت الحركة فتحة، رسمت ألفاً، نحو بَدَأَ، وَأَنْشَأَ "وَمِنْ سَبَابِ نَبِيٍّ" وَالْمَلَأَ، وَيُسْتَهْزَأُ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفِعُولِ، وَيُنشَأُ كَذَلِكَ، وَرَأَيْتَ أَمْرًا وَمَا أَشْبَهَهُ. وَإِنْ كَانَتْ كَسْرَةً رَسَمْتَ يَاءً، نَحْوَ قُرَيْءٍ، وَأَسْتَهْزِئُ، وَلِكُلِّ أَمْرِيٍّ، وَمَنْ شَاطِئِي، وَيَسْتَهْزِئُ، عَلَى الْبِنَاءِ لِلْفَاعِلِ، وَبِرِيٍّ وَمَرَرْتُ بِأَمْرِيٍّ. وَإِنْ كَانَتْ ضَمَّةً، رَسَمْتَ وَاوًا، نَحْوَ أَمْرُوٍّ، وَاللُّؤْلُؤِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، إِلَّا فِي مِثْلِ النَّبَأِ إِذَا كَانَ مَنْصُوبًا مَتَوْنًا فَقِيلَ : يَكْتُبُ بِالْفَيْنِ نَحْوَ سَمِعْتَ نَبَأًا، وَقِيلَ : بِوَاحِدَةٍ وَهُوَ الْأَوَّلَى . وَإِنْ أَتَصَلَ بِهَا ضَمِيرٌ، فَعَلَى حَسَبِ الْحَرَكَةِ قَبْلَهَا كَالْهَاءِ إِذَا لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا ضَمِيرٌ. وَقِيلَ : إِنْ كَانَ مَاقِبِلَهَا مَفْتُوحًا، فَبِالْفِ نَحْوَ لَنْ يَقرأ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ هِيَ مَضْمُومَةٌ فَبِوَاوٍ، إِنْ قَلْنَا بِالتَّسْهِيلِ بَيْنَ الْهَمْزَةِ وَالْوَاوِ، وَبِالْيَاءِ إِنْ قَلْنَا بِإِبْدَالِهَا يَاءً، وَقِيلَ إِنْ أَنْضَمَ مَاقِبِلُهَا أَوْ أَنْكَسَرَ، فَكَمَا قَبْلَ الْإِنْتِصَالِ بِالضَّمِيرِ، فَتَجْعَلُ صُورَتَهَا عَلَى حَسَبِ الْحَرَكَةِ قَبْلَهَا. وَإِنْ أَنْفَتِحَ مَاقِبِلُهَا وَأَنْفَتِحَتْ، فَبِالْأَلْفِ نَحْوَ لَنْ يَقرأ، وَكَذَلِكَ إِذَا أَنْفَتِحَ مَاقِبِلُهَا وَسَكَنْتَ نَحْوَ لَمْ يَقرأ، وَلَمْ يُنْبَأْ، وَأَقْرَأْ، وَإِنْ نَشَأَ وَمَا أَشْبَهَهُ. وَإِنْ أَنْفَتِحَ مَاقِبِلُهَا وَأَنْضَمَتْ، فَبِالْوَاوِ نَحْوَ يَقرأ . وَقِيلَ بِالْوَاوِ وَالْأَلْفِ كَمَا كَتَبُوا فِي الْمَصْحَفِ (قُلْ مَا يَعبُؤُونَ) وَ(نَبَأُ الْخَمَمِ) وَ(يَبْدُوا الْخَلْقَ) (أَوَمَنْ يُنشَأُ) بِوَاوٍ وَأَلْفٍ فِي الْجَمِيعِ . أَوْ أَنْكَسَرَتْ، فَبِالْيَاءِ نَحْوَ مَنْ يَقْرَأُ، وَقِيلَ بِهَا وَبِالْفِ كَمَا كَتَبُوا فِي الْمَصْحَفِ (مَنْ نَبَأَ الْمُرْسَلِينَ) بِالْفِ وَيَاءً .

تنبيه

قد تقدّم في الحذف أن همزة الوصل تحذف في بعض مواضع وتثبت فيما عداها .
 فحيث ثبتت ، كتبت بحسب حالها إذا ابتدئ بها . فإن كانت يبتدأ بها مضمومة ،
 كتب ما يليها واوا إن كانت همزة أو واوا مبدلة منها ، نحو أوئمن فلان ، وقلت لك
 أوامر فلانا بكذا ؛ وإن كانت يبتدأ بها مكسورة ، كتب ما يليها ياء إن كانت همزة
 أو ياء مبدلة منها ، نحو آذن لي يا زيد ، آت القوم ، آت عليهم كذلك وإن كان
 النطق بها واوا بضم ما قبلها نحو ﴿ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَقُولُ آذَنْ لِي ﴾ تكتبه ياء على الهمزة
 في الابتداء بها ؛ ويستثنى فاء إفعال من نحو يوجل مثل يؤسن فإنها تكتب واوا
 بعد الواو والفاء كما في قولك فأوجل ، وأوجل . يكتبان بإثبات ألف الوصل ، والواو
 بعدها ولم يكتبوها على ابتداء الهمزة . أما بعد غير الواو والفاء ، فإنها تكتب بحسب
 الابتداء بها نحو قلت لها آيجلي ، أو ثم آيجلي ، وقلت لكم آيجلوا ، فانك تلفظ به واوا
 وتكتبه ياء للانفصال ؛ وإن كانت قبلها كسرة كانت ياء لفظا وخطا ، نحو قلت لك
 آيجلي ، وكذلك إذا ابتدئ بهمزة الوصل نحو آيجلي ياهند .

وأعلم أنه إذا وقعت همزة استفهام وبعدها همزة قطع صورت همزة القطع بعدها
 بجانس حركتها . فإن كانت الحركة فتحة كتبت ألفا ، نحو أأسجد وإن كانت الحركة
 ضمة كتبت واوا نحو أوُنزل وإن كانت الحركة كسرة كتبت ياء نحو أنتنك
 لأنها إذا حُففت بالبدل كان إبدال المفتوحة ألفا ، وإبدال المضمومة واوا ، وإبدال
 المكسورة ياء . وقد تحذف المفتوحة خطا فتكتب بألف واحدة ، نحو أأسجد كما
 في رسم المصحف .

وأختلف في الساقطة من الهمزتين والحالة هذه : فقول الثانية ، وهو قول أحمد

أبن يحيى : وقيل الأولى وهو قول الكسائي .

فلو كانت ثلاث ألفات في اللفظ نحو قوله تعالى : (أَلِهْتُمْ خَيْرٌ) فقال أحمد ابن يحيى : تكتب بواحدة .

وآختلف في الثابتة ، فذهب الفراء وثعلب وآبن كيسان إلى أنها الأستفهامية لأنها حرف معنئ . وحكى الفراء عن الكسائى : أنها الأصلية وحكاها آبن السيد عن غير الكسائى وحكى عنه أنها ألف الجمع .

وقد تكتب غير المفتوحة ألفا نحو قوله أإنك ، لأن الألف هى الأصل ، والهمزة حرف زائد لمعنى كالواو والفاء فلا يعتد به ، لكنه قليل ، والله أعلم .

الجملة الثانية

(فى حالة التركيب والفصل والوصل)

وأعلم أن الأصل فصل الكلمة من الكلمة ، لأن كل كلمة تدل على معنى غير معنى الكلمة الأخرى ، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبر عنهما يكون متميزا . وكذلك الخط النائب عن اللفظ يكون متميزا بفصله عن غيره . ويستثنى من ذلك مواضع كتبت على خلاف الأصل .

(منها) أن تكون الكلمتان كشيء واحد ، وذلك فى أربعة مواضع .

الموضع الأول - أن تكون الكلمتان قد رُكبتا تركيب مزج ، مثل بعلبك : ليدل على أن التركيب الذى يعتبر فيه وصل الكلمة بالأخرى هو تركيب المزج ، وهو أن يتحد مدلول اللفظين . بخلاف ما إذا رُكبتا تركيب إسناد نحو زيد قائم ، أو تركيب إضافة نحو غلام زيد ، أو تركيب بناء لم يتحد فيه مدلول اللفظين نحو خمسة عشر ، وصباح مساء ، وبين بين ، وحيص بيص ، فإن هذا كله يكتب مفصولا لا تخط فيه كلمة بأخرى .

(١) لعله يقتصر .

الموضع الثاني - أن تكون إحدى الكلمتين لا يبدأ بها في اللفظ، نحو الضمائر البارزة المتصلة، ونون التوكيد، وعلامة التأنيث والتثنية والجمع في لغة أكلوني البراغيث، وغير ذلك مما لا يمكن أن يبدأ به، فكل هذا يكتب متصلا وإن كان من كلمتين .

الموضع الثالث - أن تكون إحدى الكلمتين لا يوقف عليها، وذلك ما كان نحو باء الجز، وفاء العطف، ولام التأکید، وفاء الجزاء، فإن هذه الحروف لا يوقف عليها، فلما أمترجت في اللفظ أمترجت في الخط فتكتب متصلة وإن كانت في الحقيقة كلمتين .

الموضع الرابع - أن تكون الكلمة مع الأخرى كشيء واحد في حال ما فاستصحب لها الاتصال غالبا : مثل بعلبك، إذا أعرب إعراب المضاف والمضاف إليه، فإن هذا الإعراب يقتضى أن تفصل إحدى الكلمتين من الأخرى، لأن الإعراب قد فصلهما . أما إذا أعرب إعراب ما لا ينصرف فلا يصح فيه الفصل أصلا، لأن اللفظ الثاني منتهى الأسم، فهو مفرد في المعنى وفي اللفظ .

وكتبوا لثلاً مهموزةً وغير مهموزةً بالياء (وكان القياس أن تكتب بالألف) كما تكتب لأن إذا كانت اللام مكسورة بالألف فكذلك إذا زيدت عليها لا، إلا أن الناس أتبعوا رسم المصحف، وكذلك لئن فعلت كذا تكتبه بالياء أتباعاً للمصحف، وإن كان القياس أن يكتب بالألف . وسيأتى الكلام على وصل لا بيان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(ومنها) توصل من الجارة وهي المكسورة الميم بما بعدها بعد حذف النون منها على ما تقدم في موضعين :

الموضع الأول - توصل بين المفتوحة الميم مطلقا، سواء كانت موصولة نحو أخذت الدرهم من أخذته منه، أو موصوفة كما في المثال المذكور فإنها فيه تحتل

المعنيين جميعا، أو أستفهامية نحو مَنْ أنت؟ أو شرطية نحو مَنْ تأخذُ درهما أخذُ منه، وإنما وصلت بها لأجل اشتباههما خطأ إذ لو كتبتا مِنْ مَنْ لكاتنا مشتبهتين في الصورة فأدغمت نونِ مَنْ في ميمِ مَنْ ونزلت منزلة المدغم في الكلمة الواحدة، فلم يجعل له صورة بل حذف مع كتبه متصلا، وقد تقدم الكلام على ذلك في الحذف. هذا هو المشهور الراجح.

وقال الأستاذ بن عصفور: إن كانت مَنْ أستفهاميةً، كتبت مفصولة على قياس ماهو من المدغمات على حرفين.

الموضع الثاني - توصل بعد حذف النون أيضا بما، إذا كانت موصولة نحو عجبتُ مما عجبتَ منه، أو أستفهامية نحو مم هذا الثوب؟ أو زائدة كما في قوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَايَاهُمْ أَغْرِقُوا﴾. أما إذا كانت شرطية نحو مَنْ ماتأخذُ أخذُ، أو موصوفة نحو أكلتُ من ما أكلتَ منه، فإن القياس يقتضى أن تكون مفصولة.

وقال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور: إذا كانت ما غير أستفهامية، كتبت مِنْ معها، وقضيته أنها لا تكتب متصلة إلا في حالة الاستفهام فقط، وتكتب منفصلة فيما عداها.

قال الشيخ أمير الدين أبو حيان رحمه الله: والأول أصح لأن علة الوصل في مِمَّ مفقودة في مما، وهي التباس اللفظين خطأ.

(ومنها) توصل عن بما بعدها بعد حذف النون منها على ما تقدم، في موضعين.

الموضع الأول - توصل بمن الموصولة غالبا، نحو رَوَيْتُ عَمَّنْ رَوَيْتَ عَنْهُ، ويجوز فصلها، فتفصل عن مَنْ مَنْ وثبت النون في عن، وأما مَنْ غير الموصولة، فالقياس فصلها، فتكتب في الاستفهام عن مَنْ تسأل؟ وفي الشرط، عن مَنْ ترض أرض عنه، فتفصل عن مَنْ مَنْ على ما مر.

وزعم ابن قتيبة أن عن من تكتب موصولة بكل حال ، سواء الموصولة وغيرها كما تكتب عم وعمما موصولة من أجل الإدغام . وزعم غيره أنه لا يؤثر الإدغام في ذلك لأنهما كلمتان إلا في نحو عمما قليل لزيادتها .

الموضع الثاني - توصل بما الاستفهامية ، كما في قوله تعالى ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ وتحذف الألف من ما على ما تقدم في الحذف .

(ومنها) توصل مع بما إذا كانت زائدة ، وتقطع إذا كانت موصولة ، قاله ابن قتيبة .

(ومنها) توصل في بمن في موضعين :

الموضع الأول - توصل بمن الاستفهامية دائما نحو قولك : فيمن تفكر؟

ولكن لا تحذف الياء منها كما حذفت النون من عن ومن ، إذ لا إدغام هنا .

الموضع الثاني - توصل بما إذا كانت موصولة في الغالب نحو فكرت فيما فكرت

فيه ، ولا تسقط الياء على ما مر . ويجوز في هذه الحالة فصلها ، ففصل "في" عن

"ما" . وتكتب على هذه الصورة "في ما" . وكذلك توصل بما إذا كانت استفهامية

نحو قوله تعالى : ﴿ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴾ ولا تحذف ياءها كما تقدم .

أما مع إذا اتصلت بما أو بمن ، فإنها تكتب منفصلة . قاله ابن قتيبة .

قال بعض النحاة : أظن سبب ذلك قلة الاستعمال ، وإلا فما الفرق بين مع وبين

في . قال : وقد يمكن أن يفرق بينهما في الأسمية ، فإن في لا تكون إلا حرفا ، ومع

إن تحركت كانت أسما ، وإن سكنت ، فخلافا والأصح الأسمية ، وأيضا فإنها

تفصل ما بعدها .

(ومنها) توصل الحروف النواصب للاسم ، الروافع للخبر ، إذا دخلت على ما الزائدة

نحو إنما وكأنا وليتا . فنكتب إنَّ وكانَّ وليتَ متصلات بما ، نحو إنما فعلت كذا ،

وإنما كلمت أخاك ، وإنما أنا أخوك ، وكأنا وجهه قر ، وليتا هذا الشيء لي ،

ونحو ذلك . فإن كانت ما موصولة ، كتبت مفصولة نحو **إِنَّ** ما قلت **لَحَقَّ** ، وكأن ما حدثت صحيح ، وليت ما لك لي . على أنه قد جاء في القرآن كثير من ذلك متصلا . وزعم بعضهم أنه لم يأت في القرآن مفصولا إلا قوله تعالى في الأنعام : **(إِنَّ مَا تُوْعَدُونَ لَآتٍ)** . وقد كتبوا في المصحف : **(إِنَّمَا تُوْعَدُونَ لَوَاقِعٌ)** في الطور وغيره متصلا ، وكذلك : **(إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٍ)** . مع رفع كيد ونصبه ، وإن كانت ما موصولة في الموضعين .

(ومنها) توصل قل بما إذا دخلت عليها نحو قلما أتيتك مائة مرة .

(ومنها) توصل إن الشرطية بلا إذا دخلت عليها بعد حذف النون نحو : **(إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ)** .

(ومنها) توصل إن الشرطية بما إذا جاءت بعدها بعد حذف النون نحو : **(وَأَمَّا تَخَافُ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةٍ)** . وإنما حذف النون في هذه وما قبلها لإدغامها كما في مما وعمما ونحوه .

(ومنها) توصل أين بما نحو : **(أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ)** . لأن ما إذا دخلت على أين صارت جازمة إذ تقول : أين تكون أكون ، فترفع النون ، فإذا دخلت عليها ما ، قلت : أينما تكن أكن بخزمت ، فصارت أين وما كأنها كلمة واحدة . فإن كانت ما موصولة ، فصلت نحو أين ما اشتريت تريد أين الذي اشتريت .

ولم يصلوا متى بما بل كتبوها منفصلة عنها ، إذ لو وصلت للزم قلب الياء ألفا كما في حتام فتكتب متام فيتعذر إدراكها .

(ومنها) توصل حيث أيضا بما نحو : **(وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ)** .

كما تقدم في أين .

(ومنها) توصل كل بما المصدرية، إذا دخلت عليها، نحو كَلَّمَا جِئْتَنِي أَحْسَنْتُ
إِلَيْكَ . فإن كانت نكرة منعوتة كتبت مفصولة نحو كُلُّ مَا تَفْعَلُ حَسَنٌ، وكُلُّ مَا كَانَ
مِنْكَ حَسَنٌ .

قال ابن قتيبة: وكُلُّ مَنْ مَقْطُوعَةٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَمَكَانٍ .

(ومنها) توصل هل بِلَا، وتحذف إحدى اللامين على هذه الصورة (هَلَّا فَعَلْتَ)
وتقطعها من بل، فتكتب (بَلْ لَا تَفْعَلْ) .

قال ابن قتيبة: والفرق بينهما أنَّ لَا إِذَا دَخَلَتْ عَلَى هَلْ تَغْيِيرُ مَعْنَاهَا، فَكَأَنَّهَا مَعَهَا
كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، وَإِذَا دَخَلَتْ عَلَى بَلْ لَمْ تَغْيِرِ الْمَعْنَى تَقُولُ: بَلْ تَفْعَلْ، وَبَلْ لَا تَفْعَلْ، كَمَا
تَقُولُ: كَيْ تَفْعَلْ، وَكَيْ لَا تَفْعَلْ .

(ومنها) توصل بين بما الزائدة، نحو بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ، وَبَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي .

(ومنها) توصل أَيُّ بِمَا إِذَا كَانَتْ مَا زَائِدَةً كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى حِكَايَةَ عَنِ مُوسَى عَلَيْهِ
السَّلَامُ: ﴿أَيُّمَ الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وكَمَا تَقُولُ: أَيُّمَا الرَّجُلَيْنِ لَقِيتَ
فَأَكْرَمُ . فَإِنْ كَانَتْ مَامُوصُولَةً قَطَعْتَ فَتَكْتُبُ أَيُّ مَا تَرَاهُ أَوْفَقُ، أَيُّ مَا عِنْدَكَ أَفْضَلُ،
مَقْطُوعَةٌ .

(ومنها) يوصل يوم وحين بإِذٍ مِنْ قَوْلِكَ يَوْمَئِذٍ وَحِينَئِذٍ، وَكَانَ الْقِيَاسُ الْفَصْلُ،
عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْهَمْزَةِ .

(ومنها) توصل لَيْنٍ وَلَيْلًا وَإِنْ كَانَ كُلُّ مِنْهُمَا كَلِمَتَيْنِ . إِذَا الْأَصْلُ لِأَنَّ لِوَأَنَّ لَا
وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ كِتَابَتِهِمَا بِالْيَاءِ دُونَ الْأَلْفِ، لِكَوْنِهِمْ جَعَلُوهُ مَعَ مَا بَعْدَهُ كَالشَّيْءِ الْوَاحِدِ .

(ومنها) توصل أَنَّ الْمَفْتُوحَةَ بِلَا إِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا بَعْدَ حَذْفِ النُّونِ عَلَى أَحَدِ الْأَقْوَالِ
فَتَكْتُبُ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ (أَلَّا) . (وَالثَّانِي)، تَفْصِلُ مِنْهَا وَتَثْبِتُ النُّونَ، فَتَكْتُبُ عَلَى

هذه الصورة : (أن لا يقوم) . (والثالث) ، يَفَصَّلُ بين أن تكون مخففة عن الثقيلة ، فتكتب مفصولة نحو علمت أن لا يقوم زيدٌ ، وعلمت أن لا ضرر عندك ، التقدير أنه لا يقوم وأنه لا ضرر عندك ولذلك ثبتت في قوله تعالى : ﴿ وَظَنُوا أَنَّ لَا مَلْجَأَ مِنِ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ أو ناصبة للفعل فتقدر كتبها متصلة على اللفظ وتحذفها في الخط ، نحو يعجبني ألا تقوم وهو قول الأخفش وابن قتيبة وأختيار ابن السيد . (والرابع) ، التفصيل بين أن تدغم بَعْنَةً ، فتكتب منفصلة أو بغير بَعْنَةٍ فينوى الاتصال وتحذف خطأ . ويروى عن الخليل ، وأستحسنه بعض الشيوخ : وقد وقع في القرءان مواضع متصلة ومواضع منفصلة فيجب اتباعها اقتداء بالسلف . وقد وقع في المصحف وصل مواضع القياس فصلها ، فيجب وصلها في المصحف اتباعا لرسمه ، وتوصل في غيره في الغالب أو في بعض الأحوال .

(ومنها) وصلت بنس بما في موضعين :

أحدهما - ﴿ بِنَسًا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ ﴾ في البقرة .

والثاني - ﴿ نَسَمًا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي ﴾ في الأعراف .

(ومنها) وصلت نعم بما للإدغام . وحكى ابن قتيبة فيه الفصل والوصل .

(ومنها) وصلت إن بلم مع حذف النون للإدغام في قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ ﴾ في هود ، بخلاف التي في القَصَصِ فإنها كتبت مفصولة بإثبات النون .

(ومنها) وصلت أن بَلَنْ مع حذف النون للإدغام في سورة الكهف في قوله :

﴿ أَلَنْ يَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ .

(ومنها) وصلت أم بَمَنْ في نحو قوله تعالى : ﴿ آمَنَ هُوَ قَائِتٌ ﴾ .

قال محمد بن عيسى : كل ما في القرءان من ذكر أم فهو موصول إلا أربعة مواضع

في النساء : ﴿ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ . وفي التوبة : ﴿ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ ﴾ .

وفي الصافات : ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ﴾ . وفي فصلت : ﴿ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا ﴾ .

(ومنها) وصلت كي بلا في نحو كَيْلًا وَكَيْلًا في أربعة مواضع في المصحف ،

﴿ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ ﴾ في آل عمران . و ﴿ لِكَيْلًا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ﴾ في الحج

و ﴿ لِكَيْلًا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ﴾ في الأحزاب . و ﴿ لِكَيْلًا تَأْسَوْا ﴾ في الحديد

وما عداها فهو مقطوع كما في أول الأحزاب .

ووجه ابن قتيبة المقطوع بأنك تقول : أتيتك كي تفعل وكي لا تفعل ، كما تقول :

حتى تفعل وحتى لا تفعل فيختلف المعنى بالنفي والإثبات فيه .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الأولى

(فما يَكْتَبُ بالطاء، مع بيان ما يقع الاشتباه فيه مما يَكْتَبُ بالضاد)

وإنما خصت الطاء بالذكور دون الضاد لقلّة وقوع الطاء وكثرة وقوع الضاد ؛

وخصّ ما يَكْتَبُ بالطاء بالذكور ما يَكْتَبُ بالذال المعجمة ، لأن الدال والذال

في صورة الكتابة واحد ، فلا يظهر خطأ الكاتب فيه ، بخلاف الطاء والضاد : فإن

شكّلهما مختلف فيظهر خطأ الكاتب وعوّاره فيه ؛ فلذلك وقعت العناية بالتنبيه على

ما يكتب بالطاء دون ما يكتب بالذال المعجمة .

وقد أوردته على حروف المعجم ليقرب تناوله .

حرف الألف

فيه - أظله الشيء : إذا غشيه ؛ أما أضله من الضلال إذا ضلّ دابته إذا نددت ،

فبالضاد .

حرف الباء

فيه - بهَّظه الأمرُ : إذا أتعبه . وفيه ، البَطْرُ : وهو اللَّحْمَةُ المتدلِّية من فَرْجِ المرأة ، التي تُقَطَّع بِالْحِتَّانِ .

حرف التاء المثناة فوق

فيه - التَّقْرِيطُ : وهو المدح ، والتَّمَطُّظُ : وهو تحريك الشفتين بعد الأكل لأبتلاع ما حَصَلَ بين الأسنان .

حرف الجيم

فيه - الجَوَاطُ : وهو الجافي المتكبر ، أو الأَكُولُ ، والجُحُوطُ : وهو نُتُو العَيْنِ وَنُدُورِهَا ، ومنه أبو عُثْمَانَ الجاحِظُ ، وبِحِطَّةِ البرمكي .

حرف الحاء المهملة

فيه - الحِفظُ : وهو ضدُّ النسيان ، والحَفِيظَةُ : وهي المَوْجِدَةُ ، والحِطُّ : وهو الغنى والنصيب . ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَدُوًّا حَظٌّ عَظِيمٌ ﴾ . وقوله : ﴿ لَدَّا كَرِمٌ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ ﴾ . أما الحِصُّ بمعنى الحث فإنه بالضاد . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِصُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴾ . والحِطْوَةُ : وهي الرفعة ، والحِظْرُ : وهو المنع . ومنه قوله تعالى : ﴿ كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ . وقوله : ﴿ كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ﴾ . وفي معناه الحِظِيرُ : وهو المحوِّط من قصب ونحوه . أما الحِضُورُ خلافُ الغيبة فإنه بالضاد ، والحِظَلُ : وهو النَّبَاتُ المرُّ المعروف .

حرف الشين المعجمة

فيه - الشَّطِيَّةُ : وهي القِطْعَةُ من الشيء ، والشَّطَاظُ : وهي عِيدَانُ لِطَافٍ يُجْمَعُ بِهَا العَدْلَانُ ، والشَّظَفُ : وهو حُسُونَةُ العيش ، والشُّوَاظُ : وهو لَهَبُ النَّارِ . ومنه

قوله تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكَ شَوَاطِرٌ مِّنْ نَّارٍ وَنُحَاسٍ﴾. والشَّيْطَمُ : وهو الفرس الطويل الظهر؛ والشَّائِطِيُّ : وهى أطراف الجبال .

حرف الظاء المعجمة

فيه - الظَّنُّ : بمعنى 'التخمين والشك'؛ والظَّنَّةُ : وهى التُّهْمَةُ . أما الضَّنُّ بمعنى 'البخل فإنه بالضاد، وعلى المعنيين قرئ قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾ بالضاد والظاء : لأنَّجَاهَ المعنيين فى النبىِّ صلى الله عليه وسلم إذ ليس بيجيل ولا متمم ؛ وفيه ظَلَّ يفعل كذا : إذا فعله نهارا . ومنه قوله تعالى : ﴿فَطَلَّوْا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ . وقوله : ﴿فَطَلَّتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ . وقوله : "وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا" .

أما ضَلَّ من الضلال : خلاف الهدى ؛ وضَلَّ الشئُ : إذا ضاع ، فبالضاد . وفيه الظَّلُّ : خلاف الحرِّ حيثما وقع وما يُسْتَقَى منه ، والظَّلْمُ وما يَنْشَعِبُ منه ، والظَّلَامُ وما يتفرَّع منه ، والظَّلْمُ (بفتح الظاء) وهو ماء الأسنان ، والظَّلِيمُ : وهو ذَكَرُ النِّعَامِ ، والظَّيُّ : واحدُ الطَّيِّاءِ ، والظَّيْبَةُ الأُنثَى منه ، والظَّيْبَةُ : حَيَاءُ الناقَةِ ، والظُّبَةُ : وهو حدُّ السيف ، والظَّرْفُ : وهو الوعاء الحسن ، والظَّعْنُ : وهو السَّفَرُ . ومنه قوله تعالى : ﴿يَوْمَ ظَعَنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾ . والظَّرَابُ : وهى الهِضَابُ . أما الضَّرَابُ مصدر ضاربتُه فإنه بالضاد ، والظَّعِينَةُ : وهى المرأة ، والظَّلْفُ : وهو للبقرة والغنم كالخافر للخيول ، والظَّلْفُ : وهو نزاهة النفس ، والظُّفْرُ : واحدُ الأظفار ، والظَّقَرُ : وهو النصر . أما ضَفَّرَ الشَّعْرَ ونحوه فبالضاد ، والظُّفْرُ : وهى المُرْضِعَةُ ، والظَّهْرُ : وهو العُضْوُ المعروف . أما الضَّهْرُ : وهو صحرة فى الجبل يخالف لونها لونه فإنه بالضاد ، والظَّهِيرُ : وهو المَعِينُ ، والظَّهِيرَةُ : وهى وَسَطُ النهار ، والظَّمَا : وهو العَطَشُ ، والظَّرَارُ جمع ظَرٌّ : وهو الغليظ من الأرض . أما الضَّرِيرُ : بمعنى 'الأعمى' فبالضاد ،

وَالظَّرِبَانَ : وهى دَوِيَّةٌ مَتْنَةٌ الرِّيحِ ، وَالظَّلْعُ : وهو العَمَزُ يقال نَافَقَ ظَالِعٌ إِذَا عَمَزَتْ فِي المَشْيِ . أما الضَّلْعُ واحد الأضلاع فإنه يَكْتَبُ بالضاد ، ومنه قولهم فَرَسٌ ضَلِيْعٌ .

حرف العين المهملة

فيه - العَظْمُ : وهو معروف ؛ والعَظْمَةُ : وهى الكِبْرِيَاءُ وما تَصَرَّفَ مِنْهَا ، وَعَظَّهُ الدهرُ وَعَظَّتْهُ الحربُ . أما العَضُّ بالأَسْنانِ فبالضاد ، والعَظْلُ ^(١) : وهو الشَّدَّةُ ، ومنه تَعَاظَلُ الجرادُ والكلابُ فى السَّفادِ . أما العَضْلُ بمعنى المنع فإنه بالضاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَلَا تَعْضَلُوهُمْ أَن يَنْكَحُوا أَرْوَاجَهُمْ﴾ . وكذلك قولهم : أَعْضَلَ الأَمْرُ إِذَا صَعُبَ . ومنه الداءُ العُضالُ ، وسوقُ عُمَكاظَ : وهو سُوقٌ كان يُقامُ للعربِ فى الجاهلية وأصل العُكُظِ الحَبَسُ .

حرف الغين المعجمة

فيه - الغَيْظُ بمعنى الحَنَقِ وما تَفَرَّعَ عنه ، أما غاضِ الماءِ بمعنى غارِ والغَيْصَةِ وهى مَنِيَّةُ الشجرِ فى الماءِ فبالضاد ، والغِلْظُ وما تَصَرَّفَ مِنْهُ .

حرف الفاء

فيه - الفَظَاظَةُ : وهى القسوةُ ومنه قوله تعالى : ﴿لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَايِظَ القَلْبِ﴾ . أما أَنْفِضاضُ الجَمعِ فبالضاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَأَنْفِضُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ . وكذلك أَفْضِضِ البكرَ والكَتابِ ؛ والفَظِيعُ : وهو الشنيعُ ، وفاظَ الرُّجُلُ إِذَا ماتَ . أما فَيْضُ الإِناءِ والدمعِ بمعنى السَّيْلانِ ، فبالضاد ؛ ومن ثمَّ جازَ أن يَكْتَبَ فَاظَتْ نَفْسُهُ بالظاءِ على معنى ماتت نَفْسُهُ ويَجوزُ أن يَكْتَبَ بالضادِ على معنى سالت نَفْسُهُ .

(١) كذا فى الضوء أيضا بالظاء المشالة . وفى اللسان فى مادة (ع ض ل) ... [وأصل العَضْلُ المنع والشَّدَّةُ]

أى بالضاد الساقطة ولم يذكره بهذا المعنى فى مادة (ع ظ ل) .

حرف القاف

فيه - التَيْظُ وهو صميم الحزوما تَصَرَّفَ منه . أما القَيْضُ الذي هو القشر الأعلَى من البيض فبالضاد ، وكذلك قَيْضُ الله له كذا أى أتاحه له ، والقَرَطُ : وهو ثمرة شجرة السَّنَطِ التي يدبغُ بها الجلد . أما القَرَضُ بمعنى القطع فبالضاد ، ومنه قَرَضَ المال .

حرف الكاف

فيه - الكَطْمُ : وهو كَتَمَ الحُزْنَ ، والكَطْظُ : وهو شدَّةُ الحرب ، وكاطِمْةٌ : وهو أسم مكان بالبحرين .

حرف اللام

فيه - لَطَى : أسمُ جهنم ، واللَّظُّ : وهو اللزوم . ومنه ”أَلْطَوْا بِيَاذَا الْجَلَالِ والإِكْرَامِ“ أى ألزموا هذا الأسم فى الدعاء والمناجاة به ، واللَّحْظُ : وهو النظر بمؤنحر العين ، واللَّمْظُ : وهو بياضُ الجَحْفَلَةِ السُّفْلَى من الفرس ، ومنه قيل فرس أَلْمَظُ ، واللَّفْظُ : وهو معروف وما تصرف من جميع ذلك .

حرف النون

فيه - النَّظْمُ وما تصرف منه ، والنَّظَرُ بالعين وما تصرف منه ، والنَّظِيرُ وهو المثل . أما النَّضَارَةُ بمعنى البهجة فبالضاد ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ . ومنه اشتقاق بنى النَّضِيرِ وفى معناه النَّضَارُ أسمُ الذهب ، والنَّظَافَةُ : وهى خلاف القَدَارَةِ .

حرف الواو

فيه - الوَطِيفُ : ما فوق الرُّسْعِ من ذوات الحافِرِ ، والوَطِيفَةُ ، وأصلها الطعام الراتب ثم استعملت فيما هو أعم من ذلك .

حرف الياء

اليَقِظَةُ : وهى خلاف النوم .

المقالة الثانية

في المسالك والممالك؛ (وفيها أربعة ابواب)

الباب الأول

في ذكر الأرض على سبيل الإجمال

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

(في معرفة شكل الأرض، وإحاطة البحر بها، وبيان جهاتها الأربع، وما أشتمت عليه من الأقاليم الطبيعية، وبيان مَوَاقِعِ الأقاليم العُرفية من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها، ومعرفة طريق أستخراج جهة كل بلد؛ وفيه طرفان) .

الطرف الأول

(في شكل الأرض، وإحاطة البحر بها)

أما شكل الأرض فقد تقرر في علم الهيئة أن الأرض كُرِّيَّةُ الشَّكْلِ والماء مُحِيطٌ بها من جميع جهاتها إلا ما اقتضته العناية الإلهية من كشف أعلاها لوقوع العِارة فيه؛ وقيل هي مُسَطَّحة الشَّكْلِ؛ وقيل كالأترس؛ وقيل كالطَّيْلُ . والتحقق الأول؛ وبكل حال فالماء يحيط بها من جميع جهاتها كما تقدم .

قال في "تقويم البلدان": وأحواله معلومة في بعض المواضع دون بعض، فمن المعلوم الحال الجانب الغربي ويسمى بحر أوقيانوس (بهزمة مضمومة بعدها واو ساكنة ثم قاف مكسورة ثم ياء مشاة تحت مفتوحة ثم ألف بعدها نون ثم واو ثم سين مهمله) .

(١) هذه الفقرة تناسب الكلام على البحار وقد ذكرها هناك .

ثم للأرض أربع جهات :

الأولى - المشرق، سميت بذلك لشروق الشمس منها، ويقال لها الشرق أيضا .

الثانية - المغرب، سميت بذلك لغروب الشمس فيها، ويقال لها الغرب أيضا .

الثالثة - الشمال (بفتح الشين) وهي التي إذا استقبلت المشرق كانت على شمالك ويقال لها الشام أيضا، لأن الشام كانت في جهة الشمال عن بلاد المغرب فسميت الجهة به، وأهل مصر يسمون هذه الجهة البحرية : لكونها جهة البحر الرومي، وأتسمية لها بأسم الرياح التي تهب منها فقد سبق أنهم يسمون الرياح التي تهب من الشمال البحرية : لأنها يسارها في البحر كيف كان .

الرابعة - الجنوب (بفتح الجيم) وهي التي إذا استقبلت المشرق كانت على جانبك الأيمن ولم يُسم بالأيمن كما سُمى بمقابلته بالشمال، لأنه لما ذكر الشمال لم يبق إلا الجانب الأيمن فأستغنى عن ذكره، وأهل مصر يسمون هذه الجهة القبيلة : لوقوعها في جهة قبيلتهم ولذلك يبدؤون بها في التحديد، وإن كان الأصل الأبتداء بالمشرق : لأن منه مبدأ حركة الفلك .

ثم كرة الأرض يقسمها خط في وسطها بنصفين : نصف جنوبي، ونصف شمالي، ويسمى هذا الخط خط الأستواء لأستواء الليل والنهار عنده في جميع فصول السنة، ويقاطعه خط آخر يقسمها بنصفين : نصف شرقي ونصف غربي، وتصير الأرض به أربعة أرباع، ويسمى هذا الخط خط نصف النهار لمسامته الشمس له في نصف النهار، وكل من هذين الخطين مقسوم بمائة وثمانين درجة، كل درجة ستون دقيقة. وسيأتى تقدير ذلك بالأميال والفراسخ والمراحل والبرد في الكلام على بعد ما بين البلدان فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن كل ما بعد عن أقصى العارة في المغرب إلى جهة المشرق يعبر عنه عند علماء الهيئة والميقات بالطول ؛ وقد اختلف في ابتداء ذلك : فالقدماء ابتدؤوه من جزائر البحر المحيط تُعرف بالخالدات ، يأتي الكلام عليها في جملة جزائر البحر المحيط ، والمحققون على ابتداء ذلك من ساحل البحر المحيط الغربي الذي هو أقصى العارة الآن ، وبينهما عشر درج ، ونهاية العارة في المشرق موضع يقال له كُنْدُرْ ، ومتصف ما بين الابتداء والنهاية الشرقية يسمى قبة أرين ، ويعبر عنه بقبة الأرض ؛ وهي على بعد ربع الدور من المبدأ الغربي ، ويختلف الحال فيه باختلاف الابتداء من الجزائر الخالدات أو من الساحل . وما بعد عن خط الاستواء المقدم ذكره يعبر عنه بالعرض ؛ فإن كان في جهة الجنوب فالعرض جنوبي ، وإن كان في جهة الشمال فالعرض شمالي . ويعتبر الطول والعرض في الأمكنة من البلدان وغيرها بالدرج والدقائق على ما سيأتي بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ثم النصف الجنوبي من الأرض لا عمارة فيه إلا فيما قارب خط الاستواء في بعض بلاد الزنج والحبشة ، وما والى ذلك مما لا يزيد عرضُه على ثلاث درج فيما أورده السلطان عماد الدين صاحب حماه في "تقويم البلدان" أوسط عشرة درجة وخمسين وعشرين دقيقة فيما ذكره إسحاق الحارثي وغيره . وأكثر المعمور إنما هو في النصف الشمالي ؛ والعمارة فيه فيما بين خط الاستواء إلى نهاية ست وستين درجة ونصف درجة في العرض ؛ وما وراء ذلك إلى نهاية الشمال خراب لا عمارة فيه ، وغالب العارة واقع بينا يجاوز عرضُه عشر درج إلى حدود الخمسين درجة ، وما وراء ذلك في جهة الجنوب إلى خط الاستواء ، وفي جهة الشمال إلى حد العارة غالبه جبال وقفار ؛ وغالب العارة في الطول من ساحل البحر المحيط الغربي إلى تسعين درجة فما دونها .

الطَّرَفُ الثَّانِي

(فما أشتملت عليه الأرض من الأقاليم الطبيعية)

قد قَسَمَ الحَكَمَاءُ المعمورَ إلى سبعة أقاليم ممتدة من المغرب إلى المشرق في عُرُوض قليلة تتشابه أحوال البقاع في كل إقليم منها، ثم اختلفوا في ترتيبها بحسب العرض، فقوم جعلوا ابتداء الأول منها خطَّ الأستواء، وآخِر السابِع منتهى العارة في الشَّمال وهو ستُّ وستون درجة على ما تقدَّم .

قال في "تقويم البلدان": والذي عليه المحققون أن ابتداء الإقليم الأول حيث العَرْض اثنتا عشرة درجة وثلاثا درجة، وما وراء ذلك إلى خط الأستواء خارج عن الإقليم الأول في جهة الجنوب، وآخر الإقليم السابع حيث العَرْض خمسون درجة وثلاث درجة، وما وراء ذلك إلى نهاية العمران في الشَّمال خارج عن الإقليم السابع إلى الشَّمال فيكون من العمران ما لم يدخل في الأقاليم السبعة، وعليه وقع الترتيب في هذا الكتاب .

الإقليم الأول - مبدؤه حيث العَرْض اثنتا عشرة درجةً وثلاثا درجة كما هو مذهب المحققين على ما تقدَّم، ووسطه حيث العَرْض ستُّ عشرة درجة ونصف وثمان درجة، وآخره حيث العَرْض عشرون درجة وربعٌ وثمان درجة، فتكون سعته سبع درجات وثلاثي درجة وثمان درجة .

الإقليم الثاني - مبدؤه حيث العَرْض عشرون درجة وربعٌ وثمان درجة، ووسطه حيث العَرْض أربع وعشرون درجة وثلاثا درجة، وآخره حيث العَرْض سبعٌ وعشرون درجة ونصف درجة، فتكون سعته بالتقريب سبع درج وثلاث دقائق .

الإقليم الثالث - مبدؤه حيث العرض سبع وعشرون درجة ونصف درجة؛
ووسطه حيث العرض ثلاثون درجة وثلاثا درجة؛ وآخره حيث العرض ثلاث
وثلاثون درجة ونصف وثمان درجة^(١) بالتقريب .

الإقليم الرابع - مبدؤه حيث العرض ثلاث وثلاثون درجة ونصف وثمان
درجة؛ ووسطه حيث العرض ست وثلاثون درجة ونحس وسدس درجة؛ وآخره
حيث العرض تسع وثلاثون درجة إلا عشرًا؛ فتكون سعة نحس درج وسبع عشرة
دقيقة بالتقريب .

الإقليم الخامس - مبدؤه حيث العرض تسع وثلاثون درجة؛ ووسطه حيث
العرض إحدى وأربعون درجة ورُبُّ درجة؛ وآخره حيث العرض ثلاث وأربعون
درجة ورُبُّ وثمان درجة؛ فتكون سعة أربع درجات ورُبُّ وثمان وعشر درجة
بالتقريب .

الإقليم السادس - مبدؤه حيث العرض ثلاث وأربعون درجة ورُبُّ وثمان
درجة؛ ووسطه حيث العرض نحس وأربعون درجة وعشر درجة؛ وآخره حيث
العرض سبع وأربعون درجة ونحس درجة؛ فتكون سعة ثلاث درجات ونصف
وثمان ونحس درجة .

الإقليم السابع - مبدؤه حيث العرض سبع وأربعون درجة ونحس درجة؛
ووسطه حيث العرض ثمان وأربعون درجة ونصف ورُبُّ وثمان درجة؛ وآخره
حيث العرض نحسون درجة وثلاث درجة؛ فتكون سعة ثلاث درجات وثمان
دقائق .

(١) فتكون سعة ست درجات وثمان درجة [ولعل هذه الفذلكة سقطت من قلم الناسخ وقد ذكرت في الضوء
وتقويم البلدان] .

وأما أطوال هذه الأقاليم فإنها تختلف في الطول والقصر باعتبار القرب من خط الاستواء والبعد عنه ؛ فكلما قرب الإقليم من خط الاستواء كان أكثر طولاً من الذي يليه : ضرورة أن أوسع الكرة وسطحها وما بعده من الجانبين يقصر شيئاً فشيئاً .

فطول الإقليم الأول - من ابتدائه من ساحل البحر المحيط الغربي إلى ساحل البحر المحيط الشرقي فيما ذكره في "تقويم البلدان" مائة وأثنان وسبعون درجة وسبع وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم الثاني - مائة وأربع وستون درجة وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم الثالث - مائة وأربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة .

وطول الإقليم الرابع - مائة وأربع وأربعون درجة وسبع عشرة دقيقة .

وطول الإقليم الخامس - مائة وخمس وثلاثون درجة وأثنان وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السادس - مائة وست وعشرون درجة وسبع وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السابع - مائة وتسع عشرة درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

الفصل الثانى

من الباب الأول من المقالة الثانية

(فى البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البلدان فى التعريف بها والسفر إليها؛ وفىه طرفان)

الطرف الأول

(فى البحر المحيط)

وهو المستدير بالقدر المكشوف من الأرض . وأحواله معلومة فى بعض المواضع

دون بعض .

فمن المعلوم الحال منه الجانب الغربى، ويسمى بحر أوقيانوس، وفىه الجزائر

الخالدات المتقدم ذكرها فى الكلام على الأطوال .

ويأخذ فى الأمتداد من سواحل بلاد المغرب الأقصى من زقاق سبتة الذى بين

الأندلس وبرّ العُدوة إلى جهة الجنوب حتى يتجاوز صحراء لمتونة : وهى بادية البربر

بين طرف بلاد المغرب من الجنوب وبين طرف بلاد السودان من الشمال، ثم يمتد

جنوباً على أرض خراب غير مسكونة ولا مسلوكة حتى يتجاوز خط الاستواء المتقدم

ذكره إلى الجنوب .

قال الشريف الإدريسى : وماؤه هناك ثخين غليظ شديد الملوحة، لا يعيش فيه

حيوان، ولا يسلك فيه مركب .

ثم يعطف إلى جهة الشرق وراء جبال القمر التى منها منابع نيل مصر الآتى

ذكرها، فيصير البحر المذكور جنوبياً عن الأرض، ويمتد شرقاً على أراض خراب

وراء بلاد الزنج، ثم يمتد شرقاً وشمالاً حتى يتصل ببحر الصين والهند، ثم يأخذ مشرقاً

حتى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة، وهناك بلاد الصين؛ ثم ينعطف

في شرق الصين إلى جهة الشمال ويصير في جهة الشرق عن الأرض، ويمتد شمالا على شرقى بلاد الصين حتى يتجاوز حدَّ الصين، ويسامت سدَّ يأجوج ومأجوج، ثم ينعطف ويستدير على أرض غير معلومة الأحوال؛ ويمتد مغربا ويصير في جهة الشمال عن الأرض، ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها؛ ثم ينعطف غربا وجنوبا ويستدير على الأرض ويصير في جهة الغرب منها، ويمتد على سواحل أمم مختلفة من الكُفَّار حتى يُسامت بلاد رومية من غربها، ثم يمتد جنوبا ويتجاوز بلاد رومية ويسامت البلاد التي بينها وبين الأندلس، ويتجاوزها إلى سواحل الأندلس؛ ويمتد على غربي الأندلس جنوبا حتى يجاوزه وينتهي إلى زقاق سبنة الذي وقعت البداية منه .

الطَّرَفُ الثَّانِي

(في البحار المنبثَّة في أقطار الأرض، ونواحي الممالك، وما بها من الجزائر المشهورة)

وهي على ضربين :

الضرب الأول

(الخارج من البحر المحيط وما يتصل به)

والمشهور منه ثلاثة أبحر .

البحر الأول

(الخارج من البحر المحيط الغربي إلى جهة الشرق)

وهو (بحر الروم) وأضيف إلى الروم لسكنى أهمهم عليه من شماليه، ويعبر عنه

بالبحر الرومي أيضا، وقد يعبر عنه بالبحر الشامي : لوقوع سواحل الشام عليه من

شرقيه، ومخرجه من المحيط من بحر أوقيانوس المتقدم ذكره بين الأندلس وبرَّ العُدوة

من بلاد المغرب، ويسمى هناك بحر الرقاق، وربما قيل رُقَاق سَبْتَةَ - لمجاورته لها على ما سأتى به، وهو هناك في غاية الضيق .

قال الشريف الإدريسيّ : والثابت في الكتب القديمة أن سَعَتَهُ عَشْرَةُ أُمِيالٍ ولكنه آتسع بعد ذلك .

قال ابن سعيد : وهو في زماننا ثمانية عشر ميلا .

قال في "الروض المعطار" ويذكر أنه كان عليه قنطرة عظيمة بين الأندلس وساحل طَنْجَة من بر العُدوة، مبنيةً بالمجارة، لا يُعلم لها نظير في معمور الأرض، يتر عليها الناس والدواب من جانب إلى جانب، وأن البحر قبل الفتح الإسلامي بمائة سنة طمى فأغرق القنطرة، وربما ظهرت لأهل المراكب تحت الماء . قال : والناس يقولون إنه لأبَد من ظهورها قبل فناء الدنيا .

ويتبدى هذا البحر من أول بحر الرقاق المقدم ذكره، ويمتد على (سواحل الغرب) إلى حدود الديار المصرية فيمتر على مدينة (طَنْجَة) حيث الطول ثمان درج، والعرض خمس وثلاثون درجة ونصف، ثم يعطف جنوبا وشرقا إلى مدينة (سلا) . ثم يمتد شرقا وشمالا إلى مدينة (سَبْتَةَ) ويمتد كذلك حتى يسامت مدينة (فاس) قاعدة الغرب الأقصى على بُعد منه، ثم يمتد إلى حدود مدينة (تلمسان) قاعدة الغرب الأوسط، ثم يأخذ شرقا بميلة إلى الشمال حتى يصير عند (الجزائر) فُرْضة بجاية، ويمر حتى يسامت (بجاية) .

ثم يمتد حتى يجاوز مدينة (مرسى الخرز) الذي به معاص المَرْجان شرقاً قَسَنْطِينَةَ : آخر مملكة بجاية من الشرق، ثم يتجاوز مملكة بجاية إلى أول حدود أفريقيا، ويمر في سمت وسط المشرق حتى يقابل مدينة (تونس) قاعدة أفريقيا من شماليها، ويدخل منه خور إلى تونس المذكورة .

ثم يمتد بعد أن يتجاوز تُونِس نحوَ تسعين ميلاً شرقاً نصّاً، ثم يعطف جنوباً حتى يصير له دخلة كبيرة في الجنوب، وفي فَمِ هذه الدخلة حيث يعطف البحر عن الشرق إلى الجنوب جزيرة (قَوْصَرَة) مقابلة لجزيرة صقلية .

ثم يمتد في الجنوب إلى قريب من مدينة (سوسة)؛ ثم يشرق إلى سوسة المذكورة ثم يأخذ شرقاً وجنوباً إلى مدينة (المهديّة)؛ ثم يتر شرقاً وجنوباً حتى يتجاوز مدينة (صفاقس)، ويمتد حتى يجاوز جزيرة (حربة)؛ ثم يعطف شمالاً ويصير للبر الجنوبي دخلةً في البحر، ويمتد شرقاً وشمالاً حتى يبلغ مدينة (أطرابلس) : وهي آخر مدن أفريقيا؛ ثم يمتد شرقاً حتى يجاوز حدود أفريقيا عند طول إحدى وأربعين درجة، ثم يمتد شمالاً على سواحل (برقة) الآتي ذكرها في جملة نواحي الديار المصرية إلى (طلمينا) ثم ينعطف إلى جهة الشمال، ويكون للبر في البحر دخلةً إلى (رأس أوثان) : وهو جبل داخل في البحر، ثم يشرق من رأس أوثان إلى (رأس تبنى) : وهو جبل في البحر قبالة رأس أوثان من جهة الشرق؛ ثم يعطف إلى الجنوب ويمتد جنوباً حتى يسامت (عقبه برقة) : وهي أول حدود الديار المصرية ، على ما يأتي ذكره في تحديدها .

ثم يمتد على سواحل مصر، ويمتد شرقاً وجنوباً إلى مدينة (الإسكندرية) من قواعد الديار المصرية .

ثم يأخذ شرقاً إلى عند مصب فرقة النيل الشرقية، ويأخذ مشرقاً إلى (رشيد) (١)
ثم إلى (الفرما) ثم إلى (العريش) ثم إلى (رخ) : وهي منزلة في طرف رمل الديار المصرية

(١) بياض في الأصل . وفي الضوء [رشيد عند مصب فرقة النيل الغربية ، ويمتد كذلك إلى مدينة دمياط ، عند مصب فرقة النيل الشرقية ، ويأخذ شرقاً إلى الطينة ثم إلى الفرما ... الخ] .

من جهة الشام على مرحلة من غَزَّة، حيث الطُّول نحو ستِّ ونحسين درجة ونصف العرضُ اثنتان وثلاثون درجة؛ ومن هنا ينقطع تشريقه .

ثم ينعطف ويأخذ شَمَالاً على (سواحل الشام) الآتي ذكرها في الكلام على المملكة الشامية فيمتد إلى مدينة (غَزَّة) ، ثم إلى (عَسْقَلان) ، ثم إلى (يَافَا) ميناء الرملة من أعمال الصَّفقة الساحلية من دمشق، ثم إلى (قَيْسَارِيَّة). (بفتح القاف) وهي مدينة خراب تعدّ من جُند فلسطين، كانت من أمّهات المُدُن، ثم إلى (عَثَلِيث) من أعمال صَفد، ثم إلى (عَكَّا) من أعمالها، ثم إلى (صُور) من أعمالها، ثم إلى (بَيْرُوت) من أعمال الصَّفقة الشمالية من دمشق، ثم إلى (جُبَيْل): وهي مدينة قديمة خراب، ثم إلى (أَنفَة) : من أعمال طرابلس، ثم إلى مدينة (طرابلس) ، ثم إلى (أَنْطَرطُوس) من أعمالها، ثم إلى (بَلْيَاس^(١)) من أعمالها، ثم إلى (جَبَلَة) من أعمالها، ثم إلى (اللَّاذِقِيَّة) من أعمالها، ثم إلى (السُّوَيْدِيَّة) ميناء أَنْطَاكِيَّة من أعمال حَلَب، ثم يأخذ البحر غرباً بشمال إلى (أَيَّاس)، مدينة الفتوحات الجاهانية ، ثم إلى (المُصَيِّصَة) ثم إلى (أَذَنَة) ثم إلى (طَرَسُوس) ثم يمتد شَمَالاً بَعْرَب حتى يجاوز حدود بلاد الأرمن؛ ويمتد على سواحل بلاد الروم التي هي الآن بيد التركان الآتي ذكرها في مكاتبات ملوكهم إلى (الكَرْك) . (بضم الكاف وسكون الراء المهملة) وهي بلدة بساحل بلاد المسامين هي الآن بيد صاحب قبرس؛ ثم يمر شَمَالاً إلى (العَلَايَا) ، ويقابلها من البر الآخر (دِمِيَاط) من سواحل الديار المصرية تقريباً، ثم يمر إلى (أَنْطَالِيَّة) ، ثم إلى (بَلَّاط) ، ثم إلى (طنفزلو) ، ثم إلى (إيَّاس لوق) ، ثم إلى (مَغْيِيسِيَا) ، ثم إلى مدينة (ابزو) : وهي بلدة على فم الخليج القسطنطيني من الشرق، وبها يعرف الخليج فيقال فم ابزو، ويقابلها من البر الآخر غربي مدينة الإسكندرية، فيما بينها وبين بَرَقَة ؛ ثم يجاوز الخليج المذكور ويمتد مغرباً بميِّلة إلى الجنوب على سواحل الروم والفرنجة، فيمر على بلاد المرا : وهي مملكة أولها فم الخليج القسطنطيني

(١) قال في معجم البلدان [بضمين وسكون النون] . وفي القاموس [بِلْيَاس كِسْر طراط] فعمل فيه لغتين .

المتقدم ذكره من جانبه الغربي . كانت في الأيام الناصرية ابن قلاوون مشتركة بين صاحب القسطنطينية وبين طائفة الكيتلان من الفرنج ، وقد فتحها الآن ابن عثمان وأستملكها من الروم .

ثم يأخذ بين الغرب والجنوب حتى يجاوز بلاد (المفجوط) وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به . ويقابلها من البر الآخر شرقي بركة ، ثم يمتد في الغرب إلى بلاد اقليرنس ، ثم إلى بلاد الباسليسة : وهي امرأة ملكت هذه البلاد بعد السبعائة فعرقت بها .

ويقابلها من البر الآخر أوساط بركة . وبآخر هذه المملكة من جهة الغرب (جون البنادقة) وهو خليج يخرج من بحر الروم هذا ، ويمتد غربا بشمال حتى يصير طرفه غربى رومية ، وعلى طرفه مدينة (البندقية) ومن فمه إلى منتهاه نحو سبعائة ميل ، ثم يجاوز فم الخور المذكور إلى مملكة بولية ، وأولها فم خور البنادقة من الجانب الغربي . ويقابلها من البحر الآخر (طامينا) فُرْضة بركة المتقدمة الذكر ، ثم يمتد في الغرب إلى بلاد (قلفريه) من جملة مملكة بولية المتقدمة الذكر .

ويقابلها من البر الآخر بلاد أطرابلس من بلاد إفريقية ، ثم يمتد إلى ساحل (رومية) ، المدينة المعظمة المشهورة .

ويقابلها من البر الآخر شرقي تونس من إفريقية . ثم ينقطع تغريبه ويأخذ جنوبا حتى يجاوز سواحل بلاد رومية المذكورة إلى بلاد التسقان : وهم جنس من الفرنج وبلادهم معروفة بنبات الزعفران .

ويقابلها من البر الآخر مدينة تونس : قاعدة أفريقية المتقدمة الذكر ، ويمتد في الجنوب إلى بلاد (بيزه) وهي بلدة على الركن الشمالي من جزيرة الأندلس إليها ينسب الفرنج البيازنة والحديد البيزاني .

ويقابلها من البر الآخر (مرسئى الخرز) آخر مملكة بجاية من الشرق على ما تقدم ذكره .
ثم يمتد إلى بلاد (جنوة) الآتى ذكرها فى الكلام على البلاد الشمالية ، ثم يأخذ
غربا إلى جبل البرت : وهو الجبل الفاصل بين جزيرة الأندلس وبين الأرض
الكبيرة ذات الأعم المختلفة ، ثم يتقطع تغريبه ويعطف مشرقا ويدخل الركن الشرقى
من الأندلس فيه ؛ ويمتد فى الشرق ، ويستدير على الركن المذكور ، ثم يعطف غربا
ويمتد على (سواحل الأندلس) إلى مدينة (برشلونه) ثم إلى مدينة (طرطوشه) .
قال فى "الروض المعطار" : ويقابلها من البر الآخر مدينة بجاية .

قال فى "تقويم البلدان" : وعرض البحر بينهما ثلاثة مجار ، ثم يمتد كذلك بين الغرب
والجنوب إلى مدينة بلنسية ، ثم يعطف غربا إلى دانية ؛ ثم يمتد غربا بجنوب إلى
مدينة مالقة ثم يمتد إلى الجزيرة : وهى مقابلة لساحل سبته وطنجة حيث وقع الأبتداء .
وسأتى الكلام على ضبط مالم يضبط من البلاد على ساحل هذا البحر بالحروف
مع ذكر صفاتها عند التعرض لذكرها فى الكتاب فى مواضعها إن شاء الله تعالى . .
وطول هذا البحر من البحر المحيط إلى ساحل الشام فيما يذكر ألف فرسخ ومائة
وسبعون فرسخا ، وغاية عرضة فى بعض الأماكن ستمائة ميل .

وأما ما يتصل بالبحر الرومى المتقدم الذكر فبحر نييطش (بنون مكسورة وياء مثناة
تحت ساكنة وطاء مهملة مكسورة وشين معجمة فى الآخر) . وهو المعروف فى زماننا
ببحر القريم : لترب بلاد القريم على ساحله ، ويعرف أيضا بالبحر الأرمنى : لترب بعض
بلاد أرمينية على بعض سواحلها ، وربما قيل فيه البحر الأسود : وهو متصل ببحر الروم
المذكور من شماله ، ويتركب عليه من آخره (بحر مانيطش) بزيادة لفظ "ما" فى أوله وباقى
الضبط على ما تقدم وهو المعروف فى زماننا ببحر الأزق : لترب بلاد الأزق على ساحله
الشرقى وليس وراءه بحر متصل به : ولذلك يُعبر عنه بعضهم ببحيرة مانيطش وهو

يصبُّ في بحر نيطش ، وبحر نيطش يصب في بحر الروم ؛ ولذلك تُسرَع المراكبُ في سيرها من القِرَم إلى بحر الروم ، وتبطن في سيرها من بحر الروم إلى القِرَم لآستقبالها جريان الماء .

وأول بحر نيطش المذكور مما يلي بحر الروم . (الخليج القسطنطيني) المتقدم ذكره في تحديد بحر الروم : وهو خليج ضيق للغاية بحيث يرى الإنسان صاحبه من البر الآخر .

قال ابن سعيد : وطول هذا الخليج نحو خمسين ميلا .

وذكر في " تقويم البلدان " عن بعض المسافرين أن طوله سبعون ميلا وأتصاله بالبحر الرومي من جانبه الشمالي ، ويمتد شمالا على (سواحل بلاد الروم) من البر الشرقي منه إلى (قلعة الجرون) وهي قلعة خراب على ساحل هذا الخليج مقابل القسطنطينية ويمتد من الجرون شمالا بميلة يسيرة إلى الشرق إلى مدينة كربى على خليج القسطنطينية على القرب من الجرون المذكورة ؛ ثم يمتد شرقا بشمال إلى مدينة (كتروا) ، وهي آخر مدن القسطنطينية التي على هذا الساحل ، ثم يمتد إلى مدينة (كينولي) وهي بلدة على الخليج القسطنطيني ، ثم يأخذ بين الشمال والغرب ، ويكون للبر دخلة في البحر إلى جهة الغرب ، وعلى طرف هذه الدخلة فرضة (سنوب) من سواحل الروم الآتى ذكرها في مكاتبات ملوك الكفر ، ثم يأخذ في الاتساع إلى مدينة (سامسون) ، وهي بلدة من سواحل بلاد الروم ، ثم يأخذ مشرقا إلى مدينة (طرابزون) ، وهي فرضة للروم بهذا الساحل ، ثم يمتد شمالا بميلة إلى مدينة (سُخُوم) ، وهي مدينة على ثلاثة أيام عن طرابزون شرقا بشمال ، وبينها وبين بلاد الكرج يوم واحد ، ويقال إنها من بلاد الكرج ؛ ثم يمتد شرقا بشمال إلى مدينة (أبجاس) ، وهي مدينة في جبل على ساحل البحر على القرب من سُخُوم ؛ ثم يتضايق البحر مغربا ويضيق من البر الآخر حتى يتقارب البرآن ويصير

الماء بينهما مثل الخليج، وهو مصب بحر ما نيطش في بحر نيطش، وعلى جانب هذا الخليج مدينة (الطامان) من سواحل الروم: وهى حد بلاد الروم، من مملكة بركة المشتملة على القرم، ودشت القَبَجاق، والسراى، وخوارزم على ما سياتى بيانه فى مكاتبات القانات، ثم يأخذ فى الاتساع شرقا وشمالا وغربا ويصير كالبركة، ويمتد على سواحل الأزق الآتى ذكرها فى مكاتبات حاكمها إلى مدينة الشقراق، وهى أول بلاد الأزق، ومنها ينتهى تشريقه، ثم يعطف إلى الشمال ويأخذ إلى مدينة (الأزق)، ثم يستدير من الأزق حتى يصير إلى الغرب، وينتهى إلى الخليج الذى بين بحر نيطش وبحر مانيطش المتقدم ذكره .

وهناك مدينة الكرش من بلاد الأزق مقابل مدينة الطامان المتقدمة الذكر من البر الآخر، ثم يمر جنوبا ويمتد على سواحل القرم الآتية الذكر فى مكتبة حاكمها، فيمر إلى مدينة (الكفا) فرضة القرم .

ويقابلها من البر الآخر مدينة طرابزون المتقدمة الذكر، ثم يمتد كذلك إلى مدينة صوداق: وهى فرضة بلاد القرم أيضا .

ويقابلها من البر الآخر مدينة سامسون المتقدمة الذكر، ثم يأخذ فى الانضمام جنوبا ويعطف مشرقا بحيث يكون للبر دخلة فى البحر، ويمتد على سواحل بلاد البلغار إلى مدينة صارى كومان من بلاد البلغار، وبينها وبين صلغات مدينة القرم خمسة أيام .

ويقابلها من البر الآخر مدينة سنوب المتقدمة الذكر، ثم يأخذ فى الاتساع غربا بميلة إلى الجنوب ويمتد كذلك إلى مدينة أقجا كومان من بلاد البلغار، ثم يأخذ جنوبا ويمتد على (سواحل بلاد القسطنطينية) إلى بلدة صقجى، وعندها يصب نهر طنا (بطاء) مهملة مضمومة بعدها نون وألف). وهو نهر عظيم بقدر مجموع دجلة والفرات، ثم

يتضابق ويأخذ شرقاً حتى يتهى إلى أول الخليج القُسْطَنْطِينِيّ المتقدّم ذكره، ثم يأخذ جنوباً ويتقارب البرّان ويمتدّ كذلك إلى مقابل مدينة كربى المتقدّمة الذكر، ثم يمتدّ كذلك إلى مدينة (القُسْطَنْطِينِيَّة) قاعدة ملك الروم الآتى ذكرها فى مكاتبة ملكها .
ويقالها من البر الآخر قلعة الجرون المتقدّمة الذكر، ثم يمتدّ حتى يصبّ فى بحر الروم حيث وقع الأبتداء. وسيأتى الكلام على ضبط ما لم يضبط من البلاد التى على ساحل هذا البحر المتقدّمة الذكر مع ذكر صفاتها عند الكلام على مكاتبات ملوكها وحكّامها إن شاء الله تعالى .

ويبحر نيطش المتقدّم ذكره على القرب من الخليج القُسْطَنْطِينِيّ جزيرة (مرّمرأ) الآتى ذكرها عند الكلام على مكاتبة ملكها فى جملة ملوك الكفر إن شاء الله .

البحر الثانى

(الخارج من المحيط الشرقى إلى جهة الغرب)

وهو بحر يخرج عند أقصى بلاد الصّين الشرقية الجنوبية مما يلي خط الاستواء حيث لا عرض، وقيل : على عرض ثلاث عشرة درجة فى الجنوب، ويمتدّ غرباً بشمال على (سواحل بلاد الصّين) الجنوبية، ثم على المفاوز التى بين الصّين والهند حتى يتهى إلى (جبال قامرون) الفاصلة بين الصّين والهند .

قال ابن سعيد : ومدينة الملك بها فى شرقها، ثم يجاوز (جبال قامرون) المذكورة ويمتدّ على سواحل بلاد (الهند) من الجنوب، ويمرّ على (سُقّالة الهند) وهى سُوفارة، ويمتدّ حتى يتهى إلى آخر الهند، ثم يمتدّ على مفازة السند الفاصلة بينه وبين البحر، ويمرّ حتى يتهى إلى فم بحر فارس الخارج من هذا البحر إلى جهة الشمال على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

ويجوزه إلى بلاد اليمن فيمّر على (ساحل مهرة) : أول بلاد اليمن ، ويمتد من شمالها على سواحل اليمن من جنوبه حتى ينتهي إلى مدينة (عدن) فُرْصَةَ اليمن ، ثم يمر من عدن إلى الشمال بميلة إلى الغرب نحو مجرا حتى ينتهي إلى (باب المنذب) وهو فُرْصَةُ بين جبلين ، ويخرج منه ويمتد غربا بميلة إلى الشمال اثني عشر ميلاً ، ثم يعطف شمالاً ويمتد على سواحل اليمن الغربية إلى (علافقة) فُرْصَةَ مدينة (زبيد) ، ثم يمتد شمالاً أيضاً إلى مدينة (حلي) من أطراف اليمن من جهة الحجاز ، وهي المعروفة بحلي ابن يعقوب ثم يمتد شمالاً على (ساحل الحجاز) إلى (جدة) ، فُرْصَةُ على بحر القلزم ، ثم يمتد شمالاً إلى (الجحفة) ميقات الإحرام لأهل مصر ، ثم يمتد شمالاً بميلة إلى الغرب حتى يتصل بساحل (ينبع) ، ثم يأخذ بين الغرب والشمال حتى يجاوز (مدين) الآتي ذكرها في كور مصر القديمة ، ويمتد شمالاً بجنوب حتى يقارب (أيلة) الآتي ذكرها في كور مصر القديمة أيضاً ، ثم يعطف إلى الجنوب حتى يجاوز أيلة المذكورة إلى مكان يعرف (برأس أبي محمد) ويكون للبردخلة في البحر في جهة الجنوب ، ثم يعطف شمالاً حتى ينتهي إلى فُرْصَةَ (الطور) : وهي مكان حط وإقلاع لمراكب الديار المصرية ، وما يصل إليها من اليمن وغيرها ، ويمر في الشمال حتى يصل إلى فُرْصَةَ (السويس) : وهي مكان حط وإقلاع للديار المصرية أيضاً ، وعنده ينتهي بر العرب ببحر القلزم ويتدنى بر العجم . وهناك يقرب هذا البحر من بحر الروم على ما تقدم ذكره في الكلام على أصل هذا البحر .

ثم من السويس يعطف إلى الجنوب على ساحل مصر ، ويمتد موازياً لبلاد الصعيد حتى ينتهي إلى مدينة (القلزم) التي ينسب إليها هذا البحر الآتي ذكرها في الكلام على كور مصر القديمة ، ويقابلها من بر الحجاز أيلة ، ثم يأخذ عن القلزم جنوباً بميلة إلى الشرق حتى يسامت فُرْصَةَ الطور المتقدم ذكرها ، وتصير فُرْصَةَ الطورين أيلة

والْقَلْزِمُ غربي الدخلة المتقدم ذكرها؛ ثم يمتد كذلك حتى ينتهي إلى (القَصِيرِ)؛ فُرُضَةٌ قُوصٌ؛ ثم يتسع في جهتي الجنوب والشرق حتى يكون اتساعه تسعين ميلاً، وتسمى تلك القطعة المتسعة بِرُكَّةِ الْغَرْنُدَلِ : وهي التي أغرق الله تعالى فيها فرعون؛ ثم يأخذ جنوباً بميلة يسيرة إلى الغرب إلى (عَيْذَابَ) ، فُرُضَةٌ قُوصٌ أيضاً . ويقابلها من برّ الحجاز جُدَّةُ فُرُضَةٌ مَكَّةُ الْمُشْرِفَةُ؛ ثم يمتد في سمت الجنوب على (سواحل بلاد السودان) حتى يصير عند (سَوَاكِينَ) من بلاد البجاة؛ ثم يمتد كذلك حتى يحيط (بجزيرة دَهْلَكَ) وهي جزيرة قريبة من ساحل هذا البحر الغربي، وأهلها من الحبشة المسلمين . ويقابلها من البر الآخر جنوبي حُلِّيَّ بْنِ يَعْقُوبَ من بلاد اليمن، ويمتد حتى يصل إلى رأس (جبل المَنْدَبِ) المتقدم ذكره .

وهناك يضيق البحر حتى يرى الرجل صاحبه من البر الآخر .

ويقال : إنه بقدر رميتي سَهْمٍ؛ وتُرى جبال عَدَنَ من جبال المَنْدَبِ في وقت الصحو، ثم يتجاوز باب المَنْدَبِ ويأخذ شرقاً وجنوباً، ويتسع قليلاً قليلاً ويمر على بقية سواحل الحبشة حتى يمر بمدينة (زَيْلَعِ) من بلاد الحبشة المسلمين .

ويقابلها عَدَنَ من بَرِّ الْيَمَنِ، وهي عن عَدَنَ في الغرب بميلة إلى الجنوب، ثم يمر إلى مدينة مَقْدَشُو^(١)؛ ثم يمتد كذلك حتى ينتهي إلى (خليج بَرِّرَا) الخارج من بحر الهند في جانبه الجنوبي على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

ويتجاوز فم هذا الخليج ويمتد على (سواحل بلاد انزُجِ) حتى ينتهي إلى آخرها؛ ثم يمتد على (سواحل بلاد الواق واق) على أماكن مجهولة حتى ينتهي إلى مبدئه من البحر المحيط الشرقي . على أنه في تقويم البلدان لم يتعرض لساحل هذا البحر الجنوبي فيما هو شرقي باب المَنْدَبِ لعدم تحققه .

(١) في تقويم البلدان [بكسر الدال] وفي معجم البلدان [بفتح الدال] فهما لغتان .

وأعلم أن هذا البحر يسمى في كل مكان باسم ما يسامته من البلدان ، أو بأسم بعض البلدان التي عليه . فيسمى فيما يقابل بلاد الصين بحر الصين ، وفيما يقابل بلاد الهند إلى ماجاورها إلى بلاد اليمن شرق باب المندب بحر الهند ، وفيما دون باب المندب إلى غايته في الشمال والغرب بحر القلزم نسبة إلى مدينة القلزم المتقدمة المذكور في ساحل الديار المصرية .

قال في "تقويم البلدان" : وطول هذا البحر من طرف بلاد الصين الشرق إلى القلزم ألفان وسبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا بالتقريب ، ومقتضى كلام ابن الأثير في "معجائب المخلوقات" أن طوله أربعة آلاف وتسعمائة وستة وستون فرسخا وثلثان : فإنه قد ذكر أن طول بحر الصين والهند إلى باب المندب أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ ، ثم ذكر أن طول بحر القلزم ألف وأربعمائة ميل ، وهي أربعمائة وستة وستون فرسخا وثلثان وبين الكلايين بون .

وكلام صاحب تقويم البلدان أقرب إلى الصواب . فإنه أستخرجه من تضريب الدرج وأستخرج أميالها وفراسخها . وبأن بحر القلزم من الذراع الآخذ إلى جهة السويس على ميل من مدينة القلزم موضع يعرف (بذنب التمساح) يتقارب بحر القلزم وبحر الروم فيما بينه وبين الفرما حتى يكون بينهما نحو سبعين ميلا فيما ذكره ابن سعيد .

قال في "الروض المعطار" : وكان بعض الملوك قد حفره ليوصل ما بين القلزم وبحر الروم فلم يتأت له ذلك لارتفاع القلزم وانخفاض بحر الروم ، والله تعالى قد جعل بينهما حاجزا كما ذكر تعالى في كتابه . قال : ولما لم يتأت له ذلك أحفر خليجا آخر مما يلي بلاد تنيس وديمياط وجرى الماء فيه من بحر الروم إلى موضع يعرف بقيعان (؟) .

فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلى هذه القرية، وتدخل من بحر القلزم إلى
ذئب التماسح فيقرب مافي كل بحر إلى الآخر، ثم أردتم ذلك على طول الدهر .

وقد ذكر ابن سعيد أن عمرو بن العاص كان قد أراد أن يخرق بينهما من عند
ذئب التماسح المتقدم ذكره فهناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه .
وقال : إِذَنْ يَتَخَطَّفُ الرُّومُ الْمُجْحَاجَ .

وذكر صاحب "الروض المِعْطَار" أن الرشيد هم أن يوصل ما بين هذين البحرين
من أصل مَصَبِّ النيل من بحر بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر فلم يتأت له قسمة
ماء النيل، فرام ذلك مما يلي بلاد الفَرَمَا فقال له يحيى بن خالد : إن تمَّ هذا تَخَطَّفَ
النَّاسُ من المسجد الحرام ومكة، وأحتجَّ عليه بمنع عمر بن الخطاب عمرو بن العاص
من ذلك، فأمسك عنه .

ويتفرع من البحر الهنديّ بجران عظيمان مشهوران ، وهما (بحر فارس، والخليج
البربرى) .

فأما بحر فارس، فهو بحر ينبعث من بحر الهند المتقدم ذكره من شماليه، ويمتد
شمالاً بميلة إلى الغرب غربىّ (مفازة السند) الفاصلة بينه وبين بحر الهند، ثم على
غربىّ بلاد السند، ثم على أرض (مكران) من نواحي الهند، ويخرج منه من آخر
مكران خورٌ يمتد شرقاً وجنوباً على ساحل مكران والسند حتى يصير السند غربيه،
ثم يعطف آخره على (ساحل بلاد كرمان) من شماليها حتى يعود إلى أصل بحر فارس،
فيمتد شمالاً حتى ينتهى إلى مدينة (هرموز) وينتهى إلى آخر كرمان فيخرج منه خور
يمتد على ساحل كرمان من شماليها، ثم يرجع من آخره على ساحل بلاد فارس
من جنوبيها حتى يتصل بأصل بحر فارس، ويمتد شمالاً ثم يعطف ويمتد مغرباً
إلى (حصن ابن عمارة) من بلاد فارس، وقيل من بلاد كرمان، وهو اليوم خراب؛

ثم يمتد مغرباً في جبال منقطعة ومفاوز إلى مدينة (سِيرَاف) ، ثم يمتد كذلك إلى (سيف البحر) بكسر السين : وهو ساحل من سواحل فارس ، فيه مزارع وقرى مجتمعة ، ثم يمتد إلى (جَنَابَةَ) من بلاد فارس ، ثم يمتد إلى (سِينِيَز) من بلاد فارس ، وقيل من الأهواز ثم يمتد إلى مدينة (مَهُرُوبَانَ) من سواحل خوزستان ، وقيل من سواحل فارس ، وهى فُرُضَةُ (أَرَجَانَ) وما والاها ، ثم يمتد مغرباً بميلة يسيرة نحو الشمال إلى مدينة (عَبَادَانَ) من أواخر بلاد العِرَاقِ من الشرق على القرب من البَصْرَةَ عند مَصَبِّ دِجَلَةَ في هذا البحر ، ثم يعطف ويمتد جنوباً إلى (كَاطِمَةَ) وهى جَوْنٌ على ساحل البحرين مما يلي البصرة على مسيرة يومين منها ، ثم يمتد إلى (القَطِيف) من بلاد البَحْرَيْنِ ثم يمتد كذلك إلى مدينة (عُمَانَ) فُرُضَةُ بلاد البحرين ، وإليها تنتهى مرآكب الهند والهند والزنج ، ويخرج على القرب منها عن يمين المُقْلَعِ من ساحلها في جهة الغرب بحر بلاد (الشَّحْرِ) من اليمن أيضاً ، وإليها ينسب العنبر الشَّحْرِيُّ الطَّيِّبُ كما تقدم ذكره في النوع الخامس فيما يحتاج إليه من نفيس الطيب ، ثم يمر على سواحل (مَهْرَةَ) من شرق بلاد اليمن حتى ينتهى إلى مبدئه من بحر الهند .

قال في "تقويم البلدان" : وبهم هذا البحر ثلاثة أجبلٍ يخشاها المسافرون ، يقال لأحدها كُسَيْرٌ ، والثانى عَوِيرٌ ، والثالث ليس فيه خير .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وطول هذا البحر أربعمائة فرسخ وأربعون فرسخاً ، وعمقه ثمانون باعاً .

وأما الخليج البربري ، فهو ينبعث من بحر الهند المتقدم ذكره في جنوبي جبل المنذب المتقدم الذكر ، ويمتد في جنوبي بلاد الحبشة ، يأخذ غرباً حتى ينتهى إلى مدينة بربرا (بباين موجدتين مفتوحتين ورايين مهملتين الأولى منهما ساكنة)

وهي قاعدة الرّغَاوَةِ من السُّودَانِ، حيث الطولُ ثمان وستون درجةً والعرضُ ست درج ونصف .

قال في "تقويم البلدان": وطوله من المشرق إلى المغرب نحو خمسمائة ميل .
 قال الشريف الإدريسيّ : وموجه كالجبال الشواهي ولكنه لا ينكسر . قال :
 يركب فيه إلى جزيرة قنبلو ويقال قنبلة ، وهي جزيرة للزنج في هذا البحر .
 قال في "القانون" : وطولها اثنتان وخمسون درجة ، وعرضها في الجنوب ثلاث درج .
 قال الإدريسيّ : وأهلها مسلمون .

البحر الثالث

(الخارج من المحيط الشماليّ، المعروف ببحر برّديل)

(بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت ولام في الآخر) .

قال ابن سعيد : ويقال له بحر برطانية أيضا، وهو بحر يخرج من شماليّ الأندلس ويأخذ شرقا إلى خلف جبل الأبواب الفاصل بين الأندلس والأرض الكبيرة ، ويقرب طرفه الشرقيّ حتى يبقى بينه وبين بحر الروم المتقدم ذكره أربعون ميلا ، وهناك مدينة (برّديل) التي يضاف البحر إليها .

الضرب الثاني

(من البحار المنبثة في أقطار الأرض ما ليس له اتصال بالبحر المحيط)

وهو بحر الخزر (بفتح الخاء والزاي المعجمتين، وراء مهملة في الآخر) .

ويسمى بحر جرجان لوقوع مدينة جرجان على ساحله ، وبحر طبرستان لوقوع ناحية طبرستان على ساحله أيضا ، وهذا البحر بحر ملح منفرد عن البحار لا اتصال له بغيره البتة .

قال ابن حوقل : وهو مظلم القعر، ويقال إنه متصل ببحر نيطش من تحت الأرض .

قال المسعودى : وهو غاط لا أصل له ، ولم أدر من أين أخذه فأنله أم من طريق الحس ، أم من طريق الاستدلال والقياس .

قال الشريف الإدريسي : وهو مدور الشكل إلى الطول، وقيل مثلث الشكل كالقلع، وعلى ساحله الجنوبي بلاد الجليل والديلم، وعلى جانبه الشرقى بلاد جرجان والمفاضة التي بين جرجان وخوارزم، وعلى جانبه الشمالى بلاد الترك والخزر وجبال سياه كوه، وعلى جانبه الغربى بلاد إيلاق وجبال الفتيق، وأبتداؤه من جهة الغرب عند مدينة (باب الحديد) المعروف باب الأبواب من بلاد آران، حيث الطول ست وستون درجة، والعرض نحو إحدى وأربعين درجة على القرب من دربند شروان، ثم يمتد جنوبا من باب الحديد أحدا وخمسين فرسخا، وهناك مصب نهر الكرفيه، ثم يمتد مشرقا بانحراف إلى الجنوب ستة عشر فرسخا، فيمر على أراضي موقان من عمل أردبيل من آذربيجان، ثم يمتد جنوبا وشرقا حتى تبلغ غايته في الجنوب حيث العرض سبع وثلاثون درجة قبالة مدينة (أمل) قصبه طبرستان، ثم ينعطف ويمتد شرقا حتى يجاوز بلاد الجليل إلى مدينة آبسكون، وهي فرضة جرجان، ثم يمتد إلى نهايته في الشرق حيث الطول ثمانون درجة، والعرض نحو أربعين عند مدينة جرجان، وهي في الشرق منه قريبة من ساحله، ثم ينعطف ويمتد شمالا وغربا حتى يبلغ نهايته في الشمال حيث العرض نحو خمسين درجة، والطول تسع وسبعون

(١)
درجة؛ وفي شماليه وغربيه يصبّ نهر إبتل الذي عليه مدينة السراى قاعدة مملكة
أزبك الآتى ذكرها في مكتبة قانهم إن شاء الله تعالى .

قال في "تقويم البلدان" : وليس في هذا البحر جزيرة مسكونة .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة الثانية

(في كيفية أستخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة بينها، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في كيفية أستخراج جهات البلدان)

إذا كنت في بلد وأردت أن تعرف جهة بلد آخر عن البلد الذي أنت فيه، فالذى أطلقه
كثير من المصنّفين أنك تعرف طول البلد الذي أنت فيه وعرضه، وطول البلد الآخر
وعرضه، وتقابل بين الطولين وبين العرضين فإن كان ذلك البلد أعرض من بلدك
مع مساواته له في الطول، فهو عنك في جهة الجنوب . وإن كان أطول من بلدك
مع مساواته له في العرض، فهو عنك في جهة الشرق . وإن كان أقلّ طولاً مع مساواته
في العرض، فهو عنك في جهة الغرب . وإن كان أطولاً وأعرض من بلدك،
فهو عنك بين الشرق والشمال . وإن كان أقلّ طولاً وعرضاً، فهو عنك بين المغرب
والجنوب . وإن كان أقلّ طولاً وأكثر عرضاً، فهو عنك بين الجنوب والشمال .
وإن كان أكثر طولاً وأقل عرضاً، فهو عنك بين الشرق والجنوب .

والذى ذكره المحققون من علماء الهيئة أن البلد إذا كان أطول من بلدك مع
مساواته له في العرض، يكون عنك في جهة الشرق بميل إلى الشمال . وإذا كان أقلّ

(١) في معجم البلدان بالمشاة الفوقية [بوزن إبل] .

طولا مع مساواته له في العرض ، يكون في جهة الغرب بميلة إلى الشمال أيضا .
 وإذا كان أقل طولا وعرضا ، يكون بين المغرب والجنوب على ما تقدم ، إلا أن يقل
 الفصل بينهما بأن يكون أقل من درجة ، فإنه يحتمل أن يكون كذلك وأن يكون
 على وسط المغرب . وإذا كان أقل طولا وأكثر عرضا ، فإنه يكون بين المشرق
 والمغرب على ما تقدم ، إلا أن يقل الفصل بينهما فيحتمل أن يكون كذلك وأن يكون
 على وسط المشرق .

الطرف الثاني

(في معرفة الأبعاد الواقعة بين البلدان)

قد تقدم أن الأطوال والعروض في الأمكنة والبلدان تعتبر بالدرج والدقائق ،
 وأن الدرجة مقسومة بستين دقيقة ، ثم الذي حققه القدماء كبطليموس صاحب
 المجسطى وغيره تقدير الدرجة بستة وستين ميلا وثلاثي ميل ، وبه أخذ أكثر المتأخرين ،
 وعليه العمل . وما وقع لأصحاب الرصد المأمورين مما يخالف ذلك بنقص عشر درج
 مما لا تعويل عليه .

وقد نقل علاء الدين بن الشاطر من المتأخرين في "زيجه" عن القدماء أنهم قدروا
 الدرجة بالتقريب بعشرين فرسخا ، وبستين ميلا ، وبمئتي ألف وأربعين ألف ذراع ،
 وبخمسائة برد ، وبمسير يومين .

وقدر الشافعي رضي الله عنه ذلك بسير يومين بالأيام المعتدلة دون ليلتهما ، وقدر
 السير بالسير المعتدل ، وتقدير الدرجة كما بين الفسطاط ودمياط ، فإن عرض دميّاط
 يزيد على عرض الفسطاط بدرجة وكسري سير على ما سيأتي ذكره .

فاذا أردت أن تعرف كم بين البلد الذي أنت فيه وبين بلد آخر على الخط المستقيم ،

فلك حالتان :

الحالة الأولى - أن يكون ذلك البلد على سَمْتِ بلدك الذي أنت فيه في الطول أو العرض، فأنظر كم درجة بينهما بالزيادة والنقص فاضربه في ست وستين، وهو ما لكل درجة من الأميال، فما خرج من الضرب فهو بُعد ما بينهما من الأميال على الخط المستقيم، فأعتبره بما شئت من المراحل والفراسخ والبُردِ على ما تقدم بيانه .

الحالة الثانية - أن لا يكون ذلك البلد على سَمْتِ بلدك الذي أنت فيه . فطريقك أن تقابل بين عرض بلدك وطوله، وبين عرض البلد الآخر وطوله، وتنظر كم فَضْلُ ما بين الطولين وبين العرضين، وهو ما يزيدُه أحد الطولين أو أحد العرضين على الآخر فتضرب كلاً من فَضْلِ الطولين وفضل العرضين في مثله، وتجمع الحاصل من الضربين فما كان خذ جَدْرَهُ، وهو القدر الذي إذا ضربته في مثله حصل عنه ذلك العدد، فما بلغ فهو مقدار ما بين بلدك والبلد الآخر من الدرج، فأضربه في ست وستين وتُثلِّثين على ما تقدم، فما بلغ فهو أميال . فأعتبره بما شئت من المراحل والفراسخ والبُردِ على ما تقدم .

مثال ذلك - أن الفُسْطَاطَ طوله خمس وخمسون درجة، وعرضه ثلاثون درجة ودمشق طولها ستون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة ونصف درجة، ففضل ما بين طوليهما خمس درج، وفضل ما بين عرضيهما ثلاث درج ونصف درجة، فتضرب فضل ما بين الطولين : وهو خمس درج في مثله يبلغ نحسا وعشرين ، وتضرب فضل ما بين العرضين، وهو ثلاث ونصف في مثله يبلغ آخني عشر وربعاً، فتجمع ما حصل من الضربين، وهو خمس وعشرون وأثنا عشر وربع يكون سبعا وثلاثين وربعاً فخذ جَدْرَهَا يكن سستا ونصف سدس تقريباً، وهو ما بين الفُسْطَاطِ ودمشق من الدرَج، فاضربه في ست وستين وتُثلِّثين، وهي ما للدرجة الواحدة من الأميال يكن أربعائة ونحسة أميال وثلاث سدس ميل، فإذا آعتبرت كل أربعة

وعشرين ميلاً بمرحلة على ما تقدم، كانت سبع عشرة مرحلة تقريباً، وهو القدر الذى بين القسْطَاطِ ودِمَشْقَ على الخط المستقيم .

أما الطرق المسلوكة إلى البُلْدان على التعاريح بسبب البحار والجبال والأودية وغيرها، فإنها تقتضى الزيادة على ذلك .

وقد ذكر أبو الرِّيحان البيرونى في كتابه "القانون": أن زيادة التعريح على الأستواء يكون بقدر الخمس تقريباً. فإذا كان بين البلدين أربعون ميلاً على الخط المستقيم كانت بحسب سير السائر خمسين ميلاً .

قلت : وفيه نظر لطول بعض التعاريح على بعض فى الزيادة بالبحار والجبال عن الخط المستقيم على ما هو مشاهد فى الأسفار .

اللهم إلا أن يريد الغالب كما تقدم بين القسْطَاطِ ودِمَشْقَ، فقد مرّ أن بينهما على الخط المستقيم سبع عشرة مرحلة بالتقريب، فإذا أضيف إليها مثلُ نحسها، وهو ثلاثة ونحسان، كانت عشرين مرحلة، وهو القدر المعتاد فى سيرها بالسير المعتدل .
وَأعلم أن أطوال البُلْدان وعُرُوضها قد وقع فى الكتب المصنفة فيها ككتاب "الأطوال" المنسوب للفرس . و"رسم المعمور" المترجم للأمون من اللغة اليونانية . و"الزيجات" وغير ذلك أختلاف كثير وتباين فاحش . وممن صرح بذلك أبو الرِّيحان البيرونى فى كتابه "القانون" فقال عند ذكرها: ولم يتهاى لى تصحيح جميعها، وقد صححتُ ما أمكن منها .

قال فى "تقويم البُلْدان": إلا أن معرفة ذلك بالتقريب خير من الجهل بالكلية .

الباب الثاني

من المقالة الثانية

(في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء، ومقرّاتهم في القديم والحديث، وما أنطوت

عليه الخلافة من الممالك في القديم، وما كانت عليه من الترتيب،

وما هي عليه الآن، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء : من خلفاء بني أمية بالشام، وخلفاء

بني العباس بالعراق، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بني أمية بالاندلس .

أما الخلافة، فسيأتي في المقالة الخامسة في الكلام على الولايات أن المراد بها

خلافة النبي صلى الله عليه وسلم بعده في أمته . ولذلك كان يقال لأبي بكر الصديق

رضي الله عنه : خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الراجح أنه لا يجوز أن يقال

في الخليفة خليفة الله إلى تمام القول فيما سيأتي ذكره هناك، إن شاء الله تعالى .

وأما من وليها من الخلفاء، فعلى أربع طبقات .

الطبقة الأولى

(الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

وأولهم ((أبو بكر الصديق رضي الله عنه))؛ بوع بالخلافة في اليوم الذي مات فيه

النبي صلى الله عليه وسلم ! على ما سيأتي ذكره في الكلام على البيعات من المقالة

الخامسة إن شاء الله تعالى .

وبقي حتى توفي لتسع ليال بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة

ودفن مع النبي صلى الله عليه وسلم ! في حجرة دأشة رضي الله عنها

وبويع بعده ((عمر بن الخطاب رضى الله عنه)) فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر رضى الله عنه بعد أن عهد له بالخلافة ، وتوفى يوم السبت سلخ ذى الحجة الحرام سنة ثلاث وعشرين بطعنة أبى لؤلؤة : غلام المغيرة بن شعبة ، ودفن مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه

وفى أيامه فتحت الأمصار ففتحت دمشق على يد خالد بن الوليد وأبى عبيدة ابن الجراح ، وتبعها فى الفتح سائر بلاد الشام ، ففتحت بيسان ، وطبرية ، وقيسارية ، وقلسطين ، وعسقلان ، وبعبك ، وحمص ، وحلب ، وقنسرين ، وأنطاكية ، وسار إلى بيت المقدس فى خلال ذلك ، ففتحه صلحا .

وفتح من بلاد الجزيرة الفواتية الرقة ، وحران ، والموصل ، ونصيبين ، وأمد والرها .
وفتح من العراق القادسية ، والمدائن ، على يد سعد بن أبى وقاص ، وزال ملك الفرس ، وأنهزم ملكهم يزدجرد إلى فرغانة من بلاد الترك .

وفتحت أيضا كور دجلة ، والأبله ، على يد عتبة بن غزوان .

وفتحت كور الأهواز على يد أبى موسى الأشعرى .

وفتحت نهاوند ، وإصطخر ، وأصهان ، ونستر ، والسوس ، وأذربيجان ، وبعض أعمال خراسان .

وفتحت مصر ، والإسكندرية ، وأنطابلس ، وهى برقة ، وطرابلس الغرب ، على يد عمرو بن العاص .

وبويع بالخلافة بعده ((عثمان بن عفان رضى الله عنه)) لثلاث بقين من المحرم سنة أربع وعشرين ، وقتل بالمدينة لثمان عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل يوم الأضحى ، وقيل غير ذلك .

وبويع بالخلافة بعده (على كرم الله وجهه) يوم قتل عثمان، وقتل لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة بالعراق، ودفن بالنجف على الصحيح المشهور .

وبويع بالخلافة لابنه (الحسن) بالكوفة من العراق يوم قتل أبيه، وسلم الأمر لمعاوية لخمس بقين من ربيع الأول سنة إحدى وأربعين، وقيل في ربيع الآخر، وقيل في جمادى الأولى، ولحق بالمدينة فأقام بها إلى أن توفى بها في ربيع الأول سنة تسع وأربعين، وقيل ست وخمسين .

الطبقة الثانية

(خلفاء بني أمية)

أولهم (معاوية بن أبي سفيان) كان أميراً على الشام في خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه، واستمر بها إلى أن سلم الحسن إليه الأمر، فاستقل بالخلافة وبقى حتى توفى بدمشق مستهل رجب الفرد سنة ستين من الهجرة، وقيل في النصف من رجب، وهو أول من رتب أمور الملك في الإسلام .

وقام بالأمر بعده ابنه (يزيد) بالعهد من أبيه، وبويع له بعد وفاته في رجب سنة ستين، وتوفى لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين .

وقام بالأمر بعده ابنه (معاوية) وبويع له بالخلافة في النصف من شهر ربيع الآخر سنة أربع وستين، فأقام بالخلافة أربعين يوماً، وقيل ثلاثة أشهر، وقيل عشرين يوماً .

وقام بالأمر بعده (مروان بن الحكم) وبويع له بالخلافة بالجالية في رجب سنة أربع وستين، ثم جددت له البيعة في ذى القعدة من السنة المذكورة، وتوفى بالطاعون بدمشق في شهر رمضان سنة خمس وستين .

وقام بالأمر بعده أبنه (عبد الملك) بالعهد من أبيه، وبويع له بالخلافة في الثالث من شهر رمضان المذكور، وتوفى بدمشق منتصف شوال سنة ست وثمانين .

وقام بالأمر بعده أبنه (الوليد) بالعهد من أبيه، وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وتوفى بدمشق في منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين .

وقام بالأمر بعده أخوه (سليمان بن عبد الملك)؛ وبويع له يوم موت أخيه الوليد، وكان أبوه قد عهد أن يكون هو الخليفة بعد أخيه الوليد، وتوفى بدابق لعشر خلون من صفر سنة سبع وتسعين .

وقام بالأمر بعده ابن عمه (عمر بن عبد العزيز) بعهد له، وبويع له بالخلافة يوم موته، وتوفى بحناصرة لخمس وقيل لست بقين من رجب سنة إحدى ومائة .

وقام بالأمر بعده (يزيد بن عبد الملك بن مروان) بعهد من أخيه سليمان أن يكون له الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز، وقيل بعهد من أبيه أن يكون له الأمر بعد أخيه سليمان، ولكنه سلم لابن عمه عمر، وبويع له يوم موت عمر، وتوفى بجولان لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه (هشام بن عبد الملك) بعهد من أخيه يزيد، وبويع له بالخلافة في يوم موته، وتوفى بالرصافة لست خلون من ربيع الأول سنة خمس وعشرين ومائة .

وقام بالأمر بعده (الوليد بن يزيد بن عبد الملك)؛ بويع له بالخلافة لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وقتل لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين^(١) .

(١) أى فكانت خلافته سنة واحدة وشهرين .

وقام بالأمر بعده أبنه (يزيد) المعروف بالناقص ؛ سمي بذلك لتقصه الجند ما كان زادهم يزيد؛ بويع له بالخلافة يوم قتل الوليد، وتوفى بدمشق لعشر بقين من ذى الحجة من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعده أخوه (إبراهيم بن الوليد) ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه في ذى الحجة المذكور، فكثت أربعة أشهر، وقيل أربعين يوماً ثم خلع نفسه .

وقام بالأمر بعده (سروان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعدي) بتسليم إبراهيم بن الوليد الأمر إليه؛ وفي أيامه ظهرت دعوة بني العباس، وقصدته جيوشهم فهرب إلى مصر، فأدرك وقتل بقرية يقال لها بوضير من الفيوم، وبزواله زالت دولة بني أمية .

الطبقة الثالثة

(خلفاء بني العباس بالعراق)

وأول من قام بالأمر منهم بعد خلفاء بني أمية (السفاح) وهو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس : عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ بويع له بالخلافة بالكوفة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة، وتوفى بالأنبار لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه (المنصور) أبو جعفر عبد الله ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه السفاح، وتوفى بطريق مكة وهو محرم بالحج سنة ثمان وخمسين ومائة، ودفن بالحجون .

وقام بالأمر بعده أبنه (المهدي) أبو عبد الله محمد ؛ بويع له بالخلافة يوم مات أبوه بطريق مكة وهو يومئذ ببغداد، وتوفى بماسبذان في المحرم سنة تسع وستين ومائة .
وقام بالأمر بعده أبنه (الهادي) أبو محمد موسى ؛ بويع له بعد أبيه يوم موته وهو غائب^(١)، فسار إلى بغداد ودخلها بعد عشرين يوماً، وتوفى لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبعين ومائة .

(١) وكان مقبلاً بمرجان يحارب أهل طبرستان بعسكر أبيه .

وقام بالأمر بعده **(الرشيد)** أبو محمد هرون بن المهدي، بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه الهادي، وتوفي ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(الأمين)** أبو عبد الله محمد، ويقال أبو موسى، ويقال أبو العباس، بالعهد من أبيه هرون الرشيد، وبويع له صبيحة الليلة التي توفي فيها أبوه الرشيد، وقتل لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم قام بالأمر بعده أخوه **(المأمون)** أبو العباس، ويقال أبو جعفر عبد الله، بالعهد له من أبيه الرشيد أن يكون له الأمر بعد أخيه الأمين، وبويع له بالخلافة يوم قتل أخيه الأمين ببغداد وهو غائب، وبويع له البيعة العامة لخمس بقين من المحرم سنة ثمان وتسعين ومائة، وتوفي بأرض الروم لليلة بقيت من رجب، وقيل لثمان خلون منه سنة ثمان عشرة ومائتين، ودفن بطرسوس .

وقام بالأمر بعده أخوه **(المعتصم بالله)** أبو إسحاق محمد بن هرون الرشيد، بويع له بالخلافة يوم موت أخيه المأمون وهو يومئذ بطرسوس، فسار إلى بغداد، فدخلها مستهل رمضان سنة ثمان عشرة ومائتين، وتوفي بسامرا لثاني عشرة ليلة مضت من ربيع الأول سنة سبع وعشرين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه **(الواثق بالله)** أبو جعفر هرون، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وتوفي بسمر من رأى لست بقين من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه **(المتوكل على الله)** أبو الفضل جعفر، بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الواثق، وقتل لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه (المستنصر بالله) أبو جعفر محمد؛ بويع له بالخلافة صبيحة قتل أبيه المتوكل، وتوفي بسلاماً ثلاث خلون من ربيع الآخر، وقيل لخمس خلون من ربيع الأول سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (المستعين بالله) أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة في اليوم الثاني من موت المستنصر، وخلق نفسه لأربع خلون من ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، وجّهز إلى واسط، فقتل بها في آخر رمضان من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعده (المعتز بالله) أبو عبد الله محمد، وقيل أبو الزبير ابن المتوكل على الله المتقدم ذكره؛ بويع له ببغداد حين خلع المستعين نفسه، وبايعه المستعين فيمن بايع، وخلق ثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ثم قتل بعد ذلك .

وقام بالأمر بعده (المهتدي بالله) أبو عبد الله ، ويقال أبو جعفر محمد بن الواثق بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة بعد ليلتين من خلع المعتز بالله، وقتل لأربع عشرة ليلة خلت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين ؛ وكان يقال هو في بني العباس مثل عمر بن عبد العزيز في بني أمية .

وقام بالأمر بعده (المعتمد على الله) أبو العباس ، ويقال أبو جعفر أحمد بن جعفر المتوكل المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم قتل المهتدي بالله، وتوفي لإحدى عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (المعتضد بالله) أبو العباس أحمد بن الموفق، طلحة بن جعفر المتوكل؛ بويع له بالخلافة يوم قتل المعتمد على الله، وتوفي ببغداد لسبع وقيل لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه **(المكتفى بالله)** أبو محمد عليّ ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه المعتضد وهو غائب بالرقة، وكتب إليه بذلك فأخذ البيعة عليّ من عنده وسار إلى بغداد، فدخلها لثمان خلون من جمادى الأولى من سنته، وتوفى ببغداد لثلاث عشرة ليلة، وقيل لثنتي عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه **(المقتدر بالله)** أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله المتقدم ذكره، وخُلع لعشر بقين من ربيع الأول سنة ست وتسعين ومائتين .

وبويغ **(المرتضى بالله)** أبو محمد عبد الله بن المعتز، فأقام يوماً وليلة ثم اضطرب عليه الأمر فأخفى، وعاد الأمر إلى المقتدر فظفر بابن المعتز فصادره، ثم أُخرج من دار السلطان ميّتا لليلتين خلّتا من ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خلع المقتدر بالله نفسه، وبويغ بالخلافة أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد فأقام يومين، ثم عاد الأمر إلى المقتدر بالله وبقي حتى قُبل لثلاث خلون من شوال سنة عشرين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده أخوه **(القاهر بالله)** المتقدم ذكره، لليلتين بقينا من شوال سنة عشرين وثلثمائة، ثم خلع وسُملت عيناه لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده ابن أخيه **(الراضى بالله)** أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله المتقدم ذكره، وتوفى لست عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده أخوه **(المتقى بالله)** أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله المتقدم ذكره، بويغ له بالخلافة لعشر بقين من ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلثمائة، وخُلع وسُملت عيناه لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده ابن عمه **(المستكفي بالله)** أبو القاسم عبد الله بن المكتفي بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المتبق بالله بمشاركته له^(٢)، ثم خلع وسملت عيناه في جمادى الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده ابن عمه **(المطيع لله)** أبو القاسم، ويقال أبو العباس الفضل ابن المتقدر بالله المتقدم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المستكفي، وخلع نفسه منها للعجز بالمرض في الثالث عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة .

وولى الخلافة بعده ابنه **(الطائع لله)** أبو بكر عبد الكريم؛ بويع له بالخلافة يوم خلع أبيه المطيع لله، وقبض عليه لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة إحدى وثمانين وثلثمائة، فخلع نفسه .

وقام بالأمر بعده **(القادر بالله)** أبو العباس أحمد بن إسحاق؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الطائع، وكان غائبا بالبطائح فأحضر، وجددت له البيعة ببغداد في شهر رمضان من السنة المذكورة، وتوفي حادى عشر ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(القائم بأمر الله)** أبو جعفر عبد الله، بالعهد من أبيه، وجددت له البيعة بعد موت أبيه، توفي ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابن ابنه **(المقتدى بأمر الله)** عبد الله [بن] ذخيرة الدين محمد ابن القائم بأمر الله المتقدم ذكره، وتوفي بجأة في الخامس والعشرين من المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(المستظهر بالله)** أبو العباس أحمد؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه، وتوفي سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة .

(١) كذا في العقد أيضا وفي حياة الحيوان [أبو العباس] .

(٢) ليست هذه الكلمة في العقد ولا في حياة الحيوان وهي قايلة الجدوى كما ترى .

وقام بالأمر بعده ابنه **(المسترشد بالله)** أبو منصور الفضل ؛ بويغ له بالخلافة بعد وفاة أبيه المستظهر، وقتل في قتال الباطنية سابع عشر ذى القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(الراشد بالله)** أبو جعفر المنصور، بالمعهد من أبيه ؛ وجددت له البيعة يوم قتله ، وخلق في منتصف ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده **(المقتنى لأمر الله)** أبو عبد الله محمد بن المستظهر المتقدم ذكره ؛ بويغ له بالخلافة يوم خلق الراشد بالله ، وتوفى ثانی ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(المستجد بالله)** أبو المظفر يوسف ؛ بويغ له بالخلافة يوم وفاة أبيه المقتنى ، وتوفى تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(المستضيء بالله)** أبو محمد الحسن ؛ بويغ له بالخلافة يوم وفاة أبيه المستجد من أقراره بيعة خاصة ، وفي عشرة بيعة عامة ^(١) ، وتوفى ثانی ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(الناصر لدين الله)** أبو العباس أحمد ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه المستضيء ، وتوفى أول شوال سنة اثنتين وعشرين وستائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(الظاهر بأمر الله)** أبو نصر محمد ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه الناصر ، وتوفى رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(المستنصر بالله)** أبو جعفر المنصور ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه الظاهر ، وتوفى لعشر خلون من جمادى الأولى سنة أربعين وستائة .

وقام بالأمر بعده ابنه **(المستعصم بالله)** أبو أحمد عبد الله ؛ بويغ له بالخلافة يوم موت أبيه المستنصر ، وقتله هولاكو ملك التتار في العشرين من المحرم سنة

(١) أى ثامر ربيع الآخر التالي للبيعة الخاصة الواقعة في التاسع .

ست وخمسين وستائة . وبقتله أنقرضت الخلافة العباسية من بغداد، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بني العباس ببغداد إذا عدت خلافة ابن المعتز، وحسبت خلافة القاهر أولاً وثانياً خلافةً واحدة .

الطبقة الرابعة

(خلفاء بني العباس بالديار المصرية من بقايا بني العباس)

وأول من قام بأمر الخلافة بها ((المستنصر بالله)) أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبي نصر محمد المتقدم ذكره . وذلك أنه لما قتل التتر المستعصم المتقدم ذكره، وبقيت الخلافة شاغرة نحواً من ثلاث سنين ونصف ثم قدم جماعة من عرب الحجاز إلى مصر في رجب سنة تسع وخمسين وستائة أيام الظاهر بيبرس، ومعهم المستنصر المذكور، وذكروا أنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتر، فعقد الملك الظاهر له مجلساً حضره جماعة من العلماء، منهم الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ الشافعية، وقاضى القضاة تاج الدين ابن بنت الأعرز الشافعى، وهو يومئذ قاضى الديار المصرية بمفرده، وشهد أولئك العرب بنسبه، ثم شهد جماعة من الشهود على شهادتهم بحكم الاستفاضة، وأثبت ابن بنت الأعرز نسبه، ثم بايعه الملك الظاهر بالخلافة وأهل الحل والعقد، وآتم الملك الظاهر بأمره، وأستخدم له عسكرياً عظيماً، وتوجه الملك الظاهر إلى الشام وهو صحبته بفخهزه من هناك بعسكره إلى بغداد طمعاً أن يستولى عليها وينتزعها من التتار، فخرج إليه التتار قبل أن يصل ببغداد فقتلوه، وقتلوا غالب عسكره في العشر الأول من المحرم سنة ستين وستائة . فكانت خلافته دون السنة، وهو أول خليفة لقب بلقب خليفة قبله، وكانوا قبل ذلك يلقبون بالقباب مرئجة .

وقام بالأمر بعده ((الحاكم بأمر الله)) أبو العباس أحمد بن حسين بن أبي بكر ابن الأمير أبي علي القميّ ابن الأمير حسن بن الراشد بالله أبي جعفر المنصور المتقدم ذكره في الخلفاء ببغداد . قَدِمَ مصر سنة تسع وخمسين وستائة ، وهو ابن خمس عشرة سنة في سلطنة الظاهر بيبرس ، وقيل إن الظاهر بعث من أحضره إليه من بغداد ، وجلس له مجلسا عاما أثبت فيه نسبه ، وبايعه بالخلافة في سنة ست وستين وستائة ، وأشركه معه في الدعاء في الخطبة على المنابر ، إلا أنه منعه التصرف والدخول والخروج . ولم يزل كذلك إلى أن ولي السلطنة الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون ، فأسكنه بالكبش بخط الجامع الطولوني ، فكان يخطب أيام الجمعة في جامع القلعة ويصلي ، ولم يطلق تصرفه إلى أن تسلطن المنصور لاجين ، فأباح له التصرف حيث شاء وأركبه معه في الميادين ، وتوفي في شهر سنة إحدى وسبعائة .

وقام بالأمر بعده ابنه ((المستكفي بالله)) أبو الربيع سليمان بالعهد من أبيه الحاكم ، وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، وأستقر على ما كان عليه أبوه من الركوب والتزول وركوب الميادين مع السلطان إلى أن أعيد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة المرة الثانية بعد خلع الملك المظفر بيبرس الجاشنكير في شهر سنة تسع وسبعائة ، فحصل عند السلطان منه وحشة ، فحزه إلى قوص ليقم بها ، وبقى بقوص حتى توفي في سنة أربعين وسبعائة .

وولى الخلافة بعده ابنه ((المستعصم بالله)) أبو العباس أحمد بعهد من أبيه المستكفي بأربعين شاهدا بمدينة قوص ، ودعى له على المنابر في العشر الأخير من شوال سنة أربعين وسبعائة .

ثم خلعه الناصر محمد بن قلاوون ، وبايع بالخلافة ((الواثق بالله)) أبا إسحاق إبراهيم ابن الحاكم بأمر الله المتقدم ذكره ، وأمر بأن يدعى له على المنابر ، وتحمل له راية الخلافة ،

فخرى الأمر على ذلك . وكان قد هم بمبايعته بعد موت المستكفي فلم يتم له . فلما توفى الملك الناصر في العشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعائة ، أعيد المستعصم بالله أحمد المتقدم ذكره إلى الخلافة بعد خلع الواثق إبراهيم ، وبقي حتى توفى رابع شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعائة .

ثم ولى الخلافة بعده أخوه (المعتضد بالله) أبو الفتح أبو بكر بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان سبع عشر شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، وتوفى عاشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعائة .

وولى الخلافة بعده ابنه (المتوكل على الله) أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله المتقدم ذكره بالعهد من أبيه المعتضد ، وأستقر له الأمر بعد وفاة أبيه يوم الخميس ثاني عشر جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعائة ، وبقي حتى خلعه الأمير أيبك أتابك العساكر في سلطنة الملك المنصور على بن الأشرف شعبان بن حسين .

وولى الخلافة مكانه (المستعصم بالله) أبو يحيى زكريا بن الواثق إبراهيم المتقدم ذكره ، فأقام في الخلافة دون ثلاثة أشهر . ثم أعيد المتوكل على الله محمد بن أبي بكر إلى الخلافة ثانيا في أواخر المحرم أو أوائل صفر سنة تسع وسبعين وسبعائة ، وأستمر حتى قبض عليه الظاهر برقوق وأعتقله بقلعة الجبل في مستهل شهر رجب سنة خمس وثمانين وسبعائة .

وولى الخلافة مكانه (الواثق بالله) أبو حفص عمر بن الواثق بالله إبراهيم المتقدم ذكره ، فبقي حتى توفى في العشر الأول من شوال سنة ثمان وثمانين وسبعائة ، فأعاد الظاهر برقوق المستعصم بالله زكريا المتقدم ذكره ثانيا إلى الخلافة ، والمتوكل على الله في الاعتقال والناس لا يرون في كل ذلك الخليفة غيره .

ثم عن الملك الظاهر برقوق بعد ذلك فأطلق المتوكل على الله من الاعتقال، وأكرمه وأحسن إليه في ثاني جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وسبعائة، وبقي في الخلافة حتى توفي سابع عشر شهر رجب الفرد سنة ثمان وثمانمائة .

وولى الخلافة بعده ابنه (أبو الفضل العباس ولقب المستعين بالله) وبقي في الخلافة على سنين من تقدمه من الخلفاء العباسيين بالديار المصرية من قصور أمره على العهد إلى السلطان والدعاء له على المنابر قبل السلطان إلى أن قبض على الناصر فرج بن برقوق بالشام في الثاني عشر من ربيع الأول من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فاستقل بالأمر وأستبد به، وأجمع له أمر الخلافة: من ضرب اسمه على السكة في الدناير والدرهم والدعاء له على المنابر بمفرده، والعلامة على التقاليد والتواقيع والمكاتبات وغيرها، وفوض أمر تدبير دولته للأمر "شيخ" وكتب له تفويض في ورق، عرضه ذراع ونصف بذراع البز، يزيد عما كان يكتب فيه للسلطين نصف ذراع بقلم مختصر الطومار .

وكان المتولى لأمر كتابته المقر الشمسى محمد العمري عين أعيان كتاب التست الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية، ونائب كاتب السر . وسيأتى ذلك في الكلام على التواقيع في المقالة الخامسة إن شاء الله تعالى .

واما مقرّات الخلفاء، فهي أربع مقرّات :

المقرّة الأولى

(المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام)

كانت مقرّة الخلفاء الراشدين إلى حين أنقراضهم، وذلك أن مبدأ النبوة كان بمكة ثم هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، وأقام بها حتى توفي في الثالث عشر من ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة .

(١) المشهور أن وفاته يوم الاثنين الثاني عشر االخ ولكن في العقد "لثلاث عشرة خلت من ربيع الأول" ولعل المؤلف آعتمده .

ثم كان بعده في الخلافة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم عليّ، ثم الحسن إلى حين سلّم الأمر لمعاوية، وإنما كان مقام عليّ والحسن بالعراق زمن القتال بينهما وبين معاوية .

المقرّة الثانية

(الشام)

وهي دار خلفاء بني أمية إلى حين أنقراضهم

قد تقدّم أن معاوية كان أميراً على الشام قبل الخلافة، ثم استقل بالأمر حين سلّم إليه الحسن، وبقي في الشام هو ومن بعده إلى حين أنقراض خلافتهم، فقتل مروان بن محمد على ما تقدّم ذكره . وكانت دار إقامتهم دمشق، وإن نزلوا غيرها فليس لإقامة .

المقرّة الثالثة

(العراق)

وهي دار خلفاء بني العباس

وكان أول مبايعة السّجاج به بالكوفة على ما تقدّم، ثم بنى بعد ذلك بالأنبار مدينةً وسمّاها الهاشمية ونزلها . فلما ولي أخوه أبو جعفر المنصور الخلافة بعده بنى بغداد وسكنها وصارت منزلاً لخلفاء بني العباس بعده إلى حين أنقراض الخلافة منها بقتل التتر المستعصم آخر خلفائهم بها .

المقرّة الرابعة

(الديار المصرية)

وهي دار الخلافة الآن

وقد تقدّم سبب انتقال الخلافة إليها بعد أنقراضها من بغداد في الكلام على من ولي الخلافة من الخلفاء، فأغنى عن إعادته هنا .

وقد تقدم أن الحاكم بأمر الله ثانی خلفائهم بمصر أسكنه الأشرف خلیل بن قلاوون بالكبش بخط الجامع الطولوني . أما الآن فاستقرت دار الخلافة بخط المشهد النفيسى بين مصر والقاهرة ، ولا أخلی الله هذه المملكة من آثار النبوة .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الثانية

(فيما أنطوت عليه الخلافة من الممالك فى القديم ، وما كانت عليه

من الترتيب ، وما هى عليه الآن)

أما ما أنطوت عليه من الممالك ، فاعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قد فتح مكة وما حول المدينة من القرى تحييراً ونحوها .

وفتح خالد بصرى من الشام فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وهى أول فتح فتح بالشام ، ثم كانت الفتوح الكثيرة فى خلافة عمر رضى الله عنه ، ففتح بلاد الشام ، وكور دجلة والأبلة ، وكور الأهواز ، وإصطخر ، وأصبهان ، والسوس ، وأذربيجان ، والرئى ، وجرجان ، وقزوین ، وزنجان ، وبعض أعمال خراسان ، وكذلك فتحت مصر ، وبرقة ، وطرابلس الغرب .

ثم فتح فى خلافة عثمان رضى الله عنه : كرمان ، وسجستان ، وتيسابور ، وفارس ، وطبرستان ، وهراة ، وبقية أعمال خراسان . وفتحت أرمينية ، وحران ، وكذلك فتحت أفريقية ، والأندلس ، وسد الإسلام ما بين المشرق والمغرب ، وكانت الأموال تُجبي من هذه الأقطار النائية والأمصار الشاسعة ، فتحمل إلى الخليفة ، وتوضع فى بيت المال بعد تكفية الجيوش وما يجب صرفه من بيت المال . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أثناء خلافة بنى العباس ، ما عدا الأندلس فإن بقايا خلفاء بنى أمية استولوا عليه

حتى يقال : إن الرشيد كان يستلقى على ظهره وينظر إلى السحابة مازة ويقول :
 ”أذهبى إلى حيث شئت يأتينى نحرأجك“ ثم اضطرب أمر الخلافة بعد ذلك
 وتفاصر شأنها وأستبدت أكثر أهل الأعمال بعمله من خلافة الراضى على ماسياتى ذكره
 فى الكلام على ترتيب الخلافة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأما ترتيب الخلافة : فله حالتان ،

الحالة الأولى

(ما كان عليه الحال فى الزمن القديم)

اعلم أن الخلافة لأبتداء الأمر كانت جارية على ما ألف من سيرة النبى صلى الله
 عليه وسلم ! : من خُسونة العيش ، والقرب من الناس ، وأطراح الحِيلاء وأحوال
 الملوك ، مع ما فتح الله تعالى على خلفاء السلف من الأقاليم ، وجبى إليهم من الأموال
 التى لم يُفزع عطاء الملوك بجزء من أجزاءها . ونَاهِيكَ أنهم فتحوا عدَّة من الممالك العظيمة
 التى كانت يضرب بها المثل فى عظم قدرها ، وأرتفاع شأن ملوكها ، من ممالك المشرق
 والمغرب . حتى ذكر عطاء الملوك عند بعض الساف فقال : ”إنما المَلِكُ الذى يأكل
 الشعير ويعسُّ على رجليه بالليل ماشيا وقد فُتِحَتْ له مشارقُ الأرض ومغارِبُها“
 يريد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن سلَّم الحسنُ
 رضى الله عنه الأمر لمعاويةَ ، وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم !
 ”الخِلافةُ فى أمَّتِي ثلاثون سنة ثم مُلِكٌ بعد ذلك“ فكان آخر الثلاثين خلافة الحسن .
 فلما سلَّم الحسن رضى الله عنه لمعاوية بعد وقوع الاختلاف وتباين الآراء ، أقتضى
 الحال فى زمانه إقامة شعارِ الملك ، وإظهار أبهة الخِلافة ، فأخذ فى ترتيب أمور الخلافة
 على نظام الملك لما فى ذلك من إرهاب العدو وإخافته . بل كان ذلك شأنه وهو

أمير بالشام قبل أن يلي الخلافة . حتى حكى صاحب "القد" وغيره أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قَدِمَ الشام في خلافته وهو راكب على حمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف، ومعاوية أميراً على الشام، فخرج معاوية لملاقاته في موكب عظيم، فلقيه في طريقه في خَفٍّ من القوم فلم يشعر به وتعداه طالبا له؛ ثم عرَّفَ ذلك فيما بعد، فرجع وسلم على أمير المؤمنين عمر، ومثنى إلى جانبه، فلم يلتفت إليه وطال به ذلك، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين، فألتفت إليه حينئذ، وقال: أنت صاحب الموكب الآن مع ماياغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ - فقال: يا أمير المؤمنين: إنا بأرضٍ يكثر فيها جواسيس العدو فأحتاج أن أظهر لهم من أهبة الملك والسلطان ما يزعمهم، فإن أمرتني به، آثمت؛ وإن نهيتني عنه، آتيت - فقال: إن كان ماقلت حقاً، فإنه لرأى أديب! وإن كان غير حق، فإنه لخُدعة أريب. لا أمرك ولا أنباك - فقال عبد الرحمن: لحسن يا أمير المؤمنين! ما صدر به هذا الفتى عما أوردته فيه - فقال: لحسن مصادره وموارده جسمناه ما جسمناه .

فلما صارت الخلافة إليه، زاد في حسن الترتيب وإظهار الأبهة، وأخذ الخلفاء بعده في مضاعفة ذلك والاحتفال به حتى أمست الخلافة في أعين ما يكون من ترتيب الملك، وفاقته في ذلك الأكَسرة والقيصرة . بل أضمحلَّ في جانب الخلافة سائر الممالك العظام، وأنطوى في ضمنها ممالك المشارق والمغرب، خصوصاً في أوائل الدولة العباسية في زمن الرشيد ومن والاه .

حتى يحكى أن صاحب عمورية من ملوك الروم كانت عنده شريفة مأسورة في خلافة المعتصم فعذبها، فصاحت وأمتصها! فقال لها: لا يأتى المعتصم خلاصك إلا على أبلق . فبلغ ذلك المعتصم، فنادى في عسكره بركوب الخيل البلق، وخرج

وفي مقدمة عسكره أربعة آلاف أبلق، وأتى عموريةً فخاصرها وخلص الشريفة، وقال: أشهدى لى عند جدك المصطفى صلى الله عليه وسلم أنى جئت لخلاصك، وفي مقدمة عسكرى أربعة آلاف أبلق .

وقد حكى ابن الأثير فى تاريخه: أنه لما وصلت رسل ملك الروم إلى بغداد فى سنة خمس وثلاثمائة فى خلافة المقتدر، رتب من العسكر فى دار الخلافة مائة وستون ألفاً ما بين راكب وراجل، ووقف بين يدى الخليفة سبعائة حاجب، وسبعة آلاف خادم خصى: أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود، ووقف الغلمان الحجرية الذين هم بمثابة ممالك الطباقي الآن بالباب، بتمام الزينة والمناطق المحلاة، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة، وغرائب الزينة، وغشيت جذرانها بالستور، وفرشت أرضها بالبسط، وكان عدّة البسط اثنين وعشرين ألف بساط، وعدة الستور المعلقة ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها اثنا عشر ألف ستر من الديباج المذهب، وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب والفضة بأغصانها وأوراقها، وطيور الذهب والفضة على أغصانها، وأعضائها تمثيل بحركات موضوعة، والطيور تُصفر بحركات مرتبة، وألقيت المراكب والدبابدب فى دجلة بأحسن زينة. وكان هناك مائة سبع مع مائة سباع، إلى غير ذلك من الاحوال الملوكية التى يطول شرحها .

هذا مع تفهقر الخلافة وأنحطاط رتبها يومئذ. ولم تزل الخلافة قائمة على ترتيب واحد فى النفقة والحرايات والمطابخ وإقامة العساكر إلى آخر أيام الراضى بالله . فلما ولى المتيق لله، تقاصر أمر الخلافة وتناقص، وقنع الخلفاء من الخلافة بالدعاء على المنابر وضرب أسمهم على الدنانير والدرهم، وربما خطب الواحد منهم بنفسه، ومع ذلك فكان الخليفة هو الذى يولى أرباب الوظائف من القضاة وغيرهم، وتكتب عنه العهود والتقاليد وغيرها لا يشاركه فى ذلك سلطان .

وأما شِعَارُ الخِلافةِ :

فمنها - الخَاتَمُ : والأصل فيه ما ثبت في الصحيح "أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ !
 قيل له : إن الملوك لا يَقْرَءُونَ كِتَابًا غَيْرَ مَخْتومٍ فَأَتَّخِذُ خَاتَمًا مِنْ وَرَقٍ ، وجعل نَقْشَهُ
 مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ " فلما تَوَفَّى رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لبسه أبو بكر بعده
 ثم لبسه عمر بعد أبي بكر ، ثم لبسه عثمانُ بعد عمر ، فوقع منه في بئر فلم يُقَدَّرْ عليه .
 وأتخذ الخلفاء بعد ذلك خواتيمَ ، لكل خَاتَمٍ نَقْشٌ يَخْصُهُ ، وبقي الأمر على ذلك
 إلى أنقرض الخِلافة من بَغْدَادَ .

(ومنها) البُرْدَةُ : وهى بردة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التى كان الخليفة يلبسها
 فى المواكب .

قال ابن الأثير : وهى شِمْلَةٌ مَخْطُوطَةٌ ، وقيل كِسَاءٌ أَسْوَدٌ مَرِيعٌ فِيهِ صِغْرٌ ،
 وقد اختلف فى وصولها إلى الخلفاء .

حكى المَآوَرِدِيُّ فى الأحكام السلطانية عن أبان بن تغلب أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان وهبها لكعب بن زهير حين أمتدحه بقصيدته التى أوها : "بَانَتُ
 سَعَادُ" فأشترها منه معاوية . والذى ذكره غيره أن كعبا لم يسمع بيعها لمعاوية ، وقال :
 لم أكن لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا . فلها مات كعب أشترها
 معاوية من ورثته بعشرة آلاف درهم .

وحكى المَآوَرِدِيُّ أيضا عن حمزة بن ربيعة أن هذه البردة كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعطها لأهل أيلة أمانا لهم ، فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أبي أوفى
 وهو عامل عليهم من قبيل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وبعث بها إليه ،
 وكانت فى خزانتها حتى أخذت بعد قتله . وقيل أشترها أبو العباس السفاح : أول خلفاء
 بني العباس بثلاثمائة دينار .

(ومنها) القَضِيب : وهو عُود كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأخذه بيده .

قال الماوردي : وهو من تركة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي هي صدقة .

قلت : وكان القَضِيب والبردة المتقدمتا المذكور عند خلفاء بني العباس ببغداد إلى أن أتتعهما السلطان سنجر السلجُوقِيّ من المسترشد بالله، ثم أعادهما إلى المفتي عند ولايته في سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . والذي يظهر أنها بقيت عندهم إلى انقضاء الخلافة من بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فإن مقدار ما بينهما مائة وإحدى وعشرون سنة، وهي مدة قريبة بالنسبة إلى ما تقدم من مدتهما .

(ومنها) ثياب الخلافة : وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماه في تاريخه في الكلام على ترجمة الملك السعيد إسماعيل أحد ملوك بني أيوب بإيمانه أنه كان به هَوَجٌ، فادّعى أنه من بني أمية وليس ثياب الخلافة، ثم قال : وكان طول الكم يومئذ عشرين شبرًا، فيحتمل أنه أراد زمن بني أمية، وأنه أراد زمن بني أيوب .

(ومنها) اللون في الأعلام والخلع ونحوها .

وكان شعار بني أمية من الألوان الخُضْرَة، فقد حكى صاحب حماة عن الملك السعيد إسماعيل المتقدم ذكره : أنه حين ادّعى الخلافة وأنه من بني أمية لبس الخُضْرَة؛ وهذا صريح في أنه شعارهم .

أما بنو العباس فشعارهم السَّوَادُ؛ وقد اختلف في سبب اختيارهم السَّوَادَ، فذكر القاضي الماوردي في كتابه "الحاوي الكبير" في الفقه : أن السبب في ذلك أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في يوم حُنينٍ ويوم الفَتْحِ عقد لعمه العباس رضي الله عنه رايةً سوداء .

وحكى أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : أن سبب ذلك أن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية حين أراد قتل إبراهيم بن محمد العباسي : أول القائم من بني العباس بطلب الخلافة قال لشيخته : لا يهولنكم قتلى ، فإذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العباس يعني السفاح ، فلما قتله مروان ، لبس شيخته عليه السوداء ، فلزمهم ذلك وصار شعاراً لهم .

ومن غريب ما وقع مما يتعلق بذلك ما حكاه ابن سعيد في "المغرب" أن الظافر الفاطمي أحد خلفاء مصر لما قتله وزيره عباس ، بعث نساء الخليفة شعورهن طي الكُتب إلى الصالح طلائع بن رزيك ، وهو يومئذ والٍ بمنية بنى خصيب ، فحضر إليهم وقد رفع تلك الشعور على الرماح ، وأقام الرايات السود إظهاراً للحرب على الظافر ، ودخل القاهرة على ذلك ، فكان ذلك من القال العجيب ، وهو أن مصر أنتقلت إلى بني العباس بعد خمس عشرة سنة ، ورفعت راياتهم السود بها .



وأما تولية الملوك عن الخلفاء ، فكان الحال فيه مختلفاً باعتبار السلطان بحضرة الخلافة وغيره . فإن كان الذي يوليه الخليفة هو السلطان الذي بحضرة الخلافة ، كبنى بويه وبني سلجوق وغيرهم ، فقد حكى ابن الأثير وغيره أن السلطان طغرل بك بن ميكائيل السلجوقي لما تقلد السلطنة عن "القائم بأمر الله" في سنة تسع وأربعين وأربعمائة ، جلس له الخليفة على كرسى ارتفأه عن الأرض نحو سبعة أذرع ، وعليه البردة ، ودخل عليه طغرل بك في جماعة ، وأعيان بغداد حاضرون ، فقبل طغرل بك الأرض ويد الخليفة ، ثم جلس على كرسى نصب له ، ثم قال رئيس الرؤساء وزير الخليفة عن لسان الخليفة : "إن أمير المؤمنين قد ولّاك جميع ما ولّاه الله تعالى من

(١) معجم البلدان [منية أبي الخصيب] .

بلاده، وردَّ إليك أمرَ عباده، فاتق الله فيما ولّاك، وأعرف نعمته عليك“ ثم خُلِعَ على طغربك سبعُ جبات سود بزيق واحد، وعمامة سوداء، وطُوق بطوق من ذهب، وسُورَ سِوَارَيْنِ من ذهب، وأُعْطِيَ سيفاً بغلاف من ذهب، ولقبه الخليفة، وقرئَ عهده عليه فقبل الأرض ويد الخليفة ثانياً وأنصرف، وقد جهّزه فرس من إصْطَبَلَاتِ الخليفة بمركب من ذهب مقدس فركب وأنصرف إلى داره، وبعث إلى الخليفة خمسين ألف دينار، وخمسين مملوكاً من الترك بخيوطهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها. ولعل هذا كان ترتيبهم في لبس جميع ملوك الحضرة .

- وإن كان الذي يوليه الخليفة من ملوك النواحي البعيدة عن حضرة الخليفة كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم، جهّزه التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة، وهو جبةً أطلس أسود بطراز مُدْهِبٍ وطوق من ذهب يجعل في عنقه، وسِوَارَانِ من ذهب يجعلان في يديه، وسيفٌ قرأه ملبس بالذهب، وفرس بمركب من ذهب، وعلمٌ أسودٌ مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه، كما كان يبعث إلى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل. فإذا وصل ذلك إلى سلطان تلك الناحية، لبس الخِلمَةَ والعامة، وتقلد السيف وركب الفرس وسار في موكبه حتى يصل إلى محل ملكه. وربما جهز مع خلعة السلطان خلعاً أخرى لولده أو وزيره أو أحدٍ من أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ .

وآخر من وصلت إليه الخِلمَةُ والطوق والتقليد من ملوك بني أيوب من بغداد الناصرُ يوسف بن العزيز بن السلطان صلاح الدين عن المستعصم في سنة خمس وخمسين وستائة .

وأما الوظائف المعتبرة عندهم ، فعلى ضربين :

الضرب الأول

(وظائف أرباب السيوف ؛ وهي عدة وظائف)

(منها) الوزارة في بعض الأوقات دون بعض .

وقد ذكر القضاعي وغيره أن أول من لُقّب بالوزارة في الإسلام ، أبو سلمة ، حفص بن سلمان الخلال وزير أبي العباس السفّاح أول خلفاء بني العباس ، ولم يكن ذلك قبله ، ثم جرى الأمر على ذلك في اتخاذ الخلفاء الوزراء إلى اتقراض الخلافة ببغداد بقتل التتار المستعصم في سنة ست وخمسين وستمائة ، ووزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقمي ، وقتله هولاء كوك ملك التتار بعد قتل المستعصم لممالاته على المستعصم مع التتار ، وهو آخر وزراء الخلافة ببغداد .

(ومنها) الحجابة : وكان موضوعها عندهم حفظ باب الخليفة والاستئذان للداخلين عليه ، لا التصدي للحكم في المظالم كما هو الآن .

وقد ذكر القضاعي في "تاريخ الخلائف" ما يقتضى أن الخلفاء لم تزل تتخذ الحجاب من لدن الصديق رضى الله عنه فمن بعده ، خلا الحسن بن علي فإنه لم يكن له حاجب .

(ومنها) ولاية المظالم : وموضوعها قود المتظلمين إلى التناصف بالرّهبة ، وزجر المتنازعين عن التجاؤد بالهيبه . كما قاله الماوردي في "الأحكام السلطانية" وهي شبيهة بالمجوبية الآن في هذا المعنى ؛ وكانت عندهم من أعلى الوظائف وأرفعها رتبة لا يتولاها إلا ذوو الأقدار الجليله ، والأخطار الحفيلة .

(ومنها) النقابة على ذوى الأنساب : كالطالبيين والعباسيين ومن في معناهم ، كما في نقابة الأشراف الآن بالديار المصرية وأعمالها ؛ وكانت لديهم من وظائف

أرباب السيوف، ولذلك أُسْتُصِحِبَ هذا المعنى في نقيب الأشراف الآن، فيكتب في ألقابه الأميرى، وإن كان من أرباب الأقاليم على ما سيأتى ذلك في كتابة توقيعه إن شاء الله تعالى .

الضرب الثانى

(وظائف أرباب الأقاليم، وهى نوعان، دينية وديوانية)

فأما الديوانية - فأجلها الوزارة إذا كان الوزير صاحب قلم. وقد مر القول في ابتداء وزارة الخلفاء وأتتها في الكلام على وزارة أرباب السيوف في الضرب الأول .
وأما الدينية - (منها) القضاء، وكانت ولاية القضاء عن الخليفة تارة تكون عامة لبغداد وأعمالها، وتارة قاصرة على بغداد أو أحد جانبيها .

(ومنها) الحسبة وأمرها معروف .

(ومنها) ولاية الأوقاف والنظر عليها .

(ومنها) الولاية على المساجد والنظر في أمر الصلاة .

ومن الوظائف الخارجة عن حضرة الخلافة لأرباب السيوف الإمارة على الجهاد، والإمارة على الحج، وغيرهما .

ومن الوظائف الخارجة عن الحضرة لأرباب الأقاليم ولاية قضاء النواحي، والحسبة بها إلى غير ذلك من ولايات زعماء الذمة وغيرهم .

الحالة الثانية

ما صار إليه الأمر بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية عند استيلاء التتار على بغداد لما بايع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى في سنة تسع وخمسين وستائة

”المستنصر بن الظاهر“ أول الخلفاء بمصر على ما تقدم ذكره وكتب له عهد عنه بالسلطنة من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، وعمل له السلطان الدهاليز وآلات الخلافة ورتب له الجمدارية، وأستخدم له عسكريا عظيما وجهزه إلى بغداد للاستيلاء عليها فقتله التتار على ما تقدم .

ثم لما بايع الظاهر أيضا الإمام ”الحاكم بأمر الله“ ثاني خلفائهم أيضا في سنة تسع وخمسين وستمائة على ما تقدم ذكره، بقى مدة، ثم أشركه معه في الدعاء في الخطبة على المنابر في سنة ست وستين وستمائة، إلا أنه منعه من التصرف والدخول والخروج. ولم يزل كذلك إلى أن ولي السلطنة الملك الأشرف ”خليل بن المنصور قلاوون“ فأطلق سبيله، وأسكنه في الكبش على القرب من الجامع الطولوني، وكان يحطب أيام الجمع بجامع القلعة إلى أن ولي السلطنة الملك المنصور حسام الدين لاجين، فأباح له التصرف والركوب إلى حيث شاء، وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولي الخلافة ”المستعصم بالله“ أبو العباس أحمد بن المستكفي بالله أبي الربيع سليمان المترة الثانية بعد موت الملك الناصر محمد بن قلاوون، ففوض إليه السلطان نظر المشهد النفيسى، وأستقر بأيدي الخلفاء إلى الآن .

والذى أستقر عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوض الأمور العامة إلى السلطان، ويكتب له عنه عهد بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا في مصلى السلطان خاصة في جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة، ويستبد السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل وإقطاع الإقطاعات حتى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة في جميع ذلك .

قات : ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن قبض على السلطان الملك الناصر فرج ابن الظاهر بقوق بالشام في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة على ما تقدم ذكره ،

فاستقل الإمام "المستعين بالله" خليفة العصر بأمر الخلافة : من الكتابة على العهود ومناشير الإقطاعات، والتقاليد، والتواقيع، والمكاتبات وغيرها، وأُفرد بالدعاء على المنابر، وضرب اسمه على الدنانير والدراهم والطرر على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب الخلفاء، وهيئته في لبسه عند ركوبه بالمدينة في المواكب أو غيرها .

فعمامته مدورة لطيفة عليها رَفْرَفٌ من خَلْفِه تقدير نصف ذراع في ثلث ذراع مرسل من أعلى عمامته إلى أسفلها، وفوق ثيابه كالمية ضيقة الكُمُّ مفرجة الذيل من خلف وتحتها قباء ضيق الكُمُّ .

أما تقليده السلطان السلطنة، فالذي رأيت في بعض التواريخ في عهد الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس : أحمد بن أبي الربيع سليمان، إلى السلطان الملك المنصور أبي بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد مبايعة الحاكم المذكور عند موت أبيه في سنة اثنتين وأربعين وسبعمائة : أنه طلع القضاة والأمراء إلى القلعة واجتمعوا بدار العدل، وجلس الخليفة على الدرجة الثالثة من التخت، وعليه خِلاعة خضراء، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض، وخرج السلطان من القصر إلى الإيوان من باب السر على العادة، فقام له الخليفة والقضاة والأمراء، وجاء السلطان بفلس على الدرجة الأولى من التخت دون الخليفة، ثم قام الخليفة فقرأ : ((إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ)) إلى آخر الآية، وأوصى السلطان بالرفق بالرعية، وإقامة الحق، وإظهار شعائر الإسلام ونصرة الدين، ثم قال : "فوضت إليك جميع أمر المسلمين، وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين". ثم قرأ : ((إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ)) إلى آخر الآية، ثم أتى الخليفة بخِلاعة سوداء وعمامة سوداء مرقومة الطرف بالبياض، فألبسها السلطان وقلده سيفه، ثم أتى بالمهدي المكتوب عن الخليفة للسلطان فقرأه القاضي علاء الدين بن فضل الله كاتب السر إلى آخره . فلما فرغ من قراءته، تناول الخليفة

فكتب عليه ماصورته - فوضت إليه ذلك - وكتب - أحمد بن عم محمد صلى الله عليه وسلم - وكتب القضاة الأربعة شهادتهم بالتولية، ثم أتى بالسياط على العادة .
 وأخبرني من حضر تقليد السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق عن الإمام المتوكل على الله أبي الفتح : محمد المشار إليه فيما تقدم : أنه حضر الخليفة وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني ، والقضاة الأربعة وأهل العلم ، وأمراء الدولة إلى مقعد الإصطبلات السلطانية يعرف بالحراقة ، وجلس الخليفة في صدر المكان على مقعد مفروش له ، ثم أتى السلطان وهو يومئذ حدث ، فجلس بين يديه ، وسأله شيخ الإسلام عن بلوغه الحلم فأجاب بالبلوغ ، فخطب الخليفة خطبة ، ثم خاطب السلطان بتفويض الأمر إليه على نحو ما تقدم ذكره ، ثم أتى الخليفة بجعة سوداء وعمامة سوداء مرقومة فوقها طرحة سوداء مرقومة ، ثم جلس الخليفة في مكانه الذي كان جالسا فيه ، ونصب للسلطان كرسي إلى جانب مقعد الخليفة فجلس عليه ، وجلس الأمراء والقضاة حوله على قدر منازلهم ، وقد استقرت جائزة تقليد السلطنة للخليفة ألف دينار مع قماش سكندري .

أما حضوره بمجلس السلطان في عامة الأيام ، عند حضوره إلى السلطان لسلام أومهم أو غير ذلك ، فقد أخبرني بعض جماعة الخليفة أن الإمام المتوكل المتقدم ذكره كان إذا حضر إلى مجلس السلطان الظاهر ، قام له ، وربما مشى إليه خطوات وجلس على طرف المقعد وأجلس الخليفة إلى جانبه .

الباب الثالث

من المقالة الثانية

(في ذكر مملكة الديار المصرية ومضافاتها، وفيه ثلاثة فصول)

الفصل الأول

(في مملكة الديار المصرية ومضافاتها، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الديار المصرية، وفيه اثنا عشر مقصدا)

المقصد الأول

(في فضلها ومحاسنها)

أما فضلها فقد ورد في الكتاب والسنة ما يشهد لها بالفضيلة، ويقضى لها بالفخر قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾ يريد بالقوم بنى إسرائيل، وبالأرض أرض مصر؛ ووصفها بالبركة إما بمعنى الفضل كما في قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ . وإما من الخصب وسعة الرزق بدليل قوله تعالى مخبرا عن قوم فرعون: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعَيْونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَانكِهَيْتَ﴾ . وقال جل وعز: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فأمر بالعبادة في بيوتها إشارة إلى شرف أرضها ورفعة قدرها .

وقد ذكر الله تعالى أسمها في غير موضع من كتابه العزيز في ضمن قصص الأنبياء عليهم السلام . فقال تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ وفي موضع آخر . ﴿ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ وقال حكاية عن فرعون لعنه الله : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي ﴾ وفي معناه قوله تعالى خطابا لبنى إسرائيل : ﴿ اهْبِطُوا مِصْرَ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ ﴾ على قراءة الحسن والأعشى مصر غير مصروف .

قال القضاعى : وكذلك قراءة من قرأ ﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا ﴾ مصروفا بناء على أن مصر مذكرة سمي به مذكرا فلم يمنع الصرف فيه ، والتصريح بذكرها دون غيرها من الأقاليم دليل الشرف والفضل .

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إِنَّكُمْ سَتَمْتَحُونَ بِلَادًا يُذَكَّرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْرًا فَإِنَّ لِأَهْلِهَا نَسَبًا وَصِهْرًا ” أراد بالنسب هاجرام إسماعيل عليه السلام ، وكان بعض ملوك مصر قد وهبا لزوجته سارة . وأراد بالصهر مارية أم إبراهيم : ولد النبي صلى الله عليه وسلم ، كان المقوقس قد أهداها للنبي صلى الله عليه وسلم في جملة هديته .

ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” إِذَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مِصْرَ فَاتَّخِذُوا بِهَا جُنْدًا كَثِيفًا ، فَذَلِكَ خَيْرُ جُنْدِ الْأَرْضِ ، قِيلَ : وَلِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : لِأَنَّهُمْ فِي رِبَاطٍ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ” .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” مِصْرُ أَطْيَبُ الْأَرْضِينَ تَرَابًا وَعَجْمُهَا أَكْرَمُ الْعَجْمِ نِصَابًا ” .

ويقال في التوراة : ” مِصْرُ خَزَائِنُ اللَّهِ ، فَمَنْ أَرَادَهَا بِسُوءٍ قَصَمَهُ اللَّهُ ” .

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه ولاية مِصْرَ جامعةٌ تعدل الخلافة .

ومن كلام كعب الأحبار "مصرُ بلدُ معافٍ من الفتن ، فمن أرادها بسوء كبه الله على وجهه" .

ووصفها الكِنْدِيُّ فقال : جَبَلُهَا مُقَدَّسٌ ، وَنِيلُهَا مَبَارَكٌ ، وَبِهَا الطُّورُ الَّذِي كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قال كعب الأحبار : كَلَّمَ اللهُ تَعَالَى مُوسَى مِنَ الطُّورِ إِلَى طُوًى وَفِي التُّورَةِ وَادٍ مُقَدَّسٍ أَفِيحٍ ، يَرِيدُ وَادِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ودخلها جماعة من الأنبياء عليهم السلام ، منهم إبراهيم ، ويعقوب ، ويوسف ، وإخوته عليهم السلام .

وتقل في "الروض المعطار" عن الجاحظ أن عيسى بن مريم عليه السلام ولد بها بَكُورَةَ أَهْنَسَ الآتِي ذَكَرَهَا فِي كُورِ مِصْرَ الْمُقَدَّسَةِ ، وَأَنَّ نَحْلَةَ مَرْيَمَ كَانَتْ بِأَهْنَسَ قَائِمَةً إِلَى زَمَانِهِ . وَذَكَرَ أَيْضًا أَنَّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وُلِدَ بِهَا بِمَدِينَةِ أُسْكُرَ شَرْقِي النَيْلِ ، وَهِيَ الْآنَ قَرْيَةٌ مِنَ الْأَعْمَالِ الْإِطْفِيحِيَّةِ الْآتِي ذَكَرَهَا فِي أَعْمَالِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .

وبها سجن يوسف عليه السلام بمدينة بُوَصِيرِ الْخَرَابِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْجِزْيِيَّةِ عَلَى الْقَرْبِ مِنَ الْبَدْرَشِينِ .

قال القُضَاعِيُّ : أَجْمَعَ أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْمَكَانِ ، وَأَنَّ الْوَحْيَ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِ بِهِ ، وَسَطْحُهُ مَعْرُوفٌ بِإِجَابَةِ الدَّعَاءِ .

سأل كافور الإخشيدي الإمام أبا بكر بن الحداد الفقيه الشافعي عن موضع يستجاب فيه الدعاء ، فأشار عليه بالدعاء على سطح هذا السجن .

قال القُضَاعِيُّ : وَعَلَى الْقَرْبِ مِنْهُ مَسْجِدُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَهُوَ مَسْجِدُ مَبَارَكٍ .

وبسفع المَقَطِّم بالقرافة الصغرى قبر (يهودًا وروبيلا) من إخوة يوسف عليه السلام .
وقد روى أنه دخلها من الصحابة رضوان الله عليهم ما يزيد على مائة رجل ،
ودفن بقرافتها جماعة منهم فيما ذكره ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة خمسة نفر وهم :
عمرو بن العاص ، وعبد الله بن حذافة ، وأبو بصرة الغفاري ، وعقبة بن عامر الجهني ،
وعبد الله بن الحرث الزبيدي ، وهو آخرهم موتاً .

قال القُصَاعِي : وذكر غير ابن لهيعة أن مسلمة بن مخلد الأنصاري أيضا مات
بها ، وهو أميرها .

أما محاسنها ، فلا شك أن مصر مع ما أشتمت عليه من الفضائل ، وحقت به من
الآثر أعظم الأقاليم خطراً ، وأجلها قدراً ، وأخفها مملكة ، وأطيبها تربةً ، وأخفها
ماء ، وأخصبها زرعاً ، وأحسنها ثماراً ، وأعدلها هواءً ، وألطفها سائلاً .
ولذلك ترى الناس يرحلون إليها ، وفوداً ، ويفدون عليها من كل ناحية ، وقل أن
يخرج منها من دخلها ، أو يرحل عنها من ولجها ، مع ما أشتمت عليه من حسن
المنظر ، وبهجة الروق لا سيما في زمن الربيع ، وما يبدو بها من الزروع التي تملأ
العين وسامةً وحسنًا ، وتروق صورةً ومعنىً .

قال المسعودي : وصف الحكماء مصر فقالوا : ثلاثة أشهر لؤلؤة بيضاء ، وثلاثة
أشهر مسكة سوداء ، وثلاثة أشهر زمردة خضراء ، وثلاثة أشهر سبيكة حمراء .
فاللؤلؤة البيضاء ؛ زمان النيل ، والمسكة السوداء زمان نُضوب الماء عن أرضها
والزمردة الخضراء زمان طلوع زرعها ، والسبيكة الحمراء زمان هيج الزرع وأكتماله .
وقد قيل : لو ضرب بينها وبين غيرها من البلاد سورٌ ، لفتى أهلها بها عما سواها
ولما احتاجوا إلى غيرها من البلاد . وناهيك ما أخبر الله تعالى به عن فرعون مع

عتوه وتَجَبُّهٍ وَأَدْعَاءَهُ الرُّوبِيَّةَ بِأَفْتَخَارِهِ بِمَلِكِهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وهي إقليم العجائب، ومعدن الغرائب؛ كان أهلها أهل ملك عظيم، وعن قديم؛ وإقليمها أحسن الأقاليم منظرًا، وأوسعها خيرا؛ وفيها من الكنوز العظيمة ما لا يدخله الإحصاء . حتى يقال إنه ما فيها موضع إلا وفيه كثر .

قلت : أما ما ذكره أحمد بن يعقوب الكاتب في كتابه في "المسالك والممالك" من ذمه مصر بقوله : هي بين بحر رطبٍ وعين كثير البخارات الرديئة، يولد الأدواء ويُفسد الغداء، وبين جبل وبريابس صلداً، لشدة بيسه لا تنبت فيه خضراء، ولا تنفجر فيه عين ماء، فكلام متعصبٍ خرق الإجماع، وأتى من يخيف القول بما تنفر عنه القلوب وتُجبه الأسماع؛ وكفى به تقيصة أن ذم النيل الذي شهد العقل والنقل بتفضيله، وغص من المقطم الذي وردت الآثار بتشريفه .

المقصود الثاني

(في ذكر خواصها وعجائبها، وما بها من الآثار القديمة)

أما خواصها، فمن أعظمها خطراً معدن الزمرد الذي لا نظيره في سائر أقطار الأرض، وهو في مغارة في جبل على ثمانية أيام من مدينة قوص، يوجد عروقا خضراً في تطابق حجر أبيض، وأفضله الذبابي، وهو أقل من القليل، بل لا يكاد يوجد .

ولم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرد إلى أثناء الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون"، فأهمل أمره وترك .

قال في "مسالك الأبصار": وجميع ملوك الأرض وأهل الآفاق تستمد منه، وقد مرّ القول عليه في جملة الأحجار الملوكية في أواخر المقالة الأولى .

وأعظم خطراً منه وأرفع شأنًا اللسان الذي تسميه العامة البلسم، وهو نبات يزرع ببقعة مخصوصة بأرض المطرية من ضواحي القاهرة على القرب من عين شمس، ويسقى من بئر مخصوصة هناك، يقال إن المسيح عليه السلام أغتسل بها حين قدمت به أمه إلى مصر، والنصارى تزعم أنه حفرها بعقبه وهو طفل، حين وضعته أمه هناك .

ومن خاصتها أن اللسان لا يعيش إلا بمائها ولا يوجد في بقعة من بقاع الأرض غير هذه البقعة .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات": وطول هذه الأرض ميل في ميل، وشأنه أنه يفصد في شهر كيهك من شهور القبط، ويجمع ما يسيل من دهنه ويصفيه ويطبخ ويحمل إلى خزانة السلطان، ثم ينقل منه قدر معلوم إلى قلاع الشام والبيمارستان ليستعمل في بعض الأدوية؛ وملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج يستهدونه من صاحب مصر ويهادونه بسببه، لما يعتقدونه فيه من أثر المسيح عليه السلام في البئر، وله عليهم بذلك اليد الطولى والمنة العظمى، لا يساويه عندهم ذهب ولا جوهر .

قال في "مسالك الأبصار": والنصارى كافة تعتقد فيه ما تعتقد، وترى أنه لا يتم تنصّر نصراني حتى يوضع شيء من هذا الدهن في ماء المعمودية عند تغطيسه فيها .
وبها معدن النطرون، وهو منها في مكانين .

أحدهما - بركة النطرون التي بالجبل الغربي غربى عمل البحيرة الآتى ذكره

في جملة أعمالها المستقرّة ، وهي من أعظم المعادن وأكثرها متحصّلاً على حقايرة
الطرون وقلة ثمنه .

قال في " التعريف " : لا يعرف في الدنيا بركة صغيرة يُستغلّ منها نظيرها ، فإنها
نحو مائة فدانٍ تغل نحو مائة ألف دينار .

والثاني - مكان بالخطّارة من الشرقية ، ولا يبلغ في الجودّة مبلغ البركة الأولى ،
ولا يبلغ في المتحصّل قريبا من ذلك .

وبها أيضا معدن الشبّ على القرب من أسوان ، وهو من المعادن الكثيرة
المتحصّل أيضا إلى غير ذلك من الخواص .

وبها معدن التّفط على ساحل بحر القلزم ، يسيل دهنه من أعلى جبل قليلا قليلا
وينزل إلى أسفله فيتحصّل في ديارٍ قد وضعها له الأتولون ، وتأتي العرب فتحمله إلى
خزائن السلاح السلطانية .



وأما عجائبها ، فكثيرة .

(منها) جبل الطير شرق النيل مقابل منية بنى خصيب فيه صدع يأتي إليه جنس
البواقي من الطير ، وهو المعروف بالبحّ في يوم من السنة فيضعون مناقيرهم في ذلك
الصدع واحدا بعد واحد حتى يتعلق منها واحد في ذلك الصدع فيتركونه ويذهبون .
قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : قال أبو بكر الموصليّ : سمعت من أعيان
تلك البلاد أنه إذا كان العام مخصبا ، يُقبض على طائرين ؛ وإن كان متوسطا ،
يقبض على طائر واحد ؛ وإن كان جدبا ، لم يقبض على شيء .

(ومنها) مكان بالجبل الشرقيّ عن النيل ، على القرب من أنصنا به تلال رمل إذا
صعد إلى أعلاها وكسح الرمل إلى أسافلها سمعت له أصوات كالرعد ، يسمع من
البر الغربية من النيل .

وقد أخبرني بعض أهل تلك البلاد أنه إذا كان الذي صعد على ذلك المكان جنباً أو كانوا جماعة فيهم جنب، لم يسمع شيء من تلك الأصوات لو كسح الرمل .
 (ومنها) مكان بالجبل المذكور على القرب من إنحيم به تلال رمل إذا كسحها الإنسان من أعلى إلى أسفل، عادت إلى ما كانت عليه وارتفع الرمل من أسفلها إلى أعلاها.
 قال في "الروض المعطار": وعلى النيل جبل يراه أهل تلك الناحية من أنتضى سيفة وأولجه فيه وقبص على مقبضه بيديه جميعاً، اضطرب السيف في يديه وارتعد فلا يقدر على إمساكه ولو كان أشد الناس؛ وإذا حدث بحجارة هذا الجبل سكين أو سيف لا يؤثر فيه حديد أبداً، وجذب الإبر والمسأل أشد جذباً من المغناطيس، ولا يبطل فعلها بالثوم كما يبطل المغناطيس، أما الحجر نفسه فإنه لا يجذب .

قال القضاعي: . ويجبل زماخير الساحرة يقال إن فيه خلقة من الجبل ظاهرة مشرفة على النيل لا يصل إليها أحد يلوح فيها خط مخلوق "باسمك اللهم" . وعلى القرب من الطور عين ماء في أجمه رمل ينبع الماء من وسطها فورات لطيفة وينسبط ماؤها حولها نحو الذراع، ثم يغوص في الرمل فلا يظهر له أثر، ولا يعرف أحد إلى أين يذهب، وهي على ذلك مدى الدهور والأيام لا ينقطع نبعها، ولا يجتمع ماؤها في مكان يدركه البصر، وعجائبها أكثر من أن تذكر .

المقصود الثالث

(في ذكر نيلها ومبدها وأنتهاؤه، وزيادته ونقصه، وما تنتهي إليه زيادته،

وما تصل إليه في النقص قاعدته)

أما ابتداءه وأنتهاؤه، فاعلم أن ابتداءه من أول الخراب الذي هو جنوبي خط الاستواء المقدم ذكره، ولذلك عسر الوقوف على حقيقة خبره .

وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر، إما (بفتح القاف والميم كما هو المشهور، وإما بضم القاف وسكون الميم) كما نقله في "تقويم البلدان" عن ضبط ياقوت في "المشرك" وأبن سعيد في "معجمه".

(١)
قال في "رسم المعمور" وطرفه الغربي عند طول ونصف وعرض إحدى عشرة ونصف في الجنوب، وطرفه الشرقي حيث الطول إحدى وستون درجة ونصف والعرض بحاله . قال في الرسم : ولونه أحمر . وذكر الطوسي أنهم شاهدوه على بُعد، ولونه أبيض لما غلب عليه من الثلج . وأعرضه في "تقويم البلدان" بأن عرض إحدى عشرة في غاية الحرارة لا سيما في الجنوب لحضيض الشمس .

قال بطليموس : والنيل ينحدر من الجبل المذكور من عشرة مسيلات، بين كل مسيلين منها درجة في الطول المقدم بيانه، والغربي منها، وهو الأول عند طلوع ثمان وأربعين درجة، والثاني عند طلوع تسع وأربعين، وعلى ذلك حتى يكون العاشر منها عند طلوع سبع وخمسين، كل مسيل منها نهر، ثم تجتمع العشرة وتصب في بطيحتين كل خمسة منها تصب في بطيحة، ثم يخرج من كل واحدة من البطيحتين أربعة أنهار، ثم تنفرع إلى ستة أنهار، وتسير الستة في جهة الشمال حتى تصب في بحيرة مدورة عند خط الاستواء تعرف ببحيرة كوري، فيفترق النيل منها ثلاث فرق .
ففرقة تأخذ شرقا وتذهب إلى مقدشو من بلاد الحبشة المسلمين على ساحل البحر الهندي مقابل بلاد اليمن . وفرقة تأخذ غربا وتذهب إلى التُّكُّورِ وغانة من مملكة مالي من بلاد السودان، وتمت حتى تصب في البحر المحيط الغربي عند جزيرة أوليل وتسمى نيل السودان .

وفرقة تأخذ شمالاً - وهي نيل مصر - فيمتر في الشمال على بلاد زغاوة، وهي أول ما يليق من بلاد السودان .

ثم يمر على بلاد النوبة حتى ينتهي إلى مدينتها دُنْقَلَةَ الآتي ذكرها في الكلام على ممالك السودان .

ثم يمر شمالاً بميلة إلى الغرب إلى طول إحدى وخمسين، وعرض سبع عشرة على حاله .

ثم يمر مغرباً بميلة قليلة إلى الشمال إلى طول اثنتين وثلاثين، وعرض تسع عشرة . ثم يرجع مشرقاً إلى طول إحدى وخمسين .

ثم يمر في الشمال إلى الجَنَادِلِ : وهو الجبل الذي ينحدر عليه النيل بين منتهى مراكب النوبة في آنحدارها ومراكب مصر في صُعودها ، حيث الطول ست وخمسون درجة ، والعرض اثنتان وعشرون درجة .

ثم يمر شمالاً إلى مدينة أسوان الآتي ذكرها في أعمال الديار المصرية على القرب من الجنادل المقدمة الذكر .

و يمر شمالاً بميلة إلى الغرب إلى طول ثلاث وخمسين، وعرض أربع وعشرين . ثم يُشْرِقُ إلى طول خمس وخمسين .

ثم يأخذ في الشمال حتى ينتهي إلى مدينة الفُسطاط الآتي ذكرها في قواعد مصر المستقرة .

و يمتد في جهة الشمال أيضاً حتى يصير بالقرب من قرية تسمى شَطْنُوف^(١) من قرى مصر، من عمل منوف فيفترق بفرقتين : فرقة شرقية وفرقة غربية . فأما الفرقة الشرقية، فتمر في الشمال حتى تأتي على قرية تسمى المنصورة من عمل المرتاحية ،

(١) كذا ضبطه ياقوت بالعبارة . وقال في القاموس " شَطْنُوف كَحَزُون " .

فنتشعب سُعْبَيْن وتَمُّ الغَربِيَّة مِنهُمَا، وَهِيَ العَظْمَى إِلَى دَمِيَاطَ مِنْ شَرْقِيَّهَا، وَتَصِبُ فِي بَحْرِ الرُّومِ حَيْثُ الطُّولُ ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً وَخَمْسُونَ دَقِيقَةً، وَالْعَرْضُ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ وَخَمْسَ وَعِشْرُونَ دَقِيقَةً؛ وَتَمُّ الشَّرْقِيَّةُ مِنْهُمَا عَلَى أَشْهُومِ طَاحَ، مِنْ غَرْبِيَّهَا حَتَّى تَجَاوِزَ بِلَادَ المَنْزَلَةِ، وَتَصِبُ فِي بَحِيرَةٍ شَرْقِيَّ دَمِيَاطَ حَتَّى بِحِيرَةِ تَنْيَسَ حَيْثُ الطُّولُ أَرْبَعٌ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً .

وَأَمَّا الفِرْقَةُ الغَربِيَّةُ، فَتَمُّ مِنْ شَطْرَ الوَقْفِ المَقْدَمِ ذَكَرَهَا حَتَّى تَأْتِيَ بِالقَرَبِ مِنْ قَرْيَةٍ تَسْمَى بِأَبِي نُسَابَةَ مِنْ عَمَلِ البَحِيرَةِ، فَتَشْعَبُ سَعْبَيْنَ، الغَربِيَّةُ مِنْهُمَا، وَهِيَ العَظْمَى تَأْخُذُ شَمَالًا بَيْنَ عَمَلِ البَحِيرَةِ مِنْ شَرْقِيَّهَا وَبَيْنَ جَزِيرَةِ بَنِي نَصْرٍ مِنْ غَرْبِيَّهَا، وَالشَّرْقِيَّةُ تَأْخُذُ شَمَالًا أَيْضًا بَيْنَ جَزِيرَةِ بَنِي نَصْرٍ مِنْ شَرْقِيَّهَا، وَبَيْنَ عَمَلِ الغَربِيَّةِ مِنْ غَرْبِيَّهَا . وَيَسْمَى هَذَا البَحْرَ بِحَرِّ أَيْنَارَ، وَبِمَرِّ حَتَّى يَلْتَقِيَ مَعَ الفِرْقَةِ الغَربِيَّةِ عِنْدَ قَرْيَةٍ تَسْمَى الفَرَسْتَقَ مِنَ الغَربِيَّةِ بِالقَرَبِ مِنْ مَدِينَةِ أَيْنَارِ المَنْسُوبِ إِلَيْهَا البَحْرَ المَقْدَمِ ذَكَرَهُ، وَيَصِيرُ شَعْبَةً وَاحِدَةً وَبِمَرِّ حَتَّى يَصِبَ فِي البَحْرِ الرُّومِيِّ غَرْبِيَّ قَرْيَةٍ تَسْمَى رَشِيدَ حَيْثُ الطُّولُ ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ، وَالْعَرْضُ إِحْدَى وَثَلَاثُونَ .

وَمِنْ هَذِهِ الفِرْقَةِ يَتَفَرَّعُ خَلِيجٌ صَغِيرٌ يَدْخُلُ إِلَى بَحِيرَةٍ نَسَرُوهُ^(١) الآتِي ذَكَرَهَا فِي جُمْلَةِ البَحِيرَاتِ، وَيَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْ هَذِهِ الفِرْقِ وَمَا يَلْبِهَا مِنْ أَعْلَى النِّيلِ خُلْجَانٌ يَأْتِي ذَكَرَ المَشْهُورِ مِنْهَا فِيمَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وَأَمَّا زِيَادَتُهُ وَنَقْصُهُ، فَقَدْ آخَفَ فِي مَدَدِ زِيَادَتِهِ : فَتَقَلَّ المَسْعُودِيُّ عَنِ العَرَبِ أَنَّهُ يَسْتَمَدُّ مِنَ الأَنْهَارِ وَالْعِيُونِ . وَلِذَلِكَ تَنِيضُ الأَنْهَارِ وَالْعِيُونِ عِنْدَ زِيَادَتِهِ . وَإِذَا غَاضَ زَادَتْ، وَيُؤَيِّدُهُ مَا رَوَى القَضَاعِيُّ بِسِنْدِهِ إِلَى عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ العَاصِ أَنَّهُ قَالَ : ”إِنَّ نَيْلَ مِصْرَ سِيدِ الأَنْهَارِ، سَخَّرَ اللهُ لَهُ كُلَّ نَهْرٍ بَيْنَ

(١) كَذَا ضَبَطَهَا المُوَلِّفُ فَمَا يَأْتِي وَالحَقُّ بِهَا الهَاءُ وَكَذَلِكَ بِاقْوَتْ إِلا أَنَّهُ حَذَفَ مِنْهَا الهَاءَ : نَسَرُو .

المشرق والمغرب أن يُمدّه، فأمدته الأنهار بماءها، وفَجَّرَ اللهُ له الأرض عيوناً فاتتهى جريه إلى ما أراد الله، فأوحى اللهُ إلى كل منها أن يرجع إلى عُنْصُرِهِ .

ويقال عن أهل الهند زيادته وتقصه بالسيول، ويعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار، ورُكُودِ السحاب .

وقالت القِبْطُ : زيادته من عيون في شاطئه رأها من سافر ولحِقَ بأعاليه، ويؤيده مارواه القضاة بسنده إلى يزيد بن أبي حبيب "أن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه قال لكعب الأحبار : أسألك بالله ! هل تجد لهذا النيل في كتاب الله عز وجل خبراً؟ قال : إى والله ! إن الله عز وجل يُوحى إليه في كل عام مرتين، يوحى إليه عند خروجه، فيقول : إن الله يأمرك أن تجرى، فيجرى ما كتب الله له، ثم يُوحى إليه بعد ذلك، فيقول : يانبئُ إن الله يأمرك أن تنزل، فينزل . ولا شك أن جميع الأقوال المتقدمة فرع لهذا القول، وهو أصل لجميعها .

وبكل حال فإنه يبدأ بالزيادة في الخامس من بؤونه من شهور القِبْطُ . وفي ليلة الثانى عشر منه يوزن الطين، ويعتبر به زيادة النيل بما أجرى اللهُ تعالى العادة به، بأن يوزن من الطين الجاف الذى يعلوه ماء النيل زنة ستة عشر درهما على التحريز، ويرفع في ورقة أو نحوها ويوضع في صندوقٍ أو غير ذلك، ثم يوزن عند طلوع الشمس، فهما زاد أعتبرت زيادته كل حبة نخروب بزيادة ذراع على الستة عشر درهما .

وفي السادس والعشرين منه يُؤخذ قاع البحر وتقاس عليه قاعدة المقياس التى تنبئ عليها الزيادة .

وفي السابع والعشرين يتأدى عليه بالزيادة، ويحسب كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا إلى أن يكمل أثنى عشر ذراعا، فيحسب كل ذراع أربعاً وعشرين أصبعا، فإذا وفى ستة عشر ذراعا، وهو المعبر عنه بماء السلطان، كسر خليج القاهرة،

وهو يوم مشهود ، وموسمٌ معدود ؛ ليس له نظير في الدنيا ؛ وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلى سائر أقطار المملكة ، وتسيرها البرد ، ويكون وفاؤه في الغالب في مسرى من شهور القبط ، وفيها جلُّ زيادته .

وفي النيروز ، وهو أول يوم من توت يكثر قطع الخُلجان والترع عليه ، وربما اضطرب لذلك ثم عاد .

وفي عيد الصليب ، وهو السابع عشر من توت المذكور يقطع عليه غالب بقية الترع .

وقد حكى القضاة عن ابن عفير وغيره عن القبط المتقدمين أنه إذا كان الماء في آثني عشر يوما من مسرى آثني عشر ذراعا ، فهي سنة ماء ، وإلا فالماء ناقص ، وإذا تمَّ الماء ستة عشر ذراعا قبل النيروز فالماء يتم ، ثم غالب وفائه يكون في النصف الأول من مسرى ، وربما وفي في النصف الثاني منها ، وقد يتأخر عن ذلك .

وفي الثامن من بابه يكون نهاية زيادته .

ورأيت في " تاريخ النيل " أنه تأخر وفاؤه في سنة ثمان وسبعائة إلى تاسع عشر بابه فوق ستة عشر ذراعا ، وزاد أصبعين بعد ذلك في يومين : كل يوم أصبع بعد أن استسقى الناس أربع مرات ، وهذا مما لم نسمع بمثله في دهر من الدهور .

وقد جرت عادته أنه من حين ابتداء النداء بزيادته في السابع والعشرين من بئونه إلى آخر أبيب تكون زيادته خفيفة ما بين أصبعين فما حولهما إلى نحو العشرة ، وربما زاد على ذلك . فإذا دخلت مسرى ، أشتدت زيادته وقويت ، فيزيد العشرة فما فوقها ، وربما زاد دون ذلك . وأعظم ما تكون زيادته على القرب من الوفاء حتى ربما بلغ سبعين أصبعا .

ومن العجيب أنه يزيد في يوم الوفاء سبعين أصبغاً مثلاً، ثم يزيد في صبيحة يوم الوفاء أصبعين فما حولهما، ويتم على ذلك . وله في آخره زيادة قليلة يعبر عنها بصبة بابه لما يتصب إلى النيل من ماء الأملاق .

وقد ذكر عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم وغيره أنه لما فتح المسلمون مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل شهر بؤنه، فقالوا : أيها الأمير إن لينلنا هذا سنة لايجرى إلا بها، وهو أنه إذا كان اثنا عشر من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر من أبويها فأرضيناها فيها، وزيناها بأفضل الزينة، وألقيناها فيه . فقال : هذا مما لا يكون في الإسلام، فأقاموا أيب ومسرئ وهو لا يزيد قليلا ولا كثيرا . فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعترفه ذلك ، فكتب إليه أن أصبت ، وكتب رقة إلى النيل فيها ” من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى النيل مصر .

أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك، فلا تجر؛ وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريك، فنسأل الله أن يجريك .“

وبعث بها إليه ، فألقادا في النيل ، وقد تهبأ أهل مصر للخروج منها ، فأصبحوا يوم الصليب ، وقد بلغ في ذلك اليوم ستة عشر ذراعا .

ويروى أنه وقع مثل ذلك في زمن موسى عليه السلام ، وهو أن موسى عليه السلام دعا على آل فرعون ، فحبس الله عنهم النيل حتى أرادوا الجلاء ، فرغبوا إلى موسى فدعا لهم بإجراء النيل رجاء أن يؤمنوا ، فأصبحوا وقد أجراه الله في تلك الليلة ستة عشر ذراعا .

ورأيت في ” تاريخ النيل “ المتقدم ذكره : أنه في زمن المستنصر أحد خلفاء الفاطميين

بمصر مكث النيل سنتين لم يَطْلُع، وطلع في السنة الثالثة وأقام إلى الخامسة لم ينزل، ثم نزل في وقته ونَصَب المَاء عن الأرض، فلم يوجد من يزرعها لقلة الناس؛ ثم طلع في السنة السادسة وأقام حتى فرغت السابعة، ولم يبق إلا صَبَابَة من الناس، ولم يبق في الأقاليم ما يمشى على أربع غير حمار يركبه الخليفة المستنصر، وأنه وفي ست عشرة ذراعا في ليلة واحدة بعد أن كان يخاض من برّ إلى برّ، وأقل ما انتهى إليه قاع النيل في النقص ذراع واحد وعشرة أصابع، ووقع ذلك من سنة الهجرة وإلى آخر الثمانمائة مرتين فقط : المرة الأولى - في سنة خمس وستين ومائة من الهجرة . وبلغ النيل فيها أربع عشرة ذراعا وأربعة عشر أصبعا . والمرة الثانية - في سنة خمس وثمانين وأربعمائة . وبلغ فيها سبع عشرة ذراعا وخمسة أصابع .

وقد وقع مثل ذلك في زماننا ، في سنة ست وثمانمائة . وأغني ما انتهى إليه القاع في الزيادة مما رأيتُه مسطورا إلى آخر سنة خمس وعشرين وسبعائة تسعة أذرع . وسمعت بعض الناس يقول إنه في سنة خمس وستين وسبعائة كان القاع اثنتي عشرة ذراعا .

وأقل ما بلغ النقص في نهاية الزيادة اثنا عشر ذراعا وأصبعا . وذلك في سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وأغني ما كان ينتمى إليه في الزمن المتقدم ثمانية عشر ذراعا حتى تعجب الناس من نيل بلغ تسع عشرة ذراعا في زمن عمر بن عبد العزيز، ثم انتهى في المائة السابعة إلى أن صار يجاوز العشرين في بعض الأحيان .

ومن العجيب أنه في سنة تسع وسبعين وثلثمائة كان القاع على تسع أذرع، ولم يُوف بل بلغ خمس عشرة ذراعا وخمس أصابع؛ وفي سنين كثيرة كان القاع فيها

(١) - الذراع والاصبع يذكران ويؤنثان وقد جرى في كلامه تارة بالتذكير وتارة بالتأنيث وكل صحيح .

دون الذرادين ، وجاوز التوفاء إلى ثمانى عشرة ذراعا فما دونها . ولا هبرة بقول
المسعودى فى "صروج الذهب" إن أقل ما يكون القاع ثلاثة أذرع ، وإنه فى مثل
تلك السنة يكون متقصرا . فقد تقدم ما يخالف ذلك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ
مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ .

قلت : وقد جرت عادة صاحب المقياس ، أنه يعتبر قياسه زمن الزيادة فى كل
يوم وقت العصر ، ثم ينادى عليه من الغد بتلك الزيادة أصابع من غير تصريح بدرع
إلا أنه يكتب فى كل يوم رقاعا لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام ،
كأرباب الوظائف من الأمراء ، وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، وكاتب السر ،
وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، والمحاسب ، ومن فى معانهم ، فيذكر زيادته فى ذلك
اليوم من الشهر العربى وموافقه من القبطى من الأصابع وما صار إليه من الأذرع
ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع
وما صار إليه من الأذرع والعبادة بينهما بزيادة أو نقص ، ولا يطلىح على ذلك عوام
الناس ورعاعهم ، فإذا وفى ستة عشر ذراعا صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد من
الأصابع ، وما صار إليه من الأذرع ، ويصير ذلك مشاعا عند كل أحد .

وأما مقياسه ، فقد ذكر إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب "العجائب" أن
أول من وضع مقياسا للنيل (خصليم) السابع من ملوك مصر بعد الطوفان : صنع بركة
لطيفة وركب عليها صورتى عقاب من نحاس : ذكر وأثى ، يجتمع عندها كهنتهم
وعلمائهم فى يوم مخصوص من السنة ، ويتكلمون بكلام فيصفر أحد العقابين .
فإن صفرا الذكر استبشروا بزيادة النيل . وإن صفرت الأثى استشعروا عدم زيادته
فهيئوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة .

قال المسعودي : وقد سمعتُ جماعة من أهل الخبرة يقولون : إن يوسف عليه السلام حين بنى الأهرام آخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه .

قال القضاعي : وذلك بمدينة منف ، وقيل : إن النيل كان يقاس بأرض يقال لها علوة إلى أن بنى مقياس منف ، وإن القبط كانت تقيس عليه إلى أن بطل .

قلت : وموضع المقياس بمنف إلى الآن معروف على القرب من الأهرام اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبدرشين ، وقيل كانوا يقيسونه بالرصاصة .

قال المسعودي : ووضعت دلوكمة العجوز ملكة مصر بعد فرعون مقياسا بأنصنا صغير الأذرع ، ووضعت مقياسا آخر بإنجيم ، ووضعت الروم مقياسا بقصر الشمع .

قال القضاعي : وكان المقياس قبل الفتح بقيسارية الأكسية بالفسطاط إلى أن آبتى المسلمون أبنيتهم بين الحصن والبحر ، ثم جاء الإسلام وفتحت مصر والمقياس بمنف .

كان النيل يقاس بمنف ويدخل القياس إلى الفسطاط فينادى به ، ثم بنى عمرو بن العاص مقياسا باسوان ، ثم بنى مقياسا بدندرة ، ثم بنى في أيام معاوية مقياسا بأنصنا .

فلما ولي عبد العزيز بن مروان مصر ، بنى مقياسا صغير الأذرع بمحلوان من ضواحي الفسطاط ، ثم لما ولي أسامة بن زيد التَّنُوخِي بنى مقياسا في جزيرة الصنّاعة المعروفة الآن بالروضة بأمر سليمان بن عبد الملك : أحد خلفاء بني أمية سنة سبع وتسعين من الهجرة ، وهو أكبرها ذرعا ، ثم بنى المأمون مقياسا أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة في سنة سبع وأربعين ومائتين في ولاية يزيد بن عبد الملك ^(١) على مصر ، وهو المعمول عليه إلى زماننا هذا .

(١) صوابه المنوكل كما هي عبارة المقرئى وياقوت .

(٢) صوابه يزيد بن عبد الله التركي كما في المقرئى .

وكانت النصارى تتولى قياسه فعزلهم المتوكل عنه وربّب فيه أبا الرّداد عبد الله بن عبد السلام بن أبي الرّداد المؤدّب، وكان رجلا صالحا، فأستقرّ قياسه في بنيه إلى الآن؛ ثم أصلحه أحمد بن طولون في سنة تسع وخمسين ومائتين .

ثم كل ذراع يعتبر ثمانية وعشرين أصبعا إلى تمام آثنتى عشرة ذراعا، ثم يكون كل ذراع أربعة وعشرين أصبعا، فلما أرادوا وضعه على ستة عشر ذراعا، وزعوا الذراعين الزائدين، وهما ثمانية وأربعون أصبعا على آثنى عشر ذراعا لكل ذراع منها أربعة أصابع، فصار كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا، وبقى الزائد على ذلك كل ذراع أربعة وعشرون أصبعا .

قال القضاعى: وكان سبب ذلك فيما ذكره الحسين بن محمد بن عبد المنعم في رسالة له أن المسلمين لما فتحوا مصر عرض على عمر بن الخطاب رضى الله عنه ما يلقاه أهلها من الغلاء عند وقوف النيل في حدّ لقياس لهم فضلا عن تقاصره، ويدعوهم ذلك إلى الاحتكار، والاحتكار يدعوهم إلى زيادة الأسعار، فكتب عمر إلى عمرو ابن العاص يسأله عن حقيقة ذلك، فأجابه: إني وجدت ما تروى به مصر حتى لا يقحط أهلها أربع عشرة ذراعا، والحد الذي يروى منه سائرها حتى يفصل عن حاجتهم ويبقى عندهم قوت سنة أخرى ست عشرة ذراعا، والنهائتان المخوفتان في الزيادة والنقصان: في الظميا والاستبحار، آثنتا عشرة ذراعا في النقصان وثمانى عشرة ذراعا في الزيادة. فأستشار عمر رضى الله عنه على بن أبى طالب كرم الله وجهه في ذلك، فأشار بأن يكتب إليه أن يبنى مقياسا، وأن يقصّ ذراعين على آثنتى عشرة ذراعا، ويبقى ما بعدهما على الأصل .

قال القضاعى : وفي هذا نظر في وقتنا لزيادة فساد الأنهار، وانتقاض الأحوال، وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أولها إلى آخرها أربعة وعشرون أصبعا كل ذراع بغير زيادة على ذلك .

قال المسعودى : فإذا تم النيل خمس عشرة ذراعا، ودخل في ست عشرة، كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يُستسقى فيه، وكان فيه نقص من خراج السلطان . وإذا آتته الزيادة إلى ستة عشر ذراعا، ففيه تمام خراج السلطان وأخضب الناس، وفيه ظمأ ربع البلد، وهو ضار للبهائم لعدم المرعى .

قال : وأتم الزيادات العامة النافعة للبلد كله سبع عشرة ذراعا ، وذلك كفافها ورثي جميع أرضها . وإذا زاد على السبع عشرة ذراعا وبلغ ثمانى عشرة، آستبحر من مصر الربع ، وفي ذلك ضرر لبعض الضياع . قال : وذلك أكثر الزيادات . قلت : هذا ما كان عليه الحال في زمانه وما قبله وكان الحال جاريا على ما ذكره في غالب السنين إلى ما بعد السبعائة .

أما في زماننا، فقد علت الأرض مما يرسب عليها من الطين المحمول مع الماء في كل سنة وضعت الجسور، وصار النيل بحكمة الله تعالى إلى ثلاثة أقسام : متقاصرة وهى ست عشرة ذراعا فما حولها، ومتوسطة وهى سبع عشرة ذراعا إلى ثمان عشرة ذراعا فما حولها، وعالية وهى ما فوق الثمان عشرة، وربما زادت على العشرين .

المقصود الرابع في ذكر خلجانها،

(وخلجانها القديمة ستة خُلج)

الخليج الأول

(المنهى)

وهو الخليج الذي حفره "يوسف الصديق عليه السلام" ومخرجه بالقرب من دروة سربام، من عمل الأشمونين الآتي ذكرها، وهي المعروفة بدروة الشريف، ويأخذ شمالا إلى مدينة البهنسى، ثم إلى قرية اللاهون من عمل البهنسى، ويمتد في الجبل حتى يجاوزه إلى إقليم الفيوم، ويمتد بمدينة وينبث في نواحيه .

وهذا النهر من غرائب أنهار الدنيا تحف فوهته في أيام نقص النيل، وبقية يجري في موضع ويجف في آخر إلى إقليم الفيوم، فيجري شتاءً وصيفا من أعين تنفجر منه ولا يحتاج إلى حفر قط .

ويقال: إن "يوسف عليه السلام" حفره بالوحي ومياهه منقسمة على استحقاق مقدر، كما في دمشق من البلاد الشامية .

قال في "الروض المعطار": وكانت مقياسه بحجر الأهوت على القرب من القرية المنسوبة إليه المتقدمة الذكر. قال: وهو من عجائب الدنيا، وهو شاذروان بين قبتين من أحكم صنعة، مدرج على ستين درجة، فيها فوارات في أعلاها وفي وسطها وفي أسفلها، يسقى الأعلى الأرض العليا، والأوسط الأرض الوسطى، والأسفل الأرض السفلى بوزن وقدر معلوم .

قال: ويقال إن يوسف عليه السلام عمله بالوحي، وإن ملك مصر يومئذ لما عاينه قال هذا من ملكوت السماء .

ويقال إنه عمل من الفضة والنحاس والرخام . قلت : قد ذهبت معالم هذا
اللاهون وبقي بعض بنائه ونقلت المقاسم إلى مكان آخر بالقيوم تسقى الآن الأراضي
على حكمها .

ومن غرائب أمره أن به التماسيح التي لا تحصى كثرة ، ولم يشتهر في زمن من
الأزمان أنها آذت أحدا قط .

الخليج الثاني

(خليج القاهرة الذي يكسر سده يوم وفاء النيل)

حفره عمرو بن العاص وهو أمير مصر ، في خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه .
قال القضاعي : أمر بحفره عام الرمادة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
وساقه إلى بحر القلزم ، فلم يتم عليه الحول حتى جرت فيه السفن وحمل فيها الزاد
والأطعمة إلى مكة والمدينة ، ونفع الله بذلك أهل الحجاز .

وذكر الكندي في كتاب "الجند العربي" أن حفره كان سنة ثلاث وعشرين
من الهجرة ، وفرغ منه في ستة أشهر ، وجرت فيه السفن ووصلت إلى الحجاز
في الشهر السابع .

قال الكندي : ولم يزل يحمل فيه الطعام حتى حمل فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم
أضاعته الولاة فترك وغلب عليه الرمل ، وصار منتهاه إلى ذنب التماسيح من ناحية
الطور والقلزم .

وذكر ابن قديد : أن أبا جعفر المنصور أمر بسده حين خرج عليه محمد بن
عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ليقطع عنه الطعام .

(١) ولم يكن عليه قنطرة إلى أن بنى عليه عبد العزيز بن مروان قنطرة في سنة تسع ...
وقد ذكر المسعودي في "مروج الذهب" أنه أقطع جريان هذا الخليج
عن الإسكندرية إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة لردم جميعها وصار شرب
أهلها من الآبار .

قال ابن عبد الظاهر : وليس لها أثر في هذا الزمان . قال : وإنما بنى السلطان
الملك الصالح أيوب ابن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب هاتين
القنطرتين الموجودتين الآن على بستان الخشاب وباب الخرق ، يعنى قنطرة السد
وقنطرة باب الخرق في سنة نيف وأربعين وستائة .

وذكر في موضع آخر من خطه أن القنطرة التي عليه خارج باب القنطرة بناها
القائد جوهر سنة ستين وثلاثمائة ، وقنطرة اللؤلؤة - وهي التي كانت بالقرب من ميدان
القمح ، وبعضها باق إلى الآن - من بناء الفاطميين أيضا ؛ واللؤلؤة التي تنسب هذه
القنطرة إليها منظر على برّ الخليج القبلى ، بناها الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمى ،
كانت مستزها لخلفاء الفاطميين ينزلون فيها في أيام النيل و يقيمون بها إلى آخر النيل .
قلت : أما باقى القناطر التي على هذا الخليج : كقنطرة عمر شاه ، وقنطرة سنقر ،
وقنطرة أمير حسين ، فكلها مستجدّة في الدولة التركية ، وغالبا في الدولة الناصرية
محمد بن قلاوون .

قال ابن أبي المنصور في "تاريخه" : وأول من رتب حفره على الناس المأمون
أبن البطائحي ، وكذلك البساتين في دولة الأفضل ، وجعل عليه واليا بمفرده .

(١) لعلاه تسع وستين فان ابتداء ولايته لمصر في خمس وستين .

(٢) هذه الفقرة غير مناسبة هنا وقد ذكرها قريبا بلفظها في الكلام على خليج الإسكندرية فنبه .

الخليج الثالث

(خليج السردُوس)

ويقال السردُوسى بزيادة ياء في آخره، وهو الذى حتمه هامان لفرعون .
قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : ويقال : إنه لما حتمه سألَه أهل
البلاد أن يجريه إليهم على أن يجعلوا له على ذلك مالا ، فتحصل له من ذلك مائة
ألف دينار فحملها إلى فرعون ، فقال : ويحك ! إنه ينبغي للسيد أن يعطف على
عبده ولا ينظر إلى مافى أيديهم ، وأمر برد المال إلى أربابه .
قال : وكان هذا الخليج أحد نزعات الدنيا يسار فيه يوما بين بساتين مشتبكة
وأشجار مُتَفِّة وفواكه دائية . قلت : أما الآن فقد ذهب ذلك ، وبطل الخليج
وعوض عنه بجزر أبى المنجا الآتى ذكره .

الخليج الرابع

(خليج الإسكندرية)

وهو خليج مخرجه من الفرقة الغربية من النيل عند قرية تسمى العطف تقابل
قوة ، مدينة المزاحمتين ، ويميل غربا حتى يتصل بجدران الإسكندرية ، وتدخل منه
قناة تحت الأرض إلى داخلها ، ويتشعب منها شعب كثيرة تدخل دُورَها ، وتخرج
من دار إلى أخرى ، ويخالط آبارها فيحلو ماؤها وتملأ منها صهاريجها حينئذ فتتمكث
من السنة إلى السنة .

وكانت قُوَّة هذا الخليج فيما تقدم جنوبي قُوَّته الآن عند قرية تسمى الظاهرية
من عمل البُحيرة ، وكان يمر على دهنهور مدينة البحيرة ، ثم نقل إلى مكانه الآن ،
ويقال إن أرضه في القديم كانت مفروشة بالبلاط .

قال في "تقويم البلدان" : وهو من أحسن المنتزهات لأنه مخضّر الحانين
بالبسّاتين، وفيه يقول ظافر الحدّاد الشاعر السكندري :

وعِشِيَّةٌ أَهَدَتْ لِعَيْنِكَ مَنْظَرًا * جَاءَ السُّرُورُ بِهِ لِقَلْبِكَ وَأَفْدَا
رَوْضٌ كَمُخَضَّرِ الْعِدَارِ وَجَدُولٌ * نَقَشَتْ عَلَيْهِ يَدُ الشَّمَالِ مَبَارِدًا
وَالنَّخْلُ كَالغَيْدِ الْحِسَانِ تَزَيَّنَتْ * وَلَيْسَنَ مِنْ أَمْثَارِهِنَّ قَلَائِدًا

وقد ذكر المسعودي في "مروج الذهب" : أنه أنقطع جريان هذا الخليج
عن الإسكندرية إلى سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة لردم جميعها، وصار شرب أهلها
من الآبار .

الخليج الخامس

(خليج منجا)

ويقال إن الذي حفره برّصا : أحد ملوك مصر بعد الطوفان .

الخليج السادس

(خليج دميّاط)

ولم أقف على تفاصيل أحواله .

أما بحر أبي المنجا، فإنه وإن عظم شأنه مستحدّث حفره الأفضل بن أمير الجيوش
وزير المستعلي بالله الناطمي .

قال ابن أبي المنصور في "تاريخه" : وكان سبب حفره أن البلاد الشرقية كانت
جارية في ديوان الخلافة، وكان معظمها لا يروى في أكثر السنين ولا يصل الماء
إليها، إلا من خليج السردوس المتقدّم ذكره أو من غيره من الأماكن البعيدة .

وكان يشارف العمل يهودىً أسمه أبو المنجا فرغب أهل البلاد إليه في فتح ترعة يصل الماء منها إليهم في آبتدائه فرفع الأمر إلى الأفضل، فركب في النيل في آبتدائه في مركب ورمى بـجُزْمٍ من البوص في النيل وجعل يتبعها بمركبه إلى أن رماها النيل إلى فَمَ ذلك البحر فحفر من هناك ، وآبتدأ حفره يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست وخمسة، وأقام الحفر فيه سنتين وغُرِمَ فيه مال كثير . وكان في كل سنة تظهر فائدته ، ويتضاعف ارتفاع البلاد التي تحته ، وغلب عليه إضافته إلى أبي المنجا لتكلمه فيه . فلما عرض على الأفضل ما صرف عليه آستعظمه وقال غَرِمنا عليه هذا المال العظيم والأسم لأبي المنجا ، فسماه البحر الأفضلى فلم يتم له ذلك ولم يعرف إلا بأبي المنجا ، ثم سطرى بأبي المنجا المذكور بعد ذلك ونفى إلى الإسكندرية . ولما ولى المأمون بن البطائحي الوزارة تحدتث معه الأمراء في أن يتخذ لفتحته يوماً كفتح خليج القاهرة، فأبتنى عند سده منظره متسعة يتزل فيها عند فتحه .

قلت : وكانت فيه معدية يعدى فيها بين قلوب وبيسوس، وكان يحصل للناس بها مشقة عظيمة لكثرة المازين، فعمر عليها الظاهر ببيرس رحمة الله قنطرةً عظيمة بحجر صلد، من غرائب البناء، تتمر عليها الناس والدواب، فحصل للناس بها الارتفاق العظيم ، وهى باقية على جدتها إلى زماننا .

وكان سده يقطع في عيد الصليب في سابح عشرتوت ، ثم آستقر الحال على أن يقطع يوم النوروز في أول يوم من توت حرصا على رى البلاد .
وأما بقية حُلج الديار المصرية المستحدثة وترعها بالوجهين : القبلى والبحرى ، فأكثر من أن تحصر، ولكل منها زمن معروف يقطع فيه .

المقصود الخامس

(في ذكر بحيرات الديار المصرية ، وهي أربع بحيرات)

الأولى منها - بحيرة الفيوم ، ويعبر عنها بالبركة ، وهي بحيرة حلوة بالقرب من الفيوم بين الشمال والغرب عنه ، على نحو نصف يوم ، يصب فيها فضلات مائة المنصب إليه من خليجه المنهى المتقدم ذكره ، وليس لها مصرف تنصرف إليه لإحاطة الجبل بها ، ولذلك غلبت على كثير من قرى الفيوم وعلا ماؤها على أرضها .

قال في "تقويم البلدان" : وطولها شرقا بغرب نحو يوم ، وبها أسماك كثيرة تحصل من صيدها جملة كثيرة من المال ، وبها من آجام القصب والطرءاء والبردى ما يتحصل منه المال الكثير .

الثانية - بحيرة بوقير (بضم الباء الموحدة وسكون الواو وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحت وراء مهملة في الآخر) وهي بحيرة ماء ملح يخرج من البحر الرومي بين الإسكندرية ورشيد ، ولها خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية المتقدم ذكره ، يأتيها ماء النيل منه عند زيادته ، وبها من صيد السمك ما يتحصل منه المال الكثير ، وفيها من أنواع الطير كل غريب ، وجمونها الملاحات الكثيرة التي يجمل منها الملح إلى بلاد الفرنج وغيرها .

قلت : وقد وقع للسلطان عماد الدين صاحب حماة رحمه الله وهم بجعل هذه البحيرة هي بحيرة تَسْتُرُوهُ الآتى ذكرها ؛ على أن هذه البحيرة قد أُنْقَطِعَ مَدَدُهَا مِنَ الْبَحْرِ الْمَلْحِ فِي زَمَانِنَا بِوَسْطَةِ غَلْبَةِ الرَّمْلِ عَلَى أَشْتُونِهَا الْمَوْصِلِ إِلَيْهَا الْمَاءَ مِنْ بَحْرِ الرُّومِ بِقَفَّتْ وَصَارَتْ سَبْخَةً طَوِيلَةً عَرِيضَةً ، وَمَاتَ مَا كَانَ يُصَادُ مِنْهَا مِنَ السَّمَكِ الْبُورِيِّ ، وَمَا يُتَحَصَّلُ مِنْهَا مِنَ الْمَلْحِ الْمَنْعَقِدِ بِسُوحْلِهَا ، وَعَادَ عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ

بواسطة ذلك ضرر كبير لأنه كان الغالب على أهلها أكل السمك ويحصل لهم بالملح رفق كبير .

الثالثة - بَحِيرَة نَسْتَرُوَه (بفتح النون وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة فوق وضم الراء المهملة وسكون الواو وهاء في الآخر) وهي بحيرة ماء ملح أيضا بالقرب من البرّس في آخر بلاد الأعمال الغربية الآتى ذكرها، متسعة الأرجاء إذا توسطها المركب لا تُرى جوانبها لعظمتها، بعد مركزها عن البر، وبالقرب منها قرية تسمى نَسْتَرُوَه، وهي التي تضاف إليها، وداخلها قرية أخرى تسمى سِنْجَار لا زرع فيها ولا نفع، وليس بهما غير صيد السمك، وهي الغاية القُصوى فيما يتحصل من المال .

قال صاحب حماة : يبلغ متحصل صيد سمكها في كل سنة فوق عشرين ألف دينار مصرية، وليس يساويها بحيرة من البحيرات في ذلك .
قلت : وأخبرني بعض مباشريها أنها في زماننا قد تميز متحصلها عن ذلك نحو مثله للاجتهاد في الصيد، وكثرة الضبط وارتفاع السعر .

الرابعة - بحيرة تَنِيَسَ قال السمعاني (بكسر التاء المثناة فوق والنون المشددة المكسورة ثم ياء مثناة تحت وسين مهملة في الآخر) وهي بحيرة متصلة بالبحر الرومي أيضا بأخر عمل الذقهلية والمرآحية الآتى ذكره، وفيها مصب بحر أُشْموم المنفرد من الفرقة الشرقية من النيل، ولذلك يعذب ماؤها في أيام زيادة النيل، وبوسطها تَنِيَسُ الآتى ذكرها في الكلام على الكُور القديمة .

قال صاحب "الروض المعطار" : طمى عليها البحر قبل الفتح الإسلامي بمائة سنة فغرقها وصارت بحيرة، ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب "بحيرة دمياط" وهما في الحقيقة كالبحيرة الواحدة .

المقصد السادس

(في ذكر جبالها)

اعلم أن وادي مِصرَ يكتنفه جبالان شرقا وغربا، يتبدآن من الجنادل المتقدمة الذكر فوق أسوان آخذين في جهة الشمال على تقارب بينهما بحيث يُرى كل منهما من الآخر والنيل ماز بين جنبتيهما .

فأما الشرق منها فيمتد بين النيل وبحر القلزم المتقدم الذكر حتى يجاوز القسطنط فينعطف ويأخذ شرقا حتى يأتي على آخر بحر القلزم من الشمال، يرتفع في موضع وينخفض في آخر؛ وفي أوائل هذا الجبل من جهة الجنوب على القرب من مدينة قوص (مَعِين الزُّمُرْد) المتقدم ذكره في خواص الديار المصرية، في مغارة طويلة في قطعة جبل عالية، تسمى قرشده ليس هناك أعلى منها، وعلى القرب من ذلك (مقطع الرُخَام) الملون من الأبيض والسَّمَّاقِ وسائر الألوان المستحسنة التي لا تساوى حُسْنًا . ويسمى الجبل المطل منه على النيل مقابل المراغات من عمل إنجيم . (جبل الساحرة) وأظنه جبل زماخير الساحرة المتقدمة الذكر في عجائب الديار المصرية . ويسمى الجبل المطل منه على النيل مقابل مدينة منفلوط (جبل أبي فيدة) بقاء وياء مشاة تحت .

ويسمى الجبل المطل منه على النيل مقابل منية بني خصب من الأشمونين . (جبل الطيامون) ، ويعرف الآن بجبل الطير؛ وقد تقدم ذكره في جملة عجائب الديار المصرية .

ويسمى ماسامت القسطنط والقرافة منه (المُقَطَّم) وربما أُطلق المُقَطَّم على جميع المُقَطَّم^(١)؛ وقد اختلف في سبب تسميته بذلك، فقيل سمى باسم مُقَطَّم الكاهن كان مقيا فيه لعمل الكيمياء .

(١) لعله على جميع الجبل .

وقال أبو عبد الله اليميني : سمي بالمُقَطَّم بن مصر بن بيسر، وكان عبدا صالحا آنفرد فيه لعبادة الله تعالى .

وذكر الكِنْدِيُّ في كتاب "فضائل مصر" ما يوافق ذلك : وهو أن عمرو بن العاص رضى الله عنه سار في سفح المُقَطَّم ومعه المُقَوِّسُ ، فقال له عمرو : ما بال جبلكم هذا أقرع ليس عليه نبات كجبال الشام ؟ فلو شققنا في أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا - فقال المقوقس : وجدنا في الكتب أنه كان أكثر البلاد أشجارا ونبتا وفاكهة ، وكان ينزله المُقَطَّم بن مصر بن بيسر بن حام بن نوح عليه السلام ، فلما كانت الليلة التي كلم الله تعالى فيها موسى عليه السلام ، أوحى الله تعالى إلى الجبال : إني مكلمٌ نبيا من أنبيائي على جبل منك فسمت الجبال كلها وتشاخنت إلا جبل بيت المقدس فإنه هبط وتصاغر ، فأوحى الله تعالى إليه : لم فعلت ذلك ؟ وهو به أخبر ، فقال : إعظاما وإجلالا لك يارب ! فأمر الله تعالى الجبال أن يجيوه كل جبل مما عليه من النبت ، بخاد له المُقَطَّم بكل ما عليه من النبت حتى بقي كما ترى ، فأوحى الله تعالى إليه إني معوضك على فعلك بشجر الجنة أو غرس الجنة .

وأنكر القضاعي وغيره أن يكون لمصر ولد اسمه المقطم ، وجعلوه مأخوذا من القطم وهو القطع ، لكونه منقطع الشجر والنبات .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وفيه كنوز عظيمة ، وهياكل كثيرة ، وعجائب غريبة . وللملوك مصر فيه من الجواهر والذهب والفضة والأواني ، والآلات النفيسة ، والتماثيل العجيبة ، وتراب الصنعة ما يخرج عن حد الإحصاء .

قال في "الروض المعطار" : وإذا دبرت تربته حصل منها ذهب صالح .

ويلى المُقَطَّم من جهة الشمال (اليحامي) ، وهي الجبال المتفرقة المطلة على القاهرة من جانبها الشرق وجبانتها .

قال القضاعى : وقيل لها اليحاميم لاختلاف ألوانها، واليحموم فى كلام العرب الأسود المظلم، ولعله يريد الجبل الأحمر وما والاه .

وفى شرق المظم على بحر القلزم (طور سيناء) الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه، وهو جبل مرتفع للغاية، داخل فى البحر .

قال الأزهرى : وسى الطور بطور بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ومن خاصته أنه كيفاً كسر، ظهر فيه صورة شجر العليق، وقد نبى هناك ديراً على الجبل، وغرس بواديه بساتين وأشجاراً .



وأما الغربىّ منهما، فإنه يتدنى من الجنادل أيضاً ويمتد فى الشمال فيما بين بلاد الصعيد والصحراء، ثم فيما بين بلاد الصعيد والأوحات، ثم فيما بين بلاد الصعيد والقيوم حتى ينتهى إلى مقابل الفسطاط . وهناك موقع الهرميين العظيمين المقدم ذكرهما على القرب من بؤصير، ثم يعطف ويأخذ غرباً بشمال فيما بين بلاد ريف الوجه البحرىّ والبرية حتى يجاوز بركة النطرون، ويمضى إلى قريب من الإسكندرية .

ويسمى فيما سامت الواحات (جبل جالوت) نسبة إلى جالوت البربرى .

ويتصل به من جنوبىّ الواحات (جبل اللازورد) قيل إن به معدن لازورد، وأنه أمتنع أستخراجه لأنقطاع العارة هناك .

المقصود السابع

(فى ذكر زروعها، ورياحينها، وفواكهها، وأصناف المطعوم بها)

أما زروعها فيزرع فيها من أنواع الحبوب المقتاتة وغيرها كالأبر والشعير والذرة والأرز، والباقلى، والحمص، والعدس، والبسلا، والخبان، واللؤبى، والسميم، والقرطم، والخشخاش، والخروج، والسلمج، وبزر الكنان، والبرسيم، وغير ذلك .

وبها قصب السُّكَّرِ في غاية الكثرة، والبَطِيخُ ، والقِثَاءُ على اختلاف أنواعها،
 والمُلُوخِيَا، والقُلْقَاسُ ، واللَّفْتُ ، والبَادَنْجَانُ ، والدَّبَّاءُ ، والهَلِيُونُ ، والقُنْبِيْطُ ، وأنواع
 البقول المختلفة، كالثُومِ ، والبَصَلِ ، والكُرَّاثِ ، والفُجْلِ وغيرها؛ وعامة زرع حبوبها
 على النيل عند نزوله عن أرضها من أثناء بَابِه من شهور القَبِطِ إلى أثناء طُوبِه منها
 بحسب ما يقتضيه حال الزرع . وربما زرع فيها على السواقي والتواليب ؛ وأكثر
 ما يكون ذلك في بلاد الصَّعِيدِ خصوصا في سنين الجَدْبِ ؛ ويُزَعُ في الفيوم
 في غير زمن النيل على نهر المنهى المتقدم ذكره في جملة الأنهار . ولا زرع فيها
 على المطر إلا القليل النادر بأطراف البحيرة مما لا عبرة به على قلة المطر بها بل فقده
 بصعيدها .

وأما رِيَاحِيْنُهَا ، ففيها الآسُ ، والوَرْدُ ، والبَنْفَسِجُ ، والرَّجِسُ ، واليَاسْمِينُ ،
 والنَّسْرِينُ ، والبَّانُ ، والليْنُوْفَرُ ، وأزهار الحمضات ، والرَّيْحَانُ الفَارِسِيَّ على اختلاف
 أنواعه ، والمنثور فيها بقلّة ، وإنما أكثر بالإسكندرية ، إلى غير ذلك من بقايا الأنواع
 التي يشق أستيعابها .

وأما فواكهها ، ففيها الرُّطْبُ ، والعِنْبُ ، والتَّيْنُ ، والرَّمَانُ ، والخَوْخُ ، والمِشْمِشُ ،
 والقِرَاصِيَا ، والبرقوقُ ، والتَّفَاحُ ، والكُمَّثِيُّ ، والسَّفْرَجَلُ بقلّةٍ ، واللَّوْزُ الأخضرُ ،
 والبُنْبُقُ ، والثَّوْتُ ، والفِرْصَادُ ، والمَوْزُ . ولا يوجد فيها الجوزُ ، والفُسْتَقُ ، والبندقُ ،
 والإجاصُ إلا مجلوباً بعد جفافه . وإن زرع بأرضها شيء من ذلك ، لم يُفْلِحْ ؛
 والزيتون فيها بقلّةٍ ، ولا يستخرج منه زيت البتة وإنما يؤكل مِلْحًا .

وفيها من الحمضات الأترجُ ، والحماضُ ، والجبَادُ ، والنَّارَنْجُ ، والليْمُونُ ، على
 اختلاف أنواعها .

وأما أصناف الطعام ففيها ما يستطاب من الألبان، والأجبان، والعسل، الذي لا يساوى حسنا، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال، والسكر الكثير من المكرر والتبع، والوسط، والنبات. ومنها يجلب إلى أكثر البلاد. قال في "مسالك الأبصار": وقد نسي به ما كان يذكر من سكر الأهواز.

وبها من أنواع الحلوى والأشربة المتخذ ذلك من السكر والأشربة (؟) الفائقة مالا يوجد في غيرها من الأقاليم.

وبها من لحم الضأن، والبقر، والمعز، مالا يعادله غيره في قُطرٍ من الأقطار لطافةً ولذةً.

قلت: ومن محاسنها أن فاكهتها لا يدوم نوع منها في جميع السنة فيمَلّ، بل يأتي كل نوع منها في وقت دون وقت، فتشوق النفوس إلى طلبه، ويكون لقدمه بهجة. ولا يعترض ذلك بدوام أكل الجنة، فإن الجنة أكلها لا يمل بخلاف ما كل الدنيا. ولأهل الرفاهية بذلك فرحة، وتغالي فيه في آبدائه مع أنه يجتمع في الحين الواحد من الفواكه والرياحين مالا يحتاج معه في زمنه إلى غيره.

قال المهذب بن ممتي في "قوانين الدواوين": بعثت غلاما لي يحضر من فكاهي القاهرة ما وجد بها من أنواع الفاكهة والرياحين، فأحضر لي منها الورد، والزرجس، والبفسج، والياسمين، والمنثور، والمرسين، والريحان، والطلح، والبلح، والجمار، والحيار، والبطيخ الأخضر، والباقل، والتفاح، والفقوس، والأترنج، والتارنج، والأشباه، والليمون، والتمر هندي الأخضر، والعنب، والحصرم.

وقال بعض الجوالين في الآفاق: طفت أكثر المعمور من الأرض فلم أر مثل ما بمصر من ماء طوبه، ولبن أمشير، وخروب برمها، وورد برموده، وبنق بشنس، وتين بؤنة، وعسل أيب، وعنب مسرى، ورطب توت، ورمان بابه، وموز هتور، وسمك كيهك.

المقصود الثامن

(في ذكر مواشيتها، ووحوشها، وطيورها)

أما مواشيتها، ففيها الإبل المستجادة، والبقر العظيمة القدود، والأغنام المستطابة اللحم، والخيول المسومة، والبغال النفيسة، والحمر الفارحة مما ليس له نظير في إقليم من الأقاليم، ولا مصر من الأمصار .
وأما ووحوشها، ففي براريها الغزلان، والنعام، والأرانب، والثعالب، والضباع، والذئاب، وغير ذلك، ويجب إلى سلطانها الفيلة، والزرافات، وغيرها من الوحوش من البلاد القاصية، والسباع من بلاد الشام من مملكته لتكون في اصطبلاته زينة لمملكته .

وأما طيورها ففيها من الطيور الدواجن في البيوت الدجاج، والإوز، والحمام، ومن الطيور البرية الصقر، والعقاب، والنسر، والكركي، واللغغ، والإوز التركي، والمرزم، والبجع، والبلشون، والجرج، والحجل، والكروان، والسمان، والبلبل، وسائر أنواع العصافير، والأنواع المختلفة من طيور الماء . ويجب إلى سلطانها سائر أنواع الجوارح الصائدة على اختلاف أجناسها من أفاصي البلدان، ويقع التعالى في أتمانها للغاية القصوى على ما يأتي ذكره في الكلام على أوصافها إن شاء الله تعالى .

المقصود التاسع

(في ذكر حدودها)

قد اضطربت عبارات المصنفين في المسالك والممالك في تحديدها، والذي عليه الجمهور أن حدّها الشماليّ، وهو المعبر عنه عند المصريين بالبحريّ يتبدى مما بين الزعقة ورفح عند حدّها من الشام والبحر شماله، ويمتدّ غرباً على ساحل البحر

المذكور حيث الشجرتان عند الشجرة التي يعلق فيها العوامُ الحرقَ وتقول هذه مفاتيح الرمل، عند الكُثْبُ المحبنة عن البحر الرومى، إلى رَفْعٍ ثم إلى العريش أخذنا على الحِقْفَارِ، إلى الفَرَمَا، إلى الطينة، إلى دِمِيَاطٍ، إلى ساحل رشيد، إلى الإسكندرية، وهى آخر العارة بهذا الحد. ثم يأخذ على اللينونة، على العميدين، إلى بَرَقَةَ، إلى العَقْبَةِ الفاصلة بين الديار المصرية وإفريقية على ما تقدم ذكره فى الكلام على سواحل البحر الرومى .

وحدها الغربى يتبدى من ساحل البحر الرومى حيث العقبه، ويمتد جنوبا، وأرض إفريقية غربيه، على ظاهر الفيوم والوَاحَاتِ حتى يقع على صحراء الحبشة على ثمان مراحل من أسوان .

وحدها الجنوبي وهو المعبر عنه عند المصريين بالقبلى، يتبدى من آخر هذا الحد بصحراء الحبشة ويمتد شرقا، وبلاد الروم من بلاد البرية جنوبيه حتى يأتى إلى أسوان، ثم يمتد من أسوان شرقا حتى ينتهى إلى بحر القلزم مقابل أسوان على خمس عشرة مرحلة منها .

وحدها الشرقى يتبدى من آخر هذا الحد ويمتد شمالا وبحر القلزم شرقيه إلى عِدَابَ إلى القُصَيْرِ إلى القُلْزُمِ إلى السُّوَيْسِ، ثم يأخذ شرقا عن بركة الغرندل التي أغرق الله تعالى فيها فرعون من بحر القلزم إلى تيه بنى إسرائيل، ثم يعطف شمالا ويمر على أطراف الشام حتى يمحط على ما بين الزعقة ورفح ساحل البحر الرومى حيث وقعت البداة .

وعلى هذا التحديد جرى السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تقويم البلدان" والمقتدر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف"، إلا أنه فى "تقويم البلدان" جعل ابتداء الحد الشمالى نفس رفح، ونهاية الحد الغربى حدود بلاد النوبة، وفى "التعريف"

جعل ابتداء الحد الشمالي ما بين الزعقة ورفح، ونهاية الحد الغربي صحراء بلاد الحبشة على ما تقدم في التحديد، والأمر في ذلك قريب .

وخالف في ذلك القضاة بفعل ابتداء الحد الشمالي من العريش ، وليس فيه بُعد عن رفح بل في الآثار ما يدل عليه . كما سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى ، وجعل الحد الجنوبي يقطع بحر القلزم وينتهي إلى ساحل الحجاز بالحوراء: أحد منازل طريق الحجاز من مصر؛ والحد الشرقي يمتد على ساحل البحر الشرقي إلى مدين ، إلى أيلة ، إلى تيه بنى إسرائيل ، إلى العريش . فأدخل بحر القلزم من حد الحوراء إلى نهايته في الشمال ، وما على ساحله من بر الحجاز مما يسامت العريش كأيلة ومدين ونحوها في أرض مصر .

قلت : وفيه نظر ، والظاهر ما تقدم لأن البر الشرقي من القلزم معدود من ساحل الحجاز من جملة جزيرة العرب ، وهي ناحية على أفرادها ؛ وكان الذي حمل القضاة على ذلك مسامحة هذا الساحل لحدّها بساحل البحر الرومي على ما تقدم . وأعلم أن جميع المحددين لها وإن اختلفت عباراتهم في ابتداء الحد الشمالي الفاصل بينها وبين الشام ، هل هو من العريش أو من رفح أو بين الزعقة ورفح ؟ متفقون على أن ابتداء الحد حيث الشجرتان ، وكأنهما شجرتان قديمتان حدت في الأصل بهما .

قال في "التعريف" : وما إخال الآن بقاء الشجرتين ، وإنما هو موضع الشجرة التي تعلّق فيها العوام الحرق ، ويقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثب المحبنة عن البحر الرومي قريبا من الزعقة .

قال : فأما الأشجار التي بالمكان المعروف الآن بالسردية ، ويعرف قديما بالعش^(١) فهي وإن عظمت محدثة من زمن من حدت الأقاليم ، وليست في موضع ما ذكره .

(١) في الضوء ، والتعريف "بالخرّوبية" .

ثم لها طول وعَرْضٌ ، فطولها ما بين جهتي الشمال والجنوب ، وعَرْضُها ما بين جهتي المشرق والمغرب . وقد قيل إن طولها مسيرة شهر وعرضها مسيرة شهر .
وذكر القضاعي أن ما بين العريش إلى بَرْقَة أربعون ليلة .

المقصود العاشر

(في آبتداء عمارتها ، وتسميتها مصر ، وتفترع الأقاليم التي حولها عنها)

أما آبتداء عمارتها ، فقد ذكر المؤرخون أنها عُمِرَت مرتين :

المرّة الأولى - قبل الطوفان ، وأول من عمَّرها قبل الطوفان تقرأووس بن مصريم
ابن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام ، نزلها في سبعين رجلا من
بني غرباب جبابرة ، فعمَّرها . وهو الذي هندس نيلها وحفره حتى أجراه ، ووجه
إلى البرية جماعة هندسوه وأصلحوه ، وبنى المَدَنَ وأثار المعادن ، وعمل الطلسمات .

المرّة الثانية - بعد الطوفان ، وأول من عمَّرها بعد الطوفان مصريم بن بيصر بن
حام بن نوح عليه السلام ، قدم إليها هو وأبوه بيصر في ثلاثين رجلا من قومه حين
قسَمَ نوح الأرض بين بنيهِ ، فنزلوا بسفح المُقَطَّم ، وتقرَّروا فيه منازل كبيرة نزلوا بها
ثم آبتنوا مدينة منمف وسكنوها على ما يأتي ذكره في الكلام على قواعد مصر القديمة
إن شاء الله تعالى .

قال ابن لهيعة : وكان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يُسَكِنَه الله تعالى
الأرض الطيبة المباركة التي هي آمنُ البلاد وغوثُ العباد ، ونهرها أفضل الأنهار ،
ويجعل له فيها أفضل البركات ، ويُسَخِّر له الأرض ولولده ويدلِّلها لهم ، ويقويهم
عليها . فسأله عنها فوصفها له ، وأخبره بها .

(١) لم تتفق الكتب على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الآخر فلذلك لم نعول عليها وأقتصرنا على ما في
نسختنا الخطية .

وأما تسميتها مصر ، فقيل : إن نقراووس بن مصرم أول ملوكها قبل الطوفان حين عمرها سماها باسم أبيه مصرم تبركا ، وأن مصر بن بيصر إنما سمي باسمه .
وأكثر المؤرخين على أنها سميت بمصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . وعلى الوجهين تكون علماً منقولاً عن أسم رجل .

وقال الجاحظ في رسالة له في مدح مصر : إنما سميت مصر لمصير الناس إليها قلت : ويجوز أن تكون سميت مصر لكونها حداً فاصلاً بين بلاد المشرق والمغرب إذ المصر في أصل لغة العرب أسم للحد بين الأرضين كما قاله القضاعي . ومنه قول أهل هجر : آشتريت الدار بمصورها ، أي بحدودها .
قال القضاعي : وكيف ما ...^(١) أما أن أريد بالمصر البلد العظيم فإنه ينصرف ويجمع على أمصار .

وأما تفرغ الأقاليم التي حولها عنها . فعن ابن أهيعة أنه لما استقر مصر بن بيصر بهذه البلاد هو وأبوه بيصر وإخوته : فارق ، ومامح ، وياح وكثر أولادهم ، قال له إخوته : قد علمت أنك أكبرنا وأفضلنا ، وأن هذه الأرض أسكنك إياها جدك نوح ، ونحن نضيق عليك أرضك ، ونحن نطلب إليك بالبركة التي جعلك فيها جدك نوح أن تبارك لنا في أرض نلحق بها ونسكنها ، وتكون لنا ولأولادنا ، فقال : نعم عليكم بأقرب البلاد إلى ، لاتباعدوا مني ، فإن لي في بلادى هذه مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسى ، وتكون لي ولولدى وأولادهم ، حاز مصر لنفسه ما بين الشجرتين اللتين بالعريش إلى أسوان طولا ، ومن برقة إلى أيلة عرضاً ، وحاز فارق لنفسه ما بين برقة إلى إفريقية ، فكان ولده الأفارقة ، وبذلك سميت إفريقية ، وذلك مسيرة شهر ، وحاز مامح ما بين الشجرتين من منتهى حد مصر إلى الجزيرة ، مسيرة

(١) كذا في الأصل بدون بياض وهو غير مستقيم ولعله وكيفما كان فإنها لا تنصرف . أما إن الخ .

شهر، وهو أبو نَبَطِ الشام . وحازياح ماوراء الجزيرة كلها من البحر إلى الشرق مسيرة شهر، فهو أبو نَبَطِ العراق .

وقد قال القضاعى بعد ذكر حدود مصر الأربعة : وما كان بعد هذا من الجانب الغربى فهو من فوج أهل مصر وثورهم من بَرَقَة إلى الأندلس . قلت : وذلك أن المسلمين بعد فتح مصر توجهت طائفة منهم إلى إفريقية ففتحها، ثم توجهت طائفة من إفريقية إلى الأندلس ففتحته على ما سياتى ذكره فى الكلام على مكاتبات ملوك الغرب إن شاء الله تعالى .

المقصد الحادى عشر

(فى ذكر قواعدها القديمة ، والمباني العظيمة الباقية على ممر الأزمان ، والقواعد المستقرة ، وما فيها من الأبنية الحسنة)
وقواعدها القديمة على ضربين :

الضرب الأوّل

(ما قبل الطوفان)

والمعروف لها إذ ذاك قاعدتان :

القاعدة الأولى - مدينة أمسوس ، وهى أوّل مدينة بنيت بالديار المصرية قبل الطوفان ، بناها تقراووس بن مصرم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام : أوّل ملوك مصر قبل الطوفان ، وموضعها خارج الإسكندرية تحت البحر الرومى كما ذكره بعض المؤرخين ، وشق لها نهرا يتصل بها من النيل .
القاعدة الثانية - مدينة برسان ، وهى مدينة بناها تقراووس المتقدم ذكره لأبنة مصر ايم وأسكنه فيها ، ولم أقف على مكانها .

الضرب الثاني

(قواعدها فيما بعد الطوفان)

والمشهور منها ثلاث قواعد :

القاعدة الأولى - مدينة مَنْف . قال في "تقويم البلدان" : (بكسر الميم وسكون النون وفاء في الآخر) والجارى على الألسنة منف (بفتح الميم) وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : طولها ثلاث وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهي أول مدينة بنيت بمصر بعد الطوفان، بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام حين نزل مصر .

قال في "الروض المعطار" : وأصلها بالسريانية مافه ومعناها بالعربية ثلاثون وذلك أن مصر حين نزلها كان في ثلاثين رجلا من أهل بيته، فسماها بعددهم .

قال ابن الأثير في كتابه "الزاهر" : وهي على آثنى عشر ميلاً من القُسطَاط . قلت : ومنف هذه في جنوبي القُسطَاط على القرب من البلدة المعروفة بالبدرشين من عمل الجيزة، وهي المعروفة بمصر القديمة، وقد تحربت وصارت كيماناً، وبها آثار بنيان من الحجر الكدّان، يوجد تحت الردم على القرب من أحجار الأهرام في العظمة والمقدار وبوسطها آثار رِبَاةٍ عظيمة، بها صنمان عظيمان من حجر صوّان أبيض، طول كل صنم منهما نحو عشرين ذراعاً، وهما مطروحان على الأرض، وقد غطى الطين أسفلهما .

وكان على القرب منهما بيت عظيم من حجر أخضر، قطعة واحدة : جوانبه الأربعة وأرضه وسقفه، ولم يزل على ذلك إلى الدولة الناصرية حسن بن الناصر محمد بن

قلاوون، وأراد الأمير شيخو أتاك العساكر نقله إلى القاهرة صحيحاً فعولج فأنكسر فأمر بأن تحت منه أعتاب ففتححت وجعل منها أعتاب خانقاه وجامعه بصليبة الجامع الطولوني، وشرقي هذه المدينة معالم سور مبنى بالبحر الكدّان النحيت فصوصا صغاراً بالطين والجير الذي قد علمت، لونه لون الحجر. ويقال: إنه سور الأهرام التي بناها يوسف عليه السلام لأدخار الخنطة في سنبلها.

ويذكر بعض أهل تلك البلاد أنه يوجد بعض السُنْبُل الذي أخبر به يوسف عليه السلام تحت تلك الأرض إلى الآن، وأنه في المقدار فوق مقدار الخنطة المتعارفة بقليل.

وفي شمالي هذه المدينة بلدة صغيرة تعرف بالعزيزية، يقال إنها كانت منزلة العزيز وزير الملك، وهناك مكان على القرب منها يعرف بزليخا، وفي غريبها إلى الشمال في سفح جبل مصر الغربي سجن يوسف عليه السلام، وإلى جانبه مسجد موسى عليه السلام، وعلى القرب من السور المقدم ذكره مسجد يعقوب عليه السلام. ويقال إن النيل كان تحت هذا السور، وهناك مكان يعرف بالمقياس إلى الآن.



القاعدة الثانية - مدينة الإسكندرية نسبة إلى الإسكندر بن فيلبس المقدوني ملك اليونان المقدم ذكره.

وقد ذكر القضاة: أنه كان بها عدة عجائب، من أعجبها المنارة، وهي منارة مبنية بالحجر والرصاص ارتفاعها في الهواء ثلثمائة ذراع كل ذراع ثلاثة أشبار، وقيل أربعائة ذراع، وقيل مائة وثمانون ذراعاً، وقيل بالحجر لعلبة الجير فيه. وعلى رأسها امرأة من أخلاط يرى فيها من حضر إليها على بُعد؛ وتهتدى بها المراكب السائرة إلى الإسكندرية إذ بزها منخفض لا جبال فيها، تحرق بشعاعها ما أرادوا إحراقه

(١) لعله وقيل بالجير أي هي مبنية بالحجر والرصاص وقيل بالجير الخ تأمل.

من المراكب الواصلة ، آحتال عليها النصارى في أوائل الإسلام في خلافة الوليد
 ابن عبد الملك الأمويّ فكسروها ، وتداعى هدم المنارة شيئا فشيئا إلى أوساط
 المائة الثامنة فاستؤصلت وبق أثرها .

(ومنها) الملعب الذي كانوا يجتمعون فيه في يوم من السنة ثم يرمون بكرّة فلا تقع
 في حجرٍ أحد إلا ملك مصر ، وإن حضر فيه ألف من الناس كان كل منهم
 ناظرا في وجه صاحبه ، وإن قرئ كتاب ، سمعوه جميعا ، أو أتى بنوع من اللعب
 رآوه عن آخرهم لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العلية والسفلة .

وكان من غريب هذا الملعب أن عمرو بن العاص رضى الله عنه حضر فيه
 في الجاهلية في يوم لعب الكرة فوَقعت الكرة في حجره ، وهم لا يعرفونه ، فتعجب
 القوم منه وقالوا ما رأينا هذه الكرة كذبت قط إلا هذه المرة ، فاتفق أن ملكها
 في الإسلام . و(عمود السورى) الذى بظاهر الإسكندرية الآن أحد عمود هذا
 الملعب ، وهو عمود عظيم يرمى الرجل القويّ السهم عن قوس قوى فلا يبلغ رأسه .
 (ومنها) عمودا الإعياء ، وهما عمودان ملتقيان وراء كل منهما جبل حصبأوه
 كصبر الجاربنى يُقبل العبيّ بسبع حصيات حتى يستلقى على أحدهما ، ثم يرمى
 وراءه بالسبع ويقوم ولا يلتفت ، ويمضى لطلبته فلا يحس بشيء من تعب .

(ومنها) القبة الخضراء ، وهى قبة ملبسة نحاسا كأنه ذهب إبريز لا يُبليه القدم
 ولا تُخلقه الدهور .

(ومنها) المِسلتان ، وهما جبلان قائمان على سَرَطانات نحاس في أركانها كل
 ركن على سرطان ، فلو أراد مرید أن يدخل تحتها شيئا إلى الجانب الآخر لفعّل .
 قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وهاتان المِسلتان إحداهما في الركن
 الشرقى من البلد ، والثانية ببعض البلد ، وهما عمودان مُربَعان من حجر أحمر ،

وعرض قواعدهما من الجهات الأربع أربعون شبرا، طول كل واحدة منهما خمس قاعات، وأعلىها مُسَدَّقٌ^(١)، وعرض قاعدتهما من الجهات الأربع أربعون شبرا . ويقال إن عليهما مكتوب بالسريانية: "أنا يعمر بن شداد، بنيت هذه المدينة وأردت أن أجعل فيها من الآثار المعجزة، والعجائب الباهرة، فأرسلت البتون بن مرة العادى ومقدام بن يعمر بن أبى رغال الثودى إلى جبل بريم الأحمر، فأقتطعوا منه حجرتين وحملاهما على أعناقهما، فأنكسرت ضاع البتون، فوددت أن أهل بملكى كانوا فداء له، فأقامهما القطن بن حازم المؤتفى فى يوم السعادة".

وقد قيل فيها: إنها إرم ذات العماد، ولم تزل عامرة إلى الفتح الإسلامى، فلما فتحها عمرو بن العاص كتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

"أما بعد. فإني فتحت مدينة لا أصف ما فيها، غير أنى أصبت فيها أربعة آلاف بنية، وأربعة آلاف حمام، وأربعين ألف يهودى عليهم الجزية، وأربعمائة ملهى للولك". ويقال إنه وجد فيها أربعة آلاف بقال يبيعون البقل، وكان فيها من الروم يومئذ مائة ألف من أهل القوة لحقوا بأرض الروم فى المراكب، وكان من بقى ستمائة ألف سوى النساء والصبيان .

قلت: وقد ذهب جل ذلك وزال أكثره، ولم يبق من عجائبها ظاهرا إلا عمود السوارى، وهو عمود عظيم من حجر صوان خارج المدينة لا يكاد يكون له نظير فى الدنيا، ويقال إنه كان قبلها مدينة فى مكانها تسمى رقوره بناها مصر بن بيسر بن حام بن نوح المتقدم ذكره حين بنى مدينة منى، وعلى منوالها نسج الإسكندر مدينته .



القاعدة الثالثة - قصر الشمع الذى هو داخل مدينة القسطنطين، وهو المعبر عنه فى كتب الفتوح بالحصن، بناه كسرجوس الفارسى أحد تواب ملك الفرس

(١) يظهر أنه مكرم فى المذكور فى السطر قبله . (٢) فى ياقوت قطن بن جأود .

عند آستيلاهم على مصر بعد غلبة بُحْت نَصْر الآتى ذكره فى الكلام على ملوكها .

قال الفضاعى : ولم يكمله وإنما كمله الروم بعد ذلك (١) التى فتحت مصر وهى مقترّة الملوك بها . وقد قيل : إن المَقْوَس كان يقيم بالإسكندرية أربعة أشهر من السنة، وبمدينة منف أربعة أشهر، وبقصر الشمع أربعة أشهر .

وأعلم أنه قد كان بالديار المصرية مستقرّات أخرى عظام كانت قواعد لبعض ملوكها فى بعض الأزمان، ومدن دون ذلك يأتى الكلام على جميعها بعد ذكر الكور القديمة والأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالى .



وأما المباني العظيمة الباقية على ممر الأزمان ، فاعلم أن ملوك مصر الأقدمين كان لهم من العناية بالبناء ما ليس لغيرهم ، وكانوا يتفانرون بذلك لإخباره على طول الزمن بعظمة ملكهم وأقدارهم على ما لم يبلغه غيرهم ، ومن أعظم أبنيتهم (الأهرام) . وهى قبورٌ آخذوها فى غاية الوثاقّة حفظاً لأجسامهم ، وكان لهم بها العناية التامة ، وآبتنوا منها عدّة بالجبل الغربى من النيل ، بعضها مقابل القُسطاط ، وبعضها ببوصير السّدر وسقّارة ودهشور من الأعمال الحيزية ، وبعضها بميدوم من البهنساوية ، وأعظمها خطراً وأجلّها قدرا الهرمان المقابلان للقُسطاط ، يقال إن طول عمود كل هرم منهما ثلاثمائة وسبعة عشر ذراعاً ، تحيط بها أربعة سطوح متساوية الأضلاع ، طول كل ضلع منها أربع مائة وستون ذراعاً .

قال أبو الصلت : ليس على وجه الأرض بناءً باليد حجر على حجر بهذا المقدار . ويقال : إن لها أبواباً فى أزج فى الأرض طول كل درج مائة وخمسون ذراعاً ، وباب الهرم الشرقى من الجهة البحرية ، وباب الهرم الغربى من الناحية الغربية ،

(١) بياض بالأصل .

والصابئة تحجُّ هذين الهرمين ويقولون : إن أحدهما قبر إدريس عليه السلام ، والآخر قبر ابنه صابئ الذي إليه ينتسبون .

وقد اختلف في بانيها فأكثر المؤرخين على أن بانيها سوريد بن سهلوق أحد ملوك مصر قبل الطوفان ، الآتى ذكره في الكلام على ملوكها فيما بعد إن شاء الله تعالى ، جعلها قبورا لأجسادهم وكنوزا لأموالهم ، حين أخبره منجموه وكهنته بما دلم عليه الرصد النجومى من حدوث حادثة تعم الأرض ؛ ورجحه محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم وقال : لو بُنيت الأهرام بعد الطوفان ، لكان علمها عند الناس . وذكر ابن عفير عن أشياخه أن بانيها جياد بن مياد بن شمر بن شداد بن عاد ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

قال : ولم تزل مشايخ مصر يقولون : إن الذى بناها شداد بن عاد . وذهب المسعودى وغيره إلى أنه بناها يوسف عليه السلام .

وقال ابن شبرمة بنتها العاتقة حين ملكوا مصر . وبالجملة فهما من أعظم الآثار وأقدمها وأجل المباني وأدومها ؛ ولله القائل .

أَنْظِرْهُ إِلَى الْهَرَمَيْنِ وَأَسْمَعْ مِنْهُمَا * مَا يَرَوِيَانِ عَنِ الزَّمَانِ الْغَائِرِ
لَوْ يَنْطِقَانِ ، نَحْبَرَانَا بِالَّذِي * صَنَّعَ الزَّمَانُ بَأَوَّلِ وَبِآخِرِ

وكيفما كان فمالهما إلى الخراب ، شأن الدنيا ومبانيها .

وقد كان المأمون : أحد خلفاء بني العباس حين دخل إلى مصر فى سنة ست عشرة ومائتين قصد هدمها فلم يقدر ، فأعمل الخيلة فى فتح طاقة فى أحدهما يتوصل منها إلى منزلقان ، يصعد فى أعلاه إلى قاعة بأعلى الهرم ، بها ناووس من حجر ، وينزل فى أسفله إلى بئر تحت الأرض لم يعلم ما فيها . ويقال : إنه وجد فى أعلاه مالا فاعتبره

فإذا هو قدر المال الذي صرفه من غير زيادة ولا نقص ؛ وقد أخذ الآن في قطع حجراتها الظاهرة لاتخاذ البلاط منها . فإن طال الزمان يوشك أن يخربا كغيرها من المباني .

ولله المتنبى حيث يقول :

أَيْنَ الَّذِي الْهَرَمَانِ مِنْ بُيَانِهِ؟ * مَا قَوْمُهُ؟ مَا يَوْمُهُ؟ مَا الْمَصْرَعُ؟
تَتَخَفُّ الْآثَارُ عَنْ أَصْحَابِهَا * دَهْرًا، وَيُدْرِكُهَا الْفَنَاءُ فَتَبَعُ!

قال إبراهيم بن وصيف شاه في كتاب "العجائب" : وقد قيل إن هوجيب أحد ملوك مصر قبل الطوفان أيضا بنى الهرم الكبير الذي بدمشور ؛ والثاني بناه قفطريم ، بن قفط ، بن قبطيم ، بن مصر ، بن بيسر ، بن حام ، بن نوح عليه السلام بعد الطوفان .

قال القضاعي : أما الهرم الذي بدير أبي هريريس : وهو الهرم المدرج يعنى الذى شمالى أهرام دهشور ، فإنه قبر قرياس ، وهو فارس أهل مصر ، كان يعدد فيهم بألف فارس ، فلما مات جزع عليه ملكه وبنى له هذا الهرم فدفنه فيه .

قال : وقبر الملك نفسه الهرم الكبير من الأهرام التى غربى دير أبى هريريس ، وعلى بابه لوح من الحجر الكدّان طوله ذراع فى ذراع مكتوب بالخط البرباوى .

ومن عظيم بنيانهم أيضا ولطيف حكمهم (البرابى) وهى بيوت عبادة كانت لهم ، زبروا فيها حكمهم ، ورققوا توارىخ ملوكهم ، وصوّروا فيها صور الأمم التى حولهم . فمضى قصدتهم أمة من الأمم ، أوقعوا بصورهم المصوّرة من النكال ما أرادوا ، فيصيب تلك الأمة على البعد ما أوقعوه بتلك الصور ، إلى غير ذلك من الحكم التى أودعوها والطلسمات التى وضعوها يجدرانها .

ويقال : إن أول من بنى البرابي بمصر دلوكة العجوز، التي ملكت مصر بعد فرعون لعنه الله !

قال في "مسالك الأبصار" : وقد أخبرني الحكيم شمس الدين محمد بن سعد الدمشقي أنه رآها وتأملها، فوجدها مشتملة على جميع أشكال الفلك ، وأن الذي ظهر له أنه لم يعملها حكيم واحد بل توّئ عليها قوم بعد قوم حتى تكاملت في دور، وهو ثلاثون ألف سنة : لأن مثل هذه الأعمال لا تعمل إلا بالأرصاد ولا يكمل رصد المجموع في أقل من هذه المدة .

قلت : ويجوز أن يكون الرصد حصل على الوجه المذكور ، وزُبر ورُقِمَ في الكُتب فلما بنى الثانى هذه البرابي، نقل منها ما زبر في الكتب من ذلك الزمن المتقدم .

وأعلم أن أكثر البرابي بالوجه القبلى من الديار المصرية، وبالوجه البحرى القليل منها ، وقد استولى الخراب على جميعها، وذهبت معالمها ولم يبق إلا آثارها ، والذى وقمت عليه في التواريخ، ووقفت على آثار غالبه ورسومه سبع برابٍ .

(منها) بربا سمنود؛ كانت بظاهر سمنود من الأعمال الغربية بالوجه البحرى . قال الكندى : رأيتها وقد خزن فيها بعض عمالها قرظا فرأيت الجمل إذا دنا من بابها بجمه وأراد أن يدخلها ، سقط كل ديبب في القرظ فلا يدخل منها شيء إلى البربا .

قال القضاعى : ثم خربت عند الخمسين وثلاثائة .

(ومنها) بربا تسمى بالمرتاحية من الوجه البحرى على القرب من مدينة تسمى الخراب وعامة أهل تلك الناحية يقولون بربا عاد، وهى باقية بُجدرانها، وسقوفها من أعظم

المحجرة العظيمة، إلى الآن باقية، وبأعلى بابها قطعة مبنية بالطوب الأجر والحصّ،
وداخلها أحواض عظيمة من الصوّان غريبة الشان .

(ومنها) بربا إنحيم، وهي بربا بظاهر مدينة إنحيم من الوجه القبلي، كانت من
أعظم البرابي وأحسنها صنعةً وأكبرها حكمةً، ولم تزل عامرة إلى أوساط المائة الثامنة،
فأخذ في هدمها والعمارة بأحجارها خطيب إنحيم، ولم يبق إلا آثارها، وبعض
جدرانها قائمة إلى الآن .

(ومنها) بربا دندرة من الأعمال القوسية .

قال القضاعي : وهي بربا عجيبة فيها مائة وثمانون كوة تدخل الشمس في كل
يوم في كوة منها، ثم تكثر راجعة إلى الموضع الذي بدأت منه، وهي الآن خراب لم
يبق إلا آثارها .

(ومنها) بربا الأقصر: وكانت بربا عظيمة فهُدمت أيضا، ولم يبق منها إلا آثارها .

ومن بقايا الآثار بها صنم عظيم من حجر صوّان أملس، قائم على باب ضريح الشيخ
أبي الحجاج الأقرسي على حاله إلى الآن، ومر عليه زمن الشيخ وهو على ذلك،
ولعله إنما أراد ببقائه التنبيه على ضعف عقول عبدة الأصنام لكونهم يعبدون
حجرا مثل هذا .

(ومنها) بربا أرمنت، وهي بربا صغيرة قد ذهبت معالمها، ولم يبق بها إلا عمدة
صوّان قائمة من غير شيء محمول عليها .

(ومنها) بربا إسنا، وهي متوسطة القدر بين الكبير والصغير، وقد بق منها
قطعة جيدة جعلت شونة للغلال، وأهل إسنا يذكرون أن الفأر لا يدخلها، وإن
دخلها مات .

ومن الآثار العجيبة بمصر أيضا مسلتان بعين شمس على القرب من المطرية من ضواحي القاهرة من حجر صوان أحمر محمدتا الرأسين. ذكر القضاعي: أن الشمس تطلع على الجنوبية منهما في أقصر يوم في السنة، وعلى الشمالية في أطول يوم في السنة؛ وتردد فيما بينهما في بقية السنة. وذكر أنه كان عليهما صومعتان من نحاس، إذا كان زمن زيادة النيل تقاطر الماء من أعلاهما إلى أسفلهما، فنبت حولهما العوسج، وما في معناه من الحشيش.

ومن العجائب حائط العجوز، وهو حائط من لبن، بنتها دلوكة ملكة مصر بعد فرعون، من العريش إلى أسوان، دائرة على أراضي مصر من شرقها وغربها في حلف جيلها، وجعلت بين كل ثلاثة أميال محرسا، وشقت خليجا من النيل إلى جانبها، وآثارها باقية إلى الآن بالجانب الشرقى والجانب الغربى.

المقصد الثاني عشر

(في ذكر قواعدها المستقرة)

وهي ثلاث قواعد، قد تقاربت وأختلطت حتى صارت كالقاعدة الواحدة.

القاعدة الأولى

(مدينة الفسطاط)

بفاء مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم طاء ثانية في الآخر. ويقال فيه فُسطاط بإبدال الطاء الأولى تاء وفساط. قال الجوهري: وكسر الفاء لغة فيمن، وهي المدينة المعروفة بين العامة بمصر وأسمها القديم باب أليون^(١). قال أبو السعادات بن الأثير في نهايته: بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو ونون في الآخر.

(١) وفي ياقوت بابليون الباء الثانية مكسورة واللام ساكنة وقد ذكره أيضا في أليون

قال القضاعي : وهو اسمها بلغة الروم والسودان ، ولذلك يعرف القصر الذي بالشرق بباب أليون ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال في "كتاب الأطوال" : وطولها ثلاث وخمسون درجة ، وعرضها ثلاثون درجة وعشر دقائق .

وقال في "القانون" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال ابن سعيد : طولها ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال في "رسم المعمور" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة .
والذي عليه عمل أهل زماننا في وضع الآلات وغيرها طول خمس وخمسين درجة ،
وعرض ثلاثين .

وآختلف في سبب تسميتها بالفسطاط ، فقال ابن قتيبة : إن كل مدينة تسمى فسطاطاً ، ولذلك سميت مصر الفسطاط .

وقال الزنجشيري : الفسطاط اسم لضرب من الأبنية ، في القدر دون السرادق والذي عليه الجمهور أنه يسمى بذلك لمكان فسطاط عمرو بن العاص رضي الله عنه يعني خيمته ، وذلك أن عمرا لما فتح الحصن المعروف بقصر الشمع في سنة إحدى وعشرين من الهجرة وأستولى عليه ضرب فسطاطه على القرب منه فلما قصد التوجه إلى الإسكندرية لفتحها ، أمر بنزع فسطاطه للرحيل ، فإذا بجمام قد أفرخ فيه فقال : لقد تحرم منّا بحرم ، وأمر بإقرار الفسطاط مكانه ، وأوصى على الجمام ، وسار إلى الإسكندرية ففتحها ، ثم عاد إلى فسطاطه ونزل به ونزل الناس حوله ، وأبنتى داره الصغرى التي هي على القرب من الجامع العتيق مكان فسطاطه ، وأخذ الناس في الأختطاط حوله فتنافست القبائل في المواضع والأختطاط ، فوئى عمرو

على الحِطَط معاوية بن حُديج التُّجَيْبِيَّ، وشريك بن سُمَيِّ الغُطَيْفِيَّ، وعمرو بن قَحْزَم الخَوْلَانِيَّ، وحيويل بن ناشرة المَعَاْفَرِيَّ، ففصلوا بين القبائل وأنزلوا الناس منازلهم، فأختطوا الحِطَط وبنَّو الدور والمساجد، وعُرفت كل خِطَّة بالقبيلة أو الجماعة التي أختطتها، أو بصاحبها الذي أختطها .

فأما الحِطَط والأدُر التي عرفت بالقبائل والجماعات .

(فمنها) خِطَّةُ أهل الرَاية، وهم جماعة من قُرَيْشٍ، والأنصار، وحرَّاعَة، وأسلم، وغِفَارٍ، ومزِينَة، وأشجَع، وجُهَيْنَة، وتَقِيْفٍ، ودَوَسٍ، وعَبَسٍ بن بَغِيضٍ، وجرش من بني كِنَانَة، وليث بن بكر، لم يكن لكل منهم من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان فجعل لهم عمرو بن العاص رايةً لم ينسبها إلى أحد، وقال يكون وقوفكم تحتها، فكانت لهم كالنسب الجامع، وكان ديوانهم عليها فعرفوا بأهل الرَاية، وأنفردوا بخِطَّة وحدهم، وخِطَّتْهم من أعظم الحِطَط وأوسعها .

(ومنها) خِطَّةُ مَهْرَة، وهم بنو مَهْرَة بن حِيدَان بن عمرو بن الحِخْفِ بن قُضَاعَة ابن مالك بن حَمِيرٍ، من قبائل التَّمِيم .

(ومنها) خِطَّةُ مُجَيْبٍ، وهم بنو عَدِيٍّ وسعد ابني الأَشْرَس بن شَيْبِ بن السَّكَن بن الأَشْرَس بن كِنْدَة، ومُجَيْبُ اسم أمهما عرفت القبيلة بها .

(ومنها) خِطَطُ نَلْمٍ، وهي ثلاث : الأولى بنو نَلْمٍ بن عَدِيٍّ بن مَرَّة بن أُدَد، ومن خالطهم من جُدَام . والثانية، بنو عبد ربه بن عمرو بن الحرث بن وائل بن راشدة ابن نَلْم . والثالثة، بنو راشدة بن أَدَب بن جَزِيلَة بن نَلْم .

(ومنها) خِطَطُ اللَّفِيْفِ، وهم جماعة من القبائل تسارعوا إلى مراكب الروم حين بلغ عمرا قدمهم الإسكندرية عند فتحها، فقال لهم عمرو، وقد آستكثرهم : إنكم

(١) كذا في ابن دقاق أيضا ووقع في المقرئ "بنورية" وهو تصحيف .

(٢) في خطط المقرئ "وإن دقاق" فقال لهم عمرو بن جمالة .

لكما قال الله : (فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَقِيفًا) فُسُومُوا اللَّفِيفَ من يومئذ .

(ومنها) خَطَطَ أهل الظاهر ، وهم جماعة من القبائل قفلوا من الإسكندرية بعد قفول عمرو بن العاص ، فوجدوا الناس قد أخذوا منازلهم ، فتحاكموا إلى معاوية بن حُديج الذي جعله عمرو على الخَطِطِ ، فقال لهم : إني أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل ، فسميت منازلهم الظاهر .

(ومنها) خِطَّ غَافِقُ ، وهم بنو غافق بن الحرث بن عك بن صدثان بن عبد الله ابن الأزدي .

(ومنها) خَطَطَ الصِّدْفِ : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين . وهم بنو مالك بن سهيل بن عمرو بن قيس بن حمير من قبائل اليمن ، وقيل بنو مالك بن مرقع بن كندة ، سمي الصِّدْفُ لأنه صَدَفَ بوجهه عن قومه حين أتاهم سَيْلُ العَرِيمِ .

(ومنها) خِطَطَ خَوْلَانُ ، وهم بنو خولان بن عمرو بن مالك بن زيد بن عريب .

(ومنها) خِطَطُ الفَارِسِيِّينَ ، وهم بقايا جند باذان ، عامل كسرى ملك الفرس على اليمن .

(ومنها) خِطَطَ مَدَّجِ ، وهم بنو مالك بن مرة بن أدد بن زيد بن كهلان بن عبد الله .

(ومنها) خِطَّةُ يَحْصَبَ ، وهم بنو يَحْصَبِ بن مالك بن أسلم بن زيد بن غوث

ابن حمير .

(ومنها) خِطَّةُ رُعَيْنِ ، وهم بنو رعين بن زيد بن سهل بن يعفر بن مرة بن أدد .

(ومنها) خِطَّةُ بنى الكَّلَاعِ ، وهو الكَّلَاعُ بن شَرْحَبِيلِ بن سعد بن حمير .

(ومنها) خِطَّةُ المَعَاْفِرِ ، وهم بنو المَعَاْفِرِ بن يعفر بن مرة بن أدد .

(ومنها) خِطَطَ سَبَاً ، وهم بنو مالك بن زيد بن وليعة بن معبد بن سبأ .

(ومنها) خِطَّةُ بنى وائل ، وهو وائل بن زيد مناة بن أفضى بن إياس بن حرام بن

جدام بن عدى .

(ومنها) خِطَّةُ الْقَبْضِ ، وهم بنو القَبْضِ بنِ مَرَّئِدٍ .

(ومنها) خِطَطُ الْحَمْرَاوَاتِ ، وهي ثلاث ؛ سميت بذلك لتزول الروم بها ، وهم حُمْرُ الألوَانِ :

الأولى - الحمراءُ الدُّنْيَا ؛ وبها خِطَّةُ بَلِيٍّ ، وهم بنو بِلِيٍّ بنِ عمرو بنِ إلْحَافِ بنِ قُضَاعَةَ إلا من كان منهم في أهل الرَايَةِ ؛ وَخِطَّةُ ثَرَادِ مِنَ الأَزْدِ ، وَخِطَّةُ فَهْمٍ ، وهم بنو فَهْمٍ بنِ عمرو بنِ قيس بنِ عَيْلَانَ ، وَخِطَّةُ بنِ بجر بنِ سَوَادَةَ مِنَ الأَزْدِ .

الثانية - الحمراءُ الوُسْطَى ، وبها خِطَّةُ بنِ نَبِهٍ ، وهم قوم من الروم حضروا الفتح ؛ وَخِطَّةُ هُدَيْلٍ ، وهم بنو هُدَيْلِ بنِ مُدْرِكَةَ بنِ إِيَّاسِ بنِ مُضَرَ ؛ وَخِطَّةُ بنِ سَلَامَانَ مِنَ الأَزْدِ .

الثالثة - الحمراءُ القُصُوى ، وهي خِطَّةُ بنِ الأَزْرَقِ مِنَ الرُّومِ ، وحضر الفتح منهم أربعمائة رجل ؛ وَخِطَّةُ بنِ يَشْكُرَ بنِ جَزِيلَةَ مِنَ نَلْمٍ ، وإليهم ينسب جبل يَشْكُرُ الذي بُنِيَ عليه جامع أحمد بن طولون الآتي ذكره مع جوامع القُسطَاطِ إن شاء الله تعالى .

(ومنها) خِطَطُ حَضْرَمَوْتٍ ، وهم بنو حَضْرَمَوْتِ بنِ عمرو بنِ قَيْسِ بنِ معاوية بنِ حَمِيرٍ ؛ إلى غير ذلك من الخِطَطِ التي دَرَسْتُ قبل الأهتمام بالتأليف في الخِطَطِ .



وأعلم أنه كان في خلال هذه الخِطَطِ دُورُ جماعة كثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم ممن حضر الفتح .

(منها) دار عمرو بن العاص ، ودار الزبير بن العوام ، ودار قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ، ودار مسلمة بن مخلد الأنصاري ، ودار عبد الرحمن بن عديس البلوي ، ودار وهب بن عمير بن وهب بن خلف الجحفي ، ودار نافع بن عبد القيس بن لقيط الفهري ، ودار سعد بن أبي وقاص ، ودار عقبة بن عامر الجهني ، ودار القاسم

وعمر بن قيس بن عمرو، ودار عبد الله بن سعد بن أبي سريح العامري، ودار مسعود بن الأسود بن عبد شمس بن حرام البلوي، ودار المستورد بن شداد النهري، ودار حبي بن حرام الليثي، (وفي صحبته خلاف)، ودار الحرث بن مالك الليثي المعروف بأبن البرصاء، ودار بشر بن أرطاة العامري، ودار أبي ثعلبة الخشني، ودار إياس بن البكير الليثي، ودار معمر بن عبد الله بن نضلة القرشي العدوي، ودار أبي الدرداء الأنصاري، ودار يعقوب القبطي رسول المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مارية: أم ولده إبراهيم وأختها شيرين، ودار مهاجر مولى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، ودار عتبة بن زيد الأنصاري، ودار محمد ابن مسامة الأنصاري، ودار أبي الأسود مسروح بن سدر الحصني، ودار عبد الله ابن عمر بن الخطاب، ودار خارجة بن حدافة بن غانم العدوي، ودار عقبة بن الحرث، ودار عبد الله بن حدافة السهمي، ودار محمية بن جزء الزبيدي، ودار المطلب بن أبي وداعة السهمي، ودار هبيب بن معقل الغفاري، وبه يعرف وادي هبيب بالقرب من الإسكندرية، ودار عبد الله بن السائب المخزومي، ودار جبر القبطي رسول المقوقس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودار يزيد بن زياد الأسامي، ودار عبد الله بن ريان الأسامي، (وفي صحبته خلاف)، ودار أبي عميرة رشيد بن مالك المزني، ودار سباع بن عرفطة الغفاري، ودار نضلة بن الحرث الغفاري، ودار الحرث بن أسد الخزاعي (وفي صحبته خلاف)، ودار عبد الله بن هشام بن زهرة من ولد تميم بن مرة، ودار خارجة بن حدافة بن غانم العدوي، وهو أول من أبتنى غرفة بالفسطاط، فكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أمرها فكتب إلى عمرو بن العاص: أن أدخل غرفة خارجة وأنصب فيها سريرا، وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كواها فاهدمها. ففعل عمرو فلم

يبلغ الكوى فأقرها، ودار محمد بن حاطب الجحى، ودار رِفاعَة الدَّوسى، ودار فضالة
 ابن عبيد الأنصارى، ودار المطلب بن أبى وداعة السهمى . إلى غير ذلك من الدور
 التى أغفلت ذكرها أصحاب الحطط .

قلت : وكان أمراء مصر القائمون مقام ملوكها الآن يتزلون بالفسطاط، ولم يكن
 لهم فى ابتداء الأمر مقرّة معيّنة، ولا دار للإمارة مخصوصة . فنزل عمرو بن العاص
 أوّل أمرائها بداره على القرب من الجامع ، ولم يزل كلُّ أمير بعده ينزل بالدار التى
 يكون بها سكنه إلى آخر الدولة الأمويّة، وكان عبد العزيز بن مروان ، وهو أمير
 مصر فى خلافة أخيه عبد الملك بن مروان قد بنى دارا عظيمة بالفسطاط سنة سبع
 وستين من الهجرة وسماها دار الذهب، وجعل لها قبة مذهبة إذا طلعت عليها
 الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفا على بصره، وكانت تعرف بالمدينة لسعتها
 وعظمتها، وكان عبد العزيز ينزلها ، ثم نزلها بنوه بعده . فلما هرب مروان بن محمد
 آخر خلفاء بنى أمية إلى مصر، نزل هذه الدار فلما رهقه القوم، أمر بإحراقها، فلامه
 فى ذلك بعض بنى عبد العزيز بن مروان فقال : إن أبى ، أنها لينة من ذهب
 ولينة من فضة، وإلا فما تصاب به فى نفسك أعظم، ولا يتمتع بها عدوك من بعدك .
 فلما غلب بنو العباس على بنى أمية وهرب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى
 أمية إلى الديار المصرية، وتبعه على بن صالح بن على الهاشمى إلى أن أدركه بمصر
 وقتله وأستقر أميرا على مصر فى خلافة السفّاح أوّل خلفاء بنى العباس، آبتنى دارا
 للإمارة ونزلها، وصارت منزلة للأمراء بعده إلى أن ولي أحمد بن طولون الديار
 المصرية فنزل بها فى أوّل أمره، ثم آختط بعد ذلك قصره المعروف بالميدان فيما بين
 قلعة الجبل الآن والمشهد النفيسى وما إلى ذلك فى سنة ست وخمسين ومائتين ،

وكان له عدّة أبواب : بعضها عند المشهد النفيسى ، وبعضها عند جامعة الآت ذكره ، وأختطّ الناس حوله ، وأقتطع كل أحد قطعة آبتنى بها ، فكان يقال : قطعة هارون بن حمارويه ، وقطعة السُودان ، وقطعة القَرّاشين ، فعرف ذلك المكان بالقطائع ، وتزايدت العارة حتّى اتّصلت بالفُسْطَاطِ ، وصار الكلّ بلدا واحدا ، ونزل أحمد بن طولون بقصره المذكور ، وكذلك بنوه بعده ، وأهملت دار الإمارة التي آبتناها على بن صالح بالفُسْطَاطِ . وأسقطّر الأمر على ذلك بعده أيام ابنه حُمارويه وولديه جيش وهارون ، وزادت العارة بالقطائع في أيامهما ، وكثرت الناس فيها حتّى قتل هارون بن حُمارويه بعد قتل أبيه وأخيه ، وسار محمد بن سليمان الكاتب بالعساكر من العراق من قِبَلِ المُسْتَكْفِي بالله ، ووصل إلى مصر في سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وقد وثى الطُّولُونِيَّةَ عليهم رَبيعةَ بن أحمد بن طولون ، قسّم البلد منه ونحّب القطائع وهدم القصر وقلع أساسه ، ونحرب موضعه حتّى لم يبق له أثر . وكان بدر الخفيفي غلام أحمد بن طولون قد بنى دارا عظيمة بالفُسْطَاطِ عند المُصَلَّى القديمة ، وقيل آشترها له أحمد بن طُولُون ، ثم تخط عليه أحمد فنكبه ، وسكنها بعده طاهر بن حُمارويه ، ثم سكنها بعده الحماي غلام أحمد بن طولون . فلما هدم محمد بن سليمان الكاتب قصر بنى طولون بالقطائع ، سكن هذه الدار ، ثم سكنها عيسى النَّوْشَرِي أمير مصر بعده ، وأسقطرت منزلةً للأمرء إلى أن ولي الإخشيدُ مصر فزاد فيها وعظّمها ، وعمل لها مِيدَانًا وجعل له بابا من حديد ، وذلك في سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، ولم تزل منزلةً للأمرء إلى أن غلبت الخلفاء الفاطميون الإخشيدية على مصر وبنى القائد جوهر القاهرة والقصر ، فنقل باب هذه الدار إلى القاهرة ، وصار القصر منزلة لهم على ماسياتي ذكره في الكلام على خطط القاهرة إن شاء الله تعالى .

وصار الفسطاط في كل وقت تتزايد عمارته حتى صار في غاية العماره ونهاية الحسن .
به الأدر الأنيقة ، والمساجد القائمة ، والحمامات الباهية ، والقياسر الزاهية ،
والمستترهات الرائقة ؛ ورحل الناس إليه من سائر الأقطار ، وقصدوه من جميع
الجهات ؛ وغص بسكانه ، وضاق فضائه الرحيب عن قطانه . حتى حكى صاحب
” إيقاظ المتغفل “ عن بعض سكان الفسطاط أنه دخل حماما من بناء الروم في أيام
نحوارويه بن طولون في سنة سبع عشرة وثلاثمائة فلم يجد فيها صنعا يخدمه ، وكان
فيها سبعون صنعا قل منهم من معه ثلاثة نفر يغسلهم ، وأنه دخل بعدها حماما
ثم حماما فلم يجد من يخدمه إلا في الحمام الرابعة ، وكان الذي خدمه معه ثان .

وحكى في موضع آخر عن يثق به عن أبيه أنه شاهد من مسجد الوركوة بالفسطاط^(١)
إلى جامع ابن طولون قصبه سوق متصلة ، فعدها ما بها من مقاعد الحص المصلوق
فكانت ثلاثمائة وتسعين مقعدا غير الحوانيت وما بها .

وحكى أيضا عن أخبره أنه عد الأسطال النحاس المؤبدة في البكر لاستقاء الماء
في الطافات المطلة على النيل ، فكانت ستة عشر ألف سطل . قال : وبلغ أجرة
مقعد يكرى عند البيارستان الطولوني بالفسطاط في كل يوم آثنى عشر درهما .

وذكر ابن حوقل أنه كان بالفسطاط في زمانه دار تعرف بدار ابن عبيد العزيز
بالموقف يُصب لمن فيها من السكان في كل يوم أربعائة راوية ماء ، وفيها خمسة
مساجد ، وحمامان ، وفوران .

قلت : ولم يزل الفسطاط زاهى البنيان ، باهى السكان ، إلى أن كانت دولة الفاطميين
بالديار المصرية ، وعمرت القاهرة على ماسياتى ذكره ، فتقهقر حاله وتناقص ، وأخذ
الناس في الانتقال عنه إلى القاهرة وما حولها ، فخلا من أكثر سكانه ، ونتابع الخراب

(١) الذى في الخطط للقرزى حين روى هذه الحكاية عن ” إيقاظ المتغفل “ أيضا ، ” مسجد عبدالله “
فلعله يسمى بذلك أيضا .

في بنيانه، إلى أن غلب الفرنج على أطراف الديار المصرية في أيام العاضد: آخر خلفاء الفاطميين، ووزيره يومئذ شاور السعدى نخاف على القُسطاط أن يملكه الفرنج ويحصنوا به، فأضرم في مساكنه النار فأحرقها فتزايد الخراب فيه وكثر الخلو.

ولم يزل الأمر على ذلك في تفهقر أمره إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس: أحد ملوك التُّرك بالديار المصرية، فصرف الناس همتهم إلى هدم ما خلا من أخطاطه والبناء بتفضيه بساحل النيل بالقُسطاط والقاهرة، وتزايد الهدم فيه وأستمر إلى الآن، حتى لم يبق من عمارته إلا ما بساحل النيل، وما جاوره إلى ما يلي الجامع العتيق وما داني ذلك، ودرثت أكثر الحُطط القديمة وعفا رسمها، وأصَحَّحَّ ما بقي منها وتغيرت معاملة.

وإذا نظرت إلى خطط الكندى والقضاعى والشريف السَّابَّة، عرفت ما كان القُسطاط عليه من العماره وما صار إليه الآن، وإنما أجرينا ذكر بعض الخطط المتقدمة، حفظاً لأسمائها وتبنيها على ما كانت عليه. إلا أن في ساحله المِطَلَّ على النيل الآن وما جاور ذلك المباني الحسنه، والدور العظيمة، والقصور العالیه، التي تبهج الناظر، وتسر الخاطر.

وكان أكثر بنيانه بالأجر المحكوك والجبس والحير من أوثق بناء وأمكنه، وآثاره الباقية تشهد له بذلك، وقد صار ما حרב منه ودثر كيانه كالجبال العظيمة، وهجر غالبها وترك، وسكن في بعضها رعاع الناس ممن لا يعبأ به في جوانب منها لا تعد في العامر.

ومن كيانه المشهوره التي ذكرها القضاعى كُوم الجارح، وكوم دينار، وكوم السمكة وكوم الزينة، وكوم الترمس؛ وزاد صاحب "إيقاظ المتغفل" كوم بنى وائل، وكوم ابن غراب، وكوم الشقاف، وكوم المشانيق.

ويقابل الفُسطاط من الجهة البحرية جزيرة الصّناعة المعروفة الآن بالرّوضة ،
كانت صناعة العائر أولاً بها فنسبت إليها .

قال الكنديّ : وكان بناؤها في سنة أربع وخمسين ثم غلب عليها اسم الروضة
لحسنها ونضارتها وإطافة الماء بها ، وما بها من البساتين والقصور ، وهي جزيرة قديمة
كانت موجودة في زمن الروم . وكان بها حصن عليه سور وأبراج ، وبين الفُسطاط
وبينها جسر ممتد من المراكب على وجه النيل كما في جسر بغداد على الدجلة ولم يزل
قائماً إلى أن قدم المأمون مصر فأحدث عليه جسراً من خشب تمرّ عليه المآزة
وترجع ، وبعد خروج المأمون من مصر هبت ريح عاصفة في الليل فقطعت الجسر
القديم ، وصدمت بسفنه الجسر المحدث فذهب جميعاً ، ثم أعيد الجسر المحدث
وبطل القديم .

وقد ذكر القضاعيّ : أنه كان موجوداً إلى زمنه ، وكان في الدولة الفاطمية ، ثم جدّد
الحصن المذكور أحمد بن طولون أمير مصر في خلافة المعتمد في سنة ثلاث ومائتين ،
ثم استهدم بعد ذلك بتأثير النيل في أبراجه ومرور الزمان عليه ، ثم بنى الصالح نجم
الدين أيوب قلعةً مكانه في سنة ثمان وثلاثين وستمائة ، وبقيت حتى هدمها المعز
أيك التركيّ أول ملوك الترك ، وعمر من نقضها مدرسته المعزّية برحبة الخروب ،
وآخذها الناس مكانها أملاكاً ، وهي على ذلك إلى زماننا ، ولم يبق بها إلا بعض أبراج
آخذها الناس أملاكاً وعمرها عليها بيوتا . فلما ملك الظاهر بيبرس ، هم بإعادتها
فلم يتفق له ذلك وبقيت على حالها .

قلت : وكانت أُرْفَة النيل التي بين جزيرة الصّناعة وبين الفُسطاط هي أقوى
الفرقتين والتي بين الجزيرة والحيزة هي الضعيفة ، ثم انعكس الأمر إلى أن صار ما بين
الجزيرة والفُسطاط يحف ولا يعلوه الماء إلا في زيادة النيل ، ويسدوين آخر

(١) في الأصل أُرْفَة وهو تصحيف والأرْفَة بالراء المهملة الحد والمستأنة والمراد بها هنا الفرقة .

الْفُسْطَاط وهذه الجزيرة على فُوْهَة خليج القاهرة حيث السدّ الذي يفتح عند وفاء النيل مكانً كالجزيرة، يعرف بِمُنْشَاة المَهْرَانِي كان كوما يحرق فيه الأجر يعرف بالكوم الأحمر، عدّه القضاعيّ في جملة كيان الفُسْطَاط .

قال صاحب "إيقاظ المتغفل" : وأول من آبتدأ فيه العمارة بلبان المهرانيّ في الدولة الظاهرية بيبرس فنسبت المنشأة إليه .

ويلى الفُسْطَاط من غربيّه بركةٌ تعرف ببركة الحَبَش، وهى أرض مزدرعة .
قال القضاعيّ : كانت تعرف ببركة المَعَاْفِرِ وَحِمَيْرٍ، وكان فى شرقها جَنَات تعرف بالحبش فنسبت إليها .

وذكر ابن يونس فى تاريخه أن تلك الجنات تعرف بقتادة بن قيس بن حبشى الصدقيّ، وهو ممن شهد فتح مصر .

قلت : وهى الآن موقوفة على الأشراف من ولد علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقفها عليهم الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائق والعاقد من الخلفاء الفاطميين، ويلىه من قبله حيث القرافة المكان المعروف بالحنديق، كان قد آحتفزه عبد الرحمن بن عيينة خندقاً فى سنة خمس وستين من الهجرة عند مسير مروان بن الحكم إلى مصر، فعرف بذلك .



وأما جوامعُه فســــتة :

الأوّل

(الجامع العتيق المعروف بجامع عمرو)

وذلك أن عمراً لما بنى داره الصغرى مكان فُسْطَاطِه على ما تقدّم ذكره، آختط الجامع المذكور فى خِطّة أهل الراية المتقدمة الذكر .

قال القضاعى : وكان جنانا فيما ذكر الليث بن سعد . قال : وكان الذى حاز موضعه قَيْسَبَةَ بن كَثْوَمِ التَّجِيبِيَّ أحد بنى سُوم ، فنزله فى حصار الحصن المعروف بقصر الشَّمْع ، فلما رجع عمرو من الإسكندرية ، سأل قَيْسَبَةَ فيه ليجعله مسجدا فسلمه إليه ، وقال : تصدقتُ به على المسلمين ، وأختط له خِطَّة مع قومه فى بنى سُوم فى بُجَيْب ، فُبْنِي فى سنة إحدى وعشرين ، وكان طوله خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا ، ويقال : إنه وَقَفَ على قبلته ثمانون رجلا من الصحابة رضوان الله عليهم : منهم الزُّبَيْر بن العَوَّام ، والمُقَدَّاد بن الأَسود ، وعُبَادَةُ بن الصَّامِت ، وأبو الدَّرْدَاء ، وأبو ذَرِّ الغِفَارِي ، وأبو بَصْرَةَ الغِفَارِي وغيرهم ، ولم يكن له يومئذ محرابٌ مَجُوفٌ بل عمد قائمة بصدر الجدار ، وكان له بابان يقابلان دار عمرو ابن العاص ، و بابان فى بَحْرِيَّة ، و بابان فى غَرْبِيَّة ، وطوله من قِبَلِهِ إلى بحريه مثل طول دار عمرو ، وبينه وبين دار عمرو سبعة أذرع . ولما فرغ من بنائه ، آخذ عمرو بن العاص له منبراً يخطب عليه ، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعزم عليه فى كسره ، ويقول : أما يكفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره . ويقال إنه أعاده إليه بعد وفاة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

وقيل إن زكريا بن مرقيا ملك التوبة أهدى لعبد الله بن أبى سرج العامرى^(١) فى إمارته على مصر منبرا فجعله فى الجامع ، ثم زاد فيه مسلمة بن مُحَمَّدٍ الأنصارى فى سنة ثلاث وخمسين من الهجرة ، وهو يومئذ أمير مصر من قبيل معاوية بن أبى سفيان زيادة من بَحْرِيَّة ، وزخرفه ، وهو أول من صلى على الموتى داخل الجامع ، وتوالت فيه الزيادات والتجديدات إلى زماننا . وأول من رتب فيه قراءة المصحف

(١) فى ابن دقاق المخطوط "ابن مرقى" .

عبد العزيز بن مروان في إمارته في سنة ست وسبعين، ورفع عبد الله بن عبد الملك سقفه في سنة تسع وثمانين بعد أن كان مطاطاً؛ ثم جعل فيه المحراب المجوف قبة ابن شريك العبسي أتباعاً لعمر بن عبد العزيز في محراب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وأحدث فيه المقصورة تبعاً لمعاوية حيث فعل ذلك بالشام .

وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة أمر موسى بن نصر الخنمي وهو أمير مصر باتخاذ المنابر في جميع جوامع قرى مصر . وأول من نصب اللوح الأخضر فيه عبد الله ابن طاهر، وهو أمير مصر في سنة اثنتي عشرة ومائتين؛ ثم أحترق الرواق الذي فيه اللوح الأخضر في ولاية حمارويه بن أحمد بن طولون، فعمره حمارويه في سنة خمس وسبعين ومائتين . ثم جدد اللوح الظاهر ببيرس في سنة ست وستين وستمائة ثم جدد اللوح الأخضر برهان الدين المحلى التاجر في سلطنة الظاهر بقوق في أواخرها وقد وصف صاحب "إيقاظ المتغفل" الجامع على ما كان في زمانه في حدود ثلاث عشرة وسبعمائة فقال : إن ذرعه ثمانية وعشرون ألفاً بذراع العمل، مقدمه ثمانية آلاف ذراع وتسعمائة ذراع وخمسون ذراعاً، ومؤخره ثمانية آلاف ذراع وتسعمائة وخمسون ذراعاً، وصحنه خمسة آلاف ذراع، جانبه الشرقي ألفاً ذراعاً وخمسمائة ذراعاً وخمسون ذراعاً، وجانبه الغربي كذلك؛ وأبوابه ثلاثة عشر باباً لكل باب منها اسم يخصه، في جانبه القبلي باب واحد؛ وبه أربعة وعشرون رواقاً، سبعة في مقدمه، وسبعة في مؤخره، وخمسة في شرقيه، وخمسة في غربيه؛ وفيه ثلاثمائة عمود وثمانية وستون عموداً، بعضها منفرد وبعضها مضاف مع غيره؛ وبصدره ثلاثة محاريب : المحراب الكبير المجاور للنبأ، والمحراب الأوسط، ومحراب الخمس؛ وفيه خمس صوامع : إحداها في ركنه القبلي مما يلي الغربي، وهي الغرفة؛ والثانية في ركنه القبلي مما يلي الشرقي، وهي المنارة الكبرى؛ والثالثة في ركنه البحري

مما يلي الشرقى ، وتعرف بالجديدة ، والرابعة فيما بين هذه المنارة والمنارة الآتى ذكرها ، وتعرف بالسعيدة ، والخامسة في الركن البحرى مما يلي الغربى مقابل باب السطح ، وتعرف بالمستجدة .

وهو على هذه الصفة إلى الآن لكنه قد أستهدم رواق اللوح الأخضر والرواقات التى داخله ، فأمر السلطان الملك الظاهر ببنائها ، فعلقت جُدْرُه على الخشب ، فأخرمته المنية قبل الشروع فى البناء ، وأخذ القاضى برهان الدين المحلى تاجر الخالص فى عمارة ذلك ، فهدم رواق اللوح الأخضر وما داخله ، وجدد اللوح الذى كان قد نصبه الظاهر بيبرس ، وعمر الرواقات المستهدمة أنفس عمارة وأحسنها .

قلت : ومما يجب التنبيه عليه أنه قد تقدم أنه وقف على إقامة محراب هذا الجامع ثمانون رجلا من الصحابة ، وحينئذ يلحق بمحاريب البصرة والكوفة على الوجه الصائر إليه بعض أصحابنا الشافعية فى أنه لا يجتهد فى التيامن والتياسر فى محاريبهما كما نبه عليه الشيخ تقي الدين السبكي فى شرح منهاج النووى فى الفقه ، لكن قد ذكر القضاعى فى خططه عن الليث بن سعد وابن هبيرة أنهما كانا يتيامنان فى صلاتهما فيه ، وأن محرابه كان مشرقا جدا ، وأن قرة بن شريك حين هدمه وبناءه ، تيامن به قليلا .

وقد حكى الشيخ تقي الدين السبكي فى شرح المنهاج أيضا عن بعض علماء الميقات : أنه أخبره أن فيه الآن انحرافا قليلا . قال : ولعله من تغيير البناء ، وقد سألت بعض علماء هذا الشأن عن ذلك ، فأخبرنى عن الشيخ تقي الدين أبى الطاهر رأس علماء الميقات فى زماننا أنه كان يقول : من الدلالة على صحة عملنا فى أستخراج القبلة موافقته لمحراب الجامع العتيق .

الثاني

(الجامع الطولوني)

بناه أحمد بن طولون في سنة تسع وخمسين ومائتين على الجبل المعروف بجبل يَشْكُرُ .
قال القضاعي : وينسب إلى يَشْكُرَ بن خزيمة من لحم ، كان خِطَّةَ لهم .
قال ابن عبد الظاهر : وهو جبل مبارك معروف بإجابة الدعاء فيه .

قال : ويقال : إن الله تعالى كلم موسى عليه السلام عليه . ويقال : إن ابن طولون أنفق على هذا الجامع مائة ألف دينار وعشرين ألفاً من كَثْرَةِ وجده .
ويقال : إنه لما فرغ من بنائه أمر بتسميع ما يقوله الناس فيه من العيوب ، فسمع رجل يقول : محرابه صغير ، وآخر يقول : ليس فيه عمود ، وآخر يقول : ليس فيه ميضأة ، فقال : أما المحراب ، فإني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد خطه لي ، فأصبحت فرأيت النمل قد أطافت بالمكان الذي خطه لي . وأما العمدُ ، فإني بنيت من مال حلال ، وهو الكنز الذي وجدته فما كنت لأشوبه بغيره ، والعمد لا تكون إلا من مسجد أو كنيسة فزهرته عن ذلك . وأما الميضأة ، فأردت تطهيره من النجاسات ، وما أنا بأبيها خلقه ، ثم أمر ببنائها على القرب .

ويحكى أنه كان لا يعيب بشيء قط ، وأنه أخذ يوماً درج ورق أبيض وأخرجه ومدّه كالحزون ، ثم استيقظ لنفسه وظن أنه فُطِنَ له ، فأمر بعمارة المنارة على تلك الهيئة ، وعلى نظير العشارى الذى على رأسها عمَل العشارى الذى على رأس قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه . ولما فرغ من بناء الجامع رأى في منامه كأن ناراً نزلت من السماء فأحرق الجامع دون ما حوله فعبر رؤياه على عابر فقال له : بُشْرَاكَ بقوله ، فإن الأمم الخالية كانوا إذا قربوا قرباناً فتقبلت نار من السماء فأكلته ، كما في قصة هابيل وقابيل ، ورأى مرة أخرى كأن الحق سبحانه وتعالى تجلّى على ماحول الجامع

فعبّره له عابراً بأنه يخرب ما حول الجامع ويبقى هو، بدليل قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ وكان الأمر كذلك، فهدمت منازل بني طولون في نكبتهم ولم يبق منها إلا الجامع .

الثالث

(جامع راشدة)

بناه الحاكم بأمر الله الفاطميّ جنوبيّ الفسطاط، على القرب من الرصد، وأدخله في وقفه مع الجامع الأزهر وجامع المقيس .
قال في "إيقاظ المتغفل": ليس هو بجامع راشدة حقيقة، وإنما جامع راشدة كان بالقرب منه، وهو جامع قديم بنته قبيلة يقال لها راشدة عند الفتح الإسلامي، فلما بنى الحاكم هذا سمي باسمه . قال: وقد أدركت بعضه ومحراه، وكان فيه شجر كثير من شجر المقل .

الرابع

(جامع الرصد)

بناه الأمير عز الدين أبيك الأفرم أمير جاندار الصالحى النجمىّ في شهر سنة ثلاث وستين وستمائة، عمّر منظّرة المعروفة به هناك، وعمّر رباطاً بجانبه قتر فيه عدداً تتعقد به الجمعة مقيمين فيه ليلاً ونهاراً .

الخامس

(جامع الشعبية بظاهر مصر أيضاً)

بناه الأمير عز الدين الأفرم المذكور في سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وسكنه الشيخ شمس الدين بن اللبان الفقيه الشافعىّ الصوفىّ فعرف به الآن .

السادس

(الجامع الجديد)

بناه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من مَوْرَدَة الخلفاء، وبدأ بعمارته في التاسع من المحرم في سنة إحدى عشرة وسبعائة، وأتمت عمارته في ثامن صفر سنة اثنتي عشرة وسبعائة، وخطب به قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعي، وصلى فيه الجمعة في التاسع من الشهر المذكور، ورتب فيه صوفية يحضرونه بعد العصر كما في الخوايق، وهو من أحسن الجوامع وأزهبها بقعة خصوصا في أيام زيادة النيل.



وأما مساجد الخمس، فكانت على العدد الذي لا يحصى لكثرتها، وخطط القضاء شاهدة بذلك .

وقد رأيت في بعض التواريخ أن الفناء وقع في أيام كافور الاخشيدى حتى لم يجدوا من يقبل الزكاة، فأتوا بها إلى كافور فلم يقبلها، وقال : أبنوا بها المساجد وأتخذوا لها الأوقاف، فكان ذلك سبب زيادة الكثرة فيها، ولكنها الآن قد خربت بخراب الفسطاط ودثرت ولم يبق إلا آثار القليل منها .



وأما المدارس، فكان المتقدمون يجلسون للعلم بالجامع العتيق؛ وأول من أحدث المدارس بالفسطاط بنو أيوب، فعمر السلطان صلاح الدين رحمه الله مدرستين .
إحدهما - مدرسة المالكية، المعروفة بالقمحية في المحرم سنة ست وستين ونحسائة، وسميت بالقمحية لأن معلومها يصرف للمدرسين والطلبة قمحا .
قال العماد الكاتب : وكانت قبل ذلك سوقا يباع فيه الغزل .

والثانية - المدرسة المعروفة بابن زين التجار، وكانت سجنًا يسجن فيه فيها السلطان صلاح الدين مدرسة ووقفها على الشافعية، ووقف عليها الصاغة المجاورة لها

ثم عمّر الملك المظفر تقيّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بالمكان المعروف بمنازل العز بالقرب من باب القنطرة قبليّ الفُسْطَاط مدرسةً ووقف عليها أوقافاً من جملتها جزيرة الصّناعة المعروفة بالرّوضة .

ثم بنى السلطان الملك المعزّ أيك التُّركمانيّ أول ملوك الترك مدرسته المعزية برحبة الخروب في شهور سنة أربع وخمسين وستمائة .

وعمّر الصاحب شرف الدين بن الفائزيّ مدرسته الفائزية قبل وزارته في شهور سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وعمّر الصاحب بهاء الدين بن حنا المدرسة الصاحبية بزقاق القناديل بعد ذلك .



وأما الخوانق والرُّبُط فلم تعهد بالفُسْطَاط ، غير أن الصاحب بهاء الدين بن حنا عمّر رباط الآثار الشريفة النبوية بظاهر قبليّ الفسْطَاط وأشترى الآثار الشريفة وهي ميلٌ من نُحَاس ، ومِلْقَطٌ من حديد ، وقطعة من العنزة ، وقطعة من القَصْعة بجملة مال وأثبتها بالاستفاضة وجعلها بهذا الرباط للزيارة .



وأما البيارستان فأول من أنشأه بالفُسْطَاط أحمد بن طولون في سنة تسع وخمسين ومائتين وأنفق عليه ستين ألف دينار .

قال القضاعيّ : ولم يكن قبله بيارستان بمصر ، وشرط أن لا يعالج فيه جُنْدِيٌّ ولا مملوك .

القاعدة الثانية

(القاهرة)

(بألف ولام لازمين في أولها وقاف مفتوحة بعدها ألف ثم هاء مكسورة وراء مهملة مفتوحة ثم هاء في الآخر) ويقال فيها القاهرة المعزّية نسبة إلى المعزّ الفاطميّ الذي بنيت له ، وربما قيل المعزية القاهرة ، سميت بذلك تفاقولا ، وهي المدينة العظمى التي ليس لها نظير في الآفاق ، ولا يسمع بها في مصر من الأمصار . بناها القائد جوهر المعزّي لمولاه المعزّ لدين الله أبي تميم معدّ ، بن المنصور أبي الطاهر إسماعيل ، بن القائم أبي القاسم محمد ، بن المهديّ بالله أبي محمد عبيد الله الفاطميّ في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، عند وصوله إلى الديار المصرية من المغرب ، واستيلائه عليها ، وموقعها شماليّ القُسطاط المتقدّم ذكره على القرب منه .

قال في ”الروض المعطار“ : وبينهما ثلاثة أميال . وكأنه يريد ما كان عليه الحال في ابتداء عمارة القاهرة وهو ما بين سور القُسطاط وسور القاهرة . أما الآن فقد أنتشرت الأبنية وأتصلت العمارة حتى كادت المدينتان تتصلان أو أتصلتا .

قال القاضي محي الدين بن عبد الله الظاهر في خِطَط القاهرة : والذي استقرّ عليه الحال أن حدّ القاهرة من السبع سقايات إلى مشهد السيدة رُقِيّة عرضاً ، وكان قبل ذلك من المجنونة .

قال ابن سعيد : وكان مكانها قبل العمارة بستانا لبني طولون على القرب من منازلهم المعروفة بالقطائع . وكيفما كان ، فطولها وعرضها في معنى طول القُسطاط وعرضه أو أكثر عرضاً بقليل ، وكان ابتداء عمارتها أنّ أمر إفريقيّة وغيرها من بلاد المغرب كان قد أفضى إلى المعزّ المذكور ، وقوى طمعه في مصر بعد موت كافور الإخشيدي

وهى يومئذ والشأم والحجاز بيد أحمد بن علي بن الاخشيد أستاذ كافور وهو صبي لم يبلغ الحلم ، والمتكلم في المداكمة أهل دولته ، والحسين بن عبدالله ، في الشأم كالنائب أو الشريك له يدعى له بعده على المنابر .

وكانت مصر قد ضُعب عسكرها لما دَهَمها من الغلاء والوباء ، فجهز المعزُّ قائده جوهر المتقدم ذكره ، فبرز جوهر إلى مدينة رقادة من بلاد إفريقية في أكثر من مائة ألف وما يزيد على ألف صندوق من المال ، وخرج المعزُّ لتشييعه ، فقال للشايخ الذين معه : " والله لو خرج جوهر هذا وحده ، لفتح مصر ، وليدخلها بالأردية من غير حرب ، ولينزلن في خرابات ابن طولون ، ويبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا " وكان للمعز نلام ببرقة اسمه أفلح ، فكتب إليه المعزُّ أن يترجل لجوهر إذا عبر عليه ويقبل يديه ، فبذل مائة ألف دينار على أن يعنى من ذلك ، فأبى المعزُّ إلا ذلك ، فترجل من مكانه وقبل يديه ، وسار جوهر حتى دخل مصر وتسلمها لسبع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة ، ونزل في منأخه من سفره موضع القاهرة الآن ليلا ، وأخطت القصر وأخذ في بنائه وعمارة القاهرة ، وأخطت الناس حوله .

فأما القصر ، فإنه أخطه في الليلة التي أناخ فيها قبل أن يصبغ ، فلما أصبح رأى فيه أزوارات غير معتدلة فلم يعجبه ، ثم قال : قد حفر في ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه على حاله وتمادى في بنيانه حتى أكمله .

ومكانه الآن المدرسة الصالحية بين القصرين إلى رجة الأيدمرى طولاباً ومن السبع حوخ إلى رجة باب العيد عرضاً ، والحد الجامع لذلك أن تجعل باب المدرسة الصالحية على يسارك وتمضى إلى السبع حوخ ، ثم إلى مشهد الحسين ، ثم إلى رجة الأيدمرى ، ثم إلى الركن الخلق ، ثم إلى بين القصرين حتى تأتي إلى باب المدرسة

الصالحية من حيث ابتدأت، فما كان على يسارك في جميع دَوْرَتِكَ فهو موضع القصر .
وكان له تسعة أبواب بعضها أصليٌ وبعضها مستحدث .

أحدها - باب الذهب ، ويقال إنه كان مكان المدرسة الظاهرية الآن .

الثاني - باب البحر ، ويقال إن مكانه باب قصر يشبك . قال ابن عبد الظاهر :
وهو من بناء الحاكم .

الثالث - باب الزهومة ، ومكانه قاعة شيخ الحنابلة بالمدرسة الصالحية ، وكانت
الصاغة مطبخاً للقصر وكانوا يدخلون بالطعام إلى القصر من ذلك الباب فسمى باب
الزهومة لذلك ، والزهومة الذفر .

الرابع - باب التربة ، ويقال إن مكانه بين باب الزهومة المتقدم الذكر
ومشهد الحسين .

الخامس - باب الدَّيْلَم ، وهو باب مشهد الحسين .

السادس - باب قَصْرِ الشوك ، ومكانه بالموضع المعروف بقصر الشوك على
القرب من رحبة الأيدمرى .

السابع - باب العيد ، وهو باب البيارستان العتيق ، سمي بذلك لأن الخليفة
كان يخرج منه لصلاة العيد ، وإليه تنسب رحبة باب العيد .

الثامن - باب الزمرد ، وهو إلى جانب باب العيد المتقدم ذكره .

التاسع - باب الريح ، وقد ذكر ابن الطَّوَيَّر أنه كان في ركن القصر الذي
يقابل سور دار سعيد السعداء التي هي الخاتمة الآن .

ثم أستجد المأمون بن البطائحي وزير الأمر تحت القوس الذي بين باب الذهب
وباب البحر ثلاث مناظر ، وسمى إحداها الزاهرة ، والثانية الفاخرة ، والثالثة الناضرة .

وكان "الآمر" يجلس فيها ليعرض العساكر في عيد الغدير، والوزير واقف في قوس باب الذهب، وكان مكان السيوفيين الآن سلسلة ممتدة إلى ما يقابلها تعلق في كل يوم من وقت الظهر حتى لا يجوز تحت القصر راكب، ولذلك يعرف هذا المكان بدرب السلسلة .

ومما هو داخل في حدود القصر مشهد الحسين .

وسبب بنائه أن رأس الإمام الحسين عليه السلام كانت بعسقلان، فحشي الصالح طلائع بن رزيق عليها من الفرنج فبنى جامعاً خارج باب زويلة، وقصد نقل الرأس إليه فغلبه الفائر على ذلك، وأمر بابتناء هذا المشهد، ونقل الرأس إليه في سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

ومن غريب ما أتفق من بركة هذه الرأس الشريفة ما حكاه القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر : أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حين آستولى على هذا القصر بعد موت العاضد: آخر خلفاء الفاطميين بمصر قبض على خادم من خدام القصر وحلق رأسه وشد عليها طاساً داخله خنفس فلم يتأثر بها، فسأله السلطان صلاح الدين عن ذلك وما السرفيه، فأخبر أنه حين أحضرت الرأس الشريفة إلى المشهد حملها على رأسه، فحلى عنه السلطان وأحسن إليه .

وكان بجوار القصر قصر صغير يعرف بالقصر النافعي من جهة السبع خوخ فيه عجائب الفاطميين .

قلت : ولم يزل هذا القصر منزلة الخلفاء الفاطميين من لدن المعز أول خلفائهم بمصر وإلى آخر أيام العاضد آخر خلفائهم، وكانت الوزراء يتزلون بدار الوزارة التي آبتناها أمير الجيوش بدر الجمالي داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية ببيرس

(١) أنت الرأس مجازة للغة العامة واللغة العربية تذكيره .

الآن. فلما ولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة عن العاضد بعد عمه أسد الدين شيركوه، نزل بدار الوزارة المذكورة، وبقى بها حتى مات العاضد فتحول إلى القصر وسكنه؛ ثم سكنه بعده أخوه العادل أبو بكر. فلما ملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر انتقل منه إلى قلعة الجبل على ما سيأتي ذكره في الكلام على القلعة إن شاء الله تعالى. وصارت دار الوزارة المتقدمة الذكر منزلا للرسل الواردين من الممالك إلى أن عمّر مكانها السلطان الملك المظفر بيبرس الجاشنكير الخاقاه المعروفة به، وخلا القصر من حينئذ من ساكنيه، وأهمل أمره فخرّب .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : قال لي بواب لباب الزهومة اسمه مرهف في سنة ثلاثين وستمائة : كان لي على هذا الباب المدة الطويلة ما رأيته دخل فيه حطب ولا رمى منه تراب . قال : وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه؛ ثم أخذ الناس بعد ذلك في تملكه وأستحكاره، وعمرت فيه المدارس والأدور . فبنى السلطان الملك الصالح "نجم الدين أيوب" فيه مدرسته الصالحية، ثم بنى "الظاهر بيبرس" فيه مدرسته الظاهرية، وبنى فيه بشتاك أحد أمراء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فيه قصره المعروف به، وجعلت دار الضرب في وسطه، ولم يبق من آثاره إلا البيمارستان العتيق، فإنه كان قاعة بناها العزيز بالله بن المعز الفاطمي على ما سيأتي ذكره .

وكذلك القبة التي على رأس السالك من هذا البيمارستان إلى رحبة باب العيد، وبعض جُدُرٍ لا يعتد بها قد دخلت في جملة الأملاك .



وأما (أبواب القاهرة وأسوارها)، فإن القائد جوهرًا حين أخطأها جعل لها أربعة أبواب : بابين متقاربين، وبابين متباعدين . فالمتقاربان (بابا زويلة) نسبة إلى زويلة

قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر من المغرب، ولذلك يقع في عبارة الموثقين وغيرهم بابا زويلة؛ وأحد هذين البابين القوس الموجود الآن المجاور للمسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام؛ والثاني كان موضع الحوانيت التي يباع فيها الجبن على يسرة القوس المتقدم ذكره يدخل منه إلى المحمودية . وكان سبب إبطاله وسده أن المعز الذي بنيت له القاهرة لما دخلها عند وصوله من المغرب، دخل من القوس الموجود الآن هناك فأزدهم الناس فيه وتجنبوا الدخول من الباب الآخر، وأشتهر بين الناس أن من دخل منه لم تقض له حاجة ، فرُفِضَ وسُدَّ ، وجعل زقاق جنوبيه يتوصل منه إلى المحمودية، وزقاق شماليه يتوصل منه إلى الأنماطين وما يليها .

والبابان المتباعدان هما القوس الذي داخل باب الفتوح خارج حارة بهاء الدين، وقوس آخر كان على حياله داخل باب النصر بالقرب من وكالة قيسون الآن، فهدم ثم أبتنى أمير الجيوش بدر الجمالي المتقدم ذكره في سنة ثمانين وأربعمائة سورا من لبن دائرا على القاهرة، وبعضه باق إلى زماننا بخط سوق الغنم داخل الباب المحروق؛ ثم أبتنى الأفضل بن أمير الجيوش باب زويلة، وباب النصر، وباب الفتوح الموجودين الآن فيما ذكره القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في خطه، إلا أنه ذكر في مواضع آخر منها أن باب زويلة بناه العزيز بالله وأكمله بدر الجمالي، وهو من أعظم الأبواب وأشمخها، وليس له باشورة على الأبواب، وفيه يقول علي بن محمد النبلي :

يَصَاحُ لَوْ أَبْصَرْتَ بَابَ زُوَيْلَةَ ، * لَعَلِمْتَ قَدْرَ مَحَلِّهِ بُيُنَانَا
بَابٌ تَأَزَّرَ بِالْمَجْرَةِ وَأُرْتَدَى الشُّعْرَى * وَلَا تَ بَرَأْسِهِ كَيْوَانَا
لَوْ أَنَّ فِرْعَوْنَ رَأَاهُ لَمْ يُرِدْ * صَرِحَا وَلَا أَوْصَى بِهِ هَامَانَا

قال ابن عبد الظاهر : (وباب سعادة) ربما ينسب إلى سعادة بن حيان غلام المُعزّ، وكان قد ورد من عنده في جيش إلى جوهر وولى الرملة بعد ذلك .
قال : (وباب القنطرة) منسوب إلى القنطرة التي أمامه، وهي من بناء القائد جوهر بناها عند خوفه من القرامطة ليجوز عليها إلى المقس . والقوس الذى بالشارع الأعظم خارج باب زويلة على رأس المنجبية عند الطيورين الآن كان بابا بناه الحاكم بأمر الله خارج القاهرة، وكان يعرف بالباب الحديد .

(وباب الخوخة) الذى على القرب من قنطرة الموسكى أظنه من بناء الفاطميين أيضا؛ ولما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب "الديار المصرية أنتدب لعمارة أسوار القاهرة ومصر في سنة تسع وستين وخمسمائة الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى الرومى على كثرة من أسرى الفرنج عندهم يومئذ، فبنى سورا دائرا عليها وعلى قلعة الجبل والفسطاط، ولم يزل البناء به حتى توفي السلطان صلاح الدين رحمه الله وهو الموجود الآن؛ وجعل فيها عدّة أبواب :

منها باب البحر، وباب الشعيرية، وباب البرقية، وباب المحروق، وبابى برجين عظيمين أحدهما بالمقس على القرب من جامع باب البحر، وهو الذى هدمه الصاحب شمس الدين المقسى وزير الأشرف شعبان بن حسين على رأس السبعين والسبعائة، وأدخله في حقوق الجامع المذكور حين جدد بناءه؛ والثانى بباب القنطرة جنوبى الفسطاط .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : وقياس هذا السور من أوله إلى آخره تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثائة وذراعان بالمهشمى، من ذلك من باب البحر إلى البرج بالكوم الأحمر يعنى رأس منشأة المهرانى المتقدم ذكرها في الكلام

(١) لم يذكر هذه الجملة في خطط المقرئى .

على خِطَطِ الفُسطَاطِ عند فُوْهَةِ خَلِيجِ القَاهِرَةِ عَشْرَةَ آلَافِ ذِرَاعٍ ؛ وَمِنَ الكُومِ
الأحمر المذکور إلى قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة سبعة آلاف ذراع
ومائتا ذراع ؛ ومن مسجد سعد الدولة المذکور إلى باب البحر ثمانية آلاف
ذراع وثلاثمائة وأثنان وتسعون ذراعا ، ودائر القلعة ثلاثة آلاف ذراع ومائة
وعشرة أذرع .

وأقصر السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه على ذرع السور من غير
تفصيل ولم يتعرض للذراعين الزائدين .

قلت : وهذا السور قد دثر أكثره ، وتغيرت معالم غالبه : للصوق عمائر الأملاك به
حتى إنه لا يتميز في غالب الأماكن من الأملاك ، وسقط ما بين باب البحر إلى الكوم
الأحمر حتى لم يبق له أثر . على أن ما هو داخل سور القاهرة الأول من الأماكن
أرضه سبخة ومائه زقاق .

قال ابن عبد الظاهر : ولذلك عتب المعز عند وصوله إلى الديار المصرية ودخوله
القاهرة على جوهر لكونه لم يعمرها مكان المقس على القرب من باب البحر أو جنوبي
الفسطاط على القرب من الرصد لتكون قريبة من النيل ، عذبة مياه الآبار .
وأعلم أن خطط القاهرة قد اتسعت وزادت العمارة حولها ، وصار ما هو خارج
سورها أضعاف ما هو داخله . ثم منها ما هو منسوب إلى دولة الفاطميين ، ومنها
ما هو منسوب إلى من تقدمهم من الملوك ، إما لدروس اسمه الأول وغلبة اسمه
الثاني عليه ، وإما لأستحداثه بعد أن لم يكن ؛ ومنها ما هو مجهول لأتقطاع شهرته
بطول الأيام ومرور الليالي . وإنما يقع التعرض هنا للأماكن الظاهرة الشهيرة ،
الدائرة على الألسنة دون غيرها ، وأنا أذكرها على ترتيب الأماكن لا على ترتيب
القدم والحدوث .

أما خططها المشهورة داخل السور .

(فمنها) "حارة بهاء الدين" داخل باب الفتوح ، وتعرف بالطواشى بهاء الدين قراقوش باني سور القاهرة المتقدم ذكره ، وكانت في دولة الفاطميين تعرف بين الحارتين ؛ ثم أخطها قوم في الدولة الفاطمية يعرفون بالرَّيْحانية والعزيرية فعرفت بهم . فلما سكنها بهاء الدين قراقوش المذكور ، أشتهرت به وُسِي ما قبل ذلك .

(ومنها) "حارة بَرَجَوَان" وتعرف بِبَرَجَوَان الخادم ، كان خادماً القُصُور في أيام العزيز بالله ابن المُعزّ ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ، ووصاه على ابنه الحاكم فعظم شأنه ، ثم قتله الحاكم بعد ذلك . ويقال إنه خلف في تركته ألف سراويل بألف تكة حرير .

وبهذه الحارة كانت دار المظفر بن أمير الجيوش بدر الجمالي .

(ومنها) "خط الكافوري" كان بستانا لكافور الاخشيدي ، وبنيت القاهرة وهو بستان ، وبقى إلى سنة إحدى وخمسين وستائة ، فاختطه طائفة البحرية والعزيرية إصطبلات ، وأزيلت أشجاره وبقيت نسبته إلى كافور على ما كانت عليه .

(ومنها) "خط الخرنشف"^(١) كان ميدانا للخلفاء الفاطميين ، وكان لهم سرداب تحت الأرض إليه من باب القصر يمتون فيه إلى الميدان المذكور راكبين ، ثم جعل مصرفا للماء لما بنيت المدرسة الصالحية ، ثم بنى به الغزُّ بعد الستائة إصطبلات بالخرنشف وسكنوها فسمى بذلك .

(ومنها) "درب شمس الدولة" على القرب من باب الزهومة ، وكان في الدولة الفاطمية يعرف بحارة الأمراء ، وبها كانت دار الوزير عباس وزير الظافر ، وبها المدرسة المسروورية بناها مسرور الخادم ، وكان أحد خُدّام القصر في الدولة الفاطمية وبقى إلى الدولة الأيوبية ، وأختص بالسلطان صلاح الدين وتقدّم عنده ،

(١) في المقرئزي "الخرنشف" وفسره بأنه المتجمد من وقود الحمامات بعد إحراقها وهي تسمية عرفية .

ثم سكنها شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف ،
وعمرها دريا فعرف به ونسب إليه .

(ومنها) "حارة زويلة" وتنسب إلى زويلة قبيلة من البربر الواصلين صحبة القائد
جوهر على ما تقدم ذكره في الكلام على باب زويلة ، وهي حارة عظيمة متشعبة .
(ومنها) "الجودرية" وتعرف بطائفة يقال لهم الجودرية من الدولة الفاطمية نسبة
إلى جودر خادم عبيد الله المهديّ أبي الخلفاء الفاطميين ، آتتوها وسكنوها حين
بنى جوهر القاهرة ، ثم سكنها اليهود بعد ذلك إلى أن بلغ الحاكم الفاطميّ أنهم
يهزؤون بالمسلمين ويقعون في حق الإسلام ، فسدد عليهم أبوابهم وأحرقهم ليلا ،
وسكنوا بعد ذلك حارة زويلة المتقدمة الذكر .

(ومنها) "الوزيرية" وتعرف بالوزير أبي الفرج يعقوب بن كلس وزير المعز بالله
الفاطميّ ، وكان يهودي الأصل يخدم في الدولة الاخشيدية ، ثم هرب إلى المعز
الفاطميّ بالمغرب لمال لزمه ، فلقى عسكر المعز مع جوهر فرجع معه ، وعظمت
مكاتبه عند المعز حتى آستوزره ، وكانت داره مكان مدرسة الصاحب صفى الدين
ابن شكر : وزير العادل أبي بكر بن أيوب المعروفة بالصاحبية بسوق الصاحب ،
وكانت قبل ذلك تعرف بدار الديباج .

(ومنها) "المحمودية" قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : ولعلها منسوبة
إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية القادمة في أيام العزيز بالله الفاطميّ إلى مصر .

(ومنها) "حارة الروم" داخل بابي زويلة ، آتتها الروم الواصلون صحبة جوهر
القائد حين بنائه القاهرة فعرفت بهم ونسبت إليهم إلى الآن .

(ومنها) "الباطلية" قال ابن عبد الظاهر : تعرف بقوم أتوا المعز بنى القاهرة وقد
قسم العطاء في الناس فلم يعطهم شيئا ، فقالوا : نحن على باطل ؟ فسميت الباطلية .

(ومنها) "حارة الديلم" وتعرف بالديلم الواصلين صحبة افتكين المعزى غلام المعز ابن بويه الديلمي، وكان قد تغلب على الشام أيام المعز الفاطمي وقاتل القائد جوهرًا وأستنصر بالقرامطة، وخرج إليهم العزيز بالله فأسره في الرملة وقدم به إلى القاهرة فأجرل له العطاء، وأنزله هو وأصحابه بهذه الحطة. وبها كانت دار الصالح طلائع ابن رزيك باني الجامع الصالحى خارج باب زويلة، وكان يسكنها قبل الوزارة؛ ووخوته بها معروفة إلى الآن بخوخة الصالح.

(ومنها) "حارة كُتامة" على القرب من الجامع الأزهر بجوار الباطنية، تعرف بقبيلة كُتامة من البربر الواصلين صحبة جوهر من الغرب.

(ومنها) "إصطبل الطارمة" بظاهر مشهد الحسين، كان إصطبلًا للقصر، وبهذا الخط كانت دار الفطرة التي يعمل فيها فطرة العيد، بناها المأمون بن البطائحي وزير الأمر، وكانت الفطرة قبل ذلك تعمل بأبواب القصر، وسيأتي الكلام على الفطرة مستوفى في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(ومنها) "حارة الصالحية" قبلى مشهد الحسين: كانت طائفة من غلمان الصالح طلائع بن رزيك قد سكنوها فعرفت بهم ونسبت إليه.

(ومنها) "البرقية" قال ابن عبد الظاهر: آخطها قوم من أهل برقة قَدِمُوا صحبة جوهر فعرفت بهم. ورأيت بخط بعض الفضلاء بحاشية خط ابن عبد الظاهر أن الصالح طلائع بن رزيك لما قتل عباسا وزير الظافر وتقلد الوزارة عن الأمر، أقام جماعة من الأمراء يقال لهم البرقية عونًا له وأسكنهم هذه الحطة فنسبت إليهم.

(ومنها) "قصر الشوك" على القرب من رحبة الأيدمرى، قال ابن عبد الظاهر: كان قبل عمارة القاهرة منزلة لبني عدرة تعرف بقصر الشوك.

(١)

(ومنها) وكانت خزانة السلاح في الدولة الفاطمية ، ثم جعلت سبجنا في الأيام المستنصرية ، ثم أحتكرت بعد ذلك وجعلت أدراً .

(ومنها) ”رَحْبَة باب العيد“ تنسب إلى باب العيد : أحد أبواب القصر المسمى باب العيد المقدم ذكره .

(ومنها) ”دَرْب مُلُوحِيَّة“ ينسب لملُوحِيَّة صاحب رِكاب الحاكم ، وبه مدرسة القاضي الفاضل وزير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبه كانت داره .

(ومنها) ”العُطُوف“ وأصل أسمها العُطُوفية : نسبة إلى عطوف خادم الحاكم .

(ومنها) ”الجَوَانِيَّة“ قال ابن عبد الظاهر : وهي صفة لمحدوف ، وأصلها حارة الروم الجَوَانِيَّة ، وذلك أن الروم الواصلين صحبة جوهر أخطوا حارة الروم المتقدمة الذكر وهذه الحارة ، وكان الناس يقولون : حارة الروم البرَّانية وحارة الروم الجَوَانِيَّة فنقل ذلك عليهم ، فأطلقوا على هذه الجَوَانِيَّة وقَصَرُوا أسم حارة الروم على تلك . قال : والوزاقون إلى هذا الوقت يقولون حارة الروم السفلى وحارة الروم العليا المعروفة بالجَوَانِيَّة ، ثم قال : ويقال إنها منسوبة إلى الأشراف الجَوَانِيَّين الذين منهم الشريف الجَوَانِي النَّسَابَة .

وأما خططها المشهورة خارج السور :

(فمنها) ”الحُسَيْنِيَّة“ كانت في الأيام الفاطمية ثمان حارات خارج باب الفتوح أوَّلها الحارة المعروفة بحارة بهاء الدين المتقدم ذكرها ، وهي حارة حامد ، والمُنْشَأَة الكبرى ، والحارة الكبيرة ، والمُنْشَأَة الصغيرة ، وحارة عبيد الشراء ، والحارة الوسطى ، وسوق الكبير بمصر ، والوزيرية ، وكان يسكنها الطائفة المعروفة بالوزيرية والريحانية من الأرمن والعُجَّان وعبيد الشراء .

(١) بياض بالأصل .

قال ابن عبد الظاهر : وكان بها من الأرمن قريب من سبعة آلاف نفس ، ثم سكنها جماعة من الأشراف الحسينيين قدموا في أيام الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب من الحجاز إلى مصر ، فنزلوا بهذه الأمكنة وأستوطنوها فسميت بهم ، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك وبنوا بها الأبنية العظيمة والأدر الضخمة .

قال ابن عبد الظاهر : هي أعظم حارات الأجناد .

قلت : وذلك بحسب ما كان الحال عليه في زمانه ، ولكنها قد خربت في زماننا هذا ، وانتقل الأجناد إلى الأماكن القريبة من القاعة بصليبة الجامع الطولوني ونحوها . وبنى بهاء الدين قراقوش خانا للسبيل تنزلة المارة وأبناء السبيل فعرف خطه به . (ومنها) "الخنديق" خارج الحسينية بالخنديق ، كان عنده خندق أحترفه العزيز بالله الفاطميّ وكان المعز قد أسكن المغاربة هناك في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة حين تبسطوا في القرافة والقاهرة وأخرجوا الناس من منازلهم ، وأمر مناديا ينادى لهم كل ليلة : من بات منهم في المدينة أستحق العقوبة .

(ومنها) "أرض الطبّالة" منسوبة لامرأة مغنية أسماها نَسَب ، وقيل طَرَب ، كانت مغنية للسننصر الفاطميّ وأسمه معدّ .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : ولما ورد الخبر عليه بأنه خُطِب له ببغداد في نوبة البساسيري قريب السنة غتته نَسَب هذه :

يَا بَنِي الْعَبَّاسِ صُدُّوا * قَدَوَلِي الْأَمْرَ مَعَدُّ

مُلْكِكُمْ كَانَ مُعَارًا * وَالْعَوَارِي تُسْتَرَدُّ

فوهبها هذه الأرض في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة فحُكِرَت وبنيت أدرا فعرفت بها . قال : وكانت من مُلِح القاهرة وبهجتها ، وفيها يقول ابن سعيد المغربيّ مجانسا بين القُرط الذي ترعاه الدوابُّ والقُرط الذي يكون في الأذن .

سقى الله أرضاً كلما زُرَّت رَوْضَهَا ، * كَسَّاهَا وَحَلَّاهَا بِزَيْنَتِهِ الْقُرْطُ
تَجَلَّتْ عَرُوسًا وَالْمِيَاهُ عُقُودُهَا * وَفِي كُلِّ قُطْرٍ مِنْ جَوَانِبِهَا قُرْطٌ
(ومنها) "خط باب الفنطرة" قال ابن عبد الظاهر : ذكر لي علم الدين بن ممتان
أنه في كتب الأملاك القديمة يسمى بالمرتاجية .

(ومنها) "المقس" قال القضاعي في "خططه" : كانت ضيعة تعرف بأَمِّ دَيْنٍ ،
وكان العاشر الذي يأخذ المكس يقعد بها لاستخراج المال ، فقيل المكس بالكاف
ثم أبدلت الكاف في الألسنة قافا .

قال ابن عبد الظاهر : . ومن الناس من يقول فيه المَقْسِم لأن قسمة الغنائم
في الفتوح كانت فيه . قال : ولم أر ذلك مسطورا ، وكانت الدكة من نواحيه
بستانا إذا ركب الخليفة من الخليج يوم الكسر أتى إليه في البر الغربي من الخليج
في مركبه ويدخله بمفرده فيسقى منه فرسه ، ثم يخرج إلى قصره على ما سيأتي ذكره
في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية . إن شاء الله تعالى .

قال ابن عبد الظاهر : والدكة الآن أدْرُ وحارات شهرتها تعني عن وصفها
فسبحان من لا يتغير .

قلت : وقد خرب أكثر تلك الأدْر والحارات حتى لم يبق منها إلا الرسوم ،
وبعضها باق يسكنه آحاد الناس .

(ومنها) "ميدان القمح" كان قديما بستانا سلطانيا يسمى بالمَقْسِي يدخل الماء
إليه من الخليج المعروف بالخليج الذكر الذي بناه كافور الاخشيدي ، ثم أمر الظاهر
الفاطمي بنقل أنشابه وحفره وجعله بركة قدام اللؤلؤة ، وأبقى الخليج المذكور
مسلطا على البركة ليستنقع الماء فيها . فلما ضعف أمر الخلافة الفاطمية ، وهجرت
رُسومها القديمة في التفرج في اللؤلؤة وغيرها ، بنت السودان المعروفون بالطائفة

الفرحية الساكنون بالمقس عند ضيقه عليهم قبالة اللؤلؤة حارة سميت حارة اللصوص بسبب تعذيبهم فيها مع غيرهم ، ثم تنقلت بها الحال حتى صار على ما هو عليه الآن .

(ومنها) ”برأبن التبان“ غربى خليج القاهرة، وينسب إلى أبن التبان رئيس حراقة الخلافة الفاطمية، وكان الأمر الفاطمى قد أمر بالعمارة قبالة الحرق غربى الخليج، فأول من عمر به أبن التبان المذكور، أنشأ به مسجدا وبستانا ودارا فعرفت الحطة به إلى الآن .

(ومنها) ”خط اللوق“ وهو خط قديم متسع ينتهى إلى الميدان المعد لركوب السلطان عند وفاء النيل ، قد عمّر بالأبنية وسكنه رعاى الناس وأوباشهم والمكان المعروف الآن بباب اللوق جزء منه .

(ومنها) ”بركة الفيل“ وهى بركة عظيمة متسعة جنوبى سور القاهرة عليها الأبنية العظيمة المستديرة بها .

قال أبن عبد الظاهر : وتنسب إلى رجل من أصحاب أبن طولون يعرف بالفيل وما أحسن قول أبن سعيد المغربى :

أَنْظُرْ إِلَى بَرَكَةِ الْفَيْلِ الَّتِي أَكْتَنَفَتْ * بِهَا الْمَنَاطِرُ كَالْأَهْدَابِ لِلْبَصْرِ
كَأَنَّهَا هِيَ وَالْأَبْصَارُ تَرْمُقُهَا * كَوَأَكْبُ قَدْ أَدَارُهَا عَلَى الْقَمَرِ

(ومنها) ”خط الجامع الطولونى“ من الصليبية وماوالاها، وقد تقدم فى الكلام على خطط القسطنط أن هذه الأرض كانت منازل لأحمد بن طولون وعسكره، والجبل الذى فى جانبها البحرى يعرف بجبل يسكر، وعليه بناء الجامع الطولونى المذكور، وأستحدث الملك الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله عليه قصورا جاءت فى نهاية الحسن والإتقان، وهى المعروفة بالكبش، ولم يزل يسكنها أكابر الأمراء إلى أن

خربها العوام في وقعة الجلبان قبل السبعين والسبعائة وهي على ذلك إلى الآن ، وقد شرع الناس الآن في استحكار أما كتبها للعارة فيها في حدود سنة ثمانمائة .

(ومنها) "خط حارة المصامدة" وتنسب لطائفة المصامدة من البربر الذين قدموا مع المغز من المغرب ، وكان المقدم عليهم عبد الله المصمودي ، وكان المأمون بن البطائحي وزير الأمر قد قدمه وتوه بذكره ، وسلم إليه أبوابه للبيت عليها ، وأضاف إليه جماعة من أصحابه .

(ومنها) "الهلالية" قال ابن عبد الظاهر : أظنها الحارة التي بناها المأمون بن البطائحي خارج الباب الحديد الذي بناه الحاكم بالشارع على يسرة الخارج منه للمصامدة لما قدمهم وتوه بذكرهم ، وحذر أن يبنى بينها وبين بركة الفيل حتى صارت هذه الحارة مشرفة على شاطئ بركة الفيل إلى بعض أيام الحافظ .

(ومنها) "المتنجبية" قال ابن عبد الظاهر : بلغني أنها منسوبة لشخص في الدولة الفاطمية يعرف بمتنجب الدولة .

(ومنها) "اليانسية" قال ابن عبد الظاهر : أظنها منسوبة ليانس وزير الحافظ ، وكان يلقب بأمر الجيوش سيف الإسلام ، ويعرف بيانس الفاصد لأنه فصّد حسن ابن الحافظ ، وتركه محلول الفصادة حتى مات .

قال : وكان في الدولة من اسمه يانس العزيزي ، واليانسية جماعة كانوا في زمن العزيز بالله ، ومنهم يانس الصقلي ، ونسبة هذه الحارة محتملة لأن تكون لكل منهم ، وقد ذكر ابن عبد الظاهر عدّة حارات كانت لجند خارج باب زويلة غير ما عمله ذكره سرداء ، منها ما هو مشهور معروف ، وهو حارة حلب والحبانية . ومنها ما ليس كذلك وهو الشوبك ، والمأمونية ، والحارة الكبيرة ، والمنصورة الصغيرة ، وحارة أبي بكر .



وأما جوامعها فأقدمها (الجامع الأزهر) بناه القائد جوهر بعد دخول مولاه المِعْز إلى القاهرة وإقامته بها، وفرغ من بنائه وجمعت فيه الجمعة في شهر رمضان لسبع خلون من سنة إحدى وستين وثلاثمائة، ثم جدد العزيز بن المعز فيه أشياء وعمر به أما كن، وهو أول جامع عُمر بالقاهرة .

قال صاحب "نهاية الأرب" : وجدده العزيز بن المعز، ولما عمّر الحاكم جامعه نقل الخطبة إليه وبقي الجامع الأزهر شاغرا، ثم أُعيدت إليه الخطبة وصلى فيه الجمعة في ثامن شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين وستمائة في سلطنة الظاهر بيبرس، وتزايد أمره حتى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قدرا .

قال ابن عبد الظاهر : وسمعت جماعة يقولون إن به طلسمًا لا يسكنه عُصْفُور .

الجامع الثاني

(الجامع الحاكمي)

بناه الحاكم الفاطمي عليّ القرب من باب الفتوح وباب النصر، وفرغ من بنائه في سنة ست وتسعين وثلاثمائة، وكان حين بنائه خارج القاهرة إذ كان بناؤه قبل بناء باب الفتوح وباب النصر الموجودين الآن، وكان هو خارج القوسين اللذين هما باب الفتوح وباب النصر الأولان .

ثم قال : وفي سيرة العزيز أنه أخطت أساسه في العاشر من رمضان سنة تسع وسبعين وثلاثمائة، وفي سيرة الحاكم أنه ابتدأه بعض الوزراء وأتمه الحاكم؛ وعلى البدنة المجاورة لباب الفتوح أنها بنيت في زمن المستنصر في أيام أمير الجيوش سنة ثمانين وأربعمائة، ثم استولى عليها من ملكها والزيادة التي إلى جانبه بناها الظاهر ابن الحاكم ولم يكملها، ثم ثبت في الدولة الصالحية نجم الدين أيوب أنها من الجامع

وأن بها محرابا، فأنترعت ممن هي معه وأضيفت للجامع، ونبي بها ما هو موجود الآن في الأيام المعزية أيبك التركاني ولم تسقف .

الجامع الثالث

(الجامع الأحمر)

بناه الأمر الفاطمي بوساطة وزيره المأمون بن البطاحي ؛ وكل بناؤه في سنة تسع عشرة وخمسة مائة ؛ ويذكر أن أسم الأمر والمأمون عليه .
قلت : ولم يكن به خطبة إلى أن جدد الأمير يلغا السلمي : أحد أمراء الظاهر برقوق عمارته في سنة إحدى وثلاثمائة ورتب فيه خطبة .

الجامع الرابع

(الجامع بالمقس بباب البحر، وهو المعروف بالجامع الأنور)

بناه الحاكم الفاطمي أيضا في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة .

الجامع الخامس

(الجامع الظافري، وهو المعروف الآن بجامع الفكاكين^(١))

بناه الظافر الفاطمي داخل بابي زويلة في سنة ثلاث وأربعين وخمسة مائة ، وكان زربية للكباش ، وسبب بنائه جامعا أن خادما كان في مشرف على الزربية فرأى ذبأحا وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمى سكينته وذهب لقضاء حاجة له ، فأتى رأس الغنم الآخر فأخذ السكين بفمه ورمها في البالوعة ، وجاء الدبأح فلم يجد السكين ، فأستصرخ الخادم وخلصه منه ، فرفعت القصة إلى أهل القصر فأمروا بعمارة .

(١) في خطط المقرئ "الفكاكين" .

الجامع السادس

(الجامع الصالحى)

بناه الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاقد من الفاطميين خارج باب زويلة ، بقصد نقل رأس الحسين عليه السلام من عسقلان إليه ، عند خوف هجوم الفرنج عليها ، فلما فرغ منه لم يمكّنه الفائز من ذلك ، وأبنتى له المشهد المعروف بمشهد الحسين بجوار القصر ، ونقله إليه في سنة تسع وأربعين وخمسة مائة ؛ وبنى به صهريجا وجعل له ساقية تنقل الماء إليه من الخليج أيام النيل على القرب من باب الخرق . ولم يكن به خطبة ، وأول ما أقيمت الجمعة فيه في الأيام المعزية أيبك الترمكاني في سنة اثنتين وخمسين وسمائة ، وخطب به أصيل الدين أبو بكر الإسعردى ؛ ثم كثرت عمارة الجوامع بالقاهرة في الدولة التركية خصوصا في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون وما بعدها ، فعمرها من الجوامع ما لا يكاد يحصى كثرة : لجامع الماردى وجامع قوصون خارج باب زويلة وغيرهما من الجوامع ، وأقيمت الجمعة في كثير من المدارس والمساجد الصغار المنتشرة في الأخطاط لكثرة الناس وضيق الجوامع عنهم .



وأما مدارسها ، فكانت في الدولة الفاطمية وما قبلها قليلة الوجود بل تكاد أن تكون معدومة ، غير أنه كان بجوار القصر دار تعرف "بدار العلم" خلف خان مسرور ، كان داعى الشيعة يجلس فيها ، ويجتمع إليه من التلامذة من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم ، وجعل الحاكم لها جزءا من أوقافه التي وقفها على الجامع الأزهر وجامع المنقوس وجامع راشدة ؛ ثم أ بطل الأفضل بن أمير الجيوش هذه الدار لاجتماع الناس فيها وانحوض في المذاهب خوفا من الاجتماع على المذهب التزارى ؛ ثم أعادها الأمر

بواسطة خدام اتقصر بشرط أن يكون متولّيها رجلاً ديناً والداعي هو الناظر فيها ، ويقام فيها متصدّرون برسم قراءة القرآن .

وقد ذكر المسبحيّ في تاريخه : أن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء ، وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق ، وبنى لهم داراً بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حلّقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا في الفقه ، وأبو يعقوب قاضى الخندق رئيس الحلقة والماتّي عليهم إلى وقت العصر ، وكانوا سبعة وثلاثين نفراً . ثم جاءت الدولة الأيوبية فكانت النائحة لباب الخير ، والغارسة لشجرة الفضل ، فأبنتى الملك الكامل محمد بن العادل أبو بكر (دار الحديث الكاملية) بين القصرين في سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وقزرها مذاهب الأئمة الأربعة وخطبة ، وبقى إلى جانبها خراب حتى بُني أدرا في الأيام المعزّية أيك التركمانيّ في سنّي خمسين وستائة ، ووقف على المدرسة المذكورة ، وبنى من بني من أكابر دولتهم مدارس لم تبلغ شأوهذه ، وشتان بين الملوك وغيرهم .

ثم جاءت الدولة التركية فأربت على ذلك وزادت عليه ، فأبنتى الظاهر بيبرس (المدرسة الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية ، ثم أبنتى المنصور قلاوون (المدرسة المنصورية) من داخل بيارستانه الآتى ذكره وجعل قبالتها تربةً سنّية .

ثم أبنتى الناصر محمد بن قلاوون (المدرسة الناصرية) بجوار البيارستان المذكور .

ثم أبنتى الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (مدرسته العظمى) تحت التلعة ، وهى التى لم يُسبق إلى مثلها ، ولا سمع في مصر من الأمصار بنظيرها ، يقال إن إيوانها يزيد في القدر على إيوان كسرى بأذرع .

ثم أبنتى ابن أخيه الأشرف شعبان بن حسين (المدرسة الأشرفية) بالصوة تحت

القلعة ومات ولم يكملها، ثم هدمها الناصر فرج بن الظاهر برقوق لتسلطها على القلعة في سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونقل أحجارها إلى عمارة القاعات التي أنشأها بالحوش بقلعة الجبل، ولم تعهد مدرسة قُصِدت بالهدم قبلها .

ثم آبتنى الظاهر برقوق (مدرسته الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الكاملة فجاءت في نهاية الحسن والعظمة، وجعل فيها خطبة، وقرر فيها صوفية على عادة الخوانق ودروساً للأئمة^(١)، فتعانى فيها ضخامة البناء، ونظم الشعراء فيها، فكان مما أتى به بعضهم من أبيات :

وَبَعْضُ خُدَامِهِ طَوْعًا لِحِدْمَتِهِ * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلٍ

وتواردوا كلهم على هذا المعنى، فأقترح على بعض الأكابر نظم شيء من هذا المعنى فنظمت أبياتاً جاء منها :

وَبِالْخَلِيلِي قَدْ رَاجَتْ عِمَارَتُهَا * فِي سُرْعَةٍ بَنِيَتْ مِنْ غَيْرِ مَا مَهَلٍ
كَمْ أَظْهَرَتْ عَجَبًا أَسْوَاطَ حِكْمَتِهِ * وَكَمْ غَدَّتْ مَثَلًا نَاهِيكَ مِنْ مَثَلٍ
وَكَمْ صَخُورٍ تَحَالَ الْحِنُّ تَنْقُلُهَا * فَإِنَّهَا بِالْوَحَا تَأْتِي وَبِالْعَجَلِ

وفي خلال ذلك آبتنى أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ماملأ الأخطاط وشحنها .



وأما الخوانق والرُّبُط، فما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية، وكان المتكرها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فأبتنى (الخانقاه الصلاحية) المعروفة بسعيد السعداء، وسعيد السعداء لقب لخادم لستنصر الفاطميّ أسمه قنبر كانت الدار له، ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح طلائع بن رزيك، ولما ولي الوزارة فتح من دار الوزارة إليها سرداباً تحت الأرض، وسكنها شاور

(١) لعله وتعالى في ضخامة البناء .

السعدى وزير العاضد ثم ولده الكامل . فلما ملك السلطان صلاح الدين جعلها خانقاه ، ووقف عليها قيسارية الشرب داخل القاهرة ، وبستان الحبانية بزقاق البركة .



وأما مساجد الصلوات الخمس ، فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى ؛ بكل خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصليون .



وأما البيارستان ، فقال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : بلغنى أن البيارستان كان أولاً بالقشاشين يعنى المكان المعروف الآن بالخراطين على القرب من الجامع الأزهر ، وهناك كانت دار الضرب بناها المأمون بن البطائى وزير الأمر قبالة البيارستان المذكور ، وقرر دور الضرب بالإسكندرية وقوص وصور وعسقلان ، ثم لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية وأستولى على القصر ، كان فى القصر قاعة بناها العزيز بن المعز فى سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، فجعلها السلطان صلاح الدين بيارستانا : وهو البيارستان العتيق الذى داخل القصر ، وهو باقى على هيئته إلى الآن ، ويقال إن فيها طلسم لا يدخلها نمل ، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيارستانا .

قال القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر : ولقد سألت المباشرين بالبيارستان المذكور عن ذلك فى سنة سبع وخمسين و (١) ... مائة فقالوا صحيح .

ثم أبنتى السلطان الملك المنصور قلاوون "رحمه الله دارست الملك أخت الحاكم ، المعروفة بالدار القطبية بيارستانا فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة بمباشرة الأمير علم الدين

(١) لعله وستمائة .

الشجاعى ، وجعل من داخله المدرسة المنصورية والتربة المتقدم ذكرهما فبقى معالم بعض الدار على ما هو عليه ، وغير بعضها . وهو من المعروف العظيم الذى ليس له نظير فى الدنيا . ونظره رتبة سنية يتولاه الوزراء ومن فى معناهم .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهو الجليل المقدار ، الجليل الآثار ، الجليل الإيثار ، لعظيم بنائه ، وكثرة أوقافه ، وسعة إنفاقه ، وتنوع الأطباء والكهالين والجراحية فيه .

قلت : ولم تزل القاهرة فى كل وقت تترايد عمارتها ، وتجدد معالمها ، خصوصا بعد خراب الفسطاط وانتقال أهله إليها على ما تقدم ذكره حتى صارت على ما هى عليه فى زماننا : من القصور العلية ، والدور الضخمة ، والمنازل الرحبة ، والأسواق الممتدة ، والمناظر التزهة ، والجوامع البهجة ، والمدارس الرائقة ، والخوانق الفاخرة ، مما لم يُسمع بمثله فى قُطرٍ من الأقطار ، ولا عهد نظيره فى مصر من الأمصار . وغالب مبانيها بالأجر ، وجوامعها ومدارسها وبيوت رؤسائها مبنية بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، مؤزرة الحيطان به ، وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة ، وكلها أو أكثرها مبيضة الجدر بالكس الناصع البياض ، ولأهلها القوة العظيمة فى تعليه بعض المساكن على بعض حتى إن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات بعضها على بعض ، فى كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها ، وأسطحة مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة ، وصناعة عجبية .

قال فى "مسالك الأبصار" : لا يرى مثل صنّاع مصر فى هذا الباب ، وبظاهرها البساتين الحسان ، والمناظر التزهة ، والأدر المطلة على النيل ، والخلجان الممتدة منه ومن مده ، وبها المستنزهات المستطابة ، خصوصا زمن الربيع لغدرانها الممتدة من مقطعات النيل وما حولها من الزروع المختلفة وأزهارها المائسة التى تسر الناظر وتبهج الخاطر .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وأجمع المسافرون بَرًا وبحرا أنه لم يكن أحسن منها منظرًا ، ولا أكثر ناسا ، وإليها يُجَلَّب مافي سائر أقاليم الأرض من كل شيء غريب وزيٍّ عجيب ؛ وملكها ملكٌ عظيم ، كثير الجيوش ، حسن الزيِّ لا يمانله في زيِّه ملك من ملوك الأرض ؛ وأهلها في رفاهية عيش وطيب مأكلٍ ومُشرب ، ونساؤها في ذاية الجمال والظرف .

قال في "مسالك الأبصار" : أخبرني غير واحد ممن رأى المَدَنَ الكِبَارَ أنه لم ير مدينةً اجتمع فيها من الخلق ما اجتمع في القاهرة .

قال : وسألت الصدر مجدِّ الدين إسماعيل عن بَعْدَادَ وَتُورِيَزَ هل يجعان خلقا مثل مصر ؟ فقال : في مصر خلق قدر من في جميع البلاد .

قال في "التعريف" : (والقاهرة اليوم أمُّ الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهي في وقتنا دارُ الخِلافة ، وكرسىُّ الملك ، ومنبَعُ الحكماء ، ومحطُّ الرحال ، ويتبعها كل شرق وغرب خلا الهند فإنه نائى المكان ، بعيد المدى ، يقع لنا من أخباره ما نُكْبِرُه ، ونسمع من حديثه ، الا نألفه .

قال : وكان يحق لنا أن نجعل كل النطق بالقاهرة دائرة ، وإنما نفردها بما أشتملت عليه حدود الديار المصرية ، ثم ندير بأُمَّ كل مملكةٍ نطَاقها ، ثم إليها مرجع الكل وإلى بحرهما مصب تلك الخُلُج .

قال في "مسالك الأبصار" : إلا أن أرضها سَبيخة ، ولذلك يَجَلُّ الفساد إلى مبانيها .

وذكر القاضى محي الدين بن عبد الظاهر نحو ذلك وأن المعزَّ لام القائد جوهرا على بنائها في هذا الموضع ، وترك جانب النيل عند المقسِّس أو جنوبى الفسطاط حيث الرصد الآن .

القاعدة الثالثة

(القلعة)

بفتح القاف، ويعبر عنها بقلعة الجبل، وهي مَقَرَّةُ السلطان الآن ودار مملكته .
 بناها الطواشي بهاء الدين قراقوش المتقدم ذكره للملك الناصر صلاح الدين
 يوسف بن أيوب رحمه الله، وموقعها بين ظاهر القاهرة والجبل المقطم والفسطاط،
 وما يليه من القرافة المتصلة بعمارة القاهرة والقرافة^(١)، وطولها وعرضها على ما تقدم
 في الفسطاط أيضا، وهي على نَسْرٍ مرتفع من تقاطيع الجبل المقطم، ترتفع في موضع
 وتخفض في آخر .

وكان موضعها قبل أن تبنى، مساجد من بناء الفاطميين : منها مسجد رديني الذي
 هو بين أدر الحريم السلطانية .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : قال لي والدي رحمه الله : عرض على
 الملك الكامل إمامته، فأمتنعت لكونه بين أدر الحريم . ولم يسكنها السلطان صلاح
 الدين رحمه الله، ويقال : إن أبنه الملك العزيز سكنها مدة في حياة أبيه، ثم أنتقل
 منها إلى دار الوزارة .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : قال لي والدي رحمه الله : كنا نطلع
 إليها قبل أن تُسكن في ليالي الجمع نيت متفرجين كانبيت في جواسق الجبل والقرافة .
 وأول من سكنها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب أنتقل إليها من
 قصر الفاطميين سنة أربع وثمانئة، وأستقرت بعده سكا للسلطين إلى الآن .

ومن غريب ما يحكى أن السلطان صلاح الدين رحمه الله طلع إليها ومعه أخوه
 العادل أبو بكر، فقال السلطان لأخيه العادل : هذه القلعة بُنيت لأولادك، فنقل
 ذلك على العادل وعرف السلطان صلاح الدين ذلك منه - فقال : لم تفهم غنى

(١) لعله زائد أو سهو .

إنما أردت أنى أنا نجيب فلا يكون لى أولاد نجباء، وأنت غير نجيب فتكون أولادك نجباء فسرى عنه، وكان الأمر كما قال السلطان صلاح الدين، وبقيت خالية حتى ملك العادل مصر والشام، فاستناب ولده الملك الكامل محمدا فى الديار المصرية فسكنها .
 وذكر فى "مسالك الأبصار" أن أول من سكنها العادل أبو بكر، ولما سكنها الكامل المذكور، أحتفل بأمرها وآهت بعمارتها وعمرها أبراجا، منها البرج الأحمر وغيره .

وفى أواخر سنة اثنتين وثمانين وستمائة عمّر بها السلطان الملك المنصور قلاوون برجاً عظيماً على جانب باب السر الكبير، وبني عليه مشرفات حسنة البنيان، بهجة الرخام، رائقة الزخرفة . وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ثم عمّر بها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاثة أماكن، كلت بها معانيها، وأستحق بها القلعة على بانيتها .

أحدها - القصر الأبلق الذى يجلس به السلطان فى عامة أيامه، ويدخل عليه فيه أمرؤه وخواصه، وقد أستجدّ به السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" رحمه الله فى جانبه مقعداً بإزاء الإصطبلات السلطانية جاء فى نهاية من الحسن والبهجة .

والثانى - الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان فى أيام المواقب للخدمة العامة وإقامة العدل فى الرعية .

والثالث - جامع الخطبة الذى يصلّى فيه السلطان الجمعة، وستأتى صفة هذه الأماكن كلها .

وهذه القلعة ذات سور وأبراج، فسيحة الأفنية، كثيرة العمار، ولها ثلاثة أبواب يدخل منها إليها .

أحدها - من جهة الترافة والجبل المُقَطَّم ، وهو أقل أبوابها سالكا وأعزها
أستطرقا .

والثانى - باب السر، ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواص
الدولة : كالوزير وكتاب السر ونحوهما ، يتوصل إليه من الصوة : وهى بقية النَّشْر
الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة ، بتعريج يمشى فيه مع جانب جدارها
البحرى حتى ينتهى إليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس
فيه السلطان أيام المواكب ، وهذا الباب لا يزال مُغلقاً حتى ينتهى إليه من يستحق
الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يعلق .

والثالث - وهو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائر الناس ، يتوصل
إليه من أعلى الصوة المتقدم ذكرها ، يرقى إليه فى درج متناسبة حتى يكون مدخله
فى أول الجانب الشرقى من القلعة ، ويتوصل منه إلى ساحة مستطيلة ينتهى منها إلى
درّكاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول ، وفى قبلى هذه الدرّكاه
(دار النيابة) ، وهى التى يجلس بها النائب الكافل للحكم إذا كان ثمّ نائب ، و (قاعة
الصاحب) ، وهى التى يجلس بها الوزير وكتّاب الدولة ، و (ديوان الإنشاء) ، وهو
الذى يجلس فيه كاتب السر وكتّاب ديوانه ، وكذلك (ديوان الجيش) ، وسائر
الدواوين السلطانية .

وبصدر هذه الدرّكاه باب يقال له باب القلّة يدخل منه إلى دهاليز فسحة ،
على يسرة الداخل منها باب يتوصل منه إلى جامع الخطبة المتقدم ذكره ، وهو من
أعظم الجوامع ، وأحسنها وأبهجها نظراً ، وأكثرها زخرفة ، متسع الأرجاء ، مرتفع
البناء ، مفروش الأرض بالرخام الفائق ، مبطن السقوف بالذهب ، فى وسطه قبة يليها
مقصورة يصلّى فيها السلطان الجمعة ، مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك

من حديد محكمة الصنعة، يحفّ بصحنه رواقات من جميع جهاته، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة، ودور الحريم السلطانية .

وبصدر الدهاليز المتقدمة الذكر مَصْطَبَةٌ يجلس عليها مقدم الممالك، وعندها مدخل باب السر المتقدم ذكره، وفي مجنبه ذلك ممرٌ يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير المتقدم ذكره، وهو إيوان عظيم عديم النظير، مرتفع الأبنية، واسع الأفنية، عظيم العمُد، تليه شبّابيك من حديد عظيمة الشأن محكمة الصنعة؛ وبصدره سرير الملك، وهو منبرٌ من رخام مرتفع، يجلس عليه السلطان في أيام المواكب العظام لتقدم رسل الملوك ونحو ذلك .

ويُتّامن عن هذا الإيوان إلى ساحة لطيفة بها باب القصر الأبلق المتقدم ذكره، وبنواحيها مصاطبٌ يجلس عليها خواصّ الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة؛ ويدخل من باب القصر إلى دهاليز عظيمة الشأن، نبيهة القدر، يتوصّل منها إلى القصر المذكور، وهو قصر عظيم البناء، شاهق في الهواء، به إيوانان في جهتي الشمال والجنوب، أعظمهما الشماليّ، يُطلّ منهما على الإصطبلات السلطانية، ويمتدّ النظر منهما إلى سوق الخيل والقاهرة والفُسْطَاط وحواضرها، إلى مجرى النيل، وما يلي ذلك من بلاد الجيزة والجلبل وما إلى ذلك؛ وبصدره منبرٌ من رخام كالذي في الإيوان الكبير يجلس عليه السلطان أحياناً في وقت الخدمة على ما يأتي ذكره .

والإيوان الثاني وهو القبليّ خاصّ بخروج السلطان وخواصه منه، من باب السر إلى الإيوان الكبير خارج القصر للجُلوس فيه أيام المواكب العاقمة، ويدخل من القصر المتقدّم ذكره إلى ثلاثة قصور جَوَانِيّة: واحد منها مسامت لأرض القصر الكبير، وآثنان مرفوعان، يُصعد إليهما بدرج؛ في جميعها شبّابيك من حديد تُشْرِفُ على ما يُشْرِفُ عليه القصر الكبير، ويدخل من القصور الجَوَانِيّة إلى دور الحريم وأبواب الستور

السلطانية؛ وهذه تقصور جميعها ظاهرها بالجر الأسود والأصفر، وداخلها مؤزر
بالرخام والقص المذهب المشجر بالصدف وأنواع الملونات، والسقوف المبطنه
بالذهب واللازورد^(١) تُحرق لضوء في جدرانها بطاقات من الزجاج القبرسي الملون
كقطع الجوهر المؤنفة في العقود، وجميع أرضها مفروشة بالرخام المتقول من أقطار
الأرض مما لا يوجد مثله .

قال في "مسالك الأبصار": فأما الأدر السلطانية فعلى ما صح عندي خبره أنها ذوات
بساتين وأشجار ومناخات للحوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور الدواجن .
وخارج هذه القصور طباق واسعة للمالك السلطانية، ودور عظام لخوَص
الأمراء من مقدمي الألوْف ، ومن عظم قدره من أمراء الطبَّاناه والعشرات ،
ومن خرج عن حكم الخاصكية إلى حكم البرانيين .

وبها بيوت ومساكن لكثير من الناس ، وسوق للمآكل ؛ ويبيع بها النِّيس من
السلاح والقماش مع الدلائل يطوفون به .

وهذه القلعة مع ارتفاع أرضها وكونها مبنية على جبل بئر ماء معين مقبوبة
في الحجر، احتفرها بها، الدين قراقوش المتقدم ذكره حين بناء القلعة، وهي من أعجب
الآبار، بأسفلها سواقٍ تدور فيها الأبقار، وتنقل الماء في وسطها، وبوسطها سواق
تدور فيها الأبقار أيضا وتنقل الماء إلى أعلاها؛ ولها طريق إلى الماء ينزل البقر
فيه إلى معينها في مجاز، وجميع ذلك نَحَتْ في الحجر ليس فيه بناء .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : وسمعت من يحكى من المشايخ أنها لما
تقرت، جاء ماؤها عدبا فأراد قراقوش أو نوابه الزيادة في مائها فوسع تقرا في الجبل،
فخرجت منه عين مالحه غيرت عدوبتها . ويقال : إن أرضها تسامت أرض

(١) في المقرئى هكذا [وقد مؤهت باللازورد والنور يخرق في جدرانها الخ] .

بركة الفيل ؛ وهذه البئر ينفع بها أهل القلعة فيما عدا الشرب من سائر أنواع
الاستعمالات . أما شربهم فمن الماء العذب المنقول إليها من النيل بالروايا على ظهور
الجمال والبغال مع ما ينساق إلى قصور السلطان ودور أكابر الأمراء المجاورين
للسلطان من ماء النيل في المجارى ، بالسواقى النَّقالات والدواليب التى تديرها الأبقار
وتنقل الماء من مقر إلى آخر حتى يتهمى إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور والأدور
في ارتفاع نحو خمسمائة ذراع .

وقد أستجد السلطان الملك الظاهر برفوق بهذه القلعة صهرىجا عظيماً يملأ في كل
سنة زمن النيل من الماء المنقول إلى القلعة من السواقى النَّقالات ، ورتب عليه
سبيلاً بالدركاه التى بها دار النيابة يسقى فيه الماء وحصل به للناس رفق عظيم .

وتحت مشرف هذه القلعة مما يلي القصور السلطانية ميدانٌ عظيم يحول بين
الإصطبلات السلطانية وسوق الخيل ، ممتزج بالنجيل الأخضر ، فسيح المدى ، يسافر
النظر في أرجائه ؛ به أنواع من الوحوش المستحسنة المنتظر ، وتربط به الخواص من
الخيول السلطانية للتفسيح ؛ وفيه يصلى السلطان العيدين على ماسياتى ذكره ؛ وفيه
تعرض الخيول السلطانية في أوقات الإطلاقات ووصول التقدام والمشتري ، وربما
أطعم فيه الجوارح السلطانية ؛ وإذا أراد السلطان النزول إليه خرج من باب إيوان
القصر وركب من درج تليه إلى إصطبل الخيول الخاص ، ثم نزل إليه راجباً وخواص
الأمراء فى خدمته مشاةً ، ثم يعود إلى القصر كذلك .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر فى "خططه" : وكان هذا الميدان
وما حوله يعرف قديماً بالميدان ، وبه قصر أحمد بن طولون وداره التى يسكنها ،
والأماكن المعروفة بالقطائع حوله على ما تقدم ذكره فى خطط القسطنطينية ، ولم يزل
كذلك حتى بنى الملك الكامل بن العادل بن أيوب هذا الميدان تحت القلعة حين

سكنها ، وأجرى السواقي النِّقالات من النيل إليه ، وعمّر إلى جانبه ثلاث برك تملأ لسقيه ، ثم تعطل في أيامه مدّة ، ثم أهتم به الملك العادل ولده ، ثم أهتم به الصالح نجم الدين أيوب اهتماما عظيما ، وجدّد له ساقية أخرى ، وغرس في جوانبه أشجارا فصار في نهاية الحسن . فلما توفّي الصالح ثلاثي حاله إلى أن هُدم في سنة خمسين وستائة ، أو سنة إحدى وخمسين في الأيام المعزّية أيبك التركاني ، وهُدمت السواقي والقناطر وعفّت آثارها ، وبقي كذلك حتى عمّره السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله ، فأحسن عمارته ورصّفه أبدع ترصيف ، وهو على ذلك إلى الآن .

أما الميّدان السلطانيّ الذي بَحْطُ اللوق ، وهو الذي يركب إليه السلطان عند وفاء النيل للعب الكُرّة ، فبناه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجعل به المناظر الحسنة ونصب الطّوارق على بابه كما تُنصب على باب القلاع وغيرها ، ولم تزل الطوارق منصوبة عليه إلى ما بعد السبعائة ، وسيأتي الكلام على كيفية الركوب إليه في المواكب في الكلام على ترتيب المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى .
والقلعة التي بالروضة تقدّم الكلام عليها [في الكلام] على حِطَط القُسطاط .



ومما يتصل بهذه القواعد الثلاث ويلتحق بها القرافة التي هي مدفن أمواتها ، وهي تربة عظيمة ممتدة في سفح المقطم ، موقعها بين المقطم والقُسطاط وبعض القاهرة ، تمتد من قلعة الجبل المتقدم ذكرها أخذه في جهة الجنوب إلى بركة الحبش وما حولها . وكان سبب جعلها مقبرة مارواه ابن عبد الحكم عن الليث بن سعد : أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار ، فتعجب عمرو من ذلك ، وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ذلك ،

فكتب إليه عمر : أن سلّه لم أعطاك به ما أعطاك وهي لا تُزرع ولا يُسْتَنْبَط بها ماء ولا يَنْتَفَعُ بها ؛ فسأله ، فقال : إنا لنجد صِفَتَهَا في الكتب أن فيها غراس الجنة ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه في ذلك ، فكتب إليه عمر : ” إني لا أرى غراس الجنة إلا المؤمنين فأقبرُ بها مَنْ مات قبلك من المسلمين ولا تبعها بشيء ” فقال المقوقس لعمر : ما على ذا عاهدتنا ، فقطع لهم قطعة تدفن فيها النصراني ، وهي التي على القرب من بركة الحبش ؛ وكان أول من قُبر بسفح المقطم من المسلمين رجلا من المعافير اسمه عامر ، فقيل عمّرت .

ويروى أن عيسى عليه السلام مرّ على سفح المقطم في سياحته ومعه أمّه ، فقال : ” يا أمّاه ! هذه مقبرة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ” . وفيها ضرائح الأنبياء عليهم السلام كإخوة يوسف وغيرهم . وبها قبر آسية امرأة فرعون ، ومشاهد جمادة من أهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزهاد والأولياء .

وقد بنى الناس بها الأبنية الرائقة ، والمناظر البهجة ، والقصور البديعة ، يسرح الناظر في أرجائها ، ويتهيج خاطر برؤيتها ؛ وبها الجوامع والمساجد والزوايا والرُّبُط والخواق ، وهي في الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة الساكن .

الفصل الثاني

من المتألة الثانية

(في ذكر كور الديار المصرية ؛ وهي على ضريين)

الضرب الأول

(في ذكر كورها القديمة)

وقد جعلها القضاعى في ” خططه ” ثلاثة أحياز ، وتشتمل على خمس وخمسين كورة ، إلا أنه ذكرها سردا غير مبينة ولا مرتبة ، وقد أوردتها هنا مبينة مرتبة ،

ونبّهت على ما هو مستمرّ منها على حكمه ، وما تغيّر حكمه بإضافته إلى غيره من الأعمال المستمرّة مع بقاء أسمائه ، ومادرس اسمه ونسبى ، أو تغيّر ولم تعلم له حقيقة .

الحيز الأول

(أعلى الأرض ، وهو الصعيد)

والمراد ماهو من كورها جنوبىّ الفسطاط إلى نهايته في الجنوب ، وسمى صعيدا لأن أرضه كلّها ولجّت في الجنوب ، أخذت في الصعود والارتفاع .
وقد ذكر القضاعى فيه عشرين كورة :

الأولى - (كورة الفيوم) وهى كورة باقية مستمرّة الحكم إلى الآن ، وسيأتى ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرّة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الثانية - (كورة منيف) ومنف هى مدينة مصر القديمة المتقدّمة الذكر ، التي بناها مصر بن بصر بن حام بن نوح عليه السلام . وقد تقدّم أنها على اثنتى عشر ميلا من الفسطاط في جنوبية على القرب من البلدة المعروفة الآن بالبدرشين .

الثالثة - (كورة وسيم) ووسيم بفتح الواو وكسر السين المهملّة وسكون الياء المثناة تحت وميم في الآخر . بلدة من عمل الجيزة معروفة ، والثابت في الدواوين أوسيم بزيادة ألف في أولها وسكون الواو .

الرابعة - (كورة الشرقية) وكان المراد بها عمل إطفيح الآن إذ هو شرقى النيل وليس بالوجه القبلى عمل مستقل شرقى النيل سواه .

الخامسة - (كورة دلّاص وبوصير) أما دلّاص فبدال مهملّة مفتوحة ولام ألف ثم صاد مهملّة قال في "الروض المعطار" : كانت مدينة عظيمة بها عجائب الأبنية ، وبها كان مجتمع سحرة مصر . وأما بوصير فالمراد هنا بوصير قور يدس التي قتل بها

مَرَوَانُ الحِمَار: آخر خلفاء بني أمية، ودلاص وبوصير هذه كلاهما الآن من عمل البهنسي، وسيأتي ذكره في الأعمال المستقرة.

قال في "الروض المعطار": قال الجاحظ: بها ولد عيسى بن مريم عليه السلام. وذكر أن نخلة مريم كانت قائمة بها إلى زمانه.

قلت: والمعروف أن مولد عيسى عليه السلام كان بالقدس من أرض الشام على ما سيأتي ذكره في الكلام على الأيمان في أواخر الكتاب إن شاء الله تعالى.

السادسة - (كُورَةُ أَهْنَس) وَأَهْنَسُ بفتح الهمزة وسكون الهاء وفتح النون وألف وسين مهملة في الآخر، وتعرف بأهناس المدينة، كانت مدينة في القديم، وهي الآن من جملة عمل البهنسي الآتي ذكره في الأعمال المستقرة.

السابعة - (كُورَةُ القَيْس) والقَيْسُ بفتح القاف وسكون الياء المثناة تحت وسين مهملة في الآخر، كانت مدينة في القديم، وهي الآن قرية معدودة من عمل البهنسي أيضا.

الثامنة - (كُورَةُ البَهْنَسِي) وهي ذات عمل مستقر، وسيأتي ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرة فيما بعد إن شاء الله تعالى.

التاسعة - (كُورَةُ طَحَا وحَيْرِ شَنُودَةَ). أما طحا بفتح الطاء والحاء المهملتين وألف في الآخر، كانت في القديم مدينة ذات عمل، ولذلك تعرف بطحا المدينة، وهي الآن من عمل الأثمنونين الآتي ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرة، وإليها ينسب أبو جعفر الطحاوي إمام الحنفية ومحدثهم.

وأما حير شنودة، فمن الأسماء التي درّست ولم تعلم حقيقتها.

العاشرة - (كُورَةُ بُوَيْطَ) قال ابن خلكان: بُوَيْطَ بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وطاء مهملة في الآخر. وقال في "تقويم البلدان"^(١)

(١) نص ياقوت على الضبطن وقال أكثر ما يقال بغير همز.

بهمزة مفتوحة في أوله وباء ساكنة ، وهو أسم واقع على بلدين بالديار المصرية :
 إحداهما بعمل البهنسي في لحف الجبل على طريق المازة ، وإليها ينسب أبو يعقوب
 البويطي : أحد رواة الجديد عن الإمام الشافعي رضي الله عنه . والثانية من عمل
 سيوط وتعرف ببويط البتينة ، وإليها ينسب شرق بويط والظاهر أنها المرادة هنا .
 الحادية عشرة - (كورة الأشمونين وأنصنا وشطب) . أما مدينة الأشمونين ، فذات
 عمل مستقر ، وسيأتي ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرة فيما بعد إن شاء الله تعالى .
 وأما أنصنا ، فقال في "تقويم البلدان" : هي بفتح الهمزة وسكون النون وكسر الصاد
 المهملة وفتح النون وألف في الآخر ، وهي مدينة قديمة خراب في البر الشرقي من
 النيل قبالة الأشمونين .

وقد ذكر ابن هشام في السيرة : أن مارية القبطية التي أهداها الموقس للنبي صلى
 الله عليه وسلم من كورتها من قرية يقال لها حفن ، وأنصنا الآن من جملة عمل
 الأشمونين .

وأما شطب ، فبضم الشين المعجمة وسكون الطاء المهملة وباء موحدة في الآخر ،
 وهي مدينة قديمة بنيت في زمن شداد بن عديم أحد ملوك مصر بعد الطوفان
 قد حربت وعمر عليها قرية صغيرة سميت بأسمها ، وهي الآن من جملة عمل سيوط
 الآتي ذكره في الأعمال المستقرة .

الثانية عشرة - (كورة سيوط) وهي مستقر الحكم ، وسيأتي ذكرها في الأعمال
 المستقرة .

الرابعة عشرة - (كورة قهقهوه) وهي من الأسماء التي درست ونسيت ، ولم أعلم
 بالصعيد بلدة تسمى الآن بهذا الأسم .

الخامسة عشرة - (كورة إجميم والدير وأنشاية) : أما كورة إجميم، فمن الكور المستقرة الحكم، وسيأتى الكلام عليها فى الكور المستقرة .

وأما الدير، فيجوز أن يكون المراد به الدير والبلاص، وهى بلدة فى شرق النيل شمالي قنا، هى الآن من عمل قوص الآتية الذكر .
وأما أنشاية، فمن الأسماء التى جهلت .

السادسة عشرة - (كورة هو ودندرة وقنا) : أما هو، فبضم الهاء وسكون الواو، وهى مدينة صغيرة على ساحل البر الغربى الجنوبى من النيل، ويضاف إليها فى الدواوين الكوم الأحمر، فيقال هو والكوم الأحمر .

وأما دندرة، فبفتح الدال المهملة وسكون النون وفتح الدال الثانية والراء المهملة وهاء فى الآخر، وهى مدينة قديمة خراب على الساحل الغربى الجنوبى من النيل فى شرق هو، وبها كانت البرابطة العظيمة المتقدم ذكرها فى عجائب الديار المصرية .
وأما قنا، فبكسر القاف وفتح النون وألف فى الآخر، وهى مدينة شرق النيل وبها ضريح السيد الجليل عبد الرحيم القنائى، المعروف بالبركة وإجابة الدعاء عنده . وهذه البلاد الثلاث الآن من جملة عمل قوص الآتى ذكره فى الكلام على الأعمال المستقرة .

السابعة عشرة - (كورة قفط والأقصر) . أما قفط، فبكسر القاف وسكون الفاء وطاء مهملة فى الآخر، كانت مدينة قديمة بالبر الشرقى من النيل جنوبى قنا المتقدمة الذكر، بناها قفط بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام أحد ملوك مصر بعد الطوفان، فخربت وبقيت آثارها وعمرت على القرب منها مدينة صغيرة سميت بأسمها .

(١) فى ياقوت قفط بن مصر ... ثم قال وأصله فى كلامهم قفطيم ومصرم ولكن الذى فى المقرئى نحو ما فى الاصل .

وأما الأَقْصُرُ، فبضم الهمزة وسكون القاف وضم الصاد المهملة وراء مهملة في الآخر، وتسمى الأَقْصُرَيْنِ أيضا على التثنية، وهي مدينة خراب بالبر الشرقي من النيل، قد عُمر على القرب منها قرية سميت بأسمها، وبها ضريح السيد الجليل أبو الحجاج الأَقْصِرِيِّ، وكانت بها رِباة عظيمة نخرت، وأعلم أن بين قِفْط والأَقْصُر مدينة قوص، وقد ذكر القضاعي كورتها في جملة الكُورِ، فكيف يستقيم أن تذكر قِفْطُ والأَقْصُر كورة واحدة؟ .

الثامنة عشرة - (كورة قُوص) وهي مستمرة الحكم، وسيأتي الكلام عليها في جملة الأعمال المستقرة إن شاء الله تعالى .

(١)
التاسعة عشرة - (كورة أُسْنَا وَأَرْمَنْتَ) . أما أُسْنَا ، فبفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح النون وألف في الآخر، وهي مدينة حسنة بالبر الغربي من النيل، ويقال : إنه لم يسلم من تخريب بُحْتِ نَصْرٍ من مدن الديار المصرية سواها، وذلك أن أهلها هربوا منه إلى الجبل بالقرب منها فنبعهم وقتلهم هناك وترك البلد على حالها .

وأما أَرْمَنْتُ ، فبفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم وسكون النون وتاء مثناة فوق في الآخر، وهي مدينة صغيرة بالبر الغربي الشمالي من النيل بينها وبين أُسْنَا مرحلة، وكلاهما الآن من عمل قُوص، وقد جرى على الألسنة الجمع بينهما في اللفظ فيقال : أُسْنَا وَأَرْمَنْتُ، وكان ذلك لكثرة اجتماعهما في إقطاع واحد .

العشرون - (كورة أُسْوَان) : وسيأتي ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرة مع الأعمال القُوصية إن شاء الله تعالى .

(١) ضبطه ياقوت بكسر الهمزة .

الحيز الثاني

(أسفل الأرض)

وقد ذكر القضاعى : أنها ثلاث وثلاثون كورة فى أربع نواح .

الناحية الأولى

(كُور الحَوْف الشرقى، وبها ثمان كُور)

الأولى - (كورة عين شمس) وعين شمس مدينة قديمة خراب على القرب من المطرية من ضواحي القاهرة الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرة .

قال القاضى محي الدين بن عبد الظاهر : رأيت على حاشية بعض كتب التواريخ أن ملكها كان عظيم الشأن، وحاش إلى زمن يوسف عليه السلام وتزوج أبنته .

الثانية - (كورة أتريب) وأتريب مدينة خراب على القرب من بنها العسل من أعمال الشرقية الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرة، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر ابن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

الثالثة - (كورة بنا وئى) أما بنا، فلا يعرف بالحوف الآن بلدة أسمها بنا، وإنما بنا بعمل الغربية، وسيأتى ذكرها مع بوضير هناك .

وأما ئى، فبضم الباء المشاة فوق وفتح الميم وياء مشاة تحت فى آخرها، وهى مدينة خراب بعمل المرتاحية، بها آثار عظيمة، رأيت فيها أبوابا من حجر صوان قطعة واحدة، ارتفاعها نحو عشرة أذرع قائمة على قاعدة من صوان أيضا .

الرابعة - (كورة بسطة) وبسطة بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وهاء فى الآخر، وهى مدينة خراب تعرف الآن بتل بسطة من عمل الشرقية .

- الخامسة - (كورة طَرَايِيَّة) وهي من الأسماء التي دَرَسَتْ ولم تعرف .
- السادسة - (كورة قُرَيْبِيْط) وهي من المجهول أيضا .
- السابعة - (كورة صَانَ وإِبْلِيل) وهي من المجهول .
- الثامنة - (كورة الفَرَمَا والعَرِيْش) . أمَّا الفَرَمَا، فقال في "تقويم البلدان" :
 هي بفاء وراء مهملة وميم مفتوحات ثم ألف ، وهي بلدة خرابٌ على شاطئ بحر
 الروم ، على بُعد يومٍ من قَطِيَّة . قال ابن حَوْقَل : وبها قَبْرُ جَالِينُوسِ الحكيم .
 وأمَّا العَرِيْشُ ، فبفتح العين المهملة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المشناة تحتُ
 وشين معجمة في الآخر ، قال في "الروض المعطار" : كانت مدينة ذات جامعين
 مفترقِ البناء ، وثمار وفواكه .
- قال في "تقويم البلدان" : وهي الآن مَبْرَلَةٌ على شَطِّ بحر الروم ، وبها آثار
 قديمة من الرُّحَامِ وغيره .
- قال في "الروض المعطار" : وكان بينها وبين قَدَسٍ طريق مسلوكة في البر .

الناحية الثانية

(بطن الريف)

- وأصل الرِّيف في لغة العرب موضع الزَّرْع والشجر، إلا أنه غلب بالديار المصرية
 على أسفل الأرض منها ، وفيها سَبْعُ كُورٍ .
- الأولى - (كُورَةُ بَنَّا وَبُوصِير) . أمَّا بَنَّا ، فبفتح الباء الموحدة والنون وألف في الآخر ،
 وَبُوصِيرُ تقدّم ضبطها في الكلام على بوصير المعروفة بمصر يوسف بالجيزية عند ذكر
 قواعد مصر القديمة ، وبنا وَبُوصِيرُ هذه كلاهما من عمل الغربية الآتي ذكره
 في الأعمال المستقرّة .

الثانية - (كُورَة سَمْنُودَ)، وسمنودُ بفتح السين المهملة والميم وضم النون المشددة والواو ودال مهملة في الآخر، وهى مدينة صغيرة من الأعمال الغربية، كان لها عمل مستقرّ في أول الأمر ثم أضيفت إلى عمل الغربية .

الثالثة - (كُورَة نَوْسَا)، ونوسا بفتح النون والواو والسين المهملة في الآخر، وهى الآن قرية من قرى المرتاحية .

الرابعة - (كورة الأوسية)، وهى من الأسماء التى درّست وجّهات .

الخامسة - (كورة البُجُوم)، بالباء الموحدة والجيم، وهى من الأسماء المندرسة أيضاً، ولا يُعرف مكان بالديار المصرية اسمه البُجُوم إلا أرض بأسفل عمل البحيرة على القرب من الإسكندرية، صارت مستنقعا للمياه المتصرفة عن البحيرة .

السادسة - (كُورَة دَقَهْلَة)، ودَقَهْلَة بفتح الدال المهملة والقاف وسكون الهاء وفتح اللام وهاء في الآخر، وهى مدينة قديمة بالجزيرة بين فِرْقَة النيل المازة إلى دمياط والفرقة التى تصب ببحيرة تَنيس، وإليها ينسب عمل الدقهلية، وهى الآن قرية من عمل أشموم الآتى ذكرها في الأعمال المستقرّة، وإن كان العمل فى الأصل منسوباً إليها .

السابعة - (كورة تَنيس ودمياط)، أما تنيس، فقال فى اللبّاب: هى بكسر المثناة فوق والنون المشددة وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة فى الآخر، والجارى على الألسنة فتح التاء؛ كانت مدينة عظيمة فطمح عليها الماء قبل الفتح الإسلامى بمائة سنة، فأغرق ما حولها وصارت بحيرةً، وسيأتى الكلام عليها فى الكلام على بحيرتها، وهى الآن قرية صغيرة بوسط البحيرة والماء يحيط بها .

قال فى "الروض المعطار": وكانت تُربتها من أطيب التُّرب، وبها تُحَاك الثياب النفيسة التى ليس لها نظير فى الدنيا، وقد قيل: إن الجحيتين اللتين أخبر الله تعالى

عنهما في سورة الكهف بقوله : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ الآية ، كانتا بَنَيْنَس .

وأما دِمِيَاطُ ، فسيأتي ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرة إن شاء الله تعالى .

الناحية الثالثة

(الجزيرة بين فرقتي النيل الشرقية والغربية ، وفيها خمس كور)

الأولى - (كورة دَمِيسَ وَمَنُوفَ) . أمَادَمِيسُ ، فبفتح الدال المهملة وسكون الميم وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وسين مهملة في الآخر ، وهي الآن بلدة من عمل الغربية .

وأما مَنُوفُ فمن الأسماء التي نُسِيت وجهلت .

الثانية - (كورة طُوة مَنُوفَ) ، وهي من الأسماء التي جهلت ولا يعلم بالديار المصرية الآن بلدة اسمها طُوة غير بلدين بالوجه القبلي إحداهما بالأشْمُونِي ، والثانية بالبهنساوية .

الثالثة - (كورة سَخَا وتَيْدَة والفَرَّاجُونِ) . أمَا سَخَا ، فبفتح السين المهملة والحاء المعجمة وألف في آخرها ، وهي بلدة حسنة كانت ذات عمل ، ثم استقرت من عمل الغربية الآن .

وأما تَيْدَة ، فبفتح التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وفتح الدال المهملة وهاء في آخرها ، وهي الآن قرية من قرى الغربية .

وأما الفَرَّاجُونُ ، فبالألف واللام في أولها ، ثم فاء مفتوحة وراء مهملة مشددة بعدها ألف وجم مضمومة وواو ساكنة ونون في الآخر ، وهي بلدة مضافة إلى تَيْدَة ، فيقال : تَيْدَة والفَرَّاجُون .

- الرابعة - (كورة بقيرة وديصا)، وهما من الأسماء التي نُسيت وجهت .
الخامسة - (كورة البشرد)، وهي من الأسماء التي جهلت .

الناحية الرابعة

(الخوف الغربي، وفيها إحدى عشرة كورة)

الأولى - (كورة صا)، وصا بصاد مهملة مفتوحة وألف في الآخر، وهي مدينة خراب شرق الفرقة الغربية من النيل، بناها صا بن قبطيم بن مصر بن بصر بن حام ابن نوح عليه السلام، أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وبها الآن آثار عظيمة، وقد عمرت بالقرب منها قرية وسميت بأسمها، وكان عملها كان من البر الغربي .

الثانية - (كورة شباس) وشباس بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة وألف ثم سين مهملة أسم لثلاث بلاد من عمل الغربية الآن، وهي شباس الملح، وشباس أنبارة، وشباس ستقر، وتعرف بشباس الشهداء، وكان المراد الثالثة فإنها أعظمها .

الثالثة - (كورة البدقون)، وهي من الأسماء التي درست وجهت .

الرابعة - (كورة الخيس والشراك) . أما الخيس فلا تعرف بالبحيرة الآن بلدة تسمى الخيس، وإنما الخيس بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء وسين مهملة في الآخر، بلدة من عمل الشرقية .

وأما الشراك، فكسر الشين المعجمة المشددة وفتح الراء المهملة وألف ثم كاف، وهي بلدة من عمل البحيرة .

الخامسة - (كورة خربت)، بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح التاء المثناة فوق، وهي قرية معروفة من عمل البحيرة، ومنها سار من سار من المصريين لقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه .

السادسة - (كورة قَرَطَسًا وَمَصِيل) . أما قَرَطَسًا فبفتح القاف وسكون الراء
المهملة وفتح الطاء والسين المهملتين وألف في الآخر ؛ وهي قرية من عمل
البحيرة الآن .

وأما مَصِيل ، فمن الأسماء التي جهلت .

السابعة - (كورة المليدس) وهي من الأسماء التي جهلت .

الثامنة - (كورة إخنا ورَشِيدَ والبُحَيْرَة) . أما إخنا ، فمن الأسماء التي جهلت
ولا يعرف بالبُحَيْرَة بلد أسمها إخنا ، وإنما أخنويه من عمل الغربية ، والعامّة
تقول إخنا .

وأما رَشِيدُ ، بفتح الراء المهملة وكسر الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت
ودال مهملة في الآخر ، فبلدة عند مَصَبِّ الفرقة الغربية التي يقع الاعتناء بحفظها .
وفي ذلك نظر لأعتباره الغربية ورشيد من سواحل البحيرة ، وبينهما بعد يبعد معه
أن يجتمعا في كورة واحدة .

وأما البُحَيْرَة ، فالظاهر أنه يريد بحيرة بوقير المتقدم ذكرها في الكلام على القواعد
القديمه ، ويأتي بقية الكلام عليها في الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالى .

العاشرة ^(١) - (كورة مَرِيُوط) . ومَرِيُوط بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء
المثناة تحت وسكون الواو وطاء مهملة في الآخر ، وهي ناحية غربى الإسكندرية
داخلة الآن في عملها ، بها الأشجار والبساتين ، وفواكهها تحمل للإسكندرية .

الحادية عشرة - (كورة لُويَّة ومَرَاقيّة) . أما لويية ، فبلام وواو وباء
موحدة ثم ياء مثناة تحت وهاء في الآخر . قال في "الروض المعطار" : وهي كورة

(١) سقطت التاسعة من قلم الناسخ وهي "كورة البتون" وقد ذكرها ابن دقاق في كتابه "الانتصار" .

من كُور مصر الغربية ، متصلة بالإسكندرية . قال : وقد قيل إن الإسكندر
كان منها .

وأما مَرَاقِيَّةٌ ، فميم وراء مهملة وألف وقاف وياء مثناة تحت وهاء في الآخر .
وقد ذكر القضاعى في تحديد الديار المصرية ما يقتضى أنهما بجوار بَرَقَة ، فقال :
إن الذى يقع عليه اسم مصر من العريش إلى لُويَّة ومَرَاقِيَّة ، ثم قال : وفي آخر
أرض مَرَاقِيَّة تَلقى أرض أنطابُلس ، وهى بَرَقَة ، والظاهر أن لويَّة غربى مريوط ،
ومَرَاقِيَّة غربى لويَّة وهى آخر أرض الديار المصرية من جهة الغرب .

الحيز الثالث

(كُور القِبلة ، وفيها خمس كور)

الأولى - (كورة الطُور وفاران) . أما الطُور فضبطه معروف . قال فى المشترك :
والطور فى اللغة العبرانية اسم لكل جَبَل ، ثم صار علمًا لجبال بعينها ، منها جبل
طُورِزَيْتًا بلفظ الزيت ، وهو اسم لجبل برأس عين من بلاد الجزيرة وجبل بالقدس
وجبل مُطَلَّ على طَبْرِيَّة ، وطُور هُرُون بالقدس ، وطُور سينا ، وهو المراد هنا ، وهو
جبل داخل فى بحر القلزم على رأسه دِيرٌ عَظِيم ، وفى واديه بساتين وأشجار ، وهو على
مَرَحَلَة من فُرْضَة الطور المتقدِّمة الذكر فى تحديد بحر القلزم ، وكأنها سميت باسمه
لقربها منه . قال ابن الأثيرى فى " كتابه الزاهر " : وسمى الطُور بطُور بن إسماعيل
ابن إبراهيم عليهما السلام .

وأما فاران ، فبفاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة بعدها ألف ثانية ثم نون ،
قال فى " الروض المعطار " : وهى مدينة صغيرة من بر الحجاز على جون على البحر .
قال : ولجبال فاران ذِكْرٌ فى التوراة .

الثانية - (كورة رَايَةَ وَالْقَلْزُم). أما راية فمن الأسماء التي جهلت، وقد ذكرها
 ابن سعيد مقرونة بالقلم فقال : ورَايَةُ وَالْقَلْزُم من كور مصر .

وأما الْقَلْزُمُ، فقال في المشترك : هو بضم القاف وسكون اللام وضم الزاي المعجمة
 ثم ميم في الآخر، وهي مدينة قديمة على ساحل بحر الْقَلْزُمِ وإليها ينسب البحر المذكور.
 قال في "القانون" : وطولها ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها
 ثمانٌ وعشرون درجة وعشرون دقيقة، وعلى القرب منها غَرَقَ فِرْعَوْنُ .

الثالثة - (كورة أَيْلَةَ وَحَيْزِهَا، وَمَدِينَ وَحَيْزِهَا، وَالْعَوْنِيدَ وَحَيْزِهَا، وَالْحَوْرَاءَ وَحَيْزِهَا) .
 أما أَيْلَةُ فقال في "تقويم البلدان" : هي بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة تحت
 وفتح اللام وهاء في الآخر. قال : وهي كانت مدينة صغيرة خرابا على ساحل بحر الْقَلْزُمِ .
 قال في "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وأربعون دقيقة .

قال في "تقويم البلدان" : وبها زرع يسير، وهي مدينة اليهود الذين جعل منهم
 القِرْدَةُ والخنازير، وعليها طريق مُجَّاجٍ مصر . قال : وهي في زماننا برج وبه وَاَلٍ من
 مصر وليس بها مزدرع، وكان بها قلعة في البحر فبطلت وُقِلَ الوالى إلى البرج .

وأما مَدِينُ فَضْبَطُهَا معروف ؛ وهي في الأصل أسم لقبيلة شُعَيْبٍ عليه السلام
 وكانوا مقيمين بها فسميت البلد بهم، وهي مدينة خراب على بحر الْقَلْزُمِ محاذيةً لَتَبُوكَ
 من بلاد الشام على نحو ست مراحل منها، وعدّها في "الروض المعطار" من بلاد
 الشام، وبها البئر التي آستقى منها موسى عليه السلام لبنات شُعَيْبٍ وسقى غنمهن .

قال ابن سعيد : وسعة البحر عندها نحو مجرى .

وأما الْعَوْنِيدُ؟ فبعين مهملة وواو وياء مثناة تحت ونون ودال . قال في "الروض
 المعطار" : وهي مدينة قريبة من نصف الطريق بين جُدَّةَ وَالْقَلْزُمِ . قال : وعلى

القرب منها مرسى صناء، ينحدر الماء بها عن أثر قدم من أوسط الأقدام بينة الكعب والأخمص والأصابع لم يعفها الزمان، ولا تمنحى بمرور الماء عليها .

وأما الحوراء، فبهاء مهملة مفتوحة بعدها واو ساكنة وراء مهملة مفتوحة ثم ألف في الآخر . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة على ساحل وادي القرى بها مسجد جامع ، وبها ثمانية آبار عذبة ، وبها ثمار ونخل وأهلها عرب من جهينة وبلي . قلت : والمعروف في زماننا أن الحوراء منزلة بطريق حجاج مصر، ولعلها على القرب منها .

الرابعة - كورة بدأ يعقوب وشعيب ، ولم أعلم حقيقة مكانهما .

قلت : ذكر القضاعي أيلة ومدين وما والاها مما على ساحل بحر القلزم من بر الحجاز في أعمال مصر جريا على ما قدمه من إدخال ذلك في تحديد الديار المصرية ، على أنه قد أهمل من جملة الديار المصرية حيزين آخرين .

الحيز الأول

(بلاد ألواح)

إذ هي داخلية في حدود الديار المصرية على ما حدده هو وغيره .

قال في "اللباب" : وهي بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الواو وفي آخره حاء مهملة ، وقال في "المشرك" : واح بغير ألف ولام ويجمع على واحات ، وهي ناحية غربي بلاد الصعيد منقطة عنه خلف الجبل الغربي من جبلي مصر المتقدم ذكرهما . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بين مصر والإسكندرية والصعيد والثوبة والحبشة . قال في "تقويم البلدان" : والبرارى محيطة بها من جميع جهاتها ، وهي بينها كالجزيرة ، بين رمال ومفاوز .

قال البكريّ : وهو إقليم مستقلّ غير مفتقر إلى سواه . قال في "الروض المعطار" :
وهي آخر بلاد الإسلام ، وبينها وبين بلاد النوبة ستُّ مراحل . قال : وفي هذه
الأرض شَبَّية وزاجِيّة وعيون حامضة الطعوم ولكل نوع منها منفعة وخاصة ،
وبها العيون الجارية ، والبساتين ، والثمار ، والتمر الكثير ؛ وبها مدن كثيرة مسوّرة
وغير مسوّرة .

قال في "المشترك" : وهي ثلاث كور : واحة الأولى ، واحة الوسطى ،
وواحة القُصوى .

قلت : والأولى منها - مقابل الأعمال البهنساوية ، وهي أعمرها وأكثرها ثمرة ،
ومنها يجلب التمر والزبيب الكثير ، وتعرف بواحة البهنسي وبالواحة الخاصّ .

والثانية - مقابل شماليّ الأعمال الأسيوطية ، وتعرف بالواحة الداخلة ، وهي
تلو الواحة الأولى في العمارة ؛ بها مُدن مشهورة ، منها السالمون والهنداو والقأمون
والقصير وغيرها .

والثالثة - مقابل جنوبيّ الواحة الثانية ، وتعرف بالواحة الخارجة ؛ وبين ريف
الصعيد وبين جميعها عرض جبل مصر الغربيّ ، ومسيرته ثلاث مراحل فما دونها
بحسب اختلاف الأماكن والطرق .

قال في "التعريف" : وهي جارية في اقطاع أمراء مصر ، وهم يؤثون عليها من
قبَلهم . قال : ومغلّها كأنه مصالحة لعدم التمكن من استغلاله أسوة بقية ديار مصر ،
لوقوعه منقطعا في البلاد النائبة والقفار النازحة .

قال في "مسالك الأبصار" : ولا تعدّ في الولايات ولا الأعمال ، ولا يحكم
عليها من قبل السلطان .

الحيز الثاني

(بَرْقَةٌ)

بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وهاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهي من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : وطولها اثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة . وهي أرض مُتَسِّعَةُ الأرجاء ، مديدة الفضاء ، وهي من أزكى الأراضى دوابَّ ، وأمرها مرعى .

قال في "مسالك الأبصار" : أخبرني بعض من رءاها أنها شبيهة بأطراف الشام وجبال نابلس في منابت أشجارها وكيفية أرضها وما هي عليه ، وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت بالزراع ، كانت إقليميا كبيرا يقارب نصف الشام ، قال : وبها الماشية والسائمة الكثيرة : من الإبل والغنم والحيل ، وخیلها من أقوى الحيل وأصلبها حوافر ، وصورها بين العراب والبرازين ، وقد جمعت بين حسن العراب وكمال تحاطبها ، وصلابة البرازين وثباتها على الوعور ، وهي إلى محاسن العراب أقرب ، ولكنها لا تبلغ شأوَ خيل البحرين والحجاز ، وفولها أنجب من إناثها . قال : وكذلك بها المدن المبنية ، والقصور العلية ، والآثار الدالة على ما كانت عليه من الجلالة .

قال ابن سعيد : وهي سلطنة طويلة ، وإن لم يكن لها استقلال لأستيلاء العرب عليها ، وهي إلى إفريقية أقرب منها إلى مصر . قال : وكان سريرها في القديم بمدينة (طبرقة) . وذكر صاحب "الروض المعطار" : أن قاعدتها كانت مدينة (أنطابلس) ، وقد تقدم من كلام القضاعى في تحديد الديار المصرية في آخر الحد الشمالي ما يوافقته .

قال في "مسالك الأبصار" : ومن مدنها طُمَيْثًا . قلت : والتحقيق أن بَرْقَةٌ قسمان : قسم محسوب من الديار المصرية ، وهو بادون العقبة الكبرى إلى الشرق .

وقسم محسوب من إفريقية، وهو مافوق العقبة المذكورة إلى الغرب، وهذه المدن الثلاث مما يلي جهة المغرب، والقسمان كلاهما اليوم بيد العرب أصحاب المشية، قال في "مسالك الأبصار": وربما زرع بعضهم في بعض أرضها فأنجب، ولكنهم أهل بادية لا عناية لهم بعجارة ولا زرع. قال: وأمرها إلى صاحب مصر يُقَطِّعها بالمناشير تارة لبعض الأمراء وتارة للعرب يأخذون عدادها، وكأنه يريد القسم الذي هو من مصر.

الضرب الثاني

(من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالها المستقرة، ولها وجهان)

الوجه الأول

(القبلى)

وهو المعبر عنه بالصعيد، وقد تقدّم بيانه في الكلام على الكور القديمة، وبه تسعة أعمال:

العمل الأول - الحيزية. وهو أقربها إلى الفسطاط والقاهرة، ومقر ولايته مدينة الحيزية (بكسر الجيم وإسكان الياء المثناة تحت وفتح الزاي المعجمة وبعدها هاء) وموقعها في الإقليم موقع الفسطاط، وطولها وعرضها واحد، وإليها ينسب الربيع الحيزي راوى الأم عن الشافعي رضى الله عنه.

قال في "الروض المعطار": ويقال إن بها قبر كعب الأخبار، وهي مدينة لطيفة على ضفة النيل الغربية مقابل جزيرة المقياس المتقدمة الذكر والنيل بينهما، وبعض هذا العمل يأخذ في جهة الشمال إلى الوجه البحري الآتى ذكره.

قال في "الروض المعطار": والحيزية أختطها عمرو بن العاص رضى الله عنه.

العمل الثاني - الإِطْفِيحِيَّةُ . وهو شرق النيل في جنوب الفُسْطَاط ، مُصَابِقُ بركة الحبش وبساتين الوزير . ومقر ولايته مدينة "إِطْفِيح" (بكسر الهمزة وإسكان الطاء المهملة وبالفاء والياء والحاء المهملة) وربما قلبت الطاء تاءً مثناةً فوق ، وهي مدينة لطيفة في البر الشرقي ، وموقعها في الإقليم الثالث ، ولم يتحررلى طولها وعرضها ، وعملها ما بين المقطم والنيل أخذاً عنها جنوباً وشمالاً ، وليس لعملها كبير ذكر .

العمل الثالث - البَهْنَسَاوِيَّةُ . وهو مما يلي عمل الحيزة من الجهة الجنوبية ، ومقر ولايته مدينة البهنسى . قال في "المشترك" : (بفتح الباء وسكون الهاء وفتح النون وسين مهملة مفتوحة وألف مقصورة) وهي مدينة لطيفة قديمة بالصعيد الأدنى بالبر الغربي من النيل تحت الجبل بطوق المزدرع ، مركبة على ضفة بحر الفيوم . وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : طولها إحدى وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثمان وعشرون درجة .

العمل الرابع - الفيومية . وهو مُصَابِقُ لعمل البهنسى من غربيه ، وبينهما منقطع رمل . وهو من أعظم الأعمال وأحسنها عمارة ، كثير البساتين ، غزير الفواكه ، دار الأرزاق . يقال إنه كان متصل مياه الديار المصرية فاستخرجه يوسف عليه السلام وجعله ثلثمائة وستين قرية لتعمير كل قرية منها بلد مصر يوماً من أيام السنة .

قلت : وأما الآن فقد نقصت عدة قراه بسبب ما عراها من ركوب ماء البركة التي هي متصل مياهه ، المتقدم ذكرها في جملة بحيرات الديار المصرية وركوب مائها على أكثر القرى المجاورة لها ، ولولا ما هو شامل له من بركة الصديق عليه السلام ،

(١) كذا في الأصل بدون نقط ولعله مصحف عن متصل أى مكان المصل والشيخ وفي خطط المقرئى وقد كان مغيض ماء النيل . وفي تقويم البلدان كان في وهدة وقد سبق إليه نهر من رشح ماء النيل . وفي المسعودى وكان مضافة .

لكانت قد غَطَّتْ جميع بلاده . إذ المياه تنصبُّ إليها شتاءً وصيفاً على ممرِّ الدهور وتعاقب الأيام ، وليس لها مَصْرِفٌ تتصرف منه ضرورةً إحاطةً الجبال بها من الجهات التي هي بَصَدَدٍ أن تُصْرَفَ منها ، ولقد أجتهد بعض حُكَّام الزمان على أن يتحیل في عمل مَصْرِفٍ يُقَطِّعُ في الجبل لتتصرف منه مياهها فلم يحد إلى ذلك سبيلاً . ولو كان ذلك في حيز الإمكان ، لفعله يوسف عليه السلام .

قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : ويقال إنه على جميع الفيوم سورٌ دائرٌ ، ومقرُّ ولايته (مدينة الفيوم) وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .
قال في "القانون" : وطولها أربع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثمان وعشرون درجة وعشرون دقيقة .

وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ثلاث وخمسون درجة ، وعرضها تسع وعشرون درجة ، وهي مدينة حسنة على ضفة البحر المنهى حسنة الأبنية ، زاهية المعالم . وبها الجوامع والرُّبُط والمدارس ، وهي راكبة على الخليج المنهى من جانبيه ، وهو مخترق وسطها . قال في "العزيزي" : وبين الفيوم والفسطاط ثمانية وأربعون ميلاً .

العمل الخامس - عمل الأشمونين والطحاوية . وهو مصاقب لعمل البهنسي من جنوبيه ، وهو عمل واسع كثير الزرع ، واسع الفضاء ، متقارب القرى . ومقرُّ الولاية به (مدينة الأشمونين) بضم الألف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفي الآخرون . وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة على ما ذكره في "تقويم البلدان" والإقليم الثاني على ما يقتضيه كلام المقرِّ الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" حيث جعل آخر الإقليم الثاني دَهْرُوط من البهنساوية .

قال في "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ست وعشرون درجة؛ وهي مدينة لطيفة بالبر الغربي من النيل، كانت في الأصل مدينة قديمة بناها أشمون بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، ثم خربت ودمرت، وبنيت هذه المدينة على القرب منها. وكان هذا العمل فيا تقدم عمليين : أحدهما عمل الأشمونين هذا، والثاني عمل طحاً المدينة (بفتح الطاء والحاء المهملتين وألف في الآخر) وقد تقدم ذكرها في الأعمال القديمة، ثم أضيفا وجعلا عملاً واحداً .

العمل السادس - المنفلوطية . وهو مصابق لعمل الأشمونين من جنوبيه، وهو من أخصّ خاص السلطان الجارى في ديوان وزارته، ومنه يحمل أكثر الغلال إلى الأهرام السلطانية بالقسطاط . ومقر ولايته (مدينة منفلوط) . قال في "تقويم البلدان" : (بفتح الميم وسكون النون وفتح الفاء وضم اللام ثم واو وطاء مهملة في الآخر). وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة فيما ذكره في "تقويم البلدان" : ومن أواخر الإقليم الثاني على ما يقتضيه كلام "مسالك الأبصار" .

قال في "كتاب الأطوال" : وطولها اثنتان وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وعشرون درجة وأربعون دقيقة؛ وهي مدينة لطيفة بالبر الغربي من النيل بالقرب من شطّه .

العمل السابع - الأسيوطية . وهو مصابق لعمل منفلوط من جنوبيه، وهو عمل جليل، ومقر الولاية به (مدينة أسيوط) ^(١) بضم الألف وسكون السين وضم المثناة تحت وفي آخرها طاء مهملة . هكذا ضبطه السمعاني في "كتاب الأنساب" :

(١) ضبطها في القاموس كذلك وضبطها ياقوت بالفتح .

وذكرها في "الروض المطار" في حرف الهمزة ، ووقعت في شعر ابن الساعاتي
بغير ألف في قوله :

لِلَّهِ يَوْمٌ فِي سَيُوطٍ وَلِيْلَةٌ * عُمُرُ الزَّمَانِ بِمِثْلِهَا لَا يَغْلُظُ
بِتَنَانِهَا ، وَالْبَدْرُ فِي غُلُوَانِهِ * وَلَهُ يَجْنَحُ اللَّيْلُ قَرَعُ أَشْمَطُ
وَالطَّيْرُ تَقْرَأُ ، وَالغَدِيرُ صَحِيْفَةٌ ، * وَالرَّيْحُ تَكْتُبُ ، وَالغَمَامُ يَنْقُطُ

وإثبات الألف فيها هو الجارى على السنة العامة بالديار المصرية ، والثابت
في الدواوين حذفها . وموقعها في الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : وطولها إحدى وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة ،
وعرضها اثنتان وعشرون درجة وعشر دقائق . وهى مدينة حسنة فى البر الغربى من
النيل على مرحلة من منفلوط ، وبها مساجد ومدارس وأسواق وقياسر وحمامات .

العمل الثامن - (الإخميمة) . وهو مصابف لعمل أسيوط من جنوبيه ،
وهو عمل ليس بالكبير ، وبلاده أكثرها بالبر الغربى عن النيل ، وحاضرتة (مدينة
إخميم) . قال فى "تقويم البلدان" : (بكسر الألف وسكون الخاء المعجمة والمثناة
تحت بين الميمين ، والأولى منهما مكسورة) وموقعها فى أواخر الإقليم الثانى من
الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : وطولها إحدى وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها
ست وعشرون درجة . وهى مدينة لطيفة بالبر الشرقى عن النيل على مرحلتين من
أسيوط ، وبها كانت البرابى العظام المتقدمة الذكر ، ويقال إن ذا النون المصرى
العابد الزاهد منها ، وولايتها مضافة إلى قوص .

العمل التاسع - القوصية . وهو مصابف لعمل أسيوط من جنوبيه ، وهو
عمل متسع الفضاء بعيد ما بين القرى ، ينتهى آخره إلى أسوان : آخر الديار المصرية

في البر الشرقى والغربى، وهى بلاد النمر، ومنها يجلب إلى سائر البلاد المصرية، ومقرّ ولايته (مدينة قُوص). قال في "المشرك" - بضم القاف وسكون الواو، وفي الآخر صاد مهملة - وموقعها في الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال ابن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها ست وعشرون درجة؛ وهى مدينة جليلة في البر الشرقى عن النيل، ذات ديار فائقة، ورباع أنيقة، ومدارس وربط وحمامات، يسكنها العلماء والتجار وذوو الأموال، وبها البساتين والحدائق المستحسنة إلا أنها شديدة الحر، كثيرة العقارب، حتى إنه يُقيض لها من يدور في الليل في شوارعها بالمسارح لقتلها، ويقاربها في الكثرة أيضا سَامُّ أَرَص .

قال المقر الشهابى بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أخبرنى عن الدين حسن بن أبى المجد الصفدى أنه عدّ في يوم صائف على حائط الجامع بها سبعين سَامُّ أَرَص على صَفِّ واحد . ومما يدخل في عملها مما له ولاية مستقلة مدينة أُسْوَانَ . قال السمعانى : - بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الواو وبعدها ألف ونون - وخالف ابن خلكان في "تاريخه" فضبطه بضم الهمزة، وغلط السمعانى في فتحها . وهى مدينة في أوائل الحدّ الجنوبى من الديار المصرية؛ وموقعها في الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" : طولها اثنتان وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

قال في "القانون" : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . وهى في البر الشرقى من النيل، ذات نخيل وحدائق، وهى من قُوص على نحو خمس مراحل .

قال في "التعريف" : وواليتها وإن كان من قبل السلطان فإنه نائب لوالى قُوص .

قلت : أما الآن ، فقد صار لها وَاَلٍ مستقلُّ بنفسه لا حكم لوالى قُوَصَ عليه ،
وسياتى الكلام عليها في مراكز البريد ، ويأتى الكلام على ولايتها في جملة الولايات
بالديار المصرية إن شاء الله تعالى .

الوجه الثانى

(البحرى)

وهو كل ما سفل عن القاهرة إلى البحر الرومى حيث مَصَبُ النيل . وإنما
سمى بَحْرِيًّا لأن منتهاه البحر الرومى ، ولا يلزم من ذلك تسمية الجانب الشرقى من
الديار المصرية بَحْرِيًّا لأن نهايته إلى بحر القلزم ، لأن آتياه إليه ليس حقيقيا
لأنه يتقاطع بحر القلزم عن بلاد الديار المصرية بالجبال والبرارى المُقْفَرَةَ ، بخلاف بحر
الروم فإنه متصل بالبلاد مجاور لها فناسب النسبة إليه .

قلت : وقد وقع للمقرئ الشهابى بن فضل الله فى " التعريف " فى بلاده وأعماله من
الوهم ما لا يليق بمصرى على ما سياتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .
وهذا الوجه هو أرطَبُ الوجهين وأقلهما حرا ، وأكثرهما فاكهة ، وأحسنهما مدنا .
ويشتمل على ثلاث شُعب تحوى سبعة أعمال .

الشعبة الأولى

(شرقى الفرقة الشرقية من النيل)

وفىها أربعة أعمال .

العمل الأول - الضواحي : جمع ضاحية ، وهى فى أصل اللغة البارزة للشمس ،
وكانها سميت بذلك لبروز قُرَاهَا للشمس ، بخلاف المدينة لَغَبَّة الكِن بها ، وهو
ما يجاور القاهرة من جهة الشمال من القرى ، وولايتها مضافة إلى ولاية القاهرة
وداخلة فى حكمها ، وليست منفردة بمقر ولاية غيرها .

العمل الثانى - القليوبية . وهو مصاب للضواحي من شمالها مما يلي جهة النيل ، وهو عمل جليل ، حسن القرى ، كثير البساتين ، غزير الفواكه . ومقر الولاية به (مدينة قليوب) - بفتح القاف وإسكان اللام وضم المثناة تحت وسكون الواو وباء موحدة فى آخرها . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، ولم يتجزئ طولها وعرضها ، خير أنها من القاهرة فى جهة الشمال على نحو فرسخ ونصف من القاهرة .

قلت : ومن بلادها بلدتنا (قلقشندة) وهى بلدة حسنة المنظر ، غزيرة الفواكه ، وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير ، وقد ذكر ابن يونس فى "تاريخه" : أنه ولد بها . قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس ، وليس لما يقولونه ثبات عندنا .

قال ابن خلكان : - بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون الهمزة وفتح الدال المهملة وبعدها هاء ساكنة - ، وهكذا هى مكتوبة فى دواوين الديار المصرية ، وأبدل ياقوت فى "معجم البلدان" اللام راءً ، وهو الجارى على السنة العامة ، وعليه جرى القضاعى فيما رأيتهم مكتوباً فى "خطه" : قال ابن خلكان : وهى على ثلاثة فرائخ من القاهرة وهى بلدة حسنة المنظر ، كثيرة البساتين ، غزيرة الفواكه وإليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير . قال ابن يونس فى "تاريخه" : ولد بها ، ثم قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس وليس لما يقولونه ثبات عندنا^(١) وذكر .

وقال القضاعى فى "خطه" : فى الكلام على دار الليث بالفسطاط : وكان له دار بقرقشندة بالريف ، بناها فهدمها ابن رفاعه أمير مصر عنادا له ، وكان ابن عمه ،

(١) ما بين النجمتين تقدم بلفظه قريبا فهو مكرر .

فبناها الليثُ ثانياً فهدمها ، فلما كانت الثالثة ، أتاه آتٍ في منامه فقال له ياليثُ :
﴿ وَرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أُمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾
فأصبح وقد أفلحَ ابنُ رِفاعَةَ فأوصى إليه ومات بعد ثلاث . وبقي الليثُ حتى توفى
في منتصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ؛ وصلى عليه موسى بن عيسى الهاشمي
أميرُ مصر للرشيد .

وترجم له ابنُ خلكان بالأصبهاني ، ثم قال في آخر ترجمته : ويقال إنه من قَلَقَشَنَدَةَ .
قلت : وما قاله ابنُ يونس أثبت ، ويجب الرجوع إليه لأمرين : أحدهما أنه
مصريٌّ وأهل البلد أخبر بحال أهل بلدهم من غيرهم ، الثاني أنه قريب من زمن
الليث فهو به أدري ، إذ يجوز أن يكون أصله من أصبهان ، ثم نزل أباه قَلَقَشَنَدَةَ
المذكورة وولد بها وسكنها ، فنسب إليها كما وقع في كثير من النسب ؛ وإعادة داره
بها بعد هدمها ثلاث مرات على ما تقدّم ذكره في كلام القضاعي دليل آعتنائه
بشأنها وميله إليها ، وحينئذ فلا منافاة بين النسبتين .

وذكر في "الروض المعطار" أنه كان له ضيعة على القرب من رشيد من بلاد
الديار المصرية ، يدخل عليه منها في كل سنة خمسون ألف دينار لم تجب عليه فيها زكاة .

العمل الثالث - الشرقية . وهو مصاب للضواحي من شماليها مما يلي جهة
المُقطَّم ، والقلوبية من جهة الشمال أيضا ، وهو من أعظم الأعمال وأوسعها .
إلا أن البساتين فيه قليلة بل تكاد أن تكون معدومة : لآتصاله بالسبخ وبداوة غالب
أهله ، وآنح العمران فيها من جهة الشمال الصالحية ، وما وراء ذلك منقطع رمال على
ما تقدّم ذكره في المنقطع عنها من جهة الشرق ؛ ومقرِّ ولايته مدينة بليس .
قال في "تقويم البلدان" : - بكسر الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الباء الموحدة

(١) قال في القاموس "بليس كفرنيق وقد يفتح أوله بلد بمصر" وضبطه ياقوت بكسر الباء وسكون اللام .

وسكون المثناة تحت ثم سين مهملة . كذا ذكره ، والجارى على الألسنة ضم الباء في أولها ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن يكون طولها أربعا وخمسين درجة وثلاثين دقيقة ، وعرضها ثلاثين درجة وعشر دقائق . وهي مدينة متوسطة بها المساجد والمدارس والأسواق ، وهي محط رحال الدرب الشامى . وفي الركن الشمالى الجنوبي من هذا العمل (بها) . قال النووى في شرح مسلم : بكسر الباء والمعروف فتحها ، وهي البلدة التي أهدى الموقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم من عسليها ؛ وفي آخره من جهة الشرق (قطياً) بفتح القاف وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وألف في الآخر . كذا وقع في "التعريف" و"مسالك الأبصار" : وفي "تقويم البلدان" : إبدال الألف في آخره بباء ، وهي قرية بالرمل المعروف بالحفار على طريق الشام على القرب من ساحل البحر الرومى . قال في "التعريف" : وقد جعلت لأخذ الموجبات ، وحفظ الطرقات ، وأمرها مهم ، ومنها يطالع بكل صادر ووارد .

العمل الرابع - (الدقهلية والمرتاحية) . وهو مصاب عمل الشرقية من جهة الشمال ، وأواخره تنهى إلى السبخ وإلى بحيرة تينس المتصلة بالطينة من طريق الشام ، ومقر الولاية به (مدينة أشموم) بضم الهمزة وإسكان الشين المعجمة وبعدها ميم ثم واو وميم ثانية - كما ضبطه في "تقويم البلدان" ونقله عن خط ياقوت في "المشترك" والذي في "اللباب" إبدال الميم في آخرها بنون ، وعزاه في "تقويم البلدان" للعاقمة .

قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها أربع وخمسون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وأربع وخمسون دقيقة . وهي مدينة صغيرة على ضفة الفرقة

التي تذهب إلى بُحيرة تَنيس من فرقة النيل الشرقية من الجهة ؛ وبآخر هذا العمل (مدينة دِمياط) بكسر الدال المهملة وسكون الميم وياء مثناة من تحت وألف وطاء - قال في "الأطوال" : طولها ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

وقال ابن سعيد : طولها أربع وخمسون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . وهي واقعة في الإقليم الثالث ، وهي مدينة حسنة عند مصب الفرقة الشرقية من النيل في بحر الروم ، ذات أسواق وحمامات ، وكان عليها أسوار من عمارة المتوكل : أحد خلفاء بني العباس ، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرة بعد مرة ، تحرّبت المسلمون أسوارها في سنة ثمان وأربعين وستمئة خوفا من أستيلائهم عليها ، وهي على ذلك إلى الآن ، ولها ولاية خاصة بها .

الشُّعبة الثانية

(غربيّ فرقة النيل الغربية ؛ وفيها عملان)

العمل الأوّل - عمل البُحيرة . وهو مما يلي عمل الجيزة المقدم ذكره من الجهة البحرية ، وهو عمل واسع ، كثير القرى ، فسيح الأرضين . ومقرّ ولايته (مدينة دمنهور) - بفتح الدال المهملة والميم وسكون النون وضم الهاء وسكون الواو وفي آخرها راء مهملة - وتعرف بدمنهور الوَحش . وهي مدينة متوسطة ذات مساجد ومدارس وأسواق وحمامات . وموقعها في الإقليم الثالث ؛ ولم يتحرّر لى طولها وعرضها ، غير أنها على نحو مرحلة من الإسكندرية بين الشرق والجنوب فليعتبر طولها وعرضها منها بالتقريب .

قلت : ويدخل في هذا العمل حَوْف رمسيس والكُفور الشاسعة .

العمل الثانى - عمل المزارحتين . وهو ماجاور خليج الإسكندرية من جهة الشمال إلى البحر الرومى ، وبعضه بالبر الشرقى من النيل ، وحاضرتة (مدينة قوّة) . قال فى "تقويم البلدان" : بضم الفاء وتشديد الواو؛ وهى مدينة متوسطة بالبر الشرقى من فرقة النيل الغربية يقابلها جزيرة لها تعرف بجزيرة الذهب ذات بساتين وأشجار ومنظرٍ رائعٍ ، وليس بها ولاية . وإنما يكون بها شادٌ للخاص ، يتحدث فى كثير من أمور الولاية ، وهى فى الحقيقة كإحميم مع قوص .

وبلى هذين العملين غربا بشمال (مدينة الإسكندرية) - بكسر الهمزة وسكون السين المهملّة وفتح الكاف وسكون النون وفتح الدال وكسر الراء المهملتين وتشديد الياء المثناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الثالث .

قال فى كتاب "الأطوال" : طولها إحدى وخمسون درجة وأربع وخمسون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة وثمأن وخمسون دقيقة ، وقد تقدّم القول على أصل عمارتها فى الكلام على قواعد الديار المصرية قبل الإسلام .

وهى الآن بالنسبة إلى ماتشهد به التواريخ من بنائها القديم جزء من كلٍّ ، وهى مع ذلك مدينة رائعة المنظر ، حسنة الترتيب ، مبنية بالحجر والكلس ، مبيضة البيوت ظاهرا وباطنا كأنها حمامة بيضاء ، ذات شوارع مُشرعة ، كلُّ خط قائم بذاته كأنها رُقعة الشطرنج ، يستدير بها سوران منيعان ، يدور عليهما من خارجهما خندقٌ فى جوانب البلد المتصلة بالبر ، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربى مما يلى الشمال إلى المشرق حيث دار النيابة ، وبهما أبراج حصينة عليها الستائر المسترة والمجانيق المنصوبة .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقال إن منارها كان فى وسط البلد ، وإن المدينة كانت سبع محجّات ، وإنما أكلها البحر ، ولم يبق إلا محجة واحدة ،

وهى المدينة الباقية الآن وصار مكانُ المنار منها على مسيرة ميل . قال : ويقال إن مساجدها أُحصيتُ في وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف مسجد ، وبها الجوامع والمساجد ، والمدارس ، والخَوَاق ، والرُّبَط ، والزوايا ، والحمامات ، والديار الجليلة ، والأسواق الممتدة . وفيها يُنَسَج القماش الفائق الذى ليس له نظير في الدنيا ، وإليها تهوى ركائب التجار في البر والبحر ، وتَمِير من قُماشِها جميع أقطار الأرض ، وهى فُرُوضَةٌ بلاد المغرب ، والأندلس ، وجزائر الفرينج ، وبلاد الروم ، والشام . وشُرِب أهلها من ماء النيل : من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلى داخل دُورها ، وأستعمال الماء لعامة الأمر من آبارها ، وبجَنَبَات تلك الآبار والصحاريح بألوعات تصرف منها مياه الأمطار ونحوها ؛ وبها البساتين الأنيقة ، والمستنزهات الفاتحة ، ولهم بها القصور والجواسق الدقيقة البناء ، المحكّة الجُدُرِ والأبواب ؛ وبها من الفواكه والثمار ما يفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حُسناً مع رِخْص الثمن ؛ وليس بها مزارعٌ ولا لها عملٌ واسع ، وإن كان متحصّلاً يعادل أعمالاً : من واصل البحر وغيره ؛ وهى أجلُّ ثغور الديار المصرية ، لا يزال أهلها على يقظة من أمور البحر والأحتراز من العدو الطارق ؛ وبها عسكر مستخدم لحفظها .

قال في "مسالك الأبصار" : وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها موسوم بنبابة

السلطنة سواها .

قلت : وهذا فيما تقدّم حين كانت النيابة بها صغيرة في معنى ولاية . أما من حين طرقها العدو المخدول من الفرينج في سنة سبع وستين وسبعائة وأجتاح أهلها وقتل وسبى ، فإنها أستقرت من حينئذ نبابة كبرى تضاهى نيابة طرابلس وحمّة وما في معناهما ، وهى على ذلك إلى الآن ؛ وسيأتى الكلام على نيابتهما في الكلام على ترتيب المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الشعبة الثالثة

(ما بين فرقتي النيل الشرقية والغربية، وهو جزيرتان)

الجزيرة الأولى - جانبها الشرقي يمتد في طول فرقة النيل الشرقية إلى مصبه في البحر الملح حيث دُمِيطَ بالقرب منها، وجانبها الغربي يمتد في طول فرقة النيل الغربية إلى نُجَاهِ أَبِي نُسَّابَةَ من عمل الخيزة فينشأ بحراً أسيار المتقدم ذكره ويمتد في طولها إلى قرية الفرسسق خارج الجزيرة من الغرب فيتصل بفرقة النيل التي تفرع منها على ما تقدم، ويمتد في طولها إلى مصبه في البحر الملح حيث رشيد .

وتشتمل هذه الجزيرة على عمليين :

العمل الأول - المنوفية . وأوله من الجنوب من القرية المعروفة بسَطَّنُوفَ على أول الفرقة الغربية من النيل، ومقر ولايته (مدينة منوف) - بضم الميم والنون وسكون الواو وفاء في الآخر)، وهي مدينة إسلامية بنيت بدلا من مدينة قديمة كانت هناك قد خربت الآن وبقيت آثارها كيانا، وولايتها من أنفس الولايات، وقد اضيف إليها عمل أبيار، وهو جزيرة بنى نصر الآتى ذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالى، وهي مدينة حسنة ذات أسواق، ومساجد، ومسجد جليل للخطبة، وحمام، وخانات .

قلت : وربما غلط فيها بعض الناس فظن أنها من منف المتقدمة الذكر في الكلام على قواعد مصر القديمة، وبينهما بعد كثير إذ منف المتقدمة الذكر جنوبي الفسطاط على اثني عشر ميلا منه كما تقدم ذكره، وهذه شمالي الفسطاط والقاهرة في أسفل الأرض .

العمل الثاني - الغربية . وهو مصابق للمنوفية من جهة الشمال، ويمتد إلى البحر الملح بين مصبي النيل إلا ما هو من عمل المزارحتين على فرقة النيل الغربية من

(١) ضبطها ياقوت والقاموس بالفتح وتبعناها في كثير من المواضع .

الشرق؛ وهو عمل جليل القدر، عظيم الخطر؛ به البلاد الحسنة، والقرى الزاهية، والبساتين المتراكبة وغير ذلك؛ وفي آخره مما يلي بحر الروم موقع ثغر البرلس .

ويندرج فيه ثلاثة أعمال أحر كانت قديمة، وهى القويسنية، والسمنودية، والدنجاوية، ومقر ولايته (مدينة المحلة). قال فى "المشترك": - بفتح الميم والحاء المهملة وتشديد اللام ثم هاء فى الآخر- وتعرف بالمحلة الكبرى، وقد غلب عليها اسم المحلة حتى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هى .

قلت : ووقع فى "التعريف" : التعبير عنها بحلّة المرحوم وهو وهم ، وإنما هى قرية من قراها .

قال فى "المشترك" : ويقال لها محلة الدقلا (بفتح الدال المهملة والقاف) وهى مدينة عظيمة الشأن ، جليلة المقدار، رائقة المنظر، حسنة البناء، كثيرة الساكن ، ذات جوامع، ومدارس، وأسواق، وحمامات؛ وهى تعادل قوص من الوجه القبلى فى جلاله قدرها، ورياسة أهلها، ويفرق بينهما بما يفرق به بين الوجه القبلى والوجه البحرى من الرطوبة واليبوسة .

الجزيرة الثانية - ما بين بحر أبيار المتقدم ذكره وبين الفرقة الغربية من النيل، وتعرف بجزيرة بنى نصر؛ وهى عمل واحد، وحاضرتة (مدينة أبيار) - بفتح الهمزة كما قاله فى "الروض المعطار" وإسكان الباء الموحدة وفتح المثناة تحت وبعدها ألف ثم راء مهملة - وهى مدينة لطيفة حسنة المنظر يعمل فيها القماش الفائق من المحتررات وغيرها؛ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة؛ ولم يتحترلى طولها ولا عرضها، وهى مضافة إلى ولاية منوف، وليس بها الآن ولاية مستقلة .

الفصل الثالث

(فيمن ملك الديار المصرية ، جاهليةً وإسلاماً)

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" : وكانت أهل مصر
أهل مُلكٍ عظيمٍ في الدهور الخالية والأزمان السالفة ، ما بين قبطىّ ويونانىّ
وعملىقّ ، وأكثرهم القبط . قال : وأكثر من تملك مصر الغرّاء .
وهم على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى

(من ملكها قبل الطوفان ، وقَلَّ من تعرّض له من المؤرّخين)

قد تقدّم في الكلام على ابتداء عمارة مصر أن أول من عمّرها قبل الطوفان
نقراووس بن مصرىم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام ، ومعنى
نقراووس بالسريانية ملكُ قومه ، وهو الذى عمّر مدينة أمسوس أول قواعد مصر
المتقدّم ذكرها ؛ ثم ملكها بعده ابنه نقراووس الثانى مائة وسبع سنين ؛ ثم ملكها
بعده أخوه مصرام بن نقراووس الأول ؛ ثم ملكها بعده عنقام الكاهن ولم تطل
مدّة ملكه ؛ ويقال إن إدريس عليه السلام رُفِعَ في زمانه ؛ ثم ملكها بعده ابنه
غرناق ؛ ثم ملك بعده رجل من بنى نقراووس اسمه لوجيم ؛ ثم ملك بعده رجل اسمه
خصليم ، وهو أول من عمل المقياس للنيل على ما تقدّم ذكره ؛ ثم ملك بعده ابنه
هرصال ، ومعناه بالسريانية خادم الزهّرة ، وهى مدينة شرق النيل ، وعمل سرّياً
تحت النيل إليها ، وهو أول من عمل ذلك وأقام في الملك مائة وأربعاً وثلاثين سنة ،
ويقال إن نوحاً عليه السلام ولد في زمانه ؛ ثم ملك بعده ابنه بدرسان ؛ ثم ملك بعده
أخوه شمروود ، وكان طوله فيما يقال عشرين ذراعاً ؛ ثم ملك بعده فرسيدون بن
بدرسان المتقدّم ذكره مائة وستين سنة ؛ ثم ملك بعده ابنه شرناق مائة وثلاث سنين ؛

ثم ملك بعده أبنة سهلوق مائة وتسع سنين؛ ثم ملك بعده أبنة سُوريدِين، وهو الذى بنى الأهرام العظام بمصر على ما تقدم ذكره فى الكلام على عجائب مصر وخواصها؛ ثم ملك بعده أبنة هر جيب نيفاً وسبعين سنة، وهو الذى بنى الهرم الأول من أهرام دهشور؛ ثم ملك بعده أبنة مناوش ثلاثاً وسبعين سنة؛ ثم ملك بعده أبنة أقروس أربعاً وستين سنة؛ وفى أيامه حصل القحط العظيم، وساطت الوحوش والتمايح على الناس، وأعقمت الأرحام حتى يقال إن الملك تزوج ثلثمائة امرأة يبنى الولد فلم يُولد له، وذلك مقدمة الطوفان؛ ثم ملك بعده رجل من أهل بيت الملك اسمه أرمالينوس؛ ثم ملك بعده أبنة عمه فرعان، وهو أول من لقب بلقب الفراعنة، وكان قد كتب إلى ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام، وفى زمنه كان الطوفان وهلك فيمن هلك .

المرتبة الثانية

(من ملكها بعد الطوفان إلى حين الفتح الإسلامى)

ولأورخين فى ذلك خلف كثير، وقد جمعت بين كلام التواريخ التى وقفت عليها فى ذلك، وهم على طبقات .

الطبقة الأولى

(ملوكها من القبط)

قد تقدم فى الكلام على ابتداء عمارتها أن أول من عمرها بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، وكان بيصر قد كبر سنه وضعف، فأقام يسيراً ثم مات، فدفن فى موضع دير ابى هرميس غربى الأهرام . قال القضاعى، ويقال إنها أول مقبرة دفن فيها بأرض مصر؛ وملك بعده أبنة مصر فعمر وطالت مدة ملكه،

وعمرت البلاد في أيامه وكثر خيرها، ثم مات؛ وملك بعده أبنه (قبطيم)، وإليه ينسب القبط، ويقال إنه أدرك ببلة الألسن التي كانت بعد نوح عليه السلام، وهي ريح نخرجت عليهم ففرقت بينهم وصار كل منهم يتكلم بلغة غير لغة الآخر، ونخرج منها باللغة القبطية؛ ثم ملك بعده أبنه (قفط)، وهو الذي بنى مدينة قفط بالصعيد الأعلى وسمها بأسمه، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده أخوه (أشنن)، وهو الذي بنى مدينة الأشمونين المتقدم ذكرها بالوجه القبلي، وطالت مدته حتى قيل أنه بقي ثمانمائة سنة، وقيل ثمانمائة وثلاثين؛ ثم ملك بعده أخوه (أتريب)، وهو الذي بنى مدينة أتريب المتقدم ذكرها بالوجه البحري من الديار المصرية؛ ثم ملك بعده أخوه (صا)، وهو الذي بنى مدينة صا المتقدم ذكرها بالوجه البحري أيضا؛ ثم ملك بعده (قفطريم) بن قفط، ويقال إنه الذي وضع أساس الأهرام الدهشورية غير الهرم الأول الذي بناه هر جيب المتقدم ذكره قبل الطوفان، وهو الذي بنى مدينة دندري بالصعيد الأعلى، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده أبنه (بودشير)، وهو الذي أصلح جنيتي النيل بهندسته؛ ثم ملك بعده أبنه (عديم)؛ ثم ملك بعده أبنه (شدات)، وهو الذي تم الأهرام الدهشورية التي وضع أساسها قفطريم المتقدم ذكره. ويقال: إن مدينة شطب التي بالقرب من مدينة أسيوط بنيت في أيامه، وآثارها باقية إلى الآن، وهو أول من ولع بالصيد وأخذ الجوارح والكلاب السلوقية، وعمل البيطرة من ملوك مصر، ومات عن أربعمائة وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده أبنه (مناوش)، ويقال إنه أول من عمل له الحمام بمصر؛ ثم ملك بعده أبنه (مناوش) وطالت مدته في الملك حتى بقي فيما يقال ثمانمائة سنة، وقيل ثمانمائة وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده (مناوش) بن أشنن نيفا وأربعين سنة، وقيل ستين سنة، وهو أول من عمل له الميدان بمصر، وأول من بنى البيارستان لعلاج المرضى، وفي أيامه بنيت مدينة سترية

بالوآحات؛ ثم ملك بعده أبنه (مرقوره) نيفاً وثلاثين سنة، وفي كتب القبط أنه أول من ذلل السباع وركبها؛ ثم ملك بعده (بلاطس) خمسا وعشرين سنة؛ ثم ملكت بعده بنت من بنات أتريبَ خمسا وثلاثين سنة، وهي أول من ملك مصر من النساء؛ ثم ملك بعدها أخوها (قليمون) تسعين سنة، وفي أيامه بنيت مدينة دميّاط على أسم غلام له كانت أمه ساحرة له، وفي أيامه بنيت أيضا مدينة تيّس؛ ثم ملك بعده أبنه (فرسون) مائتين وستين سنة؛ ثم ملك بعده ثلاثة ملوك أو أربعة لم يعين اسمهم؛ ثم ملك بعدهم (مرقونس) الكاهن ثلاثا وسبعين سنة؛ ثم ملك بعده أبنه (اليساد) خمسا وسبعين سنة؛ ثم ملك بعده أبنه (صا) وأكثر القبط تزعم أنه أخوه، نيفاً وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده أبنه (تدراس)، وهو الذي حفر خليج سخا المتقدم ذكره في حُلجانِ مصر القديمة؛ ثم ملك بعده أبنه (ماليق)، ويقال إنه خالف دين آبائه في عبادة الأصنام، ودان بدين التوحيد. ولما أحس بالموت، صنع له نأوسا وكنز معه كنوزا عظيمة، وكتب عليها أنه لا يستخرجها إلا أمة النبي الذي يبعث في آخر الزمان؛ ثم ملك بعده أبنه (حريا)، وفي بعض التواريخ حرايا خمسا وسبعين سنة؛ ثم ملك بعده أبنه (كلكن)، وفي بعض التواريخ كلكي نحوا من مائة سنة، وهو أول من أظهر علم الكيمياء بمصر، وكان قبل ذلك مكتوما، وفي زمنه كان الثرؤد بأرض بابل من العراق؛ ثم ملك بعده أخوه (ماليا)، ثم ملك بعده (حربيا) بن ماليق؛ ثم ملك بعده (طوطيس) بن ماليا، وفي بعض التواريخ طوليس سبعين سنة، وفي بعض التواريخ أنه ملك بعد أبيه ماليا، والقبط تزعم أن الفراعنة سبعة هو أولهم، وهو الذي أهدى هاجر لإبراهيم عليه السلام؛ ثم ملكت بعده أخته (حوريا)، وهي التي بنى لها جيرون المؤتمكي صاحب الشام مدينة الإسكندرية حين خطبها على أحد الأقوال في عمارتها ليجعلها مهرا لها، ثم آحالت عليه فسمته هو وجميع عسكره

في خلع فاتوا؛ ثم ملكت بعدها بنت عمها (زلفى) ويقال دلفه بنت مأموم؛ ثم ملك بعدها (أيمين) الأتريبي، وهو آخر ملوك القبط من هذه الطبقة. والذي ذكره القضاة وغيره أنه ملكها بعد وفاة بيصر أبنة مصر، ثم قفط بن مصر، ثم أخوه أثنى، ثم أخوه أتريب، ثم أخوه صا، ثم أبنة تدراس، ثم أبنة ماليق، ثم أبنة حريا، ثم أبنة كلكن، ثم أخوه مالبا، ثم حربيا، ثم طوطيس بن مالبا، ثم أبنة حوريا، وهى أول من ملكها من النساء، ثم أبنة عمها زلفى، ومنها أتتعتها العالقة الآتى ذكرهم.

الطبقة الثانية

(ملوكها من العاليق ملوك الشام)

أول من ملكها منهم (الوليد) بن دومع العمليق، وقال السهيلي: الوليد بن عمرو ابن أراشة. اقتلعها من أيمين: آخر ملوك القبط المتقدم ذكره، وهو الفرعون الثانى عند القبط، وقيل هو أول من سمي بفرعون، وقام فى الملك مائة وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده أبنة (الريان) مائة وعشرين سنة، والقبط تسميه نهر اوس، وهو الفرعون الثالث عند القبط، ونزل مدينة عين شمس، وكانت الملوك قبله تنزل مدينة منيف، وفى أيامه وصل يوسف عليه السلام إلى مصر، وكان من أمره ما قصه الله تعالى فى كتابه. ويقال: إنه آمن بيوسف عليه السلام؛ ثم ملك بعده أبنة (دارم) ويقال دريوس، وهو الفرعون الرابع عند القبط، وفى أيامه توفى يوسف عليه السلام، وفى أيامه ظهر بمصر معدن فضة على ثلاثة أيام فى النيل؛ ثم ملك بعده أبنة (معدان) ويقال معاديوس، وهو الفرعون الخامس عند القبط، لإحدى وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده أبنة (أقسامس) وهو الفرعون السادس عند القبط، وبعضهم يزعم أن منارة الإسكندرية بنيت فى زمنه، وأهل الأثر يسمونه كاسم، وربما قالوا كاسم؛

ثم ملك بعده ابنه (لاطس) ؛ ثم ملك بعده رجل اسمه (ظلمنا) كان من عماله فخرج عليه فقتله وملك مكانه، وهو الفرعون السابع عند القبط، وهو فرعون موسى .
قال المسعودي : وهو الوليد بن مصعب الموجود في كتب الأثر، والوليد بن مصعب هو فرعون موسى وهو الوليد بن مصعب بن عمرو بن معاوية بن أراشة، يجتمع مع الوليد بن دومع في أراشة، وهو آخر من ملك مصر من العماقة، وبعضهم يقول ظلمنا بن قومس من ولد أشمون أحد ملوك القبط المتقدم ذكرهم ؛ وعلى هذا فيكون فرعون موسى من القبط، وهو أحد الأقوال فيه ؛ وهو الذي يعول عليه القبط، ويوردونه في كتبهم، وآخرون يجعلونه من نحم من الشام، والظاهر الأول، وهو أول من عرف العرفاء على الناس، وفي زمنه حفر خليج سردوس المتقدم ذكره في خُلبان النيل، ويقال : إنه عاش دهرا طويلا لم يمرض ولم يشك وجعا إلى أن أهلكه الله تعالى بالغرق . (١)

الطبقة الثالثة

(ملوكها من القبط بعد العماقة)

أول من ملكها منهم بعد فرعون دلوكة، وطالت مدتها في الملك حتى عرفت بالعجوز، وإليها ينسب حائط العجوز المبنى بالطوب اللين المستدير على بلاد مصر في لحف الجبلين : الشرقي والغربي ؛ وأثره باق بالوجه القبلي إلى الآن، ويقال إنها التي بنت البرابي بمصر ؛ ثم ملك بعدها رجل من أبناء أكابر القبط اسمه (دركون) بن بطوس، ويقال دركوس بن ملوطس ؛ ثم ملك بعده رجل اسمه (تودس) ثم ملك بعده ابنه (لقاش) نحوا من خمسين سنة ؛ ثم ملك بعده (مرينا) بن لقاش نحوا من عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده ابنه (بلطوس) ويقال بلوطس بن مياكيل أربعين سنة ؛ ثم ملك

(١) تبينه وقع اختلاف فيما بأيدينا من الكتب في أسماء الملوك وترتيبهم في هذا والذي بعده فعولنا على الاصل

بعده (مالوس) ويقال فالوس بن توطيس عشر سنين ؛ ثم ملك بعده ميا كيل .
 قال المسعودى : وهو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرَّب بيت المقدس ؛
 ثم ملك بعده (نوله) وهو الذى غزا رَجَعْمُ بن سليمان عليه السلام بالشام ، وقيل إن
 الذى غزا رَجَعْم كان اسمه شيشاق . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة :
 وهو الأصح . قال : ثم لم يشتهر بعد شيشاق المذكور غير فرعون الأعرج ، وهو
 الذى غزاه بختنصر وصلبه ، والذى ذكره المسعودى أنه ملك بعد ميا كيل المتقدم
 ذكره (مريوس) ؛ ثم ملك بعده أبنة (بعاش) ثمانين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنة
 (قومس) عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده أبنة كاييل .
 قال المسعودى : وهو الذى غزاه بختنصر وصلبه وخرَّب مصر ، وبقيت مصر
 أربعين سنة خرابا .

الطبقة الرابعة

(ملوكها من الفرس)

أول من ملكها فى جملة مملكة الفرس (بهراسف) بواسطة أن بختنصر كان نائبا له
 ومن حين أستولى عليها بختنصر ، توالى عليها الولاة من جهته ، وهو بيابل سبعا
 وخمسين سنة وشهرا كما ذكر صاحب حماة إلى أن مات ، فولى بعده أبنة (أولات)
 سنة واحدة ؛ ثم أولياها بعده خوه (بلطشاش) بن بختنصر ، ثم أستقرت مصر والشام
 بأيدي نواب الفرس عن ملوكهم .

فلما مات بهراسف ، ملك بعده كيستاسف ؛ ثم ملك بعده أبنة أردشير بهمن
 ابن آسفيدار بن كيستاسف ، وأنسبط يده حتى ملك الأقاليم السبعة ؛ ثم ملك
 بعده أبنة (دارا) ، وفى زمنه ملك الإسكندر بن فيلبس على اليونان فقصده ، فلما قرب

منه قتله جماعة من قومه ، ولحقوا بالإسكندر ، وهو آخر من ملك مصر من الفُرس ، ولم أقف على تفصيل نواب الفُرس بمصر إلا أنه كان منهم كسرجوس الفارسي ، وهو الذي بنى قصر الشمع بالفُسْطَاطِ على ما تقدم ذكره ، وبعده (طحارست) الطويل ، وفي أيامه كان بقراط الحكيم .

الطبقة الخامسة

(ملوكها من اليونان)

أول من ملكها منهم (الإسكندر بن فيليس) حين غلب دارا ملك الفُرس على ملكه وأستولى على ما كان بيده ، وكان مقر ملكه مقدونية من بلاد الروم القديمة ، وأنحاز له ملك العراق ، والشام ، ومصر ، وبلاد العرب . فلما مات تفرقت ممالكه بين الملوك ، فملك مصر ونواحي الغرب البطالسة من ملوك اليونان ، كان كل منهم يلقب بطليموس .

فأول من ملكها منهم (بطليموس المنطقي) عشرين سنة ، ويقال : إنه أول من لعب بالبراة وضراها ، ثم ملك بعده (بطليموس محب أخيه) أربعين سنة ، وقيل ثمانا وثلاثين سنة ، وهو الذي نقل التوراة من العبرانية إلى اليونانية ، وفي أيامه ظهرت عبادة التماثيل والأصنام ، ثم ملك بعده (بطليموس الصائغ) نحسا ، وقيل ستا وعشرين سنة ، ثم ملك بعده (بطليموس محب أبيه) سبع عشرة سنة ، ثم ملك بعده (بطليموس صاحب علم الفلك) أربعين سنة ، وهو الذي ألف كتاب المجسطي ، ثم ملك بعده (بطليموس محب أمه) سبعا وعشرين سنة ، ثم ملك بعده (بطليموس الصائغ الثاني) ثم ملك بعده (بطليموس الخالص) ست عشرة سنة ، وقيل سبع عشرة ، ثم ملك بعده (بطليموس الإسكندراني) تسع سنين ، وقيل اثنتي عشرة سنة ،

ثم ملك بعده (بَطْلِيمُوسُ اسكندروس) ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده (بَطْلِيمُوسُ مَجِبُ أخيه) الثانى ثمان سنين؛ ثم ملك بعده (بَطْلِيمُوسُ دوتيسوس)؛ ثم ملكت بعده ابنته قلوبطرا اثنتين وعشرين سنة، وبزوالها انقرض ملك اليونان عن مصر وزال .

الطبقة السادسة

(ملوكها من الروم)

أول من ملكها منهم (أعشطش) . يقال بشينين معجمتين ومهملتين ولقبه قيصراً، وهو أول من تلقب به، ثم صار علماً على ملوك الروم .
 قصد قلوبطرا المتقدم ذكرها، فلما أحسَّت بقربه منها، عمدت إلى مجلسها فجعلت فيه الرياحين والمشموم، وأعملت الفكر في تحصيل حية إذا نهشت الإنسان مات لحينه ولم يتغير حاله، فقربت يدها منها حتى ألقَّت سمها في يدها، وأنسابت الحية في الرياحين، وجاء أعشطش فوضع يده في الرياحين فنهشته الحية، فبقي يوماً ومات بعد أن ملك الروم ثلاثاً وأربعين سنة . وفي أيامه ولد المسيح عليه السلام؛ ثم ملك بعده الروم ومصر طيباريوس، ويقال طبريوس، ويقال طبريس اثنتين وعشرين سنة . قال المسعودى: وفي زمنه رفع المسيح عليه السلام .
 قال: ولما مات أعشطش، اختلفت الروم وتحزبوا وتنازعوا في الملك مائتين وثمانيا وتسعين سنة، لانظام لهم، ولا ملك يجمعهم؛ ثم ملكهم عانيوس . قال صاحب حماة: وكان رفع المسيح في زمنه، وهو مخالف لما تقدم من كلام المسعودى؛ ثم ملك بعده قلدريوس أربع عشرة سنة؛ ثم ملك بعده نارون ثلاث عشرة سنة، وهو الذى قتل بطرس وبولص الحواريين برومية وصلبهما؛ ثم ملك بعده

(١) في المسعودى فلوريوس . وبالجملة فينا ما بأيدينا من الكتب اختلاف في هذه الأسماء فتولنا على المخطوط والله أعلم .

ساسانوس عشر سنين ؛ ثم ملك بعده طيطوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده دومپيتوش ، ويقال اديطانش خمس عشرة سنة ، وكان على عبادة الأصنام فتبع اليهود والنصارى وقتلهم ؛ ثم ملك بعده ادريانوس ستا وثلاثين سنة فأصابته علة الجذام فسار إلى مصر يطلب طباً لذلك فلم يظفر به ومات بعائته ؛ ثم ملك بعده ايطيثوس ، ويقال ابطاوليس ثلاثا وعشرين سنة ، وهو الذى بنى بيت المقدس بعد تحريبه الثانية وسماه إيليا ، ومعناه بيت الرب ، وهو أول من سماه بذلك ؛ ثم ملك بعده مرقوس ، ويقال قومودوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده قومودوس ثلاث عشرة سنة ، وكان دين النصارى قد ظهر فى أيامه ، وفى زمنه كان جالينوس الحكيم ؛ ثم ملك بعده قوطنجوس ستة أشهر ؛ ثم ملك بعده سيوارس ثمانى عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده ايطيثوس الثانى أربع سنين ؛ ثم ملك بعده اسكندروس ثلاث عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده بكسمينوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده خورديانوس ست سنين ؛ ثم ملك بعده دقيانوس ، وقيل دقيوس سنة واحدة ، فقتل النصارى وأعاد عبادة الأصنام ، ومنه هرب الفتية أصحاب الكهف ، وكان من أمرهم ما قص الله تعالى فى كتابه العزيز ؛ ثم ملك بعده ثاليوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده علينوس وولديانوس أشتركا فى الملك ، وقيل إن ولديانوس انفرد بالملك بعد ذلك ، وأقام فيه خمس عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده قلوديوس سنة واحدة ؛ ثم ملك بعده اردياس ، ويقال اردليانوس ست سنين ؛ ثم ملك بعده قروقوس سبع سنين ؛ ثم ملك بعده ياروس وشركته سنتين ؛ ثم ملك بعده دقلطيانوس إحدى وعشرين سنة ، وهو آخر عبدة الأصنام من ملوك الروم ، وبمهلكه تؤرخ النصارى إلى اليوم ، وعصى عليه أهل مصر ، فسار إليهم من رومية ، وقتل منهم خلقا عظيما ، وهم الذين يعبر عنهم النصارى الآن بالشهداء .

ثم ملك بعده قسطنطين المظفر إحدى وثلاثين سنة فسار من رومية إلى قسطنطينية
وبنى سورها وأستقرت دار ملكهم ، وأظهر دين النصرانية وحمل الناس عليه ؛
ثم ملك بعده ابنه قسطنطين فشد دين النصرانية وبنى الكنائس الكثيرة ؛ ثم ملك
بعده إليانوس ، ويقال إليانس سنة واحدة ، وهو ابن أخي قسطنطين المتقدم ذكره ،
فرفض دين النصرانية ورجع إلى عبادة الأصنام ، وبموته خرج الملك عن
بنى قسطنطين ؛ ثم ملك بعده بطريق من بطارقة الروم اسمه بوثيانوس ، ويقال
سيوتيانوس سنة واحدة فأعاد دين النصرانية ، ومنع عبادة الأصنام ؛ ثم ملك بعده
قالتيانوس أربع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده خرطيانوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك
بعده باردوسيوس الكبير تسعا وأربعين سنة ؛ ثم ملك بعده ادقادبوس بقسطنطينية
وشريكه أويوريوس برومية ثلاث عشرة سنة ؛ ثم ملك بعدهما مرقيانوس سبع
سنين ، وهو الذى بنى دير مارون بمحّص ؛ ثم ملك بعده وأليطيس سنة واحدة ؛
ثم ملك بعده لاون الكبير سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده زيتون ثمان عشرة سنة ؛
ثم ملك بعده اسطيسوس سبعا وعشرين سنة ، وهو الذى عمّر أسوار مدينة حمّاة ؛
ثم ملك بعده بوسيطينوس تسع سنين ؛ ثم ملك بعده بوسيطينوس الثانى ثمانيا
وثلاثين سنة ؛ ثم ملك بعده طبريوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعده طبريوس الثانى
أربع سنين ؛ ثم ملك بعده ماريقوس ثمان سنين ؛ ثم ملك بعده ماريقوس الثانى ،
ويقال مرقوس أثنى عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده قوقاس ثمان سنين ؛ ثم ملك
بعده هرقل وأسمه بالرومية أوقليس ، وهو الذى كتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم ،
يدعوه إلى الإسلام ، وكانت الهجرة النبوية فى السنة الثانية عشرة من ملكه .

قال المسعودى : وفى تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، هاجر وملك الروم قيصر بن قوق^(١) ؛ (ثم ملك الروم بعده) قيصر بن قيصر ،

(١) وإليه تنسب الدناير القوقية (قاموس مادة ق وق) .

وذلك في خلافة أبي بكر رضى الله عنه ، وهو الذى حارب به أمراء الإسلام بالشام وأقتلوا الشام منه .

والذى ذكره في " التعريف " في مكتبة الاذفونش صاحب طَيْطَلَةَ من ملوك الفرنج بالانْدَلِس أن هِرَقْل الذى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم في زمنه وكتب إليه لم يكن الملك نفسه ، وإنما كان متسلم الشام لمصر ، وقبصر بالقُسْطَنْطِينِيَّة لم يرم ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم إنما كتب لهِرَقْل لأنه كان مجاورا لجزيرة العرب من الشام . وعظيم بصرى كان عاملا له ، ويظهر أن قبصر الأخير الذى ذكره هو الذى كان المَقْوِسُ عاملا له على مصر . ويقال : إن المَقْوِسَ تَقَبَّلَ مصر من هِرَقْل بتسعة عشر ألف دينار .

وأعلم أنه كان الحال يقتضى أن نذكر ثواب من تقدم من ملوك الروم واليونان والفرس على مصر ، ولكن أصحاب التواريخ لم تعتن بأمر ذلك ، فتعذر العلم به . وإذا ذكر الأصل ، أستغنى به عن الفرع .

وذكر القضاعى : أنه بعد عمارة مصر من نراب مُجْتَنَصِرَ ظهرت الروم وفارس على سائر الملوك التى وسط الأرض فقاتلت الروم أهل مصر ثلاث سنين إلى أن صالحوهم على شيء فى كل عام ، على أن يكونوا فى ذمتهم ويمنعوهم من ملوك فارس ، ثم ظهرت فارس على الروم وغلبوهم على الشام وألحوا على مصر بالقتال ، ثم استتقر الحال على نجاج مصر أن يكون بين فارس والروم فى كل عام ، وأقاموا على ذلك تسع سنين ، ثم غلبت الروم فارس وأخرجوهم من الشام وصار ماصولحت عليه أهل مصر كله خالصا للروم ، وجاء الإسلام والأمر على ذلك .

المرتبة الثالثة

(من وليها في الإسلام : من بداية الأمر إلى زماننا، وهم على ضربين)

الضرب الأول

(فيمن وليها نيابةً ، وهو الصدر الأول ، وهم على ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(عمال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

قد تقدم أنها لم تزل بيد الروم والمقوقس عامل عليها إلى خلافة عمر رضي الله عنه ، ولم تزل كذلك إلى أن فتحها عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير في سنة عشرين من الهجرة ، وقيل سنة تسع عشرة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ ووليها (عمرو بن العاص) من قبل عمر ، وهو أول من وليها في الإسلام ، وبقى عليها إلى سنة خمس وعشرين ، وبنى الجامع العتيق بالفسطاط ، ثم وليها عن عثمان ابن عفان رضي الله عنه (أبو يحيى العامري) فمكث فيها إحدى عشرة سنة ، وتوفي سنة ست وثلاثين ؛ ثم وليها عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (قيس بن سعد) الخزرجي في أول سنة سبع وثلاثين ؛ ثم وليها عنه (مالك بن الحارث النخعي) المعروف بالأشتر في وسط سنة سبع وثلاثين ، وكتب له عنه عهدا يأتي ذكره في الكلام على اليهود إن شاء الله تعالى ، فسلم ومات قبل دخوله إلى مصر ؛ ثم وليها عنه (محمد بن أبي بكر الصديق) رضي الله عنه في آخر سنة سبع وثلاثين فمكث دون السنة ؛ ثم وليها عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (عمرو بن العاص ثانيا) سنة ثمان وثلاثين خمس سنين ، وتوفي بها سنة ثلاث وأربعين ؛ ثم وليها عنه (عقبة بن عامر الجهني) في سنة أربع وأربعين فمكث فيها ثلاث سنين وكسراً ؛ ثم وليها عنه (مسلمة بن مخلد) الخزرجي سنة سبع وأربعين فمكث فيها خمس عشرة سنة .

(١) لعل الصواب والزبير بن العوام كما في تاريخ أبي الفداء .

الطبقة الثانية

(عُمَّال خلفاء بنى أمية بالشام)

لما أفضت الخلافة بعد معاوية إلى ابنه يزيد، وليها عنه (سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي) في سنة اثنتين وستين، فمكث فيها سنتين وكسرا؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفهري) في سنة أربع وستين، وأقره على الولاية بعد يزيد ابنه معاوية، ثم مروان ابن الحكم، فمكث فيها اثنتين وعشرين سنة؛ ثم وليها عن عبد الملك بن مروان (عبد الله بن عبد الملك بن مروان) في أول سنة ست وثمانين، فمكث فيها خمس سنين؛ ثم وليها عنه (قرة بن شريك) في سنة تسعين، وأقره عليها الوليد بن عبد الملك بعده، فمكث فيها سبع سنين؛ ثم وليها عن سليمان بن عبد الملك (عبد الملك بن رفاعة) في سنة سبع وتسعين، فمكث فيها ثلاث سنين وكسرا؛ ثم وليها عن عمر بن عبد العزيز (أيوب بن شرحبيل الأصبجي) آخر سنة تسع وتسعين، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم كانت خلافة يزيد بن عبد الملك؛ فوليا عنه (صفوان الكلبي^(١)) سنة إحدى ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر أيضا؛ ثم وليها عن هشام بن عبد الملك (محمد بن عبد الملك) أخو هشام في سنة خمس ومائة، فمكث فيها أشهرا؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن يوسف الثقفي) في ذى الحجة سنة خمس ومائة، فمكث فيها أربع سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (عبد الملك^(٢)) في سنة تسع ومائة وعزل فيها؛ ثم وليها عنه (الوليد) أخو عبد الملك في سنة تسع المذكورة، فمكث فيها عشر سنين وكسرا، وتوفي سنة تسع عشرة ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفهري) ثانيا في آخر سنة تسع عشرة ومائة، فأقام بها سبعة أشهر؛ ثم وليها عنه (حنظلة) بن صفوان

(١) الذي في المقرزي شرين صفوان الكلبي.

(٢) أي ابن رفاعة ثانيا كما في المقرزي.

ثانياً^(١) في سنة عشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين وكسرا وعزل؛ ثم وليها عن مروان بن محمد الجعدي^(٢)؛ فولياها عنه (عتابة التجيبي) سنة سبع وعشرين ومائة، فمكث فيها خمس سنين أو دونها؛ ثم وليها عنه (حفص بن الوليد) سنة ثمان وعشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (الفزاري) سنة إحدى وثلاثين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (عبد الملك بن مروان) مولياً لخمس سنة إحدى وثلاثين ومائة، وهو آخر من وليها عن بني أمية .

الطبقة الثالثة

(عُمال خلفاء بني العباس بالعراق)

أول من وليها في الدولة العباسية عن أبي العباس السفاح : أول خلفائهم، (صالح بن علي) بن عبدالله بن عباس سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها أشهراً قلائل؛ ثم وليها عنه (عبد الملك) مولياً بني أسد آخر سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (صالح بن علي) ثانياً في ذي الحجة سنة ست وثلاثين ومائة. ثم وليها عن أبي جعفر المنصور (عبد الملك) سنة تسع وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (التقيب التميمي) سنة إحدى وأربعين ومائة، فمكث فيها سنتين؛ ثم وليها عنه (حميد الطائي) سنة ثلاث وأربعين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (يزيد المهلب) سنة أربع وأربعين ومائة، فمكث فيها تسع سنين؛ ثم وليها عنه (عبدالله بن عبدالرحمن بن معاوية) سنة أربعين ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (محمد بن عبدالرحمن بن معاوية) سنة أربع وخمسين

(١) لم يذكر أن حفظة كان أميراً على مصر فيما سبق [ولكن في المقرئى أن بشر بن صفوان استخلف أخاه حفظة على مصر حينما ولاه يزيد على أفريقيا في سنة أربعين ومائة فتكون ولايته هذه المرة ثانية].

(٢) صوابه: ثم وليها عنه [أى عن مروان] حسان بن عتاهية التجيبي كما ذكره المقرئى والمقام فيه أوضح.

ومائة ، فكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عليّ الخمي) في سنة خمس وخمسين ومائة ، فكث فيها سنتين وستة أشهر .

ثم وليها عن المهديّ (عيسى الخمي^(١)) سنة إحدى وستين ومائة ، فكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (أصبح^(٢) مولى المنصور في سنة اثنتين وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (زيد بن منصور) الحميريّ في وسط سنة اثنتين وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (يحيى أبو صالح) في ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (سالم بن سوادة التيمي) سنة أربع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إبراهيم العباسي) في سنة خمس وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (معين الدين ختم) في سنة ست وستين ومائة .

ثم وليها عن الهادي (أسامة بن عمرو العامري) في سنة ثمان وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الفضل بن صالح العباسي) في سنة تسع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (علي بن سليمان العباسي) آخر السنة المذكورة .

ثم وليها عن الرشيد (موسى العباسي) في سنة اثنتين وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (محمد بن زهير) الأزديّ سنة ثلاث وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه داود بن يزيد المهلبّي سنة أربع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى العباسي) سنة خمس وسبعين ومائة ومات بها ؛ ثم وليها عنه (عبدالله بن المسيب الضبي) في أول سنة سبع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (هرّمة بن أعين) سنة ثمان وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبدالمك العباسي) في سلخ ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهديّ العباسي) في سنة تسع وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى) التنوخيّ في آخر سنة ثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهديّ) ثانيا سنة إحدى وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (إسماعيل بن صالح) في آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (سُميّة بن عيسى^(٣) ابن إسماعيل) سنة اثنتين وثمانين ومائة ؛ ثم وليها عنه (الليث البيوردي) في آخر السنة

(١) في المقرئيّ الجمعيّ . (٢) في المقرئيّ واضح . (٣) في المقرئيّ "إسماعيل"

المذكورة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن إسماعيل) في آخر سنة تسع وثمانين ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن محمد العباسي) المعروف بأبن زينب في سنة تسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (مالك بن دهم الكلابي) سنة اثنتين وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن الأمين (الحسين بن الحجاج) سنة ثلاث وتسعين ومائة .

ثم وليها عن الأمين (حاتم بن هرثمة بن أعين) سنة خمس وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (عباد أبونصر) مولى كندة سنة ست وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن المأمون (المطلب بن عبد الله الخزاعي) سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم وليها عن المأمون (العباس بن موسى) سنة ثمان وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (المطلب بن عبد الله) ثانيا في سنة تسع وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (السري بن الحكم) في سنة مائتين؛ ثم وليها عنه (سليمان بن غالب) في سنة إحدى ومائتين؛ ثم وليها عنه (أبونصر محمد بن السري) في سنة خمس ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبيد الله) في سنة ست ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن طاهر) مولى خزاعة في سنة عشر ومائتين (وهو أول من جلب البطيخ الخراساني المعروف بالبدلي من خراسان إلى مصر فُسب إليه)؛ ثم وليها عنه (عيسى الجلودي) في سنة ثلاث عشرة ومائتين؛ ثم وليها عنه (عمرو بن الوليد التيمي) في سنة أربع عشرة ومائتين؛ ثم وليها عنه (عيسى الجلودي) ثانيا في آخر السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (عبدويه بن جبلة) في سنة خمس عشرة ومائتين؛ ثم وليها عنه (عيسى بن منصور) مولى بني نصر في سنة ست عشرة ومائتين .

(وفي هذه السنة دخل المأمون مصر وفتح الهرم) .

ثم وليها عن المعتصم بالله ^(١) المسعودي في أول سنة تسع عشرة ومائتين ؛

(١) بياض في الأصل ، والذي في المسعودي أن خلافة المعتصم كانت في سنة تسع عشرة ومائتين ، وفي المقرئ أنه ولي على مصر في هذا التاريخ (كيدر) ومات كيدر في ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فولي أبه (المظفر) بأستخلاف أبيه .

ثم وليها عنه (المظفر بن كيدر) في وسط السنة المذكورة أشهراً قلائل ؛ ثم وليها عنه (أبو العباس الحمقى) في آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (مبارك بن كيدر) في سنة أربع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (علي بن يحيى) في سنة ست وعشرين ومائتين .
ثم وليها عن الواثق بالله (عيسى بن منصور الجلودى) ثالث مرة في سنة تسع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (علي بن يحيى) ثانياً في سنة أربع وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (إسحاق الجلبى) في سنة خمس وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (نخاعة) في سنة ست وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عقبة الضبي) في سنة ثمان وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (يزيد بن عبد الله) في سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، وأقره عليها بعده المنتصر بالله ، ثم المستعين بالله .

ثم وليها عن المستعين بالله (مزارح بن خاقان) في سنة ثلاث وخمسين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (أحمد بن مزارح) في سنة أربع وخمسين ومائتين وأقره عليها المهتدي بالله .

الضرب الثاني

(من وليها ملكاً ، وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(من وليها عن بني العباس قبل دولة الفاطميين)

وأولهم (أحمد بن طولون) وليها عن المعتمد في سنة ست وستين ومائتين وعمر بها جامعه المتقدم ذكره في خطط الفسطاط ؛ وفي أيامه عظمت نيابة مصر وشمخت إلى الملك (وهو أول من جلب الممالك الترك إلى الديار المصرية وأستخدمهم في عسكرها) .

(١) مقتضاه أن المذكور ولي عن الواثق في هذا التاريخ مع أن خلافة الواثق كانت سنة سبع وعشرين ومائتين ووفاته كانت في سنة اثنتين وثلاثين ومائتين ، فالمدكور كان عن المتوكل فاعل الصواب ثم وليها عن المتوكل فتأمل .

وأقره المعتضد بالله بعد المعتمد، وبقى بها حتى مات فوليا عن المعتضد (نُحَارَوِيَه بن أحمد بن طولون) في أول سنة آئنتين وثمانين ومائتين، وقتله جندُه في السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (جَيْش بن نُحَارَوِيَه) في سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتله جندُه في السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (هرون بن نَحَارَوِيَه) في آخر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتل في سنة آئنتين وتسعين .

ثم وليها عن المكتفي بالله (شَيْبَانُ بن أحمد بن طولون) في سنة آئنتين وتسعين ومائتين فبقي آتخى عشر يوما وعُزِلَ؛ ثم وليها عنه (محمد بن سليمان الواثق) في آخر سنة آئنتين وتسعين ومائتين؛ ثم وليها عنه أو عن المقتدر بالله (عيسى النوشري) في سنة خمس وتسعين ومائتين .

ثم وليها عن المقتدر بالله (أبو منصور تكين) في سنة سبع وتسعين ومائتين وعُزِلَ؛ ثم وليها عنه (أبو الحسن) في سنة ثلاث وثلثمائة وعزِلَ؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثانيا سنة سبع وثلثمائة وعزِلَ؛ ثم وليها عنه (هلال) سنة تسع وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن كيغَلغ) في سنة إحدى عشرة وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثالث مرة في السنة المذكورة .

ثم وليها عن القاهر بالله (محمد بن طغج) في سنة إحدى وعشرين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن كيغَلغ) ثانيا في سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة . وأقره عليها المكتفي ثم المستكفي بالله بعده .

ثم وليها عن المطيع لله (أبو القاسم الاخشيد) في سنة خمس وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (علي بن الأخشيد) سنة تسع وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (كافور الأخشيد) الخادم في سنة خمس وخمسين وثلثمائة، وكان يحب العلماء والفقهاء، ويكرمهم، ويتعاهدهم بالثمنقات، ويكثر الصدقات حتى استغنى الناس في أيامه، ولم يجد أرباب

الأموال من يقبل منهم الزكاة فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يبتئوا بها المساجد ويتخذوا لها الأوقاف ففعلوا ؛ ثم وليها عنه (أحمد بن عليّ الأخشيد) في سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، وهو آخر من وليها من العُمَّال عن خلفاء بني العباس بالعراق .

الطبقة الثانية

(من وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعبيديين)

أول من وليها منهم (المعز لدين الله أبو تميم معد بن تميم بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله المهدي) وإليه ينسبون ، جهز إليها قائده : جوهراً من بلاد المغرب إلى الديار المصرية ففتحتها في شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة على ما تقدم في الكلام على قواعد الديار المصرية وأقطعت الخطبة العباسية منها ؛ ورحل المعز من المغرب إلى مصر فوصل إليها ودخل قصره بالقاهرة في سابع رمضان سنة اثنين وستين وثلثمائة وصارت مصر والمغرب مملكة واحدة وبلاد المغرب نيابة من مصر ، وتوفي ثالث ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة .

ثم ولي بعده أبنه (العزير بالله أبو المنصور) يوم وفاة أبيه ، وإليه ينسب الجامع العزيري بمدينة بليس ، وتوفي بالجمام في بليس ثامن رمضان المعظم قدره سنة ست وثمانين وثلثمائة .

ثم ولي بعده أبنه (الحاكم بأمر الله أبو علي المنصور) ليلة وفاة أبيه ، وبنى الجامع الحاكمي في سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وهو يومئذ خارج سور القاهرة ، وفارق مصر ونرحل إلى الجبل المقطم فوجدت ثيابه مزررة الأطواق وفيها آثار السكاكين ولا جثة فيها ، وذلك في سلخ شوال سنة إحدى عشرة وأربعائة ولم يُشك في قتله . والدُرزية من المتدعة يعتقدون أنه حي وأنه سيرجع ويعود على ما سياتي في الكلام على أيمانهم وتحليفهم إن شاء الله تعالى .

ثم ولى بعده أبنه (الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على) وبقي حتى توفى في شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

ثم ولى بعده أبنه (المستنصر بالله أبو تميم معد) بعد وفاة أبيه . وفي أيامه جدد سور القاهرة الكبير في سنة ثمانين وأربعمائة . وتوفى في ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة . وفي أيامه كان الغلاء الذى لم يعهد مثله ، مكث سبع سنين حتى خربت مصر ، ولم يبق بها إلا صُبابَة من الناس على ما تقدم في سِياقة الكلام على زيادة النيل . ثم ولى بعده أبنه (المستعلى بالله) أبو القاسم أحمد يوم وفاة أبيه . وتوفى لسبع عشرة ليلة خلت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

ثم ولى بعده (الأمير بأحكام الله أبو على المنصور) في يوم وفاة المستعلى ، وقتل بجزيرة مصر في الثالث من ذى القعدة سنة خمس وعشرين وخمسمائة .

ثم ولى بعده أبن عمه (الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد الحميد بن الأمر أبو القاسم محمد) يوم وفاة الأمر . وتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (الظاهر بأمر الله إسماعيل) رابع جمادى الآخرة سنة أربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده أبنه (الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسى) صبيحة وفاة أبيه . وتوفى في سابع عشر شهر رجب الفرد سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (أبنه العاضد لدين الله أبو محمد عبد الله بن يوسف) يوم وفاة الفائز .

وتوفى يوم عاشوراء سنة أربع وستين وخمسمائة بعد أن قطع السلطان صلاح الدين خطبته بالديار المصرية وخطب للخلفاء العباسيين ببغداد قبل موته ، وهو آخر من ولى منهم .

الطبقة الثالثة

(ملوك بني أيوب)

وهم وإن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بني العباس فهم ملوكٌ مستقلُّون، وفي دولتهم زاد ارتفاع قدر مصر ومُلِكِها .

أول من ملك مصر منهم الملك الناصر (صلاح الدين يوسف بن أيوب) كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي صاحبُ الشام رحمه الله قد جهَّزه صحبة عمه : أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية حين آستغاث به أهل مصر في زمن العاضد الفاطمي المتقدم ذكره لغلبة الفرنج عليهم ثلاث مرَّات انتهى الحال في آخرها إلى أن السلطان صلاح الدين وثب على شاور وزير العاضد المذكور فقتله وتقلد عمه أسد الدين شيركوه الوزارة مكانه عن العاضد، وكتب له بذلك عهد من إنشاء القاضي الفاضل، فأقام فيها مدة قريبة ومات، ففوض العاضد الوزارة مكانه للسلطان صلاح الدين، وكتب له عهد من إنشاء القاضي الفاضل أيضا، وبقي في الوزارة حتى ضعف العاضد وطال ضعفه فقطع السلطان صلاح الدين الخطبة للعاضد، وخطب للخليفة العباسي ببغداد بأمر الملك العادل صاحب الشام . ثم مات العاضد عن قريب فاستقل السلطان صلاح الدين بالسلطنة بمصر وقوى جأشه، وثبتت في الدولة قدمه . وتوفي بدمشق في سنة تسع وثمانين وخمسمائة ؛ وكانت مدة ملكه بالديار المصرية أربعاً وعشرين سنة وملكه الشام تسع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده مصر ابنه (الملك العزيز) وملك معها دمشق وسلَّمها إلى عمه العادل أبي بكر في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة، وتفرقت بقية الممالك الشامية بيد بني عمه من بني أيوب .

ملك مصر والشام جميعا في ربيع الأول سنة ست وتسعين وخمسمائة ؛ وتوفي

بدمشق سنة خمس عشرة وستائة .

ثم ملك بعده أبْنُه (الملك الكامل) عقيبَ وفاة أبيه المذكور، وهو أول من سكن قلعة الجبل بعد قصر الفاطميين بالقاهرة على ما تقدم ذكره في الكلام على القلعة، وأستمر في ذلك عشرين سنة، وفتح حرّان وديار بكر، وكان الفرنج قد آستعادوا بعض ما فتحه السلطان صلاح الدين من ساحل الشام، وكتب الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ست وعشرين وستمائة على أن يكون بأيدي الفرنج القلاع والنواحي التي ملكوها بعد فتح السلطان صلاح الدين، وهي جبلة، وبيروت، وصيدا، وقلعة الشقيف، وقلعة تينين، وقلعة هونين، وإسكندرونة، وقلعة صفد، وقلعة الطور والجبلون، وقلعة كوكب، ومجدل يافا وُلْد، والرملة، وعسقلان، وبيت جبريل، والقدس وأعمال ذلك ومضافاته. وبنى مدرسته الكاملة بين القصرين المعروفة بدار الحديث، وتوفي بدمشق سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أبْنُه (الملك العادل أبو بكر) وقبض عليه في العشر الأوسط من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أخوه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل في أوائل سنة ثمان وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أبْنُه الملك المعظم (توران شاه) وهو الذي كسر الفرنج على المنصورة في المحرم سنة ثمان وأربعين وستمائة، وقتل في الثامن والعشرين من المحرم المذكور. ثم ملك بعده أم خليل (شجرة الدر) في صفر سنة ثمان وأربعين وستمائة، فأقامت ثمانية أشهر، ولم يملك مصر في الإسلام امرأة غيرها.

ثم ملك بعدها الملك الأشرف (موسى بن الناصر يوسف بن المسعود بن الكامل ابن العادل أبي بكر بن أيوب) في شوال سنة ثمان وأربعين وستمائة وخلع نفسه وهو آخر الملوك الأيوبية بالديار المصرية.

(١) سيأتي له في الجزء الرابع هكذا "مجداليا با"

الطبقة الرابعة

(ملوك التُّرك خَلَدَ اللهُ تَعَالَى دَوْلَتَهُمْ)

أول من ملكها منهم (الملك المُعزُّ أيبك التُّركماني) بعد خلع الأشرَف موسى : آخر
ملوك الأيوبية في شَوال سنة ثمان وأربعين وستمائة؛ وُجِّعَ له بين مصر والشام،
وَأَسْتَمَرَ الجَمْع بينهما إلى الآن، وبنى المدرسة المُعزِّيَّة برحبة الخُزُوب بالفُسطاط،
وتزَوج بأم خايل المقدم ذكرها، وقتل بِجَمَام القلعة في سنة أربع وخمسين وستمائة .
ثم ملك بعده أبْنُه (الملك المنصور على) عقيب وفاة والده المذكور. وُقْتِلت أم خليل
المذكورة، ورميت من سُور القلعة، وقُبِضَ على المظفر سنة سبع وخمسين وستمائة .
ثم ملك بعده الملك (المظفر قُطُز) وَكَانَ المَصَافِّ بينه وبين التتار على عَيْنِ جالوت
بعد أن أَسْتَوَلُوا على جميع الشام في رمضان سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكسروهم
أشدَّ كسرة وأَسْتَقْلَع الشام منهم، وبقي حتى قتل في مُنْصَرَفِه بطريق الشام وهو عائد
منه بالقرب من قصير الصالحية على أثر ذلك في السنة المذكورة .

ثم ملك بعده الملك (الظاهر بيبرس) البندقداري في ذي القعدة سنة ثمان
وخمسين وستمائة، وأخذ في جهاد الفرنج وأستعادة ما أرتجعوه من فتوح السلطان
صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البيرة في سنة تسع وخمسين وستمائة
والكرَك في سنة إحدى وستين، وحصن في آخر سنة اثنتين وستين وستمائة، وقيسارية
وأرسُوف في سنة ثلاث وستين، وصَفَد في سنة أربع وستين، ويافا والشَّقِيف،
وأُنطاكِيَّة في سنة ست وستين، وحصن الأكراد وعكَّا وصافيتا في سنة تسع وستين،
وكسرت التتار على البيرة بعد أن عدى الفُرات خوضا بعساكره في سنة إحدى وسبعين؛
وفتح قلاعا من بلاد سيبس في سنة ثلاث وسبعين، ودخل بلاد الروم، وجلس على

(١) لعل مراده الأشرَف مظفر الدين موسى بن الناصر شريك المعز في السلطنة . وأنظر المقام في خطط

كرسى بنى سلجوق بقيسارية الروم، ورجع إلى دمشق في آحر سنة خمس وسبعين .
وتوفى بدمشق في المحرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وبنى مدرسته الظاهرية
بين القصرين .

وملك بعده ابنه (الملك السعيد بركة) في صفر سنة ست وسبعين وستمائة ،
وخلع وسير إلى الكرك .

وملك بعده أخوه (الملك العادل سلامش) في ربيع الأول سنة ثمان وسبعين
وستمائة ، وبقي أربعة أشهر ثم خلع .

وملك بعده (الملك المنصور قلاوون الصالحى) الشهر بالأفنى في رجب سنة ثمان
وسبعين وستمائة ، وسمى الأفنى لأن أقسُنقر الكامل كان قد اشتراه بألف دينار ، وفتح
حصن المرقب بالشام في تاسع عشر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وستمائة ، وفتح
طرابلس في ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وهو الذى بنى البيارستان
المنصورى والمدرسة المنصورية والقبة اللتين داخل البيارستان بين القصرين . وتوفى
بظاهر القاهرة المحروسة ، وهو قاصد الغزو فى ذى القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة
ودفن بترتبه بالقبة المنصورية داخل البيارستان المتقدم ذكره .

وملك بعده ابنه (الملك الأشرف خليل) صبيحة وفاة أبيه وأخذ فى الغزو ففتح عكا
وصورا ، وصيدا ، وبيروت ، وعنتليث ، والساحل جميعه ، وأقتلعه من الفرنج فى رجب
سنة تسعين وستمائة . وقتل فى متصيده بالبحيرة فى العشر الأوسط من المحرم سنة ثلاث
وتسعين وستمائة ، وهو الذى عمر المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسى .

ثم ملك بعده (الملك المعظم بيدرا) وخلع من يومه .

وملك بعده (الملك الناصر محمد بن قلاوون) فى صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة ،

وهى سلطته الأولى . وخلع بعد ذلك وبعث به إلى الكرك فحُيس بها .

وملك بعده (الملك العادل كتبغا) عقب خلعه، ووقع في أيامه غلاء شديد وفناء عظيم؛ ثم خلع في صفر سنة ست وتسعين وستمائة، وتولى بعد ذلك نيابة صرّخد ثم حمّاة، وبقى حتى توفى بعد ذلك؛ وهو الذي ابتدأ عمارة المدرسة المعروفة بالناصرية بين القصرين وأكمل بناءها الناصر محمد بن قلاوون فنسبت إليه .

وملك بعده (الملك المنصور حسام الدين لاجين) في الخامس والعشرين من صفر المذكور^(١) فحدّد الجامع الطّولونيّ وعمل الروك الحُساميّ في رجب الفرد سنة سبع وتسعين وستمائة، وقتل في الحادي عشر من شوال^(٢) من السنة المذكورة، وبقى الأمر شورىً مدّة يسيرة، ثم حضر الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك وأعيد إلى السلطنة في حادي عشر شوال من السنة المذكورة .

وملك بعده (الملك المظفر بيبرس الجاشنكير) في الثالث والعشرين من شوال المذكور وخلع في التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وسبعائة، وهو الذي عمر الخانقاه الرُّكنيّة بيبرس داخل باب النصر مكان دار الوزارة بالدولة الفاطمية، وجدّد الجامع الحاكمي .

وملك بعده (الملك الناصر محمد بن قلاوون) في مستهل شوال من السنة المذكورة، وهي سلطته الثالثة . وفيها طالت مدّته وقوى ملكه، وعمل الروك الناصريّ في سنة ست عشرة وسبعائة، وبنى مدرسته الناصرية بين القصرين، وبقى حتى توفى في العشرين من ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وسبعائة، ودفن بقرية والده . ثم ملك بعده أبوه الملك المنصور أبو بكر عقب وفاة والده، وخلع تاسع عشر صفر سنة اثنتين وأربعين وسبعائة .

(١) أي سنة ست وتسعين وستمائة .

(٢) في المقرئى "من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة" . وان تولية ابن قلاوون المرة الثانية في السادس من جمادى الأولى من السنة المذكورة وبقى إلى الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وسبعائة ثم ولي المظفر في التاريخ المذكور . [وبملاحظة ذلك يستقيم الكلام ويعلم ما في الأصل] .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الأشرف بك) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع أخيه المنصور المذكور، وخلع في التاسع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة .
ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر أحمد) بن الناصر محمد بن قلاوون بعد أن أُحْضِر من الكرك، وأستمر في السلطنة حتى خلع نفسه في أوائل المحرم سنة ثلاث وأربعين وسبعائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالح إسماعيل) بن الناصر محمد بن قلاوون في العشرين من المحرم المذكور، وبقي حتى توفي في ربيع ربيع الآخرة سنة ست وأربعين وسبعائة .
وملك بعده أخوه ^(١) (الملك المظفر حاجي) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع أخيه الكامل شعبان ، وبقي حتى خلع في ثاني عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعائة وقتل من يومه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حسن) بن الناصر محمد بن قلاوون في رابع عشر شهر رمضان المذكور، وخلع في التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسين وسبعائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالح صالح) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع أخيه الناصر حسن ، وبقي حتى خلع في ثاني شوال سنة خمس وخمسين وسبعائة .
ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حسن) المتقدم ذكره مرة ثانية يوم خلع أخيه الصالح صالح ، وبقي حتى خلع وقُتِل في عاشر جمادى الأولى سنة اثنتين وستين وسبعائة ؛ وبني مدرسته المعظمة تحت القلعة التي ليس لها نظير في الدنيا، وفي أيامه ضربت الفلوس الجُدُد على ماسياتي ذكره، وهو آخر من ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون لصلبه .

(١) سقط من قلم الناخذ الكامل شعبان فانه تولى بعد أخيه الصالح إسماعيل ومكث سنة واحدة وعمانية وخمسين يوما ثم خلع كما تشير اليه بقية العبارة .

وملك بعده ابن أخيه (الملك المنصور محمد) بن المظفر حاجي بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع عمه الناصر حسن، وبقى حتى خلع في خامس عشر شعبان سنة أربع وستين وسبعائة .

وملك بعده ابن عمه (الملك الأشرف شعبان) بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خلع المنصور المتقدم ذكره وهو طفل، وبقى حتى كمل سلطانه وبني مدرسته بأعلى الصوة تحت القلعة ولم يتمها، وجج نخرج عليه مما ليكه في عقبه أيلة فقر منهم وعاد إلى القاهرة فقيض عليه وقتل في ثالث ذى القعدة الحرام سنة ثمان وسبعين وسبعائة، وفي أيامه فتحت مدينة سيس وأقتلت من الأرمن على ما سيأتي ذكره في الكلام على أعمال حلب .

وملك بعده ابنه (الملك المنصور علي) يوم خلع أبيه وهو طفل، فبقى حتى توفي في الثالث والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعائة .

وملك بعده أخوه (الملك الصالح حاجي) بن شعبان بن حسين يوم وفاة أخيه، وبقى حتى خلع في العشر الأوسط من رمضان سنة أربع وثمانين وسبعائة .

وملك بعده (الملك الظاهر برقوق) فعظم أمره، وأرتفع صيته، وشاع ذكره في الممالك وهابته الملوك وهادته، وساس الملك أحسن سياسة، وبقى حتى خلع وبعث به إلى السجن بالكرك في شهر رجب أو جمادى الآخرة سنة إحدى وتسعين وسبعائة .

وملك بعده (الملك المنصور حاجي) بن شعبان، وهو الملقب أولاً بالصالح حاجي وهي ساططته الثانية، وبقى حتى عاد الملك الظاهر برقوق المتقدم ذكره في سنة [آثنتين]^(١) وتسعين وسبعائة، فزاد في التيه وضخامة الملك، وبلغ شأوا لم يبلغه غيره من غالب متقدمي الملوك، وبقى حتى توفي في منتصف شوال المبارك سنة إحدى وثمانمائة .

(١) الزيادة عن المقرئ .

وملك بعده ابنه (الناصر فرج) وسنه إحدى عشرة سنة بعهد من أبيه، وقام بتدبير أمره أمراء دولته، فبقي حتى تغير عليه بعض مماليكه وبعض أمرائه، وحضر الممالك بالقلعة، فنزل منها محتفيا على حين غفلة في السادس والعشرين من ربيع الأول سنة ثمان وثمانمائة، ولم يعلم لأبتداء أمره أين توجه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك المنصور عبد العزيز) في التاريخ المذكور .

ثم ظهر أن السلطان الملك الناصر فرجا كان محتفيا في بعض أماكن القاهرة، فركب في ليلة السادس من شهر جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانمائة، ومعه جماعة من الأمراء ومماليكه، وخرج الأمراء للقيام بنصرة أخيه عبد العزيز فطلع عليهم السلطان فرج، ومن معه فوؤا هارين، وطلع السلطان الملك الناصر القلعة في صبيحة النهار المذكور وأستقر على عادته، وبقي في السلطنة حتى توجه إلى الشام لقتال الأمير شيخ والأمير نوروز نائي دمشق وحلب، ومعه الإمام (المستعين بالله أبو الفضل العباس) بن المتوكل محمد خليفة العصر، ودخل دمشق وحصر بقلعتها حتى قبض عليه في ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس عشرة وثمانمائة، وأستبد الإمام المستعين بالله بالأمر من غير سلطان، ورجع إليه ما كان يتعاطاه السلطان من العلامة على المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمناشير وغيرها، وأفرد اسمه في السكة على الدينار والدرهم، وأفرد بالدعاء في الخطبة على المنابر، ثم عاد إلى الديار المصرية في أوائل ربيع الآخر من السنة المذكورة، وسكن الأدر السلطانية بالقلعة، وقام بتدبير دولته الأمير شيخ المقدم ذكره وسكن الإصطبلات السلطانية بالقلعة وفوض إليه الإمام المستعين بالله ما وراء سرير الخلافة، وكتب له تفويض بذلك في قطع كبير، عرضة ذراع ونصف بزيادة نصف ذراع عما يكتب به للسلطين . إلا أنه لم يصرح له فيه بسلطنة ولا إمارة، بل كتب له بدل الأميرى الأمرى بإسقاط الياء على ما سياتى ذكره في الكلام على عهود الملوك إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع

من الباب الثالث من المقالة الثانية
(في ذكر ترتيب أحوال الديار المصرية، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في ذكر معاملتها، وفيه ثلاثة أركان)

الركن الأول

(الأثمان، وهي على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(الدنانير المسكوكة مما يضرب بالديار المصرية، أو يأتي إليها من المسكوك
في غيرها من الممالك، وهي ضربان)

الضرب الأول

(ما يتعامل به وزنا كالذهب المصري وما في معناه)

والعبرة في وزنها بالثاقيل، وضابطها أن كل سبعة مثاقيل زنتها عشرة دراهم من
الدراهم الآتي ذكرها، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقدّر ثنتين وسبعين
حبة شعير من الشعير الوسط باتفاق العلماء، خلافا لابن حزم فإنه قدّره بأربع وثمانين
حبة، على أن المثقال لم يتغير وزنه في جاهلية ولا إسلام.

قلت: وقد كان الأمير صلاح الدين بن عرام في الدولة الأشرفية شعبان بن
حسين بعد السبعين والسبعائة ضرب بالإسكندرية، وهو نائب السلطنة بها يومئذ،
دنانير زنة كل دينار منها مثقال، على أحد الوجهين منه "محمد رسول الله" وعلى الوجه
الآخر "ضرب بالإسكندرية في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نصره"، ثم أمسك

عن ذلك فلم تكثر هذه الدنانير ولم تشتهر؛ ثم ضرب الأمير يلبغا السالمى أستاذار
العالية فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق دنانير زنة كل واحد منها مثقال، فى وسط
سكنه دائرة فيها مكتوب "فرج" وربما كان منها ما زنته مثقال ونصف أو مثقالان،
وربما كان نصف مثقال أو ربع مثقال. إلا أن الغالب فيها نقص أوزانها، وكأنهم
جعلوا نقصها فى نظير كلفة ضربها.

الضرب الثانى

(ما يتعامل به معادة)

وهى دنانير يؤتى بها من بلاد الإفرنجية والروم، معلومة الأوزان، كل دينار منها
معتبر بتسعة عشر قيراطا ونصف قيراط من المصرى، وأعتبره بصبح الفضة
المصرية كل دينار زنة درهم وحبى خروب يرجح قليلا، وهذه الدنانير مخصصة على
أحد وجهها صورة الملك الذى ضرب فى زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس
وبولس الحواريين اللذين بعث بهما المسيح عليه السلام إلى رومية، ويعبر عنها
بالإفرنجية جمع إفرنجي، وأصله إفرنجى بسين مهملة بدل التاء المثناة فوق نسبة إلى
إفرنسة: مدينة من مدنهم، وربما قيل فيها إفرنجية، وإليها تنسب طائفة الفرنج،
وهى مقرة الفرنسيس ملكهم، ويعبر عنه أيضا بالدوكات. وهذا الاسم فى الحقيقة
لا يطلق عليه إلا إذا كان ضرب البندقية من الفرنجة، وذلك أن الملك اسمه عندهم
دوك، وكان الألف والتاء فى الآخر قائمان مقام ياء النسب.

قلت: ثم ضرب الناصر فرج بن برقوق دنانير على زنة الدنانير الإفرنجية
المتقدمة الذكر؛ فى أحد الوجهين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وفى الآخر اسم
السلطان، وفى وسطه سفظ مستطيل بين خطين، وعرفت بالناصرية وكثر وجودها،

(١) أى عن الدينار من تلك الدنانير.

وصار بها أكثر المعاملات . إلا أنهم يَنْقُصُونَهَا في الأثمان عن الدينار الإفريقية عشرة دراهم .

ثم ضَرَبَ على نظيرها "الإمام المستعين بالله أبو الفضل العباس" ^(١) حين آسبَدَ بالأمر بعد الناصر فرج، ولم يتغير فيها غير السَّكَّةِ، باعتبار أنتقالها من أسم السلطان إلى أسم أمير المؤمنين .

ثم صَرَفَ الذهب بالديار المِصْرِيَّة لا يثبت على حالة بل يعلو تارة ويهبط أخرى بحسب ما تقتضيه الحال، وغالب ما كان عليه صرف الدينار المِصْرِي فيما أدرَكَناه في التسعين والسبعائة وما حولها عشرون درهما، والإفريقي سبعة عشر درهما ومقارب ذلك أما الآن فقد زاد وخرج عن الحد خصوصا في سنة ثلاث عشرة وثمانائة، وإن كان في الدولة الظاهرية ببيرس قد بلغ المِصْرِيُّ ثمانية وعشرين درهما ونصفا فيما رأيتَه في بعض التواريخ .

أما الدينار الجَيْشِيُّ، فمسمى لاحقيقة، وإنما يستعمله أهل ديوان الجَيْش في عبدة الإقطاعات بأن يجعلوا لكل إقطاع عبدة دنانير معينة من قليل أو كثير، وربما أخليت بعض الإقطاعات من العبدة . على أنه لا طائل تحتها ولا فائدة في تعيينها، فربما كان متحصِّل مائة دينار في إقطاع أكثر من متحصِّل مائتي دينار فأكثر في إقطاع آخر . على أن صاحب "قوانين الدواوين" قد ذكر الدينار الجَيْشِيُّ في الإقطاعات على طبقات مختلفة في عبدة الإقطاعات، فالأجناد من التُّرك والأكراد والتركيان دينارهم دينار كامل، والكثانية والعساقلة ومن يجرى مجراهم دينارهم نصف دينار، والعربان في الغالب دينارهم ثمن دينار، وفي عُرف الناس ثلاثة عشر درهما وثلاث، وكأنه على ما كان عليه الحال من قيمة الذهب عند ترتيب الجيش في الزمن

(١) كذا في "حياة الحيوان" أيضا وفي "مروج الذهب" أبو العباس كاسبق للؤلؤ في الخلفاء العباسيين .

القديم، فإن صرفَ الذهب في الزمن الأول كان قريبا من هذا المعنى، ولذلك جعلت الدية عند من قدرها بالتقد من الفقهاء ألف دينار وأثنى عشر ألف درهم، فيكون عن كل دينار اثنا عشر درهما، وهو صرفه يومئذ .

النوع الثاني

(الدراهم النقرة)

وأصل موضوعها أن يكون ثلثاها من فضة وثلثها من نحاس، وتُطبع بدور الضرب بالسكة السلطانية على نحو ما تقدم في الدينار، ويكون منها دراهم صحاح وقراضات مكسرة على ما سيأتي ذكره في الكلام على دار الضرب فيما بعد إن شاء الله تعالى .
والعبرة في وزنها بالدرهم، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقدر بست عشرة حبة من حب الخروب، فتكون كل خروبين ثمن درهم، وهي أربع حبات من حب البر المعتدل، والدرهم من الدينار نصفه وخمسه، وإن شئت قلت سبعة أعشاره فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم .

أما الدراهم السوداء، فأسماء على غير مسميات كالدينار الحيشية، وكل درهم منها معتبر في العرف بثلاث دراهم نقرة، وبالإسكندرية دراهم سوداء يأتي الكلام عليها في معاملة الإسكندرية إن شاء الله تعالى .

النوع الثالث

(الفلوس، وهي صنفان : مطبوع بالسكة، وغير مطبوع)

فأما المطبوع فكان في الزمن الأول إلى أواخر الدولة الناصرية حسن بن محمد ابن قلاوون فلوس لطاف، يعتبر كل ثمانية وأربعين فلوسا منها بدرهم من النقرة على اختلاف السكة فيها، ثم أحدث في سنة تسع وخمسين وسبعائة في سلطنة حسن أيضا

فلوس شهرت بالجدد جمع جديد، زنة كل فلس منها مثقال، وكل فلس منها قيراط من الدرهم، مطبوعة بالسكة السلطانية على ما سياتى ذكره في الكلام على دار الضرب إن شاء الله تعالى، فجاءت في نهاية الحُسن، وبطل ما عداها من الفلوس، وهى أكثر ما يتعامل به أهل زماننا. إلا أنها فسدت قانونها في تنقيصها في الوزن عن المتقال حتى صار فيها ما هو دون الدرهم، وصار تكوينها غير مستدير، وكانت توزن بالقبان كل مائة وثمانية عشر رطلا بالمصرى بمبلغ خمسمائة درهم، ثم أخذت في التناقص لصغر الفلوس ونقص أوزانها حتى صار كل مائة وأحد عشر رطلا بمبلغ خمسمائة. قلت: ثم استقر الحال فيها على أنه لو جعل كل أوقية فما دونها بدرهم، لكان حسنا باعتبار غلوة النحاس وقلة الواصل منه إلى الديار المصرية، وحمل التجار الفلوس المضروبة من الديار المصرية إلى الحجاز واليمن وغيرهما من الأقاليم متجرا، ويوشك إن دام هذا أن تتفد الفلوس من الديار المصرية، ولا يوجد ما يتعامل به الناس.

وأما غير المطبوعة فنحاس مكسر من الأحمر والأصفر، ويعبر عنها بالعتق، وكانت في الزمن الأول كل زنة رطل منها بالمصرى بدرهمين من الثقرة، فلما عجلت الفلوس الجدد المتقدمة الذكر، استقر كل رطل منها بدرهم ونصف، وهى على ذلك إلى الآن.

قلت: ثم تفدت هذه الفلوس من الديار المصرية لغلوة النحاس، وصار مهما وجد من النحاس المكسور خلط بالفلوس الجدد وراج معها على مثل وزنها.

(١) لعل الأوضح ثم استقر الحال فيها على ذلك على أنه الخ تأمل.

الركن الثاني

(في المئمنات ، وهي على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(الموزونات)

ورطلها الذي يعتبر بوزنه في حاضرتها من القاهرة والقُسطاط وما قاربهما الرطلُ المصريّ ، وهو مائة وأربعة وأربعون درهما ، وأوقيته اثنا عشر درهما ، وعنه يتفرّع القِنْطَارُ المصريّ ، وهو مائة رطل ، وتعتبر أوزان الطيب بها بالمتن ، وهو مائتان وستون درهما ، وأوقيته ست وعشرون أوقيةً ، فتكون أوقيته عشرة دراهم .

النوع الثاني

(المكيّلات من الجيوب ونحوها)

وأعلم أن بمصر أقداحا مختلفة المقادير أيضا كالأرطال بحسبه ^(١) ، ولكل ناحية منها قَدَحٌ مخصوص بحسب إردبها ، والمستعمل منها بالحاضرة القَدْحُ المصريّ ، وهو قَدْحٌ صغير تقديره بالوزن من الحَبِّ المعتدل مائتان واثان وثلاثون درهما ، وقدره الشيخ تقيّ الدين بن رزين في الكلام على صاع الفِطْرَةِ باثني وثلاثين ألف حبة وسبعائة وأثنتين وستين حبة ، وكل ستة عشر قدحا تسمى وِيبة ، وكل ستة وتسعين قدحا تسمى إردباً ، وبنواحيها بالوجهين القبليّ والبحريّ أَرادبٌ متفاوتة يبلغ مقدار الإردب في بعضها إحدى عشرة وِيبة بالمصريّ فأكثر .

(١) لعله بحسب إردبها . أو هي زائدة من قلم الناسخ .

النوع الثالث

(المقيسات ، وهي الأراضى والأقشنة)

فأما الأراضى فصنفان :

الصنف الأول

(أرض الزراعة)

وقد اصطاح أهلها على قياسها بقصبة تعرف بالحاكمية ، كأنها حررت في زمن الحاكم بأمر الله الفاطمي فنسبت إليه ، وطولها ستة أذرع بالهاشمي كما ذكره أبو القاسم الزجاجي في "شرح مقدمة أدب الكاتب" ونخسة أذرع بالنجاري كما ذكره ابن ممتي في "قوانين الدواوين" وثمانية أذرع بذراع اليد كما ذكره غيرهما ؛ وذراع اليد ست قبضات بقبضة إنسان معتدل ، كل قبضة أربعة أصابع بالخنصر والبنصر والوسطى والسبابة ، كل إصبع ست شعيرات معترضات ظهراً لبطن على ما تقدم في الكلام على الأميال . وقد تقدر القصة باعين من رجل معتدل ؛ وربما وقع القياس في بعض بلاد الوجه البحري منها بقصبة تعرف بالسندفاوية أطول من الحاكمية بقليل ، نسبة إلى بلد تسمى سندفاً بالقرب من مدينة المحلة ، ثم كل أربعائة قصبة في التكسير يعبر عنها بقدان ، وهو أربعة وعشرون قيراطا كل قيراط ست عشرة قصبة في التكسير .

الصنف الثاني

(أرض البندان من الدور وغيرها)

وقد اصطاحوا على قياسها بذراع يعرف بذراع العمل طوله ثلاثة أشبار بشبر رجل معتدل ، ولعله الذراع الذي كان يقاس به أرض السواد بالعراق ، فقد ذكر الزجاجي

أنه ذراع وثلاث بذراع اليد، وكان ابتداء وضع الذراع لقياس الأرضين أن زياد ابن أبيه حين ولّاه معاوية العراق وأراد قياس السواد، جمع ثلاثة رجال : رجلا من طوال القوم ورجلا من قصارهم ورجلا متوسطا بين ذلك ، وأخذ طول ذراع كل منهم ، فجمع ذلك وأخذ ثلثه ، فجعله ذراعا لقياس الأرضين ، وهو المعروف بالذراع الزيادة لوقوع تقديره بأمر زياد، ولم يزل ذلك حتى صارت الخلافة لبني العباس فآخذوا ذراعا مخالفا لذلك كأنه أطول منه ، فسمي بالهاشمي لوقوعه في خلافة بني العباس ، ضرورة كونهم من بني هاشم .

وأما الأقمشة ، فإنها تقاس بالقاهرة بذراع طوله ذراع بذراع اليد وأربع أصابع مطبوقة ، ويزيد عليه ذراع القماش بالفسطاط بعض الشيء ، وربما زاد في بعض نواحي الديار المصرية أيضا نحو ذلك . ولغير القماش من الأصناف أيضا كالخصر وغيرها ذراع يخصه .

الركن الثالث

(في الأسعار)

وقد ذكر المقرئ الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" جملة من الأسعار في زمانه فقال : وأوسط أسعارها في غالب الأوقات أن يكون الإردب القمح بخمسة عشر درهما ، والشعير بسعره^(١) ، وبقية الحبوب على هذا الأتمودج ، والأرز يبلغ فوق ذلك ، واللحم أقل سعره الرطل بنصف درهم ، وفي الغالب أكثر من ذلك ، والدجاج يختلف سعره بحسب حاله ، بخيذه الطائر منه بدرهمين إلى ثلاثة ، والدون منه بدرهم واحد ، والسكر الرطل بدرهم ونصف ، وربما زاد ، والمكّر منه بدرهمين ونصف .

(١) لعله بعشرة .

قلت : وهذه الأسعار التي ذكرها قد أدركنا غالبها ، وبقيت إلى ما بعد الثمانين والسبعائة فعلت الأسعار وتزايدت في كل صنف من ذلك وغيره ، وصار المثل إلى ثلاثة أمثاله وأربعة أمثاله ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ذي المنن الجسيمة القادر على إعادة ذلك على ما كان عليه أو دونه ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ .

الطرف الثاني

(في ذكر جسورها الحابسة لمياه النيل على أرض بلادها إلى حين أستحقاق الزراعة ؛ وأصناف أرضها ؛ وما يختص بكل صنف من أرضها من الأسماء الدائرة بين كُتَّابها ؛ ومزارعها ؛ وبيان أصناف مزروعاتها وأحوال زرعها)
فأما جسورها ، فعلى صنفين :

الصنف الأول

(الجسور السلطانية)

وهي الجسور العامّة الجامعة للبلاد الكثيرة التي تُعمر في كل سنة من الديوان السلطاني بالوجهين : القبلي والبحري ، ولها جرابيف ومحاريث وأبقار مرتّبة على غالب البلدان بكل عمل من أعمالها . وقد جرت العادة أن يجهز لكل عمل في كل سنة أمير بسبب عمارة جسوره ، ويعبر عنه بكاشف الجسور بالعمل الفلاني ، ويعرف بذلك في تعريف مكاتبته عن الأبواب الشريفة ، وربما أضيف كَشَفُ جَسُورِ عَمَلٍ مِنَ الْأَعْمَالِ إِلَى مُتَوَلَّى جَرِيهِ ، ويقال في تعريفه : وَآلِي فَلَانَةَ وَكَاشَفَ الْجَسُورَ بِهَا ، إذا كانت المكاتبه بسبب شيء يتعلق بالجسور ؛ ولهذا الجسور كاتب منفرد بها مقتر في ديوانه ما على كل بلد من الجرابيف والأبقار ، وتكتب التذاكير

السلطانية لكاشف كل عمل في الورق الشامى المربع ، ويشملها العلامة الشريفة السلطانية بالاسم الشريف ، وللمسور حَوْلَةٌ ومهندسون لكل عمل يقومون في خدمة الكاشف في عمارة المسور إلى أن تنتهى عمارتها .

الصنف الثانى

(الجسور البلدية)

وهى الخاصة ببلد دون بلد ، ويتولى عمارتها المقطعون بالبلاد : من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الحاربية فى إقطاعهم ؛ ولها ضرائب مقررة فى كل سنة .

قال ابن ممتى فى "قوانين الدواوين" : والفرق بين السلطانية والبلدية أن السلطانية جارية مجرى سور المدينة الذى يجب على السلطان الأهتمام بعمارته والنظر فى مصلحته وكفاية العامة أمر الفكرة فيه ، والبلدية جارية مجرى الأدر والمسكن التى داخل السور ، كل صاحب دار منها ينظر فى مصلحتها ويلتزم تدير أمره فيها . قال : وقد جرت عادة الديوان أن المقطع المنفصل إذا أنفق شيئاً من إقطاعه فى إقامة جسر لعمارة السنة التى أنتقل الخير عنه لها ، أستعيد له نظير منفقته من المقطع الثانى ؛ وكذلك كل ما أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره كان له أستعادة نظيره .

قلت : وقد أهمل الأهتمام بأمر الجسور فى زماننا ، وتترك عمارة أكثر الجسور البلدية ، وأقتصر فى عمارة الجسور السلطانية على الشىء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما من الله تعالى به على العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث إنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعاً فما فوقها إلى ما جاوز العشرين ، لغات رى أكثر

البلاد وتعطلت زراعتها ﴿فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ وإلا فقد كان النيل في الغالب يقف على سبع عشرة ذراعا فما حولها، بل قد تقدم من كلام المسعودي أنه إذا جاء النيل ثمانى عشرة ذراعا، أستبحر من أراضيها الثلث .



وأما أنواع أرضها وما يختص بكل نوع من الأسماء، فإنها تختلف باختلاف الزراعة وعدمها، وبسبب ذلك تتفاوت الرغبة فيها وتختلف قيمتها باختلاف قيمة ما يُزرع فيها، وقد عدّ منها ابن ممتى ثلاثة عشر نوعا :

النوع الأول - الباق : قال ابن ممتى : وهو أثر القُرطِ والقَطَانِي والمقَائِي . قال : وهو خير الأَرْضِين وأغلاها قيمة وأوفاهما سعرا وقطيعه، لأنها تصلح لزراعة القمح والكَّانِ .

قلت : والمعروف في زماننا أن الباق أثر القُرطِ والقُول خاصة . أما المقَائِي فإن أثرها يسمّى البرَش، وسيأتى ذكره فيما بعد .

النوع الثانى - رى الشَّرَاقِي : قال ابن ممتى : وهو يتبع الباق في الجودَةِ، ويُلحَقُ به في القطيعه : لأن الأرض قد ظمَّت في السنة الماضية وأشدَّت حاجتها إلى الماء . فلما رويت حصل لها من الرى بمقدار ما حصل لها من الظمِّ، وكانت أيضا مستريحة فزرعها يُجِبُّ .

النوع الثالث - البروبية، وأهل زماننا يقولون البرايب : قال ابن ممتى : وهو أثر القمح والشعير، قال : وهو دون الباق لأن الأرض تضعف بزراعة هذين الصنفتين . فتى زرع أحدهما على الآخر لم تنجب كنجابة الباق وسعرها دون سعره، ويجب أن تزرع قُرطًا وقَطَانِي ومقَائِي لتستريح الأرض وتصير باقا في السنة الآتية .

النوع الرابع - البُقْهَاهُ ، بضم الباء الموحدة وسكون القاف - وهو أثر الكَّان .
قال ابن ممتى : ومتى زُرِعَ فيه القمح لم يُحِبُّ ، وجاء رقيق الحب أسود اللون .
النوع الخامس - الشتونية ، وأهل زماننا يقولون الشتانى : وهو أثر ما روى
وبار فى السنة الماضية . قال ابن ممتى : وقطيعته دون قطيعة الشراقى .

النوع السادس - شق شمس ، قال ابن ممتى : وهو عبارة عما روى وبار
فُحِرَتْ وَعُطِّلَ ، وهو يجرى مجرى الباق ورى الشراقى ، ويحيىء ناجب الزرع .
النوع السابع - البرش النقاء ؛ قال : وهو عبارة عن كل أرض خَلَّتْ من أثر
ما زرع فيها للسنة الماضية ، لا شاغل لها عن قبول ما نوعه من أصناف المزدروعات .
النوع الثامن - الوسخ المزدرع ؛ قال : وهو عبارة عن كل أرض لم يستحکم
وسخها ، ولم يَقْدِرِ المزارعون على آسنتكال إزالته منها فخرثوها وزرعوها وطلع زرعها
مختلطا بوسخها .

النوع التاسع - الوسخ الغالب : وهو عبارة عن كل أرض حصل فيها من
النبات الذى شغلها عن قبول الزراعة ما غلب المزارعين عليها ، ومنعهم بكثرتة عن
الزراعة فيها ، وهى تباع مراعى للبهائم .

النوع العاشر - الخرس : وهو عبارة عن فساد الأرض بما آسنتحکم فيها من
موانع قبول الزرع ، وهو أشد من الوسخ الغالب فى التنقية والإصلاح ، وهى مرعى
الدواب .

النوع الحادى عشر - الشراقى : وهو عبارة عما لم يصل إليه الماء لقصور
النيل وعلو الأرض ، أو سد طريق الماء عنه .

النوع الثاني عشر - المستبحر : وهو عبارة عن أرض واطئة إذا حصل الماء فيها لا يجد مصرفا له عنها فيمضي زمن المزارعة قبل زواله بالنضوب . قال ابن مماتي : وربما أنتفع به من أزرع الأرض بالاستقاء منه بالسواقى لما زرعه في العلو .

النوع الثالث عشر - السباح : وهو أرض غلب عليها الملح فملحت حتى لم ينتفع بها في زراعة الحبوب ، وهي أردى الأراضين . قال ابن مماتي : وربما زرع فيما لم يستحكم منها الهليون والبادنجان ، وربما قطع منها ما يسيخ به الكنان ، ويزرع فيها القصب الفارسي فينجب .

الطرف الثالث

(في وجوه أموالها الديوانية ، وهي على ضربين : شرعي وغير شرعي)

الضرب الأول الشرعي ،

(وهو على سبعة أنواع)

النوع الأول

(المال الخراجي : وهو ما يؤخذ عن أجرة الأراضين ؛ وله حالان)

الحال الأول - ما كان عليه الأمر في الزمن المتقدم ، وقد أورد ابن مماتي في "قوانين الدواوين" ما يقتضى أنه كان على كل صنف من أصناف المزرعات قطعة مقررة في الديوان السلطاني لا يختلف أمرها : فذكر أن قطعة القمح كانت إلى آخر سنة سبع وستين وخمسمائة عن كل فدان ثلاثة أرباب ، ثم إنه تقرّر عند المساحة في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة إردبان ونصف إردب . ثم قال : ومن

ذلك ما يباع بعين، ومنه ما يُزرع مُشاطرة . قال : وقطية الشعير كذلك ؛ وقطية
 القُول عن كل فدان من ثلاثة أَرادبَّ إلى إردبين ونصف ؛ وقطية الجلبان والحِصِّ
 والعدس عن كل فدان إردبان ونصف ؛ وقطية الكَّان تختلف باختلاف البلاد . ثم
 قال : وهى على آخر ما تقرّر فى الديوان عن كل فدان ثلاثة دنانير إلى مادونها ؛
 وقطية القُرط بالديوان عن كل فدان دينار واحد ، وفيما بين الناس مختلف ؛ وقطية
 الثوم والبصل عن كل فدان ديناران ؛ وقطية الترمس عن كل فدان دينار واحد
 وربيع ؛ وقطية الكُمون والكراويا والسَّلجم الصيفي عن كل فدان دينار واحد .
 قال : وكان قبل ذلك دينارين ؛ وقطية البَطِيخ الأخضر والأصفر ، واللَّوياء عن
 كل فدان ثلاثة دنانير ؛ وقطية السَّمسم عن كل فدان دينار واحد ؛ وقطية القُطن
 كذلك ؛ وقطية قَصَبِ السُّكر عن كل فدان إن كان رأساً خمسة دنانير ، وإن كان
 خلفاً ديناران وخمسة قراريط ؛ وقطية القُلُقاس عن كل فدان ثلاثة دنانير ؛ وقطية
 النيلة عن كل فدان ثلاثة دنانير ؛ وقطية الفُجَل عن كل فدان دينار واحد ؛ وقطية
 اللِّفِّ كذلك ؛ وقطية الحَس عن كل فدان ديناران ؛ وقطية الكُرْب كذلك .
 قال : والقطيعة المستقرّة عن خراج الشَّجر والكرَم تختلف باختلاف سنيها . ثم قال :
 وهو يدرك فى السنة الرابعة ويترتب على كل فدان ثلاثة دنانير ؛ وقطية القَصَب
 الفارسي عن كل فدان ثلاثة دنانير .

الحال الثانى - ما الأمر عليه فى زماننا ، والحال فيه مختلف باختلاف البلاد .
 فالوجه القبلى الذى هو الصعيد أكثر خراجه غلالاً من قمح وشعير وحِصِّ وفول
 وعدس وبسلة وجلبان ، ويعبر فى عرف الدواوين عما عدا القمح والشعير والحِصِّ
 بالحبوب ، ثم الغالب أن يؤخذ عن خراج كل فدان من الأصناف المذكورة ما بين
 إردبين إلى ثلاثة بكيل تلك الناحية ، وربما زاد أو نقص عن ذلك ، وفى الغالب

يؤخذ مع كل إردب درهم أو درهمان أو ثلاثة، ونحو ذلك بحسب قطاع البلاد وضرائبها في الزيادة والنقص في الأردب والدرهم ؛ وربما كان الخراج في بعض هذه البلاد دراهم ؛ وما بار من أرض كل بلد يباع ما نبت فيه من الميرعى مناجرة، وربما أخذ فيه العداد^(١) على حسب عرف البلاد .

والوجه البحريّ غالب نخراج بلاده دراهم، وليس فيه ماخراج بلاده غلّة إلا القليل على العكس من الوجه القبليّ .

ثم الذي كان عليه الحال إلى نحو التسعين والسبعائة في غالب البلاد أن يؤجر أثر الباقي كلّ فدان بأربعين درهما فما حولها، والبرابيّ كلّ فدان بثلاثين درهما فما حولها، ثم غلا السعر بعد ذلك حتى جاوز الباقي المائة والبرابيّ الثمانين، وبلغ البرش نحو المائتين، وذلك عند غلّو الغلال وارتفاع سعرها .

قلت : ثم تزايد الحال في ذلك بعد الثمانمائة إلى ما بعد العشر والثمانمائة حتى صار يؤخذ في الباقي عن كل فدان نحو الأربعمائة درهم، وربما زادت الأرض الطيبة حتى بلغت ستمائة درهم، وفي البرابيّ ونحوه دون ذلك بالنسبة؛ ثم إنه إذا كان المقتر في خراج بلد من بلاد الديار المصرية غلالا وأعوز صنف من الأصناف أن يؤخذ البديل عنها من صنف آخر من الغلّة .

وقد ذكر في "قوانين الدواوين" أن قاعدة البديل أن يؤخذ عن القمح بدل كل إردب، من الشعير إردبان، ومن الفول إردب واحد ونصف، ومن الحنّص إردب، ومن الجلبان إردب ونصف، والشعير يؤخذ عن كل إردب منه نصف إردب من

(١) مراده بالعداد المواشي الزراعية : من الابل والبقر والغنم .

(٢) في التركيب ركافة والمعنى مفهوم .

القمح أو ثلثا إردب من الفول أو نصف إردب من الحِصِّ أو ثلثا إردب من الجلبان ؛ وفي الفول يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو نصف إردب من الشعير أو ثلث إردب من الحِصِّ أو إردب من الجلبان ؛ وفي الحِصِّ يؤخذ عن كل إردب منه إردب من القمح أو إردبان من الشعير أو إردب ونصف من الفول أو إردب ونصف من الجلبان ؛ وفي الجلبان يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلث إردب من الحِصِّ . ثم قال : والسَّمِسِمُ والسَّلْجِمُ والكَنَّانُ ما رأيت لها بدلا ، والأحتياط في جميع ذلك الرجوع إلى سعره الحاضر ، فإنه أسلم طريقةً وأحسن عاقبةً .

وأعلم أن بلاد الديار المصرية بالوجهين : القبليّ والبحريّ بجملةتها جارية في الدواوين السلطانية وإقطاعات الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا التزر اليسير مما يجرى في وقف من سلف من ملوك الديار المصرية ونحوهم على الجوامع والمدارس والخوانق ونحوها مما لا يُعتدّ به لقلته .

والجارى في الدواوين على ضربين .

الضرب الأول

(ما هو داخل في الدواوين السلطانية ، وهو الآن على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(ما هو جار في ديوان الوزارة ؛ وأعظمه خطرا وأرفعه قدرا جهتان)

إحدهما - عمل الجيزية المتقدم ذكره في أعمال الديار المصرية ، ولها مباشرون بمفردها من ديوان الوزارة ما بين ناظر ومستوفٍ وشهود وصيرفي وغيرهم ، وغالب

نحاجه مبلغ دراهم تحمل إلى بيت المال فتثبت فيه وتصرف منه في جملة مصارف بيت المال ، وربما حمل من بعضها الغلّة اليسيرة من القمح وغيره للأهراء السلطانية بالفُسْطَاطِ ، ومن أرضها تفرد الإطلاقات ؛ ويصدر فيها البرسيم لربيع الخيول بالإصطبات السلطانية والأهراء والممالك السلطانية .

الثانية - عمل مَنفُوطٍ ، وله مباشرون كما تقدم في الجيزية بل هي أرفع قدرا وأكثر متحصّلا ، وغالب نحاجه غلال : من قمح وفول وشعير ، وغلالها تحمل إلى الأهراء السلطانية بالفُسْطَاطِ ، ويصرف منها في جملة مصارف الأهراء على الطواحين السلطانية والمناخات وغير ذلك ، وربما حمل منها المبلغ اليسير إلى بيت المال فيثبت فيه ويصرف منه على ما تقدم في الأعمال الجيزية ، وما عدا هاتين الجهتين من البلاد الحاربية في ديوان الوزارة مفترقة في الأعمال بالوجهين القبلي والبحري ، وهي في الوجه القبلي أكثر ، ولكنها قد تناقصت في هذا الزمن حتى لم يبق فيها إلا بعض بلاد بالوجه القبلي .

الصنف الثاني

(ما هو جار في ديوان الخالص)

وهو الديوان الذي أحدثه السلطان "الملك الناصر محمد بن قلاوون" حين أبطل الوزارة على ما سيأتي ذكره ؛ وأعظم بلاده وأرفعها قدرا مدينة الإسكندرية فإنها في الغالب مضافة إليه ؛ وبها مباشرون من ناظر ومستوف وشادين وغيرهم . وربما أُنحرت عنه في جهات أخرى جارية فيه ، ويلها تروجة وفوة وتستره ، ومأل جميعها يحمل إلى خزانة الخالص الآتى ذكرها تحت نظر ناظر الخالص الآتى ذكره .

الصفحة الثالث

(ما هو جار في الديوان المُفرد)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" في سلطته، وأُفرد له بلادا، وأقام له مباشرين وجعل الحديث فيه لأستاذ داره الكبير، ورُتّب عليه نفقة مما ليكه من جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك .

قلت : وليس هو المخترع لهذا الأسم بل رأيت في ولايات الدولة الفاطمية بالديار المصرية ما يدل على أنه كان للخليفة ديوان يسمى الديوان المفرد .

الصفحة الرابع

(ما هو جار في ديوان الأملاك)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" المتقدم ذكره، وأُفرد له بلادا سماها أملاكاً، وأقام لها أستاذ دار ومباشرين بمفردها، وهذا الديوان خاص بالسلطان ليس عليه مرتب نفقة ولا كلفة .

الضرب الثاني

(ما هو جار في الإقطاعات)

وهو جُلُّ البلاد بالوجهين القبليّ والبحريّ ؛ والبلاد النفيسة الكثيرة المتحصّلة في الغالب تقطع للأمرء على قدر درجاتهم ، فمنهم من يجتمع له نحو العشر بلاد إلى البلد الواحدة؛ وما دون ذلك من البلدان يقطع للمالك السلطانية ، يشترك الاثنان فما فوقهما في البلدة الواحدة في الغالب ، وربما أنفرد الواحد منهم بالبلد الواحد .

وما دون ذلك يكون لأجناد الحلقة تجتمع الجماعة منهم في البلد الواحد بحسب مقداره وحال مُقْطَعِهِ ، وفي معنى أجناد الحلقة المُقْطَعُونَ من العُربان بالبحيرة والشرقية من أرباب الأدراك وملترى خيل البريد وغيرهم .

ثم أعلم أن لبلاد الديار المصرية حالين .

الحال الأول - أن تتجزأ إجارة طين البلد بقدر معين لا يزيد ولا ينقص ، وطلبُ

الخراج على حكها .

الحال الثاني - أن تكون البلاد مما جرت العادة بمساحة أرضها لسعة طينها واختلاف الريّ فيه بالكثرة والقلة في السنين ؛ وقد جرت العادة في ذلك أن كاتب خراج الناحية يطلب خوالة القانون بذلك البلد وتوريق الأحواض على المزارعين بفدن مقدرة ، وتكتب بها أوراق تسمى أوراق المسجل ، وتحمل نسختها إلى ديوان صاحب الإقطاع فتخلد فيه ؛ فإذا طلع الزرع خرج من باب صاحب الإقطاع مباشرون ، فيمسحون أرض تلك البلد في كل قبالة بأسماء المزارعين ، ويكتب أصل ذلك في أوراق تسمى الفُنداق ، ثم تجمع القبائل بأوراق تسمى تاريخ القبائل ، ثم تجمع أسماء المزارعين بأوراق تسمى تاريخ الأسماء ، ويقابل بين ما أشتملت عليه أوراق المسجل وما أشتملت عليه مساحته ، وفي الغالب يزيد عن أوراق المسجل ، ويجمع ذلك وتنظم به أوراق تسمى المكلفة ، ويكتب عليها الشهود وحاكم العمل ، وتحمل لديوان المُقْطَع نسخا .

النوع الثاني

(ما يتحصّل مما يُستخرج من المعادن)

وقد تقدّم في الكلام على خواص الديار المصرية أن الموجود الآن بها ثلاثة معادن .

الأول - معدن الزمرد على القرب من مدينة قوص، ولم يزل مستمرّ الاستخراج إلى أواخر الدولة الناصرية "محمدين قلاوون"، ثم أهمل لقلة ما يتحصّل منه مع كثرة الكلف وبقى مهملاً إلى الآن . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنه كان له مباشرون وأمناء من جهة السلطان يتولّون استخراجه وتحصيله ، ولهم جوامك على ذلك . ومهما تحصل منه حُجِل إلى الخزائن السلطانية فيباع ما يباع، ويبقى ما يصلح للخزائن الملوكية .

الثاني - معدن الشبّ (بالباء الموحدة في آخره) . قال في "قوانين الدواوين" : ويحتاج إليه في أشياء كثيرة ، أهمّها صبغ الأحمر ، وللرّوم فيه من الرغبة بمقدار ما يجدون من الفائدة، وهو عندهم مما لا بدّ منه ولا مندوحة عنه؛ ومعادنه بأما كن من بلاد الصعيد والواحات على ما تقدّم في الكلام على خواصّ الديار المصرية .

قال : وعادة الديوان أن يُنفق في تحصيل كل قنطارٍ منه باللّثي ثلاثين درهماً، وربما كان دون ذلك، وتهبّط به العرب إلى ساحل قوص، وساحل إخميم، وساحل أسبوط، وإلى البهنسي إن كان الإتيان به من الواحات، ثم يحمل من هذه السواحل إلى الإسكندرية، ولا يعتدّ للباشرين فيه إلا بما يصح فيها عند الاعتبار . قال ابن مماتي : وأكث ما يباع منه في المتجر بالإسكندرية خمسة آلاف قنطارٍ بالبحرّوى، وبيع منه في بعض السنين ثلاثة عشر ألف قنطار، وسعره من خمسة دنانير إلى خمسة

دنانير وربع وسدس كل قنطار . قال : أما القاهرة ، فأكثر ما يباع فيها منه في كل سنة ثمانون قنطارا كل قنطار بسبعة دنانير ونصف ؛ ثم قال : وليس لأحد أن يبيعه ، ولا يشتريه سوى الديوان السلطاني ، ومتى وجد مع أحد شيء من صفه أستهلك . قلت : وقد تغير غالب حكم ذلك .

الثالث - معدن النطرون ، وقد تقدّم في الكلام على خواص الديار المصرية أن النطرون يوجد في معدنين : أحدهما بعمل البحيرة مقابل بلدة تسمى الطرانة على مسيرة يوم منها ، وتقدّم في كلام صاحب "التعريف" أنه لا يعلم في الدنيا بقعة صغيرة يستغلّ منها أكثر مما يستغلّ منها ، فإنها نحو مائة فدان تُغلّ نحو مائة ألف دينار في كل سنة . والمعدن الثاني بالفاوسية على القرب من الخطارة ، ويعرف بالخطاري ، وهو غير لاحق في الجودة بالأول :

قال في "نهاية الأرب" : وأول من احتجج النطرون أحمد بن محمد بن مديبر نائب مصر قبل أحمد بن طولون ، وكان قبل ذلك مباحا . قال في "قوانين الدواوين" : وهو في طور محدود لا يتصرف فيه غير المستخدمين من جهة الديوان ، والنفقة على كل قنطار منه درهمان ، وثمن كل قنطار منه بمصر والإسكندرية لضيق الحاجة إليه سبعون درهما . قال : والعادة المستقرّة أنه متى أنفق من الديوان في العربان عن أجرة حوالة عشرة آلاف قنطار ، ألزموا بحمل خمسة عشر ألف قنطار ، حسابا عن كل قنطار قنطاراً ونصف ؛ ثم قال : وأكثره مصروف في نفقة الغزاة .

قلت : أما في زماننا فقد تضاعفت قيمة النطرون وغلا سعره لأحتجار السلطان له ، وأفرط حتى خرج عن الحد ، حتى إنه ربما بلغ القنطار منه مبلغ ثلاثمائة درهم أو نحوها . وقد كان على النطرون مرتبون من دباب دست وكباب درج وأطباء وحقّالين وغيرهم وجماعة من أرباب الصدقات يستأدون ذلك ، وينفقون على حمولته إلى ساحل النيل

بالبلدة المعروفة بالطَّرَانة المتقدمة الذكر، ويبيعونه على مَنْ يرغب فيه ليتوجه به في المراكب إلى الوجه القبليّ، ولم يكن لأحد أن يبيع شيئاً بالوجه البحرىّ جملةً، ثم بطل ذلك في أواخر الدولة الظاهرية برقوق، وصار النطرون بجملته خالصاً للسلطان جارياً في الديوان المفرد تحت نظر أستاذ دار، يحمل إلى الإسكندرية والقاهرة فيُخزَن في شُورن ثم يباع منها، وعليه مباشرون يحضرون الواصل والمبيع، ويعملون الحسابات بذلك، وتميّز بذلك متحصّله للغاية القصوى.

النوع الثالث

(الزكاة)

قد تقرّر في كتب الفقه أن مَنْ وجبت عليه زكاة كان مخيراً بين أن يدفعها إلى الإمام أو نائبه، وبين أن يفترقها بنفسه . والذي عليه العمل في زماننا بالديار المصرية أن أرباب الزكوات المؤدّين لها يفترقونها بأنفسهم ، ولم يبق بها ما يؤخذ على صورة الزكاة إلا شيئين :

أحدهما ما يؤخذ من التجار وغيرهم على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب أو فضة ، فإنهم يأخذون على كل مائتي درهم خمسة دراهم ، ثم إذا اشترى بها شيئاً ونرجع به وعاد بنظير المبلغ الأول لا يؤخذ منه شيء عليه حتى يجاوز سنة . إلا أنهم آتتقصوا سنة ذلك فجعلوها عشرة أشهر ، وخصّوه بما إذا لم يزد في المدة المذكورة على أربع مرار . فإن زاد عليها استأنفوا له المدة ، ثم إنه إذا كان بالبلد متجراً لأحد من تجار الكارم من بهار ونحوه وحال عليه الحول بالبلد ، أخذوا عليه الزكاة أيضاً . ومجرى ذلك جميعه مجرى سائر متحصّلات الإسكندرية في المباشرة وغيرها .

الثاني ما يؤخذ من العِدَاد من مواشى أهل بَرَقَة من الغنم والإبل عند وصولهم إلى عمل البحيرة بسبب المرعى، وفي الغالب يُقَطَع لبعض الأمراء، ويخرج قُصَادُهُمْ لأخذه .

النوع الرابع (الجَوَالِي)

وهي ما يؤخذ من أهل الدَّمَة عن الجزية المقررة على رقابهم في كل سنة ، وهي على قسمين : ما في حاضرة الديار المصرية من الفُسْطَاطِ والقاهرة ، وما هو خارج عن ذلك . فأما ما بحاضرة الديار المصرية، فإن لهذه الجهة بها ناظرًا يوثى من جهة السلطان بتوقيع شريف ، ويتبعه مباشرون من شاد وعامل وشهود ، وتحت يده حاشِرٌ لليهود وحاشِرٌ للنصارى يعرف أرباب الأسماء الواردة في الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ في كل عام من الصَّبيان ، ويعبر عنهم بالنَّشْو، ومن يقدّم إلى الحاضرة من البلاد الخارجة عنها، ويعبر عنهم بالطاريء ، ومن يهتدى أو يموت ممن اسمه وارد الديوان . ويملي على كُتَّاب الديوان ما يتجدد من ذلك .

قال في "قوانين الدواوين" : إن الجزية كانت في زمانه على ثلاث طبقات : عليًا، وهي أربعة دنانير وسدسٌ عن كل رأس في كل سنة، ووُسْطَى وهي ديناران وقيراطان، وسُفْلَى وهي دينار واحد وثلاث وربع دينار وحبتان من دينار ، وإنه أضيف إلى جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشاد والمباشرين . ثم قال : وقد كانت العادة جارية باستخراجها في أول المحرم من كل سنة، ثم صارت تُستخرج في أيام من ذى الحجة . قلت : أما الآن ، فقد نقصت حتى صار أعلاها خمسة وعشرين درهماً ، وأدناها عشرة دراهم ، ولكنها صارت تُستأدى معجلة في شهر رمضان، ثم ما يتحصّل منها يحمل منه قدر معين في كل سنة لبيت المال ، وباقى ذلك عليه مرتبون من القضاة وأهل العلم والديانة يوزع عليهم على قدر المتحصّل .

وأما ماهو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بلدانها فإن جزية أهل الذمة في كل بلد تكون لمقطع تلك البلد من أمير أو غيره تجرى مجرى مال ذلك الإقطاع ، وإن كانت تلك البلد جارية في بعض الدواوين السلطانية ، كان ما يتحصّل من الجزية من أهل الذمة بها جاريا في ذلك الديوان .

النوع الخامس

(ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين في البحر إلى الديار المصرية)

وأعلم أن المقرّر في الشرع أخذ العشر من بضائعهم التي يقدّمون بها من دار الحرب إلى بلاد الإسلام إذا شرط ذلك عليهم . والمفتى به في مذهب الشافعي رضي الله عنه أن للإمام أن يزيد في المأخوذ عن العشر وأن ينقص عنه إلى نصف العشر للحاجة إلى الأزدباد من جلب البضاعة إلى بلاد المسلمين ، وأن يرفع ذلك عنهم رأسا إذا رأى فيه المصلحة . وكيفما كان الأخذ فلا يزيد فيه على مرة من كل قادم بالتجارة في كل سنة ، حتى لو رجع إلى بلاد الكفر ثم عاد بالتجارة في سنته لا يؤخذ منه شيء إلا أن يقع التراضي على ذلك ، ثم الذي ترد إليه تجار الكفار من بلاد الديار المصرية تفر الإسكندرية ، وتفر دميّاط المحروستين ، تأتي إليهما مراكب الفرنج والرؤم بالبضائع فتبيع فيهما أو تبتاع منهما ما تحتاج إليه من البضائع ، وقد تقرّر الحال على أن يؤخذ منهم الخمس وهو ضعف العشر عن كل ما يصل لهم في كل مرة ، وربما زاد ما يؤخذ منهم على الخمس أيضا .

قال ابن ممتى في "قوانين الدواوين" : وربما بلغ قيمة ما يستخرج عما قيمته مائة دينار ما يناهز خمسة وثلاثين دينارا ، وربما أنخط عن العشرين دينارا . قال : ويطلق على كليهما خمس ، قال : ومن الروم من يستأدى منه العشر ، إلا أنه لما

كان الخمس أكثر، كانت النسبة إليه أشهر . ولذلك ضرائب مستقرّة في الدواوين وأوضاع معروفة .

النوع السادس

(الموارث الحشرية)

وهي مال من يموت وليس له وارث خاص : بقراءة أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال مَنْ يموتُ وله وارثٌ ذو فرض لا يستغرق جميع المال ولا عاصب له .

وهذه الجهة أيضا على قسمين : مافي حاضرة الديار المصرية، وماهو خارج عنها . فأما ما بحاضرة الديار المصرية ، فإن لهذه الجهة ناظرا يوثق من قبل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرون من شاذ وكاتب ومُشارف وشهود، وهي مضافة إلى ماتحت نظر الوزارة من سائر المباشرات، ومُتَحَصِّلُهَا يَحمِلُ إلى بيت المال، وربما كان عليها مرتبون من أرباب جوامك وغيرهم . وقد جرت عادة هذا الديوان أن كاتبه في كل يوم يكتب تعريفا بمن يموت بمصر والقاهرة من حشري أو أهلي وتفصيله من رجال ونساء وصغار ويهود ونصارى، وتكتب منه نسخ لديوان الوزارة، ولنظر الدواوين ومستوفي الدولة، ويسد من وقت العصر . فمن أطلق بعد العصر، أضيف إلى النهار القابل .

وأما ماهو خارج عن حاضرة الديار المصرية ، فلها مباشرون يُحصِّلونها ويحْمِلُون ما يُحصِّل منها إلى الديوان السلطاني .

النوع السابع (ما يتحصّل من دار الضرب بالقاهرة)

والذى يضرب فيها ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(الذهب)

وأصله مما يجلب إلى الديار المصرية من التبر من بلاد التّكُور وغيرها مع ما يجتمع إليه من الذهب . قال في "قوانين الدواوين" : وطريق العمل فيها أن يُسبَك ما يجتمع من أصناف الذهب المختلفة حتى يصير ماء واحدا ، ثم يقب قُضباناً ويقطع من أطرافها قطع مباشرة النائب في الحكم ، ويحرر بالوزن ويسبك سبيكة واحدة ، ثم يؤخذ من بعضها أربعة مثاقيل ويضاف إليها من الذهب الحائف المسبوك بدار الضرب أربعة مثاقيل ، ويعمل كل منها أربع ورقات وتجمع الثمان ورقات في قده نغار بعد تحرير وزنها ، ويوقد عليها في الأتون ليلة ، ثم تخرج الورقات وتمسح ويعبر القده على الأصل (؟) فإن تساوى الوزن وأجازته النائب في الحكم ، ضُرب دنانير . وإن نقص أعيد إلى أن يتساوى ويصح التعليق فيضرب حينئذ دنانير .

قال ابن الطوير في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية بالديار المصرية في سياقة الكلام على وظيفة قضاء القضاة : وسبب خلوص الذهب بالديار المصرية ما حكى أن أحمد بن طولون صاحب مصر كان له إمام بمدينة عين شمس انخراب على القرب من المطرية من ضواحي القاهرة ، حيث ينبت البلسان ، وأن يد فرسه ساخت بها يوما في أرض صلدة ، فأمر بحفر ذلك المكان فوجد فيه خمسة نواويس فكشفها فوجد في الأوسط منها ميتا مُصبرا في غسل ، وعلى صدره لوح لطيف من ذهب فيه كتابة لاتعرف ، والنواويس الأربعة مملوءة بسبائك الذهب ، فنقل ذلك الذهب

ولم يجد من يقرأ ما في اللوح ، فدلَّ على راهب شيخ بدير العربة بالصعيد له معرفة بخط الأولين ، فأمر بإحضاره فأخبر بضعفه عن الحركة ، فوجه باللوح إليه ، فلما وقف عليه قال : إن هذا يقول : أنا أكبر الملوك ، وذَهبي أخلص الذهب . فلما بلغ ذلك أحمد بن طولون ، قال : قبح الله من يكون هذا الكافر أكبر منه أو ذهبه أخلص من ذهبه ، فشدد في العيار في دور الضرب ، وكان يحضّر ما يعلّق من الذهب ويختم بنفسه فبقى الأمر على ما قرره في ذلك من التشديد في العيار . وكانت دار الضرب في الدولة الفاطمية لا يتولاها إلا قاضي القضاة تعظيماً لشأنها ، وتكتب في عهده في جملة ما يضاف إلى وظيفة القضاء ، ويقوم لمباشرة ذلك من يختاره من نواب الحكم ، وبقى الأمر على ذلك زماً بعد الدولة الفاطمية أيضاً . أما في زماننا ، فنظرها موكول لناظر الخاص الذي آستحدثه ” الملك الناصر محمد بن قلاوون “ عند تعطيله الوزارة على ماسياتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

والسكّة السلطانية بالديار المصرية فيما هو مشاهد من الدنانير أن يكتب على أحد الوجهين - لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون^(١) - وعلى الوجه الآخر اسم الساطان الذي ضرب في زمنه وتاريخ سنة ضربه .

الصنف الثاني

(الفضة النقرة)

وقد ذكر ابن ميماتي في ” قوانين الدواوين “ في عيارها أنه يؤخذ ثلثمائة درهم فضة فتضاف إلى سبعمائة درهم من النحاس الأحمر ، ويسبك ذلك حتى يصير ماء واحدا فيقلب قُضباناً ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهماً ، ثم تسبك ، فإن خلص

(١) ليس نظم آية كما قد يتوهم .

منها أربعة دراهم فضة ونصف حسابا عن كل عشرة دراهم ثلاثة دراهم، وإلا أعيدت إلى أن تصح . وكأن هذا ما كان الأمر عليه في زمانه ؛ والذي ذكره المقر الشهابيّ ابن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أن عيارها الثلثان من فضة والثلث من نحاس، وهذا هو الذي عليه قاعدة العيار الصحيح كما كان في أيام الظاهر بيبرس وما والاها، وربما زاد عيار النحاس في زماننا على الثلث شيئا يسيرا بحيث يظهره القّد، ولكنه يروح في جملة الفضة، وربما حصل التوقف فيه إذا كان بمفرده .

قلت : أما بعد الثمانمائة فقد قلتِ الفضة، وبطل ضربُ الدراهم بالديار المصرية إلا في القليل النادر لأستهلا كما في السروج والآنية ونحوها، وأنقطاع أصلها إلى الديار المصرية من بلاد الفرنج وغيرها . ومن ثمّ عزّ وجود الدراهم في المعاملة بل لم تكد توجد . ثم حدث بالشأم ضربُ دراهم رديئةٍ فيها الثلث فما دونه فضة والباقي نحاس أحمر، وطريقة ضربها أن تقطع القضبان قطعاً صغارا كما تقدّم في الدنانير، ثم تُرصع إلا أن الدنانير لا تكون إلا صحاحا مستديرة، والفضة ربما كان فيها القراضات الصغار المتفاوتة المقادير فيما دون الدرهم إلى ربع درهم وما حوله ؛ وصورة السكة على الفضة كما في الذهب من غير فرق .

الصنف الثالث

(الفلوس المتخذة من النحاس الأحمر)

وقد تقدّم أنه كان في الزمن الأول فلوس صغار كل ثمانية وأربعين فلساً منها معتبرة بدرهم من النقرة إلى سنة تسع وخمسين وسبعائة في سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الثانية، فأحدثت فلوسٌ عبر عنها بالجدد زنة كل فلسٍ منها مثقال، وهو قيراط من أربعة وعشرين قيراطا من الدرهم، ثم تناقص مقدارها حتى كادت

تفسد وهى على ذلك . وطريق عملها : أن يُسبك التُّحاسُّ الأحمر حتى يصير كالماء ، ثم يخرج فيضرب قصبانا ، ثم يُقَطَّع قطعاً صغاراً ، ثم تُرَصَّع وتُسك بالسكة السلطانية وسكتها أن يكتب على أحد الوجهين اسم السلطان ولقبه ونسبه ، وعلى الآخر اسم بلد ضربه وتاريخ السنة التي ضرب فيها .

الضرب الثاني

(من الأموال الديوانية بالديار المصرية غير الشرعية ،

وهو المكوس ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(ما يخض بالديوان السلطاني وهو صنفان)

الصنف الأول

(ما يؤخذ على الواصل المجلوب ، وأكثره مُتَحَصِّلاً جهتان)

الجهة الأولى

(ما يؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع في بحر القلزم

من جهة الحجاز واليمن وما والاها ، وذلك بأربعة

سواحل بالبحر المذكور)

الساحل الأول - عَيْدَابُ . وقد كان أكثر السواحل واصلاً لرغبة رؤساء

المراكب في التعديّة من جُدَّة إليه ، وإن كانت باحته متسعة لغزارة الماء وأمن

الطَّاقِ بالشعب الذي ينبت في قعر هذا البحر ، ومن هذا الساحل يتوصل إلى قُوصَ

البضائع ومن قُوصَ إلى فُنْدُقِ الكارم بالنُسطَاطِ في بحر النيل .

الساحل الثانى - القَصِير . وهو فى جهة الشمال عن عَيْذاب ، وكان يصل إليه بعض المراكب لقربه من قُوصَ وبعْدَ عَيْذابَ منها ؛ وتُجمل البضائع منه إلى قُوصَ ، ثم من قُوصَ إلى فُنْدِقِ الكارم بالفُسْطَاطِ على ما تقدّم ، وإن لم يبلغ فى كثرة الواصل حدَّ عَيْذابَ .

الساحل الثالث - الطُورُ . وهو ساحل فى جانب الرأس الداخلى فى بحر القلزم بين عقبة أيلة وبين بر الديار المصرية ؛ وقد كان هذا الساحل كثير الواصل فى الزمن المتقدم : لرغبة بعض رؤساء المراكب فى السير إليه ، لقرب المراكب فيه من برّ الحجاز حتى لا يغيب البر عن المسافرين فيه وكثرة المراسى فى برّه ، متى تغير البحر على صاحب المركب وجد مرّسة يدخل إليها ، ثم تُركَ قَصْدُ هذا الساحل والسفرُ منه بعد انقراض بنى بدير العباسية التجار ، ورجب المسافرون عن السفر فيه لما فيه من الشعب الذى يُحْشَى على المراكب بسببه ، ولذلك لا يُسافر فيه إلا نهاراً ، وبقى على ذلك إلى حدود سنة ثمانين وسبعائة ، فعمّر فيه الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، وهو يومئذ حاجب الحجاب بالديار المصرية مرّكبا وسفّرها ، ثم أتبعها بمركب آخر بحسّر الناس على السفر فيه وعمّروا المراكب فيه ، ووصلت إليه مراكب اليمّان بالبضائع ، ورُفِضت عَيْذابُ والقَصِيرُ ، وحصل بواسطة ذلك حمل الغلال إلى الحجاز ، وغزرت فوائد التجار فى حمل الحنطة إليه .

الساحل الرابع - السُوَيْسُ على القرب من مدينة القلزم الخراب بساحل الديار المصرية . وهو أقرب السواحل إلى القاهرة والفُسْطَاطِ إلا أن الدخول إليه نادر ، والعمدة على ساحل الطور كما تقدّم .

قلت : وهذه السواحل على حدّ واحد فى أخذ المرتب السلطانى ، وقد ذكر فى "قوانين الدواوين" : أن واصل عَيْذابَ كان آسَقرَ فيه الزكاة . أما الذى عليه

الحال في زماننا، فإنه يؤخذ من بضائع التجار العُشْر مع لواحقٍ أخرى تكاد أن تكون نحو المرتب السلطانيّ أيضا .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ تَصَلَّ البضائع للتجار المسلمين إلى ساحل الإسكندرية ودمياط المتقدم ذكرهما، فيؤخذ منها المرتب السلطانيّ على ما توجبه الضرائب .

الجهة الثانية

(ما يؤخذ على واصل التجار بقَطِيَا في طريق الشام إلى الديار المصرية)

وعليها يردُّ سائرُ التجار الواصلين في البر من الشام والعراق وما والاها، وهي أكثر الجهات متحصِّلاً وأشدها على التجار تضيقاً وعندهم ضرائب مقررة لكل نوع يؤخذ عن نظيرها .

الصنف الثاني

(ما يؤخذ بمحاضرة الديار المصرية : بالفُسْطَاط والقاهرة)

وهو جهات كثيرة، يقال إنها تبلغ اثنتين وسبعين جهة، منها ما يكثر متحصِّله ومنها ما يقلُّ، ثم بعضها بحسب ما يتحصَّل من قليل وكثير، وبعضها له ضَمَانٌ ^(١) بمقدار معين لكل جهة، يطلب بذلك المقدار إن زادت الجهة فله وإن نقصت فعليه .

قلت : وقد عمت البلوى بهذه المُكُوس، ونحرجت في التريُّد عن الحدِّ، ودخلت الشبهة في أموال الكثير من الناس بسببها . وقد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله في سلطته قد رفع هذه المكوس ومحا آثارها، وعوّضه الله عنها بما حازه من الغنائم وفتح من البلاد والأقاليم، وربما وقع الإلهام من الله تعالى لبعض ملوك المملكة برفع المظالم الحاصلة منها . ومن أعظم ذلك خطراً

(١) لعله ضامن .

وأرفعه أجرًا ما فعله السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" بن الملك الناصر محمد بن قلاوون تغمده الله تعالى برحمته من بطلان مكوس الملاحى والقراريط على الأملاك المبيعة .

النوع الثانى

(ما لا اختصاص له بالديوان السلطاني)

وهى المكوس المتفرقة ببلاد الديار المصرية فتكون تابعة للإقطاع إن كانت تلك البلد جارية فى ديوان من الدواوين السلطانية فتمحصّلها لذلك الديوان، أو جارية فى إقطاع بعض الأمراء ونحوهم فتمحصّلها لصاحب الإقطاع، ويعبر عنها فى الدواوين بالهلالي كما يعبر عما يؤخذ من أجرة الأرضين بالخراجى .

المقصد الثالث^(١)

(فى ترتيب المملكة، ولها ثلاث حلالات)

الحالة الأولى - ما كانت عليه فى زمن عمّال الخلفاء من حين الفتح إلى آخر الدولة الأخشيدية - ولم يتحررلى ترتيبها، والظاهر أنه لم يزل توابها وأمرؤها حينئذ على هيئة العرب إلى أن وليها أحمد بن طولون وبَنُوه وأحدثوا فيها ترتيب الملك . على أنه كان أكثر عسكره من السودان، حتى يقال إنه كان فى عسكره اثنا عشر ألف أسود، وتبعتهم الدولة الأخشيدية على ذلك إلى آخر دولتهم .

(١) لم يسبق له التعبير بالمقصد الأول والثانى ولم يجعل كعادته فعل هذا من بعض النسخ . وقد وقع فى هذا الجزء شئ من هذا القبيل فأقتضى التنبيه .

الحالة الثانية - من أحوال الديار المصرية ما كانت عليه في زمن الخلفاء الفاطميين؛ ويختصر المقصود من ترتيب مملكتهم في ثلاث^(١) جمل

الجملة الأولى

(في الآلات المملوكية المختصة بالمواكب العظام)

وهي على أصناف متعددة :

منها (التاج) . وكان يُنَعَتَ عندهم بالتاج الشريف ، ويعرف بشدة الوقار . وهو تاج يركب به الخليفة في المواكب العظام ، وفيه جوهرة عظيمة تُعرف بالتيمة زنتها سبعة دراهم ولا يقوم عليها لنفاستها ؛ وحولها جواهر أخرى دونها ؛ يلبس الخليفة هذا التاج في المواكب العظام مكان العمامة .

ومنها (قضيبي الملك) . وهو عُود طول شبر ونصف ، ملبس بالذهب المرصع بالدرّ والجوهر ، يكون بيد الخليفة في المواكب العظام .

ومنها (السيف الخاص) الذي يحمل مع الخليفة في المواكب . يقال إنه كان من صاعقة وقعت وحصل الظفر بها فعمل منها هذا السيف ، وحليته من ذهب مرصعة بالجواهر ، وهو في خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر إلا رأسه ، وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة في الموكب .

ومنها (الدواة) . وهي دواة متخذة من الذهب وحليتها مصنوعة من المرجان على صلابته ومناعته ، تلف في منديل شرب أبيض^(٢) ، ويحملها شخص من الأستاذين في الموكب أمام الخليفة تكون بينه وبين السرج ، ثم جعل حملها لعدل من العدول المعتمدين .

(١) وصلت في العدالي سبع جمل . (٢) كذا في الأصل وسأق ولعله نوع مخصوص من الحرير .

ومنها (الرحم) . وهو ربح لطيف في غلاف منظوم باللؤلؤ؛ وله سنان مختصر بحلية الذهب؛ وله شخص مختص بحمله .

ومنها (الدرقة) . وهي درقة كبيرة بكوايج من ذهب؛ يقولون إنها درقة حمزة عم النبي صلى الله عليه وسلم، وعليها غشاء من حرير؛ ويجعلها في الموكب أمير من أكابر الأمراء، له عندهم جلالة .

ومنها (الحافر) . وهي قطعة ياقوت أحمر في شكل الهلال، زنتها أحد عشر مثقالا، ليس لها نظير في الدنيا، تحاط خياطة حسنة على خرقة من حرير، وبدائرها قضب زمرد ذبابي عظيم الشأن، تجعل في وجه فرس الخليفة عند ركوبه في المواكب .

ومنها (المظلة) التي تحمل على رأس الخليفة عند ركوبه . وهي قبة على هيئة خيمة على رأس عمود كالمظلة التي يركب بها السلطان الآن، وكانت اثني عشر شوزكا عرض سفلى كل شوزك شبر، وطوله ثلاثة أذرع وثلث، وآخره من أعلاه دقيق للغاية بحيث يجتمع الاثنا عشر شوزكا في رأس عمود بدائرة، وعمودها قنطارية من الزان ملبسة بأنايب الذهب، وفي آخر أنبوبة ثلثي رأس العمود ملكة بارزة مقدار عرض إبهام تشد آخر الشواذك في حلقة من ذهب، وتنزل في رأس الرمح . ولها عندهم مكانة جليلة لعلوها رأس الخليفة، وحاملها من أكابر الأمراء .

قال ابن الطوير: وكان من شرطها عندهم أن تكون على لون الثياب التي يلبسها الخليفة في ذلك الموكب، لا تتخالف ذلك .

ومنها (الأعلام) . وأعلامها اللواءان المعروفان بلوائيّ الحمد، وهما رحمان طويلان ملبسان بأنايب من ذهب إلى حد أستتهما، وبأعلامهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب، ملفوفتان على الرمحين غير منشورتين، يُجرّجان لخروج المظلة إلى أميرين معدين لحملها، ودونهما رحمان برءوسهما أهلة من ذهب صامت، في كل واحد

(١) لعله فلكة بالفاء .

منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر، وفي فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرمح فيفتحان فيظهر شكلهما، يحملهما فارسان من صبيان الخالص، ووراءهما رايات لطاف ملونة من الحرير المرقوم ومكتوب عليها ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ طول كل راية منها ذراعان في عرض ذراع ونصف، في كل واحدة ثلاثة طرازات على رماح من القنأ، عدتها أبدا إحدى وعشرون راية، يحملها أحد وعشرون فارسا من صبيان الخليفة، وحاملها أبدا راكب بغلة .

ومنها (المذبذبان) وهما مذبذبان عظيمتان كالنخلتين ملويتان مجمولتان عند رأس فرس الخليفة في الركوب .

ومنها (السلاح) الذي يحملها الركابية حول الخليفة . وهو صاصم مصقولة، ودبابس ملبسة بالكميخت الأحمر والأسود، ورؤوسها مدقورة، ولتوت حديد كذلك ورؤوسها مستطيلة، وهي عمد حديد طول ذراعين، مربعات الأشكال بمقابض مدقورة بعدة معلومة من كل صنّف، وستائة حربة بأسنة مصقولة، تحتها جلب الفضة، وثلاثمائة درقة بكوايج فضة، يحمل ذلك في الموكب ثلاثمائة عبد أسود كل عبد حربان ودرقة واحدة، وستون رمحا طول كل واحد منها سبع أذرع، برأسها طلعة وعقبها من حديد، يحملها قوم يقال لهم السريرية يفتلونوا بأيديهم اليمنى قتلا متدارك الدوران، ومائة درقة لطيفة، ومائة سيف بيد مائة رجل، كل رجل درقة وسيف يسرون رجالة في الموكب، وعشرة سيوف في خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب يقال لها سيوف الدم، تكون في أعقاب الموكب برسم ضرب الأعناق إذا أراد الخليفة قتل أحد . وذلك كله خارج عما يخرج من خزانة التجميل برسم الوزير وأكابر الأمراء وأرباب الرتب وأزمنة العساكر لتجميلهم في الموكب، وهي نحو أربعائة راية مرقومة الأطراف، وأعلىها رمايين الفضة المذهبة، وعدة من العاريات : وهي

شبه الكسجاوات ملبسة بالحرير الأحمر والأصفر والقرمزي وغير ذلك ، وعليها كواجح الفضة المذهبة ، لكل أمير من أصحاب القضب منها عمارية ، ويختص لواءان على رنجين منقوشين بالذهب غير منشورين يكونان أمامه في الموكب إلى غير ذلك من الآلات التي يطول ذكرها ، ويعسر استيعابها .

ومنها (التقارات) . وكانت على عشرين بغلا على كل بغل ثلاث مثل تقارات الكوسات بغير كوسات ، تسير في الموكب اثنتين اثنتين ولها حِس حسن .

ومنها (الخيام والفساطيط) وكان من أعظم خيمهم خيمة تعرف بالقاتول ، طول عمودها سبعون ذراعا ، بأعلاه سفرة فضة تسع راوية ماء ، وسعتها ما يزيد على فدانين في التدوير . وسميت بالقاتول لأن فرأشاً سقط من أعلاها فأت .

قلت : ولعمري إن هذه لأثرة عظيمة تدل على عظيم مملكة وقوة قدرة ، وأنى يتأتى مثل هذه الخيمة للملك من الملوك وإن جل قدره وعظم شأنه .

الجملة الثانية

(في حواصل الخليفة ، وهي على خمسة أنواع)

النوع الأول

(الخزائن ، وهي ثمان خزائن)

الأولى - (خزانة الكتب) . وكانت من أجل الخزائن وأعظمها شأنًا عندهم ، وكان فيها من المصاحف الشريفة المكتوبة بالخطوط المنسوبة الفائقة عدّة كثيرة ، ومن الكتب النفيسة ما يزيد على مائة ألف مجلد ، مشتملة على أنواع العلوم مما يُدهش الناظر ويحيره ، وربما أجمع من المصنّف الواحد فيها عشر نسخ

فما دونها، وكان فيها من الدُرُوج المكتتة بالخطوط المنسوبة نخط ابن مقلة وابن البواب، ومن جرى مجراهما^(١).

الثانية - (خزانة الكسوة) وهي في الحقيقة خزانتان . إحداهما - الخزانة الظاهرة، وهي المعبر عنها في زماننا بالخزانة الكبرى على ما كانت عليه أولاً، والمعبر عنها بخزانة الخالص على ما استقرّ عليه الحال آخراً، وكان فيها من الحواصل من الديباج الملون على اختلاف ضروبها، والشرب الخالص الدبيق والسقلاطون، وغير ذلك من أنواع القماش الفاخرة ما يدل على عظم المملكة، وإليها يجعل ما يُعمل بدار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية من مستعملات الخالص، وفيها يفصل ما يؤمر به من لباس الخليفة، وما يحتاج إليه من الخلع والتشريف وغير ذلك . الثانية - معدة للباس الخليفة خاصة، وهي المعبر عنها في زماننا بالطلشت خاناه، وإليها ينقل القماش المفصل بالخزانة الأولى من قماش الخليفة وغيره .

الثالثة - (خزانة الشراب). وهي المعبر عنها في زماننا بالشراب خاناه، وكان فيها من أنواع الأشربة والمعاجين النفيسة والمرببات الفاخرة وأصناف الأدوية والعطريات الفائقة التي لا توجد إلا فيها، وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصّيني من الزبادي والصُّحون والبراني والأزيار ما لا يقدر عليه غير الملوك .

الرابعة - خزانة الطعم . وهي المعبر عنها في زماننا بالحوائج خاناه، وكانت تحتوي على عدّة أصناف من جميع أصناف القلويات من الفستق وغيره والسكر والقند والأعسال على أصنافها والزيت والشمع وغير ذلك، ومنها يخرج راتب المطابخ خاصاً وعماماً، وينفق لأرباب الخدم وأصحاب التوقعات في كل شهر، ولا يحتاج إلى غيرها إلا في اللحم والخضر .

(١) لعل الأنسب ما فوقها (٢) لعل تسماه [ما يدل على عظم المملكة] كما سيأتي في نظيره .

الخامسة - (خزانة السروج) . وهي المعبر عنها في زماننا بالركاب خاناه ، وكانت قاعة كبيرة بالقصر ، بها السروج والجم من الذهب والفضة ، وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة ، ثم منها ما هو قريب من الخاص ، ومنها ما هو وسط برسم من هو من أرباب الرتب العالية ، ومنها ما هو دون ، برسم من هو برسم العواري أيام للمواكب لأرباب الخدم .

السادسة - (خزانة الفرش) . وهي المعبر عنها في زماننا بالفرش خاناه ؛ وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك ؛ وكان الخليفة يحضر إليها من غير جلوس ويطوف فيها ، ويسأل عن أحوالها ، ويأمر بإدامة عمل الاحتياجات وحملها إليها .

السابعة - (خزانة السلاح) . وهي المعبر عنها في زماننا بالسلاح خاناه ؛ فيها من أنواع السلاح المختلفة ما لا نظير له : من الزرديات المغشاة بالديباج المحك الصنعة المحلاة بالفضة ، والجواشن المذهبة ، والخوذ المحلاة بالذهب والفضة ، والسيوف العربيات والقجورية ، والرماح القنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة ، والأسنة العظيمة والقسي المحبورة المنسوبة إلى أفاضل الصناعات ، وقسي الرجل والركاب ، وقسي اللولب التي تبلغ زنة نصله خمسة أرطال بالمصرى ، والنبل الذي يرمى به عن القسي العربية في المجارى المصنوعة لذلك .

قال القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : كان يصرف فيها في كل سنة سبعون ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار .

الثامنة - (خزانة التجمل) . وهي خزانة فيها أنواع من السلاح يخرج منها للوزير والأمراء في المواكب الأولى والفضة والعماريات وغيرها . قال ابن الطوير : هي من حقوق خزائن السلاح .

وأما (خزائن المال) فكان فيها من الأموال والجواهر النفيسة، والذخائر العظيمة، والأقمشة الفاخرة مالا تحصره الأقلام .

وناهيك أن المستنصر لما وقع الغلاء العظيم بمصر، أخرج من خزائنه في سنة اثنتين وستين وأربعمائة ذخائر تسعها للإعانة على قيام أمر المملكة والجنود، فكان مما أخرج ثمانون ألف قطعة بلور بكار، وسبعون ألف قطعة من الدياج، وعشرون ألف سيف محلي. ولما استولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على القصر بعد وفاة العاضد: آخر خلفائهم، وجد فيه من الأعلاق الثمينة والتحف ما يخرج عن حد الإحصاء، من جملة الخافر الياقوت المقدم ذكره. ويقال إنه وجد فيه قضيب زمرد يزيد على قامة الرجل على ما تقدم ذكره في الكلام على الأحجار الملوكة في أثناء المقالة الأولى، ووجد فيه أيضا الهرم العنبر الذي عمله الأمين زنته ألف رطل بالمصرى .

النوع الثاني

(حواصل المواشى المعبر عنها عند كُتاب زماننا بالكراع؛ وهي حاصلان)

الأول - الإصطبلات . وهي حواصل الخيول والبغال وما في معناها، قال ابن الطوير: وكان لهم إصطبلان . قال: وكان للخليفة برسم الخاص^(١) في كل إصطبل ما يقرب من الألف رأس، النصف من ذلك برسم الخاص، والنصف برسم العواري في المواكب لأرباب الرتب والمستخدمين، وكان لكل ثلاثة رؤس منها سائس واحد؛ لكل واحد منها شداد برسم تسييرها، ويكل من الإصطبلين راض كأمير اخور. ومن غريب ما يحكى أن أحدا من خلفاء الفاطميين لم يركب حصانا أدهم قط، ولا يرون إصطبلات .

(١) لعلها زائدتان من قلم النسخ .

الثانى - المَنَاحَت . وهى حواصل الجمال ، وكان لهم من الجمال الكثيرة بالمَنَاحَت وُعُدَّها الفائقة ما يقصر عنه الحد .

النوع الثالث

(حواصل الغلال وشون الأتبان)

أما الغلال ، فكانت لهم الأهرأء فى عُدَّة أماكن : بالقاهرة وبالقُسْطَاط ، والمَقْسِم ، ومنها تصرف الإطلاقات لأرباب الرواتب والخدم والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية ، وجرايات رجال الأسطول وغير ذلك ، وربما طال زمن الغلال فيها حتى تقطع بالمساحى .

وأما شون الأتبان ، فكان بطريق القُسْطَاط شونتان عظيمتان مملوءتان بالبن معبأتان تعبئة المراكب كالجلبين الشاهقين ، وينفق منها للإصطبلات والمواشى الديوانية وعوامل بساتين الملك ، وكانت ضريبة كل شليف عندهم ثلثمائة وستين رطلا .

النوع الرابع

(حواصل البِضَاعَة)

قال ابن الطوير : وكان فيها ما لا يحصره إلا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة ، وآلات الأساطيل من القنب والكَنان ، والمنجنيقات والصناعات الكثيرة من الفرنج وغيرهم من أهل كل صنعة ، وكانت الصناعة أولا بالجزيرة المعروفة الآن بالرَّوْضَة ، ولذلك كانت تعرف بينهم بجزيرة الصناعات قاله القضاعى .

النوع الخامس

(ما في معنى الحواصل : لوقوع الصرف والتفرقة منه ،

وهو الطواحين والمطبخ ودار الفطرة)

فأما الطواحين ، فإنها كانت معلقة ، مداراتها أسفل وطواحينها فوق كما في السواقي حتى لا يقارب الدقيق زبل الدواب الدائرة لأختصاصه بالخليفة . وأما المطبخ ، فقد تقدم في الكلام على خطط القاهرة ، وكان يدخل بالطعام منه إلى القصر من باب الزهومة مكان قاعة الحنابلة من المدرسة الصالحية الآن على ما تقدم في خطط القاهرة . قال ابن الطوير : ولم يكن لهم أسمطة عامة في سوى العيدين وشهر رمضان .

الجملة الثالثة

(في ذكر جيوش الدولة الفاطمية ، وبيان مراتب أرباب السيوف)

وهم على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول الأمراء ،

(وهم على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - مرتبة الأمراء المطوقين . وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب في أعناقهم ؛ وكانهم بمثابة الأمراء مقدمي الألو في زماننا .

المرتبة الثانية - مرتبة أرباب القُصْب ، وهم الذين يركبون في المواكب بالقُصْب الفِصَّة التي يخرجها لهم الخليفة من خزانة التجميل تكون بأيديهم ، وهم بمثابة الطبلخاناه في زماننا .

المرتبة الثالثة - أدوان الأمراء ممن لم يؤهل لحمل القُصْب . وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات في زماننا .

الصنف الثاني

(خواص الخليفة ، وهم على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(الأستاذون)

وهم المعروفون الآن بالخدام وبالطواشيّة ، وكان لهم في دولتهم المكانة الجليلة ، ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة ، وأجلهم المُحَنِّكُونَ ، وهم الذين يُدَوِّرون عمائمهم على أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن ، وهم أقربهم إليه وأخصمهم به ، وكانت عدتهم تزيد على ألف . قال ابن الطوير : وكان من طريقتهم أنه متى ترشح أستاذ منهم للمحك وحكك ، حمل إليه كل أستاذ من المحنكين بدلة كاملة من ثيابه وسيفا وفرسا فيصبح لاحقا بهم ، وفي يده مثل ما في أيديهم .

النوع الثاني

(صبيان الخاص)

وهم جماعة من أخصاء الخليفة نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم ، ومقامهم مقام المعروفين بالخاصكية في زماننا .

النوع الثالث

(صبيان الحجر)

وهم جماعة من الشَّبَاب يناهزون خمسة آلاف نفر مقيمون في حُجْرٍ منفردة لكل حُجْرَةٍ منها اسم يخصها ، يضاھون ممالك الطباقي السلطانية الآن المعبر عنهم بالكمانية إلا أن عدتهم كاملة وعللهم مزاحة ، ومتى طلبوا لهم لم يجدوا عائقا ، وللصبيان منهم حجرة منفردة يتسلمها بعض الأستاذين ؛ وكانت حُجْرَتهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية ببيرس الآن .

الصنف الثالث

(طوائف الأجناد)

وكانوا عدّة كثيرة، تنسب كل طائفة منهم إلى مَنْ بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم، كالحفاظية والآمريّة من بقايا الحافظ والآمّر، أو إلى مَنْ بقى من بقايا وزير من الوزراء الماضين كالجيوشيّة والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجماليّ وولده الأفضل، أو إلى مَنْ هي منتسبةٌ إليه في الوقت الحاضر كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل والأجناس كالأتراك والأكراد والغز والديلم والمصامدة، أو من المستصنعين كالروم والفرننج والصقالبة، أو من السّودان من عبّيد الشراء، أو العتقاء وغيرهم من الطوائف، ولكل طائفة منهم قُودا ومقدمون يحكمون عليهم.

الجملة الرابعة

(في ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية، وهم على قسمين)

القسم الأوّل

(ما بحضرة الخليفة، وهم أربعة أصناف)

الصنف الأوّل

(أرباب الوظائف من أرباب السيوف، وهم نوعان)

النوع الأوّل

(وظائف عاقبة الجند، وهي تسع وظائف)

الوظيفة الأولى - (الوزارة) وهي أرفع وظائفهم وأعلىها رتبةً. وأعلم أن الوزارة في الدولة الفاطمية كانت تارة تكون في أرباب السيوف، وتارة في أرباب الأقاليم، وفي كلا الجانبين تارة تملو فتكون وزارةً تفويضاً تضاهي السلطنة الآن

أو قريبا منها، ويعبر عنها حينئذ بالوزارة؛ وتارة تتحط فتكون دون ذلك، ويعبر عنها حينئذ بالوساطة .

قال في "نهاية الأرب" : وأول من خُوطب منهم بالوزارة يعقوب بن كلثوم وزير العزيز، وأول وزارتهم من عطاء أرباب السيوف بدر الجمالي وزير المستنصر، وآخرهم صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومنها استقل بالسلطنة على ما تقدم .

الوظيفة الثانية - (وظيفة صاحب الباب) وهي ثاني رتبة الوزارة . قال ابن الطوير : وكان يقال لها الوزارة الصغرى، وصاحبها في المعنى يقرب من النائب الكافل في زماننا، وهو الذي ينظر في المظالم إذا لم يكن وزيراً صاحب سيف ، فإن كان ثمَّ وزيراً صاحب سيف ، كان هو الذي يجلس للمظالم بنفسه، وصاحبُ الباب من جملة من يقف في خدمته .

الوظيفة الثالثة - (الاسفهلارية) . قال ابن الطوير : وصاحبها زمام كل زمام، وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم، وفي خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم .

الوظيفة الرابعة - (حمل المظلة) في المواسم العظام : كركوب رأس العام ونحوه . وهي من الوظائف العظام، وصاحبها يسمى حامل المظلة، وهو أمير جليل، وله عندهم التقدّم والرفعة : لحمل ما يعلو رأس الخليفة .

الوظيفة الخامسة - (حمل سيف الخليفة) في المواكب التي تحمل فيها المظلة، ويعبر عن صاحبها بحامل السيف .

الوظيفة السادسة - (حمل رُح الخليفة) في المواكب التي تحمل فيها المظلة . وهو رُح صغير يحمل مع الخليفة في المواكب، وصاحبها يعبر عنه بحامل الرُح .

الوظيفة السابعة - (حمل السلاح) حول الخليفة في المواكب . وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبصبيان الركاب الخاص أيضا، وهم الذين يعبر عنهم في زماننا بالسلاح دارية والطبردارية، وكانت عدتهم تزيد على ألفي رجل، ولهم أئسا عشر مقدما، وهم أصحاب ركاب الخليفة، ولهم ثقباء موكلون بمعرفةهم، والأكابر من هؤلاء الركابية تندب في الأشغال السلطانية، وإذا دخلوا عملا كان لهم فيه الصيت المرتفع .

الوظيفة الثامنة - (ولاية القاهرة). وكان لصاحبها عندهم الرتبة الجليلة والحُرمة الوافرة، وله مكان في الموكب يسير فيه .

الوظيفة التاسعة - (ولاية مصر) . وهي دون ولاية القاهرة في الرتبة كما هي الآن، إلا أن مصر كانت إذ ذاك عامرة أهلة، فكان مقدارها أرفع مما هي عليه في زماننا .

النوع الثاني

(وظائف خواص الخليفة من الأستاذين؛ وهي عدة وظائف؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يختص بالأستاذين المحنكين؛ وهي تسع وظائف)

الأولى - (شدة التاج) . وموضوعها أن صاحبها يتولى شدة تاج الخليفة الذي يلبسه في المواكب العظيمة بمثابة اللقاف في زماننا، وله ميزة على غيره بلمسه التاج الذي يعلورأس الخليفة، وكان لشده عندهم ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد، يأتي به في هيئة مستطيلة، ويكون شده بمنديل من لون لبس الخليفة، ويعبر عن هذه الشدة بشدة الوقار كما تقدم .

الثانية - وظيفة (صاحب المجلس). وهو الذى يتولى أمر المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوس العام فى المواعيد، ويخرج إلى الوزير والأمرء بعد جلوس الخليفة على سرير الملك يُعاهمهم بذلك، وينعت (بأمين الملك)، وهو بمثابة أمير خازن دار فى زماننا.

الثالثة - وظيفة (صاحب الرسالة). وهو الذى يخرج برسالة الخليفة إلى الوزير وغيره.

الرابعة - وظيفة (زمام القصور). وهو بمثابة زمام الدور فى زماننا.

الخامسة - وظيفة (صاحب بيت المال). وهو بمثابة الخازن دار فى زماننا.

السادسة - وظيفة (صاحب الدفتر) المعروف بدفتر المجلس. وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لأمر الخلافة.

السابعة - وظيفة (حامل الدواة). وهى دواة الخليفة المتقدم ذكراها، وصاحب هذه الوظيفة يحمل الدواة المذكورة قدامه على السرج ويسير بها فى المواعيد.

الثامنة - وظيفة (زَم الأقراب). وصاحبها يحكم على طائفة الأشراف الذين هم أقراب الخليفة وكلمته نافذة فيهم.

التاسعة - (زَم الرجال). وهو الذى يتولى أمر طعام الخليفة كأستادار الصحبة.

الضرب الثانى

(ما يكون من غير المحنكين، ومن مشهوره وظيفتان)

الأولى - نقابة الطالبين. وهى بمثابة نقابة الأشراف الآن، ولا يكون إلا من

شيوخ هذه الطائفة وأجلهم قدرًا؛ وله النظر فى أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من

الأدعياء، وإذا آرتاب بأحد أخذه بإثبات نَسَبه . وعليه أن يعود مَرَضاهم، ويمشَى في جنائزهم، ويسعى في حوائجهم، ويأخذ على يد المتعدى منهم، ويمنع من الاعتداء، ولا يَقْطَعُ أمرا من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك .

الوظيفة الثانية - (زم الرجال) . وصاحبها يتحدّث على طوائف الرجال والأجناد كرم صبيان الحجّر، وزم الطائفة الآمرية والطائفة الحافظية، وزم السودان وغير ذلك؛ وهو بمثابة مقدم الممالك في زماننا .

الصنف الثاني

(من أرباب الوظائف بمحضرة الخليفة أرباب الأقاليم، وهم على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أرباب الوظائف الدينية، والمشهور منهم ستة)

الأول - (قاضى القضاة) . وهو عندهم من أجل أرباب الوظائف وأعلام شأننا وأرفعهم قدرا . قال ابن الطوير : ولا يتقدم عليه أحد أو يحتمى عليه، وله النظر في الأحكام الشرعية ودور الضرب وضبط عيارها، وربما جُمِعَ قضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب لقاض واحد وكتب له به عهد واحد كما سيأتى في الكلام على الولايات إن شاء الله تعالى .

ثم إن كان الوزير صاحب سيف، كان تقليده من قبله نيابة عنه، وإن لم يكن، كان تقليده من الخليفة،

ويقدم له من إصطبلات الخليفة بغلة شهباء يركبها دائما، وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة، ويخرج له من حُرّانة السروج مركب ثقيل وسرج برادفتين من الفضة، وفي المواسم الأطواق، وتُخلَع عليه الخلع المذهبية، وكان من

مصطلحهم أنه لا يعتدل شاهدا إلا بأمر الخليفة، ولا يحضر إملاكا ولا جازاة إلا بإذن، وإذا كان ثم وزير لا يخاطب بقاضى القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير؛ ويجلس يوم الاثنين والخميس بالقصر أول النهار للسلام على الخليفة، ويوم السبت والثلاثاء يجلس بزيادة الجامع العتيق بمصر، وله طرحة ومسدند للجلوس وكرسى توضع عليه دوائه . وإذا جلس بالمجلس، جلس الشهود حوَالَيْهِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً على مراتبهم فى تقدّم تعديلهم . قال ابن الطوير : حتى يجلس الشاب المتقدّم التعديل أعلى من الشيخ المتأخر التعديل، وبين يديه أربعة موقعون : آثنان مقابل آثنين، وببابه خمسة حُجَّاب : آثنان بين يديه وآثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم . ولا يقوم لأحد وهو فى مجلس الحكم البتة .

الثانى - (داعى الدعاة) . وكان عندهم بلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتربّأ بزیه فى اللباس وغيره . وموضوعه عندهم أنه يقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم .

الثالث - (المحتسب) . وكان عندهم من وجوه العُدُول وأعيانهم، وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرئ سجّله بمصر والقاهرة على المنبر؛ ويده مُطَقَّعة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحِسبة؛ ولا يُحَال بينه وبين مصلحة أرادها؛ ويتقدّم إلى الولاية بالشّد منه، ويقمى الثّواب عنه بالقاهرة ومصر وجميع الأعمال كتنوّاب الحُكْم؛ ويجلس بجامعى القاهرة ومصر يوما بيوم، وباقى أمره على ما الحال عليه الآن .

قلت : ورأيت فى بعض سجّلاتهم إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشرطة بهما أحيانا .

الرابع - (وكالة بيت المال) . وكانت هذه الوكالة لا تُسند إلا لذوى الهيبة من شيوخ العُدُول، ويفوّض إليه عن الخليفة بيع ما يرى بيعه من كل صنف يملك

ويجوز التصرف فيه شرعاً، وعتق المماليك، وتزويج الإماء، وتضمين ما يقتضيه الضمان، وأبتباع ما يرى آتباعه، وإنشاء ما يرى إنشاءه من البناء والمرابك وغير ذلك مما يحتاج إليه في التصرف عن الخليفة .

الخامس - (النائب). والمراد نائب صاحب الباب المتقدم ذكره المعبر عنه في زماننا بالمهمندار . قال ابن الطوير : ويعبر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفة . قال : وهي رتبة جليلة ، يتولاها أعيان العدول وأرباب الأقاليم ؛ وصاحبها ينوب عن صاحب الباب في تلقى الرسل الواردين على الخليفة على مسافة وقفه تواب الباب في خدمته ، ويُتزل كلاً منهم في المكان اللائق به ، ويرتّب لهم ما يحتاجون إليه ، ولا يمكن أحداً من الاجتماع بهم ، ويتولى أفتقادهم ، ويُدكّر صاحب الباب بهم ، ويسعى في تجاز أمرهم ، وهو الذي يسلمّ بهم على الخليفة أو الوزير ويتقدمهم ويستأذن عليهم ، ويدخل الرسول وصاحب الباب قابض على يده اليمنى ، والنائب قابض على يده اليسرى فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم ، ويحتهد في انفصالهم على أحسن الوجوه ، وإذا غاب أقام عنه نائباً إلى أن يعود . ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل مقدمةً ولا طرفةً إلا بإذن .

قال ابن الطوير : وهو المسمى الآن بالمهمندار ، وسيأتي في الكلام على ترتيب المملكة المستقر أن المهمندار الآن من أصحاب السيوف ، وكان ذلك لموافقة الدولة في اللسان والهيئة .

السادس - (القراء) . وكان لهم قراء يقرءون بحضرة الخليفة في مجالسه وركوبه في المواكب وغير ذلك ، وكان يقال لهم "قراء الحضرة" يزيدون في العدة على عشرة نفر ، وكانوا يأتون في قراءتهم في المجالس ومواكب الركوب بآيات مناسبة للحال بأدنى ملابسة ، قد ألفوا ذلك وصار سهل الاستحضر عليهم ، وكان ذلك يقع منهم موقع

الاستحسان عند الخليفة والحاضرين، حتى إنه يحكى أن بعض الخلفاء غضب على أمير فامر باعتقاله، فقرأ قارئ الحضرة: ﴿ خُدِّ الْعَقَوَّ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ فاستحسن ذلك وأطلقه إلا أنهم كانوا ربما أتوا بآيات إذا روعي قصدهم فيها، أخرجت القراءن عن معناه: كما يحكى أنه لما أستوزر المستنصر بدر الجمالى قرأ قارئهم: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ ولما أستوزر الحافظ رضوان قرأ قارئهم: ﴿ يَشْرَهُمْ رَبَّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ ﴾ إلى غير ذلك من الوقائع .

النوع الثانى

(من أرباب الأعلام أصحاب الوظائف الديوانية، وهى على ثلاثة أصرب)

الضرب الأول

(الوزارة إذا كان الوزير صاحب قلم)

أعلم أن أكثر وزراءهم فى ابتداء دولتهم إلى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأعلام: تارة وزارة تامة وتارة وساطة، وهى رتبة دون الوزارة، ومن اشتهر من وزراءهم أرباب الأعلام فيما ذكره ابن الطوير يعقوب بن كلثوم وزير العزيز، والحسن بن عبد الله اليازورى وزير المستنصر، وأبو سعيد التستري، والجرجاني، وابن أبي كدينة، وأبو الطاهر أحمد بن بابشاذ صاحب المقدمة فى النحو، ووزير الوزراء على بن فلاح، والمغربى وزير المستنصر، وهو آخر من وزر لهم من أصحاب الأعلام، وعليه قدم أمير الجيوش بدر الجمالى فوزر للمستنصر على ما تقدم ذكره، وربما تخلل تلك المدة الأولى فى الوساطة أرباب السيوف، كبرجوان الخادم، وقائد القواد الحسين بن جوهر، وثقة ثقات السيف والقلم على بن صالح

كلهم في أيام الحاكم . وربما ولى الوساطة بعض النصارى، كهيسى بن نسطورس في أيام العزيز، ومنصور بن عبّون الملقب بالكافي، وزرعة بن نسطورس الملقب بالشافي كلاهما في أيام الحاكم . وربما كان الأمر شورى في أهل مروادني^(١)؛ وكان من زى وزراءهم أصحاب الأفلام أنهم يلبسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلقهم كالعدول، وينفردون بلبس الدراريح مشقوقة من النحر إلى أسفل الصدر بأزرار وعمرى؛ وهذه علامة الوزارة؛ ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك، ومنهم من تكون أزراره من لؤلؤ؛ وعادته أن تحمل له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفة ويقف بين يديه المّجّاب، وأمره نافذ في أرباب السيوف من الأجناد، وفي أرباب الأفلام .

الضرب الثانى

(ديوان الإنشاء، وكان يتعلق به عندهم ثلاث وظائف)

الأولى - صحابة ديوان الإنشاء والمكاتبات، وكان لا يتولاه إلا أجل كُتاب البلاغة، ويخاطب بالأجل؛ وكان يقال له عندهم كاتب الدست الشريف، وإليه تسلّم المكاتبات الواردة محتومة فيعرضها على الخليفة من يده، وهو الذى يأمر بتزيلها والإجابة عنها؛ ويستشير الخليفة فى أكثر أموره؛ ولا يُجّجب عنه متى قصد المثول بين يديه، وربما بات عنده الليالى، ولا سبيل إلى أن يدخل إلى ديوانه ولا يجتمع بكُتابه أحد إلا خواص الخليفة . وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالخذّ والمسند، ودواته من أخصّ الدوى وأحسنها إلا أنه ليس لها كرسى توضع عليه كدواة قاضى القضاة، ويجملها له أستاذ من الأستاذين المختصين بالخليفة إذا أتى إلى حضرته .

(١) كذا فى الأصل مضبياً عليه إشارة للتوقف ولعله المرويات .

الثانية - (التوقيع بالقلم الدقيق في المظالم) وهي رتبة جليسة تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتب، يكون صاحبها جلسا للخليفة في أكثر أيام الأسبوع في خلوته، يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالى أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين، ويقرأ عليه ملح السيرة، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ويقوى يده في تجويد الخط وغير ذلك. وصحبته للجلوس دواة مُحَلَّاة، فإذا فرغ من المجالسة ألقى في الدواة كأغدة فيها عشرة دنانير، وقِرطاس فيه ثلاثة مثاقيل ندى مثلث خاص ليتخبر به عند دخوله على الخليفة ثانياً دفعة. وإذا جلس الوزير صاحب السيف للمظالم، كان إلى جانبه يوقع بما يأمر به في المظالم. وله موضع من حقوق ديوان المكاتب لا يدخل إليه أحد إلا بإذن، وفراش لتقديم القصاص، ويرفع إليه هناك قصص المظالم فيوقع عليها بما يقتضيه الحال كما يفعل كاتب السر الآن.

الثالثة - (التوقيع بالقلم الجليل). وكان يسمى عندهم الخدمة الصغيرة لجلالتها، ولصاحبها الطراحة والمسند في مجلسه بغير حاجب. وموضوعها الكتابة بتنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق، وبسطه. وصاحب القلم الدقيق في المعنى ككاتب السر أو كاتب الدست في زماننا، وصاحب القلم الجليل ككاتب الدرَج. فإذا رفعت قصص المظالم، حملت إلى صاحب القلم الدقيق فيوقع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من نفسه، ثم تحمل إلى الموقع بالقلم الجليل لبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق، ثم تحمل في خريطة إلى الخليفة فيوقع عليها، ثم تُخْرَج في خريطة إلى الحاجب فيقف على باب القصر، ويسلم كل توقيع لصاحبه. أما توقيع الخليفة بيده على القصاص، فإنه إن كان ثم وزير صاحب سيف وقع الخليفة على القصة بنحطه: "وزيرنا السيد الأجل (ونعته بالمعروف به) أمتنا الله تعالى ببقائه يتقدم بكذا وكذا إن شاء الله تعالى" ويحمل إلى الوزير فإن كان يحسن الكتابة،

كتب تحت خط الخليفة : "أمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه"
 وإن كان لا يحسن الكتابة، كتب أمتثل فقط؛ وإن لم يكن وزيراً صاحب سيف :
 فإن أراد الخليفة نجاز الأمر لوقته، وقَّع في الجانب الأيمن من القصة "يوقَّع بذلك"
 فتخرج إلى صاحب ديوان المجلس فيوقَّع عليها بالقلم الجليل ويحلى موضع العلامة،
 ثم تعاد إلى الخليفة فيكتب في موضع العلامة (يُعتمد) وتُثبت في الدواوين بعد ذلك.
 وإن كان يوقَّع في مساحة أو تسويغ أو تحميس، كتب لرافعها بذلك "وقد أمضينا
 ذلك" وإن أراد علم حقيقة القصة، وقَّع على جانب القصة "ليخرج الحال
 في ذلك" وتعمل إلى الكاتب فيكتب الحال وتعاد إلى الخليفة فيفعل فيها ما أراد
 من توقيع ومنع، والله أعلم .

الضرب الثالث

(ديوان الجيش والرواتب، وهو على ثلاثة أقسام)

الاول - (ديوان الجيش) . ولا يكون صاحبه إلا مُسليماً، وله الرتبة الجليلة
 والمكانة الرفيعة؛ وبين يديه حاجبٌ، وإليه عرض الأجناد وخبولهم، وذكر حلالهم
 وشيآت خبولهم . وكان من شرط هذا الديوان عندهم أن لا يثبت لأحد من الأجناد
 إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين، وليس له تغيير أحد
 من الأجناد ولا شيء من اقطاعهم إلا بمرسوم . وبين يدي صاحب هذا الديوان
 نُقباء الأمراء، يُعرفونه أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور وغير
 ذلك، على ما الحال عليه الآن . وكان قد فسح للأجناد في المقايضة بالإقطاعات لما
 لهم في ذلك من المصالح كما هو اليوم، بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس من غير
 علامة؛ ولم يكن لأمر من أمراءهم بلد كاملة، وإن علا قدره إلا في النادر . ومن
 هذا الديوان كان يعمل أوراق أرباب الجرايات، وله خازنان برسم رفع الشواهد .

الثاني - (ديوان الرواتب) . وكان يشتمل على أسم كل مرتزق في الدولة وجمار وجرية ؛ وفيه كاتب أصيل بطراحة ونحو عشرة معينين ، والتعريفات واردة عليه من كل عملٍ باستمرار من هو مستمر ومباشرة من استجد وموت من مات ، وفيه عدة عروض يأتي ذكرها في الكلام على إجراء الأرزاق والعطاء .

الثالث - (ديوان الإقطاع) . وكان مختصا عندهم بما هو مَقَطَع للأجناد ، وليس للباشيرين فيه تنزيل حلية جُنْدِي ولا شية دابته ، وكان يقال لإقطاعات العُربان في أطراف البلاد وغيرها الاعتداد ، وهي دون عبرة الأجناد .

الضرب الرابع

(نظر الدواوين)

وصاحب هذه الوظيفة هو رأس الكل ، وله الولاية والعزل ، وإليه عرض الأرزاق في أوقات معروفة على الخليفة والوزير ، وله الجلوس بالمرتبة والمسند ؛ وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ؛ وتُخرج له الدواة من خزانة الخليفة بغير كرسى ، وإليه طلب الأموال واستخراجها والمحاسبة عليها ، ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة . قال ابن الطوير : ولم يرفى هذه الوظيفة نصراني إلا الأحرم .

الثانية^(١) - ديوان التحقيق . وموضوعه المقابلة على الدواوين ، وكان لا يتولاه إلا كاتب خبير ، وله الخلع ومرتبة يجلس عليها وحاجب بين يديه ، ويفتقر إليه في كثير من الأوقات ، ويُحق برأس الدواوين المتقدم ذكره .

الثالثة - ديوان المجلس . قال ابن الطوير : وهو أصل الدواوين قديما ، وفيه معالم الدولة بأجمعها ، وفيه عدة كُتَّاب ، وعنده معين أو معينان ، وصاحب هذا الديوان

(١) لم يتقدم له تقسيم ولم يذكر أولى لتكون هذه ثانيها والذي يفهم من المقام أنها وظائف وأن وظيفة نظر الدواوين أولى ونظر ديوان التحقيق ثانية وهكذا تأمل .

هو المتحدّث في الإقطاعات، ويُجَمَّع عليه وينشأ له سجلٌّ بذلك لاحق بديوان النظر، وله دواة تُخْرَج له من خزّانة الخليفة وحاجب يقف بين يديه، وكان يتولاه عندهم أحد كُتّاب الدولة ممن يكون مترشّحاً لأن يكون رأس الدواوين، ويسمى أَسْتِيَارُهُ دفتر المجلس، وهو متضمن للعطاء والظاهر من الرسوم التي تقرّر في غُرة السنة والضحايا، وما ينفق في دار الفِطْرَةِ في عيد الفطر، وفي فتح الخليج والأسمطة المستعملة في رمضان وغيره، وسائر المآكل والمشرب والتشريفات، وما يُطلَق من الأهرام من الغلّات، وما لأولاد الخليفة وأقاربه وأرباب الرواتب على اختلاف الطبقات من المُرتَّب، وما يَرد من الملوك من الهدايا والتحف، وما يَبْعَثُ به إليهم من الملاطفات، ومقادير صلوات الرسل الواردين بالمكاتبات، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من الحريم، ووضبط ما يُنفق في الدولة من المهمّات ليُعَلِّمَ ما بين السنة والأخرى من التفاوت وغير ذلك من الأمور المهمة. وهذا الديوان في زماننا قد تفرّق إلى عدّة دواوين كالوزارة ونظر الخاص والجيش وغيرها.

الرابعة - (ديوان خزائن الكسوة). وكان لها عندهم رتبة عظيمة في المباشرات، وقد تقدّم ذكر حواصلها في جملة الخزائن فيما سبق.

الخامسة - (الطرّاز). وكان يتولاه الأعيان من المستخدمين من أرباب الأقلام، وله اختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين، ومقامه بدمياط وتيّس وغيرهما من مواضع الاستعمالات، ومن عنده تحمل المستعملات إلى خزّانة الكسوة المقدّمة الذكر.

السادسة - (الخدمة في ديوان الأحباس). قال ابن الطوير: وهي أوكد الدواوين مباشرة ولا يُخدم فيها إلا أعيان كُتّاب المسلمين من الشهود المعدلين، وفيها عدّة مدراء^(١)

(١) تقدّم له مثل هذا الجمع في الجزء الأتزل ونهنا عليه.

بسبب أرباب الرواتب ، وكان فيه كاتبان ومعينان لنظم الاستياريات ، ويورد في استياريه كل ما في الرقاع والرواتب ، وما يُحجى له من جهات كل من الوجهين القبلي والبحري .

السابعة - (الخدمة بديوان الرواتب) . وفيه مرتبات الوزير فمن دونه إلى الضوى . قال ابن الطوير : بلغ في بعض السنين ما يزيد على مائة ألف دينار ونحوها من مائتي ألف ، ومن القمح والشعير عشرة آلاف إردب ، وكان استياري الرواتب يعرض في كل سنة على الخليفة فيزيد من يزيد ، وينقص من ينقص ، وإنه عرض سنة على المستنصر بالله فلم يعترض أحدا من المرتبين بنقص ، ووقع على ظاهر الاستياري بخطه "القمير المذاق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم بإدرار الأرزاق ، فليجروا على رسومهم في الإطلاق ، ما عندكم ينفذ ، وما عند الله باق" وأمر ولي الدولة ابن خيران كاتب الإنشاء بإمضاء ذلك .

الثامنة - (الخدمة في ديوان الصعيد) من الصعيد الأعلى والصعيد الأدنى . وكان فيه عدة كُتاب فروع ، والاستيفاء مقسوم بينهم ، وسليهم عمل التذاكر بطلب ما تأخر من الحساب . وصاحب هذا الديوان يترجمها بخطه ، ويحملها إلى صاحب الديوان الكبير فيوقع عليها بالاسترفاع ، ويندب لها من الحجاب أو غيرهم من يراه ، وله مياومة يأخذها من المستخدمين مدة بقائه عندهم ويحضرها نسخا للتواوين الأصول .

التاسعة - (الخدمة في ديوان أسفل الأرض) . وهو الوجه البحري خلا الثغور ، وحكمه فيما تقدم من الكُتاب وما يلزم كلا منهم حكم ديوان الصعيد المتقدم الذكر من غير فرق .

العاشرة - (الخدمة في ديوان الثغور) . وهي الإسكندرية ودمياط وسائرهما والبرلس والفرما ، وحكمه ما تقدم من ديوان الصعيد وأسفل الأرض .

الحادية عشرة - (الخدمة في الجوالى والمواريث الحشرية). قال ابن الطوير: كان لا يتولاه إلا عدل، وفيه جماعة من الكُتَّاب على ما تقدم في غيره من الدواوين أيضا .
الثانية عشرة - (الخدمة في ديوانى الخراجى والهلالي) وتجرى فيه الرباع والمكوس وعليه حوالات أكثر المرتفقين .

الثالثة عشرة - (الخدمة في ديوان الكراع). وفيه معاملة الإصطبلات، وما فيها من الدواب الخاص وغيرها والبغال والجمال ودواب المرمّة المُرصدة للعمائر ورباع الديوان، وُعِدَد ذلك وآلاته، وعلوفات ذلك مع ما ينضم إليه من علوفة الفيلة والزرايف^(١) والوحوش وراتب من يخدمها. وكان في هذا الديوان كاتباً أصل ومستوفى ومعينان .
الرابعة عشرة - (الخدمة في ديوان الجهاد). ويقال له ديوان العمائر، وكان محله بالصّناعة بمصر، وفيه إنشاء المراكب للأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها، ومنه يُنْفَق على رؤساء المراكب ورجالها، وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه أستُدعى له من بيت المال بما يكفيه .

الصنف الثالث من أرباب الوظائف

(أصحاب الوظائف الصناعية)

وأعظمها وظائف الأطباء، وكان للخليفة طيب يُعرف بطبيب الخاص يجلس على باب دار الخليفة كل يوم، ويجلس على الدكك التي بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونه أربعة أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتب لهم رقاعا على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها، وتبقى الرقاع عند مباشرها شاهدا لهم . ولكل منهم الجارى والراتب على قدره .

(١) لم نعر على هذا الجمع في كتب اللغة ولعله جرى العامة في تعبيراتهم .

الصف الرابع

(الشعراء)

وكانوا جماعة كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره، وكان منهم أهل سنة لا يغفلون في المديح، وشيعة يغفلون فيه. فمن أحسن مدح فيهم لسنى قول عمارة التيمي رحمه الله:
 أَفَاعِيلُهُمْ فِي الْجُودِ أَفْعَالُ سُنَّةٍ * وَإِنْ خَالَفُونِي فِي أَعْتَادِ التَّشْيِيعِ

ومن الذى وقعت فيه المغالاة قول بعضهم :

هَذَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَجْلِسُ * أَبْصَرْتُ فِيهِ الْوَحَى وَالتَّنْزِيلَ

وَإِذَا تَمَثَّلَ رَأْسُ بَابِي مَوْكِبٍ، * عَايَنْتُ تَحْتِ رِكَابِهِ جِبْرِيَلَا

قلت : وهذه المغالاة من المغالاة الفاحشة التى لا يجوز الإقدام عليها لسنى ولا متشيع، وإنما هى من اقتحام الشعراء البوائق .

القسم الثانى

(من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ما هو خارج

عن حضرة الخلافة، وهو صنفان)

الصف الأول

(التواب والولاة)

وأعلم أن مملكتهم كانت قد (١) فى ثلاث ممالك فيها توابهم وولايتهم .

المملكة الأولى الديار المصرية، وهى التى كانت قد استقرت قاعدة ملكهم، ومحط رحلم، وكان بها أربع ولايات .

الأولى - ولاية قوص . وكانت هى أعظم ولايات الديار المصرية، وواليتها يحكم على جميع بلاد الصعيد، وربما ولى بالأشمونين ونحوها من يكون دونه .

(١) بياض بالأصل ولعله "أنحصرت" كما يفهم من سياق كلامه .

الثانية - ولاية الشَّرْقِيَّة . وكانت دون ولاية قُوَصَ في الرتبة، وكان متوليها يحكم على عمل بُلْبَيْسَ وعمل قَلْيُوبَ وعمل أَشْمُومَ .

الثالثة - ولاية الغَربِيَّة . وكانت دون ولاية الشرقية في المرتبة ، وكان متوليها يحكم على عمل المَحَلَّةَ ، وعمل مَنُوفَ ، وعمل أبيار .

الرابعة - ولاية الإسْكَندَرِيَّة . وهى دون الغربية في الرتبة، وكان متوليها يحكم على أعمال البحيرة بأجمعها .

قال ابن الطوير : وهؤلاء الأربعة كان يُجَلِّعُ عليهم من خزانة الكُسُوة بالبدنة، وهو النوع الذى يلبسه الخليفة في يوم فتح الخليج .

قلت : لعل هذه الولايات الأربع ولايات الولاية التى تدخل تحت حكمها الولايات الصَّغار، أو تكون هى التى آسَفتَرَّ عليه الحال في آخر دولتهم ، وإلا فقد رأيت في تذكرة أبي الفضل الصورى^(١) : أحد كُتَّاب الإنشاء في أيام القاضى الفاضل سِجَلاتٍ كثيرةً لولاية الوجهين القبلي والبحري .

الجملة الخامسة

(من ترتيب مملكتهم، وفي هيئة الخليفة في مواكبه وقصوره، وهى على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(جلوسه في المواكب ، وله ثلاثة جلوسات)

الجلوس الأول

(جلوسه في المجلس العام أيام المواكب)

وأعلم أن جلوس الخليفة أولاً كان بالإيوان الكبير الذى كان بالقصر على سرير المُلْك الذى كان بصدرة إلى آخر أيام المستعلى . فلما ولى أبته الأمر الخلافة بعده ،

(١) لم يذكر بقية الممالك الثلاث أقتصاراً على المقصود وسأنى ذكر البقية في الجزء الرابع .

نقل الجلوس من الإيوان الكبير إلى القاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر أيضا ،
وصار يجلس من مجالسها على سرير الملك به ، وجعل الإيوان الكبير خزانةً للسلح ،
ولم يتعرض لإزالة سرير الملك منه حتى جاءت الدولة الأيوبية ، وهو باق ،
وكان جلوس الخليفة في هذه الحالة لا يتعدى يومى الاثنين والخميس ، وليس ذلك
على الدوام بل على التقرير بحسب ما تقتضيه الحال . فإذا أراد الجلوس فإن كان
في الشتاء علق المجلس الذى يجلس فيه بستور الديباج ، وفرش بالبسط الحرير ، وإن كان
في الصيف ، علق بالستور الديبقيه وفرش بطبرى طبرستان المذهب الفائق ، وهيئت
المرتبة المعدة لجلوسه على سرير الملك بصدر المجلس ، وغشى السرير بالقرقوونى ،
ثم استدعى الوزير من داره بصاحب الرسالة على حصان رهوان فى أسرع حركة على
خلاف الحركة المعتادة ، فيركب الوزير فى هيئته وجماعته وبين يديه الأمراء ،
فإذا وصل إلى باب القصر ترجل الأمراء ، وهو راكب إلى أول باب من الدهاليز
الطوال عند دهليز يعرف بدھليز العمود ، ويمشى وبين يديه أكابر الأمراء إلى مقطع
الوزارة بقاعة الذهب ، فإذا تهيأ جلوس الخليفة ، استدعى الوزير من مقطع الوزارة إلى
باب المجلس الذى فيه الخليفة وهو معلق ، وعلى بابهِ ستر معلق ، فيقف زمام القصر
عن يمين باب المجلس وزمام بيت المال عن يساره ، والوزير واقف أمام باب المجلس
وحوايه الأمراء المطوقون وأرباب الخدم الخليفة ، وفى خلال القوم قراء الحضرة ،
ويضع صاحب المجلس الدواة مكانها من المرتبة أمام الخليفة ، ثم يخرج كم من أكمامه
يعرف بفرد الكم ويشير إلى زمام القصر وزمام بيت المال الواقفين بباب المجلس ،
فيرفع كل منهما جانب الستر فيظهر الخليفة جالسا على سرير الملك مستقبل القوم
بوجهه ، ويستفتح القراء بالقرآن ، ويدخل الوزير المجلس ويسلم بعد دخوله ،
ثم يقبل يدي الخليفة ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية ،

ثم تُخْرَج له مَحْدَةٌ عن الجانب الأيمن من الخليفة ويؤمر بالجلوس إليها ، ويقف
الأمرء في أماكنهم المقررة لهم فصاحب الباب وأسفهلار من جانبي الباب
يمينا ويسارا ، ويليه من خارجه ملاصقا للعتبة زمام الأمرية والحافظية وباقي الأمرء
على مراتبهم إلى آخر الرواق ، وهو إفريزعالٍ عن أرض القاعة ، ثم أرباب القصب
والعماريات يمينًا ويسرة كذلك ، ثم الأمانل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة ،
ويقف مستندا بالقدر الذي يقابل باب المجلس توابُ الباب والحجاب ، فإذا انتظم
الأمر على ذلك ، فأقول مائل للخدمة بالسلام قاضي القضاة والشهود المعروفون
بالاستخدام فيجيز صاحبُ الباب القاضى دون من معه فيسلم على الخليفة بأدب
الخلافة ، بأن يرفع يده اليمنى ويشير بالمسبحة ، ويقول بصوت مسموع : ” السلام
على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ” يتخصص بهذا الكلام دون غيره من أهل
السلام ، ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامهم ، وبالأشراف الطالبين نقيهم ، فتمضى
عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاث ، ثم يسلم عليه من حُلَع عليه بقوص أو الشرقية
أو الغربية أو الإسكندرية ، ويشرفون بتقبيل العتبة ، وإذا دعت حاجة الوزير
إلى مخاطبة الخليفة في أمر ، قام من مكانه وقرب منه منحنياً على سيفه ، ويخاطبه
مرة أو مرتين أو ثلاثا ، ثم يؤمر الحاضرون بالانصراف فينصرفون ، ويكون آخرهم
خروج الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله . فإذا خرج إلى الدهليز الذى ترجل فيه ،
ركب منه إلى داره ، وفي خدمته من حضر في خدمته إلى القصر ، ويدخل الخليفة
إلى سكنته مع خواص الأستاذين ، ثم يُغلق باب المجلس ويرنخى الستر إلى أن يحتاج
إلى حضور موكب آخر فيكون الأمر كذلك .

الجلوس الثاني

(جلوسه للقاضي والشهود في ليالي الوقود الأربع من كل سنة)

وهي : ليلة أول رجب ، وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان ، وليلة نصفه .
إذا مضى النصف من جمادى الآخرة حمل إلى القاضي من حواصل الخليفة ستون شمعة ، زنة كل شمعة منها سدس فنطار بالمصرى ليركب بها في أول ليلة من شهر رجب ؛ فإذا كان أول ليلة منه جلس الخليفة في منظره عالية كانت عند باب الزمرد من أبواب القصر المتقدم ذكره ، وبين يديه شمع يوقد في العلوتيين شخصه على ارتفاعه . ويركب القاضي من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشمع المحمول إليه من حراثة الخليفة موقودا ، من كل جانب ثلاثون شمعة ، وبين الصفيين مؤذنون الجوامع ، يعلنون بذكر الله تعالى ، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقرر محفوظ ، ويحجبه ثلاثة من نواب الباب ، وعشرة من حجاب الخليفة ، خارجا عن حجاب الحكم المستقرين وهم خمسة في زى الأمراء ، وفي ركابه القراء يقرءون القرآن ، والشهود وراءه على ترتيب جلوسهم يجلس الحكم الأقدم فالأقدم ، وحول كل منهم ثلاث شمعات أو شمعتان أو شمعة واحدة إلى بين القصرين في جمع عظيم حتى يأتى باب الزمرد من أبواب القصر ، فيجلسون في رحة تحت المنظره التي فيها الخليفة ، ويحضر بين يديه بسمة ووقار وتشوف لا تتظار ظهور الخليفة ، فيفتح الخليفة إحدى طاقات المنظره فيظهر منها رأسه ووجهه ، وعلى رأسه عدة من خواص الأستاذين من المحنكين وغيرهم ، فيفتح بعض الأستاذين طاقة أخرى فيخرج منها رأسه ويده اليمنى ، ويشير بكمه قائلا : " أمير المؤمنين يرد عليكم السلام " فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، وبصاحب الباب بعده كذلك ، وبالجماعة الباقية جملة من غير تعيين أحد ؛ ويستفتح قراء الحضرة بالقراءة وهم قيام في الصدر ، ظهورهم

إلى حائط المنظرّة ووجوههم للحاضرين . ثم يتقدم خطيب الجامع الأنور (وهو الذى بباب البحر) فيخطب كما يخطب فوق المنبر ، وينبه على فضيلة ذلك الشهر ، وأن ذلك الركوب علامته ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة ؛ ثم يتقدم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك ؛ ثم يتقدم خطيب جامع الحاكم فيخطب كذلك ، والقراء فى خلال تلك الخطب يقرءون ، فإذا آتته خطابة الخطباء ، أخرج الأستاذ الأول يده من تلك الطاقة فيرد على الجماعة السلام ؛ ثم تغلق الطاقان وينفض الناس ، ثم يركب القاضى والشهود إلى دار الوزير فيجلس لهم ليسانوا عليه ، ويخطب الخطباء الثلاثة عنده بأخف من مقام الخليفة ويدعون له ، ثم ينصرفون ويذهب القاضى والشهود صحبته إلى مصر ، وإلى القاهرة فى خدمته ، ويمر بجامع ابن طولون فيصلّى فيه ويخرج منه فيجد وإلى مصر فى تلقّيه فيمضى فى خدمته ، ويمر على المشاهد فيترك بها ، ويمضى إلى الجامع العتيق ويدخل من باب الزيادة التى يحكم فيها فيصلّى فى الجامع ركعتين ، ويؤقده التنور الفضة الذى بالجامع ، وهو تتور عظيم حسن التكوين فيه نحو ألف وخمسمائة براقّة ، وبسفله نحو مائة قنديل ؛ ثم يخرج من الجامع فإن كان ساكنا بمصر استقر بها ، وإن كان ساكنا بالقاهرة آتتظره إلى القاهرة فى مكانه حتى يعود من مصر فيذهب فى خدمته إلى داره .

وكذلك يركب فى ليلة الخامس عشر من رجب إلا أنه بعد صلّاته فى جامع مصر يتوجه إلى القرافة فيصلّى فى جامعها ؛ ثم يركب فى أول شعبان كذلك ؛ ثم فى نصفه كذلك .

الجلوس الثالث

(جلوسه فى مولد النبي صلى الله عليه وسلم فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول)
وكان عادتهم فيه أن يعمل فى دار الفطرة عشرون قنطارا من الشكر الفائق حلوى من طرائف الأصناف ، وتعبى فى ثلاثمائة صينية نحاس . فإذا كان ليلة ذلك المولد ،

تفرّق في أرباب الرسوم : كقاضى القضاة، وداعى الدعاة، وقراء الحضرة، والخطباء، والمتصدّرين بالجموع بالقاهرة ومصر، وقومة المشاهد وغيرهم ممن له اسم ثابت بالديوان، ويجلس الخليفة في منظره قريبة من الأرض مقابل الدار القطيعة المتقدمة الذكر (وهى البيمارستان المنصوريّ الآن) ثم يركب القاضى بعد العصر ومعه الشهود إلى الجامع الأزهر ومعهم أرباب تفرقة الصواني المتقدمة الذكر، فيجلسون في الجامع مقدار قراءة الختمة الكريمة، وتُسدّ الطريق تحت القصر من جهة السيوفين وسويقة أمير الجيوش، ويكنس ما بين ذلك ويرش بالماء رشاً، ويرش تحت المنظره بالرمل الأصفر، ويقف صاحب الباب ووالى القاهرة على رأس الطرّق لمنع المارة، ثم يستدعى القاضى ومن معه فيحضرون ويتجلّون على القرب من المنظره ويحتمعون تحتها وهم متشفون لانتظار ظهور الخليفة، فيفتح إحدى طاقات المنظره فيظهر منها وجهه، ثم يُخرج إحدى الأستاذين المحنكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يردّ عليكم السلام، ويقرأ القراء ويخطب الخطباء كما تقدّم في ليلى الوقود فإذا أنتهت خطابة الخطباء، أخرج الأستاذ يده مشيراً برّد السلام كما تقدّم، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس إلى بيوتهم، وكذلك شأنهم في مولد على بن أبى طالب كرم الله وجهه الخاص في أوقات معلومة عندهم من السنة .

الضرب الثانى

(ركوبه فى المواكب، وهو على نوعين)

النوع الأول

(ركوبه فى المواكب العظام، وهى ستة مواكب)

الموكب الاول

(ركوب أول العام)

وكان من شأنهم فيه أنه إذا كان العشر الآخر من ذى الحجة من السنة، وقع

الأهتمام بانحراج ما يحتاج إليه في المواكب من حواصل الخليفة : فيُخْرَج من خزائن السلاح ما يحمله الرُكَّابية وغيرهم حول الخليفة كالصَّامم ، والدَّبَّابيس ، والثُّنُوت ، وعمد الحديد ، والسيوف ، والدَّرَق ، والرماح ، والألوية ، والأعلام . ومن خزانة التَّجْمَل برسم الوزير والأمراء وأرباب الخِدْمِ الألوِيَّة والقُضْب ، والعماريات ، وغير ذلك مما تقدّم ذكره . ومن الإصطبلات مائةُ فرس مسوِّمة برسم ركوب الخليفة وما يجنبه . ويُخْرَج من خزانة السروج مائةُ سرج بالذهب والفضة مرصَّع بعضها بالجواهر بمراكب من ذهب ، وفي أعناق الخيل أطواق الذهب وقلائد العنبر ، وفي أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة مسطحة ، قيمة كل فرس وما عليها من العتة ألف دينار ، يُدْفَع للوزير منها عشرة بعثتها برسم ركوبه وركوب أخصَّائه ، وتسلم إلى المناخات أغشية العماريات لتحمل على الجمال ، إلى غير ذلك من الآلات المستعملة في المواكب مما تقدّم ذكره في الكلام على الخزائن ، ويُبْعَث إلى أرباب الخِدْم من الإصطبلات بخيول عادية ليركبوها في الموكب . فإذا كان يوم التاسع والعشرين من ذي الحجة ، آستدعى الخليفة الوزير من داره على الرسم المعتاد في الإسراع ، فإذا عاد صاحبُ الرسالة من آستدعاء الوزير ، خرج الخليفة من مكانه راكبا في القصر ، فينزل في السِدِّي ، بدهليز باب الملك الذي فيه الشباك ، وعليه ستر من ظاهره ، فيقف من جانبه الأيمن زِمَامُ القصر ، ومن جانبه الأيسر صاحبُ بيت المال ، ويركب الوزير من داره وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلى باب القصر تَرَجَّل الأمراء وهو راكب ، ويدخل من باب العيد ، ولا يزال راكبا إلى أول باب من الدهاليز الطَّوال ، فينزل ويمشي فيها وحواليه حاشيته ومن يُرأه من أولاده وأقاربه . فإذا وصل إلى الشباك ، وجد تحته كرسيًا كبيرًا من حديد فيجلس عليه ورجلاه تَطَأ الأرض ، فإذا جلس ، رفع كلُّ من زمام القصر وصاحب بيت المال

الستر من جانبه فيرى الخليفة جالسا على مرتبة عظيمة ، فيقف ويسلم ويخدم بيده في الأرض ثلاث مرّات ، ثم يؤمر بالجلوس على كرسية فيجلس . ويستفتح القراء بقراءة آيات لائقة بذلك المكان مقدار نصف ساعة ؛ ثم يسلم الأمراء ، ويُشرع في عرض خيول الخاص المقدم ذكرها واحدة واحدة إلى آخرها . فإذا تكمل عرضها ، قرأ القراء ما يناسب ختم ذلك المجلس . فإذا فرغوا أُرْجى السترو قام الوزير فدخل عليه فقبل يديه ورجليه ، ثم ينصرف عنه فيركب من مكان نزوله ويخرج الأمراء معه إلى خارج فيمضون معه إلى داره رُكباناً ومشاة على حسب مراتبهم . فإذا صلى الخليفة الظهر ، جلس لعرض خزانة الكسوة الخاص وتعيين ما يلبس في ذلك الموكب ولباسه فيه ، فيعين مندبلاً لشدّ التاج ، وبدلةً من هذا النوع ، والجوهرة الثمينة وما معها من الجواهر المتقدمة الذكر لشدّ التاج وتشدّ مظلة تشبه تلك البدلة ، وتلف في مندبيل ديبقى فلا يكشفها إلا حاملها عند ركوب الخليفة ، ثم يشدّ لواءى الحمد المتقدمى الذكر . فإذا كان أول يوم من العام ، بكرّ أرباب الرتب من ذوى السيوف والأقلام فلا يُصبح الصبح إلا وهم بين القصرين منتظرين ركوب الخليفة (وهو يومئذ فضاء واسع خال من البناء) ويبكر الأمراء إلى دار الوزير ليركبوا معه ، فيخرج من داره ويركب إلى القصر من غير استدعاء وأمامه ماشرفه به الخليفة من الألوية والأعلام ، والأمراء بين يديه ركبانا ومشاة ، وأولاده وإخوته قدامه ، وكل منهم مرئى الذؤابة بلا حنك ، وهو في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والمندبيل والحنك متقلدا بالسيف الذهب . فإذا وصل إلى باب القصر ، ترجل الأمراء ودخل هورا بجا إلى محل نزوله بدهانز القصر المعروف بدهانز العمود فيترجل هناك ويمشى في بقية الدهانز حتى يصل إلى مقطع الوزارة بقاعة الذهب هو وأولاده وإخوته وخواص حاشيته ، ويجلس الأمراء بالقاعة على ديك معدة لهم ،

ويُدخَلُ فرسُ الخليفة إلى باب المجلس الذي هو فيه، وعلى باب المجلس كرسىٌ يركب من عليه . فإذا آستوت الدابة إلى ذلك الكرسى، أُخرجت المظلة إلى حاملها فيكشفها مما هي ملفوفة فيه ويتسلمها بإعانة أربعة معدين لخدمتها فيركبها في آلة من حديد تشبه القرن المصطحب مشدودة في ركاب حاملها الأيمن بقوة، ويمسك العمود بحاجز فوق يده؛ ثم يخرج السيف فيتسلمه حامله . فإذا تسلمه أرخى ذؤابتهُ فلا تزال مرخاة مادام حامله له، ثم تُخرج الدواة فيتسلمها حاملها ويجعلها قدامه بينه وبين السرج، ثم يخرج الوزير عن المقطع وينضم إليه الأمراء ويقفون إلى جانب فرس الخليفة، ويرفع صاحب المجلس الستر فيخرج من كان عند الخليفة للخدمة من الأستاذين، ويخرج الخليفة في أثرهم في ثيابه المختصة بذلك اليوم وعلى رأسه التاج الشريف والذرة اليمية على جبهته، وهو مُحَنَكٌ من نحي الذؤابة مما يلي جانبه الأيسر متقلد بالسيف العربي وقضيبُ المُلْكُ بيده، ويسلم على الوزير قوم مرتبون لذلك، ثم على القاضي وعلى الأمراء بعدهما، ثم يخرج الأمراء وبعدهم الوزير فيركب ويقف قبالة باب القصر، ويخرج الخليفة راكبا وفرسه ماشيةً على بسط خشية أن تترقى على الرخام والأستاذون حوله . فإذا قارب الباب وظهر وجهه، ضرب رجلٌ ببوقٍ لطيف موعج الرأس متخذ من الذهب يقال له الغربية مخالفا لصوت الأبواق، فتضرب البوقات في الموكب، وتُنشَرُ المظلة، ويخرج الخليفة من باب القصر فيقف وقفه يسيرة بمقدار ركوب الأستاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا في الخدمة بالقاعة، ثم يسير الخليفة في الموكب وصاحبُ المظلة على يساره، وهو يحرص أن لا يزول ظلها عن الخليفة، ثم يكتنف الخليفة مقدمو صبيان الركاب، آثنان منهم في شكمتي لحام فرسه، وآثنان في عنق الفرس من الجانبين، وآثنان في ركابه من الجانبين أيضا، والأيمن منهما هو صاحب المقرعة

الذى يناولها للخليفة ويتناولها منه، وهو الذى يؤدى عن الخليفة مدة ركوبه الأوامر والنواهي، واللواءان المعروفان بلواءى الحمد عن جانبيه، والمِدْبَتَانِ عند رأس فرس الخليفة، والركابية يمينه وشماله نحو ألف رجل مقلدو السيوف مشدودو الأوساط بالمناذيل والسلاح، وهم من جانبي الخليفة كالجناحين الماتين، بينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد، وبالقرب من رأسها الصقليان الحاملان للذبتين، وهما مرفوعتان كالنخلتين. (ويترتب الموكب): أجناد الأُمراء وأولادهم وأخلاق العسكر أمام الموكب وأدوان الأُمراء يلونهم، وبعدهم أرباب القُضْبِ الفضة من الأُمراء، ثم أرباب الأطواق منهم، ثم الأستاذون المحنكون، ثم أهل الوزير المتقدم ذكرهم، ثم الحاملان للواءى الحمد من الجانبين، ثم حامل الدواة وحامل السيوف بعده، وهما من الجانب الأيسر، وكل واحد من تقدم ذكره بين عشرة إلى عشرين من أصحابه، ثم الخليفة بين الركابية، وهو سائر على تُودَّةٍ ورفقٍ، وفي أوائل العسكر ومتقدميه وإلى القاهرة ذاهبا وعائدا لفسح الطرقات وتسيير من يقف، وفي وسط العسكر أسفهلار يُمَحُّ الأجناد على الحركة ويزجر المتراحمين والمعترضين في العسكر ذاهبا وعائدا، وفي زمرة الخليفة صاحب الباب لترتيب العسكر وحراسة طرقات الخليفة ذاهبا وعائدا، يليق صاحبُ الباب أسفهلاراً، وأسفهلارٌ يلقى وإلى القاهرة، وفي يد كل منهم دبوس، وخلف الخليفة جماعة من الركابية لحفظ أعقابه، ثم عشرة يحملون عشرة سيوف في خرائط ديباج أحمر وأصفر يقال لها سيوف الدم يرسم ضرب الأعناق، وبعدهم الحاملون للسلاح الصغير المتقدم الذكر، ووراء الوزير في هيئة عظيمة، وفي ركابه نحو خمسمائة رجل ممن يختاره لنفسه من أصحابه، وقوم يقال لهم صبيان الزرد من أقوياء الأجناد من جانبيه بفرجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة مجتهداً أن لا يغيب الخليفة عن نظره، وخلفه الطبول والصُّنوج والصفافير في عدة

كثيرة تَدْوِي من أصواتها الدنيا، ووراء ذلك حاملُ الرمحِ المقدم ذكره والدرقة المنسوبة إلى حمزة، ثم رجال الأساطيل مشاةً ومعهم القسيّ العربية، وتسمى قسيّ الرّجل والركاب، ما يزيد على خمسمائة رجل؛ ثم طوائف الرجال من المصامدة، ثم الریحانية والجیوشية، ثم الفرنجية، ثم الوزيرية: زمرةٌ بعد زمرةٍ في عدّة وافرة تزيد على أربعة آلاف؛ ثم أصحاب الرايات والسبعين، ثم طوائف العساكر: من الآمرية والحافظية والمجرية الكبار والمجرية الصغار والأفضلية والجیوشية، ثم الأتراك المصطعون، ثم الديلم، ثم الأكراد، ثم الغزّ المصطعة وغيرهم ما يزيد على ثلاثة آلاف فارس .

قال ابن الطوير: وهذا كله بعضٌ من كلِّ . وإذا ترتب الموكب على ذلك، سار من باب القصر الذي خرج منه بين القصرين، يسير بموكبه حتى يخرج من باب النصر ويصل إلى حوض كان هناك يعرف بعز الملك على القرب من باب النصر، ثم يعطف على يساره طالبا باب الفتوح، وربما عطف عند خروجه من باب النصر على يساره، وسار بجانب السور حتى يأتي باب الفتوح فيدخل منه . وكيف كان فإنه يدخل منه، ويسير الموكب حتى ينتهي بين القصرين فيقف العسكر هناك على ما كان عليه عند الركوب ويترجل الأمراء . فإذا آتته الخليفة إلى الجامع الأقر، وقف هناك في جماعته وينفرج الموكب للوزير فيتحرك مسرعا ليصير أمام الخليفة .

فإذا مرّ بالخليفة، سَكَح له سَكعة ظاهرة، فيشير الخليفة بالسلام عليه إشارة خفيفة، وهذه أعظم كرامة تصدر من الخليفة، ولا تكون إلا للوزير صاحب السيف .

فإذا جاوز الوزير الخليفة، سبقه إلى باب القصر ودخل راجعا على عادته والأمراء أمامه مشاةً إلى الموضع الذي ركب منه بدلهيز العمود المقدم ذكره، فيترجل هناك ويقف هو والأمراء لانتظار الخليفة . فإذا آتته الخليفة إلى باب القصر، ترجل الأستاذون المجنكون ودخل الخليفة القصر وهو راكب والأستاذون مُحدقون به .

فإذا أتمى إلى الوزير، مشى الوزير أمام وجه فرسه إلى الكرسي الذي ركب من عليه فيخدمه الوزير والأمرء، وينصرفون ويدخل الخليفة إلى دُوره . فإذا خرج الوزير إلى مكان تَرجله ركب ، والأمرء بين يديه ، وأقاربه حواليه إلى خارج باب القصر، فيركب منهم من يستحق الركوب، ويمشى من يستحق المشى، ويسرون في خدمته إلى داره، فيدخل راكبا وينزل على كرسي فيخدمه الجماعة وينصرفون ، وقد رأى الناس من حسن الموكب ما أبهجهم وراق خواطرهم ، ويتفرق الناس إلى أماكنهم فيجدون الخليفة قد أرسل إليهم العزة : وهي دنانير بأعية ودراهم خفاف مدقورة، ويكون الخليفة قد أمر بضرها في العشر الأخير من ذى الحجة برسم التفرقة في هذا اليوم، لكل واحد من الوزير والأمرء وأرباب المراتب من حملة السيوف والأقلام قدر مخصوص من ذلك، فيقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة، ويكتب إلى البلاد والأعمال مَخَلَّقات بالبشائر بركوب أول العام كما يكتب بوفاء الليل وركوب الميدان الآن .

الموكب الثاني

(ركوب أول شهر رمضان)

وهو قائم عند الشيعة مقام رؤية الهلال ، والأمر في العرض واللباس والآلات والركوب والموكب وترتيبه والطرق المسلوكة على ما تقدم في أول العام من غير فرق، ويكتب فيه المَخَلَّقات بالبشائر كما يكتب في أول العام .

الموكب الثالث

(ركوبه في أيام الجمع الثالث من شهر رمضان)

وهي الجمعة الثانية [والثالثة ^(١) والرابعة] ، وذلك أنه إذا ركب إلى الجامع الأنور بباب البحر، بكر صاحب بيت المال إلى الجامع بالقرش المختص بالخليفة مجولا

(١) الزيادة ليست بالأصل ، ولكن سياق كلامه يدل عليها .

على أيدي أكابر الفَرَّاشين ملفوفا في العَرَّاضِي الدبقيّة ، فيفَرَّشُ في المحراب ثلاث طَرَاحات إما شاميات ، وإما دَبِيق أبيض ، منقوشة بالجمرة ، وتَفَرَّش واحدة فوق واحدة ، ويعلّق ستران يَمَنَّةً وَيَسْرَةً ، في السترا الأيمن مكتوب برقم حرير أحمر سورةُ الفاتحة وسورةُ الجمعة ، وفي السترا الأيسر سورةُ الفاتحة وسورةُ المنافقين كتابةً واضحة مضبوطة ، ويصعد قاضي القضاة المنبر ، وفي يده مِدْحَنَة لطيفة خَيْرَان يُحَضِّرُهَا إليه صاحبُ بيت المال وفيها نَدٌّ مثلث لا يشم مثله إلا هنالك ، فيبخر ذرّوة المنبر التي عليها القنّا كالتبسة لجلوس الخليفة للخطابة ثلاث دَفَعَات ، ويركب الخليفة في هيئة ما تقدّم في أوّل العام وأوّل رمضان : من المِظَلَّة والآلات ، ولباسه فيه الثياب البياض غير المُدْهَبَة توقيرا للصلاة ، والمِنْدِيل والطيلسان المقوّر . وحول ركابه خارج الركابية قراء الحاضرة من الجنّين يرفعون أصواتهم بالقراءة نوبةً بعد نوبة من حين ركوبه من القصر إلى حين دخوله قاعة الخطّابة ، فيدخل من باب الخطّابة فيجلس فيها ، وإن احتاج إلى تجديد وضوء فعل ، وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب وأسفهلار وصبيان الخاص ، وغيرهم ممن يجرى مجراهم من أوّلها إلى آخرها ، وكذلك من داخلها من باب خروجه إلى المنبر . فإذا أذن للجمعة دخل إليه قاضي القضاة ، فقال : "السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضي الخطيب ورحمة الله وبركاته ، الصلاة يرحمك الله" فيخرج ماشيا وحواليه الأستاذون المحنكون والوزير وراءه ، ومن يليهم من الأمراء من صبيان الخاص ، وبأيديهم الأسلحة حتى ينتهي إلى المنبر فيصعد حتى يصل إلى الدّروة تحت القبة المُبَخَّرَة ، والوزير على باب المنبر ووجهه إليه . فإذا استوى جالسا أشار إلى الوزير بالصعود فيصعد إلى أن يصل إليه ، فيقبلُ يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزّر عليه تلك القبة وتصير كاهودج ، ثم ينزل مستقبلا للخليفة ويقف ضابطا للمنبر . فإن لم يكن وزير صاحب

سيف ، كان الذى يزرُّ عليه قاضى القضاة ، ويقف صاحب الباب ضابطاً للنبر ، فيخطب خطبة قصيرة من سَفَط يأتى إليه من ديوان الإنشاء ، ويقرأ فيها آية من القرآن الكريم ، ثم يصلى فيها على أبيه وجدته يعنى النبى صلى الله عليه وسلم ، وعلى ابن أبى طالب كرم الله وجهه ، ويعظُّ الناسَ وعظًّا بليغاً قليلَ اللفظ ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه فيقول : ” اللهم وأنا عبدك وابن عبدك لا أم لك لنفسى ضرًّا ولا نفعاً “ ويتوسل بدعوات نخمة تليق به ، ويدعو للوزير إن كان ثم وزير ولجيش بالنصر والتألف ، وللعساكر بالطَّفر ، وعلى الكافرين والمخالفين بالهلاك والقهر ، ثم يختم بقوله ﴿ اذْكُرُوا اللهَ يَذْكُرْكُمْ ﴾^(١) فيطلع إليه من زرعه فيفك ذلك التريير عنه ، وينزل القهقري ، فيدخل المحراب ويقف على تلك الطراحت إماماً والوزير وقاضى القضاة صفاً ، ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون وأرباب الرتب من أصحاب السيوف والأقلام ، والمؤذنون وقوف وظهورهم لحائط المقصورة ، والجامع مشحون بالعالم للصلاة وراءه فيقرأ فى الركعة الأولى ما هو مكتوب فى الستر الأيمن ، وفى الثانية ما فى الستر الأيسر . فإذا سمع الخليفة ، سمع القاضى المؤذنين ، فيسمع المؤذنون الناس . فإذا فرغ نرج الناس وركبوا أولاً فأولاً وعاد إلى القصر والوزير وراءه حتى يأتى إلى القصر ، والطبول والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً .

فإذا كانت الجمعة الثالثة من الشهر ، ركب إلى الجامع الأزهر كذلك وفعل كما فعل فى الجمعة الأولى ، لا يختلف فى ذلك غير الجامع .

فإذا كانت الجمعة الرابعة منه ، ركب إلى الجامع العتيق بمصر ويزين له أهل القاهرة من باب القصر إلى الجامع الطولونى ، ويزين له أهل مصر من الجامع الطولونى إلى

(١) لعله فينزل (أى الخليفة) فيدخل الخ . (٢) لعله نرج الناس الخ .

الجامع العتيق ، وقد ندب الواليان بالبلدين من يحفظ الناس والزينة . ويركب من باب القصر ويسير في الشارع الأعظم بمصر ، يمشى في شارع واحد بين العمارة إلى الجامع العتيق بمصر فيفعل كما فعل في الجامعين الأولين من غير مخالفة . فإذا قضى الصلاة ، عاد إلى القاهرة من طريقه تلك إلى أن يصل إلى قصره ، وفي خلال ذلك كله لا يتر بمسجد إلا أعطى أهله ديناراً على كثرة المساجد في طريقه .

الموكب الرابع

(ركوبه لصلاة عيدي الفطر والأضحى)

أما عيد الفطر فيقع الأهتمام بركوبه في العشر الأخير من رمضان ، وتعي أهبة المواكب على ما تقدم في أول العام وغيره ، وكان خارج باب النصر مصلى على ربوة وجميعها مبنى بالحجر ، ولها سوردائر عليها وقلعة على بابها ، وفي صدرها قبة كبيرة في صدرها محراب ، والمنبر إلى جانب القبة وسط المصلى مكشوفاً تحت السماء ، ارتفاعه ثلاثون درجة وعرضه ثلاثة أذرع ، وفي أعلاه مصطبة . فإذا كل رمضان ، وهو عندهم ثلاثون يوماً من غير نقص . فإذا كان اليوم الأول من شوال ، سار صاحب بيت المال إلى المصلى خارج باب النصر ، وفرش الطراحات بمحراب المصلى ، كما تقدم في الجوامع في أيام الجمع ، ويعلق ستين يمنة ويسرة ، في الأيمن الفاتحة وسبح اسم ربك الأعلى ، وفي الأيسر الفاتحة ، وهل أتاك حديث الغاشية ، ويركز في جانبي المصلى لواءين مشدودين على رحمين ملبسين بأنايب الفضة ، وهما منشوران مرخيان ، ويوضع على ذروة المنبر طراحة من شاميات أودبيق ، ويفرش بأقيه بستر من بياض ، على مقداره في تقاطع درجه مضبوطة لا تتغير بالمشى وغيره ، ويجعل في أعلاه لواءان مرقومان بالذهب يمنة ويسرة ، ثم سار الوزير من داره إلى

قصر الخليفة على عادته المتقدمة الذكر، ويركب الخليفة بهيئة المواكب العظيمة على ما تقدم في أول العام : من المظلة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويكون لباسه في هذا اليوم الثياب البيض الموشحة المجومة ، وهي أجل لباسه ومظلته كذلك ، ويخرج من باب العيد على عادته في ركوب المواكب إلا أن العساكر في هذا اليوم من الأمراء والأجناد والركبان والمشاة تكون أكثر من غيره، وينتظم القوم له صفين من باب القصر إلى المصلى ، ويركب الخليفة إلى المصلى فيدخل من شرقها إلى مكان يستريح فيه دقيقةً ، ثم يخرج محفوظا بحاشيته كما في صلاة الجمع المتقدمة الذكر فيصير إلى المحراب ، والوزير والقاضي وراءه كما تقدم ، فيصلي صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة ، ويقرأ في الركعة الأولى ما في الستر الذي على يمينه ، وفي الثانية ما في الستر الذي على يساره . فإذا فرغ وسلم ، صعد المنبر لخطابة العيد . فإذا انتهى إلى ذروة المنبر ، جلس على تلك الطراحة بحيث يراه الناس ، ويقف أسفل المنبر الوزير ، وقاضي القضاة ، وصاحب الباب وأسفهلار ، وصاحب السيف ، وصاحب الرسالة ، وزمأم القصر ، وصاحب دفتر المجاس ، وصاحب المظلة ، وزمأم الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرح ، ونقيب الأشراف الطالبين .^(١) ووجه الوزير إليه فيقبلهما بحيث يراه الناس ، ثم يقوم فيقف على يمين الخليفة . فإذا وقف أشار إلى قاضي القضاة بالصعود فيصعد إلى سبع درجة ، ثم يتطلع إليه منتظرا ما يقول ، فيشير إليه فيخرج من كفه درجا قد أحضر إليه في أمسه من ديوان الإنشاء بعد عرضه على الخليفة والوزير ، فيعلن بقراءة مضمونه [ويقول] بعد البسملة : شرف بصعود المنبر الشريف في يوم كذا ، وهو عيد الفطر من سنة

(١) فيه سقط وفي المقرئ بعد هذا [فيشير إليه فيصعد ويقرب وقوفه منه و يكون وجهه موازيا لرجليه فيقبلهما الخ] .

كذا من عند أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجل (يذكر نعوت الوزير المقررة والدعاء له) ثم ذكر من يُشرفه الخليفة بصعود المنبر من أولاد الوزير، ثم ذكر القاضى ولكنه يكون هو القارئ للثبّت فلا يسعه ذكر نعوته فيقول : المملوك فلان بن فلان ونحو ذلك ، ثم الواقفين على باب المنبر ممن تقدّم ذكره بنعوتهم واحدا واحدا، وكلما ذكر واحدا استدعاه وطلع المنبر، كل منهم يعرف مقامه في المنبر يميناً ويسرة . فإذا لم يبق أحد ممن أُطلع إلى المنبر، أشار الوزير إليهم فأخذ كل من هو في جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه فيستتر الخليفة ويستترون، وينادى فى الناس بالإنصات، فيخطب الخليفة خطبة بليغة مناسبة لذلك المقام ، يقرؤها من السقف الذى يُحضر إليه مسطرا من ديوان الإنشاء كما فى جمع رمضان المتقدمة الذكر . فإذا فرغ من الخطبة ، ألقى كل من فى يده شياً من اللواء خارج المنبر، فينكشفون ويتزلون القهقريّ أولاً بأول الأقرب فالأقرب . فإذا خلا المنبر للخليفة ، هبط ودخل المكان الذى خرج منه ، فلبث قليلا ثم يركب فى هيئته التى أتى فيها إلى المصلّى ، ويعود فى طريقه التى أتى منها . فإذا قرب من القصر، تقدّمه الوزير على العادة، ثم يدخل من باب العيد الذى خرج منه، فيجلس فى الشبّاك الذى فى الإيوان الكبير، وقد مدّ منه إلى فسقية فى وسط الإيوان مقدار عشرين قصبية سمّأط فيه من الحشكان والبسندود، وغير ذلك مما يعمل فى العيد مثل الجبل الشاهق ، كل قطعة ما بين ربع قنطار إلى رطل واحد، فأكل من يأكل وينقل من ينقل لا تجر عليه ولا مانع دونه ، ثم يقوم من الإيوان فيركب إلى قاعة الذهب فيجد سرير الملك قد نُصب ، ووضع له مائدة من فضة ، ومدّ السماط تحت السرير فيترجل عن السرير، ويجلس على المائدة، ويستدعى الوزير فيجلس معه، ويجلس الأمراء على السّماط ولا يزال كذلك حتى

يستهدم السباط قريب صلاة الظهر؛ ثم يقوم وينصرف الوزير إلى داره والأمراء في خدمته فيمدّ لهم سباطا يأكلون منه وينصرفون .

وأما عيد الأضحى، فإنه إذا دخل ذوالحجة وقع الأهتمام بركوبه . فإذا كان يوم العيد، ركب الخليفة على ما تقدم في عيد الفطر من الرى والترتيب والركوب إلى المصلّى، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمر الموشح، ومطّنته كذلك، ويخرج إلى المصلّى خارج باب النصر ويخطب، ثم يعود إلى القصر كما في عيد الفطر من غير زيادة ولا نقص؛ ثم بعد دخوله إلى القصر يخرج من باب الفرج، وهو باب القصر الذى كان مسامتا لدار سعيد السعداء التى هى الخانقاه الآن، فيجد الوزير راكبا على الباب المذكور، فيترجل الوزير، ويمشى في خدمته إلى المنحَر، وهو خارج الباب المذكور . وكان إذ ذاك فضاء واسعا لابناء فيه، وهناك مصطبة مفروشة يطلّع عليها الخليفة والوزير وقاضى القضاة والأستاذون المحنكون وأكابر الدولة، ويكون قد سبق إلى المنحَر أحدٌ وثلاثون فصيلا وناقّة للأضحى، ويده حربة، وقاضى القضاة ممسك بأصل سنانها، وتقدم إليه الأضحى رأسا رأسا فيجعل القاضى السنان في نحر النخيرة ويطعن به الخليفة في لَبِّها، فتخزين يديه حتى يأتى على الجميع، ثم يسير رسوم الأضحى إلى أرباب الرسوم المقررة، وفي اليوم الثانى يساق إلى المنحَر سبعة وعشرون رأسا، ويركب الخليفة فيفعل بها كذلك، وفي اليوم الثالث يساق إليه ثلاثٌ وعشرون رأسا فيفعل بها كذلك . فإذا آنقضى ذلك فى اليوم الثالث وعاد الخليفة إلى القصر، خلع على الوزير ثيابه الحجر التى كانت عليه يوم العيد، ومنديلا بغير اليتيمة والعقد المنظوم بالجواهر، ويركب الوزير بالخيل من القصر، ويشق القاهرة بالشارع سالكا إلى الخليج فيسير عليه حتى يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة، وبذلك انفصال العيد . ثم أول نخيرة تعمر تقدد ويسير إلى داعى اليمن فيفرقها على المعتقدين من وزن نصف درهم

إلى وزن ربع درهم، وبقى ذلك يفرق على أرباب الرسوم في أطباق للبركة، وأكثره يفرقه قاضي القضاة وداعي الدعاة على الطلبة بدار العدل والمتصدّرين بجوامع القاهرة، وفي اليوم الأول يمدّ السباط بقاعة الذهب على ما تقدم في عيد الفطر من غير فرق .

الموكب الخامس

(ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل)

قد تقدم عند ذكر النيل في الكلام على الديار المصرية آتداءً زيادة النيل ووفائه وآتئاؤه ، وذكر المنادة عليه على ما الأمر مستقر عليه . إلا أنه في زمن هؤلاء الخلفاء لم يكن ينادى عليه قبل الوفاء، وإنما يؤخذ قاعه وتكتب به رُقعة للخليفة والوزير، ثم ينزل بديوان الرسائل في مسير معدّ له في الديوان ، ويستمرّ الحال على ذلك في كل يوم ترفع رُقعة إلى ديوان الإنشاء بالزيادة لا يطلع عليها غير الخليفة والوزير، وأمره مكتوم إلى أن يبقى من ذراع الوفاء (وهو السادس عشر) أصبح أو أصبعان، فيؤمر بأن يبيت في جامع المقياس تلك الليلة قراءً الحضرة والمتصدّرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم نلتم القراء الكريم في تلك الليلة هناك، ويمدّ لهم السباط بالأطعمة الفانحة، وتوقد عليهم الشموع إلى الصبح . فإذا أصبح الصبح وأذن الله تعالى بوفاء النيل في تلك الليلة ، طلعت رُقعة ابن أبي الرّداد إلى الخليفة ، فحضر إليه بالقصر، فيركب الخليفة في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والموكب العظيم، إلا أنه يلبس اتاج الذي فيه اليتيمة، ولا يُحلى المظلة على رأسه في ذلك اليوم ، ويركب الوزير وراءه في الجمع العظيم على ترتيب الموكب، ويخرج من القصر شاقا القاهرة إلى باب زويلة فيخرج منه، ويسلك الشارع إلى أن يجاوز البستان المعروف بعباس عند رأس الصّليبة بالقرب من الخانقاه الشيخونية

الآن، فيعطف سالكا على الجامع الطولوني والجسر الأعظم حتى يأتي مصر، ويدخل من الصناعة - وهي يومئذ في غاية العماره، وبها دهليزٌ ممتد بمصاطب مفروشة بالحصر العبداني مؤزر بها - ويخرج من بابها شاقاً مصر حتى يأتي المنظره المعروفة برواق الملك على القرب من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجه له والوزير معه ماشيا إلى المكان المعد له، ويكون العشارى الخالص المعبّر عنه الآن بالحراقة واقفا هناك بشاطئ النيل، وقد حمل إليه من القصر بيتٌ مثنى من العاج والابنوس كل جانب منه ثلاثة أذرع، وطوله قامه رجل تام، فيركب في العشارى المذكور وعليه قبة من خشب محكم الصنعة، وهو وقتئذ ملبس صفائح الفضة المذهبه، ثم يخرج الخليفة من دار الملك المذكورة ومعه من الأستاذين المحنكون من يختاره من ثلاثة إلى أربعة، ثم يطلع خواص الخليفة إلى العشارى والوزير ومعه من خواصه آثنان أو ثلاثة لا غير، فيجاس الوزير في رواقٍ بظاهر البيت المذكور، بفوانيس من خشب محروط مدهونه مذهبه، بستور مسدلة عليه، ويسير العشارى من باب المنظره إلى باب المقياس العالى على الدرّج، فيطلع من العشارى، ويدخل إلى الفسقية التي فيها المقياس، والوزير والأستاذون المحنكون بين يديه، فيصلى هو والوزير كل منهما ركعتين بمفرده، ثم يؤتى بالزعفران والمسك فيديفه في إناء بيده بآلة معه، ويتناوله صاحب بيت المال فيناوله لابن أبي الرّداد، فيلق نفسه في الفسقية بثابه فيتعلق في العمود برجليه ويده اليسرى ويحلّقه بيده اليمنى، وقتراء الحضرة من الجانب الآخر يقرؤون القرآن، ثم يخرج على فوره راكبا في العشارى المذكور، ثم يعود إلى دار الملك، ويركب منها عائدا إلى القاهرة، وتارة ينحدر في العشارى إلى المقيس، ويتبعه الموكب فيسير من هناك إلى القاهرة. ويكون في البحر ذلك اليوم نحو ألف مركب مشحونه بالناس للتفرّج وإظهار الفرح. فإذا كان اليوم الثانى من التخليق أتى ابن أبي الرّداد

إلى الإيوان الكبير الذى فيه الشباك بالقصر فيجد خلعة مذهبة بطيلسان مقور ،
ويُدفعُ إليه خمسة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم مهياة له ، فيلبس الخلعة ،
ويخرج من باب العيد المتقدم ذكره فى أبواب القصر ، وقد هيئ له خمس بغال على
ظهورها الأحمال المزينة بالخلى ، على ظهر كل منها راكب وبيده أحد الأكياس
الخمسة المتقدمة الذكر ظاهرٌ فى يده ، وأقاربه وبنوعمه يحجبونه وأصدقاؤه حوله ،
وأمامه حملان من الثقارات السلطانية ، والأبواق تضرب أمامه ، والطبل وراءه مثل
الأمرء ؛ فيشقى بين القصرين ، وكلما مر على باب من أبواب القصر يدخل منه
الخليفة أو يخرج ، نزل قبلة ، ويخرج من باب زويلة فى الشارع الأعظم حتى يأتى
مِصرَ فيشقى وسَطَها ويمر بالجامع العتيق ، ويحاوره إلى شاطئ النيل فيعدى إلى المقياس
بخلعته ومامعه من الأكياس ، يأخذ من الأكياس قدرا مقترالا له ، ويفترق باقى ذلك
على أرباب الرسوم الجارية من قديم الزمان من بنى عمه وغيرهم .

الموكب السادس

(ركوبه لفتح الخليج)

وهو فى اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق المتقدم ذكره ، وليس كما فى زماننا
من فتحه فى يوم التخليق ؛ وكان يقع الأهتمام عندهم بركوب هذا اليوم من حين
يأخذ النيل فى الزيادة ، وتعمل فى بيت المال موائد من التماثيل المختلفة : من
الغزلان ، والسباع ، والفيلة ، والزرايريف عدّة وافرة ، منها ما هو ملبس بالعنبر ،
وما هو ملبس بالصندل ، مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب ، وكذلك يعمل أشكال
الثقاج والأترج وغير ذلك ، وتخرج الخيمة العظيمة المعروفة بالقاتول المتقدمة الذكر
فنصب للخليفة فى برّ الخليج الغربى على حافته عند منظره يقال لها السكرّة على

القرب من فم الخليج، ويلف عمود الخيمة بديساج أحمر أو أبيض أو أصفر من أعلاه إلى أسفله، وينصب فيها سرير الملك مستندا إليه ويغشى بقرفونى، وعرا ينسه ذهبٌ ظاهرة، ويوضع عليه مرتبة عظيمة من الفرش للخليفة؛ ويضرب لأرباب الرتب من الأمراء بجري هذه الخيمة خيم كثيرة على قدر مراتبهم فى المقدار والقرب من خيمة الخليفة؛ ثم يركب الخليفة على عادته فى المواكب العظيمة بالمظلة وتوابعها من السيف والرمح والألوية والدواة وسائر الآلات، ويزاد فيه أربعون بوقا: عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة، يكون المنفرون بها ركبانا، والمنفرون بالأبواق النحاس مشاة، ومن الطبول العظام عشرة طول . فإذا كان يوم الركوب، حضر الوزير من دار الوزارة راجبا فى هيئة عظيمة، ويركب حينئذ إلى باب القصر الذى يخرج منه الخليفة، ويخرج الخليفة من باب القصر راجبا والأستاذون المحنكون مشاة حوله، وعليه ثوب يسمى البدنة حرير مرقوم بذهب، لا يلبسه غير ذلك اليوم، والمظلة بنسبته؛ فيركب الأستاذون المحنكون ويسير الموكب على الترتيب المتقدم فى ركوب أول العام سائرا فى الطريق التى ذهب فيها للتخليق حتى يأتى الجامع الطولونى؛ ويكون قاضى القضاة وأعيان الشهود جلوسا ببابه من هذه الجهة، فيقف لهم الخليفة وقفه لطيفة، ويسلم على القاضى، فيتقدم القاضى ويقبل رجله التى من جانبه، ويأتى الشهود أمام وجه فرس الخليفة، ويقفون بمقدار أربعة أذرع عن الخليفة فيسلم عليهم، ثم يركبون ويسير الموكب حتى يأتى ساحل الخليج، فيسير حتى يقارب الخليفة الخيمة، فيتقدمه الوزير على العادة، فيترجل على باب الخيمة، ويجلس على المرتبة الموضوعة له فوقه^(١)، ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوقون بعدهم؛ ويوضع للوزير كرسيه الجارى به العادة على ما تقدم فى جلوسه فى القصر، فيجلس

(١) أى فوق السرير المتقدم وصفه قريبا .

ورجله يُحْكَن الأرض ، ويقف أرباب الرُّتَبِ صفين من سرير المُلكِ إلى باب الخيمة ، وقراء الحضرة يقرءون القرآن ساعة زمانية . فإذا فرغوا من القراءة ، أستاذن صاحبُ الباب على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤذن لهم فيتقدمون واحدا بعد واحد على مقدار منازلهم المقررة لهم ، ويُنشدُ كلُّ منهم ما وقع له نظمه مما يناسب الحال . فإذا فرغ أتى غيره وأنشد ما نظمه إلى أن يفرغ إنشادهم ، والحاضرون ينتقدون على كل شاعر ما يقوله ، ويحسِّنون منه ما حسنَ ويوهون منه ما وهى .

إذا آنقضى هذا المجلس ، قام الخليفة عن السرير فركب إلى المنظرة المعروفة بالسكرة بقرب الخيمة والوزير بين يديه ، وقد فُرِشت بالفُرشِ المعدّة لها ، فيجلس الخليفة بمكان معدّ له منها ، ويجلس الوزيرُ بمكان منها بمفرده ، ويجلس القاضي والشهود في الخيمة البيضاء الدبقيّة ؛ فيطلُّ منها أستاذ من الأستاذين المحنكين فيشير بفتح السدِّ فيفتح بالمعّاول ، وتضرب الطبول والأبواق من البرين ، وفي أثناء ذلك يصل السّباط من القصر صحبةً صاحب المائدة القائم مقام أستاذ دار الصحبة الآن ، وعدتها مائة شدة في الطيافير الواسعة في القواوير الحرير ، وفوقها الطّراحات النفيسة ، وريح المسك والأفوايه تفوح منها ، فتوضع في خيمة وسيعة معدّة لذلك ، ويحمل منها للوزير وأولاده ما جرت به عادتهم ، ثم لقاضي القضاة والشهود ، ثم إلى الأمراء على قدر مراتبهم : على أنواع الموائد من التماثيل المقدمة الذكر خلا القاضي والشهود ، فإنه لا يكون في موائد تماثيل . فإذا اعتدل الماء في الخليج دخلت فيه العشاريات اللطاف ووراءها العشاريات الكبار ، وهي سبعة : الذهبيّ المختص بالخليفة ، وهو الذي يركب فيه يوم التخليق ، والفضيّ ، والأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والألأزوردى ، والصلقيّ ، وهو عشارى أنشأه تجارُّ من صقلية على الإنشاء المعتاد فنسب إليه ، وعليها الستور الدبيق الملونة ، وفي أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والخرز

الأزرق، وتسير حتى ترسو على بالمنظرة التي فيها الخليفة . فإذا صلى الخليفة العصر، ركب لابسا غير الثياب التي كانت عليه في أول النهار، ومظلته مناسبة لثيابه التي لبسها، وباقي الموكب على حاله، ويسير في البر الغربي من الخليج شاقاً للبساتين حتى يصل إلى باب القنطرة فيعطف على يمينه ويسير إلى القصر، والوزير تابعه على الرسم المعتاد، فيدخل الخليفة قصره، ويمتد الوزير إلى داره على عادته في مثل ذلك اليوم .

وذكر القاضي محي الدين بن عبد الظاهر : أنه إذا ركب من المنظرة المعروفة بالسكرة، سار في بر الخليج الغربي على ما تقدم ذكره حتى يأتي بستان الدكة، وقد علقت دهاليزه بالزينة فيدخله وحده ويسقى منه فرسه، ثم يخرج حتى يقف على الرعنة المعروفة بخليج الدار، ويدخل من باب القنطرة ويسير إلى قصره .

النوع الثاني

(من مواكبهم المواكب المختصرة في أثناء السنة)

وهي أربعة أيام أو خمسة فيما بين أول العام ورمضان ولا يتعدى ذلك يومى السبت والثلاثاء . فإذا عزم على الركوب في يوم من هذه الأيام، قدم تفرقة السلاح على الركابية على ما تقدم ذكره في أول العام، وأكثر ما يكون ركوبه إلى مصر، فيركب والوزير وراءه على أخصر من النظام المتقدم له في المواكب العظام وأقل جمعاً، ويلبسه في هذه الأيام الثياب المذهب من البياض والملون ومنديل من نسبة ذلك مشدودة بشدة عسر شدات غيره، وذوائبه مرخاة تقرب من جانبه الأيسر، وهو مقلد بالسيف العربي المجوهر بغير حنك ولا مظلة، ويخرج شاقاً للقاهرة في الشارع الأعظم حتى يجاوز الجامع الطولوني على المشاهد إلى الجامع العتيق . فإذا وصل إلى بابه، وجد الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها مخزاب، مفروشة

(١) كذا في الأصل ولعله غير شدات .

بخصير وعليها سجادة معلقة، وفي يده المصحف الكريم المنسوب خطه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فيناوله المصحف من يده فيقبله ويتبرك به ويأمر له بعتاء يفرق على أهل الجامع .

الضرب الثالث

(من هيئة الخليفة هيئته في قصوره)

قال ابن الطوير : كان له ثياب يلبسها في الدور أكامها على النصف من أكام ثيابه التي يلبسها في المواكب ، وكان من شأنه أنه لا ينصرف من مكان إلى مكان في القصر في ليل أو نهار إلا وهو راكب ، ولا يقتصر في القصر على ركوب الخيل بل يركب البغال والحمير الإناث لما تدعوه الضرورة إليه من الجواز في السرايب القصيرة والطلوع على الزلاقات إلى أعلى المناظر والمساكن ، وله في الليل نسوة برسم شد ما يحتاج إلى ركوبه من البغال والحمير ، وفي كل محلة من محلات القصر فسقية مملوءة بالماء خيفة من حدوث حريق في الليل ، ويبت خارج القصر في كل ليلة نحسون فارسا للحراسة . فإذا أذن بالعشاء الآخرة داخل قاعة الذهب وصلّى الإمام الراتب فيها بالمقيمين من الأستاذين وغيرهم ، وقف على باب القصر أمير يقال له سنان الدولة - مقام أمير جاندار الآن - فإذا علم بفراغ الصلاة تضرب البوقية من الطبول والبوقات وتوابعها على طريق مستحسنة ساعة زمانية ، ثم يخرج أستاذ برسم هذه الخدمة فيقول : "أمير المؤمنين يرد على سنان الدولة السلام" فيغرز سنان الدولة حرباً على الباب ثم يرفعها بيده ، فإذا رفعها أغلق الباب ، ودار حول القصر سبع دورات . فإذا آتتهى ذلك جعل على الباب البوابين والفتراشين وأوى المؤذنون إلى خزائن لهم هناك ، وترعى السلسلة عند المضيق : آخرين القصرين عند السيوفين

فينقطع المار من ذلك المكان إلى أن تضرب البوقية سحراً قرب الفجر فترفع السلسلة ويجوز الناس من هناك .

الجملة السادسة

(في آهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور وأعتنائهم بأمر الجهاد، وسيرهم في رعاياهم، وأستمالة قلوب مخالفيهم)

أما آهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور وأعتنائهم بأمر الجهاد، فكان ذلك من أهم أمورهم، وأجل ما وقع الأعتناء به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبة بجميع بلادهم الساحلية كالإسكندرية ودمياط من الديار المصرية، وعسقلان وعكا وصور وغيرها من سواحل الشام، حين كانت بأيديهم، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج، وكانت جريدة قوادهم تزيد على خمسة آلاف مقاتل مدونة، وجوامكهم في كل شهر من عشرين ديناراً إلى خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى ثمانية إلى دينارين، وعلى الأسطول أمير كبير من أعيان الأمراء وأقواهم جاشا، وكان أسطولهم يومئذ يزيد على خمسة وسبعين شينياً وعشر مسطحات وعشر حمالات، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفة تجهيزها للغزو، جلس للنفقة بنفسه حتى يكملها، ثم يخرج مع الوزير إلى ساحل النيل بالمقسم، فيجلس في منظره كانت يجامع باب البحر والوزير معه للوادعة،^(١) ويأتي القواد بالمراكب إلى تحت المنطرة، وهي مزينة بالأسلحة والمنجنيقات والعب منصوبة في بعضها، فتسير بالمجاديف دهاً وعوداً كما يفعل حالة القتال، ثم يحضر إلى بين يدي الخليفة المقدم والرئيس فيوصيها ويدعو لهم بالسلامة، وتتحدر المراكب إلى دمياط وتخرج إلى البحر الملح، فيكون لها في بلاد العدو الصيت والسمعة . فإذا غنموا مراكباً أصطفى الخليفة

(١) أى التوديع . وقد جرى فيه وفي كثير غيره على اصطلاحات العامة .

لنفسه السبي الذي فيه من رجال أو نساء أو أطفال، وكذلك السلاح، وما عدا ذلك يكون للغائبين لا يساهمون فيه . وكان لهم أيضا أسطول بعيداب يتلقى به الكارم فيما بين عيذاب وسواكن ، وما حولها خوفا على مراكب الكارم من قوم كانوا يجزأ ببحر القلزم هناك يعترضون المراكب ، فيحميمهم الأسطول منهم ، وكان عدّة هذا الأسطول خمسة مراكب ، ثم صارت إلى ثلاث ، وكان إلى قوص هو المتولى لأمر هذا الأسطول ، وربما تولاه أمير من الباب ، ويجمل إليه من خزائن السلاح ما يكفيه .

وأما سيرهم في رعيتهم وأستمالة قلوب مخالفيهم ، فكان لهم الإقبال على من يقد عليهم من أهل الأقاليم جلّ أودق ، ويقابلون كل أحد بما يليق به من الإكرام ، ويعوضون أرباب الهدايا بأضعافها . وكانوا يتألفون أهل السنّة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، ولا يمنعون من إقامة صلاة التراويح في الجوامع والمساجد على مخالفة معتقدهم في ذلك ^(١) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم ، ومذاهب مالك والشافعي وأحمد ظاهرة الشعار في مملكتهم ، بخلاف مذهب أبي حنيفة ، ويراعون مذهب مالك ، ومن سألهم الحكم به أجابوه ، وكان من شأن الخليفة أنه لا يكتب في علامته إلا "الحمد لله رب العالمين" ولا يخاطب أحدا في مكاتباته إلا بالكاف حتى الوزير صاحب السيف ، وإنما المكاتبات عن الوزير هي التي تتفاوت مراتبها ، ولا يخاطب عنهم أحد إلا بنعت مقترله ودعاء معروف به ، ويراعون من يموت في خدمتهم في عقبه ، وإن كان له مرتب تقوله إلى ذريته من رجال أو نساء .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

الجملة السابعة

(في إجراء الأرزاق والعتاء لأرباب الخدم بدولتهم ،
وما يتصل بذلك من الطعمة)

أما إجراء الأرزاق والعتاء ، فقد تقدم أن ديوان الجيوش كان عندهم على ثلاثة أقسام : قسم يختص بالعرض وتحلية الأجناد وشيآت دوابهم ، وقسم يختص بضبط إقطاعات الأجناد ، وقسم يختص بمعرفة ما لكل مرتزق في الدولة من راتب وجرار وجراية ، ولكل من الثلاثة كُتِّبَ يختصون بخدمته . والقسم الثالث هو المقصود هنا ؛ وكان راتبهم فيه بالدنانير الجيشية ، وكان يشتمل على ثمانية أقسام .

الأول - فيه راتب الوزير وأولاده وحاشيته .

فراتب الوزير في كل شهر خمسة آلاف دينار ، ومن يليه من ولد أو أخ من ثلثائة دينار إلى مائتي دينار ، ولم يقتر لولد وزير خمسمائة دينار سوى الكامل بن شاور ، ثم حواشيه من خمسمائة دينار ، إلى أربعمائة دينار ، إلى ثلثائة دينار خارجا عن الإقطاعات الثاني - فيه حواشي الخليفة .

فأولهم الأستاذون المحنكون على رتبهم . فزمام القصر ، وصاحب بيت المال ، وحامل الرسالة ، وصاحب الدقتر ، وشاد التاج ، وزمام الأشراف الأقارب ، وصاحب المجلس ، لكل واحد منهم في الشهر مائة دينار ، ثم من دونهم من تسعين دينارا إلى عشرة دنانير على تفاوت الرتب . وفي هذا طيبيا الخاص ، ولكل واحد منهما في الشهر خمسون دينارا ، ولمن دونهما من الأطباء المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

الثالث - فيه أرباب الرتب بحضرة الخليفة .

فأول مسطور فيه كاتبُ الدَّستِ - وهو المعبرُّ عنه الآن بكاتب السرِّ - وله في الشهر مائة وخمسون ديناراً، ولكل واحد من كُتَّابه ثلاثون ديناراً - ثم الموقَّع بالقلم الدقيق، وله مائة دينار - ثم صاحب الباب، وله مائة وعشرون ديناراً - ثم حامل السيف وحامل الرمح، ولكل منهما سبعون ديناراً، وبقية الأئمة على العساكر والسودان من خمسين ديناراً، إلى أربعين ديناراً، إلى ثلاثين .

الرابع - فيه قاضي القضاة، وله في الشهر مائة دينار - وداعي الدعاة وله مثله؛ وقرء الحضرة، ولكل منهم عشرون ديناراً، إلى خمسة عشر ديناراً، إلى عشرة .

الخامس - فيه أرباب الدواوين ومن يجري مجراهم .

فأولهم متولَّى ديوان النظر، وله في الشهر سبعون ديناراً - ثم متولَّى ديوان التحقيق، وله خمسون ديناراً - ثم متولَّى ديوان المجلس، وله أربعون ديناراً - ثم متولَّى ديوان الجيوش، وله أربعون ديناراً؛ ثم صاحب دفتر المجلس، وله خمسة وثلاثون ديناراً؛ ثم الموقَّع بالقلم الجليل القائم مقام كاتب الدرَج الآن، وله ثلاثون ديناراً . ولكل مِعين عشرة دنانير، إلى سبعة، إلى خمسة .

السادس - فيه المستخدمون بالقاهرة ومصر في خدمة واليها، ولكل واحد منهما خمسون ديناراً - وللحماة بالأهراء والمناخات والجوالى والبساتين والأملاك وغيرها لكل منهم ما يقوم به من عشرين ديناراً، إلى خمسة عشر، إلى عشرة، إلى خمسة .

السابع - فيه عدة القراشين برسم خدِّمة الخليفة والقصور وتظيفها خارجاً وداخلاً ونصب الستائر المحتاج إليها والمناظر الخارجة عن القصر، ولكل منهم في الشهر ثلاثون ديناراً فما حولها - ثم من يليهم من الرشاشين داخل القصر وخارجه وهم نحو ثلاثمائة رجل، ولكل منهم من عشرة دنانير إلى خمسة .

الثامن - فيه الركابية ومقدموهم، ولكل من مقدميهم في الشهر نحسون ديناراً وللركابية من خمسة عشر ديناراً إلى عشرة إلى خمسة .
وأما الطعمة فعلى ضريين .

الضرب الأول

(الأسمطة التي تمتد في شهر رمضان والعيدين)

أما شهر رمضان فإن الخليفة كان يرتب بقاعة الذهب بالقصر سَمَاطاً في كل ليلة من استقبال الرابع منه، وإلى آخر السادس والعشرين منه، ويستدعى الأمراء لحضوره في كل ليلة بالنوبة، يحضر منهم في كل ليلة قومٌ كي لا يحرمهم الإفطار في بيوتهم طول الشهر، ولا يكلف قاضي القضاة الحضور سوى ليالي الجمع توقيراً له، ولا يحضر الخليفة هذا السَاط، ويحضر الوزير فيجلس على رأس السَاط . فإن غاب قام ولده أو أخوه مقامه . فإن لم يحضر أحد منهم، كان صاحبُ الباب عِوضَه . وكان هذا السَاط من أعظم الأسمطة وأحسنها، يمتد من صدر القاعة إلى مقدار ثلثيها بأصناف المأكولات والأطعمة الفاخرة؛ ويخرجون من هنالك بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين، ويفترق فضلُ السَاط كل ليلة، ويتهاداه أرباب الرسوم حتى يصل إلى أكثر الناس . وإذا حضر الوزير بعث الخليفة إليه من طعامه الذي يأكل منه تشريفاً له، وربما خصه بشيء من سَعُوره .

وأما سَمَاط العيدين فإنه يمتد في عيد الفطر وعيد الأضحى تحت سرير الملك بقاعة الذهب المذكورة أمام المجلس الذي يجلس فيه الخليفة الجلوس العام أيام المواقب، وتنصب على الكرسي مائدة من فضة تعرف بالمدورة، وعليها من الأواني الذهبية والصينية الحاوية للأطعمة الفاخرة ما لا يليق إلا بالملوك؛ وينصب السَاط العام تحت السرير من خشب مدهون في طول القاعة في عرض عشرة أذرع، وتفرش

فوقه الأزهار المشمومة ، ويرص الخبز على جوانبه كل شابورة ثلاثة أرتال من نقي الدقيق ، ويعمر داخل السماط على طوله بأحد وعشرين طبقا عظاما ، في كل طبق أحد وعشرون خروفا من الشوي ، وفي كل واحد منها ثلثائة ونحسون طيرا من الدجاج والفراريج وأفراخ الحمام ، ويعبئ مستطيلا في العلو حتى يكون كقامة الرجل الطويل ، ويسور بتشاريح الحلواء اليابسة على اختلاف ألوانها ، ويسد خلل تلك الأطباق على السماط نحو من خمسمائة صحن من الصحن الخزفية المترعة بالألوان الفاتحة ، وفي كل منها سبع دجاجات من الحلواء المائعة والأطعمة الفاخرة ، ويعمل بدار الفطرة الآتي ذكرها قصران من حلوى زنة كل منهما سبعة عشر قنطارا في أحسن شكل ، عليها صور الحيوان المختلفة ، ويمحان إلى القاعة فيوضعان في طرفي السماط . ويأتي الخليفة راكبا فيترجل على السرير الذي قد نصبت عليه المائدة الفضة ويجلس على المائدة وعلى رأسه أربعة من كبار الأستاذين المحنكين ، ثم يستدعي الوزير وحده فيطلع ويجلس على يمينه بالقرب من باب السرير ، ويشير إلى الأمراء المطوقين فمن دونهم من الأمراء ، فيجلسون على السماط على قدر مراتبهم فيأكلون وقرءاء الحضرة في خلال ذلك يقرءون القرءان ، ويبقى السماط ممدودا إلى قريب من صلاة الظهر حتى يستهلك جميع ما عليه أكلا وحملا ، وتفارقة على أرباب الرسوم .

الضرب الثاني

(فيما كان يعمل بدار الفطرة في عيد الفطر)

وكان لهم بها الأهتمام العظيم . وقد ذكر ابن عبد الظاهر أصنافها فقال : كانت ألف حملة دقيق ، وأربعمائة قنطار سكر ، وستة قناطير فستق ، وأربعمائة وثلاثين

(١) عبارة المقرئ " من الصحن الخزفية " التي في كل منها سبع دجاجات وهي مترعة الخ .

إردب زبيب، وخمسة عشر قنطار عسل نحل، وثلاثة قناطير خل وإردين سمس وإردين أنيسون وخمسين رطلا ماء ورد، وخمس نواخج مسك، وكافور قديم عشرة مثاقيل، وزعفران مطحون مائة وخمسون درهما، وزيت برسم الوقود ثلاثون قنطارا. في أصناف أخرى يطول ذكرها. قال ابن الطوير: ويندب لها مائة صانع من الحلاويين، ومائة فرّاش برسم تفرقة الطوافير على أصحاب الرسوم خارجا عن هو مرتب فيها؛ ويحضرها الخليفة والوزير معه فيجلس الخليفة على سريره فيها، ويجلس الوزير على كرسي له، في النصف الأخير من رمضان، وقد صار مالها من المستعملات كالجبال الرواسي، فتفرق الحلوى من رُبع قنطار إلى عشرة أرتال إلى رطل واحد، والحشكان من مائة حبة إلى خمس وسبعين حبة، إلى ثلاث وثلاثين، إلى خمس وعشرين، إلى عشرين؛ ويفترق على السودان على يد مقدمهم بالأفراد من تسعة أفراد إلى سبعة، إلى خمسة، إلى ثلاثة كل طائفة على مقدارها (١)

بساط يوم الفطر ما يمد في الإيوان الكبير قبل مَدِّ سباط الطعام بقاعة الذهب. وقد وقع في كلام ابن الطوير ^{وهو} خلف في وقته، فذكر في موضع من كتابه أن ذلك يكون قبل ركوب الخليفة لصلاة العيد، وذكر في موضع آخر أن ذلك يكون بعد حضوره من الصلاة.

(٢) الطرف الثامن

(في جلوس الوزير للظالم إذا كان صاحب سيف، وترتيب جلوسه)
يجلس الوزير في صدر المكان، وقاضي القضاة مقابله، وعن جانبه شاهدان من المعبرين، وكاتب الوزير بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المال، وبين يديه

(١) بياض بالأصل. ولعله وقد كان سباط يوم الفطر يمد الخ.

(٢) لم يتقدم في هذا الفصل تقسم بالأطراف.

صاحب الباب وأسفهلار، وبين أيديهما التواب والمُجَّاب على طبقاتهم . وذلك
يومان في الأسبوع .

وقد رثاهم عمارة اليمنى بعد أنقراضهم وأستيلاء السلطان صلاح الدين بن أيوب
على الملكة بقصيدة وصف فيها ملكتهم، وعد مواكبهم، وحكى مكارمهم، وجلّى
محاسنهم، وهى :

رَمَيْتَ يَادَهُرُ كَفَّ الْمَجْدِ بِالشَّلَالِ * وَجِيْدُهُ بَعْدَ حُسْنِ الْحَلَى بِالْعَطْلِ
سَعَيْتَ فِي مَنَهِجِ الرَّأْيِ الْعُثُورِ فَإِن * قَدَّرْتَ مِنْ عَثَرَاتِ الدَّهْرِ فَاسْتَقِلْ
جَدَعْتَ مَا رَنَكَ الْأَقْفَى فَأَنْفَكَ لَا * يَنْفُكُ مَا بَيْنَ أَمْرِ الشَّيْنِ وَالتَّجَلِ (١)
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنِ عَجَلِ * شَقِيَّتِ، مَهَلًا أَمَا تَمْشِي عَلَى مَهَلِ
لَهْفَى وَلَهْفِ بَنَى الْأَمَالِ قَاطِبَةً * عَلَى فِجَعَتِهَا فِي أَكْرَمِ الدُّوَلِ
قَدِمْتُ مِصْرَ فَأَوْلَتْنِي خَلَاْفُهَا * مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أَرَبْنِي عَلَى أَمَلِي
قَوْمٌ عَرَفْتُ لَهُمْ كَسْبَ الْأُلُوفِ، وَمِنْ * كَمَالِهَا أَنهَا جَاءَتْ وَلَمْ أَسْأَلِ
وَكُنْتُ مِنْ وَرَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ سَمَا * رَأْسِ الْحِصَانِ يَهَادِيهِ عَلَى الْكَفْلِ
وَنَلْتُ مِنْ عِظَاءِ الْحَيْشِ تَكْرِمَةً * وَخُلَّةٍ حُرْسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلَلِ
يَاعَاذِلِي فِي هَوَى أُنْبَاءِ فَاطِمَةَ * لَكَ الْمَلَامَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِي عَدَلِي
بِاللَّهِ! زُرْسَاحَةَ الْقَصْرَيْنِ وَأَبْكَ مَعِي * عَلَيَّهَا لَا عَلَى صِفَيْنِ وَالْجَمَلِ!
وَقُلْ لِأَهْلِيهِمَا : وَاللَّهِ مَا أَلْتَحَمْتُ * فِيكُمْ جُرُوحِي وَلَا قَرَحِي بِمُنْدَمِلِ!
مَاذَا تَرَى كَانَتْ الْإِفْرُجُ فَاعِلَةً * فِي تَسْئَلِ آلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى
[هَلْ كَانَ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ غَيْرِ قِسْمَةِ مَا * مَلَكَتُمُو بَيْنَ حُكْمِ السَّبِيِّ وَالتَّقْلِ (٢)]

(١) فى المخطوط للقرزى "قرع السن". (٢) الزيادة عن المقرزى .

وَقَدْ حَصَلْتُمْ عَلَيْهَا، وَأَسْمُ جَدِّكُمْ * مُحَمَّدٌ وَأَبُوكُمْ خَيْرٌ مِنْتَمَلِ
 مَرَرْتُ بِالْقَصْرِ وَالْأَرْكَانُ خَالِيَةٌ * مِنَ الْوُفُودِ، وَكَانَتْ قِبْلَةَ الْقُبَلِ
 فَمِلْتُ عَنْهَا بِوَجْهِ خَوْفٍ مُتَقَدِّدٍ * مِنَ الْأَعَادِي، وَوَجْهُ الْوُدِّ لَمْ يَمِيلِ
 أَسْبَلْتُ مِنْ أَسْفَى دَمْعِي غَدَاةَ خَلْتِ * رِحَابِكُمْ وَغَدَتِ مَهْجُورَةَ السَّبِيلِ
 أَبْنَى عَلَى مَائِرَاتٍ مِنْ مَكَارِمِكُمْ * حَالَ الزَّمَانِ عَلَيْهَا وَهِيَ لَمْ تَحِلِ
 (دَارُ الضِّيَافَةِ) كَانَتْ أُنْسٌ وَأَفِدْتُمْ * وَالْيَوْمَ أَوْحَشُ مِنْ رَسْمٍ وَمِنْ طَلَلِ
 وَ(فِطْرَةُ الصَّوْمِ) إِذَا ضَحَّتْ مَكَارِمِكُمْ، * تَشْكُو مِنَ الدَّهْرِ حَيْفًا غَيْرَ مُحْتَمَلِ
 وَ(كُسُوءَةُ النَّاسِ) فِي الْفَضْلَيْنِ قَدِ دَرَسَتْ * وَرَثَ مِنْهَا جَدِيدٌ عِنْدَهُمْ وَبَلِي
 وَمَوْسِمٌ كَانَ فِي (يَوْمِ الْخَلِيجِ) لَكُمْ * يَأْتِي تَجْمَلُكُمْ فِيهِ عَلَى الْجَمَلِ
 وَ(أَوَّلُ الْعَامِ) وَ(الْعِيدِينَ) كَمْ لَكُمْ * فَيَرِينَّ مِنْ وَبَلِ جُودٍ لَيْسَ بِالْوَشَلِ
 وَالْأَرْضُ تَهْتَرُ فِي (يَوْمِ الْغَدِيرِ) كَمَا * يَهْتَرُ مَا بَيْنَ قَصْرَيْكُمْ مِنَ الْأَسَلِ
 وَالْحَيْلُ تُعْرَضُ فِي وَشْيٍ فِي شَيْءٍ * مِثْلَ الْعَرَائِسِ فِي حَلِيٍّ وَفِي حُلَلِ
 وَمَا حَمَلْتُمْ قَرَى الْأَضْيَافِ مِنْ سَعَةِ الْأَطْبَاقِ إِلَّا عَلَى الْأَكْثَافِ وَالْعَجَلِ
 وَمَا خَصَصْتُمْ بِيَرِّ أَهْلِ مَمْلَكَةٍ * حَتَّى عَمَّمْتُمْ بِهِ الْأَقْصَى مِنَ الْمَلَلِ
 كَانَتْ رَوَاتِبِكُمْ لِلْوَافِدِينَ * وَلِلضُّمُوفِ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي مِنَ الرُّسُلِ
 ثُمَّ (الطَّرَازُ) يَتَبَيَّنُ الَّذِي عَظُمَتْ * مِنْهُ الصَّلَاتُ لِأَهْلِ الْأَرْضِ وَالذُّوَلِ
 وَالجَوَامِعِ مِنْ أَحْمَاسِكُمْ نَعَمٌ * مِنْ تَصَدَّرَ فِي عِلْمٍ وَفِي عَمَلِ
 وَرَبَّمَا عَادَتِ الدُّنْيَا فَعَقَلَهَا * مِنْكُمْ وَأَضَحَّتْ بِكُمْ مَحْلُولَةَ الْعُقُلِ

(١) في القرينى "من احسانكم" وهي أوضح.

والله ! لافاز يوم الحشر مبغضكم * ولا نجا من عذاب النار غير ولى
 ولا سقى الماء من حرٍّ ومن ظمياً * من كف خير البرايا خاتم الرسل
 [ولا رأى جنة الله التى خلقت * من خان عهداً لإمام العاصدين على] ^(١)
 أمّتى وهديتى والذخيرة لى * إذا أرتهنت بما قدمت من عمل
 والله لم نوفهم فى المدح حقهم ! * لأنّ فضلهم كالوابل الهطل
 ولو تضاعفت الأقوال وأسبقت * ما كنت فيهم بحمد الله بالتجمل
 باب النجاة، هم دنيا وآخره * وحبهم فهو أصل الدين والعمل
 نور الدجى ومصايح الهدى وهم * من نور خالص نور الله لم يغل
 والله لأزلت عن حبي لهم أبداً * ما أنر الله لى فى مدة الأجل !

قلت : وعمارة هذا لم يكن على معتقد الشيعة بل فقيها شافعيًا، قدم مصر برسالة
 عن القاسم بن هاشم بن أبى فليته أمير مكة إلى الفائز أحد خلفائهم فى سنة خمسين وخمسمائة
 فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، فأحسنوا له وبالغوا فى برّه ، فأقام عندهم
 وتآلف بهم ، وأتى فيهم من المدح بما بهر العقول ، ولم يزل مواليا لهم حتى زالت
 دولتهم وأستولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فرتاهم بهذه
 القصيدة ، فكانت آخر أسباب حتفه ، فصلب فىمن صلب بين القصرين من أتباع
 الدولة الفاطمية .

(تم الجزء الثالث)

ويليه الجزء الرابع ، وأوله ” الحالة الثالثة من أحوال المملكة ،
 ما عليه ترتيب المملكة من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا “

(١) الزيادة عن المقرئى فى الخطط .

فهرست

الجزء الثالث

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

الفصل الثانى - من الباب الثانى من المقالة الأولى فى الكلام على

- نفس الخط؛ وفيه سبعة [ثمانية] أطراف ... ٥
- الطرف الأول - فى فضيلة الخط ... ٥
- الطرف الثانى - فى بيان حقيقة الخط ... ٧
- الطرف الثالث - فى وضع الخط؛ وفيه جملتان ... ٩
- الجملة الأولى - فى بيان المقصود من وضعه، والموازنة بينه وبين اللفظ ... ٩
- الجملة الثانية - فى أصل وضعه؛ وفيه مسلكان ... ١٠
- المسلك الأول - فى وضع مطلق الحروف ... ١٠
- المسلك الثانى - فى وضع حروف العربية ... ١١
- الطرف الرابع - فى عدد الحروف وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها؛
وفيه أربع [خمس] جمل ... ١٩
- الجملة الأولى - فى مطلق الحروف فى جميع اللغات ... ١٩
- الجملة الثانية - فى حروف العربية ... ١٩
- الجملة الثالثة - فى بيان جهة ابتدآت الحروف ... ٢١
- الجملة الرابعة - فى كيفية ترتيب الحروف ... ٢٢
- الجملة الخامسة - فى كيفية صور الحروف العربية، وتداخل أشكالها ... ٢٣
- الطرف الخامس - فى تحسين الخط؛ وفيه جملتان ... ٢٤
- الجملة الأولى - فى الحث على تحسين الخط ... ٢٤
- الجملة الثانية - فى الطريق إلى تحسين الخط ... ٢٦
- الطرف السادس - فى قواعد تتعلق بالكتابة لا يستغنى الكاتب المحيّد
عن معرفتها؛ وفيه جملتان ... ٢٧

صفحة

- الجملة الأولى — في هندسة الحروف، ومعرفة اعتبار صحتها ... ٢٧
- الجملة الثانية — في معرفة ما يقع به ابتداء الحروف وأتائهاها، من نقطة
أوشظية أوغير ذلك. أما الابتداء فعلى ثلاثة أضرب ٣٩
- الضرب الأول — مايتبدأ بنقطة ... ٣٩
- الضرب الثاني — ما يتبدأ بشظية ... ٣٩
- الضرب الثالث — ما يتبدأ بحلقة ... ٤٠
- الضرب الأول — [من ضروب الاختتام] ما يختم بقطة القلم ... ٤٠
- الضرب الثاني — ما يختم بشظية ... ٤٠
- الضرب الثالث — ما يرسل في ختمه إرسالا ... ٤٠
- الطرف السابع — في مقدمات تتعلق بأوضاع الخط وقوانين الكتابة ؛
وفيه ثلاث جمل ... ٤١
- الجملة الأولى — في كيفية إمساك القلم عند الكتابة، ووضعه على الورق ٤١
- الجملة الثانية — في كيفية الاستمداد ووضع القلم على الدرج ... ٤٢
- الجملة الثالثة — في وضع القلم على الأذن حال الكتابة عند التفكير ... ٤٣
- الطرف الثامن — في ذكروانين يعتمدهما الكاتب في الخط، وفيه ست جمل ٤٤
- الجملة الأولى — في كيفية حركة اليد بالقلم في الكتابة ... ٤٤
- الجملة الثانية — في تناسب الحروف ومقاديرها في كل قلم ... ٤٥
- الجملة الثالثة — فيما يجب اعتماداه لكل ناحية من نواحي القلم ... ٤٩
- الجملة الرابعة — في الترويس ... ٥٠
- الجملة الخامسة — فيما يطمس من الحروف ويفتح ... ٥٠
- الجملة السادسة — في ذكر الأقلام المستعملة في ديوان الإنشاء
في زمان المؤلف ... ٥١

صفحة

- ٥٣ قلم الطومار — القلم الأول
- ٥٩ قلم مختصر الطومار — القلم الثانى
- ٦٢ قلم الثلث؛ وهو على نوعين القلم الثالث
- ٦٢ النوع الأول — الثلث الثقيل، وصوره مفردة ومركبة
- الألف على ضربين : مفردة ومركبة
- ٦٢ المفردة — الضرب الأول
- ٦٤ المركب مع غيره من الحروف — الضرب الثانى
- ٦٤ صورة الباء؛ وهى على ضربين الصورة الثانية
- ٦٤ المفردة الضرب الأول
- ٦٥ متوسطة ومتطرفة وأما المركبة فعلى نوعين :
- ٦٦ صورة الجيم وما شاكلها الصورة الثالثة
- ٧٠ صورة الدال وأختها؛ وهى على ضربين الصورة الرابعة
- ٧٠ المفردة الضرب الأول
- ٧١ المركبة الضرب الثانى
- ٧٢ صورة الراء وأختها؛ وهى على ضربين الصورة الخامسة
- ٧٢ المفردة الضرب الأول
- ٧٤ المركبة الضرب الثانى
- ٧٥ صورة السين الصورة السادسة
- ٧٦ صورة الصاد الصورة السابعة
- ٧٧ صورة الطاء وأختها الصورة الثامنة
- ٧٩ صورة العين وأختها الصورة التاسعة

صفحة	
٨٣	الصورة العاشرة — صورة الفاء... ..
٨٣	الصورة الحادية عشرة — صورة القاف
٨٤	الصورة الثانية عشرة — صورة الكاف
٨٦	الصورة الثالثة عشرة — صورة اللام؛ وهي على ضريين
٨٦	الضرب الأول — المفردة... ..
٨٧	الضرب الثاني — المركبة
٨٨	الصورة الرابعة عشرة — صورة الميم؛ وهي على خمسة أضرب
٨٨	الضرب الأول — المحققة... ..
٨٩	الضرب الثاني — المعلقة
٩٠	الضرب الثالث — المسبلة... ..
٩٠	الضرب الرابع — المبسوطة
٩١	الضرب الخامس — المفتولة
٩١	الصورة الخامسة عشرة — صورة النون
٩٣	الصورة السادسة عشرة — صورة الهاء؛ وهي على ضريين
٩٣	الضرب الأول — المفردة... ..
٩٤	الضرب الثاني — المركبة... ..
٩٩	الصورة السابعة عشرة — صورة الواو
٩٩	الصورة الثامنة عشرة — صورة اللام ألف
١٠١	الصورة التاسعة عشرة — صورة الياء؛ وهي على ضريين
١٠١	الضرب الأول — المفردة... ..
١٠٢	الضرب الثاني — المركبة

صفحة	
١٠٤	التسوع الثاني - قلم الثلث الخفيف
١٠٤	القلم الرابع - قلم التوقيع
١١٩	القلم الخامس - قلم الرقاع
١٣٢	القلم السادس - قلم الغبار
١٣٣	الجملة السابعة - في كتابة البسملة؛ وفيها مهيعان
١٣٣	المهيع الأول - في ذكر قواعد جامعة للبسملة في جميع الأقلام
	المهيع الثاني - في بيان صورة البسملة في كل قلم من الأقلام التي تستعمل في ديوان الانشاء
١٣٥	
١٤٣	الجملة الثامنة - في وجوه تجويد الكتابة وتحسينها؛ وهي على ضربين
١٤٣	الضرب الأول - حسن التشكيل
١٤٤	الضرب الثاني - حسن الوضع
١٤٥	الكلمة الأصلية - أسما كانت أو حرفا أوفعلا، لا تخرج عن أربعة أصناف
١٤٥	الصف الأول - الثنائية
١٤٦	الصف الثاني - الثلاثية
١٤٦	الصف الثالث - الرباعية
١٤٧	الصف الرابع - الخماسية
١٤٩	مراعاة فواصل الكلام
١٥١	حسن التدبير - في قطع الكلام ووصله في أواخر السطور وأوائلها
١٥١	الفصل المستقبح - في آخر السطر وأول الذي يليه صنفان
	الصف الأول - فصل بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض وتفريقها في السطر والذي يليه
١٥١	
١٥٢	الصف الثاني - فصل الكلمة التامة وصلتها

صفحة

- الفصل الثالث - من الباب الثاني من المقالة الأولى في لواحق الخط؛
 وفيه مقصدان ١٥٣
- المقصد الأول - في النقط؛ وفيه أربع جمل ١٥٣
- الجملة الأولى - في ميسس الحاجة إليه ١٥٣
- الجملة الثانية - في ذكر أول من وضع النقط ١٥٥
- الجملة الثالثة - في بيان صورة النقط وكيفية وضعه ١٥٥
- الجملة الرابعة - فيما يختص بكل حرف من النقط وما لا تقط له ... ١٥٦
- المقصد الثاني - في الشكل؛ وفيه خمس جمل ١٦٠
- الجملة الأولى - في اشتقاقه ومعناه ١٦٠
- الجملة الثانية - في أول من وضع الشكل ١٦٠
- الجملة الثالثة - في الترغيب في الشكل والترهيب عنه ١٦١
- الجملة الرابعة - فيما ينشأ عنه الشكل ويترتب عليه ١٦٢
- الجملة الخامسة - في صور الشكل ومحال وضعه على طريقة المتقدمين
 والمتأخرين ١٦٤
- الأولى - علامة السكون ١٦٤
- الثانية - علامة الفتح ١٦٥
- الثالثة - علامة الضم ١٦٥
- الرابعة - علامة الكسر ١٦٦
- الخامسة - علامة التشديد ١٦٦
- السادسة - علامة الهمزة ١٦٧
- السابعة - علامة الصلة في ألفات الوصل ١٧٠

صفحة

- الفصل الرابع - من الباب الثاني من المقالة الأولى في الهجاء ؛
 وفيه مقصدان ١٧٢
- المقصد الأول - في مصطلحه الخاص ؛ وهو على ضربين ١٧٢
- الضرب الأول - المصطلح الرسمي ١٧٢
- الضرب الثاني - المصطلح العروضي ١٧٢
- المقصد الثاني - في المصطلح العام ؛ وفيه جملتان ١٧٣
- الجملة الأولى - في الأفراد والحذف والإثبات والإبدال ١٧٣
- المكتوب على المصطلح المعروف على قسمين ١٧٤
- القسم الأول - ماله صورة تخصه من الحروف ؛ وهو على ضربين ١٧٤
- الضرب الأول - ما هو على أصله المعترف به في ذوات الحروف وعددها الخ ١٧٤
- اللفظ الذي يكتب ، على نوعين ١٧٧
- النوع الأول - أن يكون أسما لحرف من حروف الهجاء ١٧٧
- النوع الثاني - أن لا يكون أسما لحرف من حروف المعجم ١٧٩
- الضرب الثاني - ما تغير عن أصله ؛ وهو على ثلاثة أنواع ١٧٩
- النوع الأول - ما تغير بالزيادة ١٧٩
- النوع الثاني - ما يغير بالنقص ١٨٤
- النوع الثالث - ما يغير بالبدل ٢٠٠
- القسم الثاني - ما ليس له صورة تخصه ، وهو الهمزة ؛ ولها ثلاثة أحوال ٢٠٨
- الحال الأول - أن تكون في أول الكلمة ٢٠٨
- الحال الثاني - أن تكون متوسطة ؛ ولها حالتان ٢٠٩
- الحال الثالث - أن تكون الهمزة آخر ؛ ولها حالتان ٢١٢
- الجملة الثانية - في حالة التركيب والفصل والوصل ٢١٥

سفة

الفصل الخامس — من الباب الثاني من المقالة الأولى فيما يكتب بالطاء
مع بيان ما يقع الاشتباه فيه مما يكتب بالضاد ... ٢٢٢

المقالة الثانية

- في المسالك والممالك؛ وفيها أربعة أبواب... ٢٢٧
- الباب الأول — في ذكر الأرض على سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول ٢٢٧
- الفصل الأول — في معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها؛
وفيه طرفان ٢٢٧
- الطرف الأول — في شكل الأرض وإحاطة البحر بها ٢٢٧
- الطرف الثاني — فيما أشتملت عليه الأرض من الأقاليم الطبيعية ... ٢٣٠
- الفصل الثاني — في البحار التي يتكرر ذكرها بذكر البلدان؛ وفيه طرفان ٢٣٣
- الطرف الأول — في البحر المحيط ٢٣٣
- الطرف الثاني — في البحار المنبثة في أقطار الأرض؛ وهي على ضربين ٢٣٤
- الضرب الأول — الخارج من البحر المحيط وما يتصل به ٢٣٤
- الضرب الثاني — من البحار المنبثة في أقطار الأرض ما ليس له اتصال
بالبحر المحيط ٢٤٨
- الفصل الثالث — في كيفية استخراج جهات البلدان والأبعاد الواقعة
بينها؛ وفيه طرفان ٢٥٠
- الطرف الأول — في كيفية استخراج جهات البلدان ٢٥٠
- الطرف الثاني — في معرفة الأبعاد الواقعة بين البلدان ٢٥١

صفحة

- الباب الثاني — في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء، ومقرّاتهم في القديم
والحديث آنح، وفيه فصلان ٢٥٤
- الفصل الأول — في ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء، وهم على أربع طبقات
الطبقة الأولى — الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ٢٥٤
- الطبقة الثانية — خلفاء بني أمية ٢٥٦
- الطبقة الثالثة — خلفاء بني العباس بالعراق ٢٥٨
- الطبقة الرابعة — خلفاء بني العباس بالديار المصرية ٢٦٤
- وأما مقرّات الخلفاء، فهي أربع مقرّات :
- المقرّة الأولى — المدينة النبوية... .. ٢٦٧
- المقرّة الثانية — الشام ٢٦٨
- المقرّة الثالثة — العراق ٢٦٨
- المقرّة الرابعة — الديار المصرية... .. ٢٦٨
- الفصل الثاني — فيما أنطوت عليه الخلافة من الممالك في القديم، وما كانت
عليه من الترتيب، وما هي عليه الآن، ولها حالتان ... ٢٦٩
- الحالة الأولى — ما كان عليه الحال في الزمن القديم ٢٧٠
- شعار الخلافة ٢٧٣
- الوظائف المعتبرة عندهم على ضربين ٢٧٧
- الضرب الأول — وظائف أرباب السيوف ٢٧٧
- الضرب الثاني — وظائف أرباب الأقلام ٢٧٨
- الحالة الثانية — ما صار إليه الأمر بعد انتقال الخلافة إلى الديار المصرية ٢٧٨

صفحة

- الباب الثالث - في ذكر مملكة الديار المصرية؛ وفيه ثلاثة فصول ... ٢٨٢
- الفصل الأول - في مملكة الديار المصرية ومضافاتها؛ وفيه طرفان ... ٢٨٢
- الطرف الأول - في الديار المصرية؛ وفيه اثنا عشر مقصدا ... ٢٨٢
- المقصد الأول - في فضلها ومحاسنها ... ٢٨٢
- المقصد الثاني - في ذكر خواصها وعجائبها، وما بها من الآثار القديمة ... ٢٨٦
- المقصد الثالث - في ذكر نيلها ومبده وأتهائه وزيادته وتقصه الخ ... ٢٨٩
- المقصد الرابع - في ذكر خلجانها؛ وهي ستة ... ٣٠١
- الخليج الأول - المنهى ... ٣٠١
- الخليج الثاني - خليج القاهرة ... ٣٠٢
- الخليج الثالث - خليج السردوس ... ٣٠٤
- الخليج الرابع - الإسكندرية ... ٣٠٤
- الخليج الخامس - خليج منجا ... ٣٠٥
- الخليج السادس - خليج دمياط ... ٣٠٥
- المقصد الخامس - في ذكر بحيرات الديار المصرية؛ وهي أربع بحيرات ... ٣٠٧
- المقصد السادس - في ذكر جبالها ... ٣٠٩
- المقصد السابع - في ذكر زروعها ورياحينها وفواكهها وأصناف المطعوم بها ... ٣١١
- المقصد الثامن - في ذكر مواشها ووحوشها وطيورها ... ٣١٤
- المقصد التاسع - في ذكر حدودها ... ٣١٤
- المقصد العاشر - في آباء عمارتها، وتسميتها مصر. وتفترع الأقاليم التي حولها عنها ... ٣١٧

صفحة

المقصد الحادى عشر — فى ذكر قواعدها القديمة والمباني العظيمة الباقية الخ ٣١٩
وقواعدها القديمة على ضربين :

الضرب الأول — ما قبل الطوفان ٣١٩

الضرب الثانى — قواعدها فيما بعد الطوفان ٣٢٠

المقصد الثانى عشر — فى ذكر قواعدها المستقرة ؛ وهى ثلاث ٣٢٩

القاعدة الاولى — مدينة الفسطاط ٣٢٩

(جوامعها) ٣٤٠

القاعدة الثانية — القاهرة ٣٤٨

(جوامعها) ٣٦٤

القاعدة الثالثة — القلعة ٣٧٢

الفصل الثانى — فى ذكر كور الديار المصرية ؛ وهى على ضربين ... ٣٧٩

الضرب الأول — فى ذكر كورها القديمة ؛ وهى ثلاثة أحياز ... ٣٧٩

الحيز الاول — أعلى الأرض ؛ وهو الصعيد ٣٨٠

الحيز الثانى — أسفل الأرض ؛ وهو أربع نواح ٣٨٥

الناحية الأولى — كور الحوف الشرقى ؛ وبها ثمان كور ٣٨٥

الناحية الثانية — بطن الريف ؛ وفيها سبع كور ٣٨٦

الناحية الثالثة — الجزيرة بين فرقى النيل الشرقية والغربية ؛

وفيها خمس كور ٣٨٨

الناحية الرابعة — الحوف الغربى ؛ وفيها إحدى عشرة كورة ٣٨٩

الحيز الثالث — كور القبلة ؛ وفيها خمس كور ٣٩١

الحيز الاول — [مما لم يذكره القضاعى] بلاد الواح ٣٩٣

صفحة

- ٣٩٥ البرقة — الحيز الثاني —
- الضرب الثاني — من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالها المستقرّة
٣٩٦ ولها وجهان .
- ٣٩٦ القبلي — الوجه الأول —
- ٤٠٢ البحرى ؛ ويشتمل على ثلاث شعب — الوجه الثاني —
- ٤٠٢ شرقى الفرقة الشرقية من النيل ؛ وفيها أربعة أعمال — الشعبة الأولى —
- ٤٠٦ غربى فرقة النيل الغربية ؛ وفيها عملان — الشعبة الثانية —
- ٤٠٩ ما بين فرقى النيل الشرقية والغربية ؛ وهو جزيرتان — الشعبة الثالثة —
- الفصل الثالث — فيمن ملك الديار المصرية جاهلية وإسلاما ؛ وهم
- ٤١١ على ثلاث مراتب
- ٤١١ من ملكها قبل الطوفان — المرتبة الأولى —
- من ملكها بعد الطوفان إلى حين الفتح الإسلامى ؛ وهم
- ٤١٢ على طبقات
- ٤١٢ ملوكها من القبط — الطبقة الأولى —
- ٤١٥ ملوكها من العماليق ملوك الشام — الطبقة الثانية —
- ٤١٦ ملوكها من القبط بعد العماليق — الطبقة الثالثة —
- ٤١٧ ملوكها من الفرس — الطبقة الرابعة —
- ٤١٨ ملوكها من اليونان — الطبقة الخامسة —
- ٤١٩ ملوكها من الروم — الطبقة السادسة —
- المرتبة الثالثة — من وليها فى الإسلام من بداية الأمر إلى زمن المؤلف ؛
- ٤٢٣ وهم على ضربين

صفحة

- الضرب الأول — فيمن وليها نيابة، وهو الصدر الأول؛ وهم على ثلاث طبقات ... ٤٢٣
- الطبقة الأولى — عمال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ... ٤٢٣
- الطبقة الثانية — عمال خلفاء بني أمية بالشام ... ٤٢٤
- الطبقة الثالثة — عمال خلفاء بني العباس بالعراق ... ٤٢٥
- الضرب الثاني — مَنْ وليها مُلكاً؛ وهم على أربع طبقات ... ٤٢٨
- الطبقة الأولى — من وليها عن بني العباس قبل دولة الفاطميين ... ٤٢٨
- الطبقة الثانية — من وليها من الخلفاء الفاطميين ... ٤٣٠
- الطبقة الثالثة — ملوك بني أيوب ... ٤٣٢
- الطبقة الرابعة — ملوك الترك ... ٤٣٤
- الفصل الرابع** — في ذكر ترتيب أحوال الديار المصرية؛ وفيه ثلاثة أطراف ... ٤٤٠
- الطرف الأول — في ذكر معاملاتها؛ وفيه ثلاثة أركان ... ٤٤٠
- الركن الأول — الأثمان؛ وهي على ثلاثة أنواع ... ٤٤٠
- النوع الأول — الدينانير المسكوكة؛ وهي ضربان ... ٤٤٠
- الضرب الأول — ما يتعامل به وزناً ... ٤٤٠
- الضرب الثاني — ما يتعامل به معادّة ... ٤٤١
- النوع الثاني — الدراهم المُقرّة ... ٤٤٣
- النوع الثالث — الفلوس ... ٤٤٣
- الركن الثاني — في المشتمات؛ وهي على ثلاثة أنواع ... ٤٤٥
- النوع الأول — الموزونات ... ٤٤٥

صفحة

النوع الثاني — الميكلات ٤٤٥

النوع الثالث — المقيسات؛ وهي الأراضي والأقشة ٤٤٦

أما الأراضي فصنفت :

الصنف الأول — أرض الزراعة ٤٤٦

الصنف الثاني — أرض البنان ٤٤٦

الركن الثالث — في الأسعار ٤٤٧

الطرف الثاني — في ذكر جسورها وأصناف أرضها؛ وما يختص بكل

صنف آخر ٤٤٨

أما جسورها فعلى صنفين :

الصنف الأول — الجسور السلطانية ٤٤٨

الصنف الثاني — الجسور البلدية ٤٤٩

الطرف الثالث — في وجوه أموالها الديوانية؛ وهي على ضربين ٤٥٢

الضرب الأول — الشرعي؛ وهو على سبعة أنواع ٤٥٢

النوع الأول — المال الخراجي ٤٥٢

والجاري في الدواوين منه على ضربين :

الضرب الأول — ماهو داخل في الدواوين السلطانية؛ وهو الآن (زمن

المؤلف) على أربعة أصناف ٤٥٥

الصنف الأول — ماهو جار في ديوان الوزارة ٤٥٥

الصنف الثاني — ماهو جار في ديوان الخالص ٤٥٦

الصنف الثالث — ماهو جار في الديوان المفرد ٤٥٧

الصنف الرابع — ماهو جار في ديوان الأملاك ٤٥٧

صفحة

- ٤٥٧ الضرب الثانى — ماهو جار فى الإقطاعات
- ٤٥٩ النوع الثانى — ما يتحصل مما يستخرج من المعادن
- ٤٦١ النوع الثالث — الزكاة
- ٤٦٢ النوع الرابع — الجوالى
- النوع الخامس — ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين فى البحر إلى
الديار المصرية
- ٤٦٣
- ٤٦٤ النوع السادس — الموارد الحشرية
- النوع السابع — ما يتحصل من دار الضرب بالقاهرة؛ والذي يضرب
فيها ثلاثة أصناف
- ٤٦٥
- ٤٦٥ الصف الأول — الذهب
- ٤٦٦ الصف الثانى — الفضة النقرة
- ٤٦٧ الصف الثالث — الفلوس المتخذة من النحاس الأحمر
- الضرب الثانى — من الأموال الديوانية بالديار المصرية غير الشرعية،
وهو المكوس؛ وهى على نوعين
- ٤٦٨
- ٤٦٨ النوع الأول — ما يختص بالديوان السلطانى؛ وهو صنفان
- الصف الأول — ما يؤخذ على الواصل المحلوب وأكثره متحصلا
جهتان
- ٤٦٨
- الجهة الأولى — ما يؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر
القلزم من جهة الحجاز واليمن وما والاها
- ٤٦٨
- الجهة الثانية — ما يؤخذ على واصل التجار بتطيا فى طريق الشام
- ٤٧٠
- ٤٧٠ الصف الثانى — ما يؤخذ بحاضرة الديار المصرية بالقسطاط والقاهرة

- صفحة
- النوع الثاني — ما لا اختصاص له بالديوان السلطاني ٤٧١
- في ترتيب المملكة؛ ولها ثلاث حالات ٤٧١
- الحالة الأولى — ما كانت عليه من حين الفتح إلى آخر الدولة الأخشيدية ٤٧١
- الحالة الثانية — ما كانت عليه في زمن الخلفاء الفاطميين؛ وتختصر
- في ثلاث جمل ٤٧٢
- الجملة الأولى — في الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العظام ٤٧٢
- الجملة الثانية — في حواصل الخليفة؛ وهي على خمسة أنواع ٤٧٥
- النوع الأول — الخزائن — ٤٧٥
- النوع الثاني — حواصل المواشي ٤٧٨
- النوع الثالث — حواصل الغلال وشون الأتبان ٤٧٩
- النوع الرابع — حواصل البضاعة ٤٧٩
- النوع الخامس — ما في معنى الحواصل ٤٨٠
- الجملة الثالثة — في ذكر جيوش الدولة الفاطمية وبيان مراتب أرباب
- السيوف؛ وهم على ثلاثة أصناف ٤٨٠
- الصف الأول — الأمراء ٤٨٠
- الصف الثاني — خواص الخليفة؛ وهم على ثلاثة أنواع ٤٨١
- النوع الأول — الأستاذون ٤٨١
- النوع الثاني — صبيان الخصاص ٤٨١
- النوع الثالث — صبيان الحجر ٤٨١
- الصف الثالث — طوائف الأجناد ٤٨٢
- الجملة الرابعة — في ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية؛ وهم على قسمين ٤٨٢

صفحة

- ٤٨٢ القسم الأول — ماجهضرة الخليفة؛ وهم أربعة أصناف
- ٤٨٢ الصف الأول — أرباب الوظائف من أرباب السيوف؛ وهم نوعان
- ٤٨٢ النوع الأول — وظائف عامة الحند
- النوع الثاني — وظائف خواص الخليفة من الأستاذين؛ وهي
- ٤٨٤ على ضربين
- ٤٨٤ الضرب الأول — ما يختص بالأستاذين المحنكين
- ٤٨٥ الضرب الثاني — ما يكون من غير المحنكين
- الصف الثاني — من أرباب الوظائف مجهضرة الخليفة أرباب الأقلام؛
- ٤٨٦ وهم على ثلاثة أنواع
- ٤٨٦ النوع الأول — أرباب الوظائف الدينية
- النوع الثالث — من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف الدينية؛ وهي
- ٤٨٩ على ثلاثة [أربعة] أضرب
- ٤٨٩ الضرب الأول — الوزارة إذا كان الوزير صاحب قلم
- ٤٩٠ الضرب الثاني — ديوان الإنشاء
- ٤٩٢ الضرب الثالث — ديوان الجيش
- ٤٩٣ الضرب الرابع — نظر الدواوين
- ٤٩٦ الصف الثالث — من أرباب الوظائف أصحاب الوظائف الصناعية
- ٤٩٧ الصف الرابع — الشعراء
- القسم الثاني — من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ما هو خارج
- ٤٩٧ عن حضرة الخلافة. وهو صنفان
- ٤٩٧ الصف الأول — النواب والولاة

صفحة

- الجملة الخامسة — من ترتيب مملكتهم في هيئة الخليفة في مواكبه وقصوره؛
 وهى على ثلاثة أضرب ٤٩٨
- الضرب الأول — جلوسه في المواكب؛ وله ثلاثة جلوسات ٤٩٨
- الجلوس الأول — جلوسه في المجلس العام أيام المواكب ٤٩٨
- الجلوس الثانى — جلوسه للقاضى والشهود في لىالى الوقود الأربيع
 من كل سنة ٥٠١
- الجلوس الثالث — جلوسه في مولد النبي صلى الله عليه وسلم ٥٠٢
- الضرب الثانى — ركوبه في المواكب؛ وهو على نوعين ٥٠٣
- النوع الأول — ركوبه في المواكب العظام، وهى ستة مواكب ... ٥٠٣
- الموكب الأول — ركوب أول العام ٥٠٣
- الموكب الثانى — ركوب أول شهر رمضان ٥٠٩
- الموكب الثالث — ركوبه في أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان ٥٠٩
- الموكب الرابع — ركوبه لصلاة عيدى الفطر والأضحى ... ٥١٢
- الموكب الخامس — ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل ... ٥١٦
- الموكب السادس — ركوبه لفتح الخليج ٥١٨
- النوع الثانى — من مواكبهم المواكب المختصرة في أثناء السنة ... ٥٢١
- الضرب الثالث — من هيئة الخليفة هيئته في قصوره ٥٢٢
- الجملة السادسة — في اهتمامهم بالأساطيل، وحفظ الثغور، وأعتنائهم بأمر
 الجهاد، وسيرهم في رعاياهم، وأستالة قلوب مخالفيهم ٥٢٣
- الجملة السابعة — في إجراء الأرزاق والعطاء لأرباب الخدم بدوتهم
 وما يتصل بذلك من الطعمة ٥٢٥

صفحة

- وأما الطعمة — فعلى ضريين ٥٢٧
- الضرب الأول — الأسمطة التي تمدّ في شهر رمضان والعيدان ٥٢٧
- الضرب الثاني — فيما كان يعمل بدار الفطرة في عيد الفطر ٥٢٨
- في جلوس الوزير للظالم الخ ٥٢٩



(تم فهرست الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الرابع

وأوله "الحالة الثالثة من أحوال المملكة

ما عليه ترتيب المملكة: من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا"



صنح الأربعة

الجزء الرابع

1875

دار الكتب الخديوية

كتاب

صنعة الأسيك

نالتف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الرابع

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ
٣ ١٩١٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحالة الثالثة

من أحوال المملكة ، ما عليه ترتيب المملكة
(من ابتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا)

وأعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وحلقتها في الديار المصرية ، خالفها في كثير من ترتيب المملكة ، وغيّرت غالب معالمها ، وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكي بالموصل ، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام وما معه ؛ وكان من شأنهم أنهم يلبسون الكلوات الصفر على رؤسهم مكشوفةً بغير عمام ، وذوائب شعورهم مُرخاةً تحتها سواء في ذلك المالك والأمرء وغيرهم . حتى يحكى عن الملك المعظم عيسى بن العادل أبي بكر صاحب دِمَشَق في أطراح التكلف : أنه كان يلبس الكلوة الصفراء بلا شاش ، ويخترق الأسواق من غير أن يُطَرَّق بين يديه كغيره من الملوك ، وكان سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي حين ملك الموصِل بعد أبيه أحدث حمل السنجق على رأسه ، فنبعه الملوك على ذلك ؛ وألزم الأجناد أن يشدوا السيوف في أوساطهم ، ويجعلوا الدبابيس تحت رُكبتهم عند الركوب كما حكاه السلطان عماد الدين صاحب حمّة في تاريخه .

فلما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله الديار المصرية، جرى على هذا المنهج أو ماقاربه، وجاءت الدولة التركية، وقد تنقحت المملكة وترتبت، فأخذت في الزيادة في تحسين الترتيب وتنضيد الملك وقيام أبيته، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها، فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب، وفاقته سائر الممالك، وفخر ملكها على سائر الملوك .

ولم يزل السلطان والجند يلبسون الكلوة الصفراء بغير عمامة إلى أن ولي السلطان "الملك الأشرف خليل" بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنة، فأحدث الشاش عليها بجات في نهاية من الحسن، وصاروا يلبسونها فوق الذائب الشعر المرخاة على ما كان عليه الأمر أولاً إلى أن حج السلطان الملك الناصر محمد ابن قلاوون في سلطته الثالثة، فخلق رأسه وخلق الناس رؤوسهم، وأستداموا خلق رؤوسهم وتركت ذوائب الشعر إلى الآن .

ويتعلق القول من ذلك بعشرة مقاصد .

المقصود الأول

(في ذكر رسوم الملك وآلاته ؛ وهو أنواع كثيرة، بعضها عام في الملوك

أو أكثرهم، وبعضها خاص بهذه المملكة)

منها - (سرير الملك) ويقال له تحت الملك . وهو من الأمور العامة للملوك، وقد تقدم أن أول من اتخذ مرتبة للجوس عليها في الإسلام معاوية رضي الله عنه حين بدن، ثم تنافس الخلفاء والملوك بعده في الإسلام في ذلك حتى اتخذوا الأسرة، وكانت أسرة خلفاء بني العباس ببغداد يبلغ علوها نحو سبعة أذرع . وهو في هذه المملكة منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذي يجلس فيه، وهو على هيئة منابر

الجوامع إلا أنه مستند إلى الحائط ، وهذا المنبر يجلس عليه السلطان في يوم مهم كقدوم رسل عليه ونحو ذلك ، وفي سائر الأيام يجلس على كرسى من خشب مغشى بالحريز ، إذا أرخى رجليه كادت أن تلحقا الأرض ، وفي داخل قصوره يجلس على كرسى صغير من حديد يحمل معه إلى حيث يجلس .

ومنها - (المقصورة) للصلاة في الجامع . وقد تقدم في الكلام على ترتيب الخلافة أن أول من اتخذها في الإسلام معاوية ، وقد صارت سنة ملوك الإسلام بعد ذلك تمييزا للسلطان عن غيره من الرعية ، وهي في هذه المملكة مقصورة بجامع قلعة الجبل على القرب من المنبر متخذة من شبك حديد محكمة الصنعة ، يصل إليها السلطان ومن معه من أخصاء خاصيته يوم الجمعة .

ومنها - (نقش اسم السلطان) على ما ينسج ويرقم من الكسوة والطرز المتخذة من الحرير أو الذهب بلون مخالف للون القماش أو الطرز لتصير الثياب والطرز السلطانية مميزة عن غيرها ، تنويها بقدر لابسها : من السلطان أو من يشرفه بلبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام أو غير ذلك . ولذلك دار مفردة بعمله بالإسكندرية تعرف بدار الطراز ، وعلى ذلك كانت خلفاء الدولتين : بنى أمية وبنى العباس حين كانت الخلافة قائمة .

ومنها - (الغاشية) . وهي غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يحالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه عند الركوب في المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركاب دارية ، رافعا لها على يديه يلفتها يمينا وشمالا ، وهي من خواص هذه المملكة .

ومنها - (المظلة) . ويعبر عنها بالخطر (بجيم مكسورة ، فدتبدل شيئا معجمة ، وتاء مثناة فوق) ، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب ، على أعلاها طائر من فضة

مَطْلَبَةٌ بالذهب ، تحمل على رأسه في العيدين . وهي من بقايا الدولة الفاطمية ، وقد تقدم الكلام عليها مبسوطا في الكلام على ترتيب مملكتهم .

ومنها - (الرَّقِبَة) . وهي رقبة من أطلس أصفر مزركشة بالذهب بحيث لا يرى الأطلس تراكم الذهب عليها ، تجعل على رقبة الفرس في العيدين والميادين من تحت أذني الفرس إلى نهاية عُرْفِهِ ، وهي من خواص هذه المملكة .

ومنها - (الحفقة) . وهما آثان من أوشاقية إصطبله قريبان في السن ، عليهما قبّاءان أصفران من حرير بطراز من زركش ، وعلى رأسيهما قُبَعَتَان من زركش ، وتحتهما فرسان أشهبان برهبتين وعُدّة ، نظير ما للسلطان راكب به كأنهما معدان لأن يركبهما ، يركبان أمامه في أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكرة في الميدان الكبير ونحو ذلك ، وهما من خواص هذه المملكة .

ومنها - (الأعلام) . وهي عدّة رايات ، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب ، عليها ألقاب السلطان وأسمه ، وتسمى العِصَابَة ؛ وراية عظيمة في رأسها خُصْلَة من الشعر تسمى الجاليس ؛ ورايات صُفْر صغار تسمى السّناجق .

قال السلطان عماد الدين صاحب حمّة في تاريخه : وأول من حَمَلَ السنجق على رأسه من الملوك في ركوبه غازي بن زنكي ، وهو أخو السلطان نور الدين محمود ابن زنكي صاحب الشام .

ومنها - (الطلبخانا) . وهي طبول متعدّدة معها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص ، تُدقُّ في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب ، وتكون صحبة الطلب في الأسفار والحروب ، وهي من الآلات العامة لجميع الملوك . ويقال إن الإسكندر^(١)

(١) لعله وزمّارات .

كان معه أربعون حملاً طبلخاناه، وقد كتب أرسطو في "كتاب السياسة" الذي كتبه للإسكندر أن السرّ في ذلك إرهاب العدو في الحرب، والذي ذهب إليه بعض المحققين أن السرّ في ذلك أن في أصواتها تهييجاً للنفس عند الحرب وتقوية الجأش كما تتفعل الإبل بالحداء ونحو ذلك.

ومنها - (الكوسات) . وهي صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير، يدقُّ بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبولٌ وشبابة، يدق بها مرتين في القلعة في كل ليلة، ويدأر بها في جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة، ومرة قبل التسبيح على الموائد^(١)، وتسمى الدّورة بذلك في القلعة، وكذلك إذا كان السلطان في السفر تدور حول خيامه.

ومنها - (الخيام والفساطيط) في الأسفار. ولهذا السلطان من ذلك المدد الكبير، تتخذ له الخيام العظيمة الشأن المختلفة المقادير والصنعة من القطن الشامى الملون بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان مما يدهش بحسنه العقول: لينوب مناب قصورهم في الإقامة، وسيأتى ذكر أمور أخرى من آلات الملك سوى ما تقدّم منفردة في أما كتبها إن شاء الله تعالى.

المقصد الثاني

(في حواصل السلطان، وهي على أربعة أنواع)^(٢)

النوع الأول

(الحواصل المعبر عنها بالبيوت)

وذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلى لفظ خاناه كالطشت خاناه، والشراب خاناه

(١) صوابه المآذن وكثيرا ما يجارى لغة العامة.

(٢) يظهر أن هذا النوع من النسخ فإنه في الضوء لم يذكر التنوع وإنما قسم الحواصل إلى البيوت الثمانية فقط ثم أتبعها بالمقصد الثالث.

ونحوهما؛ وخاناه لفظ فارسيّ معناه البيت، والمعنى بيت كذا إلا أنهم يؤخرون
المضاف عن المضاف إليه على عادة العجم في ذلك، وهي ثمانية بيوت .

الأول - (الشَّرَابِ خاناه) . ومعناها بيت الشراب، وتشتمل على أنواع الأَشْرِبَةِ
المُرْصَدَةِ لخاصّ السلطان، والمشروبِ الخاص من السكر والأَقْسِمَا وغير ذلك، وفيها
يكون السكر المخصوص بالمشروب، وبها الأواني النفيسة من الصّينيّ الفاحر من
الْأَزْوَردِيّ وغيره مما تساوى السُّكَّرُجَةُ الواحدة اللطيفة منه ألف درهم فما حوله .
ووظيفة الشادّ بها تكون لأمر من أكاير أمراء المئين الخاصكية المؤمنين، ولها
مِهتار يعرف بمهتار الشراب خاناه متسلّم لحواصلها، له مكانة عليّة، وتحت يده غلمانٌ
عنده برسم الخِدْمَةِ، يُطَلَقُ على كل منهم شراب دار، وسيأتي في الكلام على الألقاب
في المقالة الثالثة معنى الإضافة إلى الدار في ذلك ونحوه .

الثاني - (الطَّشَّتْ خاناه) . ومعناه بيت الطشت، سميت بذلك لأن فيها يكون
الطَّشَّتُ الذي تغسل فيه الأيدي والطَّشَّتُ الذي يُغَسَلُ فيه القماش، وقد غلب
عليهم استعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع
فتح الطاء، وأصله طَسُّ بسين مشدّدة فأبدلت من إحدى السنين تاء للاستتقال .
فإذا جُمِعَ أو صُغِّرَ، رُدَّتْ السين إلى أصلها، فيقال في الجمع طِساس وطُسُوس،
وفي التصغير طُسيس . قال الجوهريّ : ويقال فيه أيضا طَسَّة، ويجمع على طَسَّات،
والناس الآن يقولون طاسة ويجمعونه على طاسات، ويعملون الطَّشَّتَ أسماء لنوع
خاص، والطاسة أسماء لنوع خاص .

وفي الطَّشَّتْ خاناه يكون ما يلبسه السلطان من الكلوتة والأقيية وسائر الثياب
والسيف والخفّ والسرموزة وغير ذلك .

وفيها يكون ما يجلس عليه السلطان من المقاعد والمخادد والسجادات التي يصلّي عليها وما شاكل ذلك، ولها أيضا مهتار من كبار المهتارية، يعرف بمهتار الطشت خاناه، وتحت يديه عدة غلمان بعضهم يعرفون بالطشت دارية، وبعضهم يعرف بالرخوانية. وله التحدث في تفرقة اللحم على الممالك السلطانية من الحوائج خاناه وإقامة قباض اللحم، ويطلق على كل من غلمان الطشت خاناه وقباض اللحم بابا، وهي لفظة رومية بمعنى الأب، أطلقوها على مهتار الطشت خاناه تعظيما له، ثم غلبت على من عداه، ولغلمانها دربة بترتيب الأحمال التي تحمل على ظهور البغال للزينة في المواكب العظيمة ونحوها، يأتون فيها من بديع الصنعة والتعاليق الغربية بكل عجيب، وهم يتباهون بذلك، ويسامى بعضهم بعضا فيه.

الثالث - (الفراش خاناه). ومعناها بيت الفراش، وتشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام، ولها مهتار يعرف بمهتار الفراش خاناه، وتحت يده جماعة من الغلمان مستكثرة مرصدون للخدمة فيها في السفر والحضر يعبر عنهم بالفراشين، وهم من أمهر الغلمان وأنهمهم، ولهم دربة عظيمة في نصب الخيام حتى إن الواحد منهم ربما أقام الخيمة العظيمة ونصبها وحده بغير معاون له في ذلك، ولهم معرفة تامة بشد الأحمال التي تحمل في المواكب على ظهور البغال، يبلغ الحمل منها نحو خمسة عشرة ذراعا.

الرابع - (السلاح خاناه). ومعناها بيت السلاح، وربما قيل الزرد خاناه ومعناها بيت الزرد لما فيها من الدروع الزرد، وتشتمل على أنواع السلاح: من السيوف، والقسي العربية، والنشاب، والرماح، والدروع المتخذة من الزرد المانع، والقرقولات المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر، وغير ذلك

من الأطبار وسائر أنواع السلاح ، ويقالُ بها قسيّ الرّجل والرّكاب لعدم معاناتها بالديار المصرية ، وإنما تكثر بالثغور كالإسكندريّة وغيرها ، وفي كل سنة يحمل إليها ما يعمل بنزائن السلاح من الأسلحة ، يجعل على رؤوس الحمالين ويُرَفُّ إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً ، وفي هذه السلاح خاناه من الصّناع المقيمين بها لإصلاح العُدَد وتجديد المستعملات جماعة كثيرة ، ويسمى صانع ذلك الزردكاش ، وهي لفظة عجمية وكان معناها صانع الزرد ، ولها غلمان أخرى وفراشون بسبب خدمة القماش وأفتقاده .

الخامس - (الرّكاب خاناه) . ومعناها بيت الرّكاب ، وتشتمل على عُدَد الخيل من السروج ، والجم ، والكنايش ، وعى المراكيب ، والعبي الإصطليات ، والأجلال ، والمخالي وغير ذلك من الأصناف التي يطول ذكرها ، وفيها من السروج المغشاة بالذهب والفضة المطلية والسادجة والكنايش المتخذة من الذهب المزركش المزهرة بالريش ، وغير المزهرة ، والعبي المتخذة من الحرير ووصوف السهك ، وغير ذلك من نفائس العُدَد والمراكيب ما يحير العقول ويدهش البصر ، مما لا يقدر على مثله إلا عطاء الملوك . ولها مهتار متسلم لحواصلها يعبر عنه بمهتار الرّكاب خاناه ، وتحت يده رجال لمعاضدته على ذلك .

السادس - (الحوائج خاناه) . ومعناها بيت الحوائج ، وليست على هيئة البيوت المتقدمة مشتملة على حاصل معين ، وإنما لها جهة تحت يد الوزير منها يصرف اللّحم الراتب للطبخ السلطانيّ والدور السلطانية ورواتب الأمراء والماليك السلطانية وسائر الجند والمتعممين ، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ

(١) لم نثر على حيوان بهذا الاسم ولعله مصحف عن السمند .

أسماءهم الدفاتر، وكذلك تَوَابِلُ الطعام للطبخ السلطانيّ والدور السلطانية، ومن له تَوَابِلُ مرتبة من الأمراء وغيرهم، والزيت للوقود، والحبوب، وغير ذلك من الأصناف المتعددة؛ ولها مباشرون منفردون بها يَضْبِطُونَ أسماء أرباب المستحقّات ومقادير استحقاقهم، وهي من أوسع جهات الصرف حتى إن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم في كل يوم خارجا عما عداه من الأصناف، وربما زاد على ذلك.

السابع - (المطبخ). وهو الذي يُطَبَخُ فيه طعام السلطان الراتب في الغدَاء والعشاء والطارئ في الليل والنهار والأسمطة التي تمدّ بالإيوان الكبير بدار العدل في أيام المواكب، ويحمل إليه اللحم والتوابل وسائر الأصناف من الحوائج خاناه المتقدمة الذكر بقدر معلوم مرتب؛ يُسْتَهْلَكُ فيه في كل يوم قناطر مقنطرة من اللحم والدجاج والإوز والأطعمة الفاخرة؛ وله أمير من الأمراء يحكم عليه يسمّى أستاذار الصحبة وتحت يده آحر يعبر عنه بالمُشْرِف؛ وله طبّاخ كبير معتبر يعبر عنه باسباسلار.

الثامن - (الطبلخانا). ومعناه بيت الطبل، ويشتمل على الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات؛ ويحكم على ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير علم، يقف عليها عند ضربها في كل ليلة، ويتولّى أمرها في السفر؛ ولها مهتار متسلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخانا؛ وله رجال تحت يده ما بين دبندار: وهو الذي يضرب على الطبل، ومُنْفَر وهو الذي يضرب بالبوق، وكُوسِيٌّ، وهو الذي يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض وغير أولئك من الصنّاع.

المَقْصِدُ الثَّالِثُ

(في ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب الذين بهم أنتظام المملكة)

وقيام المُلك ؛ وهم على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(أرباب السيوف ؛ والنظر فيهم من وجهين)

الوجه الأول

(مراتبهم على سبيل الإجمال ؛ وهي على نوعين)

النوع الأول

(الأمراء ؛ وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى - أمراء المئين مقدمو الألو ف ، وعدة كل منهم مائة فارس .
قال في "مسالك الأبصار" : وربما زاد الواحد منهم العشرة والعشرين ؛
وله التقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة هي أعلى مراتب
الأمراء على تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والتواب .
ثم الذي كان آستقر عليه قاعدة المملكة في الروك الناصري محمد بن قلاوون ،
وما بعده إلى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ، أن يكون بالديار المصرية أربعة
وعشرون مقدما ، ولما آستجد في الدولة الظاهرية الديوان المفرد لخاص السلطان
وأفرد له عدة كثيرة من المماليك السلطانية والمستخدمين ، نقصت عدة المقدمين
عما كانت عليه ، وصارت دائرة بين الثمانية عشر والعشرين مقدما بما في ذلك من
نائب الإسكندرية ونائب الوجهين : القبلي والبحري .

الطبقة الثانية - أمراء الطبلخانا، وعدة كل منهم في الغالب أربعون فارسا .
 قال في "مسالك الأبصار" : وقد يزيد بعضهم على ذلك إلى سبعين فارسا ،
 بل ذكر في "التعريف" في أواخر المكاتبات أنه يكون للواحد منهم ثمانون فارسا .
 قال في "مسالك الأبصار" : ولا تكون الطبلخانا لأقل من أربعين ، وهذه الطبقة
 لاضابط لعدة أمراءها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخانا
 فجعلت إمرة عشرين أو أربع عشرات ، أوضم بعض العشرات ونحوها إلى بعض
 وجعلت طبلخانا ، ومن أمراء الطبلخانا تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف
 والكشاف بالأعمال ، وأكابر الولاية .

الطبقة الثالثة - أمراء العشرات ، وعدة كل منهم عشرة فارس . قال في "مسالك
 الأبصار" : وربما كان فيهم من له عشرون فارسا ولا يعد إلا في أمراء العشرات ،
 وهذه الطبقة أيضا لاضابط لعدد أمراءها بل تزيد وتنقص كما تقدم في الكلام على أمراء
 الطبلخانا ، ومن هذه الطبقة يكون صغار الولاية ونحوهم من أرباب الوظائف .
 الطبقة الرابعة - أمراء الخمسات . وهم أقل من القليل خصوصا بالديار المصرية ،
 وأكثر ما يقع ذلك في أولاد الأمراء المندرجين بالوفاة رعاية لسلفهم ، وهم في الحقيقة
 كأكابر الأجناد .

النوع الثاني

(الأجناد، وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى - المالك السلطانية . وهم أعظم الأجناد شأنا ، وأرفعهم قدرا ،
 وأشدهم إلى السلطان قُرْبا ، وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمّر الأمراء رتبة بعد رتبة ،

وهم في العدة بحسب ما يؤثِّره السلطان من الكثرة والقسلة ، وقد كان لهم في زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم في أيام السلطان الملك الظاهر برقوق العدد الجَمُّ والمدد الوافر لطول مدة ملكهما وأعتائهما يجلب الممالك ومشتراها .

الطبقة الثانية - أجناد الحلقة . وهم عدد جَمٍّ وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعممين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات ، وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كي لا يُحاط بعبئته ويطاع إليه . قال في "مسالك الأبصار" : ولكل أربعين نفسا منهم مقدم منهم ، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه ، وترتيبهم في موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثلاثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهايز السلطان في السفر كالحرس ، وأول من رتبهم وسماهم بهذا الاسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب .

الوجه الثاني

(في ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف المتقدم ذكرهم؛ وهم على نوعين)

النوع الأول

(من هو بحضرة السلطان ، وهي خمسة وعشرون وظيفة)

الأولى - النيابة . ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية . قال في "التعريف" : وهو يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير، وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يعلم عليه السلطان؛ وسائر التواب لا يعلم الرجل منهم إلا على ما يتعلق بخصوص نيابته . قال : وهذه رتبة

لا يخفى ما فيها من التمييز . قال في "مسالك الأبصار" : وجميع تواب الممالك تكاتبه فيما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يرآجع السلطان ، ويستخدم الجند من غير مشاوررة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وقل أن لا يجاب فيمن يُعينه ؛ وهو سلطانٌ مختصر بل هو السلطان الثاني . وعادته أن يركب بالعسكر في أيام الموابك وينزل الجميع في خدمته . فإذا مثل في حضرة السلطان ، وقف في ركن الإيوان . فإذا أنقضت الخدمة ، خرج إلى دار النيابة بالقلعة والأمراء معه ويجلس جلوسا عاما للناس ، ويحضره أرباب الوظائف ، ويقف قدامه الحجاب ، وتقرأ عليه القصص ، ثم يمد الساط للأمرء كما يمد لهم السلطان فيأكلون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة على هذه الصورة ، لم يكن السلطان يتصدى لقراءة القصص ، وسماع الشكاوى بنفسه ، ويأمر في ذلك بما يرى من كتابة مثال ونحوه ، ولكنه لا يستبد بما يكتب من الأبواب السلطانية بنفسه بل يكتب بإشارته وينبه على ذلك ، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك .

أما ديوان الجيش فإنه لا يكون له خدمة إلا عنده ولا اجتماع إلا به ، ولا اجتماع لهم بالسلطان في أمر من الأمور ، وما كان من الأمور المعضلة التي لا بد من إحاطة علم السلطان بها فإنه يعلمها بها تارة بنفسه وتارة بمن يرسله إليه . هذا آخر كلامه في "المسالك" غير أن هذا النائب تارة ينصب وتارة يعطى جيد الملكة منه ؛ وعلى هذا كان الحال في الأيام الناصرية ابن قلاوون تارة وتارة وكذا الحال في زماننا . وإذا كان متصباً ، أخص بإخراج بعض الإقطاعات دون بعض ، ويكون صاحب ديوان الجيش هو الملازم له وناظر الجيش ملازم السلطان .

قال في "التعريف" : أما نائب العيسة : وهو الذى يترك إذا غاب السلطان

(١) كذا في الضوء أيضاً ومراده يترك وشأنه في الحكم .

والنائب الكافل، وليس إلا لإيجاد الثوائر وخلص الحقوق، فحكه في رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء .

الثانية - الأتابكية . ويعبر عن صاحبها بأتابك العساكر . قال السلطان عماد الدين في "تاريخه" : وأصله أطابك ومعناه الولد الأمير، وأول من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوض إليه ملكشاه تدير المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة، ولقبه بألقاب منها هذا، وقيل أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهى، وغايته رفعة المحلّ وعلو المقام .

الثالثة - وظيفة رأس نوبة . وموضوعها الحكم على الممالك السلطانية والأخذ على أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء : واحدٌ مقدم ألف وثلاثةٌ طلبخاناة .

الرابعة - إمرة مجلس . وموضوعها (١) وهو يتحدث على الأطباء والكّمالين، ومن شاكلهم، ولا يكون إلا واحدا .

الخامسة - إمرة سلاح . وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان في الجامع الجامعة، وصاحبها هو المقدم على السلاح دارية من الممالك السلطانية والمتحدث في السلاح خاناه السلطانية ، وما يُستعمل لها ويقدم إليها، ولا يكون إلا واحدا من الأمراء المقدمين .

السادسة - إمرة أخورية . وموضوعها التحدث على إصطبل السلطان وخيوله، وعادتها مقدم ألف يكون متحدثا فيها حديثا عاما، وهو الذي يكون ساكنا

(١) بياض بالأصل ولعله وموضوعها تولى أمور مجلس السلطان .

بإصطبل السلطان، ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه . أما أمراء العشرات والجند، فغير محصورين .

السابعة - الدَّوَادِرِيَّة . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عاقمة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب الشريف وتقديم البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر، ويأخذ الخط على عاقمة المناشير والتواقيع والكتب . وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء برسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب ، وسيأتي بيان ذلك فيما يكتب بالرسائل في الكلام على قوانين ديوان الإنشاء إن شاء الله تعالى .

وفي هذه الوظيفة عدَّة من الأمراء والجند ، وقد كانت في أيام الناصر محمد بن قلاوون وما تلاها ليس فيها أميرٌ مقدَّم ألف ، ثم آل الأمر إلى أن صار الأعلى منهم مقدَّم ألف ، ونائبه طبلخاناه . وأول من استقرَّ في وظيفة الدَّوَادِرِيَّة من الأمراء الألوْف طغتمر النجمي في الدولة الناصرية حسن ، ثم صار غالب من يليها ألوْف ، وربما كان طبلخاناه أحيانا .

الثامنة - الحُجُوبِيَّة . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها أن صاحبها يُنصَفُ بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم مَنْ يعرض ومَنْ يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك ، والذي جرت به العادة خمسة حُجَّابٍ ، آثنان من مقدَّمي الألوْف : وهما حاجب الحُجَّاب هو المشار إليه من الباب الشريف ، والقائم مقام النائب في كثير من الأمور . وأعلم أن هذا الأسم أول ما حدث في الدولة الأمويَّة في خلافة عبد الملك بن مروان ، وكان موضوعها إذ ذاك حُجَّاب السلطان عن العاقمة ، ويُغلق بابه دونهم أو يفتحه لهم على قدره في مواعيته ،

(١) في الكلام سقط ظاهر ولعل الأصل "حاجب الحجاب ونائبه وحاجب الحجاب هو الخ" تأمل .

ثم تبعهم بنو العباس على ذلك . وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أنه كان للمقتدر سبعمائة حاجب . وهذا وكانت الخلافة قد أخذت في الضعف ، وهو خلاف موضوعها الآن ، وفيها بمالك المغرب معانٍ أخرى يأتي ذكرها عند الكلام على ممالكها إن شاء الله تعالى .

التاسعة - إمرة جاندار . وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان . قال في "مسالك الأبصار" : ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر . قال : وصاحبها كالمسلم للباب ، وله به البرددارية وطوائف الركابية والحازندارية . وإذا أراد السلطان تعزير أحد أوقته كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ، وهو المسلم للزردخاناه التي هي أرفع قدرا في الاعتقالات ، ولا تطول مدة المعتقل بها ، بل إما يعجل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه ؛ وصاحب هذه الوظيفة هو الذي يطوف بالزفة حول السلطان في سفره ، وقد جرت العادة أن يكون فيها أميران : مقدم ألف ، وطبلخاناه ، والمشار إليه هو المقدم .

العاشرة - الاستادارية . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها التحدث في أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والعلمان ، وهو الذي يمشي بطلب السلطان ، ويحكم في غلمانه وباب داره ، وإليه أمر الجاشنكيرية ، وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوى الإيئين ، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك للماليك وغيرهم . وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة : واحد مقدم ألف وثلاثة طبلخاناه ، وربما تقصوا عن ذلك .

(١) جمع الكسوة كسًا وكسَاءً . فما في الاصل جار على اصطلاح العامة .

الحادية عشرة - الجاشنكيرية . وموضوعها التحدث في أمر السّاط مع الاستادار على ما تقدمت الإشارة إليه ، ويقف على السّاط مع أستاذار الصحبة ، وأكبرهم يكون من الأمراء المقدمين .

الثانية عشرة - الخازندرية . وموضوعها التحدث في خزائن الأموال السلطانية من نقد ومّاش وغير ذلك ، وكانت عاداتها طبلخاناه ، ثم استقرت مقدمة ألف ، ويطلبه في حساب ذلك ناظر الخاص الآتي ذكره .

الثالثة عشرة - شدّ الشراب خاناه . وموضوعها التحدث في أمر الشراب خاناه السلطانية وما عمل إليها من السكر والمشروب والقواكه وغير ذلك ، وتارة يكون مقدّما ، وتارة يكون طبلخاناه .

الرابعة عشرة - أستاذارية الصحبة . وموضوعها التحدث على المطبخ السلطاني والإشراف على الطعام والمشى أمامه والوقوف على السّاط ، والعادة أن يكون صاحبها أمير عشرة .

الخامسة عشرة - مقدمة المالك . وموضوعها التحدث على المالك السلطانية والحكم فيهم ، ولا يكون صاحبها إلا من الخدام ، والعادة أن تكون إمرة طبلخاناه ، وله نائب أمير عشرة .

السادسة عشرة - زمامية الدور السلطانية . وصاحبها من أكبر الخدام ، وهو المعبر عنه بالزّمام ، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه .

السابعة عشرة - نقابة الجيوش . قال في "مسالك الأبصار" : وهي موضوعة لتولية الجند في عرضهم ، ومعه يمشى الثّقباء . وإذا طلب السلطان أو النائب

أو الحاجب أميرا أو غيره، أحضره . قال : وهو كأحد الحُجَّاب الصغار، وله التطلب بالحراسة في الموكب والسفر .

الثامنة عشرة - المهندارية . وموضوعها تَلَقَّى الرسل الواردين وأمراء العُربان وغيرهم ممن يردُّ من أهل المملكة وغيرها .

التاسعة عشرة - شَدِّ الدواوين . وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدثا في استخلاص الأموال، وما في معنى ذلك؛ وعادتها إمرة عشرة .

العشرون - إمرة طَبَر . وموضوعها أن يكون صاحبها حاملا الطَّبَر في الموكب، ويحكم على مَنْ دونه من الطَّبَر دارية؛ وعادتها إمرة عشرة أيضا .

الحادية والعشرون - إمرة عَلم . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفا في أمرها؛ وعادتها إمرة عشرة .

الثانية والعشرون - إمرة شكار . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا في الجوارح السلطانية من الطُّيور وغيرها والصُّبُود السلطانية وأحواش الطيور وغيرها؛ وهي إمرة عشرة .

الثالثة والعشرون - حِرَاسة الطير . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدثا على حراسة الطيور من الكراكِيت التي هي يصدد أن يصيدها السلطان في الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها؛ وهي إمرة عشرة .

الرابعة والعشرون - شَدِّ العماير . وموضوعها أن يكون صاحبها متكلما في العماير السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار؛ وهي إمرة عشرة .

الخامسة والعشرون - الولاية . والولاية بالحاضرة على صنفين .

الصنف الأول

(وَلَاةُ الشُّرْطَةِ ، المعروفون في الديار المصرية بولاية الحرب ؛ وهم ثلاثة ،
بالقاهرة ، والفُسْطَاطُ المعروف بمصر ، والقَرَافَةُ)

فأما وَاِلَى الْقَاهِرَةِ ، فيحكم في القاهرة وضواحيها ، وهو أكبر الثلاثة وأعلام
رتبةً ؛ وعادته إمرة طبلخاناه .

وأما وَاِلَى الْفُسْطَاطِ ، فيحكم في خاصّة مصر على نظير ما يحكم وَاِلَى الْقَاهِرَةِ
في بلده ؛ وعادته إمرة عشرة .

وأما وَاِلَى الْقَرَافَةِ ، فيحكم في القرافة التي هي تُرْبَةُ هَاتَيْنِ الْمَدِينَتَيْنِ بِمَرَاجِعَةٍ وَاِلَى
مصر ؛ وعادته إمرة عشرة . وقد أضيفت الآن القرافة إلى مصر ، وصارت ولاية
واحدة وجعلت إمرة طبلخاناه ولكنها لا تبلغ شأوَ الْقَاهِرَةِ .

الصنف الثاني

(وَلَاةُ الْقَلْعَةِ ، وهم آثَانُ)

أحدهما - وَاِلَى الْقَلْعَةِ ، وهو أمير طبلخاناه ، وله التحدّث على باب القلعة الكبير
الذي منه طلوع عامّة العسكر ونزولهم في الفتح والغلق ونحو ذلك .

الثاني - وَاِلَى بَابِ الْقَلْعَةِ ، وهو أمير عشرة ، وله التحدّث على الباب المذكور
وأهله كما لو ألى القلعة التحدّث على الباب الكبير المتقدم ذكره .

النوع الثاني

(ماهو خارج عن الحضرة السلطانية، وهم على ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(تُوَاب السُلْطَنَة)

والذى بمصر الآن ثلاثُ نيابات ، جميعها مستحدثة عن قُرب .

الأولى - نيابة الإسكندرية . وهى نيابة جليسة تُصاهى نيابة طرأبلس وحماة وصَفَد من المملكة الشامية الآتى ذكرها ، وبها كرسى سلطنة ونمجاه سلطانية توضع على الكرسى ، ونائبها من الأمراء المقدمين يركبُ فى المواكب بالشبابة السلطانية ، ومعه أجناد الحلقة المرتبون بها ، ويخرج فى موكبه إلى ظاهر الإسكندرية خارج باب البحر، ويجتمع إليه الأمراء المسيرون بها هناك، ثم يعود وهم معه إلى دار النيابة، ويُمد السباط السلطاني، ويأكل عليه الأمراء والأجناد، ويحضره القضاة ، وتقرأ القصص على عادة النيابات ثم ينصرفون .

وكان ابتداء ترتيب هذه النيابة فى سنة سبع وستين وسبعائة فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرقت العدو المخدول من الفرنج الإسكندرية وفتكوا بأهلها وقتلوا منهم الخلق العظيم ونهبوا الأموال الجمّة، وكانت قبل ذلك ولاية تُعدّ فى جملة الولايات، وكان لوالها الرتبة الجليلة والمكانة العلية من أكابر أمراء الطليخاناه .

الثانية - نيابة الوجه القبلى . وهى مما استُحدثت فى الدولة الظاهرية بقوق، وهو فى رتبة نيابة الوجه البحرى بل أعظم خطراً منه، ومقر نيابته مدينة أسيوط المتقدم ذكرها ، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها ، وهى فى الترتيب على

ما تقدم من نيابة الوجه البحرى ، وكانت قبل ذلك كاشفا يطلق عليه وإلى الولاية كما كان في الوجه البحرى .

الثالثة - نيابة الوجه البحرى . وهى مما أستحدث في الدولة الظاهرية أيضا ، ونائبها من الأمراء المقدمين ، وهو فى رتبة مقدم العسكر بغزة الآتى ذكرها ، ومقر نائبها دمنهور مدينة البحيرة المتقدم ذكرها ، وليست على قاعدة النيابات بل هى فى الحقيقة ولاية حرب كبيرة ، وقد كان القائم بها قبل ذلك كاشفا يطلق عليه وإلى الولاية ولم يكن له مقررة خاصة .

الطبقة الثانية

(الكشاف)

قد تقدم أنه قبل النيابة بالوجهين القبلى والبحرى كان بهما كاشفان ، ولما استقرت النيابة بهما جعل للوجه البحرى كاشف من أمراء الطبلخانا على العادة المتقدمة ، يتحدث فى بلاده ما عدا عمل البحيرة لقربه من نائب الوجه البحرى ، وجعل كاشف آخر من رتبته لعمل الفيوم وعطل من الوالى ، وأضيف إليه عمل البهنسى أيضا ، وسائر الوجه القبلى أمره راجع إلى نائبه المتقدم ذكره .

الطبقة الثالثة

(الولاية بالوجهين : القبلي والبحري)

وقد تقدم ذكر أعمالهما . ومراتب الولاية بهما لا تخرج عن مرتبتين .

المرتبة الأولى

(١)

(أمراء الطبلخانا، وهي سبع ولايات بالوجهين : القبلي والبحري)

فأما الوجه القبلي ففيه أربع ولاة من هذه الرتبة .

الأول - والى البنسى، وهي أقرب ولاية الطبلخانا بهذا الوجه الآن إلى القاهرة .

الثاني - والى الأشمونين .

الثالث - والى قوص وإخميم، وهو أعظم ولاية الوجه القبلي حتى إنه يركب

في المواكب بالشبابة السلطانية أسوة النواب بالملك .

الرابع - والى أسوان، وهو محدث في الدولة الظاهرية بقوق، وكانت قبل

ذلك مضافة إلى والى قوص، وكانت ولاية الفيوم طبلخانا آستقرت كسفا على

ما تقدم .

أما أسبوط، فلم يكن بها ولاية لكونها كانت مستقر والى الولاية بالوجه القبلي،

ثم صارت مستقر النائب به، وسيأتي بيان ما كان ولاية طبلخانا، ثم نقل إلى

العشرات .

وأما الوجه البحري ففيه أربعة ولاية من هذه الرتبة .

(١) لعله ثمان ولايات كما يظهر من عد الولاية بالوجهين .

الأول - والى الشرقية وهو والى بلبيس .

الثانى - والى منوف .

الثالث - والى الغربية ، وهو والى المحلة ، ورتبته فى الوجه البحرى فى رفعة القدر تضاهى رتبة والى قوص فى الوجه القبلى .

الرابع - والى البحيرة ، وهو والى دمنهور .

وقد تقدم أن الإسكندرية قبل أن تستقر نيابةً كان بها وال من أمراء الطبلخانا .

المرتبة الثانية

(من الولاية أمراء العشرات، وهى سبعة ولاية بالوجهين)

فأما الوجه القبلى ففيه ثلاثة ولاية .

الأول - والى الجيزة ، وقد كان قبل ذلك طبلخانا ، ثم نقل إلى العشرات .

الثانى - والى إطفيح ، ولم يزل عشرة .

الثالث - والى منفلوط ، وهو وإن كان الآن أمير عشرين فقد تقدم أن من دون الأربعين معدود فى العشرات . على أنها كانت قبل ذلك ولاية طبلخانا وحطت عن ذلك .

وقد كان بعيداب فى الايام الناصرية وال أمير عشرة يولث من قبيل السلطان ويراجع والى قوص فى الأمور المهمة .

وأما الوجه البحرى ، ففيه أربعة ولاية من هذه الرتبة .

- الأول - والى قَلْيُوبَ، ولم تزل ولايتها إمرة عشرة .
 الثانى - والى أَشْمُومَ، ولم تزل عشرة أيضا .
 الثالث - والى دِمِيَّاطَ .
 الرابع - والى قَطِيَاءَ، وكان قبل ذلك طبلخاناه .

الضرب الثانى

(من أعيان المملكة وأرباب المناصب حملة الأقاليم، وهم على نوعين)

النوع الأول

(أرباب الوظائف الديوانية، وهى كثيرة للذات لا يسع استيفاؤها
 والمعتبر منها مما يجب الأقتصار عليه تسع وظائف^(١))

الأولى - الوِزَارَةُ . وهى أجل الوظائف وأرفعها رتبةً فى الحقيقة لولم تخرج
 عن موضوعها ويُعدَّل بها عن قاعدتها . قال فى "مساك الأبصار" : وربها ثانى
 السلطان لو أنصف وعُرفَ حقُّه، لكنها لما حدثت عليها النيابة تأخرت وقعدت بها
 مكانها حتى صار المتحدث فيها كناظر المال لا يتعدى الحديث فيه، ولا يتسع له
 فى التصرف مجال، ولا تمتد يده فى الولاية والعزل لتطَّلع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات
 الأحوال . قال : وقد صار يليها أناسٌ من أرباب السيوف والأقاليم بأرزاق على
 قدر الإنفاق، وقطيعتها أشهر من أن تذكر .

قال : وكان هذا السلطان (يعنى الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله) قد أبطلها ،
 وصار ما كان يتحدث فيه الوزير منقسما إلى ثلاثة : ناظر المال - ومعه شاة الدواوين

(١) أوصلها فى العدد الى ست وعشرين ومراده أن المهم منها تسع وان كان قد ذكر أكثر .

لتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخالص لتدبير الأمور العامة وتعيين المباشرين، وكتب السر للتوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورةً وأستقلالا . قلت : ولما عادت الوزارة بعد ذلك، صارت إلى ما كانت عليه من الأقتصار على التحدث في المال، وبقيت كتابة السر على ما صارت إليه من التوقيع على القصص بدار العدل وغيرها . ثم إن كان الوزير صاحب قلم، فهو المستقل بمباشرة الوظيفة نظرا وتنفيذا ومحاسبة على الأموال، وإن كان صاحب سيف، كان مقتصر على النظر والتنفيذ، وكان أمر الحساب في الأموال راجعا إلى ناظر الدولة معه .

ثم لو وظيفة الوزارة أتباع كثيرة أجلها نظر الدولة وأستيفاء الصُحبة وأستيفاء الدولة .

فأما نظر الدولة : وهو المعبر عنه في مصطلح الدواوين المعمورة بالصُحبة الشريفة فهو موضوعها أن صاحبها يتحدث مع الوزير في كل ما يتحدث فيه ويشاركة في الكتابة في كل ما يكتب فيه ، ويوقع في كل ما يوقع فيه الوزير تبعاله . وإن كان الوزير صاحب سيف، كان ناظر الدولة هو المتحدث في أمر الحسابات ، وما يتعلق بها والوزير مقتصر على النظر والتنفيذ .

وأما أستيفاء الصُحبة - فهي وظيفة جليلة رفيعة القدر . قال في "مسالك

الأبصار" : وصاحبها يتحدث في جميع المملكة مصرًا وشامًا ، ويكتب مراسم يعلم عليها السلطان، تارة تكون بما يعمل في البلاد، وتارة بإطلاقات، وتارة بأستخدامات كبار في صغار الأعمال، وما يجري مجراه .

قال : وهذا الديوان هو أرفع دواوين الأموال ، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكل من دواوين الأموال فهو فرع هذا الديوان وإليه يرجع حسابه ومنتهاى أسبابه .

وأما استيفاء الدولة - فهي وظيفة رئيسية، وعلى متوليها مدار أمور الدولة في الضبط والتحرير ومعرفة أصول الأموال ووجه مصارفيها، ويكون فيها مستوفيان فأكثر .

الوظيفة الثانية - كتابة السر . قال في "مسالك الأبصار" : وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها وتسفيرها، وتصريف المراسيم ورودا وصَدْرًا ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها . وقد تقدم في الكلام على الوزارة أنه صار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة فيه، في أمور أخرى من التحدث في أمر البريد وتصريف البريدية والقُصَادِ، ومشاركة الدَّوَادِرِ في أكثر الأمور السلطانية مما تقدم ذكره مفصلاً . وبديوانه كُتِّبَ الدَّسْتُ : وهم الذين يجلسون معه في دار العدل ويقرؤون القصص على السلطان ويوقعون عليها بأمر السلطان ، وكُتِّبَ الدَّرَجُ : وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة، وربما شاركهم كُتِّبَ الدست في ذلك .

الوظيفة الثالثة - نظر الخصاص . وهي وظيفة محدثة، أحدثها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله حين أبطل الوزارة على ما تقدم ذكره ، وأصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان . قال في "مسالك الأبصار" : وقد صار كالوزير لقربه من السلطان وتصرفه، وصار إليه تدير جملة الأمور وتعيين المباشرين يعني في زمن تعطيل الوزارة . قال : وصاحب هذه الوظيفة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان . ولناظر الخصاص أتباع من كُتِّبَ ديوان الخصاص كمستوفي الخصاص ، ولناظر خزانة الخصاص ونحو ذلك مما لا يسع استيعابه .

الوظيفة الرابعة - نظر الجيش . وموضوعها التحدث في أمر الإقطاعات بمصر والشام والكتابة بالكشف عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ خطه ؛ وهي وظيفة

جلیلة رقیعة المقدار ، و دیوانها أول دیوان وُضع فی الإسلام بعد النبی صلی الله علیه وسلم فی خلافة عمر . قال الزُّهری : قال سعید بن المسیب : وذلك فی سنة عشرين من الهجرة ، و سیأتی الكلام علی ما یتعلق بها فی الكلام علی كتابة المناشير فی المقالة السادسة إن شاء الله تعالى . ولناظر الجيش أتباع بديوانه یولّون عن السلطان ، كصاحب دیوان الجيش وکتابه وشهوده ، وكذلك صاحب دیوان الممالیک ، وکاتب الممالیک وشهود الممالیک . فإن الممالیک السلطانية فرع من الجيش ونظرهم راجع إلى ناظر الجيش .

الوظيفة الخامسة - نظر الدواوين المعمورة والصحبة الشريفة . وهو المعبر عنه بناظر الدولة ، وموضوعها التحدث فی كل ما یتحدث فیه الوزير ، وکل ما کتب فیه الوزير کتب فیه هو ، یکتب فیه بمثل مارسم به .

الوظيفة السادسة - نظر الخزانة . قال فی "مسالك الأبصار" : وكانت أولا كبيرة الوضع لأنها مستودع أموال المملكة ، فلما أستحدثت وظيفة الخاص ، صغر أمر الخزانة ، وسمیت بالخزانة الكبرى ، وهو اسم فوق مسماه . قال : ولم یکن بها الآن إلا خلع تلخ منها أو ما یحضر إليها ویصرف أولا فأولا ، وفی الغالب یكون ناظرها من القضاة أو من یتحقق بهم ، ولناظر الخزانة أتباع یولّون عن السلطان كصاحب دیوان الخزانة .

الوظيفة السابعة - نظر البيوت والحاشية . وهو نظر جلیل ، وکل ما یتحدث فیه الأستاذار له فی مشاركة فی التحدث فیه ، وقد تقدم تفصیل حال وظيفة الأستاذارية .

الوظيفة الثامنة - نظر بیت المال . وموضوعها حمل حمول المملكة إلى بیت المال والتصرف فیه تارة قبضا وصرفا وتارة بالتسویغ محضرا وصرفا . قال فی "مسالك الأبصار" : ولا یلیها إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة .

الوظيفة التاسعة - نظر الإصطبلات السلطانية . وموضوعها مباشرة إصطبلات السلطان والتحدّث في أنواع الخيول والبغال والدواب والجمال السلطانية ، وعليقها وعُدتها ، وما لها من الأستعمالات والإطلاقات ، وكل ما يتباع لها أو يباع منها ، وأرزاق المستخدمين بها ونحو ذلك .

الوظيفة العاشرة - نظردار الضيافة والأسواق . وموضوعها التحدّث في أمر ما يتحصّل من سوق الخيل والرقيق ونحوهما ، وصرف ذلك في كلفة من يرد إلى الأبواب السلطانية من رُسل الملوك ونحوهم ، وصرف مرتبات مقررة لأناس في كل شهر ، والتحدّث فيها ولايةً وعزلاً وتنفيذاً راجعاً إلى الدوّادار ؛ وللوزير المشاركة معه في المتحصّل في شيء مخصوص .

الوظيفة الحادية عشرة - نظر خزائن السلاح . وموضوعها التحدّث على كل ما يستعمل من السلاح السلطاني ، وعادته أن يجمع ما يتحصّل من عمل كل سنة ويجهّز في يوم معين ، ويحمل على رؤوس الجمّالين إلى خزائن السلاح بالقلعة المحروسة ، ويخلع عليه وعلى رُفقته من المباشرين .

الوظيفة الثانية عشرة - نظر الأملاك السلطانية . وموضوعها التحدّث على الأملاك الخاصّة بالسلطان من ضياع وربّاع وغير ذلك .

الوظيفة الثالثة عشرة - نظر البهّار والكارمي^(١) . وموضوعها التحدّث على واصل التجار الكارميّة من اليمن من أصناف البهّار وأنواع المتجر ، وهي وظيفة جليّة تارة تضاف إلى الوزارة وتجعل تبعاً لها ، وتارة تضاف إلى الخالص وتجعل تبعاً لها ، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان .

(١) ربح في الضوء الكامي بالنون وقال انه نسبة الى الكامي فرقة من السودان كان منهم طائفة مقيمة بمصر يجرون في البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم الى آخر ما قال فراجعه .

الوظيفة الرابعة عشرة - نظر الأهرام بمصر بالصناعة . وهي سُونة الغلال السلطانية التي يتكلم عليها الوزير ، وموضوعها التحدث فيما يصل إليها من النواحي من الغلال وغيرها ، وما يُصرف منها على الإصطبلات الشريفة والمناخات السلطانية وغير ذلك .

الوظيفة الخامسة عشرة - نظر الموارث الحشرية . وموضوعها التحدث على ديوان الموارث الحشرية ممن يموت ولا وارث له ، أو وله وارث لا يستغرق ميراثه ، مع التحدث في إطلاق جميع الموتى من المسلمين وغيرهم .

الوظيفة السادسة عشرة - نظر الطواحين السلطانية بمصر بالصناعة أيضا . وهو مغلق عظيم فيه عشرة حجارة يخرج منها في كل يوم نحو خمسين تليسا .

الوظيفة السابعة عشرة - نظر الحاصلات . وهو المعبر عنه بنظر الجهات ؛ وموضوعه التحدث في أموال جهات الوزارة من متحصّل ومصروف أو حمل لبيت المال وغيره .

الوظيفة الثامنة عشرة - نظر المرتجعات . وموضوعها التحدث على ما يُرتجَع من يموت من الأمرء ونحو ذلك ، وقد رُفِضت هذه الوظيفة وتعطلت ولايتها في الغالب وصار أمر المرتجَع موقوفا على مستوفى المرتجع ، وهو الذى يحكم في القضايا الديوانية ويفصلها على مصطلح الديوان ، وهو المعبر عنه بديوان السلطان .

الوظيفة التاسعة عشرة - نظر الجزية . وموضوعها التحدث على ما يتحصّل من عمل الجزية التي هي خاص السلطان ، وهي فرع من فروع الدواوين .

الوظيفة العشرون - نظر الوجه القبلى . وموضوعها التحدث على بلاد الصعيد بأسرها مما يتحصّل فيها من ميراث وغيره .

الوظيفة الحادية والعشرون - نظر الوجه البحري . وموضوعها كموضوع نظر الوجه القبلي المتقدم ذكره .

الوظيفة الثانية والعشرون - صحابة ديوان الجيش . وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث فيه ناظر الجيش من أمر الإقطاعات .

الوظيفة الثالثة والعشرون - صحابة ديوان البيارستان . وموضوعها التحدث في كل ما يتحدث فيه ناظر البيارستان .

الوظيفة الرابعة والعشرون - صحابة ديوان الأعباس . وصاحبها يكتب في كل ما يكتب فيه ناظر الأعباس إلا أنها بطلت .

الوظيفة الخامسة والعشرون - أستيفاء الصجبة .

أستيفاء الدولة (١)

النوع الثاني

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف ،

وهو منحصر في خمس وظائف)

الوظيفة الأولى - قضاء القضاة . وموضوعها التحدث في الأحكام الشرعية وتنفيذ قضاياها ، والقيام بالأوامر الشرعية ، والفصل بين الخصوم ، ونصب النواب

(١) تقدم الكلام عليهما في الكلام على توابع الوظيفة الأولى من هذا النوع وهي الوزارة فأرى أنه لا داعي إلى الإعادة فلا سقط كما قد يتوهم .

للتحدث فيما عَسَّر عليه مباشرته بنفسه ؛ وهى أرفع الوظائف الدينية واعلاها قدرا وأجلها رتبة .

وأعلم أن الأمر في الزمن الأول كان قاصرا على قاض واحد بالديار المصرية من أى مذهب كان، بل كان في الدولة الفاطمية قاض واحد بالديار المصرية، وأجناد الشام، وبلاد المغرب، مضاف إليه التحدث في أمر الصلاة ودور الضرب وغير ذلك على ما استتقف عليه في تقاليد بعض قضاتهم في الكلام على تقاليد القضاة إن شاء الله تعالى، ثم استقر الحال في الأيام الظاهرية ببيرس في سنة ثلاث وستين وستائة على أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة: الشافعي ومالك وأبي حنيفة وأحمد بن حنبل رضى الله عنهم، وكان السبب في ذلك فيما ذكره صاحب "نهاية الأرب" أن قضاء القضاة بالديار المصرية كان يومئذ بيد القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعرز بمفرده ؛ وكان الأمير جمال الدين ايدغدى أحد أمراء السلطان الملك الظاهر المتقدم ذكره يعانده في أموره، ويغضُّ منه عند السلطان، لتثبته في الأمور وتوقفه في الأحكام . فبينما السلطان ذات يوم جالس بدار العدل إذ رُفِعَت إليه قصة بسبب مكان باعه القاضى بدر الدين السنجارى ، ثم ادعى ذريته بعد وفاته أنه موقوف، فأخذ الأمير ايدغدى يغضُّ من القضاة بحضرة السلطان، فسكت السلطان لذلك ، ثم قال للقاضى تاج الدين : ما الحكم في ذلك ؟ قال : إذا ثبتت الوقفية يستعاد الثمن من تركة البائع ، قال : فإن عجزت التركة عن ذلك، قال : يوقف على حاله ، فأمتعض لها السلطان وسكت ، ثم جرى في المجلس ذكر أمور أخرى توقف القاضى في تمثيتها ، وكان آخر الأمر أن الأمير ايدغدى حسنَ للسلطان نصبَ أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ففعل ، وأقر القاضى تاج الدين ابن بنت الأعرز في قضاء الشافعية، وولى الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح

السبكي قضاء المالكية ، والقاضي بدر الدين بن سلمان قضاء الحنفية ، والقاضي شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين إبراهيم القدسي قضاء الحنابلة ، وجعل لهم الأربعة أن يؤثروا التواب بأعمال الديار المصرية ، وأفرد القاضي تاج الدين بالنظر في مال الأيتام والأوقاف ، وكتب له بذلك تقليد من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر أوله " الحمد لله مجرد سيف الحق على من آتدى " . ثم كل من الأربعة له التحدث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفسطاط ، ونصب التواب ، وإجلاس الشهود ، ويستقل الشافعي منهم بتولية التواب بنواحي الوجهين القبلي والبحري لا يشاركه فيه غيره .

الوظيفة الثانية - قضاء العسكر . وهي وظيفة جليلة قديمة كانت في زمن السلطان

صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان قاضي عسكره بهاء الدين بن (١) وموضوعها أن صاحبها يحضر بدار العدل مع القضاة المتقدم ذكرهم ، ويسافر مع السلطان إذا سافر ، وهم ثلاثة نفر : شافعي ، وحنفي ، ومالكي ، وليس للحنابلة منهم حظ ، وجلووسهم في دار العدل دون القضاة الأربعة المتقدمي الذكر على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة - إفتاء دار العدل . وموضوعها على نحو ما تقدم في قضاء

العسكر ، وبها أربعة نفر ، من كل مذهب واحد ، وجلووسهم دون قضاة العسكر على ما يأتي ذكره .

الوظيفة الرابعة - وكالة بيت المال . وهي وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ،

وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراض وأدر وغير ذلك ، والمعاقدة على ذلك وما يجري هذا المجرى . قال في "مسالك الأبصار" :

(١) بياض بالأصل .

ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل : تارة يكون دون المحتسب ، وتارة فوqe بحسب رفعة قدر كل منهما في نفسه .

الوظيفة الخامسة - الحسبة . وهي وظيفة جليلة رفيعة الشأن ، وموضوعها التحدث في الأمر والنهي ، والتحدث على المعاش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته . وبالحضرة السلطانية محتسبان : أحدهما بالقاهرة ، وهو أعظمهما قدرا وأرفعهما شأنًا ؛ وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى بكماله خلا الإسكندرية ، فإن لما محتسبا يُخصَّصا ، والثاني بالفسطاط ومرتبته منحطة عن الأول ؛ وله التحدث والتولية بالوجه القبلى بكماله ، والذي يجلس منهما بدار العدل في أيام المواكب محتسب القاهرة فقط دون محتسب مصر ؛ ومحلُّ جلوسه دون وكيل بيت المال ، وربما جلس أعلى منه إذا كان أرفع منه بعلم أو نحوه .

الصنف الثانى

(من أرباب الوظائف الدينية من لا يجلس له بالحضرة السلطانية)

وهذه الوظائف لا حصرَ لعددها على التفصيل ، ولا سبيلَ إلى استيفاء ذكرها على تفاوتِ المراتب فوجب الأقتصار على ذكر المهتم منها .

ثم هذه الوظائف منها ما هو مختصُّ بشخص واحد ، ومنها ما هو عامٌّ فى أشخاص .

فأما التى هى مختصة بشخص واحد .

فمنها (رقابة الأشراف) وهى وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ؛ موضوعها التحدث على ولد على بن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم المراد بالأشراف ، فى الفحص عن أنسابهم والتحدث فى أقاربهم

والأخذ على يد المتعدى منهم ونحو ذلك ، وكان يعبر عنها في زمن الخلفاء المتقدمين بنقابة الطالبين .

ومنها (مشيخة الشيوخ) والمراد بها مشيخة الخانقاه التي أنشأها الملك الناصر محمد ابن قلاوون بسريا قوس من ضواحي القاهرة .

أما مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة المعروفة بسعيد السعداء ، فإنها وإن قدم زمنها وعظم قدرها دون تلك في المشيخة .

ومنها (نظر الأعباس المبرورة) وهي وظيفة عالية المقدر ؛ وموضوعها أت صاحبها يتحدث في رِزق الجوامع والمساجد والرُّبُط والزوايا والمدارس من الأرضين المفردة لذلك من نواحي الديار المصرية خاصة ، وما هو من ذلك على سبيل البرِّ والصدقة لأناس معينين ، وأصل هذه الوظيفة أن اللَّيْث بن سعد رحمه الله اشترى أراضى من بيت المال في نواح من البُلدان وحَبَّسها على وجوه البرِّ ، وهي المسماة بديوان الأعباس بوجوه العين ، ثم أضيف إلى ذلك الرَّبَاع والدور المعروفة بالفُسْطَاط وغيره ، ثم أضيف إليها رِزق الخطابات ، ثم كثرت الرِّزق من الأرضين في الدولة الظاهرية ببيرس بواسطة صاحب بهاء الدين بن حنا وأخذت في الزيادة إلى زماننا ؛ وهي تارة يتحدث فيها السلطان بنفسه ، وتارة النائب ، وفي غالب الوقت يتحدث فيها الدُّوَادار الكبير على ما استقرَّ عليه الحال آخرًا .

ومنها (نظر البيارستان) والمراد البيارستان المنصوري الذي أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين ، وكان داراً لِسِتِّ الملك أخت الحاكم الفاطمي فغير معاملة وزاد فيه ، وليس له نظير في الدنيا في برِّه ومعروفه ؛ وهي من أجلِّ الوظائف وأعلاها ؛ وعادة النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية .

وأما التي هي عامة في أشخاص .

فمنها (الخطابة) وهي في الحقيقة أجل الوظائف وأعلاها رتبة، إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعلها بنفسه، ثم فعلها الخلفاء الراشدون فمن بعدهم، وهي على كثرة الجوامع بالديار المصرية بحيث إنها لا تحصى كثرة - لا يتعلق منها بولاية السلطان إلا القليل النادر: بجامع القلعة إلا إذا كان مفردا عن القضاء ونحو ذلك مما لا ناظر له خاص .

ومنها (التدريس) وهي على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لا يولّى السلطان فيها إلا فيما يعظم خطره ويرتفع شأنه مما لا ناظر له خاص كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالقسطاط، وهي المعروفة بالخشابية، والمدرسة المنصورية بالبيارستان المنصوري المتقدم ذكره بين القصرين، ودرس الجامع الطولوني ونحو ذلك .

المقصود الرابع

(في زى أعيان المملكة من أرباب المناصب السلطانية بالديار المصرية

في لبسهم وركوبهم، وهم أربع طوائف)

الطائفة الأولى

(أرباب السيوف، وزيمهم راجع إلى أمرين)

الأمر الأول (لبسهم). ويختلف الحال فيه باعتبار مواضع اللبس من البدن .

فأما مابه تغطية رؤوسهم، فقد تقدم أنهم كانوا في الدولة الأيوبية يلبسون ككوتات

صُفر بغير عمام، وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم . فلما كانت الدولة

الأشرفية "خليل بن قلاوون" رحمه الله، غير لونها من الصفرة إلى الحمرة وأمر بالعام من فوقها، وبقيت كذلك حتى حجَّ الملك الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله في أواخر دولته فخلق رأسه فخلق الجميع رؤسهم، وأستمروا على الخلق إلى الآن، وكانت عماتهم صغيرة فزيد في قدرها في الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" فحسنت هيئتها وجادت، وهي على ذلك إلى زماننا .

وأما ثياب أبدانهم فيلبسون الأقبية التتريّة والتكلاوات فوقها ثم القباء الإسلاميّ فوق ذلك، يشدّ عليه السيف من جهة اليسار والصولق والكرلك من جهة اليمين . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" : وأول من أمر بذلك غازي بن زنكي أخو العادل نور الدين الشهيد حين ملك الموصل بعد أبيه ، ثم الأمراء والمقدمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبية قصيرة الأكام أقصر من القباء التحتانيّ بلا تفاوت كبير في قصر الكم وطوله ، مع سعة الكم القصير وضيق الأكام الطويلة .

ثم إن كان زمن الصيف كان جميع القماش من فوقانيّ وغيره أبيض من النصافي ونحوه، وتشدّ فوق القباء الإسلاميّ المنطقّة، وهي الحياصة، ومعظم مناطقهم من الفضة المطلية بالذهب، وربما جعلت من الذهب، وقد تُرصّع باليشم . قال في "مسالك الأبصار" : ولا تُرصّع بالجواهر إلا في خلع السلطان لأكابر أمراء الميئين .

وإن كان زمن الشتاء كانت فوقانياتهم ملونة من الصوف النفيس والحريير الفائق، تحتها فرأى السّجّاب الغض . ويلبس أكابر الأمراء السّمور، والوشق، والقاقم والفنك، ويجعل في المنطقّة منديلا لطيفا مُسدّلا على الصولق، ومعظمهم يلبس

المطرز على الكمين من الزركش أو الحرير الأسود المرقوم. قال في "المسالك": ولا يلبس المطرز إلا من له إقطاع في الحلقة، أمان هو بعدد بالجامكية، فلا يتعاطى ذلك. وأما ما يجعل في أرجلهم، فإن كان في الصيف لبسوا الخفاف البيض العلوية، وإن كان في الشتاء لبسوا الخفاف الصفر من الأديم الطائفي، ويشدون المهاميز المسقطة بالفضة في القدم على الخف. قال في "مسالك الأبصار": ولا يكفّت مهمازه بالذهب إلا من له إقطاع في الحلقة على ما تقدم في لبس المطرز.

الأمر الثاني (ركوبهم). أما ما يركبون، فالخيل المسومة النفيسة الأثمان خصوصا الأمراء ومن يلحق بشأوهم، ولا يركبون البغال بحال بل تركبها غلمانهم خلفهم بالقماش النفيس والهيئة الحسنة والقوالب المحلاة بالفضة، وربما غشى جميعها بالفضة بل ربما غشى جميعها بالذهب للسلطان وأعيان الأمراء، ومعها العبي السابلة الملونة من الصوف الفائق، وربما جعلت من الحرير لأعيانهم، وقد يتخذ بدلها الكبايش بالحواشي المخايش، وربما كانت زركشا للسلطان والأمراء، وتحلى لهممهم وتُسقط بالفضة بحسب اختيار صاحبها، ويجعل الدبوس في حلقة متصلة بالسرّج تحت ركبتة اليمنى. قال صاحب حماة: وأول من أمرهم بذلك غازي بن زكي حين أمرهم بشد السيوف في أوساطهم على ما تقدم ذكره. قال في "مسالك الأبصار": وعلى الجملة فزيهم ظريف وعددهم فائقة نفيسة.

الطائفة الثانية

(أرباب الوظائف الدينية من القضاة وسائر العلماء؛

وزيهم راجع أيضا إلى أمرين)

الأمر الأول (ملبوسهم). ويختلف ذلك باختلاف مراتبهم، فالقضاة والعلماء

منهم يلبسون العمام من الشاشات الجار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة تلحق قَرْبُوسَ سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عَوْضَ الذُّوَابَةِ الطيلسانَ الفائق ، ويلبس فوق ثيابه دلقا متسع الأكام طويلها مفتوحا فوق كتفيه بغير تفریح ، سابلا على قدميه . ويميز قُضَاةَ القضاة الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته وتسدل على ظهره ، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعي ، ومن دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فَرَجِيَّةَ مفرجة من قدامه من أعلاها إلى أسفلها مزرزة بالأزرار ، وليس فيهم من يلبس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ، وإن كان شتاء كان القوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطى ، ولا يلبسون الملون إلا في بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات ، ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مَهايميز .

الأمر الثاني (مركوبهم) . أما أعيان هذه الطائفة من القضاة ونحوهم فيركبون البغال النفيسة المساوية في الأثمان لمُسُومَاتِ الخيول ، بلجُمِ ثِقَالٍ وسروج مدهونة غير محلاة بشيء من الفضة ، ويجعلون حول السرج قرقشينا من جوخ . قال في "مسالك الأبصار" : وهو شبيه بثوب السرج مختصر منه ، ويجعلون بدل العبي الككايش من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة ، ويمتاز قضاة القضاة بأن يجعل بدل ذلك الزناري من الجوخ ، وهو شبيه بالعباءة مستدير من وراء الكفل ولا يعلوه بردنب ولا قوش ، وربما ركبوا بالككايش . وأما من دون هؤلاء من هذه الطائفة فربما ركبوا الخيول بالككايش والعبي .

الطائفة الثالثة

(مشايخ الصوفية)

وهم مُضَاهُونَ لطائفة العلماء في لبس الدلق إلا أنه يكون غير سابل، ولا طويل الكُمَّ؛ وَيُرْخُونَ ذُوَابَةَ لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد تلتحق الكتف، ويركبون البغال بالكابيش على نحو ما تقدم .

الطائفة الرابعة

(أرباب الوظائف الديوانية)

أما أعيانهم كالوزراء وَمَنْ ضَاهاهم ، فيلبسون الفراجى المضاهية لفراجى العلماء المتقدمة الذكر، وربما لَبَسُوا الحِجَابَ المفرجة من ورائها . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن أكابرهم كانوا يجعلون في أكامهم بادهنجات مفتوحة ، وقد صار ذلك الآن قاصرا على ما يلبسونه من التشاريف . وَمَنْ دون هؤلاء يلبسون الفرجيات المفرجة من ورائها على ما تقدم .

وأما ركوبهم فيضاهي ركوب الهند أو يقاربه . قال في "مسالك الأبصار" : وتجل هذه الطائفة بمصر أكل مما هم بالشام في زيّهم وملبوسهم ، إلا ما يحكى عن قبْط مصر في بيوتهم من اتساع الأحوال والنققات ، حتى إن الواحد منهم يكون في ديوانه بأدنى اللباس ويأكل أدنى المآكل ، ويركب الحمار ، حتى إذا صار في بيته أنتقل من حال إلى حال وخرج من عدم إلى وجود . قال : ولقد تبالع الناس فيما تحكى من ذلك عنهم .

المقصد الخامس

(في هيئة السلطان في ترتيب الملك ، وله ثلاث هيئات^(١))

الهيئة الأولى

(هيئته في جلوسه بدار العدل لخلاص المظالم)

عادة هذا السلطان إذا كان بالقلعة في غير شهر رمضان أن يجلس بكرة يوم الاثنين بياوانه الكبير المسمى بدار العدل المتقدم ذكره مع ذكر القلعة في الكلام على حاضرة الديار المصرية ؛ ويكون جلوسه على الكرسي الذي هو موضوع تحت سرير الملك . قال في "مسالك الأبصار" : ويجلس على يمينه قضاة القضاة من المذاهب الأربعة ، ثم وكيل بيت المال ، ثم الناظر في الحسبة . ويجلس على يساره كاتب السر ، وقدامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين تكلمة حلقة دائرة . قال : وإن كان الوزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان من أرباب السيوف ، كان واقفا على بُعد مع بقية أرباب الوظائف . وكذلك إن كان ثم نائب وقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان ممالك صغار عن يمينه ويساره من السلاح دارية والجمدارية والخاصكية ؛ ويجلس على بُعد بقدر خمسة عشر ذراعا من يمينه ويسارته ذوو السق من أكابر أمراء الميين ، وهم أمراء المشورة ؛ ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء ، وأرباب الوظائف وقوف ، وباقي الأمراء وقوف من وراء المشورة ؛ ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإحضار قصص أرباب الضرورات وإحضار المساكين ، وتقرأ عليه القصص فما احتاج فيه إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقا بالعسكر تحدث فيه مع الحاجب وناظر الجيش ، ويأمر في البقية بما يراه .

(١) الصواب سبع كما عبره في الضوء وهي في العدد أيضا سبع كما ستره .

قلت : وقد استقرّ الحال على أن يكون عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة :
وهما الشافعيّ والمالكيّ ، وعن يساره قاضيان وهما الحنفيّ ثم الحنبليّ ؛ وبيلي القاضي
المالكيّ من الجانب الأيمن قضاة العسكر الثلاثة المتقدّم ذكرهم الشافعيّ ثم الحنفيّ
ثم المالكيّ ؛ ويليهم مفتو دار العدل على هذا الترتيب ؛ ويليهم وكيل بيت المال
ثم الناظر في الحسبة بالقاهرة ، وربما جلس المحتسب فوق وكيل بيت المال إذا علا
قدّره عليه بعلم أو رياسة . كل هؤلاء صف واحد عن يمين السلطان مستدبرين
جدار صدر الإيوان مستقبلين بابه ، والقاضيان الحنفيّ والحنبليّ كذلك من الجانب
الأيسر ، والوزير إن كان من أرباب الأقلام إلى جانب الكرسيّ من الجانب الأيسر
بانحراف ، وكاتب السرّ يليه ، وتستدير الحلقة حتى يصير الجالس بها مستدبرا باب
الإيوان على ما تقدّمت الإشارة إليه في كلام "مسالك الأبصار" .

الهيئة الثانية

(هيئته في بقية الأيام)

عادته فيما عدا الاثنين والخميس من الأيام أن يخرج من قصوره الجوانية المتقدّم
ذكرها إلى قصره الكبير المشرف على إصطبلاته ، ثم تارة يجلس على تحت الملك الذي
بصدّره ، وتارة يجلس على الأرض ، ويقف الأمراء حوله على ما تقدّم في الجلوس
في الإيوان ، خلا أمراء المشورة والغرباء منه فليس لهم عادة بحضور هذا المجلس
إلا من دعت الحاجة إلى حضوره ، ثم يقوم في الثالثة من النهار فيدخل إلى قصوره
الجوانية لمصالح ملكه ، ويعبر عليه خاصته من أرباب الوظائف كالوزير ، وكاتب
السرّ ، وناظر الخصاص ، وناظر الجيش في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه .

الهيئة الثالثة

(هيئته في صلاة الجمعة والعيدين)

أما صلاة الجمعة فإن عاداته أن يخرج إلى الجامع المجاور لقصره المتقدم ذكره من القصر، ومعه خاصة امرائه، فيدخل من أقرب أبواب الجامع للقصر، ويصلي في مقصورة في الجامع عن يمين المحراب خاصة، ويصلي عنده فيها أكبر خاصته، ويحيى بقية الأمراء : خاصتهم وعامتهم فيصلون خارج المقصورة عن يمينها ويسارها على مراتبهم ، فإذا فرغ من الصلاة دخل إلى دور حريمه وذهب الأمراء كلُّ أحد إلى مكانه .

وأما صلاة العيدين ، فعاداته أن يركب من باب قصره وينزل من منقذة من الإصطبل إلى الميدان الملاصق له ، وقد ضرب له فيه دهليز على أكل ما يكون من الهيئة ، ويحضر خطيب جامع القلعة إلى الميدان فيصلي به العيد ويخطب ، فإذا فرغ من سماع الخطبة ركب وخرج من باب الميدان والأمراء والمماليك يمشون حوله ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، والغاشية محمولة أمامه ، والخطر وهو المظلة محمول على رأسه مع أحد أكبر الأمراء المقدمين وهو راكب فرسا إلى جانبه ، والأوشاقيان الجفنة المتقدم ذكرهما راكبان أمامه ، وخلفه الخنائب ، وعلى رأسه العصائب السلطانية ، وأرباب الوظائف من السلاح دارية كلهم خلفه ، والظبردارية أمامه مشاة بأيديهم الأطبار ، ويطلع من باب الإصطبل ويطلع إلى الإيوان الكبير المقدم ذكره ، ويمد السماط ويخضع على حامل الخطر ، وأمير سلاح ، والأستادار ، والباشنكير ، وجماعة من أرباب الوظائف ممن لهم خدمة في مهم العيد كتواب أستادار ، وصغار الباشنكيرية ، وناظر البيوت ونحوهم .

(١) لم يذكر هذه الجملة في الضوء وعدم ذكرها أولى لأنها سبقت .

الهيئة الرابعة

(هيئة للعب الكرة بالميدان الأكبر)

عادته أن يركب لذلك بعد وفاء النيل ثلاثة مواكب متوالية في كل سبت ينزل من قصره أول النهار من باب الإصطبل، وهو راكب على الهيئة المذكورة في العيد ماعدا الحتر فإنه لا يجمل على رأسه، وتحمل العاشية أمامه في أول الطريق وآخره، ويصير إلى الميدان فينزل في قصوره، وينزل الأمراء منازلهم على قدر طبقاتهم، ثم يركب للعب الكرة بعد صلاة الظهر والأمراء معه، ثم ينزل فيستريح، ويستمر الأمراء في لعب الكرة إلى أذان العصر، فيصلي العصر ويركب على الهيئة التي كان عليها في أول النهار ويطلع إلى قصره .

الهيئة الخامسة

(هيئة في الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل)

واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج، ولم تجر العادة بركوبه فيه بمظلة ولا رقية فرس، ولا غاشية، ولا ما في معنى ذلك مما تقدم ذكره في ركوب الميدان والعيدن، بل يقتصر على السناجق، والطبردارية، والجاويشية ونحو ذلك، ويركب من القلعة عند طلوع صاحب المقياس بالوفاء في أي وقت كان، ويتوجه إلى المقياس فيدخله من بابه ويمد هناك سباطا يأكل منه من معه من الأمراء والممالك، ثم يداب زعفران في إناء ويتناوله صاحب المقياس ويسبح في فسقية المقياس حتى يأتي العمود والإناء الزعفران بيده فيخلق العمود، ثم يعود ويخلق جوانب الفسقية وتكون حزاقة السلطان قد زينت بأنواع الزينة، وكذلك حراريق الأمراء، وقد فتح شبك المقياس المطل على النيل من جهة الفسطاط وعلق عليه ستر، فيوقى بحزاقة

السلطان إلى ذلك الشباك فينزل منه وَيَسْبَحُ وحراريق الأمراء حوله وقد شخن البحر بمراكب المتفجحين ، يسرون خلف الحراريق حتى يدخل إلى فم الخليج ، وحرارة السلطان العظمى المعروفة بالذهبية وحراريق الأمراء يلعب بها في وسط أمتدادها ، ويرمي بمدافع النقط على مقدمهما ، ويسير السلطان في حرارته الصغيرة حتى يأتي السد فيقطع بحضوره ، ويركب وينصرف إلى القلعة .

الهيئة السادسة

(هيئته في أسفاره)

ولم تجر العادة فيها باظهار ماتقدم من الزينة في موكب العيد والميدان ، بل يركب في عدة كبيرة من الأمراء : الأكابر والأصاغر ، والخواص ، والغرباء ، وخواص مماليكه . ولا يركب في السير برقية ولا عصائب ، ولا تتبعه جنائب ، ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل . فإذا دخل الليل حُملت أمامه فوانيس كثيرة ومشاعل ، فإذا قارب مخيمه ، تُلقي بالشموع المركبة في الشمعدانات المكفّنة ، وصاحت الجاوشية بين يديه ، وترجل الناس كافة إلا حملة السلاح والأوشاقية وراءه ، ومشت الطبردارية حوله حتى يدخل الدهليز الأول من مخيمه فينزل ويدخل إلى الشقة ، وهي خيمة مستديرة متسعة ، ثم منها إلى شقة مختصرة ، ثم إلى لاجوق . وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخلها سور حركاه من خشب ، وفي صدر اللاجوق قصر صغير من خشب ينصب للبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة حمام بقدر من رصاص وحوض على هيئة الحمامات بالمدن إلا أنه مختصر . فإذا نام طافت به الممالك دائرة وطاف بالجميع الحرس ، وتدور الزفة حول الدهليز في كل ليلة مرتين : عند نومه وعند استيقاظه من النوم ، ويطوف مع الزفة أمير من أكابر الأمراء وحوله

الفوانيس والمشاعل، ويبعث على باب الدهليز أرباب الوظائف من النقباء وغيرهم .
فإذا دخل إلى المدينة، ركب على هيئة ركوبه لصلاة العيد المظلة وغيرها ، هذا
ما يتعلق بخاصته .

أما موكبه الذى يسير فيه جمهور مماليكه، فشعاره أن يكون معهم مقدم الممالك
والأستادار، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن، ويكون بصحبته فى السفر من كل
ما تدعو الحاجة إليه من الأطباء والكحّالين والجرائحية وأنواع الأدوية والأشربة
والعقاقير وما يجرى مجرى ذلك، يُصَرَّف ذلك لمن يعرض له مرض بالطريق .

الهيئة السابعة

(النوم)

وقد جرت العادة أنه يبيت عنده خواص مماليكه من الأمراء وأرباب الوظائف
من الجمدارية وغيرهم، يَسْهَرُونَ بالنوبة بقسمة بينهم على بناكيم الرمل، كلما أنقضت
نوبة قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم، ويتعاني كل منهم ما يشاغله عن
النوم فقوم يقرءون فى المصاحف، وقوم يلعبون بالشطرنج والأكل وغير ذلك .
(١)

(١) أى وقوم يتشاغلون بالاكل الخ .

المقصود السادس

(في عاداته في إجراء الأرزاق؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(الجارى المستمر؛ وهو على نوعين)

النوع الأول

(الإقطاعات)

والإقطاعات في هذه المملكة تجرى على الأمراء والجند، وعامة إقطاعاتهم بلاد وأراضٍ يَسْتَغْلُهَا مُقَطَّعًا ويتصرف فيها كيف شاء، وربما كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل، وتختلف باختلاف حال أربابها .

فأما الأمراء بالديار المصرية فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنَّ أكبر الأمراء يبلغ إقطاع الواحد منهم مائتي ألف دينار جيشية، وربما زاد على ذلك . ويتناقص باعتبار انحطاط الرتبة إلى ثمانين ألف دينار وما حولها، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء الطبائخاناه ثلاثين ألف دينار فأكثر، وينقص إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار؛ ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار إلى مادون ذلك؛ ويبلغ إقطاع الواحد من مقدمى الحلقة إلى ألف وخمسمائة دينار، وكذلك أعيان جند الحلقة إلى مائتين وخمسين ديناراً .

وأما إقطاعات الشام فلا تُقارب هذا المقدار بل تكون بتدر الثلثين في جميع ماتقدم، خلا أكبر الأمراء المقدمين بالديار المصرية، فليس بالشام من يبلغ شأوهم إلا نائب الشام فإنه يقاربهم في ذلك . قال في "مسالك الأبصار" : وليس للتواب في الممالك مدخل في تأمير أمير عَوْض أمير بل إذا مات أمير صغير أو كبير طولع به

السلطان فأمر مكانه مَنْ أراد من في خدمته، ويخرجه إلى مكان الخدمة، وأما من كان في مكان الخدمة أو ينقل إليه من بلد آخر فعلى ما يراه في ذلك .

أما جُند الحَلقة، فمن مات منهم أستخدم النائب عوضه، وكتب بذلك رُقعة في ديوان جيش تلك المملكة، ويجهز مع بريدي إلى الأبواب السلطانية فيقابل عليها من ديوان الجيش بالحضرة، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها (يكتب) ويكتب بها مربعة من ديوان الجيش، ويكتب عليها منشور .

ولجميع الأمراء بحضرة السلطان الرواتبُ الجاريةُ في كل يوم: من اللحم، والتوابل، والخبز، والعليق، والزيت، ولأعيانهم الكسوة والشمع، وكذلك المماليك السلطانية وذوو الوظائف من الجند مع تفاوت مقادير ذلك بحسب مراتبهم وخصوصيتهم عند السلطان وقربهم إليه . قال في "مسالك الأبصار": وإذا نشأ لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنائير وخبز ولحم وعليق إلى أن يتأهل للإقطاع في جملة الحلقة، ثم منهم من ينقل إلى العشرة أو الطبلخانا على حسب الحظوظ والأرزاق .

النوع الثاني

(رزق أرباب الأقاليم)

وهو مبلغٌ يصرف إليهم مُشاهرة . قال في "مسالك الأبصار": وأكبرهم كالوزير له في الشهر مائتان وخمسون ديناراً جيشية، ومن الرواتب والغلة ما إذا بسط وثنى كان نظير ذلك، ثم دون ذلك ودون دونه، ولأعيانهم الرواتب الجارية: من اللحم، والخبز، والعليق، والشمع، والسكر، والكسوة ونحو ذلك، إلى غير ذلك مما هو جار على العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأراضي المؤبدة، وما يجري مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف مما لا يوجد بمملكة من الممالك، ولا مصر من الأمصار .

الضرب الثاني

(الإنعام وما يجرى مجراه : مما يقع في وقتٍ دون وقت ؛ وهو على خمسة أنواع)

النوع الأول

(الخلع والتشريف)

قال في "المسالك" : واصحاب مصر في ذلك اليد الطولى حتى بقي بابه سوقاً ينفق فيه كل مجلوب ، ويحضر الناس إليه من كل قطرٍ حتى كاد ذلك يتهك الملكة ويودى بمُتَحَصِّلاتها عن آخرها . قال : وغالب هذا مما قرره هذا السلطان ، ولقد أتعب من يجيء بعده من كثرة الإحسان ، وهي على ثلاثة أصناف .

الصنف الأول

(تشريف أرباب السيوف)

وهي على طبقات ، أعلاها ماهو مختص بالأمرء المقدمين من التواب وغيرهم فوقاني أطلس أحمر بطرز زركش ، مفري بسنجاب ، بدائر سنجف من ظاهره مع غشاء قندس ، وتحت قباء أطلس أصفر ، وكلوتة زركش بكلايب ذهب ، وشاش رفيع موصول به طرفان من حرير أبيض ، مرقومان بالقباب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملون ، ومنطقة ذهب مرگبة على حاشية حرير تشد في وسطه ، ويختلف حال المنطقة بحسب المراتب . فأعلاها أن يعمل من عمدتها [بواكير] ^(١) وسطاً ومحسين ، مرصعة بالبخش والرمرد والأؤلؤ ، ثم ما كان بيكارية واحدة مرصعة ، ثم ما كان بيكارية واحدة من غير ترصيع ، فإن كان التشريف لتقليد ولاية مُفَخِّمة ، زيد سيقاً محلياً بذهب وفضاً مُسرجاً ملجماً بكنبوش زركش ؛ وربما زيد أكبر التواب كائب الشام

(١) الزيادة عن ضوء الصبح .

تركيبة زركش على الفوقاني، وشاش حرير سكندري مموج بالذهب، ويعرف ذلك بالمتمر. وعلى ذلك كان شاش صاحب حماة، ويكون عوض كنبوشه زناري أطلس أحمر؛ ودون ذلك من التشاريف أقيية طرد وحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام، ممجوخ: جاخات مكتوبة باللقاب السلطان، وجاخات صور وحوش أو طيور صغار، وجاخات ملونة بموجة بقصب مذهب، يفصل بين جاخاته نقوش، يركب على القباء طراز زركش، وعليه السنجاب والقندس كما تقدم، وتحت قباء من الطرح السكندري المفرج، وكلوتة زركش بكلايب وشاش كما تقدم، وحياسة ذهب تارة تكون بيكارية وتارة لا تكون، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يأحق بهم، وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندار والولاية ومن يجري مجراهم^(١).

ثم للتشاريف أماكن .

منها إذا ولي أمير أو صاحب منصب وظيفه فإنه يلبس تشريفا يناسب ولايته التي وليها على حسب ما تقتضيه الرتبة علوا وهبوطا .

ومنها عيد الفطر، يخلع فيه على جميع أرباب الوظائف: من الأمراء وأرباب الأقاليم كالاستادار والتوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم، كل منهم بما يناسبه .

قال في "مسالك الأبصار": ومن عادة السلطان أن يعد لكل عيد خلع على أنها للمبوسه من نسبة خلع أكابر المئين فلم يلبسها، ولكن يختص بها بعض أكابر المئين يخلعها عليه .

ومنها الميادين، يخلع فيها على أكابر الأمراء كل ميدان يختص بأمر أو أكثر يلبس فيه خلع من المفرج المذهب .

(١) لم يذكر في الأصل الصف الثاني والثالث وهما تشاريف الوزراء والكتاب وتشاريف القضاة والعلماء، وقد تكلم عليهما في الضوء، فأنظره .

ومنها دَوران الحمل في شَوال ، يخلع فيه على أرباب الوظائف بالمحمل كالمقاضى والناظر والمحتسب والشاهد والمقدمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشرها ومن في معناهم .

النوع الثاني (الخيول)

قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم على أمرائه بالخيول مرتين في كل سنة : المرة الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله على القُرط في أواخر ربيعها ، فينعم على الأخصياء من أمرائه بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم ، وتكون خيول المقدمين منهم مُسرَّجة ملجَمة بكَابيش من زركش ، وخيولُ أمراء الطبلخانات عُرياً من غير قُمَاش . المرة الثانية عند لَعبه الكُرَّة بالميدان ، وتكون خيول المقدمين والطبلخانات مُسرَّجة مُلجَمة بفضة يسيرة بلا كَابيش ؛ وكذلك يرسل إلى نواب الممالك الشامية كل أحد بحسبه ، وليس لأمرء العشرات في ذلك حظ إلا ما يتقدم به على سبيل الإنعام .

قال المقر الشهابي بن فضل الله : ولخاصة المقترين من الأمراء المقدمين والطبلخانات زيادات كثيرة في ذلك بحيث يصل بعضهم إلى مائة فرس في كل سنة ؛ وله أوقاتٌ أخرى يفرق فيها الخيل على ممالئكه وربما أعطى بعض مقدمي الحلقة ؛ وكل من مات له فرس من ممالئكه دفع إليه عوضه ، وربما أنعم بالخيول على ذوى السن من أكابر الأمراء عند الخروج إلى الصيد ونحوه .

ونخيول الأمراء في كل سنة إطلاقات أراض بالأعمال الجيزية لزرع القُرط لخيولهم من غير حَرَّاج ؛ وللملك السلطانية البرسيم المزروع على قدر مراتبهم ، وما يدفع

إليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتب لهم في غير زمن الربيع عوضا عن كل عليقة نصف فدان من القرط القائم على أصله في مدة ثلاثة أشهر .

النوع الثالث

(الكسوة والحوائص)

قد جرت عادة السلطان أنه ينعم على مماليكه وخواص أهل المناصب من حملة الأقاليم في كل سنة بكسوة في الشتاء وكسوة في الصيف على قدر مراتبهم ، ومن عاداته أنه إذا ركب للعب الكرة بالميدان فرّق حوائص من ذهب على بعض الأمراء المقدمين ، يفرّق في كل موكب ميدان على أميرين بالنوبة حتى يأتي على آخرهم في ثلاث سنين أو أربع بحسب ما تقع نوبته في ذلك . قال في " المسالك " : أما أمراء الشام فلا حظ لهم من الإنعام في أكثر من قباء واحد يلبس في وقت الشتاء إلا من تعرض لقصده السلطان فإنه ينعم عليه بما يقتضيه حاله .

النوع الرابع

(الإنعام والأوقاف^(١))

وأكثر الأوقات لا ضابط لعطائه إنما يكون بحسب منزلة المنعم عليه عند السلطان وقربه منه . قال في " مسالك الأبصار " : وخصاصة الأمراء المقدمين أنواع من الإنعامات كالعقار والأبنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار ، وكساوى القماش المتوع ، وفي أسفارهم في وقت خروجهم إلى الصيد وغيره العلوفات والأموال .

(١) في الضوء " والإدارة " .

النوع الخامس

(المأكول والمشروب)

أعظم أسمطة هذا السلطان تكون بالإيوان الكبير أيام المواكب . إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدمة ، مُدَّ السِماطُ بالإيوان الكبير من أوله إلى آخره بأنواع الأطعمة المتنوعة الفاخرة ، وَيَجْلِسُ السلطانُ على رأس الخِوانِ والأمراءِ يَمَنَةً وَيَسْرَةً على قدر مراتبهم في القرب من السلطان ، فيأكلون أكلًا خفيفًا ثم يقومون ، ويجلس من دونهم طائفة بعد طائفة ، ثم يُرْفَعُ الخِوانُ . وأما في بتمية الأيام فيمد الخِوانُ في طرفي النهار لعامة الأمراء خلا البرانيين فإنه لا يحضره منهم إلا القليل النادر .

ففي أول النهار يمد سِماطٌ أوَّلُ لا يأكل منه السلطان شيئًا ، ثم سِماطٌ ثانٍ بعده قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ، ثم سِماطٌ ثالث بعده يسمى الطارئ ، ومنه ما كول السلطان .

وفي آخرَيَاتِ النهار يمد سِماطان الأول والثاني المسمى بالخاص ، ثم إن أستدعى بطارئ حضر ، وإلا فبحسب ما يؤمر به ، وفي كل هذه الأسمطة يسقى بعدها المشروب من الأقسام السكرية عقب الأكل . وأما في الليل فيبيت بالقرب من ميته أطباقٌ من أنواع المأكول المختلفة والمشروب الفائق ليتمشغل أصحاب النوب بالمأكول والمشروب عن النوم . قال في "مسالك الأبصار" : ولكل ذي إمرة بمصر من خواص السلطان عليه السكر والحلوى في شهر رمضان ، والضحية على مقادير رتبهم .

المقصود السابع

(في اختصاص صاحب هذه المملكة بأما كن داخله في نطاق مملكته، يمتاز بها
على ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم)

منها الكعبة المعظمة داخله في نطاق هذه المملكة، واختصاصه بكسوتها
ودوران الحمل في كل سنة .

أما كسوة الكعبة، فإنها كانت في الزمن الأول مخصصة بالخلفاء، وكانت خلفاء
بنى العباس يجهزونها من بغداد في كل سنة، ثم صارت إلى ملوك الديار المصرية
يجهزونها في كل سنة، وأستقرت على ذلك إلى الآن . ولا عبرة بما وقع من أستبدال
بعض ملوك اليمن في بعض الأعصار بذلك في بعض السنين، وهذه الكسوة تُنسج
بالقاهرة المحروسة بمشهد الحسين من الحرير الأسود مطرزةً بكتابة بيضاء في نفس
النسج، فيها : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بَكَّةَ ﴾ الآية . ثم في آخر الدولة
الظاهرية برقوق أستقرت الكتابة صفراء مشعرة بالذهب . ولهذا الكسوة ناظر
مستقل بها، ولها وقف أرض بيسوس من ضواحي القاهرة يُصرف منها على
أستعمالها .

وأما دوران الحمل، فقد جرت العادة أنه يدور في السنة مرتين : المرة الأولى
في شهر رجب بعد النصف منه، يحمل وينادى لأصحاب الحوانيت التي في طريق
دورانه بتريين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام، ويكون دورانه في يوم الاثنين أو الخميس
لا يتعداهما، ويحمل الحمل على جمل وهو في هيئة لطيفة من تحريكه وعليه غشاء
من حرير أطلس أصفر، وأبعلاه قبة من فضة مطلية وبييت في ليلة دورانه داخل
باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم، ويحمل بعد الصبح على الجمل المذكور

ويسير إلى تحت القلعة، فيركب أمامه الوزير والقضاة الأربعة والمحتسب والشهود وناظر الكسوة وغيرهم، ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرماحة ملبسين المصفاة الحديد المغشاة بالحرير الملقون، وخبوهم ملبسة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما في القتال، وبأيديهم الرماح، عليها الشطقات السلطانية فيلبعون تحت القلعة كما في حالة الحرب، ومنهم جماعة صغار بيد كل منهم رحمان يديرهما في يده وهو واقف على ظهر الفرس، وربما كان وقوفه في نعل من خشب على دباب سيفين من كل جهة، وهو يفعل كذلك ويهينوا من أزيار النفط وغيرها جملة مستكثرة، ويطلق تحت القلعة في خلال ذلك، ثم يذهب إلى القسطنطينية فيمتر في وسطه، ثم يعود إلى تحت القلعة ويفعل كما في الأول إلا أنه أقل من ذلك؛ ثم يحمل من جامع الحاكم ويوضع في مكان هناك إلى شوال؛ وفي خلال ذلك كله الطبلخانات والكوسات السلطانية تضرب خلفه، ويخلع فيه على جماعة مستكثرة؛ وكذلك يفعل في نصف شوال إلا أنه يرجع من تحت القلعة إلى باب النصر ويخرج إلى الريدانية للسفر ولا يتوجه إلى القسطنطينية.

المقصود الثامن

(في انتهاء الأخبار إليه، وهو على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم)

وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسول من ملك من الملوك إلى أطراف مملكته كاتب نائب تلك الجهة السلطان عزفه بوفوده، وأستاذنه في إشخاصه إليه، فتبرز المراسيم السلطانية بحضوره فيحضر. فإذا وقع الشعور بحضوره فإن كان مرسله

ذا مكانة عظيمة من الملوك : كأحد القانات من ملوك الشرق ، خرج بعض أ كابر
الأمرء كالنائب وحاجب الحجاب ونحوهما للقاءه ، وأُنزل بقصور السلطان بالميدان
الذى يلعب فيه بالكرة ، وهو أعلى منازل الرسل . وإن كان دون ذلك تلقاه
المهمندار وأستاذن عليه الدوادار وأنزله دار الضيافة أو ببعض الأماكن على قدر
رتبته ، ثم يرتقب يوم موكب فيجلس السلطان بإيوانه ، وتحضر أعيان المملكة الذين
شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام ، ويحضر ذلك الرسول وصحبته
الكتاب الوارد معه ، فيقبل الأرض ويتناول الدوادار الكتاب منه فيمسحه بوجه
الرسول ، ثم يدفعه إلى السلطان فيفضّه ويدفعه إلى كاتب السرفيقروء على السلطان
ويأمر فيه أمره .

النوع الثاني

(الأخبار التي ترد عليه من جهة نوابه)

عادة هذا السلطان أن يطالعه نوابه في مملكته بكل ما يتجدد عندهم من مهمات
الأمر أو ما قاربها ، وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما
يراه في ذلك ، أو يتدبّرهم هو بما يقتضيه رأيه ، وينفذ على البرد أو أجنحة الحمام
الرسائل على ما يأتي ذكره في المقالة الثالثة من الكتاب إن شاء الله تعالى .

وقد جرت العادة أنه إذا ورد برید من بلد من بلاد المملكة أو عاد المجهز من
الأبواب الشريفة بجواب ، أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السربين يدي
السلطان فيقبل الأرض ، ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي ، ثم
يناوله للسلطان فيفضّه ويجلس كاتب السرفيقروء عليه ويأمر فيه بأمره .

وأما بطائق الحمام ، فإنه إذا وقع طائر من الحمام الرئاسي ببطاقة أخذها البراج وأتى بها الدوادار، فيقطع الدوادار البطاقة عن الحمام بيده ، ثم يحملها إلى السلطان ويحضر كاتب السر فيقرأها كما تقدم .

النوع الثالث

(أخبار حاضرتة)

جرت العادة أن والى الشرطة يستعلم متجددات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك في كل يوم من نوابه ، ثم تكتب مطالعة جامعةً بذلك وتعمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها . قال في "مسالك الأبصار" : وأما ما يقع للناس في أحوال أنفسهم فلا .

المقصد التاسع

(في هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم)

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَمِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ الْمَثْنِ أَوْ الطَّبْلَخَانَاتِ سُلْطَانٍ مُخْتَصَرٍ فِي غَالِبِ أَحْوَالِهِ ، وَلِكُلِّ مِنْهُمْ بَيْوتٌ خَدَمَةٌ كَبِيرَةٌ خَدَمَةُ السُّلْطَانِ مِنَ الطَّشْتِ خَانَاهُ ، وَالْفِرَاشِ خَانَاهُ ، وَالرَّكَّابِ خَانَاهُ ، وَالرَّزْدِ خَانَاهُ ، وَالْمَطْبُخِ ، وَالطَّبْلَخَانَاهُ ، خِلاَ الْحَوَائِجِ خَانَاهُ فَإِنَّهَا مُخْتَصِمَةٌ بِالسُّلْطَانِ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هَذِهِ الْبَيْوتِ مَهْتَارٌ مُتَسَلِمٌ حَاصِلُهُ ، وَتَحْتَ يَدِهِ رِجَالٌ وَغُلَمَانٌ لِكُلِّ مِنْهُمْ وَظِيفَةٌ تَخْصُهُ ، وَكَذَلِكَ لِكُلِّ مِنْهُمْ الْحَوَائِجُ مِنْ إِصْطِبَاتِ الْخَيْولِ وَمُنَاخَاتِ الْجَمَالِ وَشُؤْنِ الْغَلَالِ ؛ وَلَهُ مِنْ أَجْنَادِهِ أَسْتَادَارٌ ، وَرَأْسُ نَوَّابَةٍ ، وَدَوَادَارٌ ، وَأَمِيرٌ مَجْلِسٍ ، وَجَمْدَارِيَّةٌ ، وَأَمِيرٌ أَخُورٌ ، وَأَسْتَادَارٌ صَحْبَةٌ ، وَمَشْرَفٌ . وَتُوصَفُ الْبَيْوتُ فِي دَوَاوِينِ الْأَمْرَاءِ بِالْكَرِيمَةِ ، فَيُقَالُ الْبَيْوتُ الْكَرِيمَةُ كَمَا يُقَالُ فِي بَيْوتِ السُّلْطَانِ الْبَيْوتُ الشَّرِيفَةُ ، وَكَذَلِكَ كُلُّ فَرْدٍ مِنْهَا يُقَالُ : الطَّشْتِ خَانَاهُ الْكَرِيمَةُ وَالْفِرَاشِ خَانَاهُ

الكريمة ، وكذا في الباقي ؛ ويوصف الإصطبل بالسعيد فيقال : الإصطبل السعيد ، وكذلك المناخ ؛ وتوصف الشون بالمعمورة فيقال : للشونة المعمورة . قال في "مسالك الأبصار" : ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث ركب وخلفه جنيب مسرج ملجم^{وهـ} ، وربما ركب الأمير من أكابرهم يجنيبين سواء في ذلك الحاضرة والبر . قال : ويكون لكل منهم طلب مشتمل على أكثر مما ليكه ، وقدامهم خزانة محمولة للطلبخاناة على جمل واحد ، يجزه راكب على جمل آخر ، والألف على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك . وأمام الخزانة عدة جنائب تجز على أيدي ممالك ركاب خيل وهجن ، وركابة من العرب على هجن ، وأمامهم الهجن بأكوارها مجنوبة ، للطلبخاناة قطار واحد وهو أربعة ، ومركوب الهجان والألف قطاران وربما زاد بعضهم . قال : وعدد الجنائب في كثيرتها وقتلها إلى رأى الأمير وسعة نفسه ، والجنائب المذكورة منها ماهو مسرج ملجم^{وهـ} ، ومنها ماهو بعباءة لاغير . انتهى كلامه .

ومن عادتهم أيضا أن الأمير إذا ركب يكون أكابر أجناده من أرباب الوظائف : كرأس توبة والدوادار ، وأمير مجلس ، ومشاة الخدمة أمامه ؛ وكل من كان منهم أكبر كان إليه أقرب ؛ وتكون الجمدارية من ممالك الصغار خلفه وأمير اخوره خلف الجميع ، ومعه الجنائب والأوشاقية على قاعدة السلطان في ذلك .

ومن عادة أكابر مجالس بيوتهم أنه ينصب للأمرير بشتميخ خلف ظهره من الجوخ الأحمر المزهر بالجوخ الملتون ، برك ذلك الأمير وطراز نيه ألقابه ، ويجلس على مقعد مسندا ظهره إلى البشتميخ ، وربما جلس أكابرهم على مدقورة من جلد ورجلاه على الأرض ، وتكون الناس في مجلسه في القرب إليه على حسب مراتبهم .

ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه ما بين هتاب أو دواة أو بقجة أو فرنسيسية ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين ، بألوان مختلفة ، كل

أمير بحسب ما يختاره ويؤثره من ذلك، ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كطباخ السكر، وشون الغلال، والأملاك والمراكب وغير ذلك، وعلى قماش خيولهم من جوخ ملون مقصوص، ثم على قماش جملهم من خيوط صوف ملونة تنقش على العبي والبلاسات ونحوها، وربما جعلت على السيوف والأقواس والبركصطوانات للخيول وغيرها.

ومن عوائد أمراء العسكر بالحضرة السلطانية أنهم يركبون في يومى الاثنين والخميس في الموكب منضمين على نائب السلطنة الكافل إن كان، وإلا فعلى حاجب الحجاب، ويسيروا تحت القلعة مرّات، ثم يقفون بسوق الخيل وتعرض عليهم خيول المناداة، وربما نودى على كثير من آلات الخيل والحليم والحركات والأسلحة. قال في "مسالك الأبصار": وقد ينادى على كثير من العقارات، ثم يطأعون إلى الخدمة السلطانية على ما تقدم.

ومن قاعدة هذه المملكة أن أجناد الأمراء كافة تُعرض بديوان الجيوش السلطانية وتثبت أسماءهم مفصلة فيه، وكانوا فيما تقدم يحلون بالديوان. أما الآن، فقد ترك ما هنالك وأكتفى بأوراق تكتب من دواوين الأمراء بأسماء أجناده وتخلد بديوان الجيوش، ثم كلما مات واحد منهم أو فصل من الخدمة، عُرض بديوان الجيش واحد مكانه يعبر فيه عرض من ديوان ذلك الأمير.

ومن دأبهم أن من مات من الأمراء والجند قبل استكمال سنة خدمته حوسب في مستحق إقطاعه على مقدار مدته، وكتب له بذلك محاسبة من ديوان الجيوش، ويكون ما يتحصّل من المغل شركة بين المستقر وبين الميت أو المنفصل على حسب استحقاق القراريط، كل شهر من السنة بتمراطين.

ومن عادة الأمراء أنه إذا أمر السلطان في متصيدياته بإقطاع أمير كبير، قدم له من الإوز والدجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو إليه همة مثله فيقبله منه ، ثم ينعم عليه بخلعة كاملة يلبسها، وربما أمر لبعضهم بشيء من المال فيقبضه .

المقصود العاشر

(في ولاة الأمور من أرباب السيوف بأعمال الديار المصرية ،

وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(النواب، والمستقر بها ثلاث نيايات)

الأولى - نيابة الإسكندرية : وهي نيابة جليلة ، نائبا من الأمراء المقدمين يُضاهي في الرتبة نيابة طرابلس وما في معناها أو يقار بها ، وبها حاجب أمير عشرة ، وحاجب جندي ، ووال للدينة ، وأجناد حلقة عدتهم مائتا نفر، يعبر عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضي قضاة مالكي ، وقاض حنفى مستحدث ، وربما كان بها قاض شافعي ، والمالكي أكبر الكل بها ، وهو المتحدث في أموال الأيتام والأوقاف . على أنه ربما ولي قضاء قضائها في الزمن الماضي شافعي ، وبها موقع يعبر عنه في البلد بكتاب السر ، وناظر متحدث في الأموال الديوانية ، ومعه مستوف ، وتحت يده كتاب وشهود ، وبها محتسب ، وليس بها قضاة عسكر ولا مفتودار دبل ، وويكل بيت المال بها نائب عن نائب بيت المال بالقاهرة ، وتركز بها أمراء المقدمين والطلبخانات في غير الزمن الذي يمتنع سير المراكب الحربية في البحر بشدة الريح منها ، ووال للتركيز يسمى الحاجب . وقد مر القول على معاملتها ، وذكر أحوالها في الكلام على قواعد الديار المصرية المستقرة فأغنى عن إعادته هنا .

وهذه النيابة مع جلالة قدرها ورقعة محلها ليس لها عمل يحكم فيه نائبا ولا قاضيا
وتنسبها، بل حكمهم قاصر على المدينة وظواهرها لا يتعدى ذلك، بخلاف غيرها من
سائر نيابات المملكة؛ وبها كرتى سلطنة بدار النيابة؛ وعادة الخدمة السلطانية بها
في أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفي خدمته ممالكة وأجناد
المائتين المتقدم ذكرهم، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس، ويسير
في موكب والشبابة السلطانية بين يديه حتى يخرج من باب البحر، ويخرج الأمراء
المركزون على حديثهم أيضا، ويجمعون في الموكب ويسرون خارج باب البحر
ساعة ثم يعودون، ويتوجه النائب إلى دار النيابة في ممالكة وأجناد المائتين، وقد
فارقه الأمراء المركزون وتوجه كل منهم إلى منزله. فإذا صار إلى دار النيابة: فإن
كان في ذلك الموكب سماء، وضع الكرتى في صدر الإيوان معشى بالأطلس الأصفر
ووضع عليه سيف نمجاة سلطانية ومد السماء تحته وأكل ممالكة النائب وأجناد
المائتين وجلس النائب بجنبه من الإيوان والشباك مطل على مينا البلد، ويجلس
القاضي المالكي عن يمينه، والقاضي الحنفي عن يساره، والناظر تحته، والموقع بين
يديه، ورؤوس البلد على قدر منازلهم، وترفع القصص فيقرؤها الموقع على النائب
فيفصلها بحضرة القضاة ثم ينصرف الموكب.

قلت: وهذه النيابة مستحدثة، وكان آتداء ترتيبها في سنة سبع وستين وسبعائة
في الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرقها الفرنج وقتكوا بأهلها وقتلوا ونهبوا
وأسروا، وكانت قبل ذلك ولاية تعد في جملة الولايات الطبلخانة، وكان لوالها
الرتبة الحليلة والمكانة العلية.

الثانية - نيابة الوجه البحري. وهي مما استحدثت في الدولة الظاهرية برقوق،
ونائبها من الأمراء المقدمين، وهو في رتبة مقدم العسكر بقرعة الآتي ذكره في المالك

الشامية، ومقر نيابتها مدينة دمنهور بالبحيرة، وحكمه على جميع بلاد الوجه البحرى المتقدم ذكرها فى الكلام على أعمال الديار المصرية المستقرة خلا الإسكندرية، وليست على قاعدة النيابات فى ركوب المواكب وما فى معناها؛ بل نائبا فى الحقيقة كاشف كبير، وليس فيها من رسوم النيابة سوى لبس التشرىف وكتابة التقليد والمكتابة بما يكتب به مثل نائبا من التواب، وقد كان القائم بها فى الزمن الأول قبل استقرارها نيابةً يعبر عنه بوالى الولاية .

الثالثة - نيابة الوجه القبلى . وهى مما استحدثت فى الدولة الظاهرية برفوق أيضا، وكان مقر نائبا مدينة أسىوط، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلى، وهى فى الترتيب والرتبة على ما تقدم من نيابة الوجه البحرى، غير أنها أعظم خطرا فى النفوس وكان القائم بها قبل ذلك يسمى والى الولاية كما تقدم فى الوجه البحرى .

الطبقة الثانية

(الكشاف)

قد تقدم أنه قبل استحداث النيابة بالوجهين القبلى والبحرى كان بهما كاشفان يعبر عن كل منهما بوالى الولاية، ولما استقرت نيابتين جعل للوجه البحرى كاشف من أمراء الطبليخاناه على العادة المتقدمة، وهو فى الحقيقة تحت أمر نائب الوجه البحرى، ومقرته منية عمّر من الشرقية، وجعل كاشف آخر للهنساوية والقيوم، وعطل القيوم من الولى، وبقى الوجه القبلى أمره راجع إلى نائبا، ولجزيرة كاشف يتحدث فى جسورها وسائر متعلقاتها، ولا يتعدى أمره إلى غيرها من النواحي .

الطبقة الثالثة

(الولاية بالوجهين القبلي والبحري)

وقد تقدم ذكر أعمالهما؛ ومراتب الولاية بهما لاتخرج عن مرتبتين :
المرتبة الأولى - الولاية من أمراء الطبلخاناة. وهي سبع ولايات بالوجهين القبلي
والبحري على ما استقر عليه الحال .

فأما الوجه القبلي ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة: وهي ولاية البهنسي، وولاية
الأشمونين، وولاية قوص، وهي أعظمها حتى إن واليها كان يركب بالشبابه أسوة
النواب بالممالك، وولاية أسوان: وهي مستحدثة في الدولة الظاهرية برفوق، وكانت
قبل ذلك مضافة إلى والي قوص يجعل فيها نائبا من تحت يده، وكانت ولاية الفيوم
طبلخاناة، ثم استقرت كشفا على ما تقدم .

أما أسبوط، فلم يكن بها والٍ لكونها مقر نائب الوجه القبلي ومقر والي الولاية
من قبله، وسيأتي ما كان ولاية طبلخاناة من الوجه القبلي ثم نقل .

وأما الوجه البحري ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة، وهي ولاية الشرقية، ومقر
واليها بليس، وولاية المنوفية ومقر واليها مدينة منوف، وولاية الغربية، ومقر
واليها المحلة الكبرى، وهي تضاهي ولاية قوص من الوجه القبلي إلا أن واليها لم يركب
بالشبابه قط، وولاية البحيرة، ومقر واليها مدينة دمهور، وربما عطلت ولايتها لكونها
مقرّة النائب، وقد تقدم أن ولاية النائب قبل أن تستقر نيابة كانت ولاية طبلخاناة.

المرتبة الثانية - من الولاية أمراء العشرات . وهي سبع ولايات بالوجهين :
فأما القبلي ففيه من هذه الرتبة ثلاث ولايات : ولاية البحيرة، وكانت قبل ذلك
طبلخاناة، وولاية إطفح ولم تزل عشرة؛ وولاية منفلوط ولايتها عشرون، وكانت

(١) قد عد ثمان ولايات .

قبل ذلك ولاية طبلخاناه، وقد كان بعيداب في الأيام الناصرية ابن قلاوون وما بعدها
وال أمير عشرة يوثى من قبل السلطان ويراجع وإلى قوص في الأمور المهمة .
وأما الوجه البحرى ، ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة ، ولاية منوف ، وولاية
أشموم ، وولاية دمياط ، وولاية قطيا ، وكانت قبل ذلك طبلخاناه .

الطبقة الرابعة

(أمراء العربان بنواحي الديار المصرية)

قد تقدم في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى ذكر أصول أنساب
العرب ، وأنقسامهم إلى قحطانية وهم العاربة ، وإلى عدنانية وهم المستعربة ، وبيان
رجوع كل بطن من بطون العرب الموجودين الآن بالديار المصرية وغيرها إلى قبيلتهم
التي إليها ينتسبون ، وبيان من بوجهى الديار المصرية القبلى والبحرى من القبائل ،
وأخاذ كل قبيلة المتشعبة منها . والمقصود هنا بيان أمراء العربان بالوجهين
المذكورين في القديم والحديث .

فأما الوجه القبلى ، فقد ذكر الحمدانى أن الإمرة كانت بالوجه القبلى في ثلاثة أعمال :
العمل الأول - عمل قوص ، وكانت الإمرة به في بيتين من بلى من قضاة بن
حمير بن سبأ من القحطانية .

الأول - بنو شاد المعروفون بنى شادى . وكانت منازلهم بالقصر الخراب المعروف
بقصر بنى شادى بالأعمال القوصية ، وتقدم هناك أنه قيل إنهم من بنى أمية بن
عبد شمس من قرئش .

الثان - العجالة . وهم بنو العجيل بن الذئب منهم أيضا ، وكانوا معهم هناك .

العمل الثاني - عمل الأشمونين . وكانت الإمرة به في بني ثعلب من السلاطنة ، وهم أولاد أبي مجيش من الحيادة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق ، من عقب الحسين السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وكانت منازلهم بدروت سربام ، وغلب عليها الشريف حصن الدين بن ثعلب فعرفت بدروت الشريف من يومئذ ، وأستولى عليها وعلى بلاد الصعيد . وقد تقدم أنه كان في آخر الدولة الأيوبية . فلما ولي المعز أيك التركاني : أول ملوك الترك بالديار المصرية السلطنة ، أئف من سلطته وسمت نفسه إلى السلطنة فجهز إليه المعز جيوشا ، فحرت بينهم حروب لم يظفروا به فيها ، وبقى على ذلك إلى أن كانت دولة الظاهر بيبرس ، فنصب له حبال الحيل وصاده بها وشقه بالإسكندرية .

العمل الثالث - البهنسي ، وكانت الإمرة فيه في بيتين .

الأول - أولاد زعازع . (بضم الزاي) من بني جديدي من بني بلار من لوائه (٢) من البربر أو من قيس عيلان على الخلاف السابق عند ذكر نسبهم في المقالة الأولى . قال الحمداني : وهم أشهر من في الصعيد .

الثاني - أولاد قريش . قال الحمداني : وهم أمراء بني زيد ، ومساكنهم نوية دلاص .

قال : وكان قريش هذا عبدا صالحا كثير الصدقة ، ومن أولاده سعد الملك المشهور بنوه هناك .

وذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" : أن الإمرة بالوجه القبلي في زمانه (وهو سلطنة الناصر محمد بن قلاوون وما وليها) كانت لناصر الدين عمر بن فضل ، ولم يذكر مقرته ولا من أي العرب هو ، وذكر أيضا أن الإمرة فيا فوق

(١) تقدم لنا في الجزء الأول (ص ٣٦٥) ضبطها بالفتح والصواب ما هنا .

(٢) ضبطها المؤلف فما تقدم بالباء المثناة ولكن نجد ذكرها في باب التاء المثناة .

أسوان كانت في عرب يقال لهم الحِدَارِيَّة في سميرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَدِ جَمٍّ وشوكة مُنَكِيَّة ، يغزو الحبشة وأمم السودان ويأتي بالنهاب والسبايا ، وله أثر محمود وفضلٌ ماثور ، وفد على السلطان فأكرم مثواه ، وعقد له لواءً وشرفاً بالتشريف ، وقُدِّد ، وكتبَ إلى ولاية الوجه القبليّ عن آخرهم وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب للغزو معه متى أراد ، وكتب له منشور بما يفتحه من البلاد ، وتقليدُ بإمرة عربان القبلة مما يلي قُوص إلى حيث تصلُ غايته ، وتركُ رأيته .

قلت : أما في زماننا فهدَّ وجهتُ عربُ هَوَّارة وجوهها من عمل البحيرة إلى الوجه القبليّ ونزلت به أنتشرت في أرجائه أنتشار الجراد ، وبسطت يدها من الأعمال البهنساوية إلى منتهاه حيث أسوان وما والاها ، وأذعنتم لهم سائر العربان بالوجه القبليّ قاطبةً ، وأنحازوا إليهم وصاروا طَوْعَ قيادهم .
والإمرة الآن فيهم في بيتين .

الأول - بنو عمر : محمد وإخوته . ومنازلهم بجرجا ومُنشأة إنحيم ؛ وأمرهم نافذ إلى أسوان من القبلة وإلى آخر بلاد الأَشْمُونِيَّين من بحرى .
الثاني - أولاد غريب . وييدهم بلاد البهنسى ، ومنازلهم دَهْرُوط وما حولها .



وأما الوجه البحريّ ، فقد ذكر الحمدانيّ أن الإمرة فيهم في خمسة أعمال .
العمل الأول - الشارقة . قال : والإمرة فيها في قبيلتين .
الأولى - ثعلبة ، وذكر أن الإمرة كانت فيهم في سُقَيْرِ بن جرجي من المصاحفة من بني زُرَيْقٍ ، وفي عمر بن نفيلة من العَلَمِيَّين .
الثانية - جُدَّام : وقد ذَكَرَ أن الإمرة كانت فيهم في خمسة بيوت .
الأول - بيت أبي رُشد بن حبشى ، بن نَجْم ، بن إبراهيم من العُقَيْلِيَّين : بني عُقَيْلِ

ابن قُتُورَة ، بن مَوْهوب ، بن عُبَيْد ، بن مالك ، بن سُويد ، من بني زيد بن حَرَام ، ابن جُدَام ؛ أَمْرٌ بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ .

الثاني - طَرِيفُ بن مَكُونٍ^(١) ، من بني الوليد ، بن سُويد المقدم ذكره ؛ وإلى طَرِيف هذا يُنسَبُ بنو طريف من بلاد الشرقية . قال الحمداني : وكان من أكرم العرب ، كان في مَضِيَّتِهِ أَيَّامَ الْغَلَاءِ أَتَشَا عَشْرَ أَلْفَا تَأْكُلُ عِنْدَهُ ، وكان يَهْتَمُّ التَّيْرِيْدَ فِي الْمَرَائِكِبِ . قال : ومن بنيهِ فَضْلُ بن سَمْحِ بن كُثُونَةَ ، وإِبْرَاهِيمَ بن عَلِيٍّ ؛ أَمْرٌ كُلُّهُمَا بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ .

الثالث - بيت أولاد منازل من ولد الوليد المذكور ، كان منهم مَعْبَدُ بن مُبَارَكٍ ، أَمْرٌ بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ .

الرابع - بيت نَمِيٍّ بن خَنْعَمٍ من بني مالك ، بن هَلْبَا بن مالك بن سُويد ، أَقْطَعَ خَنْعَمِ ابن نَمِيٍّ الْمَذْكُورِ وَأَمْرٌ ، وَأَقْتَنِي عِدْدَا مِنْ الْمَمَالِكِ الْإِتْرَاقِ وَالرُّومِ وَغَيْرِهِمْ ، وَبَلَغَ مِنَ الْمَلِكِ الصَّالِحِ أَيُّوبَ مَنزِلَةً ، ثُمَّ حَصَلَ عِنْدَ الْمَلِكِ الْمُعْزِ أَيُّوكَ التُّرْكُمَانِي عَلَى الدَّرَجَةِ الرَّفِيعَةِ ، وَقَدَّمَهُ عَلَى عَرَبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ غِلْمَانُهُ ، فَفَعَلَ الْمُعْزُ أَبْنِيَهُ : سَلَمَى وَدَغَشَ عَوْضَهُ ، فَكَانَا لَهُ نِعَمٌ أَنْخَلَفَ ، ثُمَّ قَدِمَ دَغَشَ دِمَشْقَ فَأَمْرَهُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ صَاحِبُ دِمَشْقَ يَوْمئِذٍ مِنْ بَنِي أَيُّوبَ بُبُوقَ وَعَلَمٌ ، وَأَمْرٌ الْمَلِكُ أَيُّوكَ أَخَاهُ سَلَمَى كَذَلِكَ .

الخامس - بيت مُفَرِّجِ بن سَلَمِ بن رَاضِيٍّ مِنْ هَلْبَا بَعَجَةَ ، ابن زيد ، بن سُويد ، ابن بَعَجَةَ ، من بني زيد بن حَرَامِ بن جُدَامِ ؛ أَمْرُهُ الْمُعْزُ أَيُّوكَ التُّرْكُمَانِي بِالْبُوقِ وَالْعَلَمِ . وذلك أنه حين أراد المعزُّ تأمير سَلَمَى بن خَنْعَمِ المقدم ذكره أَمْتَنَعَ أَنْ يُؤَمَّرَ حَتَّى يُؤَمَّرَ مُفَرِّجُ بن غَانِمِ^(٢) فَأَمْرٌ .

(١) تقدم في الجزء الأول (ص ٣٣٢) ابن بكتوت . (٢) لعله سالم .

العمل الثاني - المنوفية . والإمارة فيها لأولاد نصير الدين من لواتة ، ولكن
إمرتهم في معنى مشيخة العرب .

العمل الثالث - الغربية . والإمارة فيه في أولاد يوسف من الخزاعلة من
سنيس من طي من كهلان من القحطانية ، ومقرتهم مدينة سخا من الغربية .

العمل الرابع - البحيرة . وقد ذكر في " التعريف " : أن الإمارة في الدولة
الناصرية ابن قلاوون كانت لخالد بن أبي سليمان وفائد بن مقدم . قال في " مسالك
الأبصار " : وكانا أميرين سيدين جليلين ذوى كرم وإفضال وشجاعة وثبات
رأى وإقدام .

العمل الخامس - برقة . قال في " التعريف " : ولم يبق من أمراء العرب ببرقة
يعنى في زمانه إلا جعفر بن عمر ، وكان لا يزال بين طاعة وعصيان ، ومخاشنة وليان ،
والجيوش في كل وقت تمد إليه ، وقل أن تظفر منه بطائل أو رجعت منه بمغم ،
وإن أصابته نوبة من الدهر . قال : وآخر أمره أن ركب طريق الواح حتى خرج
من الفيوم وطرق باب السلطان لاثدا بالعفو ، ووصل ولم يسبق به خبر ، ولم يعلم
السلطان به حتى استأذن المستأذن له عليه وهو في جملة الوقوف بالباب ، فأكرم
أتم الكرامة وشرف بأجل التشاريف ، وأقام مدة في قري الإحسان وإحسان القري
وأهله لا يعلمون ماجرى ، ولا يعلمون أين يم ولا أى جهة نحا ، حتى أتتهم وافدات
البشائر وجاءت منه . فقال له السلطان : لم لا أعلمت أهلك بقصدك إلينا؟ قال :
خفت أن يقولوا : فيتك بك السلطان فأنتبط ، فاستحسن قوله ، وأفاض عليه طوله ،
ثم أعيد إلى أهله ، فانتقل بنعمة من الله وفضل لم يمسه سوء ولا رثى له صاحب
ولا شمت به عدو .

قلت : والإمرة اليوم في بركة في عمر بن عريف ، وهو رجل دين وكان أبوه
 [عريف ذا دين متين رأيتُه] ^(١) في الإسكندرية بعد الثمانين والسبعائة ، واجتمعتُ به
 فوجدت آثار الخير ظاهرةً عليه .

الفصل الثاني

من المقالة الثانية

(في المملكة الشامية ، وما يتصل بها : من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين
 الفرات والدجلة مما هو مضاف إلى هذه المملكة ، وفيه أربعة أطراف)

الطرف الأول

(في فضل الشام وخواصه وعجائبه ؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في فضل الشام)

أعظم شاهد لذلك ما أخرجه الترمذي من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه
 قال : ” كُنَّا يَوْمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نُوَلِّفُ الْقُرْآنَ مِنَ الرَّقَاعِ . فَقَالَ
 رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : طُوبَى لِأَهْلِ الشَّامِ . فَقُلْتُ : لِمَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟
 قَالَ : لِأَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَاسِطَةٌ أَجْنِحَتَهَا عَلَيْهِ “ . هذا وقد بعث به الكثير من الأنبياء
 عليهم السلام ، وفيه ضرائحهم الشريفة ، والمسجد الأقصى الذي هو أحد المساجد
 الثلاثة التي تُسَدُّ إليها الرِّحال ، وهو أول القبلتين ؛ وبه ينزل المسيح عليه السلام بمنارة
 جامع دمشق ؛ وبه يقتل الدجال بمدينة لُد . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال : ” إِنْ اللَّهُ بَارَكَ فِيمَا بَيْنَ الْعَرِيشِ إِلَى الْفُرَاتِ وَخَصَّ فَلَسْطِينَ بِالتَّقْدِيسِ “ .

(١) ترك له في الأصل بياضا وأخذناه عن الضوء للؤلؤ .

المقصود الثاني

(في خواصه وعجائبه)

أما خواصه فإن به الأماكن التي تعظمها الأمم على اختلاف عقائدهم كالصخرة التي هي قبلة اليهود، والقمامة التي يحجها النصارى من سائر أقطار الأرض، وطور نابلس الذي تحججه السامرة؛ وبمدينة صور كنيسة تعتقد طائفة من النصارى أنه لا يصح تملك ملوكهم إلا منها، على ما سياتي ذكره في الكلام على أعمال صفد إن شاء الله تعالى، وغير ذلك مما تتقاد به الأمم إلى صاحب هذه المملكة وتُدعِنُ لمُسالمتِهِ .
وأما عجائبه فكثيرة .

منها - (حمة طبرية) المشهورة : وهي عين تبضع ماءً شديد الحرارة يكاد يسقط البَيضةُ، يقصدها المترددون للاستشفاء بالأغتسال فيها . قال ابن الأثير في "عجائب المخلوقات" : وليس فيها حمام يوقد فيه النار إلا الحمام الصغير .

ومنها - (قبة العقارب) بمدينة حمص . وهي قبة بالقرب من مسجدها الجامع ، إذا أخذ شيء من تراب حمص وجبل بالماء وألصق بداخل تلك القبة وترك حتى يجف ويسقط بنفسه من غير أن يلقيها أحد ثم أخذت ووضع منها شيء في بيت لم يدخله عقرب ، أو في قماش لم يقربه ، وإن دُر على عقرب منه شيء أخذها مثل السكر فر بما زاد عليها فقتلها ، بل قيل إن ذلك لا يختص بالقبة بل عامة أرض البلد كذلك حتى لا يدخلها عقرب إلا مات ، بل لا يقرب ثيابا ولا أمتعة عليها غبارها ، وإلى ذلك أشار القاضي الفاضل في البشري بفتوحها بقوله : " ودبت إليها عقارب الجانيق فخالفت عادة حمص في العقارب ، ورُميت الحجارة بالحجارة فوقع العداوة المعروفة بين الأقاليم " .

ومنها - (عين فَوَاةً) داخل البحر المائج على القُرب من ساحل مدينة طرابلس على قدر مئة حجر عن البر، تَبْع ماءً عذبا يطفو على وجه الماء قدر ذراع أو أكثر يثين عند سكون الريح .

ومنها - (وادي الفوار) وهو وادٍ بالقرب من حصن الأكراد من عمل طرابلس غربا عنه بشمال على الطريق السالكة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي صفة برّ قائمة في الأرض ، وفي سفلى الأرض سردابٌ ممتد إلى الشمال يَفُور في كل أسبوع يوما واحدا لاغير ، فتسقى به أرض ومزروعات ، وينزل عليه التُّرْكان ويردونه ؛ ويُسمَع له قبل فورانه دويٌّ كالرعد ، وهو في بقية الأيام يابس لا ماء فيه . قال : وذكر لي من دخل السرداب أن في نهايته نهرا كبيرا آخذا من الغرب إلى الشرق تحت الأرض ؛ له جريان قويٌّ ، وبه موج وريح عاصف ، لا يُعرف إلى أين يجري ولا من أيّ جهة يأتي .

ومنها - (حمام القدموس) من قلاع الدعوة من عمل طرابلس يخرج منها أنواع كثيرة من الحيات تظهر من أنابيب مائها وتدخل في ثياب داخلها ، ولم يشتهر أنها أضرت أحدا قط على ممر الدهور وتطاول الأزمنة ، حكاها في "مسالك الأبصار" .
ومنها - (صدع) في سور الخواي من قلاع الدعوة من عمل طرابلس أيضا . إذا لدغ أحد بحية فأتى إلى ذلك الموضع فشاهده بعينه أو أرسل رسوله فشاهده ، سلم من تلك اللدغة ، ولم يضره السم . إلى غير ذلك من العجائب الظاهرة والمندرسة بمرور الزمان عليها .

قال ابن الأثير: وبقرى حلب قرية تسمى براق ، يقال إن بها معبدا يقصده أصحاب الأمراض ويبيتون به . فيما أن يرى المريض في منامه من يقول له أستعمل كذا وكذا

فيراً، أو مسح عليه بيده فيراً . قال في تاريخه: وبقرية مبرون من قرى صَفَد مَغَارَة يظهر فيها الماء في يوم من السنة تجتمع إليه اليهود في ذلك اليوم، ويحلبون منه الماء إلى البلاد البعيدة؛ وبوادي دلسه من عملها عينٌ تعرف بعين الجن تفور لحظة كالنهر ثم تغور حتى لا يبقى فيها ماء، ثم تفور كذلك ليلاً ونهاراً؛ وبقرية بكوزا من قرى صَفَد عِنْبٌ داخل العنبة عنبةٌ أخرى؛ وبقرية عد شيب من قراها بلوطٌ يؤخذ الواحد منه من الشجرة فيوجد حضنها حجر؛ وبقرية عياض تراب الجير إذا عمل منه كوزٌ وسُقِي فيه الكسير من آدمى أو غيره، جُرَّ عظمه؛ وبالناصره من أعمالها كنيسة بها عمود إذا اجتمع عنده جماعة وعملوا سماعاً عَرِقَ العمود حتى يظهر عرقه .

الطَّرَفُ الثَّانِي

(في حدوده، وأبتداءِ عمارته، وتسميته شاماً؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في حدوده)

وقد اختلف في تحديده، فذكر في "التعريف" أن حدّه من القبلة إلى البرّ المنقصر: تيه بنى إسرائيل وبرّ الحجاز والسّماوة إلى مرّميّ الفرات بالعراق . قال: وهذه المحادّات كلّها من جزيرة العرب .
 وحدّه من الشرق طرف السّماوة والفرّات .
 وحدّه من الشّمال البحر الروميّ .

وحده من الغرب حدّ مصر المتقدّم ذكره، وذكر في "تقويم البلدان":
 أن حدّه من الجنوب من أول رفح التي في أول الحفّارين مصر والشام إلى حدود تيه بنى إسرائيل إلى ما بين الشّوبك وأيلة من البلقاء؛ وحدّه من الشرق من البلقاء

إلى مشاريق صَرَّخَدَ، آخذًا على أطراف الغوطة، إلى سَامِيَّةَ، إلى مشاريق حلب، إلى بَالِسَ، وحدّه من الشمال من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم، إلى ألبيرة، إلى سَمِيَّسَاطَ إلى حصن منصور، إلى بَهَسْنَى، إلى مَرَعَشَ، إلى بلاد سيس، إلى طَرَسُوسَ، إلى بحر الروم، وحدّه من الغرب من طَرَسُوسَ المذكورة آخذًا على ساحل البحر الرومى إلى رَفَحَ المتقدمة الذكر حيث وقع الأبتداء .

قامت : والخُلْفُ بينهما في شيئين .

أحدهما - أنه في " التعريف " جعل حدّه الشّماليّ إلى البحر الرومى، وحدّه الغربيّ جدّد مصر المتقدّم ذكره، وفي " تقويم البلدان " جعل حدّه الشّماليّ البلاد التي بين الفُرات والبحر الرومى، وحدّه الغربيّ البحر الرومى من طَرَسُوسَ إلى رَفَحَ فيدخل حدّ مصر الذى حدّ به الجانب الغربيّ في " التعريف " في هذا الحدّ، وكان الموقّع لها في ذلك أن البحر الرومى عن الشام غربًا بشمال، فَجَنَحَ كل منهما إلى جهة .

الثانى - أنه في " تقويم البلدان " أدخل بلاد الأَرَمِنِ المتصلة بأخر بلاد حَلَبَ من الشمال في حدود الشام، وفي " التعريف " أخرجها وهو التحقيق . وقد صرّح بذلك في " التعريف " فيما بعد فقال بعد أن أفرد الفتوحات الجاهانيّة التي هي أوّل بلاد الأَرَمِنِ من جهة حَلَبَ بالذكر : وأتيتُ بها ههنا إذ لم يكن لها تَعَلُّقٌ بمملكة تذكّر فيها، وليست من الشامات في شيء وإنما هي من بلاد الأَرَمِنِ المسماة قديمًا ببلاد العواصم والثغور، وسيأتى الكلام على بلاد الأَرَمِنِ بمفردها في جملة أعمال حلب في الكلام على قواعد المملكة الشامية إن شاء الله تعالى .

على أن ما ذكره من التحديد في " التعريف " و " تقويم البلدان " لا يخلو عن تساهل . فقد قال في " التعريف " : بعد ذكر الحدود التي أوردها : وهذه الحدود هي الجامعة على ما يحتاج إليه، وإذا فصلت تحتج إلى زيادة إيضاح . وقال

في "تقويم البلدان" : بعد ذكر الحدود التي أوردتها أيضا : وبعض هذه الحدود قد تقع شرقية عن بعض الشام وهي بعينها جنوبية عن بعض آخر، مثل البلقاء فإنها جنوبية عن حلب وما على سمتها، وشرقية عن مثل غزّة وما على سمتها فليعلم العذر في ذلك.

قال ابن حوقل : وطول الشام من مَلطية إلى رَفح خمس وعشرون مرحلة . فمن مَلطية إلى مَنبج أربع مراحل ، ومن مَنبج إلى حلب مرحلتان ، ومن حلب إلى حِمص خمس مراحل ، ومن حِمص إلى دِمَشق خمس مراحل ، ومن دِمَشق إلى طَبْرية أربع مراحل ، ومن طَبْرية إلى الرملة ثلاث مراحل ، ومن الرملة إلى رَفح مرحلتان .

قال اليفاشي في "سرور النفس" : وطوله أكثر من شهر . قال ابن حوقل : وأعرض ما فيه طرفاه . فأحد طرفيه من الفرات من جسر منبج على منبج على قورس في حد قنسرين ، ثم على العواصم في حد إنطاكية ، ثم يقع على جبل اللكام ، ثم على المصيصة ، ثم على أذنة ، ثم على طرسوس ، وذلك نحو عشر مراحل وهذا هو السمت المستقيم . والطرف الآخر يأخذ في البحر من حد ياقا من جند فلسطين حتى يتهي إلى الرملة إلى بيت المقدس ، ثم إلى أريحا ، ثم إلى زغر ، ثم إلى جبل الشراة إلى أن يأتي إلى معان ، وتقدير ذلك ست مراحل . ثم قال : أما ما بين هذين الطرفين من الشام فلا يكاد بين الأردن ودمشق وحمص يزيد على أكثر من ثلاثة أيام ، لأن من دمشق إلى طرابلس على بحر الروم غربا يوما وإلى أقصى الغوطة شرقا حتى يتصل بالبادية يوما ، ومن حمص إلى أنطرس على بحر الروم غربا يومين ، ومن حمص إلى سامية على البادية شرقا يوما ، ومن طبرية من جند الأردن إلى صور على البحر الرومي غربا يوما ، ومنها إلى أريحا على حدود بني فزارة شرقا يوما .

المقصد الثاني

(في آبتداء عمارته وتسميته شاما وما يَلْتَحِقُ بذلك)

أما آبتداء عمارته، فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخ الشام عن هشام بن محمد عن أبيه : أن نوحا عليه السلام لما قسم الأرض بين بنيه لحق قوم من بني كنعان^(١) ابن حام بن نوح عليه السلام بالشام فسميت الشام، حين تَشَاءُوا إليها، يعنى من أرض بابل كما جاء في الرواية الأخرى. قال : فكانت الشام يقال لها لذلك أرض كنعان، وجاء بنو إسرائيل فأجلّوهم عنها، وبقيت الشام لبني إسرائيل إلى أن غلب عليه الروم وأنزعوهم منهم فأجلّوهم إلى العراق إلا قليلا منهم، ثم جاء العرب فغلبوا على الشام (يعنى في الفتح الإسلامى) ثم الشام مهموز مقصور. قال النووى في تهذيب الأسماء واللغات " وغيره : ويجوز فيه فتح الشين والمد. قال : وهى ضعيفة وإن كانت مشهورة قال الجوهرى : ويجوز فيه التذكير والتأنيث . قال النووى : والمشهور التذكير . وقد اختلف في سبب تسميته شاما فقول لتشاؤم بني كنعان إليه كما تقدم في كلام ابن عساكر، وقيل سمى بسام بن نوح لأنه نزل به، وأسمه بالسريانية شام بشين معجمة، والعرب تنقلها إلى السين المهملة . وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسواد والبياض فسمى شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الإنسان شامة . وقيل سميت شاما لأنها عن شمّال الكعبة، والشام لغة في الشمال . قال أبو بكر بن محمد : ويجوز فيه وجهان . أحدهما أن يكون من اليد الشؤمى وهى اليسرى . والثانى أن يكون فعلا من الشؤم .

(١) كذا في معجم البلدان أيضا وفي القاموس في مادة (ك ن ع) كنعان بن سام .

الطَّرَفُ الثَّالِثُ

(في أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورياحينه
ومواشيه ، ووحوشه وطوره ، وفيه ستة مقاصد)

المقصود الأول

(في ذكر الأنهار العظام بالشام وما هو مضاف إليه مما يتكرر ذكره
بذكر البلدان ، وهي أربعة أنهار ^(١))

الأول - نهر الفرات وهو أعظمها ، وقد تقدّم في الكلام على النيل أنه شقيقه
في الخروج من الجنة . وقد ثبت في صحيح مسلم أن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) !
قال : " لا تقوم الساعةُ حتى يحسّرَ الفراتُ عن جبلٍ من ذهبٍ فيقتلَ الناسُ عليه
فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون ، ويقول كل رجل منهم لعلى أنا الذي أجُوبه " .
وأول أبتدائه من شماليّ مدينة (أرزن الروم) وشرقيّها ، وهي آخر بلاد الروم من جهة
الشرق حيث الطول أربع وستون درجة والعرض آثنتان وأربعون درجة ونصف ،
ثم يأخذ إلى قُرب (ملطية) ثم يأخذ إلى (سُميساط) ثم يأخذ مشرقا ويتجاوز (قلعة الروم)
من شماليّها وشرقيّها ، ثم يسير إلى (البيرة) من جنوبيّها ، ثم يمرّ مشرقا حتى يجاوز باليس ،
ثم قلعة جعبر ويتجاوزها إلى الرقة ، ثم يسير مشرقا ويتجاوز الرجة من شماليّها ويسير
إلى عنة ، ثم يمتد إلى هيت ، ويمتد حتى يجاوز مخرج (نهر كوثي) الآتي ذكره ، فينقسم
قسمين ويمرّ أحدهما : وهو الجنوبيّ إلى (الكوفة) ويتجاوزها ، ويصبّ في بطائح
العراق ، ويمرّ الآخر : وهو أعظمها بإزاء (قصر ابن هبيرة) ويعرف هذا القسم بنهر
سورا (بضم السين المهملة وآخره ألف يمد ويقصر) وهي قرية على النهر تُسبب إليها ،

(١) الصواب ستة أنهار كما يتضح مما سيأتي .

ويتجاوز قصر ابن هيرة ويسير جنوبا إلى (مدينة بابل) القديمة، ويتفرع منه بعد أن يجاوز بابل عدة أنهر، ويمر عموده إلى (مدينة النيل) ويجاوزها حتى يصب في دجلة ويسمى من بعد مجاوزة النيل (نهر الصرة) . وعلى الفرات أنهار تصب فيه وأنهار تخرج منه ليس بنا حاجة إلى تفصيلها .

الثاني - نهر حماة . ويسمى العاصي لأن غالب الأنهر تسقى الأرض بغير دواليب ولا نواعير بل تركب البلاد بأنفسها، ونهر حماة لا يسقى إلا بنواعير تترع الماء منه ، ويسمى أيضا النهر المقلوب : لجره من الجنوب إلى الشمال ، وغالب الأنهر إنما تجرى من الشمال إلى الجنوب ، وأسمه القديم نهر الأرط^(١) ، وأوله نهر صغير من ضيعة قريبة من بعلبك في الشمال عنها على نحو مرحلة ، تسمى الرأس ، ويمتد من الرأس شمالا حتى يصل إلى مكان يسمى قائم الهرمل بين قرية جوسية والرأس ، ويمتد في واد هناك وينبع من هناك أكثر ماء النهر من موضع يسمى مغارة الراهب ، ويمتد شمالا حتى يجاوز (جوسية) ويمتد حتى يصب في (بحيرة قدس) غربى حصص ، ويخرج من البحيرة ويتجاوز حصص إلى الرستن ، ويمتد إلى حماة ، ثم إلى شيزر ، ثم إلى بحيرة أفامية ، ثم يخرج من بحيرة أفامية ، ويمتد على دركوش ، ويمتد إلى جسر الحديد ، وذلك جميعه شرقى جبل اللكام . فإذا وصل إلى جسر الحديد انقطع الجبل المذكور هناك ، ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوبا بغرب ويمتد على سور أنطاكية ، ويسير كذلك مغربا بجنوب حتى يصب في بحر الروم عند السويدية ويصب في العاصي عدة أنهر :

منها - نهر منبعه من تحت أفامية يسير مغربا حتى يصل إلى بحيرة أفامية ويختلط

بالعاصي .

(١) أورده ياقوت في معجم البلدان بالبدال المهملة .

ومنها - نهر في شمال أفامية على نحو ميلين يُعرف بالنهر الكبير يسير مدى قريبا
ويصب في بحيرة أفامية، ويخرج منها مع العاصى .

ومنها - النهر الأسود، يجري من الشمال ويمر تحت دربساك ويمتد حتى يصب
في بحيرة أنطاكية ويخرج منها ويصب في العاصى .

ومنها - نهر يغرا - بفتح الياء المشناة تحت وسكون العين المعجمة وفتح الراء المهملة
ثم ألف مقصورة - بلدة هناك يمر عليها ويصب في النهر الأسود المذكور .

ومنها - عفرين - بكسر العين المهملة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة ثم باء مشناة
تحت ونون في الآخر - وهو نهر يأتي من بلاد الروم ويمر على الراوندان إلى الجومة
ويمر في الجومة إلى العمق ويختلط بالنهر الأسود .

الثالث - نهر الأردن . والأردن بضم الهمزة وسكون الراء المهملة وضم الدال
المهملة أيضا وتشديد النون . كذا ضبطه السمعاني في "اللباب" قال : وهي بلدة
من بلاد العور من الشام نسب إليها النهر ويسمى الشريعة أيضا ، وأصله من أنهار
تصب من جبل الثلج إلى بحيرة بانياس ، ثم يخرج من البحيرة المذكورة ويصب
في بحيرة طبرية ، ويمتد جنوبا ، وهناك يصب في نهر اليرموك بين بحيرة طبرية
المذكورة وبين القصير ، ويمتد في وسط العور جنوبا حتى يجاوز بيسان ، ويمتد
في الجنوب كذلك إلى أريحا ، ولا يزال يمتد في الجنوب حتى يصب في بحيرة زغر
وهي البحيرة المنتنة المعروفة ببحيرة لوط .

الرابع - نهر العوجاء - بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح الجيم وبعدها
ألف - ويسمى نهر أبي فطرس (بضم الفاء وبالطاء والراء والسين المهملات) وهو نهر
شمال مدينة الرملة من فلسطين باثني عشر ميلا ، ومنبعه من تحت جبل الخليل

عليه السلام مقابل قلعة خراب هناك تسمى مجد اليابا، ويجرى هذا النهر من الشرق إلى الغرب، ويصب في بحر الروم جنوبى غابة أرسوف، ومن منبعه إلى مصبه دون مسافة يوم. قال في "العزى": وما تبقى عليه جيشان إلا غلب الغربى وأنهم الشرق، وسيأتى الكلام على أنهار دمشق في الكلام على حاضرتها إن شاء الله تعالى إذ لا يتعداها إلى غيرها من البلاد.

الخامس - نهر جيجان. بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح الحاء المهملة وبعد الألف نون - وتسمى العامة جهان - يجيم وهاء مفتوحتين وألف ثم نون، وربما زادوا ألفا بعد الجيم فقالوا جادان، وإليه تنسب الفتوحات الجاهانية الآتى ذكرها. قال في "رسم المعمور": وأوله عند طول ستين درجة وعرض أربعين درجة، وهو نهر يقارب الفرات فى الكبر، ويمر بسيس، ويسير من الشمال إلى الجنوب بين جبال فى حدود الروم حتى يبلغ المصيبة من شمالها حيث الطول تسع وخمسون وكسر والعرض ست وثلاثون درجة، وعرض خمس عشرة، وجرآنه عندها من المشرق إلى المغرب، ويتجاوز المصيبة ويصب بالقرب منها فى بحر الروم.

السادس - نهر سيجان. بفتح السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الحاء المهملة وبعدها ألف ثم نون. قال فى "رسم المعمور": وأوله عند طول ممان وخمسين، وعرض أربع وأربعين؛ ويمر ببلاد الروم إلى الجنوب عند مجرى جيجان المتقدم ذكره، ويسير حتى يمر ببلاد الأرمن، ويمر على سور أذنة من شرقها حيث الطول تسع وخمسون بغير كسر، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة،

(١) أوردتها فى المعجم هكذا "مجدلابة".

(٢) فى تقويم أبى الفداء "خمس عشرة دقيقة".

ويتجاوز أذنة ويلتقى مع جيحان المتقدم ذكره ويصيران نهرا واحدا ، ويصبان في بحر الروم بين آياس وطرسوس على ما تقدم ذكره .

المقصد الثاني

(في ذكر بحيراته ، وهي ثمان بحيرات)

الأولى - بحيرة طبرية . قال الزجاجي : سميت طبرية بطباري ملك من ملوك الروم ، وهي في أول الغور ، يدخل إليها نهر الشريعة المنصب من بحيرة بانياس الآتي ذكرها ، ودورها نحو مسيرة يومين ، ووسطها حيث الطول ثمان وخمسون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون ، وهي قرعاء . ليس بها قصب نابت . وطبرية مدينة خراب على شاطئ البحيرة المذكورة من جانبها الغربي الجنوبي ، قال العثماني في " تاريخ صغد " : ويقال إن قبر سليمان بن داود عليهما السلام بهذه البحيرة .

الثانية - بحيرة زغر وتعرف بحيرة سدوم وبحيرة لوط . وهي بحيرة متنتة ليس بها سمك ولا يأوى إليها طير ، وفيها منصب نهر الأردن المسمى بالشريعة عند نهايته ، ويغيب الماء فيها ولا يخرج منها شيء من الأنهار ، وهي في آخر الغور من جهة الجنوب ، ودورها فوق مسيرة يومين ، ووسطها حيث الطول تسع وخمسون درجة والعرض إحدى وثلاثون .

الثالثة - بحيرة بانياس . وهي بحيرة بالقرب من بانياس من مقابلة دمشق يصب فيها عدة أنهار من جبل هناك ، ويخرج منها نهر الشريعة ويصب في بحيرة طبرية المتقدم ذكرها ، وبها غابة قصب .

الرابعة - بحيرة البقاع . وهي مستنقع ماء في جهة الغرب عن بعلبك على مسيرة يوم منها ، بها هيش وغابات قصب .

الخامسة - بحيرة دِمَشْتَقَ . وهي بحيرة في شرق غُوطَةِ دِمَشَقَ بِمِئَلَةِ سِيرَةِ إلى الشمال يصب إليها فضلة نهر بَرْدَى وغيره، وتتسع في أيام الشتاء وتضيق في أيام الصيف، وبها غابات قَصَبَ، وفيها أما كن تَحْمِي من العدو .

السادسة - بحيرة قَدَسَ . بفتح القاف والذال وفي آخرها سين مهملة .

وهي بحيرة في أرضٍ مستوية، عن حِصَصَ في جهة الغرب على بعض يوم منها، وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة وفي طرفها الشمالي سدٌ ممتد في طولها مبنى بالحجر من بناء الأوائل ينسب بناؤه إلى الإسكندرِ طولُه شرقا وغربا ألف ومائتان وسبعة وثمانون ذراعا، وعرضه ثمانية عشر ذراعا ونصف ذراع، وعلى وسط السدِّ بُرْجَانٍ من حجر أسود .

السابعة - بحيرة أفايمية . وهي عتدة بطامح في الغرب بمِئَلَةِ إلى الشمال عن أفايمية بين غابات من القَصَبَ، يصب فيها النهر العاصي من جهة الجنُوبَ . وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك، فالجنوبية منهما بحيرة أفايمية المذكورة، وسعتها بالتقريب نحو نصف فرسخ، وقعرها قريب قامة، وأرضها موحلة لا يقدر الإنسان على الوقوف فيها، وبوسطها جُمُ قَصَبَ و بَرْدَى وحوها القصب والصفصاف، وبها من أنواع الطير مالا يحصى كثرة، وينبت بها في زمن الربيع اللينوفر الأصفر حتى يستر الماء عن آخره بورقه وزهره . والبحيرة الشمالية من عمل حصن برزوية بقدر بحيرة أفايمية أربع مرات، ووسطها مكشوف، وينبت اللينوفر بجانبها الجنوبي والشمالي وبينها وبين بحيرة أفايمية المذكورة زقاق تسير فيه المراكب من إحداهما إلى الأخرى . قال في "تقويم البلدان" : ويعتبر طول هذه البطامح وعرضها بأفايمية .

الثامنة - بحيرة أنطاكية . وهي بحيرة بين أنطاكية وبعراس وحارم في أرض تعرف بالعمق (بفتح العين المهملة وسكون الميم) من معاملة حلب شمالي أنطاكية على

مَسِيرَةٌ يَوْمِينَ مِنْ حَلَبَ فِي جِهَةِ الْغَرْبِ عَنْهَا . وَفِيهَا مَصَبُ نَهْرِ عَفْرَيْنَ وَالنَّهْرُ الْأَسْوَدُ وَنَهْرٌ يَغْرًا الْمَتَقَدِّمَ ذِكْرَهَا ، وَدَوْرُهَا نَحْوَ مَسِيرَةِ يَوْمٍ ، وَأَجَامُ الْقَصَبِ مُحِيطَةٌ بِهَا وَفِيهَا مِنَ الطَّيْرِ وَالسَّمَكِ نَحْوَ مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ فِي بَحِيرَةِ أَفَامِيَّةَ . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" :
وَطَوْلُهَا طَوْلُ أَنْطَاكِيَّةَ تَقْرِيْبًا ، وَعَرْضُهَا أَكْثَرُ مِنْ عَرْضِهَا بِدَقَائِقَ .

المقصود الثالث

(فِي ذِكْرِ جِبَالِهَا الْمَشْهُورَةِ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَقَاصِدِ ، وَهِيَ حَدَّةُ أَجْبَلِ)
مِنْهَا - (جِبَلُ النَّالِجِ) بِالنَّاءِ الْمَمْلُئَةِ وَالْحِيمِ ، وَمَا يَتَّصِلُ بِهِ . قَالَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" :
وَالطَّرْفُ الْجَنُوبِيُّ لِهَذَا الْجَبَلِ بِالْقَرْبِ مِنْ صَفَدَ . قَالَ فِي "رَسْمِ الْمَعْمُورِ" حَيْثُ
الطُّوْلُ تِسْعٌ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً وَخَمْسٌ وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً ، وَالْعَرْضُ اثْنَتَانِ وَثَلَاثُونَ
دَرَجَةً . قَالَ : فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" : ثُمَّ يَمْتَدُّ إِلَى الشَّمَالِ وَيَتَجَاوَزُ دِمَشْقَ . فَإِذَا صَارَ
فِي شَمَالِهَا ، سُمِّيَ جِبَلُ (سَنِيرِ) وَيُسَمَّى جَانِبُهُ الْمُطَّلُ عَلَى دِمَشْقِ جِبَلُ (قَاسِيُونَ) وَيَتَجَاوَزُ
دِمَشْقَ وَيَمُرُّ غَرْبِيَّ بَعْلَبَكَّ ، وَيُسَمَّى الْجَبَلُ الْمُقَابِلَ لِبَعْلَبَكَّ جِبَلُ (لِينَانَ) بِلَامٍ مَكْسُورَةٍ (١)
وَبَاءٍ مُوَحَّدَةٍ سَاكِنَةٍ وَنُونٍ مَفْتُوحَةٍ بَعْدَهَا أَلْفٌ وَنُونٌ ثَانِيَةٌ - وَإِذَا تَجَاوَزَ بَعْلَبَكَّ
وَاصَارَ شَرْقِيَّ طَرَابُلُسَ سُمِّيَ جِبَلُ (عَكَارِ) بَعَيْنٍ مَهْمَلَةٍ مَفْتُوحَةٍ وَكَافٍ مُشَدَّدَةٍ وَرَاءَ مَهْمَلَةٍ
فِي الْآخِرِ - إِضَافَةٌ إِلَى حَضْنٍ بِأَعْلَاهُ يُسَمَّى عَكَارًا ، ثُمَّ يَتَرَسَّمَالًا وَيَتَجَاوَزُ طَرَابُلُسَ
إِلَى حَضْنِ الْأَكْرَادِ مِنْ عَمَلِ طَرَابُلُسَ ، وَيَسَامَتُ حِمَصَ مِنْ غَرْبِهَا عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ
وَيَمْتَدُّ حَتَّى يَجَاوِزَ سَمْتَ حِمَاةَ ، ثُمَّ سَمْتَ شِيزَرَ ، ثُمَّ سَمْتَ أَفَامِيَّةَ ، وَيُسَمَّى قِبَالَةَ هَذِهِ
الْبِلَادِ جِبَلُ (الْأَلْكَامِ) بِضَمِّ اللَّامِ . قَالَ فِي "رَسْمِ الْمَعْمُورِ" : وَجِبَلُ الْأَلْكَامِ يَمْتَدُّ إِلَى أَنْ
يَصِيرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ جِبَلِ شَحْشَبُو ، آتِسَاعُهُ نِصْفُ يَوْمٍ حَتَّى يَتَجَاوِزَ صَهْرُونَ وَالشُّغْرَ
وَبَكَاسَ وَالتَّصِيرَ ، وَيَتَمَّى إِلَى أَنْطَاكِيَّةَ فَيَنْقَطِعُ هُنَاكَ وَيَصِيرُ قِبَالَةَ جِبَالِ الْأَرْمَنِ .

(١) ضبطه ياقوت والمجد بضم اللام .

قال في "تقويم البلدان" : ويقابل جبل اللكام المذكور عند مسامته لأفامية المتقدمة الذكر جبل آخر من شرقه ، يسمى جبل (شَحْشَبُو) بشين معجمة مفتوحة وحاء مهملة ساكنة وشين ثانية مفتوحة بعدها باء موحدة مضمومة ثم واو - إضافة إلى قرية هناك تسمى بذلك ، ويمرُّ من الجنوب إلى الشمال على غربى المعرة وسمرين وحلب ، ثم يأخذ غربا ويتصل بجبال الروم .

ومنها - (جبل عاملة) وهو جبل ممتد في شرق ساحل بحر الروم وجنوبيه ، حتى يقرب من مدينة صور ، وعليه شقيف أرنون ، نزله بنو عاملة بن سبيح من عرب اليمن عند تفرقهم بسيل العريم فعرف بهم .

ومنها - (جبل عوف) وهو جبل بالقرب من عجلون ، كان ينزله قوم من بنى عوف من جرم قضاة فعرف بهم ، وكانوا عصاة لا يدخلون تحت طاعة حتى بنى عليهم أسامة أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة عجلون فدخلوا تحت الطاعة على ماسياتي ذكره .

ومنها - (جبل الصلت) إضافة إلى مدينة الصلت الآتى ذكرها في أعمال دمشق ، وهو جبل في شرق جبل عوف وشماله ، كان أهله عصاة حتى بنى عليهم المعظم عيسى ابن العادل حصن الصلت فدخلوا في الطاعة .

المقصود الرابع

(في ذكر زروعه وفواكهه ورياحينه)

أما زروعه فغالبا على المطر . قال في "مسالك الأبصار" : ومنها ماهو على سقى الأنهار وهو قليل ، وفيه من الحبوب من كل ما يوجد في مصر من البر والشعير والذرة والأرز والباقل والبسلة والحلبان ، واللوبياء والحلبة ، والسَّمْسِم والقُرْطُم ، ولا يوجد فيه

الكَّانُ والبرسيمُ، وبه من أنواع البَطِيخِ والقِثَاءِ ما يُسْتَطَابُ ويستَحْسَنُ، وكذلك غيرها من المزدروعات كالقُلُقَاسِ والمُلُوخِيَا والبَادِئِجَانِ واللَّفَتِ والحَزَرِ والهَلِيُونِ والقُتَيْبِطِ والرَّجَلَةِ والبَقْلَةِ اليمانيَّةِ، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة، وقصبُ السُّكَّرِ في أغواره إلا أنه لم يبلغ في الكثرة حدَّ مصر.

وأما فواكهه، ففيه من كل ما يوجد في مصر كالتينِ والعِنَبِ والرُّمَانِ والقَرَاصِيَا والبرقوقِ والمِشْمِشِ والخَوْجِ - وهو المسمَّى بالدَّرَاقِنِ - والتوتِ والفِرْصَادِ، ويكثر بها التُّفَاحُ والكُتْمَرُ والسَّفْرَجَلُ مع كونها أكثر أنواعاً وأبهجَ منظراً، ويزيد عليه فواكه أحرلا توجد بمصر، وربما وجد بعضها في مصر على الندور الذي لا يعتد به كالجوزِ والبُنْدُقِ والإجاصِ والعُنَابِ والزَّعْرُورِ، والزَيْتُونُ فيه الغاية في الكثرة، ومنه يعصر الزيتُ وينقل إلى أكثر البلدان وغير ذلك، وبأغوارها أنواع الحمضات كالأترجِ والليمونِ والجَادِ والتَّارَنُجِ ولكنه لا يبلغ في ذلك حدَّ مصر، وكذلك الموزُ ولا يوجد البلحُ والرُّطْبُ فيه أصلا. قال في "مسالك الأبصار": وفيه فواكه تأتي في الخريف وتبقى إلى الربيع كالسَّفْرَجَلِ والتُّفَاحِ والعِنَبِ.

وأما رباحيته، ففيه كل ما في مِصْرَ من الآسِ والوردِ والرَّجِيسِ والبَنَفْسِجِ والياسمينِ والنَّسْرِينِ، ويزيد على مصر في ذلك خصوصا الوردُ حتى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلى سائر البلدان. قال في "مسالك الأبصار": وقد نُسِبَ به ما كان يذكر من ماء ورد جور ونصيين.

(١) أى بالشام وأنت باعتبار البقعة أو البلاد وقوله ويزيد عليه أى على مصر.

المقصد الخامس

(في ذكر مواشيه ووحوشه وطيوره)

أما مواشيه ففيه جميع ما تقدم من مواشى مِصْرَ من الإبل والبقر والغنم والحيل والبيغال والحَمِير، إلا أن أبقاره لا تبلغ في العظم مبلغَ أبقار مصر، وأغنامه لا تبلغ في طيبة اللحم مبلغَ أغنامها، وحميره لم تبلغ في الفراهة مبلغ حميرها .

وأما وحوشه ، ففيه الغزلان والأرانب والأسود وكثير من أنواع الوحوش المختلفة مما لا يوجد مثله في مِصْرَ .

وأما طيوره، ففيه الإوز والدجاج والحمام وأنواع طيور الماء المختلفة الأنواع . قال في "مسالك الأبصار": ولا تكون الفراريح فيها إلا بمحضّانة ولا تتجمع فيها المعامل التي تعمل لإخراج الفراريح في مصر . قال : ويذكر أن رجلا من أهل مصر عمل فيها معملا في حاضرة العقبية فصعد له العمل فيه في الصيف دون الخريف .

المقصد السادس

(في ذكر النفيس من مطعوماتها)

فيها العسل بقدر متوسط ، ويعمل فيها السكر الوسط والمكرر ، والشراب موجود فيها دون مصر، وأكثر حلواها من العسل والمن .

الطَّرَفُ الرَّابِعُ

(في ذكر جهاته وكوره القديمة وقواعده المستقرة وأعمالها؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ذكر جهاته وكوره القديمة)

قد قسم المتقدمون الشام إلى خمسة أجناد - جمع جند بضم الجيم وإسكان النون ودال مهملة في الآخر كما ضبطه الجوهرى وغيره .

الأول - (جُنْدُ فِلَسْطِينَ) وِفِلَسْطِينُ بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر . قال الزجاجي : سميت بِفِلَسْطِينِ بن كُثُومٍ من ولد فلان بن نوح ، بلدة كانت قديماً نسبت الكورة إليها . قال ابن حوقل : وهو أول الأجناد الخمسة من جهة الغرب من رَحَى إلى حَدِّ الْجَبُونِ ، وعَرَضُهُ من يافا إلى أَرِيحَا نحو يومين . قال ابن الأثير : هي كُورَةٌ كبيرة تشتمل على بلاد المقدس وغَزَّةَ وَعَسْقَلَانَ . قال ابن حوقل : وهي أرخبى بلاد الشام .

الثاني - (جُنْدُ الْأُرْدُنِّ) وَالْأُرْدُنُّ بلدة قديمة من بلاد الْغُورِ نسبت الكورة إليها ، وقد مرَّ ضبطها في الكلام على نهر الْأُرْدُنِّ عند ذكر الأنهار ، وقد نسبت الكورةُ إليها كما نسب إليها النهر المتقدم ذكره . قال ابن حوقل : وديار قوم لُوِطٍ والبحيرة الْمُتَنَبِّةُ وَزَعْرُ إِلَى بَيْسَانَ وإلى طَبْرِيَّةَ تسمى الْغُورَ : لأنه بين جبلين ، وسائر بلاد الشام مرتفعةٌ عليه . قال : وبعضها من الْأُرْدُنِّ وبعضها من فِلَسْطِينِ .

الثالث - (جُنْدُ دِمَشْقَ) وسيأتي الكلام عليها في قواعد الشام المستقرَّة .

الرابع - (جندِ حَمَصَ) وسيأتي الكلام عليها في الصفقة الشرقية من صَفَقَاتِ دِمَشْقَ .

الخامس - (جُنْدُ قَنْسَرِينَ) . قال في "الأبواب" : بكسر القاف وفتح النون المشددة وسكون السين وكسر الراء المهملتين ثم ياء مثناة من تحت ساكنة ونون في الآخر . قال الزجاجي : وقد روى أنها سميت برجل من قَيْسِ ^(١) يقال له ميسرة ، نزلها فتر به رجل فقال له : ما أشبه هذا الموضع بقن سارين ! فبنى منه اسم للكان ف قيل : قَنْسَرِينَ . وقيل : ددا أبو عبيدة ميسرة بن مسروق القيسي فوجهه في ألف فارس ^(٢)

(١) في معجم البلدان لياقوت : برجل من عيس .

(٢) » » » : العبسي .

في أثر المدوّ فتّر على قنّسرين فجعل ينظر إليها فقال : ماهذه ؟ فسميت له الرومية .
فقال : والله كأنها قنّسرين . قال : وهذا يدل على أن قنّسرين اسم مكان آخر عرفه
ميسرة فشبّه به هذا فسميت به .

قال ابن الأنباري : وفي إعرابها قولان .

أحدهما - أنها تجرى مجرى قولك الزيدون فتجعلها في الرفع بالواو فتقول هذه
قنّسرون وفي الخفض والنصب بالياء فتقول مررت بقنّسرين ونزلت قنّسرين .

التول الثاني - أن تجعلها بالياء على كل حال وتجعل الإعراب في النون ولا تصرفها .

وهي قاعدة من قواعد الشام القديمة على القرب من حلب ؛ كان الجند ينزها
في ابتداء الإسلام ، ثم ضعفت بحلب وخربت وصارت قرية على ما سياتي ذكره
في الكلام على حلب إن شاء الله تعالى .

قال ابن الأثير : وكل جند منها عرضّه من ناحية القرات إلى ناحية فلسطين ،
وطوله من الشرق إلى البحر ، وحكاه في "التعريف" على وجه آخر فقال : للناس
في الشام أقوال ، فمنهم من لا يجعله إلا شاما واحدا [ومنهم من يجعله شامات ، فيجعلون
بلاد فلسطين والأرض المقدسة إلى الأردن^(١) شاماً] ويقولون الشام الأعلى ؛
ويجعلون دمشق وبلادها من الأردن إلى الجبال المعروفة بالطوال شاما ، ويقع على
قرية النبك وما هو على خطها ؛ ويجعلون سورياً ؛ وهي حصّ وبلادها إلى رحبة
مالك بن طوق شاما ، ويجعلون حماة وشيزر من مضافاتها . وثم من يجعل منها حماة
دون شيزر ؛ ويجعلون قنّسرين وبلادها وحلب مما يدخل في هذا إلى جبال الروم
وببلاد العواصم والثغور ؛ وهي بلاد سيس شاماً . ثم قال : أما عمّا وطرابلس وكل

(١) الزيادة عن ضوء الصبح للمؤلف ليستقيم الكلام .

ما هو على ساحل البحر فكل ما قابل منه شيئاً من الشامات حُسب منه . قال :
ونبها على ذلك كله ليعرف . ثم قال : أما ماهو في زماننا وعليه قانون ديواننا فإنه إذا
قال سلطاننا بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دِمَشقَ ونائبها . وسيأتى الكلام
على حدود ولايته في الكلام على نيابة دِمَشقَ إن شاء الله تعالى .

المقصود الثاني

(في ذكر قواعد المستقرّة وأعمالها، وهي ستُّ قواعد، كلُّ قاعدة منها تعدّ مملكة
بل كانت كلُّ قاعدة منها مملكةً مستقلةً بسُلطان في زمن بني أيوب)

القاعدة الأولى

(دِمَشقُ ؛ وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وهي بكسر الدال المهمله وفتح الميم وسكون الشين المعجمة وقاف في الآخر. وتسمى
أيضاً جَلَقَ - بيمين مكسورة ولام مشددة مفتوحة وقاف في الآخر . وبذلك ذكرها
حَسَّانُ بنُ ثَابِتٍ رضى الله عنه في مدحه لبنى غَسَّانَ : ملوك العرب بالشأم بقوله :

لِللهِ دَرٌّ عِصَابِيَّةٌ نَادَمْتُهُمْ * يَوْمًا بِجَلَقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ

وحكى في "الروض المعطار" تسميتها جَيْرُونَ - بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت
وضم الراء المهمله وسكون الواو ونون في الآخر - وسمها في موضع آخر العَدْرَاءَ - بفتح
العين المهمله وسكون الذال المعجمة وفتح الراء المهمله وألف بعدها - وموقعها
في أواخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : وطولها ستون درجة
وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقد اختلفت في بانها : فقيل بناها

نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ وذلك أنه لما نزل من السفينة أُشْرِفَ فأرأى تَلَّ حِرافٍ بين نَهْرِي حِرافٍ وَدِيصَافٍ، فَأَتَاهُ فَبْنَى حِرافَ، ثُمَّ سَارَ فَبْنَى دِمَشْقَ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى بَابِلَ فَبَنَاهَا .^(١)
 وَقِيلَ بَنَاهَا جَيْرُونُ بْنُ سَعْدِ بْنِ عَادَ، وَبِهِ سَمِيَتْ جَيْرُونُ . وَيَقَالُ إِنَّ جَيْرُونُ وَبَرِيدَا كَانَا أَخَوَيْنِ وَهُمَا أَبْنَا سَعْدِ بْنِ لَقْمَانَ بْنِ عَادَ، وَبِهِمَا يَعْرِفُ بَابَ جَيْرُونِ وَبَابَ الْبَرِيدِ مِنْ أَبْوَابِهَا . وَقِيلَ بَنَاهَا الْعَازِرُ : غُلَامُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وَكَانَ حَبَشِيًّا وَهَبَهُ لَهُ مُرُودُ بْنُ كَعْنَانَ حِينَ خَرَجَ إِبْرَاهِيمَ مِنَ النَّارِ، وَكَانَ اسْمُهُ دِمَشْقَ فَسَمَاهَا بِاسْمِهِ .

وَفِي " كِتَابِ فُضَائِلِ الْفُرْسِ " لِأَبِي عُبَيْدٍ أَنَّ بِيورَاسِبَ مَلِكَ الْفُرْسِ بَنَاهَا .
 وَقِيلَ إِنَّ الَّذِي بَنَاهَا ذُو الْقَرَيْنَيْنِ عِنْدَ فِرَاعِهِ مِنَ السَّدِّ وَوَكَّلَ بِمَارَتِهَا غُلَامًا لَهُ اسْمُهُ دِمَشْقُ وَسَكَنَهَا دِمَشْقُ وَمَاتَ فِيهَا فَسَمِيَتْ بِهِ . وَهِيَ مَدِينَةٌ عَظِيمَةٌ الْبِنَاءِ ذَاتُ سُوْرٍ شَاهِقَةٍ وَهِيَ سَبْعَةُ أَبْوَابٍ : بَابُ كَيْسَانَ، وَبَابُ شَرْقِيٍّ، وَبَابُ تُوْمَا، وَبَابُ الصَّغِيرِ، وَبَابُ الْجَايِبَةِ، وَبَابُ الْفَرَادَيْسِ، وَبَابُ الْمَسْدُودِ .

وَرَوَى الْحَافِظُ بْنُ عَسَاكَرٍ عَنِ أَبِي الْقَاسِمِ تَمَّامِ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَنَّ بَانِيهَا جَعَلَ كُلَّ بَابٍ مِنْ هَذِهِ لِكَوْكَبٍ مِنَ الْكَوَاكِبِ السَّبْعَةِ ، وَصَوَّرَ عَلَيْهِ صُورَتَهُ ، فَجَعَلَ بَابَ كَيْسَانَ لِزُحَلِّ، وَبَابَ شَرْقِيٍّ لِلشَّمْسِ ، وَبَابَ تُوْمَا لِلزُّهْرَةِ ، وَبَابَ الصَّغِيرِ لِلشُّتْرِيِّ ، وَبَابَ الْجَايِبَةِ لِلْمَرِيخِ ، وَبَابَ الْفَرَادَيْسِ لِعُطَّارِدَ، وَبَابَ الْمَسْدُودِ لِلْقَمَرِ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهِيَ مَدِينَةٌ حَسَنَةٌ التَّرْتِيبِ ، جَلِيلَةٌ الْأَبْنِيَّةِ ، ذَاتُ حَوَاجِزٍ بَنِيَتْ مِنْ جِهَاتِهَا الْأَرْبَعِ ، وَغُوطُهَا أَحَدُ مَسْتَنْزَهَاتِ الدُّنْيَا الْعَجِيبَةِ الْمَفْضَلَةِ عَلَى سَائِرِ مَسْتَنْزَهَاتِ الْأَرْضِ ، وَكَذَلِكَ الرَّبْوَةُ وَهِيَ كَهْفٌ فِي فَمِ وَادِيهَا الْغَرْبِيِّ ، عِنْدَهُ تَنْقَسِمُ مِيَاهُهَا ، يَقَالُ إِنَّ بِهِ مَهْدَ عَيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ . وَبِهَا الْجَوَامِعُ وَالْمَدَارِسُ ، وَالْحَوَاقِقُ وَالرُّبُطُ ، وَالزُّوَايَا وَالْأَسْوَاقُ الْمُرْتَبَةُ

(١) كَذَا فِي الضَّوِّهِ أَيْضًا وَلَمْ تَعْرِ عَلَى هَذَيْنِ الْاسْمَيْنِ .

والديار الجميلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المتنوع، ذات البرك والماء الجاري .
 وربما جرى الماء في الدار الواحدة في أماكن منها والماء محكم عليها من جميع نواحيها
 باتقان محكم، وهي في وطأة مستوية من الأرض بارزة عن الوادي المنحط عن منتهى
 ذيل الجبل، مكشوفة الجوانب لتمر الهواء إلا من الشمال فإنه محجوب بجبل قاسيون،
 وبذلك تُعاب وتنسب إلى الوخامة . قال في "مسالك الأبصار" : ولولا جبلها
 الغربي الملبس بالثلوج صيفا وشتاء، لكان أمرها في ذلك أشد، وحال سكانها أشق؛
 ولكنه درياق ذلك السم، ودواء ذلك الداء . وهي مستديرة به من جميع نواحيه .
 قال في "مسالك الأبصار" : وغالب بناءها بالحجر ودورها أصغر مقادير من دور
 مصر لكنها أكثر زخرفة منها وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هو أحسن أنواعا .
 قال : وعناية أهلها بالبناني كثيرة، ولهم في بسايتهم منها ما تفوق به وتحسن
 بأوضاعه؛ وإن كانت حلب أجل بناء لعنايتهم بالحجر، فدمشق أزین وأكثر رونقا
 لتحكم الماء على مدينتها وتسليطه على جميع نواحيها، ويستعمل في عماراتها خشب
 الحور - بالحاء والراء المهملتين - بدلا من خشب النخل إلا أنه لا يُقتنى بالبياض
 ويكتفى بحسن ظاهره . وأشرف دورها ما قرب، وأجل حاضرتها ما هو في جانيها :
 الغربي والشمالي .

فأما جانبها الغربي ففيه قلعتها، وهي قلعة حسنة مرجلة على الأرض، تحيط بها
 وبالمدينة جميعها أسوار عالية، يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة . وإذا دعت
 الحاجة إليه أطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها، وتحت القلعة ساحة
 فسيحة بها سوق الخيل، على جانب وادي ينتهي فيه مما يلي القلعة إلى شرفين محيطين
 به في جهتي القبلة والشمال، في ذيل كل منهما ميدان مُمَرَّج بالزجيل الأخضر، والوادي
 يشق بينهما . وفي الميدان القبلي منهما القصر الأبلق - وهو قصر عظيم منبني من أسفله

إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب، وإحكام عجيب، بناه الظاهر ببيرس
 البندقدارى في سلطته، وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة
 الجبل بمصر، وأمام هذا القصر دركاه يُدخَلُ منها إلى دهليز القصر، وهو دهليز
 فسحج يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرُخام الملون البديع الحُسن، مؤزر بالرُخام
 المفصل بالصدف والفضّ المُدهب إلى سُجف السقوف، وبالدار الكبرى به
 إيوانان متقابلان تُطلُ شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر، وغربيهما على شاطئ
 وادٍ أخضر يجرى فيه نهر، وله رَفَارِفُ عالية تناغى السُحُبَ، تُشْرِفُ من جهاتها الأربع
 على جميع المدينة والغوطة .

والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوكية والإصطبلات السلطانية والحمام وغير ذلك
 من سائر ما يحتاج إليه، وبالدار التي أمام القصر المتقدم ذكرها جَسْرٌ معقود على
 جانب الوادي يُتوصَلُ منه إلى إيوان براني يُطلُّ منه على الميدان القبلي، أستجده
 أقوش الأفرم في نيابته في الأيام الناصرية ابن قلاوون، وتُجَاهَ باب القصر بابٌ
 يُتوصَلُ من رحبته إلى الميدان الشمالي، وعلى الشرفين المتقدم ذكرهما أبنية جليلة
 من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس ورُيُطٌ وخَوَاقِقٌ وزَوَايَاٌ وحمامات ممتدة على
 جانبيين ممتدين طول الوادي .

ولهذه القلعة نائبٌ بمفردها غير نائب دمشق يحفظها للسلطان ولا يُمكنُ أحداً من
 طلوعها من النائب أو غيره . وإذا دخل السلطان دمشق نزل بها . وبها تُنحَتُ ملك
 كغيرها من ديار الملك .

وأما جانبها الشمالي ويسمى العُقبية، فهو مدينة مستقلة بذاتها ذات أبنية جليلة
 وعمائر ضخمة، يسكنها كثير من الأمراء والجنود، وبازاء المدينة في سفح جبل قاسيون
 (مدينة الصالحية): وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل بازاء المدينة في طول مدى يُشْرِفُ

على دِمَشقَ وَحُوطِهَا، ذَاتُ بِيوتٍ وَمَدَارِسَ وَرَبِطَ وَأَسْوَاقَ وَبِيوتَ جَلِيلَةَ، وَبِأَعْلِيهَا
 مَعَ ذَيْلِ الْجَبَلِ مَقَابِرَ دِمَشقَ الْعَامَّةِ، وَلِكُلِّ مَن دِمَشقَ وَالصَّالِحِيَةِ الْبَسَاتِينِ الْإَيْقَةَ
 بَتَسْلُسُلٍ جَدَاوِلَهَا وَتَغْنَى دُوحَاتِهَا، وَبِمَتَايِلِ أَغْصَانِهَا وَتَعْرُدُ أَطْيَارُهَا، وَفِي بَسَاتِينِ التُّرْهَةِ
 بِهَا الْعَائِرُ الضَّخْمَةُ، وَالْجَوَاسِقُ الْعَلِيَّةُ، وَالْبِرْكُ الْعَمِيقَةُ، وَالْبَحِيرَاتُ الْمُنْتَدَّةُ، تُتَقَابِلُ
 بِهَا الْأَوَاوِينُ وَالْمَجَالِسُ، وَتُحْفُ بِهَا الْغِرَاسُ وَالنَّصُوبُ الْمُطْرَزَةُ بِالسَّرْوِ الْمُذَنَّبِ،
 وَالْحُورُ الْمَشُوقُ الْقَدُّ وَالرِّيَاحِينُ الْمَتَارِجَةُ الطَّيِّبُ، وَالْفَوَاكِهُ الْجَنِيَّةُ، وَالثَّمَرَاتُ
 الشَّهِيَّةُ، وَالْأَشْيَاءُ الْبَدِيعَةُ، الَّتِي تُغْنَى شَهْرَتِهَا عَنِ الْوَصْفِ، وَيَقُومُ الْإِيْجَازُ فِيهَا
 مَقَامَ الْإِطْنَابِ .

وَمَسْقِي دِمَشقَ وَبَسَاتِينِهَا مِنْ نَهْرٍ يُسَمَّى بَرْدَى - بَفَتْحِ الْبَاءِ الْمُوَحَّدَةِ وَالرَّاءِ وَالذَّالِ
 الْمَهْمَلَتَيْنِ وَبِآخِرِهِ أَلْفٌ . أَصْلُ مَخْرَجِهِ مِنْ عَيْنَيْنِ: الْبَعِيدَةُ مِنْهُمَا دُونَ قَرْيَةِ تَسْمَى
 الزَّبْدَانِيَّ، وَدُونِهَا عَيْنٌ بَقْرِيَّةٌ تَسْمَى الْفَيْجَةَ، بِذَيْلِ جَبَلٍ يُخْرِجُ الْمَاءَ مِنْ صَدْعٍ
 فِي نَهْيَةِ سَفْلِهِ قَدْ عَقَدَ عَلَى مَخْرَجِ الْمَاءِ مِنْهُ عَقْدٌ رُومِيٌّ الْبِنَاءِ، ثُمَّ تَرَفِدُهُ مَنَابِعُ فِي مَجْرَى
 النَّهْرِ، ثُمَّ يَقْسَمُ النَّهْرُ عَلَى سَبْعَةِ أَنْهَارٍ: أَرْبَعَةٌ غَرْبِيَّةٌ: وَهِيَ نَهْرُ دَارِيَاءَ، وَنَهْرُ الْمِزَّةِ، وَنَهْرُ
 الْقَنْوَاتِ، وَنَهْرُ بَانَأَسَ . وَأَثْنَانُ شَرْقِيَّةٌ وَهُمَا نَهْرُ يَزِيدَ، وَنَهْرُ ثُورَا، وَنَهْرُ بَرْدَى مَمْتَدَّ بَيْنَهُمَا .
 فَأَمَّا نَهْرُ بَانَأَسَ وَنَهْرُ الْقَنْوَاتِ، فَهُمَا نَهْرَا الْمَدِينَةِ حَاكِمَانِ عَلَيْهَا وَمُسْلَطَانِ عَلَى
 دِيَارِهَا، يَدْخُلُ نَهْرُ بَانَأَسَ الْقَلْعَةَ، ثُمَّ يَنْقَسِمُ قَسْمَيْنِ: قَسْمٌ لِلْجَامِعِ وَقَسْمٌ لِلْقَلْعَةِ، ثُمَّ يَنْقَسِمُ
 كُلُّ قَسْمٍ مِنْهُمَا عَلَى أَقْسَامٍ كَثِيرَةٍ وَيَتَفَرَّقُ فِي الْمَدِينَةِ بِأَصَابِعٍ مَقْدَرَةٌ مَعْلُومَةٌ، وَكَذَلِكَ
 يَنْقَسِمُ نَهْرُ الْقَنْوَاتِ فِي الْمَدِينَةِ، وَلَا مَدْخَلَ لَهُ فِي الْقَلْعَةِ وَلَا الْجَامِعِ، وَيَجْرِي فِي قُنِيٍّ
 مَدْفُونَةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَى أَنْ يَصِلَ إِلَى مَسْتَحَقَاتِهَا بِالْدُورِ وَالْأَمَاكِنِ عَلَى حَسَبِ

التقسيم، ثم تنصب فضلات الماء والبرك ومجاري الميضات إلى قُني معقودة تحت الأرض، ثم تجتمع وتتهدر وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقي البساتين .

وأما نهر يزيد، فإنه يجري في ذيل الصالحية المتقدم ذكرها ويشق في بعض عمارتها .
وأما بقية الأنهار، فإنها لتصرف إلى البساتين والغيطان لسقيها، وعليها القصور والبنيان خصوصا ثورا فإنه نيل دمشق، عليه جل مبانيها وبه أكثر تنزهات أهلها، من يخاله يراه زمردة خضراء، لا تغاف الأشجار عليه من الجانيين .

وبها (جامع بني أمية) وهو جامع عظيم، بناه الوليد بن عبد الملك بن مروان في سنة ثمان وثمانين من الهجرة، وأنفق فيه أموالا جمّة حتى يقال إنه أنفق فيه أربعمائة صندوق في كل صندوق ثمانية وعشرون ألف دينار، وإنه آجتماع في ترخيمه اثنا عشر ألف مرخم . قال في "الروض المعطار" : ودّعه في الطول من المشرق إلى المغرب مائتا خطوة وهي ثلاثمائة ذراع، وعرضه من القبلة إلى الشمال مائة خطوة وخمسة وثلاثون خطوة وهي مائتا ذراع، وتد زحرف بأنواع الزحرفة من الفصوص المذهبة والمرمر المصقول، وتحت نسره عمودان مجزعان بالحجرة لم ير مثلهما، يقال إن الوليد اشتراها بألف وخمسمائة دينار، وفي المحراب صغيران يقال إنهما كانا في عرش بلقيس، وعند منارته الشرقية حجر يقال إنه قطعة من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .

وقد ورد أن المسيح عليه السلام ينزل على المنارة الشرقية منه، ويقال إن القبة التي فيها المحراب لم تزل معبدا لأبتداء عمارتها وإلى آخر وقت . بناها الصابئة متعبدا لهم، ثم صارت إلى اليونانيين فكانوا يعظمون فيها دينهم، ثم أنتقل إلى اليهود فقتل يحيى بن زكريا عليه السلام، ونصب رأسه على باب جيرون من أبوابه فأصابته بركته، ثم صار إلى النصارى فجعلتها كنيسة، ثم أفتح المسلمون دمشق فاتخذوه

جامعها، وعلق رأس الحسين عليه السلام عند قتله في المكان الذي علق عليه رأس يحيى بن زكريا إلى أن جدده الوليد، ويقال إن رأس يحيى عليه السلام، مدفون به، وبه مصحف عثمان الذي وجه به إلى الشام .

قال في "الروض المعطار" : ويقال إن أول من وضع جداره الأول هود عليه السلام . وقد ورد في أثر أنه يُعبد الله تعالى فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها وما يدخل تحت حكم الولايات)

وقد ذكر في "التعريف" أن ولايتها من لُدُن العريش : حدّ مصر إلى آخر سامية مما هو شرق بشمال وإلى الرّحبة مما هو شرق بجنوب . قال : وقد أضيف إليها في زمن سلطاننا بلاد جعبر ، وكان من حتمها أن تكون مع حلب . وحينئذ فتكون ولايتها مشتملة على الشام الأعلى المتقدم ذكره وما يليه وما يلي ما يليه، وبعض الشام الأدنى ، وليس يخرج عنه من ذلك إلا حماة وما خرج مع صفد وطرابلس والكرّك . قال : ويكون في نيابة بائنها نيابة غزّة ونيابة حمص وبعض شيء مما يقتضى الحق أن يكون مع حلب .

وتشتمل على برّ وأربع صفقات .

فأما البرّ فالمراد به ضواحيها . قال في "التعريف" : وحدّها من القبلة قرية الحيارّة المجاورة للكُسوة وما هو على سمتها طولاً ، ومن الشرق الجبال الطّوال إلى التّبك وما على سمتها من القرى أخذاً على عسان^(١) وما حولها من القرى إلى الزّبداني ، ومن الغرب ما هو من الزّبداني إلى قرى القران المسامطة للحيارّة المقدم ذكرها . قال : ويدخل في ذلك مرج دمشق وغوطتها .

(١) في الأصل والضوء باللام [والصحيح عن ياقوت] .

وأما صَفَقَاتُهَا، فأربع صَفَقَات .

الصفقة الأولى

(الساحلية والجبليّة)

وهي الصَّفَقَةُ الغَربِيَّةُ عن دمشق . قال في "مسالك الأبصار" : وهي عبارة عن بلاد غَزَّةَ وما جاورها سهلاً ووعراً .

قال في "التعريف" : وهذه الصفقة هي الشام الأعلى، ينتقص منه ما هو من نهر الأردن إلى حدِّ قاقون . ثم هذه الصفقة لها جهتان .

الجهة الأولى

(الساحلية؛ وهي التي بساحل بحر الروم المتقدم ذكره،

وتشتمل على أربعة أعمال)

الأوّل - (عمل غَزَّةَ) - بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاي المعجمة أيضاً وفي آخرها هاء - وهي مدينة من جُندِ فِلِسْطِينَ، في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وعشر دقائق، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة . وقال ابن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة، وهي على طرف الرمل بين مضر والشام؛ أخذةً بين البر والبحر بجانبها؛ مبنيةً على تَسْرَعَالٍ على نحو ميل من البحر الرومي، متوسطة في العظم، ذات جوامع، ومدارس، وزوايا، وبيمارستان، وأسواق؛ صحيحةُ الهواء؛ وشرب أهلها من الآبار؛ وبها أمكنة يجتمع بها المطر إلا أنه يُسْتَقَلُّ في الشرب فيعدل منه إلى الآبار لِحَفَّةِ مائها؛ وبساحلها البساتين الكثيرة . وأجلُّ فاكهتها العنبُ والتينُ؛ وبها بعض النخيل، وبرّها ممتد إلى تيه بنى إسرائيل من قبلها، وهو موضع زرع

وماشية إلا أن أهل برها عُشْرَانُ^(١) بعضهم أعداء بعض . ولولا خوف سطوة السلطنة لما أُعْمِدَ سَيْفُ الفتنه بينهم ولا جتاحوا المدينة ومن فيها .

قلت : والحال فيها مختلف : فأكثر الأحيان هي تقدمه عسكر مضافة إلى دِمَشْقَ ، ياتر مقدم العسكر فيها بأمر نائب السلطنة القائم بِدِمَشْقَ ، ولا يُمَضَى أمر دون مراجعته وإن كانت ولايته من الأبواب السلطانية ، وتارة تكون نيابةً مستقلةً وتضاف إليها الصفقة الساحلية بكاملها فيكون لها حكم النيابات .

الثاني - (عمل الرملة) . بفتح الراء المهملة وسكون الميم وفتح اللام وفي آخرها هاء - وهي مدينة من جند الأردن ، موقعها في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وعشر دقائق . وقال في "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ست وخمسون درجة وست وعشرون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

وهي مدينة إسلامية بناها سليمان بن عبد الملك في خلافة أبيه عبد الملك . قال في "الروض المعطار" : وسميت الرملة لغلبة الرمل عليها . وقال في "مسالك الأبصار" : سميت بأمرأة أسماها رملة ، وجدها سليمان بن عبد الملك هناك في بيت شعر حين نزل مكانها يرتاد ببناءها ، فأكرمه وأحسن نزله ، فسألها عن اسمها فقالت رملة ، فبنى البلد وسمها باسمها . قال في "العزى" : وهي قصبه فلسطين ، وهي في سهل من الأرض ، وبينها وبين القدس مسيرة يوم . قال في "الروض المعطار" : وبينها وبين نابلس يوم ، وبينها وبين قيسارية مرحلة ، وكان عبد الملك قد أجرى إليها قناة

(١) كذا في الأصل مضبوطا .

ضعيفة للشرب منها، وأكثر شربهم الآن من الآبار ومن صهاريج يجتمع فيها ماء المطر، وهي مقرة الكاشف بتلك الناحية .

ومينأها مدينة يافأ - بفتح المثناة من تحت وألف وفاء ثم ألف في الآخر - وهي مدينة صغيرة بالساحل، وهي في الغرب عن الرملة وبينهما ستة أميال .

الثالث - (عمل لُد) - بضم اللام وتشديد الدال المهملة - وهي بلدة من جُندِ فِلَسْطِينَ واقعة في الإقليم الثالث شرقاً بشمال عن الرملة، وبينهما ثلاثة فراسخ، ولم يتحررلى طولها وعرضها، غير أنها نحو الرملة في ذلك: لقربها منها أو أطول وأعرض بقليل . وهي مدينة قديمة كانت هي قصبه فِلَسْطِينَ في الزمن الأول إلى أن بنيت الرملة فتحول الناس إليها وتركوا لُدًا، وقد ثبت في الصحيح أن المسيح عليه السلام يقتل الدجال ببابها .

الرابع - (عمل قَاقُون) - بفتح القاف وبعدها ألف ثم قاف ثانية مضمومة - وهي مدينة لطيفة غير مسورة، بها جامع وحمام وقلعة لطيفة، وشربها من ماء الآبار، ولم يتحررلى طولها وعرضها، إلا أن بينها وبين لُد مسيرة يوم فلتعتبر بها بالتقريب .

الجهة الثانية

(الجبلية، وبها ثلاثة أعمال)

الأول - (عمل القُدس) . والقُدس بضم القاف والدال لفظ غلب على مدينة بيت المقدس - بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة - وهو المسجد الأقصى، وأصل التقديس التطهير، والمراد المطهر من الأدناس . وهي مدينة من جُندِ فِلَسْطِينَ واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال": طولها ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان": والقياس أن طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها ثلاثون درجة .

وهي مبنية على جبل مستدير، وعرة المسلك؛ وبنائها بالمجر والكليس؛ وغالب حجرها أسود؛ وشرب أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد الأقصى وعين تجرى إليها عن بعد، وكذلك عين سلوان وليس مأواها بالكثير، وكان بها آثار قلعة قديمة خربت بفتحها الناصر "محمد بن قلاوون" في سنة ست عشرة وسبعائة، وليس بها حصانة، وكانت المدينة كلها قد غلب عليها الخراب من حين آستيلاء الفرنج عليها، ثم تراجع أمرها للعمارة، وصارت في نهاية الحسنة؛ بها المدارس والرطط والحمامات والأسواق وغيرها. والمسجد الأقصى هو أحد المساجد الثلاثة التي تشد إليها الرحال، وهو القبلة الأولى.

قال في "الروض المعطار": وأول من بنى بيت المقدس وأرى موضعه يعقوب عليه السلام، وقيل داود. والذي ذكره في "تقويم البلدان" أن الذي بناه سليمان ابن داود عليهما السلام وبقى حتى خربه مجتصر، فبناه بعض ملوك الفرس وبقى حتى خربه طيطوس ملك الروم، ثم بقی ورمم؛ وبقى حتى تصر قسطنطين ملك الروم وأمه هيلانة وبنّت أمه قمامة على القبر الذي يزعم النصارى أن المسيح عليه السلام دفن فيه، وخرّبت البناء الذي كان على الصخرة وجعلتها مطرحة لقمامات البلد عنادا لليهود؛ وبقى الأمر على ذلك حتى فتح أمير المؤمنين: عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس فدل على الصخرة فنظف مكانها وبنى عليها مسجدا، وبقى حتى ولي الوليد ابن عبد الملك الخليفة فبناه على ما هو عليه الآن. على أن المسجد الأقصى على الحقيقة جميع ما هو داخل السور، وعلى القرب من المسجد الصخرة التي ربط النبي صلى الله عليه وسلم بها البراق ليلة الإسراء، وهي حجر مرتفع مثل الدكة أرتفاعها من الأرض نحو قامة، وتحتها بيت طوله بسطة في مثلها، ينزل إليها بسلم وعليها قبة دالية، بناها الوليد بن عبد الملك حين بنى المسجد الأقصى.

قال المهلبى في كتابه "العزى": ولما بناها الوليد بنى هناك عدة قباب وسمى كل واحدة منها بأسم: وهى قبة المعراج، وقبة الميزان، وقبة السلسلة، وقبة المحشر. قال فى "مسالك الأبصار": وإلى الصخرة المتقدمة الذكر قبلة اليهود الآن، وإليها حجهم. وبه القمامة التى تحجها النصارى من أقطار الأرض، وبيت لحم الذى هو من أجل أما كن الزيارة عندهم، وكان به كنيسة للروم يقال إن بها قبر حنة أُم مريم بنت عمران عليها السلام ثم صارت فى الإسلام دار علم. فلما ملك الفرنج القدس فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة، فلما فتح السلطان صلاح الدين القدس بنى بها مدرسة. وكان أسمها فى الزمن الأول إيليا. والأرض المقدسة مشتملة على بيت المقدس وما حوله، إلى نهر الأردن المسمى بالشرية، إلى مدينة الرملة طولاً، ومن البحر الشامى إلى مدائن لوط عليه السلام، وغالبها جبال وأودية إلا ما هو فى جنباتها.

الثانى - (عمل بلد الخليل عليه السلام). وأسمها بيت حبرون بإضافة بيت واحد البيوت إلى حبرون (بجاء مفتوحة وباء موحدة ساكنة وراء مهملة مضمومة بعدها واو ساكنة ونون) كذا ضبطه فى "تقويم البلدان": وفى كلام صاحب "الروض المعطار": ما يدل على إبدال الحاء بجم والباء الموحدة بمثناة تحت، فإنه ذكرها فى حرف الجيم فى سياقة الكلام على تسمية دمشق جبرون. وهى بلدة من جند فلسطين فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة، طولها فى بعض الأزياج ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وبها قبر إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام ونسائهم، وهى إحدى القرى التى أقطعها النبى صلى الله عليه وسلم! تميم الدارى كما سيأتى ذكره فى الكلام على المناشير إن شاء الله تعالى.

(١) لم يذكر عرضها كما هى عادته.

الثالث - (عمل نَابِلَس) - بفتح النون وألف وضم الباء الموحدة واللام وسين مهملة في آخرها - مدينة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" :
 طُولُهَا سَبْعٌ وَخَمْسُونَ دَرَجَةً وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً ، وَعَرْضُهَا ثَلَاثُونَ دَرَجَةً . وَقَالَ
 فِي "تَقْوِيمِ البُلْدَانِ" : القياس أن طولها ست وخمسون درجة وأربع وعشرون
 دقيقة ، وعرضها على ما تقدم . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة يُحتاج
 إليها ولا تحتاج إلى غيرها . قال ابن حوقل : وليس بفلسطين بلدة فيها ماء جارٍ
 سواها ، وباقى ذلك شرب أهله من المطر وزرعهم عليه ، وبها البئر التي حفها
 يعقوب عليه السلام ، وهي مدينة السامرة ، وكانت السامرة في الزمن المتقدم لا توجد
 إلا بها ؛ وبها الجبل الذي ينجح إليه السامرة ، وسيأتي الكلام على الموجب لتعظيمه
 عندهم عند الكلام على تحليفهم في باب الأيمان إن شاء الله تعالى .

الصفقة الثانية

(القبليّة)

سميت بذلك لأنها قبليّ دِمَشْق . قال في "مسالك الأبصار" : وتشتمل على
 بلاد حَوْرَانَ والغَوْرِ وما مع ذلك . قال في "التعريف" : وحدّها من القبلة جبال
 الغَوْرِ القبليّة المجاورة لمرج بنى عامر ، ومن الشرق البريّة ؛ ومن الشمال حدود ولاية
 بَرِّ دِمَشْقِ القِبْلِيّ ؛ ومن الغرب الأغوار إلى بلاد الشَّقِيف . قال : والأغوار كلّها
 داخلة في هذه الصفقة خلا ما يختص بالكرك .

وتشتمل هذه الصفقة على عشرة أعمال .

الأول - (عمل بَيْسَانَ) - بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح
 السين المهملة وألف ونون - مدينة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال

في "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وسبع وعشرون دقيقة . وهي مدينة صغيرة بلا سور، ذات بساتين وأشجار وأنهار وأعين، كثيرة الحُصْبِ واسعة الرزق، ولها عين تشقُّ المدينة، وهي على الجانب الغربي من الغور .

قال في "التعريف" : وهي مدينة الغور، وبها مقر الولاية . قال في "مسالك الأبصار" : ولها قلعة من بناء الفرج . قال في "الروض المعطار" : ويقال إن طألت قتل جألت هناك .

الثاني - (عمل بانياس) - بياء موحدة وألف ونون وياء مثناة تحت وألف ثم سين مهمله - مدينة من جنْدِ دِمَشْقَ واقعة في الإقليم الثالث . قال في "تقويم البلدان" : طولها ثمان وخمسون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة . قال : وهي على مرحلة ونصف من دِمَشْقَ من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب . قال في "العزيرى" : وهي في لُحْفِ جبل الثلج ، وهو مطلٌ عليها والثلج على رأسه كالعمامة لا يعدم منه شتاءً ولا صيفاً . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة الجولان، وبها قلعة الصبيبة (بضم الصاد المهمله وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وهاء في الآخر) . قال في "التعريف" : وهي من أجلّ القلاع وأمنعها .

الثالث - (عمل الشعرا) - بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهمله وفتح الراء المهمله وبعدها ألف - وهي عن بانياس المتقدمة الذكر شرق بجنوب، وطوله ما بين بانياس إلى جبل الثلج . قال في "التعريف" : والولاية بها تكون تارة بقرية حان (بالحاء المهمله) وتارة بقرية القنيطرة تصغير قنطرة، ولم يتجزرلى طولها، وعرضهما فلتعتبرا بما قاربهما من الأعمال .

الرابع - (عمل نوى) - بفتح النون والواو وألف في الآخر - وهي بلدة صغيرة، عن دِمَشْقَ في جهة الغرب إلى الجنوب على نحو مرحلة ، وهي مدينة قديمة من أعمال دِمَشْقَ ، بها قبر أيوبَ النبي عليه السلام ، وإليها ينسب الشيخ محيي الدين النووي الشافعي رحمه الله ، ولم يتحضر لى طولها وعرضها فلنعتبر بما قاربها أيضا ، وهي عن يمين الشعرا المتقدم ذكرها شرق بجنوب أيضا .

الخامس - (عمل أذرعَاتَ) - بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء ^(١) والعين المهملتين وألف ثم تاء مشناة من فوق في الآخر - قال في "الروض المعطار": ويجوز فيها الصرف وعدمه . قال : والتاء في الحالين مكسورة . وقال الخليل بن أحمد : من كَسَرَ الألفَ لم يصرف ؛ وهذا صريح في حكاية كسر الألف في أولها . ويقال لها يذرعَاتُ بياء مشناة تحت بدل الألف - وهي مدينة من أعمال دِمَشْقَ من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة - وهي مدينة البثينة ، وبينها وبين الصنمين ثمانية عشر ميلا . قال في "التعريف" : وبها ولاية الحاكم على مجموع الصفة ، وقد كان قديما بغيرها .

السادس - (عمل مجلُون) - بفتح العين وسكون الجيم وضم اللام وسكون الواو ونون في آخره - قلعة من جُند الأردن في الإقليم الثالث ، طولها ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق ، وعرضها ثلاثون درجة وعشر دقائق . مبنية على جبل يعرف بجبل عوف المتقدم ذكره في جبال الشام المشهورة تُشْرِف على الغور . وهي محدثة البناء بناها عز الدين أسامة بن منقذ : أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب في سنة ثمانين وخمسمائة . قال في "مسالك الأبصار" : وكان مكانها [دير به]

(١) كذا في التقويم أيضا وفي المعجم [وكسر الراء] وفي القاموس [بكسر الراء وفتح] .

راهب اسمه عَجْلُونُ فسميت به . قال في "التعريف" : وهو حصن جليل على صِغَرِهِ ، وله حَصَانَةٌ وَمَنَعَةٌ مَنِيعة . ومدينة هذه القلعة الباعونة (بفتح الباء الموحدة وألف بعدها ثم عين .ضمومة وواو ساكنة ونون مفتوحة وفي آخرها هاء) وهي على شوط فرس من عَجْلُون . قال في "المسالك" : وكان مكانها دَيْرًا أيضًا به راهب اسمه بَاعُونَةٌ فسميت المدينة به ، وهما شرقي بَيْسَانَ المتقدم ذكرها

السابع - (عمل البلقاء) . قال في "الروض المعطار" : سميت بالبلقاء بن سورية من بني عَمَّان بن لوط ، وهو الذي بناها . قال في "تقويم البلدان" : وهي إحدى كَوَرِ الشَّرَاةِ ، وهي عن أَرِيحَا في جهة الشرق على مرحلة ، ومدينة هذا العمل حُسْبَانُ (بضم الحاء وإسكان السين المهملين وفتح الباء وبعدها ألف ونون) وهي بلدة صغيرة ولها واد وأشجارٌ وأرحيةٌ وبساتين وزروع .

قال في "مسالك الأبصار" : ومن هذا العمل (الصَّلْتُ) - وهي بألف ولام لازمين في أوله وفتح الصاد المهملة المشددة وسكون اللام وبعدها تاء مثناة - بلدة لطيفة من جُندِ الأَرْدُنِّ في جبل الغورِ الشرقي في جنوب عَجْلُونِ على مرحلة منها ، وبها قلعة بناها المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب ، وتحت القلعة عينٌ واسعةٌ يجري مائها حتى يدخل البلد ، وهي بلدة عامرة أهلة ذات بساتين وفواكه . قلت : وكلامه في "التعريف" قد يخالف كلامه في "مسالك الأبصار" في جعل الصَّلْتُ من عمل حُسْبَانَ ، فإنه قال : وأولها من جهة القبلة البلقاء ومدينتها حُسْبَانُ ، ثم الصَّلْتُ ، ثم عَجْلُونُ ؛ وعَجْلُونُ عمل مستقل كما تقدم ، ومقتضاه أن يكون الصَّلْتُ أيضًا عملاً مستقلاً . وكذا رأيت في "التذكرة الآمدية" نقلاً عن شهاب الدين ابن الفارقي أحد كتّاب الإنشاء بدمشق في الدولة الناصرية ابن قلاوون ؛ وأخبرني بعض

(١) في الأصل "عيد" والتصحيح والضبط عن ياقوت في معجم البلدان .

كُتِبَ الإنشاء أن المستقر الصلت فقط والبقاء مضافة إليها، وعليه يدل كلام القاضي تقي الدين بن ناظر الجليش في "التتقيف" فإنه قال: "ومن كُتِبَ إليه من الولاة بالمالك الشامية في قديم الزمان - ولعله في الأيام الشهيدة - وإلى الصلت والبقاء فيما نقل عن خط المرحوم نصر الدين بن النشائي كاتب الدست الشريف .

الثامن - (عمل صرحد) - بفتح الصاد وإسكان الراء المهملتين وفتح الحاء المعجمة ودال مهملة في آخره - بلدة صغيرة ذات يساتين وكروم وليس بها ماء سوى ما يجتمع من ماء المطر في الصهاريج والبرك . قال ابن سعيد : وليس وراء عملها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البرية^١، ومنها تسلك طريق تعرف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد في نحو عشرة أيام . قال في "التعريف" : وبها قلعة وكان بها ملك من المماليك المعظمية . قال في "مسالك الأبصار" : وهي محدثة البناء بُدِئَتْ قبل نور الدين الشهيد بقليل ، ولما وصلت عساكر هولاكو ملك التتار إلى الشام هدموا شرفاتها وبعض جذرانها فجددها الظاهر ببيرس ، وهي على ذلك إلى الآن .

التاسع - (عمل بصرى) - بضم الباء الموحدة وسكون الصاد المهملة وألف في الآخر - هكذا هو مقيد بالشكل في كتب اللغة والحديث والمسالك والممالك وجارٍ على الألسنة، ووقع في "تقويم البلدان" ضبطه بفتح أوله فلا أدري أهو سبق قلم أو غلط من النسخة أو أخذه من كلام غيره، وهي مدينة بحوران من أعمال دمشق واقعة في الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" و"القانون" : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة .

(١) الذي في "تقويم البلدان" طبع باريس سنة ١٨٤٠ م ضبطه بضم الباء الموحدة كما هو المشهور ، فعمل نسخة التقويم كانت كذلك فأصلحها المصحح ولم ينبه .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة حوران السفلى ، بل حوران كلها ، بل الصفقة جميعها ، وكلامه في "التعريف" يوافق ، وهي مدينة أزليّة مبنية بالحجارة السود ، ولها قلعة ذات بناء متين شبيه ببناء قلعة دمشق . قال في "التعريف" : وكانت دار ملك لبني أيوب ، وقد ثبت في الصحيح من حديث الخندق أنه (صلى الله عليه وسلم) . قال "ثم ضربت الضربة الثالثة فلاحت لي منها قصور بصرى كأنها أنياب الكلاب" وهي التي وجد النبي صلى الله عليه وسلم بها بحيرا الراهب وآمن به حين قدم تاجرا لخديجة بنت خويلد قبل البعثة ، وقبر بحيرا هناك مشهور يزار ، وقد تقدم الكلام عليها فأغنى عن إعادته هنا .

العاشر - (عمل زرع) - بضم الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة وعين مهملة في الآخر - وهي بلدة من بلاد حوران لها عمل مستقل ، ولم يتحرر لي طولها وعرضها . قال في "التعريف" : وقد يتصل عمل بصرى بأذرعات لوقوع زرع متشاملة .

الصفقة الثالثة

(الشمالية)

سميت بذلك لأنها عن شمال دمشق . قال في "مسالك الأبصار" : وهي ساحلية وجبلية . قال في "التعريف" : وحدّتها من القبلة حدّ ولاية دمشق الشماليّ وبعض الغربيّ ، وحدّتها من الشرق قرية جوسية التي بين القرية المعروفة بالقصب من عمل حمص وبين القرية المعروفة بالفيجة من عمل بعلبك ، وحدّتها من الشمال مرج الأسل المستقل عن قائم الهرمل حيث يمدّ العاصي بطراً بلس ، وكل ما تشامل عن جبل لبنان إلى البحر ، وحدّتها من المغرب ما هو على سمت البحر منحدرًا عن صور إلى حدّ ولاية بردمشق القبليّ والغربيّ .

وتشتمل هذه الصنفقة على خمسة أعمال .

الأول - (عمل بَعْلَبَكَّ) - بفتح الباء الموحدة وسكون العين المهملة وفتح اللام والباء الموحدة الثانية وفي آخرها كاف - هكذا ضبطه في "تقويم البلدان" والجارى على ألسنة الناس فتح العين وإسكان اللام . قال في "الروض المعطار" : وكان لأهلها صنم يدعى بَعَلًا ، فالبعل أسم للصنم ، وبكّ أسم الموضع فسميت بعلبك لذلك . قال : وإليهم بعث النبي إلياس عليه السلام ، وكأنه يشير بذلك إلى ما قصه الله تعالى في سورة الصافات بقوله : ﴿ اَتَدْعُونَ بَعَلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ وكان فتحها في سنة أربع عشرة من الهجرة ؛ وهي مدينة من أعمال دِمَشْقَ واقعة في الإقليم الرابع طولها ستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهي مدينة شمالي دِمَشْقَ ، جليلة البناء ، نبيهة الشان ، قديمة البنيان ، يقال إنها من بناء سليمان عليه السلام . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مختصرة من دِمَشْقَ في كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها ؛ بها المساجد والمدارس والرُّبُطُ والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق الحسنة ، والماء جار في ديارها وأسواقها ، وفيها يعمل الدهان الفائق من الماعون وغيره ويحمل منها إلى غالب البلدان مع كونها واسعة الرزق رخيصة السعر ، وكانت دار مُلْكٍ قديم ، ومن عَشْها درج "نجم الدين أيوب" والد الملوك الأيوبية رحمه الله ، وبها قلعةٌ حصينةٌ جليلة المقدار من أجل البنيان وأعظمه ، وهي مرجلة على وجه الأرض كقلعة دِمَشْقَ . قال في "التعريف" : بل إنما بنيت قلعة دِمَشْقَ على مثالها ، وهيآت لا تعد من أمثالها ! وأين قلعة دِمَشْقَ منها وحجارتها تلك الجبال الثوابت ، وعمدها تلك الصخور الثوابت .

قَدْ يَبْعَدُ الشَّيْءُ مِنْ شَيْءٍ يَشَابِهُهُ * إِنَّ السَّمَاءَ نَظِيرُ الْمَاءِ فِي الزَّرْقِ

وبهذه القلعة من عمارة من نزل بها من الملوك الأيوبية آثارٌ ملوكية جليلة ، ويستدير بالمدينة والقلعة جميعاً سورٌ عظيم البناء منبئٌ بالحجارة العظيمة المقدار الشديدة الصلابة ، ويحفُّ بذلك عُوطة عظيمة أنيقة ذات بساتين مشبكة الأشجار بها الثمار الفاتحة ، والفواكه المختلفة . وبظاهرها عين ماء متسعة الدائر مائوها في غاية الصفاء بين مروج وبساتين ، يمتد منها نهر يتكسر على الحصباء في خلال تلك المروج إلى أن يدخل المدينة ، وينقسم في بيوتها وجهاتها . وعلى البعد منها عينٌ أخرى تُعرف بعين اللوح (?) في طرف بساتينها ، منها فرع إلى الجانب الشمالي من المدينة ، ويصب في قناة هناك ويدخل منه إلى القلعة ، وبخارجها جبلٌ لبنان المعروف بعش الأولياء .

الثاني - (عمل البقاع البعلبكي) - بوصف البقاع - بكسر الباء الموحدة وفتح القاف وبعدها ألف ثم عين مهملة - بالبعلبكي ، نسبة إلى بعلبك لقربه منها . قال في "التعريف" : وليس له مقر ولاية .

الثالث - (عمل البقاع العزيزي) - بوصف البقاع بالعزيزي نسبة إلى العزيز عكس الذليل ، وكأنه نسبة إلى الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله . قال في "التعريف" : ومقر الولاية به كركُ نوح عليه السلام . قال : وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بعلبك ، وهما مجموعتان لوالٍ جليل مفرد بذاته .

الرابع - (عمل بيروت) - بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وواو وتاء مثناة من فوق في آخرها - وهي مدينة من الإقليم الثالث بساحل دمشق . قال في "كتاب الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة ونخمس ونخسون دقيقة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . وهي مدينة جليلة على ضفة البحر الرومي ، عليها سوران من حجارة ، وفيه كان ينزل الأوزاعي الفقيه

المشهور، وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر سعتها اثنا عشر ميلاً في التكسير، تتصل إلى تحت لبنان المقدم ذكره . قال في "تقويم البلدان" :
 وشرب أهلها من قناة تجرى إليها . وقال في "مسالك الأبصار" : شرب أهلها من الآبار . قال ابن سعيد : وهي فُرْضة دِمَشَقَ ولها مينا جليلة ، وفي شمالها على الساحل مدينة جُبَيْلٍ تصغير جبل . قال في "الروض المعطار" : بينهما ثمانية عشر ميلاً . قال في "العزيرى" : وبينها وبين بَعْلَبَكَّ على عَقَبَةِ الْمُغَيْثَةِ ستة وثلاثون ميلاً .

الخامس - (عمل صيداً) - بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة تحت وفتح الدال المهملة وألف مقصورة في الآخر - وهي مدينة بساحل البحر الرومي ، واقعة في الإقليم الثالث ، ذات حصن حصين . قال ابن القَطَّامِي سميت بصَيْدُون بن صدقا بن كَثَّان ابن حام بن نوح عليه السلام ، وهو أول من عمَّرها وسكنها . وقال في "الروض المعطار" : سميت بأمرأة . وشرب أهلها من ماء يجرى إليهم من قناة . قال في "العزيرى" : وبينها وبين دِمَشَقَ ستة وثلاثون ميلاً . قال في "مسالك الأبصار" : وكورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار . قال في "الروض المعطار" : وبها سمك صغار له أيدٍ وأرجل صغار إذا جُفِّفَ وسُحِّقَ وشرب بالماء ، أنعظ إنعاظاً شديداً . قال في "المسالك" : وهي ولاية جليلة واسعة العمل ممتدة القرى ، تستعمل على نيف وستمائة ضيعة .

الصفحة الرابعة

(الشرقية؛ وهي على ضريين)

الضرب الأول

(ما هو داخل في حدود الشام، وهو غربى الفرات)

قال في "التعريف": وحدها من القبلة قرية القصب المجاورة لقرية جوسية المقدم ذكرها، أخذها على النّبك إلى القرّيتين؛ وحدها من الشرق السماوة إلى الفرات وينتهي إلى مدينة سامية إلى الرستن؛ وحدها من الغرب نهر الأرنط وهو العاصي، وتشتمل على خمسة أعمال أيضا .

الأول - (عمل حصّ) - بكسر الحاء المهملة وسكون الميم وصادمهملة في الآخر. قال في "الروض المعطار": ولا يجوز فيها الصرف كما يجوز في هند لأن هذا اسم أعجمي . قال: وسميت برجل من العاليق اسمه حصّ هو أول من بناها . قال الزجاجي: هو حص بن المهربن حاف بن مكنف، وقيل برجل من عاملة هو أول من نزلها، وأسمها القديم سوريا (بسين مهملة مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة مكسورة وياء مشناة تحت مفتوحة وألف في الآخر) . وبه كانت تسميها الروم، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان": والقياس أن طولها إحدى وستون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهي مدينة جليّة، وقاعدة من قواعد الشام العظام . قال في "التعريف": وكانت دار ملك للبيت الأسديّ يعني أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب . قال: ولم يزل لملكها في الدولة الأيوبية سطوة تخاف وبأس يخشى، وهي في وطأة من الأرض ممتدة على القرب من النهر العاصي، ومنه شرب أهلها، ولها منه

(١) كذا في الضوء أيضا وفي "معجم البلدان" ابن جان .

ماء مرفوعٌ يجري إلى دار النيابة بها وبعض مواضع بها . قال في "مسالك الأبصار" :
 وبها القلعة المصفحة وليست بالمنيعة ، ويحيط بها وبالبلد سورٌ حصين هو أمنع
 من القلعة . قال في "العزى" : " وهى من أصح بلاد الشام هواءً ، وبوسطها
 بحيرة صافية الماء ، ينقل السمك إليها من الفرات حتى يتولد فيها ، والطير مبنوث
 فى نواحيها . قال ابن حوقل : وليس بها عقارب ولا حيات . وقد تقدم فى الكلام
 على خواص الشام وعجائبها أن بها قبةً بالقرب من جامعها إذا ألصق بها طين من طينها
 وترك حتى يسقط بنفسه ووضع فى بيت أو ثياب لم يقربها عقربٌ . وإن دُر منه على
 العقرب شئ أخذته مثل السكرور بما قتله ، ولها من بر بعلبك أنواع الفواكه وغيرها ؛
 وهما شها يقارب قماش الإسكندرية فى الجودة والحسن ، وإن لم يبلغ شأوه فى ذلك .
 قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن بقراط الحكيم منها . وإن أهلها أول من آبتدع
 الحساب ؛ وبها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ومقامه مشهور بها يزار .

الثانى - (عمل مصيف) بكسر الميم وسكون الصاد - وهى بلدة جليلة ، ولها
 قلعة حصينة فى لحف جبل اللكام الشرقى عن حماة وطرابلس ، فى جهة الشمال عن
 بارين على مسافة فرسخ ، وفى جهة الغرب عن حماة على مسيرة يوم ، وبها أنهر صغار
 من أعين ، وبها البساتين والأشجار . وهى قاعدة قلاع الدعوة الآتى ذكرها فى أعمال
 طرابلس ودار ملكها ، وكانت أولاً مضافةً إلى طرابلس ثم أفردت عنها وأضيفت
 إلى دمشق .

الثالث - (عمل قارا) - بقاف مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهمله وألف ثانية .
 هكذا هو مكتوب فى "التعريف" وغيره وهو الحارى على الألسنة . ورأيتها
 مكتوبة فى "تقويم البلدان" بهاء فى الأثر بدل الألف الأخيرة . وهى قرية كبيرة
 قبلى حمص ، بينها وبين دمشق على نحو منتصف الطريق ، تنزلها قوافل السفارة ، وبينها
 وبين حمص مرحلة ونصف ، وبينها وبين دمشق مرحلتان ، وغالب أهلها نصارى .

الرابع - (عمل سَلْمِيَّة) - بفتح السين المهملة واللام وكسر الميم وياء مشناة تحت
 مشددة مفتوحة وهاء في الآخر - وهي بلدة من عمل حمص من الإقليم الرابع . قال
 في "الأطوال" : طولها إحدى وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها أربع
 وثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن يكون العرض أربعاً
 وثلاثين ونصفاً . قال أحمد الكاتب : بناها عبد الله بن صالح بن علي بن عبد الله
 ابن عباس بن عبد المطلب وأسكن بها ولده . وهي بلدة على طرف البادية تَزْهَةٌ
 خصبة كثيرة المياه والشجر، ومياها من قِيٍّ . قال في "الروض المعطار" : وبينها
 وبين حمص مرحلة .

الخامس - (عمل تَدْمُر) - بفتح التاء المشناة فوق وسكون الدال المهملة وضم الميم
 وراء مهملة في الآخر - كذا ضبطه السمعاني في "الأنساب" : والحارثي على السنة
 الناس ضم أولها . قال في "التعريف" : وهي بين القريتين والرحبة، وهي معدودة
 من جزيرة العرب واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" :
 طولها اثنتان وستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال صاحب حماة :
 وهي من أعمال حمص من شرقها، وغالب أرضها سبخ؛ وبها نخيل وزيتون؛ وبها
 آثار عظيمة أزليّة من الأعمدة والصخور، ولها سور وقلعة .

قال في "الروض المعطار" : وهي في الأصل مدينة قديمة بنتها الجحّ لسليمان
 عليه السلام، ولها حصون لأثرام . قال : وسميت تَدْمُر بتدمر بنت حسان
 ابن أدية، وفيها قبرها . وإنما سكنها سليمان عليه السلام بعدها . قال في "العزيمي" :
 وبينها وبين دمشق تسعة وخمسون ميلاً، وبينها وبين الرحبة مائة ميل وميلان .
 قال صاحب حماة : وهي عن حمص على ثلاث مراحل .

(١) في القاموس وياقوت "وسكون الميم" أي وتخفيف الياء

الضرب الثاني

(من هذه الصفة ما هو من بلاد الجزيرة، بين الفرات والدجلة)

على القرب من الفرات)

وهو مدينة الرَّحْبَةِ . قال في "اللُّبَابِ" : بفتح الراء والحاء المهملتين والباء الموحدة وهاء في الآخر . وهي مدينة على الفُرَاتِ بين الرِّفَّةِ وَعَانَةَ ، واقعةٌ في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة ، وتعرف بِرَحْبَةِ مالك بن طَوْقٍ ، وهو قائدٌ من قَوَادِ هارون الرشيد ، قيل إنه أول من عمَّرها فنسبت إليه . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد خربت الرَّحْبَةُ المذكورة وصارت قرية ، وبها آثار المدينة من المآذن الشواهد وغيرها ، وأستحدث شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادى صاحبِ حِمَصِ من جنوبها الرحبة الجديدة على نحو فرسخ من الفُرَاتِ ، وهي بلدة صغيرة ولها قلعة على تلِّ تراب ، وشرب أهلها من قناة من نهر سعيد ، الخارج من الفرات . قال : وهي اليوم محطُّ القوافل من الفُرَاتِ والشام ، وهي أحد الثغور الإسلامية في زماننا . قال في "التعريف" : وبها قلعة نيابة ، وفيها بحرية وخيالة وكشافة وطوائف من المستخدمين ، ولم تزل إمرتها طبلخاناه ، بمرسوم شريف من الأبواب الشريفة من الأيام الناصرية ابن قلاوون إلى الآن .

تتبيه - قال في "التعريف" : ومما أُضيف إلى دِمَشَقِ في زمن سلطاننا يعني الناصر بن قلاوون بلادُ جَعْبَرِ . قال : وحقها أن تكون مع حَلَبَ ، وهي مستمرة على ذلك إلى زماننا ، وسيأتي الكلام عليها في الأعمال الحلبية إن شاء الله تعالى .

(١) كذا في التقويم أيضا وضبطها في المعجم بإسكان الحاء وهو مقتضى إطلاق القاموس .

وقد ذكر القاضي تقي الدين بن ناظر الجيش في كتابه "الثقيف" : أنه كان قد آسقت بتدمر وسلمية والسُّخنة والقريتين نواب، وآسقت الحال على أن مكاتبة كل منهم إن كان مقدما نظير النائب بالرحبة، يعني "صدرت" و"العالى" وإن كان طلبخانه فالأسم "والسامى" بالياء .

القاعدة الثانية

(من قواعد البلاد الشامية حلب، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

قال في "اللَّبَابِ" : هي بفتح الحاء المهملة واللام وباء موحدة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : وطولها اثنتان وستون درجة وعشر دقائق، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونحسون دقيقة .

وآختلف في سبب تسميتها حلب على قولين حكاهما صاحب "الروض المعطار" : أحدهما أنه كان مكان قلعتها ربوة، وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يأوى إليها ويحلب غنمه ويتصدق بلبنها فسميت حلب بذلك . الثانى أنها سميت برجل من العماليق اسمه حلب . قال الزجاجي : حلب بن المهر من ولد جان بن مكثف .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة، وهي في وطاء حمراء ممتدة، مبنية بالحجر الأصفر الذى ليس له نظير في الآفاق، وبها المساكن الفائقة، والمنازل الأنيقة، والأسواق الواسعة، والقياسر الحسنة، والحمامات البهجة . ذات جوامع ومساجد ومدارس وخوانق وزوايا وغير ذلك من سائر وجوه البر،

(١) في الأصل "خان" وفي الضوء "حاف" والتصحيح من ياقوت .

وبها يمارستان حسنٌ لعلاج المرضى . قال في "مسالك الأبصار" : ولها نهران : أحدهما يعرف بنهر قويق ، وهو نهرها القديم . والثاني يعرف بنهر الساجور ، وهو نهر مستحدث ، ساقه إليها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" في سلطنته وحكمه عليها . وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أن الملك الظاهر غازي بن العادل "أبي بكر بن أيوب" ساق إليها نهرًا في سنة خمس وستائة ، ولعله نهر قويق المذكور . قال في "مسالك الأبصار" : ويجرى إلى داخلها فرع ماء يتشعب في دورها ومساكنها ولكنه لا يبيل صدها ولا يشفي غلتها ، وبها الصهاريج المملوءة من ماء المطر ، ومنها تُربُّ أهلها ؛ ويدخل إليها الثلج من بلادها ، وليس لأهلها إليه كثير التفتات لبرد هوائهم وقرب اعتدال صيفهم وشتائهم ؛ وبها الفواكه الكثيرة وأكثرها مجلوب إليها من نواحيها لقلة البساتين بها ؛ وبظاهرها المروج الفيح والبر المتد حاضرة وبادية ؛ وبها عسكر كثير وأمم من طوائف العرب والأكراد والتركان .

قال في "اللباب" : وكان الجند في ابتداء الإسلام يتزلون قنسرين ، وهي المدينة التي تُنسب الكورة إليها على ما تقدم ذكره ولم يكن حلب معها ذكر . قال ابن سعيد : ثم ضعفت بقوة حلب عليها ، وهي الآن قرية صغيرة .

قال في "مسالك الأبصار" : وكانت حلب قد عظمت في أيام بني حمدان ، وتاهت بهم شرقاً على كيان . جاءت الدولة الأتابكية فزادت فخاراً ، وأخذت لها من بروج السماء منطقة وأسواراً ؛ ولم تزل على هذا يسار إليها بالتعظيم ، ويأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم ؛ حتى نزل هولاكو بحوافرخيله فهدمت أسوارها وخربت حواضرها ، ولم تزل خالية من الأسوار ، عريّة من الأبواب ، إلى أن كانت فتنة منطاش في سلطنة الظاهر برقوق والنائب بها من قبله الأمير كمشيغا ، فجدد أسوارها ، ورتب أبوابها ، وهي

سبعة أبواب: باب قَنْسَرِينَ من القبلة، وباب المقام من القبلة أيضا، وباب التَّيرَب من الشرق، وباب الأربعين من الشرق أيضا، وباب النصر من بحريتها، وباب الحِثَّان من غربيها، وباب أَنْطَاكِيَّة من غربيها أيضا، وهي الآن في غاية ما يكون من العمارة وحُسن الرنق والبهجة؛ ولعلها قد فاقت أيام بنى حَمْدَانَ؛ ولم يزل نائبها من أكابر الأمراء المقدمين من الدولة الناصرية فما قبلها إلى الآن، وقد زادت رتبته عما كان عليه في الأيام الناصرية؛ وهي ثانية دِمَشق في الرتبة؛ ومعاملاتها على ما تقدم في دِمَشق من الدراهم والدنانير والفلُوس وصنجة الذهب والفضة. غير أن الفلوس الجُدُد لم تُرَجَّح بها بعدُ، ورِطْلُهَا سبعمائة وعشرون درهما بالصَّنْجَة الشامية، كلُّ أوقية^(١) ستون درهما، ومعاملاتها معتبرة بالمكوك، ولا تعرف فيها الغرارة، ولا في شيء من أعمالها؛ وتختلف بلادها في المكوك اختلافًا متباينًا في الزيادة والنقص. قال في "مسالك الأبصار": والمعدّل فيها أن يكون كلُّ مكوكين ونصف غرارة وما بين ذلك وكل ذلك تقريبًا.

قلت: وأخبرني بعض أهلها أن المكوك بنفس مدينة حَلَبٍ معتبر بسبع وبيات بالكيل المصري، والذراع القماش ذراعٌ وسدسٌ بذراع القماش القاهري، ويزيد على ذراع دمشق بقيراطين، وقياس دُورِ أرضها بذراع العمل المعروف بالديار المصرية.

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها)

قال في "مسالك الأبصار": هي أوسع الشام بلادًا، متصلةٌ ببلاد سِيسَ والرُّوم وديار بكر وبریة العراق. قال في "التعريف": ويحدّها من القبلة المَعْرَة وما وقع

(١) وأراقبه اثنتا عشرة أوقية [كما سيأتي له في حلب في موضع آخر] .

على سَمْتها إلى الدَّمْنَة الخراب والسلسلة الرومية ومجرى القناة القديمة الواقع ذلك بين الحِيارِ (يعنى بكسر الحاء المهملة والياء المثناة تحت وألف وراء مهملة) والقرية المعروفة بِقُبَّةِ ملاعب، ويحدّها من الشرق [البر] حيث يحدّ بَدْرَى أخذًا على جبل الثلج، ثم الحلاب على أطراف بَالَس إلى الفُراتِ دائرة بحدّها . قال : وبهذا التقسيم تكون بلاد جَعَبَرِ داخلية في حدودها؛ ويحدّها من الشّمال بلاد الروم مما وراء بهسنى وبلاد الأرمن على البحر الشاميّ :
ثم أعمالها على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(ما هو داخل في حدود بلاد الممالك الشامية ، ولها برّ وأعمال)
فأما برّها فهو ضواحيها على ما تقدّم في دِمَشق ، وهو كالعامل المنفرد بنفسه .
وأما أعمالها ، فقد ذكر المقرّ الشهابي بن فضل الله في كتابه "التعريف"
و"مسالك الأبصار" ^(١) بها ستّة عشر عملاً على أكثرها ، وربما أنفرد أحد الكتّابين
عن الآخر ببعض دون البعض .

الأول - (عمل قلعة المسلمين) - المدماة في القديم بقلعة الروم وهي قلعة من جُنْدِ قِنَسْرِينَ في البرّ الغربي الجنوبيّ من الفُراتِ ، في جهة الغرب الشماليّ عن حَلَبِ على نحو خمس مراحل منها ، وفي الغرب عن البيرة على نحو مرحلة ، والفرات بذيلها . وموقعها في الإقليم الرابع . قال بعض أصحاب الأزياج : وطولها آنتنان وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرّضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهي من القلاع الحصينة التي لا تُرام ولا تُدرَك ، ولها رِبَضٌ وبساتين ، ويمرّ بها نهر يعرف بمَرزُبَانٍ يصب في الفُراتِ . قال في "التعريف" : وكان بها خليفة الأرمن

(١) المددود ستة وعشرون وفي الضوا "سبعة وعشرون" . (٢) لعله آتفا على أكثرها .

ولا يزال بها طاغوت الكُفْر، فقصدتها الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون فنزل عليها، ولم يزل بها حتى فتحها، وسمّاها قلعة المسلمين . قال : وهي من جلائل القلاع .

الثاني - (عمل الكَحْتَا) - بفتح الكاف وسكون الحاء المعجمة وفتح التاء المشناة فوق ثم ألف في الآخر، والألف واللام فيه غير لازمتين - وهي قلعة في أقاصى الشام من جهة الشمال بشرق من حَلَبَ، على نحو خمس مراحل منها؛ وموقعها في الإقليم الرابع . قال بعض أصحاب الأزياج : طولها إحدى وستون درجة وعشر دقائق، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهي قلعة عالية البناء لأثرام حصانة، ولها بساتين ونهر، وملطية عنها في جهة الغرب على مسيرة يومين؛ وكركر منها في جهة الشرق، وكانت أحد نفور الإسلام في وجوه التار عند قيامهم . قال في "التعريف" : وهي ذات عمل متسع، وعسكر تطوع مجتمع .

الثالث - (عمل كُرْكُر) بفتح الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف مفتوحة ثانية بعدها راء مهملة ثانية أيضا - وهي قلعة من أقاصى الشام في الشمال عن حَلَبَ على نحو خمس مراحل أيضا، وفي الغرب من الكَحْتَا المتقدمة الذكر على نحو يوم منها؛ وموقعها في الإقليم الرابع . قال في بعض الأزياج : طولها إحدى وستون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة حصينة شاهقة في الهواء يرى الفرات منها كالجدول الصغير، وهو منها في جهة الشرق؛ وكانت من أعظم الثغور في زمان التتار .

الرابع - (عمل بهسنى) - بفتح الباء الموحدة والهاء وسكون السين المهملة ثم نون وألف - وهي قلعة في شمالي حَلَبَ على نحو أربع مراحل منها، وموقعها في الإقليم

الرابع . قال في بعض الأزياج : طولها إحدى وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة حصينة مرتفعة لأترام حصانةً ، بها بساتين ونهر صغير وأسواق ورُستاق متسع ، وبها مسجد جامع . ثم قال : وهي بلدة واسعة ، كثيرة الخير والحصب ؛ وهي في الغرب والشمال عن عيّناب ؛ وبينهما نحو مسيرة يومين ، وبينها وبين سيّس نحو ستة أيام . قال في "التعريف" : وهي الثغر المتأخّم لبلاد الدُّروب ، والمشتعل في جمرة الحروب ؛ وبها عسكر من التُّركان والأكراد . ولا يزال لهم آثار في الجهاد . قال : ولناؤها مكانة جليّة ، وإن كان لا يلتحق بنائب البيرة .

الخامس - (عمل عيّناب) - بفتح العين وسكون الياء المثناة تحت والنون وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف وباء موحدة - وهي مدينة من جُند قنسرين شماليّ حلب على نحو مرحلتين منها ؛ وموقعها في الإقليم الرابع . قال في بعض الأزياج : طولها اثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي مدينة حسنة ، واسعة الأرجاء ، كثيرة المياه والبساتين ، ذات أسواق جليّة مقصودة للتجار والمسافرين ؛ وبها قلعة حصينة متقوية في الصخر . وهي عن حلب في الشمال على نحو ثلاث مراحل منها ، وعن قلعة الروم في الجنوب على نحو ثلاث مراحل أيضاً ، وعن بهسنيّ في جهة الشرق والجنوب على نحو ثلاث مراحل .

السادس - (عمل الراوندان) - بألف ولام لازمتين وراء مهمله بعدها ألف ثم واو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهمله ثم ألف ونون - وهي قلعة من جُند قنسرين واقعة في الإقليم الرابع طولها اثنتان وستون درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . وهي قلعة حصينة على جبل مرتفع أبيض ، ذات أعين وبساتين وفواكه ، وواد

حسن ؛ ونهرها من تحتها نهر عَفْرَيْنَ المتقدم ذكره آخذنا من الشَّمال إلى الجنوب ،
وهي في الغرب والشَّمال عن حلب ، وبينهما نحو مرحلتين ، وفي الشمال عن حارم .
السابع - (عمل الدَّرْبَسَاك) - بفتح الدال المهملة وسكون الراء المهملة وفتح الباء
الموحدة والسين المهملة ثم ألف وكاف ، والألف واللام فيه غير لازمتين - وهي قلعة
من جُنْدِ قَسْرَيْنَ واقعة في الإقليم الرابع شمالي حلب على نحو ثلاث مراحل أو أربع
منها . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن يكون طولها إحدى وستين درجة ،
وعرضها ست وثلاثون درجة . وهي قلعة حصينة ذات أعين وبساتين ، وبها مسجد
جامع ، ولها من شرفها مروج متسعة ، حسنة المنظر ، كثيرة العُشب ، يمر بها النهر
الأسود المتقدم ذكره .

الثامن - (عمل بَغْرَاس) - بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وراء مهملة
وألف ثم سين مهملة - كذا ضبطه السمعاني في "الأنسَاب" ووقع في "التعريف"
و"مسالك الأبصار" بالصاد المهملة بدل السين . والجاري على ألسنة الناس
ضم أوله ؛ وهي قلعة من جُنْدِ قَسْرَيْنَ ، واقعة في الإقليم الرابع شمالي حلب على نحو
أربع مراحل منها . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة
وخمسون وخمسون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاث وخمسون دقيقة ،
وهي في الجبل المطل على عمق حارم . قال ابن حوقل : وكان بها دار ضيافة
لزبيدة . قال في "تقويم البلدان" : وهي ذات أعين وبساتين وأشجار ، وبينها
وبين الدَّرْبَسَاك نحو بعض مرحلة ، وهي في جهة الجنوب عن الدَّرْبَسَاك . قال
في "العزيرى" : وبينها وبين أنطاكية اثنا عشر ميلا ، وبينها وبين إسكندرونة
كذلك ، وبينها وبين حارم نحو مرحلتين . وبغراس في الجنوب عن دَرْبَسَاك
وبينها بعض مرحلة ، وحارم في جهة الشرق عنها . قال في "التعريف" : وكانت

هى التَّغْرَ فى بحر الأَرَمَنِ حَتَّى آسْتَضَيْفَت الفَتوحَات الجَاهَانِيَّة . قَالَ : وَبِهَا رُصَّصٌ
وهى عضو من أعضائها وجزء من أجزائها . وَرُصَّصٌ المذْكُورَةُ براء مهملَةٌ مضمومة
وصادين مهملتين الصاد الأولى مفتوحة ، وهى بلدة على الساحل ، وقد مر ذكرها
فى الكلام على بحر الروم على سواحل الأَرَمَنِ .

التاسع - (عمل القَصِيرِ) تصغير قصر . قَالَ فى "مسالك الأَبْصَارِ" : وهى قلعة
غربيّ حَلَبَ على نحو أربع مراحل منها . قَالَ فى "التعريف" : وهى لأَنْطَاكِيَّةَ
ولم يتحرّر لى طولها وعرضها .

العاشر - (عمل الشُّغْرِ وَبَكَاسٍ) - آسْمَان لقلعتين بينهما رَمِيَّةٌ سَهْمٌ .
فالشُّغْرُ - بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم راء مهملَةٌ .

وَبَكَاسٌ - بفتح الباء الموحدة والكاف ثم ألف وسين مهملَةٌ فى الآخر . وهما من
جُنْدٍ قَنْسِرِينَ ، وموقعهما فى الإقليم الرابع . قَالَ فى بعض الأزياج : طولهما إحدى
وستون درجة ، وعرضهما خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهما مبنيان على
جبلٍ مستطيل ، وتحتهما نهر يجرى ، وبهما بساتين وأشجار وفواكه كثيرة ، ولها
رُستاق ومسجد جامع . قَالَ فى "تقويم البلدان" : وهما فى الجنوب عن أَنْطَاكِيَّةَ
وبينهما الجبال .

الحادى عشر - (عمل شَيْزَرِ) - بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح
الزاي المعجمة وفى آخرها راء مهملَةٌ . وهى مدينة من جُنْدِ حِمَّصِ غربيّ حَلَبَ
على نحو ثلاث مراحل منها ، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قَالَ فى "تقويم البلدان" :
القياس أن طولها إحدى وستون درجةً وعشر دقائق ، وعرضها أربع وثلاثون درجةً
وخمسون دقيقة . وهى مدينة ذات أشجار وبساتين وفواكه كثيرة وأكثرها الرمان ،
ولها ذكر فى شعر امرئ القيس مع حَمَاة . قَالَ فى "العزيرى" : وبينها وبين حماة

تسعة أميال ، وبينها وبين حِصَصٍ ثلاثة وثلاثون ميلا ، وبينها وبين أَنْطَاكِية ستة وثلاثون ميلا .

الثاني عشر - (عمل جَجْرٍ شُغْلَانٍ) بلفظ جَجْرٍ واحد الحجارة وإضافته إلى شُغْلَانٍ (بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم لام ألف ونون) . وهي قلعة شمالي حَلَبَ على نحو ثلاث مراحل منها . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بالقرب من بَغْرَاسَ في جهة الشمال على مسافة قريبة جدًا ، ولم يتحزّر لى طولها وعرضها ولكنها تعتبر ببَغْرَاسَ المتقدمة المذكور لقرىها منها - وهي الآن خراب .

الثالث عشر - (عمل قلعة أَيْ قُبَيْسٍ) - بهمزة مفتوحة وباء موحدة مكسورة بعدهما ياء ساكنة ثم قاف مضمومة وباء موحدة مفتوحة وياء مشناة تحت ساكنة ثم سين مهملة في الآخر - وهي قلعة حصينة غربي حَلَبَ مما يلي الساحل ، على نحو ثلاث مراحل قصيرة من حَلَبَ ، كذا أخبرني به بعض أهل البلاد ، ولم يتحزّر لى طولها وعرضها ، وسيأتي في الكلام على ترتيب المملكة أنها آستقرّت ولايةً ، وربما أُضيفت إلى غيرها .

الرابع عشر - (عمل قلعة حَارِمٍ) - بحاء مهملة مفتوحة وألف ثم راء مهملة مكسورة وميم في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهي قلعة حصينة في جهة الغرب من حَلَبَ على نحو مرحلتين منها ، ذاتُ بساتين وأشجار ، وبهانهر صغير وبينها وبين أَنْطَاكِية مرحلة ، وربضها بلد صغير . قال ابن سعيد : وقد خُصّت بالرقمان الذي يرى باطنه من ظاهره مع عدم العجم وكثرة الماء .

الخامس عشر - (عمل كَفْرِ طَابٍ) - بفتح الكاف وسكون الفاء وراء مهملة ثم طاء مهملة بعدها ألف وباء موحدة - على إضافة كَفْرِ إلى طَابٍ . هذا هو الجاري على

الألسنة وهو الصواب ، وأصله من الكفر بمعنى التغطية ، والمراد مكان الزرع والحَرْث لتغطية الحَبِّ بالزراعة كما في قوله تعالى: ﴿ كَتَلِ غَيْثٌ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ يريد الزَّرْعَ ، ووقع في كلام صاحب حماة بفتح الفاء وهو وهم .^(١)

وظاهر كلام صاحب "الروض المعطار" أن طاب في معنى الصفة لكفر فإنه قال : وسمى بذلك لأن حوله أرض كريمة . قال : وأرضه صحيحة الهواء ومن سكنها لا يكاد يمرض ، وقيل إنه منسوب إلى رجل أسمه طاب - وهي بلدة صغيرة من جندِ حَمَصٍ غربي حَلَبَ ، على نحو ثلاث مراحل منها ، واقعة في الإقليم الرابع . قال في "كتاب الأطوال" : طولها إحدى وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها إحدى وستون درجة وخمس عشرة دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة - وهي على الطريق بين المعرة وشيزر . قال في "العريزي" : وبينها وبين المعرة وشيزر اثنا عشر ميلا .

السادس عشر - (عمل فامية) - بفتح الفاء وألف بعدها ثم ميم مكسورة وياء مشاة تحت وهاء في الآخر . قال في "المشترك" : ويقال لها أفامية بهمزة في أولها يعني مفتوحة . وهي مدينة من أعمال شيزر، غربي حَلَبَ ، على نحو أربع مراحل منها واقعة في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها إحدى وستون درجة وثلاث دقائق ، وعرضها خمس وثلاثون درجة . قال في "العريزي" : وكورة فامية لها مدينة كانت عظيمة قديمة ، على نشز من الأرض ، ولها بحيرة حلوة يشقها النهر المقلوب .

(١) وكذا في "معجم البلدان" بضبط القلم .

السابع عشر - (عمل سَرْمِين) - بفتح السين وسكون الراء المهملتين وكسر الميم ثم ياء
 مثناة تحْتُ ساكنة ونون بعدها . وهي مدينة في الغرب من حَلَبَ على نحو مرحلة كحلتين
 صغيرتين منها ، واقعةٌ في الإقليم الرابع . قال في "كتاب الأطوال" : طولها إحدى
 وستون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وخمسون
 دقيقة . وهي مدينة غير مسورة ؛ وبها أسواق ومسجد جامع ؛ وشرب أهلها من الماء
 المجتمع في الصهاريج من الأمطار ، وهي كثيرة الحُصْبِ ، وبها الكثير من شجر التين
 والزيتون ، وهي في جهة الجنوب عن حَلَبَ على مسيرة يوم منها وعملها متسع .

ومن مضافاتها مدينة الفُوعَةِ (بضم الفاء وفتح العين المهملة) . وهي مدينة على
 القرب من سَرْمِين في الغرب منها ، وتسمى هذه الولاية الغرَبِيَّات (بفتح الغين المعجمة
 وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المثناة تحْتِ المشددة وألف ثم تاء
 مثناة فوق في الآخر) . قال في "التعريف" : وهي أجل ولايات حَلَبَ .

الثامن عشر - (عمل الجَبُولِ) - بفتح الجيم وضم الباء الموحدة المشددة ثم واو
 ساكنة ولام في الآخر - وهي بلدة شرقي حَلَبَ على نحو مرحلة كبيرة منها ، وهي
 بالقرب من الفُرَاتِ ، ولم يتحرر لى طولها وعرضها . قال في "تقويم البلدان" :
 ومنها ينقل الملح إلى سائر أعمال حَلَبَ ؛ وقد أخبرني بعض أهلها : أن أصل هذا الملح
 نهرٌ يصل إليها يعرف بنهر الذهب فيبقى ماء فيما يمر عليه من البلدان حتى يتسبى إليها
 فينقعد ملحا لوقته .

التاسع عشر - (عمل جَبَلِ سَمْعَانَ) - وضبطه معروف . وهي في جهة الشمال من
 حَلَبَ على [يوم] منها ، ولم يتحرر لى طولها وعرضها .

(١) في الأصل ساعة وأبدل في الهامش بانمط "يوم" .

العشرون - (عمل عَزَاز) - بفتح العين المهملة والزاي المعجمة وألف ثم زاي ثانية مكسورة - كذا ضبطه في "اللباب" والحارثي على الألسنة أعزَّاز بهمزة مفتوحة في أولها وسكون العين والزاي الأخيرة في الوقف؛ وهي بلدة شمالي حلب بشرق على نحو مرحلة منها. قال في "كتاب الأطوال": وطولها إحدى وستون درجة وخمس وخمسون دقيقة، وعرضها ست وثلاثون درجة. وهي في شمالي حلب بميلة إلى الغرب. قال ابن سعيد: ولأعزاز جهات في نهاية الحسن والطيبة والحصب، وهي من أنزه الأماكن.

الحادى والعشرون - (عمل تَلِّ بِاشِر) - بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام ثم فتح الباء الموحدة وألف بعدها شين معجمة مكسورة وراء مهملة في الآخر - وهي حصن شمالي حلب على مرحلتين منها بالقرب من عيتاب المتقدم ذكرها. قال ابن سعيد: وهي ذات مياه وبساتين.

الثاني والعشرون - (عمل مَنبَج) - بفتح الميم وسكون النون وفتح الباء الموحدة^(١) وفي آخرها جيم - كذا ضبطه ابن الأثير في "اللباب": وهي بلدة من جند قنسرين شرقي حلب على نحو مرحلتين منها واقعة في الإقليم الرابع. قال في "تقويم البلدان": والقياس أن طولها اثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال ابن سعيد: بناها بعض الأكاسرة الذين غلبوا على الشام وسماها منبسة فعزبت منبج، وكان بها بيت نار للفُرس، وهي كثيرة الفنى السارحة والبساتين، وغالب شجرها التوت، وأكثرها خراب.

(١) ضبطه في إتماموس كجلس [أى بكسر اللام] وكذلك ضبطه صاحب "تقويم البلدان" عن اللباب

فجعل ما هنا سبق قلم.

الثالث والعشرون - (عمل تيزين) - بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وكسر الزاي المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر - وهي بلدة صغيرة من أعمال حلب في جهة الغرب على نحو مرحلة منها .

الرابع والعشرون - (عمل البَابِ وَبَرَّاعًا) . وضبط الباب معروف ، وبزاعا بضم الباء الموحدة وفتح الزاي المعجمة وألف بعدها عين مهملة وألف مقصورة في الآخر . كذا ضبطه في "تقويم البلدان" : والجارى على الألسنة إبدال الألف في آخره بهاء . وهما بلدتان متقاربتان ، من جنس قَسْرِينِ على مرحلة من حَلَبَ في الجهة الشمالية الشرقية في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها اثنتان وستون درجة وعشر دقائق ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

أما الباب : فبلدة صغيرة . قال في "تقويم البلدان" : بها مشهد به قبر عقيل ابن أبي طالب رضى الله عنه ، وبها أسواق وحمام ومسجد جامع ، وبها البساتين الكثيرة والنزه .

وأما بَرَّاعًا - فضيعة من أعمال الباب .

الخامس والعشرون - (عمل دَرَكُوشِ) - بفتح الدال وسكون الراء المهملتين وضم الكاف وسكون الواو وشين معجمة في الآخر - وهي بلدة على النهر العاصي غربى حَلَبَ على نحو ثلاث مراحل منها ، وأكثر زرع أرضها العنب . أخبرني بعض أهل تلك البلاد أن حبة العنب بها ربما بلغت في الوزن عشرة دراهم ، وبها قلعة عاصية آستولى هولاكو على قلاع الشام ماعداها فإنه لم يصل إليها .

السادس والعشرون - (عمل أَنْطَاكِيَّةَ) . قال في "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء المهملة . قال في "تقويم البلدان" : ثم ألف وكاف

مكسورة ثم ياء مثناة تحت وهاء في الآخر . قال ابن الجواليقي في "المعرب" :
 وياؤها مشددة . وخالف في "الروض المعطار" : فذكر أنها مخففة الياء - وهي
 مدينة عظيمة غربي حلب بشمال يسير على نحو مرحلتين منها . قال في "تقويم
 البلدان" : وهي قاعدة بلاد العواصم . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن
 طولها ستون درجة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهي مدينة
 عظيمة قديمة ، على ساحل بحر الروم ، بناها بطليموس الثاني من ملوك اليونان ؛ وقيل
 بناها ملك يقال له أنطاكين فعرفت به ، ولها سورٌ عظيم من صخر ليس له نظير
 في الدنيا . قال في "العزيزي" : مساحة دورهِ اثنا عشر ميلاً . قال في "الروض
 المعطار" : عدد شرفاته أربع وعشرون ألفاً ، وعدد أبراجه مائة وستة وثلاثون برجاً .
 قال ابن حوقل : وهي أزه بلاد الشام بعد دمشق ، ويمتد بظاهرها العاصي والنهر
 الأسود مجودين ، وتجري مياههما في دورها ومسكنها ومسجدها الجامع ، وماؤها
 يستحجر في مجاريه حتى لا يؤثر فيه الحديد ، وشربه يحدث رياح القولنج ، والسلاح
 بها يسرع إليه الصداً ويذهب ريح الطيب بالمكث فيها ، وهي أحد كراسي بطارقة
 النصارى ، ولها عندهم قدر عظيم . وقد قيل في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى
 الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ إنها أنطاكية وأن ذلك الرجل
 "حبيب التجار" وقبره بها مشهور يزار . قلت : وحيثئذ فتصير ولايتها المذكورة
 في "التعريف" و"مسالك الأبصار" : اثنتي عشرة ولاية .

وميناً أنطاكية المذكورة (السويدية) بضم السين المشددة وفتح الواو وسكون الياء
 المثناة تحت وكسر الدال المهملة وفتح الياء المثناة تحت المشددة وهاء في الآخر .
 قال في "تقويم البلدان" : وموضعها حيث الطول ستون درجة وخمس وأربعون

(١) لعله ولاياتها . على أن هذه الفذلكة تحتاج إلى تأمل .

دقيقة . وعندها مصبُ النهر العاصي ، وهناك يعطف البحر الرومي ويأخذ غربا
بشمال على سواحل بلاد الأرمن .

القسم الثاني

(من الأعمال الحليية البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقدم ذكرها

في الأعمال الحليية من الشمال ، وهي المعروفة ببلاد الأرمن)

قال في "التعريف" في مكتبة ممتلك سيس : وهذه البلاد منها بلاد تسمى
العواصم ، ومنها بلاد كانت تسمى قديما بالثغور ، سميت بذلك لمناغرتها الروم ، وإلى
مثل ذلك أشار في "تقويم البلدان" أيضا .

فالعواصمُ (بفتح العين المهملة والواو وكسر الصاد المهملة وميم في الآخر) . قال ابن
حوقل : وهي آسم للناحية وليست موضعا بعينه يسمى العواصم . قال : وقصبتها
أنطاكية . قال : وعدَّ ابن خرداذبه العواصم فكثرتها وجعل منها كورة منبج ،
وكورة تيزين وبالسن ورصافة هشام ، وكورة جومة وكذا شيزر وأفامية ، وإقليم معرة
النعمان ، وإقليم صوران ، وإقليم تل باشر وكفر طاب ، وإقليم سمية ، وإقليم جوسية ،
وإقليم لبنان إلى أن بلغ إقليم قسطل بين حص ودمشق .

قلت : وأول من سماها بذلك الرشيد هارون حين بنى بها مدينة طرسوس الآتي
ذكرها في سنة سبعين ومائة ، والذي يظهر أنها سميت بذلك لعصمتها وأدونها من
بلاد الإسلام من العدو ، إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر ، واقعة في نحر العدو ، وعساكر
المسلمين حافظة لها .

والثغور جمع ثغر (بفتح التاء المثناة وسكون العين المعجمة وفي آخره راء مهملة) .
قال في "المشترك" وهو آسم لكل موضع يكون في وجه العدو ، قال : وثغور الشام
كانت أذنة وطرسوس وما معها فاستولى عليها الأرمن .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه : أن الرشيد في سنة سبعين ومائة عزل الثغور كلها من الجزيرة وقنسرين وجعلها حيزاً واحداً وسماها العواصم . قلت : ومقتضى ذلك أن تكون الثغور والعواصم أسماً على مسمى واحد ، وعليه ينطبق كلام المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" . وقد حدّد في "التعريف" هذه البلاد بجملة فقال : وحدّها من القبلة وأنحراف للجنوب بلاد بخراس وما يليها ؛ وحدّها من الشرق جبال الدرّ بندات ؛ وحدّها من الشمال بلاد ابن قرمان ؛ وحدّها من الغرب سواحل الروم المفضية إلى العلابيا وأنطاليا . وسياتي الكلام على أصل استيلاء الأرمن على هذه البلاد وارتفاعها منهم وعودها إلى الإسلام في الكلام على مكتبة متملك سيسّ ، على ما كان عليه الأمر قبل عودتها إلى الإسلام في مكاتبات ملوك الكفر إن شاء الله تعالى .

ويشتمل على عدّة نيّابات ، بعضها ذكره في "التعريف" وبعضها استجدّ بعد ذلك ، وهي على ضربين أيضاً .

الضرب الأوّل

(الأعمال الجبار؛ وهي صفتان : ساحلية وجبّلية)

فأما الجبّلية ، فنلاثة أعمال .

الأوّل - (عمل مَطِيّة) - بفتح الميم واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مثناة تحت مشددة مفتوحة وهاء في الآخر . وهي مدينة شمالي حلب بميلّة إلى الشرق على نحو سبع مراحل منها . قال ابن سعيد : وهي قاعدة بلاد الثغور ، وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : وطولها إحدى وستون درجة ،

(١) ضبطها ياقوت والمجد بفتحين ثم سكون وقال ياقوت : كسر الطاء وتشديد الياء من قول العامة -

وعرضها سبع وثلاثون درجة ، ووافقه في ” القانون “ على الطول وجعل العَرْض ثمانيا وثلاثين درجة ؛ وقد عدّها ابن حوقل من جملة بلاد الشام وقال إنها من قرى بلاد الروم على مرحلة . قال صاحب حماة : والأليق عدّها من بلاد الروم . ثم قال : وعدّها بعضهم من الثغور الجزرية . قال في ” الروض المعطار “ : وكانت قديمة فخرتها الروم ، فبناها أبو جعفر المنصور يعني ثاني خلفاء بني العبّاس في سنة تسع وثمانين ^(١) ومائة ، وجعل عليها سورا محكما - وهي بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار ، وهي مسورة ، في بسيط من الأرض والجبال محتفة بها من بُعد ، ولها نهر صغير يمر بسورها ، ولها قُنِيّ تدخلها وتجري في دُورها إلا أنها شديدة البرد - وهي في شماليّ الجبل الدائر الذي بسيس في غربيه ، في الجنوب عن سيواس ، وبينهما نحو ثلاث مراحل ، وفي الغرب عن نَخْنَا وبينهما نحو مرحلتين . وقد ذكر في ” تقويم البلدان “ : أنها فتحت في سنة خمس عشرة وسبعائة .

الثاني - (عمل دَرَنَدَة) - بفتح الدال والراء المهملتين وسكون النون وفتح الدال الثانية وهاء في الآخر - وهي مدينة في جهة الغرب عن مَلَطِيَّة على نحو مرحلة ، ذات بساتين وأنهار وعيون ماء تجرى ، وبينها وبين حَلَب نحو عشرة أيام .

الثالث - (عمل دَبْرَكِي) - بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وشر الكاف وياء مثناة تحت في الآخر . وقد يقال دَوْرَكِي بإبدال الباء واوا . وهي مدينة في جهة الشمال والغرب من حَلَب ، على نحو عشر مراحل منها ، بها بساتين وأشجار ، وبينها وبين حَلَب نحو اثني عشر يوما .

(١) ليله مصحف عن ثلاثين فان المنصور تولى الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائة ، ونقل ياقوت أنه أرسل من بينى ملطية سنة أربعين ومائة .

وأما الساحلية، فإن بها خمسة أعمال .

الأول - (آياس) - بفتح الهمزة المدودة والياء المثناة تحت ثم ألف وسين مهملة في الآخر . وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل البحر، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الزيح" : طولها تسع وخمسون درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة ، وهي فُرْضة تلك البلاد، وبينها وبين بَغْرَاس المتقدم ذكرها مرحلتان . قال في "التعريف" : وقد جعلت نيابةً جليلةً نحو حِصَّص ، وجعل أمرها إلى نائب الشام ، ثم جعلت إلى نائب حَلَب ، وهي المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية إضافة إلى نهر جاهان المجاور لها ، وهو جيحان المتقدم ذكره ، وكانت أستعادتها من الأرمن في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون في سنة ثمان وثلاثين وسبعائة ، ولذلك قال في "التعريف" : والعهد بفتحها قريب .

الثاني - (عمل طَرَسُوس) - بفتح الطاء والراء المهملتين جميعاً وضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية - هكذا ضبطه في "اللباب" والخارى على الألسنة سكون رائها ، وهي مدينة من بلاد الأرمن على ساحل بحر الروم شمالاً بغرب عن حَلَب ، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ثمان وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة مسورة ، بناها الرشيد في سنة سبعين ومائة وأكلها في سنة اثنتين وسبعين ، ولها خمسة أبواب : باب الجهاد ، وباب الصَّفْصَاف ، وباب الشام ، وباب البحر ، وباب المسدود . والنهر يشق في وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد . قال ابن حوقل : وهي في غاية الحِصْب ، وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجزين الروم والمسلمين ، وبها دُفِن المأمون بن الرشيد ، وكانت أستعادتها من الأرمن في الدولة الناصرية حسن بن محمد بن قلاوون .

(١) الثالث - (عمل أدنة) - بهمزة ودال مهملة ونون مفتوحات وهاء في الآخر .
وهي مدينة من بلاد الأرمن واقعة في الإقليم الرابع . قال في بعض الأزياج : طولها تسع وخمسون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال أحمد ابن يعقوب الكاتب في كتابه "المساكن والممالك" : وهي من بناء الرشيد . قال ابن حوقل : وهي مدينة حصينة عامرة ، وبينها وبين طرسوس ثمانية عشر ميلا .

الرابع - (عمل سرفندكار) - بكسر السين وسكون الراء المهملتين وفتح الفاء وسكون النون وفتح الدال المهملة والكاف ثم ألف وراء مهملة - هكذا ضبطه صاحب حماة ، ثم قال : وقد يجعل موضع الفاء واوا فيقال سرونندكار والموجود في الدساتير إسفندكار بهمزة في الأول وسقوط الراء الأولى ؛ وهي قلعة من بلاد الأرمن واقعة في الإقليم الرابع . قال في "الزيح" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة حصينة في واد على صخر ، وبعض جوانبها ليس له سور للاستغناء عنه بالصخر ، وهي على القرب من نهر جيحان من البر الجنوبي ، في الشرق عن تل حمدون على نحو أربعة أميال .

الخامس - (عمل سيس) - بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت ثم سين مهملة ثانية - هذا هو المعروف في زماننا ، ووقع في كلام صاحب كمال الدين ابن العديم أن اسمها سيسه بأشبات هاء في آخرها ، وكلامه في "العريزي" يوافقه . وهي قاعدة بلاد الأرمن وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الزيح" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة . وهي بلدة كبيرة ذات بساتين وأشجار ، ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل ، بناها بعض خدام الرشيد وهو الذي سماها . قال ابن سعيد : وكانت قاعدة الثغور الشمالية . قال في "العريزي" : وبينها

(١) الذي في "تقويم البلدان" و"معجم البلدان" و"القاموس" أنها بالذال المعجمة .

وبين المصيبة أربعة وعشرون ميلاً، وكانت آستعادتها من الأرمن في الدولة الأشرافية شعبان بن حسين. قلت: وقد كانت سيس في أعقاب الفتح نيابة مستقلة، ثم صارت مقدمة عسكر مضافة إلى حلب كما يقع في غزوة في كونها تارة تكون نيابة مستقلة، وتارة مقدمة عسكر مضافة إلى دمشق على ما تقدم ذكره.

الضرب الثاني

(١) (من الأعمال الصغار بلاد الأرمن)

وهي ثلاثة عشر عملاً لثلاث عشرة قلعة، لم تجر العادة بمكاتبة أحد من نوابها عن الأبواب السلطانية، ذكر بعضها في "التعريف" وبعضها في "التثقيف" وبعضها في غيرها من الدساتير.

الأول - (عمل قلعة باري كروك) بفتح الباء الموحدة وألف بعدها راء مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة ثم كاف مفتوحة وراء مهملة وواو ساكنة ثم كاف في الآخر. وهي قلعة على رأس جبل بالقرب من طرسوس في الشمال، على نحو نصف مرحلة قال في "التثقيف": "آستجدت في سنة ستين وسبعائة. قلت: آفتحتها بيدم الخوارزمي نائب سيس في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون.

الثاني - (عمل كاوراً) بفتح الكاف وبعدها ألف وواو وراء مفتوحة مشددة وألف في الآخر. وهي قلعة في الشمال عن آياس على جبل مطلق على البحر الرومي على نحو ساعة. قال في "التثقيف": "آستجدت سنة تسع وستين وسبعائة.

الثالث - (عمل كولاك) بفتح الكاف وسكون الواو ولام ألف بعدها كاف ثانية. وهي قلعة مدورة على رأس جبل في الشمال عن طرسوس على نحو مرحلة، يسكنها طائفة من التركمان.

الرابع - (عمل كُرْزَال) بكاف مكسورة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وبعدها ألف ثم لام . وهى قلعة صغيرة على رأس جبل بالقرب من كَوْلَاك المتقدّم ذكرها على نحو مرحلة . قال فى "التثقيف" : أستجدت فى سنة نيّف وسبعين وسبعائة .

الخامس - (عمل كُومِي) بضم الكاف وسكون الواو وكسر الميم وياء مشناة تحت فى الآخر .

السادس - (عمل تَلّ حَمْدُون) بفتح التاء المشناة فوق وتشديد اللام وفتح الحاء المهملة وإسكان الميم وضم الدال المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر . وهى قلعة ببلاد الأرمن ، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال ابن سعيد : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . قال صاحب حماة : كانت قبل أن يخرّبها المسلمون قلعةً حصينة حسنة البناء على تَلّ عال ، ولها سور مانع ورَبَض وبساتين ونهر يجرى ، وعلى القرب من جِيحان فى جهة الجنوب على نصف مرحلة ، وبينها وبين آياس نحو مرحلة ، وبينها وبين سِيس نحو مرحلتين .

السابع - (عمل الهَارُوبِيَّتَيْن) - بفتح الهاء وألف بعدها ثم راء مهملة مضمومة ونون مكسورة بعدها ياء مشناة تحت مشددة مفتوحة ثم تاء مشناة فوق بعدها ألف ونون . قال فى "التعريف" : وهما حصنان بناهما هارون الرشيد . وقال فى "المشرك" : الهارونية مدينة صغيرة أخططها هارون الرشيد بالثغور فى طَرْف جبل اللكّام . وقال فى "العزى" : الهارونية آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالحدود الجزرية ، وبينها وبين الكنيسة السوداء اثنا عشر ميلاً .

(١) أى أوياء ونون تبعاً لعوامل الاعراب .

قال في "كتاب الأطوال": وطولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

الثامن - (عمل قلعة نَجْمَة) بفتح النون وسكون الجيم وفتح الميم وهاء في الآخر. ^(١)
وهي قلعة على القرب من الفُراتِ بينها وبين جَسْر مَنبِج خمسة وعشرون ميلاً . قال في "تقويم البلدان": وهذه القلعة في السحاب . قال : وكان يقال لذلك المكان حصن مَنبِج فصارت تعرف بقلعة نَجْمَة . ثم قال : وهي من بناء السلطان محمود بن زنكى . قلت : وفي "التعريف" ما يقتضى أنها من جملة بناء المأمون .

التاسع - (عمل قلعة حيمص) . وهي قلعة خراب صغيرة بالقرب من نهر جِيحَان .
العاشر - (عمل قلعة لُؤْلُؤَة) - وهي قلعة شمالي كَوَلَاكٍ أَسْتَعَادَهَا أَبُو عِثْمَانَ .
الحادى عشر - (عمل قلعة تَامْرُونَ) شمالي طَرَسُوسَ ، بيد عيسى بن ألاس البرسقى التركمانى .

الثانى عشر - (عمل سِنِيَاطُ كَلَا) شمالي طَرَسُوسَ . كانت داخل المملكة أَسْتَوْلَى عليها أَبُو قَرْمَانَ فِي أَيَّامِ الْمَنْصُورِ بْنِ الْأَشْرَفِ شَعْبَانَ .
الثالث عشر - (عمل بلسلوص) غربى طَرَسُوسَ على ساحل البحر، بيد حسن ابن قوسى البرسقى التركمانى .

القسم الثالث

(من الأعمال الحلية البلاد المجاورة للفرات من شرقية من بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودجلة؛ وهي ثلاثة أعمال)

الأول - (عمل البيرة) بكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الراء ^(٢)
المهملة وألف في الآخر . وهي قلعة في البر الشرقى في الشمال عن الفُراتِ ، في الشرق

(١) في المعجم بدون هاء وقال "بلفظ النجم من الكواكب" (٢) لعله وهاء في الآخر، وهي غير البيرة التي ببلاد الأندلس فان تلك الهمة فيها أصلية على وزن إخرطة وكبريتة فليتنبه .

عن قلعة الروم المتقدم ذكرها على نحو مرحلة والفُرات بينهما . وقد عدّها في "تقويم البلدان" : من جُنْدِ قَنَسِرِينَ من أعمال الشام ، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في بعض الأزياج : طولها اثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهي قلعة ذات ارتفاع وحصينة لأترام . قال في "تقويم البلدان" : ولها سوق وعمل . قال ابن سعيد : وقلعتها على صحرة . قال في "التعريف" : ولها منعة وعسكر .

الثاني - (عمل قلعة جَعْبَرِ) - بفتح الجيم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدة وراء مهملة في الآخر . وهي قلعة من ديار بكر في البر الشرقي الشمالي من الفُرات أيضا ، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها اثنتان وستون درجة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال القاضي جمال الدين ابن واصل : وكانت هذه القلعة تعرف قديما بالدوسرية نسبة إلى دوسر : عبدالنعمان ابن المنذر ، وهو الذي بناها أولا لما جعله النعمان على أفواه الشام ، ثم تملكها سابق الدين جعبر القشيرى في أيام الملوك الساجوقية فعرفت به ، ثم آتت عنها منه السلطان ملكشاه الساجوقى . قال صاحب حماة : وهي في زماننا خراب ليس بها ديار . قلت : وذلك في أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، ثم عمرت بعد ذلك في آخر الدولة الناصرية أو بعدها بقليل ؛ وقد أشار إلى ذلك في "التعريف" : حين تعرّض لذكرها في آخر مضافات الشام قبل ذكر حلب بقوله : وهي مجددة البنيان ، مستجدّة الآن ، لأنها جُددت منذ سنوات ، بعد أن طال عليها الأمد ، وأُخني عليها الذى أُخني على لُبْد . وكان قد ذكر قبل ذلك في الكلام على تقاسيم الشام أنها مضافة إلى دِمَشْق . ثم قال : وحقّها أن تكون مع حَاب ، وقد صارت الآن من مضافات حَلَب .

الثالث - (عمل الرُّها) - بضم الراء المهملة وفتح الهاء وألف في الآخر . وهي مدينة من ديار مُضَرِّ في البر الشرقي الشمالي عن الفُرات ، وموقعها في الإقليم الرابع بالقرب

من قلعة الروم . قال في "الأطوال" : طولها اثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة . قال في "العزى" : وهى مدينة عظيمة رومية، فيها آثار عجيبة . قال في "الروض المعطار" : وهى مدينة ذات عيون كثيرة تجرى منها الأنهار، وبها البساتين والأشجار الكثيرة، وعليها سور من حجارة، ولها أربعة أبواب باب حرّان، والباب الكبير، وباب سبع، وباب الماء . قال : وليس فى بلاد الجزيرة أحسن منتهات منها ولا أكثر فواكه ؛ والفُراتُ منها فى ناحية الغرب على مسيرة يومين، وفى ناحية الشمال على مسيرة يوم . قال فى "تقويم البلدان" : وكان بها كنيسة عظيمة، وفيها أكثر من ثلثمائة دير للنصارى . قال : وهى اليوم خراب يعنى فى أثناء الدولة الناصرية، ثم عمرت بعد ذلك . قلت : وهى اليوم عامرة أهلة، والله سبحانه وتعالى أعلم .

القاعدة الثالثة

(من قواعد المملكة الشامية حماة)

وقد ذكرها فى "مسالك الأبصار" بعد دِمَشقَ ؛ وهو أليق لقبها منها، ولكنه قد ذكرها فى "التعريف" بعد حلب فتبعته على ذلك ؛ وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(فى حاضرتها)

وهى بفتح الحاء المهملة والميم وألف ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع بين حِمصَ وقنسرين . قال فى "تقويم البلدان" : وطولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة ؛ وهى مدينة قديمة أزليّة . قال فى "تقويم البلدان" : ولها ذكر فى التوراة، وهى على ضفة

العاصي مكيمة البناء، ولها سورٌ جليل، وبيوت ملوكها وشرفاتها مطلة على النهر العاصي، وبها القصور الملوكية، والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والزوايا والأسواق التي لا تَعْدَم نوعاً من الأنواع؛ وبها قلعة مبنية بالحجارة الملونة؛ وغالبُ مبانيها العلية، وآثار الخير والبرِّ الباقية فيها من فواضل نِعَم الدولة الأيوبية؛ وبها نواعيرٌ مرَّكبة على العاصي، تدور بجريان الماء، وترفع الماء إلى الدور السلطانية ودُور الأمراء والأكابر والبساتين؛ وفي بساتينها الغرَّاسُ الفائق والثمار الغريبة؛ ولم يكن لها في القديم نَبَاهة ذِكر، وكان الصَّيْتُ لِحَصِّ دُونِهَا، ثم تنبه ذكرها في الدولة الأتابكية زنكي؛ فلما آلت إلى ملوك بني أيوب مَصْرُوهَا بالأبنية العظيمة، والقصور الفاتقة، والمسكن الفاحرة، وتأمير الأمراء، وتجنيد الأجناد فيها؛ وعظَّموا أسواقها وزادوا في غِرَّاسِهَا، وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كلَّ من فاق في فنِّه إلى أن كملت محاسنها، وصارت معدودةً من أمهات البلاد وأحسن الممالك؛ وهى في غاية رَفَاهة العيش إلا أنها شديدة الحرِّ محجوبةً الهواء، ويعرَّض لها في الخريف تغير تنسب به إلى الوَحَامَة، ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى في بقية الشام، وإنما يجلب إليها مما يجاورها؛ وحوّلها مروج فيحٌ ممتدَّة يكثر فيها مصايد الطير والوحش؛ وليس بالممالك الشامية بعد دِمَشق لها نظير، ولا يدانيها في لُطْف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد. قال في "الروض المِعْطَار": وبينها وبين حِمَصَ أربعين ميلاً، ولم تزل بأيدي بقايا الملوك الأيوبية من جهة صاحب مصر، يقيم ملوكهم فيها ملكاً بعد ملك إلى أن كان بها منهم آخر الأيام الناصرية محمد بن قلاوون المتقدم ذكره، وأستقرَّ فيها بالأمير طغتمر الحموي^(١): أحد مقدّمى الألوْف بالديار المصرية نائباً؛ وأستقرت بأيدي التوابع يليها مقدّم ألف بعد مقدّم ألف إلى الآن.

(١) لعل الباء من زيادة النسخ أى كان بها منهم في تلك الأيام وأستقر فيها الأمير الخ.

الجملة الثانية (في نواحيها وأعمالها)

قال في "التعريف": "وحدّها من القبلة مدينة الرّستن وماسامتها أخذاً بين سامة وقبة ملاعب، إلى حيث مجرّ النهر والآثار القديمة؛ وحدّها من الشرق البرّ أخذاً على سامة إلى ما استفل عن قبة ملاعب؛ وحدّها من الشمال آخر حدّ المعزة من العرانا،^(١) وحدّها من الغرب مضافات مضاف وقلاع الدعوة؛ وليس بها تواب قلاع البتة، ولها ثلاثة أعمال .

الأول - (عمل برّها) - وهو ظاهرها وما حولها كما تقدّم في دمشق وحلب .
الثاني - (عمل بارين) - بفتح الباء الموحدة وألف بعدها وكسر الراء المهملّة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر - وهي بلدة على مرحلة من حماة في الغرب عنها بميلة يسيرة إلى الجنوب؛ وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان":
والقياس أن طولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة.^(٢)

الثالث - (عمل المعرة) - بفتح الميم والعين المهملّة ثمّ راء مهملّة مشدّدة مفتوحة وهاء في الآخر - وهي مدينة من جند حصّ واقعة في الإقليم الرابع . قال في "كتاب الأطوال": "طولها إحدى وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة . وقال في "تقويم البلدان": "القياس أن طولها إحدى وستون درجة وأربعون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وتعرف بمعرة النعمان . قال: البلاذريّ إضافة إلى النعمان بن بشير الأنصاريّ رضی

(١) كذا في الأصل بإهمال التقط وفي الضوء "من الغرب".

(٢) لم يتكلم على العرض كما دته ولعله سقط من قلم النسخ . ويستفاد من "التقويم" أن عرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة .

الله عنه . قال في "الغريزي" : وهي مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثمار
والخشب ، وشرب أهلها من الآبار . قال في "الروض المعطار" : ولها سبعة
أبواب : باب حلب ، والباب الكبير ، وباب شيث ، وباب الحنان ، وباب حمص ،
وباب كذا . ^(١) قال : ويُذكر أن قبر شيث بن آدم عليه السلام عند الباب المنسوب
إليه فيها ، وداخلها قبر يوشع بن نون عليه السلام ، وعلى ميلٍ منها دير سمعان الذي به
قبر عمر بن عبدالعزيز . قال السمعاني : والنسبة إليها معرني . قال : وبالشام بلدة
أخرى تسمى معرة نسر بن بالنون والسين المهمل ، والنسبة إليها معرني . قال
صاحب حماة : والمشهور في الثانية أنها معرة مصرين بيم وصاد مهمل .

القاعدة الرابعة

(من قواعد المملكة الشامية أطراً بلس ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وهي بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة ولام
مضمومتين وسين مهمل في الآخر . قال السمعاني : وقد تسقط الألف منها فرقا
بينها وبين أطراً بلس التي في الغرب ، وأنكر ياقوت في "المشترك" : سقوطها وعاب
على المتنبي حذفها منها في بعض شعره . قال في "الروض المعطار" : ومعنى أطراً بلس
فيما قيل ثلاث مدن ، وقيل مدينة الناس . وهي مدينة من سواحل حص واقعة
في الإقليم الرابع . قال في "كتاب الأطوال" : طولها تسع وخمسون درجة وأربعون
دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة ، وكانت في الأصل من بناء الروم فلما فتحها
المسلمون في سنة ثمان وثمانين وستمئة في الأيام الأشرفية "خليل بن قلاوون" رحمه

(١) هذا هو السادس وكفى عنه ولم يحله ولم يذكر السابع فليعلم .

الله ، نَحَرَّبُوهَا وَعَمَّرُوا مَدِينَةَ عَلَى نَحْوِ مِيلٍ مِنْهَا وَسَمَّوْهَا بِاسْمِهَا ، وَهِيَ الْمَوْجُودَةُ الْآنَ ؛
وَمَا بَنِيَتْ هَذِهِ الْمَدِينَةُ الْجَدِيدَةُ كَانَتْ وَخِيمَةَ الْبَقْعَةِ ، ذَمِيمَةَ السَّكَنِ . فَلَمَّا طَالَتْ
مُدَّةَ سَكْنِهَا وَكَثُرَ بِهَا النَّاسُ وَالِدَوَابُّ وَصُرِّفَتِ الْمِيَاهُ الْأَسَنَةُ الَّتِي كَانَتْ حَوْلَهَا وَعَمَلَتْ
بَسَاتِينَ ، وَنُصِبَتْ بِهَا النَّصُوبُ وَالْعُرُوسُ ، خَفَّ ثِقَلُهَا وَقَلَّ وَنَحْمُهَا .

قال في "مسالك الأبصار" : ولما وليَ نيابتها أستدمر الكرجيَّ كان لا ينفك
عن كونه ونحما فشكا ذلك إلى سليمان بن داود المتطبب ، فأشار عليه أن يستكثر فيها
من الإبل وسائر الدوابِّ ففعل نخفَّ ونحْمُهَا . قال : وقد سألت عن علة ذلك الكثير
من الأطباء فلم يجيبوا فيه بشيء .

قلت : لا خفاء أن المعنى في الإبل ما أشار به النبي صلى الله عليه وسلم في أمر
العربيين حين آستونحوا المدينة "أنهم يقيمون في إبل الصدقة ويشربون من ألبانها
وأبوالها ففعلوا ذلك فصَحَّحُوا" فكأن ذلك من خاصة الإبل . ولعل التأثير في ذلك
للإبل خاصة دون سائر الدواب . وهي الآن مدينة متمدنة كثيرة الزحام ؛ وبها
مساجد ، ومدارس ، وزوايا ، وبمارستان ، وأسواق جليلة ، وحمامات حسان ؛
وجميع بنائها بالحجر والبكليس مبيضا ظاهرا وباطنا ، وغُوطُهَا مَحِيْطَةٌ بِهَا ، وَتَحِيْطُ
بُغُوطِهَا مَزْدَرَعَاتُهَا ؛ وَهِيَ بَدِيعَةُ الْمَشْرِفِ ؛ وَلَهَا نَهْرٌ يَحْكُمُ عَلَى دِيَارِهَا وَطَبَاقِهَا يَنْخَرِقُ
الْمَاءُ فِي مَوَاضِعٍ مِنْ أَعَالَى بِيوتِهَا الَّتِي لِأَيُّرُقُ إِلَيْهَا إِلَّا بِالدرجِ الْعَلِيَّةِ ؛ وَحَوْلَهَا جِبَالٌ
شَاهِقَةٌ ، صَحِيحَةُ الْهَوَاءِ ، خَفِيفَةُ الْمَاءِ ، ذَاتُ أَشْجَارٍ وَكُرُومٍ وَمَرْوَجٍ وَمَوَاشٍ ،
وَمِيْنَاهَا مِيْنًا جَلِيلَةٌ ، تَهْوِي إِلَيْهَا وَفُودُ الْبَحْرِ الرَّومِيِّ وَتَرْسُو بِهَا مَرَاكِبُهُمْ ، وَتُبَاعُ بِهَا
بِضَائِعُهُمْ . وَهِيَ بَلَدَةٌ مَتَّجِرٌ وَزَرْعٌ ، كَثِيرَةٌ الْفَائِدَةُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى عَجَائِبِ
الشَّامِ أَنْ دَاخَلَ الْبَحْرَ بِالْقَرْبِ مِنْهَا عَلَى نَحْوِ رَمِيَّةٍ حَجْرٍ عَنِ الْبَرِّ عَيْنًا فَوَارَةً عَدْبَةَ الْمَاءِ
تَنْفُطُو عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ قَدْرَ ذِرَاعٍ أَوْ أَكْثَرَ ، يَتَبَيَّنُ ذَلِكَ عِنْدَ سَكُونِ الرِّيحِ .

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها)

قال في "التعريف" : وحدّها من القبلة جبل لُبْنَانَ ممتداً على ما يليه من مَرَج الأسد، حيث يمتدّ النهر العاصي، وحدّها من الشّمال قِلاَع الدَّعْوَة، وحدّها من الغرب البحر الرومي . وأعمالها على قسمين :

القسم الأول

(الأعمال الجبّار التي يكتّبتُ نواحيها عن الأبواب السلطانية، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(مضافاتها نفسها ، وهي ست نيايات)

الأول - (عمل حصن الأكراد) - بإضافة حصن واحد الحصون إلى الأكراد الطائفة المشهورة ، وهي قلعة من جند حصص ، موقعها في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال في "المشترك" : وهي قلعة حصينة مقابل حصص من غربيها، على الجبل المتصل بجبل لُبْنَانَ نحو مرحلة من حصص . قال في "التعريف" : وهي حصن جليل وقلعة شماء، لا تبعد منها السماء . قال : وكانت محل النياية ومقرّ العسكر قبل فتح طرّا بلس .

الثاني - (عمل حصن عكّار) - بإضافة حصن إلى عكّار - بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وبعدها ألف ثم راء مهملة - وهي قلعة على مرحلة من طرّا بلس في جهة الشرق بوسط جبل لُبْنَانَ في وادٍ والجبل محيط بها، وشرب أهلها من عين تجرى إليها من ذيل لُبْنَانَ المذكور، ولها ربض ليس بالكبير .

الثالث - (عمل بلاطُس) - بفتح الباء الموحدة وبعدها لام ألف ثم طاء مهملة ونون مضمومتان وسين مهملة في الآخر - وهي قلعة بالقرب من مدينة مصياف في جهة الغرب منها على نصف مرحلة ، وفي جهة الشمال من طرابُلس على نحو مرحلتين .

الرابع - (عمل صهْيُون) - بفتح الصاد المهملة وسكون الهاء وضم الياء المثناة تحت^(١) وسكون الواو ثم نون في الآخر - وهي قلعة من جند قنسرين في الإقليم الرابع . قال في "الزيج" : طولها ستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهي من القلاع المشمورة ، ذات حصانة ومنعة ، مبنية على صخر أصم ، في ذيل جبل يظهر من اللاذقية وبينهما نحو مرحلة ، وهي في الشرق عن اللاذقية بميلة إلى الجنوب ، وبها المياه الكثيرة حاصلية من الأمطار .

الخامس - (عمل الأذقية) - بألف ولام لازمتين وذال معجمة وقاف مكسورتين وياء مشناة تحت مشددة مفتوحة وهاء في آخرها . وهي مدينة من سواحل الشام واقعة في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها ستون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وعدها في "الغريزي" من أعمال حمص ثم قال : وهي مدينة جليلة بل هي أجل مدينة بالساحل منعة وعمارة ، ولها مينا حسنة ، ومنها إلى أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا ، وقد عدها في "التعريف" : في جملة ولايات طرابُلس على ما كانت عليه إذذاك ، ثم استقرت بعد ذلك نيابة ، وهي الآن أعظم نيابات طرابُلس .

السادس - (عمل المرقب) - بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وباء موحدة في الآخر . وهي قلعة بالقرب من ساحل البحر الرومي ، وموقعها في الإقليم

(١) ضبطها ياقوت والمجد بكسر الصاد وفتح الياء المثناة من تحت .

الرابع . قال في "الزيح" : طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة ونحس وأربعون دقيقة ، وهي قلعة حصينة حسنة البناء مشرفة على البحر وعلى نحو فرسخ منها مدينة (بِلِنْيَاس) بكسر الباء الموحدة واللام وسكون النون وياء مثناة تحت (١) وألف وسين مهملة - وفي الغالب تضاف إليها فيقال المَرْقَبُ وبِلِنْيَاسُ ، وهي مدينة حسنة على الساحل ، ذاتُ مياهٍ وأعين تجرى وفواكه كثيرة . قال في "العزيرى" : وبينها وبين أَنْطَرُطُوسَ اثْنَا عَشَرَ مِيلًا ؛ ولم يتعرض لذكر المَرْقَبِ في "التعريف" : ولا في "مسالك الأبصار" .

الضرب الثاني

(قِلَاعُ الدَّعْوَةِ ، بفتح الدال)

سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية من الشيعة المنتسبين إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهاديّة ؛ وهؤلاء هم المعروفون في ديوان الإنشاء بالتَّصَادِ ، وبين العامة بالفداوية ؛ وسيأتي الكلام على معتقدهم في الكلام على القُصَّاد ، ثم في الكلام على تحليف أهل البدع في باب الإيمان إن شاء الله تعالى - وهي سبع قلاع ، عظيمة الشأن ، ربيعة المقدار ؛ لا تُسَمَّى مَنَعَةً ولا تُرامُ حِصَانَةً ، وكانت أولاً كلها مضافة إلى طَرَا بُلُسَ ثم نقلت مِصْيَافٍ منها إلى دِمَشْقَ على ما تقدّم ذكره ، والبقية على ما كانت عليه من إضافتها إلى طَرَا بُلُسَ . وهي ستة أعمال .

الأول - (عمل الرضاة) - بألف ولام لازمتين في أولها وراء مهملة مضمومة وصاد مفتوحة بعدها ألف ثم فاء وهاء - وهي قلعة بالقرب من مِصْيَافٍ ؛ وبالشام

(١) في المعجم بضم الباء واللام .

بلدة أخرى يقال لها الرُصَافَةُ أيضا وتعرف بِرُصَافَةِ هِشَامِ ، على أَقَلِّ من مسافة يوم من الجانب الغربي من الفُراتِ .

الثاني - عمل (الخَوَاطِي) - بفتح الخاء المعجمة والواو ثم ألف وباء موحدة مكسورة وياء في الآخر- وهي قلعة في جهة الشَّمال من طَرَأْبُلُسَ على نحو مرحلين ، وقد تقدّم في الكلام على خواصّ الشام أن بسورها مكانا لا ينظره ملسوع أو رسوله إلا براً ذلك الملسوع ولم يضره السم .

الثالث - (عمل القَدَمُوسِ) - بفتح القاف والذال المهملة وضم الميم وسكون الواو وسين . هملية في الآخر- وهي قلعة بالقرب من الخَوَاطِي المقدمة الذكر ، وقد تقدّم في الكلام على خواصّ الشام أن بها حماماً يظهر منه أنواع من الحيات وتمشى بين الناس ولا تضر أحدا البتة .

الرابع - (عمل الكَهْفِ) - بفتح الكاف وسكون الهاء وفاء في الآخر . وهي قلعة بالقرب من القَدَمُوسِ على نحو ساعة على نَسْرَجِبِلٍ مرتفع عال يُرى على بعد .

الخامس - (عمل المَيْنَقَةِ) - بفتح الميم وسكون الياء المشناة تحت وفتح الزون والقاف وهاء في الآخر - وهي قلعة بالقرب من الكَهْفِ على نحو ساعة على جبل مرتفع أيضا .

السادس - (عمل العُلَيْقَةِ) - بضم العين المهملة وفتح اللام المشددة وسكون الياء المشناة تحت وفتح القاف وهاء في الآخر- وهي قلعة على الجبل المذكور على نحو ساعة من المَيْنَقَةِ .

القسم الثاني

(من أعمال طَرَأْبُلُسَ الأعمال الصغار؛ وهي ستة أعمال)

قال في "التعريف" : سوى ما نقل في تلك القلاع مما له ولاية .

الأول - (عمل أَنْطَرُطُوسَ) . قال في "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء المهملتين وضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر . قال في "كتاب الأطوال" : وموضعها حيث الطول ستون درجة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهي بلدة بالساحل . قال في "تقويم البلدان" : وهي تُعْرَفُ لِأَهْلِ حِمصَ فَتَحَهَا الْمَسَالِمُونَ وَخَرَّبُوا أَسْوَارَهَا ، وَهِيَ الْآنَ آهْلَةٌ . قال : وكان بها مُصَحَّفُ عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الثاني - عمل جُبَّةِ الْمُنَيْطَرَةِ بِإِضَافَةِ جُبَّةٍ (بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وناء التأنيث) إلى الْمُنَيْطَرَةِ (بضم الميم وفتح النون وسكون الياء المثناة تحت وفتح الطاء المعجمة والراء المهملة وهاء في الآخر) .

الثالث - (عمل الظننين) - بألف ولام لازمتين وطاء معجمة مفتوحة مشددة ونون مشددة مكسورة وياء مثناة تحت مكسورة بعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون - وهي كورة بين مصياف وفامية ، وليس بها مقر ولاية .

الرابع - (عمل بشرية) - بضم الباء الموحدة وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة المشددة وسكون الياء المثناة تحت وهاء في الآخر - هكذا مكتوب في "التعريف" : والجارية على الألسنة بشرى بابدال الهاء ياء مثناة تحت .

الخامس - (عمل جبلة) - بفتح الجيم والباء الموحدة واللام ثم هاء في الآخر - وهي بلدة صغيرة بساحل البحر الرومي من الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "العزيزي" : ولها أعمال واسعة ،

(١) أوردتها في "معجم البلدان" ونص على إهمال الطاء وأنها بصيغة التصغير .

وبينها وبين اللاذقية اثنا عشر ميلا ، وبينها وبين أنطاكية ثمانية وأربعون ميلا ،
وبها مقام إبراهيم بن أدهم رحمه الله .

السادس - (عجل أنفة) - بفتح الهمزة المقصورة والنون والفاء وبهاء في الآخر -
وهي بلدة على البحر الرومي تردها المراكب بقلة .

القاعدة الخامسة

(من قواعد الملكة الشامية صفد، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وهي بفتح الصاد المهملة والفاء وتاء مثناة فوق في آخرها . هكذا ضبطه
في "تقويم البلدان" . ثم قال : والمشهور على السنة الداس أن مكان التاء دالا
مهملة ؛ وهي مدينة من جند الأردن ، واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .
قال في "الزيج" . طولها سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعرضها
أثذان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة متوسطة
بين الكبر والصغر ، وذكر العثماني في "تاريخ صفد" : أنه كان مكانها أولا قرية
وأصل الصفد في لغتهم العطية ، سميت بذلك لأن الفرنج أعطتها للطائفة الدموية منهم
لا يشاركون فيها أحد . قال : وقد تكون سميت بذلك أخذنا من الصفد ، وهو الغل
لأن صاحب الغل يمتنع من الحركة ويلزم موضعه ، وكذلك هذا البلد لأنها في جبل
عال لا يتمكن ساكنه من الحركة في كل وقت ، إن ركب تعب وإن مشى على قدمه
أختلط لحمه بدمه لصعود الربوة وهبوط الوهدة ، فيستقر في مكانها ويقنع بالنظر
وربضها منتشر العارة على ثلاثة أجبل ، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي لقلة

الماء بها وسوء بناء حَمَامَاتِهَا، وبساتينها تحتمها في الوادى إلى جهة بحيرة طَبْرِيَّةَ، وكل ما يوجد في دِمَشْقَ يوجد فيها: إما من بلادها، وإما مجلوب إليها من دِمَشْقَ، ونيابتها نيابة جليلة ونائبها من أكبر الأمراء المقدمين، ولها قلعة حصينة ذات بساتين تُشْرِفُ على بحيرة طَبْرِيَّةَ، يُحْفُ بها جبال وأودية. قال ابن الواسطى: بنتها الفريج سنة خمس وتسعين وأربعمائة. ولما فتحها الظاهر بيبرس رحمه الله عظم شأنها وورفع مقدارها. قال في "مسالك الأبصار": وهى جديرة بالتعظيم فقل أن يوجد لها شبيه، ولا يعلم لها نظير. وهذه القاعة نائب مستقل من قبيل السلطان يوثى من الأبواب الشريفة بمرسوم شريف، وعادته أن يكون من أمراء الطبلخاناه، ولا حكم لنائب السلطنة بالبلد عليه بل هو مستقل بنفسه كما فى نائب قلعتى دِمَشْقَ وحبَّ .

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها)

قال فى "التعريف": وحدّتها من القبلة الغورُ حيث جَسْرُ الصَّنْبَرَةِ من وراء طَبْرِيَّةَ، وحدّتها من المشرق المَلَّاحَةُ الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حَوْلَةِ بانياس، وحدّتها من الشمال نهر ليطا، وحدّتها من الغرب البحر. وليس فى أعمالها نيابة أصلا. وقد ذكر لها فى "مسالك الأبصار": أحد عشر عملا .

الأوّل - (عمل برّها) - كما فى دِمَشْقَ وحبَّ وغيرهما من القواعد المتقدمة .
 الثانى - (عمل النَّاصِرَةِ) - بالألف واللام اللازمتين ونون مفتوحة بعدها ألف ثم صاد مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر - وهى بليدة صغيرة قال فى "الروض المعطار": على ثلاثة عشر ميلا من طَبْرِيَّةَ . قال : ويقال : إن المسيح عليه السلام ولد بها ، وأهل القُدُسِ ينكرون ذلك ويذكرون أنها ولدته

بالقُدس ، والمعروف أن أمه حين عادت به من مصر إلى الشام وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة نزلت به القرية المذكورة، وهي اليوم منبع الطائفة النصيرية، والذي ذكره العثماني في "تاريخ صفد" : أن أهل هذه البلاد منسوبون إلى الدين .

الثالث - (عمل طَبْرِيَّة) - بفتح الطاء المَهْمَلَة والباء الموحدة وكسر الراء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وتشديدها وداء في الآخر - وهي مدينة من جُند الأُرْدن بناها طبريون أحد ملوك اليونان البطالسة فَعُرِفَتْ به ثم عربت طبرية، والنسبة إليها طبراني للفرق بينهما وبين طَبْرِسْتَانَ من نواحي بلاد الشرق حيث ينسب إليها طَبْرِيٌّ، وموقعها في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" : وطولها ثمان وخمسون درجة وخمس وخمسون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال في "رسم المعمور" : طولها سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة ، وتبعه ابن سعيد على ذلك . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهي في الغور في سفح جبل على بحيرتها المتقدمة الذكر في بحيرات الشام . قال في "مسالك الأبصار" : ومن عملها قدس . قال : وكان معها قديما السواد ويَسَانُ ثم خرجا عنها . قال العثماني في "تاريخ صفد" : ومن ولايتها البطيحة وكفر عاقب .

الرابع - (عمل تَبْرِينِ وَهُونِينِ) - بعطف الثاني على الأول .

فأما تَبْرِينُ، فبئاء مشاة فوق مكسورة وباء موحدة ساكنة ونون مكسورة وياء مشاة تحت ساكنة ونون في الآخر .

وأما هُونَيْنٌ ، فهباء مضمومة وأوسا كنة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت سا كنة ونون في الآخر . قال في ”مسالك الأبصار“ : وهما حصنان بُنيَا بعد الخمسة بين صُورَ وبانياسَ بجبل عاملة المتقدم ذكره في جبال الشام المشهورة ، وجعل العثمانيّ في ”تاريخ صَفَدَ“ قاعة هُونَيْنَ من عمل الشَّقِيفِ ، وأهل هذا العمل شِيعَةٌ رافضةٌ .

الخامس - (عمل عَثَلِيثَ) - بفتح العين المهملة وإسكان التاء المثناة وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وتاء مثناة في الآخر - وهي كورة بين قاقونَ وعكّا ، فيها قُرَى متسعة وليس بها مقرّ ولاية معلوم . قال العثمانيّ في ”تاريخ صَفَدَ“ : وفي آخر هذا العمل بلاد قاقونَ وهو آخر الأعمال الصَفَدِيَّةِ .

السادس - (عمل عَكَّا) - بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وألف في الآخر - وهي مدينة من سواحل الشام . قال العثمانيّ في ”تاريخ صَفَدَ“ : بناها عبد الملك بن مَرُوان ، ثم غلبت عليها الفرنج ، ثم أنتزعتها منهم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم غلبوا عليها ثانيا ، ثم أَسْتَرَجِعَتْ . وهي واقعة في الإقليم الثالث . قال في ”الأطوال“ : طولها ثمان وخمسون درجة وخمسة وعشرون دقيقة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وزال في ”تقويم البُلدان“ : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة ، وقيل غير ذلك ؛ وقد خربت بعد أن أَسْتَرَجِعَهَا المسلمون من الفرنج في سنة تسعين وسمائة في الدولة الأشرقية ”خليل بن قلاوون“ ؛ وبها مسجد ينسب لصالح عليه السلام ، وبينها وبين طَبْرِيَّةَ أربعة وعشرون ميلا ؛ وكانت هي قاعدة هذا الساحل قبل صَفَدَ . فلما خربت أقيمت صَفَدُ مقامها وصارت هي ولاية .

السابع - (عمل صُور) - بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر - وهي مدينة قديمة بساحل دِمَشْقَ، واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة ونحو ثلاثون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلثان وثلاثون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمس دقائق . وبنائها من أعظم أبنية الدنيا ؛ وكانت من أحصن الحصون التي على ساحل البحر ؛ فلما فتحها المسلمون في سنة تسعين وستائة مع عكَّا خربوها خوفا أن يتحصن بها العدو ، وهي خراب إلى الآن . ويقال إنها أقدم بلد بالساحل ، وإن عامة حكام اليونان منها . قال الشريف الإدريسي : وكان بها مرسى ، يدخل إليه من تحت قنطرة عليها سلسلة تمنع المراكب من الدخول . قال في "التعريف" : وبصُور كنيسة يقصدها ملوك من البحر عند تملكهم فيملكون ملوكهم بها ، إذ لا يصح تملكهم إلا منها . قال : وشرطهم أن يدخلوها عنوة ، ولذلك لا يزال عليها الرقبة ، ومع ذلك يأتونها مباغته فيقضون أربهم منها ثم ينصرفون ؛ وسكان هذا العمل رافضة لا يشهدون جمعة ولا جماعة .

الثامن - (عمل الشَّاعُورِ) - بألف ولام لازمتين وشين معجمة مشددة مفتوحة بعدها ألف ثم غين معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة وراء مهملة في الآخر - وهي كورة بين عكَّا وصفد والناصرية ؛ بها قرى متسعة ، وليس بها مقر ولاية معروف ،^(١) وعدها العثماني في "تاريخ صفد" شاغورين .

أحدهما - شاغور البعة . وهو جبل به قرى عامرة . قال : وبالبيعة ديره مصطبة إذا بات عليها من به جنون سُفِي بإذن الله .^(٢)

(١) في الضوء "وجعلها" وهي أوضح .

(٢) كذا في الأصل باهمال حرفها - وفي الضوء "البيعة" ولم نجد لها بعد البحث .

والناني - شاغور غرابية، وفيه عدّة قرى، وبه مقام أولاد يعقوب عليه السلام،
وهو من المزارات المشهورة .

التاسع - (عمل الإقليم) - بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام وسكون الياء
المثناة تحت وميم في الآخر - وهي كورة بين دِمَشقَ والشَّغَرِ والخُرْبَةِ، بها قرى متسعة
وليس بها مقر ولاية .

العاشر - (عمل الشَّقِيفِ) - بفتح الشين المعجمة وكسر القاف وسكون الياء
المثناة تحت ثم فاء - ويُعرف بِشَقِيفِ أَرْنُونَ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وضم
النون وسكون الواو ثم نون في الآخر) . قال في "المشترك" : وهو أسم رجل
أُضِيفَ الشَّقِيفُ إليه ، ويُعرف أيضا بِالشَّقِيفِ الكبير . وهو حصن بين دِمَشقَ
والساحل، بعضه مغارة منحوتة في الصخر، وبعضه له سُور . وهو في غاية الحَصَانَةِ
وعلى القرب منه شَقِيفٌ آخر يُعرف بِشَقِيفِ تِروُنَ (بكسر التاء المثناة فوق وسكون
الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون في الآخر) وهي قلعة حصينة
من جُندِ الأَرْدَنِّ على مَسِيرَةِ يومٍ من صَفَدَ في سَمْتِ الشمال . قال في "مسالك الأبصار" :
وليست من بلاد صَفَدَ، وأهل هذا العمل رافضة .

الحادى عشر - (عمل جِينِينَ) - بيجم مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة ونون
مكسورة ومثناة تحت ثانية ساكنة ونون في الآخر - وهي بلدة قديمة متسعة، وهي
مُرَكَّبَةٌ على كنف واد لطيف به نهر ماء يجري؛ وهي في الشمال عن قَأْقُونِ على نحو
مرحلة، في رأس مَرَجِ بنى عامر، وبها مقام دِحْيَةَ الكَلْبِيِّ : صاحبِ رسول الله صلى
الله عليه وسلم !

ومن أعمالها (الْبَلْبُونُ) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح اللام المشددة وضم الجيم
المشددة . وهي قرية قديمة في جهة الغرب عن بَيْسَانَ، على نصف مرحلة منها .

قال في "كتاب الأطوال" : موضعها حيث الطول سبع وخمسون درجة ونحوها وأربعون دقيقة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة، وبالبحر مقام الحليل عليه السلام، وبها ينزل الملوك على مصطبة هناك معدة لذلك . قال في "مسالك الأبصار" : ومن عملها (قدس) . وكان معها قديما (السواد وبيسان) وخرجا عنها ، ثم قال : ومما يذكر فيها (حيفا) . وهي خراب على الساحل ، و (قلعة كوكب) . وهي التي يقول فيها العماد الأصفهاني : راسية راسخة ، شماء شامخة . وقلعة (الطور) وهي مفردة على جبل الطور، بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غلبه عليها الفرنج فهدمها .

قلت : وأقتصر في "التعريف" : على ولاية برصند وولاية الشقيف ، وولاية جينين ، وولاية عكا ، وولاية الناصرة ، وولاية صور ، من غير زيادة على ذلك .

القاعدة السادسة

(من قواعد الملكة الشامية الكرك، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وهي بفتح الكاف والراء المهملة ثم كاف ثانية، والألف واللام في أولها غير لازمتين . وتعرف بكرك الشوبك لمقاربتها لها . قال في "تقويم البلدان" : وهي من البلقاء وهما ؛ وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : وطولها سبع وخمسون درجة ونحوها دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة ونحوها دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة ونحوها دقائق . وهي مدينة محدثة البناء كانت ديرا يتديره رهبان ، ثم كثروا فكبروا بناءه وأوى إليهم من يجاورهم من النصارى ، فقامت

لهم به أسواق ودرت لهم فيه معاش، وأوت إليه الفرنج فأداروا أسواره فصارت مدينة عظيمة، ثم بنوا به قلعة حصينة من أجل المعامل وأحصنها، وبقى الفرنج مستولين عليه حتى فتحه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" رحمه الله على يد أخيه العادل أبي بكر.

قال في "التعريف": وكانوا قد عملوا فيه مراكب ونقلوها إلى بحر القلزم لقصد الحجاز الشريف لأموار سوتلتها لهم أنفسهم، فأوقع الله تعالى بهم العزائم الصلاحية، والهزم العادلية؛ فأخذوا، وأمر بهم السلطان صلاح الدين فحملوا إلى منى ونجروا بها على جمرة العقبة حيث تُنحر البدن بها، وأستمرت بأيدي المسلمين من يومئذ وأتخذها ملوك الإسلام حرزا، ولأموالهم كترًا؛ ولم يزل الملوك يستخلفون بها أولادهم ويعدونها لمخاوفهم؛ وهو بلد خصب، بواديه حمام وبساتين كثيرة وفواكه مفضلة. قال البلاذري في "فتوح البلدان": وكانت مدينة هذه الكورة في القديم الغرندل.

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها)

قال في "التعريف": وحدها من القبلة عقبة الصوان؛ وحدها من الشرق بلاد البلقاء؛ وحدها من الشمال بحيرة سدوم المتقدم ذكرها؛ وحدها من الغرب تيه بنى إسرائيل. ولها أربعة أعمال.

الأول - (عمل برها) المختص ببلادها كما في غيرها من القواعد المتقدمة.
 الثاني - (عمل الشوبك) - بألف ولام لازمتين وفتح الشين المعجمة المشددة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وكاف في الآخر. قال في "تتميم البلدان": وهي من جبل الشراة، وموقعها في الإقليم الثالث. قال ابن سعيد: طولها ست وخمسون

درجة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة . وقال في "تقويم البلدان" : القياس أن طولها ثمان ونحسون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة . وهي بلدة صغيرة أكثر دخولا في البر من الكرك، ذات عيون وجداول تجرى ، وبساتين وأشجار ، وفواكه مختلفة . قال في "العزيزي" : ولها قلعة مبنية بالحجر الأبيض على تل مرتفع أبيض مطل على العور من شرقيه . قال في "تقويم البلدان" : وينبع من تحت فلعته عينان : إحداهما عن يمينها والأخرى عن يسارها كالعينين للوجه يجران للبلد ، ومنهما شرب أهلها وبساتينها . قال : وكانت بأيدى الفرنج مع الكرك وفتحت بفتحها ، وأقطعها السلطان صلاح الدين مع الكرك لأخيه العادل فأعطاهما لابنه المعظم عيسى ، فأعنتى بأمرهما وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في بساتينها وتدفع أنهارها وتزيد بطيب مائها .

قلت : وذكر في "مسالك الأبصار" : لها عمليان آخرين .

الثالث - (عمل زغر) - بضم الزاي وفتح الغين المعجمتين وفي آخرها راء مهملة - وهي مدينة قديمة متصلة بالبادية سميت بزغر بنت لوط عليه السلام . قال في "تقويم البلدان" : وهي حيث الطول سبع ونحسون درجة وعشر دقائق ، والعرض ثلاثون درجة وكسر .

الرابع - (عمل معان) بضم الميم وفتح العين المهملة وألف ثم نون . قال ابن حوقل : (١) وهي مدينة صغيرة كان يسكنها بنو أمية ومواليهم . قال في "مسالك الأبصار" : وقد خربت هي وعملها ولم يبق بها أحد ، وتعرف بمعان بن لوط عليه السلام . قال في "كتاب الأطوال" : وهي حيث الطول سبع ونحسون درجة والعرض ثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وبينها وبين الشوبك مرحلة .

(١) ضبطها ياقوت بالفتح ثم قال "والمحدثون يروونه بالضم" .

الطَّرْفُ الثَّانِي

(من الفصل الثاني، من الباب الثالث، من المقالة الثانية، فيمن ملك البلاد الشامية؛ وملوكها على قسمين)

القسم الأول

(ملوكها قبل الإسلام)

ولم يزل مجموعا قبل الإسلام لملك واحد : إما بمفرده وإما مع غيره .
وملوكه في الجاهلية على أربع طبقات ^(١) .

الطبقة الأولى

(ملوكها من الكنعانيين)

وهم بنو كنعان بن مازيع بن حام بن نوح عليه السلام ، وقيل هم من ولد سام ابن نوح . وكان كنعان قد نزل الشام بجهة فلسطين عند تبليل الألسنة بعد الطوفان ، وتوارثها بنوه بعد ذلك ، وكان كل من ملك منهم يلقب بجالوت إلى أن انتهى الملك إلى رجل منهم اسمه كلياذ ، وهو جالوت الذي قتله داود عليه السلام ، وبقتله تفرق بنو كنعان وبأد ملكتهم وزال . وكان في خلال ذلك بنياء من أطراف الشام ملوك من العالقة ، وهم بنو عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام ، آنتقلوا إليه من الحجاز ، وهم الذين قاتلهم موسى عليه السلام ، وكان آخر من ملك منهم الشام والحجاز الأرقم بن الأرقم الذي قتله بنو إسرائيل حين وجههم موسى عليه السلام في آخر عمره إلى الحجاز على ما سيأتي ذكره في الكلام على ملوك المدينة إن شاء الله تعالى .

(١) المعدود خمس .

(٢) في القاموس "لاوذ بن إرم بن سام" .

الطبقة الثانية

(ملوكها من بني إسرائيل)

وأولهم (طالوت) الذي ذكره الله تعالى في القرآن بقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾^(١) وأسمه شاول بن قيس، ولم يكن لهم قبل ذلك ملك بل حكام وقضاة يحكمون؛ وبقى حتى قتل في قتال الفلستيين .

وملك بعده (داود عليه السلام) وكانت دار ملكه بالقدس؛ وفتح فتوحات كثيرة من أرض فلسطين وعمان ومارب وحلب ونصيبين وغير ذلك، فأقام في الملك أربعين سنة .

وتولى ذلك بعده ابنه (سليمان عليه السلام) وعمره اثنتا عشرة سنة، وعمر بيت المقدس وفرغ منه في سبع سنين، وتوفي لأربعين سنة من ملكه .

وملك بعده ابنه (رحبعم) على سبطين من بني إسرائيل خاصة، وخرج عنه عشرة أسباط فلما كانوا عليهم غيره، وبقى في الملك سبع عشرة سنة .

[وملك بعده ابنه (أبيا) وهلك لثلاث سنين]^(٢)

وملك بعده ابنه (أسا) إحدى وأربعين سنة وتوفي .

فلما ملك بعده ابنه (يوشافاط) خمساً وعشرين سنة وتوفي .

فلما ملك بعده ابنه (يهورام) ثمان سنين وتوفي .

فلما ملك بعده ابنه (أخزياهو) ستين سنة، وتوفي فبقى الملك شاغراً فحكمت فيه امرأة ساحرة أسمها غثليا^(٣) فقامت في الملك سبع سنين .

(١) كذا في حاشية الجمل أيضا وفي "مروج الذهب" "ساود بن بشر" وهو تصحيف .

(٢) الزيادة عن ابن خلدون في العبر (ج ٢ ص ١٠١) .

(٣) أفاد في العبر أنها أم أخزياهو .

- ثم ملك بعدها (يُوَاشُ) فأقام في الملك أربعين سنة ومات .
- فملك بعده ابنه (أَمْصِيَاهُو) تسعا وعشرين سنة وتوفى .
- فملك بعده (عُزِّيَاهُو) اثنتين وخمسين سنة وتوفى .
- فملك بعده ابنه (يُوثَم) ^(١) ست عشرة سنة ؛ ويقال إن يونس عليه السلام كان في زمنه .
- ثم ملك بعده ابنه (أَحَاز) ست عشرة سنة أيضا ، وكانت الحرب بينه وبين ملك دِمَشق ؛ وفي زمنه كان شُعَيْب عليه السلام ، وتوفى .
- فملك بعده ابنه (هُو حَرْقِيَا) وأتقاده له بَقِيَّةُ الأَسْبَاطِ فملك جميعهم ، وأقام في الملك تسعا وعشرين سنة ثم توفى .
- فملك بعده ابنه (مَنْشَا) خمسا وخمسين سنة ثم توفى .
- فملك بعده ابنه (أَمُون) ستين [وقيل ثلثي عشرة] سنة وتوفى .
- فملك بعده ابنه (يُوشِيَا) إحدى وثلاثين سنة ، وجدّد عمارة بيت المقدس ، ثم توفى .
- فملك بعده ابنه (يهوياجور) ثلاثة أشهر ، وغزاه فرعون مصر فأخذه أسيرا .
- وملك بعده أخوه (يهوياقيم) إحدى عشرة سنة ودخل تحت طاعة بُحْتَنْصَرَ ، ثم استخلف بُحْتَنْصَرَ مكانه ابنه (يُحْنِيُو) بن يهوياقيم فأقام مائة يوم .
- ثم استخلف مكانه عمه (صَدَقِيَا) إحدى عشرة سنة ، فأقام على طاعة بُحْتَنْصَرَ تسع سنين ، ثم عصى عليه فجُهِزَ إليه جيشا ففتح المَقْدِسَ بالسيف وحرّقه وهدم بيت المَقْدِسِ الذي بناه سليمان عليه السلام وأخذ صدقيا المذكور أسيرا ، وهو آخر من ملك منهم . وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهِمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ الآية .

(١) في العبر "يُوَاش" . (٢) الزيادة عن ابن خلدون في "العبر" .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من الفرس)

قد تقدم في الكلام على ملوك مصر أن بُحَّت نصرَ كان نائبا لبهراسف ملك الفرس إلى حين غلبته على الشام فأستقرَّ الشام في مملكة الفرس مع مصر من لدن بهراسف المذكور إلى غلبة الإسكندر على دارا ملك الفرس على ما تقدم في الكلام على ملوك مصر، وفي خلال ذلك عمر بيت المقدس بعد أن بقى سبعين سنة خرابا من تخريب بُحَّت نصر . وأختلف فيمن عمره، فقيل أردشير، وقيل آبنه دارا، واليهود تسمى الذي عمره من الفرس كيرش ويقال كورش .

الطبقة الرابعة

(ملوكها من اليونان)

وأول من ملك الشام منهم الإسكندر بن فيلبس حين ظهر على ملوك الفرس مضافا إلى مصر، وبقى على ذلك حتى مات، فملك بعض الشام مع العراق انطاخس، وملك بعضه مع مصر البطالسة من ملوك اليونان من ولد بطليموس المنطبق إلى حين أنقراضهم بقتل أغشطش ملك الروم قلوبطرا آخر ملوكهم بمصر على ما تقدم ذكره في الكلام على ملوك الديار المصرية .

الطبقة الخامسة

(ملوكها من الروم)

وأول من ملكها منهم أغشطش المقدم ذكره حين غلب على قلوبطرا آخر ملوكهم، وبقى بأيدي الروم إلى حين الفتح الإسلامي، يتداولونه مع مصر ملكا بعد ملك على ما تقدم في الكلام على ملوك الديار المصرية .

القسم الثاني

(من ملوك الشام ملوكه في الإسلام؛ وهم عليّ ضربين)

الضرب الأول

(عمّال الصحابة رضوان الله عليهم فمن بعدهم من نواب الخلفاء

إلى حين استيلاء الملوك عليه)

وأول من وليه في الإسلام (أبو عبيدة بن الجراح) رضى الله عنه، عند فتحه في خلافة أمير المؤمنين: عمر بن الخطاب رضى الله عنه، ثم صُرف عنه ووليه (معاوية بن أبي سفيان) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا، فبقى إلى أن سلم الحسنُ إليه الأمر ونزل له عن الخلافة في سنة إحدى وأربعين من الهجرة، وتوالت عليه خلفاء بني أمية، وأختاروه دارا لخلافتهم من لدن معاوية وإلى أنقراض دولتهم بقتل (مرّوان بن محمد) آخر خلفائهم على ما تقدّم ذكره في الكلام على من ولى الخلافة .

ثم كانت دولة بني العباس فولّيتها في خلافة السفّاح عمّه (عبد الله بن عليّ بن عبد الله بن عباس) في سنة اثنتين وثلاثين ومائة، فبقى أيام السفّاح وبعض أيام المنصور بعده، ثم صرفه المنصور بولاية (أبي مسلم الخراساني) الشام ومصر في سنة سبع وثلاثين ومائة، ثم قتله المنصور بعد ذلك في السنة المذكورة . وتوالى عليه بعد ذلك عمّال خلفاء بني العباس إلى أن وليها (عبد الصمد) بن عليّ، ثم عزله الرشيد ووثنى مكانه (إبراهيم بن صالح بن عليّ) ثم توالت عليه العمّال إلى أن غلب عليه (أحمد بن طولون) مع مصر على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(من وليها ملكا)

قد تقدم أن القواعد العظام بالشام ست قواعد : وهى دِمَشْقُ ، وَحَلَبُ ، وَحَمَّاءُ ، وَأَطْرَابُلُسُ ، وَصَفَدُ ، وَالكَرْكُ . وكل قاعدة من القواعد الست تشمل على مملكة .

فأما (دِمَشْقُ) فأقول ملوكها (أحمد بن طُولُون) صاحب مصر بعد موت مُقْطَمَها أماجور فى سنة أربع وستين ومائتين ؛ وذلك أول اجتماع مصر والشام لملك واحد فى الإسلام ؛ ثم ملكها بعده مع مصر ابنه (نُحَّارَوِيَه) ؛ ثم (هارون بن نَحَّارَوِيَه) ، وكان طنج بن جف نائبا عنهما بها ، وفى أيام هارون تغلبت القرامطة على دِمَشْقَ ؛ ثم أترعها منهم (المكتفى بالله) خليفة بغداد فى سنة إحدى وتسعين ومائتين ، وأقام عليها (أحمد بن كيغنج) أميرا ، فبقى بها بقية أيام المكتفى ، ثم أيام المقتدر ، ثم أيام الظاهر . فلما ولي الراضى الخلافة ، عزله عنها فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة ، وولى عليها (الأخشىد) وهو محمد بن طنج بن جف ، وذلك قبل أن يلى مصر فى سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة فاستتاب على دِمَشْقَ بدرا الأخشىدى ، فآترعها منه (محمد بن رائق) فى سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة ، وأستخلف عليها (أبا الحسين أحمد بن على بن مقاتل) فى سنة تسع وعشرين وثلاثمائة ، ثم آترعها منه (الأخشىد) المقدم ذكره بعد ذلك وبقيت معه حتى مات فى سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة ، فولىها بعده ابنه (أَنُجُور) وهو صغير ، وقام بتديروالته كافورا الأخشىدى الخادم ، ثم آترعها منه (سيف الدولة بن حمدان) صاحب حلب الآتى ذكره ، ثم آترعها منه (كافور الأخشىدى) المقدم ذكره وولى عليها بدرا الأخشىدى الذى كان بها أولا ، فأقام بها سنة ؛ ثم وليها (أبوالمظفر

(١) لعله سقط قبله "جيش بن نَحَّارَوِيَه" فان ابن طنج كان نائبا عن جيش وهارون كما يؤخذ مما سياتى له فى الكلام على حلب .

أبن طنج)؛ ثم لما مات أنوجور بن طنج، ملكها مع مصر أخوه (على بن طنج) ثم (كافور) بعده، ثم (أحمد بن على بن الأخشيد) بعده، وهو آخر من ملك منهم على ما تقدم في الكلام على ملوك مصر .



ثم كانت الدولة الفاطمية بمصر: فملكها (جوهر) قائد المعز الفاطمي وخطب بها لمولاه المعز وأذن بجي على خير العمل في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة، وقطعت الخطبة العباسية منها، وأقام بها جعفر بن فلاح نائبا، ثم تغلبت القرامطة عليها في سنة ستين وثلاثمائة، ثم أقتلها منهم (المعز) وولّى عليها ريان الخادم؛ ثم غلب عليها (افتكين) مولى معز الدولة بن بويه الديلمي، وقطع الخطبة منها للمعز الفاطمي، وخطب خليفة بغداد في سنة أربع وستين وثلاثمائة؛ ثم انتزعها (المعز الفاطمي) بعد ذلك وقبض عليه وأحضره معه إلى مصر؛ ثم بعد موت المعز وولاية ابنه العزيز تغلب عليها شخص اسمه (قسام) إلا أنه كان يخطب فيها للعزيز؛ ثم انتزعها منه (العزيز) وقرر فيها (بكتكين) في سنة آئنتين وسبعين وثلاثمائة؛ ثم انتزعها منه (بكجور) مولى قرعويه صاحب حلب بأمر العزيز الفاطمي صاحب مصر في سنة ثلاث وسبعين وثلاثمائة؛ ثم انتزعها منه وقرر فيها (منيرا الخادم) في سنة سبع وسبعين وثلاثمائة؛ ثم استعمل الحاكم بن العزيز الفاطمي عليها (أبا محمد الأسود) في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، ثم انتزعها منه (أنوش تكين) الدزبري بأمر المستنصر الفاطمي في سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ثم أمر بالخروج عن طاعته في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، فخرج عنها وفسد أمرها بذلك؛ ثم تغلب عليها (أسنز بن أرتق) الخوارزمي أحد أمراء السلطان

(١) الضبط عن أبي الفداء، ونسبه إلى دزبر بن رويتم الديلمي .

(٢) أي أمر المستنصر أهل دمشق بالخروج عن طاعة الدزبري .

ملكشاه السَّجُوقِيّ في سنة ثمان وستين وأربعمائة، وقطع الخطبةَ بها للستنصر الفاطميّ
 وخطب للقتدى العباسيّ، ومنع من الأذان بجيّ على خير العمل، ولم يخطب بعد
 ذلك بالشام لأحد من الفاطميين، ثم غلب عليها (نُتُسُ بن ألب أرسلان) بن داود بن
 ميكائيل بن سَلْجُوق، وملكها في سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وتوفي؛ فملكها بعده
 ابنه (دقاق) وأشرك معه في الخطبة أخاه رضوان صاحب حَلَبَ مقدما لرضوان
 في الذكر في الخطبة بعد حربٍ جرت بينهما، وتوفي دقاق سنة تسع وتسعين وأربعمائة،
 فخطب طغتكين أتابك دولته لابن دقاق، وهو طفل عمره سنة واحدة، ثم قطع
 الخطبة له وخطب لعمه بلتاش بن نُتُسُ، ثم قطع الخطبة لبلتاش وأعاد الخطبة
 للطفل، وهو آخر من خطب له بِدِمَشْقَ من بني سلجوق؛ ثم استقر (طغتكين) المقدم
 ذكره في ملك دِمَشْقَ بنفسه، وبقي حتى توفي في سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة؛
 وملك بعده ابنه (تاج الملوك توري) بعهد من أبيه، وتوفي سنة ست وعشرين
 وخمسمائة؛ وملك بعده ابنه (شمس الملوك إسماعيل) بعهد من أبيه .
 ثم ملك بعده أخوه (شهاب الدين محمود بن توري) فبقي حتى قتل في سنة ثلاث
 وثلاثين وخمسمائة، وملك بعده ابنه (مجير الدين أرتق) وفي أيامه تغلبت الفرنج على
 ناحية دِمَشْقَ .

ثم أتتبعها منهم الملك العادل (نور الدين محمود بن زنكي) المعروف بنور الدين الشهيد
 وملكها في سنة تسع وأربعين وخمسمائة، واجتمع له ملك سائر الشام معها، وهو الذي
 بنى أسوار مدن الشام حين وقعت بالزلازل كدِمَشْقَ وحمّاة وحِصَّ وحَلَبَ وشَيزَرَ
 وبَعْلَبَكَّ وغيرها؛ وتوفي فملك بعده ابنه (الملك الصالح إسماعيل) وعمره إحدى عشرة
 سنة، وبقي بها حتى أتتبعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) صاحبُ
 مصر في سنة سبعين وخمسمائة، وقرر فيها أخاه سيف الإسلام طغتكين بن أيوب؛

ثم أستخلف عليها السلطان صلاح الدين بعد ذلك ابن أخيه عز الدين (فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب) في سنة ست وسبعين وخمسمائة ؛ ثم صرفه عنها وقرّر فيها ابنه الملك الأفضل (نور الدين عليا) ؛ وهو الذي وُزّر له الوزير ضياء الدين بن الأثير صاحب "المثل السائر" .

ثم آتت عنها منه أخوه الملك العزيز (عثمان ابن السلطان صلاح الدين) صاحب مصر بعد وفاة أبيه بمعاوضة عمه العادل أبي بكر في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، والخليفة يومئذ ببغداد الناصر لدين الله . وكان يميل إلى التشيع ، فكتب إليه الأفضل على يستجيشه على أخيه العزيز عثمان وعمه العادل أبي بكر ؛ من شعره :

مَوْلَايَ ! إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَصَاحِبَهُ * عُمَانَ قَدْ غَضَبَا بِالسَّيْفِ حَقَّ عَلَيَّ !
فَانظُرْ إِلَى حَظِّ هَذَا الْأَسْمِ كَيْفَ لَبِي * مِنَ الْأَوَاحِرِ مَا لَاقَى مِنَ الْأُولِ !

فكتب إليه الناصر لدين الله في جوابه :

غَضَبُوا عَلَيَّا حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ يَسْتَرْبِ نَاصِرُ
فَاصْبِرْ فَإِنَّ عَدَا عَلَيَّكَ حَسَابُهُمْ * وَأَبَشِرْ فَنَاصِرُكَ الْإِمَامُ النَّاصِرُ !

ولكنه لم يجاوز القول إلى الفعل ؛ ثم سلمها العزيز بعد ذلك لعمه (العادل أبي بكر) فقرّر فيها ابنه الملك المعظم عيسى مضافة إلى ما بيده من الكرك والشوبك ، وكان يخطب فيها لأبيه العادل ، ثم لأخيه الكامل محمد صاحب مصر ، وبق حتى توفي في سنة أربع وعشرين وستمائة ؛ وملك بعده ابنه (الملك الناصر صلاح الدين داود) ، وهو صغير .

ثم آتت عنها منه الملك الناصر (محمد بن العادل أبي بكر) صاحب مصر وأستخلف فيها أخاه الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن العادل أبي بكر ، فبق حتى توفي في سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وملكها بعده أخوه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر) بعهد منه [فأترعها منه الملك الكامل بن العادل أبي بكر] ^(١) في جمادى الأولى سنة خمس وثلاثين وستمائة ^(٢) وتوفى في السنة المذكورة .

فملك بعده الملك الجواد (يونس بن مودود) ^(٣) بن العادل أبي بكر .

ثم أترعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن العادل أبي بكر في سنة ست وثلاثين وستمائة، ثم أقام فيها الملك المغيـث فتح الدين عمر نائبا عنه .

ثم أترعها منه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر) صاحب بعلبك في سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم أترعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل محمد صاحب مصر وتسلمها له (معين الدين بن الشيخ) في سنة ثلاث وأربعين وستمائة وتوفى قبل أن يتسلمها فتسلمها له حسام الدين بن أبي علي في السنة المذكورة، ولم تزل بيد نواب الصالح أيوب حتى مات في سنة سبع وأربعين وستمائة .

ثم ملكها بعد وفاته (الملك الناصر يوسف) بن العزيز محمد صاحب حلب في سنة ثمان وأربعين وستمائة، فبقي بها إلى أن غلب عليها هولاكو في سنة ثمان وخمسين وستمائة، وكان آخر أمر الناصر المذكور أنه لحق بهولاكو المذكور فأقام عنده مدة ثم قتله .



ثم كانت الدولة التركية فملكها منهم (الملك المظفر قطز) صاحب مصر حين غلبته التتار على عين جالوت، ثم توالى عليها نواب ملوك الترك من لدن المظفر قطز وإلى

(١) الزيادة عن أبي الفداء ليستقيم الكلام .

(٢) أى الملك الكامل .

(٣) أى نائبا عن العادل بن الكامل .

سلطنة (الناصر فرج) بن الظاهر برقوق في زماننا على ما تقدم ذكره في الكلام على ملوك الديار المصرية ؛ ولم أقف على أسماء توابها لطول المدّة وقلة اعتناء المؤرخين بذكر أسمائهم .



وأما حلب فقد تقدم أن منزل الجند في ابتداء الإسلام كان يقسّمين ، ثم طرأت عليها حلب بعد ذلك وأضعفتها . ولعل ابتداء أمرها كان في ابتداء الدولة الطولونية ، وقد كان أحمد بن طولون أستولى عليها حين أستيلائه على دِمَشَق وصارت في ملكه تبعاً للديار المصرية كدِمَشَق . وكان بها توابه ثم تواب ابنه نَحَارِيه ، ثم تواب جيش ابن نَحَارِيه ، ثم هارون بن نَحَارِيه في نيابة طغج بن جف عن هارون وجيش المذكورين ؛ ثم كانت مع دِمَشَق في نيابة أحمد بن كيغغ ، ثم في نيابة الأخشيدي محمد ابن طغج بن جف قبل أن يلى مصر ، ثم في نيابة بدر الأخشيدي على ما تقدم في الكلام على مملكة دِمَشَق .

ثم آتتزعها من بدر الأخشيدي (سيف الدولة بن حمدون) التغلبيّ الربيعيّ ؛ وملكها في سنة ثلاث وثلثمائة ، وبق بها حتى توفي في سنة ست وخمسين وثلثمائة ؛ وملكها بعده ابنه (سعد الدولة أبو المعالي شريف) .

ثم آتتزعها منه (قرعويه) غلام أبيه في سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، ثم غلب عليها (بكجور) غلام قرعويه المذكور بعد ذلك وأقتلعها منه .

ثم آتتزعها منه (سعد الدولة) المقدم ذكره ، ثم تقلد بها أبو عليّ بن مروان من الخليفة الفاطميّ يومئذ بمصر في سنة ثمانين وثلثمائة ولم يدخلها ، وبقيت بيد سعد الدولة المذكور حتى توفي بالفالج في سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

ثم ملك بعده ابنه (أبو الفضل) مكانه .

ثم آتتريها منه (أبو نصر بن لؤلؤ) وخطب بها للحاكم الفاطميّ، ثم أمره الحاكم بتسليمها إلى نوابه بها فتسلموها منه وأستقرت بأيديهم حتى آتتهت إلى نائب من نوابه اسمه (عزيز الملك) فبقى بها بقية أيام الحاكم وبعض أيام ابنه الظاهر، ثم وليها عن الظاهر رجل يقال له (أبن شعبان) ثم تغلب عليها (صالح بن مرداس) أمير بنى كلاب في سنة أربع وعشرين وأربعمائة؛ ثم قتل في أيام الظاهر الفاطميّ فملكها بعده (شبل الدولة نصر بن صالح) .

ثم آتتريها منه (أنوش تكين الدزيرى) بأمر المستنصر العلوىّ في شعبان سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وبقى حتى توفى في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة؛ وملكها بعده (معز الدولة شمال بن صالح بن مرداس) ثم ملك قلعتها بعد ذلك في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة؛ ثم تسلمها منه مكين الدولة (الحسن بن علىّ بن ملهم) في سنة تسع وأربعين وأربعمائة بصلح وقع بينه وبين الفاطميين على ذلك .

ثم آتتريها منه (محمود بن شبل الدولة) بن صالح المقدم ذكره، وملك قلعتها في سنة آثنتين وخمسين وأربعمائة .

ثم آتتريها منه (معز الدولة شمال بن صالح) في ربيع الأول سنة آثنتين وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتى توفى في ذى القعدة سنة أربع وخمسين وأربعمائة .
وملكها بعده أخوه (عطية بن صالح) في السنة المذكورة .

ثم آتتريها منه أبن أخيه (محمود بن شبل الدولة) المقدم ذكره في رمضان سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتى توفى في ذى الحجة سنة ثمان وستين وأربعمائة .

وملكها بعده ابنه (نصر بن محمود) ثم قتله التتركان .

وملكها بعده أخوه (سابق بن محمود) .

ثم آتتريها منه شرف الدولة (مسلم بن قريش) صاحب الموصل، وقتل في صفر سنة سبع وسبعين وأربعمائة .

وملكها بعده أخوه (إبراهيم بن قريش) .

ثم آتتريها منه (نُتْش بن ألب أرسلان) السلجوقيّ صاحب دِمَشْقَ في السنة المذكورة .

ثم آتتريها منه (السلطان ملكشاه السلجوقيّ) وسلمها إلى قسيم الدولة آقسنقر؛ ثم آستعادها (نُتْش بن ألب أرسلان) المقدم ذكره بعد موت ملكشاه وآستضافها إلى دِمَشْقَ، وآنبسط ملكه حتى ملك بعد ذلك أذْرَبِيْجَان، وبقى حتى قتل في صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وملكها بعده آبنه (رضوان) في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبقى حتى توفي في سنة سبع وخمسمائة .

وملكها بعده آبنه (سلطان شاه بن رضوان) .

ثم آتتريها منه (ايلغازي بن أرتق) صاحب ماردين وسلمها إلى ولده حسام الدين تمرتاش؛ ثم غلب عليها (سليمان بن أرتق) وعصى بها على آبيه فأتتريها آبوه منه وسلمها إلى آبن آخيه (سليمان بن عبدالجبار بن أرتق) في رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة .

ثم آتتريها منه عمه (بلك بن بهرام بن أرتق) ، وبقى بها حتى قتل في سنة سبع عشرة وخمسمائة؛ ومملكها بعده آبن عمه (تمرتاش بن ايلغازي) في ربيع الأول من السنة المذكورة؛ ثم حاصرها الفرنج، وهي في يده فخلصها منهم آقسنقر البرسقيّ صاحب الموصل، ومملكها مع ماردين في السنة المذكورة، وبقى حتى قتلته الباطنية في سنة عشرين وخمسمائة .

وملكها بعده ابنه (عز الدين مسعود) وأستخلف بها أميرا من أمرائه أسمه قايماز،
ثم أستخلف عليها بعده رجلا أسمه كيغلف .

ثم أترعها منه (سليان بن عبد الجبار) بن أرتق المقدم ذكره .

ثم أترعها منه (عماد الدين زنكى) : صاحب الموصِل في المحرم سنة اثنتين وعشرين
وخمسمائة ، وملك معها حماة وحصص وبعلبك ، وبق حتى قتله غلمائه في ربيع الأول
سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ثم ملك بعده ابنه الملك العادل (نور الدين محمود) وبق إلى أن توفى .

وملك بعده ابنه (الصالح إسماعيل) فبق بها بعد ملك السلطان صلاح الدين يوسف
ابن أيوب دمشق حتى توفى بها في سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

وملكها بعده بوصية منه ابن عمه (عز الدين مسعود) بن مودود بن زنكى بن
مودود في السنة المذكورة .

ثم أترعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) في سنة تسع وسبعين
وخمسمائة ، وقرز فيها ابنه الظاهر غياث الدين غازى .

ثم أترعها منه وسلمها لأخيه (العادل أبو بكر بن أيوب) في السنة المذكورة ،
ثم أعاد إليها ابنه الظاهر غازى المقدم ذكره في سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ، فبق
بها حتى توفى في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة .

وملكها بعده ابنه (الملك العزيز محمد) فبق بها حتى توفى في ربيع الأول سنة
أربع وثلاثين وستمائة .

ثم ملكها بعده ابنه الملك (الناصر يوسف) وعمره سبع سنين ولم تزل بيده حتى
أستولت عليها التتار في سنة ثمان وخمسين وستمائة .



ثم كانت الدولة التركية . فكان أول من ملكها من ملوك الترك (المظفر قُطز) حين كسر التتار على عين جالوت على ما تقدم ذكره في الكلام على مملكة دِمَشق ؛ ثم توالى عليها ثواب ملوك الترك من لدن المظفر قطز وإلى زماننا في سلطنة الناصر فرج بن الظاهر برقوق على ما تقدم ذكره في الكلام على مملكة الديار المصرية .



وأما حماة . فقد تقدم في الكلام على قواعد الشام أن الذكر في القديم إنما كان لمُحَصَّ ، وإنما تنهت حماة في الذكر في الدولة الأتابكية : عماد الدين زنكي . وذلك أن حماة كانت تبعاً لغيرها من الممالك ، تارة تضاف إلى دِمَشق ، وتارة إلى حلب . فكانت مع دِمَشق بيد (طُغْتِكِين) أتابك دولة رضوان بن نُشْس السلجوقي في سنة تسع وخمسةائة .

ثم أترعها منه السلطان (محمد بن ملكشاه السلجوقي) في السنة المذكورة ، وسلمها للأُمير (فيرخان بن قراجا) .

ثم ملكها (تورى بن طُغْتِكِين) وقرر بها ابنه سونج فبقيت بيده حتى أترعها منه عماد الدين زنكي في سنة ثلاث وعشرين وخمسةائة .

ثم أترعها منه بعد ذلك (تاج الملوك إسماعيل بن تورى) بن طُغْتِكِين السلجوقي في سنة سبع وعشرين وخمسةائة .

ثم ملكها (العاذل نور الدين محمود بن زنكي) مع دِمَشق وحلب وغيرهما في سنة إحدى وأربعين وخمسةائة ؛ ثم صارت بعده مع غيرها من البلاد الشامية إلى ابنه (الصالح إسماعيل) فبقيت بيده حتى أترعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف

أبن أيوب) في سنة سبعين وخمسة، وقرر فيها خاله شهاب الدين الحارمي، ثم قزر فيها أخاه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب في سنة أربع وسبعين وخمسة، فبقيت بيده حتى توفي في سنة سبع وثمانين وخمسة.

فوليها بعده أبنة الملك المنصور (ناصر الدين محمد) فبقي بها حتى آتزعها منه أخوه (الملك المظفر محمود) في سنة ست وعشرين وستة، فبقي بها حتى توفي في سنة ثلاث وأربعين وستة.

وليها بعده أبنة (الملك المنصور محمد) فبقي حتى غلب عليها هولاكو ملك التتار مع دمشق وحلب وغيرهما، فقرّر بها المظفر قطز صاحب مصر بعد هزيمة التتار، فبقي بها حتى توفي في سنة ثلاث وثمانين وستة.

فوليها بعده أبنة (المظفر شادي) عن المنصور قلاوون صاحب مصر بعهد منه، وبقي بها حتى توفي في سنة ثمان وتسعين وستة في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية.

فولى الملك الناصر مكانه (قراستقر) أحد أمرائه نائبا عليها، وكان العادل كتبغا بعد خلعه من السلطنة قد استقر نائبا بصرخد فنقله الملك الناصر محمد بن قلاوون إليها بعد هزيمة غازان ملك التتار، وجعله نائبا بها في سنة آثنتين وسبعائة، ومات بعد ذلك.

فولى الملك الناصر مكانه في نيابتها (قبيجق) أحد أمرائه ثم صرفه عنها.

وولى مكانه (أستدر الكرجي) ثم صرفه عنها بعد عوده من الكرك.

وولى فيها الملك المؤيد (عماد الدين إسماعيل) بن الأفضل على، بن المظفر عمر سلطنة على عادة من تقدمه فيها من الملوك الأيوبية، وكتب له بذلك عهدا عنه، فبقي بها إلى أن توفي في سنة آثنتين وثلاثين وسبعائة.

فولى السلطان الملك الناصر مكانه ابنه (الملك الأفضل محمد) وكتب له بذلك عهدا أيضا، فبقى بها حتى أزاله قُوصُون أتاك العساكر فى سلطنة المنصور أبى بكر ابن الناصر محمد بن قلاوون فى سنة إحدى وأربعين وسبعائة .

وولى مكانه الأمير (طقزدمر) نائبا بها، وأستقرت نيابةً إلى الآن، يتوالى عليها نواب ملوك مصر نائبا بعد نائبا إلى زماننا كغيرها من الممالك الشامية، وأتقطعت مملكة بنى أيوب من الشام بذلك .



وأما أطرابُلسُ، فكان قد تغلب عليها قاضيا أبو على بن عمَّار وملكها وطالت مدته فيها .

ثم أتت عنها منه (المستنصر الفاطمى) خليفة مصر مع غيرها من السواحل الشامية، فبقيت بيده حتى غلب عليها القُومص فملكها فى سنة ثلاث وخمسمائة، فبقيت فى أيدي الفرنج من حينئذ إلى أن فتحها "الملك المنصور قلاوون" أحد ملوك الديار المصرية فى سنة ثمان وثمانين وستمائة بعد أن مضى عليها فى يد الفرنج مائة وخمس وثمانون سنة وأعجز فتحها من مضى من ملوك بنى أيوب فمن بعدهم . ومن حين فتحها جعلت نيابة، وتوالى عليها نواب ملوك مصر من لدنه إلى زماننا .



وأما صَفَد، فقد تقدّم فى الكلام على قواعد الممالك الشامية أنها كانت فى القديم قريةً وأن الفرنج الدّموية باتها وأستحدثت حصنها فى سنة خمس وسبعين وأربعمائة . ثم فتحها (الظاهر بيبرس) بعد ذلك فى رابع عشر شوال سنة أربع وستين وستمائة، وقتر بها الأمير كيغلى العلائى نائبا، وتوالى عليها بعد ذلك نواب ملوك مصر من لدن الظاهر بيبرس وإلى زماننا فى سلطنة الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق .



وأما الكرك، فقد تقدّم أن قلعها كانت ديراً لرهبان، وكانت بيد الفرنج، وأن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة أربع وثمانين وخمسمائة فتحها، وقزر فيها أخاه (الملك العادل أبا بكر بن أيوب) فبقيت بيده إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فقزر فيها ابنه (الملك المعظم عيسى) فبقيت في يده إلى أن آستضاف إليها دمشق، وتوفى في سنة أربع وعشرين وستمائة .

وملكها بعده ابنه (الملك الناصر صلاح الدين داود) في سنة ست وعشرين وستمائة، وبقى إلى سنة سبع وأربعين وستمائة، فاستخلف عليها ابنه (الملك المعظم عيسى) بعد أن أخذ منه غالب بلاده وقز بنفسه .

ثم أتت (الصالحة نجم الدين أيوب) الكرك من المعظم عيسى بن الناصر داود في السنة المذكورة، وأقام بها بدر الدين الصوابي نائبا عنه، وبقى الناصر داود بعد ذلك مشردا في البلاد إلى أن مات في سنة خمس وخمسين وستمائة، وكان من أهل العلم والورع، وله شعر رائق، منه :

أَلَا لَيْتَ أُمِّي أَيْمٌ طَوَّلَ دَهْرَهَا * وَلَمْ يَقْضِهَا رَبِّي لِمَوْلَى وَلَا بَعْلٍ !
وَيَا لَيْتَهَا لَمَّا قَضَاهَا لِسَيْدٍ * لَيْبَ أَرِيْبٍ طَيْبِ الْفَرْعِ وَالْأَصْلِ،
قَضَاهَا مِنَ اللَّاتِي حُلِقْنَ عَوَاقِرًا * وَلَا بُشِّرَتْ يَوْمًا بِأُنْثَى وَلَا فَحْلٍ
وَيَا لَيْتَهَا لَمَّا غَدَتْ فِي حَامِلًا * أُصِيبَ مِنْ أَحْتَفَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمْلِ
وَيَا لَيْتِي لَمَّا وُلِدْتُ وَأَصْبَحْتُ * تُشَدُّ إِلَى الشَّدَقِمِيَّاتِ بِالرَّحْلِ،
لَحِقْتُ بِأَسْلَافِي فَكُنْتُ صَجِيْعَهُمْ * وَلَمْ أَرِ فِي الْإِسْلَامِ مَا فِيهِ مِنْ نُكَلٍ

وكان الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبي بكر بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب معتقلا بالشَّوْبَك ، فأخرجه الصوابي نائب الملك الصالح وملكه الكرك فبقي بها حتى قبض عليه الملك الظاهر بيبرس وقتله في سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وهو آخر من ملكها من بني أيوب .

قلت : وأما غير هذه الممالك كحِمَصَ وبعَبَلِكَ فإنما كانت في الغالب تبعا لغيرها حتى إن حِمَصَ وبعَبَلِكَ حين آستولت التتار على الشام في آخر الدولة الأيوبية كانتا مضافتين إلى دِمَشْقَ .

وأعلم أن غالب أطراف البلاد الشامية ومضافاتها كانت بأيدي ملوك متفرقة من قديم الزمان وبعضها حدث أنفراده ، ثم تنقلت بها الأحوال حتى آستولى على كثير منها أهل الكُفْر ، وصارت بأيديهم إلى أن قِيَضَ اللهُ لها من فتحها ؛ ثم آستعاد أهل الكفر منها ما آستعادوا ، ثم فُتِحَ ثانيا على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى . فمن ذلك القُدُسُ - كانت بيد نُتُش بن ألب أرسلان السلجوقي صاحب دِمَشْقَ المتقدم ذكره . كان قد أقطعها للأمير أرتق جد ملوك ماردين الآن . فلما توفى أرتق المذكور صار القُدُسُ لولديه يلغازي وسُقْمَان ، وبقي بيديهما إلى أن آنتزعه منهما (المستنصر الفاطمي) في سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، وبقي بيده إلى أن ملكه الفرنج منه في سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة ، بعد أن بذلوا السيف في المسلمين نحو سبعة أيام وقتلوا في المسجد الأقصى ما يزيد على تسعين ألف نفس ، وبقي بيديهم حتى فتحه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) في سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ثم آستعاده الفرنج من الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب بمهادنة جرت بينهم في سنة ست وعشرين وستمائة .

ثم آنتزعه منهم (الملك الناصر داود) صاحب الكرك في سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم سلمه (الصلاح إسماعيل) صاحب دِمَشْق (والناصر داود) صاحب الكرك المتقدم ذكره للفرنج بعد ذلك ليكونوا عوناً لهما على الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر في سنة إحدى وأربعين وستمائة .

ثم فتحه الصالح (نجم الدين أيوب) صاحب مصر وأقتلعه من أيديهم في سنة اثنتين وأربعين وستمائة ، فأستمر بأيدي المسلمين إلى الآن .

ومن ذلك بلاد السواحل الشامية كانت بأيدي أناس متفرقة .

فأما أطرابلس وصفد ، فقد تقدم الكلام عليهما في الكلام على ملوك الممالك الشامية . وأما غيرها من بلاد السواحل وما والاها ، فإن غالبها كان بيد الفاطميين خلفاء مصر إلى أن ضعفت دولتهم في أيام المستنصر أحد خلفائهم ، فقصدت الفرنج هذه السواحل من كل جهة وأستولوا على بلادها شيئاً فشيئاً .

فأستولوا على عكا وجبيل في سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وعلى صيدا في سنة أربع وخمسمائة ، وأستشروا فسادهم حتى ملكوا بيروت وعسقلان وصور وأنطرسوس والمرقب وأرسوف والأذقية ولدا والرملة ويافا وأنابلس وغزة وبيت لحم وبيت جبريل ، وغير ذلك من بلاد السواحل وما جاورها ، فبقيت في أيديهم حتى فتحها السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" فيما بين الثلاث والثمانين والخمسمائة إلى الثمان والثمانين والخمسمائة .

ثم عقد الهدنة بينه وبين الفرنج في سنة ثمان وثمانين على أن تكون يافا وأرسوف وعكا وقيسارية وأعمالها بيد الفرنج ، وأن تكون لُد والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين .

ثم أستولوا على بيروت في سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، ثم وقعت الهدنة بعد ذلك بين الفرنج وبين العادل أبي بكر بن أيوب في سلطته في سنة إحدى وستمائة على أن تستقر بيد الفرنج يافا وترك لهم مناصفة لُد والرملة .

ثم استعاد الفرنج عكا في سنة أربع عشرة وستمئة في أيام العادل أبي بكر المذكور .
ثم استولوا على صيدا وما معها في أيام ابنه الكامل محمد في سنة ست وعشرين
وستمئة قبل تسليمه القدس لهم .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل صاحب دمشق صفد والشقيف على أن يعاونوه على
الصالح أيوب صاحب مصر في سنة ثمان وثلاثين وستمئة .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل المذكور والناصر داود صاحب الكرك عسقلان وطبرية
حين سلماهم القدس في سنة إحدى وأربعين وستمئة .

ثم فتح "الصالح أيوب" صاحب مصر غزة وأستولى عليها في سنة اثنتين وأربعين
وستمئة .

ثم فتح (الظاهر بيبرس) في سنة اثنتين وستين وستمئة قيسارية وأرسوف، وصفد
وياقاف في سنة أربع وستين وستمئة . وفتح صهيون في سنة ست وستين وستمئة ،
وأطرابلس في سنة ثمان وثمانين .

ثم فتح ابنه (الأشرف خليل) عكا في سنة تسعين وستمئة، واتبعت فتوحه ففتح
صييدا ويروت وعثيث في السنة المذكورة . وبنموحه تكاملت بلاد السواحل
بأجمعها . ولما فُتحت هُدمت جميعها خوفا أن يملكها الفرنج ثانياً وبقيت بأيدي
المسلمين إلى الآن .

ومن ذلك أنطاكية - التي هي قاعدة العواصم . فإنها كانت بيد باغي سيان بن محمد
ابن ألب أرسلان السلجوقي إلى أن غلب عليها الفرنج في سنة إحدى وتسعين
وأربعمئة، وقتلوا باغي سيان المذكور، وقتل فيها ما يزيد على مائة ألف نفس بعد
حصار تسعة أشهر، وما كوا معها كفر طاب، وصهيون، والشعر وبكاس، وسرمين

وَالدَّرْبَسَاكَ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ حَلَبَ ، وَبَالغُوا حَتَّى جَاوَزُوا الْفِرَاتَ إِلَى بِلَادِ الْجَزِيرَةِ ؛
وَمَلَكُوا الرَّهَّاءَ وَسُرُوجَ وَغَيْرَهُمَا مِنْ بِلَادِهَا حَتَّى فَتَحَ السُّلْطَانُ صَالِحُ الدِّينِ يَوْسُفُ
أَبْنَ أَيُّوبَ الشُّغْرَ وَبَكَاسَ وَسَرْمِينَ وَغَيْرَهَا فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ .

ثُمَّ أَسْتَعَادَتْهَا الْفَرَنْجُ بَعْدَ فَتْحِهِ ؛ ثُمَّ فَتَحَ أَنْطَاكِيَّةَ "الظَاهِرُ بَيْرَسُ" فِي سَنَةِ سِتِّ
وَسْتِينَ وَسَمِئَةَ ، فَبَقِيَتْ فِي أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى الْآنَ .

وَمِنْ ذَلِكَ - بَاقِي بِلَادِ التُّغُورِ وَالْعَوَاصِمِ كَأَيَّاسَ وَأَدْنَةَ وَالْمَصْيِصَةَ وَطَرَسُوسَ
وَبَغْرَاسَ وَبَهَسْنَى وَالدَّرْبَسَاكَ وَسَيْسَ وَغَيْرَهَا مِنْ بِلَادِ التُّغُورِ . فَإِنَّ الْأَرْمَنَ وَثَبُّوا عَلَيْهَا
قَبْلَ الْأَرْبَعِمِائَةِ وَأَسْتَوْلُوا عَلَى نَوَاحِيهَا وَمَنَعُوا مَا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ مِنَ الْإِتَاوَةِ لِلْمُسْلِمِينَ ،
وَاسْتَضَافُوا إِلَى ذَلِكَ قَلْعَةَ الرُّومِ وَمَا قَارِبَهَا ، فَبَقِيَتْ فِي أَيْدِيهِمْ حَتَّى فَتَحَ الظَّاهِرُ
بَيْرَسُ بَغْرَاسَ وَبَهَسْنَى وَالدَّرْبَسَاكَ وَغَيْرَهَا ، وَأَنْتَرَعَهَا مِنَ الْأَرْمَنِ فِي سَنَةِ ثَمَانِ
وَسْتِينَ وَسَمِئَةَ .

وَفَتَحَ الْأَشْرَفُ "خَلِيلُ بْنُ الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ" قَلْعَةَ الرُّومِ ، وَأَنْتَرَعَهَا مِنْ يَدِ خَلِيفَتِهِمْ
فِي سَنَةِ إِحْدَى وَتَسْعِينَ وَسَمِئَةَ ، وَسَمَّاها قَلْعَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى
الْأَعْمَالِ الْحَلِيبَةِ .

وَفَتَحَ "النَّاصِرُ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ" فِي سُلْطَنَتِهِ الثَّلَاثَةَ أَيَّاسَ ^(١) ، وَمَا وَالِهَا فِي سَنَةِ ثَمَانِ
وَتَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةَ .

وَفَتَحَ "الْأَشْرَفُ شُعْبَانُ بْنُ حَسِينٍ" بِنَ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ سَيْسَ وَسَائِرَ بِلَادِ
الْأَرْمَنِ عَلَى يَدِ قَشْتَمِرِ الْمَنْصُورِيِّ نَائِبِ حَلَبَ .

وَمِنْ ذَلِكَ - قَلَاعُ الدَّعْوَةِ ، الَّتِي هِيَ الْآنَ مِنْ أَعْمَالِ طَرَابُلُوسَ : وَهِيَ مَصْيَافُ
وَالْعَلَيْقَةُ وَالْمِنِيقَةُ وَالْكَهْفُ وَالْقُدْمُوسُ وَالْحَوَائِي . فَإِنَّهَا كَانَتْ بِأَيْدِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ

(١) ضبطها صاحب "القاموس" كسحاب ونص على مد الهمزة صاحب "التقويم" .

المعروفين الآن بالفداوية، قبل دخولهم في طاعة ملوك الديار المصرية، فبقيت بأيديهم حتى أنتزعها منهم الملك "الظاهر بيبرس" في سنة ثمان وستين وستمائة، وأنتزع منهم العليقة في سنة تسع وستين .

ثم أنتزعت منهم باقي القلاع في سنة إحدى وسبعين ودخلوا تحت طاعة ملوك مصر من حينئذ، وصاروا شيعة لهم .

وهذا آخر ما يحتمله الكتاب مما يحتاج إلى معرفته .

الطَّرْف الثالث

(من الفصل الثاني، من الباب الثالث، من المقالة الثانية في ذكر أحوال المملكة الشامية؛ وفيه مقصدان)

المقصد الأول

(في ترتيب نياباتها على ما هي مستقرة عليه)

قد تقدم أن الممالك المعتبرة بالبلاد الشامية ست ممالك في ست قواعد، وكل مملكة منها قد صارت نيابة سلطنة مضاهية للملكة المستقلة .

النيابة الأولى

(^(١) نيابة دِمَشَق، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في ذكر أحوالها في المعاملات ونحوها)

أما الأثمان المتعامل بها فيها، فعلى ما تقدم في الكلام على معاملات الديار المصرية من المعاملة بالدنانير المصرية ونحوها وزناً، والدنانير الاقزنتية عدداً، والدرهم النقرة وزناً

(١) قد عد ثلاث جمل فتنبه .

لاختلف النقود في ذلك، إلا أن الصَّنَجَةَ في أوزان الذهب بالديار المصرية تحالف الصنجة الشامية في ذلك، فتتقص الصنجة الشامية عن المصرية كل مائة مثقالٍ مثقالٌ وربع مثقالٍ، وتتقص صنجة الدراهم الشامية عن الصَّنَجَةِ المصرية كل مائة درهمٍ درهمٌ؛ والمعاملة فيها بفلوس صِغار، وكان يتعامل بها في الديار المصرية في الزمن الأول قبل ضرب الفلوس الجُدُد، حسابا عن كل درهم أربعة وستون فلسًا، وكل أربعة فلوس منها يُعبر عنها عندهم بحبة، ثم راجت الفلوس الجُدُد عندهم بعد سنة ثنتين وثمانمائة . إلا أن كل (١) بدرهم بخلاف ما تقدم في الديار المصرية من أن كل أربعة وعشرين فلسًا منها بدرهم .

وأما رطلها الذي يعتبر به موزوناتها فستمائة درهم بدرهمهم المتقدم تقديره، وأوقية اثنتا عشرة أوقية، كل أوقية خمسون درهما .

وأما كيلها الذي يعتبر به مكيلاتها فالغِرارة، وهي اثنا عشر كيلًا، كل كيل ستة أمداد، يتقص قليلًا عن رُبُع الويئة المصرية، ونسبة الإردب من الغرارة أن كل غرارة ومد ونصف ثلاثة أمداد بالكيل المصري تحريرا على الدمشقي . ثم قال :^(٢)
لكن كيل دِمَشق ورطلها هو المعتبر وإليه المرجع .

وأما قياس قماشها فبذراع يزيد على ذراع القماش بالقاهرة بنصف سدس ذراع وهو قيراطان .

وأما قياس أرض الدور بها وما في معناها، فإنه يعتبر بذراع العمل المتقدم الذكر في الديار المصرية .

(١) بياض في الأصل بتدركمة .

(٢) لم يقدم لنا ما يعود عليه الضمير ولعله صاحب "المسالك" .

وأما سعرها فقَالَ في "مسالك الأبصار" : سعر اللحم بها أرخص من مصر والدجاج والإوز أعلى من مصر، وكذلك السكر؛ ولم يتعرض لغير ذلك . ولا خفاء في أن الفاكهة فيها أرخص من مصر بالقدر الكبير ، والقمح والشعير والبقلاء نحو من سعر مصر؛ وذلك كله عند اعتدال الأسعار . أما حالة الغلاء فيختلف الحال بحسبه .

الجملة الثانية

(في ترتيب مملكتها ؛ وهو ضربان)

الضرب الأول

(في ترتيب حاضرتهما)

أما جُيُوشها ، فعلى ما تقدم في الديار المصرية في اجتماعها من الترك والخرس والروم والروس والآص ، وغير ذلك من الأجناس المضاهية للترك في الزيِّ ، ويزيد بها التُّركان المتميزون عن صفة الترك وزيِّهم ، وجندها ينقسمون إلى ما تقدم في الديار المصرية : من الأمراء المقدمين والطلبخانات والعشرات ، ومن بين المقدمين والطلبخانات : كأمرء السبعين والخمسين ، وما بين العشرات والطلبخانات كالعشرينات ونحوهم ؛ وكذلك مقدمو الحلقة وجنُّدها ، ولا وجود فيها للمالِك السلطانية لأنهم لا يكونون إلا بحضرة السلطان . وقد أخبرني من له خبرة بحال مملكتها أن الأمراء المقدمين بها كانوا في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون عشرة غير النائب بها ، وربما نقصوا الآن عن ذلك ، وأن أمراء الطلبخانات بها كانوا إذ ذاك أربعين وأنهم الآن نيف وخمسون ، وأن أمراء العشرات كانوا بها ألفين ومائة وخمسين بما فيهم من البحرية .

وأما إقطاعاتها - فقال في "مسالك الأبصار": إن إقطاعاتها لا تقارب إقطاعات مصر، بل تكون على الثلثين منها، إلا في أكابر الأمراء المقربين بحضرة السلطان، فإن إقطاعاتهم خارجة عن العادة فلا يعتد بها. قال: ولا أعرف بالشام ما يقارب ذلك إلا ما هو لنائب دمشق.

وأما بيوتاتها السلطانية - فقال في "مسالك الأبصار": بها خزانة تخرج منها الإنعامات والخيل، وخزائن سلاح، وزردخاناه، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة، حتى لو جهز السلطان إليها جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته. قال: وكل أمير أمر فيها أو في غيرها من الشام أو ربّ وظيفة ولى وظيفة من عادة متوليها لبس خلعة أو خدم أحد خدمة في مهم من المهمات أو أمر من الأمور يستوجب خلعة أو إنعاما ولم يُجَلِّع عليه من مصر كان من دمشق خلعتُه وإنعامه، ومنها تخرج أعلام الإمرة وطلائعهن وشعار الطبلخاناه. وفي خزائن السلاح بها تُعمل المجانيق والسلاح، ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع، ومن قلعها تجرّد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام، وتنسب في التجاريد والمهمات.

قلت: أما باقى البيوت كالفراش خاناه والإصطبلات السلطانية وما شاكلها، فلا وجود لها فيها مما ينسب إلى السلطان، بل يكون ذلك للنائب قائما مقام السلطان لأنه في الحقيقة السلطان الحاضر؛ وكان بها مطابخ السكر السلطانية فأضيفت إلى من يتحدّث في الأغوار من النائب أو غيره من الأمراء الأكابر.

الضرب الثاني

(في بيان أرباب الوظائف بدمشق على تباين مراتبهم، ووظائفها
المعتبرة على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(وظائف أرباب السيوف)

وهي مضاهية لوظائف أرباب السيوف بالحضرة السلطانية في كثير منها؛
وهي عدة وظائف .

(منها) نيابة السلطنة بها - وهي أجل نيايات الملكة الشامية وأرفعها في الرتبة،
ونائبها يضاهي النائب الكافل بالحضرة السلطانية في الرتبة والألقاب والمكاتب، ويعبر
عنه في المكاتب السلطانية وغيرها "بكافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس"
ويكتب له من الأبواب السلطانية تقليد شريف من ديوان الإنشاء الشريف؛
وهو قائم بدمشق مقام السلطان في أكثر الأمور المتعلقة بنيابته، ويكتب عنه
التواقيع الكريمة، ويكتب عنه المربعات بتعيين إقطاعات الجند، وتجهز إلى الأبواب
الشريفة فيشملها الخط الشريف السلطاني، ويترتب حكم المربعات المصرية والمناشير
على حكمها كما سيأتي في الكلام على المناشير في مرضعها إن شاء الله تعالى؛ وهو يكتب
على كل ما يتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالأعتاد؛ ودمعه يكون
نظر البيارستان النوري بدمشق كما يكون نظر البيارستان المنصوري بالقاهرة مع
أتابك العساكر؛ وكذلك يكون معه نظر الجامع الأموي بها .

(ومنها) نيابة القلعة بها - وهي نيابة منفردة عن نيابة السلطنة، ليس لنائب السلطنة
عليها حديث، وولايتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف يكتب من ديوان

الإنشاء الشريف . قال في "التثقيف" : وكان عادة نائبها في الأيام المتقدمة مقدّم ألف ، ثم استقرت بعد ذلك طبلخاناه ، وهي على ذلك إلى الآن . ومن شأنه حفظ القلعة وصونها ، ولا يسلم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانه أولم يأمره السلطان بتسليمه له . ولناؤها أجناد بحرية مقيمون في القلعة لخدمته ، ولا يحضر هو ولا أحد منهم دار النيابة بالمدينة ، ولا يركبون في الغالب . وقد أخبرني بعض أهل المملكة أن بالقلعة طبلا مرتباً لاستعلام أوقات الليل إذا أُذّن للعشاء الآخرة ضرب عليه عند مضى كل أربع درج ضربة واحدة إلى أن يتقضى ثلث الليل الأول . فإذا دخل الثلث الثاني ضرب عليه عند مضى كل أربع درج ضربتين إلى أنه قضاء الثلث الثاني . فإذا دخل الثلث الثالث ضرب عليه عند مضى كل أربع درج ثلاث ضربات إلى أن يؤذّن للصبح . قال : وهكذا شأن سائر القلاع بالممالك الشامية .

(ومنها) الجوبية - وكان بها في الأيام الناصرية ابن قلاوون فيما يقال ثلاثة حُجَّابٍ ، أحدهم حاجب الحُجَّاب ، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمير حاجب ؛ وعادته أن يكون مقدّم ألف من الزمن القديم وهلمَّ جرّاً ؛ وهو الرتبة الثانية من النائب ؛ ومن شأنه الجلوس بدار العدل ، ولا يقف كما يقف حاجب الحُجَّاب بين يدي السلطان بالديار المصرية ، وإذا نَحَرَج النائب عن دِمَشق في مهمٍّ أو غيره ، كان هو نائب الغيبة عنه . وإذا برز مرسومُ السلطان بالقبض على نائب السلطنة بها ، كان هو الذي يقبض عليه ويفعل فيه ما يؤمر به من سجن أو غيره ، ويقوم بأمر البلد إلى أن يُقام نائب آخر . والحاجبان الآخران طبلخانتان أو طبلخاناه عشرة ، وربما كانوا أربعة : حاجب الحُجَّاب وثلاث طبلخانات أو طبلخانتان وعشرون أو عشرة أو غير ذلك ؛ ورتبهم في المواكب أن يكون حاجب الحُجَّاب والذي يليه في الرتبة ميمنة والثاني ميسرة . ثم صاروا في الأيام الظاهرية برقوق خمسة أو ستة .

ولم تجر العادة بأن يكتب لأحد منهم مرسومٌ شريفٌ من الأبواب الشريفة عند ولايته، ولا مدخلٌ للنائب بها في كتابة ما يوقع لأحد منهم .

(ومنها) شدَّ المهَمَّات - وهي رتبة جليلة ، وموضوعها التحدُّث في أمور الاحتياجات السلطانية، وتارة لنائب السلطنة بدمشق، وتارة لحاجب الحجاب، وتارة لبعض الأمراء من المقدمين والطلبخانات بحسب ما يقتضيه رأى السلطان .

(ومنها) نقابة القلعة بها - وهي إمرة عشرة بمرسومٍ شريفٍ ، يكتب له من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نقابة النُقباء - وهما نقيبان : نقيبٌ لليمنة ونقيبٌ لليسرة .

(ومنها) الحزِندارية - وموضوعها التحدُّث على الحِجِّع والتشاريف السلطانية بالقلعة وعادتها أربعة طواشية خُصيانٌ بعضهم أعلى رتبةً من بعض ، أحدهم في رتبة أمير طلبخاناة أو أمير عشرين ، والثانى دونه ، والثالث دونه ، والرابع دونه ، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطنة بدمشق على قدر رتبته .

(ومنها) نقابة الجيش - وفيها ثلاثة نفر، أكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء ، تارة يكون أمير طلبخاناة، وفي غالب الأوقات أمير عشرة، ودونه آثنان من جند الحلقة . ويكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته .

(ومنها) شدَّ الدواوين - وموضوعها التحدُّث في استخراج الأموال السلطانية رفيقاً للوزير كما في الديار المصرية ، وكانت في الأيام المتقدمة إمرة طلبخاناة ، ثم استقرت إمرة عشرة . وهي الآن جندي من أجناد الحلقة ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدَّ الأوقاف - وموضوعها التحدُّث على أوقاف المسلمين بدمشق ، وعادتها إمرة عشرة، وربما كانت طلبخاناة، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

- (ومنها) شدّ الحاصّ - وعادته طبخاياه أو عشرة أيضا .
- (ومنها) شدّ الزكاة - وموضوعها التحدّث على متجّر الكارم ونحوه ، وكانت في الزمن المتقدم إمرة عشرة ، وهي الآن جنديّ ، ويكتب لتوليها توقيع كريم عن النائب .
- (ومنها) شدّ العُشر - وموضوعها التحدّث في واصل الفرنج ، وكانت إمرة عشرة ، وهي الآن جنديّ ، ويكتب لتوليها توقيع كريم عن النائب .
- (ومنها) شدّ دار الطعم - وهي بمثابة الوكالة بالديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، وعادتها إمرة عشرة أو مقدّم حلقة أو جنديّ ، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .
- (ومنها) ولاية المدينة - وموضوعها التحدّث في أمر الشرطة كما في سائر الولايات ، وعادتها إمرة عشرة ، وربما وليها جنديّ ، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .
- (ومنها) المهندارية - وموضوعها تلقي الرُّسل الواردين ، في أمور أخرى كما في الديار المصرية . وقد أخبرني بعض أهل المملكة أنه كان بها في الأيام الناصرية ابن قلاوون في نيابة الأمير تنكز مهندار واحد مقدّم ألف ، ثم استقرت في الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" نفرين ، وهي على ذلك إلى زماننا ، وهما الآن أمير عشرة ، وجنديّ ، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته .
- (ومنها) أمير اخورية البريد - وموضوعها التحدّث على خيول البريد بدمشق ونواحيها . وأخبرني بعض أهل هذه المملكة أنه لم يزل بها أمير عشرة من الأيام الناصرية ابن قلاوون وإلى الآن .
- (ومنها) تقدمة البريد - وموضوعها التحدّث على جماعة البريدية بدمشق . وأخبرني بعض أهل المملكة أنها كانت في الأيام الناصرية ابن قلاوون منحصرة

في واحد من جملة البريدية، ثم أستقر فيها الآن أثنان إما إمرة عشرة وإمرة خمسة، أو إمرة خمسة وجندى، أو نحو ذلك؛ ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر مرتبته .

(ومنها) سُود صغار متعددة، يوثى بها أجناد بتوقيع لهم عن النائب : كشّد دار البَطِيخ والفاكهة ، وشّد المسابك من الحديد والنحاس والرّجاج وغير ذلك ، وشّد المواريث الحشرية ونحو ذلك . وكان لمطابخ السُّكَّر شّد مفرد يوثى بتوقيع كريم عن النائب ، ثم أستقر ذلك مضافا لمن يتحدّث على الأغوار من النائب أو غيره .

قلت : أما سائر أرباب الوظائف من الأمراء المستقر مثلهم بالحضرة السلطانية : كرأس نوبة ، وأمير مجلس ، وأمير سلاح ، وأمير اخور ، وأمير جاندار ، وأستادار المباشرة ، وأستادار الصحبة ، وشادّ الشراب خاناه ، والجاشنكير ، ومقدم المماليك ونحوهم ، فلا وجود لهم هناك . وإنما يكون للنائب مثلهم من أجناده كغيره من سائر الأمراء .

الصنف الثانی

(الوظائف الديوانية ؛ وهي عشر وظائف)

(منها) الوِزَارَة - وهي تارة تلورتبة صاحبها بأن يكون جليل القدر، كما إذا كان قد تقدمت له ولاية وزارة بالديار المصرية أو نحو ذلك فيصرّح له بالوزارة ، وتارة تقصّر رتبته عن ذلك فيطلق عليه ناظر المملكة الشامية ، ولا يُسمَح له من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية باسم الوزارة ، وإن كان الجارى على السنة العامة إطلاقاً لفظ الوزير عليه . وكيفما كان فإنما يوليه السلطان من الأبواب الشريفة . إن كان وزيراً كتب له تقليد، وإن كان ناظراً للملكة كتب له مرسوم . قلت : وقُلَّ أن

يلبها أرباب السيوف، فإن وقع ذلك آحتاج معه إلى ناظر مملكة كما يكون ناظر الدولة مع الوزير ربّ السيف بالديار المصرية .

(ومنها) كتابة السرّ - ويعبر عن متوليها في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بصاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس، ولا يقال فيه : صاحب دواوين الإنشاء كما في الديار المصرية . على أنها تضاهى كتابة السر بالديار المصرية في الرياسة ورفعة القدر . وموضوعها على نحو ما تقدّم في الديار المصرية . وكيفما كان فإنما يؤتى من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، ويحتز السلطان فيها على أن يكون كاتب السر من خاصته الموثوق بهم ليطلع به بخصيات أمور المملكة وما يحدث بها مما لعل النائب قد يُخفيه عن السلطان . وبديوانه كُتِب الدست وكُتِب الدرّج كما بالديار المصرية، ويقال إنه كان عدّة كُتِب الدست في الأيام الناصرية ابن قلاوون نفرين وكُتِب الدرّج جماعة يسيرة، ثم زاد الأمر كما في الديار المصرية . وولايات كُتِب الدست وكُتِب الدرّج بتوقيع كريمة عن النائب دون الأبواب الشريفة .

وأخبرني بعض أهل دِمَشَق العارفين بأحوال المملكة أن كاتب السرّ في الزمن المتقدم لم يكن يحضّر دار العدل مع النائب، وإنما كان يحضّر كُتِب الدست فقط فيوقّعون بما يحتاج إليه في المجلس وينصرفون إلى كاتب السرّ فيخبرونه بما أتفق، وكاتب السرّ يجتمع بالنائب في أوقات مخصوصة فيما يتعلق بالأمور السلطانية فقط، وكان كاتب السرّ ربما داجى عليه الموقّعون فيما يقع بدار العدل فيلحقه بعض الخلل . فلما ولي كتابة السرّ القاضي (١) سعى السعى العظيم حتى أُذن له في الحضور بدار العدل والتوقيع فيه، وأستمر ذلك إلى الآن .

(ومنها) نظر الجيش - وموضوعه التحدثُ في الإقطاعات : إما في كتابة مربيّعات تُكْتَبُ بما يعينه النائب من الإقطاعات المتوفّرة عن أربابها بالموت ونحوها وتكميلها بخطوط ديوانه، ويجهزها النائب إلى الأبواب الشريفة ليشملها الخطُ الشريفُ السلطانيّ، وتحمّل إلى ديوان الجيوش بالديار المصرية فتجعل شاهداً محمّداً فيه، وتكتبُ منه مربيّعة، بمقتضاها يخرج المنشور على نظيرها كما تقدّمت الإشارة إليه . وإما في إثبات المناشير الشريفة التي تصدر إليه من الأبواب السلطانية بديوانه حفظاً لحسابات المقطّعين . وليس بالشام كتابة مناشير أصلاً، بل ذلك مختص بالأبواب السلطانية، فإن كان فيه كتابة الدست وقّع بدار العدل في جملة الموقعين وإلا فلا . وإذا كان موقعا جلس مجلس ناظر الجيش وإن كان متأخرا في القُدْمَةِ عن غيره من الموقعين، وولاية هذا الناظر من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف . وبديوانه عدّة مباشرين من صاحب ديوان وكتّاب وشهود، ولا يتم عن النائب بتوقيع كريمة . وناظر الجيش هو الذي يحكم في المحاكمات الديوانية كما يحكم فيها مستوفى المرتجع بالديار المصرية .

(ومنها) نظر المهمّات الشريفة - وهي وظيفة جلييلة يكون متوليها من أرباب الأقاليم رقيقا لشاد المهمات المتقدم ذكره من أرباب السيوف : من النائب أوحاجب الجبّاب أو غيرهما . وهي تارة تضاف إلى الوزارة، وتارة تفرد عنها بحسب ما يراه السلطان . وولايتها من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف . وبهذا الديوان عدّة مباشرين من كتّاب وشهود، فيوليم النائب بتوقيع كريمة .

(ومنها) نظر الخاص - وموضوعه هناك التحدثُ فيما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأغوار وما يجري مجراها، وربما أضيف نظرها للوزير .

(ومنها) نظر الخزانة، ويعبر عنها بالخزانة العالية . ومتوليها يكون رفيقا للخازندارية من الطواشيئة المتقدم ذكرهم . فيكون متحدثا في أمر التشاريف والحلج وما معها، وهي وظيفة جليلة يوليها النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان النوري - وقد صار النظر عليه معدوقا بالنائب، يقوض المتحدث فيه إلى من يختاره من أرباب الأقلام .

(ومنها) نظر الجامع الأموي - وفي الغالب يكون مع قاضي القضاة الشافعي .

(ومنها) نظر حرائن السلاح - وموضوعها كما في الديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيوت - وموضوعها على ما تقدم في الديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وأخبرني بعض الدمشقيين أن هذه الوظيفة آسم على غير مسمى لا حقيقة لها ولا مباشرة، لعدم البيوت السلطانية هناك .

(ومنها) نظر بيت المال - وحكمها كما في الديار المصرية .

(ومنها) نظر ديوان الأسرى - وهو المتحدث في الأوقاف التي تُمدى بها الأسرى .

(ومنها) نظر الأسواق - وموضوعها كما تقدم في الديار المصرية من المتحدث

على سوق الرقيق والخيل ونحوها، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر مراكز البريد - ومتوليها يكون رفيقا لأمير اخور البريد المتقدم ذكره، وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الحوطات - وهو على نحو من أستيفاء المرتجع بالديار المصرية في تحصيل الأموال السلطانية .

أما الحكم في المحاكمات الديوانية، فيختص بناظر الجيش كما تقدم ذكره .

(ومنها) نظر المسابك - ومتوليه يكون رفيقا لشاذ المسابك المتقدم ذكره في أرباب السيوف، وولايته عن النائب بتوقيع كريم . قلت : ويضم إلى كل نظر من هذه الأنظار مباحثرون : من شهود وغيرهم ، يكتب لذوى الصوب منهم تواقع كريمة عن النائب بوظائفهم ، في أنظار أخرى لا يسع أستيفائها : كنظر المواريث الحشرية وغيرها . ومما أهمل من الأنظار بها نظر مطابخ السكر كما أهمل شذها لإضافتها إلى المتحدث في الأغوار على ما تقدم ذكره في الكلام على وظائف أرباب السيوف .

الصنف الثالث

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية؛ وهي عدة وظائف أيضا)
 (منها) قضاء القضاة - وبها أربع قضاة من المذاهب الأربعة على الترتيب المتقدم في الديار المصرية . فأعلام الشافعيّ وهو المتحدث على المواضع الحكيمة والأوقاف وأكثر الوظائف؛ ويختص بتولية التواب في النواحي والأعمال بجميع أعمال دمشق حتى في غزّة، ويليه في الرتبة الحنفى، ثم المالكي، ثم الحنبلي. وكان استقرار القضاة الأربعة بها بعد حدوث ذلك بالديار المصرية، لكن لم تستقر الأربعة دفعة واحدة كما وقع في الديار المصرية في الدولة الظاهرية ببيرس، بل على التدرج . وأقدمهم فيها الشافعيّ؛ وولاية الأربعة من الأبواب الشريفة بتواقع شريفة .

(ومنها) قضاء العسكر - وموضوعه كما تقدم في الديار المصرية ، وبها قاضيا عسكر شافعيّ، وحنفيّ، وليس بها مالكيّ، ولا حنبليّ؛ وولايتهما من الأبواب الشريفة السلطانية بتواقع شريفة .

(ومنها) إفتاء دار العدل - وهي على ما تقدم في الديار المصرية أيضا، وبها مفتيان شافعيّ وحنفيّ؛ كما في قضاء العسكر، وولايتهما عن النائب بتواقع كريمة .

(ومنها) وكالة بيت المال - وموضوعها ما تقدم في الديار المصرية ، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف ووكالته مشبوة على الحكام متفذة .^(١) ولكن لاجلوس له بدار العدل كما يجلس ويكل بيت المال بالديار المصرية، إلا أن يكون كاتب دست فيجلس بواسطتها في جملة الموقعين لا بالوكالة .

(ومنها) بقابة الأشراف - والأمر فيها كما في الديار المصرية، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وقد تقدم في الكلام عليها في الديار المصرية أنه كان من حقها أن تُورد في جملة وظائف أرباب السيوف إذ يكتب في توقيع متوليها "الأميرى" وإن كان متعما، وإنما التغليب العرفي اقتضى ذكرها في جملة وظائف أرباب الأقسام .

(ومنها) مشيخة الشيوخ - وموضوعها كما في الديار المصرية : من التحدث على جميع الخوانق والفقراء بدمشق وأعمالها، والعادة أن يكون متوليها شيخ الخانقاه الشميصاتية بدمشق، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) الحسبة - وهي كما تقدم في الديار المصرية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . ولا مجلس متوليها بدار العدل كما يجلس محتسب القاهرة بدار العدل في الديار المصرية، وإليه ولاية نواب الحسبة بجميع أعمال دمشق .

(ومنها) الخطابات المددوقة بنظر النائب - فيولى فيها بتواقيع كريمة حتى إنه ربما كتب عنه التواقيع بخطابة الجامع الأموى، وإن كان الغالب أنها لاتولى إلا من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، وقد صارت مضافة لقاضى القضاة الشافعى .

(ومنها) التداريس - وتختلف باختلاف حال من يتولاها في الرقعة وغيرها، وولاياتها عن النائب بتواقيع كريمة غالبا والله أعلم .

(١) الأولى ثابتة، وقد جرى في التعبير العرفى العامى .

الصنف الرابع

(من الوظائف بِدِمَشْقَ ووظائف أرباب الصناعات)

(فمنها) رياسة الطَّبِّ ، ورياسة الكَحَّالين ، ورياسة الجرائحية - وكلُّها على نحو ما تقدّم في الديار المصرية ؛ وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب . أما مهتارية البيوت وما في معناها ، فهناك تختص بالنائب لقيامه مقام السلطان وأختصاص البيوت به .

الصنف الخامس

(وظائف زعماء أهل الذمة بها)

وفيها بطرك النصارى اليَعاقِبة ، وبَطْرُكُ النصارى المَلْكَانية ، ورئيس اليهود القرآيين والربانيين ، ورئيس السامرة ، ولكنه مقيم بمدينة نَابُلس التي هي مدينتهم المعظمة عندهم ، وإلى طُورها حَجَّهم ، وله نائب مقيم بِدِمَشْقَ . قلت : وربما كتب عن السلطان من الأبواب الشريفة بتواقيع ومراسيم بالحل^(١) على ما تصدر ولايته عن النائب ، وربما كتب به عنه ابتداء .

الجملة الثالثة

(في ترتيب النيابة بها)

وتوافق ترتيب السلطنة في الديار المصرية في بعض الأمور، وتخالفها في بعض . وكان عادة النائب بها في المواكب أن يركب في العسكر من الأمراء ومقدمي الخَلْقة وأجنادها في كل يوم آثين ونحيس ، ويخرجون إلى سوق الخيل تحت القلعة فيسيرون

(١) المراد بثبت ما يصدر عن النائب كما تفيد البقية .

خيولهم ، وتعرض عليهم خيول المناداة وغيرها من آلات السلاح ونحوها ، وينادى بينهم على العقار من الدور والضّياح وغيرها ، ولا يتعدون سوق الخليل إلى غيره . أما الآن فإنهم قد رفضوا التسيير بسوق الخليل ، وصار النائب يخرج بالسكر إما إلى ميدان ابن أتاك ، وإما إلى قبة يلغا : قبليّ دِمَشَق ، وإما إلى المزة غربىّ دِمَشَق ، وإما إلى القابون شمالىّ دِمَشَق على حسب ما يختاره ، فيسيرون هناك بدلا من تسييرهم بسوق الخليل ، ولا يسيرون بسوق الخليل إلا في يوم مهم من حضور رُسل من بعض الملوك الغرباء ونحو ذلك . فإذا فرغوا من التسيير عند ارتفاع النهار، عاد النائب في موكبه حتى يأتي باب الحديد من أبواب القلعة ، ويقف الأمراء على ترتيب منازلهم ، وينادى بينهم على العقار والدور وغيرها ، وكذلك الخيول والسلاح . ثم يسير النائب إلى دار النيابة ، فإن كان في الموكب سَمَاط تقدم الأمراء في خدمته ، ويترجل ممالئكه من سوق الخليل ، ثم الأمراء على القرب من دار النيابة على ترتيب منازلهم حتى يكون ترجل المقدمين على باب دار النيابة ، ويبقى النائب راكبا وحده حتى ينتهى إلى قاعة عظيمة معدة لليلوس في المواكب بمثابة الإيوان الذى يجلس فيه السلطان بقاعة الجبل بالديار المصرية ، ويصعد بها كرسى من خشب مغشى بغشاء من الحرير الأطلس الأصفر، وعليه سيف نجاه، مسند إلى صدره، فيجلس النائب بصدر القاعة على مقعد مختص به ، لا يشاركه أحد في الجلوس عليه ، وخلفه بثميمخ منصوب وراء ظهره كعادة الأمراء ، ويكون الكرسى المذكور على شماله على نحو ثلاثة أذرع منه ، ويجلس قاضى القضاة الشافعى عن يمين النائب على نحو ثلاثة أذرع منه ، مسندا ظهره إلى جدار صدر القاعة ، ويجلس قاضى القضاة الحنفى عن يمينه ، وقاضى القضاة المالكى عن يمين الحنفى ، وقاضى القضاة الحنبلى عن يمين المالكى ، وقاضى العسكر الشافعى عن يمين قاضى القضاة الحنبلى ، وقاضى العسكر

الحنفيّ عن يمين قاضي العسكر الشافعيّ، صفاً مساوياً للنائب في صدر القاعة؛ ويجلس كاتب السر من جهة يسار النائب ملاصقاً لمقعده الذي هو جالس عليه، جاعلاً يمينه إلى جدار صدر القاعة وظهره إلى جهة الكرسيّ. بأتحراف قليل لمواجهة النائب؛ وكُتِبَ الدست بالميسرة تحته بالتدريج على حسب القُدْمة صفاً ممتداً من كاتب السر إلى جهة باب القاعة؛ ويجلس الوزير مقابل كاتب السر من الجانب الآخر على سمت يمين قاضي القضاة الحنبليّ؛ ويجلس ناظر الجيش تحته، وكُتِبَ الدست باليمين تحت ناظر الجيش على الترتيب بالقُدْمة أيضاً، أخذاً من الوزير إلى جهة باب القاعة، فيصير كاتب السر والوزير ومن يسامتهما صفين متقابلين؛ ويجلس أتاكُ العساكر من الأمراء في رأس الميمنة خلف الوزير على بُعد، وبقية الأمراء المقدمين تحته على الترتيب بحسب القُدْمة، وأمراء الطليخاناه باليمين تحتهم كذلك حتى يصيروا صفاً آخر كصف الوزير ومن معه؛ ويجلس المتقدمون من أمراء الميسرة خلف كاتب السر ومن معه وتحتهم الطليخاناه على الترتيب المتقدم صفاً آخر مقابلاً لصف الميمنة، بحيث يكون أوله خارجاً عن يسار الكرسيّ. ويكون بين النائب ورأس الميمنة نحو خمسة أذرع، وبينه وبين رأس الميسرة نحو عشرة أذرع، وتقف طائفة من أمراء العشرات والنخسات ومقدمي الحلقة باليمين صفاً مستقيماً خلف الأتابك والأمراء الجلوس في صفه على ترتيب منازلهم، ويقف مماليك النائب عن يسار الكرسيّ صفاً أخذاً من خلف أول مقدمي الميسرة بأتحراف فيه إلى خلف، وطائفة من مقدمي الحلقة خلف الأمراء الجالسين في الفرجة الواقعة بينهم وبين مماليك النائب؛ ويجلس حاحب الحجاب أمام النائب في آخر صفى الموقعين الممتدين من كاتب السر والوزير بميلة إلى صف الميمنة؛ ويقف بقية الحجاب خلفه، وتقبأ الجيش خلفهم. وترفع القِصص فيتناولها تقبأ الجيش ويوصلونها إلى

حاجب الحجاب فيتناولها ويقوم فيوصلها إلى كاتب السر فيفترقها على الموقعين ،
ويبتدئ هو بالقراءة فيقرأ ما بيده من القصص ويوقع عليها بما يرسم به النائب ،
ثم يقرأ الذي يليه ، ثم الذي يليه إلى آخر صفه . فإذا فرغ ذلك الصف من القراءة ،
قرأ من هو أول الصف الذي في جانب الوزير ، ثم الذي يليه ، ثم الذي يليه إلى آخر
الصف . فإذا انتهت القراءة ، قام القضاة ومن في صفهم وكاتب السر والوزير وناظر
الجيش وسائر أرباب الأقاليم فينصرفون . فإذا آنقضى المجلس وأنصرف القضاة
ومن معهم ، مد السباط ، ويجلس النائب على رأس السباط والأمراء ومقدمو الحلقة
على ترتيب منازلهم فيما كلون ، ثم يرفع السباط ويتحول النائب إلى طرف الإيوان
فيجلس فيه ، ويجلس قدامه كاتب السر وناظر الجيش وتأتي المحاكمات فيفصلها ،
ويقرأ عليه كاتب السر ما يرفع في ذلك المجلس من القصص ، ويتكلم مع ناظر الجيش
فيما يتعلق بأمر الجيش والإقطاعات ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف كاتب
السر وناظر الجيش .

قال في "مسالك الأبصار" : وتزيد عساكر الشام على غيرها ركوب يوم السبت .
قلت : وهو ركوب مجزئ ليس فيه دار عدل ولا سباط . على أنه ربما أهمل
حضور دار العدل ومد السباط في يومى الاثنين والخميس أيضا كما في الديار المصرية .

المقصد الثانى

(فى ترتيب ماهو خارج عن حاضرة دمشق ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ماهو خارج عن حاضرتها من النيابات والولايات)

قد تقدم أن لدمشق أربع صَفَقَات : غربية (وهى الساحلية) . وقبيلية .
وشمالية . وشرقية . ففى الصَّفقة الأولى وهى الغربية نيابتان وخمس ولايات .

فأما النيابةان :

فالأولى - (نيابة غزّة) أو مقدمة العسكر بها على ما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى .
ومعاملاتها بالدنانير وبالدرهم الثقيرة، وصنّجتها في الذهب والفضة كصنّجة الديار
المصرية . وكان بها فلوس كل ثمانين منها بدرهم، ويعبر عن كل أربعة منها بحبة،
ثم راجت بها الفلوس الجدد في أوائل الدولة الناصرية "فرج بن برقوق" ولكن كل
سنة وثلاثين فلسا منها بدرهم، ورطلها سبعمائة وعشرون درهما بالدرهم المصري،
وأواقيها اثنتا عشرة أوقية، كل أوقية ستون درهما . ومكيلاتها معتبرة بالغرارة . وكل
غرارة من غرارها ثلاثة أردب بالمصري، وقياس قماشها بالذراع المصري، وأرضها
معتبرة بالفدان الإسلامي والفدان الرومي على ما تقدم في دمشق، وجيوشها مجمعة
من الترك ومن في معناهم ومن العرب والتركيان، وبها من الوظائف النيابة، ثم تارة
يصرح لنائبها بنبابة السلطنة . وبكل حال فنائبها أو مقدم العسكر بها لا يكون
إلا مقدّم ألف، وبها أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومن في معناهم، وفيها
من وظائف أرباب السيوف الجوبية، وحاجبها أمير طبلخاناه، وولاية المدينة
وولاية البر، وشدة الدواوين، والمهندارية، ونقابة النقباء وغير ذلك .

وبها من الوظائف الديوانية كاتب درج، وناظر جيش، وناظر مال، وولايتهم
من الأبواب السلطانية؛

ومن الوظائف الدينية قاض شافعي، وولايته من قبيل قاضي دمشق
إذا كانت غزّة تقدمه عسكر وإلا فهي من الأبواب السلطانية، وقاض حنفي
قد استحدث، وولايته من الأبواب السلطانية، وبها المحتسب، وويكل بيت المال
ومن في معناهم، وكلهم نواب لأرباب هذه الوظائف بدمشق كما في القاضي الشافعي،
وليس بها قضاء عسكر ولا إفتاء دار عدل .

الثانية - (نيابة القُدس) - وقد تقدّم أنها كانت في الزمن المتقدّم ولايةً صغيرة . وأن النيابة استُحدثت فيها في سنة سبع وسبعين وسبعائة ، ونيابتها إمرة طبلخاناه ، وقد جرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس ومقام الخليل عليه السلام ؛ ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس على ما تقدّم في معاملة دِمَشقَ ؛ ورطلها ^(١) وكيلها معتبر بالغرارة ، وغرارتها ^(١) وقياس قماشها بذراع ^(١) ؛ وبها من الوظائف غير النيابة ولايةً قلعة القُدس ، وواليها جنديّ ، وكذلك ولاية المدينة ، وكانت توليتها أولاً من جهة نائب السلطنة بدمشقَ ، ثم أخبرني بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والى القلعة وولاية البلد صارتا إلى نائب القُدس من حين استقرّ نيابة ، وكذلك ولاية بلد الخليل عليه السلام . وبها قاض شافعيّ ومحتسب نائبان عن قاض دِمَشقَ ومحتسبها ، وكذلك جميع الوظائف بها نيابات عن أرباب الوظائف بدمشقَ .

وأما الولايات :

فالأولى - (ولاية الرملة) - وكانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون من الولايات الصّغار بها جنديّ ، ثم استقرّ بها في دولة الظاهر برقوق كاشف أمير طبلخاناه ، ثم حدثت مكاتبته عن الأبواب السلطانية بعد ذلك .

الثانية - (ولاية لدّ) - وقد كانت في الأيام الناصرية ابن قلاوون ولايةً صغيرة بها جنديّ ، ثم أضيفت إلى الرملة حين استقرّ بها الكاشف المقدم ذكره .

الثالثة - (ولاية قاقون) - وكان بها في الأيام الناصرية جنديّ ، ثم أضيفت إلى كاشف الرملة عند استقراره .

الرابعة - (ولاية بلد الخليل عليه السلام) - وكان في الأيام الناصرية بها جنديّ ، ثم أضيفت إلى القُدس حين استقرّ النائب به .

(١) بياض بالأصل في هذه المواضع ولعلها مثل الذي تقدّم في غزوة لتقارب الأمكنة .

الخامسة - (ولاية نابلس) - وهي باقية على حالها في الانفراد بالولاية ، وواليها تارة يكون أمير طبلخاناه ، وتارة أمير عشرين ، وتارة أمير عشرة .
 وأما الصفقة الثانية وهي القبلية ، فيها نيابتان وثمان^(١) ولايات .
 فأما النيابتان :

فالأولى منهما (نيابة قلعة صرّخد) - قال في " التعريف " : قد يجعل فيها من يخطُّ عن رتبة السلطنة أو تكون نيابة معظمة ، وذكر نحوه في " مسالك الأبصار " وكأنه يشير إلى ما كانت عليه في زمانه ، فإنه من جملة من كان نائباً بها العادل كتبغا بعد خلعه من السلطنة ، ثم أنتقل منها إلى نيابة حماة . وأعلم أن بصرّخد المذكورة قلعة لها وائل خاص . قال في " التثقيف " : وهي من القلاع التي يستقل نائب الشام بالتولية فيها .

الثانية - (نيابة مجلّون) - وقد أشار في " التثقيف " إلى أنها نيابة حيث قال : ومجلّون إن كانت نيابة فإن نائب الشام يستقل بالتولية فيها ، ولم تجرله عادة بمكاتبة من الأبواب الشريفة .

وأما الولايات :

فالأولى - (ولاية بيسان) - وواليها جندي .

الثانية - (ولاية بانياس) - وواليها جندي تارة ، وتارة إمرة عشرة .

الثالثة - (ولاية قلعة الصبيبة) - وكانت ولاية صغيرة وبها جندي ثم أضيفت إلى بانياس .

الرابعة - (ولاية الشعرا) - وكانت في الأيام الناصرية مضافة إلى بانياس ، وهي الآن ولاية مفردة ، وواليها جندي .

(١) أي ان جعلت الصلت ولاية مفردة وإلا فسبعة .

الخامسة - (ولاية أَدْرَعَات) - قال في "التعريف" : وبها مقر ولاية الحاكم على جميع الصفقة ، ثم الحاكم على جميع الصفقة تارة يكون طبلخاناه وتكون ولايته عن نائب الشام ، وتارة يكون مقدم ألف فتكون ولايته من الأبواب السلطانية . أخبرني بعض كتّاب دَسْت دِمَشَق أنه إن كان مقدم ألف ، سُمِّي كاشف الكُشَاف وإن كان طبلخاناه سُمِّي والى الولاية وهو الغالب .

السادسة - (ولاية حُسْبَانَ وَالصَّلْت) - من البقاء . أخبرني القاضي ناصر الدين ابن أبي الطيب كاتب السردِ دِمَشَق أنهما إن جمعا لوال واحد كان أمير طبلخاناه أو أمير عشرة ، وإن أفرد كل منهما لوال كان جنديا .

السابعة - (ولاية بَصْرَى) - ووالها جندي أيضا .

الصفقة الثالثة الشمالية . وفيها نيابة واحدة وثلاث ولايات .

فأما النيابة (فنيابة بَعْلَبَك) - وقد كانت في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون إمرة عشرة ، ثم صارت الآن إمرة طبلخاناه ، وبكل حال فنائب الشام هو الذي يستقل بولايتها ، وربما وليت من الأبواب السلطانية . قال في "التعريف" : ولها ولاية خاصة يعنى غير ولاية المدينة ، وقد كانت في الدولة الأيوبية مفردة في الغالب بملك بمفردها .

وأما الولايات :

فالأولى - منها (ولاية البِقَاعِ البَعْلَبَكِي) - قال في "التعريف" : وهاتان الولايتان (١) الآن منفصلتان عن بَعْلَبَك ، وهما مجموعتان لوال واحد جليل مفرد بذاته ، وهما على ما ذكره من جمعهما لوال واحد إلى الآن ، إلا أنه تارة يليهما مقدم حلقة وتارة جندي .

(١) أى ولاية "البقاع البعلبكي" و"البقاع العزبي" فكان المناسب أن يذكر البقاع العزبي أيضا كما سبق له ذكرهما في الأعمال وعقبهما بعبارة التعريف هذه فتنبه .

الثانية - (ولاية يبروت) - وولايتها الآن إمرة طبلخاناه .

الثالثة - (ولاية صيدا) - قال في "مسالك الأبصار" : وهي ولاية جليلة ؛

وهي على ما ذكره إلى زماننا، تارة يليها أمير طبلخاناه، وتارة أمير عشرة .

الصفقة الرابعة الشرقية . وبها ثلاث نيابات وأربع ولايات .

فأما النيابات :

فالأولى - (نيابة حصص) - وهي نيابة جليلة، وقد كانت في الأيام الناصرية فما

بعدها مقدمة ألف . قال في "التتيف" : ثم أستقرت طبلخاناه بعد ذلك . قال :

ونائب قلعها من الممالك السلطانية . وقد تقدم أن الذكر في الزمن القديم كان لها دون

حماة، وقد كانت في الدولة الأيوبية مملكة منفردة تارة، وتضاف إلى غيرها أخرى .

الثانية - (نيابة مضيايف) - وقد تقدم أنها كانت أولا من مضافات أطرابلس

في جملة قلاع الدعوة، ثم أضيفت بعد ذلك إلى دمشق، وأستقرت على ذلك إلى

الآن . ونيابتها تارة تكون إمرة طبلخاناه، وتارة تكون إمرة عشرة، وبكل حال

فتوليتها من الأبواب السلطانية . ونائبها لا يكتب له إلا في المهمات دون خلاص

الحقوق أيضا .

الثالثة - (ولاية صيدا)^(١) - والغالب في نيابتها أن تكون مقدمة ألف، وأشار

في "التتيف" إلى أنها قد تكون طبلخاناه . قال في "التعريف" : وبقلعها

بحرية وخيالة وكشافة وطوائف من المستخدمين .

(١) تقدمت في "الصفقة الثالثة الشمالية" . على أنه لم يتكلم على الولايات الأربع التي ذكرها في ترجمة

هذه الصفقة، وقد ذكر في التعريف الجملة التي نقلها عنه في الكلام على الرحبة التي عدّها من الصفقة الرابعة

وجعل ولاياتها أربعا ولاية حصص، وولاية سلية، وولاية قارا، وولاية تدمر . وبالجملة فهذا الموضوع يحتاج

إلى تحرير .

الضرب الثاني

(من الخارج عن حاضرة دمشق العُربانُ؛ والإمرة بها في بطون من العرب)

الوطن الأولى

(آل ربيعة من طَيِّ من كَهْلَانَ من القَحْطَانِيَّة)

وهم بنو ربيعة بن حازم، بن عليّ، بن مفرج، بن دَعْفَل، بن جراح، وقد تقدّم نسبه مستوفى مع ذكر الاختلاف فيه في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى. قال في "العبر": وكانت الرياسة عليهم في زمن الفاطميين: خلفاء مصر لبني جراح، وكان كبيرهم مفرج بن دَعْفَل بن جراح، وكان من إقطاعه الرملة. ومن ولده حَسَّان وعليّ ومحمود وحرار، وولى حَسَّان بعده فعظم أمره وعلا صيته، وهو الذي مدحه الرِّبَاشِيّ الشاعر في شعره. قال الحمداني: وكان مبدأ ربيعة أنه نشأ في أيام الأتابك زنكي صاحب الموصل، وكان أمير عرب الشام أيام طُغْتَكِين السَّلْجُوقِيّ صاحب دِمَشْقَ ووفد على السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام فأكرمه وشاد بذكره. قال: وكان له أربعة أولاد، وهم فَضْل، ومرأ، وثابت، ودَعْفَل. ووقع في كلام المسيحيّ أنه كان له ولد اسمه بدر. قال الحمداني: وفي آل ربيعة جماعة كثيرة أعيان لهم مكانة وأبهة، أول من رأيتُ منهم مائع بن حديثة وغنام بن الطاهر، على أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب. قال: ثم حضر بعد ذلك منهم إلى الأبواب السلطانية في دولة المعز أيك وإلى أيام المنصور قلاوون زامل ابن عليّ بن حديثة، وأخوه أبو بكر بن عليّ، وأحمد بن حمي وأولاده وإخوته، وعيسى ابن مُهَنَّأ وأولاده وأخوه؛ وكلهم رؤساء أكبر وسادات العرب ووجوهها، ولهم عند السلاطين حُرْمَةٌ كبيرة وصِيتٌ عظيم، إلى رونق في بيوتهم ومنازلهم.

مَنْ تَلَقَّ مِنْهُمْ تَقَلُّ : لَأَقِيْتُ سَيِّدَهُمْ * مثلُ النُّجُومِ الَّتِي يَسِيرِي بِهَا السَّارِي
ثم قال : إلا أنهم مع بُعْدِ صِيَّتِهِمْ قَلِيلٌ عَدْدُهُمْ . قال في "مسالك الأبصار" :
لكنهم كما قيل :

تُعِيرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا * فقلْتُ لها : إِنْ الْكِرَامِ قَلِيلُ
وَمَا ضَرْنَا أَنَّا قَلِيلٌ وَجَارُنَا * عَزِيزُ وَجَارِ الْأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

ولم يزل لهم عند الملوك المكانة العلية والدرجة الرفيعة، يُجْلُوْنَهُمْ فوقِ كِيَوَانٍ،
وَيُنَوِّعُونَ لهم أجناس الإحسان . قال الحمداني : وَفَدَّ فَرَجَ بِنِ حِيَّةٍ عَلَى الْمُعْزَأِيكِ
فَأَنْزَلَهُ بَدَارَ الضِّيَافَةِ وَأَقَامَ أَيَّامًا، فَكَانَ مَقْدَارُ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ عَيْنٍ وَقِمَاشٍ وَإِقَامَةٍ - لَهُ
وَلَمِنْ مَعَهُ - سِتَّةٌ وَثَلَاثِينَ أَلْفَ دِينَارٍ . قَالَ : وَأَجْتَمَعَ أَيَّامَ "الظَّاهِرِ بَيْرَسَ" جَمَاعَةٌ
مِنْ آلِ رِبِيعَةَ وَغَيْرِهِمْ فَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الضِّيَافَةِ خَاصَّةً فِي الْمُدَّةِ السَّيْرَةِ أَكْثَرُ مِنْ هَذَا
الْمَقْدَارِ، وَمَا يَعْلَمُ مَا صُرِفَ عَلَى يَدَيْهِ مِنْ بِيُوتِ الْأَمْوَالِ وَالخَزَائِنِ وَالغِلَالِ لِلْعَرَبِ
خَاصَّةً إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى .

وَأَعْلَمُ أَنَّ آلَ رِبِيعَةَ قَدِ انْقَسَمُوا إِلَى ثَلَاثَةِ أَفْخَادٍ، هُمُ الْمَشْهُورُونَ مِنْهُمْ وَمَنْ عَدَاهُمْ
أَتْبَاعُهُمْ وَدَاخِلُونَ فِي عَدْدِهِمْ، وَلِكُلِّ مِنَ الثَّلَاثَةِ أَمِيرٌ مُخْتَصٌّ بِهِ .

الفخذ الأول - (آل فضل) - وهو فضل بن ربيعة المقدم ذكره، وهم رأس
الكل وأعلامه درجة وأرفعهم مكانة . قال في "مسالك الأبصار" : وديارهم من
حِصَّ إِلَى قَلْعَةِ جَعْبَرٍ، إِلَى الرَّحْبَةِ، آخِذِينَ عَلَى شِقِّ الْفِرَاتِ وَأَطْرَافِ الْعِرَاقِ حَتَّى
يَنْتَهَى حَدُّهُمْ قِبْلَةَ بَشْرٍ إِلَى الْوَشْمِ، آخِذِينَ يَسَارًا إِلَى الْبَصْرَةِ، وَلَهُمْ مِيَاهُ كَثِيرَةٌ
وَمَنَاهِلٌ مُورُودَةٌ :

وَلَهَا مَنَهْلٌ عَلَى كُلِّ مَاءٍ * وَعَلَى كُلِّ دِمْنَةٍ آتَارُ

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : نقلا عن محمود بن عرام ، من بني ثابت بن ربيعة : أن آل فضل تشعبوا شعبا كثيرة ، منهم آل عيسى ، وآل فرج ، وآل سميطة ، وآل مسلم ، وآل علي . قال : وأما من ينضاف إليهم ويدخل فيهم ، فرعب ، والحريث ، وبنو كلب ، وبعض بني كلاب ، وآل بشار ، وخالد حمص ، وطائفة من سنيس وسعيدة ، وطائفة من بربر وخالد الحجاز ، وبنو عقيل من كدر ، وبنو رميم ، وبنو حن ، وقران ، والسراجون . ويأتيهم من البرية من عربيه غالب ، وآل أجود ، والبطنين ، وساعدة ، ومن بني خالد آل جناح ، والصبيات من مياس ، والحبور ، والدغم ، والقرسة ، وآل منيحة ، وآل بيوت ، والعامرة ، والعلمجات من خالد ، وآل يزيد من عابد ، والدوامر ، إلى غير هؤلاء ممن يخالفهم في بعض الأحيان . قال المقر الشهابي بن فضل الله : علي أنى لا أعلم في وقتنا من لا يؤثرُ صحبتهم ويظهرُ محبتهم . وسيأتي ذكر قبائل أكثر هذه العُربان التي تنضاف إليهم في مواضعها إن شاء الله تعالى .

قال في "مسالك الأبصار" : وأسعدُ بيت في وقتنا آل عيسى ، وقد صاروا بيوتا : بيت مهنا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى ، وبيت حارث بن عيسى ، وأولاد محمد ابن عيسى ، وأولاد حديثه بن عيسى ، وآل هبة بن عيسى . قال : وهؤلاء آل عيسى في وقتنا هم ملوك البر فيما بعد وأقرب ، وساداتُ الناس ولا تصلح إلا عليهم العرب . وأما الإمرأة عليهم فقد جرت العادة أن يكون لهم أمير كبير منهم يولى من الأبواب السلطانية ، ويكتب له تقليدٌ شريف بذلك ، ويلبس تشريفا أطلس أسوة النواب إن كان حاضرا ، أو يجهزُ إليه إن كان غائبا ، ويكون لكل طائفة منهم كبير قائم مقام أمير عليهم ، وتصدر إليه المكتبات من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب له تقليدٌ ولا مرسوم . قال في "مسالك الأبصار" : ولم يصرح لأحد منهم بإمرة على العرب

يتقلد من السلطان إلا من أيام العادل أبي بكر : أنحى السلطان صلاح الدين يوسف
 ابن أيوب ، أمر منهم حديثه يعني ابن عقبة بن فضل بن ربيعة ، والذي ذكره
 قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون في تاريخه أن الإمرة عليهم في أيام العادل
 أبي بكر بن أيوب كانت لعيسى بن محمد بن ربيعة ، ثم كان بعده ماتع بن حديثه
 ابن عقبة بن فضل ، وتوفي سنة ثلاثين وستمائة ، وولي عليهم بعده ابنه مهنا ، وحضر
 مع المظفر قطز قتال هولاكو ملك التتار وانتزع سامية من المنصور بن المظفر
 صاحب حماة وأقطعها له ؛ ثم ولي الظاهر بيبرس عند مسيره إلى دمشق لتشييع
 الخليفة المستعصم إلى بغداد عيسى بن مهنا بن ماتع ووقر له الإقطاعات على حفظ
 السابلة وبقى حتى توفي سنة أربع وثمانين وستمائة ؛ فولى المنصور قلاوون مكانه ابنه
 مهنا بن عيسى ، ثم سافر الأشرف " خليل بن قلاوون " إلى الشام فوفد عليه مهنا
 ابن عيسى في جماعة من قومه فقبض عليهم ، وبعث بهم إلى قلعة الجبل بمصر فأعتقلوا
 بها وبقوا في السجن حتى أفرج عنهم العادل كتبغا عند جلوسه على التخت سنة
 أربع وتسعين وستمائة ورجع إلى إمارته ؛ ثم كان له في أيام الناصر بن قلاوون نصره
 واستقامة تارة وتارة ، وميلاً إلى التتار بالعراق ، ولم يحضر شيئاً من وقائع غازان ؛ ووفد
 أخوه فضل بن عيسى على السلطان الملك الناصر سنة اثنتي عشرة وسبعائة فولاه
 مكانه وبقى مهنا مشرداً ، ثم لحق سنة ست عشرة بخدابندا ملك التتار بالعراق فأكرمه
 وأقطعه بالعراق وهلك خدابندا في تلك السنة فرجع مهنا إلى الشام ، وبعث ابنه
 محمداً وموسى وأخاه محمد بن عيسى إلى الملك الناصر ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، ورد
 مهنا إلى إمارته وإقطاعاته ؛ ثم رجع إلى موالاته التتار فطرد السلطان الملك الناصر آل
 فضل بأجمعهم من الشام وجعل مكانهم آل علي ، وولي منهم علي أحياء العرب محمد

(١) في الأصل هنا غيبة ، والذي في الجزء الأول (ص ٣٢٥) عقبة ، فلينبه .

أبن أبي بكر بن عليّ، وصرف إقطاع مهنا وأولاده إليه وإلى أولاده، وأقام الحاسب على ذلك مدة . ثم وفد مهنا على السلطان الملك الناصر صحبة الأفضل بن المؤيد صاحب حماة فرضى عنه السلطان وأعاد إمرته إليه ورجع إلى أهله ، فتوفى سنة أربع وثلاثين وسبعائة ؛ وولّى مكانه أخوه سليمان فبقي حتى توفى سنة أربع وأربعين وسبعائة عقب موت الملك الناصر؛ وولّى مكانه أخوه سيف بن فضل فبقي حتى عزله السلطان الملك الكامل "شعبان بن قلاوون" سنة ست وأربعين، وولّى مكانه أحمد بن مهنا بن عيسى فبقي حتى توفى في سنة سبع وأربعين وسبعائة في سلطنة الناصر "حسن بن محمد بن قلاوون" المرة الأولى؛ وولّى مكانه أخوه قياض فبقي حتى مات سنة ستين وسبعائة ، وولى مكانه أخوه جبار من جهة الناصر حسن في سلطته الثانية، ثم حصلت منه نفرة في سنة خمس وستين وسبعائة وأقام على ذلك ستين إلى أن تكلم بسببه مع السلطان نائب حماة يومئذ فأعيد إلى إمارته ؛ ثم حصل منه نفرة ثانية سنة سبعين في الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" فولّى مكانه ابن عمه زامل ابن موسى بن عيسى فكانت بينهم حروب ، قتل في بعضها قشتمر المنصوري نائب حلب فصرفه الأشرف وولّى مكانه ابن عمه معقل بن فضل بن عيسى ، ثم بعث معقل في سنة إحدى وسبعين يستأمن لجبار المتقدم ذكره من السلطان الملك الأشرف فأمنه ، ووفد جبار على السلطان في سنة خمس وسبعين فرضى عنه وأعادته إلى إمرته فبقي حتى توفى سنة سبع وسبعين ، فولّى مكانه أخوه قنارة ، وبقي حتى مات سنة إحدى وثمانين ، فولّى مكانه معقل بن فضل بن عيسى وزامل بن موسى ابن عيسى المتقدم ذكرهما شريكين في الإمارة ؛ ثم عزّلا في سنتهما وولّى مكانهما

(١) ذكر في العربيين هذا والذي قبله مظفر الدين موسى ووفاته في ٤٢ وذكرا أن سليمان توفى في ٤٣

وبعد شرف الدين عيسى بن فضل ووفاته في ٤٤ .

محمد بن جبار بن مهنا وهو نَعِيرٌ ، ثم وقعت منه نُفْرَةٌ في الدولة الظاهرية برقوق ، فولى مكانه بعض آل زامل ، ثم أعيد نَعِيرُ المذكور إلى إمرته وهو باق على ذلك إلى الآن ، وهو محمد بن جبار بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن ماتب بن حديثة بن عقبه^(١) ابن فضل بن ربيعة .

وقد ذكر المقرّ الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أمراء آل فضل في زمانه ، فذكر أن أمير آل عيسى وسائر آل فَضْلٍ أحمد بن مهنا ، وأمير بيت فضل ابن عيسى سيف بن فضل ، وأمير بيت حارث بن عيسى قنّاة بن حارث . ثم قال : أما أولاد محمد بن عيسى ، وأولاد حديثة بن عيسى ، وآل هبة بن عيسى فأتباع .

وذكر القاضي تقي الدين بن ناظر الجليش في "التتقيف" : أنهم صاروا بيتين : وهما بيت مهنا بن عيسى وفضل بن عيسى . وذكر من أكابرهم عَسَافُ بن مهنا وأخاه عتقا ، وزامل بن موسى بن مهنا ، ومحمد بن جبار وهو نَعِيرٌ قبل الإمرة ، وعوّاد ابن سليمان بن مهنا ، وعلي بن سليمان بن مهنا ، وأما بنو فضل بن عيسى فذكر منهم فضل بن عيسى ، ومُعَيْقِلُ بن فضل ، وقال : كان قبلهما سيف وأبو بكر . ثم قال : ومن لم يكاتب أولاد قِيَاضٍ وبقية أولاد جبار ورقيبة بن عمر بن موسى ونحوهم .

الفخذ الثاني - (من آل ربيعة آل مرا) - نسبة إلى مرا بن ربيعة ، وهو أخو فضل المتقدم ذكره . قال في "التعريف" : ومنازلهم حوران . وقال في "مسالك الأبصار" : ديارهم من بلاد الحَيْدُور والحَوْلان إلى الزرقاء والضليل إن بصرى ، ومشرقاً إلى الحِزّة المعروفة بحرّة كشت قريباً من مكّة المعظمة إلى شعباء إلى نيران مزيد إلى الهَضْب المعروف بهضب الرّاق ، وربما طاب لهم البر وأمتد بهم المرعى أو أن خِصْبِ الشتاء فتوسعوا في الأرض وأطالوا عدد الأيام والليالي حتى تعود مكّة

(١) في العرعوية .

المعظمة وراء ظهورهم ، ويكاد سهيل يصير شامهم ، ويصيرون مستقبليين بوجوههم الشام . وقد تشعب آل مرا أيضا شعبا كثيرة ، وهم آل أحمد بن حجي وفيهم الإمرة ، وآل مسخر ، وآل نبي ، وآل بقرة ، وآل شماء .

ومن ينضاف إليهم ويدخل في إمرة أمراءهم حارثه ، والخاص ، وآلام ، وسعيدة ، ومُدبج ، وقرير ، وبنو صخر ، وزبيد حوران : وهم زبيد صرخد ، وبنو غني ، وبنو عمر قال ؛ ويأتيهم من عرب البرية آل ظفير ، والمفارقة ، وآل سلطان ، وآل غزى ، وآل برجس ، والحرسان ، وآل المغيرة ، وآل أبي فضيل ، والزرقاق ، وبنو حسين الشرفاء ، ومطين ، وخشم ، وعدوان ، وعنترة . قال : وآل مرا أبطال مناجيد ، ورجال صناديد ، وأقبال قل كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ، لا يعضد منهم عترة العبيسي ، ولا عرابة الأوسى ، إلا أن الحظ يحظ بنى عمهم [بأكثر] مما يحظهم ، ولم تزل بينهم نوب الحرب ، ولهم في أكثرها الغلب . قال الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبي رحمه الله : كنت في نوبة حمص في واقعة التتار جالسا على سطح باب الإصطبل السلطاني دمشق إذ أقبل آل مرا زهاء أربعة آلاف فارس شاكين في السلاح على الخيل المسومة ، والحياد المطهمة ، وعليهم الكرغندات الحمر الأطلس المعدني ، والديباج الرومي ، وعلى رؤوسهم البيض ، مقلدين بالسيوف ، وبأيديهم الرماح كأنهم صقور على صقور ، وأمامهم العبيد تميل على الركائب ، ويرقصون بتراقص المهارى ، وبأيديهم الجنايب ، التي إليها عيون الملوك صورا ؛ ووراءهم الطعائن والحول ، ومعهم مغنية لهم تعرف بالخرمية طائرة السمعة ، سافرة من الهودج وهي تغنى :

وَكَمَا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءِ شَحْمَةٍ * لِيَا لِي لَاقِينَا جُدَامًا وَحَمِيرًا
وَلَمَّا لَقِينَا عُصْبَةَ تَغْلِيَّةٍ * يَقُودُونَ جُرْدًا لِلنِّبَةِ ضَمْرًا
فَلَمَّا قَرَعْنَا النَّعْجَ بِالنَّعْجِ بَعْضُهُ * بَعْضُ أَبْتِ عِيدَانُهُ أَنْ تَكْسُرَا
سَقَيْنَاهُمْ كَأَسَا سَقُونَا بِمِثْلِهِ * وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْمَوْتِ أَصْبَرَا

وكان الأمر كذلك، فإن الكسرة أولاً كانت على المسلمين ثم كانت لهم الكثرة على التتار، فسبحان منطق الألسنة ومُصَرَّف الأقدار .

الفخذ الثالث - من آل ربيعة (آل عليّ) - وهم فرقة من آل فضل المقدم ذكرهم ينتسبون إلى عليّ بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . قال في "مسالك الأبصار" : وديارهم مرج دِمَشَقَّ وِغُوطُهَا، بين إخوتهم آل فضل وبني عمهم آل مرا، ومنتاهم إلى الحوف والجبابنة، إلى السكة، إلى البرادع . قال في "التعريف" : وإنما نزلوا غُوطَةَ دِمَشَقَّ حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهناً وبقى جار الفرات في تلايب التتار . قال في "مسالك الأبصار" : وهم أهل بيت عظيم الشأن مشهور السادات ، إلى أموال جمّة ونعم ضخمة ومكانة في الدول عليه . وأما الإمرة عليهم فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنه كان أميرهم في زمانه رَمَلَةَ بن جمار بن محمد بن أبي بكر بن عليّ بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . ثم قال : وقد كان جدّه أميراً ثم أبوه . قلد الملك الأشرف "خليل بن قلاوون" جدّه محمد بن أبي بكر إمرة آل فضل ، حين أمسك مهنا بن عيسى . ثم تقلدها من الملك الناصر أخيه أيضاً حين طرد مهنا وسائر إخوته وأهله . قال : ولما أمر رَمَلَةُ كان حَدَثَ السنِّ فحسده أعمامه بنو محمد بن أبي بكر ، وقدموا على السلطان بتقاديمهم وتراموا على الأمراء، وخواصّ السلطان، وذوى الوظائف فلم يُحْضِرهم السلطان إلى عنده ولا أذنى أحداً منهم ، فرجعوا بعد معاينة الحين ، بَحْفَى حِينٍ ؛ ثم لم يزالوا يتربصون به الدوائر وينصبون له الجائل والله تعالى يقيه سيئات ما مكروا حتى صار سيد قومه ؛ وفرقده دهره ، والمُسَوَّدَ في عشيرته ، المبيّضَ لوجوه الأيام بسيرته . وله إخوة ميامين كبار ، هم أمراء آل فضل وآل مرا . وقد ذكر القاضي تقي الدين بن ناظر الحليش في "التثقيف" : أن الأمير عليهم في زمانه في الدولة الظاهرية برقوق كان عيسى بن زيد بن جمار .

الوطن الثانية

جَرَم (بفتح الجيم وسكون الراء المهملة) . قال الحمداني : وأسمه ثعلبة وجرم أسم أمه ، وقد تقدم ذكر نسبه في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى . قال في "مسالك الأبصار" : وهم ببلاد غَزَّةَ والدَّارُوم مما يلي الساحل إلى الجبل وبلد الخليل عليه السلام . قال الحمداني : وجرم المذكورة شَمِجَان ، وقران ، وجِيَّان . قال : والمشهور منهم الآن جذيمة ، ويقال إن لهم نسبا في قريش ، وزعم بعضهم أنها ترجع إلى مخزوم . وقال آخرون : بل من جذيمة بن مالك بن حنبل ابن عامر بن لؤي بن غالب بن فهر . ثم قال : وجذيمة هذه هم آل عَوْبِجَةَ ، وآل أحمد ، وآل محمود ، وكلهم في إمارة شاور بن سنان ثم في بنيه ، وكان لسنان المذكور أخوان فيهما سُوددٌ : وهما غانم وخضر . ومن جذيمة جابع (؟) الرايديين وبنو أسلم ، ويقال إن أسلم من جذام لا من جذيمة ولكنها اختلطت بها ؛ ومن جذيمة أيضا شبل ، ورضيعة جَرَم ونيفور ، والقذرة ، والأحامدة ، والرفثة وكور جرم ، وموقع . وكان كبيرهم مالك الموقعي ؛ وكان مقدما عند السلطان صلاح الدين بن أيوب وأخيه العادل ؛ ومنهم بنو غور ، ويقال إنهم من جرم بن جرمز من سنيس ؛ ومن هؤلاء العاجلة ، والصمان ، والعبادة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ؛ ومن بنو جميل بنو مقدم ؛ ومن بنو غور آل نادر ؛ ومن بنو غوث بنو بها ، وبنو خولة ، وبنو هرماس ، وبنو عيسى ، وبنو سهيل . وأرضهم الدَّارُوم ، وكانوا سفراء بين الملوك ، وجاورهم قوم من زبيد يعرفون بنو فهيد ثم اختلطوا بهم . قال الحمداني : فهذه جرم الشام وحلقاؤهم ، ومن جاورهم ولادهم .

وأما الإمرة عليهم . فقد ذكر في "التعريف" : أن الإمرة على عرب غَزَّةَ في زمانه كانت لفضل بن حجي ، وعرب غَزَّةَ هم جَرَمُ المذكورون ، والمعروف أن

جَرْمًا يَكُونُ لَهُمْ مَقْدَمٌ لَا أَمِيرَ . وَعَلَيْهِ جَرِي الْقَاضِي تَقِيّ الدِّينِ بْنِ نَاطِرِ الْجَيْشِ فِي "التَّثْقِيفِ" وَذَكَرَ أَنَّ مَقْدَمَهُمْ فِي زَمَانِهِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِرَفُوقِ كَانَ عَلِيَّ بْنَ فَضْلِ .

البطن الثالثة

تَعْلَبَةٌ مِنْ طَيِّئٍ أَيْضًا . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَدِيَارُهُمْ مِمَّا يَلِي مِصْرَ إِلَى الْخُرُوبَةِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي سِيَاقَةِ الْكَلَامِ عَلَى جَرْمٍ أَنَّ تَعْلَبَةَ هَذِهِ مِنْ بَقَايَا تَعْلَبَةِ الْمُتَقَلِّينَ إِلَى مِصْرَ ، وَتَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى عَرَبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَنَّ تَعْلَبَةَ الَّذِي يُنْسَبُونَ إِلَيْهِ تَعْلَبَةُ ابْنِ سَلَامَانَ ، وَأَنَّ سَلَامَانَ بَطْنٌ مِنْ بَطُونِ طَيِّئٍ ، وَأَنَّ تَعْلَبَةَ الْمَذْكُورِينَ بَطْنَانِ : وَهِيَ دَرَمًا وَزُرَيْقُ ابْنَا عَوْفِ بْنِ تَعْلَبَةَ وَقِيلَ ابْنَا تَعْلَبَةَ لِصُلْبِهِ ، وَأَنَّ أَسْمَ دَرَمًا وَعَمْرُو ، وَدَرَمًا أَسْمَ أُمِّهِ فَغَلَبَ عَلَيْهِ ، وَأَنَّ مِنْ دَرَمًا الْجَوَاهِرَةَ وَالْحَنَابِلَةَ وَالصُّبَيْحِيِّينَ . قَالَ الْحَمْدَانِيُّ : وَتَعْلَبَةُ الشَّامِ مِنْ دَرَمًا آلِ غِيَاثِ الْجَوَاهِرَةَ وَمِنْ الْحَنَابِلَةَ وَمِنْ بَنِي وَهْمٍ مِنَ الصُّبَيْحِيِّينَ ، وَمِنْ أَحْلَافِهِمْ فِرْقَةٌ مِنَ النِّعَمِيِّينَ وَمِنْ الْعَارِ وَالْجَمَانَ ؛ وَتَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَعْلَبَةِ مِصْرَ أَيْضًا أَنَّ بِكُلِّ مِنْ تَعْلَبَةِ مِصْرَ وَالشَّامِ قَوْمًا مِنْ خِنْدِفٍ وَقَيْسٍ وَمُرَادٍ وَيَمِينَ .

قُلْتُ : وَلَمْ يَكُنْ فِي "التَّعْرِيفِ" وَلَا "التَّثْقِيفِ" لِتَعْلَبَةِ الْمَذْكُورِينَ ذِكْرٌ لِعَدَمِ مَنْ يَكْتُبُ مِنْهُمْ إِذْ لَمْ يَكُونُوا فِي مَعْنَى مَنْ تَقَدَّمَ .

البطن الرابعة

بَنُو مَهْدِيٍّ (بِفَتْحِ الْمِيمِ وَسُكُونِ الْهَاءِ وَالِدَالِ الْمَهْمَلَةِ) قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى عَرَبِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَنَّهُمْ أَخُو نَحْمٍ وَهُوَ جُدَامُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ عَمْرٍو بْنِ سَبِيٍّ مِنَ الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ ، إِمَّا مِنْ عَمْرٍو بْنِ سَبِيٍّ مِنَ الْقَحْطَانِيَّةِ كَمَا يَقْتَضِيهِ كَلَامُ "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ"

وإما من عُدرّة من قُضَاعَة من حَمِير بن سبيا من القحطانية أيضا كما صرح به في "التعريف" . قال في "التعريف" : ومنازلم البلقاء . وقال في "مسالك الأبصار" : منازلم البلقاء إلى ناس إلى الصوان ، إلى علم أعفر . قال الحمداني : ومن بني مهدي المشابطة الذين منهم أولاد عسكر ، والعناترة ، والنترات ، واليعاقبة ، والمطارنة ، والعفير ، والرؤيم ، والقطاربة ، وأولاد الطائية وبنو دوس ، وآل يسار ، والمخابرة ، والسماعة ، والعجارمة من بني طريف ، وبنو خالد والسلمان والقرانسية والدرالات والحملات والمساهرة والمعاورة ، وبنوعطا ، وبنو ميّاد وآل شبل ، وآل رويم ، وهم غير الرويم المتقدم ذكرهم ، والمخارقة وبنو عيّاض ، ومنهم طائفة حول الكرك يأتي ذكرهم في الكلام على عرب الكرك . قال الحمداني : ويجاورهم بالبقاء طائفة من حارثة ولهم نسب بقري بن عقة .

وأما الإمرة عليهم فقد ذكر في "التعريف" أن إمرتهم مقسومة في أربعة منهم ، لكل واحد منهم الربع ، ولم يسم أمراء زمانه منهم . وذكر في "التثقيف" مثل ذلك ، وسمى أمراءهم في زمانه . فقال : وهم بربوب ذئب بن محفوظ العنبي ، وسعيد بن بحري بن حسن العنبي ، وزامل بن عبيد بن محفوظ العنبي ، ومحمد بن عباس بن قاسم بن راشد العسري .

البطن الخامسة

زبيد (بضم الزاي) . قال في "مسالك الأبصار" : وهم فرق شتى . وذكر من بالشام وغيره ولم يتعرض لنسبهم في أي أحياء العرب . وذكر الجوهرى أن زبيدا أسم قبيلة ، ولم يزد على ذلك . قلت : والموجود في كتب التاريخ عد زبيد من

بطون سعد العَشيرة من مَدْحِجِ بن كَهْلان بن سبيل من العرب العاربة، وهم عرب اليمن على ما تقدم ذكره . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن بالشام منهم فِرْقَةٌ بَصْرَخَدَ، وفِرْقَةٌ بَغُوطَةَ دِمَشْقَ . وذكر في "التعريف" : منهم زُبَيْدُ المَرَجِ وَزُبَيْدُ حَوْرَانَ وَزُبَيْدُ الأَحلاف . وذكر مثله في "التثقيف" : ومقتضى الجمع بين كلامه في "المسالك" و"التعريف" : أن تكون زُبَيْدٌ خمسَ فِرَقٍ : زُبَيْدُ المَرَجِ ، وَزُبَيْدُ الغُوطَةِ ، وَزُبَيْدُ صَرَخَدَ ، وَزُبَيْدُ حَوْرَانَ ، وَزُبَيْدُ الأَحلافِ وليس كذلك ، بل زُبَيْدُ الغُوطَةِ وَزُبَيْدُ المَرَجِ واحدة ، فإن المراد غُوطَةُ دِمَشْقَ وَمَرَجُهَا ، وهما متصلان والتازون فيما كالفرقة الواحدة ، وَزُبَيْدُ صَرَخَدَ هي زُبَيْدُ حَوْرَانَ كما صرح به في موضع آخر من "مسالك الأبصار" : إذ صَرَخَدُ من جملة بلاد حَوْرَانَ . أما زُبَيْدُ الأَحلافِ فديارهم بالقرب من الرَّحبة بجوار آل فَضْل . قال الحمداني : والذين بَصْرَخَدَ منهم آل مِيَّاسَ ، وآل صِفِي ، وآل برة ، وآل محسن ، وآل جحش ، وآل رجاء . والذين بالمَرَجِ والغُوطَةِ آل رجاء ، وآل بدال ، والدوس ، والحريث ، وهم في عداد آل ربيعة المتقدم ذكرهم وذكر معهم المشاركة جيرانهم . ثم قال : وإمارة زُبَيْدِ هؤلاء في نَوْفَلٍ ، وليس للمشاركة إمارة ، ولكن لهم شيوخ منهم ، وأمر الفريقين إلى نواب الشام ليس لأحد من أمراء العرب عليهم إمارة ، وديارهم متصلة من المَرَجِ والغُوطَةِ إلى أمَّ أوعال إلى الدريشدان ، وعليهم الدرك وحفظ الأطراف .



وأما العرب المستعربة ، (وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ! على ما تقدم بيانه في الكلام على عرب الديار المصرية) ، فالمشهور بأعمال دِمَشْقَ منهم قبيلة واحدة ، وهم بنو خالد عَرَبُ حِمَصَ . قال الحمداني : وهم يدعون النسب إلى خالد

أبن الوليد رضى الله عنه ، وقد أجمع أهل العلم بالنسب على أنقرض عَقِيه . قال فى "مسالك الأبصار" : ولعلمهم من ذوى قرابته من مخزوم ، وكفاهم ذلك فخارا أن يكونوا من قریش . وقد تقدم ذكر نسب مخزوم فى قریش فى الكلام على بنى خالد فى جملة عرب الديار المصرية فأغنى عن إعادته هنا .

قلت : ومن جملة من عدّه فى "التعريف" من عرب الشام غزيرة ، ولم يتخزرى هل هى من العرب العاربة أو العرب المستعربة . فلذلك ذكرتها بمفردها . وقد ذكر الحمدانى أنهم متفرقون فى الشام والحجاز وبغداد ، وفيما بين العراق والحجاز ، ولم يذكر واحد منهما منازلهم من الشام ، بل ذكر الحمدانى منازلهم بالبرية والعراق خاصة . وقال : هم بطون وأخاذ ، ولهم مشايخ منهم من وفد على السلاطين فى زماننا ، وأشار فى "التعريف" إلى أن الغالب عليهم عدم الطاعة ، ومنهم أحلاف لآل فضل قد تقدم ذكرهم وهم غالب وآل أجود والبطين ، وسأذكرها ببطونها ومنازلها ومياها من البرية فى جملة عرب الحجاز .

النِّبَاةُ السَّانِيَةُ

(من نيبات السلطنة بالممالك الشامية ، نيابة حلب ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فى ذكر أحوالها فى المعاملات ونحوها)

أما الأثمان المتعامل بها من الدنانير والدرهم والصنجة ، فعلى ما تقدم فى دمشق من غير فرق ، ولم ترح الفلوس الجدد فيها إلى الآن وإنما يتعامل فيها بالفلوس القديمة ، ورطلها سبعمائة وعشرون درهما ، وأواقيها اثنتا عشرة أوقية ، كل أوقية ستون درهما ، وفى أعمالها ربما زاد الرطل على ذلك ، وتعتبر مكيلاتها بالمشوك

في حاضرتها وسائر أعمالها؛ والمكوك المعبر في حاضرتها سبع وبيات بالكيل المصري،
وأما في نواحيها وبلادها، فيختلف اختلافًا متباينًا في الزيادة والنقص . قال
في "مسالك الأبصار" : والمعتدل منها أن يكون كل مكوكين ونصف غرارة^(١)،
وما بين ذلك كل ذلك تقريبًا؛ ويقاس القماش بها بذراع يزيد على ذراع القماش
المصري سُدس ذراع، وهو أربعة قراريط؛ وتعتبر أرض دورها بذراع العمل
كما في الديار المصرية وأرض زراعتها بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في دمشق؛
ونحراج أرض الزراعة بها كما في دمشق؛ وأسعارها على نحو سعر دمشق إلا في القواكه
فإنها في دمشق أرخص لكثرتها بها .

الجملة الثانية

(في ترتيب مملكتها؛ وهي على ضربين)

الضرب الاول

(ترتيب حاضرتها)

أما جيوشها فعلى ما تقدم في دمشق من آشتمال عسكرها على الترك والجرس
والروم والروس وغير ذلك من الأجناس المشابهة للترك، وأنقسامها إلى الأمراء
المقدمين والطلبخانات والعشرات ومن في معناهم من العشرينات والخمسات، وكذلك
أجناد الحلقة ومقدموها؛ وإقطاعاتها على نحو ما تقدم في دمشق في المقدار؛ وربما
زاد إقطاع الحلقة بها على إقطاع الحلقة بالديار المصرية بخلاف إقطاعات الأمراء
بها فإنها لا تساوى إقطاعات الأمراء بالديار المصرية .

وأما وظائفها فعلى أربعة أصناف .

(١) تقدم ذلك في (ص ١١٨) من هذا الجزء فأنظره .

الصنف الأول

(وظائف أرباب السيوف؛ وهي عدّة وظائف)

(منها) نيابة السلطنة - وهي نيابة جليظة في الرتبة الثانية من نيابة دمشق ، ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بنائب السلطنة الشريفة ، ولا يقال فيه كافل السلطنة كما يقال لنائب دمشق ، ويكتب عن نائبها التواقيع الكريمة بأكثر وظائف حلب وأعمالها ، وكذلك يكتب عنه المرَبعات الجيشية بالديار المصرية ، والمناشير الإقطاعية على حكمها كما تقدم في دمشق ، وكذلك يكتب على كل ما يتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد ، ويزيد على نائب دمشق بسرحين يسرحهما للصيد ، الأولى منهما يسرحها في بلاد حلب من جانب الفرات الغربي يتصيد فيها الغزلان ، يقيم فيها نحو عشرة أيام ، والثانية وهي العظمى يعبر فيها الفرات إلى بر الجزيرة شرق الفرات ، وينتقل في نواحيها مما هو داخل في مملكة الديار المصرية وما حولها ، يتصيد فيها الغزلان وغيرها من سائر الوحوش ، وقيم فيها نحو شهر .

(ومنها) نيابة القلعة بحلب - وهي نيابة منفردة عن نيابة السلطنة بها ، وليس لنائب السلطنة على القلعة ولا على نائبها حكم كما تقدم في قلعة دمشق ، وعادة نائبها أن يكون أمير طبابخاناه ، وتوليتهما من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف ، وفيها من الأجناد البحرية المعدّين لحراستها نحو أربعين نفسا ، مقيمون بها لا يظعنون عنها بسفر ولا غيره ، يجلس منهم في كل نوبة عدّة في الباب الثاني منها من حين فتح الباب في أول النهار وإلى حين قفله في آخر النهار ، وبها الحرس في الليل ، وضرب الطبلة على مضى كل أربع درج كما تقدم في قلعة دمشق .

(ومنها) الجُوبية - والعادة أن يكون بها أربعة مُجَّاب. أحدهم مقدّم ألف: وهو حاجب المُجَّاب، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة في المكاتب وغيرها بأمر حاجب بحلب كحاجب المُجَّاب بدمشق، وهو ثاني نائب السلطنة في الرتبة ولا يدخل أحد دار النيابة راكبا غير النائب وغيره، وهو نائب الغيبة إذا خرج نائب السلطنة في مهمٍّ أو متصيدٍ أو غير ذلك؛ وإليه تردُّ المراسيم السلطانية بقبض نائب السلطنة إذا أراد السلطان القبض عليه، ويكون هو المتصدّي لحال البلد إلى أن يُقام لها نائبٌ، والثلاثة الباقون إما ثلاث طبليخانات، أو طبليخانتان وعشرة، أو ما في معنى ذلك، وولاية حاجب المُجَّاب والحاجب الثاني من الأبواب الشريفة السلطانية بغير تقليد ولا مرسوم، ومن عداهما ولايته عن نائب حلب، وفيها آثنان واحد بالميمنة وواحد باليسرة، فالذي في الميمنة في الغالب يكون أمير عشرة وربما كان أمير خمسة، والذي باليسرة جنديّ من أجناد الحلقة، وولايتهما عن النائب كل منهما بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ الأوقاف - وهي بها رتبةٌ جليلة أعلى من شدّ الأوقاف بدمشق، وعادتها مقدمة ألف أو طبليخاناه، تُولى من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف. كذا أخبرني بعض أهلها؛ ومتوليها يتحدّث على سائر أوقاف المملكة الحلبية.

(ومنها) المهمندارية - وموضوعها على ما تقدّم في الديار المصرية ودمشق، وبها آثنان: فأحدهما تارة يكون أمير طبليخاناه وتارة يكون أمير عشرة، والآخر جنديّ حلّمة، وولاية كل منهما بكل حال عن النائب بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ الدراوين - وموضوعها كما تمّ - تم في الديار المصرية ودمشق، وعادته إمرة عشرة، وربما وليها جنديّ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم.

(ومنها) شدّ مراكر البريد - وموضوعها كما تقدّم في دِمَشق، وعادتها إمرة عشرة، وربما كان مقدّم حلقة أو جنديا، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) ولاية المدينة - وموضوعها التحدّث في الشُرطة كما تقدّم في الديار المصرية ودِمَشق، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها مقدّم حلقة، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) شدّ الأقواد - وموضوعها التحدّث على الأموال التي تُساق قوداً من المملكة في كل سنة، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها مقدّم حلقة، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

قلت : وسائر وظائف الأمراء أرباب السيوف المستقرّ مثلهم بالحضرة السلطانية كراس نوبة وأمير مجلس ومن في معناهما ممن يجرى هذا المجرى المختص بالنائب يكون له مثلها من أجناده لقيامه مقام السلطان هناك كما تقدّم في دِمَشق .

وأما الوظائف الديوانية بها لأرباب الأقلام .

(فمنها) الوزارة - ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بنظر المملكة ليس إلا، ولا يصرح له بأسم الوزارة بحال، وإن كان الحارى على السنة العامة تلقب متوليا بالوزير، ولم تجر العادة بأن يتولاها إلا أرباب الأقلام، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف، ولديوان هذا النظر عدّة مباشرين أتباعاً لناظرها كصاحب الديوان والمستوفى والكاتب والشهود وسائر فروع الوزارة، والنائب يولّى كلاً من هؤلاء المباشرين بتوقيع كريمة .

(ومنها) كتابة السر - ويعبر عن متوليا في ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بصاحب ديوان المكاتبات بحلب، ولا يُسمَح له بصاحب ديوان الإنشاء بحلب

كما في دِمَشقَ ، وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف ، وبديوانه كُتِبَ
الدست وكتاب الدرَج كما في دِمَشقَ والديار المصرية .

(ومنها) نظر الجيش - والحكم فيه كما تقدم في دِمَشقَ من كتابة المرَبَّعات بما
يُعيَّنه النائب من الإقطاعات وتجهيزها للأبواب الشريفة لتُشَمَلَ بالخط الشريف
وتخلَّد شاهدا بديوان الجيوش بالديار المصرية ، وكذلك إثبات ما يصدر إليه من
المناشير من الأبواب الشريفة ؛ وولايته من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نظر المال - وهو بمعنى الوزارة كما في دِمَشقَ إلا أنه لا يطلق على متوليه
وزير البتة ، وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف . ولديوانه كُتِبَ أتباعُ
له : كصاحب الديوان والكُتَّاب والشهود وغيرهم ؛ وولاية كل منهم عن النائب
بتواقيع لهم كما في دِمَشقَ .

(ومنها) نظر الأوقاف - وحكمها التحدُّث على الأوقاف بمدينة حَلَبَ وأعمالها
كما في دِمَشقَ ؛ وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الجامع الكبير - ومتوليها يكون رفيقا للنائب في التحدُّث فيه ؛
وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان - وقد تقدَّم في الكلام على مدينة حَلَبَ أن بها بيمارستانين
أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر يُخصَّصه ؛ وولاية كل منهما
عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الأقواد - ومتوليها يكون رفيقا لشاذ الأقواد المتقدم ذكره في أرباب
السيوف ؛ وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

الصنف الثاني

(الوظائف الدينية)

(فمنها) القضاء - وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة كما في دِمَشَقَ ، إلا أن استقرار الأربعة بها كان بعد استقرارها بدمشق ، وولاية كل منهم من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف . ويختص الشافعيّ منهم بعموم تولية التواب بالمدينة وجميع أعمالها ، ويقتصر من عداه على التولية في المدينة خاصة كما تقدّم في دِمَشَقَ والديار المصرية .

(ومنها) قضاء العسكر - وبها قاضيا عسكر: شافعيّ وحنفيّ كما في دِمَشَقَ ، وولايتهما من الأبواب الشريفة ، ويكتب لكل منهما توقيع شريف .

(ومنها) إفتاء دار العدل - وبها آثنان أيضا: شافعيّ وحنفيّ كما في دِمَشَقَ ، وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) وكالة بيت المال - وولايتها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف ، ووكالته عن السلطان بمصر مثبتة فتنفذ بالمملكة كما تقدّم في دمشق .^(١)

(ومنها) نقابة الأشراف - والأمر فيها على ما تقدّم في دِمَشَقَ والديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) مشيخة الشيوخ - والحكم فيها كما في دِمَشَقَ ، وعادتها أن يكون متوليا هو شيخ الخلق المعروفة بالقديم ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، وربما كانت من الباب الشريف .

(ومنها) الحسبة - وهي على ما تقدّم في دِمَشَقَ والديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، ومتولياها يولّى تواب الحسبة بسائر الأعمال الحلية .

(١) لعله "مبينة" .

(ومنها) الخطابة بالجامع الكبير - وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .
 (ومنها) التداريس والتصاوير المعدوقة بنظر النائب - وولايتها عنه بتواقيع كريمة
 على قدر مراتب أصحابها .

الصنف الثالث

(وظائف أرباب الصناعات)

(فمنها) رئاسة الطب ، ورئاسة الكمّالين ، ورئاسة الجرائحية كما في دمشق
 والديار المصرية ، وولاية كل منهم بتوقيع كريم عن النائب . أما مهتارية البيوت
 ومن في معناهم ففقودون هناك لفقد البيوت السلطانية ، وإنما مهتارية البيوت
 بها للنائب خاصة لقيامه مقام السلطان بها كما في دمشق .

وأما ترتيب النيابة بها فعلى نحو ما تقدم في دمشق ، وعادة النائب بها أن يركب
 في المواكب في يومى الاثنين والخميس من دار النيابة ، ويخرج من باب يقال له باب
 القوس ، في وسط البلد على القرب من القلعة ، ويمر منه إلى سوق الخليل ، ويخرج من
 سور البلد من باب النيرب ، ويتوجه إلى مكان يعرف بالميدان ويعرف بالقبة أيضا
 على القرب من المدينة بطريق القرية المعروفة بجبريل ، في جهة الجنوب عن المدينة ،
 ثم يعود من حيث ذهب ، وقد وقف الأمراء في أنتظاره بسوق الخليل ، وآخر
 خيولهم إلى القلعة ورعوس خيولهم إلى الجهة التي يعود منها أمراء الخمسات ، ثم أمراء
 العشرات ومن في معناهم على ترتيب منازلهم ، ثم أمراء الطلبخانات ، ثم الأمراء
 المقدمون . فإذا حاذى النائب في عوده أمراء الخمسات والعشرات في طريقه ، سلم
 وهو سائر فيسألون عليه ، وهم وقوف في أمكتهم لا يتحركون ولا يرحون عنها . فإذا
 حاذى أمراء الطلبخانات ، سلم عليهم فيتقدمون بخيولهم إليه نحو قصبتى قياس فيسلمون

عليه ثم يعودون إلى أمكنتهم فيقفون فيها . فإذا حاذى الأمراء المقدمين سلم عليهم فيفعلون كما فعل أمراء الطبلخانات من التقدم إليه والسلام عليه ثم يعودون إلى أمكنتهم ، ويمرّ النائب حتى ينتهي إلى آخر سوق الخيل فيعطف رأس فرسه ويقف مستقبلاً للجهة التي عاد منها في الجنوب والعسكر ، واقفون على حالهم ، وينادى بينهم على العقارات من الأملاك والضياع وكذلك الخيول والسلاح قدر خمس درج ، ثم يمرّ إلى دار النيابة : فإن كان ذلك الموكب فيه سيماط ، سار في خدمته إلى دار النيابة من كان معه في ركوب الموكب من الأمراء الأكبر والأصغر من الحجاب وغيرهم ؛ ويمرّ بباب القلعة وقد نزل نائب القلعة إلى بابها فوقف فيه ممالك في خدمته من الأجناد البحرية المقيمين بالقلعة ، فإذا مرّ بهم النائب ، سلم على نائب القلعة فيسلم عليه ، ويطلع نائب القلعة إلى قلعته ، ويمرّ النائب في طريقه إلى دار النيابة ، ويكون ممالك النائب قد ترجلوا عن خيولهم ، وترجل أمراء الخمسات والعشرات بعدهم ، ثم يترجل الطبلخانات على القرب من دار النيابة ، ثم الأمراء المقدمون على باب دار النيابة ، كلّ منهم على قدر منزلته ؛ ويستمرّ النائب راجحاً حتى يأتي المقعد المذكور^(١) ، وهو مقعد مربع مرتفع عن الأرض عليه قبة مرتفعة ودرابزين من خشب دائر ، وفيه دكة من خشب صغيرة في جانبه مرتفعة عن المقعد قدر ذراع ، تسع جالساً فقط معدة لجلوس النائب ؛ فينزل النائب على باب من أبواب المقعد الثلاثة مخصوص به ، ويجلس حاجب الحجاب على مصطبة لطيفة أعلى السلم خارج الدرابزين معدة لجلوسه عن يمين النائب ، ويكون القضاة الأربعة وقاضيا العسكر ومفتيا دار العدل وكاتب السر وكاتب الدست وناظر الجيش قد حضروا قبل حضور النائب وحاجب الحجاب وطلعوا من سلم مخصوص بهم وأخذوا مجالسهم وجلسوا في انتظار النائب ، فإذا حضر قاموا

(١) أى في غير هذه النيابة .

وجلسوا بجلوسه ، ويكون جلوسهم بترتيب خاص يوافق دِمَشْقَ في بعض الأمور ويخالف في بعضها : فيجلس عن يسار النائب قاضي القضاة الشافعيّ ، و يليه قاضي القضاة الحنفيّ ، و يليه قاضي القضاة المالكيّ ، و يليه قاضي القضاة الحنبليّ ، و يليه قاضي العسكر الشافعيّ ، و يليه قاضي العسكر الحنفيّ ، و يليه مفتي دار العدل الشافعيّ ، و يليه مفتي دار العدل الحنفيّ ، و يليه الوزير، صفًا مستقيماً ، و يجلس كاتب السر أمام النائب على القرب منه ، و يليه عن يمينه ناظر الجيش ، و يليه كُتَّاب الدَّسْتِ على ترتيب منازلهم حتى يساؤوا في المقابلة الصفّ الذي فيه قُضاة القضاة و من معهم ، و يجلس باقي الموقعين بين الصفين مقابل حاجب الحُجَّاب حتى يصلوهما فيصيرون كاللحقة المستديرة ، و يقف الحُجَّاب الصغار أسفل السُّلَّم الذي يصعدُ منه ، و حاجب الحُجَّاب و ثقباء الجيش خلفهم ، و الولاة خلف ثقباء الجيش . فإن كان الأمراء قد حضروا لأجل السَّماط ، جلس المقدمون و الطبلخاناه على مصاطب معدة لهم على القرب من المقعد الذي يجلس فيه النائب و من معه من أرباب الأقلام المتقدم ذكرهم ، و تُرْفَع القِصَصُ فيتناولها ثقباء الجيش و يتناولونها الحُجَّاب فيناولونها لحاجب الحُجَّاب فيناولها لكاتب السر فيفرقها على الموقعين و يبقى بعضها معه ، فيقرأ ما معه ثم يقرأ من بعده على الترتيب إلى آخر الموقعين . فإذا آنقضت قراءة القصص قام من المجلس القضاة و من في معناهم و كُتَّاب الدست فانصرفوا . فإذا آنقضى المجلس ، فإن كان في الموكب سماط قام النائب و الأمراء من أما كن جلوسهم فدخلوا إلى قاعة عظيمة قد وضع بصدرها كرسيُّ سلطنةٍ مغطى بالحرير الأطلس الأصفر و عليه نمجاء مسندة إلى صدره كما تقدم في دِمَشْقَ ، و قد مدَّ السَّماط السلطانيّ فيجلس النائب على رأس السَّماط و الأمراء على ترتيب منازلهم في الإمرة و القُدِّمة و يأكلون و يرفع السَّماط ؛ ثم يقوم الأمراء فينصرفون ؛ و يقوم النائب و معه كاتب السر و ناظر الجيش

فيدخل إلى قاعة صغيرة فيها شباك مطل على دوار بإصطبل النائب، فيجلس في ذلك الشباك، ويجلس كاتب السر وناظر الجيش فيصرفان^(١).

قلت : ويخالف دمشق في أمور :

أحدها - أن كرسي السلطنة ليس بدار العدل حيث يجلس النائب والمتعممون كما في دمشق بل في مكان آخر .

الثاني - أن الأمراء لا يجلسون مع النائب بدار العدل كما في دمشق بل في مكان منفرد .

الثالث - أن النائب يجلس على دكة مرتفعة عن جلسائه بخلاف دمشق، فإنه يجلس مساويا لهم، وكان المعنى فيه عدم جلوس الأمراء في مجلس النائب بحلب بخلاف دمشق .

الرابع - أن الوزير بحلب يجلس في آخر صف القضاة ومن في معناهم تحت مفتحي دار العدل، وبدمشق يجلس في رأس صف يقابل كاتب السر، وكانت المعنى فيه أن كاتب السر بحلب يجلس أمام النائب فلو جلس الوزير فوفقه لخالف قاعدة جلوس كاتب السر، أو جلس تحته لكان نقصا في رتبته . ولا شك أنه يجلس فوقه القضاة ومن في معناهم لرفعة رتبة الشرع .

الخامس - أن السباط بحلب لا يمد بدار العدل كما في دمشق بل في مكان آخر مخصوص .

السادس - أن النائب بحلب له موضع مخصوص يجلس فيه للحاكيات ومد السباط، وفي دمشق يجلس على طرف الإيوان بدار العدل بعد رفع السباط منه .

(١) لعله ثم ينصرفان .

الجملة الثانية

(في ترتيب ما هو خارج عن حاضرة حلب ؛ وهو ثلاثة أنواع ^(١))

النوع الأول

(ولاية الأمور من أرباب السيوف ؛ وهو ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(النواب ؛ وهم على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو داخل في حدود البلاد الشامية ، وهي إحدى عشرة نيابة)

الأولى - (نيابة قلعة المسلمين المسماة في القديم بقلعة الروم) - وعادة نائبها أن

يكون مقدّم ألف يولّي من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الثانية - (نيابة الكّخّنا) - ونيابتها تارة تكون طبلخاناه وتارة عشرة ؛ وتوليها

من نائب حلب .

الثالثة - (نيابة كركر) - ونيابتها تارة طبلخاناه وتارة عشرة ؛ وتوليها من

نائب حلب .

الرابعة - (نيابة بهسنى) - وقد ذكر في " التثقيف " ما يقتضى أن نيابتها

طبلخاناه ، لكن أخبرني بعض كُتّاب السربحلب أنها ربما كانت مقدمة ألف . وقد ذكر

في " التعريف " ما يقتضى ذلك فقال : ولنائبها مكانة جليّة ، وإن كان لا يلتحق

بنائب الأيّرة ؛ وبكل حال فتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الخامسة - (نيابة عينتاب) - وقد أوردها في " التثقيف " في جملة أمراء

العشرات وذكر أنه رأى بخط ابن النشأى ما يقتضى أنها كانت طبلخاناه . وقد أخبرني

(١) لم يذكر النوعين فتنه .

بعض كُتَّابِ سِرِّ حَلَبِ أَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ تَقْدِمَةَ أَلْفِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ بِرُقُوقِ،
وَاسْتَقَرَّتْ تَوَلِيَّتَهَا مِنَ الأبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ .

السَّادِسَةُ - (نِيَابَةُ الرَّأْوَدَانِ) - وَقَدْ أوردَهَا فِي " التَّثْقِيفِ " فِي جُمْلَةِ نِيَابَاتِ
العَشْرَاتِ . وَقَدْ أَخْبَرَنِي بَعْضُ كُتَّابِ السِّرِّ بِحَلَبِ أَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ بِهَا آخِرًا جُنْدِيًّا ؛
وَتَوَلِيَّتَهَا مِنْ نَائِبِ حَلَبِ .

السَّابِعَةُ - (نِيَابَةُ الدَّرْبَسَاكِ) - وَقَدْ أوردَهَا فِي " التَّثْقِيفِ " فِي جُمْلَةِ العَشْرَاتِ .
وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ كُتَّابِ سِرِّ حَلَبِ أَنَّهَا رُبَّمَا أُضِيفَتْ لِنَائِبِ بَغْرَاسِ الْآتِي ذِكْرَهَا وَأَنَّهَا
الآنَ بِيَدِ ابْنِ صَاحِبِ البَايِزِ التُّرْكَمَانِيِّ ؛ وَتَوَلِيَّتَهَا مِنْ نَائِبِ حَلَبِ .

الثَّامِنَةُ - (نِيَابَةُ بَغْرَاسِ) - وَقَدْ أوردَهَا فِي " التَّثْقِيفِ " فِي جُمْلَةِ العَشْرَاتِ ؛
وَوَلَايَتَهَا مِنْ نَائِبِ حَلَبِ . وَهِيَ بِيَدِ أَوْلَادِ دَاوُدِ الشَّيْبَانِيِّ التُّرْكَمَانِيِّ مِنْ تَقَادِمِ السَّنِينَ ؛
وَوَلَايَتَهَا مِنْ نَائِبِ حَلَبِ .

التَّاسِعَةُ - (نِيَابَةُ القُصَيْرِ) - وَقَدْ أوردَهَا فِي " التَّثْقِيفِ " فِي جُمْلَةِ العَشْرَاتِ .
وَأَخْبَرَنِي بَعْضُ كُتَّابِ سِرِّ حَلَبِ أَنَّهَا الْآنَ جُنْدِيًّا .

العَاشِرَةُ - (نِيَابَةُ الشُّغْرِ وَبَكَّاسِ) - وَقَدْ أوردَهَا فِي " التَّثْقِيفِ " فِي جُمْلَةِ
العَشْرَاتِ ، وَقَدْ أَخْبَرَتِ أَنَّهَا اسْتَقَرَّتْ بِهَا آخِرًا جُنْدِيًّا ، وَتَوَلِيَّتَهَا مِنْ نَائِبِ حَلَبِ .

الحَادِيَةَ عَشْرَةَ - (نِيَابَةُ شَيْزَرِ) - كَانَتْ فِي الزَّمَنِ المَتَقَدِّمِ إِمْرَةً عَشْرَةَ يَسْتَقِلُّ نَائِبُ
حَلَبِ بِتَوَلِيَّتَهَا فَلَمَّا تَسَلَّطَتْ عَلَيْهَا العُرْبَانُ بَعْدَ وَقْعَةِ مِطَاشِ وَالنَّاصِرِيِّ اسْتَقَرَّتْ
تَقْدِمَةً بَوَالِيَّةً مِنَ الأبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِمَرْسُومِ شَرِيفِ .

الضرب الثاني

(النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية، وهي قسمان)

القسم الأول

(بلاد النغور والعواصم وما والاها، والمعتبر فيها ثمان نيابات)

الأولى - (نيابة مَلْطِيَّة) - ونيابتها طبلخاناه، وتوليها من الأبواب السلطانية.

الثانية - (نيابة دَبْرِي) - وقد ذكر في "التثقيف" أنها تارة تكون طبلخاناه وتارة تكون عشرة، وبكل حال فولايتهما من نائب حلب .

الثالثة - (دَرِنْدَة) - ونيابتها في الغالب إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه، وولايتهما في الحالتين من نائب حلب .

الرابعة - (نيابة الأَبْسُتِين) - ونيابتها مقدمة ألف من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الخامسة - (نيابة آيَاس) - وهي المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية - ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

السادسة - (نيابة طَرَسُوس) - ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

السابعة - (نيابة أَدَنَة) - ونيابتها مقدمة ألف، وتوليها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الثامنة - (نيابة سِرْفَنْدْ كَار) - ونيابتها إمرة عشرة، ووقع في "التثقيف" نقلاً عن ابن النشائي ما يقتضى أنها كانت أولاً طبلخاناه، وبكل حال فولايتهما من نائب حلب .

التاسعة - (نيابة سيس) (١) - وقد تقدم أن فتحها قريب في الدولة الأشرفية "شعبان
 أن حسين" ولم تزل نياتها منذ فتحت مقدمة ألف ، وكانت قد جعلت نيابةً
 مستقلةً عند الفتح ثم جعلت بعد ذلك مقدمة عسكر كغزة إلا أن مقدم العسكر بها
 لا يكاتب في خلاص الحقوق بخلاف مقدم العسكر بغزة .

قلت : وبعد ذلك نيات صغار يولي بها نائب حلب أجنادا ، ولا مكاتب لها
 من الأبواب السلطانية : وهي نيابة قلعة باري كركوك ، ونيابة كاورا ، ونيابة كولاك ،
 ونيابة كرزال ، ونيابة كومي ، ونيابة تل حمدون ، ونيابة الهارونيين ، ونيابة قلعة
 نجة ، ونيابة حيمص ، ونيابة قلعة لؤلؤة .

القسم الثاني

(ما هو في حدود بلاد الجزيرة شرق الفرات ، والمعتبر فيها ثلاث نيات)

الأولى - (نيابة البيرة) - ونيابتها مقدمة ألف ، وتوليتها من الأبواب السلطانية
 بمرسوم شريف .
 الثانية - (نيابة قلعة جعبر) - ونيابتها طبلخاناه ، وتوليتها من الأبواب السلطانية
 بمرسوم شريف .

الثالثة - (نيابة الرها) - قال في "التتقيف" : وقد جرت العادة أن تكون نياتها
 طبلخاناه ، ثم أستقر بها في الدولة المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعائة
 مقدم ألف .

(١) زادها على المعترف به .

الصنف الثاني

(من أرباب السيوف بخارج حَلَبِ الوَلَاةِ، وولاية جميعها من نائب حلب بتواقيع كريمة ، والمشهور منها اثنتا عشرة ولاية)

الأولى - (ولاية بَرَحَلَبَ كما في دِمَشقَ) - إلا أن والى برحلب هو والى الوَلَاةِ .

الثانية - (ولاية كَفْرِ طَابَ) - وواليتها جندي .

الثالثة - (ولاية سَرَمِينَ) - وواليتها في الغالب جُنْدِيٌّ ، وربما كان أمير عشرة .

الرابعة - (ولاية الجُبُولِ) - وواليتها جندي .

الخامسة - (ولاية جَبَلِ سَمْعَانَ) - وواليتها جنديٌّ ، وهو مقيم بمدينة حلب ، يحضر المواكب مع والى المدينة ووالى البر : لقربه منها .

السادسة - (ولاية عَزَازَ) - وواليتها جنديٌّ ، وربما كان أمير عشرة .

السابعة - (ولاية تَلِّ بِاشِرَ) - وكان لها والٍ بمفردها جنديٌّ ، ثم أضيفت آخرا لَعَيْتَابَ .

الثامنة - (ولاية مَنِيحَ) - وواليتها جنديٌّ .

التاسعة - (ولاية تَيْرِينَ) - وهى تارة تفرد بوال يكون جنديا ، وتارة تضاف إلى حارم ، ويقال والى حارم وتيرين .

العاشر - (ولاية البَابِ وَبُرَاعَا) - وواليتها جنديٌّ .

الحادية عشرة - (ولاية دَرَكُوشَ) - وواليتها جنديٌّ .

الثانية عشرة - (ولاية أَنْطَاكِيَةَ) - وواليتها تارة يكون جنديا وتارة أمير عشرة ،

وأخبرني بعض كُتَّابِ السَّرْحَلَبِ أنها ربما أضيفت إلى نائب القُصَيْرِ .

قلت : ووراء ذلك ولايات أنحر بلاد الأرمن ونحوها لم يتحررى حائلها ، والظاهر أن ولاية جميعها أجناد .

النوع الثاني

(مما هو خارج عن حاضرة حلب العربان)

واعلم أنه قد تقدم في الكلام على آل فضل من عربان دمشق أن منازلهم ممتدة بأراضي الشام إلى الرحبة وجعبر في جانب الفرات ، وتقدم في الكلام على قواعد الشام المستقرة نقلا عن المقر الشهابي ابن فضل الله في "التعريف" أن جعبر كانت في زمانه من مضافات دمشق ، وأن الواجب أن تكون من مضافات حلب ، فإنها أضيفت بعده إلى حلب ، وحينئذ فيكون في بلاد حلب بعض عرب آل فضل المتقدم ذكرهم هناك .

والمختص بأعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان .

القبيلة الأولى - (بنو كلاب) . قال في "مسالك الأبصار" : وهم عرب أطراف حلب والروم ، ولهم غزوات عظيمة معلومة وغارات لاتعد ، ولا تزال تُباع بنات الروم وأبناؤهم من سبائهم ؛ ويتكلمون بالتركية ويركبون الأكاديش ، وهم عرب غزوة ، ورجال حروب ، وأبطال جيوش ، وهم من أشد العرب باسا ، وأكثرهم ناسا . قال : وإفراط نكايتهم في الروم صنفت السيرة المعروفة "بدلومة والبطل" ^(١) منسوبة اليهم بما فيها من ملح الحديث ولمح الأباطيل ؛ ولكنهم لا يدينون لأمر منهم يجمع كلمتهم ، ولو أنقادوا لأمر واحد لم يبق لأحد من العرب بهم طاقة .

(١) هي السيرة المشهورة الآن "بذات الهمة" وقد طبعت أخيرا بالمطبعة "الحسينية" وانتشرت

في أيدي العامة وهي في بابها لا بأس بها .

قال الحمداني : وكان بنو كلاب قد ظهروا على آل ربيعة ، وذلك أن الملك الكامل كان طلب من ماتع بن حديثة وغنم بن الطاهر جملاً يحمل عليها غللاً إلى خلاط يقوتها بها ، فأحتج بغيبة جماله في البرية ، وكان بعض بني كلاب حاضراً فتكفل له بمجاخته من الجمال ووفى له بذلك ، فحقد بها الملك الكامل على ماتع بن حديثة وغنم بن الطاهر وأستوحشاً منه ثم أتياه عند أخذه أمداً ، فوبَّخهما فخرجا خائفين منه إلى أن فتح دمشق فأتياه بأنواع التَّقدم وتقرَّباً إليه بالخدمة . قال : وكانت بنو كلاب تحذم الملك الأشرف موسى وتصحبه لمتاخمة بلاد الروم .

قال في "مسالك الأبصار" : وكان سلطاننا يعني الناصر محمد بن قلاوون لا يزال ملتفتاً إلى تألف بني كلاب هؤلاء ، وكان أحمد بن نصير المعروف بالترتي قد عاث في البلاد والأطراف وأشتد في قطع الطريق ، فأمنه وخلع عليه وأقطعه فأنقادت بنو كلاب للطاعة ، وكان الملك الناصر قد أمر عليهم سليمان بن مهنا وجعل عليه حفظ جعبر وما جاءرها .

القبيلة الثانية - (آل بشار) - قال في "مسالك الأبصار" : وديارهم الجزيرة والأحص^(١) ببلاد حلب . قال : والأحلاف منهم حالم في عدم الأتقياد لأمر واحد حال بني كلاب . ولو اجتمعوا لما أمن بأسهم نقيم على تفرق كلمتهم ، وبسبب جماعتهم لا يزال آل فضل منهم على وجل ، وطالما بانوا وقلوبهم منهم ملأى من الحذر ، وعيونهم وسنى من السهر ، وبينهم دماء ، وهم وبنو ربيعة وبنو عجل جيران ، وديارهم من سنجار وما يُدانيها إلى البارة أو قريب الجزيرة العمرية إلى أطراف بغداد .

(١) هو بهذا الضبط موضع . أنظر معجم البلدان (ج ١ ص ١٤٩ - ١٥٣) .

النيابة الثالثة

(نيابة أطرابلس ، وفيها حملتان)

الجملة الأولى

(في ذكر أحوالها ومعاملاتها)

أما معاملاتها فبالدنانير والدرهم النقرة على مامر في الديار المصرية ودمشق وحلب ؛ وصنعتها كصنجة دمشق في الذهب والفضة ؛ وبها الفلوس العتق (١) فلسا بدرهم ؛ ورطلها ستمائة درهم كما في دمشق ، وأوقيه اثنتا عشرة أوقية كل أوقية خمسون درهما . وتعتبر مكيلاتها بالمكوك كما في حلب ؛ ويقاس القماش بها بذراع كل عشرة أذرع منه إحدى عشرة ذراعا بالمصرى ؛ وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما في الديار المصرية وغيرها من البلاد الشامية ؛ وتعتبر أرض زراعتها بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في دمشق وغيرها من البلاد الشامية ؛ ونحارجها على ماتقدم في دمشق وغيرها من بلاد الشام .

وأما جيوشها فن الترك ومن في معناهم على ماتقدم في غيرها من الممالك الشامية ، وبها أمير واحد مقدّم ألف غير النائب ، وباقي أمراءها طبلخاناه وعشرات ونحسات ومن في معناهم من العشرينات وغيرها ؛ وبها من وظائف أرباب السيوف نيابة السلطنة : وهي نيابة جليلة ، نائبها من أكبر مقدّمى الألوف ، وهو في الرتبة الثانية من حلب كما في حماة ؛ وليس بها قلعة يكون لها نائب بل نائب السلطنة هو المتسلم لجمعها والمتصرف فيما لديها من أمر العسكر وغيره .

ومنها الجيوبية ، وبها ثلاثة حجاب أكبرهم طبلخاناه وهو حاجب الحجاب ، والحاجبان الآخران كل منهما أمير عشرة .

(١) بياض في الأصل .

ومنها المهندارية، وشدّ الدواوين، وشدّ الخصاص، وشدّ مراكز البريد، وشدّ
المنيا، وتقابة النقباء، وأميراخورية، وشدّ الأوقاف، وتقدمة البريدية، وأميراخورية
البريد، وولاية المدينة، وتقدمة التُّرْكان وغير ذلك، وكلها يوليها النائب بها .

وبها من أرباب الوظائف الديوانية ناظر المملكة، وناظر الجيش، وصاحب
ديوان المكتبات، وولاية الثلاثة من الأبواب السلطانية بتواقيع شريفة، وكُتَّاب
دَسْت، وكُتَّاب دَرَج، ولايتهم من نائبها .

وبها من الوظائف الدينية قضاء القضاة من المذاهب الأربعة، وقاضياً عسكرياً
شافعيّ وحنفيّ، ومفتياً دار عدل كذلك، ومحتسبٌ، ويكل بيت المال . إلى غير
أولئك من أرباب الوظائف .

وأما ترتيب النيابة بها فإنّ النائب يركب في يومى الإثنين والخميس من دار
النيابة، ويخرج في موكبه من الأمراء والأجناد حتى يأتى ساحل البحر، ثم يعود إلى
دار النيابة ومعه جميع الأمراء والأجناد، خلا الأمير المقدم فإنه لا يحضر معه إلى دار
النيابة . وإذا حضر النائب إلى دار النيابة جلس في دار العدل بصدر الإيوان
وليس بها كرسيّ سلطنة، ويجلس قاضيان: شافعيّ وحنفيّ عن يمينه، ومالكيّ وحنبليّ
عن يساره، ويكل بيت المال تحت القاضي المالكيّ، ويجلس كاتب السر أمامه
على القرب من يساره وكُتَّاب الدَسْت خلفه، وحاجب الحُجَّاب جالس أمام النائب
على القرب منه، ويأخذ الحُجَّاب الصَّغار القِصَص ويناولونها إلى حاجب الحُجَّاب
فيدفعها لكاتب السر، ويفصل المحاكمات، ثم ينفض المجلس ويمد السَّمَّاطُ فَيَأْكُلُون
وينصرفون كما في غيرها .

الجملة الثانية

(فيا هو خارج عن حاضرتها، وهو على ضريين)

الضرب الأول

(التواب، وهم على قسمين)

القسم الأول

النيابات بمضافات نفس أَطْرَابُلَسَّ، وبها خمس نيابات كلهم يَكْتَبُونَ عن الأبواب السلطانية في المهمات ونحوها، دون خَلَّاصِ الحقوق. فإنه يختص بنائب السلطنة بها.

- الأولى - (نيابة حِصْنِ الأكراد) - ونيابته إمرة عشرة.
- الثانية - (نيابة حِصْنِ عَكَار) - ونيابته إمرة عشرة.
- الثالثة - (نيابة بَلَّاطُنُس) - ونيابتها إمرة عشرة.
- الرابعة - (نيابة صَهْيُون) - ونيابتها إمرة عشرة.
- الخامسة - (نيابة اللَّاذِقِيَّة) - ونيابتها إمرة عشرة.

القسم الثاني

(نيابات قِلَاعِ الدعوة، وهي ست نيابات خارجا عن مِصْيَافِ)

حيث أضيفت إلى دِمَشْقَ)

- الأولى - (نيابة الرِّصَافَةِ) - وأصل نيابتها إمرة عشرة.
- الثانية - (نيابة الحَوَائِي) - وأصل نيابتها إمرة عشرة.
- الثالثة - (نيابة القُدُّمُوس) - وأصل نيابتها إمرة عشرة.

- الرابعة - (نيابة الكهف) - وأصل نيابتها إمرة عشرة .
 - الخامسة - (نيابة المنيقة) - وأصل نيابتها إمرة عشرة .
 - السادسة - (نيابة القلعة) - وأصل نيابتها إمرة عشرة .
- قلت : وقد أخبرني بعض كتّاب المملكة أن هذه النيابات كلّها آستقر فيها أجناد؛ وبالجملة فإنما يولّى فيها نائب طرابُلُس بكل حال .

الضرب الثاني

(الوُلاة)

- وبها ولايات ست ، ووُلاة جميعها أجناد، عن نائب طرابُلُس .
- الأولى - ولاية أنطُرطوس .
- الثانية - ولاية جُبّة المُنظرَة .
- الثالثة - ولاية الظنّين .
- الرابعة - ولاية بُشريه .
- الخامسة - ولاية جَبَلَة .
- السادسة - ولاية أنفة .

النيابة الرابعة

(نيابة حماة؛ وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في ذكر أحوالها ومعاملاتها)

أما معاملاتها فعلى ما تقدّم في غيرها من الممالك الشامية من المعاملة بالدنانير والدرهم، وصنّجتها كصنّجة دمشق وحلب وطرابُلُس، تنقص عن الصنّجة المصرية

كل مائة مثقال مثقال وربع ، وكل مائة درهم درهم وربع ، ورطلها سبعمائة وعشرون
درهما بصنجنها ، ومكيلاتها معتبرة بالمشوك كما في حلب وبلادها ، ومكوكها مقدر
كل مكوكين وربع مكوك غرارة بالدمشقي ، وقياس قماشها بذراع (١)
وقياس أرضها بذراع العمل المعروف .

الجملة الثانية

(في ترتيب نياتها ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما بحاضرتها)

أما جيوشها فمن الترك ومن في معناهم ، وبها عدة من أمراء الطبلخانا والعشرات
والخمسات ومقدمي الحلقة وأجنادها ، وليس بها مقدم ألف . وقد تقدم في الكلام
على قواعد الشام المستقرة أنها كانت بيد بقايا الملوك الأيوبية إلى آخر الدولة
الناصرية "محمد بن قلاوون" في سلطته الأخيرة . قال في "مسالك الأبصار" :
إن صاحبها كان مستقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء
وكتاب السروسائر الوظائف بها ، وتكتب المناشير والتواقيع من جهته ولكنه لا يمضي
أمرا كبيرا في مثل إعطاء إمرة أو وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر ، وهو
لا يجيبه إلا بأن الرأي مآتراه ومن هذا ومثله ، وربما كتب له مرسوم شريف
بالتصرف في مملكته . قال في "مسالك الأبصار" : ومع ذلك فصاحب مصر
متصرف في ولاية صاحبها وعزله ، من شاء ولآه ومن شاء عزله ، ولم يزل الأمر
على ذلك إلى أن خلع الأفضل محمد بن المؤيد المتقدم ذكره من سلطنتها ، بعد موت

(١) بياض في الأصل .

(٢) أى وأسدت نياتها في ذلك الحين إلى ملوك أبيه "سيف الدين طغتمش" كذا في تاريخ أبي الفداء .

السلطان الملك الناصر وملك آبنه أبى بكر؛ ونائبها من أكابر الأمراء المقدمين، ولكنه فى الرتبة دون نائب طرأبلَس وإن كان مساويا له فى المكتابة من الأبواب السلطانية؛ ويظهر ذلك فى كتابة المطلقات الجكار حيث يذكر نائب طرأبلَس قبله .
وبها من وظائف أرباب السيوف المحبوبة؛ وبها حاجبان : الكبير منهما طبلخاناه والثانى عشرة؛ والمهمندارية ، وبها آثنان وهما جنديان ؛ وشد مراكر البريد، وبه جندى؛ وأميراخورية البريد ، ومتوليا جندى؛ وولاية المدينة ، واليهما جندى؛ ونقابة العساكر، وبها آثنان وهما جنديان أحدهما أكبر من الآخر . وجميع أرباب الوظائف يوليم النائب بها بتوقيع كريمة ، وليس بها قلعة لها نائب .

وبها من الوظائف الدينية من أرباب الأقالام أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، وولايتهم من الأبواب السلطانية بتوقيع شريفة ، وقاضى عسكر حنفى ، وليس بها قضاة عسكر من المذاهب الثلاثة الأخر ولا مفتو دار عدل؛ وبها وكيل بيت المال ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ووكالة شرعية ؛ ومحتسب بولاية عن النائب بتوقيع كريم .

وبها من الوظائف الديوانية من أرباب الأقالام كاتب سر، ويعبر عنه فى ديوان الإنشاء بصاحب ديوان المكتبات بحماة المحروسة ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ، وله أتباع من كُتاب الدست وكُتاب الدرَج وولايتهم عن النائب بتوقيع كريمة ؛ وبها ناظر المملكة القائم مقام الوزير، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ، وله أتباع من كُتاب وشهود، وولايتهم عن النائب بتوقيع كريمة .
إلى غير ذلك من وظائف صغار يوليها النائب بتوقيع كريمة .

وترتيب المؤكَب بها أن النائب بها يركب من دار النيابة فى يومى الخميس والأثنين وصحبته العسكر من الأمراء وأجناد الحلقة ، ويخرج إلى خارج المدينة من قبلها

ويسير في الموكب إلى ضيعة تسمى بقرين على القرب من حماة ، ثم يعود في موكبه حتى يقف بسوق الخيل بمكان خارج المدينة يعرف بالموقف ، وينادى بينهم على الخيول ، وربما نودى على بعض العقارات ، ثم تصيح الجاويشية ، وينصرف عن ذلك المكان ويدخل المدينة ، ويأتى دار النيابة ويدخل أول العسكر من داخل باب يعرف باب العسرة^(١) ، ثم يترجل الناس على الترتيب على قدر منازلهم حتى لا يبقى راكب سوى النائب بمفرده ، ولا يزال راكبا حتى يترجل شبك بدار النيابة معد للحكم فيجلس فيه ويجلس عنده داخل الشباك القضاة الأربعة : الشافعى والحنفى عن يمينه ، والمالكى عن يساره والحنبلى يليه ، ويجلس الأمراء على قدر منازلهم ، وكاتب السر وناظر الجيش أمام النائب خارج الشباك ، ويقف هناك الحاجبان والمهمندار ونقيب النقباء ، وتُرفع القصص فيقرأها كاتب السرعة ويرسم فيها بما يراه ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف القضاة ويدخل إلى قبة معدة لجلوسه ومعه كاتب السر وناظر الجيش والأمراء فيفصل بقية أموره مما يتعلق بالجيش وغيره ، ثم يمد السباط بعد ذلك فيأكلون وينصرفون .

الضرب الثانى

(ماهو خارج عن حاضرتها)

وليس بخارجها نيبات ، بل يقتصر فيه على ثلاث ولايات ، ولانها أجناد يوليمهم النائب بها .

الأولى - ولاية برها كما في دمشق وحلب .

الثانية - ولاية بارين .

الثالثة - ولاية المعرة . وليس بها عرب ولا تُركان تنسب إليها .

(١) فى الضوء "باب العزة" .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفَد، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتنا فكما في دِمَشق وغيرها من البلاد الشامية؛ وصنجاتنا كصنجاتنا ورطلها^(١) وأواقيهُ اثنتا عشرة أوقية كل أوقية ...^(١) وتعتبر ميكلاتها ...^(١) وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما في غيرها، وتعتبر أرض زراعتها بالفدان الإسلاميّ والفدان الروميّ كما في غيرها من البلاد الشامية .

وأما جيوشها ووظائفها الديوانية ووظائفها الدينية، فكما في طَرَابُلُس . وأما ترتيب النيابة بها ...^(١) ...

الجملة الثانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها)

وليس بأعمالها نيابة بل كلها ولايات، يليها أجناد من قبل نائب صَفَد، وهي إحدى عشرة ولاية .

الأولى - ولاية بَرَّها كما في غيرها من الممالك المتقدمة .

الثانية - ولاية الناصرة .

الثالثة - ولاية حَطَبِيَّة .

الرابعة - ولاية تَبْنين وهونين .

الخامسة - ولاية عَثَلِيَّة .

(١) يياض في الأصل في المواضع الأربعة .

- السادسة - ولاية عكا .
- السابعة - ولاية صور .
- الثامنة - ولاية الشاغور .
- التاسعة - ولاية الإقليم .
- العاشر - ولاية الشقيف .
- الحادية عشرة - ولاية جينين .

النيابة السادسة (نيابة الكرك ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى (فيما هو بمحاضرتها)

أما معاملاتها فكما في غيرها : من المعاملة بالدنانير والدرهم ، وصنعتها ^(١) ورطلها ^(١) وأواقيها اثنتا عشرة أوقية كل أوقية ^(١) ويقاس قماشها بذراع ^(١) وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما في غيرها ، وتعتبر أرض زراعتها بالفدان الإسلامي والفدان الرومي كما في غيرها من بلاد الشام ، وكذلك نحراج أرضها .

وأما جيوشها فعلى ما تقدم في غيرها من الممالك من اجتماعها من الترك ومن في معنهم ؛ وبها من الأحرار الطليخان والعشرات والخمسات ومن في معنهم ، وليس بها مقدم ألف غير النائب كما تقدم والمجوية والمهندارية وتقدمة البريد ، وولاية القلعة ؛ وبها من الوظائف الديوانية ناظر المال وناظر الجيش وكتب درج ؛ وولاية هؤلاء الثلاثة من الأبواب السلطانية .

(١) يياض في الأصل .

(١) وأما ترتيب الموكب بها .

الجملة الثانية

(فما هو خارج عن حاضرتها، وهو على ضريين)

الضرب الأول

(الولايات، وفيها أربع ولايات)

الأولى - ولاية برها كما في غيرها .

الثانية - ولاية الشؤيك .

الثالثة - ولاية زُغَر .

الرابعة - ولاية مُعَانَ .

الضرب الثاني

(العرب)

وعرب الكرك فيما ذكره في "مسالك الأبصار": بنو عُقبة، وعُقبة من جُدَام .

قال في "مسالك الأبصار": وكان آخر أمرائهم شطى بن عتبة (؟) وكان سلطاننا

(١) بياض بالأصل بقدر ستة أسطر .

الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أقبل عليه إقبالا أحله فوق السما كين وألحقه بأمرآء آل فضل وأمرآء آل مرا ، وأقطعه الإقطاعات الجليلة ، وألبسه التشريف الكبير، وأجرل له الحباء، وعمّر له ولأهله البيت والحباء. وكذلك ممن ينسب إلى عرب الكرك بنو زهير عرب الشؤبك ، وآل عجبون ، والعطويون ، والصونيون وغيرهم .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من المقالة الثانية
(في المملكة الحجازية ، وفيه سبعة أطراف)

الطَّرَفُ الأوَّلُ

(في فضل الحجاز وخواصه وعجائبه)

أما فضله ففي "صحيح مسلم" من حديث جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ! قال : " غَلَّظَ القلوبَ والحَفَاءَ في المَشْرِقِ ، والإيمانُ في أهلِ الحِجَازِ " .

قلت : وفي ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه ، وذلك أن هواء كل بلد يؤثر في أهله بحسب ما يقتضيه الهواء ، ولذلك تجد لأهل كل بلد صفات وأحوالا تخصهم ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن أهل الحجاز بالرقّة كما أخبر عن أهل المشرق بالغلظة والحفء ، وناهيك بفضل الحجاز وشرفه أن به مهبط الوحي ومنبع الرسالة ، وبه مكة والمدينة اللتين هما أشرف بلاد الله تعالى وأجل بقاع الأرض ، ولكل منهما فضل يخصه يأتي الكلام عليه عند ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأما خواصه فيختص من جهة الشرع بأمرين :

أحدهما - أنه لا يستوطنه مشرك من ذمى ولا معاهد، وإن دخله لم يمكن من الإقامة في موضع منه أكثر من ثلاثة أيام ثم يُصَرَف إلى غيره ، فإن أقام بموضع أكثر من ثلاثة أيام ، عُرِّرَ إن لم يكن له عُدْر . قال أصحابنا الشافعية : ولو عقد الإمام عقداً لكافر على الإقامة بالحجاز على مسمى بطل العقد ووجب المسمى .

الثاني - أنه لا تُدْفَن فيه موتاهم وإن دفن أحد منهم فيه نقل إلى غيره .

وأما عجائبه فمنها مقام إبراهيم عليه السلام ، وهو الحجر الذي كان يقوم عليه لبناء البيت فأثرت فيه قدماه وصار أثرهما فيه ظاهراً كما أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ وهو باق على ذلك أمام البيت من جهة الباب إلى الآن .

(ومنها) مذكوره في "الروض المعطار" من أن أثر قدم إسماعيل عليه السلام بمسجد بنى في حجر فيه أثر عقبه حين رَفَس إبليس برجله عند اعتراضه له في ذهابه مع أبيه للدَّبْح .

(ومنها) حصى الجمار، وهو أنه في كل سنة يرمى الحجاج عند الجمرات الثلاث في أيام منى ما تحصل منه التلال العظيمة على طول المدى، ومع ذلك لم يكن موجوداً بنى منها إلا الشيء القليل على تطاول السنين ، يقال إن مهما تُقبِّل منها رفع والباقي منها ما لم يتقبل .

الطرف الثاني

(في ذكر حدوده ، وأبْتداء عمارته ، وتسميته حجازاً)

أما حدوده فأعلم أن الحجاز عبارة عن مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها على خلاف في بعض ذلك ، يأتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى ، وهو بجملته قطعة من جزيرة العرب ، وهي ما بين بحر القلزم وبحر الهند وبحر فارس والفرات وبعض بادية الشام .

قال المدائني: جزيرة العرب خمسة أقسام: تِهَامَةٌ، وَنَجْدٌ، وَالْحِجَازُ، وَالْعَرُوضُ، وَالْيَمَنُ. وزاد ابن حوقل في أقسامها بادية العراق وبادية الجزيرة فيما بين دَجَلَةَ وَالْفُرَاتِ وبادية الشام، وفيها خلاف يطول ذكره.

قال النووي في "تهذيب الأسماء واللغات": وسميت جزيرة العرب جزيرةً لِأَنجِزَارِ الْمَاءِ عَنْهَا حَيْثُ لَمْ يَمُدَّ عَلَيْهَا وَإِنْ كَانَ مُطِيفًا بِهَا. والحجاز عندهم عبارة عن جبل السَّراة - بالسَّين والراء المهملتين - على ما أورده في "الروض المعطار"؛ وَضَبِطَ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" فِي الْكَلَامِ عَلَى الْبَلْقَاءِ مِنَ الشَّامِ بِالشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ، وَهُوَ جَبَلٌ يُقْبَلُ مِنَ الْيَمَنِ حَتَّى يَتَّصِلَ بِبَادِيَةِ الشَّامِ، وَهُوَ أَكْثَرُ جِبَالِ الْعَرَبِ. وَحَدَّهُ مِنَ الْجَنُوبِ تِهَامَةٌ: وَهِيَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ بَحْرِ الْهِنْدِ فِي غَرْبِيِّ بِلَادِ الْيَمَنِ؛ وَحَدَّهُ مِنَ الشَّرْقِ بِلَادُ الْيَمَنِ وَهِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ فَارِسَ؛ وَحَدَّهُ مِنَ الشَّمَالِ نَجْدٌ، وَهُوَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْعِرَاقِ؛ وَحَدَّهُ مِنَ الْغَرْبِ بَحْرُ الْقَلْزُومِ وَمَا فِي جَنُوبِيهِ مِنْ بَادِيَةِ الشَّامِ.

الطرف الثالث

(في ابتداء عمارته وتسميته حجازا)

أما ابتداء عمارته فإنه لما أنبت أولاد سام بن نوح عليه السلام وهم العرب في أقطار هذه الجزيرة حين قسم نوح الأرض بين بنيهِ، نزل الحجاز منهم من العرب البادية طَسْمٌ وَجَدَيْسٌ [ومنزلهم] الْيَمَامَةُ وَمَنْزَلُهُمْ جَرْمٌ عَلَى الْقَرْبِ مِنْ مَكَّةَ فَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عِمَارَةِ الْحِجَازِ بَعْدَ الطُّوفَانِ؛ ثُمَّ بَادَتْ هَذِهِ الْعَرَبُ وَهَلَكُوا عَنْ آخِرِهِمْ، وَدَرَسَتْ أَخْبَارُهُمْ وَأَنْقَطَعَتْ آثَارُهُمْ. وعمر الحجاز بعدهم جُرْمُ الثَّانِيَةِ، وَهُمْ بَنُو جُرْمِ بْنِ قَحْطَانَ بْنِ عَابِرِ بْنِ شَائِحِ بْنِ أَرْنَقَشْدَانَ بْنِ سَامِ بْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَلَمَّا أَسْكَنَ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَدَهُ إِسْمَاعِيلَ بِمَكَّةَ كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا إِنِّي

أَسَكَنْتُ مِنْ دُرِّيِّ بَوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) كانت جرهمُ الثانية نازلين بالقرب من مكة فاتصلوا بإسماعيل عليه السلام، وتزوج منهم وكثروا وبتناسلوا فعمروا الحجاز إلى الآن .

وأما تسميته حجازا، فقال الأصمعيّ : سمي بذلك لأنه حمزين نجدٍ وتِهَامَةٌ ولأمتداده بينهما على ما تقدّم . وقال ابن الكلبيّ : سمي بذلك لما احتجز به من الجبال . قلت : ووهم في "الروض المعطار" فقال : سمي حجازا لأنه حمزين الغور والشام، وقيل لأنه حمز بين نجدٍ والسّراة ، وما أعلم ما الذي أوقعه في ذلك .

الطَّرْفُ الرَّابِعُ

(في ذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة)

أما مياهه وعيونه، فقال المتكلمون في المسالك والممالك : ليس بالحجاز بل بجزيرة العرب جملةً نهرٌ يجري فيه مرَّكَبٌ، وإنما فيه العيون الكثيرة المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والأمطار، الممتدة من وادٍ إلى وادٍ، وعليها قُرَاهمٌ وحدائقهم وبساتينهم مما لا يحصى ذلك كثرةً، كما في الطائف و بطن مرٍّ، و بطن نَحْلٍ، وعُسفان و بَدْرٍ وغير ذلك .

وأما جباله المشهورة، فأعلم أن جميع أرض الحجاز جبال وأوديةٌ ليس فيها بسيط من الأرض، وجباله أكثر من أن تدخل تحت العدِّ أو يأخذها الحصر، وقد ذكر الأزرق في "تاريخ مكة" أن لمكة ^(١) اثني عشر ألف جبل لكل جبل منها اسم يخصه ولكن قد شهرت جبال مكة والمدينة والينبع .

(١) لعله للحجاز .

فمن جبال مكة المشهورة (جبل أبي قبيس) وهو الجبل الذي في جنوبي مكة ممتدا على شرقها . قال الأزرقى : وهو أول جبل وُضِع بالأرض ولذلك كان أقرب الجبال إلى البيت .

(ومنها) جبل قينقاع^(١) - بقاف مفتوحة وياء مثناة تحت ساكنة ونون مضمومة وقاف ثانية مفتوحة بعدها ألف وعين مهملة - وهو الجبل الذي غربى مكة ، سمي بذلك لمكان سلاح تُبَع منه ، والقعقة صوت السلاح ، كما سمي جِيَاد جِيَادا لمكان خيله منها .

(ومنها) جبل حرّاء - بجاء مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف - وهو جبل يُشْرِف على مكة من شرقها يرى البيت من أعلاه ، وفيه الغار الذي كان يتعبّد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وفيه جاءه جبريل عليه السلام في أول النبوة .

(ومنها) جبل ثورٍ - بفتح التاء المثناة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر - وهو جبل مشرف على مكة من جنوبيها ، وفيه الغار الذي آخفت في رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

(ومنها) جبل تبيير^(٢) - بفتح التاء المثناة فوق وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وراء مهملة في الآخر - وهو جبل مشرف يرى من منى والمزدلفة .

الطَّرَفُ الْخَامِسُ

(في زُرُوعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره)

أما زروعه ففيه من الحبوب المزدرة البر والشعير والذرة والسلت ، وجميعها تُزْرَع على المطر ، وربما زُرِع بعضها على ماء العيون ، والشعير والذرة أكثر الحبوب

(١) صوابه قَيْقَاعَان . أنظر معجم البلدان ومعجم ياقوت . (٢) صوابه تَبِيرُ التاء المثناة .

وجودا، ويُزرَع فيه على العيون البَيْطِيخُ : الأَخْضَرُ والأَصْفَرُ، والقِثَاءُ، والبَاذِجَانُ،
والدَّبَّاءُ، والملوخيا، والهِندِباءُ، والفُجْلُ، والكُرَّاثُ، والبَصَلُ، والثُّومُ .

وأما فواكهه ففيه الرُّطْبُ، والعِنْبُ، والمَوْزُ، والتَّفَّاحُ، والسَّفْرَجَلُ، وَاللِّيمُونُ
وغير ذلك .

وأما رياحينه ففيه التامرِحَنَاءُ، ويسمى عندهم القَاغِيَّةُ : بالفاء وغين معجمة وياء
مشناة تحت وهاء في الآخر .

وأما مواشيه ففيه الإِبِلُ، والضَّائُنُ، والمعزُّ بكثرة، والبقرِ بقلَّة . وبه من الخيل
ما يفوق الوصف حسنه، ويُعجز البرق إدراكه .

وأما وحوشه ففيه الغِزْلَانُ، وحُرُّ الوحش، والدَّبَّابُ، والضَّبَاعُ، والثعالبُ،
والأرانب وغيرها .

وأما طيوره ففيه الحمام، والدجاج، والحِدَاةُ، والرَّخَمُ .

الطرف السادس

(في قواعده وأعماله ؛ وفيه ثلاث قواعد)

القاعدة الأولى

(مكة المشرفة ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

وقد ذكر العلماء رحمهم الله لها ستة عشر اسما . ” مَكَّة ” بفتح الميم وتشديد

الكاف المفتوحة وهاء في الآخر . كما نطق به القرءان الكريم في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي

كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِطَّنْ مَكَّةَ ﴾ ، سميت بذلك لقله ماؤها أخذنا من

قولهم أَمْتَكُ الفصِيلُ ضَرَعُ أُمِّهِ إِذَا أَمْتَصَهُ ، وَقِيلَ لِأَنَّهَا تَمُكُّ الذُّنُوبَ بِمَعْنَى أَنَّهَا تَذْهَبُ بِهَا ، وَيُقَالُ لَهَا أَيْضًا (بَكَّةٌ) بِإِبْدَالِ الْمِيمِ بَاءً مُوَحَّدَةً . وَبِهِ نَطَقَ الْقُرْآنُ أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ ﴾ قَالَ اللَّيْثُ : سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا تَبُكُّ أَعْنَاقَ الْجَابِرَةِ أَيْ تَدُقُّهَا وَالْبُكَ الدَّقُّ ، وَقِيلَ بِالْمِيمِ الْحَرَمُ كُلُّهُ وَبَكَّةٌ الْمَسْجِدُ خَاصَّةً ، حَكَاهُ الْمَوْرِدِيُّ عَنِ الزَّهْرِيِّ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، وَقِيلَ بِالْبَاءِ أَسْمٌ لِمَوْضِعِ الطَّوَافِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَزْدِحَامِ النَّاسِ فِيهِ وَالْبُكَ الْأَزْدِحَامُ . وَمِنْ أَسْمَائِهَا أَيْضًا (أُمُّ الْقُرَى) وَ(الْبَلَدُ الْأَمِينُ) وَ(أُمُّ رُحْمٍ) بِضَمِّ الرَّاءِ وَإِسْكَانِ الْحَاءِ الْمَهْمَلَتَيْنِ لِأَنَّ النَّاسَ يَتَرَاخَمُونَ فِيهَا وَيَتَوَادَعُونَ ، وَ(صَلَاحٌ) مَبْنِيٌّ عَلَى الْكَسْرِ كَقَطَامٍ وَنَحْوِهِ ، وَ(الْبَاسَةُ) لِأَنَّهَا تَبْسُ الظَّالِمَ أَيْ تَحْطُمُهُ ، وَ(النَّاسَةُ) بِالنُّونِ لِأَنَّهَا تَنْسُ الْمَلْحَدَ فِيهَا أَيْ تَطْرُدُهُ ، وَ(النَّسَاسَةُ) لِذَلِكَ أَيْضًا ، وَ(الْحَاطِمَةُ) لِأَنَّهَا تَحْطِمُ الظَّالِمَ كَمَا تَقْدَمُ ، وَ(الرَّاسُ) وَ(كُوْنِي) بِضَمِّ الْكَافِ وَفَتْحِ الْمَثَلَةِ ، وَ(الْقُدْسُ) وَ(الْقَادِسُ) وَ(الْمَقْدَسَةُ) . قَالَ النَّوَوِيُّ : وَكَثْرَةُ الْأَسْمَاءِ تَدُلُّ عَلَى شَرَفِ الْمَسْمُومِ ، وَلِذَلِكَ كَثُرَتْ أَسْمَاءُ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَاءُ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ! وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهَا مِنْ جَمَلَةِ الْحِجَازِ . وَحَكَى أَبُو حَوَالٍ عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ أَنَّهَا مِنْ تِهَامَةَ وَرَجَّحَهُ فِي "تَقْوِيمِ الْبُلْدَانِ" . وَمَوْقِعُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الثَّانِي مِنَ الْأَقْلِيمِ السَّبْعَةِ . قَالَ فِي "كِتَابِ الْأَطْوَالِ" : طَوْلُهَا سَبْعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَثَلَاثَ عَشْرَةَ دَقِيقَةً ، وَعَرْضُهَا إِحْدَى وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً . وَقَالَ فِي "الْقَانُونِ" : طَوْلُهَا سَبْعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً فَقَطْ ، وَعَرْضُهَا إِحْدَى وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَعِشْرُونَ دَقِيقَةً . وَقَالَ فِي "رِسْمِ الْمَعْمُورِ" : طَوْلُهَا سَبْعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً ، وَعَرْضُهَا إِحْدَى وَعِشْرُونَ . وَقَالَ كُوشِيَا وَطَوْلُهَا سَبْعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَعِشْرَ دَقَائِقَ ، وَعَرْضُهَا إِحْدَى وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَأَرْبَعُونَ دَقِيقَةً . وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ : طَوْلُهَا سَبْعٌ وَسِتُّونَ دَرَجَةً وَإِحْدَى وَثَلَاثُونَ دَقِيقَةً ، وَعَرْضُهَا إِحْدَى وَعِشْرُونَ دَرَجَةً وَعِشْرُونَ دَقِيقَةً . وَهِيَ مَدِينَةٌ فِي بَطْنِ وَادٍ وَالْحِجَالِ

مَحْتَفَةٌ بِهَا ، فَأَبُو قُبَيْسٍ شَرَفَ عَلَيْهَا مِنْ شَرْقِيَّهَا وَأَجْيَادٌ بَفَتْحِ الْهَمْزَةِ مُشْرَفٌ عَلَيْهَا مِنْ غَرْبِيَّهَا . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَوْضِعِ خَيْلِ تَبَعٍ مِنْهُ . قَالَ فِي "الرَّوَضِ الْمُعْطَارِ" : وَسَعَتَهَا مِنَ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ نَحْوَ مِيلَيْنِ ، وَمِنْ أَسْفَلِ أَجْيَادٍ إِلَى ظَهْرِ جَبَلِ قُعَيْقَعَانَ مِثْلَ ذَلِكَ . قَالَ الْكَلْبِيُّ : وَلَمْ يَكُنْ بِهَا مَنَازِلُ مَبْنِيَّةٌ فِي بَدَأِ الْأَمْرِ ؛ وَكَانَتْ جُرْهُمُ وَالْعَمَالِقَةُ حِينَ وَلَايَتِهِمْ عَلَى الْحَرَمِ يَنْتَجِعُونَ جِبَالَهَا وَأَوْدِيَّتَهَا يَنْزِلُونَ بِهَا ؛ ثُمَّ جَاءَتْ قُرَيْشٌ بَعْدَهُمْ فَمَشُوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى أَنْ صَارَتِ الرِّيَاسَةُ فِي قُرَيْشِ لُقُصَى بْنِ كَلَابِ بْنِ أَبِي دَارِ النَّدْوَةِ ، يَحْكُمُ فِيهَا بَيْنَ قُرَيْشٍ ؛ ثُمَّ صَارَتْ لِمَشَاوَرَتِهِمْ وَعَقْدِ الْأُلُوِيَّةِ فِي حُرُوبِهِمْ ؛ ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ فِي الْبِنَاءِ : فَبَنَوْا دُورًا وَسَكَنُوهَا ، وَتَزِيدُ الْبِنَاءُ فِيهَا حَتَّى صَارَتْ إِلَى مَا صَارَتْ . وَبَنَاؤُهَا بِالْحَجْرِ وَعَلَيْهَا سُورٌ قَدِيمٌ قَدْ هُدِمَ أَكْثَرُهُ وَبَقِيَ أَثَرُهُ وَالْمَسْجِدُ فِي وَسْطِهَا . وَقَدْ ذَكَرَ الْأَزْرَقِيُّ فِي "تَارِيخِ مَكَّةَ" أَنَّ الْكَعْبَةَ كَانَتْ قَبْلَ أَنْ تُدْحَى الْأَرْضُ رَابِيَةً حَمْرَاءَ مُشْرِفَةً عَلَى وَجْهِ الْمَاءِ ، وَلَمَّا أَهْبَطَ اللَّهُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَجَاءَ إِلَى مَكَّةَ ، اسْتَوْحَشَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ قُبَّةً مِنَ الْجَنَّةِ مِنْ دُرَّةٍ بِيضَاءَ لَهَا بَابَانِ فَوُضِعَتْ مَكَانَ الْبَيْتِ فَكَانَ يَتَأَسَّسُ بِهَا ، وَجَعَلَ حَوْلَهَا مَلَائِكَةً يَحْفَظُونَهَا مِنْ أَنْ يَقَعَ بِبَصْرِ الشَّيَاطِينِ عَلَيْهَا . قَالَ فِي "الرَّوَضِ الْمُعْطَارِ" : وَكَانَ الْحَجَرُ الْأَسْوَدُ كَرَسِيًّا يَجْلِسُ عَلَيْهِ . قَالَ : وَطُولُهُ ذِرَاعٌ . وَالَّذِي ذَكَرَهُ الْمَأُورِدِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمَّا قَالُوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ لِأَذْوَابِ الْعَرْشِ خَوْفًا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ تَعَالَى فَطَافُوا حَوْلَهُ سَبْعًا فَرَضَى عَنْهُمْ وَقَالَ : آبَنُوا فِي الْأَرْضِ بَيْتًا يَعُودُ بِهِ مَنْ سَخِطْتُ عَلَيْهِ مِنْ بَنِي آدَمَ فَبَنَوْا هَذَا الْبَيْتَ ، وَهُوَ أَوَّلُ بِنَائِهِ ؛ ثُمَّ بَنَاهَا إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَاعِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ قَالَ فِي "الرَّوَضِ الْمُعْطَارِ" : وَلَمْ يَجْعَلْ لَهَا سَقْفًا . قَالَ : ثُمَّ أَنهَدِمَتْ الْكَعْبَةَ فَبَنَيْتُهَا الْعَمَالِقَةُ ، ثُمَّ أَنهَدِمَتْ فَبَنَيْتُهَا جُرْهُمُ ، ثُمَّ أَنهَدِمَتْ فَبَنَاهَا قُصَى بْنُ كَلَابٍ وَسَقَّفَهَا بِخَشَبِ

الدَّوْمِ وجريد النخل ، وجعل ارتفاعها خمسا وعشرين ذراعا ، ثم استهدمت وكانت فوق القامة فأرادت قُرَيْشٌ تليتها فهدمتها وبنتها ، والنبي صلى الله عليه وسلم عمره خمس وعشرون سنة ، وشهد بناءها معهم ، وكان بابها بالأرض فقال أبو حذيفة ابن المغيرة : يا قوم أرفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل إلا مسلم ففعلوا ذلك وسقفوها بنخشب سفينة ألقاها البحر إلى جدّة .

قال في "الروض المعطار" : وكان طولها ثمانى عشرة ذراعا ، ثم أحترق البيت حين حوَّصر ابن الزبير بمكة وتأثرت حجارتها بالنار ، فهدمه ابن الزبير وأدخل فيه ستة أذرع من الحجر ، وقيل سبعة ، وجعل له بايين ملصقين بالأرض : شرقيا وغربيا يدخل من أحدهما ويخرج من الآخر ، وجعل على بابها صفايح الذهب ، وجعل مفاثحه من ذهب . قال في "الروض المعطار" : وبلغ بها في العلو سبعا وعشرين ذراعا . فلما قتل ابن الزبير كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج يأمره بإعادته على ما كان عليه في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من بناء قريش فهدم جانب الحجر وأعادته إلى ذلك ، وسد الباب الغربى ورفع الشرقى عن الأرض إلى حدّه الذى هو عليه الآن ؛ وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول : "وَدِدْتُ أَنى كُنْتُ حَمَلْتُ ابن الزبير من بناء الكعبة ماتمَّحَلَّ" .

ثم جدّد المتوكل رُخَامَ الكعبة فأزرها بفضة وألبس سائر حيطانها وسقفها الذهب ، وهو على ذلك إلى الآن . وهو مبنى بالحجر الأسود مستطيل البناء على التربع ، فى ارتفاع خمسة وعشرين ذراعا . وله أربعة أركان .

الأول - ركن الحجر الأسود . وهوما بين الشرق والجنوب ، ومنه يتبدأ الطواف .

(١) عبارة ياقوت "ورفعوا بابها مخافة السيل وأن لا يدخل فيها إلا من أحبوا" .

الثاني - الشامي . وهو ما بين الشرق والشمال ، سمي بذلك لمسامته بعض بلاد الشام ، وداخله باب المَطَّلَع إلى سطح الكعبة .

الثالث - الغربي . وهو ما بين الشمال والغرب ، سمي بذلك لمسامته بلاد المغرب ، ولو سمي بالمصري لكان جديرا به لمسامته بلاد مصر .

الرابع - اليماني . وهو ما بين الغرب والجنوب ، سمي بذلك لمسامته بلاد اليمن ولذلك خفت الياء في آخره نسبة إلى اليمن . وقال ابن قتيبة : سمي بذلك لأنه بناه رجل من اليمن يقال له ابن أبي سالم ، وقد يُطَلَّق عليه وعلى ركن الحجر الأسود اليمانيان ، وعلى الشامي والغربي الشاميان تغليا .

ثم بين ركن الحجر الأسود وبين الركن الشامي أربعة وعشرون ذراعا ، وبالقرب من الركن الأسود في هذا الحدار باب الكعبة على أربعة أذرع وشيء من الأرض يُرَقَى إليه بدرج من خشب توضع عند فتح الباب ؛ والمُلْتَرَمُ بين الركن الأسود والباب الشرقي ؛ وبالقرب من الركن الشامي منه مصلى آدم عليه السلام . وهذا الحدار مقسوم ثلاث جهات .

الأولى - من الركن الأسود إلى باب الكعبة . وهي في جهة القبلة لأهل البصرة ، والأهواز ، وفارس ، وأصبهان ، وكرمان ، وسجستان ، وشمال بلاد الصين وما على سمت ذلك .

الثانية - من الباب إلى مصلى آدم عليه السلام . وهي جهة القبلة لأهل الكوفة ، وبغداد ، وحلوان ، والقادسية ، وهمدان ، والرّي ، ونيسابور ، ومرو ، وخوارزم ، ومجآرا ، ونسا ، وفرغانة ، والشاش ، وخراسان ، وما على سمت ذلك .

الثالثة - من مصلى آدم عليه السلام إلى الركن الشامي . وهي جهة القبلة لأهل الرها ، والموصل ، وملطية ، وشمشاط ، والحيرة ، وسنجار ، وديار بكر ، وأرمينية إلى باب الأبواب ، وما على سمت ذلك .

وبين الركن الشامى والركن الغربى أحد عشر ذراعا ، وبأعلى هذا الجدار الميزابُ فى الوسط منه وخارجه الحجرُ (بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم) مستديرا به على سمت الركنين ، يفصل بينه وبين البيت فرجتان .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا .

الأولى - من الركن الشامى إلى دون الميزاب . وهى جهة القبلة لدمشق ، وحماة ، وسامية ، وحلب ، ومنبج ، وميافارقين ، وماسامت ذلك .

الثانية - وسط الجدار من الميزاب وما إلى جانبه . وهى جهة القبلة للدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) وجانب الشام الغربى ، وغزة ، والرملة ، وبيت المقدس ، وفلسطين ، وعكا ، وصيدا .

الثالثة - ما يلى هذه الجهة إلى الركن الغربى . وهى جهة القبلة لمصر بأسرها من أسوان إلى دمياط ، والإسكندرية ، وبرقة ، وكذلك طرابلس الغرب ، وصقلية ، وسواحل الغرب ، والأندلس وما على سمت ذلك . وبين الركن الغربى والركن اليمانى فى هذا الجدار الباب المسدود تجاه الباب المفتوح . وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا .

الأولى - من الركن الغربى إلى ثلث الجدار . وهى جهة القبلة لأهل الشمال من بلاد البجاوة ، والنوبة ، وأوسط الغرب من جنوب الواحات إلى بلاد الجريد إلى البحر المحيط وما على سمت : ذلك من عيذاب ، وسواكن ، وجنوب أسوان ، وجدة ، ونحو ذلك .

الثانية - من ثلث الجدار إلى دون الباب المسدود . وهى جهة القبلة لأهل الجنوب من بلاد البجاوة ودهلك وسواكن والنوبة والتكروز ، وما وراء ذلك وعلى سمتة .

الثالثة - من دون الباب المسدود إلى الركن اليماني . وهي جهة القبلة لأهل الحَبَشَةِ ، والزَّبَجِ ، والزَّيْلَعِ ، وأكثر بلاد السودان وما والاها من البلاد أو كان على سمتها .

وبين الركن اليماني وركن الحجر الأسود عشرون ذراعاً، أنقص من مقابله بذراعٍ ، وبالقرب من ركن الحجر الأسود من هذا الجدار مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات .

الأولى - الركن اليماني إلى سبعة أذرع من الجدار . وهي جهة القبلة لتدمر ، وحَضْرَمَوْتِ ، وَعَدَنَ ، وَصَنْعَاءَ ، وَعُمَانَ ، وَصَعْدَةَ ، وَالشَّحْرَ ، وَسَبِيَا ، وَزَيْبِدَ وما والاها أو كان على سمتها .

الثانية - من حدّ الجهة المتقدمة إلى دون مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة . وهي جهة القبلة لجنوب بلاد الصَّيْنِ ، والسَّنْدِ ، والتَّهَامِ ، والبحرين ، وما سامت ذلك .

الثالثة - من مصلى النبي صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة إلى ركن الحجر الأسود . وهي جهة القبلة لأهل واسِطَ ، وبلاد الصَّيْنِ ، والهِندِ ، والمَرْجَانِ ، وكَابُلِ ، والقُنْدُهَارِ ، والمعَبَرِ ، وما والاها من البلاد أو كان على سمتها .

ويقابل الجدار الشرقي من البيت مما يلي ركن الحجر الأسود زَمَزَمُ وسِقَايَةُ العَبَّاسِ ، ويقابله مما يلي الركن الشامي مَقَامُ إبراهيم عليه السلام . وقد تقدّم الكلام عليه في عجائب الحجاز فيما مرّ ، ويسمى ما بين الكعبة وزَمَزَمَ والمَقَامِ الحَاطِمِ (الحاء والطاء المهملتين) . قال في "الروض المعطار" : سمي بذلك لأنه كان من لم يجد من الأعراب

ثوباً من ثياب أهل مكة يطوف فيه رمي ثيابه هناك وطاف عريانا. وخارج المسجد الصفا والمروة اللذان يقع السعي بينهما.

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الحرم ومشاعر الحج الخارجة عن مكة)

أما الحرم فهو ما يطيف بمكة مما يحرم صيده وقطع شجره وحشيشه ونحو ذلك ، وقد تقدم أن الله تعالى جعل ملائكة يحرسون القبة التي أنزلها الله تعالى إلى آدم من الجنة ووضعت له مكان الكعبة وجعلت الملائكة حرسا لها كي لا يقع عليها بصر الشياطين ، فكانت مواقف الملائكة هي حدود الحرم . قال ابن حوقل : وليس بمكة والحرم شجر يُشمر إلا شجر البادية ، أما خارج الحرم ففيه عيون وثمار .

وآدم أن مقادير جهات الحرم متفاوت في القرب والبعد عن مكة ، وعلى حدوده أعلام منصوبة في كل جهة تدل عليه . قال في "الروض المعطار" : قال الزبير : وأول من وضع علامات الحرم ونصب العمدة عليه عدنان بن أد ، خوفا من أن تدرس معالم الحرم أو تتغير . قال : وحده من التنعيم على طريق سرف إلى مَر الظهران خمسة أميال ، وذكر في موضع آخر أنها ستة أميال ، وحده من طريق جدة عشرة أميال ، ومن طريق اليمن ستة أميال ، ودوره سبعمائة وثلاثة وثلاثون ميلا . ثم بحدود هذا الحرم أما كن مشهورة ، يخرج إليها من مكة من أراد أن يهل بعمره فيحرم منها .

أحدها - (التَّعْمِيمُ) - بالف ولام لازمتين وفتح التاء المشناة فوق وسكون النون وكسر العين المهملة وسكون الياء المشناة تحت وميم في الآخر - وهو موضع على حد الحرم على طريق السالك من بطن مَرٍّ وإلى مكة . قال في "الروض المعطار" : وسُمِّي التعميم لأن الجبل الذي عن يمينه اسمه نُعَيْمٌ والذي عن يساره اسمه نَاعِمٌ والوادي الذي هو فيه اسمه نَعْمَانُ ؛ ومنه آعتمرت عائشة رضي الله عنها مع عبد الرحمن بن أبي بكر ، وهناك مسجدٌ يعرف بمسجد عائشة إلى الآن .

الثاني - (الْحُدَيْبِيَّةُ) - بضم الحاء وفتح الدال المهملتين وسكون الياء المشناة تحت وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المشددة وفي آخرها تاء - ونقل في "الروض المعطار" عن الأصمعي تخفيف الياء الثانية . قال في "تقويم البلدان" : وهو موضع/بعضه في الحِلِّ وبعضه في الحَرَمِ ، وفيه صَدَّ المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البيت ؛ وهي أبعد أطراف الحرم عن البيت ؛ وهي على مسيرة يوم ؛ وهي في مثل زاوية للحرم . وذكر في "الروض المعطار" أن الحديبية أسم لبئر في ذلك المكان ، ومذهبُ الشافعي أن العمرة منه أفضل من التعميم .

الثالث - (الْجِعْرَانَةُ) - بكسر الجيم والعين المهملة وفتح الراء المهملة المشددة بعدها ألف ونون مفتوحة وهاء في الآخر - ونقل في "الروض المعطار" عن الأصمعي سكون العين وتخفيف الراء . قال : وهو مكان بين مكة والطائف ولكنه إلى مكة أقرب ، ومنه أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة في وجهته تلك ، ومذهب الشافعي أن العمرة منه أفضل من الحُدَيْبِيَّةِ .

وأما مشاعر الحج الخارجة عن مكة فثلاثة .

(١) أي مرجعه من غزاة حنين وقسم فيها غنائم هوازن . أنظر "معجم البلدان" .

أحدها - مَنَى بكسر الميم وفتح النون وألف مقصورة - سميت بذلك لما يَمْنَى فيها من الدماء أى يراق . قال في "المشترك" : وبينها وبين مكة ثلاثة أميال - وهى تشبه القرية مبنية على ضفتى الوادى . وبها مسجد الخيِّف - بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المشناة تحت وفى آخره فاء - وهو مسجد عظيم متسع الأرجاء بغير سقف .

الثانى - (المُزْدَلِفَةُ) - بضم الميم وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهملة وكسر اللام وفتح الفاء وآخرها هاء - وهى موضع على يسرة الذهاب من منى إلى عرفة . قال النووي : سميت بذلك من الترفل والأزدلاف وهو التقرب ، لأن الحجاج إذا أفاضوا من عَرَفَاتٍ أزدلّفُوا إليها أى تقربوا ومضوا إليها ، وتسمى جمعاً أيضاً بفتح الجيم وسكون الميم وعين مهملة - لأنه يجمع بها بين المغرب والعشاء ، وبها مسجد متسع . قال في "الروض المعطار" : طوله ثلاثة وستون ذراعاً ، وعرضه خمسون ذراعاً ، وأرتفاع جداره عشرة أذرع .

الثالث - (عَرَفَةٌ) - بفتح العين والراء المهملتين والفاء وهاء فى الآخر - ويقال فيه أيضاً عَرَفَاتٌ على الجمع ، وبه جاء القرآن فى قوله تعالى : ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ وهو موقف الحج ، وسمى عرفات لتعارف آدم عليه السلام وحواء به . قال كعب الأحمري : أهبط آدم عليه السلام بالهند ، وحواء بعرفة ، وإبليس بجدة ، والحياة بأصبهان ، وأمر الله تعالى آدم بحج البيت فحج ، فكان حيث وضع قدمه نتفجر الأنهار وتبنى المساجد . فلما وصل إلى عرفة ، وجد بها حواء فتعارفا بها .

الضرب الثانى

(قُراها ومَحَالِفُها)

وأعلم أن أكثر جبال مكة وأوديتها مسكونة معمورة إلا أنه ليس بها قرية مُقَرَّاة إلا حيث المياه والعيون البخارية والحدائق المحدقة ، والمشهور من ذلك عشرة أماكن .

الأول - (جَدَّة) - بضم الجيم وتشديد الدال المهملة ثم هاء - وهي فُرْصَةٌ مَكَّةَ على ساحل بحر القلْزِمْ ، وموقعها في أول الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة ، وهي في الغرب عن مكة بمسلة إلى الشمال . قال في "الأطوال" : طولها ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . ووافقته على ذلك في "القانون" . وقال في "رسم المعمور" : طولها خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها على ما تقدم . وهي مينا عظيمة محل حَطِّ وإقلاع ، إليها تنتهي المراكب من مصر واليمن وغيرهما ، ومنها تصدر من مكة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من مكة على مرحلتين . وقال الإدريسي : بينهما أربعون ميلاً ، وهي ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب إليها .

الثاني - (بَطْنُ نَخْلٍ) - وضبطه معروف ، ويقال فيه أيضا وادي نَخْلَةَ على التوحيد ونخلة بإسقاط لفظ وادي . قال الجوهري : وبه كانت العزى التي هي أحد طواغيت قُرَيْشٍ ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم إليها خالد بن الوليد فهدمها ، وهي الآن بيد هَدَيْلٍ ، وهي قَرْيٌ مجتمعة ذات عيون وحدائق ومزدرع . أخبرني بعض أهل الحجاز أن بها نحو أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية ، وغالب فواكه مكة وقطانيتها وبقولها منها ، ومنها يصب الماء إلى بطن مرة الآتى ذكره .

الثالث - (الطَائِفُ) - بألف ولام لازمتين فطاء مهملة مشددة مفتوحة بعدها ألف وياء مثناة تحت مكسورة ثم فاء - وهو بلد شرقي بطن نخل المتقدم ذكرها ، وبطن نخل بينه وبين مكة . قيل سميت الطائف لأنها في طوفان نوح آنقطعت من الشام وحملها الماء وطافت بالأرض حتى أرسَتْ في هذا الموضع . وقال في "الروض المعطار" : أسماها القديم وَجَّ يعني بواو مفتوحة وجيم مشددة - سميت برجل من العالقة ، ثم سكنها ثقيف فبنوا عليها حائطا مطيفا بها فسميت الطائف .

قال : وهى إحدى القريتين المذكورتين فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . قال فى "تقويم البلدان" : وهى من الحجاز تقريبا ، وموقعها فى أوائل الإقليم الثانى . وقال ابن سعيد : طولها ثمان وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، وهو بلد خصيب كثير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها ، وهى طيبة الهواء إلا أنها شديدة البرد حتى إنه ربما جمد الماء بها لشدة بردها .

الرابع - (بَطْنُ مَرَّةٍ) - بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة ونون بعدها ثم ميم مفتوحة وراء مهملة مشددة - وهو واد من أودية الحجاز فى الشمال عن مكة على مرحلة منها على طريق حجاج مصر والشام . قال فى "الأطوال" : طولها سبع وستون درجة وعرضها إحدى وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى بقعة بها عدة عيون ومياه تجرى ونخيل كثير ، والنخل والمزروع متصل من وادى نخلة إليها . وذكر غيره أن بها نحو أربعة وعشرين نهرا على كل نهر قرية ، ومنها تُحمَلُ الفواكه والبقولات إلى مكة كما تحمل من نخلة والطائف ، وهى بيد بنى حسن أمراء مكة .

الخامس - (الهدَّة) - بألف ولام ثم هاء ودال مهملة مفتوحتين وهاء ساكنة فى الآخر - وهو واد على القرب من بطن مرَّة ، على مرحلة ونصف من مكة ، به أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية ، وهى بيد بنى جابر .

السادس - (عُسْفَانٌ) - بضم العين وسكون السين المهملتين وفتح الفاء ثم ألف ونون - وهو واد معروف على طريق حجاج مصر ، على ثلاث مراحل من مكة ، كان بها حدائق ومياه تنصب إليها من الهدَّة المذكورة ، وهى الآن خراب ليس بها عمارة .

السابع - (الْبَرْزَةُ) - بألف ولام ثم باء موحدة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وهاء فى الآخر - وهى واد بالقرب من عُسْفَانَ على مرحلتين من مكة؛ به أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية؛ وهى الآن بيد بنى سَلُولَ وبنى مُعَبِّدٍ بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة المفتوحة .

الثامن - (خُلَيْصٌ) - بضم الخاء المعجمة وفتح اللام وإسكان الياء المشناة تحت والصاد المهملة - وهو واد على طريق مُجَجَّاجٍ مصر على أربع مراحل من مكة؛ به نحو تسعة أنهر على كل نهر قرية .

التاسع - (وَادِى كَلْبَةَ) - بضم الكاف وفتح اللام وتشديد الياء المشناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر - وهو واد بالقرب من خُلَيْصٍ به نحو سبعة أنهر على كل نهر قرية، وكان بيد سَلِيمٍ، وقد خرب من مدة قريبة بعد الثمانين والسبعائة .

العاشر - (مَرَّ الظُّهْرَانِ) - بفتح الميم وتشديد الراء المهملة ثم ألف ولام وظاء معجمة مفتوحة وهاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف ونون - وهو موضع بينه وبين مكة نحو ستة عشر ميلا، وهو الذى نزل به رسول الله صلى الله عليه وسلم! عند صلحه مع قريش، كان به ضياع كثيرة وهو الآن خراب . قال فى "الروض المعطار": وبه حصن كبير؛ كان يسكنه سُكْرُ بن الحسن بن على بن جعفر الحسنى يعنى أمير مكة الآتى ذكره فى جملة أمرائها .

الطرف السابع

(في ذكر ملوك مكة ، وهم على ضربين)

الضرب الأول

(ملوكها قبل الإسلام)

اعلم أن مكة بعد الطوفان كان ملكها في عاد ، وكان بها منهم معاوية بن بكر بن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكان مع معاوية بن بكر (وهو عاد الآخرة فيما يقال) يعرب ثم غلبهم العماقية عليها . فلما غلب ابن قحطان بن عابر بن شالخ ابن أرفخشذ بن سام بن نوح عادا على اليمن وفرق ملك اليمن في إخوته ، استولى على الحجاز وأخرج العماقية منه وولى أخاه جرهم بن قحطان على الحجاز ، فبقي به حتى مات . فملك بعده ابنه عبد ياليل . ثم ملك من بعده ابنه جرهم ، ثم ملك بعده ابنه عبد المدان ، ثم ملك بعده ابنه ببيعة ، ثم ملك بعده ابنه عبد المسيح ، ثم ملك بعده ابنه مضاض ، ثم ملك بعده ابنه الحرث ، ثم ملك بعده ابنه عمرو ، ثم ملك بعده أخوه بشر بن الحرث ، ثم ملك بعده مضاض بن عمرو بن مضاض .

قال ابن سعيد : وجرهم هذه هم الذين بعث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوج فيهم ، وكانت قبلهم جرهم أخرى مع عاد . قال في "الروض المعطار" : وفي ذلك يقول عمرو بن الحرث بن مضاض ، وهو التاسع من ملوك جرهم المتقدم ذكرهم :

وصاهرنا من أكرم الناس والدا * فابنأوه منا ونحن الأصاهر!

قال صاحب حماة في "تاريخه" : وقد اختلف المؤرخون في أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبين إسماعيل ، فبعضهم يقول : كان الملك في جرهم ، ومقاتيح الكعبة وسداتها في يد ولد إسماعيل ، وبعضهم يقول : إن قي دار بن إسماعيل توجهت أخواله من جرهم وعقدوا له الملك عليهم بالحجاز .

وأما سِدَانَةُ الْبَيْتِ ومفاتيحه فكانت مع بنى إسماعيل بلا خلاف حتى آتتهى ذلك إلى نَابِيَةٍ من ولد إسماعيل، فصارت السِّدَانَةُ بعدهمْ جُرْهُمَ، ويدل على ذلك قول عمرو بن الحرث :

وَكَا وَوَلَاةَ الْبَيْتِ مِنْ بَعْدِ نَابِيَةٍ * نَطُوفُ بِذَلِكَ الْبَيْتِ وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ!
 وذكر في "الروض المعطار": أنه كان مع جُرْهُمَ بمكة قَطُورًا، وجُرْهُمَ وقَطُورًا
 أخوان، وكان منزل جُرْهُمَ أعلى مكة بَقَعِيْعَانَ فما حاز، ومنزل قَطُورًا أسفل مكة
 بأجباد فما حاز، وآتته رياسة قَطُورًا في زمن مُضَاضِ بن عبد المسيح المتقدم ذكره
 إلى السَّمِيدِعِ، وكان مُضَاضُ يُعَشِّرُ مَنْ دَخَلَ مكة من أعلاها، والسَّمِيدِعُ يعشر
 من دخلها من أسفلها، ثم بغى بعضهم على بعض وتنافسوا الملكَ وأقتتلوا فقتل
 السَّمِيدِعُ، وأستقلَّ مُضَاضُ بالأمر، وبقيت جُرْهُمُ ولاة البيت نحو ثلاثمائة سنة
 فأكلوا مال الكعبة الذى يهدى إليها وأستحلُّوا حرمها، وبلغ من أمرهم أن الرجل إذا
 لم يجد مكانًا يزنى فيه (٢) الكعبة فزنى فيها، ولم يتناهوا حتى يقال إن إساف
 ابن سهيل زنى ببنات بنت عمرو بن ذؤيب في جوف الكعبة فسحًا حجرين، ونضب
 ماء زمزم لكثرة البغى ودرست معالمها؛ ثم جاء عمرو بن لُحِيٍّ فغير دين إبراهيم
 عليه السلام وبدله وبعث العرب على عبادة التماثيل، وعمر ثلاثمائة سنة وخمسا
 وأربعين سنة، وبلغ من الولد وولد الولد ألفين .

ثم صارت سِدَانَةُ الْبَيْتِ ومفاتيحه إلى نُحْرَاعَةَ بن الأزْد من بنى كَهْلَانَ بن سَبَّانٍ من
 العرب العاربة؛ وكانت منازلهم من حين تفرق عرب اليمن بسبب سيل العرم ببطن
 مرَّ على القرب من مكة؛ وصارت لهم الرياسة بسِدَانَةَ الْبَيْتِ، وبقيت السِّدَانَةُ بيدهم

(١) في "السبانك" و"العبر" بدون ألف .

(٢) بياض بالأصل، ولعل أصله "دخل" كما هو ظاهر .

إلى أن آتته إلى أبي غبشان: سليمان بن عمرو الخزاعي في زمن بهرام جور بن يزدجرد من ملوك الفرس؛ ورئيس قريش يومئذ قصى بن كلاب، فأجتمع قصى مع أبي غبشان على شراب بالطائف، فلما سكر أبو غبشان اشترى قصى سداثة البيت منه بزق نحر وتسلم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك، وأرسل ابنه عبد الدار بها إلى البيت فرفع صوته وقال: يامعشر قريش! هذه المفاتيح: مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، قد ردها الله عليكم من غير عار ولا ظلم. فلما صحح أبو غبشان ندم حيث لا ينفعه الندم. ويقال "أخسر من صفة أبي غبشان" وأكثر الشعراء القول في ذلك حتى قال بعضهم:

بَاعَتْ خُرَاعَةُ بَيْتِ اللَّهِ إِذْ سَكِرَتْ * بَزِقَ نَحْرِي، فَبَيْسَتْ صَفْقَةَ الْبَادِي

بَاعَتْ سِدَاتَهَا بِالزَّرِّ وَأَنْصَرَفَتْ * عَنِ الْمَقَامِ وَظِلِّ الْبَيْتِ وَالنَّادِي

ولما وقع ذلك عدت خراعة على قصى فظهر عليهم وأجلاهم عن مكة؛ وكان بمكة عرب يميزون الحجيج إلى الموقف، وكان لهم بذلك رياسة فأجلاهم قصى عن مكة أيضا وأنفرد بالرياسة. قال العسكري في "الأوائل": وكان أول من نال الملك من ولد النضر بن كنانة.

ولما تم لقصى ذلك بنى دار الندوة بمكة، فكانت قريش تقضى فيها أمورها فلا تتكبح ولا تشاور في أمر حرب ولا غيره إلا فيها؛ ولم تزل الرياسة فيه وفي بنيه بعد ذلك. فولد له من الولد عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى.

ثم أنتقلت الرياسة العظمى بعد ذلك لبني عبد مناف، وكان له من الولد هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل، وكان هاشم أرفعهم قدرا وأعظمهم شأنا، وإليه آتته سيادة قومه؛ وكانت إليه الرقادة وسقاية الحجيج بمكة؛ وكانت قريش تجارا، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة وما حولها فخرج هاشم إلى الشام حتى نزل بقبصر

ملك الروم فسأله كتابة أمان لتجار قريش ، فكتب له كتابا لكل من مرَّ عليه ، فخرج هاشم فكلمنا مرَّ يحيى من العرب أخذ من أشرافهم أمانا لقومه حتى قَدِم مكة ، فاتاهم بأعظم شيء أتوا به قَطُّ بركةً ، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج معهم حتى أوردتهم الشام ؛ وخرج أخوه المطلب إلى اليمن فأخذ لهم أمانا من ملكه ، وخرج أخوهما عبد شمس إلى ملك الحبشة فأخذ لهم أمانا كذلك ؛ وخرج أخوهم نوفل إلى كسرى ملك الفرس فأخذ لهم منه أمانا . وكانت قريش يرحلون في الشتاء للشام وفي الصيف لليمن ، وآتعت معاشهم بسبب ذلك ، وكثرت أموالهم حتى آمنت الله عليهم بذلك بقوله : ﴿ لِيَيْلَافِ قُرَيْشٍ لِيَيْلَافِيَهُمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ والإيلاف الأمان .

ثم وُلِدَ لهاشم عبد المطلب وبقيت الرياسة فيه ؛ وكانت برّ زمزم قد أنظمت ونصب مأواها فخرها عبد المطلب ، حتى أكل الله تعالى بنبوته نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ! .

وأما سِدانة البيت ومفاتيحه ، فبقيت بيد بني عبد الدار بن قُصَيّ المتقدم ذكره من حين تسلّمها عبد الدار عند أخذها من أبي غَبْشَانَ الخزاعي حتى صارت لبني شَيْبَةَ من بني عبد الدار ، وأتته في زمن النبي صلى الله عليه وسلم إلى عثمان بن طلحة بن عبد الدار . فلما دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح ، أغلق عثمان باب الكعبة وصعد السطح وأبى أن يدفع المفتاح إليه ، وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه ، فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم الكعبة فصلّى ركعتين ، فلما خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح ويجمع له السقاية والسدانة فنزل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا أن يرد المفتاح إلى

عثمان ويعتذر إليه، فقال عثمان : أكرهت وأذيت ثم جئت ترفق ؟ فقال له عليّ :
 لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرءانا وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله
 إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فهبط جبريل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وسلم
 فأخبره أن السّدانة في أولاد عثمان أبداً ، فهي باقية فيهم إلى الآن .

الضرب الثاني

(ملوكها في الإسلام ، وهم على طبقات)

الطبقة الثالثة^(١)

(عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين)

هاجر منها النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة قبل وفاته ، وحجّ حجة الوداع في السنة
 العاشرة من الهجرة ، وتوفّي سنة إحدى عشرة من الهجرة وعلى مكة عثمان بن أسيد ،
 وتوالت عليها عمّال الخلفاء بعده إلى آخر أيام الحسن بن عليّ بن أبي طالب كرم
 الله وجهه .

الطبقة الرابعة

(عمال بني أمية من لدن معاوية رضى الله عنه إلى أنقراضهم)

ثم وثى عليها معاوية بن أبي سفيان في خلافته في سنة اثنتين وأربعين من الهجرة
 (خالد بن العاص بن هشام) ثم أضيفت إلى عمّال المدينة إلى أيام الوليد بن عبد الملك
 فكان من وليها منهم (الوليد بن عتبة) ثم (عمرو بن سعيد الأشدق) ثم (الوليد بن عتبة)

(١) هكذا في الأصل بهذا العنوان وصوابه الأولى والذي يظهر أن هذا من النسخ فان المقام لا يحتمل
 السقط . ومن جهة أخرى لم يترك في الأصل بياض حتى كان يخيل أن المؤلف ترك الكلام عليه للعود إليه
 فق ما هنا "الطبقة الأولى" وما بعدها "الطبقة الثانية" وهكذا حتى تسلسل الطبقات .

ثانياً؛ ثم (مُصعب بن الزبير) من جهة أخيه عبد الله بن الزبير لما بويع له بالخلافة؛
 ثم (جابر بن الأسود) ثم (طلحة بن عبد الله بن عوف) ثم (طارق بن عمرو بن عثمان)
 ثم (الجبَّاح بن يوسف الثقفي) ثم (أبان بن عثمان) ثم (هشام بن إسماعيل المخزومي)
 ثم (عُمَر بن عبد العزيز) .

ثم أفردوا الوليد بن عبد الملك عن المدينة وولّى عليها (خالد بن عبد الله القسري)
 بعد عمر بن عبد العزيز؛ ثم وليها (عبد العزيز بن خالد بن أسيد) أيام سليمان
 ابن عبد الملك؛ ثم عزله يزيد سنة ثلاث ومائة وأضافها مع المدينة إلى (عبد الرحمن
 ابن الضحّاك) ، ثم عزله عن مكة والمدينة لثلاث سنين من ولايته وولّى مكانه
 (عبد الواحد النضري) ، ثم عزله هشام بن عبد الملك في خلافته وولّى مكانه
 عليّ مكة والمدينة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل) ثم عزله هشام سنة أربع عشرة ومائة
 وولّى مكانه عليّ مكة والطائف دون المدينة (محمد بن هشام المخزومي)؛ ثم وولّى
 الوليد بن يزيد في خلافته خاله (يوسف بن محمد الثقفي) عليّ مكة مع سائر أعمال
 الحجاز؛ ثم وولّى مروان عليّ مكة وبرّ الحجاز (عبد العزيز بن عمرو، بن عبد العزيز)
 ثم عزله في سنة تسع وعشرين ومائة وولّى مكانه عليّ مكة والحجاز (عبد الواحد)
 ثم توالى عليها عمّال بني أمية إلى أن انقرضت دولتهم .

الطبقة الخامسة

(عمّال بني العباس)

وأولهم أبو العباس السّفّاح ، فولّى عليها وعليّ المدينة وسائر الحجاز عمّه (داود) ثم توفى
 سنة ثلاث وثلاثين ومائة ؛ فولّى مكانه في جميع ذلك (زياد بن عبد الله بن عبد
 الدار الحارثي) .

ثم وثى السَّفَّاحُ على ذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة (السَّرِيَّ بن عبد الله ابن الحارث بن العباس) .

ثم عزله أبو جعفر المنصور سنة ست وأربعين ومائة ووثى مكانه عمه (عبد الصمد ابن علي) ثم عزله عنها سنة تسع وأربعين ومائة ووثى مكانه (محمد بن إبراهيم الإمام) ثم عزله ووثى مكانه (إبراهيم ابن أخيه) ثم وثى على مكة وسائر الحجاز واليمامة (جعفر بن سليمان) ؛ ثم توالى عليها العمال إلى أن وثى الرشيد في خلافته على مكة واليمن (حمادا اليزيدي^(١)) سنة أربع وثمانين ومائة .

ثم وليها في زمان الأمين (داود بن عيسى) .

ثم وليها (محمد بن عيسى) ثم عزله المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وولى مكانه ابنه (المتصر) بن المتوكل .

ثم وليها (علي بن عيسى بن جعفر بن المنصور) ثم عزله المتوكل سنة سبع وثلاثين ومائتين ووثى مكانه (عبد الله بن محمد بن داود بن عيسى بن موسى) ثم عزله المتوكل سنة ثنتين وأربعين ومائتين ووثى مكانه (عبد الصمد بن موسى بن محمد بن إبراهيم الإمام) ثم توالى عليها العمال من قبيل خلفاء بني العباس إلى أن غلب عليها السُّلَيْمَانِيُّونَ الآتى ذكرهم آنفا .

الطبقة السادسة

(السليمانيون من بنى الحسن)

نسبة إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الحسن السبط .

وكان سليمان هذا في أيام المأمون بالمدينة وحدثت الرياسة فيها لبنه بعد أيام، وكان كبيرهم آخر المائة الثالثة محمد بن سليمان الربذي .

(١) في الكامل لابن الأثير "البربري" .

قال البيهقي: خلع طاعة العباسيين وخطب لنفسه بالإمامة في سنة إحدى وثلاثمائة في خلافة المقتدر؛ ثم أعترضه أبوطاهر القرمطي في سنة ثلثي عشرة وثلاثمائة، فأقطع حجيج العراق بسبب ذلك .

ثم أنفذ المقتدر الحجيج من العراق في سنة سبع عشرة وثلاثمائة فوافاهم القرمطي بمكة فمهمهم، وخطب لعبيد الله المهدي صاحب إفريقية وقلع الحجر الأسود وباب الكعبة وحملهما إلى الأحساء، وتعطل الحج من العراق إلى أن ولي الخلافة القاهر في سنة عشرين وثلاثمائة فحج بالناس أميره في تلك السنة .

ثم أقطع الحج من العراق بعدها إلى أن صولحت القرامطة على مال يؤديه الحجيج إليهم، فحجوا في سنة سبع وعشرين وثلاثمائة؛ وخطب بمكة للراضي بن المقتدر، وفي سنة تسع وعشرين لأخيه المتقي من بعده .

ثم أقطع الحج من العراق بسبب القرامطة إلى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة، فخرج ركب العراق بمهادنة القرامطة في خلافة المستكفي؛ ثم خطب بمكة لمعز الدولة ابن بويه مع المقتدر في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة؛ ثم تعطل الحج بسبب القرامطة؛ ثم برز أمر المنصور الفاطمي صاحب إفريقية لأحمد بن أبي سعيد أمير القرامطة بعد موت أبي طاهر بإعادة الحجر الأسود إلى مكانه فأعاده في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة .

وفي سنة ثنتين وأربعين وثلاثمائة حاول أمير الركب المصري الخطبة لابن الأخشيد صاحب مصر فلم يتأت له ذلك وخطب لابن بويه، وأتصلت وفود الحج من يومئذ .

وفي سنة ثلاث وخمسين خطب للقرمطي بمكة مع المطيع .

وفي سنة ست وخمسين وثلاثمائة خطب بمكة لبختيار بن معز الدولة بعد موت أبيه .

ثم في سنة ستين وثلاثمائة جهز المعز الفاطمي عسكراً من إفريقية لإقامة الخطبة له بمكة وعاضدهم بنو الحسين أهل المدينة فمنعهم بنو الحسن أهل مكة من ذلك وأستولوا على مكة .

فلما ملك مصر المعز كان الحسن بن جعفر بن الحسن بن سليمان بالمدينة فبادر فملك مكة ودعا للمعز وكتب له المعز بالولاية ؛ ثم مات الحسن فولّى مكانه أخوه عيسى .
ثم ولى بعده أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن أبي هاشم ؛ ثم الحسن بن محمد بن سليمان بن داود سنة أربع وثمانين وثلاثمائة ؛ ثم جاءت عساكر عضد الدولة بن بويه ففتروا الحسن وترك مكة . ولما مات المعز وولى ابنه العزيز ، بعث إلى مكة أميراً علويّاً فخطب له بالحرمين وأستمرت الخطبة بمكة للعلويين إلى سنة سبع وستين وثلاثمائة .
وفي سنة ثمان وستين خطب لعضد الدولة بن بويه ؛ ثم عادت الخطبة بمكة إلى الخلفاء الفاطميين بمصر ؛ ثم كتب الحاكم سنة ثنتين وأربعين وأربعمئة إلى عمّاله بالبراءة من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأنكر ذلك أبو الفتوح أمير مكة وحمله ذلك على أن آستبد بالأمر في مكة وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله ، وقطع الحاكم الميرة عن الحرمين فرجع أبو الفتوح إلى طاعته فأعادته إلى إمارته بمكة .

وفي سنة ثنتي عشرة وأربعمئة خطب بمكة للظاهر بن الحاكم ؛ ثم خطب بمكة سنة سبع وعشرين وأربعمئة للمستنصر بن الظاهر ؛ ثم توفي أبو الفتوح أمير مكة المتقدم ذكره سنة ثلاثين وأربعمئة لست وأربعين سنة من إمارته .

وولى بعده إمارة مكة ابنه شكر وملك معها المدينة وأستضافها لمكة ، وجمع بين الحرمين كله ثلاثاً وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة . قال ابن خزم : وكانت وفاته عن غير ولد وأنقرضت بموته دولة بني سليمان بمكة .

الطبقة السابعة

(الهواشم)

نسبة إلى أبي هاشم : محمد بن الحسن بن محمد بن موسى بن عبد الله أبي الكرام
ابن موسى الجون بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط .

كان رئيس الهواشم لما مات شكر آخر أمراء السليمانيين (محمد بن جعفر) بن أبي
هاشم المذكور فاستولى على إمارة مكة في سنة أربع وخمسين وأربعمائة بعد موت
شكر، وخطب للمستنصر الفاطمي صاحب مصر، ثم خطب لبني العباس في سنة
ثمان وخمسين وأربعمائة فقطعت ميرة مصر عن مكة فعذله أهله على ذلك فأعاد
الخطبة للمستنصر الفاطمي، ثم آسماه القائم العباسي وبذل له الأموال فخطب له
سنة ثنتين وستين بالموسم فقط، وكتب للمستنصر بمصر يعتذر إليه، ثم بعث إليه
السلطان ألب أرسلان السلجوقي بأموال كثيرة في سنة ثلاث وستين فخطب له بنفسه .
ثم جمع محمد بن جعفر المتقدم ذكره وزحف إلى المدينة فأخرج منها بنى الحسين
وملكها وجمع بين الحرمين .

ثم مات القائم وأقطع ما كان يصل إلى أمير مكة منه فقطع الخطبة للعباسيين .
ثم أرسل المقتدى بالله العباسي بمال فأعاد الخطبة للعباسيين فاستمرت الخطبة
لهم إلى أن مات السلطان ملكشاه السلجوقي سنة ست^(١) وثمانين وأربعمائة فأقطعت
الخطبة بمكة للعباسيين وبطل الحاج من العراق، ومات المقتدى وبويع آبنه
المستظهر، ومات المستنصر العبيدي بمصر وبويع آبنه المستعلي فخطب له بمكة .

(١) لعله خمس كما يؤخذ من تاريخ أبي الفدا .

ثم مات محمد بن جعفر أمير مكة المتقدم ذكره سنة سبع وثمانين وأربعمائة لثلاث وثلاثين سنة من إمارته ؛ وولى بعده ابنه (قاسم) فكثير اضطرابه ؛ ثم توفى سنة ثمان عشرة وخمسمائة لثلاثين سنة من إمارته .

وولى بعده ابنه أبو فُلَيْتَةَ فَأَفْتَحَ بِالْخَطْبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ وَحَسَّنَ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ ؛ ثُمَّ مَاتَ سَنَةَ سَبْعٍ وَعَشْرِينَ وَخَمْسِمِائَةَ لِعَشْرٍ سَنِينَ مِنْ إِمَارَتِهِ وَوَلَّى بَعْدَهُ ابْنَهُ قَاسِمَ وَالْخَطْبَةُ مَسْتَمِرَّةٌ لِلْعَبَّاسِيِّينَ .

ثم صنع المقتضى بابا للكعبة وأرسله إليها في سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة وحمل الباب العتيق إليه فَأَتَّخَذَهُ تَابُوتًا يَدْفَنُ فِيهِ ، وَأَتَّصَلَتْ الْخَطْبَةُ لِبْنِي الْعَبَّاسِ إِلَى سَنَةِ خَمْسٍ وَخَمْسِينَ ، وَبَوَّعَ الْمُسْتَنْجِدَ فَخُطِبَ لَهُ كَمَا كَانَ يُحْتَضَبُ لِأَبِيهِ الْمَقْتَضَى .

ثم قتل قاسم بن أبي فليته سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وولى بعده ابنه (عيسى) في أيام العاضد : آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، وتوفى المستنجد وبعث المستضىء بالركب العراقى وأتقضت دولة الفاطميين بمصر ، ووليها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فخطب له بالحرمين الشريفين .

والذى ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" أن عيسى عم قاسم سیر الحاج في سنة ست وخمسين وخمسمائة وقام مكان ابن أخيه قاسم المذكور ، ثم عاد قاسم فملك مكة ، ثم هرب وعاد عمه عيسى فملكها وهرب قاسم إلى جبل أبي قبيس فوقع عن فرسه فأمسكه عيسى وقتله .

ثم مات المستضىء وبويع ابنه الناصر وخطب له بالحرمين ، وحجت أمه وعادت فأنهت إليه من أحوال عيسى بن قاسم أمير مكة ما عزله به ؛ ووئى مكانه أخاه (مكث بن قاسم) وكان جليل القدر ، وهو الذى بنى القلعة على جبل أبي قبيس ، ومات سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وبموته انقرضت دولة الهواشم بمكة .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" أن أمير حجاج العراق في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة توجه من عند الخليفة بعزله ، بغزى بينهما حرب انتهى الأمر فيها إلى انهزام مكثر المذكور ، وأقيم أخوه داود مكانه . وما زالت الإمرة فيه تارة ، وفي أخيه مكثر تارة حتى مات داود في سنة تسع وثمانين وخمسمائة .
وقال : إنه داود بن عيسى بن محمد بن أبي هاشم .

الطبقة الثامنة

(بنو قتادة)

نسبة إلى قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن موسى بن عيسى بن عبد الله أبي الكرام بن موسى الجون بن عبد الله بن حسن بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان السبب في ولايته مكة أنها لما كانت مع الهواشم كان بنو حسن مقيمين بنهر العاقمية من وادي ينبع ، فجمع قتادة قومه بنو مطاعن وأسالف بن أحمد وبنو إبراهيم وتأمروا عليهم وملك ينبع ، ثم ملك الصفراء ، وسار إلى مكة فأتزعاها من الهواشم المتقدم ذكرهم وملكها ، وخطب للناصر لدين الله العباسي : خليفة بغداد ، وتعاضم أمره حتى ملك مع مكة والينبع أطراف اليمن وبعض أعمال المدينة وبلاد نجد ، ولم يفد على أحد من الخلفاء ولا من الملوك ، وتوفي سنة سبع عشرة وستمائة ، وولى مكانه ابنه الحسن فامتعض لذلك أخوه راجح بن قتادة ، ثم قدم الملك المسعود أقسر بن الكامل صاحب اليمن سنة عشرين وستمائة من اليمن إلى مكة وملك مكة وقتل جماعة من الأشراف ونصب رايته وأزال راية أمير الركب الذي من جهة الخليفة ، فكتب الخليفة من بغداد إلى أبيه الكامل يعاتبه في ذلك ، فكتب الكامل

إلى ابنه أفسز برئتُ يا أفسز من ظهر العادل إن لم أقطع يمينك ! فقد نبذت وراء ظهرك دنياك ودينك ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ! ؛ وذهب حسن ابن قتادة إلى بغداد صريخاً فمات بها سنة ثنتين وعشرين وستمائة ، ومات أفسز بمكة سنة ست وعشرين ودفن بالمعلّى ، وبقي على مكة قائده نجر الدين بن الشيخ ، وقصد راجح بن قتادة مكة مع عساكر عمر بن رسول فملكها من يد نجر الدين بن الشيخ سنة تسع وعشرين وستمائة .

ثم جاءت عساكر مصر سنة ثنتين وثلاثين مع الأمير جبريل فلكوا مكة وهرب راجح إلى اليمن ؛ ثم عاد ومعه عمر بن رسول صاحب اليمن بنفسه فهربت عساكر مصر ، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن رسول بعد الخليفة المستنصر .

ثم غلب على مكة سنة سبع وأربعين وستمائة أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة ولحق راجح باليمن ؛ وسار جَمَّاز بن حسن بن قتادة سنة إحدى وخمسين وستمائة إلى الناصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدمشق مستجيشاً على أبي سعد أن يقطع ذكر صاحب اليمن ، فجهزه عسكراً وسار إلى مكة فقتل أبا سعد في الحرم وملك مكة ، ثم وصل راجح من اليمن إلى مكة وهو شيخ كبير السن وأخرج منها جمّاز بن حسن فلحق باليمن .

ثم دار أمر مكة بين أبي نمي محمد بن أبي سعد علي بن قتادة وبين غالب بن راجح ابن قتادة ، ثم استبد أبو نمي بإمرة مكة ونفى قبيلة أبيه أبي سعد إلى اليمن ؛

ولما هلك أبو نمي قام بأمر مكة من بعده أبناء رميثة وحميضة ونازعهما أخواهما عطيفة وأبو الغيث فأعتقلاهما ، ووافق ذلك وصول بيرس الجاشنكير كافل المملكة المصرية في الأيام الناصرية فأطلق عطيفة وأبا الغيث وولاهما ، وأمسك رميثة وحميضة وبعث بهما إلى مصر ؛ ثم ردّ السلطان رميثة وحميضة إلى إمارتهما بمكة

مع عسكره وبعثاً إليه بعطيفة وأبى الغيث، وبقى التنازع بينهم، وهم يتعاقبون في إمرة مكة مرة بعد أخرى وهلك أبو الغيث في بعض حروبهم ببطن مرة .

ثم تنازع حميضة ورميثة وسار رميثة إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر سنة خمس عشرة وسبعائة فأمدته بعساكر وجه بها إلى مكة وأصلحوا .

ثم خالفهم عطيفة سنة ثمان عشرة وسبعائة ووصل إلى السلطان فأمدته بالعساكر فلك مكة وقبض على رميثة فسجن ثم أطلق سنة عشرين وأقام بمصر، وبقى حميضة مشرداً إلى أن آستأمن السلطان فأمنه، ثم وثب بجميضة ممالك كانوا معه وقتلوه، وأطلق رميثة من السجن وأستقر شريكاً لأخيه عطيفة في إمارتها .

ثم مات عطيفة وأقام أخوه رميثة بعده مستقلاً بإمارة مكة إلى أن كبر وهرم .
وإلى ذلك أشار في "التعريف" بقوله : وأول إمرة في رميثة وهو آخر من بقى من بيته، وعليه كان النص من أبيه دون البقية مع تداولهم لها، وكان أبناء بقية وعجلان قد أقتسما معه إمارة مكة برضاه، ثم أراد الرجوع فلم يوافقاه عليه وأستمر معه في الولاية .

ولما مات رميثة تنازع ولداه : بقية وعجلان، وخرج بقية وبقى عجلان بمكة، ثم غلبه عليها بقيّة؛ ثم أجمعا بمصر سنة ست وخمسين وسبعائة فولّى السلطان عجلان، وفز بقية إلى الحجاز فأقام هناك منازعاً لعجلان من غير ولاية . وعجلان هو المستبدّ بها مع سلوك سيرة العدل والإنصاف والتجاني عن أموال الرعية والتعرض للجاورين إلى أن توفي سنة سبع وسبعين وسبعائة .

وولّى بعده ابنه أحمد، وكان قد فوّض إليه الأمر في حياته وقاسمه في أمره، فقام أحمد بأمر مكة جارياً على سنن أبيه في العدل وحسن السيرة، ومات في رمضان سنة ثمان وثمانين وسبعائة في الدولة الظاهرية برقوق .

(١) عبارة التعريف "وهي الآن في رميثة وهو الخ ."

فولئى مكانه أبنة محمد، وكان صغيرا فى كفاة عمه كيش بن عجلان فبقى حتى وثب عليه فداوى عند ملافاة المحمل فقتله ؛ ودخل أمير الركب إلى مكة فولئى عنان ابن مغاس بن رميثة مكانه .

ثم لحق على بن عجلان بالأبواب السلطانية بمصر فولاه الظاهر برقوق سنة تسع وثمانين وسبعائة شريكا لعنان، وسار مع أمير الركب إلى مكة فهرب عنان ودخل على بن عجلان مكة فاستقل بإمارتها ؛ ثم وفد على بن عجلان على السلطان بمصر سنة أربع وتسعين فأفرده بالإمارة وأنزل عنان بن مغاس عنده وأحسن إليه ، ثم أعتقله بعد ذلك وبقى على بن عجلان فى إمارة مكة حتى قتل بطن مر فى سنة سبع وتسعين وسبعائة .

فولئى السلطان ابن أخيه حسن بن أحمد مكانه وأستبد بإمارة مكة وهو بها إلى هذا العهد . وهو حسن ، بن أحمد ، بن عجلان ، بن رميثة ، بن أبى نعى محمد ، بن أبى سعد على ، بن أبى عزيز قتادة ، بن إدريس ، بن مطاعن ، بن عبد الكريم ، بن موسى ، ابن عيسى ، بن سليمان ، بن عبد الله ، بن أبى الكرام ، بن موسى الجون ، بن عبد الله ، ابن حسن ، بن الحسن السبط ، بن على بن أبى طالب رضى الله عنه .

الطرف السابع

(فى ترتيب مكة المشرفة ؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فعلى ما تقدم فى الديار المصرية والبلاد الشامية من المعاملة بالدنانير والدرهم الثقرة ؛ وصنجاتها فى ذلك كصنجة الديار المصرية ، ويعبر عن الدرهم الثقرة فيها بالكامل ، نسبة إلى الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب صاحب مصر ،

وعندهم درهم آحر من فضة خالصة، مربع الشكل، زنته نحو نصف، ثم نقص حتى صار نحو سدس، يعبرون عنه بالمسعودي نسبة إلى الملك المسعود صاحب اليمن، وهو في المعاملة بثلثي درهم كامل،

ولم يكن بها في الزمن المتقدم فلوس يتعامل بها ثم راجت الفلوس الجُدُد بها في أيام الموسم فيما قبل الدولة الظاهرية بقوق . ثم راجت في سائر الأوقات آخراً، إلا أن كل درهم بها ثمانية وأربعون فلساً على الضعف من الديار المصرية، حيث كل درهم فيها أربعة وعشرون فلساً، ويعبر عن كل خمسة قراريط من الدرهم الكامل فيها بجائز، وعن الربع والسدس منه بجائزين، وتعتبر أوزانها بالمن : وهو مائتان وستون درهماً، وأواقه عشرة، كل أوقية عشرة دراهم، ويكُلها بالغرارة، وكل غرارة من غرائرها (١) وقياس قماشها بالذراع المصري، وأسعارها في الغالب مرتفعة عن سعر مصر والشام. وأما إمرتها فإنها إمرة أعرابية يمشي أميرها في إمرته على قاعدة أمراء العرب دون عادة الملوك في المواكب وغيرها، وأتباعه عرب، وأكثرهم من بني الحسن أشراف مكة، ويعبر عن أكابره بالقواد، وهم بمثابة الأمراء للملوك، وربما استخدم الممالك الترك ومن في معانهم .

وأكثر متحصّله مما يؤخذ من التجار الواردين إلى مكة من الهند واليمن وغيرهما . وأما تجهيز ركب الحجيج إليها ففي كل سنة يجهز إليها المحمل من الديار المصرية بكسوة البيت مع أمير الركب ويكسى البيت بالكسوة المجهزة مع المحمل، ويأخذ سدنة البيت الكسوة التي كانت على البيت، فيأدون بها الملوك وأشراف الناس، وداخل البيت كسوة أخرى من حرير منقوش لا تحتاج إلى التغيير إلا في السنين المتطاولة لعدم وصول الشمس ولس الأيدي إليها .

(١) بياض في الأصل .

ومن عادة أمير مكة أنه إذا وصل المحمل إلى ظاهر مكة خرج لملاقاته، فإذا وافاه
ترجل عن فرسه وأتى الجمال الحامل للمحمل فقلب خفف يده اليمنى وقبّله خدمة
لصاحب مصر . وقد روى ابن النجار في تاريخ المدينة النبوية من طريق الحافظ
أبي نعيم إلى حسين بن مُصعب أنه أدرك كسوة الكعبة يؤتى بها المدينة قبل أن
تصل إلى مكة فتنتشر على الرضراض في مؤخر المسجد، ثم يخرج بها إلى مكة . وذلك
في سنة إحدى وثلاثين أو اثنتين وثلاثين ومائة .

وأعلم أن كسوة الكعبة لها حالان :

الحال الأولى - ما كان الأمر عليه في الجاهلية . قد روى الأزرقى في "أخبار
مكة" : بسنده إلى أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم ! "نهى
عن سب أسعد الحميري وهو تبع" وكان أول من كسا الكعبة . وذكر ابن إسحاق
عن غير واحد من أهل العلم أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة تبع وهو أسعد
أرى في منامه أن يكسوها فكساها الأنطاع ، ثم أرى أن أكسها فكساها الوصائل
ثياب حبرة من عصب الين ، وعن ابن جريح نحوه .

وعن ابن أبي مليكة أنه قال : بلغني أن الكعبة كانت تكسى في الجاهلية كسى
شئى . كانت البدن تجلّل الحبر والبرود والأكسية وغير ذلك من عصب الين ، وكان
يهدى للكعبة هدايا من كسى شئى سوى جلال البدن : حبر ونحوه وأنماط فتكسى منه
الكعبة ، ويعمل ما بق في خزانة الكعبة . فإذا بلى منها شيء أخلف عليها مكانه ثوب
آخر، ولا يتزع بما عليها شيء .

وعن عبد الجبار بن الورد قال : سمعت ابن أبي مليكة يقول : كانت قريش
في الجاهلية ترافد في كسوة الكعبة ، فيضربون ذلك على القبائل بقدر أحتالها ، من عهد
قصى بن كلاب حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وكان

يختلف إلى اليمن يتجر فيها فأثرى في المال، فقال لقريش : أنا أكسو الكعبة وحدي سنةً وجميع قريش سنة، فكان يفعل ذلك حتى مات : يأتي بالحبر الحندي من الحنـد فيكسو الكعبة ، فسمته قريش العدل لأنه عدل فعله بفعل قريش .

وروى الواقدي عن النوار بنت مالك أم زيد بن ثابت رضي الله عنه أنها قالت : رأيت قبل أن ألد زيد بن ثابت على الكعبة مطارف نحر أخضر وأصفر ، وكرار وأكسية الأعراب وشقاق شعر .

وعن ابن جريح أن الكعبة فيما مضى إنما كانت تكسى يوم عاشوراء إذا ذهب آخر الحاج ، حتى كان بنو هاشم فكانوا يعلقون القميص يوم التروية من الديباج لأن يرى الناس ذلك عليها بهاء وجمالا ، فإذا كان يوم عاشوراء علقوا عليها الإزار .

وعن عطاء بن يسار عن عمر بن الحكم قال : نذرت أمي بدنة تحرها عند البيت وجللتها شقتين من شعر ووبر فحرت البدنة وسيرت للكعبة بالشقتين ، والنبي صلى الله عليه وسلم يومئذ بمكة لم يهاجر ، فنظرت إلى البيت يومئذ وعليه كسى شتى من وصائل وأنطاع وكرار ونحر وتمارق عراقية ، كل هذا قد رأيته عليه .

قلت : حاصل الأمر أن الذي كسيت الكعبة الأنطاع وجبرأت اليمن والبرود والكرار والأنطاع والتمارق ومطارف الحز الأخر والأصفر والأكسية وشقاق الشعر والوبر وغير ذلك .

الحال الثانية - ما كان الأمر عليه في صدر الإسلام وهلم جرا إلى زماننا .

أما في صدر الإسلام فقد روى الواقدي عن إبراهيم بن أبي حبيبة عن أبيه أن البيت كان في الجاهلية يكسى الأنطاع فكساه النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية ، ثم كساه عمر وعثمان رضي الله عنهما القباطي . وعن ابن أبي نجيح أن عمر

أبن الخطاب رضى الله عنه كسا الكعبة القبايطى من بيت المال ، كان يكتب فيها إلى مصر ، ثم عثمان من بعده . فلما كان معاوية بن أبى سفيان كساها كسوتين : كسوة عمر القبايطى وكسوة ديباج ، وكانت تكسى الديباج يوم عاشوراء ، وتكسى القبايطى فى آخر شهر رمضان .

وروى الأزرقى عن نافع قال : كان أبى عمر يكسو بدنه إذا أراد أن يحرم القبايطى والحجر ، وفى رواية الأنماط ، فإذا كان يوم عرفة ألبسها إياها وإذا كان يوم النحر نزعها عنها ثم أرسل بها إلى شيبه بن عثمان الحجى فناطها على الكعبة . وروى الواقدى عن إسحاق بن عبد الله أن الناس كانوا يندرون كسوة الكعبة ويهدون إليها البدن عليها الحبرات ، فيبعث بالحبرات إلى البيت كسوة . فلما كان يزيد بن معاوية كساها الديباج الخسروانى ، فلما كان أبى الزبير أتبعه على ذلك ، فكان يبعث إلى أخيه مضعب بن الزبير يبعث بالكسوة كل سنة وكانت تكسى يوم عاشوراء .

قال الأزرقى : وقد قيل إن ابن الزبير أول من كساها الديباج . قال أبو هلال العسكري فى كتابه "الأوائل" : وهو الصحيح .

وذكر الواقدى عن أشياخه أن عبد الملك بن مروان كان يبعث فى كل سنة بالديباج من الشام فيمتر به على المدينة فينشر يوما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأساطين هاهنا وهاهنا ، ثم يطوى ويبعث به إلى مكة . وقد قيل إن عبد الملك أول من كسا الكعبة الديباج . قال الماوردى : وكساها بنو أمية فى بعض أيامهم الحلل التى كانت على أهل نجران فى جزيتهم ، والديباج من فوقها .

قال الأزرقى : ولما حج المهدي فى سنة ستين ومائتين ، رفع إليه أن ثياب الكعبة قد أثقلتها ويخاف على جذرانها من ثقل الكسوة ، فخردها حتى لم يبق عليها شئ من

الكسوة، ثم أفرغ عليها ثلاث كُسي : قباطىّ وخزوديباج . ولما غلب حسينُ ابن حسن الطالبيّ على مكة في سنة مائتين ، وجد ثيابها قد ثقلت عليها أيضا فخردها في أول يوم من المحرم وكساها كسوتين من قز رقيق إحداهما صفراء والأخرى بيضاء مکتوب بينهما .

”بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلّى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار .“
 ”أمر أبو السرايا الأصغر بن الأصغر راعية آل محمد صلوات الله عليه وسلامه بعمل
 ”هذه الكسوة لبيت الله الحرام“ .

وذكر الأزرقى عن جدّه أن الكعبة كانت تكسى في كل سنة كسوة ديباج يعنى أحمر وكسوة قباطىّ . فأما الديباج فتكسياه يوم التروية ، فيعلق القميص ويدلّى ولا يخاط ، وإذا صدر الناس من منى خيط القميص وترك الإزار حتى يذهب الحاج لثلا يخترقه . فإذا كان يوم عاشوراء علق عليها الإزار يوصل بالقميص ، وكأن المراد بالإزار ما تدرکه الأيدي في الطواف وبالقميص ما فوق ذلك إلى أعلى الكعبة ، فلا تزال هذه الكسوة الديباج عليها حتى يوم سبع وعشرين من شهر رمضان فتكسى القباطىّ القطن .

فلما كانت خلافة المأمون رفع إليه أن الديباج يبلّ ويخترق قبل أن يبلغ الفطر ، فسأل المأمون صاحب بريد مكة في أى الكسوة الكعبة أحسن ؟ فقال له : في البياض ، فأمر بكسوة من ديباج أبيض ، عملت سنة ست ومائتين وبعث بها إلى الكعبة ، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كسى : تكسى الديباج الأحمر يوم التروية ، وتكسى القباطىّ يوم هلال رجب ، وتكسى الديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من شهر رمضان للفطر .

ثم رفع إلى المأمون أيضا أن إزار الديباج الأبيض يتخزق ويبيلى في أيام الحج من مسّ الحاج قبل أن يُحاط عليها إزار الديباج الأحمر في عاشوراء ، فزادها إزار ديباج أبيض تُكسَاه يوم التَّروِيَةِ ، فيستر به ما تخزق من الإزار الذى كسيته .

ثم رفع إلى المتوكل في سنة أربعين ومائتين أن إزار الديباج الأحمر يبيلى قبل هلال رجب من مسّ الناس ومسحهم بالكعبة ، فزادها إزارين مع الإزار الأول ، فأذال قميصها الديباج الأحمر وأسبله حتى بلغ الأرض ، ثم جعل الإزار فوقه ، في كل شهرين إزار ، ثم نظر المجبة فإذا الإزار الثانى لا يحتاج إليه ، فوضع في تابوت الكعبة وكتبوا إلى المتوكل أن إزارا واحدا مع ما أذيل من قميصها ، فصاريبعث بإزار واحد فتكسى بعد ثلاثة أشهر ، فيكون الذيل ثلاثة أشهر .

ثم في سنة ثلاث وأربعين ومائتين أمر المتوكل بإذالة القميص القباطى حتى بلغ الشاذروان الذى تحت الكسوة . قال الماوردى : ثم كسا المتوكل أساطينه الديباج .

وقد حكى المؤيد صاحب حماة في "تاريخه" أن الفاطميين خلفاء مصر في إمارة أبى الحسن جعفر من السليمانيين على مكة في سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة كسوا الكعبة البياض .

قلت : ثم رفع الأمر في خلفاء بنى العباس ببغداد إلى شعارهم من السواد ،^(١) فألبسوا الكعبة الديباج الأسود ؛ ثم جرى ملوك مصر عند استيلائهم على الحجاز على إلباسها السواد .

والذى جرى عليه الحال في زماننا إلى آخر الدولة الظاهرية برقوق وأوائل الدولة الناصرية ولده أن الكعبة تُكسى الديباج الأسود كسوة مسبلة من أعلى

(١) لعله ثم رجح الأمر .

الكعبة إلى أسفلها مرقوما بأعليها طراز رقم بالبياض من أصل النسج مكتوب فيه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِنَكَّةٍ مُّبَارَكًا﴾ الآيات ، وعلى الباب برقع من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض ... (١) ... ثم في سنة ... (١) ... وثمانمائة في الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطراز من لون البياض إلى لون الصفرة ، فصار الرقم في السواد بحري أصفر مقصَّب بالذهب ، ولا يخفى أنه أنفُس من الأول والثاني أبهج منه لشدة مضادة ما بين البياض والسواد ، ثم جعل بعض جوانب الكسوة ديباجا أسود على العادة ، وبعضها كمنخا أسود بجامات مرقوم فيها بالبياض "لا إله إلا الله محمد رسول الله" . ثم جعل بعد ذلك برقع البيت من حرير أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسة وعلا قيمة . ثم في سنة أربع عشرة وثمانمائة جعل واجهة الباب من الكسوة كمنخا أزرق بجامات مكتوب فيها ... (٣) ... والله العالم ما كان وما يكون .

قلت : وحاصل ما تقدم أن الذي أشتمت عليه أصناف الكسوة في الإسلام الثياب اليمانية ، والقباطى المصرية ، والحبر والأنماط والحلل التجرانية ، والديباج الأبيض ، والديباج الأحمر ، والديباج الأخضر ، والديباج الأصفر ، والديباج الأسود ، والديباج الأزرق .

وأما تجريد الكعبة من ثيابها ، فقد ذكر الأزرق أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يترع كسوة البيت في كل سنة فيقسمها على الحاج . وعن ابن أبى مليكة أنه قال : كانت على الكعبة كسب كثيرة من كسوة أهل الجاهلية : من الأنطاع والأكسية والكرار والأنماط ، فكانت ركاماً بعضها فوق بعض .

(١) في الأصل بياض بهذا المقدار .

(٢) لعله وإن كان أبهج منه لشدة الخ تأمل .

(٣) في الأصل بياض بهذا المقدار .

فلما كسيت في الإسلام من بيت المال، كان يخفف عنها الشيء بعد الشيء إلى أن كانت أيام معاوية فكتب إليه شيبه بن عثمان الحنفي يرغب إليه في تخفيفها من كسئي الجاهلية حتى لا يكون عليها شيء مما مسته أيديهم لنجاستهم، فكتب إليه معاوية أن جردها، وبعث إليه بكسوة من ديباج وقباطى وحريرة، فجردها شيبه حتى لم يبق عليها شيء، وكساها الكسوة التي بعث بها معاوية، وقسم الثياب التي كانت عليها بين أهل مكة؛ وكان ابن عباس حاضرا في المسجد وهم يجردونها فلم ينكر ذلك ولا كرهه .

وروى أن عائشة رضی الله عنها أنكرت على شيبه ذلك، وقالت له بعها وأجعل ثمنها في سبيل الله، وكذلك ابن عباس .

وروى الواقدي عن أم سلمة رضی الله عنها أنها قالت : إذا نزع عن الكعبة ثيابها فلا يضرها من لبسها من الناس من حائض أو جنب . وقد تقدم أن المهدي جردها حين حج في سنة ستين ومائتين؛ وحسين الطالبي جردها في سنة مائتين .

قلت : والذي استقر عليه الحال في زماننا أنها لا تلبس في كل سنة غير كسوة واحدة على ما تقدم بيانه، وذلك أن الكسوة تعمل بمصر على النمط المتقدم، ثم تحمل صعبة الركب إلى مكة فيقطع ذيل الكسوة القديمة على قدر قامة من جدار الكعبة ويظهر من الجدار ما كان تحتها، ويبقى أعلاها معلقا حتى يكون يوم فتخلع (٢) الكسوة العتيقة وتعلق الجديدة مكانها، ويكسئ المقام من نسبة كسوة الكعبة، ويأخذ بنو شيبه الحجة الكسوة العتيقة فيهدونها للجاج ولأهل الآفاق . وقد زاد رفدهم فيها من حين حصلت المغالاة في كسوة الكعبة وبرقعها على ما تقدم .

” اللهم زد هذا البيت تشريفا وتعظيما، وتكريما ومهابة“ .

(١) صوابه ومائة . أنظر تاريخ خلافة المهدي .

(٢) بياض في الأصل .

وَأَعْلَمُ أَنَّ جِدَارَ الْكَعْبَةِ كَانَ عَزِيزَ الرَّوْيَةِ حِينَ كُنْتَ الْكِسْوَةَ تَتْرَاكُمَ عَلَيْهَا وَلَا يَجُتَدُّ عَنْهَا شَيْءٌ، حَتَّىٰ إِنْ الْأَزْرُقِيَّ حَكَىٰ عَنْ جَدِّهِ أَنَّهُ تَبَجَّحَ بِرُؤْيَةِ جِدَارِهَا حِينَ جُرِّدَتْ فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ وَمِائَتَيْنِ، وَأَنَّهُ رَأَىٰ جِدَارَ الْبَابِ الْمَسْدُودِ الَّذِي كَانَ عَمَلُهُ ابْنُ الزُّبَيْرِ فِي ظَهْرِهَا وَسَدَّهُ الْحَجَّاجُ، وَشَبَّهَ لَوْنَ جِدَارِهَا بِالْعَبْرِ الْأَشْهَبِ .

الجملة الثانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها)

أَكْثَرُ مَنْ هُوَ بِيَادِيهَا وَأُودِيَّتِهَا الْقَرِيبَةُ مِنْهَا بَنُو الْحَسَنِ الْأَشْرَافِ . وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" من عرب المجاز لأم، وخالد، والمتفق، والعايد، وزاد في "مسالك الأبصار": ذكر زبيد، وبنو عمرو، والمضارحة، والمساعد، والزراق، وآل عيسى، وآل دعم، وآل جناح، والجبور. ثم قال: وديارهم يتلو بعضها بعضا. قال الحمداني: وشرقي مكة حليجة، وبنو هزرو ومنازلهم بيضة .

ومنهم من خنعم بنو منبه، وبنو فصيلة، ومعاوية، وآل مهدي، وبنو نصر، وبنو حاتم، والموركة، وآل زياد، وآل الصعافير، والشماو بلوس . ثم قال: ومنازلهم غير متباعدة .

أما العُربان بالدرب المصري إلى مكة، فمن بركة الحجَّاج إلى عقبة أيلة للعائد من عرب الشرقية، ومن العقبة إلى الدأماء دون عيون القصب لبني عقبة، ومن الدأماء إلى أكدي ليلي، ومن أكدي إلى آخر الوعرات لجهينة، ومن آخر الوعرات إلى نهاية بدر وإلى نهاية الصفراء، وتقب على بني حسن أصحاب الينبع، ويليهم من أقاربهم من بني حسن بدر إلى رملة عاجل في طرف قاع البروة، ومن

الصفراء إلى المحفة ورابع لُزْبَيْد، ومن المحفة على قُدَيْد وما حولها إلى الثَّيَّةِ المعروفة بعقبة السَّوَيْقِ لِسُلَيْمٍ، ومن الثَّيَّةِ على خُلَيْص إلى الثَّيَّةِ المشرفة على عُسْفَانَ إلى الفَجِّ المسمَّى بالمحاطب لبني جابر، وهم في طاعة صاحب مكة، ومن المحاطب إلى مكة المعظمة لصاحب مكة وبنى الحسن .

القاعدة الثانية

(المدينة الشريفة النبوية، على ساكنها أشرف الخلق مجد أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، وفيها ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في حاضرتها)

المدينة ضبطها معروف، وهو أسم غلب عليها، وبه نطق القرءان الكريم في قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَهَا الْأَذْلَ ﴾ . وقوله : ﴿ وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ . وأسماها القديم يَثْرِبُ وبه نطق القرءان في قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ .

قال الزجاجي : وهو يَثْرِبُ، بن قانية، بن مهلائيل، بن إرم، بن عييل، بن عَوْصِ، ابن إرم، بن سام، بن نوح، هو الذي بناها، وورد ذكره في الحديث أيضا . قال الشيخ عماد الدين بن كثير في " تفسيره " وحديث النبی عن تسميتها بذلك ضعيف ؛ وسمّاها الله تعالى الدار بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ . وسمّاها النبي صلى الله عليه وسلم طَيْبَةَ (بفتح الطاء المهملة وسكون الياء وفتح الباء الموحدة بعدها هاء) وطَابَةٌ بإبدال الياء بعد الطاء بألف . قال النووي : وهما من الطيب وهو الرائحة الحسنة، وقيل من الطيب خلاف الردىء، وقيل من الطيب بمعنى

الطاهِر ، وقيل من طيب العيش . وزاد السهيلي في أسماؤها الجارية بالجم والباء
الموحدة ، والمُحَبَّة ، والمحَبوبة ، والقاصمة ، والمحَبورة ، والعَدراء ، والمرحومة ؛ وكانت
تدعى في الجاهلية غُلبَة لأن اليهود غلبوا عليها العالقي ، والأوس والخزرج غلبوا عليها
اليهود . قال صاحب حماة : وهي من الحجاز ، وقيل من نجد ، وموقعها قريب من
وسط الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال في كتاب "الأطوال" : وطولها خمس
وستون درجة وثلاث ، وعرضها إحدى وعشرون درجة . وقال في "القانون" :
طولها سبع وستون درجة ونصف ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وثلاث .
وقال ابن سعيد : طولها خمس وستون درجة وثلاث ، وعرضها خمس وعشرون
درجة وإحدى وثلاثون دقيقة . وقال في "رسم المعمور" : طولها خمس وستون
درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها خمس وعشرون درجة .

وقد ذكر صاحب "الهناء الدائم ، بولد أبي القاسم" أن أول من بناها تبع^ه
الأول ، وذكر أنه متر بمكانها وهي يومئذ منزلة بها أدين ماء ، فأخبره أربعائة عالم من
علماء أهل الكتاب لهم عالم يرجعون إليه أن هذا موضع مهاجر نبي يخرج في آخر
الزمان من مكة اسمه محمد ! وهو إمام الحق ؛ فأمن بالنبي صلى الله عليه وسلم !
وبنى المدينة ، وأنزلهم بها وأعطى كل منهم مالا يكفيه وكتب كتابا فيه :

"أما بعد يا محمد فإني آمنتُ بك وبربك ، وبكل ما جاء من ربك"
"من شرائع الإسلام والإيمان ، وإني قلتُ ذلك فإن أدركك فيها"
"ونعمت ، وإن لم أدركك فاشفع لي يوم القيامة ، ولا تنسني فإني من"
"أمتك الأولين ، وتابعتك قبل مجيئك ، وقبل أن يرسلك الله ، وأنا على"
"ملة أبيك إبراهيم !"

وختم الكتاب ونقش عليه : ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ
الْمُؤْمِنُونَ بِبَصْرِ اللَّهِ﴾ .

وكتب عنوانه .

”إلى محمد بن عبد الله خاتم المرسلين ، ورسول رب العالمين ، صلى الله
”عليه وسلم ! من تبع الأول حمير ، أمانة الله في يد من وقع إليه أن يدفعه“
”إلى صاحبه“

ودفع الكتاب إلى رئيس العلماء المذكورين ، وتداوله بنوه بعده إلى أن هاجر
النبي صلى الله عليه وسلم ! إلى المدينة فلتقاه به بعض أولاد ذلك العالم بين مكة
والمدينة ، وتاريخ الكتاب يومئذ ألف سنة بغير زيادة ولا نقص . وقيل في بنائها غير
ذلك ، وهي مدينة متوسطة في مستو من الأرض ، والغالب على أرضها السباخ ،
وفي شمالها جبل أُحُد ، وفي جنوبها جبل عير ؛ وكان عليها سور قديم وبحارجهما
خندق محفور ؛ وهو الذي حفره النبي صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب .

وفي سنة ست وثلاثين ومائتين بنى عليها إسحاق بن محمد الجعدي سوراً منيعاً ،
وجدده عضد الدولة بن بويه الديلمي في سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة ، وهو باق عليها
إلى الآن ؛ ولها أربعة أبواب : باب في الشرق يُخرج منه إلى البقيع ؛ وباب في الغرب
يُخرج منه إلى العقيق وقُبَاء ، وبين يدي هذا الباب جداول ماء جارية ، وبوسطها
مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ! وهو مسجد متسع إلا أنه لم يبلغ في القدر مبلغ
مسجد مكة .

قال ابن قتيبة في ”كتاب المعارف“ : وكان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم !
مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده النخل ، ولم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر ،

ثم غيّر عثمان وزاد فيه عثمان زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة وبالقصّة، وجعل عمده من حجارة منقوشة؛ ووسعه المهدي سنة ستين ومائة؛ وزاد فيه المأمون زيادة كبيرة في سنة اثنتين ومائتين؛ ولم تزل الملوك تتداوله بالعِمارة إلى زماننا .

وبه الحجرة الشريفة التي بها قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما . بحجرتيه الشريفة دائرٌ عليه مقصورةٌ مرتفعة إلى نحو السقف، عليه ستر من حرير أسود؛ وخارج المقصورة بين القبر والمنبر الروضة التي أخبر صلى الله عليه وسلم ! أنها روضةٌ من رياض الجنة .

وقد ذكر أهل الأثر : أن المنبر كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ! ثلاث درجات بالمقعد، وارتفاعه ذراعان وثلاث أصابع، وعرضه ذراع راجح، وارتفاع صدره وهو الذي يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! ذراع، وارتفاع رُمانتيه اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم ! بيديه الكريمتين إذا جلس شبرًا وأصبعان، وفيه خمسة أعواد من جوانبه الثلاثة؛ ويبقى على ذلك إلى أيام معاوية فكتب إلى مروان : عامله على المدينة أن أرفعه عن الأرض فزاد من أسفله ست درجات ورفعها عليها فصار له تسع درجات بالمجلس . قيل : وصار طوله أربعة أذرع وشبرًا .

ولما حج المهدي بن المنصور العباسي سنة إحدى وستين ومائة، أراد أن يعيده إلى ما كان عليه فأشار عليه الإمام مالك بتركه خشية التهاوت فتركه؛ ويقال : إن المنبر الذي صنعه معاوية ورفّع منبر النبي صلى الله عليه وسلم عليه، تهاوت على طول الزمان، وجدده بعض خلفاء بني العباس وأخذ من بقايا أعواد منبر النبي صلى الله عليه وسلم أمشاطًا للتبرك، ثم احترق هذا المنبر لما احترق المسجد في مستهل رمضان سنة أربع وخمسين وستمائة أيام المستعصم بالله، وشغل المستعصم عن عمارته بقتال

التار ، فعمل المظفر صاحب اليمن المنبر ، وبعث به إلى المدينة سنة ست وخمسين
وستمائة ، فنصب في موضع منبر النبي صلى الله عليه وسلم ! فبقي إلى سنة ست وستين
وستمائة ، فأرسل الملك الظاهر بيبرس صاحب مصر المنبر الموجود الآن فأزيل ذلك
ووضع هذا وطوله أربعة أذرع ، ومن رأسه إلى عتبته سبعة أذرع تزيد قليلا ،
ودرجاته سبع بالمقعد والأمر على ذلك إلى الآن .

الجملة الثانية

(في نواحيها وأعمالها ، وهي على ضريين)

الضرب الأول

(حماها ومرافقها)

وأعلم أن للدينة الشريفة حمى ، حماه النبي صلى الله عليه وسلم وحرمه كما حرّم
إبراهيم عليه السلام مكة . قال في "الروض المعطار" : حماها اثنا عشر ميلا ؛
وخارج بابها الشرقى البقيع المتقدم ذكره ، وهو مدفن أكثر أمواتها ، وهو بالباء الموحدة
في أوله ، ويسمى ببيع العرقيد - بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح القاف
ودال مهملة في الآخر . قال "الأصمعي" : سمي بذلك لأنه قُطع مابه من شجر العرقيد
يوم مات عثمان رضى الله عنه . وبه قبر إبراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم !
من مارية القبطية ، وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب ، وإلى جانبه قبر العباس :
عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقبر عثمان بن عفان رضى الله عنه في قبة دونهما ،
وقبر مالك بن أنس إمام المذهب المعروف ؛ وحول المدينة حدائق النخل الأنيقة ؛
وثمرها من أطيب الثمر وأحسنه ، وغالب قوت أهلها منه .

الضرب الثاني

(في مخالفتها وقراها، والمشهور منها ثمانية أما كن)

الأول - (قُبَاءُ) - بضم القاف وفتح الباء الموحدة وألف في الآخر - ويروى بالمد والقصر والمد أشهر . قال في "الروض المعطار" : ومن العرب من يذكره فيصرفه ، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه . قال : وسميت قُبَاءُ بئر كانت بدار توبة بن الحسن ابن السائب بن أبي لبابة يقال لها قُبَاءُ ، وهي قرية غربي المدينة على ميلين منها ، وبها مسجد التقوى الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴾ . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأتي قُبَاءَ كل يوم سبت راكباً وماشيئاً ، ومُصَلِّاهُ بها مشهور .

الثاني - (خير) - بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وراء مهملة في الآخر - قال الزجاجي : سميت بخَيْرٍ بن قانية وهو أول من نزلها ، وهي بلدة بالقرب من المدينة الشريفة . قال ابن سعيد : طولها أربع وستون درجة وست وخمسون دقيقة ، وعرضها سبع وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وهي بلدة عامرة أهلة ذات نخيل وحدائق ومياه تجري . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة بني عنزة من اليهود ، والخَيْرُ في لغة اليهود الحصن ، وهي في جهة الشمال والشرق عن المدينة على نحو ست مراحل وقيل أربع مراحل . قال الإدريسي : وهي ذات نخيل وزرع ، وكانت في صدر الإسلام دارا لبني قُرَيْظَةَ والنَّضِيرِ ، وبها كان السَّمَوَعِلُ بن عاديًا الشاعر المشهور .

الثالث - (فَدَكٌ) - بفتح الفاء والداد المهملة وكاف في الآخر - قال الزجاجي : سميت فَدَكُ بن حام ، وقيل : سميت بفَيْدِ بن حام ، وهو أول من نزلها . قال

في "الروض المطار": و بينها وبين المدينة يومان، وحصنها يقال له الشموخ على القرب من خير، وكان أهلها قد صالحوا النبي صلى الله عليه وسلم! على النصف من ثمارها في سنة أربع من الهجرة، ولم يُوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب فكانت له صلى الله عليه وسلم خالصةً، وكان معاوية بن أبي سفيان قد وهبها لمروان بن الحكم، ثم آرتجمها منه لمؤجدة وجدها عليه. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة، ردّها إلى ما كانت عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تُعلّ في أيام إمرته عشرة آلاف دينار، يتجافى عنها.

الرابع - (الصفراء) - مؤنث أصفر - وهو واد على ستّ مراحل من المدينة كثير المزارع والمياه والحدائق. أخبرني بعض أهل الحجاز أن به أربعة وعشرين نهراً على كل نهر قرية، ووعيونته تصب فضلها إلى ينبع، وهو بيد بني حسن الشرفاء.

الخامس - (ودان) - بفتح الواو وتشديد الدال المفتوحة وألف ثم نون - وهو واد به قرى نراب لا تحصى كثرة.

السادس - (الفرع) - بضم الفاء وسكون الراء المهملة وبالعين المهملة - وهو واد في جنوبى المدينة على أربعة أيام منها يشتمل على عدة قرى أهله، أخبرني بعض أهل الحجاز أن به أربعة عشر نهراً على كل نهر قرية، وماؤها يصب في رابع حيث يُحرم حجاج مصر، وعليها طريق المشاة من مكة إلى المدينة. قال في "الروض المطار": ويقال إنها أول قرية مارت إسماعيل عليه السلام التمر بمكة، وهي الآن بيد بني حرب.

السابع - (الجار) - قال في "الباب": بفتح الجيم وألف وراء مهملة - وهي فُرصة المدينة الشريفة على ثلاث مراحل منها. قال ابن حوقل: و بينها وبين ساحل الجحفة نحو ثلاث مراحل، منه عن أيلة على نحو عشرين مرحلة.

الثامن - (وَادِي الْقَرْي) - بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف في الآخر جمع قرية . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة كثيرة النخيل والبساتين والعيون ، وبها ناس من وُلد جَعْفَر بن أَبِي طالب رضى الله عنه ، وهم الغالبون عليها ، وتُعرف بالوَادِيَيْنِ ؛ والذي أخبرني به بعض أهل الحجاز أنه كان بها عيون كثيرة عليها عدّة قُرَى فخربت لاختلاف العرب ، وهي الآن خراب لا عامر بها ولو عمرت أغنت أهل الحجاز عن الميرة من غيرها .

قلت : وبالغ الإدريسيّ في "زهة المشتاق" فعّد من مخاليفها تيماء ودومة الجندل ، ومدّين ، والتحقيق خلاف ذلك .

فأما تيماء - بفتح التاء المثناة من فوق وسكون الياء المثناة من تحت وميم ثم ألف في الآخر - فقد عدها في "تقويم البلدان" : من بادية الشام تقريبا . قال في "العريزي" : وهي حاضرة طيء وبها الحصن المعروف بالأبلق المنسوب إلى السّمّوعل بن عاديّ . قال في "تقويم البلدان" : وهي الآن أعمر من تبوك ، وبها نخيل قائمة .

وأما دومة الجندل فقال في "تقويم البلدان" : هو موضع فاصل بين الشام والعراق على سبع مراحل من دمشق ، وبينه وبين المدينة الشريفة ثلاث عشرة مرحلة . وأما مدّين فقد تقدّم ذكرها في الكلام على كور مصر القديمة ، ووقع الكلام عليها هناك وإن كان الحق أنها من ساحل الحجاز .

الجملة الثالثة

(في ذكر ملوك المدينة وأمرائها، وهم على ضربين)

الضرب الأول

(من قبل الإسلام؛ وهم ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(التبابعة)

قد تقدم في الكلام على بنائها نقلا عن صاحب "الهتاء الدائم": أن تبعاً الأول هو الذى بناها وأسكنها جماعة من علماء أهل الكتاب، وكتب كتاباً وأودعه عندهم^(١) ليوصله من أدركه من أبنائهم إليه، وبنى الكتاب عندهم يتوارثونه حتى هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فتلقاه من صار إليه الكتاب منهم وأوصل الكتاب إليه . وحينئذ فيكون أول من ملكها التبابعة .

الطبقة الثانية

(العاقلة من ملوك الشام)

قال السهيلي: وأول من نزلها منهم يثرب، بن عييل، بن مهلائيل، بن عوص، ابن عملاق، بن لاوذ، بن إرم، بن سام، بن نوح عليه السلام فسميت به . قال في "الروض المعطار": وكانت هذه الأمة من العالقي يقال لها جاسم، وكانوا قد استولوا على مكة وسائر الحجاز، وكانت قاعدة ملكهم تيماء، وكان آخر ملوكهم الأرقم بن أبي الأرقم .

(١) أى إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم قريباً .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بني إسرائيل ومن انضم إليهم من الأوس والخزرج)

قال في "الروض المعطار": لما ظهر موسى عليه السلام على فرعون، بعث بعثاً من بني إسرائيل إلى الحجاز وأمرهم أن لا يستبقوا^(١) منها أحداً بلغ الحلم، فقتلوهم حتى انتهوا إلى ملكهم الأرقم بتياء فقتلوه وأبقوا له أبناً صغيراً ليرى موسى عليه السلام فيه رأيه . فلما رجعوا به إلى الشام وجدوا موسى عليه السلام قد توفى ، فقال لهم الناس : عصيتم وخالفتم أمر نبيكم، وحالوا بينهم وبين الشام، فقال بعضهم لبعض : خير من بلدكم البلد الذي خرجتم منه، فعادوا إلى الحجاز فقتلوه، فكان ذلك أول سُكنى اليهود الحجاز ، فنزل جمهورهم بمكان يقال له يَثْرِبُ يجتمع السيول وتآخذوا الآطام والمنازل ، ونزل معهم جماعة من أحياء العرب من بلي وجُهينة .

وكانت يثرب أم قرى المدينة وهي ما بين طرف قباء إلى الجرف؛ ثم لما كان من سبل العرم باليمن ما كان ، تفرق أهل مارب ، فأتى الأوس والخزرج يثرب لليهود فحاربوهم ، وكان آخر الأمر أن عقدوا بينهم وبينهم جواراً وأشتركوا وتحالفوا ، فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً ، فصارت للأوس والخزرج ثروة ومال وعز جانبهم تخافهم اليهود، فقطعوا الحلف، وخافهم الأوس والخزرج فبعثوا إلى من لهم بالشام فأعانوهم حتى أذلوا اليهود وغلبوهم عليها، وبقيت بأيديهم حتى جاء الإسلام وهاجر النبي صلى الله عليه وسلم إليها وهم رؤسائها وحكامها .

(١) أى من العالين والأوضح منهم .

(٢) فى المعجم "أبنا شابا جيلا" وهو الأنسب .

الضرب الثاني

(من في زمن الإسلام، وهم أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(من كان بها في صدر الإسلام)

كان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن توفى في سنة إحدى عشرة من الهجرة. ثم أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى أن توفى سنة اثنتي عشرة من الهجرة. ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن قتل في سنة ثلاث وعشرين. ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى أن قتل في سنة خمس وثلاثين. ثم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى أن قتل سنة أربعين. ثم الحسن بن علي بن أبي طالب إلى أن سلم الأمر لمعاوية سنة إحدى وأربعين من الهجرة النبوية.

الطبقة الثانية

(عمال الخلفاء من بني أمية)

وُلِّيَ عليها معاوية سنة اثنتين وأربعين من الهجرة (مروان بن الحكم). ثم عزله سنة تسع وأربعين وولِّيَ مكانه (سعيد بن العاص). ثم عزله سنة أربع وخمسين وردَّ إليها (مروان بن الحكم). ثم عزله سنة تسع وخمسين وولِّيَ مكانه (الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان).

ثم عزله يزيد بن معاوية عن المدينة والحجاز وولِّيَ مكانه (عمرو بن سعيد الأشدق) ثم عزله سنة إحدى وستين وأعاد (الوليد بن عتبة).

ثم أستعمل ابن الزبير عند غلبته علي المدينة أخاه (مُضْعَبًا) سنة خمس وستين؛ ثم نقله إلى البصرة وولّى مكانه (جابر بن الأسود) بن عوف الزهري؛ ثم ولى مكانه (طلحة بن عبد الله) بن عوف .

ثم غلب عبد الملك بن مروان على الخلافة فبعث على المدينة (طارق بن عمرو) فغلب عليها طلحة بن عبد الله وأتزعها منه . ثم أنفرد عبد الملك بالخلافة وولّى على المدينة والحجاز واليمن واليمامة (الحجاج بن يوسف) وعزل طارقا عن المدينة وجعله من جنده . ثم ولى عليها سنة سبع وسبعين (أبان بن عثمان) . ثم عزله في سنة اثنتين وثمانين وولّى مكانه (هشام بن إسماعيل المخزومي) .

ثم كانت خلافة الوليد بن عبد الملك فعزل هشام بن إسماعيل وولّى مكانه (عثمان ابن حيان) .

ثم تولى عليها (أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم) أيام سليمان بن عبد الملك .

ثم أستعمل عليها عمر بن عبد العزيز في خلافته (عبد العزيز بن أرطاة) . ثم عزله يزيد بن عبد الملك سنة ثلاث ومائة وولّى مكانه (عبد الرحمن بن الضحاك) وأضاف إليه مكة؛ ثم عزله لثلاث سنين من ولايته وولّى مكانه على مكة والمدينة (عبد الواحد النضري) .

ثم عزله هشام بن عبد الملك وولّى عليها وعلى مكة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي) . ثم عزله هشام سنة أربع عشرة ومائة وولّى مكانه بالمدينة خاصية (خالد بن عبد الملك بن الحرث بن الحكم) . ثم عزله سنة ثمان عشرة ومائة وولّى مكانه (محمد بن هشام بن إسماعيل) .

ثم ولى الوليد بن يزيد في خلافته خاله (يوسف بن محمد بن يوسف الثقفي) على المدينة وسائر الحجاز في سنة أربع وعشرين ومائة . ثم عزله يزيد في خلافته في سنة

ست وعشرين ومائة ووثى مكانه (عبد العزيز بن عمرو بن عثمان). ثم وثى مروان^(١) على المدينة وسائر الحجاز. ثم عزله في سنة سبع وعشرين ومائة ووثى مكانه (عبد العزيز ابن عمر بن عبد العزيز). ثم عزله في سنة تسع وعشرين ومائة ووثى مكانه على المدينة وسائر الحجاز (عبد الواحد).

الطبقة الثالثة

(عُمَّالها في زمن خلفاء بني العباس)

لما ولى السَّقَّاح الخِلافة ووثى على المدينة والحجاز واليمن واليَمَّامة عمه (داود). ثم توفى داود سنة ثلاث وثلاثين ومائة فولى مكانه في جميع ذلك (زياد بن عبد الله ابن عبد المَدَّان الحارثي). ثم وثى سنة ثلاث وأربعين ومائة على المدينة (محمد بن خالد ابن عبد الله القَسْرِي). ثم أتهمه في أمر فعزله ووثى مكانه (رياح بن عثمان المُرِّي) فقتله أصحاب محمد المهدي؛ فولى مكانه (عبيد الله بن الربيع الحارثي). ثم عزله المنصور سنة ست وأربعين ومائة ووثى مكانه على المدينة (جعفر بن سليمان). ثم عزله في سنة خمسين ومائة ووثى مكانه (الحسن بن زيد بن الحسن). ثم عزله المنصور في سنة خمس وخمسين ومائة ووثى مكانه عمه (عبد الصمد بن علي). ثم عزله المهدي في خلافته سنة تسع وخمسين ومائة ووثى مكانه (محمد بن عبد الله الكَثِيرِي). ثم عزله ووثى مكانه (عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن صفوان). ثم عزله ووثى مكانه (زفر بن عاصم). ثم تولى على المدينة والحجاز (جعفر ابن سليمان). ثم كان بها (محمد بن عيسى) بعد مدة ،

(١) لم يذكر من ولاة ولعل الصواب ثم ولاة مروان [أى أقره] على المدينة الخ وأنظر الكلام على مكة

فيما سبق . (٢) في الكامل "محمد بن عبيد الله الخ" .

وعزله المتوكل وولّى مكانه (المستنصر بن المتوكل) . وتوالى عليها عمّال بنى العباس إلى عشر السنين والمائة .

الطبقة الرابعة

(أمراء الأشراف من بنى حُسين الذين منهم الأمراء المستقرون في إمارتها إلى الآن)

كانت الرياسة بالمدينة آنحرا لبنى الحسن بن عليّ .

وكان منهم أبو جعفر عبد الله ، بن الحسين الأصغر ، بن عليّ زين العابدين ، ابن الحسين السَّبُط ، بن عليّ ، بن أبي طالب رضى الله عنه .

وكان من جملة ولده جعفرٌ حجة الله ، ومن ولده الحسن ، ومن ولد الحسن يحيى الفقيه النَّسَّابة ، كانت له وَجَاهَةٌ عظيمة ونفخ ظاهر ، وتوفى سنة ست وسبعين ومائتين ؛ ومن ولده أبو القاسم طاهر بن يحيى ، ساد أهل عصره وبنى دارا بالعقيق ونزلها ، وتوفى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة .

وكان من ولده الحسن بن طاهر رحل إلى الأخشيد بمصر ، وهو يومئذ مَلِكُهَا ، فأقام عنده وأقطعه الأخشيد ما يُعْلَى في كل سنة مائة ألف دينار وأستقر بمصر ؛ وكان له من الولد طاهر بن الحسن ، وتوفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة ، وخلف أبنه محمدا الملقب بمسلم ، وكان صديقا لكافور الأخشيدى صاحب مصر ، ولم يكن في زمنه بمصر أوجهٌ منه . ولما آختل أمر الأخشيدية دعا مسلم هذا للعز صاحب إفريقية يومئذ . ولما قدم المعز إلى الديار المصرية بعد فتح جوهر القائد لها ، تلقاه مسلم بالجمال بأطراف بَرَقَة من جهة الديار المصرية ، فأكرمه وأركبه معدلا له وآخص به ؛ ثم توفى سنة ست وستين وثلثمائة فصلى عليه المعز ، وكانت له جنازة عظيمة .

وكان من ولد مسلم هذا طاهر أبو الحسين فالحق طاهر بالمدينة الشريفة
فقدمه بنو الحسين على أنفسهم وأستقلَّ بإمارتها سنين، وكان يلقب بالمليح، وتوفى
سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة، وولى بعده أبنه (الحسين بن طاهر) وكنيته أبو محمد .
قال العتبي : وكان موجودا في سنة سبع وتسعين وثلاثمائة وغلبه على إمارتها بنوعم أبيه
أبي أحمد القاسم بن عبيد الله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر حجة الله وأستقلوا بها .
وكان لأبي أحمد القاسم من الولد داود ويكنى أبا هاشم . وقال العتبي : الذي
ولّى بعد طاهر بن مسلم صهره وأبن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر،
وكناه أبا عليّ .

وقال ابن سعيد : ملك أبو الفتوح الحسن بن جعفر من بنى سليمان إمرة مكة
والمدينة سنة تسعين وثلاثمائة بأمر الحاكم العبيدي وأزال إمرة بنى الحسين منها ،
وحاول الحاكم نقل الجسد الشريف النبويّ إلى مصر ليلا فهاجت بهم ريح عظيمة
أظلم منها الجوّ، وكادت تقتلع المباني من أصلها، فردّهم أبو الفتوح عن ذلك وعاد
إلى مكة ورجع أمراء المدينة إليها .

وكان لداود بن القاسم من الولد مهنا وهاني والحسن . قال العتبي : ولي هاني
ومهنا وكان الحسن زاهدا .

وذكر الشريف الحرّانيّ النسابة هنا أميرا آخر منهم وهو أبو عمارة مدّة كان
بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة . قال : وخلف الحسن بن داود أبنه هاشما وولى المدينة
سنة ثمان وعشرين وأربعمائة من قبل المستنصر .

قال : وخلف مهنا بن داود عبيد الله والحسين وعمارة فولى بعده أبنه عبيد الله
وكان بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة وقتله موالى الهاشميين بالبصرة، ثم ولى الحسين وبعده
أبنه مهنا بن الحسين .

قال الشريف الخزاني : وكان لمهنا بن الحسين من الولد الحسين وعبد الله وقاسم فولى الحسين المدينة وقتل عبد الله في وقعة نخلة . وذكر صاحب حجة من أمرائها منصور بن عمارة الجسنيّ وأنه مات في سنة خمس وتسعين وأربعمائة وقام ولده مقامه ولم يسمه ؛ ثم قال وهم من ولد مهنا . [وذكر منهم أيضا القاسم بن مهنا ^(١)] حضر مع صلاح الدين بن أيوب فتح أنطاكية سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وذكر ابن سعيد عن بعض مؤرخي الحجاز أنه عدّ من جملة ملوكها قاسم بن مهنا وأنه ولاء المستنصر فأقام نحسا وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وولى ابنه سالم بن قاسم .

قال السلطان عماد الدين صاحب حجة في "تاريخه" : وكان مع السلطان ^(٢) صلاح الدين يوسف بن أيوب في فتوحاته يتبرك به ويتمن بصحبته ويرجع إلى قوله . ويقى إلى أن حضر إلى مصر للشكوى من قتادة فمات في الطريق قبل وصوله إلى المدينة . وولى بعده ابنه شيحة وقتل سنة سبع وأربعين وستمائة ، وولى ابنه عيسى مكانه . ثم قبض عليه أخوه جَمَّاز سنة تسع وأربعين وستمائة وملك مكانه ، وهو الذي ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" : أن الإمرة في بيته إلى زمانه .

قال ابن سعيد : وفي سنة إحدى وخمسين وستمائة ، كان بالمدينة أبو الحسين بن شيحة بن سالم . وقال : غيره كان بالمدينة سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

وولى أخوه جَمَّاز فطال عمره وعمى ومات سنة أربع أو خمس بعد السبعائة .

وولى بعده ابنه منصور بن جَمَّاز ، ثم وفد أخوه مقبل بن جَمَّاز على الظاهر بيبرس بمصر ، فأشرك بينهما في الإمرة والإقطاع ، ثم غاب منصور عن المدينة وأستخلف ابنه

(١) أي المكنى بابي فليته ، والزيادة عن ابن خلدون ليستقيم الكلام . (٢) أي قاسم المكنى أبا فليته .

(٣) أي سالم بن قاسم .

كبيشة فهجم عليه مقبل وملكها من يده ولحق كبيشة بأحياء العرب فأستجاشهم وهجم المدينة على عمه مقبل فقتله سنة تسع وسبعائة، ورجع منصور إلى إمارته، وبقى ماجد ابن مقبل يستجيش العرب على عمه منصور بالمدينة ويخالفه إلى المدينة كلما خرج منها، ثم زحف ماجد سنة سبع عشرة وسبعائة، وملكها من يد عمه منصور، فأستصرخ منصور بالملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، فأنجده بالعساكر وحاصروا ماجدا بالمدينة ففر عنها وملكها منصور، ثم سخط عليه السلطان الملك الناصر فعزله، وولى أخاه ودي بن جمار أياما، ثم أعاد منصورا إلى ولايته، ثم هلك منصور سنة خمس وعشرين وسبعائة، فولى ابنه كبيشة مكانه فقتله عسكر ابن عمه ودي وعاد ودي إلى الإمرة، ثم توفى ودي، فولى طفيل بن منصور بن جمار وأنفرد بإمرتها، وهو الذى ذكر المقر الشهابي في "التعريف": أنه كان أميرها في زمانه، وبقى إلى سنة إحدى وخمسين وسبعائة فوقع النهب في الركب، فقبض عليه الأمير طاز أمير الركب، وولى مكانه سيفا من عقب جمار، ثم ولى بعده فضل من عقب جمار أيضا، ثم ولى بعد فضل ماتع من عقب جمار، ثم ولى جمار بن منصور، ثم قتل بيد الغداوية أيام الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وأنفق أمراء الركب على تولية ابنه هبة إلى حين يرد عليهم من السلطان ما يعتمدونه، ثم ورد أمر السلطان بتولية هبة من عقب ودي فعزل ودي وولى مكانه، ثم ولى بعده عطية بن منصور بن جمار، فأقام سنين، ثم عزل وولى هبة بن جمار، ثم عزل وأعيد عطية، ثم توفى عطية وهبة وولى جمار بن هبة بن جمار، ثم عزل وولى نعيم بن منصور بن جمار، ثم قتل، فوثب جمار بن هبة على إمارة المدينة وأستولى عليها، فعزله السلطان، وولى ثابت بن نعيم، وهو بها إلى الآن في سنة تسع وتسعين وسبعائة. وهو ثابت،

أبن ججاز، بن هبة، بن ججاز، بن منصور، بن ججاز، بن شيحة، بن سالم، بن قاسم،
 أبن ججاز، بن قاسم، بن مهنا، بن الحسين، بن مهنا، بن داود، بن القاسم،
 أبن عبيد الله، بن طاهر، بن يحيى، بن الحسن، بن جعفر حجة الله، بن عبد الله،
 أبن الحسين الأصغر، بن عليّ زين العابدين، بن الحسين السَّبَط، بن عليّ بن أبي
 طالب كرم الله وجهه .

وإمرتها الآن متداولة بين بنى عطية وبين بنى جَمَّاز، وهم جميعا على مذهب
 الإمامية الرافضة يقولون بإمامة الأئني عشر إماما وغير ذلك من معتقدات الإمامية،
 وأمرء مكة الزيدية أخف في هذا الباب شأنا منهم .

الجملة الثالثة

(في ترتيب المدينة النبوية)

أما معاملاتها فعلى ما تقدم في الديار المصرية من المعاملة بالدنانير والدرهم، والأمر
 في الفلوس على ما تقدم في مكة؛ ويعتبر وزنها في المبيعات بالمنّ وهو مائتان وستون درهما
 على ما تقدم في مكة؛ ويعتبر كيلها بالمدّ، وقياس قماشها بالذراع الشاميّ؛ وأسعارها
 نحو أسعار مكة، بل ربما كانت مكة أرخصا سعرا منها قربها من ساحل البحر بمجدة .
 وأما إمارتها فإمارة أعرابية كما في مكة من غير فرق .

وأما وفود الحجج عليها، فقد جرت العادة أن كل من قصد السبق في العود إلى
 الديار المصرية من الجند وغيرهم يزور النبيّ صلى الله عليه وسلم! عند ذهاب الركب
 إلى مكة ثم يعود بعد الحج إلى مصر من غير تعريج على المدينة، وبقى الحجج وأمير
 الركب لا يأتونها للزيارة إلا بعد أنقضاء الحج .

وأعلم أن كسوة الحجرة الشريفة ليست مما يجدد في كل سنة كما في كسوة الكعبة، بل كلما بليت كسوة جددت أخرى، ويقع ذلك في كل نحو سبع سنين أو ما قاربها، وذلك أنها مصونة عن الشمس، بخلاف كسوة الكعبة فإنها بارزة للشمس فيسرع بلاؤها.

وقد حكى ابن النجار في "تاريخ المدينة" أن أول من كسا الحجرة الشريفة الثياب الحسين بن أبي الهيثم صهر الصالح طلائع بن رزيق وزير العاضد، والعاضد آخر الخلفاء الفاطميين، عمل لها ستارة من الدبيق الأبيض عليها الطرز والحامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر، مكتوب عليها سورة يس بأسرها، والخليفة العباسي يومئذ المستضيء بأمر الله.

ولما جهزها إلى المدينة، أمتنع قاسم بن مهنا أمير المدينة يومئذ من تعليقها حتى يأذن فيه المستضيء فنقذ الحسين بن أبي الهيثم قاصدا إلى بغداد في استئذانه في ذلك فأذن فيه، فعلمت الستارة على الحجرة الشريفة نحو سنتين. ثم بعث المستضيء ستارة من الإبريسم البنفسجي عليها الطرز والحامات البيض المرقومة، وعلى دور جاماتها مرقوم "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي" وعلى طرازها اسم الإمام المستضيء بالله، فقلعت الأولى ونفذت إلى مشهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه بالكوفة، وعلقت ستارة المستضيء مكانها. ثم عمل الناصر لدين الله في خلافته ستارة أخرى من الإبريسم الأسود فعلقت فوق تلك. ثم عملت أم الخليفة الناصر بعد حجبها ستارة على شكل ستارة أنها المتقدمة الذكر فعلمت فوق الستارتين السابق ذكرهما.

قال ابن النجار: ولم يزل الخلفاء في كل سنة يرسلون ثوبا من الحرير الأسود عليه علم ذهب يكسب به المنبر. قال: ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستورا

على أبواب الحرم ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى حين انقراض الخلافة من بغداد ، فتولى ملوك الديار المصرية ذلك كما تولوا كسوة الكعبة على ما تقدم ذكره .

قلت : والستارة الآن من حرير أسود عليها طرز مرقوم بحرير أبيض ، وآخِر مَنْ عملها في العشر الأول من الثمانمائة السلطان الملك الظاهر برقوق .

وقد ذكر ابن النجار في "تاريخ المدينة" أيضا أن الناصر لدين الله العباسي كان يُرسل في كل سنة أربعة آلاف دينار للصدقة وألفا ونحوها من ذراع قطن لتكفين من يموت من الفقراء ، خارجا عما يجهزه للعمارة ، وما يُعده من القناديل والشيرج والشمع والند والغالية المرگبة والعود : لأجل تبخير المسجد .

وذكر عن يوسف بن مسلم أن زيت قناديل مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ! كان يُحمل من الشام حتى أنقطع في ولاية جعفر بن سليمان الأخيرة على المدينة بجمعه على سوق المدينة . ثم لما ولي داود بن عيسى في سنة ثمان وسبعين ومائة ، أخرجه من بيت المال ، ثم ذكر أنه كان في زمانه في خلافة الناصر لدين الله يصل الزيت من مصر من أوقاف بها سبعة وعشرين قنطارا ، كل قنطار مائة وثلاثون رطلا بالمصري ، ومائة وستون شعبة ما بين كبيرة وصغيرة ، وعلبة فيها مائة مثقال ندى .

الباب الرابع

من المقالة الثانية

(في الممالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية ؛ وفيه أربعة فصول)

الفصل الأول

(في الممالك والبلدان الشرقية عنها ، وما يخروط في سلكها من شمال
أو جنوب ؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأول

(في الممالك الصائرة إلى بيت جنكرخان ؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في التعريف باسم جنكرخان ومصير الملك إليه ، وما كان له

من الأولاد ، وتقسيمه الملك فيهم)

أما اسمه فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني
أن اسمه في الأصل تمرجين ، وأنه لما عظم شأنه سمي جنكرخان . وقد ذكر
في "مسالك الأبصار" عن بعضهم : أن الصواب في النطق به جنكص خان بالصاد
بدل الزاي .

وأما نسبه فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أيضا أنه جنكرخان ، بن بيسوكي ، بن
بهادر ، بن تومان ، بن برتيل خان ، بن تومنيه ، بن بادستقر ، بن تيدوان ديوم ، بن بغا ،
أبن بودنجه ، بن ألانقوا ، وألانقوا هذه امرأة من قبيلة من التتر تسمى قبات من
أعظم قبائلهم شمرة ، كانت متزوجة بزوج أولدها ولدين أسم أحدهما بكنوت ، والآخر

بلكتوت ؛ ومن عقبهما الطائفة المعروفة في قبائل التتر بالدلوكة إلى الآن ؛ ثم مات زوج ألان قوا أبو هذين الأثنين وبقيت ألان قوا أيمًا فحملت فأُنكر طليع الحمل ، وحملت إلى ولي أمرهم حينئذ فسألها من حملت ؟ فقالت : إنى كنت جالسة وفرجى مكشوف ، فترل نور ودخل في فرجى ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل ، وأنا حامل بثلاثة ذكور ، كل مرة من دخول ذلك النور بذكر ، فأمهلوني حتى أضع . فإن وضعت ثلاثة ذكور فأعلموا صدق ، وإلا فدونكم وما ترون ؛ فأمهلوها حتى ولدت فأتت بثلاثة ذكور ، فسَمَّتْ أحدهم يوقن قوتاغى ، والثانى بوسن ساغى ، والثالث بودنجر ، وهو جد جنكرخان . وأولاد هذه الثلاثة يعرفون بين التتر بالنورانين نسبة إلى النور الذى زعمت أنه دخل فرجها فحملت منه . قال في "مسالك الأبصار" : "وهذه أكذوبة قبيحة ، وأحدوثه غير صحيحة ؛ وإن صححت عن المرأة فلعلها كانت قد سمعت بقصة مريم البتول عليها السلام ، فأحالت لسلامة نفسها بالتشبه بشأنها" .

وأما مصير الملك إليه فقد اختلف فيه على مذهبين .

أحدهما - ما حكاها في "مسالك الأبصار" عن الصاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجوينى : أنه كان يملك الترك ملك من عطاء الملوك يدعى أربك خان ، فتردد إليه جنكرخان في حال صغره وخدمته ، فتوسم فيه النجابة فقرّبه وأدناه وزاده في الارتقاء على أقاربه ، ففسدوه فوشوا به إلى الملك حتى غيروه عليه فأضمر له المكاييد ؛ وكان بالقرب من أربك خان ملكهم صغيران يخدمانه فأطلعا على ما أضمره الملك لجنكرخان وعرفاه ما أضمره الملك له وحدّراه ؛ وكان جنكرخان قد لَفَّ لفيفا عظيمًا فجمع لفيفه من قبائل التتر وقصد ذلك الملك في جيوشه ، وكان من أعظم القبائل المحيية لدعوته قبيلتان : إحداهما تدعى إديرات والأخرى فيقورات . مع قبيلته قبات المقدم ذكرها ،

(١) وجد في العبر (ج ٥ ص ٥٢٥) فرق في الأسماء ولم نعلم الصواب لهجمتها فليتبّه .

بفؤد العساكر لأزبك خان وجرت الحرب بينهما فقتل أزبك خان وملك جنكرخان وقرب كلاً من الصغيرين وجعل كلاً منهما ترخانا، وكتب لها بفراغهما من جميع المون والكلف إلى سبعة أبطن من أولادهما .

والثاني - ما حكاه السلطان عماد الدين صاحب حماة في "تاريخه" : عن محمد بن أحمد بن علي المثنى : كاتب إنشاء السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه : أن مملكة الصين كانت منقسمة من قديم الزمان إلى ستة أجزاء كل جزء منها مسيرة شهر، يتولى أمر كل جزء منها خان نيابة عن خاتهم الأعظم بطمغاج قاعدة الصين .^(١) إلى أن كان خاتهم الأكبر في زمان السلطان خوارزم شاه يسمى الطرخان، وكان من جملة الخانات الستة الذين ينوبون عنه شخص يسمى دوشي خان ، وكان متزوجاً بعممة جنكرخان فمات دوشي خان زوج عممة جنكرخان ، فحضر جنكرخان إلى عمته معزياً ، وكان يجاور دوشي خان خان من الخانات الستة يسمى أحدهما كشلوخان والآخر قلان ، فأرسلت زوجة دوشي خان إليهما بنى زوجها إليهما وتلاطفانهما في أستقرار جنكرخان ابن أخيها مكانه في الخانية على أن يكونا معاضدين له ، فأجابها إلى ذلك . فأستقر جنكرخان في الخانية مكان دوشي خان زوج عمته ، فبلغ ذلك الخات الأعظم الطرخان فأنكر ذلك على كشلوخان وقلان المذكورين ، فاتصل ذلك بهما فأجتمعاهما وجنكرخان وخلعوا طاعة الطرخان ، ثم مات أحد الخاتين وخلف أبنا اسمه كشلوخان فغلب جنكرخان على ملكه ، ثم مات الخات الآخر وأستقل جنكرخان بالملك ، ثم غلب على خوارزم شاه ، ثم على ابنه جلال الدين وأستقل بما وراء النهر .

(١) في تاريخ أبي الفدا "بطوغاغ وهي واسطة الصين" .

وأما أولاد جنكركخان فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : عن صاحب علاء الدين الجويني المتقدم ذكره أنه كان له عدة أولاد ذكور وإناث من الخواتين والسراري ، وكان أعظم نسائه أو بولي ، من تيكى ، ومن رسم المغل تعظيم الولد بنسب والدته ، وكان له من هذه أربعة أولاد معدين للأولاد الخطيرة ، هم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم ؛ وهم توشى وجفظاى ، وهو أصغرهم ، وأوكداى ، وأوتكين نويان ، وأنه جعل موضعه نقطة دائرة ملكه وبنيه حوله كحيط الدائرة ، بفعل ابنه أوكداى ولى عهده ورتبه لما يتعلق بالعقل والرأى والتدبير والولاية والعزل واختيار الرجال والأعمال وعرض الجيوش وتجهيزها ، وكان موضعه فى حياة أبيه حدود ايمك وقراباق . فلما جلس بعد أبيه على تخت الملك ، أنتقل إلى الموضع الأصلي بين الخطا وبلاد الايغور ، وأعطى ذلك الموضع لولده كيوك . وجعل لابنه أوتكين حدود بلاد الخطا ؛ وعين لابنه الكبير توشى حدود قياتق (؟) إلى أقصى سفسفين (؟) وبلغار ، ورتبه على الصيد والقنص ؛ وجعل لابنه جفظاى حدود بلاد الأيغور إلى سمرقند وُبجَارَا ، ورتبه لتنفيذ النابات والأمور والمقابلات وما أشبه ذلك . قال ابن عطاء ملك : وكانت أولاده وأحفاده تزيد على عشرة آلاف .

وذكر عن الشيخ شمس الدين الأصفهاني أن جنكركخان أولد أربعة أولاد ، وهم جوجى : وهو أكبرهم ، وكداى ، وطولى ، وأوكداى ، فقتل جوجى فى حياة أبيه وخلف أولادا . قال ابن الحكيم الطيارى : وهم باتو ويقال : باطو ، وأورده ، وبركه ، وتولى ، وجمتى . قال الشيخ شمس الدين المذكور : والمشهور باتو وبركه ، وأوصى بأن يكون تحتَه لولده الصغير أوكداى وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر كداى ؛ وجعل لابنه جوجى دشت القبجاق وما معه وأضاف إليه إيران وتبريز وهمذان

ومراغة، ولم يحصل لطولى شيء . فلما مات جنكرخان أستقل أوكدای بتخت أبيه ،
وأستقل جوجى بدشت القبجاق وما معه ، وأستقل باتو بن جوجى فيما جعله جدّه
جنكرخان لأبيه جوجى من إيران وتبريز وما مع ذلك ، ولم يتمكن كدای من مملكة
ماوراء النهر، ثم مات أوكدای مالك التخت وملك بعده ولده كيوك، وكان جبارا
قوى النفس فحكم على بنى أبيه فقهرهم وأنزع ما بيد باتو بن جوجى من إيران
وسائر مامعها، وأقام بها أميرا اسمه الجكرای . ثم جرى بينهم اختلاف كان آخر
الأمر فيه أن أُمسك الجكرای وقتل وحمل إلى باتو بن جوجى وطبخه وأكله، فبلغ
ذلك كيوك صاحب التخت فشق عليه وجمع ستمائة ألف فارس، وجمع باتو للقاءه
وسار كل منهما لمحاربة الآخر حتى كان بينهما عشرة أيام مات كيوك فكتب
خواتينه إلى باتو يعلمونه بموته ويسألونه في أن يكون عوضه على تخت جنكرخان،
فلم يرض ذلك وميزله منكوتان بن تولى بن جوجى بن جنكرخان، وجهاز معه إخوته
قبلاى خان وهولاكو : ولدا تولى، ووجه معهم باتو أخاه بركة بن جوجى في مائة ألف
فارس للجلسة على التخت ثم يعود ، فتوجه بركة بمنكوتان فأجلسه على التخت ،
ثم عاد فمز في طريقه ببخارا، فأجتمع فيها بالشيخ شمس الدين البانخرزى من أصحاب
شيخ الطريقة نجم الدين كيزى وحادثه فحسّن موقع كلامه منه فأسلم على يده ، وهو
أول من أسلم من بيت جنكرخان، وأشار البانخرزى على بركة بموالاته المستعصم خليفة
بنى العباس ببغداد يومئذ، فكاتبه وهاداه وترددت الرسل والمكاتبات بينهما . ثم إن
منكوتان بعد أستقلاله بتخت جدّه جنكرخان ملك أولاد جفطای مملكة ماوراء النهر
تنفيذا لما كان جنكرخان أوصى به لأبيهم جفطای كما تقدّم ومات دونه، وعلت كلمة
منكوتان صاحب التخت ووصلت إليه كتب أهل قزوين وبلاد الجبال يشكون
من سوء مجاورة الملاحدة : وهم الإسماعيلية فجهز إليهم منكوتان أخاه مكوقان لقتال

(١) لعله هولاكو كما يؤخذ من بقية الكلام .

الملاحدة وأخذ قلاعهم ، وأن يضم إلى ذلك بلاد الخليفة المستعصم فبلغ ذلك بركة
 ابن جوجى فشق عليه لصداقته مع الخليفة ، وكلم أخاه باتو فى ذلك فكتب باتو
 إلى هولاءكو بمنعه من التعرض لممالك الخليفة ، فوافاه الكتاب قبل أن يعبر نهر
 جيحون ، فأقام هناك سنتين حتى مات باتو وتسلطن أخوه بركة بعده فكتب هولاءكو
 إلى أخيه منكوتان يستأذنه فى إنفاذ ما كان عزم عليه من أخذ ممالك الخليفة
 وحسن له ذلك فلم يأذنه فيه فأصر هولاءكو على عزمه فأوقع بالملاحدة وقتل جماعة
 أتهمهم بملاة بركة ، وأشدت فى البلاد وقصد دشت القبجاق بلاد بركة فدهمه بركة
 بعساكره فكانت الدائرة على هولاءكو فكرر راجعا ودخل بلاد الخليفة وقبض عليه
 وقتله وملك بلاده . وكان أمر الله قدرا مقدورا !

الجملة الثانية

(فى عقيدة جنكرخان وأتباعه فى الديانة إلى أن أسلم من أسلم منهم وما جرت

عليه عادتهم فى الآداب وحالهم فى طاعة ملوكهم)

أما عقيدتهم فقد قال الصاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجوينى : إن الظاهر
 من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله تعالى ، وأنه خالق السموات والأرض ،
 وأنه يحيى ويميت ، ويعنى ويفقر ، ويعطى ويمنع ، وأنه على كل شىء قدير ، وأن منهم
 من دان باليهودية ، ومنهم من دان بالنصرانية ، ومنهم من أطرح الجميع ، ومنهم من
 تقرب بالأصنام . قال : ومن عادة بنى جنكرخان أن كل من أتجمل منهم مذهبا لم ينكره
 الآخر عليه ، ثم الذى كان عليه جنكرخان فى التدين وجرى عليه أعقابه بعده الجرى
 على منهاج ياسة التى قررها ، وهى قوانين نحتها من عقله وقورها من ذهنه ، رتب فيها
 أحكاما وحدد فيها حدودا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية ، وأكثرها مخالف

لذلك سماها الياسة الكبرى، وقد آكتبتها وأمر أن تجعل في خزانته تُتوارث عنه في أعقابه وأن يتعلمها صغار أهل بيته .

منها أن من زنى قتل ، ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل ، ومن بال في الماء قتل ، ومن أعطى بضاعة نخسر ثم أعطى ثانيا نخسر ثم أعطى ثالثا نخسر قتل ، ومن وقع حملهُ أو قوسه فمتر عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قتل ، ومن وجد أسيرا أو هاربا أو عبدا ولم يرده قتل ، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أو كساه بغير إذنه قتل ، إلى غير ذلك من الأمور التي رتبها ممامم دائنون به إلى الآن ، وربما دان به من تحلّى بحلية الإسلام من ملوكهم . ومن معتقدهم في ذبح الحيوان أن تُلَفَّ قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلى قلبه فيمرسه بيده حتى يموت أو يخرج قلبه . ومن ذبح ذبحة المسلمين ذبح .

وأما عاداتهم في الأدب فكان من طريق جنكركخان أن يعظم رؤساء كل ملة ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلى الله تعالى ؛ ومن حال التتر في الجملة إسقاط المؤن والكلف عن العلويين وعن الفقهاء والفقراء والزهاد والمؤذنين والأطباء وأرباب العلوم على اختلافهم ومن جرى هذا المجرى .

ومن آدابهم المستعملة أن لا يأكل أحد من يد أحد طعاما حتى يأكل المُطعمُ منه ولو كان المُطعمُ أميرا والآكل أسيرا ، ولا يختص أحد بالأكل وحده بل يطعم كل من وقع بصره عليه ، ولا يمتاز أمير بالشَّع من الزاد دون أصحابه بل يقسمونه بالسوية ، ولا يخطو أحد موقد نار ولا طبقا رآه ، ومن آجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير إذن ، وأن لا يدخل أحد يده في الماء بل يأخذ منه ملء فيه

(١) في الخطط للقريزي (ص ٢٢٠ ج ٢) ما نصه "ولا يخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذي يؤكل عليه" .

(١) ويغسل يديه ووجهه، ولا يبول أحدٌ على الرماد . ويقال إنهم كانوا لا يرون غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس .

ومن طرائقهم أنهم لا يتعصبون لمذهب، وأن لا يتعزّضوا لمال ميت أصلا، ولو ترك ملاء الأرض، ولا يدخلونه حرّانة السلطان .

ومن عاداتهم أنهم لا يفخّمون الألفاظ، ولا يعظّمون في الألقاب حتى يقال في مراسم السلطان "القان بكذا" من غير مزيد ألقاب .

وأما حالهم في طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لا المال ولا الجاه بل ذلك دأب لهم حتى إنه إذا كان أمير في غاية من القوّة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنبا يوجب عقوبة وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه من يأخذه بما يجب عليه ألقى نفسه بين يدي الرسول ذليلا ليأخذه بموجب ذنبه، ولو كان فيه القتل .

ومن طريق أمرائهم أنه لا يتردد أمير إلى باب أمير آخر، ولا يتغير عن موضعه المعين له . فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، وإذا عرضوا آلات الحرب على أمرائهم وقوا في العرض حتى بالخيط والإبرة، ورعاياهم قائمون بما يلزمون به من جهة السلطان طيبةً به نفوسهم، وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بما عليهم .

(١) عبارة الخطط "وألزمهم أن لا يدخل أحد منهم يده في الماء ولكنه يتناول الماء بشيء بغتره به" .

المهـيـع الثاني^(١)

(في ذكر ممالك بني جنكرخان على التفصيل، وهي مملكتان)

المملكة الأولى

(مملكة إيران)

^(٢) بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة تحت والراء المهملة وألف ثم نون . وهي مملكة
الفرس، وتعرف بإيران بن آشور بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أول من ملكها
وأضيفت إليه وعرفت به . قال في "التعريف" : وهي مملكة الأكاسرة .
ثم قال : وهي من الفرات إلى نهر جيحون حيث بلخ، ومن البحر الفارسي وما صاقبه
من البحر الهندي إلى البحر المسمى بالفلزم بحر طبرستان، وهي المملكة الصائرة إلى
بيت هولوكو . قال : وقد دخل فيها مملكة الهياطلة، وهي مملكة مازندران وما يليها
إلى آخر كيلان، وطبرستان واقعة بين مازندران وكيلان، ومازندران الآخذة شرقا،
وكيلان الآخذة غربا .

وقال في "مسالك الأبصار" : هذه المملكة طولاً من نهر جيحون المحيط بآحر
نحراسان إلى الفرات القاطع بينها وبين الشام، وعرضها من كرمان المتصل بالبحر
الفارسي المنقسم من البحر الهندي، إلى نهاية ما كان يديبقايا الملوك السلجوقية بالروم
على نهاية حدود العلايا وأنطاليا من البحر الرومي . قال : ويفصل في الجانب الشمالي
بين هذه المملكة وبين بلاد القبحاق النهر المجاور لباب الحديد المسمى باللغة التركية
دقربو، وبحر طبرستان المسمى بحر الخزر . ثم قال : وأخبرني الفاضل نظام الدين
أبو الفضل يحيى بن الحكيم الطياري أن هذه المملكة تكاد تكون مربعة، فيكون

(١) لعله المقصد الثاني فإن التقسيم كان بالمقاصد .

(٢) ضبطه ياقوت بالكسر .

طولها بالسير المعتاد أربعة أشهر ، وعرضها أربعة أشهر . وهي من أجل ممالك الأرض ، وأوسطها في الطول والعرض ، متوسطة في الطول والعرض . وإذا أنصفت كانت هي قلب الدنيا على الحقيقة ، ذات أقاليم كثيرة ومدن كبيرة ، مشتملة على رساتيق وأعمال وخطط وجهات ، وهي ممتدة من بلاد الشام وما على سمتها إلى بلاد السند والهند وما والاها .

ولها جانبان : جنوبي وشمال .

الجانب الأول

(الجنوبي)

ويشتمل على ستة أقاليم :

الإقليم الأول

(الجزيرة الفراتية)

وهي أقرب أقطار هذه المملكة لمملكة الديار المصرية والشامية لمجاورتها بلاد الشام . قال في "تقويم البلدان" : ويحيط بها الفرات من حدود بلاد الروم ، وهو طرف الحد الغربي الجنوبي للجزيرة . فيمتد الحد الجنوبي الغربي مع الفرات إلى مَلطية ، إلى شمشاط ، إلى قلعة الروم ، إلى البيرة ، إلى قبالة منبج ، إلى السن ، إلى الرقة ، إلى قرقيسيا ، إلى الرحبة ، إلى هيت ، إلى الأنبار . ثم يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة ويعطف الحد من الأنبار إلى تكريت ، وهي على نهر دجلة ، إلى بالس ، إلى الحديثة على دجلة إلى الموصل . ثم يعطف من الموصل إلى جزيرة ابن عمر ، إلى آمد . ثم يصير الحد غربيا ممتدا بعد أن يتجاوز آمد على حدود إرمينية ، إلى حدود بلاد الروم ، إلى الفرات عند مَلطية من حيث وقع الابتداء . قال : فعلى هذا يكون بعض إرمينية وبعض الروم غربى الجزيرة ، وبعض الشام وبعض البادية جنوبيها ، والعراق شرقيها ، وبعض

إرْمِينِيَّةَ شمالِها . قال في "تقويم البلدان" : وتشتمل الجزيرة على ديار ربعة وديار مُضَر (يعنى بالصاد المعجمة) وبعض ديار بكر ، وهم القبائل الذين كانوا ينزلونها في القديم على ما تقدم ذكره في الكلام على أحوال العرب في المقالة الأولى .

قال في "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه الجزيرة مجموعها مملكة جليلة باقية بذاتها في الدولة الأتابكية يعنى دولة الأتابك زنكى صاحب الموصل والد نور الدين الشهيد صاحب دِمَشق ، وقاعدتها (الموصل) . قال في "اللباب" : بفتح الميم وسكون الواو وكسر الصاد المهملة ولام في الآخر - وهي مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبعٌ وثلاثون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي على دِجَلَة من الجانب الغربى ، ويقابلها من الجانب الشرقى مدينة نينوى التى بعث يونس عليه السلام إلى أهلها . وهي الآن خراب . وفي جنوبى الموصل مَصَبُّ الزَّابِ الأصغر فى دِجَلَة ، وهي فى مستوي من الأرض ؛ ولها سوران قد خرب بعضهما ، وسورها أكبر من سور دِمَشق . قال المؤيد صاحب حماة : والعامر منها فى زماننا نحو ثلاثيها ، ولها قلعة قد صارت فى جملة الخراب . قال قاضى القضاة ولّى الدين بن خلدون : وهي قاعدة ملك قديم يُعرف قديما بمملكة الجرامقة ، وكانت قد صارت إلى عماد الدين زنكى : والد نور الدين الشهيد ، ثم آتفق بها الحال إلى أن دخلت فى مملكة التتر من بنى هولاكو . قال ابن خرداذبه فى كتابه فى المسالك والممالك : ومن أقام بها سنة (١) ثم ... عقله وجده قد نقص ، وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكرها فى "التثقيف" وذكر أنه كان بها الأمير أردبغا قبل أن يحصل عليها من بيرم خواجا ثم أبو القان أويس .

(١) بياض فى الأصل . وأنظر معجم البلدان فانه يؤخذ منه أن من أقام بها سنة تبين فى بدنه فضل قوة .

ثم بها عدة مُدن وقلاع مشهورة .

(منها) مَارِدِينَ . قال في "اللباب" : بفتح الميم وسكون الألف وكسر الراء والبدال المهملتين ثم ياء مثناة من تحتها ونون - وهي قلعة بديار ربيعة من هذه الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي على جبل عال ، من الأرض إلى ذروتِه نحو فرسخين . قال ابن حوقل : وهي قلعة منيعة لا يستطاع فتحها عنوة ، ويجلبها جواهر الزجاج ، وبه حيات تفوق غيرها بسرعة القتل .

وأعلم أن ماردين هذه بيد ملوكها من بني أرتُق ، لها بيدهم الأمد الطويل ، لم تزل أيديهم عنها مذ ملكوها . قال القاضي ولي الدين بن خلدون في "تاريخه" : وأول من ملكها منهم ياقوتى بن أرتُق بعد السبع والأربعائة ، تملكها من يد مغن كان ملكشاه ابن ألب أرسلان السلجوقى أقطعها له ، ثم ملكها بعد ياقوتى المذكور أخوه على ، ثم عمه سقمان ، ثم أخوه إيلغازى ، ثم ابنه حسام الدين تمرتاش ، ثم ابنه قطب الدين الپي ، ثم ابنه نظام الدين إيلغازى ، ثم ابنه حسام الدين بولق أرسلان ، ثم أخوه ناصر الدين أرتُق أرسلان بن إيلغازى ، ثم ابنه نجم الدين غازى ، ثم أخوه قرا أرسلان ، ثم ابنه شمس الدين داود ، ثم أخوه نجم الدين غازى ، وتلقب بالمنصور . وهو أول من تلقب بالقباب السلطنة منهم ، ثم ابنه شمس الدين صالح وتلقب بالصالح ، ثم ابنه أحمد وتلقب بالمنصور ، ثم ابنه محمود وتلقب بالصالح ، ثم ابنه نخر الدين داود ، وتلقب بالمظفر ، ثم ابنه نور الدين عيسى ، وتلقب بالظاهر ، وهو القائم بملكها إلى الآن ، وهو الظاهر عيسى ، بن المظفر داود ، بن الصالح [محمود ، بن المنصور أحمد ، بن الصالح^(١)] صالح ، بن المنصور غازى ، بن المظفر قرا أرسلان ، بن المنصور أرتُق أرسلان [ابن بولق أرسلان^(١)] بن إيلغازى ، بن ألي ، بن تمرتاش ، بن إيلغازى ، بن أرتُق .

(١) الزيادة عن تاريخ ابن خلدون (ص ٢٢٠ ج ٥) .

ولما ملك هولاء كوفيا بغداد وأعمالها كان القائم بملك ماردين يومئذ المظفر
قرا أرسلان فأعطاه الطاعة وخطب له في جميع أعماله ، وتبعه على ذلك من بعده
من ملوكها إلى حين موت القان أبي سعيد من بقايا الملوك الهولاء كوفية ، فقطع
الخطبة لصاحب بغداد وما معها وخطب لنفسه ، والأمر على ذلك إلى الآن ،
وملوكها مؤادون للملوك الديار المصرية والمكاتبات بينهم متواصلة .

(ومنها) حصن كيفا . قال في "تقويم البلدان" : بحاء وصاد مهملتين ثم نون
ثم كاف وياء مشاة من تحت وفاء وألف - وهي مدينة من الجزيرة المذكورة من
الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة ،
والعرض سبع وثلاثون درجة ونحس وثلاثون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي من
ديار بكر . قال في "المشرك" : وهي على دجلة بين جزيرة ابن عمر وبين ميا فارقين .
قال في "اللباب" : والنسبة إليها حصكفي - بفتح الحاء وسكون الصاد وفتح
الكاف وفاء ثم ياء النسب . قال في "التعريف" : وملكها من بقايا الملوك الأيوبية
ومن ينظر إليه ملوك مصر يعين الإجلال ، لمكان ولائهم القديم لهم ، وأستقرار الوداد
الآن . قال في "التثقيف" : وأخبرني المقر السيفي منجك كافل الممالك الشريفة
أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان يعظم سلفه فإنه كان أستاذ قلاوون والده .
قال في "التعريف" : وكان آحروقت منهم الملك الصالح قصد الأبواب السلطانية .
فلما أتى دمشق عقبته الأخبار بأن أخاه قد ساور سريره ، وقصد بسلطته
سلطانه . ففكر رجعا ولم يعقب ، فما لبثت الأخبار أن جاءت بأنه حين صعد قلعتة ،
وكرر نحو سريره رجعتة ، وثب عليه أخوه المتوثب فقتله وسفك دمه ، ثم أظهر عليه
ندمه . وكتب إلى السلطان فأجيب بأجوبة دالة على عدم القبول لأعداره والسرائر
مكذبة ، والخواطر بعضها من بعض منقره . وذكر في "التثقيف" : أن الذي أتضح له

آخرها في رمضان سنة ست وسبعين وسبعائة أن صاحبها الملك الصالح سيف الدين أبو بكر، ابن الملك العادل شهاب الدين غازي، ابن الملك العادل مجد الدين محمد، ابن الملك الكامل سيف الدين أبي بكر، ابن الملك الموحد تقي الدين عبد الله، ابن الملك المعظم سيف الدين توران شاه، ابن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن الملك الكامل ناصر الدين محمد، بن العادل أبي بكر بن أيوب . ثم قال : وما يبعد أن الصالح المذكور هو ابن عم العادل مجد الدين محمد، وأن العادل غازي لاحقيقة له . ثم قال : وهو غلط لأن المستقر إلى آخر سنة ثنتين وستين وسبعائة وما بعدها بمدة هو العادل مجد الدين، وكتبت إليه في هذه المدة بهذا الاسم واللقب، ولم يبلغنا أنه استقر بعده سوى ولده، ثم نقل أنه الصالح ونقل الناقل أنه ابن العادل وهو صحيح لكنه قال : إن اسمه شهاب الدين غازي بن العادل مجد الدين وفيه بعد^{وهو} كون الولد يلقب بلقب والده الملوكي . انتهى كلامه .

قلت : والذي أخبرني به بعض قُصَّاد صاحبها في سنة تسع وتسعين وسبعائة أن الملك القائم بها يومئذ اسمه سليمان بن داود، وذكر لي لقبه الملوكي فنسبته، وذكر أنه يقول الشعر، وأحضر معه بيتا مفردا من نظمه وهو :

وَجَارِيَةٍ تُعِيرُ الْبَدْرَ نُورًا * وَلَوْلَا نُورُهَا عَادَ الظَّلَامُ !

فنظمت له أبياتا وبعثت بها إليه صحبة قاصده أولها :

سَلِيمَانُ الزَّمَانِ يَحْضِنُ كَيْفَا * لَهُ فِي الْمُلْكِ آثَارُ كِرَامٍ

زَكَأَصْلًا فَطَابَ الْفَرْعُ مِنْهُ * وَطَابَ الْغُضْنُ إِذْ طَابَ الْمِكَامُ

بَنُو أَيُّوبَ أَبَقُوا مِنْهُ ذُخْرًا * وَنِعْمَ الذُّخْرُ وَالْقَيْلُ الْهَمَامُ

وأثبت البيت الذي قاله في آخر هذه .

(ومنها) حَرَّانُ . قال في "المشترك" : بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وفي آخرها نون بعد الألف - وهي مدينة من ديار مُضَرَ من الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول ثلاث وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وكانت حَرَّانُ مدينةً عظيمةً أما اليوم نخراب . قال ابن حوقل : وهي مدينة الصابئين ، وبها سدَّتْهُمُ السبعة عشر ، وبها تَلَّ عليه مصليٌ للصابئين يعظَّمونه وينسبونه إلى إبراهيم عليه السلام ، وهي قليلة الماء والشجر . قال في "العزيزي" : والجبل منها في سمت الجنوب والشرق على فرسخين ، وترتبتها حمراء ، وشرب أهلها من قناة تجرى من العيون خارج المدينة ومن الآبار ، وحاكمها يكتأب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سيأتي في المكاتب إن شاء الله تعالى .

(ومنها) شِمَشَاط . قال في "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وسكون الميم وفتح الشين الثانية ثم ألف فطاء مهملة - وهي بلدة من ديار مُضَرَ ، وقيل من ديار بكر من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع . قال في "رسم المعمور" حيث الطول اثنتان وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي بلدة الثُّغُور الجزيرية بين آمد وبين نَحْرَتِ بَرْت . وقال ابن حوقل : هي بخر الجزيرة^(١) ، وبها حاكمٌ يكتأب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حَيْرَانُ . قال في "اللباب" : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الزاي المعجمة وألف ونون - وهي مدينة من ديار بكر من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها خمس وستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي كثيرة

(١) في التقويم . هي نخر .

الأشجار خصوصا شجر البُنْدُق . قال : وهى بين جبال ، ولها مياه سارحة ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكر فى "التثقيف" أنه كان اسمه فى زمانه عز الدين ، ثم آستقر بعده ابنه أسد الدين .

(ومنها) رَأْس عَيْن . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الراء المهملة ثم سين وعين مفتوحة مهملتان ومثناة تحت ونون فى الآخر - وتسمى عين ورْدَة أيضا ، وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة فى مستو من الأرض . قال ابن حوقل : يخرج منها فوق ثلثائة عين كلها صافية ، ويصير من هذه العين نهر الخابور ، وهم السمعاني جعلها منبع دجلة . قال فى "العزى" : وهى أول مُدُن ديار ربيعة من جهة ديار مُضَرَ ، وذكر السمعاني أنها من ديار بكر ، وأنكره ابن الأثير وقال : ليست من ديار بكر [بل هى] من الجزيرة . قال فى "اللباب" : وهى على يومين من حرّان والنسبة إليها رَسَعْنِي ، وإليها ينسب الرَّسَعْنِيُّ المُفسِّر .

(ومنها) مِيَا فَرَقِينَ . قال فى "اللباب" : بفتح الميم وتشديد المثناة من تحتها وسكون الألفين بينهما فاء مفتوحة وبعدهما راء مهملة ثم قاف وياء آخر الحروف ونون . وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "رسم المعمور" : حيث الطول خمس وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى قاعدة ديار بكر . وقال ابن حوقل : هى بين الجزيرة وبين إرْمِينِيَّة . قال فى "اللباب" : وعليها سورٌ حَجْرٍ دائرٌ ، وهى دون حماة فى القدر ، وهى فى ذيل جبل ، فى شمالها وهى فى ذيله . قال فى "اللباب" : والمياه والبساتين محدقة بها ، ولها نهر صغير على شوط فرس منها ، من عين تسمى عين حَنْبُوصَ بين الغرب والشمال ، تنخرق دُورَهَا

وتسقى بساتينها ، وبينها وبين المَوْصِلِ على حِصْنٍ كَيْفَا نحو ستة أيام وعلى مَارِدِينَ نحو ثمانية أيام، والنسبة إليها فَارِقِيٌّ . قال في "اللباب" : أسقطوا بعضها لكثرة حروفها، وبها حاكم يكتّب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قَرْقِيسِيَا . قال في "تقويم البلدان" : المشهور بفتح القاف الأولى وكسر الثانية وبينهما راء مهملة ساكنة ثم ياء آخر الحروف ساكنة ثم سين مهملة ثم ياء ثانية وألف - وهي مدينة من ديار مُضَرَ من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول أربع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة . قال في "اللباب" : وهي على الفُرات والخابور، على القرب من الرِّقَّة . قال في "العزيزي" : وهي شرقاً الفرات والخابور الخارج من رأس عين فيصب في الفرات على القرب منها . قال : وهي مدينة الرِّبَاءِ صاحبة جَدِيمة الأبرش، يعنى التي قتلته . قال في "اللباب" : وبها مات جَرِيرُ بن عبد الله البجليّ الصحابيّ رضي الله عنه . قال : والنسبة إليها قَرْقِيسِيَانِيّ وقد تحذف النون وتجعل الياء عوضها .

(ومنها) مَا كِسِينُ . قال في "اللباب" : بفتح الميم وسكون الألف وكسر الكاف والسين المهملة وسكون المثناة من تحت ونون في الآخر - وهي مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "اللباب" : وهي على الخابور . قال في "العزيزي" : وبينها وبين قَرْقِيسِيَا سبعة فراسخ ، وبينها وبين سِنْجَارِ اثْنان وعشرون فرسخاً .

(ومنها) نَصِييْنُ . قال في "اللباب" : بفتح النون وكسر الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها ثم باء موحدة وياء ثانية ونون - وهي مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال ابن سعيد : وهي قاعدة ديار ربيعة . قال :

وهي مخصوصة بالورد الأبيض لا يوجد فيها وردة حمراء ، وفي شمالها جبل عظيم يقال إنه الجودي الذي استقرت عليه سفينة نوح عليه السلام ، منه ينزل نهرها حتى يتر على سورها وعليه بساطينها ، ونهرها يسمى الهرماس ، وبها عقارب قتالة .

(ومنها) جزيرة ابن عمر - وضبطها معروف - وهي مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول ست وستون درجة وعشر دقائق ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة صغيرة على دجلة من غربها ذات بساطين كثيرة . وقال في "المشترك" : هي في شمالي الموصل ودجلة محيطة بها مثل الهلال ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) سنجان . قال في "اللباب" : بكسر السين المهملة وسكون النون وفتح الجيم وألف وراء مهملة - وهي مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة ، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي في جنوبي نصيبين - وهي من أحسن المدن وجبلها من أخصب الجبال . قال ابن حوقل : وهي في وسط برية ديار ربيعة بالقرب من الجبل والجبل في عاليها ، وليس بالجزيرة بلد فيه نخيل سواها . وهي في جهة الغرب عن الموصل على ثلاث مراحل عنها ، وهي على قدر المعرة من البلاد الشامية ، ولها قلعة وبساطين كثيرة ، وشربها من القني ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) تل أعفر - وضبط التل معروف ، وأعفر بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الفاء وراء مهملة في الآخر - وهي من الجزيرة من الإقليم الرابع من

الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "المشترك" : **وَتَلُّ أَعْقَرُ فُلْعَةٌ بَيْنَ سِنَجَارَ** وبين المَوْصِلِ . وذكر في "تقويم البلدان" عن بعض أهلها أنها غربي المَوْصِلِ فيما بينها وبين سِنَجَارَ ، وربما تكون إلى سِنَجَارَ أقرب . وذكر في "العزيزي" أن بينها وبين سِنَجَارَ خمسة فراسخ ، ولها أشجار كثيرة ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) الحَدِيثَةُ . قال في "تقويم البلدان" : **بفتح الحاء وكسر الدال المهملتين** ثم مشاة من تحت وئام مثلثة وهاء في الآخر وهي مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "المشترك" : **وهي في وَسَطِ الْفُرَاتِ والماء محيطٌ بها ، وتعرف بحديثه** التُّورَة . وهي غير حديثه المَوْصِلِ : بلدة صغيرة إلا أن لها ذكرا في القديم . قال في "المشترك" : **وهي على فراسخ من الأنبار ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب** السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) عَانَة . قال في "اللباب" : **بفتح العين المهملة وألف ونون وهاء** في الآخر . وهي بلدة من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة . وهي بلدة صغيرة على جزيرة في وَسَطِ الْفُرَاتِ . قال في "اللباب" : **وهي تقارب الحَدِيثَةَ** . وقال ابن حوقل : يطوف بها خليج من الفرات . قال ابن سعيد : **وتحمرها مذكور في الأشعار ، وأستشهد بقول بعض الشعراء :**

* **وَمِنْ عَانَةٍ أَمِّ مِنْ مَرَّاشِفِكَ الْخَمْرُ؟** *

وكثيرا ما تُقْرَن في الذِكر مع الحديشة لقرابها فيقال عانهُ والحديشة ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) آمِد . قال في "اللباب" : بمد الألف وكسر الميم وفي آخرها دال مهملة . وهي مدينة من ديار بكر ، من الجزيرة ، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة أزيَّة على الدجلة . قال ابن حوقل : وتليها سُورٌ في غاية الحصانة . قال في "العزيزي" : وسورها من الحجارة السود التي لا يعمل فيها الحديد ، ولا تضرُّها النار ، وهو مشتمل عليها وعلى عيون ماء ، ولها بساتين ومزارع كثيرة . قال ابن حوقل : وهي كثيرة الخصب . (ومنها) سِعْرَتُ . قال في "تقويم البلدان" نقلا عن صالح : بكسر السين والعين وسكون الراء المهملات وفي آخرها مثناة من فوق ، وقيل إسْعُرْد بكسر الهمزة وسكون السين وكسر العين وسكون الراء المهملات ودال مهملة في الآخر . وهي مدينة من ديار ربيعة ، من الجزيرة ، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مبنية على جبل تحيط بها الوطاة ، على القرب من شطِّ دجلة من جهة الشمال والشرق ، وهي في المقدار أكبر من المعرة ، وبها الأشجار الكثيرة من التين والرمان والكروم ، جميع ذلك عذو لا يسقي ، وشرب أهلها من بئار قريبة من وجه الأرض ؛ وهي عن مياْفَارِقَيْنِ على مسيرة يوم ونصف في جهة الجنوب ، وعن آمِد على مسيرة أربعة أيام في جهة الشمال منها ، وعن الموصل على خمسة أيام في جهة الشرق والشمال عنها .

(ومنها) تِكْرِيْتُ . قال في "اللباب" : بكسر المثناة من فوق وسكون الكاف وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة من تحت في آخرها تاء مثناة من فوق - وهي مدينة

(١) ضبطها المجد بالفتح وكذا ياقوت وقال : وكسرها العامة .

من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأثنان عشرة دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي آخر مدُن الجزيرة مما يلي العراق على غربي دجلة في الموصل . قال في "اللباب" : وسميت تكريت بتكريت بنت وائل أخت بكر بن وائل .

أما قلعتها فبناها سابور بن أردشير بن بابك ، وهي الآن خراب . قال ابن سعيد : وفي جنوبها وشرقها النهر الإسحاق ، حفره إسحاق بن إبراهيم صاحب شرطة المتوكل ، وهو أول حدود سواد العراق ، وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) برقيد - بفتح الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وكسر العين المهملة وسكون المثناة من تحتها ودال مهملة في الآخر . قال في "العزيزي" : وهي [مدينة] لها سور وأسواق كثيرة .

(ومنها) العاديّة - بكسر العين المهملة وفتح الميم وبعدها ألف ثم دال مهملة مكسورة وياء مثناة تحت مشددة مفتوحة وهاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة عامرة على ثلاث مراحل من الموصل في الشرق والشمال ، وهي على جبل من الصخر ، وتحتها مياه جارية وبساتين ، وهي في جهة الشمال عن إربل ، بناها عماد الدين زنكي صاحب الموصل فنسبت إليه ، وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة كُشاف . قال في "تقويم البلدان" : بضم الكاف وبالشين المعجمة ثم ألف وفاء في الآخر . وهي قلعة عامرة بين الزاب والشط ، قريبة من مصبه في الشط [وهي في الشرق] والجنوب عن الموصل . قلت : وقد ذكرها في "تقويم البلدان" أولاً

في جملة بلاد الجزيرة ووصفها بهذا الوصف ولم يضبطها ، ثم ذكرها في بلاد الجبل .
المعروفة بعراق العجم بهذا الوصف أيضا وضَبَطَهَا على ما تقدم ، والظاهر أنها من
بلاد الجزيرة ، وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة فنك . قال في "تقويم البلدان" : نقلنا عن أبي المجد في "كتاب

التمييز" : بفتح الفاء والنون - وهي قلعة حصينة فوق جزيرة ابن عمر .

(ومنها) الشوش . قال في "المشترك" : بضم الشين المعجمة وسكون الواو

ثم شين ثانية . قال : وهي قلعة مشهورة من أعمال الموصل في الجبال شرق

دجلة ، وإليها ينسب حب الرمان الشوشى .

(ومنها) عقر الحميدية . قال في "المشترك" : بفتح العين المهملة وسكون

القاف ثم راء مهملة - وهي قلعة حصينة مشهورة ، والحميدية قبيلة من الأكراد

بتلك البلاد .

(ومنها) الهتأخ . قال في "مزيل الأرتياب" : بفتح الهاء وتشديد التاء المثناة

من فوقها وفتحها وبعد الألف خاء معجمة . قال في "تقويم البلدان" : وهي

قلعة حصينة .

(ومنها) حاني . قال في "اللباب" : على وزن داعي ، يعني بفتح الحاء المهملة

وبعدها ألف ثم نون مكسورة وياء مثناة تحت في الآخر . قال : هذا ما تعرف به

الآن ، ولكن السمعاني قد قال فيها حنا ، بفتح الحاء المهملة والنون ، وهي مدينة

من ديار بكر من الجزيرة [من الإقليم الرابع] من الأقاليم السبعة ، وبها حاكم يكتب

عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية معدود في الأكراد .

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْجَزِيرَةَ مَجَاوِرَةٌ لِمَمْلَكَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ حَيْثُ اتَّصَلَتْهَا بِالْبِلَادِ

الشامية من الجهة الشرقية ، وقد تقدم أن بعض بلادها داخلة في أعمال حلب

من ممالك الديار المصرية كالرُّها وقلعة جَعَبَر وما والاهما، والمسافة ما بين حلب والرُّها معلومة؛ ومن الرُّها إلى حَرَّان يوم واحد؛ ومن حَرَّان إلى رأس عين ثلاثة أيام، ومن رأس عين إلى نَصِيبين ثلاث مراحل؛ ومن نَصِيبين إلى المَوْصِل أربع مراحل. وقد تقدّم أن المَوْصِل هي قاعدة الجزيرة في القديم، ومن الموصِل إلى تِكْرِيَت سبعة أيام، وقد تقدّم أن تكريت هي آخر مُدُن الجزيرة مما يلي العراق، ومن الموصِل أيضا إلى آمَد أربعة أيام؛ ومن آمَد إلى شِمَشَاط ثلاثة أيام.

الإقليم الثاني (العراق)

قال في "اللباب": بكسر العين وفتح الراء المهملتين ثم ألف وقاف. قال الجوهري: وهو يذكَر ويؤنث. قال أبو المجد إسماعيل الموصلي في كتابه المسمى "بالتمييز والفصل": وإنما سمي عراقا لأنه سفل عن نَجْدٍ ودَنَا من البحر، أخذنا من عراق القرْبَة، وهو الخَرْزُ الذي في أسفلها؛ ويعرف بعراق العرب لأن العرب كانت تنزله لقربه من بلادهم. قال في "تقويم البلدان": ويحيط به من جهة الغرب الجزيرة والبادية؛ ومن الجنوب البادية وبحر فارس وحدود خُوَزِسْتان؛ ومن الشرق حدود بلاد الجبال إلى حُلوان؛ ومن الشَّمال من حلوان إلى الجزيرة من حيث وقع الأبتداء.

قال: والعراق على ضَفْتَي دجلة مثل ما بلاد مصر على ضَفْتَي النيل، ويجرى دجلة من الشمال بميلة إلى الغرب، إلى الجنوب بميلة إلى الشرق، وأمتداد العراق طولا وشمالا وجنوبا من الحَدِيثَةِ على دجلة إلى عَبَادَانَ على مصبِّ دجلة في بحر فارس، وأمتداده غربا وشرقا من القادِسيَّة إلى حُلوان. فالحدِيثَة في وسط الحدِّ الشَّمالِيّ

بميلة إلى الغرب، والقادسية في وسط الحد الغربي بميلة إلى الجنوب، وعبادان في وسط الحد الجنوبي بميلة إلى الشرق، وحلوان في وسط الحد الشرقي بميلة إلى الشمال، ووسط العراق الذي من القادسية إلى حلوان هو أعرض ما في العراق .
 وأما رأس العراق الذي عند عبادان، فيدق عن ذلك . ثم قال : والذي يستدير على العراق - يعني والعراق على شماله - إذا أبتدأ من تكريت من بلاد الجزيرة المتقدمة، يمر منها إلى حدود شهرزور؛ وهي بين الشرق والشمال عن العراق، ثم إلى السيروان، وهي في الشرق، إلى حدود جباً، وهي في الشرق والجنوب، ثم إلى البحر يعني بحر فارس، وهو في الجنوب عن العراق . وفي هذا الحد من تكريت إلى البحر تقويس، ثم من البحر إلى البصرة، وهي في الجنوب عن العراق، ثم من البصرة إلى البادية على سواد البصرة، ثم إلى بطائح البصرة، ثم إلى واسط، ثم إلى سواد الكوفة ويطائحها، ثم على ظهر الفرات إلى الأنبار، ثم من الأنبار إلى تكريت حيث وقع الابتداء .

(١)
 ثم للذن قواعد ومدن .

القاعدة الأولى

(بايل)

بفتح الباء الموحدة ثم ألف وباء موحدة ثانية مكسورة ولام في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" "حيث الطول سبعون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي أقدم أبنية العراق، وإليها ينسب إقليم بابل لقدمها، وكانت ملوك الكنعانيين

(١) لعل الصواب "ثم للعراق قواعد ومدن" .

وغيرهم يقيمون بها . قال في "تقويم البلدان" : وبها آثار أبنية أحسبها أن تكون في قديم الأيام مصرا عظيما، ويقال إنها من بناء الضحالك : أحد ملوك الفرس الذي ملك الأقاليم السبعة . قال : وفيها أئمة إبراهيم الخليل عليه السلام في النار؛ وقد أخبر الله تعالى في كتابه العزيز أن بها هَارُوتَ وَمَارُوتَ الْمَلَكَيْنِ اللّٰذِينَ يَعْلَمَانِ النَّاسَ السَّحْرَ، ويقال إنهما بها في بئرٍ وإن البئر ظاهرة بها إلى الآن . قال صاحب حماة : وهي اليوم مدينة خراب، وقد صار في موضعها قرية صغيرة .

القاعدة الثانية

(المدائن)

جمع مدينة وضبطها معروف . قال في "تقويم البلدان" : وآسماها بالفارسية طَيْسَفُونُ - بفتح الطاء المهملة وسكون المثناة التحتية وفتح السين المهملة وضم الفاء وبعدها واو ونون - ثم قال : وكل ذلك سمعا وقد تبدل الفاء باء . وهي واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق . قال في "تقويم البلدان" : وهي على دجلة من شرقها تحت بغداد على مرحلة منها . قال في "العزيزي" : والمدائن في جنوبي بغداد، وكان بالمدينة الكبرى منها إيوان كسرى في شرقي دجلة ارتفاعه ثمانون ذراعا . ونقل في "تقويم البلدان" عن بعض الثقات في سَعته من ركنه إلى ركنه خمسة وتسعون ذراعا . وكانت هي قاعدة ملوك الفرس ، فلما وُلِدَ النبي صلى الله عليه وسلم ، أنشق هذا الإيوان ثم خرب هو وسائر المدائن في الإسلام .

القاعدة الثالثة

(بَغْدَادُ)

قال في "اللباب": بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وفتح الدال المهملة وفي آخرها ذال معجمة . وموقعها في آخر الإقليم الثالث . قال في "القانون": حيث الطول سبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة ونحو عشر وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان": وسميت بغداد بهذا الاسم لأن كسرى أهدى إليه خصى من المشرق فأقطع بغداد ، وكان له صنم يعبد به المشرق يقال له البغ فقال ذلك الخصى بغ داد يعني أعطاني الصنم ، وكان عبد الله بن المبارك يكره أن يقال لها بغداد بالذال المعجمة في آخرها ، فإن بغ شيطان و داد عطية فعناه عطية الشيطان وهو شرك . قال : وإنما يقال بغداد بالداين المهملتين . وقد قال بعضهم : إن بغ بالفارسية البستان و داد بإهمال الأولى وإعجام الثانية أسم رجل ومعناه بستان داد؛ ويقال فيها أيضا بَغْدان بإبدال الدال الأخيرة نونا؛ ومَغْدان بإبدال الباء الأولى ميما . وكان المنصور يسميها مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادي السلام . وبغداد على جانبي دجلة من الشرق والغرب، والجانب الغربي منها يسمى الكرخ، وبه كان سكنى أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس، والجانب الشرقي منها بناه المهدي بن المنصور المقدم ذكره وسكنه بعسكره فسمى عسكر المهدي، ثم بنى فيه الرشيد بن المهدي قصرا سماه الرصافة فأطلق على الجانب كله الرصافة، ويسمى جانب الطاق أيضا نسبة إلى رأس الطاق، وهو موضع السوق الأعظم منها . وبهذا الجانب محلة تسمى (الحريم) يعني حريم دار الخلافة . قال في "المشرك": بفتح الحاء وكسر الراء المهملتين ثم مثناة من تحتها ساكنة وفي آخره ميم . قال : وهي قريب من ثلث الجانب الشرقي، وعليه سور ابتدأه من دجلة وآتتهاء إليها أيضا

كهيسة الهلال أو كنصف دائرة؛ وله أبواب أو لها باب الغربية، وهو على دجلة، ثم يليه باب سوق التمر، وهو باب شاهق ولكنه أغلق في خلافة الناصر لدين الله، ثم آسَمَزَ غَلَقَهُ، ثم باب البَدْرِية، ثم باب النُوبى . وفيه العتبة التي كانت تقبلها الملوك والرُّسل، ثم باب العائمة، ويقال له أيضا باب عَمُورِيَّة . ثم يمتد السور نحو ميل لا باب فيه إلا باب بستان تحت المنطرة التي تتحر تحتها الضحايا، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو رميتى سهم .

وبهذا الحريم محالٌ وأسواق ودُور كثيرة للريعة وهو كأكبر مدينة تكون . قال :
وبين دُور الريعة التي داخل هذا السور وبين دجلة سور آخر، وداخل السور الثانى دُور الخلافة لا يدخلها شىء من دور العائمة . قال فى "مسالك الأبصار" : وبين الجانيين جسران منصوبان على دجلة شرقا وغرب على سُفْن وزوارق أوقفت فى الماء ومدت بينهما السلاسل الحديد المكعبة بالمكعبات الثقال ، وفوقها الخشب الممدود ، وعليها التراب يمر عليها أهل كل جانب إلى الآخر بالجر والجمال والحمول ؛ وعلى ضَفْتَى دجلة قُصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية بالشبابيك والطاقت المطة على دجلة ، وبنائها بالآجر .

ومن بيوتها ما هو مفروش بالآجر أيضا ملصق بالقيرو وهو الزفت ، ولهم الصنائع العجيبة فى الترويق بالآجر، وبها وجوه الخير من الجوامع والمساجد والمدارس والخَوَاقق والرُّبُط والبيارستانات والصدقات الجارية ووجوه المَعُونَة ، وناهيك أنها كانت دار الخلافة ومقر ملوك الأرض . ومنها فلائد الأعناق ، ورتابها لِمَى القَبَل وإمْدُ الأحداق .

قال فى "مسالك الأبصار" : قال الحكيم نظام الدين بن الطيارى : وأوقفها جارية فى مجاريها ، لم تعترضها أيدي العُدوان فى دولة هولاكو ولا فيما بعدها ، بل

كل وقف مستمرٌ بيد متوليه، ومن له الولاية عليه، وإنما نقصت الأوقاف من سوء ولاة أمورها لا من سواها. وبها البساتين الموقَّه، والحدائق المحذَّقه، وبها ثمر النخل المفضلة على ما سواها من الرطب والتمر، وبها أنواع الرياحين والخضراوات والغلال؛ وسعرها متوسط في الغالب لا يكاد يرخُص. قال المقر الشهابي بن فضل الله: سألت الصدر مجد الدين بن الدوري عن السبب في قلة الغلال ببلاد العراق مع امتداد سوادها، فقال: قلة الزرع مع ما استهلكه القتل زمن هولاء كو وحيزه^(١) للعراق وما جاوره من البلاد.

قلت: وبغداد وإن كانت أم الممالك ودار الخلافة، فقد أغفل ملوك التتر الالتفات إليها، وصرفوا عنايتهم إلى تبريز والسُّلطانية وصيروها قاعدتين لهذه المملكة على ما سيأتي ذكره في الكلام على إقليم أذربيجان فيما بعد إن شاء الله تعالى

القاعدة الرابعة

(سُرَّ من رأى)

من السرور والرؤية، ثم خففها الناس فقالوا سَامَرًا. قال في "اللباب": بفتح السين المهملة وسكون الألف وفتح الميم وفي آخرها راء مهملة مشددة - وهي مدينة واقعة في الإقليم الرابع. قال في "القانون" حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة. قال في "العزيزي": وهي على شاطئ الدجلة من الشرق. قال ابن سعيد: بناها المعتصم، وأضاف إليها الواثق المدينة المهارونية، والمتوكل المدينة الجعفرية فعظم قدرها. قال في "اللباب": ثم خربت عن قريب من عمارتها. قال في "العزيزي": ولم يبق فيها عامر سوى مقدار يسير كالقرية.

(١) بمعنى حوزة وامتلاكه، لغة نقلها الفيومي في مصباحه.

وأما المذُن التي بالعراق :

(فمنها) هَيْتٌ . قال في "المشترك" : بكسر الهاء وسكون المثناة تحت وتاء مثناة من فوق في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمان وستون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "العزيزي" : وهي من حدود العراق . قال ابن سعيد : وإليها ينتهي حدّ الجزيرة . قال في "تقويم البلدان" : وهي على شماليّ الفرات ، ووهم في "العزيزي" فجعلها غربيّ الفرات . قال في "المشترك" : وهي من أعمال بغداد . قال في "اللباب" : وهي فوق الأنبار . قال صاحب "التهذيب" : وسمّيت هيت لكونها في هوة من الأرض . قال في "اللباب" : وبها قبر عبد الله بن المبارك رحمه الله ؛ وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حيرةٌ . قال في "اللباب" : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة وهاء في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "القانون" حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . [والحيرة مدينة جاهلية كثيرة الأنهار ، وهي عن الكوفة على نحو فرسخ . وقال في "العزيزي" : مدينة قديمة على ثلاثة أميال من الكوفة ؛ وكانت منازل آل النعمان بن المنذر ، وبها تنصر المنذر بن أمرئ القيس وبنى بها الكنائس العظيمة . والحيرة على موضع يقال له النَّجْفُ ، زعم الأوائل أن بحر فارس كان يتصلُّ به ؛ وبينهما اليوم مسافة بعيدة . قال في "اللباب" : والحيرة مدينة قديمة عند الكوفة ، وبها الخورنق . قال في "الترتيب" : إن تبعاً لما سار من اليمن إلى خراسان وأتمى إلى موضعها ليلاً فتحير ونزل وأمر ببنائها فسميت الحيرة .

(ومنها) الأنبار . قال في "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون النون ثم باء موحدة مفتوحة وراء مهملة بعد الألف - وهي من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . طولها تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثمان وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال في "المشترك" : والأنبار عن بغداد^(١) على عشر فراسخ منها . قال في "المشترك" : وهي من نواحي بغداد على شاطئ الفرات . قال ابن حوقل : وهي أول بلاد العراق ، وبها كان مقام السفّاح : أول خلفاء بني العباس حتى مات ، ويقال إن أول ما نقلت الكتابة العربية إلى مكة من الأنبار على ما تقدم في المقالة الأولى في الكلام على الخط .

(ومنها) الكوفة . قال في "اللباب" : بضم الكاف وسكون الواو ثم فاء وهاء - وهي مدينة إسلامية بنيت في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهي على ذراع^(٢) من الفرات خارج منه جهة الجنوب والمغرب . قال في "الترتيب" : وسميت كوفة لأستدارتها ، أخذنا من قول العرب رأيت كوفانا إذا رأوا رملة مستديرة ، وقيل لأجتماع الناس ، أخذنا من قولهم تكّوف الرمل إذا ركب بعضه بعضا . وهي واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "العزيزي" : وهي قدر نصف بغداد ، وعلى القرب منها مشهد أمير المؤمنين على كرم الله وجهه حيث دفين ، يقصده الناس من أقطار الأرض .

(١) وقع في الأصل سقط من النسخ في أثناء الكلام على الحيرة والأنبار . وقد أستوفينا من كتاب تقويم البلدان ، وأثبتناه بين دائرتين مربعتين هكذا [] .

(٢) في معجم البلدان "شعبة" وهي المراد بالذراع .

(ومنها) البَصْرَةُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد وفتح الراء المهملتين - وهي مدينة إسلامية بنيت في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، واقعة في الإقليم الثالث . قال في "القانون" حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة ، وسميت بالبَصْرَةَ أخذًا من البَصْرَةَ ، وهي الحجارة السود ، وفي جنوبيها وغربيها البرية ، وليس في بريتها ماء ، يزرع على المطر . قال في "المشترك" : وبالبصرة محلةٌ يقال لها المِرْبَدُ - بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح الباء الموحدة ثم دال مهملة - وهي محلة عظيمة من جهة البرية كانت العرب تجتمع فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون .

(ومنها) وآسِطُ . قال السمعاني في "الأنساب" : بفتح الواو وسكون الألف وكسر السين المهملة وطاء في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : سميت واسط لتوسطها بين مدين العراق إذ منها إلى البَصْرَةَ نحو مائة فرسخًا ، ومنها إلى الكوفة نحو مائة فرسخًا ، ومنها إلى الأهواز نحو مائة فرسخًا ، ومنها إلى بغداد نحو مائة فرسخًا . وهي نصفان على جانبي دجلة بينهما جسر من السفن كما تقدم في بغداد . قال في "المشترك" : وهي من بناء الحجاج أخطها بين الكوفة والبصرة في سنة أربع وسبعين من الهجرة ، وفرغ منها في سنة ست وسبعين .

(ومنها) حُلْوَانٌ . قال في "المشترك" : بضم الحاء المهملة وسكون اللام . قال في "اللباب" ثم ألف وواو ونون - وهي مدينة من أول الإقليم الرابع . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وسبعون درجة ، والعرض أربع وثلاثون

(١) في تقويم البلدان ومعجم البلدان : أربع وسبعون .

درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي آخردُمدن العراق ، ومنها يُصعد إلى الجبال ، وقيل هي من الجبال ، وليس بالعراق مدينة بالقرب من الجبل غيرها . قال ابن حوقل : وبها شجر النخل والتين الموصوف ، وأكثر ثمارها التين ، والثلج يسقط على جبلها دائماً ، وهو منها على مرحلة ، وبينها وبين بغداد خمس مراحل .

(ومنها) الحِلَّة . قال في "المشترك" : بكسر الحاء المهملة وتشديد اللام - وهي واقعة في الإقليم الثالث . قال في "تقويم البلدان" حيث الطول ثمان وستون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ياقوت الحموي : وتعرف بحلّة بنى مزيد . وأول من أخطت بها المنازل وعمرها سيف الدولة صدقة بن ديبس بن علي بن مزيد الأسدّي في سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وكان موضعها قبل ذلك يسمى بالجامعين .

(ومنها) النَّهْرَوَانُ . قال في "اللباب" : بفتح النون وسكون الهاء وضم الراء المهملة وفتح الواو وبعد الألف نون . وهي مدينة في آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة على ضفتي نهر . قال في "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : النَّهْرَوَانُ اسم للمدينة والنهر الذي يشقها ، وهي مدينة صغيرة على أربعة فراسخ من بغداد . قال في "اللباب" : ولها عدّة [نواحي] خرب أكثرها . وقال السمعاني في "الأنساب" : هي على أربعة فراسخ من دجلة ، والنَّهْرَوَانُ هذه هي التي أنحاز إليها الخوارج عند فراقهم لعلّي بعد وقعة صفين على ما تقدم ذكره في الكلام على النحل والميل في المقالة الأولى .

(ومنها) الأُبلة . قال في "تقويم البلدان" : بضم الهمزة والباء الموحدة وتشديد اللام وهاء في الآخر - وهي مدينة في فُردتها نهر طوله أربعة فراسخ بينها وبين البصرة

على جانبيه قصور وبساتين ومُدُن على خط واحد كأنها بُستان واحد ، وهو أحد
متنزهات الدنيا .

(ومنها) القادِسيَّة - بفتح القاف ثم ألف ودال مهملة مكسورة وياء مثناة من
تحت ثم هاء . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" حيث
الطول ثمانٌ وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة
وخمس وأربعون دقيقة . وهى مدينة صغيرة ذات نخيل ومياه ، وهى على حافةِ
البادية وحافةِ سوادِ العراق ، البادية من جهة الغرب والسواد من جهة الشرق .
قال فى "المشترك" : وبينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً فى طريق الحاج .
قال فى "تقويم البلدان" : وسميت القادسية لتزول أهل قادس بها ، وقادِسُ قرية
بمرو الروذ ، وعليها كانت الوقعة المعروفة بوقعة القادِسيَّة .

(ومنها) عبَّادانُ - بفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة ثم دال مهملة بين
الفين وفى آخرها نون - وهى بلدة من آخر العراق من الإقليم الثالث . قال
فى "الزيج" : حيث الطول خمس وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض
إحدى وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وعبَّادانُ على بحر فارس ، وهو محيط بها
لا يبقى منها فى البر إلا القليل ، وعندها مَصْبٌ دجلة فى جنوبى عبَّادانَ وشرقيها ،
وهى عن البصرة على مرحلة ونصف ، وفى جنوبها وشرقيها علاماتٌ للراكب يعبر
فارس لا يتجاوزها المراكب ، وهى حُشْبٌ منصوبة حيث يكون البحر عند الجزر
فى بعض البحر . قال فى "العزيرى" : فى طريق العراق من الغرب القادِسيَّةُ
وهيْت ، ومن الشرق حُلوانُ ، ومن الشمال سُرْمَنُ رأى ، ومن الجنوب الأبلَّةُ .

الإقليم الثالث (خُوزُسْتَانُ وَالْأَهْوَاذُ)

بضم الخاء وسكون الواو وضم الزاى المعجمة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة فوق وألف ثم نون . قال في "المشرك" : ويقال لها أيضا الخُوزُبُضم الخاء المعجمة ثم واو وزاى معجمة . قال : وخُوزُسْتَانُ إقليم واسع بين البصرة وفارس يشتمل على مُدن كثيرة . قال في "تقويم البلدان" : والذي يُحيط به من الغرب رُسْتاقُ واسطَ ودُور الراسيِّ، ومن جهة الجنُوب من عَبَّادان على البحر إلى مَهْرُوبَانَ، إلى الدُّورَق، إلى حدود فارس؛ ومن الجهة الشرقية التي إلى جهة الجنوب حدودُ فارس؛ ومن الجهة الشرقية التي إلى جهة الشمال حدودُ أَصْفَهَانَ وبلاد الجبل؛ ومن جهة الشمال حدودُ الصَّيْمَر، والكرجة، وجبال اللُور، وبلاد الجَبَل إلى أَصْفَهَانَ . قال : وخُوزُسْتَانُ في مستوٍ من الأرض ليس بها جبال ، وهي كثيرة المياه الحارِية ، وتجتمع مياهه وتعرض وتصل ببحر فارس عند حصن مَهْدِيٍّ .

وقاعدتها على ما ذكره صاحب حماة في "تاريخه" (سُستَر) . قال في "اللباب" : يضم المثناة من فوق وسكون السين المهملة وفتح التاء الثانية وفي آخرها راء مهملة ، والعامّة تسميها سُستَر بإبدال التاء الأولى شينا - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "القانون" : حيث الطولُ خمس وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرضُ إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وجعلها في "تقويم البلدان" من الأهواز ، ولها نهر معروف بها ؛ بنى فيه سابور : أحد ملوك الفرس بناء عظيمًا حتى ارتفع الماء إلى المدينة ، على مرتفع من الأرض ؛ ويقال إنه ليس على وجه الأرض مدينة أقدم منها . قال في "اللباب" : وبها قبر البراء بن مالك الصحابي رضي الله عنه .

وقد ذكر في "تقويم البلدان" : بخوزستان عدّة مُدن .

(منها) السُّوس . قال في "المشترك" : يضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية . قال أبو الرِّيحان : وهي بالفارسية معجمة . وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "المشترك" : وهي بلدة قديمة ، قال : وبها قبر دانيال النبي عليه السلام . قال في "تقويم البلدان" : ولها بساتين وفيها ترويحٌ كالأصابع .

(ومنها) الطَّيْبُ . قال في "المشترك" : بكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفي آخرها باء موحدة ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "المشترك" : وهي بلدة بين واسط وبين الأهواز . ثم قال : وفيها عجائب ولم يذكر ما هي ؛ وإلى الطَّيْبِ هذه ينسب الطَّيْبِيُّ صاحبُ الحواشي على "كشاف الزمخشري" .

(ومنها) جُبِّي . قال في "المشترك" : يضم الجيم وتشديد الباء الموحدة وياء آخر الحروف في الآخر - وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم العرفية . قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي كثيرة النخل . قال : وإليها ينسب أبو علي الجبائي المعتزلي .^(٢)

(ومنها) مهروبان . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وضم الراء المهملة وسكون الواو ثم باء موحدة وألف ونون . وعدّها ابن حوقل وآبن

(١) في معجم البلدان "بالضم ثم التشديد والقصر" .

(٢) أى على غير قياس والقياس جبوي .

سعيد من فارس؛ وهي مدينة من فارس صغيرة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال في "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة. وهي فرضة أَرْجَان وما والاها. قال في "العزيزي": وهي على البحر.

(ومنها) أَرْجَان. قال في "اللباب": بفتح الألف وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وفي آخرها نون بعد الألف. وقال ابن الجواليقي في المعرّب من العجمية للعربية: إنها بتشديد الراء. وقال ابن حوقل: هي من آخر فارس من جهة خُوزُستان. وقال في "العزيزي": هي أول مُدُن فارس - وهي مدينة كبيرة كثيرة الخير، وبها النخل والزيتون بكثرة، بَرِيَّةٌ بحرية، سُهْلِيَّةٌ جَبَلِيَّةٌ، على مرحلة من البحر. قال في "العزيزي": وهي مدينة جليلة لها كورة وأعمال نفيسة؛ وإليها ينسب القاضي الأَرْجَانِيّ الأديب الشاعر.



وأما الأهواز. فقال في "اللباب": هي بفتح الألف وسكون الهاء وفي آخرها زاي معجمة. وهي كورة من كُور خُوزُستان المقدم ذكرها كما ذكره في "تقويم البلدان" وإن كان قد ذكر في أول الكلام على إقليم فارس أن خُوزُستان هي الأهواز إلا أنها غلب ذكرها فصارت كالإقليم المنفرد بذاته. ولها عدة مُدُن تعرف بها.

(منها) سُوق الأهواز - وهي مدينتها، فقد قال في "المشترك": وسوق الأهواز هي مدينة الأهواز، وذكر مثله في "العزيزي". قال في "المشترك": وقد حَرِبَ أكثرها. قال في "العزيزي": ومنها إلى أَصْفَهَانَ ثمانون فرسخاً.

(ومنها) قُرُقُوبُ . قال في "اللباب" : بضم القافين وبينهما راء مهملة ثم واو وفي الآخرباء - وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث ، قال فى "القانون" حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . وهى مدينة مشهورة . قال فى "اللباب" قرية من الطيب قال فى "العزيزى" : وبينهما سبعة فراسخ ومنها إلى مدينة السوس عشرة فراسخ .

(ومنها) جُنْدَى سَابُورَ . قال فى "اللباب" : بضم الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة بعدها مثناة من تحتها وفتح السين المهملة وألف وباء موحدة وواو وراء مهملة . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس دقائق ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى مدينة خصبة كثيرة الخير . قال ابن حوقل : وبها نخيل وزروع كثيرة ومياه . قال فى "العزيزى" : منها إلى تُسْتَرِ ثمانية فراسخ ، ومنها إلى السوس ستة فراسخ .

(ومنها) عَسْكَرُ مَكْرَمٍ . قال فى "اللباب" : بفتح العين وسكون السين المهملتين وفتح الكاف وفى آخرها راء مهملة . قال فى "تقويم البلدان" : عن الثقات أن مكرم بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة ثم ميم - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة وثمان دقائق ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة مُحَدَّثَةٌ ، وكانت قرية ينزلها مكرم بن الفُزَرِ أحد بنى جَعُونَةَ بعسكر كان قد أنفذه به الحجاج لمحاربة خُرْدَازِ بن بارس ، فأقام بها مدة وأبنتى بها البنات فسميت عَسْكَرَ مَكْرَمٍ . قال : وليس بالأهواز مدينة مُحَدَّثَةٌ سواها ، وبها عقارب صغار مشهورة بالقتل .

(ومنها) رَامَهْرَمَنْ . قال في "اللباب" : بفتح الراء المهملة والميم وضم الهاء وسكون الراء المهملة وضم الميم الثانية وفي آخرها زاي معجمة - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" " حيث الطول ست وسبعون درجة والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي كُورَة من كُورِ الأهواز . قال ويقال إن سلمان الفارسي رضي الله عنه منها . قال المهلبّي : وبينها وبين سوق الأهواز تسعة عشر فرسخا .

(ومنها) الدَّورِقُ . قال في "المشترك" : بفتح الدال المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وفي آخرها قاف - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" " حيث الطول خمس وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة . قال في "العزيزي" : " ومنها إلى أَرْجَانِ ثمانية عشر فرسخا .

(ومنها) حِصْنُ مَهْدِيٍّ . وضبطه معروف ، وموقعه في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" " حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وهو حصن تجتمع فيه مياه خوزستان ثم تصير نهرا وتصب في بحر فارس ، وبينه وبين البصرة خمسة عشر فرسخا .

(ومنها) جُرْحَانُ . قال في "اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وحاء معجمة ثم ألف ونون . قال : وهي بلدة بقرب السوس .

(ومنها) جِبَالُ اللُّورِ . قال في "اللباب" : بضم اللام وسكون الواو وفي آخرها راء مهملة . قال : وبها جبال يقال لها لُورُستان من بلاد خوزستان . وقال ابن حوقل : غالب بلاد اللور جبال وكانت قديما من خوزستان . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلاد خِصْبَةٌ والغالب عليها الجبال ، وهي متصلة بخوزستان ولكن

أفردت عنها . قال في "الأطوال" : وهي بين تُسْتَرِ وَأُصْبَهَانَ ، وأمتدادها طولاً نحو ستة أيام ، وفيها خلق عظيم من الأكراد . قال : وهي حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال في "مسالك الأبصار" : وهم طائفة كثيرة العدد ومنهم فرق مفرقة في البلاد ، وفيهم ملك وإمارة ، ولهم خفة في الحركات يقف الرجل منهم إلى جانب البناء المرتفع ويلصق بطنه باحدى زواياه القائمة ثم يصعد فيه إلى أن يرتقى صهوته العليا .

ومما يحكى أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حضره رجل منهم وصعد في جدار كذلك ، فأنعم عليه الإنعام الجزيل وأمره أن يُحضر كل من قدر عليه من أصحابه فأحضر منهم جماعة ، وهو يُحسِن إليهم إلى أن لم يبقَ منهم أحدٌ قتلهم عن آخرهم خشيةً مما لهم من قوة التسور ؛ ومن هؤلاء طوائف بمصر والشام يُعرفون بالنورة ، يجالس أحدهم الرجل فيسرق ماله وهو لا يدري ، ويمشون على الجبال المرتفعة ولنسائهم في ركوب الخيل الفروسية العظيمة .

الإقليم الرابع

(فارس)

بقاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهمله مكسورة وسين مهمله في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : ويحيط ببلاد فارس من جهة الغرب حدودُ خوزستان ، وتمام الحد الغربي إلى جهة الشمال حدودُ أصفهان والجبال ، ويحيط بها من جهة الجنوب بحر فارس ، ومن جهة الشرق حدودُ كرمان ، ومن جهة الشمال المفازة التي بين فارس وخراسان ، وتمام الحد الشمالي حدودُ أصفهان وبلاد الجبال ، قال في "العزى" : وعلى نهاية فارس الشرقية ناحية يزد ، وعلى نهايتها من الجنوب سيراف والبحر ، وحدها

من الشمال الرّبيّ . قال ابن حوقل : وقاعدتها فيما ذكره صاحب حماة في تاريخه : (شيراز) . قال في "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفي آخرها زاي معجمة بعد الألف - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض ثمان وعشرون درجة وست وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة إسلامية مُحَدَّثَةٌ، بناها محمد بن القاسم بن أبي عقيل الثَّقَفِيُّ^(١)، وهو ابن عم المجاح بن يوسف . قال : وسميت بشيراز تشبهاً بجوف الأسد لأنّ عامّة الميرة بتلك النواحي تُحْمَلُ إلى شيراز ولا يحمل منها شيء إلى غيرها . قال المهلبّي : وهي مدينة واسعة سرية كثيرة المياه؛ وشربهم من عيون تتخرق البلد وتجري في دُورهم، وليس تكاد تخلو دارها من بُستان حسن ومياه تجرى، وأسواقها عامرة جليّة؛ وإليها ينسب الشيخ أبو إسحاق الشيرازيّ صاحب "التنبيه" رحمه الله؛ وبها قبر سيديوه النحويّ، وبنها وبين أصهبان آشان وسبعون فرسخاً؛ وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) جُورُ . قال في "اللباب" : بضم الجيم ثم واو وراء مهملة - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من قواعد فارس . قال ابن حوقل : وعليها سور من طين وخندق؛ ولها أربعة أبواب وفيها المياه جارية - وهي مدينة زهّية كثيرة البساتين جدّاً ويرتفع منها ماء ورد يُعمُّ البلاد، وهي في ذلك كدمشق . قال "العزيريّ" : ومنها إلى شيراز أربعة وعشرون فرسخاً، وقال في موضع آخر عشرون فرسخاً .

(١) كذا في التقويم أيضاً وفي معجم البلدان ابن عقيل .

(ومنها) كَازَرُونُ . قال في "اللباب" : بفتح الكاف وسكون الألف وفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة وواو ساكنة وفي آخرها نون - وهى مدينة من كُورة سابور واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة ونحسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أعظم مدينة فى كُورة سابور . وقال المهلبى : هى مدينة لطيفة صالحة العمارة . قال ابن حوقل : وهى صحيجة التربة والهواء وماؤها من الآبار . قال فى "اللباب" : ونرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) فيروزآباد . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء وكسرهما وسكون المثناة من تحت وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وزاى معجمة ثم ألف وباء موحد وألف ثانية وذال - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" (١) حيث الطول سبع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وعشر دقائق . قال فى "المشترك" : وكانت تسمى فى القديم جور ثم غير اسمها ، وهى بلدة مشهورة على القرب من شيراز ، وهى أصل بلد الشيخ أبى إسحاق الشيرازى المقدم ذكره فى شيراز .

(ومنها) سيراف . قال فى "اللباب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفاء فى الآخر - وهى بلدة على البحر واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض ست وعشرون درجة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى أعظم فُرْضة لفارس ، وليس لها زرع ولا ضرع بل هى مدينة حطّ وإقلاع للراكب ؛ وهى مدينة أهلة ، ولهم عناية بالبنيان حتى إن الرجل من التجار ينفق فى عمارة داره ثلاثين ألف

(١) أى معجمة كما فى التقويم والمعجم .

دينار؛ وليس حولها بساتين ولا أشجار؛ وبنائهم بالساج والخشب، يحمل اليهم من بلاد الزنج؛ وهي شديدة الحر.

(ومنها) البيضاء - بفتح الموحدة وسكون الياء المثناة من تحت وفتح الضاد المعجمة وألف في الآخر. وهي مدينة من عمل إصطخر واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال في "القانون": حيث الطول ثمان وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة. قال ابن حوقل: وهي من أكبر مدن كورة إصطخر. قال: وسميت البيضاء لأن لها قلعة بيضاء ترى من بعد، وأسمها بالفارسية نسانك، ويقال إن الحسين الحلاج منها، وإليها ينسب القاضي ناصر الدين البيضاوي صاحب "المنهاج" في أصول الفقه، و"الطوابع" في علم الكلام وغير ذلك. قال المهلب: وبينها وبين شيراز ثمانية فراسخ.

(ومنها) إصطخر. قال في "اللباب": بكسر الألف وسكون الصاد وفتح الطاء المهملتين وفي آخرها راء مهملة قبلها خاء معجمة - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد حيث الطول تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وأثنتان وثلاثون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي من أقدم مدن فارس، وبها كان سرير الملك في القديم؛ وبها آثار عظيمة من الأبنية حتى يقال إنها من عمل الجن كما يقال عن تدمر وبعلبك من بلاد الشام. قال في "العريزي": وبينها وبين شيراز اثنا عشر فرسخاً. قال [وينسب إليها] أبو سعيد الإصطخري أحد أصحابنا الشافعية.

(ومنها) بسا. قال في "اللباب": بفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف - وهي مدينة من كورة دارا مجرد واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال

(١) الزائد مأخوذ بالمعنى من "معجم البلدان".

في "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ،
والعرض تسع وعشرون درجة . قال ابن حوقل : وهي تقارب شيراز في الكبر وأكثر
خشب أبنيتها السرو ، ويجتمع فيها التلج (؟) والرطب والجوز والأترج ، وإليها ينسب
البساسيري الذي خطب خلفاء مصر في بغداد .

(ومنها) يزد . قال السمعاني في "الأنساب" : بفتح المثناة التحتية وسكون الزاي
المعجمة وفي آخرها دال مهملة - وهي مدينة من كورة إصطخر . قال في "الأطوال"
حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . خرج منها
جماعة من العلماء وإليها ينسب القماش اليزدي .

ومنها - (داراً بجرد) . قال في "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون الألفين
بينهما راء ثم باء موحدة وجيم مكسورة وراء مهملة ساكنة وفي آخرها دال مهملة -
وهي مدينة من فارس واقعة في الإقليم الثالث . قال في "القانون" حيث الطول
ثمان وسبعون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : ومعنى
دارا بجرد عمل دارا ، وهي مدينة لها سور وخندق تتولد المياه فيه ، وفيه حشيش
يلتف على الساج فيه حتى لا يكاد يسلم من الغرق ، وفي وسط المدينة جبل كالثبة
ليس له اتصال بشيء من الجبال ، وبنواحيها جبال من الملح الأبيض والأسود
والأصفر والأحمر والأخضر ، ينحت منه ويحمل منها إلى البلاد . قال في "المشترك" :
وعملها من أجل كور فارس . قال في "العزيزي" : وبأعمالها معدن مومياً
ومعدن زئبق .

الإقليم الخامس (كُرمَان)

كما قاله في "مسالك الأبصار" : قال في "المشترك" : بفتح الكاف، ومنهم من يكسرها . قال : وهو صُقع كبير بين فارس وِسجِسْتَانَ ومَكْرَانَ من بلاد الهند . ويحيط به من جهة الغرب حدود فارس ؛ ومن جهة الجنوب بحر فارس ؛ ومن جهة الشرق أرض مَكْرَانَ من وراء البَلُوص إلى البحر؛ ومن الشمال المَفَازة التي هي فيما بين فارس وكُرمَانَ وبين خُرَاسَانَ . قال في "تقويم البُلدان" : وأرض كُرمَانَ داخلة في البحر، وللبحر ساعدان قد أعتنقا أرض كُرمَانَ ، فالبحر على ساحل كُرمَانَ قطعة قوس من دائرة . وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة في "تاريخه" السِّرْجَانَ . قال في "اللباب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها والراء المهملة وفتح الجيم وبعد الألف نون - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول ثلاث وثمانون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي أكبر مدينة بكُرمَانَ، وأبنيتها أقباء لقلعة الخشب بها وداخلها قُبَى الماء . قال في "اللباب" : وهي مما يلي فارس .

وتشتمل كُرمَانَ على عدّة مُدُن .

(١) (منها) جِرْفُتُ . قال في "اللباب" : بكسر الجيم وسكون المثناة تحت وضم الراء المهملة وسكون الفاء وفي آخرها تاء مثناة من فوق - وموقعها في الإقليم الثالث . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثلاث وثمانون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة مجمع للتجار الواصلين من خُرَاسَانَ وِسجِسْتَانَ،

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء .

وهي حصينة للغاية . قال المهلبى : وهي من أعظم مدينة بكرمان كثيرة النخل والأشراج وبينها وبين السيرجان مرحلتان .

(ومنها) زَرَنْدُ . قال في "المشترك" : بفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وسكون النون وفي آخرها دال مهملة - وموقعها في الإقليم الثالث . قال في "القانون" : حيث الطول ثلاث وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال في "المشترك" : وهي مدينة مشهورة . قال "المهلبى" : وبينها وبين مدينة السيرجان تسعة وعشرون فرسخا .

(ومنها) بَمُّ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وتشديد الميم - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "العزيزى" : وهي من كبار مدُن كَرْمَانَ ، وهي مصر من الأمصار . قال ابن حوقل : وهي أكبر من جِرْفَتَ ، وهما ثلاثة جوامع .

(ومنها) هُرْمُزُ . قال في "المشترك" : بضم الهاء وسكون الراء المهملة وضم الميم وفي آخرها زاي معجمة - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي فُرْضَةُ كَرْمَانَ . قال في "المشترك" : تدخل إليها المراكب من بحر الهند في خليج . قال صاحب حماة : وهي مدينة كثيرة النخل شديدة الحر . ثم قال : أخبرنى من رآها في زماننا يعنى في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أن هُرْمُزَ العتيقة خربت من غارات التترواُن أهلها أنتقلوا عنها إلى جزيرة في البحر تسمى زَرُونَ - بفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة ثم واو وفي الآخر نون - وهي جزيرة قريبة من البرغربى هُرْمُزَ العتيقة ،

ولم يبق بهرمز العتيقة إلا قليل من أطراف الناس ، ومنها إلى أول حدود فارس نحو سبع مراحل .

قلت : وفي سنة ثلاث عشرة وثمانمائة كُتِبَ إلى صاحبها عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية في الدولة الناصرية أبي السعادات فرج بن السلطان الشهيد الظاهر برقوق ، وسيأتي الكلام على صورة المكتبة إليه في المكاتب في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

الإقليم السادس (سجستان والرَّخَج)

أما سَجِسْتَانُ فقال في " المشترك " : بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون السين الثانية ثم مشناة من فوقها وألف ونون . قال : وسَجِسْتَانُ إقليم عظيم بين نُحْرَاسَانَ وبين مَكْرَانَ والسند وبين كَرْمَانَ . قال ابن حوقل : ويحيط بسَجِسْتَانَ من جهة الغرب نُحْرَاسَانَ ، ومن جهة الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكَرْمَانَ ، ومن جهة الشرق مَفَازَةٌ بين سجستان وبين مَكْرَانَ ، وهي المفازة الواصلة بين مَكْرَانَ والهند ، ^(١) وتنام الحدَّ الشرقي في شيء من عمل المُلتان من الهند ، ومن جهة الشَّمال أرض الهند ، وفيما يلي خراسان والغور والهند تقويس . وقال في " العزيرى " : سجستان شرقي كَرْمَانَ إلى الشمال . قال ابن حوقل : وأراضى سَجِسْتَانَ بها الرمال والنخيل ، وهي أرض سهَّلة لا يرى فيها جبل ، وتشدُّ بها الريح وتدوم ، وبها أرحية تطحن بالريح ، والرياح تنقل رمالهم من مكان إلى مكان ، وإذا أرادوا نقل الرمل عن مكانٍ ، عملوا هناك حائطا من خشب أو غيره وجعلوا في أسفله طوقا وأبوابا

(١) في " تقويم البلدان " والسند وهو الضواب بدليل ماسيأتى .

فتدخل فيها الريح من تلك الأبواب وتطير الرمل وترميه بعيداً، وسجستان خصبة كثيرة الطعام والتمر والأعنان وأهلها ظاهر واليسار . وقال في "اللباب" : والنسبة إلى سجستان سَجْرِيٌّ بكسر السين المهملة وسكون الجيم ثم زاي معجمة على غير قياس . قال : وينسب إليها سَجِسْتَانِيٌّ أيضاً يعني على الأصل .

وقاعدتها (زَرْجِيٌّ) . قال في "اللباب" : بفتح الزاي المعجمة والراء المهملة وسكون النون وجيم في الآخر - وهي مدينة كبيرة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" " حيث الطول سبع وثمانون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وقد يطلق على زَرْجِيٍّ نفسها سَجِسْتَانُ . قال في "المشترك" : بل أنسب اسم زرنج وأطلق اسم الإقليم وهو سجستان على المدينة . وجعل في "اللباب" : زَرْجِيٌّ ناحية بسجستان . قال ابن حوقل : ولها سُورٌ وَخَنْدَقٌ يُنْبَعُ فِيهِ الْمَاءُ ، وَأَبْنِيَّتُهَا عَقُودٌ لِأَنَّ الْخَشَبَ فِيهَا يَسْوَسُ وَلَا يَثْبُتُ . وفيها مياه تجري في البيوت والأزقة وأرضها سبخة . قال في "اللباب" : وخرج منها جماعة من العلماء منهم محمد بن كَرَّامِ الزَّرَنْجِيِّ صاحب المذهب المشهور . ولها مَدَنٌ .

(منها) حِصْنُ الطاق - وضبطه معروف . قال ابن سعيد : وهو حصن واقع في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" " حيث الطول ثمان وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة، على جبل عند أتواء النهر في غاية المنعة لا يرام بحصار . قال وبه يعتصم ملوك هذه البلاد ويعملون فيه خزائهم . أما الطاق المضاف إليها فمدينة صغيرة لها رُستاق، وبها أعنان كثيرة يتسع بها أهل سَجِسْتَانِ .

(ومنها) سَرَوَانٌ . قال في "تقويم البلدان" : قال بعض الثقات - بفتح السين وسكون الراء المهملتين وفتح الواو ثم ألف ونون - وهي مدينة من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة صغيرة بها فواكه كثيرة ونخيل وأعناب .

(ومنها) بُسْتٌ . قال في "اللباب" : بضم الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفي آخرها تاء مشاة من فوقها - وهي مدينة على شط نهر الهندمند . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وتسعون درجة وثمان وثلاثون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة خصبة كثيرة النخل والأعناب . وقال في "اللباب" : هي مدينة حسنة كثيرة المياه والخضرة . وقال في "العزيزي" : مدينة جليلة بها عدة منابر ورباطات كثيرة عظيمة . وذكر في "اللباب" : أنها من بلاد كابل بين هراة وغزنة . قال ابن حوقل : وبينها وبين غزنة نحو أربع عشرة مرحلة .

وأما (الرُّخَج) فقال في "اللباب" : بضم الراء المهملة وفتح الخاء المعجمة المشددة وفي آخرها جيم . قال ابن حوقل : وهو إقليم عظيم متصل بسجستان فيه عدة مدن وهي على غاية الحُصْبِ والسَّعة . قال : ومن مدنها بنجوان (؟) ولم يزد على ذلك .

الجانب الثاني

(من مملكة إيران الشماليّ)

ويشتمل على عدة أقاليم من الأقاليم العرفية .

الإقليم الأول (إرمينية)

قال ياقوت : بكسر الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون الياء آخر الحروف وكسر النون ثم ياء ثانية مخففة وقد تشدد - وضبطها في "اللباب" : بفتح الهمزة . قال في "تقويم البلدان" : وقد جمع أرباب المسالك والممالك إرمينية وأزان وأذر بيجان لعُسر أفراد إحداها عن الأخرى . قال : ويحيط بها على سبيل الإجمال من الغرب حدودُ بلاد الروم وشيء من حدود الجزيرة ؛ ومن جهة الجنوب بعض حدود الجزيرة وحدود العراق ؛ ومن جهة الشرق بلاد الجليل والدَّيلم ، إلى بحر الخزر ؛ ومن جهة الشمال بلاد القتيق ؛ ثم أفرد أذر بيجان بحدود تخصها فقال : يحدها من جهة الشرق بلاد الجليل وتمام الحد الشرقي بلاد الدَّيلم ؛ ويحدها من جهة الجنوب العراق عند ظهر حُلوان وشيء من حدود الجزيرة . وذكر في "مسالك الأبصار" نحوه إلا أنه ذكر أن حدّها الغربيّ إلى بلاد الأرمن . قال ابن حوقل : والغالب على إرمينية الجبال .

وقاعدتها (الدَّيْل) فيما ذكره ابن حوقل والمهلبى . قال في "المشترك" : وهي بفتح الدال المهملة وكسر الباء الموحدة ثم مشناة من تحتها ساكنة وفي آخرها لام - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول آنتنان وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة والنصارى فيها كثيرة ، وبها جامع للمسلمين إلى جانب كنيسة النصارى . قال في "العريزي" : وهي من أجَلّ البلاد وأنفسها وهي مستقرُّ سلطانها . وبها عدّة مدن .

(منها) أَرْزَجَانُ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الجيم ثم ألف ونون، ويقال بالكاف أيضا عوضا عن الجيم - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي بين سيواس وبين أَرْزَنِ الروم؛ وبينها وبين كل واحدة منهما أربعون فرسخا ، وما بينها وبين أَرْزَنِ كلُّه مروج ومرعى، وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) أَرْزَنُ . قال في "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاي المعجمة ثم نون في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أطراف إرمينية - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي غير أَرْزَنِ الروم، وهي عن خِلَاطٍ على ثلاثة أيام . قال : ووهي في "اللباب" جعلها من ديار بكر من الجزيرة ، والصحيح ما تقدم . وصاحبها يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ما سيأتي ذكره في الكلام على المكاتبات في المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(ومنها) بَدْلَيْسُ . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الباء الموحدة ثم دال مهملة ساكنة ولام وياء مثناة من تحت ساكنة وسين مهملة . قال : وعن بعضهم أنها بفتح الباء الموحدة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة

(١) الذي في "تقويم البلدان" أنها من آخر الرابع .

ونحس وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وعن بعض أهل تلك البلاد أنها بين مياً فارقين وبين خِلاط . قال : وهي مدينة مسورة ، وقد نرب نصف سورها ، والمياه تخترق المدينة من عيون في ظاهرها ، ولها بساتين في وادٍ وهي بين جبال تحفُّ بها . قال وهي دون حماة في القدر . وقال ابن حوقل : بلد صغير عامر خصب كثير الخير ، وهي شديدة البرد كثيرة الثلوج ، وصاحبها يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سيأتي ذكره في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

(ومنها) أَخْلَاط . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح اللام ثم ألف وطاء مهملة ، ويقال فيها خِلاط بفتح الخاء من غير همز - وموقعها في الإقليم الخامس . قال في "الأطوال" "حيث الطول نحس وستون درجة ونحسون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : عن بعض أهلها إنها في مستو من الأرض ، ولها بساتين كثيرة ، وبها عتة أنهار على شبه أنهار دِمَشق ، وليس يدخل المدينة منها إلا الشيء اليسير ، ولها سور نراب ، وهي قدر دِمَشق ، والجبال عنها على أكثر من مسيرة يوم ، وبردها شديد . قال ابن سعيد : وهي أجل مدينة بإرمينية ، وذكرها جليل الشهرة . وقال ابن حوقل : وهي بلدة صغيرة عامرة كثيرة الخير . قال في "الغزيرى" : وبينها وبين بَدليس سبعة فراسخ .

(ومنها) نَحْرَت بَرْت - بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء وتاء مثناة فوق ثم باء موحدة مكسورة بعدها راء مهملة ساكنة وتاء مثناة فوق في الآخر ، وتعرف

بِحُصْنِ زِيَاد . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة بإرمينية على القرب من خِلَاطٍ ، وحاكمها يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الإقليم الثاني (أذربيجان)

قال ابن الجوالقي في "المعرب من العجمة إلى العربية" بقصر الألف وإسكان الذال المعجمة . قال ابن حوقل : الغالب عليها الجبال أيضا . قال في "مسالك الأبصار" : وهي أجل الأقاليم الثلاثة ، وهي كانت قرار ملوك بني جنكخان . وبها ثلاث قواعد .

القاعدة الأولى (أردبيل)

قال في "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون الراء وضم الدال المهملتين وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحت ولام في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال في "اللباب" : لعله بناها أردبيل بن أردميني بن لمطى بن يونان فنسبت إليه . قال في "العزيرى" : وهي في الجهة الشمالية من أذربيجان . قال : وهي مدينة كثيرة الحُصْبِ ، وعلى فرسخين منها جبل عظيم الارتفاع لا يفارقه الثلج . قال المهلبى : وأهلها غليظو الطبع شرسو الأخلاق . قال : وبينها وبين تبريز خمسة وعشرون فرسخا . قال في "مسالك الأبصار" : وأعمالها تكون ثلاثين فرسخا . قال : وبها كانت دار الإمارة في صدر الإسلام .

(١) كذا في التقويم أيضا وضبطه ياقوت بفتح الدال وهو المشهور .

القاعدة الثانية

(تَبْرِيزُ)

قال في "اللباب": بكسر المشناة من فوق وسكون الباء الموحدة وكسر الراء المهملة ثم مشناة من تحت وفي آخرها زاي معجمة ، والجاري على السنة العامة توريز بالواو بدل الموحدة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي قاعدة أذربيجان في عصرنا . قال في "اللباب" : وهي أشهر بلدة بأذربيجان ؛ وبها كان كرسي بيت هولاكو من التتر، ثم أنتقل بعد ذلك إلى السلطانية الآتية ذكرها . ومبانيها بالقاشاني والحص والكس ، وبها مدارس حسنة ولها غوطة رائقة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة أعرفت في السعادة أنسابها، وثبتت في النعمة قواعدها . قال : وهي مدينة غير كبيرة المقدار، والماء منساق إليها ؛ وبها أنواع الفواكه لكن ليست بغاية الكثرة، وأهلها من أكبر الناس حشمة، وأكثرهم تظاهرا بنعمه ؛ ولهم الأموال المديدة ، والنعم الوافرة، والنفوس الأبية ؛ ولهم التجمل في زيهم : من المأكول والمشروب، والملبوس والمركوب ؛ وما منهم إلا من يأنف أن يذكر الدرهم في معاملته ، بل لا معاملة بينهم إلا بالدينار . وسيأتي ذكر مقدار دينارهم في الكلام على معاملة هذه المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى - وهي اليوم أم إيران جميعا لتوجه المقاصد من كل جهة إليها، وبها محط رحال التجار والسفّار؛ وبها دور أكثر الأمراء الكبراء المصاحبين لسلطانها لقربها من أركان محلّ مشتاهم . قال : ويشتد البرد بتوريز كثيرا ، وتتوالى الثلوج بها حتى إن سرّوات أهلها يجذون في أدّهم ، ليس فيها فرجة ولا يدخلها ضوء إلا ما يروّنه من طاقات حيطانها من وراء الزجاج المركب عليها .

القاعدة الثالثة

(السُّلْطَانِيَّة)

نسبة إلى السلطان ، وأسمها فَنُغْرُلَان . قال في "تقويم البلدان" : بضم القاف وسكون النون وضم الغين المعجمة وسكون الراء المهملة ولام ألف ونون - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال : وهي عن توريز في سمت المشرق بميلة يسيرة إلى الجنوب على مسيرة ثمانية أيام منها - وهي مدينة مُحَدَّثة ، بناها خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، على القرب من جبال كيلان ، على مسيرة يوم منها ، وجعلها كرسي مملكته ، وهي في مستو من الأرض ، ومياهها قُني ، قليلة البساتين والفواكه ، وإنما تجلب إليها الفواكه من البلاد المُصَاقِبَة لها . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة قد رُفِعَ بناؤها ، وأتسع فِئَاؤها ، وأُتْقِنَتْ قسمتها في الخطط والأسواق ، وجَلَبَ إليها بانيها الناس من أقطار مملكته ، وأستجلبهم إليها بما بسط لسُكَّانها من العدل والإحسان . قال : وهي الآن عامرة أهلة كأنما مر عليها مئود سنين لكثرة من أستوطنها وتأهل بها وأولد من الولد فيها ، وقد مضت عليها مدة بنوها مبالغ الرجال ، وفيهم من جاز إلى الأكتحال .

وبها عدَّةُ مدُنٍ غير هذه القواعد .

(منها) سَلْمَاسُ . قال في "اللباب" : بفتح السين المهملة واللام والميم وفي آخرها سين مهملة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة ونحس وعشرون دقيقة . قال المهلبي : وهي على آخر حدود أذربيجان من الغرب ، وهي مصر من الأمصار جليل والمتاجر بها وإليها متصلة .

(١) لعله "حتى بلغ بنوها" أو نحو ذلك .

(ومنها) حُوى . قال في "اللباب" : بضم الخاء وفتح الواو وتشديد المثناة من تحت - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي آخر مُدن أذربيجان، وبينها وبين سَلْمَاسَ أحد وعشرون ميلا .

(ومنها) أُرْمِيَّة . قال في "اللباب" : بضم الألف وسكون الراء المهملة والميم في آخرها هاء بعد ياء مثناة من تحتها . قال ابن الجوالقي في "المعرب" : ويجوز في قياس العربية تخفيف الياء منها وتشديدها - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال المهلبى : وهي آخر حدود أذربيجان، وهي مدينة جليلة . قال : ويقال إن زرادشت نبىّ المجوس منها . قال في "تقويم البلدان" : وعن بعض أهلها أنها مدينة وسطى عامرة، وهي في أول الجبال وآخر الوطاة، في الغرب عن سَلْمَاسَ على ستة عشر فرسخا منها، وبينها وبين الموصل قاعدة الجزيرة أربعون فرسخا، والموصل في سمت الغرب عنها؛ ولأُرْمِيَّةَ قلعة على جبل تسمى قلعة تلالا في غاية الحصانة، كان هولاكو قد جعل أمواله فيها لحصانتها والنسبة إلى أُرْمِيَّةَ أُرْمَوِيَّةَ .

(ومنها) مرَاغَة . قال في "المشترك" : بفتح الميم والراء المهملة وألف وغين معجمة وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشر دقائق، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال المهلبى : وهي مدينة مُحدثة كانت قرية، فنزل بها مرّوان بن محمد وكان

(١) الذى في "تقويم البلدان" وهي في آخر الجبال وأول الوطاة التي خلف جبال العمم .

هناك سِرْجِينٌ فَمَرَّغَ النَّاسُ فِيهِ دَوَابَّهُمْ فَبَنَاهَا مَدِينَةً فَسُمِّيَتْ مَرَاغَةَ . قَالَ ابْنُ حَوْقَلٍ :
 وَهِيَ مِنْ قَوَاعِدِ أَدْرَبِيجِيانَ ، وَهِيَ حَصِينَةٌ ، نَزْهَةٌ كَثِيرَةُ الْبَسَاتِينِ وَالرَّسَاتِيْقِ .
 (١)

(ومنها) مِيَانِيْحٌ . قَالَ فِي "المشترك" : بفتح الميم والمثناة من تحتها وسكون الألف
 وكسر النون وفي آخرها جيم - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قَالَ
 فِي "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة .
 قَالَ فِي "المشترك" : وَهِيَ مَدِينَةٌ كَبِيرَةٌ عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمَيْنِ مِنْ مَرَاغَةَ . وَسَمَّاها
 فِي "اللباب" : مِيَانَهُ بفتح الميم والمثناة من تحتها وألف ونون وهاء . وَقَالَ : نَحْرَجُ
 مِنْهَا جَمَاعَةً مِنَ الْعُلَمَاءِ .

(ومنها) مَرَّئِدٌ . قَالَ فِي "اللباب" : بفتح الميم والراء المهملَة وسكون النون وفي آخرها
 دال مهملَة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قَالَ فِي "القانون" حيث
 الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قَالَ فِي "اللباب" :
 وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ تَبْرِيزَ فِي جِهَةِ الشَّرْقِ عَنْهَا بِمِيلَةٍ يَسِيرَةٌ إِلَى الشَّمَالِ . وَقَالَ الْمَهْلَبِيُّ :
 هِيَ عَنْ تَدْمُرَ عَلَى أَرْبَعَةِ عَشْرَ فَرَسِيْحًا . قَالَ فِي "تقويم البلدان" : وَذَكَرَ مَنْ رَأَاهَا
 أَنَّهَا بَلَدَةٌ صَغِيرَةٌ ذَاتُ أَنْهَارٍ وَأَشْجَارٍ .

الإقليم الثالث

(أَران)

· قَالَ فِي "المشترك" : بفتح الهمزة وتشديد الراء المهملَة ثم ألف ونون .
 وَلَهَا قَاعِدَتَانِ .

(١) فِي "تقويم البلدان" عَنْ ابْنِ حَوْقَلٍ "خَصْبَةٌ" .

القاعدة الأولى

(بردعة)

قال في " اللباب " : بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهملتين ثم عين مهملة وهاء في الآخر - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في " القانون " حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال في " تقويم البلدان " : وهي قاعدة مملكة أزان . وقال في " اللباب " : هي من أقاصي أذربيجان . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة كثيرة الخصب نزهة . قال : وعلى أقل من فرسخ منها موضع [يسمى الأندراب يكون ^(١) مسيرة يوم في يوم بساتين مشتبكة كلها فواكه . قال المؤيد صاحب حماة : هذا ما كانت عليه في زمان ابن حوقل ، أما في زماننا فأخبرني من رآها أنها تحربت ولم يبق منها معمور إلا دون المعرة في القدر ، وهي في مستو من الأرض ، ذات بساتين ومياه ، وهي على القرب من نهر الكر .

القاعدة الثانية

(تفليس)

قال في " اللباب " : بفتح المثناة فوق وسكون الفاء وكسر اللام وسكون المثناة التحتية وفي آخرها سين مهملة - وموقعها في آخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في " القانون " : وهي قصبه كرجستان . وقال في " اللباب " : هي آخر بلدة من أذربيجان . قال ابن حوقل : وهي مدينة مسورة عليها سوران ، ولها ثلاثة أبواب ، وبها حمامات مثل حمامات طبرية مأوها ينبع سخنا بغير نار ، وهي كثيرة

(١) الزيادة عن " تقويم البلدان " .

الْحِصْبِ . قال ابن سعيد : وكان المسلمون قد فتحوها وسكنوها مدة طويلة ، وخرج منها جماعة من العلماء ، ثم أسترجمها الكُرْج وهم نصارى ، وهى بأيدى الكُرْج إلى الآن ؛ وملك الكُرْج صاحبها يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سياتى ذكره فى الكلام على المكاتبات فى المقالة الرابعة فيما بعد إن شاء الله تعالى .
وبها عدة مدن .

(منها) تَشْوَى . قال السمعاني فى " الأنساب " : بفتح النون والشين المعجمة وفى آخرها واو ثم ياء آخر الحروف . وسماها ابن سعيد تَقْجَوَان - بفتح النون وسكون القاف وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطولُ إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وهى من المدن المذكورة فى شرقى أَرَان . " قال السمعاني " : وهى بلدة متصلة بإرمينية وأذربيجان . قال ابن سعيد : وهى فى شمالى نهر الكُرِّ . قال فى " الأنساب " : وبينها وبين تبريز ستة فراسخ . قال ابن سعيد : وقد نحرَّها التتر وقتلوا جميع أهلها .

(ومنها) مُوقَان . قال فى " الباب " : بضم الميم وسكون الواو وفتح القاف وسكون الألف وفى آخرها نون ، والعامَّة تُبَدِّل القاف غينا معجمة فيقولون مُوغان . قال فى " الأطوال " حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال السمعاني : وهى بَدْرَبَنْد فيما أظن ، وقال المهلبى : هى من عمل أَرْدَبِيل . وقال المهلبى : مُوقَانُ فى نهاية بلاد كِلَانَ فى جهة الغرب . قال ابن حوقل : وبينها وبين باب الأبواب يومان . قال فى " تقويم البلدان " : لم يبق لمدينة مُوقَان فى هذا الزمان شهرة بل المشهور أراضى مُوقَان ، وهى أراضٍ كثيرة المياه والأقصاب والمراعى

في ساحل بحر طبرستان على القرب من البحر، وهي في سمت الشمال والغرب، عن يبريز على نحو عشر مراحل منها، وبها يشتي أردو التتر في غالب السنين .

(ومنها) شَمَكُورُ . قال في "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الميم وضم الكاف وسكون الواو وفي آخرها راء مهملة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وخمسون دقيقة . قال في "اللباب" : وهو حصن من أعمال أتران . قال في "تقويم البلدان" : وشَمَكُورُ بِقُرْبِ بَرْدَعَةَ، وبها منارة في غاية الارتفاع والشموق .

(ومنها) بَيْلِقَانُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت وفتح اللام والقاف ثم ألف ونون . قال في "القانون" حيث الطول أربع وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهي عند شروان . قال : ولعلها بناها بَيْلِقَانُ بن أرميني بن مطى بن يونان فنسبت إليه . قال في "اللباب" : وهي مدينة من دَرَبَنْدِ خَرَّانَ . قال في "المشترك" : وهي من مشاهير البلدان . قال ابن حوقل : وهي كثيرة الخير .

(ومنها) كَنْجَةَ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الكاف وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء ساكنة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وعشر دقائق . قال في "المشترك" : وهي من مشاهير بلاد أتران . قال المؤيد صاحب حماة : وأخبرني من أقام هناك أنها على مرحلتين من بَرْدَعَةَ، وبردعة عنها في جهة الغرب بميلة يسيرة إلى الشمال، وهي قصبة تلك الناحية، وهي في مستو من الأرض وفيها بساين كثيرة، وبها التين الكثير . وقد شهر أن من أكل من ذلك التين حُمَ .

(ومنها) شَرَوَان . قال في "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح الواو ثم ألف ونون في الآخر - وهي واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول ثمان وستون درجة وست ونمسون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وثلاث وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : بناها أُو شَرَوَان فأسقطوا أنو للتخفيف وبق شَرَوَان . قال ابن سعيد : وهي من أَرَان ، وكانت قاعدةً لبلادها ، ثم صارت مملكتها مضافة إلى أَدْرَبِيحَان . قال : وبشَرَوَان الدَّرْبَنْد المشهور . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وهو المعروف في زماننا بدَرْبَنْد باب الحديد . قال ابن الأثير : وقد نرح منها جماعة من العلماء .

(ومنها) باب الأبواب . قال في "تقويم البلدان" : بإضافة الباب المفرد الذي يدخل منه إلى جمعه . قال في "القانون" : ويعرف باب الأبواب بدَرْبَنْد خَزْرَان . قال في "تقويم البلدان" : ويعرف هذا المكان في زماننا بباب الحديد بإضافة الذي يعلق إلى الذي يتطرق . قال ابن حوقل : وهي على بحر طَبْرِسْتَانَ ، وتكون في القدر أصغر من أَرْدَبِيل . قال : ولهم الزرع الكثير وثمار قليلة تحمل إليهم من النواحي . قال : وهي فُرْضَة الخَزْر والسَّرِير و سائر بلاد الكفر ، وهي أيضا فُرْضَة جُرْجَان والدَّيْلَم وطَبْرِسْتَانَ ، ويحلب إليها الرقيق من سائر الأجناس . قال في "تقويم البلدان" : وهذه الصفات التي ذكرها ابن حوقل على ما كانت في زمانه ؛ أما اليوم فعن بعض المسافرين أن باب الحديد بليدة هي بالقرى أشبه ، على بحر الخَزْر وهي كالحَدِّ بين التتر الشماليين المعروفين ببيت بَرَكَة وبين التتر الجنوبيين المعروفين ببيت هُولَاكُو ؛ وبها حاكم يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سيأتى ذكره في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

الإقليم الرابع (بلاد الجبل)

بفتح الجيم والباء الموحدة ولام في الآخر، وصاحب "مسالك الأبصار" يسميها بلاد الجبال على الجمع، والعامية تسميها عراق العجم. قال في "تقويم البلدان": ويحيط بها من جهة الغرب أذربيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخوزستان، ومن جهة الشرق مفازة خراسان وفارس، ومن جهة الشمال بلاد الديلم وقزوین والرّي عند من يخرجهما عن بلاد الجبل ويضمهما إلى الديلم من حيث إن جبال الديلم تحفّ بهما.

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة في "تاريخه" (أصبهان). قال في "الباب": بكسر الألف وفتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة والهاء وألف ثم نون في الآخر. قال في "تقويم البلدان": وقد تبدل الباء فاء. قال السمعاني: وسمعت من بعضهم أنها تسمى بالعجمية سباهان. قال وسبا العسكرة، وهان الجمع. وذلك أن عساكر الأكاسرة كانوا إذا وقع لهم بيكار يجتمعون بها فحربت فليل أصفهان - وموقعها في الإقليم الثالث. قال في "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة وخمسون دقيقة. والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. قال ابن حوقل: وهي في نهاية الجبال من جهة الجنوب. قال: وهي مدينتان وإحداهما تعرف باليهودية، وهي من أخصب البلاد وأوسعها خطّة، وبها معدن الكحل الذي لا يسمي، مصاقبا لفارس، وإلى أصبهان ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير.

قلت: وقد تقدّم في الكلام على أعمال الديار المصرية من أول هذه المقالة عند ذكر الأعمال القليوبية أنه ينسب إلى بلدتنا قلقشندة أيضاً وأنه كان له دار بها،

فيحتمل أنه كان أولاً بأصهبهان، ثم لما رحل عنها إلى مصر نزل قَلْقَشَنَدَةَ فنسب إليها على عادة من ينتقل من بلد إلى آخر .
ولها عدة مدن .

(منها) إِرْبُلُ . قال في "المشترك" : بكسر الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة ولام في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهي قاعدة بلاد شهرزور، وموقعها في الإقليم الرابع . قال ابن سعيد حيث الطول سبعون درجةً وعشرون دقيقةً ، والعرض خمس وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقةً . قال : وهي مدينة مُحدثة . قال في "المشترك" : بين الزَّابِيَيْنِ ، فيما بين المشرق والجنوب عن المَوْصِلِ ، على مسيرة يومين خفيفين . قال في "تقويم البلدان" : وعن بعض أهلها أنها مدينة كبيرة قد حَرِبَ غالبها ، ولها قلعة على تلٍّ عالٍ داخل السور مع جانب المدينة في مستوي من الأرض ، والجبال منها على أكثر من مسيرة يوم ، ولها قُفْيٌ تدخل منها اثنتان إلى المدينة للجامع ودار السلطان ؛ وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) شَهْرُزُور . قال في "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء ^(١) وضم الراء المهملة والزاي المعجمة وسكون الواو وفي الآخراء مهملة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول سبعون درجةً وعشرون دقيقةً ، والعرض سبع وثلاثون درجةً وخمس وأربعون دقيقةً . قال في "اللباب" : وهي بلدة بين المَوْصِلِ وبين هَمْدَانَ بناها زُورُ بن الضَّحَّاك ^(٢) فقبل شهرزور ، يعنى مدينة شهر . قال ابن حوقل : وهي مدينة صغيرة . قال في "العريزي" : وهي خِصْبَةٌ كثيرة المتاجر في عُرْزَلَةٍ إلا أن في أهلها غِلْظَةً وجفاء .
قال : وبينها وبين المَرَاغَةَ ست مراحل .

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء وهو المشهور . (٢) في تقويم البلدان "مدينة زور" وهو الصواب .

(ومنها) الدِّيَنُورُ . قال في "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح النون والواو ثم راء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطولُ ست وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال أبو حنيفة : وهي غربى هَمَذَانَ بميلة إلى الشمال ، وهي مدينة كثيرة المياه والمنازه كثيرة الثمار خصبة . قال في "العريزي" : وبينها وبين الموصل أربعون فرسخاً ، وبينها وبين مراغة كذلك .

(ومنها) مَاسَبَدَانٌ - بفتح الميم وبعد الألف سين مهملة وباء موحدة وذال معجمة بفتح الجميع وبعد الألف نون . وهي مدينة من سَيَرَوَانَ - بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الراء المهملة وواو وألف ونون . كورة من كُورِ عِرَاق العجم . قال أحمد بن يعقوب الكاتب : وهي مدينة قديمة بين جبال وشعاب . قال : وهي في ذلك تشبه مكة شرفها الله تعالى وعظمتها ، وفيها عيون ماء تجرى في وسطها . قال ابن خلكان : وكان المهديّ العباسي يسكنها وبها مات ودفن .

(ومنها) قصر شيرين - بإضافة قصر إلى شيرين - بكسر الشين المعجمة ثم ياء آخر الحروف وراء مهملة ثم ياء ثانية بعدها ونون في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "المشترك" : وهو قصر شيرين حَظِيَّة كسرى أبرويز . وقال الإدريسي : شيرين امرأة كسرى . قال : وبهذا الموضع آثارُ ملوك الفرس عجبية ، ومنه إلى شهرزور عشرون فرسخاً ، ومنه إلى حلوان من بلاد العراق خمسة فراسخ .

(ومنها) الصَّيْمَرَةُ . قال في "المشترك" : بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الميم والراء المهملة وهاء في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون" :

حيث الطول إحدى وسبعون درجة وخمسون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة صغيرة نزهة ذات زروع وأشجار، والمياه تجري في دورها ومحامها . قال أحمد بن يعقوب : وهي في مَرَجِ أْفِجَ، فيه عيون وأنهار .

(ومنها) قِرْمِيسِينُ . قال في "اللباب" : بكسر القاف وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون المثناة من تحتها وكسر السين المهملة ومثناة تحتية ثانية ونون في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : ووجدناها في كثير من الكتب بإبدال الياء الأولى ألفا . قال في "اللباب" : وهي مدينة يجبال العراق - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "اللباب" : ويقال لها كِرْمَانِشَاه . قال في "العزيمي" : وهي من أجل مدُن الجبل وأعظمها خطرا، وهي عامرة غاصّة بالناس . قال : وينبت بها الزعفران .

(ومنها) سُهْرُورِدُ . قال في "اللباب" : بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الواو وسكون الراء الثمانية وفي آخرها دال مهملة . قال في "تقويم البلدان" : كذا ضبطها ولم يذكر الراء الأولى - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة صغيرة، والغالب عليها الأكراد .

(ومنها) زَنْجَانُ . قال في "اللباب" : بفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الجيم وألف ونون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي أقصى مدُن الجبال

في الشمال . قال في " اللباب " : وهي على حدِّ أذربيجان من بلاد الجبل ، ينسب إليها جماعةٌ من أهل العلم .

(١) ومنها) نُهاوَنَدُ . قال في " اللباب " : بضم النون وفتح الهاء وسكون الألف وفتح الواو وسكون النون وبعدها دال مهملة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة على جبل ، ولها أنهار وبساتين ، وهي كثيرة الفواكه ، وفواكهها تحمل إلى العراق لجودتها . قال في " اللباب " : ويقال إنها من بناء نوح عليه السلام ، وإنه كان أسماها نوح أو نند ، فأبدوا الهاء هاء .

(ومنها) هَمَدَانُ . قال في " الأنساب " : بفتح الهاء والميم والذال المعجمة وبعده الألف نون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي وسط بلاد الجبال ، ومنها إلى حُلوانَ : أول بلاد العراق سبعة وستون فرسخا . قال : وهي مدينة كبيرة ، ولها أربعة أبواب ، ولها مياه وبساتين وزروع كثيرة . قال في " الأنساب " : وهي على طريق الحاج والقوافل .

(ومنها) أَهْرَ . قال في " المشترك " : بفتح الهمزة وسكون الباء الموحدة وفتح الهاء ثم راء مهملة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في " المشترك " : وهي مدينة بين قزوين وزَنْجان . قال ابن خردادبه : ومنها إلى زَنْجان خمسة عشر فرسخا .

(١) قال ياقوت : " بفتح النون الأولى وتكسر " .

(ومنها) سَاوَة . قال في "اللباب" : بفتح السين المهملة وبعدها ألف ثم واو وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال "المهلبّي" : وهي مدينة جليلة على جادة حجاج خراسان؛ وبها الأسواق الحسنة، وبها المنازل الحسنة .

(ومنها) قَرْوِينُ . قال في "اللباب" : بفتح القاف وسكون الزاي المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت وفي آخرها نون - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون" و"رسم المعمور" حيث الطول خمس وسبعون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة لها حصن ومائها من السماء والآبار، ولها قناة صغيرة للشرب فقط . وهي مدينة حصينة، وبها أشجار وكروم كلها عذبة لا تسقى، وليس بها ماء جار سوى ما يشرب ويجرى إلى المسجد . قال ابن حوقل : وماء قناتها وبيء .

(ومنها) آبَة . قال في "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الألف ثم باء موحدة وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع . قال : والعامّة تسميها آوة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة وعشر دقائق، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال المهلبّي : وهي مدينة في الشرق بأخفاف إلى الشمال عن همذان، وبينهما سبعة وعشرون فرسخاً . قال في "المشترك" : وبينها وبين ساوَة خمسة أميال .

(ومنها) قُمْ . قال في "اللباب" : بضم القاف وتشديد الميم - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس عشرة دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال في "اللباب" : وكان بناؤها في سنة ثلاث وثمانين للهجرة، بناها عبد الله بن سعد

والأحوص وإسحاق ونعيم وعبد الرحمن بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعريّ من أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عند أنهزامهم من الحجاج، وكان مكانها سبع قرى فأهلكوا أهلها وبنوها مدينة، كل قرية محلة من محلات المدينة. قال ابن حوقل: وهي مدينة غير مسورة حصينة البناء، وماؤها من الآبار، وبها البساتين على السواني، وبها شجر الفستق والبندق، وأهلها شيعة. قال المهلبيّ: وهي في مرج تقدير سَعَتِهِ عشرة فراسخ في مثلها ثم تفضى إلى جبالها، وبها من الفستق ما ليس بغيرها.

(ومنها) الطَّلَاقَان. قال في "المشترك": بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون. وقال في "اللباب": بتسكين اللام - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "المشترك": وهو مدينة وكورة بين توريز وأبهر. قال ابن حوقل: وهي أقرب إلى الدَّيْلَم من قزوين. وقد أوردتها في "تكملة الأطوال" المنسوب للفرس مع بلاد الدَّيْلَم. قال أحمد الكاتب: وهي بين جبلين عظيمين، وهي تسمى الطالقان بلاد خراسان.

(ومنها) قَاشَان. قال في "اللباب": بفتح القاف وسكون الألف وبالشين المعجمة وبعد الألف نون. قال: ويقال بالسين المهملة أيضا - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال" حيث الطول ست وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة. قال المهلبيّ: وهي مدينة لطيفة. قال ابن حوقل: هي أصغر من قُم وغالب بنائها بالطين، وهي خِصْبَةٌ، وقد خرج منها جماعة من العلماء. قال في "اللباب": وأهلها شِيعَةٌ.

(١) في تقويم البلدان، بين قزوين وأبهر.

(٢) لذا في الأصل بالاهمال، ولعله وهي غير الطالقان ببلاد الخ.

(ومنها) الرّى . قال في "اللباب" : بفتح الراء وتشديد الياء آخر الحروف . قال في "القانون" حيث الطول ثمانٌ وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة ، قدر عمارتها فرسخ ونصف فى مثله ، وفيها نهران يجريان ، وبها قُنيّ تجرى غير ذلك . وعدّها فى "اللباب" من الدائم ، ويخرج منها قُطنٌ كثير للعراق ، وبها قبر محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة ، والكسائى أحد القراء السبعة ، والنسبة إليها رازىّ على غير قياس ، وإليها ينسب الإمام نخر الدين الرازىّ الإمام المشهور .

(ومنها) الكرج . قال فى "المشترك" : بفتح الكاف والراء المهملة وفى آخرها جيم - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى مدينة متفرقة البناء ليس لها اجتماع المذنب ، وتعرف بكرج أبى دلف . قال فى "المشترك" : لأن أول من مصرّها أبودلف القاسم بن عيسى العجليّ وقصده الشعراء . قال ابن حوقل : ولها زروع ومواشٍ ، ولكن ليس لها بساتين ولا متنزّهات ، والفواكه تجلب إليها .

(ومنها) حوّار . قال فى "المشترك" : بضم الخاء المعجمة وتخفيف الواو وسكون الألف وراء مهملة فى الآخر - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثمانٌ وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة من نواحي الرّى تخترقها القوافل . قال فى "القانون" : وقامًا يذكر إلا منسوباً إلى الرّى فيقال حوّار الرّى .

(ومنها) جبال الأكراد . قال في "مسالك الأبصار" : والمراد بهذه الجبال الجبال الحاضرة بين ديار العرب وديار العجم ، دون أما كن من توغل من الأكراد في بلاد العجم . قال : وأبتداؤها جبال همذان وشهرزور ، وأتتهاؤها صياصي الكفرة من بلاد التكفور ، وهي مملكة سيس وما هو مضاف إليها مما بأيدي بيت لاون ، ثم ذكر منها عشرين مكانا في كل مكان منها طائفة من الأكراد .

الأول - (دياوشت) . من جبال همذان وشهرزور ، وهو مقام طائفة من الأكراد ولهم أمير يخصهم .

الثاني - (درانتك) . وهو مقام طائفة ثانية من الكورانية أيضا ، ولهم أمير يخصهم . قال في "مسالك الأبصار" : والطائفتان جميعا لا تزيد عدتهم على خمسة آلاف رجل .

الثالث - دانترك وناهوند إلى قرب شهرزور . وهي مقام طائفة منهم تعرف بالكلالية ، يعرفون بجماعة سيف ، عدتهم ألف رجل مقاتلة ، ولهم أمير يخصهم ، وهو يحكم على من جاورهم من الأكراد .

الرابع - مكان بجوار ديار الكلالية المقدم ذكرهم بجبال همذان . وهو مقام طائفة من الأكراد يقال لهم زنكلية ، وعدتهم نحو ألفين ذوو شجاعة وحيلة ، ولهم أمير يخصهم ، يحكم على بلاد كيكور وما جاورها من البقاع والكور .

الخامس - نواحي شهرزور . قال في "مسالك الأبصار" : كان يسكنها طوائف من الأكراد طائفتان إحداهما يقال لها اللوسة والأخرى يقال لها الباسرية ، رجال حرب ، وأقبال طعين وضرب ، نزحوا عنها بعد واقعة بغداد ، ووفدوا إلى مصر والشام ، وسكن في أماكنهم قوم يقال لهم الحوسة ليسوا من صميم الأكراد .

السادس - مكان بين شهرزور وبين أشنه من أذربيجان، به طائفة من الأكراد يقال لهم السولية، يبلغ عددهم نحو ألفي رجل؛ وهم ذوو شجاعة وحمية، وهم طائفتان لكل طائفة منهم أمير يخصهم .

السابع - بلاد بسقاد - وهي مقام طائفة من الأكراد يقال لهم القرياوية . ويدهم من بلاد أذربك أماكن أخر، قال : وعددهم يزيد على أربعة آلاف، ولهم أمير يخصهم .

الثامن - بلاد الكركار - وهي مقام طائفة منهم يقال لها الحسانية، وهم على ثلاثة أطن : أحدها طائفة عيسى بن شهاب الدين، ولهم خفر قلعة برى والحامى، وثانيها طائفة تعرف بالتلية، وثالثها طائفة تعرف بالجاكية . وجميعهم نحو الألف رجل، ولكل طائفة منهم أمير يخصهم .

التاسع - دربند قرير - وهو مقام الطائفة القرياوية، ولهم خفارة الدربند المذكور، وصاحبه يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وقد ذكر في "التتيف" أن صاحبه كان سيف الدين بن سير الحسناني .

العاشر - بلاد الكرجين ودقوق الناقة - وبه طائفة منهم عدتهم تزيد على سبعمائة ولهم أمير يخصهم .

الحادى عشر - بين الجبلين، من أعمال إربل . قال في "مسالك الأبصار" : وبها قوم كانوا يُدَارون التتر وملوك الديار المصرية . ففي الشتاء يعاملون التتر بالمجاملة، وفي الصيف يعينون سرايا الشام في المجاملة . قال : وعددهم كعدد الكلالية، ولهم أمير يخصهم . وذكر أنه كان لهم في الدولة المنصورية قلاوون أمير يُسمى الخضر ابن سليمان، كاتب شجاع، وأنه وفد إلى الديار المصرية فاخرتمه المنية قبل عودته، وكان معه أربعة أولاد فعادوا بعد موته في الدولة الزينية كتبغا .

الثاني عشر - مازنجان ، ويروه ، وسحمة ، والبلاد البرانية - وهي مقام طائفة منهم يقال لها المازنجانية لا تزيد عدتهم على خمسمائة ، وهم طائفة ينتسبون إلى المحمدية ، والمازنجانية هم طائفة المبارز كك الموجود اسمه ورسم المكتبة إليه في دساتير المكتبات القديمة . وقد أضيف إليهم الحميدية ، وهم طائفة من الأكراد لا تنقص عدتهم عن ألف مقاتل ، لأن أميرهم مبارز الدين كك ، كان من أمراء الخلافة في الدولة العباسية ، ومن ديوان الخلافة لُقِّبَ بمبارز الدين ، وكك اسمه . قال : وكان يدعى الصلاح وتذره الندور ، فإذا حملت إليه قبلها وأضاف إليها مثلها من عنده وتصدق بهما معا . وذكر نحوه في "التعريف" . ثم كان له في الدولة الهولاء كويّة المكانة العلية ، وأستنابوه في إربل وأعمالها ، وأقطعوه عقروشوش بكالها وأضافوا إليه هراة وتل حفتون وقدموه على خمسمائة فارس ، وتولّى الإمرة وقوانين (?) نحو عشرين سنة ، وبقي حتى جاوز التسعين وهمته همه الشبان ، ثم مات وخلفه ولده عز الدين ، فكان من أبيه نعم الخلف ، وجرى على نهج أبيه في ترتيب المملكة وعلت رتبته عند ملوك التتر وملوك الديار المصرية ، ثم خلفه أخوه نجم الدين خضر بجرى على سميت أبيه وأخيه . ثم قال : وكانت ترد على الأبواب السلطانية بمصر وتواب الشام كتب تهلل بماء الفصاحة كالشحب ، وتسرح من أجنابها الأبيكار العرب . ثم خلفه ولده بجرى على سنه وبقيت الإمارة في بنه . والأمير القائم منهم هو المعبر عنه في الدساتير بصاحب عقروشوش ، وله مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالث عشر - بلاد شعلاباد إلى خفتيان ، وما بين ذلك من الدشت والدربند الكبير - وهو مقام طائفة منهم تعرف بالشهرية معروفون باللصوصية ، وهم قوم لا يبلغ عددهم ألفا وجبالهم عاصية ، ودربندهم بين جبلين شاهقين يسقيهما الزاب

الكبير . قال في "مسالك الأبصار" : وعليه ثلاث قناطر : اثنتان منها بالبحر والطين ، والوسطى مضمفورة من الخشب كالحصير ، علوها عن وجه الماء مائة ذراع في الهواء ، وطولها بين الجبلين خمسون ذراعا في عرض ذراعين ، تمر عليها الدواب بأحمالها ، والخليل برجالها . وهي ترتفع وتخفض ، يخاطر المجتاز عليها بنفسه ، وهم يأخذون الخفارة عندها ، وهم أهل غدر وخديعة لا يستطيع المسافر مدافعتهم ، ولهم أمير يخصمهم ، ولصاحبها مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الرابع عشر - ما ذكره والرستاق ، ومرت ، وجبل جنجرين المشرق على أشنه من ذات اليمين - وهو مقام طائفة منهم يقال لهم الزرزارية ، ويقال إنهم ممن تكرد من العجم ، ولهم عدد جم ، يكاد يبلغ خمسة آلاف مائتين أسراء وأغنياء وفقراء وأكّارين وغيرهم ، وجبلهم في غاية العلو والشهوق في الهواء ، شديد البرد ، بأعلاه ثلاثة أحجار طول كل حجر منها عشرة أشبار في عرض دون الثلاثة ، متخذة من الحجر الأخضر المائع ، وعلى كل منها كتابة قد آضحت لطول السنين ، يقال إنها نصبت لمعنى الإنذار والإخبار عن أهل كه التلج والبرد هناك في الصيف ، وهم يأخذون الخفارة تحته . قال في "مسالك الأبصار" : وكان لهم أمير جامع لكلمتهم اسمه نجم الدين باشاك ، ثم تولاهم من بعده أبنته جيدة ، ثم ابنه عبد الله . قال : وكان لهم أمراء آخرون منهم الحسام شير الصغير ، وابن باشاك وغيرهم . قال : وينضم إلى الزرزارية شردمة قليلة تسمى باسم قريتها بالكان نحو ثلثمائة رجل منفردين بمكان مشرف على عقبة الحان يأخذون عليها الخفارة ، ولصاحب ما ذكره مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . ثم قال في "التثقيف" : وهو حنش بن إسماعيل .

الخامس عشر - جولرك - وهو مقام طائفة تسمى الجولركية ، وهم قوم نسبوا إلى مكانهم ذلك فعرفوا به ، ويقال : إنهم طائفة من العرب من بني أمية آعتصموا

بهذه الجبال عند غلبة بنى العباس عليهم ، وأقاموا بها بين الأكراد فأخترطوا في سلكهم . قال في "مسالك الأبصار" : وهم الآن في عدد كثير، يزيدون على ثلاثة آلاف، كان ملكهم في أوائل دولة التتر أسد بن مكلان، ثم خلفه ابنه عماد الدين، ثم ابنه أسد الدين . وبيلاده معدن الزرنيخين : الأحمر والأصفر، ومنها ينقل إلى سائر الأقطار . قال : وكان قد ظهر عنده معدن لا زورد فأخفاه لئلا يسمع به ملوك التتر فيطلبونه، ومعه من أممع المعامل ، على جبل مقطوع بذاته، والزاب الكبير مُحْدِق به، لا محط للجيش عليه، ولا وصول للسهم إليه، وسطحه متسع للزراعة، وفي كل ضلع من أضلاعه كهف مرتفع يأوى إليه من أراد الامتناع، وأعلاه مغمور بالثلج، والصعود إليه في بعض الطريق يستدعى العبور على أوتاد مضرورة . ومن لا يستطيع التساق جرب الجبال، وكذلك بغال الطواحين . وملكهم معتمد عند الأكراد، وهو يأخذ الحفارة من جميع الطرقات من تبريز إلى خوى ونقجوان، وهذا هو المعبر عنه في "التعريف" وغيره من الدساتير في المكاتبات بصاحب جولرك؛ وهو يكتب من الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

السادس عشر - بلاد مركواف . على القرب من الجولركية، كثيرة الثلوج والأمطار، بلاد زرع وضرع - وهي متاخمة لأرمية من بلاد أذربيجان، وبها طائفة من الأكراد تبلغ عدتهم ثلاثة آلاف، وهم أحلاف للجولركية .

السابع عشر - بلاد كوردات - وهي بلاد مجاورة لبلاد الجولركية من جهة بلاد الروم، وهي بلاد خصبة، وبها طائفة من الأكراد ينتسبون إليها لا إلى قبيلة، وعدتهم نحو ثلاثة آلاف، ولهم أمير يخصهم .

الثامن عشر - بلاد الدينار - وهي بلاد تلي بلاد الجولركية، وبها طائفة من الأكراد يقال لهم الدينارية نسبة إلى بلدتهم، وعددهم نحو خمسمائة، ولهم سوق وبلد،

وكان لهم أميران ، أحدهما الأمير إبراهيم بن الأمير محمد ، كان له وجه عند الخلفاء ، والثاني الشهاب بن بدر الدين ، توفي أبوه وخلفه كبيرا خلفه في إمرته ، وكان بينهما وبين المازنجانية حروب .

التاسع عشر - بلاد العِمَادِيَّة وقلعة هارون . وهي بالقرب من بلاد الجولمركية ، وبها طائفة منهم يقال لهم الهَكَارِيَّة يزيد عددهم على أربعة آلاف مقاتل ، وطم إِمارة تخصهم . قال في "مسالك الأبصار" : وهم يأخذون الخِفاة في أماكن كثيرة من بخارا إلى بلد الجزيرة . وصاحب هارون يكتأب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

العشرون - القمرانية وكهف داود - وبها طائفة منهم يقال لهم التنبكية . قال في "مسالك الأبصار" : وقليل ما هم لكنهم حماة رماة وطعامهم مبذول على خِصاصة .

وأعلم أنه بعد أن ذكر في "مسالك الأبصار" ما تقدم ذكره عقب ذلك بذكر جماعة من الأكراد تفرقوا في الأفطار بعد اجتماع ، منهم التحتية ، وهم قوم كانوا يضاؤون الحميدية كان لهم أعيان وأمراء وأكابر ، فهلك أمراؤهم ونسيت كبرائهم ، ولم يبق منهم إلا شردمة قليلة تفرقت بين القبائل والشعوب . ثم قال : وشعبهم كثيرة : منهم السندية وهم أكثر شعبهم عددا ، وأوفرهم مددا ، كانوا يبلغون ثلاثين ألف مقاتل . ومنهم الحمديّة ، وكان لهم أمير لا يزيد جمعه على ستمائة رجل . ومنهم الراسنية ، كانوا أوفى عدد وعدد ، وجمع ومدد ، ثم تشتت شملهم ، وتفرقت جمعهم ؛ وعادت عنتهم في بلد الموصل لا تزيد على ألف رجل ؛ وكان لهم أمير يقال له علاء الدين كورك بن إبراهيم في بلد العقر ، ولا يتقص عن خمسمائة ؛ ومنهم الدنيكية ، وهم متفرقون في البلاد لا يزيد عددهم على ألف رجل .

قلت : وقد ذكر في "التثقيف" عدّة أماكن من بلاد وقلاع يكاتب أصحابها من الأكراد سوى من تقدّم ذكره، وهي خمسة وعشرون موضعا .

إحداها - برجوا . الثانية - البلهيمية . الثالثة - كرم ليس . الرابعة - اندشت .
الخامسة - حردقيل . السادسة - سكراك . السابعة - قبلين . الثامنة - جرموك .
التاسعة - شنكوس . العاشرة - بهرمان . الحادية عشرة - حصن أزان وهو
حصن الملك . الثانية عشرة - الثالثة عشرة - سونج . الرابعة عشرة - اكريسا .
الخامسة عشرة - يزاركد . السادسة عشرة - الزاب . السابعة عشرة - الزيثية .
الثامنة عشرة - الدربندات العرابلية . التاسعة عشرة - قلعة الجبلين .
العشرون - سيدكان . الحادية والعشرون - صاحب زامادان .
الثانية والعشرون - الشعبانية . الثالثة والعشرون - نمرية . الرابعة والعشرون -
المحمدية . الخامسة والعشرون - كزليك .

الإقليم الخامس

(بلاد الديلم)

بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم في الآخر . وهم
جيلٌ من الأعاجم سكنوا هذه البلاد فعرفت بهم ، وبعض الناس يزعم أنهم من
العرب من بني ضبّة ، ومنهم كان بنو بويه القائمون على خلفاء بني العباس ببغداد .
قال ابن حوقل : وهي جبال متسعة إلى الغاية ، وبها غياض ومياه مشتبكة في الوجه
الذي يقابل طبرستان والبحر ، وبين ذيل الجبل وبين البحر مسيرة يوم ، وربما
نقص عن ذلك ، وربما زاد حتى بلغ يومين .

وقاعدتها (رُودَبَار) . قال في "المشترك" : بضم الراء المهملة وسكون الواو وفتح الذال المعجمة والباء الموحدة ثم ألف وراء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدى وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل :
وبه مقام ملوكهم .

ومن بلادها (كَلَّار) . قال في "تقويم البلدان" : بكاف ولام وألف وفي الآخر راء - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال المهلب : وهي مدينة الديلم ، وهي في جهة الشرق والجنوب عن لَاهَجَان من بلاد كِلَانَ .

الإقليم السادس (الجِلُّ)

قال في "المشترك" : بكسر الجيم وسكون المثناة من تحت ثم لام - وهو اسم لصُقْعٍ واسع مجاور لبلاد الديلم ، ليس فيه قرى كثيرة ، وليس فيه مدينة عظيمة . وقال في "اللباب" : الجِلُّ اسم لبلاد متفرقة وراء طَبْرِسْتَانَ . قال : ويقال لها أيضا كِلَانَ وكِل ، فلما عُرِّبَت قيل جِلَانَ وجِل ، ومنها كُوشِيَار الحكيم الجِلِّيّ فيما ذكره ياقوت ، وإليها ينسب الشيخ عبد القادر الكِلَانِي ، وبالجملة فهما صُقْعَان متلاصقان يعسر تمييز أحدهما عن الآخر . قال في "مسالك الأبصار" عن الشريف محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد الجِلِّيّ : إن بلاد كِلَانَ في وِطَاة من الأرض ، وإنه يحيط بها أربعة حدود ، من الشرق إقليم مَازَنْدَرَانَ ، ومن الغرب مَوْقَانُ ، ومن الجنوب عراق العجم ، يفصل بينهما جبل يعرف بأشناده ، ومن الشمال بحر

الْقَلْبِمْ بِعْنَى بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ . قَالَ : وَطُولُ مَجْمُوعِ كِيلَانَ مِمَّا بَأَيْدِي مَلُوكِهَا ، وَهُوَ شَرْقٌ
بِغَرْبِ نَحْوِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ، وَعَرْضُهَا وَهُوَ جَنُوبٌ بِشَمَالِ نَحْوِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ تَزِيدُ وَتَقْصُرُ ،
وَهِيَ شَدِيدَةُ الْأَمْطَارِ ، كَثِيرَةُ الْأَنْهَارِ ، كَثِيرَةُ الْفَوَاكِهِ خِلا النَّخْلِ وَالْمُوزِ وَقَصَبِ السُّكَّرِ
وَالْمَشْمَشِ ، وَيَجِبُ إِلَيْهَا الْحَمَضَاتُ مِنْ مَازَنْدَرَانَ . قَالَ : وَمُدُنُ كِيلَانَ غَيْرُ مَسُورَةٍ ،
وَلِمُلُوكِهِمْ قُصُورٌ عَلِيَّةٌ ، وَجَمِيعُ مَبَانِيهَا بِالْأَجْرِ مَفْرُوشَةٌ بِهِ أَيْضًا كَمَا فِي بَغْدَادٍ ، مَسْقُفَةٌ
بِالْحَشْبِ ، وَبَعْضُهَا مَعْقُودَةٌ أَقْبَاءً وَعَلَيْهَا قَشٌّ مِضْفُورٌ ، وَفِي غَالِبِ دِيَارِهَا آبَارٌ قَرِيبَةٌ
الْمُسْتَقَى نَحْوِ ذِرَاعَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ أَوْ أَقَلِّ ، وَالْأَنْهَارُ حَاكِمَةٌ عَلَى مُدُنِهَا ، وَبِهَا حَمَامَاتٌ
يَجْرَى إِلَيْهَا الْمَاءُ مِنَ الْأَنْهَارِ ، وَبِهَا الْمَسَاجِدُ وَالْمَدَارِسُ وَتَسْمَى بِهَا الْخَوَاطِقُ ، وَغَالِبُ
أَقْوَاتِهِمُ الْأَرَزُّ يَعْمَلُ مِنْهُ الْخَبْزُ وَالرِّقَاقُ مَعَ تَيْسَرِ الْقَمْحِ وَالشَّعِيرِ عِنْدَهُمْ ، وَالْبَقَرُ وَالغَنَمُ
عِنْدَهُمْ بِكَثْرَةٍ ، وَأَسْعَارُهُمْ مُتَوَسِّطَةٌ إِلَى الرَّخْصِ ، وَبِهَا الْحَرِيرُ الْكَثِيرُ ، وَلَهَا حِصُونٌ
فِي نَوَاحِي مَازَنْدَرَانَ وَجَزَائِرُ فِي بَحْرِ طَبْرِسْتَانَ ، بِهَا الرِّمَانُ وَالْبَلْبُوطُ وَالْفَوَاكِهُ ، وَفِيهَا
تَحْصَنُهُمْ عِنْدَ مِغَالِبَةِ الْعَدُوِّمْ ، وَبِلِبَاسِهِمُ الْأَقْبِيَّةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الضَّيْقَةُ الْأَكْمَامُ وَتَخَافِفُ
صِغَارُ عَلَى رِعْوِهِمْ ، وَيَشْتَدُونَ الْمَنَاطِقَ وَالْبُنُودَ ، وَخَيْلُهُمْ بَرَادِينَ ، وَفِي سُرُوجِهِمُ الْحِثِّيُّ
بِالْفِضَّةِ وَغَيْرُهُ ، وَلِمُلُوكِهِمْ زِيٌّ جَمِيلٌ عَلَى ضَيْقِ بِلَادِهِمْ وَقَلَّةٌ مَتَحْصَلُهَا ، وَيَرْكَبُ
الْمَلِكُ بِالرَّقَبَةِ السَّلْطَانِيَّةِ وَالْمُجَبَّابُ وَالسَّلَاحُ دَارِيَّةٌ وَالْجَمْدَارِيَّةُ وَالْجَنَائِبُ الْمَجْرُورَةُ ،
وَيَتَّخِذُ بَطَوَاهِرَ قُصُورِ مَلُوكِهِمْ مِيَادِينَ خُضْرًا ، فِي أَوْسَاطِهَا قُصُورٌ صِغَارٌ مِنَ الْحَشْبِ
فِيهَا جُلُوسُهُمْ لِلنِّدَمِ وَالْمِظَالِمِ . وَلَا يَزَالُ بَيْنَ مَلُوكِهِمُ الْخُلْفُ ، فَإِذَا قُصِدَهُمْ عَدُوٌّ خَارِجِيٌّ
عَنْهُمْ تَأَلَّفُوا وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ ، حَتَّى إِنْ هُوَ لَا كُوْهُ جِهْزَ إِلَيْهِمْ جَيْشًا عَدَدَتَهُ سَبْعُونَ أَلْفًا
صَحْبَةً نَائِبَهُ قَطْلُوشَاهُ فَلَمْ يَنْبَلْ مِنْهُمْ قُصِدَا ، وَكَانَ آخِرَ الْأَمْرِ أَنْ قُتِلَ قَطْلُوشَاهُ وَهَلَكَ
جُلٌّ مِنْ مَعِهِ . وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" أَنَّ بَهَا ثَمَانٌ قَوَاعِدَ بِكُلِّ قَاعِدَةٍ
مِنْهَا مَلِكٌ ، بَعْضُهُمْ أَكْبَرُ مِنْ بَعْضٍ ، وَمَوْقِعٌ جَمِيعُهَا فِي الْإِقْلِيمِ الرَّابِعِ .

فأما الكبار فأربع قواعد^(١).

القاعدة الأولى

(بُومِن)

قال في "تقويم البلدان": بضم الباء الموحدة التي بين الفاء والباء الموحدة وسكون الواو وكسر الميم ثم نون في الآخر. قال: وهي قريبة من البحر، وبها فيما يجاذبها معدن حديد، وبها من معمولات القماش. قال في "مسالك الأبصار": وصاحبها شافعي المذهب دون غيره من ملوك الجليل، مذهب نشأ عليه ملوكها. قال: وعسكره يزيد على ألف فارس، وبلاده قليلة ولكن غالب دخله من التجار، والحريز بها كثير. قال: وصاحبها يدعى النسبة إلى بيت الشرف، وله اعتناء بأهل العلم والفضل، ولباس الملك والجند بها نوع من لباس التتر، ولباس غلمانها قريب من زي التجار، ولهم عذبات كالصوفية قدامهم، وعامة أهلها كغيرهم ممن جاورهم.

القاعدة الثانية

(تُولْم)

قال في "تقويم البلدان": بضم المثناة الفوقية وواو ولام وميم، وصاحب "مسالك الأبصار" يثبت فيها ياء مثناة تحتية بين اللام والميم - وهي قريبة من البحر أيضا. قال في "مسالك الأبصار": وأمر صاحبها قريب من صاحب بومِن ولكن لا حريز في بلاده، وهو حنبلي المذهب، وعدة عسكره نحو ألف فارس وهم أفرس إخوانهم، ولهم على ملوك الجليل استظهار لما ظهر من نكايتهم في عسكر التتر. قال: وزبها كرى بومِن.

(١) لم يذكر إلا ثلاثا. ولعل الرابعة دولاب.

القاعدة الثالثة

(كسكُ)

قال في "تقويم البلدان": بفتح الكافين وسكون السين المهملة بينهما وراء مهملة في الآخر. وقد ذكر أنها دُولَابُ - بضم الدال المهملة وسكون الواو ولام ألف وباء موحدة في الآخر. قال: وعن السمعاني فتح الدال وأنه أفصح وأنها من حدود الديلم. وذكر في "اللباب" أنها قرية من أعمال الرّي. قال في "مسالك الأبصار": وصاحبها له صَوْلَةٌ في ملوك تُولِمَ، وجيشه أكثر عددا من غيره من ملوك الجليل، وبلاده أوسع، وأرضه أخصب وأكثر حَبًّا وفاكهةً وأغناما وأبقارا مما حولها، وهي كثيرة السمك والطير. ومنها الشيخ العارف السيد عبد القادر الكيلاني قدس الله رُوحَه.

وأما الصغار فخاريع أيضا.

القاعدة الأولى

(لَاهَجَانُ)

قال في "تقويم البلدان": بفتح اللام وبعدها ألف وهاء وجم مفتوحتان ثم ألف بعدها نون، ثم قال: وهي من الديلم أو كيلان. قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة قال في "تقويم البلدان": ومنها يجلب الحرير المشهور إلى البلاد. قال في "مسالك الأبصار": وهي في حال الحرير كما في يومن بخلاف غيرهما من سائر بلاد الجليل.

القاعدة الثانية - (سَخَامُ) .

القاعدة الثالثة - (مَرَسْتُ) .

القاعدة الرابعة - (تَنَفَسُ) .

ولها عدة مُدُن غير القواعد .

(١) (منها) كُوتُم . قال في "تقويم البُلدان" : بضم الكاف وواو ساكنة ثم تاء مثناة فوقية مضمومة ثم ميم في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال في "تقويم البُلدان" : قال من رآها إنها مدينة لها بساتين ، وهي ناقلة عن البحر مسيرة يوم . قال المهلبى : وهي مدينة كبيرة للجبل .

(ومنها) سألوس . قال في "تقويم البُلدان" : المشهور بالسين المهملة وألف ولام مضمومة وواو ساكنة ثم سين ثانية - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي على البحر ولها مَنَعَةٌ وهي صعبة المسلك . قال المهلبى : وهي آخر حدّ طَبَرِسْتَانَ من جهة الغرب .

الإقليم السابع

(طَبَرِسْتَانُ)

(٢) بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء المهملة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة فوق وألف ثم نون . قال في "تقويم البُلدان" : وهي في جهة الشرق عن بلاد الديلم وكيلان . قال : وإنما سميت طَبَرِسْتَانَ لأن طَبَرَ بالفارسية الفأس ، وهي من كثرة أشتبك أشجارها لا يسلك فيها الجيُش إلا بعد أن تقطع الأشجار بالطَبَر من بين أيديهم ، وآستان بالفارسية الناحية ، فسميت طَبَرِسْتَانَ أى ناحية

(١) ضبطها ياقوت بفتح الكاف والتاء .

(٢) ضبطه ياقوت بكسر الراء ، وقد تابعناه في ضبط ما تقدم .

الطَّابِر . قال في "العزيزي" : وهي في غاية المنعة والحصانة بالجبال المنيعة المحيطة بها من كل جانب، وفي وسط الجبال الأراضى السهلة، وفيها من كثرة المياه والغياض ما لا يساويها فيه بلد آخر، وهي عن قزوین في الشرق بانحراف إلى الشمال . قال ابن حوقل : وهي بلاد كثيرة المياه والأشجار والغالب عليها الغياض، وأبنيتها بالخشب والقصب، وهي بلاد كثيرة الأمطار . ويرتفع منها حرير يعم الآفاق، وغالب حُبُّهم الأرز . قال : وليس بجميع طَبْرَسْتان نهر تجرى فيه السفن ، إلا أن البحر قريب منهم على أقل من يوم . قال ابن خلكان : والنسبة إليها طَبْرِي .

وقاعدتها (أمل) . قال في "المشترك" : بهمزة مفتوحة بعدها ألف ثم ميم مضمومة ولام في الآخر - وهي مدينة من طَبْرَسْتان واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول سبع وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "القانون" : وهي قَصْبَة طَبْرَسْتان ، وهي أكبر من قزوین ، مشتبكة بالعمارة لا يعلم على قدرها أعمارها في تلك النواحي . قال أحمد الكاتب : وهي على بحر الديلم . وقال في "المشترك" : هي أكبر مدينة بطَبْرَسْتان . ومنها أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبْرِي الإمام الكبير المشهور . ولها عدة مدن .

(منها) رُوِيَان . قال في "المشترك" : بضم الراء المهملة وسكون الواو ثم ياء مشناة من تحت وألف ونون - وهي مدينة من طَبْرَسْتان واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "رسم المعمور" حيث الطول ست وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال في "المشترك" : وهي مدينة كبيرة في جبال طَبْرَسْتان ، ولها كورة عظيمة وعمل . قال في "اللباب" : ونخرج منها جماعة كثيرة من العلماء .

(ومنها) مَاطِيرُ . قال في "اللباب" : بفتح الميمين وكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة في الآخر . قال في "اللباب" : وهي بلدة من عمل أَمَل ، خرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) دِهِسْتَانُ . قال في "اللباب" : بكسر الدال المهملة والهاء وسكون السين المهملة وفتح المثناة من فوق ثم ألف ونون . قال ابن حوقل : وهي مدينة من طَبْرَسْتَانَ ، وقيل هي من خُرَاسَانَ - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول إحدى وثمانون درجة وعشر دقائق ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة مشهورة عند مازندَرَانَ ، بناها عبد الله بن طاهر ، ومعناها بالفارسية موضع القرى ، وهي آخر حدّ طَبْرَسْتَانَ بين جُرْجَانَ وَخُوَارَزْمَ .

الإقليم الثامن

(مازندَرَانُ)

بفتح الميم وبعدها ألف وفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الدال والراء المهملتين وألف ثم نون ، وهو إقليم على القرب من طَبْرَسْتَانَ وقاعدتها (جُرْجَانُ) . قال في "اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وجيم ثانية وألف وفي آخرها نون . قال في "المشترك" : والعجم تسميها كُرْكَانَ بضم الكاف وسكون الراء المهملة . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة ونحسون دقيقة . قال "المهلبّي" : وهي

مدينة جليلة بين حُرَّاسَانَ وبين طَبْرَسْتَانَ . فُخْوَارِزْمُ منها في جهة الشرق وطَبْرَسْتَانُ منها في جهة الغرب . قال : وهي بلدة كثيرة الأمطار، متصلة الشتاء، وفي وسطها نهر يجرى ، وهي قريبة من بحر الخزر، والجبالُ مُحْتَفَةٌ بها فهي سُهْلِيَّةٌ جَبَلِيَّةٌ ، يجتمع فيها فواكه العُورِ والنَّجْدِ . قال : وبها من خشب الخَلَنْجِ ما ليس في بلد آخر مثله .
ولهَا مُدُنٌ أُخْرَى .

(منها) سَارِيَّةٌ . قال في ” اللباب “ : بفتح السين المهملة وألف وراء مهملة ومثناة من تحتها وهاء . قال في ” اللباب “ : وهي مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقال ابن سعيد : من طَبْرَسْتَانَ - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . وفي شرقها خُوَارِزْمٌ والرِّيُّ وبينهما نحو ثمانين ميلاً .

(ومنها) أُسْتَرَابَادٌ . قال في ” المشترك “ : بفتح الهمزة . وقال في ” اللباب “ : بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وكسر المثناة من فوق وفتح الراء المهملة وبالباء الموحدة بين ألفين وفي آخرها ذال معجمة . قال في ” اللباب “ : وقد يُلْحَقُونَ فيها ألفاً أُخْرَى بين التاء والراء . قال في ” المشترك “ : أُسْتَرَأْسَمُ رجل وَاِبَادُ أَسْمُ عمارة ، فكأنه قال عمارة أُسْتَر . وهي مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقيل من حُرَّاسَانَ . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في ” القانون “ حيث الطول تسع وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة ونحس دقائق . قال في ” العريزي “ : وهي على حَدِّ طَبْرَسْتَانَ ، وبينها وبين أَمَلٍ : قَصْبَةُ طَبْرَسْتَانَ تسعة وثلاثون فرسخاً .

(١) الذي في تقويم البلدان عن اللباب بكسر الألف .

(٢) ضبطها ياقوت بالفتح .

(١) (ومنها) أَبْسُكُونُ . قال في "اللباب" : بفتح الألف الممدودة وضم الباء الموحدة
 وسكون السين المهملة وضم الكاف وفي آخرها نون - وهي بلدة على ساحل بحر
 الخزر واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول
 تسع وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشر
 دقائق . قال في "القانون" : وهي فُرْضَةُ جُرْجَانَ . قال ابن حوقل : وإليها ينسب
 بحر أَبْسُكُونُ ، ومنها يركب إلى الخزر وإلى باب الأبواب والجيل والديلم وغير ذلك .

الإقليم التاسع (قُومَسُ)

(٢) قال في "اللباب" : بضم القاف وسكون الواو وفتح الميم وفي آخرها سين
 مهملة . قال : ويقال لها بالفارسية كُومَسُ بإبدال القاف كافا . قال : وهي من
 بَسْطَامَ إلى سِمَنَانَ ، وهما من قُومَسَ بين خُرَّاسَانَ وبين الجبال ، وأولها من ناحية الغرب
 سِمَنَانَ . قال أحمد الكاتب : وقُومَسُ بلدٌ واسع جليل القدر . وقال في "المشترك" :
 قُومَسُ موضع كبير فيه بلاد كثيرة وقَرْيٌ - وقاعدتها (سِمَنَانُ) . قال في "المشترك" :
 بكسر السين المهملة وسكون الميم ونونين بينهما ألف . قال في "القانون" حيث
 الطول تسع وسبعون درجة وخمس عشرة دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة .
 قال في "المشترك" : وهو بلد مشهور بين الرِّيِّ والدَّامَغَانَ .
 وبها مُدُنٌ أيضا .

(منها) الدَّامَغَانُ . قال في "اللباب" : بفتح الدال المهملة وألف وفتح الميم
 والغين المعجمة وألف ثانية ثم نون - وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "القانون"

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء . (٢) ضبطها ياقوت بكسر الميم .

حيث الطولُ تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

(ومنها) بَسْطَامُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وفي الآخريم - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "اللباب" : وهي بلدة مشهورة . قال ابن حوقل : ولها البساتين الكثيرة ، وهي كثيرة الفواكه ، وإليها ينسب أبو يزيد البَسْطَامِيُّ الزاهد .

الإقليم العاشر

(خُرَّاسَانُ)

قال في "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألف ثم سين مهملة وألف ونون - وهي بلاد كثيرة . قال : وأهل العراق يقولون إنها من الرّى إلى مَطَّلَعِ الشمس ، وبعضهم يقول من حُلُوَانِ إلى مَطَّلَعِ الشمس ، ومعنى خُرَّاسَمُ للشمس ، واسان موضع الشيء ومكانه ، وقيل معنى خُرَّاسَانُ كُلُّ بِالرَّفَاهِيَةِ . قال في "تقويم البلدان" : ويحيط بها من جهة الغرب المفازة التي بينها وبين بلاد الحيل وجرجان ، ومن جهة الجنوب مفازة فاصلة بينها وبين قَارِسَ وقومس ، ومن الشرق نواحي سِحِسْتَانَ وبلاد الهند ، ومن جهة الشمال بلاد ماوراء النهر وشيء من تَرَكْسْتَانَ . قال : وخُرَّاسَانُ تشتمل على عدّة كُورٍ كل كُورَةٍ منها نحو إقليم .

ومن كورها المشهورة (جَوِينُ) بضم الجيم وفتح الواو وسكون المثناة من تحت ونون في الآخر . (وقوهستان) بضم القاف وسكون الواو وفتح الهاء وسكون السين المهملة وفتح المثناة فوق وألف ثم نون . (بَغشُورُ) بفتح الباء الموحدة والغين المعجمة

الساكنة ثم شين معجمة وواو وراء هملة في الآخر. و(مَرُو) بفتح الميم وسكون الراء
المهملة وواو في الآخر. و(طُوسُ) بضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة
في الآخر. و(بَيْهَقُ) بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح الهاء وقاف
في الآخر. و(بَاخْرُزُ) بفتح الباء الموحدة ثم ألف وخاء معجمة وراء هملة ساكنة
وزاى معجمة؛ وإليها ينسب الباخرزى الذى أسلم على يديه بركة .

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة فى تاريخه (نيسابور) . قال فى "اللباب" :
بفتح النون وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وسكون الألف وضم الباء
الموحدة وبعدها واو وراء هملة . قال فى "اللباب" : وسميت نيسابور لأن سابور
الملك لما رآها ، قال : يصلح أن يكون ها هنا مدينةً ، وكانت قصباً فأمر بقطع
القصب وأن تبنى مدينة ، ف قيل نيسابور والنبي هو القصب . قال ابن سعيد :
والعجم تسميها نساور . قال فى "تقويم البلدان" : وأسمها الآن نساور؛ يعنى بفتح
النون والشين المعجمة وألف وفتح الواو وراء هملة فى الآخر . وموقعها فى الإقليم
الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة ،
والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة
مشهورة فى أرض سهلة ، وهى مفترشة البناء مقدار فرسخ فى فرسخ ، وبها قنّى ماء ،
وهى صحيحة الهواء . قال فى "اللباب" : وهى أحسن مدن خراسان وأجمعها
للخير . قال أحمد بن يعقوب الكاتب : وبينها وبين كل من مرو ومن هرة ومن
جرجان ومن الدامغان عشر مراحل .

وبها مدن عديدة .

(منها) الطابران . قال فى "اللباب" : بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء
المهملة وبعده الألف نون . قال فى "القانون" : وهى قصبه طوس من كور

نُحْرَاسَانَ - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "العريزي" : وهي من أجلّ مدن نُحْرَاسَانَ .

(١) (ومنها) نَوْقَانُ . قال في "اللباب" : يفتح النون وسكون الواو وفتح القاف وبعد الألف نون - وهي مدينة من أعمال طُوسَ من نُحْرَاسَانَ ، موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول اثنتان وثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال المهلبي : وهي من أجلّ مدن نُحْرَاسَانَ وأعرها ، وبظاهرها قبر الإمام علي بن موسى بن جعفر الصادق، وقبر هارون الرشيد الخليفة العباسي ؛ وبها معدن الفيروزج والدّهنيج .

(٢) (ومنها) إِسْفَرَايُنُ . قال في "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وفتح الفاء والراء المهملة وكسر المثناة التحتية ونون في الآخر - وهي بلدة بنواحي نيسابور من نُحْرَاسَانَ - موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وسبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وتسمى المِهْرَجَانُ أيضا بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الراء المهملة والجيم وألف ونون في الآخر . يقال إن كسرى سماها بذلك تشبيها بالمِهْرَجَانِ أحد أعياد الفُرسِ : لأن المِهْرَجَانِ أطيب أوقات الفصول، شبيها بذلك نُحْضَرْتَهَا ونَضَارْتَهَا، وإليها ينسب الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائيني الإمام الكبير المشهور .

(ومنها) خَسْرُوْجُرْدُ . قال في "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وسكون السين وفتح الراء المهملتين وسكون الواو وكسر الجيم ثم راء ودال مهملتان - وموقعها

(١) ضبطها ياقوت بالضم .

(٢) ضبطها ياقوت بالفتح ، ثم قال وياء مكسورة وياء أخرى ساكنة .

في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وثمانون درجة وخمس دقائق، والعرض ست وثلاثون درجة . قال في "المشترك": وهي قَصَبَة نَاحِيَة بِيَهَقَ مِنْ حُرَّاسَانَ . وقال في "اللباب": كانت قَصَبَتَهَا ثُمَّ صَارَتْ الْقَصَبَة سَبْرَوَار .

(ومنها) نَسَا . قال في "المشترك": بفتح النون والسين المهملة وألف مقصورة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول اثنتان وثمانون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال في "المشترك": وهي مدينة من حُرَّاسَانَ بَيْنَ أَبِيوَرْدَ وَسَرَّخَسَ . قال ابن حوقل: وهي مدينة خِصْبِيَة، ومنها الإمام أحمد النسائي صاحب السُّنَنِ .

(ومنها) أَزَادَوَار . قال في "تقويم البلدان": بالهمزة والزاي المعجمة ثم ألف وذال معجمة وواو مفتوحتين وألف وراء مهملة في الآخر . وهي قَصَبَة جُوَيْنَ مِنْ حُرَّاسَانَ . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة؛ ومنها إمام الحرمين الإمام الشافعي المشهور .

(ومنها) قَايِنُ . قال في "اللباب": بفتح القاف وبعد الألف ياء مثناة تحتية مكسورة ثم نون . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس وثلاثون دقيقة [والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة^(١)] . قال ابن حوقل: وهي قَصَبَة قُوَهْسَتَانَ، مِنْ حُرَّاسَانَ عَلَى مَفَازَة . قال: وهي مثل سَرَّخَسَ فِي الْكِبَرِ، وَمَاوَاهَا مِنَ الْقُنِيِّ، وَبَسَاتِينَهَا قَلِيلَة، وَقَرَاهَا مَتَفَرِّقَة . قال في "اللباب": وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(١) الزيادة عن تقويم البلدان نقلا عن القانون .

(ومنها) سَرَّحْسُ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين والراء المهملتين ثم خاء معجمة ساكنة وسين مهملة ساكنة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة بين نَيْسَابُورَ وبين مَرَوَ في أرض سهلة ، وليس لها ماء جارٍ إلا نهر يجرى في بعض السنة ، وهو فضلة مياه هَرَّاءَ ؛ والغالب على نواحيها المراعى ، ومعظم مال أهلها الجمال ، وماؤهم من الآبار ، وأرحيتهم على الدواب . قال المهلبى : والرمال مُحْتَفَةٌ بها .

(ومنها) بُوَشْنَجُ . قال في "اللباب" : بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وسكون النون وجيم في الآخر . قال في "اللباب" : ويقال لها أيضا فَوْشَنَجُ بالفاء بدل الباء . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها أيضا بُوَشْنَكُ بالكاف بدل الجيم . قال ابن حوقل : وهي مدينة على نحو النصف من هَرَّاءَ في مستوي من الأرض ، ولها مياه وأشجار كثيرة ، وماؤها من نهر بهرَّاءَ ، وهو يجرى من هَرَّاءَ إلى بُوَشْنَجَ إلى سَرَّحْسَ .

(ومنها) هَرَّاءُ . قال في "اللباب" : بفتح الهاء والراء المهملة ثم ألف وهاء في الآخر . قال في "التعريف" : ولا يسمع عجمي يقول إلهرى - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي من خُرَّاسَانَ ، ولها أعمال ، وداخلها مياه جارية ، والجبل منها على نحو فرسخين ، ومنه تعمل حجارة الأرحية وغيرها ، وليس به محتطب ولا مرعى ، وعلى رأسه بيت نار كان للفرس ، وخارج هَرَّاءَ المياه والبساتين . قال في "المشترك" : وكانت مدينة عظيمة فخرَّ بها التتر . قال في "اللباب" : وكان فتحها في خلافة أمير المؤمنين

عثمان رضى الله عنه . قال : والنسبة إليها هَرَوِيٌّ . قال فى "مسالك الأبصار" :
ومن الناس من يعدُّ هَرَاءَ مفردة بذاتها عن خُرَّاسَانَ ؛ وصاحبها يكتبُ عن الأبواب
السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) مَرَوُ الرُّوْدِ . قال فى "المشترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهمله
وفى آخرها واو . وقال فى "اللباب" بفتح الواو وألف ولام وضم الراء الثانية
وسكون الواو وذال معجمة ، والرُّوْدُ بالعجمية النهر ، ومعناه مَرَوُ النهر . وموقعها
فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وثمانون
درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال
أبن حوقل : وهى أكبر من بوشنج ، ولها نهر كبير وعليه البساتين ، وهى طيبة التربة
والهواء ، والجبل عنها فى جهة الغرب على ثلاثة فراسخ . قال فى "اللباب" : وهى
من أشهر مدُن خُرَّاسَانَ ، والنسبة إليها مَرَوْرُوْدِيٌّ ومَرَوْدِيٌّ أيضا .

(ومنها) مَرَوُ الشَّاهِجَانِ . قال فى "المشترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهمله
وواو فى الآخر ، وهو مضاف إلى الشَّاهِجَانِ بفتح الشين وألف بعدها هاء ثم جيم
وألف ونون - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "المشترك" :
ومَرَوُ الشَّاهِجَانِ معناه رُوح الملك . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع
وثمانون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال أبن حوقل :
وهى مدينة قديمة يقال إنها من بناء طهمورث : أحد ملوك الفُرس . قال فى "مسالك
الأبصار" : ويقال إنها من بناء ذى القرنين . قال : وهى فى أرض مستوية بعيدة
عن الجبال لا يرى منها الجبل ، وأرضها كثيرة الرمل وفيها سُبُوخة ، ويجرى على بابها
نهرٌ يدخل منه الماء إلى حياض المدينة ، ومنه شرب أهلها ؛ ولها ثلاثة أنهار آخرها
وبها الفواكه الحسنة تقدِّد وتعمل إلى البلاد ؛ وبها الزبيب الذى لا نظير له ؛ ولها من

النظافة وحسن الترتيب وتقسيم الأبنية والغروس على الأنهار، وتميز كل سوقٍ عن غيره ما ليس لغيرها من البلاد . قال في "المشترك" : والنسبة إليها مَرَوَزِيٌّ . قال في "تقويم البلدان" : وبها كان مقام المأمون لما كان بجُرَّاسَانَ ؛ وبها قُتِلَ يَزْدَجَرْدُ آخرُ ملوكِ الفُرسِ ؛ ومنها ظهرت دولة بني العباس ، وبها صُيِّغَ أولُ سوادِ لبسته المسوَّدة ؛ ومنها يرتفع الحرير الكثير والقطن . قال في "المشترك" : وبينها وبين كلِّ من نَيْسَابُورَ وَهَرَّاءَ وَبَلَّخَ وَبُخَّارًا مسيرة اثني عشر يوماً .

(ومنها) الطَّالِقَانُ . قال في "المشترك" : بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون . وقال في "اللباب" : بتسكين اللام - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمان وثمانون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة نحو مَرَوَزِيٍّ وَرُودِ فِي الكَبَرِ ؛ ولها مياه جارية وبساتين قليلة ؛ وهي في جبل ، ولها رُستاق في الجبل ، وهي غير الطَّالِقَانِ المُقَدَّمِ ذكرها في عراق العجم .

(ومنها) بَلَّخُ . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفي آخرها خاء معجمة - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" و"القانون" حيث الطول إحدى وتسعون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدى وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة في مستوٍ من الأرض ، بينها وبين أقرب جبل إليها أربعة فراسخ ؛ والمدينة نصف فرسخ في مثله ؛ ولها نهر يسمي^(١) الدهاش يجري في ربضها ، وهو نهر يدعى عَشْرَ أَرْحِيَّةَ ؛ والبساتين تحتف بها من جميع جهاتها ؛ وبها الأترجُ وقَصَبُ السُّكَّرِ ؛ وتقع في نواحيها الثلوج . قال في "اللباب" :

(١) وقع في التقويم بإهمال السين ، ولم نعرطليه في المعجم ولا في القاموس .

فتحها الأحنف بن قيس التيمي في خلافة عثمان رضي الله عنه؛ ونخرج منها ما لا يحصى من الأئمة والعلماء والصلحاء .

(ومنها) شَهْرَسْتَانُ . قال في "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وفتح الراء وسكون السين المهملتين وفتح التاء المثناة من فوق وبعد الألف نون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال" و"القانون" حيث الطول إحدى وتسعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدى وأربعون دقيقة . قال في "المشرك" : شهر بلغة الفرس المدينة ، واستان الناحية ، فعنى اسمها مدينة الناحية . قال : وهي مدينة مشهورة بين نيسابور وخوارزم في آخر حدود خراسان وأول حدود رمال خوارزم .

الإقليم الحادي عشر

(زَابُلِسْتَانُ)

بفتح الزاي المعجمة ثم ألف بعدها باء موحدة ولام مضمومتان وسين مهملة ساكنة وتاء مثناة فوق مفتوحة ثم ألف ونون - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمسة عشرة دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة لها بلاد وأعمال ، وهي عن بلخ على عشر مراحل ، وعندها نهر كبير يجري ؛ وليس لها بساتين بل هي مدينة على جبل ، والفواكه تأتيها مجلوبة . قال في "اللباب" :
وبها قلعة حصينة .

ولها مدن غيرها .

(منها) غَزَنَةُ . قال في "اللباب" : بفتح الغين وسكون الزاي المعجمتين وفتح

النون - وموقعها في آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال في " الأطوال " و " القانون " حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : هي من عمل الباميان ؛ وقد تقدم أن الباميان من رَابُلُسْتَانَ . وقال في " اللباب " : هي من أول بلاد الهند . وقال في " مزيل الأرتياب " : هي في طرف خراسان وأول بلاد الهند ، وهي كالحد بينهما . قال ابن حوقل : وهي فُرْضة الهند وموطن التجار ، ولها دَرَبَنْد مشهور .

(ومنها) بَجْهَيْرُ . قال في " اللباب " : بفتح الباء الموحدة وسكون النون وفتح الجيم وكسر الهاء وسكون المثناة تحت وراء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في " القانون " حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة من أعمال الباميان على جبل ، والغالب على أهلها العيثُ والفساد . قال في " اللباب " : وبها جبل الفضة ، والدرهم بها كثيرة ، لا يشترون ولو باقةً بقلٍ بأقل من درهم ، وقد جعلوا السوق كهيئة الغربال لكثرة الحفر . قال : وإنما يتبعون عروقاً يجدونها تُفْضِي إلى الفضة ، فإذا وجدوا عرقاً حفروا أبداً إلى أن يصيروا إلى الفضة ، والرجل منهم يُنْفِقُ الأموال الكثيرة في الحفر ، وربما خرج له من الفضة ما يستغني به هو وعقبه ، وربما خاب عمله لقلة المال وغير ذلك ، وربما وقف رجل على العرق ووقف آخر عليه في موضع آخر فأخذان جميعاً في الحفر ، والعادة عندهم أن من سبق فاعترض على صاحبه فقد أستحق .

الإقليم الثاني عشر (الغور)

قال في "اللباب" : بضم الغين المعجمة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر .
قال : وهي بلاد في الجبال بخراسان قريبة من هرة ، وهي مملكة كبيرة ، وغالبها جبال
عامرة ذات عيون وبساتين وأنهار ، وهي بلاد حصينة منيعة ، وتحيط بها خراسان
من ثلاث جهات ولذلك حُصيت من خراسان ، والحد الرابع لها قبلي سجستان .

وقاعدتها فيما قاله في "تقويم البلدان" (بيروزكوه) . قال في "المشترك" :
بكسر الباء الموحدة وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ثم زاي معجمة
وضم الكاف وواو وهاء - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال
في "المشترك" : معنى بيروزكوه الجبل الأزرق ؛ وهي قلعة حصينة دار مملكة
جبال الغور . قال : وبها كان مستقرًا بنو ساحان ملوك الغور^(١) .

قلت : وبلاد الغور وغزنة وما والاها وإن عدها في "مسالك الأبصار" من
مملكة التورانيين ، فإنها ليست من أصل مملكة توران ، وإنما تغلب ملوكها عليها
من مملكة إيران ، فلذلك أثبتتها في مملكة إيران ؛ وما غلب عليه بنو هولوكو من مملكة
الروم ، وهو قونية وما معها ليس من مملكة إيران بل هو مملكة مستقلة بذاتها كما
سيأتي ، ولذلك لم أثبتها في مملكة إيران والله أعلم .

(١) كذا في الأصل على هذه الصورة ، والذي في التقويم "بها كان مستقر آل سام الخ" وفي معجم البلدان

"بناها بنو سام ملوك الغورية" .

الجملة الثالثة

(في الأنهار المشهورة)

واعلم أن هذه المملكة عدّة أنهار، والمشهور منها ثلاثة عشر نهرًا :

الأول - الفُرات وما يصب فيها ويخرج منها . فأما نهر الفرات فأوله من شماليّ مدينة أرزن الروم وشرقيها ، وأرزن هذه آخر حدّ بلاد الروم من جهة الشرق ؛ ثم يأخذ إلى قرب ملطية ثم إلى شمشاط ؛ ثم يأخذ مشرقًا ويتجاوز قلعة الروم ويمتد مع جانبها من شماليها وشرقيها ؛ ثم يسير إلى البيرة ، ويمتد من جنوبيها ؛ ثم يمتد مشرقًا حتى يتجاوز بالسّ وقلعة جعبر ويتجاوزها إلى الرّقة ؛ ثم يمتد مشرقًا ويتجاوز الرّحبة من شماليها ويسير إلى عانة ثم إلى هيت ؛ ثم يسير إلى الكوفة . فإذا جاوز نهر كوثي بستة فراسخ أنقسم نصفين ، ومرّ الجنوبيّ منهما إلى الكوفة ويجاوزها ويصبّ في البطائح . ويمتد القسم الآخر وهو أعظمهما ويعرف بنهر سورا ، ويمتد بإزاء قصر ابن هبيرة ، ويتجاوزه إلى مدينة بابل القديمة ، ويتفرع منه عدّة أنهر ويمتد عموده إلى النيل ويسمى من بعد النيل نهر الصّراة ؛ ثم يتجاوز النيل ويصب في دجلة .

وأما الأنهار التي تصب فيه ، فمنها نهر شمشاط ، ونهر البليخ ، ونهر الخابور ، ونهر الهرماس ، وغيرها .

وأما الأنهار التي تخرج من الفرات ، فمنها نهر عيسى ، ونهر صرصر ، ونهر الملك ، ونهر كوثي وغير ذلك .

الثاني - دجلة وما يصب إليها ويخرج منها . فأما دجلة فقال في "المشرك" :

بكسر الدال المهملة وسكون الجيم . قال : وهي نهر عظيم مشهور مخرجه من بلاد

(١) كذا في التقيويم أيضا بالتأنيث والأولى التذكير .

الرُّومَ؛ ثم يمتز على أمد، وحِصْنِ كَيْفَا، وجزيرة ابن عُمَرَ، والمَوْصِلِ، وتِكْرِيتَ، وبَغْدَادَ، ووَاسِطَ، والبَصْرَةَ؛ ثم يصب في بحر فَارِسَ . وذكر في "العزيرى" : أن رأس دِجْلَةَ شمالي مِيَّافَرِيقَيْنِ من تحت حِصْنِ يعرف بِحِصْنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ . ويجرى من الشمال والغرب إلى جهة الجنوب والشرق ؛ ثم يشرق ويرجع إلى جهة الشَّمَالِ ؛ ثم يغرب بميلة إلى الجنوب إلى مدينة أمد ؛ ثم يأخذ جنوبا إلى جزيرة ابن عُمَرَ؛ ثم يأخذ شرقا وجنوبا إلى مدينة بَلَدَ ؛ ثم يشرق إلى المَوْصِلِ ، ثم يسير مشرقا إلى تِكْرِيتَ ؛ ثم يأخذ مشرقا نصبا إلى سُرْمَنْ رَأَى ؛ ثم يأخذ جنوبا على عُنْكَرَى ؛ ثم يأخذ مشرقا إلى البَرْدَانِ ، ثم يأخذ جنوبا بميلة إلى الشرق إلى بَغْدَادَ؛ ثم يسير جنوبا إلى كَلْوَادَا ، ويأخذ إلى المدائن ويتجاوز إلى دير العاقول ؛ ثم يسير مشرقا إلى النُعْمَانِيَّةِ ؛ ثم يسير جنوبا ومشرقا إلى فَمِ الصَّلْحِ ؛ ثم يسير مغربا إلى وَاسِطَ ؛ ثم يشرق إلى بطائح وَاسِطَ ؛ ثم يخرج من البطائح ويسير بين الشرق والجنوب حتى يتجاوز البَصْرَةَ، ويمتز على فُوْهَةِ الأُبْلَةِ ، ثم يسير إلى عَبَادَانَ ويصب في بحر فَارِسَ .

وأما الأنهار التي تصب في دِجْلَةَ : فمنها نهر آرَزَنَ ، ونهر التُّرْتَارِ، ونهر الفُرَاتِ الأعلى وهو الأكبر، ونهر الزَّابِ الأصغر، وغيرها .

وأما الأنهار التي تخرج من دِجْلَةَ فعِدَّةٌ أنهار ؛ من أشهرها نهر الأُبْلَةِ ، ونهر مَعْقِلِ المقدم ذكرهما في الكلام على منتزهات هذه المملكة .

الثالث - دِجْلَةُ الأهواز . وهو نهر ينبعث من الأهواز، ويمتز في جهة الغرب إلى عَسْكَرِ مُكْرَمٍ، وهو قرب دِجْلَةَ بغداد في المقدار؛ وعليه مزارعٌ عظيمة من قصب السُّكَّرِ وغيره .

(١) الرابع - نهر شيرين . وهو نهر يخرج من جبل دينار من ناحية بازرع ويخترق بلاد فارس ويقع في بحر فارس عند جنابة ، من بلاد فارس .

الخامس - نهر المسرقان . وهو نهر عظيم في بلاد خوزستان ، يجري من ناحية شستر ، ويمر على عسكر مكرم ، ويسقى بجميع مائه النخل والزرع وقصب السكر ، ولا يضيع شيء من مائه .

السادس - نهر شستر . وهو نهر يخرج من وراء عسكر مكرم ، ويمر على الأهواز ؛ ثم ينتهي إلى نهر السدرة إلى حصن مهدي ، ويصب في بحر فارس .

السابع - نهر طاب . ومخرجه من جبال أصفهان من قرب المرح ، وينضم إليه نهر آخر ويسير حتى يمر على باب أرجان ، ويقع في بحر فارس عند شينير .

(٢) الثامن - نهر سگان . وهو نهر يخرج من رستاق الرونجان من قرية تدعى ساركري ، ويسقى شيئاً كثيراً من كور فارس ؛ ثم يصب في بحر فارس ؛ وعليه من العارة ما ليس على غيره .

التاسع - نهر زندورذ ، بفتح الزاي المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة والواو ثم راء مهملة ساكنة وذال معجمة في الآخر . وهو نهر كبير على باب أصفهان .

العاشر - نهر الهندمند . قال ابن حوقل : وهو أعظم أنهار سجستان ، ويخرج من ظهر القور ، ويمر على حدود الرخج ؛ ثم يعطف ويمر على بست ، حتى يصير على مرحلة من سجستان ؛ ثم يصب في بحيرة زره ؛ وإذا تجاوز بست يتشعب منه أنهار كثيرة ؛ وعلى باب مدينة بست على هذا النهر جسر من السفن كما في دجلة .

(١) في التقوم "نازرنج" ولم نعثر في المعجم على كلا اللفظين .

(٢) في التقوم "الرويجان ساذفري" .

الحادى عشر - نهر الرَّسّ . وهو نهر يخرج من جبال قَالِقَلَا ، ويمتد إلى وَرَثَانَ ؛ ثم يلتقى مع نهر الكُرِّ الآتى ذكره بالقرب من بحر الخَزْرِ فيصيران نهرا واحدا ويصبان في بحر الخَزْرِ المذكور . قال في "تقويم البلدان" : وخلف نهر الرَّسّ فيما يقال ثلاثمائة وستون مدينة خراب ، يقال إنها المراد في القرءان بقوله تعالى ﴿ وَأَحْبَابُ الرَّسِّ ﴾ .

الثانى عشر - نهر الكُرِّ . وهو نهر فاصل بين أَزَانَ وَأَدْرِيَجَانَ كالحلد بينهما ، وأوله عند جبل باب الأبواب ، ويخترق بلاد أَرَانَ ويصب في بحر الخَزْرِ . وذكر ابن حوقل أن نهر الكُرِّ يمتد على ثلاثة فراسخ من بَرْدَعَةَ . وبقَارِسَ أيضا نهر يقال له نهر الكُرِّ إلا أنه دون هذا في القدر والشهرة .

الثالث عشر - نهر جُرْجَانَ . ومخرجه من جبل جرجان ، ويسير غربا بجنوب إلى أَبْسُكُونَ ثم يفترق من أَبْسُكُونَ نهرين ويصب في بحر الدَّيْلَمِ .

الجملة الرابعة

(في الطرق الموصلة إلى قواعد هذه المملكة ، وذكر شيء

من المسافات بين بلادها)

وَأَعْلَمُ أَنَّ آخِرَ الْمَمْلَكَةِ الْمَضَافَةَ إِلَى الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ مِنْ جِهَةِ الشَّرْقِ مَمْلَكَةُ حَلَبَ ، فَتَعِينُ الْإِبْتِدَاءَ مِنْهَا . وَنَحْنُ نُوْرِدُ ذَلِكَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ كَلَامُ عِيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُرْدَاذِبَةَ فِي كِتَابِهِ "المسالك والممالك" مقتصرًا على ذكر مشاهير البلاد .

(الطريق من حَلَبَ إِلَى الْمَوْصِلِ) - مِنْ حَلَبَ إِلَى مَنبِجَ ، وَمِنْ مَنبِجَ إِلَى الرَّسْتَنِ ، وَمِنْ الرَّسْتَنِ إِلَى الرَّقَّةِ إِلَى رَأْسِ عَيْنِ سَبْعَةِ عَشْرَ فَرَسَخًا ، وَمِنْ رَأْسِ عَيْنِ إِلَى كَفَرْتُونَا سَبْعَةَ فَرَسَخٍ ، وَمِنْ كَفَرْتُونَا إِلَى دَارَا نَحْسَةَ فَرَسَخٍ ، وَمِنْ دَارَا إِلَى نَصِيبِينَ أَرْبَعَةَ فَرَسَخٍ ، ثُمَّ إِلَى بَلَدِ ثَلَاثُونَ فَرَسَخًا ، ثُمَّ إِلَى الْمَوْصِلِ سَبْعَةَ فَرَسَخٍ .

(الطريق من الموصِل إلى بَغْدَادَ) - من الموصل إلى الحَدِيثَةِ أحد وعشرون فرسخًا، ثم إلى السَّنِّ خمسة فراسخ، ثم إلى سُرَّ مَنْ رَأَى ثَلَاثَةَ فراسخ، ثم إلى القَادِسِيَّةِ تسعة فراسخ، ثم إلى عُبَيْرِي ثمانية فراسخ، ثم إلى البَرْدَانِ أربعة فراسخ، ثم إلى بَغْدَادَ خمسة فراسخ [١] . وأخبرني بعض أهل تلك البلاد أن الطريق من حَلَبَ إلى البيرة يومان، ومن البيرة إلى الرُّهَا يومان، ومن الرُّهَا إلى مَارِدِينَ أربعة أيام، ثم من مَارِدِينَ إلى جزيرة آبن عُمرَ ثَلَاثَةَ أيام، ثم من جزيرة آبن عُمرَ إلى المَوْصِلِ يومان، ومن الموصل إلى تَكْرِيتَ يومان، ومن تَكْرِيتَ إلى خُوَيَّ يومان، ومن خُوَيَّ إلى بَغْدَادَ يومان .

(الطريق إلى نَيْسَابُورَ : قَاعِدَةُ خُرَّاسَانَ) - من بغداد إلى النَّهْرَوَانَ أربعة فراسخ، ثم إلى الدَّسْكَرَةِ اثْنَا عَشَرَ فرسخًا، ثم إلى جَلُولَاءِ سبعة فراسخ، ثم إلى خَافِقِينَ سبعة فراسخ، ثم إلى قَصْرِ شِيرِينَ ستة فراسخ، ثم إلى حُلْوَانَ خمسة فراسخ، ثم إلى مَرَجِ القلعة عشرة فراسخ، ثم إلى قَصْرِ يَزِيدَ أربعة فراسخ، ثم إلى قَصْرِ عَمْرُو ثَلَاثَةَ عَشَرَ فرسخًا، ثم إلى قَصْرِ اللُّصُوصِ سبعة عشر فرسخًا، ثم إلى قرية العَسَلِ ثَلَاثَةَ فراسخ، ثم إلى هَمْدَانَ خمسة فراسخ، ثم إلى الأَسَاوِرَةِ اثْنَانِ وعشرون فرسخًا، ثم إلى سَاوَةَ خمسة عشر فرسخًا، ثم إلى الرِّيِّ أربعة وعشرون فرسخًا، ثم إلى قَصْرِ المَلْحِ أحد وثلاثون فرسخًا، ثم إلى رَأْسِ الكَلْبِ سبعة فراسخ، ثم إلى سِمَنَانَ ثمانية فراسخ، ثم إلى بُوَمَنَ سبعة عشر فرسخًا، ثم إلى أَسَدَابَادَ أربعون فرسخًا، ثم إلى خُسْرُو حَرْدَ اثْنَا عشر فرسخًا، ثم إلى نَيْسَابُورَ خمسة عشر فرسخًا .

(الطريق من نَيْسَابُورَ إلى بَلْخِ ثم إلى نهر جِيحُونَ) - من نَيْسَابُورَ إلى طُوسِ ثَلَاثَةَ عشر فرسخًا، ثم إلى مَرُو الرُّوذِ أحد عشر فرسخًا، ثم إلى سَرَخَسَ، ثم إلى قَصْرِ النجارج ثَلَاثَةَ فراسخ، ثم إلى مَرُو الشَّاهْجَانَ سبعة وعشرون فرسخًا، ثم إلى القَوَيْتَيْنِ خمسة

(١) الزيادة عن تقويم البلدان .

وعشرون فرسخًا، ثم إلى أسدآبادَ على النهر سبعة فراسخ، ثم إلى قصر الأحنف على النهر عشرة فراسخ، ثم إلى مرو الرود خمسة فراسخ، ثم إلى الطالقان ثلاثة وعشرون فرسخًا، ثم إلى اربعين تسعة فراسخ، ثم إلى العاديات عشرة فراسخ، ثم إلى السدرة من عمل بلخ أربعة وعشرون فرسخًا، ثم إلى الغور تسعة فراسخ، ثم إلى بلخ ثلاثة فراسخ، ثم إلى شطّ جيحونَ اثنا عشر فرسخًا. فذات اليمين كورة ختل ونهر الصرغام؛ وذات اليسار خوارزم، وسيأتي ذكرهما في الكلام على مملكة توران فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(الطريق إلى شيراز قاعدة فارس) - قد تقدّم الطريق من حلب من مضافات الديار المصرية إلى بغداد، ومن بغداد إلى واسط خمسة وعشرون سكة، ومن واسط إلى الأهواز عشرون سكة، ثم إلى النوبدجان تسع عشرة سكة، ثم إلى شيراز اثنتا عشرة سكة .

(الطريق من شيراز إلى السيرجان: قاعدة كرمان) - من شيراز إلى إصطخر خمس سكاك، ثم من إصطخر إلى البحيرة ثلاثة عشر فرسخًا، ثم إلى شاهك الكبرى سبعة عشر فرسخًا، ثم إلى قرية الملح تسعة فراسخ، ثم إلى مرزبانة ثمانية فراسخ، ثم إلى اروان ثلاثة فراسخ، ثم إلى المرمان وهو آخر عمل فارس إلى السيرجان ستة عشر فرسخًا .

(الطريق إلى أصفهان) - من بومن المقدم ذكرها إلى الرباط ثلاثة عشر فرسخًا، ثم إلى أصفهان أربعة عشر فرسخًا .

(الطريق إلى البصرة) - قد تقدّم الطريق من حلب إلى بغداد، ثم إلى واسط، ثم إلى الفاروث، ثم إلى دير العمال، ثم إلى الحوانيت، ثم يسير في البطائح، ثم إلى نهر أبي الأسد، ثم في دجلة العورا، ثم في نهر معقل، ثم يمضي إلى البصرة .

(١) (الطريق إلى تبريز) - قد تقدم الطريق من حلب إلى مَردِين، ثم من مَردِين إلى حِصْن كَيْفَا يومان، ومن الحصن إلى سِعْرَت يومان، ومن سِعْرَت إلى وان يومان، ومن وان إلى وَسْطَانَ ثلاثة أيام، ومن وَسْطَانَ إلى سَلْمَاسَ يومان، ومن سَلْمَاسَ إلى تَبْرِيزَ أربعة أيام؛ فيكون بين حلب وتَبْرِيزَ ثلاثة وعشرون يوما .

(الطريق إلى السُلْطَانِيَّة) - من تَبْرِيزَ إليها سبعة أيام؛ فيكون من حلب إلى السُلْطَانِيَّة ثلاثون يوما .

الجملة الخامسة

(في بعض مسافات بين بلاد هذه المملكة)

(بعض مسافات بلاد الجزيرة) - من الأَنْبَارِ إلى تِكْرِيْتِ مرحلتان، ومن تِكْرِيْتِ إلى المَوْصِلِ ستة أيام، ومن المَوْصِلِ إلى آمِدَ أربعة أيام، ومن آمِدَ إلى سُمَيْسَاطِ ثلاثة أيام؛ ومن المَوْصِلِ إلى نَصِييْنِ أربع مراحل، ومن نَصِييْنِ إلى رَأْسِ عَيْنِ ثلاث مراحل، ومن رَأْسِ عَيْنِ إلى الرِّقَّةِ أربعة أيام، ومن رَأْسِ عَيْنِ إلى حَرَّانَ ثلاثة أيام، ومن حَرَّانَ إلى الرُّهَّا يوم واحد .

(بعض مسافات خُورُسْتَانَ) - من عَسْكَرِ مُكْرَمِ إلى الأَهْوَازِ مرحلة، ومن الأَهْوَازِ إلى الدَّوْرَقِ أربع مراحل، [وكذلك من عَسْكَرِ مُكْرَمِ إلى الدَّوْرَقِ] (٢) ومن عَسْكَرِ مُكْرَمِ إلى سُوْقِ الأَرْبَعَاءِ مرحلة، ومن سُوْقِ الأَرْبَعَاءِ إلى حِصْنِ مَهْدِيٍّ مرحلة، ومن السُّوسِ إلى بَصْنِيٍّ مرحلة خفيفة، ومن السُّوسِ إلى مَتُوْثِ مرحلة .

(بعض مسافات فارس) - قال ابن حوقل : من شِيرَازَ إلى سِيرَافَ نحو ستين فرسخًا، ومن شِيرَازَ إلى إِصْطَخَرَ نحو اثني عشر فرسخًا، ومن شِيرَازَ إلى كَازِرُونَ

(١) في القاموس "تبريز وقد تكسر"

(٢) الزيادة عن "تقوم البلدان" ليم البيان .

نحو عشرين فرسخا ، ومن كازرونَ إلى جنَّابَةَ أربعة وأربعون فرسخا ، ومن شيرازَ إلى أَصْبَهَانَ أَثْنَانِ وسبعون فرسخا ، ومن شيرازَ مَغْرِبًا إلى أَوَّلِ حَدُودِ خُوزِسْتَانَ ستون فرسخا ، ومن شيرازَ إلى بَسَا سبعة وعشرون فرسخا ، ومن شيرازَ إلى البِيضَاءِ ثمانية فراسخ ، ومن شيرازَ إلى دارِإِجْرَدَ خمسون فرسخا ، ومن مَهْرُوبَانَ إلى حصنِ ابنِ عمارَةَ نحو مائة وستين فرسخا .

(بعض مسافات كَرْمَانَ) - من السَّيرجَانَ إلى المفازة مرحلتان ، ومن السَّيرجَانَ إلى جِرْفَتَ مرحلتان ، ومن السَّيرجَانَ إلى مدينة الزَّرِنْدِ تسعة وعشرون فرسخا .

(بعض مسافات إرْمِينِيَّةَ وَأَرَانَ وَأَذْرَبَيْجَانَ) - قال ابن حوقل : من بَرْدَعَةَ إلى شَمُكُورَ أربعة عشر فرسخا ، ومن بَرْدَعَةَ إلى تَفْلَيْسَ ثلاثة وأربعون فرسخا ، ومن أَرْدُبَيْلَ إلى المَرَاغَةَ أربعون فرسخا ، ومن المَرَاغَةَ إلى أَرْمِيَّةَ أربع مراحل ، ومن أَرْمِيَّةَ إلى سَلْمَاسَ مرحلتان ، ومن سَلْمَاسَ إلى خُوى سبعة فراسخ ، ومن خُوى إلى بَرَكِرِي ثلاثون فرسخا ، ومن بَرَكِرِي إلى أَرَجِيشَ يومان ، ومن أَرَجِيشَ إلى خَلَّاطَ ثلاثة أيام ، ومن خَلَّاطَ إلى بَدْلَيْسَ ثلاثة أيام ، ومن بَدْلَيْسَ إلى مِيَا فَا رِقِينَ أربعة أيام .

[ذكر الطريق من المِراغَةَ إلى أَرْدُبَيْلَ ؛ من مَرَاغَةَ إلى أَرْمِيَّةَ ثلاثون فرسخا]^(١) ، ومن أَرْمِيَّةَ إلى سَلْمَاسَ أربعة عشر فرسخا ، ومن خُوى إلى نَشَوِي [ثلاثة أيام ، ومن نَشَوِي] إلى دَبِيلَ أربع مراحل ؛ ومن المَرَاغَةَ إلى الدَّيْنُورِ ستون فرسخا ، ومن خُوجَّ إلى مَرَاغَةَ [ثلاثة عشر فرسخا]^(١) ، ومن بَرْدَعَةَ إلى وَرْثَانَ سبعة فراسخ ، ومن وَرْثَانَ إلى بَيْلَقَانَ سبعة فراسخ ، ومن شَرَوَانَ إلى بابِ الأَبوابِ نحو سبعة أيام ، ومن بَرْدَعَةَ إلى تَفْلَيْسَ نحو أَثْنَيْنِ وستين فرسخا .

(١) الزائد من تقويم البلدان عن ابن حوقل ليستقيم الكلام .

(بعض مسافات عراق العجم) - من همدان إلى الدينور ما ينيف على عشرين فرسخا ، ومن همدان إلى ساوة ثلاثون فرسخا ، ومن ساوة إلى الرى ثلاثون فرسخا أيضا ؛ ومن همدان إلى زبجان على شهرزور ثلاثون فرسخا ؛ ومن همدان إلى أصبهان ثمانون فرسخا ؛ ومن همدان إلى أول خراسان نحو سبعين فرسخا ، ومن ساوة إلى قم نحو اثني عشر فرسخا ، ومن قم إلى قاشان نحو اثني عشر فرسخا أيضا ، ومن الرى إلى قزوین ثلاثون فرسخا ، ومن الدينور إلى شهرزور أربع مراحل ، ومن أصبهان إلى قاشان ثلاث مراحل .

(بعض مسافات طبرستان ومازندران وقومس) - قال ابن حوقل : بين أمل وسارية مرحلتان ، ومن سارية إلى استراباد نحو أربع مراحل ، ومن استراباد إلى جرجان نحو مرحلتين ؛ ومن أمل إلى ما مطير مرحلة ، ومن ما مطير إلى سارية مرحلة ، ومن جرجان إلى بسطام مرحلتان .

(بعض مسافات خراسان) - قال في "تقويم البلدان" : من أول أعمال نيسابور إلى وادی جیحون ثلاث وعشرون مرحلة ، ومن سرخس إلى نسا سبعة وعشرون فرسخا ، ومن هرة إلى نيسابور أحد عشر يوما ، ومن هرة إلى مرو كذلك ، ومن هرة إلى سيستان كذلك ، ومن مرو الروذ إلى مرو الشاهجان أربعة أيام ، ومن بلخ إلى فرغانة ثلاثون مرحلة مشرقا ، ومن بلخ إلى الرى ثلاثون مرحلة مغربا ، ومن بلخ إلى سيستان ثلاثون مرحلة جنوبا ، ومن بلخ إلى كرمان ثلاثون مرحلة ، ومن بلخ إلى خوارزم ثلاثون مرحلة .

الجملة السادسة

(فيما بهذه المملكة من النفائس العلية القدر، والعجائب الغريبة الذكر،

والمنتزهات المرتفعة الصيت)

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : بها عدة نفائس وعجائب .

أما النفائس فإن بها مفاص اللؤلؤ ببحر فارس بجزيرة كيش وعمان، وهما من أحسن المفاصات وأشرفها وأعلاها قدرا في حسن اللؤلؤ على ما تقدم ذكره في الكلام على الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى .

وبالدعمان في جبلها معدن ذهب . قال الشيخ شمس الدين الأصفهاني : وهو قليل المتحصّل لكثرة ما يحتاج إليه من الكلف حتى يُستخرج ويذخشان شرقي^(١) عراق العجم البازهر الحيواني الذي لا يباريه شيء في دفع السموم يوجد في الأيائل التي هناك ، وقد مرّ ذكره في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى .

وبها الإثمد الأصفهاني الذي لا يساوي رتبة، وقد مرّ ذكره في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في المقالة الأولى، ولكنه قد عزّ الآن حتى لا يكاد يوجد . قال المقر الشهابي بن فضل الله : سألت الشيخ شمس الدين الأصفهاني عن سبب قلته ، فقال : لأنقطاع عمره فما بقي يوجد منه إلا ما لا يرى . قال في "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة مستعملات القماش الفاخر من النخ ، والمخمل ، والكمخا ، والعتابي ، والنصافي ، والصوف الأبيض المارديني ، وتعمل بها البسط الفاخرة في عدة مواضع مثل شيراز وأقصر وتوريز إلى غير ذلك من الأشياء النفيسة التي لا يضاهاها غيرها فيها .

(١) هذه الكلمة غير واضحة في الأصل .



وأما العجائب ، فقد ذكر الشيخ شمس الدين الأصفهاني أن بمدينة قشيمير على ثلاثة أيام عن أصفهان عين ماء سارحة يسمى ماؤها بماء الجراد ، إذا حمل ماؤها في إناء وعلق في تلك الأرض على عال ، أتاها طير يقال له سار فأكل ما فيها من الجراد حتى لا يدع منه شيئاً بشرط أن لا يوضع على الأرض حتى يوقى به إلى مكان الجراد فيعلق . وحكى محمد بن حيدر الشيرازي في مصنف له : أن بين الدماغان وأسترباذ من خراسان عينا ظاهرة إذا ألقيت فيها نجاسة فار ماؤها وأزبدت شيئاً تبعته دودة طول أتملة الإنسان حتى لو حمل الماء تسعة وكان معهم عاشر لم يحمل الماء ، تبع كل واحد من حمل الماء دودة ، ولم يتبع الآخر منها شيء ، فلو قتل واحد منهم تلك الدودة أستحال الماء مرا لوقته ، وكذلك ماء كل من هو وراءه ، ولا يستحيل ماء من هو إلى جانبه مرأ . قال ابن حوقل : وبكورة سابور من بلاد فارس جبل فيه صورة كل ملك وكل مرزبان معروف للعجم وكل مذكور من سدنة التيران . وفي كورة أرجان في قرية يقال لها طبريان [بئر^(٢)] يذكرونها أنهم أمتحنوا قعرها بالمثقات فلم يلحقوا لها قعرا ، ويفور منها ماء بقدر ما يدير حتى تسقى أرض تلك القرية . قال : وفي كورة رستاق [بئر^(٢)] تعرف بالهنديجان بين جبلين يخرج منها دخان لا يستطيع أحد أن يقربها ، وإذا طار عليها طائر سقط فيها وأحرق . وبناحية داذين نهر ماء عذب يعرف بنهر أخشين ، يشرب منه الناس وتسقى به الأرض ، وإذا غسلت به الثياب خرجت خضراً .

(١) لعله ولو حمل واحد من ماؤها شيئاً الخ .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام .



وأما المنتهات فيها نهر الأبله وشعب بوان - وهما نصف منتهات الدنيا الأربعة : وهى نهر الأبله وشعب بوان المذكوران وصغد سمرقند وغوطة دمشق . وقد تقدم أن نهر الأبله نهر شققه زياداً مقابله نهر معقل ، وبينهما البساتين والقصور العالية والمباني البديعة ، يتسلسل مجراه ، وتهل بكه وعشاياه ، ويظله الشجر وتعنى به زمر الطير . وفيه يقول القاضى التنوخى من أبيات :

وإذا نظرت إلى الأبله خلتها * من جنة الفردوس حين تحيل !
كم منزل في نهرها إلى السرو * ربأنة في غيرها لا ينزل !
وكأما تلك القصور عرائس * والروض حلى وهى فيه ترفل !

وشعب بوان - وهو عده قرى مجتمعة ومياه متصله ، والأشجار قد غطت تلك القرى فلا يراها الإنسان حتى يدخلها ، وهو بظاهر همدان يشرف عليها من جبل ، وهو فى سفح الجبل والأنهار تحط عليه من أعلى الجبل ، وهو من أبداع بقاع الأرض منظرًا . قال المبرد : أشرفت على شعب بوان فنظرت فإذا بماء ينحدر كأنه سلاسل فضة ، وتربة كالكاפור ، وثريه كالثوب الموشى ، وأشجار متهادلة ، وأطياف متجاوبة . وفيه يقول أبو الطيب المتنبي حين مر به :

مغاني الشعب طيباً فى المغانى * بمنزلة الربيع من الزمان !
ولكن الفتى العري فيها * غريب الوجه واليد واللسان !

الجملة السابعة

(في ذكر من ملك مملكة إيران جاهلية وإسلاما)

وهم عليّ ضربين :

الضرب الأول

(ملوكها قبل الإسلام)

وأعلم أن هذه المملكة لم تزل بيد ملوك الفرس لابتداء الأمر وإلى حين انقراض دولتهم بالإسلام عليّ ماسياتي ذكره . قال المؤيد صاحب حماة : وهم أعظم ملوك الأرض من قديم الزمان ، ودولتهم وترتيبهم لا يماثلهم في ذلك أحد .
وهم عليّ أربع طبقات :

الطبقة الأولى

(الفيشداذية)

سُموا بذلك لأنه كان يقال لكل من ملك منهم فيشداذ ومعناه سيرة العدل .
وأول من ملك منهم (أوشهنج) وهو أول من عُقد عليّ رأسه التاج وجلس عليّ السرير ورُتب الملك ونظّم الأعمال ووضع الخراج . وكان ملكه بعد الطوفان بمائة سنة ، وهو الذي بنى مدينتي بابل والسوس ، وكان محمود السيرة ، حسن السياسة .
ثم ملك بعده (طهمورث) وهو من عقب أوشهنج المقدم ذكره ، وبينهما عدة آباء ، وسلك سيرة جدّه ، وهو أول من كتب بالفارسية .

ثم ملك بعده أخوه (جمشيد) ومعناه شعاع القمر ، وسار سيرة من تقدّمه وزاد عليها ، وملك الأقاليم السبعة ، ورتب طبقات الحجاب والكباب ونحوهم ؛ وهو الذي أحدث التيروز وجعله عيدا ؛ ثم حاد عن سيرة العدل فقتله الفرس .

(١) في تاريخ أبي الفدا (بماتق) بالثنوية .

وملك بعده (بيوراسب) ويعرف بالدهَّاك، ومعناه عشر آفات، والعامَّة تسميه الضحاك، وملك جميع الأرض فسار بالجوَّور والعسف، وبسط يده بالقتل، وأحدث المُكُوس والعُشور، وأتخذ المغنِّين والملاهي. وسيأتي خبره لاكه مع كابي الخارج عليه في الكلام على النَّحل والملل، ويقال إنه هو ومن قبله كانوا قبل الطوفان .
ثم ملك بعده (إفريدون) ويقال إنه التاسع من ولد "جمشيد" المقدم ذكره، وفي أوَّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو ذو القرنين المذكور في القرآن على أحد الأقوال، وملك جميع الأرض أيضا وقسمها بين ينيه ومات .

فملك بعده ابنه (إيراج) بعهد من أبيه، ثم ملك بعده أخوه (شرم) و(طوج) ثم غلبهما على الملك (منوَجهر بن إيراج) وفي أيامه ظهر موسى عليه السلام . ويقال إن فرعون موسى كان عاملا له على مصر داخلا تحت أمره .

ثم تغلب على المملكة (فراسياب بن طوج) فأفسد ونحرب؛ ثم غلبه عليها (زوبن طهماسب) من أولاد منوَجهر، فأحسن السيرة وعمَّر البلاد، وشقَّ نهر الزَّاب وبنى مدينة على جانبه .

ثم ملك بعده (كرشاسف) من أولاد طوج بن إفريدون، وهو آخر ملوك هذه الطبقة .

الطبقة الثانية

(الكَيانية)

سُمُّوا بذلك لأن في أوَّل أسم كل واحد منهم لفظة كي، ومعناه الروحاني وقيل الجبَّار. وأوَّل من ملك منهم بعد كرشاسف المقدم ذكره (كيقباز) بن زو، فسار سيرة أبيه في العدل ومات؛ فملك بعده (كيكاؤوس) بن كيينه بن كيقباز ومات؛ فملك

(١) كذا في المختصر أيضا وفي العبر "الازدهاك بصاد بين السين والزاي وحاء قرية من الهاء وكاف قرية من القاف" وفي المسعودي "الده آك" .

بعده أبه (كيوخسرو بن سياووس بن كيكائوس) بولاية من جدّه ، ثم أعرض عن الملك .

وملك بعده (كيهراسف بن أخى كيكائوس) وأتخذ سريرا من ذهب مرصعا بالجواهر ، كان يجلس عليه ، وبنى مدينة بلخ بأرض خراسان وسكنها لقتال الترك ، وفي زمنه كان يُختنصر فجعله نائبا له ثم مات .

وملك بعده (كيهشتاسف) وبنى مدينة نسا ، وفي أيامه ظهر زرادشت صاحب " كتاب المجوس " الآتى ذكره فى الكلام على النحل والملل ، وتبعه كيهشتاسف على دينه ثم فقد .

وملك بعده (أردشير بهمن) ومعنى بهمن الحسن النية ابن إسفنديار بن كيهشتاسف ، وأسمه بالعبرانية كورش ، وملك الأقاليم السبعة ، وهو الذى أمر بعمارة البيت المقدس بعد أن خربه بختنصر .

ثم ملك بعده أبه (دارا بن أردشير) وفى زمنه ملك (الإسكندر بن فيلبس) وغلب دارا على ملك فارس ، وأستتاب به عشرين رجلا ، وهم المسمون بملوك الطوائف ، فأقاموا على ذلك خمسمائة وأثنتى عشرة سنة ، ثم بطل حكم ذلك .

الطبقة الثالثة

(الإشغانية ، يقال لكل منهم اشغا)

وأول من ملك منهم بعد ملوك الطوائف (اشغا بن اشغان) . ثم ملك بعده أبه (سابور بن اشغان) عشر سنين . ثم ملك بعده (سين بن اشغا) ستين سنة . ثم ملك بعده (جور بن اشغان) عشر سنين . ثم ملك بعده (بيرن الاشغانى) إحدى وعشرين

(١) فى العبر " الاشكانية وكافها أقرب إلى الفين " فتنه .

(٢) هنا مخالفة لما فى كتابي مختصر أبى الفداء والعبر فراجعهما .

سنة ومات . فملك بعده (جودرز الاشغاني) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (نرسي الاشغاني) أربعين سنة ومات . فملك بعده (هرمز الاشغاني) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (اردوان الاشغاني) اثنتي عشرة سنة ومات . فملك بعده (خسرو الاشغاني) أربعين سنة ومات . فملك بعده (بلاش الاشغاني) أربعين سنة ومات . فملك بعده (اردوان الأصغر) وهو آخر ملوكهم من هذه الطبقة .

الطبقة الرابعة

(الأكاسرة)

وأول من ملك منهم (أردشير بن بابك) من عقب ساسان بن "أردشير بهمن" قتل "اردوان" وأستولى على ملكه ، فأقام أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكتب عهدا بالملك في عقبه ومات . فملك بعده ابنه (سابور) إحدى وثلاثين سنة وستة أشهر، وفي أيامه ظهر "ماني الزنديق" وأدعى النبوة، وأعتنى بنقل كتب الفلسفة من اللغة اليونانية إلى اللغة الفارسية، ويقال إن العود الذي يتغنى به حدّث في أيامه ومات . فملك بعده ابنه (هرمز) سنة واحدة وستة أشهر ومات . فملك بعده ابنه (بهرام) ثلاث سنين وثلاثة أشهر ومات ؛ فملك بعده ابنه (بهرام بن بهرام) سبع عشرة سنة ومات . فملك بعده ابنه (بهرام بن بهرام بن بهرام) أربع سنين ثم مات . فملك بعده أخوه (نرسي بن بهرام) تسع سنين ثم مات . وملك بعده ابنه (هرمز) تسع سنين أيضا ومات . فملك بعده ابنه (سابور) وهو الذي عمل الجسر الثاني لدجلة ليكون أحد الجسرين للذاهبين، والآخريين . وفي زمنه كان قسطنطين ملك الروم ومات . فملك بعده أخوه (أردشير) بوصية منه ، ثم مات . فملك بعده ابنه (سابور)

(١) قال في العبر "ضبطه الدارقطني بالراء المهملة" .

(٢) صوابه ابن أخيه .

أبن سابور) ثم ملك بعده أخوه (بهرام بن سابور) ثم ملك بعده أبنه (يزدجرد) المعروف بالأئيم؛ ثم ملك بعده (كسرى) من ولد "أردشير" [ثم ملك بعده (بهرام جور بن يزدجرد الأئيم) وكانت مدة ملكه^(١) ثلاثا وعشرين سنة ومات . فملك بعده أبنه (يزدجرد) ثمانيا وعشرين سنة ومات . فملك بعده أبنه (هرمز) ثم مات . فملك بعده أخوه (فيروز) سبعا وعشرين سنة ، وظهر في أيامه غلاء شديد . ثم ملك بعده أبنه (بلاش) أربع سنين ومات . فملك بعده أخوه (قباد) ثلاثا وأربعين سنة "وفي أيامه ظهر مردك الزنديق وادعى النبوة" ثم خلع . وملك بعده أخوه (جاماسف) [ثم تغلب عليه قباد واستمر في الملك^(٢)] ثم مات . وملك بعده (أنوشروان) ثمانيا وأربعين سنة ، وقتل مردك الزنديق وأتباعه وجماعة من المانوية ، وغلب على اليمن وأتزعها من الحبشة . وفي زمانه ولد عبدالله أبو النبي صلى الله عليه وسلم ! ثم ولد النبي صلى الله عليه وسلم ! في آخر أيامه ؛ ثم مات . وملك بعده أبنه (هرمز) نحو ثلاث عشرة سنة ونصف . ثم ملك (أبرويز بن هرمز) ؛ ثم غلبه على الملك (بهرام جوين) من غير أهل بيت الملك ؛ ثم عاد أبرويز إلى الملك وملك ثمانيا وثلاثين سنة ، وتزوج شيرين المغنية وبنى لها القصر المعروف بقصر شيرين . ثم ملك بعده أبنه (شيره) تغلبا على أبيه ثمانية أشهر . ثم ملك بعده أبنه (أردشير) سنة وستة أشهر . ثم ملك بعده (شهران) من غير بيت الملك ثم قتل . وملك بعده (بوران) بنت أبرويز سنة وأربعة أشهر . ثم ملك بعدها (خشنشده) من بنى عم أبرويز أقل من شهر . ثم ملك بعده (أزميدخت) بنت أبرويز أخت بوران . ثم قتلت ؛ وملك بعدها (كسرى بن مهر خشنش) ؛ ثم قتله بعد أيام ؛ ثم ملك بعده

(١) الزيادة من تاريخ أبي الفداء ليم الكلام ويستقيم .

(٢) » » » بالمعنى لتسمي الكلام .

(١١)
فرخ زاد خسرو [من أولاد أنوشروان وملك ستة أشهر وقتلوه؛ ثم ملك] (يزدجرد)
وهو آخرهم .

الضرب الثاني

(ملوكها بعد الإسلام، وهم على ثلاث طبقات)

الطبقة الأولى

(عمال الخلفاء)

قد تقدم أن فتحها كان في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فتوالت عليها عمال الخلفاء في بقية خلافة عمر ، ثم في خلافة أمير المؤمنين عثمان ابن عفان رضي الله عنه ، ومقامهما يومئذ بالمدينة النبوية ؛ ثم لما بويع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة بعد قتل عثمان ، جعل إقامته بالعراق ؛ ثم كان بعده ابنه الحسن السبط رضي الله عنه ، فأقام بالعراق إلى أن سلم الأمر إلى (معاوية بن أبي سفيان) وصارت الخلافة إلى بني أمية ، وجعلوا دار إقامتهم بالشام وتوالت على هذه المملكة توابعهم في خلافة معاوية ؛ ثم (ابن يزيد) ؛ ثم (ابن معاوية بن يزيد) ؛ ثم (مروان بن الحكم) ؛ ثم (عبد الملك بن مروان) ؛ ثم (الوليد ابن عبد الملك) ؛ ثم (سليمان بن عبد الملك) ؛ ثم (عمر بن عبد العزيز) ؛ ثم (يزيد ابن عبد الملك) ؛ ثم (هشام بن عبد الملك) ؛ ثم (الوليد بن يزيد بن عبد الملك) ؛ ثم (يزيد بن الوليد بن عبد الملك) ؛ ثم (إبراهيم بن الوليد) ؛ ثم (مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم) وهو آخرهم .

(١) أي ابن شهر يار . وبقية نسبه في تاريخ أبي الفداء والزيادة منه ليم الكلام .

الطبقة الثانية

(خلفاء بني العباس)

وقد تقدم في أول هذه [المقالة] أن دار مقامهم كانت بالعراق، وأن أول من ولي منهم الخلافة (أبو العباس السفاح)، فبنى المدينة الهاشمية ونزلها، ثم آتقل منها إلى الأنبار فكانت دار مقامه إلى أن مات؛ ثم كان بعده أخوه (أبو جعفر المنصور) فبنى بغداد وسكنها؛ ثم سكنها بعده ابنه (المهدى) بن المنصور؛ [ثم ابنه (الهادي)]^(١)؛ ثم أخوه (هارون الرشيد) بن المهدي؛ ثم ابنه (الأمين)؛ ثم أخوه (المأمون)؛ ثم أخوه (المعتصم) بن الرشيد؛ ثم (الواثق) بن المعتصم؛ ثم أخوه (المتوكل)؛ ثم ابنه (المنتصر)؛ ثم (المستعين بن المعتصم)؛ ثم (المعتز بن المتوكل)؛ ثم (المهتدي) ابن الواثق؛ ثم (العميد بن المتوكل)؛ ثم (المعتضد بن الموفق طلحة) بن المتوكل؛ ثم ابنه (المكفي) بن المعتضد؛ ثم أخوه (المقتدر)؛ ثم (المرتضى) بن المعتز؛ ثم أخوه (الظاهر)؛ ثم (المقتدر) المقدم ذكره؛ ثم أخوه (القاهر) المقدم ذكره؛ ثم ابن أخيه (الراضي)؛ ثم أخوه (المتقي)؛ ثم ابن عمه (المستكفي)؛ ثم ابن عمه (المطيع)؛ ثم ابنه (الطائع)؛ ثم (القادر)؛ ثم ابنه (القائم)؛ ثم ابنه (المقتدى)؛ ثم ابنه (المستظهر) ثم ابنه (المسترشد)؛ ثم ابنه (الراشد)؛ ثم (المقتفي) بن المستظهر؛ ثم ابنه (المستجد)؛ ثم ابنه (المستضيء)؛ ثم ابنه (الناصر)؛ ثم ابنه (الظاهر)؛ ثم ابنه (المستنصر)؛ ثم ابنه (المستعصم) وقتله هولاكو ملك التتار الآتي ذكره، في العشرين من المحرم سنة ست وخمسين وستمائة، وهو آخرهم ببغداد.

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمْرَ الْخِلاَفَةِ كَانَ قَدْ وَهِيَ وَضَعُفٌ، وَتَنَاهَتْ فِي الضَّعْفِ أَيَّامَ الرَّاضِي، وَتَغَلَّبَ عُمَالُ الْأَطْرَافِ عَلَيْهَا، فَاسْتَوْلَى مُحَمَّدُ بْنُ رَاقٍ مِنَ الْفِرَاتِ عَلَى الْبَصْرَةِ،

(١) سقط من قلم الناسخ فأثبتناه ليم الكلام وينظم.

والبريدى على خوزستان، وعماد الدولة بن بويه على فارس، ومحمد بن الياص على
 كرمان، وركن الدولة بن بويه على الرمي وأصفهان، وبنو حمدان على الموصل وديار
 بكر وديار مضر وديار ربيعة، وغير أقطار هذه المملكة مع ملوك آخر. ولم يبق للخليفة
 غير بغداد وأعمالها، وأستولى ابن رائق على جميع الأمور وخطب باسمه على المنابر،
 وأقام سنة وعشرة أشهر، ثم صار الأمر بعده إلى (يحكم) مملوك وزير (ما كان) بن كاكى
 الديلمى وأستمر أيام الراضى فقتل؛ وأستقر (البريدى) بمده فى أيام المتقى وأيام
 المستكنى، وضربت ألقابه على الدنانير والدرهم، وخطب باسمه على المنابر، وأستمر
 ذلك لذويه من بعده؛ ثم ملك بعده (بختيار)؛ ثم ابن عمه (عضد الدولة) بن ركن
 الدولة حسن بن بويه؛ ثم ابنه (صمصام الدولة) بن عضد الدولة، ثم أخوه (شرف
 الدولة شيرزبك) بن عضد الدولة؛ ثم أخوه (بهاء الدولة أبو نصر) بن عضد الدولة؛
 ثم ابنه (سلطان الدولة أبو شجاع)؛ ثم ابنه (بهاء الدولة)؛ ثم أخوه (مشرف الدولة
 ابن بهاء الدولة)؛ ثم أخوه (جلال الدولة) أبو الطاهر بن بهاء الدولة؛ ثم ابن أخيه
 (أبو كالجار) بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة؛ ثم ابنه الملك الرحيم (خسرو فيروز)
 ابن كالجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه .
 وبنو بويه هؤلاء ينسبون إلى يزيدجرد ملك الفرس .

ثم كانت دولة السلاجوقية . وهى من أعظم الدول الإسلامية ، ونسبتهم إلى
 سلجوق بن دقاق أحد مقدّمى الأتراك ، وبهم زالت دولة بنى بويه عن بغداد
 وأعمال الخلافة .

وأول من ملك منهم (طغرل بك) بن ميكائيل بن سلجوق فى سنة اثنتين وثلاثين
 وأربعائة ؛ ثم ملك بعده ابن أخيه (ألب أرسلان) بن داود بن ميكائيل ؛ ثم ابنه

(١) فى الأصل "ثم ابنه" وهو خلاف الواقع .

(٢) أجمت التواريخ على إسقاط هذا من البين ، وهو ما تقضيه عبارة المؤلف .

(ملكشاه) بن ألب أرسلان ، ثم ابنه (محمود بن ملكشاه) ، ثم أخوه (بريكرق) ابن ملكشاه ، ثم أخوه (محمد بن ملكشاه) ، ثم ابنه (محمود بن محمد) ، ثم ابنه (داود بن محمود) ، ثم عمه (طغرليك) بن محمد ، ثم أخوه (مسعود) بن محمد ، ثم ابن أخيه (ملكشاه) بن محمود ، ثم أخوه (محمد بن محمود) . ثم قام منهم ثلاثة : وهم (ملكشاه بن محمود) أخو محمد المذكور ، و(سليمان شاه) بن محمد بن ملكشاه ، وهو عم محمد المذكور ، و(أرسلان شاه) بن طغرليك بن محمد بن ملكشاه . ثم قبض على سليمان شاه ، ومات ملكشاه ، وأنفرد أرسلان شاه بن طغرليك بالسلطنة . ثم ملك بعده ابنه (طغرليك) بن أرسلان شاه وبقى حتى قتله علاء الدين تكش صاحب خوارزم وبعض نحرأسان والرّي وغيرها ، في خلافة الناصر لدين الله في سنة تسعين وخمسة ، واشتغل (خوارزم شاه) عن فصل العراق فبقى بيد الخلفاء من لدن الناصر لدين الله ، ومن بعده إلى أن انقرضوا بفعله هولاكو ملك التتر الآتي ذكره .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بني جنكرخان)

وأول من ملكها منهم (هولاكو) بن طولي بن جنكرخان المقدم ذكره ، قصدتها بأمر أخيه منكوقان بن طولي صاحب التخت في سنة خمسين وستائة ، وقتل المستعصم آخر الخلفاء ببغداد ، وأستولى على جميع المملكة . قال في "مسالك الأبصار" : قال شيخنا العلامة شمس الدين الأصفهاني : إلا أن هولاكو لم يملك ملكا مستقلا بل كان نائبا عن أخيه منكوقان ، ولم يضرب بأسمه سكة درهم ولا دينار ، وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان . قال : وكان يكون لصاحب التخت أميراً لا يزال مقبياً في مملكة إيران مع هولاكو ، ومات في تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين

وستمائة؛ وملك بعده (أبنة أبغا) . قال الشيخ شمس الدين الأصفهاني: ولما ملك أضاف اسمه في السكة إلى اسم صاحب النخّ، وكان قد وجه أخاه منكوتمر إلى الشام وأتقى مع الجيوش الإسلامية على حمص، وأنكسر عليها؛ ومات سنة إحدى وثمانين وستمائة؛ وملك بعده أخوه (بوكدار بن هولاءكو) وأسلم وحسن إسلامه وتلقب أحمد سلطان، وحمل العسكر على الإسلام فقتلوه؛ وملك بعده ابن أخيه (أرغون) بن أبغا بن هولاءكو في جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين وستمائة، وتوفي في ربيع الأول سنة تسعين وستمائة؛ وملك بعده أخوه (كبختو) نخرج عن الياسة وأخفش في الفسق بنساء المغل وأبنائهم، فوشب عليه بنو عمه فقتلوه في ربيع الآخر سنة أربع وتسعين وستمائة؛ وملك بعده (بيدو بن طرغاي) ابن هولاءكو، وبقي حتى قتل في ذى الحجة من السنة المذكورة؛ وملك بعده (محمود غازان) بن أرغون بن أبغا بن هولاءكو، ودخل إلى الشام، وكان بينه وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون وقعات بجمص وغيرها آخرها على شقحب، كسر فيها كسرة فاحشة، هلك فيها معظم عسكره في سنة اثنتين وسبعمائة، وبقي حتى توفي في ثالث عشر شوال سنة ثلاث وسبعمائة؛ وملك بعده أخوه (خدابندا) والعامّة تقول خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاءكو في الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة؛ ثم ملك بعده (أبو سعيد بن خدابندا) وهو آخر من ملك من بني هولاءكو، وكان بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مكاتبات ومراسلات وتودد بعد وحشة، وبموته تفرقت المملكة بأيدي أقوام، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفرس .

قال في "مسالك الأبصار" بعد ذكر أبي سعيد: ثم هم بعده في دهماء مظلمه، وعمياء مقتمه؛ لا يُفِضِي ليلهم إلى صباح، ولا فرقتهم إلى اجتماع، ولا فسادهم إلى

صَلَّاحَ ، فِي كُلِّ نَاحِيَةِ هَاتِفَ ، يَدْعَى بِأَسْمِهِ ، وَخَائِفَ ، أَخَذَ جَانِبًا إِلَى قَسْمِهِ ؛ وَكُلَّ طَائِفَةٍ تَتَغَلَّبُ وَتَقِيمُ قَائِمًا تَقُولُ هُوَ مِنْ أَبْنَاءِ الْقَانِ ، وَتَنْسِبُهُ إِلَى فُلَانٍ ؛ ثُمَّ يَضْمَعُ لُ أَمْرَهُ عَنِ قَرِيبٍ ، وَلَا تَلْحَقُ دَعْوَتُهُ حَتَّى يَدْعَى فَلَا يَجِيبُ ، وَمَا ذَلِكَ مِنَ الدَّهْرِ بِعَجِيبٍ . وَذَكَرَ نَحْوَهُ فِي "التعريف" وَزَادَ عَلَيْهِ فَقَالَ : "وَكَانَ الْعَهْدُ بِهَذِهِ الْمَمْلَكَةِ لِرَجُلٍ وَاحِدٍ وَسُلْطَانَ فَرْدٍ مَطَاعٍ ، وَعَلَى هَذَا مَضَتْ الْأَيَّامُ إِلَى حِينِ وَفَاةِ أَبِي سَعِيدٍ ، فَصَاحَ فِي جَنَابَاتِهَا كُلِّ نَاعِقٍ وَقَطَعَ رِءَاءَهَا كُلَّ جَاذِبٍ ، وَتَفَرَّدَ كُلُّ مَتَغَلَّبٍ مِنْهَا بِجَانِبٍ ؛ فَهِيَ الْآنَ نَهْبِيٌّ بِأَيْدِيهِمْ .

فَأَمَّا عِرَاقُ الْعَرَبِ وَهُوَ بَغْدَادُ وَبِلَادُهَا وَمَا يَلِيهَا مِنْ دِيَارِ بَكْرٍ ، وَرَبِيعَةَ وَمُضَرَ ، فَبِيدُ الشَّيْخِ حَسَنِ الْكَبِيرِ ، وَهُوَ الْحَسَنُ بْنُ الْحُسَيْنِ بْنِ أَقْبَعَا مِنْ طَائِفَةِ التُّورَانِيِّينَ ، كَانَ جَدُّهُ نَوَكْرًا لهُوَلَاكُورِ بْنِ طُولِي بْنِ جَنْكِرْخَانَ ، وَالنَّوَكْرُ هُوَ الرَّفِيقُ .

وَأَمَّا بَقِيَّةُ دِيَارِ بَكْرٍ ، فَبِيدُ إِبْرَاهِيمَ شَاهِ بْنِ بَارَنْبَايَ بْنِ سُونَايَ .

وَأَمَّا مَمْلَكَةُ أَدْرَبِيجَانَ وَهِيَ قَطْبُ مَمْلَكَةِ إِيرَانَ ، وَمَقَرُّ كَرَسِيِّ مَمْلُوكِهَا مِنْ بَنِي جَنْكِرْخَانَ ؛ فَهِيَ الْآنَ بِيَدِ أَوْلَادِ جَوَابَانَ ، وَبِهَا الْقَانُ الْقَائِمُ بِهَا (سَلِيمَانَ شَاهٍ) . قَالَ : وَلَا أَعْرِفُ صَحَّةَ نَسْبِهِ وَلَا سِيَاقَتَهُ بِالْدَعْوَى .

وَأَمَّا خِرَاسَانَ ، فَبِيدُ الْقَانِ طَغَيْتَمَرِيَارٍ . وَهُوَ صَحِيحُ النِّسْبِ ، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَعْرِفْ أَسْمَ آبَائِهِ .

وَأَمَّا بِلَادُ الرُّومِ ، فَقَدْ أُضْيِفَتْ إِلَى إِيرَانَ مِنْهَا قِطْعَةٌ صَالِحَةٌ ، وَبِلَادُ نَازِحَةٍ ؛ ثُمَّ قَالَ : وَهِيَ الْآنَ بِيَدِ أَرْتَا ، وَقَدْ نَبِهَ عَلَيَّ ذَلِكَ لِيَعْرِفَ .

قُلْتُ : ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الْأَحْوَالُ عَنِ ذَلِكَ .

الجملة الثامنة

(في معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها فالمعتبر فيها معاملة ثلاث قواعد .

الأولى - (بغداد) . قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن ببغداد دينارين . أحدهما يسمى العوال ، عنه آتسا عشر درهما ، الدرهم بقيراط وحبتين . وذلك أن الدينار عشرون قيراطا ، كل قيراط ثلاث حبات ، كل حبة أربعة فلوس من الدرهم التقرة ، عن كل فليس فلسان أحران . والثاني الدينار المرسل ، عنه عشرة دراهم ، وبه أكثر مبيعاتهم ومعاملات تجّارهم . وقد اختلف أصحابنا الشافعية في رطل بغداد ، فذهب الرافعي إلى أنه مائة وثلاثون درهما وهو الموجود فيها الآن ، وعليه اقتصر في "مسالك الأبصار" . وذهب الشيخ محيي الدين النووي إلى أنه مائة وسبعة وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم ، والمن بها رطلان بالتوراني . ومكاييلها أكبرها الكُرُّ ، وهو ثلاثون كارة ، كل كارة قفيزان ، فيكون الكُرُّ [ستين] قفيزا ، والقفيز مكوكان كل مكوك خمس عشرا^(١) . وتختلف الكارة في الغلال ، فالقمح كارته مائتان وأربعون رطلا ، وكارة الأرز ثلثمائة رطل ، وكارة كل من الشعير والجمص والعدس والهرطمان مائة رطل ، وكارة الحبة السوداء ، وهي الشونيز مائة رطل .

الثانية - (توريز) قاعدة أذربيجان وسائر المملكة غير بغداد وخراسان . فمعاملاتها بدينار يسمى عندهم بالراج ، عنه ستة دراهم .

الثالثة - (نيسابور) قاعدة خراسان . فدينارها أربعة دراهم ، وفي بعضها الدينار الراج المقدم ذكره . قال في "مسالك الأبصار" : ولا يساع بتوريز وبلادها

(١) كذا في الأصل ، وقد تكلم على المكوك صاحب القاموس وصاحب اللسان بأوضح مما هنا .

في الغالب قُحِّ ولا شعير ونحوهما إلا بالميزان، وليس لهم إلا المنُّ، وهو بتوريزِ رطلان بالبغدادى، فتكون زنته مائتين وستين درهما، وبالسلطانية المنُّ ستمائة درهم .

وأما أسعارها فنقل في "مسالك الأبصار" عن يحيى بن الحكيم الطيارى في السعر ببغداد : أن كُرُّ القمح بتسعة وثلاثين دينارا ونصف دينار، والشعير بنجسة عشر دينارا، كلاهما من العوال . ثم قال : ولعل هذا هو السعر المتوسط، لا يكاد يميل فيه القانون عن معدله . وذكر أن الأسعار بتبريز والسلطانية إذا لم ينزل عليها السلطان، فأسعارها رَخِيَّة لا إلى غاية، وكل بلد نزل عليه السلطان غلت أسعاره، ولعل هذا قد تغير كل في زماننا كما تغير غيره من الأحوال .

الجملة التاسعة

(في ترتيب هذه المملكة على ما كانت عليه في زمن نبي هولاكو، آخر أيام
أبي سعيد : من الأمراء والوزراء وأرباب الوظائف)

أما الأمراء . فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنهم عندهم على أربع طبقات أعلاها النوين ، وهو أمير عشرة آلاف، ويعبر عنه بأمر تومان، إذ التومان عندهم عبارة عن عشرة آلاف ، ثم أمير ألف ، ثم أمير مائة ، ثم أمير عشرة . قال في "التعريف" : (وحكام دولة هذا السلطان أمراء الألوس ، وهم أربعة ، أكبرهم بكلارى بك : وهو أمير الأمراء ، كما كان قطلوشاه عند غازان ، وجوبان عند خدابندا ، ثم عند أبي سعيد). قال : وهؤلاء الأمراء الأربعة لا يُفصل جليل أمر إلا بهم ، فمن غاب منهم كتب في البرالغ : وهى المراسيم كما يكتب لو كان حاضرا، ونائبه يقوم عنه، وهم لا يُمضون أمرا إلا بالوزير، والوزير يمضى الأمور دونهم ويأمر توأبهم فتكتب أسماءهم، والوزير هو حقيقة السلطان، وهو المنفرد بالحديث في المال ،

والولاية، والعزل، حتى في جلائل الأمور كما كان بكلارى بك يتحدث في أمر
العسكر بمفرده. فأما الأشتراك في أمور الناس فبهم أجمعين، وليس للأمرء في غالب
ذلك من العلم إلا ما علم توأبهم .

قال في "مسالك الأبصار" نقلا عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى : وأمر
الجوش والعساكر إلى كبير أمرء الألوُس المسمى بكلارى بك، كما كان قطلوشاه مع
السلطانين محمود غازان وأخيه محمد خدابندا، وجوبان مع خدابندا، ثم بعده مع ولده
السلطان أبى سعيد بهادرخان، والشيخ حسن بن حسين بن أقبغا مع خانة السلطان
محمد بن طشتمر بن اشتمر بن غبرجى، وإليه يقطع أمر كل ذى سيف. قال : وأمر
متحصلات البلاد ودخلها ونخرجها إلى الوزير، وإليه يرجع أمر كل ذى قلم ومنصب
شرعى، وله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع، لا يساور السلطان
إلا فيما جَلَّ من المهمات وما قَلَّ من الأمور، وهو السلطان حقيقةً وصاحب البلاد
معنى، وإليه ترجع الأمور كلها، وإليه عقدها وحلها. أما السلاطين بها فلا آلتفات
لهم لأمر ولا نهى ولا نظر في متحصّل ولا دخل ولا خرج . قال : وعدة جيشهم
المنزلة في دواوينهم لا تبلغ عشرين تومانا. أما إذا أرادوا فإنهم يركبون بثلاثين تومانا
وما يزيد عليها، وعامة العسكر لا تزال أسماؤهم في دواوينهم على الأفراد، وكل طائفة
منهم عليهم في الديوان فارس معين، إذا رسم لهم بالركوب ركب العدة المطلوبة. قال :
وقد ذكر أنه كان في هذه المملكة عدّة ملوك كصاحب هراة، وحلول الجبل هم كالعبيد
لقانها الأكبر متقادون إليه وداخلون تحت طاعته .

وأما القضاة فعادة هذه المملكة أن يكون بها في صحبة السلطان قاضى قضاة الممالك،
وهو الذى يولى القضاة في جميع المملكة على تنأى أقطارها إلا العراق، فإن لبغداد
قاضى قضاة مستقل بها يولى فيها وفي بلادها من جميع عراق العرب .

وأما الكُتَّابُ وأصحاب الدِّواوين : من ديوان الإنشاء ودواوين الأموال ، فعلى
أتمّ نظام وأعدلِ قاعدة .

الجملة العاشرة

(فيما لأرباب المناصب والجُند من الرزق على السلطان)

قد نقل في "مسالك الأبصار" عن نظام الدين الطيارى : أن المقرّر للأمرء
في القديم من زمن هولاكو لكل نوين (أمير) تومانٌ : وهو عشرة آلاف دينار راجح ،
عنها ستون ألف درهم ، ثم تزايد الحال بهم حتى لا يقع النوين فيهم إلا بنجسين
ألف تومان^(١) ، وهي خمسمائة ألف دينار راجح ، عنها ثلاثة آلاف ألف درهم ، ومن
خمسین تومانا إلى أربعين تومانا . وكان قد استقر لجوبان ، وهو يومئذ بكلارى بك
ثم لمن بعده ثلثمائة تومان ، وهي ثلاثة آلاف ألف دينار راجح ، عنها ثمانية عشر
ألف ألف درهم مع ما يحصل لكل من أمرء الألويس الأربعة من الخدم الكثيرة
في البلاد جميعها عند تقريرات الضمان بها على صُمتانها . قال : وأما أمير ألف ومن
دونه ، فلا يتجاوز أحد منهم تقريره القديم في الديوان : وهو لأمير الألف ألف دينار
راجح ، عنها ستة آلاف درهم . وأما أمير المائة وأمير العشرة وكل واحد من العسكرية
إلى الجند فمائة دينار راجح ، عنها ستمائة درهم لاتفوت بينهم ، وإنما تبقى منزية أمير
المائة أو العشرة أنه يأخذ لنفسه شيئاً مما هو للعسكرية ، ولكل طائفة أرض لزولهم ،
توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو البلاد ، فيها منازلهم ، ولهم بها مندرع
لأقواتهم ، لكنهم لا يعيشون بالحرث والزرع .

وأما الخواتين فإنه يبلغ ما للخاتون الواحدة في السنة مائتي تومان ، وهو ألف ألف^(٢)

(١) لعل لفظ ألف من زيادة النسخ كما يستفاد من الفذلكة بعد فأمل .

(٢) كذا في الأصل ، ولعل الصواب ألفا ألف بالثنية ليستقيم الحساب .

دينار راجح، عنها اثنا عشر ألف ألف درهم، وما دون ذلك إلى عشرين تومانا، وهو مائتا ألف دينار، عنها ألف ألف ومائتا ألف درهم .

وأما الوزير فله مائة وخمسون تومانا، وهو ألف ألف وخمسمائة ألف دينار راجح، عنها تسعة آلاف ألف درهم، ولا يقنع بعشرة أضعاف هذا في تقادير البلاد .

وأما الخواجكية من أرباب الأقاليم، فمنهم من يبلغ في السنة ثلاثين تومانا، وهي ثلثمائة ألف دينار، عنها ألف ألف وثمانمائة ألف درهم . ثم قال : والذى للأمرء والعسكرية لا يكتب به مرسوم، لأن كل طائفة ورثت مالها من ذلك عن آباءها، وهم على الجهات التي قررها لهم هولا كولو لم تتغير بزيادة ولا نقص، إلا أكابر الأمرء الذين حصلت لهم الزيادات فإنه في ذلك الوقت كتب لهم بها بأمر القان أصدرها الوزراء عنه، ومن الخواتين من أخذ بماله أو ببعضه بلادا فهي له . قال : وفي هذه المملكة ما لا يحصى من الإدراجات والرسومات حتى إن بعض الرواتب يبلغ ألف دينار .

وأما الإدراجات من المبلغ أو القرى، فإنها تبقى لصاحبها كالمملك يتصرف فيه كيف شاء من بيع وهبية ووقف لمن أراد .

الجملة الحادية عشرة

(في ترتيب أمور السلطان بهذه المملكة على ما كان الأمر عليه)

حكى في "مسالك الأبصار" عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن أهل هذه المملكة من التتر كانوا قد داخلوا العجم وزوجوهم وتزوجوا منهم، وخلطوهم بالنفوس في الأمور، فتفخمت قواعدهم، وجرت على عوائد الخلفاء والملوك في غالب الأمور قوانينهم .

ثم للسلطان بهذه المملكة مَشْتَى وَمَصِيف :

فأما مَشْتَاه فبأوجان بظاهر تبريز، وهو مكان متسع ذو مَرُوج ومياه على ما تقدم ذكره، وبه قُصُوراً لكبار الأمراء والخواتين . أما عامة الأمراء والخواتين، فإنهم يتخذون زُرُوباً من القصب كالحظائر يترربون بها، وينصبون معها الخركاوات والخيام، فصير مدينة متسعة الجوانب، فسيحة الأرجاء، حتى إذا خرجوا لمصيفهم راحلين عنها، أحرقوا تلك الحظائر لكثرة ما يتولد فيما بقي منها من الأفاعى والحيات، ولا يباليون بما يُغرم عليها من كثير الأموال .

وأما مَصِيفُهُ فمَكَانٌ يعرف بقراباغ، ومعناه البستان الأسود، وفيه قُرَى ممتدة، وهو صحيح الهواء، طيب الماء، كثير المرعى . وإذا نزل به الأردوا، وهو وطاق السلطان وأخذت الأمراء والخواتين منازلهم، نُصِبَ هناك مساجدُ جامعة، وأسواق منوعة، يوجد بها من كل ما في أمهات المدن الكبار حتى يكون بها أسواق لا ينكر أحد على أحد، بل كل أحد وما آستحسن، إلا أن الأسعار تغلو حتى يصير الشيء بقيمة مثليه أو أكثر لكلفة الحمل ومشقة السفر . وذكر أنه كان من عادة سلطانهم أنه لا يعمل موكباً، ولا يجلس لخدمة ولا لقراءة قصص حكيمة وإبلاغ مظالم إليه، بل له من أبناء الأمراء خاصة له يقال لهم الإينافية، يكونون حوله لا يكاد منهم من يفارقه .

فأما الأمراء فإنهم يركبون في غالب الأيام على نحو عشرين غلوة سهم منها إلى باب الكرباس، وتتصب لهم هناك كراسى صندلية، يجلس كل أمير منهم على كرسى منها بحسب مراتبهم : الأعلى ثم الأدنى، ويدخل الوزير في بكرة كل يوم على القان، ويبقى الأمراء على باب الكرباس، فإذا أن يخرج لهم القان، وإما أن يأذن لهم في الدخول، أو لا هذا ولا هذا . فإذا حضر طعام القان بعث إلى كل أمير منهم شيئاً للأكل بمفرده يأكله هو ومن أنضم معه، فيأكلون ثم يتفرقون ويذهبون إلى حالهم، ومن تأخر منهم عن الحضور لم يطلب بحضور إلا أن تدعو الحاجة .

أما الظَّلَامَات فإن كانت متعلّقة بالعسكرية، فإلى أمير الألوس. وإن كانت متعلقة بالبلاد والأموال أو الرعايا، فإلى الوزير. بل أكثر الظَّلَامَات لا يفصلها إلا الوزير لملازمته باب القان، بخلاف أمير الألوس لقلبة ملازمته. ثم قال: وليس في هذه البلاد قاعدة محفوظة، بل كل من أنصوى إلى خاتون من الخواتين أو أمير من الأمراء أو كبير من الخواجكية، تام بأمره إما في قضاء حاجة يطلبها، أو إزالة ظُلّامة يشكوها، حتى إن من الخواتين والأمراء من يقتل ويوسّط بيده بغير أمر القان ولا أمير الألوس.

الجملة الثانية عشرة

(فيما يتعلق بترتيب ديوان الإنشاء بهذه المملكة)

أما البرالغ: وهي المراسيم، فالمتعلق بالأموال تسمى الطن طمغا ويكون صدورها عن رأي الوزير، وكذلك المتعلق بالبريد. والمتعلق بالعسكرية صادر عن أمير الألوس، وليس لأحد على الجميع خطُّ إلا الوزير، وإنما العادة أن يأمر الوزير بكتابة ما يرى، ثم تؤخذ خطوط المتحدثين فيما يكتب، ثم تحرر مسودة وتعرض على الوزير فيأمر بتبديضها، فإذا بيّضت كتب عليها اسم السلطان، ثم تحته اسم الأمراء الأربعة، ويخلى تحته مكان لخط الوزير، ثم يكمل البرلغ ويحتمه بالتاريخ شخص معدُّ لذلك غير من يكتب، ثم يكتب الوزير في المكان الخالي "فلان سوري" أي هذا كلام فلان يسمى نفسه.

ثم إن كان متعلقا بالمال أثبت بالديوان المتعلق به، وإلا فلا. وأما المتعلق بالعسكر، فنشأ الأمر فيه عن أمير الألوس يأمرهم على بقية الترتيب، ولا خطُّ لأمر الألوس بيده. وعادة أصحاب الدواوين عندهم كما هو بمصر والشام لا يعلم صاحب علامة حتى يرى خط نائبه عليه أولا ليَعلم أنه قد ثبت عنده.

قلت: وقد اختلفت الأحوال بعد ذلك وتغيرت عما كانت عليه في جُل الأمور.

المملكة الثانية

(مما بيد بني جنكرخان مملكة تُورَان)

قال في "المشترك": بضم المثناة من فوق وسكون الواو ثم راء مهملة وألف ونون . قال في "التعريف": وهى من نهر يُلخ إلى مطلع الشمس على سمت الوسط ، فما أخذ عنها جنوبا كان بلاد السُّند ثم الهند ، وما أخذ عنها شمالا كان بلاد الخفجاخ ، وهى طائفة القَبجاق ، وبلاد الصقلب ، والجهاركس ، والروس ، والمجار ، وما جاورهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال . قال : ويدخل فى تُورَان ممالك كثيرة ، وبلاد واسعة ، وأعمال شاسعة ، وأمم مختلفة لاتكاد تحصى ، تشمل على بلاد غَزَنَةَ ، والباميان ، والغور ، وما وراء النهر الذى هو نهر جِيحُونَ ، نحو بُخارا وسمرقند والصغد ومُجند وغير ذلك ، وبلاد تَرْكُستَان وأشروسنة وفَرَغانة ، وبلاد سَاعُونَ وأطَرار وصرىوم ، وبلاد الخِطَا نحو بشالق والمائق إلى قَراقُوم ، وهى قرية جنكرخان التى أخرجته ، وعيريسته التى أدرجته . إلى ما وراء ذلك من بلاد الصَّين وِصين الصَّين . ثم قال : وكل هذه ممالك جليله ، وأعمال حفيله . أما فى "المشترك" : فإنه قد جعل تُورَان أسما لمجموع ما وراء النهر من مملكة الهياطلة ، وهى جزء مما تقدم ذكره .

وقد قسم فى "التعريف" ^(١) : مملكة تُورَان إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأول - منها غزنة وبخارا وسمرقند وعامة ما وراء النهر وتُرْكُستَان .

قال فى "مسالك الأبصار" : وما بعده ومامعه . قال : وهى من أجل الممالك وأشهرها . ثم قال : وهى ممالك طائفة السَّمعه ، طائفة البُقعه ، أسرة ملوك ، وأفق علماء ، ودارة أكابر ، ومعقد ألوية وبنود ، ومجرى سوابق وجنود ؛ كانت

(١) عبارة "التعريف" ، وأما مملكة توران فهى منقسمة لثلاثة أقسام وبها سلطانان مسلمان و سلطان كافر . ثم تكلم على المكاتبه إلى الجميع .

بها سلطنة الخانية وآل سامان وبنى سُبُكْتِكِين والغورية؛ ومن أُنْفَقَهَا بَزَغَتْ شَمْسُ
 آل سَلْجُوق، وَاَمْتَدَّتْ فِي الْإِشْرَاقِ وَالشَّرْوقِ؛ وَغَيْرَ هَذِهِ الدُّوَلِ مِمَّا طَمَّ سَهْوَلٌ هَذِهِ
 الْمَمَالِكِ عَلَى قَرْبِهَا. كَانَتْ قَبْلَ آتِنَقَالِهَا إِلَى الْإِسْلَامِ، فِي مَلُوكِ التَّرْكِ لَا تَرَامِي وَلَا
 تَرَامِ، وَلَا يَشِقُّ لَهَا سَهَامٌ؛ حَتَّى [إِذَا] خِيَمَ بِهَا الْإِسْلَامُ وَحَازَ مَلِكُهَا هَذِهِ الْأُمَّةَ، بَرَقَتْ
 بِالنَّيْمَانِ أَسْرَتُهَا، وَتَطَرَّتْ بِالْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ قَرَاهَا؛ ثُمَّ بَنِيَتْ بِهَا الْمَدَارِسُ وَالْحَوَاتِقُ
 وَالرُّبُطُ وَالزَّوَايَا، وَأَجْرِيَتْ الْأَوْقَافُ عَلَيْهَا، وَكَثُرَ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَهْلِهَا، وَسَارَتْ لَهَا
 التَّصَانِيفُ الْمَشْهُورَةُ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالْأَصُولِ وَالْخِلَافِ، وَكَانَ فِيهِمُ الرُّؤَسَاءُ
 وَالْأَعْلَامُ، وَالْكَبْرَاءُ أَهْلُ الْبَحْثِ وَالنَّظَرِ. ثُمَّ قَالَ: وَهِيَ فِي أَوَاسِطِ الْمَعْمُورِ وَأَوْسَعِ
 الْأَرْضِ إِذَا قِيلَ إِنَّهَا أَخْضَبَ بِلَادَ اللَّهِ تَعَالَى وَأَكْثَرَهَا مَاءً وَمَرَعَى، لَمْ يَغْيِرِ الْقَائِلُ
 الْحَقُّ فِي أَوْصَافِهَا؛ ذَاتَ الْأَنْهَارِ السَّارِحَةِ، وَالْمَرْوَجِ الْمَتَدَّةِ؛ كَأَنَّمَا نَشَرْتَ الْحُلَّ عَلَى
 آفَاقِهَا، وَثَرَتْ الْحُلَى عَلَى حَصْبَائِهَا.

وَيَرْجَعُ الْمَقْصُودُ مِنْهَا إِلَى سَبْعِ جَمَلٍ.

الجملة الأولى

(في ذكر حدودها، وطولها وعرضها، وموقعها من الأقاليم السبعة)

أَمَّا حُدُودُهَا وَطُولُهَا وَعَرْضُهَا، فَقَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ": وَهِيَ وَاقِعَةٌ بِشَرْقِ
 مَحِيضِ آخِذَةٌ إِلَى الْجَنُوبِ؛ يَحُدُّهَا السَّنْدُ مِنْ جَنُوبِهَا، وَالصِّينُ مِنْ شَرْقِهَا، وَخَوَارَزْمُ
 وَإِيرَانُ مِنْ جَنُوبِهَا، وَطُولُهَا مِنْ مَاءِ السَّنْدِ إِلَى مَاءِ أَيْلَا الْمَسْمُومِ قَرَاخُوجَا، وَهِيَ
 تَلِي بِرِ الْخَطَا، وَعَرْضُهَا مِنْ وَبَجٍّ وَهُوَ مَنبِعُ نَهْرِ جَيْحُونَ إِلَى حُدُودِ كُرَّكَانَجِ قَاعِدَةٌ
 خَوَارَزْمُ؛ وَحُدُّهَا مِنَ الْجَنُوبِ جِبَالُ الْبَتِّ وَمَاءُ السَّنْدِ الْفَاصِلُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّنْدِ؛
 وَمِنَ الشَّرْقِ أَوَائِلُ بِلَادِ الْخَطَا؛ وَمِنَ الشَّمَالِ مَرَاغِي بَارَانَ وَكَنْدُ وَبَعْضُ خِرَاسَانَ

إلى بحيرة خوارزم، ومن الغرب بعض نراسان إلى خوارزم إلى مجرى النهر أخذنا على الختل . ثم حكى عن نظام الدين بن الحكيم الطياري أن بلاد هذه المملكة متصلة بخراسان متداخلة بعضها ببعض، لا يفصل بينهما بحر ولا نهر ولا جبل ولا مفازة، بل بينها وبين نراسان أنهار جاررية ومزارع متصلة .

الجملة الثانية

(فما يدخل في هذه المملكة من الأقاليم العرفية، وهي سبعة أقاليم)

الإقليم الأول منها

(ما وراء النهر)

قال في "تقويم البلدان" : والذي ظهر لنا في تحديد ما وراء النهر أنه يحيط به من جهة الغرب حدود خوارزم، ومن الجنوب نهر جيحون من لدن بدخشان إلى أن يتصل بحدود خوارزم، فإن جيحون في الجملة يجرى من الشرق إلى الغرب، وإن كان يعرض فيه عطفات تجرى جنوبا مرة وشمالا أخرى . ثم قال : أما حدوده من الشرق والشمال فلم تتضح لي . قال صاحب "كتاب أشكال الأرض" : وما وراء النهر من أخصب الأقاليم منزلة، وأزهرها وأكثرها خيرا، وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير، وأستجابة لمن دعاهم، مع قلة غائلة، وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدة شوكة ومنعة وبأس ونجدة وعدة وعدة، وآلة وكراع وبسالة وعلم وصلاح، وليس من إقليم إلا ويحفظ أهله مرارا قبل أن يقحط ما وراء النهر مرة واحدة، ثم إن أحسوا يبرد أو يجراد أو بآفة تأتي على زروعهم وغلاتهم، ففي فضل ما يسلم في عروض بلادهم ما يقوم بأودهم حتى يستغنوا به عن شيء ينقل إليهم من غير بلدهم . قال : وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن

(١) لعله مصحف عن "أصبوا" .

أَوْ قَرَىٰ أَوْ مَرَايَ لِسَوَائِهِمْ؛ وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ لَا بَدَّ لِلنَّاسِ مِنْهُ إِلَّا وَعِنْدَهُمْ مِنْهُ مَا يَقِيمُ
 أَوْدَهُمْ وَيَفْضُلُ عَنْهُمْ لغيرِهِمْ؛ وَمِيَاهُهُمْ أَعَذِبَ الْمِيَاهِ وَأَبْرَدَهَا وَأَخْفَهَا، وَقَدْ عَمَّتْ
 جِبَالُهَا وَضَوَائِحُهَا وَمُدْنُهَا إِلَى التَّمَكَّنِ مِنْ الْحَدِّ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِهَا، وَالتَّلَوُّجِ مِنْ جَمِيعِ
 نَوَاحِيهَا؛ وَالغَالِبُ عَلَى أَهْلِ الْمَالِ وَالثَّرْوَةِ بِهَا صَرْفَ الْمَالِ فِي عَمَلِ الْمَدَارِسِ وَبِنَاءِ
 الرُّبُطِ وَعِمَارَةِ الطَّرِيقِ، وَالْأَوْقَافِ عَلَى سُبُلِ الْجِهَادِ وَوَجْهِ الْخَيْرِ، وَعَقْدِ الْقَنَاطِرِ،
 إِلَّا الْقَلِيلَ مِنْ ذَوِي الْبَطَالَةِ .

وَفِيهَا مِنَ الدَّوَابِّ الْحَيْلُ وَالْبِغَالُ وَالْحَمِيرُ وَالْإِبِلُ الْبُخْتُ وَالْبَقَرُ، وَالغَنَمُ أَكْثَرُهَا
 فَإِنَّهَا كَمَا يُقَالُ أَعْوَزَهَا لِلزَّرَائِبِ، وَفِيهَا مِنَ الْمَبَاحِ مَا فِيهِ كِفَايَتُهُمْ، وَلَهُمْ مِنْ تَنَاجِ الْغَنَمِ
 الْكَثِيرِ وَالسَّائِمَةِ الْمَفْرُطَةِ . وَذَكَرَ أَنَّهُ يَوْجَدُ عِنْدَ أَحَادِ الْعَامَةِ مِنْ عَشْرِينَ دَابَّةً إِلَى
 نَحْسِينَ دَابَّةً لَا كُفَّةَ عَلَيْهِ فِي أَقْتِنَائِهَا لِكثَرَةِ الْمَاءِ وَالْمَرْعَى .

وَفِيهَا مِنَ الْحَبُوبِ الْقَمْحُ وَالشَّعِيرُ وَالْحَمَّصُ وَالْأَرْزُ وَالذُّخْنُ وَسَائِرُ الْحَبُوبِ خِلا
 الْبَاقِلَاتِ؛ وَبِهَا مِنَ الْفَوَاكِهِ الْمَتَوَعَّةِ الْأَجْنَاسِ الْعِنَبُ، وَالتَّيْنُ، وَالرَّمَانُ، وَالتَّفَّاحُ،
 وَالْكُمَّثِيُّ، وَالسَّفْرَجَلُ، وَالخَوْخُ، وَالْمِشْمِشُ، وَالتُّوتُ، وَالْبِطِّيخُ الْأَصْفَرُ، وَالْبِطِّيخُ
 الْأَخْضَرُ، وَالْحِيَارُ، وَالْقِنَاءُ .

وَفِيهَا مِنَ الْبَقُولِ اللَّفْتُ وَالْحَزْرُ وَالْكُرْبُ وَالْبَازِنْجَانُ وَالْقَرَعُ وَسَائِرُ أَنْوَاعِ الْبَقُولِ .
 وَفِيهَا مِنَ الرِّيَاحِينِ الْوَرْدُ وَالْبَنْفَسِجُ وَالْأَسُّ وَاللَّيْنُوفُ وَالْحَبُّقُ؛ وَلَا يَوْجَدُ بِهَا الْإِتْرَجُ
 وَالنَّارَنْجُ وَاللَّيْمُونُ وَاللِّيمُ، وَلَا الْمَوْزُ وَلَا قَصَبُ السُّكَّرِ، وَلَا الْقَلْقَاسُ، وَلَا الْمَلُوخِيَا،
 فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ عَارِيَةٌ الْحَدَائِقِ، خَالِيَةٌ الْمَرْوَجِ؛ إِلَّا مَا أَتَى بِهِ إِلَيْهَا مِنَ الْمَحْمُضَاتِ مَجْلُوبَا .
 وَفِيهَا أَصْنَافُ الْمَلْبُوسِ : مِنَ التَّقَزِّ، وَالصُّوفِ، وَطَرَائِفِ الْبَرِّ .

وَفِيهَا مِنَ الْمَعَادِنِ مَعْدَنُ زَنْبِقٍ لَا يِعَادِلُهُ مَعْدَنٌ فِي الْغَزَارَةِ .

(١) لَعَلَّهُ فَكَانَ ذَلِكَ دَاعِيَةً إِلَى التَّمَكَّنِ مِنْهَا .

وقد أشتمل ما وراء النهر على عدة كور .

(منها) السُّغْد . قال في "اللباب" : بضم السين المهملة وسكون الغين المعجمة ودال مهملة في الآخر، ويقال الصُّغْدُ بالصاد بدل السين، ويضاف إلى سَمَرْقَنْدَ، فيقال سُغْدُ سَمَرْقَنْدَ، وهو أحد منتهات الدنيا الأربعة التي هي غوطة دِمَشقَ ، ونهر الأَبْلَةِ، وشعب بَوَّانَ، وسُغْدُ سَمَرْقَنْدَ . قال ابن حوقل : وهو أنزه الأربعة لأنه ممتد نحو ثمانية أيام، مشتبك الخُضرة والبساتين، لا ينقطع ذلك في موضع منه، وقد حُفَّت تلك البساتين بالأنهار الدائم جَرِيهَاً، ومن وراء الخُضرة من الجانبين مزارعُ، ومن وراء المزارع مَرَّاعَى السوائم . ثم قال : وهي أزرى بلاد الله وأحسنها أشجارا .

ومنها أُسْرُوشَنَةُ . قال في "اللباب" : بضم الألف وسكون السين وضم الراء المهملتين وسكون الواو وفتح الشين المعجمة ثم نون . قال ابن حوقل : والغالب عليها الجبال ، ويحيط بها من الشرق بعض فَرَّغَانَةَ ، ومن الغرب حدود سَمَرْقَنْدَ ، ومن الشمال بعض فَرَّغَانَةَ أيضا، ومن الجنوب بعض حدود كَشَّ والصَّغَايَانَ . قال أحمد الكاتب : ولها عدة مُدُنْ، ويقال إن بها أربعائة حصن .

(ومنها) فَرَّغَانَةَ . قال في "المشترك" : بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ونون . قال ابن حوقل : وفيها مُدُنْ وكُورَ، وإليها ينسب جماعة من العلماء ، منهم أبو سعيد الفَرَّغَانِيُّ شارح "تائية ابن الفارض" قال ابن حوقل : وبجبال فَرَّغَانَةَ معادنُ الذهب والفضة والفيروزج والحديد .

وقاعدتها بُجَّارًا . قال في "اللباب" : بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة ثم ألف وراء مهملة مفتوحة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول سبع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض

تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة خارجها نزه كثير البساتين . قال : وليس بتلك البلدان بلد أهلها أحسن قياما على عمارة قراهم منهم ، ويحيط بها وبقرائها ومزارعها سور واحد اثنا عشر فرسخا ، ولها كورة عظيمة تصاقب جيحون على معبر خراسان ، وبها يتصل سعد سمرقند . قال في "مسالك الأبصار" : وهي أم الأقاليم ويم التقاسيم ، وقد كانت [مستقرا] للدولة السامانية ومركز أفلاكهم الدائرة ، وكانت تلك الممالك كلها تبعا لها . قال صاحب "أشكال الأرض" : ثم لم أر ولم أسمع بظاهر بلد أحسن من بخارا ، لأنك إذا علوت لم يقع نظرك من جميع النواحي إلا على خضرة تتصل خضرتها بلون السماء ، مكبة زرقاء على بساط أخضر ، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتراس التبنية ، أو الحنف اللطية ، أو الكواكب العلوية ، بين أراض وضياع مقسومة بالاستواء ، ممهدة كوجه المرءاة في غاية الهندسة ، ولها سبعة أبواب حديد : وهي باب المدينة ، وباب يون ، وباب خضرة ، وباب الحديد ، وباب قهندر ، وباب بنى أسد ، وباب بنى سعد . وليس فيها ماء جار لارتفاعها ، ومياههم من النهر الأعظم الجارى من سمرقند ، وإليها ينسب الإمام الحافظ (أبو عبد الله البخارى) صاحب الجامع الصحيح في الحديث .

ولها عدة مدن :

(منها) الطواويس . قال في "اللباب" : بفتح الطاء المهملة والواو وبعد الألف واو ثانية مكسورة ومثناة تحت ساكنة وسين مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي مدينة من مضافات بخارا داخل الحائط الدائر على أعمال بخارا ، كثيرة البساتين والماء الجارى . قال : وقد تحرت الآن . وقال في "اللباب" :

هى قرية من قرى بخارا نخرج منها جماعة من العلماء، وبينها وبين بخارا سبعة فراسخ، وإليها ينسب الطاووسى صاحب "المصباح على الحاوى الصغير" فى فقه الشافعية، ردّا لها فى النسب إلى المفرد وهو الطاوس .

(ومنها) نَحْشَبُ . قال فى "اللباب" : بفتح النون وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين ثم باء موحدة . قال فى "تقويم البلدان" : فلما عربت قيل نَسَفَ - يعنى بفتح النون والسين المهملة وفاء فى الآخر . قال ابن حوقل : وهى فى مستو من الأرض، والجبال منها على نحو مرحلتين مما يلي كَشَّ ، وبينها وبين جِيحُونَ مفازة، ولها نهر يجرى فى المدينة ويتقطع فى بعض السنة، والغالب عليها الخِصْبُ . قال المهلبى : وهى وَيْيَّة .

(ومنها) كَشَّ . قال فى "المشترك" : بفتح الكاف ثم شين معجمة مشددة - وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة قدرها ثلث فرسخ فى مثله ، وهى خِصْبَةٌ وفوا كهها تُدْرِكُ قبل فوا كه غيرها من بلاد ما وراء النهر؛ وطول عملها أربعة أيام فى نحوها . قال المهلبى : ولها رستاق جليل، ولها نهران، وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(ومنها) سَمْرَقَنْدُ . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح السين المهملة والميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وسكون النون ثم دال مهملة - وموقعها فى الإقليم الخامس . قال فى "القانون" حيث الطول ثمان وثمانون درجة وعشرون دقيقة، والعرض أربعون درجة . قال ابن حوقل : وهى قَصَبَةُ السُّغْدِ، وهى مبنية على صَفَّةِ واديه، وهى مرتفعة عن الوادى؛ وحول سُورِهَا رَسْمٌ خندق عظيم، ولها نهر يدخل إليها على حمالات فى الخندق معمول بالِرِّصَاصِ، وهو نهر جاهلى يُسْقَى السوق

بموضع يعرف برأس الطاق . قال ابن حوقل : ورأيت على باب من أبوابها يسمى باب كَشَّ صفحَةً من حديد وعليها كُتِبَتْ يزعم أهلها أنها بالحِمِيرِيَّة ، وأن الباب من بناء تُبَعِّع ملك اليمن ، وأن من صَنَعَاء إلى سَمَرْقَنْد ألف فرسخ ، وأن ذلك مكتوب من أيام تُبَعِّع . قال : ثم وقعت فتنة بها في أيام مُقَامِي بها وأُحرق البابُ وذهبت الكتابة ، ثم أعاد عمارة الباب محمد بن لُقْمَان بن نصر الساماني ولم يُعد الكتابة . قلت : والمراد تبع المسمى بأَسْعَد أبا كَرِيب ، وقد أشرت إلى قضية تُبَعِّع في بناء سَمَرْقَنْد في الكتاب الذي أنشأته لأن يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى تمرلنك عند إرساله بالمفاوضة في الصلح بعد واقعة دِمَشْق والقبيص على ابن عثمان صاحب برسا من بلاد الروم بقولي بعد الدعاء : ” ولا زال بالنصر تَقْضِي قواضيه ، وبالظفر وحسن الأثر تَمْضِي مَقَانِيهِ وتَشَاع مناقبه ، وبلسان دولته القاهرة يُصَاح بِتُبَعِّع سَمَرْقَنْد لن تبلغ هذه الرتبة حتى نَظَّمَ الحِزْرَع نَاقِبُهُ ” . على ما سيأتي ذكره في الكلام على مكاتبة القان صاحب ما وراء النهر، في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

قال في ” مسالك الأبصار ” : وسَمَرْقَنْدُ مدينة مرتفعة يُسْرِفُ الناظر بها على شجر أخضر، وقُصُور تَزْهَرُ، وأنهار تَطْرُدُ، وعمارة نَتَقْدُ، لا يقع الطَّرْفُ بها على مكان إلا ملأه، ولا بستان إلا أستحسنه . قال صاحب ” أشكال الأرض ” : وقد نصبت أسفار السير، وتشبهت بطوائف الحيوان : من الفَيْلَةِ والإبل والبقر والوحوش المقبل بعضها على بعض . قال : وبها حصن ولها أربعة أبواب : باب مما يلي المَشْرِيق يعرف بباب الصَّين، مرتفع عن وجه الأرض يتزل إليه (٩) بدرج كثيرة، مطل على وادي السُّغْد ، وباب مما يلي المغرب يعرف بباب التُّوْهَار على نَشْرَمَن

(١) كذا في الأصل والمراد وصف المدينة بالتقدم والارتقاء .

الأرض؛ وباب مما يلي الشمال يعرف بباب بُحَّاراً؛ وباب مما يلي الجنوب يعرف بباب كَشَّ . قال: وفيها مافي المدن العِظَام من الأسواق الحسان والحمامات والحنانات والمساكن؛ وبنائها من طين وخشب؛ والبلد كله: طُرُقُهُ وَسِكَكُهُ وَأَسْوَاقُهُ وَأَرْزَقُهُ مفروشة بالحجارة .

(ومنها) بِنَكْتُ . قال في "اللباب" : بكسر الباء الموحدة وسكون النون وفتح الكاف وفي آخرها ثاء مثلثة - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون دقيقة . ولها سُورٌ وَرَبِضٌ وبساتين كثيرة .

(ومنها) نوبكت - بنون وواو وباء موحدة ثم كاف ومثناة من فوق . قال ابن حوقل : وهي قصبة ناحية إيلاق، وعليها سُورٌ ولها عدَّة أبواب، وفيها مياه وبساتين كثيرة .

(ومنها) مُجَنَّدَةٌ . قال في "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح الجيم وسكون النون ثم دال مهملة - وهي مدينة على طرف سِيحُون مضمومة إلى فَرَّغَانَةَ، واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول تسعون درجة، والعرض أربعون درجة ونخسون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي مدينة كبيرة، وهي في مستوي من الأرض، ولها بساتين كثيرة . قال أحمد الكاتب : ومنها إلى سَمَرْقَنْدَ سبع مراحل، ومنها إلى الشاش كذلك .

(ومنها) تُتَكْتُ . قال في "اللباب" : بضم المثناة من فوق وسكون النون وفتح الكاف وفي آخرها ثاء ثانية - وهي مدينة من مدن الساحل، وقيل هي قصبة إيلاق؛

(١) الذي في "تقويم البلدان" عن ابن حوقل أن عاصمة إيلاق تسمى توتكت، وكذا في "معجم البلدان" لياقوت، إلا أنه نص على أن آخرها ثاء مثلثة، وهي تكت الآتية بعد فليتنبه .

وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وتسعون درجة، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال في "اللباب" : ولها نهر ودار إمارة، وخرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) أَحْسِيَكْتُ . قال في "اللباب" : بفتح الألف وسكون الخاء المعجمة وكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الكاف وفي آخرها ثاء مثلثة . وهي مدينة من بلاد فَرَّغَانَةَ ، واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهي على شَطِّ نهر الشاش في أرض مستوية بينها وبين الجبال نحو فرسخ .

(ومنها) تَرِمِذ . قال في "اللباب" : قيل بفتح التاء ثالثة الحروف وقيل بضمها وقيل بكسرها . قال : والمتداول على لسان أهلها فتح التاء وكسر الميم ، والمشهور في القديم كسر التاء والميم جميعاً ؛ وقيل بضم التاء والميم وبينهما راء ساكنة وفي آخرها ذال معجمة - وهي مدينة على شَطِّ جَيْحُونَ ، واقعة في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول إحدى وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : ومعظم مساكنها وأسواقها مفروشة بالآجر ، وهي قَصَبَة تلك النواحي ، وأقرب الجبال إليها على مرحلة ، وليس لُقْرَاهَا شُرْبٌ من جَيْحُونَ بل من نهر الصَّغَانِيَانِ . قال : ولها مُدُنٌ كثيرة وكُوَرٌ مضافة إليها . قال في "اللباب" : وهي مدينة قديمة .

(ومنها) الصَّغَانِيَانِ . قال في "اللباب" : بفتح الصاد المهملة والغين المعجمة وألف ونون ومثناة تحتية ونون في الآخر، جميع ذلك بالتخفيف . قال : ويقال لها بالعجمية جَغَانِيَانِ - وهي مدينة موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة .

قال في "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة . قال ابن حوقل : وهي أكبر من ترمذ إلا أن ترمذ أكثر أهلا . ثم قال : وهي كورة كبيرة كثيرة الماء والشجر، والنسبة إليها صغاني وصاغاني .

الإقليم الثاني (تُرْكُستَانُ)

بضم التاء المثناة من فوق وسكون الراء المهملة وضم الكاف وسكون السين المهملة وألف بعدها نون، ومعناه ناحية الترك . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مملكة لو انفردت لكانت ملكا كبيرا وسلطنة جليلة (زهرة الدنيا، وطراز الأرض بلاد الترك) وحقيقةً من كَنَسَها رعت غزلائها، ومن غابها أَصْحَرَتْ ليوثهم . وهي إقليم فسيح المدى، قديم الذكر، منشأ حماه، ومنسب كجاءه . قال : وهو المراد بقولهم بلاد الأتراك؛ ولم تزل الملوك تلحظها لانتقاء بوادرها، والانتقاء ذواخرها؛ فأشد ما نكرت الأيام معالمها، وغيرت الغير أحوالها . قال : ولقد صادفت حدة التتار، في أوّل التتار، بجاعت قدامهم في سورة غضبهم ، ونفحة نارهم؛ فأملت السيوف حصاداً أحبّ لهم ، ولم يبق إلا من قلّ عديده . ثم قال : حكى لي من جال في رساتيقها ، وجاز في قراها، أنه لم يبق من معالمها إلا رسوم دائرة، وأطلال ناتئة، يرى على البعد القرية مشيدة البناء، مُحَضَّرَة الأكاف، فيأنس لعله يجد بها أنيسا ساكنا، فإذا جاءها وجدها عالية البنيان، خالية من الأهل والسكان؛ إلا أهل العمل وأصحاب السائمة . ليست بذات حرت ولا زرع، وإنما خضرتها مُرُوج أطلعها باريتها بها من النباتات البرية، لا بذرها بأذر، ولا زرعها زارع. ويوجد بها خلف من بقايا العلماء، ويجزى التميم فيها بالتراب بعد الماء .

ومن نواحيها (فَارَابُ) . قال في "المشترك" : بفتح الفاء والراء المهملة بين ألفين وفي آخرها باء موحدة . وقال في "مسالك الأبصار" : الصواب إبدال الفاء بباء موحدة لأنه ليس في اللغة التركية فاء . قال ابن حوقل : وهي ناحية لها غياض ، ولهم مزارع ، ومقدارها في الطول والعرض أقل من يوم . قال في "تقويم البلدان" : وتسمى أطرار .

وقاعدتها (قَاشَغَرُ) . قال في "اللباب" : بفتح القاف وسكون الألف ثم سكون الشين المعجمة أيضاً وفتح العين المعجمة وفي آخرها راء مهملة . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها كَاشَغَرُ بإبدال القاف كافا - وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ست وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وأربعون درجة . قال المهلبى : وهي مدينة عظيمة أهلة عليها سُورٌ وأهلها مسلمون . قال في "القانون" : وتسمى أزدوكند .

قال في "مسالك الأبصار" : أما الآن فقاعدتها (قرشى) بقاف وراء مهملة وشين معجمة ثم ياء مثناة من تحت في الآخر . قال في "مسالك الأبصار" : وهي على نهر قراخوجا في نهاية الحد . قال : وهي وإن لم تكن شيئا مذكورا ، ولا لها على اختلاف حالات الزمان شهرة تُذَكَّرُ ، لكن قد شملها في دولة ملوكها الآن من نظر السعادة لنسبتها إلى أنها سكن لهم ، وإن كانوا ليسوا بسكَّانِ جِدَارٍ ، ولا متديرين في ديار ، ولكن لآسم وُسِّمَتْ به . وبها عدّة مدن أيضا :

(منها) كدر . قال في "الأطوال" : وهي قَصَبَةُ فَارَابَ . قال في "مسالك الأبصار" : وإليها ينسب فيلسوف الإسلام أبو نصر الفارابي .

(ومنها) حُتَن . قال في "اللباب" : يضم الخاء المعجمة وفتح المشناة من فوق ونون في الآخر - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وثمانون درجة ، والعرض ثمان وأربعون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي أقصى تُرْكِسْتَانَ . قال في "العزيزي" : وهي مدينة خِصْبَةُ أهلة عامرة ، بها أنهار كثيرة .

(ومنها) جَنْدُ . قال في "اللباب" : بفتح الجيم وسكون النون وفي آخرها دال مهملة - وهي بلدة واقعة في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول سبع وثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وأربعون درجة . قال في "اللباب" : وهي في حدود التُّرْكِ على طَرْفِ سَيْحُونٍ ، خرج منها جماعة من الفضلاء .

(ومنها) إِسْفِيْجَابُ . قال في "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وكسر الفاء وسكون المشناة من تحت وفتح الجيم وفي آخرها باء موحدة بعد الألف - ووقع في "مسالك الأبصار" إبدال الفاء باءً موحدة - وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال في "اللباب" : وهي بلدة كبيرة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من تغور الترك .

(ومنها) طَرَازُ . قال في "اللباب" : بفتح الطاء والراء المهملتين وألف وزاي معجمة - وهي مدينة على حد بلاد التُّرْكِ واقعة في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وحولها حصون منسوبة إليها .

(ومنها) نيلي . قال في "مسالك الأبصار" : وهي أربعة مُدُن بين كل مدينة والأخرى فرسخ واحد ، ولكل واحدة منها اسم يخصها : فالأولى نيلي ، والثانية نيلي مالتق ، والثالثة بكك ، والرابعة تلان . قال : وبينها وبين سمرقند عشرون يوما .

(ومنها) أَلْمَاتِي - بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الميم وألف بعدها ثم لام مكسورة وقاف في الآخر . قال في "مسالك الأبصار" : وبينها وبين نيلي عشرون يوما . ونقل عن الشيخ محمد المُجَنِّدِي الصوفي وغيره أن بها من الخيل والأغنام مالولاً موتانٌ يقع فيها في بعض السنوات ، لما يبعث ولا وجد من يشتريها لكثرتها وبركات نتاجها .

الإقليم الثالث

(طَخَارِسْتَانُ)

قال في "اللباب" : بضم الطاء المهملة وفتح الحاء المعجمة وألف وضم الراء وسكون السين المهملتين وفتح المثناة من فوق وألف ونون . قال : وهي ناحية مشتملة على بلدان في أعلى نهر جِيحُون . وقال ابن حوقل : هو إقليم له مُدُن كثيرة من مضافات بلخ . وقاعدتها فيما ذكره في "القانون" - ولؤلؤ . قال في "تقويم البلدان" : بواوين بينهما لام ساكنة ثم ألف ولام وجيم - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "القانون" : وهي مقرُّ مملكة الهَيَاظِلَّة في القديم . قال المهلبِي : وهي في مستوٍ من الأرض .

ولها مُدُن .

(منها) إِسْكَكَنْدُ . قال في "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وفتح الكافين ، بينهما لام ساكنة ثم نون كذلك ودال مهملة في الآخر . قال : وقد تحذف الألف من أولها . وهي مدينة صغيرة موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي مدينة صغيرة كثيرة الخير .

(ومنها) رَاوُنُ . قال في "اللباب" : بفتح الراء المهملة والواو ونون في الآخر - وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "اللباب" : وهي مدينة من طُخَارِسْتَانَ ولم يزد .

الإقليم الرابع (بَدَخْشَانُ)

قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة والذال وسكون الخاء وفتح الشين المعجمات ونون في الآخر . قال ابن حوقل : وهو أسم للمدينة والإقليم معاً . قال في "اللباب" : وهي في أعلى طُخَارِسْتَانَ متاخمةً لبلاد التُّرْك . وقال في "مسالك الأبصار" : هي مع مملكة ما وراء النهر وليست حقيقة منها ولا من تُرْكِسْتَانَ ، بل هو إقليم قائم بذاته ، معدود المجاورة مع أخواته ، قد حوى كل بديع من حيوانه ومعده ونباته .

ثم حكى عن محمد المُجَنْدِيُّ الصوفي وغيره أن بها معدنَ البَلَّخَشِ ، ومعدن الأَلَزَّوَرْدِ ، وهما في جبل بها ، يُحْفَرُ عليهما في معادنهما ، فيوجد الأَلَزَّوَرْدُ بسهولة ، ولا يوجد البَلَّخَشُ إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد لا يوجد بعد التعب الشديد

والإنفاق الكثير . ولذلك عَزَّ وجوده، وعلت قيمته، وكثر طلبه، وألقت الأعتاق إلى التحلِّي به . وقد تقدّم ذكره في المقالة الأولى في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته ليصفه عند ذكر الأحجار النفيسة . وقد تقدّم هناك أن أنفس قطعة وصلت إلى بلاد الشام منه قطعة زنتها خمسون درهما . وقد ذكر في "اللباب" أن بها معدن البُلُور أيضا، وقد تقدّم ذكره هناك في الكلام على الأحجار النفيسة .

الجملة الثالثة

(في الطرق الموصلة إليها، وبعض المسافات الواقعة بين بلادها)

قد تقدّم في الكلام على مملكة إيران الطريق إلى أَمَل الشطّ بشطّ جِيحُونَ . قال ابن خردادبه: ومن أَمَل إلى بُخَّارَا تسعة عشر فرسخا، ومن بُخَّارَا إلى سَمَرَقَنْدَ سبعة وثلاثون فرسخا، ومن سَمَرَقَنْدَ إلى الشَّاشِ اثْنان وأربعون فرسخا، ثم إلى باب الحديد مِيْلَان، ثم إلى كَار فرسخان، ثم إلى إِسْفِيْجَاب عشرة فراسخ، ومن إِسْفِيْجَاب إلى أَطْرَار وهي فَارَابُ ستة وعشرون فرسخا. قال في "تقويم البلدان": ومن سَمَرَقَنْدَ إلى مُجَنْدَةَ سبع مراحل، ومن مُجَنْدَةَ إلى الشَّاشِ أربع مراحل .

الجملة الرابعة

(في عِظَامِ الأَنْهَارِ الواقعة في هذا القسم من مملكة تُورَانَ، وهي نهران)

الأوّل - نهر جِيحُونَ - بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وضم الحاء المهملة وسكون الواو ثم نون؛ ويسمى نهر بَلْخِ أيضا، إضافة إلى مدينة بَلْخِ من بلاد فَارِسِ المقدم ذكرها . قال في "تقويم البلدان": وقد اختلف النقل فيه، وأقربُه ما نقله ابن حَوْقَلٍ أن عمود نهر جِيحُونَ يخرج من حدود بَدَخْشَانَ، ثم تجتمع إليه أنهار

كثيرة، ويسير غربا وشمالا حتى يصل إلى حدود بلخ، ثم يسير إلى ترمذ، ثم غربا وجنوبا إلى زم وأسمها أمويه، ويمجرى كذلك غربا وشمالا إلى خوارزم. قال في "رسم المعمور": ويخرج جنوبا ويمرّ قرب مُجَنَّدَة ويتجاوزها ويصب في البحر الأخضر. الثاني - نهر سِيحُون. قال في "تقويم البلدان": وقد اختلف النقل فيه أيضا. قال: والمختار ما ذكره ابن حوقل، لأنه يحكي ذلك عن مشاهدة. فقال: إن نهر الشاش بقدر الثلثين من نهر جِيحُون، وهو يجري من حدود بلاد التُّرك ويمرُّ على أَخْسِيَاكْت، ثم يسير مغربا بميلة إلى الجنوب إلى مُجَنَّدَة، ثم يجري إلى فَارَاب إلى يَنْغِي كَنْت ثم يقع في بحيرة خوارزم على مرحلتين من يَنْغِي كَنْت.

الجملة الخامسة

(في معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها فالدينار الرابع، وهو ستة دراهم كما في معظم مملكة إيران، وفي بعضها بالدينار الخُرَّاسَانِي وهو أربعة دراهم. قال في "مسالك الأبصار": ودراهمهم نوعان، درهم بثمانية فلوس، ودرهم بأربعة فلوس. قال: ودراهمها فِضَّةٌ خالصة غير مغشوشة، وهي وإن قلَّ وزنها عن معاملة مصر والشام فإنها تجوز مثل جوازها. وأما أسعارها فأسعارها جميعها رخيصة حتى إذا غلت الأسعار فيها أعلى الغلو، كانت مثل أرخص الأسعار بمصر والشام.

الجملة السادسة

(في من ملك هذا القسم من مملكة تُورَان)

قد تقدم في الكلام على أصل مملكة تُورَان أنها كانت مملكة التُّرك في القديم،

وأنه كان بها افراسياب بن شبك بن رستم بن ترك بن كوبر بن يافت بن نوح عليه السلام على الخلاف السابق فيه ، وكانت تعرف بمملكة الخانية .

أما في الإسلام فملوكها على طبقتين :

الطبقة الأولى

(ماهو عقيب الفتح ، وهم على ضريين)

الضرب الأول

(ملوك ماوراء النهر)

وكانت بيد نواب الخلفاء برهةً من الزمان في صدر الإسلام ، ثم تغلب عليها الملوك بعد ذلك وحازوها ، وتوالت عليها أيديهم إلى الان . وأول من تغلب عليها من الملوك السامانية ، وهم بنو سامان بن جئان بن طمغان بن بوشرد بن بهرام چوئين المذكور في أخبار كسرى أبرويز أحد ملوك القُرس .

وأول من ملكها منهم أولاد أسد بن سامان في خلافة المأمون في سنة أربع ومائتين . فتولى (أحمد بن أسد) فرغانة ، و(يحيى بن أسد) الشاش وأسروشنة و(نوح ابن أسد) سمرقند ، ثم مات نوح بن أسد بسمرقند ، ثم مات أحمد بفرغانة وأستخلف ابنه نصر على أعماله ، وكان إسماعيل بن أحمد يُحْدِمْ أخاه نصرا فولاه نصر ببحارا في السنة المذكورة . وكان إسماعيل رجلا خيرا يحب أهل العلم ويكرمهم ، فأستقرت قدمه ببحارا وملك جميع ماوراء النهر . وملك إسماعيل المذكور خراسان مع ماوراء النهر في سنة سبع وثمانين ومائتين .

(١) في "الأخبار الطوال" للدينوري ابن تودل بن الترك بن يافت ، وفي أبي الفداء "ابن طوج" وفي غيرها غير ذلك . نهنا على ذلك ليعلم أن بين المؤرخين اختلافا ، ولم يتقدم للتؤلّف في توران شيء من هذا النسب ، فتنبه .

ثم ملك بعده ماوراء النهر وخراسان (أبنة أحمد بن إسماعيل) حتى قتل في سنة إحدى وثلاثمائة؛ وولى بعده ماوراء النهر وخراسان أبنة (أبو الحسن نصر بن أحمد) وتوفى سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة .

وولى بعده ماوراء النهر وخراسان أبنة (نوح بن نصر) وتوفى في سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة .

وولى بعده ماوراء النهر وخراسان أبنة (عبد الملك بن نوح) وبقى حتى قبض عليه إيليك خان ملك الترك، وحبس هو وجميع أقاربه، ومات في الحبس في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وأنقضت بموته دولة بني سامان، وكانت دولتهم من أحسن الدول وأعدلها، وكانت ولايتهم إمارة لاملكا .

وملك بعدهم ماوراء النهر (إيليك خان) المتقدم ذكره، وتوالت بأيديهم حتى ملكها منهم رجل اسمه (أحمد خان) فبقيت بيده حتى ملكها منه (ملكشاه السلجوقي) في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة، وأطاعه صاحب تركستان فخطب له وضرب السكة باسمه، ثم خرج عنها وعاد أحمد خان إليها، فبقى حتى ثبتت زندقته وضرب عنقه في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وملك بعده ابن عمه (مسعود)، ثم أقيمت الخطبة بما وراء النهر (لبريكارق)، ثم خطب بريكارق فيما بيده مما وراء النهر وغيره لأخيه محمد بن ملكشاه. ثم غلب عليها الخطا الكفار في سنة ست وثلاثين وثمانمائة وأنزعوها من يد سنجر بن ملكشاه. ثم صارت بيد الغز: وهم طائفة من الترك مسلمون .

ثم استولى عليها بنو أنوشكين ملوك خوارزم الآتي ذكرهم، إلى أن غلب عليها جنكخان في سنة ست عشرة وستمائة .

وأما غزنةُ وما معها فكانت بيد بنى سامانَ ؛ ثم غلب عليها سُبُكْتِكِينُ : وهو أحد مماليك أبي إسحاق بن ألبتكين صاحب جيش غزنة للسامانية المقدم ذكره في سنة ست وستين وثلاثمائة بعد موت أبي إسحاق المذكور؛ ثم مات وقام بالأمر بها بعده ابنه إسماعيل ؛ ثم غلبه عليها أخوه محمود بن سُبُكْتِكِينُ ، وأستضاف إليها بعض نحرَاسَانَ في سنة تسع وثمانين وثلاثمائة ، وقطع الخطبة السامانية ، وبقي حتى توفى سنة إحدى وعشرين وأربعمائة .

وملك بعده ابنه (محمد بن محمود) بعهد من أبيه ، ثم قدم أهل المملكة عليه أخاه (مسعود بن محمود) وملكوه عليهم ، وبقي حتى قتل في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة . ثم ملك بعده أخوه محمد المقدم ذكره وقتل من عامه ؛ وملك بعده ابن أخيه (مودود بن مسعود) وتوفى سنة إحدى وأربعين وأربعمائة .

وملك بعده عمه (عبد الرشيد بن محمود) وقتل في سنة أربع وأربعين وأربعمائة . وملك بعده أخوه ^(١) (فرخزاد بن مسعود بن محمود) ، وتوفى سنة إحدى وخمسين وأربعمائة . وملك بعده أخوه الملك المؤيد (إبراهيم بن مسعود) ، وتوفى سنة إحدى وثمانين وأربعمائة . وملك بعده ابنه (مسعود بن إبراهيم) ، وتوفى سنة ثمان وخمسمائة .

وملك بعده (أرسلان شاه بن مسعود) .

ثم ملك بعده (بهرام شاه بن مسعود) ثم توفى .

وملك بعده ابنه (خسروشاه بن بهرام) ، وتوفى سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (ملكشاه بن خسروشاه) بن بهرام بن مسعود بن محمد بن

سُبُكْتِكِينُ ، وهو آخرهم .

ثم أنتقل الملك إلى الغورية .

(١) الضمير راجع إلى مودود والأولى أن يقال " ابن أخيه " ليعود الضمير إلى عبد الرشيد .

فأقول من ملك منهم علاء الدين (الحسين بن الحسين)، ملك عند انقراض الدولة السبكتكيديّة، وأستضافها إلى الغور في سنة خمس وخمسين وخمسة، وتلقّب بالملك المعظم، وتوفى سنة ست وخمسين وخمسة.

وملك بعده غياث الدين (محمد بن سام بن الحسين)؛ ثم أستولى عليها الغزنويّون خمس عشرة سنة؛ ثم ملكها (شهاب الدين) أخو غياث الدين المقدم ذكره سنة تسع وسبعين وخمسة، وقتل سنة اثنتين وستة، وفي أيامه كان الإمام نفر الدين الرازي وكان يغشاه ويعظه.

ثم ملك بعده علاء الدين (محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين)؛ ثم غلبه عليها (يلدز) ملوك غياث الدين أنحى شهاب الدين؛ ثم غلبه عليها علاء الدين المذكور؛ ثم غلب عليها يلدز أيضا؛ ثم غلب عليها علاء الدين (محمد بن تكش) بن خوارزم شاه في سنة اثنتي عشرة وستة، وبق حتى غلبه عليها جنكرخان الآتي ذكره في سنة سبع عشرة وستة.

الطبقة الثانية

(ملوكها من بني جنكرخان)

قال في "مسالك الأبصار": كان جنكرخان قد أوصى بمملكة ماوراء النهر لولده جدای، ويقال له جفظای فلم يتمكن من ذلك.

ثم ملك بعده ابنه قراهورلاوو، ثم ولده مبارك شاه؛ ثم غلب عليه قيديو بن قاشي ابن يكبوك بن أوكداي بن جنكرخان؛ ثم غلب عليه براق بن بسنطوبن منكوقان ابن جفظای بن جنكرخان.

ثم ملك بعده ابنه دوا بن براق، ثم أخوه كنتجك، ثم أخوه اسبنغا، ثم أخوه كيوك، ثم أخوه الجكداي، ثم أخوه دراتمر، ثم أخوه ترما شيرين.

ثم ملك بعده رجل ليس من أولاد دوا اسمه توزون بن أويا كان . قال : وتخال في خلال ذلك مَنْ وثب على الملك ، ولم ينتظم له حال ولاصلت له أعلام دولة ، وبقي الملك بعد ترماشيرين غير منتظم حتى قام جنفصون بن دراتمر بن حلوبن براق بن بسنطو ابن منكوقان بن جفطاي بن جنكرخان . إلى هنا آتقضى كلامه في "مسالك الأبصار" .

وأول من أسلم من ملوك هذه المملكة "ترماشيرين" المقدم ذكره سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فأسلم وحسن إسلامه وأخلص في إسلامه وأيد الإسلام ، وقام به حق القيام ، وأمر به أمراءه وعساكره ، ففهم من كان سبق إسلامه ومنهم من أجاب دأعيه فأسلم ، وفشأ فيهم الإسلام ، وعلا أواؤه حتى لم تمض عشرة أعوام ، حتى أشتمل فيها بلاءته الخاص والعام ، وأعان على ذلك من في تلك البلاد من الأئمة العلماء والمشايخ الصلحاء . وصارت التجار من مصر والشام مترددة إلى تلك الممالك ، وهو يكرمهم أتم الإكرام ، على أن رعايا هذه المملكة من قدماء الإسلام ، السابقين إليه كانوا مع كفر ملوكهم في جانب الإعزاز والإكرام ، لا يتطرق إليهم منهم أذية في دين ولا حال ولا مال .

الجملة السابعة

(في ترتيب هذه المملكة وحال عساكرها)

أما ترتيبها فقد أشار في "مسالك الأبصار" إلى أنها على نحو ما تقدم في مملكة إيران لأنفاق ملوك بني جنكرخان في الترتيب على طريقة واحدة .

وأما عساكرهم فذكر أن عساكرهم من أهل النجدة والبأس ، لا يحدد ذلك من طوائف الترك جاحد ، ولا يخالف فيه مخالف ، حتى حكى في "مسالك الأبصار" عن مجد الدين إسماعيل السلمي أنه كان إذا قيل في بيت هو لا كُو : العساكر ،

تَحَرَّكَتْ مِنْ خُوَارِزْمَ وَالْقَبْجَاقِ، لَا يَجْمَلُ لَدُنْكَ أَحَدٌ مِنْهُمْ هَمًّا . وَإِذَا قِيلَ : إِنْ
 الْعَسَاكِرُ تَحَرَّكَتْ مِمَّا وَرَاءَ النَّهْرِ، تَأْتِرُوا لَدُنْكَ غَايَةَ التَّأْتِرِ، لِأَنَّ هَؤُلَاءِ أَقْوَى نَاصِرًا وَإِنْ
 كَانَ أَوْلَئِكَ أَكْثَرَ عِدْدًا ، لِأَنَّهُ يُقَالُ : إِنْ وَاحِدًا مِنْ هَؤُلَاءِ بِمِائَةٍ مِنْ أَوْلَئِكَ، وَلَدُنْكَ
 كَانَتْ نُحْرَاسَانُ عِنْدَهُمْ تُغَرًّا لِأَيْهَمَلُ سِدَادِهِ، وَلَا يَزَالُ فِيهِ مِنْ يَسْتَحِقُّ مِيرَاثَ التَّخْتِ
 أَوْ مِنْ يَقُومُ مَقَامَهُ، لَمَّا وَقَرَ فِي صُدُورِهِمْ لِهَؤُلَاءِ مِنْ مَهَابَةٍ لَا يُقَلِّقُ طُودُهَا، لِأَنَّهُمْ
 طَلَبُوا بَلْوَهُمْ فِي الْحَرْبِ وَأَبْتَلَوْهُمْ فِيهَا .

القسم الثاني

(من مملكة توران خوارزم والقبجاق)

قال في "مسالك الأبصار" : حدثني الشيخ نجم الدين بن الشحام الموصلي :
 أن هذه المملكة متسعة الجوانب طولًا وعرضًا، كبيرة الصحراء، قليلة المدن، وبها
 عالم كثير لا يدخل تحت حد، إلا أنهم ليس لهم كثير نفع لقلة السلاح ورداءة الخيل،
 وأرضهم سهلة قليلة الحجر، لا تطيق خيل ربيت فيها الأوعار، فلذلك يقل غناؤها
 في الحروب . قال في "التعريف" : وكانت هذه المملكة في قديم الزمان زمان الخلفاء
 وما قبله تعرف بصاحب السرير . قال في "الروض المعطار" : وذلك أنه كان بها
 سرير من ذهب يجلس عليه ملوكها نقله إليها ملوك الفرس . قال في "التعريف" :
 وكان صاحبها في الأيام الناصرية (يعني ابن قلاوون) السلطان أربك خان . قال :
 وقد خطب إليه السلطان فزوجه بنتا تقرب إليه، ثم قال : وما زال بين ملوك هذه
 المملكة، وبين ملوكا قديم اتحاد، وصدق وداد، من أول الدولة الظاهرية ببيرس
 وإلى آخر وقت .

ويحصل الغرض من ذلك في ثمان جمل :

الجملة الاولى

(في ذكر حدود هذه المملكة ومساقفها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" نقلا عن الشيخ علاء الدين بن النعمان الخوارزمي أن طول هذه المملكة من بحر أصطنبول إلى نهر أريس ستة أشهر، وعرضها من بلغار إلى باب الحديد أربعة أشهر تقريبا . ثم ذكر عنه في موضع آخر : أن مجموع هذه المملكة من وراعات خوارزم من الشرق إلى باشقرد، وعرضا من خوارزم إلى أقصى بلاد سير، وهي منتهى العارة في الشمال . و ذكر في موضع آخر عن ابن النعمان أن مبدأ عرض هذه المملكة من ديرو، وهي مدينة من بناء الإسكندر، كان عليها باب من حديد قديما، إلى بلاد بوعره (؟)، وطولها من ماء أريس، وهو أعظم من نيل مصر بكثير من ناحية بلاد الحطّاء، إلى أصطنبول يعني القسطنطينية . قال : ويتجاوز هذا الطول قليلا إلى بلاد تسمى كنج مشتركة بين الروس والفرنج . و ذكر في موضع آخر أن خوارزم إقليم منقطع عن خراسان وعن ما وراء النهر، والمقاوّر محيطة به من كل جانب، وحدّه متصل بغزنة مما يلي الشمال والغرب وجنوبه وشرقيه، وهو على جانبي جيحون . قال ابن حوقل : وبلاد خوارزم من أبرد البلاد، ومنها يتبدى الجمود في نهر جيحون . قال في "العزيرى" : وبلاد خوارزم في جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خوارزم، وبينهما نحو ست مراحل . قال في "مسالك الأبصار" : وأول حدّ خوارزم بلدة تسمى الظاهرية مما يلي أمل، وتمتد العارة في جانبي جيحون معا . و حكى عن حسن الرومي التاجر السفّار أن طولها من مدينة باشكو المعروفة بالباب الحديد إلى حدود بلاد الحطّاء، فيكون بسير القوافل خمسة أشهر، وعرضها من نهر

(١) كذا في الأصل، ولعلها درعان الآتية قريبا .

جِيحُونَ إلى نهر طُونَا . وقال في "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة واقعة في الشمال
أخذة إلى الشرق ، تحدها أطراف الصين من شرقها ، وبلاد الصَّقَب وما يليها من
شمالها ، وخراسان وما سامتها من جنوبيها ، والخليج القاطع من بحر الروم من غربيها .

الجملة الثانية

(فيما أشتمت عليه من الأقاليم العرفية)

إعلم أن هذه المملكة قد أشتمت على عدة أقاليم :

الإقليم الأول (خوارزم)

بضم الخاء المعجمة وفتح الواو وألف بعدها راء مهملة ثم زاي معجمة ساكنة
وميم في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهو إقليم منقطع عن خراسان وعن
ماوراء النهر، والمفاوزُ محيطة به من كل جانب . قال : ويحيط به من الغرب بعض
بلاد الترك؛ ومن جهة الجنوب خراسان؛ ومن الشرق بلاد ماوراء النهر؛ ومن الشمال
بلاد الترك أيضا . قال : وإقليم خوارزم في آخر جيحون، وليس بعده على النهر
عمارة إلى أن يقع جيحون في بحيرة خوارزم، وهو على جاني جيحون . قال
ابن حوقل : (وبلاد خوارزم من أبرد البلاد، ويتدى الجمود في نهر جيحون من
جهة خوارزم) . وقال المهلبى : بلاد خوارزم في جهة الجنوب والشرق عن بحيرة
خوارزم إلى أمل نحو اثنتي عشرة مرحلة، ومن خوارزم إلى بحيرة خوارزم نحو ست
مراحل . قال في "مسالك الأبصار" : وبخوارزم جبل يقال له جبل الخير به عين
تعرف به ، يقصدها ذوو الأمراض المزمنة ، ويقيمون عندها سبعة أيام ، في كل يوم

(١) تقدمت هذه الجملة بتمامها في الصفحة التي قبل هذه ، فأعادتها غير مفيدة .

يغتسلون بها بكرة وعشية، ويشربون منها عقب كل اغتسال حتى يتصلعوا، فيحصل البرء . قال : **خُوَارَزْمٌ عَلَى جِيحُونَ** بين شعبتين منه مثل السراويل . قال : **ويلي خُوَارَزْمٌ** أرض مدورة تسمى قسلاع، طولها خمسة أشهر، وعرضها كذلك كلها صحراء، يسكنها أمم كثيرة من البرجان، ويفصل بينها وبين نهر **جِيحُونَ** جبل اسمه **أويلغان** شمالي **خُرَّاسَانَ** . ولها قاعدتان .

القاعدة الأولى

(القديمية مدينة كَاثَ)

كاف وألف وئاء مثلثة . قال **أبن حوقل** : وهو **آسَمَهَا** بال**خُوَارَزْمِيَّةِ**، وهي مدينة واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في **”القانون“** حيث الطول خمس وثمانون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وست عشرة دقيقة . قال في **”القانون“** : وهي في شرقي **جِيحُونَ** . قال **المهلبى** : وبينها وبين القرية الحديثة من بلاد الترك **نمسون فرسخا** . قال : وهي من أجل مدُن **خُوَارَزْمَ** . قال **أبن حوقل** : وقد خربها **التتر** وبني الناس لهم مدينة وراءها . قال : وكانت هذه المدينة في الجانب الشمالي عن **جِيحُونَ** . قال في **”مسالك الأبصار“** : وبها مائة بيت من اليهود، ومائة بيت من **النصارى**، لا يسمح لهم بأكثر من ذلك .

القاعدة الثانية

(**كُرَّانَج**)

قال في **”المشترك“** : يضم **الكاف** وسكون الراء المهملة ثم **كاف** ثانية وألف ونون ساكنة وفي آخرها **جيم** . قال : ويلتقى فيها ساكنان (يعنى الألف والنون) ولذلك يكتبونها **كُرَّكَنَج** بغير ألف، وتعرف ب**كُرَّكَنَج** الكبرى، والعرب تسميها

الجرجانية - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" و"القانون" حيث الطول أربع وثمانون درجة ودقيقة واحدة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال في "المشترك" : وهي على صفة جِيحُونَ . قال في "القانون" من غربيه . وبها عدة مدن أيضا :

(منها) كُرْكَنْج الصغرى . وتعرف بالجرجانية أيضا - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة أيضا . قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس دقائق ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وخمس دقائق . قال في "المشترك" : وهي مدينة قريبة من كُرْكَنْج الكبرى ، بينهما عشرة أميال ، وهي في غربي جِيحُونَ .

(ومنها) زَمَحْشُرُ . قال في "اللباب" : بفتح الزاى المعجمة والميم وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين وراء مهملة في الآخر - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وإليها ينسب الإمام أبو القاسم محمود الزَمَحْشِرِيُّ صاحب "الكشاف" في التفسير وغيره من المصنفات الفاتحة النافعة .

(ومنها) هَزَارَاسَبُ . قال في "اللباب" : بفتح الهاء والزاى المعجمة وسكون الألف وفتح الراء وسكون السين المهملتين وباء موحدة في الآخر - وهي قلعة بجوارزَمَ موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول خمس وثمانون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون دقيقة . قال السمعاني : ويقال لها بالفارسية هَزَارَاسُفُ . قال : وهي قلعة حصينة . قال المهلبى غربي جِيحُونَ ، وبينها وبين مدينة كَاتَ ستة فراسخ .

(١)
 (ومنها) دَرَعَان ، بدال وراء وعين مهملات وألف ثم نون - وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وثمانون درجة وأربع وعشرون دقيقة ، والعرض أربعون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي آخر حدود حُوَارَزَم إلى جهة مَرَوْ . قال المهلبي : وبينها وبين هَزَارَسَب أربعة وعشرون فرسخا .

(ومنها) قَرَبْرُ . قال في "اللباب" : بفتح الفاء والراء المهملة وسكون الباء الموحدة . وقال في "مزيل الأرتياب" : بفتح الفاء وكسرهما ، كل منهما مسموع - وهي مدينة على طرف جِيحُون مما يلي بُخَارَا - موقعها في آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول سبع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال في "القانون" : وهي المعبر من بلاد ما وراء النهر إلى نُحْرَاسَانَ . وجعلها ابن حوقل من أعمال بُخَارَا . فتكون ما وراء النهر، وهي خِصْبَةٌ ولها قريٌّ عامرة .

الإقليم الثاني

(الدَّشْتُ)

بفتح الدال المهملة وسكون الشين المعجمة وتاء مثناة فوق في الآخر - وهي صحارى في جهة الشمال ، وتضاف إلى القَبَجَاقِ بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح الجيم وألف بعدها ثم قاف - وهم جنس من التُّرك يسكنون هذه الصحارى ، اهل حَلِّ وَتَرَحَا ، على عادة البدو .

(١) ضبطها ياقوت بالغين المعجمة .

وقاعدة المملكة بها (صراى) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الصاد والراء المهملتين وألف وياء مثناة تحمية . ووقع في "مسالك الأبصار" بالسين المهملة بدل الصاد - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : وهى مدينة عظيمة فى مستوٍ من الأرض على شطّ نهر [الأئيل] ^(١) من الجانب الشمالى [الشرقى] ^(١) غربىّ بحر الخزر وشماله على مسيرة نحو يومين ، وبحر الخزر شرقها بجنوبها ، ونهر الأئيل عندها يجرى من الشمال والغرب إلى الشرق والجنوب حتى يصب فى بحر الخزر . وهى فُرصة عظيمة للتجار ورقيق التُّرك . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن عبد الرحمن الخوارزمىّ الترجمان : أنها بناء بركة بن طوحى بن جنكوخان ، وأنها فى أرض سبخة بغير سور ، ودار الملك بها قصرٌ عظيم على عليائه هلالٌ من ذهب زنته قنطاران بالمصرىّ ، ويحيط بالقصر سورٌ وأبراج فيها الأمراء ، وبهذا القصر يكون مشتاهم ، والسراى مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ووجوه برّ ، مقصودة بالإجلاب ، وفى وسطها بركةٌ ماؤها من نهر الحل ماؤها للاستعمال . أما شربهم فن النهر يسقى لهم فى حرّار فحّار ، وتُصنّف على العجالات وتجرّ إلى المدينة وتباع بها . قال : وبعدها عن خوارزم نحو شهر ونصف . قال فى "تقويم البلدان" : وقد بنى بها السلطان أربك مدرسةً للعلم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم فى جهْد من قشْف العيش لأنهم ليسوا أهل حاضرة ، وشدّة البرد تُهلك مواشيهم . قال : وهم لشدّة ما بهم من سوء الحال إذا وجد أحدهم لحماً صلّقه ولم يَنْضِجْه وشرب مرّقه ، وترك اللحم ليا كله مرة أخرى ، ثم يجمع العظام ويعاود صلّقتها مرة أخرى ويشرب مرّقتها ، وقس على هذا بقية عيشهم . ونقل عن جمال الدين عبد الله الحصنى التاجر : أن لبس كثير منهم الجلود : مَدْغَاة كانت أو مَيْتة ، مدبوغة أو غير مدبوغة ، من حيوان

(١) الزيادة عن تقويم البلدان . (٢) لعل هذا اللفظ زائد من النسخ .

طاهر أو غيره، ولا يعرفون في المآكل ما يُعاف مما لا يُعاف، ولا التحريم من التحليل؛ وأنهم يبيعون أولادهم في بعض السنين لضيق العيش . قال : ومع ذلك فليس لهم تمسك بدين ولا رزانة في عقل؛ ثم عقب ذلك بأن قال : ومع ذلك فهم من خيار الترك أجناسا لوفائهم وشجاعتهم وتجنّبهم العذر، مع تمام قاماتهم وحسن صورهم وظرفاة شمائلهم . ثم قال : ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمراءها وجنّدها؛ إذ لما رغب الملك الصالح (نجم الدين أيوب) في مشترى الممالك منهم، ثم صار من ممالكه من انتهى إلى الملك والسلطنة، فالت الجنسية إلى الجنسية، ووقعت الرغبة في الاستكثار منهم حتى أصبحت مصرُ بهم أهلة العالم، محمية الجوانب؛ منهم أقار موابها، وصدور مجالسها، وزعماء جيوشها، وعطاء أرضها . وحمد الإسلام موافقهم في حماية الدين، حتى إنهم جاهدوا في الله أجليهم . قال : وكفى بالنصرة الأولى يوم عين جالوت في كسر الملك المظفر قطز صاحب مصر إذ ذاك في سنة ثمان وخمسين وستمائة عساكر هولاكو ملك التتر بعد أن عجز عنهم عساكر الأقطار، وأستأصلوا شأفة السلطان (جلال الدين محمد بن خوارزم شاه) وقتلوا عساكره؛ مع أن الجيش المصري بالنسبة إلى العساكر الجلالية كالنقطة من الدائرة، والنغمة من البحر، والله يؤيد بنصره من يشاء .

أما في زماننا هذا فإنه منذ قام السلطان الملك الظاهر برقوق من جنس الجركس، رغب في الممالك من جنسه وأكثر من الممالك الجراكسة حتى صار منهم أكثر الأمراء والجنّد، وقّلت الممالك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

(١) لعل هذا هو الجواب والفاء زائدة من النسخ .

الإقليم الثالث

(بلاد أنخر) .

بفتح الخاء والزاي المعجمتين وراء مهملته في الآخر .

وقاعدته مدينة (بَلَنْجَر) . قال في "اللباب" : بفتح الباء الموحدة واللام ونون ساكنة وجيم مفتوحة ثم راء مهملته - وهى مدينة بَدْرَبَنْدُ خزران، واقعة فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول نحس وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض نحسون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "كتاب الأطوال" : وهى إتِل . قال فى "اللباب" : وهى داخل الباب والأبواب، قيل إنها نسبت إلى بَلَنْجَر بن يافث .

الإقليم الرابع

(الْقِرْمُ)

قال فى "تقويم البلدان" : بكسر القاف والراء المهملته وميم فى الآخر . قال : وهو أسم لإقليم يشتمل على نحو أربعين بلدا .

وقاعدتها (صُلْفَاتُ) . قال فى "تقويم البلدان" : بضم الصاد المهملته وسكون اللام وفتح العين المعجمة وألف وتاء مثناة فوقية فى الآخر - وقد أطلق الناس أسم الْقِرْمِ عليها حتى إذا قالوا الْقِرْمِ لا يريدون إلا صُلْفَاتُ - وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع ونحسون درجة وعشر دقائق والعرض نحسون درجة . قال : وهى عن البحر على نصف يوم؛ وهى عن الأزق فى الغرب والشمال .

وَبَصْرَاىَ بلادٌ مضافة إليها .

(منها) الأَكْكُ . قال في "تقويم البلدان" : بضم المهمزة وفتح الكاف الأولى ثم كاف ثانية - وهي بليدة من بلاد الصَّرَاى ، موقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : القياس حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض تسع وأربعون درجة ونحو خمس وخمسون دقيقة ، وهي على جانب نهر إبتل من الجانب الغربي بين صَرََاى وْبَلَّارْ ، على قرب منتصف الطريق بينهما ؛ وهي عن كل واحدة منهما على نحو خمس عشرة مرحلة . وإلى الأَكْكِ هذه ينتهى أردو القان صاحب هذه المملكة ؛ ولها مُدُنٌ أُحرِكَا تقدم . وهي عن الكَفَا شَمَالٌ بغرب ، وعن صُودَاقِ شمال بشرق ، وبين كل منهما مسيرة يوم ؛ وبها حاكم يكتأبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) صُودَاقِ . قال في "تقويم البلدان" : بضم الصاد المهملة وواو، وفتح الدال المهملة وألف وقاف في الآخر، والعامّة يقولون : سُرداق، فيبدلون الصَّادَ سِينًا مهملة والواوَاءَ مهملة - وموقعها في آخر الإقليم السابع من الأقاليم السبعة أو في الشمال عنه . قال ابن سعيّد حيث الطول ست وخمسون درجة ، والعرض إحدى وخمسون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي في ذيل جبل على شَطِّ بجر القِرِمِ ، وأرضها محجر وهي مسورة ، وهي فُرْضَةٌ للتجار ؛ ويقابلها من البرِّ الآخر مدينة سَامُوسَ ، من سواحل بلاد الروم الآتى ذكرها . قال : وأهلها مسلمون . وقال ابن سعيّد : أهلها أخلاط من الأمم والأديان ، والأمر فيها راجع إلى النصرانية . وإليها يُنسب الجلد السُّردَاقِ المعروف .

(ومنها) كَفَا . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الكاف والفاء وألف مقصورة . وهي فُرْضَةٌ القِرِمِ - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض خمسون درجة ، وهي في وطاة

من الأرض؛ وهى على ساحل بحر القِرم، ويقابلها من البر الآخر مدينة طَرَابُزُونٍ من سواحل بلاد الروم، وهى شرق صُودَاق، وعليها سورٌ من لَين، ومن شَمالِها وشرقها صحراء القَبْجَاقِ؛ وهى عن صُودَاق فى سمت الشرق، والكُفَا وصُودَاقُ وُصُلُغَاتُ كالأثافي .

الإقليم الخامس

(بلاد الأَزَقِ)

قال فى "تقويم البُلدان" : بفتح الهمزة والزاي المعجمة وقاف فى الآخر .

وقاعدته مدينة الأَزَقِ بالضبط المعروف - موقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلدان" : والقياس أنها حيث الطولُ خمس وستون درجة، والعرض ثمان وأربعون درجة . قال : وإليها ينسب بحر الأَزَقِ المعروف فى الكتب القديمة ببحر ما نيطش، وهى فُرْضة على بحر الأَزَقِ فى مستوٍ من الأرض عند مَصَبِّ نهر "تان" فى بحر الأَزَقِ، وبنائها بالخشب، وبينها وبين القِرم نحو خمس عشرة مرحلة، وهى فى الشرق والجنوب عن القِرم . ولها مدن أخر .

(منها) الكَرُش . قال فى "تقويم البُلدان" : بفتح الكاف وسكون الراء المهملة وشين معجمة فى الآخر - وهى بلدة صغيرة على ساحل بحر الأَزَقِ، واقعة فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلدان" : القياس حيث الطول ستون درجة، والعرض سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة . وهى بلدة صغيرة بين الكُفَا والأَزَقِ على فَمِ بحر الأَزَقِ، ويقابلها من البر الآخر الطامان من سواحل أرمينية وبلاد الروم، وأهلها قَبْجَاقُ كُفَار .

الإقليم السادس

(بلاد الجُرْكيس)

بفتح الجيم وسكون الراء وفتح الكاف وسين مهملة في الآخر. قال المؤيد صاحب حماة في "تاريخه": وهو على بحر نيطش من شريقه، وهم في شَطَف من العيش . قال : وقد غلب عليهم دينُ النصرانية ، وقد صار في زماننا منهم أكثرُ عسكر الديار المصرية من لدن ملك الظاهر برقوق فإنه أكثر الإجلاب منهم .

الإقليم السابع

(بلاد البُلغارِ)

بضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهملة في الآخر . وهم جنس معروف أيضا . قال صاحب حماة في "تاريخه" : وهم منسوبون إلى بلدان يسكنونها .

وقاعدتها مدينة (بُلَّار) بضم الباء الموحدة وفتح اللام وألف وراء مهملة في الآخر. قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها بالعربيُّ بُلْغار - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة ، أو في الشمال عنه . قال في "الأطوال" وطولها ثمانون درجة ، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وهي بلدة في نهاية العارة قريبة من شَطِّ نهر إتل من البر الشمالي الشرقي ، وهي وصراى في برِّ واحد، وبينهما فوق عشرين مرحلة ، وهي في وطاة والجبال عنها أقل من يوم ؛ وأهلها مسلمون حنفيَّة ، وليس بها شيء من الفواكه ولا أشجار الفواكه لشدة بردها ، والفُجُل الأسود في غاية الكبر . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد حكى لي بعض أهلها أن في أول الصيف لا يغيب الشَّقُّ عنها ويكون ليها في غاية القصر . ثم قال .

وهذا الذى حكاه صحيح موافق لما يظهر بالأعمال الفلكية ، لأن من عرض ثمانية وأربعين ونصف يتندى عدم غيبوبة الشفق في أول فصل الصيف ، وعرضها أكثر من ذلك ، فصح ما تقدم على كل تقدير . قال في "مسالك الأبصار" : وحكى على الحسن الإبلى أن أقصر ليلا أربع ساعات ونصف ، وهو غاية نقصان الليل . قال حسن الرومى : وسألت مسعودا المؤقت بها عن هذا فقال : جربناه بالآلات الرصدية فوجدناه كذلك تحريرا . قال في "مسالك الأبصار" : وقد ذكر المسعودى في "مروج الذهب" أنه كان في السرب والبغار من قديم دار إسلام ومستقر إيمان . فأما الآن فقد تبدلت بإيمانها كُفراً ، وتداولها طائفة من عبّاد الصليب ، ووصلت منهم رُسُلٌ إلى حضرة مصر سنة إحدى وثلاثين وسبعائة من صاحب السرب والبغار ، يعرض نفسه على مودته ، ويسأله سيفاً يتقلده وسنجقاً يقهر أعداءه به ، فأكرم رُسُلَهُ ، وأحسن نُزُلَهُ ، وجهز له معه خِلمة كاملة : طرد وحش بقصب بسنجاب مقدس على مقرح سكندرى وكلوثة زركش بطرفين ، ومنطقة ذهب ، وكلايب ذهب وسيف محلى ، وسنجق سلطاني أصفر مُدْهَب . قال : وهم يدارون سلطان القبجاق لعظيم سلطانه عليهم ، وأخذه بخناقهم لقرّبهم منه . وذكر في "التعريف" قريبا منه ؛ ولصاحب السرب مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتي ذكرها في المكاتبات إن شاء الله تعالى .

وبين السرب والبغار وبلاد الترك بلاد :

(منها) أَقْبَجَا كَرْمَانَ - بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الحيم وألف وفتح الكاف والراء المهملة والميم وألف والنون في الآخر - وهي بليدة على بحر نيطش المعروف ببحر القريم ، واقعة في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول خمس وأربعون درجة ، والعرض خمسون درجة ، وهي

في مستوي من الأرض، وأهلها أخلاط من مسلمين وكفار، وعلى القرب منها يصب نهر طرلُو .

(ومنها) صَارِي كَرْمَانَ . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الصاد المهملة وألف وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحتيه - وَكَرْمَانُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، منخرطة في أَقْجَا كَرْمَانَ، وهي بلدة أصغر من أبقا كرمان - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" حيث الطول خمس وخمسون درجة، والعرض خمسون درجة قياساً، ويقابلها من البر الآخر مدينة سَنُوبَ من سواحل بلاد الروم، وهي شرقي أَقْجَا كَرْمَانَ المقدم ذكرها، وبينهما نحو خمسة عشر يوماً، وبينها وبين صَلَفَات نحو خمسة أيام .

الإقليم الثامن (بلاد الأولاقي)

بضم الهمزة وسكون الواو ولام ألف بعدها قاف، ويقال لهم البرغَال بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام، وهم جنس معروف . وقاعدتها مدينة (طرنو) . قال في "تقويم البلدان" : بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو في الآخر - وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة . قال : وهي غربي صَقْجِي عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْهَا، وأهلها كُفَّارٌ مِنَ الْجَنَسِ الْمَذْكُورِ . ولهم بلاد أخرى :

(منها) صَقْجِي . قال في "تقويم البلدان" : قال بعض الفقهاء : بفتح الصاد المهملة وسكون القاف وكسر الجيم المشربة بالشين المعجمة وفي الآخرياء مثناة تحتيه -

(١) الذي في تقويم البلدان "عن بعض أهلها" .

وهي من أولاق وبلاد القُسطنطينية . قال في "الأطوال" حيث الطول ثمان وأربعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة، وهي متوسطة بين الصَّغَرِ والكِبَرِ في مستوي من الأرض، عند مصب نهر طناً في بحر نيطش المعروف ببحر القريم في الجانب الجنوبي الغربي منه . وهي عن أقبحا كَرَمَانَ على مسيرة خمسة أيام، وبينها وبين القُسطنطينية في البحر عشرون يوماً، وغالب أهلها مسلمون .

الإقليم التاسع

(بلاد الآص)

بفتح الهمزة الممدودة وضاد مهملة - وهم جنس معروف .

وقاعدته (قِرْقِرْ) . قال في "تقويم البلدان": بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية (؟) وكسر الراء المهملة في الآخر. ومعنى اسمها بالتركية أربعون رجلاً، وموقعها في آخر الإقليم السابع . قال في "تقويم البلدان": القياس أنها حيث الطول خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة . قال : وهي قلعة عاصية على جبل لا يقدر أحد على الطلوع إليه، ووسط ذلك الجبل وطاء تسع أهل البلاد، وهي بعيدة عن البحر في شمالي صَارِي كَرَمَانَ على نحو يوم، وعندها جبل عظيم شاهق في الهواء يقال له (جَاطُوطَاغ) بفتح الجيم وألف وطاء مكسورة وواو ساكنة وطاء مهملة وألف وغين معجمة، يظهر للراكب من بحر القريم .

الإقليم العاشر

(بلاد الروس)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر . وهم جنس معروف . قال في "تقويم البلدان": في شمالي مدينة بَلَارِ المذكورة . قال صاحب حماة

في "تاريخه" : ولهم جزائر أيضا في بحر نيطش وبلار في شماليه . قال : وقد غلب عليهم دين النصرانية . قال في "مسالك الأبصار" : وإذا سافر المسافر على غربي جولمان وصل إلى بلاد الروس ، ثم إلى بلاد الفرنج وسكان البحر الغربي . قال في "تقويم البلدان" : وفي شمالي الروس الذين يبايعون مغاية . ونقل عن بعض من سافر إلى تلك البلاد أنهم يتصلون بساحل البحر الشمالي ، فإذا وصلوا إلى تخومهم ، أقاموا حتى يعلموا بهم ، ثم يتقدمون إلى المكان المعروف بالبيع والشراء ، ويحط كل تاجر بضاعته معلمة ويرجعون إلى منازلهم ، فيحضر أولئك القوم ويضعون قبالة تلك البضاعة السمور والثعلب والوشق وما شا كل ذلك ، ويدعونه ويمضون ، ثم يحضر التجار فن أعجبه ذلك أخذه ، وإلا تركه حتى يتفصلوا على الرضا .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ علاء الدين بن النعمان : أن البلاد التي يجلب منها السمور والسنجاب هي بلار المقدمة الذكر . قال ابن النعمان : وتجار بلادنا لا يتعدون بلاد البلغار ، وتجار البلغار يسافرون إلى بلاى جقطاي ، وتجار جولمان يسافرون إلى بلاد بوغزه ، وهي في أقصى الشمال ليس بعدها عمارة سوى برج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المنارة العالية ، ليس وراءه مذهب لأحد إلا الظلمات ، فسئل عن الظلمات فقال : صحار وجبال لا يفارقها الثلج والبرد ، ولا تطلع عليها الشمس ، ولا ينبت فيها نبات ، ولا يعيش فيها حيوان ، متصلة ببحر أسود لا يزال يطر الغيم منعقد عليه .

وأعلم أن صاحب "تقويم البلدان" : قد ذكر عدة أماكن من هذه المملكة سوى ما تقدم ولم ينسبها إلى إقليم .

(منها) كوماجر - بضم الكاف وسكون الواو والميم المشددة وألف وجيم وراء مهملة - وهي مدينة قريبة من الوسط ما بين باب الحديد والأزق ، شرقي الأزق وغربي باب الحديد .

(ومنها) مدينة لكر - بفتح اللام وسكون الكاف وفي آخرها زاي معجمة - وهي مدينة يسكنها جنس من الترك يقال لهم اللكرى ، وهم في الجبل الفاصل بين ترمملكة بركة ، وترمملكة هولأكو .

(ومنها) بلاد القيتق - بفتح القاف وسكون المثناة تحت وفتح المثناة من فوق وفي آخرها قاف ثانية ، وهم جنس من الترك يسكنون الجبل المتصل باللكر من شماليه . قال في "تقويم البلدان" وهم قُطَاع طريق ، وجبلهم متحكم على باب الحديد . قلت : وهذه المملكة أوسع من أن يحاط ببلادها ، وفيما ذكرناه مقنع لمن تأمله .

الجملة الثالثة

(في ذكر الأنهار العظام والبحيرات الواقعة في هذه المملكة)

أما الأنهار فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن هذه المملكة سيحون وجيحون المقدم ذكرهما في مملكة ماوراء النهر ، وذلك أنهما يمتدان من هذه المملكة إلى تلك ، فيصدق وجودهما في الملكين جميعا . وقد تقدم ذكرهما هناك فأغنى عن إعادته هنا . ثم المشهور مما يختص بهذه المملكة خمسة أنهار .

أحدها - نهر أثل - بفتح الهمزة وكسر المثناة ولام في الآخر - فعرف بأثل ، وهي مدينة بدجّر المقدم ذكرها ، ويقال فيه نهر الأثل بالألف واللام أيضا ، وهو من أعظم الأنهار بتلك البلاد وأشهرها . ذكر في "مسالك الأبصار" عن الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان أنه يكون قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر . قال : وأصله من بلاد الصقلب . قال في "تقويم البلدان" : وهو يأتي من أقصى الشمال والشرق من حيث لا عمارة ، ويمر بالقرب من مدينة بلار ، وهي

(١) كذا في "التقويم" ونص ياقوت على أنه بالمشاة الفوقية وأنه بوزن إبل .

بلغار، ويستدير عليها من شمالها وغربها، ويجرى منها إلى بليدة على شطه يقال [لها أوكك ثم يتجاوزها إلى قرية يقال^(١) لها بلجمن، ويجرى جنوبا ثم يعطف، ويجرى إلى الشرق والجنوب، ويمر على مدينة صراى من جنوبيها وغربها؛ فإذا تجاوز مدينة صراى آفترق، ويصير على ما قبل ألف نهر ونهر، ويصب الجميع في بحر انحر. قال في "مسالك الأبصار": وتجرى فيه السفن الكبار، ويسافر فيه المسافرون إلى الروس والصقلب .

الثانى - نهر طنا . قال في "تقويم البلدان" : بضم الطاء المهملة وفتح النون وألف . قال في "تقويم البلدان" : وهو نهر عظيم يكون أكبر من دجلة والفرات إذا اجتمعا بكثير . قال : ويجرى من أقصى الشمال إلى جهة الجنوب، ويمر في شرقي جبل يسمى (قشغا طاغ) . ومعناه الجبل الصعب ، وهو جبل فيه أجناس مختلفة من أمم الكفر مثل الأولاق والماجار والترب وغيرهم، فيمر في شرقيه، وكلما جرى جنوبا قرب من بحر نيطش المعروف الآن ببحر القرم، ولا يزال يتقارب منه ويقرب ما بين الجبل والبحر المذكور حتى يصب فيه في شمالي مدينة صفجى في شمالي القسطنطينية بميلة إلى الغرب .

الثالث - نهر أزو . قال في "تقويم البلدان" : بالزاي المعجمة [المفخمة] بعد الألف وواو في الآخر . قال : وهو نهر عظيم يأتي من الشمال شرقي نهر طنا المقدم ذكره، ويمر معتوبا، ثم يعطف ويمر مشرقا حتى يصب في خور من بحر القرم بين صارى كرمان وأقبا كرمان المقدم ذكرهما .

الرابع - نهر تان . قال في "تقويم البلدان" : بقاء مثناة من فوق وألف [مماله] ونون في الآخر . قال : وهو نهر عظيم شرقي أزو المقدم ذكره وغربي نهر

(١) الزيادة عن "التقويم" . (٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

الأثل يجرى من الشمال إلى الجنوب، ويصب في بحيرة مانيطش المعروفة في زماننا
ببحر الأزق عند مدينة الأزق من غربيها .

الخامس - نهر طرلو . قال في "تقويم البلدان" بضم الطاء وسكون الراء
المهملتين ولام وواو . قال : وهو نحو عاصي حماة ، ويصب على القرب من
أقحج كرمان في بحر نيطش المعروف ببحر القريم .

*
*
*

وأما البحيرات فلمشهوره بها بحيرة خوارزم : وهي بحيرة كبيرة ماؤها ملح . قال
ابن حوقل : دورها مائة فرسخ ، وفيها يصب نهر جيحون في جانبها الجنوبي ، وفيها
يصب نهر الشاش أيضا ، وبينها وبين البحر عشرون مرحلة ، وبينها وبين خوارزم
ست مراحل .

الجملة الرابعة

(في الطرق الموصلة إلى هذه المملكة)

ولها طريقان : طريق في البر ، وطريق في البحر .

فأما طريق البر فقد تقدم في الكلام على مملكة إيران الطريق إلى شط جيحون .
وقد ذكر في "تقويم البلدان" أن بين أمل الشط وبين خوارزم نحو آمتي عشرة
مرحلة . وذكر في "مسالك الأبصار" أن بين خوارزم ومدينة صراى نحو شهر
ونصف ، وأن بين خوارزم ومدينة صراى مدينة وجق ومدينة قطلود .

وأما طريق البحر فهو أن يركب المسافر إليها في بحر الروم من مدينة الإسكندرية
أو مدينة دمياط من شمالي الديار المصرية ، ويسير إلى خليج القسطنطينية المتصل
ببحر الروم من جهة الشمال ، ويركب فيه ويحاذره إلى بحر نيطش المعروف ببحر القريم ،
ثم إلى بحر مانيطش المعروف ببحر الأزق وينتهي إلى آخره .

الجملة الخامسة

(في الموجود بها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" أن فيها من الحبوب القمح، والشعير، والدخن، ويسمى عندهم الأرز، والماش، والجاورس، وهو شبيه بحب البرسيم، على أهلة في القمح والشعير. أما القول فلا يكاد يوجد عندهم، وأكثر حبوبهم الدخن ومنه أكلهم، وبها من الفواكه جميع أنواع الفواكه إلا النخل، والزيتون، وقصب السكر، والموز، والأترج، والليمون، والتارنج. وذكر عن بلاد القبايق أنها كانت قبل استيلاء التتار عليها معمورة الجوانب، وأنها في بقايا تلك العمار والغراس، وأن فيها من الفواكه العنب، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والكثير من المشمش، والخوخ، والجوز، وفاكهة تسمى بلغة القبايق بانك شبيهة بالتين، وأن الفواكه كثيرة الوجود في جبالهم مع كثرة ما باد منها. قال: وأما البطيخ فينجب عندهم نجابة خاصة الأصفر، وهو في غاية صدق الحلاوة يقدونه ويحفظونه فيبقى عندهم من السنة إلى السنة، وربما استخرجوا ماءه وصنعوا منه الحلوى، وعندهم من الخضراوات اللفت، والجوز، والكرب، وغير ذلك. ثم قال: وكذلك مدن الجركس والرؤس والأص، وبها العسل الكثير الأبيض اللون اللذيذ الطعم الخالي من الحدة.

الجملة السادسة

(في المعاملات والأسعار بها)

أما المعاملات فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن عبدالرحمن الخوارزمي التبرجماني أن دينارهم راجح كجا في غالب مملكة إيران، وهو الذي عنه ستة دراهم، وأن الحبوب تباع كلها عندهم بالرطل، وذكر أن رطل خوارزم زنته ثلثمائة وثلاثون درهما.

وأما الأسعار فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر أن الأسعار في جميع هذه المملكة رخيصة إلى الغاية إلا كركنج أتم إقليم خوارزم فإنها متمسكة في أسعار الغلات قل أن ترخص، بل إما أن تكون غليظة أو متوسطة لا يعرف [بها] الرخص أبدا. ثم ذكر عن شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي التبرجمان: أن الأسعار في خوارزم والسراى لا يكاد يتباين ما بينهما. قال: والسعر المتوسط عندهم القمح بدينارين ونصف، وكذلك الماش والشعير بدينارين، وكذلك الدخن والجاورس، وربما زاد، والغالب أن يكون سعره مماثل سعر القمح، واللحم الضأن على السعر المتوسط كل ثلاثة أرطال بدرهم. وذكر ابن مسافر أن اللحوم بها رخيصة، وأكثر ما يذبح بها الخيل.

وأما سكان البر فإن اللحم لا يباع لديهم ولا يشتري لكثرتهم، وغالب أكلهم لحوم الطير واللبن والسمن، وإن تلف لأحد منهم دابة من قرس أو بقرة أو شاة أو غير ذلك، ذبحها وأكل هو وأهله منها، وأهدى لجيرانه. فإذا تلف عند من أهدى إليه شيء من ذلك، ذبحه أيضا وأهدى لجيرانه، فلهذا لا تكاد بيوتهم تخلو من اللحم.

الجملة السابعة

(في ذكر ملوك هذه المملكة)

قد تقدمت أنها قسم من مملكة توران، ومملكة توران كانت في القديم بيد افراسياب ملك الترك، وتداولها ملوك الترك بعده إلى الفتح الإسلامية، وأسلم من أسلم من ملوكهم.

أما خوارزم فتوالى عليها الأيدي حتى صارت إلى (محمود بن سبكتكين) المقدم ذكره في ملوك غزنة من القسم الأول من هذه المملكة؛ ثم صارت (لمسعود) آبنه،

واستتاب فيها خوارزم شاه هارون بن الطيطاش؛ ثم قتله غلمانه عند خروجه إلى الصيد؛ وأستولى عليها رجل يقال له (عبد الجبار)؛ ثم وثب غلمان هارون بعد الجبار فقتلوه، وولوا مكانه (إسماعيل بن الطيطاش) أبا هارون؛ ثم غلبه عليها (شاه ملك) ابن علي؛ ثم غلبه عليها (طغرل بك) بن ميكائيل بن سلجوق، وبقيت بيد السلجوقية المقدم ذكرهم في مملكة إيران، إلى أن صارت منهم إلى (بريكاروق) بن ملكشاه بن أرسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق، فأستتاب فيها علاء الدين محمد أنوشتكين في أيام بريكاروق بن ملكشاه بن ميكائيل بن سلجوق السلجوق، ولقب خوارزم شاه في سنة تسعين وأربعمائة .

ثم ولي بعده ابنه (أطسز) بن محمد؛ ثم غلبه على ذلك (سنجر) بن ملكشاه أخو علاء الدين محمد، وأقام بها من يحفظها في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، [ثم غلبه عليها أطسز بن محمد المقدم ذكره^(١)]، وبقى بها حتى توفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .
وملك بعده ابنه (أرسلان بن أطسز) وتوفي سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (سلطان شاه محمود) صغيرا، وقامت أمه بتدبير دولته؛ ثم غلب على الملك أخوه (علاء الدين تكش) ثم غلبه أخوه (سلطان شاه) وطرده، ثم مات سلطان شاه وأنفرد (تكش بالملك) ثم مات في سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وولى بعده ابنه (محمد بن تكش) وكان لقبه قُطْبَ الدين فتلقب علاء الدين، وبقى حتى غلبه جنكركان وهزمه في سنة تسع عشرة وستمائة، ثم مات بعد ذلك .
ولما ملك جنكركان أوصى بدشت القبجاق، وما معه لابنه طوجي، ويقال له دوجي أيضا، فمات طوجي في حياة أبيه جنكركان . فلما مات جنكركان آستقر في مملكة ماوراء النهر، وما معه باتو بن طوجي بن جنكركان، ثم مات باتو .

(١) الزيادة عن تاريخ أبي الفدا ليوثق الواقع .

وملك بعده أخوه (بركة بن طوجي) وهو الذي تنسب هذه المملكة إليه، فيقال فيها بيت بركة، بمعنى هذه مملكة بيت بركة، كما يقال في مملكة إيران هي مملكة بيت هولانكو. قال صاحب "الذيل على الكامل" وكانت المكتبة بينه وبين الظاهر بيبرس لا تنقطع، وبقي حتى توفي سنة خمس وستين وستمائة عن غير ولد.

وملك بعده ابن أخيه (منكوتمر بن طغان) بن باطون بن دوجي خان، ابن جنكرخان، وتوفي سنة إحدى وثمانين وستمائة.

وملك بعده أخوه (تدان منكوتمر) بن طغان بن باطون بن دوجي خان، ابن جنكرخان وقيل سنة اثنتين وثمانين وستمائة، وكان صاحب مصر قد جهز إلى منكوتمر هدية^(١) فلم تصل إليه حتى مات، وأستقر (تدان منكو) فقدمت إليه فابتهج بها، وعادت الرسل بجوابه بذلك، وبقي إلى سنة ست وثمانين وستمائة فأظهر الوله وتخلى عن المملكة وأتمى إلى المشايخ والفقراء.

وملك بعده (تلابغا) بأشارته [ابن منكوتمر بن طغان بن باطون] بن دوجي خان ابن جنكرخان، وبقي حتى قتل في سنة تسعين وستمائة.

وملك بعده (طقطغا) بن منكوتمر بن طغان بن باطون ابن جنكرخان.

والذي ذكره قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون في "تاريخه" أنه ملك بعد باطون أخوه طرطو، ثم أخوه بركة، ثم منكوتمر بن طغان خان ابن باطون ابن دوشي خان، ثم ابنه تدان منكو، ثم أخوه تلابغا، ثم أخوه جفطاي، ثم ابن أخيه أربك، وهو الذي كان في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية. قال في "التعريف": وخطب إليه السلطان فزوجه بنتا تقرب إليه، ثم ابنه جاني بك، ثم ابنه بردي بك، ثم ابنه طقتمش، ثم نائبه ماماي، ثم عبد الله بن أربك،

(١) في تاريخ أبي الفدا "سنة ثمانين". (٢) الزيادة عن تاريخ أبي الفدا.

ثم قتل قتمر، ثم ماماي ثانيا، ثم حاجي جركس، ثم أيك خان، ثم أبنة قاني بك خان، ثم أرس خان، ثم طقتمش خان ابن بردى بك خان. قال: ومنه أتتزعها تمرلنك وقتله. قلت: المعروف أن تمرلنك لم يملك هذه المملكة أصلا ولا قتل طقتمش، وما ذكره وهم فيه.

وأول من أسلم من ملوك هذه المملكة من بني جنكرخان بركة بن طوحي ابن جنكرخان، وكان إسلامه قبل تملكه حين أرسله أخوه باطوخان لإجلاس منكوخان على كرسى جدّه جنكرخان، فأجلسه، وعاد فتر في طريقه على الباخريزي شيخ الطريقة، فأسلم على يديه وحسن إسلامه، ولم يملك بعد أخيه باطوخان إلا وهو مسلم، وتلاه من تلاه من ملوكهم بهذه المملكة في الإسلام حتى كان أزبك خان منهم، فأخلص في الإسلام غاية الإخلاص، وتظاهر بالديانة والتمسك بالشرعية، وحافظ على الصلاة وداوم على الصيام.

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن زين الدين عمر بن مسافر أن ملوك هذه الطائفة مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفتون لأحكامها في كثير من الأمور، واقفون مع ياسة جنكرخان التي قررها لهم وقوف غيرهم من أتباعه، مع مؤاخذه بعضهم بعضا أشدّ المؤاخذه في الكذب والزنا ونبيذ الموائيق والعهود. وقد جرت عادة ملوكهم أنهم إذا غضبوا على أحد من أتباعهم، أخذوا ماله وباعوا أولاده، وأن في سلطان هذه المملكة طوائف الجركس والرؤس والآص، وهم أهل مدن عامرة أهلة، وجبال مشجرة مثمرة؛ ينبت عندهم الزرع، ويدير لهم الصرع؛ وتجري الأنهار، وتنجي الثمار؛ وهم وإن كان لهم ملوك فهم كالرعايا، فإن داروه بالطاعة والتحف كف عنهم، وإلا شق عليهم الغارات، وضايقهم، وحاصرهم،

(١) لعله فهم ملك مصر أو نحو ذلك كالرعايا لينظم الكلام.

وقتل رجالهم ، وسبى نساءهم ، وذراريهم ، وجلب رقيقهم إلى أقطار الأرض .
ثم قال : والقسطنطينية مجاورة لأطراف ملك القبايق ، وملك الروم معه في كليب دائم ،
وأقتراحات متعددة في كل وقت ، وملك الروم على توقد جمرته ، وكثرة حمايته وأنصاره ،
يخاف غارته وشره ، ويتقرب إليه ، ويداريه ، ويدافع معه الأيام من وقت إلى وقت
منذ تدير ملوك بني جنكرخان هذه المملكة . وما تخلو بينهم مدة عن تجديد عهود
ومسألة إلى مدة تؤجل بينهم ، وأشياء تحمل من جهة ملك الروم إلى ملكهم .

الجملة الثامنة

(في مقدار عسكر هذه المملكة ، وترتيبها ، ومقادير الأرزاق)

الجارية عليهم ، وزبيهم في اللبس)

أما مقدار عسكرها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ علاء الدين
ابن النعمان أن عساكرها كثيرة تفوت الحصر ، لا يعلم لها مقدار إلا أنه خرج مرة
عليه وعلى القان الكبير اسنبغا سلطان ما وراء النهر خارجاً ، فحزذ إليه من كل عشرة
واحداً فبلغ عدة المجردين مائتين وخمسين ألفاً من دخل تحت الإحصاء سوى من
أنضم إليهم ، وألزم كل فارس منهم بغلامين وثلاثين رأساً من الغنم وخمسة رؤس
من الخيل وقدرين نحاس وعجلة .

وأما ترتيب مملكتهم فحكى عن الشيخ نجم الدين بن الشحام الموصلي أن ترتيب
هذه المملكة في أمر جيوشها وسلطانها كما في ترتيب مملكة العراق والعجم في عدة
الأمراء والأحكام والخدم ، ولكن ليس لأمير الألوس والوزير بها تصرف أمير
الألوس والوزير بتلك المملكة ، ولا لسلطان هذه المملكة نظير ما لذلك السلطان من
الدخل والمجاني وعدد المدن والقري ، ولا مشي أهل هذه المملكة على قواعد الخلفاء
مثل أولئك ، ولخواتين هؤلاء مشاركة في الحكم معهم وإصدار الأمور عنهم مثل

أولئك وأكثر ، إلا ما كانت عليه بغداد بنت جوبان امرأة أبي سعيد بهادر بن خدابندا ، فإنه لم ير من يحكم حكمها . قال المقر الشهابي بن فضل الله : وقد وقفت على كثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه البلاد من عهد بركة وما بعده ، وفيها " وأنفتت آراء الخواتين والأمراء على كذا " أو ما يجري هذا المجرى .

وحكى عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر عن أربك خان سلطان هذه المملكة في الأيام الناصرية محمد بن قلاوون أنه لا ألتفت له من أمور مملكته إلا إلى جمليات الأمور دون تفصيل الأحوال ، يقنع بما حمل إليه ، ولا يبحث عن وجوه القبض والصرف ، وأن لكل امرأة من خواتينه جانباً من الحمل ، وأنه يركب كل يوم إلى امرأة منهم ، يقيم ذلك اليوم عندها ، يأكل من بيتها ويشرب ، وتلبسه بدلة قماش كاملة ، ويخلع التي كانت عليه من اللبس على من يتفق ممن حوله . ثم قال : وقماشه ليس بفاق الجنس ولا غالى الثمن ، مع قربه من الرعايا القاصدين له ، إلا أن يده ليست مبسوطه بالعطاء ، ولو أراد هذا لما وفي به دخل بلاده ، فإن غالب رعاياه أصحاب عملي في الصحراء ، أقواتهم من مواشيهم . ونقل عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن لسلطان هذه المملكة على جميعهم خراجاً يستأديه منهم ، وأنهم ربما طولبوا بالخراج في سنة مُمحلة لوقوع الموتان بدوابهم ، أو سقوط الثلج ونحوه ، فباعوا أولادهم لأداء ما عليهم من الخراج .

وأما مقادير أرزاق جندهم ، فقد حكى عن شجاع الدين عبد الرحمن أن كل من كان بيد آبائه شيء من الإقطاع فهو بيد أبنائه . ثم قال : والأمراء لهم بلاد ، منهم من تغل بلاده في السنة مائتي ألف دينار راج وما دون ذلك إلى مائة ألف دينار راج . أما الجند فليس لأحد منهم إلا تقود تؤخذ ، كلهم فيها على السواء ، لكل واحد منهم في السنة مائتا دينار راج .

وأما زَيْهَمٌ في اللبس ، فحكى عن شجاع الدين الترحمان أيضا أنه كان زيهم زِيَّ
عسكر مصر والشام في الدولة الإسلامية وما يناسب ذلك ، ثم غلب على زيهم زِيَّ التتر
إلا أنهم بعائم صغار مُدَوَّرَة .

القسم الثالث

(من مملكة تُورَانَ مملكةُ القان الكبير)

قال في "التعريف" : وهو أكبر الثلاثة ، (يعني ملوك الأقسام الثلاثة المتقدمة
الذكر) . وهو صاحب الصِّينِ والحِطَا ووارث تحت جنكرخان . قال : وقد تواترت
الأخبار بأنه أسلم ودان بدين الإسلام ، ورقم كلمة التوحيد على ذوائب الأعلام .
قال : وإن صحَّ وهو المؤمل ، فقد ملأت الأمة الحمديَّةُ الخلفيين ، وعمرت المشرق
والمغرب ، وأمتدت بين ضفتي البحر المحيط . قال في "مسالك الأبصار" : وهو
القائم مقام جنكرخان والجالس على تخته . قال : وهو كالخليفة على بنى عمه من بقية
ملوك توران : من مملكة إيران ، وصاحب القَبَجَاقِ ، وصاحب ما وراء النهر .
فإذا تجدد في مملكة أحد منهم مُهمٌّ كبير ، مثل لقاء عسكرو ، أو قتل أمير كبير بذنب ،
أو ما يناسب ذلك ، أرسل إليه وأعلمه به ، وإن كان لا أفتقار إلى استئذانه ،
ولكنها عادة مَرَعِيَّةٌ بينهم .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أنه لم
يزل يكتب إلى كل من القانات الثلاثة ، يأمرهم بالاتحاد والألفة ، وإذا كتب إليهم
بدأ باسمه قبلهم ، وإذا كتبوا إليه بدأوا باسمه قبلهم . قال : وكلهم مُدْعِنون له بالتقدم
عليهم . قال في "مسالك الأبصار" : وأهل هذه المملكة هم أهل الأعمال اللطيفة ،
والصنائع البديعة ، التي سامت إليهم فيها الأمم . وقد تكتب^(١) الكتب من أحوالهم
بما أغنى عن ذكره . قال : ومن عادة المجيدين في الصنائع أنهم إذا عملوا عملا

(١) لعله "وقد تكتفت الكتب الخ" .

يديعا، حملوه إلى باب الملك، وعُلق عليه ليراه الناس، ويبقى سنة، فإن سلم من عائب أسدى إلى صاحبه الإحسان، وإن عيب عليه وتوجه العيب، وضع قدر الصانع ولم يوجه العيب [على] من عابه.

وقد حكى المسعودي في "مروج الذهب" أن صانعا منهم صور عصفورا على سنبلة في نقش ثوب كحما وعلقه، فأستحسنه كل من رآه، حتى مر به رجل فعابه باستقامة السنبلة، لأن العصفور من شأنه أنه إذا وضع على السنبلة أمالها.

وحكى في "مسالك الأبصار" عن بدر الدين حسن الإسعردى أن بعض صنّاعهم عمل ثيابا من الورق وباعها على أنها من الكمخاوات الخطائية، لا يشك فيها شك، ثم أظهرهم على ذلك فعجبوا منه.

وحكى عن الشريف حسن السمرقندى أنه كان بهذه البلاد، فشكا ضرسه، فأراه لرجل من الخطا، فوضع يده عليه، فأخرج منه قطعة متأكلة، ووضع مكانها قطعة من ضرس أجنبي، ودهنه بدهن وأمره أن لا يشرب ماء يومه، فالتصق حتى صار كأنه من أصل الحلقة، إلا أن لون الأول يبين من اللون الثاني. وذكر المقر الشهابي أنه أراه له بحضرة الشيخ شمس الدين الأصفهاني وجماعة من أهل العلم. قال بدر الدين حسن الإسعردى: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما يجار فيه العقل. ويحصل الغرض منه في خمس حمل:

الجملة الأولى

(فيا أشتمت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وَأَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ هِيَ أَوْسَعُ مَمَالِكِ بَنِي جَنْكِرْخَانَ وَأَفْسَحُهَا جَوَانِبَ، وَأَكْثَرُهَا أَقَالِيمَ، وَأَوْفَرُهَا مُدُنًا، غَيْرَ أَنَّهَا بَعِيدَةٌ الْمَسَافَةِ، مُتَقَطِّعَةُ الْأَخْبَارِ، فَجُهِلَتْ لَذَلِكَ أَسْمَاءُ

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب "وقع".

أقاليمها، وتعذرت الإحاطة بأقطارها؛ ونحن نورد منها ماشاع ذكره في سائر الآفاق
وأنشروا، وتقع من التفصيل بالجملة، ونكتفى من البحر بالنقبة .

والقول الجملي في ذلك أنه يشتمل على إقليمين عظيمين :

الإقليم الأول (الصين)

بكسر الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون في الآخر. قال في "تقويم
البلدان" : ويحيط به من جهة الغرب المفاوز التي بينه وبين الهند، ويحيط به من
جهة الجنوب البحر (يعني بحر الهند) ، ويحيط به من جهة الشرق البحر المحيط،
ويحيط به من جهة الشمال أرض يأجوج ومأجوج وغيرها من الأراضي المنقطعة
الأخبار عنا . ثم قال : وقد ذكر أصحاب المسالك والممالك في كتبهم بلادا كثيرة،
ومواضع وأنها را وغيرها في إقليم الصين؛ ولم يقع لنا ضبط أسمائها، ولا تحقيق
أحوالها، فصارت كالمجهولة لنا لعدم من يصل من تلك النواحي من المسافرين إلينا
لنستعلم منه أخبارها فأضربنا عن ذكرها .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين حسن بن الجلال
السمرقندي، وهو من السفار، ومن جال الآفاق، ودخل الصين وجال بلاده، وجاب
آفاقه، وجاس خالاه، وجال في أقطاره : أن بالصين ألف مدينة، وأنه دار الكثير
منها . قال : وبلاد الصين كلها عمارة متصلة من بلد إلى بلد، ومن قرية إلى قرية .

وقاعدة هذه المملكة (خان باليق) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الخاء المعجمة
ثم ألف ونون ساكنة وباء موحدة مفتوحة ثم ألف ولام مكسورة وقاف في الآخر.
قال : وهي مدينة من أقاصى الشرق عند بلاد الخطا، واقعة في الإقليم الرابع من
الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول مائة وأربع عشرة درجة، والغرض

خمسة وثلاثون درجة وخمسة وعشرون دقيقة . وهي قاعدة مشهورة على ألسنة التجار وأهلها من جنس الخطا ، وعندهم معادن الفضة . قال ابن سعيد : ويذكر عن عظيم هذه المدينة ما يستبعده العقل . قال في "مسالك الأبصار" نقلا عن الشريف حسن بن الجلال السمرقندي : إن مدينة خان بالقي المذكورة مدينتان ، قديمة وجديدة ، والجديدة منهما أسمها ديدو ، بناها (ديدو) آحر ملوكها فسميت بأسمه ، والقان الكبير ينزل بوسطها في قصر عظيم يسمى كوك طاق ، ومعناه بلغة المغل القصر الأخضر ، لأن طاق معناه عندهم القصر ، وكوك معناه الأخضر ، ومنازل الأمراء حوله خارج القصر ، قال : وهي مدينة طيبة ، واسعة الأتوات ، رحيّة الأسعار ، ويجمد بها الماء في زمن الشتاء فيصير كالثلج ، فيرفع إلى أيام الصيف حتى يبرد به الماء كما يبرد بالثلج . ويشق مدينة ديدو المذكورة نهر .

وبها أنواع الفواكه إلا العنب فإنه قليل بها ، وليس بها نارنج ولا ليمون ولا زيتون ، ثم يعمل بها السكر . وبها من الزرع والحمل والحيل والبقر والغنم ما لا يدخل تحت الإحصاء . وبالصين مدن مشهورة سواها .

(منها) قراقوم . قال في "تقويم البلدان" : بفتح القاف والراء المهملة ثم ألف وقاف مضمومة وواو ساكنة وميم . قال : وهي مدينة في أقصى بلاد الترك الشرقية ، ومعنى قراقوم باللغة التركية الرمل الأسود ، لأن قرا في لغتهم بمعنى الأسود ، وقم بمعنى الرمل ، ويقع في كثير من الكتب قراقوم بإبدال الواو وراء وهو خطأ ، وإنما كتبت الواو بها بعد القاف دليلا على الضمة على عادتهم في ذلك - وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول مائة وست وخمسون درجة ، والعرض خمسة وثلاثون درجة وخمسة وعشرون دقيقة . قال : وهي كانت قاعدة التتر ، وفي جهاتها بلاد المغل : وهم خالصة التتر . ومنها خاناتهم . قال الشريف

حسن بن الجلال السمرقندى : وفيها غالب عساكر القان الكبير. وبها يعمل القماش الفاجر، والصنائع الفاتقة، وغالب ما يحتاج إليه القان يُستدعى منها لأنها دار استعمال، وأهلها أهل صنائع فائقة. قال في "مسالك الأبصار": وهي قرية جنكرخان التي أخرجته، وعريسته التي أدرجته.

(ومنها) الخنساء. قال في "تقويم البلدان": بالخاء المعجمة والنون والسين المهملة وألف. وهي مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة. قال في "تقويم البلدان" حيث الطول مائة وخمس وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثمان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة. قال: وعن بعض المسافرين من بلادنا أن الخنساء في هذا الزمان أعظم فُرْص الصَّين، وإليها ينتهى وصول التجار المسافرين من بلادنا. قال الشريف السمرقندى: وطول الخنساء يوم كامل، وعرضها نصف يوم، وفي وسطها سوق واحد ممتد من أولها إلى آخرها، وأسواقها مبلطة بالبلاط، وبنائها خمس طبقات بعضها فوق بعض، وكلها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشرب أهلها من الآبار، وأهلها في قسيف عظيم، وغالب أكلهم لحم الجاموس والإوز والدجاج. وفيها الأرز، والموز، وقصب السكر، والليمون، وقليل الرمان، وأسعارها متوسطة، وتجلب إليها الغنم والقمح على قلة، ولا يوجد فيها من الخيل إلا ماقل عند أعيانها. وأما الجمال فلا توجد فيها البتة، فإن دخلها حمل تعجبوا منه. ونقل في "مسالك الأبصار" أن بينها وبين جالق بالقر أربعين يوما. وحكى عن الصدر صدر الدين عبد الوهاب بن الحداد البغدادى أنه وصل إلى الخنساء ووصف عظمة بنائها ومنعة رفعة مدينتها مع تسطح الأقوات بها ووفور المكاسب فيها ورخص التدقيق الجيد فيها وفي جميع تلك البلاد. قال: وأهلها يتفانحون بكثرة الجوارى السرارى، حتى إنه ليوجد لأحد التجار وآحاد الناس أربعون سرية فما زاد على ذلك.

(١) لعله الرقيق بالراء فتأمل.

(ومنها) الزَيْتُونُ . قال في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين الثقات : هي بلفظ الزيتون الذي يُعْتَصَر منه الزيت ، وهي فُرْصَةٌ من فُرُصِ الصِّينِ - موقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد حيث الطول مائة وأربع عشرة درجة ، والعرض سبع عشرة درجة . قال : وهي مدينة مشهورة على ألسنة التجار المسافرين إلى تلك البلاد ؛ وهي على خَورٍ من البحر ، والمراكب تدخل إليها من بحر الصِّين في الخَور المذكور ، وقدره نحو خمسة عشر ميلاً ، ولها نهر عند رأس الخور المذكور . وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشريف السمرقندي أن مدينة الزَيْتُون على البحر المحيط وهي آجر العارة . قال : وبينها وبين جائق بالقي شهر واحد .

(ومنها) السَّيْلِي . قال في "تقويم البلدان" : بالسَّيْنِ المهملة والياء المثناة التحتية ولام وياء ثانية . ثم قال : هكذا وجدناه في الكتب . قال : ويقال لها سَيْلًا يعنى باللام ألف ، ورأيت في بعض الكتب سَيْلان بزيادة نون بعد اللام ألف . قال : وهي مدينة في أقصى الصِّين الشرقي ، خارجة عن الإقليم الأول إلى الجنوب . قال في "القانون" حيث الطول مائة وسبعون درجة ، والعرض خمس درج ، وهي في أعلى الصِّين من الشرق بجزائر الخالدات في بحر الغرب ، لكن هذه معمورة في خِصْبٍ بخلاف تلك .

(ومنها) جمكوت . قال في "تقويم البلدان" : بالجم والميم والكاف ثم واو وتاء مثناة فوقية في الآخر . قال : كذا وجدناها مكتوبة ، وأسماها عند الفُرسِ جما كرد . قال : وهي مدينة في أقصى العارة الشرقية ، خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال في "الأطوال" : وهي على خط الاستواء لاعرض لها . قال في "تقويم البلدان" : وهي على النهاية الشرقية مثل ما يحكى عن الجزائر الخالدات في النهاية الغربية . قال : وليس شرقي جمكوت عمارة أصلاً .

(ومنها) مدن أخرى مذكورة في الكتب مجهولة الضبط .

إحداها مدينة (ينجو) - وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول مائة وخمس وعشرون، والعرض اثنتان وعشرون . وقد ذكر في "القانون" أنها مستقر ملكهم الأكبر الملقب بطمغاج .

(ومنها) مدينة خانقو . بجاء معجمة وألف ونون وقاف ثم واو - وهي مدينة على النهر واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول مائة وستون درجة، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أبواب الصين . قال ابن سعيد : وموقعها على شرقي نهر حمدان . قال ابن خردادبه : وهي المرفأ الأكبر، وفيها الفواكه الكثيرة، والبقول، والحنطة، والشعير، والأرز، والعنب، والسكر .

(ومنها) مدينة خانجو - بإبدال القاف من المدينة السابقة جيا - وهي مدينة على النهر، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول مائة واثنتان وستون درجة، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "القانون" : وهي من أبواب الصين .

(ومنها) مدينة سوسة - بسينين مهملتين بينهما واو ساكنة وفي الآخرهء . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة مشهورة كثيرة التجار متصلة العارة، وبها يُصنع الفخار الصيني الذي لا يفوقه ولا يعده شيء من أعمال الصين . قال : وهي على شرقي نهر حمدان .

الإقليم الثاني (بلاد الخطأ)

بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر، وهم جنس من الترك بلادهم في متاخمة بلاد الصين .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" مدينة (قجوهي) بقاف وميم وجيم وواو ثم هاء وراء آخر الحروف . وقال : إنها أول بلاد الخطأ، وإن منها إلى جالق بالقي أربعين يوماً، بل ذكر أن مدينة جالق بالقي التي هي قاعدة هذه المملكة من بلاد الخطأ .

الجملة الثانية

(في معاملة هذه المملكة وأسعارها)

أما معاملتها فقال في "مسالك الأبصار" : حدثني الفاضل نظام الدين ابن الحكيم أن معاملتهم بقشور من لحاء شجر التوت مطبوعة باسم القان، فإذا عتق ذلك حمله صاحبه إلى نواب هذا القان وأخذ عوضه مع خسارة لطيفة، كما يؤخذ في دار الضرب مما يحمل إليها من الذهب والفضة ليضرب بها . وذكر عن الشريف حسن السمرقندي أن فيها بكارا وفيها صفارا، فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها ما يقوم مقام درهمين، ومنها ما يقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلى ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة . وقد تقدم في الكلام على جالق بالقي والخنساء ذكر ما بهما من الحيوان والحبوب والبقول وغير ذلك .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصل إلى هذه المملكة)

قد حكى في "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين السمرقندي : أن من سمرقند من بلاد ما وراء النهر إلى سبلي عشرين يوماً، ومن سبلي المذكورة إلى المائق عشرين يوماً، ومن المائق إلى قرا خوجا إلى قجوهي إلى خان بالقي أربعين يوماً . ثم قال : ومن خان بالقي إلى الخنساء طريقان : طريق في البر، وطريق في البحر،

(١) كذا في الأصل، وسبق له مثله مرارا عن "المسالك" ولكن الذي ضبطه فيما تقدم عن "التقويم"

خان بالقي بانحاء المعجمة والنون .

وفي كل من الطريقين من خان بالق إلى الخنساء أربعون يوما . وذكر في الكلام على مملكة بيت بركة عن حسن الإربلي أن المسافر إذا سافر من جولان على شرفها وصل إلى مدينة قراقوم .

الجملة الرابعة

(في ذكر ملوكها)

قد ذكر المسعودي في "مروج الذهب" عدة ملوك من ملوك الصين قبل الإسلام وبعده، أسماؤهم أعجمية لاجابة ذكرها، والمقصود معرفة حالها في أيام بني جنكرخان القائمين بها إلى الآن .

قد تقدم في الفصل الأول من هذا الباب الكلام على مبتدأ أمر جنكرخان وكيفية مصير الملك إليه فأغنى عن إعادته هنا .

ثم لما ملك جنكرخان أوصى بتخته المستولى فيه على هذا القسم من المملكة لولده الصغير أوكداي، ومات جنكرخان فأستقر ولده أوكداي، [ثم أستقر] في هذه المملكة مكانه أبته كيوك ثم مات .

فملك بعده (منكوفان) بن طولى بن جنكرخان، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة . فملك بعده (أرى بك)، ثم قبلى خان، ثم دمرباق، ثم قرماي، ثم ترفاي كيزي، ثم قيان قان، ثم سند مرقان بن طولى بن جنكرخان، وهو الذى كان في الأيام الناصرية محمد ابن قلاوون صاحب الديار المصرية، ثم أقطع خبرهم فلم يعلم من ملك منهم . وملوك هذه المملكة من بنى جنكرخان كغفار يدينون بتعظيم الشمس، واقفون في الأحكام مع ياسة جدتهم جنكرخان المقدم ذكرها في الفصل الأول . قال في "مسالك الأبصار":

(١) وجدنا في "العبر" ج ٥ ص ٣٠٥ اختلافًا في الأسماء فاتبعنا الأصل وأجلنا في التنبيه .

(٢) في العبر "سند مرقان بن طرمالان بن جنكر بن قبلاي بن طولى" .

ذكر لى الفاضل نظام الدين بن الحكيم الطيارى الكاتب البوسعيدى أنهم على ما هم عليه من الجاهلية على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكتهم ومن يرد إليها . قال الشريف السمرقندى : ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا القان أنه مع كُفْرِهِ في رعاياه من المسلمين أُمٌّ كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ، ومتى قتل أحد من الكفار مسلماً ، قُتِلَ القاتل الكافر هو وأهل بيته ونُهبت أموالهم ، وإن قتل مسلمٌ كافراً لا يُقتل به ، بل يُطلب بديته ، ودية الكافر عندهم حمار لا يطلب بغيره .

الجملة الخامسة

(في عسكره)

قال بدر الدين حسن الإسعردى التاجر : وهذا القان ذو عسكر مديد . قال : والذي أعلم من حاله أن له اثني عشر ألف بازدار يركبون الخيل ، وعساكره من المغل عشرون تومانا ، وهي مائتا ألف فارس ، أما من الخطأ فما لا يحصى .

الجملة السادسة

(في ترتيب هذه المملكة)

قال الشريف تاج الدين السمرقندى : وترتيب هذه المملكة أن لهذا القان أميرين كبيرين هما الوزراء ، يسمي كل من يكون في هذه الرتبة جنكصان ، ودونهما أميران آخران يسمي كل منهما بنجار ، ودونهما أميران آخران يسمي كل منهما زوجين ، ودونهما أميران آخران يسمي كل منهما بوجين . قال : وله كاتب هو رأس كُتَّابه يسمي لنجون ، وهو بمنزلة كاتب السر في بلادنا ، والقان يجلس في كل يوم في صدر دار فسيحة تسمى شن ، بمثابة دار العدل عندنا ، ويقف الأمراء المذكورون حوله عن اليمين وعن الشمال على مقادير رتبهم ، وراس الكُتَّاب المسمى لنجون ، فإذا

شكا أحد شكوى أو سأل حاجة ، أعطى قصته رأس الكُتاب المذكور فيقف عليها ، ثم يوصلها إلى أحد الأميرين اللذين يليانه وهما أصغر الكل فيقف عليها هو ومن معه ، ثم يوصلها إلى من يليهما في الرتبة ، وهكذا إلى أن تصير إلى القان ، فيأمر فيها بما يراه . وذكر عن الشريف أبي الحسن الكربلاي وكان ممن اجتمع بالقان في هذه البلاد أن لهذا القان أربعة وزراء يُصدرون الأمر في مملكته كلها ، ولا يُراجَع القان إلا في القليل النادر . قال : وإذا أراد القان أن يركب ركب في حَمَّة ولا يظهر للناس إلا في يوم واحد ، وهو مثل يوم مولده في كل سنة ، فإنه يركب فرسا ويخرج إلى الصحراء ويعمل بها من الأطعمة والسَّماطات ما يغمُرُ الناس ، ويكون مثل يوم العيد عندهم .

تم الجزء الرابع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الخامس .

وأوله المقصد الثاني

في ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ،

وأله وصحبه والتابعين وسلامه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرست

الجزء الرابع

من کتاب صبح الأعشى للقلقشندی

صفحة

- الحالة الثالثة — من أحوال المملكة ما عليه ترتيب المملكة من ابتداء
 ٥ الدولة الأيوبية وإلى زماننا
- ٦ ويتعلق القول من ذلك بعشرة مقاصد
- ٦ المقصد الأول — في ذكر رسوم الملك وآلاته؛ وهو أنواع كثيرة الخ
- ٩ المقصد الثاني — في حواصل السلطان
- المقصد الثالث — في ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب، الذين بهم
 ١٤ انتظام المملكة وقيام الملك؛ وهم على أربعة أضرب
- ١٤ الضرب الأول — أرباب السيوف؛ والنظر فيهم من وجهين
- ١٤ الوجه الأول — مراتبهم على سبيل الاجمال؛ وهي على نوعين
- ١٤ النوع الأول — الأمراء؛ وهم على أربع طبقات
- ١٥ النوع الثاني — الأجناد؛ وهم على طبقتين
- الوجه الثاني — في ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف المتقدم
 ١٦ ذكرهم؛ وهم على نوعين
- ١٦ النوع الأول — من هو بحضرة السلطان
- النوع الثاني — ما هو خارج عن الحضرة السلطانية؛ وهم
 ٢٤ على ثلاث طبقات
- ٢٤ الطبقة الأولى — نواب السلطنة
- ٢٥ الطبقة الثانية — الكشاف
- ٢٦ الطبقة الثالثة — الولاة بالوجهين: القبلي، والبحري
- الضرب الثاني — من أعيان المملكة وأرباب المناصب حملة الأقاليم؛
 ٢٨ وهم على نوعين

صفحة

- النوع الأول — أرباب الوظائف الديوانية ٢٨
- النوع الثاني — أرباب الوظائف الدينية؛ وهم صنفان ٣٤
- الصف الأول — من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف ٣٤
- الصف الثاني — من لا مجلس له بالحضرة السلطانية ٣٧
- المقصد الرابع — في زى أعيان المملكة؛ وهم أربع طوائف ٣٩
- الطائفة الأولى — أرباب السيوف ٣٩
- الطائفة الثانية — أرباب الوظائف الدينية: من القضاة وسائر العلماء ... ٤١
- الطائفة الثالثة — مشايخ الصوفية ٤٣
- الطائفة الرابعة — أرباب الوظائف الديوانية ٤٣
- المقصد الخامس — في هيئة السلطان في ترتيب الملك؛ وله ثلاث
(سبع) هيئات ٤٤
- الهيئة الأولى — هيئته في جلوسه بدار العدل، لخلاص المظالم ... ٤٤
- الهيئة الثانية — هيئته في بقية الأيام ٤٥
- الهيئة الثالثة — هيئته في صلاة الجمعة والعيدين ٤٦
- الهيئة الرابعة — هيئته للعب الكرة، بالميدان الأكبر ٤٧
- الهيئة الخامسة — هيئته في الركوب لكسر الخليج، عند وفاء النيل ... ٤٧
- الهيئة السادسة — هيئته في أسفاره ٤٨
- الهيئة السابعة — في النوم ٤٩
- المقصد السادس — في عاداته في إجراء الأرزاق؛ وهو على ضربين ... ٥٠
- الضرب الأول — الجارى المستمر، وهو على نوعين ٥٠
- النوع الأول — الإقطاعات ٥٠

صفحة

- النوع الثانى — رزق أرباب الأقالام ٥١
- الضرب الثانى — الإنعام وما يجرى مجراه، مما يقع فى وقت دون وقت؛ وهو على خمسة أنواع ٥٢
- النوع الأول — الخلع والتشريف ٥٢
- النوع الثانى — الخيول ٥٤
- النوع الثالث — الكسوة والحوائص ٥٥
- النوع الرابع — الإنعام والأوقاف ٥٥
- النوع الخامس — المأكول والمشروب ٥٦
- المقصد السابع — فى اختصاص صاحب هذه المملكة بأماكن داخلية فى نطاق مملكته يمتاز بها على ملوك الأرض من المسلمين، وغيرهم ٥٧
- المقصد الثامن — فى انتهاء الأخبار إليه؛ وهو على ثلاثة أنواع ٥٨
- النوع الأول — أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم ٥٨
- النوع الثانى — الأخبار التى ترد عليه من جهة نوابه ٥٩
- النوع الثالث — أخبار حضرته ٦٠
- المقصد التاسع — فى هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم ٦٠
- المقصد العاشر — فى ولاية الأمور من أرباب السيوف بأعمال الديار المصرية؛ وهم على أربع طبقات ٦٣
- الطبقة الأولى — النواب ٦٣
- الطبقة الثانية — الكشاف ٦٥
- الطبقة الثالثة — الولاة بالوجهين: القبلى والبحرى ٦٦
- الطبقة الرابعة — أمراء العربان بنواحي الديار المصرية ٦٧

صفحة

- الفصل الثاني — من المقالة الثانية في المملكة الشامية ، وما يتصل بها من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفرات والدجلة مما هو مضاف الى هذه المملكة ؛ وفيه أربعة أطراف ٧٢
- الطرف الأول — في فضل الشام وخواصه وعجائبه ، وفيه مقصدان ٧٢
- المقصد الأول — في فضل الشام ٧٢
- المقصد الثاني — في خواصه وعجائبه ٧٣
- الطرف الثاني — في حدوده ، وابتداء عمارته ، وتسميته شاما ؛ وفيه مقصدان ٧٥
- المقصد الأول — في حدوده ٧٥
- المقصد الثاني — في ابتداء عمارته ، وتسميته شاما ، وما يلتحق بذلك ٧٨
- الطرف الثالث — في أنهاره ، وبحيراته ، وجباله المشهورة ، وزروعه ، وفواكهه ، ورياحينه ، ومواشيه ، ووحوشه ، وطيوره ؛ وفيه ستة مقاصد ٧٩
- المقصد الأول — في ذكر الأنهار العظام بالشام ٧٩
- المقصد الثاني — في ذكر بحيراته ٨٣
- المقصد الثالث — في ذكر جباله المشهورة ٨٥
- المقصد الرابع — في ذكر زروعه وفواكهه ورياحينه ٨٦
- المقصد الخامس — في ذكر مواشيه ووحوشه وطيوره ٨٨
- المقصد السادس — في ذكر النفيس من مطعوماته ٨٨
- الطرف الرابع — في ذكر جهاته وكوره القديمة وقواعده المستقرة وأعمالها ؛ وفيه مقصدان ٨٨

صفحة

- المقصد الأول - في ذكر جهاته وكوره القديمة ٨٨
- المقصد الثاني - في ذكر قواعده المستقرة وأعمالها ؛ وهي ست قواعد ٩١
- القاعدة الأولى - دمشق ؛ وفيها جملتان ٩١
- الجملة الأولى - في حاضرتها ٩١
- الجملة الثانية - في نواحيها وأعمالها وتشتمل على بر وأربع صفحات ٩٧
- الصفحة الأولى - الساحلية والجبليّة ؛ ولها جهتان ٩٨
- الجهة الأولى - الساحلية ؛ وهي التي بساحل بحر الروم ٩٨
- الجهة الثانية - الجبلية ١٠٠
- الصفحة الثانية - القبليّة ١٠٣
- الصفحة الثالثة - الشماليّة ١٠٨
- الصفحة الرابعة - الشرقية ؛ وهي على ضريين ١١٢
- الضرب الأول - ما هو داخل في حدود الشام ١١٢
- الضرب الثاني - ما هو من بلاد الجزيرة ١١٥
- القاعدة الثانية - حلب ؛ وفيها جملتان ١١٦
- الجملة الأولى - في حاضرتها ١١٦
- الجملة الثانية - في نواحيها وأعمالها ؛ وهي على ثلاثة أقسام ١١٨
- القسم الأول - ما هو داخل في حدود بلاد الممالك الشامية ١١٩
- القسم الثاني - البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقدم ذكرها من الشمال ؛
وهي المعروفة ببلاد الأرمن ؛ وهو على ضريين ١٣٠
- الضرب الأول - الأعمال الجبار ؛ وهي ساحلية وجبليّة ... ١٣١
- الضرب الثاني - الأعمال الصغار ١٣٥

صفحة	
١٣٧	القسم الثالث - البلاد المجاورة للفرات من شرقيه
١٣٩	القاعدة الثالثة - من قواعد المملكة الشامية حماة؛ وفيها جملتان
١٣٩	الجملة الأولى - في حاضرتها
١٤١	الجملة الثانية - في نواحيها وأعمالها
١٤٢	القاعدة الرابعة - من قواعد المملكة الشامية أطرابلس؛ وفيها جملتان
١٤٢	الجملة الأولى - في حاضرتها
١٤٤	الجملة الثانية - في نواحيها وأعمالها؛ وهي على قسمين
١٤٤	القسم الأول - الأعمال الجبار؛ وهي على ضريين
١٤٤	الضرب الأول - مضافاتها نفسها
١٤٦	الضرب الثاني - قلاع الدعوة
١٤٧	القسم الثاني - الأعمال الصغار
١٤٩	القاعدة الخامسة - من قواعد المملكة الشامية صفد؛ وفيها جملتان
١٤٩	الجملة الأولى - في حاضرتها
١٥٠	الجملة الثانية - في نواحيها وأعمالها
١٥٥	القاعدة السادسة - من قواعد المملكة الشامية الكرك؛ وفيها جملتان
١٥٥	الجملة الأولى - في حاضرتها
١٥٦	الجملة الثانية - في نواحيها وأعمالها
	الطرف الثاني - من الفصل الثاني من الباب الثالث من المقالة الثانية فيمن
١٥٨	ملك البلاد الشامية؛ وملوكها على قسمين
١٥٨	القسم الأول - ملوكها قبل الإسلام؛ وهم على أربع (خمس) طبقات
١٥٨	الطبقة الأولى - ملوكها من الكتانين

صفحة	
١٥٩	الطبقة الثانية — ملوكها من بني إسرائيل
١٦١	الطبقة الثالثة — ملوكها من الفرس
١٦١	الطبقة الرابعة — ملوكها من اليونان
١٦١	الطبقة الخامسة — ملوكها من الروم
١٦٢	القسم الثاني — من ملوك الشام ملوكه في الإسلام، وهم على ضربين
	الضرب الأول — عمال الصحابة فمن بعدهم من نواب الخلفاء الى حين
١٦٢	استيلاء الملوك عليها
١٦٣	الضرب الثاني — من وليها ملكا
	الطرف الثالث — من الفصل الثاني من الباب الثالث من المقالة الثانية
١٨٠	في ذكر أحوال المملكة الشامية؛ وفيه مقصدان
١٨٠	المقصد الأول — في ترتيب نياباتها
١٨٠	النيابة الأولى — نيابة دمشق؛ وفيها جملتان (ثلاث جمل)
١٨٠	الجملة الأولى — في ذكر أحوالها
١٨٣	الجملة الثانية — في ترتيب مملكتها؛ وهو ضربان
١٨٣	الضرب الأول — في ترتيب حاضرتها
	الضرب الثاني — في بيان أرباب الوظائف بدمشق على تباين
١٨٤	مراتبهم؛ والوظائف على خمسة أصناف
١٨٤	الصف الأول — وظائف أرباب السيوف
١٨٨	الصف الثاني — الوظائف الديوانية
١٩٢	الصف الثالث — الوظائف الدينية
١٩٤	الصف الرابع — وظائف أرباب الصناعات

صفحة

- الصف الخامس — وظائف زعماء أهل الذمة بها ١٩٤
- الجملة الثالثة — في ترتيب النيابة بها ١٩٤
- المقصد الثاني — في ترتيب ما هو خارج عن حاضرة دمشق ؛ وهو
- على ضريين ١٩٧
- الضرب الأول — ما هو خارج عن حاضرتها من الولايات والولايات ... ١٩٧
- الضرب الثاني — من الخارج عن حاضرة دمشق العربان، والإمارة بها
- في بطون من العرب ٢٠٣
- البن الأول — آل ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية ... ٢٠٣
- البن الثانية — جرم ٢١١
- البن الثالثة — ثعلبية ٢١٢
- البن الرابعة — بنو دهمي ٢١٤
- البن الخامسة — زبيد ٢١٣
- النيابة الثانية — من نيابات السلطنة بالممالك الشامية نيابة حاب ؛
- وفيها جملتان ٢١٥
- الجملة الأولى — في ذكر أحوالها في المعاملات ونحوها ٢١٥
- الجملة الثانية — في ترتيب مملكتها، وهي على ضريين ٢١٦
- الضرب الأول — في ترتيب حاضرتها ؛ ووظائفها على أربعة
- (ثلاثة) أصناف ٢١٦
- الصف الأول — وظائف أرباب السيوف ٢١٧
- الصف الثاني — الوظائف الدينية ٢٢١
- الصف الثالث — وظائف أرباب الصناعات ٢٢٢

صفحة

- الجملة الثانية — (الثالثة) في ترتيب ما هو خارج عن حاضرة حلب ؛
 وهو ثلاثة أنواع (نوعان) ٢٢٦
- النوع الأول — ولاية الأمور من أرباب السيوف ؛ وهم
 ثلاثة أصناف ٢٢٦
- الصف الأول — النواب ؛ وهم على ضربين ٢٢٦
- الضرب الأول — ما هو داخل في حدود البلاد الشامية ... ٢٢٦
- الضرب الثاني — النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية ؛
 وهي على قسمين ٢٢٨
- القسم الأول — بلاد الثغور والعواصم وما والاها ... ٢٢٨
- القسم الثاني — ما هو في حدود بلاد الجزيرة شرق الفرات ٢٢٩
- الصف الثاني — من أرباب السيوف بخارج حلب الولاية ... ٢٣٠
- النوع الثاني — مما هو خارج عن حاضرة حلب العربان ... ٢٣١
- النيابة الثالثة — نيابة أطرابلس ، وفيها جملتان ٢٣٣
- الجملة الأولى — في ذكر أحوالها ومعاملاتها ٢٣٣
- الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها ؛ وهو على ضربين ... ٢٣٥
- الضرب الأول — الثواب ؛ وهم على قسمين ٢٣٥
- القسم الأول — النيابات بمضافات نفس أطرابلس ... ٢٣٥
- القسم الثاني — نيابات قلاع الدعوة ٢٣٥
- الضرب الثاني — الولاية ٢٣٦
- النيابة الرابعة — نيابة حماه ؛ وفيها جملتان ٢٣٦
- الجملة الأولى — في ذكر أحوالها ومعاملاتها ٢٣٦
- الجملة الثانية — في ترتيب نيابتها ؛ وهي على ضربين ... ٢٣٧

صفحة	
٢٣٧	الضرب الأول — ما بحاضرتها
٢٣٩	الضرب الثاني — ما هو خارج عن حاضرتها
٢٤٠	النيابة الخامسة — نيابة صفد؛ وفيها جملتان
٢٤٠	الجملة الأولى — فيما هو بحاضرتها
٢٤٠	الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها
٢٤١	النيابة السادسة — نيابة الكرك؛ وفيها جملتان
٢٤١	الجملة الأولى — فيما هو بحاضرتها
٢٤٢	الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها؛ وهو على ضربين
٢٤٢	الضرب الأول — الولايات
٢٤٢	الضرب الثاني — العرب
	الفصل الثالث — من الباب الثالث من المقالة الثانية في المملكة الحجازية؛
٢٤٣	وفيه سبعة أطراف
٢٤٣	الطرف الأول — في فضل الحجاز وخواصه وعجائبه
٢٤٤	الطرف الثاني — في ذكر حدوده، وأبتهاء عمارته، وتسميته حجازا
٢٤٥	الطرف الثالث — في أبتهاء عمارته وتسميته حجازا
٢٤٦	الطرف الرابع — في ذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة
٢٤٧	الطرف الخامس — في زروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره
٢٤٨	الطرف السادس — في قواعده وأعماله؛ وفيه ثلاث قواعد
٢٤٨	القاعدة الأولى — مكة المشرفة؛ وفيها جملتان
٢٤٨	الجملة الأولى — في حاضرتها
٢٥٥	الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها؛ وهي على ضربين

صفحة

- الضرب الأول — الحرم ومشاعر الحج الخارجة عن مكة ٢٥٥
- الضرب الثاني — قراها ومخالفها ٢٥٧
- الطرف السابع — في ذكر ملوك مكة ؛ وهم عليّ ضريين ٢٦١
- الضرب الأول — ملوكها قبل الإسلام ٢٦١
- الضرب الثاني — ملوكها في الإسلام ؛ وهم عليّ طبقات ٢٦٥
- الطبقة الثالثة — (هكذا) عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ٢٦٥
- الطبقة الرابعة — عمال بني أمية ٢٦٥
- الطبقة الخامسة — عمال بني العباس ٢٦٦
- الطبقة السادسة — السليمانيون من بني الحسن ٢٦٧
- الطبقة السابعة — الهواشم ٢٧٠
- الطبقة الثامنة — بنو قتادة ٢٧٥
- الطرف السابع — (الثامن) في ترتيب مكة المشرفة ؛ وفيه جملتان ٢٧٥
- الجملة الأولى — فيما هو بحاضرتها ٢٧٥
- الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها ٢٨٤
- القاعدة الثانية — المدينة الشريفة النبوية ؛ وفيها ثلاث جمل (أربع) ... ٢٨٥
- الجملة الأولى — في حاضرتها ٢٨٥
- الجملة الثانية — في نواحيها وأعمالها ؛ وهي عليّ ضريين ٢٨٩
- الضرب الأول — حماها ومرافقها ٢٨٩
- الضرب الثاني — في مخالفها وقراها ٢٩٠
- الجملة الثالثة — في ذكر ملوك المدينة وأمرائها ؛ وهم عليّ ضريين ... ٢٩٣

صفحة

الضرب الأول — من قبل الإسلام؛ وهم ثلاث طبقات ... ٢٩٣

الطبقة الأولى — التبابعة ... ٢٩٣

الطبقة الثانية — العاقبة من ملوك الشام ... ٢٩٣

الطبقة الثالثة — ملوكها من بني اسرائيل، ومن انضم اليهم من

الأوس والخزرج ... ٢٩٤

الضرب الثاني — من في زمن الإسلام؛ وهم أربع طبقات ... ٢٩٥

الطبقة الأولى — من كان بها في صدر الإسلام ... ٢٩٥

الطبقة الثانية — عمال الخلفاء من بني أمية ... ٢٩٥

الطبقة الثالثة — عمالها في زمن خلفاء بني العباس ... ٢٩٧

الطبقة الرابعة — أمراء الأشراف من بني حسين ... ٢٩٨

الجملة الثالثة — (الرابعة) في ترتيب المدينة المنورة ... ٣٠٢

الباب الرابع — من المقالة الثانية في الممالك والبلدان المحيطة بمملكة

الديار المصرية؛ وفيه أربعة فصول ... ٣٠٥

الفصل الأول — في الممالك والبلدان الشرقية عنها، وما يخترط في سلكها

من شمال أو جنوب؛ وفيه أربعة مقاصد ... ٣٠٥

المقصد الأول — في الممالك الصائرة إلى بيت جنكرخان؛ وفيه جملتان ... ٣٠٥

الجملة الأولى — في التعريف باسم جنكرخان ومصير الملك اليه ... ٣٠٥

الجملة الثانية — في عقيدة جنكرخان وأتباعه في الديانة إلى أن أسلم من

أسلم منهم ... ٣١٠

المهيح الثاني — (لعله المقصد الثاني) في ذكر ممالك بني جنكرخان على

التفصيل؛ وهي مملكتان ... ٣١٣

صفحة

- ٣١٣ مملكة إيران ولها؛ جانبان : جنوبي وشمالى
- ٣١٤ الجانب الأول — الجنوبي، ويشتمل على ستة أقاليم
- ٣١٤ الإقليم الأول — الجزيرة الفراتية
- ٣٢٧ الإقليم الثانى — العراق؛ وله قواعد ومدن
- ٣٢٨ القاعدة الأولى — بابل
- ٣٢٩ للقاعدة الثانية — المدائن
- ٣٣٠ القاعدة الثالثة — بغداد
- ٣٣٢ القاعدة الرابعة — سرّ من رأى
- ٣٣٨ الإقليم الثالث — خوزستان والأهواز
- ٣٤٣ الإقليم الرابع — فارس
- ٣٤٨ الإقليم الخامس — كرمان
- ٣٥٠ الإقليم السادس — سجستان والرخج
- ٣٥٢ الجانب الثانى — من مملكة إيران — الشمالى، ويشتمل على عدة أقاليم
- ٣٥٣ الإقليم الأول — أرمينية
- ٣٥٦ الإقليم الثانى — أذربيجان؛ وبها ثلاث قواعد
- ٣٥٦ القاعدة الأولى — أردبيل
- ٣٥٧ القاعدة الثانية — تبريز
- ٣٥٨ القاعدة الثالثة — السلطانية، وأسمها قنغرلان
- ٣٦٠ الإقليم الثالث — أزان؛ ولها قاعدتان
- ٣٦١ القاعدة الأولى — بردعة

صفحة	
٣٦١	القاعدة الثانية — تفليس
٣٦٥	الإقليم الرابع — بلاد الجبل
٣٧٩	الإقليم الخامس — بلاد الديلم
٣٨٠	الإقليم السادس — الجبل، وفيه قواعد
٣٨٢	القاعدة الأولى — پومن
٣٨٢	القاعدة الثانية — تؤولم
٣٨٣	القاعدة الثالثة — كسكر
٣٨٤	الإقليم السابع — طبرستان
٣٨٦	الإقليم الثامن — مازندران
٣٨٨	الإقليم التاسع — قومس
٣٨٩	الإقليم العاشر — خراسان
٣٩٦	الإقليم الحادي عشر — زابلستان
٣٩٨	الإقليم الثاني عشر — الغور
٣٩٩	الجملة الثالثة — في الأيام المشهورة
٤٠٢	الجملة الرابعة — في الطرق الموصلة إلى قواعد هذه المملكة
٤٠٥	الجملة الخامسة — في بعض مسافات بين بلاد هذه المملكة
	الجملة السادسة — فيما بهذه المملكة من النفائس العلية القدر، والعجائب الغريبة الذكر، والمتزهات المرتفعة
٤٠٨	الصيت
	الجملة السابعة — في ذكر من ملك مملكة إيران جاهلية وإسلاماً
٤١١	وهم عليّ ضربين

صفحة

- الضرب الأول — ملوكها قبل الإسلام، وهم على أربع طبقات ٤١١
- الطبقة الأولى — الفيشدازية ٤١١
- الطبقة الثانية — الكيانية ٤١٢
- الطبقة الثالثة — الاشغانية ٤١٣
- الطبقة الرابعة — الأكاسرة ٤١٤
- الضرب الثاني — ملوكها بعد الإسلام، وهم على ثلاث طبقات ٤١٦
- الطبقة الأولى — عمال الخلفاء ٤١٦
- الطبقة الثانية — خلفاء بني العباس ٤١٧
- الطبقة الثالثة — ملوكها من بني جنكرخان ٤١٩
- الجملة الثامنة — في معاملاتها وأسعارها ٤٢٢
- الجملة التاسعة — في ترتيب هذه المملكة، على ما كانت عليه، في زمن
بني هولوكو ٤٢٣
- الجملة العاشرة — فيما لأرباب المناصب والجند، من الرزق على
السلطان ٤٢٥
- الجملة الحادية عشرة — في ترتيب أمور السلطان، بهذه المملكة ٤٢٦
- الجملة الثانية عشرة — فيما يتعلق بترتيب ديوان الإنشاء بهذه المملكة ٤٢٨
- المملكة الثانية — مما بيد بني جنكرخان، مملكة توران، وفيها سبع حمل ٤٢٩
- الجملة الأولى — في ذكر حدودها وطولها، وعرضها وموقعها من الأقاليم
السبعة ٤٣٠
- الجملة الثانية — فيما يدخل في هذه المملكة من الأقاليم العرفية، وهي
سبعة ٤٣١

صفحة	
٤٣١	الإقليم الأول — ماوراء النهر
٤٣٩	الإقليم الثاني — تركستان
٤٤٢	الإقليم الثالث — طخارستان
٤٤٣	الإقليم الرابع — بدخشان
	الجملة الثالثة — في الطرق الموصلة إليها ، وبعض المسافات
٤٤٤	الواقعة بين بلادها
	الجملة الرابعة — في عظام الأنهار الواقعة في هذا القسم من مملكة
٤٤٤	توران
٤٤٥	الجملة الخامسة — في معاملاتها وأسعارها
	الجملة السادسة — في من ملك هذا القسم من مملكة توران، وملوكها
٤٤٥	في الإسلام على طبقتين
٤٤٦	الطبقة الأولى — ما هو عقيب الفتح
٤٤٩	الطبقة الثانية — ملوكها من بني جنكرخان
٤٥٠	الجملة السابعة — في ترتيب هذه المملكة، وحال عساكرها
٤٥١	القسم الثاني — من مملكة توران خوارزم والقبجاق؛ وفيه ثمان جمل
٤٥٢	الجملة الأولى — في ذكر حدود هذه المملكة ومساقها
٤٥٣	الجملة الثانية — فيما أشتمت عليه من الأقاليم
٤٦٧	الجملة الثالثة — في ذكر الأنهار العظام والبحيرات الواقعة في هذه المملكة
٤٦٩	الجملة الرابعة — في الطرق الموصلة الى هذه المملكة
٤٧٠	الجملة الخامسة — في الموجود بها
٤٧٠	الجملة السادسة — في المعاملات والأسعار بها

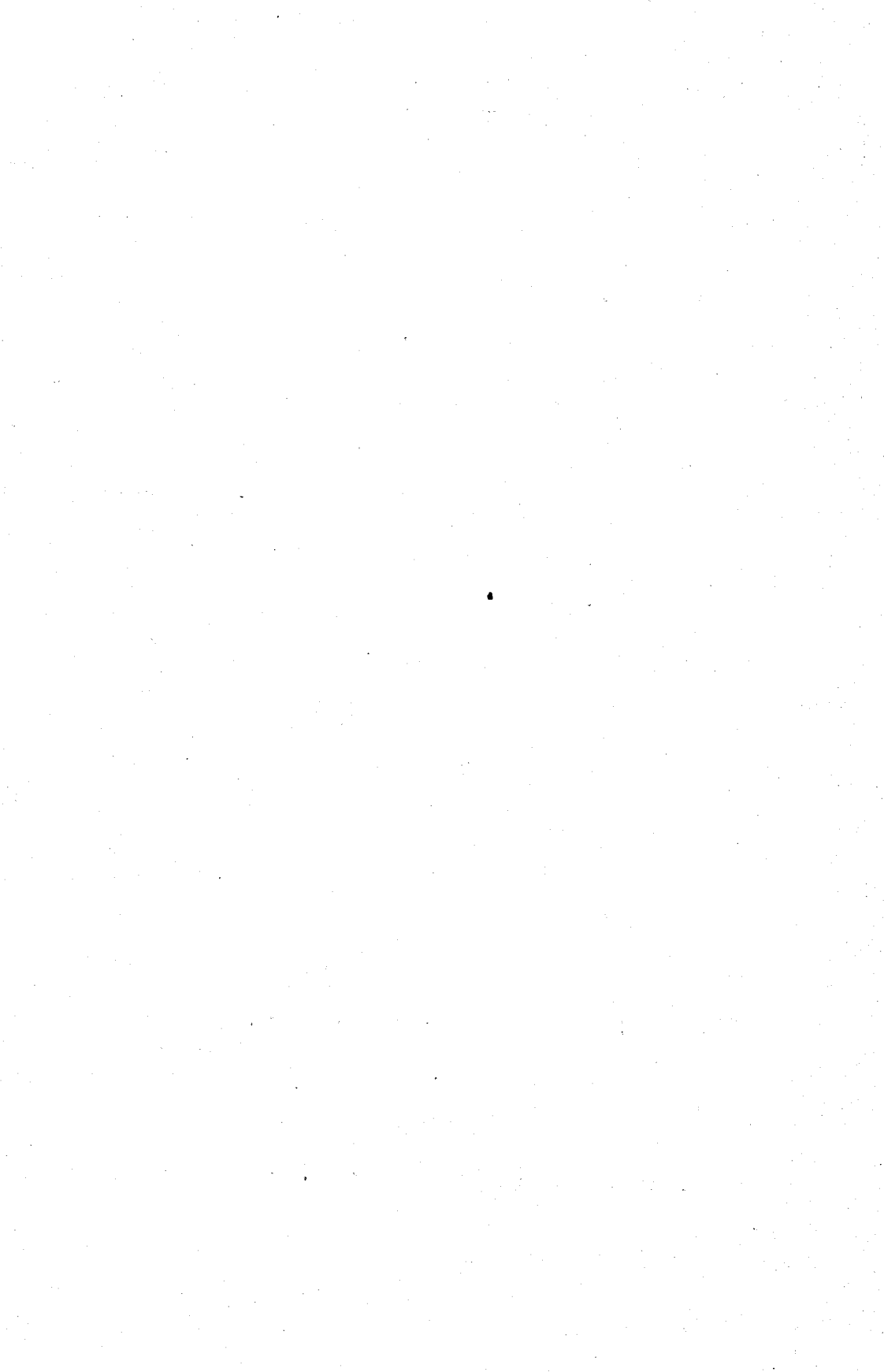
- الجملة السابعة — في ذكر ملوك هذه المملكة... ٤٧١
 الجملة الثامنة — في مقدار عسكر هذه المملكة... ٤٧٥
 القسم الثالث — من مملكة توران مملكة القان الكبير؛ وفيها خمس
 (ست) جمل... ٤٧٧
 الجملة الأولى — فيما اشتمت عليه هذه المملكة من الأقاليم... ٤٧٨
 الإقليم الأول — الصين... ٤٧٩
 الإقليم الثاني — بلاد الخطا... ٤٨٣
 الجملة الثانية — في معاملة هذه المملكة وأسعارها... ٤٨٤
 الجملة الثالثة — في الطريق الموصل إلى هذه المملكة... ٤٨٤
 الجملة الرابعة — في ذكر ملوكها... ٤٨٥
 الجملة الخامسة — في عسكره... ٤٨٦
 الجملة السادسة — في ترتيب هذه المملكة... ٤٨٦

(تم فهرست الجزء الرابع من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الخامس

وأوله المقصد الثاني

في ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية



صنعة الأندلس

الجزء الخامس



تآزر الكتل الخديوية

كتاب

صنح الألسنة
٢٠١٢
١٤٧

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الخامس

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وصلی اللہ وسلم علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ

المقصد الثاني

(في ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية)

قد تقدم في الكلام على مملكة الديار المصرية ومضافاتها ذكر جزيرة العرب، وأنه يحدها: من جهة الغرب بحر القلزم، ومن جهة الجنوب بحر الهند، ومن جهة الشرق بحر فارس، ومن جهة الشمال الفرات. وأنها تحوى الحجاز ونجدا وتامة واليمن واليمامة والبحرين، وقطعة من بادية الشام، وقطعة من بادية العراق.

وتقدم هناك الكلام على ما هو مضاف إلى مملكة الديار المصرية منها. منها مكة، والمدينة، على الحال بها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، والينبع، وما هو من بادية الشام كتدمر ونحوها.

والمقصود هنا الكلام على باقي أقطارها، التي لم تدخل في مضافات الديار المصرية.

ويتوجه المقصد منها إلى ثلاثة أقطار:

القَطْرُ الْأَوَّلُ

(الْيَمَنُ)

قال في "اللباب": بفتح المشاة التحتية والميم وفي آخرها نون . قال : وينسب إليه يَمَنِيٌّ وَيَمَانِيٌّ . وهو قطعة من جزيرة العرب : يَحُدُّهَا من الغرب بحر القَزْمُ ، ومن الجنوب بحر الهند ، ومن الشمال بحر فارس ، ومن الشرق حدود مكة حيث الموضع المعروف بِطَلْحَةِ الْمَلِكِ ، وما على سَمْتِ ذلك إلى بحر فارس .

وقد وردت السَّنة بتفضيله بقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : "الْإِيْمَانُ يَمَانٍ" .

وَأَخْتَلَفَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَتِهِ بِالْيَمَنِ فَقِيلَ : سُمِّيَ بِيَمَنِ بْنِ قَطَانَ . وقيل : إن قَطَانَ نَفْسَهُ كَانَ يُسَمَّى بِيَمَنِ . وقيل : سُمِّيَ بِيَمَنِ بْنِ قَيْدَارٍ . وقيل : سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ عَنِ يَمِينِ الْكَعْبَةِ . قال "أبن الكلبي" : سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِتِيَامِنِهِمْ إِلَيْهَا . قال "أبن عباس" (١) أَسْتَبَّ النَّاسُ وَهَمَّ الْعَرَبُ فْتِيَامَنُوا إِلَى الْيَمَنِ فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ . وقيل : تِيَامَنَتْ بَنُو بَقَطْنٍ إِلَيْهَا فَسُمِّيَتْ بِذَلِكَ . وقيل : لَمَّا كَثُرَ النَّاسُ بِمَكَّةَ وَتَفَرَّقُوا عَنْهَا ، التَّامَّتْ بَنُو يَمَنِ إِلَى الْيَمَنِ وَهُوَ أَيْمَنُ الْأَرْضِ .

وهو إقليم متسع له ذِكْرٌ فِي الْقَدِيمِ ، وَبِهِ كَانَ قَوْمٌ سَبِيًّا الْمَنْصُوصُ خَبْرُهُمْ فِي سُورَةِ "سَبِيًّا" وَبَلْقَيْسُ الْمَذْكُورُ عَرُشُهَا فِي سُورَةِ "النمل" .

وقد ذكر "البكري" أن عَرْضَهُ سِتُّ عَشْرَةَ مَرِحَلَةً ، وَطَوْلُهُ عَشْرُونَ مَرِحَلَةً . قال في "مسالك الأبصار" : وله ذكر قديم . قال : وهو كثير الأمطار ، ولكن لا تَنْشَأُ مِنْهُ الشُّحْبُ ، وَيَمْطُرُ الْمَطَرُ فِي الْغَالِبِ مِنْ وَقْتِ الزَّوَالِ إِلَى أُخْرِيَّاتِ النَّهَارِ .

(١) عبارة "ياقوت" عن أبن عباس تفرقت العرب فن تيامن منهم سميت اليمن .

قال الحكيم "صلاح الدين محمد بن البرهان": وأكثر مطره في أخريات الربيع إلى وسط الصيف . وهو إلى الحز أميل ، وبه الأنهار الجارية ، والمروج الفيح ، والأشجار المتكاثفة في بعض أماكنه ، وله ارتفاع صلاح من الأموال ، وغالب أمواله موجبات التجار الواصلين من الهند ومصر والحبشة ، مع مالها من دخل البلاد .

وذكر عن الحكيم صلاح الدين المذكور ، أن لأهل اليمن سيادات بينهم محفوظة ، وسعادات عندهم ملحوظة ، ولأكابرها حظ من رفاهية العيش والتنعيم والتفنن في المأكل : يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان ، ويعمل فيها السكر والقلوب ، وتطيب أوانيها بالعطر والبحور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفي بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والحصيان من الهند والحبوش ، ولهم الديارات الجليلة ، والمباني الأنيقة ، إلا الرخام ودهان الذهب واللازورد ، فإنه من خواص السلطان ، لا يشاركه فيه غيره من الرعايا . وإنما تفرش دور أعيانهم بالخافق ونحوه ، على أن ابن البرهان قد غص من اليمن في أثناء كلامه فقال : وأسم اليمن أكبر منه ، لا تعد في بلاد الحصب بلاده .

وذكر في "مسالك الأبصار" أنه ليس باليمن أسواق مرضية دائمة ، إنما يقام لها سوق يوم الجمعة : تجلب فيه الأجلاب ، ويخرج أرباب الصنائع والبضائع بضائعهم وصنائعهم : فيبيع من يبيع ، ويشتري من يشتري ، من أعوزه شيء في وسط الجمعة لا يكاد يجده إلا المأكل .

ثم اليمن على قسمين :

القسم الأول

(التَّهائم)

وهي المنخفض من بلاده . قال في "مسالك الأبصار" : وهي باردة الهواء
طيبة المسكن . وفيه أربع جُمَلٍ :

الجملة الأولى

(في ذكر ما أشتمل عليه من القواعد والمدن)

قال في "مسالك الأبصار" : وهو يشتمل على عدة بلاد ، وقلاع ، وحصون حصينة ،
ولكن يفصل البر ما بين بعضها عن بعض . وبه قاعدتان :

القاعدة الأولى

(تعز)

وهي مصيَّف صاحب اليمن . قال في "تقويم البلدان" : بكسر المشاة من فوق^(١)
والعين المهملة وزاي معجمة في الآخر . وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم
السبعة . قال : والقياس حيث الطول خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض
ثلاث عشرة درجة وأربعون دقيقة . قال : وهي في زماننا هذا مقر ملوك اليمن
(يعني من أولاد رسول الآتي ذكرهم في الكلام على ملوكه) .

ثم قال : وهي حصن في الجبال ، مُطلٌّ على التَّهائم وأراضي زبيد ، وفوقها مئذنه
يقال له مهلة ، قد ساق له صاحب اليمن الميساء من الجبال التي فوقها ، وبني فيها
أبنية عظيمة في غاية الحسن في وسط بستان هناك .

(١) ضبطها ياقوت في معجم البلدان بفتح التاء ، وكسر العين وقال المجد كقول .

قال في "الروض المعطار" : ولم تزل حصنا للملوك . قال : وهو بلد كثير الماء ، بارد الهواء ، كثير الفاكهة . قال : ولسطانهم يستأن يعرف بالينعات ، فيه قبة ملوكية ، ومقعد سلطاني ، فُرُشهما وأزرها من الرُحام الملتون ، وبهما عمدة قليلة المثل ، يجري فيهما الماء من نفات تملأ العين حُسنا ، والأذن طربا ، بصفا نيرها ، وطيب تحريها ، وترمي شبابيكهما على أشجار قد نُقلت إليه من كل مكان : تجمع بين فواكه الشام والهند ؛ لا يقف ناظر على بستان أحسن منه جمعا ، ولا أجمع منه حُسنا ، ولا أتم صورة ولا معنى .

القاعدة الثانية

(زَيْدُ)

وهي مشتي صاحب اليمن من بني رسول . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الزاي المعجمة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت ودال مهملة . وهي مدينة من تهائم اليمن . قال في "العبر" : بناها محمد بن إبراهيم ، بن عبيد الله ، بن زياد ، ابن أبيه في خلافة المأمون . وموقعها في أوائل الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وستون درجةً وعشرون دقيقةً ، والعرض أربع عشرة درجةً وعشر دقائق . قال في "العبر" : وهي مدينة مسورة ، وبها كان مقام بني زياد ملوك اليمن ، وهم الذين بنوها ، ثم غلب عليها أبو الصليحي . ثم صارت قاعدة بني رسول . وهي قصبة التهائم ، وهي مبنية في مستو من الأرض . عن البحر على أقل من يوم ، وماؤها من الآبار ، وبها نجيل كثيرة ، وعليها سور ، وفيها عمانية أبواب .

قال البيروني : وهي فُرْضة اليمن ، وبها مجتمع التجار من الحجاز ومصر والحبشة ،
ومنها تخرج بضائع الهند والصين . قال المهلب : ولها ساحل يعرف بغلا فقة ،
وبينهما خمسة عشر ميلا .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي شديدة الحر لا يبرد ماؤها ولا هواؤها ، وهي
أوسع رُقعة وأكثر بناء ، ولها نهر جارٍ بظاهرها ، ومساكن السلطان فيها في نهاية
العظمة من فرش الرخام والسقوف .

وباليمن عدة مدن سوى القواعد المتقدمة الذكر .

منها (عدن) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح العين والبدال المهملتين ونون
في الآخر . وهي من تهائم اليمن . قال : وهي خارجة إلى الجنوب عن الإقليم الأول
من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة ،
والعرض تسع عشرة درجة . قال في "الروض المعطار" : وأول من نزلها عدن
أبن سبأ فعرفت به . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها عدن أنين - بفتح الهمزة
وسكون الباء الموحدة وفتح المشاة التحتية ثم نون - وقال في "المشترك" : عن سيبويه
بكسر الهمزة ، وهو رجل من حمير أضيفت إليه عدن . قال في "العبر" : وهو أنين
ابن زهير ، بن العوث ، بن أيمن ، بن الهميسع ، بن حمير .

وذكر "الأزهري" أن سبب تسميتها بذلك أن الحبشة [عبرت] في سفنهم إليها ،
وخرجوا منها فقالوا (عدونه) يريدون خرجنا ، فسميت عدن لذلك . وقيل مأخوذة
من قولهم عدن بالمكان إذا أقام به . وهي على ساحل البحر ذات حط وإقلاع .
قال في "مسالك الأبصار" : وهي أعظم المراسي باليمن ، وتكاد تكون ثلثة تعز

وَزَيْدٍ فِي الدَّكْرِ، وَبِهَا قَلْعَةٌ حَصِينَةٌ مَبْنِيَّةٌ، وَهِيَ خِرَانَةُ مَالِ مَلُوكِ أَيْمَنِ، إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ بِهَا زَرْعٌ وَلَا ضَرْعٌ، وَهِيَ فُرْضَةُ الْيَمَنِ، وَمَحَطُّ رِحَالِ التُّجَّارِ، لَمْ تَزَلْ بِلَدِّ تِجَارَةِ مَنْ زَمَنِ التَّبَاعَةِ وَإِلَى زَمَانِنَا، عَلَيْهَا تَرِدُ الْمَرَكَبُ الْوَاصِلَةُ مِنَ الْحِجَازِ وَالسَّنْدِ وَالْهِنْدِ وَالصِّينِ وَالْحَبْشَةِ، وَيَتِمَّزُ أَهْلُ كُلِّ إِقْلِيمٍ مِنْهَا مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ إِقْلِيمُهُمْ مِنَ الْبَضَائِعِ . قَالَ "صَلَاحُ الدِّينِ بْنِ الْحَكِيمِ": "وَلَا يَخْلُو أَسْبُوعٌ مِنْ عِدَّةِ سُنَنِ وَتِجَارٍ وَارْدِينَ عَلَيْهَا، وَبَضَائِعَ شَتَّى وَمَتَاجِرَ مَنُوعَةً، وَالْمَقِيمُ بِهَا فِي مَكَاسِبِ وَافِرَةٍ، وَتِجَارَتِ مَرْبُوحَةٍ، وَلِحَظِّ الْمَرَكَبِ عَلَيْهَا وَإِقْلَاعِهَا مَوَاسِمٌ مَشْهُورَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ تَاخُودَةَ السَّفَرِ بِمَرْكَبٍ إِلَى جِهَةِ مَنْ الْجِهَاتِ، أَقَامَ فِيهَا عَامًا بَرَنَكَ خَاصًّا بِهِ، فَيَعْلَمُ التُّجَّارُ بِسَفَرِهِ، وَيَتَسَامَعُ النَّاسُ فَيَبْقَى كَذَلِكَ أَيَّامًا. وَيَقَعُ الْأَهْتَامُ بِالرَّحِيلِ، وَتُسَارِعُ التُّجَّارُ فِي تَقْلِ أَمْتَعَتِهِمْ، وَحَوْطِهِمُ الْعَبِيدَ بِالْقَهَاشِ السَّرِيِّ وَالْأَسْلِحَةَ النَّافِعَةَ، وَتُصَبُّ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ الْأَسْوَاقُ، وَيُخْرَجُ أَهْلُ عَدَنَ لِلتَّفَرُّجِ هُنَاكَ .

قال في "العبر": "ويحيط بها من جهة شمالها على بُعد جبلٍ دائرٍ إلى البحر ينثقب فيه من طرفيه ثقبان كالبايين، بينهما على ظهر الجبل مسيرة أربعة أيام، وليس لأهلها دخول ولا خروج إلا على هذين الثقبين أو من البحر. وكان ملكها لبني معن ابن زائدة، ثم لبني زياد: أصحاب زييد، ثم أتت عنها منهم أحمد بن المكرم الصليحي، وصفا الملك فيها لبني الزريع منهم، وبقيت بأيديهم حتى ملكها منهم (توران شاه) ابن ايوب: أول ملوك اليمن من الأيوبيين، ومن الأيوبيين أنتقلت لبني رسول ملوك اليمن الآن .

وذكر في "مسالك الأبصار" عن الحكيم "صلاح الدين بن البرهان" أنه أقام بها مدة، وقال إن المقيم بها يحتاج إلى كلفة في النفقات: لأرتفاع الأسعار بها في المآكل

(١) في مادة (ن خ ذ) من القاموس "النواخذة ملاك سفن البحر أو كلاؤهم معرفة الواحدة ناخذة" فافطره .

والمشارب ، ويحتاج المقيم بها إلى ما يتبرّد به في اليوم مرّاتٍ في زمن قوّة الحرّ .
قال : ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ، ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية .
ومنها (ظفّار) . قال في "تقويم البلدان" : يفتح الظاء المعجمة والفاء وألف وراء
مهمله . قال : وهي من تهائم اليمن ، من أوائل الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة .
قال في "القانون" : حيثُ الطولُ سبع وستون درجةً ، والعرضُ ثلاث عشرة
درجة وثلاثون دقيقة .

قال السهيليّ : وهي مدينة عظيمة ، بناها مالك بن أبرهة ذي المنار . وذكر
في "العبر" أنها كانت دار ملك التبابعة ، وحرّبها أحمد الناحوذة سنة تسع عشرة
وستائة لأنها لم يكن لها مرّسى ، وبني على الساحل مدينة ظفّار باضم ،
وسمّاها الأحديّة .

قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة على ساحل خور قد خرج من البحر
الجنوبيّ وطعن في البر في جهة الشمال نحو مائة ميل ، ومدينة ظفّار على طرفه ،
ولا تخرج المراكب من ظفّار في هذا الخور إلا بريح البرّ ، ويقلّع منها في الخور المذكور
إلى الهند . قال : وهي قاعدة بلاد الشحر ، ويوجد في أرضها كثير من نبات الهند
كالرايح والتنبّل ، وسمّى ظفّار رمال الأحقاف التي كان بها قوم عاد ، وهي المذكورة
في القراءان ، وبينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخاً . قال : وعن بعضهم أن لها
بساتين على السواري .

قال في "مسالك الأبصار" : وهي في زماننا لأولاد الواثق ابن عم صاحب اليمن .
قال : وهم وإن أطلق عليهم اسم الملك تُواب له . وذكر أن البضائع منها تُنقل

(١) عبارة "العبر" (ج ٤ ص ٢٢٦) مدينة ضفا بضم الضاد المعجمة اه .

في زوارق حتى تخرج من خورها، ثم تُوسق في السفن . قال في "العبر" : وكانت منزلة الملوك في صدر الدولتين .

ومنها (حَلِيٌّ) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الحاء المهملة وسكون اللام ثم ياء مشاة من تحت . وهي بلدة من اليمن ، واقعة في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة ، والعرض ثلاث عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أطراف اليمن من جهة الحجاز وتعرف بحلّي ابن يعقوب .

ومنها (المهجم) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وجم وميم . وهي مدينة من تهامة اليمن ، واقعة في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض ست عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أجل مدن اليمن ، وهي عن زبيد ثلاثة أيام [وهي] في الشرق والشمال عن زبيد ، وعن صنعاء على ست مراحل . قال الإدريسي : ومن عدن على ست مراحل .

ومنها (حصن التملوة) . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الدال المهملة وسكون الميم ثم لام وواو وهاء في الآخر . وهو حصن من حصون اليمن ، واقع في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال أبو العقول : حيث الطول أربع وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهو حصن في شمال عدن في جبال اليمن . قال ابن سعيد : وهو على الجبل الممتد من الجنوب إلى الشمال ، وهو خزانة صاحب اليمن ، ويضرب بامتاعه وحصانته المثل .

(١) ضبطها ياقوت في معجمه فقال - بضم أوله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو .

ومنها (الشَّرْحَة) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وجيم وهاء . وهي مينا على ساحل البحر ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" : حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض سبع عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي صغيرة وبيوتها أخصاص .

ومنها (جُبَلَة) . قال في "تقويم البلدان" : بضم الجيم وسكون الباء الموحدة ولام مفتوحة وهاء . وهي مدينة بين عدن وصنعاء ، واقعة في الإقليم الأول . قال : وقياس قول أبي العقول أنها حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض ثلاث عشرة درجة وعشر دقائق . قال : وهي على نهرين ولذلك يقال لها مدينة النهريين . قال بعض الثقات : وبينها وبين تعز دون يوم ، وهي عن تعز في الشرق بميلة يسيرة إلى الشمال .

ومنها (الجند) . قال في "اللباب" : بالجيم والنون المفتوحتين ودال مهملة في الآخر . وهي مدينة شمالي تعز ، على نحو نصف مرحلة منها ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة وثلاثون دقيقة . وهي عن صنعاء على ثمانية وأربعين فرسخا ، وعن ظفار على أربعة وعشرين فرسخا .

وقال الشريف الإدريسي : هي بين دمار وبين زييد . وهو بلد جليل به مسجد جامع يُنسب لمُعَاذِ بْنِ جَبَلِ الصَّحَابِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وعلى القرب من الجند وادي سَكُولٍ ، ومنه يسير في صحارى إلى جبل عَرَضُهُ أَحَدُ وَعِشْرُونَ فَرَسَخًا ، ثم يسير في صحراء ورمال إلى مدينة زييد . والجند بلد وخم في غاية الوخامة ، وأهله شيعة .

ومنها (سِرِّين) . قال في "اللباب" : بكسر السين المهملة وفتح الراء المهملة المشددة وسكون المثناة من تحت ونون في الآخر . وهي بلدة على تسعة عشر فرسخا من حلي ، في جهة الشمال منها ، واقعة في آخر الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : حيث الطول ست وستون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض عشرون درجة . وقال المهلبي : هي مدينة على ساحل البحر على أربعة أيام من مكة . قال الإدريسي : وهي على القرب من قرية يملم : ميقات أهل اليمن للإحرام .

ومنها (مِرْبَاط) . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الميم وسكون الراء المهملة ثم باء موحدة وألف بعدها طاء مهملة . وهي بلدة على ساحل خور ظفار المقدم ذكره . قال : وهي خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب أومنه . قال في "الأطوال" : حيث الطول اثنتان وسبعون درجة ، والعرض اثنتا عشرة درجة . قال ابن سعيد : وهي في الشرق والجنوب عن ظفار . قال الإدريسي : وقبر هود عليه السلام منها على خمسة أيام . قال في "زهة المشتاق" : ويجبال مِرْبَاط ينبت شجر اللبان ، ومنها يجهز إلى البلاد .

ومنها (بلاد مَهْرَة) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم ثم هاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر . والمراد بمهرة بنو مهرة بن حيدان : قبيلة من قبائل اليمن ، وقد بسطت القول على ذلك في كتابي المسعى "بنهاية الأرب في معرفة قبائل العرب" . وموقعها في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : وآخرها حيث الطول خمس وسبعون درجة ، والعرض ست عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وليس بها نخيل ولا زرع وإنما أموال أهلها الإبل . قال : وأسلمتهم مستعجمة لا يكاد يُوقَف عليها ، ويُنسَب إليها البُحْتُ المفضلة ، ويحمل منها اللبان إلى الآفاق .

ومنها (الشَّحْر) بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة وراء مهملة في الآخر. قال ياقوت الحموي : وهي بليدة صغيرة، ولم يزد على ذلك . والذي يظهر أن لها إقليما ينسب إليها، وإليها ينسب العنبر الشَّحْرِيُّ على ما تقدم القول عليه في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى وصفه في المقالة الأولى .

الجملة الثانية

(في ذكر حيوانه، وحبوبه، وفواكهه، ورياحينه ومعاملاته، وأسعاره)

وأنا أذكر جملة من ذلك على ما ذكره في "مسالك الأبصار" عن أبي جعفر أحمد ابن محمد المتدسي المعروف بابن غانم كاتب الإنشاء بها، وأبي محمد عبد الباقي بن عبد المجيد اليمنى الكاتب

أما حيوانه - فبه من الحيوان الخيل العربية الفائقة، والبغال الجيدة للركوب والجل، والحمر، والإبل، والبقر، والغنم، ومن الطير الدجاج، والإوز، والحمام، وفيها من الوحوش الزرافة والأسد، والغزلان، والقردة، وغير ذلك .

وأما حبوبه - فبه من الحبوب الحنطة والشعير والذرة والأرز والسَّمْسِم، وغالب قوتهم الذرة وأقله الحنطة والشعير .

وأما فواكهه فبه العنب، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والخوخ، والتوت، والموز، والليمون، والأترج، في أنواع أخرى من الفاكهة قليلة المقدار، وبه البطيخ الأخضر والأصفر .

قال ابن البرهان : وغالب ما يوجد بمصر من الفواكه يوجد باليمن ، إلا أنه بالغ في وصف السفرجل به .

وأما أسعاره فرخيّة في الغالب . وذكر ابن البرهان أن الحنطة فيه تغلّو، والخبوم فيه رخيصة .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصلة إلى اليمن)

وله طريقان : طريق في البرّ، وطريق في البحر .

أما طريقه في البرّ، فالطريق من مصر إلى مكة معروفة . قال في "تقويم البلدان" : ومن مكة إلى عدن نحو شهر . قال : ولها طريقان : أحدهما على ساحل البحر، وهو الأبعد . والثاني على تجران، وجرش، وصعدة، وصنعاء، وهو الأقرب .

وأما في البحر، فن مصر إلى السويس ثلاثة أيام في البرّ، ثم يركب في البحر إلى زبيد وعدن . وربما عدل المسافرون عن السويس إلى الطور فتطول الطريق في البرّ، وتقصّر في البحر، وربما وقع السفر إلى قوص في النيل أو في البرّ، ثم من قوص إلى عيذاب أو إلى القصير، فيركب في البحر إلى زبيد أو عدن .

الجملة الرابعة

(في ذكر ملوكة : جاهليّة وإسلاما)

أما ملوكة في الجاهلية فعلى عشر طبقات :

الطبقة الأولى

(العادية)

وهم بنو عاد بن عوص ، بن إرم ، بن سام ، بن نوح عليه السلام .
وكانت منازلهم بالأحقاف من اليمن ، وعمان من البحرين إلى حضرموت
والشحر .

وأول من ملكها منهم (عاد) المقدم ذكره . ويقال : إنه أول من ملك
من العرب وطال عمره وكثر ولده ، حتى يقال إنه ولد أربعة آلاف ولد ذكر
لصلبه ، وتزوج ألف امرأة ، وعاش ألف سنة ومائتي سنة . وقال البيهقي :
عاش ثلاثمائة سنة .

ثم ملك بعده ابنه (شديد) بن عاد .

ثم ملك بعده ابنه الثاني (شداد) بن عاد وسار في الممالك ، وأستولى على كثير من
بلاد الشام والعراق والهند ويقال إنه ملك مصر أيضا .

ثم ملك بعده ابنه (إرم) بن عاد .

والذي ذكره المسعودي أنه ملك بعد عاد بن عوص ابنه عاد بن عاد وأن جيرون
ابن سعد بن عاد كان من ملوكهم ، وأنه الذي أخط مدينة دمشق ومصرها ، وإليه
ينسب باب جيرون بها كما تقدم في الكلام عليها في مضافات الديار المصرية .

وذكر ابن سعيد : أن شداد بن بداد ، بن هداد ، بن شداد ، بن عاد غلب
قفظ بن قبط على أسافل الديار المصرية ، ثم هلك هناك ، ويقال ان ملكهم على عهد

هود عليه السلام كان اسمه الخَلْجَان بن عاد، بن رقيم، بن عاد الأكبر، ولقمان بن عاد
ابن عاديا بن صدافا بن لقمان، وكَفَّر الخَلْجَان، وأهلك الله من كفر منهم بالريح العقيم .
وَأنتقل ملك لقمان إلى ولده (لُقَيْم) وَأتصل ملك لقمان ورهطه ألف سنة أو أكثر
إلى أن غلبهم عليه يعرب بن قَطَان الآتى ذكره .

الطبقة الثانية

(الْقَحْطَانِيَّة)

وأول من ملك منهم (قَحْطَانُ) بن عابر، بن أرغشذ، بن سام، بن نوح عليه
السلام . قال المؤيد صاحب حماة : وهو أول من ملك اليمن وليس التاج .
ثم ملك بعده أبنيه (يَعْرُبُ) بن قَطَان، وغلب عادا على اليمن، وعَظُمُ ملكه .
وهو أول من حيَّاه قومه بحجة الملك، وولى أخاه حَضْرَمَوْتَ بن قَطَان على بلاد
حَضْرَمَوْتَ فعرفت به، وولى أخاه عُثْمَانَ بن قَطَان على بلاد عُثْمَانَ من البحرين
فَعُرِفَتْ به .

ثم ملك بعده أبنيه (يَشْجُبُ) بن يَعْرُب .

ثم ملك بعده أبنيه (عَبْدُ شَمْسٍ) وأكثر الغزو والسبي، فسمى سبأ، وبنى قصر
سبأ ومدينة مأرب باليمن . ويقال : إنه غزا مصر، وبنى بها مدينة عين شمس،
التي أثرها بالقرب من المطرية الآن .

ثم ملك بعده أبنيه (حَمِيرُ) خمسين سنة، وهو أول من نتوح بالذهب .

ثم ملك بعده أبنيه (وائل) . وقيل : بل ملك بعده أخوه (كهلان) .

ثم ملك بعد وائل أبنه (السَّكْسَكُ) .

ثم ملك بعده أبنه (يعقُر) بن السَّكْسَكِ .

ثم غلب على المُلْك (عامر) بن باران ، بن عوف ، بن حمير ، ويعرف
بذى رِيَّاش .

ثم ملك بعده أبنه (المُعَاوِر) وأسمه النعمان بن يعقُر المقدم ذكره .

ثم ملك بعده ابنه (أَسْمَح) ^(١) بن النعمان ، فاضطرب أمر حمير ، وصار ملكهم
في طوائف إلى أن ظهرت ملوك التَّبَايَعَة .

ويقال : إنه ملك منهم (أَبِينُ) بن زُهَيْر ، بن الغوث ، بن أيمن ، بن الهَمَيْسَع ،
وإليه تنسب عدنُّ أبِينِ على ما تقدم ذكره .

وملك منهم أيضا (عبد شمس) بن وائل ، بن الغوث ، بن حيدان ، بن قَطَّان ،
أبن عَرِيب ، بن زُهَيْر ، بن أيمن ، بن الهَمَيْسَع ، بن حمير .

وملك منهم أيضا (حَسَّانُ) بن عمرو ، بن قيس ، بن معاوية ، بن جُشَم ،
أبن عبد شمس .

ثم ملك بعده أخوه (أَقْمَانُ) . ثم أخوه (ذو شدد) : وهو ذو مَرَّانِد . ثم أبنه
(الصَّعْب) ويقال : إنه ذو القرنين . ويقال : إن بني كَهْلَانَ بن سبأِ داوُلُوا
بني حمير في الملك .

وملك منهم (جَبَّارُ) بن غالب ، بن زيد ، بن كَهْلَانَ ، وانه ملك من سُعُوبِ قَطَّان
أيضا (نَجْرَانُ) بن زيد ، بن يَعْرُب ، بن قَطَّان ، وبه عرفت نَجْرَانُ المقدم ذكرها .

(١) في "العبر" : أسمحه بتقديم الحاء على الميم .

الطبقة الثالثة

(التباينة)

إِذَا بَعْنَى أَنْ النَّاسَ يَتَّبِعُونَهُمْ كَمَا قَالَ السَّهْبِيُّ وَالزُّمَّحَرِيُّ ، وَإِذَا بَعْنَى أَنَّهُ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا كَمَا قَالَ أَبُو سَيْدَةَ . قَالَ فِي " الْعَبْر " : وَكَانَتْ مَنَازِلَهُمْ ظَفَارًا .

وَأَوَّلُ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ (الْحَارِثُ) بْنُ ذِي شَدَدٍ ، بْنُ الْمِلْطَاطِ ، بْنُ عَمْرٍو ، بْنُ ذِي يَدِيمٍ ، بْنُ الصَّوَارِ ، بْنُ عَبْدِ شَمْسٍ ، بْنُ وَائِلٍ ، بْنُ الْغَوْثِ ، بْنُ حِيدَانَ ، بْنُ قَطْنٍ ، أَبُو عَرَيْبِ بْنِ زُهَيْرٍ ، بْنُ الْغَوْثِ بْنِ أَيْمَنَ بْنِ الْهَمَيْسَعِ ، بْنُ حَمِيرٍ ، بْنُ سَبِيلٍ . وَسُمِّيَ الرَّائِسَ لِأَنَّهُ لَمَّا مَلَكَ النَّاسَ رَاشَهُمْ بِالْعِطَاءِ . قَالَ السَّهْبِيُّ - وَكَانَ مُؤْمِنًا .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (أَبْرَهَةُ ذُو الْمَنَارِ) مِائَةً وَثَمَانِينَ سَنَةً قَالَ الْمَسْعُودِيُّ . وَقَالَ أَبُو هِشَامٍ هُوَ أَبْرَهَةُ بْنُ الصَّعْبِ ، بْنُ ذِي مَرَائِدٍ ، بْنُ الْمِلْطَاطِ الْمَقْدَمِ ذَكَرَهُ ، وَسُمِّيَ ذَا الْمَنَارِ لِأَنَّهُ رَفَعَ مَنَارًا يُهْتَدَى بِهِ

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (إِفْرِيْقَشُ) بْنُ أَبْرَهَةَ مِائَةً وَسِتِّينَ سَنَةً .

وَقَالَ هِشَامُ أَبُو الْكَلْبِيِّ هُوَ إِفْرِيْقَشُ ، بْنُ قَيْسٍ ، بْنُ صَيْفِيٍّ أَخِي الْحَارِثِ الرَّائِسِ وَسَارَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ وَفَتَحَ أَفْرِيْقِيَّةَ فَعُرِفَتْ بِهِ .

ثُمَّ مَلَكَ بَعْدَهُ أَخُوهُ (عَمْرٍو الْعَبْدُ) بْنُ أَبْرَهَةَ الْمَعْرُوفِ بِذِي الْأَدْعَارِ خَمْسًا وَعِشْرِينَ سَنَةً . قَالَ الْمَسْعُودِيُّ : وَسُمِّيَ ذَا الْأَدْعَارِ لِكَثْرَةِ دُخْرِ النَّاسِ مِنْهُ . قَالَ وَكَانَ عَلِيًّا عَهْدَ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوْ قَبْلَهُ بِقَلِيلٍ .

وَقَالَ الطَّبْرِيُّ : عَمْرٍو بْنُ أَبْرَهَةَ ذِي الْمَنَارِ ، بْنُ الْحَارِثِ الرَّائِسِ ، بْنُ قَيْسٍ ، ابْنِ صَيْفِيٍّ ، بْنُ سَبِيلِ الْأَصْغَرِ .

ثم ملك بعده (الهدهاد) بن شرحبيل، بن عمرو ذى الأذعار ست سنين
أو عشر سنين، وهو ذو الصرح .

ثم ملك بعده أبنته (بليقيس) بنت الهدهاد بن شرحبيل سبع سنين وهى صاحبة
القصة مع سليمان عليه السلام .

وقال الطبرى : بليقيس هى يلقمة بنت ليشرح بن الحارث بن قيس .

ثم ملك بعدها (سليمان) عليه السلام . ثم أقاموا فى ملكه وملك بنه أربعا
وعشرين سنة .

ثم ملك (ناشر) بن عمرو ذى الأذعار . ويقال له ناشر نعم ، وربما قيل ناشر أنعم ،
سمى بذلك لإنعامه عليهم . وقال السهيلي : ناشر بن عمرو . ثم قال : ويقال له
ناشر النعم . وقال المسعودى ناشر بن عمرو ذى الأذعار . وقيل ناشر بن عمرو ،
ابن يعفر ، بن شرحبيل ، بن عمرو ذى الأذعار ، وسار إلى وادى الرمل بأقصى
الغرب ، فلم يجد وراءه مذهباً ، فنصب صنماً من نحاس ، وزبر عليه بالمسند
”هذا الصنم لناشر أنعم ، ليس وراءه مذهب ، فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب“ .

ثم ملك بعده ابنه (شمر) ^(١) مائة وستين سنة . ويقال له شمر مرعش ، سمي بذلك
لأرتعاش كان به . وقال السهيلي : شمر بن مالك ، ومالك هو الأملاك . ويقال
إنه وطئ أرض العراق وفارس وخراسان وأفتح مدائنهما ، ونحرب مدينة الصفد
وراء نهر جيحون ، فقالت العجم : شمر كند أى شمر نحرب ، وبني هناك مدينة
فسميت بذلك ، ثم عربت سمرقند . ويقال : إنه الذى بنى الخيرة بالعراق . وملك
بلاد الروم وأستعمل عليها ماهان قيصر .

(١) كذا فى ”العبر“ أيضاً وفى ”السبائك“ ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده (تبع الأقرن) ثلاثا وخمسين سنة ، وقيل ثلاثا وستين سنة وأسمه زيد ، قال المسعودي : وهو ابن شمر مرعش ، وقال الطبري : ابن عمرو ذى الأذعار . قال السهيلي : وسمى الأقرن لشامة كانت في قرنه .

ثم ملك بعده ابنه (كليكب) .

ثم ملك بعده (تبان) أسعد أبو كرب ، بن قيس ، بن زيد الأقرن ، بن عمرو ذى الأذعار ، وهو تبع الآخر . ويقال له الرائد ، وكان على عهد يستأسف أحد ملوك الفرس الكيانية وحافده أردشير ، وملك اليمن والحجاز والعراق والشام ، وغزا بلاد الترك والتبت والصين ، ويقال : إنه ترك ببلاد التبت قوما من حمير ، هم بها إلى الآن ، وغزا القسطنطينية ومر في طريقه بالعراق فتحير قومه فبنى هناك مدينة سماها الحيرة ، وقد مر الكلام عليها مع العراق في الكلام على مملكة إيران ، ويقال إنه أول من كسا الكعبة الملاء وجعل لبابها مفتاحا وأوصى ولاتها من جرهم بتطهيرها ودام ملكه ثلاثمائة وعشرين سنة .

ثم ملك من بعده (ربيعة) بن نصر ، بن الحارث ، بن نمارة ، بن لحم . ويقال ربيعة ، ابن نصر ، بن أبي حارثة ، بن عمرو ، بن عاصم . وبعضهم يعكس فيقول نصر بن ربيعة ، ثم رأى رؤيا هالته فسار بأهله إلى العراق وأقام بالحيرة ، ومن عقبه كان النعمان ابن المنذر ملك الحيرة وهو النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدى بن ربيعة بن نصر .

ثم ملك بعده (حسن ذو معاصر) بن تبان أسعد أبي كرب .

ثم ملك بعده أخوه (عمرو) بن تبان أسعد أبي كرب ويسمى الموثبان ثلاثا وستين سنة ، ومات عن أولاد صغار وأكبرهم قد استهوتة الجن ، فوثب على ملك التبابعة (عبد كلال) بن مثوب ، فملك أربعا وتسعين سنة وهو تبع الأصغر ، وله مغاز وآثار بعيدة .

ثم ملك بعده اخوه لأمه (مرثد) بن عبد كلال سبعا وثلاثين سنة .

[ثم ملك من بعده ابنه وليعة بن مرثد^(١) .

ثم ملك بعده (أبرهة بن الصَّباح) بن لهيعة ، بن شيبه ، بن مرثد ، بن نيف
أبن مَندى كرب ، بن عبد الله ، بن عمرو ، بن ذى أصبح الحارث ، بن مالك ،
وقيل إنما ملك تهمامة فقط .

ثم ملك بعده (حسان بن عمرو) بن تبع ، بن كليكب سبعا وخمسين سنة .
ثم ملك بعده (لُحَيْعَة) بن يئوف ذو شناتر سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده (ذونؤاس زُرْعَة) تبع بن تبان أسعد أبي كرب ثمانين سنة ،
ويسمى يوسف ، وكان يدين باليهودية وحمل الناس عليه .

ثم ملك بعده (ذو جَدَن) وأسمه علس بن زيد ، بن الحارث ، بن زيد الجمهور .
وقيل : علس بن الحارث ، بن زيد ، بن العوث ، بن سعد ، بن عوف ، بن عدى ،
ابن مالك ، بن زيد الجمهور ، وهو آخر ملوك اليمن من العرب . وقيل غير ذلك من
تقديم وتأخير وتبديل أسم بأسم .

وبالجملة فأخبار التَّبَاعَة غير مضبوطة ، وأمورهم غير محققة . قال المسعودي : ولا
يسمى أحد منهم تبعاً حتى يملك اليمن والشجر وحضرموت ، على أن الطبرى قد
ذكر أن الملك من ملوك اليمن لا يتجاوز محلافه ، وإن تجاوزه فبمسافة يسيرة .

(١) الزيادة من العبر .

الطبقة الرابعة

(الْحَبَشَةُ)

وأول من ملك منهم (أرياط) بعثه صاحب الحبشة مقدما على جيوشه حين تهود ذونواس وأحرق الإنجيل ، ففتح اليمن وأستقر في ملكه .

ثم ملك بعده (أبرهة الأشرم) وهو صاحب الفيل الذي جاء به لتخريب الكعبة .
ثم ملك بعده آبنه (يَكْسُوم) .

ثم ملك بعده أخوه (مَسْرُوق) وهو آخر ملوك اليمن من الحبشة .

الطبقة الخامسة

(الْفُرس)

وأول من ملك منهم (وهززر) وذلك أن سيف بن ذي يزن ، بن عابر ، بن أسلم ، آبن زيد ، بن غوث ، بن سعد ، بن عوف ، بن عدى ، بن مالك ، بن زيد الجمهور الحميري ، أستجاش كسرى أوشروان : ملك الفرس على مسروق بن أبرهة آخر ملوك الحبشة باليمن فأسعهف بجيش ، ففتح به اليمن وأستتابه فيه ، فقتله بعض من أستخلصه من الحبشة ، فولئ كسرى (وهززر) مكانه وهلك ، فأقام كسرى مكانه آبنه (المرزبان) ثم هلك ، فأقام مكانه (خذخسرو) بن السيجان بن المرزبان ، ثم عزله وولى على اليمن (بادان) فلم يزل به إلى أن كانت البعثة فأسلم وفشا الإسلام باليمن ، وتتابعت الوفود منه على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطبقة السادسة

(عُمّال النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ)

لما أسلم (بازَانُ) نائِبُ كَسْرِي، وَلَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعِ مَخَالِفِ
الْيَمَنِ، وَكَانَ مَنزَلُهُ بِصَنْعَاءَ : دَارِ مَمْلَكَةِ التَّبَاعَةِ، وَبَقِيَ حَتَّى مَاتَ بَعْدَ حِجَّةِ الْوَدَاعِ،
فَوَلَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبْنَهُ (شَهْرَ) بِنَ بَازَانَ عَلَى صَنْعَاءَ، وَوَلَّى عَلَى كُلِّ جِهَةٍ
وَاحِدًا مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ إِلَى أَنْ خَرَجَ (الْأَسْوَدُ الْعَنَسِيُّ) فَفَتَلَ شَهْرَ
أَبْنِ بَازَانَ، وَأَخْرَجَ سَائِرَ عُمَّالِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَمَنِ . فَلَمَّا قُتِلَ الْعَنَسِيُّ
رَجَعَ عُمَّالُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَعْمَالِهِمْ، وَأَسْتَوْلَى (قَيْسُ بْنُ عَبْدِ يَغُوثَ)
الْمَرَادِيُّ عَلَى صَنْعَاءَ، وَتُوِّفِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

ثُمَّ وَلَّى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (فَيْرُوزَ الدِّيْلَمِيَّ) .

ثُمَّ وَلَّى بَعْدَهُ (الْمُهَاجِرَ) بِنَ أَبِي أُمَيَّةَ، وَ(عَكْرَمَةَ) بِنَ أَبِي جَهْلٍ، عَلَى قِتَالِ أَهْلِ
الرِّدَّةِ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ الْيَمَنِ فِي وِلَايَةِ (يَعْلَى بْنِ مُنَبِّهٍ) .

ثُمَّ وَلَّى عَلَى بِنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي خِلَافَتِهِ (عُبَيْدُ اللهِ) بِنَ عَبَّاسٍ،
ثُمَّ أَخَاهُ (عَبْدُ اللهِ) .

ثُمَّ وَلَّى مَعَاوِيَةَ عَلَى صَنْعَاءَ (فَيْرُوزَ الدِّيْلَمِيَّ)، وَمَاتَ سَنَةَ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ
مِنَ الْهَجْرَةِ .

ثُمَّ جَعَلَ عَبْدُ الْمَلِكُ بِنُ مَرْوَانَ أَيْمَنَ فِي وِلَايَةِ الْحِجَّاجِ بِنَ يَوْسُفَ، حِينَ بَعَثَهُ لِقِتَالِ
ابْنِ الزُّبَيْرِ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَسَبْعِينَ .

ثُمَّ كَانَ بِهِ (يَوْسُفَ) بِنُ عَمْرٍو سَنَةَ ثَمَانٍ وَمِائَةٍ .

ثم لما جاءت دولة بني العباس ، ولّى السفّاح : أوّل خلفائهم على اليمن عمّه (داود) وتوفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، فوّلّى مكانه (عمر) بن زيد ، بن عبد الله ، ابن عبد المدّان ، وتوفّى سنة أربع وثلاثين ومائة ، فوّلّى السفّاح مكانه (على بن الربيع) ابن عبيد الله .

ثم في سنة ثلاث وخمسين ومائة كان عليها (يزيد) بن منصور ، ثم عزله المهديّ في خلافته ، ووّلّى مكانه (رجاء بن رَوْح) .

ثم وّلّى بعده (على بن سليمان) ثم عزله سنة اثنتين وستين ومائة ، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان) . ثم عزله سنة ثلاث وستين ومائة ، وولى مكانه (منصور بن يزيد) . ثم عزله في سنة ست وستين ومائة ، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان الربعي) . ثم ولى سليمان بن يزيد ^(١) ثانياً .

ثم وّلّى الرشيد سنة أربع وثمانين ومائة حمّادا الزبيدي .

الطبقة السابعة

(ملوكها من بني زياد)

لم تزل تواب الخلفاء متواليّة على اليمن إلى أيام المأمون ، فاضطرب أمر اليمن ، فوجه المأمون إليه (محمد بن إبراهيم) بن عبيد الله ، بن زياد ، بن أبيه ، ففتح اليمن وملكه ، وبني مدينة زييد في سنة أربع ومائتين ، ووّلّى مولاه جعفرًا على الجبال ، فعُرفت بخلاف جعفر إلى الآن .

ثم ملك اليمن بعده أبنته (إبراهيم) بن محمد [ثم أبنته زياد بن إبراهيم] ^(٢) .

(١) كذا في الأصول ولم يسبق ذكر سليمان بن زيد في ولايتها فلعله من زيادة النسخ وأن ثانياً راجع إلى عبد الله بن سليمان الخ كما يؤخذ من الكامل .

(٢) الزيادة عن "العبر وأبي الفداء" ليستقيم الكلام .

ثم ملك بعده أخوه (أبو الجَيْشِ) إِسْحَاقُ بن إبراهيم وطالت مدته، وتوفي سنة
إحدى وتسعين وثلاثمائة، وحلّف طفلاً فتولت أخته هند بنت أبي الجَيْشِ كفالته،
وتولّى معها عبدُ لأبي الجَيْشِ اسمه رشيد فبقى حتى مات، فتولّى مكانه حسين بن
سلامة (وسلامة اسم أمه) وصار وزيراً لهند وأخيراً حتى ماتا .

ثم ملكوا عليهم طفلاً اسمه (إبراهيم) وقيل (عبد الله) بن زياد، وقام بأمره عمته
وعبد من عبيد حسين بن سلامة اسمه (مرجان) ثم قبض (قيس) عبد مرجان على
الطفل وعمته في سنة سبع وأربعمائة وأستبد بالملك، ثم قُتِلَ قيس بزَيْد .

وملك بعده (نجاح) عبد مرجان أيضاً وعظم شأنه، وركب بالمظلة وضربت
السكة باسمه، وبقى حتى توفي سنة اثنتين وخمسين وأربعمائة .

وملك بعده ابنه (سعيد الأحول) بن نجاح .

ثم غلب على الملك الملك المكرم (أحمد بن علي الصليحي) في سنة إحدى وثمانين
وأربعمائة . وقيل سنة ثمانين، وأقام بزَيْد .

ثم ملكها (جياش بن نجاح) في بقايا سنة إحدى وثمانين، ومات سنة ثمان
وتسعين وأربعمائة .

[ثم ملك بعده ابنه فاتك] ^(١) ثم ملك بعده (منصور بن فاتك) بن جياش بن نجاح .

ثم ملك بعده ابنه (فاتك) بن منصور بن فاتك .

ثم ملك بعده ابن عمه (فاتك بن محمد) بن فاتك، بن جياش، بن نجاح في سنة
إحدى وثلاثين وخمسمائة، وقتل في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة . وهو آخر ملوك
بني نجاح .

(١) الزيادة من خطط المقرزي .

الطبقة الثامنة

(ملوكها من بني مهديّ)

لما قُتِلَ فاتك ، ملك بعده (علي بن مهديّ) وأستقرّ في دار الملك بزبيد في رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، ومات بعد شهرين وأحد وعشرين يوماً ، وكان مذهبه التكفير بالمعاصي وقتل من خالف مذهبه .

ثم ملك بعده أبنه (مهدي بن علي) بن مهديّ .

ثم ملك بعده أبنه (عبد النبي) بن مهدي .

ثم ملك بعده عمه ^(١) (عبد الله) بن مهدي .

ثم عاد (عبد النبي) ثانياً ، وهو آخرهم .

الطبقة التاسعة

(ملوكها من بني أيوب ملوك مصر)

وأول من ملكها منهم (شمس الدولة توران شاه بن أيوب) سيّره إليها أخوه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" صاحب الديار المصرية في سنة تسع وستين وخمسمائة ، ففتح زبيد وأسر صاحبها (عبد النبي) . ثم ملك عدن وأسر صاحبها (ياسر) وأستولى على اليمن لأخيه صلاح الدين ، ثم أستتاب توران شاه على زبيد حطّان بن كامل بن متقد الكناني ، ورجع إلى الشام في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، فأضاف إليه أخوه السلطان صلاح الدين الإسكندرية ، وبقيت توابعه باليمن يميلون إليه الأموال من زبيد إلى أن توفّي بالإسكندرية في سنة ست وسبعين

(١) صوابه "أخوه" كما في تاريخي أبي الفداء والقرماني .

ونحسائة، فاضطرب أمرُ اليمن، فوجهَ السلطانُ صلاح الدين إليه أميراً، فعزل عنه
حطّان بن كامل وتولّى مكانه، ثم توفي الأمير فعاد حطّان إلى ولايته .

ثم بعث السلطان صلاح الدين أخاه (سيف الإسلام طغتكين) بن أيوب إلى
اليمن فقبض على حطّان وأستقر في مملكة اليمن، وبقى به حتى مات بزبيد في سنة
ثلاث وتسعين ونحسائة .

ثم ملك بعده ابنه (الملك العزيز إسماعيل) فأساء السيرة فقتله أمراؤه .

وملك بعده أخوه (الناصر) صغيراً، فقام بتدبير مملكته سستقر مملوك أبيه أربع
سنين ثم مات، فترجّح أمّ الناصر غازي بن جبريل : أحد أمراء دولته وقام
بتدبيرها، ثم مات الناصر وبقى (غازي) في المملكة فقتله جماعة من العرب، فغلبت
أم الناصر على زبيد .

وكان (سليمان بن شاهنشاه) بن المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب
قد خرج فقيراً، فاتفق أن وافي اليمن فترجّح أمّ الناصر وملك اليمن فأساء السيرة،
فبعث إليه عمّه الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر، ابنه (الملك المسعود) أطسر
المعروف بأقسيس، في جيش فملك اليمن من سليمان، ثم كره المقيم فيه فسار قاصداً
الشام فتوفى بمكة، وهو آخر ملوكها من بني أيوب .

الطبقة العاشرة

(دولة بني رسول . وهم القائمون بها الان)

وأول من ملكها منهم علي بن رسول . وذلك أنه لما توفى الملك المسعود أقسيس
ابن الملك الكامل محمد، كان معه أمير اخور لاييه اسمه رسول، فلما خرج الملك

المسعود يريد الشام ، استخلف على اليمن (علي بن رسول) المذكور ، فاستقر نائبا
 باليمن لبني أيوب حتى مات سنة ثلاثين وستمائة ، ووقع في "التعريف" :
 أن المستقر في اليمن أولا هو رسول والد علي المذكور ، ولم أره في تاريخ .

ثم استقر بعد علي بن رسول المذكور في النيابة ولده الملك المنصور (عمر
 ابن علي) . ثم تغلب على اليمن وخرج عن طاعة بني أيوب ملوك مصر ، واستقل
 بملك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور ، ثم قتل في سنة ثمان وأربعين وستمائة .

وملك بعده ابنه الملك المظفر شمس الدين (يوسف بن عمر) بن علي بن رسول ،
 وصفا له ملك اليمن وطالت مدته ، وأرسل إلى الملك المنصور قلاوون صاحب
 الديار المصرية حينئذ هدية نفيسة ، وسأل أن يكتب له أمانا ، فقبلت هديته
 وكتب له بالأمان ، وقررت عليه إتاوة للملوك مصر ، وأعيدت رسله في سنة ثمانين
 وستمائة . ومات بقلعة تعز سنة أربع وتسعين وستمائة .

وملك بعده ابنه الأشرف محمد الدين (عمر بن المظفر يوسف) وبقي حتى مات
 سنة ست وتسعين وستمائة .

ثم ملك بعده أخوه الملك المؤيد (هنري الدين داود) واستمر على مواصلة ملوك
 مصر بالهدايا والتحف والضريبة المقررة عليه . وتمذهب بمذهب الشافعي
 رضي الله عنه وأشتغل بالعلم وأعتنى بجمع الكتب ، حتى أشتمت خزانته على
 مائة ألف مجلد ، وبر العلماء ، وكانت تحفه تصل إلى الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد
 رحمه الله في كل وقت ، وتوفي سنة إحدى وعشرين وسبعائة .

وملك بعده ابنه الملك المجاهد (سيف الدين علي) وكان في الايام الناصرية

”محمد بن قلاوون“ صاحب الديار المصرية ، فأساء السيرة ، فقبض عليه وخلع وحبس في سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة .

وملك بعده عمه الملك المنصور (أيوب بن المظفر يوسف) ثم قتله شيعة المجاهد ، وأعادوا الملك المجاهد . وكان الظاهر أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بحصن الدملوة المقدم ذكره فعصى عليه ، وملك عدن وغيرها . وبعث الملك المجاهد للملك الناصر ”محمد بن قلاوون“ يستصرخه على الظاهر عبد الله ، فجهز إليه العساكر فوصلت إليه سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فأوقعوا الصلح بينهما على أن تكون الدملوة للظاهر المذكور ، وتمهد اليمن للمجاهد ، وأستنزل الظاهر عن الدملوة ، ثم قبض عليه وقتله .

ثم حج المجاهد سنة إحدى وخمسين وسبعمائة في أيام الملك ”الناصر حسن“
أبن محمد بن قلاوون صاحب مصر .

وكان الأمير طاز أحد أكبر أمراء الديار المصرية قد حج ، وأشيع أن المجاهد يريد كسوة الكعبة في تلك السنة ، ف وقعت الفتنة بين العسكر المصري والمجاهد ، فانهزم المجاهد ونهبت عساكره وسائر أهل اليمن ، وأسرى المجاهد صاحب اليمن وحمل إلى مصر فاعتقل بها ، ثم أطلق سنة ثنتين وخمسين وسبعمائة في دولة الصالح ، ووجه معه بالأمير قشتمر المنصوري ليوصله إلى بلاده ، فلما بلغ به الينبع ، آرتاب منه في الحرب ، فرجع به إلى مصر ، فحبس في الكرك من بلاد الشام ، ثم أطلق وأعيد إلى ملكه ، وأقام على مداراة صاحب مصر إلى أن توفي سنة ست وستين وسبعمائة .

(١) عبارة ”العبر“ فرده وحبسه بالكرك .

وملك بعده أبنه الملك الأفضل (عباس) بن المجاهد على ، فاستقام له مُلك اليمن
وبقى حتى مات سنة ثمان وسبعين وسبعائة .

وملك بعده أبنه الملك المنصور (محمد) ومات .

وملك أخوه الملك الأشرف (إسماعيل) بن الأفضل عباس ، فاستقام أمره بها ،
ثم مات .

وولى بعده أبنه ^(١) وهو بن الأشرف إسماعيل ، بن الأفضل عباس ،
أبن المجاهد على ، بن المؤيد داود ، بن المظفر يوسف ، بن المنصور عمر ، بن على ،
أبن رسول ، وهو باق باليمن إلى آخر سنة اثنتى عشرة وثمانائة .

وله مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتي ذكرها في المكتبات
إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(في ترتيب هذه المملكة على ما هي عليه في زمن بنى رسول :

ملوكها الآن : في مقدار عساكرها ، وزى جندها ، وبيان أرباب

وظائفها ، وحال سلطانها)

أما مقدار عساكرها . فقد قال في "مسالك الأبصار" : أخبرنى أفضى القضاة ،
أبو الربيع : سليمان بن محمد ، بن الصمدر سليمان (وكان قد توجه إلى اليمن ، وخدم
في ديوان الجيوش به) أن جمع جنود اليمن لا يبلغ ألفى فارس . قال : وينضاف
إليهم من العرب المدافعين في طاعته مثلهم ، وأراني جريدة للجيش تشهد بما قال .

(١) بياض في الاصل .

وذكر أن غالب جُنْدِه من الغُرباء . وتَقَلَّ عن الحَكِيم "صِلاح الدين بن البرهان" أن الإمرة عندهم قد تُطَلَّق على من ليس بأمير ، وأما الإمرة الحقيقية التي ترفع بها الأعلام والكُوسات ، فإنها لمن قَلَّ ، وربما أنه لا يتعدى عدَّة الأمراء بها عشرة نفر .

وأما زِيَّ السلطان والجُنْدُ بها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن لبَّاس السلطان وعمامة الجند باليمن أقبية إسلامية ، صِبَّة الأكام ، مرندة على الأيدي ، وفي أوساطهم مناطق مشدودة ، وعلى رؤوسهم تحائف لانس ، وفي أرجلهم الدلا كسات ، وهي أخفاف من القماش الحرير الأطلس والعتابي وغير ذلك .

قال المقر الشهابي بن فضل الله : وقد حضر علي بن عمر بن يوسف الشهابي : أحد أمراء الملك المجاهد باليمن إلى الديار المصرية ، في وحشة حصلت بينه وبين سلطانه ، وهو بهذا الزِّيَّ خلا الدلا كس فإنه قلعه ولبس الخُفَّ المعتاد بالديار المصرية ، وكان يحضر الموكب السلطاني بالديار المصرية ، وهو على هذا الزِّيَّ .

وأما شعار السلطنة ، فقد ذكر عن الحَكِيم بن البرهان أيضا أن شعار سلطان اليمن ورْدَةٌ حمراء في أرض بيضاء . قال المقر الشهابي بن فضل الله : ورأيت انا السَّنَجِقَ اليمنِيَّ ، وقد رُفِعَ في عَرَافَاتِ سِنَةِ ثَمَانٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ ، وهو أبيض فيه وردات حمراء كثيرة .

وأما أرباب الوظائف ، فنقل عن ابن البرهان أن باليمن أرباب وظائف : من النائب ، والوزير ، والحاجب ، وكاتب السر ، وكاتب الجيش وديوان المال . وبها وظائف الشاذ والولاية ، وأنه يتشبه بالديار المصرية في أكثر أحواله . قال : أما كُتَّابُ الإنشاء ثمَّ ، فإنه لا يجتمعهم رئيس يرأس عليهم يقرأ ما يرد على السلطان

ويجأوب عنه ويتلقى المراسيم وينفذها، وإنما السلطان إذا دعت حاجته إلى كتابة كُتِبَ، بعث إلى كل منهم ما يكتبه . فإذا كتب السلطان مرسوم له به، بعثه على يد أحد الخِصيان فقدمه إليه، فِعَلَّم فيه وينفذه .

قال المقر الشهابي بن فضل الله : وعادة ما يكتب عنه في ديوان الإنشاء كعادة الديار المصرية في المصطلح . قال : ورأيت علامة الملك المؤيد داود على توقيع مثلها "الشاكر لله على نعمائه" في سطر، وتحتة "داود" في سطر آخر .

وأما ترتيب أحوال السلطان ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن صاحب اليمن قليل التصدى لإقامة رسوم الموابك والخدمة والأجتماع بولاية الأمور ببابه ، فإذا احتاج أحد من أمرائه وجنده إلى مراجعته في أمر ، كتب إليه قصة يستأمره فيها ، فيكتب عليها بخطه ما يراه ، وكذلك إذا رُفِعَتْ إليه قصص المظالم هو الذي يكتب عليها بخطه بما فيه إنصاف المظلوم .

ونقل عن ابن البرهان : أن ملوك اليمن أوقاتهم مقصورة على لذاتهم ، والخلوة مع حظاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين ، فلا يكاد السلطان يرى ، بل ولا يسمع أحد من أهل اليمن خبرا له على حقيقته ، وأهل خاصته المقربون الخِصيان ؛ وله أرباب وظائف للوقوف بأمره ؛ وهو ينحوي في أموره منجى صاحب مصر : يتسمع أخباره ، ويحاول اقتفاء آثاره في أحواله ، وأوضاع دولته ؛ غير أنه لا يصل إلى هذه الغاية ، ولا تتحقق عليه تلك الراية ؛ لتقصور مدد بلاده ، وقلة عدد أجناده ؛ وللتجار عندهم موضع جليل ، لأن غالب متحصلات اليمن منهم وبسببهم ، وغالب دخله من التجار والحلابة برأ وبجرا . ولذلك كانت مملكة بنى رسول هذه أكثر مالا من مملكة الشرفاء بصنعاء وما والاها مجاورة مملكة بنى رسول البحر .

وصاحب اليمن لا ينزل في أسفاره إلا في قصور مبنية له في منازل معروفة من بلاده ،
 حيث أراد النزول بمنزلة وجد بها قصراً مبنياً ينزل به . قال : وإنما تجتمع لهم
 الأموال لقلة الكلف في الخرج والمصاريف والتكاليف ؛ ولأن الهند يمدُّهم
 بمراكبه ، ويواصلهم ببضائعه .

قال في "مسالك الأبصار" : ولا تزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام
 طوائف من أرباب الصناعات والبضائع ببضائعهم على اختلافها . قال افضى
 القضاة أبو الربيع سليمان بن الصدر سليمان : وصاحب هذه المملكة أبداً يرغب
 في العُرباء ، ويحسن تلقِّيهم غاية الإحسان ، ويستخدمهم بما يناسب كلاً منهم ،
 ويتفقدهم في كل وقت بما يأخذ به قلوبهم ويوظفهم عنده .

وذكر في "مسالك الأبصار" عن ملوك هذه المملكة : أنهم لم يزالوا مقصودين
 من آفاق الأرض ، قلَّ أن يبقى مُجيدٌ في صنعة من الصنائع إلا ويصنع لاحدهم
 شيئاً على اسمه ، ويُجيد فيه بحسب الطاقة ، ثم يجهزه إليه ويقصده به فيقائه
 إليه ، فيقبل عليه ويقبل منه ، ويحسن نُزله ، ويسني جائزته ؛ ثم إن أقام في بابه ،
 أقام مكرماً محترماً ، أو عاد محبباً مجبوراً ؛ يجزلون من نعمهم العطايا ، ويتقلون
 بكرمهم المطايا ؛ ما قصدهم قاصد إلا وحصل له من البرِّ والإيناس وتوزيع الكرامة
 ما يسليهم عن الأوطان ؛ ولكنهم لا يسمعون بعود غريب ، ولا يصفحون في زلِّ
 عن بعيد ولا قريب ؛ فإن أراد الأرتحال عن دارهم ، مكثوه من العود كما جاءهم ؛
 وخرج عنهم على أسوأ حال ، مسلواً ما استناد عندهم من نعمة ، عقاباً له على
 مفارقتهم لأبوابهم لا بئحلاً بما جادوا به . أما من قدم إليهم القول بأنه أتاهم راحلاً

لامقيا، وزائرا لامستديما، فإنهم لا يكلفونه المقام لديهم، ولا دواما في النزول عليهم؛ بل يجزلون إفادته، ويجمعون إعادته .

ثم بعد أن ذكر ما بين صاحب اليمن هذا وبين إمام الزيدية بايمن من المشاجرة والمهادنة تارةً والمفاسخة أخرى، قال : وصاحبُ اليمن لا عدو له ، لأنه محبوب ببحر زاهر وبرٍّ منقطع من كل جهة ، وللسالمة بينه وبينهم ، فهو لهذا قريُّ العين ، خالي البال ، لأيمه إلا صيد، ولا يهبجه إلا بلبال . قال : وهم مع ذلك على شدة ضيِّط لبلادهم ومن فيها ، وأحترازهم على طرفها براً وبحرا من كل جهة ، لا يخفى عليهم داخل يدخل إليها ، ولا خارج يخرج منها ؛ ومع ذلك فهو يُدارى صاحب مصر ويهاديه ، لمكان إمكان تسلُّطه عليه من البر والبحر الحجازي ؛ ولذلك آكتتب الملك " المؤيد داود " وصيةً أوصى فيها الملك الناصر " محمد بن قلاوون " صاحب الديار المصرية على أبنه الملك المجاهد على . فلما مات المؤيد نجم على أبنه المجاهد ناجم ، فبعث بوصية أبيه إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فجهز معه عسكريا إلى اليمن فمنعه من عدوه الناجم عليه ، ومكَّن له في اليمن وبسط يده فيه .

القسم الثاني

(من اليمن النجود)

وهي ما أرتفع من الأرض ؛ وبها مستقرُّ أمة الزيدية الآن . قال في "مسالك الأبصار" : وهي شديدة الحر، وقد أنطوى فيها جزء من اليمن ، وإن كان ما بيد أولاد رسول هو الجزء الوافر الأعظم . وفيه أربع جمل :

الجملة الأولى

(فيما أشتملت عليه من النواحي، والمدن، والبلاد)

قال في "مسالك الأبصار" حدّثني الحكيم صلاح الدين بن البرهان : أن اليمن منقسم إلى قسمين : سواحل ، وجبال ، وأن السواحل كلّها لبني رسول ، والجبال كلّها أو غالبها للأشراف . قال : وهي أقلّ دَخَلًا من السواحل : لمدد البحر لتلك واتصال سبيلها عنه ، وانقطاع المدد عن هذه البلاد لانقطاع سبيلها من كل جهة .

قال : وحدّثني أبو جعفر بن غانم : أن بلاد الشرفاء هؤلاء متصلة ببلاد السراة ، إلى الطائف ، إلى مكة المعظمة .

قال : وهي جبال شامخة ، ذات عيون دافقة ومياه جارية ، على قرى متصلة ، الواحدة إلى جانب الأخرى ، وليس لواحدة تعلق بالأخرى بل لكل واحدة أهل يرجع أمرهم إلى كبيرهم ، لا يضمهم ملك ملك ، ولا يجمعهم حكم سلطان ، ولا تخلو قرية منها من أشجار وعروش وذوات فواكه أكثرها العنب واللوز ، ولها زروع أكثرها الشعير ، ولأهلها ماشية أعوزتها الزرائب ، وضافت بها الحظائر .

قال : وأهلها أهل سلامة وخير وتمسك بالشرعية ووقوف معها ، يعضون على دينهم بالتواجد ، ويقرون كلّ من يتر بهم ، ويضيّفونه مدة مقامه حتى يفارقهم . وإذا ذبحوا الضيفهم شاء ، قدموا له جميع لحمها ورأسها وأكارعها وكبدتها وقلبها وكرشها ، فيأكل ويحمل معه ما يحمل . ولا يسافر أحد منهم من قرية إلى أخرى إلا برفيق يسترفقه منها فيخفره ، لوقوع العداوة بينهم .
ثم هي تستعمل على عدّة حصون وبلاد مُحَصَّبة .

وقاعدتها مدينة (صنعاء) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الصاد المهملة وسكون
 النون وعين مهملة وألف ممدودة . وهي مدينة من نُجُود اليمن ، واقعة في أوائل الإقليم
 الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الاطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة ،
 والعرض أربع عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال في "الروض المعطار" : وأسمها
 الأول « أوأل » ^(١) يعني بضم الهمزة وفتح الواو من الأولية بلغتهم . فلما واقفها الحبشة
 ونظروا إلى بنائها ، قالوا : هذه صنعة ، ومعناه بلغتهم حصينة فسميت صنعاء من
 يومئذ . قال : والنسبة إليها صنعاني على غير قياس . ويقال : إنها أول مدينة
 بُنيت باليمن .

ثم اختلف : ف قيل بناها سام بن نوح عليه السلام ؛ وذلك أنه طلب مكانا
 معتدل الحرارة والبرودة فلم يجد ذلك إلا في مكان صنعاء فبنى هذه المدينة هناك .
 وقيل بنتها عاد .

قال في "تقويم البلدان" : وهي من اعظم مدن اليمن ؛ وبها اسواق ومتاجر
 كثيرة ، ولها شبه بدمشق : لكثرة مياهها وأشجارها ؛ وهواؤها معتدل ؛ وتقارب
 فيها ساعات الشتاء والصيف ؛ وفي أطول يوم في السنة يكون الشاخص عند
 الاستواء لا ظل له .

وقال في موضع آخر : تُسَمَّى بَعْلَبَكَّ في الشام ، لتمامها الحسن وحسنها التمام ؛ وكثرة
 الفواكه ، تقع بها الأمطار والبرد . وهي كرسي ملوك اليمن في القديم ، ويقال إنها
 كانت دار ملك التبابعة . قال في "الروض المعطار" : وهي على نهر صغير يأتي

(١) كذا في "العبر" أيضا والذي في معجم البلدان والقاموس في مادة أزل أن أسم صنعاء "أزال"

كسحاب أي بالزاي المعجمة فتأمل .

إليها من جبل في شمالها، ويمرّ منحدرا إلى مدينة دَمَارٍ، ويصب في البحر الهندي،
وعمارتها متصلة؛ وليس في بلاد اليمن أقدم منها عمارة، ولا أوسع منها قطرا .

قال في "تقويم البلدان" : وكانت في القديم كرسى مملكة اليمن . قال : وبها
تلٌ عظيم يعرف بعمدان، كان قصرا ينزلهُ ملوكها . قال في "الروض المعطار" :
وهو أحد البيوت السبعة التي بُنيت على أسم الكواكب السبعة ، بناه الضحّاك على
أسم الزهرة ؛ وكانت الأمم تحجّه فهدمه عثمانُ رضي الله عنه فصار تلاً عظيما .
قال في "تقويم البلدان" : وهي شرقيّ عدنَ بشمال في الجبال .

ولها عدة بلاد وحصون مضافة إليها، جارية في أعمالها .

منها (حَلَانُ) - بفتح الكاف وسكون الحاء المهملة ثم لام ألف ونون
في الآخر . وهي قلعة من عمل صنعاء على القرب منها . قال ابن سعيد : كان بها
في أول المائة الرابعة بنو يعقوب من بقايا التباينة . قال : ولم يكن لها نبأهة
في الملك إلى أن سكنها بنو الصليحيّ ، وغلب عليها الزيدية ، ثم السليمانيون بعد
بني الصليحيّ .

ومنها (نَجْرَانُ) . قال في "اللباب" : بفتح النون وسكون الجيم وراء مهملة
وألف ونون في الآخر . قال الأزهرى : وسميت بنجران بن زيد ، بن سبيل ،
ابن يشجب ، بن يعرب ، بن قيطان . وهي بلدة من بلاد قبيلة همدان ، واقعة
في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة ،
والعرض تسع عشرة درجة .

قال في "تقويم البلدان" : وهي بليدة فيها نخيل ، بين عدن وحضرموت ،
في جبال بين قرى ومدائن وعمائر ومياه ؛ تشتمل على أحياء من اليمن ؛ وبها يُنخذ

الأدم، وهي شرقيّ صنعاء بشمال، وبها أشجار، وبينها وبين صنعاء عشر مراحل، ومنها إلى مكة عشرون يوماً في طريق معتدل . وجعلها صاحب الكيام صُفعا مفردا عن اليمن .

ومنها (صعدة) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ودال مهمله وهاء في الآخر . قال في "الروض المعطار" : والنسبة إليها صاعدى على غير قياس . قال في "القانون" : وتسمى (غَيْل) أيضا . وهي بلدة على ستين فرسخا من صنعاء ، وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست عشرة درجة . قال في "العريزي" : وهي مدينة عامرة أهلة خصبة ، وبها مدايق الأدم وجلود البقر، التي تُتخذ منها النعال .

ومنها (خيوان) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الخاء المعجمة وسكون المشناة من تحت وفتح الواو، ثم ألف بعدها نون . وهي صُفَع معروف باليمن ، واقع في الإقليم الأول . قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وستون درجة وإحدى وعشرون دقيقة ، والعرض خمس عشرة درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلاد تشتمل على قري ومزارع ومياه، معمورة بأهلها، وبها أصناف من قبائل اليمن . قال المهلبى : وهي طرف منازل بني الضحّاك من بني يعفر من بقايا التبابعة ، وماؤها من السماء . قال الإدريسي : وبينها وبين صعدة ستة عشر فرسخا . وقال المهلبى : بينهما أربعة وعشرون ميلا .

ومنها (جرش) . قال في "تقويم البلدان" : بضم الجيم وفتح الراء المهملة وشين (١) [معجمة] في الآخر . وهي بلدة باليمن ، موقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة .

(١) الزيادة عن التقويم .

قال في "الأطوال": حيث الطول سبع وستون درجةً ونحسون دقيقة، والعرض سبع عشرة درجة . وهي بلدة بها نخيل ، مشتملةً على أحياء من اليمن ، ويُتخذ بها الأدم الكثير . قال في "الغريزي" : وهي بلدة صالحة ، وحوها من شجر القرظ مالا يُحصى ، وبها مدابغ كثيرة . قال الإدريسي : وهي مدينة تجران متقاربتان في المقدار والعمارة ، ولها مزارعٌ وضياعٌ وبينهما ست مراحل .

ومنها (مأرب) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وهمزة ساكنة وراء مهملة مكسورة وفي آخرها باء موحدة . وذكر أنه رآها مكتوبةً في الصحاح كذلك ؛ ثم قال : والمشهور فتح الهمزة ومدّها . وهي مدينة على ثلاث مراحل من صنعاء ، واقعةً في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثمان وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي في آخر جبال حضرموت ، ويقال لها مدينة سببا ، تسمية لها باسم بانها ، وبها كان السد . قال : وكانت قاعدة التبابعة وهي اليوم حراب .

ومنها (حضرموت) . قال في "اللباب" : بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد المعجمة وفتح الراء المهملة ، وبعدها ميم مفتوحة وواو ساكنة وتاء مثناة من فوقها في الآخر . وهي ناحية من نواحي اليمن ؛ وأعمالها أعمال عريضة ، ذات شجر ونخل ومزارع .

(١) قال الأزهرى : وسميت حضرموت بحاضر ، بن سنان ، بن إبراهيم ، وكان أول من نزلها .

(١) كذا في تاريخ أبي الفدا أيضا . وفي معجم ياقوت "سميت بحاضرميت وهو أول من نزلها" .

قال صاحب "العبر" : وكانت بلاد حضرموت لعاد مع البحرين وعمان ، ثم غلبهم عليها بنو يعرب بن قطاب ، حين وثى أولاده البلاد أعطى هذه أبته حضرموت فعرفت به . والنسبة إليها حضرمي ، وقصبتها مدينة "شِبَامَ" . قال في "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف وميم ، وهم ^(١) ابن الأثير في "اللباب" : فجعل شِبَامَ قبيلة لابدا . قال في "تقويم البلدان" : وهي خارجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال في "الأطوال" : وهي حيث الطول إحدى وسبعون درجة ، والعرض اثنتا عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، وهي قلعة فوق جبل منبع فيه قُرى ومزارع كثيرة . قال في "العزيزي" : وفيه سُكَّان كثيرة . قال : وفيه معدن العقيق والحزوع . وبينها وبين صنعاء أحد وعشرون فرسخا ، وقيل إحدى عشرة مرحلة ، وبينها وبين ذمار مرحلة واحدة .

الجملة الثانية

(في الطرق الموصلة إلى هذه المملكة)

قد تقدم أن الطريق من مصر إلى مكة معروفة . قال ابن خردادبه : ثم من مكة إلى بئر ابن المرتفع ؛ ثم إلى قرن المنازل : قرية عظيمة ، وهي ميقات أهل اليمن للحج منه يُحْرِمُونَ ؛ ثم إلى الفُتُق : وهي قرية كبيرة ؛ ثم إلى صَقْر ؛ ثم إلى ثُرْبَةَ : وهي قرية كبيرة ؛ ثم إلى كُدَى ، وفيها نخيل وعيون ؛ ثم إلى رَنْيَةَ ، وفيها نخيل وعيون أيضا ؛ ثم إلى تَبَالَةَ ، وهي مدينة كبيرة فيها عيون جارية ؛ ثم إلى جَسَدَاءَ وفيها بئر ولا أهل فيها ؛ ثم إلى كَشَّة ، وهي قرية عظيمة فيها عيون وحرس ؛ ثم إلى

(١) عبارة "معجم البلدان" وظط ابن الأثير في تعليقه للسماعاني حيث قال شِبَامَ قبيلة وليست بمكان

[فلعل لفظ في اللباب من زيادة النسخ] .

بِيشة يَقْطَان ، وفيها ماءٌ ظاهرٌ وَكَرْم ، والحرس منها على ثلاثة أميال ؛ ثم إلى المَهْجَرَة ، وهي قرية عظيمة فيها عيون وفيها بين سرور راح والمَهْجَرَة طَاحَة المَلَّة : وهي شجرة عظيمة . وهناك حَدٌّ ما بين عَمَل مكة المشرفة وعَمَل اليمن ؛ ثم منها إلى عَرِيقَة ، وماؤها قليل ولا أهل فيها ؛ ثم إلى صَعْدَة ، وقد تقدّم ذكرها ؛ ثم إلى الأَعْمَشِيَّة ، وفيها عين صغيرة ولا أهل فيها ؛ ثم إلى خِيَوَان ، وقد تقدّم ذكرها ؛ ثم إلى أثافت ، وهي مدينة فيها زرع وَكَرْم وعيون ؛ ثم إلى مدينة صَنْعَاء ، وهي قاعدة هذه المملكة على ما تقدّم .

الجملة الثالثة

(فِيمَنْ مَلَكَ هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ إِلَى زَمَانِنَا)

قد تقدّم في الكلام على صنعاء أنها كانت قاعدة مُلْك التبايعه ، وقد مرّ القول عليهم في الكلام على ملوك اليمن في مملكة بنى رَسُول ، في القسم الأول من اليمن .
أما حَضْرَمَوْتُ ، فقد قال عليّ بن عبد العزيز الجُرْجَانِي : ^(١) إنه كان لهم في الجاهلية ملوك يُقَارِبُونَ مُلُوكَ التَّبَايَعَةِ فِي عُلُوِّ الصَّيْتِ وَنَبَاهَةِ الدَّكْرِ . ثم قال : وقد ذكر جماعة من العلماء أن أول من آنسَطَ يَدُهُ مِنْهُمْ ، وارتفع ذكره (عَمْرُو بْنُ الْأَشْتَبِ) ابن ربيعة ، بن يرام ، بن حَضْرَمَوْتُ ، ثم خلفه ابنه (نَمِرُ الْأَزْجِ) فملكهم مائة سنة ، وقاتل العالفقة .

ثم ملك بعده ابنه (كُرَيْبٌ ، ذُو كَرَابِ) بن نمر الأزج مائة وثلاثا وثلاثين سنة .
ثم ملك بعده (مَرْنَدُ ذُو مِرَانِ) بن كُرَيْبِ مائة وأربعين سنة ، وكان يسكن مَارِبَ ، ثم تحوّل إلى حَضْرَمَوْتُ .

(١) نقل في "العبر" ج ٢ ص ٣٠ هذه العبارة بزيادة في الملوك وبعض تغيير في أسمائهم فارجع اليه .

ثم ملك بعده ابنه (عَلْقَمَة ، ذَوْقِيْقَان) بن مرثد ذى مرثان ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده ابنه (ذوعيل) بن ذى قيقان عشرين سنة . ثم تحوّل من حضرموت إلى صنعاء وأشتتت وطأته . وهو أول من غزا الروم من ملوك اليمن ، وأدخل الحرير والديباج اليمن .

ثم ملك بعده ابنه (بدعيل بن ذى عيل) أربع سنين ، وبني بها حصونا وخلف آثارا .

ثم ملك بعده ابنه (يدنو ذوحمار) بن بدعيل بحضرموت وبحر فارس ، وكان في أيام سابور ذى الأكتاف من ملوك الفرس ، ودام ملكه ثمانين سنة ، وهو أول من اتخذ الحجاب من ملوكهم .

ثم ملك بعده ابنه (ليشراح) ذو الملك ، بن ودب ، بن ذى حمار ، بن عاد من بلاد حضرموت مائة سنة ، وهو أول من رتب المراتب ، وأقام الحرس من ملوكهم .

ثم ملك بعده (ينعم) بن ذى الملك دثار بن جذيمة .

ثم ملك بعده (ساجي) بن نمر ، وفي أيامه تغلبت الحبشة على اليمن ، وقد مرّ القول على ملكهم ثم ملك الفرس بعدهم إلى ظهور الإسلام في الكلام على ملوك اليمن في القسم الأول من اليمن ، فأغنى عن إعادته هنا .

وأما نجران وجرش ، فإنهما [كانا] بيد جرهم من القحطانية ، ثم غلبهم على ذلك بنو حمير ، وصاروا ولاية للتبابعة ، فكان كل من ملك منهم يسمى أفعى . ومنهم كان الأفعى الذى حكم بين أولاد نزار بن معد بن عدنان في قصتهم المشهورة .

ثم نزل نجران بنو مدحج ، وأستولوا عليها ، ثم نزل في جوارهم الحارث بن كعب الأزدي فغلبهم عليها ، وأنتهت رياسة بنى الحارث فيها إلى بنى الديان ، ثم صارت

إلى بنى عبد المَدَّان، إلى أن كان منهم في زمن النبي صلى الله عليه وسلم يزيد، فأسلم عليّ يد خالد بن الوليد رضى الله عنه .

وكان منهم زياد بن عبد الله بن عبد المَدَّان خال السَّفَّاح، ولأه نجران واليمامة، وخلف ابنه محمدا ويحيى، ودخلت المائة الرابعة والملك بها لبنى أبي الجُود بن عبد المَدَّان، واتصل بجيئهم وكان آجرهم عبد القيس الذى أخذ علي بن مهدي الملك من يده .

أما فى الإسلام، فقد تقدّم فى الكلام على القسم الأوّل من اليمن أيضا أنه لما ظهر الإسلام أسلم باذان نائب الفرس على اليمن، ونتاج أهل اليمن فى الإسلام، وولى النبي صلى الله عليه وسلم على صنعاء شهر بن باذان المذكور، فلما نرج الأسود العنسى، أخرج عمّال النبي صلى الله عليه وسلم من اليمن على ما تقدّم، وزحف إلى صنعاء فملكها وقتل شهر بن باذان وتزوج أمرأته . فلما قتل العنسى ورجع عمّال النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، استبد بصنعاء قيس بن عبد يعقوث المرادى، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأمر على ذلك .

ثم كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه، فولّى على اليمن (قَبْرُوزَ الدِّيَابِيَّ) ثم ولى بعده (المُهَاجِرَ بنَ أبى أُمِيَّة) . ثم توالى عمّال الخلفاء على اليمن على ما تقدّم فى الكلام على القسم الأوّل من اليمن . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن كان أوّل المائة الرابعة بعد الهجرة أو ما قاربها، فغلب على صنعاء وما والاها بنو يعفر من بقايا التبابعة . قال ابن سعيد : وكان دار ملكهم كحلان، وهى قلعة من عمل صنعاء بالقرب منها، ولم أقف على تفاصيل أحوالهم وأسماء ملوكهم .

ثم كانت دولة أئمة الزيدية القاسميين بها إلى الآن، وهم بنو القاسم الرّسى،

(١)
 ابن إبراهيم طباطبا، بن إسماعيل الديباج، بن عبد الله، بن الحسن المثنى، بن الحسن
 السبط، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .

وكان مبدأ أمرهم أن محمد بن إبراهيم طباطبا خرج بالكوفة في خلافة المأمون ،
 في سنة تسع وتسعين ومائة ودعا إلى نفسه ، وكان شيعته من الزيدية وغيرهم
 يقولون : إنه مستحق للإمامة بالتوارث من آبائه عن جدّه إبراهيم الإمام ؛ وطلب
 على كثير من بلاد العراق ، ثم تحمّدت سورتّه ، فطلب المأمون أخاه القاسم الرّسبيّ
 فهرب إلى الهند ، ولم يزل به حتى هلك سنة خمس وأربعين ومائتين ، فرجع ابنه
 الحسين بن القاسم الرّسبيّ بن إبراهيم طباطبا إلى اليمن ، فكان من عقبه هؤلاء الأئمة .

وأول من خرج منهم باليمن (يحيى بن الحسين الزاهد) بن القاسم الرّسبيّ ودعا لنفسه
 بصعده وتلقّب بالهادي ، ويوبع بالإمامة سنة ثمان وثمانين ومائتين في حياة أبيه
 الحسين ، وجمع الشيعة وغيرهم وحارب إبراهيم بن يعفر ، ويقال أسد بن يعفر ، القائم
 من أعقاب التبابعة بصنعاء وكلان ، وملك صنعاء ونجران وضرب السكة باسمه .

قال في "مسالك الأبصار" : وأستجاب الناس لندائه ، وصلّوا بصلاته وأمّنوا
 على دعائه ؛ وقام فيهم مَقاما عظيما ، وأثر فيهم من الصلاح أثرا مشهودا . قال :
 وفي ذلك يقول :

بِئْسَ حَسَنٍ إِنِّي نَهَضْتُ بِئَارَكُمْ * وَتَأْرِكَابِ اللَّهِ وَالْحَقِّ وَالسَّنَنِ
 وَصَيَّرْتُ نَفْسِي لِلْحَوَادِثِ عُرْضَةً * وَغَبْتُ عَنِ الْإِخْوَانِ وَالْأَهْلِ وَالْوَطَنِ

ثم أرتجعهما بنو يعفر منه ورجع هو إلى صعده ، فتوفّي بها سنة ثمان وتسعين
 ومائتين ، لعشر سنين من بيعته . قال ابن المحاب : وله مصنفات في الحلال

(١) في "كامل" ابن الاثير إبراهيم بدل عبد الله .

والحرام . وقال غيره ، كان مجتهداً في الأحكام الشرعية ؛ وله في الفقه آراء غريبة ،
وتأليف بين الشيعة مشهورة . قال ابن حزم : ولم يبعد في الفقه عن الجماعة
كلَّ البعد .

قال الصوليّ : ثم ولي بعده ابنه (محمد المرتضى) وتمت له البيعة ؛ فاضطرب
الناس عليه . قال في "أنساب الطالبين" : وَأَضْطَرَّ إِلَى تَجْرِيدِ السَّيْفِ بِخُرْدِهِ .
وفي ذلك يقول :

كَدَّرَ الْوَرْدَ عَلَيْنَا بِالصَّدْرِ * فِعْلٌ مِنْ بَدَلٍ حَقًّا أَوْ كَفْرًا
أَيُّهَا الْأُمَّةُ عُدِي لِلْهُدَى * وَدَعِيَ عَنْكَ أَحَادِيثَ الْبَشَرِ
عَدِمْتَنِي الْبَيْضَ وَالسُّمْرُ مَعًا * وَتَبَدَّلْتُ رُقَادًا بِسَهْرٍ
لَأَجْرَتِ عَلَى أَعْدَائِنَا * نَارَ حَرْبٍ بِضَرَامٍ وَشَرَرِ

ومات سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة لثنتين وعشرين سنة من ولايته .
وولي بعده أخوه (الناصر) فاستقام ملكه .

ثم ولي بعده ابنه (الحسين) المنتجب (بالجيم) ومات سنة أربع وعشرين وثلاثمائة .
وولي بعده أخوه (القاسم المختار) بعهد من أخيه المذكور ، وقتله أبو القاسم بن
الضحاك الهمداني سنة أربع وأربعين وثلاثمائة .

وولي بعده صعدة (جعفر الرشيد) ثم بعده أخوه (المختار) ثم أخوه (الحسن
المنتجب) ثم أخوه (محمد المهدي) .

قال "ابن المحاب" : ولم تزل إمامتهم بصعدة مطردة إلى أن وقع الخلاف بينهم
وجاء السليمانيون أمراء مكة حين غلبة الهواشم عليهم فغلبوا على صعدة في المائة
السادسة .

قال ابن سعيد : وقام بها منهم (أحمد بن حمزة) بن سليمان ، بن داود ، ابن عبد الله ، بن الحسن المثنى ، بن الحسن السبط ، وغلب على زييد وملكها من بني مهدي ، ثم أترعها بنو مهدي منه ، وعاد إلى صعدة ومات .

فولى بعده ابنه المنصور (عبد الله) بن أحمد بن حمزة ، وأمّدت يده مع الناصر لدين الله خليفة بنى العباس ببغداد ، وبعث دُعائه إلى الديلم والحبلى ، فخطب له بهما وأقيم له بهما ولاة . وكان بينه وبين سيف الإسلام بن أيوب ، ثم الملك مسعود ابن الملك الكامل حروب باليمن . وبقي حتى توفى سنة ثلاثين وستمائة عن عمر طويل .

وولى بعده ابنه (أحمد) بن المنصور عبد الله بن أحمد بن حمزة ، ولقب بالمتوكل صغيرا ولم يُخطب له بالإمامة لصغر سنه .

وكان بنو الرسي حين غلب عليهم السليمانيون بصعدة أووا إلى جبل شرق صعدة ، فلم يرحوا عنه ، والخبر شائع بأن الأمر يرجع إليهم ، إلى أن كان المتوكل أحمد من السليمانيين ، فبايع الزيدية أحمد الموطئ ، بن الحسين المنتجب ، بن أحمد الناصر ، بن يحيى الهادى ، بن الحسين ، بن القاسم الرسي ، بن إبراهيم طباطبا ، المقدم ذكره في سنة خمس وأربعين وستمائة .

وكان الموطئ فقيها أدبيا عالما بمذهبهم ، قواما صواما ، فأهمّ عمر بن علي بن رسول صاحب زييد شأنه ، فحاصره بحصن ملا سنة فلم يصل إليه ، وتمكن أمر الموطئ وملك عشرين حصنا ، وزحف إلى صعدة فغلب السليمانيين عليها ، فنزل أحمد المتوكل : إمام السليمانيين إليه ، وبايعه في سنة تسع وأربعين وستمائة ، وجم سنة خمسين وستمائة وبقي أمر الزيدية بصعدة في عقبه .

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أنه سأل تاج الدين عبد الباقي اليانيّ أحد كتّاب اليمن عن تفاصيل أحوال هذه الأئمة فقال : إن أئمة الزيديين كثيرون، والمشهور منهم المؤيد بالله، والمنصور بالله، والمهدي بالله، والمطهر يحيى بن حمزة . قال : ويحيى بن حمزة هو الذي كان آخرًا على عهد الملك المؤيد داود بن يوسف صاحب اليمن ، وكانت الهدنة تكون بينهما .

وذكر في "التعريف" أن الإمامة في زمانه كانت في بني المطهر . ثم قال : وأسم الإمام القائم في وقتنا حمزة . ثم قال : ويكون بينه وبين الملك الرسوليّ باليمن مهادنات ومفاسخات تارة وتارة . قال قاضي القضاة وليّ الدين بن خلدون في تاريخه : وقد سمعت بمصر أن الإمام بصعدة كان قبل الثمانين والسبعائة على ابن محمد من أعقابهم ، وتوفي قبل الثمانين ، ووليّ ابنه صلاح ، وابعه الزيدية . وكان بعضهم يقول فيه : إنه ليس بإمام لعدم اجتماع شروط الإمامة ، فيقول : أنا لكم على ما شئتم : إمام أو سلطان .

ثم مات صلاح آخر سنة ثلاث وتسعين وسبعائة ، وقام بعده ابنه (نجاح) وأمتنع الزيدية من بيعته . فقال : أنا محتسب لله تعالى .

قلت : وقد وهم في "التعريف" : بفعل هذه الأئمة من بقايا الحسينيين القائمين بأمل الشط من بلاد طبرستان ، وأن القائم منهم بأمل الشط بطبرستان هو الداعي المعروف بالعلوي من الزيدية ، وهو الحسن ، بن زيد ، بن محمد ، بن إسماعيل ، بن الحسن السبط ، بن عليّ ، بن أبي طالب رضى الله عنه . خرج سنة خمس وخمسين ومائتين أو ما يقاربها ، فملك طبرستان وجرجان وسائر أعمالهما ثم مات ، وقام أخوه (محمد بن زيد) مقامه . وكان لشيعته من الزيدية دولة هناك ، ثم انقرضت وورثها

الناصر الأطروش ، وهو (الحسن) بن عليّ ، بن الحسين ، بن عليّ ، بن عمر ، بن عليّ زين العابدين ، بن الحسين السبط ، بن عليّ ، بن أبي طالب ، وكان له دولة هناك .
ثم خرج عليّ الأطروش من الزيدية الداعي الأصغر ، وهو (الحسن) بن القاسم ،
أبن عليّ ، بن عبد الرحمن ، بن القاسم ، بن محمد البطحائيّ ، بن القاسم ، بن الحسن ،
أبن زيد ، بن الحسن السبط ، وجرى بينه وبين الأطروش حروب إلى أن قتل
سنة تسع عشرة وثلاثمائة ، ويجتمع الداعي الأصغر مع الداعي الأكبر في الحسن
أبن زيد ، وليس بنو الرسيّ الذين منهم أئمة اليمن من هؤلاء بوجه .

الجملة الثالثة

(في ترتيب مملكة هذا الإمام)

قال في "التعريف" بعد أن ذكر إمام زمانه : وهذا الإمام وكلّ من كان قبله
عليّ طريقة ما عدوها ، وهي إمارة أعرابية ، لا كبر في صدورها ، ولا شتم في عرائنها ،
وهم عليّ مسكة من التقوى ، وتردّ بشعار الزهد ، يجلس في ندى قومه كواحد منهم ،
ويتحدّث فيهم ويحكم بينهم ، سواءً عنده المشروف والشريف ، والقوى والضعيف .
قال : وربما آشتري سلعته بيده ، ومشى بها في أسواق بلده ، لا يغلظ الحجاب ،
ولا يكلّ الأمور إلى الوزراء والحجاب ، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير
توسّع ، ولا تكثّر [غير مشبع] ^(١) . هكذا هو وكل من سلف قبله ، مع عدل شامل ،
وفضيل كامل .

وذكر في "مسالك الأبصار" عن تاج الدين عبد الباقي اليماني الكاتب نحو ذلك ،
فقال : وأئمتهم لا يُحجّبون ولا يمتجبون ، ولا يروّن التفخيم والتعظيم ، الإمام

(١) الزيادة عن التعريف .

كواحد من شيعته : في مأكله ومشربه وملبسه ، وقيامه وقعوده ، وركوبه ونزوله ،
وعامة أموره ؛ يجلس ويحلب ، ويعود المرضى ، ويصلي بالناس وعلى الجنائز ،
ويُسبغ الموتى ، ويحضر دفن بعضهم . قال : ولشيعته فيه حُسن اعتقاد ، ويستشفون
بدعائه ، ويمترون يده على مرضاهم ، ويستسقون المطر به إذا أجذبوا ، ويالغون
في ذلك مبالغة عظيمة . قال "المقر الشهابي بن فضل الله" : ولا يكبر لإمام هذه
سيرته (في التواضع لله وحسن المعاملة لخلقه ، وهو من ذلك الأصل الطاهر ، والعنصر
الطيب) أن يُجاب دعاؤه ، ويتقبل منه . وينادى ببلاد هذا الإمام في الأذان
"بحي على خير العمل" بدل الحيعلنين ، كما كان ينادى بذلك في تأذين أهل مصر
في دولة الخلفاء الفاطميين بها . قال في "التعريف" : وأمرأ مكة تُسر طاعته ،
ولا تُفارق جماعته . قال ابن غانم : هذا الإمام يعتقد في نفسه ويعتقد أشياعه فيه
انه إمام معصوم ، مفترض الطاعة ، تتعقد به عندهم الجمعة والجماعة ؛ ويرون أن
ملوك الارض وسلاطين الأقطار يلزمهم طاعته ومبايعته ، حتى خلفاء بني العباس ؛
وأن جميع من مات منهم مات عاصيا بترك مبايعته ومتابعته . قال : وهم يزعمون
ويزعم لهم أن سيكون لهم دولة يُدال بها بين الأمم ، وتملك منتهى الهمم ؛ وأن الإمام
الحجة المنتظر في آخر الزمان منهم .

وذكر عن رسول هذا الإمام ، الواصل إلى مصر : أن الأئمة في هذا البيت أهل
علم يتوارثونه : إمام عن إمام ، وقائم عن قائم . وذكروا عن بعض من سبهم انه
فارقهم في سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة وهم لا يشكون أنه قد آن أو أن ظهورهم ،
وحان حين ملكهم . ولهم رعايا تختلف إلى البلاد ، وتجتمع بمن هو على رأيهم .
يتربصون ضعف الدولة في أقطار الأرض .

وحكى "المقر الشهابي" بن فضل الله "عن قاضي القضاة كمال الدين محمد بن الزمركاني قاضي حلب : أنه مات رجلٌ من شيعتهم بحلب ، فوجد عنده صندوقان ، ضمنهما كتبٌ من أمة هذه البلاد إلى ذلك الرجل وإلى سلفه ، يستعرفون فيها الاخبار ، وأحوال الشيعة ، والسؤال عن أناس منهم ؛ وأن في بعضها : ولا يؤخر مددٌ من هنا من إخوانكم المؤمنين في هذه البلاد الشاسعة ، وهو حق لله فيه تزكية أموالكم ، ومددٌ إخوانكم من الضعفاء وآتقوا الله و﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ يَبِينُ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ .

ونقل عن الشيخ شهاب الدين بن غانم : أنه حدّثه عند وصوله من اليمن أنّ هذا الإمام في منعة منيعة ، وذروة رفيعة ؛ وأنه يركب في نحو ثلاثة آلاف فارس ، وأن عسكره من الرحالة ، خالق لاجسم . وذكر عن أقام عندهم : أنهم أهل تجدة وبأس ، وشجاعة ورأى ؛ غير أن عددهم قليل ، وسلاحهم ليس بكثير : لضيق أيديهم ، وقلة دخول بلادهم . ونقل عن تاج الدين عبد الباقي اليمني : أن قومه معه على الطواعية والأقياد ، لا يخرج أحد منهم له عن نص ، ولا يشاركه فيما يميّز به .

قال ابن غانم : وزىّ هذا الإمام وأتباعه زىّ العرب في لباسهم والعمامة والحنك ؛ بخلاف ما تقدّم من زىّ صاحب اليمن من بنى رسول . قال الشيخ شهاب الدين بن غانم : وهذا الإمام لا يزال صاحبُ اليمن يرعى جانبيه ، وفي كل وقت تُعقد بينهما العقود ، وتكتب الهدن ، وتوثق الموائيق ، وتُستَطر الشروط .

قال في "التعريف" : وقد وصل إلينا بمصر في الأيام الناصرية (سقى الله تعالى عهدها) رسولٌ من هذا الإمام بكتاب اطلال فيه الشكوى من صاحب اليمن ، وعبد قبائحه ، وتشر على عيون الناس فضائحه ؛ وأستنصر بمدد يأتي تحت الأعلام

المنصورة لإجلاته عن دياره ، وإجرائه مجرى الذين ظلموا في تعجيل دماره .
وقال : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها ، وقاد إليها الأشراف والعرب
أجمعها ؛ ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه ، وأعطى منه ما هو إلى جانب
أرضه . قال : فكتبتُ إليه مؤذنا بالإجابة ، مؤذيا إليه ما يقتضى إعجابيه ؛ وضمن
الجواب أنه لا رغبة لنا في السلب ، وأن النصرة تكون لله خالصةً وله كل البلاد
لا قدر ما طلب .

وسياتى ذكر المكتبة إلى هذا الإمام عن الأبواب السلطانية ، في الكلام على
المكتبات ، في المقالة الرابعة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القُطر الثاني

(مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار المصرية

” بلادُ البحرين “ ” تثنية بحر)

قال في ” تقويم البلدان “ : بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وفتح الراء
المهملة وسكون المثناة من تحت ثم نون . وهى قطعة من جزيرة العرب المذكورة .
قال في ” تقويم البلدان “ : وهى ناحية من نواحي نجد ، على شطِّ بحر فارس ؛
ولها قرى كثيرة . قال : وهى (هجر) ونهايتها الشرقية الشمالية قال فى ” الأطوال “
ونهايتها من الشمال فى الإقليم الثانى حيث الطول أربع وسبعون درجة وعشرون
دقيقة ، والعرض خمس وعشرون درجةً وخمس وأربعون دقيقة .

قال فى ” المشترك “ : ويقال للبحرين هجر أيضا - بفتح الهاء والجيم ثم راء
مهملة وليست هجر مدينةً بعينها . قال الأزهرى : وإنما سميت هجر بالبحرين
ببَحيرةٍ بها عند الاحساء وبالبحر الملح يعنى بحر فارس ، والنسبة إلى البحرين

بجراني . قال الجوهري : والنسبة إلى هجر هاجري على غير قياس . قال الأزهري :
وسميت هجر بهجر بنت المكنف ، وهي التي بنتها .
وفيها ثلاث حمل :

الجملة الأولى

(فيما تشتمل عليه من المذن)

وقاعدتها (عُمان) قال في "اللباب" : بضم العين المهملة وفتح الميم ونون
في الآخر بعد الألف . قال الأزهري : وسميت بعمان بن نعان بن إبراهيم
عليه السلام ، وموقعها في الإقليم الأول . قال : وهي على البحر تحت البصرة .
قال المهلب : وهي مدينة جليلة ، بها مرسى السفن من السند والهند والزيج ، وليس
على بحر فارس مدينة أجل منها ، وأعمالها نحو ثلثمائة فرسخ . قال : وهي ديار الأزد
قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة كثيرة النخيل والقواكه ، ولكنها حارة جداً .
وكانت القصبة في القديم مدينة صحار . قال في "تقويم البلدان" : بضم الصاد
وفتح الحاء المهملتين كما في الصحاح . قال : وهي اليوم نراب .
وبها بلاد أخرى غير ذلك .

منها (الأحساء) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح
السين المهملتين وألف في الآخر . قال في "المشترك" : والأحساء جمع حسي ،
وهو رمل يغوص فيه الماء ، حتى إذا صار إلى صلابة الأرض أمسكته فتحفر
عنه العرب وتستخرجه . وموقعها في أوائل الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة .
قال في "الأطوال" : حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ،

(١) في معجم ياقوت "يفشان" وفي "العبر" سميت بعمان بن قطان أول من نزلها بولاية أخيه يعرب .

والعَرْض اثنتان وعشرون درجة . قال في "تقويم البلدان" : ذات نخيل كثير، ومياهٍ جارِيَة، ومنايِعُها حارَّةٌ شديدةُ الحرارة، ونخيلُها بقدر غُوطَةِ دِمَشق، وهو مستدير عليها، وهي في البرية، في الغرب عن القَطِيف بِمِيلَة إلى الجنوب، على مرحلتين منها . قال : وتعرف بأحساء بنى سَعْد .

ومنها (القَطِيف) . قال في "اللباب" : بفتح القاف وكسر الطاء المهملة وسكون المشناة من تحت وفاء في الآخر . وهي بلدة على مرحلتين من الأحساء من جهة الشرق والشمال، واقعة في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ ثلاث وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرض اثنتان وعشرون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي على سَطِّ بحر فارس، وبها مَغَاصُ لؤلؤ، وبها نخيل دون نخيل الأحساء . قال : وعن بعض أهلها أن لها سورا وخندقا ولها أربعة أبواب، والبحر إذا مَدَّ يصل إلى سُورِها وإذا جَزَرَ ينكشف بعضُ الأرض؛ وهي أكبر من الأحساء . قال : ولها خور في البحر تدخل فيه المراكب الكبار الموسقة في حالة المد والجزر، وبينها وبين البصرة ستة أيام، وبينها وبين عُمان مسيرة شهر .

ومنها (كاظمة) . قال في "تقويم البلدان" : بكاف وألف وظاء معجمة مكسورة وميم وهاء . قال : وهي جَوْن على ساحل البحر، بين البصرة والقَطِيف، في سَمْتِ الجنوب عن البصرة، وبينها وبين البصرة مسيرة يومين، وبينها وبين القَطِيف أربعة أيام .

الجملة الثانية

(في ذكر ملوكها)

قد ذكر صاحب "العبر": أنها كانت في القديم لعاد مع حضرموت والشحر وما والاهما، ثم غلب عليها بعد ذلك بنو يعرب بن قحطان .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصّل إليها)

قد تقدم في الكلام على مملكة إيران الطريق من مملكة مصر إلى البصرة . قال ابن خرداذبه : ثم من البصرة إلى عبّادان، ثم إلى الحدوثة^(١) ، ثم إلى عرّيفاء، ثم إلى الزابوقة، ثم إلى المغز، ثم إلى عصا، ثم إلى المعرس ، ثم إلى خليجة، ثم إلى حسان، ثم إلى القري، ثم إلى مسيلحة، ثم إلى حمص ، ثم إلى ساحل هجر ، ثم إلى العفير ، ثم إلى القطن ، ثم إلى السبحة ، ثم إلى عُمان .

وذكر لها طريقا أخرى من مكة إليها على الساحل : وهي من مكة ، إلى جدة ، إلى منزل ، ثم إلى الشعيبة ، ثم إلى المرجاب ، ثم إلى أغيار ، ثم إلى السرين ، ثم إلى مرسى حلّ ، ثم إلى مرسى ضنكان ، ثم إلى سجين ، ثم إلى مخلاف الحكم ، ثم إلى الجودة ، ثم إلى مخلاف عك ، ثم إلى غلافة ، ثم إلى مخلاف زبيد ، ثم إلى المندب ، ثم إلى مخلاف الركب ، ثم إلى المنجلة ، ثم إلى مخلاف بنى مجيد ، ثم إلى معاص اللؤلؤ ، ثم إلى عدن ، ثم إلى مخلاف لحج ، ثم إلى قرية عبد الله بن مذج ، ثم إلى مخلاف كندة ، ثم إلى الشجر ، ثم إلى ساحل همّاه ، ثم إلى عوكلان ، ثم إلى فرق ، ثم إلى عُمان . وهي طريق بعيدة .

(١) لم تتفق نسخ "ابن خرداذبه" في بعض الأماكن فتقولنا في كثير منها على الأصل .

ولعرّبها مكاتبات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ما سيأتي ذكره
في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

القُطْر الثالث

(مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار المصرية "اليمامة")

قال في "تقويم البلدان" : بفتح المثناة من تحت والميم وألف وميم وهاء
في الآخر . وهي قطعة من جزيرة العرب من الحجاز، وعليه جرى الفقهاء فحكّوا
بتحريم مقام الكُفْر بها كما بسائر أقطار الحجاز ؛ وهي في سمت الشرق عن مكة
المشرّفة . قال البيهقي : وهي ملك منقطع بعمله ؛ ويحدها من جهة الشرق
البحرين ، ومن الغرب أطراف اليمن والحجاز، ومن الجنوب نجران من نواحي اليمن ،
ومن الشمال نجد والحجاز؛ وأرضها تسمى العرّوض : لأعترضها بين الحجاز والبحرين ؛
وطولها عشرون مرحلة . وهي في جهة الغرب عن القطيف ، وبينهما نحو أربع
مراحل ، وبينها وبين مكة أربعة أيام . وسميت اليمامة باسم امرأة : وهي اليمامة
بنت سَهْم بن طَئِم ، كانت تنزلها إلى أن قتلها عبد كلال وصلبها على بابها فسميت
بها ، سمّاها بذلك تبع الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وكان اسمها في القديم
جَوْا بفتح الجيم وسكون الواو . قال في "تقويم البلدان" : وهي عن البصرة على
ستّ عشرة مرحلة ، وعن الكوفة مثل ذلك . قال في "تقويم البلدان" : وبها
من القُرب عين ماء متّسعة ومأوها سارح ، وذكر أنها [أكثرُ نخيلا من] سائر الحجاز،

(١) لعل الصواب وشد الواو .

(٢) بياض في الأصل والصحيح من التقويم .

(١)
ثم نقل عن رأها في زمانه أن بها آبارا وقليل نخل، وكأنه حكى' عما كانت
عليه في القدم، وبها واد يسمى - الخرج - بجاء معجمة مفتوحة وراء مهملة ساكنة
وجيم في الآخر، كما هو مضبوط في الصحاح .
وفيها ثلاث جمل :

الجملة الاولى

(فما آسملت عليه من البلدان)

قد ذكر في "تقويم البلدان" عن أخبره من رأها في زمانه أن بها عدّة قُرى :
وبها الخنطة والشعير كثير . وقاعدتها دون مدينة النبي صلى الله عليه وسلم، واقعة
في أوائل الإقليم الثاني . قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وسبعون درجة
ونحس وأربعون دقيقة، والعرض إحدى وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

ومن بلادها (حجر) قال في "المشترك" : بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم
وراء مهملة في الآخر . وهي في الغرب عن مدينة اليمامة، على مرحلتين منها،
وبعضهم يجعلها قاعدة اليمامة . وموقعها في أوائل الإقليم الثاني . قال في "تقويم
البلدان" : والقياس أنها حيث الطول إحدى وسبعون درجة وعشر دقائق ،
والعرض اثنتان وعشرون درجة . قال : وبها قبور الشهداء الذين قُتلوا في حرب
مُسيّمة الكذاب .

(١) رياض في الأصل ولعله حكى ذلك معبرا عما أتخ .

الجملة الثانية

(في ذكر ملوكها)

قال صاحب "العبر" : كانت هي والطائف بيد بنى هزّان بن يعفر بن السكّسك ، إلى ان غلبهم عليها (طَسَم) . ثم غلبهم عليها (جدّيس) ، ومنهم زرقاء اليمامة . ثم استولى عليها (بنو حنيفة) وكان منهم هُوذَةُ بن عليّ ، وهو الذي كتب إليه النبيّ صلى الله عليه وسلم يدعوهُ إلى الإسلام . ثم ملكها من بنى حنيفة (ثُمَامَةُ) بن أُنّال عليّ عهد النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأُسِرَ ثم أُسِم . ثم كان بها منهم (مسيلمة الكذاب) زَمَنَ أبي بكر الصّدّيق رضی الله عنه وقُتِلَ في حرب المسلمين معه .

وكان لبني (الأُخِيضِر) من الطالبيين بها دولةٌ .

وأول من ملكها منهم (محمد بن الأُخِيضِر) بن يوسف ، بن إبراهيم ، بن موسى الجَوْن ، بن عبد الله ، بن الحسن المُشْتَبِي ، بن الحسن السَّبْط ، ابن أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب رضی الله عنه . وكان استيلاؤه عليها أيام المستعين الخليفة العبّاسيّ . ثم ملكها بعده ابنه (يوسف) ثم (ابنه الحسن) ثم ابنه (أحمد) ولم يزل مُلْكُها فيهم إلى أن غلب عليهم القرامطة عليّ ما تقدّم ذكره في الكلام عليّ بلاد البحرین .

قال ابن سعيد : وسألت عرب البحرین في سنة ^(١) ، لمن اليمامة اليوم ؟ فقالوا

لعرب من قيس عيّلان وليس لبني حنيفة بها ذكر .

قلت : ولم أقف لعربها عليّ ذكر في المكتبات السلطانية بالديار المصرية .

(١) في "العبر" بدل قوله في سنة "وبعض مدح" .

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصل إليها)

قد تقدم أنها في جهة الشرق عن مكة، وأنَّ بينهما أربعة أيام، وطريق مكة معروف على ما تقدم.

أما ما ذكره ابن خرداذبه من طريقها على البصرة - فن البصرة إلى المنتجشانية، ثم إلى الكُفَيْر، ثم إلى الرُّحَيْل، ثم إلى الشَّجِي، ثم إلى الحَفَر، ثم إلى ماوِيَّة، ثم إلى ذات العُشْر، ثم إلى الينسوعة، ثم إلى السَّمِينَة، ثم إلى النَّبَاج، ثم إلى العُمومية، ثم إلى القَرَيْتَيْن، ثم إلى سَوَيْقَة، ثم إلى صِداة، ثم إلى السُّدَا، ثم إلى السَّقِي، ثم إلى المَنْبِيَة، ثم إلى السَّفْح، ثم إلى المَرِيْقَة، ثم إلى اليمامة، والبصرة قد تقدم أكثر الطريق إليها في الكلام على مملكة إيران.

القَطْر الرَّابِع

(مملكة الهند ومضافاتها)

قال في "مسالك الأبصار": وهي مملكة عظيمة الشأن، لأنقاس في الأرض بمملكة سواها: لانتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأبهة سلطانها في ركوبه ونزوله، ودست ملكه، وفي صيتها وسمعتها كفاية. ثم قال: ولقد كنت أسمع من الأخبار الطائحة والكتب المصنفة ما يملأ العين والسمع، وكنت لأقف على حقيقة أخبارها لبعدها منا، وتساى ديارها عنا، ثم نتبعت ذلك من الرواة، فوجدت أكثر مما كنت أسمع، وأجل مما كنت أظن. وحسبك ببلاد في بحرها الدر، وفي برها الذهب، وفي جبالها الياقوت والماس، وفي شعابها العود والكافور،

(١) اختلفت نسخ "ابن خرداذبه" في أسماء البلدان فأثبتها طابعه في هامشه ولكنها عولنا في الكثير على ما في الأصل.

وفي مُدُنْهَا أَسْرَةَ الملوِك ، ومن وُحُوشِهَا الفَيْسَلُ وَالكِرْكَدَنُ ، ومن حديدِهَا سُيُوفُ الهندِ ، وأسعارُهَا رَخِيَّةٌ ، وعساكرُهَا لا تُعَدُّ ، ومالُهَا لا تُحَدُّ ؛ ولأهلُهَا الحِكْمَةُ وَوُفُورُ العقلِ ، وهم أَمَلَكُ الأُمَمِ لَشَهَوَاتِهِمْ ، وَأَبْذَلُهُمُ لِلنَّفُوسِ فِيمَا يُظَنُّ بِهِ الزُّلْفَى .

قال : وقد وصف محمد بن عبد الرحيم الاقديسي هذه المملكة في كتابه "تحفة الألباب" فقال : المَلِكُ العَظِيمُ ، وَالعَدْلُ الكَثِيرُ ، وَالنَّعْمَةُ الجَزِيلَةُ ، وَالسِّيَاسَةُ الحَسَنَةُ ، وَالرِّضَا الدَائِمُ ، وَالأَمْنُ الَّذِي لا خَوْفَ مَعَهُ فِي بِلَادِ الهِنْدِ . وَأهلُ الهِنْدِ أَعْلَمُ النَّاسِ بِأنواعِ الحِكْمَةِ وَطَبِّ وَالمُهَنْدِسَةِ وَالصَّنَاعَاتِ العَجِيبَةِ . ثم قال : وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجرُ العُودِ وَالكافُورِ وَجميعِ أنواعِ الطِّيبِ : كالقَرَنْفُلِ وَالسَّنْبُلِ وَالدَارِصِينِيِّ ، وَالقِرْقَرَةِ ، وَالسَّيْلِيخَةِ ، وَالقَانِثَةِ ، وَالكَبَّابَةِ ، وَالبَسْبَاسَةِ ، وَأنواعِ العِقايرِ . وَعندَهم غَزَالُ المِسْكِ وَسِنُورُ الزَّبَادِ ؛ هذا مع ما هذه المملكة عليه من اتساع الأقطار ، وتباعد الأرجاء ، وتثنأى الجَوَابِ .

فقد حكى في "مسالك الأَبْصار" : عن الشيخ مبارك بن محمود الأَنْبَاتِيِّ : أَن عَرَضَ هَذِهِ المَمْلَكَةُ ما بين سُومَنَاتِ وَسَرَنْدِيبَ إِلَى غَزَنَةَ ، وَطُولُهَا مِنَ القُرْضَةِ المِقابِلَةِ لَعَدَنَ إِلَى سَدِّ الإِسْكَانْدَرِ عِنْدَ مَحْرَجِ البَحْرِ الهِنْدِيِّ مِنَ البَحْرِ المِحيْطِ ، وَأَنَّ مِساْفَةَ ذَلِكَ ثَلاثُ سَنينَ فِي مِثْلِها بِالسَّيْرِ المَعْتادِ ، كُلُّها مُتصِلَةٌ المُدُنِ ذِواتِ المِنايِرِ وَالأَسْرَةِ ، وَالأَعْمالِ ، وَالقُرَى ، وَالضِّياعِ ، وَالرَّسائِيقِ ، وَالأسْواقِ ؛ لا يَفْصِلُ بَيْنَها خرابٌ . بَعْدَ أن ذَكَرَ عَنهُ أَنَّهُ ثِقَةٌ ثَبَّتَ عارِفٌ بما يَحْكِيهِ إِلا أَنَّهُ اسْتَبَعَدَ هَذَا المِقدارَ ، وَقَالَ : إِذا جَميعُ المَعْمُورِ لا يَفِي بِهَذِهِ المِساْفَةِ ، اللَّهُمَّ إِلا أَن يُرِيدَ أَنَّ هَذِهِ مِساْفَةٌ مِنَ يَنْتَقِلُ فِيها حَتَّى يَحِيطَ بِجَميعِها مِكانًا مِكانًا ، فَيَحْتَمِلُ عَلَيَّ ما فِيهِ .

وفيه إحدى عشرة جملة :

الجملة الأولى

(فيما أشتمت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وتحتوى هذه المملكة على إقليمين عظيمين :

الإقليم الأول

(إقليم السِّند وما أنخرط في سلكه من مكران ، وطوران ،

والبُدْهَة ، وبلاد [الفُفس] والبُلُوص)

فأما السِّند ، فبكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة في الآخر . قال ابن حوقل : ويحيط به من جهة الغرب حدود كَرْمَانَ ، وتمأم الحد مفازة سِيستان ؛ ومن جهة الجنوب مفازة هي فيما بين كَرْمَانَ والبحر الهندي ، والبحر جنوبي المفازة ؛ ومن جهة الشرق بحر فارس أيضا : لأن البحر يتقوس على كَرْمَانَ والسِّند ، حتى يصير له دخلة شرقي بلاد السند ؛ ومن جهة الشمال قطعة من الهند . قال ابن خرداذبه : وبالسنَد القُسْط ، والقَنَا ، والحَيْرَان .

وقاعدته (المنصورة) — قال في " تقويم البلدان " : بفتح الميم وسكون النون وضم الصاد المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وهاء في الآخر . وهي مدينة بالسِّند واقعة في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول خمس وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وعشرون درجة وأثنان وأربعون دقيقة . قال في " القانون " : وأسمها القديم يَمَهُو وإنما سميت المنصورة لأن الذي فتحها من المسلمين قال نُصْرْنَا . وقال المهابى : إنما سميت المنصورة لأن عُمر بن حنص المرروف بهزار مرّد بناها في أيام أبي جعفر المنصور ثاني خلفاء بني العباس وسمّاها بلقبه .

قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة يحيط بها خليج من نهر مهران (وهو نهر يأتى من الملتان) فهى كالجزيرة ولكنها بلدة حارة وليس بها سوى النخيل ؛ وبها قصب السكر، وبها أيضا تمر على قدر التفاح شديد الحموضة، يسمى اليمومة .
وبها عدة مدن وبلاد أيضا .

منها (الدبيل) — قال فى " اللباب " : بفتح الدال المهملة وسكون المثناة من تحتها وضم الباء الموحدة ولام فى الآخر . وهى بلدة على ساحل البحر، واقعة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وتسعون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وعشرون درجة وعشرون دقيقة . قال فى " تقويم البلدان " : وهى بلدة صغيرة على ساحل ماء السند شديدة الحر . قال ابن حوقل : وهى شرقى مهران، وهى فرضة تلك البلاد . وقال فى " اللباب " : إنها على البحر الهندى قريبة من السند . قال ابن سعيد : وهى فى دخلة من البر فى خليج السند، وهى اكبر فرض السند وأشهرها ؛ ويجلب منها المتاع الدبيل . قال فى " تقويم البلدان " : وبها سمسم كثير، ويجلب إليها التمر من البصرة، وبينها وبين المنصورة ست مراحل .

ومنها (البيرون) . قال فى " اللباب " : بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء المهملة وبعدها واو ونون فى الآخر . وهى مدينة من أعمال الدبيل بينها وبين المنصورة ، واقعة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى " القانون " : حيث الطول أربع وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وعشرون درجة ونحو وأربعون دقيقة . قال ابن سعيد : وهى من فرض بلاد السند التى عليها خليجهم المالح الخارج من بحر فارس . قال فى " العزيزى " :

وأهلها مسامون ، ومنها إلى المنصورة خمسة عشر فرسخا . قال ابن سعيد : وإليها ينسب أبو الريحان البيروني ، يعنى صاحب "القانون" في أطوال البلاد وعروضها . ومنها (سدوسان) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين وضم الدال المهملتين وواو ثم سين مهملة ثانية مفتوحة وألف ونون . وهى مدينة غربى نهر مهران ، واقعة في أوائل الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول أربع وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وعشر دقائق . قال ابن حوقل : وهى خصبة كثيرة الخير وحوطها قرى ورستاق ؛ وهى ذات أسواق جليلة .

ومنها (المولتان) قال في "تقويم البلدان" : بضم الميم وسكون اللام ثم تاء مشاة فوقية وألف ونون . قال : وهى فى أكثر الكتب مكتوبة بواو . وهى مدينة من السند فيما ذكره أبو الريحان البيروني ، وإن كان ابن حوقل جعلها من الهند وعليه جرى فى "مسالك الأبصار" لأن البيروني أقعد بذلك منه : لأن السند بلاده فهو بها أخبر ، واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطول ست وتسعون درجة وخمسة وعشرون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أصغر من المنصورة .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن بعض المصنفات أن قرى الملتان مائة ألف قرية وستة وعشرون ألف قرية . قال المهلبى : وأعمال الملتان واسعة من قرب حد مكران من الجنوب إلى حد المنصورة ، وبينها وبين غزنة ثمانية وستون فرسخا .

ومنها (أزور) . قال ابن حوقل : وهى مدينة تقارب الملتان فى الكبر ، وعليها سُوران وهى على نهر مهران . وقال فى "العزىزى" : هى مدينة كبيرة وأهلها

مسلمون في طاعة صاحب المنصورة وبينهما ثلاثون فرسخا ، قال في ” القانون “ :
حيث الطول خمس وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون
درجة وعشر دقائق .



وأما مكران ، فقال في ” اللباب “ : بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة
وألف ونون . قال ابن حوقل : وهي ناحية واسعة عريضة ، والغالب عليها المفاوز
والقحط والضيق . وقد اختلف كلام صاحب تقويم البلدان فيها فذكر في الكلام
على السند أنها منه ، وذكر في كلامه على مكران في ضمن بلاد السند أنها من كرمان .

وقاعدتها (التيز) قال في ” اللباب “ : بالتاء المثناة الفوقية المماله ثم ياء آخر
الحروف وزاى معجمة في الآخر ، وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة
قال ابن سعيد : حيث الطول ست وثمانون درجة ، والعرض ست وعشرون درجة
وخمس عشرة دقيقة . قال ابن حوقل : وهي فُرْضة مكران وتلك النواحي ، وهي على
شَطْ نهر مهران في غربيّه بقرب الخليج المفتوح من مهران على ظهر المنصورة .



وأما طوران . فناحية على خمس عشرة مرحلة من المنصورة . قال في ” القانون “ :
وقصبتها (قندايل) قال : وهي حيث الطول خمس وتسعون درجة ، والعرض
ثمان وعشرون درجة .

وذكر ابن حوقل أن قصبة طوران (قُزْدَار) قال في ” اللباب “ : بضم
القاف وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهملة وألف وراء مهملة . وقد نقل
في ” تقويم البلدان “ عن إخبار من رءاها أنها قُليعة . قال في ” تقويم البلدان “ :

وهي كالقرية لصغرها، وهي في وطأة من الأرض على تليل، وحولها بعض بساتين .
 وذكر في "الباب" أن قُردار ناحية من نواحي الهند . قال في "تقويم البلدان" :
 وبينها وبين المُلتان نحو عشرين مرحلة .



وأما البُدْهة ، فقال ابن حوقل : وهي مفترشة ما بين حدود طوران ومُكران
 والمُلتان ومُدن المنصورة ؛ وهي في غرب نهر مِهْران وأهلها أهل إبل كالبادية ،
 ولهم أخصاص وآجام . قال في "تقويم البلدان" : ومن المنصورة إلى أول البُدْهة
 خمس مراحل ، ومن أراد البُدْهة من المنصورة أحتاج إلى عبور نهر مِهْران .

الإقليم الثاني

(إقليم الهند)

قال في "الأنساب" : بكسر الهاء وسكون النون ودال مهملة في الآخر . قال
 في "تقويم البلدان" : والذي يُحيط به من جهة الغرب بحر فارس ، وتماؤه حدود
 السند ؛ ومن جهة الجنوب البحر الهندي ؛ ومن جهة الشرق المفاوز الفاصلة بين
 الهند والصين ؛ ولم يذكر الحد الذي من جهة الشمال . وذكر في "مسالك الأبصار"
 أن حدّه من جهة الشمال بلاد التُّرك . وذكر عن الشيخ مبارك الأنباتي : أنه ليس
 في هذه المملكة خراب سوى مسافة عشرين يوماً مما يلي غزّة ، لتجاذب صاحب
 الهند وصاحب تُركستان وما وراء النهر بأطراف المنازعة ، أو جبال معطلة ،
 أو شعواء مشتبكة .^(١)

(١) كذا في الأصل بالواو وصوابه بالراء كما في المسالك والشعراء الأرض ذات الشجر أو كثيرته .

قال صاحب "مسالك الأبصار": وسألت الشيخ مبارك الأنباتي عن برّ الهند وضواحيه فقال: إن به انهارا ممتدة تقارب ألف نهر كبار وصغار، منها ما يضاهاى النيل عظمًا، ومنها ما هو دونه، ومنها ما هو مثل بقية الأنهار. وعلى صغار الأنهار القرى والمدن؛ وبه الأشجار الكثيفة والمروج الفرح. قال: وهى بلاد معتدلة لانتفاوت حالات فصولها، ليست مفرطة في حر ولا برد؛ بل كأن كل أوقاتها ربيع؛ وتهب بها الأهوية والنسيم اللطيف، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر؛ وأكثرها في أخريات الربيع إلى ما يليه من الصيف.

ثم لمملكة الهند قاعدتان:

القاعدة الأولى (مدينة دلي)

قال في "تقويم البلدان": بدال مهملة ولام مشددة مكسورة ثم مشناة تحتية، ولم يتعرض لضبط الدال والناس ينطقون بها بالفتح وبالضم. وسمها صاحب "تقويم البلدان" في تاريخه دهلي بابدال اللام هاء. وهى مدينة ذات إقليم منسج، وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "القانون": حيث الطول مائة وثمان وعشرون درجة وخمسون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال فى "تقويم البلدان": وهى مدينة كبيرة فى مستوي من الأرض، وتربتها مختلطة بالحجر والرمل، وعليها سور من آجر، وسورها أكبر من سور حماة، وهى بعيدة من البحر، ويمر على فرسخ منها نهر كبير دون الفرات، وبها بساين قليلة وليس بها عنب، وتطر فى الصيف؛ ويجامعها منارة لم يعلم فى الدنيا مثلها، مبنية من حجر أحمر ودرجها نحو ثلثمائة درجة؛ وهى كبيرة الأضلاع، عظيمة الارتفاع، واسعة الأسفل وارتفاعها يقارب منارة الإسكندرية.

وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ برهان الدين بن الخلال البزى الكوفي :
أن علوها في نحو ستمائة ذراع، وذكر عن الشيخ مبارك الأنباتي أن دلتى مدائن جمعت
ولكل مدينة منها اسم يخصها ودلتى واحدة منها . قال الشيخ أبو بكر بن الخلال :
وجملة ما يطلق عليه الآن اسم دلتى إحدى وعشرون مدينة .

قال الشيخ مبارك : وهى مُمَيْلَةٌ طولاً وعرضاً، يكون دُورُ عُمَرانها أربعين ميلاً،
وبناؤها بالحجر والأجر، وسقوفها بالخشب، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه
بالرُخام، ولا يبنى بها أكثر من طبقتين وربما أقتصر على طبقة واحدة، ولا يفرش
دُورَه فيها بالرُخام إلا السلطان . قال : وفيها ألف مدرسة، منها مدرسة واحدة
للشافعية وبقايا للحنفية، وبها نحو سبعين بيمارستاناً، وتسمى بها دُورَ الشفاء،
وبها وبلادها من الرُّبُط والخوانق نحو ألفين، وفيها الزيارات العظيمة، والأسواق
المتنّدة، والحمامات الكثيرة، وشرب أهلها من ماء المطر، تجتمع الأمطار فيها
في أحواض وسبعة كل حوض قُطره غلوة سهم أو أكثر . أما مياه الاستعمال وشرب
الدواب فمن آبار قريبة المستقى، أطول ما فيها سبعة أذرع . وقد صارت دلتى قاعدة
لجميع الهند [ومُستقر السلطان] وبها قصور ومنازل خاصة بسكنه وسكن حريمه،
ومقاصير جواريه وحظاياها وبيوت خدمه ومماليكه، لا يسكن معه أحد من الخانات
ولا من الأمراء، ولا يكون بها أحد منهم إلا إذا حضر للخدمة ثم ينصرف كل واحد
منهم إلى بيته . ولها بساتين من جهاتها الثلاث : الشرق، والجنوب، والشمال
على استقامة، كل خط اثنا عشر ميلاً، أما الجهة الغربية فعاطلة من ذلك لمقاربة
جبل لهابة . ووراء ذلك مُدن وأقاليم متعدّدة .

القاعدة الثانية

(مدينة الدواكير)

ومدينة الدواكير بفتح الدال المهملة والواو وألف بعدها كاف مكسورة ثم ياء
 مثناة تحية وراء مهملة في الآخر . وهي مدينة ذات إقليم متسع . وقد ذكر
 في "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارك الأنباتي : أنها مدينة قديمة جددها السلطان
 محمد بن طغلقشاه، وسمها "قبة الإسلام" . وذكر أنه فارقتها ولم تتكامل بعد،
 وأن السلطان المذكور كان قد قسمها على أن تبنى محلات لأهل كل طائفة محلة :
 الجند في محلة، والوزراء في محلة، والحكّاب في محلة، والقضاة والعلماء في محلة،
 والمشايخ والفقراء في محلة، وفي كل محلة ما يحتاج إليه من المساجد، والأسواق،
 والحمامات، والطواحين، والأفران، وأرباب الصنائع من كل نوع حتى الصوّاع
 والصّبّاغين، والدّبّاغين، بحيث لا يحتاج أهل محلة إلى أخرى في بيع ولا شراء،
 ولا أخذ ولا عطاء : لتكون كل محلة كأنها مدينة مفردة قائمة بذاتها .

واعلم أن صاحب "تقويم البلدان" : قد ذكر عن بعض المسافرين إلى الهند
 أن بلاد الهند على ثلاثة أقسام :

القسم الأول — بلاد الجزرات

قال في "تقويم البلدان" : بالحيم والزاي المعجمة والراء المهملة ثم الف وتاء
 مثناة فوق . وبها عدة مدن وبلاد .

منها (نَهْلُورَة) بالنون والهاء واللام والواو ثم ألف وراء مهملة وهاء . وقال
 ابن سعيد : نَهْرُوَالَة، فقدم الراء وأنحر اللام، وكذلك نقله في "تقويم البلدان"

عن بعض المسافرين . وفي "زهة المشتاق" هروارة براءين . وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول ثمان وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهي غربي إقليم المنيبار الآتي ذكره . قال : وهي أكبر من كنبات ، وعمارتها مفرقة بين البساتين والمياه ، وهي عن البحر على مسيرة ثلاثة أيام . قال صاحب حماة في "تاريخه" : وهي من أعظم بلاد الهند .

ومنها (كنبات) قال في "تقويم البلدان" : بالكاف ونون ساكنة وباء موحدة ثم ألف وياء مشناة تحتية وتاء مشناة من فوقها ، ومقتضى ما في "مسالك الأبصار" : أن يكون اسمها أنبات بإبدال الكاف همزة ، فإنه ينسب إليها أنباتي . وهي مدينة على ساحل بحر الهند ، موقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول تسع وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض اثنتان وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وذكر في "تقويم البلدان" : عمن سافر إليها أنها غربي المنيبار على خور من البحر طوله مسيرة ثلاثة أيام . قال : وهي مدينة حسنة ، أكبر من المعزة من بلاد الشام في المقدار ، وأبنيتها بالأجر ، وبها الرخام الأبيض ، وبها بساتين قليلة .

ومنها (نانه) . قال في "تقويم البلدان" : قال أبو العقول نقلا عن عبد الرحمن الريان الهندي - بفتح المشناة الفوقية ثم ألف ونون وهاء . وهي بلدة على ساحل البحر ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول مائة وأربع عشرة درجة وعشرون دقيقة ، والعرض تسع عشرة درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي من مشارق الجزرات . قال ابن سعيد : وهي مشهورة على السن التجار . قال : وأهل هذا الساحل جميعهم

كفَّار يعبدون الأنداد ، والمسلمون ساكنون معهم . قال الإدريسي : وأرضها
وجبالها تُنبت القنأ والطباشير ويُحمَل منها إلى الآفاق . قال أبو الرِّيحان : والنسبة
إليها تانِشِيّ ومنها الثياب التانِشِيّة .

ومنها (صُومَنَات) قال في "تقويم البلدان" : بالصاد المهملة ويقال بالسين
المهملة ثم واو ساكنة وميم ونون مفتوحتين ثم ألف وتاء مثناة فوقية في الآخر ،
وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيثُ الطولُ
سبع وتسعون درجة وعشرُ دقائق ، والعرضُ اثنتان وعشرون درجة وخمسة عشر
دقيقة . قال في "القانون" : وهي على الساحل في أرض البَوَازِيج . قال ابن سعيد :
وهي مشهورة على ألسنة المسافرين ، وتعرف ببلاد الأَلاَر ، وموضعها في جهة داخلية
في البحر فينطَحُّها كثير من مراكب عَدَن لأنها ليست في جَوْن ؛ ولها خَوْر ينزل
من الجبل الكبير الذي في شماليها إلى شريقيها ، وكان بها صنم تعظمه الهنود يُضاف
إليها ، فيقال : "صنم صُومَنَات" فكسره يمين الدولة "محمود بن سُبُكْتِكِين" عند
فتحها كما هو مذكور في التواريخ .

ومنها (سَنَدَان) بالسين المهملة والنون والداال المهملة والألف والنون ، هكذا
ذكره في "تقويم البلدان" : ونقل لفظه عن المهلبِيّ في "العزيزي" . وقال بعض
المسافرين إنها (سَنَدَابُور) بالسين المهملة والنون والداال المهملة وألف وباء موحدة
وواو وراء مهملة في الآخر . وهي مدينة على ثلاثة أيام من تانّة ، موقعها في الإقليم
الأوّل من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيثُ الطولُ مائة وأربعُ دَرَج وعشرون
دقيقة ، والعرضُ تسع عشرة درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان"
عن بعض المسافرين : وهي على جَوْن في البحر الأخضر ، وهي آخرُ إقليم
الجُزُرَات . قال في "القانون" : وهي على الساحل . قال في "العزيزي" :

وبينها وبين المنصورة خمسة عشر فرسخًا، وهي مجمع الطُّرُق . قال : وهي بلاد القُسط والقنَّا والخيزران، وهي من أجل القُرض التي على البحر .

ومنها (ناكور) قال في "تقويم البلدان" : بفتح النون وألف وكاف مضمومة وواو وراء مهملة في الآخر . وهي مدينة على أربعة أيام من دلي .

ومنها (جالور) بفتح الجيم ثم ألف ولام مضمومة وواو وراء مهملة . وهي على تلِّ تراب نحو قلعة مصيف بين ناكور وبين نهر والة . ويقال إنه لم يعص على صاحب دلي من الجزرات غير جالور .

(١) ومنها (منورى) . قال في "القانون" : وهي بين القُرْضة وبين المعبر إلى سرنديب حيث الطول مائة وعشرون درجة، والعرض ثلاث عشرة درجة .

القسم الثاني - من إقليم الهند بلاد المنيار

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وكسر النون وسكون الياء آخر الحروف (٢) وفتح الباء الموحدة ثم ألف وراء مهملة في الآخر . وهي إقليم من أقاليم الهند في الشرق عن بلاد الجزرات المقدم ذكرها . قال : والمنيار هي بلاد الفلفل . ثم قال : والفلفل في شجره عناقيد كعناقيد الدخن ، وشجره ربما ألتف على غيره من الأشجار كما تلتف الدوالي ، وبها بلاد وجميع بلاد المنيار مخضرة كثيرة المياه والأشجار المتنفة .

(١) وقعت في "التقويم" بالبدال المهملة بدل الواو ولم يضبطها .

(٢) ذكرها ياقوت باللام بدل النون .

(٣) بياض في الأصل ولعله "كثيرة" .

منها (هَنُورٌ) قال في "تقويم البلدان": بفتح الهاء والنون المشددة والواو وراء مهملة . وهي غربي سَندأبُورَ من بلاد الحُزرات المقدم ذكرها، فتكون أول بلاد المَنِيبار من الغرب . قال : ولها بساينٌ كثيرة .

ومنها (بَاسُرُورٌ) بالباء الموحدة وبالسين المفتوحة والراءين المهملات . وهي بلدة صغيرة شرقي هَنُورِ المقدمة الذكر .

ومنها (مَنَجْرُورٌ) قال في "تقويم البلدان": بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وراء مهملة . وهي شرقي بَاسُرُورِ المقدمة الذكر . قال : وهي من أكبر بلاد المَنِيبار، وملِكها كافر، ووراءها بثلاثة أيام جبلٌ عظيم داخل في البحر ، يرى للمسافرين من بُعد ، يسمى "رأس هَيْلي" بفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر اللام ثم ياء مثناة تحتية في الآخر .

ومنها (تَدْيُورٌ) بالتاء المثناة الفوقية المفتوحة وسكون النون ثم دال مهملة وياء آخر الحروف مضمومة وواو وراء مهملة . وهي بليدة شرقي "رأس هَيْلي" لها بساينٌ كثيرة .

ومنها (الشَّالِيَات) بفتح الشين المعجمة وألف ولام مكسورة وياء آخر الحروف ثم ألف وتاء مثناة فوقية .

ومنها (الشَّنْكِلي) بالشين المعجمة المكسورة [وسكون النون]^(١) وكاف ولام وياء آخر الحروف . وهي بلدة بالقرب من الشَّالِيَات .

ومنها (الكَوَلْم) قال في "تقويم البلدان": بالكاف المفتوحة والواو الساكنة

(١) الزيادة من تقويم البلدان .

ثم لام مفتوحة وميم في الآخر . وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال" : حيث الطول مائة وعشر درجات ، والعرض ثمان عشرة درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي آخر بلاد الفلقل من الشرق ، ومنها يُقلع إلى عدن . قال صاحب "تقويم البلدان" : وحكى لي بعض المسافرين أنها على خور من البحر في مستوي من الأرض وأرضها مرملية ، وهي كثيرة البساتين ، وبها شجر البقم : وهو شجر كشجر الرمان ، وورقه يُسبّه ورق العناب ، وفيها حارة للمسلمين وبها جامع .

القسم الثالث — من إقليم الهند بلاد المعبر

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدة ثم راء مهملة . وهي شرقي بلاد الكولم بثلاثة أيام أو أربعة . قال في "تقويم البلدان" : وينبغي أن تكون بميلة إلى الجنوب . قال ابن سعيد : وهو مشهور على الألسن ، ومنه يُجلب اللانس ، وبها يضرب المثل في قصارها . قال : وفي شماليها جبال متصلة ببلاد بلهرا ملك ملوك الهند ، وفي غربيها يصب نهر الصوليان في البحر . وذكر في "مسالك الأبصار" عن قاضي القضاة سراج الدين الهندي : أن بلاد المعبر تشتمل على عدة جزائر كبار .

وبه عدة مدن وبلاد .

منها (بيرداول) قال في "تقويم البلدان" : بكسر الباء الموحدة وتشديد الياء المثناة التحتية وسكون الراء وفتح الدال المهملين وألف وواو ولام . قال : وهي قصبه بلاد المعبر ، وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد :

حيث الطول مائة وأثنتان وأربعون درجة ، والعرض سبع عشرة درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة سلطان المعبر ، وإليه تُجلب الخيول من البلاد .

ثم أعلم أن وراء ما تقدم بلادا أخرى ذكرها في "تقويم البلدان" .

منها (ماهورة) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم والألف والهاء والواو ثم راء مهملة وهاء . وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول مائة درجة وأربع درج ، والعرض سبع وعشرون درجة . قال ابن سعيد : وهي على جانبي نهر كَنَك في آنحداره من قَنَوج إلى بحر الهند . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلد البراهمة ، وهم عبَاد الهند ينسبون إلى البرهمن أول حكمائهم . قال ابن سعيد : وقلائعهم بها لأترام .

ومنها (لَوَهَوْر) قال في "اللباب" : بفتح اللام وسكون الواو بينهما هاء مفتوحة وفي الآخر راء مهملة . قال : ويقال لها أيضا لَهَّأُور . وموقعها في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال" : حيث الطول مائة درجة والعرض إحدى وثلاثون درجة . قال في "اللباب" : وهي مدينة كبيرة كثيرة الخير ، خرج منها جماعة من أهل العلم .

ومنها (قَنَوج) قال في "تقويم البلدان" : بكسر القاف وفتح النون المشددة والواو ثم جيم . وموقعها في الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول مائة وإحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . وذكر في "الأطوال" الطول بنقص سبع وعشرين درجة ، والعرض بزيادة ست درج . قال ابن سعيد : وهي قاعدة لَهَّأُور ، وهي بين ذراعين من نهر

كَنْكُ . وقال المهلبى : هى فى أقاصى الهند فى جهة الشرق عن المُلتان على مائتين وأثنين وثمانين فرسخاً . قال : وهى مِصر الهند وأعظم المُدن بها . ثم قال : وقد بالغ الناس فى تعظيمها حتى قالوا : إن بها ثلثمائة سوق للجوهر ، ولملكها ألفان وخمسمائة فيل ؛ وهى كثيرة معادن الذهب . قال فى "نزهة المشتاق" : هى مدينةٌ حسنة ، كثيرةُ التجارات ، ومن مدنها قشْمِيرُ الخارجة ، وقشْمِيرُ الداخلة . قال : وملكها يسمى القِنَوجَ باسمها .

ومنها (جبال قامرون) قال فى "تقويم البلدان" : بفتح القاف وألف وميم وراء مهملة ثم واو ونون . وهى حِجَاز بين الهند والصين ، وعدّها فى "القانون" من الجزائر . قال : وهى خارِجة عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب قال فى "القانون" و"الأطوال" : حيث الطول مائة وخمسة وعشرون درجة ، والعرض عشرُ درج ، ومدينة الملك شرقياً ، وبها معدنُ العود القامرونى .

قلت : وذكر فى "مسالك الأبصار" عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى : أن فى مملكة صاحب الهند ثلاثة وعشرين إقليماً ، عد منها بعض ما تقدم ذكره ، وهى : إقليم دَهلي ، وإقليم الدَّوَاكِرِ ، وإقليم المُلتان ، وإقليم كَهْران ، وإقليم سامانا ، وإقليم سبوستان ، وإقليم وَجَا ، وإقليم هاسى ، وإقليم سرستى ، وإقليم المعبر ، وإقليم تلك ، وإقليم بكرات ، وإقليم بدلون ، وإقليم عوض ، وإقليم القِنَوجَ ، وإقليم لكتوتى ، وإقليم بهار ، وإقليم كره ، وإقليم ملاوه ، وإقليم لهاور ، وإقليم كلافور ، وإقليم جاجنكر ، وإقليم تلنج ، وإقليم دور سمند .

ثم قال : وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتى مدينة ، كلها مدن ذوات نيايات : كبارٍ وصغار ، وجميعها الأعمال والقرى العامرة الأهلة . وقال إنه لا يعرف

عدد قراها ، إلا أن إقليم القنوج مائة وعشرون لُكًا ، كلُّ لُكٍّ مائة ألف قرية ، فتكون آتتْ عشرَ ألف ألف قرية ، وإقليم تلتك ستة وثلاثون لُكًا ، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية ، وإقليم ملاوه أكبر من إقليم القنوج في الجملة .

وحكى عن الشيخ مبارك الأنباتي : أن عليّ لكتوتى مائتى ألف مركب صغار خفاف للسير ، إذا رمى الرامى في إحداها سهما وقع في وسطها لسرعة جريانها . ومن المراكب الكبار مافيه الطواحين والأفران والأسواق ، وربما لم يعرف بعض ركابه بعضا إلا بعد مدة لاتساعه وعظمه إلى غير ذلك مما العهدة فيه عليه .

وأعلم أن بجزر الهند جزائر عظيمة معدودة في أعماله ، يكون بعضها مملكة منفردة . منها (جزيرة سرنديب) قال في " تقويم البلدان " : بفتح السين والراء المهملتين وسكون النون وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحت ثم باء موحدة . قال : ويقال لها جزيرة سنكاديب ، كأنه باللسان الهندى ، وموقعها خارج عن الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب قال " في الأطوال " : حيث الطول مائة وعشرون درجة ، والعرض عشر درج . قال ابن سعيد : ويسمى هذه الجزيرة جبل عظيم على خط الاستواء ، اسمه جبل الزهون ، يزعمون أن عليه هبوط آدم عليه السلام . قال ابن خردادبه : وهو جبل ذاهب في السماء ، يراه أهل المراكب على مسيرة عشرين يوما وأقل وأكثر .

وذكرت البراهمة : أن على هذا الجبل أتر قدم آدم عليه السلام : قدم واحدة مغموسة في الحجر ، وأنه خطأ الخطوة الأخرى إلى الهند ، وهو منها على مسيرة يومين أو ثلاثة . قال : وعلى هذا الجبل شبيه بالبرق أبدا ، وعليه العود وسائر العطر والأفاويه ، وعليه وحواليه الياقوت وألوانه كلها ، وفي واديه المساس والسنبادج ،

وغزال المسك ، وسنور الزباد ، وفي أنهار هذه الجزيرة اللؤلؤ ، وحوّلها في البحر مغاصات اللؤلؤ ، ونهرها هو المعظم عند الهنود . قال ابن سعيد : ومدينتها تسمى أغنا . وهي حيث الطول مائة وأربع وعشرون درجة .

ومنها (جزيرة الرّاجح) . قال في " تقويم البلدان " : والظاهر أنها بالراء الموحلة والألف والنون ثم جيم في الآخر ، وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول . قال في " الأطوال " : وطولها مائة وثلاث عشرة درجة ، ولا عرض لها ، وفيها عمارة وزرع ونارجيل وغير ذلك . قال في " كتاب الأطوال " : وجبالها ترى من جبال اليمن ، وبها جبال تستعل النار فيها دائماً ، وترى تلك النار في البحر من مسيرة أيام ، وبها حيات تتلع الرجل والخاموس ، وفي البحر عند لهاور " دور " وهو مكان يدور فيه الماء ، ويخشى على المراكب عنده . قال ابن خردادبه : وفيها حيات عظام تتلع الرجل والخاموس والفيال ، وفيها شجر الكافور ، تظل الشجرة منه مائة إنسان ومجائب لا تحصى .

ومنها (جزيرة لاميري) قال في " تقويم البلدان " : بلام وألف وميم وراء مهملة ثم ياء آخر الحروف ، وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول قال في " الأطوال " : حيث الطول مائة وست وعشرون درجة ، والعرض تسع درج . قال في " تقويم البلدان " : وهي معدن البقم والخيزران .

ومنها (جزيرة كلة) قال في " تقويم البلدان " : بالكاف واللام وهاء في الآخر . وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول قال في " القانون " : حيث الطول مائة وثلاثون درجة ، ولا عرض لها . قال في " تقويم البلدان " : وهي فُرْضة ما بين عُمان والصين . قال المهلبى : وفيها مدينة عاصمة يسكنها المسلمون وغيرهم

وبها معادن الرصاص ومنابت الخيزران وشجر الكافور؛ وبينها وبين جزائر المهراج عشرون مجرى .

ومنها (جزيرة المهراج) . قال في "تقويم البلدان" : الظاهر أنها بالميم والهاء والراء المهملة ثم ألف وجيم في الآخر . قال في "كتاب الأطوال" : وهي جزيرة سريرة ، وموقعها في الجنوب من خط الاستواء قال في الأطوال : حيث الطول مائة وأربعون درجة ، والعرض في الجنوب درجة واحدة . قال ابن سعيد : وهي عدة جزائر ، وصاحبها من أغنياء ملوك الهند وأكثرهم ذهباً وفيلةً . وجزيرته الكبيرة هي التي فيها مقر ملكه ، وعدتها المهلبى في جزائر الصين ؛ وقال : إنها عامرة أهلة ، وإنه إذا أقلع المركب منها طالباً للصين واجهه في البحر جبال ممتدة ، داخله في البحر مسيرة عشرة أيام ، فإذا قرب المسافرون منها وجدوا فيها أبواباً وفرجاً في أثناء ذلك الجبل ، يُنصّب كل باب منها إلى بلد من بلدان الصين . وعد ابن سعيد سريرة من جزائر الرانج ، وقال : إن طولها من الشمال إلى الجنوب أربعمائة ميل ، وعرضها في كل طرف من الجنوبي والشمالى نحو مائة وستين ميلاً ، وسريرة مدينة في وسطها ، ثم يدخل منها جوف إلى البحر وهي على نهر .

ومنها (جزيرة أندراي) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال والراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة وفي الأخرى مشاة من تحتها .

ومنها (جزيرة الجاوة) . قال في "تقويم البلدان" : وهي جزيرة كبيرة مشهورة بكثرة العقاقير . قال : وطرف هذه الجزيرة الغربى حيث الطول مائة وخمس وأربعون درجة ، والعرض خمس درج . قال : وفي جنوبى جزيرة الجاوة مدينة

فَنُصُور ، التي ينسب إليها الكافور الفَنُصُورِيّ ، وهي حيث الطول مائة ونحس وأربعون درجة ، والعرضُ درجةً واحدةً ونصفُ .

ومنها (جزيرة الصَّنْف) . التي يُنسَب إليها العودُ الصَّنْفِيّ . وهي من أشهر الجزائر الموجودة في الكُتُب ، وطولها من الغرب إلى الشرق نحو مائتي ميل ، وعرضها أقل من ذلك ، ومديتها حيث الطول اثنتان وستون درجة .

ومنها (جزيرة قَمَار) التي يُنسَب إليها العود القِمَارِيّ وهو دون الصَّنْفِيّ ، ومديتها قِمَار حيث الطول ست وستون درجة ، والعرضُ درجتان ، وشرقها جزائر الصين . ومنها (جزيرة الرامي) . قال ابن خردادبه : وبها الكركدن وجواميس لأذنان لها ، وبها البقم ، وفيها ناسٌ عِراة في غياض لا يُفهم ما يقولون ، كلامهم صَفير ، يستوحشون من الناس ، طول كلِّ إنسان منهم أربعة أشبار ، للرجل منهم ذكر صغير ، وللرأة فرج صغير ، وشعر رؤوسهم زغبٌ أحمر ، يتسلقون على الأشجار بأيديهم . وفي البحر هناك ناسٌ بيض ، يلحقون المراكب سباحةً والمراكب في شدّة جريها ، يبيعون العنبر بالحديد يحملونه في أفواههم ، وجزيرة فيها ناسٌ سود يأكلون الناس أحياء ، وجبل طينه فِضةٌ تظهر بالنار .

الجملة الثانية

(في حيوانها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارك الأبتاتي : أنّ بها الخيل على نوعين : عِرابٍ وبرّادين ، وأكثرها ما لا يجمد فعله . قال : ولذلك تُجلب الخيل إلى الهند من جميع ماجاوره من بلاد التُّرك ، وتُقاد له العِراب من البحرين وبلاد اليمن والعِراق ، وإن كان في داخل الهند خيلٌ عِرابٍ يتعالى في أثمانها ولكنها

قليلة. قال : ومتى طال مُكثُ الخيل بالهند انحلت . وعندهم الغَال والحَمِير، ولكنها مذمومة الرُّكوب عندهم ، حتى لا يَسْتَحْسِنَ فقيهه ولا ذو علم رُكوبَ بغلة .

أما الحمار فإن ركوبه عندهم مَذَلَّةٌ وعارٌ عظيمٌ ، وخاصَّتْهُم تَحْمِلُ أَثْقَالَهُمْ عَلَى الخيل ، وعامتهم تَحْمِلُ عَلَى البقر من فوق الأنف ، وهي عندهم كثيرة ، وبها الجمالُ قليلة لا تكون إلا للسلطان وأتباعه : من الخانات ، والأمراء ، والوزراء ، وأكابر الدولة ، وبها من المواشى السائمة ما لا يُحصى : من الجواميس والأبقار والأغنام والمعزب ، وبها من دَوَاجِن الطير الدَّجَاجُ والحمام والإوزُّ وهو أقل أنواعه ، وإن الدجاج عندهم في قَدْرِ خَلْق الإوز . وبها من الوُحُوش الفيل ، والكَرَّكْدُن . وقد تقدّم ذكرهما في الكلام على الوحوش فيما يحتاج الكاتب إلى وصفه من الحيوان في المقالة الأولى ، في غير ذلك من الوحوش التي لا تُعدّ .

الجملة الثالثة

(في حبوبها ، وقوا كهبها ، ورأيآ حينها ، وخضراواتها ، وغير ذلك)

أما الحبوب فقد ذُكر عن الشيخ مبارك الأتباتي أن بها الأرزُّ على أحد وعشرين نوعاً ، وبها من سائر الحبوب الحنطة ، والشعير ، والخص ، والعدس ، والمأش ، واللوبياء ، والسَّمْسِم ، أما الفول فلا يوجد عندهم . قال في "مسالك الأبصار" : ولعل عدمه من حيث إنهم قوم حكاء ، والفول عندهم مما يُفْسِدُ جوهرَ العقل ، ولذلك حرّمت الصابئة أكله .

وأما الفواكه ففيه التين ، والعنب على قلة ، والرمان الكثير : من الحلو ، والمز ، والحامض إلى غير ذلك من الفواكه : كالدوز ، والخوخ ، والتوت المسمى بالفِرْصاد ،

(١) لعله مصحف عن الكنف .

وبها فواكه أخرى لا يُعهد مثلها بمصر والشام ، كالعنباء وغيرها ، والسفرجل على قلة ، والكثيرى ، والتفاح ، وهما أقل من القليل ، ولكنهما والسفرجل يُجلب إليه . وبها من الفواكه المستحسنة الرائحة ، وهو المسمى عندهم بالنارجيل ، والعامّة تسميه جوز الهند . وبه البطيخ الأخضر والأصفر ، والخيار ، والقثاء ، والعجور ، وبه من الحمضات الأترج ، واللّيمون ، واللّيم ، والنّارنج . أما الحمّر وهو التمر الهندى فكثير بباديتها .

وأما الخضراوات فقصب السكر ببلادها كثير للغاية ، ومنه نوع أسود صلب المعجم ، وهو أجوده للإمتصاص لا الاعتصار ، ولا يوجد في غيرها ، ويعمل من بقية أنواعه السكر الكثير : من التّبات وغيره ، ولكنه لا يجدد بل يكون كالسميد الأبيض . وعندهم من الخضراوات اللّفت ، والجوز ، والقرع ، والباذنجان ، والهليون ، والزنجبيل ، والساق ، والبصل ، والقوم وهو الثوم ، والشمار ، والصعتر . وأما الرياحين ، فبها الورد ، واللّينوفر ، والبنفسج ، والبان ، والخلاف ، والعبر ، والنرجس ، والفاغية وهي التامر حناء .

وأما غير ذلك فعندهم العسل أكثر من الكثير ، والشيرج ومنه وقودهم ، والزيت يأتيهم مجلوبا . أما الشمع فلا يوجد إلا في دور السلطان ، ولا يُسمح فيه لأحد ، والحلوى على خمسة وستين نوعا ، والفقاع ، والأشربة ، والأطعمة على ما لا يكاد يوجد في غير ما هنا لك . وبه من أرباب الصنائع صنائع السيوف ، والقسي ، والرّماح ، والرّدد ، وسائر أنواع السلاح ، والصواع ، والزرا كشة ، وغيرهم من سائر أرباب الصنائع .

وللسلطان يدِّي دارِ طِرَازَ ، فيها أربعة آلاف قَرَّازَ ، تَعْمَلُ الأقمشة المتوعة للخَلَعِ
والكِسَاوِي (١) والإطلاقات ، مع مايجمل إليه من فُماشِ الصين والعراق والإسكندرية .

الجملة الرابعة

(في المعاملات)

أ. ا تقودهم ، فقد ذكر الشيخ مبارك الأنباتي : أن لهم أربع دراهم يتعاملون بها .
أحدها — الهشتكاني . وهو وزن الدرهم النُقرة بمعاملة مصر ، وجَوَّازَه جَوَّازَه ،
لايكاد يتفاوت ما بينهما ، والدرهم الهشتكاني المذكور عنه ثمان جتيلات ، كل
جتيل أربعة أفلس ، فيكون عنه آثين وثلاثين فلسا .

الثاني — الدرهم السلطاني . ويسمى وكاني ، وهو رُبُعُ درهم من الدراهم
المصرية ، وكل درهم من السلطانية عنه جتيلان ، ولهذا الدرهم السلطاني نِصْفُ
يسمى جتيل واحد .

الثالث — الششتكاني . وهو نصفُ ورُبُعُ درهم هشتكاني ، ويكون تقديره
بالدراهم السلطانية ثلاثة دراهم .

الرابع — الدرهم الدرازد هكاني . وجوازَه بنِصْفِ ورُبُعِ درهم هشتكاني أيضا ،
فيكون بمقدار الششتكاني ، ثم كل ثمانية دراهم هشتكانية تسمى تنكة .

أما الذهب عندهم فالمِثقال ، وكل ثلاثة مثاقيل تسمى تنكة ، ويعبر عن تنكة
الذهب بالتنكة الحمراء ، وعن تنكة الفِضَّة بالتنكة البيضاء ، وكل مائة ألف تنكة

(١) جاري العانة في هذا الجمع والالغسها كسًا وكسًا كما في التاموس .

من الذهب أو الفضة تسمى لُكًّا ، إلا أنه يعبر عن لك الذهب باللك الأحمر ،
وعن لك الفضة باللك الأبيض .

وأما رطلهم فيسمى عندهم ستر ، وزنته سبعون مثقالا ، فتكون زنته بالدرهم
المصرية مائة درهم ودرهمين وثلاثي درهم ، وكل أربعين سترًا من واحد ، وجميع
مبيعاتهم بالوزن أما الكيل فلا يعرف عندهم .

الجملة الخامسة

(في الأسعار)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" أسعار الهند في زمانه نقلا عن قاضي القضاة
سراج الدين الهندي وغيره فقال : إن الجارية الخدامة لانتعدي قيمتها بمدينة دهلي
ثمان تنكات ، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش خمس عشرة تنكة . وفي غير دهلي
أرخص من ذلك حتى قال القاضي سراج الدين : إنه اشترى عبدا مراهما نقعا
بأربعة دراهم . ثم قال : ومع هذا الرخص إن من الجوارى الهنديات من تبلغ
قيمتها عشرين ألف تنكة وأكثر لحسنهن ولظنهن .

ونقل عن الشيخ مبارك الأنباتي (وكان فيما قبل الثلاثين والسبعائة) فقال :
إن أوساط الأسعار حينئذ أن تكون الحنطة كل من بدرهم ونصف هشتكاني ،
والشعير كل من بدرهم واحد هشتكاني ، والأرز كل من بدرهم ونصف وربع
هشتكاني ، إلا أنواعا معروفة من الأرز فإنها أغلى من ذلك ، والحمص كل منين
بدرهم هشتكاني ، ولحم البقر والمعز كل أربعة أستار بدرهم سلطاني ، والإوز كل
طائر بدرهمين هشتكانية ، والدجاج كل أربعة أطياف بدرهم هشتكاني ، والسكر كل

خمسة أستار بدرهم هشتكاني ، والرأس الغنم الجيدة السمينة بتنكة (وهي ثمانية دراهم هشتكانية) والبقرة الجيدة بتنكتين (وهما ستة عشر درهما هشتكانية) وربما كانت بأقل ، والجاموس كذلك .

أما الحمام والعُصفور وأنواع الطير فبأقل ثمن ، وأنواع الصيد من الوحش والطيور كثيرة ، وأكثر ما كَلِّهم لحم البقر والمعز مع كثرة الضأن عندهم إلا أنهم آعدوا أكل ذلك .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن الخجندى أنه قال : أكلت أنا وثلاثة نفر رفاق في بعض بلاد دليّ لحماً بقرياً وخبزاً وسمناً حتى شبعنا يجتيل : وهو أربعة افلس كما تقدم .

الجملة السادسة

(في الطريق الموصلة إلى مملكتي السند والهند)

اعلم أن لهذه المملكة عدة طرق :

الطريق الأول — طريق البحر، قد تقدم في الكلام على الطريق الموصلة إلى اليمن ذكّر الطريق من سواحل مصر : من السويس ، والطور ، والقصير ، وعيداب إلى عدن من اليمن في هذا البحر ، ومن عدن إلى أن يركب في بحر الهند المتصل ببحر القلزم ، إلى سواحل السند والهند ، ويخرج إلى أي البلاد أراد من الفرض الموصلة إليها .

الطريق الثاني — طريق بحر فارس ، قد تقدم في الكلام على مملكة إيران ذكّر الطريق الموصلة من حلب إلى بغداد ، ثم من بغداد إلى البصرة . قال ابن خردادبه :

ثم من البصرة إلى عبَّادانَ اثنا عشر فرسخًا ، ثم إلى الخشبات فرسخان ، ومنها يُركب في بحر فارس :

فمن أراد طريقَ البر إلى السِّند والهند ، جاز هذا البحر إلى هُرْمُزَ : مدينة كَرْمَانَ ، ومنها يتوصل إلى السند ثم الهند ثم الصين .

ومن أراد الطريق في البحر ، فقد ذكر ابن خردادبه : أن من أبلَّة البصرة في نهر الأبلَّة إلى جزيرة خارك في نخيل فارس سبعين فرسخًا ، ومنها إلى جزيرة لابن ثمانين فرسخًا ، ثم إلى جزيرة أبرون سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة حَيْن سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة كيش سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة أبركلوان ثمانية عشر فرسخًا ، ثم إلى جزيرة أرموز سبعة فراسخ ، ثم إلى بار سبعة أيام ، وهي الحد بين فارس والسند ، ثم إلى الديبل ثمانية أيام ، ثم إلى مصب مهْران في البحر فرسخان ، ثم من مهْران إلى بكين أول أرض الهند أربعة أيام ، ثم إلى المند فرسخان ، ثم إلى كُول فرسخان ، ثم إلى سندان ثمانية عشر فرسخًا ، ثم إلى ملي خمسة أيام ، ثم إلى بلين يومان . ثم يفترق الطريق في البحر :

فمن أخذ على الساحل — فمن بلين إلى باس يومان . ثم إلى السنجل وكبشكان يومان ، ثم إلى كودا مصب نهر فريد ثلاثة فراسخ ، ثم إلى كيلكان يومان ، ثم منها إلى سمندر ، ومن سمندر إلى أورسير اثنا عشر فرسخًا ، ثم إلى أبينه أربعة أيام ، ثم إلى سرنديب يومان .

(١) الخشبات علامات في البحر للراكب تنهى إليها ولا تتجاوزها خوفًا من الجزر لتلا تلحق الارض .

ومن أراد جهة الصين عدل من بلين وجعل سرنديب عن يساره . فمن جزيرة سرنديب إلى جزيرة لنجالوس عشرة أيام إلى خمسة عشر يوماً ، ثم إلى جزيرة كلة ستة أيام . وعن يسارها جزيرة بالوس على يومين ، ثم على خمسة عشر يوماً بلاد تبت العطر .

الجملة السابعة

(في ذكر ملوك الهند)

(١) جماعة منهم ملوك الكفر ، أسماؤهم أعجمية لا حاجة إلى ذكرهم ، فأضربنا عنهم .

وأما في الإسلام فأقول من أخذ في فتح ما فتح من الهند بنو سبكتكين : ملوك غزنة ، المتقدم ذكرهم في مملكة خوارزم والقبچاق وما مع ذلك .

ففتح يمين الدولة (محمود بن سبكتكين) منه مدينة بهاطية . وهي مدينة حصينة عالية السور وراء الملتان ، في سنة ست وتسعين وثلاثمائة ، وسار إلى بيده ملك الهند ، فهرب منه إلى مدينته المعروفة بكالجار ، فحاصره فيها حتى صالحه على مال ، فأخذ المال وألبسه خلعتة ، وأستغنى من شد وسطه بالمنطقة فلم يعفه من ذلك ، فشدّها على كره .

ثم فتح (إبراهيم بن مسعود) منهم حصوناً منه في سنة إحدى وخمسين وأربعمائة .

(١) بياض في الأصل ولعله أما قبل الإسلام فلعلها جماعة من الخ .

(٢) ذكر أبو الفداء فتحها في حوادث سنة ٩٥ ومسيره إلى ملكها في سنة ٩٦ .

(٣) عبارة أبي الفدا "قلعتة" .

ثم كانت دولة الغورية بغزنة أيضا . ففتح شهاب الدين أبو المظفر (محمد بن سام) ابن الحسين الغوري منه مدينة لساور في سنة سبع وأربعين وخمسةائة ، وأتبعها بفتح الكثير من بلادهم ، وبلغ من النكاية في ملوكهم ما لم يبلغه أحد من ملوك الإسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند ، وأقطع مملوكه قطب الدين أيك مدينة دهلي التي هي قاعدة الهند ، وبعث أيك المذكور عساكره ، فملك من الهند أما كن مادخلها مسلم قبله حتى قاربت جهة الصين .

ثم فتح (شهاب الدين محمد) المذكور أيضا بعد ذلك نهر واله في سنة سبع وتسعين وخمسةائة ، وتوالت ملوك المسلمين وفتوحاتهم في الهند إلى أن كان (محمد بن طغلقشاه) في زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية ، فقوى سلطانه بالهند ، وكثرت عساكره ، وأخذ في الفتوح حتى فتح معظم الهند .

قال في "مسالك الأبصار" قال الشيخ مبارك الأنباتي : وأول ما فتح منه مملكة تلك ، وهي واسعة البلاد ، كثيرة القرى ، عدة قراها تسعمائة ألف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جاجنكر ، وبها سبعون مدينة جميلة كلها على البحر ، دخلها من الجواهر والقمش المنوع ، والطيب ، والأفاوية ، ثم فتح بلاد لكتوتى ، وهي كرسى تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دواكير . ويقال لها دكير ، ولها أربع وثمانون قلعة جليلات المقدار . ونقل عن الشيخ برهان الدين أبي بكر بن الخلال البزى : أن بها ألف ألف قرية ومائتى ألف قرية . ثم فتح بلاد دور سمند ، وكان بها السلطان بلال الدبو وخمسة ملوك كفار . ثم فتح بلاد المعبر : وهو إقليم جايل له تسعون مدينة بتادر على البحر ، يجي من دخلها الطيب ، والألانس ، والقمش المنوع ، ولطائف الآفاق .

(١) الذى فى العبر وتاريخ ابن الأثير أنه فتحها فى سنة سبع وسبعين وخمسةائة وهو الصواب .

وذكر أنه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التي فتحها مالا يكاد السامع يصدقه . حكى عن الشيخ برهان الدين أبي بكر بن الخلال المتقدم ذكره : أنه حاصر ملكاً على حد بلاد الدواكير ، فسأله أن يكف عنه على أن يرسل إليه من الدواب ما يختار ليحمله له مالا ، فسأله عن قدر ما عنده من المال فأجابته فقال : إنه كان قبلي سبعة ملوك ، جمع كل واحد منهم سبعين ألف صهرج متسعة من المال ، فأجابته إلى ذلك ، وختم على تلك الصهاريج باسمه وتركها بحالها ، وأقر الملك باسم ذلك الملك ، وأمر بإقامته عنده ، وجعل له ثلثاً من تلك المملكة .

وحكى عن علي بن منصور العقيلي من عرب البحرين أنه تواتر عندهم من الأخبار أن هذا السلطان فتح مدينة بها بحيرة ماء ، في وسطها بيت برمعظم عندهم يقصدونه بالنذر ، وكلما أتى له بنذر رُمي في تلك البحيرة ، فصرف الماء عنها وأخذ ما كان بها من الذهب ، فكان وسق مائتي فيل وآلاف من البقر ، إلى غير ذلك مما يكاد العقل أن ينكره ، ولذلك حصل عنده من الأموال مالا يأخذه الحصر ، وآتعت أموال عساكره حتى جاوزت الوصف ، حتى حكى الشيخ تاج الدين بن أبي المجاهد السمرقندي : أنه غضب على بعض خاناته لشربه الخمر فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جملة ما وجد له من الذهب ألف ألف مثقال وسبعة وثلاثين ألف مثقال ، ومقدار ذلك ثلاثة وأربعون ألف قنطار وسبعون قنطاراً ، وهو مع ذلك يعطي العطاء الجزيل ويصل بالأموال الجمّة .

فقد حكى ابن الحكيم الطياري : أن شخصاً قدم له كتاباً ، فحسب له حثية من جوهر كان بين يديه ، قيمتها عشرون ألف مثقال من الذهب .

وحكى الشريف السمرقندي : أن شخصاً قدم له آثنتين وعشرين حبة من البطيخ الأصفر ، حملها إليه من بخارى ، فأمر له بثلاثة آلاف مثقال من الذهب .

وحكى الشيخ أبو بكر بن أبي الحسن المُلْتَانِيّ أَنَّهُ اسْتَفَاضَ عَنْهُ أَنَّهُ التَّرَمُّ أَنَّهُ لَا يَنْطِقُ فِي إِطْلَاقَاتِهِ بِأَقْلٍ مِنْ ثَلَاثَةِ آلَافٍ مِثْقَالًا ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْعَطَاءِ الَّذِي يَخْرُقُ الْعُقُولَ .

وحكى عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى : أَنَّهُ مَعَ كَثْرَةِ الْبَدْلِ وَسَعَةِ الْعَطَاءِ فِي هَيَاتِهِ وَمَا يُنْفِقُهُ فِي جُيُوشِهِ وَعَسَاكِرِهِ لَا يُنْفِقُ نِصْفَ دَخْلِ بِلَادِهِ .

قلت : ثم بعد محمد شاه ولى هذه المملكة من أقاربه سلطان اسمه (فيروزشاه) وبقي في الملك نحو أربعين سنة . ثم تنقلت المملكة في يدهم إلى أن كان من ثمركنك ما كان من فتح دلي ونهبها .

ثم آل الأمر بعده إلى سلطان من بيت الملك ، اسمه (محمود خان) وهو القائم بها إلى الآن . وقد صارت الدوا أكبر منها لسلطان بمفرده ، وأسمه اليوم السلطان (غياث الدين) .

الجملة الثامنة

(في ذكر عساكر هذه المملكة ، وأرباب وظائفها على ما ذكره في "مسالك الأبصار" عن دولة السلطان محمد بن طغلقشاه المتقدم ذكره ، نقلا عن الشيخ مبارك الأنباتي وغيره)

أما عساكره ، فقد ذكر أنها تشمل على تسعمائة ألف فارس : منهم من هو بحضرتة ، ومنهم من هو في سائر البلاد ، يجرى عليهم كلهم ديوانته ، وأن عسكره مجتمع من الترك والخطا والفرس والهنود وغيرهم من الأجناس . وكلهم بالخيال المسومة ، والسلاح الفائق ، والتجمل الظاهر ، وأن أعلى عسكره الخانات ، ثم الملوك ، ثم الأمراء ، ثم الاصفهسلارية ، ثم الجنود .

وذكر أن في خدمته ثمانينَ خاناً أو أكثرَ ، وأن لكل واحد منهم من الأتباع ما يناسبه : لخان عشرة آلاف فارس ، وللبلا ألف فارس ، وللأمير مائة فارس ، وللأصفهسلاوية دون ذلك . وأن الأصفهسلاوية لا يؤهل أحد منهم للقرب من السلطان ، وإنما يكون منهم الولاة ومن يجرى مجراهم ، وأن له عشرة آلاف مملوك أترك ، وعشرة آلاف خادمٍ خصي ، وألف خزندار ، وألف بسمقدار ، وله مائتا ألف عبدٍ ركبانيّة ، تلبس السلاح وتمشي في ركابه ، وتقاتل رجاله بين يديه ، وأن جميع الجنود تختص بالسلطان ، ويجرى عليهم ديوانه حتى من في خدمة الخانات والملوك والأمراء ، لا يجرى عليهم إقطاع من جهة من هم في خدمته كما في مصر والشام .

وأما أرباب الوظائف من أرباب السيوف ، فله نائب كبير ، يسمى بلغتهم امرت وأربعة نوابٍ دونه ، يسمى كل واحد منهم شق ، وله الحجاب ومن يجرى مجراهم من سائر أرباب الوظائف . وأما من أرباب الأفلام ، فله وزير عظيم ، وله أربعة كُتاب سر ، يسمى كل واحد منهم بلغتهم ديران ، ولكل منهم تقدير ثلثائة كاتب .

وأما القضاة فله قاضي قضاة عظيم الشأن ، وله محتسب وشيخ شيوخ ، وله ألف طبيب ومائتا طبيب .

وأما غير هؤلاء فله ألف بازدار ، تحمل الطيور الجوارح للصيد رابطة الخيل ، وثلاثة آلاف سواقٍ لتحصيل الصيد ، وخمسمائة نديم ، وألفان ومائتان من الملاحى غير ماليكه الملاحى ، وهى ألف مملوك برسم تعليم الغناء خاصة ، وألف شاعر بالعربية ، والفارسية ، والهندية ، من ذوى الذوق اللطيف . ويجرى على جميع أولئك ديوانه مع طهارة الذيل والعفة في الظاهر والباطن .

الجملة التاسعة

(في زيّ أهل هذه المملكة)

أمّا أربابُ السُّيوفِ فُقِلَ عن الشيخِ مُباركِ الأنباتى : أن لبسَ السلطانِ
والخاناتِ والملوكِ ، وسائرِ أربابِ السُّيوفِ تَتْرِيَّاتٌ ، وتَكْلَواتٌ ، وأَقْبِيَّةٌ إسلاميةٌ ،
مُحَصَّرةٌ الأوساطِ خُوارزميةٌ ، وعمائمٌ صغارٌ لاتتعدى العمامةُ منها خمسةَ أذرعٍ أو ستةً ،
وأن لبسهم من البياضِ والجُوخِ .

وحكى عن الشريفِ ناصرِ الدينِ محمدِ الحسينيِّ الأدميِّ أن غالبَ لبسهم تَتْرِيَّةٌ
مُزَرَّكشةٌ بالذهبِ ، ومنهم من يلبسُ مطرَّزَ الكمينِ بِزَرَكِيشٍ ، ومنهم من يعملُ الطَّرَازَ
بين كتفيه مثلَ المُغَلِّ ، وأقباعهم مربعةُ الأَنِساطِ ، مُرَصَّعةٌ بالجواهرِ ، وغالبُ
ترصيعهم بالياقوتِ والماسِ ، وَيَضْفِرُونَ شعورهم ذوائباً ، كما كان يُفَعِّلُ بمصرِ
والشامِ في أولِ الدولةِ التركيةِ ، إلا أنهم يجعلون في الذوائبِ سُرايِبَ من حَرِيرٍ ،
ويُشَدُّون في أوساطهم المَنَاطِقَ من الذهبِ والفضَّةِ ، ويلبسون الأَخفافَ والمهَامِيزَ ،
ولا يُشَدُّون السُّيوفَ في أوساطهم إلا في السَّفَرِ خاصَّةً .

وأما الوُزراءُ والكَتابُ ، فزيهم مثلُ زيِّ الجُنْدِ ، إلا أنهم لا يُشَدُّون المَنَاطِقَ ،
وربما أرنحوا بعضُهم العذبةَ الصغيرةَ من قُدَامِهِ كما تفعلُ الصُّوفِيَّةُ .

وأما القُضاةُ والعلماءُ ، فلبسهم فرجِيَّاتٌ شَبِيهاةٌ بالجُنْدِاتِ ودَرَارِيعُ .

وحكى عن قاضي القضاةِ سراجِ الدينِ الهندىِّ أنه لا يلبسُ عندهم ثيابَ
الكَنانِ المجلوبةَ من الرُّوسِ والإسكندريةِ إلا مَنْ ألبسه له السلطانُ ، وإنما لبسهم
من القُطنِ الرقيقِ الذى يفوقُ البَغْدادىَّ حُسناً ، وأنه لا يركبُ بالسُّروجِ الملبَّسةَ
والمُحَلَّةَ بالذهبِ إلا مَنْ أنعمَ عليه بها السلطانُ .

الجملة العاشرة

(في أرزاق أهل دولة السلطان بهذه المملكة)

أما الجُند، فنقل من الشيخ مبارك الأنباتي أنه يكون للخانات والملوك والأمراء والاصفهلارية بلاد مقررة عليهم من الديوان إقطاعاً لهم .

وذكر أن إقطاع النائب الكبير المسمى بأمرت يكون إقلياً عظيماً كالعراق . ولكل خان لُكَّان ، كلُّ لك مائة ألف تنكة ، كل تنكة ثمانية دراهم ، ولكل ملك من ستين ألف تنكة إلى خمسين ألف تنكة ، ولكل أمير من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة ، وللصفهلارية من عشرين ألف تنكة إلى ما حولها ، ولكل جُندى من عشرة آلاف تنكة إلى ألف تنكة . ولكل مملوك من المالك السلطانية من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة ، مع الطعام والكسوة وعبايق الخيل لجمعهم على السلطان . ولكل عبد من العبيد السلطانية في كل شهر عشر تنكات بيضاء ، ومَنان من الحنطة والأرز ، وفي كل يوم ثلاثة أستار من اللحم ، وفي كل سنة أربع كساوي .

وأما أبواب الأقاليم ، فإن الوزير يكون له إقليم عظيم نحو العراق إقطاعاً له ، ولكل واحد من كُتاب السرا الأربعة مدينة من المدن البنادر العظيمة الدخُل ، ولأكابر كُتابهم قُرى وضياع . ومنهم من يكون له خمسون قرية . ولكل من الكُتاب الصغار عشرة آلاف تنكة . ولقاضي القضاة المعبر عنه بصدرجهان عشر قُرى ، يكون متحصلاً نحو ستين ألف تنكة ، ولشيخ الشيوخ مثله ، وللحسب قرية يكون متحصلاً نحو ثمانية آلاف تنكة .

وأما غير هؤلاء من سائر أبواب الوظائف ، فذكر أنه يكون لبعض الندماء قريتان ولبعضهم قرية ، ولكل واحد منهم من أربعين ألف تنكة إلى ثلاثين ألف تنكة

إلى عشرين ألف تنكة على مقادير مراتبهم ، مع الكسوى والخالج والإتقادات ،
وليُقَسَّ على ذلك .

الجملة الحادية عشرة

(في ترتيب أحوال هذه المملكة)

وتختلِفُ الحال في ذلك باختلاف أحوال السلطان .

أما الخِدْمَة ، فخدمتان : إحداهما الخِدْمَة اليَوْمِيَّة ، فإنه في كل يوم يَمْدُ الخِوَانُ
في قصر السلطان : ويأكل منه عشرون ألف نفر من الخانات ، والملوك ، والأُمراء ،
والإصفهسلارية ، وأعيان الجُند ، ويمدُّ للسلطان خِوَانٌ خاصٌّ ، ويحضُرُه معه
من الفقهاء مائتا فقيه في الغداء والعشاء ليأكلوا معه ويحشوا بين يديه .

وحكى عن الشيخ أبي بكر بن الخلال : أنه سأل طبَّاح هذا السلطان عن ذبيحته
في كل يوم - فقال : ألفان وخمسمائة رأس من البتر ، وألفاً رأس من الغنم ، غير
الخيل المسمنة وأنواع الطير .

والثانية - الجُمُعِيَّة ، حكى عن الشيخ محمد الحُجَندِي : أن لهذا السلطان يوم
الثلاثاء جلوساً عاماً في ساحةٍ عظيمةٍ متسعةٍ إلى غاية ، يضرب له فيها حيرٌ كبير
سلطاني ، يجلس في صدره على تحت عالٍ مصفح بالذهب ، وتقف أرباب الدولة
حوله يميناً وشمالاً ، وخلفه السلاح دارية وأرباب الوظائف قيام بين يديه على
منازلهم ؛ ولا يجلس إلا الخانات وصدرجهان « وهو قاضي القضاة » والديوان
« وهو كاتب السر الذي تكون له التوبة » ويقف الحُجَّاب أمامه ، وينادى مناداة
عامَّة : إن من كان له شكوى أو حاجة فليحضُرْ ؛ فيحضُر من له شكوى أو حاجة ،
فيقف بين يديه فلا يمنع حتى ينهى حاله ، ويأمر السلطان فيه أمره .

ومن عادته أن لا يدخل عليه أحدٌ ومعه سلاحُ البتَّةِ حتى ولا سيِّكين صغيرةً ، ويكون جلوسه داخلَ سبعةِ أبوابٍ ، يتزلُّ الداخلون عليه على البابِ الأوَّلِ ، وربما أُذن لبعضهم بالركوب إلى البابِ السادس . وعلى البابِ الأوَّلِ منها رجلٌ معه بوقٌ ، فإذا جاء أحدٌ من الخانات أو المملوك أو أكابر الأُمراء ، نفخ في البوق إعلماً للسلطان أنه قد جاءه رجلٌ كبيرٌ : ليكون دائماً على يقظةٍ من أمره . ولا يزالُ ينفخ في البوق حتى يقارب الداخلُ البابَ السابعَ ، فيجلس كلُّ من دخل عند ذلك البابِ حتى يجتمع الكلُّ ، فإذا تكاملوا أُذن لهم في الدخول ، فإذا دخلوا جلس من له أهليَّةُ الجلوس ووقف الباقون ، وجلس القضاة والوزيرُ وكتب السرى في مكان لا يقع فيه نظرُ السلطان عليهم ، ومدَّ الخوانُ . ثم يُقدِّم الحجابُ قصصَ أرباب المظالم وغيرهم ، ولكل قوم حاجبٌ يأخذ قصصهم ، ثم يرفعون جميع القصص إلى حاجبٍ مُقدِّم على الكلِّ ، فيعرضها على السلطان ويسمع ما أمر فيها . فإذا قام السلطان جلس ذلك الحاجبُ إلى كاتب السرى فأدَّى إليه الرسائلَ في ذلك فيتقدُّها . ثم يقوم السلطان من مجلسه ذلك ويدخل إلى مجلسٍ خاصٍّ ، ويدخل عليه العلماءُ فيجالسهم ويحدِّثهم ويأكل معهم ، ثم ينصرفون ، ويدخل السلطان إلى دُوره .

أما حاله في الركوب ، فإنه كان في قُصوره يركب وعلى رأسه اِجتر والسلاح داريَّة وراءه محمولاً بأيديهم السلاحُ . وحواله قريبٌ آتني عشرَ ألف مملوكٍ ، جميعهم ليس فيهم راكبٌ إلا حاملُ اِجتر والسلاح داريَّة والحمداريَّة حملةُ القماش إن كان في غير قُصوره . وعلى رأسه أعلامٌ سودٌ في أوساطها تينين عظيمين من الذهب ، ولا يحمل أحدٌ أعلاماً سوداً إلا له خاصَّةٌ . وفي ميسرته أعلامٌ حُمْرٌ ، فيها تينتان ذهبٌ أيضاً . وطبوله الذي يُدق بها في الإقامة والسفر على مثل الإسكندر .

وهو مائتا حمل نقارات ، وأربعون حملا من الكؤسات الجكار ، وعشرون بوقاً ،
وعشرة صنوج .

قال الشيخ مبارك الأنباتى : ويحمل على رأسه الحتر إن كان في غير الحرب ،
فإن كان في الحرب حمل على رأسه سبعة جتورة ، منها اثنا مرصعان لا يقومان
لنفاستهما . قال : ولدسته من الفخامة والعظمة والقوانين الشاهنشاهية ما لا يكون
مثله إلا للاسكندر ذى القرنين أو الملك شاه بن ألب أرسلان .

ثم إن كان في الصيد فإنه يخرج في خف من اللباس في نحو مائة ألف فارس ،
ومائتي فيل ، ويحمل معه أربعة قصور على ثمانمائة جمل ، كل قصر على مائتي جمل
ملبسة جميعها بستور الحرير المذهبة ، وكل قصر طبقتان غير الحريم والحركاوات .
فإن كان يتنقل من مكان إلى مكان للتنزه وما في معناه ، فيكون معه نحو ثلاثين ألف
فارس ، وألف جنيب مسرحة ملجمة ، مابن ملبس بالذهب ومطوق وفيها المرصع
بالجواهر والياقوت .

وإن كان في الحرب ، فإنه يركب وعلى رأسه سبعة جتورة ، وترتيبه في الحرب
على ما ذكره قاضى القضاة سراج الدين الهندى : أن يقف السلطان في القلب
وحوله الأئمة والعلماء ، والرماة قدامه وخلفه ، وتمتد الميمنة والميسرة موصولة
بالجناحين ، وأمامه الفيلة الملبسة البركصطوانات الحديد وعليها الأبراج المسترة فيها
المقاتلة ، وفي تلك الأبراج منافذ لرمي النشاب وقوارير النقط ، وأمام الفيلة العبيد
المشاة في خف من اللباس بالسُّتور والسلاح ، فيستحبون حبال الفيلة والخليل
في الميمنة والميسرة ، تضم أطراف ... (١) ... من حول الفيلة ومن ورائها حتى
لا يجد هارب له مفرًا .

(١) باض بالأصل ولعله تضم أطراف "الجيش من الخ" .

أما غيرُ السلطان من عساكره ، فقد جرتْ عادتُهُم أن الخاناتِ والملوكَ والأمراءَ لا يركبُ أحدُ منهم في السَّفَرِ والحَضَرِ إلا بالأعلامِ ، وأكثرُ ما يحملُ الخانُ معه سبعةَ أعلامٍ ، وأقلُّ ما يحملُ الأميرُ ثلاثةً ، وأكثرُ ما يحملُ الخانُ في الحَضَرِ عشرَ جنائبٍ ، وأكثرُ ما يحملُ الأميرُ في الحَضَرِ جنائبٍ ، وفي السفرِ يتعاطى كلُّ أحدٍ منهم قدرَ طاقتِهِ .

وأما اتصالُ الأخبارِ بالسلطانِ ، فذكرَ قاضي القضاةِ سراجُ الدينِ الهنديُّ : أن ذلكَ يَخْتَلِفُ باختلافِ الأحوالِ : فأحوالُ الرعيَّةِ له ناسٌ يخالطونَ الرعيَّةَ ، ويَطَّاعونَ على أخبارِهِم ، فنَ أُطَّلِعَ منهم على شيءٍ أنهاه إلى مَنْ فوقه ، ويُنهيهِه الآخرَ إلى مَنْ فوقه حتى يتَّصِلَ بالسلطانِ . وأحوالُ البلادِ النائيةِ لِاتِّصالِ الأخبارِ منها من السرعةِ ما ليس في غيرها من الممالكِ ، وذلكَ أن بينَ أمهاتِ الأقاليمِ وبينَ قصرِ السلطانِ أماكنَ متقاربةً ، مشبهةً بمركزِ البريدِ بمصرَ والشَّامِ إلا أن هذه الأماكنَ قريبةُ المدىِ بعضها من بعضٍ ، بينَ كلِّ مكانينِ نحوُ أربعِ غلواتِ سهمٍ أو دُونَها ، في كلِّ مكانٍ عشرةُ سَعَاةٍ مِن له خِفَّةُ وَقُوَّةُ ، ويحملُ الكَتِّيبَ بينه وبينَ مَنْ يليه ، وَيَعُدُّو بأشدِّ ما يمكنه إلى أن يُوَصِّلَه إلى الآخرِ لِيَعُدُّو به كذلكَ إلى مَقْصِدِهِ ، فيصلُ الكِتَّابُ من المكانِ البعيدِ في أقربِ وقتٍ . وفي كلِّ مكانٍ من هذه الأمكنةِ مسجدٌ وسوقٌ وبركةٌ ماء . وبينَ دَلِّيَّ وقُبَّةِ الإسلامِ اللتين هما قاعدتا المملكةِ طبولٌ مرتَّبةٌ في أمكنةٍ خاصَّةٍ ، فحيثما كان في مدينةٍ وُفِّحَ بابُ الأخرى أو أُغْلِقَ يدُقُّ الطبلُ ، فإذا سمعه ما يجاوره دَقَّ ، فيُعَلِّمُ خبرَ فتحِ المدينةِ وفتحِ بابِ الأخرى وغلَقِهِ .

الفصل الثانى

من الباب الرابع من المقالة الثانية

(فى المالك والبُلدان الغربىَّة عن مملكة الديار المصرىَّة ، وما سامتَ ذلك ووالاه من الجهة الشَّمالىَّة . وفىه أربعُ ممالك)

المملكة الأولى

(مملكة تُونس وما أُضيف إليها . وفىه اثنتان وعشرون جملة)

الجملة الأولى

(فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة [وحدودها])

[أما موقعها من الأقاليم السبعة] فإن أكثرها واقع فى الإقليم الثالث ، وبعضها واقعٌ فى أواخر الثانى .

وأما حدودها فعلى ما أشار إليه فى "التعريف" : حدُّها من الشرق العقبة الفاصلة بينها وبين الديار المصرىَّة ، ومن الشمال البحر الرومى ، ومن الغرب جزائرُ بنى مرزغان الآتى ذكرها ، ومن الجنوب آخر بلاد الحرید والأرض السَّواخة إلى ما يقال إن فىه المدينة المسماة بمدينة النحاس .

قال فى "مسالك الأبصار" : وحدُّها من الجنوب الصَّحراء الفاصلةُ بينها وبين بلاد جباوة المسكونة بأُمم من السودان . وحدُّها من الشرق آخر حدود أطرابلس ، وهى داخلة فى التحديد . وحدُّها من الشمال البحر الشامى : وهو الرومى . وحدُّها من الغرب آخر حدود بدليس المجاورة لجزائر بنى مرزغان ، آخر عمالة صاحب برِّ العُدوة .

وقد نقل في "تقويم البلدان" في الكلام على بونة عن ابن سعيد أن آخر سلطنة بجاية من الشرق مدينة بونة الآتي ذكرها، وأنها أول سلطنة أفريقية من الغرب .
قال في "مسالك الأبصار": وطولها خمس وثلاثون يوما، وعرضها عشرون يوما .

الجملة الثانية

(في بيان ما اشتملت عليه هذه المملكة من الأعمال
وما أنطوى عليه كل عمل)

وهذه المملكة تشتمل على عمالين :

(١)
العمل الأول - أفريقية . قال في "تقويم البلدان": بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وسكون الياء المشناة تحت وكسر القاف ومثناة تحت بعدها هاء في الآخر . وقد اختلف في سبب تسميتها أفريقية . فقيل إن أفريقيس أحد تبابعة اليمن آفنتحها وأستولى عليها فسميت بذلك . وقيل إنما سميت بفارق بن [بيصر بن حام بن نوح عليه السلام] .^(٣)

وكانت قاعدتها القديمة (سبیطلة) بضم السين المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون المشناة من تحتها وفتح الطاء المهملة واللام وفي آخرها هاء . وهي مدينة أزلية في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، حيث الطول ثلاثون درجة ، والعرض ثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وبها آثار عظيمة تدل على عظم أمرها .

- (١) ضبطها ياقوت بكسر الهمزة وتبعناه فيما تقدم ويظهر أن فيه لغتين .
(٢) في المعجم واللسانك أفريقيس بياء بعد القاف وسين مهملة في الآخر . وفي العبر كالأصل إلا أنه بالمعجمة وقد تقدم بها كثيرا .
(٣) بياض بالأصل والتصحيح عن معجم البلدان لياقوت .
(٤) في معجم ياقوت وطاء مكسورة .

قال الإدريسي^(١) : وكانت قبل الإسلام مدينة أفريسيس ملك الروم الأفارقة ، فتحها المسلمون في صدر الإسلام وقتلوا ملكها المذكور .

ثم صارت قاعدتها في أول الإسلام (القميرون^(٢)) . بفتح القاف وسكون المثناة تحت وفتح الراء المهملة وواو وألف وفي آخرها نون . وهي مدينة في الإقليم الثالث أيضا حيث الطول ثمان وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة ، بنيت في صدر الإسلام بعد فتح أفريقيا في جنوبي جبل شماليها ، وهي في صحراء ، وشرب أهلها من ماء الآبار وقال في "العزيزي" : من ماء المطر ، وليس لها ماء جار ، ولها واد في قبلة المدينة به ماء صالح يستعمله الناس فيما يحتاجونه . قال في "العزيزي" : وهي أجل مدن الغرب (يعنى في القديم) . وكان عليها سور عظيم هدمه زيادة الله بن الأغلب . قال الإدريسي : وبينها وبين سبطة سبعون ميلا .

ثم صارت قاعدتها بعد ذلك (المهدية) بفتح الميم وسكون الهاء وكسر الدال المهملة نسبة إلى المهدي . وهي مدينة بناها عبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين بمصر في سنة ثلاث وثمانين ، وموقعها في الإقليم الثالث أيضا من الأقاليم السبعة حيث الطول ثلاثون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة فيما ذكره ابن سعيد . وهي على طرف داخل في البحر كهيئة كنف متصل بزند ، والبحر محيط بها غير مدخلها ، وهو مكان ضيق كما في سبطة . ولها سور حصين شاهق في الهواء ، مبنى بالحجر الأبيض بأبراج عظام . وبها القصور الحسننة المطلة على البحر .

(١) في التقوم "جرجيس" وفي المعجم جرجير .

(٢) من هنا الى الكلام على الطبقة الثانية من القياسرة قبل ظهور دين النصرانية مقابل أيضا على قطعة وجدت بدار الكتب الأزهرية .

(٣) لم يذكر العرض ، وذكر في "تقوم البلدان" عن ابن سعيد أنه إحدى وثلاثون درجة .

ثم صارت قاعدتها بعد ذلك (تونس) بضم المثناة من فوق وسكون الواو وضم النون وفي آخرها سين مهملة ، وهي قاعدة هذه المملكة الآن ، ومستقر سلطانها . وهي مدينة قديمة البناء ، واقعة في الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة . وهي على بحيرة مالحة خارجة من البحر الرومي ، طولها عشرة أميال وتونس على آخرها .

قال البكري : ودور هذه البحيرة نحو أربعة وعشرين ميلا . قال في "العزيزي" : وهي مدينة جليلة ، لها مياه ضعيفة جارية يزرع عليها ، وفيها الحصب وكثرة الغلات . وهي في وطأة من الأرض في سفح جبل يعرف بأمم عمرو ، يستديرها حندق وسور حصين ، ولها ثلاثة أرباض كبيرة من جهاتها ، وأرضها سيخة ، وجميع بنائها بالحجر والأجر ، وأبنيتها مسقفة بالأخشاب ، ودور أكبرها مفروشة بالرُخام . ودم في "الروض المعطار" بيوتها فقال هي كما يقال : ظاهرها رُخام ، وباطنها سُخام . وشرب أهلها من الآبار ، وبيوتها صهاريج يُجمع فيها ماء المطر لغسل القماش ونحوه ، وبها الحمامات والأسواق الجليلة ، وبها ثلاث مدارس : وهي الشامية والقرضية ، ومدرسة الهواء ، وبها البساتين البعيدة والقريبة منها ، والبساتين محيطة ببحيرتها المقدم ذكرها من جنوبيها .

قال في "مسالك الأبصار" : ومذ خلا الأندلس من أهله ، وأووا إلى جناح ملوكها ، مصر وإقليمها ، ونوعوا بها الغراس ، فكثرت مستنزهاتها ، وأمتد بسيط بساتينها . قال : وبها يعمل القماش الأفريقي : وهو ثياب رفّاع من القطن والكتان معا ومن الكتان وحده ، وهو أمتع من النصافي البغدادي وأحسن ، ومنه جل كساوى أهل المغرب . وللساطان بها قلعة جليلة يسكنها ، يعبرون عنها بالقصبة كما هو

مصطلح المغاربة في تسمية القلعة بالقصبة ، وللسلطان بها بستانان : أحدهما مُلاصق أرباض البلد يسمى برأس الطابية ، والثاني بعيد من البساتين يسمى بأبي فُهر ، بينه وبين البلد نحو ثلاثة أميال ، والماء مُنْسَق إليهما من ساقية بجبل يعرف بجبل زَغوان بفتح الزاي وسكون الغين المعجمتين ونون في الآخر ، على مسيرة يومين من تُونُس .

وأما ما أشتملت عليه من المُدن سوى القواعد المتقدمة الذكر .

فمن مشارق تونس (سوسة) بضم السين المهملة وسكون الواو وفتح السين الثانية ثم هاء . وهي مدينة على ساحل البحر ، واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، حيث الطول أربع وثلاثون درجة وعشر دقائق ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وهي في جنوبي تونس وشرقيها في طرف داخل في البحر . قال في "العزيزي" : وهي مدينة أزيلت بها سوق وفنادق وحمامات . قال الإدريسي : وهي عامرة بالناس ، كثيرة المتاجر ، والمسافرون إليها قاصدون وعنها صادرون ، وعليها سور من حجر حصين .

وذكر في "مسالك الأبصار" : أن عليها سُورا من لبن ، وأنها قليلة العارة لأستيلاء العرب عليها .

ومنها (صفاقس) بفتح الصاد المهملة ثم فاء وألف وقاف مضمومة وفي آخرها سين مهملة . وهي مدينة على ساحل البحر شرقي المهديّة ، واقعة في الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطول خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة صغيرة في مستو من الأرض ، وجنوبيها جبل يسمى جبل السبع بفتح السين المهملة

والباء الموحدة وعين مهملة في الآخر . يستدير عليها سُورٌ ، وشُرب أهلها من الآبار ، ولها بساينٌ قليلة ، ومن بحرها يُستخرج الصوف المعروف عند العامة بصوف السمك المتخذ منه الثياب النفيسة . قال ابن سعيد : أنا رأيتُه كيف يُخرج ، يفوص الغواصون في البحر فيُخرجون كجَمِّ شبيهةً بالبصل بأعناق ، في أعلاها زُؤيرة ، فتُنشر في الشمس فتنتفح تلك الكجَمُّ عن وِبرٍ ، فيمَشط ويؤخذ صوفه فيغزل ، ويعمل منه طعمة لقيام من الحرير ، وتُنسج منه الثياب .

ومنها (قَابِسُ) بفتح القاف وألف ثم باء موحدة وفي آخرها سينٌ مهملة . وهي مدينة في الإقليم الثالث ، حيث الطول اثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة ، على ثلاثة أميال من البحر . قال في " العزيرى " : وعليها سُورٌ وخندق . قال في " تقويم البلدان " : وهي في أفريقية كدمشق في الشام ، ينزل إليها نهران من الجبل في جنوبيها ، يخرقان في غوطتها . قال : وقد خُصت من بلاد أفريقية بالموز وحَبِّ العزيرى والحيار .

ومنها (أَطْرَابُلسُ) بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين وألف وباء موحدة بعدها لام مضمومتان وسين مهملة في الآخر . وهي مدينة شرقي تونس على البحر ، واقعة في الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ثمان وثلاثون درجة ، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في " تقويم البلدان " : وهي آخر المدن التي شرقي القيروان ، وإذا فارقتها المسافر مشرفاً لا يجد مدينة فيها حَمَامٌ حتى يصل الإسكندرية . وبنائها بالصخر ، وهي واسعة الكورة ، وبها الخصب الكثير ، وليس بها ماء جارٍ ، بل بها جباب عليها سواق . قال في " العزيرى " : وبها مرعى للراكب .

ومنها (قَصْرُ أَحْمَدَ) وضبطه معروف ، وموقعه في أوَّل الإقليم الرابع ، حيث الطول إحدى وأربعون درجة وأثنان وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وسبع وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهو حدُّ أفريقيا من الشرق وحدُّ بركة من الغرب . وهو قرية صغيرة ، وحوله قُصور نحو اثني عشر ميلاً ، وهي بلاد زيتون ونخيل ، وأهلها يجلبون الخيل للإسكندرية ، ومنها يركب المسافر البرية إلى الشرق .

ومن مغارب تونس على مسيرة يومين (باجة) قال في "المشترك" بفتح الباء الموحدة وألف وتخفيف الجيم ثم هاء . وهي مدينة بالإقليم الثالث قال في "الأطوال" حيث الطول تسع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة . وهي مدينة كبيرة ، ولها بساتين قليلة وعيون ماء ، وعليها سور حصين ، مبنية في مستوي من الأرض ، على نحو يوم من البحر ، ويقابلها على البحر مرسى الحرز .

ومنها (نَبْرْت) بفتح النون وسكون الباء الموحدة وفتح الزاي المعجمة والراء المهملة وفي آخرها تاء مثناة من فوق ، وقيل هي بتقديم الموحدة على النون . وهي مرسى تونس ، وموقعها في الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون دقيقة . وهي مدينة على نهر يجري في شرقها وعليه مستزهاتها . قال في "تقويم البلدان" : ولها بحيرة حلوة في جنوبيها ، وبحيرة مالحة في شرقها ، تصب كل واحدة منهما في الأخرى ستة أشهر ، فلا الحلوة تفسد بالمالحة ولا المالحة تعذب بالحلوة . قال الشيخ عبد الواحد : أما زيادة الحلوة فبكثره السيول أيام الشتاء ، وتقل عنها السيول في أيام الصيف فتعلو عليها المالحة .

ومنها (بونة) قال في "اللباب" بضم الباء الموحدة وسكون الواو ثم نون وهاء .
قال في "مسالك الأبصار" : وهي المسماة الآن بَلَدَ العُنَاب ؛ وهي مدينة على ساحل
البحر في أول الإقليم الرابع قال ابن سعيد حيث الطول ثمان وعشرون درجة ،
والعرض ثلاث وثلاثون درجةً وخمسون دقيقة . قال في "العريزي" : وهي مدينة
جليلة عامرة خضبة الزرع ، كثيرة الفواكه ، رحيّة ، بظاها معادن الحديد ؛
ويزرع بها الكتان الكثير . قال : وحدّث بها عن قريب مغاص مرجان ، ولكن
ليس كمرجان مرسي الحرز .

ومن قبلي تونس للجنوب (بلاد الحريد) .

ومنها (توزر) . قال في "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد : بضم المثناة
من فوق وسكون الراو وفتح الزاي المعجمة وراء مهملة في الآخر . وموقعها في الإقليم
الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ست وثلاثون درجة وسبع دقائق ، والعرض
تسع وعشرون درجة وثمان دقائق . وهي قاعدة بلاد الحريد ، وبها بساتين
ومحمضات ونخيل وزيتون ، ولها نهر يسقى بساتينها ، والمطر بها قليل ؛ ويزرع
بها الكتان والحناء . قال في "تقويم البلدان" : وبذلك وبقلة المطر تشبه مصر .
وقد عابها في "الروض المعطار" بأن أهلها يبيعون ما يتحصّل في مراحيضهم من رجيع
الناس ، فيحّلون به بقولهم وبساتينهم ؛ ولكنهم لا يرغّبون فيه إلا إذا كان جافاً ،
فيحملهم ذلك على عدم الاستنجاء في مراحيضهم ، ويخرج أحدهم من بيته حتى
يأتي القنّاة فيستنجي من مائها ؛ وربما آخذ أحدهم المراحيض على قارة الطريق
للواردين عليها ليأخذ ما يتحصّل من ذلك فيبيعه .

ومنها (قَفْصَةٌ) بفتح القاف وسكون الفاء ثم صاد مهملة وهاء في الآخر .
وموقعها في الإقليم الثالث قال في "الأطوال" حيث الطول إحدى وثلاثون درجة ،
والعرض ثلاثون درجةً وخمسون دقيقةً . قال ابن سعيد : وهي قاعدة مشهورة
من بلاد الجريد بها النخيل والمُسْتَق . قال : ولا يكون المُسْتَق ببلاد المغرب
إلا في قَفْصَةٍ . وبها من الفواكه والمشومات أنواع كثيرة ؛ ومنها يُحْلَب
دُهْنُ البَنْسَجِ وَخُلُّ العُنْصَلِ ؛ وإليها يُنسَبُ جلدُ الأروى المتخذُ منه النعال
الشديدة اللبونة .

ومنها (المَسِيلَةُ) قال في "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد : بكسر الميم
والسين المهملة وسكون المثناة من تحت وفي آخرها لام ألف ، والجارى على الألسنة
فتح الميم وهاء في الآخر . وهي مدينة من بلاد الجريد ، موقعها في الإقليم الثالث
قال ابن سعيد حيث الطول ثلاث وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض
تسع وعشرون درجةً وخمس وأربعون دقيقةً . قال في "العزيزي" : وهي مدينة
مُحَدَّثَةٌ ، بناها القائمُ الفاطميُّ سنةَ خمس عشرة وثلاثمائة . قال ابن سعيد : ولها
نهرٌ يَمُرُّ بغربها ويغوص في رمال الصَّحارى .

ومنها (بِسْكْرَةُ) قال في "اللباب" بكسر الباء الموحدة وقيل بفتحها وسكون
السين المهملة وكاف وراء مهملة بعدها هاء . وهي مدينة من بلاد الجريد ،
في أواخر الإقليم الثاني قال ابن سعيد حيث الطول أربع وعشرون درجةً وخمس
وعشرون دقيقةً ، والعرض سبع وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً . قال ابن سعيد :
وهي قاعدة بلاد الزَّابِ ، ولها بلادُ ذاتُ نخيل وفواكه وزروع كثيرة ؛ ومنها يُحْلَبُ
التمرُّ الطيبُ إلى تونُسَ وبجاية .

ومنها (طُرَا) قال في "تقويم البلدان" عن عبد الواحد : بضم الطاء وتشديد
الراء المهملتين وفي آخرها ألف ، وتُنْقَل عن بعضهم إبدال الألف هاء . وهي مدينة
من بلاد الجَرِيد في الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطولُ سبع وثلاثون درجةً
وعشرون دقيقةً ، والعرضُ تسع وعشرون درجة . قال في "تقويم البلدان" :
وبها يُعمل الزُّجاج الصافي وتفاصيل الصوف ، ومنها يُجَلَّب إلى الإسكندرية .

ومنها (غَدَامِسُ) ^(١) بفتح الغين والذال المعجمتين وألف وميم مكسورة وسين
مهملة . وهي مدينة في الصحراء جنوبي بلاد الجَرِيد ، على طريق السودان المعروفين
بالكَّام . قال : في "العزيرى" : وهي مدينة جليلة عامرة ، في وَسَطها عين أزلية
عليها أثر بُنيان رومي عجيب ، يفيض الماءُ منها ويقسمه أهلُ المدينة بأقسام
معلومة وعليه يزرعون . وأهلها قوم من البربر مسامون . قال في "تقويم البلدان" :
وبها الجلود المفضلة ، وليس لهم رئيس سوى مشايخهم .

ومنها (قلعة سِنَان) . قال في "مسالك الأبصار" : وهو قصر لا يُعرف على وجه
الأرض أحصنُ منه ، على رأس جبل منقطع عن سائر الجبال في غاية العلوِّ ، بحيث
يقصُر سبعم العَقَّار عن الوصول إليه ، يرتقى إليه من سُلَّم نُقِر في الحجر طولُه مائة
وتسعون درجةً ، وبه مَصَانِعُ يجتمع فيها ماء المطر ، وبأسفله عينُ ماء عليها أشجار
كثيرةُ الفواكه .

(١) أوردتها ياقوت باهال دالها ونص على فتح الغين وضمها ونحوه في القاموس .

العمل الثاني

(بلاد بجاية)

وبجاية بكسر الباء الموحدة وفتح الجيم وألف ثم ياء مثناة تحت وهاء في الآخر مدينة من مدن الغرب الأوسط ، واقعة في أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وعشرون درجة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : هي قاعدة الغرب الأوسط ، وهي مقابل طرطوشة من الأندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة قديمة مسورة ، أضيف إلى جانبها ربض أدير عليه سور ضام لِنطاق المدينة فصارا كالشيء الواحد . قال : والربض في وطاة ، والمدينة القديمة في سفح جبل ، يدخل إليها خور من البحر الرومي تدخل منه المراكب إليها . قال في "تقويم البلدان" : ولها نهر في شرقها ، على شاطئه البساتين والمنازة . قال في "مسالك الأبصار" : وبها عينان من الماء : إحداهما كبيرة ومنها شرب أهلها ، ولها نهر جار على نحو ميلين منها ، تحف به البساتين والمناضر على ضفتيه ممتدة نحو آشي عشر ميلا ، متصلا بعضها ببعض لا انفصال بينها إلا ما يسلك عليه إلى البساتين ، إلى أن يصب في بحر الروم . وبضفتيه للسلطان بستانان متقابلان شرقا وغربا الشرق منهما يسمى الربيع .

وغربي بجاية (جزائر بنى مزغان) بفتح الميم وسكون الزاي وكسر الغين المعجمتين ثم نون بينهما ألف الأولى منهما مشددة ، كما في "تقويم البلدان" عن الشيخ شعيب ، وبعضهم يسقط النون الأخيرة . وفي "مسالك الأبصار" : مزغانة زيادة هاء في الآخر . وهي فُرْضة مشهورة هناك . قال في "مسالك الأبصار" :

وهي بلدة حسنة على ساحل البحر ، تقابل (ميورقة) من بلاد الأندلس ، بانحراف يسير ، وبعدها عن بجاية ستة أيام .

ومن المُدُن التي بأعمال البجاية (قُسْطِينَةُ) قال في " تقويم البلدان " : يضم القاف وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون المثناة من تحت ثم نون وهاء . قال : وعن بعض المتأخرين أن بعد السين وقبل الطاء نونا ، وحينئذ فتكون بضم السين وسكون النون . وهي مدينة من الغرب الأوسط في أواخر الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطول ست وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وأثنتان وعشرون دقيقة . قال في " تقويم البلدان " : وهي على آخر مملكة بجاية وأول مملكة أفريقية . قال الإدريسي : وهي على قطعة جبل منقطع مربع فيه بعض أستدارة ، لا يتوصل إليه إلا من جهة باب في غربها ليس بكثير السعة ، ويحيط بها الوادي من جميع جهاتها . قال في " تقويم البلدان " : ولها نهر يصب في حنْدَقِهَا يُسْمَعُ لَهُ دَوَى هائل ، ويرى النهر في قعر الحنْدَقِ مثل ذؤابة النجم لشدة ارتفاع البلد عن الحنْدَقِ . قال الإدريسي : وهي مدينة عامرة ، وبها أسواق وتجاراً . قال : وتقيم الحنطة في مطايرها مائة سنة لا تفسد .

وشرقي قُسْطِينَةَ في آخر مملكة بجاية (مَرَسِي الحَرَز) بفتح الحاء المعجمة والراء المهملة وزاي معجمة في الآخر . ومنه يستخرج المَرْجَانُ من قعر البحر على ما تقدم في الكلام على الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلى وصفه من المقالة الأولى .

ومنها (سَطِيف) بفتح السين وكسر الطاء المهملتين ثم ياء مثناة من تحت ساكنة بعدها فاء . وهي مدينة من الغرب الأوسط في الإقليم الثالث قال في " الأطوال " حيث الطول سبع وعشرون درجة ، والعرض إحدى وثلاثون درجة . وهي مدينة

حصينة ، بينها وبين قُسْطِينَةَ أربع مراحل ، ولها حصن في جهة الجنوب ، عن بحاية على مرحلتين منها ؛ ولها كورة تشتمل على قُرَى كثيرة غزيرة المياه كثيرة الشجر المُثمِر بضروب من الفواكه ؛ وبها الجوز الكثير ، ومنها يُجمل إلى سائر البلاد .

ومنها (تَاهَرْتُ) - قال في "الباب" : بفتح التاء المشناة فوق وألف وهاء وسكون الراء المهملة وفي آخرها تاء ثانية . قال في "تقويم البلدان" : وقلت من خط ابن سعيد عوض الألف ياء مشناة تحت قال وهو الأصح لأن ابن سعيد مغربي فاضل . وهي مدينة من الغرب الأوسط ، وقيل من أفريقية في الإقليم الثالث قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وعشرون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . قال ابن حوقل : وهي مدينة كبيرة خصبة ، كثيرة الزرع ، كانت قاعدة الغرب الأوسط وبها كان مقام ملوك "بنو رستم" حتى انقرض دولتهم بدولة الفاطميين خلفاء مصر . وذكر الإدريسي أنها كانت في القديم مدينتين : القديمة منهما على رأس جبل ليس بالعالى . قال في "العزيزى" : وتاهرت القديمة تسمى "تاهرت عبد الخالق" وهي مدينة جليلة كانت قديما تسمى "بغداد المغرب" وتاهرت الجديدة على مرحلة منها ، وهي أعظم من تاهرت القديمة ، والمياه تحترق دور أهلها . وهي ذات أسواق عامرة ، وأرضها مزارع وضياع جمّة ، ويمر بها نهر يأتيها من جهة المغرب ؛ ولها نهر آخر يجري من عيون تجتمع فيه ، منه شرب أهلها ؛ وبها البساتين الكثيرة الموثقة ، والفواكه الحسنة ، والسفرجل الذى ليس له نظير : طعما وشما ؛ ولها قلعة عظيمة مشرفة على سوقها . وتاهرت كثيرة البرد ، كثيرة الغيوم والتّج ، وسورها من الحجر ، ولها ثلاثة أبواب : باب الصفا ، وهو باب الأندلس ؛ وباب النازل ؛ وباب المطاحن .

(١) في "المعجم" أربعة أبواب باب الصفا وباب الأندلس الخ .

وأما الطريق الموصل إليها ، فقد ذكر صاحب "الذيل" على كامل ابن الأثير في التاريخ عن ايدغدى التليلى وايدغدى الخوارزمى ، حين توجهها رسولين إلى الغرب في سنة ست وسبعمائة : أن من إسكندرية إلى طلمينا ، ومنها إلى سرت ، ومنها إلى سراتة ، ومنها إلى طهيجورة ، ومنها إلى طرابلس ، ومنها إلى قايس ، ومنها إلى صفاقس ، ومنها إلى المهديّة ، ومنها إلى سوسة ، ومنها إلى تونس .
وأما طريقها في البحر ، فمن إسكندرية إلى تونس .

الجملة الرابعة

(في ذكر زروعها ، وحبوبها ، وفواكهها ، وبقوطها ، وربا حنيها)

أما زروعها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنها تزرع على الأمطار ، وأن بها من الحبوب القمح ، والشعير ، والحص ، والفول ، والمدس ، والذرة ، والدخن ، والجلبان ، واليسلا ، وأسماها عندهم البسين . أما الأرز فمحبوب إليها .

وأما فواكهها ، فيها من الفواكه العنب والتين ، كل منهما على أنواع مختلفة والرمان : الحلو والمز والحامض ، والسفرجل ، والتفاح ، والكمثرى ، والعناب ، والزعرور ، والخوخ ، والمشمش على أنواع ، والتوت الأبيض ، والفريصاد ، وهو التوت الأسود ، والقراصيا ، والزيتون ، والأترج ، واللّيمون ، واللّيم ، والنارج . أما الحوز بها فقليل ، وكذلك النخيل ، والفستق ، والبندق مفقود بها وكذلك الموز . قال في "مسالك الأبصار" : وبها فاكهة تسمى مصغ فوق قدر البندق ، لونها بين الحمرّة والصفرة ، وطعمها بين الحموضة والقبض شبيه بطعم السفرجل ، يوجد في الشتاء ، يقطف من شجرة غصبا فيدق ، ويثقل كما يفعل بالموز فينضج ويؤكل

حينئذ . ويوجد بها قصب السكر على قلة ولا يعتصر بها . وبها البطيخ الأصفر على أنواع ، والبطيخ الأخضر مع قلة ، وأسمه عندهم الدلاع ، وكذلك الخيار والقنأ . وبها اللوبيا ، واللفت ، والبادنجان ، والقنيط ، والكرب ، والرجلة ، والبقلة اليمنية ، وأسمها عندهم بلندس ، والخس ، والهندباء على أنواع ، وسائر البقول والملوخيا على قلة ، والحليون ، والصعتر .

وبها من الرياحين الآس ، والورد ومعظمه أبيض ، والياسمين ، والنرجس ، والليثوفر الأصفر والترنجاني ، والمنثور ، والمرزنجوش ، والبنفسج ، والسوسن ، والزعفران ، والحبق ، والنمّام .

الجملة الخامسة

(في مواشيا، ووحوشها، وطيورها)

أما مواشيا، ففيها الخيل العراب المشابهة لخيّل برقة، والبغال، والحمر، والإبل، والبقرة، وغنم الضأن والمعز .

وأما وحوشها، ففيها الغزلان ، وبقرة الوحش وحمرة، والنعام، وغير ذلك .

وأما طيورها، ففيها الدجاج، والحمام كثيرا، والإوز بقلة، وبها الكراكي، وهي صيد الملوك كما بمصر، وكذلك غيرها من طيور الصيد .

الجملة السادسة

(فيما يتعلق بمعاملاتها : من الدينار ، والدرهم ،

والأرطال ، والمكايل ، والأسعار)

(١)

أما الدينار ، فإنها تُضْرَبُ باسمِ مَلِكِهِمْ ، وَزِنَةُ كُلِّ دِينَارٍ مِنْ دِنَانِيهِمْ
ويعبرون عنه بالدينار الكبير ، وذهبهم دُونُ الذهبِ المِصرِيِّ في الجُودَةِ ، فهو يَنْقُصُ
عنه في السَّعْرِ .

وأما الدرهم ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن أبي عبد الله بن القَوَيْعِ :
أن دراهمهم على نوعين : أحدهما يُعرَفُ بالقديم ، والآخر بالحديد ، ووزنهما واحد
إلا أن الحديد منهما خالِصُ الفِضَّةِ والقديم مغشوشٌ بالنحاس للعاملة ، وتفاوت
ما بينهما أن كل عشرة دراهم عتيقة بثمانية دراهم جديدة ، وإذا أُطِيقَ الدرهم عندهم
فالمراد به القديم دُونَ الحديد ، ثم مُصْطَلَحُهُمْ أن كل عشرة دراهم عتيقة بدينار ،
وهذا الدينار عندهم مسمى لا حقيقة له ، كالدينار الجَيْشِيِّ بمصر ، والرَّائِجِ بِإِيرَانَ .
وأما أرطالها ، فزنة كُلِّ رِطْلٍ سِتَّ عَشْرَةَ أُوقِيَّةً ، كل أُوقِيَّةٍ أحد وعشرون درهما
من دراهمها .

وأما كيلها ، فلهم كيلان : أحدهما يسمي القفيز ، وهو ست عشرة وِيَّةً ، كل
وِيَّةٍ اثنا عشر مُدًا قَرَوِيًّا ، وهو يقارب المُدَّ النبوي ، على صاحبه أفضل الصلاة
والسلام والتحية والإكرام . وهو أيضا ثمانية أمدادٍ بالكيل الحَفِصِيِّ : وهو كيل
قدرة ملوكها الحَفِصِيِّينَ : آباء ملوكها القائمين بها الآن ، بقدر مُدٍّ ونصف من المد
المقدم ذكره . والثاني يسمي الصَّحْفَةَ ، وكل صَحْفَةٍ اثنا عشر مُدًّا بالحَفِصِيِّ .

(١) يياض بأصل المكتبة الخديوية والمكتبة الازهرية .

الجملة السابعة

(في ذكر أسعارها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار": أن أوسط الأسعار بها في غالب الأوقات أن يكون كل قفيز من القمح بخمسين درهما ، والشعير دون ذلك . قال : وغالب سعر اللحم الضأن عندهم كل رطل أفريقي بدرهم قديم ، وبقية الخوم دونه في القيمة ، وفي الربيع ينحط السعر عن هذا القدر . وذكر أن الدجاجة الجيدة عندهم بدرهمين جديدين . ثم قال : وأحوالها مقارنة في ذلك للديار المصرية لقرب الجاورة . وقد ذكر في "مسالك الأبصار": أن تونس وبجاية في المعاملة والسعر متقاربتان .

الجملة الثامنة

(في صفات أهل هذه المملكة في الجملة)

قال في "مسالك الأبصار": ولأهل أفريقية لطف أخلاق وشمائل بالنسبة إلى أهل بلاد المغرب وسائر بلاد المغرب : يجاورتهم مصر وقرهم من أهلها ، ومخالطتهم إياهم ، ومخالطة من سكن عندهم من أهل إسبيلية من الأندلس . وهم من هم ! خفة روح ، وحلاوة بادرة . قال : وهم على كل حال أهل انطباع ، وكرم طباع ، وناهيك من بلاد من شعر ملكها السلطان أبي العباس قوله :

مَواطِننا في دَهرِهم عِجابٌ * وأزماننا لم تَعُدْهُنَّ الغَرائِبُ
مَواطِنٌ لم تُحَكِّ التَوارِيحُ مِثْلَها * ولا حَدَّثَتْ عَنها اللَّيالي الذَواهِبُ

وقوله :

أُنْظِرْ لِنَا [تَجِدْنَا] مَا بَنَا دَهْشٌ ، * وَكَيْفَ يَطْرُقُ أَسَدَ الْعَابَةِ الدَّهْشُ ؟
لَا تَعْرِفُ الْحَادِثَ الْمَرْهُوبَ أَنْفُسَنَا ! * فَا نَنَا بِارْتِكَابِ الْمَوْتِ نَنْتَعِشُ !

وقوله :

عَسَى اللَّهُ يَدِينِي لِلْمُحِبِّينَ أَوْبَةً * فَتَشْفِي قُلُوبَ مِنْهُمْ وَصُدُورَهُ
وَكَمْ مِنْ قِصَى الدَّارِ أَمْسَى بِحُزْنِهِ ، * فَأَعَقَبَهُ عِنْدَ الصَّبَاحِ سُورُ

وإذا كان هذا رِقَّةً طبع السلطان، فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء؟ .

الجملة التاسعة

(في ذكر من ملكها جاهليَّة وإسلاماً)

أما ملوكها في الجاهليَّة قبل الإسلام، فإن بلاد المغرب كلها كانت مع البربر، ثم غلبهم الروم الكيتم عليها، وأفتتحو قاعدتها (قرطاجنة) وملكوها، ثم جرى بين الروم والبربر فن كثير كان آخرها أن وقع الصلح بينهم على أن تكون المدن والبلاد الساحليَّة للروم، والجبال والصحارى للبربر؛ ثم زاحم الفرنج الروم في البلاد، وجاء الإسلام والمستولى على بلاد المغرب من ملوك الفرنجة "حرجيس" ملكهم، وكان ملكه متصلاً من طرابلس من جهسة الشرق إلى البحر المحيط من جهة الغرب، وكرسى ملكه بمدينة (سبيطلة)، وبقيت في يده حتى أتت عليها المسلمون منه في سرية عبد الله بن أبي سرح، في خلافة عثمان بن عفان .

وأما ملوكها في الإسلام، فعلى أربع طبقات :

الطبقة الأولى

(الخلفاء)

قد تقدم أن أول من أفتحها (عبد الله بن أبي سرح) في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، زحف إليها في عشرين ألفاً من الصحابة وبيكار العرب، ففرق جموع النصرانية الذين كانوا بها: من الفرنجة، والروم، والبربر، وهدم سبيلها: قاعدتها وخزبها، وعاثت خيول العرب في ديارهم إلى أن صالحوا عبد الله بن أبي سرح بثلاثمائة قنطار من الذهب، وقفل عنهم سنة سبع وعشرين من الهجرة، بعد فتح مصر بسبع سنين أو ثمان.

ثم أغزاهها معاوية بن أبي سفيان (معاوية بن حديج السكوني) سنة أربع وثلاثين. ثم ولي معاوية (عقبة بن نافع) بن عبد قيس النهري سنة خمس وأربعين، فبنى عقبة القيروان.

ثم استعمل معاوية على مصر وأفريقية (مسلمة بن مخلد) فعزل عقبة عن أفريقية، وولى عليها (مولاه أبا المهاجر ديناراً) سنة خمس وخمسين. ولما استقل يزيد بن معاوية بالخلافة، رجع عقبة بن نافع إلى أفريقية سنة ثنتين وستين.

[ثم ولي عبد الملك بن مروان عليهما زهير بن قيس البلوي في سنة سبع وستين إلى أن قتل في سنة تسع وستين فولى عليهما ^(١) (حسان بن النعمان) الغساني، فسار ودخل القيروان، وأفتح قرطاجنة عنوة وحررها، فخرجت عليه الكاهنة ملكة

(١) الزيادة عن ابن الأثير في مواضع منه ليستقيم الكلام.

الغرب فهزمته ، ثم عاد إليها وقتلها ، وأستولى على بلادها [ثم رجع إلى عبد الملك وأستخلف على أفريقية رجلا اسمه صالح .

ثم وثى الوليد بن عبد الملك ^(١) [موسى بن نصير] بضم النون ، فقدم القيروان وبها صالح . ثم قفل موسى إلى المشرق وأستخلف على أفريقية ابنه عبد الله .

ثم عزله سليمان بن عبد الملك في خلافته ، ووثى مكانه (محمد بن يزيد) .

ثم وثى عمر بن عبد العزيز في خلافته (إسماعيل) بن عبيد الله بن أبي المهاجر .

ثم وثى يزيد بن عبد الملك (يزيد بن أبي مسلم) مولى الحجاج وكتبه ، فقدمها سنة إحدى ومائة فقتله البربر ، وردوا محمد بن يزيد الذي كان عليهم قبله إلى ولايته ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك بذلك فأقره عليهم .

ثم وثى يزيد بن عبد الملك (بشر بن صفوان الكلبي) فقدمها سنة ثلاث ومائة ، ومات سنة تسع ومائة .

ثم عزله هشام بن عبد الملك ^(٢) ، ووثى مكانه (عبيدة بن عبد الرحمن السلمي) فقدمها سنة عشر ومائة ، ثم عزل هشام عبيدة ، ووثى مكانه (عبد الله بن الحباب) مولى بني سلول ، فقدمها سنة أربع عشرة ومائة ، وبني جامع تونس ، وأتخذ بها دار الصناعة للراكب البحرية .

ثم عزله هشام بن عبد الملك ووثى مكانه (كلثوم بن عياض) ثم قتل فبعث هشام ابن عبد الملك على أفريقية (حنظلة بن صفوان الكلبي) فقدمها سنة أربع وعشرين

(١) الزيادة عن ابن الاثير .

(٢) كذا في " العبر " أيضا وعبارة " الكامل " فاستعمل هشام بعده عبيدة الخ وهو المناسب .

ومائة، ونُجِرَ عليه (عبد الرحمن بن حبيب) سنة ستّ وعشرين ومائة، فقفِلَ حنظلةُ إلى المشرق سنة سبع وعشرين، وأستقل عبد الرحمن بملك أفريقيا .

وولي مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، فكتب له بولايتها .

ثم كانت دولة بني العباس فأقره عليها السّاقح، ثم المنصور، ثم قُتِلَ سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته وأستترك في إمارتها (حبيب بن عبد الرحمن، وعمه عمران بن حبيب، وأخوه إلياس بن عبد الرحمن) ثم قتله عبد الملك بن أبي الجعد ثم غلب عليها (عبد الأعلى بن السّمح المعافري) .

ثم ولي أبو جعفر المنصور (محمد بن الأشعث) الحزاعي، فقدم القيروان سنة خمس وأربعين ومائة، وبني سورها .

ثم نارت عليه المضريّة وأخرجوه منها سنة ثمان وأربعين، وولوا عليهم (عيسى بن موسى) الحراساني .

ثم ولي أبو جعفر المنصور عليها (الأغلب بن سالم) بن عقال بن خفاجة بن سوادة التيمي بعده، فقدم القيروان وسكن الناس، ثم قُتِلَ سنة خمسین ومائة، وقام بأمر أفريقيا المخارق بن غفار .

ولما بلغ المنصور قتل الأغلب، بعث مكانه عمر بن حفص بن قبيصة، ابن أبي صُفرة التيمي أخى المهلب، فقدمها سنة إحدى وخمسين . ثم أنتقضت عليه البربر فضُفِعَ أمره، فولّى (يزيد بن حاتم) بن قبيصة بن المهلب، ابن أبي صُفرة التيمي، ودخل القيروان متصّف سنة خمس وخمسين، وهلك سنة سبعين ومائة في خلافة هرون الرشيد، وقام بأمره بعده أبنته (داود) .

ثم ولى الرشيدُ أخاه (رَوْحَ بنِ حاتم) فقدمها منتصفَ سنةِ إحدى وسبعين ومائة، ومات في رمضان سنة أربع وسبعين، فقام حبيب بن نصر مكانه، وسار أبوه (الفضل) إلى الرشيد فولّاه مكان أبيه، فعاد إلى القيروان في المحرم سنة سبع وسبعين ومائة؛ ثم قتله ابنُ الجارود في منتصف سنة ثمان وسبعين ومائة فولّى الرشيد مكانه (هرثمة بن أعين) فسار إلى القيروان، وقدمها سنة تسع وسبعين ومائة، ثم استعفى فأعفاه الرشيد لسنتين ونصف من ولايته .

وولى مكانه (محمد بن مقاتل الكعبي) فقدم القيروان في رمضان سنة إحدى وثمانين، وكان سيء السيرة .

ثم ولى الرشيد (إبراهيم بن الأغب) فقدم أفريقياً منتصف سنة أربع وثمانين ومائة، وأبنتى مدينة العباسية بالقرب من القيروان وانتقل إليها . وفي ولايته ظهرت دعوة الأدارسة من العلوية بالمغرب الأقصى . ثم مات إبراهيم في شوال سنة ست وتسعين ومائة بعد أن عهد لابنه أبي العباس (عبد الله بن إبراهيم) بن الأغب بالولاية، فقدم القيروان في صفر سنة سبع وتسعين ومائة . ثم مات في ذي الحجة سنة إحدى ومائتين .

وولى مكانه أخوه (زيادة الله بن إبراهيم) وجاءه التقليد من قبيل "المأمون"؛ وفي ولايته كان ابتداء فتح صقلية على يد أسد بن الفرات، وتوفى في رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدى وعشرين سنة ونصف من ولايته .

وولى مكانه أخوه (أبو عقال الأغب) بن إبراهيم بن الأغب، وتوفى في ربيع سنة ست وعشرين ومائتين .

وولي بعده أبوه (أبو العباس محمد بن الأغلبن إبراهيم) فدانء له أفريقية؁ وبنى مدينة بقرُب تاهرت وسمها العباسية؁ سنة سبع وثلاثين ومائتين؁ وبنى قصر سوسة وجامعها سنة ست وثلاثين ومائتين؁ وتوفى سنة ثنتين وأربعين .

وولى مكانه أبنه أبو إبراهيم (أحمد بن أبى العباس محمد بن الأغلبن) فأحسن السيرة؁ وكان مولعا بالعمارة؁ فبنى بأفريقية نحوا من عشرة آلاف حصن؁ وتوفى آخر سنة تسع وأربعين لثمان سنين من ولايته .

وولى مكانه أبنه (زيادة الله الأصغر) بن أبى إبراهيم أحمد؁ وتوفى آخر سنة خمسين ومائتين .

وولى مكانه أخوه (محمد أبو الغرائبق) بن أبى إبراهيم أحمد؁ ففتح جزيرة مالطة سنة خمس وخمسين ومائتين؁ وبنى حصونا ومحارس على مسيرة خمسة عشر يوما من برقة فى جهة المغرب وهى الآن معروفة به . وفى أيامه كان أكثر فتوح صقلية . فلما مات حمل أهل القيروان أخاه إبراهيم بن أحمد أحي أبى الغرائبق على الولاية عليهم الحسن سيرته فامتنع؁ ثم أجاب وانتقل إلى قصر الإمارة وقام بالأمر أحسن قيام . وكان عادلا حازما فقطع أهل البغى والفساد وجلس لسماع الظلامات؁ وبنى الحصون والمحارس بسواحل البحر؁ حتى كانت النار تُوقد فى ساحل سبتة للإندار بالعدو فيتصل بإقادها بالإسكندرية فى الليلة الواحدة؁ وبنى سور سوسة وانتقل إلى تونس فسكنها . وفى أيامه ظهرت دعوة العبيدين بالغرب؁ ثم مات سنة تسع وثمانين ومائتين .

وولى أبنه أبو العباس (عبد الله بن إبراهيم) أحي محمد أبى الغرائبق؁ وكان عادلا؁

حَسَنَ السَّيْرَةَ ، بصيرا بالحروب ، فنزل تُرُوسَ مَكَانَ أَبِيهِ ودخلوا في أمره جملةً
وجرى بينه وبينه حروب ، ثم قتل في شعبان سنة تسعين ومائتين .

وولى ابنه أبو مضر (زيادة الله) فأقبل على اللدات واللّهو، وأهمل أمور الملك ،
وقتل أخاه وعمومته وأخواته ، وقوى حال الدعاة لعبيد الله المهدي جد الخلفاء الفاطميين
بمصر فحمل زيادة الله أمواله وأثقاله ولحق بمصر ، فمنعه عاملها من الدخول إليها إلا
بأمر المقتدر الخليفة ، فسار إلى العراق فاستأذن عليه ، فأتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلى
القَيْرَوَانِ وإظهار الدعوة ، فوصل إلى مصر فأصابه بها علة سقط منها شعره ، ورجع
إلى القُدُسِ فمات بها ، وأنقرضت دولة بني الأغب بالمغرب .

الطبقة الثانية

(العبيديون)^(٢)

وكان مبدأ أمرهم أن محمدا الحبيب بن جعفر المصّدق ، بن محمد المكتوم ، بن
إسماعيل الإمام ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن عليّ زين العابدين ، بن
الحسين السبط ، بن عليّ بن أبي طالب رضی الله عنه ، كان مقيا بسلمية من أعمال
حِمْصَ ، وكان أهلُ شيعتهم بالعراق واليمن وغيرهما يتعاهدونه بالزيارة إذا زاروا قبر
الحسين عليه السلام ، فلما أدركته الوفاة عهد إلى ابنه عبيد الله وقال له : أنت
المهديّ وثّاجر بعدى هجرة بعيدة وتلقوا محنة شديدة ، وشاع خبر ذلك في الناس ،

(١) في الكلام سقط أو اختصار محمل والذي يؤخذ من "العبر" أن أبا عبد الله الشيعي استولى في عهد
أبي العباس هذا على تكامة ودخلوا في أمره كافة وحصلت بينه وبين أبي العباس حروب كانت نهايتها انهزام
الشيعي وهدم قصره . ثم إن زيادة الله بن أبي العباس هذا صانع بعض الخدم على قتل أبيه فقتل ناسا
في شعبان سنة تسعين ومائتين اه ملخصا من ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٢) في نسخة المكتبة الأزهرية زيادة [من الفاطميين وأتباعهم] .

وأتصل بالمكتفي خليفة بنى العباس ببغداد فطلبه ففرّ من الشام إلى العراق، ثم لحق بمصر ومعه أبنه أبو القاسم غلاما حدّثا وخاصّته، وكان أبو عبد الله الشيعي قد بعث إليه يخبره بما فتح الله عليهم من البلاد الغربيّة، فعزم على اللّخوق به، وخرج من مصر إلى أفريقيّة في زيّ التّجّار، وسار حتّى وصل إلى سجّهاسة من بلاد المغرب، فورد على عاملها كتابّ بالقبض عليه، فقبّض عليه وحبسّه هو وأبنه أبا القاسم. ولما استنحل أمر أبي عبد الله الشيعي، استخلف على أفريقيّة أخاه أبا العباس وأرتحل إلى سجّهاسة، فأخرج المهديّ وأبنه من الحبس وباع للهدّيّ، ثم أرتحلوا إلى أفريقيّة ونزلوا رقادّة في ربيع سنة سبع وتسعين ومائتين، وبُوع للهدّيّ البيعة العامّة وأستقام أمره وبعث العُمّال على النواحي.

وولّى عهدّه أبنه (أبا القاسم محمّدا) ويقال نزار، وبني مدينة المهديّة، وجعلها دار ملكه. ولما فرغ منها صعد على سورها ورمى بسهم في جهة المغرب، وقال: إلى هنا ينتهي صاحب الحمار [فكان الأمر كذلك]. وذلك أنه خرج بالمغرب خارجيّ اسمه أبو يزيد يعرف بصاحب الحمار وتبعه الناس فقصده مدينة المهديّة يريد فتحها فاتمى إلى حيث انتهى سهم المهديّ ثم رجع من حيث أتى فعظم أمر المهديّ (١). وأستولى على فاس، ودخل ملوكها من الأدارسة تحت طاعته في سنة ثمان وثلاثمائة، ومهد المغرب، ودوّخ أقطاره، وتوفّي في ربيع الأوّل سنة ثنتين وعشرين لأربع وعشرين سنة من خلافته.

وولى بعده أبنه (القائم بأمر الله أبو القاسم) المتقدّم ذكره، وفي أيامه خرج أبو يزيد صاحب الحمار. وتوفّي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة، وكان قد عهد إلى أبنه المنصور بالله إسماعيل، فقام بالأمر بعده، وكمّ موت أبيه فلم يتسم بالخليفة ولا غير

(١) الزيادة من النسخة الأزهرية.

السَّكَّةَ وَالْحَطْبَةَ وَالْبُنُودَ؛ وَتُوْفِّيَ سَلَخَ رَمَضَانَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِينَ لَسَعِ سَنِينَ
 مِنْ خِلاَفَتِهِ .

وَوَلَّى الْأَمْرَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (المُعزُّ لدين الله مَعَدُّ) فَاسْتَقَامَ لَهُ الْأَمْرُ، وَأَتَتْهُت مَمْلَكَتَهُ
 بِالْغَرْبِ إِلَى الْبَحْرِ الْمَحِيْطِ، وَأَفْتَحَ مِصْرَ عَلَيَّ يَدِ قَائِدِهِ "جَوْهَرَ" فِي مِثْصَفِ شَعْبَانَ
 سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثِينَ، وَأَخْطَطَ لَهُ الْقَاهِرَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الْمُعزُّ إِلَى مِصْرَ، وَدَخَلَ
 الْقَاهِرَةَ لِحَمْسٍ مِنْ رَمَضَانَ سَنَةَ ثَمَانِينَ وَسِتِينَ وَثَلَاثِينَ عَلَيَّ مَا سَبَقَ فِي الْكَلَامِ عَلَيَّ
 مَمْلَكَةَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بنى زييري)

كَانَ الْمُعزُّ مَعَدُّ الْفَاطِمِيَّ حِينَ قَدِمَ مِصْرَ عَلَيَّ مَا تَقَدَّمَ اسْتَخْلَفَ عَلَيَّ أُفْرِيْقِيَّةَ
 وَالْمَغْرِبَ (بُلْكِيْنَ بن زييري) بن مِيَّاد الْبَرْبَرِيَّ، وَيُقَالُ: الْحَمِيْرِيَّ وَأَنْزَلَهُ الْقَيْرَوَانَ،
 وَسَمَّاهُ يُوسُفَ، وَكَأَهْ أَبَا الْفُتُوْحِ، وَلَقَّبَهُ سَيْفَ الدَّوْلَةِ وَبَقِيَ حَتَّى تُوْفِيَ سَنَةَ ثَلَاثِ
 وَسَبْعِينَ وَثَلَاثِينَ وَمَاتَ الْمُعزُّ بِالْقَاهِرَةِ، وَأَنْتَقَلَتِ الْخِلاَفَةُ بَعْدَهُ إِلَى ابْنِهِ الْعَزِيْزِ نَزَارَ،
 فَوُلِّيَّ عَلَيَّ أُفْرِيْقِيَّةَ وَالْمَغْرِبَ بَعْدَ بُلْكِيْنَ ابْنِهِ (الْمَنْصُورَ بن بُلْكِيْنَ) بِوَلَايَةِ عَهْدٍ مِنْ أَبِيهِ
 وَبَقِيَ حَتَّى تُوْفِيَ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ .

وَقَامَ بِأَمْرِهِ بَعْدَهُ (ابْنُهُ بَادِيْسُ) بن الْمَنْصُورِ فَبَقِيَ حَتَّى تُوْفِيَ سَنَةَ سِتِّ وَأَرْبَعِينَ
 بِمَعْسَكِهِ فَجَاءَهُ وَهُوَ نَائِمٌ بَيْنَ أَصْحَابِهِ .

وَبَوَّعَ ابْنَهُ (المُعزُّ بن بَادِيْسِ) وَهُوَ ابْنُ ثَمَانِيْنَ سَنِينَ، وَأَسْتَمَرَ مُلْكُهُ بِأُفْرِيْقِيَّةَ
 وَعَظَمَ مُلْكُهُ بِهَا؛ وَكَانَ الْمُعزُّ مُتَحَرِّفًا عَنِ الرَّفْضِ وَالتَّشْيِيعِ، مُتَّحِلًا لِّلْسُنَّةِ، وَأَعْلَنَ
 بِذَلِكَ فِي أَوَّلِ وِلَايَتِهِ؛ ثُمَّ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِ أَنْ خَلَعَ طَاعَةَ الْعَبِيدِيَّيْنَ، وَقَطَعَ الْخَطْبَةَ لَهُمْ

بأفريقية سنة أربعين وأربعمائة على عهد المستنصر العبيدي خليفة مصر، وخطب للقائم بن القادر الخليفة العباسي ببغداد، فاضطرب لذلك ملكه، وثار عليه الثوار، وملكوها منه النواحي، ومات المعز سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

وقام بأمره من بعده ابنه (تيم بن المعز بن باديس) وغلبه العرب على أفريقيا، فلم يكن له إلا ماصمه الشور، واستمرت الثوار في أيامه وبقي حتى هلك سنة إحدى وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (يحيى بن تميم) فراجع طاعة العبيديين خلفاء مصر، ووصلته منهم المخاطبات والهدايا والتحف، وأكثر في غزو النصارى من الفرنجة وغيرهم، حتى لقبوه بالجرية من وراء البحر، ومات فجأة في قصره سنة تسع وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (علي بن يحيى) وقام بالأمر على طاعة خلفاء العبيديين بمصر، ومات سنة خمس عشرة وخمسمائة .

وملك بعده ابنه (الحسن بن علي) وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وقام بأمره مولاة صندل، ثم مولاة موفق، وغلبه النصارى على المهديّة وبلاد الساحل كلها إلى أن استنقدها منهم عبد المؤمن شيخ الموحدين، ولحق الحسن بالجزائر ونزل بها إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة سبع وأربعين وخمسمائة بعد ملكهم المغرب والأندلس، فخرج إلى عبد المؤمن فأحسن إليه وبقي معه حتى أفتتح المهديّة فأنزله بها، فأقام بها ثمان سنين، ثم سار إلى مرآكش فمات في طريقه، وأنقرضت دولة بني باديس من أفريقية في أيامهم عند وقوع الفتن .

(١) في قطعة المكتبة الازهرية بدل هذه الكلمات [وزالت بها دعوة العبيديين] .

الطبقة الرابعة

(المُوحِّدون أصحابُ المهديِّ بنِ ثومرت، وهم القائمون بها إلى الآن)

وكان أوَّل من أفتتحها منهم (عبدُ المؤمن بنِ عليّ) أحد أصحابِ ابنِ ثومرت والخليفةُ بعده . وذلك أنه لما وقع بها ما تقدّم من الاضطراب وقيام الثوّار وأستيلائهم على النّواحي ، وكان الموحِّدون قد استولوا على الأندلس والغربِ الأقصى والغربِ الأوسط إلى بجاية ، بعث عبدُ المؤمن المذكورُ العساكرَ إلى أفريقيةَ مع ابنه عبد الله في سنة سبع وأربعين وخمسة ، فافتتح أفريقيةَ ، وأستكمل فتحها سنة ستّ وخمسين . وولّى عليها ابنه السيّدَ أبا موسى (عمران بن عبد المؤمن) وأسرّه عليُّ بن يحيى المعروف بابن غانيةَ عند فتحه بجاية ، وأعتقله بها في صفر سنة إحدى وثمانين وخمسة .

ولما وليَ (المنصورُ يعقوب بن عبد المؤمن) بعد أبيه عبد المؤمن ، وليّ عليّ أفريقيةَ في أوّل ولايته أبا سعيد ابن الشيخ أبي حفص عمر ، ثم غلب ابنُ غانيةَ على أكثر بلاد أفريقيةَ واستولى على تونس ، وخطب للخليفة العباسي ببغداد ، ثم جهّز الناصر ابنُ المنصور بن عبد المؤمن الشيخَ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص من مرّاكش إلى أفريقيةَ سنة ثنتين وستمائة فانترعها من ابن غانية ، ثم وصل الناصر ابن المنصور إلى أفريقيةَ بعد ذلك ودخل تونس ، وأقام بها إلى منتصف سنة ثلاث وستمائة ، وعزم على الرحيل إلى مرّاكش فرؤى نظره فيمن يوليه أمرها فوقع اختياره على الشيخ أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص ، ورحل الناصر إلى المغرب وقعد مقعد الإمارة بقصبة تونس يوم السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستمائة وبقي حتى توفّي مُفتتح سنة ثمان عشرة وستمائة .

وولى بعده أبنه الأمير (أبو زيد عبد الرحمن) وقعد بمجلس أبيه في الإمارة، وورد كتاب المستنصر بن الناصر خليفة بني عبد المؤمن بعزله لثلاثة أشهر من ولايته .

وولى المستنصر مكانه السيد أبا العلي (إدريس بن يوسف) بن عبد المؤمن ، ودخل إلى تونس في ذى القعدة من السنة المذكورة ، فنزل بالقصبة ورتب الأمور ، ومات بتونس سنة عشرين وستمائة .

ثم مات المستنصر وصار الأمر (لعبد الواحد المخلوع) ابن يوسف بن عبد المؤمن ، فبعث بولاية أفرقيّة إلى (أبي زيد) بن أبي العلي .

ثم صار الأمر إلى العادل فولّى (أبا محمد عبد الله) بن أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص ، ودخل تونس سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وأقام في إمارته إلى أن ثار عليه أخوه الأمير (أبو زكريا يحيى) بن أبي محمد عبد الواحد وولى مكانه ، ودخل تونس في رجب سنة خمس وعشرين وستمائة ، وأفتح قسنطينة وبيجة سنة ست وعشرين وأنتزعهما من بني عبد المؤمن .

ثم ملك تلمسان من يدهم بعد ذلك وبايعه أهل الأندلس ، ومات ببونة لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وأربعين وستمائة لثنتين وعشرين سنة من ولايته .

وبويع بعده أبنه وولى عهد المستنصر بالله (أبو عبد الله محمد) ودخل تونس في رجب من السنة المذكورة ، فجدد بيعته بها وهو أول من تلقب من الحفصيين بالقب الخِلافة كما سياتى . وأتمى أمره إلى أن بويع له بمكة المعظمة ، وبعث بالبيعة إليه ، وأستولى على ما كان بيد أبيه من الغرب الأوسط وبيجة وقسنطينة ، وفتح الجزائر ، وبقي حتى مات يوم الأضحى سنة خمس وسبعين وستمائة .

وَبُويعَ بعده أَبْنَهُ (الوَائِقُ يَحْيَى) بنَ الْمُسْتَنْصِرِ لَيْلَةَ مَوْتِ أَبِيهِ ، فَأَحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَبَسَطَ فِي الرِّعْيَةِ الْعَدْلَ وَالْعَطَاءَ ، وَبَعَثَ إِلَيْهِ أَهْلَ بِيحَايَةَ بِالْبَيْعَةِ ، وَخَرَجَ عَلَيْهِ عَمَّهُ (أَبُو إِسْحَاقَ) أَخُو الْمُسْتَنْصِرِ وَدَخَلَ بِيحَايَةَ ، وَبَايَعَهُ أَهْلُهَا فِي ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ وَأَسْتَوْلَى عَلَى قُسْنَطِينَةَ ، وَقَوَّى أَمْرَهُ بِبِيحَايَةَ وَمَا مَعَهَا ، وَبَلَغَ ذَلِكَ الْوَائِقَ بنَ الْمُسْتَنْصِرِ ، فَتَيَقَّنَ ذَهَابَ الْمَلِكِ مِنْهُ فَانْخَلَعَ عَنِ الْأَمْرِ لِعَمِّهِ أَبِي إِسْحَاقَ إِبْرَاهِيمَ بنَ يَحْيَى ، وَمِنْ هُنَاكَ عُرِفَ بِالْمَخْلُوعِ وَأَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ بِذَلِكَ فِي أَوَّلِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَبَلَغَ ذَلِكَ السُّلْطَانَ أَبَا إِسْحَاقَ فَسَارَ إِلَى ثُوَيْسَ ، وَدَخَلَهَا فِي نِصْفِ رَبِيعِ الْآخِرِ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَى الْمَمْلُوكَةِ جَمِيعَهَا ، وَأَعْتَقَلَ الْوَائِقَ وَبَنِيهِ ، ثُمَّ دَسَّ عَلَيْهِمْ مَنْ ذَبَحَهُمْ فِي اللَّيْلِ فِي صَفَرِ سَنَةِ تِسْعٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَبَقِيَ حَتَّى خَرَجَ عَلَيْهِ (أَحْمَدُ بنُ رُوُقٍ) ^(١) بنَ أَبِي عِمَارَةَ مِنْ بِيُوتَاتِ بِيحَايَةَ الطَّارِئِينَ عَلَيْهَا مِنَ الْمَسِيلَةِ سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَكَانَ شَبِيهًا بِالْفَضْلِ ابْنِ يَحْيَى الْمَخْلُوعِ فَعُرِفَ بِالْدَّعِيِّ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَى ثُوَيْسَ بَعْدَ خُرُوجِ السُّلْطَانَ أَبِي إِسْحَاقَ مِنْهَا ، وَلَحِقَ أَبُو إِسْحَاقَ بِبِيحَايَةَ فَمَنَعَهُ ابْنَهُ الْأَمِيرَ أَبُو فَارِسَ (عَبْدَ الْعَزِيزِ) مِنَ الدُّخُولِ إِلَيْهَا فَانْخَلَعَ لَهُ عَنْهَا وَأَشْهَدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَدَعَا النَّاسَ إِلَى بَيْعَتِهِ فِي آخِرِ ذِي الْقَعْدَةِ مِنَ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ فَبَايَعُوهُ وَتَلَقَّبَ بِالْمُعْتَمِدِ ، ثُمَّ كَانَ بَيْنَ الدَّعِيِّ وَالْأَمِيرِ أَبِي فَارِسَ وَاقِعَةٌ قَتَلَ فِيهَا الْأَمِيرَ أَبُو فَارِسَ فِي سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَثَمَانِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَخَرَجَ السُّلْطَانَ أَبُو إِسْحَاقَ فَلَحِقَ بِبَلْهَسَانَ وَمَعَهُ ابْنَهُ الْأَمِيرَ أَبُو زَكْرِيَا ، وَدَخَلَ أَهْلَ بِيحَايَةَ فِي طَاعَةِ الدَّعِيِّ .

ثُمَّ خَرَجَ عَلَى الدَّعِيِّ الْأَمِيرُ (أَبُو حَفْصِ عُمَرَ بنَ يَحْيَى) بنَ عَبْدِ الْوَاحِدِ بنَ أَبِي حَفْصِ ، فَكَانَتْ بَيْنَهُمَا حَرْبٌ أَنْهَزَمَ الدَّعِيُّ فِي آخِرِهَا . وَأَسْتَوْلَى أَبُو حَفْصِ عَلَى ثُوَيْسَ وَسَائِرِ

(١) فِي "الْعَبْر" أَحْمَدُ بنَ مَرْزُوقٍ وَهُوَ تَصْحِيفٌ .

المملكة ، وتلقب بالمستنصر وأختني الدعي ، ثم ظفر به أبو حفص بعد ذلك وقتله ، وبايعه أهل تلمسان وطرابلس وما بينهما .

ونرح الأمير (أبو زكريا يحيى) ابن السلطان أبي إسحاق علي بجاية وقسنطينة فملكهما وأقتطعهما عن مملكة أفريقية ، وقسم دولة الموحدين بدولتين ، ولم يزل السلطان أبو حفص في ملكه إلى أن مريض في ذي الحجة سنة أربع وستين وستمئة ومات آخر ذي الحجة من السنة المذكورة .

وكان الواثق بن المستنصر لما قُتل هو وأبوه ترك جارية حاملاً ، فسماه الشيخ محمد المرجاني « محمد » وأطعم الفقراء يومئذ عَصيدةً من عَصيدة البر فلقب بأبي عَصيدة ، فلما مات السلطان أبو حفص بايع الناس (أبا عَصيدة) المتقدم ذكره . ومات الأمير أبو زكريا صاحب بجاية وما معها على رأس المائة السابعة . وقام بعده في تلك الناحية وليّ عهده ابنه (أبو البقاء خالد) فأستمر في تلك الناحية ، وبقى السلطان أبو عَصيدة في مملكة أفريقية حتى مات في ربيع الآخر سنة تسع وسبعمئة ولم يخلف ابناً .

وكان بالقصر (أبو بكر بن عبد الرحمن) بن أبي بكر ، بن يحيى ، بن عبد الواحد ، ابن أبي حفص في كفالة السلطان أبي عَصيدة فلما مات أبو عَصيدة بايعه أهل تُونُس ، ثم ارتحل السلطان أبو البقاء خالد : صاحب بجاية إلى جهة تُونُس طالبا ملكها بعد أبي عَصيدة ، فخرج (أبو بكر الشهيد) في أهل تُونُس للقاءه فانهزموا عنه ، وقبض على أبي بكر الشهيد وأعتقل ثم قُتل بعد ذلك فسمى الشهيد ، وأستقل السلطان أبو البقاء خالد بملك تُونُس وبجاية وحاز جميع المملكة ، وتلقب الناصر لدين الله وبقى حتى بويع (أبو يحيى زكريا بن أحمد) بن محمد اللحياني ، بن عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص : فبويع بطرابلس ، ونرح على أبي البقاء خالد نخافه فخلع نفسه

فاعتقل وجاء السلطان أبو يحيى على أثره في رجب سنة إحدى عشرة وسبعمائة ، فبُويع البيعة العامة ودخل تُوُس وأستولى عليها ، ثم اضطرب عليه أمره ، فخرج من تُوُس إلى قابس أول سنة سبع عشرة وسبعمائة بعد أن استخلف تُوُس ، وأتته إلى قابس فأقام بها وصرف [العمال] في جهاتها ، وقصد السلطان أبو بكر صاحب بجاية تُوُس ، وكان بينه وبين أهلها وقعة انتهت الحال في آخرها إلى أن السلطان أبو بكر رجع إلى بجاية . وبايع أهل تُوُس محمدا المعروف (بأبي ضربة) ابن السلطان أبي يحيى في سنة سبع عشرة المذكورة .

ثم قصد السلطان أبو بكر صاحب بجاية تُوُس^(١) ، وبها أبو ضربة فغلبه عليها ، ودخلها في ربيع الآخر سنة ثمان عشرة وسبعمائة ، وبُويع بها البيعة العامة . ولحق السلطان أبو يحيى الحلياني بصر في أيام الملك الناصر "محمد بن قلاوون" فأحسن نُزله وأقام عنده إلى أن مات ، ولحق أبنته أبو ضربة بتبليسان فأقام بها إلى أن مات ، وأستقل السلطان أبو بكر بأفريقية وبجاية إلى أن غلبه على تُوُس (إبراهيم بن أبي بكر) الشهيد المتقدم ذكره أولا ، ودخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

ثم غلبه عليها السلطان أبو بكر وأتزعها من يده في شوال من السنة المذكورة ، وأستقر في يده ملك أفريقية وبجاية إلى أن مات فجأة في جوف الليل في ليلة الأربعاء ثاني رجب الفرد سنة سبع وأربعين وسبعمائة بمدينة تُوُس .

وبُويع ابنه (أبو حفص عمر) بن أبي بكر من ليلته ، وجلس من الغد وبُويع البيعة العامة . وكان أبوه قد عهد إلى ابنه الآخر أبي العباس أحمد ، وكان ببلاد الحرير فاستجاش على أخيه وقدم عليه تُوُس ، وكانت بينهما واقعة قُتل فيها أبو العباس وأستقر السلطان أبو حفص على ولايته . وكان السلطان أبو بكر حين عهد

(١) في الأصل أبو زكريا والتصحيح من "العبرج ٦ ص ٣٢٤" .

لابنه أبي العباس أرسل العهد إلى السلطان أبي الحسن المريني : صاحب تلمسان وسأله في الكتابة عليه ، فلما قُتِل أبو العباس المذكور ثقل ذلك على السلطان أبي الحسن وخرج إلى أفريقية في سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، ووصل إلى بجاية ثم إلى قسنطينة فملكهما ، ثم سار إلى تونس فلقية السلطان أبو حفص عمر ، وكانت بينهما واقعة قُضِي فيها على أبي حفص ثم قُتِل . ودخل السلطان أبو الحسن إلى تونس وأستولى على جميع المملكة مضافةً إلى مملكته ، وكل له بذلك ملك جميع المغرب .

ثم غلب (أبو العباس الفضل) بن السلطان أبي بكر على بجاية وقسنطينة وملكهما ، وسار السلطان أبو الحسن إلى المغرب وأستخلف على تونس آبه أبا الفضل فسار الفضل ابن السلطان أبي بكر من بجاية إلى تونس فخرج منها أبو الفضل بن أبي الحسن فازا إلى أبيه بالمغرب ، ودخلها الفضل ابن السلطان أبي بكر وملكها سنة تسع وأربعين وسبعائة وأستولى على جميع المملكة ، وبقي إلى أن قُضِي عليه في جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعائة .

وبويع بعده أخوه (أبو إسحاق إبراهيم) ابن السلطان أبي بكر ، وهو يومئذ غلام قد ناهز الحلم ، وقُتِل الفضل في جوف الليل من الليلة القابلة حنقا ، وأستولى على أفريقية وبجاية وقسنطينة ، وبقي حتى غلبه بنو مَرِينِ على بجاية وقسنطينة ، وملكهما منه أبو عَنان سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .

ثم آستولى السلطان (أبو العباس أحمد) بن محمد بن أبي بكر على قسنطينة سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وبويع بها .

ثم غلبه عليها أبو عَنان وقفل إلى المغرب سنة سبع وخمسين وقد آستخلف بها ، فجهز إليها (أبو إسحاق إبراهيم) صاحب تونس وملكها من يد عامل أبي عَنان

سنة إحدى وستين ، ثم قوى أمر السلطان أبو العباس وعاد إلى قسطنطينة وملكها في السنة المذكورة .

ثم استولى (أبو عبد الله محمد) بن محمد ابن السلطان أبي بكر في رمضان سنة خمس وستين وسبعائة فأساء السيرة بها ، فسار إليه السلطان أبو العباس ، من تونس فقتله ودخل بجاية تاسع عشر شعبان سنة سبع وستين وسبعائة وملكها ، وبقيت بيده وتونس بيد السلطان أبي إسحاق إبراهيم ابن السلطان أبي بكر إلى أن توفي السلطان أبو إسحاق فجأة في الليل في سنة سبع وسبعين وسبعائة .

وبيع بعده ابنه (أبو البقاء خالد) واستبد عليه منصور مولى أبيه ، وابن الباليق حاجب أبيه فلم يكن له في الدولة تحكّم .

ثم رحل السلطان أبو العباس من بجاية إلى تونس وقبض على السلطان أبي البقاء خالد بن إبراهيم بعد حصاره أياما وأعتقله وملك تونس وانتظم في ملكه أفريقية وبجاية وقسطنطينة وأعمالها ، وبقى حتى مات في شعبان سنة ست وثمانين وسبعائة . وكان أبو العباس هذا له شعر رائع ، طلب مرة كاتب إنشائه يحيى بن أجاد ، وكان يحيى ثملا ، فخافه على نفسه إن هو طلع إليه على تلك الحالة فكتب إليه :

أصبح العبد يحيى * كصباح ابن أكرم

شغلته الحميا * وهو بالأمر مهم

فخشى من رقيب * فرأى الدار أكرم

فلما قرأها وقع بخطه تحت خطه :

قر عيناً بعيش * صفوه بك قد تم

أنت أركى عيلى * ها هنا كنت أو ثم

فكان ذلك سبب توبة يحيى .

وبويع بعده ابنه أبو فارس (عزوز) في رابع شعبان من السنة المذكورة وأستولى على تُوُسَّ وِجَايَة وُقَسْنَطِينَة وسائر أعمالها . وهو السلطان أبو فارس عزوز ابن السلطان أبي العباس أحمد ، ابن السلطان أبي بكر بن يحيى ، بن إبراهيم ، بن عبد الواحد ، ابن الشيخ أبي حفص .

قلت : وهو باقٍ إلى زماننا في سنة ثلاث عشرة وثمانمائة ، وقد شاع ذكر شجاعته وعدله حتى إنه دَوَّخَ البلاد ومهدّها وقتل العرب وأبادهم ، ودخل من بقي منهم في طاعته بعد أن لم يدينوا لطاعة غيره ، وقطع المكوس من بلاده ، وأزال الخانات من تُوُسَّ ، مع تواضع وقرب من الفقراء ، وأخذ بيد المظلومين ، ووجوه ربّها وقررها لم تُعهد لأحد من قبله ، إلى غير ذلك من صفات الملوك المحمودة التي أمتاز بها عن الملوك ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

الجملة العاشرة

(في متحمي ملوك هذه المملكة القائميين بها الآن ، من الموحدّين في النسب ، ودعواهم الخلافة ، وبيان أصل دولتهم ، وتسميتهم الموحدّين)

أما متماهم في النسب ، فقد ذكر في "التعريف" : أن الملك القائم بها في زمانه يدعى النسب إلى أمير المؤمنين : عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ، ومن أهل النسب من ينكر ذلك : فمنهم من يجعله من بني عدى بن كعب رهط عمر ، وليس من بني عمر ، ومنهم من يقول بل من هتاتة وليسوا من قبائل العرب [في شيء] . وهم الحفصيون نسبة إلى أبي حفص : أحد العشرة أصحاب ابن تومرت . وهم بقايا

الموحِّدين إذ كان من تقرير ابن تومرت أن الموحِّدين هم أصحابه ، ولم يبق ملك الموحِّدين إلا في بني أبي حفص هذا .

وأعلم أن النسايب قد اختلفوا في نسبه على ثلاثة أقوال .

أحدها — نسبه إلى أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وهؤلاء يقولون : هو أبو حفص عمر بن يحيى ، بن محمد ، بن وأثودين ، بن على ، بن أحمد ، ابن وآلال ، بن إدريس ، بن خالد ، بن اليسع ، بن إلياس ، بن عمر ، بن وافق ، ابن محمد ، بن نجيه ، بن كعب ، بن محمد ، بن سالم ، بن عبد الله ، بن عمر بن الخطاب . قال قاضى القضاة : ”ولى الدين بن خلدون“ ويظهر أن هذا النسب القرشى وقع فى المصامدة من البربر ، والتحم بهم وأشتمت عليه عصبيتهم ؛ شأن الأناساب التى تقع من قوم إلى قوم .

الثانى — نسبه إلى بنى عدى بن كعب : رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى ينتسب فيه ، وهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى ابن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدى بن كعب جد النبي صلى الله عليه وسلم وبقى نسبه إلى عدنان معروف .

الثالث — نسبه إلى هنتاتة ، وهنتاتة — بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المشناة فوق وبعدها ألف ثم تاء مشناة فوق مفتوحة ثم هاء قبيلة من قبائل المصامدة من البربر ، بجبال درن المتاحمة لمرأكش ، وهى قبيلة واسعة كبيرة ، ويقال لها بالبربرية ”يئتي“ وكان أبو حفص هذا هو شيخهم وكبيرهم ، وهو الذى دعاهم إلى اتباع ابن تومرت والحمل على طاعته .

وأما دعواهم الخلافة ، فقد قال فى ”التعريف“ عند ذكر سلطان زمانه منهم :

لا يدعى إلا الخلافة ويتلقب بألقاب الخلفاء ، ويخطب بأمر المؤمنين فى بلاده .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ تَلَقَّبَ مِنْهُمْ الْمُسْتَنْصِرَ بِاللَّهِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ السُّلْطَانِ أَبِي زَكَرِيَّا
يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ الشَّيْخِ أَبِي حَفْصٍ ، عَلَى أَنَّ أَبَاهُ كَانَ يَمْتَنِعُ مِنَ التَّلَقُّبِ بِالْقَابِ
الْخِلَافَةِ ، وَيَمْنَعُ مَنْ يُخَاطَبُهُ بِهَا مَقْتَصِرًا عَلَى التَّلَقُّبِ بِالْأَمِيرِ خَاصَّةً حَتَّى إِنْ بَعْضُ
شِعْرَائِهِ رَفَعَ إِلَيْهِ قَصِيدَةً مَدَحَهُ بِهَا أَوْلَاهَا :

أَلَا جُلُّ بِالْأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْتَ بِهَا أَحَقُّ الْعَالَمِينَ

فَأَنْكَرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ . وَإِنَّمَا حَمَلَ الْمُسْتَنْصِرَ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْخِلَافَةَ فِي زَمَانِهِ قَدْ تَعَطَّلَتْ
فِي سَائِرِ الْأَقْطَارِ . وَذَلِكَ أَنَّ الْخِلَافَةَ الْأُمَوِيَّةَ وَدَعَاوَى بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ قَدْ زَالَتْ عَنْهَا
فِي الْمَغْرِبِ بَغْلَبَةُ بَنِي مَرْيَمَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَزَعَهُمُ الْأَمْرَ مِنْهُمْ ، وَخِلَافَةُ الْعَبِيدِيِّينَ قَدْ زَالَتْ
مِنْ مِصْرَ ، وَخِلَافَةُ بَنِي الْعَبَّاسِ قَدْ زَالَتْ مِنْ بَغْدَادَ بِاسْتِيْلَاءِ النَّتَرِ عَلَيْهَا .

وَأَمَّا مَبْدَأُ دَوْلَتِهِمْ وَمَصِيرُ آخِرِهَا إِلَى بَنِي أَبِي حَفْصٍ بِأَفْرِيقِيَّةَ ، فَإِنَّ أَسْصَلَ قِيَامِهَا
أَبْنُ تُوْمَرْتٍ : وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ تُوْمَرْتٍ ، بْنُ وَجْدٍ ، بْنُ يَامِصَالٍ ، بْنُ حَمْزَةَ ،
أَبْنُ عَيْسَى فِيمَا ذَكَرَهُ مُحَقِّقُو الْمُؤَرِّخِينَ . وَبَعْضُهُمْ يَقُولُ : مُحَمَّدُ بْنُ تُوْمَرْتٍ ، بْنُ
نَيْطَاوَسٍ ، بْنُ سَافَلَا ، بْنُ مَسِيْعُونَ ، بْنُ أَيَكَلِيدِيسَ ، بْنُ خَالِدٍ ، أَصْلُهُ مِنْ هَرَّغَةَ مِنْ
بَطُونَ الْمَصَامِدَةِ مِنَ الْبَرْبَرِ . وَبَعْضُ الْمُؤَرِّخِينَ يَجْعَلُ نَسَبَهُ فِي أَهْلِ الْبَيْتِ وَيَقُولُ :
هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، بْنُ هُوْدٍ ، بْنُ خَالِدٍ ، بْنُ تَمَامٍ ، بْنُ عَدْنَانَ ،
أَبْنُ سُلَيْمَانَ ، بْنُ صَفْوَانَ ، بْنُ جَابِرٍ ، بْنُ عَطَاءٍ ، بْنُ رَبَاحٍ ، بْنُ مُحَمَّدٍ ، مِنْ وَلَدِ سُلَيْمَانَ
أَبْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، بْنُ حَسَنِ ، بْنُ الْحَسَنِ ، بْنُ عَلِيٍّ ، بْنُ أَبِي طَالِبٍ . وَسُلَيْمَانُ هَذَا
أَخُو إِدْرِيسَ الْأَكْبَرِ الَّذِي كَانَ لِبَنِيهِ الدَّوْلَةَ بِالْمَغْرِبِ عَلَى مَا صَرَفَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَكْتَابَةِ
صَاحِبِ بَرِّ الْعُدُوَّةِ .

ويقال إن سليمانَ هذا لحقَ بالمغرب إثر أخيه إدريس . وقيل : بل هو من قرابة إدريس اللاحقين به إلى المغرب ويكون عليّ هذا المقتضى نسبه قد ألتمح بنسب المصامدة ، وأتصل بهم وصار في عدادهم كما تقدم في نسب أبي حفص .

وكان أهل بيته أهل دين وعبادة ، وشبَّ محمدٌ هذا فيهم قارئاً محبباً للعلم ، وأرتحل في طلب العلم إلى المشرق على رأس المائة الخامسة ، ومَرَّ بالأندلس ، ودخل قرطبة وهي إذ ذاك دار علم ، ثم لحق بالإسكندرية وحبَّ ، ودخل العراق ، ولقي أكابر العلماء به يومئذ وفحول النظار ، ولقي أئمة الأشعرية من أهل السنة وأخذ بقولهم في تأويل المتشابه . ويقال إنه لقي أبا حامد الغزالي رحمه الله وأستشاره فيما يريد من قيام الدولة بالمغرب .

ورجع إلى المغرب وقد حصل على جانب كبير من العلم ، وطعن على أهله في الوقوف مع الظاهر وحملمهم على القول بالتأويل والأخذ بمذهب الأشعرية في جميع العقائد ، وألّف العقائد على رأيهم مثل المرشدة وغيرها . وكان مع ذلك يقول بعصمة الإمام على مذهب الإمامية من الشيعة . وأنتهى إلى بجاية فأقام بها يدرس العلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وهناك لقيه عبد المؤمن أحد أصحابه وأرتحل معه إلى المغرب وصار إلى بلاد هرغة من البربر ، فاجتمع إليه الطلبة ونشر العلم ، وأظهر مذهب الأشعرية .

وكان الكُهان والمنجمون يتحدّثون بظهور ملك بالمغرب من البربر ، وشاع في الناس أنه ذلك الملك ، وأختار من أصحابه عشرة فجعلهم خاصته : وهم عبد المؤمن بن عليّ ، وأبو حفص عمر بن عليّ ، ومحمد بن سليمان ، وعمر بن تافر كين ، وعبد الله بن ملويات وغيرهم . ودعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسمين ، فبايعوه على ذلك سنة خمس عشرة وخمسةائة .

ولما تكاملت له البيعة لقبوه بالمهدي، وكان قبل ذلك يلقب بالامام، وكان عبد المؤمن أخص أصحابه به، وكان يلقبه بالخليفة، وأبو حنص بعده في الخوصية، وكان يلقبه بالشيخ، وكان يسمى أتباعه الموحدون تعريضا بمن يجح عن التأويل ويقف مع الظاهر فيوقعه في التجسيم وغيره، ولم تحفظ عليه بدعة إلا ما وافق فيه الإمامية من القول بعصمة الإمام. وقد مر ذكر مدة ولايته ثم استخلاف عبد المؤمن بعده في الكلام على مكتبة صاحب برعدوة. وقد تقدم آبتداء انتقال مملكة إفريقية إلى بني أبي حفص وأنسحابها فيهم إلى زماننا على الترتيب.

الجملة الحادية عشرة

(في ترتيب المملكة بها : من زى الجند، وأرباب الوظائف : من أرباب

السيف والأقلام، ومقادير الأرزاق الجارية عليهم، وزى

السلطان، وترتيب حاله في الملك)

أما الجند، فقد نقل في "مسالك الأبصار" عن أبي عبد الله بن القويح : أن الذي قرره لهم مهديهم ابن تومرت، ثم عبد المؤمن وأبناءؤه بعده أنه ليس لهم أمراء ولا أتباع يطب بعثتهم كعداة الأمراء بمصر، وإنما لهم أشياخ من أعيانهم لاعدة لهم ولا جند، بل المرء منهم بنفسه فقط، ولكل طائفة منهم رئيس يتولى النظر في احوالهم يسمونه الزوار.

أما الجند فمن الموحدون والأندلسيين وقبائلها من المضافة إليهم ومن قبائل العرب ومن هاجر إليهم من العرب القدماء، الذين هاجروا في مدة بني عبد المؤمن، والممالك الترك المبتاعة من الديار المصرية، ومن القرنج وغيرهم.

(١) لم يتقدم شيء من ذلك وسقطت هذه الجملة من القطعة الازهرية.

وحاصل ما ذكره في "مسالك" أن الجند عندهم على سبع طبقات .

الطبقة الأولى — الأشياخ الجبار من الموحدین الذين هم بقايا أتباع المهدي بن تومرت . قال في "مسالك الأبصار" : وهم بمثابة أمراء الأوف بمصر، وبمثابة النوبيات أمراء التوامين بمملكة إيران .

الطبقة الثانية — الأشياخ الصغار من الموحدین أيضا : وهم دون من تقدم منهم في الرتبة .

الطبقة الثالثة — الوقفون . قال في "مسالك الأبصار" : سألت ابن القويح عن معنى الوقفين ما هو ؟ فقال : هم قوم لهم خاصية بالسلطان يسكنون معه في القصة : وهي القلعة، بمنزلة الأمراء الخاصية . قال : وهم طبقتان : وقفون جبار، ووقفون صغار، وكلهم يقفون بين يديه في أوقات جلوسه إذا جلس للناس .
الطبقة الرابعة — عاقمة الجند .

الطبقة الخامسة — الجند من قبائل العرب .

الطبقة السادسة — الصبيان : وهم جماعة من الشباب بمثابة المماليك الكانية بالديار المصرية، يكونون في خدمة السلطان .

الطبقة السابعة — الجند من الإفريج، ويعبر عنهم بالعلاج؛ وهم لخاصة السلطان لا يطمئن إلا إليهم .

وأما عدة العسكر . ففي "مسالك الأبصار" عن ابن القويح أنها لا تبلغ عشرة آلاف وإنما العدد الجم في العرب أهل البادية ولهم قوة شوكة .

*
*
*

وأما أرباب الوظائف فعلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(أرباب السيوف، وهم ثمانية)

الأوّل — الوزراء : وهم ثلاثة وزراء : وزير الحنْد وهو المردود إليه الحديث في أمر الحنْد . قال في "مسالك الأبصار" : وهو بمثابة الحاجب بالديار المصرية ؛ ووزير المال : وهو المتحدّث في أمر المال ، ويعبر عنه بصاحب الأشغال ؛ ووزير الفضل وهو كاتب السرّ .

الثاني — شيخُ الموحدّين . قال ابن القوّيع : وشيخ الموحدّين كأنه نائب السلطان ، ويسمى الشيخ المعظّم وهو الذى يتولّى عرض الموحدّين وأمورهم .
الثالث — أهل المشورة : وهم ثلاثة من أشياخ الموحدّين يجلسون بمجلسه للرأى والمشورة .

الرابع — صاحب الرقاعات . قال ابن سعيد : وهو الذى يتولّى إبلاغ الظّلامات إلى السلطان وإيصال قصصهم إليه وعرضها عليه ثم يخرج بجوابها عنه . قال في "مسالك الأبصار" : وهذا بمثابة الدوادار (يعنى بالديار المصرية) .

الخامس — صاحب العلامات : وهو المتولّى أمور الأعلام ، وهو بمثابة أمير علم بالديار المصرية . وفي معناه آخر إليه أمر دقّ الطبول ، يأمر بدقّ الطبول عند ركوب السلطان في المواقب .

السادس — الحافظ : وهو صاحب الشرطة ، وعنه يعبر المصريون بوالى المدينة .

السابع — محرّكو الساقة : وهم قوم يكون بأيديهم العصى ، يرتّبون الناس فى المواقب ، بمنزلة النقباء بالديار المصرية .

الثامن — صاحب الطّعام : وهو بمنزلة إستاذدار الصّحبة .

الضرب الثاني (أرباب الأقاليم)

وقد ذكر منهم ثلاثة :

الأول — قاضى الجماعة : وهو مثل قاضى القضاة بالديار المصرية .

الثانى — المحتسب : وهو معروف .

الثالث — صاحب كُتُب المَظالم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو الموقَّع على القِصص وكأنه بمثابة موقَّع الدِّست بمصر والشام .

الجملة الثانية عشرة

(فى ذكر الأرزاق المَطلَّقة من جهة السلطان)

ويختلف الحال فيها باختلاف أحوال أربابها .

فأما أشياخ الموحِّدين الكبار ، فقد نقل فى "مسالك الأبصار" عن القاضى أبى القاسم بن بنون أن لهم أرضا يزرعونها أو يحكرونها ويكون لهم عشر ماطلع منها . وهذه الأرض بمثابة الإقطاع بمصر ، ولكل واحد منهم فى كل سنة حُرث عشرة أزواج بقرا ، كل زوج بشُعبتين ، كل شُعبة رأسان من البقر فيكون لكل واحد عشرون شعبة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الشعبة هى المسماة فى بلاد دمشق بالفدان . ولهم مع ذلك راتب يفرق عليهم فى طول السنة ، يسمونه البركات ، بمثابة الجوامك بمصر ، يفرق أربع مرَّات فى السنة : فى عيد الفِطر تفرقةً ، وفى عيد الأضحى تفرقةً ، وفى ربيع الأول تفرقةً ، وفى رجب تفرقةً ، يُصيب كل واحد منهم من ذلك أربعون ديناراً مسماةً ، تكون بثلاثمائة درهم عتيقة ، والسلطان يأخذ معهم بسهم كواحد منهم على السواء ، فيكون جملة مال الكل واحد منهم فى كل سنة مائةً وعشرين ديناراً

مسماة ، عنها ألف ومائتا درهم مغربية ، عنها من نقد مصر والشام ستمائة وخمسون درهما ، وما يتحصّل من مغلّ عشرين فدانا بقدر مثلها . قال في "مسالك الأبصار" :
فيكون تقدير ما لأحد المشايخ الكبار الذين بمثابة أمراء الألو ف بمصر والشام في كل سنة ألف وثلثمائة وعشرة دراهم نُقرةً بعاملة مصر في كل سنة .

وأما الأشياخ الصغار ، فلكل واحد منهم حرث خمسة أزواج من البقر ، على النصف من الأشياخ الكبار ، والبركات في كل سنة على ما تقدّم في الكبار . قال ابن بَنُون :
ولعامّة الأشياخ الكبار والصغار والوقّافين والجنّد شيء آخر يُفرّقه السلطان عليهم ، يُسمّى المواساة : وهي غلة تفرّق عليهم عند تحصيل الغلات في المخازن ، وشيء ثالث يُقال له الإحسان ، وهو مبلغ يفرّق عليهم . قال [وكلاهما ^(١)] من السنة إلى السنة ليس لها قدر مضبوط ولا قدر مخصوص ، بل على قدر ما يراه السلطان وبحسب أقدار الناس . ومقادير العطايا بينهم متفاوتة . قال : وكذلك القبائل ومزاويرهم على هذا النحو . قال ابن القويّج : والجنّد الغرباء يتميرون في الأعطيات على الموحدّين . قال : وللعرب أهل البادية إقطاعات كثيرة ، ومنهم من يخرج مع السلطان إذا استدعاهم السلطان للخروج معه .

الجملة الثالثة عشرة

(في لبس سلطان مملكة تونس ، ولبس أشياخه ، وسائر جنده ،

وعامة أهل بلده)

أما لبسه فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن سلطان زمانه بأفريقية : أن له عمامة ليست بمفردة في الكبر ، بحنك وعدبة صغيرة . وقال ابن سعيد : له عمامة

(١) بياض بالاصل بقدر كلفة والتصحيح من المسالك .

كبيرة من صوفٍ وكان فيها طراز من حرير . ولا يتعمم أحدٌ من أهل دولته قدرها في الكبر . وذكر أن عذبة عمامته تكون خلف أذنيه اليسرى ، وأنها مخصوصة به وأقاربه ؛ وله جباب تليما ، ولا يلبس هو ولا عامة جنده وأشياخه خفاً إلا في السفر .^(١) وغالب لِبْسُهُ ولبس أكابر مشايخه من قماشٍ عندهم يسمى السفساري ، يعمل عندهم من حرير وقطن أو حرير وصوف رفيع جداً ، وقماشٍ يعرف بالثلثمسائي يعمل بثلثمسان : إما صوف خالص أو حرير خالص : محتم وغير محتم . قال ابن بنون : والسلطان يمتاز بلبس الخرز ، ولونه لون الخضره والسواد . قال : وهذا اللون هو المسمى بالجزوي ، وبالغيار ، وبالنفطي . قال ابن سعيد : وهو ما يخرج من البحر بصفاقس .

قال في "مسالك الأبصار" : وهو المسمى بوبر السمك بمصر والشام يعني المعبر عنه بصوف السمك المتقدم ذكره عند ذكر صفاقس من بلاد أفريقيا . قال ابن سعيد : وهي أخف ثياب السلطان بتونس وتقل في "مسالك الأبصار" عن ابن سعيد : أنه يلبس الثياب الصوف الرفيعة ، ذوات الألوان البديعة ، وأكثر ما يلبس الختم المتخرج من الحرير والصوف ، بكمين طويلين من غير كثرة طول ، ضيقين من غير أن يكونا مزندين . وثيابه دون شدة نطاقٍ إلا أن يكون في الحرب فإنه يشد المنطقة ؛ ويلبس الأقمية ؛ وله طيلسان صوف في نهاية اللطافة ، كان يرتدى به ولا يضعه على رأسه .

[وأما لبس الأشياخ والدواوين والوقافين والجنود والقضاة والوزراء والكتّاب وعامة الناس فبلى زى واحد ، لا تكاد تتفاوت العمام والحجاب ولا يمتاز الأشياخ والوقافون

(١) لعله يلبسها .

والجند إلا بشيء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صغر العائم وضيق القماش، ولباس عامة أهل أفريقيا من الجوخ ومن الثياب الصوف ومن الأقبية ومن الثياب القطن، فمن لبس غير هذا مما يجب من طرائف الاسكندرية والعراق كان نادرا شاذاً^(١).

الجملة الرابعة عشرة

(في شعار الملك بما يتعلق بهذا السلطان)

نقل في "مسالك الأبصار": عن ابن القويح أن له علماً أبيض يسمى العلم المنصور، يُحمل معه في المواكب، وذكر أن الأعلام التي تحمل معه في المواكب سبعة أعلام: الأوسط أبيض وإلى جانبه أحمر وأصفر وأخضر. قال: ولا أتحقق كيف ترتيبها وأن ذلك غير أعلام القبائل التي تسير معه فلكل قبيلة علمٌ تمتاز به بما عليه من الكتابة، والكتابة مثل لا إله إلا الله، أو الملك لله، وما أشبه ذلك، وأن له الطبول والبوقات والنفير.

الجملة الخامسة عشرة

(في جلوس سلطان هذه المملكة في كل يوم)

قال ابن سعيد: عادة هذا السلطان في مدينة مملكته تونس: أنه يخرج باكر كل يوم إلى موضع يُعرف بالمدرسة، ويبعث خادماً صغيراً يستدعي وزيراً الجند من موضعه المعين له، فيدخل عليه رافعاً صوته "بسلام عليكم" عن بعد من غير أن يوميء برأسه، ولا يقوم له السلطان، فيجلس بين يدي السلطان، ويسأله السلطان عما يتعلّق بأمر الجند والحروب؛ ثم يأمره باستدعاء من يريد من أشياخ الجند

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية وهي في "مسالك الأبصار" أيضاً.

أو العَرَب أو مَنْ له تعلق بوزير الجُند؛ ثم يأمر باستدعاء وزير المال وهو المعروف بصاحب الأشغال فيأتي معه ويُسلِّمان جميعاً من بُعد على السلطان، وإن كان قد تقدّم سلام وزير الجُند؛ ثم يتقدّم وزير المال إلى ما بين يدي السلطان ويتأخرو وزير الجُند إلى مكان لا يسمع فيه حديثهما؛ ثم يخرج وزير المال ويستدعي من يتملق به؛ ثم يحضر صاحب الطعام بطعام الجُند ويعرضه على وزيرهم لئلا يكون فيه تقصير؛ ثم يقوم السلطان من المدرسة إلى موضع مخصوص ويستدعي وزير الفضل؛ وهو كاتب السر، ويسأله عن الكتب الواردة من البلاد، وعمّا تحتاج خزنة الكتب إليه، وعمّا تجدد في الحضرة وفي البلاد مما يتعلق بأرباب العلم وسائر فنون الفضل والقضاة، ويأمر باستدعاء من يُخصّصه من الكتب ويُملي عليه وزير الفضل ما أمر بكتابته، ويعلم عليه وزير الفضل بخطه؛ ثم يستدعي السلطان من شاء من العلماء والفضلاء ويتحاضرون محاضرة خفيفة، وإن كان وزير الفضل قد رفع قصيدة لشاعر وافد أو مرتب في دعوى استجدت، أمره السلطان بقراءتها عليه، أو يأمر بحضور الشاعر ليُنشدها قائماً أو قاعداً بحسب ما تقتضيه رتبته، ويتكلم السلطان مع وزير الفضل ومن حضر من الفضلاء في ذلك ويكتب على كل قصيدة بما يراه.

الجملة السادسة عشرة

(في جلوسه للظالم)

قال الشيخ شرف الدين عيسى الزواوي: إذا جلس السلطانُ جلس حوله ثلاثة من كبار أشياخ الموحدين للرأي والمشورة، ويجلس معهم وزير الجُند إن كان كبيراً، وإن لم يكن كبيراً وقف بإزاء أولئك الثلاثة، ويجلس دونهم عشرة من أكابر أشياخه، وربما كان الثلاثة المختصون بالرأي من جملة العشرة المذكورين؛ ويقف

نحسون وِقَافَا وِرَاءَ وِزِيرِ الجُنْدِ . فإذا أَمَرَ السُّلْطَانُ بِأَمْرِ بَلَّغَهُ وِزِيرُ الجُنْدِ لِأَخْرَاقِ وِاقِفٍ وِرَاءَهُ ، وَبَلَّغَهُ الآخِرَ لِأَخْرَاقِ ، وَبَلَّغَهُ الآخِرَ لِأَخْرَاقِ ، حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى مَنْ هُوَ خَارِجَ البَابِ بِنَقْلِ نَاسٍ عَنِ نَاسٍ ، وَيَقِفُ دُونَ الخَمْسِينَ المَذْكُورِينَ جَمَاعَةً تُسَمَّى بِالوَقَافِينَ بِأَيْدِيهِمُ السُّيُوفُ حَوْلَهُ ، وَهَمُ دُونَ الخَمْسِينَ المَذْكُورِينَ فِي الرِّتْبَةِ . وَقَدْ ذَكَرَ أَبُو سَعِيدٍ : أَنَّ يَوْمَ السَّبْتِ مَخْصُوصٌ عِنْدَهُ بِأَنَّ يَقْعُدُ فِي قُبَّةٍ كَبِيرَةٍ فِي القَصَبَةِ : وَهِيَ القَلْعَةُ ، وَيَحْضُرُ عِنْدَهُ أَعْيَانُ دَوْلَتِهِ وَأَقَارِبُهُ وَالْأَشْيَاحُ ، وَيَجْلِسُ أَقَارِبُهُ عَنِ جَانِبِهِ الْأَيْمَنِ ، وَالْأَشْيَاحُ عَنِ جَانِبِهِ الْأَيْسَرِ ، وَيَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْهِ وِزِيرُ الجُنْدِ ، وَوِزِيرُ المَالِ ، وَصَاحِبُ الشَّرْطَةِ ، وَالمُحْتَسِبُ ، وَصَاحِبُ كُتُبِ المَظَالِمِ : وَهُوَ المَوْقِعُ عَلَى القِصَصِ . وَيَقْرَأُ الكَاتِبُ المَعِينُ مَوقِعَ لَهُ عَلَى قِصَصِ المَظَالِمِ ، وَيَرُدُّ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِوِظِيفَةٍ إِلَى رَبِّ تِلْكَ الوِظِيفَةِ وَيَنْفَعُ البَاقِي .

الجملة السابعة عشرة

(في خروجه لصلاة الجمعة)

قال أبو سعيد : من عادة السلطان بأفريقية أنه لا يجتمع يوم الجمعة بأحد ، بل يخرج عند ما ينادى المنادى بالصلاة ، ويسبق رجة قصره ما بين خواص من الماليك الأتراك ، فعند ما يعانونه ينادون "سلام عليكم" نداءً عاليًا على صوت واحد يسمعه من يكون بالمسجد الجامع ، ثم يتقدمه وزير الجند بين يديه في سباط يخرج هناك للجامع ، عليه باب مذهب سلطاني ، ويسبق الوزير فيفتح الباب ، ويخرج منه السلطان وحده ، ويخرج له جماعة الوقافين من أعيان الدولة فلا يقوم له في الجامع غيرهم ، وليس له مقصورة مخصوصة للصلاة . فإذا انفصل عن الصلاة قعد في قبة كبيرة له في صدر الرجة وحضر عنده أقاربه ، ثم يدخل قصره .

الجملة الثامنة عشرة

(في رُكوبه لصلاة العيدين أو للسفر)

قال القاضي شرف الدين عيسى الزواوي : وعادته في ذلك أن يركب السلطان ، وعن يمينه فارسٌ وعن يساره فارس من أكابر أشياخه من العشرة المقدم ذكرهم ، ويمشي إلى جانبه رجلاً مقلدان سيفين رجالة إلى جانبه : أحدهما ممسك بركابه الأيمن ، والثاني ممسك بركابه الأيسر ، ويليهما جماعة رجالة من أكابر دولته : مثل الثلاثة أصحاب الرأي ، والعشرة الذين يلونهم ، ومن يجري مجراهم من أعيان الجند ، وتسمى هذه الجماعة ايربان ، يمشون حوله بالسيف وبأيديهم عكاكيز . قال : وربما مشى في هؤلاء قاضي الجماعة : وهو قاضي القضاة . وأمام هؤلاء الجماعة المشائين نفر كثير من الموحدن أقارب السلطان بسيف ومزاريق ، ويسمون بالمشائين . وقدامهم جماعة يقال لهم جفاوة : وهم عبيد سود بأيديهم حراب في رؤوسها رايات من حرير ، وهم لابسون جباً بيضا مقلدون بالسيف . وأمام هؤلاء قوم يعبر عنهم بعبيد الخزن ، وهم عوام البلد وأهل الأسواق ، وبأيديهم الدرق والسيف ، ومعهم العلم الأبيض المسمى بالعلم المنصور المقدم ذكره في شعار السلطنة .

وعادتهم أن ينادى فيهم لیسلة العيد أو رُكوب السلطان لسفر ، فيخرج أهل كل صناعة بظاهر البلد ، ويكون خلف السلطان صاحب العلامات ، وهو أمير علم راکب ، ووراءه أعلام القبائل ، ووراء الأعلام الطبول والبوقات ، وخلفهم محركو الساقة الذين هم بمثابة الثقباء وبأيديهم العصي يتنون العساكر ، وخلف هؤلاء العسكر . والفارس الذي عن يمين السلطان إليه أمر دق الطبول يقول : دق فلان باسم كبيرهم ، ويستمر من حول السلطان من المشاة يمشون ثم يركبون ، ويظف

بالسلطان جماعة يقرءون حزبا من القرآن الكريم . ثم يقف السلطانُ ويدعو ويؤمن وزير الجند على دعائه ، ويؤمن الناس على تأمينه ، ويحشد الناس والسلطان السير . فإن كانوا في فضاء كان مشيهم على هذا الترتيب ، وإن ضاق بهم الطريق مشوا كيف جاء على غير ترتيب إلا أن الجند لا يتقدمون على السلطان . فإذا قربوا من المنزلة وقف السلطان ودعا وأمن على دعائه كما تقدم . وإن كان في صلاة العيد ذهب في طريق وعاد في أخرى .

الجملة التاسعة عشرة

(في خروج السلطان للتنزه)

قد تقدم في الكلام على مدينة تونس أنها على طرف بحيرة خارجة من البحر الرومي تتحدق بها البساتين من كل جانب ، وفي تلك البحيرة جزيرة يقال لها سكة لاساكن بها ربما ركب السلطان في السفن وصار إليها في زمن الربيع ، وتضرب بها أخبية ويقيم بها للتنزه أياما ثم يعود . على أنه لا ماء فيها ولا مرعى ، ولكن لما أشرف عليه من البساتين المستديرة بتلك البحيرة وما قبلها من الحواشي المشرفة ومنظر البحر . وقد ذكر ابن سعيد : أنه ربما خرج إلى بستانه ، فيخرج في نحو مائتي فارس من الشباب المعروفين بالصبيان الذين هم بمثابة الممالك الكمانية بالديار المصرية ، يوصلونه إلى البستان ويرجعون ، ويبقى وزراؤه الثلاثة توابا له . وكل ما تجدد عند كل واحد منهم من الأمر طالع به وجاوبهم بما يراه . قال في " مسالك الأبصار " : وركوبه إلى البستان في زقاق من قصبته إلى البستان ، محجوب بالحيطان لا يراه فيه أحد .

الجملة العشرون

(في مكاتبات السلطان)

قال في "مسالك الأبصار" : قال ابن سعيد : قال العلامة أبو عبد الله بن القويح : إن هذا السلطان لا يعلم على شيء يكتب عنه ، وإنما يعلم عنه في الأمور الجكار صاحب العلامة الكبرى ، وهو كاتب السرفى الغالب ، والعلامة "الحمد لله" أو "الشكر لله" بعد البسمة . قال : ومن خاصية كتب هذا السلطان أن تكتب في ورق أصفر . ومن عادته وعادة سائر المغاربة أن لا يطيلوا في الكتب ولا ياعدوا بين السطور كما يفعل في مصر وما ضاهاها . أما في الأمور الصغار فإنما تكون الكتابة فيها عن وزير الجند ، ويكتب عليها صاحب العلامة الصغرى اسم وزير الجند ، وتكون هذه الكتب في غير الورق الأصفر .

الجملة الحادية والعشرون

(في البريد المقرر في هذه المملكة)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أنه إذا كتب كتاب إلى نواحى هذه المملكة ليوصل إلى بعض نواحيها ، جهز مع من يقع الاختيار عليه من النقباء أو الوصفان : وهم عبيد السلطان ، ويركب على بغل إما ملك له أو مستعاراً ويسافر عليه إلى تلك الجهة . فإن أعياناً في مكان تركه عند الوالى بذلك المكان وأخذ منه بغلاً عوضه ، إما من جهة الوالى أو يسخره له من الرعايا ، إلى أن ينتهى إلى جهة قصده ثم يعود كذلك .

الجملة الثانية والعشرون

(في الخلع والتشريف في هذه المملكة)

قال القاضي أبو القاسم بن بَنُون : ليس من عادة سلطان أفريقية إلباس من ولى ولاية خلعاً كما في مصر ، وإنما هي كسوة : وهو قماش غير مفصل يتصرف فيه كيف شاء .

المملكة الثانية

(من ممالك بلاد المغرب ملكة تلمسان)

وهي مملكة الغرب الأوسط . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(في ذكر حدودها ، وقاعدتها ، وما أشتمت عليه من المدن ،

والطريق الموصلة إليها)

أما حدودها ، فحدها من الشرق حدود مملكة أفريقية وما أضيف إليها من جهة الغرب ؛ وحدها من الشمال البحر الرومي ؛ وحدها من الغرب حدود مملكة فاس الآتى ذكرها من الشرق ؛ وحدها من جهة الجنوب المفاوز الفاصلة بين بلاد المغرب وبلاد السودان . وذكر في " العبر " : أن حدها من جهة الغرب من وادى مكنوية الفاصل بينها وبين الغرب الأقصى إلى وادى مجمع في جهة الشرق الفاصل بينها وبين أفريقية .

* *

وأما قاعدتها ، فمدينة (تلمسان) بكسر المثناة من فوق واللام وسكون الميم وفتح السين المهملة وألف ونون . وهي مدينة من الغرب الأوسط . وقال

في "تقويم البلدان": من النرب الأقصى متاخمةً للغرب الأوسط شرقي فاس بميلة إلى الشمال . وموقعها في أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول أربع عشرة درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة واثنتا عشرة دقيقة . وهي مدينة في سفح جبل ، ولها ثلاثة عشر بابا ، وماؤها محبوب من عين على ستة أميال منها ، وفي خارجها أنهار وأشجار ، ويستدير بقبليها وشرقيها نهر يصب في بركة عظيمة من آثار الأول ، ويسمع لوقعه فيها خريير على مسافة ، ثم يصب في نهر آخر بعد ما يمر على البساتين ، ثم يصب في البحر ، وعليه أرحاء دائرة تدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر ، وبقعتها شريفة كثيرة المراتق . ولها حصون كثيرة وفرض عديده .

منها (هنيين) و(وهران) و(مستغانم) . فهنين تقابل المريّة من الأندلس ووهران في شرقي تلمسان بشمال قليل ، على مسيرة يوم من تلمسان ، ومستغانم تقابل دانية من الأندلس ، وعرض البحر بينهما ثلاث مجار ونصف مجرى . قال الإدريسي في "كتاب رجار" : وبها آثار الأول ، ولها أسواق ضخمة ومساجد جامعة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي على ما بلغ حد التواتر أنها في غاية المنعة والحصانة مع أنها في وطأة من الأرض ولكنها محصنة البناء . وبلغ من حصانتها أن أبا يعقوب المريّني صاحب فاس حاضرها عشر سنين ، وبني عليها مدينة سماها فاس الجديدة وأحجزه فحجها ولها ثلاثة أسوار ، ومن جهة القصبة وهي اقلعة ستة أسوار ، وبها أنهار وأشجار ، وبها شجر الجوز على كثرة ، ومشمشها يقارب في الحسن مشمش دمشق . قال في "مسالك الأبصار" : زكية الزرع والضرع ، ويقصد بها تجار الآفاق للتجارة . قال : ويطول مكث المخزونات فيها حتى إنه ربما مكث القمح والشعير في مخازنها ست سنين ثم يخرج بعد ذلك فيزرع فينبت .



وأما مُدُنُهَا الداخلة في مملكتها ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن لها ثمانَ عشرةَ مدينةً : وهي تلمسان ، وجده ، ومدْيُونَة ، وتَدْرُومَة ، وهِنِين ، ووَهْرَان ، وتيْمَزْغُرَات ، وبرسك ، وشرشال ، وتونت ، ومنسْتَعَام ، وتَنْس ، والجزائر ، والقَصَبَات ، ومازونة ، وتاححمت ، ومليانة ، والمريّة .



وأما الطريق الموصل إليها ، فقد تقدم في الكلام على مملكة تُونُس الطريق من الديار المصرية إلى تُونُس . وقد ذكر في "الذيل على الكامل" أن من تُونُس إلى بَاجَة ، ومنها إلى تعريه وهي آخر بلاد أفريقية ، ومنها إلى قُسَنْطِينَة وهي أول بلاد بَاجِيَة ، ومنها إلى أول بلاد تِلْمَسَان ، ومنها إلى قُلَيْدَة ، ومنها إلى البُقَيْعَة ، ومنها إلى تِلْمَسَان .

الجملة الثانية

(في حال مملكتها)

لم أفق على شيء من ترتيب مملكتها ، والظاهر أنها تشبه مملكة تُونُس في الحال والترتيب أو قريب من ذلك . فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن بَاجِيَة ثانية تُونُس في الرتبة والحال ، والموجودات ، والمعاملات . وقد تقدم أن بَاجِيَة من النرب الأوسط ، فتكون تِلْمَسَان في معناها ، وإن وقعت مخالفة في ترتيب المملكة فإنما تكون في القدر اليسير . قال في "مسالك الأبصار" وهي مملكة كبيرة ، وسلطنة جائلة ، قريب الثلثين من مملكة بَر العُدوة . وهي وسيعة المدى ، كثيرة الخيرات ، ذات حاضرة وبادية ، وبروجر .

المملكة الثالثة

(من بلاد المغرب — الغرب الأقصى،
ويقال له برُّ العُدوة، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في بيان مَوقِعِها من الأقاليم السبعة وذكر حدودها
وما اشتملت عليه من المُدن والجهال المشهورة . وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(في بيان موقعها من الأقاليم السبعة)

فمَوقِعُها في الإقليم الثالث كما في مملكة تُونُس، وبعضها في الإقليم الثاني، وبعضها
في أوائل الإقليم الرابع على ما سيأتي ذِكرُه .

وأما حدودها . فقد ذكر صاحب "العبر" : أنه من مدينة آسفي حاضرة البحر
المحيط إلى وادي مَلَوِيَّة ومدينة تازا من جهة الشَّرق، يحيط به البحر المحيط من جهة
الغرب، وجبال دَرَنْ وما يليها من جَنُوبِيَّة، وجبال تازا من شَرْقِيَّة، والبحر الرومي
من شَمَالِيَّة . ثم قال : وهو ديار المَصَامِدَة وغيرهم من البربر . وذكر في "مسالك
الأبصار" نقلا عن أبي عبد الله محمد بن محمد السلاحي ^(١) : أن حدَّها من الجنوب
الصَّحراء الكبيرة الآخذة من بلاد البربر إلى جَنُوب أفريقيا، ومن الشرق جزائر بني
مَرْغَنانَة وما هو آخذ على حدَّها إلى الصَّحراء الكبيرة، ومن الشَّمال البحر الشامي،
ومن الغرب البحر المُحيط .

(١) في المسالك السلاحي، وقد تكرر .

وحكى عنه: أن طول هذه المملكة من جزائر بني مرغانة، وهي جزائر بني مرغانان المقدم ذكرها في بلاد بجاية من مملكة تونس إلى البحر المحيط، وعرضها من بحر الرقاق بسبته إلى نهاية بلاد البربر المتصلة بالصحراء الفاصلة بين هذه المملكة وبين بلاد السودان ثلاثون يوماً.

الجملة الثانية

(في بيان قواعدها وما أشتمت عليه هذه المملكة

من الأعمال وما أنطوت عليه من المدن)

أما قواعدها فخمسة: ^(١)

القاعدة الأولى

(فاس)

بفتح الفاء ثم ألف وسين مهملة. وهي مدينة بالغرب الأقصى، واقعة في آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول عشر درج ونمسون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة. قال: وسميت بفاس لأنهم لما شرعوا في حفر أساسها، وجدوا فأساً في موضع الحفر. قال في "تقويم البلدان": وهي مدينتان يشق بينهما نهر. الأولى (فأس القديمة) والمياه تجري بأسواقها وديارها وحماتها، حتى يقال إنه ليس بالمشرق ولا بالمغرب مدينة تضاهيها في ذلك، إلا أن أرضها ذات ارتفاع وانخفاض، وفيها عدة عيون. قال أبو عبد الله العملي: عدتها ثلثمائة وستون عينا. قال ابن سعيد: لم أرقط حمامات في داخلها عين تتبع إلا في فاس. قال: وهي أكثر مياهاً من دمشق. قال ابن سعيد في "المغرب":

(١) لم يذكر إلا أربعاً.

وهي مدينتان : إحداهما بناها إدريس بن عبد الله : أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب ، وتُعرف بَعْدُوة الأندلس . والأخرى بنيت بعدها وتعرف بَعْدُوة القرويين . قال في "الروض المعطار" : وكان بناء عُدوة الأندلسيين في سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبناء عُدوة القرويين في سنة ثلاث وتسعين ومائة . وعُدوة القرويين أكثرُ عُمُونًا ولبساتين وأشجارا من عُدوة الأندلسيين . ورجال عُدوة الأندلسيين أشجع . ورجال عُدوة القرويين أجمل . ونساء عُدوة الأندلسيين أجمل . وبعُدوة الأندلسيين تَفَاح حسن طيب الطعم يُعرف بالطرابلسي لا يُفَاح بَعْدُوة القرويين . وبعُدوة القرويين أترج حسن لا يُفَاح بَعْدُوة الأندلسيين مع التقارب على ضَفَّة النهر الغربية ، وهي في مستوٍ من الأرض ، وهي في علو لا يحكم النهر عليها . والثانية (فاس الجديدة) وهي ثلاثُ مُدن بناء آباء ملوكها القائمين بها الآن حين ملكوا المغرب الأقصى . ولما نزلوها بنوا معها ثلاث مُدن على ضَفَّة النهر الغربية .

أولها (المدينة البيضاء) وتُعرف بالجديدة . بناها أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق أول من استقل بالملك بعد الموحدين .

الثانية (مدينة حمص) ويُعرف موضعها بالملاح . بناها ولده أبو سعيد : عثمان ابن أبي يوسف إلى جانب المدينة البيضاء المقدم ذكرها .

الثالثة (ربض النصارى) وهي المتخذة لسكنى النصارى من الفرنج المستخدمين بخدمة السلطان . وهذه المتجددات الثلاث على ضَفَّة النهر الغربية : فرَبض النصارى يقابل فاس القديمة على بُعد من ضَفَّة النهر . والبيضاء وهي فاس الجديدة آخذة من شمالي ربض النصارى إلى ضَفَّة النهر . وأول عمارة فاس الجديدة آخر عمارة فاس العتيقة . وحمص رابطة على النهر بشمال على جانب فاس الجديدة آخذة إلى ربض

النصارى، ينصب من الجنوب إلى الشمال، ثم يعطف على زاوية آخذاً من الغرب إلى الشرق حتى يصير كأنه ينحدر من الغرب، ويحص على مجراه هناك؛ ثم يمر آخذاً إلى الشرق على حاله فوق فاس الجديدة . ثم يعطف عليها بزواية إلى الجنوب ثم يعطف إلى الشرق جائزاً بها، وهناك فاس العتيقة على الضفة الشمالية، والقصبة وهي القلعة بها في غربها مرجلة على الأرض لا تتميز على المدينة برفعة ولا ببناء عال؛ ويصير النهر مستديراً بفاس الجديدة من جانب الشمال على المجرى المركب عليه حصص، ومن الشرق حيث أعطف النهر عند فاس العتيقة .

قال في "مسالك الأبصار": وهذا النهر متوسط القدار . عرضه في المكان المتسع نحو أربعين ذراعاً، وفي الضيق دون ذلك؛ وربما تضايق إلى خمسة عشر ذراعاً فما دونها؛ وعظمته في الغالب تقدير قامة رجل . ونقل في "مسالك الأبصار" عن ابن سعيد: أن نهرها يلاقى وادى سبو، وهو من أعظم أنهار المغرب، يصب في البحر المحيط بين سلا وقصر عبد الكريم . قال في "تقويم البلدان" قال ابن سعيد: وعلى أنهارها داخل المدينة نحو ستمائة رحاً تدور بالماء دائماً . قال في "مسالك الأبصار":^(١) وعليها ناعورة ترفع الماء إلى بستان السلطان . وبناء فاس العتيقة بالأجر والحبال مكتيفة بها، وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوار دائرة محصنة ذات بروج وبدنات، وجميع أبنيتها بالحجر والأجر والكس مؤثقة البناء مشيدة الأركان . وتزيد فاس الجديدة على فاس العتيقة في الحصانة والمنعة؛ والعتيقة بسور واحد من الحجارة والجديدة بسورين من الطين المفرغ بالقلب من التراب والرمل والكس المضروب وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه، وكذلك غالب أبنيتها، وسقوف جميعها الخشب وربما غشيت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ المتونة،

(١) يؤخذ من عبارة ياقوت أن نهرها يتفرق داخلها إلى أنهار وعلها من الأرحاء ذلك القدار .

وأرض دور رؤسائها مفروشة بالزليج . وهو نوع من الآجر مدهون بدهان ملون كالقاشاني بالأبيض والأسود والأزرق والأصفر والأخضر وما يركب من هذه الألوان وغالبه الأزرق الكحلي وربما أخذ منه الزرات بحيطان الدور؛ قال في "مسالك الأبصار": وسأت السلائح عن مقدار عمارة فاس عتيقها وجديدها . فقال: تكون قدر ثلث مصر والقاهرة وحواضرهما . قال في "تقويم البلدان"^(١): وللايتين ثلاثة عشر باباً ؛ وفي القديمة مخازن الغلال ، وهي مكان يستدير عليه سور منيع عليه بابٌ وعَاقٌ داخلة المطامير . وبفاس العتيقة داخل سورها جنانٌ ورياض ذاتُ أشجار ورياحين في دُور الكبراء ويُوت الأعيان . ثم قال : وبكل من فاس القديمة وفاس الجديدة المعروفة بالبيضاء ومحض الجوامع والمساجد والمآذن والحمامات والأسواق . أما المدارس والخوانق والرُبطُ فما حلت صحائف أهل المغرب من أجورها إلا التزر اليسير جداً . وبفاس العتيقة مارستان ؛ ودور فاس مجالس متقابلة على عمد من حجر أو آجرٌ ورفارف تطل على صحن الدار ، وفي وسط صحن الدار بركة يصب بها الماء ويعبر عنها عندهم بالصهريج ؛ ولهم عناية بأخذ القباب في بيوتهم ، حتى يوجد في دار الكبير قببان فأكثر ؛ وحماماتهم صحن واحد لاخلأوى فيها ، ولذلك يتخذ غالب رؤسائهم الحمامات في بيوتهم ، فوارا من مخالطة العامة في الحمام .

قال ابن سعيد : ومدينة فاس متوسطة بين ملك الغرب ، بينها وبين صرّاكش عشرة أيام وبينها وبين تلمسان عشرة أيام ، وبينها وبين سبتة عشرة أيام ، وبينها

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية .

(٢) أى ينسكب بها وصب يكون لازماً ومتعدياً إلا أن اللازم من باب ضرب والمتعدى من باب نصر كما نص عليه في تاج العروس والمصباح

(٣) مراده أن حماماتها ليس بها حجر للخواص . وقد جرى العامة في جمع الخلوة على خلأوى .

وبين ساجسة عشرة أيام . قال في "مسالك الأبصار" . ولذلك صَلَّحت أن تكون قاعدة الملك . وهى تشبه الإسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المُنكر والقيام بالناموس ، وتُسبَّه بِدمشق في البساتين .

وقد ذكر ابن مُنقذ: رسول السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلى بلاد المغرب : أنهم أخرجوا إلى بستانٍ بفاس يقال له البحيرة متحصّله في كل سنة خمسة وأربعون ألف دينار ، وبه بركةٌ ذرع كل جانب منها مائتان وستة عشر ذراعا ، يكون دورها ثمانمائة ذراع وأربعة وستين ذراعا . قال : وبها ما هو أكبر من ذلك . قال في "تقويم البلدان" : وأهلها مخصوصون برفاهية العيش . قال في "مسالك الأبصار" : ولأهلها حُسن الصنعة في المخروطات من الخشب والنحاس . قال أبو عبد الله السلايحي : ولكنها وحة ثقيلة الماء ، تعلو وجوه سُكَّانها صفرةً ، وتحدث في أجسادهم كسلا وفئورا .

القاعدة الثانية

(سَابِئَةٌ)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة وتاء مثناة فوق وهاء في الآخر . قال في "الروض المعطار" : والنسبة إليها سَبِئِيٌّ بكسر السين . وهى في دَخْلَةٍ في البحر . قال في "تقويم البلدان" : وهى مدينة بين بحرَيْنِ : بين البحر المحيط وبحر الرُّوم . ومدخلها من جهة المغرب وهو مدخل ضيق ، والبحر محيط بأكثرها ، ولو شاء أهلها لوصلوا البحر حَوْلَهَا وجعلوها جزيرة . ولها أسوار عظيمة من الصخر ، وعليها أبراج كثيرة ، والماء يُجَلَّب إليها في الشواني حتى للحمات

التي بها ، وبها صهاريجٌ من ماء المطر . ويقال إنها أوّل ما بنى ببرّ العُدوة . قال في "الروض المعطار" : وهي سبعةُ أُجبلٍ صغارٌ متصلةٌ بعضها ببعض معمورة ؛ طولها من الغرب إلى الشرق نحو ميل . وقال في "مسالك الأبحار" : طولها من السور الغربي المحيط برّضها إلى آخر الجزيرة خمسةُ أميال . قال في "الروض المعطار" : ولها بابان من جهة البرّ ، ويتصل بها على ميلين من جهة الغرب جبلٌ يعرف بجبل موسى ، وهو موسى بن نصير الذي فتح الأندلس ، ويجاوره بساتين وأشجارٌ وقرى كثيرة ؛ وهناك يُزرع قصب السكر ويحمل إلى ما جاورها من البلدان ؛ ولها نهر عذب في البحر ؛ وكان بها كنيسةٌ جعلت جامعاً ؛ وبها يستخرج من البحر شجر المرجان الذي لا يعدله مرجان . ويقابلها من الأندلس الجزيرة الخضراء وبحر الروم بينهما ضيقٌ ، حتى إنه إذا كان الصحو ريثت إحداهما من الأخرى ، ولذلك يسمّى بحر الرّقى ، وميناءها شرفيّها ؛ وغالب طرف الدنيا موجودةٌ فيها ؛ والحِطّة مجلوبةٌ إليها إذ لا يزكو نباتها فيها ؛ ويُصاد بها أسماكٌ مختلفة على نحو مائة نوع . ويتأبل هذه المينة من برّ الأندلس الجزيرة الخضراء .

وكانت هذه المدينة قاعدةً لهذا القطر قبل الإسلام ، وهي يومئذ يار عمارة من المصامدة ، والحاكم عليها ملك الأندلس من القوط ، وكان ملك عمارة بها في زمن الفتح يقال له يليان ؛ ولما زحف إليه موسى بن نصير المذكور أمير أفريقيّة في زمن الفتح جاء معه بالهدايا ، وأذعن لأداء الجزية فأقرّه عليها ، وأسّرهن ابنه وأبناء قومه ، وأنزل طارق بن زياد بطنجة بالعساكر إلى أن أجاز البحر لفتح الأندلس كما سيأتي في الكلام على مكتبة صاحب الأندلس .

(١) تقدمت هذه الجملة بمعناها فإثباتها سهو .

ولما هلك يُليانُ استولى المسلمون من العرب على مدينة سَبْتَةَ بالصُّلَح من أهلها فعمروها إلى أن كانت فتنهُ مَيْسِرَةَ الخفير وما دعا إليه من مذهب الخوارج وأخذ به الكثير من البربر من غمارة وغيرهم ، فزحف بَرَابِرَةُ طَنْجَةَ إلى سَبْتَةَ فأخرجوا العرب منها وخرَّبوها ، وبقيت خاليةً إلى أن عمَّرها ما جكس من وجوه غمارة من البربر وبنها وأسلم وصحَّب أهل العلم ، فرجع الناس إليها ومات .

فقام بأمره من بعده ابنه (عصام) فأقام بها زمنا إلى أن مات .

فولى بعده ابنه (مجير) فأقام بها إلى أن مات .

فولياها أخوه (الرَضِيّ) ويقال ابنه ، وكانوا يُعْطَوْنَ الطاعة لبني إدريس من العلوية ملوك فاس ؛ ولما سَمَا الناصر الأمويّ صاحبُ الأندلس إلى ملك المغرب وتناول أكثره من يد الأدارسة ببلاد غمارة وغيرها حين أُخْرِجُوا من فاس وقاموا بدعوة الناصر في جميع أعمالهم ، نزلوا للناصر عن سَبْتَةَ ، فبعث إليها العساكر فانتزعها من يد الرَضِيّ بن عصام سنة تسع عشرة وثلثائة ؛ وأنقرض أمر بني عصام وصارت سَبْتَةَ للناصر ومن بعده من بني أمية خُلَفَاءِ الأندلس . وكان عليّ والقاسم ابنا حمود بن ميمون ، بن أحمد ، بن عليّ ، بن عبيد الله ، بن عمر ، بن إدريس العلويّ قد لحقا بالأندلس لما أخرج المستنصر الأمويّ الأدارسة من المغرب ، وبقياً بالأندلس إلى أن كانت أيام المستعين سليمان بن الحكم فأختصَّ بقاسم وعليّ ابني حمود ، وعقد لعليّ بن حمود على طنجة وأعمال غمارة فنزلها ، ثم خرج عن طاعته ودعا لنفسه ، وعاد إلى الأندلس وولى الخليفة بقرطبة كما سيأتي في مكتبة صاحب الأندلس ، وولى عليّ عمله بطنجة ابنه يحيى بن عليّ .

ثم أجاز يحيى بعد موت أبيه إلى الأندلس واستقلَّ أخوه إدريس بن عليّ بولاية طنجة وسائر أعمال أبيه من مواطن غمارة .

ثم أجاز إلى الأندلس بعد مَوْلِكَ أَخِيهِ يَحْيَى ، وعقد حَسَنُ بْنُ أَخِيهِ يَحْيَى عَلَى
عملهم بِسَبْتَةَ وَطَنْجَةَ وَأرسل معه نجاء الخادم لتدبير دولته .

ثم أجاز (نجاء) الخادم إلى الأندلس ومعه حَسَنُ بْنُ يَحْيَى المذكور؛ ثم عقد حَسَنُ
لنجا الخادم على عملهم في بلاد عُمَّارَةَ .

فلما ذلك حَسَنُ بِالْأَنْدَلُسِ ، أجاز (نَجَّاء) إلى الأندلس واستخلف على العمل مَنْ
وثق به من الموالى الصَّالِحَةِ ، واستتوت في الموالى واحداً بعد آخر إلى أن استقلَّ
بِسَبْتَةَ وَطَنْجَةَ من موالى بنى حَمُودِ الْحَاجِبِ (سَكُوتِ الْبَرْغُوطِيِّ) فاستقلَّ بِسَبْتَةَ
وَطَنْجَةَ وَأطاعته قبائل عُمَّارَةَ ، وَأتصلت أيامه إلى أن كانت دولة المرابطين ، وغلب
أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » على مَغْرَاوَةَ بِنَاسِ ، وسار إلى بلاد عُمَّارَةَ
ونازل سَكُوتِ الْحَاجِبِ ، وكانت بينهما واقعة قُتِلَ فِيهَا سَكُوتُ ، ولحق ضياء الدولة
أَبْنُ سَكُوتِ بِسَبْتَةَ فَأقام بها إلى أن نازله الْمُعِزُّ بْنُ يَوْسُفَ بْنِ تَاشَفِينِ بِهَا فقبض عليه
ثم قتلها ، وأنقضت دولة بنى حَمُودِ من بلاد عُمَّارَةَ وصارت في مَلِكِ الْمُرَابِطِينَ إلى أن فتح
بنو عبد المؤمن من الموحدين مَرَّاكُشَ ، فدخل أهل سَبْتَةَ وسائر عُمَّارَةَ في طاعتهم ؛
وأقامت على ذلك إلى أن ضَعُفَتْ دَوْلَةُ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ : ناز في عُمَّارَةَ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ
اللَّثَامِيُّ الْمَعْرُوفُ بِأَبِي الطَّوَّاجِنِ ، وكان له يَدٌ فِي السِّيمِيَاءِ ، وَأرتحل إلى سَبْتَةَ فَنزل
عليها وأدعى النبوة وأظهر أنواعاً من السيمياء فأتبعه جماعةٌ ؛ ثم ظهر لهم حقيقة
أمره فرجعوا عنه ، وقتله بعض البربر غيلةً ، إلى أن كانت أيام بنى مَرِينِ وَغَلَمِيسِ
على بلاد المغرب فامتنعت عليهم سَبْتَةُ ، وقام بأمرها الفقيه أبو القاسم العزفي من
مَشِيحَتِهَا فبقيت بيده ويد بَدِيهِ إلى أن ملكها منهم بنو مَرِينِ سَنَةَ تِسْعَ وَعَشْرِينَ
وسبعمائة في أيام السلطان أبي الحسن ، فصارت تابعةً لِنَاسِ دَارِ مَلِكِ بْنِ مَرِينِ
جاريةً في يد ملوكها ، وهي باقيةٌ بأيديهم إلى زماننا بعد العشرِ والثمانمائة .

القاعدة الثالثة

(مدينة مراكش)

بفتح الميم وتشديد الراء المهمله وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة .
وهى مدينة واقعة فى أول الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث
الطول إحدى عشرة درجة ، والعرض تسع وعشرون درجة . بناها أمير المسلمين
« يوسف بن تاشفين » ملك المرابطين فى أرض صحراوية ، وجلب إليها المياه .
قال ابن سعيد : وأول ما بُنى بها القصر المعروف (بقصر الحجر) ثم بنى الناس حوله ؛
ثم زادها يعقوب بن عبد المؤمن ، وكبرها ومصرها ، وفتحها وضمها ؛ وجلب إليها
المياه والغراس . قال فى « تقويم البلدان » : ودورها سبعة أميال ، ولها سبعة عشر
بابا . قال فى « الروض المطار » : وبنى سورها على بن يوسف بن تاشفين فى سنة
ست وعشرين وخمسة ، وقيل سنة أربع عشرة وخمسة . قال : وطولها
مائة وعشرون ميلا ، وعرضها قريب من ذلك ؛ وهى فى وطأة من الأرض ليس
حولها جبال إلا جبل صغير منه قطع الحجر الذى بنى منه على بن يوسف بن
تاشفين قصره ، وعمامة بناها بالطين والطوب .

قال ابن سعيد : وهى مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة
تفى بما تحتوى عليه ، ويكفى أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين
والحمام والإصطبلات والمياه ، وغير ذلك حتى إن الرئيس منهم يُغلق بابه على
جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه ، ولا يخرج من بابه إلى خارج داره لحاجة
يحتاجها ، ولا يشتري شيئا من السوق لما كمل ، ولا يقرئ أولاده فى مكتب ،
ويخرج من بابه راجعا فلا تقع عليه العين راجلا . قال : ولا أدرى كيف أصل إلى

غاية من الوصف اِصْفَ بها ترتيب هذه المدينة المُحدَثة ؟ فإنها من عجائب هِمَّات السلاطين ، ذات أسوار صَخْمَة وأبواب عالية .

وبظاهاها مدينة آخَظَها المنصور "يعقوب بن عبد المؤمن" له ونحواصه تعرف بتمراكش ، وبها قصر الخلافة الذي بناه به دور عَظيمة ؛ وبها بستان يعرف بالبحيرة طوله اثنا عشر ميلا ، به بركة عظيمة لم يُعْمَلْ مثلها قال العقيلي : طولها ثلثمائة وثمانون باعا ، على جانبها الواحد أربعمائة شجرة نارنج ، بين كل آثنتين منها ليمونة أو ريحانة . وهي أكثر بلاد الغرب بساتين ، وشجرها أكثر منها ، وبساتينها تسقى بالبنار وبنارها قريبة الرشاء على نحو قامتين من وجه الأرض ؛ وهي كثيرة الزرع والضرع ؛ وبها دار الضيافة المعروفة بدار الكرامة . وفيها يقول محمد بن محمد البربري من أبيات يمدحهم ويصفها :

خَيْرُ قَوْمٍ دُعُوا إِلَى خَيْرِ دَارٍ ، * هِيَ لِلْمَلِكِ نَضْرَةٌ وَكِيَامُهُ

عَالَمُ السَّبْعَةِ الْأَقَالِيمِ فِيهَا ، * وَهُمْ فِي فَنَائِهَا كَالْقَلَامِ

ومراكش جامع جليل يعرف بالكتبيين ، طوله مائة وعشرة أذرع ، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء نحسين ذراعا ، كان يرمى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زيتها مائة درهم ، تتحرك لتزولها أجراس تُسمع على بُعد ، تسمى عندهم بالبحانة . قال في "تقويم البلدان" : إلا أن الناس أكثروا فيها البساتين فكثر ونحما . قال في "الروض المعطار" : وقد هجها أبو القاسم بن أبي عبد الله محمد ابن أيوب بن نوح الغافقي من أهل بلنسية بأبيات أبلغ في دَمِّها ، فقال :

مَرَّاكُشُ إِنْ سَأَلْتَ عَنْهَا ، * فَإِنَّهَا فِي الْبِلَادِ عَارُ!

هَوَاؤُهَا فِي الشِّتَاءِ تَلْجُ ، * وَحَرُّهَا فِي الْمَصِيفِ نَارُ!

وكلُّ ما ثمَّ وهو خَيْرٌ * من أهلها عَقْرُبٌ وفَارُ!

فَإِنْ أَكُنْ قَدْ مَكَّنْتُ فِيهَا، * فَإِنَّ مَكْنِيَهَا أَضْطَرَّارُ!

وكانت هذه المدينة دار ملك المرابطين من الملثميين الذين ملكوا بعد نبي زيري، ثم الموحدين من بعدهم . قال ابن سعيد : وبينها وبين ناس عشرة أيام . وقال في "الروض المعطار" : نحو ثمانية أيام . قال : وبينها وبين جبال درن نحو عشرين ميلا .

القاعدة الرابعة

(سِيَاهِمَاسَةٌ)

بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون اللام وفتح الميم ثم ألف وسين مهملة مفتوحة وهاء في الآخر، وهي مدينة في جنوب الغرب الأقصى في آخر الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث طول ثلاث عشرة درجة وأثنان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة .

وهي مدينة عظيمة إسلامية، وبينها وبين البحر الرومي خمس عشرة مرحلة، وليس قبليها ولا غربيها عمران، وبينها وبين غانة من بلاد السودان مسيرة شهرين في رمال وجبال قليلة المياه، لا يدخلها إلا الإبل المصبرة على العطش . آختطها يزيد بن الأسود من موالى العرب، وقيل : مدرار بن عبد الله . وكان من أهل الحديث، يقال إنه لقي عكرمة مولى ابن عباس بأفريقية وسمع منه . وكان صاحب ماشية، وكان يذبح موضع سياهماسة بالصحراء ليرعى به ماشيته، فكان يجتمع إليه أهل تلك الصحراء من مكثاسة والبربر، وكانوا يدينون بدين الصفرية من الخوارج،

(١) كذا في الأصل وفي "العبر ج ٦ ص ١٣٠" عيسى بن يزيد الأسود .

فاجتمع عليه جماعة منهم فلما بلغوا أربعين رجلا قدموا عليهم يزيد بن الأسود وخلصوا طاعة الخلفاء ، وأختطوا هذه المدينة سنة أربعين ومائة من الهجرة . ولها اثنا عشر بابا ، وهي كثيرة العمارات ، كثيرة البساتين ، رائحة البقاع ، ذات قصور ومنازل رفيعة وعمارات متصلة ، على نهر كثير الماء يأتي من جهة المشرق من الصحراء ، يزيد في الصيف كزيادة النيل ، ويؤزر على مائه كما يؤزر على ماء النيل ، والزرع عليه كثير الإصابة ، والمطر عندهم قليل : فإذا كانت السنة كثيرة الأمطار ، نبت لهم ما حصده في العام السابق من غير بذر ، وربما حصده عند تناسله وتركوا أصوله فتنبت ثانيا . ويقال : يؤزر بها عاما ويحصد ثلاثة أعوام ، وذلك أن أرضها مشقة ، وهي بلدة شديدة الحر فإذا يبس الزرع تناثر عند الحصاد ودخل في الشقوق ، فإذا كان العام الثاني وعلاه ماء النهر ونرج عنه حرثوه بلا بذر فينبت ما في الشقوق ، ويبقى كذلك ثلاث سنين .

وقد حكى ابن سعيد : أن هذا الزرع في السنة الأولى يكون قمحا ، وفي باقي السنين سُلتا . وهو حب بين القمح والشعير . وبها الرطب ، والتمر ، والعنب الكثير ، والفواكه الحامضة ، وليس فيها ذئب ولا كلاب لأنهم يسمونها ويأكلونها ، وقلمها يوجد فيها صحيح العينين ، ولا يوجد بها مجذوم ، ولها ثمانية أبواب من أي باب منها خرجت ترى النهر والنخيل وغير ذلك من الشجر ، وعليها وعلى جميع بساتينها حائط يمنع غارة العرب مساحته أربعون ميلا ، وثمرها يفضل ثمر سائر بلاد المغرب ، حتى يقال : إنه يضاهي الثمر العراقي ، وأهلها مياسير ، ولها متاجر إلى بلاد السودان ، يخرجون إليها بالملح والنحاس والودع ، ويرجعون منها بالذهب الثبر . قال ابن سعيد : رأيت صكاً لأحدهم على آخر مبلغه أربعون ألف دينار .

ولَمَّا قَدَمُوا عَلَيْهِمْ عَيْسَى بْنُ الْأَسْوَدِ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ ، أَقَامَ عَلَيْهِمْ أَيَّامًا ثُمَّ قَتَلُوهُ سَنَةَ
خَمْسٍ وَخَمْسِينَ وَمِائَةً ، وَاجْتَمَعُوا بَعْدَهُ عَلَى كَبِيرِهِمْ (أَبِي الْقَاسِمِ سَمَكُو) ، بَنِ وَاسُولِ
أَبْنِ مِصْلَانَ ، بَنِ أَبِي يَزُولِ ، بَنِ تَافَرَسِينَ ، بَنِ فَرَادِيسِ ، بَنِ وَنِيفِ ، بَنِ مَكَّاسِ ،
أَبْنِ وَرِصْطَفِ ، بَنِ يَحْيَى ، بَنِ تَمَصِيتِ ، بَنِ ضَرِيرِيسِ ، بَنِ رَجِيكِ ، بَنِ مَادَغَشِ ،
أَبْنِ بَرَبَرِ . كَانَ أَبُوهُ سَمَكُو مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ أَرْتَحَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ (عَلَى سَاكِنِهَا
أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ وَالْإِكْرَامِ) فَادْرَكَ التَّابِعِينَ ، وَأَخَذَ عَنْ عِكْرَمَةَ مَوْلَى
أَبْنِ عَبَّاسٍ ، وَمَاتَ بِحَاقَةِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسِتِّينَ وَمِائَةٍ لَثْنَتِي عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ وِلَايَتِهِ .

وَكَانَ مَعَ ذَلِكَ عَلَى مَذْهَبِ الصُّفَرِيَّةِ ، وَخَطَبَ فِي عَمَلِهِ لِلنُّصُورِ وَالْمَهْدِيِّ مِنْ
خَلْفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ .

وَلَمَّا مَاتَ وَوَلِيَ مَكَانَهُ ابْنُهُ (إِلْيَاسُ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ) [وَكَانَ يُدْعَى بِالْوَزِيرِ
ثُمَّ انْتَقَضُوا عَلَيْهِ] سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَمِائَةً [نَخْلَعُوهُ] ^(١) .

وَوَلِيَ مَكَانَهُ أَخُوهُ (الْيَسَعُ بْنُ أَبِي الْقَاسِمِ) وَكَتَبَتْهُ أَبُو مَنْصُورٍ ، فَبْنَى سُورَ
سِجِّهَامَسَةَ ، وَشَيَّدَ بُيُنَانَهَا ، وَأَخْتَطَّ بِهَا الْمَصَانِعَ وَالْقُصُورَ لِأَرْبَعِ وَثَلَاثِينَ سَنَةً مِنْ
وِلَايَتِهِ . وَعَلَى عَهْدِهِ اسْتَفْجَلَ مُلْكُهُمْ سِجِّهَامَسَةَ ، وَسَكَنَهَا آخِرَ الْمِائَةِ الثَّانِيَةِ بَعْدَ
أَنْ كَانَ يُسْكُنُ الصَّحْرَاءَ وَهَلَكَ سَنَةَ ثَمَانٍ وَمِائَتَيْنِ .

وَوَلِيَ بَعْدَهُ ابْنُهُ (مِدْرَارٌ) وَلَقَّبَ الْمَتَصِرَ وَطَالَ أَمْدُ وِلَايَتِهِ . وَكَانَ لَهُ وَدَانٌ
أَسْمَ كُلِّ مِنْهُمَا مَيْمُونٌ ، فَوَقَعَ الْحَرْبَ بَيْنَهُمَا ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِمَا أَنْ
غَلَبَ أَحَدُهُمَا أَخَاهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ سِجِّهَامَسَةَ ، ثُمَّ خَلَعَ أَبَاهُ وَأَسْتَقَلَّ بِالْأَمْرِ ، وَسَاءَتْ
سَيْرَتُهُ فِي الرِّعْيَةِ نَخْلَعُوهُ ، وَأَعَادُوا مِدْرَارًا أَبَاهُ .

(١) الزيادة من "البر" ج ٦ ص ١٣٠ يستقيم الكلام .

ثم حدث نفسه بإعادة أبنه ميمون المخلوع فخاموه وولوا أبنه (ميمونا) الآخر، وكان يعرف بالأمر، ومات مدرار^(١) إثر ذلك سنة ثلاث وخمسين ومائتين . [ومات ميمون سنة ثلاث وستين ومائتين] .

وولي مكانه أبنه (محمد) فبقى إلى أن توفى سنة سبعين ومائتين .

فولي مكانه (اليسع) بن المتصر . وفي أيامه وفد عبد الله المهدي الفاطمي وأبنه أبو القاسم علي سجلماسة في خلافة المعتضد العباسي ، وكان اليسع على طاعته فبعث المعتضد إليه فقبض عليهما واعتقلهما إلى أن غلب أبو عبد الله الشيعي داعي المهدي بني الأغلب أصحاب أفريقية ، فقصده سجلماسة فخرج إليه اليسع في قومه مكثاسة ، فهزمه أبو عبد الله الشيعي وأقبح عليه البلد ، وقتله سنة ست وتسعين ومائتين ، وأستخرج عبيد الله وأبنه من محبسهما ، وباع (لعبيد الله المهدي) .

وولي المهدي علي سجلماسة (إبراهيم بن غالب المزاني) وأنصرف إلى أفريقية ، ثم أنتقض أهل سجلماسة علي واليهم إبراهيم ومن معه من مكثاسة سنة ثمان وتسعين ومائتين . وباعوا (الفتح بن ميمون) الأمير ابن مدرار المتقدم ذكره ، ولقبه واسول ، وهلك قريبا من ولايته على رأس المائة الثالثة .

وولي مكانه أخوه (أحمد بن ميمون) الأمير ، وأستقام أمره إلى أن زحف مصالة بن حيوس في جموع كمامة ومكثاسة إلى المغرب سنة تسع وثلاثمائة ، فافتتح سجلماسة وقبض على صاحبها أحمد بن ميمون .

وولي عليها ابن عمه (المعتر بن محمد) بن يادن بن مدرار ، فلم يلبث أن أستبد وتلقب المعتر ، وبقى حتى مات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة قبل موت المهدي .

(١) التتم من "العبر" ج ٦ ص ٣١ ليستقيم الكلام .

(٢) في العبر ج ٦ ص ١٣١ "ساور" .

وَوَلِيَّ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ أَبُو الْمُتَصِرِ (مُحَمَّدُ بْنُ الْمُعْتَرِّ) فَأَقَامَ عَشْرًا ثُمَّ هَلَكَ .
 وَوَلِيَّ مِنْ بَعْدِهِ ابْنُهُ (الْمُتَصِرُ سَمَكُو) شَهْرَيْنِ ، وَدَرَّثَهُ جَدَّتُهُ لِصَغَرِهِ .
 ثُمَّ ثَارَ عَلَيْهِ ابْنُ عَمِّهِ (مُحَمَّدُ بْنُ الْفَتْحِ) بْنُ مَيْمُونِ الْأَمِيرِ وَتَغَلَّبَ عَلَيْهِ ، وَشَغِلَ عَنْهُ
 بَنُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَهْدِيِّ بِفِتْنَةِ ابْنِ أَبِي الْعَافِيَةِ وَغَيْرِهَا ، فَدَعَا لِنَفْسِهِ مَمَّوْهَا بِالْإِدْعَاءِ
 لِبَنِي الْعَبَّاسِ وَتَلَقَّبَ الشَّاكِرَ لِلَّهِ ، وَأَخَذَ بِمَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَرَفَضَ الْخَارِجِيَّةَ ،
 وَكَانَ جَمِيعٌ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ سَلْفِهِ عَلَى رَأْيِ الْأَبَاضِيَّةِ وَالصُّفْرِيَّةِ مِنَ الْخَوَارِجِ ، وَضَرَبَ
 السُّكَّةَ بِاسْمِهِ وَلَقَبِهِ ، وَبَقِيَ كَذَلِكَ حَتَّى فَرَّغَ بَنُو عَبْدِ اللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ ، فَزَحَفَ الْقَائِدُ
 جَوْهَرٌ أَيَّامَ الْمُعِزِّ لِدِينِ اللَّهِ مَعَدَّ إِلَى الْمَغْرِبِ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثِينَ ، فَغَلَبَ عَلَى
 سِجِّهَامَةَ وَمَلِكَهَا وَفَزَّ مُحَمَّدُ بْنُ الْفَتْحِ عَنْهَا ، ثُمَّ قَبِضَ عَلَيْهِ جَوْهَرٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَحَمَلَهُ
 إِلَى الْقَسْرِوَانِ . فَلَمَّا انْتَقَضَ الْمَغْرِبُ عَلَى الْعَيْدِيِّينَ وَفَشَتْ فِيهِ دَعْوَةُ الْأُمَوِيِّينَ
 بِالْأَنْدَلُسِ ، ثَارَ بِسِجِّهَامَةَ قَائِمٌ مِنْ وَلَدِ الشَّاكِرِ ، وَتَلَقَّبَ (الْمُتَصِرُ بِاللَّهِ) ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهِ
 أَخُوهُ (أَبُو مُحَمَّدٍ) سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَخَمْسِينَ فَقَتَلَهُ وَقَامَ بِالْأَمْرِ مَكَانَهُ ، وَتَلَقَّبَ (الْمُعْتَرُّ بِاللَّهِ)
 وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ مَدَّةً ، وَأَمْرٌ مِثْلَ مَا يَوْمَئِذٍ قَدْ تَدَاعَى إِلَى الْأَحْلَالِ ، وَأَمْرٌ زَنَاتَةٌ قَدْ
 اسْتَفْجَلُ بِالْمَغْرِبِ إِلَى أَنْ زَحَفَ خَزْرُونَ بْنُ فُلْفُولٍ مِنْ مَمْلُوكِ مَغْرَاوَةَ إِلَى سِجِّهَامَةَ
 سَنَةَ سِتِّ وَسِتِينَ وَثَلَاثِينَ ، وَبَرَزَ إِلَيْهِ أَبُو مُحَمَّدٍ الْمُعْتَرُّ فَهَزَمَهُ خَزْرُونَ وَقَتَلَهُ وَأَسْتَوْلَى
 عَلَى بَلَدِهِ ، وَبَعَثَ بِرَأْسِهِ إِلَى قُرْطُبَةَ مَعَ كِتَابِهِ بِالْفَتْحِ ، وَكَانَ ذَلِكَ لِأَوَّلِ حِجَابَةِ الْمَنْصُورِ
 ابْنِ أَبِي عَامِرٍ بَقْرُطِبَةَ ، فَعَقَدَ لَخَزْرُونَ عَلَى سِجِّهَامَةَ ، فَأَقَامَ دَعْوَةَ هِشَامِ فِي نَوَاحِيهَا ،
 فَكَانَتْ أَوَّلَ دَعْوَةٍ أُقِيمَتْ لَهُمْ فِي أَمْصَارِ الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى ، وَأَقْرَضَ أَمْرَ مِثْلَ مَا
 مِنَ الْمَغْرِبِ أَجْمَعِ .

وَأَنْتَقَلَتِ الدَّوْلَةُ إِلَى مَغْرَاوَةَ وَبَنِي يَفْرَنْ وَعَقَدَ هِشَامُ (لِخَزْرُونَ) عَلَى سِجِّهَامَةَ
 وَأَعْمَالَهَا ، وَجَاءَهُ عَهْدُ الْخَلِيفَةِ بِذَلِكَ ، وَضَبَطَهَا وَقَامَ بِأَمْرِهَا إِلَى أَنْ هَلَكَ .

فولى أمر سجلماسة من بعده أبنه (وأثودين بن خزرون) إلى أن غلب زييرى
 ابن ميادة على المغرب، فعقد على سجلماسة (لحميد بن فضل) المكنى، وفرز وأثودين
 ابن خزرون عنها، ثم أعاده عبد الملك إلى سجلماسة بعد ذلك على فطبيعة يؤدبها إليه؛
 ثم استقل بها من أول سنة تسعين وثلاثمائة مقبلاً للدعوة الأموية بالأندلس، ورجع
 المعز بن زييرى بولاية المغرب عن المظفر بن أبي عامر، وأستثنى عليه ولاية سجلماسة
 لكونها بيد وأثودين؛ وأستفحل ملك وأثودين، وأستضاف إلى سجلماسة بعض
 أعمال المغرب ومات.

فقام بالأمر من بعده أبنه (مسعود بن وأثودين) إلى أن خرج (عبدالله بن ياسين)
 شيخ المرابطين، فقتل ابن وأثودين سنة خمس وأربعين وأربعمائة؛ ثم ملك سجلماسة
 بعد ذلك سنة ست وأربعين، ودخلت في ملك المرابطين لأول أمرهم، وأنقرضت
 دولة بنى خزرون منها، وتداولها من بعدهم من ملوك الموحدين، ثم ملوك بنى مرين
 على ما سياتى ذكره في الكلام على ملوك الغرب الأقصى إن شاء الله تعالى.



وأما ما أشتملت عليه هذه المملكة من المدن المشهورة .

(١)
 ففنها مدينة (أسفي) بفتح الهمزة ومدّها وكسر السين المهملة والفاء وياء مشناة تحت
 في آخرها . وهى مدينة واقعة في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد :
 حيث الطول سبع درج ، والعرض ثلاثون درجة . قال في "تقويم البلدان" :
 وهى من عمل دكالة ، وهى كورة عظيمة من أعمال مرّاكش ، قال ابن سعيد :
 وهى على جوف من البحر داخل في البر ، فى مستوي من الأرض . وهى فُرْضة مرّاكش ،
 وبينها وبين مرّاكش أربعة أيام ، وأرضها كثيرة الحجر ، وليس بها ماء إلا من

(١) ضبطها ياقوت فقال : بفتحين وكسر الفاء .

المطر ، وهاؤها النَّبَعُ غير عَدْب ، وبساتينها تُسْقَى على الدَّوَالِب ، وكُرُومها على باب البلد . قال الشيخ عبد الواحد : وهي تُشَبِّه حِمَاةً ودُونَهَا في القَدْر ، ولكن ليس لها نهر يَجْرَى .

ومنها (سَلَا) بفتح السين واللام وفي آخرها ألف ؛ وهي مدينة من الغرب الأقصى في آخر الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيثُ الطول سبعُ درجٍ وعشرُ دقائق [والعَرْضُ ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة] ^(١) وهي مدينة قديمة في غربها البحر المحيط وفي جنوبها نهر عظيم يَصُبُّ في البحر المحيط والبساتين والكروم . وبني « عبد المؤمن » أمامها من الشَّطِّ الجنوبي على النهر والبحر المحيط قصرا عظيما ، وبني خاصته حوله المنازل فصارت مدينة عظيمة سماها المَهْدِيَّة . وسَلَا متوسطة بين بلاد المغرب الأقصى قريبة من الأندلس ؛ وهي مدينة كثيرة الرِّخَاء ، ولها معاملة كبيرة يقال لها تَامَسْنَا ، كثيرة الزَّرْع والمرعى ، وفيها مُدُن كثيرة .

ومنها (لَمَطَة) بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء المهملة . وهي مدينة من الغرب الأقصى واقعة في آخر الإقليم الثاني قال بعضهم : حيثُ الطول سبعُ درجٍ وثلاثون دقيقة ، والعَرْضُ سبعٌ وعشرون درجة ؛ على ثلاث مراحل من البحر المحيط ؛ ولها نهر كبير ينزل من جبل في شرقها على مرحلتين منها ، يجري على جنوبها غرباً بميلة إلى الشمال حتى يصب في البحر المحيط .

ومنها (السُّوس) بضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية . وهي مدينة من أقصى المغرب في الإقليم الثاني قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمانُ درجٍ والعرض

(١) الزيادة عن "التقويم" نقلا عن ابن سعيد .

(٢) في باقوت "تامت" بناء منثاة من فوق في آخرها .

ستٌ وعشرون درجة وعشرون دقيقة ، وهى على طَرْفٍ من البرداخِلِ فى البحر أربعين ميلاً ، وفى جانبها الشَّمالى نهر يأتى من الشرق من جبل لَمْطَةَ .

ومنها (قَصْرُ عَبْدِ الْكَرِيمِ) وضبطه معروف . وهى مدينة من الغرب الأقصى فى أوائل الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمانٌ درَجٌ وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وهى مدينة على نهر من جهتها الشَّمالية ، وهو نهر كبير تصعد فيه المراكبُ من البحر المحيط ، وجانباه محفوظان بالبساتين والكروم . وكان قاعدة تلك الناحية قبلها مدينةً أسمها (البَصْرَةُ) يسكنها الأُداسَة ، فلما حُجِرَت هذه المدينة صارت هى القاعدة .

ومنها (طَنْجَةُ) بفتح الطاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء فى الآخر . وهى مدينة من أقصى المغرب واقعةٌ فى الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمان درج وإحدى وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى مدينة على بحر الزقاق ، واتساعُ البحر عندها ثلث مجرى ، فإذا شَرِقَ عنها أَسْعَ عن ذلك . وهى مدينة أزلية ، وأسجدت أهلها لهم مدينةً على ميل منها على ظهر جبل يمتنعوا بها ، والماء ينساق إليها فى قُنَى . قال فى "مسالك الأَبصار" : وكانت دار مُلِكٍ قديم . وهى التى كانت قاعدة تلك الجهات قبل الإسلام إلى حين فتح الأندلس ، وهى مَحَطُّ السُّفُنِ ، وهى كثيرة الفواكه ، لاسيما العنبُ والكُمثرى ، وأهلها مشهورون بقلّة العقل وضعف الرأى ، على أن منها أبو الحسن الصَّنْجَانِيّ الطَّنْجِيّ ، تَرَجِمَ له فى قلائد العقيان وأثنى عليه ، وأنشد له أبياتا منها :

وقد تَجَى الدُّرُوعُ من العوَالِي ، * ولا تَجَى من الحَدَقِ الدُّرُوعُ !

وكذلك أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الحَضْرَمِيّ القائل :

وضنُّوا بتوديع ، وجادُوا بتركه ، * وربَّ دواء مات منه عليل !

ومنها (دَرَعَة) بفتح الدال وسكون الراء وفتح العين المهملات وهاء في الآخر . وهي مدينة من جنوبي المغرب الأقصى واقعة في الإقليم الثاني . نقل في "تقويم البلدان" عن بعضهم أن طولها إحدى عشرة درجة وست دقائق ، وعرضها خمس وعشرون درجة وعشر دقائق . قال في "زهة المشتاق" : وهي قُرَى متصلة ، وعمارات متتارية ، وليست بمدينة يحوط بها سور ولا حفير . ولها نهر مشهور في غربها ينزل من ربوة حمراء عند جبل درن ، وتبئت عليه الحناء ، ويعوص ما يفضل منه بعد السقي في صحارى تلك البلاد .

ومنها (أَعْمَات) قال في "اللباب" : بفتح الألف وسكون الغين المعجمة وفتح الميم وألف وتاء مثناة من فوق في آخرها . وهي مدينة من الغرب الأقصى ، واقعة في الإقليم الثالث . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها إحدى عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وخمسون دقيقة . وهي مدينة قديمة في الجنوب بمئة إلى الشرق عن مرّاكش ، في مكان أفتح طيب التربة ، كثير النبات والعُشب ، والمياه تحترقه يمينا وشمالا . قال ابن سعيد : وهي التي كانت قاعدة ملك أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » قبل بناء مرّاكش . قال الإدريسي : وحولها جنات مُحَدَّقة ، وبساتين وأشجار ملتفة ، وهوؤها صحيح ، وفيها نهر ليس بالكبير ، يشق المدينة يأتيها من جنوبيها ويخرج من شماليها ، وربما جمد في الشتاء حتى يجتاز عليه الأطفل .

ومنها (تَادِلَا) قال في "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد : بفتح المثناة من فوق ثم ألف ودال مهملة مكسورة ولام ألف . ثم قال : وفي خط ابن سعيد تَادِلَة في آخرها هاء ، وهي مدينة بالمغرب الأقصى في جهة الجنوب في الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتا عشرة درجة ، والعرض ثلاثون درجة . قال

أبن سعيد : وهي مدينة بين جبال صنهاجة ، ويقال هي قاعدة صنهاجة ؛ وغيرها جبل درن ممتد إلى البحر المحيط ، وهي بين مرّا كُشّ وبين أعمال فاس ، ولها عمل جليل ، وأهلها بربر يعرفون بجراوة .

(١) ومنها (أزمور) قال الشيخ شعيب : بفتح الهمزة والزاي المعجمة وتشديد الميم ثم واو وراء مهمله في الآخر . وهي مدينة على ميلين من البحر أكثر سكّانها صنهاجة . ومنها (المزّمة) وهي فُرْضة ببرّ العُدوة تقابل فُرْضة المنكب من برّ الأندلس من ساحل غرناطة . والمزّمة في الشرق عن سبّنة بينهما مائتا ميل .

ومنها (مدينة باديس) وهي فُرْضة مشهورة من فُرْض عُمارة في الجنوب والشرق عن سبّنة بينهما نحو مائة ميل . قال في "تقويم البلدان" : وهي قياساً حيث الطول عشر درج وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة .

ومنها (أودغست) قال الشيخ عبدالواحد : بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال (٢) المهملة والغين المعجمة وسكون السين المهملة وفي آخرها تاء مثناة فوق . وهي مدينة في المغرب الأقصى في الجنوب في الصّحراء في الإقليم الثاني قال في "الأطوال" : حيث الطول ثمان درج وثمان دقائق . قال في "القانون" : والعرض ست وعشرون درجة . قال : وهي في برّاريّ السودان المغرب . قال في "العزيزي" : وهي جنوبيّ سجلماسة وبينهما ست وأربعون مرحلة في رمال ومقارز على مياه معروفة ؛ ولها أسواق جلييلة ؛ والسفن تصل إليها في البحر المحيط من كل بلد ؛ وسكّان هذه المدينة أخلاط من البربر المسامين ، والرياسة فيها لصنهاجة . قال في "العزيزي" : ولأودغست أعمال واسعة ؛ وهي شديدة الحرارة ، وأمطارها في الصيف ؛ ويزرعون

(١) ضبطها باقوت فقال : ثلاث ضمات ممواليات وتشديد الميم .

(٢) في المعجم وفتح الدال المعجمة .

عليها الحنطة ، والذرة ، والدُّخْن ، واللُّوبيا ، والكَرْسَنَة ، وبها النخل الكثير وليس فيها فاكهة سوى التين ، وبها شجرُ الجِجَارِ كُلُّهُ : من السَّنَط والمُقَل وغيرهما .

قلت : وقد ذكر في "مسالك الأبصار" عدّة مُدُن غير هذه غير مشهورة يطول ذكرها .

الجملة الثالثة

(في ذكر جبالها المشهورة . وهي عدّة جبال)

منها (جبل دَرِّين) بفتح الدال والراء المهملة ونون في الآخر . قال ابن سعيد : وهو جبل شاهق مشهور لا يزال عليه الثلج ، أوله عند البحر المحيط الغربي في أقصى المغرب ، وآخره من جهة الشرق على ثلاث مراحل من إسكندرية من الديار المصرية ، ويسمى طرفه الشرقي المذكور رأس أوثان ، فيكون امتداده نحو خمسين درجة ، وفي غربيّه بلاد تينملك من قبائل البربر ، وشرقيها بلاد هتانة من البربر أيضا وشرقيها بلاد مشكورة منهم ، وشرقيها بلاد المصامدة .

ومنها (جبل كزولة) وهي قبيلة من البربر . قال ابن سعيد : وأبتدأه من البحر المحيط الغربي ، ويمتد مشرقا إلى حيث الطول اثنتا عشرة درجة ، وموقعه بين الإقليم الثاني والإقليم الثالث ، وبه مدينة أسمها تاعجست .

ومنها (جبل عُمارَة) . بضم العين المعجمة وفتح الراء بعد الألف . وهي قبيلة من البربر أيضا ، وهو جبل ببر العُدوة فيه من الأمم ما لا يُحصيه إلا الله تعالى ، وهو رُكن على البحر الرومي ، فإن بحر الرُّقَاق إذا جاوز سبئة إلى الشرق آنعطف جنوبا إلى جبل عُمارَة المذكورة ، وهناك مدينة باديس المقدم ذكرها .

ومنها (جبل مَدْيُونَة) بفتح الميم وسكون الدال المهملة وضم المثناة من تحت وواو ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر : وهو جبل بئر العُدوة شرقي مدينة فاس ، يمتد إلى الجنوب حتى يتصل بجبال دَرَن ، ومَدْيُونَة قبيلة من البربر واطنون به .

ومنها (جبال مَدْعَرَة) وهي شرقي مَدْيُونَة ، ومعظم أهلها كُومِيَة - بضم الكاف وكسر الميم وفتح المثناة تحت وهاء في الآخر . وهي قبيلة من البربر ، منها « عبد المؤمن » أحد أصحاب المهدي بن تُوَمَرْت .

ومنها (جبل يُسْر) بضم الياء المثناة تحت وسكون السين المهملة . وهو جبل شرقي مَدْيُونَة أيضا منه ينبع نهر يُسْر المذكور .

ومنها (جبل ونشَرِيش) وهو جبل يتصل بجبل يُسْر من شرقيه ، وفيه تعمل البسط الفائقة ، ومنه ينبع نهر سَلَف المشهور . قال ابن سعيد : وهو نهر كبير يزيد عند نقص الأنهار كنبيل مصر .

الجملة الرابعة

(في ذكر أنهارها المشهورة ، وهي عدّة أنهار)

منها (نهر السُّوس الأقصى) وهو نهر يأتي من الجنوب والشرق من جبل يُعْرَف بجبل لَمْطَة ، ويجري إلى الشمال ، ويمر على مدينة السُّوس من شماليها ، ويُزرع على جانبيه قصب السكر والحِنَاء وغير ذلك كما يزرع في مصر ، ويجري حتى يصب في البحر المحيط الغربي .

ومنها (نهر سِيَهْمَاسَة) ^(١) التي ذكرها ، وهو نهر منبته من جنوبي سِيَهْمَاسَة بمسافة بعيدة ، ويمر من شرقيها ويجري حتى يصب في نهر مَلْوِيَة التي ذكره .

(١) صوابه كما في القطعة الأزهرية المتقدم ذكرها فانها تقدمت في القواعد .

ومنها (نهر ملوية) قال ابن سعيد : وهو نهر كبير مشهور في المغرب الأقصى ،
يصبُّ إليه نهر سبلماسة ويصيران نهرًا واحدًا ، يجري حتى يصب في بحر الروم
شرقي سبتة .

ومنها (نهر فاس) وهو نهر متوسط يشق مدينة فاس كما تقدم قال في "تقويم البلدان"
ومخرجه على نصف يوم من فاس ، يجري في مروج وأزاهر حتى يدخلها .

المقصد الثاني

(في ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، وبقولها ورياحينها ومواسمها،
ومعاملاتها، وصفات أهلها . وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، وبقولها، ورياحينها)

أما زرعها فعلى المطر كما تقدم في أفريقية .

وأما حبوبها ، ففيها من أنواع الحبوب : القمح ، والشعير ، والفلو ، والحمص ،
والعدس ، والدخن ، والسلت وغير ذلك . أما الأرز فإنه عندهم قليل ، بعضه يزرع
في بعض الأماكن من بلاد العدو ، وأكثره مجلوب إليهم من بلاد الفرنج . على أنهم
لا نهمة لهم في أكله ولا عناية به . وبها السمسم على قلة ، ولا يعتصر منه بالمغرب
شئيرج لاستغنائهم عنه بالزيت حتى مزورات الضعفاء وكذلك يعملون الحلوى
بالعسل والزيت ، وإنما يستعمل الشئيرج عندهم في الأور الطيبة .

وأما فواكهها ، فيها أنواع الفواكه المستطابة اللذيذة المختلفة الأنواع : بين
التفاح ، والعنب ، والتين ، والرمان ، والزيتون ، والسفرجل ، والتفاح على أصناف ،

(١)
وكذلك الكُمَّثْرَى ، وتسمى عندهم الإِنْجَاصَ كما بدمشق ، وبها المِشْمِش والتين ،
والبرقوق ، والقَرَّاصِيَا ، والخَوْخُ ؛ وغالب ذلك على عدة أنواع ؛ والتوت على قلة ،
والجوز ، واللوز . ولا يوجد بها الفُسْتَق والبُنْدُق إلا مجلوبا . وبها الأترج ،
واللِّيمون ، والليم ، والنارنج ، والزنبوع ، وهو المسمى بمصر والشام الجبَّاد . وبها
البطيخ الأصفر والأخضر وأسمه عندهم الدَّلَاع كما في سائر بلاد المغرب على قلة ،
والموجود منه غير مستطاب . وبها الحِيار ، والقنَّاء ، والألفت ، والباذنجان ، والقرع ،
والجزر ، واللوبياء ، والكُرْب ، والشَّمار ، والصَّعْتَر وسائر البقول . والمؤز موجود بها
في بعض المواضع نادراً ، والقُلْتاس لا يُزرع عندهم إلا للتفرج على عُروقه لا لأن
يؤكل ، وبها قصب السكر يجزأ بنى مَرزَغَان وبسلا كثير ، ويعصر ثم يعمل منه
القند ومن القند السكر على أنواع لاسيما بمرآكش ، فإنه يقال إن بها أربعين معصرة
للسكر ، وإن حمل حمار من القصب يساوي درهما من دراهمهم : وهو ثلث درهم من
الدرهم المصرية ؛ ويعمل منه المكرر الفائق ، ومع ذلك فليس لهم به اهتمام لا كتفاهم
عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم ، وميلهم إليه أكثر من السكر ، حتى يقال إنه
لا يستعمل السكر عندهم إلا الغرباء أو المرضى .
وأما رباحينها ، فبها الورد ، والبنتسج ، والياسمين ، والآس ، والترجس ،
والسوسن ، والبهار ، وغير ذلك .

الجملة الثانية

(في مواشها ، ووحوشها ، وطيورها)

أما مواشها ، ففيها من الدواب الخيل ، والبغال ، والحَمير ، والإبل ، والبقر ،
والغنم ؛ أما الجاموس فلا يوجد عندهم .

وأما الطير، فبها منه الإوز، والحمام، والدجاج ونحوها؛ والكركي عندهم كثير على
بُعد الدار، وأسمه عندهم الغرنوق، وهو صيد الملوكة هناك كما بمصر والشام.

وأما وحوشها، ففيها من أنواع الوحش الحمر، والبقرة، والنعام، والغزال، والبها
وغير ذلك.

الجملة الثالثة

(فيما تتعامل به من الدنانير، والدرهم، والأوزان، والمكاييل)

أما مثاقيل الذهب فأوزانها لا تختلف، وأما الدرهم فذكر في "مسالك الأبحار"
عن السلايحي: أن مُعاملتها درهمان: درهم كبير، ودرهم صغير؛ فالدرهم الكبير
قدر ثلث درهم من الدراهم الثقيرة بمصر والشام، والدرهم الصغير على النصف من
الدرهم الكبير يكون قدر سدس درهم ثقيرة بمصر والشام. وعند الإطلاق يُراد الدرهم
الصغير دون الدرهم الكبير إلا بمرأ كش وما جاورها، فإنه يُراد بالدرهم عند الإطلاق
الدرهم الكبير. قال: وكل مثقال ذهب عندهم يساوي ستين درهما كبارا، تكون
بعشرين درهما من دراهم الثقيرة بمصر.

وأما رطلها فعلى ما تقدم من رطل أفريقية؛ وهي كل رطل ست عشرة أوقية،
كل أوقية أحد وعشرون درهما من دراهمها.

وأما كيلها فأكثره الوسق (ويسمى الصخفة) وهو ستون صاعا بالصاع النبوي
على السواء.

الجملة الرابعة

(في ذكر أسعارها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن السلاجي أيضا عن سِعْر زمانه المتوسِّط في غالب الأوقات ، (وهي الدولة الناصرية محمد بن قلاوون وما قاربها) : أن سعر كل وَسْقٍ من الصمغ أربعون درهما من الدراهم الصغار : وهو ثلاثة عشر درهما وثلاث درهم من نُقْرة مصر ، والشعيردُون ذلك . وكلُّ رِطْلٍ لحمٍ بدرهم واحدٍ من الدراهم الصغار ، وكلُّ طائرٍ من الدجاج بثلاثة دراهم من الصغار ، وعلى نحو ذلك .

الجملة الخامسة

(في صفات أهلها في الجملة)

قد تقدّم أن معظم هذه المملكة في الإقليم الثالث . قال ابن سعيد : والإقليم الثالث هو صاحبُ سَفْكِ الدماء ، والحسَدِ ، والحِقْدِ ، والغِلِّ ، وما يتبع ذلك . ثم قال : وأنا أقول : إن الإقليم الثالث وإن كثرت فيه الأحكام الرّيجيّة على زعمهم ، فإن المغرب الأقصى من ذلك الحظّ الوافر ، لاسيّما في جهة السّوس وجبال دَرَن ، فإن قتل الإنسان عندهم كذبح العصفور ، قال وكَمْ قَتِيلٌ قَتِلَ عندهم على كراهة وهم بالقتل يمتخرون . ثم قال : إن الغالب على أهل المغرب الأقصى كثرة التنافس المفرط ، والمحاqqة ، وقلة التواضع ، والتهوُّر ، والمفاتنة .

أما البخل فإنما هو في أراذلهم ، بخلاف الأغنياء ، فإن في كثير منهم الساحة المفرطة والمفاخرة بإطعام الطعام والأعتناء بالمفضول والفاضل .

المقصود الثالث

(في ذكر ملوكها، وما يندرج تحت ذلك : من انتقال الملك من الموحدين إلى بنى مرين والتعريف بالسلطان أبي الحسن الذى أشار إليه في كلاهما في "التعريف". وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(ملوكها قبل الإسلام)

تد تقدم أن بلاد المغرب كلها كانت مع البربر، ثم غلبهم الروم الكيتم عليها ثم أفتحوا قرطاجنة وملكوها، ووقع بين البربر والروم فتن كثيرة كان آخرها أن وقع الصلح بينهم على أن تكون البلاد والمدن الساحلية للروم، والجبال والصحارى للبربر، ثم زاحم القرنج الروم في البلاد، وجاء الإسلام والمستولى عليها من ملوك القرنجة جرجيس ملكهم، وكان ملكه متصلاً من طرابلس إلى البحر المحيط، وكرسى ملكه بمدينة سيظلة، ومن يده آتت بها المسلمون عند الفتح .

الطبقة الثانية

(نواب الخلفاء من بنى أمية وبنى العباس)

كان كرسى المملكة بعد الفتح بأفريقية، وكان نواب الخلفاء يقيمون بها وينزلون القيروان، وكانوا يؤثرون على ما فتح من بلاد المغرب من تحت أيديهم . فبقى الأمر على ذلك أيام عبد الله بن أبي سرح، الذى آتت بها في خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ثم أيام معاوية بن صالح، ثم أيام عقبة بن نافع، ثم أيام أبي المهاجر، ثم أيام عقبة بن نافع ثانياً، ثم أيام زهير بن قيس، ثم أيام حسان بن النعمان، ثم أيام

موسى بن نصير، ثم أيام محمد بن يزيد، ثم أيام إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر، ثم أيام يزيد بن أبي مسلم، ثم أيام بشر بن صفوان الكلبي، ثم أيام عبيد بن عبد الرحمن السامي، ثم أيام عبد الله بن الحبحاب، ثم أيام كلثوم بن عياض، ثم أيام حنظلة بن صفوان، ثم أيام عبد الرحمن بن حبيب، ثم أيام حبيب بن عبد الرحمن، ثم أيام عبد الملك بن أبي الجعد، ثم أيام عبد الأعلى بن السمح المعافري، ثم أيام محمد بن الأشعث، ثم أيام الأغلب بن سالم، ثم أيام عمرو بن حفص، ثم أيام يزيد بن حاتم بن قبيصة، ثم أيام روح بن حاتم، ثم أيام الفضل بن روح، ثم أيام هرثمة بن أعين، ثم أيام محمد بن مقاتل، ثم أيام إبراهيم بن الأغلب، ممن تقدم ذكره في ملوك أفريقية في خلافة هارون الرشيد. وفي أيامه ظهرت دعوة الأدارسة الآتي ذكرهم بعد هذه الطبقة. وسيأتي بسط القول فيهم بعض البسط في الكلام على مكاتبة صاحب تونس.

الطبقة الثالثة

الأدارسة

(بنو إدريس الأكبر، بن حسن المثلث، بن حسن المثنى، بن الحسن

السيط، بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم)

وكان مبدأ أمرهم أنه لما خرج حسين بن علي بن حسن المثلث بمكة سنة سبعين ومائة أيام الهادي واجتمع عليه قرابته وفيهم عمه إدريس وقيل الحسين، فإدريس ولحق بالمغرب، وصار إلى مدينة وكيلى من المغرب الأقصى، فاجتمع إليه قبائل البربر وبأيعوه وفتح أكثر البلاد، وبقي حتى مات سنة خمس وسبعين ومائة، وأقاموا الدعوة بعده لابنه إدريس الأصغر.

وكان أبوه قد مات وترك أمه حاملا به فكفلوه حتى شب ، فبايعوه سنة ثمانٍ
وثمانين ومائة ، وهو ابن إحدى عشرة سنة ، وأفتح جميع بلاد المغرب وكثر عسكره ،
وضاقت عليهم وإبلى فاخطط لهم مدينة فاس سنة ثنتين وتسعين ومائة على ما تقدم
وأنقل إليها ، وأستقام له الأمر وأستولى على أكثر بلاد البربر ، وأقطع دعوة
العباسيين ، ومات سنة ثلاث عشرة ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه (محمد بن إدريس) ومات سنة إحدى وعشرين ومائتين
بعد أن أستخلف في مرضه ولده (عليشا بن محمد) وهو ابن تسع سنين ، ومات سنة
أربع وثلاثين ومائتين لثلاث عشرة سنة من ولايته .

وكان قد عهد لأخيه (يحيى بن محمد) فقام بالأمر بعده ومات .

فولى مكانه ابنه (يحيى بن يحيى) ثم مات فاستدعوا ابن عمه (علي بن عمر) بن
إدريس الأصغر فبايعوه بفاس ، وأستولى على جميع أعمال المغرب ، وقتل سنة ثنتين
وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (يحيى بن إدريس) بن عمر ، بن إدريس الأصغر ، وملك جميع
المغرب وخطب له على منابره ، وبقي حتى وافته جيوش عبيدالله المهدي الفاطمي ،
فغلبوه على ملكه وخلع نفسه من الأمر وأنفذ بيعته إلى المهدي سنة خمس وثلاثمائة
وأستقر عاملا للمهدي على فاس وعملها خاصة ، وبقية المغرب بيد موسى بن أبي
العافية كما سيأتي .

الطبقة الرابعة

(ملوك بني أبي العافية من مكناسة)

كانت مكناسة من قبائل البربر لأول الفتح بنواحي (أراً^(١)) من أوساط المغرب الأقصى والأوسط وكانوا يرجعون في رياستهم إلى بني أبي باسل بن أبي الضحاك وكانت الرياسة في المائة الثالثة لمصالة - بن حيوس ، بن منازل ، بن أبي الضحاك ، ابن يزول ، بن تافرسين ، بن فراديس ، بن ونيف ، بن مكناس ، بن ورصطف ، بن يحيى ، بن تمصيت ، بن صرييس ، بن رجيك ، بن مادغش ، بن بربر ، وموسى بن أبي العافية ، بن أبي باسل ، بن أبي الضحاك المتقدم ذكره .

ولما استولى عبيد الله المهدي على المغرب صار مصالة بن حيوس من أكبر قواده وولاه مدينة تاهرت والغرب الأوسط .

ولما زحف مصالة إلى المغرب الأقصى سنة خمس وثلاثمائة واستولى على ناس ثم على سجلماسة واستنزل يحيى بن إدريس بناس إلى طاعة عبيد الله المهدي وأبقاه أميراً على ناس على ما تقدم ، عقد لابن عمه موسى بن أبي العافية أمير مكناسة على سائر ضواحي المغرب وأمصاره مضافة إلى عمله من قبل : نسول ونازا وماعهما وقفل مصالة إلى القيروان .

فقام موسى بن أبي العافية بأمر المغرب ، وعاود مصالة غزو المغرب سنة تسع وثلاثمائة : أغراه موسى بن أبي العافية يحيى بن إدريس ، فقبض عليه وأخذ ماله وطرده ، فلحق بني عمه بالبصرة والريف ، وولى مصالة مكانه على ناس ريجاناً الكامي وقفل إلى القيروان فمات ، وعظم ملك موسى بن أبي العافية بالمغرب .

(١) لعله بنواحي نزا وغيرها من أوساط الخ وفي "العبر ج ٦ ص ١٣٤" بنواحي نازا ونسول والكل يرجعون الخ .

ثم نار بناس سنة ثلاث عشرة وثلثمائة (الحسن بن محمد) بن القاسم ، بن إدريس الملقب بالحجّام ، ودخل فاس على حين غفلة من أهلها وقتل ریحاناً واليها ، وأجتمع الناس على بيعته ، ثم خرج لقتال ابن أبي العافية وآتقوا ، فهلك جماعة من مكّاسة ثم كانت الغلبة لهم . ورجع الحسن مهزوماً إلى فاس فغدر به عامله على عدوة القرويين : حامد بن حمدان الهمداني ، فقبض عليه واعتقله وأمكن ابن أبي العافية من البلد ، وزحف إلى عدوة الأندلسيين فملكها وقتل عاملها ، ووئى مكانه أخاه محمداً ، وأستولى ابن أبي العافية على فاس وجميع المغرب وأجلى الأدارسة عنه .

ثم أستخلف على المغرب الأقصى ابنه (مدين) وأنزله بعدوة القرويين ، وأستعمل على عدوة الأندلسيين طوال بن أبي زيد ، وعزل عنه محمد بن ثعلبة . ونهض إلى تلمسان سنة تسع عشرة وثلثمائة فملكها ، وغلب عليها صاحبها الحسن بن أبي العيش ابن عيسى ، بن إدريس ، بن محمد ، بن سليمان : من عقب سليمان بن عبد الله : أحمى إدريس الأكبر الداخل إلى المغرب بعده ، ورجع بعد فتحها إلى فاس وخرج عن طاعة العبيدين ، وخطب للناصر الأموي خليفة الأندلس على منابر عمّاله ، فبعث عبيد الله المهدي قائده حميداً المكّاسي ابن أحمى مصالمة إلى فاس ، ففرز عنها مدين بن موسى بن أبي العافية إلى أبيه فدخلها حميد ، ثم أستعمل عليها حامد بن حمدان ورجع إلى أفريقية ، وقد دوخ المغرب .

ثم أنتقض أهل المغرب على العبيدين بعد مهلك عبيد الله ، وثار (أحمد بن بكر) بن عبد الرحمن بن سهل الجنداحي على حامد بن حمدان عامل فاس ، فقتله وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافية ، فبعث به إلى الناصر الأموي بالأندلس وأستولى على المغرب ، وزحف (ميسور الخصي) قائد أبي القاسم بن عبيد الله المهدي سنة ثلاث

(١) كذا في القطعة الأزهرية أيضاً وفي العبرج ٦ ص ١٣٥ طول بن أبي زيد وهو تصحيف .

وعشرين وثلاثمائة إلى فاس وحاصرها فأحجم ابن أبي العافية عن لقاءه ، وأستزل ميسور
أحمد بن بكر عاملها وقبض عليه وبعث به إلى المهديّة .

ثم خرج أهل فاس عن طاعته ، وقدموا على أنفسهم (حسن بن قاسم اللواتي) ؛
ثم حاصروهم ميسور فدخلوا تحت طاعته ، وأشترطوا على أنفسهم الإتاوة ، فقَبِلَ
ميسور ذلك منهم ، وأقر حسن بن قاسم على ولايته بفاس ، وأرتحل إلى حرب ابن
أبي العافية ، فكانت بينهم حروب آخردا أن ظهر ميسور على ابن أبي العافية ،
وأجلاه عن أعمال المغرب إلى بلاد الصحراء ؛ ثم قبض ميسور على القيروان سنة
أربع وعشرين وثلاثمائة . ورجع موسى بن أبي العافية من الصحراء إلى أعماله
بالمغرب ، وزحف إلى تلبسان ، ففر عنها أبو العيش ولحق بتكور ، وأستفحل أمر
ابن أبي العافية بالمغرب الأفضى وأتصل عمله بعمل محمد بن خزر ملك مغراوة
وصاحب المغرب الأوسط ، وبثوا دعوة الأموية في أعمالها ، وبعث ابنه مدين إلى
منازلة فاس فحاصرها ، وهلك موسى في خلال ذلك سنة سبع وعشرين وثلاثمائة .

وقام ابنه (مدين) بأمره ، وعقد له الناصر الأموي على أعمال أبيه بالمغرب ؛ ثم قسم
أعماله بينه وبين أخويه البوري وأبي منقذ ؛ وأجاز البوري إلى الناصر بالأندلس
سنة خمس وثلاثين وثلاثمائة فعقد له ثم هلك سنة خمس وأربعين وثلاثمائة وهو محاصر
لأخيه مدين بفاس ، فعقد الناصر لابنه (منصور) على عمله .

ثم توفى مدين ، فعقد الناصر لأخيه أبي منقذ على عمله ؛ ثم غلب مغراوة على فاس
وأعمالها ، وأستفحل أمرهم بالمغرب ، وأزاحوا مكثاسة عن ضواحيه وأعماله ؛ وأجاز
إسماعيل بن البوري ومحمد بن عبدالله بن مدين إلى الأندلس ، فترلا بها إلى أن أجازوا
مع واضح أيام المنصور بن أبي عامر عند ما خرج زيري بن عطية عن طاعتهم سنة
ست وثمانين وثلاثمائة .

الطبقة الخامسة

(بنو زيري بن عطية من مغراوة من البربر)

وهو زيري بن عطية، بن عبدالله، بن خزرا، بن محمد، بن خزرا، بن حفص،
 ابن صولات، بن رومان، من بطون زناتة من البربر. وكان أولية أمره أن زيري
 هذا كان أمير بني خزرا في وقته، وأتمت إليه رياستهم وإمارتهم في البداوة.
 ولما غلب بلكين بن زيري الصنهاجي صاحب أفريقية وقومه صنهاجة على المغرب
 الأوسط سنة تسع وستين وثلاثمائة وأجلوا عنه مغراوة الذين كانوا به من تقدم السنين
 وصار المغرب الأوسط جميعه لصنهاجة، لحق مغراوة فيمن بقي من بني خزرا، بالمغرب
 الأقصى، وأمرأهم يومئذ محمد بن الخير، ومقاتل زيري أبنا عطية بن عبدالله،
 وخزرون بن قلنول، ووصلوا إلى سبتة وأميرهم المنصور بن أبي عامر حاجب (١).

وبعث العزيز بن زرار العبدي من مصر الحسن بن كئون من الأدارسة لاسترجاع
 ملكه بالمغرب، فبعث المنصور لخر به أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبي عامر
 الملقب بعسكلاجة سنة خمس وسبعين وثلاثمائة، وأنحاش إليه زيري بن عطية ومن
 معه من بني خزرا في جموع مغراوة، وزحفوا إلى الحسن بن كئون حتى ألبسوه إلى
 الطاعة، ثم أنصرف أبو الحكم بن أبي عامر إلى الأندلس، فعقد المنصور بن
 أبي عامر على المغرب الأقصى للوزير (حسين بن أحمد) بن عبد الوارد السلمي،
 وأنفذه إليه سنة ست وسبعين وثلاثمائة، وأوصاه بملوك مغراوة خصوصا زيري،
 فسار الحسن بن أحمد حتى نزل بناس وضبط أعمال المغرب. ومات مقاتل بن
 عطية سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة، وأستقل أخوه زيري بن عطية برياسة مغراوة،
 وبقي الحسن بن أحمد إلى أن قتل في بعض الحروب سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة،
 (١) لله حاجب هشام بن عبد الملك خليفة الأندلس كاسياتي وهو كذلك في القطعة الأزهرية على تصليح.

وبلغ الخبر المنصور بن أبي عامر فعقد على المغرب (لزيري بن عطية) المذكور، وكتب إليه بعهدته وأمره بضبط المغرب، فاستفحل ملكه وغلّب على تلمسان. فملكها من يد أبي البهار الصنهاجي، وبعث بالفتح إلى المنصور بن أبي عامر بخد له العهد، وأختط مدينة (وجدة) سنة أربع وثمانين، وأنزل بها عساكره.

ثم فسد ما بين المنصور بن أبي عامر وبين زيري بن عطية، فعقد المنصور لمولاه واضح على المغرب، وعلى حرب زيري بن عطية، وجهزه إليه في عساكره؛ ثم أتبعه المنصور ابنه المظفر عبد الملك فأجتمعا على زيري بن عطية، ودارت بينهم الحرب فكانت الهزيمة على زيري وجرح في المعركة وفتّر إلى فاس فأمتنع عليه أهلها، فالتحق بالصحراء بجريحا، وكتب عبد الملك بن المنصور بالفتح إلى أبيه فاستبشر به وكتب إلى ابنه (عبد الملك) بعهدته على المغرب.

وكان زيري بن عطية لما فتر إلى الصحراء صرف وجهه إلى حرب صنهاجة بالمغرب الأوسط فقصده وفتح تاهرت وتلمسان وأعمالها، وأقام الدعوة فيها لهشام ابن عبد الملك خليفة الأندلس وحاجبه المنصور من بعده، وبقي على ذلك حتى مات سنة إحدى وتسعين وثلثمائة.

وبويع من بعده ابنه (المعز بن زيري) بجري على سنن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصور من بعده؛ ومات المنصور في خلال ذلك.

وقام بأمره من بعده ابنه المظفر (عبد الملك) وبعث المعز بن زيري يرغب إلى المظفر في عمل فاس والمغرب الأقصى فأجابته إلى ذلك، وكتب له عهدته بذلك، خلا سبيلها سنة فإنها كانت بيد خزرون^(١)، وبقي المعز في ولايته إلى أن هلك سنة سبع عشرة وأربعائة.

(١) الذي في العبرج ٧ ص ٣٤ أنها كانت بيد واندين بن خزرون.

وولى من بعده ابن عمه (حمّامة) بن المعز بن عطية وأستفحل مُلكه؛ ثم نازعه الأمير أبو الكمال (تميم بن زيرى) بن يعلى اليفرنى سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وأستقلّ بملك المغرب وبقى حتى مات سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة .

وولى من بعده ابنه (دُوناس) المعروف بأبى العَطَاف ، وأستولى على فاس وسائر عمل أبيه ، فاستقامت دولته ، وأحتفل بعمة فاس وأدار السور على أرباضها ، وبنى بها المصانع ، والحمامات ، والفنادق ، وبقى حتى مات سنة إحدى وخمسين وأربعمائة .

وولى من بعده ابنه (الفتوح بن دُوناس) ونازعه أخوه الأصغر عجيصة وأستولى على عدوة القرويين من فاس ، وبقى الفتوح بعدة الأندلسيين ، وأفترق أمرهما ووقعت الحرب بينهما ، وأبنتى الفتوح بعدة الأندلسيين (باب الفتوح) المعروف به إلى الآن ، وأبنتى عجيصة بعدة القرويين (باب الجيسة) المعروف به إلى الآن ، وحذفت العين منه لكثرة دَوْرانه على الألسنة ، وبقى الأمر على ذلك حتى ظفر الفتوح بأخيه عجيصة ، وقتله سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ؛ ودهم المغرب على إثر ذلك مادّهم من أمر المرابطين من لمتونته ؛ وخشي الفتوح عاقبة أمرهم ، فرحل عن فاس وتركها .

وزحف صاحبُ التلعة (أبيكين) بن محمد بن حمّاد إلى المغرب سنة أربع وخمسين ، فدخل فاس وأسّره من بعض أشرافهم على الطائفة ورجع إلى عمله ؛ وولى على المغرب بعد الفتوح (معتصر) بن حمّاد ، بن معتصر ، بن المعز ، بن زيرى .

وزحف (يوسف بن تاشفين) إلى فاس فملكها صلحا سنة خمس وخمسين وأربعمائة ونلت عليها إمامه ، وأرتحل إلى عمارة نخالفة معتصر إلى فاس وملكها

وقتل العامل ومن معه من لَمْتُونَةَ ، وبلغ الخبرُ يوسفَ بن تاشفين فأرسل العساكر إلى فاس وحاصرها ، وخرج منتصرا للقضاء عساكره ، فكانت الدائرةُ عليه وقُبل في المعركة سنة ستين وأربعمائة .

وباع أهل فاس من بعده ابنه (تميم بن معتصر) فكانت أيامه أيامَ حِصَارٍ وفتنةٍ وشدةٍ وغلاء .

ولما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر عُمارَةَ سنة ثنتين وستين وأربعمائة قصد فاس لحاصرها أياماً ثم أفتتحها عنوةً وقتل بها نحو ثلاثة آلاف من مغراوة وبنى يفرن وميكناسة وقبائل زنانة وهلك تميم بن مُعْتَصِرٍ في جملتهم . وأمر يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار التي كانت فاصلةً بين العُدوتين وصيرهما مصرا واحداً وأدار عليهما سوراً واحداً ، وفرَّ مَنْ خَلَصَ من القتل من مغراوة من فاس إلى تلمسان^(١) ، وأنقرض ملكهم من الغرب الأقصى ، وتصاريف الأمور بيد الله تعالى .

الطبقة السادسة

(المرابطون من الملتئمين من البربر)

كان الملتئمون من البربر من صنهاجة قبل الفتح الإسلامي متوطنين في القفار وراء رمال الصحراء : ما بين بلاد البربر وبلاد السودان ، في جملة قبائل صنهاجة على دين المجوسية ، قد اتخذوا الأثام شامرا يميز بينهم وبين غيرهم من الأمم ، والرياسة فيهم يومئذٍ للممتونة ، ولم يبالوا على ذلك إلى أن كان فتح الأندلس واستمر ملكهم أيام عبد الرحمن أول خلفاء بني أمية بالأندلس .

(١) في الاصل من تلمسان إلى فاس وهو خطأ من الناسخ والصحيح من "العبرج ٧ ص ٣٦"

قال ابن زُرَّع : أول من ملك الصحراء من لمتونة (يتلوان) وكان يركب في ألف نجيب وتوفي سنة اثنتين وعشرين ومائتين .

وملك بعده (يُلْتان) نقام بأمرهم وتُوفِّي سنة سبع وثمانين ومائتين .

وقام بأمرهم بعده ابنه (تميم) إلى سنة ست وثلاثمائة وقتله صنهاجة .

ثم أفرق أمرهم بعد تميم مائة وعشرين سنة إلى أن قام فيهم (أبو عبد الله بن نيفأوت) المعروف بتادشت اللمتوني ، وحجَّ ومات لثلاثة أعوام من رياسته عليهم .

وقام بأمرهم صهره (يحيى بن إبراهيم) فحج في سني أربعين وأربعمائة ، وعاد وصحبته عبدالله بن ياسين الجزولي ليعلمهم الدين ، فلما مات يحيى بن إبراهيم أطرحوا عبدالله بن ياسين وأستعصوا عليه وتركوا الأخذ بقوله فاعتزلم ، ثم أجمع عليه رجال من لمتونة فخرج فيهم وقاتل من أستعصى عليه منهم حتى أنابوا إلى الحق وسمَّاهم " المرابطين " وجعل أمرهم في الحرب إلى الأمير يحيى بن عمر ، بن واركوت ، بن ورثطق ، بن المنصور ، بن مرصالة ، بن منصور ، بن فرصالة ، بن أميت ، بن راتمال ، بن تلميت ، وهو لمتونة ، فافتتحوا درعة وحمالة ، وأستعملوا عليها منهم ، وعادوا إلى الصحراء ، وهلك يحيى بن عمر سنة سبع وأربعين وأربعمائة .

وولى مكانه أخوه (أبو بكر بن عمر) ثم أفتتحوا بلاد السوس سنة ثمان وأربعين ثم مدينة أغمات سنة تسع وأربعين ، ثم بلاد المصامدة وجبال درن سنة خمسين ، ثم أستشهد عبدالله بن ياسين في بعض الغزوات سنة خمسين ، وأستمر أبو بكر بن عمر في إمارة قومه ، وأفتتح مدينة آوآة سنة ثنتين وخمسين ، ثم ارتحل إلى الصحراء لجهاد السودان وأستعمل على المغرب ابن عمه (يوسف بن تاشفين) بن إبراهيم ابن واركوت ، فسار يوسف في عسكره من المرابطين ودوخ أقطار المغرب ، وأختط مدينة مراكش سنة أربع وخمسين .

ثم أتت جبال زَنَاتَةَ بالمغرب من أيديهم؛ ثم أفتتح ناس صلحا سنة خمس وخمسين
ثم استعبدت بعد فتحها؛ ثم فتحها عنوة سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وأمر بهدم
الأسوار التي كانت فاصلة بين عدوتَي القرويين والأندلسيين وصيرهما مصرا واحدا؛
ثم أفتتح بعد ذلك مدينة تلمسان وأستولى على الغرب الأقصى والغرب الأوسط؛
ثم صار إلى الأندلس وأستولى على أكثر ممالكها كما سيأتي في ذكر مكتابة صاحب
الأندلس؛ ثم توفي يوسف بن تاشفين على رأس المائة الخامسة .

وقام بالأمر بعده ابنه (علي بن يوسف) ناستولى على ما كان بيد أبيه من
العدوتين، وسار فيهم بأحسن السيرة . ولأربع عشرة سنة من ولايته كان ظهور
المهدي بن تومرت صاحب دولة الموحدين . ومات علي بن يوسف سنة سبع
وثلاثين، وقد ضعفت كلمة المرابطين بالأندلس لظهور الموحدين .

وقام بالأمر بعده ولده (تاشفين بن علي) وأخذ بطاعته وبيعه أهل العدوتين؛
وقد استنحل أمر الموحدين وعظم شأنهم، ونزل تلمسان فقصده الموحدون،
ففر إلى وهران وأتبعه الموحدون، ففقد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وأستولى
الموحدون على الغرب الأوسط .

ثم بويع بمراكش (إبراهيم بن تاشفين)، بن علي، بن يوسف بن تاشفين،
فألوه عاجزا فخلوه .

وولى مكانه عمه (إسحاق بن علي) بن يوسف بن تاشفين، وقد ملك الموحدون
جميع بلاد المغرب وقصدوه في مراكش، فخرج إليهم في خاصته فقتلوه، وأجاز
عبد المؤمن والموحدون إلى الأندلس، فهاكوه سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، وفر
أمرء المرابطين في كل وجه .

الطبقة السابعة

(ملوك الموحدين)

كان أول أمرهم أن المهديَّ محمد بن تومرت، كان إماما متضلعا بالعلوم، قد حجَّ (١) ودخل العراق واجتمع بأئمنه من العلماء والمُطَّار، كالغزالي [واليكيا الهراسي] وغيرهما، وأخذ بمذهب الأشعرية أهل السنة، ورجع إلى الغرب وأهله يومئذ على مذهب أهل الظاهر في منع التأويل، فاجتمع إليه قبائل المصامدة من البربر وجعل يث فيهم عقائد الأشعرية، وينهى عن الجمود على الظاهر، وسعى أتباعه الموحدين، تعريضا بتكفير القائلين بالتجسيم الذي يؤدي إليه الوقوف على الظاهر.

وكان الكهان يتحدّثون بظهور دولة بالمغرب لأمة من البربر، وصرّفوا القول في ذلك إليه؛ ودعا المصامدة إلى بيعته على التوحيد وقاتل المجسمين سنة خمس عشرة وخمسمائة فبايعوه على ذلك.

ولما كملت بيعته لقبوه المهدي، وكان قبل ذلك يلقب الإمام، وأخذوا في قتال المرابطين من أمتونة حتى استقاموا على الطاعة. وتوفي المهدي سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة.

وقام بالأمر بعده (عبد المؤمن) بن عليّ بعهدده إليه. فكان من أمره ما تقدّم من استيلائه على العدوتين وانتراض ملك المرابطين بهما، وكان ذلك من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين. ثم صرف همه إلى بجاية وأفريقية فافتحهما، واستخلص المهديّة والبلاد الساحلية التي كانت النصارى قد استولوا عليها من أيديهم واستولوا على سائر بلاد أفريقية، وعاد إلى الغرب في سنة ست وخمسين وخمسمائة. وتوفي بسلا من الغرب الأقصى في جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسين.

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عن تاريخ ابن الأثير وهو كذلك في القطعة الازهرية.

وبويع بعده أبنه أبو يعقوب (يوسف بن عبد المؤمن) فاستولى على ما كان بيد أبيه من العدوتين وأفرقيّة ، وأشتتل بإصلاح الممالك وجهاد العدو، وأجاز إلى الأندلس لجهاد النصارى، وقُتل في بعض غزواته فيه بسهم أصابه . وقيل مريض فمات سنة ثمانين وخمسة .

وبُويع أبنه (يعقوب بن يوسف) بإشبيلية عقب وفاته وتلقب بالمنصور، فاستولى على ما كان بيد أبيه من الممالك إلى الأندلس، وكان له مع العدو وقائع، ومريض بالأندلس فمات سنة خمس وتسعين وخمسة .

وبُويع أبنه (محمد) وليّ عهده وتلقب الناصر لدين الله، ورجع إلى بلاد المغرب . وفي أيامه ثار (أبن غانية) على أفرقيّة وتغلب عليها، ووئى أبا محمد ابن الشيخ أبي حفص عليها، فاستقرت بها قدم بنييه إلى الآن ، وأجاز إلى الأندلس ونزل إشبيلية، والتقى مع العدو في صفر سنة تسع وستائة، وأبتي المسلمون في ذلك اليوم ورجع إلى مرّاكش فمات في شعبان من السنة المذكورة .

وبُويع أبنه (يوسف بن محمد) سنة إحدى عشرة وستائة، وهو ابن ست عشرة سنة، وتلقب المستنصر بالله، وتأخر أبو محمد ابن الشيخ أبي حفص عن بيعته لصغر سنه، وغلب عليه مشيخة الموحدين فقاموا بأمره . وبقي المستنصر حتى مات يوم الأضحى سنة ست وعشرين وستائة .^(١)

وبُويع بعده أبو محمد (عبد الواحد بن يوسف) بن عبد المؤمن، وهو أخو المنصور ويُعرف (بالخلوخ) . وكان الوالي المرسيّة من الأندلس أبو محمد عبد الله بن يعقوب ابن المنصور، بن يوسف، بن عبد المؤمن . فثار بالأندلس ودعا لنفسه وتلقب

(١) في العبرج ٦ ص ٢٥١ يوم الاضحى من سنة عشرين وستائة وهو الصواب .

(العادل). واتصل الخبر بمراکش فاضطرب الموحدون على (المخلوع) وبعثوا ببيعتهم إلى العادل بالأندلس، وبادر العادل إلى مراکش فدخلها وبقي حتى قُتل بها أيام الفطر سنة أربع وعشرين وستمائة .

وكان أخوه (إدریس بن المنصور) بإشبيلية من الأندلس فدعا لنفسه وبويع وبعث الموحدون ببيعتهم إليه، ثم قصد مراکش فهلك في طريقه بوادي أم ربيع مُفتتح سنة ثلاثين وستمائة، وتغلب ابن هود على سبته .

وبويع بعده ابنه (الأمون عبد الواحد بن إدریس) فلقب الرشيد، ودخل إلى مراکش فبايعوه، وبقي حتى توفى سنة أربعين وستمائة .

وبويع بعده أخوه (أبو الحسن على السعيد) ولقب المعتضد بالله، وقام بالأمر ثم سار إلى تلمسان فكان بها مهلكه على يد بني عبدالواد في صفر سنة ست وأربعين وستمائة، وكان فيها استيلاء النصارى على إشبيلية .

ثم اجتمع الموحدون على بيعة (أبي حفص) عمر بن أبي إسحاق بن يوسف، ابن عبد المؤمن، فبايعوه ولقب (المرتضى) وكان بسلا فقدم إلى مراکش . وفي أيامه استولى أبو يحيى بن عبد الحق المريني جد السلطان أبي الحسن على مدينة فاس سنة سبع وأربعين وستمائة، وأستبد العزفي بسبته .

ثم انتقص على المرتضى قائد حروبه (أبو العلاء) الملقب بأبي دبوس، بن أبي عبد الله محمد، بن أبي حفص، بن عبد المؤمن، ففر منه واجتمع عليه جموع من الموحدين وقصد مراکش وبها المرتضى فغلبه عليها، وألتقيا وفر المرتضى إلى أزمور

(١) لقبه في العبر بالأمون .

(٢) صوابه ابنه عبد الواحد فإن الأمون لقب أبيه إدریس كما في العبر وغيره .

فقبض عليه واليها وأعتقله إلى أن ورد أمر [أبي دبوس] ^(١) بقتله فقتله ، وأستقلَّ أبو دبوس بالأمر وتلقَّب (الوائقي بالله) والمعتمد على الله .

ثم جمع يعقوبُ بنُ عبد الحق وقصد مرَّ أكش فخرج إليه أبو دبوس ، فكانت الهزيمة على أبي دبوس ، ففرَّ هارباً فأُدرك وقُتِل ، ودخل يعقوب بن عبد الحق مرَّ أكش وملكها سنة ثمانٍ وستين وستمائة ، وفرَّ مَشِيخَةً الموحدين إلى معاقلهم بعد أن كانوا بايعوا عبد الواحد بن أبي دبوس ولقبوه المعتصم ، فأقام خمسة أيام ، وخرج في جملتهم ، وأنقرض أمر بني عبد المؤمن ، ولم يبق للموحدين ملك إلا بأفريقية لبني أبي حفص على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثامنة

(٢)

(ملوك بني عبد الحق من بني مَرِين ، القائمون بها إلى الآن)

وهو عبد الحق بن محيُو ، بن أبي بكر ، بن حمامة ، بن محمد ، بن ورزيز ، بن فكوس ، بن كوماط ، بن مَرِين ، بن ورتاجن ، بن ماخوخ ، بن جديج ، بن فاتن ، ابن بدر ، بن نجفت ، بن عبدالله ، بن ورتليص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رجيك ، ابن واشين ، بن بصلتن ، بن مشد ، بن إيك ، بن ورسيك ، بن أديدت ، بن جانا ، وهوزناتة .

كانت منازل بني مَرِين مابين فيكيك إلى صا وملويه ، وكانت الرياسة فيهم (لمحمد) ابن ورزيز بن فكوس .

(١) في الاصل المرتضى وهو خطأ .

(٢) هو بوزن أميركا ضبطه السيد مرتضى في كتابه "تاج العروس" في مادة م ر ن .

ولما هلك محمد قام بأمره من بعده ابنه (حمامة) ثم من بعده أخوه (عسكر) ولما هلك قام برياسته فيهم ابنه (الخضب) فلم يزل أميراً عليهم إلى أن قُتل في حرب الموحدين في سنة أربعين وخمسة.

وقام بأمرهم من بعده (أبو بكر ابن عمه حمامة بن محمد) وبقي حتى هلك .
فقام من بعده ابنه (محيو) ولم يزل حتى أصابته جراحة في بعض الحروب ، وهو في عداد المنصور بن عبد المؤمن ، هلك منها بعد مرجه إلى الزاب سنة إحدى وتسعين وخمسة .

وقام برياسته ابنه (عبد الحق بن محيو) وكان أكبر أولاده ، وهو الذي تنسب إليه مالوك فاس الآن . فأحسن السير في إمارته إلى أن كانت أيام المستنصر يوسف ابن الناصر : خامس خلفاء بني عبد المؤمن فنارت الفتنة بينه وبين بني مرين ، وكانت بينهم حروب هلك في بعضها عبد الحق بن محيو .

ونصب بنو مرين بعده ابنه أباسعيد (عثمان بن عبد الحق) وشهرته بينهم ادغال ، ومعناه بلغتهم الأعور ، وقوى سلطانه وغلب على ضواحي المغرب ، وضرب الإتاوة عليهم وتابعه أكثر القبائل ، وفرض على أمصار المغرب مثل فاس وتازا وغيرها ضريبة معلومة في كل سنة على أن يكف الغارة عنهم . ولم يزل على ذلك إلى أن قتله عليج من علوجه سنة سبع وثلاثين وستائة .

وقام بأمر بنو مرين من بعده أخوه (محمد بن عبد الحق) بخرى على سنن أخيه في الاستيلاء على بلاد المغرب ، وضرب الإتاوة على بلاده ومدنه إلى أن كانت أيام السعيد بن المأمون من بني عبد المؤمن ، فجهز عساكر الموحدين لقتال بني مرين ، فخرجوا إليهم في جيش كثيف في سنة ثنتين وأربعين وستائة . ودارت الحرب بينهم فكانت الهزيمة على بني مرين ، وقتل محمد بن عبد الحق .

(١)
وقام بأمرهم من بعده أبْنُه أبو يحيى (زكريا بن عبد الحق) وقسم جبايته ببلاد المغرب في عشائر بني مرين، ودارت الحرب بينهم وبين الموحدين، إلى أن مات السعيد بن المأمون من بني عبد المؤمن، وانتقل الأمر بعده إلى أبْنِه عبد الله، فضعت دولة بني عبد المؤمن. واستولى (أبو يحيى) بن عبد الحق على أكثر بلاد المغرب، وقصد فاس وبها بعض بني عبد المؤمن فأناخ عليها وتلطف بأهلها، ودعاهم إلى الدعوة الحفصية بأفريقية، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه خارج باب الفتوح. ودخل إلى قصبة فاس لشهرين من موت السعيد في أول سنة ست وأربعين وستمائة، وبايعه أهل تازا وأهل سلا ورباط الفتح، واستولى على نواحيها، وأقام فيها الدعوة الحفصية، وأستبد بنو مرين بملك المغرب الأفضى، وبنو عبد الواد بملك المغرب الأوسط.

وملك سجلماسة سنة ثلاث وخمسين وستمائة من أيدي عامة الموحدين وبقي حتى هلك بفاس في رجب سنة ست وخمسين وستمائة، ودفن بمقبرة باب الفتوح.

وتصدى للقيام بأمره أبْنُه (عمر) ومال أهل الحلل والعقد إلى عمه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، وكان ذا ثباتاً فقدم ثم وقع الصلح بينهما على أن ترك يعقوب الأمر لابن أخيه عمر على أن يكون له تازا وبلادها، ثم وقع الخلف بينهما والتقى فهزم عمر ثم نزل لعمه يعقوب عن الأمر.

ورحل السلطان أبو يوسف (يعقوب بن عبد الحق) فدخل فاس مملكا، ثم هلك عمر بعد سنة، فكفى يعقوب شأنه وأستقام سلطانه، وأخذ في أفتتاح أمصار المغرب. وأفتح أمره باستنقاذ مدينة سلا من أيدي النصارى، ثم قصد إلى مرّاكش فخرج إليه الخليفة المرتضى من بني عبد المؤمن، وكانت بينهما حرب

(١) الأظهر أخوه وهم جميعاً أولاد عبد الحق.

هُزِمَ فِيهَا الْمُرْتَضَى وَقُتِلَ ، وَبَاعَ الْمُوَحِدُونَ أَخَاهُ (إِسْحَاقَ) ثُمَّ قُبِضَ عَلَيْهِ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَسِتِينَ وَسَمَائَةَ فَقَتَلَ فِيمَنْ مَعَهُ ، وَأَنْقَرَضَ أَمْرَ بَنِي عَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنَ الْمَغْرِبِ .

وَوَصَلَ السُّلْطَانُ أَبُو يُوسُفَ إِلَى مَرَّاكُشٍ أَوَّلَ سَنَةِ ثَمَانٍ وَسِتِينَ وَسَمَائَةَ فَدَخَلَهَا ، وَوَرِثَ مُلْكَ الْمُوَحِدِينَ بِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى فَاَسَ بَعْدَ أَنْ اسْتَخَلَفَ عَلِيَّ مَرَّاكُشٍ فِي شَوَّالٍ مِنْ سَنَتِهِ ، وَشَرَعَ فِي بِنَاءِ الْمَدِينَةِ الَّتِي اسْتَجَدَّهَا مُلَاصِقَةً لِمَدِينَةِ فَاَسَ فِي ثَالِثِ شَوَّالٍ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَسَبْعِينَ وَسَمَائَةَ ، وَنَزَلَ فِيهَا بِحَاشِيَتِهِ وَذَوِيهِ ، وَغَزَا فِي خِلَالِ ذَلِكَ النَّصَارَى بِالْأَنْدَلُسِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ حَتَّى أَدْعَنَ لَهُ شَانِحَةَ بِنَ أَدْفُونَسَ ، وَسَأَلَهُ فِي عَقْدِ السَّلْمِ لَهُ فَعَقَدَ لَهُ عَلَى شُرُوطٍ اشْتَرَطَهَا عَلَيْهِ ، وَعَادَ إِلَى بِلَادِ الْمَغْرِبِ فَمَرِضٌ وَمَاتَ فِي آخِرِ الْحَرَمِ سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَسَمَائَةَ .

وَبُويعَ بَعْدَهُ أَبْنُهُ وَلِيَّ عَهْدِهِ أَبُو يَعْقُوبَ (يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ) بَجَرِيٍّ عَلَى سَنِّ أَبِيهِ فِي الْعَدْلِ وَالْغُرُوبِ ، وَأَجَازَ إِلَى الْأَنْدَلُسِ ، وَجَدَّدَ السَّلْمَ مَعَ شَانِحَةَ مَلِكِ النَّصَارَى . وَغَزَا تِلْمِسَانَ مَرَّاتٍ وَبَقِيَ حَتَّى طَعَنَهُ خَصِيٌّ مِنْ خَدَمِهِ ، وَهُوَ نَائِمٌ عَلَى فِرَاشِهِ ، فَمَاتَ سَابِعَ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةَ سِتِّ وَسَبْعِينَ .

وَبُويعَ بَعْدَهُ أَبْنُهُ أَبُو ثَابِتَ (عَامِرُ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ) وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِ النَّوَاحِي ، ثُمَّ اسْتَقَامَ أَمْرُهُ وَبَقِيَ حَتَّى انْتَقَضَ عَلَيْهِ عُثْمَانُ بْنُ أَبِي الْعَلَاءِ ، بِنَوَاحِي طَنْجَةَ مِنْ أَقْصَى الْغَرْبِ ، فَخَرَجَ لِقِتَالِهِ وَمَرِضٌ فِي طَنْجَةَ وَمَاتَ فِي ثَامِنِ صَفْرِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ .

وَبُويعَ بَعْدَهُ أَخُوهُ (أَبُو الرَّبِيعِ بْنُ أَبِي يَعْقُوبَ يُوسُفَ) فَاحْسَنَ السَّيْرَةَ ، وَأَجْزَلَ الصَّلَاتِ ، وَسَارَ بِسَيْرَةِ آبَائِهِ وَبَقِيَ حَتَّى مَاتَ بِمَدِينَةِ تَارَا فِي سَلْخِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِينَ وَدُفِنَ بِصَخْرٍ جَامِعِهَا .

و يبيع بعده اخوه أبو سعيد (عثمان بن أبي يعقوب يوسف) فلما استقام أمره بالغرب الأقصى سار إلى تلمسان سنة أربع عشرة وسبعائة فانتزعها من موسى بن عثمان ابن يغمراسن : سلطان بني عبد الواد بها ؛ وانتقض عليه محمد بن يحيى العزفي صاحب سبنة فسار إليه في سنة ثمان وعشرين وسبعائة فأذعن للطاعة ؛ وأحضر عبد المهيم بن محمد الحضرمي من سبنة وولاه ديوان الإنشاء والعلامة .

وفي أيامه قصد بطرة وجوان ملك النصارى بالأندلس غرناطة . فاستغاثوا به ، فأجاز البحر إليهم ولقي عساكر النصارى فهلك بطرة وجوان في المعركة وكانت النصرمة للمسلمين . وتوفي في ذى الحجة سنة إحدى وثلاثين وسبعائة .

و يبيع بعده ابنه ولي عهده أبو الحسن (علي بن عثمان) وهو الذي كان في عصر «المقر الشهابي بن فضل الله» . وسار إلى تلمسان سنة سبع وثلاثين وسبعائة ، فملكها من ابن أبي تاشفين سلطان بني عبد الواد بها بعد أن قتله بقصره . وملك تونس من يد أبي يحيى سلطان الحفصيين بها في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وسبعائة ؛ وأتصل ملكه ما بين برقة إلى الشوس الأقصى والبحر المحيط الغربي ؛ ثم أسترجع الحفصيون تونس بعد ذلك . وملك بعد ذلك سجلماسة قاعدة بلاد الصحراء بالغرب الأقصى ، وبقى حتى مات في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين وسبعائة يجبل هنتاته .

و يبيع بعده ابنه (أبو عيان بن أبي الحسن) وكان بنو عبد الواد قد استعادوا تلمسان في أيام أبيه فارتجعها منهم في سنة ثلاث وخمسين ؛ ونزل له الأمير محمد ابن أبي زكريا صاحب بجاية عنها فانتظمت في ملكه . وملك قسنطينة من الحفصيين بعد ذلك بالأمان . ثم ملك تونس من أيديهم سنة ثمان وخمسين ، ورجع

إلى المغرب فارتجع الحفصيون ثونس وسائر بلاد أفريقيا وبقي حتى توفي في ذي الحجة سنة تسع وخمسين .

وكان أبوه (أبو زيان) وليّ عهده فعُدل عنه إلى ابنه (السعيد بن أبي عنان) وأستولى عليه الحسن بن عمر وزير أبيه فحجبه في داره، واستقلّ بالأمر دونه .

وتغلب أبو حمو سلطان بني عبد الواد على تلمسان فانترعها من يده في سنة ستين وسبعائة .

ثم خرج علي السعيد بن أبي عنان عمه أبو سالم (إبراهيم بن أبي الحسن) وكان بالأندلس بجاء إليه بالأساطيل ، واجتمع إليه العساكر ، ووصل إلى فاس ، وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد عن الأمر ، وأسلمه إلى عمه أبي سالم وخرج إليه فبايعه ، ودخل فاس في منتصف شعبان سنة ستين وسبعائة ، وأستولى على ملك المغرب ، وقصد تلمسان فأجفل عنها أبو حمو سلطان بني عبد الواد فدخلها بالأمان في رجب سنة إحدى وستين وسبعائة ، فأقر بملكها حفيدا من أحفاد بني عبد الواد يقال له أبو زيان ، ورجع إلى فاس في شعبان من سنته . وعاد أبو حمو إلى تلمسان فملكها من أبي زيان . وبني إيوانا فحما بفاس بجانب قصره ، وانتقل إليه ، وفوض أمر القلعة إلى عمر بن عبدالله بن علي من أبناء وزرائهم ، فعمد إلى أبي عمر (تاشفين الموسوس) ابن السلطان أبي الحسن فأجلسه على أريكة الملك ، وبايعه في ذي القعدة سنة ثنتين وستين وسبعائة ، وأفاض العطاء في الحُند . وأصبح السلطان أبو سالم فوجد الأمر على ذلك ففتر بنفسه ، فأرسل عمر بن [عبد الله بن] علي في أثره من قبض عليه وأحتر رأسه وأتى بها إلى فاس .

ثم أنكر أهل الدولة على عُمر بن عبد الله ما وقع منه من نَصَب أبي عمر المذكور لضعف عقله ، فأعمل فكره فيمن يصلح للملك فوقع رأيه على (أبي زيَّان محمد بن الأمير عبد الرحمن) بن السلطان أبي الحسن . وكان قد فزع إلى ملك النصارى بإشيوية من الأندلس ، فأقام عنده خوفاً من السلطان أبي سالم ، فبعث إليه من أتى به ، وخلص أبا عُمر من الملك ، وبعث إليه بالآلة والبيعة من تلقاه بطنجة . ورحل إلى فاس في منتصف شهر صفر سنة ثلاث وستين وسبعائة ، ودخل إلى قصر الملك ، فأقام به والوزير عُمر بن عبد الله مستبداً عليه لا يكمل إليه أمراً ولا نهياً وحجره من كل وجه ، فثقل ذلك على السلطان أبي زيَّان ، ووامر بعض أصحابه في الفتن بالوزير عُمر ، فبلغ الخبر الوزير فدخل على السلطان من غير إذن على ما كان آتاده منه ، وألقاه في بئر وأظهر للناس أنه سقط عن ظهر فرسه وهو نعل في تلك البئر .

واستدعى من حينه (عبد العزيز) ابن السلطان أبي الحسن من بعض الدور بالقلعة ، فحضر القصر وجلس على سرير الملك ، ودخل عليه بنو صرين فبايعوه وكل أمره . وذلك في المحرم سنة ثمان وستين وسبعائة ، وأستبد عليه كما كان مستبداً على من قبله ، فحجره ومنعه من التصرف في شيء من أمره ، ومنع الناس أن يسألوه في شيء من أمورهم ، فثقل ذلك عليه غاية الثقل ، وأكته في نفسه إلى أن استدعاه يوماً فدخل عليه القصر ، وكان قد أكن له رجالاً بالقصر ، فخرجوا عليه وضربوه بالسيوف حتى مات . وأستقل السلطان عبد العزيز بملكه ، وقصد تلمسان فملكها من يد أبي حمو سلطان بني عبد الواد بالأمان بعد إجحاف أبي حمو عنها . ودخلها يوم عاشوراء سنة اثنتين وسبعين وسبعائة . وأرتحل عنها آخر المحرم إلى الغرب ووصل

إلى فاس ، ثم عاد إلى تلمسان وخرج منها يريد المغرب ، ففرض ومات في الثمانين والعشرين من ربيع الآخر سنة أربع وسبعين وسبعائة .

وَبُوعِ بعده أبْنُه (سَعِيدُ بن عبد العزيز) وهو طِفْلٌ ، وقام بأمره وزيرُه أبو بكر بن غازي ورجعوا به إلى المغرب ودخل إلى فاس وجَدَّتْ له البيعة بها ، وأستبدَّ عليه الوزير أبو بكر ، وجمَّره عن التصرف في شيء من أمره ليصغره . ورجع أبو حمو سلطانُ بني عبد الواد إلى تلمسان فملكها في جمادى سنة أربع وسبعين وسبعائة .

وخرج عليه (أبو العباس أحمد بن أبي سالم) وكان بالأندلس فأجاز البحر وسار إلى فاس فملكها . ودخلها أولَ المحرم سنة ستَّ وسبعين وسبعائة ، وأستقل بملك المغرب ، وكان ذلك بموالة ابن الأحمر صاحب الأندلس فاتصلت بينهما بذلك الصُّحْبَةُ ، وتأكدت المودَّةُ ، وتخلَّى عن مرأئش لعبد الرحمن ، وكان بينهما صلح وأنتقاضُ تارةً وتارةً ، وقصد تلمسان فملكها من أبي حمو بعد فراره عنها ، وأقام بها أياماً وهدم أسوارها وخرج منها في أتباع أبي حمو .

وخالفه السلطان (موسى) ابن عمه أبي عينا إلى فاس فملكها ، ونزل دار الملك بها في ربيع الأول سنة ستَّ وثمانين وسبعائة ، وقدم السلطان أبو العباس إلى فاس ، فوجد موسى ابن عمه قد ملكها ففتر عنها إلى تازا ، ثم أرسل إلى السلطان موسى بالطاعة والإذعان ، فأرسل من أتى به إليه ، فقيده وبعث به إلى الأندلس وأستقلَّ السلطان موسى بملك المغرب ، وتوفي [لثلاث سنين من خلافته ^(١)] .

(١) الزيادة من "العرج ٧ ص ٣٥٢" .

وبويع بعده (المتصّرُ ابنُ السلطان أبي العباس) فلم يلبث أن خرج عليه (الوائق) محمد بن أبي الفضل (ابن السلطان) (أبي الحسن) من الأندلس، فسار إلى فاس ودخلها وحلّ بدار الملك بها، وبُويِع في شوال سنة ثمان وثمانين وسبعائة .

وبعث المتصّرُ إلى أبيه أبي العباس بالأندلس فأجاز السلطانُ أبو العباس من الأندلس إلى سبّنة، فملكها في صفر سنة تسع وثمانين وسبعائة، ثم استنزله عنها ابنُ الأحمر صاحبُ الأندلس وانتظمها في ملكه، ثم ظهرت دعوةُ السلطان أبي العباس بمراكش واستولى جنده عليها، ثم سار إليها ابنُ المتصّر وملكها، وسار السلطان أبو العباس إلى فاس فملكها ودخل البلدَ الجديد بها خامسَ رمضان سنة تسع وثمانين وسبعائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خلعه، وبعث بالوائق إلى الأندلس ثم أمر بقتله فقتل في طريقه بطنجنة .

وكان أبو حمّو صاحبُ تلمسان قد مات واستولى عليها بعده ابنه (أبو تاشفين) قائماً بدعوة أبي العباس صاحبِ فاس، ومات أبو تاشفين وأقيم ابنُه طفلاً فيها، ثم قتله عمه يوسف بن أبي حمّو، وجّهز السلطان أبو العباس ابنه (أبا فارس عثمان) فملكها وأقام فيها دعوةً أبيه، وتوفّي السلطان أبو العباس بمدينة تازا في المحرم سنة ست وتسعين وسبعائة، واستدعوا ابنه أبا فارس فبايعوه بتازا، ورجعوا به إلى فاس، وأطلقوا أبازيان بن أبي حمّو من الاعتقال وبعثوا به إلى تلمسان . وبقى أبو فارس في مملكة الغرب إلى الآن : وهو السلطان أبو فارس : عثمانُ ابن السلطان أبي العباس أحمد، ابن السلطان أبي سالم إبراهيم، ابن السلطان أبي الحسن علي، ابن السلطان أبي سعيد عثمان، ابن السلطان أبي يوسف يعقوب، ابن عبد الحق .

المَقْصِدُ الرَّابِعُ

(في بيان ترتيب هذه المملكة، وفيه تسعُ (عشر) جُمَلُ)

الجملة الأولى

(في ذكر الجُند، وأرباب الوظائف: من أرباب السيوف والأقلام؛ ومقادير

الأرزاق الجارية عليهم، وزِيّ السلطان، وترتيب حاله في الملك)

أما الجُند، فأشياخُ كِبَارٍ وأشياخُ صِغَارٍ، وهم القائمون مقامَ الأمراءِ الطَّبِخَانَاتِ بمصر على ما تقدم في أفريقية، ولا يُعرف بها أميرٌ له عِدَةٌ كما بمصر والشام وإيران، ولا يُطلق اسمُ الإمرةِ عندهم على أحد من الجُند بحال. ثم بعد الأشياخ عامةُ الجُند من الأندلسيين وغيرهم، والعُلُوج من الفَرَجِجِ، على ما تقدم في مملكة أفريقية من غير فرق في الترتيب؛ والوزراءُ والقضاةُ وأربابُ الوظائف على نحو ما تقدم في أفريقية.

الجملة الثانية

(في زيّ السلطان والأشياخ وأرباب الوظائف في اللبس)

أما زيّ السلطان والأشياخ وعامةِ الجُند، فإنهم يتعمّمون بعمائمٍ طوالٍ، قليلةِ العَرْضِ من كَتَّانٍ، ويُعملُ فوقها إحراماتٌ يُلقونها على أكتافهم، ويتقلّدون السيوف تقليداً بدوياً، ويلبسون الخِفافَ في أرجلهم (وتسمى عندهم الأتمقة) كما في أفريقية، ويشُدّون المهاميزَ فوقها، ويَتَخَذُونَ المَنَاطِقَ وهي (الحوأص) ويعبرن عنها بالمِضْمَاتِ من فضةٍ أو ذهب. وربما بلغت كلُّ مِضْمَةٍ منها ألف مثقال، ولكنهم لا يشُدونها إلا في يومِ الحَرْبِ أو يومِ التميّزِ: وهو يومُ عَرْضِهِمْ على السلطان. ويختصُّ السلطانُ

يَلْبَسُ البُرُوسَ الأَبْيَضَ الرَّفِيعَ ، لا يَلْبَسُهُ ذُو سَيْفٍ غَيْرُهُ . أما العلماء وأهل الصَّلاح فإنه لا حَرَجَ عليهم في ذلك ، ولا حَرَجَ في غير المَلُونِ البِيضِ مِنَ البرانسِ على أحد .
وأما زِيَةُ القُضاةِ والعلماءِ والحُكَّابِ وعامةِ النَّاسِ ، فقريبٌ من لبسِ الجُنْدِ .
إلا أنَّ عمامَتَهُم حُضْرٌ ؛ ولا يَلْبَسُ أحدٌ منهم الأَمَمَةَ : وهي الأَخْفَافُ في الحَضَرِ ولا يُتَمَنَعُ أحدٌ منهم من لبسها في السَّفَرِ .

الجملة الثالثة

(في الأرزاق المطلّقة من قِبَلِ السُّلطانِ على أهلِ دولته)

أما رِزْقُ الأَجادِ فقِي "مسالك الأَبصار" عن السَّلاحيِّ : أن للأشياء الكِبَارِ الإِقطاعاتِ الجاريةَ عليهم : لكلِّ واحدٍ منهم في كلِّ سَنَةٍ عَشْرُونَ أَلْفَ مِثقالٍ مِنَ الذهبِ ، يأخُذُها من قَبائِلِ ، رُقْرُقَى ، وَضِياعِ ، وَقِلاعِ ، ويتحصَّلُ له من القمَحِ والشعيرِ والحُبوبِ من تلكِ البلادِ نحوَ عَشرينَ أَلْفَ وَسَقٍ . ولكلِّ واحدٍ مع الإِقطاعِ الإِحسانِ في رأسِ كلِّ سَنَةٍ وهو حِصانٌ بِسَرَجِهِ والحامِةُ ، وسَيْفٌ ورُحٌّ مَحليَّانِ ، وسَبَدِيَّةٌ : وهي بُقْجَةٌ قماشٌ فيها ثوبٌ طَرْدٌ وحِشٌّ مذهبٌ سَكَنْدَرِيٌّ ، ويعبَرُونَ عن هذا الثوبِ بِالزَّرْدِ خاناهُ ، وثوبانِ بياضٍ مِنَ الحَتَّانِ عملِ أَفريقيَّةِ ، وإِحرامٌ وشاشٌ طوله ثمانونَ ذراعاً ؛ وقصبتانِ من مَلَفٍ وهو الجُوخُ . وربما زِيدَ الأَكْبَرُ على ذلك ، وربما نَقَصَ مَنْ هُوَ دُونَ هذه الرتبةِ . وللأشياء الصَّغارِ مِنَ الإِقطاعِ والإِحسانِ نِصْفُ مالِ الأَشياءِ الجَبَّارِ مع الحِصانِ المُسَرَّجِ المُنَجَّمِ والسَيْفِ والرُّحِّ والكُسوَةِ ؛ ومنهم من لا يَلْبِغُ هذه الرتبةَ فيكونُ أَنقَصَ . وَمَنْ عدا الأَشياءِ مِنَ الجُنْدِ على طبقاتٍ : فالْمُقَرَّبُونَ إلى

(١) لعله في المَلونِ غيرِ البِيضِ مِنَ البرانسِ

السلطان يكون لكل واحد منهم ستون مثقالا من الذهب في كل شهر، وقليل ما هم؛ ومن دون ذلك يكون له في الشهر ثلاثون مثقالا ثم مادونها، إلى أن يتناهى إلى أقل الطبقات وهي ستة مثاقيل في كل شهر . وإس لأحد منهم بلد ولا مُزْدَرَع .
وأما قاضي القضاة، فله في كل يوم مثقال من الذهب، وله أرض يسيرة، يُزرع بها ما تنجى منه مؤنته وعليق دوابه .

وأما كاتب السر، فله في كل يوم مثقالان من الذهب، وله محيّران (يعنى قريتين) يتحصّل له منهما متحصّل جيّد، مع رسوم كثيرة له على البلاد ومنايع وإرفاقات؛ ولكل واحد من كاتب السر وقاضي القضاة في كل سنة بغلة بسرجهما ولجّامها، وسنيّة فماش برسم كسوته كما للأشياخ .

الجملة الرابعة

(في جلوس السلطان في كل يوم)

قال السلايحي : من عادة سلطانهم أن يجلس في بكرة كل يوم ، ويدخل عليه الأشياء الكبار فيسلموا عليه ، فيهدّ لهم السباط تراند في جفان حولها طرافير؛ وهي الخافي ، فيها أطعمة ملوّنة منوعة ، ومع ذلك الحلوى : بعضها مصنوع بالسكر، ومعظمها مصنوع بالعتسل والزيت ، فيأكلون ثم يتفرقون إلى أماكنهم . وربما ركب السلطان بعد ذلك والعسكر معه وقد لا يركب . أما أخريات النهار فإن الغالب أن يركب بعد العصر في عسكره ويذهب إلى نهر هناك ، ثم يخرج إلى مكان فسيح من الصخرات ، فيقف به على نشز من الأرض ، وتتطارد الخيل فدأمه ، وتتطاعن الفرسان ، وتتداعى الأقران ، وتمثّل الحرب لديه ، وتقام صفوفها على سبيل التمرين حتى كأنها يوم الحرب حقيقة ؛ ثم يعود في موكبه إلى قصره ، وتتفرق العساكر ؛

وتحضرُ العلماء وفضلاءُ الناس وأعيانهم إلى مُحَاضَرَتِهِ حيثُ يد، فيمدُّ لهم سِطاً بين يديه فيأُكُون وَيُواكُلُهُمْ . ثم يأخذُ كَاتِبُ السَّرِّ في قِرَاءَةِ الْقِصَصِ وَالرِّقَاعِ وَالْكَلامِ فِي الْمَهَمَّاتِ ، وَيَبِيتُ عِنْدَهُ مَنْ يُسَامِرُهُ مِنَ الْفِضلاءِ فِي بَعْضِ اللَّيَالِي ، وَرَبْمَا أَقْتَضَتِ الْحَالُ مَبِيتَ كَاتِبِ السَّرِّ فِيبِيتِ عِنْدَهُ .

الجملة الخامسة

(في جلوسه للظالم)

قال السلاحي : قد جرت عادة من له ظلامة أن يرتقب السلطان في رُكُوبِهِ فِي مَوَكِبِهِ (يعني يومَ جلوسه للظالم) فإذا آجتاز به السلطان صاح من بعد «لا إله إلا الله أنصُرني نصرَك اللهُ!» فتؤخذ قصته وتدفع لكتاب السر، فإذا عاد جلس في قبة معينة للجلوسه، ويجلس معه أكبرُ أشياخه مقلدين السيوف، ويقف من دونهم على بعد، مصطفيين متكئين على سيوفهم، ويقرأ كاتب السر قصص أصحاب المظالم وغيرها فينظر فيها بما يراه .

الجملة السادسة

(في شِعَارِ السُلْطَانِ بِهَذِهِ الْمَمْلَكَةِ)

منها علم أبيض حرير مكتوب فيه بالذهب نسيجاً بأعلى دائره آيات من القرآن، يسمونه العلم المنصور كما في أفريقية . وربما برع عنه هؤلاء بسعد الدولة، يحمل بين يديه في المواكب .

ومنها - أعلامٌ دونه مختلفة الألوان تحمل معه أيضا .

ومنها - سيفٌ ورُحٌّ ودرقة . يُجَمَّلان بين يديه في المواكب أيضا : يحملها ثلاثة من خاصته من وُصفانه أو من أبناء خدام سلفه .

ومنها - أطبار تحمل حوله . ويعبرون عنها بالطبرزيات ، يحملها أكبر قواد
عُلوجه من الفرج ورجال من الأندلسيين خلفه وقُدَّامه .

ومنها - رِمَاحِ طَوَالٍ وقِصَارٍ . يحملها خمسون رجلاً مُشاةً بين يديه مشدودى الأوساط
بيد كل واحدٍ منهم رُحمان : رُحٌّ طَوِيلٌ ورُحٌّ قَصِيرٌ ، وهو متقلدٌ مع ذلك بسيف .

ومنها - الجَنَائِبُ . وهى حَيْلٌ تُقَادُ أَمَامَهُ ، عليها سُروجٌ محروزةٌ بالذهب كالزركش
ورُكَبُها ذهبٌ كل رِكَّابٍ زِنْتُهُ ألف دينار ، وعليها ثيابٌ سُروجٍ من الحرير مرقومةٌ
بالذهب ، ويعبرون عن الجَنَائِبِ بالمُقَادَاتِ ، وعن ثيابِ السُّروجِ بالبرَّاقِ .

ومنها - الطبولُ تدقُّ خلف ساقته وهى من خصائص السلطان ليس لأحد
من الناس أن يضرب طبله غيره حتى يمنع من ذلك أصحاب الحلقى .

ومنها - البوقات مع الطبل على العادة .

الجملة السابعة

(فى ركوبه لصلاة العيد)

قال السلاجقى : وفى ليلة العيدين يُنادى والى البلد فى أهلها بالمسير ، ويخرج
أهل كل سوقٍ ناحيةً ، ومع كل واحدٍ منهم قَوْسٌ أو آلةٌ سلاح ، مُتَجَمِّلين بأحسن
الثياب ، ويبعث الناس تلك الليلة أهل كل سوقٍ بذاتهم خارج البلد ، ومع أهل
كل سوقٍ علمٌ يختصُّ بهم ، عليه رَنكٌ أهل تلك الصناعة بما يناسبهم . فإذا ركب
السلطان بكرةً أصطفوا صُفُوفاً يمشون قُدَّامه ، ويركبُ السلطان ويركب العسكر معه
مِئنةً ومِيسرةً والعُلُوجُ خلفه ملتقون به ، والأعلام منشورةٌ وراءه ، والطبولُ خلفها
حتى يصلَّى ثم يعود ، فيصرف أرباب الأسواق إلى بيوتهم ، ويحضّر طعام السلطان
خِواصه وأشيائه .

الجملة الثامنة

(في خروج السلطان للسفر)

من عادة هذا السلطان إذا سافر أن يخرج من قصره وينزل بظاهر بلده، ثم يرتحل من هناك فيضرب له طبل كبير قبيل الصبح إشعاراً بالسفر، فيتأهب الناس ويستغل كل أحد بالاستعداد للرحيل . فإذا صلى صلاة الصبح ركب الناس على قبائلهم في منازلهم المألومة، ووقفوا في طريق السلطان صفًا إلى صف، ولكل قبيل رجل علم معروف به ومكان في الترتيب لآيئته، فإذا صلى السلطان الصبح قعد أمام الناس، ودارت عليه عبيده ووصفائه ونقبأؤه، ويجلس ناس حوله يعرفون بالطبقة يجري عليهم ديوانه، يقرءون حزباً من القرآن، ويذكرون شيئاً من الحديث النبوي، على قائله أفضل الصلاة والسلام! . فإذا أسفر الصبح ركب وتقدم أمامه العلم الأبيض المعروف بالعلم المنصور، وبين يديه الرجال بالسلح والخيال المحنوبة، بثياب السروج الموشية، ويعبرون عن ثياب السروج بالبرقع. وإذا وضع السلطان رجله في الركاب، ضرب على طبل كبير يقال له تريال ثلاث ضربات إشعاراً بركوبه. ثم يسير السلطان بين صفي الخيل ويسلم كل صف عليه بأعلى صوته «سلام عليكم» ويكتنفانه يمينا وشمالا، وتضرب جميع الطبول التي تحت البناد الكبار الملقوة خلف الوزير على بعد من السلطان، ولا يتقدم أمام العلم الأبيض إلا من يكرن من خواص علوج السلطان، وربما أمرهم بالحولان بعضهم على بعض؛ ثم يتقطع ضرب الطبول إلى أن يقرب من المنزل .

وإذا ركب السلطان لا يسأيره إلا بعض كبار الأشياخ من بني مرين أو بعض عطاء العرب، وإذا استدعى أحدا لا يأتيه إلا ماشياً، ثم ربما حدثه وهو يمشي، وربما

أكرمهم فأكرمهم بالركوب . فإذا قرب السلطان من المنزل تقدمت الزمالة : وهم القراشون ، ويضربون شقمة من الكنان في قلبها جلود يقوم بها عصي وحبال من القصب في أوتاد، وتستدير على كثير من الأحيية وبيوت الشعر الخاصة به وبعاله وأولاده الصغار، تكون هذه الشقمة كالمدينة لها أربعة أبواب في كل جهة باب، وهذه الشقمة هي المعبر عنها في الديار المصرية بالحوش، ويحفظ به عبيده وعُلوجه ووصفائه، ويضرب للسلطان أمام ذلك قبة كبيرة مرتفعة من كنان تسمى قبة الساقية لجلوس الناس فيها وحضورهم عنده بها، وهذه هي التي تسمى بمصر المدورة .

وإذا عاد السلطان إلى حضرة ملكه ضربت البشائر سبعة أيام ، وأطعم الناس طعاما شاملا في موضع يسع كافةهم .

الجملة التاسعة

(في مقدار عسكر هذه المملكة)

قال في "مسالك الأبصار" : سألت أبا عبد الله السلاجي عن عدّة هذا العسكر في سلطنة أبي الحسن المريني ، وكان ابن جرّار قد قال إن عسكره مائة ألف وأربعون ألفا - فقال : الذي نعرفه قبل فتحه تلمسان أن جريده المئبته في ديوانه لاتزيد على أربعين ألف فارس غير حفظة المدن والسواحل ، إلا أنه [يمكنه] إذا استجاش لحرب عليه أن يخرج في جموع كثيرة لاتكاد تنحصر، وأنه يمكن أن يكون قد زاد عسكره بعد فتح تلمسان مثل ذلك .

الجملة العاشرة

(في مكاتبات السلطان)

قال في "مسالك الأبصار": جرت العادة أنه إذا انتهى الكاتب إلى آخر الكتاب وكتب تاريخه، كتب السلطان بخطه في آخره ماصورته "وكتب في التاريخ المؤرخ به". ونقل عن السلايحي: أن ذلك مما أحدثه أبو حفص «عمر المريثي» عم السلطان أبي الحسن في سلطته، وتبعه السلطان أبو الحسن على ذلك مع وثوقه بكاتب سره حينئذ: الفقيه الفاضل أبي محمد عبد المهيم بن الحضرمي وأعتاده عليه ومشاركته له في كل أمر.

المملكة الخامسة

(من بلاد المغرب جبال البربر)

قال في "مسالك الأبصار": في جنوب الغرب بين مملكة بر العُدوة وبين بلاد مالي وما معها من بلاد السودان ثلاثة ملوك من البربر بيض مسلمون: وهم سلطان (أهير) وسلطان (دمونسة) وسلطان (تادمكة) كل واحد منهم ملك مستقل بنفسه لا يحكم أحد منهم على الآخر، وأكبرهم ملك (أهير) وزعيم نخوزي المغاربة: يلبسون الدراريح إلا أنها أضيّق، وعمائم بأحنك، وركوبهم الإبل، ولا خيل عندهم ولا للريثي [عليهم حكم ولا لصاحب مالي^(١)] ولا خبز عندهم، وعيشهم عيش أهل البر من اللحم واللبن. أما الجبوج عندهم فقليلة، وهم في قلة أقوات.

ونقل عن الشيخ عيسى الزواوي أن لهم جبالا عامرة، كثيرة الفواكه. وذكر أن ما بأيدي الثلاثة تقدير نصف ما ملك مالي من ملوك السودان أو أرحم بقليل؛

(١) الزيادة من "مسالك الأبصار" ليستقيم الكلام.

ولكن صاحب مالى أكثر في تحصيل الأموال لاستيلائه على بلاد الذهب وما يُباع بمملكته من السلع ، وما يغمسه في الغزوات من بلاد الكفار لمجاورته لهم بخلاف هؤلاء فإنه ليس لهم يد تمتد إلى كسب ، بل غالب أرزاقهم من دوابهم . ثم قال : ودون هؤلاء فيما بينهم وبين مرّاكس من بلاد المغرب جبال المصامدة ، وهم خلق لا يعتد ، وأم لا تُحصى ، وهم يفتخرون بالشجاعة والكرم .

ثم ذكر أنهم كانوا لا يدينون لسلطان إلا أنهم دانوا للسلطان أبي الحسن المريني ودخلوا تحت ذيل طاعته . على أنهم لا يملكون أحدا قيادهم ، ولا يسلمون إليه بلادهم . وبكل حال فهم معه بين صحّة واعتلال .

المملكة السادسة

(من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس)

قال في "تقويم البسندان" : بفتح الألف والذال المهملة وسكون النون بينهما وضمّ اللام ثم سين مهملة . وهى مقابل برّ العدو من بلاد المغرب ، وبينهما بحر الرقاق الذى هو فم بحر الروم ، وقد تقدّم ذكره فى الكلام على الأبحر فى أول هذه المقالة .

وقد اختلف فى سبب تسمية الأندلس بهذا الاسم : ففيل ملكته أمة بعد الطوفان يقال لها الأندلس بالشين المعجمة فسمى بهم ثم عرب بالسين المهملة ؛ وقيل خرج من رومة ثلاثة طوالج فى دين الروم ، يقال لأحدهم القندلس بالقاف ^(١) فى أوله وبالشين المعجمة فى آخره ؛ فترل القندلس هذه الأرض فعرفت به ، ثم

(١) لعله فى زمن الروم .

عُربت بابدال القاف همزةً والشين المعجمة سينا مهملة . ويقال : إن اسمه القديم أفارية ، ثم سُمي باطقة ، ثم سُمي أشبانية ، ثم سُمي الأندلس باسم الأمة المذكورة . قال في "تقويم البلدان" : وسميت جزيرة لإحاطة البحر بها من الشرق والغرب والجنوب ، وإن كان جانبه الشمالي متصلاً بالبر كما سيأتي بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .
وفيه ست جمل :

الجملة الأولى

(في ذكر سمك أرضه وحدوده)

قال في "تقويم البلدان" : وجزيرة الأندلس على شكل مثلث : ركنٌ جنوبيٌ غربيٌّ ، وهناك جزيرة قادس وفمٌ بحر الزقاق . وركنٌ شرقيٌّ بين طرْكُونة وبين برشلونة ، وهي في جنوبيه ، والقرب منه بلنسية وطرطوشة وجزيرة ميورقة . وركنٌ شماليٌّ بميلة إلى البحر المحيط ، حيثُ الطولُ عشر درجات ودقائق ، والعرضُ ثمانٌ وأربعون . وهناك بالقرب من الركن المذكور مدينة سَنْتياقوه ، وهي على البحر المحيط في شماليّ الأندلس وغربيها . قال : والضلعُ الأوّل من الركن الجنوبيّ الغربيّ - وهو الذي عند جزيرة قادس - إلى الركن الشرقيّ الذي عند ميورقة ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الجنوبيّ الممتدّ على بحر الزقاق . والضلع الثاني من الركن الشرقيّ المذكور إلى الركن الشماليّ الذي عند سَنْتياقوه ، وهذا الضلع هو حدّ الأندلس الشماليّ ، ويمتدّ على الجبل المعروف بجبل البرت الحاجر بين الأندلس وبين أرض تُعرَف بالأرض الكبية ، وعلى ساحل الأندلس الممتدّ على بحر برديل . والضلع الثالث من الركن الشماليّ المذكور إلى الركن الجنوبيّ المقدم الذكر ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلس الغربيّ الممتدّ على البحر المحيط .

(١) اعلاه شكل كما يفيد ما بعده وفي القطعة الازهرية تشكيل أرضه .

قال ابن سعيد : قال الحجارى : وطول الأندلس من جبل البرت الفاصل بين الأندلس والأرض الكبيرة وهو نهاية الأندلس الشرقية إلى أشبونة : وهى فى نهاية الأندلس الغربية ألف ميل ، وعرض وسطه من بحر الزقاق إلى البحر المحيط عند طليطلة وجبل البرت ستة عشر يوماً . قال فى "تقويم البلدان" : وقد قيل : إن طوله غربا وشرقا من أشبونة : وهى فى غرب الأندلس إلى أربونة : وهى فى شرق الأندلس مسيرة ستين يوماً ، وقيل : شهر ونصف . وقيل : شهر . قال : وهو الأصح .

وأعلم أن جبل البرت المقدم ذكره متصل من بحر الزقاق إلى البحر المحيط وطوله أربعون ميلا ، وفيه أبواب فتحها الأوائل ، حتى صار للأندلس طريق فى البرت من الأرض الكبيرة ، وقبل فتحها لم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة طريق . وفى وسط الأندلس جبل ممتد من الشرق إلى الغرب يقال له جبل الشارة ، يقسمه بنصفين : نصف جنوبى ونصف شمالى .

الجملة الثانية

(فيما أشتمل عليه من المدن)

وهو يشتمل على عدة قواعد ومضافاتها :

القاعدة الأولى

(غرناطة)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح النون وألف وطاء مهملة وهاء فى الآخر . ويقال : أغرناطة بهمة مفتوحة فى أولها . وهى مدينة فى جنوب الأندلس ، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال

أبن سعيد : حيث الطول إحدى عشرة درجة وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : ومملكتها في الجنوب والشرق عن مملكة قُرطبة ، وبينها وبين قُرطبة نحو خمسة أيام . قال : وغرناطة في نهاية الحصانة وغاية التزاهة ، تُشبه دِمَشق من الشام ، وتُفضل عليها بأن مدينتها مُشرفة على عُوطتها وهي مكشوفة من الشمال ، وأنها تنصب من جبل الثلج الذي هو من جنوبها وتخرق فيها ، وعليها الأرحى داخل المدينة ، ولها أشجار وثمار ومياه مسيرة يومين تقع تحت مرأى العين لا يحجبها شيء . قال في "مسالك الأبصار" ولها ثلاثة عشر بابا : باب البيرة وهو أضخمها ، وباب الكحل ، وباب الرخاء ، وباب المرضى ، وباب المصرع ، وباب الرملة ، وباب الدبّاغين ، وباب الطّوائين ، وباب الفخّارين ، وباب الخندق ، وباب الدفاف ، وباب البنود ، وباب الأسدر . وحوطها أربعة أرباض : ربض الفخّارين ، وربض الأجل ، وهو كثير القصور والبساتين ، وربض البيازين بناحية باب الدفاف ، وهو كثير العمارة يخرج منه نحو خمسة عشر ألف مقاتل ، وهو ربض مستقل بحكامه وقضاته وغير ذلك . وجامعها من أبداع الجوامع وأحسنها منظرًا ، وهو مُحكم البناء لا يلاصقه بناء ، تحف به دكاكين الشهود والعطّارين ، وقد قام سقفه على أعمدة حسان ، والماء يجري داخله ، ومساجدها [ورباطاتها] لا تكاد تُحصى لكثرتها .

وذكر في "مسالك الأبصار" : أنها قليلة مهبّ الرياح ، لا تجرى بها الرياح إلا نادرا لاكتناف الجبال إياها . ثم قال : وأصل أنهارها نهران عظيمان (شليل) و (حدره) .

(١) لم يذكر الا ثلاثة وأسقط ربض الرملة وهو مذکور في المسالك .

(٢) كذا في "التقويم" أيضا والذي في "المعجم" سنجل وهو الاظهر .

أما سَنَيْل، فينحدر من جبل سُكَيْرٍ بِجَنُوبِهَا ويمر على غربي غَرْنَاطَةَ إلى فَحْصِهَا، يُسْقَى فيها أربعين ميلا بين بساتين وَقَرْيٍ وضياع كثيرة البيوت والغلال وأبراج الحمام وغير ذلك . قال : وينتهي فحصها إلى (لَوْشَةَ) حيث أصحاب الكهف على قول، وجبل سُكَيْرٍ المذكور هو طُودُ شَاخٍ لَا يَنْفَكُ عَنْهُ التَّلْجُ شتاءً وَلَا صيفا، فهو لذلك شديد البرد، ويؤثر برده بغرناطة في الشتاء : لقربه منها إذ ليس بينه وبينها سوى عشرة أميال . وفي ذلك يقول ابن صدره الشاعر قائله الله :

أَحَلَّ لَنَا تَرْكُ الصَّلَاةِ بِأَرْضِكُمْ ، * وَشُرْبُ الحُمَيَّا وَهُوَ شَيْءٌ مُحَرَّمٌ !
فِرَارًا إِلَى نَارِ الحَجِيمِ لِأَنَّمَا * أَرَقُّ عَلَيْنَا مِنْ سُكَيْرٍ وَأَرْحَمُ !
لَئِنْ كَانَ رَبِّي مُدْخِلِي فِي جَهَنَّمَ ، * فَفِي مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ طَابَتْ جَهَنَّمُ !

وأما حَدْرُهُ ، فينحدر من جبل بناحية (وادي ياش) شرقي سُكَيْرٍ فيمر بين بساتين ومزارع وكروم إلى أن ينتهي إلى غَرْنَاطَةَ ، فيدخلها على باب الدفاف بشرقيها، يُسْقَى المدينة نصفين، تَطْحَنُ به الأرحاء بداخلها، وعليه بداخلها خمس قناطر : وهي قنطرة ابن رَشِيْقٍ ، وقنطرة القاضي، وقنطرة حَمَامِ جاس، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الفود؛ وعلى القناطر سواقٍ ومبانٍ محكمة . والماء يجري من هذا النهر في جميع البلد : في أسواقه وقاعاته ومساجده، يبرز في أما كن على وجه الأرض، وتخفى جداوله تحتها في الأكثر، وحيث طُلب الماء وجد؛ وبالمدينة جبلان يُسْقَانُ وَسَطَها، يعرف أحدهما بالخزفة وموزور . والثاني بالقصببة القديمة، وبالز . وبهما دور حَسَانٍ ، وعَلَالِيٌّ مُشْرِفَةٌ على فحصها ، فيرى منهما منظرا بديعا من فروع الأنهار والمزروعات وغير ذلك مما يقصر عنه التخيل والتشبيه . وقد صارت قاعدة مُلْكِ الإسلام بالأندلس بيد ملوكها من بني الأحمر الآتي ذكرهم في الكلام على ملوكها .

قال في "مسالك الأبصار" : وبها من الفواكه التُّفَّاح ، والقَرَّاصِيَا البعلبكيَّة التي لا تكاد تُوجد في الدنيا مُنظراً وحلاوةً حتى إنها ليعصر منها العسل . وبها الجوز ، والقُسطل ، والتين ، والأعناب ، والخوخ ، والبَلُوط ، وغير ذلك . ويجبل سُكَّير المقدم ذكره عقاقير كعقاقير الهند وعُشب يستعمل في الأدوية ، يعرفها الشَّجَّارون لا تُوجد في الهند ولا في غيره .

قال في "التعريف" : ومقرَّر سلطانها منها (القصبه الحمراء) قال : ومعنى القصبه عندهم القلعة ، وتسمى حمراء غرناطة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قلعة عالية شديدة الأمتناع . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بديعةٌ متَّسعة كثيرةُ المباني الضخمة والقصور ظريفةٌ جداً ، يجري بها الماء تحت بلاط كما يجري في المدينة ، فلا يخلو منه مسجدٌ ولا بيتٌ ، وأعلى بُرج منها عين ماءٍ ، وجامعها من أبداع الجوامع حسناً ، وأحسنها بناءً ، وبه التُّرَيَّات الفِضِّيَّة معلقةٌ ، وبجائط محرابه أحجارٌ ياقوت مرصَّفة في جملة ما تمق به من الذهب والفضة ، ومنبره من العاج والآبنوس . قال في "تقويم البلدان" في الكلام على الأندلس : ولم يبق للمسلمين بها غير غرناطة وما أُضيف إليها ، مثل الجزيرة الخضراء ، والمرية . قال في "مسالك الأبصار" : وطولها عشرة أيام ، وعرضها ثلاثة أيام . وهي ممتدة على بحر الرُّقاق وما يلي ذلك . ثم قال : وأوطأ من جهة المشرق المرية ، وهي أول مَرَّاسِي البلاد الإسلامية . قال في "تقويم البلدان" : وكانت القاعدةُ قبل غرناطة حصنَ البيرة ، فخرَّب في زمن الإسلام ، وصارت القاعدةُ غرناطة .

وقد عدَّ في "مسالك الأبصار" من هذه المملكة عدَّة بلاد مضافة إلى مملكة غرناطة الآن .

منها (المريّة) قال في "المشترك" : بفتح الميم وكسر الراء المهملّة وتشديد المشنة من تحت وفي آخرها هاء . وهي مدينة بين مملكتيّ مالقة ومُرسية ، موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول أربع عشرة درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأثنان وأربعون دقيقة . قال : وهي مدينة مسورة على حافة بحر الرّزّاق ، وهي باب الشّرق ، ومفتاح الرّزق ، ولها برّ فضيّ ، وساحل تبرىّ ، وبحر زبرجديّ ، وأسوارها عالية ، وقلعتها منيعة شامخة ، وهواؤها معتدل ، ويعمل بها من الحرير ما يفوق الجمال .^(١)

قال في "مسالك الأبصار" : والمريّة ثلاثُ مدُن .

الأولى — من جهة الغرب تعرف بالحوّض الداخليّ . لها سور محفوظ من العدو بالسّمار والحُرّاس ، ولا عمارة فيها ؛ ويلبها إلى الشرق المدينة القديمة ؛ وتليها المدينة الثالثة المعروفة بمصلّى المريّة ، وهي أكبر الثلاث . ولها قلعة بجوار القديمة من جهة الشّمال ، وتسمّى القصبّة في عرفهم . قال : وهما قصبتان في غاية الحسن والمنعة . وساحل المريّة أحسن السّواحل ، وحوطها حصون وقرى كثيرة وجبال شامخة . وجامعها الكبير بالمدينة القديمة ، وهو من بديع الجوامع . وهي مدينة كثيرة الفواكه ، وأكثر زرعها بالمطر وعليه يترتب الخصب وعدمه ؛ وإليها تُجلب الخنطة من برّ العدوة ؛ وبها دار صناعةٍ لعجارة المراكب ؛ وبينها وبين غرناطة مسيرة ثلاثة أيام . وكانت في الزمن الأوّل قبل إضافتها إلى غرناطة مملكةً مستقلّةً . ويقال : إن وادي المريّة من أبدع الأودية على أن ماءه يقبل في الصيف حتى يقسّط على البساتين .

(١) الذي في تقويم البلدان " ويعمل بها من الحرير ما يفوق معمول غيرها " .

قال في "مسالك الأبصار": وعلى وادى المَرِيَّة (بجَانَةُ). قال: وهي الآن قرية عظيمة جدًا، ذات زيتونٍ وأعنابٍ وفواكهٍ مختلفةٍ، وبساتينٍ ضخمةٍ كثيرة الثمرات.

(١) ومنها (شَلُوبِين) بفتح الشين المعجمة وضم اللام وسكون الواو وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المشناة تحت ونون في الآخر. سماها في "تقويم البلدان": شلوبينية. ثم قال: وهو من حصون غرناطة البحرية على بحر الرقاق، ومنه أبو علي عمر بن محمد الشلوبيني إمام نحاة المغرب. قال صاحب حماة: وقد غلط من قال الشلوبيني هو الأشقر بلغة الأندلس. قال في "مسالك الأبصار": وبها يُزرع قصب السكر، وهي معدة لإرسال من يغضب عليه السلطان من أقرابه.

ومنها (الْمُنْكَب). قال في "مسالك الأبصار": وهي مدينة على القرب من شَلُوبِين دُونَ المَرِيَّة، بها دار صناعةٍ لإنشاء السُّنن، وبها قصب السكر، ومنها يحمل السكر إلى البلاد، وبها الموز، ولا يوجد في بلد من البلاد الإسلامية [هناك] إلا بها إلا ما لا يعتبر؛ وبها زبيب مشهور الأسم.

ومنها (بَلَّش). وهي مدينة تلي المنكب من جهة الغرب، كثيرة التين والعنب والفواكه. قال أبو عبد الله بن السديد: ليس بالأندلس أكثر عنبًا وتينا يابسًا منها.

(٢) ومنها (مَالِقَة) قال في "تقويم البلدان": بفتح الميم وألف وكسر اللام وفتح القاف وهاء في الآخر. وهي مدينة من جنوب الأندلس موقعها في الإقليم الرابع

(١) ضبطه ابن خلكان في "الوفيات" بفتح اللام وهو المشهور.

(٢) ضبطها ياقوت في معجمه بفتح اللام وهو الأشهر.

من الأقاليم السبعة . قال : وقياس ابن سعيد أنها حيثُ الطولُ عشرُ درج وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجةً وأربع وخمسون دقيقةً : وكانت في القديم مملكةً مستقلةً ، ثم أُضيفت الآن إلى غرناطةٍ وملكها حتى مملكة قُرطبة ، وهي بين مملكتي إشبيلية وغرناطة ، وهي على بحر الزقاق ، وبها الكثير من التين واللوز الحسن المنظر ، ومنها يُنقل يابساً إلى جميع غرب الأندلس . قال في "مسالك الأبصار" : ولها ربضان عامران : أحدهما من علوها والآخر من سفلها وجامعها بديع ، وبصحته نارنج ونخلة نابتة ، وبها دار صناعة لإنشاء المراكب ؛ وهي مختصة بعمل صنائع الجلد : كالأغشية ، والحزْم ، والمدورات ، وبصنائع الحديد : كالتسكين والمتمصّ ونحوهما . وبها الفخار المذهب الذي لا يوجد مثله في بلد . قال ابن السديد : وبها سوق ممتدّ لعمل الخوص من الأطباق وما في معناها ؛ ولها عدة حصون في أعمالها ، وفي أعمالها يوجد الحرير الكثير .

(١) ومنها مدينة (مربلّة) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الباء الموحدة وفتح اللام المشددة وهاء في الآخر . وهي مدينة صغيرة مما يلي مالقة من الغرب على الساحل ؛ وبها الفواكه الكثيرة والسمك .

ومنها (أشبونة) . وهي مما يلي مربلّة من جهة الغرب على الساحل ، وهي نظيرها في كثرة الفواكه .

ومنها (جبل الفتح) . وهو الذي نزله طارق عند فتح الأندلس في أول الإسلام ، منبعٌ جداً ، يخرج في بحر الزقاق ستة أميال ، وهو أضيّق ما يكون عنده ، وقد كان هذا

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء وضم اللام .

الجليل في مملكة الفَرنج وأقام بيدهم عدّة سنين ، ثم أعاده الله تعالى إلى المسلمين في أيام السلطان أبي الحسن المَرينيّ ، صاحب الغرب الأقصى في زمن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصرية .

ومنها (الجزيرة الخضراء) . وهي مما يلي جبل الفَتَح من الغرب على الساحل ؛ وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ تسعُ درج، والعرضُ خمسُ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال : وهي مدينةٌ أمام سَبْتَةَ من بَرِّ العُدوة من بلاد الغرب . وهي مدينة طَيِّبَةٌ نَزْهَةٌ ، تَوَسَّطَتْ مَدَنَ الساحل ، وأشرفَتْ بِسُورِها على البحر ؛ ومرَّسها من أحسن المَراسي للجواز ، وأرضها أرضُ زرع وضرع ؛ وخارجها المياهُ الجاريةُ والبساتينُ النضيرة ؛ ونهرها يُعرف بَوادي العَسَل ، وعليه مكان نَزْه يُشرفُ عليه وعلى البحر يُعرف بالحَجيَّة ؛ ومن مستنزهاتها مكانٌ يُعرف بالنِّقاء . قال ابن سعيد : وهي من أرقى المُدن وأطيبها وأرقفها بأهلها وأجمعها لخير البرِّ والبحر . قال في "المشترك" : والنسبة إليها جَزيرِيٌّ ، للفرق بينها وبين إقليم الجزيرة فإنه ينسب إليه جَزْرِيٌّ . قال في "مسالك الأبحار" : وهي آخر البلاد البحرية الإسلامية للأندلس وليس بعدها [لهم بلاد] . ثم قال : وهي الآن بيد النصارى أعادها الله تعالى وقصمهم ؛ وقد عدّها في "تقويم البلدان" : من كُورِ إشبيلية مما يلي جانب نهرها من الجنوب .

ومنها (رُنْدَةُ) بضم الراء وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر . وهي بعيدة عن البحر . وعدّها في "تقويم البلدان" من كُورِ إشبيلية . ثم قال : وبها معقلٌ تعمم بالسحاب ، وتوشح بالأمهار [العَدَاب^(١)] وذكر أنها من كبار البلدان ؛ ثم قال :

(١) الزيادة عن التقويم .

وهي بلدة جليسة ، كثيرة الفواكه والمياه والحِث والمأشية ، وأهلها موصوفون بالجَمال ورِقَّة البشرة واللطافة ؛ وبينها وبين الجزيرة الخضراء مَسِيرَةٌ ثلاثة أَيَّام .

ومنها (مدينة لَوْشَة) . قال في "تقويم البلدان" : وهي عن غَرْناطَة على مرحلة بين البساتين والرياض .

ومنها (واديَّاش) بفتح الواو وألف ثم دال مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية وألف ثم شين معجمة . ويقال : (واديَّاش) بإبدال الياء همزةً . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بلدة حسنة ، بديعة ، منيعة جدًا ، كثيرة الفواكه والمزارع ؛ والمياه تُسْقَى أمام أبوابها كما في غَرْناطَة ، قريبة من جبل شُكَيْرِ المقدم ذكره مع غَرْناطَة ، فلذلك هي شديدة البرد بسبب ما على الجبل المذكور من الثلج . قال : وهي بلدة مُمَلَّقة ، وأهلها موصوفون بالشعر ، ويحكم بها الرؤساء من أقارب صاحب غَرْناطَة أو مَنْ يَسْتَقِلُّ بها سلطانا أو مَنْ حُلِعَ من سلطان لنفسه .

ومنها (بَسْطَة) . وهي بلدة تلي واديَّاش المقدم ذكرها . وعدها في "تقويم البلدان" من أعمال جِيَّان . قال في "مسالك الأبصار" : وهي كثيرة الزرع وأختصت بالزعفران ، فيها منه ما يكفي أهل المِلَّة الإسلامية بالأندلس على كثرة ما يستعملونه منه .

ومنها (أندراش) . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة ظريفة ، كثيرة الخصب ، وتخص بالبخار الجودة تُرْبَتها ، فليس في الدنيا مثل فخَّارها للطبخ . إلى غير ذلك من البلدان مثل أرحضونة وأنتقيرة وبرجة وغيرها . قال في "مسالك الأبصار" : وحصون هذه المملكة كثيرة جدًا ، فليس بها من بلد إلا وحواله حصون كثيرة محفوظة بولاية السلطان ورجالٍ تحت أيديهم .

القاعدة الثانية

(أشْبُونَة)

قال في "تقويم البلدان" : بضم الهمزة وسكون الشين المعجمة وضم الباء الموحدة ثم واو ونون وفي آخرها هاء . قال : وعن بعض المسافرين أن أولها لام . وهي مدينة في غرب الأندلس ، وموقعها في أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول ست درج وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي قاعدة مملكة على البحر المحيط في غربي إشبيلية وشماليها ، وغربي باجة . وهي مدينة أزلية ولها البساتين والثمار المفضلة على غيرها . قال ابن سعيد : وبينها وبين البحر المحيط ثلاثون ميلا . وهي على جانب نهر يودانس . قال في "تقويم البلدان" : وبزاتها خيار البراة . قال : وكانت في آخر وقت مضافة إلى بطليوس وملكها ابن الأفضس . وذكر في "العبر" : أنها الآن قاعدة مملكة من ممالك النصراني بالأندلس يقال لها مملكة البرتقال ، وأنها عمالة صغيرة ، وقد أضيفت الآن إلى أعمال جليقية كما سيأتي ذكره في الكلام على ملوك الأندلس .

ولها مضافات :

منها (شَنْتَرِين) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون النون وكسر المثناة من فوق والراء المهملة وسكون المثناة من تحت وفي آخرها نون فيما هو مكتوب بخط ابن سعيد . وهي مدينة كانت في القديم من جليقية شمالي الأندلس ، ثم استقرت من أعمال أشبونة المقدم ذكرها . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول ثمان درج وعشر دقائق ، والعرض

أثنتان وأربعون درجة وخمسة وثلاثون دقيقة ، وهي على بحر برطانية : وهو بحر برديل الخارج من البحر المحيط المقدم ذكره في الكلام على البحور ، وهي على نهر يصب في البحر وأرضها طيبة .

ومنها (سنترة) . وهي مدينة ذكرها في "تقويم البلدان" مع أشبونة أستطرادا ونسبها إلى عملها ، ولم يتعرض لضبطها ولا لطولها وعرضها . وقال : إن بها تفتاحا مفرطا في الكبر والنباله .

ومنها مدينة (باجة) بفتح الباء الموحدة وألف ثم جيم مفتوحة وهاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وهي شرقي أشبونة ، وهي من أقدم مدائن الأندلس ، وأرضها أرض زرع وضرع ، وعسلها في نهاية الحسنة ، ولها خاصية في حسن دباغ الأدم ، وكانت مملكة مستقلة .

القاعدة الثالثة

(بطلوس)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وسكون اللام وفتح المشاة التحتية وسكون الواو وسين مهملة في الآخر . وهي مدينة من غرب الأندلس موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول تسع درج ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : ومملكتها في الشمال والغرب عن مملكة قرطبة . وهي في الغرب بميلة إلى الجنوب عن مملكة طليطلة . وهي مدينة عظيمة في بساط من الأرض مخضرة على جانب نهر . قال : وهي مدينة عظيمة إسلامية كانت بيد المتوكل بن عمر الأفطس ، وبنى بها المباني العظيمة وفيها يقول ابن الفلاس :

بَطْلِيُوسُ لَا أَنْسَاكَ مَا أَتَّصِلُ الْبُعْدُ! * فَلِلَّهِ غُورٌ مِنْ جَنَابِكَ أَوْ نَجْدُ!
 وَلِلَّهِ دَوَّحَاتٌ تَحْفُكُ بَيْنَهَا، * تَفَجَّرُ وَادِيهَا كَمَا شَقَّقَ الْبَرْدُ!

و بينها وبين قُرْطَبَةَ سِتَّةُ أَيَّامٍ .
 ولها مضافات من أعمالها .

منها (مَارِدَةٌ) قال في "تقويم البلدان" : بفتح الميم ثم ألف وراء مهملة مكسورة ودال مهملة وهاء في الآخر كما هو في خط ابن سعيد . وهي مدينة على جنوبي نهر بَطْلِيُوسَ ، موقعها في أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطولُ تسعُ درج ونحسٌ ونحسون دقيقة ، والعرض تسعُ عشرة^(١) درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة أزيلية ، ولها ماءٌ مجلوبٌ تحير صنعته . قال ابن سعيد : قال الرازي : وهي إحدى القواعد التي بنتها ملوك العجم للقرار . قال : وكان قد اتخذها سلاطين الأندلس قبل الإسلام سريراً لملك الأندلس ، وكانت في دولة بني أمية يليها عظماء منهم ، ثم صار الكرسي بعد ذلك بَطْلِيُوسَ ، وقد صارت الآن للنصارى .

ويحكى أنه كان بكنيستها حجر يُضئُ الموضع من نوره ، فأخذته العسرب أول دخولها .

ومنها (بَابَةٌ) بياء آخر الحروف وألف وباء موحدة وراء مهملة وهاء في الآخر . وهي مدينة ذكرها في "تقويم البلدان" بعد ذكر بَطْلِيُوسَ استطرادا .

(١) في تقويم البلدان أن عرضها تسع وثلاثون درجة .

القاعدة الرابعة

(إِسْبِيلِيَّةٌ)

قال في "تقويم البلدان": بكسر الألف وسكون الشين المعجمة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت ولام وياء ثانية تحتية وفي آخرها هاء. قال: ومعنى اسمها المدينة المنبسطة. وهي مدينة أزيلية في غرب الأندلس وجنوبيه على القرب من البحر المحيط، موقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال ابن سعيد: حيث الطولُ تسعُ درج وعشرُ دقائق، والعرض سبع وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقة. وهي على شرفي نهرها الأعظم وجنوبيه، ولها خمسة عشر باباً، ومملكته غربي مملكة قرطبة، فطول مملكته من الغرب من عند مصب نهرها في البحر المحيط إلى أعلى النهر من الشرق مما يلي مملكة قرطبة نحو خمس مراحل، وعرضها من الجزيرة الخضراء على ساحل الأندلس الجنوبي إلى مملكة بطليوس في الشمال نحو خمسة أيام، وبينها وبين قرطبة أربعة أيام، وهي الآن بيد ملوك النصارى. ولها عدة كور في جنوبي نهرها وشماله.

فأما كورها التي في جنوبي نهرها وهي الأكثر:

فمنها (كورة أركش) قال في "تقويم البلدان": بالراء المهملة معقل في غاية المنعة. ومنها (كورة شريش) قال في "تقويم البلدان": بفتح الشين المعجمة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وشين معجمة في الآخر، وإليها ينسب «الشريشي» شارح "المقامات الحيريرية".

ومنها (كورة طريف) بفتح الطاء وكسر الراء المهملتين وسكون المثناة التحتية وفاء في الآخر.

وأما التي شماليّ النهر فكورتان : إحداهما (كورة أوتنة) ^(١) . وهي أشهرها وأوتنة مدينة جليلة .

قال في "تقويم البلدان" : ومن الممالك المضافة لإشبيلية مملكة شلب . وهي كورة ومدينة في غربيّ إشبيلية وشماليها على ساحل البحر المحيط ، بينها وبين قرطبة تسعة أيام ، وبشلب هذه قصر يعرف "بقصر الشراخيب" وهو الذي يقول فيه بعض شعرائهم :

وسلم على "قصر الشراخيب" عن قتي * له أبدا شوق إلى ذلك القصر !

القاعدة الخامسة

(قرطبة)

قال في "اللباب" : بضم القاف وسكون الراء وضم الطاء المهملتين وباء موحدة وهاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : هذا هو المشهور . وقال ابن سعيد : هي بلسان القوط بالطاء المعجمة ونقله عن جماعة . وهي مدينة غربيّ نهر إشبيلية في غرب الأندلس بجنوب ، وموقعها في أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول عشر درج ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : ومملكة قرطبة شرقيّ مملكة إشبيلية . وهي في الجنوب والشرق عن مملكة بطليوس ، وفي الجنوب عن مملكة طليطلة ، ودور قرطبة ثلاثون ألف ذراع ، وهي أعظم مدن الأندلس ، وعليها سور ضخم من الحجر ، ولها سبعة أبواب ، وبلغت عدة مساجدها ألفاً وسمائة مسجد ،

(١) أي والثانية كورة شلب .

وَحَمَامَاتِهَا تَسْعَمَاءُ حَامٍ . وَهِيَ مَدِينَةٌ حَصِينَةٌ . وَقَدْ آسَتَوَاتْ عَلَيْهَا مَلُوكُ النُّصْرَانِيَّةِ ،
وَهِيَ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى الْآنِ .

وَلَهَا مِضَافَاتٌ :

مِنْهَا (مَدِينَةُ الزَّهْرَاءِ) . وَهِيَ مَدِينَةٌ بَنَاهَا النَّاصِرُ الْأُمَوِيُّ فِي غَرْبِيِّ قُرْطُبَةَ ،
فِي سَفْحِ جَبَلٍ .

وَمِنْهَا (الْقَصِيرُ) . وَهُوَ حِصْنٌ فِي شَرْقِيِّ قُرْطُبَةَ عَلَى النَّهْرِ ، وَلَهُ كُورَةٌ مِنْ
أَشْهُرِ كُورِهَا .

وَمِنْهَا (حِصْنُ الْمَدُورِ) . وَهُوَ الْمَعْقِلُ الْعَظِيمُ الْمَشْهُورُ ، وَلِلرُّومِ بِهِ اعْتِنَاءٌ عَظِيمٌ .

وَمِنْهَا (حِصْنُ مُرَادٍ) . وَهُوَ حِصْنٌ فِي غَرْبِيِّ قُرْطُبَةَ .

وَمِنْهَا (كُورَةُ غَافِقٍ) . وَهِيَ مَعَامِلَةٌ كَبِيرَةٌ .

وَمِنْهَا (كُورَةُ إِسْتِجَّةَ) . وَغَيْرَ ذَلِكَ .

القاعدة السادسة

(طَلَيْطَلَةٌ)

قال في " تقويم البلدان " : بضم الطاء المهملة وفتح اللام وسكون المثناة من
تحت وكسر الطاء الثانية ثم لام وهاء في الآخر . وموقعها في آخر الإقليم الخامس
قال ابن سعيد : حيث الطول خمس عشرة درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث
وأربعون درجة وثمان عشرة دقيقة . وهي مدينة أزلية كانت قاعدة الأندلس
في القديم ، وبها كان كرمي ملك « لدريق » : آخر ملوك القوط الذي أترعها

المسلمون منه . وهي الآن قاعدة مُلْك « الادفونش » أكبر ملوك النصرانية بالاندلس المعروف بالفنش . قال في "تقويم البلدان" : وهي من امع البلاد وأحصنها ، مبنيةً على جبل عال ، والأشجار مُحْدقة بها من كل جهة ، ويصير بها الجُلنار بقدر الرمانه من غيرها ، ويكون بها شجرُ الرمان عدّة أنواع ؛ ولها نهر يترأب أكثرها ينحدر من جبل الشارة من عند حصن هناك يقال له (باجة) وبه يعرف نهر طليطلة . فيقال : نهر باجة ؛ ومنها إلى نهاية الأندلس الشرقية عند الحاجز الذي هو جبل البرت نحو نصف شهر ، وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شلب .

ولها مضافات :

منها (مدينة وليد) بفتح الواو وكسر اللام وسكون المثناة من تحت ودال مهملة في الآخر . وموقعها في أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول إحدى عشرة درجة وأثنا عشرة دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وثلاث دقائق . قال في "تقويم البلدان" : وهي من أحسن المُدن . وهي في الغرب من طليطلة في جنوبي جبل الشارة الذي يقسم الأندلس بنصفين . قال : ويحلها الفنش ملك الفرج في أكثر أوقاته .

ومنها (مدينة الفرج) [بفتح الفاء والراء المهملة ثم جيم] وهي مدينة شرقي طليطلة . وشرقيها مدينة سالم . قال ابن سعيد : ويقال لنهرها وادي الحجارة .

ومنها (مدينة سالم) قال ابن سعيد : وهي بالجهة المشهورة بالثغر من شرقي الأندلس . قال : وهي مدينة جليلة . قال في "تقويم البلدان" : وبها قبر « المنصور بن أبي عامر » .

(١) ضبطناها من التقويم لثم الفائدة .

القاعدة السابعة

(جَانُ)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الجيم وتشديد المثناة من تحت وألف ونون في الآخر . وموقعها في أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدى عشرة درجة وأربعون دقيقة ، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : ومملكتها بين مملكتي غرناطة وطليطلة . وهي في نهاية من المنعة والحصانة . وهي عن قرطبة في جهة الشرق وبينهما خمسة أيام ، وهي من أعظم مدن الأندلس وأكثرها خصبا ، وكانت بيد بني الأحمر أصحاب غرناطة فأخذتها الفرنج منهم بالسيف بعد حصار طويل ، وبلادها كثيرة العيون ، طيبة الأرض ، كثيرة الثمار ، وبها الحرير الكثير .

ولها مضافات :

منها (مدينة قبجاطة) . وهي مدينة زهية كثيرة الخصب ، أخذها النصارى بالسيف أيضا .

ومنها (بياسة) بفتح الباء الموحدة وتشديد المثناة التحتية وألف ثم سين مهملة مفتوحة وهاء في الآخر . وهي مدينة على نهر إشبيلية فوق إشبيلية ، طيبة الأرض ، كثيرة الزرع ، وبها الزعفران الكثير ، ومنها يحمل إلى الآفاق .

ومنها (مدينة آدة) بمد الهمزة المفتوحة وكسر الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وهاء في الآخر . وهي مدينة إسلامية أحدثت في دولة بني أمية بالأندلس بجوار بياسة إلا أنها ليست على النهر ، ولها عين تسقى الزعفران .

(١)
ومنها (جبل سمّتان) . وهو جبل به حصون وقرى كثيرة .
ومنها (مَعْقِلُ شَقُورَة) و (حصن برّشانة) .

القاعدة الثامنة

(مُرْسِيَّة)

قال في "تقويم البلدان" : بضم الميم وسكون الراء وكسر السين المهملتين ثم ياء
مثناة من تحتها وهاء في الآخر . وموقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة
قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثمانَ عشرةَ درجة ، والعرضُ تسع وثلاثون درجة
وعشرُ دقائق . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة إسلاميةٌ محدّثة ، بُنيت
في أيام الأمويين الأندلسيين ؛ قال وهي من قواعد شرق الأندلس . وهي تُشبه إشبيلية
في غرب الأندلس بكثرة المنازله والبساتين ، وهي في الذراع الشرقي الخارج من عين
نهر إشبيلية .

ولها عدّة منترهات .

(٢)
منها [(الرّشافة) و (الزّنقات) و (جبل إيل)] وهو [جبل تحت البساتين ، وبسط
تسرح فيه العيون .

ولها مضافات :

منها (مدينة مؤلّة) . وهي في غربي مُرْسِيَّة .

ومنها (مدينة أريولة) وغير ذلك .

(١) كذا في التقويم ص ١٧٧ ولم نعر عليه .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

القاعدة التاسعة

(بَلَنْسِيَّةُ)

قال في "تقويم البلدان": بفتح الباء الموحدة واللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح المثناة من تحت وهاء في الآخر. وموقعها في أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول عشرون درجة، والعرض ثمان وثلاثون درجة وست دقائق. قال في "تقويم البلدان": وهي من شرق الأندلس، شرقي مرسية وغربي طرطوشة. وهي في أحسن مكان؛ وقد حُفَّتْ بالأشجار والحنان، فلا ترى إلا مياهها تتفرع، ولا تسمع إلا أطيارا تسجع. وهي على جنب بحيرة حسنة على القرب من بحر الزقاق، يصب فيها نهر يجرى على شمالي بلنسية. ولها عدة منازله.

منها (الرصافة) و(مينة ابن عامر) وحيث خرجت منها لالتقى إلا منازله. قال ابن سعيد: ويقال إن ضوء مدينة بلنسية يزيد على ضوء بلاد الأندلس، وجوها صقيل أبدا، لا يرى فيه ما يكدره. ولها مضافات: ^(١) وقد صارت الآن من مضافات برشلونة في جملة أعمال صاحبها من ملوك النصارى.

منها (مدينة شاطبة) بفتح الشين المعجمة وألف بعدها طاء مهملة مكسورة ثم باء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر. وهي مدينة عظيمة، ولها معقل في غاية الأمتناع وعدة مستنزهات: منها (البطحاء) و(الغدير) و(العين الكبيرة). وإليها ينسب الشاطبي صاحب "القصيدة" في القراءات السبع؛ وقد صارت الآن مضافة إلى ملك برشلونة في يد صاحبها.

(١) هذه الجملة ساقطة من القطعة الأزهرية.

ومنها (دانية) بفتح الدال المهملة وألف ثم نون مكسورة ومثناة تحتية مفتوحة وهاء في الآخر . وهي من شرق الأندلس ، وموقعها في أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول تسع عشرة درجة وعشر دقائق ، والعرض تسع وثلاثون درجة وست دقائق . وهي غربي بلنسية على البحر عظيمة القدر كثيرة الخيرات ، ولها عدة حصون . وقد صارت الآن من مضافات برشلونة مع بلنسية ، على ما سيأتي ذكره في الكلام على ملوك الأندلس إن شاء الله تعالى .

القاعدة العاشرة

(سرقسطة)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح السين والراء المهملتين وضم القاف وسكون السين الثانية وفتح الطاء المهملة وهاء في الآخر . وهي مدينة من شرق الأندلس ، وموقعها في أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول إحدى وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً ، والعرض اثنتان وأربعون درجةً وثلاثون دقيقةً . قال في "تقويم البلدان" : وهي قاعدة الثغر الأعلى . وهي مدينة أزيّة بيضاء في أرض طيبة ، قد أحدقت بها من بسائنها زمردة خضراء ، وأتفت عليها أربعة أنهار فأضحت بها مرصعة مجزعة .

ولها متزهات :

منها (قصر السرور) و(مجلس الذهب) . وفيهما يقول ابن هود من أبيات :

قصر السرور ومجلس الذهب ، * بكما بلغت نهاية الطرب !

القاعدة الحادية عشرة

(طُرُوشَةُ)

(١)

قال في "تقويم البلدان": يضم الطاءين المهملتين وبينهما راء ساكنة مهملة ثم واو ساكنة وشين معجمة وهاء في الآخر. وهي مدينة في شرق الأندلس، موقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول اثنتان وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً، والعرض أربعون درجةً. قال: وهي من كراي مملك شرق الأندلس. وهي شرقي بلنسية في الجهة الشرقية من النهر الكبير الذي يمر على سرقسطة ويصب في بحر الزقاق، على نحو عشرين ميلاً من طرُوشة. قال: وشرقي طرُوشة (جزيرة مايرقة) في بحر الزقاق، وإلى طرُوشة هذه ينسب «الطرُوشى» صاحب "سراج الملوك".

القاعدة الثانية عشرة

(بَرَشُونَةُ)

قال في "تقويم البلدان": بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الشين المعجمة وضم النون وسكون الواو ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر. ويقال (بَرَشُونَةُ) ببدال النون الأولى لما قال في "تقويم البلدان": وهي خارجة عن الأندلس في بلاد القربنج، وموقعها في أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول أربع وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً، والعرض اثنتان وأربعون

(١) ضبطها باقوت بفتح الطاء الأولى وضم الثانية وقال المجد بالضم وقد تفتح.

درجةً . وهي الآن قاعدة مُلْك النصارى بِشَرْق الأندلس ، وقد أضيف إليها أرغون ، وشاطِبَةُ ، وسَرْفُسْطَةُ ، وبلَنْسِيَّة ، وجزيرة دَانِيَّة ، وميُورْقَةُ ، وغير ذلك . على ما يأتي ذكره في الكلام على ملوك الأندلس فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثالثة عشرة

(يَبْلُونَةُ)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح الياء المثناة من تحت وسكون النون وضم الباء الموحدة واللام ثم واو ساكنة ونون مفتوحة وهاء في الآخر . وموقعها في أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ اثنتان وعشرون درجةً ونحسَ عشرة دقيقةً ، والعرضُ أربع وأربعون درجةً . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة في غرب الأندلس خلف جبل الشَّارَةِ . قال : وهي قاعدة النَّبْرِىِّ : أحد ملوك الفرنج . وتعرف هذه المملكة بمملكة نَبْرَةَ - بفتح النون وتشديد الباء الموحدة المفتوحة وفتح الراء المهملة وهاء في الآخر . وهي مملكة فاصلة بين مملكتي قَشْتَالَةَ وِبَرْشَلُونَةَ ، وهي مما يلي قَشْتَالَةَ من جهة الشرق ، وسيأتي ذكرها في الكلام على ملوك الأندلس فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة الثالثة

(في ذكر أنهاره)

اعلم أن بالأندلس أنهارا كثيرة قد تقدّم ذكر الكثير منها ، وأعظمها نهران : الأول (نهر إشبيلية) . قال ابن سعيد : وهو في قَدْرِ دِجْلَةٍ ، وهو أعظم نهر بالأندلس ؛ ويسميه أهل الأندلس النهر الأعظم . قال في "تقويم البلدان" ومخرجه

من جبال شقورة حيثُ الطولُ خمسَ عشرةَ درجةً ، والعرضُ ثمانٌ وثلاثونٌ وثلثانٌ ، وهو يجري في أبتدائه من الشرق إلى الغرب ؛ ثم يصبُّ إليه عدةُ أنهر .

منها (نهر سنيل) الذي يمرُّ على غرناطة . ونهر (سوس) الذي عليه مدينة إستجة ، ويسير من جبال شقورة إلى جهات جيان ، ويمرُّ على مدينة بياسة ، ومدينة آدة ؛ ثم يمرُّ على قرطبة ، ثم إذا تجاوز قرطبة وقرب من إشبيلية ينعطف ويجرى من الشمال إلى الجنوب ، ويمرُّ كذلك على إشبيلية ، وتكون إشبيلية على شرقه وطريانه على غربيه مقابل إشبيلية من البر الآخر ؛ ثم ينعطف فيجري من الشرق إلى الغرب ، ثم يجاوز حتى يصبُّ في البحر المحيط الغربي عند مكان يعرف ببر الماءة ، حيث الطولُ ثمانٌ درج وربعٌ ، والعرضُ ستٌ وثلاثونٌ وثلثانٌ ، وتكون جزيرة قادس في البحر الرومي على يسار مصبه ؛ ويقع في هذا النهر المدُّ والجزر من البحر كما في دجلة عند البصرة ، ويبلغ المدُّ والجزر فيه سبعين ميلاً إلى فوق إشبيلية عند مكان يعرف بالأرعى ، ولا يلمح ماؤه بسبب المدِّ عند إشبيلية بل يبقى على علوبته ؛ وبين إشبيلية وبين مصبِّ النهر في البحر خمسون ميلاً ، فالمدُّ يتجاوز إشبيلية بعشرين ميلاً ؛ والمدُّ والجزر يتعاقبان فيه كلَّ يومٍ وليسلة ، وكلما زاد القمرُ نوراً زاد المدُّ ، والمراكب لا تزال فيه منحدرة مع الجزر صاعدة مع المدِّ ، وتدخُل فيه السفن العظيمة الإفرنجية بوسقها من البحر المحيط حتى تحطَّ عند سور إشبيلية . قال ابن سعيد : وعلى هذا النهر من الضياع والقرى ما لا يبلغه وصف .

الثاني (نهر مرسيية) . قال في "تقويم البلدان" : وهو قسم نهر إشبيلية ، يخرج من جبال شقورة فيمتد نهر إشبيلية مغرباً على ما تقدم ويصبُّ في البحر المحيط . ويمرُّ نهر مرسيية مشرقاً حتى يصبُّ في بحر الروم عند مرسيية .

(١) المراد أن مد النهر وجزره من مد البحر وجزره .

الجملة الرابعة

(في الموحود بالأندلس)

والظاهر أن كل ما يوجد ببلاد المغرب أو غالبه يوجد به . وقد ذكر في "تقويم البلدان" أنه يوجد به من الوحش : الإيل ، والغزال ، وحمار الوحش . ولا يوجد به الأسد البتة . وقد تقدم ذكر ما يبلدانه من الفواكه والثمار في الكلام على بلاده فأغنى عن إعادته هنا . قال في "تقويم البلدان" : وبه عدة مقاطع رخام من الأبيض والأحمر والخمرى والمجزع وغير ذلك .

الجملة الخامسة

(في ذكر ملوك الأندلس : جاهليةً وإسلاماً . وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(ملوكها بعد الطوفان)

قال الرازي في كتاب "الاستيعاب" في تاريخ الأندلس : أول من ملكها بعد الطوفان على ما ذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلس بالسين المعجمة ، وبهم سمي الأندلس ، ثم عرب بالسين المهملة ، وكانوا أهل تمجس فحس الله عنهم المطر حتى غارت عيونها وبيست أنهارها فهلك أكثرهم ، وفر من قدر على الفرار منهم ، فأفقرت الأندلس بقيت خالية مائة عام .

وقال « هر وشيوش » مؤرخ الروم : أول من سكنها بعد الطوفان قوم يقال لهم الأباريون ، وهم من ولد طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام سكنوها بعد الطوفان . قال في "الروض العطار" ويقال : إن عدد ملوكهم الذين ملكوا الأندلس مائة وخمسون ملكاً .

الطبقة الثانية

الأشباينة

(ملكوا بعد طائفة الأندلس المتقدم ذكرهم)

قال الرازي : وأول من ملك منهم أشبان بن طيطش ، وهو الذي غزا الأفرقة وحصر ملكهم بطارقة ، ونقل رُخامها إلى إشبيلية وأخذها دار ملكه ، وبه سميت ، وكثرت جموعه فعلا في الأرض ، وغزا من إشبيلية إربلاء : وهي بيت المقدس بعد سنتين من ملكه : نخرج إليها في السفن فهدمها وقتل من اليهود مائة ألف ، وأسترق مائة ألف ، وفزق في البلاد مائة ألف ، ونقل رُخام إلبلاء وآلاتها وذخايرها إلى الأندلس .

ويحكى أن الخضر (عليه السلام) وقف على أشبان هذا وهو يحرق أرضا له أيام حدثه ، فقال له : يا أشبان ، إنك لذو شان ! وسوف يحطيك زمان ، ويعليك سلطان . فإذا أنت تغلبت على إلبلاء ، فارفق بورثة الأنبياء ! - فقال له أشبان : أسأخربى رحمك الله ؟ أتى يكون هذا وأنا ضعيف مهين ، فقير حقير ؟ - فقال : قدر ذلك من قدر في عصاك اليابسة ماتراه ، فنظر أشبان إلى عصاه فرأها قد أورقت ، فأرتاع لذلك ، وذهب الخضر عنه وقد وقّر ذلك في نفسه ، ووثق بكونه ، فترك الأمتان ، وداخل الناس ، وصحب أهل الباس ، وسمّا به جدّه فارتقى في طلب السلطان حتى نال منه عظيما ، ودام ملكه عشرين سنة ، وأتصلت المملكة في بنيه إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكا .

الطبقة الثالثة

(١)

(الشبونقات)

وهي طائفة ثارت على الأندلس من رومة في زمن مبعث المسيح عليه السلام، وملكوا الأندلس والإفرنجة معها، وجعلوا دار ملكتهم ماردة، وأتصل ملكهم إلى أن ملك أربعة وعشرون ملكا. ويقال: إن منهم كان ذو القرنين. والذي ذكره «هر وشيوش» مؤرخ الروم أن الذي خرج عليهم من رومة ثلاث طوابع من الغريقيين. وهم: الألبيون، والشوانيون، والقندلس، وأقتسموا ملكها: فكانت جليقية لقندلس، ونشبونة وماردة وطليطلة وعربية للشوانيين، وكانت إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة للألبين، حتى زحف عليهم القوط من رومة كما سيأتي.

الطبقة الرابعة

(القوط)

خرجوا على الشبونقات فغلبوا على الأندلس وأقتطعوها من صاحب رومة، وأنفردوا بسطانهم، واتخذوا مدينة طليطلة دار ملكهم (دخشوش) ملك القوط، وهو أول من تنصّر من هؤلاء بدعاء الحواريين ودعا قومه إلى النصرانية، وكان أعدل ملوكهم وأحسنهم سيرة.

وقال «هر وشيوش»: إنه كان قد ولي عليهم ملك يقال له (اطفالش).

ثم ولي عليهم بعده ملك اسمه (طشريك) وقتله الرومانيون.

(١) في "فتح الطيب ج ١ ص ٧٠" البشونقات.

(٢) في "فتح الطيب ج ١ ص ٧٠" سبعة وعشرون.

ثم ولى مكانه ملك اسمه (تالبه) ثلاث سنين، وزوج أخته من طودشيش ملك
الرومانيين، وصالحه على أن يكون له ما يفتح من الأندلس؛ ثم مات .

وولى مكانه ملك اسمه (لذريق) ثلاث عشرة سنة فزحف على الأندلس وقتل
ملوئها، وطرد الطوائف الذين كانوا بها، وبقي الحال على ذلك نحواً من ثمانين سنة؛
ثم هلك لذريق .

وولى مكانه ابنه (وريش) سبع عشرة سنة، وانتقض عليه البشكنس إحدى
طوائف القوط فقهرهم وردّهم إلى طاعته؛ ثم هلك .

وولى بعده (الريك) ثلاثاً وعشرين سنة؛ ثم قتل في حرب الفرنج .

وولى عليهم (أشريك بن طودريك) وهلك بعد خمس سنين من ملكه .

وولى عليهم بعده (بشليش) أربع سنين .

ثم ملك بعده ملك آخر اسمه (طودريق) إحدى وستين سنة وقتله بعض أصحابه
بإشيلية .

وولى بعده ملك اسمه (املريق) خمس سنين .

ثم ولى بعده ملك اسمه (طودش) ثلاث عشرة سنة .

ثم ولى بعده (طودشكل) سنتين .

ثم ملك بعده ملك اسمه (ايلة) خمس سنين، وانتقض عليه أهل قرطبة فخارهم
وردّهم إلى طاعته .

(١) في "العبرج ٢ ص ٢٣٥" طودوشيش .

(٢) في "العبر" الديك بالبدال المهملة .

(٣) في "العبرج ٢ ص ٢٣٦" إبريق . وفيه في هذا الموضع خلاف لما بيدنا من الاصل في كثير

من الاسماء .

ثم ولي بعده ملك اسمه (طنجاد) خمس عشرة سنة .

ثم ولي بعده ملك اسمه (ليوية) سنة واحدة .

ثم ولي بعده ملك اسمه (لوييلده) ثمانى عشرة سنة ، وأنتقضت عليه الأطراف
فأرهبهم وسكنهم ؛ ثم قُتل .

وولى ابنه (رُدرِيق) ستَّ عشرة سنةً ، وهو الذى بنى البلاط المنسوب إليه
بقرطبة .

ولما هلك ولي بعده ملك اسمه (ليوية) ستين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (بثريق) سبع سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (عندمار) ستين .

ثم ملك بعده ملك اسمه (ششيوط) ثمان سنين ؛ وعلى عهده كان (هرقل) ملك
قسطنطينية والشام ، ولعهده كانت الهجرة .

ثم ملك بعده ملك اسمه (رُدرِيق) ثلاثة أشهر .

ثم ملك بعده ملك اسمه (شتنلة) ثلاث سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (ششنادش) خمس سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (خخشوند) سبع سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (جخشوند) ثلاثا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ملك اسمه (بانيه) ثمان سنين .

ثم ولي بعده ملك اسمه (لورى) ثمان سنين .

ثم ملك بعده رجل اسمه (أيقه) ستَّ عشرة سنة .

ثم ولى بعده رجل اسمه (غَطَّسَه) أربع عشرة سنة .

ثم ولى بعده رجل اسمه (لذريق) ستين ، وهو الذى غلبه المسلمون على الأندلس
وفتحوها منه ، وهو آخر من ملك منهم . قال صاحب "الروض المعطار" : وعدد
من ملك منهم إلى آخرهم وهو (لذريق) ستة وثلاثون ملكا .

الطبقة الخامسة

(ملوكها على أثر الفتح الإسلامى)

وكان فتحها فى خلافة الوليد بن عبد الملك : أحد خلفاء بنى أمية فى سنة اثنتين
وتسعين ، وكان من أمر فتحها أن طليطلة كانت دار الملك بالأندلس يومئذ ، وكان
بها بيت معلق متحاشى الفتح ، يلزمه من ثقات القوط قوم قد وكّلوا به كى لا يفتح ،
بعهد الأول بذلك للآخر ، كلما ملك منهم ملك زاد على ذلك البيت قفلا . فلما ولى
«لذريق» الأخير ، عزم على فتح الباب والأطلاع على ما فى البيت ، فأعظم ذلك
أكربهم وتضرّعوا إليه فى الكف ، فأبى وظن أنه بيت مال ، ففصّ الأقفال عنه
ودخله ، فأصابه فارغا لاشيء فيه إلا تابوتا عليه قفل ، فأمر بفتحه فألفاه أيضا فارغا
ليس فيه إلا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب على الخيول ، وعليهم العمام
متقلدو السيوف متنكبوا القسي ، رافعوا الرايات على الرماح ، وفى أعلاه كتابة
بالعجمية فقرئت فإذا هى " إذا كسرت هذه الأقفال عن هذا البيت ، وفتح هذا
التابوت ، فظفر ما فيه من هذه الصور فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس
وتملكها " فوجم لذريق وعظم غمّه وغم الأعاجم ، وأمر برد الأقفال ، وإقرار
الحرس على حالهم .

وكان من سير الأعاجم أن يبعث أكابرهم بأولادهم ذكورا كانوا أو إناثا إلى بلاط الملك، ليتأدبوا بأدبه، وينالوا من كرامته حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئثلا فلا آبائهم . وكان للذريق عامل على سبته من بر العدو يسمى يليان ، وله ابنة فائقة الجمال ، فوجه بها إلى دار للذريق على عادتهم في ذلك ، فوقع نظر للذريق عليها فأعجبته ، فاستكرهها على نفسها فاحتالت حتى أعلمت أباهها بذلك سرا ، فشق ذلك عليه ، وحلف ليزيلن سلطان للذريق ، ثم تلطّف حتى اقتلع بنته من بيت للذريق ، ثم لم يلبث يليان [أن كتب] إلى موسى بن نصير أمير أفريقية من جهة « الوليد بن عبد الملك » يحرضه على غزو الأندلس ، وحثه على ذلك ، ووصف له من حسنها وفوائدها مادعاها إلى ذلك وهوّن عليه أمر فتحها . فتوثق منه موسى بن نصير بذلك ، ودعا مولى له كان على مقدّماته ، يقال له « طارق بن زياد » فعقد له وبعثه إليها في سبعة آلاف ، وهيا له يليان المراكب ، فعبر البحر وحلّ بجبل هناك يعرف الآن (بجبل طارق) فوجد عجوزا من أهل الأندلس - فقالت له : إنه كان لي زوج عالم بالحدّثان ، وكان يحدث عن أمير يدخل بلدنا هذا ، ويصفه بأنه صخّم الهامة وأنت كذلك ، وكان يقول : إنه بكتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة كما ذكرت العجوز ، فاستبشر بذلك .

ويحكى أنه رأى (وهو في المركب) النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة مشوّن على الماء حتى مروا ، فبشّره النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد ، فاستيقظ مستبشرا ، وتيقن الفتح ، وهم البلد فلكها . وكان عسكره قد انتهى إلى آخى عشر ألفا إلا ستة عشر ، وللذريق في ستمائة ألف ، « والله يؤيد بنصره من يشاء » . وأقام طارق بالأندلس حتى قدم إليها مولاه موسى ابن نصير المتقدم ذكره في رجب من السنة المذكورة . وأقام موسى فيها سنتين

ثم أنصرف إلى القيروان ، واستخلف عليها أبته (عبد العزيز) فنزل قرطبة وأخذها دار إماره لهم ؛ وتوجه موسى سنة ست وتسعين بما سباه وما غنمه إلى الوليد ابن عبد الملك ؛ ثم دس سليمان بن عبد الملك على عبد العزيز المذكور من قتله بالأندلس لآتمامه بموالة أخيه الوليد .

ثم وليها بعده (عبد العزيز) ^(١) بن عبد الرحمن القيسي سنتين وثلاثة أشهر .

ثم وليها (السَّمْحُ بن مالك) الخولاني سنتين وتسعة أشهر .

ثم وليها (عَبْسَةُ بن سُحَيْم) الكلابي أربع سنين وخمسة أشهر .

ثم وليها (يحيى بن مسلمة) سنتين وستة أشهر .

ثم وليها (حُدَيْفَةُ بن الأَحْوَص) القيسي سنة واحدة .

ثم وليها (عِثَانُ بنُ أَبِي نِسْعَةَ) الخثعمي خمسة أشهر .

ثم وليها (الهِثَمُ بنُ عَيْدٍ) خمسة أشهر .

ثم وليها (عبد الرحمن بن عبد الله) الغافقي سنتين وثمانية أشهر .

ثم وليها (عبد الملك) بن [قَطَنُ الفهري] ^(٢) أربع سنين .

ثم وليها (عُقْبَةُ بنُ المَجَّاج) خمس سنين وشهرين .

ثم وليها (مُنْزِلُ بنُ بَشْرِ القيسي) ^(٣) أحد عشر شهرا .

ثم وليها (حُسَّامُ بنُ ضَرَّار) الكلابي سنتين .

(١) لعله وليها بعد عبد العزيز أ يوب بن حبيب الخمي كما يؤخذ من نصح الطيب والعبير .

(٢) في الاصل قطار، والتصحيح عن العبرج ٤ ص ١١٩ .

(٣) في "العبرج ٤ ص ١١٩" باخ بن بشر وفيه في هذا المكان زيادة ونقص وتقديم وتأخير في الولاية .

(١) ثم وليها (ثوابة الجُدَامِيّ) سنة واحدة .
 ثم وليها (يوسفُ بنُ عبدالرحمن) الفِهْرِيّ تسع سنين وتسعة أشهر .
 ثم كانت دولةُ بني أمية بالأندلس ، على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

الطبقة السادسة

(بنو أمية ، وكانت دارُ ملكهم بها مدينةُ قُرْطُبَة)

وأول من ملكها منهم (عبدُ الرحمن بنُ معاوية) بن هشام ، بن عبد الملك ،
 ابن مروان ، بن الحكم ، ويُعرف (بعبدالرحمن الداخل) . وذلك أن نبي العباس
 لما نتبَّعوا بني أمية بالقتل ، هرب عبد الرحمن المذكور ، ودخل الأندلس وأستولى
 عليها في سنة تسع وثلاثين ومائة من الهجرة ، وقصده بنو أمية من المشرق والتجَّؤوا
 إليه . وتوفّي في ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين ومائة .
 (٢)

وملك بعده ابنه (هشام) وتوفّي سنة ثمانٍ وسبعين ومائة .
 (٣)

وأستُخلف بعده ابنه (الحكم) وفي أيامه آستعاد الفَرَجُحُ مدينةَ برشلونة في سنة
 خمسٍ وثمانين ومائة ، وتوفّي لأربع بقين من ذى الحجة سنة ستٍّ ومائتين .
 وأقام في الملك بعده ابنه (عبدُ الرحمن) وتوفّي في ربيع الآخر سنة ثمانٍ وثلاثين
 ومائتين .

وملك بعده ابنه (محمد) وتوفّي في سلخ صفر سنة اثنتين وسبعين ومائتين ، وعمره
 خمس وستون سنة .
 (٤)

(١) في "العبر" و"فتح الطيب" ثعلبة بن سلامة الجُدَامِيّ .

(٢) في "الكمال ج ٦ ص ٤٠" و"قيل سنة ثنتين وسبعين ... وهو الاصح .

(٣) في "العبر والكمال" سنة ثمانين ومائة .

(٤) في "الكمال ج ٦ ص ١٥٣" ثلاث وسبعين .

وملك بعده ابنه (المُنْدَر) وتوفى لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين .

وبويع أخوه (عبد الله) يوم موته ، وتوفى في ربيع الأول سنة ثلثمائة .

وولى بعده ابنُ ابنه (عبد الرحمن) بن محمد المقتول ابن عبد الله المتقدم ذكره ، وحوطب بأمر المؤمنين ، وتلقب بالناصر بعد أن مضى من ولايته تسع وعشرون سنة ، عند ما بلغه ضعف خلفاء العباسيين بالعراق وظهور الخلفاء العلويين بأفريقية ، ومحاطبتهم بأمر المؤمنين ، وتوفى في رمضان سنة خمسين وثلثمائة .

وولى الأمر بعده ابنه (الحكم) وتلقب بالمستنصر ، وتوفى سنة ست وستين وثلثمائة .

وعهد إلى ابنه (هشام) ولقبه المؤيد ، وبايعه الناس بعد موت أبيه ، فأقام إلى سنة تسع وتسعين وثلثمائة .

ثم غلبه (محمد بن هشام) بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر المتقدم ذكره ، وتلقب بالمهدى في جمادى الآخرة من السنة المذكورة .

ثم غلبه (سليمان بن الحكم) بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر المتقدم ذكره ، فهرب محمد بن هشام المذكور وأستولى على الخلافة في شوال من السنة المذكورة .

ثم غلبه (محمد بن هشام) المهدى المذكور في منتصف شوال من السنة المذكورة .

ثم عاد (هشام بن الحكم) المتقدم ذكره في سابع ذى الحجة من السنة المذكورة .

ثم عاد (سليمان بن الحكم) المتقدم ذكره في منتصف شوال سنة ثلاث وأربعمائة ، ولقب بالمستعين .

ثم غلبه (المهدى محمد) بن هشام المتقدم ذكره في أحرىات السنة المذكورة .

ثم غلبه (المستعين) على قُرْبُطَةَ ، ثم قُتِلَ المهديُّ محمدُ بنُ هشامِ المذكورِ وعاد [هشام المؤيد^(١)] إلى خلافته ، هذا كله والمستعين محاصر لقرطبة ، إلى أن أفتتحها عنوةً سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتلوا المؤيد هشامًا .

ثم جاء (علي بن حمود) وأخوه (قاسم) من الأدارسة : ملوك الغرب في عساكر من البربر فملكوا قُرْبُطَةَ سنة سبع وأربعمائة وقتلوا المستعين وأزالوا ملك بني أمية من الأندلس ، وأتصل ذلك في خلفهم سبع سنين .

ثم غلب علي بن حمود ، المرتضى بالله عبد الرحمن بن محمد بن عبد الملك ، ابن المرتضى عبد الرحمن بن الناصر أمير المؤمنين .

ثم اجتمعوا على رد الأمر لبني أمية ، ثم ولي بعد ذلك المستظهر بالله (عبد الرحمن) ابن هشام بن عبد الجبار في رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة .

ثم غلب عليه المستكفي بالله (محمد بن عبد الرحمن) بن عبيد الله ، بن عبد الرحمن ، الناصر أمير المؤمنين .

ثم رجع الأمر إلى (يحيى بن علي) بن حمود سنة ست عشرة وأربعمائة .

ثم بويع للعتمد بالله (هشام بن محمد) أخى المرتضى من بني أمية سنة ثمان عشرة وأربعمائة^(٢) . وتوفي بها سنة ثمان وعشرين ، وأتقطعت دولة الأموية من الأندلس ، والله وارث الأرض ومن عليها .

(١) الزيادة عن العبرج ٤ ص ١٥١ لتوضيح المقام .

(٢) في "العبرج ٤ ص ١٥٢" وفر إلى لاردة فهلك بها ...

الطبقة السابعة

(ملوك بني حمود من الأدارسة: ملوك الغرب)

كان في جملة جماعة المستعين: سليمان بن الحكم الأموي المتقدم ذكره القاسم وعليّ
أبنا حمود، بن ميمون، بن أحمد، بن عليّ، بن عبيد الله، بن عمر، بن إدريس بعد
انقراض دولتهم بفاس وانتقالهم إلى تخمارة وقيام رياستهم بها، فعقد المستعين للقاسم
عليّ الجزيرة الخضراء من الأندلس، وعلّيّ عليّ طنجة وعملها من برّ العدو، وطمعت
نفس عليّ بن حمود صاحب طنجة في الخلافة، وزعم أن المؤيد هشاما من بني أمية
عند حصارهم إياه كتب له بعهد الخلافة، فبايعوه بالخلافة وأجاز إلى مالقة فملكها،
ودخل قرطبة سنة سبع وأربعمئة، وتلقب بالناصر لدين الله وأتصلت دولته إلى أن
قتله صقالبتة بالحمام سنة ثمان وأربعمئة.

فولي مكانه أخوه (القاسم) بن حمود الذي كان بطنجة وتلقب بالمأمون.

ثم غلبه عليّ ذلك (يحيى ابن أخيه عليّ) وزحف إلى قرطبة فملكها سنة
ثنتي عشرة وأربعمئة وتلقب بالمعتليّ، وكانت له وقائع كان آخرها أن اتفقوا على تسليم
المدائن والحصون له، فعلا سلطانه، وأشدت أمره، وأخذ في حصار ابن عباد
باشبيلية فجبا به فرسه وقبيل، وأتقطعت دولة بني حمود بقرطبة.

ثم استدعى قومه أخاه (إدريس) بن عليّ بن حمود من سبتة وطنجة فبايعوه عليّ
أن يولي سبتة (حسن ابن أخيه يحيى) فقم له الأمر بمالقة وتلقب بالمؤيد بالله، وبايعه
أهل الميرية وأعمالها ورندة والجزيرة، ومات سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة.

وبايع البربر بعده (حسن بن يحيى) المعتليّ، ولقبوه المستنصر، وبايعته غرناطة
وجملة من بلاد الأندلس، ومات مسموماً سنة ثمان وثلاثين وأربعمئة.

وكان (إدريس بن يحيى) المعتلى معتقلا ، فأُخْرِجَ وَبُوعَ لَهُ سَنَةَ تِسْعَ وَثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ ، وَأَطَاعَتْهُ غَرْ نَاطَةُ وَقَرْمُونَةُ وَمَا بَيْنَهُمَا ، وَلُقِّبَ الْعَالِي ، ثُمَّ قَتَلَ مُحَمَّدًا وَحَسَنًا ابْنَيْ عَمِّهِ إِدْرِيسَ ، فَتَارَ السُّودَانَ بِدَعْوَةِ أُخِيهِمَا مُحَمَّدٍ بِمَالِقَةَ فَأَسْلَمُوهُ .

وَبُوعَ (مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ) الْمَتَائِدَ بِمَالِقَةَ سَنَةَ ثَمَانَ وَثَلَاثِينَ وَتَلَقَّبَ بِالْمَهْدِيِّ ، وَأَقَامَ بِمَالِقَةَ ، وَأَطَاعَتْهُ غَرْ نَاطَةُ وَجَيَّانُ وَأَعْمَالُهُمَا ، وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ .

وَبُوعَ (إِدْرِيسُ بْنُ يَحْيَى) بْنُ إِدْرِيسَ الْمَتَائِدَ وَلُقِّبَ الْمَوْفِقَ وَلَمْ يُحْطَبْ لَهُ ، وَزَحَفَ إِلَيْهِ إِدْرِيسُ الْخَلُوعُ الْمَلْقَبُ بِالْعَالِي ابْنُ يَحْيَى الْمَعْتَلِيَّ مِنْ قَسَارِشَ فَبُوعَ لَهُ بِمَالِقَةَ إِلَى أَنْ هَلَكَ سَنَةَ سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ .

وَبُوعَ (مُحَمَّدُ الْأَصْغَرُ) ابْنُ إِدْرِيسَ الْمَتَائِدِ وَلُقِّبَ الْمَسْتَعْلِيَّ ، وَحُطِّبَ لَهُ بِمَالِقَةَ وَالْمَرِيَّةَ وَرُنْدَةَ ، وَهَلَكَ سَنَةَ سِتِينَ وَأَرْبَعِينَ .

وَكَانَ (مُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ) بْنُ حَمُودٍ قَدْ لَحِقَ بِالْجَزِيرَةِ الْخَضْرَاءَ سَنَةَ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِينَ فَلَمَّا مَلَكَهَا وَتَلَقَّبَ بِالْمَعْتَصِمِ ، وَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ مَاتَ سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِينَ .

ثُمَّ مَلَكَهَا مِنْ بَعْدِهِ (أَبْنُهُ الْقَاسِمُ) وَلُقِّبَ الْوَائِقَ ، وَهَلَكَ سَنَةَ نَحْسِينَ ، وَصَارَتِ الْجَزِيرَةُ الْخَضْرَاءَ لِلْعَتَصِدِّ بْنِ عَبَّادٍ ، وَأَنْقَرَضَتْ دَوْلَةُ بَنِي حَمُودٍ بِالْأَنْدَلُسِ .

الطبقة الثامنة

(ملوك الطوائف بالأندلس)

لَمَّا أَحْصَى أَمْرَ الْخِلَافَةِ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ وَبَنِي حَمُودٍ بَعْدَهُمْ بِالْأَنْدَلُسِ ، وَثَبَّ الْأُمَرَاءُ عَلَى الْجِهَاتِ ، وَتَفَرَّقَ مُلْكُ الْأَنْدَلُسِ فِي طَوَائِفَ مِنَ الْمَوَالِي ، وَالْوُزَرَاءِ ، وَبِجَارِ الْعَرَبِ وَالْبُرْبَرِ ، وَقَامَ كُلُّ مِنْهُمْ بِأَمْرِ نَاحِيَةٍ ، وَتَغَلَّبَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَضَعُفَ

أمرهم حتى أعطوا الإناوة لملوك الفرنجة من بني أدفونش حتى أدركهم الله بأمر المسلمين يوسف بن تاشفين .



فأما إشبيلية وغرب الأندلس فاستولى عليهما بنو عبّاد .

كان أولهم القاضي أبو القاسم (محمد بن ذى الوزارتين) أبو الوليد، بن إسماعيل ، ابن قريش ، بن عبّاد ، بن عمرو ، بن أسلم ، بن عمرو ، بن عطّاف ، بن نعيم الحمصي ، وأستبد بإشبيلية بعد فرار القاسم بن حمّود عن قرطبة ، أنترعها من ابن زيري وكان والياً عليها من جهة القاسم بن حمّود المذكور ، وبقي بها إلى أن مات سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

ولما مات قام بأمره ابنه (عبّاد) وثقب المعتضد ، وطالت أيامه ، وتغلب على أكثر الممالك بغرب الأندلس ، وبقي حتى مات سنة إحدى وستين وأربعمائة .

وولى مكانه ابنه (أبو القاسم محمد) الملقب بالمعتد ، بخرى على سنن أبيه وأستولى على دار الخلافة بقرطبة من يد ابن جهّور ، وقرق أبناءه على قواعد الملك ، وأستفحل ملكه بغرب الأندلس ، وغلب على من كان هناك من ملوك الطوائف ، وبقي حتى غلب أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » على الأندلس فقبض عليه ، ونقله إلى أغمات : قرية من قرى مراکش سنة أربع وثمانين وأربعمائة ، وأعتقله بها إلى أن هلك سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .



وأما قرطبة فاستولى عليها بنو جهّور . وكان رئيس الجماعة بقرطبة أيام فتنة بني أمية ، أبو الحزم (جهّور بن محمد) بن جهّور ، بن عبد الله ، بن محمد ، بن الغمر ،

(١) في العبرج ٤ ص ١٥٩ "المعمر" وهو تصحيف .

أبن يحيى ، بن أبي المَعَاظِ ، بن أبي عبيدة الكلبي . وأبو عبيدة هذا هو الداخلُ إلى الأندلس ، وكانت لهم وزارة بقرطبة بالدولة العاصمية . ولما خلع الجند « المقندر بالله »^(١) آخر خلفاء بني أمية بالأندلس ، استبدَّ جَهْورُ بالأمر وأستولى على المملكة بقرطبة سنة ثنتين وعشرين وأربعمائة ، وكان على سنن أهل الفضل ، فأسندوا أمرهم إليه إلى أن يوجد خليفة ، ثم اقتصروا عليه فدبّر أمرهم إلى أن هلك في المحرم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة .

وولي مكانه ابنه (أبو الوليد محمد بن جهور) فخلعه أهل قرطبة سنة إحدى وستين وأربعمائة ، وأخرجوه [ثم فوض التدبير إلى ابنه عبد الملك بن أبي الوليد فأساء السيرة فأخرجوه]^(٢) عن قرطبة ، فاعتقل [بشلطيش]^(٣) إلى أن مات سنة ثنتين وستين .

وولي ابن عباد على قرطبة ابنه (سراج الدولة) وقتله ابن عكاشة سنة سبع وستين ، ودعا لابن ذى النون (يحيى بن إسماعيل) وقدمها ابن ذى النون من بلنسية^(٤) وقتل بها مسموما .

وزحف المعتمد بن عباد بعد مهلكه إلى قرطبة ، فلكها سنة أربع وثمانين وأربعمائة .

(١) في "العبرج ٤ ص ١٥٩" المعتر وتقدم للؤلؤف أن آخرهم المعتمد .

(٢) الزيادة من القطعة الأزهرية .

(٣) الزيادة من العبرج ٤ ص ١٥٩ .

(٤) يؤخذ من "العبرج ٤ ص ١٥٩" أن الذى قتل مسموما هو سراج الدولة .



وأما بَطْلَيْوُسُ ، فكان بها عند فتنه بنى أُمَيَّةَ بالأنْدَلُس أبو محمد (عبد الله بن مَسْلَمَةَ) التَّجِيبِي المعروف بآبن الأَفْطَس ، وأسْتَبَدَّ بها سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، ثم هلك .

فولِيَ من بعده أبْنُه المظْفَر (أبو بكر) وعَظُم مُلْكُه . وكان من أعظم ملوك الطوائف ، ومات سنة ستين وأربعمائة .

وولِيَ بعده أبْنُه المتوَكَّل (أبو حَفْص عمر) بن محمد المعروف بساجعة ، ولم يزل بها إلى أن قتله « يوسف بن تاشفين » سنة تسع وثمانين وأربعمائة باغراء ابن عبَّاد به .



وأما غَرْناطَةُ ^(١) ، فملكها أيام الفتنه (زارى بن زيرى) بن مِيَاد ، ثم ارتحل إلى القَيْرَوَان وأسْتَخْلَف على غَرْناطَة أبْنُه ، فبدأ لأهل غَرْناطَة أن بعثوا إلى ابن أخيه (حيوس بن ماكس) بن زيرى من بعض الحصون ، فوصل وملك غَرْناطَة وأسْتَبَدَّ بها ، وتُوَفِّي سنة تسع وعشرين وأربعمائة .

وولى مكانه أبْنُه (باديس) وكانت بينه وبين بني عبَّاد حروب ، وتُوَفِّي سنة سبع وستين وأربعمائة .

وولى حافده المظْفَر أبو محمد (عبدالله بن بُلَيْكِين بن باديس) وولَّى أخاه تيمياً بمالقة بعهد جدّه إلى أن خلعهما « يوسف بن تاشفين » سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

(١) من هنا إلى قوله وأما طليطلة مضرب عابه في القطعة الأزهرية وأقتصر على ماسياتى في الكلام على غرناطة قبيل الطبعة التاسعة .



وأما طَلَيْطَلَةٌ ، فاستولى عليها بنو ذى النون . وذلك أن الظافر إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذى النون الهواري [تغلب] أيام الفتنة على حصن أفلنتين سنة تسع وأربعمائة ، وكانت طَلَيْطَلَةٌ ليعيش بن محمد بن يعيش وليها في أول الفتنة ، فلما مات سنة سبع وعشرين مضى إسماعيل الظافر إلى طَلَيْطَلَةَ فلما ملكها ، وأمتد ملكه إلى جنجاله من عمل مُرْسِيَّةَ ، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين .

فولى مكانه أبنته المأمون (أبو الحسن يحيى) فاستفحل ملكه ، وعظم بين ملوك الطوائف سلطانه ، ثم غلب على بلنسية وقرطبة ، ومات مسموما سنة سبع وستين وأربعمائة .

وولى بعده على طَلَيْطَلَةَ حافده (القادر يحيى) بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذى النون ،

وكان الطاغية أدفونش ملك الفرنج بالأندلس قد استفحل أمره عند وقوع الفتنة بين ملوك الأندلس فضايق ابن ذى النون حتى تغلب على طَلَيْطَلَةَ وخرج له عنها (القادر يحيى) سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ، وشرط عليه أن يظهره على أخذ بلنسية ، فقبل شرطه وتسلمها الأدفونش ملك الفرنج ، وبقيت معه إلى الآن أعادها الله تعالى إلى نطاق الإسلام .



وأما شاطِبَةٌ وما معها من شرق الأندلس ، فاستولى عليها العامريون . بوبع للنصور (عبد العزيز) بن الناصر عبدالرحمن بن أبي عامر بشاطبة سنة إحدى عشرة

(١) الزيادة عن العبر . ج ٤ ص ١٦١

(٢) لها جنجال .

وأربعائة، أقامه الموالي العامريون عند الفتنة البربرية في زمن بني أمية، فاستبد بها، ثم نار عليه أهل شاطبة فترك شاطبة ولحق بلنسية فلكها، وفوض أمره للوالي .

وكان (خيران العامري) من مواليمهم قد تغلب قبل ذلك على أربونة سنة أربع وأربعائة، ثم ملك مرسية سنة سبع، ثم جيان والمرية سنة تسع، وبايعوا جميعا للنصور عبد العزيز . ثم انتقض خيران على المنصور وسار إلى مرسية وأقام بها ابن عمه (أبا عامر محمد بن المظفر) بن المنصور بن أبي عامر، وجمع الموالى على طاعته، وسماه (المؤمن) ثم (المعتصم) ثم أخرجه منها، ثم هلك خيران سنة تسع عشرة وأربعائة .

وقام بأمره بعده الأمير (عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري) وزحف إلى غرناطة فبرز إليه باديس بن حيوس فقتله بظاهاها سنة تسع وعشرين وأربعائة، وصار ملكه للنصور (عبد العزيز) صاحب بلنسية .

وكان قائده صمادح وأبنة معن يتوليان حروبه مع مجاهد العامري صاحب دانية، فوثنى على المرية (معن بن صمادح) سنة ثلاث وثلاثين وأربعائة، وغزا الموالى العامريين بشاطبة فغلبهم عليها .

ووثنى على بلنسية أبنة (عبد الملك) فقام بأمره وجاهد المأمون بن ذى النون فغلبه على بلنسية وانتزعها منه سنة سبع وخمسين .

ولما مات المأمون وولى حافده القادر على ما تقدم ذكره وثنى على بلنسية (أبا بكر) ابن عبد العزيز ببيعة وزراء ابن أبي عامر، فحسن له ابن هود الانتقاض على القادر، ففعل وأستبد بها سنة ثمان وستين وأربعائة حين تغلب المقتدر على دانية، ثم هلك لسنة ثمان وسبعين لعشر سنين من ولايته .

ووليَّ ابنه القاضي (عثمان) فلما سلم القادرُ بنُ ذى النون طليطلةَ للأدفونش وزحف إلى بلنسية، خلعوا القاضي عثمانَ خوفاً من استيلاء ملك الفرنج عليها .

ثم ثار على القادر سنة ثلاث وثمانين القاضي (جعفر بن عبد الله) بن حجاج، فقتله وأستبد بها، ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وثمانين وقتلوه، ثم جاءهم (يوسف بن تاشفين) .

وأما معن بن صمّاح قائد عبد العزيز بن أبي عامر، فإنه أقام بالمريّة لما ولّاه المنصور سنة ثلاث وثلاثين، وتسمى ذا الوزارتين، ثم خلعه .

ووليَّ ابنه (المعتصم أبا يحيى محمد بن معن بن صمّاح) سنة أربع وأربعين، ولم يزل بها أميراً إلى أن مات سنة ثمانين وأربعمائة .

ووليَّ ابنه (أحمد) وبقي حتى خلعه يوسف بن تاشفين .



وأما سرقسطة والنّغر فاستولى عليهما بقية بنى هود، إذ كان منذر بن يحيى بن مطرف، بن عبد الرحمن، بن محمد، بن هاشم التّجيبى صاحب النّغر الأعلى بالأندلس، وكانت دار إمارته سرقسطة. ولما وقعت فتنة البربر آحر أيام بنى أمية، استقل (منذر) هذا بسرقسطة والنّغر، وتلقب بالمنصور، ومات سنة أربع عشرة وأربعمائة .

ووليَّ مكانه ابنه (يحيى) وتلقب بالمظفر .

وكان أبو أيوب (سليمان بن محمد) بن هود بن عبد الله بن موسى، مولى أبي حديفة الحُدّامى من أهل نسبهم مستقلاً بمدينة (تطيلة) و(لاردة) من أول الفتنة. وجدّهم

هُودٌ هو الداخل إلى الأندلس ، فتغلب سليمان المذكور على المظفر يحيى بن المنذر وقتله سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة ، وملك سرقسطة والنغر من أيديهم ، وتحول إليها ، وتلقب بالمستعين وأستفحل ملكه ، ثم ملك بلنسية ودانية . وولى على لاردة ابنه (أحمد المقتدر) ومات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

فولى ابنه (أحمد) الملقب بالمقتدر سرقسطة وسائر النغر الأعلى ، وولى ابنه (يوسف) الملقب بالمظفر لاردة . ومات أحمد المقتدر سنة أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنة من ملكه .

فولى بعده ابنه (يوسف المؤمن) وكان له اليد الطولى في العلوم الرياضية ، وألف فيها التأليف الفائقة ، مثل ” المناظر ” و ” الاستكمال ” وغيرهما ، ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وولى بعده ابنه (أحمد) الملقب بالمستعين ، ولم يزل أميراً بسرقسطة إلى أن مات شهيدا سنة ثلاث وخمسة في زحف ملك الفرنج إليها .

وولى بعده ابنه (عبد الملك) وتلقب عماد الدولة ، وزحف إليه الطاغية أدفونش ملك الفرنج فملك منه سرقسطة وأخرجه منها ، وأستولى عليها سنة ثنتي عشرة وخمسة ، ومات سنة ثلاث عشرة .

وولى ابنه (أحمد) وتلقب سيف الدولة والمستنصر ، وبالغ في النكايه في الطاغية ملك الفرنج ، ومات سنة ست وثلاثين وخمسة .

وكان من ممالك بنى هود هؤلاء طرطوشة ، وقد كان ملكها (مقاتل) أحد الموالى العاصرين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، ومات سنة خمس وأربعين .

(١) الذى فى العبرج ٤ ص ١٦٢ ” الاستهلال ” .

وملكها بعده (يَعْلَى العامريُّ) ولم تُطَلِّ مدته .

وملكها بعده (نَيْلٌ) ^(١) أحدُهم إلى أن نزل عنها لعهد الدولة (أحمد بن المستعين) سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة، فلم تزل في يده ويد بيده بعده إلى أن غلب عليها العدو المخذول فيما غلب عليه من شرق الأندلس .



وأما دانيةٌ وميُورقةٌ ، فاستولى عليهما (مُجاهدُ بن علي) بن يوسف مولى المنصور ابن أبي عامر؛ وذلك أنه بعد الفتنة كان قد ملك طُرطُوشة ثم تركها وسار إلى دانيةٍ وأستقر بها؛ وملك ميُورقة [ومنورقة] وبباسة، وأستقل بملكها سنة ثلاث عشرة وأربعمائة، وولى عليها ابن أخيه (عبدالله) ثم ولى عليها بعد ابن أخيه مولاة (الأغلب) سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة . وهلك مجاهدُ سنة ستٍّ وثلاثين وأربعمائة .

وولى ابنه (علي) وتلقب بإقبال الدولة، ودام ملكه ثلاثا وثلاثين سنةً ، ثم غلبه المقتدرُ بن هُودٍ علي دانيةً سنة ثمانٍ وستين وأربعمائة ونقله إلى سرقسطة ، فسُت قريبا من [وفاة المقتدر] ^(٢) سنة أربع وسبعين وأربعمائة؛ وبقي الأغلبُ مولى مجاهد علي ميُورقة ، وكان كثير الغزوة في البحر فاستأذن علي بن مجاهد في الغزو ، وأستخلف علي ميُورقة صهره سليمان بن مشكجان نائبا عنه فأقام سليمانُ خمس سنين ثم مات فولى علي بن مجاهد مكانه (مبشرا) وتسمى ناصر الدولة) فأقام خمس سنين ، وأنقرض ملك علي بن مجاهد وتغلب عليه المقتدر بن هُودٍ ناستقل (مبشر) بميُورقة ولم يزل يردد الغزو إلى بلاد العدو حتى جمع له طائفة برشلونة وحاصره بميُورقة عشرة

(١) في "العبرج" ص ١٦٣ "شيدل .

(٢) الزيادة من "العبرج" ص ١٦٥ .

أشهر، ثم أقتلها منه واستباحها سنة ثمان وخمسمائة؛ وكان مبشر قد بعث بالصريح إلى (علي بن يوسف) صاحب المغرب، فلم يوافق أسطولاً بالمسد إلا بمد تغلب العدو عليها وموت مبشر، فلما وصل العساكر والأسطول دفعوا عنها العدو وولى علي بن يوسف عليها من قبله (وانود بن أبي بكر المثنوي) ثم عسف بهم فولى عليها (يحيى بن علي بن إسحاق) بن غانية صاحب غرب الأندلس فبعث إليها أخاه (محمد بن علي) فأقام في ولايتها عشر سنين إلى أن هلك أخوه يحيى، وسلطاهم علي بن يوسف وأستقرت ميورقة في ملك بني غانية وكانت لهم بها دولة ثم ملكها الموحدون وأتقروا أمر بني غانية وبقيت في أيدي الموحدين حتى ملكها القرنج من أيديهم آخر دولتهم.

وأما غرناطة فاستولى عليها (زارى بن زيري) بن مياد الصنهاجي، ثم عن له أن قدم علي المعز بن باديس صاحب أفريقية وهو حفيد أخيه بلكين، فقدم عليه وأستخلف مكانه بغرناطة ابناً له فأساء السيرة فيهم فأرسلوا إلى ابن عمه حيوس بن ماكس بن زيري فغضر إليهم فبايعوه، وعظم فيها سلطانه إلى أن مات سنة تسع وعشرين وأربعمائة.

وولى من بعده ابنه (باديس بن حيوس) وتلقب بالمظفر، وهو الذي مضر غرناطة وأختط قصبته وشيد قصورها وحصن أسوارها، ومات سنة سبع وسبعين وأربعمائة، وقد ظهر أمر المرابطين بالمغرب.

وولى من بعده حافده (عبد الله بن بلكين) بن باديس فبقى بها إلى أن أجاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، ونزل بغرناطة سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة فقبض على عبدالله المذكور.

الطائفة التاسعة

(ملوك المرابطين من لمتونة : ملوك الغرب المتغلبين على الأندلس)

لما غلب أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) أمير المرابطين على بلاد المغرب وأستولى عليها، وكان الأندلس قد تقسم بأيدي ملوك الطوائف كما تقدم، وكان الطاغية ابن الأدفونس ملك الجلالقة قد طمع في بلاد الأندلس، بعث أهل الأندلس إلى أمير المسلمين يستصرخون به فلبى دعوتهم وسار إلى الأندلس .

ونزل الجزيرة الخضراء في سنة تسع وسبعين وأربعمائة ودفع الأدفونس، وسارتارة ببلاد المغرب وتارة ببلاد الأندلس، وملك إشبيلية وبلنسية، وأستقل (عبدالله بن بلكين) عن غرناطة وأخاه تيماء عن مالقة وغلب المعتمد بن عباد على جميع عمله وأستزل ابنه المأمون عن قرطبة وأبناه الراضي عن رندة وقرمونة، وأنتزع بطليوس من صاحبها عمر بن الأفضس، وأنتزع عامة حصون الأندلس من أيدي ملوك الطوائف، ولم يبق منها إلا سرقسطة في يد المستعين بن هود، وأنتظمت بلاد الأندلس في ملكه وأتقرض ملك الطوائف أجمع منها، وأستولى على العدوتين وخاطب المستظهر الخليفة العباسي ببغداد في زمنه فمقد له على المغرب والأندلس وكتب له بذلك عهدا وأرسله إليه، ولم يزل الأمر على ذلك حتى توفي سنة خمسماية .

وقام بالأمر بعده ابنه (علي بن يوسف) وفي أيامه تغلب الأدفونس على سرقسطة وأستولى عليها .

وعقد علي بن يوسف لولده (تاشفين) على غرب الأندلس سنة ست وعشرين وخمماية وأزله قرطبة وإشبيلية، وعقد (الأبي بكر بن ابراهيم) على شرق الأندلس وأزله بلنسية، وعقد (الأبن غانية) على الجزائر الشرقية : دانية وميورقة ومنورقة .

وبقي الأمر على ذلك إلى أن غلب الموحدون على بلاد المغرب وابتزعوها من يد تاشفين
ابن علي في سنة إحدى وخمسين وملكوها .

ثم عقد عبد المؤمن أمير الموحدين لابنه (أبي يعقوب) على إشبيلية، ولابنه
(أبي سعيد) على غرناطة ثم كانت أيام يوسف بن عبد المؤمن فغزا الأندلس،
ثم رجع إلى إشبيلية سنة ثمان وستين وولّى عمّه (يوسف) على بلنسية، وعقد
لأخيه (أبي سعيد) على غرناطة، وعقد على قرطبة لأخيه (الحسن) وعلى إشبيلية
لأخيه (علي) . ثم عقد (لأبي زيد) ابن أخيه أبي حفص على غرناطة ولابن
أخيه أبي محمد عبد الله بن أبي حفص على مالقة . ثم عقد لابنه أبي إسحق على
إشبيلية ولابنه يحيى على قرطبة ، ولابنه أبي يزيد على غرناطة ولابنه أبي عبد الله
على مرسية . وقتل في قتال النصارى في صفر سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وولى ابنه (أبو يعقوب) ورغب ابن أدفونش في مهادنته فهادنه . وعقد
على إشبيلية للسيد أبي زيد بن الخليفة ، وعلى بطليوس لأبي الربيع بن أبي حفص ،
وعلى غرب الأندلس لأبي عبد الله بن أبي حفص . ورجع إلى مرّاكش سنة أربع
وتسعين وخمسمائة ومات بعدها .

وولى ابنه الناصر (محمد بن المنصور) ونزل إشبيلية ، وذلك في صفر سنة تسع
وسمائة ثم رجع إلى مرّاكش فمات بها .

وولى بعده ابنه (المستنصر يوسف) وكان الوالي بمرسية أبا محمد عبد الله بن
المنصور فدعا لنفسه ، وتسمى بالعدل ، وكان اخوته أبو العلاء صاحب قرطبة
وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحب مالقة فباعوه سرا وخرج من

مُرْسِيَةَ إِلَى إِشْبِيلِيَّةَ فَدْخَلَهَا وَبَعَثَ إِلَيْهِ الْمُوَحِّدُونَ بِالْبَيْعَةِ ، وَدَخَلَ مَرَّاكُشَ فَكَانَتْ
بِالْأَنْدَلُسِ قَتْنٌ آخَرُهَا أَنْ ثَارَ ابْنُ هُوْدٍ عَلَى الْأَنْدَلُسِ وَأَسْتَوْلَى [عَلَيْهِ] وَأُخْرِجَ مِنْهُ
الْمُوَحِّدِينَ .

الطائفة العاشرة

(بنو الأحمر ملوك الأندلس إلى زماننا هذا)

وقد تعرض القاضي شهاب الدين بن فضل الله إلى الذي كان في زمانه منهم
وهو (يوسف) ولم ينسبه غير أنه قال : إنه من ولد قيس بن سعد بن عبادة .
ثم ذكر أنه فاضل ، له يد في الموشحات .

وأعلم أن بنى الأحمر هؤلاء أصلهم من أرجونة من حصون قرطبة وينتسبون
إلى سعد بن عبادة سيد الخزرج ، ولم أفق على نسبهم إليه ، ويعرفون ببني نصر ،
وكان كبيرهم آخردولة الموحدين الشيخ أبو دُبُوس (محمد بن يوسف) بن نصر
المعروف بابن الأحمر وأخوه إسماعيل ، وكان لهما وجاهة ورياسة في تلك الناحية .

ولما ضعف أمر الموحدين بالأندلس وأستقل بالأمر محمد بن يوسف بن هود
النائر بمُرْسِيَةَ وقام بدعوة العباسية بالأندلس وتغلب على جميع شرق الأندلس ،
ثار محمد بن يوسف بن نصر : جد بنى الأحمر على محمد بن يوسف بن هود ، وبويع
له سنة تسع وعشرين وستائة ، على الدعاء للأمير أبي زكريا يحيى صاحب أفريقيا
من بقية الموحدين ، وأطاعته جيان وشريش في السنة الثانية من مبايعته . ثم بايع
لابن هود سنة إحدى وثلاثين عند وصول تقليد الخليفة من بغداد لابن هود . ثم
تغلب على إشبيلية سنة ثنتين وثلاثين ، وأستعبدت منه بعد شهر ورجعت لابن هود

(١) [ثم تغلب] على غرناطة سنة خمس وثلاثين، وباعوه وهو يجيان، فقدم إليها ونزلها وأبنتى بها حصن الحمراء منزلاً له، وهو المعبر عنه بالقصبة الحمراء: وهي القلعة؛ ثم تغلب على مالقة وأخذها من يد عبد الله بن زنون النائر بها بعد مهلك ابن هود؛ ثم أخذ المريّة من يد محمد بن الرميبي وزير ابن هود النائر بها سنة ثلاث وأربعين. ثم بايعه أهل لورقة سنة ثلاث وستين [وأنتزعا] ممن كانت بيده. وفي أيامه وأيام ابن هود النائر استعاد العدو الخذول من المسلمين أكثر بلاد الأندلس وحصونه، وهي بيدهم إلى الآن، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

وبقي حتى مات سنة إحدى وسبعين وستمائة.

وقام بأمره من بعده ابنه الفقيه (محمد) ابن الشيخ محمد بن يوسف، وأستجاش بني صرين ملوك المغرب على أهل الكفر فلبّوه بالإجابة؛ وكان لهم مع طاغية الكفر وقائع أبلغت فيهم التأثير، وبلغت فيهم حد النكاية، وبقي حتى هلك سنة إحدى وسبعائة.

وولي من بعده ابنه (محمد المخلوع) ابن محمد الفقيه.

ثم غلب عليه أخوه (أبو الجيوش نصر بن محمد) الفقيه، وأعتقله سنة ثمان وسبعائة، وأستولى على مملكته، فأساء السيرة في الرعية، والصحبة لمن عنده من غزاة بني صرين.

فبايعوا (أبا الوليد إسماعيل) ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ابن نصر، وزحف من مالقة إلى غرناطة، فهزم عساكر أبي الجيوش، فصالحه على الخروج إلى وادياش ولحق بها، فجدد له بها ملكاً إلى أن مات سنة ثنتين وعشرين

(١) وسبعائة ، فدخل أبو الوليد إلى غرناطة وملكها ، وكان بينه وبين ملك قشتالة من ملوك النصارى واقعةً بظاهر غرناطة ظهرت فيها معجزةٌ من معجزات الدين لغبلة المسلمين مع قتلهم المشركين مع العَدَد الكثير ، وغدر به بعض قرابته من بني نصر فطعنه عند ما انقضَّ مجلسه بباب داره فقتله .

وبُويع لابنه (محمد بن أبي الوليد إسماعيل) فاستولى عليه وزيره محمد بن المحروق ، وغلِب عليه حتى قتلَه بجلسه غَدراً في سنة تسع وعشرين وسبعائة ، وأستبدَّ بأمر ملكه ، وأستجاش بني مرين على طاعة الكُفْر حتى أسترجع جبل الفتح من أيديهم سنة ثلاثٍ وثلاثين وسبعائة ، وغدروا به بعد رجوعه من الجبل المذكور إلى غرناطة فقتلوه بالرماح .

وقدموا مكانه أخاه (أبا المجاج يوسف) بن أبي الوليد إسماعيل وهو الذي ذكر في التعريف أنه كان في زمانه . وفي أيامه تغلب النصارى على الجزيرة الخضراء ، وأخذوها صلحاً سنة ثلاث وأربعين بعد حروب عظيمة ، قُتِل ولد السلطان أبي الحسن المريني في بعضها وكان هو بنفسه في بعضها . ولم يزل حتى مات يومَ الفطر سنة خمس وخمسين وسبعائة ، طُعن في سجوده في صلاة العيد ، وقُتِل للبحر قاتله .

وولي مكانه ابنه (محمد بن يوسف) وقام بأمره مولاهم رضوان الحاجب [فغلبه عليه وحجبه . وكان أخوه إسماعيل ببعض قصور الحمراء وكانت له ذمة وصهر من محمد بن عبد الله بن إسماعيل بن محمد ابن الرئيس أبي سعيد ، فسلط محمد هذا بعض الزعانة فسور حصن الحمراء على الحاجب فقتله ، وأخرج صهره إسماعيل ونصبه

(١) في الاصل ستمائة وهو خطأ .

(١) للملك [وخلع أخاه السلطان محمدا ، وكان بروضة خارج الحمراء ففرّ إلى السلطان أبي سالم بن أبي الحسن المرينيّ : ملك المغرب فأحسن نُزله وأكرمه .

وأستقلّ أخوه (إسماعيل بن يوسف) بالملك في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم قدره ، سنة ستين وسبعائة ، وأقام السلطان إسماعيل في الملك بالأندلس إلى أن مات أول سنة ثلاث وتسعين وسبعائة .

وَأَقِيم مكانه أبو الجحاح (يوسف بن إسماعيل) وبايعه الناس ومات سنة أربع وتسعين وسبعائة .

وبويع ابنه (محمد) وهو محمد بن يوسف بن محمد الخلوع بن يوسف بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ، وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من جماعة أبيه ، وقد شغل الله طاعة الكفر بما وقع بينه وبين أخيه من الفتن المستأصلة ، فامتنع صاحبُ الأندلس عما كان يؤديه من الإتاوة للنصارى في كل سنة ، وامتنع ذلك من استقبال سنة ثنتين وسبعين وسبعائة وإلى هذا الوقت . ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغِيظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ .



وَأَعْلَم انه لما أفتتح المسلمون الأندلس ، أجمعت أُمم النصرانية أمامهم إلى سيف البحر من جانب الخوف ، وتجاوزوا الدروب من وراء قشتالة ، واجتمعوا بجليقية وملكوا عليهم (بلاية بن قافلة) فأقام في الملك تسع عشرة سنة ، وهلك سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة .

(١) الزيادة عن العبرج ٤ ص ١٧٤ باختصار ليستقيم الكلام . وفي القطعة الأزرية رضوان حاجب أبيه وعمه فأقام خمس سنين ، ثم داخل أخوه إسماعيل من قتل رضوان الحاجب وخلع الخ
(٢) لعله يوسف بن محمد كما يؤخذ من اسم ولده الآتي .

ووليّ أبْنُه (قائلة) ستين ثم هلك ، فولّوا عليهم بعده (أدفونش بن بطّرة) من الجلالقة أوالقُوط ، وأتصل الملك في عقبه إلى الآن ، فجمعهم أدفونش المذكور على حَماية ما بقى من أرضهم بعد مملك المسلمين عامتها ، وأنتهوا إلى جليقية ، وهلك سنة ثنتين وأربعين ومائة لثمان عشرة سنة من ملكه .

ووليّ بعده أبْنُه (فرويلة) إحدى عشرة سنة قوی فيها سلطانه ، وقارنه اشتغال « عبد الرحمن الداخل » : أوّل خلفاء بني أمية بتمهيد أمره ، فاسترجع مدينة لك ، وبرتقال ، وسمورة ، وسامنقة ، وشقوبية ، وقشتالة ، بعد أن فتحها المسلمون وصارت في مملكتهم ، وهلك سنة ثنتين وخمسين .

ووليّ أبْنُه (أور بن فرويلة) ست سنين ، وهلك سنة ثمان وخمسين .

ووليّ أبْنُه (شبلون) عشر سنين ، وهلك سنة ثمان وستين .

فولّوا من بني أدفونش مكانه رجلا اسمه (أدفونش) فوثب عليه (مورفاط) فقتله وملك مكانه سبع سنين .

ثم وليّ منهم آخر اسمه (أدفونش) ثنتين وخمسين سنة ، وهلك سنة سبع وعشرين ومائتين .

فوليّ أبْنُه (ردمير) وأتصل الملك في عقبه على التوالي إلى أن وليّ منهم (ردمير) بن أردون آخر ملوكهم المستبدين بأمرهم . قال ابن حيان : في " تاريخ الأندلس " : وكانت ولايته بعد ترهب أخيه أدفونش الملك قبله ، وذلك سنة تسع عشرة وثلثمائة في زمن الناصر الأمويّ الخليفة بالأندلس ، وتهايا للناصر الظهور عليه إلى أن كانت وقعة الحندق سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، وحصل للمسلمين فيها الأبتلاء العظيم ، وهلك ردمير سنة تسع وثلاثين وثلثمائة .

ووليّ أخوه (شانجة) وكان مُعجباً تيّها فوهن مُلكه ، وَضعف سلطانه ، ووثب عليه قَوَامِسٌ دَوْنَه - وهم ولاةُ الأعمال من قِبَلِ الملكِ الأعظم - فلم يَنْتِظِمْ لِنبي أدفونش بعدها مُلكٌ مستقِلٌ في الجَلَالِقة إلا بعدَ حين ، وصاروا كَأَكْوَكِ الطوائف . قال ابن حيان : وذلك أن فُرْدُلْنُدَ قَوْمَسُ أَلِيَةَ وَالقِلَاعِ - وكان أعظم القَوَامِسِ - آنتَقَضَ على شانجة المتقدم ذكره ، وَنَصَبَ للملك مكانه ابن عمه (أردون بن أدفونش) وَأَسْتَبَدَّ عليه ، فالت النصرانية عن شانجة إليه ، وظاهرهم ملك البشكنس على شانجة ، ووفد شانجة على الناصر الأمويّ بِقُرْطَبَة صريحاً ؛ بِجَهَّزَ معه عساكراً وَأَسْتَوَلَى على سَمُورَةَ فملكها وَأَنْزَلَ المسلمين بها ، وَأَتَصَلَّتِ الحربُ بين شانجة وَفُرْدُلْنُدِ القَوْمَسِ . وفي خلال ذلك وَلِيَ الحَكَمَ المستنصرُ الأمويّ ؛ ثم هلك شانجة بن أدفونش بِبَطْلَيْمُوسَ .

وقام بأمرهم بعده ابنه (ردمير) وهلك أيضاً فُرْدُلْنُدَ قَوْمَسُ أَلِيَةَ وَالقِلَاعِ ؛ وقام بأمره بعده ابنه غريسة ، ومات الحَكَمَ المستنصرُ فقوى سلطانُ ردمير ، وعظمت نِكايتُهُ في المسلمين إلى أن قَبِضَ اللهُ لهم المنصورَ بنَ أبي عاصرٍ حاجِبَ هشام ؛ فَأَتَمَّنْ فِي عَمَلِ ردمير وغزاه مراراً وحاصره ؛ وَأَفْتَتَحَ (سَنَتَ مَانَكْسَ) وحرَبها فَنَشَاءَتِ الجَلَالِقةُ بِردمير ، وَرَجَعَ إلى طاعة المنصور سنة أربع وسبعين وثلاثمائة ؛ وهلك على أَثَرِها ؛ فَأَطَاعَتِ أمه .

وَأَتَمَّقَتِ الجَلَالِقةُ على (بُرْمُنْدَ بنِ أَرْدُونِ) فعقد له المنصور على سَمُورَةَ وليون وما أَتَصَلَ بهما من أعمالِ غليسية إلى البحرِ الأَخْضَرِ فقبِل ؛ ثم آنتَقَضَ فغزاه المنصورُ سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة ، فأفتتح ليون وسَمُورَةَ ، ولم يبق بعدها للجَلَالِقةِ

(١) جمع قومس وهو الأمير .

(٢) أى ردمير كما يؤخذ من عبارة العبرج ٤ ص ١٨١ .

إلا حُصُونٌ يسيرةً بالحيل الحاذج بينهم وبين البحر الأخضر ، ولم يزل المنصورُ به حتى ضرب عليه الجزيةَ وأنزل المسلمين مدينةَ سمورةَ سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وولى عليها أبا الأحوص (مَعْنَى بن عبد العزيز) التَّجِيبِيَّ ، وسار إلى (غرسية بن فُردُلُنْد) صاحب أَيْةَ فَمَلِكٍ عليه لَشُونَةُ قَاعِدَةِ غَلِيسِيَّةِ وَحَرَّبَهَا ، وَهَلَكَ غَرَسِيَّةٌ .

فَوَلَّى ابْنَهُ (شَانِجَةَ) فَضْرَبَ عَلَيْهِ الْجَزِيَّةَ ، وَصَارَتِ الْجَلَالَقَةُ بِأَجْمَعِهِمْ فِي طَاعَةِ الْمَنْصُورِ وَهُمْ كَالْعُمَّالِ لَهُ . ثُمَّ انْتَقَضَ بِرَمَنْدِ بْنِ أَرْدُونَ فَغَزَاهُ الْمَنْصُورُ حَتَّى بَلَغَ شَنْتَ يَاقِبَ ، مَكَانَ حَجِّ النَّصَارَى وَمَدْفَنَ يَعْقُوبِ الْخَوَارِجِيِّ مِنْ أَقْصَى غَلِيسِيَّةِ ، فَأَصَابَهَا خَالِيَةٌ فَهَدَمَهَا وَنَقَلَ أَبْوَابَهَا إِلَى قُرْطُبَةَ ، فَجَعَلَهَا فِي نِصْفِ الزِّيَادَةِ الَّتِي أَضَافَهَا إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ . ثُمَّ انْفَتَحَ قَاعِدَتُهُمْ (شَنْتَمَرِيَّةٌ) سَنَةَ خَمْسٍ وَثَمَانِينَ وَثَلَاثِينَ ، ثُمَّ هَلَكَ بِرَمَنْدِ بْنِ أَرْدُونَ مَلِكُ بَنِي أَدْفُونَشِ .

وَوَلَّى ابْنَهُ (أَدْفُونَشِ) وَهُوَ سَبْطُ غَرَسِيَّةِ بْنِ فُردُلُنْدِ صَاحِبِ أَيْةِ ، وَكَانَ صَغِيرًا فَكَفَلَهُ (مَنْدِ بْنِ عِنْدِ شَلْبِ) قَوْمِ غَلِيسِيَّةِ ، إِلَى أَنْ قُتِلَ مَنْدِ غِيْلَةً سَنَةَ ثَمَانٍ وَتِسْعِينَ وَثَلَاثِينَ فَاسْتَقَلَّ أَدْفُونَشُ بِأَمْرِهِ ، وَطَلَبَ الْقَوَامِيْسَ الْمُتَعَدِّينَ عَلَى أَبِيهِ وَعَلَى مَنْ سَلَفَ مِنْ قَوْمِهِ مِثْلَ بَنِي أَرْغُومِسَ وَبَنِي فُردُلُنْدِ الْمُتَقَدِّمِ ذَكَرَهُمُ بِالطَّاعَةِ فَاطَاعُوا وَدَخَلُوا تَحْتَ أَمْرِهِ . ثُمَّ جَاءَتِ الْفِتْنَةُ الْبَرْبَرِيَّةُ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الرَّابِعَةِ فَضَعُفَ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ ، وَتَغَلَّبَ النَّصَارَى عَلَى مَا كَانَ الْمَنْصُورُ تَغَلَّبَ عَلَيْهِ بِقَسْمَاتَلَةَ وَجَلِيقِيَّةَ ، وَلَمْ يَزَلْ أَدْفُونَشُ بْنُ بِرَمَنْدِ مَلِكًا عَلَى جَلِيقِيَّةَ وَأَعْمَالِهَا . ثُمَّ كَانَ الْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ فِي عَقِبِهِ إِلَى أَنْ كَانَ مَلُوكُ الطَّوَائِفِ ، وَتَغَلَّبَ الْمُرَابِطُونَ مَلُوكُ الْغَرْبِ مِنْ لَمْتُونَةَ عَلَى مَلُوكِ الطَّوَائِفِ بِالْأَنْدَلُسِ ، عَلَى مَا سَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى مَكَاتِبَةِ ابْنِ الْأَحْمَرِ مَلِكِ الْمُسْلِمِينَ بِالْأَنْدَلُسِ .

وفي بعض التواريخ أن ملك قشتالة الذي ضرب الجزية على ملوك الطوائف في سني خمسين وأربعمائة هو (البيطيين) وأنه لما هلك قام بأمره بنوه ^{فردلند} ، وغرسية ، وردمير . وولى أمرهم (فردلند) ثم هلك ؛ وخلف شانجة وغرسية والفتش فتنازعا ؛ ثم خلاص الملك للفتش ، وأستولى على طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة ؛ وعلى بلنسية سنة تسع وثمانين وأربعمائة ؛ ثم آرتجها المرابطون من يده حتى آستعادها النصارى سنة ست وثلاثين وستمائة . وهلك الفتش سنة إحدى وخمسمائة .

وقام بأمر الجلائقة (بنته) ^(١) وتزوجت ردمير ، ثم فارقت وتزوجت بعده ققطا من اقباطها فأتت منه بولد كانوا يسمونه (السليطين) . وأوقع ابن ردمير ابن هود سنة ثلاث وخمسمائة الواقعة التي آستشهد فيها ، وملك منه سرقسطة .

وفي بعض التواريخ أن أمر النصارى في زمن المنصور أبي يعقوب ابن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن كان دائرا بين ثلاثة من ملوكهم الفتش ، والبيوح ، وابن الزند ، وكبيرهم الفتش .

ولما فشلت ريح بني عبد المؤمن في زمن المستنصر بن الناصر ، آستولى الفتش على جميع ما فتحه المسلمون من معقل الأندلس ؛ ثم هلك الفتش . وولى ابنه (هراندة) وكان أحول وبذلك يلقب ، فأرتجع قرطبة وإشبيلية من أيدي المسلمين .

وزحف ملك أرغون في زمنه فاستولى على ماردة ، وشاطبة ، ودانية ، وبلنسية ، وسرقسطة ، والزهاء ، والزهرة ، وسائر القواعد والثغور الشرقية ؛ وآتجاز المسلمون

(١) في العبرج ٤ ص ١٨٢ "زوجته" .

إلى سيف البحر ، وملكوا عليهم ابن الأحمر بعد ولاية ابن هود . وكان استرجاع الطاغية ماردة سنة ست وعشرين وستمائة ، وميوزقة سنة سبع وعشرين ، وبلنسية سنة ست وثلاثين ، وسرقسطة وشاطبة قبل ذلك بزمن طويل . ثم هلك هيراندة ، ووليَّ ابنه [شانجة] ^(١) ثم هلك [سنة ثلاث وتسعين] ^(١) .

ووليَّ ابنه (هيراندة) وكان بينه وبين عساكر يعقوب بن عبد الحق : سلطان الغرب الواصلة إلى الأندلس حروب متصلة ، الغلب فيها لعساكر ابن عبد الحق ، ثم خرج على هيراندة هذا ابنه (شانجة) فوفد هيراندة على السلطان يعقوب بن عبد الحق فقبل يده ، وأستجاشه على ولده شانجة ، فقبل وفادته ، وأمدّه بالمال والعساكر ، ورهن عنده على المال التاج المعروف من ذخائر سلفهم ، فهو عند بني عبد الحق إلى الآن .

ثم هلك هيراندة سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وأستقلَّ ابنه (شانجة) بالملك ، ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب بن عبد الحق وعقد معه الهدنة ، ثم نقض وأستولى على مدينة طريف سنة ثلاث وتسعين وستمائة ، ثم هلك سنة ثلث عشرة وسبعائة .

فوليَّ ابنه (بطرة) صغيرا ، وكفله عمه جوان وهلكا جميعا على غرناطة عند زحفهما إليها سنة ثمان عشرة وسبعائة .

فوليَّ ابنه (الهنشة بن بطرة) صغيرا وكفله زعماء دولته ، ثم آستقل بأمره وهلك محاصرا جبل الفتح سنة إحدى وخمسين وسبعائة في الطاعون الجارف .

(١) الزيادة من العبرج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) في العبرج ٤ ص ١٨٣ "ثلاث وثمانين" .

وولي (أبنة بطرة) وفرز أبنة القمط إلى برشأونة فاستجاش صاحبها على أخيه بطرة فأجابه، وزحف إليه بطرة فاستولى على كثير من بلاده، ثم كان الغلب للقمط سنة ثمان وستين وسبعائة، وأستولى على بلاد قشتالة، وزحفت إليهم أمم النصرانية، ولحق بطرة بأمم الفرنج الذين وراء قشتالة في الجوف بجهات الليمانية وبرطانية إلى ساحل البحر الأخضر وجزائره فرجح بنته من ابن ملكهم الأعظم المعروف بالبسن غالس، وأمهه بأمم لأحصى فملك قشتالة والقرنتيرة، وأتصلت الحرب بعد ذلك بين بطرة وأخيه القمط، إلى أن غلبه القمط وقتله سنة ثنتين وسبعين وسبعائة، وأستولى القمط على ملك بني أدفونش أجمعه، وأستقام له أمر قشتالة، ونازعه البسن غالس ملك الإفرنجية بأبنة الذي هو من بنت بطرة، وطلب له الملك على عادتهم في تملك ابن البنت، وأتصلت الحرب بينهما، وشغله ذلك عن المسلمين فامتنعوا عن أداء الإتاوة التي كانوا يؤدونها إلى من كان قبله، وهلك القمط سنة إحدى وثمانين وسبعائة .

فولي أبنة (دن جوان) وفرز أخوه غريس ولحق بالبرتغال، وأستجاش على أخيه بمجموع كثيرة، ثم رجع إليه وأصطاح عليه، ثم هلك دن جوان سنة إحدى وتسعين وسبعائة، ونصب قومه في الملك أبنة بطرة صبيا صغيرا لم يبلغ الحلم وقام بكفالاته وتدير دولته اليركيش خال جد القمط بن الهنش والأمر على ذلك إلى الآن، وقتنهم مع البسن غالس ومع الفرنج متصلة، وأيديهم عن المسلمين مكفوفة (والله من وراءهم محيط) .

قلت : والممالك القائمة بجزيرة الأندلس الآن من ممالك النصرانية أربع ممالك .

المملكة الأولى

(مملكة قشتالة)

التي عليها سِياقة الحديث إلى أن صارت إلى بطرة بن دُن جُوَان المتقدِّم ذكره .
وهي مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل على طيطة ، واشبيلية ، وقشتالة ،
وغليسية والقرنيرة وهي بسط من الغرب إلى الشرق ويقال للملكها الأدفونس والعامه
تسميه الفنش .

المملكة الثانية

(مملكة البرتغال)

وهي في الجانب الغربي من قشتالة ، وهي عمالة صغيرة تشتمل على أشبونة وغرب
الأندلس ، وهي الآن من أعمال جليقية ، إلا أن صاحبها مميّز بسمته ومملكه .

المملكة الثالثة

(مملكة برشلونة)

وهي بجهة شرق الأندلس ، وهي مملكة كبيرة ، وعمالات واسعة ، تشتمل على
برشلونة ، وأرغون ، وشاطبة ، وسرقسطة ، وبلنسية ، وجزيرة دانية ، وميورقة ،
وكان ملكهم بعد العشرين والسبعائة اسمه بطرة وطال عمره ، وهلك سنة سبع
وثمانين وسبعائة ، وأنفرد أخوه الدك بملك سرقسطة مقاسماً لأخيه ثم سار بعد ذلك
في أسطول فلك جزيرة صقلية من أيدي أهلها وصارت داخلة في أعمالهم .

المملكة الرابعة

(مملكة نبرة مما يلي قشتالة من جهة الشرق ، فاصلاً بين عمالات

ملك قشتالة وعمالات ملك برشالونة)

وهي عمالة صغيرة ، وقاعدتها مدينة ينبلونة ، وملكها ملك البشكنس . أما ماوراء الأندلس من الفرنج فأهم لا تحصى ، وسيأتي الكلام على ذكر ملكهم الأكبر ريدفرنس فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(في ترتيب هذه المملكة)

أما مملكة المسلمين فلا يخفى أنها في معنى بلاد المغرب . [وفي كثير من الأوقات يملكهم ملوك المغرب الأقصى ، فبالضرورة إن ترتيبهم جار على ترتيب بلاد الغرب] .^(١)

وقد ذكر في "مسالك الأبحار" أن أهل الأندلس في الجملة لا يتعممون ، بل يتعمدون شعورهم بالتنظيف والحناء ما لم يغلب الشيب ؛ ويتطيلسون فيلقون الطيلسان على الكتيف أو الكتيفين مطويًا طياً ظريفاً [والمتعمم فيهم قليل]^(١) ، ويلبسون الثياب الرفيعة الملوّنة من الصوف والكأن ونحو ذلك ، وأكثر لباسهم في الشتاء الجوخ وفي الصيف البياض . قال : وأرزاق الجند به ذهب بحسب مراتبهم ، وأكثرهم من برّ العُدوة من بنى مريين وبنى عبد الواد وغيرهم . والسلطان مسكنه القصور الرفيعة ، ويقعد السلطان للناس بدار العدل في مكان يُعرف بالسبيكة من القصبية الحمراء التي هي القلعة يوم الاثنين ويوم الخميس

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية .

صباحاً ، ويحضر معه المجلس الرؤساء من أقاربه ونحوهم ، ويُقرأ مجلسه عَشْرَ من القرآن وشيء من الحديث النبوي ، ويأخذ الوزير القِصص من الناس فتقرأ عليه .
وأما الحرب فإنهم فيها سجال : تارة لهم وتارة عليهم ، والنصر في الأغلب للمسلمين على قتلهم وكثرة عدوهم بقوة الله تعالى . وبالبلاد البحرية أسطول الحراريق المفرق في البحر الشامي ، يركبها الأتجاد من الرماة والرؤساء المهرة ، فيقاتلون العدو على ظهر البحر ، وهم الظافرون في الغالب ، ويُغيرون على بلاد النصارى بالساحل وما هو بقره فيأسيرون أهلها ذكورهم وإناثهم ، ويأتون بهم بلاد المسلمين ، فيبزون بهم ويحملونهم إلى غرناطة إلى السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويهدى ويبيع .

وقد كانت لهم وقعة في الإفرنج سنة تسع عشرة وسبعائة على مرسج غرناطة قتل فيها من الإفرنج أكثر من ستين ألفاً ومكان : هما بطرة وجوان عمه فقُتلت جيفة جوان بأموال عظيمة ، وحمت جثة بطرة إلى غرناطة ، فعُلقت على باب قلعتها في تابوت ، وأستمرت معلقة هناك ، وحاز المسلمون غنيمة من أموالهم قلما يُذكر مثلها في تاريخ ، ﴿وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم﴾ .

وقد تقدم في المقالة الأولى في الكلام على النوع الرابع مما يحتاج إليه الكاتب : وهو حفظ كتاب الله تعالى : أن بعض ملوك الفرنج كتب إلى ابن الأحمر : صاحب غرناطة كتاباً يهدده فيه ، فكان جوابه أن قلبه وكتب على ظهره ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بخنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ .

وأما ملوك الفرنج به فعلى ترتيب سائر ممالك الفرنج مما هو غير معلوم لنا .

الفصل الثالث

من المقالة الثانية

في الجهة الجنوبيّة عن مملكة الديار المصرية : من مصر والشام والحجاز ،
ومضافاتها مما هو واقع في الثاني والثالث والرابع من الأقاليم السبعة)

اعلم أنه قد دخل في جهتي الشرق والغرب المتقدمتين ذكرًا ما كنّ مما هو في جهة
الجنوب عن مملكة الديار المصرية ومضافاتها ، أنساق الكلام إليها أسطرادا
وأستبعا : كأطراف اليمن ، والهند ، والصين الجنوبيّة الخارجة عن الإقليم الثاني
إلى جهة الجنوب مما أستتبعته ممالك الشرق ، والمقصود الآن الكلام على ما عدا
ذلك ، وهو بلاد السودان .

وهي بلاد منسعة الأرجاء ، رَحْبسة الجوانب ، حدّها من الغرب البحر المحيط
الغربيّ ؛ ومن الجنوب الحَرَاب مما يلي خَطّ الاستواء ؛ ومن [الشرق] بحر القلزم
مما يُقابل بلاد اليمن والأمكنة المجهولة الحال شرق بلاد الزنج في جنوبيّ البحر
الهنديّ ؛ ومن الشمال البراريّ الممتدة فيما بين الديار المصرية وأرض برقة ، وبلاد
البربر ، من جنوبيّ المغرب إلى البحر المحيط .
والمشهور منها ستّ ممالك :

المملكة الأولى

(بلاد البجا)

والبجا بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف في الآخر . وهم من أقصى السودان
لونا . قال ابن سعيد : وهم مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان ؛ ومواطنهم

في جنوبي صعيد مصر مما يلي الشرق، فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل، على القرب من الديار المصرية .

وقاعدتهم (سواكن) بفتح السين المهملة والواو وكسر الكاف ونون في الآخر . قال في "تقويم البلدان" في الكلام على بحر القلزم : وهي بليدة للسودان، حيث الطول ثمان وخمسون درجة، والعرض إحدى وعشرون درجة .

قلت وقد أخبرني من رآها أنها جزيرة على طرف بحر القلزم من جهته الغربية قريبة من البريسكنها التجار . وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحداربة - بالحاء والذال المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة وباء موحدة مفتوحة وهاء في الآخر، وله مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ويقال في تعريفه الحدري بضم الحاء وسكون الذال وضم الراء، على ماسياتي ذكره في الكلام على المكاتب في المقالة الرابعة فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

وقد عدت في "تقويم البلدان" من مدن البجا (العلاقي) بفتح العين المهملة واللام المشددة ثم ألف وقاف مكسورة ثم ياء مشناة من تحت . من آخر الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثمان وخمسون درجة، والعرض ست وعشرون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي بالقرب من بحر القلزم، ولها معاص ليس بالحديد، ويجلبها مدين ذهب، يتحصل منه بقدر ما ينفق في استخراجه . قال المهلبى : إذا أخذت من أسوان في سمت المشرق تصل إلى العلاقي بعد اثنتي عشرة مرحلة . قال : وبين العلاقي وعيداب ثمان مراحل ومن العلاقي يدخل إلى بلاد البجا .

المملكة الثانية

(بلاد النوبة)

بضم النون وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وهاء في الآخر . ولون بعضهم يميل إلى الصفاء ، وبعضهم شديد السواد . قال في "مسالك الأبصار" : وبلادهم مما يلي مصر في نهاية جنوبيها مما يلي المغرب على ضفتي النيل الجاري إلى مصر . قال في "تقويم البلدان" في الكلام على الجانب الجنوبي : وبينها وبين بلاد النوبة جبال منبجة .

وقاعدتها مدينة (دُقْلَة) . قال في "تقويم البلدان" : الظاهر أنها بضم الدال المهملة وسكون النون وقاف مضمومة ولام مفتوحة وهاء في الآخر . وما قاله هو الجاري على السنة أهل الديار المصرية ، ورأيتها في "الروض المعطار" مكتوبة (دمقلة) ببدال النون ميمًا ، مضبوطة بفتح الدال ، وباقي الضبط على ما تقدم . وأشد بيت شعر شاهدا لذلك . وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيث الطول ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق ، والعرض أربع عشرة درجة وخمس عشرة دقيقة . قال : وفي جنوبيها وغربيها مجالات زنج النوبة الذين قاعدتهم (كوشة) خلف الخط ، وفي غربي دُقْلَة وشمالها مدنها المذكورة في الكتب . قال الإدريسي : وهي في غربي النيل على ضفته وشرب أهلها منه . قال : وأهلها سودان لكنهم أحسن السودان وجوهًا ، وأجملهم شكلًا ، وطعامهم الشعير والذرة والتمر يجلب إليهم ، واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل : طرية ومقددة ، ومطبوخة .^(١) وفي بلادهم القبلة ، والزرايف ، والغزلان .

(١) في التقويم "مطحونة" وهو تصحيف .

قال في "مسالك الأبصار": "ومدنها أشبه بالقرى والضياح من المدن، قليلة الخير والحصب، يابسة الهواء. قال: وحديثي غير واحد من دخل النبوة: أن مدينة دثلة ممتدة على النيل، وأهلها في شظف من العيش، والحبوب عندهم قايضة إلا الدرة، وإنما تكثر عندهم الخوم والألبان والسّمك. وأخيراً أطبختهم أن تُطبخ اللّوييا في مرق اللحم، ويؤرد ويصف اللحم واللّوييا على وجه التّريد. وربما عُميت اللّوييا بورقها وعُروها. قال: ولهم آهناك على الشكر بالمرز وميل عظيم إلى الطّرب.

ولما خاف بنو أيوب نور الدين الشهيد صاحب الشام على أنفسهم حين هم بقصدهم، بعث السلطان صلاح الدين أخاه شمس الدولة إلى (النبوة) ليأخذها لتكون مؤثلاً لهم إذا قصدهم، فرأوها لاتصلح لمثلهم، فعدّوا إلى اليمن وأستولوا عليها، وجعلوها كالمعقل لهم. قال ابن سعيد: ودين أهل هذه البلاد النصرانية. قال في "مسالك الأبصار": "ومن هذه البلاد نجم "لقمان الحكيم" ثم سكن مدينة أيلة، ثم دخل إلى بيت المقدس. ومنها أيضاً "ذو النون المصري" الزاهد المشهور، وإنما سمي المصري لأنه سكن مصر فنسب إليها. وكان ملوكها في الزمن القديم وسائر أهلها على دين النصرانية، فلما فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مصر غزاهم. قال في "الروض المعطار": "فراهم يرون الحدق بالنبل، فكف عنهم، وقرّر عليهم إتاوة في كل سنة. قال صاحب "العبر": وعلى ذلك جرى ملوك مصر بعده، وربما كانوا يماطلون بذلك ويمتنعون من أدائه، فتغزوهم عساكر المسلمين من مصر حتى يطيعوا، إلى أن كان ملكهم في أيام الظاهر بيبرس رحمه الله، رجلاً اسمه (مرقسنكر) وكان له ابن أيج اسمه (داود) فتغلب عليه، وأتزع الملك من يده، وأستفحل ملكه بها، وتجاوز حدود مملكته قريب (أسوان) من آخر صعيد

الديار المصرية ؛ فقدم (مرفشكنز) المذكور على الظاهر بيبرس بالديار المصرية ،
 وأستنجده على ابن أخيه (داود) المذكور ؛ فجهز معه العساكر إلى بلاد النوبة ،
 فانهزم (داود) ولحق بمملكة الأبواب من بلاد السودان ، فقبض عليه ملكها
 وبعث به مقيداً إلى الظاهر بيبرس ؛ فاعتقل بالقلعة حتى مات ؛ وأستقر (مرفشكنز)
 في ملك النوبة على جزية يؤديها في كل سنة ، إلى أن كانت دولة المنصور (قلاوون)
 ثم أستقر بمملكة دنقلة في الدولة المنصورية (قلاوون) رجل اسمه سيماون وغزته
 عساكر قلاوون سنة ثمانين وستائة .

ثم ملكهم في أيام الناصر "ومحمد بن قلاوون" رجل اسمه (أحى) وبقي حتى توفي
 سنة ست عشرة وسبعائة .

وملك بعده دنقلة أخوه (كرنيس) .

ثم نرح من بيت الملك منهم رجل اسمه (نشلى) فهاجر إلى مصر ، وأسلم وحسن
 إسلامه ، وأقام بمصر بالأبواب السلطانية ، وأجرى عليه السلطان الملك الناصر
 رزقا ، ولم يزل حتى أمتنع (كرنيس) من أداء الجزية سنة ست عشرة وسبعائة ،
 فجهز إليه السلطان العساكر مع نشلى المقدم ذكره ، وقد تسمى عبد الله ففتر كرنيس
 إلى بلاد الأبواب ، فاستقر (عبد الله نشلى) في ملك دنقلة على دين الإسلام ،
 ورجعت العساكر إلى مصر ، وبعث الملك الناصر إلى ملك الأبواب في أمر كرنيس
 فبعث به إليه ، فأسلم وأقام بباب السلطان ، وبقي نشلى في الملك حتى قتله أهل
 مملكته سنة تسع عشرة وسبعائة ، فبعث السلطان كرنيس إليهم فملكهم وأنقطعت
 الجزية عنهم من حين أسلم ملوكهم . قال في "العبر" : ثم أنتشرت أحياء جهينة
 من العرب في بلادهم وأستوطنوها ، وعاثوا فساداً ؛ وعجز ملوك النوبة عن مدافعتهم ،

فصاهروهم مصانعةً لهم ، وتفرق بسبب ذلك ملكهم حتى صار لبعض جهينة من أمهاتهم على رأى العجم في تملك الأخت وابن الأخت ؛ فتمزق ملكهم وأستولت جهينة على بلادهم ، ولم يُخسِنُوا سياسة الملك ، ولم ينقُد بعضهم إلى بعض ، فصاروا شيعاً ولم يبق لهم رسم ملك ، وصاروا رحالة باديةً على عادة العرب إلى هذا الزمان .

وذكر في "مسالك الأبصار" : أن ملكها الآن مُسلم من أولاد (كتر الدولة) قال : وأولاد الكتر هؤلاء أهل بيتٍ نارت لهم نواثرُ مَرَات . فيحتمل أن أولاد الكتر من جهينة أيضاً جمعاً بين المقاتلين .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن سلطانهم كواحد من العائمة ، وأنه يَأْوِي الغرباء إلى جامع دُنْقَلَة فَيْرِيسَل إليهم ، فيأتونه فيُضِيْفُهُمْ وَيُنْعِمُ عليهم هو وأمرأؤه ، وأن غالب عطائهم الدَّكَادِيك : وهى أكسيةٌ غلاظ غالبها سُود . وربما أعطوا عبداً أو جاريةً .

(وقد ذكر في "الروض المعطار" : أن عمرو بن العاص رضى الله عنه قصد قتال النوبة فرآهم يرمون الحندق بالنبل فكف عنهم ، وقدر عليهم إناوةً من الرقيق (١) في كل سنة) ، ولم تزل ملوك مصر تأخذ منهم هذه الإناوة في أكثر الأوقات حتى ذكر في "مسالك الأبصار" أنه كان عليهم في زمنه مُقَرَّرٌ لصاحب مصر في كل سنة من العبيد ، والإماء ، والحِرَاب ، والوُحُوش النوبية -

قلت : أمّا الآن فقد آنقطع ذلك . (وربك يخلق ما يشاء ويختار) .

(١) هذه الجملة مضرب عليها في القطعة الأزهرية إشارة الى الاستغناء عنها .

المملكة الثالثة

(بلاد البرنو)

وبلاد البرنو - بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو . وهم مسلمون والغالب على ألوانهم السواد قال في " التعريف " : وبلاده يتحد بلاد التكرور من الشرق ، ثم يكون حدّها من الشمال بلاد أفريقيا ، ومن الجنوب الهمج . وقاعدتهم مدينة (كاكّا) بكازين بعد كل منهما ألف فيما ذكر لي رسول سلطانهم الواصل إلى التيار المصرية صحبة الحجيج في الدولة الظاهرية (برقوق) . وقد تعرّض إليها في " مسالك الأبصار " في تحديد مملكة مالي على ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

ومن مدنهم أيضا مدينة (كُنْسِي) بكاف مضمومة وناء مثناة فوقية ساكنة ونون مكسورة وسين مهملة ساكنة وكاف مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية . وهي شرقيّ (كاكّا) على مسيرة يوم واحد منها .

قلت : وقد وصل كتاب ملك البرنو في أواخر الدولة الظاهرية (برقوق) يذكر فيه أنه من ذرية " سيف بن ذى يزن " إلا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قریش وهو غلط منهم فان " سيف بن ذى يزن " من أعقاب تبابعة اليمن من حمير . على ما يأتي ذكره في الكلام على المكتّبات ، في المقالة الرابعة فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

ولصاحب البرنو هذا مكتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتي ذكرها هناك إن شاء الله تعالى .

المملكة الرابعة

(بلاد الكانم)

والكانم بكاف بعدها ألف ثم نون مكسورة وميم في الآخر. وهم مسلمون أيضا والغالب على ألوانهم السواد. قال في "مسالك الأبصار": وبلادهم بين أفريقية وبرقة، ممتدة في الجنوب إلى سمت الغرب الأوسط. قال: وهي بلاد حطية، وشطف، وسوء مزاج مستول عليها. وغالب عيشهم الأرز، والقمح، والذرة، وبلادهم التين، والليمون، واللقت، والبادنجان، والرطب. وذكر عن أبي عبدالله السلاجي، عن الشيخ عثمان الكانمي وغيره أن الأرز ينبت عندهم من غير بذر. ومما اشتهر بهم أن ينسج عندهم أسمه دندى، طول كل ثوب عشرة أذرع فأكثر. قال: ويتعاملون أيضا بالودع، والحرز، والنحاس المكسور، والورق، لكنه جميعه يسعر بذلك القماش.

وذكر ابن سعيد: أن في جنوبيها صحارى فيها أشخاص متوحشة، كالغول أقرب الحيوانات إلى الشكل الآدمي، تؤذى بنى آدم ولا يلحقها الفارس.

وذكر أبو عبد الله المرأكشي في كتابه "النكلة" عن أبي إسحاق إبراهيم الكانمي الأديب الشاعر: أنه يظهر ببلاد الكانم في الليل أمام الماشى بالقرب منه قُلل نار تضيء، فإذا مشى بعدت منه، فلا يصل إليها ولو جرى، بل لا تزال أمامه. وربما راهبا بجحر فأصابها، فيتشظى منها شرارات. قال في "مسالك الأبصار": وأحوالها وأحوال أهلها حسنة، وربما كان فيهم من أخذ في التعليم، ونظر من الأدب نظرة النجوم فقال إنى سقيم، فما يزال يداوى عليل فهمه، ويُدَارِي جامع علمه، حتى تشرق عليه أشعتها، ويطرز بديباجه أمتعتها.

وقاعدتها (مدينة جيمي) . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الجيم وبالياء المشاة تحت الساكنة وكسر الميم ثم ياء مشاة تحية في الآخر. حسب ما هو في خط ابن سعيد . وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول ثلاث وخمسون درجة ، والعرض تسع درج ، وبها مقرة سلطانهم . قال في "مسالك الأبصار" : ومبدأ هذه المملكة من جهة مصر بلدة اسمها (دلا) وأخرها طولاً بلدة يقال لها (كاكّا) وبينهما نحو ثلاثة أشهر . وقد تقدم أن كاكّا هي قاعدة سلطان البرنو . وبينها وبين جيمي أربعون ميلاً . قال وبها فواكه لا تُشبه فواكه بلادنا ، وبها الزمان ، والخبوخ ، وقصب السكر . قال في "مسالك الأبصار" : وسلطان هذه البلاد رجل مسلم . قال في "تقويم البلدان" : وهو من ولد «سيف بن ذى يزن» . قال في "مسالك الأبصار" : وأول من بث الإسلام فيهم الهادي العثماني ، ادعى أنه من ولد «عثمان بن عفان» رضي الله عنه وملكها ، ثم صارت بعده لليزنيين .

وذكر في "التعريف" : أن سلطان الكاتم من بيت قديم في الإسلام ؛ وقد جاء منهم من ادعى النسب العلوي في بني الحسن . ثم قال : وتمذهب بمذهب «الشافعي» رضي الله عنه . قال في "مسالك الأبصار" : وملكهم على حقارة سلطاناه ، وسوء بقعة مكانه ؛ في غاية لا تُدرَك من الكبرياء ، يمسح برأسه عنان السماء ، مع ضعف أجناده ، وتلة متحصّل بلاد ؛ لا يراه أحد إلا في يوم العيسدين بكرة وعند العصر . أما في سائر السنة فلا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب . قال : والعدل قائم في بلادهم ، ويمتدّهون بمذهب الإمام «مالك» رضي الله عنه ، وهم ذوّو اختصار في اللباس ، يلبسون في الدين ، وعسكرهم يتلثمون ، وقد بنوا مدرسةً للالكية بالفسطاط ينزل بها وفودهم .

المملكة الخامسة

(بلاد مالي ومُضافاتها)

و(مالي) بفتح الميم وألف بعدها لامٌ مشددة مَفْحَمَةٌ وبياء مشناة تحت في الآخر . وهي المعروفة عند العامة ببلاد (التَّكُور) . قال في "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة في جنوب المغرب ، متصلةً بالبحر المحيط . قال في "التعريف" : وحدها في الغرب البحر المحيط ؛ وفي الشرق بلاد البرنو ، وفي الشمال جبال البربر ، وفي الجنوب المصح . ونقل عن الشيخ سعيد الدكالي : أنها تقع في جنوب مراكش ودواخل بر العُدوة جنوباً بغرب إلى البحر المحيط . قال في "مسالك الأبصار" : وهي شديدة الحر ، قسقة المعيشة ، قليلة أنواع الأقوات ؛ وأهلها طوال في غاية السواد وتقلقل الشعور ، وغالب طول أهلها من سُوقهم ، لا من هياكل أبدانهم . قال ابن سعيد : والتكُور قسمان : قسم حَصْر يسكنون المدن ، وقسم رحالة في البوادي .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن الشيخ سعيد الدكالي : أن هذه المملكة مُرَبَّعة ، طولها أربعة أشهر أو أزيد ، وعرضها مثل ذلك ؛ وجميعها مسكونة إلا ماقل ، وهذه المملكة هي أعظم ممالك السودان المسلمين .
وتشتمل على ثمان جُمَل :

الجملة الأولى

(في ذكر أقاليمها ومدنها)

وقد ذكر صاحب "العبر" : أنها تشتمل على خمسة أقاليم كل إقليم منها مملكة بذاتها .

الإقليم الأول

(مالئ)

وقد تقدم ضبطه . وهو إقليم واسطة الأقاليم السبعة الداخلة في هذه المملكة ، واقع بين إقليم صوصو وإقليم كوكو : صوصو من غربيه ، وكوكو من شرقيه .

وقاعدته على ما ذكره في "مسالك الأبصار" : مدينة (بنى) ^(١) قال في "مسالك الأبصار" : بالباء الموحدة والنون ثم الباء الموحدة أيضا . قال : وهي ممتدة تقدير طول برید في عرض مثل ذلك ، ومبانيها متفرقة ، وبنائها بالبالستا . وهو أنه ينبت بالطين بقدر ثلثي ذراع ، ثم يترك حتى يجف ، ثم ينبت عليه مثله ، وكذلك حتى ينتهي ، وستوفؤها بالخشب والقصب ، وغالبها قباب أو جملونات كالأقباة ، وأرضها تراب مرميل ، وليس لها سور ، بل يستديرها عدة فروع من النيل من جهاتها الأربع ، بعضها يخاض في أيام فلة الماء ، وبعضها لا يعبر فيه إلا في السفن . وللك عدة قصور يدور بها سور واحد .

الإقليم الثاني

(صوصو)

بصادين مهملتين مضمومتين ، بعد كل منهما واو ساكنة . وربما أبدلوا الصاد سينا مهملة سمي بذلك باسم سكانه . قال في "العبر" : وهم يسمونها الانكارية . وهو في الغرب عن إقليم مالئ المقدم ذكره فيما ذكره في "العبر" عن بعض القلة .

(١) في القطعة الأزهرية "مدينة بنى بكسر الياء المشاة تحت وسكون الياء الثانية وكسر المشاة فوق وياء مشاة تحت في الآخر" .

الإقليم الثالث (بلاد غانّة)

بفتح الغين المعجمة وألف ثم نون مفتوحة وهاء في الآخر . وهي غربي إقليم
صُوصو المقدم ذكره تُجاور البحر المحيط الغربي .

وقاعدته (مدينة غانّة) التي قد أُضيف إليها . قال في "تقويم البلدان" :
وموقعها خارج الإقليم الأول من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال ابن سعيد : حيث
الطول [تسع وعشرون درجة ^(١)] والعرض عشر درج . قال في "تقويم البلدان" :
وهي محل سلطان بلاد غانّة .

وقد حكى ابن سعيد : أن لغانّة نبلاً شقيق نيل مصر ، يصب في البحر المحيط
الغربي عند طول عشر درج ونصف ، وعرض أربع عشرة . وإليها تسير التجار
المغاربة من سجلماسة في برّ مقيم ومفاوز عظيمة في جنوب الغرب نحو خمسين يوماً ،
فيكون بين غانّة وبين مصبّه نحو أربع درج . وهي مبنية على ضفتي نيلها هذا .
قال في "العبر" : وكان أهلها قد أسلموا في أول الفتح الإسلامي .

وقد ذكر في "تقويم البلدان" : أنها مدينتان على ضفتي نيلها ، إحداهما يسكنها
المسلمون والثانية يسكنها الكفار .

وقد ذكر في "الروض المبطّر" : أن لصاحب غانّة معلقين من ذهب ، يربط
عليهما فرسان له أيام مقعده .

(١) الزيادة عن التقويم نقلاً عن ابن سعيد .

الإقليم الرابع

(بلاد كوكو)

وهي شرقي إقليم مالى المقدم ذكره . قال في "الروض المعطار" : ومليها قائم بنفسه ، له حشم وقواد وأجناد وزى كامل ، وهم يركبون الخيل والجمال ، ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم . قال : وبها ينبت عود الحية : وهو عود يُشبه العاقِر قرحا ، إلا أنه أسود ، من خاصته أنه إذا وُضع على بُحجر الحية نرجت إليه بسُرعة ، ومن أمسكه بيده أخذ من الحيات ما شاء من غير جزع يُدركه أو يقع في نفسه . ثم قال : والصحيح عند أهل المغرب الأقصى أن هذا العود إذا أمسكه مُمسِك بيده أو علّقه في عنقه لم تقربه حية البتة .

وقاعدته (مدينة كوكو) بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها . وموقعها في الجنوب عن الإقليم الأول قال ابن سعيد : حيث الطول أربع وأربعون درجة ، والعرض عشر درج . قال : وهي مقر صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل من غربيه من مسلمي غانة ومن شرقيه من مسلمي الكانم .

وذكر المهلبى في الغزيرى أنهم مسلمون ، وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهر ونصف . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة كبيرة على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال ، يمر بها ويجاوزها بأيام كثيرة ، ثم يغوص في الصحراء في رمال كما يغوص الفرات في بطائح العراق . قال ابن سعيد : وكوكو في شرقي النهر ، ولباس عامة أهلها الجلود يسترون بها عورتهم ، وتجارهم يلبسون الأكسية ، وعلى رؤوسهم الكرازين ، ولبس خواتم الأزرق . قال في "مسالك الأبحار" : وسكانها قبائل يزان من السودان .

الإقليم الخامس

(بلاد تَكَوُّر)

وهي شرقي إقليم (كوكو) المقدم ذكره ، ويليه من جهة الغرب مملكة (البرنو) المتقدمة الذكر ، وبها عرفت هذه المملكة على كبرها واشتهرت .

وقاعدته (مدينة تَكَوُّر) بفتح التاء المثناة فوق وسكون الكاف وضم الراء المهملة وسكون الواو وراء مهملة في الآخر . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة على النيل على القرب من ضفافه أكبر من مدينة سلا من بلاد المغرب ، وطعام أهلها السمك ، والذرة ، والألبان ، وأكثر مواشيهم الجمال ، والمعز ، ولباس عامة أهلها الصوف ، وعلى رؤوسهم كرازين صوف ، ولباس خاصتهم القطن والمآزر . قال : وبينها وبين سيدهامسة من بلاد المغرب أربعون يوما بسير القوافل ، وأقرب البلاد إليها من بلاد لمتونة بالصحراء آسفي بينهما خمس وعشرون مرحلة . قال : وأكثر ما يسافر به تجار الغرب الأقصى إليها الصوف ، والنحاس ، والحزب ، ويخرجون منها بالتبر ، والخدّم . قلت : وذكر في "مسالك الأبصار" : أن هذه المملكة تشتمل على أربعة عشر إقليما . وهي غانة ، وزافون ، وترنكا ، وتكور ، وسنغانة ، وبانغو ، وزرنطابنا ، وبيترا ، ودمورا ، وزاغا ، وكابرا ، وبراغودي ، وكوكو ، ومالي . فذكر أربعة من الأقاليم الخمسة المتقدمة الذكر ، وأسقط إقليم صوصو ، وكأنها قد أضحلت وزاد باقي ذلك ، فيحتمل أنها أنضافت إلى صاحبها يومئذ بالفتح والاستيلاء عليها . قال في "مسالك الأبصار" : وفي شمالي بلاد مالي قبائل من البربر بيض تحت حكم سلطانها : وهم نيتصر ، ونيغراس ، ومدوسة ، ولمتونة ، ولهم أشياخ تحكم عليهم

(١) ضبطه المحمد بالضم ولم يتعقبه شرحه فقيه لغتان .

إلا يتصر ، فإنهم يتداولهم ملوكٌ منهم تحت حكم صاحب مالى . قال : وكذلك في طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحم الآدميين . ونقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أن في طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب . وهم بلاد همج ، وعليهم إتارة من التبر تُجلى إليه في كل سنة ، ولو شاء أخذهم ولكن ملوك هذه المملكة قد جزبوا أنه ما فُتحت مدينةٌ من هذه المُدن وفشا بها الإسلام ، ونطق بها داعى الأذان ، إلا قَلَّ بها وجودُ الذهب ثم يتلاشى حتى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فرضوا منهم ببذل الطاعة ، وحمل قُرر عليهم . وذكر نحو ذلك في ” التعريف ” في الكلام على غانة .

الجملة الثانية

(في الموجود بهذه المملكة)

قد ذكر في ” مسالك الأبصار ” عن الشيخ سعيد الدكالى : أن بها الخيل من نوع الأكاديش التترية . قال : وتُجَب الخيل العراب إلى ملوكهم ، يتفألون في أثمانها ، وكذلك عندهم الرِغال ، والحجير ، والبقر ، والغنم ، ولكنها كلها صغيرة الجسدة ، وتلد الواحدة من المعز عندهم السبعة والثمانية ، ولا صرعى لمواشيهم ، إنما هي جلالة على القمامات والمزابل . وبها من الوحوش الفيلة ، والآساد ، والثور ، وكلها لا تُؤذى من بنى آدم إلا ممن تعرض لها . وعندهم وحش يسمى (تُرمى) بضم التاء المشناة والراء المهملة وتشديد الميم ، في قدر الذئب ، يتولد بين الذئب والضبع لا يكون إلا خنثى : له ذكر وفرج ، متى وجد في الليل آدمياً صغيراً أو مراهقاً أكله . ولا تعرض إلى أحد في النهار ، وهو يتعر كالثور ، وأسنانه متداخلة . وعندهم تماسيح عظام منها ما يكون

(١) نسبة إلى ذكالة قال في القاموس كرامة . وفي المسجم بالفتح بلد بالقرب

طوله عشرة أذرع وأكثر، ومرارته عندهم ثم قائل تجمل إلى خزانة ملكهم .
وعندهم بقر الوحش ، وحمير الوحش ، والغزلان . وفيما يسامت بينهم من بلادهم
جواميس متوحشة تصاد كما يُصاد الوحش . وبها من الطيور الدواجن الإوز ،
والدجاج ، والحمام . وبها من الحبوب الأرز ، والغوثي : وهو دق مزعب ، يُدرس
فيخرج منه حب أبيض شبيه بالخردل في المقدار أو أصغر منه ، فيغسل ثم يطحن
ويعمل منه الخبز ، وهذا الحب هو والأرز هما غالب قوتهم ، وعندهم الدرّة وهي
أكثر حبوبهم ، ومنها قوتهم ونديق خيوطهم ودوابهم ، وعندهم الحنطة دلى قلة فيها ،
أما الشعير فلا وجود له عندهم آلبّة ، وعندهم من الفواكه البستانية الجميز وهو
كثير لديهم ، وعندهم أشجار برية ذوات ثمار ما كولة مستطابة ، منها شجر يسمى
تادموت يجمل شيئاً مثل القواديس كبراً في داخلها شيء شبيه بدقيق الحنطة ، ساطع
البياض ، طعمه منّ لذيذ يأكلون منه ، وإذا جف جعلوه على الحناء فيسوده
كالنوشادر ، ومنها شجر يسمى زيزور تخرج ثمرته مثل قرون الخروب فيخرج منها
شيء شبيه بدقيق الترمس حلواً لذيد الطعم ، له نوى . ومنها شجر يسمى قومي ،
يجمل شبيه السفرجل ، لذيد الطعم يشبه طعم الموز ، وله نوى شبيه بغضروف العظام ،
يأكله بعضهم معه . ومنها شجر اسمه فاريتي ، حمله شبيه بالليمون وطعمه يشبه طعم
الكَمْثرى بداخله نوى ملحم ، يؤخذ ذلك النوى وهو طرى ، فيطحن فيخرج منه شيء
شبيه بالسمن يجمد ، وتبيض به البيوت ، وتوقد منه السرح ، ويعمل منه الصابون ،
وإذا قُصد أكله وضع في قدر على نار ليّنة ، ويسقى الماء حتى يقوى خديانه وهو
مغطى الرأس ، ويسارق كسّف النطاء في آفتقاده ، فانه متى اكسّف القدر فار ولحق
بالسقف . وربما انعقد منه نار فأحرق البيت ، فإذا نضح برد ، وجعل في ظروف
القرع ، وصار يستعمل في المأكّل كالسمن . ومتى جعل في غير ظروف القرع

من الآنية خرقها . ويوجد بها من الثمرات البرية ما هو شبيه بكل الفواكه البستانية على اختلاف أنواعها ، ولكنها حريفة لا تستطاب ، يأكلها الحمج من السودان ، وهي قوت كثير منهم .

وبها من الخضراوات اللوبياء ، واللفت ، والثوم ، والبصل ، والباذنجان ، والكرنب ، أما الملوخية فلا تطلع عندهم إلا برية ، والقرع عندهم بكثرة . وعندهم شيء شبيه بالقلقاس إلا أنه ألد من القلقاس ، يزرع في الحلاء فإن سرق منه سارق ، قطع الملك رأسه وعلقه مكان ما قطع منه ، عادة عندهم يتوارثونها خلفا عن سلف ، لا توجد فيها رخصة ، ولا تنفع فيها شفاة .

وجبالها ذوات أشجار مشدكية ، غليظة السوق إلى الغاية ، تظل الواحدة منها خمسمائة فارس . وفيها بغانة وما وراءها في الجنوب من بلاد السودان الحمج معادن الذهب .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن الأمير أبي الحسن علي بن أمير حاجب عن السلطان (منسا موسى) سلطان هذه المملكة : أنه سأله عند قدومه الديار المصرية حاجا عن معادن الذهب عندهم — فقال : توجد على نوعين : نوع في زمان الربيع ينبت في الصحراء ، له ورق شبيه بالنجيل ، أصوله التبر . والثاني يوجد في أماكن معروفة على ضفاف مجارى النيل ، تحفر هناك حفائر فيوجد فيها الذهب كالحجارة والحصى ، فيؤخذ . قال : وكلاهما هو المسمى بالتبر . ثم قال : والأول أخف في العيار ، وأفضل في القيمة . وذكر في "التعريف" نحوه . وذكر عن الشيخ عيسى الزواوى عن السلطان (منسا موسى) المقدم ذكره أيضا أنه يحفر في معادن الذهب كل حفيرة عمق قامة أو ما يقاربها ، فيوجد الذهب في جنباتها . وربما وجد مجتمعا في سفلى

(١) في الأصل والأول أ ... في الخيار والتصحيح عن "التعريف" و "المسالك" .

الحفيرة؛ وأنَّ في مملكته أمَّا من الكُفَّار لا يأخذ منهم جزيةً، إنما يستعملهم في إخراج الذهب من معادنه . ثم قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن النوع الأول من الذهب يوجد في زمن الربيع عَقِيب [الأمطار] ^(١) يَنْبُتُ في مواقعها، والثاني يوجد في جميع السنة في ضفَّات مجارى النيل . وذكروا في "التعريف" : أن نبات الذهب بهذه البلاد يبدأ في شهر (أغشت) حيثُ سلطانُ الشمس قاهرٌ، وذلك عند أخذ النيل في الارتفاع والزيادة . فإذا انحطَّ النيل تُدْبِعُ حيثُ ركبَ عليه من الأرض؛ فيوجد منه ما هو نبات يُشبه النجيل وليس به . ومنه ما يوجد كالحصى . فجعل الجميع ما يحدث في هذا الزمن في أماكن النيل خاصَّةً، وفيه مخالفة لما تقدَّم . بل قد قال : إن شهر (أغشت) الذي يطلُع فيه الذهب وهو من شهور الروم ، ويقع - والله أعلم - أنه يُرَكَّب من (تموز) و(آب) يعني من شهور السريان، وهذا غلط فاحش . فقد تقدَّم في المقالة الأولى أن شهور الروم مطبقة على شهور السريان في الابتداء والانتهاء، دون ابتداء أول السنة؛ وشهر (أغشت) من شهور الروم هو شهر (آب) من شهور السريان بعينه .

ثم قد حكى في "مسالك الأبصار" عن والى مصر عن (منسا موسى) المقسِّم ذكره : أن الذهب ببلادهم حمى له ، يجمع له متحصِّله كالتقطيعه ، إلا ما يأخذه أهل تلك البلاد منه على سبيل السَّرِقة .

وحكى عن الشيخ سعيد الدكَّال : أنه إنما يهادى بشيء منه كالمصانعة، وأنه يتكسَّب عليهم في المبيعات لأنَّ بلادهم لا شيء بها . ثم قال : وكلام الدكَّال أثبت وعليه ينطبق كلامه في "التعريف" حيث ذكر غانة ثم قال : وله عليها إتاوة مقرَّرة

(١) بياض بالاصل والتصحيح من "المسالك" .

تَحْمَلُ إِلَيْهِ فِي كُلِّ سَنَةٍ . وَهَذِهِ الْبِلَادُ أَيْضًا مَعْدِنُ نَحَاسٍ وَلَيْسَ يُوجَدُ فِي السُّودَانِ إِلَّا عِنْدَهُمْ . قَالَ الشَّيْخُ عَيْسَى الزُّوَاوِيُّ : قَالَ لِي السُّلْطَانُ مُوسَى : إِنْ عِنْدَهُ فِي مَدِينَةٍ أَسْمَاهَا (نَكْوَا) مَعْدِنُ نَحَاسٍ أَحْمَرٍ ، يُجَلِّبُ مِنْهُ قُضْبَانٌ إِلَى مَدِينَةِ بَنِي قَاعِدَةَ مَالِي فَيَبْعُثُ مِنْهُ إِلَى بِلَادِ السُّودَانِ الْكُفَّارَ ، فَيُبَاعُ وَزَنٌ مِثْقَالِ بَثْنِي وَزَنُهُ مِنَ الذَّهَبِ ؛ يُبَاعُ كُلُّ مِائَةِ مِثْقَالٍ مِنْ هَذَا النِّحَاسِ بِسِتَّةِ وَسْتِينَ مِثْقَالًا وَثَلَاثِي مِثْقَالٍ مِنَ الذَّهَبِ .

وَهَذِهِ الْبِلَادُ (مَعْدِنُ مِلْحٍ) وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنَ السُّودَانِ الْوَالِجِينَ فِي الْجَنُوبِ وَالْمَسَامِتِينَ لِسَجِّ الْمَسَامَةِ وَمَا وَرَاءَهَا مِلْحٌ سِوَاهُ . قَالَ "الْمَقْرُّ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ" : حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنُ الصَّائِعِ ، أَنَّ الْمِلْحَ مَعْدُومٌ فِي دَاخِلِ بِلَادِ السُّودَانِ ؛ فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُغَرَّرُ وَيَصِلُ بِهِ إِلَى أَنْاسٍ مِنْهُمْ يَبْدَأُونَ نَظِيرَ كُلِّ صُبْرَةٍ مِلْحٍ مِثْلَهُ مِنَ الذَّهَبِ . قَالَ ابْنُ الصَّائِعِ : وَحَدَّثْتُ أَنَّ مِنْ أُمَّمِ السُّودَانِ الْدَاخِلَةِ مَنْ لَا يَظْهَرُ لَهُمْ بَلٌّ إِذَا جَاءَ التَّجَارُ بِالْمِلْحِ وَضَعُوهُ ثُمَّ غَابُوا ، فَيَجِيءُ السُّودَانُ فَيَضَعُونَ إِزَاءَهُ الذَّهَبَ ، فَإِذَا أَخَذَ التَّجَارُ الذَّهَبَ ، أَخَذَ السُّودَانُ الْمِلْحَ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : قَالَ لِي الدَّكَّالِيُّ : وَأَهْلُ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ كَثِيرٌ فِيهِمُ السَّحْرُ ، وَلَهُمْ بِهِ عِنَايَةٌ حَتَّى إِنَّهُمْ فِي بِلَادِ الْكُفَّارِ مِنْهُمْ يَصِيدُونَ الْفَيْلَ بِالسَّحْرِ حَقِيقَةً لَا مَجَازًا ؛ وَفِي كُلِّ وَقْتٍ يَتَحَاكَمُونَ عِنْدَ مَلِكِهِمْ بِسَبَبِهِ ، وَيَقُولُ أَحَدُهُمْ : إِنْ فَلَانَا قَتَلَ أَحِيَّ أَوْ وَلَدِي بِالسَّحْرِ ، وَالسُّلْطَانُ يَحْكُمُ عَلَى الْقَاتِلِ بِالْقِصَاصِ وَقَتْلِ السَّاحِرِ .

وَحِكَايَةُ عَنْهُ أَيْضًا : أَنَّ السُّمُومَ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ كَثِيرَةٌ ، فَإِنْ عِنْدَهُمْ حَشَائِشٌ وَحَيَوَانَاتٌ يَرْتَكِبُونَ مِنْهَا السُّمُومَ الْقَتَالَةَ ، وَلَا سِمَا مِنْ سَمَكٍ يُوجَدُ عِنْدَهُمْ . قَالَ الشَّيْخُ سَعِيدُ الدَّكَّالِيُّ : وَمِنْ خِصَاصَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ أَنْ يَسْرِعَ فِيهَا فَسَادُ الْمَتَنَحِرَاتِ لِأَسْمَا السَّمْنِ فَانَهُ يُفْسَدُ وَيَتِينُ فِيهَا فِي يَوْمَيْنِ .

الجملة الثالثة

(في معاملة هذه المملكة)

ذكر في "مسالك الأبصار" عن ابن أمير حاجب : أن المعاملة عندهم بالودع وأن التجار تجلبه إليهم كثيراً، فترج فيه الربح الكثير. وكان هذا في المعاملات النازلة من مثل المآكل وما في معناها، وإلا فالذهب عندهم على ما تقدم من الكثرة .

الجملة الرابعة

(في ذكر ملوك هذه المملكة)

قد تقدم أن هذه المملكة قد اجتمع بها خمسة أقاليم ، وهي : إقليم مالى ، وإقليم صوصو ، وإقليم غانة من الجانب الغربى عن مالى ، وإقليم كوكو ، وإقليم تكورور من الجانب الشرقى عن مالى ، وأن كل إقليم من هذه الخمسة كان مملكة مستقلة ، ثم اجتمع الكل في مملكة صاحب هذه المملكة ، وأن مالى هي أصل مملكته . قال في "مسالك الأبصار" : وهو وإن غلب عليه عند أهل مصر اسم سلطان التكورور فإنه لو سمع هذا انف منه ، لأن التكورور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته ، والأحب إليه أن يقال (صاحب مالى) لأنه الإقليم الأكبر، وهو به أشهر. وتقل عن الشيخ سعيد الدكالى : أنه ليس بمملكته من يطلق عليه اسم ملك إلا صاحب غانة وهو كالتائب له وإن كان ملكاً . وكانه إنما بقى اسم الملك على صاحب غانة دون غيره لعدم انتزاعها منه والاستيلاء عليها استيلاء كلياً . فقد قال في "التعريف" : وأما غانة فإنه لا يملكها وكأنه مال كوها ، يتركها عن قُدرة عليها : لأن بها وبما وراءها جنوباً منابت الذهب . وذكر ما تقدم من أن بلاد منابت الذهب متى نشأ فيها الإسلام

(١) في الاصل سبعة ، وهو سهو من الناسخ لان المعداد هنا والمتقدم هناك خمسة .

والأذان، عُدِمَ فيها نبات الذهب، وصاحب مالى يتركها لذلك لأنه مسلم، وله عليها إتاوة كبيرة مقررة تجلُّ إليه في كل سنة .

وقد ذكر صاحب "العبر" : أن هذه الممالك كانت بيد ملوك متفرقة، وكان من أعظمها مملكة غانة . فلما أسلم الملتثمون من البربر، تسلطوا عليهم بالغزو حتى دان كثير منهم بالإسلام، وأعطى الجزية آخرون، وضعف بذلك ملك غانة وأضمحل، فتغلب عليهم أهل صوصو المجاورون لهم، وملكوا غانة من أيدي أهلها. وكان ملوك مالى قد دخلوا في الإسلام من زمن قديم .

قال: ويقال إن أول من أسلم منهم ملك اسمه (برمندانة) بياء موحدة وراء مهملة مفتوحين وميم مكسورة ونون ساكنة ودال مهملة بعدها ألف ثم نون مشددة مفتوحة وهاء في الآخر فيما ضبطه بعض علمائهم . ثم حجَّ بعد إسلامه، فاقتنى سننه في الحج ملوكهم من بعده .

ثم جاء منهم ملك اسمه (مارى جاظة) ومعنى (مارى) الامير الذى يكون من نسل السلطان ومعنى (جاظة) الأسد، فقوى ملكه وغلب على صوصو، وأنتزع ما كان بأيديهم من ملكهم القديم وملك غانة الذى يليه إلى البحر المحيط . ويقال : إنه ملك عليهم نحساً وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ابنه (منسا ولى) ومعنى (منسا) باقتهم السلطان، ومعنى (ولى) على، وكان من أعظم ملوكهم، وحجَّ أيام الظاهر بيبرس صاحب مصر . ثم ملك من بعده أخوه (والى) .

ثم ملك من بعده أخوه (خليفة) وكان أحق، يغلب عليه الحمق فيرمى الناس بالسهام فيقتلهم، فوثب به أهل مملكته فقتلوه .

وملك بعده سبط من أسباط « ماري جاظة » المقدم ذكره، اسمه (أبو بكر) على قاعدة العجم في تملك البنت وابن البنت .

ثم تغلب على الملك مولى من مواليهم اسمه (ساكبورة) . ويقال (سيكره) فاتسع نطاق مملكته وغلب على البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كوكو وأستضافها إلى مملكته ، وأتصل ملكه من البحر المحيط الغربى إلى بلاد التكرور ، فقوى سلطانه ، وهابه أمم السودان ورحل إليه التجار من بلاد الغرب وأفريقية . وحج أيام السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » ورجع فقتل في أثر عوده .

وملك بعده (قو) بن السلطان « ماري جاظة » .

ثم ملك من بعده (محمد بن قو) ثم أنتقل الملك من ولد ماري جاظة إلى ولد أخيه أبى بكر .

فولى منهم (منسا موسى) بن أبى بكر . قال فى "العبر" : وكان رجلا صالحا ، ومليكا عظيما ، له أخبار فى العدل تؤثر عنه ، وعظمت المملكة فى أيامه إلى الغاية ، وأفتتح الكثير من البلاد .

قال فى "مسالك الأبصار" : حكى ابن أمير حاجب والى مصر عنه ، أنه فتح بسيفه وحده أربعاً وعشرين مدينة من مدن السودان ذوات أعمال وقرى وضياع . قال فى "مسالك الأبصار" : قال ابن أمير حاجب : سألته عن سبب انتقال الملك إليه - فقال : إن الذى قبل كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك ، فبهزمئين سفن ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سنين ، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم ، فغابوا مدة طويلة ، ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدمها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفن زمانا طويلا حتى عرض

لها في البحر في وسط الجبّة وإدله حريّة عظيمة ، فابتلع تلك المراكب وكنّت آحر القوم فرجعت بسفينتي ، فلم يصدّقه : بجهز التي سفينة ألفاً للرجال وألفاً لأزواد ، وأستخفى وسافر بنفسه ليعلّم حقيقة ذلك ، فكان آحر العهد به وبمن معه . قال في " العبر " : وكان حجّه في سنة أربع وعشرين وسبعائه في الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» .

قال في "مسالك الأبحار" : قال لي المهمندار خرجت لمُنْتَقاه من جهة السلطان فأكرمني إكراما عظيما ، وعاملني بأجمل الآداب ، ولكنه كان لا يحدّثني إلا بترجمان مع إجادته اللسان العربي . قال : ولما قدّم ، قدّم للخزّانة السلطانية حملا من التبر ، ولم يترك أميرا ولا ربّ وظيفة سلطانيّة إلا وبعث إليه بالذهب . وكنّت أحاوله في طلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حسب الأوامر السلطانية فيأبى خشية تقبيل الأرض للسلطان ويقول : جئت للذبح لا لغيره ، ولم أزل به حتى وافق على ذلك .

فلما صار إلى الحضرة السلطانية . قيل له : قبّل الأرض ، فتوقف وأبى إباءً ظاهرا . وقال : كيف يجوز هذا ؟ فأسرّ إليه رجل كان إلى جانبه كلاما - فقال : أنا أعبّد الله الذي خلّقني وفطرني ثم سجدت ، وتقدّم إلى السلطان ، فقام له بعض القيام وأجلسه إلى جانبه وتحدّثا طويلا ، ثم قام السلطان موسى فبعث إليه السلطان بالخلع الكاملة له ولأصحابه ، وخيلا مُسْرَجَة مُلْجَمَة . وكانت خلعتُه طرد وحش بقصب كثير ، بسنّجاب مُقْنَدَس ، مطرّز بزركش ، على منفرج إسكندري ، وكؤوتة زركش ، وكلايب ذهب ، وشاش بحرير ، ورقم خليفتي ، ومنطقة ذهب مرصعة ، وسيف محلي ، ومنديل مُدْهَب نخر ، وفرسين مُسْرَجِين مُلْجَمِين بمراكب بغل محلاة وأعلام ، وأجرى عليه الأتزال والإقامات الوافرة مدّة مقامه .

ولما آن أوانُ الحج بعث إليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهُجِنَ جليلةً كاملةً الأكوار
والعُدَّةَ لمركبه ، وهُجِنَ أتباع لأصحابه وأزوادٍ جمّة ، ورَكَرَ له العليق في الطُّرُق ،
وأمر أمير الركب بإكرامه واحترامه .

ولما عاد ، بعث إلى السلطان من هَدِيَّةٍ الحجاز تبرُّكاً ، فبعث إليه بِالِجَمْعِ الكاملة
له ولأصحابه ، والتَّحَفَ والألطاف من البزِّ السَّكَنْدَرِيِّ والأمتعة الفاخرة ،
وعاد إلى بلاده .

وذَكَرَ عن ابن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائةٌ حِجْلٍ ذهباً أنفقها
في سَفَرَتِهِ تلك على مَنْ بطريقه إلى مصر من القبائل ثم بمصر ، ثم من مصر إلى الحجاز
توجُّهاً وَعَوْداً حتّى احتاج إلى القَرْضِ ، فاستدان على ذِمَّتِهِ من تُجَّارِ مصر بمالهم
عليه فيه المَكَّاسِبُ الكثيرة ، بحيث يحصل لأحدهم في كلِّ ثلثائة دينارٍ سبعمائة دينارٍ
رِجْلاً ؛ وبعث إليهم بذلك بعد توجُّهه إلى بلاده . قال في ”العبر“ ويقال : إنه كان
يَحْمِلُ لَنَفْسِهِ اثنا عشر ألفاً وصيفةً لابساتٍ أُقِيبةً الدِّيَّاجِ .

قال في ”مسالك الأَبْصَارِ“ : وذَكَرَ لي عنه ابنُ أمير حاجب : أنه حكى له
أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحدٍ منهم بنتٌ حسنةً ، قدّمها له أُمَّةٌ
موطوءةٌ ، فيملكها بغير تزويجٍ مثل ملك الأيمن - فقلت له : إن هذا لا يحل لمسلمٍ
شَرَعاً - فقال : ولا لللوك ؟ - فقلت : ولا للملوك وأسأل العالماء . فقال :
والله ما كنت أعلم ذلك ! وقد تركته من الآن . قال في ”العبر“ : ودام ملكه
عليهم خمساً وعشرين سنة ومات .

فملك بعده أبْنُه (منسباً مَغّاً) ومعنى مَغّاً عندهم محمد ، يعنون السلطان محمداً ،
ومات لأربع سنين من ولايته .

وملك بعده أخوه (منسا سليمان) بن أبي بكر، وهو أخو منسا موسى المقدم ذكره. قال في "مسالك الأبصار": واجتمع له ما كان أخوه أفتتحه من بلاد السودان وأضافه إلى يد الإسلام، وبني به المساجد والجموع والمنازل، وأقام به الجمع والجماعات والأذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه، وتفقه في الدين. قال في "العبر" ودام ملكه أربعاً وعشرين سنة، ثم مات.

وولى بعده ابنه (قنبتا بن سليمان) ومات لتسعة أشهر من ملكه. ^(١)

وملك بعده (مارى جازة) بن منسا مغا بن منسا موسى فأقام أربع عشرة سنة أساء فيها السيرة، وأفسد ملكهم، وأتلف ذخائرهم بسرّفه وتبذيره، حتى انتهى به الحال في السرف أنه كان يخرّثهم حجر ذهب، زنته عشرون قنطاراً منقولا من المعدن من غير سبك ولا علاج بالنار. وكانوا يروّنه من أنفاس ذخائرهم لتدور وجود مثله في المعدن، فباعه على تجار مصر المترددين إليه بأجنس ثمن، وصرف ذلك كله في الفسوق، وكان آخر أمره أن أصابته علة النوم وهو مرض كثيرا ما يصيب أهل تلك البلاد لا سيما الرؤساء منهم، يأخذ أحدهم النوم حتى لا يكاد يفتق، فأقام به سنتين حتى مات سنة خمس وسبعين وسبعائة.

وملك بعده ابنه (موسى) فنكّب عن طريق أبيه، وأقبل على العدل وحسن

السيرة.

وتغلب على دولته وزيره (مارى جازة) فخرجه وقام بتدبير الدولة، وكان له فيها أحسن تدبير، وبقي منسا موسى حتى مات سنة تسع وثمانين وسبعائة.

وملك بعده أخوه (منسا مغا) وقُتل بعده بسنة أو نحوها.

(١) وقع في العبرج ٦ ص ٢٠١، ٢٠٢ "فتنا".

وملك بعده (صندكى) زوج أم موسى المقدم ذكره، ومعنى (صندكى) الوزير؛
ووثب عليه بعد أشهر رجل من بيت مارى جازطة .

ثم خرج من ورائهم من بلاد الكفرة رجل اسمه (محمود) يُنسب إلى (منسا قو)
أبن منسا ولى، بن مارى جازطة، ولقبه منسا مغابا، وغلب على الملك فى سنة ثلاث
وتسعين وسبعائة .

قال فى "التعريف" : وصاحب التكرور هذا يدعى نسباً إلى عبد الله بن صالح،
أبن الحسن، بن على بن أبى طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبد الله
أبن موسى، بن عبد الله أبى الكرام، بن موسى الجون، بن عبد الله، بن حسن المثنى،
أبن الحسن السبط، أبن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد ذكر فى "تقويم البلدان" : أن سلطان غانة يدعى النسب إلى الحسن بن على
عليهما السلام، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة لأت من جملة من هو فى طاعته
غانة، أو من كان بها فى الزمن القديم قبل استيلاء أهل الكفر عليها .

الجملة الخامسة

(فى أرباب الوظائف بهذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بهذه المملكة : الوزراء، والقضاة، والكتّاب،
والدواوين، وأن السلطان لا يكتب شيئاً فى الغالب، بل يكمل كل أمر إلى صاحب
وظيفته من هؤلاء فيفصله . وكتابتهم بالخط العربى على طريقة المغاربة .

الجملة السادسة

(في عساكر سلطان هذه المملكة، وأرزاقهم)

أما مقدار العساكر، فقد ذكر الشيخ سعيد الدكالي: أن مقدار عسكره مائة ألف نفر، منهم خيالة نحو عشرة آلاف فارس، وبقية رجاله لاختيل لهم .
وأما الإقطاعات لأمرء هذا السلطان وجنده والإنعامات عليهم ، فقد قال الدكالي : إن من أكابرهم من يبلغ جملة ماله على الملك في كل سنة خمسين ألف مثقال من الذهب ، وانه يتفقددهم مع ذلك بالخليل والنماش ، وإن همته كلها في تجميل زيهم وتمصير ملابسهم .

الجملة السابعة

(في زي أهل هذه المملكة)

قال الدكالي : لباسهم عمائم بحنك مثل الغرب ، وقماشهم بياض من ثياب فُظُن تُنَسَّجَ عندهم في نهاية الرقة واللفظ تسمى الكمصيا ولبسهم شبيهة بلبس المغاربة جباب ودراريغ بلا تقريغ والأبطال من فرسانهم تلبس أساور من ذهب ، فمن زادت فروسيته ليس معها أطواقاً من ذهب فإن زادت ليس مع ذلك خلاخل من ذهب ، ولها زادت فروسيته البطل ألبسه الملك سراويل متسعة وسراويلاتهم ضيقة أحكام الساقين متسعة الشرح ، وأهل هذه المملكة يركبون بالسروج وهم في غالب أحوالهم في الركوب كأنهم من العرب ، إلا أن هؤلاء يدعون في الركوب بأرجلهم البني بخلاف غيرهم من سائر الناس جميعاً ، ولا يعرف عندهم ركوب جمل بكور .

الجملة الثامنة

(في ترتيب هذه المملكة)

أما جلوس السطان في قصره فإنه يجلس على مصطبة كبيرة، على دكة كبيرة من أنبوس، كالتخت على قدر المجلس العظيم المتسع، عليها أنياب الفيلة في جميع جوانبها، الناب إلى الناب، وعنده سلاح له من ذهب كله: سيف، ومزراق، وقوس، وتركاش، ونشاب، وعليه سراويل كبير، مفصل من نحو عشرين نصفية، لا يلبس مثله أحد منهم، بل هو من خصوصيته، ويقف خلفه نحو ثلاثين مملوكا من الترك وغيرهم ممن تبتاع له من مصر، بيسد واحد منهم حتر من حرير عليه قبة، وطائر من ذهب صفة بازي يحمل على يساره، وأمرأوه جلوس حوله يمينا وشمالا، ثم دونهم أعيان من فرسان عسكره جلوس، وبين يديه شخص يغنى له وهو سيافه، وآخر سفير بينه وبين الناس يسمى الشاعر، وتنهى إليه الشكاوى والمظالم فيفصلها بنفسه، ولا يكتب شيئا في الغالب، بل يأمر بالقول بلسانه، وحوله أناس بأيديهم طبول يدقون بها، وأناس يرقصون وهو يضحك منهم، وخلفه صنجقان منشوران، وأمامه فرسان مشدودان محصلان لركوبه متى أحب، ومن عطس في مجلسه ضرب ضربا مؤلما، لا يسأخ أحد في مثل ذلك، فإن بغت أحدًا منهم العطاس، أنبطح في الأرض وعطس حتى لا يعلم به. أما الملك فإنه إذا عطس ضرب الحاضرون بأيديهم على صدورهم. ولا يدخل أحد دار السطان متعلا كائنا من كان، ومن لم يخلع نعليه قتل بلا عفو: عامداً كان أو ساهيا، وإذا قدم عليه أحد من أمرائه أو غيرهم، وقف أمامه زامنا، ثم يومي القادم بيسده اليمنى مثل من يضرب الجوك بلاد توران وإيران من بلاد المشرق. وصفة ذلك أن يكشف مقدم رأسه ويرفع

الذى يضربُ الجوك يده اليمنى إلى قريب أذنه ، ثم يضعها وهي قائمة متصبئة ،
ويُلقيها بيده اليسرى فوق فخذه ، واليد اليسرى مبسوطة الكف لتلقى مرفق اليمنى
مبسوطة الكف مضمومة الأصابع بعضها إلى جانب بعض كالمشط ، ثمَّاس شحمة
الأذن . قال ابن أمير حاجب : وقد رأيت هذا عند خدمتهم للسلطان « موسى »
لما قدم الديار المصرية . فإذا أنعم على أحد بإنعام أو وعده وعدًا جميلًا أو شكره
على فعل ، تتمرغ المنعم عليه بين يديه من أول المكان إلى آخره ، فإذا وصل إلى آخر
المكان ، أخذ غلمان المنعم عليه أو من هو من أصحابه من رماد يكون موضوعا
في آخر مجلس الملك معًا لهذا الشأن ، فيُدز في رأس المنعم عليه ، ثم يعود ويتمرغ ،
إلى أن يصل بين يدي الملك ، ويضرب جوكا آخر بيده ثم يقوم .

وأما في الركوب فقد جرت عادة سلطان هذه المملكة أنه إذا قدم من سفر أن يجلس
على رأسه الجلتر راكب ، ويُشتر على رأسه علم ، وتضرب أمامه الطبول ، والطنابير ،
والبوقات بقرون لهم فيها صناعة محكمة . قال ابن أمير حاجب : وشعار هذا السلطان
أعلام وألوية كبار جدًا ، ورنكه أصفر في أرض حراء .

وأما غير ذلك من سائر أموره ، فقد ذكر الشيخ سعيد الدكالي : أن من عادة هذا
السلطان أنه إذا عاد إليه أحد ممن بعثه في شغل له أو أمرٍ مهمٍّ أن يسأله عن كل
ما حدث له من حين مفارقتة له وإلى حين عودته مُفصلاً . قال ابن أمير حاجب :
وقد رأيت السلطان موسى وهو بمصر لا يأكل إلا منفردًا وحده ، لا يحضره عند
الأكل أحد البتة .

المملكة السادسة

(من ممالك بلاد السودان ، مملكة الحبشة)

يفتح الحياء المهمة والباء الموحدة والشين المعجمة وهاء في الآخر .

وهي مملكة عظيمة جليلة المقننار ، متسعة الأجزاء ، فسيحة الجوانب . قال في "مسالك الأبصار" : وأرضها صعبة المسلك : لكثرة جبالها الشاخنة ، وعظم أشجارها ، وأشتباك بعضها ببعض ، حتى إن ملكها إذا أراد الخروج إلى جهة من جهاتها ، تقدمه قوم مرصدون لإصلاح الطرق بآلات لقطع الأشجار وإحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثير عددهم ، ولم يملك بلادهم غيرهم من النوع الإنساني ، لأنهم أجبر بنى حام ، وأخبر بالوغل في القتال والأقتحام ، طول زمنهم في الأسفار ، وصيد الوحش ، وقتالهم إنما يكون عربياً من غير لامة تدفع عنهم ولا عن خيالهم . ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف أولاً ما هم عليه من الشرك لكانوا في الرتبة العليا من مراتب بنى آدم : فذكر أن المشهور عنهم مع ما هم عليه من المجاعة أنهم يقبلون الحسب ويصفحون عن الجرائم . ومن عاداتهم أن من رمى سلاحه في القتال حرم قتاله ، ويكرمون الضيف ، ولا يتقصص الصديق منهم عهد صديقه ، وإذا أحبوا أظهروا المحبة ، وإذا أبغضوا أظهروا البغض ، والغالب عليهم الذكاء والفطنة وصدق الحدس ، ولهم علوم وصناعات خاصة بهم ، ولهم قلم يكتبون به من اليمين إلى الشمال كما في العربي ، عدة حروفه ستة عشر حرفاً ، لكل حرف منها سبعة فروع ، فيكون عدتها مائة وأثنتين وثمانين حرفاً ، سوى حروف آخر مستقلة بذاتها لا تنفقر إلى حرف من الحروف المذكورة ، مضبوطة بحركات نحوية متصلة بالخط لا منفصلة عنه . ومع كونهم جنساً واحداً

(١) كذا في المسالك أيضاً غير أنه قال : الجملة من ذلك مائة وثمانون فتأمله .

فأغاثتهم تزيد على خمسين لسانا، ويميل الكثير من ألوانهم إلى الصفاء، ولكل طائفة منهم وسم في وجوههم يعبر عنه بالتلعيظ، بعضهم يسم في الخدين وسمًا خفيفًا، وأخرًا يسمون في الخدين والجبهة إلى الأنف خطوطًا طولًا . ويقال : إن أول بلادهم من الجهة الغربية بلاد التكرور مما يلي جهة اليمن، وأوطا من الجهة الشرقية المائلة إلى بعض الجهة الشمالية بحر الهند واليمن؛ وفيها يمر النهر المسمى سيحون الذي يرفد منه نيل مصر . وقد عد منها أحد عشر إقليمًا من جهة الغرب بمفازة بمكان يسمى (وادي بركة) يتوصل منه إلى إقليم يسمى (سحرت) ويسمى قديمًا تكراي، وكان به في الزمن القديم مدينة أسمها (احسرم) بلغة أخرى من لغاتهم، وتسمى أيضا (زرفرتا) . بها كان كرسى ملك النجاشي، وكان مستوليا على أقاليم الحبشة . ويليه من جهة الشرق إقليم (أحرا) الذي به الآن مدينة المملكة، ثم إقليم شاة، ثم إقليم داموت، ثم إقليم لامنان، ثم إقليم السيهو، ثم إقليم الزح، ثم إقليم عدل الأمراء، ثم إقليم حماسا، ثم إقليم باريا، ثم إقليم الطراز الإسلامي . قال : وبها أقاليم كثيرة العدد، مجهولة الأسماء، غير مشهورة ولا معلومة .

ثم هي على قسمين :

القسم الأول

(بلاد النصرانية)

وهي القسم الأوفر عددًا، الأوسع مجالًا، وهو الذي يملكه ملك (أحرا) بفتح الألف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين وألف في الآخر . وهم جنس من الحبشة .

ويشتمل على ستّ جمل :

(١) في القطعة الازهرية مصاحبة هكذا [وأوطا من جهة الغرب بمفازة الخ] .

الجملة الأولى

(في ذكر قواعدها)

وقاعدتها مدينة (مِرْعَدِي) بفتح الميم وكسر الراء وسكون العين وكسر الدال المهملتين وياء مثناة تحت في الآخر. وهي مدينة بإقليم أَمْحَرَا المقدم ذكره فيما ذكره في "مسالك الأبصار" إلا أنه لم يذكر صفتها، والذي ذكره في "تقويم البلدان": أن قاعدة الحبشة (مدينة جَرْمِي) بالجميم المفتوحة والراء المهملة الساكنة ثم ميم مكسورة ثم ياء مثناة تحتية في الآخر كما ضبطه ابن سعيد. وموقعها في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال": حيث الطول خمس وخمسون درجة، والعرض تسع درج وثلاثون دقيقة. قال في "تقويم البلدان": وهي مدينة ذكرها أكثر المصنِّفين في كُتُب المسالك والممالك والأطوال والعروض، وأنها كرسى مملكة الحبشة وقاعدتهم، ولم يزد على ذلك، فيحتمل أنها قاعدة قديمة، ويحتمل أنها القاعدة المستقرّة.

الجملة الثانية

(في الموجود بها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار": أن بها من المواشى ذوات الأربع: الخيل، والبغال، والبقرة، والغنم وما في معناها، وأغنمهم تُسبّه أغنام عِيدَابَ وإيْمَنَ. ومن الوحوش الأسد، والتمر، والفهد، والفيل، والزرافة، والغزال، وبقرة الوحش، وحمار الوحش، والقردة، وغيرها من الوحوش.

وبها من الطيور الجوية : الصقورة ، والبزاة بكثرة ، والنسور البيض والسود ، والغراب ، والجمل ، وطير الواجب بجمته ، والحمام ، والعصفور ، وغير ذلك مما لم يوجد بالديار المصرية . ومن الطيور البرية دجاج الحبش وأمثالها . ومن الطيور المائية البط ، وعندهم بنهرهم سمك يشبه البوري ، وسمك يشبه الثعبان ، يطول إلى مقدار ذراعين ونصف ، وينلظ إلى مقدار كبار الخشب ، وبنهرهم أيضا السمساح وفرس البحر ، وغير ذلك .

وبها من الحبوب : الحنطة ، والشعير ، والحمص ، والعدس ، والبسلا ، والذرة ، وبعض الباقلا ، وحبب أخرى غير ذلك منها حب يسمى (قنابول) يستعملونه قوتاً كالحنطة . والحنطة عندهم على مثال الحنطة الشامية ، والشعير حبه عندهم أكبر من حب الشعير بالديار المصرية والشامية ، ومنه ضرب يسمى طمجة . ولون الحمص عندهم إلى الحمرة . والبايلا عندهم عزيز الوجود في أكثر البلاد ، ولكنهم لا يفتقرون إليه للعلف لكثرة المراعى ببلادهم .

وعندهم حب يسمى (طافي) على قدر الخردل ، ولونه إلى الحمرة ، ومكبره إلى السواد ، يتخذون منه الخبز . وعندهم بعض الأقاليم حب شبيه بالحنطة إلا أن له قشرين ، ينزع قشره بالهرس كالأرز ، ويتخذون منه طعاما يكون مغنياً عن الحنطة . وعندهم بز الكنان وحب الرشاد ، وهم يزرعون على المطر في كل سنة مرتين : مرة في الصيف ، ومرة في الشتاء ، تتحصل في كل مرة الغلات .

وتقل البطرك (بنيامين) أنه يقع عندهم المطر الكثير ، وتحصل مع المطر الصواعق العظيمة .

وعندهم من أصناف المقاتي الفرع ، وفي بعض الأقاليم بطيخ صغير .

وعندهم من البقول : الثُّوم ، والبَصَل ، والكُرْبُرَةُ الخضرَاء ، ومن الرياحين الرِّيْحَان ، والقرْنَفُل ، ونباتٌ أبيضٌ يسمَّى بَعْتَرَان . وعندهم الياسمين البرِّيّ ، ولكنه ليس بمشموّم لهم .

وعندهم من الفواكه العنبُ الأسودُ على قِلَّة ، والتَّينُ الوزيريّ ، وأصنافُ الحوامض خلا النَّارنج .

وعندهم شجرٌ يسمَّى (جان) يجيم بين الجيم والشين لا تُمرله ، وإنما له قلوب تُشبه قلوب النَّارنج تُؤكل فتزيد في الذكاء والفهم ، وتُفْرَح ، إلا أنها تَقَلُّ الأكل ، والنَّوم ، والجَماع . وعنايتهم به عناية أهل الهند بالنَّبل وإن كان بينهما مياينة . وأى نفع فيما فائدته تقليل النَّوم والأكل والجَماع ، اللاتي هي لذات الدنيا ، حتى يحكى أنه وُصف لبعض ملوك اليمن - فقال : أنا لا يذهب متحصّل مُلكي إلا على هذه الثلاث ، فكيف أسمى في ذهابها بأكل هذا ؟

ومن أشجارهم الزَّيتون ، والصَّنوبر ، والجَميز ، وفي بعض بلادهم الآبنوس ، وفي بعضها المقل ، وفي بعضها القنا المحوِّف والمسُدود . وما كلُّهم شحوم البقر والمعز ، وبعض شحوم الضأن ، ومشروبوهم اللبن البقريّ ، وفي ضعفهم يتداوون باللبن المُداف بالماء وسمن البقر .

وعندهم عسل النحل بكثرة في جميع الأقاليم ، تختلف ألوانه باختلاف المراعى : منه ما يوجد في الجبال فيؤخذ من غير شجر على أخذه . ومنه ماله خلايا من خشب متقوِّرة ، له مَلَكٌ يخبِّصون به . ووقود مصابيحهم شحوم البقر . أما الزيت الطيب فيجلب إليهم . وأدهانهم بالسمن . وأواني طعامهم فخار مدهون أسود . وأغسلهم بالماء البارد ، وربما استعملوا الحار منه .

وحكى البترك (بنيامين) أن عندهم من المعادن معدن الذهب ، ومعدن الحديد .
وحكى عن الشريف عز الدين التاجر: أن في بعض بلادهم يوجد معدن الفضة .
ومصاغهم الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والرصاص ، كل أحد منهم بحسبه .

الجملة الثالثة

(في ذكر معاملاتهم وأسعار بلادهم)

أما معاملاتهم ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" أن معاملتهم مقايضة بالأبقار والأغنام والحبوب وغير ذلك . وأما الأسعار فالقمح والشعير اللذان هما أصل المطعومات ليس لهما عندهم قيمة تذكر ، لاستغنائهم عن ذلك باللحم واللبن . وسيأتى ذكر معاملة الطراز الإسلامى فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة الرابعة

(في ذكر زيهم وسلاحهم)

أما زيهم ، فقد ذكر في "المسالك" أن لباسهم في الشتاء والصيف واحد : لكل واحد منهم ثوبان غير مخيطين : أحدهما يثبت به وسطه ، والآخر يلتحف به ، ولا يعرفون لبس المخيط جملةً ، إلا أن الخواص والأجناس يفضلون في اللبس ، فيلبسون الحرير والأبراد اليمنية ، والعوام يلبسون ثياب القطن على ما تقدم .

وأما سلاح المقاتلة منهم ، فالسيوف ، والخرباب ، والمزاريق ، والقسي ، يرمون عنها بالنبل : وهو نشاب صغير ، وربما رمى بعضهم بالنبل عن قوس طويل يشبه قوس البندق ، ولهم درق مدورة ، ودراق طوال يتقون بها .

الجملة الخامسة

(في ذكر بطارقة الإسكندرية، الذين عن توليتهم تنشأ ولاية ملوك الحبشة)

اعلم أنه قد تقدم في المقالة الأولى في الكلام على ما يحتاج إليه الكاتب عند ذكر النحل والملل أن البطارقة عند النصارى عبارة عن خلفاء الحواريين الذين هم أصحاب المسيح عليه السلام، وأنه كان لهم في القديم أربعة كرسي: كرسي برومية: قاعدة الروم، وكرسي بالإسكندرية من الديار المصرية، وكرسي بأنطاكية: قاعدة العواصم من بلاد الشام، وكرسي بيت المقدس. وأن كرسي رومية قد صار لطائفة الملكية وبه بطرركهم المعبر عنه بالبابا إلى الآن. وكرسي الإسكندرية قد صار آخرًا لبطرك اليعاقبة تحت ذمة المسلمين بالديار المصرية من لدن الفتح الإسلامي وهلم جرا إلى زماننا. وأن كرسي بيت المقدس وكرسي أنطاكية قد بطلا باستيلاء دين الإسلام عليهما. ثم كرسي الإسكندرية بعد مصيده إلى اليعاقبة قد تبع البطررك القائم به على مذهب اليعاقبة الحبشة والنوبة وسائر متنصرة السودان، وصار لديهم كاخليفة على دين النصرانية عندهم، يتصرف فيهم بالولاية والعزل، لاتصح ولاية ملك منهم إلا بتوليته، حتى قال في "التعريف" في الكلام على مكتبة ملك الحبشة: ولولا أن معتقد دين النصرانية لطائفة اليعاقبة أنه لا يصح تعهد معمودي إلا باتصال من البطريرك، وأن كرسي البطريرك كنيسة الإسكندرية، فيحتاج إلى أخذ مطران [بعد مطران] من عنده، وإلا كان شخ بأفقه على المكتبة، لكنه مضطر إلى ذلك. قال: ولأوامر البطريرك عنده ما لشريعته من الحرمة، وإذا كتب إليه كتابا فأتى ذلك الكتاب إلى أول ملكته، خرج عميد تلك الأرض فحمل الكتاب على رأس

(١) الزيادة عن "التعريف".

علم ، ولا يزال يجلبه بيده حتى يخرجهُ من أرضه وأرباب الدولة في تلك الأرض
كالتسوس والشامسة حوله مشاةً بالأدخنة ، فإذا خرجوا من حدّ أرضهم تلقّاهم
من يليهم أبداً كذلك في كل أرض بعد أرض حتى يصلوا إلى أنحرا ، فيخرج
صاحبها بنفسه ، ويفعل مثل ذلك الفيل الأول ، إلا أن المطران هو الذي يجلب
الكتاب لعظمته لا لتأبى الملك ؛ ثم لا يتصرف الملك في أمرٍ ولا نهى ولا قليل
ولا كثير حتى يُنادى للكتاب ويجمع له يوم الأحد في الكنيسة ، ويُقرأ والملك
واقف ، ثم لا يجاس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به .

ولما تعذر الوقوف على معرفة تواريخ ملوكهم ، أكتفينا بذكر البطارقة الذين
عنهم تنشأ ولاياتهم ، فكانوا هم ملوكهم حقيقةً .

اعلم أن أول من ولي من البطارقة كنيسة الإسكندرية مرقص الإنجيلي : تلميذ
بطرس الحواري ، الذي أرسله المسيح عليه السلام إلى رومية . وإنما سُمي بمرقص
الإنجيلي لأن بطرس الحواري حين كتب إنجيله كتبه بالرومية ونسبه إلى مرقص
المذكور فنلقب بالإنجيلي ، وأقام مرقص المذكور في بطركية الإسكندرية سبع سنين
يدعو إلى النصرانية بالإسكندرية ومصر وبقية المغرب ثم قتله نيرون قيصر
أبن اقليوديش قيصر سادس القياصرة .

وولي مكانه (حنانيا) ويسمى بالعبرانية أنانيو ثم مات لسبع وثمانين سنة للمسيح .
وولي مكانه (فلبو) ^(١) فأقام ثلاث عشرة سنة ثم مات .

فولي مكانه (كرتيانو) ومات لإحدى عشرة سنة من ولايته في أيام (طرنيش

قيصر) .

(١) في الخطط المقرزية ج ٢ ص ٤٨٤ مينو .

وولي مكانه (إيريمو) ثلثي عشرة سنة .

ثم ولي بعده (نسطس) في أيام (أندريانوس قيصر) ، وكان حكيماً فاضلاً فأقام في البطركية إحدى عشرة سنة ثم مات .

وولي مكانه (أرمانيون) إحدى عشرة سنة أيضاً [ومات] في أيام (أندريانوس) قيصر أيضاً .

وولي بعده (موقيانو) فلبث تسع سنين وومات في أيام (أنطونيس قيصر) في الخامسة من ملكه .

وولي بعده (كلوتيانو) فأقام أربع عشرة سنة في أيام أنطونيس قيصر وومات .

وولي بعده (أغريتوس) فبقي أثنتي عشرة سنة وومات .

وولي بعده (بليانس) في أيام [أوراليانس] ^(١) قيصر فلبث عشر سنين وومات .

فولي مكانه في أيام أوراليانس (ديمتريوس) فأقام ثلاثاً وثلاثين سنة .

وولي بعده (تاوكلا) فأقام ست عشرة سنة وومات .

فولي بعده (دونوشوش) فلبث تسع عشرة سنة [ومات] .

وولي مكانه (مكسيموس) فأقام ثلثي عشرة سنة وومات .

وولي مكانه (ثاونا) فلبث عشر سنين [ومات] وكان النصراني إذ ذاك يُقيمون

الدين خفية فلما صار بطريراً صانع الروم ولاطفهم بالهدايا فأذنوا له في بناء كنيسة مريم ، وأعلنوا فيها بالصلاة .

ثم ولي بعده (بطرس) فلبث عشر سنين وقتله (ديقلاديانوس قيصر) .

(١) بيض له في الأصل والتكبريل عن المقريري وفي القطعة الأزهرية [في أيام طرغش] ولكنه ضب

عليها بالشطب .

وولّى مكانه تلميذَه (إسكندروس) وكان كبير تلامذته فلبث ثلاثاً وعشرين سنة .
 وقيل ثنتين وعشرين سنة ، وقيل ست عشرة سنة ، وكسّر صنم النحاس الذى
 كان فى هيكل زحل بالإسكندرية وبنى مكانه كنيسة ، وبقيت حتى هدمها العبيديون
 عند ملكهم الإسكندرية ، ومات لإحدى وعشرين سنة من ملك (قسطنطين)
 ملك الروم .

وولّى مكانه تلميذه (ايناسيوس) ووثب عليه أهل إسكندرية ليقتلوه لانتحاله
 مذهبا غير مذهبهم فهرب .

وتولى مكانه (لوقيوش) ثم ردّ (ايناسيوس) المتقدم ذكره إلى كرسيه بعد خمسة أشهر
 وطرد لوقيوس ، وأقام ايناسيوس بطركا إلى أن مات .

فتولّى بعده تلميذه (بطرس) سنتين ووثب عليه أصحاب لوقيوس فهرب وردّ
 لوقيوس إلى كرسيه ، فأقام ثلاث سنين ، ثم وثبوا عليه وردّوا بطرس ومات
 لسنة من إعادته ، وقيل إنه حُيس وأقيم مكانه (أريوس) من أهل سُمسِاط .

ثم ولي (طيماناواس) أخو بطرس ، فلبث فيهم سبع سنين ومات . ويقال :
 إن ايناسيوس المتقدم ذكره ردّ إلى كرسيه ثم مات .

(١)
 فولّى مكانه كاتبه (تاوفينا) [فأقام سبعا وعشرين سنة] ومات .

(١)
 وتولّى مكانه (كيرلس) ابن أخته [فأقام ثنتين وثلاثين سنة] ومات .

فولّى مكانه (ديسقرس) فأحدث بدعة فى الأمانة التى يعتقدونها فأجمعوا
 على نفيه .

وَوَلَّوْا مَكَانَهُ (بِطَارِس) وَأَفْتَرَقَتِ النَّصَارَى مِنْ حَيْثُ نَزَّحُوا إِلَى يَهُدِيَّةٍ وَمَلِكَانِيَّةٍ .
 وَوَثَبَ أَهْلُ الإسْكَندَرِيَّةِ عَلَى بَطَارِسِ الْبَطْرِكِ فَمَاتَ لِسِتِّ سِنِينَ مِنْ وِلَايَتِهِ
 وَأَقَامُوا مَكَانَهُ (طِيمَانَاوَس) وَكَانَ يَهُدِيًّا ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ وَلَّى الْبَطْرِكِيَّةَ مِنَ الْيَعَاقِبَةِ
 بِالْإِسْكَندَرِيَّةِ فَأَقَامَ فِيهَا ثَلَاثَ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَ قَائِدٌ مِنَ الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ فَنَفَاهُ وَأَقَامَ مَكَانَهُ
 (سُورِيْس) مِنَ الْمَلِكِيَّةِ ، فَأَقَامَ تِسْعَ سِنِينَ . ثُمَّ عَادَ (طِيمَانَاوَس) الْمُنْتَقِمَ ذِكْرَهُ إِلَى
 كُرْسِيِّهِ بِأَمْرِ لَوْنِ قَيْصَرَ . وَيُقَالُ إِنَّهُ بَقِيَ فِي الْبَطْرِكِيَّةِ اثْنَتَيْ عَشْرِينَ سَنَةً وَمَاتَ .
 فَوَلَّى مَكَانَهُ (بَطْرِس) وَهَلَكَ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ .

وَوَلَّى مَكَانَهُ (إِسْنَسْيُوس) وَهَلَكَ لِسَبْعِ سِنِينَ ، وَكَانَ قِيَمًا بَبَعْضِ الْبَيْعِ فِي بَطْرِكِيَّةِ
 بَطْرِسٍ وَمَاتَ .

فَوَلَّى مَكَانَهُ (يُوحَنَّا) وَكَانَ يَهُدِيًّا ، وَمَاتَ بَعْدَ سَبْعِ سِنِينَ .

وَوَلَّى مَكَانَهُ (يُوحَنَّا الْحَبِيس) وَمَاتَ بَعْدَ إِحْدَى عَشْرَةَ سَنَةً .

فَوَلَّى مَكَانَهُ (دِيَسْقُرُسُ الْجَدِيدِ) وَمَاتَ بَعْدَ سِتِّينَ وَنِصْفٍ .

ثُمَّ وُلِيَ مَكَانَهُ (طِيمَانَاوَس) وَكَانَ يَهُدِيًّا ، فَهَكَّتْ فِيهِمْ ثَلَاثَ سِنِينَ ، وَقِيلَ
 سَبْعَ عَشْرَةَ سَنَةً ، ثُمَّ نَفَى .

وَوَلَّى مَكَانَهُ (بُولُص) وَكَانَ مَلِكِيًّا فَلَمْ تَقْبَلْهُ الْيَعَاقِبَةُ ، وَأَقَامَ عَلَى ذَلِكَ سِتِّينَ .

ثُمَّ وُلِيَ قَيْصَرَ قَائِدًا مِنْ قَوَادِمِ أَسْمِهِ (أَثُولِينَارْيُوس) فَدَخَلَ الْكَنِيسَةَ عَلَى زِيَّ
 الْجُنْدِ ، ثُمَّ لَيْسَ زِيَّ الْبَطَارِكَةَ وَحَمَلَهُمْ عَلَى رَأْيِ الْيَهُدِيَّةِ ، وَقَتَلَ مِنْ أَمْتِنَعٍ وَكَانُوا
 مَائَتِينَ ، وَمَاتَ لِسَبْعِ عَشْرَةَ سَنَةً مِنْ وِلَايَتِهِ .
 (١)

(١) فِي خَطِّ الْمَقْرِيْزِيِّ مَائَتَا أَلْفِ إِنْسَانٍ .

وولي مكانه (يوحنا) وهلك لثلاث سنين .

وأفرد اليعاقبة بالإسكندرية وكان أكثرهم القبط وقدموا عليهم طودوشوش بطركا، فمكث فيهم ثنتين وثلاثين سنة . ثم جعل الملكية بطركهم داقيانوس وطرده طودوشوش عن كرسيه ستة أشهر ، ثم أمر قيصر بأن يعاد فأعيد ، ثم نفاه بعد ذلك .

وولي مكانه (بولس التنيسي) فلم يقبله أهل الإسكندرية ولا ماجاء به ، ثم مات وغلقت كنائس القبط اليعقوبية ، ولقوا شدة من الملكية ، ومات (طودوشوش) الذي كان قد نفي .

وتولى البطركية (بطرس) ومات بعد سنتين .

وولي مكانه (داميانو) فمكث ستا وثلاثين سنة ، ونحرت الدير في أيامه .

ثم ولي على الملكية بالإسكندرية ومصر (يوحنا الرحوم) وهو الذي عمل الپيارستان للرضى بالإسكندرية ، ولما سمع بمسير الفرس إلى مصر هرب إلى قبرس فمات بها لعشر سنين من ولايته ، وخلا كرسي الملكية بعده بالإسكندرية سبع سنين .

وكانت اليعاقبة بالإسكندرية قدموا عليهم (انسطانيوس) فمكث فيهم ثنى عشرة سنة ، وأسترد ما كانت الملكية آستولوا عليه من كنائس اليعقوبية ومات .

ثم ولي (اندرانيكون) بطركا على اليعاقبة فأقام ست سنين تحربت فيها الدير ، ثم مات .

وولي مكانه لأول الهجرة (بنيامين) فمكث تسعا وثلاثين سنة . وفي خلال أيامه غلب هرقل ملك الروم على مصر وملكها .

وولي أخاه (منانيا) بطركا على الاسكندرية وواليا وكان ملكيا . ورأى بنيامين
البطرك في نومه من يأمره بالاختفاء فاختفى . ثم غضب (هرقل) على أخيه (منانيا)
لمعتقد في الدين فأحرقه بالنار ثم رمى بجثته في البحر ، وبقى (بنيامين) مختفيا إلى
أن فتح المسلمون الإسكندرية فكتب له عمرو بن العاص بالأمان ، فرجع إلى
الإسكندرية بعد أن غاب عن كرسيه ثلاث عشرة سنة ، وبقى حتى مات في سنة
تسع وثلاثين من الهجرة ، واستمرت البطركية بعده في اليعقوبية بمفردهم وغلبوا
على مصر ، وأقاموا بجميع كراسيهم أساقفة يعاقبة ، وأرسلوا أساقفتهم إلى النوبة
والحبشة فصاروا يعاقبة .

وخلفه في مكانه (أغانوا) فمكث سبع عشرة سنة ، ثم مات في سنة ست وخمسين
من الهجرة ، وهو الذي في أيامه قد أنشئت كنائس الماسكية من اليعاقبة ، وولي عليهم
بطرك بعد أن أقاموا من لندن خلافة عمر بغير بطرك نحوًا من مائة سنة ورياسة
البطرك لليعاقبة وهم الذين يبعثون الأساقفة إلى النواحي . ومن هنا صارت النوبة
ومن وراءهم من الحبشة يعاقبة ، وهو الذي بنى كنيسة مرقص وبقيت حتى
هدمت أيام العادل أبي بكر بن أيوب .

وولي مكانه بطرك اسمه (يوحنا) .

ثم ولي البطركية بعده (ايساك) فأقام سنتين وأحد عشر شهرا [ومات] .
وكانت تقدمته في الثامنة عشرة ليوشطيان ملك الروم ، ونقرر أن لا يقدم بطرك
إلا يوم الأحد .

(١) عبارة "العبرج ٢ ص ٢٢٧" وفي أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدي اليعاقبة وولي

وقُدِّمَ عوضه (سميون السرياني) فأقام سبعم سنين ونصفا ، ومات في الرابع والعشرين من ألب سنة أربعمائة وست عشرة للشهداء في خلافة عبد الملك ابن مروان .

ويقال : إنه وصل إليه رسول من الهند يطلب منه أن يقدم لهم أسقفاً وقُسوساً فامتنع إلى أن يأمره صاحب مصر ، فمضى إلى غيره ففعل له ذلك .

وقُدِّمَ بعده في البطركية (الاسكندروس) في سنة إحدى وثمانين من الهجرة في يوم عيد مرقص الإنجيلي سنة أربعمائة وعشرين للشهداء ، فسكت أربعا وعشرين سنة ونصفا ، وقيل خمسا وعشرين سنة ؛ وقاسى شدة عظيمة ، وصودر دفعتين ، أخذ منه في كل دفعة ثلاثة آلاف دينار ، ومات في سنة ثمان ومائة ، وكانت وفاته بالإسكندرية .

وقُدِّمَ عوضه (قسيما) فأقام خمسة عشر شهرا ومات .

فُقِّدَمَ مكانه (تادرس) في سنة تسع ومائة فأقام إحدى عشرة سنة ومات .

فُقِّدَمَ مكانه (ميخائيل)^(١) في سنة عشرين ومائة فأقام ثلاثا وعشرين سنة ولقي شدايد من عبد الملك بن موسى نائب مروان الجعدي على مصر ثم من مروان لما دخل إلى مصر إلى أن قُتِلَ في أبي صير وأطلق البطرك والنصارى نائب أبي العباس السفاح .

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة رُسم بإعادة ما استولى عليه اليعاقبة من كنائس الملكية بالديار المصرية إليهم ، فأعيدت وأقيم لهم بطرك ، وكانت الملكية قد أقاموا بغير بطرك سبعا وتسعين سنة من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين الفتح الإسلامي إلى خلافة هشام بن عبد الملك .

(١) في الأصل جاتيل والتصحيح عن المقرئ .

وفي سنة سبع وأربعين ومائة صرف أبو جعفر المنصور (ميخائيل) بطرك اليعاقبة ،
وأقام عوضه (مينا) فأقام تسع سنين ، ومات في خلافة الهادي «محمد بن المهدي» .
وقدم مكانه (يوحنا) فأقام ثلاثا وعشرين سنة ، ومات سادس عشر طوبة سنة
خمسمائة وخمس عشرة للشهداء .

ثم في سنة اثنتين وسبعين ومائة في خلافة الرشيد قدم في البطركية (مرفص الجليدي)
فأقام عشرين سنة وسبعين يوما . وفي أيامه رسم الرشيد بإعادة كنائس الملكية التي
استولى عليها اليعاقبة ثانيا إليهم ، وثارت العربان والمغاربة وتحربوا الديرة بوادي هيب
ولم يبق فيها من الرهبان إلا اليسير ثم مات في سنة إحدى عشرة ومائتين .

وقدم عوضه في البطركية (يعقوب) قيل في السنة الثالثة من خلافة المأمون .
وفي أيامه حُمرت الديارات وناذت الرهبان إليها ، ومات في سنة اثنتين وعشرين
ومائتين .

وقدم عوضه (سيماون) في السنة المذكورة في خلافة المعتصم فأقام سنة واحدة .
وقيل سبعة شهور وستة عشر يوما . وخلا الكرسي بعده سنة واحدة وتسعة
وعشرين يوما .

وفي سنة سبع وعشرين ومائتين قدم في البطركية (بطرس) ويقال (يوساب)
وكانت تقدمته في دير (بومقار) بوادي هيب حادي عشرى هاتور سنة خمسمائة
وسبعة وأربعين للشهداء . وقيل : إنه قدم في أيام المأمون ، وإنه أقام ثمانى عشرة
سنة ، وسير أساقفة إلى أفريقية والقيروان ، ومات سنة اثنتين وأربعين ومائتين ،
وخلا الكرسي بعده ثلاثين يوما .

(١) وقُدِّمَ عوضه (جاتيل) في السنة العاشرة من خلافة المتوكل . ويقال : إنه كان قُسا بدير بوحنس ، فأقام سنةً واحدةً وخمسة أشهر ، ثم مات ودفن بدير بو مقار ، وهو أول من دُفِنَ [فيه] من البطارقة . وخلا الكرسي بعده أحدا وثمانين يوما .
وقُدِّمَ عوضه (قسيا) في سنة أربع وأربعين ومائتين من الهجرة ، وهي الثانية عشرة من خلافة المتوكل ، وكان شماسا بدير بو مقار ، فأقام سبع سنين وخمسة شهور ثم مات ودفن بدنوشر ، وخلا الكرسي بعده أحدا وخمسين يوما .

وقُدِّمَ مكانه بطرك اسمه (اساسو) ويقال (سالوسو) في أول سنة من خلافة المعتز وأحمد بن طولون بمصر ، فأقام إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر ومات ، وهو الذي عمل مجارى المياه التي تجرى تحت الأرض من خليج الإسكندرية إلى أدريها .

ولما مات قُدِّمَ مكانه (ميخائيل) في خلافة المعتمد في سنة ثلاث وستين ومائتين ، فأقام خمسًا وعشرين سنة . وصادره أحمد بن طولون في عشرين ألف دينار ، فباع في المصادرة رباع الكنائس بالإسكندرية ، وبركة الحبش بظاهر مصر ، ومات .

فبقي الكرسي بعده أربع عشرة سنة شاغرا إلى سنة ثلثمائة . [وفي يوم الاثنين ثالث شوال سنة ثلثمائة] (٢) احترقت الكنيسة العظمى بالإسكندرية التي كانت بنتها (كلا بطره) ملكة مصر هيكلًا لزلزل .

ثم قُدِّمَ البطرك (غبريال) في السنة السابعة من خلافة المقتدر ، وهي سنة إحدى وثلاثمائة ، فأقام إحدى عشرة سنة ومات .

(١) في المقرئى ميكايل .

(٢) الزيادة عن المقرئى لينضح الكلام .

فُقِّدَ مكانه البطرِك (قسيا) فأقام أثنى عشرة سنة ومات . وفي السنة الأخيرة من رياسته (وهي سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة) أحرق المسلمون كنيسة مريم بدمشق ونهبوا ما فيها وتبعوا كائس اليعاقبة والنساطرة .

ولما مات قسيا المذكور قدموا عليهم بطركا لم أفف على اسمه ، فأقام عشرين سنة ، ثم مات .

وقُدِّم في البطرِكيسة (تاوفانيوس) من أهل إسكندرية في السنة الحادية عشرة من خلافة المطيع فأقام أربع سنين وستة أشهر ، ومات مقتولا في سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة .

وقُدِّم مكانه البطرِك (مينا) في السنة الخامسة عشرة من خلافة المطيع ، والأخشيذ نائب بمصر ، فأقام إحدى عشرة سنة ثم مات . وخلا كرسى اليعاقبة بعد موته سنة واحدة .

ثم قُدِّم مكانه بطرك اسمه (أفراهام السرياني) في سنة ست وستين وثلاثمائة ، فأقام ثلاث سنين وستة أشهر ، ومات في أيام العزيز الفاطمي بمصر مسموما من بعض كُتَّاب النصارى : لإنكاره عليه التسرى ، وقُطعت يدُ ذلك الكاتب بعد موته ، ومات لوقته . وخلا الكرمي بعده ستة أشهر .

وقُدِّم عوضه بطرك اسمه (فيلايوس) في سنة تسع وستين وثلاثمائة . وقيل : في السنة الخامسة للعزيز الفاطمي فأقام أربعاً وعشرين سنة وسبعة أشهر ومات .

وقُدِّم بعده بطرك اسمه (دخريس) في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في أيام الحاكم الفاطمي ، فأقام ثماناً وعشرين سنة ، ثم مات ودفن ببركة الحبش . وخلا كرسى

اليَعاقبة بعده أربعة وسبعين يوما . [ثم قُدم اليَعاقبة بعده (سابونين) بطركا في سنة
إحدى وعشرين وأربعمائة ، فأقام خمس عشرة سنة ومات ؛ فخلا الكرى بعده سنة
(١)
ونحسة أشهر] .

ثم قُدم بعده بطرك اسمه (انخرستوديس) في سنة سبع وثلاثين وأربعمائة في خلافة
المستنصر الفاطمي ، فأقام ثلاثين سنة ، ومات في السنة الحادية والأربعين من خلافة
المستنصر المذكور بالكنيسة المعلقة بمصر . وهو الذي جعل كنيسة بومر قورة بمصر
وكنيسة السيدة بحارة الروم بطركية . وخلا الكرى بعده اثنين وسبعين يوما .

ثم قُدم بعده البطرك (كيرلص) فأقام أربع عشرة سنة وثلاثة أشهر ونصفا ،
ومات بكنيسة المختارة بجزيرة مصر سلخ ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وأربعمائة .
وخلا الكرى بعده مائة وأربعة وعشرين يوما .

وقُدم عوضه بطرك اسمه (ميخائيل) في سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة ، في أيام
المستنصر الفاطمي صاحب مصر ، وكان قبل ذلك حبسا بسنجار ، فأقام تسع سنين
وثمانية أشهر ، ومات في المعلقة بمصر .

وقدموا عوضه بطركا اسمه (مقارى) سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بدير بومقار ،
ثم كل بالإسكندرية ، وعاد إلى مصر وقُدس بدير بومقار ثم في الكنيسة المعلقة .
وفي أيامه هدم الأفضل بن أمير الجيوش كنيسة بجزيرة مصر كانت في بستان أشتراه .

ولما مات قُدم عوضه بطرك اسمه (غبريال) أبو العلا صاعد ، سنة خمس وعشرين
ونحسمائة في أيام الخافظ الفاطمي ، وكان قبل ذلك شماسا بكنيسة بومر قورة ؛ فُقدم

(١) الزيادة عن المقرئ ، وهي لازمة بها يتم الكلام .

بالمعلّقة، وكُمّل بالإسكندرية، فأقام أربع عشرة سنة، ومات بكنيسة بومرقورة .
 وخلا الكرسيّ بعده ثلاثة أشهر .

وقُدّم بعده بطرك اسمه (ميخائيل) بن التقدوسيّ في السنة الخامسة عشرة من
 خلافة الحافظ أيضا، وكان قبل ذلك راهبا بقلّاية دنشري، قُدّم بالمعلّقة وكُمّل
 بالإسكندرية، ومات بدير بومقار في رابع شوال سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .
 وخلا الكرسيّ بعده سنة واحدة وسبعين يوما .

وقُدّم عوضه بطرك اسمه (يونس) بن أبي الفتح بالمعلّقة بمصر وكُمّل بالإسكندرية،
 فأقام تسع عشرة سنة، ومات في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة إحدى
 وخمسين وخمسمائة . وخلا الكرسيّ بعده ثلاثة وأربعين يوما .

وقُدّم بعده بطرك اسمه (مرقص) أبو الفرج بن زرعة في سنة إحدى وستين
 وخمسمائة بمصر وكُمّل بالإسكندرية، فأقام اثنين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسة
 وعشرين يوما، وفي أيامه أُحرقت كنيسة بومرقورة بمصر، ثم مات . وخلا الكرسيّ
 بعده سبعة وعشرين يوما .

وقُدّم بعده بطرك اسمه (يونس) بن أبي غالب في عاشر ذي الحجة سنة أربع وثمانين
 وخمسمائة بمصر وكُمّل بالإسكندرية، وأقام سنًا وعشرين سنة وأحد عشر شهرا
 وثلاثة عشر يوما، ومات في رابع عشر رمضان المعظم قدره، سنة ثلثي عشرة وستمائة
 بالمعلّقة بمصر، ودُفن ببركة الحبش .

وقُدّم بعده بطرك اسمه (داود) بن يوحنا، ويعرف بابن لقلق بأمر العادل بن
 الكامل، فلم يُوافق عليه المصريون فأبطلت بطركيته، وبقي الكرسيّ بغير بطرك
 تسع عشرة سنة .

ثم قُدِّم بطركُ اسمه (كيرلس) ^(١) داود بن لفاق في التاسع والعشرين من رمضان المعظم سنة ثلاثٍ وثلاثين وستمائة ، فأقام سبع سنين وتسعة أشهر وعشرة أيام ، ومات في السابع عشر من رمضان المعظم سنة أربعين وستمائة ، ودُفِنَ بدير الشَّعِّع بالجزيرة . وخلا الكرسيُّ بعده سبع سنين وستة أشهر وستة وعشرين يوماً .

وقُدِّم بعده بطركُ اسمه (سيوس) بن القُسِّ أبي المكارم ، في رابع رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة وكُلَّ بالإسكندرية ، وأقام إحدى عشرة سنة وخمسة وخمسين يوماً ، ومات في ثالث المحرم سنة ستين وستمائة . وخلا الكرسيُّ من بعده خمسة وثلاثين يوماً ^(٢) .

ثم قُدِّم بعده في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون البطرك (بنيامين) وهو الذي كان معاصراً للمقر الشمهاني بن فضل الله ، ونقل عنه بعض أخبار الحبشة . ثم قُدِّم بعده المؤتمن (جرجس) بن القُسِّ مفضَّل في شهر سنة أربع وستين وسبعمائة .

ثم قُدِّم بعده البطرك متى وطالت مدته في البطركية ثم مات في شهر سنة اثنتي عشرة وثمانمائة .

وأستقرَّ بعده الشيخ الأجدد (رفائيل) في أواخر السنة المذكورة ، وهو القائم بها إلى الآن .

(١) عبارة المقرئ بعد ما تقدم "ثم قدم هذا القس" يعني به داود بن لفاق المتقدم فإنه بعد أن منع عنها المدة المذكورة قدم إليها في التاريخ المذكور .

(٢) في الأصل إحدى وعشرين وهو خطأ ، والتصحيح عن المقرئ .

(٣) في المقرئ خمسة وثمانين يوماً .



أما ملوكهم القائمون ببلادهم ، فلم يتَّصِلْ بنا تفاصيل أخبارهم ؛ غير أن المشهور أن ملوكهم في الزمن المتقدم كان يلقَّب النَّجاشِيَّ ، سَمَةً لِكُلِّ مَنْ مَلَكَ عَلَيْهِمْ ، إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُهُمْ (النَّجاشِيَّ) الَّذِي كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَسْلَمَ وَكُتِبَ إِلَيْهِ بِإِسْلَامِهِ ، وَمَاتَ وَصَلَّى عَلَيْهِ صَلَاةَ الْغَائِبِ ؛ وَكَانَ اسْمُهُ بِالْحَبَشِيَّةِ (أَصْحَمَةَ) وَيُقَالُ (صَحْمَةَ) وَمَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ عَطِيَّةٌ .

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" : أن الملك الأكبر الحاكم على جميع أقطارهم يسمَّى بلغتهم (الْحَطِّيَّ) بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت في الآخر . ومعناه السلطان أسماً موضوعاً لكل مَنْ قام عليهم ملكاً كبيراً . ثم قال : ويقال : إن تحت يده تسعة وتسعين ملكاً ، وهو لهم تمام المائة . وذكر أن الملك القائم بمملكته في زمانه اسمه (عمدسيون) ومعناه ركن صهيون . قال : وصهيون بيعة قديمة البناء بالإسكندرية معظمة عندهم . قال : ويقال : إنه من الشجاعة على أوفر قسم ، وإنه حسن السيرة ، عادل في رعيته . قال في "التعريف" : وقد بلغنا أن الملك القائم عليهم أسلم سراً ، وأستمر على إظهار دين النصرانية إبقاءً للملكة . فيحتمل أنه (عمدسيون) المقدم ذكره ، ويحتمل أنه غيره . قال في "التعريف" : ومدبر دولته رجل يقرب إلى بني الأرشى الأطباء بدمشق . قال في "مسالك الأبصار" : ومع ما هم عليه من سعة البلاد ، وكثرة الخلق والأجناد ، مفتقرون إلى العناية والملاحظة من صاحب مصر . لأن المطران الذي هو حاكم شرعهم في جميع بلادهم من أهل النصرانية لا يُقام إلا من الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية ، بحيث تخرج الأوامر السلطانية من مصر

للبطرك المذكور بإرسال مطرانٍ إليهم . وذلك بعد تقديم سؤال ملك الحبشة الذى هو الحطّى وإرسال رُسُلِهِ وهَدَايَاهُ . قال : وهم يدعون أنهم يحفظون مجارى النيل المنحدِرِ إلى مصر ، ويساعدون على إصلاح سُلوِكِهِ تقرباً لصاحب مصر .

وقد ذكر ابن العميد مؤرّخ النصارى فى تاريخه : أنه لما توقف النيل فى زمن المستنصر بالله الفاطمى ، كان ذلك بسبب فساد مجارىه من بلادهم ، وأنّ المستنصر أرسل البطرك الذى كان فى زمانه إلى الحبشة حتى أصلحوه واستقامت مجارىه . لكن قد تقدّم فى الكلام على النيل عند ذكر مملكة الديار المصرية من هذه المقالة ما يخالف ذلك .

الجملة السادسة

(فى ترتيب مملكتهم)

قال فى "مسالك الأبصار" : يُقال إن الحطّى المذكور وجيشه لهم خيامٌ ينقلونها معهم فى الأسفار والتّزهات ، وإنه إذا جلس الملك يجلس على كرسى ، ويجلس حول كُرسِيهِ أمراء مملكته وكبرأؤها على كراسى من حديد : منها ما هو مُطعم بالذهب ، ومنها ما هو ساذج على قدر مراتبهم . قال : ويُقال إن الملك مع نفاذ أمره فيهم يتبّت فى أحكامه . ولم يزد فى ترتيب مملكتهم على ذلك .

ولمّا كان الحبشة هذا مكتوبةً عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتى ذكرها فى الكلام على المكتاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني

(من بلاد الحبشة ما بيد مسلمي الحبشة)

وهي البلادُ المُقابلَةُ لِبَرِّ الْيَمِينِ عَلَى أَعْلَى بَحْرِ الْقَزْمِ ، وما يتصلُّ به من بحر الهند ، ويعبرُ عنها ” بِالطَّرَازِ الْإِسْلَامِيِّ “ لأنها على جانب البحر كالطَّرَازِ له . قال في ” مسالك الأبصار “ : وهي البلاد التي يُقال لها بِمِصْرَ وَالشَّامِ بِلادِ الزَّيْلَعِ . قال : والزَّيْلَعُ إنما هي قريةٌ من قراها ، وجزيرةٌ من جزائرها ، غلب عليها اسمُها . قال الشيخ عبد المؤمن الزَّيْلَعِيُّ الفقيه : وطولُها بَرًا وبحرًا خاصًّا بها نحو شهرين ، وعرضُها يمتدُّ أكثر من ذلك ، لكن الغالب في عرضها أنه مُقْفِرٌ ، أما مقدار العِمارة فهو ثلاثة وأربعون يومًا طولًا ، وأربعون يومًا عرضًا . قال في ” مسالك الأبصار “ : ويؤتَمُّهم من طين وأحجار وأخشاب ، مسقَّفةٌ بِجَمَلُونَاتٍ وَقِيَابٍ ، وليست بذوات أسوار ولا لها نخامة بناء ، ومع ذلك فلها الجوامعُ ، والمساجدُ ، وتُقامُ بها الخُطْبُ والجمع والجماعاتُ ، وعند أهلها محافظةٌ على الدِّينِ ، إلا أنه لا تُعرفُ عندهم مدرِّسةٌ ، ولا خانقاهُ ، ولا رباطٌ ، ولا زاويةٌ . وهي بلادٌ شديدةُ الحرِّ ، وألوانُ أهلها إلى الصَّفَاءِ ، وليست شعورهم في غاية التَّفَلُّلِ كما في أهل مالئ وما يليها من جنوب المغرب ، وفِطْمُهم أنبَه من غيرهم من السودان ، وفِطْرُهم أذكى ، وفيهم الزُّهادُ ، والأبرارُ ، والفُقهاءُ والعلماءُ ، ويمتدُّهون بمذهب أبي حنيفة ، خلا وفات فان ملكها وغالب أهلها شافعيةٌ .

وتشتمل على ستِّ جمل :

الجملة الأولى

(فيا أشتمت عليه من القواعد والأعمال)

مقتضى ما ذكره في "مسالك الأبصار" و"التعريف" أن هذه البلاد تشتمل على سبع قواعد ، كل قاعدة منها مملكة مستقلة بها ملك مستقل :

القاعدة الأولى

(وفات)

قال في "تقويم البلدان" : بالواو المفتوحة والفاء ثم ألف وتاء مشناة فوق في الآخر ، والعامة تسميها (أوفات) . ويقال لها أيضا (جبرة) بفتح الجيم والباء الموحدة والراء المهملة ثم هاء في الآخر ، والنسبة إلى جبرة جبرتي . وموقعها بين الإقليم الأول وخط الاستواء . قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض ثمان درج . قال : وعن بعض المسافرين أنها من أكبر مدن الحبشة . وهي على نثر من الأرض ، وعمارتها متفرقة ، ودار الملك فيها على تل والقلعة على تل ، ولها وادٍ فيه نهر صغير ، وتطر في الليل غالب مطرا كثيرا ، وبها قصب السكر . قال في "مسالك الأبصار" : وقال الشيخ عبد الله الزباعي : وطول مملكتها خمسة عشر يوما وعرضها عشرون يوما بالسير المعتاد . قال : وكلها عاصرة أهلة بقرى متصلة ، وهي أقرب أخواتها إلى الديار المصرية وإلى السواحل المسامنة للبحر ، وهي أوسع الممالك السبع أرضا ، والإجلاب إليها أكثر تقربها من البلاد . قال في "مسالك الأبصار" : وعسكرها خمسة عشر ألفا من الفرسان ، ويتبعهم عشرون ألفا فأكثر من الرجال ، وسيأتي الكلام على سائر أحوالها عند ذكر أحوال سائر أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن مضافاتها (زَيْلَعُ) . قال في "تقويم البلدان" : الظاهر أنها بفتح الزاي المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح اللام ثم عين مهملة في الآخر، وهي فُرْضة من فُرْض هذه البلاد، وموقعها بين الإقليم الأول وخطّ الاستواء . قال في "القانون" : حيث الطول إحدى وستون درجةً، والعرض ثمانُ درج . قال في "تقويم البلدان" : وهي في جهة الشرق عن (وَقَات) وبينهما نحو عشرين مرحلةً . قال ابن سعيد : وهي مدينة مشهورة وأهلها مسلمون ، وهي على رُكن من البحر في وطاعة من الأرض . قال في "تقويم البلدان" : وعن بعض من رآها أنها مدينة صغيرة نحو عِيذاب في القدر ، وهي على الساحل والتجّار تنزل عندهم فيضيّفونهم ويتأعون لهم . قال ابن سعيد : وهي شديدة الحرّ وماؤها عذبي من جفارات ، وليس لهم بساتين ، ولا يعرفون الفواكه . قال في "القانون" : وفيها مغاصٌ لؤلؤي . وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنها في مملكة صاحب أوفات . وذكر في "تقويم البلدان" عن بعض من رآها أن فيها شيوخاً يحكمون بين أهلها ، وقال : إن بينها وبين عدن من اليمن في البحر ثلاث مجاري، وهي عن عدن في جهة الغرب بميلة إلى الجنوب .

القاعدة الثانية

(دَوَارُو)

بفتح الدال المهملة وواو ثم ألف وراء مهملة وواو وهي مدينة ذكرها في "مسالك الأبصار" و "التعريف" : ولم يتعرّض لصفحتها . وذكر في "مسالك الأبصار" : أنها تلي أوفات المقدّمة الذكر ، وإن مملكتها طوطأ

خمسة أيام ، وعرضها يومان . ثم قال : وهى على هذا الضيق ذات عسكرٍ جمٍّ ،
نظير عسكر أوقات فى الفارس والراجل . وسيأتى الكلام على تفصيل أحوالها
مع أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثالثة

(أرابنى)

وهى مدينة ذكرها فى "المسالك" و"التعريف" أيضا، ولم يذكر شيئا من
صفتها . ثم ذكر أن مملكتها مربعة : طولها أربعة أيام ، وعرضها كذلك ؛ وعسكرها
يقارب عشرة آلاف فارس . أما الرجال فكثيرة للغاية .

القاعدة الرابعة

(هندية)

قال فى "تقويم البلدان" : بالهاء والذال المهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء
فى الآخر على ما ذكره بعض من رآها . وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة
وبين خطِّ الاستواء . قال : والقياس أنها حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة ،
والعرض سبعُ درج . وذكر عن بعض المسافرين أنها جنوبى (وقَات) . قال
فى "مسالك الأبصار" : وهى تلى أرابنى المقدم ذكرها ، وطولُ مملكتها ثمانية أيام ،
وعرضها تسعة أيام ، وصاحبها أقوى إخوانه من ملوك هذه الممالك السبعة ،
وأكثر خيلا ورجالا ، وأشدُّ بأسا على ضيق بلاده عن مقدار أوقات . قال :
ولملكها من العسكر نحو أربعين ألف فارس سوى الرجال ، فإنهم خلق كثير مثل
الفرسان مرتين أو أكثر . قال فى "تقويم البلدان" : ومنها تُجلب الخُدام ، وذكر

أنهم يَحْصُونُهُمْ بقريةٍ قريبةٍ منها . وذكر في "مسالك الأَبصار" : أن الخُدَّامَ مُجَابٍ إليها من بلاد الكُفَّار . ثم حكى عن الحاج فرج الفَوَى التاجر : أنه حدَّثه أن ملكاً أُحْرَا يمنع من خَصِي العبيد وَيُنَكِّرُ ذلك وَيُشَدِّدُ فيه . وإنما الشَّرَاقُ تَقْصِدُ بِهِمْ مدينةَ أَسْمَهَا (وَسَلُّوْ) بفتح الواو والشين المعجمة واللام ، أهلها هَمَّجٌ لِأَدِينٍ عندهم فَتُحْصَى بها العبيدُ ، لِأَيُقَدِّمَ على هذا في جميع بلاد الحبشة سِوَاهُمْ . قال : ولذلك التَّجَارُ إِذَا اشْتَرَوْا العبيدَ يُخْرِجُونَ بِهِمْ إِلَى (وَسَلُّوْ) فَيَحْصُونُهُمْ بِهَا لِأَجْلِ زِيَادَةِ الثَّمَنِ ؛ ثُمَّ يَجْمَلُ مِنْ خُصِي مِنْهُمْ إِلَى مَدِينَةِ (هَدْيِيَّةٍ) لِقُرْبِهَا مِنْ (وَسَلُّوْ) فَيُعَادُ عَلَيْهِمُ المُوَسَّى مَرَّةً ثَانِيَةً لِيَنْفَتَحَ بِجَرَى البُولِ لِأَنَّهُ يَكُونُ قَدْ اسْتَدَّ عِنْدَ الْخَصِي بِالتَّبِيحِ ، فَيُعَالِجُونَ بِهِدِيَّةً إِلَى أَنْ يَبْرَأُوا ، وَلِأَنَّ أَهْلَ (وَسَلُّوْ) وَإِنْ كَانَ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالْخَصِي فَلَيْسَ لَهُمْ مَعْرِفَةٌ بِالعِلَاجِ ، بِخِلَافِ أَهْلِ هَدْيِيَّةٍ فَإِنَّهُمْ قَدْ دَرَبُوا [عَلَى] ذَلِكَ وَعَرَفُوهُ . ثُمَّ قَالَ : وَمَعَ هَذَا فَالَّذِي يَمُوتُ مِنْهُمْ أَكْثَرُ مِنَ الَّذِي يَعِيشُ ؛ وَأَضْرُّ مَا عَلَيْهِمْ حُلْمُهُمْ بِالعِلاجِ مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ، فَإِنَّهُمْ لَوْ عَوَّلُوا فِي مَكَانٍ خَصِيهِمْ كَانَ أَرْفَقَ بِهِمْ .

القاعدة الخامسة

(شَرْحًا)

بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وحاء ثم ألف .

وهي مدينة تلي (هَدْيِيَّةً) المقامة الذكر . ذكرها في "مسالك الأَبصار" و"التعريف" ولم يصرِّح لها بوصف . قال في "مسالك الأَبصار" : وطولُ مملكتها ثلاثة أيام ، وعرضها أربعة أيام . قال : وعسكرها ثلاثة آلاف فارس ، ورجالٌ مثل ذلك مرتين فأكثر ، وسيأتي الكلام على سائر أحوالها مع سائر أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة السادسة

(بالي)

بفتح الباء الموحدة وألف ثم لام وياء آخر الحروف .

وهي مدينة تلى شرحاً المقدمة المذكور ذكرها في "المسالك" و"التعريف" قال في المسالك : ولكنها أكثر خصباً ، وأطيب سكناً ، وأبرد هواء ، وسيأتي الكلام على سائر أحوالها مع سائر أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة السابعة

(دارة)

بفتح الدال المهملة وألف بعدها راء ثم هاء . وهي مدينة تلى (بالي) المقدمة الذكر، ذكرها في "المسالك" و"التعريف" . قال في "المسالك" : وطولها ثلاثة أيام ، وعرضها كذلك . وهي أضعف أخواتها حالاً ، وأقلها خيلاً ورجالاً . قال : وعسكرها لا يزيد على ألفي فارس ، ورجالة كذلك ، وسيأتي الكلام على سائر أحوالها في الكلام على سائر أخواتها فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في الموجود بهذه الممالك ، على ما ذكره في "مسالك الأبصار")

قد ذكر أن عندهم من المواشي الخيل العرب ، والبغال ، والحمير ، والبقر ، والغنم بكثرة . أما المعز فقليل عندهم . ومن الوحش : البقر ، والحمر ، والغزلان ،

والمهأ، والإيل، والكركدن، والفهد، والأسد، والضبعة العرجاء، وتسمى عندهم
مرعيف، وعندهم جواميس بريئة تُصَاد كما تقدم في إقليم مأل. وعندهم من الطيور
الدواجن الدجاج، ولكن لا رغبة لهم في أكله استقذاراً له: لأكله القمامات والزبالات،
ودجاج الحبش يصيدونه ويأكلونه، وهو عندهم مُستطاب. وعندهم من الحبوب
الحنطة، والشعير، والدرة، والطافي: وهو حُبُّ نحو الخردل أحمر اللون على ما تقدم
ذكره في الكلام على القسم الأول من بلاد الحبشة. وعندهم الخردل أيضاً. وعندهم
من الفواكه العنب الأسود على قلة، والموز، والرمان الحامض، والتوت الأسود
على قلة فيه، والجَميز بكثرة. وعندهم من الحمضات: الأترج، والأليمون، والقليل
من النارج. وعندهم تين بري، وخوخ بري، ولكنهم لا يأكلون الخوخ دون
التين. وعندهم فواكه أخرى لا تُعرف بمصر والشام والعراق، منها شجر يسمى
كشباد، ثمرة أحمر على صفة البسر، وهو حلو ماوى، وشجر يسمى كوشى، ثمرة مستدير
كالبرقوق، ولونه أصفر خلوي كالشمس، وهو من ماوى، وشجر يسمى طانة، ثمرة
أصغر من البسر، وفي وسطه شبه النوى، وهو حلو صادق الحلاوة ونواه يؤكل معه
لعدم صلابته. وشجر اسمه أوجاق - بفتح الواو والجيم - ثمرة أكبر من حب الفلفل
وطعمه شبيه به في الحرافسة مع بعض حلاوة. وعندهم شجر حان المقدم ذكره
في القسم الأول من بلاد الحبشة، وهو الذى يؤكل عندهم للدكاء والنطنة، ولكنه
يقل النوم والنكاح على ما تقدم ذكره هناك. وعندهم من أنواع المقائى البطيخ
الأخضر، والخيار، والقرق. ومن الخضروات اللوبيا، والكُرنب، والبادنجان،
والشمار، والصعتر. أما الملوخيا فإنها تطلع عندهم بريئة.

الجملة الثالثة

(في معاملاتهم وأسعارهم)

أما معاملاتهم فعلى ثلاثة أنواع . منها ماهو بالأعراض مُقايضةً : تباع البقر بالغنم ونحو ذلك كما في القسم الأول من بلاد الحبشة . ومنها ماهو بالدنانير والدراهم كمصر والشام ونحوهما ، وهو (وَفَات) وأعمالها خاصة . قال في "مسالك الأبصار" : وليس بأوفات سِكَّةٌ تضرب بل معاملاتهم بدنانير مصر ودرهمها الواصلة إليهم صعبة التجار . وذلك أنه لو ضرب أحد منهم سِكَّةً في بلاده لم تُرْجَ في بلد غيره . ومنها ماهو بالحككات ، جمع حَكْنَة - بفتح الحاء المهملة وضم الكاف والنون - كما ضبطه في "مسالك الأبصار" وهي قطع حديد في طول الإبرة ، ولكنها عرض منها بحيث تكون في عرض ثلاث إبر ، يتعامل بها في سائر هذه البلاد سوى ما تقدم ذكره . قال : وليس لهذه الحَكْنَة عندهم سعر مضبوط بل تباع البقرة الجيدة بسبعة آلاف حَكْنَة ، والشاة الجيدة بثلاثة آلاف حَكْنَة . وتُكَال غلَّتْهم بكيل اسمه الرابعية ، بمقدار ونية من الكيل المصري . وزنة أراطهم اثنتا عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم بصنجة مصر .

وأما الأسعار فكُلُّها رخيصة حتى قال في "مسالك الأبصار" : إنه يُباع بالدرهم الواحد عندهم من الخنطة بمقدار حمل بغل ؛ والشعير لاقيمة له . وعلى هذا فقس .

الجملة الرابعة

(في ملوكهم)

قد تقدّم في الكلام على القسم الأول من بلاد الحبشة أن الحطّى الذى هو سلطانهم الأكبر تحت يده تسعة وتسعون ملكا وهو لهم تمام المائة . وقد ذكر في "التعريف" : أن هذه السبعة من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يده . قال في "مسالك الأبصار" : وأملك منهم في بيوت محفوظة إلا بالى اليوم ، فإن الملك بها صار إلى رجل ليس من أهل بيت الملك ، تقرب إلى سلطان أحمرا حتى ولّاه مملكة بالى فاستقلّ ملكا بها . على أنه قد وليها من أهل بيت الملك رجال أكفاء ، ولكن الأرض لله يورثها من يشاء . قال : وجميع ملوك هذه الممالك وإن توارثوها لا يستقلّ منهم بملك إلا من أقامه سلطان أحمرا ، وإذا مات منهم ملك ومن أهله رجال قصدوا جمعهم سلطان أحمرا ، وتقربوا إليه جهدا الطاقة ، فيختار منهم رجلا يولّيه ، فإذا ولّاه سمع البقية له وأطاعوا ، فهم له كالثواب ، وأمّهم راجع إليه . ثم كلّمهم متفتقون على تعظيم صاحب أوقات ، متقادون إليه . ثم قال : وهذه الممالك السبع ضعيفة البناء ، قليلة الغناء ، لضعف تركيب أهلها ، وقلة محصول بلادهم ، وتسلط الحطّى سلطان أحمرا عليهم ، مع ما بينهم من عداوة الدين ، ومباينة ما بين النصارى والمسلمين . قال : وهم مع ذلك كمتهم متفرقة ، وذات بينهم فاسدة .

ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزبائى وغيره : أنه لو انفقت هذه الملوك السبعة واجتمعت ذات بينهم ، قدروا على مدافعة الحطّى أو التماسك معه ، ولكنهم مع ما هم عليه من الضعف وأفتراق الكلمة بينهم تنافس . قال : وهم على ما هم عليه

من الدلة والمسكنة للخطى سلطان أمرا عليهم قطائع مقتررة، تحمل إليه في كل سنة من القماش الحرير والكتان، مما يجلب إليهم من مصر واليمن والعراق . ثم قال : وقد كان الفقيه « عبد الله الزيلعي » قد سعى في الأبواب السلطانية بمصر عند وصول رسول سلطان أمرا إلى مصر في تنجز كتاب البطريك إليه ، بكف أذيتيه عمن في بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم . وبرزت المراسم السلطانية للبطريك بكتابة ذلك ، فكتب إليه عن نفسه كتابا بليغا شافيا ، فيه معنى الإنكار لهذه الأفعال ، وأنه حرم هذا على من يفعله ، بعبارات أجاد فيها ، ثم قال : وفي هذا دلالة على الحال .

قلت : وقد كتبت في أوائل الدولة الظاهرية « برفوق » كتاب عن السلطان في معنى ذلك ، وقرينه كتاب من البطريك (متى) بطريك الإسكندرية يومئذ بمعناه . وتوجه به إلى الخطى سلطان الحبشة ، « برهان الدين الدماطي » فذهب وعاد بالحياء من جهة الملك ؛ لكن ذكر عنه أنه أتى أمورا هناك تقدرح في عقيدة ديانتهم ، والله أعلم بحقيقة ذلك . وستأتى الإشارة إلى المكتبة إلى هؤلاء الملوك السبعة في المقالة الرابعة في الكلام على المكتبات إن شاء الله تعالى .

الجملة الخامسة

(في زي أهل هذه المملكة)

أما لبسهم ، فإنه قد جرت عادتهم أن الملك يعصب رأسه بعصابة من حرير ، تدور بدائر رأسه ، ويبقى وسط رأسه مكشوقا ، والأمرء والخدم يعصبون رؤوسهم كذلك بعصاب من قطن ، والفقهاء يلبسون العائم ، والعامّة يلبسون كوافي بيضا

طاقيات؛ والسلطان والجند يترزون بثياب غير مخيطة: يشد وسطه بثوب، ويتر
 بأخر؛ ويلبسون مع ذلك سراويلات. ومن عداهم من الناس يقتصرُونَ على شد
 الوَسَط والآتزار خاصَّةً بلا لبس سراويل. وربما لبس القمصان منهم بعض
 الفقهاء وأر بابُ النعم.

وأما ركوبهم الخيل، فإنهم يركبونها بغير سروج، بل يوطأ لهم على ظهورها يجلود
 مرعزى حتى ملوكهم.

وأما سلاحهم فغالبة الحراب والنشاب.

الجملة السادسة

(في شعار الملك وترتيبه)

أما شعار الملك، فقد جرت عادتهم أن الملك إذا ركب تقدم قدمه الحجاب
 والثقباء لطرْد الناس، ويضرب بالشبابة أمامه، ويضرب معها ببوقات من خشب،
 في رءوسها قرون مجوفة، ويدق مع ذلك طول معلقة في أعناق الرجال تسمى عندهم
 الوطواط. ويتقدم أمام الكلب بوق عظيم يسمى الجنباء، وهو بوق ملوى من قرن
 وحش عندهم من نوع بقر الوحش اسمه (عجوين) في طول ثلاثة أذرع، مجوف
 يُسمع على مسيرة نصف يوم، يعلم من سمعه ركوب الملك، فيبادر إلى الركوب
 معه من له عادة به.

وأما ترتيب الملك عندهم، فإن من عادتهم أن الملك يجلس على كرسي من حديد
 مطعم بالذهب، علوه أربعة أذرع من الأرض؛ ويجلس أكابر الأمراء حوله

على كراسيٍ أخفص من كرسية ، وبقية الأمراء وقوف أمامه ، ويحمل رجلان السلاح على رأسه . ويختص صاحب (وفات) بأنه إذا ركب حُمِلَ على رأسه حتى على عادة الملوك .

ثم إن كان الملك راجبا فرسا، كان حاملُ الجتر ماشياً بازائه واحتر بيده ، وإن كان راجبا بغلا، كان حاملُ الجتر رديفه واحتر بيده على رأس الملك .

وبالجسلة فإنه يعد من حشمة الملك أو الأمير عندهم أنه إذا كان راجبا بغلا أن يُرِدَفَ غلامه خلفه، بخلاف ما إذا كان راجبا فرسا فإنه لا يُرِدَفُ خلفه أحدا . ومما يعد (وفات) من حشمة الملك أو الأمير أنه إذا مشى يتوكأ على يدي رجلين . وملوكهم تنصت للحكم بأنفسهم وإن كان عندهم القضاة والعلماء . وليس لأحد من الأمراء ولا سائر الجند إقطاعات على السلطان ولا تُقود كما بمصر والشام ، بل لهم الدواب السائمة . ومن شاء منهم زرع وأستغل ولا يعارض في ذلك . وليس لأحد من ملوكهم سباط عام ، بل إنما يمد سباطه له وخاصته ، ولكنه يفرق على أمرائه بقرا عوضا عن أمر أكلهم على السباط . وأكثر ما يعطى الأمير الكبير منهم مائتا بقرة .

قلت : وأهمل المقر الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" و"التعريف" عدة بلاد من ممالك الحبشة المسلمين .

منها (جزيرة دهلك) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الدال المهملة وسكون الهاء ثم لام مفتوحة وكاف . وهي جزيرة في بحر القلزم ، واقعة في الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول إحدى وستون درجة ، والعرض أربع عشرة درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي جزيرة مشهورة على

طريق المسافرين في بحر عَيْدَاب إلى اليَمَن . قال ابن سعيد : غَرَبِيّ مدينة (حَلِيّ) من بلاد اليمن ، فطولها نحو مائتي ميل ، وبينها وبين برّ اليمن نحو ثلاثين ميلاً [وملك دَهْلَك من الحبش المسلمين] وهو يُدارى صاحب اليَمَن .

ومنها (مدينة عَوَان) بفتح العين المهملة والواو وألف ثم نون . وهي مدينة على ساحل بحر القلزم مقابل (تِهَامَة اليَمَن) حيثُ الطولُ ثمانٌ وسبعون درجة ، والعرضُ ثلاث عشرة درجةً ونصف درجة . قال في "تقويم البلدان" : وإذا كان وقت الضحى ظهر منها (الجَنَاح) وهو جبل عالٍ في البحر .

ومنها (مدينة مَقْدِشُو) بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة ثم شين معجمة وواو في الآخر كما نقله في "تقويم البلدان" عن ضبطه في "مُزِيل الأرتياب" بالشكل . وموقعها بين الإقليم الأول من الأقاليم السبعة وخطّ الاستواء . قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ اثنتان وسبعون درجةً ، والعرضُ درجتان . قال في "مُزِيل الأرتياب" : وهي مدينة كبيرة بين الزنج والحبشة . قال : وهي على [بحر] الهند ، ولها نهر عظيم شبيه بنيل مصر في زيادته في الصيف . قال : وقد ذكر أنه شقيق لنيل مصر في مخرجه من بحيرة كورا ، ومصبه بحر الهند على القرب من مَقْدِشُو .

قلت : وقد أتى الحطّي ملك الحبشة النصراني على معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخرّبها وقتل أهلها وحرّق ما بها من المصاحف وأكره الكثير منهم على الدخول في دين النصرانية ، ولم يبق من ملوكها سوى ابن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دَهْلَك تحت طاعة الحطّي ملك الحبشة وله عليه إناوة مقررة ، والسلطان سعد الدين

(١) الزيادة عن تقويم البلدان .

(٢) ضبطها ياقوت بفتح الدال .

صاحب زليح وما معها وهو عاص له خارج عن طاعته بينه وبينه الحروب لا تنقطع ،
وللسلطان سعد الدين في كثير من الأوقات النصره عليه والغبلة والله يؤيد بنصره
من يشاء .



وأعلم أن ماتقدم ذكره من ممالك السودان هو المشهور منها ، وإلا فورا ذلك
بلاد نائية الجوانب بعيدة المرعى منقطع الأخبار .

منها (بلاد الزنج) . وهي بلاد شرقي الخليج البربري المقدم ذكره في الكلام
على البحار ، تقابل بلاد الحبشة من البر الآخر .

وقاعدتها (سفالة الزنج) . قال في "تقويم البلدان" بالسين المهمله والفاء ثم ألف
ولام وهاء في الآخر . وموقعها جنوبي خط الاستواء . قال في "القانون" :
حيث الطول خمسون درجة ، والعرض في الجنوب درجتان . قال في "القانون" :
وأهلها مساهون . قال ابن سعيد : وأكثر معاشهم من الذهب والحديد ، وليأسهم
جلود السمور . وذكر المسعودي أن الخليل لا تعيش عندهم ، وعسكرهم رجالة ، وربما
قاتلوا على البقر .

ومنها (بلاد الحمج) جنوبي بلاد التكرور . فقد ذكر ابن سعيد انه نرح على أصناف
السودان طائفة منهم يقال لهم [الدمادم] ^(١) يشبهون التتر ، خرجوا في زمن خروجهم
فأهلكوا ما جاورهم من البلدان . وذكر في "مسالك الأبصار" عن ابن أمير حاجب
والى مصر عن منسا موسى ملك التكرور أنهم كالنتر في تدوير وجوههم ، وأنهم يكون
خولا مشققة الأنوف كالأكديش ، وأن همج السودان عدد لا يستوعبهم الزمان
وأن منهم قوما يأكلون لحم الناس .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من مسالك الأبصار .

الفصل الرابع

من الباب الرابع من المقالة الثانية

(في الجهة الشمالية عن ممالك الديار المصرية ومضافاتها، خلا ما تقدم ذكره
 مما انضم إلى ممالك المشرق من شمالى الشرق، نحو أرمينية، وأران،
 وأذربيجان، وشمالى نخراسان، وشمالى مملكة توران: من خوارزم،
 وما وراء النهر، وبلاد الأزق، وبلاد القرم، وما والى ذلك
 وما انضم إلى ممالك المغرب من شمالى الغرب،
 وهو الأندلس)

وينقسم ذلك إلى قسمين :

القسم الأول

(ما بيد المسلمين مما فى شرقى الخليج القسطنطينىّ فيما بينه وبين أرمينية
 وهى البلاد المعروفة ببلاد الروم)

قال فى "التعريف": وتُعرف الآن ببلاد الدربندات . وقد سماها فى "التعريف"
 و"مسالك الأبصار" بلاد الأتراك، وكأنه يريد بالأتراك التتركان، فإنهم هم الذين
 أنضاف مُلكها بعد ذلك إليهم، على ما سياتى بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى .
 وقد ذكر فى "تقويم البلدان" أنه يُحيط بهذه البلاد من جهة الغرب ببحر الروم،
 وعمامة الخليج القسطنطينىّ، وبحر القرم . ومن جهة الجنوب بلاد الشام والجزيرة .
 ومن جهة الشرق أرمينية . ومن جهة الشمال بلاد الكرج وبحر القرم . وذكر

في "التعريف" ما يخالف ذلك فقال : إنها منحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني ، تنتهي من شرقها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش وما نيطش ؛ وفي الغرب إلى الخليج القسطنطيني ، وتنتهي متشاملة إلى القسطنطينية ؛ وتنتهي جنوبا إلى بلاد لاؤن : وهي بلاد الأرمن يجدها البحر الشامي . وبالجملة فإنها مفارقة ما أسامت شرقها من بلاد الأرمن المضافة إلى بلاد الشام من ممالك الديار المصرية . والحاصل أن هذه البلاد مبتدؤها من الشرق مما يلي المغرب حدود أرمينية في شمالي بلاد الجزيرة وما والاها من بلاد الأرمن المضافة الآن إلى مملكة حلب ؛ وتأخذ في جهة الغرب إلى بحر الروم ، فيصير البحر في جانبها من الجنوب ويمتد عليها حتى يتصل بالخليج القسطنطيني ، فيدور عليها الخليج وما يتصل به من بحر القرم من جهة الغرب ثم من جهة الشمال كالجزيرة ويحيط بها البحر من جميع جوانبها خلا جهة الشرق .

وقد كانت هذه البلاد في زمان الروم من مضافات القسطنطينية وأعمالها . قال في "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه البلاد على عهد الروم محتك الأعنة ، ومشتبك الأسنه ؛ دار القياصره ، ومكسر الأكاره . ثم وصفها بأتم الأوصاف ، فقال بعد أن ذكر أنها أترى البلاد : مخورها تنفجر ماء ، وجوها يسخر أنواع ، تعقد دون السماء سماء ؛ فيخصب زرعها ، ويخصم المحل ضرعها ، ويخصف ورق الجنة على الحدائق ثمرها وينعها ؛ ويطرب ورقها منظرها البديع ، ويحبرها من صناعة صنعاء الربيع ؛ فلا تسمع إلا كل مطربة تناحي النجى ، وتشجى الشجى ، وتخط قلب الخلي ، وتهب الغواني ما في أطواقها من الخلي ، يعجب ثوبها السندسي ، ونباتها المتعلق بذيل البهار بسجافها القنديسي . فلا تجول في أرضها إلا على أرائك ، ولا تنظر

إلا نساء كالحُور العين وولدانا كالملائك . ثم قال بعد كلام طويل : وهي شديدة البرد لا يوصف شتاؤها ، إلا أن سُكَّانها تستعدُّ للشتاء بها قبل دُخوله ، وتحصل ما تحتاج إليه ، وتُدخِرُه في بيوتها ، وتستكثر من القديد والأدهان والخمور ، فتأكل وتشرَبُ مدَّةَ أيام الشتاء ، ولا تخرج من بيوتها ، ولو أرادت ذلك لم تقدِرُ عليه ، حتى تَدُوبَ الثَّلُوج . قال وهذه الأيام هي بلهنية العيش عندهم .
ويُحصِرُ المقصودُ من ذلك في خمس جمل :

الجملة الأولى

(فيما أشملت عليه من القواعد ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(القواعدُ المستقرَّةُ بها الملوكُ والحكام)

من يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية)

فأما ما ذكره الممقر الشهابي بن فضل الله من ذلك في " التعريف " و " مسالك الأبصار " ، فست عشرة قاعدةً عبَّر عنها في " مسالك الأبصار " :
بمالك . ونحن نُوردها على ما أوردها وإن كان قد أخلَّ بها في الترتيب .

القاعدة الأولى - (كرميان) بكسر الكاف وسكون الراء المهملة والميم وفتح المشاة تحت وألف ثم نون في الآخر . وهي مدينة في شرق هذه البلاد ، متوسطة في المقدار ، مبنية بالجر ، عليها سُور دائر . وبها مساجد وأسواق وحمامات ، وبوسطها قلعة حصينة على جبل مرتفع ، وخارجها أنهار تجري وبساتين ذات أشجار وفواكه متنوعة ، وأراضٍ مزدرعة .

القاعدة الثانية — (طَنْغَزْلُو) بضم الطاء المهملة وسكون النون وضم الذين المعجمة وسكون الزاي المعجمة وضم اللام وواو في الآخر . وهي مدينة متوسطة في أواسط هذه البلاد، وبنائها بالحجر، وإس لها سور . وبها المساجد والأسواق والحمامات . وخارجها أنهار تجري وبساتين محدّقة ذات فواكه وثمار .

القاعدة الثالثة — (تَوَازَا) بضم التاء المثناة فوق وواو مفتوحة بعدها ألف ثم زاي معجمة وألف في الآخر وهي مدينة عظيمة . قال في "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة تقع شرقي كرمان محضاً، وموقعها ما بين جنوبي بركي إلى قوله ، وكرسیه تَوَازَا . قال : ولصاحبها أربع قلاع ونحو ستمائة قرية ، وعساكره نحو أربعة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل . وقد عدّها في "مسالك الأبصار" من جملة مضافات كَصَطْمُونِيَّةِ الآتي ذكرها . وذكر أنه كان بها إذ ذاك أميرٌ من قبيل صاحبها اسمه (مراد بك) . وذكر في "التعريف" أن اسمه أرينة .

القاعدة الرابعة — (حميدلي) . قال في "مسالك الأبصار" وحميدلي اسم للإقليم، وقاعدته مدينة (بركو) وموقعها من قوله إلى قرصار . قال : ولصاحبها أيضاً إقليم بلواج وإقليم قراغاج وإقليم اكرى دوز . قال : وهذه البلاد مدنها قليلة وقراها كثيرة، وبها خمس عشرة قلعة، وعسكر صاحبها خمسة عشر ألف فارس ومثلهم رجالة وهي نهاية ما أخذ إلى الشمال وقد ذكر في "التعريف" : أن صاحبها كان اسمه في زمانه دندار . قال : وهو أخو يونس صاحب أنطاليا، وحينئذ فتكون من مملكة بني الحميد .

القاعدة الخامسة — (قَسَطْمُونِيَّة) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح التاف وسكون السين وبالطاء المهملتين وضم الميم وسكون الواو وكسر النون وبالياء المثناة

من تحت وهاء في الآخر، وربما أبدلوا القاف كافًا، وعليه جرى في "التعريف" و"مسالك الأبصار": وهي مدينة في شرقي هذه البلاد داخلية في حدودها، موقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد: حيث الطول خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ست وأربعون درجة وثمان وأربعون دقيقة. قال: وهي قاعدة التركان، وترآكتها يعزرون (القسطنطينية) وهي شرقي (هرقلة) وفي الجنوب عن سنوب على ثلاث مراحل منها، وقيل خمس مراحل. وهي في الشرق عن أنكوريه على خمسة أيام منها. وقد أخبرني بعض أهل تلك النواحي أنها مدينة متوسطة المقدار، مبنية بالحجر، ذات مساجد وأسواق وحمّامات؛ وليس عليها سور، وخارجها أنهر وبساتين ذات فواكه. قال في "مسالك الأبصار": وبها الأكاديش الرومية الفاتحة، المفضل بعضها على كل سابق من الخيل العراب؛ ولها أنساب محفوظة عندهم نخيل العرب، يتغالي في أمانها لا سيما في بلادها، حتى تبلغ قيمة الواحد منها ألف دينار فما فوقه، بل لا يستكثر فيها من يعرفها بثل مال. قال في "التعريف": وكانت آخر وقت (لسليمان باشاه) وكان أميرًا كبيرًا كثير العدد، موقور المدد، ذا هيئة وتمتع؛ ثم مات

وورث ملكه ابنه (إبراهيم شاه) وكان عاقًا لأبيه، خارجًا عن مراضيه؛ وكان في حياته ينفرد بمملكة سنوب. قال: وهي الآن داخلية في مملكة، متخرطة في سلكه. قال: وعسكره على ما يقال لنا ويبلغنا نحو ثلاثين ألف فارس.

القاعدة السادسة — (فاويا). قال في "مسالك الأبصار": ومملكته تجاور سمسون من غربها. قال: ولصاحبها عشر مدن ومثلها قلاع، وعسكره نحو سبعة آلاف فارس أما الرجال فكثير عددهم ودرهمها نصف درهم فضة خالصة، ورطلها

سنة عشر رطلا بالمصرى ، ومدّها نحو إردب بالمصرى ، وأسعارها رخيّة وقد ذكر في "التعريف" : أن أسم صاحبها في زمانه (مراد الدين حمزة) . قال : وهو ملكٌ مضعوف ، ورجل يجالس أنسبه مشغوف .

القاعدة السابعة — (برسا) بضم الباء الموحدة وسكون الراء وفتح السين المهملتين وألف في الآخر . وربما أبدلت السين صادًا مهملةً . والموجود في "التعريف" و"مسالك الأبصار" وغيرهما إثبات السين دون الصاد . وهى مدينة كبيرة فى شماليّ هذه البلاد ، مبنيةً بالطوب والحجر ، وسقوفها من الخشب ، وغالبها بجملونات ، وبها مساجد وأسواق وحمامات ، وبعض حماماتها من أعين حارة تنبع من الأرض كذلك كما فى طبرية بالشام ، ولها سور عظيم ، وبوسطها قلعة شاهقة مرتفعة البناء بها سكن سلطانها ، وفيها قصور عظيمة متعدّدة ، وجامع وثلاث حمامات .

وخارج ربض المدينة نهران :

أحدهما — يسمّى (ككدرًا) بضم الكاف الأولى وسكون الثانية وفتح الدال والراء المهملتين وألف فى الآخر . ومعناه وادٍ أزرق ، سُمى بذلك لأنه يخرج من جبلٍ أزرق ، وتقطع منه الحجارة بشدّة جريه ، فتجرى منه بجران الماء ، فيأخذها من عليه من أهل تلك النواحي فيعمر بها ، ومعظم عمارة برسا منها .

والنهر الثانى — يسمّى (منرباشى) فى قدر القرأت ، يُسقى المدينة ويمتّ فى جامعها ، وبها جبل عظيم أسمه (كمش) به معدن فضة سُمى باسم الفضة .

وبرسا هذه هى مقتر مملكة أولاد (عثمان جق) الذين هم الآن رؤوس ملوك تلك البلاد ، وإليهم أنقياد جميعهم على ما سأتى ذكره فى الكلام على ملوكها . وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبها فى زمانه كان أرخان بن عثمان . وذكر فى "مسالك

الأبصار“ عن الشيخ حيدر العريان : أن عسكره نحو خمسة وعشرين الفاً ، وأن بينه وبين صاحب القسطنطينية الحروب ، وأيامها بينهم تارات ، له في غالبها على صاحب القسطنطينية الغلب ، وملك الروم يُداريه على مال ، يجمله إليه في كل هلال . قال : ولقد جاز الجزيرة إلى بلاد النصارى وعات في نواحيها ، وشهد على بطارقها لاعلى فلاحيا ، وألقى علوجها بحيث تعتلج سيول الدماء ، وتختلج سيوف النصر من الأعداء ، وسيأتي ذكر ما انتهى إليه فتحه من بر القسطنطينية بعد هذا في الكلام على ملوك هذه المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثامنة — (أكيرا) . قال في ”مسالك الأبصار“ : وهي تجاور مملكة برسا أخذة إلى الشمال وجبل القسيس جنوبها وسنوب شمالها وهي طريق من طرق سنوب وقلاعها وعساكرها كثيرة . ومنها يخرج الحرير الكثير والاذن إلى غيرها من البلاد ، ورطلها ثمانية أرطال بالمصرى ، ومدها نحو إردب ونصف وأسعارها رخيصة وقد ذكر في ”التعريف“ : أن صاحبها في زمانه كان (صاروخان بن قرآسى) ولم يبين من أى طوائف الترك كان هو .

القاعدة التاسعة — (مرمرا) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الميم الثانية والراء المهملة الثانية وألف في الآخر . وهي مدينة في شمالي هذه البلاد ، بها جبل فيه مقطع رخام . قال في ”الروض المعطار“ : والروم تسمى الرخام مرمرا ، فسميت بذلك . وذكر في ”التعريف“ : أن صاحبها في زمانه كان اسمه (بخشى بن قرآسى) ولم يبين من أى طوائف الترك كان هو . وقد أخبرني بعض أهل تلك البلاد أنها قد تحربت ودثرت ، ولم يبق بها عمارة .

القاعدة العاشرة — (مغنيسيا) بفتح الميم وسكون الغين المعجمة وكسر النون وسكون الياء المشناة تحت وكسر السين المهملة وفتح الياء الثانية وألف في الآخر .

وهي مدينة في أوساط هذه البلاد، متوسطة في المقدار، مبنية بالحجر، وعليها سور دائر، وبها مساجد وأسواق وحمامات وبساتين ومروج. وقد ذكر في "التعريف": أنه كان اسم صاحبها في زمانه (صاروخان) ولم يزد على ذلك.

القاعدة الحادية عشرة - (نَيْف) بكسر النون وسكون الياء المشناة تحت وفاء في الآخر. وهي مدينة لطيفة بأوساط هذه البلاد، بالقرب من (مَغْبِسِيَا) المقدم ذكرها على نحو مرحلتين منها. وهي مبنية بالحجر، وبها المساجد والأسواق والحمامات وخارجها الأنهار والزروع والبساتين المختلفة الفواكه.

القاعدة الثانية عشرة - (بَرِكِي) بفتح الباء الموحدة وكسر الراء المهملة وكسر الكاف وياء مشناة تحت في الآخر. وهي مدينة متوسطة القدر على القرب من نيف المقدم ذكرها على نحو مرحلتين منها، وبها المساجد والأسواق والحمامات والمياه والبساتين والزروع.

القاعدة الثالثة عشرة - (فُوكِه) . وقد ذكر في "التعريف": أن صاحبها في زمانه كان اسمه (أرخان بن منتشا) واقتصر على ذلك.

القاعدة الرابعة عشرة - (أَنْطَالِيَا) . قال في "تقويم البلدان": بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء المهملة وألف ولام مكسورة وهاء في الآخر. وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال في "تقويم البلدان": والقياس أنها حيث الطول أربع وخمسون درجةً وأثنان وثلاثون دقيقةً، والعرض إحدى وأربعون درجةً وأربعون دقيقةً. قال ابن سعيد: وهي بلدة مشهورة. وقال ابن حوقل: هي حصن [للروم على شاطئ البحر منبع واسع الرستاق كثير الأهل] ^(٢). قال

(١) الذي في التقويم وألف في الآخر.

(٢) الزيادة عن التقويم.

في "تقويم البلدان": وهي على دَخَلَة في البحر، وسُورُها من حجر في غاية الحَصَانَة، ولها بابان: بابٌ إلى البحر، وبابٌ إلى البر. وأخبرني من رآها أنها ذاتُ أشجار وبساتين ومياهٍ تجري، وبها قلعة حصينة بوسطها، وبها نهر يُعرف بالصَّبَاب. قال في "تقويم البلدان": وهي كثيرة الحمضات: من الأترج، والتاريخ، والليمون، وما أشبه ذلك. قال ابن سعيد: وكانت للروم فاستولى عليها المسلمون في عصرنا. قال: وبها أسطول صاحب الدُّروب، ومينأها غيرُ مأمونةٍ في الأنواء. قال في "تقويم البلدان": وكان الحاكم بها شخصاً من أهل تلك البلاد فخرج منها إلى بعض جهاتها، فكبسها التُّركان وملكوها ثم أمسكوه فقتلوه. قال: وصاحبها في زماننا واحد من بنى الحميد ملوك التُّركان. وقد ذكر في "التعريف": أن صاحبها في زمانه كان اسمه (خَضِر بن يُونُس). وذكر في "مسالك الأبصار": أن صاحبها في زمانه كان اسمه (خَضِر بن دندار) من أولاد (منتشا). وقال: إن عسكره نحو أربعين ألف فارس. ثم قال: إن لبني دندار هؤلاء إلى ملوك مصر آتباء، وكان بمصر منهم من له إمرةٌ ثم عاد إلى بلاده.

القاعدة الخامسة عشرة — (قَرَاصار) بفتح القاف والراء المهملة وألف ثم صاد مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة في الآخر. وتُعرف بقراصار التكا بفتح التاء المشناة فوق. وهي قلعة على جبل مرتفع يحفُّ بها رِبْضٌ بأعلى الجبل، وحول الرِبْض في الجبل زراعاتهم وبساتينهم. وقد ذكر في "التعريف": أن اسم صاحبها في زمانه (زكريا) ولم يزد على ذلك. وهي غير مدينة قَرَاصار الصاحب. وهي مدينة لطيفة بأوساط بلاد الروم في الغرب عن قَرَاصار هذه وفي الشمال عن أنطاليا.

القاعدة السادسة عشرة — (أَرْمَاك) بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وفتح النون وألف ثم كاف في الآخر. وهي مدينة في مشارق الروم، مبنية

بالحجر غير مسورة ؛ وبها مساجد واسواق وحمّامات ؛ وبها بساتين كثيرة وفواكه
جمّة إلا أنها شديدة البرد . وقد ذكر في "التعريف" : أنها بيد أولاد قرمان .
وذكر في "مسالك الأبصار" : أن المملكة كانت بيد (محمد بن قرمان) . وذكر
في "التثقيف" : أن آحر من آستقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعائة
(علاء الدين على بك) بن قرمان .



وأما ما زاد ذكره في "التثقيف" : فخمس قواعد :

القاعدة الأولى — (العلايا) بفتح العين المهملة واللام وألف بعدها ثم ياء
مشاة تحت وألف في الآخر . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة .
قال في "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول اثنتان وخمسون درجة ،
والعرض تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وهي بلدة محدثة أنشأها
(علاء الدين على) بعض ملوك بني سلجوق بالروم فنسبت إليه . وقيل لها (العلائية)
على النسب ، ثم خففها الناس ، فقالوا : (العلايا) ثم قال : والذي تحقّق عندي
من جماعة قدموا منها أنها بليدة صغيرة أصغر من أنطاليا على دخلة في بحر الروم .
وهي من فرض تلك البلاد . وذكر أنها في الجنوب عن أنطاليا على مسيرة يومين ،
وعليها سور دائر ، وأنها كثيرة المياه والبساتين . وقد ذكر في "التثقيف" : أن الحاكم
بها في زمانه كان اسمه (حسام الدين محمود) بن علاء الدين . وقال : إنه كتب إليه
عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية في شوال سنة سبع وستين وسبعائة ، ولم يبين
من أيّ طوائف التتر كان هو . وذكر في "مسالك الأبصار" : أنها في ساحل بلاد
بني قرمان ، وأن الحاكم بها من قبلهم حينئذ كان اسمه (يوسف) .

القاعدة الثانية — (بَلَاط) بفتح الباء الموحدة واللام وألف ثم طاء مهملة في الآخر . وهي بلدة بأوساط الروم على نحو ثمان مراحل من بُرسا، وهي مدينة صغيرة بغير سور، وبها قلعة خراب كانت مبنية بالرخام، وبها مساجد وأسواق وأربع حمامات . ذكر لي بعض أهل تلك البلاد أنها بيد أولاد (منتشا) من ملوك التتركان .

القاعدة الثالثة — (أَكَردور) بفتح الهمزة والكاف وسكون الراء وضم الدال المهملتين وسكون الواو وراء مهملة في الآخر . قال في "التقيف" : ويقال أكردون بالنون بدل الراء الأخيرة . وهي بلدة غير مسورة بها قلعة عظيمة على جبل شاهق، وبها مساجد وأسواق وحمامات، إلا أن بسايتها قليلة، وبها برج عظيم .

القاعدة الرابعة — (أَيَاسُ لُوق) بفتح الهمزة والياء المشناة تحت وألف ثم سين مهملة ساكنة ولام مضمومة بعدها واو ساكنة ثم تاف في الآخر . وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الرومي، بها المساجد والأسواق والحمامات، وبها أعين وأنهار تجري وبساتين ذات فواكه . وقد أخبرني بعض أهل تلك البلاد أنها في ملك بني أيدين .

القاعدة الخامسة — (سُوب) . قال في "تقويم البلدان" : بالسین المهملة والنون والواو وباء موحدة في الآخر ولم يقيد بها بالضبط . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض ست وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال في "تقويم البلدان" : وهي فُرْضة مشهورة (يعنى على بحر القريم) . ثم قال : وهي في الشمال عن كسطمونية وفي الغرب عن سامسون . قال : وعن بعض الثقات أن بسنوب سوراً حصيناً، يضرب البحر في بعض أبراجه . ولها بسايتن كثيرة إلى الغاية؛ وبينها وبين سامسون نحو

(١)
 أربع مَرَّاحِلَ . ثم قال : وصاحب سنوب في زماننا من ولد البرواناه ، وله شوانٍ
 يغزوها في البحر ولا يكاد أن ينقهر . وذكر في "مسالك الأبصار" : أنها من
 مضافات كَسْطُمُونِيَّةِ المقدم ذكرها ، وأنه كان بها في زمانه نائب من جهة (إبراهيم
 ابن سليمان باشاه) صاحب كَسْطُمُونِيَّةِ اسمه غازى چلبى . وقال في "التثقيف" :
 يقال إن بها إبراهيم بك بن سليمان باشاه ، فإن كان يريد الذى كان في زمن صاحب
 "مسالك الأبصار" : بكَسْطُمُونِيَّةِ ، فقد أبعد المرعى . وإن كان آخر بعده كان
 سُمِّيَ باسمه ، فيحتمل أنه في "التعريف" قد ذكر صاحبها في جملة ملوك الكُفْر
 وكان ذلك كان قبل أن تُفْتَحَ .

الضرب الثانى

(من هذه البلاد ما لم يَسْبِقْ إلى صاحبه مكاتبه)

عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، ممن هو بصدد أن تطرأ له
 مكاتبه ، فيحتاج إلى معرفته)

وهى عادة قواعده :

منها (سيواس) . قال في "تقويم البلدان" : بكسر السين المهملة وسكون الياء
 المشناة تحت وفتح الواو ثم ألف وسين مهملة فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس
 من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ إحدى وسبعون درجةً
 وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ أربعون درجةً وعشر دقائق . قال ابن سعيد : وهى من
 أممات البلاد مشهورة على ألسنة التجار ، وهى فى بسيط من الأرض . قال
 فى "تقويم البلدان" : وهى بلدة كبيرة مسورة ، وبها قلعة صغيرة ذات أعين ، والشجر

(١) فى التقويم سامسون ، والصواب ما هنا .

بها قليل، ونهرها الكبير بعيدٌ عنها بمقدار نصف قَرْسَخ . قال : ويقول المسافرون : إن فيها [أربعا^(١)] وعشرين خاناً للسبيل ؛ وهي شديدة البرد ، وبينها وبين قيسارية ستون ميلاً ؛ وكانت سيواس هذه قد غلب عليها في الأيام الظاهرية « برقوق » صاحب الديار المصرية قاضيها (القاضي إبراهيم) وملكها .

ومنها (أماسية) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة والميم وألف وكسر السين المهملة ثم ياء مشاة تحتية مفتوحة وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال في "رسم المعمور" : حيث الطول سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وأربعون درجة . قال في "تقويم البلدان" : ذكر بعض من رآها أنها بلدة كبيرة ذات سور وقلعة ، وفيها بساتين ونهر كبير عليه نواعير ، يمر عليها ثم يُصب في بحر سنوب يعني بحر التريم . قال ابن سعيد : وهي من مدن الحكماء ، وهي مشهورة بالحسن وكثرة المياه والبساتين والكروم ، وهي في الشرق عن سنوب وبينهما ستة أيام . ثم قال : وذكر بعض من رآها أن بها معدن فضة .

ومنها (هراقلة) . قال في "تقويم البلدان" : بكسر الهمزة وفتح الراء المهملة وسكون القاف وفتح اللام ثم هاء في الآخر . وموقعها في الإقليم السابع من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال" : حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي في شرقي نهر يتزل من جبل العالايا إلى نحو سنوب وهراقلة عليه في قرب البحر . قال : وهي التي هدمها الرشيد . قال : وفي شرقيها جبل الكهف .

(١) الزيادة عن التقويم .

وقد حكى ابن خرداذبة في كتابه "المسالك والممالك" عن بعضهم أنه سار إلى هذا الكهف ودخل بمساعدة صاحب الروم فوجد به أمواتاً برواق في كهف في جبل عليهم مسوح قد طال عليها الزمن حتى صارت تنفرك باليد ، وقد طليت أجسادهم بالمرّ والصبر فلم يبلوا ، ولصقت جلودهم بعضائهم ، وجفت ، وعندهم سادنٌ يخدمهم ، وأنه أنكر أن يكون أولئك هم أهل الكهف المذكورون في القرآن ، للاختلاف في محل الكهف هل هو في هذه البلاد أو غيرها .

ومنها (أفسراً) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح السين والراء المهملتين وألف في الآخر، وربما أبدلت السين صاداً مهملة . قال : ويقال إن أصلها (أخ سرا) يعني بالحاء المعجمة بدل القاف . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وسبعون درجة ، والعرض أربعون درجة . قال في "تقويم البلدان" : وهي مدينة ذات أشجار وفواكه ، ولها نهر كبير ينبجّر وسط البلد ويدخل الماء منه بعض بيوتها ، ولها قلعة حصينة في وسطها . قال ابن سعيد : وبها تعمل البسط الأقصرية الفائقة ، ومنها إلى قونية ثمانية وأربعون فرسخاً ، وكذلك بينها وبين قيسارية .

ومنها (قيسارية) . قال في "اللباب" : بفتح القاف وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وألف ثم راء مهملة وياء مثناة تحتية مفتوحة مشددة وهاء في الآخر قال في "تقويم البلدان" : وتقال بالصاد المهملة بدل السين . قال ابن سعيد : وهي منسوبة إلى قيسر ، وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ستون درجة والعرض أربعون درجة . قال ابن سعيد : وهي مدينة جليلة يحلها سلطان البلاد . قال في "تقويم البلدان" : وهي بلدة كبيرة

ذاتُ أشجارٍ وبساتينٍ ونواكحٍ وعيونٍ تدخُلُ إليها . ودَخلَها تَلْعَةُ حَصِينَةَ ،
وبها دارٌ للسلطنة .

وَقَيْسَارِيَّةُ هذه كان بها تَحَّتُ السلطنة لبني سَلْجُوقَ بهذه البلاد . ولما ملك التُّرُ
هذه البلادَ بَقَوْا بقاياهم في المُلْكِ إلى أن دخلها السلطانُ الملكُ (الظاهر ببيرس)
صاحبُ الديار المصرية ، وجلس على تَحْتِ آلِ سَلْجُوقَ بها ، ثم عاد إلى الديار
المصرية فزال مُلْكُ السَلْجُوقِيَّةِ منها من حينئذ ، على ما سَأَتِي ذكره في الكلام على
ملوك هذه البلاد .

ومنها (قُونِيَّةُ) . قال في " تقويم البلدان " : يضم التناف وسكون الواو وكسر
النون وبعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة وهاء في الآخر . وموقِعُها في الإقليم الخامس
من الأقاليم السبعة قال في " الأطوال " : حيثُ الطولُ ستُّ ونحسون درجة ،
والعرضُ تسعٌ وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وهي مدينةٌ مشهورة ، وبها دار
للسلطنة ، والجبالُ مُطِيفَةٌ بها من كل جانب ، وتبعدُ عنها من جهة الشَّمالِ . وينزل
من الجبلِ الجنوبيِّ منها نهرٌ يدخلُ إليها من غربيِّها ، وبها البساتينُ من جهة الجبلِ
على نحو ستة فراسخٍ ، ونهرها يسبِقُ بساتينها ، ثم يصيرُ بحيرةً ومُرُوجاً ، وبها الفواكحُ
الكثيرة ، وفيها يُوجدُ الشمسُ المعروفُ بقَمَرِ الدين ، وهي ثاني قاعدة مملكة
السَلْجُوقِيَّةِ ببلاد الروم ، كان الملكُ ينتقلُ منها إلى قَيْسَارِيَّةَ ، ومن قَيْسَارِيَّةَ إليها .
قال ابن سعيد [وبتلعتها تربة ^(١)] أفلاطون الحكيم .

ومنها (أقي شهر) بفتح الحَمْزة ثم قاف ساكنة وشين معجمة مفتوحة وهاء
ساكنة وراء مهملة في الآخر ، كما في " تقويم البلدان " : عَمَّن يُوثَقُ به من

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن تقويم البلدان .

أهل المعرفة ، وربما أبدلوا الهاء ألفا فقالوا (أَقْشَار) . وفي كتاب "الأطوال" :
(أَخْ شَهْر) بابدال القاف خاء معجمة . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم
السبعة ، قال في "الأطوال" : حيث الطول خمس وخمسون درجة ، والعرض
إحدى وأربعون درجة . قال ابن سعيد : وهي من أتره البلدان ، وبها بساتين
كثيرة وفواكه مفضلة . قال في "تقويم البلدان" : وأخبرني من رآها أنها على
ثلاثة أيام من قونية شمالاً بغرب .

ومنها (عَمُورِيَّة) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح العين المهملة وميم مشددة
مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحت مفتوحة وهاء
في الآخر . قال : وهي بلدة كبيرة ، ولها قلعة داخلها حصينة ، وأكثر ساكنيها
التركان وبها بساتين قليلة ، ولها نهر وأعين جارية ، وهي التي فتحها «المتعصم
أبن الرشيد» : أحد خلفاء بني العباس ، وكان المنتجعون قد زعموا أنها لا تفتح
إلا في زمان الثين والعنب ، فلما فتحها أئنده أبو تمام قصيدته التي أولها :

السيفُ أصدقُ إنباءٍ من الكُتُبِ * في حدِّه الحدُّ بين الحدِّ واللَّعبِ !

ومنها (أَنْكُورِيَّة) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح الهمة وسكون النون وضم
الكاف وسكون الواو وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحتية مكسورة وهاء في الآخر .
ويقال لها (أَنْقُرَة) أيضا بفتح الهمة وسكون النون ثم قاف وراء مهملة وهاء
في الآخر . وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" :
حيث الطول أربع وخمسون درجة ، والعرض إحدى وأربعون درجة . قال ابن

(١) كذا في التقويم أيضا مضطبا عليه بعلامة التوقف ولعله مصحف عن مفتوحة ونظائرها كثيرة مثل
أرمينية وعمورية وانطاكية الخ .

سعيد : وهي بلدة لها قلعة على تل عالٍ ، وهي بين الجبال ، وليس بها بساتين ولا ماء ، وشرب أهلها من الآبار ؛ وهي عن قسطنطينية في جهة الغرب على خمسة أيام .

ومنها (فلك بار) . قال في "تقويم البلدان" : الفلك معروف ، وبار بباء موحدة وألف وراء مهملة في آخرها . قال : وهي مدينة أنشأها ملك من ملوك بني الحميد اسمه (فلك الدين) وهي في مستوي من الأرض في وسط الجبال على قريب من منتصف الطريق بين قونية والعلايا ، في الغرب من قونية على مسيرة خمسة أيام ، وهي في الشرق عن أنطاليا على مسيرة خمسة أيام . قال : وليس في تلك الجبال الآن مدينة أكبر منها ، وقد صارت قاعدةً لبني الحميد : ملوك التركان بتلك الناحية .

ومنها (لارندة) . قال في "تقويم البلدان" : بلام وألف وراء مهملة مفتوحة ونون ساكنة ثم دال مهملة وهاء في الآخر . قال : وهي قرية من قونية على مسافة يوم من الشرق والشمال ، حيثُ الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض أربعون درجة وثلاثون دقيقة .

وقد تقدم في الكلام على مملكة الشام من مضافات الديار المصرية أن مدينة ملطية دخلت في مملكة مصر ومضافاتها فصارت في معاملة حلب .

والعلم انه قد تقدم أن خليج القسطنطينية وما اتصل به من بحر نيطش - المعروف ببحر المرمر - يُطيف بهذه البلاد من غربيها وشماليها ، وعلى ساحل هذا البحر عدة فُرُص منتظمة في سلك هذه البلاد قد ذكرها في "تقويم البلدان" في الكلام على مملكة أرمينية وماعها ، وأشار إليها في الكلام على هذا البحر عند ذكره له في جملة البحار على ما تقدمت الإشارة إليه في الكلام على البحار في أول هذه المقالة ، غالبها في مملكة ابن عثمان صاحب برسا .

أولها (الجرون) . وهي قلعة خراب عند فم الخليج القسطنطيني من الجهة الشمالية مقابل القسطنطينية ، حيثُ الطول خمسون درجة ، والعرضُ خمس وأربعون درجة وعشر دقائق .

ويليها من جهة الشمال بميلة إلى الشرق مدينة أسمها (كري) بكاف وراء مهملة ثم باء موحدة وياء مشاة تحت في الآخر .

ويليها في الشرق مدينة أسمها (بنتر) بباء موحدة ونون وتاء مشاة فوق وراء مهملة .

ويليها في الشرق والشمال بلدة أسمها (سامصري) بسين مهملة وألف ثم ميم وصاد وراء مهملتين وألف في الآخر .

ويليها في الشرق أيضا مدينة أسمها (كترو) بكاف وتاء مشاة من فوق ثم راء وواو في الآخر وهي آخر أعمال قسطنطينية .

ويليها في الشرق مدينة أسمها (كينولي) بكسر الكاف وسكون المشاة التحتية وضم النون وسكون الواو وكسر اللام وياء مشاة من تحت في الآخر .

ويليها في جهة الغرب (فرضة سنوب) المقدم ذكرها في الكلام على ما زاده في "التثقيف" .

ويليها من جهة الشرق مدينة (سامسون) المقدم ذكرها في الكلام على الضرب الثاني من هذه البلاد .

ويليها في جهة الشرق أيضا مدينة (أطرازون) بألف وطاء وراء مهملتين وباء موحدة بعدها زاي معجمة ثم واو ونون . وهي آخر مدن هذه البلاد على الساحل ، ومنها ينتهي إلى ساحل بلاد الكرج على ما تقدم الكلام عليه في الكلام على بحر نيطش .

الجملة الثانية

(في ذكر الموجود بهذه البلاد)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ حيدر العريان الرومي : أن بها من المواشي الخيل ، والبقر ، والغنم ما لا يقع عليه عدد ولا يدخل تحت الإحصاء ، ونتاج بلادهم من الخيل هي البراذين الرومية الفائقة . وقد تقدم الكلام على القسطنطينيات منها في الكلام على قسطنطينية ؛ وتُحلب إليهم العربيات من بلاد الشام وغيرها ؛ وأكثر مواشيهم نتاجاً الغنم . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مما ييسر فرش الأرض [منها] . قال : ومنها المعز المرعزي ، ذوات الأوبار المضاهية لأنعم الحرير . ثم قال : وغالب قنية أهل الشام وديار بكر والعراق وبلاد العمم وذبايحهم مما يفضل عنها ويحلب إليها منها ، وهي أطيب أغنام البلاد تحماً ، وأشهاها شحماً ؛ وتترتب على ذلك في كثرة الوجود الألبان وما يتحصّل عنها من السمن والحبن وغير ذلك . وبها من الحبوب القمح ، والشعير ، والباقلأ ونحوها ؛ ويزرع بها الكنّان ، والقطن الكثير ؛ وبها من الفواكه كل ما يوجد بمصر والشام من التفاح ، والسفرجل ، والكمثرى ، والقراصيا ، والإجاص ، والرمان : الحلو والمز والحامض ، وغير ذلك . أما الحمضات فلا توجد إلا ببلاد السواحل من بلادهم على ما تقدم ذكره ؛ والموز والتخيل لا يوجد ببلادهم ؛ وبها من العسل ما يضاهاه الثلج بياضاً والسكر لذادة وطعماً ، لاحدة فيه ولا إفراط حلاوة تُوقف الأكل عنه ، إلى غير ذلك من الأشياء التي يطول ذكرها . وقد تقدم أن بها معدن فضة بمدينة برسا ، ومعدن فضة بأماسية . وذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ حيدر العريان أن بها ثلاثة معادن فضة مستمرة العمل : معدن بمدينة ركوة ، ومعدن بمدينة كس ، ومعدن بأراضي مدينة تانحرت .

الجملة الثالثة

(في معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ حيدر العريان أن لملوك
التركيان هؤلاء نقودا ولكن لا يروج نقد واحد منهم في بلاد الآخر. قال: ودرهمهم
في الغالب تقدير نصف وربع درهم من نقد مصر، وأرطالهم مختلفة، وأكثرها
بالتقريب زنة اثني عشر رطلا بالمصري، وأقلها ثمانية أرطال؛ وكلهم الذي تباع
به الغلات يسمى الوط تقدير إردب ونصف بالمصري.

وأما أسعارها، فقد ذكر أنها رخيصة رخيصة الأسعار للغاية لقلة المكوس وكثرة
المراعى وأنشاع أسباب التجارة وأكثرها البحر لها من كل جانب بحيث يحمل
إليها على ظهره كل شيء مما لا يوجد فيها. قال: وقيمة الغلات بها دون قيمتها بمصر
والشام أو مثلهما في الغالب. والأغنام في غاية الرخص، حتى إن الرأس الغنم الجيد
لا يتجاوز اثني عشر درهما من درهمهم، يكون بنحو تسعة دراهم من دراهم مصر إلى
مادون ذلك، ويترتب على ذلك رخص اللحم. أما اللبن وما يعمل منه فإنه لا يكاد
يوجد من يشتريه: لاستغناء كل أحد بما عنده من لبن مواشيه، لا سيما في زمن
الربيع. قال: والعسل لا يتجاوز الرطل منه ثلاثة دراهم برطلهم ودرهمهم، وهو
(ذلك الرطل الكبير والدرهم الصغير) والقواكه في أوانها في حكم اللبن وما في معناه
في زمن الربيع، في عدم وجود من يشتريه. ثم قال: وبالجملة فبلاد الروم إذا غلت
وأخضت كانت كسعر الشام إذا أقبل وأرخص.

الجملة الرابعة

(في ذكر من ملك هذه البلاد)

قد ذكر ابن سعيد : أن هذه البلاد كانت بيد اليونان ، وهم بنو يونان بن علجان ابن يافت بن نوح عليه السلام من جملة ما بيدهم قبل أن يغاب عليهم الروم ؛ ثم غلب عليها الروم بعد ذلك فيما غلبوهم عليه ، واستمرت بأيديهم في مملكة صاحب القسطنطينية على ما سيأتي ذكره في الكلام على مملكة القسطنطينية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وكان كل من ملك هذه البلاد التي شرقي الخليج القسطنطيني يسمى (الدمستق) بضم الدال المهملة وفتح الميم وسكون السين المهملة والتاء المثناة فوق وقاف في الآخر ، وله ذكر في حروب الإسلام . قال في "العبر" : وكان تغور المسلمين حينئذ من جهة الشام (مطية) ومن جهة أذربيجان (أرمينية) إلى أن دخل بعض قرابة (طغرلبك) أحد ملوك السلجوقية في عسكر إلى بلاد الروم هذه فلم يظفروا منها بشيء .

ثم دخلها بعد ذلك (ماني) أحد أمراءهم بعد الثلاثين وأربعمائة ، ففتح وغنم وأنتهى في بلادهم حتى صار من القسطنطينية على خمس عشرة مرحلة ، وبلغ سيده مائة ألف رأس ، والغنائم عشرة آلاف عجلة ، والظهر ما لا يحصى .

ثم فتح (قطامش) بن إسرائيل بن ساجوق قونية ، وأقصر ، وأعمالها ، ثم وقعت الفتنة بين قطامش وبين (ألب أرسلان) السلجوقي بعد طغرلبك ، وقيل قطامش في حربه في سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وملك البلاد من بعده (أبنة سليمان) ثم كان بين سليمان ومسلم بن قريش صاحب الشام حروبٌ أنهزم سليمان في بعضها وطعن نفسه بختجر فمات في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وملك بعده أبنة (قليج أرسلان) تلك البلاد ، ثم قتل قليج أرسلان في بعض الوقائع .

وولي مكانه بقونية وأقصرًا وسائر بلاد الروم أبنة (مسعود) وأستقام له ملكها ، ثم توفي مسعود بن قليج أرسلان سنة إحدى وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده أبنة (قليج أرسلان) .

ثم قسم قليج أرسلان المذكور هذه البلاد بين أولاده : فأعطى قونية وأعمالها لأبنة (غياث الدين كيخسرو) وأقصرًا وسيواس لأبنة (قطب الدين) ودوفاط لأبنة (ركن الدين سليمان) وأنكورية لأبنة (محيي الدين) وملطية لأبنة (عز الدين قيصر شاه) والأبستين لأبنة (غياث الدين) وقيسارية لأبنة (نور الدين محمود) وأعطى أماسية لابن أخيه . ثم ندم على هذه القسمة ، وأراد أتراع الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته إلا أبنة غياث الدين كيخسرو صاحب قونية فإنه بقي معه . وحاصر أبنة محمودا في قيسارية فتوفي وهو محاصر لها في منتصف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وأستقل (غياث الدين كيخسرو) بقونية وما والاها .

ثم ملكها من يده أخوه (نور الدين محمود) .

ثم ملك (قطب الدين) صاحب أقصرًا وسيواس قيسارية من يد أخيه محمود خدرا ، ثم مات قطب الدين في آخر ذلك .

فملك أخوه (ركن الدين سليمان) صاحب دُوقاُط ما كان بيد أخيه قطب الدين من سيواس وأقصرًا وقيسارية . ثم ملك قونية بعد ذلك من يد أخيه غياث الدين . ثم ملك أماسية ، ثم سار إلى ملطية ، فملكها من يد عز الدين قيصر شاه سنة سبع وتسعين وخمسمائة . ثم ملك أنكورية بعد ذلك في سنة إحدى وستمائة ، واجتمع لركن الدين سليمان سائر أعمال إخوته وتوفي عقب ذلك .

وتولى بعده ابنه (قليج أرسلان) فأقام يسيرا ثم قبض عليه أهل قونية وملكوا عمه غياث الدين كخسرو مكانه فقوى ملكه وعظم شأنه ، وبقي حتى قُتل في حرب صاحب السططنية سنة سبع وستمائة .

وملك بعده ابنه (كيكوس) وتلقب الغالب بالله ، وبقي حتى مات سنة ست عشرة وستمائة ، وخلف بنين صغارًا .

وملك بعده أخوه (علاء الدين كيقباد محمد شاه) وبقي حتى توفي سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وملك بعده ابنه (غياث الدين كخسرو) وتوفي سنة أربع وخمسين وستمائة .
وملك بعده ابنه (علاء الدين كيقباد) بعهد من أبيه . وفي أيامه أرسل القان (منكوقان بن جنكخان) صاحب التخت بقراقوم عسكرا فاستولوا على قيسارية ومسيرة شهر معها ورجعوا إلى بلادهم . ثم عادوا في سنة خمس وخمسين وستمائة واستولوا على ما كانوا استولوا عليه أولا وزادوا عليه ، فسار علاء الدين كيقباد إلى القان بهدأيا استصحبها معه مضانعا له فمات في طريقه ، فوصل رفقة بما معهم من الهدايا إلى القان ، فأخبروه الخبر ، ورغبوا إليه في ولاية (عز الدين كيكوس) أنحى كيقباد المذكور فكتب القان إليه بالولاية ، ثم أشرك بعد ذلك بينه وبين أخيه

(ركن الدين قليج أرسلان) على أن يكون من سيواس إلى نُحُوم القسطنطينية غرباً لعز الدين كيكائوس . ومن سيواس إلى أرزن الروم شرقاً متصلاً ببلاد التتر ، لركن الدين قليج أرسلان ، على إتاوة تُجمل إلى القان بقراقوم ، وجهاز القان من أمرائه أميراً اسمه (بيدو) على أن يكون شحنة له ببلاد الروم ، لا ينفذون في شيء إلا عن رأيه ، ورجعوا إلى بلادهم ، وقد حملوا معهم جثة كيتباد إلى قونية فدفنوه بها . ولم يزل الأمر على ذلك حتى سار هولاء كوبر بن طولى بن جنكرخان بعد استيلائه على بغداد إلى الشام في سنة ثمانٍ وخمسين وستائة ، بعث إلى عز الدين كيكائوس ، وركن الدين قليج أرسلان المذكورين بالطلب ، فحضرأ إليه وحضرأ معه فتح حلب ، ومعهما معين الدين سليمان البرواناه صاحب دقلم ، فاختار هولاء كوا أن يكون البرواناه المذكور سفيراً بينه وبينهما ، ثم هلك بيدو الشحنة ببلاد الروم .

وولى بعده ابنه (صمغان) ثم غلب ركن الدين قليج أرسلان على أخيه (عز الدين كيكائوس) وبقي في الملك وحده ، وفر كيكائوس إلى (ميخائيل اللشكري) صاحب القسطنطينية ، فأقام عنده حتى بلغه عنه ما غير خاطرَه عليه فقبض عليه وأعتقله حتى مات .

وأستبد ركن الدين قليج أرسلان بسائر بلاد الروم ، فغلب على أمره معين الدين سليمان البرواناه المقدم ذكره ، ولم يزل حتى قتله .

وأقام ابنه (غياث الدين كيكشرو) بن قليج أرسلان مكانه وأستولى عليه وحججه ، وصار البرواناه هو المستولى على بلاد الروم والقائم بملكها .

ثم دخل (الظاهر بيبرس) صاحب الديار المصرية إلى بلاد الروم في سنة خمس وسبعين وستائة ، ولقيه صمغان بن بيدو الشحنة من جهة التتار على بلاد الروم

في جيش التَّسْتَرِ، فهزَّمهم وقتل وأسْر، وسار إلى قيسارية فملكها وجلس على تخت آل ساجوق بها، ثم رجع إلى بلاده .

وبلغ ذلك (أبغا) بن هولاكو صاحب إيران، فسار في جموعه إلى قيسارية ورأى مصارع قومه فشق عليه، وآتهم البرواناه في مملأة الظاهر، فقبض عليه وقتله .

وأستقلَّ (غياث الدين كيخسرو) بن ركن الدين قليج أرسلان بالملك بعده .

ثم لما ولي (أرغون) بن أبغا مملكة إيران بعد أبيه، قبض على غياث الدين كيخسرو وقتله في سنة إحدى وثمانين وستمئة .

وأقام مكانه (مسعودا) ابن عمه كيكأوس، وعزل صفغان بن بيدو الشحنة .
 وولى مكانه أميراً اسمه (أولاكو) وبقى مسعود بن كيخسرو في الملك وليس له منه سوى الاسم، والمتحدث هو الشحنة الذي من جهة التتر إلى أن مات في سنة ثمان عشرة وسبعمائة، وأستقلَّ الشحنة بالمملكة . وبقى أمراء التتر يتغالبون على الشحنة واحدة بعد واحد إلى أن كان منهم الأمير (سلامش) وبقى بها مدة .
 ثم انحرف عن طاعة بيت هولاكو صاحب إيران، وكتب إلى الملك المنصور لاجين صاحب الديار المصرية يطلب تقليداً بأن يكون حاكماً بجميع بلاد الروم، وأن يكون (أولاد قرمان) ومن عداهم في طاعته، فكتب له تقليد ذلك بإنشاء الشيخ شهاب الدين «محمود الحلبي» على ماسياتي ذكره في الكلام على التقاليد فيما بعد إن شاء الله تعالى في المقالة الخامسة .

ثم خاف على نفسه من (غازان) صاحب إيران، ففر إلى الديار المصرية في الدولة المنصورية لاجين، ثم عاد إلى بلاد الروم لإحضار من تأخر من أهله فقبضت عليه

عساکر غازان وحملته إليه فقتله . ولم يزل أسرهم على التنقل من أمير إلى أمير من أمراء التتر إلى أن كان منهم الأمير (برغلي) وهو الذي قتل هيتوم ملك الأرمن صاحب سيس . ثم كان بعده في سنة عشرين وسبعائة الأمير (إبشغا) .

ثم وثى أبو سعيد صاحب إيران بعد ذلك على بلاد الروم هذه (دمرداش) ابن جوبان سنة ثلاث وعشرين وسبعائة فقوى بها ملكه . ثم قتل أبو سعيد جوبان والد دمرداش المذكور ، فهرب دمرداش إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية . وكان سُنقر الأشقر أحد أمراء الملك الناصر قد هرب إلى السلطان أبي سعيد فوقع الصلح بين السلطانين على أن كلا منهما يقتل الذي عنده ففعل ذلك .

وكان قد بقي ببلاد الروم أمير من أمراء دمرداش اسمه (أرتنا) فبعث إلى أبي سعيد بطاعته ، فولاه البلاد فملكها ، فنزل سيواس وأخذها كرسيا لملكه ، ثم خرج عن طاعة أبي سعيد وكتب إلى الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصرية ، وسأله كتابة تقليد بالبلاد ، فكتب إليه بذلك وجهزت إليه الخلع ، فأقام دعوة الخطبة النصرانية على منابر البلاد الرومية ، وضرب السكة باسمه ، وجهز بعض الدراهم المضروبة إلى الديار المصرية ، وصارت بلاد الروم هذه من مضافات الديار المصرية ، ولم يزل (أرتنا) على ذلك إلى أن توفي سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .

وأستولى على الروم أولاده من بعده إلى أن كان بها (محمد بن أرتنا) في سنة ست وستين وسبعائة ، وبقي حتى توفي في حدود الثمانين والسبعائة وخلف أبنا صغيرا . فاستولى عليه الأمير (قليج أرسلان) أحد أمراء دولتهم وكفله .

ثم غدر به (القاضي إبراهيم) صاحب سيواس وقتله في سنة اثنتين وتسعين وسبعائة وأستولى على مملكة سيواس .

قال في "العبر" : وكان من طوائف التُّركان بلاد الروم جموعٌ كثيرة ، كانوا يستعِينون بهم في حروبهم على أعدائهم ، وكان كبيرهم في المائة الرابعة أميراً من أمراءهم اسمه (جق) فلما ملك سليمان بن قطلمش المقدم ذكره قونيةً وأقصرًا بعد أبيه علي مات تقدم ذكره ، خرج جق هذا مع « مسلم بن قريش » صاحب الموصِل علي سليمان بن قطلمش . فلما آتت الجمعان مال (جق) بمن معه من التُّركان إلى سليمان بن قطلمش ، فانهزم مسلم بن قريش وقُتل ، وأقام أولئك التُّركان أيام سليمان بن قطلمش بجبال تلك البلاد وسواحلها . فلما ملك التتر هذه البلاد وصار الملك لقليج أرسلان بعد غلبة أخيه كيكائوس ، كان أمراء التُّركان يومئذ (محمد بك) وأخوه (إلياس بك) وصهره (علي بك) وقريبه (سويج) فخرجوا عن طاعة قليج أرسلان وبعثوا بطاعتهم إلى هولاكو صاحب إيران وتقرير إتاوة عليهم علي أن يبعث إليهم بلواء الملك علي عادة الملوك ، وأن يبعث شحنةً من التتر تختص بهم ، فأجابهم إلى ذلك وقلدهم الملك وبعث إليهم بلواء . فلكوا عليهم (محمد بك) .

ثم أرسل هولاكو يطلب محمد بك ، فامتنع عليه وخالفه صهره علي بك فقدم علي هولاكو فقدمه علي قومه مكان محمد بك . ثم جاء محمد بك إلى قليج أرسلان صاحب بلاد الروم مستأمناً فأمنه ثم قتله ، وأستقر علي بك في إمرة التُّركان .

ولما تناقص أمر التتر وضعف بلاد الروم المذكورة وأستقر بنو أرتتا بسيواس وأعمالها ، غلب هولاكو علي ما وراء الدروب وما كان فتحه التتر من نواحي الشمال إلى خليج القسطنطينية .

وأشتهر من ملوكهم ست طوائف :

(١) في الأصل « ثم غلب هولاكو الخ » وهو خطأ والصواب ما أثبتناه نقلًا عن "العبر ج ٥ ص ٥٦٢" .

الطائفة الأولى

(أولاد قرمان)

وهم أصحاب أزمناك وقسطمونية وما والاها من شرق هذه البلاد كما تقدم . قال في "مسالك الأبصار" : وهم أهل بيت توارثوا هذه البلاد، ولا يُخاطب قائم منهم إلا بالإمارة . قال في "التعريف" : وهم أجل من لدى ملوكنا من التترجان : لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنكابتهم في ممتلك سيسى وأهل بلاد الأرمن ، وأجتيابهم لهم من ذلك الجانب ، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب . قال : وأكبرهم قدرا ، وأفتكهم نابا وظفرا، الأمير (بهاء الدين موسى) وحضر إلى باب السلطان وتلقى بالإجلال ؛ وأحل في ممتد الظلال ، وأورد موارد الزلال ، وأرى ميامن أسعد من طلعة الهلال ؛ وحج مع الركب المصرى وقضى المناسك ، وأسبل في ترى تلك الربا بقيسة دمه المتناسك ؛ وشكر أمراء الركب دينه المتين ، وذكروا ما فيه من حسن اليقين ، وعاد إلى الأبواب السلطانية ، وأجلس في المرتين مع أمراء المشورة ، فأشرك في الرأي وسأل السلطان في منشور يكتب له بما يفتح بسيفه من بلاد الأرمن ليقاتل بعلمه المنشور ، ويحتني من شجر المران حتى غسله المنشور ، فكتبه له .

ثم قال : وهم على ما هم عليه يدارون ملوك التتار ، وهو من سلف من أهل بيته مع ملوك مصر لأنبغ المكتبات بينهم ، ولا يتقطع بذل خدمته لهم ، وإقبالهم عليه ، واعتدادهم بمولاته .

قال في "مسالك الأبصار" : وهم عصابة ذات أيد ويده ، وجيوش كثيرة العدد ؛ وهم أصحاب الحروب التي ضعفت الجبال ؛ ولهم مع الأرمن وبلاد التكفور، وقائع

لا يَحْدُهَا إِلَّا الْكُفُورُ ؛ نَخَطَفُهُمْ عِقْبَانَهُمُ الْقَسَاعِمِ [وَتَلْتَمِزُهُمْ] ^(١) أَسُودَهُمُ الضَّرَائِمِ .
قال : وهم أهل بيت ألقى الله عليهم محبةً منه ، وإذا شاء أميرهم جمع أربعين ألفاً .
ثم ذكر بعد ذلك بكلام طويل أنهم هم الذين كانوا ألقوا بين سلامش وبين المنصور
لاجين ، وأنهم هم الذين لا يُرتاب في رأيهم ، ولا يُطعن في دينهم ، بل مهما ورد
من جهتهم تُلقي بالقبول ، وحمل على أحسن المحامل . ثم قال : وحكى عمن ترد
إليهم وعرف ما هم عليه أنهم رجالٌ صدق ، وقومٌ صبر ، لا تُستخف لهم حفيظه ،
ولا تُرد بحقها لهم صدور منيظه ؛ ولهذا أمراء الروم لا يطؤون لهم موطنًا يغيظ ،
ولا يواطئون لهم عدة شهور في مشق ولا مقيظ ؛ وما أحدٌ ممن يحسدُّهم على ما آتاهم الله
من فضله إلا من يستجيش عليهم بالتتار ، ويعسُدُّ عليهم عظام الذنوب الكبار ؛
وقايةً الله تكفيهم ، وحياطته عن عيون القوم تُخفيهم ؛ ولذلك كان السلطان
(محمود غازان) يقول : أنا أطلب الباغي شراً وغرباً ، والباغي في ثوبي ، يريد
أولاد قرمان وترجمان الروم [ومع هذا لم يسلط عليهم] ^(٢) .

وحكى عن الصدر شمس الدين عبد اللطيف أنى التجيب أنه قال يوماً : لولا
الأكراد وأولاد قرمان وترجمان الروم ، دُستُ بجيلى مغرب الشمس .

الطائفة الثانية

(بنو الحميد)

وهم أصحاب أنطاليا وفلك بار على ما تقدم ذكره ، وهم من عطاء ملوك التركمان .

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن "مسالك الابصار" .

(٢) الزيادة من المسالك .

الطائفة الثالثة

(بنو أيدين)

وهم أصحاب بَرِي وما معها، على ما تقدم ذكره . قال في "مسالك الأبصار" وقد ذكر محمد بن أيدين صاحب بركي المذكورة : وهذا ابن أيدين ما أعرف أن له بمن حوله من ملوك الممالك إلماما، ولا أن له أخبارا تردُّ طروقاً ولا إلماماً؛ بل هو في عزلة من كل جانب، لا مخالط ولا مجانب .

الطائفة الرابعة

(بنو منتشا . وهم أصحاب فولة وما معها)

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن منهم أولاد دندار . ثم قال : ولهُؤلاء بنى دندار إلى ملوك مصر آنتماء، ولهم من تُخف سلاطينها نعاء . قال : وكان بمصر منهم من له أسرة فيها ثم عاد إلى بلاده بعد مهلك تمرناش بن جوبان ، لأنه كان قد ترك بلاده لأجله ، وفرَّ هارباً من يده لعداوة كان قد اضطرت بينهما شُرورها، واضطربت أمورُها، فلما خلت من مجاورة تمرناش تلك البلاد، عاد . ويقال : إنه قُتِل ولم يصل إلى بلاده .

الطائفة الخامسة

(بنو أورخان بن عثمان جق)

وهو صاحب بُرسا على ما تقدم ذكره . قال في "العبر" : وكان قد اتخذ بُرسا داراً للملكة ، ولكنه لم يفارق إحيام إلى القصور ، وإنما كان ينزل بخيامه في بسيتها وضواحيها ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

وملك بعده أبْنُه (مراد بك) وتوغَّل في بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القُسْطَنْطِينِيّ في الجانب الغربي ، وفتح بلادهم إلى أن قُرب من خليج البنادقة ، وجبال جنوة ، وصير أكثرهم أمراء ورعايأ له ، وعات في بلاد الكُفَّار بما لم يُعهد قبله من مثله ، وأحاط بالقُسْطَنْطِينِيَّة من كل جانب حتى أعطاه صاحبها الحزبية . ولم يزل على ذلك حتى قُتل في حرب الصَّقالبة سنة إحدى وتسعين وسبعائة .

وملك بعده أبْنُه (أبو يزيد) فخرى على سنن أبيه ، وغلب على قِطْعة من بلاد الروم هذه فيما بين سيواس وأنطاليا والعلايا ، بساحل البحر إلى قريب مدينة بنى قَرمَان ، ثم تزوج في بنى قَرمَان بنت أحدهم وغلب على ما بيده من تلك النواحي ، ودخل بنو قَرمَان وسائر التُّركان في طاعته ، ولم يبق خارجاً عن مُلكه إلا سيواس التي كانت بيد قاضيها (إبراهيم) المتغلب عليها ومَطْطِيَّة الداخلة في مملكة الديار المصرية ومضافاتها على ما تقدم . ولم يزل على ذلك حتى قصده ثمرلنك بعد تخريب الشام في سنة ثلاث وثمانمائة وقبض عليه ، فبق في يده حتى مات .

وملك بعده أبْنُه (سليمان جلي) وبق حتى مات .

فلك بعده أخوه (محمد بن أبي يزيد) بن مُراد بك بن عثمان جق ، وهو القائم بمملكتهما إلى الآن .

قال في "مسالك الأبصار" : ولو قد اجتمعت هذه البلاد لسلطان واحد ، وكُفَّت بها أكُفُّ المفاسد ؛ لما وسع ملوك الأرض إلا اتّجاعُ سَعابه ، وآرتجاع كل زمانٍ ذاهبٍ في غير جنابه ، ثم قال : الله أكبر إن ذلك لَمُلْكٌ عظيم ، وسِلْكٌ نظيم ، وسلطنة كبرى ودينا أخرى (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء) .

الجماعة الخامسة

(في زى أهل هذه المملكة ، وترتيب الملك بها)

أما زى أهلها فإن لبس السطان والأمراء والجند أقيّة تترية ضيقة الأكم ،
مزندة على الأكمف ، والأمراء منهم يلبسون فوق ذلك أقيّة قصار الأكم من رقيق
الخام مضربة تضريباً واسعاً ، وعلى رؤسهم عمام من لانس متوسطة المقدار بين الكبر
والصغر ، مكورة تكويراً خاصاً ، حسن الصنعة ، متداخل بعض اللقات في بعض ،
ويلبسون خفافاً من آدم ، وقد شاهدت أميرا من أمرائهم ورد رسولاً عن أبي يزيد
أبن مراد بك بن عثمان إلى الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية وهو على هذه
الهيئة ، وكثير من الجند يلبسون الطرايطير البيض والحمر المتخذة من اللبد .



وأما ترتيب مملكتهم فلم يتختر لي كيفية ذلك إلا أنه قد تقدم نقلا عن صاحب
« العبر » أنهم كانوا يسكنون الخيم ثم نزوا المدن بعد ذلك ، فلا يبعد أن يكون
ترتيب مملكتهم على نحو من ترتيب الترو والله أعلم .

القسم الثاني

(من الجهة الشمالية عن الديار المصرية ، ما بين ملوك النصارى)

وهو ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(جزائر بحر الروم)

وهو البحر الشامي المتد من البحر المحيط الغربي ، المسمى (بحر أوقيانوس) إلى
ساحل الشام وما على شتمته من بلاد الأرمن المتد ساحله الجنوبي على ساحل

الديار المصرية، ثم على ساحل بَرْقَة، ثم على ساحل أفرِيقِيَّة، ثم على ساحل الغرب الأوسط، ثم على ساحل الغرب الأقصى إلى البحر المحيط. وساحله الشمالي على بلاد الروم التي شرقيّ الخليج القسطنطينيّ، ثم على سواحل بلاد الروم والفرنجية من غربيّ الخليج المذكور إلى ساحل الأندلس إلى البحر المحيط، على ما تقدم ذكره في الكلام على البحار في أول هذه المقالة.

وبه إحدى عشرة جزيرة:

إحداها — جزيرة (قُبْرَس). قال في "اللباب": بضم القاف وسكون الباء الموحدة وضم الراء المهملة وفي آخرها سين مهملة. وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال": حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة، والعرض خمس وثلاثون درجة. وهي جزيرة في مشارق هذا البحر. قال ابن سعيد: على القُرْب من ساحل الشام بينها وبين الكُرْك^(١) بضم الكاف وسكون الراء المهملة من بلاد الأرمن) نحو نصف مجرى. قال: وطولها من الغرب إلى الشرق مائتا ميل، ولها ذنب دقيق في شرقها. قال الإدريسي: ودورها مائتان وخمسون ميلا، ولصاحبها مكتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ما سيأتي ذكره في الكلام على المكتبات، في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى.

الثانية — (جزيرة رُودِس). قال في "تقويم البلدان": بضم الراء المهملة ثم واو ساكنة ودال مهملة ويقال معجمة مكسورة ثم سين مهملة. وموقعها في الإقليم^(٢) [الرابع] من الأقاليم السبعة قال في "الأطوال": حيثُ الطولُ إحدى وخمسون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة. قال في "تقويم البلدان": وهي

(١) كذا في التقويم أيضا بالكاف في الآخر ولعله بالميم.

(٢) يياض بالأصل، والتصحيح عن "تقويم البلدان".

على حيال الإسكندرية ، بين جزيرة المصطكى وجزيرة أفریطش . قال : وأمتادها من الشمال إلى الجنوب بانحراف نحو خمسين ميلا ، وعرضها نصف ذلك . وبين هذه الجزيرة وبين ذنب جزيرة أفریطش مجرى واحد ، وهي في الغرب عن جزيرة قُبرس بانحراف إلى الشمال . قال : وبعضها للفرنج ، وبعضها لصاحب اصطنبول (وهي القُسْطَنْطِينِيَّة) ومن رُودس يُجَلَّب العسل الطيب العديم النظير ، ولصاحبها مكاتبه تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالثة — (جزيرة أفریطش) . قال في " اللباب " : بفتح الألف وسكون القاف وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة من تحت وكسر الطاء وشين معجمة في الآخر . قال في "الروض المعطار" : سُميت بذلك لأن أول من عمَّرها كان اسمه (قراطى) قال : وتسمى أيضا (أفریطش البترليش) ومعناها بالعربية مائة مدينة . وهي على سَمت بَرِّقَة ، وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة ، قال ابن سعيد : ومديتها حيث الطولُ سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرضُ أربعون درجةً وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي جزيرةٌ عظيمة مشهورة ، وأمتادها من الغرب إلى الشرق ودورها ثلثمائة وخمسون ميلا . وقيل : هذه الأميال إنما هي طولها شرقا بغرب لادورها ؛ وذكر في "كتاب الأطوال" أن دورها سبعة عشر يوما . قال في "تقويم البلدان" : ومنها يجلب إلى الإسكندرية العسل والجُبن وغير ذلك . قال في "الروض المعطار" : وهي جزيرة عامرة ، كثيرة الخصب ، ذات كروم وأشجار ، وبها معدنٌ ذهب . وأكثر مواشها المعز ، وليس بها إبل ؛ ولم يكن بها سبُع ولا ثعلب ولا غيرهما من الدوابِّ الدابة بالليل ، وكذلك ليس بها حية ، وإن دخلت إليها حية ماتت في عامها . ويقال : إن صناعة الموسيقى أول ما ظهرت بها ؛ وبينها وبين ساحل بَرِّقَة يومٌ وليلة ، وبينها وبين قُبرس أربعة مجاري ،

وإليها ينسب الأتيمون الأقرِيطشيّ المستعمل في الأدوية . وكان « عبد الله بن أبي سرح » أمير مصر قد أفتحها في زمان إمارته في خلافة « عثمان » رضي الله عنه ، وبقيت بأيدي المسلمين حتى تغلب عليها النصارى في سنة خمس وأربعين وثلاثمائة . قال في « الروض المعطار » : وهي بيد صاحب القسطنطينية .

الرابعة - (جزيرة المصطكى) بفتح الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة والكاف وألف في الآخر . وسميت بذلك لأنه ينبت بها شجر المصطكى . قال في « تقويم البلدان » : وهي جزيرة بالقرب من فم الخليج القسطنطيني . وقال ابن سعيد : هي داخلية في بحر الروم على مائة وخمسين ميلا من فم الخليج القسطنطيني . قال : وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ستين ميلا . قال : وهي شرقية (جزيرة الغرب) وبينهما نحو ثلاثين ميلا . قال في « تقويم البلدان » : وبها دُيورة وفُررى ، ومنها تجلب المصطكى إلى البلاد ، وهي صمغ شجر ينبت بها يُسبه شجر الفستق الصغار ، يُسَرط في فصل الربيع بمشاريط فتسيل منها المصطكى ، ثم تُجَد على الشجر ، وربما قَطَر منه شيء على الأرض ، والأول أجود .

الخامسة - (جزيرة الغرب)^(١) بالياء المثناة فوق المفتوحة وسكون العين المعجمة وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحت وباء موحدة في الآخر . قال في « تقويم البلدان » : وهي من الغربية ، وموقعها في أواخر الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : وطرفها الشرقي حيث الطول ثمان وأربعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض اثنتان وأربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وهي جزيرة كبيرة في الغرب عن جزيرة المصطكى المقدم ذكرها ، وامتدادها من المغرب إلى المشرق بانحراف إلى

(١) سماها في تقويم البلدان « جزيرة الغرب » وذكر أن في بعض النسخ « الغرب » كما هنا .

الجنوب مائةً ونحسون ميلاً ، وفي العرض من عشرين ميلاً إلى نحو ذلك . قال في "تقويم البلدان" : وهي معروفة بخروج الشوانى والقطائع منها .

السادسة — (جزيرة لَمْرِيَا) . قال في "تقويم البلدان" : بفتح اللام وسكون الميم وكسر الراء المهملة ثم ياء مشاة تحتية وألف في الآخر . قال : وعن بعض المسافرين أن بعد المشاة هاء . قال ابن سعيد : وتعرف في الكتب بجزيرة بلونس ، وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : ووسطها حيث الطول خمس وأربعون درجة وأثنان وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثلاث عشرة دقيقة . قال : وهي أكبر جزائر الروم ودورها على التحقيق سبعمائة ميل ، وفيها أخوار وتعريجات ، ومديتها في وسطها .

السابعة — (جزيرة صَقْلِيَّة) . قال في "اللباب" : بفتح الصاد المهملة والقاف ^(١) ولام وياء مشاة من تحت وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة ، وبين ذنبا الغربي وبين تونس مجرى وستون ميلاً ، ودورها خمسمائة ميل . وهي على صورة شكل مثلث حاد الزاوية : فالزاوية الأولى شمالية ، وهناك المجاز الضيق إلى الأرض الكبيرة (يعنى التي وراء الأندلس) وهو نحو ستة أميال . والزاوية الثانية جنوبية ، وهي تقابل برطرايس من أفريقية من بلاد الغرب . والزاوية الثالثة غربية ، وهناك (بركان النار) في جزيرة صغيرة منقطعة شمالى الزاوية المذكورة ، وشمالى صَقْلِيَّة بلاد قفريقية الآتى ذكرها في الكلام على الضرب الثانى . قال في "تقويم البلدان" : وصاحب صَقْلِيَّة في زماننا هذا فرنجى من الكيتلان اسمه الريد افريك .

(١) ضبطها ياقوت بثلاث كرات وتشديد اللام والياء ، ثم قال وأكثر أهل صقلية يفتحون الصاد واللام .

وقاعدتها مدينة (بَلَزَم) بفتح الباء الموحدة واللام وسكون الزاي المعجمة وميم في الآخر. قال ابن سعيد: وهي حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً ، والعرضُ ستُّ وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقةً . وبها عدَّةُ مُدنٍ غير هذه القاعدة .

منها مدينة (مازِر) . قال في "المشترك" : بفتح الزاي المعجمة وبعدها راء مهملة ، وإليها ينسب "الإمام المازريُّ المالكي" شارح "موطأ مالك" وغيره . ومنها (قَصْرُ يَانَةَ) بلفظ قصر المعروف ، ويانَةُ بفتح الياء المثناة تحتُ وألف ونون مشددة ، وهي مدينة كبيرة على سِنِّ جبل .

الثامنة — (جزيرة سُردانية) . قال في "تقويم البلدان" : بضم السين وكسر الراء وفتح الدال المهملات ثم ألف ونون مكسورة وياء مثناة تحت مفتوحة وهاء في الآخر . قال : وأسمها بالفرنجية صُرْدَانِي ، يعني بإبدال السين صادًا مهملةً وحذف الهاء من الآخر . وهي غربي الجزيرة المتقدمة الذكر . وموقعها في الإقليم الرابع بين مرسئى الخرز من البر الجنوبي وبين مملكة ييزة من البر الشمالي . قال في "الأطوال" : وطولها إحدى وثلاثون درجة ، وعرضها ثمان وعشرون درجة . قال ابن سعيد : وأمتدادها من الطول من الشمال إلى الجنوب مجرى ونصف ، وفي غربيها مغاص المَرْجان الفائق الذي ليس له نظير، وبها معدنٌ فضةٌ ، وهي الآن بيد الفرنج الكيتلانيين ، ولملك الكيتلان نائبٌ بها .

التاسعة — (جزيرة قَرَسَقَة) بفتح القاف وسكون الراء المهملة وفتح السين المهملة والقاف وهاء في الآخر . وهي مقابل (جَنوة) الآتي ذكرها في الضرب الثاني ؛

(١) في المعجم بفتح أوله وسكون ثانيه .

وبين سَرْدَانِيَّة المتقدمة الذكر مجازاً نحو عشرة أميال ؛ وأمتدادها من الشمال إلى الجنوب مجرّى ونصف ، ووسطها متّسع ، ورأسها من جهة جَنَوَة ضَيِّق .

العاشرة — (جزيرة أنكلطرة) بألف ونون ساكنة وكاف مفتوحة ولام مفتوحة وطاء مهملة ساكنة وراء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر . قال ابن سعيد : ويقال (أنكلترة) ببدال الطاء تاء مثناة من فوق . قال : وطول هذه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال بأخراف قليل أربعائة وثلاثون ميلا ، وآتساعها في الوسط نحو مائتي ميل ، وفيها معدن [الذهب] ^(١) والفضة والنحاس [والقصدير] ^(١) وليس فيها كروم أشد البرد بها ، وأهلها يحملون الذهب إلى بلاد الفرنج ، ويعتاضون عنه الخمر لمدمه عندهم .

وقاعدتها (مدينة لندرس) بلام ونون ودال وراء وسين مهملات . وصاحب هذه الجزيرة يسمى (الانكتار) بنون وكاف وتاء مثناة فوقية وألف وراء مهملة في الآخر . وهو الذي عقد الهدنة بينه وبين الملك العادل «أبي بكر بن أيوب» في سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، والمملك العادل على عسقلان . وكان من أمره أنه لم يخلف على الهدنة بل أخذت يده وعاهدوه ، وأحتج بأن الملوك لا يحلفون ؛ وكانت الهدنة بينهما ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها كانون الأول الموافق لحادي عشرى شعبان من السنة المذكورة .

الحادية عشرة — (جزيرة السنافر) . جمع سُنفَر وهو الجراح المعروف المقدم ذكره في الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى وصفه في المقالة الأولى . وهي جزيرة على القُرب من (جزيرة أنكلترة) المقدمة الذكر . قال ابن سعيد : وأمتدادها في الطول شرقا بغرب سبعة أيام ، وفي العرض أربعة أيام . قال في "تقويم البلدان" : ومنها

(١) الزيادة عن التقويم .

ومن الجزائر التي شمالها تجلب السناقر التي هي أشرف أنواع الجوارح ، وإلى ذلك أشار في "التعريف" في الكلام على أوصاف السناقر بقوله وهي مجلوبة من البحر الشامي . قلت : وجزيرة حربة تقدم ذكرها مع بلاد أفريقية . وجزيرة ميورقة وجزيرة يانسة وجزيرة قانس تقدم ذكرها مع جزيرة الأندلس .

الضرب الثاني

(ماشمالاً بحر الروم المقدم ذكره من غربي الخليج الفسطيني مما يمتد غرباً إلى البحر المحيط الغربي ، وما يتصل بذلك مما شمالي بحر نيطس المعروف ببحر القرم إلى أقصى الشمال ، وهو جهتان)

الجهة الأولى

(ما هو في جهة الغرب عن الخليج الفسطيني . وهو قطران)

القطر الأول

(ما بين الخليج المذكور وبين جزيرة الأندلس ، وما على سمت ذلك .

ويشتمل على ممالك كبار وممالك صغار)

فأما الممالك الكبار ، فالمشهور منها خمس ممالك :

المملكة الأولى

(مملكة الفسطينية)

قال في "اللباب" : بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء الثانية وسكون المشاة من تحت ثم نون (يعني مفتوحة) ثم هاء في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : وتسمى بوزنطيا يعني بالباء الموحدة والواو

والزاي المعجمة والنون والطاء المهملة ثم ياء مشناة من تحت وألف في الآخر .
 وربما قالوا : بُورَظِيَّةُ ببدال الألف هاء . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم
 السبعة قال في " رسم المعمور " : حيث الطرلُ ثمانٌ وأربعون درجةً ، والعرضُ
 خمس وأربعون درجةً ، وواقفه على ذلك صاحب " الأطوال " وصاحب " القانون " .
 وابن سعيد : وهي قاعدة الروم بعد رومية وعمورية ، وهي المستقرة قاعدة ملك
 لهم إلى الآن .

قال في " الروض المعطار " : نزل رومية من ملوك الروم عشرون ملكاً ، ثم نزل
 عمورية منهم ملكان ، ثم عادت الملكة إلى رومية فنزلها منهم ملكان ، ثم ملك
 (قسطنطين) بن هيلاني ، بحد بناء بُورَظِيَّةَ وزاد في بنائها ، سماها قُسْطَنْطِيَّةَ نسبةً
 إليه ونزل بها فصارت دار ملك للروم بعده إلى الآن . قال : وهي على ضفة الخليج
 المنصب من بحر نيطش وما نيطش إلى بحر الروم ، وقد صار هذا الخليج مشهوراً بها .
 فيقال فيه (الخليج القسطنطيني) كما تقدم . وجهاتها الثلاث من الشرق والغرب
 والجنوب إلى البحر ، والجهة الرابعة وهي الشمال إلى البر ، وقطرها من الشرق إلى
 الغرب ثمانية وعشرون ميلاً ، ولها سوران من حجارة بينهما فضاء ستون ذراعاً ،
 وعرض السور الداخل اثنا عشر ذراعاً ، وارتفاعه اثنا وسبعون ذراعاً ، وعرض
 السور الخارج ثمانية أذرع ، وارتفاعه اثنا وأربعون ذراعاً ، وفيما بين السورين
 نهر يسمى (قسطنطينيانوس) مغطى ببلاط من نحاس ، يشتمل على اثنين وأربعين
 ألف بلاطة ، طول كل بلاطة ستة وأربعون ذراعاً ، وعمق النهر اثنا وأربعون
 ذراعاً . ولها نحو مائة باب أكبرها باب الذهب : وهو باب في شمالها ، طوله
 أحد وعشرون ذراعاً ، وهو مذهب بالحديد ، وبه أعمدة من ذهب ، وبها قصر
 في غاية الكبر والعلو ، وطريقه الذي يتوصل إليه منه يعرف بالبدندون . وهو من

عجائب الدنيا، يُمشى فيه بين سَطْرين من صُور مفرّعة من النحاس البديع الصّناعة على صُور الآدميين وأنواع الخيل والسّباع وغير ذلك ، وفي القصر ضروب من عجائب المصنوعات .

قال في "تقويم البُلدان" : وحكى لي بعض من سافر إليها أن داخلها مزدرع وبساتين ، وبها خراب كثير ، وأكثَر عمارتها في الجانب الشرقي السّمالي ، وكنيستها مستطيلة ، وإلى جانب الكنيسة عمود عالٍ دَوْرُه أكثر من ثلاثة باعات ، وعلى رأسه فارسٌ وفرسٌ من نُحاس ، وفي إحدى يديه حربة كبيرة ، وقد فتح أصابع يده الأخرى وهو مشير بها . قيل : إن ذلك صورة (قُسطنطين) باني المدينة . قال في العزيزي : ولها أربع عشرة معاملة .

وَأعلم أن هذه المملكة كانت أولاً بيد اليونان . قال البيهقي : وهم بنو يونان بن علجان ، بن يافث ، بن نوح عليه السلام . وفي التوراة أن يونان ابن يافث لصلبه ، وأسمه فيها (ياقان) بقاء تقرب من الواو . وخالف الكندي فسبهم إلى عابر بن فالغ فجعل يونان أحاً لقحطان ، وذكر أنه خرج من اليمن بأهله وولده مغاضباً لأخيه قحطان فنزل ما بين إفرنجة والروم ، فاختلط نسبه بنسبهم . وردّ عليه أبو العباس^(١) الناشئ في ذلك بقوله :

[و] تَخَاطَبُ يُونَانًا بِقَحْطَانَ ضِلَّةً * لَعَمْرِي لَقَدْ بَاعَدْتَ بَيْنَهُمَا جِدًّا !

(١) هو عبد الله بن محمد الناشئ وأول الأبيات :

أبا يوسف إني نظرت فلم أجد * على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكما عند قوم إذا أمرؤ * بلاهم جميعا لم يجد عندهم عندا
أثرت الحادا بدين محمد * لقد جئت شيئا ياأخا كندة إذا

وتخلط الخ اه من مروج الذهب (ج ١ ص ١٣٨) .

وقيل إنهم إنما نَجَّجُوا من رجل يقال له (الكن) وُلِدَ سنة سبع وأربعين لوفاة موسى عليه السلام .

وكانت قاعدة ملكهم الأولى (مدينة أغريقية) . وهي مدينة بناها (أغريقش) ابن يونان المتقدم ذكره على الجانب الغربي من الخليج القسطنطيني ، وهي أول مدنها ، ثم هدمها هيلوس أحد ملوكهم وبنى (مدينة مقدونية) ^(١) في وسط المملكة بالجانب الغربي أيضا ونزلها فصارت منزلا لملوكهم من بعده ، وإليها ينسب ملوكهم فيقال ملوك مقدونية ؛ وقد كان يقال للإسكندر بن فيلبس المقدوني نسبة إلى مقدونية هذه . ومن طائفة اليونان كان معظم الحكماء الذين عنهم أخذت علوم الفلسفة ، ومنهم بقراط وسقراط وأفلاطن وأرسطوطاليس وإقليدس وغيرهم من الحكماء .

وكان لهم عدة ملوك ، أولهم (يونان) بن يافث بن نوح .

ثم ملك بعده ابنه (أغريقش) وهو الذي بنى مدينة أغريقية المتقدم ذكرها . وتوالى الملك في ولده ، وقهروا اللطيين ودال ملكهم في أرمينية .

ثم ملك (هرقل الجبار) بن ملكان ، بن سلقوس ، بن أغريقش .

ثم ملك بعده ابنه (بلاق) وإليه تُنسب الأمة البلاقية التي هي الآن على بحر سوادق ، وأتصل الملك في عقب بلاق المذكور إلى أن ظهر عليهم إخوانهم الروم وأستبدوا بالملك .

فكان أولهم (هردوس) بن مطرون ، بن رومي ، بن يونان ، فملك الأُمم الثلاثة ، وصار اسمه لقباً لكل من ملك بعده .

(١) قال ياقوت : فتح أثله وثانية وضم الدال المعجمة الخ .

ثم ملك بعده أبنته (هرمس) وحاربه القُرس فقهروه وضربوا عليه الإتاوة .

ثم ملك بعده أبنته (مطرنوس) فحمل الإتاوة للقُرس .

ثم ملك بعده (فيلبوس) فظهر على الأعداء وهدم مدينة أغريقية ، وبني مدينة مقدونية المتقدم ذكرها ، وكان محباً في الحكمة فكثرت الحكماء في دولته .

ثم ملك بعده أبنته (الإسكندر) فاستقام له الأمر وملك الشام ، وبيت المقدس ، والهند ، والسند ، وبلاد الصين ، والتبت ، وخراسان ، وبلاد الترك ، وذلت له سائر الملوك ، وهاداه أهل المغرب والاندلس والسودان ، وبني مدينة الإسكندرية بالديار المصرية عند مصب النيل على ساحل البحر الرومي ، وبني بالسند أيضا مدينة سماها الإسكندرية ، ورجع إلى بابل فمات بها ، وعرض الملك على أبنته إسكندروس فآبى واختار الرهبانية .

ثم ملك بعده (لوعوس) من بيت الملك ، وتلقب (بطليموس) فصار ذلك علما على كل من ملك منهم . وقيل : هو بطليموس بن لاوى صاحب عسكر الإسكندرية ، وهلك لأربعين سنة من ملكه .

وملك بعده أبنته (فلديش) فأقام ثمانيا وثلاثين سنة ، وترجمت له التوراة من العبراني إلى الرومي .

ثم ملك بعده أبنته (أنطربيش) ^(١) فأقام ستا وعشرين سنة وهلك .

فملك بعده أخوه (قلوباظر) ^(٢) فأقام سبع عشرة سنة وهلك .

فملك بعده أبنته (أيفاناش) فأقام أربعا وعشرين سنة .

(١) في "العبرج ٢ ص ١٨٩" انطربيس .

(٢) في "العبرج ٢ ص ١٨٩" قلوباذى .

وملك بعده ابنه (قلو ماظر) فأقام نحسًا وثلاثين سنة . وكان مقره الإسكندرية وهلك .

فملك بعده ابنه (إبرياطش) فأقام سبعا وعشرين سنة . وعلى عهده أستفحل ملك رومة ، وملكوا الأندلس وأفريقية وهلك .

فملك بعده ابنه (شوظا) ^(١) فأقام سبع عشرة سنة ، وهلك .

فملك بعده أخوه (الإسكندر) فأقام عشر سنين وهلك .

فملك بعده (دُونُشَيْش) بن شوظا ، فأقام ثمانياً وثلاثين سنة ، وفي أيامه ملك الروم بيت المقدس وأنطاكية ، وهلك .

فملك بعده بنته (كلابرة) فأقامت سنتين ، وكان سكنها الإسكندرية . وكان الملك على الروم يومئذ أغشطش قيصر ملك الروم ، فقصدتها ، فاحتالت بأن اتخذت حيةً توجد بين الحجاز والشام ، فلمست الحية فيبست مكانها ، وبقيت الحية في رياحين حوّلها ، وحضر أغشطش فوجدتها جالسة ولم يشعر بموتها ، فتناول من الرياحين ليشمها فاسعته الحية فمات ^(٢) . وزالت دولة اليونان بزوالها .

هكذا رتبهم (هر وشيوش مؤرخ الروم) وسبب ذلك أن الروم واليونان كانوا متجاورين متلاصقين لعلاقة النسب فقد نقل ابن سعيد عن البيهقي أن الروم من ولد رومي بن يونان المقدم ذكره . وقيل هم بنو لطين بن يونان أخي رومي المذكور ، ولذلك يقال لهم اللطينيون . وقيل هم من بني كيم بن يانان وهو يونان . وقيل بل هم من بني عيصو بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

(١) في "البرج ٢ ص ١٩٠" شوظار .

(٢) في النقطمة الأزهرية إصلاح على هذا الوجه [فبطل شقه ولم يمض إذ كانت الحية قد أفرغت سمها في كلابرة قبله] .

قال صاحب حماة في تاريخه : وكان أول ظهورهم في سنة ست وتسعين وثلاثمائة
لوفاة موسى عليه السلام . قال : وهم يعرفون بنى الأصفر ، والأصفر هو رؤيم
أبن العيص . قال في "العبر" : وذلك أنه لما خرج يوسف عليه السلام من مصر
بأبيه يعقوب ليُدْفَنَه بالشَّام عند الخليل عليه السلام ، أعترضه بنو عيصو فخار بهم
وهزَمَهم ، وأسر منهم صفوا بن إليفار بن عيصو ، وبعث به إلى أفريقيا ، فأقام بها
وأتصل بمالكها وأشتهر بالشجاعة ، ثم هرب من أفريقيا إلى أسبانية ، فزوجه
وملكوه عليهم ، فأقام في الملك خمساً وخمسين سنة ، وبقى الملك في عقبه إلى أن كان
منهم ملك اسمه (روميش) فبنى مدينة رومية وسكنها فعرفت به . وبالجملة فإنهم كانوا
مجاورين لهم : الروم في المغرب ، واليونان في المشرق ، ف وقعت الحرب بينهم ، وكانت
الغلبة للروم على اليونان مرة بعد أخرى إلى أن كانت غلبة أعسطش على قلوبطرا
على ما تقدم ذكره .

ثم ملوك الروم على طبقات :

الطبقة الأولى

(من ملك منهم قبل القيصرية)

قال "هروشيوش" مؤرخ الروم : وأول من ملك منهم (بيقش) بن شطونش^(١)
أبن يوب ، في آخر الألف الرابع من أول العالم على زمن تيه بنى إسرائيل .
ثم ملك بعده ابنه (بريامش) وأتصل الملك في عقب بيقش المذكور وإخوته
إلى أن كان منهم كرمش بن مرسية بن شين بن مركة ، بعد أربعة آلاف وخمسين

(١) في العبرج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

لأول العالم في زمن بار بن كلعاد من ملوك بني إسرائيل ، وهو الذى ألّف حروف اللسان اللطيني ولم تكن قبله .

ثم كان منهم (أناش) من عقب بريامش بن بيقش المتقدم ذكره لأربعة آلاف ومائة وعشرين للعالم .

وفى أيامه حرب الأغرقيثيون مدينة طروبة المتقدم ذكرها فى قواعد مملكتهم .

ثم ملك بعده ابنه (أشكائيش) وهو الذى بنى مدينة ألبا ، ثم اتصل الملك فيهم إلى أن أفرق أمرهم ؛ ثم كان من أعقابهم برقاش على عهد عزريا بن أمصيا من ملوك بني إسرائيل . واتصل الملك لابنه ثم لحافديه روملش وراملش لأربعة آلاف وخمسمائة سنة للعالم . وهما اللذان آختطأ مدينة رومية ، وكان الروم بعد روملش وراملش وأنقراض عقبهم قد سئموا ولاية الملوك عليهم ، فصيروا أمرهم شورى بين سبعين وزيرا . وقال ابن العميد : كانوا يقدمون شيئا بعد شيخ ، ولم يزل أمرهم على ذلك مدة سبعمائة سنة ، تقترع الوزراء فى كل سنة ، فيخرج قائد منهم إلى كل ناحية على ما توجه القرعة ؛ فيحاربون الأمم والطوائف ، ويفتحون الممالك حتى ملكوا الأندلس وأنخروا فى الجلالفة ، وملكوا سمورية مدينة القوط ، وأستولوا على الشام وأرض الحجاز ، وأفتتحوا بيت المقدس وأسروا ملكها ، وكانت الحرب بينهم وبين الفرس سجالا إلى أن كانت القياصرة كما سياتى إن شاء الله تعالى .

(١) فى العبرج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

(٢) فى القاموس والمعجم سمورة أى بدون ياء فاعلمها من الناسخ .

الطبقة الثانية

(القياصرة قبل ظهور دين النصرانية فيهم)

قال ابن العميد: لم يزل تديير المشايخ الذين ربّوهم نافذاً فيهم، إلى أن كان آحرهم أغانيوش فدبرهم أربع سنين وتسمى قيصر، وهو أول من تسمى بذلك من ملوكهم، ثم صار سمة لمن بعده . وسيأتي الكلام على معنى هذه اللفظة .

ثم ملك بعده (بولوش قيصر) ثلاث سنين .

ثم ملك بعده (أوغشطش قيصر) بن مونوخس ، وهو وشيوش يسميه (أكتبيان قيصر) وهو الثاني من القياصرة ، وهو الذي سلب ملك كلابطرا آخر ملوك اليونان المقدم ذكرها . وأستولى على مصر والإسكندرية وسائر ممالك اليونان الروم . ويقال : إنه كان آحر قواد الشيخ مدبر رومة ، وإنه توجه بالعساكر لفتح الأندلس ففتحها ثم عاد إلى رومة فلحقها وطرد الشيخ عنها ، ووافقه الناس على ذلك ، ثم قتل نائبه بناحية المشرق وأستولى عليها لثقتي عشرة سنة من ملكه [ولثنتين وأربعين سنة من ملك أغشطش ولد المسيح بعد مولديجي بثلاثة أشهر وذلك] (٢) لتمام خمسة آلاف وخمسةائة سنة شمسية للعالم .

ثم ملك من بعده ابنه (طباريش قيصر) فاستولى على النواحي ، وفي أيامه كان رفع المسيح عليه السلام وأقترأ الحواريين في الآفاق لإقامة الدين وحمل الأمم على عبادة الله تعالى . ومات ثلاث وعشرين سنة من ملكه بعد أن جدّد مدينة طبرية وأشتق اسمها من اسمه .

(١) هنا انتهت القطعة الأزهرية وتوحد الأصل والله المستعان .

(٢) الزيادة من "العبرج ٢ ص ٢٠٠" ليتم الكلام وفيه في بعض أسماء الملوك مغايرة لما في الأصل .

ثم ملك من بعده (غابيش قيصر) وهو الرابع من القياصرة . وقال هر وشيوش :
هو أخو طباريش ، وسماه غابيش قليفة بن أكتيان . قال ابن العميد : ووقعت
في أيامه سنة على النصارى ، وقتل يعقوب أخاه يوحنا من الحواريين ، وحبس
بطرس رأسهم ، ثم وثب عليه بعض قواده فقتله .

وملك من بعده (فلوديش قيصر) وهو الخامس من القياصرة . قال هر وشيوش :
هو ابن طباريش المتقدم ذكره فيكون أخا غابيش ، وعلى عهده كتب متى الحوارى^(١)
إنجيله في بيت المقدس بالعبرانية ، ونقله يوحنا بن زندي إلى الرومية ، وكتب
بطرس رأس الحواريين إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض أكابر الروم ، وهلك
فلوديش قيصر لأربع عشرة سنة من ملكه .

وملك بعده أبنة (نيرون قيصر) وهو السادس من القياصرة ، وكان غشوما فاسقا ،
فأنكر على من أخذ بدين المسيح وقتلهم ، وقتل بطرس وبولس الحواريين ،
وقتل مرقس الإنجيلي : بطرك الإسكندرية لثنتي عشرة سنة من ملكه . وفي أيامه
هدم اليهود كنيسة النصارى بالقدس ، ودفنوا خشبة الصليب بزعمهم في الزباله .
قال هر وشيوش : وقتله جماعة من قواده لأربع عشرة سنة من ملكه ، وأنقطع
ملك آل يوليوش قيصر لمائة وست عشرة سنة من أول ملكهم . قال هر وشيوش :
وكان نيرون قيصر قد وجه قائدا إلى جهة الأندلس فافتتحها وعاد إلى رومة بعد مهلك
نيرون قيصر فملكه الروم عليهم . وكان لنيرون قيصر صهر على أخته يسمى
(يشبشيان) وابن العميد يسميه (إشباشيانس) وكان نيرون قيصر قد وجه لفتح
بيت المقدس ففتحه وعاد فقتل ذلك القائد الذي استولى على المملكة بعد نيرون

(٢) لعل الصواب فيكون ابن أخي غابيش .

قيصر، ومَلِك مكانه، وتسمى قيصر كمن كان قبله وأستقام له الملك، هكذا ذكره هر وشيوش .

والذي ذكره ابن العميد أنه لما هلك نيرون قيصر وإشباشيانس الذي سماه هر وشيوش يشبشيان [محاصرٌ للقدس^(١)] مَلِك الروم عليهم غلياش قيصر، فأقام تسعة أشهر وكان ردىء السيرة فقتله بعضُ خَدَمِهِ .

ثم مَلَّكُوا عَوْضَهُ (أنون) ثلاثة أشهر، ومَلَّكُوا (بطالس) ثمانية أشهر، وسار إليه اشباشيانس الذي يسميه هر وشيوش يشبشيان فقتله ، وهلك اشباشيانس المذكور لتسع سنين من مُلكِهِ .

وملك بعده ابنه (طيطش قيصر) لأربعمئة سنة من مُلك الإسكندر، فأقام فيهم سدين وقيل ثلاثا وقيل أربعا ، وكان حسن السيرة متفنا في العلوم .

ثم ملك بعده أخوه (دومريان قيصر) وقيل أسمه دوسطيانوس ، وقيل دوماطيانوس ، فأقام خمس عشرة سنة ، وقيل ست عشرة سنة ، وقيل تسع سنين ، وهو ابن أخت نيرون قيصر المتقدم ذكره ، وكان ظلوما غاشما فحبس يوحنا الحواري ، وأمر بقتل النصارى ونفيهم ، وقتل اليهود من نسل داود حذار أن يملكوا ، وهلك في حرب الفرنج .

وملك بعده (نربا) ابن أخيه طيطش ، وقيل أسمه تاوداس ، وقيل قارون ، وقيل : برسطوس ، فأقام نحواً من سنتين أو سنةً ونصفاً ، فأحسن السيرة وأمر برد من نبي من النصارى وخلاهم ودينهم ، ولم يكن له ولد .

(١) الزيادة من الدرج ٢ ص ٢٠٢ ليستقيم الكلام .

فَعَهْدَ بِالْمَلِكِ إِلَى (طريانس) من عطاء قواده . وقيل : اسمه أنديانوش ، وقيل
 طرينوس ، فملك بعده وتسمى قيصر ، فأقام تسع عشرة سنة ، ولقى النصرى
 في أيامه شدة وتبع أمتهم بالقتل وأستعبد أمتهم . وفي زمنه كتب يوحنا إنجيله
 برومة في بعض الجزائر ، وهلك طريانس المذكور لتسع عشرة سنة من ولايته .

وملك بعده (أندريانوس) فأقام إحدى وعشرين سنة ^(١) ، وقيل عشرين سنة
 وهو الذى بنى مدينة القدس وسماها إيليا ، وكان شديدا على النصرى وقتل منهم
 خلقا كثيرا ، وأخذ الناس بعبادة الأوثان ، وألزم أهل مصر حفر خليج من النيل
 إلى القلزم فحفروه وأجروا فيه ماء النيل ثم آرتدم بعد ذلك .

ولما جاء الفتح الإسلامى ألزمهم عمرو بن العاص رضى الله عنه حفره فحفروه
 وجرى فيه الماء ثم آرتدم أيضا ، وبقي على ذلك مردوما إلى زماننا . ومات
 أندريانوس لاحتدى وعشرين سنة من ملكه .

فملك بعده ابنه (أنطونيش) وتسمى (قيصر الرحيم) فأقام اثنين وعشرين سنة ،
 وقيل إحدى وعشرين سنة وهلك .

فملك بعده أخوه (أوراليانس) وقيل اسمه أورالش ، وقيل اسمه أنطونيش
 الأصغر ، وأصاب الأرض في زمنه قحط ووباء عظيم ، وأصاب النصرى في أيامه
 شدة عظيمة ، وقتل منهم خلقا كثيرا ، وهلك لتسع عشرة سنة من ملكه .

وملك من بعده ابنه (كودة) ويقال بانقاف بدل الكاف ، فأقام ثلاث عشرة
 سنة ، وقيل ثلث عشرة سنة . وفي عاشر ملكه ظهر « أردشير بن بابك » أول

(١) في الأصل إحدى عشرة والتصحيح من العبرج ٢ ص ٢٠٤ .

ملوك الساسانية من الفُرس . وفي زمنه كان «جالينوس» اليوناني المشهور بالطب ، و«بقراطس» الحكيم ، ومات كمودة المذكور .

فملك بعده (ورمتيلوش قيصر) وقيل اسمه برطنوش ، وقيل اسمه فرطيوخوس ، وقيل برطانوس ، وقيل أليش بن طنحيش فأقام ثلاثة أشهر ، وقيل شهرين ، وقيل سنة ، وقتله بعض قواده .

فملك بعده (يوليانوس قيصر) فأقام شهرين ومات .

فملك بعده (سوريانوس قيصر) وقيل اسمه سورس ، وقيل طباريش ، فأقام تسع عشرة سنة ، وقيل ثمان عشرة ، وقيل ست عشرة ، وقيل ثلاث عشرة ، وقيل ست سنين ، وأشدت على النصراني وقتك فيهم وسار إلى مصر والإسكندرية فقتلهم ، وهدم كنائسهم وشردهم في البلاد ، وهلك .

فملك من بعده (أنطونيش قيصر) وقيل أنطونيش قسطس لخمس وعشرين سنة ونحسبائه لغبسة الإسكندر ، فأقام ست سنين ، وقيل سبع سنين ، وضعف عن مقاومة الفُرس فغلبوا على أكثر مدن الشام ونواحي أرمينية ، وهلك في حروبهم .

فملك بعده (مقرين قيصر) بن مزركة ، وقيل اسمه مقرونيوس ، وقيل مرقيانوس ، فأقام سنة وقتله قواد رومة .

ثم ملك من بعده (أنطونيش) قبل ثلاث سنين ، وقيل أربع سنين ، وفي أول سنة من ملكه بنيت مدينة عمواس^(١) بأرض فلسطين من الشام وملك سابور ابن أردشير مدنا كثيرة من الشام ، ومات .

(١) وقع في البرج ٢ ص ٢٠٦ عمان والصواب ما في الاصل لان عمواس هي التي من أرض فلسطين انظر معجم باقوت .

فلك من بعده (اسكندروس) فأقام ثلاث عشرة سنة ، وقيل عشرين سنة ،
وكانت أمه نصرانيةً ، فكانت النصراني معه في سعة من أمرهم . قال هرودوثوس :
ولعشر من ملكه غزا فارس وقتل سابور بن أردشير ملك الفرس ، وثار عليه أهل
رومة فقتلوه .

وملك بعده (مخشميان) بن لوجيه ، وقيل اسمه تميموس ، فأقام ثلاث سنين
ولقي النصراني منه شدة عظيمة . قال ابن العميد : وفي ثالثة ملكه مات سابور
ابن أردشير ، وهو خلاف ما تقدم من كلام هرودوثوس أنه قتله [اسكندروس]
في العاشرة من ملكه ، وهلك .

فلك بعده (يونوش) وقيل اسمه لوكيوش قيصر ، وقيل بلينايوس ، فأقام
ثلاثة أشهر وقتل .

ثم ملك بعده (غرديانوس قيصر) وقيل اسمه فودينوس ، وقيل فرطانوس
وقيل غرديان بن بلنسيان ، فأقام ست سنين ، وقيل سبع سنين ، وطالت حروبه
مع الفرس ، وقتله أصحابه على نهر الفرات .

وملك بعده (فلنش قيصر) بن أوليان بن أنطونيش ، فأقام سبع سنين ، وقيل
ست سنين ، وقيل تسع سنين ، ودان بدين النصرانية . وهو أول من تنصر من ملوك
الروم ، وقتله قائد من قواده .

وملك ذلك القائد الذي قتله مكانه ، وكان من أولاد الملوك . وأسمه داجية
ابن مخشميان فأقام خمس سنين ، وقيل ستين ، وقيل سنة ، وكان يعبد الأصنام ولقي
النصراني منه شدة ، قيل وفي أيامه كانت قصة أهل الكهف مع ملكهم ، وهلك .

فملك من بعده (غالش قيصر) فأقام سنتين ، وقيل ثلاث سنين ، واستتبع في قتل
النصارى . وكان في أيامه وباءً عظيمًا أقرت منه المدن ، ومات .

فملك بعده (والاربانس) لسبعين وخمسة لثلاثين للإسكندر ، وقيل اسمه غالوش ،
وقيل أقيوس وغاليوش ابنه ، وقيل أورليوس ، وقيل غليوش ، وقيل أدريالانوس ،
فأقام إحدى عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة سنة ، وقيل أربع عشرة سنة ، وقيل
خمس سنين ؛ وكان يعبد الأصنام فلقى النصارى منه شدة عظيمة ، ووقع في أيامه
وباءً عظيمًا فرفع الطلب عن النصارى بسببه . وفي أيامه خرج القوط من بلادهم
وتغلبوا على بلاد مقدونية وبلاد البَط وَاقتلعوها منه ؛ وقتله بعض قواد رومة .

وملك بعده (افلوديوش قيصر) لثلاثين وخمسة للإسكندر ، فأقام سنة
واحدة ، وقيل سنة وتسعة أشهر ، وقيل هو فلوديوش بن بلاريان ولم يكن من بيت
الملك وأقام سنتين ، وقيل ملك [بعده أخوه ^(١)] قتل فأقام سبعة عشر يومًا ، ودفع
القوط عن مقدونية وأرمينية ، وقتله بعض قواده .

ثم ملك (أوريليانس) وقيل اسمه أوراليوس ، وقيل أورينوس ، وقيل أورليوس ،
وقيل أوراليان بن بلنسيان ، فأقام ست سنين ، وقيل خمس سنين ، وأشتد على
النصارى وجدد بناء رومة ؛ وفي سادسة ملكه ولد قسطنطين ، ثم قتل .

وملك بعده (طافيش بن البش) وقيل اسمه طافسيوس ، وقيل طافساس ،
فأقام نحو سنة ، وقيل تسعة أشهر ، وقيل ستة أشهر .

(١) الزيادة عن العبرج ٢ ص ٢٠٨ .

ثم ملك بعده (فروفش قيصر) وقيل اسمه فرويس ، وقيل برويش ، وقيل ولاكيوش ، وقيل ارفيون ، فأقام خمس سنين ، وقيل ست سنين ، وقيل سبع سنين ، وقتله قواد رومة .

ثم ملك بعده (قار يوش قيصر) وقيل اسمه قوروش ، وقيل قاروش لخمسائة وثلثين وتسعين للإسكندر في زمن سابور ذى الأكتاف : أحد ملوك الساسانية من الفرس ، فأقام سنتين ، وقيل ثلاث سنين ، وتغلب على كثير من بلاد الفرس ، وأشتد على النصارى وقتل منهم خلقا كثيرا وهلك في الحرب .

فملك بعده ابنه (مناريان) وقيل لوقته .

ثم ملك من بعده (ديقلاديانوس) لخمسائة وخمس وتسعين سنة للإسكندر ، وقيل اسمه دقلطيانوس ، وقيل غرنيطا ، فأقام إحدى وعشرين سنة ، وقيل عشرين سنة ، وقيل ثمان عشرة ، ولقى النصارى منه شدة وأمر بغلق الكنائس ، وقتل جملة من أعيان النصارى ، وهلك .

فملك بعده ابنه (مقسيمانوس قيصر) فأقام سبع سنين ، وقيل سنة واحدة .

وكان شريكه في الملك (مفطوس) وهو أشد كفرا منه ، ولقى النصارى منهما شدة عظيمة وقتل منهم خلقا كثيرا ، ووقع في كلام هر وشيوش ما يخالف هذا الترتيب ، ولا حاجة بنا إلى ذكره .

الطبقة الثالثة

(القيصرية المنتصرة إلى الفتح الإسلامي)

وكانوا يدينون أولاً يدين الصابئة ، ثم دانوا بدين المجوسية ، ثم بعد ظهور
 الحواريين وتسلطهم عليهم مرة بعد أخرى أخذوا بدين النصرانية . وكان أول من
 أخذ منهم به قسطنطين بن قسطنش بن ولينوش ، وكان قد نرح على مقسيانوس
 قيصر : آخر القياصرة من الطبقة الثانية ، فهزمه ورجع مقسيانوس إلى رومة ، فزاد
 عسكره على الجسر فغرق فيمن غرق ، ودخل قسطنطين رومة وملكها فبسط
 العدل ، ورفع الجور ، وتنصر لثلاثي عشرة سنة من ملكه ، وهدم بيوت الأصنام ،
 وتوجهت أمه (هالانة) ^(١) إلى القدس وأستخرجت خشبة الصليبوت بزعمهم من تحت
 القمامات ، وبنّت مكانها كنيسة قمامة ، وذلك لثلاثمائة وثمان وعشرين سنة من مولد
 المسيح عليه السلام . وفي السنة التاسعة عشرة من ملكه كان مجمع الأساقفة بديقية .
 ولما تنصر قسطنطين ونرح عن دين المجوسية ، خاف من قومه فارتحل من رومة
 إلى مدينة بوزنطية بخددها وزاد فيها وسمّاها القسطنطينية باسمه ، وأقام في الملك
 خمسين سنة : منها بوزنطية ست وعشرون سنة قبل غلبة مقسيانوس ، وأربع وعشرون
 بعد أستيلائه على الروم ، وهلك لستائة وخمسين للإسكندر .

وملك بعده ابنه (قسطنطين الأصغر) بن قسطنطين ، بن قسطنطين ، ^(٢)
 فأقام أربعاً وعشرين سنة ومات .

(١) الذي في تاريخ أبي الفداء أن اسمها "هيلاني" .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ .

فملك بعده ابن عمه (يوليانش) فأقام سنة واحدة، وقيل سنتين، فكان علي غير دين النصرانية: فقتل النصاري وعزّهم عن الكنائس وأطرحهم من الديوان، وشارك قتال الفرس فمات من سهم أصابه، وقيل ضلّ في مفازة فقتله أعداؤه .

وملك بعده (يليان) بن قسطنطين سنة واحدة وهلك .

فملك بعده (بوشانوش) فأقام سنة واحدة، وقيل إنما هو بلنسيان بن قسطنطين، وقيل واليطينوش، وانه ملك ثلثي عشرة سنة أو خمس عشرة سنة ثم هلك بالفالج .

وملك بعده أخوه (واليش) وقيل اسمه وآلآش فأقام أربع سنين، وقيل ثلاث سنين، وقيل سنتين، وقيل إنه كان شريك واليطينوش المتقدم ذكره في المُلأ، ثم خرج علي واليش خارجاً من العرب وقُتل في حربه .

وملك بعده (اغراديانوس قيصر) وهو أخو واليش، ويقال إن ولنطيانس ويقال والنطوش بن واليش كان شريكاً له في الملك فأقام سنة واحدة، وقيل سنتين، وقيل ثلاث سنين، ومات اغراديانوس وابن أخيه في سنة واحدة .

وملك بعدهما (تاوداسيوس) ويقال إنه طودوشوش لستائة وتسعين من ملك الإسكندر، فأقام سبع عشرة سنة، وفي الخامسة عشرة من ملكه ظهر أهل الكهف وأفاقوا من نومهم، فأرسل في طلبهم فوجدهم قد ماتوا فأمر أن تبنى عليهم كنيسة ويُتخذ يوم ظهورهم عيداً . وفي أيامه كان المجمع بقسطنطينية لمائتين وخمسين سنة من [مجمع] نيقية .

ثم ملك (اركاديش) بن تاوداسيوس، فأقام ثلاث عشرة سنة، وولد له ولد سماه طودوشوش، فلما كبر هرب إلى مصر وترهب، وأقام في مغارة في الجبل المقطم ومات، فبنى الملك علي قبره كنيسة وديرا يسمى دير القصير، وهو دير البغل، وهلك .

فملك بعده أبسه (طودوشيش قيصر) الأصغر، فأقام نِثين وأربعين سنة .
 وفي أيامه كان المجمع الثالث للنصارى بمدينة أفسس، وولى أخاه أنوريش على رومة
 وأقسما الملك بينهما، وقيل إن أركاديش بن طودوشوش ولى أخاه أنوريش على
 رومة وأقسما الملك وإنه لما هلك أركاديش استبد أخوه أنوريش قيصر بالملك
 خمس عشرة سنة؛ وإنه لما هلك ملك من بعده طودوشيش المقدم ذكره .

ثم ملك (مرقيان قيصر) ويقال بالكاف بدل القاف، فأقام ست سنين .
 وفي أيامه كان المجمع الرابع بخلقُدونية وأقسم النصارى إلى يعقوبية وملكية،
 ونسطورية . وفي أيامه سكن شمعون الحيس الصومعة بأنطاكية وترهب فيها
 وهو أول من فعل ذلك من النصارى؛ ثم مات مرقيان .

وملك بعده (لاون قيصر) ويعرف بلاون الكبير لسبعماية وسبعين سنة من ملك
 الإسكندر، وقيل اسمه ليون بن شميخلية، وكان ملكاً فأقام ست عشرة سنة ومات .
 وملك بعده (لاون قيصر) ويعرف بلاون الصغير، وكان يعقوبياً فأقام سنة
 واحدة وهلك .

فملك بعده (زينون قيصر) وقيل اسمه سينون بالسین المهمله بدل الزاي، وكان
 يعقوبياً فأقام سبع عشرة سنة وهلك .

فملك بعده (نشطاش قيصر) لثمانمائة وثلاث سنين للإسكندر، فأقام سبعة
 وعشرين سنة، وكان يعقوبياً، وسكن حماة من الشام، وأمر أن تُشاد وتُحصن
 فُبَيْت في سدين؛ وأمر بقتل كل امرأة قارئة كاتبة؛ وهلك .

(١) تقدم أن اسمه "تاوداسيوس" .

فملك بعده (يشطيانش قيصر) لثمانمائة وثلاثين للإسكندر ، وكان ملكاً فأقام تسع سنين ، وقيل سبع سنين ، ويقال إنه كان معه شريك في ملكه يقال له يشطيان ؛ وهلك .

فملك بعده (يشطيناش قيصر) لثمانمائة وأربعين للإسكندر ، وكان ملكاً وهو ابن عم يشطيانش الملك قبله ، وقيل كان شريكه فأقام أربعين سنة ، وقيل ثلاثاً وثلاثين سنة ، وأمر بأن يتخذ عيد الميلاد في الرابع والعشرين من كانون ، والفطاس في ست منه ، وكانا قبل ذلك جميعاً في سادسه ، وكانت كنيسة بيت لحم بالقدس صغيرة فزاد فيها ووسّعها حتى صارت على ما هي عليه الآن . وفي أيامه كان المجمع الخامس للنصارى بالقسطنطينية ؛ وهلك .

فملك بعده (يوشطونش قيصر) لثمانمائة وثمانين سنة للإسكندر في زمن كسرى أنوشروان فأقام ثلاث عشرة سنة ، وقيل إحدى عشرة سنة ؛ وهلك .

فملك بعده (طباريش قيصر) لثمانمائة وثلثين وتسعين للإسكندر ، فأقام ثلاث سنين ، وقيل أربع سنين ؛ وهلك .

فملك بعده (موريكش قيصر) لثمانمائة وخمس وتسعين للإسكندر ، فأقام عشرين سنة ، وكان حسن السيرة ؛ ووثب عليه بعض مماليكه فقتله .

وملك بعده (قوقاص قيصر) قريب موريكش الملك قبله ، وكان هو الذي بعث مملوكه على قتله . وفي أيامه ثار كسرى أبرويز على بلاد الروم ، وملك الشام ومصر ، فأقاما في مملكة الفرس عشر سنين ؛ وحاصر القسطنطينية طلباً لثار موريكش لمصاهرة كانت بينهما ، فثار الروم على قوقاص فقتلته بسبب ما جابهه إليهم من الفتنة .

وملك بعده (هرقل) بن أنطونيش ، وقيل هرقل بن هرقل بن أنطونيش
لستائة وإحدى عشرة من تاريخ المسيح ، ولألف ومائة من بناء رومة ، ولتسعمائة
وثنتين وعشرين سنة للإسكندر ، ولأول سنة من الهجرة ، وقيل لإحدى عشرة
سنة منها ، وقيل لتسع سنين . فارتحل أبريز عن القسطنطينية راجعا إلى بلاده ،
وأقام هرقل في الملك إحدى وثلاثين سنة ونصفا ، وقيل ثنتين وثلاثين سنة ، وثار
على بلاد الفرس نخرها في غيبة كسرى ، وضعفت مملكة الفرس بسبب ذلك ،
وآستولى هرقل على ما كان كسرى آستولى عليه من بلاده : وهو مصر والشام ،
وأعاد بناء ما كان تحرب من الكنائس فيهما ، وكتب إليه النبي صلى الله عليه وسلم
يدعوه للإسلام .

قال المسعودي ، وقيل إن مولد النبي صلى الله عليه وسلم كان في أيام يوشطيانس ،
وإن ملكه كان عشرين سنة . ثم ملك (هرقل بن نوسطيونس) خمس عشرة سنة ،
وإليه تُنسب الدراهم الهرقلية . ثم ملك بعده (مورق بن هرقل) . قال : والمشهور
بين الناس أن الهجرة وأيام الشيخين كان ملك الروم لهرقل . قال : وفي كتب السير
أن الهجرة كانت على عهد قيصر بن مورق ، ثم كان بعده قيصر بن قيصر [أيام أبي بكر
ثم هرقل بن قيصر^(١) أيام عمر ، وعليه كان الفتح وهو المخرج من الشام .

(١) الزيادة من (البرج ٢ ص ٢٢٢) .

الطبقة الرابعة

(ملوك الروم بعد الفتح الإسلامي إلى زماننا)

قد تقدم أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وهاجر وهرقل ملك الروم، وكتب إليه يدعو إلى الإسلام . وبقي هرقل إلى أن أفتح المسلمون الشام في خلافة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه . فلما غلب المسلمون على أكثر بلاد الشام ، خرج إلى الرها ، ثم علا على نسي من الأرض وألقت إلى الشام وقال : ” السلام عليك يا سوريا سلام لا اجتماع بعده ، ولا يعود إليك رومي بعدها إلا خائفاً “ وسار حتى بلغ القسطنطينية فأقام بها ، وأستولى المسلمون على الشام ومصر والإسكندرية وأفريقية والأندلس ، وأستولوا على جزائر البحر الرومي : مثل صقلية ، ودانية ، وميورقة وغيرها مما كان بيد الروم . وأقام في الملك إحدى وثلاثين سنة ، وهلك لإحدى وعشرين سنة من الهجرة .

وملك بعده على الروم بقسطنطينية ابنه (قسطنطين) بن هرقل فأقام ستة أشهر وقتله بعض نساء أبيه .

وملك بعده أخوه (هرقل) بن هرقل ، قدشاهم به الروم فخلعوه وقتلوه . وملكوا عليهم (قسطينو بن قسطنطين) فأقام ست عشرة سنة . وفي أيامه غزا معاوية ابن أبي سفيان بلاد الروم وهو أمير على الشام من قبل عمر بن الخطاب في سنة أربع وعشرين من الهجرة فدمر البلاد وفتح منها مدناً كثيرة ، ثم أغزى عساكر المسلمين إلى قبرص في البحر في سنة سبع وعشرين ، ففتح منها حصونا ، وضرب الجزية على أهلها . ومات قسطينو سنة سبع وثلاثين من الهجرة .

فملك بعده ابنه (يوطيانس) فأقام اثنتي عشرة سنة ، ومات سنة ثمان وأربعين من الهجرة .

(١)

وملك بعده ابنه (لاون) فأقام ثلاث سنين ، ومات سنة خمسين من الهجرة .

فملك بعده (طيباريوس قيصر) فمكث سبع سنين . وفي أيامه غزا يزيد بن معاوية القسطنطينية في عساكر المسلمين وحاصرها مدة ، ثم أفرج عنها واستشهد أبو أيوب الأنصاري في حصارها ودفن في ساحتها ، وقتل طيباريوس المذكور سنة ثمان وخمسين من الهجرة .

وملك بعده (أغسطس قيصر) فدبجه بعض عبيده .

وملك بعده ابنه (إصطفانيوس) في أيام عبد الملك بن مروان ثم خلع .

وملك بعده (لاون) ومات سنة ثمان وسبعين من الهجرة .

وملك بعده (طيباريوس) سبع سنين ، ومات سنة ست وثمانين من الهجرة .

وملك بعده (سوطيانوس) في أيام الوليد بن عبد الملك باني الجامع الأموي

بدمشق .

ثم ملك بعده (تداوس) في سنة إحدى ومائة من الهجرة ، فأقام سنة ونصفا .

ثم ملك بعده (لاون) فأقام أربعاً وعشرين سنة .

وملك بعده ابنه (قسطنطين) . وفي أيامه غزا هشام بن عبد الملك الصائفة

اليسرى من بلاد الروم ، وأخوه سليمان الصائفة اليمنى في سنة ثلاث عشرة ومائة ،

فلقبهم قسطنطين المذكور في جموع الروم فانهزم وأخذ أسيراً ثم أطلق .

(١) كذا في العرب أيضاً الا أنه جعله تاريخاً لوفاة يوطيانس وأسقط لاون من البين .

ثم ملك بعده رجل اسمه (حرجس) من غير بيت الملك فبقي أيام السّفاح ،
والمنصور وأمره مضطرب ثم مات .

وملك بعده (قسطنطين) بن لاون ، وبنى المَدُن وأسكنها أهل أرمينية وغيرهم ،
ثم مات .

وملك بعده ابنه (لاون) وهلك .

فملك بعده (تقفور) وهلك في خلافة الأمين بن الرّشيد .

وملك بعده ابنه (استيراق قيصر) وأقام إلى خلافة المأمون . وفي أيام المأمون
غلب قسطنطين [بن قلفط^(١)] على مملكة الروم ، وطرد ابن تقفور ، هكذا رتبته ابن
العميد . وفي كلام المسعودي ما يخالفه .

قال المسعودي : ثم ملك بعد قسطنطين (نوفيل) أيام المعتصم .

ثم ملك من بعده (ميخائيل) بن نوفيل أيام الواثق ، والمتوكل ، والمتصرم ،
والمستعين .

ثم تنازع الروم وملكو عليهم (نوفيل بن ميخائيل) أيام المعتز ، والمهتدي ، وبعض
أيام المعتمد .

ثم ملك من بعده ابنه (أليون) بن نوفيل [بقية] أيام المعتمد وصَدْرًا من أيام
المعتضد .

ثم ملك من بعده (الإسكندروس) بن أليون ، فتَقَمَّوا سيرته ، فخلَعُوهُ .

وملَّكوا عليهم أخاه [لاوى^(١)] بن أليون ، فأقام [بقية] أيام المعتضد والمكتفي ،
وصدرا من أيام المقتدر ثم هلك .

(١) الزيادة عن "العبرج ٢ ص ٢٢٩ قلا عن المسعودي" لثم الفائدة .

وملك أبنه (قسطنطين) صغيراً ، وقام بتدبير دولته أرمنوس بطريق البحر ، وزوجه أبنته وتسمى بالدمستق ، والدمستق هو الذى يلى شرق الخليج القسطنطيني^١ وأتصل ذلك أيام المقتدر ، والقاهر ، والراضى ، والمتقى . ثم آفترق أمر الروم .

ثم ظاهر كلام ابن الأثير أن أرمنوس المتقدم ذكره صار إليه الملك بعد قسطنطين . قال : وكان الدمستق على عهده قوقاس فملك ملطية من يد المسلمين بالأمان فى سنة ثنتين وعشرين وثلاثمائة ، وولى تقفور دمستقا ، وهلك أرمنوس وترك ولدين صغيرين وكان تقفور الدمستق غائباً ببلاد المسلمين فلما رجع اجتمع إليه زعماء الروم وقدموه لتدبير أمر الصغيرين وألبسوه الساج ، ثم دسّت عليه^(١) أم زوجة أرمنوس أم الصغيرين ، فقتلته فى سنة ستين وثلاثمائة .

وقام أبناها الأكبر وهو (بسيل بن أرمنوس) بتدبير ملكه فطالت مدته ، وأقام فى الملك نيّفاً وسبعين سنة ، وهلك بسيل سنة عشر وأربعمائة .

وملك بعده أخوه (قسطنطين) فأقام تسع سنين ، ثم هلك عن ثلاث بنات .

فملك الروم عليهم الكبرى منهن ، وقام بأمرها ابن خالها (أرمانوس) وتزوجت به فاستولى على مملكة الروم ، ثم مالت زوجته إلى المتحكم فى دولته ، وأسمه ميخائيل فدسّته عليه فقتله وأستولى على الأمر ، ثم أصابه الصرع ودام به .

فعهد لابن أخت له اسمه (ميخائيل) فأحسن السيرة وطلب من زوجة خاله أن تحل نفسها عن الملك فأبّت فنفاها إلى بعض الجزر ، وأستولى على المملكة سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، وأنكر عليه البطرك خلع المرأة فهمم بقتله ، فنادى البطرك

(١) لعل لفظ أم زائد ، أنظر العبر .

في النصرارى بخلعه نخلعوه ، وأستدعى المملكة التي خلعها وأعادها إلى المملك ، ونفت ميخائيل كما نفاها ؛ ثم اتفق البطرک والروم على خلعها فخلعت .

وملكوا عليهم أختها (ندورة) وسملوا ميخائيل فوق الخلف بسبب ذلك ، فأقرعوا بين المترشحين للملك منهم فخرجت على رجل منهم اسمه (قسطنطين) فملكوه عليهم وزوجوه بندورة المملكة في سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ، ثم توفى قسطنطين المذكور سنة ست وأربعين وأربعمائة .

وملك على الروم (أرمانيوس) وذلك لأول دولة السلجوقية ، وخرج لبلاد الإسلام [فزحف إليه ألب أرسلان من أذربيجان فهزمه وحصل في أسره ، ثم فاداه على مال يعطيه وأجروه عليه وعقد معه صلحا]^(١) .

فوشب (ميخائيل) بعده على مملكة الروم . فلما أنطلق من الأسر وعاد إلى قسطنطينية ، دفعه ميخائيل عن الملك ، وألتم لألب أرسلان ما أعقد عليه الصلح . وترهب أرمانيوس وترك الملك . إلى هنا انتهى كلام ابن الأثير .

ثم توالى عليها ملوك الروم واحداً بعد واحد إلى آخر المائة السادسة . وكان ملك القسطنطينية يومئذ قد تزوج أخت الفرئيس ملك القرنجة ، فولد له منها ابن ذكره . ثم وثب بالملك أخوه فسمله وملك مكانه ؛ ولحق الابن بخاله الفرئيس ، فوجده قد جهز الأساطيل لارتجاع بيت المقدس وفيها ثلاثة من ملوك القرنجة وهم كيدقليس : أحد ملوكهم ، وهو أكبرهم ؛ ودوقس البنادقة ، والمركين مقدم الفرئيس . فأمرهم الفرئيس بالحوار على القسطنطينية ليصلحوا بين ابن أخته

(١) الزيادة عن العبرج ٢ ص ١٣١ لينضح المقام .

وبين عمه ملك الروم . فلما وصلوا إلى مرسى القسطنطينية خرج إليهم عمه وحاربهم فهزموه ودخلوا البلد ، وأجلسوا الصبي على سرير الملك ؛ وساء أمرهم في البلد ، وصادروا أهل النعم ، وأخذوا أموال الكائس ، وثقلت وطأتهم على الروم ؛ فعقلوا الصبي وأخرجوهم من البلد ، وأعادوا عم الصبي إلى الملك . ثم هم الفرنج البلد واستباحوها ثمانية أيام حتى أقمرت ، وقتلوا من بها من القسيسين والرهبان والأساقفة ، وخلصوا الصبي ، وأقترع ملوك الفرنج الثلاثة على الملك ، فخرجت القرعة على كيدقليس كبيرهم فلكوه على القسطنطينية وما يجاورها . وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائر البحرية : مثل أقريطش ورودس وغيرها ، وللكين البلاد التي في شرقي الخليج : مثل أرسوا ولارتو في جوار سليمان بن قباچ أرسلان ، فلم يحصل لأحد منهم شيء من ذلك إلا لمن أخذ شرقي الخليج . ثم تغلب على القسطنطينية بطريق من بطارقة الروم شهرته لشكري واسمه (ميخائيل) فدفع عنها الفرنج وملكها وقتل الذي كان ملكا قبله ، وعقد معه الصلح الملك المنصور « قلاوون الصالحى » صاحب مصر والشام ، وتوفي سنة إحدى وثمانين وستمائة .

وملك بعده ابنه (ياندر) وتلقب الدوقس ، وشهرتهم جميعا الشكري ، وبقى بنوه في ملكها إلى الآن . ولم أقف على تفاصيل أخبارهم غير أنه لم يبق بيدهم سوى قسطنطينية وبعض أعمالها المجاورة لها . وقد استولى الفرنج على جهاتها الغربية ، واستولى المسلمون على ما هو شرقي الخليج القسطنطيني وعلى أعمال كثيرة من غربيته إلى ما يقارب خليج البنادقة على ما تقدم بيانه في الكلام على القسم الأول من هذا المقصد ، مع تسلط صاحب السراى ملك تتر الشمال من بنى جنكخان عليه بالبعوث والسرايا قبل ذلك ، حتى إن « القان أزبك » صاحب هذه المملكة قرر عليه إتاوة تُحْمَلُ إليه في كل سنة ليُكف عنه ، كما أشار إليه في « التعريف » في الكلام على

مكاتبة صاحب القُسطنطينية . قال ابن سعيد : ومتمنى حكم اللشكري صاحب القسطنطينية الآن إلى إيشية . قال في "تقويم البلدان" : بالهمزة والياء المشناة التحتية والياء المشناة ونون ثم ياء مشناة تحتيّة ثانية وهاء في الآخر . قال ابن سعيد : وهي غربيّ الخليج القسطنطيني بشمال . قال ابن حوقل : وهي مدينة بها مجمع النصارى بقرب البحر ، وهي دار حكمة اليونان في القديم ، وبها تُحفظ علومهم ، وحكهم .

ولصاحب القسطنطينية المستقر بها مكاتبة تخصه من الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، على ما يأتي بيانه في الكلام على مكاتبات ملوك الكفر في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

المملكة الثانية

(مملكة الألمان)

قال المؤيد صاحب حماة في تاريخه : وهم من أكبر أمم النصارى ، يسكنون في غربيّ القُسطنطينية إلى الشمال ، وملِكهم كثير الجنود . قال : وهو الذي سار إلى الشام في زمن السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» في سنة ست وثمانين وخمسمائة ، فهلك قبل وصوله إلى الشام . وكان قد خرج بمائة ألف مقاتل فسلب الله عليهم الغلاء والوباء فمات أكثرهم في الطريق ، ولما وصل إلى بلاد الأرمن نزل يغتسل في نهر هناك فغرق فيه ، وبقي من عسكره قدر ألف مقاتل لا غير فعادوا إلى بلادهم . ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ .

وقاعدتهم فيما ذكر ابن سعيد (مدينة برشان) . قال في "تقويم البلدان" : بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح السين المعجمة ثم ألف ونون في الآخر . قال : ويقال لها أيضا (برجان) بالجميم وذكروا ابن سعيد : أنه كان بها الأمة المسماة برجان في قديم الزمان فاستولت عليهم الألمانية وأبادوهم حتى لم يبق منهم أحد ، ولم يبق لهم أثر . وهؤلاء البرجان هم الذين كان يقاتلهم قسطنطين ورأى في منامه أعلاما عليها صلبان فتصر .

المملكة الثالثة

(مملكة البنادقة)

وهم طائفة مشهورة من الفرنج ، وبلادهم شرق بلاد (الأندلس) الآتي ذكرهم . وقاعدة مملكتهم (البندقية) . قال في "تقويم البلدان" : بضم الباء الموحدة وسكون النون ثم دال مهملة وقاف ومثناة تحية وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطول اثنتان وثلاثون درجة ، والعرض أربع وأربعون درجة . قال ابن سعيد : وهي على طرف الخليج المعروف بجون البنادقة ، وقد تقدم الكلام عليه عند ذكره في الكلام على بحر الروم . قال : وعمارتها في البحر ، وتخرق المراكب أكثرها ، تتردد بين الدور ، ومركب الإنسان على باب داره ، وليس لهم مكان يتمشون فيه إلا السباط الذي فيه سوق الصرغ ، صنعوه لراحتهم إذا أرادوا التمشي ، وملئهم من أنفسهم يقال له الدوك ، يعني بضم الدال المهملة وسكون الواو وكاف في الآخر . ودنانيرهم أفضل دنانير الفرنجة ، وقد تقدم في الكلام على معاملة الديار المصرية في أول هذه المقالة أن دينارهم

يقال له (دوكات) نسبة الى الدوك الذى هو ملكهم ، وإليها ينسب الجوخ البندقيّ الفائق لكل نوع من الجوخ .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه : وهى قريبة من جنوة فى البر، وبينهما نحو ثمانية أيام . أما فى البحر فيبينهما أمدٌ بعيدٌ أكثر من شهرين ، وذلك أنهم يخرجون إلى بحر الروم فى جهة الشرق ثم يسرون فى بحر الروم إلى جهة الغرب .

قال فى "تقويم البلدان" : ومن أعمال البندقية (جزائر التقربنت) بفتح النون وسكون القاف والراء المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون النون وتاء مثناة فوقية فى الآخر . قال : وكثيرا ما يكمن بين تلك الجزائر شوانى الحرّامية .

ثم قال : وفى شمالىّ هذه الجزائر مملكة (أستيب) بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتيّة وباء موحدة فى الآخر . وفى مملكة أستيب هذه يعمل الأطلس المعدنى .

المملكة الرابعة

(مملكة الجنويين)

وهم طائفة من الفرنج مشهورة أيضا .

وقاعدة مملكتهم (مدينة جنوة) . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الجيم والنون والواو ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدى وثلاثون درجةً ، والعرضُ إحدى وأربعون درجةً وعشرون دقيقةً . قال : وهى على غربىّ جُونٍ عظيمٍ من البحر الرومى ، والبحر فيما بينها وبين

الأندلس يدخل في الشمال . وهي غربي (بلاد البيازنة) . قال الشريف الإدريسي :
 وبها جنات وأودية ، وبها مرسى جيد مأمون ، ومدخله من الغرب . قال
 في "تقويم البلدان" : وعن بعض أهلها أنها في ذيل جبل عظيم ، وهي على حافة
 البحر ، ومينائها عليها سور ، وأنها مدينة كبيرة إلى الغاية ، وفيها أنواع الفواكه ،
 ودور أهلها عظيمة ، كل دار بمنزلة قلعة ، ولذلك آغتنوا عن عمل سور عليها ، ولها
 عيون ماء ، منها شربهم وشرب بساكنيهم . قال المؤيد صاحب حماة في تاريخه :
 ولها بلاد كثيرة .

المملكة الخامسة

(بلاد رومية)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وكسر الميم وفتح الياء المثناة تحت المشددة وهاء
 في الآخر . قال في "تقويم البلدان" : ويقال لها أيضا رومية (يعني بضم الراء وسكون
 الواو وفتح الميم وهاء في الآخر) . وهي مدينة عظيمة واقعة في الإقليم الخامس من
 الأقاليم السبعة قال في "القانون" : حيث الطول خمس وثلاثون درجة وعشرون
 دقيقة ، والعرض أربعون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن سعيد : وهي مدينة
 مشهورة في جنوبي جون البنادقة على جاني نهر يعرف بنهر الصفر .

وقد ذكر «هروشوش» مؤرخ الروم أنها بنيت لأربعة آلاف وخمسمائة سنة
 من أول العالم ، على زمن حرقيا بن احاز رابع عشر ملوك بني إسرائيل . وذكر ابن
 كريون : أنها بنيت في زمن داود عليه السلام ، وبينهما تفاوت كثير في المدة . قال

(١) ضبطها ياقوت بخفيف الياء ونقل عن الأصبهي أنها مثل أنطاكية وأقامة إلى أن قال وهو كثير
 في كلام الروم وبلادهم فانظره ج ٢ ص ٨٦٦ .

في "الروض المعطار": وهي من أعظم المدن وأحفاها . يقال : إنه كان طولها من الشمال إلى الجنوب عشرين ميلا ، وعرضها من الشرق إلى الغرب آثنى عشر ميلا . وقيل : دورها أربعون ميلا ، وقطرها اثنا عشر ميلا ، وارتفاع سورها ثمانية وأربعون ذراعا . وقيل اثنا وسبعون ذراعا ، في عرض آثنى عشر شبرا مبنيا بالحجر ، وهي في سهل من الأرض تُحيط بها الجبال على بُعد ، وبينها وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلا ، ويُشقُّها نهر يتقسم داخلها قسمين ثم يلتقيان آخرها ، وأرضه مفروشة بالنحاس الأصفر مسافة عشرين ميلا ، وفي وسطها صحن في صخرة مرتفعة لم يظفر به عدو قط .

وفي داخلها كنيسة طولها ثلثمائة ذراع وارتفاعها مائتا ذراع ، لها أربعة ابواب من فضة سبكا واحدا ، مسقفة بالنحاس الأصفر المُلصق بالقصدير ، وحيطانها ملبسة بصفايح النحاس ، وبها كنيسة أخرى بها برج طوله في الهواء مائة ذراع ، وعلى رأس ذلك البرج قبة مبنية بالرصاص ، وعلى رأس القبة زُرُور من نحاس إذا أدرك الزيتون أنحشرت إليه الزراير من الأقطار البعيدة ، في منقار كل زُرُور زيتونة وفي رجليه زيتونتان ، فيطرحها على ذلك البرج فيعصر ويؤخذ زيتته ، فيستصبح به في الكنيسة جميع السنة . قال : وأهل رومية أجبن خلق الله تعالى ، ومن سنتهم أنهم لا يدفنون موتاهم ، وإنما يدخلونهم في مغائر ويتركونهم فيها فيستوي هواؤهم ويقع الدباب على الموتى ، ثم يقع على ثمارهم فيفسدها ، ولذلك هم أكثر بلاد الله تعالى طواعين ، حتى إن الطاعون يقع فيها ولا يتعداها إلى غيرها فوق عشرين ميلا ، وجميع أهلها يحلقون لحاهم ، ويرغمون أن كل من لا يحلق لحيمته

(١) لعل الصواب "مناارات" أو "مغاور" فان وزنها مفعلة لا فعالة حتى تجمع هذا الجمع ولم ينه عليها اللغويون في الشواذ .

فليس نصرانياً كاملاً ، زاعمين أن سبب ذلك أن شمعون الصفا والحواريين جاءوهم وهم قوم مساكين ليس مع كل واحد منهم إلا عصا وجراب ، فدعَوْهم إلى النصرانية فلم يُجيبوهم ، وأخذوهم فعدَّبوهم وحلَّقوا رؤوسهم وحلَّاهم . فلما ظهر لهم صدق قولهم وأسوهم بأن فعلوا بأنفسهم مثل ذلك .

ولم تزل رومية هي القاعدة العظمى للروم حتى بنيت القسطنطينية وتحوّل إليها قسطنطين ، وصارت قسطنطينية هي دار ملك الروم على ما تقدّم ذكره في الكلام عليها ، مع بقاء رومية عندهم على رفعة المحلّ وعِظَم الشأن إلى أن غلب عليها الفرنج وأترعوها من أيديهم ، ورفعوا منها قواعدهم وأستولوا على ما وراءها من النواحي والبلدان والجزائر : بجنوة ، والبندقية ، وأفريطش ، ورودس ، وأسترجعوا كثيراً مما كان المسلمون أستولوا عليه من بلاد الروم كغالب الأندلس . ثم حدثت الفتن بينهم وبين الروم بالقسطنطينية ، وعظمت الفتن بينهم ودامت نحواً من مائة سنة «وملك الروم بالقسطنطينية معهم في تناقص» حتى إن رجّار صاحب جزيرة صقلية صار يغزو القسطنطينية بأساطيله ويأخذ ما يجد في مينائها من سفن التجار وشواني المدينة ، وأتتهى أمره أن جرجا بن ميخائيل صاحب أساطيله دخل إلى ميناء القسطنطينية في سنة أربع وأربعين وخمسة ورمي قصر الملك بالسهم ، فكان ذلك أنكى على الروم من كل نكابة . ثم ترايد الحال إلى أن أستولى الفرنج على القسطنطينية نفسها في آخر المائة السادسة ، وأوقعوا بأهلها وقتلوا وحربوا على ما تقدّم بيانه في الكلام على ملوك القسطنطينية . وبالجملة فرومية اليوم من قواعد الفرنج ، وهي مقتر (بابهم) الذي هو خليفة النصارى المملكانية وإليه مرجعهم في التحليل والتحرير .

ولهذا الباب مكتبةٌ تخصُّه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المكتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

*
*

وأما الممالك الصغار فسبعُ ممالك :

الأولى

(مملكة المرأ)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الميم والراء المهملة وألف . وهى مملكة تبتدى من الخليج القُسطنطينيِّ من الغرب على ساحل بحر الروم وتمتد مغرباً [وتشتمل على (١) قطعة من] ساحل بحر الروم وعلى بلادٍ وجبالٍ خارجةٍ عن البحر . قال : وهذه المملكة مناصفةٌ بين صاحب قسطنطينيةٍ وبين جنس من الفرنج يقال لهم (القيتلان) بالقاف والياء الساكنة آخر الحروف والمثناة الفوقية ولام ألف ونون ، ويقال (الكيتلان) بإبدال القاف كافاً، وهذا هو الجارى على ألسنة الناس فى النطق بهم .

الثانية

(بلاد الملفجوط)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الميم وسكون اللام وفتح القاء وضم الجيم وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر . وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به ، وبلادهم من أعمال قُسطنطينيةٍ على ساحل بحر الروم مما يلي مملكة المرأ المقدم ذكرها من جهة الغرب فى مقابلة مشاريق بركة من البر الآخر ، على ما تقدم ذكره فى الكلام على بحر الروم فى أوّل هذه المقالة .

(١) الزيادة من التقويم ص ١٩٨ ليستقيم الكلام .

الثالثة

(بلاد إفليريس)

قال في "تقويم البلدان": بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام والراء المهملة وسكون النون وسين مهملة في الآخر . وهي بلاد على ساحل بحر الروم غربى بلاد المَلَفَجُوطِ المقدم ذكرها وشرقى بلاد الباسليسة الآتى ذكرها ، وهم في مملكة الباسليسة المذكورة .

الرابعة

(مملكة بولوية)

بضم الباء الموحدة وسكون الواو ولام وياء آخر الحروف وهاء . قال : ويقال لها أَبُولِيَّةٌ أيضا يعنى بزيادة همزة في أولها ونون ساكنة بعدها . وهي مملكة على بحر الروم عند فم جَوْنِ البنادقة من غربيه ، في مقابل مملكة الباسليسة من برالجون المذكور من الجهة الشرقية ، وببُولِيَّةِ هذه يُعرف الزيت المعروف بالبولوية . قال في "تقويم البلدان" : وملك بولوية هذه في زماننا يقال له الريدشار .

الخامسة

(بلاد قلفرية)

قال في "تقويم البلدان" : بفتح القاف واللام وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وفتح المثناة تحت وهاء في الآخر . قال : ويقال لها قَلْفُورِيَّةٌ أيضا ببدال الفاء واوا . وهي من جملة بولوية المقسمة الذكر ، واقعة في غربها وشرقى مملكة رومية المتقدمة الذكر ، وقد تقدم في الكلام على بحر الروم أنه يقابلها طرابلس الغرب من البر الآخر .

السادسة

(بلاد التسقان)

قال في "تقويم البلدان" : بضم المثناة الفوقية وسكون السين المهملة وقاف وألف ونون . قال : وهم جنس من الفرج ليس لهم ملكٌ بعينه يحكم عليهم بل لهم أكبرٌ يحكون بينهم ، ثم قال : وبتلك البلاد يكون نباتُ الزعفران ، وقد تقدم في الكلام على البحر الرومي أنه يقابلها مدينة تونس من البر الآخر .

السابعة

(بلاد البيازنة)

بفتح الباء الموحدة والياء المثناة تحت وألف ثم زاي معجمة مكسورة ونون مفتوحة وهاء في الآخر . وهم فرقة من الفرج .
 وقاعدة ملكهم (مدينة بيّزة) . قال في "تقويم البلدان" : بياء موحدة مكسورة وياء آخر الحروف ساكنة وزاي معجمة يعني وهاء في الآخر . قال : وقد تبدل الزاي شينا معجمة . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال : والقياس أنها حيث الطول اثنتان وثلاثون درجة ، والعرض ست وأربعون درجة وسبع وعشرون دقيقة . وقد ذكر في "تقويم البلدان" أنها على الركن الشمالي من بلاد الأندلس في مقابل جزيرة سردانية المقدمة الذكر . وهي غربي بلاد رومية ؛ وليس لهم ملك وإنما مرجعهم إلى الباب : خليفة النصارى ؛ وإلى بيّزة هذه تُنسب الفرج البيازنة والحديد البيزاني . وقد تقدم في الكلام على البحر الرومي أنه يقابلها من البر الآخر مرسى الحرز .

القطر الثاني

(مما غرَّبَ الخَليج القسطنطينيَّ الأرضَ الكبيرةُ)

قال صاحب حماة : وهي أرضٌ متسعةٌ في شماليِّ الأندلس ، بها ألسُنٌ كثيرةٌ مختلفة . وقد ذكر في " التعريف " أنها في شرق الأندلس ، ولا يصح ذلك إلا أن يُريد منها ما هو شرق شمالي الأندلس .

ويتعلق الغرض منها بثلاث ممالك :

المملكة الأولى

(مملكة الفَرَنْجِ القديمة)

وقاعدتها (مدينة فَرَنْجَة) بالفاء والراء المهملة المفتوحين وسكون النون وفتح الجيم وهاء في الآخر، وقد تُبدل الجيم منها سينا مهملة فيقال فَرَنْسَة . ويقال للملكهم ريد إفرنس ، ومعناه ملك إفرنس ، والعاقة تقول الفَرَنْسِيس . وهو الذي قصد ديار مصر وأخذ دِمياطَ وأسرَه المسامون ثم أطلقوه . يشير بذلك إلى قِضية تاريخية ، وهي أن الفَرَنْجِ في سنة خمس عشرة وستمائة وهم مستولون على سواحل الشام يومئذ سار منهم نحو عشرين ملكاً من عكا وقصدوا دِمياطَ في أيام الملك العادل «أبي بكر بن أيوب» رحمه الله ، وسار العادل من مصر إليهم فنزل مقابلهم ، وأقاموا على ذلك أربعة أشهر ، ومات العادل في أثناء ذلك ، وآستقر بعده في الملك ابنه الملك «الكامل محمد» فوقع في عسكره اختلافٌ تشاغل به ، فهجم الفَرَنْجِ دِمياطَ وملكوها عنوة في سنة ست عشرة وستمائة ، وطمَعوا بذلك في ملكة الديار المصرية ، فبنى الملك الكامل بلدةً عند مفرق النيل : الفرقة الذاهبة إلى دِمياطَ ، والفرقة الذاهبة إلى أشموم طَناح ، وسماها (المنصورة) ونزلها بعساكره ، ولم يزل الأمر على ذلك إلى

أن دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة، وقد اشتد طمع الفرنج في الديار المصرية، وتقدموا عن دمياط إلى المنصورة وضايقوا المسلمين إلى أن سألهم الملك الكامل في الصلح على أن يكون لهم القدس، وعسقلان، وطبرية، واللاذقية، وجبله، وسائر ما فتحه السلطان صلاح الدين من سواحل الشام، خلا الكرك والشوبك، فأبوا إلا أن يكون لهم الكرك والشوبك أيضا، وأن يعطوا مع ذلك ثلاثمائة ألف دينار في نظير ما نحر به من سور القدس؛ فأعمل المسلمون حينئذ الحيلة في إرسال قرع من النيل في إبان زيادته، حال بين الفرنج وبين دمياط، أقطع بسببه الميرة عنهم، وأشرفوا على الهلاك؛ وكان آخر أمرهم أن أعرضوا عن جميع ما كانوا سئلوا به من الاماكن المتقدمة الذكر ونزلوا عن دمياط للمسلمين، وتسلمها الملك الكامل منهم؛ ثم عاد إلى مصر وبقيت دمياط بيد المسلمين إلى أن قصدها الفرنسيس في خمسين ألف مقاتل، ومعه الأدفونش صاحب طليطلة في أيام الملك «الصلاح أيوب» بن الكامل محمد، بن العادل أبي بكر، بن أيوب في سنة سبع وأربعين وستمائة، وهجم دمياط وملكها عنوة؛ وسار الملك الصالح فنزل بالمنصورة، وسار الفرنج فنزلوا مقابلته؛ ثم قصدوا دمياط فتبعهم المسلمون وبذلوا فيهم السيف، فقتلوا منهم نحو ثلاثين ألفا، وأسرا الفرنسيس وحبس بالمنصورة بدار الصاحب «نحر الدين إبراهيم بن لقمان» صاحب ديوان الإنشاء، ووكل به الطواشي صبيح «المعظمي» ومات الصالح في أثناء ذلك، وأستقر ابنه الملك المعظم مكانه في الملك؛ ثم قتل عن قريب، وفوض الأمر إلى «شجرة الدر» زوجة الملك الصالح، وقام بتدبير الملكة معها «أبيك التركماني» ثم تسلم المسلمون دمياط من الفرنسيس وأطلقوه فسار إلى بلاده فيمن بقي معه من جماعته . وفي ذلك يقول جمال الدين يحيى بن مطروح الشاعر :

(١)
 قُلْ لِلرَّئِيسِ إِذَا حِثَّهُ * مَقَالَ صَدِيقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوحٍ :
 أَتَيْتَ مِصْرًا تَبَغَى مُلْكُهَا * تَحَسَّبُ أَنْ الرَّمْرَ يَاطِلُ رِيحُ
 وَكُلَّ أَحْصَايَاكَ أودَعْتَهُمْ * بِحُسْنِ تَدْيِيرِكَ بَطْنَ الضَّرِيحِ !
 نَحْسِينِ أَلْقَا لَا تَرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَتِيلٍ أَوْ أُسِيرٍ جَرِيحِ !
 وَفَقَّكَ اللهُ لَأَمْثَالِهَا * لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يُسْتَرِيحُ
 أَحْرَكَ اللهُ عَلَى مَا جَرَى * أَفْنَيْتَ عِبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
 فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَحْضَرُوا عَوْدَةً ، * لِأَخْذِ نَارٍ أَوْ لِقْصَدِ صَبِيحِ !
 دَارُ «أَبْنِ الْقَهَّانِ» عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدِيَّاتِ ، وَالطَّوَاثِي صَبِيحِ !

وقد تعرض في "التعريف" للإشارة لهذه الواقعة في الكلام على مكتبة الأدفونش صاحب طليطلة من الأندلس، وأقتصر من هذه الأبيات على الأول والأخير فقط.

المملكة الثانية

(مملكة الحلالقة)

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه: وهم أمة كالبهايم، يغلب عليهم الجهل والحقاء. ومن زييم أنهم لا يغسلون ثيابهم، بل يتكونها عليهم إلى أن تنبأ، ويدخل أحدهم دار الآخر بغير إذن. قال: وهم أشد من القرنج، ولهم بلاد كثيرة شمالي الأندلس، ونسبتهم إلى مدينة لهم قديمة تسمى حليقية. قال في "اللباب": بكسر الجيم واللام المشددة وبعدها ياء آخر الحروف وقاف. قال في "تقويم البلدان": [ثم ياء ثانية^(٢)] وهاء.

(١) في تاريخ أبي الفداء وخطب المقرئ "قول نصيح وفي ابن إياس فصيح".

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان.

وقاعدتها (مدينة سُمُورَة) بسين مهملة وميم مشددة مضمومة وراء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر . وموقعها في الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ عشرُ درَج ، والعرضُ ستُّ وأربعون درجة . قال في ” اللباب “ : وهى من بلاد الروم المتاخمة للأندلس ؛ وكأنه يريد أنها كانت للروم أولاً . قال في ” تقويم البلدان “ : وعن بعضهم أنها مدينةٌ جليلةٌ معظمةٌ عندهم . قال ابن سعيد : وهى قاعدة جليقية ، أكبر مدُن الفش ، فى جزيرة بين فرعين من نهر يُعرف بها . قال : وكان المسلمون قد ملكوها ثم أسترجعها الجلائقة زمن الفتنه ، ونهرها يُصبُّ فى البحر المحيط الغربى حيثُ الطولُ خمسُ درج وثلاثون دقيقةً من الجزائر الخالدات ، والعرضُ ستُّ وأربعون درجة .

المملكة الثالثة

(مملكة اللُنْبُرْدِيَّة)

قال فى ” تقويم البلدان “ : باللام المشددة المضمومة والنون الساكنة والياء الموحدة المفتوحة والراء المهملة الساكنة والذال المهملة والياء المثناة التحتية والهاء . قال : ويقال لها اللُنْبُرْدِيَّة ، والأُنْبُرْدِيَّة . وموقعها فى أوّل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثلاثون درجةً وسبعٌ وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ ثلاث وأربعون درجة وخمسون دقيقةً . قال فى ” تقويم البلدان “ : وهى ناحية من الأرض الكبيرة ، وبلادها تُحيط بها جبالٌ إلى حدِّ جنوة . قال : ومليكها فى زماننا صاحبُ القُسطنطينية ، ورثها من خاله المركيش .

ثم قال : وعربيّ هذه البلاد (الرِيدْرَاقُون) بكسر الراء المهملة وسكون المشناة التحتية ثم دال مهملة وراء مهملة [وألف^(١)] وقاف مضمومة وواو ونون في الآخر . ومعناه ملك راقون ، وقد تبدّل القاف غينا معجمة . فيقال ريدراغون وهو الموجود في مكاتبات أهل الأندلس وهندهم .

الجهة الثانية

(ماشماليّ مدينة القسطنطينية وبحر نيّطش وما نيّطش إلى نهاية المعمور في الشمال)

ويشتمل على عدّة ممالك وبلاد :

منها (بلاد الحركس) : قال السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه : وهم على بحر نيّطش من شريقه ، وهم في شَطْفٍ من العيش . قال : والغالب عليهم دين النصرانية .

قلت : وقد جلب منهم «الظاهر برقوق» صاحب الديار المصرية من الممالك أيام سلطنته ما يربو على العدد حتى صار منهم معظمُ جند الديار المصرية ، وصار بهم جمال مواكبها ، والمُلك باقٍ فيهم بالديار المصرية إلى الآن .

ومنها (بلاد الآص) : بفتح الهمزة الأولى والثانية وصاد مهملة في الآخر . وهم طائفة ، وبلادهم على بحر نيّطش .

وقاعدتهم (مدينة قرقر) . قال في «تقويم البلدان» : بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية وكسر الراء المهملة في الآخر . وموقعها في الشمال

(١) الزيادة من التقويم .

(٢) تقدّم له ضبطه بمد الهمزة وبالصاد وهو الصواب .

عن الإقليم السابع أو في آخره . قال : والقياس أنها حيث الطولُ خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرضُ خمسون درجة . وهي قلعة عاصيةٌ منيعة في جبل لا يقدر أحد على الطلوع إليه ، وفي وسط الجبل وطاءة تُسَمَّى ^(١) [أهل] تلك البلاد ، وعندها جبل عظيم شاهق يقال له (جاطر طاغ) يظهر لأهل السفن من بحر القرم . وهي في شمالي صاري كرمان على نحو يوم منها .

ومنها (بلاد البرغال) بضم الموحدة وسكون الراء وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام في الآخر . ويقال لهم أولأق أيضا بقاف في الآخر .

وقاعدتهم (مدينة طرنو) . قال في "تقويم البلدان" : بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو في الآخر . وموقعها في الإقليم السابع . قال : والقياس أنها حيث الطولُ ست وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمسون درجة . وهي غربي صقجي على ثلاثة أيام وأهلها كُفَّار . قال بعض المسافرين وهي على خور البرغال .

ومنها (بلاد البلغار والسرب) . وهما طائفتان على بحر نيطش .

فأما البلغار فبضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهملة . قال المؤيد صاحب حماة في تاريخه : وهم منسوبون إلى المدينة التي يسكنونها . وقد سماها في كتابه "تقويم البلدان" بلار بضم الباء وفتح اللام وألف وراء مهملة في الآخر . ثم قال : ويقال لها بالعربية (بلغار) .

وأما السرب فيفتح السين وسكون الراء المهملتين وباء موحدة في الآخر . وهم في مملكة صاحب البلغار . وقاعدة ملكهم مدينة بلغار المذكورة ، وموقعها في الشمال

(١) يياض بالاصول والتصحيح عن تقويم البلدان .

عن الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيث الطول ثمانون درجة ، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وهي بلدة في نهاية العجارة الشمالية قريبة من شط إبل من الجانب الشمالي الشرقي ، وهي وصراى في بر واحد ، وبينهما فوق عشرين مرحلة ، وهي في وطاعة ، والجبل عنها أقل من يوم ، وبها ثلاث حمامات ، ولا يكون بها شيء من الفواكه ولا أشجار الفواكه من العنب وغيره لشدة بردها ، وبها الفجل الأسود في غاية الكبر . قال المؤيد صاحب حماة : وحكى لي بعض أهلها أنّ في أول فصل الصيف لا يغيب الشفق عنها ويكون ليها في غاية القصر . ثم قال : وهذا الذي حكاه صحيح موافق لما يظهر بالأعمال الفلكية ، لأن من عرض ثمانية وأربعين ونصف^(١) يتبدى [عدم] غيبوبة الشفق في أول فصل الصيف ، وعرضها أكثر من ذلك ، فصح ذلك على كل تقدير .

وقد حكى في "مسالك الأبصار" عن حسن الرومي عن مسعود الموقت بها : أنّ أفصر ليها أربع ساعات ونصف تحريرا ، وأنهم جربوه بالآلات الرصدية فوجدوه كذلك . قال صاحب حماة في تاريخه : وكان الغالب عليهم النصرانية ثم أسلم منهم جماعة . وذكر في "تقويم البلدان" أنّ أهلها مسلمون حنيفة . وذكر المسعودي في "مروج الذهب" أنّه كان بالسرب والبغار دأرا إسلام من قديم . قال في "مسالك الأبصار" : أما الآن فقد تبدلت بإيمانها كُفرا ، وتداولها طائفة من عباد الصليب ، ووصلت منهم رُسُل إلى صاحب مصر سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة بكتاب من صاحب السرب والبغار ، يعرض نفسه على موادته ويسأله سيفا يتقلده ، وسنجقا يقهر أعداءه به ، فأكرم رسوله ، وأحسن نُزله ، وجهّزه معه خلعاً كاملة :

(١) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام .

طَرْدَ وَحَشَ بِقَصَبِ بَسَنْجَابٍ مُقَدَّسٍ ، عَلَى مَفْرَجِ إِسْكَندَرِي ، وَكَلْوَتِهِ زَرْكَشَ ،
وَشَاشَ بَطْرَفَيْنِ رَقْمَ ، وَمِنْطَقَةَ ذَهَبَ ، وَكَلَالِيْبَ كَذَلِكَ ، وَسَيْفِ مَحَلِّيٍّ ، وَسَنْجَقِ
سُلْطَانِيٍّ أَصْفَرٍ مُدْهَبٍ . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَجَهْزَلُهُ أَيْضًا الْخَيْلَ الْمُسْرَحَةَ الْمَلْجَمَةَ .
وَرَبَّمَا أَنَّهُ يُظْهِرُ لِصَاحِبِ السَّرَايِ الْإِتْقِيَادَ وَالطَّاعَةَ . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" :
وَذَلِكَ لِعِظْمَةِ سُلْطَانِهِ عَلَيْهِمْ ، وَأَخَذَهُ بِخِنَاقِهِمْ لِقَرْبِهِمْ مِنْهُ .

ولصاحب السَّرب والبُلغار مكتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .
ومنها (بلاد أفنكون) بألف وفاء وتاء مثناة ثم كاف وواو ونون . وهي بلاد
تلي بلاد البُلغار في جهة الشمال .

وقاعدتهم مدينة تسمى (قَصَبَةُ أَفْنَكُونِ) . والقَصَبَةُ فِي مَصْطَلَحِهِمُ الْمَدِينَةُ الصَّغِيرَةُ .
قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَبَيْنَهَا وَبَيْنَ الْبُلْغَارِ مَسَافَةٌ عَشْرِينَ يَوْمًا بِالسَّيْرِ الْمَعْتَادِ .
وَحَكِيَ عَنِ مَسْعُودِ الْمَوْقُتِ بِالْبُلْغَارِ أَنَّهُ حَرَّرَ لَيْلَهَا فَوَجَدَ أَقْصَرَ لَيْلَهَا ثَلَاثَ سَاعَاتٍ
وَنَصْفَ ، أَقْصَرَ مِنْ لَيْلِ الْبُلْغَارِ بِسَاعَةٍ وَاحِدَةٍ .

ومنها (بلاد الصَّقَالِيَّةِ) بفتح الصاد المهملة والقاف وألف وكسر اللام وفتح الباء
الموحدة وهاء في الآخر . ويقال لبعض بلادها بلاد سبراوير . وهي تلي بلاد أفنكون
في جهة الشمال . قَالَ فِي "مَسَالِكِ الْأَبْصَارِ" : وَهِيَ بِلَادٌ شَدِيدَةُ الْبَرْدِ ، لَا يَفَارِقُهَا
الثلجُ مَدَّةَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ لَا يَزَالُ يَسْقُطُ عَلَى جِبَالِهِمْ وَيُبُوتِهِمْ ، وَلِهَذَا تَقَلُّ الْمَوَاشِي عِنْدَهُمْ .
وَحَكِيَ عَنِ الْفَاضِلِ شِجَاعِ الدِّينِ : عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْخَوَارِزْمِيُّ التَّرْجَمَانُ أَنَّ مِنْهَا يُجَلَّبُ
السَّمُورُ وَالسَّنْجَابُ . ثُمَّ قَالَ : وَلَيْسَ بَعْدَهُمْ فِي الْعِبَارَةِ شَيْءٌ . وَذَكَرَ أَنَّهُ جَاءَ جَدُّهُ
فُتَيْيَا مِنْ بَعْضِ أَهْلِهَا يُسْأَلُ فِيهَا كَيْفَ تَكُونُ صَلَاةُ أَهْلِ بِلَدٍ لَا يَغِيْبُ عِنْدَهُمُ الشَّفِيقُ

حتى يطلع الصبح ؟ لسرعة انقضاء الليل وهذا ظاهر في أن هذه البلاد مسلمون أو فيهم المسلمون .

ومنها (بلاد جُولْمَان) بجيم وواو ولام ثم ميم وألف ونون . وهي تلي بلاد سبراوير المقدمة الذكر في جهة الشمال . وهي على مثل حال بلاد سبراوير في شدة البرد وكثرة الثلج وأشد من ذلك . قال في "مسالك الأبصار" قال حسن الرومي : وهؤلاء هم سُكَّان قلب الشَّمال ، والواصل إليهم من الناس قليل ، والأقوات عندهم قليلة حتى يحكى عنهم أن الإنسان منهم يجمع عظام أي حيوان كان ، ثم يغلي عليه بقدر كفايته ثم يتركها ، وبعد سبع مرات لا يبقى فيها شيء من الودك . قال : وهم مع ضيق العيش ليس في اجناس الرقيق أنعم من أجسامهم ، ولا أحسن من بياضهم ؛ وصورتهم تامة الخلق في حُسن وبياض ونعومة عجيبة ، ولكنهم زُرُق العيون . وإذا سافر المسافر من جُولْمَان إلى جهة الشرق ، وصل إلى مدينة قَرَأُوم قاعدة القان الكبير القديمة . قال : وهي من بلاد الصين ، وإذا سافر منها إلى جهة الغرب وصل إلى بلاد الرُّوس ، ثم إلى بلاد الفَرَنْج .

ومنها (بلاد الرُّوس) بضم الراء المهملة وسكون الواو وسين مهملة في الآخر . قال في "مسالك الابصار" : وهي بلاد واغلة في الشمال ، في غربي بلاد جُولْمَان المقدمة الذكر . قال صاحب حماة في تاريخه : ولهم جزائر أيضا في بحر نيطس .

ومنها (بلاد الباشقرد) . قال صاحب حماة في تاريخه : وهم أمة كبيرة ما بين بلاد الباب وبلاد قرنجة . قال : وغالبهم نصارى وفيهم مسلمون ، وهم شرسو الأخلاق . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مُصَابِقَة لبلاد جُولْمَان . ثم قال : وفي باشقرد قاضي مسلم معتبر .

ومنها (بلاد البرجان) بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وألف ونون، وقد تبدل الجيم شينا . قال صاحب حماة في تاريخه : وهم أم كثيرة طاغية قد فشا فيهم التثليث . قال : وبلادهم واغلة في الشمال ، وأخبارهم وسير ملوكهم منقطعة عنا لبعدهم وجفاء طباعهم . وقد تقدم أن البرجان غلب على مكاثرهم الألبانية ، فيحتمل أنهم هؤلاء ، ويحتمل أنهم طائفة أخرى منهم غير هؤلاء .

ومنها (بلاد بجمخ) بباء موحدة وميم ثم خاء معجمة . قال في "مسالك الأبصار" : وهي بلاد مشتركة بين بلاد الروس والفرنج .

ومنها (بلاد بوغزة) بباء موحدة ثم واو وغين وزاي ثم هاء في الآخر . قال في "مسالك الأبصار" : قال الشيخ علاء الدين بن النعمان الخوارزمي : وهي بلاد في أقصى الشمال ، وليس بعدها عمارة غير برج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المنارة العالية ، ليس وراءه مذهب إلا الظلمات ؛ وهي صحار وجبال لا يفارقها الثلج والبرد ، ولا تطلع عليها الشمس ، ولا ينبت فيها نبات ، ولا يعيش فيها حيوان أصلا ، متصلة ببحر أسود لا يزال يمتطر والغيم متعقد عليه ، ولا تطلع عليه الشمس أبدا . قال ابن النعمان : ويقال إن الإسكندر مرَّ بأطراف أوائل جبال الظلمات الغربية من العارة فرأى فيه أناسا من جنس الترك أشبه شيء بالوحوش لا يعرف أحد بلغتهم ، وإذا أمسكهم أحد فرؤوا من يده ، يأكلون من نبات الجبال المجاورة لهم فإذا أفضطوا أكل بعضهم بعضا ؛ فتر بهم ولم يعترضهم .

وأعلم أنه قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ علاء الدين بن النعمان أن التجار المترددين إلى بلاد الديار المصرية لا يتعدون في سفرهم بلاد البلغار ، ثم يرجعون من هناك ؛ ثم تجار بلغار يسافرون منها إلى بلاد جولان ، وتجار جولان

يسافرون إلى بلاد بُوغزَة التي ليس بعدها عمارة . وقد ذكر في "تقويم البلدان" أن شمالي بلاد الروس مما هو متصل بالبحر المحيط الشمالي قوماً يبايعون مغايبَةً . وذكر عن بعض من سافر إلى تلك البلاد أنه إذا وصل التجَّار إلى سُخومهم ، أقاموا حتى يعلموا بهم ، ثم يتقدمون إلى مكانٍ معروفٍ عندهم بالبيع والشراء ، فيضع كلُّ تاجر بضاعته ، ويعلمها بعلامة ، ثم يرجعون إلى منازلهم ، ثم يحضرون أولئك القوم ويضعون مقابل تلك البضائع السمور ، والوشق ، والثعلب ، وما شاكل ذلك ، ويدعونهم ويمضون ، ثم يحضرون التجَّار من العَدِ فَنُ أعجبه ذلك أخذه وإلا تركه ، حتى يتفصلوا على الرضا . وقد تقدّم ذكر مثل ذلك عن قوم بالهند وعن قوم ببلاد السودان في الكلام على مملكة مالي .

قلت : وقد تقدّم في الكلام على مملكة خوارزم والتبجاق من مملكة التورانيين في القسم الثاني منها أن الجركس والروس والآص أهلُ مَدُنٍ عامرةٍ آهلةٍ ، وجبال مشجرةٍ مُثمرةٍ ؛ ينبت عندهم الزرع ، ويدُرُّ الضرع ، وتجري الأنهار ، ويُحَنَّى الثمار ، ولا طاقة لهم بسطان تلك البلاد . وإن كان فيهم مالوك فهم كالرعايا لصاحب السراى إن داروه بالطاعة والتَّحَفِ والطُّرفِ كَفَّ عنهم وإلاشَّنَّ عليهم الغارات وضايقتهم وحاصرتهم .

المقالة الثالثة

(في ذكر أمورٍ تشترك فيها أنواعُ المكاتبات ، والولايات ، وغيرهما من الأسماء ، والكنى ، والألقاب ، ومقادير قطع الورق ، وما يناسب كلِّ مقدار منها من الأقلام ، ومقادير البياض في أول الدرّج وحاشيته ، ومقدار بُعد ما بين السطّور في الكتابات ، وبيان المستندات التي يصدرُ عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء بهذه المملكة : من مكاتبات ، وولايات ، وكتابة الملتخصات ، وكيفية تعيين صاحب الدّيوان لها ، وبيان القوّاتح ، والحيّواتم . وفيه أربعة أبواب) .

الباب الأول

(في الأسماء والكنى والألقاب ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(في الأسماء والكنى ، وفيه طرفان)

الطّرف الأوّل

(في الأسماء)

والأسمُ عند النّحاة مادّلٌ على مسمّى دلالة إشارة ، واشتقاقه من السّمة وهى العلامةُ لأنّه يصير علامةً على المسمّى يميزه عن غيره ؛ أو من السّموّ لأنّ الأسم يعلّو المسمّى باعتبار وضعه عليه .

ثم المراد هنا بالأسم أحد أقسام العلم : وهو ما ليس بكنية ولا لقب ؛ وفيه جملتان :

الجملة الأولى

(في أصل التسمية والمقصود منها، وتنويع الأسماء،
وما يستحسن منها، وما يستقبح)

أما أصل التسمية فهي لا تخرج عن أمرين :

أحدهما أن يكون الأسم مُرْتَجَلًا: بأن يَضَعَهُ الوَاضِعُ عَلَى المِسمَى أَبْتداءً، كَأَدَدِ اسمِ رَجُلٍ، وَسُمَادِ اسمِ أَمْرَأَةٍ، فَإِنِهما لَيْسا بِمِسموقين بِالوَضْعِ عَلَى غَيْرِهما . وَالرَّجوعُ فِي مَعْرِفَةِ ذَلِكَ إِلَى النُّقْلِ وَالإِسْتِقْرَاءِ .

وَالثَّانِي أن يَكُونَ الأسم مَتَقُولًا عَن مَعْنَى آخَرَ، كَأَسَدٍ إِذَا سُمِّيَ بِهِ الرَّجُلُ نَقْلًا عَن الحَيوانِ المَقْتَرِسِ ، وَزَيْدٍ إِذَا سُمِّيَ بِهِ نَقْلًا عَن مَعْنَى الزِّيادَةِ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ . وَهَذَا هُوَ أَكْثَرُ الأَسْماءِ الأَعْلَامِ وَقَوَعًا، وَالرَّجوعُ فِي مَعْرِفَتِهِ إِلَى النُّقْلِ وَالإِسْتِقْرَاءِ أَيضًا كما تَقَدَّمَ فِي المَرْتَجَلِ .



وَأما المَقْصودُ مِنَ التَّسْمِيَةِ ، فمِتميزِ المِسمَى عَن غَيْرِهِ بالأسمِ المَوْضوعِ عَلَيْهِ لِيَتَعَرَّفَ .



وَأما تَنويعِ الأَسْماءِ ، فَيُخْتَلَفُ بِإِختلافِ المِسمَى وَمَا يَدُورُ فِي خِزائِنِ خِيالِهِمْ مِمَّا يَأْلُقُونَهُ وَيُحَاوِرُونَهُ وَيُخَالِطُونَهُ .

فالعرب - أَكْثَرُ أَسْمائِهِم مَنقُولَةٌ عَمَّا لَدَيْهِمْ مِمَّا يَدُورُ فِي خِزائِنِ خِيالِهِمْ إِمَّا مِنْ أَسْماءِ الحَيوانِ كَبَكْرٍ: وَهُوَ وُلْدُ الناقَةِ ، وَأَسَدٍ: وَهُوَ الحَيوانِ المَقْتَرِسُ المَعروفُ ، وَإِمَّا مِنْ

أسماء النبات كحَنْظَلَةٌ : وهو اسم لواحدة الحَنْظَل الذي هو النبات المعروف من نبات البادية ، وطَلْحَةٌ : وهو اسم لشجرة من شجر الغضى ، وعَوْسَجَةٌ : وهو اسم لشجرة من شجر البادية . وإما من أجزاء الأرض كحَزْنٌ : وهو الغليظ من الأرض ، وصَخْرٌ : وهو الصلد من الحجارة . وإما من أسماء الزمان كريبيع : وهو أحد فصول السنة الأربعة . وإما من أسماء النجوم كسماك : اسم لنتيم معروف . وإما من أسماء الفاعلين : كحارث فاعل من الحرث ، وهمام فاعل من همَّ أن يفعل كذا ، إلى غير ذلك من المنقولات التي لا تحصى .

وكان من عادتهم أن يختاروا لأبنائهم من الأسماء ما فيه البأس والشدة ونحو ذلك : كحمارب ، ومقاتل ، ومزاحم ، ومدافع ونحو ذلك ، ولمواليهم ما فيه معنى التفاؤل : كفلاح ، ونجاح ، وسالم ، ومبارك ، وما أشبهها ، ويقولون : أسماء أبنائنا لأعدائنا ، وأسماء موالينا لنا ، وذلك أن الإنسان أكثر ما يدعو في ليله ونهاره مواليه للاستخدام دون أبنائه فإنه إنما يحتاج إليهم في وقت القتال ونحوه .

والترك ... راعوا في أسماءهم ما يدل على الجمادة والقوة مما يألفونه ويحاورونه ، وغالب ما يسمون باسم بعا ، ومعناه بلغتهم الفحل : إما مفردا كما تقدم وهو قليل ، وإما موصوفاً بحيوان من الحيوانات ، مقدمين الصفة على الموصوف على قاعدة لغتهم في ذلك ، كطينغا بمعنى فحلٍ مٌهرٍ . وإما بمعدي من المعادن : كالطينغا بمعنى فحلٍ ذهبٍ ، وكشبنغا بمعنى فحلٍ فضيةٍ ، وتمر بعا بمعنى فحلٍ حديدٍ . وربما أبدل اسم الفحل باسم الحديد ، وأسمه بلغتهم دُسر كبي دُسر بمعنى أمسير حديد ، وطي دُسر بمعنى مهر حديد . وربما أفردوا الاسم بالوصف كدُسر بمعنى حديد ، وأرسلان بمعنى أسد ، وتُسكز بمعنى بحر ، ونحو ذلك إلى غير ذلك من المفردات والمرجبات التي لا يأخذها

حصر . وكذلك كلُّ أمة من أمم الأعاجم تُراعى في التسمية ما يدور في خزّانة خيالها
ما يخاطونه ويُجاورونه .

وأما الأمم المتديّنة فإنهم راعوا في أسمائهم التسمية بأسماء أنبيائهم وصحّابهم .

فالمسلمون — تسمّوا باسمي النبيّ صلى الله عليه وسلم الواردين في القرآن
وهما "مجد" و"أحمد" ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم ، تسمّوا باسمي . وكذلك
تسمّوا باسم غيره من الأنبياء عليهم السلام : إما بكثرة : كإبراهيم ، وموسى ،
هارون ، وإما بقلة : كآدم ، ونوح ، ولوط . وأخذوا بوافر حظ من أسماء
الصّحابة رضوان الله عليهم : كأبي بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وحسن ، وحسين ،
وما أشبه ذلك .

والنصارى — تسمّوا باسم عيسى وغيره من الانبياء عليهم السلام ممن يعتقدون
نبوّته : كإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، وموسى ، وكذلك أسماء
الحواريين : كبطرس ، ويوحنا ، وتوما ، ومثي ، ولوقا ، وسمعان ، وبرتلوما ،
وأندراوس ، ونحوها : كمرقص ، وبولص ، وغيرهما .

واليهود — تسمّوا باسم موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين يعتقدون
نبوّتهم : كإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، ويوسف ، ولم يتسمّوا باسم عيسى
عليه السلام لإنكارهم نبوّته .



وأما ما يستحسن من الأسماء فما وردت الشريعة بالنّدى إلى التسمية به : كاسماء
الأنبياء عليهم السلام ، وعبد الله ، وعبد الرحمن ، ففي سنن أبي داود والترمذي من

رواية أبي وهب الجشمي "أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تَسَمَّوْا بِأَسْمَاءِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَحِبُّوا الْأَسْمَاءَ إِلَى اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ، وَأَصْدُقُهَا حَارِثٌ، وَهَمَّامٌ، وَأَفْجَحُهَا حَرْبٌ، وَمُرَّةٌ» .



وأما ما يُسْتَقْبَحُ فما وردت الشريعة بالنهاى عنه: إما لكرَاهَةِ لَفْظِهِ كحَرْبٍ وَمُرَّةٍ، وإما للتطير به كَرَبَاحٍ، وَأَفْلَحٍ، وَنَيْجِحٍ، وَرَافِعٍ، وَنَحْوَهَا . ففى صحيح مسلم وغيره النهى عن التسمية بمثل ذلك معللاً بأنك تقول: أَيْمٌ هُوَ؟ فيقال لا، وإما لعظمية فيه: كالتسمية بشاهنشاه، ومعناه بالفارسية ملك الأملاك . ففى الصحيحين من رواية أبي هريرة أنه أُخْنِعَ أَسْمٌ . وقد ورد فى جامع الترمذى من حديث عائشة رضى الله عنها، «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يُغَيِّرُ الْأِسْمَ الْقَبِيحَ» .

الجملة الثانية

(فى مواضع ذكر الأسماء فى المكاتبات والولايات)

أما المكاتبات ، فالأسماء التى تذكر فيها على أربعة أنواع :

النوع الأول

(اسم المكتوب عنه)

وذكره إنما يقع فى المكاتبات فى موضع الخُضُوع والتواضع ، إذ من شأن المكتوب عنه ذلك ؛ وله محلان :

المحل الأول — فى نفس المكتوبة وذلك فيما إذا كانت المكتوبة بصورة « من فلان إلى فلان » كما كان يُكْتَبُ عن النبي صلى الله عليه وسلم : من محمد رسول الله إلى

فلانٍ ، وكما كان يُكْتَب عن الخلفاء : من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلانٍ ،
وكما يُكْتَب الآن في المكاتبات السلطانية إلى ملوك المغرب ، وما يكتب عنهم إلى
الأبواب السلطانية ونحو ذلك .

المحل الثاني — العلامه في المكاتبات كما يكتب الملوك فلان ، أو أخوه فلان ،
أو شاركه فلان ، أو فلان فقط ، ونحو ذلك على اختلاف المراتب الآتية على ماسياتي
الكلام عليه إن شاء الله تعالى .

النوع الثاني

(أسم المكتوب إليه ، وله محلان)

المحل الأول — ابتداء المكتوبة كما يُكْتَب في بعض المكاتبات « من فلان إلى
فلان ، أو إلى فلان من فلان » ونحو ذلك ؛ وكما يكتب في مكاتبات القانات ، فلان
خان ؛ وكما يذكر أسم ملوك الكفر في مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية ونحو ذلك .
وفيا عدا ذلك من المكاتبات المصدرة بالتقيل والدعاء وغيرهما من المصطلح عليه
في زماننا وما قاربه لا يُصْرَح باسم المكتوب إليه غالبا تعظيما له عن التفوه بذكوره ،
إذ ترك التصريح بالأسم دليلُ التعظيم والتوقير والتبجيل ، بخلاف الكنية واللقب ،
فإنهما يصدد التعظيم لللقب أو المكنى على ماسياتي بيانه فيما بعد إن شاء الله تعالى
ولذلك لم يخاطب الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز باسمه تشريفا
لمقامه ، ورفع له ، فلم يقل يا محمد ويا أحمد كما قال يا آدم ، يا نوح ، يا إبراهيم ،
يا موسى ، يا عيسى . بل قال ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ . يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ وقد صرح أصحابنا
الشافعية وغيرهم أنه لا يجوز نداءه صلى الله عليه وسلم باسمه احتجاجا بالآية الكريمة .

وفي كتاب ابن السنيّ عن أبي هريرة رضي الله عنه « أن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رأى رجلاً معه غُلامٌ فقال للغلام : مَنْ هذا؟ - قال أبي - قال : فلا تَمْشِ أَمَامَهُ وَلَا تَسْتَسِبِّ لَهُ ، وَلَا تَجْلِسْ قَبْلَهُ ، وَلَا تَدْعُهُ بِاسْمِهِ . »

المحل الثاني - العُنوان من الأدنى إلى الأعلى . كما يكتب في عُنوان بعض المكاتبات « مُطالعةُ المملوك فلان » على ماسيائي في الكلام على العُنوان . وإذا كان من تعظيم المخاطب أن لا يُخاطب باسمه فكذلك في مكاتباته : لأن المكاتبه الصادرة إلى الشخص قائمةٌ مقامَ خطابه ، بل المكاتبه أجدرُ بالتعظيم لأصطلاحهم في القديم والحديث على ذلك .

النوع الثالث

(اسم المكتوب بسببه)

وهو مما لا يُقَصُّ فيه بسبب ذكره ، إذ لا بُدَّ من التصريح باسمه ليُعرف ، اللهم إلا أن يَشْتَهَرَ حتى تَغْنِيَ شهرته عن ذكر اسمه ، وله محلان :

المحل الأول - في الطزرة بأن يقال « هذا ماعهد به فلان » إما الخليفة في عهده بالخلافة أو السلطنة ، أو السلطان في عهده بالسلطنة على ماسيائي بيانه . وفي معنى ذلك البيعات بأن يقال « مبايعةُ شريفة لفلان » ونحو ذلك .

المحل الثاني - صدر الولاية حيث يقال : هذا ماعهد عبد الله ووليّه فلان ، أو من عبد الله ووليّه فلان ، ونحو ذلك على اختلاف المذاهب في الابتداء على ماسيائي .

النوع الرابع

(أسم من تصدر إليه الولاية، وله محلان)

المحل الأول — في الطرة إمامي العهود حيث يقال : هذا ماعهد فلان إلى فلان .
 وإما في التقاليد والتواقيع والمراسيم، حيث يقال : أن يفوض إلى فلان، أو أن
 يستقر فلان، أو أن يرتب فلان .

المحل الثاني — أثناء الولاية حيث يقال : أن يفوض إلى فلان، أو أن يستقر
 فلان، أو أن يرتب فلان، على نظير ما في الطرة، أما المولى عليه فقل أن يذكر كما
 في التحدث على شخص معين ونحوه .

الطرف الثاني

(في الكنى)

والكنية عند النحاة أحد أقسام العلم أيضا، والمراد بها ما صدر باب أو أم، مثل
 أبي القاسم، وأم كلثوم وما أشبه ذلك . وقد كان للعرب بالكنى أتم العناية، حتى
 إنهم كانوا جملة من الحيوان بكنى مختلفة : فكانوا الأسد بأبي الحارث، والثعلب
 بأبي الحصين، والدبك بأبي سليمان، وكانوا الضبع بأب عامر، والدجاجة بأب حفصة،
 والجرادة بأب عوف ونحو ذلك . وفيه ثلاث جمل :

الجملة الأولى

(في جواز الكنية، وهي على نوعين)

النوع الأول

(كُنَى المسلمین)

قال الشيخ محي الدين النووي رحمه الله في كتابه "الأذكار": وجواز التكني أشهر من أن نذكر فيه شيئاً منقولاً، فإن دلائله يشترك فيها الخواص والعوام . قال: والأدب أن يُخاطب أهل الفضل ومن قاربهم بالكنية، وكذلك إن كتب إليه رسالة، أو روى عنه رواية . فيقال: حدثنا الشيخ أو الإمام أبو فلان فلان بن فلان وما أشبهه .

وأعلم أن الأولين أكثر ما كانوا يعظمون بعضهم بعضاً في المخاطبات ونحوها بالكُنَى، ويرون ذلك في غاية الرِّفعة ونهاية التعظيم حتى في الخلفاء والملوك: فيقال: أبو فلان فلان، وبالغوا في ذلك حتى كنوا من أسمه في الأصل كنية فقالوا في أبي بكر «أبو المناقب» اعتناءً بشأن الكنية، وربما وقف الأمر في الزمن القديم في تكنية خاصة الخليفة وأمرائه على ما يكنيه به الخليفة، فيكون له في الرِّفعة منتهى ينتهي إليه، ثم رجع أمرهم بعد ذلك إلى التعظيم بالألقاب. على أن التعظيم بالكُنَى باقٍ في الخلفاء والملوك فمن دونهم إلى الآن على ما استقف عليه في مواضعه إن شاء الله تعالى، وكذلك القضاة والعلماء، بخلاف الأمراء والحُجُج والحُكَّام، فإنه لإعناية لهم بالكُنَى .

ثم لافرق في جواز التكني بين الرجال والنساء، فقد كانت «عائشة» أم المؤمنين رضی الله عنها تكني «بأم عبد الله» وكذلك غيرها من نساء الصحابة والتابعين كان هن كُنِّي يكتنن بها .

النوع الثاني

(كُنِّي أهل الكُفْر والفسقة والمبتدعين)

قال الترمذي: والكافر والفاسق والمبتدع إن كان لا يُعرف إلا بالكُنية جاز تَكْنِيته . قال تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وأسمه عبد العزى، قيل: إنه ذكر تَكْنِيته لكونه كان لا يُعرف إلا بها، وقيل: كراهةً لأسمه حيث جعل عبداً للصنم؛ وقد تكرر في الحديث ذكر أبي طالب بكنيته، وأسمه عبد مناف . وفي الصحيح أنه صلى الله عليه وسلم «لمّا مرّ بأرض الحجر من الشام، قال هذا قبر أبي رغال» لعاقرة الناقة من قوم بمؤد . قال: وكذلك إذا خيف من ذكره باسمه فتنه، كما ثبت في الصحيحين «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار ليعود سعد بن عبادة رضی الله عنه، فمتر في طريقه على عبد الله بن أبي ابن سلول المنافق، وما كان من بدآته على النبي صلى الله عليه وسلم حين مرّ عليه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم سار حتى دخل على سعد بن عبادة - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ألم تسمع إلى ما قال أبو حباب؟ (يريد عبد الله بن أبي ابن سلول) قال كذا وكذا . وذكر الحديث . قال: فإن كان يُعرف بغير الكُنية ولم تُخف فتنه لم يُرد على الاسم كما ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب «من محمد عبد الله ورسوله إلى

هَرَقَل « فسمّاه باسمه ولم يكنه ولا لقبه بمالك الروم . قال : ونظائر هذا كثيرة ، وقد أمرنا بالإغلاظ عليهم ، ولا يدبني لنا أن نكنّهم ، ولا نرفق بهم ، ولا نلين لهم قولاً ، ولا نظهر لهم ودّاً ولا مؤالفة .

الجملة الثانية

(فيما يُكنى به ، وهو على نوعين)

النوع الأول

(كُنّي الرجال ، ولها حالان)

الحال الأول — أن يكون للرجل ولدٌ أو أولادٌ . قال النووي : فإن كان له ولدٌ يُكنى به ، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الولد ذكراً أو أنثى ، فيجوز تكنية الرجل بأبي فلانة كما يجوز بأبي فلان . فقد تكنى جماعة من أفاضل السلف من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم بأبي فلانة ، فمن الصحابة أبو ليلى : والد عبد الرحمن بن أبي ليلى ، وأبو فاطمة الليثي ، وأبو مريم الأزدي ، وأبو ربيعة تميم الداري ، وأبو زرعة المقداد بن معدى كرب . ومن التابعين أبو عائشة مسروق بن الأجدع وخلائق لا يحصون . وإن كان له أولادٌ يُكنى بأكبرهم : فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يُكنى بأبي القاسم ، وكان القاسم أكبر بيده .

وفي سنن أبي داود والنسائي عن شريح الحارثي أنه وقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قومه فسمعهم يُكنونه بأبي الحكم ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله هو الحكم وإليه الحكم ! فلم تكني أبا الحكم ؟ — فقال : إن قومي

اختلفوا في شيء فَأَتَوْنِي فَخَمَتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسنَ هذا ! فما لك من الولدِ؟ - قال : شَرِيحٌ ، ومسلمٌ ، وعبدُ الله - قال : فمن أكبرهم؟ - قال - شَرِيحٌ - قال : فأنت أبو شَرِيحٍ «

فلو تكني بغير أولاده فلا بأس به قاله النووي . ثم قال : وهذا الباب واسع لا يحصى من يتنصف به .

وقد اختلف في جواز التكني بأبي القاسم : فنص الشافعي رضي الله عنه على أنه لا يجوز التكني بذلك مطلقاً، لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال «تسموا بأسمي ولا تكتنوا بكنتي» . وذهب ذاهبون إلى تخصيص ذلك بحياته صلى الله عليه وسلم احتجاجاً بأن المنع فيه كان لعلّة : وهي أن اليهود كانوا يُنادون يابأ القاسم ! فإذا التفت النبي صلى الله عليه وسلم قالوا : لم نَعْنِكَ ، قصداً لإيذائه صلى الله عليه وسلم وقد زالت هذه العلة بوفاة صلى الله عليه وسلم ، واختاره النووي من أصحابنا الشافعية . وذهب آخرون إلى تخصيص المنع بما إذا جمع لواحد بين الأسم والكنية ، بأن يتسمى محمداً ويتكنى بأبي القاسم ، بخلاف ما إذا لم يكن اسمه محمداً فإنه يجوز ، وهو وجه قوي .

الحال الثاني - أن لا يكون للرجل ولدٌ بأن لم يولد له ولدٌ أصلاً ، قال النووي : فيجوز تكنيته حتى الصَّغِيرِ . ففي الصحيحين عن انس بن مالك رضي الله عنه قال : « كان النبي صلى الله عليه وسلم أحسنَ الناس خُلُقاً ، وكان لي أخ يُقال له أبو عميرٍ (قال الراوي) : أَحْسَبُهُ فَطِيماً ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء يقول يا أبا عميرٍ ، ما فعل النُّغَيْرِ؟ لَنُغَيْرِ كان يَلْعَبُ به » . قال النووي : وكان من الصحابة رضوان الله عليهم جماعاتٌ لهم كُنْيٌ قبل ان يُولدَ لهم ،

كأبي هريرة وخلائق لا يُحصون من التابعين فمن بعدهم . قال : ولا إكراهة فيه بل هو محبوب بشرطه .

وأعلم أن الرجل قد يكون له كُنيتان فأكثر ، فقد كان لأمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه ثلاث كُنَى : أبو عمرو ، وأبو عبد الله ، وأبو ليلى .

النوع الثانى

(كُنَى النساء)

والحلال فيه أنه إن كان للمرأة ولدت تكنت به ذكرا أو أنثى ، كما تقدم في الرجل . وإن كان لها أولاد تكنت بأكبرهم مع جواز الكنية بغير أولادها كما في الرجل أيضا . قال النووي : ويجوز تكتيتها ولو لم يولد لها ، ففي سنن أبي داود وغيره بأسانيد صحيحة عن عائشة رضى الله عنها قالت : « يارسول الله كل صواحي هن كنى ، قال : فاكنتى بابنك عبد الله - يعنى عبد الله بن الزبير ، وهو ابن أختها أسماء ، وكانت عائشة رضى الله عنها تكنى أم عبد الله » قال : هذا هو الصحيح المعروف . وما رواه ابن السني عن عائشة أنها قالت « أسقطت من النبي صلى الله عليه وسلم سقطا فسماه عبد الله » فحديث ضعيف . ثم كما تجوز تكنية الرجل بأبي فلانة ، يجوز تكنية المرأة بأُم فلانة من باب أولى .

الجملة الثالثة

(في التكني في المكاتبات والولايات)

فأما الكنية في المكاتبات فعلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول

(بتكني المكتوب عنه)

قال محمد بن عمر المدايني في كتاب " القلم والدواة " : أول من آكنتي في كُتبه « الوليد بن عبد الملك » . قال النووي في " الأذكار " : والأدب أن لا يدكر الرجل كنيته في كتابه ولا في غيره إلا أن لا يعرف إلا بكنيته ، أو كانت الكنية أشهر من اسمه . وقال أبو جعفر النحاس : إذا كانت الكنية أشهر ، يكتفى على نظيره ويسمى لمن فوقه ثم يَأْحَقُ « المعروف أبا فلان ، أو بأبي فلان » .

ثم الكنية من المكتوب عنه قد تكون في صدر الكتاب كما يكتب عن الخلفاء « من عبد الله ووليّه أبي فلان فلان أمير المؤمنين » أو في موضع العلامة كما يكتب في الطغرة من السلطان للملك الكُفْر بعد سِيّاقَةِ ألقاب السلطان « أبو فلان فلان » أو في العُنوان كما كان يكتب في المصطلح القديم « من أبي فلان فلان إلى فلان » .

النوع الثاني

(تَكْنِيَةُ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ)

وبه كان الاعتناء في الزمن المتقدم لاسيما إذا كان المكتوب إليه ممن يستحق التعظيم بالتكنية . وكنية المكتوب إليه تارة^(١) تكون في عنوان الكتاب كما يكتب « إلى أبي فلان فلان » وتارة تكون في صدر الكتاب كما كان يكتب « من فلان إلى أبي فلان فلان » .

النوع الثالث

(تَكْنِيَةُ الْمَكْتُوبِ بِسَبَبِهِ)

وهي تارة تذكر في طرة الكتاب فيقال فيمن قصد تعظيمه « بما قصده أبو فلان فلان » وأستعماله قليل . وتارة تذكر في أثناء الكتاب حيث يجري ذكره .



وأما الكنية في الولايات فلها محلان :

أحدهما - في طرة الولاية، حيث يقال : « عهد شريف [لأبي فلان^(٢)] فلان » أو « تقليد شريف بأن يفوض إلى [أبي فلان^(٢)] فلان » .

والثاني - في أثناء الولايات حيث يجري ذكره على ما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى .

(١) في الأصل عنه ، وهو غير مناسب ، والتصحيح عن الضوء للؤلؤف .

(٢) الزيادة عن الضوء .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الثالثة

(في الألقاب ، وفيه طرفان)

الطَّرَفُ الأوَّل

(في أصول الألقاب ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في معنى اللَّقْبِ والنَّعْتِ ، وما يجوز منه ويمتنع)

أما اللقب فأصله في اللغة النَّبْرُ - بفتح الباء . قال ابن حاجب النعمان في "ذخيرة الكُتَّاب" : والنَّبْرُ ما يَخاطِبُ به الرجلُ الرجلَ من ذكر عيوبه وما ستره عنده أحبُّ إليه من كَشْفِهِ ، وليس من باب الشَّمِّ والقَدْفِ .



وأما النعتُ فأصله في اللغة الصِّفَةُ . يقال : نعتَه ينعتهُ نعتًا إذا وصفه . قال في "ذخيرة الكُتَّاب" : وهو مُتَّفِقٌ على أنه ما يختاره الرجل ويؤثره ويزيد في إجلاله ونباهته ، بخلاف اللَّقْبِ . قال : لكن العامةُ استعملت اللَّقْبَ في موضع النعت الحسن ، وأوقعوه موقِعَه لكثرة استعمالهم إياه ، حتى وقع الاتفاق والأصطلاحُ على استعماله في التشريف والإجلال والتعظيم والزيادة في النِّبَاهَةِ والتَّكْرِمَةِ .

قلت : والتحقيق في ذلك أن اللَّقْبَ والنعت يُستعملان في المدح والذم جميعاً : فمن الألقاب والنعوت ما هو صفةٌ مدحٍ ومنها ما هو صفةٌ ذمٌّ . وقد عرفت النجاة اللَّقْبَ بأنه ما أدى إلى مَسَدَحٍ أو ذمٍّ ؛ فالموذَى إلى المدح كأمير المؤمنين ،

وَزَيْنِ الْعَابِدِينَ ؛ وَالْمُؤَدَّى إِلَى الدَّمِّ كَانْفِ النَّاقَةِ وَسَعِيدِ كُرْزٍ وَمَا اشْبَهَ ذَلِكَ .
 وَالنَّعْتُ تَارَةً يَكُونُ صِفَةً مَدْحٍ ، وَتَارَةً يَكُونُ صِفَةً ذَمٍّ ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُرَادَ هُنَا
 مِنَ اللَّقَبِ وَالنَّعْتِ مَا أُدْىِيَ إِلَى الْمَدْحِ دُونَ الدَّمِّ . وَقَدْ أَصْطَلَحَ الْكُتَّابُ عَلَى أَنْ يَسْمُوا
 صِفَاتِ الْمَدْحِ الَّتِي يُورَدُونَهَا فِي صُدُورِ الْمَكَاتِبَاتِ وَنَحْوِهَا بِصِيغَةِ الْإِفْرَادِ كَالْأَمِيرِ
 وَالْأَمِيرِيِّ وَالْأَجَلِّ وَالْأَجَلِّيِّ وَالْكَبِيرِ وَالْكَبِيرِيِّ وَنَحْوِ ذَلِكَ أَلْفَابًا ؛ وَصِفَاتِ الْمَدْحِ
 الَّتِي يُورَدُونَهَا عَلَى صُورَةِ التَّرْكِيبِ كَسَيْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَظَهِيرِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ
 وَنَحْوِ ذَلِكَ نَعْوَتًا ؛ وَلَا مَعْنَى لِلتَّخْصِيسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْأَسْمِ الَّذِي سَمَّوْهُ بِهِ إِلَّا مَجْرَدُ
 الْأَصْطِلَاحِ ؛ وَلَا نِزَاعَ فِي إِطْلَاقِ اللَّقَبِ وَالنَّعْتِ عَلَيْهِمَا بِاعْتِبَارَيْنِ : فَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا
 صِفَاتٌ مُؤَدِّيَةٌ إِلَى الْمَدْحِ يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَسْمُ اللَّقَبِ ، وَمِنْ حَيْثُ إِنَّهَا صِفَاتٌ لِدَوَائِ
 قَائِمَةٌ بِهَا يُطْلَقُ عَلَيْهَا أَسْمُ النَّعْتِ .



وَأَمَّا مَا يَجُوزُ مِنْ ذَلِكَ وَيَمْتَنِعُ ، فَالْجَائِزُ مِنْهُ مَا أُدْىِيَ إِلَى الْمَدْحِ مِمَّا يَجِبُ صَاحِبَهُ
 وَيُؤْتِرُهُ ، بَلْ رَجْمًا أَسْتَحَبَّ ، كَمَا صَرَحَ بِهِ النَّوَوِيُّ فِي « الْأَذْكَارِ » لِلِإِطْبَاقِ عَلَى اسْتِعْمَالِهِ
 قَدِيمًا وَحَدِيثًا . وَالْمَمْتَنِعُ مِنْهُ مَا أُدْىِيَ إِلَى الدَّمِّ وَالتَّقْيِصَةِ مِمَّا يَكْرَهُهُ الْإِنْسَانُ وَلَا يُجِبُّ
 نَسَبَتَهُ إِلَيْهِ . قَالَ النَّوَوِيُّ : وَهُوَ حَرَامٌ بِالِاتِّفَاقِ ، سِوَاءَ كَانَ صِفَةً لَهُ : كَالْأَعْمَشِ ،
 وَالْأَجْلَحِ ، وَالْأَعْمَى ، وَالْأَحْوَلِ ، وَالْأَبْرَصِ ، وَالْأَشْبَجِ ، وَالْأَصْفَرِ ، وَالْأَحْدَبِ ،
 وَالْأَصْمَ ، وَالْأَزْرَقِ ، وَالْأَشْتَرِ ، وَالْأَثْرَمِ ، وَالْأَقْطَعِ ، وَالزَّمِنِ ، وَالْمُقْعَدِ ، وَالْأَشْلَ ،
 وَمَا اشْبَهَ ذَلِكَ . أَوْ كَانَ صِفَةً لِأَبِيهِ : كَابْنِ الْأَعْمَى ، أَوْ لِأُمِّهِ : كَابْنِ الصُّورَاءِ وَنَحْوِ
 ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُهُ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْألقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْمُسْتَوْقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ﴾

قال: وأنفقوا على جواز ذكره بذلك على جهة التعريف لمن لا يعرفه إلا بذلك؛ ودلائل ذكره كثيرة مشهورة، وهو أحد المواضع التي تجوز فيها الغيبة.

المجلة الثانية

(في أصل وضع الألقاب والتعوت المؤدية إلى المدح)

وأعلم أن ألقاب المدح وتعوته لم تزل واقعة على أشرف الناس وجلة الخلق في القديم والحديث؛ فقد ثبت تلقيب إبراهيم عليه السلام بـ«الخليل» وتلقيب موسى عليه السلام بـ«الكليم» وتلقيب عيسى عليه السلام بـ«المسيح» وتلقيب يونس عليه السلام بـ«ذي النون» وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلقب قبل البعثة بـ«الأمين» ووردت التواريخ بذكر ألقاب جماعة من العرب في الجاهلية: كذي يزن، وذو المنار، وذو نواس، وذو رعين، وذو جدن، وغيرهم مما هو مشهور شائع. وكذلك وقعت ألقاب المدح على كثير من عظماء الإسلام وأشرفه كالصحابه رضوان الله عليهم فمن بعدهم من الخلفاء والوزراء وغيرهم: فكان لقب أبي بكر «عتيقاً» ثم لقب بـ«الصديق» بعد ذلك، ولقب عمر «الفاروق» ولقب عثمان «ذا النورين» ولقب علي «حيدرة» ولقب حمزة بن عبدالمطلب «أسد الله» ولقب خالد بن الوليد «سيف الله» ولقب عمرو بن عمرو «ذا الدين» ولقب مالك بن النيران الأنصاري «ذا السيفين» ولقب خزيمه بن ثابت الأنصاري «ذا الشهادتين» ولقب جعفر بن أبي طالب بعد استشهاده «ذا الجناحين».

وأما الخلفاء، فخلفاء بني أمية لم يتلقب أحد منهم، فلما صارت الخلافة إلى بني العباس وأخذت البيعة لإبراهيم بن محمد، لقب بـ«الإمام» ثم تلقب من بعده من

(١) في كتب اللغة والحديث أن اسمه الحرياق فلعل فيه خلافاً.

خلفائهم : فتلقب محمد بن علي بـ «السفاح» لكثرة مسفح من دماء بني أمية .
وأختلف في لقبه بالخلافة : فقيل «القائم» وقيل «المهتدي» وقيل «المرتضى»
وألقب الخلفاء بعده وإلى زماننا معروفة مشهورة على ما مر ذكره في المقالة الثانية .
وعلى ذلك كانت ألقاب خلفاء بني أمية بالأندلس إلى حين انقراضهم على ما هو
مذكور في مكاتبة صاحب الأندلس ، على ما سيأتي في المكتبات في المقالة الرابعة
إن شاء الله تعالى .

ثم تعدت ألقاب الخلافة إلى كثير من ملوك الغرب بعد ذلك ، وتلا الخلفاء
في الألقاب الوزراء لاستقبال الدولة العباسية وما بعد ذلك : فتلقب أبو سلمة خللاً
وزير السفاح بـ «وزير آل محمد» ولقب المهدي وزيره يعقوب بن داود بن طهمان
«الأخ في الله» ولقب المأمون الفضل بن سهل حين استوزره «ذا الكفايتين»
ولقب أخاه الحسن بن سهل «ذا الرباستين» ولقب المعتمد على الله وزيره صاعد
أبن مخلد «ذا وزارتين» إشارة إلى وزارة المعتمد والموفق ، وكان لقب إسماعيل
أبن بلبل الشكور «الناصر لدين الله» كألقاب الخلفاء .

وكذلك وقع التلقب لجماعة من أرباب السيوف وقواد الجيوش : فتلقب
أبو مسلم الخراساني صاحب الدعوة بـ «أمير آل محمد» . وقيل «سيف آل محمد»
وتلقب أبو الطيب طاهر بن الحسين بـ «بذى اليمينين» ولقب المعتصم بالله حيدر
أبن كاوس بـ «الأفشين» لأنه أشروسني ، والأفشين لقب على الملك بأشروسنة
ولقب إسحاق بن كيداح أيام المعتمد بـ «بذى السيفين» ولقب مؤنس في أيام
المقتدر بـ «المظفر» ولقب سلامة أخو مجح أيام القاهر بـ «المؤمن» ولقب أبو بكر
أبن محمد بن طغج^(١) الراضي بالله بـ «الأخشيدي» والأخشيدي لقب على الملك بفرغانة .

(١) معنى طغج عبد الرحمن كما في ابن خلكان .

ثم وقع التلقب بالإضافة إلى الدولة في أيام المكشفي بالله : فَلَقَّبَ الْمَكْشِفِيَّ^(١)
 أَبَا الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ « وَوَلَّى الدَّوْلَةَ » ، وهو أوَّل من لُقِّبَ بالإضافة
 إلى الدولة ، وَلَقَّبَ الْمُقْتَدِرُ بِاللَّهِ عَلَى بْنِ أَبِي الْحُسَيْنِ الْمُتَقَدِّمُ ذَكَرَهُ «عَمِيدُ الدَّوْلَةِ» .
 ووافقت الدولة البويهية أيام المُطِيعِ اللَّهِ وَالْأَمْرُ جَارٍ عَلَى التلقب بالإضافة للدولة ،
 فَانْفَتَحَتْ ألقاب المُلُوكِ بالإضافة إلى الدولة ، فكان أوَّل من لُقِّبَ بذلك من المُلُوكِ
 بُنُو بُوَيْهِ السَّلَاطَةِ : فَلُقِّبَ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ بُوَيْهِ بِ«عِمَادِ الدَّوْلَةِ» وَلُقِّبَ أَخُوهُ
 أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بِ«رُكْنِ الدَّوْلَةِ» وَأَخُوهُمَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بِ«مُعَزِّ الدَّوْلَةِ» ثُمَّ وَافَى
 «عَضُدُ الدَّوْلَةِ» مِنْ بَعْدِهِمْ فَاقْتَرَحَ أَنْ يَلْقَبَ بِ«تَاجِ الدَّوْلَةِ» فَلَمْ يُجِبْ إِلَيْهِ وَعُدِلَ
 بِهِ إِلَى «عَضُدِ الدَّوْلَةِ» ؛ فَلَمَّا بَدَلَ نَفْسَهُ لِلْعَاوَنَةِ عَلَى الْأَتْرَاقِ ، اخْتَارَهُ أَبُو إِسْحَاقَ
 الصَّابِي صَاحِبُ دِيْوَانِ الْإِنشَاءِ «تَاجِ الْمِلَّةِ» مُضَافًا إِلَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ ؛ فَكَانَ يُقَالُ
 «عَضُدُ الدَّوْلَةِ وَتَاجُ الْمِلَّةِ» وَلُقِّبَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْحَسَنُ بْنُ حَمْدَانَ أَيَّامَ الْمُتَّقِيِّ لِلَّهِ
 «نَاصِرِ الدَّوْلَةِ» وَلُقِّبَ أَخُوهُ أَبُو الْحَسَنِ عَلِيُّ بْنُ حَمْدَانَ «سَيْفِ الدَّوْلَةِ» .

وَبَقِيَ الْأَمْرُ عَلَى التلقب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر بالله فَانْفَتَحَ التلقبُ
 بِالْإِضَافَةِ إِلَى الدِّينِ . وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ لُقِّبَ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِ أَبُو نَصْرِ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ بْنُ
 عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، زَيْدٌ عَلَى لِقْبِهِ بَهَاءِ الدَّوْلَةِ «نِظَامُ الدِّينِ» فَكَانَ يُقَالُ
 «بَهَاءُ الدَّوْلَةِ وَنِظَامُ الدِّينِ» قَالَ ابْنُ حَاجِبِ النِّعْمَانِ : ثُمَّ تَزَايَدَ التلقبُ بِهِ وَأَفْرَطَ ،
 حَتَّى دَخَلَ فِيهِ الْكُتَّابُ وَالْحُنَّادُ وَالْأَعْرَابُ وَالْأَكْرَادُ ، وَسَائِرُ مَنْ طَلَبَ وَأَرَادَ ،
 وَكَرِهَ (؟) حَتَّى صَارَ لِقَبًا عَلَى الْأَصْلِ . وَلَا شَكَّ أَنَّهُ فِي زَمَانِنَا قَدْ خَرَجَ عَنِ الْحَدِّ

(١) لم يذكر في الضوء لفظ الاب في المحلين .

حتى تعاطاه أهل الأسواق ومن في معناهم ، ولم تصر به مينةً لكبير على صغير ،
حتى قال قائلهم :

طَلَعَ الدِّينُ مُسْتَغِيثًا إِلَى اللَّهِ * وَقَالَ : الْعِبَادُ قَدْ ظَلَمُونِي !
يَتَسَمَّونَ بِي ، وَحَقَّكَ لَا أَعْرِفُ مِنْهُمْ شَخْصًا وَلَا يَعْرِفُونِي !

أما الديار المصرية فكان جريمهم في الألقاب على ما يتبرى إليهم خبره من ألقاب
الدولة العباسية ببغداد ، فنلقب خلفاء الفاطميين بها بنحو ألقاب خلفاء بني العباس
ببغداد ، فكان لقب أول خلفائهم بها « المعز لدين الله » وثانيهم بها « العزيز بالله »
وعلى ذلك إلى أن كان لقب آخرهم « العاضد لدين الله » على ما تقدم في المقالة الثانية
في الكلام على ملوك الديار المصرية .

وتلقب وزراؤهم وكُتِّبَهم بالإضافة إلى الدولة ؛ ومن لقب بذلك في دولتهم
« ولي الدولة » بن أبي كدينة وزير المستنصر ، وأيضا « ولي الدولة » بن خيران
كاتب الإنشاء المشهور . ولما صارت الوزارة لبدر الجمالي تلقب بـ « أمير الجيوش » .
ثم تلقب الوزراء بعده بنحو « الأفضل » و « المأمون » . ثم تلقبوا بالملك القلاني ،
كـ « الملك الأفضل » و « الملك الصالح » ونحو ذلك على ما سيأتي بيانه إن شاء
الله تعالى .

وكان الكُتَّاب في أواخر الدولة الفاطمية إلى أثناء الدولة الأيوبية يلقبون
بـ « الفاضل » و « الرشيد » و « العماد » وما أشبه ذلك ؛ ثم دخلوا في عموم التلقب
بالإضافة إلى الدين ، وأختص التلقب بالإضافة إلى الدولة كولي الدولة بكُتَّاب
النصارى ، والأمر على ذلك إلى الآن .

الطرف الثاني.

(في بيان معاني الألقاب ، وفيه تسعٌ جميل)

الجملة الأولى

(في الألقاب الخاصة بأرباب الوظائف المعترية التي بها أنتظامُ أمور

المملكة وقوامها ؛ وهي قسمان)

القسم الأول

(الألقاب الإسلامية ؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(الألقاب القديمة المتداولة الحُكم إلى زماننا ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ألقاب أرباب السيوف ، وهي سبعة ألقاب)

الأول — الخليفة . وهو لقبٌ على الزعيم الأعظم القائم بأمور الأمة ؛ وقد اختلف في معناه ، فقيل : إنه فعيلٌ بمعنى مفعول ، كجرح بمعنى مجروح ، وقَتيلٌ بمعنى مقتول ويكون المعنى أنه يخلفه من بعده ، وعليه حمل قوله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ على قول من قال : إن آدم عليه السلام أول من عمر الأرض وخلفه بنوه من بعده . وقيل : فعيلٌ بمعنى فاعل ، ويكون المراد أنه يخلف من بعده ، وعليه حمل الآية من قال إنه كان قبله في الأرض الخنثى^(١) وإنه خلفهم فيها ، واختاره النحاس

(١) كذا في الضوء أيضا وفي نسخة أخرى والأظهر من قبله .

في "صناعة الكتاب" : وعليه اقتصر البغوي في "شرح السنة" ، والماوردي في "الأحكام السلطانية" . قال النحاس : وعليه خُوطب أبو بكر الصديق رضي الله عنه بخليفة رسول الله .

وقد أجازوا أن يُقال في الخليفة « خليفة رسول الله » لأنه خلفه في أمته . وأختلفوا هل يجوز أن يُقال فيه خليفة الله : فجوز بعضهم ذلك لقيامه بحقوقه في خلقه محتجين بقوله تعالى : (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ) وامتنع جمهور الفقهاء من ذلك محتجين بأنه إنما يَسْتَخْلَفُ من يَغيب أو يموت والله تعالى باقٍ موجود إلى الأبد لا يَغيب ولا يموت . ويؤيد ما نقل عن الجمهور بما روى أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه : يا خليفة الله - فقال : لَسْتُ بِخَلِيفَةِ اللَّهِ وَلَكِنِّي خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ، وقال رجل لعمر بن عبد العزيز : يا خليفة الله - فقال : وَيَلِك ! لقد تناولتُ متناولاً بعيداً ! إِنَّ أُمَّي سَمَّيْتَنِي عَمْرًا ، فلو دعوتني بهذا الاسم قِلتُ ، ثم كبرتُ فكنيتُ بأبَحْفِصٍ ، فلو دعوتني به قِلتُ ؛ ثم ولَّيْتُمُونِي أُمُورَكُمْ فَسَمَّيْتُمُونِي أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، فلو دعوتني به كفاك . وخصَّ البغوي جواز إطلاق ذلك بآدم وداود عليهما السلام ، محتجاً بقوله تعالى في حق آدم : (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) وقوله في حق داود : (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ) ثم قال : ولا يسمى أحد خليفة الله بعدهما . قال في "شرح السنة" : ويسمى خليفة وإن كان مخالفا لسيرة أئمة العدل .

ثم قد ذكره جماعة من الفقهاء منهم « أحمد بن حنبل » إطلاق اسم الخليفة على ما بعد خلافة « الحسين بن علي » رضي الله عنهما فيما حكاه النحاس وغيره ، محتجين بحديث « الخِلافةُ بعدِي ثلاثون » يعني ثلاثين سنة ، وكان انقضاء الثلاثين بانقضاء

خِلافةِ الحَسَنِ ، ولما أَتَقَضَتِ الخِلافةُ صارت مُلْكًا . قال المعافى بنُ إِسْماعِيلِ في تفسيره : وقد رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بنَ الحِطابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سَأَلَ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرَ وَكَعْبًا وَسَامَانَ عَنِ الفَرَقِ بَيْنَ الخَلِيفَةِ وَالْمَلِكِ - فَقَالَ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ لَأَنْدَرِي - فَقَالَ سَامَانٌ : الخَلِيفَةُ الَّذِي يَعْدَلُ فِي الرِّعْيَةِ ، وَيُقَسِّمُ بَيْنَهُمُ بالسَّوِيَّةِ ، وَيُسْفِقُ عَلَيْهِمُ شَفَقَةَ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِهِ وَالوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ ، وَيَقْضِي بَيْنَهُمُ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى - فَقَالَ كَعْبٌ : مَا كُنْتُ أَحْسَبُ أَنَّ فِي هَذَا المَجْلِسِ مَنْ يُفَرِّقُ بَيْنَ الخَلِيفَةِ وَالْمَلِكِ ، وَلَكِنَّ اللهَ أَلْهَمَ سَامَانَ حُكْمًا وَعِلْمًا ! .

وَأَخْتَلَفَ فِي المَاءِ فِي آخِرِهِ : فَقِيلَ أُدْخِلَتْ فِيهِ لِلْبَالِغَةِ كَمَا أُدْخِلَتْ فِي رَجُلٍ دَاهِيَةٍ وَرَاوِيَةٍ وَعَلَامَةٌ وَنَسَابَةٌ وَهُوَ قَوْلُ الفَرَّاءِ ، وَأَسْتَحْسِنُهُ النُّحَاسُ نَاقِلًا لَهُ عَنِ أَكْثَرِ النُّحَوِيِّينَ وَخَطَّأَهُ عَلَى بَنِي سُلَيْمَانَ مُحْتَجًّا بِأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ التَّنَائِثُ فِيهِ حَقِيقِيًّا . وَقِيلَ : المَاءُ فِيهِ لَتَّنَائِثُ الصَّيْغَةِ . قَالَ النُّحَاسُ : وَرَبَّمَا أَسْقَطُوا المَاءَ مِنْهُ وَأَضَافُوهُ فَقَالُوا «فَلَانٌ خَلِيفٌ فَلَانٌ» يَعْنُونَ خَلِيفَتَهُ .

ثُمَّ الأَصْلُ فِيهِ التَّذْكِيرُ نَظْرًا لِلْعَنَى لِأَنَّ المُرَادَ بِالخَلِيفَةِ رَجُلٌ وَهُوَ مَذْكَرٌ ، فَيَقَالُ أَمْرُ الخَلِيفَةِ بِكَذَا عَلَى التَّذْكِيرِ ، وَأَجَازَ الكُوفِيُّونَ فِيهِ التَّنَائِثَ عَلَى لَفْظِ خَلِيفَةٍ فَيَقَالُ أَمَرَتِ الخَلِيفَةُ بِكَذَا ، وَأَنشَدَ الفَرَّاءُ .

* أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتَهُ أُخْرَى *

وَمَنْعَهُ البَصْرِيُّونَ مُحْتَجِّينَ بِأَنَّهُ لَوْ جَازَ ذَلِكَ لَجَازَ قَالَتْ طَلْحَةُ فِي رَجُلٍ اسْمُهُ طَلْحَةُ وَهُوَ مَمْتَعٌ . فَإِنْ ظَهَرَ اسْمُ الخَلِيفَةِ تَعَيَّنَ التَّذْكِيرُ بِاتِّفَاقٍ فَتَقُولُ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ الخَلِيفَةُ أَوْ قَالَ الرَّاظِي الخَلِيفَةُ وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَيَجْمَعُ عَلَى خُلَفَاءَ كَكَرِيمٍ وَكُرْمَاءَ ، وَعَلَيْهِ وَرَدَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وَعَلَى خَلَائِفٍ كصَحِيفَةٍ

وَصَحَائِفَ ، وعليه جاء قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ﴾ والنسبة إليه خَلْفَى كَمَا يُنْسَبُ إِلَى حَنِيفَةَ حَنْفَى . وقول العامة درهم خَلْفَيّْ ونحوه خطأ ، إذ قاعدةُ النسب أن يَحْدَفَ من المنسوب إليه الياء وهاء التانيث على ما هو مقرّر في علم النحو . ومن وهم في ذلك المقرّ الشهابيُّ بنُ فضل الله رحمه الله في كتابه "التعريف" حيث قال : وأول ما نبدأ بالمكاتبة إلى الأبواب الشريفة الخَلْفَيْتِيَّةِ ، ولعله سبق قلم منه ، وإلا فالمسألة أظهر من أن يجهلها أو تخفى عليه .

الثاني - الْمَلِكُ . وهو الرّعيم الأعظمُ ممن لم يُطَاقَ عليه اسمُ الخِلافةِ ، وقد نطق القراءُ بذكره في غير موضعٍ كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات . ويقال فيه ملك بكسر اللام وملك بإسكانها ومليك بزيادة ياء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ قال الجوهريّ : والمَلِكُ مقصورٌ من مالك أو مَلِيك ؛ ويجمع على مُلُوك وأملاك . ويقال لموضع المَلِكِ المَمْلَكَة .

الثالث - السُّلْطَانُ . وهو اسمٌ خاصٌ في العُرف العامِّ بالملوك . ويقال : إن أوّل من لُقّب به « خالدُ بنُ برمك » وزيرُ الرشيد ، لقّب به الرشيدُ تعظيماً له ، ثم أُنقطع التلقب به إلى أيام بني بويه فتلقب به مُلُوكُهم فمن بعدهم من الملوك السَّلَاجِقَة وغيرهم وهلمَّ جرّاً إلى زماننا .

وأصله في اللغة الحُجَّة قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ يعني من حُجَّة . وسمّي السلطان بذلك لأنه حُجَّة على الرعية يجب عليهم الانقيادُ إليه .

وأختلِفَ في اشتقاقه : ف قيل إنه مشتقٌّ من السَّلَاطَة وهي القهر والغلبة : لقهره الرعيةً وأنقيادِهِم له ، وقيل مشتقٌّ من السَّلِيْط : وهو الشَّيْرُجُ في لغة أهل اليمن

لأنه يُستضاء به في خلاص الحقوق ، وقيل من قولهم لسانٌ سايط أي حاد ماضٍ لمضى أمره ونُفُوذِه . وقال محمد بن يزيد البصري : السلطان جمعٌ واحده سايط كقفيز وفزان ، وبغير وبعران .

وحكى صاحب "ذخيرة الخُتاب" : أنه يكون واحداً ويكون جمعاً ، ثم هو يُدْكَرُ على معنى الرجل ، ويؤنث على معنى الحجة . وحكى الكسائي والفراء على التأنيث عن بعض العرب فضمت به عليك السلطان . قال العسكري في كتابه "الفروق" في اللغة : والفرق بينه وبين الملك أن الملك يختص بالزعيم الأعظم ، والسلطان يُطلق عليه وعلى غيره . وعلى ما ذكره العسكري عرّف الفقهاء في كتبهم ، إذ يُطلقونه على الحاكم من حيث هو حتى على القاضي فيقولون فيمن ليس لها وليّ خاص يزوجه السلطان ونحو ذلك . ومن حيث إن السلطان أعم من الملك يُقدّم عليه في قولهم السلطان الملك الفلاني : ليقع السلطان أولاً على الملك وعلى غيره ثم يخرج غير الملك بعد ذلك بذكر الملك .

الرابع — الوزير . وهو المتحدث للملك في أمر مملكته . واختُلف في اشتقاقه : فقيل مشتق من الوزر بفتح الواو والزاي وهو المَلْجَأُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَلَّا لَاؤَزَّرَ ﴾ سُمِّيَ بذلك لأن الرعية يَلْجَأُونَ إليه في حوائجهم ، وقيل مشتق من الأوزار وهي الأمتعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أوزَارًا من زينةِ القَوْمِ ﴾ سُمِّيَ بذلك لأنه متقلد بخزائن الملك وأمتعته ، وقيل مشتق من الوزر بكسر الواو وإسكان الزاي وهو الثقل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أوزَارَهَا ﴾ سُمِّيَ بذلك لأنه يتحمل أثقال الملك ، وقيل مشتق من الأزر : وهو الظَّهْرُ ، سُمِّيَ بذلك لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر ، وتكون الواو فيه على هذا التقدير متقلبة عن همزة . وقد

أوضحت القول في ذلك في "النفحات الثَّشْرِيَّة في الوِزَارَةِ البَدْرِيَّة" . قال القُضَاعِي في "عيون المعارف في أخبار الخلائف" : وأقول من لُقِّبَ بِالوِزَارَةِ في الإسلام أبوسلمة : حفص بن سلمان الخلال وزير السَّخَّاح . قال : وإنما كانوا قبل ذلك يقولون كاتب . ثم هو إمام وزير تَفْوِيضِي : وهو الذي يُفَوِّضُ الإمام إليه تدير الأمور برأيه وإمضاءها على آجتاده كما كانت الوُزراء بالديار المصرية من لُدُن وِزَارَةِ بَدْرِ الجَمَالِي وإلى حين أنقراضها ، وإمام وزير تَفْوِيضِي : وهو الذي يكون وسيطاً بين الإمام والرعايا معتمداً على رأي الإمام وتديره . وهذه هي التي كان أهل الدولة الفاطمية يعبرون عنها بالوساطة . أما الوِزَارَةُ في زماننا فقد تقاصرت عن ذلك كله حتى لم يبق منها إلا الأسم دون الرِّسْم ، ولم تزل الوِزَارَةُ في الدُول تتردد بين أرباب السيف والأقلام تارة وتارة إلا أنها في زماننا في أرباب الأقلام .

الخامس — الأمير . وهو زعيم الجيش أو الناحية ونحو ذلك ممن يوليه الإمام . وأصله في اللغة ذو الأمر وهو فاعل بمعنى فاعل فيكون أمير بمعنى أمر ، سمي بذلك لأمثال قومه أمره . يقال : أمر فلان إذا صار أميراً ، والمصدر الإمرة والإمارة بالكسر فيهما ، والتأثير تولية الأمير ، وهي وظيفة قديمة .

السادس — الحاجب . وهو في أصل الوضع عبارة عن مبلغ الأخبار من الرعية إلى الإمام ويأخذ لهم الإذن منه ، وهي وظيفة قديمة الوضع كانت لأبتداء الخلافة فقد ذكر القُضَاعِي في "عيون المعارف" لكل خليفة حاجباً من أبتداء الأمر وإلى زمانه : فذكر أنه كان حاجبُ أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه « شديداً » مولاه ، وحاجبُ عمر « يرفاً » مولاه ، وحاجبُ عثمان « حمران » مولاه ، وحاجبُ علي « قنبراً » مولاه ، وعلي ذلك في كل خليفة ، ماعدا الحسن بن علي رضي الله عنهما فإنه لم يذكر له حاجباً . وسمى الحاجب بذلك لأنه يحجب الخليفة أو الملك عن

يدخل إليه بغير إذن . قال زياد لحاجبه : « ولَيْتَكَ حِجَابِي وَعَرَلْتِكَ عَنْ أَرْبَع : هذا المَنَادِي إِلَى اللَّهِ فِي الصَّلَاةِ وَالْفَلَاحِ فَلَا تَعُوجِنَهُ عَنِّي وَلَا سُلْطَانَ لَكَ عَلَيْهِ ، وَطَارِقُ اللَّيْلِ فَلَا تَحْجِبُهُ فَشَرًّا مَا جَاءَ بِهِ وَلَوْ كَانَ خَيْرًا مَا جَاءَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ ، وَرَسُولُ الثَّغْرِ فَإِنَّهُ إِنْ أَبْطَأَ سَاعَةً أَفْسَدَ عَمَلَ سِنَةٍ فَأَدْخِلْهُ عَلَيَّ وَإِنْ كُنْتُ فِي الْحِجَابِ ، وَصَاحِبُ الطَّعَامِ فَإِنَّ الطَّعَامَ إِذَا أُعِيدَ تَسْخِيئُهُ فُسَدَ » .

ثم تصرّف الناس في هذا اللَّقَبِ وَوَضَعُوهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ، حَتَّى كَانَ فِي أَعْقَابِ خِلَافَةِ بَنِي أُمَيَّةَ بِالْأَنْدَلُسِ رُبَّمَا أُطْلِقَ عَلَيَّ مِنْ قَامِ مَقَامِ الْخَلِيفَةِ فِي الْأَمْرِ ، وَكَانُوا فِي الدَّوْلَةِ الْفَاتِمِيَّةِ بِالْبِيزَانِ الْمِصْرِيَّةِ يَعْبرُونَ عَنْهُ بِصَاحِبِ الْبَابِ كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ فِي الْكَلَامِ عَلَيَّ تَرْتِيبَ دَوْلَتِهِمْ . أَمَا فِي زَمَانِنَا فَإِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنْ يَقْفٍ بَيْنَ يَدَيِ السُّلْطَانِ وَنَحْوِهِ فِي الْمَوَاقِبِ ، لِيَبْلُغَ ضَرُورَاتِ الرِّعْيَةِ إِلَيْهِ ، وَيَرْكَبُ أَمَامَهُ بَعْضًا فِي يَدِهِ ، وَيَتَصَدَّى لِقَضَلِ الْمَظْلَمِ بَيْنَ الْمُنْتَدِعِينَ خُصُوصًا فِيمَا لَا تَسْوَعُ الدَّعْوَى فِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الدِّيُونِيَّةِ وَنَحْوِهَا . وَلَهُ بِلَادُ الْمَغْرِبِ وَالْأَنْدَلُسِ أَوْضَاعٌ تُخَصِّصُهُ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ ، عَلَيَّ مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَيَّ مَكَاتِبَتِهِمْ فِي الْمَقَالَةِ الرَّابِعَةِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

السابع — صَاحِبُ الشَّرْطَةِ . بَضْمُ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَإِسْكَانُ الرَّاءِ : وَهُوَ الْمَعْبَرُ عَنْهُ فِي زَمَانِنَا بِالْوَالِي ، وَتَجْمَعُ الشَّرْطَةُ عَلَيَّ شَرْطِ بَضْمِ الشَّيْنِ الْمَعْجَمَةِ وَفَتْحِ الرَّاءِ . وَفِي أَشْتِقَاقِهِ قَوْلَانِ : أَحَدُهُمَا أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنَ الشَّرْطِ بِفَتْحِ الشَّيْنِ وَالرَّاءِ وَهِيَ الْعَلَامَةُ ، لِأَنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لِنَفْسِهِمْ عِلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا ، وَمِنْهُ أَشْرَاطُ السَّاعَةِ يَعْنِي عِلَامَاتِهَا ، وَقِيلَ مِنَ الشَّرْطِ بِالْفَتْحِ أَيْضًا : وَهُوَ رُدَّالُ الْمَالِ ، لِأَنَّهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِي أَرَادِلِ النَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ مِنْ لَامَالٍ لَهُ مِنَ الْأَمْوَالِ وَنَحْوِهِمْ .

الصِّفِّ السَّانِي

(ألقابُ أربابِ الأَقلامِ ، وفيه ثلاثةُ ألقابِ)

الأوَّلُ - القاضي . وهو عبارةٌ عن يتولَّى فصلَ الأمورِ بين المتداعينِ في الأحكامِ الشرعيَّةِ . وهي وظيفةٌ قديمةٌ كانت في زمنِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فقد ذَكَرَ القَضَائِيُّ أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَّى القَضَاءَ بيمينِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ومُعَاذِ بنِ حِجَلٍ وأبَا مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَلَّى القَضَاءَ عُمرَ ابنِ الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ .

ثم هو مشتقٌّ من القضاة ، وأختلافٌ في معناه فقال أبو عبيد : هو إحكامُ الشيءِ والفراغُ منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكِتَابِ ﴾ أي أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه . قال أبو جعفر النحاس : وسُمِّيَ القاضِ قاضياً لأنه يُقالُ قَضَى بين الخصمينِ إذا فَصَلَ بينهما وفرغ ، وقيل معناه التَّطَعُّعُ ، يُقالُ قَضَى الشيءَ إذا قَطَعَهُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ وسُمِّيَ القاضي بذلك لأنه يَقْطَعُ الخصومةَ بين الخصمينِ بالحُكْمِ . على أن كُتِبَ الزمانُ يُطْلِقُونَ هذا اللَّقْبَ والالتقابِ المتفرِّعةُ منه كالتضائِي والقاضِي على أربابِ الأَقلامِ في الجملة ، سواء كان صاحبُ اللَّقْبِ متصديماً لهذه الوظيفة أو غيرها ، كسائرِ العلماءِ والكُتَّابِ ومن في معنَاهم ، وعلى ذلك عُرِفَ العامَّةُ أيضاً .

الثاني - المحتسِبُ . وهو عبارةٌ عن يقوم بالأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكرِ ، والتحدثِ في أمرِ المَكاييلِ والمَوَازِينِ ونحوهما . قال الماوردي في " الأحكامِ السلطانية " : وهو مشتقٌّ من قولهم حَسَبْتُكَ بمعنى أَكْفَفْتُ^(١) ، سُمِّيَ بذلك لأنه يكفي

(١) عبارة الضو. نقلاً عن الماوردي هكذا (وهو مشتق من قولهم حسبك بمعنى اكفف لأنه يكف

عن الظلم وقال النحاس من قولهم أحسبه إذا كفاه لأنه يكفي الخ) وبه تعلم ما في الاصل .

الناس مؤونة من يخسهم حقوقهم . قال النحاس : وحققته في اللغة المجتهد في كفاية المسلمين ومنعتهم إذ حقيقة أفعل عند الخليل وسيبويه بمعنى اجتهد . وأول من قام بهذا الأمر وصنع الدرّة عمر بن الخطّاب رضي الله عنه في خلافته . وقد كانوا في الأيام الفاطمية بالديار المصرية يضيفونها إلى الشرطة في بعض الأحيان ، كما هو موجود في تقاليد الحسبة في زمانهم .

الثالث - الكاتب . وقد تقدّم آساقفه ومعناه في مقدّمة الكتاب ، وأنه كان في الزمن الأوّل عند الإطلاق إنما يراد به كاتب الإنشاء ثم تعيّر الحال بعد ذلك إلى أن صار في العرف العام بالديار المصرية عند الإطلاق يراد به كاتب المال ومن في معناه . وهو من الألقاب القديمة فقد تقدّم في الكلام على الوزارة من كلام القضاة أنهم قبل التلقيب بالوزارة في الدولة العباسية في خلافة السفّاح إنما كانوا يقولون كاتب .

قلت : ووراء ما تقدّم من الألقاب القديمة المتداولة ألقاب أخرى كانت مستعملة في الأيام الفاطمية ثم رُفضت الآن وتبركت .

كـ «صاحب المظالم» وهو المتحدّث في فصل الخصومات .

وصاحب الصلاة : وهو المتحدّث في أمر المساجد والصلوات .

وكلتحدّث في الوساطة ، وهي القيام بوظيفة الوزارة ممن لم يؤهّل لإطلاق اسم الوزارة عليه .

وصاحب الباب كبحو الحاجب .

وداعى الدعاة للشيعه ونحو ذلك .

النوع الثاني

(الألقابُ المحدثَة)

وهي إما عَرَبِيَّةٌ ، وإما عَجَمِيَّةٌ . والعجمية منها إما فارسية ، وإما تركية ، وأكثرها الفارسية . والسبب في استعمال الفارسي منها وإن كانت الفرس لم تلها في الإسلام أن الخلافة كانت ببغداد وغالب كلام أهلها الفارسية ، والوظائف منقولة عنها إلى هذه المملكة ، إما مضاهاة كما في الدولة الفاطمية على قلة ، كما في الاسفهنسار ، وإما تبعا كما في الدولة الأيوبية فبعدها .
وهي أربعة أصناف :

الصف الأول

(المفردة ، وهي ضربان)

الضرب الأول

(مالفظه عَرَبِيٌّ ، وهو ثلاثة ألقاب)

الأول — النائب : وهو لقبٌ على القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها ، والألف فيه متقلبة عن واو . يقال : ناب فلان عن فلان ينوب نوبا ومنابا إذا قام مقامه فهو نائب . ويطلق هذا اللقب في العرف العام على كل نائب عن السلطان أو غيره بحضرتة أو خارجا عنها في قُرب أو بُعد ، إلا أن النائب عن السلطان بالحضرة يُوصف في عرف النُجَّاب بالكافل : فيقال « النائب الكافل » وفي حال الإضافة « كافل المالك الإسلامية » على ما سيأتي ذكره في التبعوت إن شاء الله تعالى ،

(١) مراده الهمزة التي هي عين فاعل .

والنائب عنه بِدَمَشَقْ يُقال فيه «كافل السلطنة» وَمَنْ دونه من أكبر النواب :
 كاتب حلب ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب صفد ونائب الكرك من الممالك
 الشامية، ونائب الإسكندرية ونائب الوجهين : القليل والبحري بالديار المصرية .
 [يقال فيه نائب السلطنة الشريفة بكذا ليس إلا] ^(١) ويقال فيمن دونهم من النواب
 بالممالك الشامية نائب حمص ونائب الرحبة وغيرها «النائب بفلانة» .

الثاني - الساقى . وهو لقب على الذى يتولى مد السَّاط وتقطيع اللحم وسقى
 المشروب بعد رفع السَّاط ، ونحو ذلك . وكأنه وُضِعَ فى الأُوقى لسقى المشروب فقط
 ثم استُحدث له هذه الامور الأخرى تبعاً . ويجوز أن يكون لقب بذلك لأن سقى
 المشروب آخر عمله الذى يَخْتِمُ به وظيفته .

الثالث - المُشْرِف . وهو الذى يتولى امر المطبخ ويقف على مشاركة
 الأطبحة فى خدمة إستاندار الصحبة الآتى ذكره ، ومعناه ظاهر .

الضرب الثانى

(ما لفظه عجمى وهو لقب واحد)

وهو «الأوْجاقى» وهو لقب على الذى يتولى ركوب الخيول للتسيير والريضة ،
 ولم أقف على معناه .

(١) الزيادة من الضو، ص ٣٤٢ ليم الكلام .

الصف الثاني

(المرتبّة، وهي ثلاثة اضرب)

الضرب الأوّل

(ما تمحّض تركيبه من اللفظ العربي، وفيه سبعة ألقاب)

الأوّل — ملك الأمراء . وهو من الألقاب التي أصطلح عليها لكُفّال الممالك من نُواب السلطنة، كأكابر النُواب بالممالك الشامية ومن في معناهم . وذلك أنه قام فيهم مقام الملك في التصرف والتنفيذ، والأمراء في خدمته تخدمه السلطان . وأكثر ما يخاطبُ به النُواب في المكاتبات ، وذلك مختصّ بغير المخاطبات السلطانية ، أما السلطان فلا يخاطبُ عنه أحدٌ منهم بذلك .

الثاني — رأس نوبة . وهو لقب على الذي يتحدّث على ممالك السلطان أو الأمير، وتنفيذ أمره فيهم ، ويجمع على رُعوس نُوب . والمراد بالرأس هنا الأعلى أخذاً من رأس الإنسان لأنه أعلاه . والنوبة واحدة النُوب وهي المُرّة بعد الأخرى، والعامّة تقول لأعلامهم في خدمة السلطان « رأس نوبة النُوب » وهو خطأ لأن المقصود علوُّ صاحب النوبة لا النوبة نفسها، والصواب فيه أن يقال : « رأس رُعوس النُوب » أي أعلامهم .

الثالث — أمير مجلس . وهو لقب على من يتولّى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره ، ويجمع على أمراء ، ومعناه ظاهر ، والأحسن فيه أن يقال أمير المجلس بتعريف المضاف إليه، وتكون الألف واللام فيه للعهد الذهني ، إما مجلس السلطان أو غيره .

الرابع - أمير سلاح . وهو لقبٌ على الذي يتولى أمر سلاح السلطان أو الأمير . ويجمع على أمراء سلاح ، والسلاح آلة القتال . قال الجوهري : وهو مدَّكر ويجوز تأنيته .

الخامس - مُقدّم الممالك . وهو لقبٌ على الذي يتولى أمر الممالك للسلطان أو الأمير - من الخُدّام الخِصيان المعروفين الآن بالطواشيّة . ومقامه فيهم نحو مقام رأس النوبة ، ولفظ المُقدّم والممالك معروف .

السادس - أمير علم . وهو لقبٌ على الذي يتولى أمر الأعلام السلطانية والطبليخانة وما يجرى مجرى ذلك . والعلم في اللغة يطلق بإزاء معانٍ أحدها الرأية^(١) ، وهو المراد هنا .

السابع - نقيب الجيش . وهو الذي يتكفل بإحضار من يطلبه السلطان من الأمراء وأجناد الحلقة ونحوهم ، والنقيب في اللغة العريف الذي هو ضمّين القوم وفي التزليل حكاية عن بني إسرائيل : ((وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا)) ويقال : نَقَب على قومه يَنْقُب نَقْبًا مثل كَتَب يَكْتُب كِتَابًا . والجيش العسكر ويجمع على جيوش . أما بالممالك الشامية فإنه يقال في مثله نَقِيب النقباء .

الضرب الثاني

(ما تمحص تركيبه من اللفظ العجمي)

وقاعدة اللغات العجمية تقديم المضاف إليه على المضاف ، والصفة على الموصوف ،^(٢)

بخلاف اللغة العربية . ولهذا الضرب حالتان :

(١) في الأصول التروية ، والتصحيح عن الضوء .

(٢) في الأصول " المضاف على المضاف إليه " وهو سبق قلم .

الحالة الأولى

(أن تكون الإضافة إلى لفظ دار)

وهي لفظة فارسية معناها مُسِكَ فاعل من الإمساك . وكثير من كُتَّاب الزمان أو أكثرهم بل كلُّهم يظنون أن لفظ دار في ذلك عربي بمعنى المحلة ، كدار السلطان أو الأمير ونحو ذلك ، وهو خطأ كما سيأتي بيانه في الكلام على إستاندار ، ونخزندان وغيرهما .

والمضاف إلى لفظ دار من وظائف أرباب السيوف تسعة ألقاب :

الأول — الإستاندار . بكسر الهمزة وهو لقب على الذي يتولى قبض مال السلطان أو الأمير وصرفه ، وتمثل أو امره فيه . وهو مركب من لفظين فارسيتين : إحداهما إستاند ، بهمزة مكسورة وسين مهملة ساكنة بعدها تاء مثناة من فوق ثم ذال معجمة ساكنة ، ومعناها الأخذ . والثانية دار ، ومعناها المُسِكَ كما تقدم ، فأدغمت الذال الأولى وهي المعجمة في الثانية وهي المهملة فصار إستاندار . والمعنى المتولى للأخذ ، سمي بذلك لما تقدم من أنه يتولى قبض المال . ويقال فيه أيضا : ستدار بإسقاط الألف من أوله وكسر السين ، والمتشدقون من الكُتَّاب يضمون الهمزة في أوله ويحَقِّقون فيه ألفا بعد التاء ، فيقولون : «أستاندار» وربما قالوا : «أستاندار» بادخال الألف واللام على لفظ الدار ظنا منهم أن المراد حقيقة الدار في اللفظ العربي ، وأن أستاذ بمعنى السيد أو الكبير ، ولذلك يقولون «أستاذار العالية» : أو «أستاذ الدار العالية» وهو خطأ صريح لما تقدم بيانه . على أن العامة تنطق به على الصواب ، من كسر الهمزة وحذف الألف بعد التاء . ثم قد يزداد في هذا اللقب لفظ الصُّحْبَة ، فيصير «إستاندار الصُّحْبَة» ويكون لقباً على متولى أمر المطبخ ، وكانه لقب بذلك للائتمار به الباب سقوا وحضرا .

الثانى — الجُوكَاثِدَار . وهو لقبٌ على الذى يحمل الجُوكَاثَانَ مع السلطان فى لعب الكُرَّة ، ويجمع على جُوكَاثَانِ دَارِيَّة ، وهو مركبٌ من لفظتين فارسيتين أيضا : إحداهما جوكان ، وهو المَحْجَن الذى تُضْرَبُ به الكُرَّة ، ويعبر عنه بالصَّوْحَانِ أيضا : والثانية دار ، ومعناه مُسِكَ كما تقدّم . فيكون المعنى 'مسك الجُوكَاثَانِ' . والعامة تقول : « جُكَاثِدَار » بحذف الواو بعد الجيم والألف بعد الكاف .

الثالث — الطَّبَرْدَار . وهو الذى يحمل الطَّبَرَّ حَوْلَ السلطان عند ركوبه فى المَوَاكِبِ وغيرها . وهو مركبٌ من لفظين فارسيتين : أحدهما طَبَرَّ ومعناه الفَأْس ، ولذلك يقولون فى السُّكَّرِ الصَّابِ الشَّدِيدِ الصَّلَابَةِ طَبَرَزْد بمعنى 'يكسر بالفأس' . والثانى دار ومعناه مُسِكَ كما تقدّم ، فيكون المعنى 'مُسِكَ الطَّبَرِّ' .

الرابع — السَّنَجَقْدَار . وهو الذى يحمل السَّنَجَقَّ خَلْفَ السلطان . وهو مركبٌ من لفظين : أحدهما تَرْكِيٌّ وهو سَنَجَقٌ ، ومعناه الرُّحُّ وهو فى لغتهم مصدر طَعَنَ ، فعبر به عن الرُّحِّ الذى يُطَعَنُ به . والثانى دار ومعناه مُسِكَ كما تقدّم ، ويكون المعنى 'مُسِكَ السَّنَجَقِ' وهو الرِّيح . والمراد هنا العَلَمُ الذى هو الراية كما تقدّم ، إلا أنه لما كانت الراية إنما تُجْعَلُ فى أعلى الرِّيحِ عبر بالريح نفسه عنها .

(١) الخامس — البَنْدَقْدَار . وهو الذى يحمل جِراوة البَنْدُقِ خَلْفَ السلطان أو الأمير . وهو مركبٌ من لفظتين فارسيتين إحداهما بَنْدُقٌ ، وإن كان الجوهرى قد أطلق ذكره فى الصحاح من غير تعرض لأنه معرَّبٌ فقال : والبَنْدُقُ الذى يُرْمَى به . ثم هو منقولٌ عن البَنْدُقِ الذى يُؤْكَلُ وهو الحَلْوَزُ بكسر الجيم والزاي المعجمة فى آخره .

(١) كذا فى الاصل ولعله مصحف عن غرارة أو نحوه .

فقد قال أبو حنيفة في كتاب «النبات» الجأوز عربى وهو البندق والبندق فارسى .
اللفظة الثانية دار ومعناها ممسك كما تقدم ، ويكون المعنى ممسك البندق .

السادس — الجمدار . وهو الذى يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه .
وأصله جاما دار فحدثت الألف بعد الجيم وبعد الميم استنقلا وقيل جمدار .
وهو فى الأصل مركب من لفظين فارسيتين أحدهما جاما ، ومعناه الثوب . والثانى دار ،
ومعناه ممسك كما تقدم فىكون المعنى ممسك الثوب .

السابع — البشمقدار . وهو الذى يحمل نعل السلطان أو الأمير ، وهو مركب
من لفظين : أحدهما من اللغة التركية وهو بَشْمَق ومعناه النعل . والثانى من
اللغة الفارسية وهو دار ومعناه مُمَسِك على ما تقدم . ويكون المعنى ممسك النعل .
على أن صاحب « الأنوار الضوئية فى إظهار غلط الدرّة المضية فى اللغة التركية »
قد ذكر أن الصواب فى النعل بصمق بالصاد المهملة بدل الشين المعجمة ، وحينئذ
فىكون صوابه على ما ذكر بصمقدار . والمعروف فى السنة الترك بالديار المصرية
ما تقدم .

الثامن — المَهْمَنْدَار . وهو الذى يتصدى لتلقى الرسل والعُرَبان الواردين على
السلطان ويُترجم دار الضيافة ويحدث فى القيام بأمرهم . وهو مركب من لفظين
فارسيتين : أحدهما مَهْمَنْ بفتح الميمين ومعناه الضيف ، والثانى دار ومعناه ممسك
كما تقدم ، ويكون معناه ممسك الضيف ، والمراد المتصدى لأمره .

التاسع — الرنّان دار المعرّنه « بالزّمان دار » . وهو لقب على الذى يحدث
على باب ستارة السلطان أو الأمير من الختام الخصيان . وهو مركب من لفظين
فارسيتين : أحدهما زَنان بفتح الزاى ونونين بينهما ألف ، ومعناه النساء .

والثاني دار، ومعناه ممسك كما تقدم فيكون معناه ممسك النساء، بمعنى أنه الموكَّل بحفظ الحريم إلا أن العادة والخاصة قد قلبوا التوئين فيه بيمين فعبروا عنه بالزمام دار كما تقدم، ظناً أن الدار على معناها العربيّ والزمام بمعنى القائد، أخذاً من زمام البعير الذي يقاد به .

الحالة الثانية

(أن تكون الإضافة إلى غير لفظ دار، وفيها لقبان)

الأول — الجَسَّاشِ كَبِير . وهو الذي يتصنّف لِدَوَقَانِ المَأْكُولِ والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يدسّ عليه فيه سُمٌّ ونحوه . وهو مرَّكَبٌ من لفظين فارسيين : أحدهما چاشنا بحجيم في أقله قريبة في اللفظ من الشين ، ومعناه الذوق ، ولذلك يقولون في الذي يذوق الطعام والشراب الشيشي . والثاني كير وهو بمعنى المتعاطي لذلك ، ويكون المعنى الذي يذوق .

الثاني — السَّرَّاخُور . وهو الذي يتحدّث على علف الدوابّ من الخيل وغيرها . وهو مرَّكَبٌ من لفظين فارسيين : أحدهما سراً ومعناه الكبير . والثاني خور ، ومعناه العلف ، ويكون المعنى كبير العلف والمراد كبير الجماعة الذين يتولّون علف الدوابّ . والعامّة يقولون سَرَاخُورِيٌّ باثبات ياء النسب في آخره ولا وجه له . ومثدقو الكتاب يبدلون الراء فيه لاما فيقولون سَلَاخُورِيٌّ وهو خطأ .

(١) مصدر ذاق الذوق والمذاق والدواق فسا في الأصل جارياً فيه لغة العامة .

(٢) خالف في هذا قاعدة اللغة العجمية من تقدم المضاف اليه على المضاف . ووجد بهامش بعض النسخ " السراخور مركب من سرا فارسي بمعنى الرأس واخور بمعنى اصطبل فغناهما رأس الاصطبل السلطاني " .

الضرب الثالث

(ماترَّك من لفظ عربي ولفظ عجمي ، وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن يصمّر بلفظ أمير وهو لفظ عربي كما تقدم

في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف ، وفيها أربعة ألقاب)

الأول — أمير آخور . وهو الذي يتحدث على إصطبل السلطان أو الأمير ، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل في حكم الإصطبلات ، وهو مرَّك من لفظين : أحدهما عربي وهو أمير ، والثاني فارسي وهو آخور بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها خاء معجمة ثم واو وراء مهملة ومعناه المَعْلَف ، والمعنى أمير المَعْلَف : لأنه المتولى لأمر الدواب على ما تقدم وأهم أمورها المَعْلَف .

الثاني — أمير جاندار . وهو لقب على الذي يستأذن على الأمراء وغيرهم في أيام المواكب عند الجلوس بدار العدل . وهو مرَّك من ثلاثة ألفاظ : أحدها عربي وهو أمير وقد تقدم معناه . والثاني جان يجسيم وألف ونون ، ومعناه الروح بالفارسية والتركية جميعا . والثالث دار ، ومعناه ممسك كما تقدم ، فيكون المعنى « الأمير الممسك للروح » ولم يظهر لي وجه ذلك إلا أن يكون المراد أنه الحافظ لدم السلطان فلا يآذن عليه إلا لمن يأمن عاقبته .

الثالث — أمير شكار . وهو لقب على الذي يتحدث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد . وهو مرَّك من لفظين : أحدهما عربي وهو أمير والثاني فارسي وهو شكار بكسر الشين المعجمة وكاف وألف ثم راء مهملة في الآخر ، ومعناه الصيد فيكون المراد « أمير الصيد » .

الرابع — أمير طَبَر . وهو لقب علي الذي يتحدث على الطَّبَرْدَارِيَّة الذين يحملون الأَطْبَارَ حول السلطان في المواكب ونحوها . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو أمير ، والثاني طَبَر وهو بالفارسية النَّاسُ كما تقدّم في الكلام على الطَّبَرْدَار .

الحالة الثانية

(أن لا يُصنَدَ اللَّقْبُ بلفظ أمير، وفيها خمسة ألقاب)

الأوّل — الدَّوَادَار . وهو لقب علي الذي يحمل دَوَاةَ السلطان أو الأمير أو غيرهما، ويتولّى أمرها مع ما ينضمُّ إلى ذلك من الأمور اللازمة لهذا المعنى من حُكْمٍ وتنفيذِ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو الدَّوَاة ، والمراد التي يُكْتَبُ منها . والثاني فارسيّ وهو دار، ومعناه ممسك كما تقدّم . ويكون المعنى « مُسِكَ الدَّوَاة » وحَدِثَ الهاء من آخر الدَّوَاة استتمتلا . أما في اللغة العربية فإنه يقال لحامل الدَّوَاة « داوٍ » على وزن قاضٍ ، فنُثِبَ الياء فيه مع الألف واللام فتقول جاء الدَّاوِي ورأيت الدَّاوِيَ وصررت بالدَّاوِي ، ويجوز حذفها كما في سائر الأسماء المنقوصة .

الثاني — السِّلَاح دَار . وهو لقب علي الذي يحمل سِلَاحَ السلطان أو الأمير ويتولّى أمر السِّلَاح خَافَهُ وما هو من توابع ذلك . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو السِّلَاح ، وقد تقدّم معناه في الكلام على أمير سِلَاح . والثاني فارسيّ وهو دار ومعناه مُسِكَ كما تقدّم ، ويكون المعنى « مُسِكَ السِّلَاح » .

الثالث — الخَزِنْدَار بكسر الخاء وفتح الراء المعجمتين . وهو لقب علي الذي يتحدث على خِزَانَةِ السلطان أو الأمير أو غيرهما . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما

عربي وهو خزانة : وهي ما يُخزَن فيه المال . والثاني فارسي وهو دار، ومعناه مُمسك كما تقدم فحذفت الألف والهاء من خزانة استتقلا فصار خزانة ويكون المعنى «مُسك الخزانة» والمراد المتولى لأمرها ، ومتشققو الكتاب يُستقطن الألف والهاء من خزانة على ما تقدم ويُبحقون بعد الخاء ألفا فينتقلون لفظ خزانة إلى خازن فاعل من الخزن ويضيفونه إلى دار، ظنا منهم أن الدار على معناها العربي كما تقدم في الإستمدار والزبان دار ، وهو خطأ كما تقدم بيانه هناك . على أن العامة تنطق بحروفه على الصواب إلا أنهم يكسرون الزاي بعد الخاء والصواب فتحها .

- الرابع — العلم دار . وهو لقب على الذي يحمل العلم مع السلطان في المواكب .
وهو مرگب من لفظين : أحدهما عربي وهو العلم ، وقد تقدم أن معناه الراية .
والثاني فارسي وهو دار ومعناه مسك كما تقدم ، ويكون المعنى «مسك العلم» .

الصف الثاني^(١)

(ألقاب أرباب الأعلام، وهي على خمسة أضرب)

الضرب الأول

(ألقاب أرباب الوظائف من العلماء، وفيه خمسة ألقاب)

الأول — الخطيب . وهو الذي يُخطب الناس ويذكرهم في الجمع والأعياد ونحوهما . وقد كان ذلك في الزمن المتقدم مختصا بالخلفاء والأمراء بالنواحي على ما تقدم في الكلام على ترتيب الخلافة في المقالة الثانية .

(١) كذا في الأصل ولعله الثالث ومع ذلك لم يذكر الصف الرابع وقد جعل في الضوء هذا القسم من نوع ألقاب أرباب الوظائف الدينية وهو الموافق .

الثاني — المُقَرِّئ . وهو الذي يُقَرِّئُ القُرَّانَ العَظِيمَ ، وقد غلبَ اِختِصاصُه في العُرْفِ على مِشائِحِ القِرَاءَةِ من قُرَّاءِ السَّبْعَةِ المُحَيِّدِينَ المُتَصِدِّينَ لتعليمِ عِلْمِ القِرَاءَةِ .

الثالث — المُحَدِّث . والمراد به مَنْ يتعاطى عِلْمَ حَدِيثِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بطريقِ الزَّوَايَةِ والدَّرَايَةِ ، والعِلْمِ بِأَسْمَاءِ الرِّجَالِ وطُرُقِ الأَحَادِيثِ ، والمعرفةِ بِالأَسَانِيدِ ونحو ذلك .

الرابع — المُدَرِّس . وهو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية : من التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والتصريف ونحو ذلك . وهو مأخوذ من دَرَسْتُ الكِتَابَ دِرَاسَةً إِذَا كَرَّرْتَهُ لِلحِفْظِ .

الخامس — المُعَيِّد . وهو ثَانِي رُتْبَةِ المُدَرِّسِ فيما تقدم، وأصلُ موضوعه أنه إِذَا ألقى المُدَرِّسُ الدرسَ وأنصرفَ أعادَ للطلبةِ ما ألقاه المُدَرِّسُ إليهم ليفهموه ويُحَسِّنُوهُ .

الضرب الثاني

(ألقابُ الكُتَّابِ، وهي تَمَطُّانِ)

التمط الأول

(ألقابُ أربابِ الوظائفِ من كُتَّابِ الإنشاءِ . وفيه ثلاثة ألقابِ)

الأول — كاتبُ السَّرِّ . وهو صاحبُ ديوانِ الإنشاءِ وقد تقدمَ الكلامُ عليه مستوفى عند الكلامِ على الكِتَابَةِ والكُتَّابِ في مقدمة الكِتَابِ .

الثاني — كاتبُ الدَّسْتِ . وهو الذي يجلسُ مع كاتبِ السَّرِّ بدارِ العدلِ أمامَ السلطانِ أو النائبِ بمملكةٍ من الممالكِ ، ويوقعُ على القِصَصِ . وهم جماعةٌ وقد تقدمَ الكلامُ عليهم في المقدمةِ أيضا .

الثالث - كاتب الدرّج . وهو الذى يكتب المكاتب والولايات وغيرها فى الغالب وربما شاركه فى ذلك كتاب الدّست ، ويعبر الآن عنه بالموقع ، وقد تقدّم الكلام عليه هناك أيضا .^(١)

الضرب الثالث

(ألقاب أرباب الوظائف من كتاب الأموال ونحوها ، وفيه تسعة ألقاب)

الأول - الوزير إذا كان من أرباب الأفلام ، وقد تقدّم الكلام عليه فى ألقاب أرباب السيوف فى الصّنف الأوّل .^(٢)

الثانى - الناظر . وهو من ينظر فى الأموال ويتقدّم تصرفاتها ويرفع إليه حسابها لينظر فيه ويتأمّله فيمضى ما يمضى ويرد ما يرد . وهو مأخوذ إما من النظر الذى هو رأى العين : لأنه يدير نظره فى أمور ما ينظر فيه ، وإما من النظر الذى هو معنى الفكر : لأنه يفكر فيما فيه المصلحة من ذلك . ثم هو يختلف باختلاف ما يُضاف إليه كـ (ناظر الجيش) وهو الذى يتحدث فى أمر الجيوش وضبطها . أو (ناظر الخاّص) وهو الذى ينظر فى خاصّ أموال السلطان . أو (ناظر الدّواوين) وهو الذى يعبر عنه بناظر الدّولة ويسارِك الوزير فى التصرف . أو (ناظر النّظار بدمشق) وهو الذى يقوم بها مقام الوزير بالديار المصرية . أو (ناظر المملكّة) بحلب ، أو طرابلس ، أو حماة ونحوها . أو (ناظر أوقاف أوجهات بر) وما يجرى مجرى ذلك .

(١) لم يذكر النمط الثانى من هذا الضرب ولعله سهو من النسخ . وهو كذلك فى نسخة أخرى .

(٢) أى من الألقاب الاسلامية القديمة وقد تقدم فى ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

الثالث - صاحب الديوان . وكانوا في الزمن الاوّل يعبرون عنه بمتولّي الديوان ، وهو ثاني رتبة الناظر في المراجعة . وله أمور تخصّصه ترتب الدرّج ونحو ذلك .

الرابع - الشاهد . وهو الذي يشهد بمتعلّقات الديوان نفياً وإثباتاً .

الخامس - المستوفى . وهو الذي يَضْبِطُ الديوانَ ، وينبّه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك . ولعظم موقعه أشار إليه الحريريُّ في مقاماته بقوله : «منهم المستوفى الذي هو قُطْبُ الديوان» إلى آخره . ثم في بعض المباشرات قد يتقسم إلى مستوفى أصلٍ ومستوفى مباشرة ، ولكلٍّ منهما أعمال تخصّصه .

السادس - العامل ، وهو الذي ينظّم الحسابات ويكْتُبُها . وقد كان هذا اللقب في الاصل إنما يقع على الأمير المتولّي العمل ثم نقله العُرف إلى هذا الكاتب وخصّصه به دون غيره .

السابع - المسّاح . وهو الذي يتصدّى لقياس أرض الزّراعة ، وهو فاعلٌ من مَسَحَ الأرضَ يَمْسَحُها مِسَاحَةً إذا ذرّعها .

الثامن - المُعين . وهو الذي يتصدّى للكّابة إعانةً لأحدٍ من المباشرين المذكورين ، ومعناه واشتقاقه ظاهر .

التاسع - الصّيرفيُّ . وهو الذي يتولّى قبضَ الأموال وصرفها . وهو مأخوذ من الصّرف : وهو صرّف الذهب والفضّة في الميزان . وكان يقال له فيما تقدّم الجِهْدُ .

الضرب الرابع

(ألقابُ أربابِ الوظائفِ من أهلِ الصناعاتِ ، وفيه خمسةُ ألقابِ)

الأول — مهندسُ العائرِ . وهو الذى يتولى ترتيبَ العائرِ وتقديرها ويحكم على أربابِ صناعاتها . والهندسةُ علمٌ معروفٌ فيه كتبٌ مفردةٌ بالتصنيفِ .

الثانى — رئيسُ الأطباءِ . وهو الذى يحكم على طائفةِ الأطباءِ ويأذن لهم فى التطبيبِ ونحو ذلك . وسيأتى الكلامُ على ضابطِ ذلك ومعناه فى الكلامِ على الرئيسِ فى الألقابِ المفردةِ فى حرفِ الراءِ فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الثالث — (رئيسُ الكعابينِ) . وحكمه فى الكلامِ على طائفةِ الكعابينِ حكمُ رئيسِ الأطباءِ فى طائفةِ الأطباءِ .

الرابع — رئيسُ الجرائحيةِ . وحكمه فى الكلامِ على طائفةِ الجرائحيةِ والمجبرين كالرئيسينِ المتقسمينِ .

الخامس — رئيسُ الحراقَةِ . وهو الذى يحكم على رجالِ الحراقَةِ السلطانيةِ ويتولى أمرها . وكان فى الزمنِ المتقسمِ يقالُ له رئيسُ الخِلافةِ جرياً على ما كان الأمرُ عليه فى الخِلافةِ الفاطميةِ بالديارِ المصريةِ .

الضرب الخامس

(ألقاب أرباب الوظائف من الأتباع والحواشي والخدم، وهم طائفتان)

الطائفة الأولى

(الأعوان، وهم نمطان)

النمط الأول

(ما تمحضت ألفاظه عربية، وفيه ثلاثة ألقاب)

الأول — مُقَدِّمُ الدَّوْلَةِ . وهو الذي يتحدَّثُ على الأعوان والمتصرفين لخدمة الوزير . والمراد المقدم على الدولة، والدولة لفظ قد خصه العرف بمعلقات الوزارة . كما يقال لناظر الدواوين ناظر الدولة على ما تقدم ذكره .

الثاني — مُقَدِّمُ الخَاصِّ . وهو المتحدِّث على الأعوان والمتصرفين بديوان الخاص المختص بالسلطان، كمقدم الدولة بالنسبة إلى أعوان الوزارة .

الثالث — مُقَدِّمُ التُّرُكَّانِ . ويكون بالبلاد الشامية والحلبية متحدثاً على طوائف التُّرُكَّانِ الذين يُقَدِّمُ عليهم .

النمط الثاني

(ما تمحض لفظه عجمياً، وفيه لقب واحد)

وهو (البرددار) . وهو الذي يكون في خدمة مباشري الديوان في الجملة متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه، كما في مقدم الدولة والخاص المقدم ذكرهما . وأصله

(فَرْدَادَار) بقاء في أوله وهو مركب من لفظين فارسيين : أحدهما فَرْدَا ، ومعناه الستارة . والثاني دار ، ومعناه ممسك ، والمراد «ممسك الستارة» وكأنه في أول الوضع كان يقف بباب الستارة ثم نقل إلى الديوان .

الطائفة الثانية

(أرباب الخدم ، وهم نَمَطَان)

النمط الأول

(مايُضاف إلى لفظ الدار كما تقدم في أرباب الشيوف ، وهي سبعة ألقاب)
الأول — الشَرَبْدَار . وهو لقب على الذي يتصدى للخدمة بالشراب خاناه ، التي هي أحد البيوت . وهو مركب من لفظين : أحدهما شَرَاب وهو ما يُشرب من ماء وغيره ، سحذفوا الألف فيه استئقلا . والثاني دار ، ومعناه ممسك على ما تقدم ، والمعنى «ممسك الشراب» .

الثاني — الطَّسْتِ دَار . وهو لقب على بعض رجال الطَّسْتِ خاناه . وهو مركب من لفظين أحدهما طَّسْتِ بفتح الطاء وإسكان السين المهملة في اللغة العربية ، وهو الذي يُغسل فيه ، ويجمع على طُسُوس بسينين من غير تاء ، ويقال فيه أيضا طَسَّ بإسقاط التاء ، إلا أن العامة أبدلوا السين المهملة فيه بشين معجمة . والثاني دار ومعناه ممسك على ما تقدم ، فيكون معناه «ممسك الطست» .

الثالث — البازِ دَار . وهو الذي يحمل الطيور الجوارح المعتدة للصيد على يده . وحُصِّصَ باضافته إلى الباز الذي هو أحد أنواع الجوارح دون غيره لأنه هو المتعارف بين الملوك في الزمن القديم ، على ما سيأتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابع — الحَوْنَدَار . وهو الذى يتصدى لخدمة طُيُور الصيْد من الكَرَايِيَّ والْبَلْسُونات ونحوها ، ويحملها إلى موضع تعليم الجَوَارِح . وأصله « حَيَوَانُ دَارٍ » أطلق الحيوان فى عُرفهم على هذا النوع من الطيور، كما أُطلق على مَنْ يتعانى معامل الفُروج الحَيَوَانِيَّ .

الخامس — المَرْقَدَار . وهو الذى يتصدى لخدمة ما يحوز المَطْبِخُ وحفظه . سُمِّيَ بذلك لكثرة معاطاته لمرق الطعام عند رفع الحَيَوَان ونحو ذلك .

السادس — المِحَقَّاد بكسر الميم . وهو الذى يتصدى لخدمة المِحَقَّة . وهو مركب من لفظين . أحدهما مِحَقَّة فحذفت التاء منها أستنقلا ، والثانى دار ، ومعناه ممسكٌ على ما تقدم ، فيكون بمعنى « ممسك المِحَقَّة » .

الفصل الثانى

(ملا يتقيد بالإضافة إلى دار ولا غيرها، وفيه خمسة ألقاب)

الأول — المِهْتَارُ . وهو لقبٌ واقع على كبير كل طائفة من ذلَمَان البيوت ، كِمِهْتَار الشَّرَاب خاناه، ومِهْتَار الطُّسْت خاناه، ومِهْتَار الرِّكَّاب خاناه . ومِهْ بكسر الميم معناه بالفارسية الكبير، وتار بمعنى أفعال التفضيل ، فيكون معنى المِهْتَار الأَكْبَر .

الثانى — ألبَابَا . وهو لقبٌ عامٌ لجميع رجال الطُّسْت خاناه ممن يتعاطى الغسل والصَّقل وغير ذلك . وهو لفظ رومى ، ومعناه أبو الآباء على ماسياتى بيانه فى لقب الباب فى الكلام على ألقاب أهل الكُفْر . وكأنه لُقِّب بذلك لأنه لما تعاطى ما فيه ترفيهُ مخدومه : من تنظيف قُاشه وتحسين هيئته أشبه الأب الشفيق فلقَّب بذلك .

الثالث - الرَّحْتَوَان . وهو لقبٌ لبعض رجال الطُّسْتِ خاناه يتعاطى الدُّمَّاشَ ، والرَّحْتُ بالفارسية اسمٌ للقماش ، والواو والألف والنون بمعنى ياء النسب ، ومعناه «المتولَّى لامر القماش» .

الرابع - الخِوَان سَلَار . وهو لقبٌ مختصٌّ بكبير رجال المَطْبَخِ السلطانيّ ، القائم مقام المهتمار في غير المَطْبَخِ من البيوت . وهو مركَّبٌ من لفظين : أحدهما خِوَان ، وهو الذي يؤكّل عليه . قال الجوهريّ : وهو معرَّبٌ . والثاني سَلَار ، وهي فارسية ومعناها المقدم وكأنه يقول مقدم الخِوَان . والعامّة تقول : «إخوان سَلَار» بألف في أوّله وهو لحن .

الخامس - المِهْمَرْد . وهو الذي يتصدّى لحفظ قُماش الجَمَالِ أو قُماش الإصطبل والسقائين ونحو ذلك . ومعناه باللغة الفارسية «الرجل الكبير» فه اسمٌ للكبير، ومرد اسمٌ للرجل .

السادس - (الغَلَام) . وهو الذي يتصدّى بخدمة الخيل ، ويجمع على غِلْمَانٍ وغلّامة بكسر الغين وسكون اللام . وهو في أصل اللغة مخصوصٌ بالصبيّ الصغير والمملوك ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم ؛ وكانهم سمّوه بذلك لصغره في النفوس . وربما أُطلق على غيره من رجال الطُّسْتِ خاناه ونحوهم .

القسم الثاني

(من ألقاب أرباب الوظائف ألقاب أرباب الوظائف من أهل الكُفْر،
والمشهور منهم طائفتان)

الطائفة الأولى النصارى

(والمشهور من ألقاب أرباب وظائفهم ثمانية ألقاب)

الأول — الباب — بياين موحدتين مفخمتين في اللفظ . وهو لقب على القائم
بأمور دين النصارى المَلِكانيَّة بمدينة رومية . وما ذكره في "التشيف" من أنه عندهم
بمثابة القان عند التتار خطأ ظاهر : لأن الباب قائم في النصارى مقام الخليفة ،
بل به عندهم يُنَاطُ التحليل والتحرير ، وإليه مرجعهم في أمر دياناتهم بخلاف القان
فإن أمره قاصر على أمر الملك ، وأصله البابا بزيادة ألف في آخره ، والكاتب يُثَبِّتونها
في بعض المواضع ويحذفونها في بعض ، وربما قيل فيه البابه بابدال الألف هاء .
وهي لفظة روميَّة معناها أبو الآباء . وأول ما وُضِعَ هذا اللقب عندهم على بطرك
الإسكندرية الآتي ذكره فيما بعد ، وذلك أن صاحب كل وظيفة من وظائفهم
الآتي ذكرها كان يخاطب من فوقه منهم بالأب ، فالتبس ذلك عليهم فاخترعوا
لبطرك الإسكندرية البابا دفعا للاشتراك في اسم الباب ، وجعلوه أبا لكل ، ثم رأوا
أن بطرك رومية أحق بهذا اللقب : لأنه صاحب كرسي بطرس كبير الحواريين
ورسول المسيح عليه السلام إلى رومية ، وبطرك الإسكندرية صاحب كرسي
مُرْقُص الإنجيلي تلميذ بطرس الحواري المتقدم ذكره فنقلوا اسم البابا إلى بطرك
روميَّة ، وأبقوا اسم البطرك على بطرك الإسكندرية .

الثانى - البَطْرُكُ - بباء موحدة مفتوحة ثم طاء مهملة ساكنة وبعدها راء مهملة مفتوحة ثم كاف فى الآخر . وهو لقب على القائم بأمر دين النصارىة . وكراسى البطاركة عندهم أربعة : كرسى برومية وهو مقر الباب المتقدم ذكره ، وكرسى بأنطاكية من بلاد العواصم ، وكرسى بالقدس ، [وكرسى بالإسكندرية] ^(١) وقد غلب الآن بالديار المصرية على رئيس النصارى العسقوية بالديار المصرية وهو المعبر عنه فى الزمن القديم ببطرك الإسكندرية ، ومقره الآن بالكنيسة المعلقة بالقسطنط على ماسياتى ذكره فى موضعه ان شاء الله تعالى .

وأصله البَطْرِيْرُكُ بزيادة ياء مشناة تحت مفتوحة بعدها راء ساكنة وهو لفظ رومى معناه ورأيت فى ترسل العلاء بن موصلايا كاتب القائم بأمر الله العباسى فى تقليد أنشأه "الفَطْرُكُ" ببدال الباء الموحدة فاء . وقد تقدم أن هذا البطرك هو الذى كان يدعى أولا بالباپا ثم نُقل ذلك إلى بابا رومىة ، على أن بطرك الإسكندرية لم يكن فى الزمن المتقدم مختصا ببطرك العسقوية بل كان تارة يكون يعقوبيا وتارة يكون ملكانيا وإنما حدث اختصاصه باليعقوبية فى الدولة الإسلامية على ما سياتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثالث - الأَسْقَفُ - بضم الهمزة والقاف . وهو عندهم عبارة عن نائب البَطْرُكِ .

الرابع - المِطْرَانُ - بكسر الميم . وهو عبارة عن القاضى الذى يفصل الخصومات

بينهم .

الخامس - القِسِّيسُ - بكسر القاف . وهو القارئ الذى يقرأ عليهم الإنجيل

والمزَامِيرَ وغيرها .

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول .

السادس - الجَاتَيْقُ - يجيم بعدها ألف ثم تاء مشناة فوق ولام ثم ياء مشناة تحت^(١)
وقاف في الآخر . وهو عندهم عبارة عن صاحب الصلاة .

السابع - الشَّاس - شين معجمة في الأول وسين مهملة في الآخر وميم
مشددة . وهو عبارة عندهم عن قيم الكنيسة .

الثامن - الرَّاهِبُ . وهو عبارة عن الذي حبس نفسه على العبادة
في الخلوة .

الطائفة الثانية اليهود

(والمشهور من ألقاب ارباب وظائفهم ثلاثة ألقاب)

الأول - الرئيس . وهو القائم فيهم مقام البُطْرُك في النصارى ، وقد تقدم
الكلام على لفظ الرئيس وأنه يقال بالهمز وتشديد الياء .

الثاني - الحَزَّان - بحاء مهملة و زاي معجمة مشددة وبعد الألف نون .
وهو فيهم بمثابة الخَطِيب يَصْعَد المِنْبَرَ ويعظهم .

الثالث - الشَّيْخُصْبُور - بكسر الشين المعجمة واللام وفتح الياء المشناة تحت
وبعدها حاء مهملة ساكنة ثم صاد مهملة مفتوحة وباء موحدة مشددة مضمومة
بعدها راء مهملة . وهو الإمام الذي يصلي بهم .

(١) نص في التماموس على جواز الفتح والكسوفيه وأورده بالياء المتلثة فلعل ما أنبته في الاصل

تصحيح أولته .

الجملة الثانية

(في ذكر الألقاب المرتبة على الأصول العظام من ألقاب أرباب
الوظائف المتقدمة، وهي نوعان)

النوع الأول

(ألقاب الخلفاء المرتبة على لقب الخليفة، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ماجرى منها مجرى العموم، وهو لقبان)

الأول — أمير المؤمنين . وهو لقب عام للخلفاء . وأول من لقب به منهم عمر
أبن الخطاب رضى الله عنه فى أثناء خلافته ، وكانوا قبل ذلك يدعون أبا بكر الصديق
رضى الله عنه بخليفة رسول الله ، ثم دعوا عمر بعده لابتداء خلافته بخليفة
رسول الله .

وأختلف فى أصل تلقيبه بأمر المؤمنين فروى أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكتاب"
بسندده إلى أبى وبرة ، أن أصل تلقيبه بذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا
يجلدان فى الشراب أربعين ، قال فبعثنى خالد إلى عمر فى خلافته أسأله عن الجلد
فى الشراب فبعثنى ، فقلت : يا أمير المؤمنين إن خالدًا بعثنى إليك — قال فيم ؟ قلت :
إن الناس قد تخافوا العقوبة وأنهدموا فى النجر فما ترى فى ذلك فقال عمر إن حوله
ما ترون فى ذلك فقال على نرى يا أمير المؤمنين ثمانين جلدة فتبيل ذلك عمر فكان
أبو وبرة ثم على بن أبى طالب أول من لقبه بذلك .

وذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" أن أصل ذلك أن عمر رضى الله عنه بعث إلى عامله بالعراق أن يرسل إليه رحلين عارفين بأموار العراق يسألها عما يريد فأنفذ إليه لبيد بن ربيعة وعدى بن هشام فلما وصلا المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقال له : أستأذن لنا على أمير المؤمنين - فقال لهما عمرو : أنما أصبتما اسمه ! ثم دخل على عمر فقال السلام على « أمير المؤمنين » - فقال : ما بدالك يا ابن العاص ؟ لتخرجن من هذا القول ! فقص عليه القصة فأقره على ذلك ، فكان ذلك أول تليسه بأمر المؤمنين ، ثم استقر ذلك لقباً على كل من ولي الخلافة بعده أو أدعاهم خلا خلفاء بني أمية بالاندلس فإنهم كانوا يخاطبون بالإمارة فقط إلى أن ولي منهم عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله ، بن عبد الرحمن ، وهو الثالث عشر من خلفائهم إلى زماننا .

الثانى - عبد الله ووليه . وهو لقب عام للخلفاء أيضا ، إذ يكتب في نعت الخليفة في المكاتب ونحوها « من عبد الله ووليه أبى فلان فلان أمير المؤمنين » فأما عبد الله فأول من تلقب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، فكان يكتب في مكاتبته « من عبد الله عمر » ولم ذلك من بعده من الخلفاء حتى إن المأمون كان اسمه عبد الله فكان يكتب من « عبد الله عبد الله بن هارون » مكرراً لعبد الله على الأسم الخاص واللقب العام ، وأما إردافها بقوله « ووليه » فأحدث بعد ذلك .

(١) كذا في الأصول ومثله في الضوء وفى مروج الذهب عدى بن حاتم وهو الصواب .

الصف الثاني

(ألقاب الخلافة الخاصة بكل خليفة)

والمتلقَّبون بألقاب الخلافة خمس طوائف :

الطائفة الأولى

(خلفاء بني العباس)

قد تقدّم في الجملة الثانية من الطرف الأول من هذا الفصل في الكلام على أصل وضع الألقاب والتعوت أن خلفاء بني أمية لم يتلقَّب أحدٌ منهم بألقاب الخلافة ، وأن ذلك أبتدئ بابتداء الدولة العباسية فتلقَّب إبراهيم بن محمد حين أخذت له البيعة بـ «الإمام» وأن الخلف وقع في لقب السفاح : فقيل «القائم» وقيل «المهتدي» وقيل «المرتضى» ، ثم تلقَّب أخوه بعده بـ «المنصور» وأستقرت الألقاب جارية على خلفائهم كذلك إلى أن ولي الخلافة أبو إسحاق إبراهيم بن الرشيد بعد أخيه المأمون فتلقَّب بـ «المتعصم بالله» فكان أول من أضيف في لقبه من الخلفاء اسم الله . وجرى الأمر على ذلك فيما بعده من الخلفاء ، كـ «الواثق بالله» و «المتوكل على الله» و «الطائع لله» و «القائم بأمر الله» و «الناصر لدين الله» وما أشبه ذلك من الألقاب المتقدمة في الكلام على ترتيب الخلافة في المقالة الثانية .

وكان من عادتهم أنه لا يتلقَّب خليفة بلقب خليفة قبله إلى أن صارت الخلافة إلى الديار المصرية فترادفوا على الألقاب السابقة ، واستعملوا ألقاب من سلف من الخلفاء على ما تقدمت الإشارة إليه في الكلام على ترتيب الخلفاء ، إلى أن تلقَّب أمير المؤمنين محمد بن أبي بكر خليفة العصر ، بـ «المتوكل على الله» وهو من أوائل ألقاب الخلافة العباسية .

الطائفة الثانية

(خلفاء بني أمية بالأندلس)

(حين غلب بنو العباس على الأمر بالعراق ، وأنزعوا الخلافة منهم)

وأول من ولي الخلافة منهم بالأندلس « عبد الرحمن » بن معاوية ، بن هشام ،
 ابن عبد الملك ، بن مروان ، المعروف (بالداخل) لدخوله الأندلس في سنة تسع وثلاثين
 ومائة على ماسياتي ذكره في مكتبة صاحب الأندلس . ولم يتلقب بلقب من
 ألقاب الخلافة جرياً على قاعدتهم الأولى في الخلافة . وجرى على ذلك من بعده من
 خلفائهم إلى أن ولي منهم « عبد الرحمن » بن محمد ، المعروف بـ «المقبول» فنلقب
 بـ «الناصر» بعد أن مضى من خلافته تسع وعشرون سنة ، وتبعه من بعده منهم
 على ذلك إلى أن ولي عبد الرحمن بن محمد ، بن عبد الملك ، بن الناصر عبد الرحمن
 المتقدم ذكره ، فنلقب بـ «المرتضى بالله» وهو أول من أضيف في لقبه بالخلافة منهم
 اسم الله ، مضاهياً لبني العباس ، وذلك في حدود الأربعمائة . وبقى الأمر على ذلك
 في خلفائهم إلى أن كان آخرهم هشام بن محمد فنلقب بـ «المعتمد بالله» وأنقرضت
 خلافتهم من الأندلس بعد ذلك بانقراضه في سنة ثمان وعشرين وأربعمائة .

الطائفة الثالثة

(الخلفاء الفاطميون ببلاد الغرب ثم بالديار المصرية)

وأول ناجم نجم منهم ببلاد الغرب (أبو محمد عبيد الله) في سنة ست وتسعين
 ومائتين من الهجرة ، وتلقب بـ «المهدي» ثم تلقب بنوه من بعده بألقاب الخلافة
 المضاف فيها اسم الله كـ «القائم بأمر الله» و « المنصور بالله » إلى أن كان منهم

المعز لدين الله أبو تميم معد، وهو الذي انتزع الديار المصرية من أيدي الأخشيدية، وصار إليها في سنة تسع وخمسين وثلاثمائة . وتداول خلفاؤهم بها مثل هذه الألقاب إلى أن كان آخرهم العاضد لدين الله عبد الله وأقرضت خلافتهم بالدولة الأيوبية على ما تقدم ذكره في المقالة الثانية في الكلام على ملوك الديار المصرية .

الطائفة الرابعة

(الخلفاء الموحدون الذين ملوك أفريقيا بتونس الآن من بقاياهم)

وأولهم في التلقب بألقاب الخلافة إمامهم محمد بن تومرت البربري، القائم ببلاد الغرب في أعقاب الفاطميين المتقدم ذكرهم، تلقب بـ«المهدي» وآل الأمر من جماعته إلى الشيخ أبي حفص أحد أصحابه، ومن عقبه ملوك تونس المتقدم ذكرهم فلم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة إلى أن ولي منهم أبو عبد الله محمد بن أبي زكريا يحيى فتلقب بـ«المستنصر بالله» وتبعه من بعده من ملوكها على التلقب بألقاب الخلافة إلى زماننا . ولذلك قال المقر الشمابي بن فضل الله في كتابه «التعريف» في الكلام على مكتبة صاحب تونس «لا يدعى إلا الخلافة» وشبهتهم في ذلك أنهم يدعون أنسابهم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهو من صميم قریش .

الطائفة الخامسة

(جماعة من ملوك الغرب ممن لا شبهة لهم في دعوى الخلافة)

كملوك الطوائف القائمين بالأندلس بعد أقراض الدولة الأموية منها : من بنى عبّاد وبنى هود وغيرهم حيث كانوا يلتقبون بـ«المعتمد» وغيره .

النوع الثاني

(ألقابُ الملوكِ المُنحصَةُ بالملك ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(الألقابُ العامةُ ، وهي التي تقع بالعموم على ملوكِ ممالكٍ مخصوصةٍ
تصدقُ على كلِّ واحدٍ منهم ، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الألقابُ القديمةُ ، والمشهور منها ألقابُ ستِّ طوائف)

الطائفة الأولى

(التَّبَاعَةُ ملوكِ اليمن)

كان يقال لكلِّ منهم «تَبَعٌ» . قال السَّهْبِيُّ في «الروض الأَنْفِ» : سُمُّوا بذلك
لأنَّ الناسَ يَدَّبَعُونَهُمْ ، وواقفته الزُّخَيْرِيُّ على ذلك . وقال ابن سيده في «المحکم» :
سُمُّوا بذلك لأنهم يَتَّبَعُ بعضهم بعضاً . قال السَّعُودِيُّ في «مروج الذهب» :
ولم يكونوا يُسَمُّوا أحداً منهم تَبَعاً حتَّى يملك اليمنَ والشَّحْرَ وحضرموتَ . وقيل :
حتَّى يتبعه بنو جُشَمَ بن عبد شمس ، أما إذا لم يكن كذلك فإنما يسمَّى ملكاً . وأقول
من لُقِّب منهم بذلك «الحارثُ بن ذى شمر» وهو الرَّائِسُ . ولم يزل هذا اللقب واقفاً
على ملوكهم إلى أن زالت مملكتهم بملك الحبشة اليمن .

الطائفة الثانية

(ملوك القُرس ، وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى — الفيشدادية . كان يقال لكل من ملك منهم قيشداد ، ومعناه « سيرة العدل » وأولهم كيومرث ، والقُرس كلهم مطبقون على أنه مبدأ نسل البَشَر ، وكأنهم يريدون به آدم عليه السلام .

وحكى الغزالي في "نصيحة الملوك" : أن كيومرث ابنُ آدم لُصِبهُ ، وأن آدم عهد إلى شيثٍ بأمر الدين وإلى كيومرث بأمر الملك . وبعضهم يقول إنه كَامِرُ ابنُ يافث بن نوح عليه السلام .

الطبقة الثانية — (الكبيانية) ^(١) . سُمُوا بذلك لأن في أول أسم كل واحد منهم لفظ كي ، وأولهم (كيسان) .

الطبقة الثالثة — (الأشعانية) . كان يقال لكل منهم « أشغان » ^(٢) . قال المسعودي :
بالعين المعجمة ويقال بالكاف .

الطبقة الرابعة — (الأكاسرة) . كان يقال لكل منهم « كسرى » بكسر الكاف وفتحها ، وربما قيل فيهم « الساسانية » نسبةً إلى جدِّهم ساسان بن أردشير بن كي بهمن . وأولهم أردشير بن بابك وآخروهم يزديرد الذي أنقض ملكهم بانتزاع المسلمين الملك من يديه في خلافة عثمان رضي الله عنه .

(١) في العبرج ٢ ص ١٥٩ "الكبيانية"

(٢) في الاصول بدون نون والتصحيح من المسعودي .

الطائفة الثالثة

(ملوك مصر من بعد الطوفان من القبط)

كان كلُّ مَنْ ملكها منهم يسمّى « فِرْعَوْنَ » قال إبراهيم بن وصيف شاه في « كتاب العجائب » : والقبط تزعم أن التراعنة من ملكها من العاقلة دون القبط ، كالوليد بن دومغ ونحوه . ويقال : إن أول من تسمى بهذا الاسم منهم (فرعان) آخر ملوكها قبل الطوفان ثم تسمى من بعده بـ « فِرْعَوْنَ » . قال المؤيد صاحب حاة في تاريخه : ولم أدر لأى معنى سُمِّي بذلك . والمذكور في القرآن منهم هو الذى بعث موسى عليه السلام في زمانه .

الطائفة الرابعة

(ملوك الروم ، وهم طبقات)

الطبقة الأولى منهما ليس لهم لقبٌ يعمُّ كلَّ ملك ، بل لكلِّ ملك منهم اسمٌ يخصّه .

الطبقة الثانية — القياصرة . كان يقال لكلِّ مَنْ ملك منهم قيصر . وأصل هذه اللفظة في اللغة الرومية جاشر بجيم وشين معجمة فمرتبتها العرب قيصر ولها في لغتهم معنيان : أحدهما الشعر ، والثانى الشيء المشقوق .

وآخِلَف في أول مَنْ تلقب بهذا اللقب منهم : فقيل أغانيوش أول ملوك الطبقة الثانية منهم . سُمِّي بذلك لأن أمه ماتت وهو حمل في بطنها فسقَّ جوفها وأخرج فأطلق عليه هذا اللفظ أخذًا من معنى السقَّ ، ثم صار علمًا على كلِّ مَنْ ملكهم بعده، وقيل أول مَنْ لقب بذلك يوليوش الذى ملك بعد أغانيوش المذكور، وقيل

أول من نُقِبَ به أَشْطَاشٌ ، وَأَخْتَلَفَ فِي سَبَبِ تَسْمِيَّتِهِ بِذَلِكَ : فَقِيلَ لِأَنَّ أُمَّهُ مَاتَتْ وَهُوَ فِي جَوْفِهَا فَشَقَّ عَنْهُ وَأَخْرَجَ كَمَا تَقَدَّمَ الْقَوْلُ فِي أَغَانِيَوْشَ ، وَقِيلَ لِأَنَّهُ وُلِدَ وَلَهُ شَعْرَتَانِ فَأُلْقِبَ بِذَلِكَ أَخْذَا مِنْ مَعْنَى الشَّعْرِ كَمَا تَقَدَّمَ . وَلَمْ يَزَلْ هَذَا اللَّقْبُ جَارِيًا عَلَى مَلُوكِهِمْ إِلَى أَنْ كَانَ مِنْهُمْ هِرَقْلُ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَزَعَمَ الْقَاضِي شَهَابُ الدِّينِ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ "التَّعْرِيفُ" فِي الْكَلَامِ عَلَى مَكَاتِبِ الْأَدْفُونِشِ أَنَّ هِرَقْلَ لَمْ يَكُنِ الْمَلِكَ نَفْسَهُ وَإِنَّمَا كَانَ مَدَسِّمَ الشَّامِ لَقَيْصَرَ ، وَقَيْصَرَ بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ لَمْ يَرْمُ ، وَإِنَّمَا كَتَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى هِرَقْلَ لِقُرْبِهِ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ وَبَقِيَ هَذَا اللَّقْبُ عَلَيْهِمْ بَعْدَ الْإِسْلَامِ إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُ مَنْ تَلَقَّبَ بِهِ مِنْهُمْ (إِسْتِيرَاقُ قَيْصَرَ) مَلِكُ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي خِلَافَةِ الْمَأْمُونِ بْنِ الرَّشِيدِ .

الطائفة الخامسة

(ملوك الكنعانيين بالشام)

كَانَ كُلُّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ يُقَبُّ «بِجَالُوتَ» إِلَى أَنْ كَانَ آخِرُهُمْ جَالُوتَ الَّذِي أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ بِقَوْلِهِ ﴿ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ .

الطائفة السادسة

(ملوك الحبشة)

كَانَ كُلُّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ يُقَبُّ بِ«النَّجَاشِيِّ» وَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ لِقَبَا عَلَى مَلُوكِهِمْ إِلَى أَنْ كَانَ مِنْهُمْ النَّجَاشِيُّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَلَّى عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ مَوْتِهِ . وَهُوَ الَّذِي هَاجَرَ إِلَيْهِ مِنْ هَاجِرٍ مِنَ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمُ الْمُهْجَرَةُ الْأُولَى . وَأَسْمُهُ صَحْمَةٌ وَيُقَالُ أَحْمَمَةٌ ، وَمَعْنَاهُ بِالْعَرَبِيَّةِ عَظِيمَةٌ .

الضرب الثاني

(الألقاب المستحدثة، والمشهور منها ألقاب ست طوائف)

الطائفة الأولى

(ملوك فرغانة)

كان كلُّ مَنْ ملك منهم يلقب «الأخشيدي» ولذلك لقب الراضي بالله العباسي محمد بن طغج صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية بـ«الأخشيدي» لأنه كان فرغانياً.

الطائفة الثانية

(ملوك أشروسنة)

كان كلُّ مَنْ ملكها يقال له «الأفشين» . قال في «ذخيرة الكتاب» :
وبه لقب المعتصم بالله حيدر بن كاوس بـ«الأفشين» لأنه أشروسني .

الطائفة الثالثة

(ملوك الجلائقة من القرمخ)

الذين قاعدة ملكهم طليطلة وبرشالونه من الأندلس . يقال لكلِّ مَنْ ملك منهم «أدفونس» بدال مهمة ثم فاء بعدها واو ثم نون مفتوحة وشين معجمة في آخره . وهذا اللقب جارٍ على ملوكهم إلى زماننا ، وهو الذي تُسميه العامة «الغش» .

الطائفة الرابعة

(ملوك فرنسة، ويقال فرنجية بالجيم)

وهو ملك الأرض الكبيرة بظاهر الأندلس . يقال لكل من ملكها «ريدافرنس»
ومعنى ريد بلغتهم الملك ، والأفرنس اسم للجنس الذين يملك عليهم . والمعنى ملك
الأفرنس . وهو الذى تسميه العامة «الفرنسيس» وهذا اللقب جار على ملوكهم
إلى الآن .

الطائفة الخامسة

(ملوك البندقية من بلاد الفرنج)

كل من ملك منهم يسمونه «دوك» بالكاف المشوبة بالجيم فيقال :
«دوك البندقية» . وهذا اللقب جار على ملوكهم إلى آخر وقت .

الطائفة السادسة

(ملوك الحبشة فى زماننا)

كل من ملك منهم يقال له «حطى» بفتح الحاء المهملة وكسر الطاء المهملة
المشددة . وهذا اللقب يذكر فى مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية على ماسياتى ذكره
فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(من النوع الثاني الألقاب الخاصة)

وهي التي يُحَصُّ كُلُّ ملكٍ من ملوك الإسلام منها بلقبٍ ، وهو المعبر عنه عند الكُتَّاب باللقب الملوكي . ويختلف الحال فيه باختلاف البلاد والزمان .

فأما بلاد المشرق فأول أفتتاح تلقب ملوكهم بالإضافة إلى الدولة ، وكان أوَّل من تلقب منهم بذلك بنو حمدان ملوك حلب ، فلقب أبو محمد الحسن بن حمدان في أيام المتقي لله «ناصر الدولة» وتلقب أخوه أبو الحسن علي «سيف الدولة» وعلى ذلك جرى الحال في ملوك بني بويه على ما تقدم ذكره في الكلام على أصول الألقاب ، وتوالى ذلك فيهم إلى اقراض دولتهم . ثم وقع التلقب بالسلطان فيما بعدهم من الدول كدولة بني سُبُكْتِكِين ، وبني ساسان ، وبني سلجوق ، إلى أن غلبت التتار على بلاد المشرق فجرت ملوكهم في التلقب بألقاب على عادة ملوكهم .

وأما بلاد المغرب : فأوائل ملوكهم على عموم ملوكهم جميعها وخصوصه ببعضها ما بين مدج للخلافة ، كبنى أمية بالأندلس ، وأتباع المهدي بن نُومِرْت ، فيدور أمر أحدهم بين التلقب بألقاب الخلافة والاقْتِصَار على اسمه أو كنيته ، وما بين غير مدج للخلافة ، فَيَقْتَصِر على اسمه أو كنيته فقط إلى أن غلب يوسف بن تاشفين في أوائل دولة المرابطين من المثلثين من البربر على بلاد المغرب والأندلس ، ودان بطاعة الخلافة العباسية ببغداد ، فتلقب بـ «أمير المسلمين» خضوعاً عن أن يتلقب بـ «أمير المؤمنين» الذي هو من خصائص الخلافة ، وتبعه على ذلك من جاء بعده من ملوك العرب من البربر : فتلقب به بنو صرين : ملوك فاس ، وبنو عماد الواد ملوك تلمسان ، وبق الأمازيغ على ذلك إلى أن ملك فاس وما معها من بلاد المغرب

ابوعنَّان من أحفاد السلطان ابى الحسن، فتلقب بـ «أمير المؤمنين» وصارت مكاتبته
تروِّد إلى الديار المصرية بذلك، وتبعه من بعده من ملوكهم على ذلك .
أما ملوك تونس من بقايا الموحديين، فلم يزالوا يلقَّبون بالقب الخليفة على ما سبق
ذكره في الكلام على ألقاب الخلفاء .

وأما الديار المصرية، فخصي الأمر فيها على نواب الخلفاء من حين الفتح الإسلامي
وإلى انقراض الدولة الأُخشيديَّة ولم يتلقَّب أحد منهم بلقب من الألقاب الملوكية .
ثم كانت دولة الفاطميين فتلقَّبوا بألقاب الخلفاء على ما مر ذكره . ولم يتلقَّب أحد
من وزرائهم أرباب السيوف لابتداء أمرهم بالألقاب الملوكية إلى أن ولي الوزارة
المستنصر بدر الحامليّ وعظم أمر الوزارة، وصارت قاعة مقام السلطنة الآن فتلقب
بـ «أمير الجيوش» وتلقب أبنته في وزارته بعده بـ «الأفضل» وتلقب ابن السَّار بعد
ذلك بـ «العاذل» وتلقب ابن البطاحي وزير الأمر بـ «المأمون» ثم وُزِّر بعد ذلك
الحافظ بهرام الأرميني النصراني فتلقب بـ «تاج الدولة» ثم وُزِّر بعده وزير اسمه
رضوان، فلقبه بـ «الملك الأفضل» . قال المؤيد صاحب حاة : وهو أوَّل من لُقِّب
من وزرائهم بالملك، وجرى الأمر على ذلك في وزارتهم حتى كان منهم الملك الصالح
طلَّاح بن رزيك وزير الفائز ثم العاضد، ثم وُزِّر للعاضد أخرا أسد الدين شيركوه عم
السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ولُقِّب بـ «الملك المنصور» ثم وُزِّر له بعده
ابن أخيه صلاح الدين، فلقب بـ «الملك الناصر» ثم استقلَّ بالملك بعد ذلك، وبقى
في السلطنة على لقبه الأوَّل . وتداول ملوك الدولة الأيووية بعده مثل هذه الألقاب :
كالمملك العزيز بن السلطان صلاح الدين، والمملك العادل أبي بكر بن أيوب، والمملك
الكامل محمد أبنته، والأفضل صاحب دمشق، والمعظم صاحب الكرك، وغيرهم إلى
حين انقراض دولتهم ودخول الدولة التركيَّة . فتلقب أيك التركمان أوَّل ملوكهم

بـ«الملك المُعزِّ» وأستمر التلقب بمثل ذلك في الدولة التركية إلى ان صارت المملكة
 آخرًا إلى الظاهر برقوق، ثم ابنه الناصر فرج، وهم على ذلك. وعلى نحو ذلك ملوك
 البلاد المجاورة لهذه المملكة: كاردین، وحصن كيفًا ونحوهما .

الجملة الثالثة

(في الألقاب المنفردة على الأسماء، على ما استقر عليه الحال من التلقب
 بالإضافة إلى الدين، وهي على أربعة أنواع)

النوع الأول

(ألقاب ارباب السيف، وهم صفات)

الصنف الأول

(ألقاب الحُند من التُّرك ومن في معناهم)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْغَالِبَ فِي أَلْقَابِ التُّرْكِ مِنَ الْحُنْدِ التَّلْقِيبُ بِـ«سَيْفِ الدِّينِ» لِمَا فِيهِ مِنْ
 مَنَاسِبَةٍ حَالِمَةٍ وَأَتَسَاهِمُ إِلَى الْقُوَّةِ وَالشَّجَاعَةِ : كَيَبَغَا، وَمَنْكَلِي بَغَا، وَبِي نَجَا،
 وَأَسْنِ نَجَا، وَتَغْرِي بَرْدِي، وَتَغْرِي بَرْمَشْ، وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَقَدْ يَخْرُجُ ذَلِكَ فِي بَعْضِ
 الْأَسْمَاءِ فَلَقَّبَ بِأَلْقَابٍ خَاصَّةٍ، كَمَا يَلْقَبُونَ طَيْبَغَا، وَالطَّنْبَغَا، وَقَرَابِغَا «عَلَاءَ الدِّينِ»
 وَأَيْدُمْرُ وَيَيْدُمْرُ «عَمَّرَ الدِّينَ» وَلَا حِينَ «حُسَامُ الدِّينِ» وَأُرْسَلَانُ «بِهَاءِ الدِّينِ»
 وَأَقْوَشُ «جَمَالَ الدِّينِ» وَسَنْجَرُ «عَلَّمَ الدِّينَ» وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَفِي الْمَوْلَدِينَ يَقُولُونَ
 فِي لِقَابِ مُحَمَّدٍ : «نَاصِرُ الدِّينِ» وَلِقَابِ أَبِي بَكْرٍ «سَيْفُ الدِّينِ» وَلِقَابِ عُمَرَ
 «رُكْنُ الدِّينِ» وَلِقَابِ عَلِيِّ «عَلَاءُ الدِّينِ» وَلِقَابِ إِبْرَاهِيمَ «صَارِمُ الدِّينِ» وَلِقَابِ
 إِسْمَاعِيلَ «تَاجُ الدِّينِ» وَلِقَابِ حَسَنِ وَحُسَيْنَ «حُسَامُ الدِّينِ» وَلِقَابِ خَالِدِ
 «شُجَاعُ الدِّينِ» وَنَحْوَ ذَلِكَ .

الصف الثاني

(ألقاب الخُدَّامِ الخِصْيَانِ المعبر عنهم الآن بالطَّوَّاشِيَّة ،

وفي زمن الفاطميين بالأُسْتَاذِيْنَ)

ولهم ألقابٌ تخصهم : فيقولون في هلال ومرجان « زَيْنُ الدِّينِ » وفي دينارٍ
« عَزُّ الدِّينِ » وفي بَشِيرٍ « سَعْدُ الدِّينِ » وفي شَاهِيْنَ « فَارِسُ الدِّينِ » وفي جَوْهَرٍ
« صَنِيُّ الدِّينِ » وفي مِثْقَالٍ « سَابِقُ الدِّينِ » وفي عَنَبٍ « شُجَاعُ الدِّينِ » وفي أُؤُلُوْ
« بَدْرُ الدِّينِ » وفي صَوَّابٍ « شَمْسُ الدِّينِ » وفي مُحْسِنٍ « حَمَّالُ الدِّينِ » ونحو ذلك .

النوع الثاني

(ألقابُ اربابِ الأَقْلَامِ ، وهي على صنفين)

الصف الأول

(ألقابُ القضاة والعلماء)

قد كان في الزمن الأول لغالب أسمائهم ألقابٌ لا يتعدونها ، كقولهم في محمد :
« شَمْسُ الدِّينِ » وفي أحمد « شِهَابُ الدِّينِ » وفي أبي بكر « زَيْنُ الدِّينِ » وفي عمرٍو
« سِرَاحُ الدِّينِ » وفي عثمان « نَخْرُ الدِّينِ » وفي عليٍّ « نُورُ الدِّينِ » وفي يوسفَ
« حَمَّالُ الدِّينِ » وفي عبد الرحمن « زَيْنُ الدِّينِ » وفي إبراهيم « بُرْهَانُ الدِّينِ » ونحو ذلك .
ثم ترك أعيانهم ذلك لابتدائه بكثرة الاستعمال ، وهدأوا إلى ألقابٍ آخرَ ابتدعوها على
حَسَبِ أغراضهم فقالوا في محمد « بَدْرُ الدِّينِ » و « صَدْرُ الدِّينِ » و « عَزُّ الدِّينِ »
ونحوها ، وفي أحمد « بهاءُ الدِّينِ » و « صدرُ الدِّينِ » و « صلاحُ الدِّينِ » وفي عليٍّ
« تَقِيُّ الدِّينِ » وفي عبد الرحمن « جَلَّالُ الدِّينِ » ونحو ذلك ، ولم يتوقفوا في ذلك على
لقبٍ مخصوص ، بل صاروا يقصدون المخالفة لما عليه جأدة من تقدمهم في ذلك .

الصف الثاني

(ألقاب الكُتَّاب من القِبْط)

ولهم ألقاب تخصُّهم أيضا : فيقولون في عبد الله « شمس الدين » وفي عبد الرازق « تاج الدين » وربما قالوا « سعد الدين » وفي إبراهيم « علم الدين » وفي ماجد « مجد الدين » وفي وهبة « تقي الدين » ونحو ذلك .

النوع الثالث

(ألقاب عامة الناس من التجار والعلماء السلطانية ونحوهم)

وهم على سَنَنِ النُّقُوءَاءِ فِي ألقَابِهِمْ ، وَرَبْمَا مَالٌ مِّنْهُمُ فِي الخِدْمَةِ السُّلْطَانِيَّةِ إِلَى التَّقِيْبِ بِألقَابِ الخِنْدِ .

النوع الرابع

(ألقاب أهل الذمَّة من الكُتَّاب والصَّيَّارِفِ)

ومَن فِي مَعْنَاهُمْ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى

وَقَدْ أَصْطَلَحُوا عَلَى ألقَابٍ يَتَلَقَّبُونَ بِهَا عَالِمِيهَا مُصَدَّرَةً بِالشَّيْخِ ؛ ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَجْرِي عَلَى الرِّسْمِ الْأَوَّلِ فِي التَّقِيْبِ بِالإِضَافَةِ إِلَى الدَّوْلَةِ فَيَتَلَقَّبُ بِوَلِيِّ الدَّوْلَةِ وَنَحْوِهِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ يَحْدَفُ المِضَافَ إِلَيْهِ فِي الجُمْلَةِ وَيَعْرِفُ بِالألقَابِ بِالألفِ وَاللامِ فَيَقُولُونَ

(١) لعل هذا بعد إسلامهم كما يدل عليه ما بعد في النوع الرابع .

« الشيخ الشمسى » و « الشيخ الصفى » و « الشيخ الموفق » وما أشبه ذلك . فإذا أسلم أحدهم أسقطت الألف واللام من أول لقبه ذلك ، وأضيف إلى لفظ الدين . فيقال فى الشيخ الشمسى « شمس الدين » وفى الصفى « صفى الدين » وفى ولئ الدولة « ولئ الدين » وما أشبه ذلك . وربما كان لقب الذمى ليس له موافقة فى شئ مما يضاف إلى الدين من ألقاب المسلمين ، فيراعى فيه إذا أسلم أقرب الألقاب إليه ، مثل أن يقال فى الشيخ السعيد مثلا إذا أسلم « سعد الدين » ونحو ذلك .

الجملة الرابعة

(فى أصل وضع الألقاب الحاربية بين الكُتَّاب ، ثم آتهاها إلى غاية التعظيم ومجاورتها الحد فى التكمير)

أما أصل وضعها ثم آتهاها إلى غاية التعظيم فإن ألقاب الخلافة فى ابتداء الأمر - على جلالة قدرها وعظم شأنها - كانت فى المكاتب الصادرة عن ديوان الخلافة وإليه ، والولايات الناشئة عنه « عبد الله ووليه الإمام الفلانى أمير المؤمنين » ولم يزل الأمر على هذا الحد فى الألقاب إلى أن استولى بنو بويه من الديلم على الأمر ، وغلبوا على الخلفاء ، واستبدوا عليهم واحتجبت الخلفاء ولم يبق إليهم فيما يكتب عنهم غالبا سوى الولايات ، وفوض الأمر فى غالب المكاتب إلى وزراءهم ، وصارت الحال إذا اقتضت ذكر الخليفة كنى عنه بـ «المواقف المقدسة» و «المقامات الشريفة» و «السرة النبوية» و «الدار العزیزة» و «المحل المجدد» يعنون «بالمواقف» الأماكن التى يقف فيها الخليفة ، وكذلك المقامات ، و بالسرة الأعناق التى يجلس عليها الخليفة ، و «الدار» دار الخلافة ، و «المحل» محل الخليفة . قال فى « ذخيرة الكُتَّاب » : ولت شعرى أى شئ قصد من كنى عن أمير المؤمنين

(١) كذا هو بالراء المهملة فى الأصول وهو اصطلاح لهم .

بهذه الكليات ، وبمثل نعوتِهِ وصفاته المعظمة المكرّمة بهذه الألفاظ المحقّرات ؟
 وإذا أُسْتَجِيزَ ذلك ورضي به وأغضى عنه كان لآخر أن يقول «المجالس الطاهرة»
 و«المقاعد المقدّسة» و«المراكب المعظمة» و«الأسرة المحمّدة» وما يحرى هذا الجحري
 مما ينبو عنه السمع وينكره لاستحداثه واستجداده . على أنه لو توالى على الأسماع
 كتوالى تلك الألفاظ لم تنكره بعد إذ لا فرق . قال : ولم يستسنه النبي صلى الله
 عليه وسلم ولا آختره لنفسه ، ولا استحدثه الخلقاء من بعده . فوجه العمل
 بموضعه والافتقار لأثره ؟ وكيف يجوز أن يكنى عن الجادات ، بما يُكنى به
 عن الإنسان الحي الناطق الكامل الصفات . ولما انتهى الحال بالخلقاء إلى التعظيم
 بهذه الألقاب والنعوت المستعارة ، تداعى الأمر إلى تعظيم الملوك والوزراء بالتلقب
 بـ«المجلس العالي» و«الحضرة السامية» وما أشبه ذلك . قال : وهذا مما لم يكن
 في زمانٍ ، ولا جرى في وقتٍ ، ولا كتب به النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا استعمله
 الخلقاء بعده . ثم ترايد الحال في ذلك إلى أن كنوا بـ«المقام» و«المقر»
 و«الجناب» و«المجلس» ونحو ذلك على ما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .



وأما تجاوزتها الحد في الكثرة ، فقد تقدم أن اللقب الواحد كان يُلقب به الشخص
 دون تعدد ألقاب ، إلى أن وافت أيام القادر بالله والتلقب بالإضافة إلى الدولة
 فزيد في لقب عضد الدولة بن بويه (تاج الملة) فكان يقال «عضد الدولة وتاج الملة»
 وكان أول من زيد في لقبه على الأفراد ، وإن أبنه «بهاء الدولة» زيد في لقبه
 في الأيام القادرية أيضا «نظام الدين» فكان يقال : «بهاء الدولة ونظام الدين»

ويقال : إنه زاده من بعد بهاء الدولة لفظ « في الأمة » فكان يقال : « بهاء الدولة في الأمة ونظام الدين » ثم لقب محمود بن سُبُكْتِكِين في الأيام القادرية أيضا « يمين الدولة ، وأمين الملة ، وكهف الإسلام والمسلمين ، ولي أمير المؤمنين » وتزايد الأمر بعد ذلك في تكثير الألقاب حتى جاوز الحد وبلغ النهاية ، وصارت الكُتُب في كل زمن يَقْتَرِحُونَ ألقابا زيادةً على ما سبق إلى أن صارت من الكثرة في زماننا على ما ستقف عليه إن شاء الله تعالى فيما بعد .

الجملة الخامسة

(في بيان الألقاب الأصول وذُكِرَ معانيها وأشتقاقها ؛ وهي صنفان)

الصنف الأول

(ما يقع في المكاتب والولايات ، وهي ثمانية ألقاب)

الأول — الجانب . وهو من ألقاب ولاة العهد بالخلافة ومن في معانهم : كامام الريدية باليمن في مكاتبته عن الأبواب السلطانية . وربما وقع في الخطاب في أثناء الكتابة : فيقال « الجانب الأعلى » و« الجانب الشريف العالي » [والجانب الكريم العالي]^(١) و« الجانب العالي » مجزئا عنهما ، رتبة بعد رتبة .

ثم الجانب في أصل اللغة اسمٌ للناحية ، والمراد الناحية التي صاحبُ اللقب فيها ، كُنِيَ بها عنه تعظيما له عن أن يُتَفَوَّهَ بذكره ؛ وكذا في غيره مما يجرى هذا الجرى من الألقاب المكتوبة : كالمقام والمقر ونحوهما .

الثاني — المقام : بفتح الميم . وهو من الألقاب الخاصة بالملك . وأصل المقام في اللغة اسمٌ لموضع القيام ، أخذًا من قام يقوم مَآما . وقد ورد [في] التثنية بمعنى موضع القيام في قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد موضع قدميه

(١) الزيادة سابقة من النسخ يحتاج إليها الكلام .

في الصخرة التي كان يقوم عليها لبناء البيت ، ثم توسع فيه فأطلق على ما هو أعم من موضع القيام من محلة الرجل أو مدينته ونحو ذلك ، ومن ثم قال الزمخشري في الكلام على قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَتِينِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ إنه خاص يستعمل في معنى العموم ، يعنى أنه يستعمل في موضع الإقامة في الجملة . أما المقام بالضم فاسم لموضع الإقامة أخذاً من أقام يقم ، إذ الفعل متى جاوز الثلاثة فالوضع منه مضموم كقولهم في المكان الذي يدرج فيه مدرج كما ينه عليه الجوهري وغيره . وقد قرئ قوله تعالى : ﴿ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ بالفتح والضم جميعاً على المعنيين . قال الجوهري : وقد يكون المقام بالفتح بمعنى الإقامة والمقام بالضم بمعنى موضع القيام . وجعل من الثاني قوله تعالى : ﴿ حَسَنَاتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴾ أى موضعاً . وبالجملة فلدى يستعمله الحُكَّاب في المقام الفتح خاصة ، يكون بذلك عن السلطان تعظيماً له عن النفوة باسمه . قال المقرئ الشهابي بن فضل الله في "عُرف التعريف" : ويقال فيه «المقام الأشرف» و «المقام الشريف العالى» ورُبَّما قيل فيه «المقام العالى» ولم يتعرض لذكر «المقام الكريم» ولو عمل عليه تأسيًا بلفظ القرآن الكريم حيث قال تعالى : ﴿ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ لكان حسناً .

الثالث - المقرئ - بفتح الميم والقاف . قال في "عُرف التعريف" : ويختص بكبار الأمراء ، وأعيان الوزراء ، وكُتَّاب السُروم من يجرى مجراهم : كناظر انخاص ، وناظر الحيش . وناظر الدولة ، وكُتَّاب الدست ومن في معانهم . قال : ولا يُكْتَب لأحد من العلماء والقضاة ، وكأنه يريد العرف العام . والتحقيق في ذلك أن الحال فيه يختلف بحسب المكتوب عنه ، فلا يقال فيما يُكْتَب عن السلطان إلا لأكابر الأمراء وبعض الملوك المكاتبين عن هذه المملكة : كصاحب ماردين ونحوه .

بل قد ذكر ابن شِيث في "معالم الكتابة" أن المَقَرَّ من أجل ألقاب السلطان . وقد رأيت ذلك في العهد المكتَب بالسلطنة للمنصور قلاوون من إنشاء القاضي محي الدين بن عبدالظاهر . أما عمَّن عدا السلطان كالتُّوَاب ونحوهم فإنه يُكْتَب به لأكابر أرباب السيوف والأقلام : من القضاة والعلماء والكُتَّاب . على أن ابن شِيث في "معالم الكتابة" قد جعله من الألقاب الملوكية كالمقام ، بل جعلهما على حدِّ واحدٍ في ذلك . قال في "عرف التعريف" : ويقال فيه « المَقَرُّ الأشرف » و« المَقَرُّ الشريف العالى » و« المَقَرُّ الكريم العالى » و« المَقَرُّ العالى » مجزدا عن ذلك ، وأصله في اللغة لمَوْضِعِ الأَسْتِقْرَارِ ، والمرادُ المَوْضِعُ الذى يَسْتَقَرُّ فيه صاحبُ ذلك اللقب . ولا يخفى أنه من الخاصِّ الذى أَسْتَعْمِلُ في العموم كما تقدّم في لفظ المَقَامِ عن الزنجشمري . إذ يجوز أن يقال فلان مقَرُّ محَلَّة كذا وبلدة كذا ، كما يقال مقامه محَلَّة كذا وبلد كذا .

الرابع - الحَنَاب . وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعا فيما يكتب به عن السلطان وغيره من التُّوَاب وَمَنْ في معاصم . قال في "عرف التعريف" : وهو أعلى ما يكتب للقضاة والعلماء من الألقاب . قال : وَيُكْتَب لمن لا يُؤَهِّلُ للقَرِّ من الأمراء وغيرهم ممن يجرى مجرى الوزراء ، ويزيد على ما قد ذكره أنه يكتب به لبعض الملوك الحكّامين عن الأبواب السلطانية . قال في "عرف التعريف" : ويقال فيه « الحَنَاب الشريف العالى » و« الحَنَاب الكريم العالى » و« الحَنَاب العالى » مجزدا عنهما . وأصل الحَنَاب في اللغة الفناء أو ما قُرِبَ من محَلَّة التقوم ، ومنه قوطم : لَدُنَّا بِحَنَابِ فُلَانٍ وفلانٌ خَصِيبُ الحَنَابِ ، فيعبر عن الرجل بفنائه وما قُرِبَ من محَلَّته تعظيما له ، ويجمع على أجنبة كمكانٍ وأمكنة وعلى جنابات جَمَادٍ وجمادات .

الخامس - المجلس . وهو من ألقاب أرباب السيف والأقلام أيضا ممن لم يُؤهل لرتبة الجناب ، وربما نُقِبَ به بعض الملوك في المكاتب السلطانية . على أنه كان في الدولة الأيوبية لا يُلقب به إلا الملوك ومن في معانهم . ومكاتب القاضي الفاضل والعماد الأصفهاني وغيرهما من كُتّاب الدولة الأيوبية ومن عاصرها مشحونةً بذلك ، حتى قال صاحب "معالم الكتابة" : وقد كانوا لا يكتبون المجلس إلا للسلطان خاصة . قال : ولم يكن السلطان يُكتب به أحدا من الداخلين تحت حكمه والمنسحب عليهم أمره . ثم ذكر أنه كان يُكتب به في زمانه إلى كبار الأمراء والوزراء وولاة العهد بالسلطنة .

أما في زماننا فقد صار في أدنى الرتب وجعل الجناب والمقرّ فوقه على ما تقدم . ويقال فيه : « المجلس العالي » و« المجلس السامي » رتبةً بعد رتبة . ويقال في المجلس السامي السامي بالياء ، والسامي بغير ياء ، رتبةً بعد رتبة .

وأعلم أن العالي والسامي اسمان منقوصات كالتاضي والوالي وقد تقرّر في علم النحو أنه إذا دخلت الألف واللام على الأسم المنقوص جاز فيه إثبات الياء وحذفها فيقال القاض والقاضي ونحو ذلك ، وحينئذ فيجوز في العالي والسامي إثبات الياء وحذفها ولكن الحُجَاب لا يستعملونهما إلا بالياء .

فأما في العالي فيجوز أن تكون الياء التي سُبِّتَ الحُجَاب في آخره هي الياء اللاحقة للأسم المنقوص على ما تقدم وتكون حينئذ ساكنة ، ويجوز أن تكون ياء النسب نسبة إلى العالي وتكون مشددة ، وكذلك في السامي بالياء .

أما السامي بغير ياء فيجوز أن يكون المراد حذف ياء النسب لا الياء اللاحقة للأسم المنقوص ، لما تقدم من أن الحُجَاب لم يستعملوها إلا بإثبات الياء ، وحينئذ

فُحذَفَ الياء من الألقاب التي تُتَعْتُّ بها . ويحتمل أن يكون المراد حذف الياء
اللاحقة للأسم المقوص وهو بعيد .

وأصل المجلس في اللغة لموضع الجلوس ، ويشار بذلك إلى الموضع الذي يجلس
فيه تعظيماً له على ما تقدم في غيره . ولا يخفى أنه ليس للمجلس ما للمقر والمقام
من العموم حتى يعم ما فوق موضع الجلوس ، إذ لا يحسن أن يقال مجلس فلان محلة
كذا ولا بلد كذا كما يحسن أن يقال : مقره أو مقامه محلة كذا أو بلد كذا .

السادس - مجلس - مجزداً عن الألف واللام مضافاً إلى ما بعده بـ وله
في الاصطلاح أربع حالات :

الأولى أن يُضَافَ إلى الأمير : فيقال « مجلس الأمير » وهو مختص بأرباب
السيوف على اختلاف أنواعهم من الترك والعرب وغيرهم .

الثانية أن يُضَافَ إلى القاضي : فيقال « مجلس القاضي » وهو مختص بأرباب
الأقلام من القضاة والعلماء والكتّاب ومن في معانهم .

الثالثة أن يُضَافَ إلى الشيخ : فيقال « مجلس الشيخ » ويختص ذلك بالصوفيّة
وأهل الصلاح ومن في معانهم .

الرابعة أن يُضَافَ إلى الصدر : فيقال « مجلس الصدر » وهو مختص بالتجار
وأرباب الصنائع ومن في معانهم ، وربما كُتِبَ به في الدولة الناصرية « محمد بن
قلاوون » وما قاربها لكتاب الدرر ومن في معانهم . والمراد بالصدر صدر المجلس
الذي هو أعلى أماكنها وأرفعها ، والمضائف والمضائف إليه فيه كالمعاكسين ، والتقدير
صدر المجلس .

السابع — أن يُقْتَصِرَ على المضاف إليه من مجلس الأمير، أو مجلس القاضي، أو مجلس الشيخ، أو مجلس الصدر ويقال فيه: «الأمير الأجل» و«القاضي الأجل» و«الشيخ الصالح» و«الصدر الأجل» .

الثامن — الحضرة . والمراد بها حضرة صاحب اللقب . قال الجوهري : وَحَضْرَةُ الرَّجُلِ قُرْبُهُ وَفِئَاؤُهُ . قال ابن قتيبة في «أدب الكاتب» : وتقال بفتح الحاء وكسرهما وضمها وأكثر ما تستعمل في المكاتبات . وهي من الألقاب القديمة التي كانت تستعمل في مكاتبات الخلفاء . وكان يقال فيها «الحضرة العلية» و«الحضرة السامية» ، وتستعمل الآن في المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى بعض الملوك . ويقال فيها : «الحضرة الشريفة العلية» و«الحضرة الكريمة العلية» و«الحضرة العلية» بحسب ما تقتضيه الحال . قال ابن شيث في «معالم الكتابة» : وكانت مما يكتب بها لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم ، ولم يكن السلطان يكتب بها أحدا من الداخلين تحت حكمه والمنسحب عليهم أمره . وتستعمل أيضا في مكاتبات ملوك الكفر ، ويقال فيه بعد الدعاء للحضرة : «حضرة الملك الحليل» ونحو ذلك على ما سياتي بيانه في موضعه . وقد تستعمل في الولايات في نحو ما يكتب للبترك . فيقال : «حضرة الشيخ» أو «حضرة البترك» ونحو ذلك . قلت : وكثير من كتاب الزمان يطنون أن هذه الألقاب الأصول أو أكثرها أحدثها القاضي شهاب الدين بن فضل الله وليس كذلك ، بل المجلس المذكور في مكاتبات القاضي الفاضل ومن عاصره بكثرة بل لا تكاد مكتبة من مكاتبه الملوكة تخلو عن ذلك . ومقتضى كلام ابن حاجب النعمان في «ذخيرة الكتاب» أنه أول ما ابتدع في أيام بني بويه ملوك الديلم . والحناب موجود في مكاتبات القاضي الفاضل أيضا بقلّة .

وقد ذكره ابن شيث في مصطلح كتابة الدولة الأيوبية . والمقر موجود في كلام القاضي محي الدين بن عبد الظاهر . والمقام موجود في مكاتبات من قبل القاضي شهاب الدين المذكور، نعم هذا الترتيب الخاص : وهو جعل أعلاها المقام ، ثم المقر ، ثم الحناب ، ثم المجلس ، ثم مجلس الأمير أو القاضي أو الشيخ ، لم أره إلا في كلام المقر الشهابي المشار إليه ومتابعيه ، ولا أدري أهو المقترح لهذا أم سبقه إليه غيره ؟ وقد أُلِع الفضلاء بالسؤال عن وجه هذا الترتيب ، بل أخذوا في إنكاره على مرتبة من حيث إن هذه الألقاب متقاربة المعاني في اللغة ، فلا يتجه تقديم بعضها على بعض في الرتبة ، ولا يخفى أن واضع ذلك من المقر الشهابي أو غيره لم يضعه عن جهل على سبيل التسمي إذ لا يليق ذلك بمن عنده أدنى مسكة من العلم . وقد ظهر لي عن ذلك أجوبة يستحسنها الذهن السليم إذا تلقت بالإنصاف . ولا بد من تقديم مقدمة على ذلك : وهي أن تعلم أن الخطاب في المكاتبات ، والوصف في الولايات ، مبنى على التفضيم والتعظيم ، على ما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى . ومن ثم أتى فيهما بالألقاب المؤدية إلى الرفعة كما تقدمت الإشارة إليه في أول الكلام على الألقاب . ثم أثبتوا هذه الألقاب بمعنى الأماكن كناية عن أصحابها من باب مجاز المجاورة ، وجعلوها رتبة بعد رتبة بحسب ما تقتضيه معانيها اللائحة منها على ما سيأتي بيانه ، فجعلوا أَدناها رتبة الأمير والقاضي والشيخ ، التي وقع فيها التصريح بذكر الشخص ، وجعلوا فوق ذلك المجلس لتجرده عن الإضافة إلى ما هو في معنى القريب من التصريح ، وجعلوا فوق ذلك الحناب الذي هو الفناء من حيث إن فناء الرجل أوسع من مجلسه ضرورة ، بل ربما أشتمل على المجلس وأستضافه إليه ، وجعلوا فوق ذلك المقر الذي هو موضع الاستقرار مع ما يقتضيه من شمول جميع المحلة أو البلد الذي هو مقيم فيه ، من حيث إنه يسوغ أن يقال مقره محلة كذا أو بلد كذا ، وتضمنه

معنى القَرَار الذي هو ضد الرُّوَالِ على ما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ وجعلوا فوق ذلك المَقَامَ لاسْتِعماله في المعنى العام، الذي هو أعم من موضع القِيَامِ كما أشار إليه الزمخشري، مع ما في معنى القِيَامِ من التَّهَيُّة والشَّهَامَة الرَّائِدَة على معنى الأَسْتِقرار، من حيث إن القعود دليل العجز والقصور . قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا ﴾ فكان المَقَامُ باعتبار ذلك أعلى من المَقَرِّ، ويُوَضِّحُ ما ذكرناه أنهم جعلوا الجِلسَ أدنى المراتب والمقام أعلاها .

أما تخصُّصُه خطابَ الخليفة بالديوان فلبعد تعلقه، مع كونه عنه تصدر المخاطبات وعليه ترد، على ماسياتي في موضعه إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(من الألقاب الأَصْوي ما يختص بالمكاتب دون الولايات، وفيه تسعة ألقاب)

الأول — الديوان . وقد تقدّم الكلام على ضبطه ومعناه في الكلام على ترتيب ديوان الإنشاء في مقدمة الكتاب، ويصدر بالدعاء له في المكتبة إلى أبواب الخلافة المقدسة، ويقال فيه «الديوان العزيز» على ماسياتي في الكلام على المكاتب فيما بعد إن شاء الله تعالى . قال المقرّ الشهابي بن فضل الله في كتابه «التعريف» : والمعنى به ديوان الإنشاء إذ الكُتُب وأنواع المخاطبات إليه واردة، وعنه صادرة . قال : وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخُضْعَانُ عن خطاب الخليفة نفسه . ثم كُتِبَ الزمان قد يستعملون ذلك في غير المكاتب مثل أن يُكْتَبَ عن السلطان منشور إقطاع للخليفة فيقال : « أن يجري في الديوان العزيز » ونحو ذلك على ما سياتي في الكلام على المناشير في موضعه إن شاء الله تعالى .

الثاني — الباسِطُ . وهو مما يُستعمل في المكاتبات بالتقبيل على ماسياتي ذكره إن شاء الله تعالى . وأصله في اللغة فاعلٌ من البَسَطَ ، والمراد بَسَطَ الكَفِّ بالبَدَلِ والعطاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ وهو من ألقاب اليد ، ويشتَرِك فيه أربابُ السيوف والأقلام وغيرهم . قال في «عرف التعريف» : ويقال فيه «الباسِطُ الشَّرِيفُ العَالِي» و«الباسِطُ الكَرِيمُ العَالِي» .

الثالث — الباسِطَةُ بلفظ التأنيث . وهو بمعنى الباسِطِ إلا أن الباسِطَةَ دُونَ الباسِطِ في الرتبة لِمِيزَةِ التذكير على التأنيث .

الرابع — اليَدُ . وهي في معنى الباسِطَةِ إلا أنها دُونَها لِقَوَاتِ الوصف بالبَسَطِ فيها . قال في «عرف التعريف» : ويقال فيها «اليَدُ الشَّرِيفَةُ العَالِيَةُ» و«اليَدُ الكَرِيمَةُ العَالِيَةُ» واليدُ العَالِيَةُ مَجْرَدَةٌ عَنْهُمَا .

الخامس — الدَّارُ . وهي معروفة . وتجمع على آدِرٍ ، ودِيَارٍ ، ودُورٍ ، والمراد دار المكتوب إليه ، تزيهاً له عن التصريح بذكره كما في الجَنَابِ وغيره . وكانت مما يُكْتَبُ به في الزمن القديم في ألقاب الخُلَفاءِ ويقال : «الدارُ العَزِيزَةُ» وما أشبه ذلك ، وربما كُتِبَ بها في القديم أيضاً لِلخَوَاتِمِ من نساء الملوك وغيرهم . ومن كُتِبَ به لهنَّ العلاءُ بنُ مَوْصِلَايَا صاحب ديوان الإنشاء في أيام القائم العباسي ، وعلى ذلك الأمر في زماننا في الكُتُبِ الصادرة إليهنَّ من الأبواب السلطانية وغيرها ، وإنما كُتِبَ إليهنَّ بذلك إشارةً إلى الصَّوْنِ لملازمتن الدُورَ ، وعدم البروز عنها .

السادس — السَّارَةُ . وكُتِبَ الزمان يستعملونها في نحو ما تُستعمل فيه الدَّارُ ، ويَكُونُ بها عن المرأة الخَلِيلَةَ القَدْرَ ، التي هي بصَدَدٍ أن تُصَبَّ على بابها السَّارَةُ حِجَابًا .

السابع - الجِهَةُ . وهو مستعملٌ في معنى الدار والسَّتارة من المكتبات ، ويُعنى بها المرأةُ الجليلةُ القَدْر . وهى فى أصل اللغة أسمٌ للناحية ، فكُنوا بها عن المرأة الجليلة ، كما كُنوا عن الرجل الجليل بالحناب .

الثامن - البابُ . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان فى جليل المكتبات ، وأصلُ البابِ فى اللغة لما يتوصَّل منه إلى المقصود ، ويجمع على أبوابٍ : كحالٍ وأحوالٍ ، وعلى بيانٍ : بكارٍ وجيرانٍ ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه ، وكأنه أجلُّ صاحبِ اللَّقب عن الوصول إليه والقرب منه ، لعلَّ مكانه ورفعةُ محلِّه . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجزداً عنهما ، واستعمله بلفظ الجمع على أبوابٍ أعلى منه بلفظ الإفراد لما فى معنى الجمع من الشرف . أما الجمع على بيانٍ فلا يستعمله الكُتَّاب أصلاً .

التاسع - المُخيمُ . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان للسافر ، والمراد المكانُ الذى تُضرب فيه خيامُ المكتوبِ إليه ، أخذنا من قولهم خيمَ بالمكان إذا أقام به ، أو خيمه إذا جعله كأنخيمة . والخيمةُ فى أصل اللغة أسمٌ لبيتٍ تُنشئه العرب من عيدانٍ ثم تُوسَّع فيه فاستعمل فيما يُتخذ من الجلود والقطن المنسوج ونحوه ، ويوصف بما يوصف به الباب : من الشريف ، والكريم ، والعالى .

قلت : وقد يستعمل بعضُ هذه الألقاب كالدار والسَّتارة والجِهَة فى غير المكتبات من الولايات وغيرها ولكن بقلَّة ، والغالب استعمالها فى المكتبات ، فلذلك خصَّصتها بها .

الجملة السادسة

(في بيان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقدمة ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في بيان أقسامها ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(المفردة ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المجردة عن ياء النسب)

كاسلطان ، والمَلِك ، والأمير ، والقاضي ، والشيخ ، والصدر ، والأجل ،
والكبير ، والعالم ، والعامِل ، والأوحد ، والأكل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثاني

(الملحقة بها ياء النسب)

كاسلطانى ، والملكى ، والأميرى ، والقضائى ، والقاضوى ، والشيخى ،
والصدرى ، والأجلى ، والكبرى ، والعالمى ، والعاملى ، والأوحدى ، والأكلى ،
ونحو ذلك .

ثم الألقاب الملحقة بها ياء النسب تارة يُراد بالنسب فيها النسب الحقيقي على بابه :
كالقضائى ، لأنه منسوب إلى القضاء الذى هو موضوع الوظيفة التى منأطها فصل

الحكومات الشرعية على ما تقدم؛ وتارة يراد به المبالغة كالتقاضوي، فإنه منسوب إلى القاضي نفسه مبالغة. وفي معناه الأميري نسبة إلى الأمير، والوزير نسبة إلى الوزير، والشيخ نسبة إلى الشيخ، والكبير نسبة إلى الكبير، والعالم نسبة إلى العالم، وما أشبه ذلك.

والأصل فيه أن عادة العرب أنهم إذا أرادوا المبالغة في وصف شيء أدخلوا عليه ياء النسب في آخره للمبالغة في وصفه فيقولون في الأحمر إذا قصدوا المبالغة في وصفه بالحمرة أحمرى ونحو ذلك على ما هو مقرر في كتب النحو المبسوطة كالتهليل ونحوه. ثم منها ما يستعمل بالتجريد عن ياء النسب أو إثباتها: كالعالم، والعالمى؛ ومنها ما يستعمل مجردا عنها فقط كالتطبخ والغوث من ألقاب الصوفية؛ ومنها ما يستعمل بإثباتها فقط كالغياثي. وبكل حال فالألقاب التي قد تثبت ياء النسب في آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميري إن كانت من ألقاب المجلس السامي بالياء فما فوقه من المجلس العالي والجناب العالي، والمقر والمقام على صرائفها تثبت الياء في آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامي بغير ياء فما دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضي، ومجلس الشيخ، ومجلس الصدر، والأمير، والقاضي، والشيخ، والصدر، لم تثبت الياء في آخرها. والألقاب المضافة إلى الدين، مثل «ناصر الدين» و«شمس الدين» و«نور الدين» و«عز الدين» و«ولي الدين» و«سيف الدين» وما أشبه ذلك إن كانت في ألقاب من تثبت الياء في ألقابهم من المجلس السامي بالياء فما فوقه حذف المضاف إليه وأدخلت الألف واللام على المضاف وألحقت به ياء النسب، فيقال في ناصر الدين «الناصرى» وفي شمس الدين «الشمسي» وفي نور الدين «النوري» وفي عز الدين «العزي» وفي ولي الدين «الولي» وفي سيف الدين «السيفي» وما أشبه ذلك.

النوع الثاني

(المرکبة)

وهي المعبر عنها بالنعوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ، ثم تارة تكون
 بإضافة واحدة نحو « مُمَهَّدُ الدُّوَلِ » وتارة تكون باضفتين نحو « سَيِّدُ أَمْرَاءِ الْعَالَمِينَ »
 وتارة تكون بثلاث إضافات نحو « حَاكِمُ أُمُورِ وِلَايَةِ الرِّمَانِ » وربما زيد على ذلك ،
 وتارة تكون بوصف المضاف ، نحو « بَقِيَّةُ السُّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ » وتارة تكون بالعطف
 على المضاف إليه : إما بعطف واحد ، نحو « سَيِّدُ الْمَلِكِ وَالسُّلَاطِينَ » وإما بأكثر ،
 نحو « نَافِخُ الْمَسَالِكِ وَالْأَقَالِيمِ وَالْأَفْطَارِ » وتارة تكون بجارٍّ ومحجور بعد المضاف إليه ،
 نحو « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ » وربما توسطت بين المضاف إليه والجارِّ
 والمحجور ، نحو « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ الْأَشْرَافِ فِي الْعَالَمِينَ » . وقد يكون التركيب بغير
 الإضافة إما بالجارِّ والمحجور ، نحو « الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وإما بغير ذلك
 مثل المعنى آلِ سَاسَانَ وغير ذلك مما يجري هذا المجرى .

[وأعلم أنه إذا كان لقب الأصل مفردًا نحو المَقَرِّ والْحَنَابِ ، جاءت ألقابه ونعوتُه
 مفردة فيقال « المَقَرُّ الشَّرِيفُ » و « الْحَنَابُ الشَّرِيفُ » و « المَقَرُّ الْكَرِيمُ » وفي نُعُوتِه
 « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ » ونحو ذلك .

ثم إن كان مدَّكراً جاء بصيغة التذكير ، كما تقدم في ألقاب المَقَرِّ ^(١) .

وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنثاً كالجهة في ألقاب النساء ، أتت ألقابه ونعوتُه
 مؤنثَةً تبعاً له ، فيقال في ألقاب الجهة « الجهة الشريفة أو الجهة الكريمة العالمة »
 وفي النعوت « سَيِّدَةُ الْخَوَاتِمِينَ فِي الْعَالَمِينَ » ونحو ذلك .

(١) هذه الجملة التي بين القوسين غير موجودة في الاصول ، فنقلناها عن الضوء لأولف لثم الفائدة .

وإن كان اللقب في الاصل مجموعاً ، نحو « مجالس الأمراء » كما يكتب في المطلقات ، جاءت الألقاب والنعوتُ مجموعةً فيقال في الألقاب الأجلاء الأكبر وما أشبه ذلك ، وفي النعوت إن كان ذلك اللقب اسم جنس نحو « عضد الملوك والسلطين » أو مصدرًا ، نحو « عون الأمة » جاز إبقاؤه على الأفراد كذلك : لأن المصدر واسم الجنس لا يثنان ولا يجمعان ؛ وإن أُوْحِظَ فيه معنى التعدد ، جاز الجمع فيقال « أعوان الأمة » و « أعضاء الملوك والسلطين » ونحو ذلك . وقد أشار إلى ذلك المقسّر الشهابي بن فضل الله في كتابه " التعريف " في الكلام على كتابة المطلقات فقال ونحو عضد وأعضاء .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

بأوله المهيع الثاني

(في ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كتاب الزمان ، وبيان معانيها ، ومن يقع عليه كل واحد منها من أرباب السيوف وغيرهم ، وهي نوعان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(२००/१९१६/०६९७/२०२)

السابع — الجِهَةُ . وهو مستعملٌ في معنى الدار والسَّتارةِ من المكاتبِ ، ويُقْنى بها المرأةُ الجليلةُ القُدرُ . وهي في أصل اللغة أَسْمٌ للناحية ، فَكَنُوا بها عن المرأةِ الجليلةِ ، كما كَنُوا عن الرجل الجليل بالجنابِ .

الثامن — البابُ . وهو من الألقابِ المختصةِ بالعنوانِ في جليل المكاتبِ ، وأصلُ البابِ في اللغة لما يُتوصَّلُ منه إلى المقصودِ ، ويجمع على أبوابٍ : كحالٍ وأحوالٍ ، وعلى بِيابٍ : بحارٍ وجيرانٍ ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه ، وكأنه أَجَلٌ صاحبُ اللَّقَبِ عن الوصولِ إليه والقُربِ منه ، لعلَّ مكانه ورفعةُ محلِّه . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجروداً عنهما ، وأستعمله بلفظِ الجمعِ على أبوابِ أعلى منه بلفظِ الإفرادِ لما في معنى الجمعِ من الشَّرَفِ . أما الجمعُ على بِيابٍ فلا يستعمله الكُتَّابُ أصلاً .

التاسع — المُخَيِّمُ . وهو من الألقابِ المختصةِ بالعنوانِ للسافرِ ، والمراد المكانُ الذى تُضْرَبُ فيه خِيامُ المكتوبِ إليه ، أخذنا من قولهم خَيَّمْ بالمكانِ إذا أقامَ به ، أو خَيَّمَهُ إذا جعله كأنخيمَةً . والنخيمَةُ في أصل اللغة أَسْمٌ لبيتِ تُشْتِئهِ العربُ من عِيدانٍ ثم تُوسَعُ فيه فاستعملَ فيما يُتَّخَذُ مِنَ الجلودِ والقُطُنِ المنسوجِ ونحوه ، ويوصَفُ بما يوصَفُ به البابُ : من الشريفِ ، والكريمِ ، والعالى .

قلت : وقد يُستعملُ بعضُ هذه الألقابِ كالدارِ والسَّتارةِ والجهةِ في غيرِ المكاتبِ من الولاياتِ وغيرها ولكن بقلَّةٍ ، والغالبُ أَسْتِعمالُها في المكاتبِ ، فلذلك خَصَّصْتُها بها .

الجملة السادسة

(في بيان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقدمة ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في بيان أقسامها ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(المفردة ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المجزأة عن ياء النسب)

كالسلطان ، والملك ، والأمير ، والقاضي ، والشيخ ، والصدر ، والأجل ،
والكبير ، والعالم ، والعايل ، والأوحد ، والأكل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثاني

(الملحقة بها ياء النسب)

كالسلطاني ، والملكى ، والأميرى ، والقضائى ، والقاضوى ، والشيخى ،
والصدري ، والأجلى ، والكبرى ، والعالمى ، والعايل ، والأوحدى ، والأكلى ،
ونحو ذلك .

ثم الألقاب الملحقة بها ياء النسب تارة يُراد بالنسب فيها النسب الحقيقي على بابيه :
كالقضائى ، لأنه منسوب إلى القضاء الذى هو موضوع الوظيفة التى منأطها فصل

السابع — الجِهَةُ . وهو مستعملٌ في معنى الدار والسَّتارة من المكاتبات، ويُعنى بها المرأةُ الجلييلة القُدْر . وهى فى أصل اللغة أسمٌ للناحية ، فكَنُوا بها عن المرأة الجلييلة ، كما كَنُوا عن الرجل الجليل بالحنَّاب .

الثامن — البابُ . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان فى جليل المكاتبات ؛ وأصل الباب فى اللغة لما يُتوصَّل منه إلى المقصود ، ويجمع على أبوابٍ : كحالٍ وأحوالٍ ، وعلى بِيابٍ : بخارٍ وجيرانٍ ؛ والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه ، وكأنه أجلُّ صاحب اللقب عن الوصول إليه والقرب منه ، لعلَّ مكانه ورفعة محله . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجزداً عنهما ، وأستعماله بلفظ الجمع على أبواب أعلى منه بلفظ الإفراد لما فى معنى الجمع من الشرف . أما الجمع على بِيابٍ فلا يستعمله الكتاب أصلاً .

التاسع — المُخيمُ . وهو من الألقاب المختصة بالعنوان للسافر ، والمراد المكان الذى تُضرب فيه خيامُ المكتوبِ إليه ، أخذاً من قولهم خيمَ بالمكان إذا أقام به ، أو خيمه إذا جعله كأنخيمة . و الخيمةُ فى أصل اللغة أسمٌ لبيتٍ تُنشئه العرب من عيدانٍ ثم تُوسع فيه فاستعمل فيما يُتخذ من الجلود والقطن المنسوج ونحوه ؛ ويُوصف بما يوصفُ به الباب : من الشريف ، والكريم ، والعالى .

قلت : وقد يُستعمل بعضُ هذه الألقاب كالدار والسَّتارة والجهة فى غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بقلَّة ؛ والغالب أستها فى المكاتبات ، فلذلك خصصتها بها .

الجملة السادسة

(في بيان الألقاب المنفردة على الأصول المتقدمة ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في بيان أقسامها ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(المفردة ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المجردة عن ياء النسب)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأمير ، والقاضي ، والشيخ ، والصَّدر ، والأجل ،
والكبير ، والعالم ، والعامل ، والأوحد ، والأكل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثاني

(الملحق بها ياء النسب)

كالسلطاني ، والملكي ، والأميري ، والقضائي ، والقاصوي ، والشيخي ،
والصَّدري ، والأجلي ، والكبيري ، والعالمي ، والعامل ، والأوحد ، والأكلي ،
ونحو ذلك .

ثم الألقاب الملحقة بها ياء النسب تارة يُراد بالنسب فيها النسب الحقيقي على بابه :
كالقضائي ، لأنه منسوب إلى القضاء الذي هو موضوع الوظيفة التي منأطها فصل

الحكومات الشرعية على ما تقدم، وتارة يراد به المبالغة كالقاصوي، فإنه منسوب إلى القاضي نفسه مبالغة. وفي معناه الأميري نسبة إلى الأمير، والوزيرى نسبة إلى الوزير، والشيخى نسبة إلى الشيخ، والكبيرى نسبة إلى الكبير، والعالمى نسبة إلى العالم، وما أشبه ذلك.

والأصل فيه أن عادة العرب أنهم إذا أرادوا المبالغة في وصف شيء أدخلوا عليه باء النسب في آخره للمبالغة في وصفه فيقولون في الأحمر إذا قصدوا المبالغة في وصفه بالحرارة أحمري ونحو ذلك على ما هو مقرر في كتب النحو المبسوطة كالتهليل ونحوه، ثم منها ما يستعمل بالتجريد عن باء النسب أو إثباتها: كالعالم، والعالمى؛ ومنها ما يستعمل مجزدا عنها فقط كالتقطب والنوثة من ألقاب الصوفية؛ ومنها ما يستعمل بإثباتها فقط كالغياثي. وبكل حال فالألقاب التي قد تثبت بياء النسب في آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميري إن كانت من ألقاب المجلس السامى بالياء فما فوقه من المجلس العالي والجناب العالي، والمقرر والمقام على مراتبها تثبت الياء في آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامى بغير ياء فما دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضي، ومجلس الشيخ، ومجلس الصدر، والأمير، والقاضي، والشيخ، والصدر، لم تثبت الياء في آخرها. والألقاب المضافة إلى الدين، مثل «ناصر الدين» و«شمس الدين» و«نور الدين» و«عز الدين» و«ولي الدين» و«سيف الدين» وما أشبه ذلك إن كانت في ألقاب من تثبت الياء في ألقابه من المجلس السامى بالياء فما فوقه حذف المضاف إليه وأدخلت الألف واللام على المضاف وألحقت به بياء النسب، فيقال في ناصر الدين «الناصرى» وفي شمس الدين «الشمسي» وفي نور الدين «النوري» وفي عز الدين «العزي» وفي ولي الدين «الولي» وفي سيف الدين «السيفي» وما أشبه ذلك.

النوع الثاني

(المرتبّة)

وهي المعبر عنها بالنعوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ، ثم تارة تكون
 بإضافة واحدة نحو « مُمَهَّدُ الدُّوَلِ » وتارة تكون باضافين نحو « سَيِّدُ أَمْرَاءِ الْعَالَمِينَ »
 وتارة تكون بثلاث إضافاتٍ نحو « حَاكِمُ أُمُورِ وُلَاةِ الزَّمَانِ » وربما زيد على ذلك ،
 وتارة تكون بوصف المضاف ، نحو « بَقِيَّةُ السُّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ » وتارة تكون بالعطف
 على المضاف إليه : إما بعطف واحد ، نحو « سَيِّدُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ » وإما بأكثر ،
 نحو « نَاتِحُ الْمَمَالِكِ وَالْأَقَالِيمِ وَالْأَقْطَارِ » وتارة تكون بجارٍّ ومجرور بعد المضاف إليه ،
 نحو « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ » وربما توسطتْ النعتُ بين المضاف إليه والجارِّ
 والمجرور ، نحو « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ الْأَشْرَافِ فِي الْعَالَمِينَ » . وقد يكون التركيب بغير
 الإضافة إما بالجارِّ والمجرور ، نحو « الْمَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وإما بغير ذلك
 مثل الْمُعْفَى آلِ سَاسَانَ وغير ذلك مما يجري هذا الجرى .

[وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا كَانَ لِقَبِّ الْأَصْلِ مَفْرَدًا نَحْوَ الْمَقْتَرِ وَالْحَنَابِ ، جَاءَتْ أَلْقَابُهُ وَنَعْوَتُهُ
 مَفْرَدَةً فَيَقَالُ « الْمَقْتَرُ الشَّرِيفُ » وَ « الْحَنَابُ الشَّرِيفُ » وَ « الْمَقْتَرُ الْكَرِيمُ » وَفِي نَعْوَتِهِ
 « سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ » وَنَحْوَ ذَلِكَ .

ثم إن كان مدَّكراً جاء بصيغة التذكير ، كما تقدّم في ألقاب المَقْتَرِ ^(١) ،
 وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنثاً كالجهة في ألقاب النساء ، أتت ألقابه ونعوته
 مؤنثةً تبعاً له ، فيقال في ألقاب الجهة « الجهة الشريفه أو الجهة الكريمة العالیه »
 وفي النعوت « سَيِّدَةُ الْخَوَاتِمِينَ فِي الْعَالَمِينَ » ونحو ذلك .

(١) هذه الجملة التي بين القوسين غير موجودة في الاصول ، فنقلناها عن الضوء للؤلّف لثم الفائدة .

وإن كان اللقب في الاصل مجموعاً ، نحو « مجالس الأمراء » كما يكتب في المطلقات ، جاءت الألقاب والنعوتُ مجموعةً فيقال في الألقاب الأجلَاءُ الأَكْبَرُ وما أشبه ذلك ، وفي النعوت إن كان ذلك اللقب أسمَ جنسٍ نحو « عَضُدُ المُلُوكِ والسلاطين » أو مصدرًا ، نحو « عَوْنُ الأُمَّة » جاز إبقاؤه على الأفراد كذلك : لأن المصدر وأسم الجنس لا يثنَّان ولا يُجمَعان ؛ وإن أُوحِظ فيه معنى التعدد ، جاز الجمع فيقال « أعوانُ الأُمَّة » و « أعضاء المُلُوكِ والسلاطين » ونحو ذلك . وقد أشار إلى ذلك المقرِّ الشهابي بن فضل الله في كتابه " التعريف " في الكلام على كتابة المطلقات فقال ونحو عَضُدٍ وَأَعْضَادٍ .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

وَأَثَرُهُ الْمَهْيَعِ الثَّانِي

(في ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّابِ الزمان ، وبيان معانيها ، ومن يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم ، وهي نوطان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(۳۰۰۰/۱۹۱۴/۰۵۹۶/۲۰۲)

صنعة الأندلس

الجزء الخامس

فهرست

الجزء الخامس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشنديّ

صفحة

- المقصد الثاني - في مالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار
المصرية، ويتوجه المقصد منها إلى ثلاثة أقطار ... ٥
- القطر الأول - اليمن ... وهو على قسمين ... ٦
- القسم الأول - التهام، وفيه أربع جمل (والصواب خمس) ... ٨
- الجملة الأولى - في ذكرها أشتمل عليه من القواعد والمدن، وبه قاعدتان ٨
- القاعدة الأولى - تعز ... ٨
- » الثانية - زييد ... ٩
- الجملة الثانية - في ذكر حيوانه، وحبوبه، وفواكهه، ورياحينه،
ومعاملاته وأسعاره ... ١٦
- الجملة الثالثة - في الطريق الموصلة إلى اليمن ... ١٧
- » الرابعة - في ذكر ملوكة جادلية وإسلاماء أما ملوكة في الجاهلية
فعلى عشر طبقات ... ١٧
- الطبعة الأولى - العادية ... ١٨
- » الثانية - القحطانية ... ١٩
- » الثالثة - التبابعة ... ٢١
- » الرابعة - الحبشة ... ٢٥
- » الخامسة - الفرس ... ٢٥
- » السادسة - عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده ... ٢٦
- » السابعة - ملوكها من بني زياد ... ٢٧
- » الثامنة - من بني مهدي ... ٢٩
- » التاسعة - من بني أيوب ملوك مصر ... ٢٩
- » العاشرة - دولة بني رسول ... ٣٠

صفحة

- الجملة السادسة — (والصواب الخامسة) في ترتيب هذه المملكة على ماهي
 ٣٣ ... عليه في زمن بني رسول الخ
- القسم الثاني — من اليمن التجود؛ وفيه أربع حمل ... ٣٧
- الجملة الأولى — فيما أشتمت عليه من النواحي والمدن والبلاد ... ٣٨
- » الثانية — في الطرق الموصلة إلى هذه المملكة ... ٤٣
- » الثالثة — فيمن ملك هذه المملكة إلى زمن المؤلف ... ٤٤
- » الرابعة — (وكتبت الثالثة) في ترتيب مملكة هذا الإمام ... ٥١
- القطر الثاني — مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار
 المصرية "بلاد البحرين" وفيه ثلاث حمل ... ٥٤
- الجملة الأولى — فيما تشتمل عليه من المدن ... ٥٥
- » الثانية — في ذكر ملوكها ... ٥٧
- » الثالثة — في الطريق الموصل إليها ... ٥٧
- القطر الثالث — مما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار
 المصرية "اليمامة"؛ وفيها ثلاث حمل ... ٥٨
- الجملة الأولى — فيما أشتمت عليه من البلدان ... ٥٩
- » الثانية — في ذكر ملوكها ... ٦٠
- » الثالثة — في الطريق الموصل إليها ... ٦١
- القطر الرابع — مملكة الهند ومضافاتها؛ وفيه إحدى عشرة جملة ... ٦١
- الجملة الأولى — فيما أشتمت عليه هذه المملكة من الأقاليم ... ٦٢
- الإقليم الأول — إقليم السند وما انحرف في سلطه ... ٦٣
- » الثاني — الهند؛ وفيه قاعدتان ... ٦٧

صفحة

- ٦٨ ... القاعدة الأولى — مدينة دلي
- ٧٠ ... الثانية — مدينة الدواكير
- ٨١ ... الجملة الثانية — في حيوانها
- ٨٢ ... الثالثة — في حبوبها وفواكهها ورياحينها وخضراواتها وغير ذلك
- ٨٤ ... الرابعة — في المعاملات
- ٨٥ ... الخامسة — في الأسعار
- ٨٦ ... السادسة — في الطريق الموصلة إلى مملكتي الهند والهند
- ٨٨ ... السابعة — في ذكر ملوك الهند
- ٩١ ... الثامنة — في ذكر عساكر هذه المملكة وأرباب وظائفها
- ٩٣ ... التاسعة — في زى أهل هذه المملكة
- ٩٤ ... العاشرة — في أرزاق أهل دولة السلطان بهذه المملكة
- ٩٥ ... الحادية عشرة — في ترتيب أحوال هذه المملكة
- الفصل الثانى — من الباب الرابع من المقالة الثانية في الممالك والبلدان الغربية عن مملكة الديار المصرية ، وفيه أربع (ست) ممالك
- ٩٩ ... المملكة الأولى — مملكة تونس ، وفيها آنتان وعشرون جملة
- ٩٩ ... الجملة الأولى — في بيان موقعها من الأقاليم السبعة
- » الثانية — في بيان ما أشتمت عليه هذه المملكة من الأعمال ، وهو عملاق
- ١٠٠ ... العمل الأتزل — أفريقية
- » الثانى — بلاد بجاية
- ١٠٩ ... الجملة الرابعة — في ذكر زروعها وحبوبها وفواكهها وبقولها ورياحينها^(١)

(١) كذا في الأصول وحقيقتها الثالثة ثم يتسلسل العدد .

صفحة

- ١١٣ الجملة الخامسة - في مواشيا ووحوشها وطيورها
- » السادسة - فيما يتعلق بمعاملاتها من الدنانير والدرهم والأرطال
- ١١٤ والمكاييل والأسعار
- ١١٥ » السابعة - في ذكر أسعارها
- ١١٥ » الثامنة - في صفات أهل هذه المملكة في الجملة
- ١١٦ » التاسعة - في ذكر من ملكها جاهلية وإسلاما
- ١١٧ الطبقة الأولى - الخلفاء
- ١٢٢ » الثانية - العبيديون
- ١٢٤ » الثالثة - ملوكها من بنى زيرى
- ١٢٦ » الرابعة - الموحدون
- ١٣٣ الجملة العاشرة - في مسمى ملوك هذه المملكة القائمين بها من الموحدين
- » الحادية عشرة - في ترتيب المملكة بها من زى الجند وأرباب
- ١٣٧ الوظائف
- ١٤٠ الجملة الثانية عشرة - في ذكر الأرزاق المطلقة من جهة السلطان
- » الثالثة عشرة - في لبس سلطان مملكة تونس ولبس أشياخه
- ١٤١ وسائر جنده وعاقة أهل بلده
- ١٤٣ » الرابعة عشرة - في شعار الملك بما يتعلق بهذا السلطان
- ١٤٣ » الخامسة عشرة - في جلوس سلطان هذه المملكة في كل يوم
- ١٤٤ » السادسة عشرة - في جلوسه لأظالم
- ١٤٥ » السابعة عشرة - في خروجه لصلاة الجمعة
- ١٤٦ » الثامنة عشرة - في ركوبه لصلاة العيدين أو للسفر
- ١٤٧ » التاسعة عشرة - في خروج السلطان للتتره

صفحة

- الجملة العشرون — في مكاتبات السلطان ١٤٨
- « الحادية والعشرون — في البريد المتقرر في هذه المملكة ١٤٨
- « الثانية والعشرون — في الخلع والتشريف في هذه المملكة ١٤٩
- المملكة الثانية — من ممالك بلاد المغرب مملكة تلمسان ، وفيها جملتان ١٤٩
- الجملة الأولى — في ذكر حدودها وقاعدتها وما أشتمت عليه من المدن
- والطريق الموصلة إليها ١٤٩
- « الثانية — في حال مملكتها ١٥١
- المملكة الثالثة — من بلاد المغرب الغرب الأقصى ، ويقال له بر
- العدوة ، وفيه ثلاثة [أربعة] مقاصد ١٥٢
- المقصد الأول — في بيان موقعها من الأقاليم السبعة وذكر حدودها
- وما أشتمت عليه من المدن والجبال المشهورة ، وفيه
- أربع جهل ١٥٢
- الجملة الأولى — في بيان موقعها من الأقاليم السبعة ١٥٢
- « الثانية — في بيان قواعدها وما أشتمت عليه هذه المملكة من
- الأعمال الخ ١٥٣
- القاعدة الأولى — فاس ١٥٣
- « الثانية — سبتة ١٥٧
- « الثالثة — مدينة مراکش ١٦١
- « الرابعة — سجلماسة ١٦٣
- الجملة الثالثة — في ذكر جبالها المشهورة ١٧٣
- « الرابعة — في ذكر أنهارها المشهورة ١٧٤
- المقصد الثاني — في ذكر زروعها وحبوبها وفواكهها الخ ، وفيه خمس جهل ١٧٥

- صفحة
- الجملة الأولى - في ذكر زروعها وحبوبها الخ ١٧٥
- « الثانية - في مواشيها ووحوشها وطيورها ١٧٦
- « الثالثة - فيا تتعامل به من الدينير والدرهم والأوزان والمكاييل ١٧٧
- « الرابعة - في ذكر أسعارها ١٧٨
- « الخامسة - في صفات أهلها في الجملة ١٧٨
- المقصد الثالث - في ذكر ملوكها وما يندرج تحت ذلك ؛ وهم على طبقات ١٧٩
- الطبقة الأولى - ملوكها قبل الإسلام ١٧٩
- « الثانية - نواب الخلفاء من بني أمية وبني العباس ١٧٩
- « الثالثة - الأدارسة ١٨٠
- « الرابعة - ملوك بني أبي العافية من مكاسة ١٨٢
- « الخامسة - بنو زيري بن عطية ١٨٥
- « السادسة - المرابطون من الملتهمين من البربر ١٨٨
- « السابعة - ملوك الموحدين ١٩١
- « الثامنة - ملوك بني عبد الحق من بني مرين ١٩٤
- المقصد الرابع - في بيان ترتيب هذه المملكة ؛ وفيه عشر جمل ... ٢٠٣
- الجملة الأولى - في ذكر الجند وأرباب الوظائف الخ ٢٠٣
- « الثانية - في زى السلطان والأشياخ الخ ٢٠٣
- « الثالثة - في الأرزاق المطلقة من قبل السلطان على أهل دولته ٢٠٤
- « الرابعة - في جلوس السلطان في كل يوم ٢٠٥
- « الخامسة - في جلوسه للظالم ٢٠٦
- « السادسة - في شعار السلطان بهذه المملكة ٢٠٦

صفحة	
٢٠٧	الجملة السابعة — في ركوبه لصلاة العيد...
٢٠٨	» الثامنة — في خروج السلطان للسفر ...
٢٠٩	» التاسعة — في مقدار عسكر هذه المملكة...
٢١٠	» العاشرة — في مكاتبات السلطان ...
٢١٠	المملكة الخامسة — من بلاد المغرب جبال البربر ...
٢١١	» السادسة — من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس؛ وفيها ست جمل
٢١٢	الجملة الأولى — في ذكر سمك أرضه وحدوده ...
٢١٣	» الثانية — فيما أشتمل عليه من المدن؛ ويشتمل على عدة قواعد
٢١٣	القاعدة الأولى — غرناطة ...
٢٢٢	» الثانية — أشبونة ...
٢٢٣	» الثالثة — بطليوس ...
٢٢٥	» الرابعة — إشبيلية ...
٢٢٦	» الخامسة — قرطبة ...
٢٢٧	» السادسة — طليطلة ...
٢٢٩	» السابعة — جيان ...
٢٣٠	» الثامنة — مرسية ...
٢٣١	» التاسعة — بلنسية ...
٢٣٢	» العاشرة — سرقسطة ...
٢٣٣	» الحادية عشرة — طرطوشة ...
٢٣٣	» الثانية عشرة — برشونة ...
٢٣٤	» الثالثة عشرة — يبلونة ...

صفحة	
٢٣٤	الجملة الثالثة — في ذكر أنهارها
٢٣٦	» الرابعة — في الموجود بالأندلس
٢٣٦	» الخامسة — في ذكر ملوك الأندلس ؛ وهم على طبقات
٢٣٦	الطبقة الأولى — ملوكها بعد الطوفان
٢٣٧	» الثانية — الاشبانية
٢٣٨	» الثالثة — الشبوتقات
٢٣٨	» الرابعة — القوط
٢٤١	» الخامسة — ملوكها على أثر الفتح الإسلامي
٢٤٤	» السادسة — بنو أمية
٢٤٧	» السابعة — ملوك بني حمود من الإدارة
٢٤٨	» الثامنة — ملوك الطوائف بالأندلس
٢٥٨	الطائفة (وصوابه الطبقة) التاسعة ملوك المرابطين من لتونة
٢٦٠	» (» ») العاشرة بنو الأحمر
٢٧٠	ملكة قشتالة
٢٧٠	» البرتغال
٢٧٠	» برشلونة
٢٧١	» نبرة مما يلي قشتالة
٢٧١	الجملة السادسة — في ترتيب هذه المملكة (مملكة الأندلس)
	الفصل الثالث — (أى من الباب الرابع) من المقالة الثانية في الجهة
	الجنوبية عن مملكة الديار المصرية : من مصر والشام
٢٧٣	والحجاز ومضافاتها؛ والمشهور منها ست ممالك

صفحة	
٢٧٣	المملكة الأولى - بلاد البجا
٢٧٥	» الثانية - « النوبة
٢٧٩	» الثالثة - « البرنو
٢٨٠	» الرابعة - « الكام
٢٨٢	» الخامسة - « مالى ومضافاتها، وفيها ثمان جمل
٢٨٢	الجملة الأولى - في ذكر أقاليمها ومدنها
٢٨٧	» الثانية - في الموجود بهذه المملكة
٢٩٢	» الثالثة - في معاملة هذه المملكة
٢٩٢	» الرابعة - في ذكر ملوك هذه المملكة
٢٩٨	» الخامسة - في أرباب الوظائف بهذه المملكة
٢٩٩	» السادسة - في عساكر سلطان هذه المملكة وأرزاقهم
٢٩٩	» السابعة - في زى أهل هذه المملكة
٣٠٠	» الثامنة - في ترتيب هذه المملكة
	المملكة السادسة - من ممالك بلاد السودان مملكة الحبشة ؛
٣٠٢	وهي على قسمين
٣٠٣	القسم الأول - بلاد النصرانية، ويشتمل على ست جمل
٣٠٤	الجملة الأولى - في ذكر قواعدها
٣٠٤	» الثانية - في الموجود بها
٣٠٧	» الثالثة - في ذكر معاملاتهم وأسعار بلادهم
٣٠٧	» الرابعة - « زبيهم وسلاحهم
	» الخامسة - « بطارقة الإسكندرية الذين عن توليتهم تنشأ
٣٠٨	ولاية ملوك الحبشة

صفحة

- الجملة السادسة — في ترتيب مملكتهم ٣٢٣
- القسم الثاني — من بلاد الحبشة ما بيد مسلمي الحبشة؛ ويشتمل
على ست حمل ٣٢٤
- الجملة الأولى — فيما أشتملت عليه من القواعد والأعمال ٣٢٥
- « الثانية — في الموجود بهذه الممالك (أى ممالك السودان) ٣٢٩
- « الثالثة — في معاملاتهم وأسعارهم ٣٣١
- « الرابعة — في ملوكهم ٣٣٢
- « الخامسة — في زى أهل هذه المملكة ٣٣٣
- « السادسة — في شعار الملك وترتيبه ٣٣٤
- الفصل الرابع — من الباب الرابع من المقالة الثانية فى الجهة الشمالية عن
ممالك الديار المصرية ومضافاتها خلا ما تقدم ذكره؛
ويتقسم إلى قسمين ٣٣٨
- القسم الأول — ما بيد المسلمين مما فى شرق الخليج القسطنطينى فيما
بينه وبين أرمينية وهى البلاد المعروفة ببلاد الروم؛
وفيه خمس حمل ٣٣٨
- الجملة الأولى — فيما أشتملت عليه من القواعد؛ وهى على ضربين ... ٣٤٠
- الضرب الأول — القواعد المستقرّة بها الملوك والحكام ٣٤٠
- « الثانى — من هذه البلاد ما لم يسبق إلى صاحبه مكتبة عن
الأبواب السلطانية بالديار المصرية ٣٤٩
- الجملة الثانية — فى ذكر الموجود بهذه البلاد ٣٥٦
- « الثالثة — فى معاملاتها وأسعارها ٣٥٧

صفحة

- الجملة الرابعة — في ذكر من ملك هذه البلاد ؛ وأشهر من ملوكهم
 طوائف ٣٥٨
- الطائفة الأولى — أولاد قرمان ٣٦٥
- » الثانية — بنو الحميد ٣٦٦
- » الثالثة — بنو أيدين ٣٦٧
- » الرابعة — بنو منتشا ٣٦٧
- » الخامسة — بنو أورخان بن عثمان جق ٣٦٧
- الجملة الخامسة — في زى أهل هذه المملكة وترتيب الملك بها ٣٦٩
- القسم الثانى — من الجهة الشمالية عن الديار المصرية مايد ملوك
 النصارى ؛ وهو ثلاثة أضرب ٣٦٩
- الضرب الأول — جزائر بحر الروم ٣٦٩
- » الثانى — ماشمالى بحر الروم ؛ وهو جهتان ٣٧٦
- الجهة الأولى — ماهو فى جهة الغرب عن الخليج القسطنطينى ؛
 وهو قطران ٣٧٦
- القطر الأول — ما بين الخليج المذكور وبين جزيرة الأندلس ؛ ويشتمل
 على ممالك كبار وممالك صغار ٣٧٦
- المملكة الأولى — (من الممالك الكبار) مملكة القسطنطينية ؛
 وملوكها طبقات ٣٧٦
- الطبقة الأولى — من ملك منهم قبل التياصرة ٣٨٢
- » الثانية — القياصرة قبل ظهور النصرانية فيهم ٣٨٤

صفحة	
٣٩٢	الطبقة الثالثة — القياصرة المنتصرة إلى الفتح الإسلامي
٣٩٧	» الرابعة — ملوك الروم بعد الفتح الإسلامي
٤٠٣	المملكة الثانية — مملكة الألمان
٤٠٤	» الثالثة — مملكة البنادقة
٤٠٥	» الرابعة — « الجنويين
٤٠٦	» الخامسة — بلاد رومية
٤٠٩	المملكة الأولى — (من الممالك الصغار) مملكة المراء
٤٠٩	» الثانية — بلاد الملفحوط
٤١٠	» الثالثة — بلاد إقرنس
٤١٠	» الرابعة — مملكة بولية
٤١٠	» الخامسة — بلاد قلقرية
٤١١	» السادسة — بلاد التسقان
٤١١	» السابعة — بلاد اليازنة
	القطر الثاني — ما غربى الخليج القسطنطينى الأرض الكبيرة ؛
٤١٢	وفيه ثلاث ممالك
٤١٢	المملكة الأولى — مملكة الفرنج القديمة
٤١٤	» الثانية — « الجلائمة
٤١٥	» الثالثة — « اللبردية
٤١٦	الجهة الثانية — ما شمالى مدينة القسطنطينية وبحر نيطش الخ

المقالة الثالثة

- في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتب والولايات؛ وفيها أربعة أبواب ... ٤٢٣
- الباب الأول - في الأسماء والكنى والألقاب؛ وفيه فصلان ... ٤٢٣
- الفصل الأول - في الأسماء والكنى؛ وفيه طرفان ... ٤٢٣
- الطرف الأول - في الأسماء؛ وفيه جملتان ... ٤٢٣
- الجملة الأولى - في أصل التسمية والمقصود منها وتوزيع الأسماء
وما يستحسن منها وما يستقبح ... ٤٢٤
- « الثانية - في مواضع ذكر الأسماء في المكاتب والولايات؛
وفيها أربعة أنواع ... ٤٢٧
- النوع الأول - اسم المكتوب عنه ... ٤٢٧
- « الثاني - » إليه ... ٤٢٨
- « الثالث - » بسببه ... ٤٢٩
- « الرابع - » من تصدر إليه الولاية ... ٤٣٠
- الطرف الثاني - في الكنى؛ وفيه ثلاث جمل ... ٤٣٠
- الجملة الأولى - في جواز الكنية؛ وهي على نوعين ... ٤٣١
- النوع الأول - كنى المسلمين ... ٤٣١
- « الثاني - كنى أهل الكفر والفسقة والمبتدعين ... ٤٣٢
- الجملة الثانية - فيما يكنى به؛ وهو على نوعين ... ٤٣٣
- النوع الأول - كنى الرجال ... ٤٣٣
- « الثاني - كنى النساء ... ٤٣٥

- الجملة الثالثة — في التكني في المكاتب والولايات ، وهو على ثلاثة
 أنواع ٤٣٦
- النوع الأول — تكني المكتوب عنه ٤٣٦
- « الثاني — تكنية المكتوب إليه ٤٣٧
- « الثالث — » « بسببه ٤٣٧
- الفصل الثاني — من الباب الأول من المقالة الثالثة في الألقاب ؛
 وفيه طرفان ٤٣٨
- الطرف الأول — في اصول الألقاب ؛ وفيه جملتان ٤٣٨
- الجملة الأولى — في معنى اللقب والنعمة وما يجوز منه وما يمتنع ٤٣٨
- « الثانية — في أصل وضع الألقاب والنعوت المؤدية إلى المدح ... ٤٤٠
- الطرف الثاني — في بيان معاني الألقاب ؛ وفيه تسع جمل ٤٤٤
- الجملة الأولى — في الألقاب الخاصة بأرباب الوظائف المعبرة التي بها
 انتظام أمور المملكة وقوامها ؛ وهي قسمان ٤٤٤
- القسم الأول — الألقاب الإسلامية ؛ وهي نوعان ٤٤٤
- النوع الأول — « القديمة المتداولة الحكم إلى زمان المؤلف ؛
 وهي صنفان ٤٤٤
- الصنف الأول — ألقاب أرباب السيوف ٤٤٤
- « الثاني — » أرباب الأقاليم ٤٥١
- النوع الثاني — الألقاب المحدثه ؛ وهي أربعة أصناف ٥٥٣
- الصنف الأول — المفردة ؛ وهي ضربان ٥٥٣
- الضرب الأول — ما لفظه عربي ٤٥٣
- « الثاني — » عجمي ٤٥٤

صفحة	
٤٥٥	الصف الثاني - المركبة ؛ وهي ثلاثة أضرب
٤٥٥	الضرب الأول - ما تمحض تركيبه من اللفظ العربي
	» الثاني - « « « العجمي ؛ ولهذا الضرب
٤٥٦	حالتان
٤٥٧	الحالة الأولى - أن تكون الإضافة إلى لفظ دار
٤٦٠	» الثانية - « « إلى غير لفظ دار
٤٦١	الضرب الثالث - ما تركب من لفظ عربي ولفظ عجمي ؛ وله حالتان
٤٦١	الحالة الأولى - أن يصدر بلفظ أمير
٤٦٢	» الثانية - أن لا يصدر للقب بلفظ أمير
٤٦٣	الصف الثاني - ألقاب أرباب الأقاليم ؛ وهي على خمسة أضرب ...
٤٦٣	الضرب الأول - « « الوظائف من العلماء
٤٦٤	» الثاني - « « الكتاب
٤٦٥	» الثالث - ألقاب أرباب الوظائف من كتاب الأموال
٤٦٧	» الرابع - « « « من أهل الصناعات
	» الخامس - « « « من الأتباع والحواشي
٤٦٨	والخدم ؛ وهم طائفتان
٤٦٨	الطائفة الأولى - الأعوان، وهم نبطان
٤٦٨	التمط الأولى - ما تمحضت ألفاظه عربية
٤٦٨	» الثاني - ما تمحض لفظه عجميا
٤٦٩	الطائفة الثانية - أرباب الخدم ؛ وهم نبطان
٤٦٩	التمط الأولى - ما يضاف إلى لفظ الدار
٤٧٠	» الثاني - ما لا يتقيد بالاضافة إلى دار ولا غيرها

صفحة

القسم الثاني — من ألقاب أرباب الوظائف ألقاب أرباب الوظائف

٤٧٢ ... من أهل الكفر، والمشهور منهم طائفتان ...

٤٧٢ ... الطائفة الأولى — النصارى ...

٤٧٤ ... » الثانية — اليهود ...

٤٧٥ ... الجملة الثانية — في ذكر الألقاب المرتبة على الأصول العظام، وهي نوحان

٤٧٥ ... النوع الأول — ألقاب الخلفاء المرتبة على لقب الخليفة، وهي صنفان

٤٧٥ ... الصنف الأول — ماجرى منها مجرى العموم ...

٤٧٧ ... » الثاني — ألقاب الخلافة الخاصة بكل خليفة، وهي خمس طوائف

٤٧٧ ... الطائفة الأولى — خلفاء بني العباس ...

٤٧٨ ... » الثانية — خلفاء بني أمية بالأندلس ...

٤٧٨ ... » الثالثة — خلفاء الفاطميون ببلاد الغرب ثم بالديار المصرية

» الرابعة — خلفاء الموحدون الذين ملوك إفريقية بتونس من

٤٧٩ ... بقاياهم على عهد المؤلف ...

» الخامسة — جماعة من ملوك الغرب من لاشبهة لهم في دعوى

٤٧٩ ... الخلافة ...

٤٨٠ ... النوع الثاني — ألقاب الملوك المختصة بالملك، وهي صنفان

٤٨٠ ... الصنف الأول — الألقاب العامة، وهي ضربان ...

٤٨٠ ... الضرب الأول — الألقاب القديمة، والمشهور منها ألقاب ست طوائف

٤٨٠ ... الطائفة الأولى — التبابعة ملوك اليمن ...

٤٨١ ... » الثانية — ملوك الفرس ...

٤٨٢ ... » الثالثة — مصر من بعد الطوفان من القبط ...

- صفحة
- ٤٨٢ ... الطائفة الرابعة — ملوك الروم
- ٤٨٣ ... « الخامسة — » الكنعانيين بالشام
- ٤٨٣ ... « السادسة — » الحبشة
- الضرب الثاني — الألقاب المستحدثة ؛ والمشهور منها ألقاب
- ٤٨٤ ... ست طوائف
- ٤٨٤ ... الطائفة الاولى — ملوك فرغانة
- ٤٨٤ ... « الثانية — » أشروسنه
- ٤٨٤ ... « الثالثة — » الجلائقة
- ٤٨٥ ... « الرابعة — » فرنسة
- ٤٨٥ ... « الخامسة — » البندقية
- ٤٨٥ ... « السادسة — » الحبشة في زماننا
- ٤٨٦ ... الصنف الثاني — من النوع الثاني الألقاب الخاصة
- ٤٨٨ ... الجملة الثالثة — في الألقاب المفترعة على الأسماء ؛ وهي أربعة أنواع
- ٤٨٨ ... النوع الأول — ألقاب أرباب السيوف ؛ وهم صنفان
- ٤٨٨ ... الصنف الأول — ألقاب الجند من الترك ومن في معناهم
- ٤٨٩ ... « الثاني — » الخدام الحصيان
- ٤٨٩ ... النوع الثاني — ألقاب أرباب الأقلام ؛ وهي على صنفين
- ٤٨٩ ... الصنف الأول — ألقاب القضاة والعلماء
- ٤٩٠ ... « الثاني — » الكتاب من القبط
- ٤٩٠ ... النوع الثالث — ألقاب عامة الناس من التجار والغلمان السلطانية ونحوها
- ٤٩٠ ... « الرابع — » أهل الذمة من الكتاب والصيارف

صفحة	الجملة الرابعة — في أصل وضع الألقاب الجارية بين الكتاب ثم آتتها
٤٩١	إلى غاية التعظيم ومجاورتها الحدة في التكثير
	» الخامسة — في بيان الألقاب الأصول، وذكر معانيها وأشتقاقها؛
٤٩٣	وهي صنفان
٤٩٣	الصنف الأول — ما يقع في المكاتب والولايات
	» الثاني — من الألقاب الأصول ما يختص بالمكاتب دون
٥٠٠	الولايات
	الجملة السادسة — في بيان الألقاب المفترعة على الأصول المتقدمة؛
٥٠٣	وفيها مهبعان
٥٠٣	المهيع الأول — في بيان أقسامها؛ وهي على نوعين
٥٠٣	النوع الأول — المفردة؛ وهي صنفان
٥٠٣	الصنف الأول — المجردة عن ياء النسب
٥٠٣	» الثاني — الملحق بها ياء النسب
٥٠٥	النوع الثاني — المركبة

استلقت للقارئ — وقع في ص ٣٣ من ٦ من هذا الجزء بياض وحقيقته كما ذكره في "بغية المستفيد"
(وولي بعده ابنه الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف الخ)

(تم فهرست الجزء الخامس من كتاب صبح الأعشى)

صِدْقُ الْأَسَدِ
٢٠١٢
١٤

الجزء السادس

بَارِئُ الْبَيْتِ الْخَدِوِيِّ

كِتَابٌ

صُنْحُ الْأَسَدِ

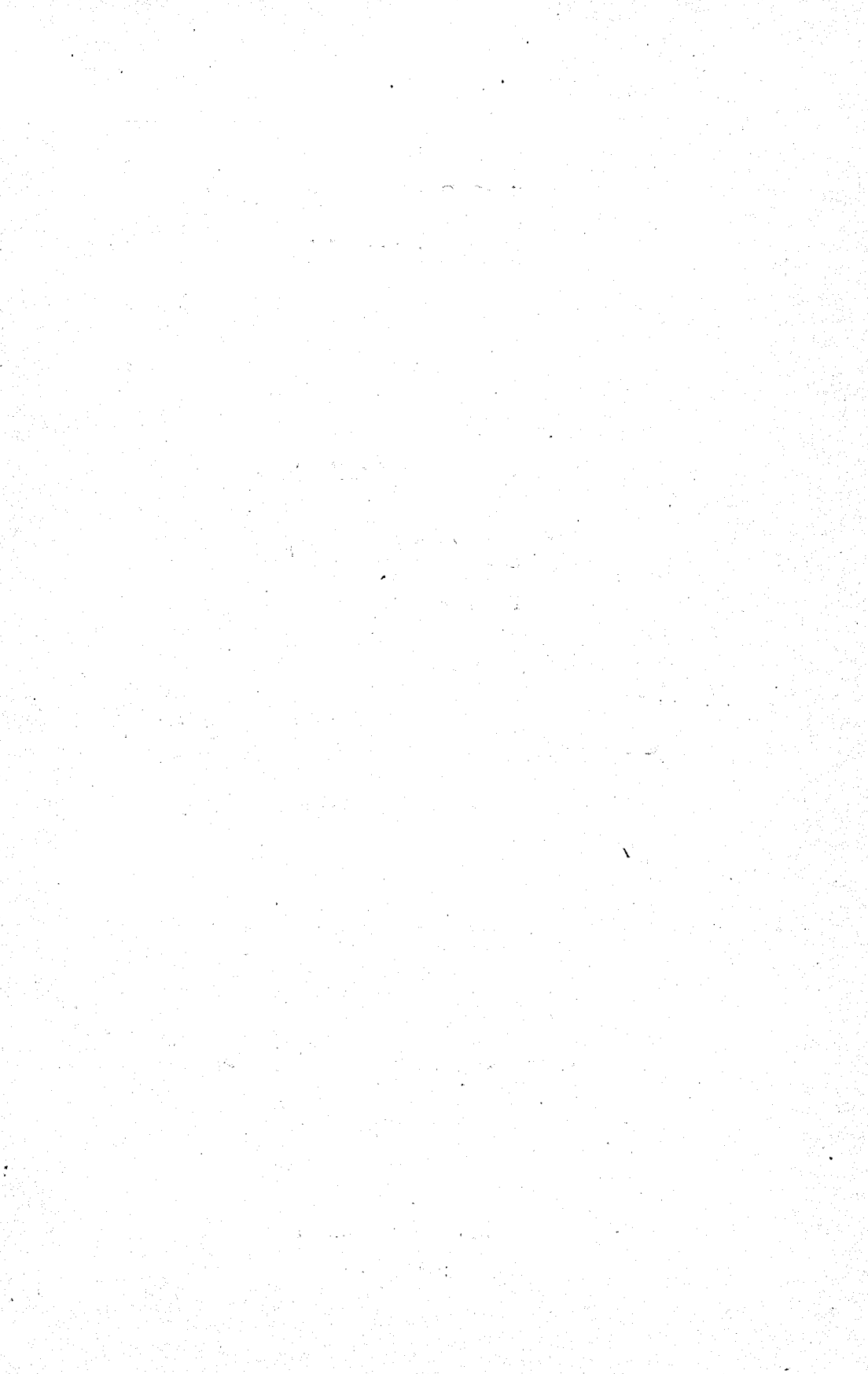
تَأَلَّفَ

الْشَيْخِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ الْقَلْقَشِينِي

الجزء السادس

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب الخديوية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّم عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

المهَيِّع الثاني

في ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّاب الزمان، وبيان معانيها،
ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السيوف وغيرهم
(وهي نوعان)

النوع الأول

(الألقاب الإسلامية، وهي صنفان)

الصنف الأول

(المذكَّرة، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الألقاب المفردة المختصة في اصطلاح الكُتَّاب باسم الألقاب)

وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم ليسهل استخراجها .

حرف الألف

(الأتابكي) وهو من ألقاب أمير الجيوش وَمَنْ في معناه، كالنائب الكافل ونحوه،

وهو بالأتابك أَحْص. وقد تقدم معنى الأتابك في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف،

وَأَنَّ أَصْلَهُ بِالطَّاءِ فَقُلِّبَتْ تَاءً فِي الْأَسْتِعْمَالِ، وَأَنْ مَعْنَاهُ «الْأَبُ الْأَمِيرُ» وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ النِّسْبَةُ فِيهِ لِلْبَالِغَةِ . نَعَمْ إِنْ نُسِبَ إِلَيْهِ غَيْرُهُ مِنْ أَتْبَاعِهِ كَانَتْ النِّسْبَةُ إِلَيْهِ حَقِيقَةً عَلَى بَابِهَا .

(الْأَتَقِيُّ) مِنْ ألقَابِ ملوكِ المَغْرِبِ التي يُكْتَبُ إليهم بها من الأبواب السلطانية ، مضاهاةً لما يُوجَدُ في مكاتباتهم من الألقاب . وهو أفعُلُ التفضيل من التَّقْوَى .

(الْأَيُّوبِيُّ) بالناء المثلثة من ألقاب أرباب الأقاليم : من القضاة والعلماء والكتّاب ونحوهم ؛ وربما استعمل في ألقاب الصلحاء أيضا . وأصله في اللغة المخالصة ، وحينئذٍ فيصلح أن يكون لقباً لكل من نُسِبَ إلى المخالصة من أرباب السيوف والأقاليم جميعاً ؛ والأَيُّوبِيُّ نسبة إليه للبالغه .

(الْأَيْبِيُّ) بالمثلثة أيضا من ألقاب أرباب الأقاليم كالأنثى ، ومعناه في اللغة الأصيل ، ومنه قيل مجد مؤنث وأَيْبِيلُ أي أصيل . وحينئذٍ فيصلح أن يكون لقباً لكل ذي أصالة من أرباب السيوف والأقاليم ؛ والأَيْبِيُّ نسبة إليه للبالغه .

(الْأَجَلِيُّ) يكون في الاصطلاح من ألقاب السلطان كما يقال السلطانُ السَيِّدُ الْأَجَلِيُّ ويكون من ألقاب السامى بغيرياء فما دونه فيقال : « السامى الأميرُ الْأَجَلِيُّ » ونحو ذلك ؛ وهو مما يُنْتَكَرُ على كُتّاب الزمان : لاستعماله في الأعلى والأدنى على ماسياتى بيانه إن شاء الله تعالى . على أن هذا اللقب في الدولة الفاطمية كان هو أعلى الألقاب وأرفعها قدراً ، حتى قال ابن شيث في «معالم الكتابة» : إنه محظورٌ على غير الوزير . وقد كانت الوزارة في زمانهم بمثابة السلطنة في زماننا ، فتصرّف فيه الكتّاب حتى استعملوه في أدنى الرتب أيضاً ؛ والأَجَلِيُّ نسبة إليه للبالغه .

(الأخص) من ألقاب أرباب السيف، والحجاب يستعملونه في أدنى الألقاب مما تسقط فيه ياء النسب : من السامى بغير ياء فادونه ، على أن معناه رفيع : لأخذه من الخوصية : وهى الأنفرد بالشىء ، وكان الأحق أن يكون مختصاً بالألزام المقرين دون غيرهم ، والأخصى نسبة إليه للبالغة .

(الأخوى) من الألقاب المختصة في الغالب بالمكاتب الإخوانية ، وربما وقعت في المكاتب الملوكية إذا كان قدر المالكين المتكاتبين متقارباً ، وهو نسبة إلى الأخوة ، وكأنه جعله أخاه حقيقة .

(الأريب) من ألقاب أرباب الأعلام . وهو فى اللغة العاقل ، ومنه قيل للدَّهَاءُ إرب بكسر الهمزة وإسكان الراء لأنَّ الدَّهَاءَ من جملة العقل ، والأريبى نسبة إليه للبالغة .

(الأزقى) من ألقاب ملوك المغرب . وهو مأخوذ من الرقى : وهو الارتفاع والعلو فى الدرَج .

(الأزكى) من ألقاب ملوك المغرب أيضا . وهو مأخوذ من الزكاة : وهى الزيادة ، كأنه نَسَبَه إلى الزيادة فى الرِّفْعَة ونحوها .

(الأسرى) بالسين المهملة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مأخوذ من السرو وهو سخاء فى مروة ، ومنه قيل لمن أشتمل على ذلك سرى ، وبه لقب من لقب «سرى الدين» .

(الأسفهلار) بسينين مهملتين بينهما فاء ثم هاء من ألقاب أرباب السيف ، وكان فى الدولة الفاطمية لقباً على صاحب وظيفة تلى صاحب الباب ، على ما تقدم

بيانه في الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية في المقالة الثانية . ومعناه «مُقدِّم العسْكر» وهو مُرَكَّب من لفظين : فارسيّ ، و تُرْكِيّ ، فأسَفَهُ بالفارسية بمعنى المقدم ، وسِلَّار بالتركية بمعنى العسْكر ، والعامّة تقول لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان : (أسپاسلار) بالباء الموحدة ، وكأنهم راعوا فيه معنى المقدم في الجملة ، والباء تعاقب الفاء في اللغة الفارسية كثيرا ؛ ولذلك قالوا : أَصِيهَانَ وَأَصِيهَانَ بالباء والفاء جميعا ؛ والأسْفَهْسِلَارِيّ نسبةٌ إليه للبالغة . وقد ذكر المقرُّ الشهابيُّ بن فضل الله في بعض دساتيره أن هذا اللقب يختصُّ بأمراء الطَّبَلْخَانَاه ، على أنه قد تُرِكَ أَسْتَعْمَالُهُ في زماننا ، وكأنهم كرهوا مشاركة بعض الأعوان فيه فأضربوا عنه لذلك ، أو لم يفهموا معناه فتركوه .

(الأسنى) من ألقاب ملوك المغرب . وهو مأخوذ من السَّناء بالمدّ : وهو الرفعة ؛ ويجوز أن يكون من السَّنا بالقصر : وهو الضياء .

(الأشرُف) من ألقاب المقام والمقر في مصطلح كُتَّاب الزَّمان على ما تقدم ذكره ؛ وربما وقع أيضا في ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعال التفضيل من الشرف بمعنى العلو .

(الأضعد) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو أفعال التفضيل من الصعود ضدَّ الهبوط .

(الأصيل) من ألقاب أرباب الأقاليم غالباً ، وربما وقع في ألقاب أرباب السُّيوف إذا كان لصاحب اللقب عرَاقَةٌ نَسَب ؛ وهو فعيل من الأصل بمعنى الحَسَب ؛ والأصيل نسبةٌ إليه للبالغة . قال في «عرف التعريف» : ويخصُّ بمن له ثلاثة في الرِّياسة ، أبْن عن أب عن جدّ .

(الأختم) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو مأخوذ من الضخامة ؛ والمراد بها هنا العظمة . وهي في أصل اللغة الغلظ وأستعملت في العظمة تجوزاً .

(الأعز) من ألقاب ملوك المغرب ؛ وقد يستعمل في ألقاب من لم يثبت فيه ياء النسب من السامى بغير ياء فما دونه كالأخص : فيقال « الأعز الأخص » ونحو ذلك ؛ وهو أفعال التفضيل من العز .

(الأعظم) من ألقاب السلطان ، يقال فيه « السلطان الأعظم » ويقع في ألقاب ملوك المغرب أيضاً . وهو أفعال التفضيل من العظمة : وهي الكبرياء .

(الأعلى) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعال التفضيل من العلو : وهو الارتفاع .

(الأعلم) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعال التفضيل من العلم الذى هو خلاف الجهل .

(الأفخم) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعال التفضيل من الفخامة : وهي العظمة والقوة .

(الأفضل) من ألقاب السلطان ؛ ويستعمل في ألقاب ملوك المغرب أيضاً وهو أفعال التفضيل [من الفضل] بمعنى الزيادة ، والمراد الزيادة في الفضيلة .

(الأكمل) من ألقاب السلطان أيضاً ؛ ويستعمل في ألقاب ملوك المغرب وفى القاب من لم تثبت فيه ياء النسب من السامى بغير ياء فما دونه ؛ والأكمل نسبة إليه للبالغة .

(الإمام) من ألقاب الخلفاء كما يقال في المكاتبات عنهم « من عبد الله ووليه الإمام الفلانى » وقد تقدم أن أول من تلقب به « إبراهيم بن محمد » أول من بوع له

بإخلافه من بنى العباس، ويقع أيضا في ألقاب أكابر العلماء . وأصل الإمام في اللغة الذي يُقْتَدَى به ؛ ولذلك وقع على المجتهدين كالأئمة الأربعة أصحاب المذاهب المشهورة : وهم الشافعي، ومالك، وأبو حنيفة، وأحمد . والإمامي نسبة إليه للبالغة .

(الأجدد) من ألقاب ملوك المغرب ؛ وربما كُتِبَ به للتجار ونحوهم في ألقاب الصِّدْر الأجل . وهو أفعُل التفضيل من المجد : وهو الشرف أو الأصالة .

(الأميري) من ألقاب أرباب السيوف . قال في "عرف التعريف" :
ويُكْتَبُ به لِكِبَار وإن كانوا من أرباب الأقاليم . وذَكَر في دُستورِه
أخْر أنه يكتب به لِنَقِيب الأشراف ولا يُكْتَبُ له القَضَائِي أصلا وإن كان من
أرباب الأقاليم ؛ وقد تقدّم لقب الأمير مجرّداً عن ياء النسب وأصله المأخوذ منه
في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف فأغنى عن إعادته هنا . وأعلم أنهم
لم يستعملوا فيه النسبة لنفس الإمرة فلم يقولوا في النسبة إليه الإمري كما قالوا
في النسبة إلى القضاء القَضَائِي .

(الأمين) من ألقاب التجّار الخَوَاجِكِيَّة وألقاب الخُدّام المعروفين في زماننا
بالطَوَاشِيَّة ، حُصِّوا بذلك لِأَثْمَان التجّار على الجوّاري والمماليك في حال جلبهم إلى
الملوك، وأثمان الخُدّام على الحريم والمماليك بأبواب الملوك، وهو مأخوذ من الأمانة
ضدّ الحيّانة ؛ والأمنيُّ نسبة إليه للبالغة .

(الأوحد) يقع في الألقاب السلطانية ، ويكون من ألقاب أرباب الأقاليم لمن
لا تثبت الياء في ألقابه من السامعي بغير ياء فما دونه، وفيه ما تقدّم في الكلام على

(١) بياض بالأصول ولعله لكبار الأمراء، أو الوزراء .

الأجلّ من الاعتراض على الكُتّاب في جمعهم الأعلى والأدنى في لقب واحد؛
والأوحدى نسبة إليه للبالغة .

حرف الباء

(البارِعُ) من ألقاب أرباب الأقاليم، وهو فاعلٌ من البرّاعة : وهى النهضة
بالشئ والتقدم فيه ؛ والبارِعُ نسبة إليه للبالغة .

(البلّيجُ) من ألقاب أرباب الأقاليم ، وأحسن ما يقع فى ألقاب ذوى البَلّاعة
من الكُتّاب ونحوهم ، وهو فعيل من البَلّاعة : وهى تأديّة كُنّه المراد بإيجاز لا يُخلّ ،
وإطناب لا يُملّ ؛ والبلّيجُ نسبةً إليه للبالغة .

حرف التاء

(التَّقِيُّ) من ألقاب ملوك المَغْرِبِ يقال التقى الزكى ونحو ذلك ؛ وربما استعمل
بالديار المصرية فى ألقاب أرباب الأقاليم وأهل الصلاح ؛ وهو مأخوذ من التقوى
كما تقدم فى الأتى .

حرف الجيم

(الجَلِيلُ) من ألقاب مَنْ يُكْتَبُ له الحاجُّ كمقدّمى الدولة ونحوهم ، ويقال فيه :
«الحاجُّ الجليلُ» ونحو ذلك ؛ والجَلِيلُ فى أصل اللغة العَظِيمُ ، وكان مقتضى الوضع
أن يكون لأعلى من هذه الرتبة .

حرف الحاء المهملة

(الحاجُّ) من ألقاب مقدّمى الدولة ومِهتارِية البيوت ومن فى معناهم وإن لم
يكن قد حجّ ، وإن كان موضوعُ الحاجِّ فى العرف العام إنما هو لمن حجّ البيت
وإنما أصطليح لهم على ذلك حتى صار كالعلم عليهم .

(الحافظ) من ألقاب المحدثين ؛ وأصله من الحفظ ضدَّ النسيان ، وأختصَّ بالمحدثين لأحتياجهم إلى كثرة الحفظ لتون الأحاديث وأسماء الرجال ونحو ذلك ؛ والحافظي نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحافل) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه الكثير الجمع ، أخذاً من قولهم وإِدِ حافلٌ إذا كثُر سبله .

(الحاكم) من ألقاب القضاة . قال أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" : وأصله من الحكمة بفتح الكاف : وهي حديدةٌ مستديرةٌ في البَّام تمنع الدابة من الجرى والشباب ؛ سُمِّي بذلك لأنه يرَدُّ النَّاسَ عن الظُّلم ؛ وأكثر ما يستعمله كُتَّاب الزمان في عنوان المكاتبات في تعريف المكتوب إليهم ، وفي أثنائها في وصف المكتوب بسببه ؛ والحاكمي نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحائز) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو فاعل من الحيازة : وهي الحياطة ، والمراد الحائز للملك ، أو الحائز للفضائل ونحو ذلك .

(الحبر) من ألقاب أكابر العلماء - وهو بفتح الحاء وكسرهما لغتان ، والذي اختاره ابن قتيبة في "أدب الكاتب" الكسر ، وبه سُمِّي الحبر الذي يُكْتَب به ، ولكن الجارى على ألسنة الناس الفتح ؛ والحبري نسبةٌ إليه للبالغة .

(الحجبي) بضم الحاء وكسر الجيم المشددة وفي الأخرى النسب من ألقاب أكابر القضاة والعلماء ، وهو منسوب إلى الحجبة بحذف تاء التانيث منه على قاعدة النسب ، كما تحذف من طلحة ونحوه على ما هو مقرَّر في علم النحو . وبعض جهلة الكُتَّاب يثبت فيه تاء التانيث مع النسب فيقولون الحجبيّ وهو خطأ ؛ ثم النسبة فيه

حقيقةً لأن المنسوب إليه وهو الحجة غير من له اللقب، ويجوز أن تكون للبالغة بأن يجعل صاحب اللقب هو نفس الحجة تجوزاً وهو أبلغ .

(الحسيب) من ألقاب الشرفاء من ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة رضي الله عنها ، أخذاً من الحسب : وهو ما يعده الإنسان من مفاخر آباءه على ما ذكره جماعة من أهل اللغة ولذلك أختص في الاصطلاح بالشرفاء ، إذ كان آباؤهم أعظم الناس مفاخر ، لكن قد ذكر ابن السكيت في "إصلاح المنطق" أن الحسب يكون في الرجل وإن لم يكن له آباء لهم شرف ؛ وعلى هذا فلا يختص هذا اللقب بذوى الأنساب التي فيها عرَاقَةٌ ؛ والحسيبُ نسبةٌ إليه للبالغة .

حرف الخاء المعجمة

(الخاشع) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، وربما استعمل في العلماء ، بل ربما استعمل في أرباب السيوف إذا كان المكتوب له متصفاً بذلك ، بل ربما استعمل في ألقاب بطارية النصارى من الباب وغيره ، على ما سياتي ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . والخاشع في اللغة الخاضع والمتدلل ، والخاشعي نسبةٌ إليه للبالغة .

(الخواج) من ألقاب أكابر التجار الأعاجم من الفرس ونحوهم . وهو لفظ فارسي ، ومعناه السيد ؛ والخواجيُّ زيادة كافٍ نسبةً إليه للبالغة ، وكان الكاف في لغتهم تدخل مع ياء النسب .

(الخير) بفتح الخاء وتشديد الياء المشناة تحت ، من ألقاب أهل الدين والصلاح . وهو في أصل اللغة خلاف الشرير ، ثم غلب استعماله فيمن غلب عليه الخير ؛ والخيريُّ نسبةٌ إليه للبالغة ، وقيل أن يستعمله الكُتَّاب إلا بإثبات الياء في آخره .

حرف الذال المعجمة

(الذُّنْحَر) بضم الذال وإسكان الخاء من ألقاب أرباب السيوف ، وربما أُطِيقَ على غيرهم . وأصله في اللغة لما يُذْنَرُ من النفائس ، وهو مصدر ذَنَرْتُ الشَّيْءَ أَذْنَرُهُ ، وكثيرا ما يُنَلِّطُ فيه فيجعل بالذال المهملة . وممن وقع له الوهم في ذلك الشيخ جمال الدين الأسنوي في "طبقات الفقهاء" فأورد صاحب "الذخائر" في الدال المهملة ؛ والذُّنْحَرِيَّ نسبةً إليه للبالغة ، وأكثر ما يستعمله الكُتَّابُ كذلك .

حرف الراء المهملة

(الرَّبَّانِيَّ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهلِ الصَّلَاحِ ، وربما لُقِّبَ به العالمُ فيقال : « العالم الربَّانِيَّ » قال الجوهري ، وهو المَتَأَلُّهُ والعارفُ بالله تعالى . قال تعالى : ﴿ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ ﴾ .

(الرُّحَلَةُ) بضم الراء من ألقاب أكابر العلماء والمحدِّثين ، والرُّحَلَةُ في اللغة ما يُرْحَلُ إليه ، لُقِّبَ بذلك لأنه في حَيِّزٍ أَنْ يُرْحَلَ إليه للأخذ عنه . أما الرُّحَلَةُ بالكسر فالأرتحالُ ؛ والرُّحَلِيُّ بالضم أيضا نسبةً إليه للبالغة .

(الرَّيِّسُ) بالهمزة على وزن فَعِيلٍ من ألقاب عِلْمِيَّةِ النَّاسِ وأشْرَافِهِمْ ، ويقال : فيه رَيْسٌ على وزن قِيمٍ قاله الجوهري . وأصله من الرِّياسَةِ وهي رِفْعَةُ القَدْرِ وَعُلُوُّ الرُّتْبَةِ ؛ والرَّيِّسِيُّ نسبةً إليه للبالغة ، وذال ما يستعمله الكُتَّابُ كذلك ، وهو من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتَّابِ .

حرف الزاي

(الزَاهِدُ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهلِ الصَّلَاحِ ، وهو في اللغة خِلافُ الرَّاغِبِ ، والمراد هنا مَنْ أَعْرَضَ عن الدنيا فلم يَلْتَفِتْ إليها ، والزَاهِدِيُّ نسبةً إليه للبالغة .

(الرَّعِيمِيُّ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كتُواب السلطنة ومن في معناهم؛ وهو نسبة إلى الرِّعِيمِ بمعنى السيد والكافل وكأنه بولايته على القوم سادهم أو كفَلهم وتولاهم ولم يستعملوا فيه الرِّعِيمِ بغير ياء : لأنه إذا كان مختصا بكار أرباب السيوف دون أذانيهم، وجب إثبات الياء للبالغة .

(الرَّزَكِيُّ) من ألقاب المتدينين من أرباب الأقلام وغيرهم، يقال التقى الرزكى ونحو ذلك . وهو في أصل اللغة بمعنى الزاكي وهو الزائد وقد تقدم مثله في الأزكى في حرف الألف .

حرف السين المهملة

(السالك) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو فاعل من السلوك، والمراد سلوك سبيل الرشاد الموصل إلى الله تعالى، والسالكى نسبة إليه للبالغة .

(السامى) من ألقاب المجلس، وقد تقدمت الإشارة إليه في الكلام على الألقاب الأصول وأنه ينقسم إلى السامى بالياء والسامى بغير ياء فليراجع منه .

(السَّفيرى) قال في "عرف التعريف" : وهو من الألقاب الخاصة بالدُّوَادار، على أنى قدر أيته في بعض الدساتير الشامية قد كُتِبَ به لبعض التجار الخواجكية لسفارتهم بين الملوك وترددهم في الممالك بلحَب الممالك والجوارى ونحو ذلك وهو منسوب إلى السفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم نسبة مبالغة ولم يستعمله الكتاب مجزدا عن الياء : لأنه إذا كان خاصا بهدين ورتبتهما عليه لا يليق بها حذف الياء لم يناسب استعماله مجزدا عنها .

(السلطانى) من ألقاب الملوك فيثبت في ألقاب المقام الشريف ونحوه، فيقال المقام الشريف العالى السلطانى ونحو ذلك ؛ وهو منسوب إلى السلطان وقد تقدم الكلام عليه في الكلام على أرباب الوظائف .

(السيد) من الألقاب السلطانية يقال السلطان السيد الأجل ونحو ذلك ؛ ويقع في اللغة على المالك والزعيم ونحوهما ؛ والسيد نسبة إليه للبالغة ، وهو من الألقاب الخاصة بالجناب الشريف فما فوقه . قال في "عرف التعريف" ولا يكتب به عن السلطان لأحد .

حرف الشين المعجمة

(الشاهنشاه) من الألقاب الملوكة المختصة بالسلطان وأكابر الملوك . وهو لفظ فارسي معناه بالعربية «ملك الأملاك» وقد ورد النهي عن التسمي به ؛ وفي الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : "إن أخنع أسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك ، لا ملك الأملاك إلا الله" . قال سفيان بن عيينة : معناه شاهنشاه ؛ ولذلك يحذفه المتدينون من الكتاب من الألقاب السلطانية ؛ وقد أشار إلى ذلك في "التتيف" في مكتبة صاحب المغرب .

وأعلم أنه كان قد وقع في تلقيب الملوك بهذا اللقب نزاع بين العلماء في سلطنة السلطان "جلال الدولة" السلجوقي في سنة تسع وعشرين وأربعمائة كما حكاه ابن الاثير في تاريخه "الكامل" وذلك أن السلطان جلال الدولة كان قد سأل أمير المؤمنين (القائم بأمر الله) الخليفة يومئذ في أن يحاطب بملك الملوك فامتنع ، فكتب فتوى للفقهاء في ذلك ؛ فكتب القاضي أبو الطيب الطبري ، والقاضي أبو عبد الله الصيمري . والقاضي ابن البيضاوي ، وأبو القاسم الكرخي بجوازه ؛ ومنع منه أفضى الفضاة أبو الحسن الماوردي ، وجرى بينه وبين من أفتى بجوازه مراجعات ؛ وخطب لجلال الدولة بـ «ملك الملوك» وكان الماوردي من أخص الناس بجلال الدولة ، وكان يتردد إلى دار المملكة كل يوم فلما أفتى في ذلك بالمنع ، انقطع ولزم بيته خائفاً ،

وأقام منقطعاً من شهر رمضان إلى يوم النحر؛ فاستدناه جلال الدولة، فحضر خائفاً فأدخله عليه وحده، وقال له: قد علم كلُّ أحدٍ أنك من أكثر الفقهاء مالاً وجاهاً وقرباً منا وقد خالفتهم فيما خالف دواي، ولم تفعل ذلك إلا لعدم المحابة منك وأتباع الحق، وقد بان لي موضعك من الدين ومكانك من العلم، وجعلتُ جزاء ذلك إكرامك بأن أدخلتك إلى وحدك، وجعلتُ إذن الحاضرين إليك، ليتحققوا عودي إلى ما يجب. فشكره ودعا له وأذن لكل من حضر للخدمة بالانصراف.^(١)

(الشريف) من ألقاب المقتّر والجنّاب، من حيث إنه يقال المقتّر الشريف والجنّاب الشريف، وذكر في "عرف التعريف" أنه مختصّ بالأشراف أبناء فاطمة من عليّ رضي الله عنهما، وكأنه يريد في الألقاب المطلقة التي لا تلي المقتّر والجنّاب وهو فعيل من الشرف وهو العلو والرنة، قال ابن السكيت: ولا يكون إلا لمن له آباء يتقدمونه في الشرف بخلاف الحسيب ومن هنا جعله الكُتّاب أعلى رتبة من الكريم لأشتماله على قدر زائد لا يعتبر في الكريم من عراقة الأصل وشرف المنجد، والشريفيّة نسبة إليه للبالغة.

(الشهير) من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه المشهور الظاهر، والمراد هنا من أشهر علو قدره ورفعته.

(الشيخ) من ألقاب العلماء والصلحاء وأصله في اللغة الطاعن في السن، ولقّب به أهل العلم والصلاح توقيراً لهم كما يوقر الشيخ الكبير، والشيخية نسبة إليه للبالغة.

حرف الصاد المهملة

(الصاحب) من ألقاب الوزراء. قال في "عرف التعريف": وهو مختص بأرباب الأنلام منهم دون أرباب السيوف. وهو في أصل اللغة اسم للصديق،

(١) أورد ابن الأثير هذه العبارة في كتابه الكامل (ج ٩ ص ١٧١).

وأول من نُقِبَ به من الوزراء كافي الكفاة إسماعيل بن عبّاد، وذلك أنه كان يصحب الأستاذ ابن العميد، فكان يقال له بذلك «صاحبُ ابن العميد» ثم غلب عليه حتى استعمل فيه بالألف واللام، ثم صار لقباً على كل من ولي الوزارة بعده . على أن دُكِّبَ الإنشاء بالمالك الشامية يلقَّبون العلماء من قضاة القضاة ومن في معناهم بذلك، وهم على ذلك إلى الآن ، بخلاف كُتَّاب الديار المصرية ، فإنهم يقصرونه على الوزراء دون غيرهم كما تقدمت الإشارة إليه . والصاحبي نسبةٌ إليه للبلغة . وهو المستعمل عند كُتَّاب الإنشاء، وبغير الياء في العرف العام .

(الصالح) من ألقاب أهل الصَّلاح والصُّوفية يقال الشيخ الصالح ونحو ذلك . وهو مأخوذ من الصَّلاح ضدَّ الفساد، ولم يستعملوه باثبات ياء النسب فلم يقولوا الصالحين ، وكأنهم تركوا ذلك خوفاً من الالتباس بالنسبة إلى البلد المعروف أو غيره .

(الصِّدْر) من ألقاب التُّجَّار ونحوهم . والمراد من يكون صدرًا في المجلس؛ وصدر كلِّ شيء في اللغة أوَّلُه، وعبر عن صدر المجلس بأوله لأنه في الحقيقة أوَّل المجلس وكل جانب من جانبيه تلوُّله، والصِّدْرِي نسبةٌ إليه للبلغة .

حرف الطاء

(الظاهر) من ألقاب ملوك المغرب، والمراد المتترِّع عن الأدناس .

حرف الظاء

(الظهيرى) من ألقاب بآر أرباب السُّيوف كأعيان الأمراء من نواب السلطنة وغيرهم؛ وهو نسبةٌ إلى الظهير، بمعنى العون للبلغة، ومنه قوله تعالى :

(لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) ولم يستعملوه مجزدا عن ياء النسب لاختصاص المظاهرة بأكابر أرباب السيف، وهو بغير الياء لا يقع إلا على الأدوان منهم .

حرف العين

(العابد) من ألقاب السوفية وأهل الصلاح، وهو فاعل من العبادة وهي الطاعة . وربما استعمل في أرباب السيف والأقلام أيضا : لانتصاف متصفيهم بذلك أو وقوعه أولا على متصفيهم ثم لزومه من بعده من أهل تلك المرتبة كما في نائب الشام، حيث كتب لبيد المرزومي في نيابته بذلك؛ ثم لزم من بعده من نواب الشام والنائب الكافل على ما سيأتي ذكره في المكاتبات إن شاء الله تعالى .

(العادل) من ألقاب السلطان، وهو خلاف الجائر، وذلك أعلى ما وُصف به الملك ونحوه من ولاية الأمور : لأن العدل به تقع عمارة الممالك، والعدل نسبة إليه للبالغة؛ وهو من ألقاب أكابر أرباب السيف من الثواب ونحوهم .

(العارف) من ألقاب أكابر أهل الصلاح، وهو خلاف الجاهل؛ ومنهم من يفرق بينه وبين العالم بأن المعرفة قد يتقدمها جهل والعلم لا يتقدمه جهل، ولذلك لم يطلق اسم العارف على البارئ سبحانه وتعالى بخلاف العالم فإنه يطلق عليه؛ والعارف نسبة إليه للبالغة .

(العاقد) من ألقاب ملوك المغرب؛ وهو في أصل اللغة اسم للمعين، يقال عَصَدْتَهُ أَعْصَدْتَهُ إِذَا أَعْتَدْتَهُ .

(العالم) من ألقاب السلطان، وهو خلاف الجاهل . ثم هو في الحقيقة إنما هو من ألقاب العلماء إلا أنهم نعتوا به الملوك تعظيما، إذا علم كل أحد يلاحم على

الأنصاف به ، والعالمى نسبة إليه للبالغة . وهو من الألقاب المشتركة في الاصطلاح بين أرباب السيوف والأقلام وإن كان المختص بها في الحقيقة العلماء .

(العالى) من الألقاب التي يشترك فيها أرباب السيوف والأقلام ، ويوصف به المقام والمقر والجناب والمجاس في إحدى حالتيه ؛ وهو من العلاء بالمد وهو الشرف . يقال علي بكسر اللام يعلى بفتحها إذا شرف ، ومنه قيل في علي ونحوه «علاء الدين» ويحتمل أن يكون من العلو في المكان يقال فيه علا بفتح اللام يعلو علوا ؛ وسيأتي معنى الفرق بينه وبين السامى وإن كان بمعناه في اللغة .

(العامل) من ألقاب أهل الصلاح ، والمراد المحجد في العمل المجتهد في العبادة ؛ والعالمى نسبة إليه للبالغة ، وهو من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام كالعالمى .

(العريق) من ألقاب ذوى الأصالة ، وأكثر ما يقع على أرباب الأقلام ، والمراد من له عراقة في كرم الأصل ؛ والعريق نسبة إليه للبالغة .

(العزير) من ألقاب ديوان الخلافة ، يقال فيه «الديوان العزير» على ما سيأتي بيانه في المكتبة إلى أبواب الخلافة ، وربما استعملوه في الولد فقالوا الولد العزير ، ولم يستعملوه مضافا إلى ياء النسب .

(العضد) من ألقاب أرباب السيوف ؛ وهو في الأصل أسم للساعد ؛ وهو ما بين المرقق والكف ، وأستعمل في المعين والمساعد لقيامه في المساعدة مقام العضد الحقيقي من الإنسان ؛ ثم الأفضح فيه فتح العين مع ضم الضاد ، ويجوز فيه كسر الضاد وإسكانها مع الفتح أيضا وضم العين مع إسكان الضاد ؛ والعضدى نسبة إليه للبالغة .

(العَوْنِيُّ) من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف، وهو نسبة إلى العَوْن وهو الظَّهيرُ على الأمرِ المعاوَنُ عليه . ولم يستعملوه مجرّداً عن ياء النسب لوقوع العَوْن على الواحد من أعوانِ صاحب الشرطة ونحوه .

(العلّامة) بالتشديد من ألقاب أكابر العلماء . قال الجوهريّ : وهو العالمُ للغاية ، وقُلَّ أن يُستعملوه إلا في ألقاب المكتوب بسببه ونحو ذلك ، وحذفُ الهاء منه لغةٌ ، وليست بمستعملة بين الكُتّاب أصلاً ؛ والعلّامى نسبة إلى العلام أو العلامّة للبالغة . قال في "عرف التعريف" : ويختص بالمفتي .

حرف الغين المعجمة

(الغازي) من ألقاب أرباب السيوف، وهو من الأسماء المنقوصة كالفاضي ونحوه، وقُلَّ أن يُستعمل إلا في ألقاب السامى بغير ياء فيما دونه .

(الغوث) بالثاء المثلثة من ألقاب الصوفيّة، وهو عندهم لقب على القطب الذي هو رأس الأولياء؛ وأصله في اللغة من قول الرجل واغوثاه، وقُلَّ أن تستعمله الكُتّاب بل لم يستعملوه مضافاً إلى ياء النسب أصلاً .

(الغياتي) من ألقاب أرباب السيوف ، وأكثرُ ما يُستعمل في الملوك ، وهو في اللغة الأسم من أستغاثني فأغثته ، وأصله الغواثي بالواو فقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها .

حرف الفاء

(الفتاح) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو فاعلٌ من الفتح بمعنى النصر ، والمراد فتحُ الأمصار وتملكها .

(الفاضل) من ألقاب أرباب الأقاليم ، وأكثر ما يقع في ألقاب العلماء ، وربما وقع في ألقاب الحُجَّاب ، وهو خلاف الناقيص ، والمراد زائد الفضل ، وبه لقب القاضي الفاضل « عبد الرحيم البيساني » الكاتب المشهور ؛ والفاضل نسبة إليه للبالغة .

(الفائز) من ألقاب ملوك المغرب ، وهو فاعلٌ من الفوز بمعنى النجاة أو الظفر ، وقد يُسَاحُحُ في التلقيب به فإن الفوز يطلق على الهلاك أيضا على ما هو مقرّر في كتب اللغة ، ومثل ذلك يجب اجتنابه لما فيه من الاشتراك بين الحمود والمذموم ، إلا أنه غلب استعماله في النجاة حتى إنه لم يرد في القرآن إلا بمعناها ، ولذلك عول الحُجَّاب على استعماله .

(الفقيه) من ألقاب العلماء وهو اسم فاعلٍ من فقه بضم القاف إذا صار الفقه له سجيّة ، ككرم إذا صار الكرم له سجيّة . قال المسيلي^(١) في «شرح مختصر ابن الحاجب» : وإنما يقع على المجتهد دون المقلّد ، أما إطلاقه على فقهاء المكاتب ونحوهم فعلى سبيل المجاز . على أن الحُجَّاب بالديار المصرية لم يستعملوا هذا اللقب إلا في القليل النادر ، بل كثير من جهالة الحُجَّاب وغيرهم يستصغرون التلقيب به ويعُدونه نقصا ، وإنما يُعظَّم به جدّ التعظيم أهل المغرب ؛ والفقيهيُّ نسبةٌ إليه للبالغة ، وهو مستعمل في ألقاب العلماء .

(الفريدي) من ألقاب أكابر العلماء ، وهو نسبةٌ إلى الفريد بمعنى المنفرد للبالغة ، والمراد المنفرد بما لم يُسَارِكْه فيه غيره ، ولم يستعملوه مجردا عن ياء النسب .

(١) كذا بالأصول ولله السبكي انظر شرح مختصر ابن الحاجب في كشف الظنون .

حرف القاف

(القاصويّ) من ألقاب أرباب الأقاليم ، وهو نسبةٌ إلى القاضي للبلغة ، ثم في الحقيقة كان يجب أن يختص بالقضاة الذين هم حُكَّام الشريعة دون غيرهم ، إلا أنه توسّع فيه حتى استعمل في غيرهم من ألقاب أرباب الأقاليم .

(القُدوة) بكسر القاف وضّمها لغةٌ من ألقاب العلماء والصّاحاء ، وهو بمعنى الأُسوة . يقال : فلان قُدوة يُقتدى به ؛ والقُدويّ نسبةٌ إليه للبلغة ، وحذفت منه تاء التانيث المبدلة من الهاء على قاعدة النسب عند النحاة ، وكثيرٌ من جهالة الكُتّاب يُثبتون فيه تاء التانيث مع النسب فيقولون القُدويّ ، وهو خطأ كما تقدّم في الكلام على المُجَّة في حرف الحاء .

(القَضائريّ) من الألقاب التي يستعملها بعضُ الكُتّاب في ألقاب من أجمع له رئاسةُ السيف والقيلم ، وهو نسبة إلى القضاء والأمير تشبيهاً بمذهب من يرى النسبة إلى المضاف والمضاف إليه جميعاً فيقول في النسبة إلى عبدِ شمس عبّشيّ ، وإلى عبد الدارِ عبديّ ، ونحو ذلك ، وهو مذهب مرجوح على ما تقدّم بيانه في المقالة الأولى في الكلام على النحو ، والأحسن فيه النسبة إلى كلِّ منهما على أنفراده ، فيقال القَضائِيُّ الأَميرِيُّ ، أو الأَميرِيُّ القَضائِيُّ ؛ وعلى العمل به فاللائقُ بعلو الرتبة أن يقال القاضيريّ ليكون مرّجاً من القاصويّ والأميريّ ، إذ كان القاصويّ في المعنى أبلغ من القَضائِيُّ لما في القاصويّ من المبالغة على ما تقدّم بيانه .

(القَضائِيُّ) من ألقاب أرباب الأقاليم ، وهو نسبةٌ إلى القضاء فلا مبالغة فيه .

(القُطْب) من ألقاب الصوفية وأهل الصّلاح ، وهو عندهم عبارةٌ عن رأس الأولياء الذي عليه مدارهم كما تقدّم في الغوث ، وقيل أن يستعمله الحُتّاب ؛

ولم يستعملوه مضافاً إلى ياء النسب فيما وقفت عليه أصلاً . والقُطْبُ في أصل اللغة كَوَكَبٌ بين الجَدَى والفَرَقَدَيْنِ يدور عليه الفَلَكُ فيما قاله الجوهري . والتحقيق أنه نقطة متوهمة بالقرب من هذا الكوكب على ما هو مقرر في علم الهيئة ، ولذلك قيل لسيد القوم الذي عليه مدار أمرهم قُطْبُ بنى فُلَانٍ ، وَمِنْ هُنَا عَبَّرُوا عَنْ مَدَارِ الْأَوْلِيَاءِ بِالْقُطْبِ . وَقُلَّ أَنْ يَسْتَعْمَلَ الْخُطَّابُ ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلُوهُ مضافاً إلى ياء النسب فيما وقفت عليه .

(القَوَامِي) بفتح القاف من ألقاب أرباب السيوف . وهو نسبة إلى القوام وهو العدل . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ ولم يستعملوه مجزئاً عن ياء النسب .

حرف الكاف

(الكافل) من الألقاب المختصة بنايب السلطنة بالخصرة ، يقال فيه التائب الكافل ونحو ذلك ، والكافل في اللغة الذي يَكْفُلُ الإنسانَ وَيُعَوِّلُهُ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ وتُكَبُّ بذلك لأنه يَكْفُلُ الرعيةَ وَيُعَوِّلُهُمْ ، والكافلي نسبة إليه للبالغة . قال في "عرف التعريف" : وهو مختص بنايب سلطانٍ أو وزيرٍ كبير . وذكر في دستور آخر أنه لا يكتب به لغيرهما .

(الكبير) من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام ، وهو في الأصل بخلاف الصغير ، والمراد هنا الرفيع الرتبة ، والكبيرى نسبة إليه للبالغة .

(الكريم) من ألقاب المقرِّ والجَنَابِ ، ويشترك فيه أربابُ السيوف والأقلام ، والكريمُ خلاف اللئيم فيما يقتضيه كلام الجوهري حيث قال : الكرمُ نقيضُ اللؤمِ ، وحينئذ فيكون المراد بالكريم الخالص من اللؤم ، ومن ثمَّ جعل دون الشريف

في الرتبة، إذ في أشرف قدر زائد على ذلك، وهو اعتبار ثبوت رفعة القدر، بل اعتبار ذلك في آبائه أيضا كما قاله ابن السكيت على ما تقدم ذكره في الكلام على لقب الشريف، ويوضح ذلك أن الفقهاء قالوا يستحب في الزوجة أن تكون نسبية فعمله بعضهم على الصحيحة النسب احتراماً بذلك عن بنت الزنا، وحملة آخرون على العرافة في النسب، والأول في معنى الكرم الذي لم يعتبر فيه سوى خلوصه من اللؤم، والشأن بمعنى الشريف الذي اعتبر فيه قدر زائد؛ ثم هو فعيل من كرم بضم الراء إذا صار الكرم له سجية كما تقدم في الفقيه .

(الكفيلي) من ألقاب أكابر ثواب السطنة، وهو أعلى من الكافل، لأن صيغة قَئِيلِ أبلغ من صيغة فاعِلِ على ما هو مقرر في علم النحو والتصريف .

حرف اللام

(الليبي) من ألقاب أرباب الأقاليم، وهو فعيل من اللب وهو العقل؛ والليبي نسبة إليه للباغة .

(اللودعي) بالذال المعجمة من ألقاب أرباب الأقاليم، وهو الذكي القلب .

حرف الميم

(الماجدي) من ألقاب أرباب الأقاليم غالباً، وربما أطلق على ذريهم، وهو مختص بذوى الأصالة فقد قال ابن السكيت إن المجد لا يكون إلا بالآباء؛ والماجدي نسبة إليه للباغة .

(المالكي) من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف والأقاليم . قال في "عُرف التعريف": ولا يكتب به عن السلطان لأحد، وهو نسبة إن المالک الذي هو خلاف المملوك للباغة، ولم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب .

(المُتَاغِرُ) بالشاء المثلثة من ألقاب السلطان، والمراد القائمُ بسدِّ الثُّغور : وهى البلادُ التى فى نَحْرِ العدو، أخذًا من الثُّغْر وهو السِّنّ، لأنه كالباب على الحلق الذى يمتنع الوصول إليه إلا منه؛ والمُتَاغِرَى نسبةٌ إليه للبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُتُوب السلطنة ونحوهم .

(المتصِّفَى) من ألقاب الوزراء وَمَنْ فى معناهم ، والمراد مَنْ ينفذ تصرفه فى الأمور، ولم يستعملوه مجزداً عن ياء النسب .

(المجاهدُ) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ المجاهدُ فى سبيل الله تعالى، وربما استُعمل فى ألقاب السامى من غير ياء فما دونه كما تقدم فى الغازى ، وألجَاهِدَى نسبةٌ إليه للبالغة . وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُتُوب السلطنة ونحوهم .

(المُجتهدُ) من ألقاب العلماء ، والمرادُ به فى الأصل مَنْ يَسْتَنْبِط الأحكامَ الشرعيةَ من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ، وقيل أن يستعمله الكُتَّابُ ، والمجتهدى نسبةٌ إليه للبالغة . وأكثرُ استعماله كذلك .

(المُحْتَرَمُ) من ألقاب العامة من يلقَّبُ بالصِّدْر الأجل . فيقال : «الصِّدْر الأجلُّ الكبيرُ المحترَّمُ» ونحو ذلك .

(المُحَقِّقُ) من ألقاب العلماء ، وربما استُعمل فى ألقاب الصُّوفية ، والمراد أنه يأتى بالأشياء على حقائقها لحدة ذهنه وصحة حدسه ؛ والمُحَقِّقَى نسبةٌ إليه للبالغة .

(المُخْتَارُ) من ألقاب أرباب السُّيُوف غالباً ، ويختصُّ بالسامى بغير ياء فما دونه ، وهو اسمٌ مفعولٍ من الأختيار ، بمعنى أن الملوكة وأرباب الأمور يختارونه ، على أن اسم الفاعل منه أيضاً المختارُ كلفظ المفعول على السواء وإنما تُرشد إليه القرائن .

(المخدوم) من الألقاب المختصة بالمكتبات، والمراد من هو في رتبة أن يكون مخدوما لعلو رتبته وسمو محله؛ والمخدومي نسبة إليه للبالغة. قال في "عرف التعريف": ولا يكتب به عن السلطان لأحد.

(المدبري) من ألقاب الوزراء ومن في معانهم ككتاب السر ونحوهم، وهو نسبة إلى المدبر بكسر الباء الموحدة: وهو الذي ينظر في الأمر وما تقول إليه عاقبته، ولم يستعملوه مجزدا عن ياء النسب.

(المدقق) من ألقاب العلماء، وهو الذي ينعم النظر في المسائل ويدققه؛ والمدقق نسبة إليه للبالغة.

(المرابط) من الألقاب السلطانية، وهو مفاعل من الرباط: وهو ملازمة نعر العدو؛ والمرابطي نسبة إليه للبالغة. وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كقواب السلطنة ونحوهم.

(المربي) من ألقاب الصوفية، والمراد من يربي المريدين ويسلكهم ويعرفهم الطريق إلى الله تعالى.

(المرتضى) من ألقاب أرباب السيوف والأقلام، ويختص بالسامى بغيرياء فما دونه، والمراد من يرضاه ولأه الأمور ويختارونه.

(المُرشد) من ألقاب ملوك المغرب، وربما استعمل في ألقاب الصوفية، والمراد من يرشد الناس إلى الحق ويهديهم السبيل؛ والمرشدي نسبة إليه للبالغة.

(المُسدي) من ألقاب أرباب السيوف وألقاب الوزراء ومن في معانهم، وهو بفتح الدال المشددة نسبة إلى المسدد، وهو اسم مفعول من السداد بالفتح: وهو

الصَّوَابِ وَالْقَصْدِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ بِالْكَسْرِ عَلَى أَنَّهُ أَسْمُ فَاعِلٍ مِنْهُ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُسَدَّدُ غَيْرَهُ ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلُوهُ مَجْرَدًا عَنْ يَاءِ النِّسْبِ .

(الْمَسْلُوكُ) بِتَشْدِيدِ اللَّامِ الْمَكْسُورَةِ مِنْ أَلْقَابِ الصُّوفِيَّةِ ، وَهُوَ أَسْمُ فَاعِلٍ مِنْ تَسْلِيكِ الطَّرِيقِ وَهُوَ تَعْرِيفُهَا ، وَالْمُرَادُ تَعْرِيفُ الْمُرِيدِينَ الطَّرِيقَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ؛ وَأَصْلُ التَّسْلِيكِ إِدْخَالُ الشَّيْءِ فِي الشَّيْءِ ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلخَيْطِ سَمَكَ ، لِقَبِّ بِذَلِكَ لِإِدْخَالِهِ الْمُرِيدِينَ فِي الطَّرِيقِ ، وَالْمَسْلُوكِيُّ نِسْبَةٌ إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ .

(الْمُشِيدِيُّ) بِتَشْدِيدِ الْيَاءِ الْمَكْسُورَةِ مِنْ أَلْقَابِ أَكْبَارِ أَرْبَابِ السُّيُوفِ ، كُنُوتَابِ السُّلْطَنَةِ وَنَحْوِهِمْ ، وَهُوَ نِسْبَةٌ إِلَى الْمُشِيدِ فَاعِلٍ مِنَ التَّشْيِيدِ وَهُوَ رَفْعُ الْبِنَاءِ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَقَصِيرٌ مَشِيدٌ ﴾ أَيْ مَرْتَفِعٌ ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يُشِيدُ قَوَاعِدَ الْمَمْلُوكَةِ وَيَرْفَعُهَا ؛ وَلَمْ يَسْتَعْمَلُوهُ مَجْرَدًا عَنْ يَاءِ النِّسْبِ إِذْ لَا يَلِيقُ بِالْأَدْنِيِّينَ .

(الْمُشِيرِيُّ) مِنْ أَلْقَابِ الْوُزَرَاءِ وَأَكْبَارِ الْأَمْرَاءِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ يُؤْخَذُ رَأْيُهُ فِي الْأُمُورِ . قَالَ فِي "عَرَفِ التَّعْرِيفِ" : وَلَا يُسَمَّحُ بِهِ لِأَحَدٍ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ مَا لَمْ يَكُنْ مَقْدَمَ أَلْفٍ ؛ وَهُوَ نِسْبَةٌ إِلَى الْمُشِيرِ : وَهُوَ الَّذِي يُؤْخَذُ رَأْيُهُ . وَأَخْتَلَفَ فِي أَصْلِهِ الْمَأْخُودُ مِنْهُ فَقِيلَ : مِنْ شُرْتُ الْعَسَلِ إِذَا اسْتَخْرَجْتَهُ مِنْ كَوَارِثِ النَّحْلِ ، لِأَنَّ الرَّأْيَ يُسْتَخْرَجُ مِنَ الْمُشِيرِ . وَقِيلَ مِنْ شُرْتِ النَّاقَةِ إِذَا عَرَضَتْهَا عَلَى الْحَوْضِ لِأَنَّ الْمُسْتَشِيرَ يَعْضُ مَا عِنْدَهُ عَلَى الْمُشِيرِ ، وَلَمْ يَسْتَعْمَلُوهُ مَجْرَدًا عَنْ يَاءِ النِّسْبِ لِأَنَّهَا عَنْ رَتْبَةِ الْأَكْبَارِ .

(الْمُظَاهِرُ) مِنْ أَلْقَابِ مُلُوكِ الْمَغْرِبِ ، وَمَعْنَاهُ الْمُعَاوِنُ أَخْذًا مِنَ الْمُظَاهَرَةِ : وَهِيَ الْمُعَاوَنَةُ .

(الْمُظَفَّرُ) مِنَ الْأَلْقَابِ السُّلْطَانِيَّةِ ، أَخْذًا مِنَ الظَّفَرِ وَهُوَ النَّصْرُ ؛ وَالْمُظَفَّرِيُّ نِسْبَةٌ إِلَيْهِ لِلْبَالِغَةِ ، وَهُوَ مِنْ أَلْقَابِ أَكْبَارِ أَرْبَابِ السُّيُوفِ .

(المُعْرَق) بضم الميم وإسكان العين وكسر الراء من ألقاب ملوك المغرب، والمراد به من أَعْرَقَ في الكَرَم . على أن المُعْرِقَ قد يُطْلَق في اللغة على المُعْرِقِ في اللُّوم أيضا فهو من الأضداد، ومثل ذلك يُجْتَنَب في التلقيب .

(المُعَزَّز) بزائين معجمتين الأولى منهما مشددة مفتوحة من ألقاب ملوك المغرب، وهو أَسْمُ مَفْعُول من العَزَّ خلاف الدَّلَّ، ومنه قراءة من قرأ (ويعزروه ويوقروه) بزائين معجمتين .

(المعظَّم) بفتح الظاء المشددة من ألقاب ملوك المغرب أيضا، وهو أَسْمُ مَفْعُول من العَظْمَة وهي الجلالة، وربما أَسْتَعْمَلَ في ألقاب بعض ملوك الكُفْر على ماسياتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى .

(المَفْحَم) بفتح الحاء المعجمة المشددة من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذ من الفَخَامَة وهي الصَّخَامَة .

(المَقْوَه) بفتح الواو المشددة من ألقاب البُلغَاء من الكُتَّاب وغيرهم . وهو البَلِيغ اللِّسَن؛ والمُقَوِّه نسبة إليه للباغة .

(المُفِيد) من ألقاب العلماء، وهو أَسْمُ فَاعِلٍ من الإفادة وهي إنالة الشخص مالم يكن حاصلًا عنده؛ والمُفِيدِي نسبة إليه للباغة .

(المُقَدَّمِي) بفتح الدال المشددة من ألقاب أرباب السيوف . ويختص بمقدمي الألوْف من الأمراء، والمراد أنه مُقَدَّم على مضاهيه من الأمراء والأجناد، ولم يستعملوه مجزئا عن ياء النسب .

(المُقَرَّب) بفتح الراء المشددة من ألقاب الخُدَّام والخَوَاجِكِيَّة، والمراد أنه مقربٌ عند الملوك ومن في معناهم، وهو من القُربِ خلاف البُعد، والمقربى نسبة إليه للبالغة .

(المُكْرَم) بفتح الراء المشددة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّل من الكرامة .

(المَلِكِيّ) بفتح اللام من ألقاب المَلِك وألقاب أتباعه المنسوبين إليه من الأمراء والوزراء ومن في معناهم، وهو نسبةٌ إلى المَلِك بكسر اللام وإنما فُتِحَت لامه في النسب جَرِيًّا على قاعدة النسب في تَمَرٍ فإنه ينسب إليه تَمَرِيٌّ بفتح الميم على ما هو مقررٌ في علم النحو . على أن كثيرا من كُتَّاب الزمان يَغْلَطون فيه فيكسرون لامه في النسب أيضا وهو خطأ . ثم النسبةُ إن كانت في حق المَلِك نفسه كقولهم في ألقاب المَلِك المَلِكِيّ، فالنسبة فيه للبالغة، وإن كانت في حق أحدٍ من أتباعه كقولهم في حق بعض الأمراء ونحوهم المَلِكِيّ الفلاني فالنسبة فيه على حقيقة النسب .

(المُجَدِّد) بفتح الجيم المشددة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّل من المَجْد وهو الشرف . وقد تقدّم في الكلام على الماجد بن ابن السكيت أنه يكون المجد للرجل وإن لم يتقدّمه شرفُ آباء .

(المهْدِيّ) بكسر الهاء المشددة من ألقاب أكابر أرباب السيوف، نسبةٌ إلى المهْد: وهو الذي يمهّد الممالك ويُدوِّخها، والنسبة فيه للبالغة، ولم يستعملوه مجزئا عن ياء النسب .

(١) المقول في كتب اللغة عن ابن السكيت أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء والحسب والكرم يكونان للرجل وإن لم يكن له آباء كرام وقد نقل المؤلف نفسه هذا المعنى في غير هذا الموضع فتنبه .

(الْمُتَخَب) من ألقاب التُّجَّارِ الحَوَاجِكِيَّةِ : وهو المختار؛ والمتخَيَّ نسبةً إليه للبالغة .

(الْمُنْفَذِي) بكسر الفاء المشددة وبالذال المعجمة من ألقاب الوزراء وَمَنْ في معانهم نسبة إلى المنفَذ : وهو الذي له معرفة بتنفيذ الأمور ووضَع الأشياءِ في مواضعها، والنسبة فيه للبالغة؛ ولم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب .

(الْمُنْصِفِي) من ألقاب الوزراء وِوَلَاةِ الأُمُورِ نسبةً إلى الْمُنْصِفِ : وهو الذي يُنْصِفُ المَظْلُومَ مِنَ الظالم، والنسبة فيه للبالغة؛ ولم يستعملوه مجرداً عن ياء النسب .
(الْمَنْصُورُ) من الألقاب السلطانية، يقال منه «المؤيد المنصور» ونحو ذلك، ومعناه ظاهر، والمنصُورِي نسبة إليه للبالغة؛ وهو من ألقاب أكابر أرباب السيف كُتُوبِ السلطنة ونحوهم .

(الْمُؤْتَمِنُ) من ألقاب الخُدَّامِ والتُّجَّارِ الحَوَاجِكِيَّةِ، والمراد أن الخُدَّامَ يُؤْتَمِنُونَ على الحريم والمَمَالِكِ في الحَضَرِ، والتُّجَّارُ يُؤْتَمِنُونَ على المَالِكِ والجَوَارِي في السَّفَرِ، أو يُؤْتَمِنُونَ على أخبار المَمَالِكِ وأحوالها، فلا يُخْبِرُونَ عن مملكة بمملكة أُخْرَى إلا بما فيه السَّدَاد .

(الْمَوْلَى) من ألقاب الكُتَّابِ، وأكثر ما يجرى ذلك في تعيين كاتب السرِّ ونحوه .
فيقال : «المولى فلان الدين» والمراد هنا السيد، والمَوْلَى نسبةً إليه للبالغة .
وهو من ألقاب أكابر أرباب السيف والأقلام . قال في «عُرف التعريف» :
ولا يُكْتَبُ به عن السلطان لأحد . على أن المولى لفظٌ مشتركٌ يقع في اللغة على السيد كما تقدّم ويعبر عنه بالمولى من أعلى؛ ويقع على المملوك والعتيق ويعبر عنه بالمولى من أسفل؛ ويقع على المنزَّم إلى القبيلة من غير أنفسها، كما يقال في الإمام

لِلْبَخَارِيِّ « الْجُعْفِيُّ مَوْلَاهُمْ » بمعنى أنه ليس من صُلب القبيلة ؛ وَيُطَاقُ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ أَيْضًا . وَإِذَا كَانَ مُشْتَرَكًا بَيْنَ الْمَوْلَى مِنْ أَعْلَى وَالْمَوْلَى مِنْ أَسْفَلِ فَكَانَ الْأَحْسَنُ الْإِضْرَابَ عَنْهُ .

(المؤيد) بفتح الياء المشددة من الألقاب السلطانية، وبالكسر من ألقاب السامية بالياء فمأدونه، والمراد أنه يؤيد الملك وينصره، وكلاهما مأخوذ من الأيد وهو القوة، والمراد أن الله تعالى يؤيده ويقويه، ومنه قولهم في الدعاء: «أيد الله تعالى» أى قواه؛ والمؤيدى بالفتح من الألقاب الملوكية نسبة إلى المؤيد بالفتح للباغية؛ وبالكسر من ألقاب أكابر أرباب السيوف نسبة إلى المؤيد بالكسر للباغية.

(الملاذى) بالذال المعجمة من ألقاب الوزراء ومن في معناهم من ولاة الأمور. وهو منسوب إلى الملاذ بمعنى الملجأ نسبة مبالغة؛ ولم يستعملوه مجردا عن ياء النسب.

حرف النون

(الناسك) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، ومعناه العابد أخذًا من النسك وهو العبادة؛ والناسكى نسبة إليه للباغية. وهو من ألقاب الصلحاء أيضا، وربما كتبت به لأرباب السيوف والأقلام إذا كان فيهم من ينسب إلى الصلاح.

(النوى) من ألقاب ديوان الخلافة وما في معناه من متعلقاتها، يقال فيه: «الديوان العزيز النوى» ونحو ذلك. ويقع أيضا في ألقاب ولاة الهد بالخلافة؛ وربما وقع في ألقاب الأشراف. وهو نسبة إلى النبوة لانتساب الخلافة العباسية إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، وانتساب الأشراف إلى أخته فاطمة رضى الله عنها.

(النَّسِيبُ) من ألقاب الشرفاء أبناء فاطمة من علي بن أبي طالب رضى الله عنهما، والمراد العريق في النسب؛ لقبوا بذلك لأنهم أعرقُ الناس نسبا، لانتسابهم إلى بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ومن خصائصه صلى الله عليه وسلم جواز نسبة أولاد بناته إليه بخلاف غيره، على ما هو مقرر في كتب الفقه. وقد أوضحت ذلك في كتابي المسمى بـ«الغيوث الهوامع»، في شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع» في أوائل النكاح؛ والنسبي نسبة إليه للبالغة.

(النَّصِيرُ) من ألقاب أرباب السيوف للجلس السامى بالياء فن دونه. وهو بمعنى الناصر إلا أنه أبلغ منه، لأن صيغة فعيل أبلغ من صيغة فاعل على ما تقدم؛ والنصيرى نسبة إليه للبالغة في نصره.

(النَّظَامِيُّ) من ألقاب الوزراء ومن في معانهم، وهو نسبة إلى النظام وهو صورة الاجتماع والائتنام، ومنه نظم اللؤلؤ وغيره، والمراد أنه يكون به انتظام الأمور والائتنامها، وحينئذ يكون النسب فيه على حقيقته، لأنه نسبة إلى غير صاحب اللقب؛ ويجوز أن تكون النسبة فيه للبالغة على معنى أن صاحب اللقب قد جعل عن النظام تجوزا؛ ولم يستعملوه مجردا عن ياء النسب.

(النَّوِينُ) بضم النون وفتح الواو وسكون الياء المشناة تحت ونون في الآخر من ألقاب كُفَّال الممالك بالممالك القانية: كاتب السلطنة، وأمراء الأوس، والوزير ونحوهم فيما كان عليه مملكة إيران إلى آخر مملكة أبي سعيد؛ والنوينى نسبة إليه للبالغة. قال في «التثيف»: وهو بمثابة الكافى في ألقاب التواب. قال: وهو نعمت يستعمل دائما لأهل تلك البلاد ولا يستعملون الكافى أصلا.

(١) أى أطلق عليه النظام.

حرف الهاء

(الهَمَام) من ألقاب أرباب السُّيوف ، والمراد الشُّجاع ؛ والهَمَامِيُّ نسبة إليه للبالغة .

حرف الواو

(الوالِدِيُّ) من ألقاب المُسنِّين من الأكبر ، وهو نسبة إلى الوالد ، وكأنه جعله والدًا له فتكون النسبةُ إليه على حقيقة النسب ، لأن النسبة فيه ليست إلى صاحب اللقب نفسه ، وربما قُصد بذلك الوالد حقيقة ؛ وأكثرُ ما يقع هذا اللقب في المكاتبات .

(الوَرِيع) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ واهل الصلاح ، وربما لُقِّب به أربابُ السُّيوف والأقلام أيضا إذا آتصفوا بذلك ؛ والمراد من يتنزّه عن الوقوع في الشُّبهات . وهو في اللغة التقيّ ، يقال منه وَرِيع يَرِيع بكسر الراء فيهما وَرَعًا فهو وَرِيع ؛ والوَرِيعِيُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الوَزِيرِيُّ) من الألقاب الخاصة بالوزراء من أرباب السُّيوف والأقلام . وهو نسبة إلى الوزير ، وقد تقدّم معناه وأشتقاقه في الكلام على ألقاب أرباب الوظائف .

(الوَلَدِيُّ) من ألقاب الأحداث من الرؤساء ، وهو نسبة إلى الولد ، كأنه جعله ولدًا له ، وربما وقع على الولد حقيقة ؛ وأكثر ما يقع في المكاتبات كما تقدّم في الوالِدِيُّ .

(١) في الاصل تنسب وهو تصحيف ظاهر .

حرف اللام ألف

(الألمعي) من ألقاب الأذكياء . قال الجوهرى : ومعناه الذكى المتوقد .

حرف الياء

(اليميني) من ألقاب الدوادار و كاتب السر والحاجب . قال في "عرف التعريف" ولا يقال غيرهم ، وهو نسبة إلى اليمين كأنه يمين السلطان الذى يتناول به الأشياء ، وإلا فجاس كاتب السر بدار العدل عن يسار السلطان ، والدوادار والحاجب قائمان أمامه .

الضرب الثانى

(المركبة المعبر عنها فى اصطلاح الكتّاب بالنعوت)

(وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم أيضا)

حرف الألف

(أتابك العساكر) من نعوت الأمير الأتابك ومن فى معناه كالنائب الكافل ومن فى رتبته . وذكر فى "عرف التعريف" أنه مما يختص بالنائب الكافل . وقد تقدم ذكر معنى الأتابك فى الكلام على الألقاب الأصول ؛ والعساكر جمع عسكر وهو الجيش .

(إسكندر الزمان) من الألقاب السلطانية ، والمراد بالإسكندر هنا الإسكندر ابن فيلبس اليونانى ، وهو الذى يؤرخ بظهوره على الفرس وغلبته إياهم على ماسياتى فى الكلام على التاريخ فى أواخر هذه المقالة .

كَانَ مَلِكًا عَظِيمًا مَلِكَ الشَّامِ، وَبَيْتَ الْمَقْدِسِ، وَالْعِرَاقَيْنِ، وَالسَّنَدَ، وَالهِندَ،
وَبِلَادَ الصِّينِ، وَالثَّبَّتَ، وَحِرَاسَانَ، وَبِلَادَ التُّرْكِ، وَذَلَّتْ لَهُ سَائِرُ الْمُلُوكِ؛ وَهَادَاهُ أَهْلُ
الْغَرْبِ، وَالْأَنْدَلُسِ، وَالسُّودَانَ؛ وَهُوَ الَّذِي بَنَى مَدِينَةَ الْإِسْكَانَدْرِيَّةَ، وَيُقَالُ: إِنَّهُ
ذُو الْقَرْنَيْنِ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ. قَالَ الْمُؤَيَّدُ صَاحِبُ حِمَاةٍ فِي تَارِيخِهِ:
وَالصَّحِيحُ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ مَلِكٌ عَظِيمٌ كَانَ قَبْلَ الْإِسْكَانَدَرِ بَزْمَنٍ طَوِيلٍ .

(أَثِيرُ الْإِمَامِ) مِنْ ألقَابِ أربَابِ الأَقْلَامِ غَالِبًا، وَهُوَ أَثِيرٌ بِمَعْنَى مَأْتُورٌ، وَالْمُرَادُ
أَنَّ الْإِمَامَ يُؤَثِّرُهُ عَلَى غَيْرِهِ فَيَقْدُمُهُ عَلَيْهِ .

(اعْتِضَادُ صِنَادِيذِ الزَّمَانِ) مِنْ ألقَابِ أربَابِ السُّيُوفِ؛ وَقَدْ يَكْتُبُ بِهِ لِبَعْضِ
الْمُلُوكِ. وَالْاعْتِضَادُ الْإِسْتِعَانَةُ، يُقَالُ: اعْتَضَدْتُ بِفُلَانٍ إِذَا اسْتَعْنَيْتَ بِهِ، وَالصَّنَادِيذُ
جَمْعُ صِنْدِيدٍ وَهُوَ الشُّجَاعُ .

(أَكْرَمُ مُجَبَّاءِ الأَبْنَاءِ فِي العَالَمِينَ) مِنْ ألقَابِ الرُّؤَسَاءِ مِنْ أربَابِ الأَقْلَامِ، وَأَكْرَمُ
أَفْعُلُ التَّفْضِيلِ مِنَ الكَرَمِ خِلافِ اللُّؤْمِ، وَالتَّجَبُّاءُ جَمْعُ تَجَبُّبٍ وَهُوَ الكَرِيمُ .
(أَجْمَلُ البُلْغَاءِ فِي العَالَمِينَ) مِنْ ألقَابِ أربَابِ البَلَاغَةِ مِنَ الكُتَّابِ وَغَيْرِهِمْ،
وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ .

(الذَّابُّ عَنِ حَوْزَةِ الْمُؤْمِنِينَ) مِنْ ألقَابِ مُلُوكِ المَغْرِبِ، وَيَصْلُحُ لِكُلِّ مَلِكٍ
مُسْلِمٍ يَقُومُ بِفَرْضِ الجِهَادِ. وَالذَّابُّ الدَّافِعُ، وَالْحَوْزَةُ بَفَتْحِ الحَاءِ المَهْمَلَةِ وَالزَّيْ
المَعْجَمَةُ النَّاحِيَةُ .

(الْقَائِمُ فِي مَصَالِحِ المُسْلِمِينَ) مِنْ ألقَابِ مُلُوكِ المَغْرِبِ. ذَكَرَ فِي "التَّعْرِيفِ"
أَنَّهُ يُكْتَبُ بِهِ إِلَى صَاحِبِ تُونِسَ، وَيَصْلُحُ لِكُلِّ مُتَّصِفٍ بِذَلِكَ مِنْ مُلُوكِ الإِسْلَامِ،
وَمَعْنَاهُ ظَاهِرٌ .

(المجاهد عن الدين) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه ظاهر أيضا .
 (المعنى ملوك آل ساسان ، وبقايا فراسياب و خاقان) من ألقاب عظماء ملوك الأعاجم .
 وقد ذكره في " التعريف " في ألقاب صاحب الهند . والمعنى بتشديد الفاء المكسورة
 الماحي للأثر ، يقال عفت الريح كذا بالتشديد إذا درسته ومحت أثره ، وشدد للبالغة .
 وآل ساسان ملوك الأَكاسرة وهم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس
 الساسانية إلى أن غلبهم الإسلام وانتزع الملك من أيديهم ، يُنسبون إلى جدتهم
 ساسان : وهو ساسان بن أردشير بهمن بن كيستا سف من ملوك الطبقة الثانية
 فيهم ، على ما سيأتي بيانه في الكلام على مكتبة ملوك إيران ، في المقالة الرابعة
 إن شاء الله تعالى .

وفراسياب بفاء في أوله ثم سين مهملة بعدها ياء ثم ألف وباء موحدة ملك عظيم
 من ملوك الترك ، ويقال إن أصله من أبناء ملوك الفرس ، وهو فراسياب بن طوج
 ابن أفريدون ، من الطبقة الأولى من ملوك الفرس ، وإن ابن عمه منوشهر غلب
 عليه بعد أن قتل أباه طوجا ففر إلى بلاد الترك وتزوج منهم ، وآتته به الحال
 إلى أن ملكهم وعظم ملكه فيهم .

و خاقان بجاء معجمة وقاف ونون ملك من ملوك الترك أيضا كان في زمن
 كسرى أنوشروان فيما يقتضيه كلام أبي هلال العسكري في كتابه " الأوائل " حيث
 ذكر أنه كان بينه وبينه حرب .

(المواقف المقدسة) من ألقاب الخلفاء في مخاطباتهم في المكتبات ونحوها ،
 والمراد الأماكن التي يقف فيها الخليفة ، كُنِيَ بها عن الخليفة تنويهاً عن التصريح
 بذكره ، والمقدسة المطهرة ، والمراد طهارتها عن الأذناس المعنوية .

(إمامُ الأئمةِ) من ألقاب العلماء ، وربما قيل «إمامُ الأئمةِ في العالمين» .

(إمامُ البلغاءِ) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّابِ ومن في معانهم

(إمام المتكلمين) من ألقاب العلماء ، وهو بأهل المعقول أليق لإطلاق علم الكلام على أصول الدين ، وإماماً سُمِّيَ بذلك لأنه لما وقع القولُ بخلق القرآن في صدر الإسلام ممن وقع كثر الكلام والخوض في ذلك فأطلق على أصول الدين علم الكلام وبقي علماً عليه .

(أوحدُ الأشرافِ) من ألقاب الشرفاء ، وربما قيل «أوحدُ الأشرافِ في العالمين»

أو «أوحدُ الأشرافِ الطاهرين» أو «أوحدُ الأشرافِ الماجدين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الأصحابِ) من ألقاب الوزراء من أرباب الأقاليم ومن في معانهم ككاتب السِّرِّ ونحوه وإن كان الصاحبُ يختصُّ بالوزير في عُرف [كُتَّابِ الديارِ المصرية^(١)] على ما تقدم .

(أوحدُ الأكابرِ) من ألقاب التجَّارِ الحوَّاجِيةِ ، وربما كُتِبَ به لغيرهم من

الرؤساء ، وربما قيل «أوحدُ الأكابرِ في العالمين» .

(أوحدُ الأمةِ) من ألقاب العلماء ، وربما أُطلق على غيرهم .

(أوحدُ الأمناءِ في العالمين) من ألقاب الكُتَّابِ ، والأمناءُ جمعُ أمينٍ وهو

خلاف الخائن .

(أوحدُ الأئمةِ العلماءِ في العالمين) من ألقاب العلماء ، وربما اقتصر على أوحد

العلماء .

(١) بياض بالاصول والتصحيح من لقب الصاحب المتقدم في الألقاب المفردة .

(أوحد البُلغَاء) من ألقاب أرباب الأَقلام، وربما قيل «أوحد البُلغَاء في العَالَمِينَ» ونحو ذلك والبُلغَاء جمعُ بَلِيغٍ وقد تقدّم معناه .

(أوحد الرُّؤسَاء) وربما قيل «أوحد الرُّؤسَاء في العَالَمِينَ» أو «أوحد الرُّؤسَاء في الأَنَامِ» ونحو ذلك، ومعناه ظاهر .

(أوحد الحَفَاطِ) من ألقاب المَحَدِّثِينَ، وربما قيل «أوحد الحَفَاطِ في العَالَمِينَ» ونحو ذلك .

(أوحد الخُطَبَاءِ في العَالَمِينَ) من ألقاب الخُطَبَاءِ .

(أوحد العُلَمَاءِ الأَعْلَامِ) من ألقاب العُلَمَاءِ، وربما قيل «أوحد العُلَمَاءِ في العَالَمِينَ» .

(أوحد الفُضَلَاءِ) من ألقاب العُلَمَاءِ، وربما أُسْتَعْمِلَ في غيرهم من أرباب الأَقلام، وربما قيل «أوحد الفُضَلَاءِ المُفِيدِينَ» أو «أوحد الفُضَلَاءِ العَارِفِينَ» ونحو ذلك .

(أوحد الكُتُبَاءِ) من ألقاب التُّجَّارِ الخَوَاجِكِيِّةِ، ويموز أن يُسْتَعْمَلَ في غيرهم .

(أوحد الكُتَّابِ) من ألقاب الكُتَّابِ سِوَا كُتَّابِ الإِنْسَاءِ وغيرهم .

(أوحد المتَصَرِّفِينَ) من ألقاب الوُزَرَاءِ وَمَنْ في معنَاهُمْ .

(أوحد المُجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السُّيُوفِ .

(أوحد المَحْقِقِينَ) من ألقاب العُلَمَاءِ .

(أوحد المتَكَلِّمِينَ) من ألقاب العُلَمَاءِ، وهو بعُلَمَاءِ المَعْقُولِ أَنَسَبُ .

(أوحد المُفِيدِينَ) من ألقاب العُلَمَاءِ .

(أوحد المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ) من الألقاب السُّلْطَانِيَةِ .

(أوحد الوُعَاطِ) من ألقاب أهل التذكير والوَعُظِ .

(أَوْحُدُ الْوَقْتُ) من ألقاب أرباب الأقلام، وربما قيل «أَوْحُدُ الْوَقْتُ وَالْأَوَانُ» والوقت معروف، والأَوَانُ الحِينُ، ويجمع على أَوَانَةٍ مثل زَمَانٍ وَأَزْمَنَةٍ .

حرف الباء

(بِرَكَّةِ الْأَنَامِ) من ألقاب الصَّالحَاءِ، وقد تُسْتَعْمَلُ للعلماء أيضا .

(بِرَكَّةِ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الصَّالحَاءِ أيضا، وقد يقال «بِرَكَّةِ الدَّوْلِ» على الجمع، وربما كُتِبَ به لأرباب الأقلام من العلماء وغيرهم . والمرادُ بالدولة المملَكَةُ القَائِمَةُ، وأصلها من الدَّوْلَةِ في الحرب وهي النَّصْرُ والغَلْبَةُ .

(بِرَكَّةِ الْمُسْلِمِينَ) من ألقاب الصَّالحَاءِ، وقد تُسْتَعْمَلُ لأهل العلم أيضا .

(بِقِيَّةِ الْأَكْبَارِ) من ألقاب بَقَايَا الْبُيُوتِ الرَّئِيسَةِ من أهل الأَقْلَامِ وغيرهم، وربما قيل «بِقِيَّةِ الْأَكْبَارِ فِي الْعَالَمِينَ» .

(بِقِيَّةِ الْبَيْتِ النَّبَوِيِّ) من ألقاب الأشراف، وبه يُكْتَبُ إلى إمام الزيدية باليمن .

(بِقِيَّةِ السَّلَفِ) من ألقاب العلماء والصَّالحَاءِ، وربما قيل «بِقِيَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ» أو «بِقِيَّةِ السَّلَفِ الْكِرَامِ» والمرادُ بِالسَّلَفِ الْآبَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ، أَخَذًا من قولهم سَلَفَ إِذَا مَضَى، وربما أُطْلِقَ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ من الصَّحَابَةِ والتَّابِعِينَ .

(بِقِيَّةِ السَّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ) من ألقاب الأشراف، وقد يقال فيه بَقِيَّةِ السَّلَالَةِ الطَّاهِرَةِ الرَّكِيَّةِ، وربما أُطْلِقَ عَلَى غيرهم . وبذلك يُكْتَبُ لصاحب تُونِسٍ لِأَدْعَائِهِ أَنَّهُ من نَسْلِ أمير المؤمنين عمر بن الخطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . وَالسَّلَالَةُ فِي الْأَصْلِ مَا اسْتَلَّ مِنَ الشَّيْءِ، وَالْمُرَادُ هُنَا النُّطْفَةُ لِأَنَّهَا مُسْتَلَّةٌ مِنَ الْإِنْسَانِ .

(بِقِيَّةُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب مَنْ له سَلَفٌ فِي الْمَلِكِ ، كصاحبِ حِصْنِ كَيْفَا من بَقَايَا الْمُلُوكِ الْأَيُوبِيَّةِ .

(بِقِيَّةُ الْأَصْحَابِ) من ألقابِ الْوُزَرَاءِ أربابِ الْأَقْلَامِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

(بِقِيَّةُ شَجَرَةِ الْفَخَّارِ) من ألقابِ ذَوِي الْأَصَالَةِ الْعَرِيقِينَ فِي النَّسَبِ ، وَبِهِ يُكْتَبُ لِابْنِ الْأَحْمَرِ صَاحِبِ الْأَنْدَلُسِ .

(بِهَاءُ الْأَعْيَانِ) من ألقابِ أربابِ الْأَقْلَامِ ، وَبِهَاءِ الْحُسْنِ ، وَالْأَعْيَانُ جَمْعُ عَيْنٍ تَجْمَعُ عَلَى أَعْيُنٍ وَعُيُونٍ وَأَعْيَانٍ ، وَالْمُرَادُ هُنَا الْحِيَارُ ، إِذْ عَيْنُ كُلِّ شَيْءٍ خِيَارُهُ .

(بِهَاءُ الْأَنَامِ) من ألقابِ أربابِ السِّيُوفِ غَالِبًا ، وَرَبْمَا أُطْلِقَ عَلَى غَيْرِهِمْ ؛ وَالْأَنَامُ الْخَلْقُ .

(بِهَاءُ الْعِصَابَةِ الْعَلَوِيَّةِ) من ألقابِ الْأَشْرَافِ ، وَبِهِ يُكْتَبُ لِأَمِيرِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ الْمُشْرِفِينَ ، وَالْعِصَابَةُ بِالْكَسْرِ الْجَمَاعَةُ مِنَ النَّاسِ وَتَجْمَعُ عَلَى عِصَابٍ . وَالْعَلَوِيَّةُ نِسْبَةٌ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

حرف التاء المثناة من فوق

(تَاجُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَّامِ) من ألقابِ الْقُضَاةِ ، وَالتَّاجُ مَا يُوضَعُ عَلَى الرَّأْسِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ .

(تَاجُ الْأَمْنَاءِ) من ألقابِ التُّجَّارِ الْخَوَاجِكَةِ ، وَيُصَلِّحُ لِكُتَابِ الْأَمْوَالِ أَيْضًا .

(تَاجُ الْمُتَصَرِّفِينَ) من ألقابِ الْوُزَرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

(تَاجُ الْفُضَلَاءِ) من ألقابِ أربابِ الْأَقْلَامِ . وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الدَّسَاتِيرِ الشَّامِيَّةِ « تَاجُ الْفُضَلَاءِ الْمُتَشَيِّخِينَ » وَهُوَ مُنَاسِبٌ لِمَنْ هُوَ فِي أَوَّلِ نَشْأَتِهِ وَأَبْتَدَاءِ رِيَاسَتِهِ ، وَحَدَاثَةِ سَنَتِهِ .

(تاج المِلة) من الألقاب التي يشترك فيها أربابُ السيوف والأقلام جميعاً .
والمِلة في أصل اللغة الدينُ والشريعة ، والمراد هنا مِلةُ الإسلام ، والألف واللام فيها
للعهد الذهني .

حرف التاء المثلثة

(ثِقَّةُ الدَّوْل) من ألقاب التُّجَّارِ الخَوَاجِكَةِ ، وربما قيل «ثِقَّةُ الدَّوْلَيْنِ» والثِقَّةُ
في اللغة الأَمِينُ وُحُصَّ ذلك بالتُّجَّارِ لترددهم في المَمَالِكِ ، ويحسُنُ أن يلقَّبَ به
المتردِّدون في الرسائل بين المُلُوكِ .

حرف الجيم

(جامعُ كلمةِ الإيمان) من الألقاب السلطانية .
(جامعُ طُرُقِ الواصفين) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصَّلَاحِ ، وربما قيل
«جامعُ الطُّرُقِ» ويصلحُ أن يكون من ألقاب العلماء أيضا .
(جمالُ الإسلام) من ألقاب العلماء ، وربما قيل جمال الأَكابر من ألقاب التُّجَّارِ
الخَوَاجِكَةِ ، وقد يستعملُ لأربابِ الأقلام ، والجمالُ في اللغة الحُسْنُ .
(جمالُ الذَّرِيَّةِ) والمراد ذُرِّيَّةُ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأن الذَّرِيَّةَ تشملُ أولاد
البنات ، وقد عدَّ اللهُ تَعَالَى عيسى عليه السلام [من ذُرِّيَّةِ إبراهيم عليه السلام]^(١)
وهو ابن بنته .
(جمالُ الصُّدُورِ) من ألقاب أربابِ الأقلام ، والصُّدُورُ جمع صَدْرٍ ، والمراد
صُّدُورُ المَجَالِسِ .

(١) الزيادة لتتيم الكلام وسقوطها سهو من الناسخ .

- (جمال الأئمة) من ألقاب العلماء، وربما قيل «جمال الأئمة العارفين» .
- (جمال البارعين) من ألقاب أرباب الأقلام، والبارعين جمع بارع وهو الناهض .
- (جمال البلغاء) من ألقاب كُتّاب الإنشاء ونحوهم .
- (جمال الطائفة الهاشمية) من ألقاب الشرفاء، والطائفة في أصل اللغة اسم للقطعة من الشيء . قال ابن عباس وتُطلق على الواحد فما فوقه ، والهاشمية نسبة إلى هاشم : وهو هاشم بن عبد مناف جد النبي صلى الله عليه وسلم .
- (جمال العترة الطاهرة) من ألقاب الشرفاء أيضا، وربما اقتصر على جمال العترة فقط . وعترة الرجل نسله وأهله الأذنون، والمراد عترة النبي صلى الله عليه وسلم .
- (جمال العصابة الفاطمية) من ألقاب الشرفاء أيضا، والعصابة بفتح العين والصاد واحدة العصابات ، وهي في أصل اللغة البنون والقراية للأب . قال الجوهري : سموا عصابة لأنهم عصبوا بالشخص بمعنى أنهم أحاطوا به : فالأم طرفة، والأب طرف ، والعم جانب ، والأخ جانب . والمراد هنا أبناء فاطمة رضی الله عنها وهم أحد أفراد العصابة . ولا يجوز أن يقال العصابة بضم العين وإسكان الصاد : لأن المراد بذلك الرجال ما بين العشرة والأربعين كما قاله الجوهري . وبنو فاطمة رضی الله عنها قد أربوا عن العدد في الشرق والغرب .
- (جمال العلماء) من ألقاب أهل العلم .
- (جمال الفضلاء) من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتّاب، وربما قيل «جمال الفضلاء المفيدین» ونحو ذلك ويختص حينئذ بالعلماء .
- (جمال الكُتّاب) من ألقاب كُتّاب الإنشاء وغيرهم من الكُتّاب .
- (جمال المملكة) من ألقاب الكُتّاب .

(جَمَالَ الْوَرَعِينَ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ .

(جمالُ أهل الإِفْتَاءِ) من ألقاب أكابر العُلَمَاءِ .

(جَلالُ الإسلامِ) من ألقاب أرباب الأَقْلَامِ، ويصْلُحُ أن يكون لِقَباً لبعض

الملوك، وبه يُكْتَبُ لإمام الزَّيْدِيَّةِ باليمن، وربما قيل «جَلالُ الإسلامِ والمسلمين» .

(جَلالُ الأصْحَابِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

(جَلالُ الأَكْبَرِ) من ألقاب أرباب الأَقْلَامِ، وبه يُكْتَبُ لناظر الخِلاصِ .

(جَلالُ الحُكْمِ) من ألقاب أكابر القُضاةِ، والجَلالُ في اللغة العَظْمَةُ .

(جَلالُ العِترةِ الطاهِرةِ) من ألقاب الشرفاءِ، وبه يُكْتَبُ لِأَمِيرِ مَكَّةَ والمدينةِ

المشرفين .

(جَلالُ العُلَماءِ فِي العالَمينِ) من ألقاب أهل العلم، وربما قيل «جلال العُلَماءِ

العالمين» ونحو ذلك .

(جَلالُ الكُبرياءِ) من ألقاب أكابر أرباب الأَقْلَامِ .

(جلالُ الأُسرةِ الزاهِرةِ) من ألقاب الأشرافِ . والأُسرةُ بضم الهمزة الرَّهْطُ،

والمراد رَهْطُ بَنِي هاشِمٍ، والزاهِرةُ المُضِيئةُ، وبه سُمِّيَ الكَوْكَبُ المعروفُ بالزُهْرةِ .

(جَهْدُ الحُدَّاقِ) من ألقاب الكُتَّابِ، وربما قيل «جَهْدُ الحُدَّاقِ لِلتصَرِّفِينِ»

والجَهْدُ بفتح الجيم وإسكان الهاءِ وفتح الموحدة النَّقَادُ لِلدَّهَبِ والفِضَّةِ، ولذلك

يقال للصيرفيِّ جَهْدٌ، والمراد هنا أنه ينقُدُ الأمور فيستخرج جيدها من رديها كما

يفعل الصيرفي .

(١) ضبط في القاموس الفيروزبازي بالكسر ثم قال شارحه كزبرج .

حرف الحاء المهملة

(حَاكِمُ الْحُكَّامِ) من ألقاب قُضاة القضاة .

(حَاكِمُ أُمُورِ وِلَاةِ الزَّمَانِ) من ألقاب أرباب السُّيُوفِ ، وربما كُتِبَ به

لبعض الملوك .

(حَافِظُ الْأَسْرَارِ) من ألقاب كُتِبَ السِّرُّ .

(حُجَّةُ الْأُمَّةِ) من ألقاب قُضاة القضاة وأكابر العلماء ، والحُجَّةُ في اللغة البُرْهَانُ

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ ﴾ والأُمَّةُ في أصل اللغة

الجماعةُ ، والمرادُ هنا أُمَّةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، والمعنى أَنَّهُ تَقُومُ بِهِ الْحُجَّةُ لِأَهْلِ

الإسلام على غيرهم .

(حُجَّةُ الْأَئِمَّةِ) من ألقاب أكابر العلماء ، والأئِمَّةُ جمع إِمَامٍ ، وقد تقدّم أَنَّهُ الَّذِي

يُقْتَدَى بِهِ .

(حُجَّةُ الْبُلْغَاءِ) من ألقاب أرباب الأَقْلَامِ ، وهو بِالْحُكَّابِ أَمْسٌ .

(حُجَّةُ الْعَرَبِ) من ألقاب النُّحَاةِ وَاللُّغَوِيِّينَ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، كَأَنَّهُمْ يَحْتَجُّونَ

بِهِ لِلْعَرَبِ .

(حُجَّةُ الْمَذَاهِبِ) من ألقاب أكابر العلماء ، وربما قيل « حُجَّةُ الْمَذَهَبِ » إِذَا

أُرِيدَ مَذَهَبُهُ خَاصَّةً ، وَهُوَ دُونَ الْأَوَّلِ .

(حُجَّةُ الْمُفْتِينَ) من ألقاب أكابر العلماء ، والمراد بِالْمُفْتِينَ مَنْ هُمْ أَهْلُ اللَّفْتَوَى

فِي الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ .

(حِرْزُ الْإِمَامِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ مِنْ حَفَظَةِ الْأَمْوَالِ . وَالْحِرْزُ فِي اللُّغَةِ الْمَوْضِعُ الْحَصِينُ ، وَالْمُرَادُ بِالْإِمَامِ السُّلْطَانُ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُ .

(حُسَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب أرباب السيوف كُتُوبُ السُّلْطَنَةِ وَنَحْوِهِمْ . وَالْحُسَامُ مِنْ أَسْمَاءِ السِّيفِ ، سُمِّيَ بِذَلِكَ أَخْذًا مِنَ الْحَسْمِ وَهُوَ الْقَطْعُ .

(حَسَنَةُ الْأَيَّامِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من الوُزَرَاءِ وَالْقُضَاةِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ . وَالْحَسَنَةُ خِلَافُ السَّيِّئَةِ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ الْأَيَّامَ أَحْسَنَتْ بِالْأَمْتِنَانِ بِهِ . وَقَدْ ذَكَرَ الْقَاضِي « شَهَابُ الدِّينِ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ » فِي بَعْضِ دَسَاتِيرِهِ أَنَّهُ يَصْلِحُ لِكُلِّ مَنْ لَهُ سَلْفٌ فِي الْكِتَابَةِ ، وَهُوَ بَعِيدُ الْمَأْخَذِ .

(حَكَمُ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ) من ألقاب قُضَاةِ الْقُضَاةِ ، وَالْحَكَمُ بِمَعْنَى الْحَاكِمِ .

حرف الخاء المعجمة

(خَادِمُ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ) من الألقاب السلطانية ، والمراد حرم مكة المشرفة ، والمدينة النبوية الشريفة على ساكنها أفضل العملة والسلام والتحية والاكرام .

(خَالِصَةُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ ، وَالْخَالِصَةُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الْخَالِصَةِ . يُقَالُ هَذَا لِي خَالِصَةٍ يَعْنِي خَالِصَةً . وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : (خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ) وَعَلَيْهِ [حَمَلٌ] قَوْلُهُ تَعَالَى : (وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي) .

(خَالِصَةُ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ) من ألقاب أرباب الأقلام . قَالَ فِي "عُرْفِ التَّعْرِيفِ" : وَهُوَ فِي حَقِّ مَنْ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا فِي مَقَامِ حَكَمِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ لَمْ يَكُنْ حَاكِمًا .

(خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب أرباب الأقلام .

(خَالِصَةُ الْإِمَامِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ ، وربما جعل من ألقاب العلماء أيضا ، والمراد بالإمام الخليفة أو السلطان .

(خَالِصَةُ سَلَفِ الْأَنْصَارِ) من الألقاب التي يُكْتَبُ بها لابن الأحمري صاحب الأندلس : لأنه يذكُر أنه من ذرية « سعد بن عبادة » الأنصاري رضي الله عنه ، ويصلح لكل من وافقه في ذلك ، وكان الأحسن أن يقال خلاصة بدل خالصة ، لما تقدم من أن المراد بالخالصة الخاصة . والمراد بالأنصار أنصار النبي صلى الله عليه وسلم وهم الأوس والخزرج الذين هاجر إليهم النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة .

(خَطِيبِ الْخُطَبَاءِ) من ألقاب أكابر الخطباء ، وربما كُتِبَ به لقضاة القضاة ، إذا أُضيف له خطابة جليّة ، كخطابة جامع القلعة بالديار المصرية ، وخطابة الجامع الأموي بدمشق .

(خَلْفِ الْأَوْلِيَاءِ) من ألقاب أولاد الصالحين .

(خَالِيفَةُ الْأُمَّةِ) من ألقاب الشيعة ، والمراد من يعتقدونه من الأئمة المعصومين كالإمامية ونحوهم . وبه يُكْتَبُ لإمام الزيدية باليمن .

(خَلِيلُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب أولاد السلطان ، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك ، والخليل بمعنى الصديق .

(خُلَاصَةُ الْخِلَافَةِ الْمَعْظَمَةِ) من ألقاب بعض الملوك ، والخلاصة الذي خلص من الثقل ونحوه . ويقال فيه خلاص أيضا بغير هاء .

(خُلَاصَةُ سَلَفِ الْقَوْمِ) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، والقوم يختص في اللغة بالرجال دون النساء قال تعالى : ﴿ لَا يَسْعُرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ ثم قال : ﴿ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ ﴾ .

(خَيْرَةُ الْإِسْلَام) من ألقاب أهل الصَّلاح فيما ذكره في "عُرْفُ التَّعْرِيفِ" :
ويصلح لأهل العلم أيضا . والخَيْرَةُ الْأَسْمُ من قولك آخَرُ فُلَانٌ فُلَانًا ، والمراد أَنَّ
الْإِسْلَامَ آخَرُهُ .

حرف الدال المهملة

(دَلِيلُ الْمُرِيدِينَ إِلَى أَوْضَحِ الطَّرِيقِ) من ألقاب مشايخ الصُّوفِيَّةِ ، والمراد بِالْمُرِيدِينَ
طُلَّابُ الطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى .

(دَاعِي الدُّعَاةِ بِالْبُرَاهِينِ الظَّاهِرَةِ إِلَى اسْتِعْلَامِ الْحَقَائِقِ) من ألقاب العلماء .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْرُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ) من ألقاب المُلُوكِ ، وبه يُكْتَبُ لِصَاحِبِ تُونُسِ
وَمَلِكِ التُّنُوكِ . وَالدُّخْرُ فِي اللُّغَةِ مَصْدَرٌ ذَنَرَتْ الشَّيْءَ أَذْخَرَهُ بِفَتْحِ الْخَاءِ إِذَا جَعَلْتَهُ
ذَخِيرَةً .

(ذُخْرُ الْأُمَّةِ) من ألقاب أكبر أرباب السيوف كَنُزَابِ السُّلْطَنَةِ وَنَحْوِهِمْ .
(ذُخْرُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب أرباب السيوف ، وقد يقع في ألقاب الصُّلَحَاءِ
وَالْعُلَمَاءِ .

(ذُخْرُ الْغُرَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(ذُخْرُ الطَّالِبِينَ) من ألقاب الصُّلَحَاءِ وَالْعُلَمَاءِ ، وَالمُرَادُ طَالِبُو الْوَصُولِ إِلَى الْحَقِّ
أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

(ذُخْرُ الْمُسْلِمِينَ) من ألقاب المُلُوكِ ، وبه يُكْتَبُ لِإِمَامِ الزَّيْدِيَّةِ بِالْيَمَنِ فِيمَا ذَكَرَهُ

فِي "التَّعْرِيفِ" .

(ذُنْرُ الْمَلَّةِ) من ألقاب أرباب السيوف، وقد تقدم معنى المَلَّةِ .

(ذُنْرُ الْمَمَالِكِ) من ألقاب بعض الملوك . وربما قيل ذُنْرُ الْمَمْلَكَةِ .

(ذُنْرُ الْمُوحِّدِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه ، وجعله في "عرف التعريف" خاصاً بالكافل دون غيره .

(ذُنْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من ألقاب الملوك، وهو دُونُ خَالِئِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

حرف الراء المهملة

(رَأْسُ الْبُلْغَاءِ) من ألقاب أكابر كتّاب الإنشاء ككاتب السرّ ومن يجرى مجراه .

(رَأْسُ الصُّدُورِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام في الجملة من أهل العلم والكتّاب ومن يجرى مجراه . والمراد رأس صدور المجالس .

(رَأْسُ الْعُلِيَاءِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من العلماء والوزراء . ومن في معناهم ، ويصلح لكلّ على القدر في الجملة ، وبه يُكْتَبُ إلى إمام الزيدية باليمن .
(رُحْلَةُ الْحُقَاطِ) من ألقاب المُحدِّثين ، وقد تقدم أن الرُّحْلَةَ بضم الراء ما يُرْحَلُ إليه ، والحُقَاطُ جمع حافِظٍ ، والمراد حَفْظُ الْحَدِيثِ .

(رُحْلَةُ الْقَاصِدِينَ) من ألقاب تجار أرباب الأقلام ، وهو بأهل الكرم والجود أخصّ ، والمراد من يُقصد بالترحال إليه .

(رُحْلَةُ الْمُحْصِلِينَ) من ألقاب العلماء ، والمراد من يُرْحَلُ إليه لتحصيل العلم بالأخذ عنه .

(رُحْلَةُ الْوَقْتِ) من ألقاب العلماء والمراد من أنفرد في الوقت بالرحيل إليه لأخذ العلم عنه .

(رَضِيَ الدَوْلَة) من ألقاب الكُتَّاب، والمراد من يُرَضِيه أعيانُ الدَوْلَة بالتقريب .
ثم الظاهر أنه بكسر الضاد بمعنى مَرْضَى عند أعيان أهل الدَوْلَة . ويجوز أن يكون
بفتح الضاد على جعله هو نفس الرضا تجوزا .

(رَضِيَ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأَقلام . والكلام فيه كاللِمام
في الذي قبله .

(رُكْنُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف . وبه كان يُكْتَب
للنائب الكافل على ما هو مذكور في "التعريف" والرُّكْن واحد الأركان وهو معروف .
(رُكْنُ الأُمَّة) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لملك التُّرُور .

(رُكْنُ الملوك والسلاطين) من الألقاب الملوِكِيَّة وما في معنى ذلك من أرباب
السيوف . ونقل في "التثقيف" أنه كُتِبَ به لبعض مشايخ التصوف ثم أنكره
وقال : الأولى أن يكون بدله (بركةُ الملوك والسلاطين) وما ذكره واضح . على أنه
في "عرف التعريف" قد أورده في ألقاب الصلحاء، وكأنهم راعوا في ذلك أنه
رُكْنٌ لهم من حيث البركة والدعاء إلا أن الأول أظهر .

(رُكْنُ الأولياء) من ألقاب أهل الصلاح على أن المراد أولياء الله تعالى ويجوز
أن يكون من ألقاب أرباب السيوف وأرباب الأَقلام أيضا على معنى أن المراد
أولياء الدَوْلَة .

(رَئِيسُ الكُتَّاب) من ألقاب الوُزراء من أرباب الأَقلام ومن في معناهم . وأهل
الشام يستعملونه في أكابر أرباب الأَقلام من قضاة القضاة ونحوهم، وقد تقدم
المراد بالصاحب في الكلام على الألقاب المفردة .

حرف الزاي المعجمة

(زَعِيمُ الجُنُودِ) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كالنائب الكافل، والرَّعِيمُ الكَفِيل . والمراد هنا التَّكْفُلُ بالجُنود والقيامُ بأمرها . ويجوز أن يكون بمعنى السَّيِّد، يُقال لسَيِّد القومِ زَعِيمُهُمْ ، والأوَّلُ أَلْبِقُ بالمقام ، والجُنُودُ جمعُ جُنْد وهم الأعوان على ما تقدّم .

(زَعِيمُ الجِيُوشِ) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كُتُوب السلطنة ونحوهم، والجِيُوشُ جمعُ جيش وهو العَسْكَر .

(زَعِيمُ الموحِّدين) من ألقاب صاحبِ تُوُسٍ على تخصيصِ الموحِّدين ، والمراد بالموحِّدين فيه أتباعُ المَهْدِيِّ بنِ تُوَمَرْتِ الذين من بقاياهم مُلُوكُ تُوُسٍ ، كان المَهْدِيُّ المذكور قد سَمَّاهم الموحِّدين تعريضا بَدَمَّ من كان قبله ببلادِ المَغْرِبِ ممن يدعى التَّجْسِيمُ على ما سيأتى ذكره في الكلام على مَكاتِبَةِ صاحبِ تُوُسٍ في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى . ويجوز أن يراد بالموحِّدين هنا عامةُ أهلِ الإيمان ويكون المرادُ بالموحِّدين جميعَ المؤمنين . ويصح وقوعُ هذا اللَّقبِ حينئذٍ على غير صاحبِ تُوُسٍ من الملوكِ ونحوهم ، ولذلك يُكْتَبُ به لملكِ التُّكْرُورِ على ما ذكره في "التعريف" .

(زَعِيمُ المؤمنين) من الألقاب التي يُكْتَبُ بها لإمامِ الزَيْدِيَّةِ بايَمِن . ويصحُّ وُقُوعُهُ على غيره من ملوكِ المسلمين أيضا كما في « زعيم الموحِّدين » إذا جعلَ عامًّا في حق كلِّ موحدٍ على ما تقدّم بيَّانه .

(زَعِيمُ جِيُوشِ الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف ، كُتَّابِ السلطنة بَجَلَبَ ، وبه يُكْتَبُ لصاحبِ حَصْنِ كَيْفَا فيما ذكره في "التعريف" .

(زَيْنُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ) من ألقاب أرباب الأقاليم ، والزَّيْتِ فِي اللُّغَةِ نَقِيصُ الشَّيْنِ .

(زَيْنُ الْأَعْيَانِ) من ألقاب أرباب الأقاليم ، والأَعْيَانُ جَمْعُ عَيْنٍ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ .

(زَيْنُ الْأَكْبَرِ) من ألقاب التُّجَّارِ الْحَدَوَاجِكِيِّةِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ .

(زَيْنُ الْأَنَامِ) من ألقاب صِغَارِ أرباب السيف ، وربما كُتِبَ بِهِ الْغَيْرُهُمْ .

(زَيْنُ الْأَئِمَّةِ) من ألقاب العلماء ، وربما قيل «زَيْنُ الْأَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ» .

(زَيْنُ الْبُلْغَاءِ) من ألقاب الْكُتَّابِ وَنَحْوِهِمْ .

(زَيْنُ الْحُكَّامِ) من ألقاب الْقَضَاةِ .

(زَيْنُ الدَّوَابِّ الْمَهَاشِمِيَّةِ) من ألقاب الشرفاء ، والدَّوَابِّ بِالذَّالِ الْمَعْجَمَةِ جَمْعُ ذُوَابَةٍ بِالْهَمْزِ : وَهِيَ مَا يُرْخَى مِنَ الشَّعْرِ . قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَكَانَ الْأَصْلُ ذَاتِبٌ [لِأَنَّ الْأَلْفَ الَّتِي فِي ذُوَابَةٍ ^(١) كَالْأَلْفِ الَّتِي فِي رِسَالَةٍ حَقَّقَهَا أَنْ تُبَدَّلَ مِنْهَا هَمْزَةٌ فِي الْجَمْعِ ، وَلَكِنْهُمْ اسْتَنْقَلُوا أَنْ تَقَعَ أَلْفُ الْجَمْعِ بَيْنَ الْهَمْزَتَيْنِ فَأَبْدَلُوا مِنَ الْأُولَى وَآوَا . وَإِنَّمَا أَخْتَصَّ هَذَا اللَّقْبُ بِالشُّرَفَاءِ لِأَنَّهُمْ مِنْ صَمِيمِ عَرَبِ الْحِجَازِ ، وَعَادَةٌ عَرَبِ الْحِجَازِ إِرْحَاءُ الرِّجَالِ الدَّوَابِّ .

(زَيْنُ الزُّهَادِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ .

(زَيْنُ الْعِبَادِ) من ألقاب أهل الصَّلَاحِ أَيْضًا .

(زَيْنُ الْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ) من ألقاب الشُّرَفَاءِ ، وَبِهِ يُكْتَبُ لِأَمِيرِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةَ .

وَقَدْ تَقَدَّمَ مَعْنَى الْعِتْرَةِ .

(١) الزيادة عن الصلاح للجوهري .

- (زَيْنُ الْكُتَّابِ) من ألقاب كُتَّابِ الإنشاء وغيره .
 (زَيْنُ الْمَجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل « زَيْنُ الْأَمْرَاءِ الْمَجَاهِدِينَ » وربما كُتِبَ به لبعض صغار الملوك ، كصاحب دُنُقَلَةَ ونحوه .
 (زَيْنُ الْمُنْشِئِينَ) رأيتُه في بعض الدساتير الشامية في ألقاب الكُتَّابِ ونحوهم ، وهو صالح لكل حَدِيثٍ مَرَقَّ في العلوِّ .

حرف السين المهملة

- (سِدَادُ الثُّغُورِ) من ألقاب الوزراء ، وهو بكسر السين وتخفيف الدال بعدها ، بمعنى أنه الذي تُسَدُّ به الثُّغُورُ ، أخذًا من سِدَادِ الْقَارُورَةِ وهو ما يُسَدُّ به قُمْهَاءُ ، ومنه قول الشاعر :

أَضَاعُونِي وَأَيَّ قَتَّى أَضَاعُوا * لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ وَسِدَادِ نَغْرٍ

- وَيُحْكِي أَنَّ الْمَامُونَ نَطَقَ بِمِثْلِ ذَلِكَ بفتح السين بمحضرة النضربن شُمَيْلِ فَرْدِهِ عَلَيْهِ فَأَمَرَ لَهُ بِثَمَانِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ ، فكان النضرب يتغزى بذلك ويقول : أَخَذْتُ بِإِفَادَةِ حَرْفٍ وَاحِدٍ ثَمَانِينَ أَلْفِ دِرْهَمٍ .

(سَفِيرُ الْأُمَّةِ) من ألقاب الدُّوَادَارِ وكاتب السرِّ ، وقد تقدم معنى السِّفِيرِ .

(سَفِيرُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب المذكورين .

(سَفِيرُ الْمَمْلَكِ) من ألقاب من تقدم ، وربما قيل « سَفِيرُ الْمَلِكَةِ » .

(سَفِيرُ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ) كذلك .

(سُلْطَانُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ) من الألقاب السلطانية .

(سُلْطَانُ الْأَوَانِ) من الألقاب السلطانية الجليلة .

(سُلْطَانِ الْبَيْسِطَةِ) من الألقاب السلطانية، والبَيْسِطَةُ الأرضُ أَخْذًا من البَسِطَةِ وهي السَّلْعَةُ ومنه قيل : تَبَسَّطَ فلانٌ في البلاد إذا سار فيها طولًا وعَرْضًا .

(سُلْطَانِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالتُّرْكِ) من الألقاب السلطانية أيضا . وهو غير محزِر الوضوح لأن الْعَجَمَ في اللغة يقع على مَنْ عدا الْعَرَبَ في الجملة ولا يختص بالفُرس على ما هو المعروف بين العامة وهو مقصودهم هنا، فالتُّرْكُ من جملة الْعَجَمِ فكان يَكْتَبِي أن يقال سلطان الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ، وإنما حملهم على ذلك زيادة الإطراء والمدح .

(سَلِيلِ الْأَطْهَارِ) من ألقاب الثُّرَفَاءِ، والسَّلِيلُ الولدُ، والمراد بالأطهار المبرءون عن الأدناس .

(سَلِيلِ الْأَكْبَرِ) من ألقاب أولاد الأكابر والرؤساء .

(سَلِيلِ الطَّيِّبِينَ) من ألقاب أرباب الأقلام من دَوَى الأصالة .

(سَلِيلِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب أولاد الملوك وَمَنْ مضى له سَلْفٌ في المُلْكِ .

(سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ الْمُقَدَّمِينَ) من ألقاب الأمراء مقدَّمي الألوف، في الرتبة المتوسطة .

(سَيِّدُ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنبُواب السلطنة

ونحوهم، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك عن الأبواب السلطانية .

(سَيِّدُ الرُّؤَسَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب أكابر أصحاب الأقلام ككاتب

السِّرِّ ونحوه .

(سَيِّدُ الْعُلَمَاءِ وَالْحُكَّامِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب القضاة .

(سَيِّدُ الْكِبْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام كناظر

الخاصِّ ونحوه .

(سيد الوزراء في العالمين) من الألقاب الخاصة بالوزراء .
 (سيدُّ أمراء العالمين) من ألقاب التُّواب المتوسطين .
 (سيفُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما كُتِبَ به
 لبعض الملوك .

(سيفُ الحقِّ) من ألقاب العلماء وأهل النَّظَر .
 (سيفُ الخِلافة) من الألقاب المملوكية ، وبه يُكْتَبُ لملك التُّكُور .
 (سيفُ المناظِرِينَ) من ألقاب العلماء ، والمراد بالمُناظِرِينَ أهلُ البَحْثِ
 والجدل ، أخذًا من النَّظَر وهو الفِكر المؤدِّي إلى الدَّلِيل .
 (سيفُ النَّظَر) بمعناه أيضا .

(سيفُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كَتُوب السلطنة ، وهو
 في الرتبة المتوسطة .

(سيفُ جماعة الشاكرين) من الألقاب الخاصة بصاحب تُوس ، وهذا اللَّقب
 رأيتُه واردًا في "التثقيف" ولم أعرف له معنًى ، وسألتُ «قاضي القضاة وليَّ الدين
 ابنَ خلدون» هل يَعْرِفُ لذلك معنًى؟ فقال : لا .

حرف الشين المعجمة

(شَرَفُ الأصفياء المقربين) من ألقاب كبار التُّجَّار الخَوَاجِكِيَّة .
 (شَرَفُ الدُّول) من ألقاب بعض الملوك ، ويصلح لغير الملوك أيضا .
 (شَرَفُ الأمراء في العالمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل شَرَفُ
 الأمراء الأشراف في العالمين إذا كان شريفا ، أو شَرَفُ الأمراء العُربان في العالمين

إذا كان غير أميرِ عرب ، وربما قيل «شرفُ الأُمراءِ المُقدِّمين» إذا كان مُقدِّم ألف ، وقد يُقتصر على شرف الأُمراء فقط .

(شرفُ الرؤساءِ في العالمين) من ألقاب أكبر أرباب الأقاليم كوزير الشام ونحوه ، وربما أقتصر على «شرف الرؤساء» ويكون من ألقاب التجار الخواجكية ونحوهم .

(شرفُ الصَّالحاءِ في العالمين) من ألقاب أهل الصَّلاح .

(شرف العلماء العالمين) من ألقاب أكبر العلماء كقضاة القضاة ونحوهم ، وربما قيل «شرف العلماء في العالمين» .

(شرفُ الكُتَّابِ في العالمين) من الألقاب الكتابية .

(شرف المُلُوكِ والسلاطين) من الألقاب المُلُوكية .

(شمس الأُفق) من ألقاب أكبر أرباب الأقاليم ، وهو بالعلماء أليق ، لأن بهم يحصلُ النور كما يحصلُ بالشمس . وهو ما يُتخيَّل أنطباقُ السماء على الأرض بالنظر في كل ناحيةٍ فيه . وأصلُ الأُفق الناحيةُ ومنه قيل للنواحي آفاقٌ ، وإنما خُصَّ الشمس هنا بالإضافة للأفق لأنها عند مَطلَعها تكون في النظر أعظم صورةً .

(شمس الشريعة) من ألقاب أكبر العلماء ، والمراد بالشريعة هنا شريعة الإسلام ، استُعميت الشمس لها لمشابتها لها في النور .

(شمس العَصْرِ) من ألقاب العلماء والصَّالحاء ونحوهم .

(شمس المَدَاهِبِ) من ألقاب العلماء الأكابر، والمَدَاهِب جمع مَدَهَب وهو ما يَدَهَب إليه المجتهدُ، وأصله في اللغة لموضع الدَّهَاب .

(١) الظاهر أن لفظ غير زائد من الناصح .

(شيخ المشايخ) من ألقاب العلماء وأهل الصَّلاح، وربما قيل « شيخ شيوخ الإسلام » .

(شيخ الملوك والسلطين) من ألقاب المُسنِّين من الملوك . وهذا اللقب رأيته في كتاب وَقَفَ عن الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيُّوب، بعث به نجم الدين أيُّوبُ والدُّ السلطان صلاح الدين يوسف .

(شيخ شيوخ العارفين) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصَّلاح، ومرادهم بالعارفين العارِفون بالله تعالى .

حرف الصاد المهملة

(صالح الأولياء) من ألقاب إمام الزيدية باليمن، ويصَّحُّ لأهل الصَّلاح أيضا .
(صَدْر المدرِّسين) من ألقاب العلماء .

(صَدْر مِصر والشام) من ألقاب أكابر العلماء كقُضاة القُضاة ونحوهم، وإنما خُصَّ هذان القَطْران بالذكور لكثرة علمائهما، وربما قيل «صَدْر مِصر والعِراق والشام» وربما أَقْصِرَ على صَدْر الشام فقط إذا كان برسم وظيفة في الشام ونحو ذلك .

(صَفْوَة الدَّولة) من ألقاب مَنْ في معنى الوزراء كناظر الخاص ونحوه .

(صَفْوَة الصُّلحاء) من ألقاب أهل الصَّلاح .

(صَفْوَة الأتقياء) من ألقاب الصُّلحاء أيضا .

(١) (صَفْوَة المُلوك والسلطين) من ألقاب أرباب الأقاليم كناظر الشام ونحوه، وربما كتب به للتَّجار الخَوَاجِية .

(صَلاح الإسلام) من ألقاب الصُّوفية والعلماء .

(١) لعله كناظر الخاص أو ناظر الجيش .

(صلاح الإسلام والمسلمين) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام، كأوزراء
ومَن في معناهم .

(صَلَاحُ الدُول) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَبُ لصاحب تُوس .
ويصلح أيضا لأكابر أرباب الأقلام من الوُزراء وغيرهم .
(صَلَاحُ المِلَّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

حرف الضاد المعجمة

(ضياء الإسلام) من ألقاب العلماء والصلحاء، ور بما قيل «ضياء الإسلام والمسلمين»
والضياء خلاف الظلام . وهو مخصوص بما كان مُضيئاً لِدَاتِهِ، بخلاف النور فإنه يقع
على ما هو مكتسبُ النور، ولذلك قال تعالى: ﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾
فخص الضياء بالشمس لأنَّ نورها لِدَاتِهَا، والنور بالقمر لأنَّ نُوره مكتسب من
الشمس، على ما هو مقرَّر في علم الهيئة .
(ضياء الأنام) من ألقاب مَنْ تقدَّم ذكره .

حرف الطاء المهملة

(طِرَازُ العِصَابَةِ العَلَوِيَّةِ) من ألقاب الأشراف كأميرى مكة والمدينة المشرفين .
والطِّرازُ في أصل اللغة علمُ الثوب . قال الجوهري : وهو فارسيٌّ معرَّبٌ، كأن
صاحب اللقب جعلَ علما لتلك الطائفة كما جعل الطِّرازُ علما للثوب .

حرف الظاء المعجمة

(ظِلُّ اللَّهِ فِي أرضه) من الألقاب السلطانية، والظل ما يحصل عن الشاخص
في ضوء الشمس، والمراد أن الخلق يستظلون بالسلطان من حرِّ الجور كما يستظلُّ

المستظِلُّ بِظَلِّ الشجرة ونحوها من حرِّ الشمس . وقال ابن قتيبة في "أدب الكاتب" أصل الظلِّ السِّتر ومنه قولهم : أنا في ظلكِ أى في سِتْرِكَ ، ثم أسمُ الظلِّ مخصوصٌ بما قبل الزوال ؛ أما بعد الزوال فإنه يسمى فيثا لأنه يرجعُ من جهة الغرب إلى جهة الشرق أخذًا من قولهم فاءَ إذا رجع .

(ظهيرُ الملوك والسلاطين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كتُواب السلطنة .

(ظهيرُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف أيضا، وربما كُتِبَ به لبعض

الملوك كصاحب الأندلس ونحوه .

(ظهير الإمامة) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَبُ إلى صاحب التُّكْرور .

حرف العين المهملة

(عاقِدُ البُنود) من ألقاب النائب الكافل ونحوه، والعاقِدُ فاعل من العَقْدَ تقيض

الحلِّ، والبُنود جمع بُنْد - بفتح الباء وإسكان النون - وهو العَلَمُ الكبير قال الجوهريّ وهو فارسيّ معرب .

(عزُّ الإسلام) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَبُ إلى ملك التُّكْرور .

(عزُّ الإسلام والمسالمين) من ألقاب الرتبة الوُسْطى من تُوّاب السلطنة ومن

في معنَاهم، وربما كُتِبَ به لبعض الملوك .

(عُدّة الدنيا والدين) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَبُ لصاحب تُوّس .

والعُدّة بالضم في اللغة ما أعدته لحوادث الدهر من المال والسلاح ونحو ذلك وهو

المراد هنا، وربما أُطلق على نفس الاستعداد .

(عُدّة الملوك والسلاطين) من ألقاب أصاغِرِ أرباب السُّيُوف .

(عَضُدُ الْمَلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب متوسّطي أرباب السيوف ، وقد تقدّم
أن أصل العَضُد لما بين الساعد والكَنَف .

(عَضُد أمير المؤمنين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف من نواب السلطنة
وغيرهم . وربما كُتِبَ به إلى بعض الملوك كملك التُّكُور .

(عَلَمُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الأمراء والوزراء وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ . وقد تقدّم معنى
العَلَمِ ومعنى الدَّوْلَةِ .

(عَلَمُ الزَّهَادِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصَّلَاحِ ، وقد تقدّم أن المراد بالعلم
الرَّايَةُ وبالزُّهْدُ الإِقْلَاعُ عن الدنيا .

(عَلَمُ الْعُلَمَاءِ الْأَعْلَامِ) من ألقاب أكابر أهل العلم ، وربما قيل «عَلَمُ الْمُفَسِّرِينَ»
أو «عَلَمُ النَّحَاةِ» ونحو ذلك .

(عَلَمُ الْهُدَاةِ) من ألقاب إمام الزيدية باليمن ، ويصْلُحُ لأكابر العلماء والصلحاء .
والهُدَاةُ جمع هَادٍ وهو المرشد .

(عَلَمُ الْأَعْلَامِ) من ألقاب العلماء والصلحاء ، ويصْلُحُ لأرباب السيوف أيضا .
(عِمَادُ الْحُكَّامِ) من ألقاب القضاة ، وربما قيل «عِمَادُ الْحُكَّامِ الْبَارِعِينَ»
أو «عِمَادُ الْحُكَّامِ فِي الْعَالَمِينَ» ونحو ذلك . وأصل العِمَادِ فِي اللُّغَةِ الْأَبْنِيَّةِ الرِّفْعَةُ وَاحِدُهَا
عِمَادَةٌ ، ومنه قيل فلانٌ طَوِيلُ الْعِمَادِ كَأَنَّ بِنَاءَهُ بِالْأَرْتِفَاعِ صَارَ عَلَمًا لِزَائِرِيهِ .

(عِمَادُ الْعَرَبِ) من ألقاب أكابر أمراء العُربان ، كأَمِيرِ آلِ فَضْلِ ونحوه .

(عِمَادُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الأمراء وأكابر الوزراء ونحوهم .

(عماد الملة) كذلك .

(عماد المملكة) نحوه ، وهو دونه في الرتبة .

(عماد المحدثين) من ألقاب علماء الحديث النبويّ على صاحبه أفضل الصلاة والسلام ، وبه يُكتب لقضاة القضاة ومن في معناهم .

(عمدة الملوك والسلاطين) من ألقاب صغار أرباب السيوف ، وهو دُونَ عمدة الملوك والسلاطين والعمدة في اللغة ما يُعتمد عليه .

(عَوْنُ العساكر) من ألقاب ناظرِ الجيش ونحوه ، والعَوْنُ في اللغة الظهير والمعاون .

(عَوْنُ جيوش الموحّدين) من ألقاب بعض الملوك ، وبه يُكتب لملك التُّكُور ، ويصلحُ ل كبار أرباب السيوف من أهل المملكة أيضا .

(علاء الإسلام والمسلمين) من ألقاب العلماء والصالحاء ويصلح لارباب السيوف أيضا .

والعلاء بالفتح والمدة مصدر علاّ في الشرف ونحوه يعلى بفتح اللام .^(١)

(عين المملكة) من ألقاب أرباب الأقلام ونحوهم .

(عين الأعيان) نحوه .

حرف الغين المعجمة

(غُرَّةُ الزمان) من ألقاب أرباب الأقلام ، والغُرَّةُ في أصل اللغة بياضٌ في جبهة الفرس فوق الدرهم ، شُبّه بالغُرّة في وجه الفرس لظهورها وتحسين الفرس بها .

(غَوْتُ الأنام) من ألقاب أ كابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه . وقد تقدّم معنى الغوث .

(١) قوله بفتح اللام أى فيهما وهي لغة في على يعلى من باب تعب أنظر المختار .

(غِيَاثُ الْأَنَامِ) من ألقاب أكابر الملوك كصاحب الهند ونحوه . وقد تقدم
معنى الغِيَاث .

(غِيَاثُ الْأُمَّةِ) نحوه .

حرف الفاء

(فَاتِحُ الْأَقْطَارِ) من الألقاب السلطانية، والفَاتِحُ فاعِلٌ من الفتح وهو معروف،
والأَقْطَارُ جمع قُطْرٍ وهو الناحية والجانب، والمراد نواحي الممالك .

(فَارِسُ الْمُسْلِمِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، ذكره ابن شيث من
كُتَابِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ فِي "معالم الكتابة" .

(نَخْرُ الْأَنَامِ) من ألقاب أرباب الأقلام، ويجوز أن يكونَ من ألقاب أرباب
السيوف أيضا .

(نَخْرُ الْأُسْرَةِ الزَاهِرَةِ) من ألقاب الشرفاء كأميرى مكة والمدينة المشرفين،
وأُسْرَةُ الرَّجُلِ بضم الهمزة رهطه .

(نَخْرُ الْأَعْيَانِ) من ألقاب التجَّار الخَوَاجِكِيِّةِ، ويصلح لغيرهم من الرُّؤَسَاءِ أيضا .
(نَخْرُ الرُّؤَسَاءِ) من ألقاب التجَّار الخَوَاجِكِيِّةِ .

(نَخْرُ السَّلَاةِ الزَاهِرَةِ) من ألقاب الأشراف، كأميرى مكة والمدينة المشرفين،
والسَّلَاةُ الزَاهِرَةُ تقدم الكلام على معناها .

(نَخْرُ الصُّدُورِ) من ألقاب أرباب الأقلام، وربما كُتِبَ به للتجَّار الخَوَاجِكِيِّةِ .
(نَخْرُ الصَّلْحَاءِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ واهل الصَّلَاحِ .

- (فَخَرُّ الْعَبَادِ) من ألقاب أهل الصَّلاح أيضا .
- (فَخَرُّ الْمَجَاهِدِينَ) من ألقاب أرباب السيوف .
- (فَخَرُّ الْمُحَدِّثِينَ) من ألقاب أصحاب الحديث .
- (فَخَرُّ الْمُدْرَسِيِّينَ) من ألقاب العلماء، وبه يُكْتَبُ لِقَضَاةُ الْقَضَاةِ ونحوهم .
- (فَخَرُّ الْمُفِيدِينَ) من ألقاب العلماء أيضا .
- (فَخَرُّ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب بعض الملوك .
- (فَخَرُّ الشَّجَرَةِ الزَّرِّيَّةِ) من ألقاب الشرفاء، والمراد شَجَرَةُ نَسَبِهِمُ الشَّرِيفِ .
- (فَخَرُّ النَّسَبِ الْعَلَوِيِّ) من ألقاب الشرفاء أيضا، وبه يُكْتَبُ لِإِمَامِ الزَّيْدِيَّةِ بِالْيَمَنِ .
- (فَرْدُ السَّالِكِينَ) من ألقاب أهل الصلاح .
- (فَرْدُ الزَّمَانِ) من ألقاب العلماء والصلحاء .
- (فَرْدُ الْوُجُودِ) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح .
- (فَرَعُ الشَّجَرَةِ الزَّرِّيَّةِ) من ألقاب الشرفاء .

حرف القاف

(قَامِعُ الْبِدْعَةِ) من ألقاب أكابر العلماء، وربما قيل «قَامِعُ الْبِدْعِ» وقد يقال «قَامِعُ الْبِدْعِ وَمُخَفِّي أَهْلِهَا» والقامع فاعلٌ من قَمَعَهُ إِذَا ضَرَبَهُ بِالْقَمْعَةِ : وهي مِخْجَنٌ من حديد يُضْرَبُ بِهِ عَلَى رَأْسِ الْفِيلِ، وَالبِدْعَةُ واحدةُ الْبِدْعِ : وهي خلافُ السُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ وَمَا عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ .

- (قُدْوَةُ الْأَوْلِيَاءِ) من ألقاب أهل الصلاح .
- (قُدْوَةُ الْبَارِعِينَ) من ألقاب أرباب الأقسام، وهو بالكُتَابِ أليق، والبارِعُ الماهر .
- (قُدْوَةُ الْبُلَغَاءِ) من ألقاب أرباب الأقسام . وهو بـكُتَابِ الْإِنشَاءِ وَمَنْ فِي معنَاهُمْ أَخْصُ .
- (قُدْوَةُ الْخَلَفِ) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح، وانخَلَفَ فِي اللُّغَةِ الَّذِي يَمِيزُ بَعْدَ غَيْرِهِ وَيَقُومُ مَقَامَهُ ؛ والمراد خَلَفَ مَنْ سَلَفَ مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ أَوْ صَالِحِيهَا .
- (قُدْوَةُ الْعُبَادِ) من ألقاب أهل الصلاح ، وربما قيل «قُدْوَةُ الْعُبَادِ وَالرَّهَادِ» أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .
- (قُدْوَةُ الْعُلَمَاءِ) من ألقاب أكابر أهل العلم، وربما قيل «قُدْوَةُ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ» وَنَحْوِ ذَلِكَ .
- (قُدْوَةُ الْفِرْقِ) من ألقاب العلماء، والمراد فِرْقُ أَهْلِ الْحَقِّ مِنْ أَرْبَابِ الْمَذَاهِبِ وَالْعَقَائِدِ الصَّحِيحَةِ ، وَالْفِرْقُ جَمْعُ فِرْقَةٍ .
- (قُدْوَةُ الْفُضَلَاءِ) من ألقاب أكابر العلماء، وَالْفُضَلَاءُ جَمْعُ فَاضِلٍ وَهُوَ خِلَافُ النَّاقِصِ .
- (قُدْوَةُ الْكُتَّابِ) من ألقاب أكابر الكُتَّابِ كَالْوَزَرَاءِ مِنْ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ وَمَنْ فِي معنَاهُمْ مِنْ كَاتِبِ السِّرِّ وَنَحْوِهِ .
- (قُدْوَةُ الْمُجْتَهِدِينَ) من ألقاب كبار العلماء، وقد تقدّم في الألقاب أَنَّ الْأَجْتِهَادَ عِبَارَةٌ عَنِ اسْتِنْبَاطِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ مِنَ الْكُتَابِ وَالسُّنَنِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .
- (قُدْوَةُ الْمُحَقِّقِينَ) من ألقاب أكابر العلماء، وقد تقدّم معنى التحقيق .

(قُدوةُ المُسلِّكين) من ألقاب الصُّوفيةِ وأهل الصِّلاح، والمراد بالمسلِّكين المعترفون الطريقَ إلى الله تعالى كما تقدّم بيانه .

(قُدوةُ المشتغلين) من ألقاب أهل العلم، والمرادُ الاشتغالُ بالعلم .

(قُدوةُ الموحِّدين) من الألقاب الخاصة بصاحب تُوُسّ : لوقوع الموحِّدين في اصطلاحهم على أتباع المهديّ بن تُوَمَرْت ؛ وصاحب تُوُسّ الآن من بقاياهم كما تقدّم .

(قَسيمُ أمير المؤمنين) من الألقاب السلطانية ، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ فيكون معناه يُقاسِمُ أمير المؤمنين ، والمراد مقاسمته الأمر .

(قُطبُ الزهّاد) من ألقاب أهل الصلاح ؛ والقُطبُ تقدّم معناه .

(قُطبُ الأولياء) من ألقابهم أيضا ، والأولياءُ جمع وليٍّ وهو خلاف العَدُوِّ ، والمرادُ أولياء الله تعالى .

(قَوامُ الأمة) من ألقاب الوزراء ومَن في معناهم ، والقَوامُ بالكسر نظام الشيء وعمادُه ومِلاكُه ، يقال فلانٌ قِوامُ أهل بيته ، ومنه قِوامُ الأمر بمعنى نظامه .

(قِوامُ الجُهور) قال في "عرف التعريف" : هو من ألقاب الوزراء ؛ والجُهور من الناس جُلُهم ، أخذًا من الجُهور وهي الرملة المجتمعَةُ المشرفة على ما حوَّلها .

(قِوامُ الدَّولة) من ألقاب الكُتّاب وهو بالكسر أيضا .

(قِوامُ المصالح) من ألقاب أكابر الكُتّاب من الوزراء ومَن في معناهم ، وهو بالكسر أيضا ، والمصالح جمع مصلحة وهي خلاف المفسدة .

(قِوامُ الإسلام) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو بالكسر كالذي قبله .

حرف الكاف

(كافِلُ السُّلْطَنَةِ) من ألقاب بَكَارِ النَّوَابِ كُتَّابِ دِمَشْقَ ، وقد تقدّم معنى الكافل في الكلام على ألقابِ أربابِ الوظائف .

(كافِلُ الممالكِ الإسلاميَّةِ) من ألقابِ النَّائبِ الكافل : وهو النَّائبُ بحضرةِ السلطان .

(كَافِي الدَّوْلَةِ) من ألقابِ الوُزَرَاءِ وَمَنْ في معناهم ، والكافي اسمُ فاعلٍ من الكِفاية .

(كَتْرُ التَّقِي) من ألقابِ الصوفيَّةِ وأهلِ الصِّلاحِ ، والكَتْرُ في أصلِ اللغةِ المألُ المدفونُ ، استعير لصاحبِ اللَّقَبِ لأنَّه كالشيءِ المكنوزِ لذلكِ الباب .

(كَتْرُ الطالِبِينَ) من ألقابِ العلماء .

(كَتْرُ العُلَمَاءِ) من ألقابِ أهلِ العِلمِ وربما قيل « كَتْرُ المُفسِّرينِ » أو « كَتْرُ المُتفقِّهينِ » ونحو ذلك .

(كَتْرُ المُسلِّكينِ) من ألقابِ الصوفيَّةِ وأهلِ الصِّلاحِ .

(كَهْفُ الأُسرةِ الزاهِرةِ) من ألقابِ الشرفاءِ ، والكهفُ المَلجأُ ، ومنه قولهم : فُلانٌ كَهْفٌ . والأصلُ في الكهفِ البيتُ المَنقُورُ في الجبلِ ويجمع على كُهُوفٍ ؛ وقد تقدّم الكلام على الأُسرةِ والزاهِرةِ .

(كَهْفُ الكُتَّابِ) من ألقابِ أكابرِ الكُتَّابِ كالوزيرِ من أربابِ الأقسامِ وكاتبِ السِّرِّ وَمَنْ في معناهم .

- (كَوَيْفِ الْمَلَّةِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُتُوب السلطنة ونحوهم .
 (كَوَكْبُ الْأُسْرَةِ الزَاهِرَةِ) من ألقاب الأشراف كأميرى مكة والمدينة المشركتين
 وَالكَوَكْبُ واحد الكواكب وهو يقع على النجوم والشمس والقمر .
 (كَوَكْبُ الذَّرِّيَّةِ) من ألقاب الشرفاء أيضا، والمراد الذَّرِّيَّة الْعَلَوِيَّة .

حرف اللام

- (لِسَانُ الْحَقِيقَةِ) من ألقاب الصوفية ، واللسان هنا جارحةُ الكلام ، والحقيقةُ
 خلافُ المجازِ، وهى فى الأصل عينُ الحق ، والمراد هنا معرفةُ الأمر على ما هو عليه .
 (لِسَانُ الْحِفَاظِ) من ألقاب المحدثين والوعاظ ، والمراد المتكلم عنهم ، يقال فلان
 لسانُ القوم إذا كان متكلمًا عنهم ؛ ويجوز أن يكون المراد اللسان الذى هو جارحة
 الكلام ويكون المعنى 'آتهم للكلام كما أن اللسان آلةُ الكلام للتكلم ، ويجوز أن يكون
 من اللسان بمعنى اللغة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾
 ويكون المعنى أنه المترجم عنهم والمتكلم بلغاتهم المختلفة .
 (لِسَانُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب كاتب السرِّ ومن فى معناه ، واللسان فيه يحتمل
 المعنيين .

(لِسَانُ السُّلْطَنَةِ) من ألقاب كاتب السرِّ .

- (لِسَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ) من ألقاب العلماء ، والمتكلمون يجوز أن يراد بهم كلُّ متكلم
 فى الجملة تعميما للدخ ؛ ويجوز أن يراد العلماء بعلم الكلام وهو أصول الدين ،
 لأن أصحابه هم أرباب النظر الدقيق والبحث لدقة متعلّقه ، وهو الظاهر .

(لسان الممالك) من ألقاب كُتِّبَ السرّ، والممالك جمع مملكة وهو موضع الملك، والمعنى أنه يتكلم بلسان ملوك الممالك .
 (لسان ملوك الأمصار) من ألقاب كاتب السرّ .

حرف الميم

(مالك زمام الأدب) من ألقاب البلغاء من الكُتِّبَ ونحوهم، ويصلح لكاتب السرّ ومن في معناه .

(مانح الممالك والأقاليم والأمصار) من الألقاب السلطانية، والمانح المُعْطِي، والممالك تقدم بيانه، والأقاليم جمع إقليم، وله معنيان أحدهما واحد الأقاليم السبعة التي تُسمِّيها الحكماء، ممتدة في طول الأرض ما بين المغرب والمشرق . والثاني الواحد من الأقاليم العُرفِيَّة : كمصر والشام والعراق وما أشبه ذلك وقد مرّ القول فيهما .

(متعمد المصالح) من ألقاب الوزراء ومن في معانهم، والمراد بالمتعمد المتقصد .

(مجد الإسلام) من ألقاب صغار أرباب السيوف .

(مجد الإسلام والمسلمين) من ألقاب متوسطيهم .

(مجد الأمراء) من ألقاب أصاغر أرباب السيوف كأمرء العشرين ونحوهم .

(مجد الرؤساء) من ألقاب التجّار الخوارجية .

(مجلّي الغياهب) من ألقاب أكابر العلماء، والمجلّي بالتشديد الكاشف، يقال :

جلا الأمر إذا أوضحه وكشّفه، ومنه جلوت السيف ونحوه إذا كشفته من الصدأ؛

والغياهب جمع غيب وهو الظلمة الشديدة، يقال : فرس أدهم غيب إذا اشتد

سواده .

- (مَجْدُ الصُّدُورِ) من ألقاب التُّجَّارِ الخَوَاجِكِيَّةِ .
- (مُجَمَّلُ الأَمْصَارِ) من ألقاب أكابر أربابِ الأَقْلَامِ ، والمُجَمَّلُ فاعِلُ الجَمَالِ ، والأَمْصَارُ جمعُ مَصِيرٍ وهو الإقْلِيمُ .
- (مُجَهِّدٌ نَفْسَهُ فِي رِضَا مَوْلَاهُ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصَّلَاحِ [والمرادُ به] المَعْمَلُ نَفْسَهُ لِلغَايَةِ . يقال : أَجَهَّدَ جَهْدَكَ فِي هَذَا الأَمْرِ أَى أَبْلَغَ غَايَتَكَ ، والمرادُ بِالمَوْلَى هُنَا الخَالِقُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .
- (مُحْيِي السَّنَةِ) من ألقاب العلماء والصلحاء .
- (مُحْيِي العَدْلِ فِي العَالَمِينَ) من الألقاب السلطانية .
- (مُدَبِّرُ الجُيُوشِ) من ألقاب ناظر الجيش .
- (مُدَبِّرُ المَمَالِكِ) من ألقاب الوزراء ، وربما قيل «مُدَبِّرُ الدَوْلَةِ» والمُدَبِّرُ فاعِلُ التَّدْبِيرِ ، وقد تَقَدَّمَ معناه فِي الكَلَامِ عَلَى المُدَبِّرِيِّ فِي جَمَلَةِ الألقاب المفردة .
- (مُدَبِّرُ أُمُورِ السُّلْطَنَةِ) من ألقاب الوزراء وكُتَّابِ السِّرِّ وغيرهم .
- (مُدَكِّرُ القُلُوبِ) من ألقاب الخُطَبَاءِ وَالعُظَمَاءِ ، والمُدَكِّرُ فاعِلُ التَّذْكِيرِ وهو الأَخْذُ بِالذِّكْرِ ، ومنه قولُه تَعَالَى : ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ يُنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ .
- (مُدِلُّ البِدْعَةِ) من ألقاب علماء السنة ، والمُدِلُّ قِيضُ المَعِزِّ .
- (مُدِلُّ حِزْبِ الشَّيْطَانِ) من ألقاب العلماء والصلحاء ، والحِزْبُ الطائِفَةُ ، وحِزْبُ الرَّجُلِ أَصْحَابُهُ .
- (مُزَبِّبُ المُرِيدِينَ) من ألقاب الصلحاء .

- (مُرْتَبِ الْجِيُوشِ) من ألقاب ناظر الجيش .
- (مُرْتَضَى الدَّوْلَةِ) من ألقاب الكُتَّابِ ، والمُرْتَضَى بمعنى المرَضَى المقبول .
- (مُرْتَضَى المُلُوكِ والسُّلْطَانِ) من ألقاب أرباب السيوف والأقلام جميعاً .
- (مُسْتَخْدِمُ أربابِ الطُّبْلِ والعَلَمِ) من ألقاب النائب الكافل ونحوه .
- (مُشِيدُ المَالِكِ) من ألقاب الوزراء وَمَنْ في معناهم ، والمُشِيدُ فاعل التشييد وهو رَفَعَ البِنَاءَ .
- (مُشِيرُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب الوزراء وَمَنْ في معناهم ، والمُشِيرُ الذي يُشِيرُ على غيره بالرأى .
- (مُشِيرُ السُّلْطَنَةِ) مثله .
- (مُشِيرُ المُلُوكِ والسُّلْطَانِ) مثله .
- (مُظْهِرُ أنْبَاءِ الشَّرِيعَةِ) من ألقاب العلماء ، وهو بضم الميم وإسكان الظاء على أنه فاعلٌ من الظُّهُورِ ، والأنباء جمعُ نَبَأٍ وهو الخَبْرُ ، والمراد أنه يُظْهِرُ أخبارَ الشَّرِيعَةِ وَيُدْبِعُهَا ، ويجوز أن يكون بفتح الميم على أنه هو نفس المَظْهِرِ وهو أبلغُ .
- (مُعِزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ) من ألقاب النائب الكافل وَمَنْ في معناه .
- (مُعِزُّ السُّنَّةِ) من ألقاب العلماء ، والسُّنَّةُ خلافُ البِدْعَةِ .
- (مُعِينُ الحَقِّ ونَاصِرُهُ) من ألقاب الحُكَّامِ من أرباب السيوف وغيرهم .
- (مُقْتِي المُسْلِمِينَ) من ألقاب العلماء .
- (مُقِيدُ البُلْغَاءِ) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّابِ وغيرهم .

(مُفِيد الطالِبِينَ) من ألقاب العلماء .

(مُفِيد المَنَاجِحِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ ، والمَنَاجِحِ جمع مَنَجَحٍ أخذنا من النَّجَاحِ وهو الظَّفَرُ بالحوَاجِحِ .

(مُفِيد أهل مِصْرَ والعِراقِ والشَّامِ) من ألقاب العلماء .

(مُفِيد كُلِّ غَادٍ ورَائِحِ) من ألقابهم أيضا .

(مُقَرَّبُ الحَضْرِيَّينِ) من ألقاب التُّجَّارِ الحَوَاجِكِيَّةِ إذا كان مترددا بين مملكتين .

(مُقَرَّبُ الدُّوَلِ) من ألقاب التُّجَّارِ الحَوَاجِكِيَّةِ ، وهو أعمُّ من الأوَّلِ .

(مَلَجًا الفُقَرَاءِ والمَسَاكِينِ) من ألقاب النَّائِبِ الكَافِلِ ونَائِبِ الشَّامِ على ما استقرَّ عليه الحالُ آخِرا .

(مَلَجًا المُرِيدِينَ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وأهل الصِّلاحِ .

(مَلِكُ البَحْرَيْنِ) من الألقاب السلطانية، والمرادُ ببحرِ الرُّومِ وبحرِ القُلُومِ : لأنهما يتقاربان بين مِصْرَ والشَّامِ على القُرْبِ من العَرِيشِ .

(مَلِكُ البُلْغَاءِ) من ألقاب أهل البلاغة من السُّكَّابِ وغيرهم .

(مُمَلِّكُ المَمَالِكِ والتُّخُوتِ والتَّيْجَانِ) من الألقاب السلطانية أيضا ، والمرادُ بالتُّخُوتِ هنا نُخُوتُ المُلْكِ ، يريد أنه مَمَلِّكُ المَمْلُوكِ مِن تَحْتِ يَدِهِ .

(مُمَهِّدُ الدُّوَلِ) من ألقاب أكبر أرباب السيوف كُتُوبِ السُّلْطَنَةِ ونحوهم ،

وربما كُتِبَ به لبعض المملوك أيضا ، وقد تقدَّم الكلام على التمهيد عند الكلام على الممهِّدِ في جملة الألقاب المفردة .

(مُنْبَه الخَوَاطِر) من ألقاب الخطباء والوعاظ، والمُنْبَه الموقظ، والخوَاطِر جمع خَاطِرٍ .

(مُنْجِد الملوِك والسلاطين) من ألقاب النّائب الكافل، وبه يُكْتَب لإمام الزيدية بايمن . والمُنْجِد المَعِين أحدًا من قولهم آسْتَجِدُنِي فلانٌ فأنجذته أى آسْتَعَانَ بِي فأعتته .

(مُنْشَى العلماء والمفتين) من ألقاب أكابر العلماء .

(مُنْصِف المظلومين من الظالمين) من الألقاب السلطانية .

(مَوْرِد الجود) من ألقاب الكرماء .

(مُوَصِّل السالكين) من ألقاب الصوفية والصلحاء .

(مُوَصِّح الطريفة) من ألقاب الصوفية والصلحاء أيضا، وربما قيل «مُوَصِّح الطرائق» وقد تقدم أن المراد الطريقُ إلى الله تعالى .

(مُوَلِّ الإحسان) من الألقاب السلطانية، والمراد بالمُوَلِّ المُنِيل .

(مُوَمِّن الأرض المحيطة) من الألقاب السلطانية أيضا، وكأنهم يريدون الأرض المحيطة لا تساعها، ويكون المراد أرض المملكة، وإلا فالأرض محوطة من حيث استدارة الماء عليها لا لمحيطتها بغيرها .

(مَلَاذُ الطالبيين) من ألقاب العلماء والصلحاء، والمراد المَلَجَاء .

(مَلَاذُ العباد) من ألقاب الصلحاء، وفيه نظر لأن العباد لا يلوذون إلا بالله تعالى ولا يَلْجَأُونَ إلا إليه .

(مَلَاذُ الكُتَّاب) من ألقاب أكابر الكُتَّاب، ككاتب السر ونحوه .

(مُؤَيِّدُ الْحَقِّ) من ألقاب أرباب السيوف وغيرهم ، والمؤَيِّدُ الْمُقَوِّى أَخْذًا مِنَ الْأَيْدِ وَهُوَ الْقُوَّةُ .

(مُؤَيِّدُ الْمِلَّةِ) من ألقاب العلماء .

(مُؤَيِّدُ أُمُورِ الدِّينِ) كذلك . وبه يُكْتَبُ لِإِمَامِ الزَّيْدِيَّةِ بِالْيَمَنِ .

حرف النون

(نَاصِحُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من ألقاب التُّجَّارِ الْخَوَاجِكِيِّةِ .

(نَاصِرُ السُّنَّةِ) من ألقاب العلماء .

(نَاصِرُ الْعِزَّةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل

ونحوه، وربما كُتِبَ بِهِ لِبَعْضِ الْمُلُوكِ كَمَلِكِ التُّكُرُودِ وَنَحْوِهِ .

(نَاصِرُ الشَّرِيعَةِ) من ألقاب العلماء، والشريعة ما شرعه الله تعالى من الدين .

يَقَالُ شَرَعَ لَهُمْ شَرْعًا، وَأَصْلُهُ مِنَ الشَّرِيعَةِ الَّتِي هِيَ مَوْرِدُ الْمَاءِ .

(نَاصِرُ لُؤَاءِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ) من الألقاب السلطانية .

(نَجَلُ السُّلْطَنَةِ) من ألقاب أولاد الملوك، والمراد أنه وُلِدَ فِي السُّلْطَنَةِ .

(نَجَلُ الْأَكْبَرِ) من ألقاب ذوى الأصلة، والنجل النسل . يقال نَجَلَهُ أَبُوهُ

إِذَا وَلَدَهُ .

(نَسِيبُ الْإِمَامِ) من ألقاب الشرفاء كاميرى مكة والمدينة المشرفين، والنسيب

الْقَرِيبُ . يَقَالُ فُلَانٌ نَسِيبُ فُلَانٍ أَيْ قَرِيبُهُ ، وَذَلِكَ أَنْ مَرَجَعَ بَنِي الْعَبَّاسِ

وَالْعَلَوِيِّينَ إِلَى بَنِي هَاشِمٍ .

(نَسِيبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) مثله .

(نَصْرُ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كُتُوبِ السُّلْطَنَةِ ونحوهم ، وهو عندهم [فَوْقَ] نَاصِرِ الْغَزَاةِ .

(نَصِيرُ الْغَزَاةِ وَالْمُجَاهِدِينَ) كذلك ، وهو عندهم دُونَ الْأَوَّلِ وَفَوْقَ الثَّانِي ، وفيه كَلَامٌ يَأْتِي ذِكْرُهُ .

(نِظَامُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف والكُتَّابِ ، وقد تقدم الكلامُ عَلَى النَّظَامِ فِي الْأَلْقَابِ الْمَفْرَدَةِ .

(نِظَامُ الْمَمَالِكِ) من ألقاب الوُزَرَاءِ وَكُتَّابِ السِّرِّ وَنَحْوِهِمْ .

(نِظَامُ الْمَنَاجِحِ) من ألقابهم أيضا .

(نُورُ الزُّهَادِ) من ألقاب الصُّوفِيَّةِ وَأَهْلِ الصَّلَاحِ .

حرف الهاء

(هُمَّامُ الدَّوْلَةِ) من ألقاب أرباب السيوف وقد تقدم في الكلام عَلَى الْأَلْقَابِ الْمَفْرَدَةِ أَنَّ الْهُمَّامَ بِمَعْنَى الشُّجَاعِ .

حرف الواو

(وَارِثُ الْمَلِكِ) من الألقاب السلطانية .

(وَلِيٌّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ) من الألقاب التي يَشْتَرِكُ فِيهَا أَرْبَابُ السِّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ : كَالْوُزَرَاءِ وَقُضَاةِ الْقَضَاةِ وَكُتَّابِ السِّرِّ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، وَالْوَلِيُّ فِي اللُّغَةِ خِلَافُ الْعَدُوِّ .

حرف اللام ألف

(لَا يُسُّ تَوْبِ الْفَخَّارِ) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .
 (لَا فِتُّ الْغَوَاةُ إِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ) من ألقاب الصلحاء والوعاظ، واللافتُ
 الصارفُ، يقال لَفَّتْ وَجْهَهُ عَنِي إِذَا صَرَفَهُ، وَأَصْلُ اللَّفَّتِ اللَّيِّ، وَالْغَوَاةُ جَمْعُ غَاوٍ
 وَهُوَ الضَّالُّ، يُقَالُ غَوَى غَوًى غَيًّا إِذَا ضَلَّ فَهُوَ غَاوٍ .

حرف الياء

(يَمِينُ الْمَلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) قال في "عرف التعريف" : يَخْتَصُّ بِالذَّوَادَارِ
 وَكَاتِبِ السَّرِّ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى مَعْنَى ذَلِكَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْيَمِينِيِّ فِي الْأَلْقَابِ
 الْمَفْرَدَةِ، وَأَنَّ الْمُرَادَ يَمِينُ السُّلْطَانِ الَّتِي يَتَنَاوَلُ بِهَا، وَإِلَّا فَمَجْلِسُ كَاتِبِ السَّرِّ عَنِ يَسَارِ
 السُّلْطَانِ وَالذَّوَادَارُ وَقَفَّ أَمَامَهُ .

(يَمِينُ الْمَلِكَةِ) مثله .

(يَمِينُ الدَّوْلَةِ) كذلك .

الضرب الثاني

(من الألقاب المفردة المؤنثة ؛ ولتأنيثها سببان)

السبب الأول

(الجمع)

بأن يجمع شيء من الألقاب المذكرة المفردة أو المركبة، فننقل من التذكير إلى
 التأنيث، فإنَّ الْجُمُوعَ كُلَّهَا مُؤنَّثَةٌ عَلَى مَا هُوَ مُقَرَّرٌ فِي عِلْمِ النُّحُو . وَيَتَأَنَّى ذَلِكَ

في المُطلقات، مثل أن يجمع في صدر المُطلق بين المقرّ الكريم والجناب الكريم والجناب العالى والمجلس العالى؛ ثم يُتبعها بالألقاب التى تليق بها مما يأتى ذكره، فيأتى بتلك الألقاب مجموعةً بلفظ التانيث مفردةً ومركبةً . مثل أن يكتب إلى المقر والجناب الكريمين، والجنابات العاليتين، والمجلس العالى الأميرية، الكبيرة، العالمية العادلة، المؤيدية، الزعيمية، العونية، الغياثية، المناغرية، المرابطة، المهديّة، المشيدية، الظهيرية، الكافية، الفلانية، إعزاز الإسلام والمسلمين، سادات الأمراء فى العالمين، أنصار الغزاة والمجاهدين، زعماء الجيوش، مقدّمى العساكر، ممهّدى الدول، مشيدى المالك، عمادات الملّة، أعوان الأمة، ظهيرى الملوك والسلطين، سيوف أمير المؤمنين، ونحو ذلك .

وأعلم أن هذه الألقاب كلّها من جملة الألقاب المفردة والمركبة المتقدم ذكرها، فيستغنى عن بيان مشكلها وتعريف أحوالها هنا آكتفاءً بما تقدّم، إلا أن من الألقاب المجموعة ما يقوم لفظ الأفراد مقامه بأن يكون اللقب اسم جنس، مثل عَضُدٌ ومَجْدٌ ونحو ذلك مما لا يجوز جمعه لأنه يُقصد به الجنس . فيجوز للكاتب حينئذ أن يأتى بذلك بلفظ الجمع ولفظ الأفراد الذى معناه الجمع . وقد أشار إلى ذلك القاضى شهابُ الدين بن فضل الله فى "التعريف" فى الكلام على المطلقات . فقال عند ذكره أعضاد الملوك والسلطين : ويجوز فيه أعضاد الملوك وعَضُدُ الملوك، إطلاقاً للأفراد على الجمع .

السبب الثاني

(تأنيثُ اللقبِ الأصلِ الذي نتفرعُ عليه الألقابُ الفروعُ . وله حالتان)

الحالة الأولى - أن يكون اللقبُ الأصلُ لمؤنث غير حقيقٍ كالْحَضْرَةِ وَالْيَدِ وَالْبَاسِطَةِ . فتأني الألقابُ المتفرعةُ عليها مؤنثةٌ بناءً على أن الصفةَ تتبعُ الموصوفَ في تذكيره وتأنيثه ، على ما هو مقرَّر في علم النحوي . أما نعوتُ الحضرة فمثل أن يقال : « الْحَضْرَةُ الشَّرِيفَةُ ، الْعَلِيَّةُ ، السَّنِدِيَّةُ ، الْعَالِمِيَّةُ ، الْعَامِلِيَّةُ ، الْعَادِلِيَّةُ ، الْأَوْحِدِيَّةُ ، الْمُؤَيَّدِيَّةُ ، الْمُجَاهِدِيَّةُ ، الْمُرَابِطِيَّةُ ، الْمُتَاغِرِيَّةُ ، الْمُظَفَّرِيَّةُ ، الْمُنْصَوِّرِيَّةُ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ » وأما نعوتُ الباسطة فمثل أن يقال : « الْبَاسِطَةُ الشَّرِيفَةُ ، الْعَالِيَّةُ ، الْمَوْلُويَّةُ ، الْأَمِيرِيَّةُ ، الْكَبِيرِيَّةُ ، الْعَالِمِيَّةُ ، الْعَادِلِيَّةُ ، الْمُؤَيَّدِيَّةُ ، الْحَسَنِيَّةُ ، السَّيِّدِيَّةُ ، الْمَالِكِيَّةُ ، الْفَلَانِيَّةُ » وفي معناها نعوتُ اليد . وألقابُ هذه الحالة كلها في معنى ما تقدم من الألقاب المذكورة لا تختلف الحال فيها إلا في التذكير والتأنيث ، وأنه ليس فيها ألقابٌ مركبةٌ ، فيستغنى بما تقدم عن ذكر معانيها وأحوالها أيضا .

الحالة الثانية - أن يكون اللقبُ الأصلُ لمؤنث حقيقٍ ، كالدَّارِ وَالسَّتَارَةِ وَالْجِهَةِ إِذَا كُنِيَ بِهَا عَنِ الْمَرْأَةِ فِي الْكِتَابَةِ إِلَيْهَا مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : « الدَّارُ الْكَرِيمَةُ » وَ « السَّتَارَةُ الرَّفِيعَةُ » وَ « الْجِهَةُ الْمَصُونَةُ » ونحو ذلك ، فتتبعُها الألقابُ المنزعةُ عليها أيضا في التأنيث إلا أنَّ لها معاني تخصها . وهي على ضربين : مفردة ومركبة كما تقدم في المذكورة ، وإن لم تبلغ شأوها في الكثرة . فأما المفردة فكالتشريفية ، والكبرى ، والعالية ، والمعظمة ، والمكرمة ، والحجبة ، والمصونة ، والخاتونية ، والحدوند . وربما قيل الوالدية إذا كانت والدة حقيقه أو في مقامها ، والولدية إذا كانت بنتا حقيقه أو قائمة مقامها ، والحاجية إذا كانت حاجه ونحو ذلك .

ثم الألقاب المفردة تارة تكون مجردة عن بقاء النسب ، كالألقاب المتقدم ذكرها ؛ وقد تلحقها بقاء النسب للبالغة في التعظيم فيما تدخل فيه بقاء النسب في المذكر ، مثل أن يقال : المعظمية والمكرمية ، والمجعية ، وما أشبه ذلك . وهذه الألقاب أكثرها منقول عن المذكر ، فيستغنى عن ذكر معانيها وأحوالها ؛ وفيها ألقاب لم يتقدم ذكر مثلها في المذكر كالمجعية ، وهو مأخوذ من الحجاب كأنها محجوبة عن أن يراها الناس ؛ ومنها المصونة وهو مأخوذ من الصيانة ، وهي جعل الشيء في الصون وقاية له عن مثل النظر والمس ونحو ذلك ؛ ومنها الخاتون ، وهو لفظ تركي معناه السيدة ؛ ومنها الخوند ، وهي لفظة عجمية بمعنى السيادة أيضا .

وأما المركبة فمثل جلال النساء ، وسيدة الخواتين في العالمين ، وشرف الخواتين ، وجميلة المحجبات ، وجميلة المصونات ، وقريينة الملوك والسلاطين ، وسليمة الملوك والسلاطين ، إذا كانت بنتا لسلطان أو في معناها ، وكريمة الملوك والسلاطين إذا كانت أخت سلطان . ومعاني هذه الألقاب ظاهرة معلومة .

(١) الصنف الثاني

(من الألقاب المفردة على الأصول ألقاب من يكتب إليه)

من أهل الكفر ، مما أصطلح عليها لمكاتباتهم)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَلِكًا مِنْ مَلُوكِ الْكُفْرِ مِمَّنْ يُكْتَبُ لَهُ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ غَيْرِ النَّصَارِيِّ : لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لغيرهم من أهل الملل بالقرب من هذه المملكة مملكة نائمة ، بل اليهود ليس لهم مملكة قائمة في قطر من الأقطار بعد غلبة الإسلام ، وإنما يؤدون الجزية حيث حلوا ، إذ يقول تعالى في حقهم : ﴿ ضَرَبْتُ عَلَيْهِمُ الدِّينَةَ أَيَّمَا أَيِّمَاتٍ يُقْفُوا إِلَّا يُجْبَلُ مِنْ اللَّهِ وَجَبَلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

(١) لعل الصواب "النوع الثاني" وبالجملة فالترجم كثيرا ما يقع فيها السهو مما من الناسخ أو المؤلف فغلب .

ثم مَنْ يَلَقَّبُ من أهل الكفر في المكاتبات إن كان من متديتتهم كالسايِّ
والبطرك، ناسبه من الألقاب ما فيه معنى التَنَسُّك والتعبُد؛ وإن كان من الملوك
ناسبه ما فيه معنى الشَّجاعة والرِّياسة والقيامُ بأمر دينه وتحمُّله أعباء رعيته
وما في معنى ذلك . فقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب
إلى هِرَقْلَ : ” مِنْ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ “ وفي كتب السيرة أنه
صلى الله عليه وسلم كتب إلى كِسْرَى : ” مِنْ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ “
وأنه كتب إلى الْمُقَوِّسِ : ” مِنْ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى الْمُقَوِّسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ “ فعبر
عن كلِّ من الملوك الثلاثة عظيم قومه لمناسبة ذلك لهم .

وبالجملة فالألقاب التي تُكْتَبُ إليهم على ضربين :

الضرب الأول

(الألقاب المدَّكَّرة ، وهي تَمَطَّان)

اللفظ الأول

(المفردة)

وأكثر ما تُبْنَى على صفات الشَّجاعة وما في معناها . وهذه جملة منها مرتبة على
حروف المعجم أيضا ، مَقْفَاةً عليها .

حرف الألف

(الأسد) من الألقاب التي أصطلح عليها بمعنى الشَّجاعة ، وهو في الأصل للحيوان
المفترس ، ثم استعمل في الرجل الشجاع مجازاً لعلاقة ما بينهما من الشَّجاعة .

(الأصيل) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم أيضا، وقد تقدم في الكلام على الألقاب الإسلامية نقلا عن "عرف التعريف" أنه يختص بكل من له ثلاثة آباء في الرياسة، وحينئذ فيكون هنا مختصا بمن له ثلاثة آباء في الملك، على أنهم الآن لا يقفون مع ذلك بل يرعون من له أدنى نسب .

(الأنجالوس) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهي لفظة يونانية معناها الملك واحد الملائكة ، وإنما كتبت إليهم بذلك مضاهاة لاكتب الواردة عنهم ، ولعل الكاتب لم يعلم معنى ذلك ، وكذلك غيرها من الألفاظ التي في معناها .

حرف الباء

(البالوغس) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهي لفظة يونانية أصلها البالي لوغس ، ومعناها «الكلمة القديمة» .

حرف الجيم

(الجليل) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، ومعنى الجليل في اللغة العظيم ، لكن قد استعمل في ألقابهم في المكاتبات لملوكهم . يقال «الملك الجليل» والمراد الجليل بالنسبة إلى ملوك الكفر ، وإلا فالكافر لا يوصف بالعظمة . وكان الأحسن أن لا يكتب به إليهم ، لاسميا وهو أسم من أسمائه تعالى .

حرف الخاء المعجمة

(الخاشع) من الألقاب التي أصطلح عليها لتمدينتهم : كالباپ والبترك . وقد تقدم في الألقاب الإسلامية أنه يكون من ألقاب الصلحاء والصوفية ، وأن معنى الخاشع المتدلل .

(الْخَطِير) من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم ، والخطير في اللغة الكبير الجليلُ القدير ، ومنه قولهم : أمرُّ له خطرٌ أى مقدار كبيرٌ .

حرف الدال المهملة

(الدوقس) بضم الدال وكسر القاف من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم . وقد يقال (الضوقس) بالضاد بدل الدال ، وهي لفظة يونانية أصلها دقستين ، ومعناها المشكور .

حرف الراء المهملة

(الروحاني) من الألقاب التي أصطلح عليها للتدنيين منهم ، وهو بضم الراء نسبة إلى الروح التي بها منأط الحياة للخلوقين ، ومنه نُسب إلى الملائكة والجنُّ روحاني ؛ وبالفتح نسبة إلى الروح بمعنى الرائحة ، والمعنى الأول أقرب إلى مراد الكتاب .

حرف السين

(السَّمِيدَع) من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم . قال الجوهري : وهو بضم السين وقال في "كفاية المتحفظ" بفتحها ، ومعناه السيد ، وكان المراد سيد قومهم وزعيمهم .

حرف الضاد المعجمة

(الضَّرْغَام) من الألقاب التي أصطلح عليها ملوكهم ، وهو من أسماء الأسد ، لُقِّب به ملوكهم لما فيه من معنى الشجاعة .

حرف الغين المعجمة

(الغَضَنَفْرُ) بفتح الغين والضاد المعجمتين وسكون النون وفتح الفاء من أسماء الأسد، أصطلح الكُتَّابُ على تلقيبهم بذلك لما فيه من معنى الشجاعة كالأسد والضُرغام . على أنه قد يُطَلَّقُ في اللغة على الرجل الغليظ كما حكاها الجوهري . ولا بأس باستعمال الألفاظ التي لها كامل بارله في المكتبات إلى الكُفَّار .^(١)

حرف القاف

(القَدِّيسُ) بكسر القاف من الألقاب التي أصطلح عليها لتدبُّرهم من الباب والبَطْرِيَّكُ ونحوهما، وأصله من التقديس وهو التثنية .

حرف الكاف

(الكَرَّارُ) بتشديد الراء من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، والكثرة صيغة مبالغة من الكثر خلاف الفتر . والمراد أنه يرجع في المحاربة على قرنه المترة بعد المترة ولا ينهزم عنه .

(الكيميوس) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، وهو لفظ رومي معناه^(٢)

حرف الميم

(المتبَّئِلُ) من الألقاب التي أصطلح عليها لتدبُّرهم، ومعناه المتقطع عن الدنيا .
(المتخَّخُ) بفتح الخاء المعجمة المشددة من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، والمراد أنه ممن يجلس مثله على تحت الملك لاستحقاقه له .
(المتوَّجُ) بفتح الواو المشددة من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم والمراد أنه ممن يلبس التاج لاستحقاقه له .

(١) كذا في الاصول بالاehl مع اشارة التوقف والمراد الألفاظ التي تحتل التعظيم وغيره .

(٢) بيض له في الاصول وأورده في الضوء ولم يفسره .

(المحتشم) من الألقاب التي أصطلح عليها لتجار الروم والفرنج ، والمراد بالمحتشم هنا الرئيس الذي له حشم وهم خولُه وخَدَمُه . وأصل الحِشْمَة في اللغة الغَضْب ، وسمى خَوْلُ الرجل وخَدَمُه حَشْمًا لأنهم يَغَضَبون له ؛ وبعضهم يُطلق المحتشم على المستحبي وعليه عُرِفَ العامة وهو المراد هنا ، وأنكره ابن قتيبة وغيره حتى قال النحاس إنه لا يُعرَفُ أَحْتَشَمٌ إلا بمعنى غَضِبَ وإن كان الجوهرى قد حكاه .

(المعزز) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم [وهو اسم مفعول من العز] خلاف الذل .

(المجد) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم^(١) وهو مُفَعَّلٌ من المجد . وقد تقدّم الكلام عليه في الألقاب الإسلامية .

حرف الهاء

(الهمام) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وقد تقدّم في الألقاب الإسلامية ان معناه الشجاع .

التمط الثاني

(من الألقاب التي يُكْتَبُ بها لملوك الكفر الألقاب المرّبة)

وهذه جملة منها مرتّبة على حروف المعجم أيضا .

حرف الألف

(آحرمولك اليونان) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهي تصلح لكل ملك ينتسب إلى اليونان أو قام مقامهم في الملك . واليونان أمةٌ معروفة مشهورة ، وكانت مملكتهم أولا في الجانب الشرقى من الخليج القُسْطَنْطِينِي المعروف الآن ببلاد

(١) الزيادة يقتضها الكلام كما لا يخفى على المتأمل .

الروم ثم ملكوا بعدها العراق، وأترك، والهند، وبلاد أرمينية، والشام، ومصر، والإسكندرية. ومنهم أكثر الحكماء والفلاسفة. وكانت دولتهم من أعظم الدول؛ وأختلف في نسبهم: فنقل ابن سعيد عن البيهقي وغيره من المحققين أنهم من ولد أفريقش بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح عليه السلام. والمنقول عن التوراة أن يونان هو ابن يافث لصلبه، وأسمه فيها ياقان بقاء تقرب في اللفظ من الواو فعزبت يونان. وخالف كثير من المؤرخين فنسبوا يونان إلى عابر بن فالغ، فجعله أخا لقحطان جد العرب العاربة، وأنه خرج من اليمن مغاضبا لأخيه قحطان فنزل ما بين الأفرنجة والروم وأختلط نسبه بنسبهم. وقيل: بل اليونان من جملة الروم من ولد صوفر بن العيص، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام.

(أسوة الملوك والسلطين) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، والإسوة بكسر الهمزة وضمها بمعنى القدوة ومنه قولهم: لى فى فلانٍ إسوةً يعنى قُدوةً، وكأنهم جعلوه إسوةً لملوك الكفر يقتدون به وإلا فلا يجوز إطلاق ذلك على الملوك من حيث هم لدخول ملوك الإسلام فيهم.

(العادل فى ملته) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، وقد تقدم معنى العادل والملة فى الكلام على الألقاب الإسلامية.

(العادل فى مملكته) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، وقد تقدم معنى العادل، والمملكة فى الأصل موضعُ الملك ثم أطلقت على الرعية مجازا.

(الريد أرغون) من الألقاب التي أصطلح عليها لبعض ملوكهم ممن يملك البلاد المعروفة بأرغون، وقد ذكر فى "الروض المعطار" بلاد أرغون، وقال: هو أسم بلاد غرسيه بن شايحة، تشتمل على بلاد ومنازل وأعمال، ولم يذكر فى أيّ حيزه

ولا في أيِّ قُطر . وقد رأيت هذا اللقب في ” التعريف “ : للقرن الشهابيِّ بن فضل الله في ألقاب صاحب القسطنطينية وفي ” التثقيف “ لابن ناظر الجيش ، في ألقاب الأذفونش صاحب طليطلة من الأندلس ، ويحتاج إلى تحقيق من يملك هذه الطائفة منهما فيكتب به إليه . والرَّيد في لغتهم بمعنى الملك كما تقدّم في الكلام على ريد أفونس في ألقاب الملوك .

(المنصّف لرعيته) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، والرعيّة من يسوسه الملك ، سُموا بذلك تشبيها لهم بالعمّ وله بالراعي .

(أوحدُ الملوك العيسويّة) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، ويصلح للملكانيّة واليعقوبية جميعا : لأنه لم يقيد بمذهب من مذاهب النصاري .

(أوحد ملوك اليعقوبية) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوك الحبشة : لأن ملكها من طائفة اليعقوبية .

حرف الباء

(بطلُ النصرانية) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهو صالح لكل واحد منهم ، ومعنى البطل في اللغة الشجاع ، سُمي بذلك لأنه يُبطل حركة قرنه .

(بقية أبناء التُّخوت والتَّيجان) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهي تصُح لكلِّ منهم أيضا من الملكانية واليعاقبة جميعا .

(بقية الملوك الأغرّيقية) من الألقاب التي أصطلح عليها لبعض الملوك من بقايا طائفة الأغرّيقية من اليونان ، وهم طائفة من اليونان تنسب إلى أغريقش بن يونان المقدم ذكره ، وهم اليونان الأول . وقد ذكره في ” التعريف “ في ألقاب ملك الكرج ، ولعله أطلع على أنه من بقايا هذه الطائفة ، وهو مما يحتاج إلى تحرير .

(بِقِيَّةِ سَلَفِ قَيْصَرَ) من الألقاب التي أصطلح عليها لبعض ملوكهم من أنتسب إلى القياصرة ملوك الروم أو قام مقامهم . وقَيْصَرُ اسمٌ قديم لكل من ملك الروم ، وأصل هذه اللفظة في اللغة الرومية جاشريجيم وشين معجمة فعربت قَيْصَرَ ، ولها عندهم معنيان : أحدهما الشيء المشقوق عنه ، والثاني الشَّعَر . وأختلف في أول من لُقِّب بذلك منهم فقيل : أغانيوش قَيْصَرَ ، أول الطبقة الثانية من ملوك الروم : ماتت أمه وهو حمل فشقَّ بطنها وأخرج فسَمَّى بذلك لما فيه من الشق عليه ، وقيل يوليوش قَيْصَرَ ، وهو الذي ملك بعد أغانيوش المقدم ذكره ، وقيل أغشطش قَيْصَرَ وهو الذي وُلِدَ المسيحُ عليه السلام في زمانه ، فقد قيل إنه الذي ماتت أمه وهو حمل فشقَّ جوفها وأُخرج فسَمَّى بذلك ، وقيل لأنه وُلِدَ له شَعْرٌ تامٌ فسَمَّى قَيْصَرَ لوجود الشعر فيه حينئذ .

حرف الجيم

(جامع البلاد الساحلية) من الألقاب التي تصلح لكل ملك [مملكة] متسعة على ساحل البحر كصاحب القسطنطينية ونحوه .

حرف الحاء المهملة

(حافظ البلاد الجنوبية) من الألقاب التي أصطلح عليها لملك الحبشة من النصارى . على أنه يصلح لغيره من ملوك السودان أيضا ممن أخذ في الجنوب من المسلمين وغيرهم .

(حامل راية المسيحية) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم ، وهي تصلح لكل ملك كبير من ملوك النصارى ، والمراد بالمسيحية الملة المسيحية ، فحذف

الموصوف وأقيمت الصفة مقامه ، يريدون ملة المسيح وهو عيسى عليه السلام .
وأخْتَفِ في [سبب] تسميته بالمسيح : فقيل لأنه كان ممسوح القدمين بمعنى أنه لاأخمس
له . وقيل لأنه مسح الأرض بالسيّاحة ، وقيل غير ذلك . أما تسمية الدّجال بالمسيح
فلأنه ممسوح العين لأنه أعور . وقيل لأنه يمسح الأرض بالسير فيها .

(حامي البحار والخُلجان) من الألقاب التي تصلح لكل من مملكته منهم على
البحر ، والبحار جمع بحر ، وأصله في اللغة الشَّق ، ومنه سميت البحيرة المذكورة
في القرآن : وهي الناقة التي تُسَّق أذنّها فترسل فلا تعارض ، والخُلجان جمع خَلِج
وهو الجدول الصغير ، والمراد ما يتشعب من البحر تخليج القُسطنطينية وجون
البنّادقة ونحوهما .

(حامي حماة بني الأصفر) من الألقاب التي تصلح لملوك الروم والفرنج بالممالك
العظام : كصاحب القُسطنطينية وغيره ، والمراد ببني الأصفر الروم فإنهم من ولد
صوفر بن العيص ، بن إسحاق ، بن إبراهيم عليه السلام ، والمؤرخون يعبرون عن
صوفر بالأصفر . وإنما خصّه بحماية الحماة تفخيماً له فإنه إذا حمى الحماة كان بحماية
غيرهم أجدر .

حرف الخاء المعجمة

(خالصة الأصدقاء) من الألقاب التي أصطلح عليها للموكهم ، والمراد بالخالصة
هنا من ليس في صداقته شائبة .

(خلاصة ملوك السريان) من الألقاب التي تصلح لكل من يُنسب إلى بقايا
السريانيين من الملوك . والسريان أقدم الأمم في الخليفة ، وكانوا يدينون بدين
الصائبة ، ويتسبون إلى صابئ بن إدريس عليه السلام . قال ابن حزم : ودينهم

أقدم الأديان على وجه الأرض، ومدار مذاهبهم على تعظيم الروحانيات والكواكب، وكانت منازلهم أرض بابل من العراق . قال المسعودي : وهم أول ملوك الأرض بعد الطوفان .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْرُ مَلُوكِ الْبِحَارِ وَالْخُلُجِ) من الألقاب التي تصلح لكل ملك منهم على ساحل البحر، وقد تقدم معنى الذُخْرِ وَالْبِحَارِ، وَالْخُلُجُ هِيَ الْخُلُجَانُ؛ وقد تقدم معناها .

(ذُخْرُ الْأُمَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ) من الألقاب التي تصلح لجميع ملوك النصرانية من المَلِكَانِيَّةِ وَالْيَعَاقِبِيَّةِ، وقد تقدم معنى الذُخْرِ وَالْأُمَّةِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْأَلْقَابِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

حرف الراء المهملة

(رَضِيَ الْبَابُ بَابًا رُومِيَّةً) يجوز أن يكون بفتح الراء وكسر الضاد بمعنى مَرْضَى الْبَابِ، ويجوز أن يكون بكسر الراء وفتح الضاد بمعنى أنه يُجْعَلُ نَفْسَ رِضَا الْبَابِ وَهُوَ أْبْلَغُ . وهو من الألقاب التي أصطلح عليها للملوكهم؛ وقد تقدم في الألقاب الأصول معنى 'الْبَابَا، وَرُومِيَّةٌ أَسْمٌ لِرُومِيَّةِ الْبَابِ مَقِيمٌ، إضافة إليها لإقامته بها، وقد مرّ القول عليها في الكلام على المسالك وأمالك في المقالة الثانية؛ وتأتي الإشارة إليها في الكلام على مكتبة الباب في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

(رُكْنُ الْأُمَّةِ الْعَيْسَوِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لكبار ملوكهم كملك الحبشة ونحوه، ويصلح لللكانيَّةِ وَالْيَعَاقِبِيَّةِ جميعا .

حرف الشين المعجمة

(شَيْبُهُ مَرِيحًا مَعْمَدَانِ) من الألقاب التي تصلح ل كبار ملوكهم، ومرِيحًا بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحت وبعدها حاء مهملة ونون . ومعنى مَرِيحًا السيد ، وَيُحَيُّ بفتحهم يحيى ، والمراد شَيْبُهُ السيد يحيى ، والمعْمَدَانُ بيمين مفتوحتين بينهما عين مهملة صفة عندهم ليحيى فهم يزعمون أن مريم عليها السلام نرجت بعيسى عليه السلام من الشام إلى مصر وعادت به إلى الشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة ، فلقاه يحيى عليه السلام وهو ابن خالته ، فغمسه في نهر الأردن ، وهو عندهم أصل ماء المعمودية الذي لا يصح عندهم تنصُرُ نصراني إلا به فأطلقوا على يحيى عليه السلام المعْمَدَانِ لمعنى ذلك ، وكأنه شبهه به من حيث إنه أصل المعمودية بزعمهم .

حرف الصاد المهملة

(صَدِيقُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ) من الألقاب التي أصطلح عليها للملوكهم ، والمراد أن فيه صداقةً وودًا للملوك الإسلام وسلاطينهم .

حرف الضاد المعجمة

(ضَابِطُ الْمَمَالِكِ الرُّومِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية ، وهو نظير حافظ البلاد الجنوبية لملك الحبشة .

حرف الظاء المعجمة

(ظَهِيرُ الْبَابِ بَابًا رُومِيَّةً) من الألقاب التي أصطلح عليها للملوكهم ، وقد تقدم معنى الباب والبابا .

حرف العين المهملة

(عِزُّ الْمَلَّةِ النَّصْرَانِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لأكابر ملوكهم .

(عمادُ بني المعمودية) من الألقاب التي أصطلح عليها لكبار ملوكهم، والعماد في اللغة الأبنية الرفيعة، يذكَرُ وَيُؤْتَى . وقد مرَّ بيانُ معنى المعمودية في حرف الشين .

حرف الفاء

(فَارِسُ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) يصلح لمن يكون مجاوراً للبر والبحر من الملوك كأصحاب الجزائر، وقد يصلح لغيرهم أيضا .

(فَخْرُ الْمَلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ) من الألقاب التي أصطلح عليها لملوكهم، وتصلح للإلكانية واليعاقبة منهم .

حرف الميم

(مُتَّبِعِ الْخَوَارِيِّينَ وَالْأَخْبَارِ الرَّبَّانِيِّينَ وَالْبَطَارِكَةِ الْقِدِّيسِينَ) من ألقاب عظام ملوكهم ، والمراد بالخواريين أصحاب عيسى عليه السلام الذين بعثهم إلى أقطار الأرض للبشارة به وللدعاية إلى الله تعالى ، وعنهم أخبر تعالى بقوله : ﴿ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾ وهم اثنا عشر نفساً أسماؤهم يونانية .

أحدهم — بَطْرُس ، ويقال له سَمْعُون الصَّفَا ، وهو الذي بَشَّرَ بِالْقُدْسِ وَأَنْطَاكِيَّةَ وَمَا حَوْلَهَا .

والثاني — أَنْدَرَاوَس . وهو الذي بَشَّرَ بِلَادِ الْحَبَشَةِ وَالسُّودَانَ .

(١)

والثالث — يَعْقُوبُ بْنُ زَيْرِي . وهو الذي بَشَّرَ بِمَدِينَةِ

- والرابع — يوحنا الإنجيلي . وهو الذي بشر ببلاد أفسس وما معها .
 والخامس — فيلبس . ولم أقف على موضع بشارته .
 والسادس — برثلؤما . وهو الذي بشر في الواحات والبربر .
 والسابع — توما ويعرف بتوما الرسول . وهو الذي بشر في السند والهند .
 والثامن — متى . وهو الذي بشر بأرض فلسطين ، وصُور ، وصيدا ،
 ومصر ، وقرطاجنة من بلاد المغرب .
 والتاسع — يعقوب بن حلفا . وهو ممن بشر ببلاد الهند أيضا .
 والعاشر — سمعان ويقال شععون الصفا . وهو الذي بشر بشمشاط وحلب
 ومنبج وبنطية : وهي القسطنطينية .
 والحادي عشر — بولس ويقال له تداوس ، وهو الذي بشر بدمشق وبالقدس
 أيضا وبلاد الروم والجزائر ورومية .
 والثاني عشر — يهوذا الأنطيوخوطي : وهو الذي خرج عن طاعة المسيح ودلَّ
 عليه اليهود ليقتلوه فالقن الله تعالى شبه المسيح عليه فأمسكه اليهود وقتلوه وصلبوه
 ورفع الله تعالى المسيح إليه ، وليس هذا من المراد بالحواريين هنا : لأنه قد خرج عن
 دائرتهم . فلفظ الحواريين مأخوذ من الحور وهو شدة البياض ، سموا بذلك لصفائهم
 وتفانيهم في اتباع المسيح عن الدخول ، وقيل لأنهم كانوا في الأول قصارين يديسون
 الثياب .
 والأخبار جمع حبر . بفتح الحاء وكسرها وهو العالم .
 والربانيون جمع رباني وقد تقدم معناه في الألقاب الإسلامية .
 والبطاركة جمع بطرك وقد تقدم الكلام عليه في الألقاب الأصول وأن أصله
 بطريرك ، وأنه يقال فيه فطرك بالفاء بدل الباء ، وكان لهم خمسة كراسي : كراسي برومية ،

وهو الذى قعد فيه الباب، وكرسى الإسكندرية: وهو الذى استقر لبطرك يعقوبية الآن، وكرسى بيزنطية وهى القسطنطينية، وكرسى أنطاكية وكان فيه بطرك النسطورية، وكرسى بالقدس وهو أصغرهما عندهم .

(محيي طرق الفلاسفة والحكماء) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية لأن مملكته منبع حكمة اليونان وفلاسفتهم . والفلاسفة جمع فيلسوف بكسر الفاء وهى لفظ يونانى مركب من مضاف ومضاف إليه، معناه محب الحكمة، فلفظ فيل بمعنى محب، وسوف بمعنى الحكمة، وهم يطلقون الفلسفة على من يحيط بالعلوم الرياضية . وهى : الهيئة والهندسة والحساب واللحون وغيرها . والحكماء جمع حكيم، وهو من يحسن دقائق الصناعات ويبتقنها أو من يتعاطى الحكمة، وهى معرفة أفضل الأشياء وأفضل العلوم، وأول ما صارت الحكمة فيهم فى زمن بختنصر، ثم أشتهرت فيهم بعد ذلك، ولذلك عبر بالفلاسفة القدماء إشارة إلى أول زمن الحكماء .

(محوّل الثخوت والتيجان) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية لعظم مملكته فى القديم والحديث، والمحوّل المملك، والثخوت جمع تخت وهو كرسى الملك الذى يجلس عليه الملك فى مجلسه العام، والتيجان جمع تاج وهو الذى يوضع على رأس الملك إذا جلس على تخته، والمعنى أنه يعطى الملوك الممالك من تحت يده لسعة مملكته وعظمتها، وقد كانت القسطنطينية قبل غلبة الفرنج وقوة شوكتهم ملوكا عظيما .

(مسيح الأبطال المسيحية) من الألقاب التى أصطلح عليها لأكابر ملوكهم كصاحب القسطنطينية . أضاف المسيح إلى الأبطال ثم وصفها به جمعا له بين رتبتي الشجاعة والتدين بدينه .

(مُصَافِي الْمُسْلِمِينَ) من الألقاب التي أصطَلِحَ عليها ملوكهم، والمُصَافِي مفاعل من الصَّفَاءِ، والمراد أنه صافى النيةَ للمسلمين والمسلمون صافوا النيةَ له .

(مُعِزَّ النَّصْرَانِيَّةِ) من الألقاب التي أصطَلِحَ عليها لأكابر ملوكهم، والمراد بالنصرانية ملة النصرانية، حذف الموصوفَ وأقام الصفةَ مقامه، والنصرانيةُ في الأصل منسوبة إلى الناصرة وهي القريةُ التي نزلها المسيح وأمه عليهما السلام من بلاد القُدُس عند عودهما إلى مصر، وقيل مأخوذة من قوله تعالى حكايةً عن عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ .

(معظَّم البيت المقدس) من الألقاب التي أصطَلِحَ عليها الملوكهم، وربما زيدَ فيها فقيل «معظَّم البيت المقدس بعقد النية» لموافقة الروى في السَّجعة التي تقارنها، ويصلح لكل ملك من ملوكهم لأن جميعهم يعتقدون تعظيم البيت المقدس، والبيت المقدس معروف، والتقديس التزويه والتطهير .

(معظَّم كنيسة صهيون) من الألقاب المختصة بملك الحبشة لأنه يعقوبى، وكنيسة صهيون بالإسكندرية: وهي كنيسة بطرك اليعاقبة الآن، ومعتقدهم أنه لا يصح ولاية ملك منهم إلا باتصال من هذا البطرِك، على أنه في ابتداء البطرِكية في زمن الخواريين لم يكن بكرسى الإسكندرية أحدٌ من الخواريين، إنما كان بها مرقصُ الإنجيلي تلميذ بطرس الخوارى صاحب كرسى رومية، والنصارى يؤمنون على طريقة واحدة قبل ظهور الملكية واليعقوبية، فلما افترق دينُ النصرانية إلى الملكانية واليعاقبة وغيرهم، كانت بطركية الإسكندرية يتداولها الملكية واليعقوبية تارة وتارة بحسب انتقال الملوك والميل إلى كلٍّ من المذاهب، ثم استقرت أخيراً في بطرك اليعاقبة إلى زماننا، وتبعه ملوك الحبشة لأنحلهم مذهب اليعاقبة، كما تبع الروم والفرنجية الباب

برومية : لانتحالم مذهب المَلِكَانِيَّة ، وسيأتى الكلام على طَرَف من ذلك فى الكلام على مكاتبة ملك الحبشة إن شاء الله تعالى .

(مَلِكُ مُلُوكِ السُّرِيَان) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية لعظّمته عندهم ، وقد تقدّم ذكر السُّرِيَان فيما قبل .

(مُؤَادُ الْمُسْلِمِينَ) من الألقاب التى أصطلح عليها للملوكهم ، وهو بتشديد الدال أخذًا من المَوَدَّة .

(مُؤَيِّدُ الْمَسِيحِيَّةِ) من الألقاب التى أصطلح عليها للملوكهم ، والمُؤَيِّدُ المَمْوَى ، والمراد بالمسيحية الملة المسيحية كما تقدم بيانه ، وربما قيل «مُؤَيِّدُ الْعَيْسَوِيَّةِ» : والأمر فيهما كذلك .

حرف النون

(نَاصِرُ الْمِلَّةِ الْمَسِيحِيَّةِ) من الألقاب التى أصطلح عليها لأكابر ملوتهم ، وقد تقدّم معنى هذه الألقاب فى مواضعها .

حرف الواو

(وَارِثُ التَّيْجَانِ) من الألقاب التى أصطلح عليها للملوكهم . وقد تقدّم معنى التَّيْجَانِ ، والمراد أنه أنتقل إليه الملك وراثته من آباءه .

(وَارِثُ آبَائِهِ فِي الْأَسْرَةِ وَالتَّيْجَانِ) من الألقاب التى أصطلح عليها لمن يكون عريقًا فى الملك ، وهو قريب من اللَّقَبِ الذى قبله .

(وَارِثُ الْقِيَاصِرَةِ الْعُظْمَاءِ) من الألقاب التى أصطلح عليها لصاحب القسطنطينية التى هى قاعدة القِيَاصِرَةِ ، وقد تقدّم أوّل مَنْ سُمِّيَ قِيَصِرًا فيما سلف من الألقاب .

الضرب الثاني

(من ألقاب أهل الكفر الألقاب المؤنثة: بأن يكون اللقب الأصل مؤنثاً

فتبعه الألقاب الفروع في التأنيث. ولها حالتان)

الحالة الأولى — أن يكون اللقب الأصل لمؤنث غير حقيق كالْحَضْرَة مَثَلًا ، فترد ألقابه مؤنثة ، وفي الغالب إنما يقع التأنيث في اللقب الأول ثم ينتقل إلى الألقاب المذكورة ، مثل أن يقال : « الحَضْرَة العالِيَة أو السامِيَة أو العالِيَة ، حَضْرَة الملك الجليل » ويؤتى بما يناسبه من الألقاب بعد ذلك ، وربما أتى للحَضْرَة بلقبين فأكثر طلباً للتفخيم ، ثم يعدل إلى الألقاب المذكورة ، مثل « الحَضْرَة العالِيَة المَكْرَمَة » ثم يقال « حَضْرَة الملك الجليل » وما أشبه ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون اللقب الأصل لمؤنث حقيقاً بأن يكون لأمراة كما إذا كانت ملكة في بعض ممالكهم ، على قاعدة الأعاجم في إسناد الملوك إلى بنات الملوك ، فيؤتى بألقابها المفردة والمركبة مؤنثة ، فيكتب مثلاً « المَلِكَة الجَلِيلَة المَكْرَمَة المَبْجَلَة الموقرة المفخمة المعززة فلانة العادلة في مملكتها ، كبيرة دين النصرانية ، نصرته الأمة العيسوية ، حامية الثغور ، صديقة الملوك والسلاطين » وما أشبه ذلك ، ومعاني هذه الألقاب معلومة مما تقدم .

قلت : قد أتيت من ألقاب أهل الإسلام وألقاب أهل الكفر : المفردة والمركبة على ما تضمنه "التعريف بالمصطلح الشريف" للمقر الشهابي بن فضل الله ، و"عرف التعريف" في الإخوانيات له ، و"تنقيح التعريف" للقاضي تقي الدين ابن ناظر الجيش لإماشرد عنه القلم ، مع ما ضمته إلى ذلك مما وجدته في غيرها من

الديساتير المجموعة في السلطانيات والإخوانيات المصرية والشامية جارياً على عُرفهم مما آستعمله أهل الزمان ومن قاربه ، والكاتب الماهر إذا فهم أصلها وعرف طرقها ، آخترع ماشاء من الألقاب والنعوت ؛ والضابط في وضع الألقاب أن يراعى فيها أحوال المكتوب له ، فيؤتى منها بما يناسب حاله في الوظيفة والرياسة وسائر أوصاف المدح اللاتقة به ؛ فيؤتى لصاحب السيف بالألقاب المقتضية للشجاعة والبسالة : مثل المجاهدى والمثاغرى والمرابطى وما أشبه ذلك . وربما أضيف له بعض الألقاب المقتضية للعلم والصلاح ، كالعالمى والعاملى ونحو ذلك ، لأشتراك الناس في المدح بمثل ذلك . ويؤتى للعالم والقاضى ونحوهما بالألقاب المقتضية للعلم كالعالمى والمحققى والمدققى ونحو ذلك . وربما أضيف إليها الألقاب المقتضية للصلاح لتمدح العلماء به . ويؤتى للصوفية وأهل الصلاح بالألقاب المقتضية للصلاح والتعبد كالعابدى والزاهدى ونحوهما . ويؤتى لكُتاب الإنشاء بالألقاب المقتضية للبلاغة كالبلغى والمفوهى ونحوهما . ويؤتى للنساء بالألقاب المقتضية للصيانة والعفة كالمصونة والمحجبة وما أشبههما . ويؤتى لأهل الكُفر من الملوك ونحوهم بما لآحرج فيه على الكاتب : كالشجاعة وما في معناها ، والتقدم على ملوك طائفته وأهل ملته وما في معنى ذلك . فإن آجتمع في شخص واحد أوصاف متعددة من المآدح جُمعت له . على أن أكثر ما يستعمله الكُتاب من الألقاب غير موجودة في صاحبها ، وإنما هى ألقاب حَفَظُوهَا لرتب معينة لا يسعهم الإخلال بشئ منها وإن كانت كذبا محضا و﴿ إِنَّا لِلّٰهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ . وقد كان في القديم قاعدة مستقرّة : وهو أنه لا يلقّب أحد بلقب ولا يُكنى بكنية إلا أن يكون الخليفة هو الذى يلقّب بذلك أو يكنى .

الجملة السابعة

(في تفاوتِ الألقابِ في المراتبِ ، وهى قسمان)

القسم الأول

(ما يقع التفاوتُ فيه بالصُّعودِ والهُبوطِ ، وهو نوعان)

النوع الأول

(ما يقع التفاوتُ فيه بحسبِ القِلَّةِ والكثرةِ ، وله حالتان)

الحالة الأولى — أن يكون المكتوبُ إليه من أتباع المكتوبِ عنه ، كقُوابِ السلطنة فيما يُكتَبُ عن الأبوابِ السلطانية من مكاتباتِ وولایاتِ ، فزيادةُ الألقابِ وكثرتها في هذه الحالة علُوٌّ وشرفٌ في حقِّ المكتوبِ إليه ، لأنها من باب المدح والإطراء ، ولا شك أن كثرة المدح من المتبوع للتابع أعلى من قِلَّتِهِ ، ولذلك تقع الإطالةُ في ألقابِ كبارِ القُوابِ والاختصارُ في صغارهم ، وتأتى في غاية الاختصار في نحو ولاةِ النواحي ومن في معناهم .

الحالة الثانية — أن يكون المكتوبُ له أجنبياً عن المكتوبِ عنه ، كالمملوكِ الذين تُكتَبُ إليهم المكاتباتُ عن السلطانِ ، فقِلَّةُ الألقابِ في حقِّه أرفعُ لأن الإكثارَ من ذلك يُرى أنه من باب الملقِّ المذمومِ بين الأَكابرِ في المكاتباتِ فوجب تجنبه كما يجب تجنب المدح وكثرة الداء ، ولذلك يقع الاختصارُ في الألقابِ فيما يُكتَبُ لهم عن السلطانِ إجلالاً لقدرهم عن رتبةِ رعاياه الذين يُكثَرُ من ألقابهم .

النوع الثاني

(ما يقع فيه التفاوت في العلوّ والهبوط بحسب ما يقتضيه جوهر اللفظ
أو ما وقع الأصلاح عليه . وهو صنفان)

الصنف الأول

(الألقاب المفردة . وهي على أربعة أنماط)

النمط الأول

(التوابع)

وهي التي تلي الألقاب الأصول كالتي تلي المقام والمقرّ والجناب والمجلس ؛ فيلي
المقام لفظ الأشرف ولفظ الشريف ولفظ العالی ، فالمقام يقال فيه « المقام
الأشرف العالی » و « المقام الشريف العالی » و « المقام العالی » . ويلى المقرّ
لفظ الأشرف ولفظ الشريف ولفظ الكريم ولفظ العالی ، فيقال « المقرّ الأشرف
العالی » و « المقرّ الشريف العالی » و « المقرّ الكريم العالی » و « المقرّ العالی » .
ويلى الجناب لفظ الكريم ولفظ العالی ، فيقال « الجناب الكريم العالی »
و « الجناب العالی » . ويلى المجلس لفظ العالی والسامی ، فيقال « المجلس العالی »
و « المجلس السامی » . والألفاظ التي تتبع وهي الأشرف والشريف والكريم
والعالی والسامی بعضها أرفع من بعض على الترتيب . فالأشرف أرفع من الشريف ،
لأن أشرف أفضل تفضيل يقتضى الترجيح على غيره كما هو مقرر في علم النحو ؛
والشريف أرفع رتبة من الكريم لما تقدم عن ابن السكيت أن الكرم يكون في الرجل
وإن لم يكن له آباء شرفاء ، والشرف لا يكون إلا لمن له آباء شرفاء . ومقتضى ذلك
ترجيح الشريف على الكريم لاقتضائه الفضل في نفس الشخص وفي آبائه ، بخلاف

الكَرْمُ ؛ ولذلك آختر الشرف لأبناء فاطمة رضى الله عنها دُونَ الكَرَمِ . والكَرِيمُ أرفع رتبةً من العالى ، لأن الكَرِيمَ يَحْتَمِلُ أن يكون من الكَرَمِ الذى هو خلاف اللؤم ويحتمل أن يكون من الكَرَمِ الذى هو خلاف البُخل وكلاهما مقطوعٌ بأنه صفةٌ مَدْحٌ ، وإن الأقرب إلى مُراد الكُتَّابِ المعنى الأول . والعالى يحتمل أن يكون مِنْ عَلِيٍّ بكسر اللام يعلى بفتحها علاءً بفتح العين والمد إذا شُرِفَ ؛ ويحتمل أن يكون من عَلَا يَعْلُو عَلُوًا إذا أرتفع فى المَكَانِ ، وليس العُلُوُّ فى المَكَانِ مما يدلُّ على صفة المَدْحِ إلا أن يُسْتَعَارَ للارتفاع فى الشرف فيكون صفةً مَدْحٍ حينئذٍ على سبيل المَجَازِ وإن كان مراد الكُتَّابِ هو المعنى الأول ؛ وما كان مقطوعاً فيه بالمدح من الجانبينِ أعلى مما يكون مقطوعاً فيه بالمدح من جانبٍ دُونَ جانبٍ . وقد أَصْطَلَحُوا على أن جعلوا العالىَ أرفعَ رتبةً من السامى ، وهو مما أُتْرِكَ على واضعه ، إذ لا فرق بينهما من حيثُ المعنى ، لأن السَمُوَ بمعنى العُلُوِّ . والذى يظهر أن الواضعَ لم يَجْهَلْ ذلك ولعله إنما جعل العالىَ أرفعَ رتبةً من السامى وإن كان بمعناه لأن العالىَ لَفْظٌ واضحُ المعنى يفهمُه الخاصُّ والعامُّ ، فيكون المدحُ به أعمُّ باعتبار مَنْ يفهمُه ، بخلاف السامى فإنه لا يفهمُ معنى العلوِّ منه إلا الخاصةُ ، فيكون المدحُ به أخصُّ لاقتصارِ الخاصةِ على معرفته دُونَ العامةِ .

الفصل الثانى

(ما يقع التفاوتُ فيه بحسبِ حُقوقِ بَاءِ النسبِ وتجرُّدهِ منها)

قد تقدم أن الألقابَ المفردةَ منها ما تلحقُ به بَاءُ النسبِ ومنها ما يتجرَّدُ عنها ، وأن الذى تلحقُه بَاءُ النسبِ منها ما هو منسوبٌ إلى شىءٍ خارجٍ عن صاحبِ اللقبِ كالقضائى فإنه منسوبٌ إلى القضاء الذى هو نفسُ الوظيفةِ ، فيكون النسبُ

فيه على بابه ، ومنه ما هو منسوبٌ إلى صاحب اللقب نفسه كالأَميرِيّ فإنه نسبةٌ إلى الأمير وهو عينُ صاحبِ اللقب فدخلت فيه ياءُ النسبِ للمبالغة ، كما في قولهم لشديد الحمرة أحمريّ على ما تقدّم بيانه .

وبالجملة فقد أصطلحوا على أن يكون ما لحقت به ياءُ النسبِ أرفعَ رتبةً مما تجرد عنها ، سواء كان منسوباً إلى نفس صاحب اللقب أو غيره ، فيجعلون الأَميرِيّ أعلى رتبةً من الأمير ، والقَضَائِيّ أرفعَ رتبةً من القاضي ؛ ثم يجعلون المنسوبَ إلى نفس صاحب اللقب أرفعَ رتبةً من المنسوبِ إلى شيءٍ خارجٍ عنه ؛ ومن أجل ذلك جعلوا القاضِيّ أرفعَ رتبةً من القَضَائِيّ . أما كون ما لحقت به ياءُ النسبِ أرفعَ رتبةً من المجرد عنها فظاهرٌ : لأن المبالغة تقتضى الرفعةَ ضرورةً ؛ وأما كونُ المنسوبِ إلى شيءٍ آخر غير المنسوبِ إليه يقتضى الرفعةَ وإن لم يكن فيه مبالغةٌ ، فللاحاق بما فيه المبالغةُ استطراداً ، لئلا يلتبس الحال في النسبتين على الضعيف الفهم فلا يفرق بين ما هو منسوبٌ إلى هذا وبين ما هو منسوبٌ إلى ذلك . على أنهم لم يَقِفُوا مع الحكم في كون ما دخلت عليه ياءُ النسبِ أرفعَ مما لم تدخل عليه فقد استعملوا الأجلَّ ونحوه في الألقاب السلطانية التي هي أعلى الألقاب ، فقالوا «السلطانُ الأجلُّ العالمُ العادلُ» إلى آخر ألقابه المفردة من غير إلحاق ياء النسب بها ؛ ثم استعملوا مثل ذلك في ألقاب السامِيّ بغير ياء فما دونه مما هو أدنى الألقاب رتبةً . وكأنهم اكتفوا بمكانة السلطان من الرفعة عن المبالغة في ألقابه بإلحاق ياء النسب ، من حيث إن المعروف لا يحتاج إلى تعريف .

(١) أى التي للمبالغة كما يفيد التحليل بعد .

النمط الثالث

(ما يقع التفاوت فيه بصيغة مبالغة غير باء النسب)

فيكون أرفع رتبةً لمعنى المبالغة كما في الكفيل فإنه أرفع رتبةً من الكافلي ، لأن صيغة فعيل أبلغ في المعنى من صيغة فاعل من حيث إن فعيلًا لا يصاغ إلا من فعل بضم العين إذا صار ذلك الفعل له سجيّة ، كما يقال كرم فهو كريم وعظم فهو عظيم وحلم فهو حلیم ، بخلاف فاعل ، ومن أجل ذلك كان لفظ فقيه أبلغ من لفظ فاقه لأن فاقه يُصاغ من فقه بكسر القاف إذا فهم ، ومن فقه بفتحها إذا سبق غيره إلى الفهم . وفقه إنما يُصاغ من فقه بضمها إذا صار الفقه له سجيّة كما مرّ القول عليه في الكلام على الفقيه والفقهيّ في الألقاب الإسلامية المفردة .

النمط الرابع

(ما يقع فيه التفاوت بحسب ما في ذلك اللقب من اقتضاء

التشريف لعلو متعلّقه ورفعته)

كالمهديّ والمشيديّ ، فإن المراد ممهد الدول ومشيّد الممالك على مامرّة في الألقاب المركبة ؛ فإن من ينتهى في الرتبة إلى تمهيد الدول وتشيّد الممالك فلا نزاع في أنه من علو الرتبة بالمكان الأرفع ، وكذلك ما يجرى هذا الجرى كالمديريّ بالنسبة إلى الوزراء ومن في معناهم ، والحقّق بالنسبة إلى العلماء ، والأصليّ بالنسبة إلى العريق في كرم الأصل ونحو ذلك .

الصف الثاني

(الألقاب المركبة، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يترتب بعضه على بعض لقباً بعد لقب، وله اعتباران)

الاعتبار الأول

(أن يشترك في رعاية الترتيب أرباب السيوف والأقلام وغيرهم،

وهو على ثلاثة أنماط)

النمط الأول

(ما يضاف إلى الإسلام، وله ثلاثة أحوال)

الحال الأول - أن يكون ذلك في ألقاب أرباب السيوف . وقد أصطلح المقر الشهابي بن فضل الله على أن جعل أعلاها ركن الإسلام والمسلمين فذكر ذلك في المكتبة إلى النائب الكافل، ومكاتبته يومئذ بالجناب الكريم؛ ثم أبدل الكُتاب ذلك بعده بمعز الإسلام والمسلمين، وجعلوه مع المكتبة إليه بالمقر الكريم على ما استقر عليه الحال آخر في المكتبة إلى النائب الكافل ونائب الشام؛ وجعلوا دون ذلك عن الإسلام والمسلمين فأوردوه مع الجناب الكريم والجناب العالي على ما استقر عليه مصطلحهم في السلطانيات . وجعل في "عرف التعريف" في الإخوانيات عن الإسلام والمسلمين أعلى الألقاب فأورده في ألقاب المقر الشريف، ثم طرده فيما بعد ذلك من المقر الكريم والمقر العالي ولم يعده إلى ما بعد؛

ثم جعل دُونَهُ مجد الإسلام والمسلمين ، فأورده مع المجلس العالى مُطلقاً مع الدعاء وصَدَرَتْ ؛ ثم جعل دُونََ ذلك مجد الإسلام فقط من غير عطف المسلمين عليه ، فأورده في المجلس السامى بالياء والسامى بغير ياء ، ولم يَعدْهُ إلى مجلس الأمير بل أعاضه بمجد الأمراء على ما سيأتى ذكره ، وتابعه على ذلك في التنقيف .

الحال الثانى - أن يكون ذلك في ألقاب الوزراء من أرباب الأقاليم ومن في معناتهم ككاتب السر ، وناظر الجيش ، وناظر الخاص فمن دُونَهُم من الكُتَّاب . وقد ذكر المقتّر الشهابى بن فضل الله في بعض دساتيره السامية أن أعلاها لهم ركن الإسلام والمسلمين ، وجعل في "عرف التعريف" أعلاها للوزراء صلاح الإسلام والمسلمين ، ولمن في معنى الوزراء عز الإسلام والمسلمين ، اوجلال الإسلام والمسلمين وأورد ذلك مع المَقْتَر الشريف وما بعده : من المَقْتَر الكريم ، والمقتّر العالى ، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، وجعل دُونََ ذلك مجد الإسلام مجرداً عن عطف المسلمين عليه ، وأورده مع المجلس العالى ، والمجلس السامى .

أما تخصيص صلاح الإسلام والمسلمين بالوزراء ، وعز الإسلام والمسلمين ووجلال الإسلام والمسلمين بمن في معناتهم فلا أن الصلاح فيه معنى السداد والقصد ، والعز والجلال فيهما معنى العظمة والهيبه ، ولا شك أن وظيفة الوزارة التي منأطها تدير المُلْك بالصلاح أجدر ؛ على أنه اذا حصل الصلاح تبعته العظمة والهيبه ضرورة . وأما كون جلال الإسلام والمسلمين أعلى من مجد الإسلام ، فلا أمرين أحدهما أن الجلال بمعنى العظمة والمجد بمعنى الشرف والعظمة أبلغ من الشرف لما في العظمة من نفاذ الكلمة . والثانى أن الإضافة في جلال الإسلام والمسلمين في المعنى إلى شيتين وفي مجد الإسلام إلى أحدهما .

الحال الثالث - أن يكون في ألقاب القضاة والعلماء ، وقد جعل في "عُرف التعريف" أعلاها حُجَّة الإسلام أوضياء الإسلام، فأوردهما مع الجناب الشريف الذى هو عنده أعلى الرُتب لهذه الطائفة ، وجعل دُونَ ذلك بهاء الإسلام فأورده مع الجناب الكريم ، وجعل دُونَهُ مجد الإسلام فأورده مع المجلس العالى والسامى بالياء وبغير ياء .

أما كون حجة الإسلام وضياء الإسلام أعلى رتبة من مجد الإسلام فلأن الحجة فى اللغة بمعنى البرهان وهو الدليل القاطع ، وبه تتقرر قواعد الإسلام ومبانيه ؛ والضياء فى أصل اللغة خلاف الظلمة ؛ ثم استعير للهداية وما فى معناها ، ولاشك أن الوصف بهذين الأمرين أبلغ من الوصف بالمجد الذى هو بمعنى الشرف .

الحال الرابع - أن يكون فى ألقاب الصلحاء ، وقد جعل فى "عُرف التعريف" أعلاها صلاح الإسلام وأورده مع الحضرة ، ومع الجناب الشريف ، والجناب الكريم ، وجعل دُونَهُ جلال الإسلام وأورده مع الجناب العالى ، ودونه ضياء الإسلام وأورده مع المجلس العالى ، وجعل دونه جلال الإسلام فأورده مع المجلس السامى بالياء فى دُونَهُ .

أما كون صلاح الإسلام والمسلمين أعلى من جلال الإسلام والمسلمين فقد تقدم بيانه . وأما كون جلال الإسلام والمسلمين أعلى من ضياء الإسلام والمسلمين فلأنَّ الجلال معناه العظمة وهى أعلى من الضياء على ما فيه من التعسف .

النمط الثاني

(من الألقاب المركبة ما يُضاف إلى الأمراء والوزراء ونحوهم ،

من أرباب المراتب السنية ، وهو على الأحوال الأربعة

المتقدمة الذكر فيما يُضاف إلى الإسلام)

الحال الأول - أن يكون في ألقاب أرباب السيوف . قد جعل في "عُرف التعريف" أعلاها سيّد الأمراء في العالمين ، وأورده مع المقتر الشريف ، والمقتر الكريم ، والمقتر العالى . وجعل دونه سيّد الأمراء المقدمين ، وأورده مع الجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى . ودونه شرف الأمراء المقدمين ، وأورده مع المجلس العالى والدعاء . ودونه شرف الأمراء فى الأنام ، وأورده مع السامى بالياء . ودونه زين الأمراء المجاهدين ، وأورده مع السامى بغيرياء . ودونه مجد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير .

والذى فى "التثقيف" بعد سيّد الأمراء فى العالمين سيّد أمراء العالمين ، وأورده مع الجناب العالى . ودونه شرف الأمراء فى العالمين ، وأورده مع المجلس العالى والدعاء . ودونه شرف الأمراء المقدمين ، وأورده مع صدرت العالى . ودونه شرف الأمراء فقط ، وأورده مع السامى بالياء . ودونه نخر الأمراء ، وأورده مع السامى بغيرياء . ودونه مجد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير . ولا يخفى ما بينهما من الاختلاف . ولا مشاحة فى الاصطلاح بعد فهم المعنى ، ولا نزاع فى أن الترتيب الذى فى التثقيف أحسن . واذا تأملت ذلك وعرضته على ما تقدم من التوجيه فى النمط الأول ظهر لك حقيقة ذلك .

الحال الثانى - أن يكون فى ألقاب الوزراء ومن فى معناهم . فقد ذكر

فى "عرف التعريف" أن أعلاها للوزراء سيّد الوزراء فى العالمين ، ولن فى معناهم

من كاتب السرِّ ونحوه سيّد الكبراء في العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرِّ الشريف ، والمَقَرِّ الكريم ، والمَقَرِّ العالى ، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ، وجعل دونه لمن دون هؤلاء من الكُتَّاب نحر الأنام ، وأورده في المجلس العالى والدعاء مع ما بعده .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القضاة والعلماء .

وقد جعل في "عرف التعريف" : أعلاها شرف الأنام . وأورده مع الجناب الشريف الذى جعله أعلى المكاتبات لهم ، ومع الجناب الكريم والجناب العالى وجعل دونه نحر الأنام ، فأورده مع المجلس العالى بالدعاء . ودونه بهاء الأنام ، وأورده مع صدرت والعالى ، ومع السامى بالياء والسامى بغير ياء .

الحال الرابع — أن يكون من ألقاب الصلحاء وقد جعل في "عرف التعريف" أعلاها خالصة الأنام ، وأورده مع الحضرة الشريفة التى جعلها أكبر رتبهم ، ومع الجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ، وجعل دونه شرف الأنام وأورده مع المجلس العالى . ودونه زين الأنام ، وأورده مع السامى بالياء وبغير ياء .

النَّمَطُ الثَّالِثُ

(من الألقاب المرَّكبة ما يُضاف إلى الملوك والسلاطين ،

وهو على الأحوال الأربعة المتقدمة الذكر)

الحال الأول — أن يكون من ألقاب أرباب السيف . وقد ذكر في "عرف التعريف" أن أعلاها ظهير الملوك والسلاطين ، وأورده مع المَقَرِّ الشريف والمَقَرِّ الكريم ، والمَقَرِّ العالى ، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، والجناب العالى ،

وجعل دُونَهُ عَضُدَ الملوِك والسلاطين ، وأورده مع المجلسِ العالى والمجلسِ السامى بالياء . ودُونَهُ عُمْدَةَ الملوِك والسلاطين ، وجعله مع مجلسِ الأمير . والذى فى ”التثقيف“ لإيراد ظهير الملوِك والسلاطين مع المقترِ الكريم ومابعده إلى آخرِ المجلسِ العالى ؛ وجعل عَضُدَ الملوِك والسلاطين مع السامى بالياء ، وعُمْدَةَ الملوِك والسلاطين مع السامى بغير ياء ، وعُدَّةَ الملوِك والسلاطين مع مجلسِ الأمير .

والحاصل أنه فى ”التثقيف“ زاد رُتبتينِ فى ظهيرِ الملوِك والسلاطين ، فجعله فى المجلسِ السامى مع الدعاء ومع صدرتْ ، على أن التحقيق أن عَضُدَ الملوِك والسلاطين أعلى فى الحقيقة من ظهيرِ الملوِك والسلاطين ؛ لأن العَضُدَ عَضُو من أعضاء الإنسان : وهو ما بين المرفقِ والكتفِ ، والظهيرِ خارجٌ عنه ، وما كان من نفسِ الإنسان كيف يُجعل ما هو خارجٌ عنه أرفعَ منه بالنسبة إلى ذلك الشخص ؟ .

الحال الثانى — أن يكونَ من ألقابِ الوزراءِ ومنَ فى معناهم . وقد جعل فى ”عُرفِ التعريف“ أعلاها ظهيرَ الملوِك والسلاطين أيضاً ، وأورده مع المقترِ الشريفِ ، والمقترِ الكريمِ ، والمقترِ العالى ؛ والجنابِ الشريفِ ، والجنابِ الكريمِ ، والجنابِ العالى ؛ وجعل دُونَهُ صَفْوَةَ الملوِك والسلاطين ، وأورده مع المجلسِ العالى فى دُونَهُ .

الحال الثالث — أن يكونَ من ألقابِ القُضاةِ والعُلماءِ . وقد جعل فى ”عُرفِ التعريف“ أعلاها للقُضاةِ حَكَمَ الملوِك والسلاطين ، ولغيرهم من العُلماءِ خالصَةَ الملوِك والسلاطين ، وهو عنده للجنابِ الشريفِ فما فوقه . ودُونَهُ بَرَكةُ الملوِك والسلاطين ، وأورده مع الجنابِ الكريمِ ، والجنابِ العالى ، والمجلسِ العالى ، مع الدعاء . وجعل دُونَهُ صَفْوَةَ الملوِك والسلاطين ، وأورده فى صدرتْ والعالى فى دُونِ ذلك .

الحال الرابع — أن يكون في ألقاب الصَّاحَاء . ولم يزد في "عُرف التعريف" على أنه يُكْتَب لهم بركةُ الملوك والسلاطين ، وحينئذ فيقتصر عليها لجميعهم ممن يستحقُّ ذلك بحسب ما يقتضيه حالُ المكتوبِ بسببه .

النمط الرابع

(من الألقاب المركَّبة ما يضاف لأمير المؤمنين ، وهو على الأحوال

(١)
الأربعة المتقدِّم ذكراها)

الحال الأول — أن يكون من ألقاب أرباب السيوف ، وأعلها قسيمُ أمير المؤمنين ، وهو من الألقاب الخاصة بالسلطان كما تقدّم ذكره في موضعه . ودونه خليل أمير المؤمنين ، وهو من ألقاب أولاد الملوك وألقاب بعض الملوك الأجانب المكتوب إليهم عن الأبواب السلطانية . ودونه عضد أمير المؤمنين ، وهو أعلى ما يُكْتَب لتُؤاب السلطنة عن الأبواب السلطانية ؛ وجعله في "عُرف التعريف" مع المَقَرَّ الشريف خاصةً . ودونه سيف أمير المؤمنين ، وأورده مع المَقَرَّ الكريم والمَقَرَّ العالی ؛ ودونه حُسام أمير المؤمنين ، وجعله في "عُرف التعريف" مع الجناب الشريف والجناب الكريم والجناب العالی ؛ ولم يُورد بعد ذلك لقباً بالإضافة إلى أمير المؤمنين بل اقتصر على ما يضاف إلى الملوك والسلاطين . وأما في التثقيف فجعله مع المَقَرَّ الكريم والمَقَرَّ العالی . ودونه حُسام أمير المؤمنين ، وأورده مع المجلس العالی والدُّعاء ، ولم يُورد فيما بعد ذلك لقباً بالإضافة إلى أمير المؤمنين .
والحاصل أنه في "عُرف التعريف" زاد رتبةً فيما يضاف إلى أمير المؤمنين ، وهي حُسام أمير المؤمنين .

(١) كذا في الاصول ولم يذكر الحال الرابع وهو ألقاب الصلحاء فتأمل .

الحال الثاني - أن يكون من القاب الوزراء ومن في معناهم . ولم يزد في "عُرف التعريف" على وليّ أمير المؤمنين ، وأورده مع المقرّ الشريف ، والمقرّ الكريم ، والمقرّ العالی والجناب الشريف ؛ ويحسن أن يبيح مع الجناب الكريم خالصة أمير المؤمنين ، ومع الجناب العالی صفى أمير المؤمنين أو صفوة أمير المؤمنين ، ولا يُضاف إلى أمير المؤمنين مع المجلس العالی فما دونه شيء من الألقاب آكتفاءً بما يُضاف إلى الملوك والسلطين كما تقدم في أرباب السيوف .

الحال الثالث - أن يكون من ألقاب القضاة والعلماء . فقد جعل في "عُرف التعريف" أعلاها وليّ أمير المؤمنين ، وجعله مع الجناب الشريف فما فوقه ، ويحسن أن يبيح مع الجناب الكريم خالصة أمير المؤمنين ، ومع الجناب العالی صفى أمير المؤمنين أو صفوة أمير المؤمنين ، كما تقدم في الوزراء ومن في معناهم ومن دونهم من الكُتاب .

الاعتبار الثاني

(في الألقاب المرتبة أن يختصّ الترتيب في الألقاب بنوع من

المكتوب لهم ، وهو أربعة أنماط)

النمط الأول

(ما يختصّ بأرباب السيوف ، وله حالان)

الحال الأول - أن تقع الإضافة فيه إلى الغزاة والمجاهدين . وقد جعل المقرّ الشهابي بن فضل الله في " التعريف " ناصر الغزاة والمجاهدين أعلاها ، فأورده في المكتابة إلى نائب الشام ، والمكتابة إليه يومئذ دون المكتابة إلى النائب الكافل ؛

وهو خلاف مقتضى تركيب لغة العرب لما تقدم من أن صيغة فعيل أعلى من صيغة فاعل ، ولذلك جعلوا الكفيل أعلى من الكافل على ما تقدم بيانه . وحينئذ فيكون نصير الغزاة والمجاهدين أعلى من ناصر الغزاة والمجاهدين على خلاف ما ذكره .

أما في "عُرف التعريف" فإنه أعرض عن ذكر الألقاب المضافة إلى الغزاة والمجاهدين مع المَقَرَّ الشريف الذى هو أعلى الألقاب لأرباب السيوف من التواب ومن في معناهم ، وأتى بعده مع المَقَرَّ الكريم بنصير الغزاة والمجاهدين ، ثم أتى بعده مع الجَنَاب الشريف إلى آخر المجلس العالى بنصرة الغزاة والمجاهدين ، فجعل نصير الغزاة أبلغ من نُصرة الغزاة : لما فى نصير من لفظ التذكير وفى نُصرة من لفظ التأنيث ، والتذكير أعلى رتبة من التأنيث ؛ ثم أتى مع السامى بالياء بذكر الغزاة والمجاهدين ، ثم مع السامى بغير ياء بزَيْن الأُمراء المجاهدين على وَصَف الأُمراء بالمجاهدين دُونَ عَطِفِ المجاهدين على الأُمراء ؛ ثم مع مجلس الأمير بزَيْن المجاهدين .

وجعل فى "التثقيف" أعلاها ناصر الغزاة والمجاهدين تبعاً "للتعريف" وأورده مع المَقَرَّ الكريم ؛ ودونه نُصرة الغزاة والمجاهدين ، وأورده مع الجَنَاب الكريم وما بعده إلى آخر المجلس العالى ؛ ثم أتى مع السامى بالياء بأوحد المجاهدين ، ومع السامى بغير ياء ومجلس الأمير بزَيْن المجاهدين ، والحال فى ذلك قريب .

الحال الثانى — أن يكون اللقب مضافاً إلى الجيوش . وقد جعل فى "التعريف" أعلاها أتابك الجيوش ، وأورده فى ألقاب النائب الكافل ؛ وجعل دونه زعيم الجيوش وأورده فى ألقاب نائب الشام ، وهو يومئذ دُونَ النائِب الكافل ؛ ثم جعل دونه زعيم جيوش الموحدين ، وأورده فى ألقاب نائب حلب . وعلى نحو من ذلك جرى فى "عرف التعريف" فجعل أعلاها زعيم الجيوش وأورده مع المَقَرَّ الشريف ،

والمَقَرَّ الكَرِيمِ والمَقَرَّ العَالِي ؛ ودُونَهُ زَعِيمَ جُيُوشِ المُوَحِّدِينَ ، وأوردته مع الجَنَابِ الشَرِيفِ والجَنَابِ الكَرِيمِ والجَنَابِ العَالِي ؛ ولم يُورِدْ شَيْئًا فِي هَذَا المَعْنَى فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ ، وَعَلَى نَحْوِ ذَلِكَ جَرَى فِي التَّنْقِيفِ .

النمط الثاني

(ما يختص بالوزراء ومن في معناهم : من كاتب السر ونحوه
فمن دونهم من الكتاب)

وقد ذكر في "عرف التعريف" أن أعلاها للوزراء سيّد الوزراء في العالمين ، ولن في معناهم سيّد الكُبراء في العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرَّ الشَرِيفِ والمَقَرَّ الكَرِيمِ والمَقَرَّ العَالِي والجَنَابِ الشَرِيفِ والجَنَابِ الكَرِيمِ والجَنَابِ العَالِي ؛ وجعل دُونَهُ لِمَنْ دُونَهُم مِّنَ الكُتَّابِ شَرَفَ الرُّؤَسَاءِ ، وأوردته مع المَجْلِسِ العَالِي ؛ ولا شكّ أَنَّهُ يَجِيءُ بَعْدَهُ أَوْحَدُ الكُتَّابِ أَوْ شَرَفُ الكُتَّابِ مَعَ المَجْلِسِ السَّامِيِّ بِأَلْيَاءِ ، ثُمَّ جَمَالَ الكُتَّابِ لِلسَّامِيِّ بِغَيْرِ أَلْيَاءِ فَمَا دُونَهُ .

النمط الثالث

(ما يختص بالقضاة والعلماء)

وقد جعل في "عرف التعريف" أعلاها سيّد العلماء والحُكَّامِ ، ولغيرهم أَوْحَدُ العُلَمَاءِ الأَعْلَامِ ، وجعله للجَنَابِ الشَرِيفِ فَمَا قَوْفَهُ ، ثُمَّ للجَنَابِ الكَرِيمِ ، والجَنَابِ العَالِي ؛ وجعل دُونَهُ تَاجَ العُلَمَاءِ والحُكَّامِ ، أَوْ شَرَفَ العُلَمَاءِ والحُكَّامِ ، وأوردته مَعَ المَجْلِسِ العَالِي ؛ ودُونَهُ جَمَالَ العُلَمَاءِ أَوْحَدَ القُضَلَاءِ ، وأوردته مَعَ السَّامِيِّ بِأَلْيَاءِ ؛ ودُونَهُ جَمَالَ الأَعْيَانِ مَعَ السَّامِيِّ بِغَيْرِ أَلْيَاءِ فَمَا دُونَهُ .

المَطَّرُ الرَّابِعُ

(مَا يَخْتَصُّ بِالصَّلَاحِ)

وقد جعل في "عرف التعريف" أعلاها لهم شيخُ شيوخ العارفين، وأورده مع الحَضْرَةِ الطَّاهِرَةِ، وجعل دُونَ ذلك أَوْحَدَ الْمُحَقِّقِينَ، فأورده مع الجَنَابِ الكَرِيمِ؛ ودُونَهُ أَوْحَدَ النَّاسِكِينَ، فأورده مع الجَنَابِ العَالِيِ .

قلت : وليس وَضَعُ هذه الألقاب على الترتيب في العُلُوِّ والهَبُوطِ راجعاً إلى مجزء التَّشْمِيٍّ من غير تَقْصُّ لَعُلُوٍّ أو هَبُوطِ يَدُلُّ عليه جوهرُ اللفظِ ، بل لا بدَّ أن يكون لتقدُّمِ كُلِّ لقبٍ منها على الآخر ورفِعتِهِ عليه في الرتبة سببٌ يقتضيه اللفظُ وتوجبُهُ دلالتُهُ الظاهرةُ أو الخفيةُ . وما وقع فيها مما يخالف ذلك فلعدم تأمل الواضع لذلك ، أو وقُوعه من بعض المدَّعين الظانِّين أن القلمَ في ذلك مطلقُ العنانِ ، يتصرَّفُ في وضعه كيف شاء من غير نظيرٍ إلى ما يُوجبُ تقدُّمًا ولا تأخيرًا . ومما يُوضِّحُ ذلك ويبيِّنُه أنك إذا اعتبرتِ الألقابَ المضافةَ إلى الإسلامِ المتقدمةَ الذكرى في أربابِ السيوفِ مثلاً ، رأيتِ أعلاها رُكْنَ الإسلامِ والمسلمينِ ، على ما هو مذكورٌ في "التعريف" وغيره من سائر دساتيرِ المَقْتَرِ الشَّهابِيِّ بنِ فضلِ الله ، وأعلاها على ما ذكره في "التثقيف" معزَّ الإسلامِ والمسلمينِ ، ودُونَ ذلك في الرتبة عِزَّ الإسلامِ والمسلمينِ ، ودُونَهُ مجدُّ الإسلامِ والمسلمينِ ، ودُونَهُ مجدُّ الإسلامِ فقط من غير عَطْفٍ ، على ما تقدَّم ذكره .

أما كونُ رُكْنِ الإسلامِ والمسلمينِ أعلى من عِزِّ الإسلامِ والمسلمينِ ، فلأنَّ رُكْنَ الشيءِ في اللغة جانبُهُ الأَقْوَى ، وقد قال الأَصُولِيُّونَ : إن الرُّكْنَ ما كان داخلَ المساهيةِ ، وحينئذ فيكون رُكْنُ الشيءِ بعضًا منه بخلاف العِزِّ فإنه معنًى من المعاني خارجٌ عنه ، وما كان بعضًا للشيءِ كان أَحْصَّ به مما هو خارجٌ عنه .

وأما وجه إبدالهم رُكن الإسلام والمسلمين بمِعز الإسلام والمسلمين فلأن
 في الرُكن معنى العِزِّ والقُوَّة ، وقد فسر قوله تعالى حِكَايَةً عن لُوطٍ عليه السلام :
 ﴿ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ بالعِزِّ والمنعَةِ ، فجعل المعِزُّ لهذا الاعتبار في الألقاب قائماً
 مقامَ الركن .

وأما كَوْنُ عِزِّ الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإسلام والمسلمين ، فلأن العِزَّ
 أجدى في النَّفْعِ من المَجْد ، فقد تقدّم أن ابن السكِّيت قال : إن المَجْد لا يكون
 إلا بشرف الآباء ، ولا نِزَاعَ في أن العِزَّ في تعارف الملوك أكثرُ جدوى وأوفرُ نفعاً
 في تحصيل المقاصد . وقد ذكر أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" أن الكتاب
 في الزمن القديم كانوا يجعلون الدعاء بالعِزِّ عقب الدعاء بطول البقاء ، فإنه يكون بالعِزِّ
 مصوناً عالياً آمناً غنياً .

وأما كَوْنُ مَجْد الإسلام والمسلمين أعلى من مَجْد الإسلام ، فلأنَّ الشئ كلما تعدى
 فعله إلى غيره كان أرفع رتبةً ، ومجْد الإسلام والمسلمين يتعدى إلى شيئين : وهما
 الإسلام والمسلمين ، ومجْد الإسلام لا يتعدى إلا إلى شئ واحد : وهو الإسلام .
 فذلك إذا اعتبرت الألقاب المضافة إلى أمير المؤمنين ، رأيت أعلاها في أرباب
 السيف قسيم أمير المؤمنين ، ودونه خليل أمير المؤمنين ، ودونه عضد أمير المؤمنين
 ودونه سيف أمير المؤمنين ، ودونه حسام أمير المؤمنين .

أما كَوْنُ قسيم أمير المؤمنين أعلى من خليل أمير المؤمنين ، فلأنَّ القسيم بمعنى
 المُقاسِم ، والمراد أنه قاسم أمير المؤمنين المُلْك وسأهمه في الأمر فصاروا فيه مشتركين ،
 و خليل أمير المؤمنين مأخوذ من الخُلَّة بضم الخاء وهي الصداقة ، وفرق بين من يقاسم

(١) كذا في الاصول والأظهر وكذلك إذا اعتبرت الخ عطفاً على أنك إذا اعتبرت الخ المتقدم

الخليفة فيصير عديله في الامر ، وبين من يكون خليله وصاحبه . على انه قد تقدم
أن الملوك قد أربت بأنفسها ^(١٧) عن هذا اللقب لاستبدادهم بالملك واستيلائهم عليه .

وأما كون خليل أمير المؤمنين أعلى من عضد أمير المؤمنين ، فلا أن العضد ليس
المراد منه العضو الحقيقي الذي هو بين الكتف والمرفق ، وإنما استعير للناصر وكأنه
ينصره بنفسه كما ينصره عضده ، ومثل هذا الوصف لا يكون إلا للرتب ، بخلاف
الخليل والصدیق فإنه لا تكاد ترتبه عند الشخص تحط عن رتبة نفسه .

وأما كون عضد أمير المؤمنين أعلى من سيف أمير المؤمنين ، فلا أن العضد وإن
قصد به الناصر فإنه منقول عن العضو للناصر كما تقدم وعضو الإنسان عنده
في العزة وقوة النصر فوق سيفه في ذلك .

وأما كون سيف أمير المؤمنين أعلى من حسام أمير المؤمنين - وإن كان الحسام
متضمنًا لوصف القطع الذي هو المقصود الأعظم من السيف من حيث إنه مأخوذ
من الحسم : وهو القطع - فلا أن السيف مأخوذ من ساف إذا هلك كما صرح به
الشيخ "جمال الدين بن هشام" في شرح قصيدة كعب بن زهير ، ولا شك أن معنى
الإهلاك أبلغ من معنى القطع : لأن القطع قد يقع في بعض البدن مما لا يتضمن
الإهلاك ، وهذا مما يجب التنبه له فإنه ربما توهم أن الحسام أبلغ من السيف
لتضمن وصف القطع كما تقدم .

وبالجملة فلا سبيل إلى استيعاب جميع ما يرد من هذا الباب بالتوجيه : لأن ذلك
يؤدي إلى الإسهاب والملل . والقول الجامع في ذلك أنه ينظر إلى الألفاظ الواقعة
في الألقاب وما تقتضيه من أصناف المدح ، وما تنهى إليه رتبها فيه من أعلى

(١) لعله ربأت بأنفسها أي ترفعت أو زمت بأنفسها أي شمت .

الدرجات أو أوسطها أو أدناها فيرتبها على هذا الترتيب ، ويوجهها بما يظهر له من التوجيه على نحو ما تقدم . كما إذا اعتبرت رتبة الجلال والجمال فإنك تجد الجلال أعلى رتبة : لأن معنى الجلال العظمة ، ومعنى الجمال الحسن ، ولا نزاع في أن العظمة أبلغ وأعلى موقعا من الحسن . وكما إذا اعتبرت الضياء والبهاء ، فإن الضياء يكون أبلغ لأن الضياء معناه النور الذاتي وهو متعدى النفع عام الفصيحة ، والبهاء معناه الحسن وهو قاصر على صاحبه . وفيما ذكر إرشاد إلى ما لم يذكر .

القسم الثاني

(مما تتفاوت فيه مراتب الألقاب ما يقع التفاوت فيه بالتقديم

والتأخير ، وهو نوعان)

النوع الأول

(الألقاب المفردة ، وهي على ستة انماط)

النمط الأول

(الألقاب التي تلي الألقاب الأصول)

وهي التي تلي المقام والمقر والجناب والمجلس : كالأشرف والشريف والكريم والعالى والسامى : فالأشرف يلى المقام والمقر ، فيقال : المقام الأشرف ، والمقر الأشرف ، والشريف يلى المقام والمقر والجناب ، فيقال : المقام الشريف ، والمقر الشريف ، والجناب الشريف . والكريم يلى المقر والجناب ، فيقال : المقر الكريم ، والجناب الكريم . والعالى يلى المقام والمقر والجناب والمجلس ، فيقال : المقام العالى ، والمقر

العالى ، والجناب العالى ، والمجلس العالى . والسامى بلى المجلس خاصة ، يقال :
المجلس السامى . والعالى بلى الأشرف والشريف والكريم ، يقال : الأشرف العالى ،
والشريف العالى ، والكريم العالى .

النمط الثانى

(ما بلى العالى أو السامى من الألقاب)

وهو اللقب الذى يميّز نوع المكتب له ، كالأميرى لأرباب السيوف ،
والصاحبى للوزراء من أرباب الأقلام ، والقضائى والقاضوى لسائر أرباب الأقلام ،
والشيوخى للصوفية وأهل الصلاح ، والصدريّ للتجار ومن فى معناهم . مثل أن
يقال : المقرّ الكريم العالى [الأميرى^(١)] والجناب العالى الصحبى ، أو الجناب العالى
القاضوى ، أو المجلس العالى ، أو المجلس السامى الشيوخى ، أو المجلس السامى
الصدريّ ، وما أشبه ذلك . والمعنى فى وضع هذه الألقاب فى هذا الموضع أن يدلّ
أول لقب يذكر بعد اللقب الأصل وتابعه على الوظيفة كما تدلّ براءة الاستهلال
على صورة الحال فى المكاتب أو الولاية أو غيرها ، وربما كان المحلّ مما يقتضى
التلقيب بالمولوىّ فيقدم لقب المولوىّ على لقب الوظيفة . مثل أن يقال : المقرّ
الشريف العالى المولوىّ الأميرى ، فإن كان اللقب الأصل مضافاً لمجلس الأمير
أو مجلس القاضى أو مجلس الشيخ أو مجلس الصدر ، قام المضاف إليه مقام لقب
الوظيفة ؛ فيقوم الأمير من مجلس الأمير مقام الأميرى ، والقاضى من مجلس القاضى

(١) الزيادة متعينة وقد أخذناها من الضوء للولف .

مقام القضاة ، والشيخ من مجلس الشيخ مقام الشيخية ، والصدر من مجلس الصدر مقام الصدرى . ثم لا يُنعت بعد ذلك في هذه الحالة إلا بالأجل ، ويؤتى بعده بما يناسبه من الألقاب .

النمط الثالث

(مايلي لقب الوظيفة)

وهو الكبير أو الكبيرى ، فيؤتى به تلو اللقب الدال على الوظيفة مثل أن يقال : المقتزى العالى الأميرى الكبيرى ، أو الجناح العالى القضاة الكبيرى ، أو المجلس السامى الكبيرى إذا كان بالياء ، أو الكبير إذا كان بغير الياء .

النمط الرابع

(مايقع قبل لقب التعريف الذى هو الفلانى أو فلان الدين)

وهو اللقب الدال على الوظيفة دلالة خاصة ، كالكافى والكفيل للتاب ، والوزيرى للوزراء ، والحاكى للقضاة . فإن كان المكتوب له نائب سلطنة كتب له قبل الفلانى الكافى أو الكفيل بحسب ما يقتضيه الحال ، وإن كان حاكماً كتب الحاكى . قال فى "التثقيف" : وإن كان وزيراً كتب فى آخر ألقابه الوزيرى . والذى ذكره فى "عُرف التعريف" أن الوزيرى يلى لقب الوظيفة ، فإذا كان الوزير من أرباب السيوف كتب الأميرى الوزيرى ؛ وإن كان من أرباب الأقلام كتب الصاحى الوزيرى . وما ذكره فى "التثقيف" متجه فيما إذا كان الوزير صاحب قلم ، فإن التعريف فى الوظيفة يُعرف أولاً من قوله الصاحى .

وما ذكره في "التعريف" ظاهرٌ فيما إذا كان الوزيرُ من أرباب السيوف، فإنه يتعين تقديمُ الوزيرِ فيذكر بعد الأميرِ ليدل من الأبتداء على الوظيفة، إذ مطلق الإمرة لا يدلُّ على وزارة ولا عدهما، فلو أُخِّر إلى آخر الألقاب لما عُرف أنها ألقابُ وزيرٍ إلى حين ذكر هذا اللقب، وإنما رُتب هذا الترتيب ليدلُّ باللقب الذي هو أول الألقاب بعد العالی أو السامی على حال صاحب تلك الألقاب هل هو من أرباب السيوف أو الأقلام أو غير ذلك، وباللقب الذي هو آخر الألقاب المفردة على وظيفته الخاصَّة به .

النمط الخامس

(ما يقع فصلاً بين الألقاب المفردة والمركبة)

وهو لقب التعريف كالفلاني وفلان الدين، فقد جعلوه فاصلاً بينهما .

النمط السادس

(ما ليس له موضعٌ مخصوصٌ من الألقاب المفردة)

وهو ما بين اللقب الذي يقع به التمييز بين الأميرِ ونحوه، وبين اللقب الذي قبل لقب التعريف كالعالمى والعالدى ونحوهما، فالقلم في ذلك مطلق العنان بالتقديم والتأخير على ما يقتضيه الحال بحسب ما يراه الكاتب .

النوع الثاني

(مما تتفاوت فيه مراتب الألقاب بالتقديم والتأخير الألقاب المركبة
المعبر عنها بالتعوت، وهي على ثلاثة أنماط)

النمط الأول

(ما يلي لقب التعريف الذي هو الفلاني أو فلان الدين)

وهو ما يضاف إلى الإسلام مثل ركن الإسلام والمسلمين وعز الإسلام
والمسلمين وما أشبه ذلك ، فقد أصطلحوا على أن يكون ذلك أول الألقاب
المركبة ، وتوجيهه ظاهر لأن المضاف يشرف بشرف المضاف إليه ، ولا أشرف
عند أهل الإسلام من الإسلام فوجب تقديم ما يضاف إليه على غيره .

النمط الثاني

(ما يقع في آخر الألقاب المركبة)

ويختلف الحال فيه باختلاف حال المكتوب له ، فإن كان ممن يكتب له المجلس
السامي بغير ياء فإدونه جعل آخر الألقاب فيه ما يضاف إلى الملوك والسلاطين ،
مثل أن يقال : صفوة الملوك والسلاطين ، أو اختيار الملوك والسلاطين وما أشبه
ذلك . وإن كان ممن يكتب له السامي بالياء فما فوقه جعل آخر الألقاب فيه
ما يضاف إلى أمير المؤمنين : مثل عضد أمير المؤمنين ، وولي أمير المؤمنين ، وخاصة
أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك على ما تقتضيه رتبة المكتوب له . والمعنى فيه أن
حسّن الاختتام بالإضافة إلى الملوك والسلاطين الذين هم ثاني رتبة الخلافة .

النمط الثالث

(مايين أول الألقاب المركبة وبين آخرها)

فقد أصطلحوا على أن يكون المقدم منها مما يقتضى تقديم المكتوب له على أبناء جنسه . مثل : سيّد الأمراء في العالمين ، وسيّد العلماء والحكّام في العالمين ، وما أشبه ذلك ؛ ثم في حقّ كل أحد من أرباب الأقلام والسيوف بحسب ما يقتضيه حاله على نحو ما تقدّم في الكلام على ما تتفاوت رتبته بالعلو والهبوط .

الجملة الثامنة

(في بيان محلّ اللقب المضاف إلى الملك ولقب التعريف الخاصّ به الواقع تلو اللقب الملويّ ، مثل الملكيّ الناصريّ الزينبيّ وما أشبه ذلك ؛ وله ثلاثة أحوال)

الحالة الاولى - أن يكون ذلك في ألقاب السلطان نفسه ، كما يقع في التقاليد والمناشير ونحوهما . فوضعه بعد رسم بالأمر الشريف ، أو تخرج الأمر الشريف ، مثل أن يكتب رسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطانيّ الملكيّ الناصريّ الزينبيّ ، أو - فلذلك رسم بالأمر الشريف الفلانيّ الفلانيّ ، أو تخرج الأمر الشريف العالي المولويّ السلطانيّ الملكيّ الفلانيّ الفلانيّ ، وما أشبه ذلك .

الحالة الثانية - أن يكون اللقب المضاف إلى الملك في ألقاب المكتوب له ، كما لو كتبت في تقليد أو نحوه . ومحلّه بعد ذكر اسم المكتوب له بعد الألقاب ، مثل أن يقال بعد انتهاء الألقاب : فلان الظاهريّ أو الناصريّ ونحو ذلك ، ولا يقال له الملكيّ حينئذ .

الحالة الثالثة — أن يكون في ألقاب المكتوب عنه كما يُكْتَبُ في أول المكتاباتِ
الملكِيِّ الفلاني، وقد أصطلحوا على أن يُكْتَبَ ذلك تحت جرة البسمةِ على ماسياتي
بيانه إن شاء الله تعالى .

الجملة التاسعة

(في ترتيب جملة الألقابِ الفروعِ على الألقابِ الأصولِ
على قدر طبقاتها، وهي قسمان)

القسم الأول

(الألقابُ الإسلاميةُ)

واعلم أن ترتيب الألقاب تارة يكون في السُّلْطَانِيَّاتِ ، وتارة يكون
في الإخْوَانيَّاتِ وما يُكْتَبُ عن الثَّوَابِ . وقد كانوا في الأيامِ الناصِريَّةِ
« محمد بن قلاوون » يستعملون في الإخْوَانيَّاتِ وما يُكْتَبُ عن الثَّوَابِ الثَّعُوتَ
المرتبَّةَ كما في السُّلْطَانِيَّاتِ، لا يفرِّق بينهما إلا ما في الإخْوَانيَّاتِ وما في معناها من
الألقاب التي لا تصلح للسلطانيات، كالمولويّ والسيدّيّ والمخدوميّ ونحوها .
أما الآن فقد وقع الأقتصارُ فيها على المُفْرَداتِ دُونَ المرَبَّجاتِ، وصارت المرَبَّجاتُ
مختصةً بالسلطانيَّاتِ .

ثم الألقابُ الإسلاميةُ الفروعُ المرتبَّةُ على الألقابِ الأصولِ على سبعة
أضرب :

الضرب الأول

(الألقاب المتعلقة بالخلافة وما يلحقُ بها، ومبناها على الاختصار؛
وهي ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ألقاب الخلفاء، وهي صنفان)

الصنف الأول - أن تكون لنفس الخليفة . فكان يقال فيها في الزمن القديم
« عبدُ الله فلانُ أميرُ المؤمنين » [فإن كان اسمُ الخليفة عبدَ الله كالمؤمن كُررَ الاسمُ
مرتين : مرةً للاِسْمِ العَلَمِ ومرةً للقبِ الخِلافةِ ، فيقال : « عبدُ الله عبدُ الله
أميرُ المؤمنين »] ثم زيد فيها الكنيةُ بعد ذلك ، فقيل « عبدُ الله فلانُ أبو فلان
أميرُ المؤمنين » ثم زيدَ لفظُ الإمام فقيل « عبدُ الله فلانُ أبو فلان [الإمام]
الفلانيّ - بلقبِ الخلافةِ مثل المتوكل على الله ونحوه - أميرُ المؤمنين » ثم زيدَ ووليُّه
بعد عبدِ الله ، فقيل : « عبدُ الله ووليُّه فلانُ أبو فلانِ الإمامِ الفلانيّ أميرُ المؤمنين »
وهو ما استقرَّ عليه الحال آنحرا .

الصنف الثاني - أن تكون الألقاب للديوان في مكتبةٍ أو غيرها . والذي
أصطلح عليه أن يقال « الديوانُ العزيزُ المولويُّ السيديّ النبويّ الإماميّ
الفلانيّ » بلقبِ الخلافةِ .

النوع الثانى

(ألقابُ ولاةِ العهد بالخلافة)

وهى « الجنايبُ الشريفُ ، المولوى ، السيدى ، النبوى ، الفلانى » بلقبه المنسوب إلى الخلافة . وربما قيل فيه الجنايب بدل الجنايب ، وبقية الألقاب على ما تقدم .

النوع الثالث

(ألقابُ إمام الزيدية باليمن)

وهى « الجنايب الكريمة ، العالى ، السيدى ، الإمامى ، الشريفى ، النسبى ، الحسينى ، الفلانى » بلقب التعريف « سليل الأَطهار ، جلال الإسلام ، سيف الإمام ، بقية البيت النبوى ، نحر الحسب العلوى ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأمة ، رأس العلياء ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، دُخر المساميين ، مُنجد الملوك والسلاطين » .

الضرب الثانى

(الألقابُ الملوكية ، وهى نوعان)

النوع الأول

(الألقابُ التى أصطلح عليها للسلطان بالديار المصرية على ما الحالُ مستقر)

عليه ، وقد ذكر فيها فى التعريف مذهبين)

المذهبُ الأول — أن يقال « السُّلطانُ السيِّدُ الأَجَلُّ الملكُ الفلانى العالم العادلُ المجاهدُ المرابطُ المناغرُ المؤيدُ المظفرُ المنصورُ الشاهنشاه فلانُ الدنيا

والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، إسكندر الزمان، مملك أصحاب المناير والأسرة والتيجان، واهب الأقاليم والأمصار، ميسد الطغاة والبغاة والكفار، حامى الحرمين الشريفين والقبليتين، جامع كلمة الإيمان، ناشر لواء العدل والإحسان، سيّد ملوك الزمان، أبو فلان فلان، ابن السلطان الشهيد الملك الفلاني، والد الملوك والسلاطين، أبي فلان فلان» .

أما في "التثقيف" فإنه ذكر ذلك بزيادة وتغيير، وتقديم وتأخير - فقال : «السلطان الأعظم، المالك الملك الأشرف السيد الأجل العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المناغر المظفر شاهنشاه ناصر الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، منصف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، مانح الممالك والأمصار، إسكندر الزمان، مولى الإحسان، جامع كلمة الإيمان، مملك أصحاب المناير والتخوت والتيجان، ملك البحرين، مسلك سبل القبليتين، خادم الحرمين الشريفين، ظل الله في أرضه، القائم بسنته وفرضه، سلطان البسيطة، مؤمن الأرض المحيطة، سيد الملوك والسلاطين، وليّ أمير المؤمنين، أبو فلان فلان بن فلان» . وذكر أن الغالب أن تُحذف الشاهنشاه، لأن معناها ملك الأملاك، وقد تقدم النهي عن التسمي بذلك. ثم قال : والواجب أن يكون بدل وليّ أمير المؤمنين، قسيم أمير المؤمنين .

المذهب الثاني - أن يكتب المقام الشريف أو الكريم أو العالی مجرداً عنهما، ويُقتصر على المفردة دون المركبة . مثل أن يكتب «المقام الشريف العالی،

المُولَوِيّ، السُلْطَانِيّ، المَلِكِيّ، الفَلَانِيّ، ابو فُلَانٍ فُلَانٍ». قال في "التعريف":
 وإلى هذا ذهب المتأخرون من الكُتّاب؛ ثم قال: وأنا على الأول أعمل.

النوع الثاني

(الألقاب التي يُكْتَبُ بها عن السلطان لغيره من الملوك،
 وهي على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(ألقابُ ولاة العهد بالسلطنة)

«وهي المقام العالی، العالی، العادلی، المَلِكِيّ، الفَلَانِيّ، الفُلَانِيّ - بلقب
 الملك واللقب المتعارف». قال في "التنقيف": فإن كان أخاً للسلطان زيد فيه
 الأخويّ، أو ولداً زيد فيه الولديّ.

الصنف الثاني

(ألقابُ الملوك المستقلين بصغار البلدان)

كما كان صاحب حماة في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وكان يُكْتَبُ له:
 «المقام الشريف العالی السُلْطَانِيّ المَلِكِيّ الفَلَانِيّ، بلقب المَلِك». وربما كُتِبَ
 له قبل لقب الملك «الأصيليّ» لعراقته في المُلْك.

الصنف الثالث

(ألقاب المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية، وهي نمطان)

النمط الأول

(ما يُصدَّر بالألقاب المذكرة. وهي على أربع طبقات)

الطبقة الأولى — ما يُصدَّر بالمقام. وأعلىها «المقام الأشرف» كألقاب صاحب الهند، وهي: «المقام الأشرف العالى المولوى السلطانى الأعظمى الشاهنشاهى العالى العادلى المجاهدى المتأغرى المظفرى المؤيدى المنصورى إسكندر الزمان، سلطان الأوان، منبع الكرم والإحسان، المعنى آل ساسان، وبقايا فراسياب وخاقان، ملك البسيطة، سلطان الإسلام، غياث الأنام، أوحد الملوك والسلاطين» .

ودونه «المقام الشريف» كألقاب الشيخ حسن الكبير صاحب بغداد كان، وهي: «المقام الشريف العالى الكبيرى السلطانى العالى العادلى المجاهدى المؤيدى المرابطى المنصورى الملكى الفلانى الفلانى» - بلقى الملك والتعارف .

ودونه «المقام العالى» كألقاب القان ببلاد أذربك فيما ذكره فى «التتيف» وهي: «المقام العالى السلطانى الكبيرى الملكى الأكرمى الفلانى» - بلقب التعريف - فلان الدنيا والدين مؤيد الغزاة والمجاهدين قاتل الكفرة والمشركين، ولي أمير المؤمنين» . وكألقاب صاحب المغرب فيما ذكره فى «التعريف» وهي: «المقام العالى السلطانى السيد الأجل العالم العادل المجاهد المرابط المتأغرى المؤيد المظفر المنصور على أعداء الله أمير المسلمين، قائد الموحدىن، مجهز الغزاة والمجاهدىن، مجند الجنود، عاقد البنود، مالى صدور البرارى والبحار،

مَرْعِزِعِ اسِرَّةِ الْكُفَّارِ ، مُؤَيِّدِ السَّنَةِ ، مُعِزِّ الْمَلَّةِ ، شَرُفِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، بَقِيَّةِ السَّلَفِ الْكَرِيمِ ، وَالنَّسَبِ الصَّمِيمِ ، رَبِيبِ الْمُلْكِ الْقَدِيمِ ، أَبُو فُلَانٍ فُلَانٍ .

الطبقة الثانية - مَا يُصَدَّرُ بِالْمَقْتَرِ ، وَأَعْلَاهَا فِيهَا رَأَيْتُ «الْمَقْتَرِ الْكَرِيمِ» كَأَلْقَابِ صَاحِبِ هَرَاةٍ فِيهَا ذَكَرَهُ فِي "التعريف" وهى : «الْمَقْتَرِ الْكَرِيمِ ، الْعَالِي الْعَالِمِيّ الْعَادِلِيّ الْمَجَاهِدِيّ الْمُؤَيِّدِيّ الْمُرَابِطِيّ الْمُنَاغِرِيّ الْأَوْحَدِيّ الْفُلَانِيّ» ، شَرَفِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، خَلِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ . وَكَأَلْقَابِ صَاحِبِ كَرْمِينَانَ [من بلاد الروم] ^(١) فِيهَا ذَكَرَهُ فِي "التثقيف" وهى : «الْمَقْتَرِ الْكَرِيمِ الْعَالِي الْمَلِكِيّ الْأَجَلِّيّ الْعَالِمِيّ [الْعَادِلِيّ] ^(١) الْمَجَاهِدِيّ الْمُؤَيِّدِيّ الْمُرَابِطِيّ الْمُنَاغِرِيّ الْمُنْظَرِيّ الْمَنْصُورِيّ الْفُلَانِيّ» ، عِزِّ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، نَخْرِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، نَصِيرِ الْغُرَاةِ وَالْمَجَاهِدِينَ ، زَعِيمِ الْجِيُوشِ مَقْدَمِ الْعَسَاكِرِ ظَهِيرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

ودونه «الْمَقْتَرِ الْعَالِي» كَأَلْقَابِ صَاحِبِ مَالِيٍّ مِنْ بِلَادِ التُّكْرُورِ فِيهَا ذَكَرَهُ فِي "التعريف" وهى : «الْمَقْتَرِ الْعَالِي السُّلْطَانِيّ الْجَلِيلِ الْكَبِيرِ الْعَالِمِ الْعَادِلِ الْمَجَاهِدِ الْمُؤَيِّدِ الْأَوْحَدِ» ، عِزِّ الْإِسْلَامِ ، شَرُفِ مَلُوكِ الْأَنْامِ ، نَاصِرِ الْغُرَاةِ وَالْمَجَاهِدِينَ ، زَعِيمِ جِيُوشِ الْمُوَحِّدِينَ ، جَمَالِ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ؛ سَيْفِ الْخِلَافَةِ ، ظَهِيرِ الْإِمَامَةِ ، عَضُدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

الطبقة الثالثة - مَا يُصَدَّرُ بِالْجَنَابِ . وَأَعْلَاهَا «الْجَنَابِ الْكَرِيمِ» كَأَلْقَابِ مَلِكِ التُّكْرُورِ فِيهَا ذَكَرَهُ فِي "التثقيف" أَنَّهُ اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ ، وهى : «الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ، الْعَالِي الْمَلِكِ الْجَلِيلِ الْعَالِمِ الْعَادِلِ الْمَجَاهِدِ الْمُؤَيِّدِ الْمُنَاغِرِ الْمُرَابِطِ الْعَادِلِ الْخَاشِعِ النَّاسِكِ الْأَوْحَدِ فُلَانٍ ؛ ذُنْحَرِ الْإِسْلَامِ» . وَكَأَلْقَابِ مَلِكِيّ الْبَرْنُو وَالكَانَمِ فِيهَا ذَكَرَهُ

في "التعريف" وهي: «الجناب الكريم العالی الملك الجليل الكبير العالم العادل الغازي المجاهد الهمام الأوحد المظفر المنصور عن الإسلام». ثم بقية الألقاب من نسبة ألقاب ملك التكرور .

الطبقة الرابعة - ألقاب المجلس . وأعلىها « المجلس العالی » كألقاب صاحب حصن كيفا فيما ذكره في "التعريف" وهو : « المجلس العالی المملکی الفلانی الأجلی العالمی العادلی المجاهدی المؤیدی المرایطی المناغری الأوحدی الأصیلی الفلانی - بلقب التعريف - عن الإسلام والمسلمين ، بقية الملوك والسلاطين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، شرف الدول ، ذخر الممالك ، خليل أمير المؤمنين أو عضد أمير المؤمنين » على مخالفة فيه فيما أورده في "التشريف" تأتي في المكاتبه إليه .

ودونه المجلس السامی بالياء - كألقاب صاحب أرزن ، وهي « المجلس السامی المملکی الفلانی - بلقب المملك - الأصیل - الكبیری - العالمی المجاهدی المؤیدی المرایطی الأوحدی الفلانی - بلقب التعريف - عن الإسلام ، شرف الملوك في الأنام ، بقية السلاطين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، ولي أمير المؤمنين » .

ودونه المجلس بغير ياء في ألقابه كألقاب صاحب دقنقلة إذا كان مسلما ، فيما ذكره في "التعريف" وهي : « المجلس الكبير الغازي المجاهد المؤيد الأوحد العضد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلاطين » ولم يذكر فيه السامی ولا لقباً مضافاً إلى الملك ، وهو المملکی إلا أنهم أوردوه في عدة الملوك .

قلت وأكثر هذه الألقاب يؤتى فيها بالألقاب المختصة بالملك : إما في المفردة كالملكي الفلاني ، وإما في المركبة مثل « بقية الملوك والسلاطين » ونحو ذلك ، لتدل على أن المكتوب له ملك فيمتاز عن غيره . وربما أُتى فيها بالألقاب الإمارة دون الملوكة لوقوع اصطلاح أهل تلك المملكة على ذلك . كما يُكتب في ألقاب صاحب تونس « أمير المؤمنين » لادعائه الخلافة ، وفي ألقاب صاحب فاس « أمير المسلمين » أتباعا ليوسف بن تاشفين صاحبها في القديم ، إذ كان أول من تلقب بذلك خضوعاً عن أن يتلقب بأمير المؤمنين ، لأختصاصه بالخلافة كما سيأتي الكلام عليه في المكتبة إليه إن شاء الله تعالى .

النمط الثاني

(ما يصدر بالألقاب المؤنثة ، وهي الحضرة)

ويختلف الحال فيها باختلاف الممالك . فاللقاب القان بمملكة إيران على ما كان عليه الحال في أيام السلطان أبي سعيد وما قبله « الحضرة ، الشريفة ، العالمة ، السلطانية ، الأعظمية ، الشاهنشاهية ، الأوحدية ، القانية ، الفلانية » . قال في « التعريف » ولا يخلط فيها الملكية لهوانها لديهم وإن كان صاحب « التثقيف » قد أثبت فيها الملكية أيضا على ما سيأتي في الكلام على المكتبة إليه في موضعه إن شاء الله تعالى . وألقاب صاحب تونس فيما ذكره في « التثقيف » « الحضرة ، العلية ، السنية ، السرية ، المظفرية ، الميمونة ، المنصورة ، المصونة ، حضرة الأمير العالم » إلى آخر الألقاب المذكورة .

الضربُ الثالثُ

(من الألقاب الإسلامية للألقابُ العامَّةُ لسائر الطوائف مما يُكْتَبُ به
عن الأبواب [السلطانية^(١)] ، وهي ثمانية أنواع)

النوع الأول

(ألقابُ أربابِ السيوف من أهل المملكة وغيرهم : من الأمراء والعُربان
والأكراد والترُّكمان . وهي على خمس درجات)

الدرجة الأولى

(درجة المَقَرِّ ، وفيها ثلاثُ مراتب)

المرتبة الأولى - مرتبة المَقَرِّ الشريف . وهو مختصُّ في عُرف الزمان
بما يُكْتَبُ عن نواب السلطنة .

وصورتها على ما أورده في "عُرف التعريف" : « المَقَرِّ الشريف ، العالى ،
المَوْلَوِيّ ، الأَمِيرِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العالِمِيّ ، العادِلِيّ ، الممهّدِيّ ، المشيّدِيّ ، الزَعِمِيّ ،
المَقَدَّمِيّ ، الغَوْنِيّ ، الغِيَانِيّ ، المَرابِطِيّ ، المُنَاغِرِيّ ، الظَّهْرِيّ ، المَالِكِيّ ، المَخْدُومِيّ ،
الفلاني ، عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء في العالمين ، زعيمُ الجيوش ، مُقَدَّم
العساكر ، عَوْنُ الأُمَّة ، غِيَاثُ المِلَّة ، مِمهدُ الدَّول ، مَسِيّدُ الممالك ، ظهيرُ الملوك
والسلاطين ، عَضُدُ أمير المؤمنين » .

المرتبة الثانية - مَرْتَبَةُ المَقَرِّ الكَرِيم . وهي مستعملة في السُّلْطَانِيَّات وما يُكْتَبُ
عن النُّوَاب .

(١) الزيادة من الضوء ص ٣٧٢ .

فأما في السُّلْطَانِيَّاتِ فَصَوْرَتَهَا عَلِيٌّ مَا أوردَهُ فِي "التَّحْقِيفِ" فِي الألقَابِ المَسْتَقْرَّةِ
 للنَّائِبِ الكَافِلِ وَنائبِ الشَّامِ : «المَقْرُّ الكَرِيمُ ، العَالِي ، الأَمِيرِيُّ ، الكَبِيرِيُّ ،
 العَالِمِيُّ ، العَادِلِيُّ ، المؤَيَّدِيُّ ، الرِّعْمِيُّ ، العَوْنِيُّ ، الغِيَاثِيُّ ، المُنَاغِرِيُّ ، المُرَابِطِيُّ ،
 المَهْدِيُّ ، المَشِيدِيُّ ، الطَّهِيرِيُّ ، العَابِدِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الأَتَابِكِيُّ ، الكَفِيلِيُّ ،
 الفُلَانِيُّ ؛ مُعِزُّ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ أَمْرَاءِ العَالَمِينَ ، نَاصِرُ الغُزَاةِ وَالمُجَاهِدِينَ ،
 زَعِيمُ جُيُوشِ المُوَحِّدِينَ ، مَهْدُ الدَّوْلِ ، مَشِيدُ المَمَالِكِ ، عِمَادُ المِلَّةِ ، عَوْنُ الأُمَّةِ ،
 ظَهِيرُ المَمْلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ ، عَضُدُ أميرِ المُؤْمِنِينَ » .



وَأَمَّا فِيمَا يَكْتُبُ عَنِ الثُّوَابِ فَقَدْ ذَكَرَ فِي "التَّعْرِيفِ" أَنَّ ألقَابَهَا مِنْ نِسْبَةِ
 مَا تَقَدَّمَ فِي ألقَابِ المَقْرِّ الشَّرِيفِ .

وَصَوْرَتَهَا عَلِيٌّ مَا أوردَهُ شَهَابُ الدِّينِ الفَارَقِيُّ فِي دُسْتُورِهِ عَنِ نَائِبِ الشَّامِ :
 «المَقْرُّ الكَرِيمُ ، العَالِي ، المَوْلَوِيُّ ، الأَمِيرِيُّ ، الكَبِيرِيُّ ، العَالِمِيُّ ، العَادِلِيُّ ، المؤَيَّدِيُّ ،
 المَهْدِيُّ ، العَوْنِيُّ ، المَقْدَمِيُّ ، الذُّخْرِيُّ ، الغِيَاثِيُّ ، الفُلَانِيُّ ؛ عِزُّ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ ،
 سَيِّدُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ، زَعِيمُ جُيُوشِ المُوَحِّدِينَ ، مَقْدَمُ العَسَاكِرِ المُجَاهِدِينَ ، ذُخْرُ الدَّوْلَةِ
 بِهَاءِ المِلَّةِ ، مَهْدُ المَمْلَكَةِ ، ظَهِيرُ المَمْلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ ، عَضُدُ أميرِ المُؤْمِنِينَ » .

وَصَوْرَتَهَا عَلِيٌّ مَا أوردَهُ الصَّلَاحُ الصَّفْدِيُّ فِي دُسْتُورِهِ عَنِ نَائِبِ الشَّامِ أَيْضًا :
 «المَقْرُّ الكَرِيمُ ، العَالِي ، المَوْلَوِيُّ ، الأَمِيرِيُّ ، الكَبِيرِيُّ ، العَالِمِيُّ ، العَادِلِيُّ ،
 المؤَيَّدِيُّ ، المُجَاهِدِيُّ ، الذُّخْرِيُّ ، العَضُدِيُّ ، النَّصِيرِيُّ ، المَقْدَمِيُّ ، العَوْنِيُّ ،
 الغِيَاثِيُّ ، الفُلَانِيُّ ؛ رُكْنُ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ، نُصْرَةُ
 الغُزَاةِ وَالمُجَاهِدِينَ ، غِيَاثُ المِلَّةِ ، كَهْفُ الأُمَّةِ ، ذُخْرُ المَمْلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ » .

ثم قال : وإن كان المكتوبُ إليه نائبَ سلطنة زيد في ألقابه « المَهْدِيّ » ،
المَشِيدِيّ ، الرَّعِيمِيّ ، المدَبْرِيّ ، الكافِلِيّ ، الفلَانِيّ » .

وصورتها على ما أورده غيره : « المَقْتَرُ الكَرِيمُ ، العَالِي ، المَوَلَوِيّ ، الأَمِيرِيّ ،
الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَادِلِيّ ، العَوْتِيّ ، العِيَانِيّ ، الذُّنْحَرِيّ ، الرَّعِيمِيّ ، الفلَانِيّ ،
عِزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ، جَمَالُ الدَّوْلَةِ ، ذُنُرُ المَلَّةِ ، زَيْنُ
المَلِكَةِ ، عَيْنُ السُّلْطَنَةِ ، سَفِيرُ الأُمَّةِ ، ظَهِيرُ المُلُوكِ والسُّلْطَانِينَ ، عَضُدُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ » .

وصورتها على ما رأيتُه في بعض الدَّسَاتِيرِ عن نَائِبِ حَلَبَ : « المَقْتَرُ الكَرِيمُ ، العَالِي ،
المَوَلَوِيّ ، الأَمِيرِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَلَدَلِيّ ، المُوَيْدِيّ ، الذُّنْحَرِيّ ، المُشِيدِيّ ،
الرَّعِيمِيّ ، الظَّهِيرِيّ ، الفلَانِيّ ، عِزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ،
نَاصِرُ الغَزَاةِ والمُجَاهِدِينَ ، زَعِيمُ الجِيُوشِ ، مَقْدَمُ العَسَاكِرِ ، عَوْنُ الأُمَّةِ ، ظَهِيرُ المُلُوكِ
وَالسُّلْطَانِينَ » .

المرتبة الثالثة — مَرْتَبَةُ المَقْتَرِ العَالِي . وقد ذكر في "عرف التعريف" أن
ألقابها من نسبة ما تقدم في المَقْتَرِ الشَّرِيفِ . وذكر الصَّالِحُ الصَّفْدِيّ في دُسْتُورِهِ
عن نَائِبِ الشَّامِ فِي ألقابه ما تقدم له في ألقاب المَقْتَرِ الكَرِيمِ ثم قال : إلا أنه لا يقال
فيه الذُّنْحَرِيّ .

وصورتها على ما رأيتُه في تَوْقِيعِ نَقِيبِ الأَشْرَافِ بِحَلَبَ عن النَائِبِ بِهَا : « المَقْتَرُ
العَالِي ، الأَمِيرِيّ ، الكَبِيرِيّ ، النَّقِيبِيّ ، الشَّرِيفِيّ ، الحَسِينِيّ ، النَّسِيبِيّ ، العَرِيقِيّ ،
الأَصِيلِيّ ، الفَاضِلِيّ ، العَلَامِيّ ، الحُجِّيّ ، القُدْوِيّ ، النَّاسِكِيّ ، الزَاهِدِيّ ، العَايِدِيّ ،
الفلَانِيّ ، عِزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ، جَلَالُ العُلَمَاءِ العَامِلِينَ ، جَمَالُ الفُضَلَاءِ البَارِعِينَ ،
مُجَّةُ الأَمْرَاءِ الحَاكِمِينَ ، زَيْنُ العِثْرَةِ الطَّاهِرَةِ ، شَرَفُ الأُسْرَةِ الزَاهِرَةِ ، مُجَّةُ العِصَابَةِ

الهاشمية، قُدوة الطائفة العلوية، مُجبة الفرقة الناجية الحسينية، شرف أولى المراتب،
نقيب أولى المناقب، ملاذ الطلاب الراغبين، بركة الملوك والسلاطين .

الدرجة الثانية

(درجة الجَنَاب، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة الجَنَاب الشريف . وليست مستعملة في السلطانيات،
وهي مستعملة فيما يُكْتَب عن التَّوَاب .

وصورتها على ما أورده في " عرف التعريف " : « الجَنَاب الشريف العَالِي،
المَوْلَى، المجَاهِدِي، المؤيِّدِي، الممهِّدِي، الذُّخْرِي، الأَوْحِدِي، العَوْنِي،
الظَّهْرِي، الفلاني؛ عز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء المقدمين، نُصرة الغزاة
والمجاهدين، عماد الملة، عون الأمة، ذخر الملة، ظهير الملوك والسلاطين، سيف
أمير المؤمنين » .

المرتبة الثانية — مرتبة الجَنَاب الكريم . وهي مستعملة في السلطانيات
وما يُكْتَب عن التَّوَاب .

فأما في السلطانيات فصورتها على ما أورده في " التعريف " في ألقاب النائب
الكافل في الزمن المتقدم : « الجَنَاب الكريم العَالِي، الأَمِيرِي، الأَجَلِّي، الكَيْرِي،
العَالِي، العَادِلِي، المؤيِّدِي، الممهِّدِي، المشيِّدِي، الزَّعِيمِي، الذُّخْرِي، المقْدَمِي،
العَوْنِي، العِيَانِي، المرَابِطِي، المُشَاغِرِي، المظْفَرِي، المنصوري، الأتابكي؛ ركن
الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين، أتابك الحيوش، مقدم العساكر،
زعيم الجنود، عاقد البُود، ذخر الموحدين، ناصر الغزاة والمجاهدين، غياث الأمة،

عون الملة ، مشيدّ الدول ، كافل الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب النائب الكافل أيضا على ما كان الحال عليه أولا : « الجَنَابُ الكَرِيمُ العَالِي ، الأَمِيرِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المؤَيَّدِي ، الزَّعِيمِي ، العَوْنِي ، الغِيَاثِي ، المُتَاغِرِي ، المُرَابِطِي ، المَهَّدِي ، المُشِيدِي ، الظَّهِيرِي ، الكَافِلِي ، الفَلَانِي ، مؤيّد الإسلام والمسلمين ، سيدُ أمراء العالمين ، ناصرُ الغزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحّدين ، مقدّمُ العساكر ، مهّدُ الدول ، مشيدّ الممالك ، عمادُ الملة ، عونُ الأمة ، كافل السلطنة ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . »

وصورتها على ما أورده في "التعريف" في ألقاب نائب الشام على ما كان الحال عليه أولا : « الجَنَابُ الكَرِيمُ العَالِي ، الأَمِيرِي ، الأَجَلِّي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المؤَيَّدِي ، المَهَّدِي ، المُشِيدِي ، العَوْنِي ، الغِيَاثِي ، الذُّخْرِي ، الزَّعِيمِي ، المُقَدَّمِي ، الظَّهِيرِي ، الكَافِلِي ، الفَلَانِي ، عَزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء في العالمين ، نُصْرَةُ الغزاة والمجاهدين ، زعيمُ الجيوش ، مقدّمُ العساكر ، عونُ الأمة ، غياثُ الملة ، مهّدُ الدول ، مشيدّ الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . »

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في المكاتبه لنائب الشام على ما كان عليه الحال أيضا : « الجَنَابُ الكَرِيمُ العَالِي ، الأَمِيرِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المؤَيَّدِي ، الزَّعِيمِي ، العَوْنِي ، الغِيَاثِي ، المُتَاغِرِي ، المُرَابِطِي ، المَهَّدِي ، المُشِيدِي ، الظَّهِيرِي ، الكَافِلِي ، الفَلَانِي ، عَزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء في العالمين ، نُصْرَةُ الغزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحّدين ، مقدّمُ العساكر ،

ممهّد الدول ، مشيّد الممالك ، عمادُ الملة ، عونُ الأمة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في المكتبة إلى أحد الأشراف الألوّس بمملكة إيران في دولة السلطان أبي سعيد : «الجناب الكريم العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الزعيمى ، العونى ، الغياثى ، المتأغرى ، المرابطى ، الممهّدى ، المشيّدى ، الثوينى ، الفلانى ؛ عونُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأشراف فى العالمين ، ناصرُ الغزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحّدين ، ممهّدُ الدول ، عمادُ الملة ، عونُ الأمة ، كافيُ الدولة القانيّة ، كافلُ المملكة الشرقية ، أميرُ التوامين ، أميرُ الألوّس ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، عضدُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" فى ألقاب ابن المظفر اليزدى : «الجناب الكريم العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، العونى ، الزعيمى ، الممهّدى ، المشيّدى ، الظهيرى ، الغياثى ، المتأغرى ، المرابطى ، الثوينى ، الفلانى ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأشراف فى العالمين ، ناصرُ الغزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحّدين ، مقدّمُ العساكر ، ممهّدُ الدول ، مشيّدُ الممالك ، عمادُ الملة ، عونُ الأمة ، حاكمُ أمور ولاة الزمان ، موصّحُ قوانين العدل والإحسان ، اعتضادُ صناديد الأوان ، مستنيبُ ملوك العجم ، مستخدمُ أرباب الطبل والعلم ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين .



وأما فيما يكتب عن الثواب وما كان يكتب به فى الإخوانيات فى الزمن المتقدم ، فقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نسبة ما تقدّم فى ألقاب الجناب الشريف .

وصورتها على ما أورده القاضي شهاب الدين الفارقي في دُستوره عن نائب الشام :
« الجَنَابُ الكَرِيمُ العَالِي ، المَوَلَوِيُّ ، الأَمِيرِيُّ ، الكَبِيرِيُّ ، العَالِمِيُّ ، العَادِلِيُّ ،
العَضُدِيُّ ، النَّصِيرِيُّ ، المُوَيَّدِيُّ ، المَقْدَمِيُّ ، الذُّخْرِيُّ ، الفَلَانِيُّ ؛ مَجْدُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ،
شَرَفُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ، نُصْرَةُ العُرَاةِ والمُجَاهِدِينَ ، ظَهْرُ المُلُوكِ والسُّلْطَانِينَ » .

وصورتها على ما أورده الصَّلاح الصفديّ في دُستوره عن نائب الشام : « الجَنَابُ
الكَرِيمُ العَالِي ، المَوَلَوِيُّ ، الأَمِيرِيُّ ، العَالِمِيُّ ، العَادِلِيُّ ، العَوْنِيُّ ، الغِيَاثِيُّ ،
الظَّهْرِيُّ ، المَقْدَمِيُّ ، الفَلَانِيُّ ؛ عِزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ، شَرَفُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ،
نَاصِرُ العُرَاةِ والمُجَاهِدِينَ ، ظَهْرُ المُلُوكِ والسُّلْطَانِينَ » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَابِ العَالِي ، وهي مستعملة في السلطانيات وما يكتب
عن التَّوَابِ وما كان في الإِخْوَانِيَّاتِ قَدِيمًا .

فَأَمَّا فِي السُّلْطَانِيَّاتِ فَلَهَا رَتَبَتَانِ :

الرَّتَبَةُ الأُولَى — مع الدَّعَاءِ بِمُضَاعَفَةِ النِّعْمَةِ .

وصورتها على ما أورده في " التعريف " في ألقاب نائب حلب على ما كان الحال
عليه أولاً : « الجَنَابُ العَالِي ، الأَمِيرِيُّ ، الأَجَلِيُّ ، الكَبِيرِيُّ ، العَالِمِيُّ ، العَادِلِيُّ ،
المُهَيَّدِيُّ ، المَشِيدِيُّ ، العَوْنِيُّ ، الذُّخْرِيُّ ، الرَّعِيمِيُّ ، المَقْدَمِيُّ ، الظَّهْرِيُّ ، المُرَابِطِيُّ ،
المُتَاغِرِيُّ ، الفَلَانِيُّ ؛ عِزُّ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ ، سَيِّدُ الأَمْرَاءِ فِي العَالَمِينَ ، نَصِيرُ العُرَاةِ
والمُجَاهِدِينَ ، زَعِيمُ جِيُوشِ المُوَحَّدِينَ ، عِمَادُ الأُمَّةِ ، دُخْرُ الدَّوْلَةِ ، ظَهْرُ المُلُوكِ
والمُسْلِمِينَ ، سَيْفُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ » .

وصورتها على ما أورده في " التثقيف " في ألقاب نائب طَرَابُلسَ وَمَنْ فِي رُتَبَتِهِ :
« الجَنَابُ العَالِي ، الأَمِيرِيُّ ، الكَبِيرِيُّ ، العَالِمِيُّ ، العَادِلِيُّ ، المُوَيَّدِيُّ ، العَوْنِيُّ ،

الزَعِمِيّ، الممهّديّ، المشيّدِيّ، الظّهيريّ، الكافِيّ، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام
والمسلمين، سيّدُ أمراء العالمين، نُصرةُ الغزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحّدين
مقدّمُ العساكر، ممهّدُ الدّول، مشيّدُ الممالك، عمادُ المِلَّة، عونُ الأُمّة، ظهيرُ الملوك
والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين.»

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب قطلوبغا إيناق أحد امراء الأُلوس
بلاد أذربك : «الجناب العالی، الأمیری، الكبیری، العالی، العادلی، المؤیدی،
العونی، الزعیمی، الممهّديّ، المشيّدِيّ، الظهيريّ، النويّی، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام
والمسلمين، سيّدُ الأمراء في العالمين، نُصرةُ الغزاة والمجاهدين، زعيمُ الجيوش، مقدّمُ
العساكر، كهفُ المِلَّة، دُخْرُ الدّولة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين.»
الرتبة الثانية — مع الدعاء بدوام النعمة .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب مقدّم العسكر بغزة وهنّ في رتبته :
«الجنابُ العالی، الأمیری، الكبیری، العالی، العادلی، المؤیدی، الأوحديّ،
النصيريّ، العونی، الهامی، المقدّمی، الظهيريّ، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين،
سيّدُ الأمراء في العالمين، نُصرةُ الغزاة والمجاهدين، مقدّمُ العساكر، كهفُ المِلَّة،
دُخْرُ الدّولة، عمادُ المملكة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، حُسامُ أمير المؤمنين.»

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب مامی : أحد الحُكّام ببلاد أذربك كان :
«الجناب العالی، الأمیری، الكبیری، العالی، المُجاهديّ، المؤیدی، الدّخريّ،
النصيريّ، الهامی، المقدّمی، النويّی، الفلانيّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين،
سيّدُ الأمراء في العالمين، نُصرةُ الغزاة والمجاهدين، مقدّمُ العساكر، دُخْرُ الدّولة،
عَضُدُ الملوك والسلاطين، حُسامُ أمير المؤمنين.»



وأما ما يكتب عن التّوابع وما كان يكتب في الإخوانيات قديماً، فقد ذكر في "عرف التعريف" أن ألقابه من نسبة ما تقدم في ألقاب الجنّاب الشريف .

وصورتها على ما أورده الصّلاح الصّفديّ في دُستوره عن نائب الشام في الرتبة الأولى منها: «الجنّابُ العالی، الأمیری، الأجلّی، الكبیری، المؤیّدی، المجاهدی، العونی، المقدّمی، الاسفَهَسَلاری، الظّهیری، الفلانی، مجد الإسلام والمسلمین، شرفُ الأمراء المقدّمین، نُصرةُ الغزاة والمجاهدین، عَضُدُ الملوك والسلاطین» .

وصورتها على ما أورده في "التذكرة الأمّديّة" عن نائب الشام أيضاً في الرتبة الثانية من هذه المرتبة: «الجنّابُ العالی، الأمیری، الكبیری، العَضُدی، الذُّخری، النَّصیری، المؤیّدی، المقدّمی، الظّهیری، الفلانی، مجد الإسلام والمسلمین، شرفُ الأمراء في العالمین، نُصرةُ الغزاة والمجاهدین، ظهيرُ الملوك والسلاطین» .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(مرتبة المجلس العالی)

وهي مستعملة في السلطانيات وما يكتب عن التّوابع وما كان يكتب في الإخوانيات قديماً .

فأما في السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولى - مع الدعاء للجلس .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب نائب الكرك : « المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المقدمى ، الأوحدي ، النصيرى ، الهمامى ، الظهيري ، الفلاني ، عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء في العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، مقدم العساكر ، كهف الملة ، دُخر الدولة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حسام أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" أيضا في ألقاب وزير القان ببلاد أذربك : « المجلس العالى الأميرى ، الكبيرى ، الذخري ، الأوحدي ، الاكلى ، المتصرفى ، العونى ، الوزيرى ، الفلاني ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء والوزراء في العالمين ، جمال المتصرفين ، أوجد الأولياء المقربين ، دُخر الدولة ، مشير الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" أيضا في ألقاب حافظ أنحى على باشاه : « المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الأوحدي ، النصيرى ، العونى ، الهمامى ، المقدمى ، الظهيري ، التوينى ، الفلاني ، عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء في العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، كهف الملة ، عماد الأمة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حسام أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب أمير مكة المشرفة : « المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الشريفي ، الحسيني ، النسيبي ، العالمى ، المجاهدى ،

المُقَدَّمِي ، الأُوْحَدِي ، النَّصِيرِي ، العَوْنِي ، الهَمَامِي ، الظَّهِيرِي ، الأَصِيلِي ،
العَرِيْقِي ، الشَّهَابِي ؛ عِزَّ الإسلام والمسلمين ، شَرُفُ الأُمراء الأشراف في العالمين ،
نُصْرَةُ الغَزَاة والمجاهدين ، كَهْفُ المِلَّة ، عَوْنُ الأُمَّة ، نَخْرُ السُّلَالَةِ الزَاهِرَةِ ، زَيْنُ العِتْرَةِ
الطَاهِرَةِ ، بَهَاءُ العِصَابَةِ العَلَوِيَّة ، جَمَالُ الطَائِفَةِ الهَاشِمِيَّة ، ظَهِيرُ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ،
سَيِّبُ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب أمير آل فضل من عرب
الشام : « المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ،
الأوحدى ، النصيرى ، العونى ، الهمامى ، المقدمى ، الظهيري ، الأصيلي ، الفلاني ،
عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأُمراء العُرَبَانِ في العالمين ، نُصْرَةُ الغَزَاة والمجاهدين ،
مقدم العساكر ، كهف المِلَّة ، دُخْرُ الدَوْلَةِ ، عماد العَرَب ، ظهير الملوك والسلاطين ،
حسام أمير المؤمنين .

الرتبة الثانية - المجلس العالى مع صدرت .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب نائب الرِّجْبَةِ وَمَنْ في رُتْبَتِهِ :
« المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العُضْدِي ، الذُّخْرِي ، النَّصِيرِي ، الأُوْحَدِي ،
المؤيدى ، العونى ، الهمامى ، المقدمى ، الظهيري ، الفلاني ؛ مَجْدُ الإسلام والمسلمين ،
شرف الأُمراء المقدمين ، نُصْرَةُ الغَزَاة والمجاهدين ، مقدم العساكر ، دُخْرُ الدَوْلَةِ ،
كهف المِلَّة ، ظهير الملوك والسلاطين .



وأما فيما يكتب عن الثَّوَابِ وما كان يُكْتَبُ في الإخوَانِيَّاتِ أَوَّلًا ، فصورتها على
ما أورده في "عُرف التعريف" : « المجلس العالى ، الأميرى ، الاسفَهْسَلَارِي ،

الأجلّيّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيدىّ ، النصيرىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ،
مجد الإسلام والمسلمين ، زينُ الأُمراءِ المقدّمين ، نُصرة الغزاة والمجاهدين ،
عَضُدُ الملوك والسلاطين .

وصورتها على ما أورده الصّلاحُ الصّفدىّ في دُسْتُوره عن نائب الشام " المجلس
العالى ، الأميرىّ ، الأجلّيّ ، الكبيرىّ ، المؤيدىّ ، المجاهدىّ ، الاسفَهسَلارىّ ،
العونىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأُمراءِ المقدّمين
نُصرة الغزاة والمجاهدين ، عَضُدُ الملوك والسلاطين .

وصورتها على ما أورده في "التذكرة الآمدية" عن نائب الشام : « المجلس العالى ،
الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العُضدىّ ، النصيرىّ ، المؤيدىّ ، المجاهدىّ ، الذُخرىّ ،
مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأُمراءِ المقدّمين ، ذُخْرُ الغزاة والمجاهدين ،
عَضُدُ الملوك والسلاطين .

المرتبة الثانية

(مرتبة المجلس السامىّ بالياء)

وهو مستعمل في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره المقرّ الشهابىّ بن فضل الله في بعض
دساتيره في توقيع تقيب الأشراف : « المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ،
العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيدىّ ، الشريفىّ ، الحسينىّ ، النسبىّ ، الذُخرىّ ،
النصيرىّ ، الأوحديّ ، الأصبلىّ ، عزّ الإسلام ، زينُ الأنام ، نسيب الإمام ،
شرفُ الأُمراءِ ، تقيبُ النُقباء ، جمالُ العترة الطاهرة ، جلالُ الأسرة الزاهرة ، ذُخْرُ
الغزاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب الكُشَاف بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : «المجلس السامي ، الأميري ، الكبيرى ، الذُخْرى ، النَّصِيرى ، الأُوحدى ، المؤيِّدى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرفُ الأُمراء ، أوحدُ المجاهدين ، عضدُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته في بعض المراسيم لأمير آل مرا من عرب الشام : «المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيِّدى ، العَضدى ، الذُخْرى ، النَّصِيرى ، الأُوحدى ، الأَصِيلى ، العَرِيقى ؛ مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرفُ الأُمراء ، زينُ القبائل ، نَفر العِشائر ، مَلأذُ العرب ، عضدُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب وزير الشيخ أويس ببغداد : «المجلس السامى ، الأَجَلِّى ، الكبيرى ، الأُوحدى ، المقدمى ، المتخجى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام ، بهاءُ الأنام ، شرفُ الرؤساء ، أوحدُ الأعيان ، صَفوةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها في ألقاب أمراء العرب : «المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، الذُخْرى ، المؤيِّدى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام ، بهاءُ الأنام ، زينُ القبائل ، نَفر العِشائر ، عمادُ الملوك والسلاطين» .



وأما فيما يُكتَب عن الثَّواب ونحوهم ، فصورتها على ما أورده في "عُرف التعريف" : «المجلس السامى ، الأميرى ، الأَجَلِّى ، الكبيرى ، المؤيِّدى ، العَضدى ، النَّصِيرى ،

الأوحدى، الهمامى، الفلانى؛ مجد الإسلام، زين الأمراء فى الأنام، دُحْر الغزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده شهاب الدين الفارقى فى دُسْتُورِه عن نائب الشام :
«المجلس السامى، الأميرى، الأجلّى، الكبيرى، العَضُدى، النَّصِيرى، المؤيِّدى،
الفلانى؛ مجد الإسلام، جمالُ الأمراء، نُصرةُ الغزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك
والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده الصَّلَاحُ الصَّفَدَى فى دُسْتُورِه عن نائب الشام أيضا :
«المجلس السامى، الأميرى، الأجلّى، الكبيرى، المؤيِّدى، المجاهدى، العَضُدى،
النَّصِيرى، الهمامى، الفلانى؛ مجد الإسلام، شرفُ الأمراء، نُصرةُ الغزاة،
عمدَةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة

(مرتبة المجلس السامى بغير ياء)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتها على ما أورده فى "التتيف" فى ألقاب الولاية
الطَّبْلَخَانَاةِ بالوجهين القَبْلَى والبحرى: المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير،
الغازى، المجاهد، المؤيد، الأوحد، المرتضى؛ فلان الدين، مجد الإسلام،
بهاء الأنام، نحرُ الأمراء، زينُ المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيتُه فى بعض نُسخ التَّوَاقِيعِ : ترتيب الشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي: «المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الحسيب، النَّسِيب،

الطاهر، الكامل، العالم، العامل، الفاضل، الزاهد، الورع، الزكي، التقى؛
 فلان الدين، جلال الإسلام، شرف السادة الأشراف، نحر العترة الطاهرة،
 زين السلالة الزاهرة، نقيب نقباء الشرفاء، مجد العصبة العلوية، جمال العصبة الفاطمية؛
 صدر الأئمة العلماء، مجتبي الدولة، بهاء الملة، خالصة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما في ألقاب النائب بالينبع: «المجلس السامي، الأمير، الأجل،
 المجاهد، المؤيد، الشريف، الحسيب، النسيب؛ مجد الإسلام، بهاء الأنام،
 زين العترة، نحر الأشره، جمال الدرّيه، نحر الشجرة الزكية، عمدة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده في "التتيف" في ألقاب أكابر عربان آل فضل من
 عرب الشام: «المجلس السامي، الأمير، الأجل، الكبير، الغازي، المجاهد، المؤيد،
 الأوحّد، الأصيل؛ فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، فخر القبائل،
 زين العشائر، عماد الملوك والسلاطين» .



وأما فيما يكتب عن النّوَابِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ، فصورتها على ما أورده
 في "عرف التعريف": «المجلس السامي، الأمير، الأجل، الكبير، الغازي،
 المجاهد، المؤيد؛ فلان الدين، مجد الإسلام، زين الأمراء، نحر الأنام، دُحْر الغزاة
 والمجاهدين، عضد الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده في "التذكرة الآمدية" عن نائب الشام: «المجلس السامي،
 الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، المجاهد، العضد، النصير؛ فلان الدين، مجد الأمراء،
 شرف الخوآص، زين الغزاة، عدّة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعة

(درجةُ مجلسِ الأمير)

وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها على مرتبة واحدة .

فأما في السلطانيات، فصورُها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب الولاية العشرات بالوجهين القبلي والبحري: « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، الغازي، المجاهد، المؤيد، الأوحده، المرتضى؛ فلان الدين، مجد الأمراء، زين المجاهدين، عُدّة الملوك والسلاطين » .



وأما فيما يُكْتَب عن النُواب وَمَنْ في معناهم، فصورُها على ما أورده في "عرف التعريف": « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، الغازي، المجاهد، المرتضى؛ فلان الدين، فخر الأمراء، زين المجاهدين، عُمدة الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده الفارقي في دُستوره عن نائب الشام: « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، الأخص، الأكل، الغازي، المجاهد، المرتضى، المختار، فلان الدين، مجد الأمراء، زين الغزاة، عُدّة الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده في "الندوة الآمدية": « مجلس الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، المجاهد، الأعز، الأخص، الأكل، المجتبي، المختار، فلان الدين، مجد الأمراء، زين الغزاة، عُدّة الملوك والسلاطين » .

الدرجة الخامسة

(درجة الأمير مجزدا عن مضاف إليه)

وأكثر ما يأتي ذلك في الولايات أو فيمن يُكْتَبُ بسببه كُتَابٌ وما أشبه ذلك .
 وصورتها في السلطانيات : « الأميرُ الأجلُّ » وربما زيد على ذلك فقيل :
 « الكبيرُ الغازي » .

وصورتها في غير السلطانيات على ما أورده في " التذكرة الآمديّة " : « الأميرُ ،
 الأجلُّ ، الأخصُّ ، الأكلُّ » .

النوع الثاني

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ الديوانية . وهي أيضا على خمس درجات)

الدرجة الأولى

(درجة المَقَرِّ)

وليست مستعملةً في السلطانيات جملةً لأنه لا يُكْتَبُ لأحدٍ من هذا النوع
 عن السلطان بالمَقَرِّ ، وهي مستعملةٌ فيما يكتب عن التَّوَابِ وَمَنْ في معانهم ،
 ولها ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى — مرتبة المَقَرِّ الشريف . وصورتها على ما أورده
 في "عرف التعريف" في ألقاب الوزراء من أرباب الأعلام ، : « المَقَرِّ الشريف ،
 العالى ، المَوْلَوِيّ ، الصاحِيّ ، الوزيريّ ، المنقذِيّ ، العالمِيّ ، الممهديّ ، المشيّدِيّ ،

العَوْنِيّ، الغِيَاثِيّ، المَالِكِيّ، المَخْدُومِيّ، الفَلَانِيّ؛ صَلَاحُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ الوُزَرَاءِ فِي العَالَمِينَ، رَئِيسُ الأَصْحَابِ، قِوَامُ الأُمَّةِ، نِظَامُ المِلَّةِ، مَدَبَّرُ الدَّوْلَةِ، ذُنُحُ المَمَالِكِ، ظَهِيرُ المَمْلُوكِ والسُّلْطَانِ، وَوَلِيّ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" أيضا في ألقاب غير الوزراء من الكُتَّابِ : «المَقَرَّ الشَّرِيفُ، العَالِي، المَوَلَوِيّ، القَضَائِيّ، السَّيِّدِيّ، العَالِمِيّ، العَادِلِيّ، المَهْمَدِيّ، المَشِيدِيّ، العَوْنِيّ، الغِيَاثِيّ، المَالِكِيّ، المَخْدُومِيّ، الفَلَانِيّ؛ صَلَاحُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ الرُّؤَسَاءِ فِي العَالَمِينَ، رَئِيسُ الأَصْحَابِ، قِوَامُ الأُمَّةِ، نِظَامُ المِلَّةِ، زَيْنُ الدَّوْلَةِ، ذُنُحُ المَمَالِكِ، ظَهِيرُ المَمْلُوكِ والسُّلْطَانِ، وَوَلِيّ أمير المؤمنين .»

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير عن نائب الشام في ألقاب بعض كُتَّابِ السَّرِّ العُلَمَاءِ : «المَقَرَّ الشَّرِيفُ، العَالِي، المَوَلَوِيّ، القَاضِيّ، الكَبِيرِيّ، العَالِمِيّ، العَامِلِيّ، العَالِمِيّ، الأَكْبَلِيّ، الأَفْضَلِيّ، المُفِيدِيّ، الفَرِيدِيّ، القُدْرِيّ، المَحْقَقِيّ، المُسَلِّكِيّ، الأَصِيلِيّ، العَرِيقِيّ، المَدَبَّرِيّ، المُشِيرِيّ، الِيمِينِيّ، السَّفِيرِيّ، المَالِكِيّ، المَخْدُومِيّ، الشَّيْخِيّ، العَالِمِيّ؛ ضِيَاءُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ العُلَمَاءِ والرُّؤَسَاءِ والمَشَائِخِ فِي العَالَمِينَ، رَئِيسُ الأَصْحَابِ، نَجْمُ الكُتَّابِ، حَسَنَةُ الأَيَّامِ، بَقِيَّةُ السَّلَفِ الكَرَامِ، صَدْرُ مِصْرَ والشَّامِ، لِسَانُ السُّلْطَنَةِ، سَفِيرُ المَمْلَكَةِ، شَيْخُ شُيُوخِ العَارِفِينَ، جَامِعُ طُرُقِ الوَاصِفِينَ، صَدْرُ المُدْرَسِينَ، مُشِيرُ المَمْلُوكِ والسُّلْطَانِ، وَوَلِيّ أمير المؤمنين .»

المرتبة الثانية — مَرْتَبَةُ المَقَرَّ الكَرِيمِ . قال في "عرف التعريف" : والألقاب فيها من نسبة ما تقدم في ألقاب المَقَرَّ الشَّرِيفِ .

وصورتها على ما أورده الصَّلاحُ الصَّفَدِيُّ في دُستوره عن نائب الشام :
« المَقَرَّ الكَرِيم ، العَالِي ، المَوْلَوِي ، القَضَائِي ، العَالِمِي ، القَوَامِي ، النَّظَامِي ، المَدْبَرِي ،
المُشِيرِي ، المَلَادِي ، الفَلَانِي ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين ، سَيِّدُ الأَكْبَارِ فِي العَالَمِينَ ،
عَوْنُ الأُمَّةِ ، ذُخْرُ المِلَّةِ ، مَدْبَرُ الدُّوَلِ ، حَمَّالُ المَلِكِ ، حَسَنَةُ الوُجُودِ ، خَالِصَةُ
المَلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ » .

المرتبة الثالثة — مَرْتَبَةُ المَقَرَّ العَالِي . وقد جعلها في ” عرف التعريف “ من
نسبة ما تقدم من ألقاب المقرَّ الشريف أيضا .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير عن نائب الشام فيما كُتِبَ به للقاضي
شرف الدين عبد الوهَّاب بن أبي الطيب كاتب السرِّ بالشام : « المَقَرَّ العَالِي ،
المَوْلَوِي ، القَضَائِي ، الكَبِيرِي ، العَالِمِي ، الفَاضِلِي ، الكَامِلِي ، البَارِعِي ، الأَوْحِدِي ،
المَاجِدِي ، القَوَامِي ، النَّظَامِي ، المُفَوِّهِي ، الرَّبِيسِي ، الأَيْبَرِي ، الأَيْبَلِي ، الأَصِيلِي ،
العَرِيقِي ، الفَلَانِي ؛ عِزُّ الإِسْلَامِ والمُسلِمِينَ ، شَرَفُ الرُّؤَسَاءِ فِي العَالَمِينَ ، أَوْحُدُ
الفَضْلَاءِ المَاجِدِينَ ، حُجَّةُ المُتَنَشِّئِينَ ، صَدْرُ الرُّؤَسَاءِ ، رَأْسُ الصُّدُورِ ، عَيْنُ الأَعْيَانِ ،
خَالِصَةُ المَلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ » .

الدرجة الثانية

(درجة الجَنَابِ ، وفيها ثلاثُ مراتب)

المرتبة الأولى — مَرْتَبَةُ الجَنَابِ الشَّرِيفِ . وهي مستعملةٌ ^(١) في غير السلطان دون
السُّلْطَانِيَّاتِ . قال في ” عرف التعريف “ : وهي من نسبة الألقاب المتقدمة
في المَقَرَّ الشَّرِيفِ .

(١) عبارة الضوء ج ١ ص ١٨٠ «وهي مخصصة بما يكتب عن التواب دون السلطانيات» وهي أوضح.

المرتبة الثانية — مرتبةُ الجَنابِ الكَرِيمِ . وجعلها في "عرف التعريف" من نسبة ماتقدم في المقرّ الشريف .

وصورتها على ما أورده الصّالِحُ الصّفديّ في دُستوره عن نائب الشام : « الجَنابِ الكَرِيمِ العَالي ، المَولُويّ ، القَضائيّ ، العالِمِيّ ، الأَوحديّ ، الرَئيسِيّ ، الأَجَلِيّ ، الأَثيرِيّ ، البارِعِيّ ، الماجِديّ ، الفَلاَنِيّ ، مُجدُ الإسلامِ والمُسلمين ، شرفُ الرُؤساءِ في العالمين ، جمالُ الأَكابر ، نَحرُ الأَعيان ، أَوحدُ الكُتّاب ، خالصةُ الملوِكِ والسلاطين » .

وصورتها على ما رأته في بعض الدساتير عن نائب الشام في توقيعٍ باسمِ شهابِ الدين ابن أبي الطيب بكتابة الدست بالشام : « الجَنابِ الكَرِيمِ ، العَالي ، المَولُويّ ، القَضائيّ ، الكَبيرِيّ ، العالِمِيّ ، العالِمِيّ ، البارِعِيّ ، الكامِليّ ، الماجِديّ ، القَواِمِيّ ، النَظامِيّ ، الرَئيسِيّ ، الأَصيلِيّ ، العَريقِيّ ، الأَوحديّ ، الفَلاَنِيّ ، جلالُ الإسلامِ والمُسلمين ، أَوحدُ الرُؤساءِ في العالمين ، تاجُ الفضلاءِ المُنتشِئين ، جَهِدُ الحُدّاقِ المتصَرِّفين ، سُلالةُ الأَتقياءِ العارفين ، خالصةُ الملوِكِ والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنابِ العَالي ، وهي مستعملةٌ في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "الثقيف" في ألقاب الوزارة بالديار المصرية : « الجَنابِ العَالي ، الصّاحِبيّ ، الكَبيرِيّ ، العالِمِيّ ، العادِلِيّ ، الأَوحديّ ، الأَكَمَلِيّ ، القَواِمِيّ ، النَظامِيّ ، الأَثيرِيّ ، البَليغِيّ ، المَنقَديّ ، المَسَدِديّ ، المتصَرِّفيّ ، الممهَديّ ، العَونِيّ ، المَدبَريّ ، المُشيرِيّ ، الوَزيزِيّ ، الفَلاَنِيّ ، صَلاحُ الإسلامِ والمُسلمين ، سَيِّدُ الوَزاراءِ في العالمين ، رَئيسُ الكُبراءِ ، كَبيرُ الرُؤساءِ ، أَوحدُ الأَصحابِ ، مَلاذُ الكُتّاب ، قَوامُ الدُّولِ ، نِظامُ المُلكِ ، مُفيد

المتاجح، معتمد المصالح، مرتب الجيوش، عماد الملة، عون الأمة، مشير الملوك
والسلاطين، ولي أمير المؤمنين» .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما رأيتها في بعض الدساتير عن نائب الشام
في ألقاب كاتب دسْت بالشام: «الجناب العالی، القضاة، الكبرى، العالمی،
الفاضلی، الأكلی، البارعی، الأوحدي، القوامی، النظامی، المقوهی، الرئيسی،
الماجدي، الفلانی، مجد الإسلام والمسلمين، شرف الرؤساء في العالمين،
أوحد الفضلاء الماجدين، قُدوة البغاء، جمال الكُتاب، زين المنتشين، خالصة
الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المجلس العالی، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب كاتب السرِّ
بالأبواب السلطانية: «المجلس العالی، القاضوی، الكبرى، العالمی، العادلی،
العلامی، الأفضلی، الأكلی، البلیغی، المسددي، المنقذی، المشیدی، العونی،
المشیری، الیمینی، السفیری، الأصیلی، العریقی، الفلانی، صلاح الإسلام
والمسلمين، سيد الرؤساء في العالمين، قُدوة العلماء العالمين، جمال البغاء،

أوحد الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كهفُ الكُتَّاب ، بينُ المملكة ، لسانُ السُّلْطَنَة ،
سفيرُ الأُمّة ، سليلُ الأَكابر ، مشيرُ الملوك والسلاطين ، وليُّ أمير المؤمنين .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب ناظر الخوَّاص الشريفة :
« المجلسُ العالی ، القاضويُّ ، الكبيرُ ، العالیُّ ، الفاضليُّ ، الأوحديُّ ، الأكلبيُّ ،
الرئيسيُّ ، البليغيُّ ، البارعيُّ ، القواميُّ ، النظاميُّ ، الماجديُّ ، الأميريُّ ، المنقذیُّ ،
المسدديُّ ، المتصرفيُّ ، الفلانيُّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء في العالمين ،
قوامُ المصالح ، نظامُ المناجح ، جلالُ الأَكابر ، قُدوةُ الكُتَّاب ، رئيسُ الأصحاب ،
عمادُ المِلَّة ، صفوةُ الدولة ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، وليُّ أمير المؤمنين . »

وصورتها على ما أورده في ألقاب وزير دمشق إذا صُرح له بالوزارة : « المجلسُ
العالی ، الصاحبيُّ ، الوزيريُّ ، الأصيليُّ ، الكبيرُ ، العالیُّ ، العادليُّ ، المؤيديُّ ،
الأوحديُّ ، القواميُّ ، النظاميُّ ، الماجديُّ ، الأثيريُّ ، المشيريُّ ، الفلانيُّ ؛
صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الوزراء في العالمين ، رئيسُ الكُبراء ، كبيرُ الرؤساء ،
بقيةُ الأصحاب ، ملاذُ الكُتَّاب ، عمادُ المِلَّة ، خالصةُ الدولة ، مشيرُ الملوك والسلاطين ،
خالصةُ أمير المؤمنين . »

وصورتها على ما أورده في ألقابه إذا لم يُصرَّح له بالوزارة ، بل كان ناظر النُّظار
بالمملكة الشامية : « المجلسُ العالی ، القضايُّ ، الكبيرُ ، العالیُّ ، العامليُّ ،
الأوحديُّ ، الرئيسيُّ ، الأثيريُّ ، القواميُّ ، النظاميُّ ، المنقذیُّ ، المتصرفيُّ ، الفلانيُّ ؛
مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأُمراء في العالمين ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الكُبراء ،
حُجَّةُ الكُتَّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين . »



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التذكرة الآمدية" في بعض التواقيع من ترتيب المقرّ الشهابي بن فضل الله بكتابة الدست بالشام: «المجلس العالى، القضاة، الأجلّ، الكبرى، الرئيسى، العالمى، العالمى، البارعى، الأوحدي، الماجدى، الأثيرى، الأصيلى، الأفضلى، الفلانى؛ مجد الإسلام، بهاء الأنام، شرف الرؤساء، أوجد الكبراء، صدر الأعيان، جمال الكُتاب، جلال الحُساب، صفوة الدولة، خالصة الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى بالياء، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات فلم يذكر صورتها في "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير: «المجلس السامى، القضاة، الأجلّ، الكبرى، العالمى، الفاضلى، الكافى، الرئيسى، الأوحدي، الأصيلى، الأثيرى، البليغى، الفلانى؛ مجد الإسلام، شرف الرؤساء، نحر الأنام، زين البلغاء، جمال الفضلاء، أوجد الكُتاب، نحر الحُساب، صفوة الملوك والسلاطين» .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما رأيت في "التذكرة الآمدية" في توقيع بكتابة الدرّج عن نائب الشام: «المجلس السامى، القضاة، الأجلّ، الكبرى، العالمى، الفاضلى، الكاملى، البليغى، الأصيلى، الرئيسى، الفلانى؛ مجد الإسلام، شرف الرؤساء، جمال الكُتاب، جمال البلغاء، مرتضى الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة في السلطانيات

وغيرها .

فأما في السلطانيات، فلم يذكر لها صورة في "التثقيف" أيضا .

وصورتها على ما رأيت في "التذكرة الآمدية" في توقيع شريف بكتابة الدرّج :
المجلس السامى، القاضى، الأجل، الكبير، الصدر، الرئيس، الأوحّد، البارّع،
الكامل، الأصيل، الفاضل، فلان الدين، جمال الإسلام، بهاء الأنام،
شرف الأكاير، زين الرؤساء، أوحّد الفضلاء، زين الكُتاب، صفوة الملوك
والسلاطين» .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما رأيت في "التذكرة الآمدية" في توقيع
كريم عن نائب الشام بكتابة الدرّج بالشام، ترتيب مؤلف "التذكرة" المذكورة :
«المجلس السامى، القاضى، الأجل، الكبير، الفاضل، البارّع، الكامل، الأوحّد،
الرئيس، الأثير، فلان الدين، مجد الإسلام، شرف الصُدور، أوحّد الفضلاء،
زين الكُتاب، جمال الحُساب، صفوة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعة

(درجة مجلس القاضى، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات، فلم يُورد لها في "التثقيف" أيضا صورة .

وصورتها على ما يقتضيه عرف الديوان : «مجلس القاضى، الأجل، الكبير،
الفاضل، الأوحّد، الأثير، الرئيس، البليغ، العريق، الأصيل، فلان الدين،
مجد الإسلام، بهاء الأنام، شرف الرؤساء» .



وأما في غير السلطانيات، فعلى نحو ذلك .

الدرجة الخامسة

(١)

(درجة القاضي، وهي مستعملة في السلطانيات [وغيرها])

وصورتها فيهما: «القاضي الأجل» وربما زيد في تعظيمه فقيل «الكبير
الصدر الرئيس» ونحو ذلك.

النوع الثالث

(من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الوظائف الدينية،

وهي على خمس درجات أيضا)

الدرجة الأولى

(درجة المَقَرِّ)

وهي مختصة بغير السلطانيات، لأنه لا يُكْتَب لأحد من أهل هذا النوع
عن السلطان بالمَقَرِّ أيضا، بل قال في «عرف التعريف»: إنه لا يُكْتَب به لأحد
من هذا النوع في غير السلطانيات أيضا ولكن رأيت مستعملا فيما يكتب عن
النواب بالملك. وهي على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى — مرتبة المَقَرِّ الشريف.

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير في توقيع عن نائب الشام للقاضي
جمال الدين إبراهيم بن العديم ببعض الأنظار والتداريس بالشام: «المَقَرِّ الشريف،
العالى، المَوْلَى، القاضى، الكبيرى، العالمى، العادلى، الأصيلى، العريقى،
القوامى، النظامى، الإمامى، العلامى، القُدوى، المفيدى، الشيخى، الصاحبى»

الحاكمي، المحسني، الفلاني؛ جمال الإسلام والمسلمين، سيد الفضلاء العاملين،
 قدوة العلماء في العالمين، لسان المتكلمين، برهان المناظرين، صدر المدرسين،
 جلال الطالبين، بقية السلف الكرام الدارجين، بركة الملوك والسلاطين، خالصة
 أمير المؤمنين» .

المرتبة الثانية — مرتبة المقرّ الكريم .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير عن نائب الشام في توقيع بعض الوظائف
 الدنيّة بدمشق : « المقرّ الكريم العالی، المولوي، القضائي، الصاحبي، الإمامي،
 العالمي، العائلي، العلّامي، المفیدی، الفريدي، البليغي، الأوحدي، المحققي،
 القوامي، النظامي، العريقي، الحاكمي، المحسني، الفلاني؛ جمال الإسلام
 والمسلمين، جلال العلماء العاملين، أوجد المتكلمين، أكمل البلغاء في العالمين، قدوة
 المحققين، بركة الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة المقرّ العالی .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير عن نائب حلب بتدريس بها : « المقرّ
 العالی، المولوي، الشيخي، الكبيری، الإمامي، العالی، العلّامي، المفیدی،
 القدوي، الفريدي، المحققي، القوامي، النظامي، الحاكمي، الفلاني؛ علاء الإسلام
 والمسلمين، أوجد الفضلاء العارفين، رحلة الطالبين، نخبة المحققين، جمال العلماء
 في العالمين، خالصة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثانية

(درجة الجَنَاب)

وقد جعلها في "عرف التعريف" أعلى ما يُكْتَب لهذا النوع ، وهي على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى - مرتبة الجَنَاب الشريف . وهي مختصة بغير السلطانيات .
 وصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" « الجَنَابُ الشريفُ العالی ،
 المولوی ، القضائي ، السیدی ، الإمامی ، العالمی ، العالمی ، العلامی ، الكاملی ،
 الأصیلي ، الأوحدي ، المفیدی ، القُدوی ، الفريدي ، الحُجّي ، المجتهدی ، الفلانی ،
 حُجّة الإسلام (أَوْضِيَاء الإسلام) شرفُ الأنام ، أميرُ الإمام ، صدرُ الشام ، سيدُ العلماء
 والحُكّام ، أو أوحدُ العلماء الأعلام ، بقیةُ السلفِ الكرام ، شيخُ المذاهب ، مُجَلّي
 العیاهب ، قُدوةُ الفرق ، رئیسُ الأصحاب ، مفتیُ السنّة ، مؤيّدُ الملة ، شمسُ الشريعة ،
 سيفُ النظر ، مفیدُ الطالبین ، لسانُ المتكلمین ، ولیُّ أميرِ المؤمنین » .

فإن كان حاكما قبل الفلانی « الحاکمی » وقبل ولیِّ أميرِ المؤمنین « حاکم
 الملوك والسلطين » .

المرتبة الثانية - مرتبة الجَنَاب الكريم . وهي مختصة بغير السلطانيات أيضا .
 وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير الشامية في توقيع القاضي جمال الدين
 ابن أبي جرادة الحنفی ببعض الوظائف الدينية : « الجَنَابُ الكريمُ العالی ، المولوی ،
 القضائي ، الكبري ، الصاحبي ، الإمامي ، العالمی ، الفاضلي ، الكاملی ، الأريبي ،
 اللببي ، الأصیلي ، العریقي ، القوامي ، النظامي ، الفلانی ، جمالُ الإسلام والمسلمين ،
 أوحدُ الفضلاء في العالمين ، أكملُ نُجباء الأبناء العالمين ، خالصةُ الملوك والسلطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَابِ العالى . وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .
فأما فى السلطانيات ، فصورتها على ما أستقر عليه الحال فى ألقاب قاضى القضاة
الشافعى بالديار المصرية : « الجَنَابِ العالى ، القاضوى ، الشيخى ، الكبيرى ،
العالمى ، العالمى ، الأفضلى ، الأكملى ، الأوحدى ، البليغى ، الفريدى ، المفيدى ،
التجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحققى ، الورعى ، الخاشعى ، الناسكى ، الإمامى ،
العلاى ، الأصبلى ، العريقى ، الحاكمى ، الفلانى ؛ جمال الإسلام والمسلمين ،
شرف العلماء العاملين ، أوجد الفضلاء المفيدين ، قدوة البلغاء ، حجة الأمة ، عمدة
المحققين ، نخر المدرسين ، مفتي المسلمين ، جلال الحُكَّام ، بركة الدولة صدر مصر
والشام ، معز السنة ، مؤيد الملة ، شمس الشريعة ، رئيس الأصحاب ، لسان المتكلمين ،
حكَم الملوك والسلطين ، ولي أمير المؤمنين » .



وأما فى غير السلطانيات ، فصورتها على ما رأيت فى بعض الدساتير فى توقيع عن
نائب الشام ببعض الوظائف الدينية لبعض العلماء : « الجَنَابِ العالى ، الشيخى ،
الكبرى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدى ، الماجدى ، القوامى ، النظامى ،
الفلانى ؛ ضياء الإسلام والمسلمين ، أوجد الفضلاء العارفين ، جلال الأئمة
فى العالمين ، خالصة الملوك والسلطين » .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى - مرتبة المجلس العالى، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها .
 فأما في السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب القضاة
 الثلاثة بالديار المصرية غير الشافعي : « المجلس العالى ، القاضوى ، الكبرى » ،
 العالمى ، العالمى ، الأفضلى ، الأكلبى ، الأوحدي ، البليغى ، الفريدى ، المفيدى ،
 النجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحققى ، الإمامى ، الأصيلى ، العريقى ، الحاكى ،
 الفلانى ؛ جمال الإسلام والمسامين ، سيد العلماء العاملين ، أوحدهم الفضلاء المفيدين ،
 قُدوة البلغاء ، حُجَّة الأمة ، مُحمَّدة المحدثين ، نحر المدرسين ، مفتي المسلمين ، جلال
 الحُكَّام ، حَكَم الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" : « المجلس
 العالى ، القضاى ، الأجلبى ، الإمامى ، الصدى ، الرئيسى ، الفقيهى ، العالمى ،
 العالمى ، الكاملى ، الفاضلى ، الأوحدي ، الفلانى ؛ مجد الإسلام ، نحر الأنام ،
 تاج العلماء والحكَّام (أو شرف العلماء والحكَّام) جمال الأئمة ، أوحدهم الأئمة ، صدر
 المدرسين ، خالصة الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثانية - مرتبة المجلس السامى بالياء ، وهى مستعملة في السلطانيات
 وغيرها .

فأما في السلطانيات ، فلم يذكر لها في "التتقيف" صورة .

وصورتها على ما رأيتَه في بعض التواقيع : « المجلس السامى ، القضاى ،
الكبرى ، العالمى ، الفاضلى ، الأوحدى ، الرئيسى ، المفيدى ، البليغى ، القدوى ،
الأثيرى ؛ مجد الإسلام والمسلمين ، جمال العلماء العاملين ، أوحُدُ الفضلاء ، صدرُ
المدرّسين ، عمدة المفتين ، خالصةُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما رأيتَه في بعض تواقيع بعض الخطباء « المجلس السامى ، القضاى ،
الشيخى ، الإمامى ، العالمى ، العالمى ، العابدى ، الزاهدى ، الخاشعى ، الناسكى ،
الخطيبى ، الفلانى ؛ ضياء الإسلام والمسلمين ، أوحُدُ الخطباء في العالمين ، جمال الأئمة
الفضلاء البارعين ، لسان البيان ، ترجمان الزمان ، بركة الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما أورده في "عُرْف التعريف" :
« المجلس السامى ، القضاى ، الأجلّى ، الإمامى ، الصّدريّ ، الفقيهى ، العالمى ،
الكاملى ، الفاضلى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، جمال العلماء ، أوحُد
الفضلاء ، شرف النبلاء ، صفوة الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغيرياء ، وهى مستعملة في السلطانيات
وغيرها .

فأما في السلطانيات فلم يذكر لها صورة في "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيتَه في بعض التواقيع : « المجلس السامى ، القاضى ، الأجلّ ،
الكبير ، الصّدُر ، الرئيس ، العالم ، الفاضل ، الكامل ؛ فلان الدين ، مجد الصدور ،
زين الأعيان ، مُرضى الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره في "عرف التعريف" :
« المجلس السامي ، القاضي ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ،
الأثير ، البارع ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، نجر الصدر ،
جمال الأعيان ، مرتضى الدولة ، صفة الملوك والسلاطين » .

الدرجة الرابعة

(درجة مجلس القاضي ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات فلم يذكر لها صورة في "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع : « مجلس القاضي ، الأجل ، الكبير ،
العالم ، الفاضل ، الأوحد ، الكامل ، الصدر ، الرئيس ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ،
زين الأعيان ، نجر الصدر ، مرتضى الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

الدرجة الخامسة

(درجة القاضي ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : « القاضي ، الأجل » وربما زيد في التعظيم نحو « الكبير الصدر
الرئيس » ونحو ذلك .

النوع الرابع

(من الألقاب الإسلامية ألقاب مشايخ الصوفية وأهل الصلاح ،

وهي على خمس درجات)

الدرجة الأولى

(درجة المَقَرَّ، وليس لها استعمالٌ في السلطانيَّات ؛ وفي غير السلطانيَّات

لها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الأولى — مرتبة المَقَرَّ الشَّرِيف .

وصورتها : « المَقَرَّ الشَّرِيفُ ، العَالِي ، المَوْلَوِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الإِمَامِيُّ ،

العَالِمِيُّ ، العَامِلِيُّ ، الكَافِلِيُّ ، الفَاضِلِيُّ ، الوَرَعِيُّ ، الزَاهِدِيُّ ، العَابِدِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ،

السَّالِكِيُّ ، الخَاشِعِيُّ ، المُسَلِّكِيُّ ، المَحَقِّقِيُّ ، المَدَقِّقِيُّ ، الفَلَانِيُّ ؛ صِلَاحُ الإِسْلَامِ

والمَسَامِينِ ، جَمَالُ الأَصْفِيَاءِ العَامِلِينَ ، خَالِصَةُ الأَنَامِ ، صِفْوَةُ الأَتَقِيَاءِ ، قُطْبُ العِبَادِ ،

المَلِكُ عَلَى الحَقِيقَةِ ، وَالمَالِكُ لِأَزْمَةِ الطَّرِيقَةِ ، بَقِيَّةُ السَّلَفِ ، قُدْوَةُ الخَلْفِ ،

مَفِيدُ الطَّالِبِينَ ، أَوْحُدُ المَحَقِّقِينَ ، رُكْنُ المُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، وَلى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ » .

وقد تقدم أن الأحسن في اللقب المضاف إلى السلاطين هنا « بركة الملوك

والسلاطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة المَقَرَّ الكَرِيمِ ، وألقابها من نسبة الألقاب المتقدمة .

المرتبة الثالثة — مرتبة المَقَرَّ العَالِي ، وألقابها نحو ذلك .

الدرجة الثانية

(دَرَجَةُ الْجَنَابِ ، وفيها ثلاثُ مراتبِ)

المرتبة الأولى — مرتبةُ الجنابِ الشريفِ . وهي مختصةٌ بغير السلطانيات .

وصورتها : «الجنابُ الشريفُ، العالی، المولوی، الشيخی، الإمامی، العالمی،
العالمی، الكافلی، الفاضلی، الزاهدی، العایدی، الخاشعی، الناسکی، الورعی،
جلالُ الإسلام، سيفُ الإمام، قُطبُ الزَّهَاد، عَمَّ العُبَاد، أُوحدُ الناسکین،
فَرْدُ السالکین، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة الجنابِ الکَرِيمِ . وهي مختصةٌ بغير السلطانيات أيضا .

وصورتها على ما رأيتُه في بعض التواقيع عن نائب الشام : «الجنابُ الکَرِيمِ،
العالی، الشيخی، العالمی، العالمی، العلامی، الأوحدي، القُدوی، العایدی،
الناسکی، الخاشعی، المسلکی، المرئی، الربانی، الأصیلی، الفلانی، مجدُ الإسلام،
حسنةُ الأيام، قِدوةُ الزَّهَاد، مَلَاذُ العُبَاد، جمالُ الورعین، مرئی المریدین،
أُوحدُ المسلکین، خَلَفُ الأولیاء، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجنابِ العالی . وهي مختصةٌ بغير السلطانيات .

وصورتها على ما رأيتُه في بعض التواقيع عن نائب الشام : «الجنابُ العالی،
الشيخی، العالمی، العالمی، الأوحدي، العایدی، الناسکی، الورعی، الزاهدی،
الخاشعی، المسلکی، الأصیلی، الفلانی، مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، قِدوةُ العُبَاد،
جمالُ الزَّهَاد، أُوحدُ المسلکین، بركةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المجلس العالى، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها .
فأما في السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب شيخ
الشيوخ بخانقاه سرياقوس : « المجلس العالى ، الشيخى ، الكبرى ، العالمى ،
العالمى ، السالكى ، الأوحدي ، الزاهدي ، العايدى ، الخاشعى ، الناسكى ،
المفيدى ، القُدوى ، الإمامى ، النّظامى ، الملاذى ، جلال الإسلام والمسلمين ،
شرف الصلحاء في العالمين ، شيخُ شيوخ الإسلام ، أُوحدُ العلماءِ في الأنام ،
قُدوةُ السالكين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "عرف التعريف" : « المجلس
العالى ، الشيخى ، الأجلّى ، الإمامى ، العالمى ، العايدى ، الزاهدي ، العايدى ،
الورعى ، الخاشعى ، الناسكى ، القُدوى ، الفلانى ، خيرة الإسلام ، شرف الأنام ،
زين العباد ، نور الزهاد ، دُخر الطالبين ، كنز التقي ، ملجأ المريدين ، بركة الملوك
والسلاطين » .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى بالياء، وهى مستعملة في السلطانيات وغيرها .
أما في السلطانيات، فصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب الشيخ
شمس الدين الطوطى ممن كان يكتب إليه قديماً : « المجلس السامى ، الشيخى ،
الأجلّى ، العالمى ، العايدى ، الكاملى ، الفاضلى ، الزاهدي ، الورعى ، العايدى ،
الخاشعى ، الناسكى ، القُدوى ، الأوحدي ، الفلانى ، مجد الإسلام ، ضياء الأنام ،

بقية السلف الكرام ، نخر الصلحاء ، أوجد الكبراء ، زين الزهاد ، عماد العباد ،
قدوة المتورعين ، ذخر الدول ، ركن الملوك والسلاطين .

وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع الشريفة : « المجلس السامى ، الشيخى ،
الكبيرى ، الأوحدي ، الأكلبي ، العابدي ، الخاشعي ، الناسكي ، جمال الإسلام ،
زين الأنام ، صفة الصلحاء ، نخر العباد ، بركة الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره المقر الشهابي بن فضل الله
في بعض التواقيع عن نائب الشام : « المجلس السامى ، الإمامي ، العالمي ، العاملي ،
الخاشعي ، الورعي ، الناسكي ، السالكي ، العارفي ، القدوي ، البليخي ، الأصيلي ،
الشيخى ، الفلاني ، مجد الإسلام ، شرف العلماء ، قدوة الفضلاء ، نخر الصلحاء ،
جمال النساك ، قدوة السالك ، أوجد العارفين ، بركة الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغيرياء ، وهي مستعملة في السلطانيات
وغيرها .

فأما في السلطانيات فلم يُورد لها صورة في "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع الشريفة : « المجلس السامى ، الشيخ ،
الصالح ، الزاهد ، العابد ، الورع ، الخاشع ، الناسك ، السالك ، فلان الدين ،
مجد الصلحاء ، زين المشايخ ، قدوة السالكين ، بركة الملوك والسلاطين » .



وأما في غير السلطانيات ، فصورتها على نحو من ذلك .

الدرجة الرابعة

(درجة مجلس الشيخ)

وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

ولم يورد لها صورةً في "التثقيف" . وصورتها على ما في بعض الدساتير: «مجلس الشيخ، الصالح، الزاهد، العابد، الناسك، السالك، فلان الدين، مجد الصلحاء، زين المشايخ، بركة الملوك والسلطين» .

الدرجة الخامسة

(درجة الشيخ)

وهي «الشيخ، الصالح، الورع، الزاهد» ونحو ذلك .

النوع الخامس

(ألقاب التجار الخواجكية، والمستعمل فيه أربع درجات)

الدرجة الأولى

(درجة الجناب)

ولم أر فيها غير مرتبة الجناب العالی فيما عدا السلطانيات .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير الشامية فيما كتبت به لبعض الخواجكية: «الجناب العالی، الصدرى، الكبيرى، المحترى، المؤتمنى، الأوحدى، الأكلى، الرئيسى، العارفى، المقربى، الخواجكى، الفلانى، مجد الإسلام والمسلمين،

شرف الأَكابر في العالمين، أوحدُ الأَمناء المقربين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُدُور، عينُ الأعيان، كبيرُ الخَوَاجِكِيَّة، ثِقَّةُ الدولة، مؤتمِنُ الملوك والسلاطين». . فإن آتفق أن يُكْتَبَ لاحد من الخَوَاجِكِيَّة بأعلى من الجناح العالى، كُتِبَ له من نظير هذه الألقاب وأعلى منها .

الدرجة الثانية

(درجة المجلس، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبة المجلس العالى، وهي مختصة بغير السلطانيات .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير الشامية: « المجلس العالى، الصُدْرِيّ، الرئيسى، الكبيرى، المحترمى، المؤتمنى، الأوحدى، الأكلى، المقرئى، الخَوَاجِكِيّ، الفلانى؛ مجد الإسلام، شرف الأَكابر، أوحدُ الأَمناء، صدرُ الرؤساء، زينُ الأعيان، ثِقَّةُ الدولة، مؤتمِنُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى بالياء، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات، فصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب خَوَاجَا عَسَافِ بنِ مُسَافِر، ونظام الدين الإسعردى: «المجلس السامى، الصُدْرِيّ، الكبيرى، الكاملى، الماجدى، الأوحدى، المقرئى، المنتخى، الأمينى، الأثيرى، الخَوَاجِكِيّ، الفلانى؛ مجد الإسلام، زينُ الأَنام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكُبراء، تاجُ الأَمناء، نجرُ الأعيان، مقربُ الحضرتين، مؤتمِنُ الدُول، صفوةُ الملوك والسلاطين» .



وأما في غير السلطانيات، فصورتها على نحو من ذلك .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغيرياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها على ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب بعض الخوارجية : « المجلس السامى ، الصدر ، الأجل ، الكبير ، الكامل ، الماجد ، الأوحى ، المقرب ، المتخب ، الأمين ، الأثير ، الخوارجا ، فلان الدين ، مجد الرؤساء ، زين الأكاره ، مجد الصدور ، جمال الأعيان ، مقرب الدولة ، صفوة الملوك والسلاطين » .



وأما فى غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

الدرجة الثالثة

(درجة مجلس الصدر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأما فى السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره فى " التثقيف " : « مجلس الصدر ، الأجل ، الكبير ، المحترم ، المقرب ، الأوحى ، فلان الدين » .



وأما فى غير السلطانيات ، فلا تخرج عن ذلك .

الدرجة الرابعة

(درجة الصّدر ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات فصورتها على ما أشار إليه في "التتقيف" : « الصّدرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، المحترمُ ، المقربُ ، الأوحدُ ، فلان الدين » .



وأما في غير السلطانيات ، فلا تبعُدُّ من ذلك .

النوع السادس

(من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الصناعات الرئيسيّة ،

كرياسة الطب ، ورياسة الكحّالين ، ورياسة الجرائحية ،

ونحو ذلك ، والمستعمل فيه درجتان)

الدرجة الأولى

(درجة المجلس ، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الاولى - مرتبة المجلس العالى ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها .

فأما في السلطانيات ، فكألقاب رئيس الأطباء ، وهي « المجلس العالى » . [القَضَائِيّ ^(١)] ،

العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدي ، الفلانى ؛ جمال الإسلام والمسلمين ،

سيدّ الرؤساء في العالمين ، أوحد الفضلاء المقربين ، خاصّة الملوك والسلاطين ^(١)] .

(١) بيض لهذه العبارة في الاصول ، فنقلناها من ضوء الصبح للؤلؤف .



وأما في غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامى ، الصدرى ، الأجلّى ، الكبيرى ، الرئيسى ، الفلانى » .



وأما فى غير السلطانيات فعلى نحو منه .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامى بغيرياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامى ، الصدرى ، الأجل ، الكبيرى ، الرئيسى ، المحترم » .



وأما فى غير السلطانيات ، فعلى نحو ذلك .

الدرجة الثانية

(درجة الصدر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فهى : « الصدر الأجل » فإن زيد فى تعظيمه ، قيل : « الكبير

المحترم » .

النوع السابع

(من الألقاب الإسلامية ألقابُ الحاشية السلطانية ، كِمَهتارِيَّة البيوت ،
ومُهِنْدِس العائِر ، ورئيس الحِرَاقَة ونحوهم ، وفيه درجتان)

الدرجة الأولى

(درجة مجلس الصَّدر ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

فأما في السلطانيات ، فصورتها على ما ذكره في "التتيف" في ألقاب المهندس
والرئيس : « مجلس الصَّدر ، الأجل ، الكبير ، المحترم ، المؤمن ، فلان الدين » .
وفي ألقاب مهتارية البيوت : من مهتار الشَّراب خاناه ، والطَّشْت خاناه ، والقِرَاش
خاناه ، وإخوان سَلَار ونحوهم : « مجلس الصَّدر ، الأجل ، الكبير ، المحترم ، المؤمن ،
الحاج فلان » .



وأما في غير السلطانيات ، فكذلك أو أزيد .

الدرجة الثانية

(درجة الصَّدر ، وهي مستعملة في السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : « الصَّدرُ الأجلُّ » فإن زيد في رِعايَته قيل بعد ذلك :
« الكبير المحترم » .

النوع الثامن

(من الألقاب الإسلامية ألقاب النساء ، وفيه درجتان)

الدرجة الأولى

(درجة الجهة ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى — مرتبة الجهة الشريفة ، وصورتها على ما ذكره في "التثقيف"^(١) في ألقاب إلى بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون عن والدتها : «الجهة الشريفة ، العالية المحجبة ، المصونة ، الولدية ، العزيمة ، عصمة الدين ، جلال النساء ، شرف الخواتين ، سليلة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" أيضا في المكاتب إلى أم آتوك : زوجة السلطان الملك الناصر عنه : «الجهة الشريفة ، العالية ، المعظمة ، المحجبة ، المصونة ، الكبرى ، خوند خاتون ، جلال النساء في العالمين ، قرينة الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في المكاتب إلى أخت السلطان الملك الناصر حسن عنه : «الجهة الشريفة ، العالية ، المكرمة ، المحجبة ، المصونة ، الكبرى ، الخاتون ، جلال النساء في العالمين ، جميلة المحجبات ، جليسة المصونات ، كريمة الملوك والسلاطين» .

(١) سقط لفظ إلى من الضوء وهي أوضح .

وصورتها على ما ذكره في ألقاب الستِّ حَدَقَ : «الجهة الشريفة، العالية، الكبيرة، المحجَّبة، المصُونَة، الحاجَّة، الوالديَّة؛ جلالُ النساءِ في العالمين، بركةُ الدولة، والدةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير في ألقاب والدةِ الأشرفِ شعبانِ ابنِ حسين : «الجهةُ الشريفةُ، العالية، الكُبرى، المعظَّمة، المحجَّبة، العِصْمَى، الخاتُونى؛ جلالُ النساءِ في العالمين، سيِّدةُ الخواتين، جميلةُ المحجَّبات، جليلةُ المصُونات، والدةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة الجهة الكريمة .

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب دلشاه : زوج الشيخ حسن الكبير ببغداد : الجهة الكريمة، المحجَّبة، المصونة، العِصْمِيَّة، الخاتُونِيَّة، المعظَّمة؛ سيِّدةُ الخواتين، زينةُ النساءِ في العالمين، جميلةُ المحجَّبات، جليلةُ المصُونات، قرينةُ نوَّينِ الملوك والسلاطين .

الدرجة الثانية

(درجةُ الدار. وهي على نحو المرتبتين المتقدمتين في الألقاب السابقة)

الدرجة الثالثة

(درجة السَّتارة وهي لانكادُ تخرُج عما تقدّم من المرتبتين المتقدمتين)

القسم الثاني

(من الألقاب المرتبة ألقاب أهل الكُفْر ، وهي على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(ألقاب متدينتهم ، وهي نوعان)

النوع الأول

(ألقاب بطارقة النصارى)

وصورتها على ما أورده في "التتيف" في ألقاب الباب برومية : «الباب ، الجليل ، القديس ، الروحاني ، الخاشع ، العامل ، باباً رومية ، عظيم الملة المسيحية ، قُدوة الطوائف العيسوية ، مملك ملوك النصرانية ، حافظ البحار والحلجان ، ملاذُ البطارقة والأساقفة والقُسوس والرهبان ، تالي الإنجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التتيف" في ألقاب البطريرك بالديار المصرية : «البطريرك الجليل ، القديس ، الخاشع ، قُدوة النصرانية» . ثم قال : ومن نسبة ذلك . وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع له : «الحضرة السامية ، الشيخ ، الرئيس ، المبجل ، المكرم ، الكافي ، المعزز ، المفخر ، القديس ، شمس الرياسة ، عماد بنى المعمودية ، كثر الطائفة الصليبية ، اختيار الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير الشامية عن نائب الشام للبطريرك بها : «البطريرك ، المحتشم ، المبجل ، العارف ، الحبر ، فلان ، العالم بأموار دينه ، المعلم لأهل ملته ، ذنر الملة المسيحية ، كثر الطائفة العيسوية ، المشكور بعقله عند الملوك والسلاطين» .

النوع الثاني

(ألقاب رؤساء اليهود)

وصورتها على ما رأيت في بعض التواقيع لرئيس اليهود بالشام من إنشاء القاضي محي الدين بن الزكي في سنة ست وعشرين وثمانئة : «الرئيس، الأوحُد، الأعزُّ، الأخصُّ، الكبير، شرف الطائفة الإسرائيلية فلان» .

الضرب الثاني

(ألقاب ملوكهم وتخص بالنصارى ، وهو نمطان)

النمط الأول

(الألقاب المذكورة ، وهي على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ما يُصَدَّر بالألف واللام ، وهي على خمس مراتب)

المرتبة الأولى — مرتبةُ الحضرة العالِية .

وصورتها على ما أورده في "التعريف" في ألقاب ملك الحبشة : «الحضرةُ العالِيةُ، حضرةُ الملك الجليل ، الهمام ، الضرغام ، الأسد ، الغضنفر ، الخطير ، الباسل ، السَّمِيدَع ، العالم في ملته ، العادل في مملكته ، المُنْصِف لرعيته ، المُتَّبِع لما يجب في أفضيته ، عز الأمة النصرانية ، ناصر الملة المسيحية ، ركن الأمة العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، مُتَّبِع الحواريين ، والأخبار الشريانيين ،

والبطّاركة القديسين، معظّم كنيسة صهيون، أوحد ملوك اليعقوبية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده في "التعريف" أيضا في ألقاب صاحب القسطنطينية :
« الحضرة العالمة ، المكرّمة ، حضرة الملك الجليل ، الخطير ، الهمام ، الأسد ، الغضنفر ، الباسل ، الضّرغام ، المعرق ، الأصيل ، المجد ، الأيل ، البلاوس ، الريدأرغون ، ضابط الممالك الرومية ، جامع البلاد الساحلية ، وارث القياصرة القداماء ، محي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأمور دينه ، العادل في مملكه ، معزّ النصرانية ، مؤيد المسيحية ، أوحد ملوك العيسوية ، محوّل الثخوت والتيجان ، حامى البحار والخلجان ، ملك ملوك الشريان ، عماد بني المعمودية ، رضىّ الباب بابا رومية ، ثقة الأصدقاء ، صديق المسلمين ، أسوة الملوك والسلاطين فلان » .

المرتبة الثانية — مرتبة الحضرة العلية .

وصورتها على ما أورده في "التعريف" في ألقاب ملك الكرج : « الحضرة العلية ، حضرة الملك الجليل ، الهمام ، الباسل ، الضّرغام ، السّميدع ، الكرّار ، الغضنفر ، المتخت ، المتوج ، العالم في ملته ، العادل في رعيته ، بقية الملوك الاغريقية ، سلطان الكرج ، دُخر ملوك البحار والخلج ، حامى حمى الفرسان ، وارث آبائه في الأسرة والتيجان ، سياج بلاد الروم وإيران ، سليل اليونان ، خلاصة ملوك الشريان ، بقية أبناء الثخوت والتيجان ، معزّ النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مسيح الأبطال المسيحية ، معظّم البيت المقدّس بعقد النية ، عماد بني المعمودية ، ظهر الباب بابا رومية ، موادّ المسلمين ، خالصة الاصدقاء المقرّبين ، صديق الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الحضرة السامية .

وصورتها على ما أورده في "التعريف" في ألقاب الأدفونش صاحب طليطلة وإشبيلية من الأندلس : «الحضرة السامية ، الملك الجليل ، الهمام ، الأسد ، الباسل ، الضرغام ، الغصنفر ، بقية سلف قيصر ، حامي حماة بنى الأصفر ، المنع السلوك ، وارث لذريق وذرايرى الملوك ، فارس البر والبحر ، ملك طليطلة ومايلها من البلاد الأندلسية ، بطل النصرانية ، عماد بنى المعمودية ، حامل راية المسيحية ، وارث التيجان ، شبه مريخنا المعمدان ، محب المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين » .

المرتبة الرابعة — مرتبة الحضرة المكرمة .

وصورتها على ما رأته في بعض الدساتير الشامية في ألقاب صاحب قبرس : «الحضرة المكرمة ، حضرة الملك الجليل ، البطل ، الهمام ، السميدع ، الضرغام ، الغصنفر ، القمقام ، مؤيد الملة المسيحية ، عماد بنى المعمودية ، ذخر الملة النصرانية ، حامي الجزائر القبرسية ، مؤاد المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين ، الملك فلان » .

المرتبة الخامسة — مرتبة الحضرة الموقرة .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب الأدفونش المقدم ذكره : «الحضرة الموقرة ، الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، الريدأرغون ، نصر النصرانية ، فخر الأمة العيسوية ، ذخر الملة المسيحية ، حامي الثغور ، ممتلك السواحل والبحور ، عماد بنى المعمودية ، ظهر يابا رومية ، ملاذ الفرسان ، جمال النخوت والتيجان ، صديق الملوك والسلاطين » .

النوع الثاني

(ما يُصدَّر بحضرة مع الإضافة)

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب صاحب القُسطنطينية :
 «حضرة الملك، الجليل، المكرم، المبجل، الأسد، الخطير، البطل، الباسل، الهمام،
 الضرغام، فلان، العالم في ملته، العادل في أهل مملكته، عز الأمة المسيحية، كثر
 الطائفة الصليبية، جمال بني المعمودية، صمصام الملوك اليونانية، حسام الملكة
 المالوصية، صاحب أمصار الروس والعلان، معز اعتقاد الكرج والسريان، وارث
 الأسرة والتيجان، الحاكم على الثغور والبحور والخلجان، الدوقس الانجالوس
 الكينيوس البالالوغس، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب ملك الكرج : «حضرة الملك
 الجليل، المكرم، الخطير، الباسل، القمقام، القديس، الروحاني، فلان، عز الأمة
 المسيحية، كثر الطائفة الصليبية، فخر دين النصرانية، ملك الجبال والكرج والخرجان،
 صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته في بعض الدساتير في ألقاب ملك الكرج أيضا : «حضرة
 الملك الجليل، العالم في ملته، العادل في مملكته، المتوج من الله فلان، سيد ملوك
 النصرانية، أكبر زعماء الملة المسيحية، ضابط الممالك الكرجية، خليل^(١)
 الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التعريف" في ألقاب مملك سيس قبل فتحها :
 «حضرة الملك الجليل، البطل، الباسل، الهمام، السמידع الضرغام، الغضنفر

(١) بياض بالاصول بقدر كلبة .

فلان؛ فخر الملة المسيحية، دُحر الأمة النصرانية، عماد بنى المعمودية، صديق الملوك والسلطين» .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب ممتلك سيس المذكور أيضا :
 «حضرة الملك الجليل، المكرم، المبجل، المعزز، الهمام، الباسل، فلان؛ عز دين النصرانية، كبير الطائفة الصليبية، عماد بنى المعمودية، صديق الملوك والسلطين» .
 وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" أيضا في ألقاب صاحب البندقيّة :
 «حضرة الدوك الجليل، المكرم، الخطير، الباسل، الموقر، المفخم، فلان؛ فخر الملة المسيحية، جمال الطائفة الصليبية، دوك البندقيّة والمانسية، فلان؛ زين بنى المعمودية، صديق الملوك والسلطين» .

وصورتها على ما أورده في "التثقيف" في ألقاب ملك السرب والبُلغار : «حضرة الملك الجليل، المكرم، المبجل، الهمام، الضّغام، الباسل، الدوقس، الأنجالوس، الكينيوس، فلان؛ عماد النصرانية، مالك السرب والبُلغار، فخر الأمة العيسويّة، دُحر الملة المسيحية، فارس البُحور، حامى الحصون والثغور» .

وصورتها على ما أورده في ألقاب ملك موفراد : «حضرة الملك الجليل، المكرم، البطل، الهمام، الأسد، الضّغام، فلان؛ مجد النصرانية، فخر العيسوية، عماد بنى المعمودية، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية، ملك منفرد، وارث التاج، معز الباب» .

وصورتها على ما أورده في ألقاب لدوك البندقيّة غير ما تقدم : «حضرة المحتشم، الجليل، المبجل، الموقر، المكرم، المفخم، الباسل، الضّغام، فلان؛ عز الملة المسيحية، جمال الطائفة العيسويّة، دُحر الملة الصليبيّة، صديق الملوك والسلطين» .

النوع الثالث

(ما يُصَدَّرُ بِالْمَلِكِ وَمَا فِي مَعْنَاهُ)

وصورته على ما ذكره في "التتقيف" في ألقاب ملك الحبشة : «الملك الجليل ،
المكرم ، الخطير ، الأسد ، الضرغام ، الباسل ، فلان ؛ العالم في ملته ، العادل في مملكته ،
حطى ملك أمحرا ، أكبر ملوك الحبشان ، نجاشى عصره ، سند الملة المسيحية ،
عُضد دين النصرانية ، عماد بنى المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما ذكر في "التتقيف" في ألقاب دوك البندقية غير ما تقدم : «الدوك
الجليل ، المكرم ، المبجل ، الموقر ، البطل ، الهام ، الضرغام ، الغضنفر ، الخطير ؛
مجد الملة النصرانية ، فخر العيسوية ، عماد بنى المعمودية ، معز باپا رومية ، صديق
الملوك والسلاطين فلان» .

النمط الثاني

(من ألقاب ملوك الكُفْر [الألقاب المؤنثة])

وصورتها على ما أورده في "التتقيف" في ألقاب صاحبة بابل : «الملكة الجليلة ،
المكرمة ، المبجلة ، الموقرة ، المفخمة ، المعززة ، فلانة ؛ العالمة في ملتها ، العادلة
في مملكته ، كبيرة دين النصرانية ، نصيرة الملة العيسوية ، حامية الثغور ، صديقة
الملوك والسلاطين» .

الضرب الثالث

(ألقابُ نواب ملولهم وكأصلتهم ومن في معنى ذلك . وهو على نوعين)

النوع الأول

(ألقاب النواب)

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب النائب بالأبواب : «النائب الجليل ، المجل ، الموقر ، القديس ، الروحاني» والتعوت من نسبة ألقاب متملك سيس .

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب صاحب دُنُقلة : «النائب الجليل ، المجل ، الموقر ، الأسد ، الباسل ، فلان ، مجد الملة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ، غرس الملوك والسلاطين» .

النوع الثاني

(ألقاب الكاصلة)

وصورتها على ما ذكره في "التثقيف" في ألقاب الكُنْصُل بانكفا كألقاب متملك^(١) سيس المنقولة عن التثقيف فيما تقدم .

وصورتها على ما أشار إليه في "التثقيف" في ألقاب المُطْران نائب الباب بالامنة : وهي قُبْرُس نحو ما تقدم في ألقاب البَطْرِك بالديار المصرية . قال : ويُرَاد عليه «المُطْران فلان» ويقال في نعوته «ناصر الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيت في بعض الدساتير الشامية في ألقاب إبراهيم كرى : أحد كتّاب الفرنج عن نائب دمشق : «المُحتشم ، الكبير ، المخول ، الأسد ، الهمام ، الغضنفر ،

(١) كذا في الأصول بدون نقط .

مواد المسلمين، متبع الحواريين، جمال العيسوية، أوحى بنى المعمودية، صاحب الملوك والسلاطين» .

قلت : قد تبين بما تقدم من الألقاب والتعوت الإسلامية وألقاب أهل الكفر وتعتهم أنها ليست واقفة عند حد، بل هي راجعة إلى اصطلاح الكتاب واختيارهم في زيادة الألقاب وتقصها، والإتيان بلقب دون لقب، مع رعاية المناسبة لكل مقام وما يحتمله من الألقاب، إلا أن لذلك (أصولاً يرجع إليها) وقوانين يوقف عندها، إذا اعتمدها الكاتب ومضى على نهجها ونسج على منوالها، أصاب سواء الثغرة من الصناعة، وطبق المفصل بالمفصل في الإتيان بالمقصد، ومتى أهملها وفرط في مراعاتها ضل سواء السبيل، ونخرج عن جادة الصواب : ((ومن يضل الله فإله من هادي)) .

الأصل الأول — أن يقف على مارتبه البلغاء من أرباب الصنعة من الألقاب والتعوت لكل صنف من ذوى الألقاب والتعوت : لأهل الإسلام وأهل الكفر . ويجرى ذلك منه مجرى الحفظ والاستحضار، ليسهل عليه إيرادُه في موضعه، ولا يشد عنه شيء منها عند الاحتياج إليه . وقد تقدم من ذلك جملة مستكثرة يهتدى بجمها، ويستضاء في ظلمة اللبس بوضوؤها .

الأصل الثانى — أن يعرف ماهو من الألقاب والتعوت حقيق لصاحب اللقب الذى يستعمله فيه : كالعالمى لأهل العلم، والعايدى لأهل الصلاح، والعايدى للحكام من أرباب السيوف وغيرهم، وما هو منها مجازى : كالعالمى لأرباب السيوف والكتاب حيث لا أتصاف لصاحب اللقب بالعلم، والأصيل لمن ليس له آباء فى الرياسة ولا عرافة فى النسب، ونحو ذلك مما يجرى هذا الجرى .

الأصل الثالث — أن يعرف الألقاب الخاصة ببعض دون بعض، كالشريفى، والحسيبى، والنسبى، للأشراف وأولاد فاطمة رضى الله عنها، والكافى لنائب

السلطنة أو وزير كبير، والتوحيي لأمير التوامين بالشرق، والمدبري للوزير ونحوه من ناظر الخاص ومن في معناه، والمشيري لمن يؤخذ رأيه من أكابر أرباب السيوف والأقلام، والسفيري للحاجب والدوادار وكاتب السر، واليميني للدوادار وكاتب السر، والعريقي لدى العرّاقة في النسب، والأصيلي لمن له ثلاثة آباء في الرياسة .

وكذلك النعوت كوالد الملوك والسلاطين لمن يكون له أولاد من الملوك، وولد الملوك والسلاطين لأولاد الملوك، وعضد الملوك والسلاطين للأمرء ونحوهم، وكافل الممالك للنائب الكافل، وسفير الدولة ولسان المملكة للدوادار وكاتب السر، ويمين الملوك والسلاطين لها أيضا، ووالدة الملوك والسلاطين لمن يكون من أولادها ملك، وكريمة الملوك والسلاطين لمن يكون من إخوتها سلطان، وقريينة الملوك والسلاطين لمن تكون زوجة ملك، وصديق الملوك والسلاطين، أو مواد الملوك والسلاطين لملوك الكفر، وقرين الملوك والسلاطين لنوابهم، ونحو ذلك مما يجري هذا الجري : فيوقع كل لقب أو نعت منها في موضعه ولا يجاوزه إلى غيره . وأنت إذا تأملت ما سلف من ترتيب الألقاب والنعوت على الأصول المتقدمة، ظهر لك منها ما تستعين به على ترتيبها وإيقاعها مواقعها .

الأصل الرابع — أن يعرف الألقاب والنعوت الرفيعة المقدار، فيلحقها بما يناسبها من الألقاب الأصول، كالحاق العالى والعادلي ومهد الدول ومشيّد الممالك وما شاكل ذلك بالمقرّ والجناب الكريم ونحو ذلك . ويعرف الألقاب النازلة، فيخرج منها ما يجرد عن الياء ويلحقه بالسامى بغير الياء فما دونه كالعضد والذخروما أشبه ذلك .

الأصل الخامس — أن يعرف مراتب الألقاب في التقديم والتأخير، مثل أن يعلم أن الشريف والكريم يليان المقرّ والجناب، والعالي يليهما؛ ثم العالي يلي المقرّ

والجناب والمجلس ، والسامى بلى المجلس حيث لا يليه العالى . وأن النعت المضاف إلى أمير المؤمنين مثل عَضُد أمير المؤمنين ، وسيف أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، يكون آخر التعتوت . وأن المضاف إلى الملوك والسلاطين مثل عَضُد الملوك والسلاطين ، وظهير الملوك والسلاطين ، يكون قبله المضاف إلى أمير المؤمنين إن كان فى رتبة يثبت فيها ما يُضَاف إلى أمير المؤمنين ، وإلا يكون المضاف إلى الملوك والسلاطين هو آخر الألقاب . وأن يعلم أن لقب التعريف : وهو الفلانى أو فلان الدين يكون واسطةً بين الألقاب والتعتوت ، فاصلاً بينهما . وأن لقب الوظيفة كالكافلى والحاكى وما أشبههما يكون قبل لقب التعريف غالباً على ما تقدم بيانه ، فيضع هذه الألقاب فى مواضعها ولا يخرجها عنها ، بخلاف ما يجوز فيه التقديم والتأخير من الألقاب والتعتوت .

الجملة العاشرة

(فى ذكر ألقاب تقع على أشياء متفرقة قد جرت فى عُرف الكتاب . وهى على ضربين)

الضرب الأول

(فيما يجرى من ذلك مجرى النفاؤل ، ويختلف باختلاف الأحوال والوقائع ، ويتنوع إلى أنواع)

النوع الأول

(ما يوصف بالنصر ، كالجيش والعساكر والقلاع والبريد ونحو ذلك)

فيقال فى الجيوش والعساكر : «الجيش المنصورة» ، والعساكر المنصورة» ويقال فى القلاع المنصورة «وقلعة دمشق المنصورة وقلعة حلب المنصورة» ونحو ذلك ،

وكذلك يقال « القلاع المنصورة » على الجمع تَفَاؤُلاً بحصول النَّصْر لها؛ ويقال في البريد: « البريد المنصور » على ما أصطلح عليه كُتَّابُ الزمان. على أن في وصف البريد بالمنصور نظرا: لأنه إنما وُضِعَ ليُوَصَّلَ الأخبارَ ونحو ذلك، وكان الأحسنُ أن يوصف بالسَّعيد ونحوه اللهم إلا أن يُراد أنه ربما وصل به خبر النصر على العدو، وهو من أهم المهمَّات، وكأنه وُصِفَ بأشرف متعلقاته.

النوع الثاني

(ما يوصف بالحِراسَة، كالمُدُن والثغور)

فيقال في المُدُن «مِصر المحروسة» و«القاهرة المحروسة» و«دمشق المحروسة» و«حلب المحروسة» ونحو ذلك. ويقال في الثغور «الثغر المحروس» و«ثغر الإسكندرية المحروس» و«ثغر رشيد المحروس» و«ثغر دمياط المحروس» و«ثغر أسوان المحروس» ونحو ذلك تَفَاؤُلاً بوقوع الحِراسَة لها. على أنه لو وُصِّفَت القلاع أيضا بالحِراسَة فقول «القلعة المحروسة» و«القلاع المحروسة» ونحو ذلك لكان له وجهٌ ظاهر. وبكل حال فكل ما كان محلَّ خوف مما ينبغي حِراسَتُه والأحتفاظ به، حَسُنَ وصفه بالحِراسَة. وقد رأيت مَنْ يذكُر ضابطا لذلك في البلاد: وهو أن كل مدينة مُسَوَّرة يُقال فيها محروسة وإلا فلا، وهو بعيد، والظاهر ما قدّمنا ذكره.

النوع الثالث

(ما يُوصف بالعمارة، كالداوين)

وهي المواضع التي يجلس فيها الكُتَّاب على ما تقدم بيانه في مقدِّمة الكتاب وغير ذلك. فيقال: «الدِّيوان المعمور»، و«الدَّواوين المعمورة» تفاؤلاً بأنها لا تزال معمورة بالکُتَّاب، أو بدوام عِزِّ صاحبها وبقاء دولته .

النوع الرابع

(ما يوصف بالسَّعادة، كالداوين أيضا)

فيقال: «الدِّيوان السعيد» و«الدَّواوين السعيدة» تفاؤلاً بدوام سعادتها بدوام سعادة صاحبها .

النوع الخامس

(ما يُوصَف بالقبُول)

كالضَّحايا المقبولة تفاؤلاً بأن الله تعالى يتقبَّلها، وهو في الحقيقة بمعنى الدعاء، كأنه يقال تقبلها الله تعالى .

النوع السادس

(ما يُوصف بالبرِّ، كالصدقة والأحباس)

فيقال في الأحباس: «الأحباس المبرورة» وفي الصَّدقة «الصدقة المبرورة» تفاؤلاً بأنها تكون جاريةً مجرى البرِّ الذي يلحق به الثواب . وكُتِّب الجيش ونحوهم يستعملون ذلك في وصف الرِّزقة أيضا : وهي القطعة من الأرض تُرصد لمصالح المسجد أو الرباط أو الشخص المعين . فيقولون : «الرِّزقة المبرورة» لجرانها مجرى الصدقة .

النوع السابع

(ما يوصف بالخذلان ، كالعَدُوِّ ونحوه)

فيقال : « العَدُوُّ المخذول » على الإجمال و « فلانُ المخذول » بالتصريح باسمه
 « وأهل الكُفْرِ المخذولون » ونحو ذلك تفاؤلاً بأنَّ الله تعالى يُوقع بالعدوِّ الخذلانَ
 ويَرمِيه به .

الضرب الثاني

(ما يجرى من ذلك مجرى التَّشْرِيفِ ، ويختلف أيضاً
 باختلاف الأحوال ، ويتنوع أنواعاً)

النوع الأول

(ما يُوصَفُ بالعِزِّ ، كالكِتَابِ بمعنى القِرْءانِ)

فيقال فيه : « الكِتَابُ العزِيزُ » ومن ثمَّ يقولون في قارئِ القُرْءانِ : « من حَمَلَهُ
 كِتَابَ اللهِ العزِيزِ » وربما وُصِفَ بذلك الدِّيوانُ أيضاً ، كما يقال في ديوان الخِلافةِ :
 « الدِّيوانُ العزِيزُ » على ما تقدَّم ذكره في الكلام على الألقاب .

النوع الثاني

(ما يُوصَفُ بالشَّرِيفِ ، كالمُصْحَفِ والعِلْمِ)

فيقال في المُصْحَفِ : « المصحفُ الشَّرِيفُ » وفي العِلْمِ الشَّرِيفِ : « العِلْمُ الشَّرِيفُ » ولذلك
 يقولون « فلانٌ من طَلَبَةِ العِلْمِ الشَّرِيفِ » ونحو ذلك ، وكذا في الأماكِنِ الرَّفِيعَةِ ،

مَكَّةَ والمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ وَالْقُدْسَ . فيقال : «مَكَّةُ المَشْرِفَةُ» و «المَدِينَةُ الشَّرِيفَةُ» و «الْقُدْسُ الشَّرِيفُ» وَالْحَرَمُ الشَّرِيفُ تارةً لِحَرَمِ مَكَّةَ وتارةً لِحَرَمِ المَدِينَةِ . فإذا جُمِعَا قيل : «الْحَرَمَانِ الشَّرِيفَانِ» وربما أُطْلِقَ في عُرْفِ الكُتُبِ الْحَرَمَانِ عَلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَمَقَامِ الخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وهو مراد المَقَرِّ الشَّهَابِيِّ بنِ فَضْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ «التَّعْرِيفُ» فِي قِسْمِ الوَصَايَا بِنَظَرِ الحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ دُونَ حَرَمِ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ المَشْرِفَتَيْنِ . وقد أَصْطَلَحَ كُتَّابُ الزَّمَانِ عَلَى أَنْ وَصَفُوا أَكْثَرَ مَا يُضَافُ إِلَى السُّلْطَانِ بِالشَّرِيفِ ، فيقولون فيما يَصْدُرُ عَنِ السُّلْطَانِ مِنْ عَهْدٍ وَتَقْلِيدٍ وَتَوْقِيعٍ وَمَرَسُومٍ وَمِثَالٍ وَتَذَكُّرٍ : «عَهْدٌ شَرِيفٌ» و «تَقْلِيدٌ شَرِيفٌ» و «تَوْقِيعٌ شَرِيفٌ» و «مَرَسُومٌ شَرِيفٌ» و «مِثَالٌ شَرِيفٌ» و «تَذَكُّرٌ شَرِيفٌ» ونحو ذلك .

النوع الثالث

(ما يُوصَفُ بِالكَرِيمِ ، كَالقُرْءَانِ)

فيقال : « الْقُرْءَانُ الْكَرِيمُ » وَالأَصْلُ فِيهِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾ وقد أَصْطَلَحَ كُتَّابُ الزَّمَانِ عَلَى أَنْ جَعَلُوهُ دُونَ الشَّرِيفِ فِي الوَصْفِ ، فَوَصَفُوا بِهِ مَا يَصْدُرُ عَمَّنْ دُونَ السُّلْطَانِ مِنْ أَكْبَرِ الدَّوْلَةِ مِنَ التُّوَابِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ : مِنْ تَوْقِيعٍ وَمَرَسُومٍ وَمِثَالٍ وَتَذَكُّرٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . فيقولون : « تَوْقِيعٌ كَرِيمٌ » و « مَرَسُومٌ كَرِيمٌ » و « مِثَالٌ كَرِيمٌ » و « تَذَكُّرٌ كَرِيمٌ » . وقد تُوصَفُ بِهِ المَكَاتِبَةُ أَيْضًا فيقال : « إِنَّ مَكَاتِبَتَهُ الْكَرِيمَةَ وَرَدَّتْ » ونحو ذلك ، وقد وَرَدَ فِي التَّنْزِيلِ : ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ عَلَى أَنَّهُ قَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَرْفَعَ رَتْبَةً مِنَ الشَّرِيفِ لَوُرُودِ التَّنْزِيلِ بِوَصْفِ الْقُرْءَانِ بِهِ .

النوع الرابع

(ما يُوصَفُ بِالْعُلُوِّ ، وهو في معنى الكرم في اصطلاحهم)

فيقال : « تَوْقِيعٌ عَالٍ » و « مَرْسُومٌ عَالٍ » ونحو ذلك ، وقد يُوصَفُ به الرَّأْيُ .
فيقال : « الرَّأْيُ الْعَالِي » وقد يُوصَفُ به أَمْرُ السُّلْطَانِ أَيْضًا مِنْ ذِي الرَّتْبَةِ الرَّفِيعَةِ ،
مثل كِتَابَةِ الْوَزِيرِ عَلَى الْمَرَاسِمِ الشَّرِيفَةِ وَنَحْوِهَا « أَمْتِلُ الْأَمْرَ الْعَالِي » .

النوع الخامس

(ما يُوصَفُ بِالسَّعَادَةِ)

ك « الرَّأْيِ السَّعِيدِ » و « الْآرَاءِ السَّعِيدَةِ » وربما وصف بذلك الديوان فقيل
« الدِّيَوَانُ السَّعِيدُ » ونحو ذلك .

النوع السادس

(ما يُوصَفُ بِالْبَرَكَةِ ، كَالْكُتُبِ)

فيقال : « كُتُبٌ مُبَارَكَةٌ » وقد يُوصَفُ به الْمُنْتَزَلُ فيقال : « مَنَزِلٌ مُبَارَكٌ »
وقد يوصف به الأمر لمن دون العالی ، فيقال : « يَتَقَدَّمُ أَمْرُهُ الْمُبَارَكُ » وكذلك
المكتبة ، فيقال : « إِنْ مَكَّاتَبَتَهُ الْمُبَارَكَةُ وَرَدَّتْ » ونحو ذلك .

الباب الثاني

من المقالة الثالثة

(في مقادير قطع الورق ، وما يناسب كل مقدار منها من الأقسام ،

ومقادير البياض في أول الدرّج وحاشيته ، وبعده ما بين السطور

في الكتابات ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في مقادير قطع الورق ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في مقادير قطع الورق في الزمن القديم)

قد ذكر محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" أن الخلفاء لم تنزل تستعمل القراطيس امتيازاً لها على غيرها من عهد معاوية بن أبي سفيان . وذلك أنه يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار ، وإلى الأمراء من نصف طومار ، وإلى العمال والكتاب من ثلث ، وإلى التجار وأشباههم من ربع ، وإلى الحُساب والمسّاح من سدس . فهذه مقادير لقطع الورق في القديم : وهي الثلثان والنصف والثلث والرّبع والسدس ، ومنها أستخرجت المقادير الآتي ذكرها . ثم المراد بالطومار الورقة الكاملة ، وهي المعبر عنها في زماننا بالفرخة ؛ والظاهر أنه أراد القطع البغدادي لأنه الذي يحتمل هذه المقادير ، بخلاف الشامي ، لاسيما وبغداد إذ ذاك دار الخلافة ، فلا يحسن أن يقدر بغير ورقها مع اشتغالها على كمال المحاسن . وقد تقدّم في الكلام على آلات الكتابة في المقالة الأولى بيان الخلاف في أول من صنع الورق .

الطرف الثاني

(في بيان مقادير قَطْع الورق المستعمل في زماننا، وفيه ثلاث جملي)

الجملة الأولى

(في مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية

بالديار المصرية، وهي تسعة مقادير)

المقدار الأول — قَطْع البَغْدَادِيّ الكامل . وَعَرَضُ دَرَجِه عَرْضُ البَغْدَادِيّ
بِكَمَالِه : وهو ذراعٌ واحد بذراع القَمَاشِ المِصْرِيّ ، وطولُ كلِّ وصل من الدَّرَج
المذكور ذراعٌ ونصفٌ بالذراع المذكور . وفيه كان تُكْتَب عهودُ الخلفاء وبيعتهم .
وفيه تُكْتَب الآن عهودُ أكابر الملوك ، والمكاتباتُ إلى الطبقة العُلَيَّا من الملوك ،
كأكابر القاناتِ من ملوك الشَّرْق .

المقدار الثاني — قَطْع البَغْدَادِيّ الناقص . وَعَرَضُ دَرَجِه دون عَرْض
البَغْدَادِيّ الكاملِ بأربعة أصابع مطبوقهٗ . وفيه يُكْتَب للطبقة الثانية من الملوك ،
وربما كُتِب فيه [للطبقة العُلَيَّا] لإعواز البَغْدَادِيّ الكامل .

المقدار الثالث — قَطْع الثلثين من الورق المِصْرِيّ . والمراد به ثلثا الطُّومان
من كامل المنصوريّ ، وَعَرَضُ دَرَجِه ثلثا ذراع بذراع القَمَاشِ المِصْرِيّ أيضا .
وفيه تُكْتَب مناشيرُ الأمراء المَقْدَمين ، وتقاليدُ التُّوابِ الكِبَارِ والوزراءِ وأكابر القضاة
ومنَّ في معنَاهم . ولم تجر العادةُ بكتابة مكاتبةٍ عن الأبواب السلطانية فيه .

المقدار الرابع — قطع النصف . والمراد به قطع النصف من الطومار المنصوري ؛ وعرضُ درجه نصف ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتبُ مناشيرُ الامراءِ الطبلخاناه ، ومراسيمُ الطبقة الثانية من التّواب ، والمكاتباتُ إلى الطبقة الثانية من الملوك .

المقدار الخامس — قطع الثلث . والمراد به ثلثُ القطع المنصوري ؛ وعرضُ درجه ثلثُ ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتبُ مناشيرُ امراءِ العشرات ، ومراسيمُ صفار التّواب ، والمكاتباتُ إلى الطبقة الرابعة من الملوك .

المقدار السادس — القطع المعروف بالمنصوري . وعرضه تقديرُ ربع ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتبُ مناشيرُ الممالك السلطانية ومقدمي الحلقة ، ومناشيرُ عشرات التّرکان ببعض الممالك الشامية ، وبعضُ التّواقيع وما في معنى ذلك .

المقدار السابع — القطع الصغير ، ويقال فيه قطع العادة . وعرضُ درجه تقديرُ سدس ذراع بالذراع المذكور . وفيه تُكتبُ عامةُ المكاتبات لأهل المملكة وحكامها ، وبعضُ التّواقيع والمراسيم الصّغار ، والمكاتباتُ إلى حُكّام البلاد بالممالك ، وما يجرى هذا المجرى . وقد كان هذا القطعُ والذي قبله في أول الدولة التركية طولُ كلِّ وصل منه شبران وأربعة أصابع مطبوقَةٌ فما حوّل ذلك .

المقدار الثامن — قطع الشاميّ الكامل . وعرضُ درجه عرضُ الطومار الشاميّ في طوله ؛ وهو قليلُ الاستعمال بالديوان ، إلا أنه ربما كتبت فيه بعضُ المكاتبات ، كما كتب فيه عن الأشرف شعبان بن حسين لوالدته حين سافرت إلى الحجاز الشريف .

المقدار التاسع — القَطْع الصغير . وهو في عَرْض ثلاثة أصابع مطبوقَةٌ من الورق المعروف بورق الطَّيْر، وهو صِنْف من الورق الشامي رقيقٌ للغاية . وفيه تُكْتَب ملطّفات الكُتُب وبطاق الحِمام .

الجملة الثانية

(في مقادير الورق المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية :

دمشق ، وحلب ، وطرابلس ، وحمّة ، وصفدّ ، والكرك .

في المكاتب والولايات الصادرة عن التواب بالممالك ،

وهي لاتخرج عن أربعة مقادير)

المقدار الأول — قطع الشامي الكامل : وهو الذي يكون عَرْضه عَرْض الطومار الشامي الكامل في طوله على ما تقدّم فيه . وفيه يُكْتَب عن التواب لأعلى الطبقات من أرباب التّواقيع والمراسيم ليس إلا .

المقدار الثاني — قطع نصف الجموي . وعَرْض درّجه عَرْض نصف الطومار الجموي ، وطوله بطول الطومار . وفيه يُكْتَب للطبقة الثانية من أرباب التواقيع والمراسيم الصادرة عن التواب .

المقدار الثالث — قطع العادة من الشامي . وعَرْض درّجه سدس ذراع بذراع القماش المصري في طول الطومار أو دونه . وفيه يُكْتَب للطبقة الثالثة من أرباب التواقيع والمراسيم الصادرة عن التواب وعامة المكاتب الصادرة

عن التَّوَابِ إِلَى السُّلْطَانِ فَمَنْ دُونَهُ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهِمْ ، إِلَّا أَنْ نَائِبَ الشَّامِ وَنَائِبَ الْكُرْكِ قَدْ جَرَتْ عَادَتُهُمَا بِصُدُورِ الْمَكْتَابَاتِ عَنْهُمَا فِي الْوَرَقِ الْأَحْمَرِ دُونَ غَيْرِهِمَا مِنَ التَّوَابِ .

المقدار الرابع — قَطْعُ وَرَقِ الطَّيْرِ الْمُقَدَّمِ ذَكَرَهُ فِي آخِرِ الْمَقَادِيرِ الْمُسْتَعْمَلَةِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ . وَفِيهِ تُكْتَبُ الْمَلَطَّفَاتُ وَالْبَطَائِقُ عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

قلت : هذه مقادير قطع الورق بالديار المصرية والبلاد الشامية . أما غير مملكة الديار المصرية من الممالك ، فالحال فيها يختلف في مقادير الورق المستعمل بدواوينها . فأما بلاد المشرق فعلى نحو المقادير المتقدمة . وأما بلاد المغرب والسودان وبلاد الفرنج ، فعادة كتابتهم في طومار واحد ، يزيد طوله على عرضه قليلا ، ما بين صغير وكبير بحسب ما يقتضيه حال المكتوب .

الجملة الثالثة

(في مقادير قطع الورق الذي تجرى فيه مكاتبات أعيان الدولة)

من الأمراء والوزراء وغيرهم بالديار المصرية

والبلاد الشامية)

وهو قطع العادة من البلدي بالديار المصرية ، ومن الشامي بالبلاد الشامية .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة الثالثة

(في بيان ما يناسبُ كلِّ مقدار من مقادير قَطْعِ الورق المتقدمة الذكر
من الأقلام ، ومقادير البياض الواقع في أعلى الدرَج وحاشيته ،
وبعد ما بين السطور في الكتابة . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يناسبُ كلِّ مقدار منها من قَطْعِ الورق من الأقلام)

قد ذكر المقرُّ الشَّهابيُّ بنُ فضل الله في كتابه " التعريف " في آخر القسم الثاني ما يناسبُ كلِّ مقدار من مقادير الورق المستعملة بديوان الإنشاء بالديار المصرية من أقلام الخَطِّ المنسوب فقال : إن لقطع البغدادي قلم مختصر الطومار ، ولقطع الثلثين قلم الثلث الثقيل ، ولقطع النصف قلم الثلث الخفيف ، ولقطع الثلث قلم التوقيعات ، ولقطع العادة قلم الرقاع . ومن ذلك يُعلم ما يناسب كل قَطْع من مقادير القطع المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية . فيناسبُ الشاميُّ الكامل قلم التوقيعات : لأنه في مقدار قطع الثلث البغدادي أو قريب منه ؛ ويناسبُ نصف الحمويِّ والعادة من الشاميِّ قلم الرقاع ، لأنهما في معنى القطع المنصوريِّ والعادة بالديار المصرية . أما قلم الجناح^(١) لكتابة بطائق الحمام به . وأما ما كان يكتب به الخلفاء

(١) عبارة الضوء لأؤلف ج ١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ " ويناسب قطع الحموي والعادة من الشامي قلم الرقاع

لانهما في معنى العادة ، ويناسب ورق الطير الذي تكتب فيه البطائق والمطلقات قلم الغبار ولذلك يسميه بعض

الكتاب قلم الجناح الخ " وهي واضحة .

أسماءهم في الزمن القديم وبه يكتب الملوك أسماءهم الآن ، فقلم الطومار : وهو القلم الجليل الذي لاقم فوqe . وقد تقدم الكلام على هذه الأقلام في بيان ما يحتاج إليه الكاتب في أواخر المقالة الأولى .

الطرف الثاني

(في مقادير البياض الواقع في أول الدرّج ، وحاشيته

وبعد ما بين السطور في الكتابة)

- أما مقدار البياض قبل البسملة ، فيختلف في السلطانيات باختلاف قطع الورق ، فكلمة عظم قطع الورق ، كان البياض فيه أكثر : فقطع البغدادي يُترك فيه ستة أوصال بياضا ، وتكتب البسملة في أول السابع ، وقطع الثلثين يُترك فيه خمسة أوصال ، وقطع النصف يُترك فيه أربعة أوصال ، وقطع الثلث يُترك فيه ثلاثة أوصال ، وقطع المنصوريّ والعادة تارة يُترك فيه ثلاثة أوصال ، وتارة يُترك فيه وصلان ، بحسب ما تقتضيه الحال . وقطع الشاميّ الكامل في معنى قطع الثلث ، وقطع نصف الحمويّ والعادة من الشاميّ في معنى القطع المنصوريّ والعادة في البلديّ . وربما أجتهد الكاتب في زيادة بعض الأوصال وتقصانها بحسب ما تقتضيه الحال . وفي المكاتب الصادرة عن سائر أرباب الدولة مصرّاً وشاماً يُترك في جميعها قبل البسملة وصل واحد فقط . وفي كتابة الأدنى إلى الأعلى يُترك بعض وصل .



وأما حاشية الكتاب ، فيحسب أجتهد الكاتب فيه في السعة والضيق . وقد رأيت بعض الكُتاب المعتبرين يقدّر حاشية الكتاب بالرُّبع من عرض الدرّج ، وهو اعتبار حسن لا يكاد يخرج عن القانون .



وأما بُعد ما بين السطور ، فيختلف باختلاف حال المكتوب واختلاف قطع الورق : ففي السلطانيات كلها على اختلاف قطع الورق فيها تكتب البسملة في أول الفصل بعد ما يترك من أوصال البياض في أعلى الدّرج بحسب ما تقتضيه الحال ؛ ثم يكتب تحت البسملة سطرًا ملاصقًا لها بحسب ما يقتضيه وضع القلم المكتوب به في القرب والبعد ، بحسب الدقة والغاظ ؛ ثم يكتب السطر الثاني في آخر الوصل الذي كتبت البسملة في أوله ، بحيث يبقى من الوصل ثلاثة أصابع مطبوقّة أو نحوها في القطع الكبير ، وقدر إصبعين في القطع الصغير ، وما بينهما بحسبه .

وقد قدر صاحب «موادّ البيان» البياض الباقي بين السطر الأول والثاني أيضا .^(١) وهذا إنما يقارب في القطع الكبير . وقد ذكر ابن شيث في «معالم الكتابة» . - وكان في آخر الدولة الأيوبية فيما أظنّ - أن مقدار ما بين كلّ سطرين يكون ثلاثة أصابع أو أربعة أصابع . والذي جرت به عادة الكُتاب في زماننا أنه يكون في قطع العادة والمنصوري في كلّ وصل من أوصال الزمان ثلاثة أسطر ، وفيما عداه سطران . وربما وقع التفاوت في القطع الصغير بحسب الحال حتى يكون في التواضع التي على ظهور القصاص ونحوها بين كلّ سطرين بعد بيت العلامة قدر إصبعين ؛ وربما تواصلت الأسطر كما في الملطافات ونحوها .

أما ما يكتب عن الثواب من الولايات والمكاتب من سائر أعيان الدولة ، فدون السلطانيات في مقدار خلّو موضع العلامة ، وهو ما بين قدر خمس أصابع مطبوقّة ونحوها ؛ وقدر [بُعد] السطور فيما بعد بيت العلامة من قدر إصبعين إلى مادونهما .

(١) عبارة الضوء نقلًا عن موادّ البيان "بين السطر الأول والثاني بقدر شبر"

(٢) لعله من أوصاله أي العادة أو المنصوري . انظر الضوء ص ٤١٧ .

الباب الثالث

من المقالة الثالثة

(في بيان المستندات، وكتابة الملخصات، وكيفية التعيين . وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في بيان المستندات : وهي التوقيع على القصص ومايجرى مجراه،

وما يُحتاج فيه إلى كتابة المستندات ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(السُلطانيات ، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ما يصدر عن متولى ديوان الإنشاء : كولايات الثواب والقضاة وغيرها

من أرباب الوظائف ، والتواقيع التي تُكتب في المسامحات

والإطلاقات ، ومكاتب البريد الخاصة بالأشغال السلطانية ،

وأوراق الطريق وما يجرى مجرى ذلك)

وجميعها معدودة بنظر صاحب ديوان الإنشاء . فما كان منها جليل الخطر

كولايات الثواب والقضاة وأكبر أرباب الوظائف والمكاتب المتعلقة بمهمات

السلطنة ، فلا بد من مخاطبة صاحب ديوان الإنشاء فيها واعتماد مايرز به أمره .

وما كان منها حقيراً بالنسبة إلى مخاطبة السلطان فيه أستقل فيه بما يقتضيه رأيه .

ثم من ذلك ما يكتب به صاحب الديوان رقاعاً لطيفةً بخطه ويُعينها على الكاتب

الذى يكتبها وتدفع إليه لتُخلد عنده شاهداً له ، كالولايات والمسامحات والإطلاقات

والمكاتبات المتعلقة بأمر المملكة ونحو ذلك . ومن ذلك ما يبرز به أمر صاحب الديوان مشافهةً فيكتبه من غير شاهد عنده ، وذلك في الأمور التي لا درك فيها على الكاتب ، كتقاليد التواب وبعض المكاتبات ، إذ لا تُهمّة تلحق كاتب الإنشاء في مثل ولاية نائب كبير أو قاضٍ حفيّل : لأن مثل ذلك لا يخفى على السلطان ، فأشبهه خطابُ صاحب الديوان فيها الكاتبُ خطابَ السلطان صاحب الديوان حيث لا شاهد عليه إلا الله تعالى ، بخلاف الأمور التي يلحق كاتبها الدرك ، فإنه لا بُد في كتابتها من تحليدٍ شاهدٍ . وكان الواجب أن لا يكتب حقيراً ولا جليل إلا بشاهدٍ من صاحب الديوان ، فإن الأمور تراكم وتكثر ، والإنسان معرضٌ للنسيان ، وربما عرض إنكارٌ بسبب ما يكتبه الكاتب ونسيه صاحب الديوان فيكون الكاتب قد عرض نفسه لأمرٍ عظيم . ولا يقاس الكاتب على صاحب الديوان في عدم أخذه شاهداً بخط السلطان ، فإن صاحب الديوان هو المتصرف حقيقةً ، والسلطان وكلُّ جميع أمور المملكة إليه ، فلا يُتهم في شيء منها ، بخلاف الكاتب .

وقد ذكر أبو الفضل الصوريّ في "تذكرة" أن المكتوب من الديوان إن كان مكتوبةً فالواجب أن يكون عنوانها بخط متولى الديوان ، وإن كان منشوراً فالواجب أن يكون التاريخُ بخطه ليدلّ على أنه وقف على المكتوب وأمضى حكمه ورضيه ، ويكون ذلك قد قام مقام كتابة اسمه فيه . ثم قال : وقد كان الرسمُ بالعراق - وفيه الكتابُ الأفاضل - أن يكتب الكتاب ما يكتبون ثم يقولون في آخره : « وكتب فلان بن فلان » بأسم متولى ديوان الرسائل . وما ذكره عن أهل العراق قد ذكر نحوه أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" إلا أنه قد جعل بدل اسم متولى الديوان اسم الوزير [فقال] ويكتب في آخر الكتاب « وكتب فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه . وقد رأيتُ نسخاً عدّة من سجلات الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية

مستشهداً فيها باسم الوزير على النهج المذكور . على أنه كان الواجب أن يكون
 الأستشهاد في آخر كل كتاب باسم كاتبه الذى يكتبه ليُعلم من كتبه ، فإن الخطوط
 كثيرة التشابه ، لاسيما وقد كثُر كُتَاب الإنشاء فى زماننا وخرجوا عن الحد ، حتى إنه
 لم يعرف بعضهم بعضاً فضلاً عن أن يعرف خطه . وقد كان كُتَاب النبى صلى الله
 عليه وسلم إذا سجّلوا عنه سجلاً أو نحوه كتب الكاتب فى آخره «وكتب فلان
 ابن فلان» . وهذه الرقعة التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم تميم الدارى بإقطاع
 قري من قري الشام موجودة بأيدى التميميين إلى الآن مستشهداً فيها بخط أمير المؤمنين
 على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وإنما عدلوا عن أسم الكاتب نفسه إلى أسم
 متولى الديوان أو الوزير استصغاراً للكاتب أن يُستشهد للكاتب بأسمه فيما يكتب به
 عن الخليفة . قال أبو هلال العسكرى فى كتابه "الأوائل" : وقد قالوا إن أول
 من كتب فى آخر الكتاب «وكتب فلان بن فلان» أبى بن كعب رضى الله عنه .

الصِّنفُ الثَّانِي

(ما يصدر عن غير صاحب ديوان الإنشاء : كالأمر التى يكتب بها من

الدواوين السلطانية غير ديوان الإنشاء وتلتمس الكتب من

ديوان الإنشاء على مقتضاها ، كالمكتبات الخاصة بتعلقات

شئ من الدواوين المذكورة ، وبعض التواقيع

التي أصلها من ديوان الوزارة)

ويختصر ذلك فى أربعة دواوين :

الديوان الأول - ديوان الوزارة : وهو أعظمها خطراً ، وأجلها قدراً .

وقد جرت العادة أنه إذا دعت الضرورة إلى كتابة كتاب من ديوان الإنشاء يتعلق بديوان الوزارة أن تكتب به قائمة من ديوان الوزارة في ورقة ديوانية بما مثاله : «رسم بالأمر الشريف - شرفه الله تعالى وعظمه - أن يكتب مثلاً شريف إلى فلان الفلاني بكذا وكذا» . وكيفية وضع هذه القائمة أن يكون السطر الأول في رأس الورقة من الوجه الأول منها، وآخره «شرفه الله تعالى وعظمه» وبينه وبين السطر الثاني قدر إصبعين معترضين بياضاً، وباقي السطور مسترسلة متقاربة بقلم الرقاع، ويكتب الوزير في البياض الذي بين السطر الأول والثاني بقلم الثلث ماثله : «يكتب» . ويوجه بالقائمة إلى ديوان الإنشاء حجة مدير من ديوان الوزارة أو غيره، فيكتب على حاشيتها يكتب بذلك، ويعينها على بعض كتاب الإنشاء فيكتب مثلاً بما فيها، ويحذف القائمة عنده شاهداً له، وربما خلدت بديوان الإنشاء في جملة ما يحذف في الأضابير شاهداً لديوان الإنشاء، والأول هو الأليق .

وإن كان الذي يكتب من ديوان الوزارة توقيعاً باطلاً أو نحوه مما أصله من ديوان الوزارة، كتب الوزير على حاشية قصة صاحبه ما مثاله «يكتب بذلك، أو يوقع بذلك» وتبعث إلى ديوان الإنشاء فيكتب عليها صاحب ديوان الإنشاء بالعيين . ثم إن كان التوقيع ملصقاً بقصة فذاك، وإلا خلد الكاتب القصة شاهداً عنده على ذلك، وربما كتب بالإطلاقات من ديوان الوزارة مرائباً بخط مستوفى الصحبة .

الديوان الثاني - ديوان الخاص :

وهو في كتابة الأمثلة الشريفة على مامر من كتابة القائمة ليخرج المثال على نظيرها، على ما تقدم في ديوان الوزارة . فتكتب القائمة على الحكم المتقدم من غير فرق،

ويكتب ناظر الخصاص عليها نظير كتابة الوزير السابقة ، ويوجه بها إلى ديوان الإنشاء فيكتب عليها بالتعيين كما تقدم ، ويخلد الكاتب القائمة عنده شاهداً له ، أو يُخلد بديوان الإنشاء على ما تقدم في ديوان الوزارة . ولا يُكتب من ديوان الخصاص تواقع بإطلاقات ونحوها بل تُكتب بها مراسيم مرتبة في ورق شامى بخط مباشرى ديوان الخصاص .

الديوان الثالث - ديوان الإستدارية :

وحكمه في ذلك حكم ديوان الخصاص من غير فرق ، ويكتب الإستدار عليها كما يكتب الوزير وناظر الخصاص ، ويبعث بها إلى ديوان الإنشاء ، فيجرى الحكم فيها على ما تقدم في الديوانين المذكورين .

الديوان الرابع - ديوان الجيش :

والذى يرد إلى ديوان الإنشاء منه ابتداءً هي المربعات التى تُكتب بالإقطاعات لتخرج المناشير على نظيرها .

وصورتها أن يُكتب في نصف فرجة مكسورة في القطع البلدى بعد البسملة الشريفة مأماله « المرسوم بالأمر العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى ، الفلانى ، أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه ، أو أعلاه الله تعالى وأسماءه ، وشرفه وأمضاه ، أن يُقطع باسم فلان الفلانى - أحد الأمراء المقدمين ، أو الطبلخانات ، أو العشرات ، أو النخسات - بالمكان الفلانى ، أو أحد الممالك السلطانية ، أو مقدمى الخلق ، أو أجناد الخلق ، بالمكان الفلانى المرسوم أستقراره في أمراء العشرات ، أو الطبلخانات ، أو المقدمين ، أو نحو ذلك - وأرسم له به الآن من الإقطاع » .
فإن كان أميراً قبل بعد ذلك : « لخاصته ولما يستخدمه من الأجناد الجياد للخدمة الشريفة ، والبرك التام ، والعدة الكاملة ، بمقتضى المثال الشريف ، أو الخط

العالي الكافلي؛ أو بمقتضى الإشهاد المشمول بالخطّ الشريف، أو بالخط الكافلي على نظير ما تقدم « أو « بمقتضى المربعة المكتتة من الملكة الفلانية المشمولة بالخط الشريف » إن كان أصله مربعةً من بعض الممالك وما أشبه ذلك . فإن كان أميراً ذُكرت عِدته على ما سيأتى فى الكلام على المناشير فى المقالة الخامسة . ثم يقال : « حَسَب الأمر الشريف » ويكمل التاريخ « والحمد لله ، والصلاة على النبي صلّى الله عليه وسلم » ويُبعث بها إلى ديوان الإنشاء فيكتب عليها صاحب الديوان بالتحيين على بعض كُتّاب الإنشاء ، فيكتبها ويخلّد المربعة شاهداً عنده .

الضرب الثانى

(ما يتعلق بالكُتُب فى المظالم ، والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأول

(فيما يتعلّق بالقِصص)

وهى تُرفع إلى ولاة الأمور بحكاية صورة الحال المتعلقة بتلك الحاجة ، وتُسمّى قصصاً على سبيل المجاز، من حيث إن القصة أسم للحكى فى الورقة لا لنفس الورقة . وربما سُمّيت فى الزمن القديم رقاعاً لصغر حجمها ، أخذاً من الرقعة فى الثوب .

ثم الذى يجب فى هذه القِصص الإيجاز والاختصار مع تبليغ الغرض المطلوب والقرب من فهم المخاطب ، فإنها متى كانت خارجةً عن الحد فى الطول ، أدت إلى الإحجار والسامة المنفرّين للرؤساء . وربما كان فى ذلك حرمان الطالب ودفعه عن حاجته : إما للاعراض عنها استئقلاً ، وإما لعدم فهم المقصود منها لطولها واختلاط بعض مقاصدها ببعض . وأما كونها مبلّغة للغرض المطلوب وفهم المخاطب ،

فلانها إذا كانت بصدد الاختصار المُجحف والتعقيد، نَبأ عنها فهم الرئيس ومجها سمعهُ :
فإما أن يُعرض عنها فيهُوت على صاحبها المطلوبُ ، وإما أن يسأل غيره عن معناها
فيكون سبباً لتنزله عن عزِّ الرياسة إلى ذلِّ السؤال ، وكلاهما غير مستحسن .

وقد جرت العادةُ في مثل ذلك أن يخلِّي من أوّل الورقة قليلاً ، ويجعل لها هامش
بحسبِ عَرْضها ، ويتبدأ فيها بالبسملة ثم يُكْتَب تحت أوّل البسملة : « المملوكُ
فلانُ يقبَلُ الأرضَ ، وينهى كذا وكذا » إلى آخر إنهائه : ثم يقال : « وسؤاله كذا
وكذا » فإن كان السؤال للسلطان قال : « وسؤاله من الصدقات الشريفة كذا وكذا »
وإن كان السؤال لغير السلطان قال : « وسؤاله من الصدقات العيمة كذا وكذا » .
ثم إن كان المسؤل كتاباً : فإن كان عن السلطان قال : وسؤاله مثالُ شريفٍ بكذا
وكذا ، وإن كان عن غير السلطان قال : « مثالُ كريمٍ بكذا وكذا » ثم يقول إن شاء
الله تعالى ، ويحمدُ الله تعالى ويصليُّ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم ويحسبُ . وربما
كتب « المملوك فلان » بحاشية القصّة ، خارجاً عن سَمْتِ البسملة . وربما أُبدِل
لفظُ المملوك بلفظِ الفقير إلى الله تعالى . ويقال حينئذ بدل « يقبَلُ الأرضَ »
« يتبهِل إلى الله تعالى بالأدعية الصالحة » أو « يواصل بالأدعية الصالحة »
ونحو ذلك .

وقد جرت العادةُ في كتابة القصص أن صاحبها إن كان أميراً ونحوه كَتَب تحت
البسملة « الملِكُ الفلاني » بلقب سلطانه ، مخلياً بياضاً من جانبيها . على أنه قد
تصدّى لكتابة القصص من لا يفرق بين حسنّها وقبيحها ، ولا ينظر في دلالتها ،
ولا يراعي مدلولها . وذلك كسنة الزمان في أكثر أحواله .

قلت : وقد جرت عادة أكثر الناس في القصص أنه إذا فرغ الكاتب من كتابة القصة يقطع قليلا من زاويتها اليمنى من الجهة السفلى، مستندين في ذلك إلى كراهة التربع .

(١)

ومن غريب ما يحكى في ذلك أن بعض الوزراء قال يوما يجلس وأنا وليت الوزارة ربيع الأول سنة أربع وأربعين وأربعمائة - فقال له بعض جلسائه : إن تفاءلت أنت به فقد تطيرنا نحن به . ولا شك أن مستندهم في ذلك التشاؤم بالتربع في القرآن التجمي، ولا يعول عليه . وقد ورد أن حوض النبي صلى الله عليه وسلم في القيامة زواياه على التربع ، ولولا أن التربع أحسن الأشكال لما وضع عليه حوض النبي صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثاني

(فيما يتعلق بالنظر في المظالم ، وما يكتب على القصص ،

وما ينشأ عنها من المساءلات وغيرها)

وهو أمر مهم ، به يقع إنصاف المظلوم من الظالم ، وخلاص المحق من المبطل ، ونصرة الضعيف على القوى ، وإقامة قوانين العدل في المملكة . وقد نبه أبو الفضل الصوري في "تذكرته" على جلالته هذا القدر وخطره ، ثم قال : ومن المعلوم أن أكثر المتظلمين يصلون من أطراف المملكة ونواحيها ، وفيهم الحرّم والمقطعات

(١) بياض في الأصول بقدر كلمتين .

والأيتام والصَّعَالِك ، وكلُّ من يَفِدُ منهم معتقداً أنه يصير إلى مَنْ ينصره ويكشِف ظلامته ويُعِدِّه على خَصْمه . فيجب أن يُتَلَقَّى كلُّ منهم بالترحاب واللُّطف ، ويُندَبَ لهم من يحفظ رِقَاعَهُمْ وَيَتَجَزَّ التوقيع فيها من غير التماس رَشْوَةٍ ولا فائدةٍ منهم ، وأن تكون التوقيعاتُ لهم شافيةً في معانيها ، مستوعبةً لكشِفِ ظَلَامَاتِهِمْ ، مؤذنةً بإنجاح طَلِبَاتِهِمْ .

قال أبو هلال العسكري : في كتابه ” الأوائل ” : كان المهديُّ يجلسُ للظالم وتُدخِلُ القِصصُ إليه ، فارتضى بعضُ أصحابه بتقديم بعضها ، فاتخذ بيتاً له شَبَّاهُ حديدٌ على الطريق تُطْرَحُ فيه القِصصُ ، وكان يدخُله وحده فيأخذ ما يقع بيده من القِصصِ أولاً فأولاً فينظر فيه لئلا يُقدِّم بعضها على بعض .

قال : وقدم عليه رجل فتظلم فأنصفه فاستخفَّه الفرج حتى غشى عليه ، فلما أفاق قال : ما حسبت أنى أعيش حتى أرى هذا العدلَ فلما رأته داخلني من السرور ما زال معه عقلي - فقال له المهدي : كان الواجبُ أن تُنصِفَكَ في بلدك ، وكان قد صرَّف في نفقة طريقه عشرين ديناراً فأمر له بخمسين ديناراً وتحلَّ منه .

قال أبو الفضل الصُّوري : ومهما كان من الرِّقاع يحتاجُ إلى العرَضِ على السلطان ، عرضه عليه ، وأحسنَ السَّفارةَ والتلطفَ فيه ، ووقعَ بما يؤمِّرُ به ، فقد تحدَّث في هذه الرِّقاعِ الأمورَ المهمَّةَ التي تنفعُ بها الدولة ، وتستصِرُّ بتأخير النظر فيها ، ويفهم من طيَّ هذه الرِّقاعِ من جورِ بعضِ الوُلاةِ والمستخدمين ما تُوجبُ السياسةُ صرْفَهُمْ عمَّا وُلَّوه منها . ومهما كان منها مما يسُّكُّ السلطانَ في صحته ، ندبَ مَنْ يثقُ به للكشِفِ مع رافعه ، فإن صحَّ قوله أنصفَ من خَصْمه ، وإن بانَ تمحلُّه قُوَّيلُ بما

يردع أمثاله عن الكذب والتمرد؛ ويعلم الولاة والمشارفون وسائر المستخدمين أن السلطان متفرغ للنظر في قصص الناس وشكاويهم ، وقد نصب لذلك من يتفرغ له ويطالعه بالمهم منه فيكتب أيديهم عن الظلم ، ويحذرون سوء عاقبة فعلهم ، ويقبل المتظلمون قولاً واحداً ، وتحسن سمعة الدولة بذلك فيكون لها به الجلال الكبير .

قلت : والذي يُرفع من القصص في معنى ذلك في زماننا على ستة أنواع .

النوع الأول

منها

(ما يرفع إلى السلطان في آحاد الأيام)

وقد جرت العادة فيه أن يُقرأ على السلطان : فما أمضاه منه كتب على ظهر القصة ما مثاله « يكتب » ثم تجل إلى كاتب السر فيعينها على بعض كتاب الإنشاء ، فيكتب بمقتضاها ويحفظها عنده شاهداً له .

النوع الثاني

(ما يُرفع لصاحب ديوان الإنشاء)

وقد جرت العادة في ذلك أن رافع القصة والمحتاج إلى الأمثلة الشريفة السلطانية في مهماته ومتعلقاته إن كان من الأعيان والمعتبرين كأحد من الأمراء أو المماليك السلطانية وأكابر أرباب الأقلام ، بعث بقصته لديوان الإنشاء ، فيقف عليها صاحب ديوان الإنشاء ويتأملها وينظر ما تضمنته ، فإن كان مما يحتاج فيه إلى مخاطبة السلطان ومؤامراته ، أخذها ليقراها عليه عند حضوره بين يديه ، ويمتثل

ما يأمر به فيها، فيكتب بمقتضاه، سواء طابَق سؤال السائل أم لا، ويعيَّنها على كاتب من كُتَّاب الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخُدُّ القصةَ شاهداً عنده . وهذه المثالات ورقُّها من ديوان الإنشاء من المرتَّب السلطاني . وإن كان رافعُ القصة من غير المعتبرين كأحدِ الناس، دفعَ القصة إلى مُدير من مُدراء ديوان الإنشاء فيجعل عليها علامةً له، ويجمع كلُّ مديرٍ مامعه من القِصص، وتُرْفَع إلى صاحب ديوان الإنشاء، فما كان منها غير سائغ للكتابة عليه قطعهُ أو ردّه؛ وما كان منها سائغاً كتب عليه وعيَّنه . وربما استشكل بعضها فأخبره ليقراه على السلطان وينظرَ ما يأمر به فيه فيعتَمِدُه . وإذا عيَّنَها على كاتب من كُتَّاب الإنشاء كتب بمقتضاها وخُدِّد القِصَّة عنده شاهداً .

النوع الثالث

(ما يُرْفَع من القِصص بدار العدل عند جلوس السلطان للحكم في المواكب)

وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ترتَّب مجلسُ السلطان على ما تقدّم في ترتيب المملكة أن القِصص تُفترق على كاتب السرِّ ومن حضر من كُتَّاب الدَّست، فيقرأ كاتبُ السرِّ منها ما عَنَّ له قراءته، ثم يقرأ الذي يليه من كُتَّاب الدَّست، ثم الذي يليه إلى آخرهم؛ ويشيرُ السلطان برأسه أو يده بإمضاء ما شاء منها؛ فيكتبُ كاتبُ السرِّ أو كاتبُ الدَّست على تلك القِصَّة بما فيه خلاصُ قلمه، ثم تُحْمَلُ إلى ديوان الإنشاء فيعيَّنُها على من يشاء من كُتَّاب الإنشاء فيكتبها، ويخُدُّ تلك القِصص عنده شاهداً .

النوع الرابع

(ما يُرْفَعُ مِنْهَا لِلنَّائِبِ الْكَافِلِ ، إِذَا كَانَ ثُمَّ نَائِبٌ)

وقد جرت العادة أن النائب يكون عنده كاتبٌ من كُتَّابِ الدَّسْتِ يجلس بين يديه لقراءة القِصَصِ عليه ، وتنفيذ ما يُكْتَبُ عنه . فإذا رُفِعَت القِصَّةُ إلى النائب الكافل قرأها عليه كاتبُ الدَّسْتِ وأمثل أمره فيها ، وأصلح في القِصَّة ما يجب إصلاحه ، وضرب على ما يجب الضربُ عليه ، وزاد بين سطوره ما تقتضيه الزيادة ؛ ثم تُدْفَعُ القِصَّةُ إلى النائب الكافل ، فيكُتَبُ على حاشيتها في الوَسْطِ أَخْذًا من جهة أسفلها إلى جهة أعلاها بَقَلَمٍ مختصر الطُّومار مامثاله «يُكْتَبُ» ثم تحمُلُ بعد ذلك إلى كاتب السر فيعيِّنها على بعض كُتَّابِ الإنشاء فيكُتَبُها .

النوع الخامس

(ما يُرْفَعُ مِنَ الْقِصَصِ إِلَى الْأَتَابِكِ ، إِذَا كَانَ فِي الدَّوْلَةِ)

أَتَابِكِ عَسْكَرٍ : وَهُوَ الْأَمِيرُ الْكَبِيرُ)

وغالب ما يكون ذلك إذا كان السلطان طفلًا أو نحو ذلك . وقد جرت العادة أن يكون عند الأتابك كاتبٌ من كُتَّابِ الدَّسْتِ أيضًا ، فإذا رُفِعَت القِصَّةُ إلى الأتابك : فإن كان الأمر فيها واضحًا تخلص حقًا أو نحوه ، كتب كاتبُ الدَّسْتِ على حاشيتها ما تقتضيه الحال في ذلك من غير قراءتها على الأتابك . وإن كان الأمر فيها غير واضح كما إذا كان الأمر راجعًا إلى مُنَازَعَةِ خَصْمَيْنِ ونحو ذلك ، قرأها على الأتابك وأمثل أمره فيها ، وكتب عليها ما برز به مَرَسُومُهُ . وفي كلتا الحالتين جرت العادة في زماننا [أنه يعمد] إلى أشهر حرفٍ في أسم الأتابك فيرفئه في آخر ما يكتبه أو تحته ؛ كما كان يُكْتَبُ عن برقوق قبل السلطنة (ق) وعن إيمش (ش) وعن نوروز (ن) ونحو ذلك .

النوع السادس

(ما يُرَفَّعُ منها للدُّوَادَارِ تُعَلِّقُ عنه الرِّسَالَةُ عن السلطان به)

وأعلم أن العادة كانت جاريةً في الزمن المتقدم أن السلطان إذا أمر بكتابة شيء على لسان أحد من الدُّوَادَارِيَّةِ ، حمل بريدئ من البريدية الرسالة لذلك عن ذلك الدُّوَادَارِ إلى كاتب السرِّ فيسمع كلام البريدى ويكتب على القصة إن كانت أو ورقة مفردة مأماله : « حضرت رسالة على لسان فلان البريدى بكذا وكذا » ويعينه على من يكتبه من كُتَّابِ الإنشاء . ولم يزل الأمر على ذلك إلى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » فأفرد المقرُّ الشهابى بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء كاتباً من كُتَّابِ الإنشاء لتعليق الرسالة ؛ فصار يكتب ما كان كاتب السرِّ يكتبه من ذلك على القصص أو الورقة المفردة ثم تُرَفَّعُ إلى كاتب السرِّ فيكتب عليها بالأمر بكتابتها ؛ ويعينه على من يكتب بمقتضاها ، وتُحَلَّدُ القصة أو الورقة التي علقت فيها الرسالة عنده شاهداً له . واستمر ذلك إلى مباشرة القاضي فتح الدين بن شاس أحد كُتَّابِ الدست عند الدُّوَادَارِ ؛ والدُّوَادَارُ يومئذ الأمير يونس التوروزى ، فأذن له كاتب السرِّ في تعليق الرسالة عن الأمير يونس الدُّوَادَارِ على ظهور القصص وغيرها ففعل . وكان يكتب على حواشى القصص في وسط القصة آخذاً من جهة اليمين إلى جهة اليسار بميلة إلى الأعلى بقلم دقيق متلاصق الأسطر مأماله : « رِسْمُ رسالة الجناب العالى الأميرى الكبرى الشرفى يونس الدُّوَادَارِ الظاهرى - ضاعف الله تعالى نعمته - أن يكتب مثلاً شريف بكذا أو توقيع شريف بكذا » وما أشبه ذلك ، ويؤرخه بيوم الكتابة ، ثم تحمل إلى كاتب السرِّ فيكتب عليها بالأمر بالكتابة ، ويعينه

على كاتبٍ من كُتَّابِ الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخلدها شاهداً عنده . وجرى الأمرُ على ذلك بعده إلى آخر وقتٍ .

قلت : وقد كان في الدولة الفاطمية كاتبٌ مفردٌ لتعليق الرسالة عن الخليفة، يسمَّى صاحبَ القلمِ الدقيق، يعلِّق ما تَبَرَّزَ به أوامر الخليفة في الرَّقاعِ وحواشي القِصصِ ، وتحمَّلُ إلى ديوان الوزارة ، فيعتمدها الوزيرُ ، ويبرز أمره إلى ديوان الإنشاء باعتمادها وكتابة ما فيها ، على ما تقدَّم ذكره في ترتيب الخلافة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

الفصل الثاني

(في التعيين وكيفية كتابة صاحب ديوان الإنشاء على الرَّقاعِ
والقِصصِ ، وتعيينها على كُتَّابِ الإنشاء)

ويختلف الحال في ذلك باختلاف حالِ الكاتبِ المعينِّ عليه وحال الرُّقعة المعينة . فإما اختلافه باختلاف حال مَنْ يعينُّ عليه . فإنه إن كان المعينُّ عليه كاتباً من كُتَّابِ الدَّسْتِ ، كتب له كاتبُ السِّرِّ في التعيين : « المولى ، القاضي ، فلان الدين ، أعزّه الله تعالى » وربما رَفَعَ قدره على ذلك فيكتب له : « المولى ، الأخ ، القاضي ، فلان الدين ، أعزّه الله تعالى » . وإن كان من كُتَّابِ الدَّرَجِ : فإن كان كبيراً كتب له : « المولى فلان الدين » . وإن كان صغيراً ، كتب له : « الولدُ فلان الدين » وربما وقع التمييز لبعض كُتَّابِ الدَّسْتِ أو كُتَّابِ الدَّرَجِ للتقدم بالفضل فكتب له : « المولى ، الشيخ فلان الدين » أو « الشيخ فلان الدين » تارةً مع الدعاء وتارةً دُونَهُ .



وأما اختلافه باختلاف حال المكتوب الذى يعين، فإنه إن كان قصةً بظاهاها
خط السلطان «يُكْتَب» فوضع كتابة التعيين تحت خط السلطان بظاهر القصة،
ولا كتابة له عليها غير ذلك .

وإن كان رُفَعَةً جميعها بخط كاتب السرّ، فإنه يكتب فيها «يكتب بكذا وكذا»
ثم يكتب التعيين بأول ذيلها .

وإن كان قصةً رفعت إلى كاتب السرّ، فإنه يكتب على حاشيتها في أعاليها
أخذاً من جهة أسفل القصة إلى أعلاها ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» أو «يكتب
بكذا وكذا» ثم يُكْتَب التعيين بحاشيتها أسفل ذلك في عرض الحاشية مُمَيْلاً للكتابة
إلى جهة الأعلى قليلاً .

وإن كان قصةً عليها خطُ النائب الكافل، فإنه يكتب عليها بالتعيين ليس إلا،
وموضع التعيين فيها بحاشية القصة أسفل خط النائب .

وإن كان قصةً قد كتب بهامشها مرسومُ الأتابك أو عُلق بحاشيتها رسالةُ
الدُّوَادار، كُتِبَ في جهة أعلى القصة : «يكتب بذلك» وعلى القُرب منه التعيين .
وإنما يُكْتَب هنا في جهة أعلى القصة وفيما عليه خطُ النائب الكافل في جهة أسفلها
لأن التعليق الذى على الهامش فيما عُلق عن مرسوم الأتابك أو رسالة الدُّوَادار بخط
كاتب الدَّسْت الذى فى خدمته ، بخلاف ما عليه خطُ النائب بنفسه .

وإن كان الذى يقع فيه التعيين قائمةً من ديوان الوزارة ، أو ديوان الخِصَّاص
أو ديوان الإِسْتَدَار، كتب بهامش القائمة من أعلاها مقابل كتابة المتحدّث على ذلك
الديوان ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» ثم يكتب التعيين تحته على القُرب منه .

وإن كان الذى يَقَع فيه التعيين مَرَبَّعةً إِقْطَاعٍ من ديوان الجيش، كَتَبَ بالتعيين فى آخرها مَقَابِلِ التاريخ من الجهة اليمنى، ولا كِتَابَةٌ له عليها غير ذلك .

قلت : وقد جرت عادةُ كُتَّابِ السِّرِّ فى زماننا أَنه يُكْتَبُ على القِصَصِ ونحوها، "يُكْتَبُ بذلك" أو "يُكْتَبُ بكذا وكذا" على ما تقدم بيانه بغير لام فى أوله . وكذلك الوزير وناظر الخاصِّ والإستدار يكتبون بغير لام فى الأول . أما القُضَاةُ فى الإذن بكِتَابَةِ المحاضر ونحو ذلك فإنهم يكتبون "لِيُكْتَبَ" بأثبات اللام فى أوله ، وهذه اللام تسمى لامَ الأمر وقد صرح الإمام أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكُتَّابِ" أَنه لا يجوز حذفها . وعلى ذلك ورد لفظُ القراء الكَرِيمِ كما فى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفْتَهُمْ وَيُوقِفُوا نُذُورَهُمْ وَيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ . وقوله : ﴿ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فليَنْظُرْ هَلْ يُدْهِنُ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ (١) ونحو ذلك . وحكى جمال الدين ابنُ هشام فى المعنى [جواز حذفها فى الشعر كقوله :

فَلَا تَسْتَطِلُّ مِنِّي بِقَائِي وَمُدَّتِي * وَلَكِنْ يَكُنْ لِلْخَيْرِ مِنْكَ نَصِيبُ!

وقوله :

مُحَمَّدٌ تَقَدَّرَ نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ * إِذَا مَا خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تَبَالًا! [(٢)

الطَّرْفُ الثَّانِي (٢)

(فى كِتَابَةِ المُلَخَّصَاتِ والإِجَابَةِ عنها من الدواوين السلطانية)

قد تقدم فى الكلام على ما ينظر فيه صاحبُ الديوان أَنه لما كان صاحبُ ديوان الإنشاء يَضِيقُ زَمَنَهُ عن آستيعاب حال الكُتُبِ الواردةِ من المملكة لوفورها واتساع

(١) بيض فى الأصول لهذه الجملة ، وقد نقلناها من المعنى (ج ١ ص ٣٢٢) والشاعر يعاطب ابنه لما تمنى موته .

(٢) لم يتقدم له تقسيم بالأطراف فى هذا الباب ولم يذكر الأول حتى يكون هذا ثانيا له نعم قال فى عنوان

الباب انه يتكلم فيه على كِتَابَةِ المُلَخَّصَاتِ فهو مما وعده به وجل من لا يسهو .

السولة وكثرة المكاتبين ، ناسب أن يتخذ كاتباً يتصفح الكتب الواردة ويتأملها ، ويلخص مقاصدها ؛ قال أبو الفضل الصوري في "تذكرته" : والرسم في ذلك أن الكاتب الذي يُقِيمُه صاحب الديوان يتسلم الكتب الواردة ويُخرجُ معانيها على ظهورها ، ملخصاً الألفاظ الكثيرة في اللفظ القليل ، غير مخلِّ بشيء من المعنى ولا محزِفٍ له ، مُسقطاً فضول القول وحشوه ، كالدعاء والتصدير والألفاظ المترددة .

قال : ويُخرجُ أيضاً ما يختصُ بديوان الخراج ، من الأمور التي تردُّ ضمنَ الكتب في معنى الخراج في أوراق يُعَيَّنُ فيها الكتب التي وصلتَ فيها وتاريخها والجهة التي وردت منها ، وينصها على هيئتها ، ويوجهها إلى ديوان الخراج ، فيجاب عنها منه ، ويستدعى من متولَّى ديوان الخراج الجوابَ عنها ؛ ثم يُعرضُ جميع ذلك على الملك ، ويستخرجُ أمره بإمضاء المكتبة به أو بغيره . فإن كان بخطِّ مخالفٍ للعربيّ : كالروميّ والفرنجيّ والأرمنيّ وغيرها ، أحضر من يعرف ذلك الخطَّ ممن يُوثقُ به ليترجمه في ظهره ، فإن كان ذلك المترجمُ يُحسِنُ الخطَّ العربيّ ، كتب بخطه في ظهر الكتاب ما مثاله « يقول فلان : إني حضرتُ إلى ديوان الإنشاء وتسلمتُ الرقعة أو الكتابَ الذي هذا الخطُّ بظاهره ، وسئلتُ عن تفسيره فذكرتُ أنه كذا وكذا » ويسردهُ إلى آخره « وبذلك أشهدتُ على نفسي » ويشهدُ عليه شاهدان : « هذا الذي ذكره بلا زيادة ولا نقص » .

وإن كان الكتابُ مشحوناً بالكلام بطناً وظهراً ، نقله بخطه بالقلم الذي هو مكتوبٌ به ، وترجمه على ظاهره بخطه بالعربيّ . وإن لم يحسن الكتابة بالعربيّ ، كتب عنه الكاتبُ بمحض من الشاهدين وأشهد عليه ليأبأ أو يُججمَ فيما يقول ، أو بغيره أو يفتِّصه لأن أكثر من يترجم على مذهب صاحب الخط ، فربما كتم عنه أوداجي فيه . فإذا خُوفُ بالإشهاد عليه وخشى أن غيره قد يقرؤه على غير الوجه

الذي أشهد به على نفسه ربما أدّى الأمانة فيه . فإذا لُحِصَتِ المكتابَةُ بظاها ،
سُئِمَت إلى متولّي الديوان ليقابل ظاهرها بباطنها : فإن وجده أخلّ فيها بشيء ،
أضافه بخطه وأنكر عليه إهماله ليتنبّه في المستقبل . فإن لم يكن فيها خلل عرضه
على الملك وأعتمد أمره فيه ، وكتب تحت كلّ فصل منها ما يجب أن يكون جوابا
عنه على أحسن الوجوه وأفضلها ؛ ثم يسألها إلى من يكتب الجواب عنها ممن يعرف
أضطّاعه بذلك ؛ ثم يقابل الجواب بالتحريج وما وقع به تحته : فإن وجد فيها خلا
سده ، أو مهملا ذكره ، أو سهوا أصلحه . وإن رآها قد كتبت على أفضل الوجوه
وأسدّها ، لم يفوت فيها معنى ولم يزد إلا لفظا يمتق به كتابه ويؤكد به قوله ، عرضها
على الملك حينئذ ليعلّم ؛ ثم استدعى من يتولّى الإصاق فألصقها بحضرته ، وجعل
على كلّ منها بطاقة يُشير فيها إلى مضمونها : لئلا يسأل عن ذلك بعد إصاقها
فلا يعلم ماهو ؛ ثم يسألها إلى من يتولّى تنفيذها إلى حيث أهلت له ؛ وتسلم النسخ
المخصّصة إلى من يؤهّله لحفظها وترتيبها .

قلت : قد تبيّن بما تقدّم من كلام أبي الفضل الصوري [ما كان عليه الحال
في زمنه] والذي عليه حال الديوان في زماننا فيما يتعلق بذلك أن الكُتُبَ الواردة
إلى الأبواب السلطانية من أهل المملكة وغيرها من سائر الممالك يتلقاها أكبر
الدواريّة : وهو مقدّم ألف على ما تقدّم ذكره في الكلام على ترتيب الديار المصرية ؛
ويحضر القاصد المحضّر للكتاب من بریدی أو غيره ، ثم يناوله للسلطان فيفرض ختامه ،
وكتب السرّ جالس بين يديه ، فيدفعه السلطان إليه ، فيقرؤه عليه ويستصحبه معه
إلى الديوان : فإن كان الكتاب عربيا دفعه كاتب السرّ إلى نائبه أو من يخصّسه
بذلك ليخصّص معناه : فينعم النظر فيه ، ويستوفى فصوله ، وليخصّص مقاصدها ،

(١) في الاصول ثم عرضها ولكن زيادة ثم في الكلام تنقصه والظاهر أنها زيادة من قلم النسخ تأمل .

ويكتب لكل ديوان من الدواوين التي يرفع إليها متعلق ذلك الكتاب ملخصاً بالفصول المتعلقة به في ورقة مفردة، ليجابوب عليها متولّى ذلك الديوان بما رُسم له من الجواب عنها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تُكْتَبُ لَهُ الْمَلَخَّصَاتُ فِي زَمَانِنَا مِنَ الدَّوَاوِينِ السُّلْطَانِيَّةِ خَمْسَةٌ دَوَاوِينٌ . وَهِيَ : دِيْوَانُ الْإِنشَاءِ ، وَدِيْوَانُ الْوِزَارَةِ ، وَدِيْوَانُ الْجَيْشِ ، وَدِيْوَانُ الْإِخْلَاصِ ، وَدِيْوَانُ الْإِسْتِدَارِيَّةِ : وَهُوَ الدِّيْوَانُ الْمَفْرَدُ .

وَالطَّرِيقُ إِلَى كِتَابَةِ الْمَلَخَّصَاتِ أَنْ يَحْدِفَ مَا فِي صَدْرِ الْكُتُبِ مِنَ الْحَشْوِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي كَلَامِ أَبِي الْفَضْلِ الصُّورِيِّ ، ثُمَّ يَعْمَدَ إِلَى مَقَاوِدِ الْكِتَابِ فَيَسْتَوْفِي فُصُولَهُ وَيَتَصَوَّرُهَا بِذَهْنِهِ ، ثُمَّ يَنْظُرُ فِي مُتَعَلِّقَاتِ تِلْكَ الْفُصُولِ ، وَيَكْتُبُ لِكُلِّ دِيْوَانٍ مِنَ الدَّوَاوِينِ الْمَتَقَدِّمَةِ مَلَخَّصًا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الْفُصُولِ فِي فَصَلٍ وَاحِدٍ أَوْ أَكْثَرَ ، بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ قِلَّةُ الْكَلَامِ وَكَثْرَتُهُ .

وكيفية كتابته أن يترك من رأس الوصل قدر ثلاثة أصابع بياضاً، ثم قدر إصبعين بياضاً عن يمينه ، وقدر إصبعين بياضاً عن يساره ؛ ويكتب في صدره ما مثاله : « ذكر فلان في مكاتبته الواردة على يد فلان المؤرخة بكذا وكذا » يمد لفظ « ذكر » بين جانبي الوصل ، ويكتب باقي الكلام تحتها من أول الوصل إلى آخره في العرّض من غير خلّو بياض « أنه آتفق من الأمر ما هو كذا وكذا » أو « أنه سأل في كذا وكذا » . ثم يخلى بياضاً قدر أربعة أصابع مثلاً ويكتب في وسط الدرّج بخلو بياض من الجانبين ، « و ذكر » على نحو ما تقدم ؛ ثم يكتب باقي الكلام من أول الوصل إلى آخره ، ويفعل ذلك بكل فصل في الكتاب يتعلّق بذلك الديوان المختص بذلك الملخص ؛ ويكتب في آخر كل فصل « وقد عرّض على المسماع الشريفة » و « مهما برزت به المراسيم الشريفة كان العمل بمقتضاه » ونحو ذلك .

ثم إن كان الملخص لديوان الإنشاء، كتَبَ بأعلى الوصل من ظاهره من الجانب الأيسر منه مأماله «ديوان الإنشاء». وإن كان لديوان الجيش كتب هناك مأماله «ديوان الجيش». وكذا ديوان الخاص وسائر الدواوين المتقدمة الذكر. فإذا كتبت الملخصات، وقف عليها كاتب السر: فما كان منها متعلقاً بديوان الإنشاء عرضه على السلطان وأستمطر جوابه عنه، فيكتب مقابله في الملخص «يُكتَبَ بذلك» أو «يكتب بكذا وكذا» أو «رسم بذلك» أو «رسم بكذا وكذا». وما كان منها متعلقاً بديوان الوزارة بعث به إلى الوزير؛ وما كان منها متعلقاً بديوان الجيش بعث به إلى ناظر الجيش؛ وما كان منها متعلقاً بديوان الخاص بعث به إلى ناظر الخاص: ليقرا كل منهم ملخصه على السلطان وينظر ما يأمر به فيه، فما كان كتَبَ به بجانب الفصل الذي كتَبَ به في الملخص «أمضى ذلك» أو «لم يمض» أو «رسم بكذا وكذا» ونحو ذلك: وسائر الدواوين على هذا النمط.

وإن كان الكتاب غير عربي: فإن كان بالتركية المغلية ونحوها كالكتب الواردة عن بعض القانات من ملوك الشرق، فإنه يتولى ترجمتها من يوثق به من أخصاء الدولة: من الأمراء أو الخاصكية ونحوهم، ممن يعرف ذلك اللسان؛ ثم يقرأ ترجمته على السلطان، ويعتمد ما يأمر به في جوابه ليكتب به. وإن كان بالرومية أو الفرنجية ونحوهما من اللغات المختلفة، تُرجم على نحو ما تقدم، وكتب ملخصه وقري على السلطان وأتمس جوابه؛ وكتب كاتب السر على الملخص بما رسم فيه.

الباب الرابع

من المقالة الثالثة

(في الفَوَاتِحِ وَالْحَوَاتِمِ وَاللَّوَاخِقِ ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في الفَوَاتِحِ ، وفيه ستة أطراف)

الطَّرْفُ الْأَوَّلُ

(في البسملة ، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في أصل الافتتاح بها)

كانت قريش قبل البعثة تكتب في أول كتبها «بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ» والسبب في كتابتهم ذلك ما ذكره المسعودي في «مروج الذهب» عن جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف : كابن دأب ، وأبيهم بن عدي ، وأبي مخنف لوط بن يحيى ، ومحمد بن السائب الكلبي : أن أمة بن أبي الصلت الثقفي خرج إلى الشام في نفر من تقيف وقريش في غيرهم ، فلما قفلوا راجعين [نزلوا منزلاً وأجتمعا لعشاءهم ، إذ] أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم فخصمها بعضهم بحجر في وجهها فرجمت ، فشدوا سفرتهم ، ثم قاموا فشدوا على إياهم وأرتحلوا من منزلهم ، فلما برزوا من المنزل ، أشرفت

(١) في الاصول وغيرهم ، وهو تصحيح والتصحيح عن المسعودي في مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ .

(٢) الزيادة عن مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ ليتضح الكلام .

(١)
عليهم عجوزٌ من كَثِيبِ رَمَلٍ متوكِّئَةٌ على عَصَا، فقالت : مامنكم أن تُطعموا رَحِيمةَ
البيمة الصغيرة التي باتت لطعامكم عَيْلَةً؟ قالوا : وما أنت؟ قالت أم العوام، أرملتُ
منذ أعوام ؛ أما وربّ العباد ، لتُفرَّقنَّ في البلاد ! ثم ضربت بعصاها الأرضَ
وأثارت بها الرملَ ، وقالت : أطيلي إياهم ، وقرّني إياهم ! فوثبت الإبلُ كأنَّ على
ذروة كلِّ منها شيطاناً ، ما يملكون منها شيئاً حتى آفرت في الوادي ، فجمعوها
من آخر النهار إلى غُدوة ، فلما أناخوا الرّواحلَ طلعت عليهم العجوزُ وفعلتُ
كما فعلتُ أولاً وعادتُ لمقاتلها الأول ، فخرجتِ الإبلُ كما خرجت في اليوم الأول ،
فجمعوها من غدٍ . فلما أناخوا ليرحلوها ، فعلتِ العجوزُ مثل فعلها في اليوم الأول
والثاني فنفرت الإبلُ ، وأمساوا في ليلة مُقَمَّرة وَيَسُوا من ظُهورهم ؛ فقالوا لأُمِيَّةَ
ابن أبي الصلت : أين ما كنت تُخبرنا به عن نَفْسِكَ وعِلمِكَ ؟ [فقال : أذهبوا أتم
في طلب الإبلِ ودَعُونِي] . فتوجّه إلى الكَثِيبِ الذي كانت تأتي منه العجوزُ حتى هبطَ
من نَبِيئِهِ الأخرى ، ثم صعدَ كَثِيباً آخرَ حتى هبطَ منه ؛ ثم رُفعت له كنيسةٌ فيها قناديلُ
ورجلٌ معترِضٌ مضطَجِعٌ على باهها ، وإذا رجلٌ جالسٌ أبيضُ الرأسِ واللحية ؛
قال أُمِيَّةُ : فلما وقفتُ قال لي : [إنك لمتبوع ، قلتُ أجل ، قال فمن أين يأتيك
صاحبك؟ قلت : من أذني اليسرى . قال : فبأيّ الثياب يأمرُك؟ قلت : بالسواد .
قال : هذا خطيبُ الحنِّ ، كذت والله أن تكونه ولم تفعل . إن صاحبَ النبوة
يأتيه صاحبه من قبل أذنه اليمنى ، فيأمره بلباسِ البياض ، فأ] حاجتك؟ فحدثتهُ
حديثَ العجوز . فقال : هي امرأةٌ يهوديةٌ هلك زوجها منذ أعوام ، وإنها لن تزال

(١) في المسعودي ج ١ ص ٣٣ "رحمة الجارية البيمة" وفي الاغانى "رحمة" بالجيم .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

(٣) الزيادة عن المسعودي ج ١ ص ٣٤ ، وهو على هذا النحو في الاغانى .

تَفَعَّلَ بِكُمْ ذَلِكَ حَتَّى تَهْلِكُكُمْ إِنْ أَسْتَطَاعَتْ - قَالَ أُمِيَّةُ : قَلْتُ فَمَا الْحِيلَةُ ؟ - قَالَ :
 أَجْمَعُوا ظَهْرَكُمْ إِذَا جَاءَتْكُمْ وَفَعَلْتُمْ مَا كَانَتْ تَفْعَلُ ، فَقُولُوا سَبْعًا مِنْ فَوْقُ وَسَبْعًا مِنْ
 أَسْفَلُ " بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ " فَإِنهَا لَنْ تَضُرَّكُمْ . فَرَجَعَ أُمِيَّةُ إِلَى أَصْحَابِهِ فَأَخْبَرَهُمْ بِمَا قِيلَ لَهُ
 وَجَاءَتْهُمْ الْعَجُوزُ فَفَعَلَتْ كَمَا كَانَتْ تَفْعَلُ فَقَالُوا سَبْعًا مِنْ فَوْقُ وَسَبْعًا مِنْ أَسْفَلُ بِاسْمِكَ
 اللَّهُمَّ فَلَمْ تَضُرَّهُمْ . فَلَمَّا رَأَتْ الْإِبِلَ لَا تَتَحَرَّكُ ، قَالَتْ : قَدْ عَلِمْتُمْ صَاحِبَكُمْ ،
 لِيُبَيِّضَنَّ اللَّهُ أَعْلَاهُ وَلِيَسْوِدَنَّ أَسْفَلَهُ . وَسَارُوا فَلَمَّا أَدْرَكَهُمْ الصَّبْحُ ، نَظَرُوا إِلَى أُمِيَّةَ
 قَدْ بَرِصَ فِي غُرَّتِهِ وَرَقَبَتِهِ وَصَدْرِهِ وَأَسْوَدَّ أَسْفَلَهُ . فَلَمَّا قَدِمُوا مَكَّةَ ذَكَرُوا هَذَا
 الْحَدِيثَ ، فَكَتَبْتُ قَرِيشَ فِي أَوَّلِ كُتُبِهَا " بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ " فَكَانَ أَوَّلَ مَا كَتَبَهَا أَهْلُ
 مَكَّةَ وَجَاءَ الْإِسْلَامُ وَالْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

قال إبراهيم بن محمد الشيباني : ولم تزل الكُتُبُ تُفْتَحُ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ حَتَّى نَزَلَ قَوْلُهُ
 تَعَالَى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فَاسْتَفْتَحَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَارَتْ سُنَّةً بَعْدَهُ . وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ سَعْدٍ فِي طَبَقَاتِهِ ،
 أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَكْتُبُ كَمَا تَكْتُبُ قَرِيشُ " بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ " ،
 حَتَّى نَزَلَ عَلَيْهِ ﴿ وَقَالَ أَرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ . فَكَتَبَ بِاسْمِ اللَّهِ ،
 حَتَّى نَزَلَ ﴿ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ﴾ . فَكَتَبَ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ » حَتَّى نَزَلَ
 ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ فَكَتَبَ « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » .
 وَذَكَرَ فِي " مَوَادِّ الْبَيَانِ " نَحْوَهُ .

وعن سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ لِلرَّجُلِ أَنْ يَكْتُبَ شَيْئًا حَتَّى يَكْتُبَ
 « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » . وَعَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ أَنْ يَكْتُبَ

كُتِبَ أَوْ غَيْرِهِ حَتَّى يَبْدَأَ بِ«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» . وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : لَا يَصْلُحُ كِتَابٌ إِلَّا أَنْ يَكُونَ أَوَّلُهُ «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» .

وهذه الأحاديث والآثار كلها ظاهرة في استحباب الابتداء بالبسملة فيما يُكْتَبُ به من أصناف المكاتبات والولايات وغيرها ، وعلى ذلك مصطلح كُتِبَ الإنشاء في القديم والحديث ، إلا أنهم قد أصطلحوا على حذفها من أوائل التواقيع والمراسيم الصغار ، كالتى على ظهور القصاص ونحوها ، وكانهم أخذوا ذلك من مفهوم ما رواه أبو داود وابن ماجه في سنتهما وأبو عوانة الأسفراييني في مُسْنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يَبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ» ، يَعْنِي نَاقِصَ الْبَرَكَةِ ، وَمَا يُكْتَبُ فِي التَّوَاقِيعِ وَالْمَرَّاسِيمِ الصَّغَارِ لَيْسَ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهْمَّةِ فَنَاسِبٌ تَرْكُ الْبِسْمَلَةِ فِي أَوَّلِهَا . لَكِنْ قَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْمَدَائِنِيِّ فِي كِتَابِ «الْقَلَمِ وَالِدَوَاءِ» أَنَّ أَهْلَ الْعِلْمِ كَرِهُوا حَذْفَ الْبِسْمَلَةِ مِنَ التَّوَاقِيعِ وَالسَّرَاحَاتِ وَذَمُّوهُ . وَقَدْ كَانَ الْقَاضِي عَلَاءُ الدِّينِ الْكِرْكَبِيُّ كَاتِبُ السَّرِّ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوقُ» فِي أَوَّلِ سُلْطَنَةِ الثَّانِيَةِ أَمْرًا أَنْ يُكْتَبَ فِي أَوَّلِهَا بِسْمَلَةٌ بِقَلَمٍ دَقِيقٍ ، ثُمَّ بَطَلَ ذَلِكَ بَعْدَ مَوْتِهِ وَبَقِيَ الْأَمْرُ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَوَّلًا . ثُمَّ قَدْ اخْتَلَفَ فِي كِتَابَتِهَا أَمَامَ الشُّعْرَاءِ : فَذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَالزُّهْرِيُّ إِلَى مَنْعِ ذَلِكَ ، وَذَهَبَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ إِلَى جَوَازِهِ . وَيُرْوَى مِثْلُهُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ . قَالَ أَبُو جَعْفَرِ النَّحَّاسُ فِي «صِنَاعَةِ الْكُتُبِ» : وَرَأَيْتُ عَلِيَّ بْنَ سَلِيمَانَ يَمِيلُ إِلَيْهِ . قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْمَدَائِنِيِّ : وَلَا بَأْسَ إِنْ يَكُنْ بَيْنَ الشُّعْرَاءِ وَبَيْنَهَا كَلَامٌ ، مِثْلَ أَنْ تُشَدَّنِي فَلَانُ الْفُلَانِيِّ وَشِبْهُ ذَلِكَ ، فَأَمَا أَنْ يَصْلَهُ بِهَا فَلَا يَجُوزُ .

(١) في الاصول أن يكون ولكن بأباه المعنى وبقية الكلام تأمل .

الجملة الثانية

(في الحث على تحسينها في الكتابة وما يجب من ترتيبها في الوضع)

أما الحث على تحسينها في الكتابة، فينبغي للكاتب أن يبالغ في تحسينها في الكتابة ما استطاع تعظيماً لله تعالى . فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من كتب بسم الله الرحمن الرحيم أحسنه الله إليه » . وعن واصل مولى أبي عيينة قال : سمعت حمادا يقول : كانوا يحبون أن تحسن بسم الله الرحمن الرحيم .



وأما ما يجب من ترتيبها ، فأقول ما يجب من ذلك إطالة الباء لتدل على الألف المحذوفة منها لكثرة الاستعمال ، ثم إثبات السين بأسانها الثلاث ، غير مرسل لها إرسالاً كما يفعله بعض الكتاب فقد كره ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وزيد بن ثابت والحسن وابن سيرين ، حتى يروى أن عمر رضي الله عنه ضرب كتاباً على حذف السين منها - فليل له : فيم ضربك عمر ؟ - فقال : في سين ، بخرى مثلاً . ويروى أن غلاماً لعمر بن عبد العزيز كتب إليه من مصر كتاباً ولم يجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا ، فكتب إليه عمر يأمره بالقدوم عليه ، فلما قدم قال : أجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا وأنصرف إلى مصر . وكذلك لا يمد الباء قبل السين ثم يكتب السين بعد المدة ، كما يفعله بعض كتاب المغاربة فقد روى محمد بن عمر المدائني من حديث شعيب بن [أبي] الأشعث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فلا يمدّها قبل السين . يعني الباء » وعن ليث عن مجاهد يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم نحوه . ويروى مثله عن ابن عمر ، وابن سيرين . وعن عبد العزيز بن عبد الله وعبد الله بن دينار وغيرهما

أن العلماء كانوا يكرهون ذلك ويتهون عنه أشدَّ النهي حتى روى عن الضحَّاك
 ابن مزاحم أنه قال : ودِدْتُ أُنِّي لو رأيتُ الأيدي تُقَطَّعُ فيه . نعم يستحبُّ المدَّبين
 السين والميم كما هو عادةُ كُتَّابِ المُصرِّين وأهلِ المُشْرِقِ . وكذلك استحسنوا مدَّ الحاء
 من الرحمن قبل الميم وقالوا : إنه من حُسْنِ البيان ، حتى يروى أن عمر بن عبد العزيز
 كتب إلى عمَّاله إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمدِّ الرحمن . وهذا مما
 يتعاطاه كُتَّابُ المغرب دون كُتَّابِ مصر وأهلِ المُشْرِقِ . أما غير ذلك من وجوه
 التحسين فيأتي الكلام عليه في الكلام على الخط إن شاء الله تعالى .

الجملة الثالثة

(في بيان موضعها من المكتوب، ويتعلَّق به أمران)

الأمر الأول

(تقدُّمها في الكتابة)

فيجب تقديمها في أول الكلام المقصود : من مكتبة أو ولاية أو منشورٍ إقطاع
 أو غير ذلك ، تبرُّكا بالأبداء بها وتيمُّنا بذكرها ، عملا بالأخبار والآثار المتقدِّمة في الجملة
 الأولى . على أنه قد اختلف في معنى قوله تعالى حكاية عن بلقيس حين ألقي إليها
 كتاب سليمان عليه السلام : ﴿ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ
 الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الَّا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ : فذهب بعضُ المفسرين إلى أن قوله
 ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ﴾ من كلام بلقيس ، وإنما حكى الكتاب بقولها : وإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ

(١) قد مضى الكلام على الخط في أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب وبين هناك أوضاع البسمة وكيفية

كتابتها أوضح بيان فلعل ما هنا سهو عما فات .

الرحمن الرحيم إلى آخر الآية، فيكون ابتداء الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، ويكون ذلك احتجاجاً على وجوب تقديمها . وذهب آخرون إلى أن قوله ((إنه من سليمان)) بداية كتاب سليمان، فيكون سليمان عليه السلام قد بدأ في كتابه باسمه . فإن قيل كيف ساغ على ذلك تقديم اسمه على اسم الله تعالى في الذكر مع أن الأنبياء عليهم السلام أشد الناس أدباً مع الله تعالى؟ فالجواب ما قيل: إنه كان عادة ملوك الكُفْر أنه إذا ورد عليهم كتاب بما يكرهون ربما مزقوا أعلاه أو تفلأوا فيه، فجعل سليمان عليه السلام اسمه تقيّةً لاسم الله تعالى فذكره أولاً . ومن هنا أصطلح الكُتّاب في الكُتُب الصادرة عن ملوك الإسلام إلى ملوك الكُفْر بكتابة ألقاب الملك المكتوب عنه في وصل فوق البسملة، تأسياً بسليمان عليه السلام .

أما ما يكتب في طرّة الولايات من العهود والتقاليد وغيرها، فإنه في الحقيقة جزء من المكتوب، فلا يُوصَف بأنه شيء مقدّم على البسملة . وأما الطغرة التي كانت تُوضَع في مناشير الإقطاعات في وصل بين وصل الطرّة والبسملة فيها ألقاب السلطان على ما سيأتي في الكلام على كتابة المناشير في موضعه إن شاء الله تعالى، فإنها كتابة أجنبية مكتوبة بخط غير الكاتب فلم تُنسَب في الحقيقة إلى التقديم . على أن ذلك قد بطل في زماننا . وهاتان المسئلتان المتعلقتان بالطغرة المكتوبة في المناشير ومكاتبات أهل الكفر مما سأل عنه الشيخ جمال الدين بن نباتة في رسالته التي كتبها إلى كُتّاب ديوان الإنشاء بالشام، في مباشرة الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، حين بلغه أن بعضهم وقع فيه .

الأمْر الثاني

(إفرادها في الكتابة)

قال محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة": "ينبغي للكاتب أن يُفرد البسملة في سطر وحدها، تَجْبِيلاً لِأَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِعْظَامًا وَتَوْقِيرًا لَهُ؛ ثُمَّ سَاقَ بِسْنَدِهِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "نَهَى أَنْ يُكْتَبَ فِي سَطْرِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ غَيْرُهَا". وعلى هذه الطريقة جرى كُتَابُ الْإِنشَاءِ فِي مَكَاتِبِهِمْ وَسَائِرُ مَا يُصَدَّرُ عَنْهُمْ. أما النُّسَاحُ وَكُتَابُ الْوَنَائِقِ فَرَبَّمَا كَتَبُوا بَعْدَهَا فِي سَطْرِهَا «الْحَمْدُ لِلَّهِ» أَوْ «الصَّلَاةُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَكَذَلِكَ يُكْتَبُ الْقَضَاةُ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» فِي عِلَامَاتِ الثُّبُوتِ فِي الْمَكَاتِبِ الشَّرْعِيَّةِ.

الطَرَفُ الثَّانِي

(فِي الْحَمْدِ لِ)

لَمَّا كَانَ الْحَمْدُ مَطْلُوبًا فِي أَوَائِلِ الْأُمُورِ طَلَبًا لِلتَّيْمَنِ وَالتَّبَرُّكِ، عَمَلًا بِمَا رَوَاهُ الرَّأُوْنُ لِحَدِيثِ الْبِسْمَلَةِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِحَمْدِ اللَّهِ فَهُوَ أَجْدَمٌ» أَصْطَلَحَ الْكُتَّابُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ بِهِ فِي الْكَثِيرِ مِمَّا يُكْتَبُونَهُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ وَالْوَلَايَاتِ وَغَيْرِهَا مِمَّا لَهُ شَأْنٌ وَبَالٌ: كَمَكَاتِبَاتِ أَكْثَرِ الْمُلُوكِ مِنْ قَانَاتِ الشَّرْقِ، وَكُلِّ مَا تَضَمَّنَ نِعْمَةً مِنْ الْمَكَاتِبَاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَالْيَعَاتِ وَالْعُهُودِ وَالتَّقَالِيدِ عَلَى رَأْيٍ مِنْ يَرَى آفْتَا حِهَا بِالْحُطْبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَأْتِي ذِكْرُهُ فِيهَا بَعْدُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. بَلْ رُبَّمَا كَرَّرُوا الْحَمْدَ الْمُرَاتِ الْمُتَعَدِّدَةَ إِلَى السَّبْعِ فِي الْخُطْبَةِ الْوَاحِدَةِ، عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي مَوْضِعِهِ

إن شاء الله تعالى . وأتوا بالحمد لله بعد البسمة تأسياً بكتاب الله تعالى ، من حيث إن البسمة آية من الفاتحة كما هو مذهب الشافعي رضي الله عنه ، أو فاتحة لها - وإن لم تكن منها - كما هو مذهب غيره . أما سائر المكاتبات والولايات المفتحة بغير الحمد ، وإنما حذف منها الحمد أستصغارا لشأنها ، إذ كان الابتداء بالحمد إنما يكون في أمرٍ له بال دل عليه الحديث المتقدم ، وسيأتي الكلام على كل شيء من ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى . قال في "الصناعتين" : وإنما أفتح الكلام بالحمد لأن النفوس تتشوق للثناء على الله تعالى ، والافتتاح بما تتشوق النفوس إليه مطلوب . وربما أتى الكتاب بالحمد بعد البسمة : « فكتبوا » أما بعد حمد الله ، أو « أما بعد فالحمد لله » فأما الصيغة الأولى فالحمد مقدم فيها معنى وإن لم يذكر لفظا لأن قوله أما بعد حمد الله يقتضى تقدم حمد الله ، وأما الصيغة الثانية فإنها تقتضى تقدم شيء على الحمد ، ولا شك أن المقدم هنا هو البسمة على ما سيأتي في الكلام على أما بعد فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ثم قد يستعمل الحمد بصيغة الفعل كقولهم في المكاتبات : إني أحمدُ إليك الله . وقد اختلف في أي الصيغتين أبلغ : صيغة الحمد لله ، أو صيغة أحمدُ الله : فذهب المحققون إلى أن صيغة الحمد لله أبلغ : لما فيها من معنى الاستغراق والثبوت والاستمرار على ما هو مقرّر في علم المعاني . وذهب ذاهبون إلى أن صيغة أحمدُ الله أبلغ : لأن القائل الحمد لله حاكٍ لكون الحمد لله ، بخلاف القائل أحمدُ الله فإنه حامدٌ بنفسه ، ولذلك يُرتى بالتحميد ثانيا في الخطب بصيغة الفعل .

وله في الاستعمال ثلاث صيغ :

الصيغة الأولى — «يُحْمَدُهُ أمير المؤمنين» فيما إذا كان ذلك صادراً عن الخليفة في مكتبة أو غيرها .

الصيغة الثانية — «نُحْمَدُهُ» إما بنون الجمع الحقيقية كما إذا كان ذلك صادراً عن (١) مثل أن يُوقَى بذلك في بيعة خليفة أو نحوها، أو بنون الجمع للتعظيم كما إذا كان ذلك صادراً عن السلطان نحو ما يقع في حُطَب التقاليد والتواقيع في زماننا .

الصيغة الثالثة — «أَحْمَدُهُ» بلفظ الإفراد، كما إذا كان ذلك صادراً عن واحد فقط حيث لا تعظيم له .

الطرف الثالث

(في التشهد في الخطب)

قد جرت عادة المتأخرين بالإتيان بالتشهد بعد التجميد في الخطب ويكون تابعاً لصيغة التجميد : فإن كان قد قيل يحمده أمير المؤمنين، قيل بعده : ويشهد؛ وإن كان قد قيل نحمده، قيل بعده : ونشهد؛ وإن كان بعد حمد الله، قيل والشهادة له بالجزء عطفاً على حمد . على أن الخطب الموجودة في مكاتبات المتقدمين لا تشهد فيها . ومستند المتأخرين في ذلك ما رواه أبو داود والترمذي وصححه البيهقي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «كُلُّ خُطْبَةٍ لَيْسَ فِيهَا تَشْهَدٌ فَهِيَ كَالْيَدِ الْجَدْمَاءِ» .

(١) بياض في الاصول ولعله «عن متعددين» .

الطرف الرابع

(في الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله
وصحبه في أوائل الكتب)

لا نزاع في أن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم مطلوبة في الجملة ، وناهيك
في ذلك قوله تعالى في مُحْكَم التزِيل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ والأحاديث الواردة في الحث على ذلك أكثر من
أن تُحْصَرَ ، فناسب أن تكون في أوائل الكُتُب ، تيمناً وتبرُّكاً . وقد جاء في تفسير
قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ أن المعنى ما ذُكِرْتُ إلا و ذُكِرْتَ معي . فإذا أتى
بالحمد في أول كتاب ، ناسب أن يُؤْتَى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في أوله ،
إتياناً بذكره بعد ذكر الله تعالى . وقد روى من حديث ابن عباس رضي الله عنهما
أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” مَنْ صَلَّى عَلَيَّ فِي كِتَابٍ لَمْ تَزَلِ الصَّلَاةُ جَارِيَةً لَهُ
مَادَامَ اسْمِي فِي ذَلِكَ الْكِتَابِ ” . قال الشيخ عماد الدين في تفسيره : إلا أنه ضعيف ،
ضعفه المحدثون . قال محمد بن عمر المدائني في ” كِتَابِ الْقَلَمِ وَالِدَوَاةِ ” : وقد رأينا
بعض الكُتُب لا يرى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الكُتُب ، فباءوا بأعظم
الوزر مع ما فاتهم من الثواب .

وأما السلام عليه صلى الله عليه وسلم بعد التصلية ، فقد قال الشيخ محي الدين
النووي في كتابه ” الأذكار ” : وإذا صلى على النبي صلى الله عليه وسلم فليجمع
بين الصلاة والتسليم ولا يقتصر على أحدهما فلا يقال صلى الله عليه فقط ، ولا عليه

السلام فقط . قال الشيخ عماد الدين بن كثير : وهذا منتزع من قوله تعالى :
 ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ الآية .

وأما الصلاة على الآل والصحب بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد نقل الشيخ عماد الدين بن كثير في تفسيره الإجماع على جواز الصلاة على غير الأنبياء عليهم السلام بطريق التبعية ، مثل أن يقال : اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأزواجه وذريته ونحو ذلك . ثم قال : وعلى هذا يخرج ما يكتبونه من قولهم : وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه فلا نزاع فيه ، وإنما الخلاف في جواز إفراد غير الأنبياء عليهم السلام بالصلاة : فأجازه قوم محتجين بنحو قوله تعالى : ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم : ” اللهم صل على آل أبي أوفى “ . ومنعه آخرون احتجاجاً بأن الصلاة صارت شعاراً للأنبياء عليهم السلام فلا يلحق بهم غيرهم ، فلا يقال : أبو بكر صلى الله عليه وسلم وإن كان المعنى صحيحاً ، كما لا يقال : محمد عز وجل ، وإن كان عزيزاً جليلاً .

ثم الصحيح من مذهب الشافعي رضي الله عنه أن ذلك لا يجوز في غير التبعية . وحكى النووي في ” الأذكار “ فيه قولاً بأنه كراهة تحريم ، وقولاً بأنه كراهة تنزيه ، وقولاً بأنه خلاف الأولى ، ورجح كونه كراهة تنزيه ، لأنه شعار أهل البدع .

وأما السلام على غير الأنبياء ، فحكى النووي عن أبي محمد الجويني منعه في الغائب من حى وميت وأنه لا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : على عليه السلام ، بخلاف الحاضر فإنه يُحاطب به .

إذا علمت ذلك فالصلاة وتوابعها في أوائل الكتب قد تكون بعد التحميد في الخطبة كما في الولايات [والمكاتب] المفتحة بالخطب من البيعات والعهود والتقاليد والتفاويض

والتواقيع والمراسيم وغيرها، وكما في الكُتُب المفتحة بالخطب. وقد تكون في صدور المكاتبات المفتحة بغير الخطب، كما كان يُكتب في القديم في صدور المكاتبات «وأساله أن يصلى على محمد عبده ورسوله» وهو مما أحدثه الرشيد في المكاتبات. قال في «ذخيرة الحُجَّاب»: وكان ذلك من أجل مناقبه. وكان الخلفاء الفاطميون بمصر يقولون عن لسان الخليفة: ويسأله أن يصلى على جدّه محمد، ويخصون الصلاة بعده بأمر المؤمنين على رضى الله عنه على طريقة الشيعة.

الطرف الخامس

(في السلام في أول الكُتُب)

إنما جعل السلام في ابتداء الكُتُب وصدورها لأنه تحية الإسلام المطلوبة لتأليف القلوب، فكما أنه يُفتتح به الكلام طبا للتلأيف كذلك تُفتتح به المكاتبات وتصدر طلبا للتأليف، إذ يقول صلى الله عليه وسلم: «أَلَا أَنْبِئُكُمْ شَيْءًا إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ! أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ». قال في «الصناعتين»: وتقول في أول كتابك: «سلام عليك» وفي آخره «والسلام عليك» والمعنى فيه أن الأول نكرة إذ لم يتقدم له ذكر والثاني معرفة يُشار به إلى السلام الأول على حدّ قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ فأتى في الأول بتكثير الرسول وفي الثاني بتعريفه. وكذلك قال تعالى في سورة مريم في قصة يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ لعدم تقدم ذكر السلام؛ ثم قال بعد ذلك في قصة عيسى عليه السلام: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وإلى ذلك يشير أحمد بن يوسف بقوله: اكتب في أول كتابك

سلام عليك وأجعلهُ تَحِيَّةً ، وفي آخره « والسلام عليك » وأجعلهُ ودَاعًا . وذلك أن سلام التحية يكون ابتداءً فيكون نكزةً ، وسلامَ الدواع يكون انتهاءً فيكون معرفةً لرجوعه إلى الأول . وقد كره بعض العلماء أن يقال في الابتداء : عليك السلام ، احتجاجاً بما روى عن أبي مُكَيْمٍ الأَسَدِيِّ أنه قال « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشدته :

يَقُولُ أَبُو مُكَيْمٍ صَادِقًا : * عَلَيْكَ السَّلَامُ أبا القَاسِمِ !

فقال : يا أبا مُكَيْمٍ عليك السلامُ تَحِيَّةُ المَوْتَى . وجعل ابن حاجب النعمان من ذلك قول عبدة بن الطيب :

عَلَيْكَ سَلَامُ اللهِ قَيْسَ بنِ عَاصِمٍ * وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

قال ابن حاجب النعمان : ويكتبُ السلامُ باسقاط الألف في صدر الكتاب ومجزؤه . قال أبو جعفر النحاس : وقولهم في أول الكتاب سلامٌ عليك ، بالرفع ويجوز فيه النصب والاختيارُ الرفع وإن كان النجاة قد قالوا : إن ما كان مشتقاً من فعل فالأختيار فيه النصب نحو قولك سَقِيًّا لك : لأن معنى السلام في الرفع أعمُّ ، إذ ليس يريد أفعُلُ فعلاً ، فيكون المعنى تَحِيَّةً عليك بنصب تحية . وقيل : سلامٌ عليك بمعنى سلامٌ لك . وسيأتي الكلام على إتباع السلام الرحمة في الكلام على انلواتم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الطَّرْفُ السَّادِسُ

(في أما بعد)

إِعلم أن « أما بعد » تُستعمل في صُذور المكاتبات والولايات وربما استُعملت في ابتدائها . وهي مركبة من لفظين أحدهما أما والثاني بعد . فأما « أما » خرف شرط و« بعد » ظرفُ زمان إذا أُفرد نبي على الضم ، قال تعالى : ﴿ اللهُ الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ ﴾ وأجاز الفراء أما بعداً بالنصب والتنوين ، وأما بعدُ بالرفع والتنوين . وأجاز هشام أما بعدَ بفتح الدال ومنعه النحاس وقال : إنه غير معروف .

ثم أما تقع في كلام العرب لتوكيد الخبر ، والفاء لازمة لها : لتصل ما بعدها بالحرف الملاصق لما قبلها ، فتقول أما بعدُ أطلال الله بقاءك ! فإني قد نظرتُ في الأمر الذي ذكَّرتَه . ويجوز أما بعدُ فأطلال الله بقاءك إني نظرتُ في ذلك ، فتثبت الفاء في أطلال وإن كان معترضاً لقربه من أما ، ويجوز أما بعد فأطلال الله بقاءك فإني نظرت ، ويجوز أما بعد ثم أطلال الله بقاءك فإني نظرت حتى ذلك كله النحاس ، ثم قال : وأجودها الأَوَّل وهو اختيار النحويين . قال : وأجودُ منه أما بعدُ فإني نظرت أطلال الله بقاءك . فان أضيفت بعدُ إلى ما بعدها فتحت فتقول أما بعدَ حمد الله ونحو ذلك . قال في « ذخيرة الكتاب » وإذا كانت بعد البسمة فعناه أما بعد قولنا « بسم الله الرحمن الرحيم » فقد كان كذا وكذا .

وقد اختلف في أول من قال أما بعدُ : فقيل داودُ عليه السلام ، وبه فسَّر فصل الخطاب في قوله تعالى : ﴿ وَأَيُّنَاهُ الْحِكْمَةُ وَفَصَلَ الْخِطَابِ ﴾ على أحد الأقوال ، وقيل أول من قالها كعبُ بنُ لؤيِّ جدُّ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلم ، وقيل أول من قالها قسُّ بنُ ساعدة الإيادي . قال سيويوه : ومعناها مهما يكن من شيء .

الفصل الثاني

(في الخَوَاتِمِ وَاللَّوْحِاقِ ، وفيه سبعة أطراف)

الطرف الأول

(في الاستثناء بالمشيئة : بأن يَكْتُبُ إن شاء الله تعالى ، وفيه جملتان)

المجملة الأولى

(في الحَثِّ على كِتَابَةِ إن شاء الله تعالى)

اعلم أنه يُسْتَحَبُّ للكاتب عند آتِهاء ما يَكْتُبُهُ : من مَكَاتِبَةٍ أو وِلَايَةٍ أو غيرهما أن يكتب " إن شاء الله تعالى " تبركا ورجبة في نجاح مقصد الكتاب ، فقد ورد الحَثُّ على التعليق بمشيئة الله تعالى والنَّدْبُ إليه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ . ودمَّ قوما [على تَرْكِ الاستثناء] انقال : ﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ فَطَافَ عَلَيْهِمُ طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴾ إلى آخر القِصَّة . قال أصحاب السير : كان باليمن رجل له جَنَّةٌ يأخذُ منها قوتَ سنته ويتصدقُ بالباقي ، وكان يتركُ للساكنين ما أخطأ المِنْجِلُ من الزَّرْعِ أو القَطَافِ من العِنَبِ والنَّخْلِ وما بَقِيَ على البِساطِ الذي يُبْسَطُ تحت النَّخْلَةِ ، فلمَّا مات تَبَّحَّ بَنُوهُ على المساكين بما كان يتركه أبُوهم وحلفوا على قِطْعِهَا في الغَلَسِ كَيْلًا يُدْرِكُهُم الفُقْرَاءُ ، فأصابها نارٌ في الليل فاحترقت وأصبحت كالصَّرِيمِ يعني الليلَ المُظْلِمَ . قال المفسرون : والمراد بقوله : ﴿ وَلَا يَسْتَأْذِنُونَ ﴾ أنهم لم يقولوا إن شاء الله تعالى . قال الزمخشري :

وسمى استثناءً وإن كان بمعنى الشرط لأنه يؤدي مؤدى الاستثناء من حيث إن معنى قولك لأخرجن إن شاء الله ولا أخرج إلا أن يشاء الله واحد .


وَأَعْلَمُ أَنَّ الْأَسْتِثْنَاءَ لَا يَدْخُلُ عَلَى مَاضٍ فَلَا يُقَالُ مَا فَعَلْتُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَإِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَى مُسْتَقْبَلٍ فَتَقُولُ لَا أَفْعَلُ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا فِيهِ مَعْنَى الْأَسْتِقْبَالِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ﴾ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

أما ما ورد من ذلك بلفظ المضى مثل قول القائل لزوجته أنت طالق إن شاء الله فإنه وإن لم يكن مستقبلاً لفظاً، فإنه مستقبل معنى، إذ معناه الإنشاء والإلما وقع به الطلاق . إذا علمت ذلك، فلفظ ”إن شاء الله تعالى“ في آخر المكتبة أو الولاية ونحوهما يكون معلقاً بآخر المكتوب مما يناسب ذلك، كتعلقها بالتأييد من قوله والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى، ونحو ذلك .

الجملة الثانية

(في محل كتابتها وصورة وضعها في الدرج)

لأنزاع في أنها أول خاتمة كتبت من خواتم المكتوب، فحاجها من الدرج أسفل المكتوب، في وسط الوصل، مكتنفة بياض عن يمينها وشمالها، وبينها وبين السطر الآخر من المكتوب كما بين سطرين أو دونه .

وقد جرت عادة الكُتَّاب في كتابتها بأنها إن كانت بقلم الرقاع كما في القطع الصغير، كتبت معلقة مُسَلَّسَةً عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ  أو ما قاربها، وإن كانت بقلم

جليل كالثلث ونحوه ، كُتبت واضحة مبينة ، والغالب فيها أن تكون على هذه الصورة ان شاء الله تعالى قال جمال الدين بن شيث في "معالم الكتابة" : ولا يُضيف الكاتب إليها شيئاً في سطرها ، بل تكون مفردة في سطرٍ واحد .

الطَّرْفُ الثَّانِي

(في التاريخ ، وفيه ثمانُ جمل)

الجملة الأولى

(في معناه)

وقد اختلف في أصل لفظه : فذهب قومٌ إلى أنه عربيّ ، وأن معناه نهايةُ الشيء وآخره ، يقال فلانٌ تاريخُ قومه إذا انتهى إليه شرفهم ، وعليه يدلُّ كلامُ صاحب "موادِّ البيان" ، وابنِ حاجب النعمان في "ذخيرة الكتاب" ونقل الشيخ علاء الدين بن الشاطر في "زيجه" عن بعض أهل اللغة أن معناه التأخير فيكون مقلوباً منه . وذهب آخرون إلى أنه فارسيّ ، وأن أصله «ماه زور» فعزب مورخ ، ثم جعل اسمه التاريخ ، وإليه يرجع كلام السلطان عماد الدين صاحب حماة رحمه الله في تاريخه ، ويقال منه أرخت وورخت بالهمزة والواو لغتان ، ولذلك قالوا في مصدره تأريخ وتؤريخ ، كما يقال تأكيد وتؤكيد . قال في "ذخيرة الكتاب" : أرخت لغة قيس ، وورخت لغة تميم . قال أبو هلال العسكري في كتاب "الأوائل" : ولا تكاد ورخت تستعمل اليوم ، وكأنت الكتاب كانوا قد رفضوا هذه اللغة في زمانه وإلا فهي لغة مستعملة إلى الآن ، إلا أنها لما غلبت في السنة العوام

ابْتَدَلْتُ . قال الشيخ « أمير الدين أبو حيان » في شرح التسهيل : والتاريخُ هو عدد الليالي والأيام بالنظر إلى ما مضى من السنة أو الشهر وإلى ما تبقى منهما ، قال في « مواد البيان » : وهو محقق للخبر ، دالٌّ على قُرب عهد الكتاب وبعده .

الجملة الثانية

(في وجه الاحتياج إليه)

قال محمد بن عمر المدائني في كتاب « القلم والدواة » : أجمعت العلماء والحكماء والأدباء والكتّاب والحساب على كتابة التاريخ في جميع المكتبات . قال صاحب « نهاية الأرب » : ولا غنية عنه ، لأن التاريخ يُستدلُّ به على بُعد مسافة الكتاب وقُرْبها ، وتحقيق الأخبار على ما هي عليه . وقد قال بعض أئمة الحديث : لما استعملوا الكذب استعملنا لهم التاريخ . وقد أصطلح الكتّاب على أنهم يؤرّخون المكتبات والولايات ونحوها مما يصدر عن الملوك والثواب والأمراء والوزراء وقضاة القضاة ومن ضاهاهم ، بخلاف المكتبات الصادرة عن آحاد الناس ، فإنه لم تجرِ العادة فيها بكتابة تاريخ .

الجملة الثالثة

(في بيان أصول التواريخ)

قال القضاة في « عيون المعارف في تاريخ الخلفاء » : كانت الأمم السالفة تُورّخ بالحوادث العظام وبملك الملوك : فكان التاريخُ بهبوط آدم عليه السلام ، ثم بمبعث نوح ، ثم بالطوفان ، ثم بنار إبراهيم عليه السلام .

ثم تفرق بنو إبراهيم : فأرخ بنو إسحاق بنار إبراهيم إلى يوسف ، ومن يوسف إلى مبعث موسى عليه السلام ، ومن موسى إلى ملك سليمان عليه السلام . ثم بما كان من الكوائن . ومنهم من أرخ بوفاة يعقوب عليه السلام ، ثم بخروج موسى من مصر بنى إسرائيل ، ثم بحراب بيت المقدس .

وأما بنو إسماعيل ، فأرخوا ببناء الكعبة ، ولم يزالوا يؤرخون بذلك حتى تفرقت بنو معد ، وكان كلهما خرج قوم من تهامة أرخوا بخروجهم . ثم أرخوا بيوم الفجار ، ثم بعام الفيل .

وكان بنو معد بن عدنان يؤرخون بغلبة جرهم العالقي وإخراجهم إياهم من الحرم . ثم أرخوا بأيام الحروب : كحرب نبي وائل ، وحرب البسوس ، وحرب داحس .

وكانت خمير وكهلان يؤرخون بملوكهم التبابعة ، وبنار ضرار : وهي نار ظهرت ببعض حراب اليمن ، وبسبل العرم ، ثم أرخوا بظهور الحبشة على اليمن .

وأما اليونان والروم ، فكانوا يؤرخون بملك بختنصر ، ثم أرخوا بملك دقلطيانوس القبطي .

وأما الفرس فكانوا يؤرخون بآدم عليه السلام ، ثم أرخوا بقتل دارا وظهر الإسكندر عليه ، ثم بملك يزدجرد . والذي ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة في تاريخه في دائرة اتصال التواريخ القديمة بالهجرة عشرون تاريخاً ، ذكر ما بينها وبين الهجرة من السنين ، إلا أنه لم يراع الترتيب في بعضها ، وأهمل منها تاريخ يزدجرد لوقوعه بعد الهجرة .

وبالجملة فالتواريخ على قسمين :

القسم الأول

(ما قبل الهجرة ، وقد أوردت منه تسعة عشر تاريخاً)

الأول — من هبوط آدم عليه السلام . وقد اختلف فيما بينه وبين الهجرة اختلافًا فاحشًا : فمقتضى ما في التوراة اليونانية على اختيار المؤرخين أن بينهما ستة آلاف سنة ومائتين وست عشرة سنة ، وعلى اختيار المنجمين أن بينهما خمسة آلاف وسبعمائة وتسعا وستين سنة .

ومقتضى ما في التوراة السامرية على اختيار المؤرخين خمسة آلاف ومائة وسبع وثلاثون سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص عن ذلك .

ومقتضى ما في التوراة العبرانية ، على اختيار المؤرخين أن بينهما أربعة آلاف وسبعمائة وإحدى وأربعين سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص مائتين وتسعا وأربعين سنة .

الثاني — من الطوفان . وبينه وبين الهجرة ثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وتسعون سنة على اختيار المؤرخين ، وعلى اختيار المنجمين ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة وعشرون سنة وثلاثمائة وستة أيام .

الثالث — من تبلل الألسن . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ثلاثة آلاف وثلاثمائة وأربع وستون سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنة .

(١) في تاريخ أبي الفداء المطبوع وتسعمائة .

(٢) في تاريخ أبي الفداء المطبوع وأربع سنين .

الرابع — من مولد إبراهيم عليه السلام . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ألفان وثمانيئة وثلاث وتسعون سنة ، وعلى اختيار المنجمين ينقص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنة .

الخامس — من بناء إبراهيم الكعبة . وبينه وبين الهجرة ألفان وسبعائة وثلاث^(١) وسبعون سنة .

السادس — من وفاة موسى عليه السلام . وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرخين ألفان وثلاثمائة وثمان وأربعون سنة .

السابع — من عمارة سليمان عليه السلام بيت المقدس . وبينه وبين الهجرة ألف وثمانمائة وستون سنة .^(٢)

الثامن — من ابتداء ملك بختنصر . وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وتسع وستون سنة . قال صاحب حماة : بلا خلاف .

التاسع — من تخريب بختنصر بيت المقدس . وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وخمسون سنة .

العاشر — من ملك فيليبس أبي الإسكندر . وبينه وبين الهجرة تسعمائة وخمسة وأربعون سنة ومائة وسبعة عشر يوماً .

الحادى عشر — من غلبة الإسكندر على ملك فارس وقتل دارا ملك الفرس . وبينه وبين الهجرة تسعمائة وأثنتان وثلاثون سنة ومائتان وتسعون يوماً .^(٣)

(١) في المختصر وتسعون .

(٢) في المختصر وقريب سنتين والظاهر أنه تصحيف .

(٣) في المختصر وأربع وثلاثون .

الثاني عشر — من مولد المسيح عليه السلام . وبينه وبين الهجرة ستمائة وإحدى وثلاثون سنة .

الثالث عشر — من ملك أرديالونص ^(١) . وبينه وبين الهجرة خمسمائة وتسع وستون سنة .

الرابع عشر — من ملك أردشير أول ملوك الأكاسرة من الفرس . وبينه وبين الهجرة أربعمائة وأثنتان وعشرون سنة .

الخامس عشر — من نحراب بيت المقدس المرة الثانية . وبينه وبين الهجرة ^(٢) ثلثمائة وست وأربعون سنة .

السادس عشر — من ملك دقلطيانوس : آخر عبدة الأصنام من ملوك الروم على القبط . وبينه وبين الهجرة ثلثمائة وسبع وثلاثون سنة وأحد وعشرون يوما .

السابع عشر — من غلبة أغشطش ملك الروم على قلوبطرا ملكة اليونان ومصر . وبينه وبين الهجرة مائتان وخمسون سنة ومائتان وستة وأربعون يوما . ^(٣)

الثامن عشر — من عام الفيل ، وهو العام الذي ولد فيه النبي صلى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاث وخمسون سنة وشهران وثمانية أيام .

(١) في المختصر أدريانس وبالجملة في المختصر المطبوع لابن الفداء ج ١ ص ١٢٥ مخالفة لما في أصولنا المخطوطة فتنه .

(٢) في مختصر أبي الفداء ج ١ ص ١٢٥ خمسمائة وثمانية وخمسون وكان لمضى أربعين سنة من رفع المسيح .

(٣) في المختصر ستمائة واثنان وخمسون سنة وهو أشبه بالصواب لان غلبة أغشطش على قلوبطرا قبل مولد المسيح باحدى وعشرين سنة .

التاسع عشر - من مَبِثِّ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وبينه وبين الهجرة ثلاث عشرة سنة^(١) وشهران وثمانية أيام .

القسم الثاني

(ما بعد الهجرة)

وفيه تاريخ واحد ، وهو من هلاك يَزْدَجْرَدِ آخرِ ملوكِ الفُرس . وكان بعد الهجرة بعشر سنين وثمانية وسبعين يوما .

الجملة الرابعة

(في أصل وَضْعِ التاريخِ الإسلاميِّ وبنائه على الهجرة دُونَ غيرها)

وقد اختلف في أصل ذلك : فحكى أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" عن محمد بن جرير : أنه روى بسنده إلى ابن شهاب أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما قَدِمَ المدينة - وقدمها في شهر ربيع الأول - أمرَ بالتاريخ . وعلى هذا فيكون ابتداء التاريخ في عام الهجرة . قال النحاس : والمعروف عند العلماء أن ابتداء التاريخ بالهجرة كان في خلافة عُمر بن الخطاب رضي الله عنه .

ثم اختلف في السبب الموجب لذلك : فذكر النحاس أن السبب فيه أن عامل عمر بن الخطاب رضي الله عنه باليمن قدم عليه فقال : أما تُورِخُون كُنُوبَكُمْ؟ فاتخذوا التاريخ . ووافقته على ذلك صاحب "مواد البيان" . وذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" أن السبب فيه أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب

(١) في الأصل ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية أيام وهو تحريف والتصحيح من مختصر أبي الفداء .

رضى الله عنه : إنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كُتِبَ لاندري على أيها نعمل قد قرأنا [كتابا منها] ^(١) محله شعبان ، فما ندري في أي الشعْبَيْنِ الماضى أو الآتى ، فأحدث عمر التاريخ . وتبعه على ذلك ابن حَاجب النعمان في " ذخيرة الكُتَّاب " . وذكر صاحبُ حماة في تاريخه : أنه رُفِعَ إلى عمر رضى الله عنه صكُّ محله شعبانُ فقال : أى شعبان ، لاندري الذى لندى نحن فيه أم الذى هو آتٍ ، ثم جمع وجوه الصحابة وقال : إن الأموال قد كثرت ، وما قسَمناه منها غير مؤقت فكيف التوصل إلى ما يضبط به ذلك ؟ - فقالوا : يجب أن نعرف ذلك من أمور الفرس ، فاستحضر الهرمزان وسأله - فقال : إن لنا حساباً نُسَمِّيه (مائة زور) ومعناه حساب الشهور والأيام فعمل عمر التاريخ .

الجملة الخامسة

(فى بيان صورة آبتدائهم وضع التاريخ من الهجرة)

قال فى " ذخيرة الكُتَّاب " : لما أراد عمر التاريخ ، جمع الناس للمشورة ، فقال بعضهم : تُورِّخ بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم - وقال بعضهم : بل بوفاته - وقال بعضهم : بل بهجرته من مكة إلى المدينة : لأنها أول ظهور الإسلام وقوته . فصوبه عمر واجتمع رأيه عليه ؛ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد وُلِدَ فى عام الفيل المقدم ذكره فى التواريخ القديمة . قال فى " ذخيرة الكُتَّاب " : وكان وقوع ذلك فى اليوم الثانى عشر من شباط سنة ثمانمائة وأثنين وثمانين لذى القرنين . وبعث النبي صلى الله عليه وسلم على رأس أربعين سنة من ولادته ، وأقام بمكة بعد النبوة عشر سنين ؛

(١) بياض بالاصول والتصحيح من الضوء للؤلؤ .

(٢) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

ثم هاجر إلى المدينة في شهر ربيع الأول بعد عَشْرٍ^(١) من النبوة، وقَدِمَ المدينة لَأَثْنَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً مِنْهُ .

ثم بعد آتفاقهم على التأريخ من الهجرة اختلفوا في الشهر الذي تقع البَدْءُ به : فأشار بعضهم بالبَدْءِ بِرَمَضَانَ لِشَرَفِهِ وَعِظَمِهِ - فقال عمر بن الخطاب : لِأَنَّهُ مُنْصَرَفٌ مِنَ النَّاسِ مِنْ حَجَّهِمْ ، فَرَجَعُوا الْقَهْقَرَى ثَمَانِيَةً وَسِتِينَ يَوْمًا ، وَهِيَ الْقَدْرُ الَّذِي مَضَى مِنْ أَوَّلِ الْحُرْمِ [إِلَى ذَلِكَ الْوَقْتِ] ^(٢) وَأَسْتَقَرَّ تَارِيخُ الْإِسْلَامِ مِنَ الْهَجْرَةِ .

قال القضاة في "عيون المعارف" : وكان ذلك في سنة تسع عشرة أو ثمانين عشرة من الهجرة .

قلت : وأسْتَقَرَّتْ تَوَارِيخُ الْأُمَمِ عَلَى أَرْبَعَةِ تَوَارِيخٍ ، أَبْتَدَأَ بَعْضُهَا مَقْدَمٌ عَلَى أَبْتَدَاءِ بَعْضٍ .

أولها - غَلْبَةُ الْإِسْكَانْدَرِ عَلَى الْفُرْسِ . وعليه تاريخ السُّرْيَانِ وَالرُّومِ إِلَى زَمَانِنَا .
والثاني - مَلِكُ دِفْلَطِيانُوسُ مَلِكُ الرُّومِ عَلَى الْقِبْطِ . وعليه تاريخُ الْقِبْطِ إِلَى زَمَانِنَا .

والثالث - الْهَجْرَةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى صَاحِبِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ . وعليها مَدَارُ التَّارِيخِ الْإِسْلَامِيِّ .

والرابع - هَلَاكُ يَزْدَجَرْدَ آخِرِ مَلُوكِ الْفُرْسِ . وبه تَوَرَّخُ الْفُرْسِ إِلَى زَمَانِنَا ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَيَانُ بَعْدَ مَا بَيْنَ تَارِيخِ كُلِّ مِنْ غَلْبَةِ الْإِسْكَانْدَرِ وَمَلِكِ دِفْلَطِيانُوسُ وَبَيْنَ الْهَجْرَةِ فِي الْقِبْطِيَّةِ ، وَبَعْدَ مَا بَيْنَ تَارِيخِ يَزْدَجَرْدَ وَبَيْنَ الْهَجْرَةِ فِي الْبَعْدِيَّةِ فِي الْكَلَامِ

(١) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

(٢) الزيادة من الضوء .

على أصول التواريخ، مع ما سبق في المقالة الأولى في بيان ما يحتاج إليه الكاتب من ذكر مقدار سنة كل منها وعددها من الأيام، وسيأتي الكلام على استخراج بعضها من بعض فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(في كيفية تقسيم التاريخ في الكتابة بزمن معين، وهو ضربان)

الضرب الأول

(التاريخ العربي)

ومدَّاره الليالي دون الأيام: لأن سني العرب قمرية، والقمر أول ما يظهر للأبصار هلالاً في الليل، فتكون الليالي بهذا الاعتبار سابقة للأيام، إذ اليوم عندهم عبارة عن النهار، وهو إما من طلوع الفجر على ماورده به الشرع في الصوم ونحوه، وإما من طلوع الشمس على رأى المنجمين . قال أبو إسحاق الزجاجي في كتابه "المجل": وإنما حُجِل على الليالي دون الأيام لأن أول الشهر ليلة، فلو حُجِل على الأيام سقطت منه ليلة . قال الشيخ أمير الدين أبو حيان في "شرح التسهيل": واستغنى بالليالي عن الأيام للعلم أن مع كل ليلة يوماً، فإذا مضى عدد من الليالي مضى مثله من الأيام، فيجوز أن يُستغنى بذكر أحدهما عن الآخر . وقد ذكر جمال الدين عبد الرحيم ابن شيث في كتابه "معالم الكتابة": أن كُتِبَ السلطان والأعيان تؤرِّخ بالليالي، والكتب من الأدنى إلى الأعلى تؤرِّخ بالأيام . ولم أعلم من أين أخذ ذلك ولا ما مستندُه فيه .

إذا عُلِمَ ذلك فلكتابة التاريخ ثلاثة اعتبارات :

الاعتبار الأول

(أن يُورَّخ ببعض ليالي الشهر، وله ستُّ حالات)

الحالة الأولى

(أن تَقَعَ الكُتَابَةُ فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى مِنَ الشَّهْرِ، أَوْ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ مِنْهُ)

فإن كانت الكُتَابَةُ فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى مِنْهُ فَقَدْ ذَكَرَ أَبُو جَعْفَرِ النَّحَّاسُ فِي "صِنَاعَةِ الْكُتَابِ" أَنَّهُ يُكْتَبُ «كُتِبَ غُرَّةَ شَهْرٍ كَذَا، أَوْ [أَوَّلَ] لَيْلَةٍ مِنْ كَذَا، أَوْ مُسْتَهَلَّ شَهْرٍ كَذَا، أَوْ مُهَلَّ شَهْرٍ كَذَا». وَحَكَى الشَّيْخُ أَبُو الْإِسْمَاعِيلِ أَبُو حَيَّانٍ مِثْلَ ذَلِكَ عَنْ بَعْضِهِمْ، وَزَادَ أَنَّهُ يُكْتَبُ أَيْضًا «كُتِبَ أَوَّلَ شَهْرٍ كَذَا».

قال النحاس : ولا يجوز حينئذ لليلةٍ خَلَّتْ وَلَا مَضَتْ لَأَنَّهُمْ فِي اللَّيْلَةِ بَعْدُ . قال في "ذخيرة الكُتَّابِ" : وربما كتب بعضُ الكُتَّابِ لَيْلَةَ الْأَسْتِهْلَالِ «لِلَّيْلَةِ [تَحْلُو]» .^(١)

وإن كانت الكُتَابَةُ فِي الْيَوْمِ الْأَوَّلِ وَهُوَ النَّهَارُ الَّذِي يَلِي اللَّيْلَةَ الْأُولَى مِنَ الشَّهْرِ، كُتِبَ «لِلَّيْلَةِ خَلَّتْ أَوْ مَضَتْ مِنْ شَهْرٍ كَذَا» . قال النحاس : : ويجوز كُتِبَ «لغُرَّةِ الشَّهْرِ أَوْ لِأَوَّلِ يَوْمٍ مِنَ الشَّهْرِ» وَمَنْعَ أَنْ يُقَالَ حِينَئِذٍ : أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرٍ كَذَا، أَوْ مُسْتَهَلَّ شَهْرٍ كَذَا، أَوْ مُهَلَّ شَهْرٍ كَذَا، مُوجَّهًا لِذَلِكَ بِأَنَّ الْأَسْتِهْلَالَ إِنَّمَا يَقَعُ فِي اللَّيْلِ . وَتَبِعَهُ عَلَى ذَلِكَ أَبُو حَاجِبٍ النَّعْمَانُ فِي "ذَخِيرَةِ الْكُتَّابِ" وَصَاحِبُ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَبِهِ جِزْمُ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ هِشَامٍ فِي وَرَقَاتِهِ فِي الْوَرَاقَةِ . وَكَلَامُ أَبِي مَالِكٍ فِي التَّسْهِيلِ يَوْمَهُمْ جَوَازَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ قَدْ قَالَ : فَيُقَالُ أَوَّلَ الشَّهْرِ، كُتِبَ لِأَوَّلِ

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن الضوء للؤلؤف .

ليلة منه، أو لغزته أو مهلة أو مستهله . وأول الشهر أعم من اليوم والليلة بل هو إلى الليلة أقرب، لأن الليلة سابقة بالأولية .

قال الشيخ أنير الدين : ومفتتح الشهر أول يوم منه . ومقتضى كلامه أنه يؤرخ بالمفتتح في اليوم الأول من الشهر دون الليلة وفيه نظر، بل الظاهر جواز استعماله فيهما، بل الليلة بالمفتتح أولى لسبقها اليوم كما تقدم، اللهم إلا أن يراعى فيه موافقة المفتتح لليوم في التذكير دون الليلة لتأنيها . قال في "مواد البيان" : والعرب تسمى أول ليلة من الشهر النخيرة، ولكن لا تستعمله الكُتّاب في التواريخ .

الحالة الثانية

(أن تقع الكتابة فيما بعد مضيّ اليوم الأول من الشهر إلى آخر العشر)

فإن كان قد مضى منه ليلتان ، كتبت « لليلتين خلتا من شهر كذا، أو لليتين مَضَتْما منه » قال في "ذخيرة الكُتّاب" : ولا يُكتب ليوم خلا ولا ليومين خلا : لأن ذكر الليالي في باب التاريخ أغلب ، كما تقول ليلة السبت وليلة الأحد، فتُضيف الليلة إلى اليوم لأنها أسبق ، ولا تُضيف اليوم إلى الليلة .

وحكى الشيخ أنير الدين أبوحيان أنه إذا مضى من الشهر يومٌ كتبت «ليوم مضى» وإذا مضى يومان «كتب ليومين مَضِيًّا» . والتحقيق في ذلك أنه يختلف الحال فيه باختلاف الكتابة في الليل والنهار : فإن كتبت في الليلة الثانية، ناسب أن يكتب «ليوم خلا من شهر كذا» لأنه إن كتبت لليلتين خلتا فهو في الليلة الثانية بعد ، وإن كتبت لليلةٍ خلت لم يظهر الفرق بينه وبين الكتابة في اليوم الأول من الشهر . وإن كتب في اليوم الثاني من الشهر، ناسب أن يكتب لليلتين خلتا أو مَضَتْما . وإن كان

قد مضى من الشهر ثلاث ليال، كَتَبَ لثلاثِ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ من شهر كذا، أو لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ . ويجوز فيه ثلاثِ خَلَتْ أو لثلاثِ ليالٍ خَلَتْ على قِلة . وكذا في الباقي إلى العشر فتقول : لعشرِ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ ، أو لعشرِ ليالٍ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ ، أو لعشرِ ليالٍ خَلَتْ أو مَضَتْ على اللغة القليلة .

الحالة الثالثة

(ان تقع الكتابة فيما بعد العشر إلى النصف)

فَيَكْتُبُ لإحدى عشرة خَلَتْ أو مَضَتْ من شهر كذا . أو لإحدى عشرة ليلة خَلَتْ أو مَضَتْ ، ويجوز فيه لإحدى عشرة خَلَوْنَ أو لإحدى عشرة ليلة خَلَوْنَ على قلة . وكذا في الباقي إلى النصف من الشهر . قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : فإن صرَّحَ بالميز وكان مَدَّكراً ، أُعيد الضميرُ عليه فيقال : لاحدَ عشرِ يوماً خَلاً أو مضى ونحو ذلك .

الحالة الرابعة

(أن تقع الكتابة في الخامس عشر من الشهر)

فَيَكْتُبُ « كَتَبَ لِصِيفِ شَهْرٍ كَذَا » . قال النحاس : وأجازوا لخمسة عشر ليلة خَلَتْ أو مَضَتْ . وكلام ابن مالك في "التسهيل" يُشير إلى جواز لخمسة عشر ليلة خَلَتْ أو مَضَتْ [أو بَقِيَتْ^(١)] على رأى من يُجَوِّز التاريخَ بالباقي . ولو حَذَفَ ذِكْرَ الليلة فقال : لخمسة عشر خَلَتْ أو مَضَتْ أو بَقِيَتْ صَحَّ . قال في "التسهيل" والتاريخ بالنصف أجود .

(١) الزيادة لازمة ليصح الكلام .

الحالة الخامسة

(أن تقع الكتابة فيما بعد النصف من الشهر إلى الليلة الأخيرة منه)

وفيه لاهل الصناعة مذهبان :

المذهب الأول - أن يؤرخ بالماضي من الشهر كما في قبل النصف ، فيقال :
 لست عشرة خلّت أو مضت ، أو لست عشرة ليلة خلّت أو مضت . وكذا إلى
 العشرين فيقال : لعشرين خلّت أو مضت ، أو لعشرين ليلة خلّت أو مضت ،
 وكذا في البواقي إلى آخر التاسع والعشرين ، فيكون التاريخ في جميع الشهر من أوله
 إلى آخره بالماضي دون الباقي فراراً من الجهول إلى المحقق ، وهو مذهب الفقهاء
 لأنه لا يعرف هل الشهر تام أو ناقص . قال النحاس : ورأيت على بن سليمان
 يختاره . قال في " ذخيرة الكتاب " : وهو أثبت ومجته أقوى . ثم لاشك أن من
 يرى التاريخ باليوم يجوز لسته عشر يوماً خلا أو مضى من شهر كذا ، وكذا فيما بعده .

المذهب الثاني - أن يؤرخ بما بقي من الشهر . ولؤرخين فيه طريقتان :

الطريق الأول - أن يجزم بالتاريخ بالباقي فيكتب لأربع عشرة ليلة بقيت
 من شهر كذا ، ثم ثلاث عشرة ليلة بقيت ، وهكذا إلى الليلة الأخيرة من الشهر ،
 فيكتب ليلية بقيت ، وهو مذهب الكتاب . قال النحاس : ورأيت بعض العلماء
 وأهل النظر يصوبونه ، لأنهم إنما يكتبون ذلك على أن الشهر تام ، وقد عرف
 معناه وأن كاتبه وقارئه إنما يريد إذا كان الشهر تاماً فلا يحتاج إلى التلطف به .
 قال محمد بن عمر المدائني : واحتجوا لذلك بأن معاوية بن أبي سفيان رضى الله عنه :
 حين كتب عن النبي صلى الله عليه وسلم لابن الحضرمي كتب في آخر الكتاب :

« وَكَتَبَ معاويةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ لثَلَاثِ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ فَتْحِ مَكَّةَ سَنَةً ثَمَانٍ » ثم قرأه عثمانُ بْنُ عفَّانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والنَّاسُ حَوْلَهُ . قال النَّحَّاسُ : وقد وقع مثلُ ذلكِ في كلامِ النَّبُوَّةِ . فقد ورد في الحديثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في ليلةِ القدرِ : « أَلْتَسُوها في العَشْرِ الأَواخِرِ لسابعةٍ تَبَقَى أو خامسةٍ تَبَقَى » . وهذا الحديثُ الَّذي أَستشهدُ بِهِ النَّحَّاسُ ثابتٌ في الصحيحِ فلا نزاعَ في العملِ بِهِ .

الطريق الثاني — أن يُعَلَّقَ التاريخُ بالباقي على شَرَطٍ . فيكتبُ لأربعِ عَشْرَةَ إن بَقِيَتْ ، أو لأربعِ عَشْرَةَ ليلةٍ إن بَقِيَتْ ، وعلى ذلكِ في الباقي ، فإِراءاً من إطلاقِ التاريخِ بما لا يُعَلَمُ تمامُهُ أو تقصُّصه وتعليقاً له على حُكْمِ التمامِ ؛ وكأنه يقولُ : لأربعِ عَشْرَةَ ليلةٍ بَقِيَتْ من الشهرِ إن كان تمامًا . ومن يرى التاريخَ بالأيامِ يجوزُ لأربعةِ عَشْرَ يوماً تَبَقَى من شهرٍ كذا ، وكذا في الجميعِ .

الحالة السادسة

(أن تَقَعَ الكِتابَةُ في اللَّيْلَةِ الأَخيرةِ من الشهرِ أو في اليومِ الأخيرِ منه)

فإن كان في اللَّيْلَةِ الأَخيرةِ منه كُتِبَ « لِأَخِرِ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرٍ كَذَا ، أو في سَلَخِ شَهْرٍ كَذَا ، أو في أَسْلاخِهِ » . وإن كان في اليومِ الآخِرِ مِنْهُ كُتِبَ « لِأَخِرِ يَوْمٍ مِنْ شَهْرٍ كَذَا ، أو في سَلَخِهِ أو أَسْلاخِهِ أَيضاً » . ولم يَخْتَلَفوا هُنا في جوازِ التاريخِ باليومِ . قال ابنُ حَاجِبِ العِمامِ : وذلكُ أَنَّ الشَّهْرَ يَبْتَدِئُ بِأَبْتِداءِ اللَّيْلِ وَيُنْقَضُ بِانْقِضاءِ النَّهارِ . وذكرُ صاحِبِ «مَوادِّ البَيانِ» أَنَّ الَّذي كانَ كُتِبَ مَصْرِيسْتَعْمِلُونَهُ بِالديارِ المِصْرِيَّةِ أَنَّ يُجْعَلُ شَهْرٌ ثَلَاثِينَ يَوْمًا وشَهْرٌ تِسْعَةٌ وَعَشْرِينَ ، وهذا جُنُوحٌ مِنْهُم إلى الأَعْتِبارِ النَّجُومِيِّ ، ولا مَعوَّلَ على ذلكِ في الشَّرِيعَةِ .

قلت : وكُتِّبَ زماننا قد أهملوا النظرَ في ذلك بحمالةٍ وعولوا على التاريخ بالأيام ، واقفين عند حدِّ اليوم الذى ينتهى إليه العدُّدُ من الشهر عند الكتابة فيكتبون في اليوم الأول : كُتِّبَ في مستَهَلِّ شهر كذا ، ثم في ثانى شهر كذا أو ثالثه إلى العشر ؛ ثم في حادى عَشْرِهِ وثانى عشره إلى العشرين ، ثم في العشرين من شهر كذا ، أو الحادى والعشرين ، والثانى والعشرين إلى التاسع والعشرين . وفي اليوم الأخير من الشهر يكتبون في سَلَخِ شهر كذا لا يَعْرِفُونَ غير ذلك .

ثم مما يُسْتَحْسَنُ في التاريخ أنه إذا وقعتِ الكتابةُ في يوم مشهور - كايام المواسم - أرَّخَ به ، مع قطع النظر عن عدد ما مضى من الشهر أو بَقِيَ منه . فيكتب في اليوم الأول من شَوَّالٍ « كُتِّبَ في يوم عيد الفطر » وفي تاسع ذى الحِجَّةِ « كُتِّبَ في يومِ عرفة » وفي عاشره « كُتِّبَ في يومِ عيدِ النَّجْرِ ، أو في يوم عيدِ الأضحى » وفي حادى عشره « كُتِّبَ في يومِ القَرِّ » - بفتح القاف ، سمي بذلك لأن الناس يَسْتَقِرُّون فيه مِنِّي ، وفي ثانى عشره « كُتِّبَ في يومِ النَّفْرِ الأوَّلِ » لأن الحجاج يَنْفِرُونَ فيه من مِنِّي ، وفي ثالث عشره « كُتِّبَ في يومِ النَّفْرِ الثانى » .

الاعتبار الثانى

(أن يُورِّخَ بحمالةٍ من أيام الشهر)

فإن أرَّخَ بعَشرٍ من الشهر ، بناه على التائيد : فيكتب « كُتِّبَ في العَشرِ الأوَّلِ » ، أو في العَشرِ الأوَّلِ - بضم الهمزة وفتح الواو جمع أوَّلَةٍ^(١) . أو كتب في العَشرِ الوُسْطَى أو في العَشرِ الوُسْطِ - بضم الواو وفتح السين جمع وُسْطَى ، أو كتب في العَشرِ الأخرى

(١) لعل الصواب "جمع أولى" .

أوفي العشر الأخر - بضم الهمزة وفتح الخاء جمع آخرة . قال الشيخ أبو الدير الدين أبو حيان :
 ولا يُكْتَبُ العَشرُ الأوَّلُ ولا الأوسطُ ولا الآخِرُ . وقال بعض النحويين يُكْتَبُ
 «وكتب في العَشرِ الآخرةِ أو الأواخرِ» ولا يُكْتَبُ الأخرى ولا الأخر: لئلا يلتبس بالآخر
 بمعنى الثاني أو الأخر بمعنى الثواني . وقد تقدّم في الكلام على أيام الشهر أن العرب
 تسمي ليالي الشهر كُلَّ ثلاثٍ منها باسمٍ ، وقد تقدّم ذكرُ أسمائها هناك . فإذا وقعت
 الكتابةُ في ثلاثٍ منها ، كالفَرَرِ: وهي الثلاث الأولى من الشهر، والدَّادِي : وهي الثلاثُ
 الأخيرةُ منه ، كان للكاتب أن يُورِّخَ بها كما يُورِّخُ بعشر من الاعشار الثلاث ، بل
 الثلاثُ أقربُ لمعرفةِ التاريخ من العشر . وقد أشار إلى ذلك الشيخُ أبو الدير الدين
 في «شرح التسهيل» فقال : وإن أرخَ بالثلاث الأخيرة من الشهر كَتَبَ الدَّادِي .
 وإذا كان في السَّنةِ أيامٌ مشهورةٌ ، أرخَ بها كالأيام المعلومات : وهي العَشرُ الأوَّلُ
 من ذى الحِجَّةِ ، والأيام المَعْدُوداتِ : وهي أيامُ التَّشْرِيقِ على ما تقدّم ذكره في موضعه ،
 كان للكاتب أن يُورِّخَ بها .

الاعتبار الثالث

(أن يُورِّخَ بأجزاء اليوم أو الليلة)

وأكثرُ ما يحتاج الكاتبُ إلى ذلك في تاريخِ بَطَائِقِ الحَمَامِ ، وقد سبق في الكلام
 على الأيام أن كُلَّ واحدٍ من الليل والنهار اثنتا عشرة ساعةً زمانيةً ، تطولُ بطولِ
 أحدهما وتقصُرُ بقصره ، ولكلِّ ساعةٍ منها اسمٌ يُحْصَى ، كالشُّروقِ : وهو أوَّلُ ساعاتِ
 النهار ، والغُروبِ : وهو آخر ساعاته ، والشَّفَقِ : وهو أوَّلُ ساعاتِ الليل ، والصَّبَاحِ
 وهو آخر ساعاته . فينبغي للكاتب إذا كتب بِطَاقَةً من بَطَائِقِ الحَمَامِ أن يكتب

(١) عبارة الضوء ص ٤٠١ «ولانزاع في أنه يجوز التاريخ بالأيام المشهورة في السنة كالأيام المعلومات الخ»
 وهي أوضح .

الساعة التي كُتبت فيها من ساعات النهار ، أما ساعات الليل فلا يتأتى فيها ذلك ، لأن الحمام لا يسرح في الليل ، اللهم إلا أن تدعو الضرورة إلى التاريخ بساعة من ساعات الليل في بعض المكاتبات فيؤرخ بها .

قلت : وهذا الترتيب قد تركه كُتّاب زماننا ، وصاروا يؤرّخون بالساعات المشهورة عندهم ، كالأولى من النهار ، أو الثانية ، أو وقت الظهر ، أو وقت العصر ، ونحو ذلك .

الضرب الثاني

(التاريخ العجمي)

ومداره الأيام دون الليالي ، لأن سنتهم مع اختلافها في الشهور ومبادئها ومقاطعها شمسية ، والشمس محل ظهورها النهار دون الليل ، فذلك أرخوا بالأيام . قال أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : قال أحمد بن يحيى البلاذري : حضرت مجلس المتوكل ، وإبراهيم بن العباس يقرأ الكتاب الذي أنشأه في تأخير النوروز ، والمتوكل يتعجب من حسن عبارته ولطف معانيه والجماعة تشهد له بذلك ، فدخلتني نفاسة ، فقلت : يا أمير المؤمنين في هذا الكتاب خطأ ! فأعادوا النظر ، وقالوا : ما نراه فما هو ؟ - قلت : أرخ السنة الفارسية بالليالي ، والعجم يؤرخ بالأيام ، واليوم عندهم أربع وعشرون ساعة تشتمل على الليل والنهار ، وهو جزء من ثلاثين جزءا من الشهر ؛ والعرب يؤرخ بالليالي ، لأن سنينهم وشهورهم قمرية ، وأبتداء الهلال بالليل - قال : فشهدوا بصحة ماقلته ، وأعترف به إبراهيم . وقال : ليس هذا من علمي .

قلت : وأكثر ما يُحتاج إلى ذلك في تحويل السنين ونقل النيروز عند دوران السنين ، كما في كتاب إبراهيم بن العباس المقدم ذكره ، وكذلك في كتابة الهدن فسيأتي أنه يجمع فيها بين التاريخ العربي والعجمي جميعاً ، ويجب فيه تقديم العربي على العجمي ، مثل أن يكتب « كُتِبَ لعشرِ خلونَ من المحرم سنة ثمانمائة » ، موافقاً للعاشر من ثوتٍ من شهور القبط » أو العاشر من تشرين الأول من شهور السريان ، أو العاشر من نير من شهور الروم ، أو العاشر من أفرودين ماه ، من شهور الفرس ونحو ذلك .

الجملة السابعة

(في تقييد التاريخ بالسنة)

قد علمت أن فائدة التاريخ إنما تتحقق بذكر السنة بعد اليوم والشهر ، وإلا فلا يُعلم من أي السنين . فإذا كتب يوم كذا من شهر كذا كتب بعد ذلك ، سنة كذا ، سواء كان التاريخ عربياً أو عجمياً ، أو مرّجاً منهما ، مثل أن يكتب سنة كذا من الهجرة الموافق لكذا من سني الروم أو سني الفرس .

ثم للكاتب في كتابة تاريخ السنة مصطلحان .

المصطلح الأول — أن يكتب « سنة كذا » فيحتاج إلى حذف الهاء من العدد ، على قاعدة حذفها من عدد المؤنث ، مثل أن يكتب سنة ست وثمانمائة ونحو ذلك ، وعلى هذا أصلح كتاب الديار المصرية وبلاد المشرق .

المصطلح الثاني — أن يكتب « عام كذا » فيحتاج إلى إثبات الهاء في العدد على قاعدة إثباتها في عدد المذكر ، مثل أن يكتب « عام ست وثمانمائة » وعلى نحو ذلك

يَجْرِي كُتَابُ الْغَرْبِ غَالِبًا ، لما يقال : إن العام يُخْتَصُّ بِالْحِصْبِ وَالسَّنَةُ تَخْتَصُّ بِالْمَحَلِّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى السَّنِينَ فَمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْكَاتِبُ فِي الْمَقَالَةِ الْأُولَى .

الجملة الثامنة

(في معرفة بعض التواريخ من بعض)

قد ذكر في " موادّ البيان " أن من جملة أدب الكاتب العِلْمُ بتواريخ سِنِي الْعَالَمِ وَأَسْتَخْرَاجُ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ أَوْقَاتِ الْيَوْمِ الَّذِي هُوَ فِيهِ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَسَنَةٍ مِنْ سِنِي الْأُمَمِ . وقد تقدّم أيضا أن المستعمل من التواريخ في زماننا بين الأمم أربعة تواريخ ، بعضها أقدم من بعض .

أولها — تاريخُ غَلْبَةِ الْإِسْكَانْدَرِ . وهو التاريخ الذي تُؤرِّخُ بِهِ السُّرْيَانُ وَالرُّومُ وَالْفَرَنْجِيَّةُ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ إِلَى الْآنَ ، وهو بعد الطوفان فيما حرره الشيخ علاء الدين ابن الشاطر في " زيجته " بثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسة وثلاثين سنةً وثلاثمائة وعشرين يوما .

الثاني — التاريخ من مَلِكِ دَقْلَطِيَانُوسِ . وهو الذي يُؤرِّخُ بِهِ الْقِبْطُ إِلَى الْآنَ ، وربما عبّروا عنه بتاريخ الشهداء ، إشارة إلى تسميتهم الذين قتلهم دقلطيانوس من القبط شهداء ، وهو بعد غلبة الإسكندر بجسمائة وأربع وتسعين سنةً وثلاثمائة واثنين وثلاثين يوما .

الثالث — التاريخ من الهجرة ، وعليه تاريخ الإسلام . وهي بعد ملك دقلطيانوس بثلاثمائة وستة وثلاثين سنةً وثلاثمائة وأحد وعشرين يوما .

الرابع — التاريخ من هلاك يَزْدَجَرْدَ آخر ملوك الفُرس . وقد تقدّم أنه بعد الهجرة بعشر سنين وثمانية وسبعين يوماً .

فأما التاريخ السُريانيّ والروميّ وهو الذي مبدؤه من غلبة الإسكندر فقد تقدّم أن شهور السُريانيين اثنا عشر شهراً ، وهي : تشرينُ الأوّلُ — تشرينُ الثاني — كانونُ الأوّلُ — كانونُ الثاني — شُباطُ — أَدَارُ — نَيْسَانُ — أَيَّارُ — حَرِيْرَانُ — تَمُوزُ — آبُ — أَيْلُولُ . منها سبعة أشهر كلُّ شهر منها أحدٌ وثلاثون يوماً ، وهي : تَشْرِينُ الأوّلُ ، وكانونُ الأوّلُ ، وكانونُ الثاني ، وأَدَارُ ، وأَيَّارُ ، وتَمُوزُ ، وآبُ ، وأربعة أشهر كل شهر منها ثلاثون يوماً ، وهي : تَشْرِينُ الثاني ، وَنَيْسَانُ ، وَحَرِيْرَانُ ، وَأَيْلُولُ . ومنها واحدٌ ثمانية وعشرون يوماً : وهو شُباطُ ، فتكون أيامُ سنّيه ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ، ويضاف إليها رُبعُ يومٍ مراعاةً للسنة الشمسية ، فتصير ثلثمائة وخمسة وستين يوماً وربعَ يومٍ ينقصُ جزءاً يسيراً . ومن أجل ذلك يَعُدُّون ثلاث سنينَ بساططٍ ^(١) يكونُ شُباطُ فيها تسعةً وعشرين يوماً : لإضافة رُبعِ اليوم في السنين الأربَعِ إليه ، وتكون السنة فيها ثلثمائة وستة وستين يوماً .

وقد تقدّم أيضاً أن شهور السنة الرومية تُضاهي شهور السنة السُريانية في عدَدِ الأيام ، بل هي هي ، إلا أن الروم يُسمّون أشهرهم بأسماءٍ غير أسماءِ شهور السُريان ، ويكون أوّلُ شهرهم موافقاً لكانون الثاني ، وهو الشهرُ الرابعُ من شهور السُريان ، ويكون آخرُ شهرهم موافقاً لكانون الأوّلِ .

(١) كذا في الاصول ويظهر أن فيه سقطاً من النسخ والاصل "يعدون ثلاث سنين بساطط" وستة كيسة يكون الخ كما يؤخذ من نظيره في التاريخ القبطي تأمل .

وأسماء شهورهم : نَيْر، فَبْرَاير، مارس، ابريل، مايه، يونيه، يوليه، أغشت، شتبر، أكتوبر، نونبر، دجنبر . ولا فرق في شيء منها سوى اختلاف الأسماء وأبتداء رأس السنة، وحينئذ فيكون الكلُّ فيها في التاريخ واحدا .



وأما التاريخ القبطي : وهو الذي مبدؤه من ملك دقظيانوس ، فقد تقدّم أن شهور السنة القبطية اثنا عشر شهراً . وهي : توت، بابه، هتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهاث، برمودة، بشنس، بثونه، أيب، مسرى . وكل شهر منها ثلاثون يوماً من غير اختلاف ، ثم بعد مسرى خمسة أيام يسمونها أيام النسيء، فتكون أيام سنتهم ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً، وتزيد بعد ذلك ربع يوم في كل سنة كما في التاريخ الرومي ، وقد أصطلحوا على أن يعدّوا منها ثلاث سنين بسائط ، كل سنة منها ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً لا زيادة فيها، والرابعة كبيسة تكون أيام النسيء فيها ستة أيام وزيادة ربع يوم، وتصير أيام تلك السنة ثلاثمائة وستة وستين يوماً، على نحو ما تقدّم في السرياني والرومي .



وأما التاريخ العربي : وهو الذي مبدؤه الهجرة، فقد تقدّم في الكلام على الشهور في المقالة الأولى أن شهور سنة العرب اثنا عشر شهراً . وهي : المحرم، صفر، ربيع الأول، ربيع الآخر، جمادى الأولى، جمادى الآخرة، رجب، شعبان، رمضان، شوال، ذو القعدة، ذو الحجة . وأنها قمرية مدارها رؤية الهلال ، إلا أن المنجمين اعتمدوا فيها على الحساب دون الرؤية لتصحيح حساب التواريخ ونحوها، وجعلوا فيها شهراً تاماً عدده ثلاثون يوماً، وشهراً ناقصاً عدده تسعة وعشرون يوماً، على ترتيب شهور السنة ، فالمحرم عندهم تام ، وصفر ناقص ، وربيع الأول تام ،

وربيع الآخر ناقص، وجمادى الأولى تام، وجمادى الآخرة ناقص، ورجب تام،
 وشعبان ناقص، ورمضان تام، وشوال ناقص، وذو القعدة تام، وذو الحجة ناقص .
 فيكون من السنة ستة أشهر تامة وستة أشهر ناقصة، وتكون السنة حينئذ ثلثمائة يوم
 وأربعة وخمسين يوماً؛ ويلحقها بعد ذلك كسر في كل سنة، وهو خمس يوم وسدس
 يوم، فتصير السنة ثلثمائة يوم وأربعة وخمسين يوماً وخمس يوم وسدس يوم مفترقة^(١)
 في ثلاثين سنة؛ ويجعلون الكبيسة سنة بعد سنة ثم سنة بعد سنتين، ثم سنة بعد
 سنة، وعلى هذا الترتيب إلى آخر الثلاثين، فتكون الكباش هي: الثانية، والخامسة،
 والسابعة، والعاشر، والثالثة عشرة، والخامسة عشرة، والثامنة عشرة، والحادية
 والعشرين، والرابعة والعشرين، والسادسة والعشرين، والتاسعة والعشرين . فتكون
 كل سنة منها ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً، ويجعل الزائد فيها في ذى الحجة، فيكون
 فيها ثلاثين يوماً وباقى سنى الثلاثين بسائط، كل سنة منها ثلثمائة وأربعة وخمسون
 يوماً، وذو الحجة فيها تسعة وعشرون يوماً، بناء على الأصل في أن يكون شهر تاماً
 وشهر ناقصاً .



وأما التاريخ الفارسي: وهو الذى مبدؤه من هلاك زردجرد، فقد تقدم فى الكلام
 على الشهور أن سنى الفرس اثنا عشر شهراً، كل شهر منها ثلاثون يوماً . وهى :
 افرودين ماه، أرديهشماه، حردادماه، تيرماه، تردماه، شهريرماه، مهرماه، أبان ماه،

(١) كذا فى الأصول وعبارة الضوء ص ١٥٦ "ويجتمع من هذا الخمس والسادس يوم فى كل ثلاث
 سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوماً ويبقى من ذلك بعد اليوم الذى أجمع شئ، فيجتمع منه وعن
 خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد وكذلك إلى أن يبقى الكسر أحد عشر يوماً عند تمام ثلاثين
 سنة وتسمى تلك السنين كباش العرب" وهى أوضح .

أدرماه، ذى ماه، بهمن ماه، اسفندارماه . وبين ابان ماه وأدرماه خمسة أيام تسمى المسترقة بمثابة أيام النسيء في آخر سنة القبط ، وبمقتضى ذلك تكون سنتهم ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ، وليس فيها زيادة ولا نقص . فلا بد من معرفة هذه الأصول لاستخراج تواريخ بعض السنين المذكورة من بعض .

ثم مما يجب تعرفه بعد ذلك أن تعلم أن التاريخ السريانى والرومى سنونه سريانية أوروبية على ما تقدم ، فيعتبر فيها ما يعتبر في السنين السريانية والرومية من عدد الأيام والكجائس ، والتاريخ القبطى سنونه قبطية فيعتبر فيها ما يعتبر في السنين القبطية من الأيام والكجائس ، والتاريخ العربى سنونه عربية فيكون على ما تقدم في السنين العربية من عدد الأيام والكجائس ، والتاريخ الفارسى سنونه فارسية فيعتبر فيها ما يعتبر في السنين الفارسية من عدد الأيام ، ولا كيسة فيها .

إذا علمت ذلك فإذا أردت استخراج بعض هذه التواريخ من بعض ، فانظر التاريخ المعلوم عندها عندك ، كالتاريخ العربى مثلاً عند الإسلاميين فاجعل السنين السائمة من التاريخ المعلوم أياماً ، وزد عليها ماضى من السنة المكسورة من الشهور والأيام إلى اليوم الذى تريد أن تعلم موافقته لثله من التاريخ المجهول ، ثم أنظر : فإن كان التاريخ المعلوم أقدم من التاريخ المجهول ، فانقص من أيام التاريخ المعلوم ما بين التاريخين من الأيام فابق فهو أيام المجهول . وإن كان التاريخ المجهول أقدم ، فزد ما بين التاريخين من الأيام فابق فهو أيام التاريخ المعلوم ، فما بلغ فهو أيام التاريخ المجهول . فإذا علمت أيام التاريخ المجهول بزيادة ما بين التاريخين على أيام التاريخ المعلوم أو نقصانها منه على ما تقدم ، فاجعل ما حصل معك من أيام التاريخ المجهول الذى تريد استخراجها ، فما كان فهو السنون السائمة

للتاريخ الذي تريد أستخرجه ، فإن بقي شيء من الأيام بعد السنين التامة ، فخذ منها لكل شهر عدد أيامه ، وما بقى من الأيام دون شهر فهو الماضي من أيام الشهر الذي يلي ذلك .

مثال ذلك إذا أردت ان تستخرج التاريخ السرياني أو الرومي الموافق لآخر سنة ثمانمائة من الهجرة ، فقد تقدم لك أن التاريخ السرياني والرومي مبدؤه من غلبة الإسكندر على الفرس ، وهو قبل الهجرة بتسعمائة سنة وأثنتين وثلاثين سنة ومائتين وسبعة^(١) وثمانين يوما ، وذلك ثلثمائة ألف يوم وأربعون ألف يوم وسبعائة يوم ، فاحفظ ذلك ، ثم أبسط الماضي من سني الهجرة وهو ثمانمائة سنة أياما ، بأن تضرب الثمانمائة في عشرة آلاف وستمائة وأحد وثلاثين يوما ، وهي بسط السنة العربية من حين كسرها الزائد على أيامها ، وهو خمس يوم وسدس يوم ، يكون ثمانية آلاف ألف وخمسمائة ألف وأربعة آلاف وثمانمائة ؛ فاقسمه على ثلاثين وهي مخرج الكسر الذي هو الخمس والسدس ، يخرج بالقسمة مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون ، وهو عدد أيام الثمانمائة سنة ؛ فأضفه على ما بين غلبة الإسكندر والهجرة من الأيام ، وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعائة يوم ، يكون الجميع ستمائة ألف وأربعة وعشرين ألفا ومائة وثلاثة وتسعين ، فاجعل تلك الأيام سنين سريانية ، بأن تضرب تلك الأيام في أربعة ، يحصل منها ألفا ألف وأربعمائة ألف وستة وتسعون ألفا وسبعائة وأثنان وسبعون يوما ؛ فاقسمه على ألف وأربعمائة وأحد وستين ، يخرج بالقسمة ألف وسبعائة وثمانية ، وهي سنون تامة ؛ ويفضل بعد ذلك ألف وثلثمائة وأربعة وثمانون ، فاقسمها على أربعة ،

(١) الذي تقدم له " ومائتين وتسعين يوما " .

يخرج ثلاثمائة وستة وأربعون يوماً ، يكون ذلك أحد عشر شهراً ، من أول تشرين الأول وأحد عشر يوماً من الشهر الثاني عشر من الشهور السريانية وهو أيلول ؛ فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة هجرية موافقاً لليوم الحادى عشر من أيلول سنة ألف وسبعمائة وتسع من السريانية .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ القبطى لآخر سنة ثمانمائة ، فقد تقدم أن التاريخ القبطى آبدؤه من ملك دقلطيانوس على القبط ، وهو قبل الهجرة بثلاثمائة وسبع وثلاثين سنة وثلاثمائة وعشرين يوماً ، وحملته أيامه مائة ألف يوم وثلاثة وعشرون ألف يوم وأربعمائة يوم وتسعة أيام ، فأضيف أيام الماضى من سنى الهجرة : وهو مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفاً وأربعمائة وثلاثة وتسعون على ما تقدم فى التاريخ السريانى [على ما قبل الهجرة^(١)] وهو مائة ألف وثلاثة وعشرون ألفاً وأربعمائة وتسعة أيام ، يكون المجموع أربعمائة ألف وستة آلاف وتسعمائة يوم ويومين ؛ فاجعله سنين قبطية ، بأن تضرب ذلك فى أربعة عدد يخرج كسر السنة القبطية ، وهو الربع الزائد على الخمسة وستين ، يكون ألف ألف وستمائة ألف وسبعة وعشرين ألفاً وستمائة وثمانية ؛ فاقسمه على ألف وأربعمائة وأحد وستين ، يخرج بانقسمة ألف ومائة وأربعة عشر ، وهو عدد السنين القبطية التامة ، ويبقى بعد ذلك أربعة وخمسون ؛ فاقسمه على الأربعة المذكورة يخرج بالقسمة أربعة عشر ، وهى أيام من الشهر الأول من السنة القبطية الناقصة ، فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة للهجرة موافقاً لربع عشر شهر توت سنة ألف ومائة وخمس عشرة من السنين القبطية .

(١) الزيادة لازمة لتوضيح المتام وهى مرادة للؤلؤف .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ الفارسي لآخر سنة الثمانمائة المذكورة ، فقد تقدم أن ابتداء التاريخ الفارسي بعد الهجرة بعشرين وثمانين يوما ، وجملة أيامه ثلاثة آلاف وثمانمائة يوم وأربعة وعشرون يوما ، فأسقطها من الحاصل من أيام النسيء الماضي من الهجرة إلى آخر الثمانمائة ، يكون الباقي بعد ذلك مائتي ألف وتسعة وسبعين ألفا وثمانمائة وتسعة وستين يوما ، فأقسمها على ثلثمائة وخمسة وستين ، يخرج لك سبعمائة وستة وستون سنة ، وهو عدد السنين الفارسية التامة ، ويفضل بعد ذلك مائتان وتسعة وسبعون يوما ، نخذ لكل شهر عدد أيامه : وهو ثلاثون يوما ويبقى تسعة أيام ، منها خمسة أيام في نظير الخمسة الأيام الزائدة في آخر أبان ماه المعروفة بالمسترفة ، يبقى أربعة أيام من شهر ذى ماه : وهو الشهر العاشر من شهورهم ، فيكون آخر يوم من ثمانمائة من الهجرة موافقا لليوم الرابع من ذى ماه من شهور الفرس سنة سبعمائة وسبع وستين .

فلو فرض أنه مضى من سنة إحدى وثمانمائة سنة أشهر مثلا ، فأجعل الأشهر شهرا تاما وشهرا ناقصا على ما تقدم ، تكون أيامها مائة وسبعة وسبعين يوما فأضفها على أيام الثمانمائة ، وأفعل فيها ما تقدم ذكره ، لا يتغير العمل في شيء من ذلك .

مثال ذلك : إذا أردت استخراج التاريخ السرياني في آخر جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانمائة ، فأضف مائة وسبعة وسبعين : وهي أيام ستة أشهر على أيام الثمانمائة ، وهي مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون ، يكون المجموع مائتي ألف وثلاثة وثمانين ألفا وثمانمائة وستين يوما ، فأضف إليه ما بين الهجرة والتاريخ السرياني : وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة ، يحصل

من ذلك ستمائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً وثلاثمائة وسبعون ؛ فاضربه في أربعة يخرج لك ألف وستمائة وتسعة ، ويفضل من الأيام مائة وثمانية وخمسون يوماً ، تكون سابع أدار من شهور السريان ، فيكون آخر يوم من جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانمائة موافقاً للسابع من شهر أدار سنة ألف وسبعائة وعشر من سني السريان .

قلت : وفي كُتب الزيجات وغيرها طرق مختلفةٌ لاستخراج التواريخ ، وجدّ أول موضوعاً لا يَحتملها هذا الكتاب فليراجعها من أحتاج إلى زيادة على ذلك .

الجملة الثامنة

(في موضع كتابة التاريخ من الكتاب ، وصورة وضعه في الكتابة)

أما موضعه من الكتاب ، فقال محمد بن عمر المدائني في كتاب ” القلم والدواة ” :
رسموا تاريخ الكتب في آخرها ، وجعلته العامة في صدرها . والتحقيق في ذلك ما ذكره صاحب ” مواد البيان ” وغيره أن الكُتب التي تؤرخ على ضربين :

الضرب الأول — الكتب السلطانية ، ولها حالان :

الحالة الأولى — أن يكون الكتاب في أمر نتشوف النفوس إلى معرفة اليوم الذي وقع ذلك الأمر فيه : كالحوادث العظام ، والفُتوحات والمواسم ونحوها ، فيؤرخ الكتاب في صدره ، مثل أن يكتب في صدر الكتاب « كتاب أمير المؤمنين إليك ، او كتابنا إليك يوم كذا من سنة كذا » كما كان يكتب في الزمن المتقدم في مثل ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون الكتاب في أمر لا نتشوف النفوس إلى معرفة اليوم الذي يقع ذلك الأمر فيه ، فيؤرخ الكتاب في آخره .

الضرب الثاني — كُتب الأتباع إلى الرؤساء .

والرسم فيها أن تُؤرَّخ في صدورها . قال في "موادِّ البيان" : وذلك مثل أن يقال :
كتب العبدُ من مَقَرِّ خدمته يوم كذا .

قلت : والذي آسَترَ عليه حالُ كُتَّابِ الزمانِ كُتَّابُهُ التاريخ في آخرِ الكُتُبِ بكلِّ
حال ، سواءً كان المكتوبُ ولايةً أو مكتابةً أو غير ذلك ؛ ولعلَّ الولاياتِ
وما في معناها لم يقع الاختلافُ في كتابتها في آخرِ المكتوبِ في زمن من الأزمان .



وأما صورةُ وضعِ التاريخِ في الكتابة ، فقد أصطلح الكُتَّابُ على أن جعلوا التاريخَ
بعد كتابةِ إن شاء الله تعالى في سطرين : فيكتبون « كُتِبَ في كذا من شهر كذا »
في سطرٍ ، ثم يكتبون « سنة كذا » في سطرٍ تحته ؛ وفي الكُتُبِ عن قضاة القضاة
يجعل كُتَّابُهُم جميعَ التاريخِ في سطرٍ واحد .

الطَّرْفُ الثَّالِثُ

(في المستندات ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في صورة ما يُكْتَبُ ، وهو على ضربين)

الضربُ الأوَّلُ

(أن يُضَافَ إلى مرسومِ السلطان ، وله خمسُ حالات)

الحالة الأولى — أن يكون بتلقُّ كاتبِ السرِّ ، إما بما يأمرُ به السلطانُ عند قراءته
القصةَ عليه ، أو بما يكتبه كاتبُ السرِّ ويُمضيه من نفسه ، كما في خلاص الحُقُوقِ
ونحوها ؛ فيكتب فيه « حَسَبَ المرسومِ الشريفِ » في سطرٍ واحد لا غير .

الحالة الثانية — أن يكون بتلقّي كاتب السرّ أو أحد من كتّاب الدّست بدار العدل ، عند جلوس السلطان في المواكب بالإيوان وقراءة كاتب السرّ وكتّاب الدّست قصص المظالم ونحوها عليه . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف من دار العدل الشريف » سطرين أحدهما تحت الآخر ، ويكون في السطر الأوّل « حسب المرسوم الشريف » والباقي في السطر الثاني .

الحالة الثالثة — أن يكون برسالة الدوّادار . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف » سطرا واحدا ، ثم يكتب تحته « برسالة الجناح العالى الأميرى الدوّادار ، الفلانى » باللّقب المضاف إلى الملك كالتصيرى ونحوه « ضاعف الله تعالى نعمته » ويكون آخر السطر الأوّل « الأميرى الفلانى » .

الحالة الرابعة — أن يكون من ديوان الخاص . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف من ديوان الخاص الشريف » ويكون « حسب المرسوم الشريف » سطرا ، وبقاى الكلام سطرا .

الحالة الخامسة — أن يكون بخط السلطان بظاهر قصّة . فيكتب « حسب المرسوم الشريف بالخطّ الشريف » سطرين ، ويكون « حسب المرسوم الشريف » سطرا على ما تقدّم ، وما بعده سطرا .

قلت : ومما يجب التنبيه له أنّ لفظ حسب الواقع في المستندات مقول اللغة فيه بفتح السين كما تقول : فعلت ذلك حسب أمرى ، ولا يجوز تسكينها بحال كما أطبق عليه علماء اللغة ، إلا ما حكاه الجوهرى في « صحاحه » من جواز تسكينها في ضرورة الشعر ، على أن جُلّ كتّاب الزمان يغلطون في ذلك فلا ينطقون بها إلا ساكنة السين ، وربما ضبطوه كذلك في الكتابة .

الضرب الثاني

(أن يجعل مستندة الإشارة، وله ثلاث حالات)

الحالة الأولى — أن يكون بإشارة النائب الكافل . فيكتب «بالإشارة العالية الأُميرية الكبيرة الكافية، كافل الممالك الشريفة الإسلامية، أعلاها الله تعالى!» « سطرين ، ويكون آخر السطر الأول الكافية الفلانية .

الحالة الثانية — أن يكون بإشارة الوزير . فيكتب «بالإشارة العالية الوزيرية الفلانية، مدبر الممالك الشريفة أعلاها الله تعالى!» « سطرين، ويكون آخر السطر الأول الوزيرية الفلانية .

الحالة الثالثة — أن يكون بإشارة الإستدار . فيكتب «بالإشارة العالية الأُميرية الكبيرة الفلانية، إستدار العالية، أعلاها الله تعالى!» « سطرين، ويكون آخر السطر الأول الكبيرة الفلانية . وقد تقدم في الكلام على الألقاب ماجرى عليه الكُتاب في لفظ إستدار من التحريف، واستعملوه بلفظ إستادار، أو استاد الدار، وتجب موافقتهم عليه وإن كان خطأ جريا على المصطلح .

الجملة الثانية

(في موضع كتابة المستند)

وقد أصطلح الكُتاب على أن يكتب المستند في الغالب بعد التاريخ، ويكون الظرف أو الجاز والمجورور فيه متعلقا من التاريخ بلفظ كتب، وكأنه يقول: كتب في تاريخ كذا، حسب الأمر الشريف، أو بالإشارة الفلانية . وربما كتب بحاشية المكتوب في المراسيم الصغار التي تُكتب على ظهور القصاص ونحوها، وكذلك

أوراق الطِّريق؛ وموضع كتابته يقابل بين السطرين الأولين آخذاً من جهة الأسفل إلى جهة الأعلى بحيث يكون آخرُ كتابة المستند مسامتاً للسطر الأول، فإن كان «حَسَب المرسوم الشريف» فقط، كتبه سطراً واحداً، وإن كان «من دار العدل» كتب «حَسَب المرسوم الشريف» سطراً، ومن «دار العدل الشريف» سطراً تحته، وكذلك إن كان «من ديوان الخصاص» كما يُكْتَب في أسفل الكتاب. وإن كان برسالة الدوادار، فقد جرت العادة أن يكتب «حَسَب المرسوم الشريف» في أسفل الكتاب تحت التاريخ سطراً واحداً، ويكتب «رسالة الجناح العالى، الأميرى، الكبرى، الفلانى، الدوادار، الفلانى ضاعف الله تعالى نعمته!» بالهامش في المحل المتقدم سطرين كما كان يُكْتَب بآخر الكتاب. وإن كان المستند الإشارة كتب جميعه بحاشية الكتاب في المحل المقدم ذكره سطرين على ما تقدم بيانه.

الطرف الرابع

(في الجملة في آخر الكتاب، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في الاصل في كتابتها)

والأصل في ذلك أن الله سبحانه كما جعل الحمد مفتاحاً للأمر تيمناً بالافتتاح به، جعله ختاماً لها تيمناً بالاختتام به قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقال جلَّت قدرته: ﴿دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَأَنحَرَدَعُوهُمْ أَنَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا رجع من السفر قال: «آبُونَ تَائِبُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ». قال السهيلي: ومن ثم سُمِّي النبي صلى الله عليه وسلم (أحمد) إشارة إلى أنه خاتم الأنبياء وآخر المرسلين.

ولما كان الأمر كذلك ، أصطلح الكُتَّابُ على آختام الكُتُبِ بالحمد تبرُّكاً . قال ابن شيث في "معالم الكتابة" : ولا يُختم بالحمد لله في التواقيع في المظالم ؛ وربما ختم بها في تواقيع الإطلاقات . وقد أصطلح كُتَّابُ الزمان على حذفها من آخر مالا تُكْتَبُ في أوله بالبسملة : كالتواقيع الصغار ونحوها ، على ما سياتى في موضعه إن شاء الله تعالى . وكأنهم يُشيرون بذلك إلى أن مثل ذلك لا يهتمُّ بشأنه ، فكما حذفوا البسملة من أولها حذفوا الحمدلة من آخرها إشارة إلى عدم الأهتمام بها كما حذفت من أول الكلام الذي لا يهتمُّ به لأجل ذلك على ما تقدم بيانه .

الجملة الثانية

(في بيان ما يُكْتَبُ وصورة وضعه في الكتابة)

أما ما يُكْتَبُ ، فقد أصطلحوا على أن يكتبوا في حمدلة آخر الكتاب « الحمد لله وحده » وربما كتبوا : « الحمد لله رب العالمين » . على أنهم لو أطبقوا على كتابتها لكان أولى . فقد ذكر النووى في كتابه "الأذكار" أنها أفضل صيغ الحمد ومن أجل ذلك أفتتحت بها فاتحة الكتاب التي هي أم القرآن .



وأما وضعها في الكتابة ، فقد أصطلحوا على أن جعلوها بعد كتابة المستند عن يمينه الدرَج ، على بُعد قدر ما بين إن شاء الله تعالى والسطر الآخر من المكتوب . قال في "معالم الكتابة" وقد تحتل الخروج عن سمت السطور .

الطرف الخامس

(في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الكتاب ،
وما يلحق بذلك ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في أصل إثباتها في آخر الكتاب)

والأصل في ذلك مع ما تقدم في الكلام على الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في أول الكتاب في الكلام على الفوائج أنه كما ذكرت في أوائل الكتاب تبرُّكا ، كذلك ذكرت في آخرها تبرُّكا . وقد قال تعالى في حقه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فإن معناه ما ذكرت إلا ذكرت معي ، ولما آخُتِمتِ الكتاب بالحمد لله ، ناسب أن يُقرن الحمد بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم جمعاً بين ذكره وذكر الله تعالى . وقد ذكر ابن هشام في "سيرته" : أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب في آخر عهده لعمر بن حزم حين وجهه إلى اليمن «صلى الله على عهد» .

ثم الكلام في الجمع بين الصلاة والسلام ، والصلاة على الآل والصَّحْبِ بعده صلى الله عليه وسلم في آخر الكتاب على ما مرَّ في الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم في أول الكتاب^(١) .

قلت : فلو كتبت كتاباً لسلطانٍ أو غيره من المسلمين إلى أحد من أهل الكُفْرِ ، فهل يؤتى بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم كما يؤتى بها في الكتاب إلى المسلم

(١) في الأصول "آخر" وهو خطأ من النسخ ، وعبارة الضوء على ما مرَّ في الفوائج ، وهي أظهر .

إرغاماً للكافر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، أولاً يُؤتى بها صيانةً لاسمه صلى الله عليه وسلم عن حصوله في يد كافر ، كما يمنع من السفر بالمصحف إلى بلاد الكفر ؟ لم أر من تعرّض له ، والظاهر أنه يُؤتى بها إرغاماً للكافر ، ومواجهةً له بما يذكره .

وقد حكى أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : أن عبد الملك بن مروان ، حين أحدث كتابة سورة الإخلاص وذكر النبي صلى الله عليه وسلم على الدنانير والدرهم ، كتب إليه ملك الروم : إنكم قد أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم ، فأتروكوه وإلا أتاكم في دنانيرنا ذكر ماتركهون ؛ فعظم ذلك في صدر عبد الملك ، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية يستشيره في ذلك ، وكان أديباً عالمياً فقال له خالد : فرّح روعك^(١) يا أمير المؤمنين ، حرم دنانيرهم وأضرب للناس سككا فيها ذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم ولا تُعفهم مما يكرهون في الطوامير ، ففعل .

الجملة الثانية

(في بيان ما يكتب في التصلة في آخر الكُتُب ، وصورة وضعه في الكتابة)

أما صورة ما يكتب ، فقد أصطاح الكُتّاب على أن يكتبوا في التصلة في آخر الكتاب بعد الحمد لله وحده ما صورته « وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه » . وهي صيغة مستحسنة للإتيان بالصلاة فيها بصيغة الجمع ، والجمع بين الصلاة والسلام ، وإتباع الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم بالصلاة والسلام على الآل والصَّحْب . وربما أتى بعض الكُتّاب بالصلاة بلفظ الأفراد ، فيكتب وصلاته .

(١) أى أذهب فزعك ورعبك ، ووقع في الأصول فرج بالجم وهو تصحيف .

وأعلم أن الصلاة يجوز كتابتها بالألف على هذه الصورة "الصلاة" ويجوز كتابتها بالواو على هذه الصورة "الصلوة" إلا أن محل ذلك ما إذا لم تُضَف إلى ضمير نحو صلواته وصلاتك . فإن أُضِيفَتْ إلى الضمير تعيَّنَتْ كتابتها بالألف دون الواو ، وربما غَلِطَ فيها بعضُ الكُتَّاب فكتبها بالواو .



وأما موضعها في الكتابة ، فقد أصطلحوا على أن يكتبوا ذلك تلو الحمد لله وحده ، يفصل بياض بينهما لتكون الحمدلة في أول السطر ، والتصلية في آخره .

الطرف السادس

(في الحسبة في آخر الكتاب ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في أصل كتابتها)

والأصل في ذلك ما دلَّ عليه قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنِ اللَّهِ وَقُضِيَ ﴾ فجعل قولهم : حسبنا الله ونعم الوكيل سبباً لحسن المنقلب والصون عن السوء . وقد قيل : من قال حسبنا الله ونعم الوكيل لم ينجب في قصده .

الجملة الثانية

(في بيان ما يكتب في ذلك ، وكيفية وضعه في الكتابة)

أما ما يكتب ، فقد أصطلح الكُتَّاب على أن يكتبوا «حسبنا الله ونعم الوكيل» بلفظ الجمع ، على أن المتكلم يتكلم بلسانه ولسان غيره من الأمة ، لأن الجمع للتعظيم : لأنه

ليس بلائق بالمتام . وكان بعض الكُتَّاب يَسْتَحِبُّ أن يكتب «حَسْبِي اللهُ» بلفظ الوحدة فراراً من اللَّبْس في لفظ الجمع بين التَّعْظِيم والجمع الحَقِيق . وقد أشار في «صناعة الكُتَّاب» إلى بعض ذلك . قال ابن شيث في «معالم الحُتَّابة» : وقد يتأدب الأذنى مع الأعلى ، فيأتى بالآية على نصها فيقول : (وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) فراراً من نُون الجمع التي هي للعظمة . قال : وقد يقال في مكانها : (وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ) ثم قال : فأما الأعلى إذا كَتَبَ للأذنى فلا يخرج عن «حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ» . ثم بعض الكُتَّاب قد يكتب مع الحَسْبِيلة أوأا بأن يكتب : وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، ولا معنى للواو هنا ، إذ لا علاقة بين الحَسْبِيلة وما قبلها حتى يسوغ العطف عليه ، فالواجب حذفها كما نبه عليه الشيخ جمال الدين بن هشام في «ورقاته في الوراقاة» .



وأما موضع وضعها في الحُتَّابة ، فقد أصطلحوا على أن يكتبوها سطرًا واحدًا بعد سطر الحمدلة والتصاية ، ويكون بينهما في البُعد قدر ما بين إن شاء الله تعالى وبين السطر الآخر من البياض . قال ابن شيث : وموضعها ثلث السطر من الجانب الأيمن إلى حيث ينتهي .

وأعلم أن الكُتَّاب قد أصطلحوا على أن يكتبوا تحت الحَسْبِيلة صورة حاء لطيفة منكبة على هذه الصورة «حر» ولا معنى لها ، إذ هي في الأصل إشارة إلى الحَسْبِيلة نفسها ، وكأنَّ بعض الكُتَّاب كان يكتبها عن الحَسْبِيلة ، ثم ألبس ذلك على بعض الكُتَّاب فأثبتها مع الحَسْبِيلة على ظَنِّ أن فيها قدرًا زائدًا عليها ، ويحتمل أنها إنما وُضِعَتْ في الأصل لسد البياض كما يُكْتَب بعض التوائر لسد البياض أو الفصل بين الكلامين وغير ذلك .

الطرف السابع

(في اللواحق ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في الترتيب ، ويتعلق به أمران)

الأمر الأول

(في النَّدْب إلى الترتيب)

لا نزاع في أن ترتيب الكتاب بعد الفراغ منه بإلقاء الرَّمْل ونحوه عليه مطلوبٌ ،
وفيه معنيان :

المعنى الأول - التبرُّك طلباً لِنَجْح القصد ؛ فقد روى محمد بن عمر المدائني
في كتاب "القلم والدواة" بسنده عن إسماعيل بن محمد بن وهيب عن هشام بن خالد
وهو أبو مروان الأزدي ، عن بَقِيَّة بن الوليد ، عن عطاء ، عن ابن جريح ، عن ابن عباس
عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "تَرَبُّوا الحَآبَ ونَحْوَهُ من أسْفَلِهِ فإنه أعظمُ
للبركة وأنجحُ للحاجة" . وفي حديث "إذا كتب أحدكم كتاباً فليتربه فإنه مباركٌ
وهو أنجحُ لحاجته" .

ومن كلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ^(١) تَرَبُّوا الكُتُبَ تَنجِّحُوا .
ويؤيد ذلك ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كتب كتابين إلى أهل قريتين
فترَّب أحدهما ولم يترب الآخر ، فأسلمت القرية التي ترَّب كتابها . وهذا المعنى
موجود في المكاتبات والولايات وغيرها لطلب البركة والنجاح في جميع ذلك .

(١) رواية كتب اللغة "أتربوا الكتاب" .

وقد حُكي أن أبادُهمان مَرَضَ مَرَضاً أَشْفَى فِيهِ، فَأَوْصَى وَأَمَّلَى وَصِيَّتَهُ عَلَى ابْنِهِ، فَكَتَبَهَا وَأَتْرَبَهَا فَقَالَ : نَعَمْ تَرَبَّهَا فَإِنَّهُ أَنْجَحٌ لِلْحَاجَةِ . وَلَا فَرْقَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ أَنْ يَكُونَ الْمَكْتُوبُ قَدْ جَفَّ أَمْ لَا : لِأَنَّ الْقَصْدَ إِنَّمَا هُوَ التَّجَحُّعُ وَالْبَرَكَةُ .

المعنى الثاني - التجفيف لما كتبه بطرَّح التراب عليه كي لا يمتحى بما يصيبه قبل الجفاف ، وهذا المعنى أضعف من الأول ، ومقتضاه أنه إذا جفَّ الكتاب لا يُتَرَّب ، وعليه عملُ كُتَّابِ الزمان . ومن هنا يَصْعُونُ الترابَ على آخر الكتاب من حيثُ إنه أقربُ عهدًا بالكتابة فيحتاجُ إلى التجفيف ، بخلاف أول الكتاب فإنه يكون قد جفَّ عند نهاية الكتاب غالبًا ، لاسيما في الزمن الحارِّ ، أو مع طول الكتاب وأمتداد زمن كتابته . على أن صاحب "موادَّ البيان" وغيره من قُدَمَاءِ الكُتَّابِ قد صرَّحوا بأنه يستحبُّ وضع الترابِ أولاً على البَسْمَلَةِ ، ثم يمرُّه الكاتبُ منها على سائر المكتوب ليُعَمَّ الكتابَ بركةَ البَسْمَلَةِ . ولقائل أن يقول إن الترتيب من آخر الكتاب إلى أعلاه لا يخلو أيضاً من بركة ، لمُلامسة الترابِ أولاً الحمدلةَ والصلاةَ على النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْحَسْبَةَ . وربما بَلَغَ بالترابِ من أسفل الكتاب إلى البَسْمَلَةِ ثم أعاده فيجمع فيه بين البركتين .

الأمر الثاني

(فَمَا يُتَرَّبُ بِهِ الْكُتَّابُ)

وقد اصطَلَحَ كُتَّابُ الزمانِ على الترتيبِ بِالرَّمَلِ الْأَحْمَرِ . أما تَخْصِيصُهُمُ الترتيبَ بِالرَّمَلِ فَلأنه لا غَبَارَ فِيهِ يَعَلَّقُ بِالْكَتَابِ فَيُدْهَبُ بِهِجَّةِ الْوَرَقِ . وأما اخْتِيَارُهُمُ الْأَحْمَرَ دُونَ غَيْرِهِ فَلأنه أَهْيَجُ إِذَا لَصِقَ بِالْكَتَابِ . قال محمد بن عمر المدائني : وَكَرِهُوا وَهَّوْا

عن تراب الحيطان، وماؤا إلى النشارة والأشنان . قال : وبلغنا أن بعض الأئمة من أهل العلم كان يُتَرَّبُ بالحديث بالصنديل ويقول : لا أطرَحُ على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب . وكان حيوَةُ بن شَرِيحٍ يُخْرِجُ إلى الصَّحراءِ فيأخذ الطَّيْنَ الأسودَ فيدُقُّه ويُمَلِّه فيُتَرَّبُ به . وقد صرَّحَ الرَّافِعِيُّ وغيره من أصحابنا الشافعية أنه يحرم الترتيب من جدار الغير، ومعناه ظاهرٌ لما فيه من الأختصاص والاعتداء . وقد سبق في المقالة الأولى في الكلام على الخط ذكر أنواع الرمل ، وأن من أحسنه رملاً يُؤْتَى به من صحراء مَردِين ، فيه سُدُورٌ صُفْرٌ كسُدُورِ الذهب ، يلقى في الرمل الأحمر فيُتَرَّبُ به الأمراء والوزراء ومن في معناهم .

الجملة الثانية

(في نظر الكاتب في الكتاب وتأمله بعد الفراغ منه)

قد نصَّوا على أنه إذا فرغ الكاتب من كتابة الكتاب ينبغي له أن يتأمَّله من أوله إلى آخره ويتتبع ألفاظه ويتأمل معانيه ويصلح منها ما لعله وهم فيه الفكر أو سبق إليه القلم : ليسلم من قَدَحِ القادح وطعن الطاعن . وقد تقدم في مقدمة الكتاب أن صاحب الديوان لا يكفي بنظر الكاتب في ذلك ، بل يكفه إلى نظر كاتب كامل ينصبه لذلك ، ثم يتأمَّله هو بنفسه بعد ذلك ليتنقح الكتاب ويتهدَّب .

المقالة الرابعة

في المكتبات ، وفيها بابان

الباب الأول

(في أمورٍ كُتِبَ في المكتبات ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(في مقدمات المكتبات ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في أصول يعتمدُها الكاتبُ في المكتبات)

(١) ويتعلَّق المقصود منها بعشرة أصول :

الأصل الأول

(أن يأتي الكاتبُ في أول المكتبة مُحسِّنُ الافتتاح المطلوبِ في سائر أنواع

الكلام : من ترو نظم مما يوجب التحسين : ليكون داعيةً لأستماع

مابعده ، على ما تقدم بيانه في الكلام على علوم البلاغة في المقالة الأولى)

ويرجعُ حسنُ الافتتاح في المكتبات إلى معنيين .

المعنى الأول — أن يكون الحُسْن فيه راجعاً إلى المبتدئ به . إما بالافتتاح بالحمد لله

كما في بعض المكتبات : لأنَّ النفوس تشقُّوفُ إلى الثناء على الله تعالى ، أو بالسلام الذي

جعله الشارعُ مفتَحَ الخطاب أو نحو ذلك . وإما بالافتتاح بما فيه تعظيم المكتوب

(١) المعدود اثنا عشر كما ستقف عليه .

إليه : من تقبيل الأرض أو اليد أو الدعاء له أو غير ذلك ، فإن أمر المكاتبات مبنى على التملق وأستجلاب الخواطر وتألف القلوب ، إلى غير ذلك مما يجري هذا المجرى ، على ما يقتضيه اصطلاح كل زمن في الابتدآت .

المعنى الثانى — أن يكون الحُسن فيه راجعا إلى ما يوجب التحسين : من سُمولة اللفظ ، وصحة السبك ، ووضوح المعنى ، وتجنب الحشو ، وغير ذلك من موجبات التحسين ؛ كما كتب الأستاذ أبو الفضل بن العميد عن رُكن الدولة بن بويه ، إلى من عصى عليه ، مفتتحا كتابه بقوله : ” كِتَابِي إِلَيْكَ ، وَأَنَا مُتَرَدِّدٌ بَيْنَ طَمَعِ فَيْكِ وَإِيَّاسِ مِنْكَ ، وَإِقْبَالِ عَلَيْكَ وَإِعْرَاضِ عَنْكَ ؛ فَإِنَّكَ تُدَلُّ بِسَالِفِ خِدْمِ أَيْسَرِهَا يُوجِبُ رِعَايَةَ ، وَيَقْتَضِي مَحَافِظَةَ وَعِنَايَةَ ، ثُمَّ تَسْفَعُهَا بِمِحَادِثِ غُلُولٍ وَخِيَانَةٍ ، وَتُدْبِعُهَا بِأَلْفِ خِلَافٍ وَمَعْصِيَةٍ ، أَدْنَى ذَلِكَ يُحِيطُ أَعْمَالُكَ ، وَيُسْقِطُ كُلَّ مَا يُرْعَى لَكَ “ .

وكما كتب أبو حفص بن برد الأندلسى عن ملكه إلى من عصى عليه ثم عاد إلى الطاعة كتابا أفتتحه بقوله : ” أما بعد فإن الغلبة لنا والظهور عليك جلباك إلينا على قدمك ، دون عهد ولا عقد يمنعان من إراقة دمك ؛ ولكننا وهب الله لنا من الإشراف على سرائر الرياسة ، والحفظ لشرائع السياسة ؛ تأملنا من ساس جهتك قبلنا ، فوجدنا يد سياسته تحرقنا ، وعين خدماته عوراء ، وقدم مداراته سلاء : لأنه مال عن ترغيبك فلم ترجه ، وعن تهيبك فلم تحشه ؛ فأدتك حاجتك إلى طلاب المطاعم الدنيه ، وقلة مهابتك إلى التهاك على المعاصى الوبيه “ ونحو ذلك من الأفتتاحات البهجة ، والابتدآت الرائقة ، مما ستقف على الكثير منه فى خلال هذا الكتاب إن شاء الله تعالى .

الأصل الثاني

(أن يأتى في ابتداء المكاتبة براءة الاستهلال المطلوبة

في كل فن من فنون الكلام)

بان يأتى في صدر المكاتبة بما يدل على مجزها . فإن كان الكتاب بفتح ، أتى في أوله بما يدل على التهئة . أو بتعزية ، أتى في أوله بما يدل على التعزية . أو في غير ذلك من المعانى ، أتى في أوله بما يدل عليه : ليعلم من مبدأ الكتاب ما المراد منه . كما يحكى أن عمرو بن مسعدة كاتب المأمون أمر كاتبه أن يكتب إلى الخليفة كتابا يعرفه فيه أن بقرة ولدت عجلا وجهه وجه إنسان ، فكتب : "أما بعد حمد الله خالق الأنام ، في بطون الأنعام " . وفُضلاء الكُتَّاب وأعمهم يعتنون بذلك كل الاعتناء ، ويرون تركه إخلالا بالصنعة ، ونقصا في الكتابة ، حتى إن الوزير ضياء الدين بن الأثير في المثل السائر قد عاب أبا إسحاق الصابى على جلالة قدره في الكتابة ، وآتراه له بالتقدم في الصناعة ، بكتاب كتبه بفتح بغداد وهزيمة الترك فقال في أوله :

"الحمد لله رب العالمين ، الملك الحق المبين ، الوحيد الفريد ، العليّ الحيد ، الذى لا يوصف إلا بسلب الصفات ، ولا يُنعت إلا برفع النعوت ، الأزلى بلا ابتداء ، الأبدى بلا انتهاء ، القديم لا منذ أميد محدود ، الدائم لا إلى أجل معدود ، الفاعل لا من مادة أمتدتها ، الصانع لا بألة أستعملها ، الذى لا تدركه العين بالخطها ، ولا تحده الألسن بالفاظها ، ولا تُخافه العصور بمرورها ، ولا تُهرمه الدهور بمرورها ، ولا تُجاريه أقدام النظراء والأشكال ، ولا تُزاحمه مناكب الثرناة والأمثال ، بل هو الصمد الذى لا كُفء له ، والقرء الذى لا توعم معه ، والحقى الذى لا تحترمه المنون ، والقيوم الذى لا تسغله الشئون ، والقدير الذى لا تُؤدده المعضلات ، والخبير الذى

لا تُعييه المُشكلات“ ثم قال : إن هذه التحميدة لا تُناسب الكتاب الذى أفتحه بها، ولكنها تصلح أن تُوضع فى صدر مُصنّف من مصنّفات أصول الدين : كتاب ”الشامل“ للجوينى، أو كتاب ”الاقتصاد“ للغزالي، وما جرى مجراهما . فاما أن تُوضع فى أول كتابٍ فتح فلا .

وأعلم أن براعة الأستمال فى المكاتبات قد تقع مع الابتداء بالتحميد ، كما فى كتاب عمرو بن مسعدة المتقدم ذكره، وكما كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع إلى بعض ولاة الأطراف ، عند زوال الوحشة بينه وبين الأمراء ، ووقوع الصلح والاتفاق : ”أما بعدُ فالحمد لله ناظم الشمل ، بعد شتاته ، وواصل الحبل ، بعد بناته ؛ وجابر الوهن إذا انشلم ، وكاشف الخطب إذا أظلم“ .

وقد تقع مع الابتداء بالثقیل : كما كتبت إلى بعض الرؤساء بئر الإسكندرية ، ملوحاً إلى التعبير عنه بالثغر ، وعن الريح التى تهبّ دليه من جانب البحر بالمائم ، وعن مُستنزه من مستزّهاته بالرمل ، وعن المساكن التى به بالقصور مع قُربه من البحر ، ومُناسبة ذكر النسيم بالثغر بما صورته : ”يقبل أرض ثغر قدرق مئيمه ، وراق مئسمه ؛ باناً لشكر يعترف الرمل بالقصور عن حده ، وتقف أمواج البحر المحيط دون عده“ .

وقد تقع مع الابتداء بالدعاء ، وتكون براعة الأستمال فى الدعاء المعطوف على المتدبأ به : بأن يكون الدعاء مناسباً للحالة المكتوب فيها ، كما نبه عليه صاحب ”المثل السائر“ وغيره ، وسيأتى الكلام على أمثلة ذلك فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

(١) عبارة الضوء ” ويلوح بذكر مستزه لهم على البحر يسمى بالرمل ومساكن لهم فى ذلك المستزه تسمى

القصور“ وهى أوضح .

(١)
ثم من المكاتبات ما عسر معه الإتيان ببراءة الاستهلال فيما يلي ذلك من الكلام في مقدمة المكاتبه قبل الخوض في المقصود ولا يهملها جملة . على أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله قد ذكر في كتابه "حسن التوسل" أنه إن عسر عليه براءة الاستهلال، أتى بما يقارب المعنى . وبكل حال فإذا أتى ببراءة استهلال في أول مكاتبته أستصحبها إلى الفراغ من الخطبة إن كان الكتاب مفتتحاً بخطبة ، وإلا أستصحبها إلى الفراغ من مقدمة الكتاب الآتي بيانها .

الأصل الثالث

(أن يأتي في المكاتبه المشتملة على المقاصد الجليلة بمقدمة يصدر بها تأسيساً لما يأتي به في مكاتبته)

مثل أن يأتي في صدور كتب الحث على الجهاد بذكر افتراضه على الأمة ، وما وعد الله تعالى به من نصر أوليائه ، وخذلان أعدائه ، وإعزاز الموحدين ، وقمع الملحدين . وفي صدور كتب الفتح بإنجاز وعد الله الذي وعده أهل الطاعة من النصر والظفر ، وإظهار دينه على الدين كله . وفي صدور كتب جباية الخراج ، يصدر بحاجة قيام الملك وأسس السلطنة إلى الاستعانة بما يستخرج من حقوق السلطان في عمارة الثغور ، وتحصين الأعمال ، وتقوية الرجال ، ونحو ذلك مما يجري على هذا النمط مما سيأتي بيانه في مقاصد المكاتبات في الكلام على الابتداءات والجوابات فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فقد قيل : إنه لا يحسن بالكاتب أن يُخْلِ كلامه - وإن كان وجيزاً - من مقدمة يفتتحه بها وإن وقعت في حرفين أو ثلاثة ، ليوقي التأليف حقه . قال

(١) لعله الاستهلال في البداية فيأتي بها فيما يلي ذلك ... الخ كما هو ظاهر من بقية الكلام .

في "موادّ البيان" : وعلى هذا السبيل جرت سنة الكتاب في جميع الكتب : كالفتوح ، والتّهاني ، والتّعازي ، والتّهادي ، والاستخبار ، والاستبطاء ، والإجماد ، والإذمام ، وغيرها : ليكون ذلك بساطا لما يريد القول فيه ، ومجّة يستظهر بها السلطان ؛ لأن كل كلام لأبد له من فرش يُقرش قبله : ليكون منه بمنزلة الأساس من البنيان .

قال : ويرجع في هذه المقدمات إلى معرفة الكاتب ما يستحقّه كل نوع من أنواع الكلام من المقدمات التي تُشاكلها . ثم قال : والطريق إلى إصابة المرعى في هذه المقدمات أن تجعل مشتملة على ما بعدها من المقاصد والأغراض ، وأن يوضع للأمر الخاصّ مقدّمة خاصّة ، وللأمر العامّ مقدّمة عامّة ، ولا يطول في موضع الاقتصار ، ولا يقصر في موضع الإيجاز ، ولا يجعل أغراضها بعيدة المآخذ ، مُعتاصّة على المتصفح . وذلك أن الكاتب ربّما قصد إظهار القدرة على الكلام والتّصرف في وجوه المنطق ، فخرج إلى الإملال والإسجار الذي نتبم منه النفوس ، ولا سيما نفوس الملوك وذوي الأخطار الجليّة .

أما الأمور التي لا تشتمل على المقاصد الجليّة : كرقاع التحف والهدايا ونحوهما . فقد ذكر في "موادّ البيان" أنه لا يجعل لها مقدّمة تكون أمامها فإن ذلك غير جائز ولا واقع موقّعه . قال : ألا ترى أنهم استحسنوا قول بعضهم في صدر رُقعة مقترنة بمحفّة في يوم مهرجان أو نحوه : «هذا يوم جرت فيه العادة ، بأن تهدي فيه العبيد إلى الساده» واستظرفوا الكاتب لإيجازه وتقريب المآخذ .

الأصل الرابع

(أن يَعْرِفَ الفرقَ بين الألفاظ المستعملة في المكاتبات

فِيضَعُهَا فِي مواضعها)

قال في "ذخيرة الكتاب" : يجب على الكاتب الرئيس أن يَعْرِفَ مرتبة الألفاظ ومواقعها : ليرتّبها ويفرق بينها فرقا يَقْفُهُ على الواجب وينتهي به إلى الصواب ، فيخاطب كلاً في مكاتبتة بما يستحقّه من الخطاب ؛ فإنه قبيحٌ به أن يكون خطابهُ أولاً خطابَ الرئيس للمرءوس ، ويُذِيعَ ذلك بخطاب المرءوس للرئيس ، أو يبدأ بخطاب المرءوس للرئيس ثم يتبعه بخطاب الرئيس للمرءوس .

قال : ومتى استمرّ الكاتب على هذه المخالفة من الألفاظ والمناقضة ، نقصت المعاني ، ورذلت الألفاظ ، وسقطت المقاصد ، وكان الكاتب قد أحلّ من الصّناعة بمُعْظَمِها ، وترك من البلاغة غايةً مُحْكَمَها . بل يجب أن يبدأ بخطاب رئيس أو نظير أو مرءوس ، ويكون ما يتخلل مكاتبتة من الألفاظ على اتساق إلى آخرها وأطرادٍ من غير مخالفة بينها ولا مضادةٍ ولا مناقضةٍ .

فمن ذلك الفرقُ بين أصدرنا هذه المكاتبة أو أصدرناها ، وبين أصدرت ، وبين صدرت . فأصدرناها أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه : للتصريح فيها بالضمير العائد على الرئيس التي صدرت المكاتبة عنه ، إذ الشيء يُشرفُ بشرف متعلّقه . وبلى ذلك في الرتبة أصدرت ، لأقتضاها إصداراً في الجملة ، والإصدار لا بدّ له من مُصدرٍ ، وذلك المُصدر هو الرئيس الصادرة عنه في الحقيقة . وإتما كانت دون الأولى للتصريح بالضمير هناك دون هنا . ودون ذلك في الرتبة صدرت : لأقتضاء الحال صدورها بنفسها دون دلالةٍ على المُصدر أصلاً .

ومن ذلك الفرق بين «ونبدي لعلمه» وبين «ووضَّح لعلمه» : فنبدى لعلمه أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه : لأن الإبداء يرجع في المعنى إلى إظهار شيءٍ خفيٍّ ، والإيضاح يرجع إلى بيانٍ مُشكِلٍ ، وحصولُ الإشكال المحتاج إلى الإيضاح ربما دلَّ على بُعد فهم المخاطب عن المقصود ، بخلاف إظهار الخفيِّ فإنه لا يتَّهى إلى هذا الحدِّ .

ومن ذلك الفرق بين «علمه الكريم» وبين «علمه المبارك» فالكريم أعلى من المبارك ، لأن في الكريم عراقة أصل وشرف قد تُوجد في المبارك وقد تختلف عنه .

ومن ذلك الفرق بين «ومرسومنا لفلان بكذا» وبين «والمرسوم له بكذا» : فرسومنا أعلى بالنسبة إلى المكتوب عنه لاشتماله على نون الجمع المقتضية للتعظيم ، ولذلك آخضت بالملوك دون ذيرهم ؛ بخلاف والمرسوم له بكذا فإنه دارج عن ذلك .

ومن ذلك الفرق بين «والمسئول» وبين «والمستمد» : فإن المسئول أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه ، فإن المسئول يتضمَّن نوع ذلَّةٍ بخلاف الاستمداد فإنه لا يستلزم ذلك .

ومن ذلك الفرق بين «بلغنا» وبين «أنهى إلى علمنا» وبين «أتصل بنا» : فاتصل بنا أعلى من أنهى إلى علمنا ، لما في معنى الاتصال من الاصق ، بخلاف الإنهاء ؛ وأنهى إلى علمنا أعلى من بلغنا : لأن البلوغ قد يكون على لسان آحاد الناس .

ومن ذلك الفرق بين «أنهى فلان كذا» وبين «عرفنا كذا» : فعرفنا أعلى بالنسبة إلى رافع الخبر، لأن في التعريف مزيةً قُرب من الرئيس، بخلاف الإنهاء فإنه لا يقتضى ذلك .

ومن ذلك الفرق بين «وردت مكاتبتُه» وبين «وردت علينا مكاتبتُه» : فوردت علينا أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبه الواردة : لتخصيصها بالورود على الرئيس بخلاف الورود المطلق .

ومن ذلك الفرق بين «عُرِضَتْ علينا مكاتبتك» وبين «وَقَفْنَا على مكاتبتك» فوقفنا أعلى بالنسبة إلى صاحب المكاتبه : لأن الوقوف عليها يكون بنفسه، والعرض يكون من غيره .

ومن ذلك الفرق بين «وشكرتُ الله تعالى على سلامته» وبين «وتوالى شُكْرِى لله تعالى» : فتوالى شُكْرِى أعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه : لما فيه من معنى التكرار ومزيد الشكر المعْدُوق بالأحْتفال .

ومن ذلك الفرق بين «ورَغِبْتُ إلى الله تعالى» وبين «وَضَرَعْتُ إلى الله تعالى» : فَضَرَعْتُ أعلى من رَغِبْتُ : لما في الضراعة من مزيد التأكيد في الطَلْب ، بخلاف الرَغْبَة فإنها لا تبلغُ هذا المبلغ .

ومن ذلك الفرق بين «وقابلتُ أمرَه بالطاعة» وبين «وَأَمْتَلْتُ أمرَه بالطاعة» : فَأَمْتَلْتُ أمرَه أعلى من قابلتُ أمرَه، لما في الأمتثال من معنى الإذعان والأتقياد، بخلاف المُقابَلَة .

ومن ذلك الفرق بين « وشفعت له » وبين « وسألت فيه » : فالسؤال أعلى في حق المسئول من الشفاعة : لما في الشفاعة من رفعة المقام المؤدى إلى قبول الشفاعة .^(١)
ومن ذلك الفرق بين « وخاطبت فلانا في أمره » وبين « وتحدثت في أمره » : فتحدثت أشد في تواضع المتكلم من خاطبت ، لأن الخطاب من الألفاظ الخاصة التي لا يتعاطاها كل أحد بخلاف التحدث .

ومن ذلك الفرق بين « تشريفي بكذا » وبين « إسعافى بكذا » [وبين « إتحافى بكذا »]^(٢) فالإسعاف أعلى رتبة من التشريف لما فيه من دعوى الحاجة والفاقة إلى المطلوب ، بخلاف التشريف ، وإتحافى دون تشريفى لأن الإتحاف قد لا يقتضى تشريفا .

ومن ذلك الفرق بين قوله : « نزل عنده » وبين قوله : « نزل بساحته » : فالساحة أعلى لما فيها من معنى الفسحة والأتساع .

ومن ذلك الفرق بين « فيحيط علمه بذلك وبين فيعلم ذلك » : فيحيط علمه أعلى من يعلم ذلك : لأن في قوله فيحيط علمه بذلك نسبته إلى سعة العلم : لما فيه من معنى الإحاطة بخلاف فيعلم ذلك .

(١) عبارة الضوء "لما في السؤال من معنى الذلة وما في الشفاعة من معنى الشرف" وهي أوضح .

(٢) الزيادة من الضوء وهي ساقطة من قلم الناسخ بدليل بقية الكلام .

الأصل الخامس

(أن يعرفَ مواقعَ الدعاءِ في المكاتباتِ ، فيدعو بكلِّ دعاءٍ في موضعه)

ويتعلق النظر فيه بسنة أوجه

الأول — أن يعرف مراتب الدعاء ليوقيها في مواقعها ، ويوردها في مواردِها ، ويتأني ذلك في عدة أدعية .

(منها) الدعاء بإطالة البقاء ، والدعاء بإطالة العمر : فالدعاء بإطالة البقاء أرفع من الدعاء بإطالة العمر . وذلك أن البقاء لا يدلُّ على مُدة تنقضي لأنه ضدَّ الفناء ، والعمر يدلُّ على مُدة تنقضي ؛ ولذلك يُوصفُ الله تعالى بالبقاء ولا يوصفُ بالعمر . قال في "موادِّ البيان" : ومن هنا جعل الدعاءُ بإطالة البقاء أولَ مراتب الدعاءِ وخصَّ بالخلفاء ، وجعل ما يليه لمن دُونهم . ويتلوه الدعاءُ بالمدِّ في العمر ، فيكون دُونَ الدعاءِ بالإطالة ، لأن الوصفَ بطول الزمان أبلغ من الوصفَ بالمدِّ فيه من حيث إن المدَّ قابلٌ للمدَّة الطويلة والمدَّة القصيرة ؛ ولذلك صارت مرتبةُ الطُّول أقربَ إلى مرتبة البقاء من مرتبة المدِّ .

(ومنها) الدعاء بدوامِ النعمة ، والدعاء بمضاعفتها : نالدعاء بالمضاعفة أعلى : لأن الدوامَ غايته استصحابُ ما هو عليه ، والمضاعفةُ مقتضيةٌ للزيادة على ذلك .

(ومنها) الدعاء بعزِّ الأنصار ، وبعزِّ النَّصر ، وبعزِّ النَّصرة . وقد أصطلح مُكَّاب الزمان على أن جعلوا أعلاها الدعاء بعزِّ الأنصار ، لأن عزِّ أنصاره عزُّ له بالضرورة مع ما فيه من تعظيم القدر ورفع الشان ؛ إذ الأنصار لا تكون إلا للملكِ العظيم أو أمير كبير . والدعاء بعزِّ النصر أعلى من الدعاء بعزِّ النَّصرة : لما في الأول من

معنى التذكير وهو أرفع رتبةً من التأنيث . على أنه لو جعل الدعاء بعز النصر على من الدعاء بعز الأنصار ، لكان له وجه : لما في عز النصر من الغناء عن عز الأنصار .

(ومنها) الدعاء بعز الأحكام ، والدعاء بتأييد الأحكام : فالدعاء بعز الأحكام على : لأن المراد بالتأييد التقوية ، فقد توجّد القوة ولا عزّ معها .

وينبغي للكاتب أن يختار في تنزيل كلّ أحدٍ من المكتوب إليهم منزلته في الدعاء ، فلا ينقص أحداً عن حقّه ، ولا يزيدّه فوق حقّه ، فقد قال في "موادّ البيان" :
إن الملوك تسمع ببدرات المال ولا تسمح بالدعوة الواحدة .

الثاني - أن يعرف ما يناسب كلّ واحد من أرباب المناصب الجليلة من الدعاء فيخصّه به .

فيأتي بالدعاء في المكتبة للولك بإطالة البقاء ، ودوام السلطان ، وخلود الملك ، وما أشبه ذلك .

ويأتي في المكتبة إلى الأمراء بالدعاء بعز الأنصار ، وعز النصر ، ومضاعفة النعمة ، ومدّ أومتها وما شاكل ذلك . على أن ابن شيث قد ذكر في "معالم الكتابة" :
أن الدعاء بعز النصر ومضاعفة الأقدار كان في الدولة الأيوبية مما يختص بالسلطان دون غيره .

ويأتي في المكتبات للوزراء من أرباب الأقاليم ومن في معناهم بالدعاء بسبوغ النعماء ، وتخليد السعادة ، ودوام المنجد ، وما يضاهاه ذلك .

ويأتي في المكتبات للقضاة والحكام بالدعاء بعز الأحكام ، وتأيد الأحكام وما يطابق ذلك .

ويأتي في المكتبة إلى التُّجَّار بالدعاء بمزيد الإقبال ، وخُلُود السعادة وشبه ذلك .
ويأتي في المكتبة في الإخوانيَّات ومكاتب النُّظراء من الدعاء بما يقتضيه الحال
بينهم من الودِّ والإدلال ، بحسب ما يراه الكاتب ويؤدِّي إليه آجتهاده . قال
في "موادِّ البيان" : وقد كانوا يختارون في الدعاء للأدباء أبقاك الله ، وأكرمك الله .
وفي الدعاء للابن والحُرمة أبقاك الله وأمتع بك .



أما أهل الكُفْر فقد آصطلحوا على الدعاء لهم بطول البقاء وما في معناه . أما جواز
اصل الدعاء لهم فلما رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آسْتَسْقَى فِسْقَاهُ يَهُودِيًّا ،
فقال له : بَحَمَلِكِ اللهُ ، فما رَوَى الشَّيْبُ فِي وَجْهِهِ حَتَّى مَاتَ ، فدلَّ على جواز الدعاء
للكافر بما لا ضَرَرَ فيه على المسلمين ما لم تنضم إليه قُوَّة ونحو ذلك ، بل ربما كان
في طول بقائه حَمْلُ حَزِيَّةٍ أَوْ غَنِيْمَةٍ أَوْ ثَوَابٍ جِهَادٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ . وقد حكى أبو جعفر
النَّحَّاسُ فِي "صِنَاعَةِ الْكُتَّابِ" : أَنَّ الشَّافِعِيَّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ لِنَصْرَانِيٍّ : أَعَزَّكَ
الله ! فَعُوِّبَ فِي ذَلِكَ ، فقال (١)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ يَجِبُ مَعَ ذَلِكَ أَنْ يَعْرِفَ مَرْتَبَةَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ مِنَ الدَّعَاءِ ، فَيَدْعُو بِعِزِّ
الْأَنْصَارِ لِوَاحِدٍ ، وَيَدْعُو بِعِزِّ النَّصْرِ لِمَنْ دُونَهُ : لِأَنَّ عِزَّ الْأَنْصَارِ مُسْتَلْزِمٌ لِعِزِّ النَّصْرِ .
على أنه لو قيل : إن عز النصر أعلى لكونه دعاءً لنفس الشيء بخلاف الدعاء بعز
الأنصار فإنه دعاءٌ لشيء خارجيٍّ لكان له وجه . ويدعو بعز الأنصرة لمن دون من
يُدْعَى له بعز النصر ، لأن النصر مذكَّرٌ ورتبة التذكير أعلى من رتبة التأنيث .

(١) بياض في الاصول بقدر كلمتين ولم يورده في الضوء ولعل الشافعي آستدل بالحديث السابق .

ويدعو بدوام النعمة لواحد ويدعو بمضاعفة النعمة لمن دونه^(١) ، لأن الصيغة تقتضى مزيداً على القدر الحاصل ، بخلاف الدوام فإنه يقتضى استصحاب القدر الحاصل فقط ، وعلى هذا النهج . قال في "معالم الكتابة" : ولا يُكْتَب عن السلطان إلى أحدٍ ممن في ممالكة بلا زال ، ولا برح ، بل يختص ذلك بملكٍ مثله . قال : ولا حرج في الكتابة بذلك عن السلطان إلى ولده إذا كان نائباً عنه في الملك . قال : وكذلك لا يدعو الأعلى للأدنى بلا زال ، ولا برح .

قلت : والذى استقرّ عليه الحال الكتابة عن السلطان بذلك لأكابر الثواب ، ويكتب به أكابر الدولة بعضهم إلى بعض .

الثالث - أن يعرف مايناسب كلّ حالة من حالات المكاتبات ، فيأتى لكل حالة بما يناسبها من الدعاء . قال في "موادّ البيان" : ينبغي أن تكون الأدعية دالةً على مقاصد الكتاب : فإن كان في الهناء كان بما راجت معرفته ، وإن كان في العزاء كانت مشتقةً من وصفه ، وكذلك سائر فنون المكاتبات ، فإنه متى أخرج الدعاء عن المناسبة وبأين المقصود ، خرج عن جادة الصناعة وتوجه اللوم على الكاتب ، لاسيّما إذا أتى بما يضادّ المراد . كما حكى أبو هلال العسكري في "الصناعتين" أن بعضهم كتب إلى محبوبته : عصمنا الله وإياك مما يكره . فكتبت إليه : يا غليظ الطبع ! إن استجيب لك لم نلتق أبداً .

ويختلف الحال في ذلك باختلاف حال المكاتبات : فتارة تكون باعتبار الشيء المكتوب بسببه . كما يكتب في معنى الإشارة بجلوس الملك على تحت الملك : لا زال أمره ! وأمتعته من البشائر بما يتوصّح على جبين الصباح بشره ، وما يترجّح على ميزان الكواكب قدره ، وما يتفسيح من أوقات أمنٍ لا يختلف فيها زيده وعمره .

(١) صوابه "لمن فوقه" كما هو مقتضى التعليل بعد وكما يؤخذ من عبارة الضوء، ص ٤٢٣ .

وَمَا يُكْتَبُ فِي الْبَشَرِ بِفَتْحٍ : وَلَا زَالَتْ آيَاتُ النَّصْرِ تُسَلِّيْ عَلَيْهِ مِنْ صُحُفِ
الْبَشَائِرِ ، وَنَفَاسُ الظَّفَرِ يُجَلِّيْ عَلَى سِرِّهِ فِي أَسْعَدِ طَائِرٍ ، وَنَوَاتِحُ الْفَتْحِ تُزْهِئُ بِهِ الْأَسْرَةَ
وَتَزْهُو بِبُورِهِ الْمَنَارِ .

وَمَا يُكْتَبُ فِي التَّمَنُّةِ بِعَافِيَةٍ ، وَلَا بَرِّحٍ فِي بُرْدِ الصَّحَّةِ رَافِلًا ... بِعَزْمِهِ وَخَزْنِهِ
كَأَفْلَا ، وَالْإِنْبَالُ لِحَنَابِهِ الْعَالِي بِالْمَنَاءِ بِعَافِيَتِهِ وَأَصِلَا .

وتارة تكون باعتبار حال المكتوب إليه التي هو بصدددها .

كَمَا يُكْتَبُ لِمَنْ خَرَجَ إِلَى الْغَزْوِ : وَحَقَّهُ بِلُطْفِهِ فَلَا يَجِبُ ، وَهَيَّالُهُ النَّصْرَ وَالنَّجْحَ
الْقَرِيبَ ، وَجَعَلَ عَلَى يَدَيْهِ دَمَارَ الْكُفَّارِ حَتَّى لَا يَبْقَى لَهُمْ بِسِدَّةٌ بِأَسِهِ مِنَ السَّلَامَةِ
نَصِيبِ .

وَمَا يُكْتَبُ إِلَى مَنْ خَرَجَ إِلَى الصَّيْدِ : وَأَمْتَعَهُ بِصُيُودِهِ ، وَجَعَلَ الْأَقْدَارَ مِنْ
جُنُودِهِ ، وَأَرَاهُ مِنْ مَصَارِعِ أَعْدَائِهِ بِسُيُوفِهِ وَرِمَاحِهِ . أَيْرَاهُ مِنْ مَصَارِعِ صَيْدِهِ بِبُرَايَتِهِ
وَفَهْودِهِ .

وَمَا يُكْتَبُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَفَرٍ : وَقَضَى بِقُرْبِ رَجْعَتِهِ ، وَجَعَلَهُ كَالْهَلَالِ فِي مَسِيرِهِ
سَبَبَ رِفْعَتِهِ ، وَسَكَّنَ بِقُدُومِهِ أَشْوَاقَ أَوْلِيَائِهِ وَأَهْلِي مَحَبَّتِهِ .

وَمَا يُكْتَبُ لِمَنْ خَرَجَ لِتَخْضِيرِ الْبِلَادِ : وَأَلْبَسَ الْبِلَادَ بِقُدُومِهِ أَخْضَرَ الْأَنْوَابِ ،
وَأَحْلَاهُ أَشْرَفَ مَحَلٍّ وَأَخْصَبَ جَنَابِ .

وتارة تكون باعتبار وظيفة المكتوب إليه التي هو قائم بها

كَمَا يُكْتَبُ إِلَى كَافِلِ الْمَلِكَةِ : وَلَا زَالَتْ كِفَايَةُ كَفَالَتِهِ تَزِيدُ عَلَى الْأَمَالِ ، وَتَتَقَرَّبُ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَتَكْفُلُ مَا بَيْنَ أَقْصَى الْجَنُوبِ وَأَقْصَى الشَّمَالِ .

(١) . بياض في الاصول بقدر كلمة ولعله ولا زال الزمان .

وكما يكتب إلى قاض : وفصل بين الخصوم بأحكامه المسدده، وأفضيته التي بها قواعد الإسلام ممهده، وأبنية الشرع المطهر وأركانه مشيده .

وكما يكتب إلى متصوف : وأعاد من بركات تهجداته ، وأثار اللبالي بصلاح دعواته .

وتارة تكون باعتبار بلد المكتوب إليه وناحيته .

كما يكتب إلى نائب الشام : ولا زال النصر حلية أيامه وشامة شامه ، وعمامة مايجلق على بلده المنصب من غمامة .

وكما يكتب إلى نائب حلب في زمن الحروب : ولا زال يعدّ ليوم تسيب فيه الولدان، ويصدّ دونه كل محارب بين الشهباء والميدان ، ويعمّ حلب من حلى أيامه مالا يفقد معه إلا أسم ابن حمدان ، ونحو ذلك مما يخطر في هذا السلك .

وتارة تكون باعتبار أسم المكتوب إليه أو لقبه .

كما يكتب إلى من لقبه سيف الدين : ولا زال سيفه في رقاب أعدائه مغمدا ، وحده يذر كل ملحد ملحدا .

وكما يكتب إلى من لقبه عز الدين : ولا زال عزه دائما ، والزمان في خدمته قائما ، وطرف الدهر عن مراقبة سعادته نائما .

وكما يكتب إلى من لقبه شمس الدين : ولا زالت شمس سعادته مشرقه ، وأغصان فضله بالعوارف مورقه ، وعيون طوارق الغير عنه في كل زمن مطرقه .

وكما يكتب إلى من لقبه ناصر الدين : ونصر عزائمهم ، وشكر مكارمهم ، ووفر من الحسنات مقامهم . إلى غير ذلك من الأمور التي ستقف على الكثير منها في الكلام على مقاصد المكاتبات إن شاء الله تعالى .

الرابع - أن يعرف مواضع الدعاء على المكتوب إليه ، ومن الذي يُصرَّح بذلك في المكاتبة إليه . قد ذكر ابن شيث في " معالم الكتابة " أن الدعاء على الأعداء في صدور الكتب كان من عوائد مكاتبة الأذنى إلى الأعلى . مثل : وقصم ، وأذل ، وقهر ، وخضد . وكذلك المائل والمقارب ، فأما من الأعلى إلى الأذنى فلم يكن ذلك معروفا عند المتقدمين ، لاسيما إذا كان الكتاب عن السلطان . ثم قال : ولكن قد أفلتَ الجبلُ في ذلك الآن [إلى أن] قال : ولا يقال للأذنى غير كبت عدوه ، أو ضده ، أو حسوده خاصة .

(١) ومنها - أن يعرف ما كرهه الكتاب من الدعاء فيتجنبه . وهو على ضربين :

الضرب الأول

(ما كرهوه في المكاتبة إلى كل احد)

قال في "مواد البيان" : كانت عادتهم جارية ان يتجنبوا من الأدعية ما لا محصول له ، كقولهم : جعلني الله فداك ، وقدمني إلى السوء دونك : لما في ذلك من التصنع والملق الذي لا يرضاه السلطان ، لأن نفس الداعي لا تسمح باستجابته . ويؤيد ما ذكره ما كتب به ابن عبد كان إلى بعض أصدقائه : جعلتُ فداك على الصحة والحقيقة ، لا على مجرى المكاتبة ومدَّه العادة . قال في "مواد البيان" : وإنما يحسن ذلك من الخواص الذين يتحققون أن بقاءهم معدوق ببقاء رؤسائهم ، وثبات نعمهم مقرون بثبات أيام سلاطينهم ، لأنه يصدر عن عقائد مستحكمة من بدل الأنفس دونهم . وما ذهب إليه من كراهة ذلك قد نقل في "صناعة الكتاب" مثله عن مالك بن أنس ، واحتج له بما روى عن الزبير رضى الله عنه أنه قال

(١) عدّها في الضوء مرتبة خامسة وهو أنسب .

للنبي صلى الله عليه وسلم: «جُعِلَتْ فِدَاكَ - فقال له أما تَرَكَتَ أَعْرَابِيَّتَكَ بَعْدَ !»
 على أن بعضهم قد أجاز ذلك احتجاجاً بقوله صلى الله عليه وسلم لسعد بن مالك يوم
 أُحُد: «إِرْمِ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» وبما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن
 النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ قال نعم
 جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ!» ولم يُنْكَرْ عليه، ونحو ذلك؛ وفي معنى ذلك كل ما يجرى هذا
 المجرى ونحوه.

الضرب الثاني

(ما تختص كراهته بالبعض دون البعض، وهو نوعان)

النوع الأول - ما يختص بالرجال، فمن ذلك ما ذكره في "مواد البيان": أنهم
 كانوا لا يستحسنون الدعاء بالإمتاع نحو أمتع الله بك وأمتعني الله بك، في حق
 الإخوان. وما يُحكى في ذلك أن محمد بن عبد الملك الزيات، كتب إلى عبد الله
 ابن طاهر في كتاب: وأمتع بك؛ فكتب إليه عبد الله بن طاهر:

أُحِلَّتْ عَمَّا عَهَدْتُ مِنْ أَدَبِكَ؟ * أَمْ نَلْتِ مُلْكَاتِهِتَ فِي كِتَابِكَ؟
 اتَّعَبْتَ كَفَيْكَ فِي مَكَاتِبِي * حَسْبُكَ مِمَّا زِيدُ فِي تَعْبِكَ!
 إِنَّ جَفَاءَ كِتَابِ ذِي مَقَّةٍ * يَكُونُ فِي صَدْرِهِ، "وأمتع بك".

فأجابه محمد بن عبد الملك الزيات معتذراً بقوله:

كَيْفَ أَخُونُ الْإِخَاءَ يَا أَمَلِي؟ * وَكُلُّ شَيْءٍ أَنَالُ مِنْ سَبَبِكَ!
 إِنْ يَكُ جَهْلُ أَتَاكَ مِنْ قِبَلِي، * فَعُدْ بِفَضْلِ عَلِيٍّ مِنْ أَدَبِكَ.

على أن في كراهة الدعاء للإخوان بذلك نظراً فسيأتي في الكلام على ترتيب المكاتبات على سبيل الإجمال أن أم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلم [قالت]: اللهم أمتني بزوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية - في حديث طويل يأتي ذكره هناك إن شاء الله تعالى .

أما الدعاء بالإمتناع للاتباع، فقد أجازته جماعة من محققى الكُتاب، محتجين على ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم دعا لأبي اليسر: كعب بن عبيد الله بقوله «اللَّهُمَّ أمتعنا به» . قال ابن عفير: فكان آخر أهل بدر وفاة، مات سنة خمس وخمسين من الهجرة .

النوع الثانى - ما يختص بالنساء . فقد ذكر «أبو جعفر النحاس» أنه لا يقال في مكاتبتهم «وأدام كرامتك» ولا «وأتم نعمته عليك» ولكن لديك، ولا «فضله عندك» ولا «وأدام سعادتك» . أما منع الدعاء لهم بالكرامة، فلما حكى محمد بن عمر المدائنى أن بعض عمال زبيدة كتب إليها كتاباً بسبب ضياع لها فوقعت له على ظهر كتابه: أردت أن تدعولنا فدعوت علينا، فأصلح خطاك في كتابك وإلا صرفناك عن جميع أعمالك! . فأدركه القلق، وجعل يتصفح الكتاب ويعرضه على الكُتاب فلا يجد فيه شيئاً، إلى أن عرض له على بعض أهل المعرفة فقال: إنما كرهت دعاءك في صدر كتابك بقولك: وأدام كرامتك: لأن كرامة النساء دفنن - قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم «دفن البنات من المكرمات» فغير ذلك الحرف من كتابه وأعادها إليها فوقعت له على ظهره - أحسنت ولا تعد - . وأما كراهة وأتم نعمته عليك وإبدال ذلك بلفظ وأتم نعمته لديك، فكانه لما يلح فيه من ذكر العلو على النساء . وأما منع وأتم فضله عندك، أو وأتم سعادتك فيحتاج إلى تأمل .

(١) الذى فى « خلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال » للزجرى (كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو) ونحوه فى تاج العروس مادة سى من ر .

الخامس - أن يتجنّب الخلاف في الدعاء في فُصول الكتاب، ولا يُوالى بين دَعْوَتَيْنِ منه [متفتحين]. فأما الخلاف في الدعاء، فقال أبو جعفر النحاس: هو مثل أن يقول أطلّ الله بقاء سيّدِي - بلفظ الغيبة، ثم يقول بعد ذلك: وبلّغك أمّلك - بلفظ الخطاب. وأما المُوالاتة بين دَعْوَتَيْنِ ولا يأتى بهما متفتحين، فقال في "موادّ البيان": هو مثل حرس الله الأمير أعزّه الله؛ ثم يقول في الفصل الذى بعده: أعزّه الله تعالى، وما اشبه ذلك.

السادس - أن يتجنّب وقوع اللبس في الدعاء. فإذا ذُكر الرئيس مع عدوّه مثلا، لم يدع للرئيس حينئذ، فإنه لو ذهب يقول وقد كان من عدوّ سيّدِي - أبقاه الله - كذا، لأحتمل عود الدعاء إلى الرئيس وإلى عدوّه فيقع اللبس. أما إذا ذُكر الرئيس وحده كما إذا قال: وقد كنتُ عرّفتُ سيّدِي - أبقاه الله - كذا، فإنه لا آلتباس.

الأصل السادس

(أن يعرف ما يناسب المكتوب إليه من الألقاب فيعطيه حقه منها)

ويتعلّق الغرض من ذلك بثلاثة أمور.

أحدها - أن يعرف ما يناسب من الألقاب الأصول - المتقدمة الذكر في المقالة الثالثة عند الكلام على الألقاب المصطلح عليها بحسب ذلك الزمان: كالمقام، والمقر، والحنّاب، والمجلس - في زماننا؛ فيعطى كلّ أحد من المكتوب إليهم ما يليق به من ذلك؛ فيجعل المقام لأكابر الملوك. والمقر لمن دونهم من الملوك، وللرتبة العليا

(١) عبارة الضو. ص ٢٦٤ هكذا "وأما موالاتة دَعْوَتَيْنِ متفتحين فقل أن يقول أعزّه الله تعالى ثم يقول

في الفصل الذى بعده أعزّه الله تعالى" وهي أوضح.

من أهل المملكة . والجناب للرتبة الثالثة من الملوك والرتبة الثانية من أهل الدولة .
والمجلس للرتبة الرابعة من الملوك والرتبة الثالثة من أهل الدولة . ومجلس الأمير لمن
دون ذلك من أهل الدولة على المصطلح المستقر عليه الحال .

الثاني — أن يعرف ما يناسب كل لقب من الألقاب الأصول من الألقاب
والنعوت التابعة لذلك؛ فيتبع كل واحد من الأصول بما يناسبه من الفروع .

الثالث — أن يعرف مقدار المكتوب إليه، فيؤيه قسطه من الألقاب في الكثرة
والقلة بحسب ما يجري عليه الاصطلاح . فقد ذكر في "معالم الكتابة" أن السلطان
لا يكتب في المكتبة إليه من نعوته، بل يقتصر على الأشياء التي تكون فيه : مثل العالم
العادل . أما غير ذلك فيقع باللقيين المشهورين : وهما نعته المفرد، وبعته المضاف
إلى الدين . وأنه في الكتابة عن السلطان كلما زيد في النعوت كان أميراً : لأنها على
سبيل التشريف من السلطان، ويجعل المضاف إلى الدين متوسطاً بين الألقاب
لا في أولها .

الأصل السابع

(أن يراعى مقاصد المكتبات ، فيأتي لكل مقصد بما يناسبه)

ومدار ذلك على أمرين :

الأمر الأول — أن يأتي مع كل كلمة بما يليق بها ، ويتخير لكل لفظة
ما يشاء كلها . قال ابن عبد ربه : وليكن ما تحتم به فصولك في موضع ذكر البلوى
بمثل : نسأل الله رفع المحذور، وصرف المكروه، وأشياء ذلك . وفي موضع ذكر
المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون . وفي موضع ذكر النعمة ، الحمد لله خالصاً ،

والشكر لله واجباً ، وما شاكل ذلك . قال في "مواد البيان" : وإذا ذكر البلوى شفعتها بالاستعانة بالله تعالى والرجوع إليه فيها ، ورد الأمر إلى حوله وقوته . قال ابن عبد ربه : فإن هذه المواضع مما يتعين على الكاتب أن يتفقدتها ويحفظ فيها ، فإن الكاتب إنما يصير كاتباً بأن يضع كل معنى في موضعه ، ويعلق كل لفظ على طبقه في المعنى .

ومما يلحق بذلك أيضاً أنه إذا ذكر الرئيس في أثناء المكتابة ، دعا له ، مثل أن يقول عند ذكر السلطان : خلد الله ملكه . وعند ذكر الأمير الكبير : عز نصره ، أو : أعز الله تعالى أنصاره . وعند ذكر الحاكم : أيد الله تعالى أحكامه ، وما أشبه ذلك مما يجري هذا المجرى .

الأمر الثاني - أن يتخطى التصريح إلى التلويح والإشارة إذا ألبته الحال إلى المكتابة بما لا يجوز كشفه وإظهاره على صراحته ، مما في ذكره على نصه هناك ستر ، أو في حكايته أطراح مهابة السلطان ، وإسماعه ما يلزم منه إخلال الأدب في حقه ؛ كما لو أطلق عدوه لسانه فيه بلفظ قبيح يسوءه سماعه . قال في "مواد البيان" : فيحتاج المنشئ إلى استعمال التورية في هذه المواضع ، والتلطيف في العبارة عن هذه المعاني ، وإبرازها في صورة تقتضي توفية حق السلطان في التوقير والإجلال والإعظام ، والتنزيه عن المخاطبة بما لا يجوز إمراره على سمعه ، وإيصال المعنى إليه من غير خيانه في طي ما لا غنى به عن علمه . قال : وهذا مما لا يستقل به إلا المبرز في الصناعة ، المتصرف في تأليف الكلام .

الأصل الثامن

(أن يَعْرِفَ مقدارَ فهم كل طبقة من المخاطبين في المكاتبات من اللسان فيخاطب كلَّ أحد بما يناسبه من اللفظ ، وما يصل إليه فهمه من الخطاب) .
قال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : "أول ما ينبغي أن تستعمل في كتابك مكتبة كل فريق على مقدار طبقتهم في الكلام وقوتهم في المنطق . قال : والشاهد على ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يكتب إلى أهل فارس ، كتب إليهم بما يمكنهم ترجمته فكتب إليهم : " من محمد رسول الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس ، سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة (لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين) فأسلم تسلم ، وإن آيتت فأثم الجوس عليك " فسهل رسول الله صلى الله عليه وسلم الألفاظ غاية التسهيل حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة بالعربية .

ولما أراد أن يكتب إلى قوم من العرب ، نغم اللفظ بما عرف من قوتهم على فهمه ، وعادتهم بسماع مثله ؛ فكتب لوائل بن مجر الحضرمي : " من محمد رسول الله إلى الأقبال العباهلة من أهل حضرموت بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة : على التبعية الشاة ، واليمنة لصاحبها ، وفي الشيوب الخمس ، لا خلأط ولا وراط ولا شناق ولا شعار ، ومن أجبني فقد أربني ، وكلُّ مسكرٍ حرام " .

وقد ذكر العسكري أيضاً في باب الإطناب ما يحسن أن يكون شاهداً لذلك من القرءان الكريم - فقال : قد رأينا أن الله تعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي كما في قوله تعالى خطاباً لأهل مكة

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلَقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ ﴾ وقوله : ﴿ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ وقوله : ﴿ أَوَلَيْسَ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ في أشباه كثيرة لذلك . وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكى عنهم ، جعل الكلام مبسوطا ، كما في سورة طه وأشباهها ، حتى إنه قلما تجد قصة لبنى إسرائيل في القرآن إلا مطولة مشروحة ومكررة في مواضع معادة ، لبعث فهمهم ، وتأخر معرفتهم .

قال في "مواد البيان" : فيجب على الكاتب أن يتنقل في استعمال الألفاظ على حسب ما تقتضيه رتب الخطاب والمخاطبين ، وتوجيه الأحوال المتغيرة ، والأوقات المختلفة : ليكون كلامه مشا كلا لكل منها ، فإن أحكام الكلام لتغير بحكم تغير الأزمنة والأمكنة ومنازل المخاطبين والمكاتبين .

قال : ولتحرى الصدر الأول من الكتاب إيقاع المناسبة بين كتبهم وبين الأشياء المتقدمة الذكر أستعمل كتاب الدولة الأموية من الألفاظ العربية الفحلة ، والمثينة الجزلة ، بما لم تستعمل مثله الدولة العباسية : لأن كتاب الدولة الأموية قصدوا ماشا كل زمانهم الذى استفاضت فيه علوم العرب ولغاتها ، حتى عدت في جملة الفضائل التى يثابروا على اقتنائها ، والأمكنة التى نزلها ملوكهم من بلاد العرب ، والرجال الذين كانت الكتب تصدر إليهم ؛ وهم أهل الفصاحة واللسن والخطابة والشعر .

أما زمان بنى العباس ، فإن الهمم تقاصرت عما كانت مقبلة على تطبه فيما تقدم من العلوم المقدم ذكرها ، وشغلت بغيرها من علوم الدين ؛ ونزل ملوكهم ديار العراق وما يجاورها من بلاد فارس ، وليس استفاضة لغة العرب فيها كاستيفاضتها في أرض الحجاز والشام . ومن المعلوم أن القوم الذين كانوا يكتبون عنهم لا يجارون تلك الطبقة

في الفصاحة والمعرفة بدلالات الكلام؛ فانتقل كُتَّابُهَا من اللفظ المتيسر الجزل، إلى اللفظ الرقيق السهل؛ وكذلك آتتقل متأخرو الكُتَّاب عن ألفاظ المتقدمين إلى ما هو أعذب منها وأخف، للعنى المتقدم ذكره .

قال : وحينئذ ينبغي للكاتب أن يراعى هذه الأحوال، ويوقع المشاكلة بين ما يكتبه وبينها، فإذا احتاج إلى إصدار كتابٍ إلى ناحية من النواحي، فليُنظَر في أحوال قاطئها: فإن كانوا من الأدباء البُلغاء العارفين بنظم الكلام وتأليفه، فليودع كتابه الألفاظ الجزلة، التي إذا حُلِّت بها المعاني زادتْها نغامة في القلوب، وجمالة في الصدور. وإن كانوا ممن لا يفرق بين خاص الكلام وعامه، فليضمن كتابه الألفاظ التي يتساوى سامعوها في إدارك معانيها، فإنه متى عدل عن ذلك ضاع كلامه، ولم يصل معنى ما كتب فيه إلى من كتبه: لأن الكلام البليغ إنما هو موضوع بإزاء أفهام البُلغاء والفصحاء. فأما العوام والحشوة: فإنما يصل إلى أفهامهم الكلام العاطل من حلي النظم، العارى من كسوة التأليف، فيجب على الكاتب أن يستعمل في مخاطبة من هذه صورته أدنى رتب البلاغة وأقربها من أفهام العامة والأمم الأعجمية إذا كتب إليهم .

ثم قال: فأما الكُتُب المعتدة عن السلطان، فإن منها كُتُب الفتوحات والسلامات ونحوها، وهي محتملة للألفاظ الفصيحة الجزلة، والإطالة القاضية بإشباع المعنى، ووصوله إلى أفهام كافة سامعيه من الخاص والعام. ومنها كُتُب الخراج وجبايته وأمور المعاملات والحساب، وهي لا تحمل اللفظ الفصيح، ولا الكلام الوجيز لأنها مبنية على تمثيل ما يعمل عليه، وإفهام من لا يصل المعنى إلى فهمه إلا بالبيان الشافي

في العبارة . ومنها مخاطبته السلطان عن نفسه ، فيجبُ فيها مخاطبته على قدر مكانه من الخدمة من الألفاظ المتوسطة ، ولا يجوز أن يستعمل فيها الفصيحة التي لا تختمل من تابع في حق متبوع : لما فيه من تعاطي التفاضح على سلطانه ، وهو غير جائز في أدب الملوك ، وكذلك لا يجوز فيه تعاطي الألفاظ المبتذلة الدائرة بين السوقة ، لما في ذلك من الوضع من السلطان بمقابته إياه بما لا يشبه رتبته .

وأما الكتب الإخوانيات النافذة في التهنأ والتعأى ، فإنها تختمل الألفاظ الغريبة القوية الأخذ بمجامع القلوب ، الواقعة أحسن المواقع من النفوس : لأنها مبنية على تحسين اللفظ ، وتزيين النظم ، وإظهار البلاغة فيها مستحسن واقع موقعه .

قلت : والذي تراعى الفصاحة والبلاغة فيه من المكاتبات عن الأبواب السلطانية في زماننا مكاتبات ملوك المغرب : كصاحب تونس ، وصاحب تلمسان ، وصاحب فاس ، وصاحب غرناطة من الأندلس ، وكذلك القانات العظام من ملوك المشرق ومن يجرى هذا المجرى ، ممن تشتمل بلاده على العلماء بالبلاغة وصناعة الكتابة . ويظهر ذلك بالاستخبار عن بلادهم ، وبالاطلاع على كتبهم الصادرة عن ملوكهم إلى الأبواب السلطانية . بخلاف من لا عناية له بذلك : حكأم أصاغر البلدان واصحاب اللغات العجمية : من الروم والفرنج والسودان ومن في معناهم ، فإنه يجب خطابهم بالألفاظ الواضحة ، إلا أن يكون في بعض بلادهم من يتعاطى البلاغة من الكتاب ووردت كتبهم على نهجها فإنه ينبغي مكاتبتهم على سنن البلغاء .

الاصـل التاسع

(أن يُرَاعَى رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه في الخطاب ،

فيعبر عن كل واحد منهما في كل مكتبة بما يليق به ،

ويُخاطَب المكتوب إليه بما يقتضيه مقامه)

فأما المكتوب عنه ، فيختلف الحال فيه باختلاف منصبه ورتبته .

فإن كان المكتوب عنه خليفة ، فقد جرت عادة من تقدم من الكُتَّاب بالتعبير عنه في الكُتُب الصادرة عن أبواب الخلافة بأمر المؤمنين ، مثل أن يقال : فَجَرَى أَمْرُ أمير المؤمنين في كذا على كذا وكذا ، وأَوْعَزَ أمير المؤمنين إلى فلان بكذا ، وأَقْتَضَى رَأْيَ أمير المؤمنين كذا ، ونَحَرَ أَمْرَ أمير المؤمنين بكذا ، وتَقَدَّمَ أَمْرُ أمير المؤمنين إلى فلان بكذا ، وما شاكل ذلك . وربما عُبر عنه بالسلطان ، مثل أن يقال في حَقِّ المخالفين : وحَارَبُوا عَسَاكِرَ السلطان ، أو وَمَنَعُوا حَرَاجَ السلطان وما أشبه ذلك ، يريدون الخليفة ، على ما ستقف عليه في الكُتُب التي نُوردها في المكاتب عن الخلفاء فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقال ابن شيث في "معالم الكتابة" : وَيُخاطَبُ بِالْمَوَاقِفِ الْمُقَدَّسَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَالْعَتَبَاتِ الْعَالِيَةِ ، وَمَقَرِّ الرَّحْمَةِ ، وَمَحَلِّ الشَّرَفِ . وذكر المَقَرَّ الشَّهَابِيّ بن فضل الله في "التعريف" نحوه . فقال : وَيُخاطَبُ بِالِدِيْوَانِ الْعَزِيزِ ، وَالْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، وَالْجَانِبِ الْأَعْلَى أَوْ الشَّرِيفِ ، وَبِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ ، مَجْدُودَةً عَنْ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَمَرَّةً غَيْرَ مَجْدُودَةٍ ، مَعَ مِرَاعَاةِ الْمُنَاسِبَةِ ، وَالتَّسْهِيدِ وَالْمُقَارَبَةِ . قال : وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخُضْعَانُ عن مخاطبة الخليفة نفسه ، وتزليل الخطاب منزلة من يخاطب

نفس الديوان ، والمعنى به ديوان الإنشاء ، إذ الكُتُب وأنواع المخاطبات إليه واردةٌ^ك وعنه صادرةٌ .

وقد سبق في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة نقلاً عن ابن حاجب النعمان في " ذخيرة الكتاب " إنكار هذه الاستعارات والمخترعات ، وسيأتي في المكتبة إلى الخلفاء ذكر ترتيبها إن شاء الله تعالى .

وإن كان المكتوب عنه ملكاً ، فقد جرت العادة أن يعبر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال : فعلنا كذا ، وأمرنا بكذا ، وأقتضت آراؤنا الشريفة كذا ، وبرزت مراسيمنا بكذا ، ومرسومنا إلى فلان أن يتقدم بكذا ، أو يتقدم أمره بكذا ، وما أشبه ذلك . وذلك أن ملوك العرب كانوا يجرون على ذلك في مخاطباتهم ، فجرت الملوك على سننهم في ذلك . وفي معنى الملوك في ذلك سائر الرؤساء : من الأمراء ، والوزراء ، والعلماء ، والكتّاب ، ونحوهم من ذوى الأقدار العلية ، والأخطار الجليسة ، والمراتب السنية في الدين والدنيا ، ممن يصلح أن يكون أمراً وناهياً ، إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأمورهم ، إذ كانت هذه النون مما يختص بذوى التعظيم دون غيرهم . وشاهد ذلك من القران الكريم قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾ فدعاه دعاء المفرد لعدم المشاركة له في ذلك الاسم ، وسأله سؤال الجمع لمكان العظمة ، إلى غير ذلك من الآيات الواردة مورد الاختصاص له كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ وقوله : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ وقوله : ﴿ نَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴾ وغير ذلك من الآيات . قال في " معالم الكتابة " : وقد أخذ كتّاب المغرب بهذا مع ولاة أمورهم في الجمع بالميم فخطبوا الواحد مخاطبة الجمع مثل : أتم ، وفعلتم ، وأمرتم ، وما أشبه ذلك .

(١) في الاصول والخواص وهو تعبير عرفي .

قلت : والأمرُ في ذلك عندهم مستمِرٌّ إلى الآن . قال ابن شِيث : وهو غيرُ ما صوّر به عند غيرهم .

وإن كان المكتوب عنه مرعوساً بالنسبة إلى المكتوب إليه كالتابع ومن في معناه ، فقال في "موادّ البيان" : ينبغي أن يحفظ في الكُتب النافذة عنه من الإتيان بنون العظمة وغيرها من الألفاظ التي فيها تعظيمُ شأنِ المكتوب عنه مثل أن يقول : أمرتُ بكذا ، أو نهيتُ عن كذا ، أو أوعزتُ بكذا ، أو تقدّم أمرى إلى فلان بكذا ، أو أنهى إلى كذا ، أو خرج أمرى بكذا ، وما في معنى ذلك مما لا يخاطبُ به الأتباع رؤساءهم ، بل يعدل عن مثل هذه الألفاظ إلى ما يؤدى إلى معناها مما لا عظمة فيه ، مثل أن يقول : وجدتُ صوابَ الرأى كذا ففعلته ، ورأيت السياسة تقتضى كذا فأمضيتها ، وما أشبه ذلك ، إن كان عرّف الكُتاب على الخطاب بالناء ، وإلا قال : وجد المملوكُ صوابَ الرأى كذا ففعله ، ورأى السياسة تقتضى كذا فأمضاه ، وما يجري هذا الجرى .



وأما المكتوب إليه ، فقال أبو هلال العسكري في كتابه "الصناعتين" : ينبغي أن يعرف قدر المكتوب إليه من الرؤساء ، والنظرء ، والعلماء ، والوكلاء : ليفرق بين من يكتب إليه «أنا أفعل كذا» ومن يكتب إليه «نحن نفعل كذا» (فأنا) من كلام الأشباه والإخوان ، (ونحن) من كلام المملوك ؛ ويفرق بين من يكتب إليه «فإن رأيت أن تفعل كذا» وبين من يكتب إليه : (فرايك) . قال في "موادّ البيان" : وذلك أن قولهم فإن رأيت أن تفعل كذا لفظُ النظرء والمساوين ، بخلاف فرايك ، فإنه لا يكتبه إلا جليلاً ، معظّم : لتضمنها معنى الأمر والتقدير فرايك ، بخلاف فإن رأيت ، فإنه لا أمر فيه ، إذ يقال : فإن رأيت أن تفعل كذا فافعله . على أن الأخفش

قد أنكروا هذا على الكُتَّاب ، لأن أقل الناس يقول للسلطان : أنظر في أمري ، ولفظه لفظ الأمر ومعناه السؤال . وذكر مثله في "صناعة الكُتَّاب" عن النحويين . قال في "مواد البيان" : وُحِّجَ الكُتَّابُ أن المشافهة تحتمل ما لا تحتمله المكتبة ، لأن المشافهة حاضرٌ يحضُر الإنسان لا يمكنه تقييده وترتيبه ، والمكتبة بخلاف ذلك ، فلا عُدْرَ لصاحبها في الإخلال بالأدب . قال ابن شيث : وقد أصطلحوا على أن يُكْتَبَ في أواخر الكتب : «وللآراءِ العاليةِ فضلُ السُّمُوِّ والقُدرةِ إن شاء الله تعالى» . ودُونَ ذلك : «وللرأى السامى حكمة» ودونه : «والرأى أعلى» . ودونه : «والرأى مُوفِّقٌ» وموفقًا بالرفع والنصب . ودونه : «ورأيه» للجلس : «ورأيتها» للخصرة . قال : وربما قالوا : «فإن رأى مولانا أن يكون كذا وكذا أمر به أو فعل» إلا أنها لا تقوم مقام قوله : والرأى أعلى . فأما لمن دونه فمحتمل . وذكر أنه كان مصطلحهم أن يقال في آخر كُتُبِ السلطان : «فاعلم ذلك وأعمل به إن شاء الله تعالى» . وأن أعيان أصحاب الأقلام كانوا يكتبونه إلى من دونهم .

قلت : والذي استقرَّ عليه الحال أن يُكْتَبَ في مثل ذلك : «وللآراءِ العاليةِ مزيدُ العلوِّ» وأن تختم الكتابةُ للأكابر بمثل : «فَنُحِيطَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ» ولين دونهم : «فَنُحِيطَ بِذَلِكَ عَلَيْهِ» وللاصاغر : «فَلْيَعْلَمْ ذَلِكَ وَيَعْتَمِدْهُ» ونحو ذلك . قال مجدُّ ابن إبراهيم الشيباني : إن أحتجت إلى مخاطبة الملوكة والوزراء والعلماء والكُتَّاب والأدباء والخُطباءِ وأوساطِ الناسِ وسوقِهم ، فخاطبْ كلاً منهم على قدر أهليته وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته وأتباعه . ولكل طبقة من هذه الطبقات معانٍ ومذاهبٌ يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك إياهم في كُتُبِكَ ، وتزِنَ كلامَكَ في مخاطبتهم بميزانه ، وتُعْطِيَهُ قِسْمَتَهُ ، وتُوقِّيه نصيبه ؛ فإنه متى أهملت ذلك وأضعته ، لم آمن عليك أن تعدل بهم عن طريقهم ، وتسلِّك بهم غير مسلكهم ،

وَتَجْرِي شُعَاعَ بِلَاغَتِكَ فِي غَيْرِ تَجْرَاهُ ، وَتَنْظِمُ جَوْهَرَ كَلَامِكَ فِي غَيْرِ سِلْكِهِ ، فَلَا تَعْتَدُ بِالْمَعْنَى الْجَزَلَ مَا لَمْ تَكُنْهُ لَفْظًا مَخْتَلِفًا عَلَى قَدْرِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ؛ فَإِنْ إِبَاسَكَ الْمَعْنَى - وَإِنْ صَحَّ إِذَا أُشْرِبَ^(١) - لَفْظًا لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةُ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ تَهْجِينُ الْمَعْنَى ، وَإِخْلَالَ بَقَدْرِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، وَظَلْمٌ يَلْحَقُهُ ، وَتَقْصُّ مِمَّا يَجِبُ لَهُ ؛ كَمَا أَنْ فِي آتِبَاعٍ مُتَعَارَفِهِمْ ، وَمَا أَنْتَشَرْتَ بِهِ عَادَتُهُمْ ، وَجَرَتْ بِهِ سُنَّتُهُمْ ، قَطْعًا لِعُذْرِهِمْ ، وَخُرُوجًا عَنْ حَقِّهِمْ ، وَبُلُوعًا إِلَى غَايَةِ مُرَادِهِمْ ، وَإِسْقَاطًا لِحُجَّةِ أَدْبِهِمْ . قَالَ ابْنُ عَبْدِ رَبِّهِ : فَا مَثِيلُ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ وَأَجْرٌ عَلَيْهَا الْقَوْمُ .

قال في "مواد البيان" : وذلك أن المعاني التي يُكْتَبُ فيها وإن كان كلُّ منها جنسا بعينه : كالتهنئة والتعزية والاعتذار والعتاب والاستظهار ونحو ذلك ، فإنه لا يجوز أن يخرج المعنى لكلِّ مخاطبٍ على صيغةٍ واحدةٍ من اللفظ ، بل ينبغي أن يخرج في الصيغة المشاكلة للمخاطب ، اللاتقة بقدره ورُتَبته . ألا ترى أنك لو خاطبت سلطاناً أو وزيراً بالتعزية عن مُصِيبَةٍ مِنْ مَصَائِبِ الدُّنْيَا ، لَمَا جَازَ أَنْ تَبْنِيَ الْكَلَامَ عَلَى وَعْظِهِ وَتَبْصِيرِهِ وَإِرْشَادِهِ وَتَذَكِيرِهِ وَحَضُّهُ عَلَى الْأَخْذِ بِحُظٍّ مِنَ الصَّبْرِ ، وَمَجَانِبَةِ الْجَزَعِ ، وَتَلْقَى الْحَادِثَاتِ بِالتَّسْلِيمِ وَالرِّضَا ؛ وَإِنَّمَا الصَّوَابُ أَنْ تَبْنِيَ الْخُطَابَ عَلَى أَنَّهُ أَعْلَى شَانًا ، وَأَرْفَعُ مَكَانًا ، وَأَصَحُّ حَرْمًا ، وَأَرْجَحُ حِلْمًا ، مِنْ أَنْ يُعْزَى ؛ بِخِلَافِ الْمُتَأَخَّرِ فِي الرِّتْبَةِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُعْزَى تَنْبِيْهَا وَتَذَكِيرًا ، وَهَدَايَةً وَتَبْصِيرًا ، وَيُعْرَفُ الْوَاجِبَ فِي تَلْقَى السَّرَّاءِ بِالشُّكْرِ ، وَالضَّرَّاءِ بِالصَّبْرِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .

وكذلك إذا كتبت رئيساً في معنى الاستزادة والشكوى ، لا يجوز أن تأتي بمعناها في ألفاظهما الخاصة ، بل يجب أن تبدل عن [ألفاظ] الشكوى إلى ألفاظ الشكر ،

(١) هذا الشرط غير موجود في الضوء .

(٢) لم يذكر في الضوء لفظ القوم .

وعن ألفاظ الأستزادة إلى ألفاظ الأستعطاف والسؤال في النظر، لتكون قد ربتت كلامك في رتبته، وانحرجت معنك محرج من يستدعى الزيادة لا من يشكو التقصير.

قال ابن شيث في "معالم الكتابة": ولا يخاطب السلطان في خلال الكتابة إليه بسيدنا مكان مولانا، فإن سيدنا كانها خصصت بأرباب المراتب الدينية والديوانية، ومولانا تُخص السلطان وحده، وإن كان من نُوت السلطان السيد الأجل.

قال: على أن ذلك مخالف لمذهب المغاربة: فإنهم يعبرون عن ولاة أمورهم بالسادة، ويعبرون عن صاحب الأمر بسيدنا، وكان هذا كان في زمانه، وإلا فالمعروف عند أهل المغرب والأندلس الآن التعبير عن السلطان بالمولى، يقول أحدهم مولانا فلان. وأهل مصر الآن يُطلقون السادة على أولاد الملوك.

وكذلك لو وقع واقع للسلطان فنصحته لم يجوز أن تُورد ذلك مورد التنبيه على ما أغفله، والإيقاظ لما أهمله، والتعريف من الصواب لما جهله: لأن ذلك من التبيح الذي لا يحتمله الرؤساء من الأتباع، ولكن تبني الخطاب على أن السلطان اعلی وأجل رأيا، وأصح فكرا، وأكثر إحاطة بصدور الأمور وأعجازها، وأن آراء خدمه جزء من رأيه، وأنهم إنما يتفرسون تحايل الإصابة بما وقفوا عليه من سلوك مذهبه، والتأديب بأدبه، والأرتياض بسياسته، والتثقل في خدمته، وإن مما يفرضونه في حكم الإشفاق والأهتمام، وما ينبغ عليهم من الإنعام، المطالعة بما يجري في أوهامهم، ويحدث في أفكارهم، من الأمور التي يتغليون أن في العمل بها مصلحة للدولة، وعمارة للملكة، ليتصفحه بأصالة رأيه التي هي أوفر وأثبت. فإن آستصوبه أمضاه، وإن رأى خلافه ألغاه، وكان الرأي الأعلی ما يراه، إلى غير ذلك مما يجري هذا المجرى.

قال ابن شيث في "معالم الكتابة": ولا يقارن الكاتب السلطان في تكرار المواضع التي يقع الالتباس فيها بين الكاتب والمكتوب إليه ، لأن هاء الضمير تعود عليهما معا لما تقدم من ذكرهما ، وإن كان في القرينة ما يدل على ذلك بعد الفكرة وإذا ابتدأ معهم بالملوك لا يقال بعد ذلك العبد ولا الخادم ، وإن كان ذلك جائزا مع غير السلطان .

قال : ولا بأس بتكرار الإشارة إلى السلطان في المواضع التي يجمل فيها الاشتراك بينه وبين المكتوب إليه ، مثل أن يقال : وكان قد ذكر كذا وكذا ، والضمير في كان يصلح لهما معا ، فلا بد هنا من ذكر الملوك ، إن كان الالتباس من جهة الكاتب ، أو مولانا إن كانت الإشارة إلى السلطان .

الأصل العاشر

(أن يُراعى مَوَاقِعَ آيَاتِ الْقُرْآنِ وَالسَّجْعِ فِي الْكُتُبِ ،
وذكر أبيات الشعر في المكتبات)

أما آيات القرآن الكريم ، فقد ذكر ابن شيث في "معالم الكتابة" أنها في صدر الكتاب قد يذكرها الأذنى للأعلى في معنى ما يكتب به ، مثل قوله تعالى : (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِيرًا) وقوله تعالى : (وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ) إلى غير ذلك من الآيات المناسبة للوقائع وإن كانت في أثناء الكتاب ، فقد آستشهد بها جماعة من الكتاب في خلال كتبهم مما رأيت .



وأما السجع ، فقد ذكر ابن شيث : أنه لا يُفَرَّقُ فيه بين كتابِ الأعلى للأدنى وبالعكس ، وأنه بما يُكْتَبُ عن السلطان أليقُ ؛ لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابةَ بالسَّجْعِ نقصُ في حق المكتوب إليه ، وقضيته أنه لا يُكْتَبُ به إلا من الأعلى للأدنى ، إلا أن الذي جرى عليه مصطلحُ كُتُبِ الزمان تخصيصُه ببعض الكُتُبِ دونَ بعض من الجانبين .



وأما الشعرُ فيورده حيثُ يحسنُ إيرادُه ، ويمتنعه حيثُ يحسنُ منعه ، فليس كلُّ مكاتبةٍ يحسنُ فيها إيرادُ الشعر ، بل يختلفُ الحالُ في ذلك بحسبِ المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه . فأما المكاتباتُ الصادرةُ عن الملوكِ والصادرةُ إليهم ، فقد ذكر في "موادِّ البيان" : أنه لا يُمْتَلَّ فيها بشيءٍ من الشعر ، إجلالاً لهم عن شوبِ العبارة عن عزائمِ أوامرِهِم ونواهيهِم والأخبارِ المرفوعةِ إليهم ، بما يُخالِفُ تَمَطُّها ووضعَها ، ولأن الشعرَ صناعةٌ مغايرةٌ لصناعةِ الترسُّلِ ، وإدخالُ بعض صنائعِ الكلامِ في بعض غيرِ مستحسنٍ .

قلت : الذي ذكره عبدُ الرحيم بنُ شيث في كتابه "معالمُ الكتابةِ ومَوَاضِعُ الإصَابَةِ" أنه [يُمْتَلَّ] بالشعرِ في المكاتباتِ الصادرةِ عن المُلُوكِ دونَ غيرِهِم ، وهو معارضٌ لما ذكره في "موادِّ البيان" . وكأنه في موادِّ البيان يريدُ الكُتُبَ النافذةَ عن الملوكِ إلى مَنْ دُونِهِم ، أو مَنْ دُونَهُم إليهم . أما الملوكُ والخلفاءُ إذا كتَبُوا إلى مَنْ ضاهاهم في أبهةِ الملُكِ وقاربهم في علوِّ الرتبةِ ، فإنه لا يمتنعُ التمثُّلُ بأبياتِ الشعرِ فيها ، تطريزاً للنثرِ بالنظمِ ، وجمعاً بين جنسَي الكلامِ اللَّدِينِ هما خلاصةُ مقاصده .

وما زالت الخلفاء والملوك السالفة يخلون كتبهم الصادرة عنهم إلى نظرائهم في علو الرتبة بالأبيات الرقيقة الألفاظ ، البديعة المعاني ، للاستشهاد على الوقائع المكتوب سبها : كما كتب أمير المؤمنين "عثمان بن عفان" رضى الله عنه حين تملاً عليه القوم واجتمعوا على قتله إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه !

فإن كنت مأكولاً ، فكن خيراً كلي * وإلا فأدركني ولما أمرني !

وكما كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ! إلى معاوية بن أبي سفيان ، في جواب كتاب له حين جرى بينهما التنازع في الخلافة ، فقال في أثناء كتابه : وزعمت أني لكل الخلفاء حسدت ، وعلى كلهم بغيت ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فيكون العذر إليك :

* وتلك شكاة ظاهر عنك عارها *

وعلى ذلك جرى كثير من خلفاء الدولتين الأموية والعباسية : كما حكى العسكري في "الأوائل" أن أهل حص وثبوا بعاملها فأخرجوه ، ثم وثبوا بعده بعامل آخر . فأمر المتوكل إبراهيم بن العباس أن يكتب إليهم كتاباً يحذرهم فيه ويختصر ، فكتب .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله تعالى عليه فيما قوم به من أود أو عدل به من زيغ ، أو لم به من شعث ، ثلاثاً يقدم بعضن أمام بعض : فأولاهن ما يستظهر به من عظة ووجهة ، ثم ما يشفعه به من تحذير وتنبه ، ثم التي لا ينفع حسم الداء غيرها :

أناة ؛ فإن لم تكن عقب بعدها * وعيد ، فإن لم يجد ؛ أجدت عزائمها !

(١) أى الصول .

(٢) فى الاصول فى من يقوم به الخ . والنصح من "أدب اللغة" للشيخ أحمد السكندرى .

ومن كان يُكثِرُ التمثُلَ بالشعر في المكاتبات من خُلفاء بني العباس وتصدّر إليه المكاتبات كذلك «الناصر لدين الله» حتى يُحكى أن الملك الأفضل، على - ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب دِمَشق حين تعصّب عليه أخوه الملك العزيز عثمانُ وعمه الملك العادل أبو بكر، كتب إلى الناصر لدين الله يستجيشه عليهما كتاباً يُشير فيه إلى ما تعتقده الشيعة من أن الحقّ في الخلافة كان لعلّى، وأن ابا بكر وعثمان رضى الله عنهما تقدّما عليه، إذ كان الناصر يُميل إلى التشيع، وكتب فيه :

مَوْلَايَ ! إِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَصَاحِبَهُ * عُثْمَانَ قَدْ غَضَبَا بِالسَّيْفِ حَقَّ عَلَيَّ !
فَانظُرْ إِلَى حَظِّ هَذَا الْإِسْمِ كَيْفَ لَقِيَ * مِنَ الْأَوَانِحِ مَا لَاقَى مِنَ الْأَوَّلِ !

فكتب إليه الناصر الجواب عن ذلك، وكتب فيه :

وَإِنِّي كَتَبْتُكَ يَا ابْنَ يُوسُفَ نَاطِقًا * بِالْحَقِّ يُخْبِرُ أَنَّ أَسْلَكَ طَاهِرًا !
غَضَبُوا عَلَيَّا حَقَّهُ إِذْ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النَّبِيِّ لَهُ بِيَثْرَبَ نَاصِرًا !
فَاصْبِرْ فَإِنَّ عَلَى الْإِلَهِ حِسَابَهُمْ * وَأَنْبَشِرُ فَنَاصِرُكَ الْإِمَامُ النَّاصِرُ !

وعلى ذلك جرى الملوك القائمون على خُلفاء بني العباس في مكاتباتهم أيضا . كما كتب أبو إسحاق الصابى عن معز الدولة بن بويه، إلى عُدّة الدولة أبي تغلب كتابا يذكر له فيه خلاف قرييين له، لم يُمكنه مساعدة أحدهما على الآخر، وأسْتَشْهِدُ فِيهِ بقول المتلمس :

وَمَا كُنْتُ إِلَّا مِنْ سَلِّ قَاطِعِ كَفِّهِ * بَكَفِّ لَهُ أُخْرَى فَأَصْبَحَ أَجْدَمَا !
فَلَمَّا اسْتَقَادَ الْكَفَّ بِالْكَفِّ، لَمْ يَجِدْ * لَهُ دَرَكًا فِي أَنْ تَبِينَا فَأَجْمَمَا .

وعلى هذا التهج جرى الحال في التولية الأيوبية بالديار المصرية . كما كتب القاضي الفاضل عن السلطان صلاح الدين "يوسف بن أيوب" إلى ديوان الخلافة ببغداد ، عند قتل ابن رئيس الرؤساء وزير الخليفة كتاباً ليسل الخليفة عنه ، وكان ممن اساء السيرة وأكثر الفتك ، متمثلاً باليتين المقولين في أبي حفص الخلال : وزير أبي العباس السفاح ، وكان يعرف بوزير آل محمد .

إِنَّ الْمَكَارَةَ قَدْ تَسَّرَ ، وَرُبَّمَا * كَانِ السُّرُورُ بِمَا كَرِهْتَ جَدِيرًا !

إِنَّ الْوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ مُحَمَّدٍ * أَوْدَى ، فَمَنْ يَسْنَاكَ كَانَ وَزِيرًا .

وكما كتب القاضي « محي الدين بن عبد الظاهر » عن « المنصور قلاوون » إلى صاحب اليمن في جواب تعزية ارسلها إليه في ولده الملك الصالح ، مع تعريضه في أمره له بأن الحروب مما يشغل عن المصائب في الأولاد ، مستشهداً فيه بقوله :

إِذَا أَعْتَادَ الْفَتَى حَوْضَ الْمَنَائِيَا ، * فَأَهْوَنُ مَا تَمْتَرُ بِهِ الْوُحُولُ !

وكما كتب صاحبنا الشيخ علاء الدين اليربوعي رحمه الله عن « الظاهر برقوق » صاحب الديار المصرية ، جواباً لصاحب تونس من بلاد المغرب ، وأستشهد فيه لبلاغة الكتاب الوارد عنه بقوله :

وَكَلَامٍ كَدَّمَ مَعَ صَبِّ غَرِيبٍ * رَقَّ حَتَّى الْهَوَاءُ يُكْنُفُ عِنْدَهُ !

رَأَى لَفْظًا ، وَرَقَّ مَعْنَى ، فَأَضْحَى * كُلُّ سِحْرٍ مِنَ الْبَلَاةِ عَبْدَهُ !

وعلى ذلك جرت ملوك المغرب من بني مرين وغيرهم . كما كتب بعض كتاب السلطان أبي « الحسن المريني » عنه إلى السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصرية كتاباً يُخبره في خلاله أن صاحب بجاية نرحج عن طاعته فغزاه ، وأوقع به ويحوشه مآقعه ، مستشهداً فيه بقوله :

إِنْ عَادَتِ الْعَقْرُبُ ، عُدْنَا لَهَا * وَكَانَتِ النَّعْلُ لَهَا حَاضِرَهُ !

إلى غير ذلك من المكاتبات الملوكية التي لا تُحصى كثيرة . بل ربما وقع التمثل بالشعر في المكاتبات عن الخلفاء والملوك إلى مَنْ دُونِهِمْ وبالعكس . كما حكى العسكرى في "الأوائل" أن رافعا رفع كتابا إلى الرشيد، وكتب في أسفله :

إِذَا جِئْتُ عَارًا أَوْ رَضِيتُ بِذِلَّةٍ ، * فَنَفْسِي عَلَى نَفْسِي مِنَ الْكَلْبِ أَهْوَنُ !

فكتب إليه الرشيد دُنياً وكتب في أسفله :

وَرَفَعْتُ نَفْسًا طَالِبًا فَوْقَ قَدْرِهَا * يَسُوقُكَ الْحَتَفَ الْمُعْجَلِ وَالذُّلَا

وبالجملة فمذاهبُ الناس في التمثل بالشعر في المكاتبات الملوكية مختلفةٌ ، ومقاصدُهم متباينةٌ بحسبِ الأغراض ؛ ولذلك أورد الشيخ جمال الدين بن نباتة هذه المسئلة في جملة أسئلته ، التي سأل عنها كُتَّابَ الإنشاء بدمشق ، مخاطباً بها الشيخ شهاب الدين محموداً الحلبي ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء بها فقال : وَمَنْ كَرِهَ الْأَسْتِشْهَادَ فِي مَكْتَابَةِ الْمُلُوكِ بِالْأَشْعَارِ؟ وَكَيْفَ تَرَكَهَا عَلَى مَا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ؟ أما المكاتبات الإخوانيات الواقعة بالتهاني ، والتعازي ، والترأور ، والتهادي ، والمداعبة ، وسائر أنواع الرِّقاع في فنون المكاتبات ، فقد قال في "مواد البيان" إنه يجوز أن تُودع أبيات الشعر على سبيل التمثل وعلى سبيل الاختراع ، محتجاً بأن الصدر الأول كانوا يستعملون ذلك في هذه المواضع . وهذا الذي ذكره لاحقاً فيه ، وكتب الرسائل المدونة من كلام المتقدمين والمتأخرين من كُتَّابِ المشرق والمغرب شاهدةً بذلك ، ناطقةً باستعمال الشعر في المكاتبات ، وأثنائها ونهاياتها ، ما بين البيت والبيتين فأكثر، حتى القصائد الطوال . وأكثر ما يقع من ذلك البيت المفرد والبيتان فما حوَّلَ ذلك . كما استشهد القاضي الفاضل في بعض مكاتباته في الشوق بقوله :

وَمِنْ عَجَبِي أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمْ ، * وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَىٰ وَهُمْ مَعِي !
وَتَطْلِبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ فِي سَوَادِهَا * وَيَسْتَأْفِقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْغَلِي !

وكما كتب أيضا لبعض إخوانه في جواب كتاب :

وَكَمْ قُلْتُ حَقًّا : لَيْتَنِي كُنْتُ عِنْدَهُ ! * وَمَا قُلْتُ إِجْلَالًا لَهُ : لَيْتَهُ عِنْدِي !

وكما كتب في وصف كتاب ورد عليه مستشهدا بقوله :

وَحَسِبْتُهُ - وَالطَّرْفُ مَعْقُودٌ بِهِ - * وَجَهَ الْحَيْبِ بَدَأَ لَوْجَهُ مُجْبِهَ !

وكما كتب في كتاب تعزية بصديق مستشهدا فيه بقوله :

وَذَلِكَ الَّذِي لَا يَبْرُحُ الدَّشْرُ رُزُؤُهُ ، * وَلَا ذِكْرُهُ مَا أَرْزَمَتْ أُمَّ حَائِلٍ .

إلى غير ذلك من المكاتبات التي لا يأخذها حصر، ولا تدخل تحت حد، مما

ستقف على الكثير منه في الكلام على مقاصد المكاتبات، إن شاء الله تعالى .

الأصل الحادى عشر

(أن يأتي في مكاتبه بحسن الاختتام)

ويرجع إلى معنيين، كما في حُسن الافتتاح المقدم ذكره .

المعنى الأول - أن يكون الحسن فيه راجعا إلى المعنى المختتم به : إما بمعاطاة
الأدب من المرءوس إلى الرئيس ونحو ذلك ، وإما بما يقتضى التعزير والتوقير من
الرئيس إلى المرءوس، كالاختتام بالدعاء ونحو ذلك، مما يقع في مصطلح كل زمن .

المعنى الثانى - أن يكون الحسن فيه راجعا إلى ما يوجب التحسين من سهولة
اللفظ، وحسن السبك، ووضوح المعنى، وتجنب الحشو، وغير ذلك من موجبات

التحسين ، كما كتب الصحابُ بنُ عبَّاد في آخر رسالة له : ” لئن حثتُ فيما حثتُ ، فلا خطوتُ لتحصيلِ مجدٍ ، ولا نهضتُ لإقتناءِ حمدٍ ، ولا سَعَيْتُ إلى مقامِ نحرٍ ، ولا حرصتُ على علوِّ ذِكْرٍ “ . قال أبو هلال العسكري : فهذه اليمين ، لو سمعها عامرُ بنُ الظَّرب ، لقال هي اليمين الغموسُ لا القسمُ باللاتِ والعزى ومناةِ الثالثةِ الأخرى ، ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

قلت : وأعتبرُ هذه الأصول [الأحد عشر]^(١) بعد ما تقدمَ اعتباره في الكلام على صنعةِ إنشاءِ الكلام وترتيبه في المقالة الأولى ، من أنه لا يستعمل في كلامه ما أتت به آياتُ القرآن الكريم : من الاختصارِ ، والحذفِ ، ومخاطبةِ الخاصِّ بمخاطبةِ العامِّ ، ومخاطبةِ العامِّ بمخاطبةِ الخاصِّ ، ولا ما يختصُّ بالشعر : من صرفِ ما لا ينصرفُ ، وحذفِ ما لا يُحذفُ ، وقصرِ الممدود ، ومدِّ المقصور ، والتقديمِ والتأخيرِ ، والإضمارِ في موضعِ الإظهارِ ، وتصغيرِ الاسمِ في موضعِ التعظيمِ ، مثل دُوَيْبِيَّةٍ ، وما شاكل ذلك مما تقدمَ التنبيهُ عليه في موضعه ، فلا بدَّ من اعتباره هنا .

الأصل الثاني عشر

(أن يعرفَ مقاديرَ قطعِ الورق ، وسعةَ الطرَّةِ والهامشِ ، وسعةَ بيتِ العلامةِ ومقدارَ ما بين السُّطور وما يُتركُ في آخرِ الكتابِ)

أما مقدارُ قطعِ الورق ، فقد تقدَّم في المقالة الثالثة أنه يَخْتَلِفُ باختلافِ المكتوبِ إليهم عن السلطانِ ، فكُلُّها عَظُمُ قدرِ المكتوبِ إليه ، عَظُمُ مقدارِ قِطْعِ الورقِ ؛ وربما رُوِيَ في ذلك قدرُ المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه جميعاً .

(١) في الاصل ” العشرة “ .



وأما طول الطِّرة في أعلى الكتاب ، فقد ذكر في "معالم الكتابة" أنها تطول فيما إذا كان الكتاب من الأعلى إلى الأدنى ، وتكون متوسطة من الأتباع ، وسيأتي أن المصطلح عليه في زماننا أن المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطِّرة فيها ما بين ثلاثة أوصال إلى وصلين ، ومن التَّوَاب ومن في معناهم تكون وصلا واحدا .



وأما مقدار سَعَةِ الهامش فقد سمعتُ بعض فضلاء الكُتَّاب يذكر أن الضابط فيه أن يكون ثلثَ عَرْضِ الدَّرَجِ المكتوب فيه .



وأما بيتُ العَلامَةِ فقد تقدّم أنه يكون مقدارَ نحوِ شبرٍ في كُتُبِ السلطان ، أما في غيره - حيث كانت العَلامَةُ تحتِ البسملة - فتكونُ نحوَ ثلاثةِ أصابعٍ أو أربعةٍ .



وأما سَعَةُ ما بين السطور فقد تقدّم أنها تكون بمقدارِ نصفِ بيتِ العَلامَةِ . وذكر ابن شيث : أنها ثلاثةُ أصابعٍ أو أربعةٍ .



وأما [ما يترك في] آخر الكتاب فقد ذكر ابن شيث أنه لا يترك في آخر المكاتبة شيئا .



وأما الخطُّ فإنه كلما غلُظَ القلم واتسعت السطور كان أنقصَ في رتبةِ المكتوبِ إليه وقد ذكر في "معالم الكتابة" أن الكتب الصادرة إلى السلطان لا يكونُ بين سُطُورها أكثرُ من إصبعين .

الطَّرْفُ الثَّانِي

(في بيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البَسْط والإيجاز،
وما يلائمُ كلَّ مكتبة منها من المعاني)

ولتعلم أن المكاتبات على ثلاثة أقسام :

القسم الأول

(ما يُكْتَبُ عن السلطان أو مَنْ في معناه من الرؤساء
إلى الأتباع . وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُعْمَلُ فيه على الإيجاز والاختصار)

وقد أستحسنوا الإيجاز في خمسة مواضع :

أحدها - أن يكون المكتوبُ عن السلطان في أوقات الحُرُوبِ إلى تُوَّابِ
الملك . قال في "حُسن التوسل" : فيجب أن يتوخى الإيجاز والألفاظ البليغة
الدالة على القصد ، من غير تطويل ولا بَسْطٍ يُضِيعُ المقصدَ ويفضل الكلامَ بعضه
من بعض . ولا يعمد في ذلك إلى تهويل لأمر العدو يُضعِفُ القلوبَ ، ولا تهوين
لأمره بحيث يحصل به الاعتذار .

الثاني - أن يكون ما يُكْتَبُ به عن السلطان خبراً يريد التورية به عنه وسرَّ
حقيقته ، كإعلامهم بالحوادث الحادثة على الملوك ، والنواب الملمة بالدولة : من
هزيمة جيش ، أو تغيير رسم ، أو إحداثه ، أو تكليف الرعية ما لا يسهل عليها تكليفه

وما أشبه ذلك . قال في "مواد البيان" : فيجب أن يقصد في ذلك إلى الاختصار والإيجاز، ويعدّل عن استعمال الألفاظ الخاصة بالمعنى إلى غيرها مما يحتتمل التأويل، ولا تتفرّج الأسماع عنه، ولا تُراعُ القلوبُ به ، من غير أن يَحتمل كذباً صراحاً ؛ فإنه لاشيء أقبح بالسلطان، ولا أغمص لشأنه وقدره من أن يُضمّن كتابه ما ينكشف للعامة بطلانه . قال وينبئ للكتاب أن يتخلّص من هذا الباب التخلّص الجيّد الذي يُزيّن به الأثر، من غير تصريح بكذب، وأن يخرج الباطل في صورة الحق، ويعرّض سلطانه في ذلك للإجماد والتقريظ من حيث يستحقّ التأنيب والإدغام فإن هذه سبيلُ البلاغة، وطريقةُ فضلاء الصّناعة، لأن الأمر الظاهر الحسن المجمع على فضله لا يحتاج في التعبير عن حسنه إلى كدّ الخاطر، وإتباع الفكر، إذ الألتكن لا يعجز عن التعبير عنه فضلاً عن اللّسن، وإنما الفضل في تحسين ما ليس بحسن، وتصحيح ما ليس بصحيح، بضروب من التويه والتخييل، وإقامة المعاذير، والعلال المعقّية على الإساءة والتقصير، من حيث لا يلحق كذبٌ صريحٌ ولا زور مطلق . وليضيق هذا المقام وصعوبة مُرتقاه، أوردته الشيخ جمال الدين بن نباتة في جملة مسائله التي سأل عنها كُتّاب الإنشاء بدمشق - فقال : وما الذي يُكْتَب عن المهزوم إلى من هزّمه ؟ .

الثالث - أن يكون المكتوب به عن السلطان أمراً أو نهياً . قال في "مواد البيان" : فكهما حكم التوقيعات الوجيزة الجامعة للعاني، الجازمة بالأمر أو النهي . اللهم إلا أن يكون الأمر أو النهي مما يحتاج إلى رسوم ومثّل يُعمل عليها، فيحتاج إلى الإطالة والتكرير، بحسب ما يؤمّر به وينهى عنه دون الحذف والإيجاز.

الرابع — أن تكون الكُتُب المكتوبة عن السلطان باستخراج الخراج وجباية الأموال وتديير الاعمال . قال في "موادّ البيان" : فسيلها أن ينصّ فيها على ما رآه السلطان ودبره ، ثم يَحْتَمِمُ بفصل مقصورٍ على التوكيد في أمثال أمره وإنفاذه ، ولا يقتصر على ما تقدم ، إيجاباً للحُجّة ، وتضييقاً للعُدْر ، وحسباً لأسباب الإعتذار .
الخامس — أن يكون ما يكتب به عن السلطان إحماداً أو إذماماً ، أو وعداً أو وعيداً أو استقصاراً أو عدلاً أو توبيخاً . قال في "موادّ البيان" : فيجب أن يُشَبَّع الكلام ويمد القول ، بحسب ما يقتضيه أمر المكتوب إليه : في الإساءة والإحسان ، والاجتهاد والتقصير ، لينشرح صدر المشمرّ المحسن ، وينبسط أمله ورجاؤه ، ويرتدع المقصرّ المسىء ، ويرتجع عما يذمّ منه ، ويتلافى ما قوط فيه .

الضرب الثاني

(ما يعمل فيه على البسط والإطناب)

وقد استحسنا البسط في موضعين :

أحدهما — أن يكون ما يكتب به عن السلطان خبراً يريد تقرير صورته في نفوس العامة ، كالإخبار بالفتوحات المتجددة في إعلاء الدين والسلطان . قال في "موادّ البيان" : فيجب أن يُشَبَّع القول فيها ، ويبنى على الإسهاب والإطناب وتكثير الألفاظ المترادفة ، ليَعْرِفُوا قدر النعمة الحادثة ، وتريد بصائرهم في الطاعة ، ويعلموا موضع سلطانهم من عناية الله تعالى به ، فتقوى قلوب أوليائه ، وتضعف قلوب أعدائه ؛ لأنه لو كتب كتاباً في فتح جليل يُقرأ في المحافل والمشاهد العامة على رؤوس

الأشهاد بين العامة ومن يراد تفخيم السلطان في نفسه على صورة الاختصار، لأوقع كلامه في غير رتبته، ودل ذلك على جهله. وقد أوضح الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله هذا المقام في كتابه "حسن التوسل" فقال: وإذا كتب في التهاني بالفتوح فليس إلا بسط الكلام والإطناب في شكر نعمة الله تعالى، والتبري من الحول والتؤة إلا به، ووصف ما أعطى من النصر. وذكر ما منح من الثبات، وتعظيم ما يسر من الفتح؛ ثم وصف ما بعد ذلك: من عزم، وإقدام، وصبر، وجدد، عن الملك وعن جيشه مما حسن وصفه ولاق ذكره، وراق التوسع فيه، وعذب بسط الكلام معه. قال: ثم كلما أتسع مجال الكلام في ذكر الواقعة ووصفها، كان احسن وأدل على السلامة، وأدعى لسرور المكتوب إليه، وأحسن لتوقع المنة عنده، واشهى إلى سمعه، واشفى لغليل شوقه إلى معرفة الحال. قال: ولا بأس بتحويل أمر العدو، ووصف جمعه وإقدامه، فإن في تصغير أمره تحقيراً للظفر به.

قال في "مواد البيان": ولا يُحتج للإيجاز في كُتب التُوح بما كتب به كاتب المهلب بن أبي صفرة إلى المجاج في فتح الأزارقة، على ارتفاع خطره، وطول زمانه، وعظم صيته، من سألوه فيه مسلك الاختصار؛ حيث كتب فيه:

«الحمد لله الذي كفى بالإسلام فقد ما سواه، وجعل الحمد متصلاً بنعمه؛ وقضى ان لا ينقطع المزيد من فضله، حتى يتقطع الشكر من خلقه. ثم إنا كنا وعدونا على حالين مختلفين، نرى منهم ما يسرنا أكثر مما يسوءنا، ويرون منا ما يسوءهم أكثر مما يسرهم؛ فلم يرل ذلك دأبنا ودأبهم: ينصرون الله ويخذلهم، ويمحصنا ويمحقهم؛ حتى بلغ الكتاب يناديهم أجله ﴿فَقَطِّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

فإنه إنما حَسُنَ في موضعه لمخاطبة السُّلطان به، ولغرضِ كانت المكاتبةُ فيه . قال : فإن كَتَبَ مثل هذا الكتاب عن السلطان في مثل هذا الفتح أو ما يقارِبُه ، لِيُورَدَ على العامة ، وَيَقَرَّرَ في نفوسهم به قَدْرُ النعمة ، لم يحسنُ موقعه ، وخرج عن شَرطِ البلاغة بوضعه لِيأيه في غير موضعه ، وذكر العسكري " نحو ذلك في "الصناعتين" .

ثم قال في "حسن التوسل" : وإن كان المكتوبُ إليه مَلِكًا صاحبَ مملكة بمفرده ، تعين ان يكون البَسْطُ أكثرَ ، والإطنابُ والتحويلُ أبلغَ ، والشرحُ أتمُّ . ثم قال : وإن اضْطُرَّ أن يكتُبَ مثلَ ذلك إلى ملكٍ غير مسلم لكنه غيرُ محارِبٍ ، فالحكم في ذلك أن يذكر من أسباب المودَّة ما يقتضى المشاركة في المَسَارَ ، وأن أمر هذا العدو مع كثرتِه أخذَ بأطراف الأنامل ، وآل أمره إلى ما آل . ويعظمُ ذكر ما جرى عليه من القتل والأَسْر . ويقول : إن تلك عوائدُ نصرِ الله تعالى لنا ، وأنتقامه مِن عاداتنا ،

وإن كان المكتوبُ إليه مَتَمًّا بملائة العدو ، كتب إليه بما يدل على التقرُّيع والتَهْكِم والتهديد في مَعْرِضِ الإخبار .

الثاني — أن يكون ما يكتَبُ به عن السلطان في أوقات حركات العدو إلى أهل الثُّغُور ، يُعالمهم بالحركة للقاء عدوهم . قال في "حسن التوسل" : فيجب أن يَبْسُطَ القولُ في وصف العزائم ، وقُوَّةِ الهِمَمِ ، وشِدَّةِ الحِمِيَّةِ للدين ، وكثرةِ العساكر والجُيُوشِ وسُرعةِ الحركة ، وطَيِّ المَرَّاحِلِ ، ومعالجةِ العدو ، وتخييلِ أسبابِ النَّصرِ ، والوُثُوقِ بعوائد الله تعالى في الظُّفرِ ، وتقويةِ القلوبِ منهم ، وبَسْطِ آمالهم ، وحَثِّهم على التيقُّظِ ، وحفظِ ما بأيديهم ، وما أشبه ذلك . ويُبرِزُ ذلك في أمثل كلام وأجله وأمكنه ، وأقربِه من القُوَّةِ والبَسَّالةِ ، وأبعده من اللين والرقَّةِ . ويُبالغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى واستنزال نصره وتأنيده ، والرجوع إليه في تثبيت الأقدام ، والاعتصام به

في الصبر، والاستعانة به على العدو، والرغبة إليه في خذلانهم وزلزلة أقدامهم وجعل الدائرة عليهم، دون التصريح ببطلان حركتهم، ورجاء تأخيرهم، وانتظار العرضيات في ضعفهم، لما في ذلك من إيهاام الضعف عن لقاءهم، وأستشعار الوهم والخوف منهم .

القسم الثاني

(ما يكتب به عن الأتباع إلى السلطان والطبقة العليا
من الرؤساء، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُعمل فيه على الإيجاز والاختصار)

وقد أستحبوا الإيجاز في ثلاثة مواضع :

احدها - أن يكون ما يكتب به من باب الشكر على نعمة يُسبغها سلطانه عليه ، وعارفة يُسديها إليه . قال في "موادّ البيان" : فسبيله أن لا يبينها على الإسهاب وتجاوز الحد ، بل يبينها على اللفظ الوجيز، الجامع لمعاني الشكر، المشتمل على أساليب الاعتراف والاعتداد، فإن إطناب الأصاغر في شكر الرؤساء داخل في باب الإسهاب والإبرام ، ولا سيما إذا رجعوا إلى خصوصية وتقديم خدمة . وكذلك لا يُكثر من الثناء عليه ، لأن ذلك من باب الملق الذي لا يليق إلا بالأبعاد الذين لم يتقدم لهم من الموات والحرم ما يدل على صحة عقائدهم ، ولم يُضف عليهم من النعم ما يوجب خلوص نياتهم . أما إذا كان المثني أجنبيا متكسبا بالتقريظ والثناء، فإنه لا يقبح به الإيغال والإغراق فيهما . قال : وكذلك لا ينبغي للخاصة الإكثار من الدعاء ، وتكرره في صدود الكتب

عند مايجرى ذكر الرئيس ، فإن في ذلك مشقة وكلفة يستغلها الملوك . والحكم فيما يستعمل من ذلك في الكتب شبيه بما يستعمل شفاهاً منه . ويقبح من خادم السلطان أن يسغل سمعه في مخاطبته إياه بكثرة الدعاء وتكريره .

الثاني - أن يكون ما يكتب به التابع إلى السلطان ونحوه في سؤال حُسن النظر وشكوى الفقر والخصاصة . قال : في "موادّ البيان" : فينبى القول على الإيجاز ويمزج الشكوى بالشكر والاعتداد بالآلاء ، والرغبة في مضاعفة الإحسان والزيادة في البرّ، والإلحاق بالطبقة الرابعة في إيلاء العوارف ، فإن ذلك أعطف لقلب الرئيس ، وأدعى إلى بلوغ الغرض ، ولا يكثر شكوى الحال ورناتها ، وأستيلاء الخصاصة والفقر عليه ، فإن ذلك يجمع إلى الإيجار والإبرام شكاية الرئيس بسوء حال مرءوسه ، وقلة ظهور نعمته عليه ، وذلك مما يكرهه الرؤساء ويذمونه .

الثالث - أن يكون ما يكتب به التابع إلى المتبوع من باب التنصل والاعتذار عن شيء قُرف به عند رئيسه . قال في "موادّ البيان" : فسبيله أن يبنى كلامه على الاختصار ، ويعيدل عن الإسهاب والإطناب ، ويقصد إلى التكت التي تزيل ما عرض عنده من الشبهة في أمره ، وتمحو الوجود السابقة إلى ضمير رئيسه ، ولا يصرح ببراءة الساحة عن الإساءة والتقصير ، فإن ذلك مما يكرهه الرؤساء من أتباعهم ، لأن عادتهم جارية بإيثار أعراف الخدم لهم بالتقصير والتفريط ، والإقرار بالمقروف به ليكون لهم في العفو عند الإقرار موضع منة مستأنفة تستدعي شكراً ، وعارفة مستجدّة تقتضى نشراً . أما إذا أقام التابع الحجة على براءته مما قُرف به ، فلا موضع للإحسان إليه في إقراره على منزلته والرضا عنه ، بل يكون ذلك قدراً واجباً له ، إن منعه إياه ظلمه وتعدى عليه .

الضرب الثاني

(ما يعمل فيه على البسط والإطناب)

وقد استحبوا البسط هنا في موضع واحد : وهو ما إذا كان ما يكتب به التابع إلى السلطان واقعا في باب الإخبار بأحوال ما ينظر فيه من الأعمال ، وما يجري على يديه من المهمات . قال في "موادّ البيان" فسيبيله أن يوفى حقه في الشرح والبيان ، ويسلك فيه طريقة يجمع فيها بين إيضاح الأغراض من غير هدّر يضجر ويميل ، ولا اختصار يقصر ويخل ، وأن يقصد إلى استعمال الألفاظ السهلة التي تصل معانيها إلى الأفهام من غير كلفة ، ويتجنب ما يقع فيه تعقيد وتوعير أو إيهام ، إلا أن يعرض له في المكاتب ما يحتاج إلى التورية والكناية كما تقدم فيما إذا أطلق عدو لسانه في السلطان فإنه يحتاج إلى الكناية عنه على ما مر .

القسم الثالث

(ما يكتب به إلى الأكفاء والنظرء ، والطبقة الثانية من الرؤساء)

قال في "موادّ البيان" : وسيل مكاتبتهم أن يؤتى فيها باللفظ المساوي للعنى من غير إيجاز ولا إطناب : لأنها رتبة متوسطة بين الرتبين المتقدمين . ولا يخفى أن ما ذكره إنما هو عند الوقوف مع حقائق المكاتبات . أما الإخوانيات المطلقة ، فإنها تكون في الطول والقصر بحسب ما بين الصديقين من المودة والقرب ، وما يعلمه كل واحد منهما من خلق الآخر ، وما توجه دالته عليه .

وسياتى في مقاصد المكاتبات من أمثلة الأقسام الثلاثة ما يوضح مقاصدها ويقرب ما أخذها إن شاء الله تعالى .

الطَّرَفُ الثَّالِثُ

(في أمور تختص بالأجوبة ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في بيانِ أيِّ الأمرين من الابتداء والحوابِ أعلى رتبةً وأبلغُ في صناعة الكتابة)
 وقد اختلف الكتاب في ذلك : فذهب أكثرُ البلغاء إلى أن الكُتُبَ الجَوَابِيَّةَ
 أتعِبُ مَطْلَبًا وأصعبُ مُرْتَقًى من الكتبِ الابتدائية ، وأن فيها تَظْهَرُ مَهَارَةُ الكَاتِبِ
 وَحِدْقُهُ ، لاسيما إذا كان الحِطَابُ مَحْتَمِلًا للاعتذارِ والاعتلالِ عن أمتثالِ الأوامرِ
 والنواهي ، والتَّوْرِيَةِ عن نُصُوصِ الأحوالِ ، والإِعْرَاضِ عن ظَوَاهِرِهَا ، قَائِدًا إِلَى
 أَسْتِمْعَالِ الْمَغَالِطَةِ ، مُوجِبًا لِلانْفِصَالِ عَنِ الْاِحْتِجَاجِ وَالْاِزْمَامِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُوَدِّي إِلَى
 الْخِلَاصِ مِنَ الْمَكَارِهِ .

واحتجوا لترجيح ذلك بوجوه .

منها - أن المبتدئ مُحَكَّمٌ في كتابه ، يبتدئُ بِالْفَاظِ كَيْفَ شَاءَ ، وَيَقْطَعُهَا حَيْثُ
 يَشَاءُ ، وَيَتَصَرَّفُ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأخِيرِ ، وَالْحَذْفِ وَالْإِثْبَاتِ ، وَالْإِيْجَازِ وَالْإِسْهَابِ ،
 وَيَبْنِي عَلَى أَسَاسٍ يُؤَسِّسُهُ لِنَفْسِهِ ، وَالْمُحِيبُ لَيْسَ لَهُ تَقْدِيمٌ وَلَا تَأخِيرٌ ، وَإِنَّمَا هُوَ
 تَابِعٌ لِفَرْضِ الْمَبْتَدِئِ ، وَبِإِنْ عَلَى أَسَاسِهِ .

ومنها - أَنَّ الْمُحِيبَ - إِذَا كَانَ جَوَابَهُ مَحْتَمِلًا لِلإِشْبَاعِ وَالتَّوَسُّعِ - مُضْطَّرًّا إِلَى
 اِقْتِصَاصِ أَلْفَاظِ الْمَبْتَدِئِ وَاتِّبَاعِهَا لِلإِجَابَةِ عَنْهَا ، وَذَلِكَ يُوَدِّي إِلَى تَصْفَحِ كَلَامِ
 الْمَبْتَدِئِ وَالْمُحِيبِ وَيَصِلُ مَا بَيْنَ الْكَلَامَيْنِ : لِأَنَّ الْكَلَامَيْنِ يَتَقَابَلَانِ فَلَا تَخْفَى رَتْبَتُهُمَا
 وَالْفَاضِلُ مِنْهُمَا مِنَ الرَّذْلِ ، وَهَذَا مَرْفُوعٌ عَنِ الْمَبْتَدِئِ .

(١) أي حاملا ومشتتلا .

ومنها - أن تأليف الكلام وانتظامه وأتساقه وأتسامه يُقدَّرُ منها المبتدئ على ما لا يقدر عليه المحيَّب : لأن الجواب يُفصّل أجزاء الكلام ويُبدِّد نظامه ويُقسِّمه أقساما ، لمكان الحاجة إلى استئناف القول من الفصل بعد الفصل بقول وأما كذا وأما كذا ، فظهور الصورة المستحسنة في المتصل أكثر من ظهورها في المنفصل .

أما إذا كان الجواب مقتضبا مبنيا على أمثال مأمور ، أو انتهاء عن منهي عنه ، فإنه سهل المرام ، قريب المتناول : لأنه إنما يشتمل على ذكر وُصول الكتاب والعمل بما فيه .

وذهب صاحب "موائد البيان" إلى أن الابتداء والجواب في ذلك على حد واحد ، وإن كان الكاتب قد يُجيد في الابتداء ولا يجيد في الجواب وبالعكس ، محتجا لذلك بأن كلاً من المبتدئ والمحيَّب ممتاح من جودة الغريزة ، محتاج من البلاغة والصناعة إلى ما يحتاج إليه الآخر : لأن الكاتب يكون تارة مبتدئا وتارة محيِّبا ، وليست الإجابة بصناعة على حيالها ، ولا البداية بصناعة على حيالها ، بل هما كالنوعين للجنس ، ولا منع من أن يكون الكاتب ماهرا في نوع دون نوع .

قال : والكاتب لا يكون في الأمر الأعم كاتباً عن نفسه وإنما يكون كاتباً عن أمرٍ يأمره بالكتابة في أغراضه ويسألمها إليه منتورة ، فيحتاج إلى نظمها وصنمها وإبرازها في صورة محيطة بجميع تلك الأغراض من غير إخلال بشيء منها ؛ فعلى المبتدئ من المشقة في إيراد أغراض المكتوب عنه في الصورة الجامعة لها مع نظمها

(١) الظاهر أن كان زائدة والاصل وأن الكاتب قد يجيد آخ كما يفيد المعنى وآخر العبارة .

في سلك البلاغة مثل ما على المجيب من المشقة في توفية فصول كتاب المبتدئ حقها من الإجابة والتصرف على أوضاع ترتيبها ، بل كلفة المجيب قريبة ، لأنه يستنيط من نفس معاني كتاب المبتدئ للعاني التي يجيب بها : لأن الجواب لا يخلو من أن يكون يوافق الأبتداء أو يناقضه : فإن وافقه فالأمر سهل ، وإن ناقضه فإن كل نقيض قائم في الوهم على مقابلة نقيضه ، إلا أنه أتعب على كل حال من الموافق ، ولا شك أن الجواب بتجزئته قد خفف تحمله : إذ ليس من يجمع خاطره على الفصل الواحد حتى يخرج عن جوابه كمن يجمع خاطره على الكتاب كله . ثم قال : وليس القصد مما ذكرناه مناقضة مشايخ صناعتنا ، ولكن القصد تعريف الحق الذي يجب اعتقاده والعمل عليه .

الجملة الثانية

(في بيان ترتيب الأجوبة)

وأعلم أن للجواب حالتين :

الحالة الأولى — أن يكون الجواب من الرئيس إلى المرءوس عما كتب به الرئيس إليه ، فالذي ذكره في "مواد البيان" أن للرئيس أن يبني حكاية كتاب مرءوسه إليه في جوابه على الاختصار ، ويجمع معانيه في ألفاظ وجيزة ، محيطة بما وراءها كأن يقول : وصل كتابك في معنى كذا وفهمناه .

الحالة الثانية — أن يكون الجواب من المرءوس إلى الرئيس عما كتب به الرئيس إليه ، قال في "مواد البيان" : والواجب في هذه الحالة أن يحكى فصول كتاب

(١) في الاصول "مشاح هنا عبثاً" وهو تصحيف فظيع من الناسخ والتصحيح من الضوء .

رئيسه على نصّها ويُقَصِّها على وجهها من غير إخلالٍ بشيءٍ منها ، إعظاماً لقدرة الرئيس وإجلالاً لخطابه . قال : وليس للجيب إن مرّ في كتاب الرئيس بلفظة واقعة في غير موضعها أن يُبدِّلها بغيرها : لما في ذلك من الإشارة إلى أن هذا أصحُّ من كتاب رئيسه في ألفاظه ومعانيه . قال : ولا يجوز الخروج عن حكاية لفظ رئيسه في كتابه بحال ، اللهم إلا أن يكون الكتابُ الواردُ على الجيب في معنى 'الشكر والتقرير' من رئيسه له والثناء عليه في قيامه بالخدمة ، فإنه لا يجوز أن يأتي به على نصه : لأنه يصير ذلك مادحاً نفسه ، ومدحُ الإنسان نفسه غير سائغ ؛ ولا يجوز أن يُهمِّل ذكره جملةً لأنه يكون قد أخلَّ بما يجبُ من شكره له على تشریف رتبته بإحماده له والثناء عليه ، بل الواجبُ أن يُوقع تلك الصفة على جملةٍ تجعل نفسه بعضاً منها ، مثل أن يقول : «فأما ما وصفه من أعتاده بخادِمه في جملةٍ من نهض بحقوق خدمته ، وقام بفرض طاعته ، فأهله لما يرفع الأقدار من إحماده وثنائه ، ويُعلي الأخطار من شكره ودُعائه» وما يضاهاى هذا من العبارة التي تشتمل على معاني ألفاظ رئيسه ، فإنه إذا قصد هذا السبيل في حكاية كتاب رئيسه في هذا المعنى ، فقد جمع بين البلاغة والإتيان على معاني ألفاظ رئيسه والأدب في ترك التفخيم لنفسه بإضافته لها إلى جملة الخاصة دون إيقاع المدح عليها فقط .

قلت : هذا هو الترتيب الذي يجب أعتاده في الأجوبة ، فلا يجوز الخروج عنه إلى غيره ؛ على أن تُكَّاب زماننا قد اطرَّحوها النظر في ذلك جملةً ، وصاروا يكتبون الأجوبة بحسب التشهِّي : فمنهم من يحكى الكتاب الذي يقع الجواب عنه بنصه مطلقاً ، سواء كان من رئيس أو مرءوس وبالعكس ، مع قطع النظر عما وراء ذلك . فتنبه لهذه الجملة فإنها دقيقةٌ جليَّةٌ .

الفصل الثانى

من الباب الأول من المقالة الرابعة

(فى ذكر أصول المكاتب وترتيبها، وبيان لواحقها

ولوازمها . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فى ذكر أصولها وترتيبها . وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى المكاتب إلى اهل الإسلام)

وأعلم أن المكاتب الدائرة بين المسلمين من صدر الإسلام وإلى زماننا لا يأخذها حدٌ، ولا تدخل تحت حصر .

والمشهور استعماله منها فى دواوين الإنشاء على اختلاف الأزمان خمسة عشر أسلوباً .

الأسلوب الأول

(أن تُفتَحَ الكُتُبُ بلفظ « من فلان إلى فلان »)

قال أبو هلال العسكري فى كتابه " الأوائل " : وأول من كتب بذلك قس بن ساعدة الإيادى ؛ وعلى ذلك كانت مكاتباتُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم والسلف من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم . فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يكتب : " من محمد رسول الله إلى فلان " . ثم كتب أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى خلافته : " من أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم " . ثم كتب عمر بعده : " من عمر " .

أبن الخطاب خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان» . فلما نُقِبَ
بأمر المؤمنين زاد في ذلك لفظ «عبد الله» قبل عمر، وُلِّقَ «أمير المؤمنين» بعده؛
فكان يكتب : «من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى فلان» . ولم يزل الأمر على ذلك
إلى خلافة هارون الرشيد، فأمر أن يُزاد في صدور الكتب بعد «فإني أحمد إليك الله
الذي لا إله إلا هو، وأسأله أن يُصَلِّيَ على جدّه محمد^(١) عبده ورسوله» . فجري الأمر
على ذلك في زمنه وما بعده . قال أبو هلال العسكري في «الأوائل» : وكان ذلك
من أجل مناقبه . قال صاحب «ذخيرة الكُتَّاب» : وكان الرشيد قد قال ليحيى
أبن خالد : إني قد عزمت على أن يكون في كُتُبِي : «من عبد الله هارون الإمام
أمير المؤمنين عبد رسول الله صلى الله عليه وسلم» - فقال له يحيى : قد عرف الله
نيتك في هذا يا أمير المؤمنين ! [وأجزل] لك الأجر، والتعبُدُ إنما هو لله وحده
لا لغيره - قال : فأكتب «من هارون مولى محمد رسول الله» - فقال : إن المولى
ربما كان في كلام العرب ابن العم ، وجزى الله أمير المؤمنين خيراً عن هذه النية
وهذا الفكر .

الأسلوب الثاني

(أن يُفتَحَ الكُتَابُ بلفظ «لفلان من فلان» أو «إلى فلان من فلان»

وبقية الصدر، والتخلص بـ«أما بعد» أو غيرها، والاختتام بالسلام

وغيره على ما تقدم في الأسلوب الأول)

وقد اختلف العلماء في جواز الابتداء في المكاتبة باسم المكتوب إليه : فذهب
جماعة من العلماء إلى جواز ذلك، محتجين بأن الصحابة رضی الله عنهم وبعض الملوك

(١) لعله جدى وسقط لفظ جدّه من عبارة الضوء وهي أوضح وأصرح .

كانوا يكتبون إلى النبي صلى الله عليه وسلم كذلك . كما كتب إليه خالد بن الوليد والنجاشي والمقوقس في إحدى الروايات ، على ما سيأتي ذكره في المكاتبات إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إِذَا كَتَبَ أَحَدُكُمْ فليبدأ بنفسه ، إلا إلى والديه أو والدة أو إمام يخاف عقوبته " وعن نافع قال : كانت لابن عمر إلى معاوية حاجة ، فقال له ولده : أبدأ به في الكتاب ، فلم يزالوا به حتى كتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى معاوية من عبد الله بن عمر » . وعن الأوزاعي أنه كان يكتب إلى عمر بن عبد العزيز فيبدأ به فلا ينيكر ذلك . وعن سعيد بن عبد العزيز قال : كتب عمر (يعني ابن عبد العزيز) إلى الحجاج ، فبدأ بالحجاج قبل نفسه - فقيل له في ذلك - فقال : بدأت به لأحقن دم رجل من المسلمين . قال سعيد : فحقن له دمه . وعن بكر بن عبد الله أنه كتب إلى عامل في حاجة ، فكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى فلان من بكر » - فقيل له أبدأ باسمه فقال : وما على أن أرضى صاحبي وتقتضى حاجة أخي المسلم ؟ قال في " صناعة الكتاب " : وعلى ذلك جرى التعارف في المكاتب إلى الإمام .

وذهب قوم إلى كراهة ذلك ، لأنه مأخوذ عن ملوك العجم . قال ميمون ابن مهران : كان العجم يبدؤون بملوكهم إذا كتبوا إليهم . وقد روى عن العلاء ابن الحضرمي أنه كتب إلى النبي صلى الله عليه وسلم فبدأ بنفسه . وعن الربيع ابن أنيس قال : ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه يكتبون إليه يبدؤون بأنفسهم . وعلى ذلك جرى في " نهاية الأرب " فقال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمرأء جيوشه يكتبون إليه

كما يكتب إليهم : يبدؤون بأنفسهم . وعن ميمون بن مهران أنه قال : كان ابن عمر إذا كتب إلى أبيه كتب « من عبد الله بن عمر إلى عمر بن الخطاب » . وعن يحيى بن سعيد القطان قال : قالت لسفيان الثوري : اكتب إلى أمير المؤمنين يعني المهدي ، قال : إن كتبت إليه بدأت بنفسى - قلت : فلا تكتب إليه إذن . وهذه الأقوال كلها جانحة إلى ترجيح بدء المكتوب عنه بنفسه . قال أبو جعفر النحاس : وهذا عند أكثر الناس هو الإجماع الصحيح ؛ لأنه هو إجماع الصحابة رضى الله عنهم .

وتعلم أن الذاهبين إلى جواز الابتداء باسم المكتوب إليه اختلفوا : فذهب قوم إلى أنه إنما يكتب « إلى فلان من فلان » كما تقدم في كتاب ابن عمر إلى معاوية ، ولا يكتب « لفلان من فلان » . وأستشهد لذلك بما روى عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال : يكتب الرجل « من فلان إلى فلان » ولا يكتب لفلان ؛ وبما روى عن هشيم عن المغيرة عن إبراهيم انه قال : كانوا يكرهون أن يكتبوا « بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان » لكن قد روى أن رجلا كتب عند ابن عمر « بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان » فقال ابن عمر : مه ! فإن أسم الله هوله إذن . ومقتضى ذلك أن الكراهة إنما هي لإيهام أن البسملة للمكتوب إليه ، لا للابتداء باسم المكتوب إليه .

وذهبت طائفة إلى جواز أن يكتب « لفلان من فلان » واحتج لذلك بما روى عن مالك بن أنس عن عبد الله بن دينار أن ابن عمر كتب إلى عبد الملك ابن مروان : « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر » وهو ظاهر ، فقد كانت مكاتبة خالد بن الوليد والنجاشي والمقوقس

« لمحمد رسول الله » على ما سيأتى ذكره . وعلى ذلك كانت المكتبة للخلفاء : فكان يُكتب لعمر بن الخطاب رضى الله عنه من عماله وغيرهم « لعبد الله عمر امير المؤمنين » وعلى ذلك جرى الحال فى المكتبة إلى سائر الخلفاء بعده على ما ستقف عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثالث

(ان يفتح الكتاب بلفظ أما بعد)

وعليه ورد بعض المكاتبات الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعن الخلفاء من الصحابة فمن بعدهم فى صدر الإسلام على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وكانوا بعد حدوث الدعاء فى المكاتبات يُتبعونها بالدعاء بطول البقاء غالباً ، فيقال : « أما بعد أطال الله بقاءك » ونحو ذلك ؛ ثم أُضرب عنها بعض الكتاب بعد ذلك . قال أبو هلال العسكري : فى كتابه « الصناعتين » : وكان الناس فيما مضى يستعملون فى أوائل فصول الرسائل « أما بعد » وقد تركها جماعة من الكتاب فلا يكادون يستعملونها . قال : وأظنهم أَلَمُوا بقول ابن القريّة - وقد سأله الججاج عما يُنكره من خطابه - فقال : إنك تُكثر الرّد، وتشير باليد، وتستعين بأما بعد . فتحاموها لهذه الجهة . ثم قال : فإن استعملتها أتباعا للسلف ورغبةً فيما جاء فيها من التأويل أنها فصل الخطاب ، فهو حسن ؛ وإن تركتها توخياً لمطابقة أهل عصرك ، وكرهيةً للخروج عما أصلوه لم تكن ضائراً . أما الآن فقد ترك الأبتداء فى الكتب بأما بعد

(١) فى الاصل وعلى كل حال وهو سبق قلم كما هو ظاهر .

حتى لا يكاد يُعوّل عليها في الابتداء كاتبٌ من كُتّاب الزمان ، ولا يفتّح بها مكالبة .
 نعم يؤتى بها في أثناء بعض المكاتبات على ماسياتي ذكره إن شاء الله تعالى .
 وقد تقدّم الكلام على معناها وأول من قالها في الكلام على الفوائح في المقالة
 الثالثة ، وكُتّب المغاربة ربما أفتتحوا مكاتباتهم بلفظ وبعد .

الأسلوب الرابع

(أن تفتتح المكالبة بحُطبة مفتّحة بالحمد لله)

وأصل هذه المكالبة مختلّس من الأسلوب الأول من قولهم : فإني أحمد إليك الله
 الذي لا إله إلا هو . ثم جاء عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان بن محمد : آخر
 خلفاء بني أمية ، وأطال التّحميدات في صدور الكُتّب مع الإتيان بأما بعد ،
 وتبعه الكُتّاب على ذلك ؛ ثم توسّعوا فيه حتى كرّروا الحمد المرّات في الكُتّب
 الواحد ، لاسيما في أماكن النعم الحادثة ، كالمفتوحات ونحوها ؛ ثم توسّع بعض
 الكُتّاب في ذلك حتى جعل الحمد لله افتتاحا ، واستمرّ ذلك إلى الآن . وعلى ذلك
 بعض المكاتبات السلطانية في زماننا ، على ما ستقف على ذلك جميعه في مواضعه
 إن شاء الله تعالى .

ولا خفاء في أن الحمد أفضل الافتتاحات ، وأعلى مراتب الابتدآت ، وإن لم
 يقع الابتداء به في صدر الإسلام ، فهو من المبتدعات المستحسنّة . وحيث أفتتحت
 المكالبة بالحمد لله كان التخلّص منها إلى المقصود بأما بعد ؛ وربما وقع التخلّص
 بغير ذلك ، ويكون الاختتام فيها تارةً بالسلام ، وتارةً بالدعاء ، وتارةً بغير ذلك . قال
 ابن شيث في " معالم الكتابة " : والتّحميد في أول الكُتّب لا يكون إلا في الكُتّب

المكتوبة عن السلطان . قال : وغاية عظمة الكاتب أن يكرّر التعميد ثانية وثالثة في الكتاب ، ثم يذكر الشهادتين والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم .
قلت : والتكرار في الحمد يكون بحسب مقدار النعمة المكتوب بسببها من فتح ونحوه .

الأسلوب الخامس

(أن تفتّح الكتاب بلفظ « كتابي إليك » أو « كتابنا إليك من موضع كذا ، أو في وقت كذا والأمر على كذا » وتشرح القضية ؛ وتختتم المكتوبة « بكتابنا إليك » بنحو قولك : « فإن رأيت أن تفعل كذا فعلت »
والمكتوبة « بكتابي إليك » بنحو قولك : « فرأيك في كذا » وما يجري هذا المجرى)

والأصل في هذه المكتوبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكتب في بعض المكتوبات الصادرة عنه : « هذا كتاب من محمد رسول الله إلى فلان ، أو إلى الجماعة الفلانيين » . فلما كان أيام بني بويه في أثناء الدولة العباسية ، أستخرج كتابها من هذا المعنى الأبتداء « بكتابي إليك » إذا كانت المكتوبة إلى النظير ومن في معناه ، والأبتداء « بكتابنا إليك » إذا كانت المكتوبة عن له رتبة نون العظمة من الملوك ونحوهم ؛ وكانوا يتبعون ذلك بالدعاء بطول البقاء نحو « كتابي إليك أطال الله بقاءك » أو « كتابنا إليك أطال الله بقاءك » . وربما عبر « بهذه الخدمة »^(١) وما أشبه ذلك ؛ ويكون التخلص فيه إلى المقصد بواو الحال ، مثل أن يقال : « كتابي إليك والأمر على كذا وكذا » ونحو ذلك ؛ وربما وقع التخلص بخلاف ذلك . ويكون الاختتام فيه

(١) أى عبر بديل كتابي إليك مثلا بقوله « هذه الخدمة إليك » كما يؤخذ مما أتى في الأسلوب الحادى عشر

تارةً بالسلام وتارةً بالدعاء ، وتارةً بغير ذلك . وكُتِبَ المُغْرِبُ عدلوا عن لفظ الأسم
في كُتِبَ إلى لفظ الفعل . مثل أن يقال : « كُتِبْنَا إِلَيْكَ » أو « كُتِبْتُ إِلَيْكَ وَالْأَمْرُ
عَلَى كَذَا ، أو من مَوْضِعِ كَذَا » .

الاسلوب السادس

(أن تقع المكاتبه بلفظ « كَتَبَ » بصيغة الفعل)

وهذه المكاتبه كان يُكْتَبُ بها عن الوزراء ومن في معناهم إلى الخلفاء . فيكتب
الوزير ونحوه : « كَتَبَ عَبْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » أو « كَتَبَ الْعَبْدُ مِنْ مَحَلِّ خِدْمَتِهِ بِمَكَانِ
كَذَا ، وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا وَكَذَا » . وعلى نحوٍ من ذلك يجرى كُتَابُ الْمُغَارِبَةِ فِي الْكَثِيرِ
مِنْ كُتُبِهِمْ ، مِثْلَ « إِنَّا كُتِبْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ مَحَلِّ كَذَا » أو « كُتِبْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَحَلِّ كَذَا »
وما أشبه ذلك . وهذه في الأصل مأخوذة من الأسلوب الذي قبل .

الاسلوب السابع

(أن يقع الافتتاح بالدعاء)

والأصل في ذلك ما حكاه ابو جعفر النحاس : ان معاوية بن أبي سفيان كتب
إلى امير المؤمنين علي بن ابي طالب رضى الله عنه عند جريان الخلاف ووقوع
الحرب بينهما : « أما بعد عافانا الله وإياك من السوء » . ثم زاد الناس في الدعاء
بعد ذلك .

وقد اختلف في جواز المكاتبه بالدعاء في الجملة : فذهب ذاهبون إلى جواز ذلك
كما يجوز الدعاء في غير المكاتبه ، سواء تضمن الدعاء معنى الدوام والبقاء ام لا . وهو

الذى رَجَّحه محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" وإليه يميل كلام غيره أيضا، وحكاها النحاس عن أبي جعفر أحمد بن سلامة، وكلامه يميل إلى ترجيحه .
 أما ما يتضمن معنى الدوام والبقاء ، فلما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي اليسر كعب بن عبيدة^(١) : "اللهم أمتعنا به" قال النحاس : وذلك دليل الجواز ، بل حكي عن بعضهم أن الدعاء بطول البقاء أكل الدعاء وأنعمه ، لأن كل نعمة لا ينتفع بها إلا مع طول البقاء . ثم قال : والمعنى في الدعاء في المكتبات التودد والتعجب ؛ وقد أمر صلى الله عليه وسلم المسامحين أن يكونوا إخوانا ، ومن أخوتهم ود بعضهم بعضا . وكذلك القول بما يؤكد الأخوة بينهم والمودة من بعضهم لبعض ، وإذا قال له ذلك ، كان قد بلغ من قلبه نهاية مبلغ مثله منه ؛ ويكون من قال ذلك قد علم من قلبه في شأنه ما يكون من قلب مثله . وقد قال الشيخ محي الدين النوى :
 من قال لصاحبه - حفظا لمودة - : «أدام الله لك النعم» ونحو ذلك فلا بأس به .



وأما ما لم يتضمن معنى الدوام والبقاء : كالعز والكرامة ، فقد روى عن كعب بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منك مقتل حمزة ؟ فقلت : أعزك الله ! أنا رأيتُه » . وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : دخل جرير بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم ، فظن الناس بمجالسهم فلم يوسع له أحدا ، فرمى له رسول الله صلى الله عليه وسلم ببردته وقال اجلس عليها يا جرير ، فتلقها بوجهه ونحوه فقبلها ثم ردها على ظهره ، وقال : أكرمك الله

(١) سبق في صفحة ٢٩٢ من هذا الجزء كعب بن عبيد الله والذي في "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال"

للخزرجي ص ٣٢١ أنه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غزيرة بن سواد بن غم بن كعب بن سسلبة الانصارى السلمي بالفتح أبو اليسر بفتح التحتانية عفى بدرى جليل . فلعن عليه أمم أمه .

يارسول الله كما أكرمتني» فقد دعا له صلى الله عليه وسلم كعب بن مالك بالعرز، وجرير بن عبد الله بالكرامة ولم يُتكر ذلك علي واحدٍ منهما .

وذهب آخرون إلى أنه لا تجوز المكتابة بالدعاء، سواء تضمن معنى الدوام والبقاء أم لا: لأنه خلاف ماوردت به السنة وجرى عليه اصطلاح السلف .

وفصل بعضهم فقال: إن كان الدعاء مما لا يتضمن معنى الدوام والبقاء نحو «أكرمك الله بطاعته» و«تولاك بحفظه» و«أسعدك بمعرفته» و«أعزك بنصره» جاز، لحديثي كعب بن مالك وجرير بن عبد الله المتقدمين . وإن كان مما يتضمن معنى الدوام والبقاء، نحو «أطال الله بقاءك» و«نساء أجلك» و«أمتع بك» وما أشبه ذلك، لم تجز المكتابة به .

وأحجج لذلك بحديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه " أن أم حبيبة بنت أبي سفيان، زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: اللهم أمّني بزواجي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي أبي سفيان وبأخي معاوية - فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد دعوت الله لآجال مضرّوبة، وأرزاق مقسومة لا يتقدم منها شيء قبل أجله ولا يتأخر بعد أجله! ولو سألت الله أن يقيك عذاب النار لكان خيراً لك" وبما روى أن الزبير بن العوام رضى الله عنه! قال للنبي صلى الله عليه وسلم: «جعلني الله فداك» . فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «أما تركت أعرايتك بعد؟» فقد أنكر صلى الله عليه وسلم على أم حبيبة والزبير الدعاء بما فيه طول البقاء؛ وإذا امتنع ذلك في مطلق الدعاء، امتنع في المكتابة من باب أولى: لخالفه طرفها التي وردت بها السنة . قال حماد بن سلمة: كانت مكتابة المسلمين «من فلان إلى فلان»، أما بعد سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأسأله

أن يصلى على محمد عبده وآل محمد « حتى أحدث الزنادقة - لعنهم الله - هذه المكتابة التي أولها « أطال الله بقاءك » .

وعن إسماعيل بن إسحاق أن أول من كتب « أطال الله بقاءك » الزنادقة . وقد قال الإمام الرافعي وغيره من أئمة أصحابنا الشافعية : إن الدعاء بالطبقة - وهي أطال الله بقاءك - لأصل له في الشرع . قال الشيخ محيي الدين النووي : وقد نص السلف على كراهته . ونقل النحاس عن بعضهم : أنه استحب تقييده بالإضافة إلى شيء آخر، مثل أن يكتب « أطال الله بقاءك في طاعته وكرامته » أو « أطال الله بقاءك في أسر عيش وأتم بال » وما أشبه ذلك .

وأعلم أن الناس قد اختلفوا في صورة الابتداء بالدعاء : فالأولون - لأبتداع الدعاء في المكتبات - كانوا يفتتحون بطول البقاء للخلفاء وغيرهم ؛ ثم توسعت الطبقة الثانية من الكتاب في المكتبة فافتتحوا بالدعاء للخلفاء والملوك بخلود الملك ، ودوام الأيام ، ودوام السلطان وخلوده ، وما في معنى ذلك ؛ ولمن دوتهم بعد النصر والنصرة والأنصار بدوام النعمة وخلود السعادة ومدّ الظل وإسباغ الظلال ، وغير ذلك مما يأتي ذكره في الكلام على مصطلح كل طبقة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ثم للكتاب في الخطاب^(١) بالدعاء مذهبان :

أحدهما - أن يقع الدعاء بلفظ الخطاب ، نحو « أطال الله بقاءك ، وأعزك الله ، وأكرمك الله ، وأدام كرامتك وسعادتك » وما أشبه ذلك .

والثاني - أن يقع بلفظ الدعاء للغائب مثل : « أطال الله بقاء أمير المؤمنين » و« أطال الله بقاء سيدي » و« أطال الله بقاء مولانا » أو « أعز الله أنصار المقام أو المقر »

(١) كذا في الأصول ولعله في الاتيان بالدعاء الخ .

أو « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب » أو « أدام الله نعمة الجناب أو المجلس » وما أشبه ذلك .

قال في "صناعة الكتاب" : وهو أجل الدعاء فيما أصطلحوا عليه . قال : ورأيتُ عليَّ بن سليمان يُنكر ذلك ويقول : الدعاء للغائب جهل باللُّغة ، ونحن ندعو الله عز وجل بالمخاطبة .

الأسلوب الثامن

(أن يُفْتَحَ الكُتَابُ بِالسَّلَامِ)

ويقع التخلُّص إلى المقصود بلفظ « وَبُنْدَى لِعَلْمِهِ » أو نحو ذلك ، ويقع الاختتام فيه بالسَّلَام أيضا ؛ وهو منتزَع من قولهم في صدر المكتبة في الأسلوب الأول : سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ ؛ تصرف الكُتَابُ فِيهِ بِفَعْلُوا السَّلَامَ فِي آبْتَدَاءِ الْمَكْتَبَةِ ، وصاروا يبتدئونها بنحو سَلَامُ اللَّهِ وَرَحْمَتُهُ وَبَرَكَاتُهُ . وقد كانوا يبتدئون المكتبة إلى الخلفاء ببغداد في الدولة الأيوبية بالديار المصرية بالسَّلَام في بعض الأحيان ، وعلى ذلك استقرت المكتبة عن الخليفة الآن . وبه يُفْتَحُ بعضُ المكتبات إلى مشايخ الصُوفيَّة ، على ما سيأتي في الكلام عليه في موضعه إن شاء الله تعالى .

قال في "صناعة الكتاب" : وإنما قدّموا السَّلَامَ على الرحمة لتصرّفه : لأنه من أسماء الله تعالى أو جمعُ سلامة . قال في "موادّ البيان" : أو أسمٌ لِلجَنَّةِ كما في قوله تعالى : ﴿ لَمْ يَدْخُلُوا السَّلَامَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ثم عَقَّبَ ذلك بأن قال : والسَّلَامُ في هذا الموضع من السَّلَامَةِ ، وتقديمُ السلامة التي تكونُ في الدنيا أولى من تقديم الرحمة التي تكون في الآخرة .

الأسلوب التاسع

(أَنْ يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِقَبْلِ الْأَرْضِ)

ويتخلص إلى المقصود بلفظ « وينهى » ويقع الاختتام بـ « طالع » أو « أنهى » وهذه المكتبة مما هو موجود في بعض مكاتبات القاضي الفاضل ، ولم أرها فيما قبله ؛ وكأنهم لما استعملوا في صدور المكاتبات إلى الخلفاء المكتبة يقبل الأرض والعتبات ونحو ذلك ، استنبطوا منه ابتداء مكتبة وجعلوها لمكتبة الرؤساء من السلطان ومن في معناه بالنسبة إلى الرؤوس . والأصل في ذلك أن تحية الملوك والرؤساء والأكابر في الأمم الخالية كانت بالسجود ، كما يحیی المسلمون بعضهم بعضا بالسلام . وقد قال قتادة في قوله تعالى حكاية عن إخوة يوسف عليهم السلام : ﴿ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ﴾ : كانت تحية الناس يومئذ يسجد بعضهم لبعض ، وعليه حمل قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ على أحد التفاسير ، وهو المرجح عند الإمام نحر الدين وغيره من المفسرين . قال الشيخ عماد الدين بن كثير رحمه الله في تفسيره : وكان ذلك مشروعا في الأمم الماضية ولكنه نسيخ في ملتنا . قال معاذ « يارسول الله ! إني قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لآسافقتهم وعلماهم فانت يارسول الله أحق أن يسجد لك . فقال : [لا] لو كنت أمرا بشرا أن يسجد لبشر لا أمرت المرأة أن تسجد لبعلها من عظم حقه عليها » . وعن صهيب : « أن معاذ [لما] قدم من اليمن سجد للنبي صلى الله عليه وسلم فقال يا معاذ [ما هذا ؟] قال [إن اليهود تسجد لعظماهم وعلماهم ، ورأيت النصارى تسجد لقسيسها وبطارقتها ، قلت ما هذا ؟ قالوا تحية الأنبياء - فقال عليه السلام : كذبوا على أنبيائهم » .

(١) الزيادة عن تفسير ابن كثير .

(٢) الزيادة عن مفاتيح الغيب للفخر الرازي .

وعن سفيان الثوري عن سِمَاكِ بْنِ هَانِيٍّ قَالَ : دَخَلَ الْجَائِلِيْتُ عَلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ، فَأَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ لَهُ ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ : أَسْجُدْ لِلَّهِ وَلَا تَسْجُدْ لِي .

فَلَمَّا وَرَدَتْ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ بِنَسْخِ التَّحِيَّةِ بِالسُّجُودِ وَغَلَبَ مَلُوكُ الْعَجَمِ عَلَى الْأَقْطَارِ ، اسْتَصْحَبُوا مَا كَانَ عَلَيْهِ الْأَمْرُ فِي الْأُمَّةِ الْخَالِيَةِ ، وَعَبَّرُوا عَنْهُ بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ فِرَارًا مِنْ أَسْمِ السُّجُودِ وَلِوُرُودِ الشَّرِيعَةِ بِالنَّهْيِ عَنْهُ ؛ وَاسْتَمَرَّ ذَلِكَ تَحِيَّةَ الْمُلُوكِ إِلَى الْآنَ ، فَاسْتَعَارَ الْكُتَّابُ ذَلِكَ وَنَقَلُوهُ مِنَ الْفِعْلِ إِلَى اللَّفْظِ ، فَاسْتَعْمَلُوهُ فِي مَكَاتِبِهِمْ إِلَى الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ ؛ ثُمَّ تَوَسَّعُوا فِي ذَلِكَ فَكَاتَبُوا بِهِ كُلَّ مَنْ لَهُ عَظْمَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَكْتُوبِ عَنْهُ ، وَرَتَّبُوهُ مَرَاتِبَ عَلِيٍّ مَاسِيَاتِي بَيَانُهُ فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَلَا خَفَاءَ فِيمَا فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ مِنَ الْكَرَاهَةِ .

الأسلوب العاشر

(أَنْ يُفْتَحَ الْكِتَابُ بِقَبْلِ الْيَدِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِنَ الْبَاسِطِ وَالْبَاسِطَةِ)

وَيَقَعُ التَّخْلُصُ مِنْهُ إِلَى الْمَقْصُودِ بِمَا يَقَعُ بِهِ التَّخْلُصُ فِي الْأَسْلُوبِ الَّذِي قَبْلَهُ مِنَ الْإِنْهَاءِ ؛ وَيُحْتَمُّ بِالْإِنْدَاءِ وَنَحْوِهِ .

وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ أَنْ يُقْبَلَ الْيَدُ وَمَا فِي مَعْنَاهَا مِمَّا يُؤْذَنُ بِالتَّعْظِيمِ ، وَالتَّجْعِيلِ وَالتَّكْرِيمِ ، وَعُلُوُّ التَّقْدِيرِ وَزِيَادَةُ الرَّفْعَةِ ، مَعَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَمْنُوعٍ فِي الشَّرِيعَةِ . فَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِينَ فِي حَدِيثِ الْإِفْكِ : « أَنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى بَرَاءَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، قَالَ لَهَا أَبُوهَا : قُومِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَبِّلِي يَدَهُ » . وَلَمْ يَكُنِ الصَّدِيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِيَأْمُرَهَا بِمَا هُوَ مَمْنُوعٌ فِي الشَّرِيعَةِ . وَقَدْ نَصَّ الْفُقَهَاءُ

رحمهم الله على أنه يجوز تَقْيِيلُ يَدِ العالم والرجلِ الصالح ونحوهما، فاستعار الكُتَّاب ذلك ونقلوه من الفعل إلى الكتابة أيضا، كما فعلوا في تَقْيِيلِ الأرض، ورَتَّبوه مراتب على ما سياتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى . على أنَّ بعض الكُتَّاب قد جعل يُقَبِّلُ القَدَمَ رتبةً بين يُقَبِّلُ الأرضَ ويُقَبِّلُ اليدَ وما في معناها، وهو ظاهر لكنه لم يشتهر في عُرف الكُتَّاب .

الأسلوب الحادى عشر

(أن يُفْتَحَ الكُتَّابُ بلفظ « صدرتِ المكتبةُ »)

ويتخلص فيها إلى المقصود بلفظ « وتوضَّح لعلمه » أو « موضحة لعلمه » وما أشبه ذلك . ويقع الاختتامُ فيها بمثل « والله الموفق » ونحو ذلك . وربما قيل فيها : « أُصدِرَت هذه المكتبةُ » أو « أُصدِرَناها » .

وأصل هذه المكتبة أنه كان يُكْتَبُ في الدَّولة السَّلْجُوقِيَّة ببغداد، والدولة الأيوبيَّة بالديار المصرية « صدرت هذه الخدمة » أو « أُصدِرَت هذه الخدمة » . وربما كتب « صدرت هذه الجملة » فعدل عنه كُتَّاب الزمان بالديار المصرية ومن قاربهم إلى التعبير بقولهم : « صدرت هذه المكتبةُ » . على أن كُتَّاب الزمان بالديار المصرية إنما أخذوها من صُدُور المكاتبات المفتحة بالدعاء : مثل أعزَّ الله أنصار المقرِّ، حيث يقال في تصديرها « أُصدِرَناها » ومثل « ضاعف الله نعمة الجناب » و« أدام الله نعمة الجناب أو المجلس » وما أشبه ذلك ، حيث يقال في تصديرها : « صدرت هذه المكتبةُ » فجعلوا الصُّدُورَ ابتداء .

الأسلوب الثاني عشر

(أن يفتح الكتاب بلفظ « هذه المكتبة »)

ويتخلص منها إلى المقصود بنحو ما وقع التخلُّص به في الأسلوب الذي قبله ،
ويقع الأختتامُ بمثل ما وقع به أختتامه .

وهذه المكتبة مأخوذة في الأصل من آبتدائهم في الأسلوب الخامس بلفظ :
« كتابي إليك » وما في معناه ، على أن كُتِّبَ الزمان إنما أخذوا ذلك من المكتبة التي
قبلها ، فجعلوا بعض الصِّدْر فيها آبتداءً ، كما جعلوا جميع الصِّدْر آبتداءً في الأسلوب
الذي قبلها .

الأسلوب الثالث عشر

(أن يفتح الكتاب بالإعلام)

كما يكتب كُتِّبَ الزمان : « يعلمُ فلانٌ أن الأمر كذا وكذا » والأختتامُ فيها بمثل
الأسلوبين اللذين قبلها ولا تخلُّص فيها ، لأن الافتتاح فيها موصل إلى المقصود . على
أن الصواب إثبات اللام في أولها ، بأن يقال : « ليعلمُ فلان » لأن لام الأمر لا يجوز
حذفها على ما تقرَّر في آخر المقالة الثالثة . وعلى ذلك كتب غازانُ أحد ملوك بني
جنك خان ببغداد وما معها إلى الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار
المصرية ، وكُتِّبَ الجوابُ عن الملك الناصر إليه كذلك ، على ما سيأتي ذكره في موضعه
إن شاء الله تعالى .

الاسلوب الرابع عشر

(أن يفتح الكُتابُ بلفظ « يُحْدُم »)

مثل « يُحْدُمُ الجَنَابَ » أو « يُحْدُمُ المَجْلِسَ » وما أشبه ذلك . ويكون التخلُّصُ منها بمثل : « وَيُنْهِى » أو « وَيُبْدِي » ونحو ذلك ؛ ويقع الأختتامُ فيها بالدعاء . وهذه المكتبةُ كانت مستعملةً في مكاتباتِ الفاضلِ بقلَّةٍ ، وتداولها الكُتَّابُ بعد ذلك إلى أن صارت مستعملةً بين الكُتَّابِ في المكاتباتِ الدائرةِ بين أهلِ الدَّوْلَةِ في زماننا ؛ ثم رُفِضَتْ بعد ذلك وتركتُ حتى لم يستعملها منهم إلا القليلُ النادرُ .

الأسلوب الخامس عشر

(أن يُفتح الكُتابُ بلفظ الخِلافةِ أو المَقَامِ الذي شأنُهُ كذا ،

أو الإمارةِ التي شأنُها كذا)

مثل : « خِلافةِ فلان » أو « مَقَامِ فلان » أو « إمارةِ فلان » وما أشبه ذلك . ثم يقع التخلُّصُ في ذلك بمثل : « معظَّمُ مقامها يُحصيها بِسَلامٍ صِفْتُهُ كذا وَيُبْدِي لِعَلْمِها كذا » وما أشبه ذلك . ويقع الأختتامُ فيها بِالسَّلامِ ؛ وهذا الأسلوبُ مما آخِضَ به كُتَّابُ المَغربِ لاسيما المتأخرون منهم ، على ما سيأتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

قلت : ووراء هذه الأساليبِ أساليبٌ أُخرى لُكِّتْ لِكُتَّابِ أَهْلِ الشَّرْقِ وَالغَرْبِ بِالديارِ المِصرِيةِ في الأزمنةِ المُتقدِّمةِ ، لا يأخذُها حصرٌ ، ولا تدخُلُ تحتَ حَدِّ ، وأكثَرُ ما تكونُ في الإخوانياتِ ، وسيأتى ذِكرُ الكثيرِ من أنواعِها في مواضعه فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات إلى أهل الكُفر، وللكُتب فيه أُسلوبان)

الأُسلوب الأوّل

(أن تُفتّح المكاتبةً بلفظ «من فلانٍ إلى فلان»)

وعلى ذلك كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلم إلى أهل الكُفر، وكان يُكتب في مكاتباته صلّى الله عليه وسلم : «السلامُ علىّ من أتبع الهدى» بدل «والسلام» ويتخلّص فيها بأما بعد تارة، وبغيرها أخرى؛ وعلى ذلك جرى الخلفاء من الصحابة رضی الله عنهم، وخلفاء بني أمية، وخلفاء بني العباس ببغداد، ومن شاركهم في الأمر من ملوك بني بويه وبني سنجوق ومن في معناهم . وتُحتم هذه المكاتبة تارة بلفظ «والسلامُ علىّ من أتبع الهدى» إن لم يذكر السلامُ في الأوّل، وتارة بغير ذلك .

الاسلوب الثاني

(أن تُفتّح المكاتبةُ بالدعاء)

كما يكتبُ كُتاب الزمان «أطال الله بقاء الحضرة الفلانية : حضرة الملك الفلاني» أو «أطال الله بقاء الملك الفلاني» وما أشبه ذلك . وقد تقدّم الخلاف في أصل جواز المكاتبة بالدعاء ، وما قيل في الدعاء بطول البقاء وما في معناه : من الكراهة ، وأن جماعة من العلماء والكُتاب أجازوه .

فإن قيل : على تقدير جواز ذلك في حقّ المسلم ، فكيف يجوز في حقّ الكافر . فالجواب أنه قد ورد « أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم استسقى فسقاه يهوديٌّ ،

فقال له : جَمَلَك اللهُ، فما رُؤِيَ الشَّيْبُ في وَجْهه حتى مات» فقد دعا صَلَّى اللهُ عليه وسلم ليهودىَّ بالجمال ، وقد لا يكون في طول بقائه على الإسلام ضرراً، بل قد يكون فيه نفعٌ ، كحملِ حزية ونحوه، وإنما يُمنَعُ الدعاءُ له بالعزِّ والنصر وما في معنى ذلك .

تنبه — اعلم أن الأجوبةَ قد تُفتَحَ بما تُفتَحُ به الأبتداءاتُ من الأساليبِ المتقدِّمة ، ثم يُؤتى بالأجوبة في أثنائها مثل أن يقال : « وقد وصل كتابُ المجلسِ أو الجَنَابِ » أو « وردتْ مكاتبتُه » أو « عُرضتْ مكاتبتُه على أمير المؤمنين ، أو على المَسَامعِ الشريفةِ » وما أشبه ذلك . وقد يُجَعَلُ الجوابُ ابتداءً ، فيُفتَحَ الكتابُ بنحو : « عُرضتْ مكاتبتك على أمير المؤمنين » مثلاً كما كان يكتب في الزمن المتقدِّم ، أو « عُرضتْ المكاتبَةُ الواصلةُ من جهة المجلسِ أو الجَنَابِ الفلانى على المَسَامعِ الشريفةِ » أو « وردتْ مكاتبتُه » أو « وصلتْ مكاتبتُه » ونحو ذلك ، ويؤتى على ما تضمَّنته المكاتبَةُ وما اقتضاه الجوابُ عنه ؛ ثم يُؤتى في الاختتامِ بنظير ما يُؤتى به في المكاتبَةِ المبتدأة .

الطرف الثاني

(في ذكر لواحق المكاتبات ولوازمها ، وفيه ستُّ جملٍ)

الجملة الأولى

(في الترجمة عن المكتوب عنه)

أما الترجمة عن السلطان ، فقد ذكر ابن شيث أنَّ مصطلحَ الدولة الأيوبية أن يكتبَ لأربابِ خدمته العلامةَ فإنها أليقُ به معهم . فإن أراد تمييزَ أحدٍ منهم ، كتب له بخطه شيئاً مكانَ العلامةِ ؛ وأن ترجمته للفقهاء والقضاة وذوى التنسُّكِ « أخوه »

و «ولده» . وذكر أن الأحسن أن يقال في «ولده» «محل ولده» لقوله تعالى :
 (أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ) أما «أخوه» فلا حرج عليه فيه : لقوله تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ)
 وقوله : (فَأَخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ) وذكر أنه يترجم لهؤلاء من وليّ الأمر أيضا :
 «المعترف ببركتيه» و «المتبرك بدعائه» و «المرتبن بمودته» . وذكر أن الفقهاء
 والقضاة وذوي التنسك يترجمون عن أنفسهم بـ «الخادم» ودون ذلك «خادمه» .

قال : وربما ترفعوا عن الترجمة بهذه اللفظة مطلقا فقالوا : «الخادم بالدعاء
 الصالح» أو «الخادم بدعائه» . قال : وأهل الورع خاصة يترجمون بـ «الفقير إلى
 رحمة الله» . وربما راعوا المترجم له مثل أن يكون وليّ الأمر ، فيقول : «العبد
 الفقير إلى رحمة الله» ويعنى أنه عبد الله ، ويحصل بذلك المقصود من الأدب مع
 السلطان . ومنهم من يكتب : «الداعي لدولته» و «المتبذل بدعائه الصالح لأيامه»
 و «المواظب على خدمته بالدعاء» وأمثال ذلك . قال : وأكثر الناس يرى الترجمة
 لولده ، فإن ترجم له لم يسم اسمه لأنه ليس له والدان ، ولا أقل من أن يكون بينه
 وبين من يكتب بوالده غير الأب هذا الفرق ؛ فأما أن يقول : «والله فلان بن
 فلان» بحيث يذكر اسم أبيه فسيح . ثم قد كانوا في الزمن الأول يكتبون بذكر اسم
 المكتوب عنه في صدر الكتاب وعنوانه ، نحو : «من فلان إلى فلان» ثم أحدث
 الكتاب في أيام بني بويه وما بعدها تراجم ربوها ، بعضها أرفع من بعض .

وقد ذكر في «ذخيرة الكتاب» لذلك مراتب في الصدور والعنوان بعضها أعلى
 من بعض ، فجعل أعلاها بالنسبة إلى المكتوب عنه أن يكتب اسمه ، ودونه
 «صديقه» ودونه «محبه» ودونه «شاكه» ودونه «المعتد به» ودونه «أخوه»
 ودونه «وليّه» ودونه «عبدّه» ودونه «خادمه» ودونه «عبدّه وخادمه» ودونه

«العبد» ودونه «العبد الخادم» ودونه «الصنيعة» ودونه «مملوك» ودونه «المملوك» ودونه «المملوك الصنيعة». وهو الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . ثم قال : ويتفرع من هذه الأصول فروع كثيرة لا تحصر مما يختاره الكتاب ويقترحونه ويتكرونها ، ويكتبون به أصدقاؤهم وأوداءهم حسب ما تقتضيه موداتهم وتوجيه مصافاتهم : كصفي مودته ، والمفتخر بمحبته ، والمعتمد على أخوته ؛ وعبد مودته ، وخادم مجده ، وشاكر أياديه ، وحامد تفضله ، والمعتمد بتطوله وما يجري هذا المجرى مما هو أوسع من أن يجمع وأكثر من أن يمحصر ؛ ولكنه أكثر ما يكون بين النظراء والأقران .

ورتب عبد الرحيم بن شيث في "معالم الكتابة" ترتيباً آخر : فذكر أن الترجمة إلى ديوان الخلافة من ذوى الولايات كلهم «العبد» ومن المملوك كلهم «الخادم» وأن الترجمة إلى المملوك من الأجناد كلهم «المملوك» مع النسبة إلى أشهر ألقاب الملك : كالناصرى للناصر ، والعالى للعال ، وما جرى مجرى ذلك . ودون المملوك فى الخضوع : «عبد ، وخادم» ودونه «العبد» مفردة . ودونه «مملوك» ودونه «العبد الخادم» لأن الثانى كأنه ناسخ للأول ؛ ودونه «الخادم» ودونه «عبد» ودونه «خادم» ودونه «عبد وأخوه» ودونه «أخوه» ودونه «شاكر تفضله» ودونه «شاكر إحسانه» ودونه «شاكر مودته» ودونه «وليّه وصفيّه» ودونه «محبّه ووادّه وشاكره» . ودونه الأسم ، ودونه العلامة .

ثم قال : أما «أصغر الممالك» وما يجري مجراها ، فلا يليق من الأجانب . ورأيت فى دستور صغير فى المكاتبات يعزى للمقرر الشهابى بن فضل الله ، أن أكبر الآداب فى أسم المكتوب عنه بالنسبة إلى المكتوب إليه «المملوك» ثم «المملوك الرق» ثم «المملوك الأصغر» ثم «المملوك المحب» ثم «المملوك الداعى» ثم «مملوكه ومحبه» ثم «الخادم»

ثم «خادمه» ثم «أخوه» ثم «مُحِبُّه» ثم «شاكِره» ثم «الفقيرُ إلى الله تعالى» .
ولا يخفى ما في بعض هذه التراجم من التخالف بين ما ذكره وما تقدم ذكره عن
«ذخيرة الكُتَّاب» .

والذي استقرَّ عليه الحال في زماننا في ترجمة العلامة بالقلم الشريف السلطاني
«أخوه» ثم «والده» ثم الأسمُ ؛ وفي حق غيره «المملوك» ثم الأسم . وربما كتب
بعضهم «العبد» بدل الأسم تواضعا . على أنهم قد اختلفوا في جواز الترجمة بالعبد
والمملوك : فذهب بعضهم إلى منع ذلك ، محتجا بما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم
قال : « لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَلَا أَمَّتِي ، كُلُّكُمْ عِبِيدُ اللَّهِ وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ اللَّهِ
وَلَكِنْ غُلَامِي وَجَارِيَّتِي » . والذي عليه العمل جواز ذلك احتجاجا بقوله تعالى :
(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ) والاستدلال به لا يخلو من نزاع ؛
وقضاة القضاة يكتبون «الداعي» .

الجملة الثانية

(في العُنُون ، وفيه سبع لغات)

حكاهها صاحبُ «ذخيرة الكُتَّاب» . واقتصر في «صناعة الكُتَّاب» على ذكر
بعضها : إحداها عُنُون - بضم العين وواو بعد النون . والثانية عُنَيَان - بضم العين
وياء تحية بعد النون . والثالثة عُنَيَان - بكسر العين . والرابعة عُلُون - بضم العين
ولام بدل النون . والخامسة عُلُون - بفتحها . والسادسة عُلُون - بكسرها .
والسابعة عُلَيَان بالكسر مع إبدال الواو ياء ؛ ويجمع عُنُونٌ على عُنَاوِينَ ، وَعُلُونٌ
على عَلَاوِينَ . ويقال : عَنُونَتِ الكُتَّابَ عَنُونَةٌ وَعَلُونَتُهُ عَلُونَةٌ ، وَعَنَنَتَهُ بنونين الأولى

منهما مشددة تَعِينَا، وَعَيْنَيْهِ بنون مشددة بعدها ياء تَعْنِيَّةٌ، وَعَوْتَهُ أَعْنُوهُ عَنَوَا بفتح العين وسكون النون، وَعُنُوَا بضمهما وتشديد الواو .

وَأَخْتَلَفَ فِي أَشْتَقَاقِهِ : فَمَنْ قَالَ عُنُوَانٌ، جَعَلَهُ مَأْخُودًا مِنَ الْعُنُوَانِ بِمَعْنَى الْأَثْرِ، لِأَنَّ عُنُوَانَ الْكُتَابِ [أَثْرِيَانٌ ^(١)] مِمَّنْ هُوَ إِلَى مَنْ هُوَ . قَالَ النَّحَّاسُ : وَأَكْثَرُ الْكُتَابِ لَا يَعْرِفُ غَيْرَ هَذَا ؛ وَأَحْتَجُّوْا لِذَلِكَ بِقَوْلِ الشَّاعِرِ يَذْكُرُ قَتْلَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « عَثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ :

صَحُّوا بِأَشْمَطِ عُنُوَانِ السُّجُودِ بِهِ * يَقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْءَانَا

وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْعُنُوَانَ مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ : عَنَتِ الْأَرْضُ تَعْنُوْا إِذَا أُنْحَرَجَتِ النَّبَاتُ، وَأَعْنَاهَا الْمَطْرُ إِذَا أَظْهَرَ نَبَاتَهَا . قَالَ النَّحَّاسُ : فَيَكُونُ عُنُوَانٌ عَلَى هَذَا فُعْلَانًا يَنْصَرِفُ فِي النَّكْرِهَ وَلَا يَنْصَرِفُ فِي الْمَعْرِفَةِ . وَقِيلَ هُوَ مَأْخُودٌ مِنْ عَنَ يَعْنُ، إِذَا عَرَضَ وَبَدَأ . قَالَ النَّحَّاسُ : فَعِلٌ هَذَا يَنْصَرِفُ فِي النَّكْرِهَ وَالْمَعْرِفَةَ لِأَنَّهُ فُعْلَالٌ .

وَمَنْ قَالَ : عُلوَانٌ ، أَبْدَلَ مِنَ النُّونِ لَامًا ، كَمَا فِي صَيْدِلَانِيٍّ وَصَيْدِنَانِيٍّ ؛ فَيَكُونُ الْأَشْتِقَاقُ وَاحِدًا . وَقِيلَ عُلوَانٌ مُشْتَقٌّ مِنَ الْعَلَانِيَّةِ، لِأَنَّهُ خَطُّ ظَاهِرٌ عَلَى الْكُتَابِ .

وَمَنْ قَالَ : عُنِيَانٌ وَعِينِيَانٌ، جَعَلَهُ مِنْ عَنَيْتِ فُلَانًا بِكَذَا إِذَا قَصَدْتَهُ . قَالَ فِي " مَوَادِّ الْبَيَانِ " : وَالْعُنُوَانُ كَالْعَلَامَةِ ، وَهُوَ دَالٌّ عَلَى مَرْتَبَةِ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ مِنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ . وَالْأَصْلُ فِيهِ الْإِخْبَارُ عَنْ أَسْمِهِمَا حَتَّى لَا يَكُونَ الْكُتَابُ مَجْهُولًا، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يَكْتُبُ فِيهِ « مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ » أَوْ « لِفُلَانٍ مِنْ فُلَانٍ » قَالَ : وَلَمْ يَزَالُوا يَكْتُبُونَ بِأَسْمَائِهِمْ إِلَى أَنْ وُلِيَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْخِلَافَةَ وَلُقِّبَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،

(١) الزيادة من الضوء للؤلؤف ص ٤٤١ .

(٢) عبارة الضوء والمعنى فيه وهو مراده بما هنا .

فكتب : « من عبد الله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب » . ثم وقع الأصلاح على العنونة للرؤساء والنظراء والمرؤوسين والأتباع بالأسماء ؛ ثم تغير هذا الرسم أيضا . وكان المأمور يكتب في أول عنوانات كتبه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكانت تكتب قبل اسم المكتوب إليه والمكتوب عنه . وقد ذكر أبو جعفر النحاس أن ذلك بقي إلى زمانه ، وكان بعد الثلاثمائة . قال في « مواد البيان » : ثم بطل بعد ذلك . قال : والأصل فيه أن يُبتدأ باسم المكتوب عنه ثم باسم المكتوب إليه وهو الترتيب الذي تشهد به العقول : لأن نفوذ الكتاب من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه كمنشئ الشيء وخروجه من ابتداء إلى نهاية . فابتدأه من المكتوب عنه ، وأتمهاؤه إلى المكتوب إليه ؛ ولفظ « من » يتقدم لفظ « إلى » بالطبع : لأن حرف « من » ينبئ عن منشئ الشيء ، و « إلى » حرف يُجبر عن النهاية التي عندها قرأ الشيء ؛ والإبتدآت في الأشياء قبل النهايات .

قال : وعلى هذا كانت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن سلف من الأمم الماضية ؛ ثم عرض للناس رأى في تغيير هذا الرسم إلى غيره ، ففرقوا بين مراتب المكاتبين من الرؤساء والعظماء والخدم والأتباع بتقديم اسم المكتوب إليه إذا قصدوا إعظامه وإجلاله وتأخير اسم المكتوب عنه ، ورواؤا أنه الصواب الصحيح . على أن كتاب زماننا يقتصرون في أكثر عنواناتهم على ذكر المكتوب إليه دون المكتوب عنه ولا يذكرون المكتوب عنه إلا في مكاتبات خاصة قليلة . قال في « صناعة الكتاب » : ولا يتكنى المكتوب عنه على نظيره ، بل يتسمى له ولن فوقه ، ثم يقول : المعروف بأبي فلان . وإن كانت كنيته أشهر من اسمه وأسم

(١) أبه ، جاز أن يَكْتُبَ كنيته بغير ألف ويُجرىها مُجرى الأسم . قال النحاس : وإن كان الكتابُ إلى اثنين أحدهما أكبر من الآخر ، فيقدم الأكبر ، وكذلك لو كان إلى ثلاثة . قال أبو جعفر النحاس : وقد استحسن جماعة أن يصغرَ اسمُ المكتوب عنه على عنوانات الكتب ، ورأوا أن ذلك تواضع . وما ذكره هو المستعمل في المكاتبات الجارية عليه حكم الدواوين إلى زماننا . والأصل في ذلك ما ذكره النحاس أن الحجاج ابن يوسف كتب إلى عبد الملك بن مروان وهو خليفة في طومار : « لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين » ثم كتب في طرته بقلم ضئيل : من الحجاج بن يوسف ، فجرى الكتابُ على أسلوبه فيما بعد .

قال في "معالم الكتابة" : ولا يُكثرُ النعوتَ ولا الدعاء على العنوان للسلطان ولا للكبراء ، أما من الأعلى إلى الأدنى فحسن . وقد تقدم في مقدمة الكتاب أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذي يُعنونُ الكتبَ السلطانية ، وأنها كانت لا تُعنونُ قبل كتابة السلطان عليها علامته ؛ والذي استقرَّ عليه الحال في كتب السلطان وما في معناها من المشتمة على الألقاب أن تكتب الألقاب في العنوان ، ويدعى فيها بدعوة واحدة وهي المفتتح بها المكاتبه .

(١) عبارة الضوء « جاز أن يكتب كنيته ويجرىها ... الخ » وهي واضحة ولكن قد ورد في مسالك الأبصار في كتاب اقطاع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تميم الداري وذكره المؤلف فيما تقدم أن الكنية فيه بغير ألف ونص على ذلك ، فلعل مراده أن الكنية في هذه الكتب تكتب بغير ألف فيقال في أبي بكر بوبكر .

(٢) لأن ذلك يؤذن بشريف المكتوب إليه كما تقدم .

الجملة الثالثة

(في طى الكتاب وختمه)

أما طيه فمعروف ، وهو أن يُلَفَّ بعضُه على بعض لَفًّا خاصًّا . والطَّى في اللغة خلافُ النَّشْرِ ؛ ويقال : طوى الكتاب يطويه طيًّا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾ . والترتيب في ذلك أن تكون الكتابة إلى داخل الكتاب : لأن المقصود صَوْنُ المكتوب فيه .

ثم للناس في صورة الطىّ طريقتان :

الطريقة الأولى - أن يكون لفه مُدَوَّرًا كأنبوبة الرَّخِّ ، وهى طريقة كُتَّابِ الشَّرق من قديم الزمان وإلى الآن .

والطريقة الثانية - أن يكون طيه مبسوطا في قَدْرٍ عَرَضِ أربعةِ أصابعٍ مطبوقةً ، وعلى ذلك كان الحال جاريا في الدولة الأيوبية بالديار المصرية . فقد ذكر عبدالرحيم ابن شيث من كُتَّابِ دولتهم : أن طىّ الكُتُبِ السلطانية يكونُ عَرَضُ أربعةِ أصابعٍ ، وكذلك من العليّة إلى مَنْ دُونَهُمْ ، أما الكُتَابُ من الأدنى إلى الأعلى فلا يُجَاوِزُ به عَرَضُ إصبعين ، وهذا ظاهر في أن الطىّ يكون عَرِضًا لِمُدَوَّرًا ، وهى طريقة أهل المغرب والروم والفرنج .



وأما ختمه ، فالتختم مصدر تختم ، يقال : ختم الكتاب يختمه ختمًا ، ومعناه الطبع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ ﴾ والمراد شدُّ رأسِ الكتاب والطبع عليه بالخاتم ، حتى لا يطلع أحدٌ على ما في باطنه حتى يقضه المكتوب إليه ، على ما سياتى ذكره إن شاء الله تعالى . وهو أمر مطلوبٌ مُرَغَّبٌ فيه ، فمن كلام عمر

رضى الله عنه : « طِبْنَةُ خَيْرٌ مِنْ طِنَّةٍ » يعنى أَنَّ حَتْمَ الْكُتَابِ بِطِبْنَةٍ خَيْرٌ مِنْ طِنَّةٍ تَقَعُ فِي الْكُتَابِ بِالنَّظَرِ فِيهِ أَوْ زِيَادَةٍ أَوْ تَقْصُصٍ ، وَالطِنَّةُ التَّهْمَةُ . وَمِنْ كَلَامٍ غَيْرِهِ : « اخْتِمَ تَسْلِمٌ » . وَمِنْ كَلَامٍ غَيْرِهِ : « إِنْ طَيَّنْتَ وَإِلَّا وَقَعْتَ » يعنى إِنْ طَيَّنْتَ الْكُتَابَ وَإِلَّا وَقَعْتَ فِي الْمَحْذُورِ . وَيُقَالُ : إِنْ فِي حَتْمِ الْكُتَابِ تَعْظِيماً لِلْكَتُوبِ إِلَيْهِ . قَالَ بَزْرَجُمُهْرُ أَحَدِ مَلُوكِ الْفُرْسِ : مَنْ لَمْ يَخْتِمِ كِتَابًا فَقَدْ اسْتَخَفَّ بِصَاحِبِهِ ، وَجُهْلٌ فِي رَأْيِهِ . وَقَدْ قِيلَ : إِنْ أَوَّلَ مِنْ حَتْمِ الْكُتَابِ سَلِيَانٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَقَدْ فُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى حِكَايَةً عَنْ بَلْقَيْسَ : ﴿ لَأِنِّي أَتَيْتُ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ ﴾ بِأَنَّهُ مَخْتُومٌ . وَعَلَى نَهْجِهِ فِي ذَلِكَ بَرْتٌ مَلُوكِ الْعَجَمِ . قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : وَلَمْ تَزَلْ كَتَبُ الْعَرَبُ مَنْشُورَةً حَتَّى كَتَبَ عَمْرُ بْنُ هَنْدٍ الصَّحِيفَةَ إِلَى الْمُتَمَسِّسِ ، فَقَرَأَهَا وَلَمْ يُوصِّلْهَا ، فَخَنِمَتِ الْعَرَبُ الْكُتُبَ مِنْ حَيْثُئِذٍ . وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ « أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ إِلَى بَعْضِ الْعَجَمِ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ لَا يَقْرَءُونَ كِتَابًا غَيْرَ مَخْتُومٍ ، فَأَمَرَ أَنْ يُتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ حَدِيدٌ ، فَوَضَعَهُ فِي إِصْبَعِهِ ، فَأَتَاهُ جَبْرِئُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ لَهُ أُنْبِئْهُ مِنْ إِصْبِعِكَ ، فَنَبَذَهُ وَأَمَرَ أَنْ يُتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ نُحَاسٍ فَوَضَعَهُ فِي إِصْبِعِهِ فَأَتَاهُ جَبْرِئُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ أُنْبِئْهُ مِنْ إِصْبِعِكَ فَنَبَذَهُ ، ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ ، فَأَتَّخَذَ لَهُ خَاتَمٌ مِنْ فِضَّةٍ نَفَخَ بِهِ ، وَكَتَبَ إِلَيْهِ مِنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتُبَ مِنَ الْأَعَاجِمِ ، وَنُقِشَ عَلَيْهِ « مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ » ثَلَاثَةٌ أَسْطُرٌ ، وَكَانَ الْخَاتَمُ فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى قَبِضَهُ اللَّهُ تَعَالَى ، ثُمَّ تَخَتَّمَتْ بِهِ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى قُبِضَ ، ثُمَّ تَخَتَّمَتْ بِهِ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى قُتِلَ ، ثُمَّ تَخَتَّمَتْ بِهِ عُمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى بَيْتِ أَرَيْسَ مِنْ بَيْتَارِ الْمَدِينَةِ ، إِذْ عَثَتْ بِالْخَاتَمِ فَسَقَطَ مِنْ يَدِهِ ، فَتَرَاحَ كُلُّ مَا كَانَ فِي الْبَيْتِ

(١) قال " في إرشاد السارى " شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٢ لا ينصرف على الأصح . ونقل

صاحب "تاج العروس" عن ابن مالك جواز صرفه . وقال ابن فارس الهمزة والراء والسين ليست عربية .

من الماء فلم يُوجَد ؛ فلما يئس منه أمر أن يُصاغ له خاتمٌ مثله وينقش عليه «مجد رسول الله» ففعل ذلك وتحم به . هكذا أورده صاحب «ذخيرة الكتاب» وبعضه في الصحيح . وقيل : إن نقش الخاتم الذي آخذه كان «أمنتُ باللّٰهِي خَاقُ فَسَوِي» . وقيل : كان نقشه «لَتَصْبِرَنَّ أَوْلَتَدَمَنَّ» .

ثم كان لكل من الخلفاء بعد عثمان رضى الله عنه خاتمٌ يختم به ، عليه نقشٌ مخصوص : فكان نقشُ خاتم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه «المُلكُ لله الواحد القهار» ونقش خاتم ابنه الحسن «لا إلهَ إلا اللهُ الملكُ الحقُّ المبين» ونقش خاتم معاوية بن أبي سفيان «لكلِّ عملٍ ثوابٌ» وقيل : «لا قُوَّةَ إلا بالله» ونقش خاتم يزيد بن معاوية «ربُّنا اللهُ» ونقش خاتم معاوية بن يزيد «الدنيا غمُّور» ونقش خاتم مروان بن الحكم «اللهُ نَفِيتي ورجائي» ونقش خاتم عبد الملك بن مروان ، «أمنتُ بالله مُخلصاً» ونقش خاتم الوليد بن عبد الملك «يا وليدُ إنك ميتٌ ومحاسبٌ!» ونقش خاتم عمر بن عبد العزيز «عمر بن عبد العزيز يؤمن بالله» ونقش خاتم يزيد بن عبد الملك «فِي السَّيِّئَاتِ يَاعِزُّزِي» ونقش خاتم هشام بن عبد الملك «الحُكْمُ لِلَّهِمُ الحَكِيمِ» ونقش خاتم الوليد بن يزيد «يا وليدُ أحذر الموتَ» ونقش خاتم يزيد بن الوليد «يا يزيدُ قم بالحق» ونقش خاتم إبراهيم بن الوليد «توكَّلتُ على الحى القيوم» ونقش خاتم مروان بن محمد «أذكرُ اللهُ يا غافل» .

وكان نقشُ خاتم السفاح : أوَّلِ خلفاء بني العباس «اللهُ ثقةٌ عبدُ الله» ونقشُ خاتم المهدي^(١) «حَسْبَى اللهُ» ونقش خاتم الرشيد «العظمةُ والقُدرةُ لله» . وقيل : «وكن من الله على حدِّر» ونقش خاتم الأمين «محمدٌ واثقٌ بالله» ونقش خاتم المأمون

(١) لم يذكر نقش خاتمي المنصور والمهادي .

”سَلِ اللهُ يُعْطِيكَ“ ونقش خاتم المعْتَصِم ”اللهُ ثِقَةٌ أْبِي إِسْحَاقَ بْنِ الرَّشِيدِ وَبِهِ يَوْمِن“
 ونقش خاتم الواثق ”اللهُ ثِقَةٌ الْوَاثِقِ“ ونقش خاتم المتوَكَّل ”عَلَى الْحَيِّ أَتَّكَلَى“
 ونقش خاتم المتصِر ”يُؤْتَى الْحَدْرُ مِنْ مَأْمِنِهِ“ ونقش خاتم المستعين ”فِي الْإِعْتِبَارِ
 غَنَاءٌ عَنِ الْإِخْتِبَارِ“ ونقش خاتم المعتز ”الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ كُلِّ شَيْءٍ وَخَالِقِ كُلِّ شَيْءٍ“
 ونقش خاتم المهتدى ”مَنْ تَعَدَّى الْحَقَّ ضَاقَتْ مَدَاهِبُهُ“ ونقش خاتم المعتمد
 ”السَّعِيدُ مِنْ وَعِظَ بغيره“ ونقش خاتم المعتضد ”الْإِضْطْرَارُ يُزِيلُ الْإِخْتِيَارَ“ ونقش
 خاتم المكتفى ”بِاللهِ عَلِيُّ بْنُ أَحْمَدَ يَثِيقُ“ ونقش خاتم المقتدر بالله ”الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي
 لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ“ ونقش خاتم القاهر ”مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ“ ونقش خاتم المتقي ”الْمُتَّقِيَّ لِلَّهِ“ كلقبه للخلافة، ونقش خاتم المستكفي
 ”الْمُسْتَكْفِيَّ بِاللَّهِ يَثِيقُ“ ولم أقف على نقش خاتم أحد من الخلفاء غير هؤلاء .

وأعلم أنه كان للحتم في أيام الخلفاء ديوان مفرد يعبر عنه بديوان الخاتم .
 وقد اختلف في أول من اتخذ ديوان الخاتم : فروى محمد بن عمر المدائني في كتاب
 ”القلم والدواة“ بسنده إلى ابن عمر رضى الله عنه أنه قال : لم يكن أبو بكر ولا عمر
 يلبسون خواتم ولا يطبعون كتابا ، حتى كتب زياد بن أبي سفيان إلى عمر بن
 الخطاب رضى الله عنه : إنك تكتب إلينا بأشياء ليست لها طوايع ، فاتخذ عند
 ذلك عمر طابعا يطبع به ، ونحزم الكتاب ولم يكن قبل يُنحزم .

ومقتضى ذلك أن يكون أول من اتخذ الختم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،
 ويكون لبسه خاتم النبي صلى الله عليه وسلم لغير الختم . وذكر الطبري في تاريخه :
 أن أول من اتخذ ذلك معاوية بن أبي سفيان في خلافته ، وذلك أنه أمر لعمر بن

(١) استعمل صيغة الجمع للتعظيم أو أراد به ما فوق الواحد .

الزير بمائة ألف من عند زياد، ففتح الكتاب وجعل المائة مائتين؛ فلما رفع زيادُ حسابه أنكر ذلك معاوية؛ وطلب عمراً فحبسه حتى قضاهما عنه أخوه عبد الله ابن الزبير وأتخذ معاوية حينئذ ديوان الختم، ونزَم الكتاب ولم يكن قبل يُحزَم . قال القاضي «ولي الدين بن خلدون» في تاريخه : وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على إنفاذ كتب السلطان . قال : وهذا الخاتم خاصٌ بديوان الرسائل ، وكان ذلك للوزير في أيام الدولة العباسية . ويشهد لذلك قولُ الرشيد ليحيى بن خالد لما أراد أن يستوزر جعفرًا ، ويستبدل به من الفضل أخيه : إني أحول الخاتم من يميني إلى شمالي ، فكنتي بالخاتم عن الوزارة ، لأنضمام ديوان الرسائل إلى الوزير إذ ذاك . ثم اختلف العرفُ بعد ذلك ، فصار ليس إليه الرسائل في الدولة .

ثم للختم ثلاثُ صور :

الصورة الأولى — أن يُلصق رأس الكتاب بنوع من أنواع اللصاق ، كالكتيراء المدافاة بالماء ، والنشا المطبوخ ونحو ذلك . وهذا هو المستعمل بالديار المصرية وبلاد المشرق من قديم الزمان وهلمَّ جرًّا إلى زماننا ؛ والمستعمل بالدواوين هو النشا دون غيره ، لنصاعة بياضه وشدة لصاقه . قال في "مواد البيان" : ويجب أن يكون اللصاق خفيفًا كالدهن لئلا يتكس ويكثف في جانب الورق . وقد كانت عاداتهم في بلاد المشرق أيام الخلفاء أن يُختم بخاتم الخليفة ، بأن يُغمس في طين معد لذلك أحمر الصبغ ، ويختم به على طرفي اللصاق ، ليقوم مقام علامة الخليفة . وكان هذا الطين يجلب إليهم من سيراف من بلاد فارس ، وكأنه مخصوصٌ بها ؛ وعلى نهج الخلفاء جرى الملوك حينئذ . والذي استقر عليه الحال الآن بالديار المصرية ونحوها من البلاد الشرقية الاقتصارُ على مجزء اللصاق آكتفاء بما فيه من الضبط وظهور

فَصَّه إن فُصَّ . وهذه المسئلة مما سأله الشيخُ جمال الدين بن نُباتَةَ كُتَّاب ديوان الإنشاء بِدمشقَ مخاطبا به للشيخ جمال الدين محمود الحلبي - فقال : ومن ختم الكتاب بالطين وربطه ؟ ومن غير الطين إلى النَّشَا وَضَبَطَهُ ؟ . وقد سبق الكلامُ في النَّشَا وسائر أنواع اللِّصاق في الكلام على آلات الدواة في المقالة الأولى .

الصورة الثانية - أن يُخزَم الكُتَّابُ من وَسَطِهِ بالأشْفار حَتَّى تَنْقُدَ في بعض طَيَّاتِ الكُتَّابِ ثم تخرج من وجه الورق أيضا ، ويدخل فيه دَسْرَةٌ من الورق كالسِّير^(١) الصغير وَيُقَطُّ طَرَفُ الدسرة ؛ ثم يُلصَقُ على ذلك بِشَمَعٍ أحمر ؛ ثم يَخْتَمُ عليه بِخاتَمٍ يظَهَرُ نَفْسُهُ فِيهِ ، ويسمى هذا النوع من الختم الخَزْمَ - بالخاء والزاى المعجمتين - أخذًا من خَزَمَ البعير، وهو أن يُثَقَّبَ أنْفُهُ وَيَجْعَلُ فِيهِ خِيَطَ أَوْخُوهُ . ولعل هذه الطريقة من الختم هي التي كان عليها الحال حين أُحْدِثَ الختمُ في صَدْرِ الإسلام ، ويدل على ذلك قول ابن عُمَرَ رضِيَ اللهُ عَنْهُ في رواية الطبريِّ المتقدمة : وَخَزَمَ الكُتَّابَ ولم يَكُنْ قَبْلَ يُخَزَمُ . وعلى هذا الآن أهل المغرب والرُّومَ والفَرَنْجَ وَمَنْ في معنائهم .

الصورة الثالثة - أن يَلْفَ على الكُتَّابِ بعد طَيِّهِ قِصَاصَةٌ من الورق كالسِّير في عرض رأس الخِنِصْرِ ، وتلف على الكُتَّابِ ثم يُلصَقُ رأسُها ؛ ويكون ذلك في الرَّقَاعِ الصغيرة المترددة بين الإخوان، وتسمى القِصَاصَةُ التي يُلصَقُ بِهَا سِجَّاءة - بفتح السين وبالمد، وتقال بكسر السين أيضا ، وربما قيل سِجَّاية ؛ ويقال فيه : سَعَوْتُ الكُتَّابَ

(١) مراد المؤلف بالدرسة الدسار أي المسار أو الخيط من الليف وجارى العامة في تعبيرهم عنه بالدرسة .

(٢) الذي تقدم عن الطبري أن أول من اتخذ الختم والخزم معاوية وأما رواية ابن عمر التي تفيد أن أول

من اتخذ الختم والخزم عمر فقد رواها محمد بن عمر المدائني في الكلام سهواً واشتباها .

أَسْحَوْهُ سَحْوًا ، وَسَجَّيْتَهُ بِالتَّشْدِيدِ أُسْجِيهِ تَسْجِيَةً فَهُوَ مَسْحُوٌّ وَمَسْجِيٌّ وَمَسْحَىٌّ ؛ وَالْأَمْرُ
 مِنْ سَحَوْتُ الْكِتَابَ أُسْحِجُ ، وَمِنْ سَجَّيْتَهُ بِالتَّشْدِيدِ سَجَّجْتُ ، وَأَصْلُهُ مِنَ السَّحْوِ وَهُوَ الْقَشْرُ .
 يُقَالُ : سَحَوْتُ الْعِظْمَ عَنِ الْعَظْمِ إِذَا قَشَرْتَهُ .

الجملة الرابعة

(فِي حَمْلِ الْكِتَابِ وَتَأْدِيَتِهِ)

وهو من جملة الأمانات الداخلة في عموم قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
 الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . وقد روى عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال : من أعظم
 الأمانة أداء الكتاب إلى أهله . قال محمد بن عمر المدائني : حمل الكتاب أمانة ،
 وترك إيصاله خيانة . وقد روى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ” مَنْ بَلَغَ كِتَابَ
 غَايِرٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَىٰ أَهْلِهِ أَوْ كِتَابَ أَهْلِهِ إِلَيْهِ ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ حَرْفٍ عِتْقُ رَقَبَةٍ وَأَعْطَاهُ
 اللَّهُ كِتَابَهُ بَيْنَهُ وَكَتَبَ لَهُ بَرَاءَةً مِنَ النَّارِ ” . وقد نطق القرآن الكريم بتأدية الهدهد
 كتاب سليمان عليه السلام إلى بلقيس ، حيث قال حكاية عن سليمان : ﴿ أَذْهَبَ بِكِتَابِي
 هَذَا فَأَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ﴾ إلى أن قال : ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّْ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ .

وقد وردت الأحاديث بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبعث كتبه مع رُسُلِهِ
 إِلَى الْمُلُوكِ : فَبَعَثَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ حُدَّافَةَ إِلَى كَسْرَى أَبْرُويز ملكِ الْفَرَسِ ؛ وَبَعَثَ
 دِحْيَةَ الْكَلْبِيَّ إِلَى قَيْصَرَ ملكِ الرُّومِ ؛ وَبَعَثَ حَاطِبَ بْنَ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوِّسِ
 صَاحِبِ مِصْرَ ؛ وَبَعَثَ عَمْرُو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ إِلَى الضَّحَّاكِ ملكِ الْحَبَشَةِ ؛ وَبَعَثَ
 شُجَاعَ بْنَ وَهْبِ الْأَسَدِيِّ إِلَى الْحَارِثِ بْنِ أَبِي شَمْرَةَ الْغَسَّانِيِّ ؛ وَبَعَثَ سَلَيْطَ بْنَ عَمْرُو

إلى هُوذة بن عليّ صاحب اليمامة ؛ وبعث العلاء بن الحضرميّ إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ؛ وبعث عمرو بن العاص إلى عبدٍ وجيْفِرِ ابْنِي الجُلنديّ ملكي عُمان .
قال ابن الجوزي : وبعث جرير بن عبد الله البجليّ إلى ذى الكلاع الحميريّ .

وأعلم أنه يجب أن يكون حاملُ الكتاب المؤدّي له عن الملك ونحوه وإفْرَ العقل ، شديدَ الشكيمة في الجواب ، طلق اللسان في المحاورَة ، فإنه لسانُ ملكه ، وترجمانُ مُرسِله ، وربما سأله المكتوبُ إليه عن شيءٍ أو أورد عليه اعتراضًا فيكون بصدد إجابته . وقد قيل : إنه يُستدَلُّ على عقل الرجل بكتابه ورسوله . ومن غريب ما يُروى في ذلك ما ذكره ابنُ عبد الحَكَم : أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم لما بعث حاطبَ ابنِ أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب مصر ، وبلغه كتابُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، قال له : مامنعه أن يدعُو عليّ فيسلطَ عليّ ؟ - قال له حاطبٌ : مامنع عيسى أن يدعُو عليّ من أبي عليه أن يفعل ويفعل ؟ فوجم ساعة ثم استعادها ، فأعادها عليه حاطبٌ ، فسكت . ويُروى : أنه حين سأله عن أمر النبيّ صلّى الله عليه وسلم في حرب قومه ، وذكر له أنَّ الحربَ تكونُ بينهم سجالًا : تارة له وتارة عليه ، قال له المقوقس : النبيّ يغلب ! فقال له حاطب : فالإلهُ يُصَلِّب ! - يشير بذلك إلى ما تزعمه النصارى من أن المسيح عليه السلام صُلب مع دعواهم فيه أنه إلهٌ .

وذكر السهيليّ أن دحية الكلبيّ حين دخل على قيصر بكتاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، قال له دحية : هل تعلمُ أكان المسيحُ يُصلّى ؟ قال نعم ، قال : فإني أدعوك إلى من كان المسيحُ يُصلّى له ، وأدعوك إلى من دبّر خلق السموات والأرض والمسيحُ في بطن أمه . فالزمه من صلاة المسيح أنه عبدُ الله تعالى ، وصنم ذلك بيتًا من أبيات له فقال :

(١) كذا في "المواهب اللدنية" أيضا . والذي في القاموس عبد الله .

فَقَرَّرْتُهُ بِصَلَاةِ الْمَسِيحِ ، * وَكَانَتْ مِنَ الْجَوْهَرِ الْأَحْمَرِ!

وَيُحْكَى أَنَّ بَعْضَ مُلُوكِ الرُّومِ كَتَبَ إِلَى خَلِيفَةِ زَمَانِهِ يَطْلُبُ مِنْهُ مَنْ يَنَظُرُ عِلْمَاءَ النَّصْرَانِيَةِ عِنْدَهُ فَإِنْ قَطَعْتَهُمْ أَسْلَمُوا؛ فَوَجَّهَ إِلَيْهِ بِالْقَاضِي أَبِي بَكْرِ بْنِ الطَّيِّبِ الْمَالِكِيِّ، وَكَانَ مِنْ أُمَّةِ عِلْمَاءِ زَمَانِهِ؛ فَلَمَّا حَضَرَ الْمَجْلِسَ وَاجْتَمَعَ لَدَيْهِ عِلْمَاءُ النَّصْرَانِيَةِ، قَالَ لَهُ بَعْضُهُمْ : إِنَّ مَعْتَقِدَكُمْ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْصُومُونَ فِي الْفِرَاشِ ، وَقَدْ رُمِيَتْ عَائِشَةُ بِمَارْمِيَتْ بِهِ : فَإِنْ كَانَ مَارْمِيَتْ بِهِ حَقًّا، كَانَ نَاقِضًا لِأَصْلِحِكُمُ الَّذِي أَصَلَّمْتُمُوهُ فِي عِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ فِي الْفِرَاشِ ، وَإِنْ كَانَ غَيْرَ حَقِّ كَانَ مُؤَثِّرًا فِي إِيْمَانِ مَنْ وَقَعَ مِنْهُ . فَقَالَ الْقَاضِي أَبُو بَكْرٍ : أَمْرَانِ حَصِينَتَانِ رُمِيَتَا بِالْفِرْيَةِ ، إِحْدَاهُمَا لَهَا زَوْجٌ وَلَا وُلْدٌ لَهَا ، وَالْآخَرَى لَهَا وَلَدٌ وَلَا زَوْجٌ لَهَا - يُشِيرُ بِالْأُولَى إِلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَبِالثَّانِيَةِ إِلَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ، فَسَجَدُوا لَهُ عَلَى عَادَةِ تَحِيَّتِهِمْ فِي ذَلِكَ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْوَقَائِعِ الَّتِي لَا تُحْصَى كَثْرَةً .

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ مَتَمِّكًا مِنْ عَقْلِهِ ، عَالِمًا بِمَا يَأْتِي وَمَا يَدَّرُ ، كَفَى مَلِكًا مَثُونَةً غَيْبَتِهِ ، وَأَجَابَ عَنْ كُلِّ مَا يُسْأَلُ عَنْهُ ؛ وَإِذَا كَانَ بِخِلَافِ ذَلِكَ أَنْعَكَسَتِ الْقَضِيَّةُ ، وَرَجَعَ عَلَى مُرْسَلِهِ بِالْوَبَالِ . ثُمَّ إِنْ أَقْتَضَى رَأْيُ الْمَلِكِ زِيَادَةَ فِي الرِّسَالَةِ عَلَى الرَّسُولِ الْوَاحِدِ فَعَلْ : لِيَتَعَاوَنَا عَلَى مَا فِيهِ الْمَصْلَحَةُ ، وَيَتَشَاوَرَا فِيمَا يَفْعَلَانِ ، فَقَدْ ذَكَرَ السَّهْلِيُّ :
(١)
أَنَّ جَبْرًا مَوْلَى أَبِي ذَرِّ الْغِفَارِيِّ كَانَ رَسُولًا مَعَ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُقَوِّسِ . وَإِنْ أَقْتَضَى الْحَالُ إِرْسَالَ أَكْثَرَ مِنْ آثْنَيْنِ أَيْضًا فَعَلْ ، فَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ أَنَّ أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خِلَافَتِهِ بَعَثَ إِلَى قَيْصَرَ ثَلَاثَةَ رُسُلٍ ، وَهُمْ : هِشَامُ بْنُ الْعَاصِ ، وَنُعَيْمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَرَجُلٌ آخَرٌ .

(١) فِي شَرْحِ الْمَوَاهِبِ الدِّينِيَةِ ج ٣ ص ٣٩٨ عَنْ السَّهْلِيِّ مَا نَصَّهُ "مَوْلَى أَبِي رَهْمِ الْغِفَارِيِّ وَهُوَ هِشَامُ فَالَّذِي فِي الْأَسْتِعَابِ وَالْإِصَابَةِ وَغَيْرَهُمَا أَنَّ جَبْرًا كَانَ مِنَ الْقَبْطِ وَأَنَّ رَسُولَ الْمُقَوِّسِ بِمَارِيَةِ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" .

ومما يجب التنبيه عليه أنه يحرمُّ على حامل الكتاب النظرُ فيه ، والأطلاع على ما تضمنته . قال محمد بن عمر المدائني : في فضِّ الكتاب إثمٌ وسوءُ أدب ، وساق بسنده إلى معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أطلع في كتاب أخيه بغير إذنه ، أطلعه طلعةً في النار » .

الجملة الخامسة

(في فضِّ الكتاب وقراءته)

أما فضُّه فالمراد فكُّ ختمه وفتحه ، والفضُّ في أصل اللغة الكسر والتفريق ؛ ومن الأول ما ثبت في الصحيح من قول القائلة لابن عمِّها في قصة الثلاثة الذين دعوا الله بأحبِّ أعمالهم : « اتق الله ولا تفض الخاتم إلا بحقه » تريد إزالة بكارتها . ومن الثاني (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) . وقد تقدم في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية أن الرسول أو البريدي الواصل إلى باب السلطان يقدمه الدوادار إلى السلطان ، ثم يتناول الكتاب منه ويمسحُ به وجهه من حضر على يده ، ثم يدفعه إلى السلطان فيفضُّ ختامه ، ثم يتناوله الدوادار من السلطان ويدفعه إلى كاتب السر ، فيقرؤه على السلطان .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لَفْضَ الْكِتَابِ حَالَتَيْنِ :

الحالة الأولى - أن يكون مخزوماً باللصاق بالنشا على طريقة المشاركة وأهل الديار المصرية ، فيشق ظاهره على القرب من محل اللصاق بسكين ثم يفتح .

الحالة الثانية - أن يكون مخزوماً مسمراً بدسرة من الورق على عادة المغاربة ومن جرى مجراهم ، فيرفع الختم الملتصق عليه من الشمع ، وتُقْلَعُ الدسرة ويفتح الكتاب .



وأما قراءة الكُتُب فإنه يجب أن يكون من يقرأ الكُتُب على الملوك ومن في معناه ماهرًا في القراءة ، فصيح اللسان في النُطق ، رقيق حاشية اللسان في حسن الإيراد ، قويّ المَلَكَة في استخراج الخطوط المختلفة ، سريع الفهم في إدراك المعاني الخفية ؛ وأن تكون قراءته على رئيسه - من سلطان أو غيره - بحسب ما يؤثر ملكه أو أميره سماعه من السرعة والبُطء ؛ وأن يكون ذلك بصوتٍ غير خفيٍّ بحيث يعسر سماعه ، ولا مرتفع بحيث يُعَدُّ صاحبه خارجًا عن أدب المخاطبة للأكابر ؛ وأن يُقَرَّب لمن يقرأ عليه فهم المقاصد التي اعتاصت عليه إذا سألها عنها ، أو غلب على ظنه أنها لم تصل إلى فهمه ، بحسن إيراد ، وتلطيف عبارة يحسن موقعها في النفوس ويَجَلُّ وقَمَها في الأذهان .

الجملة السادسة

(في كراهة طَرَح الكُتَاب بعد تخزيقه : وهو فَضُّه ،

وحِفظه بعد ذلك في الإضبارة)

أما كراهة طَرَحُه فقد قال محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" : كَرِهوا تَخْزِيق الرسائل ورَمِيها في الطُّرُق والمزَابِل ، خوفا على اسم الله تعالى أن يُداس ، أو تاحقَه النجاسة والأذناس . قال : وفي رَفَع ما طَرِح من الكُتَاب أعظم الرغائب وأجلُّ الثواب ؛ وساق بسنده إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من كُتَابٍ يُلقَى ببُقعةٍ من الأرض فيه

أَسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ إِلَّا بَعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُحْفَوْنَهُ بِأَجْنِحَتِهِمْ وَيُقَدِّسُونَهُ ،
 حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ إِلَيْهِ وَلِيًّا مِنْ أَوْلِيَائِهِ فَيَرْفَعُهُ مِنَ الْأَرْضِ . وَمَنْ رَفَعَ كِتَابًا مِنَ الْأَرْضِ
 فِيهِ أَسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى ، رَفَعَ اللَّهُ أَسْمَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَخَفَّفَ عَنْ وَالدِّيهِ الْعَذَابَ
 وَإِنْ كَانَا مُشْرِكَيْنِ ” . وَيُرْوَى : ” مَنْ رَفَعَ قِرْطَاسًا مِنَ الْأَرْضِ فِيهِ مَكْتُوبٌ
 « بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » إَجْلَالًا لَهُ أَنْ يُدَاسَ ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَشَفَّعَهُ فِي عِشْرِينَ
 مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَ لَهُ النَّارُ ” .



وأما حفظه في الإضبارة فهو أمر مطلوب؛ والإضبارة عبارة عن ورقة تُلَفُّ على
 جملة من الكتب قد جُمِعَتْ في داخلها ويُلصَق طرفها بالنشا . والقاعدة فيها أن
 تُلَوَّى الكسرة من أسفلها ، وإن طال بعضها في طيِّه وقَصُر بعض جعل التفاوت
 في الطول والقصر من أعلاها . قال في ”صناعة الكُتَّاب“ : ومعناها الجمع ، لأنها
 يُجَمَع بعضها إلى بعض . ومنه قيل : تَضَبَّرَ الْقَوْمُ إِذَا تَجَمَّعُوا ، وَرَجُلٌ مَضَبَّرَ الْخَلْقَ
 أَيْ جَمَعَهُمْ ، وَنَاقَةٌ مَضَبَّرَةٌ وَمَضْبُورَةٌ ، وَضَبَّرَ الْفَرَسُ إِذَا جَمَعَ قَوَائِمَهُ وَوَثَبَ . وَيُقَالُ
 لِلْإِضْبَارَةِ أَيْضًا إِضَامَةٌ بِكَسْرِ الْهَمْزَةِ وَتَشْدِيدِ الْمِيمِ لُضْمَ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ ، وَالْمَعْنَى
 فِيهَا صِيَانَةُ الْكُتُبِ وَحِفْظُهَا عَنِ الضَّيَاعِ . وَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ كُتَّابِ دِيْوَانِ الْإِنشَاءِ
 بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ أَنْ يَجْعَلَ لِكُلِّ شَهْرِ إِضْبَارَةٌ تُجَمَعُ فِيهَا الْكُتُبُ الْوَارِدَةُ عَلَى أَبْوَابِ
 السُّلْطَانِ مِنْ أَهْلِ الْمَمْلَكَةِ وَغَيْرِهِمْ ، وَيُكْتَبُ عَلَيْهَا « شَهْرُ كَذَا » . وَقَدْ سَبَقَ الْقَوْلُ
 فِي مَقْدَمَةِ الْكُتَّابِ أَنَّ الدِّيْوَانَ كَانَ لَهُ فِي زَمَنِ الْفَاتَمِيِّينَ كَاتِبٌ يَكْتُبُ الْكُتُبَ

(١) كذا في الاصول والضوء والذي في أمهات اللغة بهذا المعنى في مادة ض م م « إضامة » أي بكسر
 الهمزة وتخفيف اليمين بينهما ألف فتنه .

الواصلّة ويُسْط عليها جرائد ، كما يكتبُ الكتبَ الصادرة عن الأبواب السلطانية
ويُسْط عليها جرائد ؛ وأن ذلك بطل في زماننا وصار الأمرُ قاصراً فيها على حفظ
الكتب في الإضبارات ؛ متى احتيج إلى الكشْف عن كتاب منها ، أخذ بالحدس
أنه ورد في السنة الفلانية ، وتُكشَف إضباراتها واحدةً بعد واحدة حتى يقع العُثورُ
عليه ، ولا خفاء فيما في ذلك من المشقّة ، بخلاف ما إذا كان لها جرائد مبسوطة ،
فإنه يسهُل الكشْف منها ، ويستدلُّ بتاريخه على إضبارته فتُخرَج ويقع الكشْف
منها ، ولكن أُهمل ذلك في جملة ما أُهمل .

الباب الثاني

من المقالة الرابعة

(في مصطلحات المكاتب الدائرة بين كُتَّاب أهل الشرق والغرب

والديار المصرية في كل زمن من صدر الإسلام

وهلمَّ جرًّا إلى زماننا، وفيه ستة فصول)

الفصل الأول

(في الكُتُب الصادرة عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في ذكر ترتيب كُتُبِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الرسائل على سبيل الإجمال)

كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَفْتَتِحُ أَكْثَرَ كُتُبِهِ بلفظ «من محمد رسول الله إلى فلان»
وربما أفتتحها بلفظ «أما بعد» وربما أفتتحها بلفظ «هذا كتابٌ» وربما أفتتحها
بلفظ «سلم أنت» .

وكان يصرِّح في الغالب بأسم المكتوب إليه في أول المكاتب، وربما اكتفى^(١)
بشهرته . فإن كان المكتوبُ إليه مَلِكًا كتب بعد ذكره اسمه «عَظِيمُ القومِ الفلانيين»
وربما كتب «مَلِكُ القومِ الفلانيين» وربما كتب «صاحب مملكة كذا» .

وكان يعبر عن نفسه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في أثناء كُتُبِهِ بلفظ الإفراد . مثل : «أنا»
و «لِي» و «جاءني» و «وفد علي» وما أشبه ذلك ، وربما أتى بلفظ الجمع مثل
«بلغنا» و «جاءنا» ونحو ذلك .

(١) أي بما أشهره كالقيصر ونحوه .

وكان يخاطبُ المكتوبَ إليه عند الأفراد بكاف الخطاب . مثل : « لك »
و « عليك » وتاء المخاطب . مثل : « أنتَ قلتَ كذا وفعلتَ كذا » . وعند الثنية
بلفظها مثل : « أنتما » و « لكما » و « عليكما » . وعند الجمع بلفظه . مثل : « أتم »
و « لكم » و « عليكم » وما أشبه ذلك .

وكان يأتي في صدور كُتبه بالسلام . فيقول في خطاب المسلم « سلامٌ عليك »
وربما قال : « السلامُ على مَنْ آمَنَ بالله ورسولِهِ » وفي خطاب الكافر : « سلامٌ
على مَنْ اتَّبَعَ الهدى » وربما أسقط السلامَ من صدر الكتاب .

وكان يأتي في صدور الكتب بالتحميد بعد السلام . فيقول : « فإني أحمدُ إليك
الله الذي لا إلهَ إلا هو » وربما تركه ، وقد يأتي بعد التحميد بالتشهُد وقد لا يأتي به .

وكان يتخلَّص من صدر الكتاب إلى المقصود تارةً بأما بعد وتارةً بغيرها .

وكان يختمُ كُتبه بالسلام تارةً ، فيقول في خطاب المسلم : « والسلامُ عليك ورحمة
الله وبركاته » وربما اقتصر على السلام . ويقول في خطاب الكافر : « والسلامُ على
مَنْ اتَّبَعَ الهدى » وربما أسقط السلامَ من آخر كُتبه .



أما عنوانه كُتبه صلى الله عليه وسلم ، فلم أقف فيها على نصٍّ صريح ، والذي يظهر
أنه صلى الله عليه وسلم كان يُعنونُ كُتبه بلفظ : « من محمد رسول الله إلى فلان »
على نحو ما في الصدر ، وتكون كتابته « من محمد رسول الله » عن يمين الكتاب ،
و « إلى فلان » عن يساره ، وعليه يدلُّ ما تقدّم من كلام صاحب « موادّ البيان »
في الأصل الثاني عشر من أصول المكاتبات حيث ذكر في الكلام على العنوان أن
الأصل أن يُبتدأ باسم المكتوب عنه ويتنّى باسم المكتوب إليه ، ثم قال : وعلى هذا
كانت كُتبت رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطرف الثاني

(في كتبه صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام ،

وهو على ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن يفتح الكتاب بلفظ « من عهد رسول الله إلى فلان »)

فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى خالد بن الوليد ، في جواب كتابه إليه صلى الله عليه وسلم بإسلام بني الحارث وهو على ما ذكره ابن إسحاق في سيرته :

” من عهد رسول الله إلى خالد بن الوليد :

سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإن كتابك جاءني مع رسولك ، يُخبرني أن بني الحارث قد أسلموا قبل أن تُقاتلهم ، وأجابوا إلى ما دعوتهم إليه من الإسلام ، وشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن نهدا عبده ورسوله ، وأن قد هداهم الله بهداه ، فبشرهم وأنذرهم ، وأقبل وليقبل معك وقد هم ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين من جهة الفرس ، في جواب كتابه إليه صلى الله عليه وسلم . ونسخته على ما ذكره السهيلي في ” الروض الأنف ” :

”من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى .

سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله . أما بعد فإنني أذكرك الله عز وجل ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع ربي ويتبع أمرهم فقد أطاعني ، ومن نصح لهم فقد نصح لي ، وإن ربي قد أشوا عليك خيرا ، وإني قد شفعتك في قومك فأترك للسلامين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل لهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك ، ومن أقام على مجوسيته فعليه الجزية .“

* *

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى فروة بن عمرو الجذامي . ونسخته على ما ذكره ابن الجوزي في ”كتاب الوفاء“ .

”من محمد رسول الله إلى فروة بن عمرو .

أما بعد ، فقد قدم علينا رسولك ، وبلغ ما أرسلت به ، وخبر عما قبلكم خيرا ، وأتانا بإسلامك ربنا الله هداك هداه .“

* *

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى طهفة النهدي وقومه . ونسخته فيما حكاه ابن الأثير في ”المثل السائر“ :

”من محمد رسول الله إلى بني نهيد .

السلام على من آمن بالله ورسوله . لكم يا بني نهيد في الوظيفة الفريضة ، ولكم الفارض^(١) والفريش ، وذو العنان الركوب والفلو الضبيس ، لا يمنع سرحكم ، ولا يعضد

(١) يروى بالفاء وبالعين فاما بالفاء فيكون المراد بها المريضة وأما بالعين فهي التي أصابها آفة أو كسراه

طَلْحَمٌ ، وَلَا يُجْبَسُ دَرَكُم مالم تُضْمِرُوا الإِماق ، وَتَأْكُلُوا الرِّبَاقَ . مَنْ أَمَرَ
[بما في هذا الكُتابِ] فَله [من رسول الله ^(١)] الوفاءُ بِالْعَهْدِ وَالذِّمَّةِ ، وَمَنْ أْبَى
فَعَلَيْهِ الرِّبْوَةُ .

وهذا الكُتابُ مما يحتاج إلى شرحٍ غريبه يُفهمهم . « فالوظيفة » النَّصَابُ في الزكاة وأصله
الشيء الراتبُ . « والفريضة » الهَرْمَةُ المُسِنَّةُ ، والمراد أنها لا تُؤخَدُ منهم في الزكاة
بل تكون لهم . « والفريش » بالفاء والشين المعجمة ما أنبسط من النبات وفَرَشَ
على وجه الأرض ولم يَقمْ على ساقٍ ، وقد يُطالِقُ على الفرس إذا حَمَلَ عليها بعد النَّجَاحِ
أيضا . « وذوالعنان الرُّكوب » الفرسُ الذَّلُولُ ، « والفَلَوُ » المُهرُ الصغير وقيل الفَظِيمُ
من جميع أولاد الحافر . « والضَّيِّيسُ » بالضاد المعجمة والباء الموحدة والسين المهملة
العَسِرُ الصَّعْبُ الذي لم يَرْضُ . « والسَّرْحُ » السارحة وهي المَواشِي ، والمعنى أنها لا تُمنَعُ
من المرعى . والعَضْدُ القَطْعُ . والطَّلحُ شَجَرٌ عِظام من شجر العِضاء . والدَّرُّ اللبنُ ،
والمراد ذوات الدَّرِّ من المَواشِي ، أراد أنها لا تحشر إلى المُصَدِّقِ وتُمنَعُ المرعى إلى أن
تجتمع الماشيةُ ثم تُعدُّ لما في ذلك من الإضرار . و« الإِماقُ » مُحْفَفٌ ، من أَماقِ الرَّجُلِ
إذا صار ذامِقةً وهي الحَمِيَّةُ والأَنْفَةُ ، وقيل مأخوذ من المَوقِ وهو الحُجُوقُ ، والمراد
إضممار النَّكْتِ والعُدْرُ أو إضممار الكُفْرِ . و« الرِّبَاقُ » بالراء المهملة والباء الموحدة
والقاف جمع رِبْقَةٍ ، وهي في الأصلُ أَسْمٌ لَعُرْوَةٌ تجعل في الحَبْلِ وتكون في عُنُقِ
البيمة أو يَدِها تُمَسِّكُها ، والمراد هنا نَقْضُ العَهْدِ وأستعار الأكلَ لذلك ، لأن البيمة
إذا أَكلتِ الرِّبْقَةَ خَلَصَتْ من الشدِّ . و« الرِّبْوَةُ » بكسر الراء الزيادة ، والمراد هنا الزيادة
في الفريضة الواجبة عليه كالعقوبة له .

(١) الزيادة من « المثل السائر » . ورواية « الشفا » كما في الأصل .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أكيدر دومة فيما ذكره أبو عبيدة، وهو :
 ” من محمد رسول الله لا أكيدر دومة حين أجاب إلى الإسلام ، وخلق الأنداد
 والأصنام ، مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكافها : إن لنا الضاحية
 من الضحل والبور والمعامي وأغفال الأرض والحلقة والسلاح والحافر والجفن .
 ولكم الضامنة من النخل ، والمعين من المعمور ، لا تعدل ساحتكم ، ولا تعد فارتكم ،
 ولا يحظر عليكم النبات ، تقيمون الصلاة لوقتها ، وتؤتون الزكاة بحققها ، عليكم بذلك
 عهد الله والميثاق “ .

وهذا الكتاب أيضا مما يحتاج إلى معرفة غريبه : فالأنداد جمع نَدَّ بكسر النون
 وهو ضد الشيء الذي يخالفه في أموره، ويناديه أى يخالفه، والمراد ما كانوا يتخذونه
 آلهة من دون الله تعالى . والأصنام جمع صنم : وهو ما أتخذ إلهًا من دون الله ، وقيل :
 ما كان له جسم أو صورة ، فإن لم يكن له جسم ولا صورة فهو وثن . والأكاف
 بالنون جمع كَنَف بالتحريك وهو الجانب والناحية . والضاحية بالضاد المعجمة والحاء
 المهملة الناحية البارزة التي لاحائل دوتها ، والمراد هنا أطراف الأرض ؛ والضحل
 بفتح الضاد المعجمة وسكون الحاء المهملة القليل من الماء ، وقيل الماء القريب
 من المكان ، وبالتحريك مكان الضحل . والبور الأرض التي لم تُزرع ، وهو بالفتح
 مصدرٌ وصف به ، وبالضم جمع بوار : وهو الأرض الخراب التي لم تُزرع . والمعامي
 المجهولة من الأرض التي ليس فيها أثر عمارة ، واحدها معمي . وأغفال الأرض
 بالعين المعجمة والفاء الأرض التي ليس فيها أثر يعرف كأنها مغفول عنها . والحلقة
 بسكون اللام السلاح عامًا ، وقيل الدروع خاصًا ، والسلاح ما أعد للحرب من آلة

الحديد مما يُقاتل به ، والسيف وحده يسمى سلاحا . والضامنة من النخل بالضاد المعجمة والنون ما كان داخلا في العمارة من النخيل وتضمته أمصارهم وقواهم ، وقيل سميت ضامنة لأن أربابها ضموا عمارتها وحفظها ، فهي ذات صمان كعيشة راضية بمعنى ذات رِضا . والمعين من المعمور الماء الذي ينبع من العين في العاصم من الأرض . وقوله : لا تُعدّل سارحتكم بالذال المعجمة ، أى لا تُصرف ما شيتكم وتمأل عن الرعى ولا تمنع . وقوله : ولا تُعدّ فاردتكم أى لا تُضم إلى غيرها وتُحشر إلى الصدقة حتى تعدّ مع غيرها وتحسب . والفاردة الزائدة على الفريضة . وقوله : ولا يُحظر عليكم النبات بالطاء المعجمة ، أى لا تمنعون من الزرع والمرعى حيث شتتم ، والحظر المنع .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى وائل بن حجر وأهل حضر موت ، وهو :
”من عهد رسول الله إلى الأقبال العباهلة من أهل حضر موت ، بإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة . على التبعة الشاة ، والتبئة لصاحبها ، وفي الشيوب الخمس ، لا خلاط ولا وراط ولا شناق ولا شغار ، ومن أجبي فقد أربى ؛ وكلُّ مسكٍ حرامٌ“ .

وذكر القاضي عياض في ”الشفاء“ أن كتابه لهم : « إلى الأقبال العباهلة ، والأرواع المشايب . وفي التبعة شاة ، لأمقورة الألياط ، ولاضناك ، وأنطوا التبجة ، وفي الشيوب الخمس ، ومن زنى مم بكر فاصقعه مائة وآستوفضوه عاما ، ومن زنى مم ثيب فصرجوه بالأضاميم ، ولا توصيم في الدين ، ولا عممة في فرائض الله تعالى ، وكل مسكٍ حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقبال» .

(١) صوابه بالذال المهملة كما يفيدُه المعنى وقد أورده صاحب اللسان ج ١٣ - في مادة ع دل بالذال

المهملة فانظره .

وهذا الكتاب في معنى ما تقدم من الاحتياج إلى شرح غريبه . الأقبال بالقاف والياء المشناة تحت جمع قيل : وهو الملك . والعبألة الذين أقرؤا على ملكهم لا يزالون عنه ؛ وحضرموت بلدة في اليمن في أقصاها ، وقيل هي أحد محاليفها . والتبعة بالمشناة من فوق ثم المشناة من تحت والعين المهملة اسم لأدنى ما تجب فيه الزكاة من الحيوان : كالتمس من الإبل والأربعين من الغنم . قال ابن الأثير : وكأنها الجملة التي للسعاة عليها سبيل من تاع يتبع إذا ذهب إليه . والتبعة بالكسر الشاة الزائدة على الأربعين حتى تبلغ الفريضة الأخرى ، وقيل هي الشاة التي تكون لصاحبها في منزله يحلبها وليست بسائمة ، وهي بمعنى الداجن . والسيوب الركاك أخذنا من السيب وهو العطاء ، قاله أبو عبيدة ؛ وقيل هي عروق الذهب والفضة التي تسبب في المعدن بمعنى تتلون وتظهر . وقال الزمخشري : هي جمع سيب ، يريد به المال المدفون في الجاهلية أو المعدن لأنه من فضل الله تعالى لمن أصابه . والحلاط بالكسر مصدر خالط ، يقال : خالطه يخالطه خلاطا ومخالطة ، والمراد أن يخاطب الرجل إبله بإبل غيره أو بقره أو غنمه لينع حق الله تعالى منها ، ويخس المصدق فيما يجب له . والوراط بالكسر أيضا أن تجعل الغنم في وهدة من الأرض لتخفي على المصدق ، مأخوذ [من الورطة] وهي الهوة من الأرض . والشناق بكسر الشين المشاركة في الشق بفتح النون : وهو ما بين الفريضتين من كل ما تجب فيه الزكاة ، وهو ما زاد من الإبل على الخمس إلى التسع ، وما زاد على العشر إلى أربع عشرة ، والمراد أن لا تؤخذ الزيادة على الفريضة . قال ابن الأثير : ويجوز أن يكون معناه المشاركة في الشق والشقين ، وهو بمعنى الحلاط المتقدم ذكره ، لكن حمله على الأول أولى ، لتعدد المعنى . والشغار بكسر الشين وبالغين المعجمة نكاح معروف في الجاهلية ، وهو أن يزوج الرجل أبنته أو أخته على أن يزوجه بنته أو أخته ، ويكون بضع كل

منهما صدقاً للأخرى . والأرواع جمع راع : وهم الحسانُ الوجوه من الناس .
 وقيل : الذين يروعون الناس أى يُفزعونهم بشدة الهيبة . قال ابن الأثير : والأول
 أوجه . وقوله : ومن أجبي هو بالجيم والباء الموحدة : وهو بيع الزرع قبل بدو
 صلاحه . وقيل هو أن يُغيب إبله عن المُصدّق أخذاً من أجباته إذا واريته .
 وقيل هو أن يبيع من الرجل سلعةً بثمن معلوم إلى أجل معلوم ثم يشتريها منه بالنقد
 بأقل من الثمن الذى باعها به ؛ ومعنى 'أربى' وقع فى الربا . والمشايبُ السادةُ الرؤسُ
 الزهرُ الألوان الحسانُ المناظرُ واحدها مشبُوب . والمقوِّرة الألياط المسترخية
 الجلودُ لهزالتها والأقورار الاسترخاءُ فى الجلود . والألياط جمع ليط : وهو قشر العود ،
 شُبّه به الجلدُ لالتزاقه باللحم . والضنك بالكسر الكثير اللحم ، ويقال الذكر والأُنثى
 فيه سواء ، والمراد أنه لا تؤخذ المفرطة فى السمن كما لا تؤخذ الهزيلة . وقوله :
 وأنظوا هو بلغة أهل اليمن بمعنى 'أعطوا' ، خاطبهم صلى الله عليه وسلم بلغتهم . والتبجة
 بناءً مثلثة بعدها باء موحدة ثم جيم هى الوسط من المال التى ليست من خياره
 ولأردأته ، أخذاً من تبجة الناقة وهو ما بين الكاهل إلى الظهر . وقوله ثم بكر جرى
 فيه على لغة أهل اليمن حيث يُبدلون لام التعريف ميماً . قال ابن الأثير : وعلى هذا
 فتكون راء بكرٍ مكسورةً من غير تنوين لأن أصله من البكر ، فلما أبدلت الألف واللام
 ميماً بقيت الحركةُ بحالها ، ويكون قد استعمل البكر موضع الأبقار . قال : والأشبه
 أن تكون بكرٌ منونةً ، وقد أبدلت نونٌ من ميماً ، لأن النون الساكنة إذا كان بعدها باء
 قلبت فى اللفظ ميماً نحو عنبرٍ ومنبر ، ويكون التقدير ومن زنى من بكرٍ . وقوله
 فاضقعوهُ هو بالصاد المهملة والقاف أى أضربوه ، وأصل الصقع الضرب على الرأس ،
 وقيل الضربُ ببطن الكف . وقوله : وأستوفضوه هو بالفاء والصاد المعجمة أى
 أفتوه ، أخذاً من قولهم : استوفضت الإبل إذا تفرقت [فى رعيتها] وقوله : فضرّجوه -

بالضاد المعجمة والجميم أى أَدْمُوهُ بالضرب، ويطلق الضَّرْح على الشَّق أيضا .
والأضاميم بالضاد المعجمة الحجارة واحدها إضمامة، والمراد أَرْجُمُوهُ بالحجارة . والتوصيم
بالضاد المهملة الفَتْرَة والتَّوَانِي ، أى لَانْفُتْرُوا فى إقامة الحدود ولا تَتَوَانُوا فيها . وقوله :
ولأَعْمَة فى فرائض الله - أصل العُمة السِّتْر ، أى لا تُسْتَرُ فرائضُ الله ولا تُنْفَى ،
بل تُظْهَر ويُجَهَر بها وتُعلن . وقوله : يَتَرَفَّل - أى يُسَوِّدُ وَيَتَرَأَسُ ، استعارة من
تَرْفِيل الثوب وهو إسباغُه وإرساله ؛ والأَقْبَالُ الملوِكُ وقد تقدّم الكلامُ عليه .

الأسلوب الثانى

(أن تفتح المكتبة بلفظ « هذا كتاب » ويذكر المقصد فيما بعد ،

وهو قليل الوقوع فى المكتبات)

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لقبيلة همدان من اليمن ، فيما ذكره ابن هشام
وهو: "هذا كتاب من محمد رسول الله لمخلاف حاريف وأهل جناب الهضب وحقاف
الرمل ، مع وافدها ذى المشعار ، لمالك^(١) بن تمّط^(٢) ولن أسلم من قومه ، على أن لهم
فراعها ووهاطها [وعزازها] ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، يأكلون علافها ، ويرعون
عافيا ، لكم بذلك عهد الله وذيماؤ رسوله ، وشاهدكم المهاجرون والأنصار " .

وذكر القاضى عياض فى "الشفاء" أن فى كتابه إليهم : "إن لكم فراعها ووهاطها
وعزازها ، تأكلون علافها وترعون عفاءها ، لنا من دقمتهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق

(١) كذا فى الامهات اللغوية أيضا وفى شرح الزرقانى على المواهب ج ٤ ص ٣٩ أنه ذوالمشفار

بالمعجمتين أو المهملتين .

(٢) فى المواهب مالك بدون لام الجر وأعربه الشارح بدلا مما قبله .

(٣) ضبطه صاحب اللسان بالقصر وضبطه الزرقانى وملا على قارى بالمد .

والأمانة، ولهم من الصّدقة الثّلب والنابُ والفِصِيلُ والفارِضُ والداجِنُ والكَبْشُ الحَوْرِيّ، وعليهم فيها الصّالِغُ والقارِحُ“ .

وهذا من نسبة ما تقدّم مما يحتاج إلى شرح غريبه : فالفِرَاعُ بالكسر جمع قَرَعَة ، وهو ما ارتفع من الأرض . والوِهاطُ جمع وَهْطَة : وهى ما أطمأنّ من الأرض ؛ والعِلافُ بالكسر - جمع عَلفَ بجَلَبٍ وجِبَالٍ ، والمراد ما تغلفه الدوابُّ من نبات الأرض ؛ والعَرَازُ - ما صلَّب من الأرض وأشدّت وخشُن ، ويكون ذلك في أطرافها ؛ والعقَاءُ العافِي - وهو ما ليس لأحد فيه ملكٌ ، من قولهم : عَقَا الأثرُ إذا دَرَسَ ، والدَّفءُ - نِجاجُ الإبلِ وما يُنتَفَعُ به منها ، سُمِّي دِفْعًا لأنه يُتَّخَذُ من أوبارها ما يُستَدَفُّ به ، والمراد هنا الإبلُ والغنمُ . والصَّرامُ - النخل ، وأصله قَطْعُ الثمرة ؛ والثّلبُ من ذكور الإبلِ - الذى هَرِمَ وتكسّرت أسنانه . والنابُ - المُسِنَّة من إناثها . والفِصِيلُ من أولاد الإبلِ - الذى فُصِلَ عن أمه من الرِّضاع . والفارِضُ - المسنُّ من الإبلِ ، والمراد أنه لا يُؤخَذُ منهم في الزكاة . والداجِنُ - الشاةُ التى يعلِفُها الناسُ في منازلهم ؛ والكَبْشُ الحَوْرِيّ منسوب إلى الحَوْرِ وهى جلود تُتَّخَذُ من جلود الضأن . وقيل : هو مادْبِغٌ من الجلود بغير القَرظ . والصالِغُ بالصاد المهملة والغين المعجمة : وهو من البقر والغنم الذى كَبُلَ وأتَمَّى ، ويكون ذلك في السنة السادسة ، ويقال : بالسّين بدل الصاد . والقارِحُ الفرس الذى دخل في السنة الخامسة .

الأسلوب الثالث

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ « سَلِّمْ أَنْتِ »)

فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المنذر بن ساوى . وهو فيما ذكره أبو عبيد
في «كتاب الأموال» : « سَلِّمْ أَنْتِ ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .
أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا وَأَسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا وَأَكَلَ ذَيْحَتَنَا ، فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ
لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ الرَّسُولِ ؛ فَمَنْ أَحَبَّ ذَلِكَ مِنَ الْمُجُوسِ فَإِنَّهُ آمِنٌ ، وَمَنْ أَبَى فَإِنَّ
عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ » .

الطرف الثالث

(في كُتْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَهْلِ الْكُفْرِ لِلدُّعَايَةِ إِلَى الْإِسْلَامِ ،
وهو على ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن يفتتح الكتاب بلفظ « من محمد رسول الله إلى فلان »)

كما في الأسلوب الأول من كُتْبِهِ إِلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ)

فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل : وهو قيصر ، وقيل
نائبه بالشام .

وهو على ما ثبت في الصحيحين . « من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ،
سلام على من أتبع الهدى » .

أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، أسلم يؤتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ،
فإن تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا
وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ
فإن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَا مُسْلِمُونَ .

وذكر أبو عبيد في "كتاب الأموال" : أن كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هرقل
كان فيه .

"من عهد رسول الله إلى صاحب الروم، إني أدعوك إلى الإسلام: فإن أسلمت فلك
ما للساميين وعليك ما عليهم، وإن لم تدخل في الإسلام فأعط الجزية، فإن الله تعالى
يقول: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ
وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية" .

قال أبو عبيد: وأراد بالفلاحين أهل مملكته، لأن العجم عند العرب كلهم
فلاحون لأنهم أهل زرع وحرث .

وفي مسند البزار أنه صلى الله عليه وسلم كتب إليه: « من عهد رسول الله إلى
قيصر صاحب الروم » .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى كسرى أبرويز: ملك الفرس فيما ذكره
أبن الجوزي، وهو:

(١) بفتح الواو وكسرهما ويقال له أبرواز ومعناه بالعربية المظفر - ٥١ الزرقاني على المواهب ج ٣ ص ٣٨٩ .

”من عهد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس .

سلام على من أتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأدعوك بدعاية الله عز وجل
فإني أنا رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حياً ويحقق القول على الكافرين ،
وأسلم تسلم فإن توليت فإن إثم الجوس عليك .“



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى المقوقس صاحب مصر . وهو فيما ذكره
أبن عبد الحكم .

(١)

”من عهد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط ، سلام على من أتبع الهدى .

أما بعد ، فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، فأسلم تسلم ، وأسلم يؤتِكَ اللهُ أَجْرَكَ
مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَعَلَيْكَ إِثْمُ الْقَبْطِ . يَا هَلْ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ“ .

وذكر الواقدي أن كتابه إليه كان بخط أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وأن فيه

”من عهد رسول الله إلى صاحب مصر .

أما بعد ، فإن الله أرسلني رسولا وأنزل عليّ قرءانا ، وأمرني بالإعذار والإنذار
ومقاتلة الكفار حتى يدينوا يديني ويدخل الناس في مليّتي ، وقد دعوتك إلى الإقرار
بوحدينته ، فإن فعلت سعديت ، وإن آبيت شقيت ، والسلام“ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى النجاشي: مَلِكِ الحَبَشَةِ . وهو فيما ذكره
 ابن إسحاق :

” من محمد رسول الله إلى النجاشي مَلِكِ الحَبَشَةِ ، إني أحمدُ إليك الله الملك
 القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أن عيسى ابن مريمَ البتولِ الطيبةِ الحَصبيةِ ،
 حملته من رُوحِهِ ونَفْسِهِ ، كما خَلَقَ آدمَ بيده . وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريكَ له ،
 وأن تَتَّبِعَنِي وتُؤْمِنَ بالَّذي جِئني ، فإني رسولُ الله ، وإني أدعوك وجنودك إلى الله
 عزَّ وجلَّ ، وقد بَلَّغْتُ ونَصَحْتُ ، فاقبلوا نصيحتي . وقد بعثتُ إليكم ابنَ عمِّي جعفرًا
 ومعه نَفَرٌ من المُسلمينَ ، والسلامُ على من أتبع الهدى“ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى هُوذة بن علي: صاحب اليمامة ، وكان
 نصرانياً . وهو فيما ذكره السهيلي .

” من محمد رسول الله إلى هُوذة بن علي .

سلامٌ على من أتبع الهدى . وأعلم أن ديني سيظهرُ إلى منتهى الخُلفِ والحافِرِ ،
 فأسلمِ تَسَلِّمًا ، وأجعل لك ماتحت يديك“ .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى نصارى نَجْرَانَ . وهو فيما ذكره صاحب
 ” الهدى المحمدي“ .

(١) هو بفتح الهاء كما في الصحاح ونقل الديميري ضمها والواو ساكنة على كل حال .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ، إِلَهَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ .

أما بعد ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ مِنْ عِبَادَةِ الْعِبَادِ ، وَأَدْعُوكُمْ إِلَى وِلَايَةِ اللَّهِ مِنْ وِلَايَةِ الْعِبَادِ ، فَإِنِ أَيْتُمُ فَالْجِزْيَةُ ، فَإِنِ أَيْتُمُ فَقَدْ آذَنْتُمْ بِحَرْبِ الْإِسْلَامِ .

وَمِنْ ذَلِكَ كِتَابُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ أَبِي الْجَلَنْدِيِّ مَلِكِ عُمَانَ .
وهو : « مِنْ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى جَيْفَرٍ وَعَبْدِ أَبِي الْجَلَنْدِيِّ ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ آتَبَعَ الْهَدْيِ .

أما بعد ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمْ بِدَعَايَةِ الْإِسْلَامِ ، أَسْلِمًا تَسْلَمًا ، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً لِأَنْدَرَمَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ، وَإِنَّكَ إِذَا أَقْرَرْتُمَا بِالْإِسْلَامِ وَلَيْتُمَا ، وَإِنِ أَيْتُمَا أَنْ تُقْرَأَ بِالْإِسْلَامِ فَإِنَّ مَلَكَنَا زَائِلٌ عَنْكُمَا ، وَخَيْلِي تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا ، وَتَظْهَرُ بُيُوتِي فِي مَأْكَلِكُمَا . وَكُتِبَ أَبِي بْنِ كَعْبٍ » .

وفي رواية ذكرها أبو عبيد في "كتاب الأموال" أنه كتب إليهما .

” مِنْ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ لِعِبَادِ اللَّهِ أَسِيدِ بْنِ مُلُوكِ عُمَانَ ، وَأَسِيدِ عُمَانَ : مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْبَحْرَيْنِ ، إِنْهُمْ إِنْ آمَنُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَطَاعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَأَعْطَوْا حَقَّ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَسَكَّوْا نُسُكَ الْمُسْلِمِينَ ، فَإِنَّهُمْ آمِنُونَ ، وَإِنْ لَمْ يَأْمَنُوا عَلَيْهِ ، غَيْرَ أَنَّ مَالَ بَيْتِ النَّارِ ثَمَنًا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ عُسُورَ التَّمْرِ صَدَقَةً ، وَنِصْفَ عُسُورِ الْحَبِّ ، وَإِنَّ لِلْمُسْلِمِينَ تَصَرُّهَمْ وَنُصَحَهُمْ ، وَإِنَّ لَهُمْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَإِنَّ لَهُمْ أَرْحَاءَ يَطَّحُنُونَ بِهَا“ .

قال أبو عبيد : وبعضهم يرويه لعباد الله الأسبيين اسماً عجمياً نسبهم إليه .
قال : وإنما سُموا بذلك لأنهم نُسبوا إلى عبادة فرس ، وهو بالفارسية أسب فَنُسبوا
إليه ، وهم قومٌ من الفرس وفي رواية من العرب .



ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى مُسَيِّمَةَ الكَذَّابِ في جوابِ كتابه إليه
صلى الله عليه وسلم : أنه إن جعل له الأمر بعده آمن به .

وهو : « من عهد رسول الله إلى مُسَيِّمَةَ الكَذَّابِ : السلامُ عليّ من أتبع الهدى
أما بعد ، فإنَّ الأرضَ لله يُورثها من يشاء من عباده والعاقبَةُ للثَّقِينِ . »

الأسلوب الثاني

(أن يُفتَحَ الكتابُ بلفظ « أما بعد » وهو أقلُّ وقوعاً مما قبله)

فمن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم إلى أهلِ تَجْرَانَ ، ودينهم النصرانيةُ .
وهو فيما ذكره ابن الجوزي .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إله إبراهيم وإسماعيل ويعقوب . »

أما بعد : فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية الله
من ولاية العباد ، فإن أبيتُم فالجزية ، فإن أبيتُم فقد آذنتكم بحرب الإسلام .^(١)

(١) كذا في الأصول والمناسب لما تقدم له في اختتام الكتب ما في "مفتاح الأفكار" وهي "بحرب

الأُسْلُوبُ الثَّالِثُ

(أَنْ يُفْتَتَحَ الْكِتَابُ بِلَفْظِ « هَذَا كِتَابٌ »)

فمن ذلك كتابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَعَ رِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ إِلَى قَوْمِهِ . وَهُوَ فِيمَا ذَكَرَهُ
ابن إسحاق .

« هَذَا كِتَابٌ مِنْ عِندِ رَسُولِ اللَّهِ لِرِفَاعَةَ بْنِ زَيْدٍ ، إِنِّي بَعَثْتُهُ إِلَى قَوْمِهِ عَامَّةً وَمَنْ
دَخَلَ فِيهِمْ ، يَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ، فَمَنْ أَقْبَلَ مِنْهُمْ فَفِي حَرْبِ اللَّهِ وَحَرْبِ
رَسُولِهِ ، وَمَنْ أَدْبَرَ فَلَهُ أَمَانٌ شَهْرَيْنِ » .

قلت : وقد كتب صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى جَمَاعَةٍ غَيْرِ مَنْ تَقَدَّمَ ، لَمْ أَقِفْ عَلَى
صُورَةٍ مَا كَتَبَ إِلَيْهِمْ ، بَكْبَلَةَ بْنِ الْأَيْمَمِ الْغَسَّانِيِّ ، وَذِي الْكَلَّاعِ الْحَمِيرِيِّ وَغَيْرِهِمْ ،
وَسَتَاتِي كُتِبَتْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَعْنَى الْوَلَايَاتِ وَالْإِقْطَاعَاتِ وَالْهُدُنِ وَالْأَمَانَاتِ
فِي مَوَاضِعِهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكُتُب الصادرة عن الخلفاء ، وهي على قسمين)

القسم الأول

(المكاتبات إلى أهل الإسلام ، وفيه تسعة أطراف)

الطرف الأول

(في الكُتُب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضی الله عنهم ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في المكاتبات الصادرة عن أبي بكر الصديق رضی الله عنه)

وكانت تُفتح بلفظ: « من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان »
 وبقية الكتاب من نسبة كُتِبَ النبي صلى الله عليه وسلم من التصدير بالسَّلام
 والتَّحْمِيد ، والتَّخْلُصُ بآما بعد ، والاختتام بالسَّلام وما يجرى هذا المجرى ، مع لزوم
 الخطاب بالكاف وتاء المخاطب للواحد ، والثنية للآثنين ، والجمع للجماعة . وعنوانها
 « من أبي بكر خليفة رسول الله » في الجانب الأيمن ثم « إلى فلان الفلاني »
 في الجانب الأيسر على ما يقتضيه الترتيب المتقدم .

وهذه نسخة كتابه رضی الله عنه إلى أهل الردة حين ارتدوا عن الإسلام بعد

وفاة النبي صلى الله عليه وسلم .

وهو على ما ذكره صاحب "نهاية الأرب"

"من أبي بكرٍ خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى من بلغه كتابي هذا من عامة وخاصة ، أقام على الإسلام أودع عنه :

سلام على من أتبع الهدى ، ولم يرجع بعد الهدى إلى الضلالة والعمى ؛ فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وأقر بما جاء به [وأكفر من أبي وأجاهده] .^(١)

أما بعد ، فإن الله أرسل محمدا بالحق من عنده إلى خلقه بشيرا ونذيرا ؛ وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، لينذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين ، يهدي الله للحق من أجاب إليه ، وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإذنه من أذبر عنه حتى صار إلى الإسلام طوعا وكرها ؛ ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقد نفذ لأمر الله ، ونصح لأمتيه ، وقضى الذي عليه ؛ وكان الله قد بين له ذلك ولأهل الإسلام في الكتاب الذي أنزله ، فقال : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ وقال : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ انْخِلَادًا فَإِنْ هِيَ مِنْ فِتْنَةٍ انْخَلَدُوا ﴾ وقال للمؤمنين : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقَدْحَ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلَ أَفْئَانِ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ فمن كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فإن الله بالمرصاد ، حتى قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم ، حافظ لأمره ، منتقم من عدوه بجزبه ، وإني أوصيكم بتقوى الله وحفظكم ونصيكم من الله ، وما جاء به نبيكم ، وأن تهتدوا بهديه ، وأن تعتصموا بدين الله ، فإن من لم يهد الله ضل ، وكل من لم يعافه مبتلى ، وكل من لم ينصره محذول .

(١) الزيادة عن العبر (شبه ج ٢ ص ٧٠) .

فَمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ كَانَ مُهْتَدِيًّا ، وَمَنْ أَضَلَّهُ كَانَ ضَالًّا : ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا يَجِدُ لَهُ سَبِيلًا﴾ ولم يقبل منه في الدنيا عملٌ حتى يقرب به ، ولم يقبل له في الآخرة صرفٌ ولا عدل .

وقد بلغني رجوعٌ من رجح منكم عن دينه بعد أن أقر بالإسلام وعمل به ، أعتارًا بالله وجهالةً بأمره ، وإجابةً للشيطان ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَدُرَيْتِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ . وقال جل ذكره : ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وإني أنفقتُ إليكم فلانًا في جيشٍ من المهاجرين والأنصارِ والتابعين بإحسانٍ ، وأمرته أن لا يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله ، فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحًا ، قبل منه وأعانه عليه ؛ ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك ، ولا يبقى على أحدٍ منهم قدرٌ عليه ، وأن يحرقهم بالنيران ، ويقتلهم كلَّ قتلة ، ويسبي النساء والذراري ، ولا يقبل من أحدٍ إلا الإسلام ؛ فمن آمن فهو خير له ، ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كلِّ مجمعٍ لكم ، والداعية الأذنان ، فإن أذن المسلمون فأذنوا ، كفوا عنهم ، وإن لم يؤذنوا [عاجلوهم ، وإن أذنوا] سلوهم ما عليهم ، فإن أبوا عاجلوهم ، وإن أقرؤا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم .

(١) في العربية ج ٢ ص ٧٠ وتاريخ الطبري ج ٣ ص ٢٢٦ "فمن اتبعه" .

(٢) الزيادة من رواية الطبري ج ٣ ص ٢٢٦ .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الصادرة عن بقية الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

وهي على أسلوبيين :

الأسلوب الأول

(أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « من فلان إلى فلان »)

يقال إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما صارت الخلافة إليه بعد أبي بكر، كان يكتب في كتبه : « من عمر بن الخطاب خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فلان » فلما تلقب بأمر المؤمنين على ما تقدم في المقالة الثالثة ، أثبت هذا اللقب في كتبه ، وزاد في آياتها لفظ « عبد الله » قبل اسمه ، ليكون اسمه نعتاً له ، فكان يكتب : « من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى فلان »^(١) وبقى الكتاب على ما مر في كتب النبي صلى الله عليه وسلم والصديق بعده في التصدير والتعبير عن نفسه بلفظ الإفراد ، مثل أنا ولي وعلى ، وعن المكتوب له بكاف الخطاب : مثل لك وعليك ، وتاء المخاطب : مثل قلت وفعلت ؛ وتبعه الخلفاء على ذلك . وعونها « من عبد الله فلان أمير المؤمنين » في الجانب الأيمن ، ثم « إلى فلان الفلاني » في الجانب الأيسر كما تقدم ترتيبه .

فمن ذلك ما كتب به أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه إلى عمرو بن العاص وهو

يومئذ أمير مصر ، وهو :

(١) لعله "تعاله" .

« من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص : سلام عليك .
 أما بعد ، فقد بلغني أنه فشئت لك فاشيةً من خيل وإبل وبقر وعبيد ، وعهدى
 بك قبل ذلك ولا مال لك ، فاكتب إلي من أين أصل هذا المال » .



ومن ذلك ما كتب به معاوية بن أبي سفيان في خلافته إلى ابنه يزيد ، وقد
 بلغه مفاقرته اللذات ، وأنها مأكلة على الشهوات ، وهو :

« من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية .

أما بعد ، فقد أدت السنة التصريح إلى أذن العناية بك ما جع الأمل فيك ،
 وبعاد الرجاء منك إذ ملأت العيون بهجة ، وأقلوب هيبة ، وترامت إليك آمال
 الراغبين ، وهم المتنافسين ؛ وتحتت بك فتیان قريش وكهول أهلك ، فما يسوغ لهم
 ذكرك إلا على الحرة المهووة ، والكظ الجشء . اقتحمت البوائق ، وانقدت للمعاير ،
 واعتصمتها من سمو الفضل ، ورفيع القدر ؛ فليتك يزيد إذ كنت لم تكن . سررت يافعاً
 ناشئاً ! وأنكلت كهلاً ضالماً ، فواحرناه عليك يزيد ! وياحر صدر المتكلم بك !
 ما أشتت فتیان بنى هاشم ! وأذل فتیان بنى عبد شمس ! عند تفاوض المفاحر ودراسة
 المناقب ! فن لصلاح ما أفسدت ، ورتق ما فتقت ؟ هيهات تحمست الذربة وجه
 التصبر بك ، وأبت الحناية إلا تحدرًا على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أريح
 فائدة نالوها ، وفرصة أتهزوها ! ؛ أنتيه يزيد للفظه ، وشاور الفكره ، ولا تكن إلى
 سمعك أسرع من معناها إلى عقلك . وأعلم أن الذى وطأك وسوسة الشيطان ،
 وزحرفة السلطان ، مما حسن عندك قبحه ، وأحلولى عندك مره ، أمر شرك فيه

السَّوَادَ وَنَافَسَكَ الْأَعْبُدَ، لِأَثْرَةِ تَدْعِيهَا أَوْ جَبَّتْهَا لَكَ الْإِمْرَةَ، وَأَضَعْتَ بِهَا مِنْ قَدْرِكَ، فَأَمَكَنْتَ بِهَا مِنْ نَفْسِكَ؛ فَكَأَنَّكَ شَانِيٌ نَفْسِكَ، فَمِنْ لِهَذَا كَلِمَةُ؟ .

• اعْلَمْ يَا زَيْدُ أَنَّكَ طَرِيدُ الْمَوْتِ وَأَسِيرُ الْحَيَاةِ ، بَلَّغْنِي أَنَّكَ اتَّخَذْتَ الْمَصَانِعَ وَالْمَجَالِسَ لِلْمَلَاهِيِ وَالْمَزَامِيرِ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾ وَأَجْهَرْتَ الْفَاحِشَةَ حَتَّى اتَّخَذَتْ سَرِيرَتَهَا عِنْدَكَ جَهْرًا .

اعْلَمْ يَا زَيْدُ أَنَّ أَوَّلَ مَا سَلَبَكَ الشُّكْرَ مَعْرِفَةُ مَوَاطِنِ الشُّكْرِ لِي عَلَى نِعْمَةِ الْمُنَظَّاهِرَةِ، وَالْآيَةُ الْمُتَوَاتِرَةُ، وَهِيَ الْجُرْحَةُ الْعُظْمَى، وَالْفَجْعَةُ الْكُبْرَى: تَرْكُ الصَّلَوَاتِ الْمَفْرُوضَاتِ فِي أَوْقَاتِهَا، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَا يَحْدُثُ مِنْ آفَاتِهَا، ثُمَّ اسْتِحْسَانُ الْعُيُوبِ، وَرُكُوبُ الذُّنُوبِ، وَإِظْهَارُ الْعَوْرَةِ، وَإِبَاحَةُ السَّرِّ. فَلَا تَأْمُنْ نَفْسَكَ عَلَى سِرِّكَ، وَلَا تَعْقِدْ عَلَى فِعْلِكَ. فَمَا خَيْرُ لَذَّةٍ تُعْقِبُ النَّدَمَ، وَتُعْفَى الْكِرَامَ؟ وَقَدْ تَوَقَّفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ شَطْرَيْنِ مِنْ أَمْرِكَ، لَمَّا يَتَوَقَّعُهُ مِنْ غَلْبَةِ الْآفَةِ وَأَسْتِهْلَاكِ الشَّهْوَةِ. فَكُنِ الْحَاكِمَ عَلَى نَفْسِكَ، وَأَجْعَلِ الْمَحْكُومَ عَلَيْهِ ذِهْنَكَ تَرْتُدُّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى. وَلِيَبْلُغْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مَا يَرُدُّ شَارِدًا مِنْ نَوْمِهِ، فَقَدْ أَصْبَحَ نُصَبَ الْأَعْتِرَالِ مِنْ كُلِّ مُؤَانِسٍ، وَدُرَاةً^(١) الْأَلْسُنِ الشَّامِتَةِ، وَفَقَّكَ اللَّهُ فَأَحْسَنَ .

الأسلوب الثاني

(أَنْ يُفْتَحَ الْكَلْبُ بِلَفْظِ «أَمَّا بَعْدُ»)

وهو على ما تقدم خلا الأبتداء والتصدير بالسلام والتحميد، ويكون الأفتتاح فيه بالمقصد، كما كتب أمير المؤمنين عثمان بن عفان إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه حين خرج علي إلى اليمن وأختلف الناس على عثمان .

(١) لعله دريئة وهي الحلقة التي يتعلم عليها الطعن .

أما بعدُ، فقد بلغ السيلُ الزَّبِي [وجاوز] الحِزَامُ الطَّيِّبِينَ، وطَمِعَ فِي كُلِّ مَنْ
 كَانَ يَضْعَفُ [عن الدفع]^(١) عَن نَفْسِهِ، وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبٍ، فَأَقْبِلْ إِلَى صَدِيقًا
 كُنْتَ أَوْ عَدُوًّا :

فَإِنْ كُنْتَ مَا كُوِّلًا، فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلِمَّا أَمْزَقَ

الطرف الثاني

(في الكُتُبِ الصَادِرَةِ عَنِ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةِ)

وهي على ما تقدّم من الكُتُبِ عن الخلفاء من الصحابة في التصدير والتعبير، إلا
 أنه يعبر عن الخليفة بأمر المؤمنين، وربما عبر عنه بلفظ الأفراد . مثل : فعلتُ
 وأفعلُ وما أشبه ذلك ؛ أما الخطاب للكتوب له فكاف الخطاب وتاء المخاطب ،
 مثل : إنك أنتَ قلتَ كذا، وفعلتَ كذا، وما أشبه ذلك . وعنوانها : « من عبد الله
 فلان أمير المؤمنين » في الجانب الأيمن ، ثم « إلى فلان الفلاني » في الجانب الأيسر .
 ثم هي على أسلوبين :

الأسلوب الأول

(أن يفتَحَ الكِتَابُ بلفظ « من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان »)

كما كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج بن يوسف - وقد بلغه تعرّضه لأنس
 ابن مالك رضي الله عنه - « من عبد الله عبد الملك بن مروان أمير المؤمنين إلى الحجاج
 ابن يوسف

أما بعد، فإنك عبدٌ علت^(١) بك الأمور فطغيت، وعلوتَ فيها حتى جُزت حدَّ قدرِكَ، وعدوتَ طورَكَ . وأيمُ الله لأعجزنكَ كبعضِ عَمَزَاتِ اللبِوثِ الثَّعَالِبِ ! ولأرَكُضنكَ رَكُضَةً تدخُلُ منها في وجعَاءِ أمك ، اذْكرْ مكاسبَ آبائك في الطائف، إذ كانوا يَنْفُلُونِ الحجارةَ على أعناقِهِمْ، ويَحْفِرُونَ الآبارَ والمناهِرَ بأيديهم ! ، قد نَسِيتَ ما كنتَ عليه أنتَ وآبؤُك من الدَّناءةِ واللُّؤمِ والضَّرَاعَةِ . وقد بلغَ أميرَ المؤمنين استِطالةَ منك على أنسِ بنِ مالكِ جُرأةَ منك على أميرِ المؤمنين ، وغِرَّةَ بمعرفةِ غيره ونَقَاتِهِ وَسَطَوَاتِهِ على من خالف سبيلَهُ ، وعمدَ إلى غيرِ محجَّتِهِ ، ونزلَ عند سُخْطِهِ ، وأظنُّكَ أردتَ أن تُروِّزَهُ بها فتعلمَ ما عنده من التَّغْيِيرِ والتَّنكِيرِ فيها ، فإن سُوِّغَتْها مضيتَ قُدُماً ، وإن غَصِصَتْ بها وليتَ دُبُرًا أيُّهَا العَبْدُ الأَخْفَشُ العَيْنينِ ، الأَصْكَ الرُّجلينِ ، المَسْوُحُ الجاعِرَتينِ ، ولن يَخْفَى عن أميرِ المؤمنين نَبُؤُكَ ، ولكلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

الأسلوب الثاني

(أن يفتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويقع الشروع منه في المقصد)

كما كتب يزيد بن معاوية إلى أهل المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام - وقد بلغه خلافتهم عليه .

«أما بعد، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له وما لهم من دونه من والٍ . إني والله قد لبستكم فأخلفتكم ! ورفعتكم على رأسي ، ثم على عيني ، ثم على فمي ، ثم على بطني ؛ وأيمُ الله لئن وضعتم

(١) في مفتاح الأفكار ص ١٨١ "طمت" وهي أقرب إلى المعنى وفيه في آخر الكتاب زيادة فراجع .

(٢) في "مفتاح الأفكار" فليك لعنة الله من عبد أخفش الخ .

تحت قَدَمِي لِأَطَانِكُمْ وَطَاةٌ أَقْلُ بِهَا عَدَدُكُمْ ، وَأَتْرُكُكُمْ بِهَا أَحَادِيثَ تُنَسَخُ مِنْهَا
أَخْبَارُكُمْ كَأَخْبَارِ عَادٍ وَمُؤَدٍّ .

وكما كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن أرطاة، وهو عامله على بعض النواحي .
”أما بعد، فإذا أمكنتك القدرة على المخلوق، فاذا ذكر قدرة الخالق عليك ! وأعلم أن
مالك عند الله مثل ما للرعية عندك“ .

وكما كتب يزيد بن الوليد المعروف بالناقص إلى مروان بن محمد - وقد بلغه عنه
تلك في بيعته - .

”أما بعد، فإني أراك تقدم رجلا وتوتر أخرى، فإذا أتاك كلابي فاعتمد على أيهما
شئت والسلام“ .

قلت : ولم يزل الأمر في المكاتب في الدولة الأموية جاريا على سنن السلف،
إلى أن ولي الوليد بن عبد الملك، بغزو القراطيس، وجلل الخطوط، ونعم المكاتب،
وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك، إلا عمر بن عبد العزيز، ويزيد بن الوليد
المقدم ذكره، فإنهما جريا في ذلك على طريقة السلف، ثم جرى الأمر بعدهما على
ماسنه الوليد بن عبد الملك، إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد آخر خلفائهم،
وكتب له عبد الحميد بن يحيى - وكان من اللسن والبلاغة على ما أشتهر ذكره - فأطال
الكتب وأطنب فيها، حيث اقتضى الحال تطويلها والإطناب فيها، حتى يقال :
إنه كتب كتابا عن الخليفة جاء وقرب جمل، وأستمر ذلك فيما بعده .

الطرف الثالث

(في الكتب الصادرة عن خلفاء بني العباس ببغداد
وولاية العهد بالخلافة، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في بيان ترتيب كتبهم في الرسائل على سبيل الإجمال)

كانوا يفتحون أكثر كتبهم بلفظ « من فلان إلى فلان » وتارة بـ « أما بعد » وربما أفتحوها بغير ذلك ؛ فأما أفتأحها بلفظ من فلان إلى فلان فكان يكتب عنهم في أول دولتهم كما كان يكتب عن خلفاء بني أمية ، وهو « من عبد الله فلان أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » ثم يتخلص إلى المقصود بلفظ أما بعد . إلا أنهم زادوا بعد اسم الخليفة لفظ « الإمام الفلاني » بلقب الخلافة ، فكان يقال : « من عبد الله الإمام الفلاني أمير المؤمنين » فلما صارت الخلافة إلى الرشيد زاد بعد التحميد « ويسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » فلما ولي ابنه الأمين آكتنى في كتبه وتبعه من بعده من الخلفاء على ذلك .

وقد اختلف في تقديم الأسم والكنية واللقب ، والذي رتبته أبو جعفر النحاس في « صناعة الكتاب » تقديم الأسم على الكنية وتقديم الكنية على اللقب . مثل أن يقال : « من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين » ثم قال : وهذه المكاتبه هي التي أصطلح عليها في الأمور السلطانية التي تنشأ بها الكتب من الدواوين ، إلا أن بعض العلماء قد خالفهم في هذا ، وقال : الأولى أن يبدأ

باللقب، مثل أن يقال «من الراضى» أو «المتوكل» وما أشبه ذلك، كما قال الله جل وعز: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ وذلك لأن اللقب لا يشاركه فيه غيره، فكان أولى أن يُبدَأَ به .

وترتيب المكتابة على ما ذكره في "صناعة الكتاب" أن يكتب: «من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين، سلامٌ عليك؛ فإن أمير المؤمنين يمدُّ إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو، ويسأله أن يصلِّ على محمد عبده ورسوله». ثم يفصل ببياض يسير، ويكتب «أما بعد فإن كذا وكذا»؛ ثم يأتي على المعنى، فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر، فصل ببياض يسير، ثم يكتب: «وقد أمر أمير المؤمنين بكذا ورأى أن يكتب إليك بكذا»، فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسبه؛ ثم يفصل ببياض ويكتب: فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين، وأعمل به، إن شاء الله تعالى. «وكتب فلان بن فلان» باسم الوزير وأسم أبيه، يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا. وقد يكتب في أواخر المكتابة بعد استيفاء المقصد: «هذه مناجاة أمير المؤمنين لك» أو «هذه مفاوضة أمير المؤمنين لك» .

ويقال: في السلام على أعلى الطبقات من المكتوب إليهم «والسلام عليك ورحمة الله» وربما قيل: «ورحمة الله وبركاته» .



وأما افتتاحها بلفظ أما بعد، فغالب ما يقع في الكتب المطلقة: كالبشرى بالفتوح وغيرها. ثم تارة يعقب البعدية بالحمد لله، إما مرة أو أكثر، وغالب ما يكون ثلاث، وتارة يعقب بغير الحمد .



وأما الأفتاح بغير هذين الأفتاحين، فتارة يكونُ بالدعاء، وتارة يكونُ بغيره، ويكونُ التعبير عن الخليفة في كتبه الصادرة عنه « بأمر المؤمنين » على ما تقدم في خلافة بني أمية .

ثم إن كان المكتوبُ إليه معينا، فالذي كان عليه الحال في أول دولتهم أن يُكْتَبَ إليه باسمه؛ ثم لما تغلب بنو بويه على الخلفاء وغلَّبوا عليهم، وعلت كلمتهم في الدولة وتلقَّبوا بفلان الدولة وفلان الملة، فكان يُكْتَبُ إليهم بذلك في الكتب إليهم؛ ثم لما كانت الدولة السَّلاجُوقِيَّةُ في أواخر الدولة العباسية ببغداد، آسَتمَلوا كثرة الألقاب للمكتوب إليه عن الخليفة في صدر المكتبة . قال في «موادَّ البيان» :
ولا يخاطبُ أحدٌ عن الخليفة إلا بالكاف . وقد يخاطبُ الإمام وزيره في المكتبة الخاصة بما يرفعه فيه عن خطاب المكتبة العامة الديوانية، ويتصرَّف في ذلك ويُزاد ويُنقص على حسب لطافة محل الوزير ومنزلته من الفضل والجلالة .

قال في « ذخيرة الكتاب » : ويكونُ الدعاء من الخليفة لمن يكتبه على قدر موضعه من خدمته ومحله عنده، وقد تقدَّم أن أعلى الدعاء كان عندهم بإطالة البقاء؛ ولذلك كان يُدعى للملك بنو بويه فمن بعدهم بلفظ : «أطال الله بقاءك» وقد تقدَّم في المقالة الثالثة في الكلام على مقادير قطع الورق وما يناسب كلَّ قطع من الأقلام أنه إن كانت المكتبة عن الخليفة ترك الكاتبُ من رأس الدرَج قدر ذراع بياضا؛ ثم يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم يكتب في سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج يسيرا، من عبد الله إلى آخر التصدير الذي يليه أما بعد، وأن التصدير يكون في سطرين

بينهما فضاءً قدرَ شبر، لا يزيد عن ذلك ولا ينقص؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاءً بنصف ما بين الأولين فيما ذكره في "موادّ البيان" : وبقدره فيما ذكره في "ذخيرة الكتاب" ثم يقول : أما بعد، ويأتي على المكتبة إلى آخرها على هذا النحو .

أما عُنونَةُ كتبهم ، فكانت في أوّل دولتهم : « من عبد الله فلان الإمام الفلاني » أمير المؤمنين « في الجانب الأيمن ، وفي الجانب الأيسر « إلى فلان بن فلان » . ثم زاد المأمونُ في أوّل عُنُوناته « بسم الله الرحمن الرحيم » . ولما تكفّى الأمينُ في كتبه بعد ذلك زيدت الكُنيّة في العنوان ، فكان يكتب في الجانب الأيمن « بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني » وفي الجانب الأيسر ، « إلى فلان ابن فلان » . وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المكاتبات أن البسملة بقيت في العُنونة إلى زمن النحاس في خلافة الراضي ، وأن صاحب "موادّ البيان" ذكر أنها بطلت منه بعد ذلك .

قال النحاس : فإن كان المكتوبُ إليه من موالِي بنى هاشم ، نُسِب إلى ذلك ، وإن لم يكن ينسب إليهم تُرِكَ .

الجملة الثانية

(في الكُتُب العامّة ، وهي على أسلوبيين)

الأسلوب الأول

(أن يفتح الكتابُ بلفظ « من فلان إلى فلان »)

بأن يكتب « من عبد الله فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين » إلى آخر المكتبة على ما تقدّم ترتيبه .

وهذه نسخة كتاب من ذلك كتب به أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله إلى صمصام الدولة بن عضد الدولة بن بويه بسبب كردويه، الخارج عن الطاعة، وليس فيه تكنية للخليفة وهو .

من عبد الله « عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين » إلى صمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليجار بن عضد الدولة وتاج الملة مولى أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد - أطلّ الله بقاءك - فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المنزلة العلياً ، وأنا لك من أثرته الغاية القُصوى ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عضد الدولة وتاج الملة رحمة الله عليه من القدر والمحلّ ، والموضع الأرفع الأجل ؛ فإنه يُوجب لك عند بَدَلِك أثراً يكون لك فى الخدمه ، ومقام حمد تقومه فى حماية البيضة ؛ إنعاماً يظاهاه ، وإكراماً يتابعه ويؤاتره . والله يؤيدك من توفيقه وتسيديه ، ويمدك بمعونته وتأنيده ؛ ويخبر لأمر المؤمنين فيما رأيه مستمرّ عليه من مزيدك وتمكينك ، والإبقاء بك وتعظيمك ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنِيب .

وقد عرفت - أدام الله عزك - ما كان من أمر كردويه كافر نعمة أمير المؤمنين ونعمتك ، وجاحد صنيعته وصنيعتك ، فى الوثبة التى وثبها ، والكبيرة التى ارتكبها ؛ وتقريره أن ينتهز الفرصة التى لم يمكّنه الله منها ، بل كان من وراء [ذلك] دفعه وردّه عنها ؛ ومعاجلتك إياه الحرب التى أصلاه الله نارها ، وقنعه عارها وسأرها ؛ حتى أنهزم والأوغاد الذين شركوه فى إثارة الفتنة على أقبح أحوال الذلّة والقِلّة ، بعد القتل الذريع ، والإثنان الوجيع ؛ فالحمد لله على هذه النعمة التى جَلّ موقعها ، وبأن على

الخاصة والعامّة أثرها، ولزِمَ أمير المؤمنين خصوصاً والمسلمين عموماً نشرها، والحديث بها، وهو المسؤول إقامتها وإدامتها برحمته .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم ، والمقام المجيد الكريم ؛ بخلع تامّة ، ودابتين ومركين ذهباً من مرآكبه ، وسيف وطوق وسوار مرصع ؛ فتلق ذلك بالشكر عليه ، والأعداد بنعمته فيه ، وآلبس خلع أمير المؤمنين وتكريمته ، وسر من بابه على حملاته ، وأظهر ماحباك به لأهل حضرته ، ليعز الله بذلك وإيّه ووليّك ، ويبدل عدوه وعدوك ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .
(وكتب أحمد بن محمد ثمان إن يقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة) أطال الله بقاءك ، وأدام عزك ، وأحسن حفظك وحياطك ، وأمّع أمير المؤمنين بك ، وبالنعمة فيك وعندك .



وهذه نسخة كتاب آخر من ذلك أيضاً ، كتب به عن المقتضى لأمر الله إلى السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي في تعزية بولد مات له ؛ وفيه تكنية الخليفة وتقديم الكنية على الأسم وكثرة الألقاب للكتوب إليه وهو .

” من عبد الله أبى عبد الله محمد المقتضى لأمر الله أمير المؤمنين ، إلى شاهنشاه المعظم مولى الأمم ، مالك رقاب العرب والعجم ؛ جلال دين الله ، ظهير عباد الله ؛ حافظ بلاد الله ، معين خليفة الله ؛ غياث الدنيا والدين ، ناصر الإسلام والمسلمين ؛ محي الدولة القاهرة ، معز الملة الزاهرة ، عماد الملة الباهرة ، أبى الفتح « مسعود ابن محمد ملكشاه » قسيم أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن
يصلّى على محمد عبده ورسوله ويسلمّ تسليماً .

أما بعد ، أطل الله بقاءك ! وأدام عزك وتأييدك وسعادتك ونعمتك ، وأحسن
حفظك وكلاءك ورعايتك ؛ وأمتع أمير المؤمنين بك ، وبالنعمة الجليلة والموهبة
الجزيلة والمنحة النفيسة فيك وعندك ، ولا أخلاه منك ! ، فإن أولى من أدّرع للحوادث
جبة الأصبطار ، ونظر أحوال الدنيا في قلبها بعين الاعتبار ؛ ورجع إلى الله تعالى
في قدره وقضائه ، وسلم لأمره الذى لا راد له فى امتحانه وأبتلائه ، وعرف أن له
سبحانه فى كلّ ما يُجرّيه على عباده حكمة باطنه ، ومصالحة كامنه ؛ من خير عاجل
ينشئه ، وثواب آجل يُؤخّره لهم إلى يوم الجزاء ويُدّخره ؛ وفائدة هو أدري بها وأعلم ،
وفعله فيها أتقن وأحكم ؛ من خصّه بما خصك الله به من الدين الراجح ، والخلق
الصالح ، والمعتقد الواضح ؛ والنعم التى جادك فى كلّ يوم مقام سخابها ، وآتسعت
بين يديك عند مضايق الأمور رحابها ، وأنست إذا استوحشت من العاجزين عن
ارتباطها بالشكر صحابها ؛ والمناقب التى فرّعت بها صهوات المجد ، وتملّكت ريق الثناء
والحمد ؛ وعلوت فيها عن المساجل والمطاول ، وبعد ما حضر لك منها عن أن تناله يد
القائم المحاول . وتأدى إلى حضرة أمير المؤمنين - أمتعته الله ببقائك ، ودافع له عن
حوباتك - نبأ الحادثة بسيليك الذى آختر الله له كريم جواره ، فأحب له الانتقال^(١)
إلى محلّ الفوز ومداره ، فوجد لذلك وجوما موقرا ، وهما للسكون منفرا ، وتوزعا
تقتضيه المشاركة لك فيما ساويته (؟) والمساهمة الحاصلة فى كل ما حلا من الأمور وأمر ،
وأمر عند ورود هذا الخبر بالتصدى للعزاء ، وإعلان ما يعلن عن مقاسمتك فى الضراء
- دفعها الله عنك - والسراء ؛ ونذب جمعا من الخدم المطيفين بشريف سُدته ،

(١) الحوباء النفس أنظر القاموس .

المختصين بعزير خدمته ؛ بتعزيتصونه لباس التعزیه ، ويستندنى بتقمصه عازب
التسليه ؛ إبانةً عن أنصراف المهيم الإمامية إليك فيما خصّ وعمّ من حالك ، وأستجلايه
لك دواعى المسارّ فى حلك وتّرْجالك ؛ وكون الأفكار الشريفة موكّلة بكل ماحمى من
الروائع قلبك ، وأعذب شربك ؛ وأنت حقيق بمعرفة هذه الحال من طويته لك
ونيته ، ورأيه فىك وشفقته ، ورعاية مصلحتك منه بعين كاليه ، ورجوعه من المحافظة
فى حَقِّك إلى أُلْفة بالصفاء حاله ؛ وتلقّى الرزية التى أرادها الله وقضاها ، وأنفذ مشيئته
فيها وأمضاها ؛ بالصبر المأمور به والاحتساب ، والتسليم الموعود عليه بجزيل الثواب ؛
علما أن الأقدار لا تُغالب ، وغريمها لا يُطالب ؛ وإن الله تعالى إذ قال لنبيه صلى الله
عليه وسلم - وهو سيد البشر - ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ فلا سبيل لأحد من
خَلَقه إلى البقاء ، ولا وَجَهَ للخلود فى دار الفناء ؛ ولا دافع لحكمة جَلَّتْ عظمتُه فيما
قَدَره من الآجال ، وسبق فى علمه من الرّوائع فى دار الابتلاء والأحوال ؛ وما يزال
التطلُّع واقعا إلى وصول جوابك الدالّ على السّلوّة التى هى الأليق بك ، والأدعى
إلى حصول بُغيتك من قضاء الله وأدبك ؛ لتُحطّ الأنسة مع وصوله فى رحالها ،
وتُوذِنَ لصرف الغُمووم الجارية لأجلك بارتحالها .

هذه مناجاة أمير المؤمنين لك ، أدام الله تأييدك ! وأمتع بك ! إن شاء الله تعالى ،
والسلام عليك ورحمة الله .

الأسلوب الثاني

(أن يكون الأفتتاحُ بلفظ «أما بعد» وهو على نوعين)

النوع الأول

(أن يعقب البعديَّة «الحمد لله» ؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يتعدّد الحمد في أول الكتاب)

ويكون ذلك في الكتب المؤدّنة بمحصلِ نعمةٍ ظاهرة : كالفتوح ونحوها . ويقع التعدّد فيها بحسب ما تقتضيه النعمة ؛ وغالب ما يكون ثلاث مرات ، وربما وقع التعميدُ في أول الكتاب وآخره .

وهذه نسخة كتابٍ من هذا النوع كُتِبَ بها عن المعتصم إلى ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الأُفشين على بابك ملك الروم ، وهي :

أما بعدُ ، فالحمد لله الذي جعل العاقبةَ لدينه ، والعِصمةَ لأوليائه ، والعِزَّ لمن نصره ، والفُلجَ لمن أطاعه ، والحقَّ لمن عَرَفَ حقَّه ؛ وجعل دائرةَ السوءِ على من عصاه وصدَفَ عنه ، ورَغِبَ عن رُبُوبِيته ، وآبَتغى إلها غيره . لا إلهَ إلا هو وحده لا شريكَ له . يحمده أمير المؤمنين حمدَ مَنْ لا يعبدُ غيره ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ، ولا يفوضُ أمره إلا إليه ؛ ولا يرجو الخَيْرَ إلا من عنده ، والمزيدَ إلا من سَعَةِ فضله ؛ ولا يستعين في أحواله كُلِّها إلا به . ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، وصفوته من عباده ، الذي آرتضاه لنبوته ، وآبتعته بوحيه وأختصَّه بكرامته ؛ فأرسله بالحق شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً . والحمد لله الذي توجه

لأمير المؤمنين بصنعه ، فيسر له أمره ، وصدق له ظنه ، وأمنح له طلبته ، وأنفذ له
 حيلته ، وبلغ له محبته ، وأدرك المسلمون بثأرهم على يده ، وقتل عدوهم ، وأسكن
 روعتهم ، ورحم فاقتهم ، وآس وحشتهم ، فأصبحوا آمنين مطمئنين مقيمين
 في ديارهم ، متمكنين في أوطانهم ؛ بعد القتل والخوف والتشريد وطول العناء ، وتتابع
 البلاء ؛ من آمن الله عز وجل على أمير المؤمنين بما خصه به ، وصنعاً له فيما وفقه لطلبه ،
 وكرامة زادها فيما أجرى على يده ؛ فالحمد لله كثيراً كما هو أهله ، وزغب إلى الله
 في تمام نعيمه ودوام صنعه ، وسعة ماعنده بمنه ولطفه ؛ ولا يعلم أمير المؤمنين - مع
 كثرة أعداء المسلمين وتكفئهم إياه من أقطاره ، والضغائن التي في قلوبهم على أهله ،
 وما يترصدونه من العداوة ، ويتطؤون عليه من المكابدة ، إذ كان هو الظاهر عليهم ،
 والآخذ منهم - عدواً كان أعظم بليّة ، ولا أجل خطباً ، ولا أشد كلباً ، ولا أبلغ
 مكابدة ، ولا أرمى بمكره ، من هؤلاء الكفرة الذين يغزوه المسلمون ، فيستعلون
 عليهم ، ويضعون أيديهم حيث شاعوا منهم ، ولا يقبلون لهم صلحاً ، ولا يميلون معهم
 إلى موادعة ؛ وإن كان لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض ما لا يزال
 يكون من فترات ولاية الثغور أدنى دولة من دولات الظفر وخلسة من خلس
 الحرب ، كان بما لهم من خوف العاقبة في ذلك منغصاً لما تعجلوا من سروره ،
 وما يتوقعون من الدوائر بعد ، مكدرًا لما وصل إليهم من فرحة .

فأما اللعين بابك وكفرته ، فإنهم كانوا يغزون أكثر مما يغزون ، وينالون أكثر
 مما ينال منهم ؛ ومنهم المتحرفون عن الموادعة ، المتوحشون عن المراسلة ؛ ومن
 أدبوا من تتابع الدول ، ولم يخافوا عاقبة تذكهم ، ولا دائرة تدور عليهم . وكان مما
 وطأ ذلك ومكته لهم أنهم قوم أبتدؤا أمرهم على حال تشاغل السلطان ، وتتابع من
 الفتن ، وأضطراب من الحبل ، فاستقبلوا أمرهم بعزة من أنفسهم ، وضعيف

وَأَسْتِثَارَةٌ مِّنْ بَارَاهِمٍ ، فَأَجَلَوْا مَن حَوْلَهُمْ لَتَخْلُصَ الْبِلَادُ لَهُمْ ؛ ثُمَّ أُخْرِبُوا الْبِلَادَ لِعِزِّ مُطَلَبِهِمْ ، وَتَشَدِّدِ الْمُؤْنَةِ وَتَعْظَمِ الْكُلْفَةِ ، وَيَقْوُوا فِي ذَاتِ أَيْدِيهِمْ ؛ فَلَمْ يَتَوَافَ إِلَيْهِمْ قُودَا السُّلْطَانِ إِلَّا وَقَدْ تَوَافَتْ إِلَيْهِمُ الْقُوَّةُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَاسْتَفْحَلَ أَمْرُهُمْ ، وَعَظُمَتْ شَوْكُهُمْ ، وَأَشْتَدَّتْ ضَرُورَاتُهُمْ وَاسْتَجْمَعَ لَهُمْ كَيْدُهُمْ ، وَكَثُرَ عَدَدُهُمْ وَأَعْتَدَادُهُمْ ، وَتَمَكَّنَتْ الْهَيْبَةُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنْهُمْ ، وَتَحَقَّقَ فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ كُلَّ مَا يَعِدُهُمُ الْكَافِرُ وَيُمَيِّنُهُمْ أَخْذٌ بِالْيَدِ . وَكَانَ الَّذِي بَقِيَ عِنْدَهُمْ مِنْهُ كَالَّذِي مَضَى ، وَبِدُونِ هَذَا مَا يَخْتَدِعُ الْأَرِيْبَ وَيُسْتَنْزِلُ الْعَاقِلَ وَيَعْتَقِلُ الْفَطِيْنَ ، فَكَيْفَ بِنِ لَافِكَةِ لَهُ ، وَلَا رُويَّةَ عِنْدَهُ ؟

هذا مع كل ما يقوم في قلوبهم من حسد أهل النعم ، ومنافستهم على ما في أيديهم ، وتقطيعهم حشرات في إثر ما خُصوا به ، وأنهم إن لا يكونوا يرون أنفسهم أحق بذلك ، فإنهم يرون أنهم فيه سواء .

ولم يزل أمير المؤمنين قبل أن تُفَضِّيَ إِلَيْهِ الْخِلاَفَةُ مَاذَا عُنُقَهُ ، مَوْجَهَا هَمَّتَهُ إِلَى أَنْ يُؤَلِّيَهُ اللَّهُ أَمْرَ هَؤُلَاءِ الْكَافِرَةِ وَيَمْلِكَهُ حَرْبَهُمْ ، وَيَجْعَلُهُ الْمُقَارِعَ لَهُمْ عَنِ دِينِهِ ، وَالْمُنَاجِزَ لَهُمْ عَنِ حَقِّهِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَأْلُو فِي ذَلِكَ حِرْصًا وَطَلْبًا وَأَحْتِيَالًا ؛ فَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَا بِيْ ذَلِكَ لَضَمَّنَهُ بِهِ ، وَصِيَّانَتِهِ بِقَرْبِهِ ، مَعَ الْأَمْرِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لَهُ وَآثَرَهُ بِهِ ؛ وَرَأَى أَنْ شَيْئًا لَا يَفِي بِقِوَامِ الدِّينِ وَصَلَاحِ الْأَمْرِ .

فَلَمَّا أَفَضَى اللَّهُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِخِلاَفَتِهِ وَأَطْلَقَ الْأَمْرَ فِي يَدِهِ ، لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَيْهِ وَلَا أَخَذَ بَقَلْبِهِ مِنَ الْمَعَاجِلَةِ لِلْكَافِرِ وَكَفَرَتِهِ ، فَأَعَزَّهُ اللَّهُ وَأَعَانَهُ اللَّهُ ، فَتَلَّهُ الْحَمْدُ عَلَى ذَلِكَ وَتَيَسَّرَ ، فَأَعَدَّ مِنْ أَمْوَالِهِ أَخْطَرَهَا ، وَمِنْ قُودَا جَيْشِهِ أَعْلَمَهُمْ بِالْحَرْبِ وَأَنْهَضَهُمُ بِالْمُعْضَلَاتِ ، وَمِنْ أَوْلِيَائِهِ وَأَبْنَاءِ دَعْوَتِهِ وَدَعْوَةِ آبَائِهِ - صَلَوَاتُ اللَّهِ

عليهم - أحسنهم طاعة ، وأشدهم نكايه ، وأكثرهم عُدَّة . ثم أتبع الأموال بالأموال ، والرجال بالرجال ، من خاصّة مواله وعدد غلماناه ، وقبل ذلك ما أتكل عليه من صنَع الله جَلَّ وعَزَّ ، ووجه إليه من رعيته . فكيف رأى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين؟ ألم يكذب الله ظنونهم ، ويشف صدور أوليائه منهم؟ يقتلونهم كيف شاءوا في كل موطن ومعترك ، مادامت عند أنفسهم مقاومة .

فلما ذلُّوا وقتلوا وكرهوا الموت ، صاروا لا يترآءون إلا في رؤوس الجبال ومضايق الطُرق وخلف الأودية ومن وراء الأنهار ، وحيث لاتناهم الخيل ، حصنا للطولة وانتظاراً للدوائر ، فكادهم الله عند ذلك وهو خير الكائدين ، وأستدرجهم حتى جمعهم إلى حصنهم معتصمين فيه عند أنفسهم ، فجعلوا اعتصامهم حين لهم ، وصنَع لأوليائه وإحاطة منه به تبارك وتعالى ، بجمعهم وحصرهم لكي لا تبقى منهم بقية ولا تُرجى لهم عاقبة ، ولا يكون الدينُ إلا لله ، ولا العاقبة إلا لأوليائه ، ولا التمس والتعس والتعس إلا لمن خذله .

فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم ، سلطهم الله عليهم كيده واحدة ، يخطفونهم بسيوفهم ، وينتظمونهم برماحهم ، فلا يجيدون ملجأ ولا مهرباً ، ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحرَمهم وصيروا الدار دارهم والمحلة محلَّتهم ، والأموال قسماً بينهم ، والأهل إماءً وعبيداً . وفوق ذلك كلُّه ما فعل بهؤلاء وأعظامهم من الرحمة والثواب ، وما أعدَّ لأولئك من الخزي والعقاب ؛ وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسلم من ذلِّ الغلبة ، ولا فيمن نجحاً فعاين في الحياة بعض العوض ، ولا فيمن أصيب ، فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه ، لكنه سبحانه وتعالى أطلقه وسدَّ مذهبه ، وتركه مُلدداً بين الدلِّ والخوف ، والغصّة والحسرة ، حتى إذا ذاق

طعم ذلك كله وفهمه، وعرف موقع المصيبة، وظن مع ذلك كله أنه على طريق من النجاة، فأضرب الله وجهه، وأعمى بصره، وسد سبيله، وأخذ بسمعه وبصره، وحازه إلى من لا يريُّ له، ولا يريُّ لمصرعه؛ فأمثل ما أمر به الأفشين (حيدر بن طاوس) مولى أمير المؤمنين في أمره؛ فبث له الجبال، ووضع عليه الأرصاء، ونصب له الأشرار حتى أظفره الله به أسيراً ذليلاً مؤثماً في الحديد، يراه في تلك الحالة من كان يراه رباً، ويرى الدائرة عليه من كان يظن أنها ستكون له. فالحمد لله الذى أعز دينه، وأظهر حجتَه، ونصر أوليائه وأهلك أعداءه، حمداً يقضى به الحق، وتتم به النعمة، وتتصل به الزيادة. والحمد لله الذى فتح على أمير المؤمنين وحقَّق ظنَّه، وأنجح سعيه، وحاز له أجر هذا الفتح ودُخره وشرَّفه، وجعله خالصاً لتمامه وكمالِه بأكل الصنع وأحسن الكفاية، ولم يربوساً فيه ما يقضى عينه، ولا خلا من سرور يراه، وبشارة تتجدد له عنه، فما يدري أمير المؤمنين ما متع فيه من الأمل، أو ما ختم له من الظفر؛ فالحمد لله أولاً! والحمد لله آخراً! والحمد لله على عطاياه التى لا تحصى، ونعمه التى لا تُنسى، إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة كتاب من هذا الضرب، كتب به أبو سعيد العلاء بن موصلاً عن القائم بالله، إلى عضد الدولة «ألب أرسلان» إلى مسعود بن محمود صاحب غزنة من أوائل بلاد الهند، بالبشارة بالنصر على البساسيري وهو.

أما بعد، فالحمد لله منير الحق ومبديهِ، ومبير الباطل ومُردِيهِ؛ الكافل بإعزاز حُرْبِهِ، وإذلال حُرْبِهِ، المؤيد في نُصرة دينه خُصْبَ الدَّهر بعد إجماله وجَدِيهِ، الناظم شَمْلَ الشرع بعد شتاتهِ وتفرُّقه، الحاسم داعي الفساد بعد آستيلائهِ وتطرُّقه، ذى المشيئة النافذة الماضيه، والعزة الكاملة الوافرة والعظمة الظاهرة البادية،

والبراهين الرائعة الرائقة، والدلائل الشاهدةِ بواحدائيتِه الناطقه ؛ حمدا لا آتتهاء
لأُميدِه، ولا إحصاءَ لعدده . والحمد لله الذى آتخص محمدا صلى الله عليه وسلم برسالته
وَجَبَاه ، وأولاده من كرامته ما حاز له به الفضلَ وَحَوَاه ؛ وبعمته على حيرِ قَتره
من الرُّسل ، وخلاء من واضح السُّبل ؛ بجاهد بن أطاعه من عَصَاه، وبلغ في الإرشاد
أقصى غايته ومداه ؛ ولم يزل مُبدياً أعلام الإعجاز ، ومُليحاً الهوادى بالأعجاز ؛
إلى أن دخل الناس في الدين أفواجا ، وسلُّوا في نُصرته جدداً واضحاً ومِنهاجا ؛
وغدت أنوارُ الشرع ضاحكة المباسم ، وأثارُ الشُّرك واهية الدعائم ؛ ومناهلُ الهدى
عذبة صافية . فصلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وأصحابه المنتخبين وخُلفائه
الأئمة الراشدين ، وسلم تسليماً . والحمد لله الذى أصار إلى أمير المؤمنين من تراث النبوة
ما أستوجبه وأستحقه ، وأثار لديهِ من مطالع الحلال ما تملك به الفخر وأسترقه ؛
ومنحه من حُسن التمكن والإظفار ، وإجراء الأفضية على مُرادِه والأقدار ؛ مارداً
صرف الدهر عن حوزته مقلول الحد ، ومد باع مجده إلى أقصى الغاية والحد ؛
وحمى سرب إمامته من دواعي الخوف والحدَر ، ووقى مشرب خلافته من عوادى
الرتق والكدر ؛ وجعل معالم العدل في أيامه مُشرقة الأوضاح والمجول ، مقتررة النواجد
عن الكمال الضافي الأهداب والذبول ؛ مؤذنةً باستقرار أمداد السعادة ، وأستمرار
الأحوال على أفضل الرِّسم والعادة ؛ وهو يستدِمه من لطيف الصُّنع وجميله ،
ووافي الطول وجزيله ؛ ما يزيد آراءه سدادا ورشادا ، وأرومة عزه أنساعاً وأمتداداً ،
ومجارى الأمور لديه أنساقاً على المراد وأطراداً ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه
يتوكَّل وإليه يُنيب ! .

ومعلوم ما أعمده شاهنشاه المعظم بعد مسيره إلى العراق، في الجيوش التي يضيق
بها القضاء، ويجرى على مرادها القضاء؛ قاصداً تلبية الدعوة، وخاضداً شوك كل

(١) مَنْ سَدَّ عَنِ الدِّينِ أَسْبَابَ الْمَضْرَةِ وَالْمَعْرَةِ ، وَمَعْتَمِدًا مَاحِي حَوْزَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ الشُّوَابِ الْمَعْتَرِضِ ، وَحَوَى أَقْسَامَ الْفَخَّارِ فِي آتِبَاعِ شُرُوطِ الْخِدْمَةِ الْمَلْتَزِمَةِ الْمَقْتَرِضِ ، مِنْ الْمِبَادِرَةِ لَلْكَعِ اللَّعِينِ الْبَسَّاسِيرِيِّ وَلَقِيفِهِ الْمَخَاذِيلِ ، مَدْرِعًا مِنَ الْاِعْتِضَادِ بِاللَّهِ تَعَالَى أَقْوَى الْجُنْحَنِ وَأَسْبَغَ السَّرَابِيلَ ، لِيَطَهَّرَ الْأَرْضَ مِنْ دَنْسِ كُفْرِهِمْ ، وَيُوقِرَ الْجَدَّ فِي فَصْمِ حُدُومِهِمْ وَحَسْمِ كَيْدِهِمْ ، فَأَطْلَّ عَلَى بِلَادِ الشَّامِ مُتَطَلِّبًا مِنْ أُلْجَاءِ حِذْرِهِ إِلَى الْاِئْمَانِ فِي الْهَرَبِ ، وَقَطَعَ كُلَّ أُخِيَّةٍ وَسَبَّبَ ، وَمَعْتَرَمًا الْاِئْتِمَامَ إِلَى مِصْرَ لَا تَنْتَرِعُهَا وَبَقِيَّةِ الْأَعْمَالِ ، مِنْ أَيْدِي أَحْلَافِ الْغَوَايَةِ وَالضَّلَالِ ، وَقَرَّبَ الْأَمْرَ فِيهَا حَاوِلُهُ مِنْ ذَلِكَ وَرَامَهُ ، اِعْتِمَادُهُ فِيهِ صِنُوفَ التَّجَدُّدِ وَأَقْسَامَهُ ، فَاَعْتَرَضَهُ مِنْ عِصْيَانِ إِبْرَاهِيمَ ابْنِ آلِ وَعَقُوقِهِ ، وَخُرُوجِهِ عَنْ زُمْرَةِ أَوْلَادِ الطَّاعَةِ وَمُرُوقِهِ ، بِاِفْسَادِ اللَّعِينِ لِيَأْهُ ، وَإِحَالَتهِ بِمَكْرِهِ عَنْ مَنَاجِحِ هُدَاةِ ، مَا أَحْوَجُهُ إِلَى تَرْكِ مَا هُوَ بِصَدَدِهِ وَاللَّحَاقِ بِأَثَرِهِ حِذَارًا مِنْ اِسْتَفْجَالِ خَطْبِهِ ، وَبِدَارًا إِلَى قَلِّ حُدُومِهِ وَغَرْبِهِ ، فَعَادَ ذَلِكَ بِتَجْمُعِ الْأَعْدَاءِ وَأَحْتِشَادِهِمْ ، وَسُلُوكِهِمْ الْحِجَّةَ الَّتِي خُصُّوا فِيهَا بِعَدَمِ تَوْفِيقِهِمْ وَرَشَادِهِمْ ، وَإِقْدَامِهِمْ عَلَى فَضْلِ الْاِئْمَانَةِ الْمَكْرَمَةِ بِالْمَحَارِبِ ، وَأَطْرَاحِهِمْ فِي مَنَابَذَتِهَا حُكْمَ الْاِحْتِشَامِ وَالْمِرَاقِبَةِ ، وَوُقُوعِ التَّظَاوُفِ عَلَى الْمَجَاهِرَةِ بِخِلَافِهَا ، وَالتَّظَاهُرِ بِشِعَارِ اِشْيَاعِ الْغَوَايَةِ وَأَحْلَافِهَا ، بِجَرَأَةٍ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَاسْتِزَالًا لِعِقَابِهِ ، وَأَطْرَاحًا لِمَا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ الْجَنَائِدُ الْعُظْمَى مِنْ تَوَقُّعِ الْعَذَابِ وَارْتِقَابِهِ ، وَأَدْرَاعًا لِمَلَابِسِ الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَآتِبَاعًا لِدَاعِي الضَّلَالَةِ الْمَغْوِيَةِ فِي الْبَدءِ وَالْحَاتِمَةِ ، فَاقْتَضَى حُكْمَ الْاِسْتِظْهَارِ الْاِنْتِقَالَ مِنْ دَارِ الْاِخْلَافَةِ - بِمَدِينَةِ السَّلَامِ - إِلَى (حَدِيثُهُ عَائِدُهُ) لِمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ اِمْتِنَاعِ الْجَانِبِ وَشِدَّةِ الْحَصَانَةِ ، إِلَى أَنْ اِسْفَرَ خَطْبُ شَاهِنشَاهِ رُكْنِ الدِّينِ - اَمْتَعَهُ اللَّهُ بِهِ - عَنْ اِدْرَاكِ الْمَطَالِبِ ، وَتَيَسُّرِ الْمَصَاعِبِ ، فَعَادَ بِنُصْرَةِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ الْاِئْمَانِيَّةِ الْقَائِمِيَّةِ مُسْتَنْفِدًا فِي ذَلِكَ أَقْسَامَ الْوُسْعِ

(١) لعله وخاصدا شوك كل من صد عن الدين وأولاه أسباب الخ .

والاجتهاد، ومستنجدا بمعونة الله تعالى على إبادة الكُفْر بصُنُوفِ القِرَاعِ والجِهَادِ ؛
ولم يزل ساعيا في إزالة العار، وانتزاع المعتصَبِ وأرتجاع المستعار؛ إلى أن صدق
الله تعالى الأملَ وحَقَّقَه ، وأصْفى مَنَهْلَ العِزِّ من كل ما شابهُ ورَقَّه ؛ وأطلع شمس
الحقِّ بعد غروبها ، ومنَّ بَخْضِ شوكَةِ الباطلِ وفلَّ غروبها .

وعاد أمير المؤمنين إلى دار مُلكه ومَقَرَّ مَجْدِه في يوم كذا ضافيةً على راياته
جَلَابِيبُ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، جاريةً على إرادته تصاريْفُ القِضَاءِ والقَدَرِ ، يُمْنُ نَقِيبَةٍ
شاهنشاه الذي أدى في الطاعة الفرض الواجب ، وتمسك من المشايعة بأفضل ما تُضَمُّ
عليه الرُّوَابِجِ ؛ وَعَدَا للدولة عَضُدًا مُوفِيًا على الأمثال ، في دَفَعَه عن الإسلام وذَبَه ،
ومتقَمِّصًا للجَلَالِ ، بِحُسْنِ إخلاصه في حَالَتِي بَعْدَه وَقُرْبِه ؛ وما زالت تِقَّةُ أمير المؤمنين
مستحكمةً بالله تعالى عند ما أَلَمَّ به من تلك الحال ، ودَهَمَ من الخَطْبِ المحتفِّ به
سَطْوَةُ الأَشْتِدَادِ والأَسْتِفْحَالِ ؛ في إجرائه على ما أَلَفَه من النَّصْرِ والإِعْزَازِ ، وإظهار
آلائِهِ في تأييده والإِعْجَازِ ؛ إذ لم يَكُنْ مَاعِرَاهُ أَسْتَعَادَةَ للحقِّ المُسَلِّمِ اليه ، والمَوْهَبَةَ التي
صَفَّتْ جَلَابِيبُهَا عليه ؛ بل جعل الله ذاك إلى أَمْتِحَانِ صَبْرِهِ سَبِيلًا ، وعلى وَفُورِ أجزه
دليلًا ، وبإبادة كل ناعقٍ في الفتنَةِ كَفِيلًا ؛ لتزداد أنوارُ علاه نِضَارَةً وحُسْنًا ، وأعلامُ
جَلَالِهِ سَعَادَةً وَيُمْنًا ، ورباعُ عِزِّهِ سُكُونًا وَأَمْنًا ؛ لَطَفًا منه جَلَّتْ آلاؤُهُ في ذلك وَمَنَّا .
وتلا هذه النعمة التي جددتْ عُهُودَ الشَّرْعِ وافيةً النَّضَارَةَ ، وأزالتْ عن الدِّينِ
مفاسِدَهُ العَارِضَةَ وَمَضَارَهُ ، ما سَمَّاهُ اللهُ وَهَنًا ، وأجزل به صَنِيعَهُ الجَزِيلَ وَأَسْنَاهُ ؛
من ظَفَرَ السَّرَايَا التي تورَّدها لأصطلام اللُّعْنَاءِ وأجتياحهم ، وحسم فسادهم وهدم
عراصمهم ؛ وإخماد ما أضرَّموه من نارِ الشَّرْكِ وشَبْوِهِ ، وإبطال ما أحدثوه من رسمِ
الجَوْرِ وَسَنُوهِ ؛ وأفضى الحَالُ إلى النَّصْرِ على الأعداء من كل جانب ، وقَهَرَ كُلَّ متحَرِّفٍ
عن الرِّشَادِ ومُجَانِبٍ ، وحلَّوِ التَّيْسِيدِ على الرايات المنصورة العباسية التي لم تزل مَكْنُوفَةً

على صَرف الدهر أشياعها وأنصارها ؛ وإجلاء الحرب عن قتل اللعين البساسيري وأخذِ راسه ، وتكذيبِ ظَنِّه في احترازه من طوارق الغيرِ واحتزاسه ، وإراحة الأرض وأهلها من دَنَسه وُعدوانه ؛ وكون من ضامه من طبقات العرب والأكراد والأتراك البغداديين والعوأم بين قتيلٍ مزمَل بدمه ^(١) ، وأسيرٍ تلقى المنون بغصّة أسفه ونذمه ، وصريعٍ في بقيةٍ من ذمائه ^(٢) ، وهاربٍ والطلبُ واقعٌ من ورائه . فأنجز الله وعده في هذا المارق ، والعبدِ الآبق ؛ الذي غزه إمهالُ الله تعالى إياه فَنَسِيَ عواقبَ الإهمالِ في الغواية ، والإمهالِ في الطغيانِ إلى أقصى الحدِّ والغايه ؛ وحملَ رأسه إلى الباب العزيز فتقدّم بالتطواف به في جانبي مدينة السلام وشهره ، إبانته عن حاله وإيضاحا لجليّة أمره ؛ وكفَى ما يوجبُه إقدامه على العظام التي علمَ الله تعالى سوءَ مصيرها ومآلها ، وحرم الرشد في التمسك والتشبُّث بأذيالها ؛ وتلك عاقبةٌ من بغى وأعدى ، وأُتزر بالغدْر وأرتدى ، وأمعن في الضلّة وأعدى . والحُدُّ واقعٌ من بعدُ في المسير للاحتواء على بلاد المخالفين الدانية والقاصيه ، والأخذ مع مشيئة الله تعالى بنواصي كل فئنةٍ طاغيةٍ عاصيه .

فالحمد لله على هذه المنحة التي بشرت الإسلام بجبركسره ، وأنقذت الهدى من ضيق الكُفْر وأسرِه ؛ وأبَدت نجومَ العدل بعد أن أفلتت وغارت ، وأردت شيعة الباطل بعد أن أعدت على الحقِّ وأغارت ؛ وهو المسئولُ صلّتها بأمدادٍ لها تقضى إذ ذاك سائر الأعراض وبلوغها ، وتقضى بكمال رائق الآلاء وسُبوغها .

(١) أى بالراء المهملة بمعنى ملطخ قال الشاعر :

ان بنى رسولوني بالدم * شنتنة أعرفها من أئزم

(٢) الدماء بالذال المعجمة والمد بقية النفس .

أَقْضَى مَكَانَكَ - أَمْتَع اللهُ بِكَ - مِنْ رَأَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي وَطَّأَ لَكَ مَعَاقِدَ الْعِزِّ وَهَضَابَهُ ، وَكَلَّ لَدَيْكَ دَوَاعِيَ الْفَخْرِ وَأَسْبَابَهُ ؛ وَنَحَلَّكَ مِنْ إِيْجَابِهِ الَّذِي وَصَلَتْ بِهِ إِلَى ذِرْوَةِ الْعِلَاءِ ، وَصَلَتْ عَلَى الْأَمْثَالِ وَالنُّظَرَاءِ ، إِشْعَارَكَ بِمَا جَدَّدَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي غَدَّتِ السُّعُودَ بِهَا جَمَّةَ الْمَنَاهِلِ ، سَامِيَةَ الْمَرَاتِبِ وَالْمَنَازِلِ ؛ لِتَأْخُذَ مِنْ حِظِّهِ بِهَا ، وَالشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى عَلَى مَا تَفَضَّلَ بِهِ فِيهَا بِالْقِسْمِ الْأَوْفَى ؛ كِفَاءً مَا يُوجِبُهُ وَلَاؤُكَ الَّذِي أَمْتَطَيْتَ بِهِ كَاهِلَ الْمَجْدِ ، وَأَصْطَفَيْتَ بِهِ كَامِلَ السُّعْدِ ، وَكَوْنَكَ لِدَوْلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ شِمَاهَا الْمُسْتَشْرِقِ فِي الْحَنَادِسِ ، وَصَفِيهَا الرَّافِلِ مِنْ إِخْلَاصِ مُشَايَعَتِهَا فِي أَنْفِرِ الْحُلَلِ وَالْمَلَابِسِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُحِيلُكَ ، مِنْ كُلِّ مَا تَسْتَدْرُ بِهٖ أَخْلَافَ مَعَالِيكَ ؛ وَلَا يَعْدَمُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكَ الْوَلِيَّ الْحَمِيدَ السَّيِّرَ ، الرَّشِيدَ الْعَقِيدَةَ وَالسَّرِيرَةَ ، الشَّدِيدَ الشَّاكِلَةَ وَالْوَتِيرَةَ .

هذه مناجاة أمير المؤمنين لك ، أجراك فيها على ما عودك من التجمل والإكرام ، وحباك فيها بما هو مبشرك بالسعادة الوافية الأصناف والأقسام ؛ فنلقها بالجدل والإستبشار ، وواصل شكر الله تعالى على ما تضمنته من حسن مجارى الأفضية والأقدار ؛ وطالع حضرة أمير المؤمنين بأنباتك ، وتابع إنهاء ما يتشوف نحوه من تلقائك ؛ إن شاء الله تعالى .

الضرب الثانى

(أن يتخذ التَّحْمِيدُ فِي أَوَّلِ الْكَلْبِ ، وَهُوَ أَقْلُ وَقَوْعًا مِنَ الضَّرْبِ الَّذِي قَبْلَهُ)
وهذه نسخة كتاب من ذلك ، كتب به أبو إسحاق الصابى عن « المطيع لله » إلى بعض ولاة الأطراف ، عند طاعة عبد الملك بن نوح أحد ملوك بنى ساسان ، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الوليّ بالاستحجاد ، المستحقّ لِكُنْه الإعتباد ، القديرِ على
تأليفِ الأجساد ، البصيرِ بسُبلِ خَفَايا الأَحْقَاد ؛ ذى الحكمةِ فى تَبْدِيلِ الضَّغْنِ
والسَّخِيمَةِ ذِمَّةً ، والمُنَابَذَةِ عِصْمَةً ؛ والقَطِيعَةِ وُصْلَهُ ، والشَّخْنَاءِ خُلَّةً ؛ والحَرَجِ فَرْجَهُ ،
والشَّعَثِ نَضَارَةً وَبَهْجَةً . الذى جعل الصُّلْحَ فَتْحًا هِنِيًّا ، والسَّلْمَ مَنَجًا بِيهِيًّا ؛ والمُؤَادَعَةَ
مَنًّا جَرِيلاً ، والإِرْعَاءَ أَمْنًا جَمِيلًا ؛ والإِقَالَةَ حَرَمًا لا يَضُلُّ هِدَاةً ، ولا تُحْسِلُ قُؤَاهُ ؛
ولا تَحْبِبُ عَوَاقِبُهُ ، ولا تَخْفَى مَآثِرُهُ وَمَنَاقِبُهُ ؛ رَافَةً مِنْهُ بِالْحَلْقِ ، وَصِيَانَةً لِأَهْلِ الْحَقِّ ؛
وإِمَاهَالًا فى العَهْدِ ، ورُخْصَةً فى الأَخْتِصَارِ دُونَ الحَدِّ ؛ لِيُقَرَّبَ فَيْئَةُ المُنَاطِلِ ، وَيُسَهَّلَ
رَجْعَةُ المُنْتَحَصِلِ ؛ وَتُسْرَعُ رِفَاهِيَةُ المُسْتَبْصِرِ ، وَيَخْفَ آجِتْهَادُ المَزَالِ المَشْمَرِ ؛ وَقَدْ
قال الله عزَّ وجلَّ ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وهو المَسْئُولُ عِمَارَةَ الإسلامِ بِالسَّلَامَةِ ، وَالْأَنَامِ
بِالِاسْتِقَامَةِ ؛ وَالسُّلْطَانَ بِالطَّاعَةِ ، وَالْمُلْكَ بِبُخُوعِ^(١) الجَمَاعَةِ ؛ حَتَّى لا تَزَالَ الفِتْنَةُ مَهِيضَةً
الجَنَاحِ ، مَرِيئَةً الأَجْتِياحِ ؛ فَلَئِمَةَ الشَّبَابِ ، قَلِيلَةَ الأَدْوَاتِ ؛ فَتَكُونَ النُّفُوسُ وَاحِدَةً ،
وَالْأَيْدِي مُتَرَاوِدَةً ؛ وَالْمُؤَادَاتُ صَافِيَةً ، وَالْمَارِبُ مُتَكَافِيَةً مُتَضَاهِيَةً ، فى الشُّكْرِ الذى
يُدَادُ بِهِ عَنِ النُّفُوسِ ، وَيَجْمَى بِهِ حَرِيمُ الدِّينِ ؛ وَيُرْجَى مَعَهُ التَّائِيدُ ، وَيُبْتغى بِوَسِيلَتِهِ
المَزِيدُ ، فَقَدْ قال الله - وقوله الحق - : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ والله سَمِيعٌ مَجِيبٌ .
وَحَسْبُ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ !

وقد علمت مَافَرَطَ من نوح بن نصر فى السَّهْوِ ، وَنَقِمَ مِنْهُ فى الهَفْوِ ؛ الذى أَلْهَاهُ
عَنِ التَّقْوَى ، وَأَنْسَاهُ شِيمَةَ الرُّقْبَى ، فَعَدَلَ عَنِ سَنَنِ القَصْدِ ، وَزَاغَ عَنْهُ عَلَى عَمْدٍ ؛
وَحَالَ عَنِ آدَابِ آبَائِهِ رَحِمَهُمُ اللهُ وَهَمَّ القُدْوَةَ ، وَسَجَّيَاهُمُ وَبِهِمُ الأُسُوءَةَ ، وَمَا كَانَ
يَنْتَمِي بِهِ مِنَ الوَلَاءِ ، وَيَعْتَرَى إِلَيْهِ مِنَ الوَفَاءِ ؛ وَصَارَ أَدْنَى مَعْنَى مَنْ يَحْسُدُهُ عَلَى كَرَمِ
الأَصْلِ ، وَيُنَافِسُهُ فى شَرَفِ المَحَلِّ ؛ وَيُدْخِلُ عَلَى عَقْلِهِ مُدْخَلَ النُّصِيحَةِ ، وَيَطَّلِعُ

(١) أى انقيادها يقال ينجح لى بالحق ينجوعا انقاد وبذله .

بظاھرھا علی آرائه الصریحۃ ؛ وكلّ ذلك إلحادٌ فی أمر المؤمنین وعُھدته ، ومُروق
عن أزمته ، وعقوقٌ بالبریة یسقی به الباقی ، ولن یسقی به النازح الماضي . فإن
أمیر المؤمنین مازال وإعیاً لأواصر سلفه ، عارفاً بماثرِ خَلْفه ؛ متجافياً لأولئك عما
آبتدعه ، متنوّباً لهذا التّجاوز عمّا صنعه ؛ فقد كان نُمیَ إلى أمیر المؤمنین أن عبد الملك
أبن نوح مولى أمیر المؤمنین سلیم السّریره ، سدید البصیره ؛ یرجع إلى رأیه وتدییره ،
ولم یجد وشمکیر بن زنار ، عاجله بالبوار ؛ مساعفاً إلى ختله ، ولا آحیالا فی لیه وقتله ؛
وكان لعبد الملك ركن الدولة بن مالك مولى أمیر المؤمنین ظهیر صدق ، إن وسن
أیظله ، وإن مادأیده ؛ حلةً فضل فطره الله علیها ، وغریزة تميز أحسن الله إلیه فیها ؛
فإنه لو قال أمیر المؤمنین : إنه لا مثل له أستحقّ هذا الوصف . ولأمن أمیر المؤمنین
فیہ الخلف . ترك لباس أبیه فزعه ، وأعتاض منه وخلعه ؛ وتصلّ مما كان منه
منتهكاً ، فعاد علیه محتكاً ؛ وأتی الأمر من طریقہ ، ولحا فیہ إلى فریقہ ؛ ركن الدولة
أبی علی مولى أمیر المؤمنین ، أحسن الله ولايته ، ومُعزّ الدولة أبی الحسین تولى الله
معاونته ، وأستصلحهما ، وكفی ، وأستخلصهما ، وغنی ؛ وراسل فی الإنابة وإن لم
یکن حائداً ، والأستقاله وإن لم یكن جانبا ؛ فاستترك ركن الدولة ومعز الدولة -
كلاهما الله - إكبار قدره ، وإجلال أمره ؛ والقیام بخلاصه ، والنطق عن أمیر المؤمنین
بلسان مشاركتہ ؛ وإذكار أمیر المؤمنین بما لم ینسه من تلك الوثائق ، التي صدر بها
كتابه ، والعلائق ، التي وُثِّحَ بها خطابه ؛ إلى أن أجلّ أبا محمد نوحاً وترحم علیہ ، وقیل
عبد الملك وأحسن إلیه ؛ وواصل رُسله ، وأستمع رسائله ؛ وقلده خراسان ونواحيها ،
وسائر الأعمال الحاریة فیها ، وعهد إلیه فی ذلك عهداً ومیزه باللواء ، والخلع والحجاب ؛
بعد أن كتّاه بلسانه ، ووفاه حدود إحسانه ؛ وألحقه فی ذلك بابائه ، ولم یقصر فیہ
بشأوه . وكتبُ أمیر المؤمنین هذا وقد أطردت الحائل وأستوثقت ، وأمترجت الأهواء

وَأَتَّفَقْتُ ؛ وَخَلَا الْمَشْرِقُ مِنَ الْأَضْطِرَابِ الَّذِي طَالَ أَمْدُهُ ، وَلَمْ يَكْدُرْ يَرَى أَثْرَهُ ؛ وَصَارَتْ الْعَسَاكِرُ الدَانِيَّةُ وَالنَّائِيَةُ قَوْضَى لَاتِمْتَارَ ، وَلَا تَتَفَرَّدُ وَتَتَحَازَ ، وَذَلِكَ صَنَعَ اللَّهُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي جَمْعِ الشَّنَاتِ ، وَتَلَا فِي الْهَنَاتِ ، وَأَمَّ حَلَّ التَّخَاذُلِ ، وَمُدَاوَاةِ نَقْلِ الدَّخَائِلِ ؛ لِتَمِّ الْكَلِمَةُ فِي وِلَايَتِهِ ، وَتَعْمُّ النَّعْمُ فِي طَاعَتِهِ ، وَلَا يَكُونُ لِلشَّيْطَانِ سَبِيلٌ عَلَى شِيعَتِهِ ، وَلَا طَرِيقٌ إِلَى مَكِيدَةِ أبنَاءِ دَعْوَتِهِ ، وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .

فَاحْمَدِ اللَّهَ عَلَى هَذَا النَّبِيِّ الَّذِي تَطَوَّعَ بِهِ الْمِقْدَارَ ، وَالخَبَرَ الَّذِي دَلَّتْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ ؛ مِنَ الْفَتْحِ الَّذِي لَمْ يُنْغِضْهُ تَعَبٌ ، وَلَمْ يَكْدُرْهُ عَنَاءٌ وَلَا نَصَبٌ ؛ فَإِنَّهُ تَأْتَى سَهْلًا ، وَأَتَى رِسْلًا ؛ وَأَبْتَدَأَ عَفْوًا ، وَأَتَهَى خَالصًا صَفْوًا ؛ فَقَدَّ قَعَّ اللَّهُ بِهِ الْعَنْدَةَ ، وَجَمَعَ بَتَيْبَتَهُ الْعَبْدَةَ ؛ وَأَذَنَ عُقْبَاهُ بِالسَّعَادَةِ ، وَبَشَّرَفِي سِيَاهُ بِاتِّصَالِ الْمَادَةِ ؛ وَأَنْزَلَ أَبَا الْفَوَارِسِ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنَ نُوحٍ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَنزِلَةً مِنْ رَأَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَهْلًا لِلْوَدِيعَةِ ، وَأَمَنَهُ عَلَى الصَّنِيعَةِ ؛ وَرَتَّبَهُ مَرْتَبَةَ الْمَسْبُوحَةِ ، وَأَسْتَحْفَظَ اللَّهُ حَسْنَ الْمَوْهَبَةِ بِهِ ، وَمَا قَدْ تَجَدَّدَ بَيْنَ أَبِي الْفَوَارِسِ وَبَيْنَهُمَا مِنَ الْإِتِّحَادِ ، الْمَتَوْلَدِ عَنِ الْإِغْتِبَاطِ وَالْإِعْتِدَادِ ؛ فَقَلَّ مِنْ شَأْفَهُمَا فَلَمْ يَنْدَمْ ، وَتَمَزَّدَ عَلَيْهِمَا فَلَمْ يُكَلِّمْ ؛ وَتَمَسَّكَ بِهِمَا فَلَمْ يَسْمَعِدْ ، وَارْتَبَعَ أَكْفَاهُمَا فَلَمْ يُوْعِدْ ؛ وَأَجَبَ عَنِ هَذَا الْكَلْبِ بِوَصُولِهِ إِلَيْكَ ، وَمَوْقِعِ مَتَضَمَّنِهِ لَدَيْكَ ؛ وَمَا يُجِدُّهُ لَكَ مِنَ الْجَدَّنِ ، وَأَنْفَسَاحِ الْأَمْلِ ؛ مَوْقِفًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(أَنْ لَا يَعْقُبَ الْبَعْدِيَّةَ تَحْمِيدٌ ، بَلْ يَقَعُ الشَّرُوعُ عَقْبَهَا فِي الْمَقْصُودِ)

وهذه نسخة كتاب من ذلك، كتبت به أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله إلى من
بُصْحَارَ وَسَوَادِيهَا، وَجِبَالِ عُثْمَانَ وَأَعْمَالِهَا، وَحَاضِرَتِهَا وَبَادِيَتِهَا، بِالْأَمْرِ بِالْإِجْتِمَاعِ
عَلَى الطَّاعَةِ، وَهِيَ :

أما بعد، فإن أمير المؤمنين للذي حمّله الله من أعباء الإمامة، وأهله له من شرف الخلافة؛ وأسّوده من الأمانة في حياة المسلمين، والاجتهاد لهم في مصالح الدنيا والدين؛ يرى أن يُراعى من بعد منهم ونأى، كما يُراعى من قرب ودنا؛ وأن يلاحظ جماعتهم بالعين الكالية، ويطلبهم بالعين الوافية؛ ويتصفح ظواهر أمورهم، وبواطن دواخلهم؛ فيحمد من سلك نهج السلامه، ويرشد من عدل عن الاستقامه؛ وينظم شمل الجماعة على الألفة التي أمر الله بها وحض عليها، ويزيلهم عن التفرقة التي ذمها ونهى عنها؛ إذ يقول جلّ من قائل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فلا يزال أمير المؤمنين يعترفهم ما أقرض الله عليهم من طاعة الأئمة وأولى الأمر الذين لا عصمة لمخالفهم، ولا ذمة لمعاندهم؛ ولا عذر لمسلم ولا معاهد نأى بجانبه عنهم، وضلّ بوجهه عن سبيلهم؛ إذ كان الإمام حجة الله على خلقه، وخليفته في أرضه؛ وكانت الطاعة واجبة له ولبن قلده أئمة أموره، وأسّتابه في حمل الأعباء عنه؛ فمن آتس منه الهداية أحده، ومن أنكر منه الغواية أرشده بالوعظ ما أكتفى به، أو بالبسط إن أحوج إليه. وإن أمير المؤمنين يسأل الله أن يوقفه للرأي السديد، ويؤيده بالصنع والتأييد؛ ويتولاه بالمعونة على كلّ مالم الشعث، وسدّ الخلل، وقوم الأود وعدل الميل؛ وأحسن العائدة على المسلمين جميعا في شرق الأرض وغربها، وسهّلها وخرتها؛ إنه بذلك جدير، وعليه قدير؛ وماتوفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُتّيب.

وقد علمتم أن أمير المؤمنين أحسن إلى الرعية بما كان فوضه إلى عضد الدولة وتاج الملة - رحمة الله عليه - من سياستهم باديا، ثم أحسن باستخلاف عديله وسليله صمصام الدولة وشمس الملة ثانياً؛ إذ كان خيرة أمير المؤمنين وصفوته، وحسامه ومجته؛ والمؤرد المصدّر عنه بالعهدين المستمرين: من أمير المؤمنين بالنص عليه، ومن

الوالد رحمه الله بالوصية إليه . وإن هذه العقود المؤكده ، والعهود المشدده ؛ موجبة على الكافة طاعة من حصلت له ، وأستقرت بوثاقها في يده ؛ إذ لا يصح من حاكم حكم ، ولا من عاقده عقد ، ولا من وإل إقامة حد ، ولا من مسلم تأديته فرض حتى يكون ذلك مبنياً على هذا الأصل ، ومدارا على هذا القطب ، وإن كان خارج عنهما وراض بخلافهما ، نخرج من دينه ، أثم بربه ، برى من عصمته ؛ وأتم من بين الرعية فقد خصصتم سالفاً بحسن النظر لكم ، وعرفت الطاعة الحسنة منكم ؛ فتقابلت النعمة والشكر ، تقابلاً طاب به الذكر ، وانتظم به الأمر ؛ ثم حدثت الهفوة المعترضة قبيل ، فكان أمير المؤمنين موجبا للعاقبة الموجبة على الجاهل الموضع في الفتنة ، والمُعاتب الممضية على الحكيم منكم القاعد عن النصرة ؛ إلى أن وردت كتب أستاذهم من بن الحسن ، حاجب صمصام الدولة ، باستمراركم على كلمة سواء ، في نصرة الأولياء ، والحماية دونهم ؛ ومدافعة الأعداء والمُرَامة لهم ؛ فوقع ذلك من أمير المؤمنين أحسن مواقع ، ونزل لديه ألطف منازله ؛ وأوجب لكم به رضاه المقترب برضا الله سبحانه ، الموجب للقربة والرفق عنده ؛ وأمير المؤمنين يأمركم بالدوام على ما أتم ، والثبات على ما آستأنقتم ؛ والمبادرة إلى كل ما يأمركم به فلان الوالى عليكم من صمصام الدولة بالاستخلاف والتفويض ، ومن أمير المؤمنين ، بالإمضاء لما أمضاه ، والرضا بما يرضاه ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وآتتهوا فيه إلى حده ورسمه ؛ وتكونوا لفلان الوالى خير رعية ، يكن لكم خير راع ؛ فقد أمر فيكم بحسن السيرة ، وإجمال المعاملة ، وتخفيف الوطأة ، ورفع المسونة ؛ وجعل إليه عقاب المسىء ، وثواب المحسن ، ومسالمة المسالم ، ومحاربة المحارب ، وأمان المستامن ، وإقالة المستقيل ، وحمل الجماعة على سواء السبيل ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثالثة

(في الكتب الخاصة مما يصدر عن الخلفاء ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب عن الخلفاء إلى وزراءهم)

قال في "صناعة الكتاب" : ويكتب الإمام الوزير أو من حل محله «أمتعي الله بك وبدوام النعمة عندي بك ، وبقاء الموهبة لي فيك» وما جرى هذا المجرى .

وذكر في "ذخيرة الكتاب" : أن الدعاء للوزير «أمتعنا الله بك وبدوام النعمة لنا فيك وتجديد الموهبة عندنا بك» . ثم قال : ودعا "المكتفى بالله" للقاسم بن عبد الله لما أمر بتكنيته ، وكان الكتاب بخطه «أمتعي الله بك وبالنعمة فيك» ووقع المستنصر إلى وزيره أحمد بن الحصيب «مد الله في عمرك» . وهو قريب مما ذكره في "صناعة الكتاب" في ذلك كله . والذي رأيت في مكاتبات العلاء ابن موصلاً عن «القائم بأمر الله» التصدير بما فيه تعظيم الوزير وتقريره ، من غير ضابط في الابتداء ، والدعاء في أثناء ذلك بالحياطة ثم التوصل إلى المقصد .

وهذه نسخة كتاب كتب به العلاء بن موصلاً عن القائم إلى وزيره :

لما خص الله تعالى الدولة القاهرة العباسية بامتداد الرواق ، في العز واتساع النطاق ، وأجرى لها الأقدار بما يجمع شمل الحق ويمنع من نفاق التناق ؛ وأفرد أيامها بالبهاء المنير الأعلام ، والانتها في قوة الأمر إلى ما يتأدى في طاعتها بين اليقظات والأحلام ، وجعل الزمان واقفاً عند حدها في النقص والإبرام ، ومتصرفاً على حكمها في كل ما حاول من حالٍ ورام ؛ وممكن لها في الأرض حتى أدلت نواصي الأعداء قهراً

وقسرا، وحسرت عن قناع القُدرة على رد الطامعين في إدراك مداها ظلماً حسرياً؛ فإن الله تعالى لم يُخلِها كلَّ وقتٍ من قائلٍ في نُصرتها فاعل، وقائم بإقامة حشمتها من كل حافٍ من الأنام وناعِلٍ؛ وراغب في الذبِّ عن حوزتها سراً وجهراً، وخاطب من خدمتها ما يُرجى أن يكون رضا الله في المُقابلة عنه أعلى مهراً؛ وناهج جدد الرُشد في المناضلة عنها بسيفه وقلمه، وفارح للكرب الحادثة فيها بنطقي فيه وسعى قدمه .

وقد منح الله أيام أمير المؤمنين - من كَوْنِكَ الوليِّ بمواصلة المقامات الغرِّ فيها، والخلِّي من كل ما يبين صحَّة الموالاة ويُنافيها؛ والضَّمين لما عاد عليها باستقامة النظام، والضَّنين بما يُوجد للغير الطريق إلى وصول الحُنف إليها والأهتضام؛ والمتجوّد في إمداد عزها بالإحصاف والإمرار، والمتفرد بإعداد أقسام المناضلة دُوتها في الإعلان والإسرار؛ والبازل وسَّعه فيما تخی إليها أعنة السعد ولَواها، والخاذل كلَّ مستنجِدٍ بها فيما يخالف محبتها وهوها؛ ما أوفى على المألوف في أمثالها من قبل، وصارك به على كل من سلفك من الأعضاء التقدُّم والفضل؛ فهي - بآثارك الحميدة فيها، وإبجارك الحدِّ في تشييد مبانيها؛ وكونك كافيًا أمر المحاماة من ورائها، كافًا عنها ما يُحشى من حُدوث أسباب الفساد وأعترائها - مَنبَعُ الجانب مَرِيعَةُ الجَناب، سَرِيعَةُ فيها السُّعود إلى ما يلي نداءها بأحسن التلبية والجواب .

ثم إنه وإن كانت زُلُفك إلى حضرة أمير المؤمنين بادية الجُحول والغُمر، غير محتاجة إلى إقامة الدليل عليها بما أتضح من أمرها وأشهرها، فإن فلانا يُعيد جلاءها دائماً في أبهى المَلابس وأنضرها، ويبيد الحدِّ في الدلالة على تقابل تحبُّرها في الجمال ومُنظرها؛ ويكشف من صفاء السرائر فيها والبواطن، وما يطلع عليه منها في كل المحال والمواطن؛ ما يُسهب في وصفه ويُعجب سماع ذكره ويُطرب .

(١) هذا هو المفعول الثاني لمنح .

وفى هذه التوبة عاد، وقد زاد، على المعهود من شكره وجزاه، وأبان عن صلته بالوعد فى ضمان التُّجَّح منك نَجَازَه؛ وأوجب على نفسه أن لا يَقيف عند حدِّ فيما يؤدى إلى نشر محامدك فى الأرض، وطىَّ الجوانح لك على الإخلاص الصادق المحض .

ولما مثَّل بحضرة أمير المؤمنين على رَسْمه الذى وسم بالجمال جبينه، وأبتسم نغرُ التوفيق فيه عمَّا أصبح التُّجَّح أليف سَعْمِه وقرينه، وبحسب فوزِه من شرفِ الحُطوة برتبة لم ينلها أحد الأقران له فى الزمان، وفوته شأو أبناء جنسه يوم المضمار والرَّهان؛ كفاء ما يستوجه بقاء قيمته فى الكمال، والغناء به فى كل مقام أمن حدِّ مضائه فيه الكلال؛ أشار بذكر مقاصدك التى حُرِّت بها من غنائم الحمد الصفايا، وشاد مباني محامدك بفضل الإبانة عن السرائر والخفايا؛ وتابع الشاء على كلِّ من أفعالك التى أمسى هلاكك فيها مقمرا، ووضَّح فيها كونك بشروط الإخلاص محبا مضمرا؛ وشرح من توفرك على كلِّ قرُبة غرَّاء تُغرى الألسنة بمحمدك، وتنبئ عن حُسن مقصدك برفع عماد الحق وعمدك؛ ما قامت عليه الأدلة، وأستقامت به على سنن الرُّشد الأهواء المِضلة؛ وبين من إمضائك كلِّ عزم فى تهيئة القُرَبات إلى حضرة أمير المؤمنين حالا فخالا، وإبطائك خطأ الحدِّ فيما يراد برُفك البالغة أقصى الغايات لديه سابقا وأتصالا، ما يضاهاى المظنون فى تلك العقيدة التى طالما ألفت فى نُصرة الدولة القاهرة صافية المَورد والمنهل، حالية من الحُسن بكلِّ حالٍ أتضح فيها ما ألهى عن غيرها من الوصف وأذهل؛ فقوبلت بما تستحقه من إحمادٍ أشيع وأذيع، وأتبع فيه الواجب وأطيع؛ وتضاعف الأعتداد بأفعالك التى أعنت بالعون منها فى الجمال والأبكار، وأعدت بها الأمور فى الصِّلاح إلى ما يؤمنُ بإضاحه الحمد والإنكار .

ومن أحق منك بكلِّ فعالٍ تُضىء مصابيحُ الخير فيه، ويتنشرُ جميلُ الذكر من مطاويه، وأنت للدولة الوليِّ الأمين!، وبحفظ نظام كلِّ أمرٍ يختص بها الكفيلُ

الضَّمِين؟ ومن أولى منك بكلِّ حمدٍ يَفِدُ إليك إمداده أرسالا، وتَجِدُ منه ضالَّةً تَسُدُّ مثلها آمالٌ سِوَاكَ فابْتِ بِالْحَيِّبَةِ عَجَالًا؟ فَكَلِّ مِنَ الْحَقُوقِ مَا لَا يُنْسَى، وَمَا يَلْزَمُ أَنْ يُرْعَى فِي كُلِّ مُصْبِحٍ وَمُمْسَى. فَأَحْسِنَ اللَّهُ جَزَاءَكَ عَنْ كَوْنِكَ فِي دَوْلَتِهِ ذَابًّا عَنْ الْجَمْدِ حَامِيًا.

فأما ما تُحَدِّدُ فِي مَعْنَى الْأَعْمَالِ عَلَى الْوَصْفِ الَّذِي قَبَضِي بِزَوَالِ الْخُلْفِ وَأَنْحَسَامِهِ، وَأَقْتَضِي رَأْيَكَ لِإِجْرَاءِ الْأَمْرِ عَلَى مَا اسْتُصُوِبَ مِنْ أَسْأَقِهِ وَأَنْتَظَمَهُ؛ فَقَدْ وَقَفْتُ عَلَيْهِ، وَأَجِيزًا مَا أُشْرَتَ إِلَيْهِ؛ فَأَعْوَاضُ الدُّنْيَا تَهْوَنُ وَتَسَهَّلُ فِي ضَمْنِ مَا يُلْحَظُ مِنْ أَعْتِنَاكَ أَحْكَامَ مَشَايِعَةِ الدَّوْلَةِ الَّتِي قُتَّتْ بِأَعْبَائِهَا فِي كُلِّ أَوَانٍ، وَغَدَتْ آثَارُكَ فِيهَا بَاقِيَةَ الذِّكْرِ وَالْأَجْرِ عَلَى تَقَضِّي الْأَزْمَانِ؛ فَأَنْتَ الْمَرْغُوبُ فِي النَّاءِ وَوَلَايَةٍ وَإِنْ شَانَتْ الْأَحْوَالُ، وَالْمُخْلِصُ الَّذِي لِأَعِوَضَ عَنْهُ فِي كُلِّ مَقَامٍ وَمَقَالٍ؛ فَقَدْ أَحَاطَ الْعِلْمُ بِتَفْصِيلِ ذَلِكَ وَجُمْلَتِهِ، وَتَحَقَّقَ أَنْ الْخَيْرَةَ فِي كُلِّ مَا تُشِيرُ إِلَى سُلُوكِ طَرِيقِهِ وَجَدَّه؛ وَلِذَلِكَ أُجِيبُ فُلَانَ إِلَى الْحُضُورِ وَالْمُسْتَعْدَمِينَ مَعَهُ، وَأُذِنُ فِي الْمَقَابِلَةِ بِالْقَوَانِينِ الْقَدِيمَةِ وَالْبَاقِي وَالْجَرَائِدِ، وَالْمُؤَافَقَةَ عَلَى مَا رَأَيْتَهُ فِي الْبَوَادِي وَالْعَوَائِدِ؛ وَالتَّنَزُّهُ عَنْ كُلِّ مَا شَدَّ عَنْ الْحِجَّةِ الْمُؤَكَّدَةِ بِتَوْفِيقِكَ وَتَوْفُّرِ الْمَوْجُودِ لِهَذِهِ السَّنَةِ فِيهِ عَلَيْهِ، وَحَسْمِ مَوَادِّ اسْتِرَادَتِهِ فِي كُلِّ مَا تَمَسَّكَ بِهِ وَأَشَارَ إِلَيْهِ؛ وَالثَّقَّةُ مِنْ بَعْدِ مُسْتَحْكَمَةٍ بِتَوْفُّرِكَ عَلَى مَا يُرَادُفُ إِلَيْكَ إِمْدَادَ الْجَمْدِ، وَتَجْدِيدِكَ كُلِّ قُرْبَةٍ تَنْضُمُ إِلَى سَوَابِقِهَا الْمُتَجَاوِزَةَ حُدَّ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ.

فأما ما تَضَمَّنَتْهُ إِشَارَتُكَ فِي حَقِّ السُّتْرِ الرَّفِيعِ، فَهَلِ الصَّلَاحُ إِلَّا مِنْ تَتَابُجِ أَقْوَالِكَ؟، وَهَلِ مَسَاعِيكَ إِلَّا مَوْقُوفَةٌ عَلَى الْخَيْرِ وَأَفْعَالِكَ؟، وَهَلِ الْمُؤَافَقَةُ إِلَّا لَكَ فِي جَمِيعِ آرَائِكَ وَأَبْجَانِكَ، وَبِحَكْمِ آبْتِدَائِكَ لِاسْتِمَامَةِ النَّظَامِ فِيمَا قُرْبَ وَبَعْدَ، وَالسُّكُونِ إِلَى إِسْعَافِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يَحْدُثُ وَيَتَجَدَّدُ؛ وَيَبِيعُ عَلَى مَا يُبْعَدُ رَوْنَقَ الْحِشْمَةِ مِنَ الْوَهْنِ، وَيَهْزِ طَاعَتَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ يُحَقِّقُ التَّقْدِيرَ فِيهَا وَالظَّنَّ؛ فَإِذَا

تُصَفِّحَتْ حَقُوقُ الْوَكَلَاءِ الْمُجْتَبَاةِ وَجِدَتْ مَوْفِرَةً عَلَى اقْتِنَاءِ الْأَجْرِ، مَصْرُوفَةً فِي وُجُوهِ
 الْبِرِّ الَّتِي هِيَ أَنْفَعُ الذُّخْرِ فِي عَدَدٍ . وَهَلِ الْأَعْوَاضُ إِلَّا عِنْدَ مَنْ يَظُنُّ الدُّنْيَا بَعَيْنَهَا قِيَمَةَ
 تَنَافُسٍ ، وَهَلِ مَصِيرُهَا إِلَّا إِلَى آتِقِضَاءٍ وَلَوْ أَسْعَفَتْ بِالرَّغَائِبِ وَالنَّفَائِسِ ، غَيْرَ أَنَّ
 الْأَحْوَالَ إِذَا كُشِفَ مَسْتَوْرُهَا أُثْبِتَ مَا يَقْتَضِي إِسْبَالَ سِتْرِ الْإِشْفَاقِ ، وَالْبُؤِاطِنَ مَتَى
 أُعْرِبَ عَنْهَا أَثْمَتَ ذَلِكَ كُلِّ مُجَابِبٍ لِلدَّوْلَةِ مِنْ أَهْلِ النَّفَاقِ ، وَأَنْتَ الْمُعْتَمَدُ لِتَدْيِيرِ
 مَا يَصُونُ حِشْمَةَ الدَّوْلَةِ عَنِ الْبِدَالَةِ وَالنَّحْلِ ، وَالْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ فِي تَحْسِينِ الْأَمْرِ فِيمَا وَقَعَ
 الْأَجْتِهَادُ فِيهِ حَتَّى تَيْسَّرَ قَدْرُهُ وَتَسَهَّلَ ، وَلِهَذَا تَفْصِيلٌ قَدْ أَوْعِزَ إِلَى فُلَانٍ بِأَسْتِقْصَاءِ
 شَرْحِهِ ، وَإِطْلَاعِكَ عَلَى حَقِيقَةِ الْأَمْرِ وَفَصِّهِ ، فَكُنْ بِحَيْثُ الظَّنُّ فِيكَ ، تَجِدُ زَنْدَ جَمَالِكَ
 بِذَلِكَ أَوْرَى ، وَتَجِبُ لَكَ بِهِ صُنُوفُ الشُّكْرِ طَوْرًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثاني

(ما يكتب عن الخلفاء إلى وزراء الملوك)

وهي مما يؤتى في صدرها بحرف النداء غالباً . كما كتبت عن المسترشد إلى معز الدين
 الفضل بن محمود ، وزير معز الدين سنجر بن ملكشاه .

مَقَامُكَ يَا مَعِزَّ الدِّينِ - أَحْسَنَ اللَّهِ حَيَاتِكَ وَكَلَّ مَوْهَبَتَهُ عِنْدَكَ - فِي خِدْمَةِ الدَّارِ
 الْعَزِيزَةِ الَّتِي مَارَلَتْ لِحُجْهِدِكَ فِيهَا بِأَذَلًّا ، وَفِي جَلَابِيبِ الْمُنَاصِحَةِ رَافِلًا ؛ لَا يَقْبِضَنَّكَ
 أَنْ تُوَاصِلَ حَالًا فَخَالًا بِأَنْبَاءِكَ ، وَتَسْتَسْتَدِيمَ مَا خَصِّصْتَ بِهِ مِنْ شَرِيفِ الْأَدَابِ
 الْمُؤَوِّفَةِ بِكَ عَلَى أَكْفَائِكَ . وَعُرْضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَرَدَ مِنْكَ دَالًّا عَلَى طَاعَتِكَ
 الْمَعْهُودَةِ ، وَمُؤَالَاتِكَ الرَّائِقَةِ الْمَشْهُودَةِ ، وَأَسْتَمْرَارِكَ عَلَى الْجَدِّدِ وَالْمَهْمَعِ فِيمَا حَازَ الْمَرَاصِي

الشريفة الإمامية لك ، وحقق في الفوز بجميل الآراء أملاك . وناطقاً بحال فلان المارق عن الدين ، المجاهر بمعصية الله تعالى في مخالفة أمير المؤمنين ، وما اقتضاه الرأي المعزى بحسن سفارتك ، وسداد مقصدك في الطاعة وصفاء نيتك . وأحاط علماً بمضمونه الذي لا ريب أنه ثمرة مناختك ، ونتيجة سعيك المضاهي نصيحة عقيدتك ؛ ومن أولى منك بهذه الحال ؟ وأنت الحوّل القلب ، ذو الحنكة الجرب ، الذي تفرد في الأنام بكاله ، وقصر أكفاؤه عن درك شأوه في الخير ومثاله ؛ وما زلت حديثاً وقديماً موسوماً ، بهذه المعزية مرفوماً ؛ وبغير شك أنك تُراعى مبادئ به ، وتعضد مقالك في موارد بما تعمده في مصادره ، وتحرُس ما قدمته من الاحتياط بتحريك في أواخره ؛ ومضى العزيمة لإتمام ما شرعت فيه ، كفاء ما يوجب دينك ويقتضيه ؛ بحرياً على وتيرتك فيما قضى للأحوال بالانتظام والأتساق ، وأذن لشمس الصلاح بالإضاءة والإشراق .

وبعد فقد عرفت ما تكرر إليك في أمر هذه الطائفة الخبيثة ، المكاشفة بذهب الإلحاد ، المبارزة بسوء الاعتقاد ؛ بعثاً على جهادها ، وكف ضررها عن الإسلام وفسادها ؛ ورفع ستر المراقبة عنها ، والانتقام لله ورسوله منها ؛ وما يُقنع من همة معز الدولة والدين - أمتع الله ببقائه - ومن وافر عقلك ودينك ، وصدق يقينك ؛ إلا يارهاف العزيمة في مكاشفتها ، وخوض الغمار في محاربتها ؛ والقصد لمضايقة من اعتصم منها بالقتل ، وقتل كل من يُظفر به في سائر البقاع ؛ حميةً وأمتعاضاً للدين ، وأفاً مما استولى عليه بها من الضرر الميين ؛ فكن من وراء الحب لمعز الدنيا والدين على تيقنك هذا المثال ، والأدكار بما تفوز به مع الأمثال له في المال ، وأنهُض في تنفيذ ما يأمرُك به في هذا الباب نهضةً من أترر رضا الله وأراده ، وبذل في صلاح معاده آجتهاده ؛ فإن الله سبحانه لا يرضى منكماً للإلتصار لدينه بالتقصير ،

وأمر المؤمنين أمر كما بالحد فيه والتشمير؛ وقد شرفك بحقة أمر بمجلها إليك من بين
يدى سُدته ، وأعرب بها عن مكانك من حضرته ؛ إنافةً على الأمثال بقدرك ،
وإضفاءً لملايس نحرُك ؛ فاعرف بمكان النعمة في ذلك ، وأسلك في القيام بشكرها
أوصح المسالك ؛ وأدم المواصلة بمطاعتك ، وقدم التوقُّع من إجابتك ، نفز من المراضى
الشريفة بالخط الأسنى ، ويجمع لك منها الاسم والمعنى ، إن شاء الله تعالى .

الطرف الرابع

(في الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس في الديار المصرية

بعد مصير الخلافة إليها)

وهي على ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن يُفتح الكتاب بلفظ « من فلان إلى فلان »)

والحكم فيها على ما كان الأمر عليه في خلافتهم ببغداد ، إلا أنه زاد فيه لفظ
« ووليه » بعد لفظ « عبد الله » في أول الكتاب فيقال في افتتاحه : « من عبد الله
ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانى » . ثم يقال : أما بعد حمد الله ، ويؤتى على آخر
الخطبة ، ثم يتخلص منها ويختتم بالأمر بامثال ما أمر به . ويقال بعد ذلك : موقفاً
إن شاء الله تعالى . والخطاب فيه بالكاف ، وربما أفتح الكتاب بآية من القرآن الكريم
مناسبة للمعنى .

وهذه نسخة كتاب كُتِب به عن الإمام المستكفي بالله « أبى الربيع سليمان ابن
الحاكم بأمر الله أحمد » إلى الملك المؤيد هنزبرالدين داود ابن الملك المظفر صلاح

الدين يوسف بن رسول في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » في سنة سبع وسبعمائة ، حين منع صاحبُ اليمن الهديةَ ، التي جرت العادةُ بإرسالها إلى الأبواب الشريفة بالديار المصرية ، مفتتحاً بآية من القرآن ، وهو :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

من عبد الله وولَّيه أبي الربيع سليمان .

أما بعد حمدِ الله ما نَحَّ القلوب السليمة هُداها ، ومُرَشِدِ العقول إلى أمرِ معادِها ومَبْدَها ، ومُوفِّقِ من آخَاره إلى مَحَجَّةِ صوابٍ لا يَضِلُّ سالكُها ، ولا تُظَلِّمُ عندِ إخلافِ الأمورِ العظامِ مَسالِكُها ، ومُلهمِ من أصطفاه لأقتفاءِ آثارِ السُنَنِ النبويَّةِ ، والعملِ بمُوجِباتِ القواعدِ الشرعيَّةِ ، والانتظامِ في سِلْكِ من طَوَّقَتِه الخِلافةَ عُقودَها ، وأفاضتْ على سُدَّتِه الجليَّةِ بُرودَها ، ومَلَكْنِه أقاصيَ البلادِ ، وأناطتْ بأحكامه السديدةِ أمورَ العبادِ ، وسارتْ تحتِ خَوافِقِ أعلامه أعلامُ المملوكِ الأكاسِرِه ، وشيَّدتْ بأحكامه مَنابِحُ الدنيا ومصالحُ الآخِرِه ، وتَجَنَّرَ كُلُّ مَنبِرٍ من ذِكرِه في ثوبٍ من السيادةِ مُعَلِّمٌ ، وتَهَلَّلَتْ من ألقابه الشريفةِ أسارىرُ كلِّ دينارٍ ودرهمٍ .

يَحْمَدُه أمير المؤمنين على أن جعلَ أمورَ الخِلافةِ بنى العباسِ منوطه ، وجعلها كلمةً باقيةً في عَقِبِه إلى يومِ القيامةِ بِحُوطِه ، ويصَلِّي على ابنِ عمه مجدِّ الذي أخذَ اللهُ بِبِعْتِه مآثارَ من الفِتنِ ، وأطفأَ برسالته ما أضطرمَ من نارِ الإحْنِ ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وأصحابِه الذين حَمَوْا حِمِّي الخِلافةِ وذادُوا عن موارِدِها ، وعمدُوا إلى تمهيدِ المَعالمِ الدينيةِ فأقاموها على قواعِدِها ؛ صلاةً دائمةً الغُدُوِّ والرَّواحِ ، متصلاً أوَّلُها بِطَرَّةِ الليلِ وآخِرُها بِجِبِينِ الصُّباحِ .

هذا وإن الدين الذى فرض الله على الكافة الأيضام الى شعبه ، وأطلع فيه شمس هداية تُشرق من مشرقه ولا تغرب في غربه ؛ جعل الله حكمه بأمرنا منوطا ، وفي سلك أحكامنا مخروطا ؛ وقلدنا من أمر الخلافة المعظمة سيفًا طال نجادُه ، وكثر أعوانه وأبجاده ؛ وقوّض إلينا أمر الممالك الإسلامية وإلى حرمانا نُججى ثمراتها ، ويرفع إلى ديواننا العزيز نفثها وإثباتها ؛ يحلف الأسد إن مضى في غايه شبّهه ، ويُلقى في الخبر والخبر مثله .

ولما أفاض الله علينا حلة الخلافة ، وجعل محلنا الشريف محل الرحمة والرافة ؛ وأقعدنا على سدة خلافة طالما أشرقت بالخلائف من آبائنا ، وأبتججت بالسادة الغطاريف من أسلافنا ؛ وألبسنا خلعة هي من سواد السؤدد مصبوغه ، ومن سواد العيون وسويداوات القلوب مصبوغه ؛ وأمضينا على سدتنا الشريفة أمر الخاص والعام ، وقلدنا كل إقليم من عملنا من ^(١) يصلح سياستها على الدوام ؛ وأستكفينا بالكفاة من عملنا على أعمالنا ، وأتخذنا مصر دار مقامنا وبها سدة مقامنا ، لما كانت في هذا العصر قبة الإسلام ، وفيئة الإمام وثانية دار السلام ؛ تعين علينا أن نتصفح جرائد عملنا ، ونتأمل نظام أعمالنا ؛ مكانا فكانا ، وزمانا فزمانا ؛ فتصفحناها فوجدنا قطر اليمن خاليا من ولايتنا في هذا الزمن ؛ عرفنا هذا الأمر من آتخذناه للملك الإسلامية عينا وقبلا ، وصدرا ولبا ؛ وقوضنا إليه أمر الممالك الإسلامية فقام فيها مقاما أقعد الأضداد ، وأحسن في ترتيب ممالكها نهاية الإصدار وغاية الإيراد ، وهو السلطان الأجل ، السيد الملك الناصر المبجل ؛ لازالت أسباب المصالح على يديه جاريه ، وسحابة الإحسان من أفق راحته ساريه ؛ فلم يعد جوابا لما ذكرناه ، ولا عدرا عمّا أبديناه ، إلا بتجهيز شريفة من بحافله المشهورة ، وتعين أناس من فوارسه المذكورة ؛

يَقْتَحِمُونَ الْأَهْوَالَ، وَلَا يَعْجُونَ بِتَغْيِيرَاتِ الْأَحْوَالِ؛ يَرَوْنَ الْمَوْتَ مَعْنًا إِنْ صَادَفُوهُ، وَشَبَّاهِ الْمَرْهَفِ مَكْسَبًا إِنْ صَافَحُوهُ؛ لَا يَشْرَبُونَ سِوَى الْمُدَامِ مَدَامَهُ، وَلَا يَلْبَسُونَ غَيْرَ التَّرَانِكِ عِمَامَهُ؛ وَلَا يَعْرِفُونَ طَرَبًا إِلَّا مَا أَصْدَرَهُ صَلِيلُ الْحَسَامِ مِنْ غِنَاءٍ، وَلَا يَنْزِلُونَ قَفْرًا إِلَّا وَنَبَتَ سَاعَةَ نَزْوَلِهِمْ مِنْ قَنَا. وَلَمَّا وَثِقْنَا مِنْهُ بِإِنْفَادِهِمْ رَاجِعِنَا رَأَيْنَا الشَّرِيفَ، فَاقْتَضَى أَنْ يُكَاتَبَ مَنْ بَسَطَ يَدَهُ فِي مَمَالِكِهَا، وَأَخَاطَطَ عَلَيَّ جَمِيعَ مَسَالِكِهَا؛ وَأَتَّخِذُ أَهْلَهَا خَوْلًا، وَأَبْدِي فِي خِلَالِ دِيَارِهَا مِنْ عَدَمِ سِيَاسَتِهِ خَلًّا. بَرَزَ مَرْسُومُنَا الشَّرِيفَ النَّبَوِيَّ أَنْ يُكَاتَبَ مَنْ قَعَدَ عَلَيَّ تَحْتَ مَمْلَكَتِهَا، وَتَصَرَّفَ فِي جَمِيعِ أُمُورِ دَوْلَتِهَا؛ وَطُوْلِعَ بِأَنَّهُ وَلَدُ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرِ يَوْسُفَ بْنِ عَمْرِو بْنِ الَّذِي لَهُ شُبْهَةٌ تَمَسُّكُ بِأَذْيَالِ الْمَوَاقِفِ الْمُسْتَعْصِمِيَّةِ وَهُوَ مُسْتَصِحَّبُ الْحَالِ عَلَيَّ زَعَمَهُ؛ أَوْ مَا عَلِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ؟ أَوْ مَا تَحَقَّقَ الْحَالُ الَّذِي بَيْنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ؟، أَصْدَرْنَا إِلَى الرَّحَابِ النَّعْزِيَّةِ، وَالْمَعَالِمِ الْيَمِينِيَّةِ تُشْعِرُ مَنْ تَوَلَّى عَنْهَا فَاسْتَبَدَّ، وَتَوَلَّى كِبْرَهُ فَلَمْ يَعْرِجْ عَلَيَّ أَحَدٌ؛ أَنْ أَمْرَ الْيَمَنِ مَا بَرِحَتْ تَوَلُّبُنَا تَحَكُّمَ فِيهِ بِالْآيَةِ الصَّحِيحَةِ، وَالتَّقْوِيضَاتِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ جَرِيحَةٍ؛ وَمَا زَالَتْ تَحْمَلُ إِلَى بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ وَمَا تَمَشَّى بِهِ الْجَمَالُ مَشْيًا وَوَيْدًا، وَتَقَذَفَهُ بَطُونُ الْجَوَارِي إِلَى ظُهُورِ الْبِعْمَلَاتِ وَوَيْدَا، وَيُطَالِعُنَا بِأَمْرِ مَصَالِحِهِ وَمَفَاسِدِهِ، وَبِحَالِ دِيَارِهِ وَمَعَاهِدِهِ؛ وَلِكِ أَسْوَةِ بَوَالِدِكَ فَلَانِ، هَلَّا أَقْتَفَيْتَ مَا سَنَّهُ مِنْ آثَارِهِ، وَنَقَلْتَ مَا دَوَّنَتْهُ أَيْدِي الزَّمَنِ مِنْ أَخْبَارِهِ.

وَأَتَّصِلُ بِمَوَاقِفِنَا الشَّرِيفَةِ أُمُورَ صَدَرَتْ مِنْكَ .

منها - وهي العظمى التي ترتب عليها ما ترتب - قطع الميرة عن البيت الحرام ، وقد علمت أنه وإد غير ذي زرع، ولا يحل لأحد أن يتطرق إليه بمنع .

ومنها - انصبأبك إلى تفریح مال بیت المال فی شراء لهو الحدیث، ونقض العهود القديمة بما تُبديهِ من حدیث .

ومنها - تعطیل أجياد المنابر من عقود آسمننا، وخلق تلك الأماكن من أمور عقدا وحلنا؛ ولو أوضحننا لك ما اتصل بنا من أمرك لطلال، ولا تسعت فيه دائرة المقال؛ رثمننا بها والسيف يودّ لو سبق القلم حده، والعلم المنصور يودّ لو فات العلم وأهتر بتلك الروابي قدّه؛ والكاتب المنصورة تختار لو بدرت عنوان الكتاب، وأهل العزم والحزم يودون إليك إعمال الركاب، والحوارى المنشآت قد تكونت من ليل ونهار، وبرزت كصور الأفيصة ليكنها على وجه الماء كالأطيّار؛ وما عمدنا إلى مكاتبتك إلا للإينذار، ولا أحتجنا إلى مخاطبتك إلا للإعذار؛ فأقلع عمّا أنت بصددّه من الخيلاء والإعجاب، وانتظّم في سلك من استخلفناه فأخذ يمينه ما أعطى من كتاب؛ وضمن بالطاعة من زعمت أنهم مقيمون تحت لواء علمك، ومنتظمون في سلك أوامر كلك، وداخلون تحت طاعة قلمك؛ فلسنا نسن الغارات على من نطق بالشهادتين لسأته وقلبه، وأمثل أوامر الله المطاعة عقله ولبه؛ ودان بما يجب من الديانة، وتقلد عقود الصّلاح والتحف مطارف الأمانة؛ ولسنا ممن يأمر بتجريد سيف إلا على من علمنا أنه نخرج عن طاعتنا، ورفض كتاب الله ونزع عن مبايعتنا . فأصدرنا مرسومنا هذا إليه نقض عليه من أبناء حلمنا ما أطل مدة دولته، وشيد قواعد صولته؛ ونستدعى منه رسولا إلى مواقفنا الشريفة، ورحاب ممالكنا المنيفة؛ لينوب عنه في قبول الولاية مناب نفسه، وليجن بعد ذلك ثمار شفقاتنا إن غرس شجر طاعتها - ومن سعادة المرء أن يجني ثمار غرسه - بعد أن يضحبه من ذخائر الأموال ما كثر قيمة وخفّ حملا، وتعالى رتبة وحسن مثلا؛ وأشرط على نفسك في كل سنة قطعة ترفعها إلى بيت المال . وإياك ثم إياك! أن تكون على هذا الأمر من مال؛

ورتب جيشاً مقيماً تحت علم السلطان الأجلّ الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار،
ألقى الله أولهم بالهلاك وأخرهم بالبوار . وقد علمت تفاصيل أحوالهم المشهورة ،
وتواريخ سيرهم المنكورة ؛ فأحرص على أن يُحصَّك من هذا المشرب السائغ أوفر
نصيب ، وأن تكون ممن جهَّز جيشاً في سبيل الله فرمى بسهم فله أجرُ كان مُصيباً
أو [غير] مُصيب ؛ ليعود رسولك من دار الخلافة بتقاليدها وتشاريفها حاملاً أهلة
أعلامنا المنصورة ، شاكرًا برمّواقفنا المبرورة ؛ وإن أبى حالك إلا أن أستمريت على
غيك ، وأستمريت مرعى بغيك ؛ فقد منعناك التصرف في البلاد ، والنظر في أحكام
العباد ؛ حتى تطأ خيلنا العتاق مسمخزات حصونك ، وتعجل حينئذ ساعة منونك ؛
وما علمناك غير ما علمه قلبك ، ولا فهمناك غير ما حدسه لبك ؛ ولا تكن كالصغير
يزيده كثرة التحريك نوماً ، ولا ممن غزه الإمهال يوماً فيوماً . أعلمناك ذلك فاعمل
بمقتضاه ، موفقاً إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثاني

(أن يُفتتح الكتاب بخطبة إما مصدرية بآية من القرآن الكريم أو دُونها)

كما كتبت عن الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس « أحمد ابن المستكفي بالله أبي
الربيع سليمان » إلى السلطان الملك الناصر: أحمد ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون ،
وهو بالكرك ، يستدعي حضوره إلى قلعة الجبل بالقاهرة المحروسة لتقليد السلطنة
الشريفة ، بعد خلع أخيه الملك الأشرف نُجك ابن الناصر محمد ، وإمساك الأمير
قوصون ومن معه من الأمراء .

وقد ذكر صاحب "الدرّ المنتقط" أنه كتبه في قطع البغدادى الكامل بين يدي
الأمير قطلوبغا الفخرى كافي السلطنة الشريفة . وهذه نسخته :

﴿لَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ .

فالحمد لله الذى أسبغ نعمة الظاهرة والباطنة، وألف قلوب أوليائه المتفقة والمتباينة، وأخذ بنواصي أعدائه المراجعة والباطنة؛ وأعلى جدّهذه الدولة القاهرة، وأطلع فى أسنة العوالى نجومها الزاهرة؛ وحرك لها العزائم فملكّت والأمور - بحمد الله - ساكنه، والبلاد - والمنة لله - آمنه، والرعايا فى مكانها فاطنه، والسيوف فى أعمادها مثل النيران فى قلوب حسّادها كامينه . وأقام أهل الطاعة بالفرض، وأستوفى بهم القرض، وقالوا الحمد لله الذى صدّقنا وعده وأورثنا الأرض؛ وأعزّ أنصار المقام الشريف العالى وأعزّ نصره، وأعدّ لعدوه حصره؛ وأتى بدولته الغراء تسمو شموسها، وتثمر غروسها؛ وتظهر فى حلال الصباح المشرق عروسها، وتبجى منه بجير راع للرعية يسوسها؛ وبشره بالملك والدوام، وسره بما أجمع له من طاعة الأنام، وأقدمه على كرسي ملكه تظله الغمام، وأراه يوم أعدائه وكان لا يُظنّ أن يرى فى المنام؛ ولا يزال مؤيد اللهم، مؤكّد الذم، مجدّد البيعة على رقاب الأمم؛ ولا برحت أيامه المقبلة مقبلة بالثمم، خضر الأكاف على رغم من كاد وغیظ من رغم؛ ولا فتئت عهود سلفه الشريفة تُنشأ له كما كانت، ورعاياه تدين له بما دانت، وجنوده تُفديه من النفوس بأعزّ ما ذخرت وما صانت؛ وسعادة سلطانه تكشف الغم، وتشرّ الذم، وتعيد إلى أنوف أهل الأنفة الشّم، وتحفظ ما بقى لأوليائه من بياض الوجوه وسواد اللّم .

سَطَرها وأصدرها وقد حُققت بعوائد الله الطنون، وصدّقت الخواطر العيون؛ وأنجز الله وعده، وأتمّ سعده؛ وجمع على مقامه الكريم قلوب أوليائه،

وَفَرَّقَ فِرَقَ عَدُوِّهِ وَأَبَاتَهُ بِدَائِهِ ؛ وَوَطَّدَ لُرُقِيهِ الْمَنَابِرَ ، وَرَجَّلَ لَتَرْقِيهِ الْعَسَاكِرَ ، وَهَيَّأَ لِمَقَاتِلِ أَعْدَائِهِ فِي أَيْدِي أَوْلِيَائِهِ السُّيُوفَ الْبَوَاتِرَ . وَأَخَذَ قُوصُونَ وَأُمْسِكَ ، وَنُهَبَ مَالُهُ وَأَسْتَهْلِكَ ؛ وَهَدِمَتْ أُنَيْتُهُ ، وَهَدَّتْ أُنَيْتُهُ ؛ وَخَرِبَتْ دِيَارُهُ ، وَقَلَعَتْ آثَارُهُ ؛ وَأَخْلَيْتْ خَزَائِنَهُ ، وَأَخْرَجْتَ مِنْ بُطُونِ الْأَرْضِ دَفَائِنَهُ ، وَمَا مَانَعَتْ عَنْهُ تِلْكَ الرَّبَائِبُ الَّتِي ظَنَّمَا قَسَاوِرَ ، وَلَا نَاضَتِ تِلْكَ الْقَيْسِيُّ الَّتِي طَبَعَهَا أَسَاوِرَ ؛ وَلَا أَغْنَى عَنْهُ ذَلِكَ التَّمَالُ الَّذِي ذَهَبَ ، وَلَا ذَلِكَ الْجَوْهَرُ الَّذِي كَانَ عَرَضًا لِمَنْ نَهَبَ . وَأُعِيدَ إِلَى الْمَهْدِ ذَلِكَ الطِّفْلُ الَّذِي أَكَلَ الدُّنْيَا بِاسْمِهِ ، وَقَهَرَ أَبْنَاءَهَا بِمُجْحَمِهِ ؛ وَمَوَّهَ بِهِ عَلَى النَّاسِ ، وَأَخْلَى لَهُ الْعَابَ وَمَاخَرَجَ مِنَ الْكِنَاسِ ؛ وَغَالَبَ بِهِ الْعَلَبَ حَتَّى وَطِئَ الرَّقَابَ ، وَدَاسَ الْأَعْقَابَ ؛ وَخَادَعَ وَدَلَّ الشَّيْطَانَ بَغْرُورَهُ ، وَدَلَّسَ عَلَيْهِ عَاقِبَةَ أُمُورِهِ ؛ فَاعْتَدَّ بِعِتَادِهِ ، وَأَعْتَرَّ بِقِيَادِهِ ، وَأَعْتَرَّ بِأَنَّ الْأَرْضَ لَهُ وَمَا عَلِمَ أَنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ؛ فَأُمْسِكَ وَمَعَهُ رُءُوسَ أَشْيَاعِهِ ، وَحَصَّرَتْ بِالْخَوْفِ نَفُوسَ أَتْبَاعِهِ - وَمِنْهُمْ الطَّنْبِغَا .

وقد أحاط العلم الشريف بكيفية وصوله وحقيقة الخبر، وما قاساه في طريقه من العبر، وداس عليه حتى وصل من وخر الإبر؛ وكذلك من جاء معه، وحلف وراءه الحق وتبعه، بعد الهزيمة التي ألجأهم إليها خوف العساكر المنصورة التي قعدت لهم على الطريق، وأخذت عليهم بمدارج أنفاسهم في فم المضييق؛ وعبثت لهم صفوف الرجال، وأعدت لهم حُتُوفَ الْأَجَالِ ؛ وَحَيْرَتَهُمْ فِي سَعَةِ الْفِجَاجِ ، وَأَرْتَهُمْ بِوَارِقِ الْمَوْتِ فِي سُحْبِ الْعَجَاجِ ؛ ثُمَّ لَمْ يَصَلُوا إِلَّا وَهُمْ أَشْلَاءُ مَمْرَقَهُ ، وَأَعْضَاءُ مَفْرَقَهُ ؛ قَدْ فَنَى تَحْتَهُمُ الظُّهْرَ ، وَقَفَى بِيَوْمِهِمُ الدَّهْرَ ؛ وَسَاقَتَهُمْ سَعَادَةُ سُلْطَانِ الْمَقَامِ الْعَالِي إِلَى شَقَاوَتِهِمْ وَهُمْ رُقُودٌ ، وَعَبَّتْ لَهُمُ الْخَيْلُ وَالْخَلَعُ إِلَّا أَنَّهَا مَلَأْسُ الدَّلِّ . وَهِيَ الْقِيُودُ ؛ فَأَخَذُوا جَمِيعًا مِنْهُمْ وَكَانُوا عَلَى مُوَالَاتِهِ ، وَفَارَقُوا الْجَمَاعَةَ لِمُوَاتَاتِهِ ؛ وَحَمَلُوا إِلَى الْحَبْسِ النَّائِي الْمَكَانَ ؛ وَأُودِعُوا أَحْيَاءً فِي مُلْحَدِهِ إِلَّا أَنَّهُمْ كَالْأَمْوَاتِ ، وَقَدْ نَالُوا الْمَقْصِدَ إِلَّا أَنَّهُمْ

مَا آمَنُوا الْقَوَاتِ ؛ وَوَكَّلَ بِحِفْظِهِمْ إِلَى أَنْ يُشْرِفَ سَرِيرُ الْمَلِكِ بِقُعُودِ مَقَامِهِ وَعُقُودِ
أَيَّامِهِ الْحَوَالِي ، وَسَعُودِ زَمَانِهِ الَّذِي لَا يَحْتَمُّ بِالنُّجُومِ إِلَّا خَدَمَ اللَّيَالِي .

وَهَذَا النُّصْرُ إِنَّمَا تَهَيَّأَتْ - وَنَلِّهُمُ الْحَمْدَ - أَسْبَابُهُ ، وَهَذَا الْفَتْحُ إِنَّمَا فَتِحَتْ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ
أَبْوَابُهُ ؛ بِمِنَّةِ اللَّهِ وَنِيَّةِ الْمَقَامِ الْعَالِي لَا بِمِنَّةِ أَحَدٍ ، وَلَا بِمِنَّةِ بَأْسٍ مِنْ أَقْدَرٍ ، وَلَا بِأَسٍ
مِنْ حَجْرٍ ؛ وَمَا قَضَى اللَّهُ بِهِ مِنْ سَعَادَةِ هَذِهِ الْأَيَّامِ ، وَمَضَى بِهِ الْقَدْرُ السَّابِقُ وَعَلَى اللَّهِ
التَّمَامُ ؛ وَبِمُظَافَرَةِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ السَّيْفِيِّ ، قَطْلُوْبِغَا الْفَخْرِيِّ السَّاقِي النَّاصِرِيِّ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
نُصْرَتَهُ لِهَذِهِ الْعَصَابَةِ الْمُؤَيَّدَةِ . وَبِمَضَاءِ عَزَائِمِهِ الَّتِي مَاوَنْتْ ، وَقَضَاءِ قَوَاضِيهِ الَّتِي
مَا آتَنْتْ ؛ وَبِمَوَازَرَةِ مَنْ النَّفِّ عَلَيْهِ مِنْ أَكْبَرِ الْأَمْرَاءِ ، وَبِمَا أَجْمَعُوا عَلَيْهِ مِنْ مُظَافَرَةِ
الْآرَاءِ ؛ وَنَزْوَلِهِمْ عَلَى النِّيَّةِ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَدَّطَهُمْ ، وَلَا يُيْهِبُهُمْ مَنْ بَدَّطَهُمْ ؛ وَلَا يَبَالُونَ
بِعَسَاكِرِ دِمَشْقِ الْمَقِيمَةِ عَلَى حَلْبٍ وَمَنْ مَالٍ إِلَيْهِمْ ، وَتَمَالًا مَعَهُمْ عَلَيْهِمْ ؛ وَمَنْ أَنْصَافِ
إِلَيْهِمْ مِنْ جُنُودِ الْبِلَادِ ، وَجِيُوشِ الْعِنَادِ ؛ وَلَا لَوَأْهُمْ مَا كَانَ يَبْعَثُ إِلَيْهِمْ ذَلِكَ الْخَائِنَ مِنْ
وَعِيدِهِ ، وَلَا وَلَاَّهُمْ مَا كَادَ يَحْطَفُ أَبْصَارَهُمْ مِنْ تَهْدِيدِهِ ؛ وَلَا بِالْأَوْ بِنَا أَلْبَ عَلَيْهِمْ مِنْ
جُنْدِ الشَّامِ مِنْ كُلِّ أَوْبٍ ، وَصَبَّ عَلَيْهِمْ سُيُولُهُ مِنْ كُلِّ صُوبٍ ؛ وَخَادَعَهُمْ بِالرِّسَائِلِ
الَّتِي مَا تَزِيدُهُمْ عَلَيْهِ إِلَّا إِيَابًا ، وَلَا تُسَكِّتُهُمْ أَنْ السَّيْفَ أَصْدُقَ مِنْهُ إِنْبَاءً ، حَتَّى وَلى
لَا تَنْفَعُهُ الْخِدْعُ ، وَلَا تَنْصُرُهُ الْبِدْعُ ؛ فَمَا أَسْعَدَتْهُ تِلْكَ الْجَمُوعُ الَّتِي جَمَعَهَا ، وَلَا أَجَابَتْهُ
تِلْكَ الْجُنُودُ الَّتِي سَارَ عَلَيْهَا إِلَى مَكْنَنِ أَجَلِهِ ، وَلَا وَقَّتْ تِلْكَ السِّيُوفُ الَّتِي لَمْ يَظْهَرْ لَهُ
مِنْ بَوَاقِهَا إِلَّا حَمْرَةَ الْخَجَلِ ؛ حَتَّى أَخَذَ مَعَ طَاغِيَتِهِ بِلِ طَاغُوتِهِ بِمَصْرَ ذَلِكَ الْأَخَذِ
الْوَيْبِلِ ، وَقَذَفَ بِهِ إِلَى مَهْوَى هَلَكَةِ سَيْلِ ذَلِكَ السَّبِيلِ ؛ وَقَامَ مِنَ الْبَلْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ
قِيَامَ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَتَنَظَّفَرُوا عَلَى إِزَالَةِ ذَلِكَ الْكَافِرِ النَّعْمَةِ الْجَاحِدِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الْأَمْرَاءِ
إِلَّا مَنْ بَدَّلَ الْجُهْدَ ، وَجَمَعَ قُلُوبَ الرِّعِيَةِ وَالْجُنْدِ ؛ وَفَعَلَ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ مَا لَمْ
يَكُنْ مِنْهُ بُدٌّ ، حَتَّى حُمِدَ الْأَمْرُ وَنَحِمَ الْجَمْرُ ؛ وَتَوَاتَرَتِ الْكُتُبُ بِمَا عَمَّتْ بِهِ الْبُشْرَى

من إقامة البيعة باسمه الكريم ، وأنه لم يبق إلا من أعطى اليمين وأعطى اليمين ، وأتم الحلف إتماماً لا يُقدَّر معه ثمين ؛ وأقيمت له السكَّة والخُطبة فرُفِع على المنابر اسمه وتהלَّل به وجوه التُّقود ، وظَهَرَ على أسارير الوجود ؛ وضربت البشائر ، ونهبت المسرات السرائر ؛ وتشوَّقت أولياء هذه الدولة القاهرة أدام الله سلطانها إلى حضور ملكها ، وسُفُور الصُّباح لإذهاب ما أبقته عقابيل تلك الليلة من حلكها . والمقام العالى ما يزداد علماً ، ولا يُزاد عزماً ، وهو أدرى بما فى التأخير ، وبما فى بُعدِه من الضرر الكبير ؛ ومثله لا يُعلم ، ومنه يُتعلَّم ؛ فهو أعلم بما يجب من مسابقة قدومه للبشير ، وما سيعن من معاجلته لأمتطاء جواده ظهر الخمال وبطن السَّير ؛ فالله الله ! فى تعجيل حفظ هذا السَّوام المُشرد ، وضَمَّ هذا الشَّمْل المُشتت ونظَّم هذا العِقد المبدد ؛ وجمع كلمة الإسلام التى طالما آفرت ، وانتجاع عارض هذه النعمة التى أبرقت ؛ وسرعة المسير فإنَّ صبيحة اليوم المبارك الذى يُعرَف من أوله قد أشرقت ؛ فما بقى مابه يُقتدر ، ولا سوى مقدمه السعيد يُنتظر .

وقد كتبناها ويُدنا ممدودة لمبايعته ، وقلوب الخلق كلها مستعدة لمتابعتِه ؛ وكرسى الملك قد أزلِف له مقعده ، ومؤمل الظفر قد أُنجز له موعده ؛ والدهر مطاوعه والزمان مُسعده ، وطوائف أوليائه ليوم لقائه تُرصدُه ؛ والعهد له قد كُتب ، ولواء الملك عليه قد نُصب ؛ والمنبرُ باسمه عليه قد خُطب ، والدينارُ والدرهم هذا وهذا له قد ضُرب ؛ ولم يبق إلا أن يُقترب ، وترى العيون منه ما ترتقب ؛ ويجلس على السَّير ، ويُزَمع المبشِّر ويعزم على المسير ؛ وتُرى الأقاليم ، وبين لتسير شهابه ما كان يُقرأ له فى التَّقاويم ؛ لازال جيبُ ملكه على الأقطار مزرورا ، وذيل نفاهه على السماء مجرورا ؛ وحبلُ وليه متصلاً وقلبه مسرورا ، ومقدمه يحوزله من إرث آبائه نعمًا جمة ومُلكا كبيرا ؛ إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثالث

(ما استقر عليه الحال في زماننا إلى خلافة الإمام

المتوكل على الله خليفة العصر)

وهو أن تفتتح المكتبة بالسلام، ويؤتى في ألقاب المكتوب إليه بما يُكْتَب من الألقاب عن السلطان على ماسياتى ذكره في المكاتبات السلطانيات في الباب الثانى من هذه المقالة، إن شاء الله تعالى .

مثال ذلك : أن تكون المكتبةُ إلى نائب الشام مثلاً، فالذى يكتبُ إليه عن السلطان : « أعزَّ الله تعالى أنصار المَقَرِّ الكريم العالى » إلى آخر الألقاب الآتى ذكرها هناك؛ ويكتب عن الخليفة « سلامُ الله تعالى ورحمته وبركاته يُحْص المَقَرِّ الكريم العالى » إلى آخر الألقاب .

قلت : ولو سلخوا سبيل الخلفاء السابقين في المكاتبات الصادرة عنهم : من الابتداء بلفظ « من عبد الله ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين إلى فلان على ما تقدم » وأتوا في ألقاب المكتوب إليه بالألقاب المستعملة في [ذلك] الزمان في المكاتبات السلطانية : مثل أن يكتب عن الإمام المتوكل على الله محمد خليفة العصر إلى نائب الشام « من عبد الله ووليه أبى عبد الله محمد الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين ، إلى المَقَرِّ الكريم العالى الأميرى الكبيرى » إلى آخر الألقاب المقدم بينها في المقالة الثالثة . ثم يقال : « وسلامُ على المَقَرِّ الكريم ، فإن أمير المؤمنين يمدُّ إليه الله الذى لا إله إلا هو ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم » . ثم يقال : أما بعد، فإن كذا وكذا، ويؤتى على المقصد ويحتم بالدعاء وغيره لكان أذهب مع الصواب، وأوفق لمكاتبة الخلفاء السابقين، وأقرب إلى آقتفاء سبيلهم .

الطرف الخامس

(في الكُتُب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية،

وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في الكُتُب الصادرة عنهم على سبيل الإجمال)

وقد ذكر صاحب "مواد البيان" وكان من كبار دولتهم في المكاتبات الصادرة عنهم نحو المكاتبات الصادرة عن خلفاء بني العباس ببغداد، فقال: وإن كانت المكاتب من الخليفة فينبغي للكاتب أن يفضل من الدرج قدر ذراع ثم يستفتح بسم الله الرحمن الرحيم في سطر أول: لأنها أولى ما يُستفتح به، ثم يكتب في سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج يسيراً «من عبد الله ووليه فلان بن فلان إلى فلان» ويبدأ بذكر نعتِه إن كان الإمام شرفه بنعت: «سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلّي على محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين وعلى آله الأئمة المهديين ويسلم تسليماً». ويكون هذا التصدير في سطرين، يجعل بينهما فضاء قيس شبر، ولا يزيده عن ذلك ولا ينقصه فيخرجه عن حدّه؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاء نصف الذي بينهما. ثم يقول: أما بعد، ويقنص المعاني معنى معني، فإن كان أمراً أمر به الإمام قال بعد أنقضاء الكلام: وأمر أمير المؤمنين بكذا. ثم يقول بعد فصلٍ أوسع من الفصل الأول «فاعلم ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وأعمل عليه بحسبه». ويقول للخاطبين من الطبقة العالية: والسلام عليك ورحمة الله، ويفرد بالسلام من دونها.

وقد كانت العادة جارية أن يقال في آخر الكتب النافذة عن الإمام «وكتب فلان بن فلان» باسم الوزير وأسم أبيه؛ ثم بطل هذا الرسم في الدولة العلوية

ولا يكتب أحد بالتصدير إلا الإمام ووليَّ عهده . وهذه المكتبة عامَّة للناس جميعا في الأمور السلطانية التي تُنشأ فيها الكُتب من الدواوين، ولا يخاطبُ أحد عن الخليفة إلا بالكاف .

الجملة الثانية

(في الكُتب العامة ؛ وهي على أسلوبيين)

الأسلوب الأوَّل

(أن يفتتح الكتاب بلفظ : « من عبد الله ووليه أبي فلانٍ

فلان الإمام الفلاني » على ما تقدم ترتيبه)

وعلى هذا الأسلوب كان الحال في ابتداء دولتهم وإلى أوساطها .

وهذه نسخة كتاب كتب به الإمام العزيز بالله نزار الفاطمي إلى عامله بمصر يبشِّره بالفتح حين خرج إلى قتال القرمطي بالشام في سنة سبع وستين وثلاثمائة ، مما أورده المسبِّحي في تاريخه :

من عبد الله ووليه نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين ، إلى حسين بن القاسم . سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على جدّه محمد نبيه ورسوله صلى الله عليه ، وعلى الأئمة من عترته الأبرار ، الطاهرين المطهرين وسلّم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله الملك العظيم ، العليم الحليم ، ذي الطول الكريم ، والعمّن الجسيم ؛ والعزّ المديد ، والمحال الشديد ؛ وليّ الحقّ ونصيره ، وماحق الباطل ومبيّره ، المتكفل بالنصر والتمكين ، والتأييد والتحصين ، لأوليائه المتقين ، وخلفائه المصطفين الذين

عن دينه ، والقائمين بحقّه ، والدالين على توحيدِهِ ، الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج
مُحجّجهم وظهورهم على أعدائه المشاقين له ، الضالّين عن سبيله ، المُلحدين في آياته ،
الجاحدين نِعْمه ، المتزلّ رِجْزُهُ ، وقوارع بأسه على من عصاه فخادَهُ ، وصدّد عنه
فنادَهُ ، القاضى بالعواقب الحُسنى والفوز والنعماء لمن أسلم وجهه له وتوكل عليه
في أمره ، وفوض إليه حُكْمَهُ ؛ كلُّ ذلك فضلاً منه وعدلاً ، وقضاءً فصلاً ؛
وهو الحَكَمُ العَدْلُ الذى لا يَظْلِمُ الناسَ شيئاً ولكنّ الناسَ أنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .
فبارك الله الغالب على أمره الفردُ في ملكه ؛ سبحانه وتعالى علُوّاً كبيراً . والحمد لله
الذى آتبعَت عبده المصطفى ، وأمينه المرتضى ؛ من أكرم سنخ ونبغة ، وأظهر ملته
وشرعه في أفضل دهرٍ وعصرٍ ؛ وأنزل عليه كتاباً من وحيه حكياً غير ذى عوجٍ قيماً
بديع النظام ، داخلاً في الأفهام ، خارجاً عن جميع الكلام ، ليس كسجع الكهان ،
ولا كتجبير ذوى اللسن والبيان ؛ وقد تفرقت بالأمم أهواؤهم ، وتوزعتهم آراؤهم ،
فضلت أحلامهم وعميت أفهامهم وأستحوذ عليهم الشيطان ، فعبدوا الأصنام
والأوثان ؛ جهلاً بعبادة الرحمن ، فدعاهم إلى الاقرار بإلههم ، وعرفهم وحدانية ربهم
وكان حريصاً على إرشادهم ، جاداً في الاجتهاد ، هاجراً للدعة والمهاد ، صابراً على تكذيب
المُشركين ، وتفنيد المُلحدين ؛ ينصح لهم فيستكبرون ، ويهديهم فيضلّون ، ويحذّرهم
فيستهزئون ؛ حتى ظهر دينُ الله فسماً ، وطمس الكفرُ فأنجح وعفاً ؛ وعمت
بركته ، وفُضلت على الأمم أمته ، وعلت على الملل ملته ، صلى الله عليه أفضل صلاة
المصلّين ، وزاده شرفاً في العالمين إلى يوم الدين .

والحمد لله الذى حبأ أمير المؤمنين وأنتخبه لخلافته ، وجعله صفيّه من خلقه وأمينه
على عبادِهِ وهادياً إلى سبيله ، قائماً بحقه ، مُقسِطاً فى أرضه ؛ ذاباً عن دينه ، مُحياً
ما أماته أهل الكُفر من أحكامه ؛ وأيدّه بنصره ، وأمدّه بقوته ؛ وتكفل له بالنُجج

في مسعاه ، والظفر بمبتغاه ، ونيل طليته فيا أمه وأرتاه . وحكم بكت كل عدوله
 وخزيهم ، وإذلالهم ومحققهم وخذلهم ، وإيهان كيدهم ؛ وضرب الدلة عليهم حيث
 كانوا وأين كانوا ؛ فلا يتنعق ناعق منهم يطلال ، أو يسعى بسفق وخبال ؛ أو يدفع
 إلى آقراء على الله أو مروق عن دينه أو إذهاب ما فرض الله عز وجل من طاعة
 إلا أصطلمه وأخزاه ، وأكبه لوجهه وأرداه ، وقضى عليه بالشقوة في دنياه ، وعذاب
 الآخرة في أخره .

والحمد لله الذي منح فأجل ، وأعطى فأجزل ؛ من نعمة السابعة ، وآلائه المتتابعه ؛
 التي لا يوازيها شكر ، ولا يدرك كنهها ذكر ؛ حمداً يوجب منه المزيد ، ويستدعي
 المن والتهجد ؛ وإليه يرغب أمير المؤمنين خاضعا ويسأله راغبا حسن العون على
 ما بلغ رضوانه ، وأمرى فضله وإحسانه . وتقدم أمير المؤمنين إليك بما هياه الله من
 وُصوله إلى مدينة الرملة على أجمال صنع وأطف كفاية ، وأتم أمن ، وأكل عز
 وأوطد حال ، وأحسن انتظام ، وأسطيد ، وأظهر قُدرة ، وأشمل هيبة ؛ وبما أولى
 الله أمير المؤمنين في حله وطعنه ، وأرتحاله ونوائه : من نعمة العميمه ، ومواهبه
 الجسيمه ؛ ومنحه الحليله ، ومننه الجزيله ؛ وانه مما يستغرق الحمد والشكر ، ويفوت
 الإحصاء والنشر ، وذكر أمير المؤمنين أمر اللعين التركي وهربه من بين يديه ، وأنه لم
 يلو على شيء إلى أن بلغ طبرية للذي تداخله من الفرق ، وأستولى عليه من القلق ؛
 ولما سكن قلبه من الرعب ، وحشاه من الرهب ؛ بقصد أمير المؤمنين إياه وإغذاذه
 السير في طلبه ومواصلته الأسباب ، ومتابعتة الأداب . ووصف أمير المؤمنين ما عليه
 عزمه في تتبعه وأقتفاء أثره ، والحلول بعقوته حيث قصد وحل ، لثقتة بالله ربه ،
 وتوكله عليه ، وتفويضه إليه . ولم يزل جل وعز يولي أمير المؤمنين - بعد نفوذ

(١) العقوة ماحول الدار والحلحة ، انظر القاموس ، ووقع في الأصول بالفاء بدل القاف وهو تصحيف .

كتابه - من عزَّ يؤيده ، وظفر يؤكده ، ونصر يوطئه ، والآء يحددها ، ومواهب يتابعها ،
 وعدو يبدله ، ومناو يقله ، وشارد يصرفه إلى طاعته ، ومارق يعيده إلى موالاته ؛ إلى
 أن تم له من ذلك ما وصل به حمد الله عليه ، وتبياً له ما تواتر شكره له جل وعز فيه
 وكان مع ذلك مواصلاً إلى اللعين الإعذار ، ومتابعاً الإنذار ؛ ومحدراً له ما يُعذر ، ومستدعيه
 إلى ما يُختار ويؤثر ؛ وممناً له . مما يثني به مثله من العفو عنه ، وتعهد ما جرى منه ؛
 والإقالة لعثرته ، والتجاوز عن هفوته ؛ والامتنان عليه بما رغب فيه من تقليده ناحية
 من نواحي الشام ، وإدراج الأرزاق عليه وعلى رجاله وأصحابه ؛ وإشارة بالفضل
 الجليل ، واختصاصه بالطول الجزيل . فما نجح في الفاسق وعد ، ولا نجح فيه وعظ ،
 ولا وفق إلى قبول حظ ؛ ولا أصغى إلى قبول تذكرة ، ولا أناب إلى تبصره . وما زال
 جاداً في تهوكه ، متمادياً على تمهكه ؛ جارياً على ضلالتة ، سالكاً سبيل عمائته ؛ متردداً
 في غوايته ، متلداً في جهالته ؛ مقدرًا أن بأس الله لا يرهقه ، وسطوته لا تلحقه ،
 ورجزه لا يحققه ، وذنوبه لا تزهقه ، وأجرامه لا تؤيقه . وما زال اللعين في خلال ذلك
 يبسط آمال العرب ويرجئها ، ويرغبها ويمنيها ؛ بأقوال كاذبه ، وآمال خائبه ؛ ومواعيد
 باطلة ؛ حتى أصغى أكثرها إلى غروره ، وقبول إفكه وزوره ؛ وأجابته طائفة
 طاغية ، ووصلت إليه متابعيه ؛ فتوفر جمعه ، وكثر عدده وأشدت طمعه ، وقوى
 أمله ؛ وتمكن له باستدراج الله إياه وغضبه عليه أن يورط عُصْبته ومن آخذعه
 بغيه وأستفزه معه جهله ؛ ويوردهم جميعاً ونفسه الرذلة مورداً لاصدره ، ولا
 علل بعده ؛ فخرج من طبرية وحل بيسان ، محل الخري والموان ؛ فعندها انتهى
 إلى أمير المؤمنين خبره وهو يومئذ في المنهل ، الذي حصل فيه بعد رحيله
 من الرملة وهو الموضع المعروف بالطواحين . فعند ما قرب أستجرأ الفاسق
 اللعين ، واعتمد ما يعود بأطماعه ، أقام في الموضع أياماً ناظراً فيما يحتاج إليه ، متأبها

لما يُريده ، وكان ذلك هو السبب الذي أطمعه . فبعد ما طمع قاده الحينُ
 الغالب ، والقدر الجالب ؛ وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ،
 ومنهل وباله ؛ ورحل من بيسان رحيل من أستعجلته البلية ، وأستدعته الرزية ؛
 فخل بموضع يُعرف بكفر سلام ، كافرًا بحدود الإسلام ، متجرئًا على الله محاربًا لنجل
 نبيه عليه السلام ؛ وأقام بها متلددًا في حيرته ، مترددًا في سكرته ؛ ثم أستجره شومه ،
 وقاده حينه ولومه ؛ إلى أن رحل فنزل بكفر سبابا البريد ، فأناه أسمها بما حل به من
 السبي المييد والخزي الشديد ؛ ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه الماكولة ، ونصب
 أعلامه المخدولة ، وأقام صفوفه المقلولة ؛ وأظهر آلة الحرب إقداما ، و [أخفى]
 عن اللقاء إجماما .

فامر أمير المؤمنين بتريين العساكر المنصورة والجيوش المظفرة وتعبئتها على
 مراتبها ، وترتيبها على مواكبها ؛ وتقدم إلى قوادها أن لا يمشوا إلا صفاً ،
 ولا يسيروا إلا زحفاً ، وعرفهم أنه سيسير بنفسه ، ويقصد اللعين بموكبه وجهوره
 ومن معه من حمة رجاله ؛ وأنه لا يثنيه عن الفاسق ثانٍ ولا يصرفه عن الاقتحام
 صارف ؛ فبدأ من عزائمهم ، وشدة شكائهم ، وخلوص بصائرهم ، وسكون
 أفئدتهم ، وثبات أقدامهم ، ما كانت به دلائل النصر واضحه ، وشواهد الفلج لائحها ؛
 وعلامات الفتح ظاهره ، وآيات التمجح باهره ؛ فمشوا على ما أمروا ، وساروا على
 ما سيروا ؛ فعند ما دنوا من عدو الله أصابوه للبلاد معدًا ، وفي المحاربة مجتدًا ؛
 وأستخاروا الله عز وجل وتدانوا للتلاق ، والأخذ بالنواصي والأعناق ؛ وقامت
 الحرب على ساق ، وتجرع منها أمر مDAQ ؛ فاستطار شرارها ، وتأججت نارها ؛
 وارتفع دخانها ، وعظم شأنها ؛ والتزم الأقران بالأقران ، وأشتد الضرب والطعان ؛

إلى أن مشى أمير المؤمنين بنفسه، وجمهور موكبه، متوكلاً على الله، مأتاً إليه بجده
 محمد صلى الله عليه وسلم، متوسلاً بمتقدم وعده، وسالف إنعامه عنده، وقصد اللعين
 غير متأمم عن مصادمته، ولا معرج عن ملاحته؛ فقويت نفوس أوليائه وعبيده،
 ومن أشملت عليه عساكر المنصورة، وجيوشه المظفرة بما تينوه من إقدامه،
 وشاهدوه من اعتزاهم؛ وحملوا على الفاسق وأحزابه؛ وقذف الله في قلوبهم الرعب
 فترزلت أقدامهم، وأرعشت أيديهم ونجبت أفئدتهم، وولوا الدبر منزهين، وفتحوا
 ظهورهم مؤلين؛ وأفرقوا ثلاث فرق: فرقة قتلت في المعركة، وصيرت في الملاحمة؛
 فاحترت رؤوسهم، وفرقة أحست وقع السيوف وإرهاق الخوف؛ فاستأمنت تحت
 الدلة والصغار، والغلبة والإقتدار، فبقيت عليهم الأرواح، وحقنت منهم الدماء.
 وفرقة أسرت أسرا، وقيدت قيديا؛ وهرب التركي اللعين رئيس ضلاتهم، وعميد
 كفرهم؛ في شريذمة من أصحابه، فظن أن ذلك من بأس الله ينجيه، ومن الأخذ
 بكظمه يوقيه، هيهات! كما قال الله عز وجل: ﴿هِيَآتْ هِيَآتْ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾:
 ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فاتبعه سرعان الخيل
 وخيف الرجال؛ مع مفرج بن دغفل بن جراح، فأخذه قبضا وأتى به قودا أسيرا
 من غير عهد، وذليلا من غير عقد؛ وأستولى أهل العساكر المنصورة، والجيوش
 المظفرة؛ على مناخه وسواده، وما كان فيه من مال وأثاث وكراع وقناع؛ وقليل
 وكثير، وجليل وحقير؛ فآزوه وأسسعوا به، وأكثروا من حمد الله، وأنصرفوا
 إلى معسكرهم سالمين، بالمغمم والظفر آمين؛ لم يكلم منهم أحد، ولم ينقص لهم عدد؛
 وكان جملة ما أتوا به معهم من رؤوس الفسقة زائدا على ألف رأس، ومن أسراهم
 ثمانمائة أسير، غير من استؤمن وقت الإيقاع بهم، ولم يقلت من الفسقة إلا من هرب

(١) القناع معانيه كثيرة ومنها السلاح وهو المراد هنا .

بُحْشَاشَةً نَفْسَهُ مَعَ مَنْ لَأَمَ التَّرِكِيَّ اللَّعِينِ ، وَصَاحِبُ عَقْدِهِ وَمُورِطُهُ فِي هَلَاكِهِ ، وَقَائِدُهُ إِلَى تَقَمَّاتِهِ ، وَسَائِقُهُ إِلَى مُوَبِقَاتِهِ ، وَهُوَ كَاتِبُهُ الْمَعْرُوفُ بِابْنِ الْحِمَارَةِ ، فَلَحِقَ بِطَبْرِيَّةٍ فُقِّتِلَ هُوَ وَجُلٌّ مِنْ مَنْ كَانَ مَعَهُ وَأَحْتَرَّ رَأْسُهُ وَأُتِيَ بِهِ ، فَكَمَلَتِ النِّعْمَةُ ، وَتَمَّتِ الْمَوْهَبَةُ ، وَتَجَدَّدَ حَمْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَاتَّصَلَ شُكْرُهُ ، لَمَّا أَوْلَاهُ مِنْ جَلِيلِ عَطَائِهِ ، وَكَرِيمِ حِبَائِهِ ، وَسَنَى آلَانَهُ . وَكَانَ مَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ عَظِيمِ آيَاتِهِ ، وَأَكْبَرِ شَوَاهِدِهِ ، وَأَخْتِصَاصِ اللَّهِ إِيَّاهُ وَأَنْتَخِيَاهُ لَهُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ ! ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ ! ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عَطَائِهِ الْهَنِيِّ ، وَحِبَائِهِ السَّنِيِّ ، وَمَا أَيْدَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَعَزَّ الدِّينَ ، وَقَعَّ الْمُشْرِكِينَ ، إِذْ كَانَ الْفَاسِقُ اللَّعِينُ ، التَّرِكِيَّ الْعَوِيَّ الْمَبِينُ ، ثَلَّةً مِنْ ثَلَاثِهِمْ وَرُكْنًا مِنْ أَرْكَانِهِمْ ، وَحَرْبًا مِنْ أَحْرَابِهِمْ ، وَوَتْنَا مِنْ أَوْثَانِهِمْ ، وَطَاغِيَةً مِنْ طَوَاغِيَتِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ فِي بَلَدِ الْمُسْلِمِينَ يَدٌ تَصُدُّ عَنْهُمْ بِأَسَ غَيْرِهِمْ ، وَلَا عَضُدٌ يَدْفَعُونَ بِهَا سِوَاهُ . وَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَرْغَبُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُوزِعَهُ الشُّكْرَ عَلَى مَا أَوْلَاهُ ، وَيُوجِدَهُ سَبِيلًا إِلَى بُلُوغِ مَبْتَغَاهُ ، مِنْ إِعْزَازِ الْمَلَّةِ وَالِدِّينَ ، وَإِحْيَاءِ شَرِيْعَةِ جَدِّهِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَجَاهِدَةِ التُّرْكِ وَالْمُشْرِكِينَ ، وَقَعَّ الظَّالِمِينَ وَالْقَانِطِينَ وَالْمَارِقِينَ ، حَتَّى يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ، وَيَجْمَعَ الْقُلُوبَ عَلَى طَاعَتِهِ بِإِذْنِ اللَّهِ .

أَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِتَعْرِيفِكَ ذَلِكَ ، وَتَلْخِيصِ الْكِتَابِ إِلَيْكَ ، لِنَقْفِ عَلَيْهِ وَتُدْيِعِهِ ، وَتَشَهَّرِهِ فِيمَا قَبْلَكَ ، وَتَحْمَدِ اللَّهِ عَلَى مَا مَنَحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ النِّصْرِ ، وَمَكَّنَهُ مِنَ الظَّفَرِ . فَاعْلَمْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ . وَكُتِبَ يَوْمَ الْخَمِيسِ خَمْسَ لَيَالٍ بَقِيْنَ مِنَ الْحَرَمِّ سَنَةِ سَبْعِ وَسِتِّينَ وَثَلَاثَةَ .

الأسلوب الثاني

(أن يفتح الكتاب بخطبة مفتتحة بالحمد لله)

وعليه كان الحال في أواخر دولتهم . وعليه جرى في "مواد البيان" في الأمثلة التي ذكرها .

وهذه نسخة كتاب مما أورده في "مواد البيان" بشارة بفتح، وهي :

الحمد لله مُدِيلِ الْحَقِّ وَمُنِيرِهِ ، وَمُنِذِلِ الْبَاطِلِ وَمُبِيرِهِ ، مُؤَيِّدِ الْإِسْلَامِ بِبَاهِرِ
 الْإِعْجَازِ ، وَقَصْمِ وَعَدِهِ فِي الْإِظْهَارِ بَوَشِيكَ الْإِنْجَازِ ؛ أُنْحَدِ كُلَّ دِينٍ وَأَعْلَاهُ ، وَرَفُضَ
 كُلِّ شَرِّ وَأَجْتَبَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ نُورَهُ الْلَامِعِ ، وَظِلَّهُ الْمَاتِعِ ؛ وَأَبْتَعَتْ بِهِ السَّرَاجَ الْمُنِيرَ ،
 وَالْبَشِيرَ النَّذِيرَ ؛ فَأَوْضَحَ مَنَاجِيَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛
 وَسَنَّ حِلَالَهَ وَحَرَامَهُ ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَّهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَحَضَّ عَلَى التَّمَسُّكِ
 بِعِصْمِ دِينِهِ ؛ وَشَمَّرَ فِي نَصْرِهِ مَجَاهِدًا مَنْ نَدَّعَنَ سَبِيلَهُ ، وَعِنَدَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَّدَ
 الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَامَ ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسِرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ ، وَأَتَمَّلَتْ
 خَيْلُ اللَّهِ بِقَبَائِلِ الْهَامِ .^(٢)

يُحْمَدُهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ جَعَلَهُ مِنْ وِلَاةِ أَمْرِهِ ، وَوَفَّقَهُ لِاتِّبَاعِ سُنَّةِ رَسُولِهِ وَأَقْتِفَاءِ
 أَثَرِهِ ؛ وَأَعَانَهُ عَلَى تَمَكِينِ الدِّينِ ؛ وَتَوْهِينِ الْمُشْرِكِينَ ، وَشِفَاءِ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَأَنْهَضَهُ
 بِالرَّمَاةِ عَنِ الْمَلَّةِ ، وَالْمَحَامَاةِ عَنِ الْحَوْزَةِ ؛ وَإِعْزَازِ أَهْلِ الْإِيمَانِ ، وَإِذْلَالِ حِرْبِ
 الْكُفْرَانِ . وَيَسْأَلُهُ الصَّلَاةَ عَلَى خَيْرَتِهِ الْمُجْتَبَى ، وَصَفْوَتِهِ الْمُتَّصَى ، مَجْدٍ أَفْضَلِ مِنْ ذَبِّ

(١) كذا في الأصول مضبياً عليه بعلامة التوقف ولعله وتم وعده الخ كما يفيد السجع .

(٢) قبائل الرأس أطباقه وفي الأصول "بائل" بالنون وهو تصحيف يأباه المعنى .

وكافح، وجاهد وناق؛ وحمى الذمار، وغزا الكفار. صلى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمه على بن أبي طالب سيفه القاطع، ومجته الدافع: وسهه الصارد، وناصره العاضد؛ فارس الوقائع، ومعوس (?). الجماع؛ مبيد الأقران، ومبدد الشجعان. وعلى الطهارة من عترته أمة الأزمان، وخالصة الله من الإنس والجنات. وإن أولى النعم بأن يرقل في لباسها، ويتوصل بالشكر إلى لبائها؛ ويتهادى طيب خبرها، ويتفاوض بحسن أثرها؛ نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك، وغزو وأولى الباطل والإفك؛ والهجوم عليهم في عقر دارهم، وأجبتات أصلهم وهدم منارهم؛ وأستزالمهم من معاقيلهم، وتشريدهم عن منازلهم؛ وتغميض نواظرهم الشوس، وإلباسهم لباس البوس؛ لما في ذلك من ظهور التوحيد وعزّه، وتحمود الإلحاد وعزّه؛ وعلوامة المسلمين؛ وانخفاض دولة المشركين؛ ووضوح محجة الحق ومجته، وفضوح برهانه وآيته.

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد أنكفأ عن ديار الفلانيين والمشركين إلى دست خلافته، ومقر إمامته؛ بعد أن غزاهم براً وبحرا، وشردهم سهلا ووعرا، وجرعهم من عواقب كفرهم مرًا؛ وفرق جماعتهم التي تطبق سهوب الفضاة خيلا ورجلا، وتضيق بها المهامة حزنا وسهلا؛ ومزق كتائبهم التي تلحق الوهاد بالنجاد، وتختطف الأبصار ببوارق الأعمد؛ وسبى الدراري والأطفال، وأسرا البطاريق والأقبال؛ وأفتتح المعاقل والأعمال، وحاز الأسلاب والأموال؛ وأستولى من الحصون على حصن كذا وحصن كذا. ومحا منها رسوم الشرك وعفاها، وأثبت سنن التوحيد بها وأمضاها. وغيم أولياء أمير المؤمنين ومتطوعة المسلمين من الغنائم ما أقر العيون، وحقق الظنون؛ وأنفصلوا وقد زادت بصائرهم نقادا في الدين، وسراثرهم إخلاصا في طاعة أمير المؤمنين؛ بما أولاهم الله من النصر والإظفار، والإعزاز والإظهار؛ ووضح للمشركين بما أنزله عليهم

من الخِذلان، وأنالهم إياه من الهوان؛ أنهم على مِصْلَةٍ من النخى والعمى، وبعْدِ من الرُّشد والهدى؛ فضرَعُوا إلى أمير المؤمنين فى السُّلْم والمواَدَعَة، وتحمَّلُوا بَدَلًا بَدَلُوه تَفَادِيًا من الكِفَاح والمُقَارَعَة؛ فأجابهم إلى ذلك متوكِّلاً على الله تعالى، وممثلاً بقوله تعالى إذ يقول: ﴿وَإِنْ جَحَحُوا لِسَلِيمٍ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وعاقَد طاعيتهم على كتاب هُدنة كتبه له، وأقره فى يده؛ حُجَّةً مضمونة.

أشعرك أمير المؤمنين ذلك لتأخذ من هذه النعمة بنصيبٍ مثلك من الخُلصين، وتعرف موقِع ما تفضّل الله تعالى به على الإسلام والمسلمين؛ فتُحسِن ظَنَكَ، وتُتمِر عَيْنَكَ؛ وتُشكر الله تعالى شُكْر المستمِد من فضله، المعتد بطُوله؛ وتتلو كتاب أمير المؤمنين، على كافّة من قبلك من المسلمين، ليعلموا ما تولّاهم الله به من نصره وتمكينه، وإذلال عدوّهم وتوحيته؛ فاعلم ذلك وأعمل به.

الجملة الثالثة

(فى الكُتُب الخاصّة، كالمكتبة إلى الوزير ومن فى معناه)

قال فى "موادّ البيان" بعد ذكر صورة المكتبات العامّة عنهم: وقد يخاطب الإمام وزيره فى المكتبة الخاصّة بما يرفعه فيه عن خطاب المكتبة العامّة الديوانيّة، ويتصرّف فى ذلك، ويزاد ويُتقص على حسب لطافة محلّ الوزير ومنزلته من الفضل والجلالة. قال: وليس لهذه المكتبة الخاصّة حدودٌ ينتهى إليها، ولا قوانين يُعتمد عليها، وطريقها مستفيضة معلومة. وقد تقدّم فى المكتبات الخاصّة عن خلفاء بنى العباس أن مكتبة الوزير «أمتعنى الله بك» فى أدعية أخرى.

الطَّرَفُ السَّادِسُ

(في الكتب الصادرة عن خلفاء بني أمية بالأندلس)

ولم أقف على شيء من المكاتبات الصادرة عنهم ، وإن ظفرتُ بشيء منها بعد ذلك لحقته إن شاء الله تعالى .

الطَّرَفُ السَّابِعُ

(في الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحّدين ، أتباع المهديّ بن تومرت المستمّر

بقاياهم الآن بتونس وسائر بلاد أفريقيا ، وهي على أسلوبين)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبه بلفظ « من فلان إلى فلان »)

وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويدعى له بما يناسبه « إلى فلان » ويدعى له بما يليق به ؛ ثم يؤتى بالسلام ؛ ثم يؤتى بالبعدية والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والترضية عن الصحابة ، ثم عن إمامهم المهديّ ؛ ثم يؤتى على المقصود ، ويختتم بالسلام . والخطاب فيه بنون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه .

كما كتبت عن عبد المؤمن : خليفة المهديّ إمامهم إلى الشيخ أبي عبد الله محمد ابن سعد :

« من أمير المؤمنين أيده الله بنصره ، وأمدّه بمعونته ؛ إلى الشيخ أبي عبد الله محمد ابن سعد وفقه الله ، ويسره لما يرضاه ، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعدُ فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه والإقذار،
 وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار؛ والصلاة على محمد نبيه
 الذي آبتعتت بمبعثه الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم
 بحجته الكفر والكفار؛ وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرين
 والأنصار؛ والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم؛ القائم بأمر الله حين غيرته
 الأغيار، وتقدم الامتعاظ له والانتصار. وهذا كتابنا - كتب الله لكم نظراً يريكم
 المنهج، ويُلقيكم الأبهج فالأبهج؛ وآتاكم الله من نعمة الإيمان، وعصمة الأئقياد له
 والإذعان، ما تجدون به اليقين والتلج - من حضرة مرآة كاش حرسها الله تعالى،
 ولا أستظهار إلا بقوته وحوله، ولا أستكثار إلا من إحسانه وطوله .

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمةً خلّقه، ومطيّة لقيه وقرارة لإقامة حقه؛
 وحمل حملته الدعاء إليه، والدلالة به عليه، والترغيب في عظيم ما عنده وتعيم مآلديه؛
 وجعل الإنذار والإعذار من فصوله المستوعبه، وأحكامه المرتبه؛ ومنجاته الخلصة
 من الخطوب المهلكة والأحوال المعطبه - رأينا أن نُحاطبكم بكتابنا هذا أخذاً
 بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء إلى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله،
 وإقامة الحجّة في تبليغ القول وتوصيله؛ فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعدوا،
 وتمسكوا بأمر المهدي - رضى الله عنه - في أتباع سبيله تهتدوا؛ وأصرفوا أعنة
 العناية إلى النظر في المآل، والتفكر في نواشئ التغيير والزوال، وتدبروا جرى هذه
 الأمور وتصرف هذه الأحوال؛ وأعلموا أنه لا عزّة إلا بإعزاز الله تعالى فهو
 ذو العزة والجلال، ولا يغرنكم بالله الغرور، فالذنيادار الغرور، وسوق المحال؛ وليس
 لكم في قبول النصيحة، وأبتداء التوبة الصحيحة؛ والعمل بثبوت الإيمان في هذه
 العاجلة القسيحة؛ إلا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الأمنة والدعة، والكرامة

المسعة والمكابة المرفعة، والتنعيم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتعه؛ فنحن لا نريد لكم ولسائر من نرجو إجابته، ونستدعي قبوله وإجابته، إلا الصلاح الأعم، والنجاح الأتم؛ وتأملوا - سدّدكم الله - من كان بتلك الجزيرة - حرسها الله - من أعيانها، وزعماء شأنها؛ هل تخلص منهم إلى ما يودّه، وفاز بما يدّخره ويعدّه، إلا من تمسك بهذه العروة الوثقى، وأستبق لنفسه من هذا الخير الأدوم الأبقى، وتنعّم بما لقي من هذا النعيم المقيم ويلقى . وأما من أخذ إلى الأرض وأتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى ما سواه؛ فقد علم بضرورتي المشاهدة والاستفاضة سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتثقل منه حادث الانتقام أخسر ما تثقل به؛ وحقّ عليكم - وفقكم الله ويسرّكم لما يرضاه - أن تحسّنوا الاختيار، وتصلّوا الأدكار والأخبار، وتبتدروا الابتدار؛ وما حقّ من أنقطع إلى هذا الأمر الموصول الواصل، وأزعم ما يناله من خيره المحوز الحاصل؛ أن يناله منكم شاعلاً يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرّفه عن محبوبه ومودوده؛ فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلّقهم بهذا الأمر السعيد ما كان، ثم كان منكم في عقب ذلك ما أعمدتموه في أمر أهل لورقة - وفقهم الله - حين ظهر اختصاصهم، وبان إخلاصهم؛ وليس لذلك وأمثاله عاقبة محمد، فالخير خير ما يقصد، والنجاة فيما يترجّح عن الشرو ويبتعد؛ وإنا نرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالى نظر موقّق، ومتاع محقّق، ويجذبكم إلى موالاته هذه الطائفة المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد؛ والله يئنّ عليكم بما يحببكم، ويمكّن لكم في طاعته أسباب تأمليكم وترجيحكم، بمنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب في السادس عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسة .

الأسلوب الثاني

(أن تُفتَحِ المكتابة بلفظ « أما بعد »)

والأمر فيه على نحو ما تقدّم في الأسلوب قبله بعد البعدية ، كما كتب أبوالميمون عن المستنصر بالله : أحد خلفائهم إلى بعض نوابه ، وقد نقض العهد على بعض المهادين من النصارى .

« أما بعد حمد الله الأمر بالوفاء بالعهود ، والصلاة على سيدنا محمد المصطفى الكريم سيّد الوجود ، وعلى آله وصحبه ليوث البأس وغيوث الجود ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهديّ المعلوم ؛ الآتي بالنعت الموجود ، في الزمن المحدود ، وعن خلفائه الواصلين بأمره إلى التّهائم والتجود ؛ والدعاء لسيدنا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بسعدٍ تذلل له النواصي ، ويهدد الأقطار القواصي ؛ فكتبناه - كتبكم الله ممن إذا هم بأمر تدبر عواقبه ، وإذا عزّم على ركوب غير ألفى معاطبه - من فلانة كلاًها الله تعالى . وقد بلغنا ما كان منكم من اكتساح النصارى ، والزيادة على ذلك باختطاف الأسارى ؛ ونعوذ بالله من شهوة تغلب عقلاً ، ونخوة تعقب هواناً ودلاً ؛ وقد أخطأتم في فعلتكم الشنعاء من ثلاثة أوجه : أحدها أنه خلاف ما أمر الله تعالى به من الوفاء بالعهد ، والوقوف مع العقد ؛ والثاني عصيان الأمر العزيز وفيه التغير بالمهج ، وترك السعة للحرج ؛ والثالث أنكم تثيرون على أنفسكم من شرّ عدوكم - قصمه الله - شرّاً يستعبر ، وضرراً يعدّم فيه المتصر ، فليتكم إذ تحلّيتم بالعصيان ، ورضيتم العذر المحرّم في سائر الأديان ؛ تبتم للعدو إذا دهمكم ، ولقيتموه بالجانب القويّ متى زحمكم ؛ بل تندرعون له الفرار ، وتركونه في خلفكم وما آختر ؛ وقد جرّبتكم مرات أنكم لا ترزؤونهم ذرّه ، إلا رزءوكم ألف بدره ؛ ولا تُصيبونهم مرّه ، إلا أصابوكم ألف مرّه ؛ وإلى متى

تَهْوُونَ فَلَا تَتَّهَوُونَ ؟ وَحَتَّامٌ تُتَّهَوُونَ فَلَا تَتَّهَوُونَ ؟ فَذَا وَإِذَا كَمَا كَتَبْنَا هَذَا بِجَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ
فَأَدُّوا مَنْ أَسْرَمْتُمْ إِلَى مَأْمَنِهِ ، وَرُدُّوا مَا آتَيْتُمْ إِلَى مَسْرَحِهِ ؛ وَلَا تُنْسِكُوا مِنَ الْأَسَارَى
بَشْعَرِهِ ، وَلَا مِنَ الْمَاشِيَةِ بَوَبِّهِ ؛ وَمَنْ سَمِعْنَا عَنْهُ - بَعْدَ وَصُولِ هَذَا الْكِتَابِ - أَنَّهُ تَعَدَّى
هَذَا الرَّسْمَ ، وَخَالَفَ هَذَا الْحُكْمَ ؛ أَنْفَعْنَا عَلَيْهِ الْوَاجِبَ ، وَحَكَمْنَا فِيهِ الْمَهَنْدَ الْقَاضِبَ ؛
فَلْتُسْرِعْ مِنْ نَوْمَةِ الْغَفْلَةِ لِإِفْاقَتِكُمْ ، وَلَا تُتَعَرَّضُوا مِنَ الشَّرِّ لِمَا تَعَجَّرُ عَنْهُ طَاقَتُكُمْ ؛ وَنَحْنُ
مَتَعَرِّفُونَ مَا يَكُونُ مِنْكُمْ مِنْ تَأَنٍّ أَوْ بِدَارٍ ، وَمُقَابِلُونَ لَكُمْ بِمَا يُصْدِرُ عَنْكُمْ مِنْ إِقْرَارٍ
وَإِنْكَارٍ ؛ وَهُوَ يُرْسِدُكُمْ بِمَنِّهِ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ .

قلت : ثم طرأ بعد ذلك الإيثار من ألقاب خلفائهم في المكاتبات الصادرة عنهم ،
والمبالغة في مدحهم ، وإطرائهم على ما سيأتي ذكره في الكلام على المكاتبات الواردة
من ملوك الأقطار إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

الطَّرْفُ الثَّامِنُ

(فِي الْأَجْوِبَةِ ، وَهِيَ عَلَى ضَرْبَيْنِ)

الضَرْبُ الْأَوَّلُ

(مَا يُضَاهِي الْأَجْوِبَةَ فِي الْإِبْتِدَاءِ ، وَهُوَ عَلَى أَسْلُوبَيْنِ)

الْأَسْلُوبُ الْأَوَّلُ

(أَنْ يُفْتَحَ الْجَوَابُ بِلَفْظِ « مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ »)

مثل أن يكتب « من عبد الله ووليه أبي فلان فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين »
إلى آخر الصدر على ما تقدم في الإبتدآت ؛ ثم يقال : أما بعدُ ، وينساق منه إلى
ذكر الكتاب الوارد وعرضه على الخليفة ، وما اقتضته آراء الخلافة فيه ، ويكمل

على نحو الابتداء . كما كتب عن المقتفى لأمر الله ، إلى غياث الدين مسعود بن ملكشاه السلجوقي في جواب كتابه الوارد عليه ، يخبره بأن بعض من كان خرج عن طاعته دخل فيها ، وأنحاز إليه ، وهو :

”من عبد الله أبي عبدالله محمد الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنين ، إلى فلان بالقابه .

أما بعد - أطال الله بقاءك - فإن كتابك عُرض بحضرة أمير المؤمنين مُعرباً عن أخبار سعادتك ، وجرى الأمور على إرادتك ؛ وبلوغ الأغراض من الوجهة التي توجهت إليها ، والأطراف التي أشرفت سعادتك عليها ؛ بيمين ما يتق به من الطاعة الإمامية وتضميره ، وتعتقه من الإخلاص وتستنشعره ؛ وأن ركن الدين محمداً ومن أنضم إلى جملته وأنظم في سلك موافقته لما ظفروا منك يديماً أطمأنوا إليه وسكنوا ، وأمان وثقوا به وركنوا ، أبصروا الرشد فاتبعوه ، وأستجابوا الداعي إذ سمعوه ؛ وأذعنوا لطاعتك مسرعين ، وأنقادوا إلى متابعتك مهطعين ؛ على استقرار مسيرهم تحت لوائك إلى باب همدان ليكون تقرير القواعد الجامعة للصالح عند وصولها ، والتوفر على تحزى ما تقر به الخواطر مع حلوها ؛ والانفصال إلى من يفد إلى الأبواب العزيرة مؤنسا بقرب الدار ، ومستسعداً بالخدمة الشريفة الإمامية المؤذنة ببلوغ الأوطار . ووقف عليه وعرف مضمونه ؛ وجدد ذلك لديه من الأبتهاج ، والأغبتاب الواضح المنهاج ، ما تقتضيه ثقته بجانبك وأعتقاده ، وتحويله على جميل معتقدك وأعتاده ؛ وأعضاده من طاعتك بجميل لا تنقض الأيام مبرمه ، وسكونه من ولاتك إلى وزر لا ترزع المخاوف حرمه ؛ وواصل شكر الله تعالى على ما شهدت به هذه النعمة العميمة ، والموهبة الجسيمة ، من إجابة الأذعية التي مازالت جنودها نحوك مجهزة ، ووعوده - جلت عظمتة - بقبول أمثالها منجزه ؛ وإمدادك منها بأمداد تستدعي

لك النصر وتستنزه ، وتستكمل الحظ من كل خير وتستجزله ؛ وتبلغ الأمل منك
 فيمن هو العدة للبلات ، والحامى لتقرير الأوس من روائع الشتات ، ومن ببقائه تكف
 عن الامتداد أكف الخطوب ، وتطلق وجوه المسار من عقل القطوب ؛ ويأبى الله
 العادل في حكمه وحكمته ، الرؤوف بعباده وخليقته ؛ إلا إعلاء كلمة الحق بالهمم
 الإمامية ، والإجراء على عوائد صنيعة الحفيه ، الكافلة بصلاح العباد والرعية ؛
 وقد أقيمت أسواق التهته بهذه البشري ، وأفادت جدلاً نتاج وفوده تترى ؛ لاسيما
 مع الإشارة إلى قرب الأوبة التي تُدنى كل صلاح وتجلبه ، وتزيل كل خلل تعب
 القلوب وتُدبهه . وإلى البارى جل اسمه الرغبة في اختصاصك من عنايته بأحسن
 ما عهدته وأجمله ، وصلة آخر وقتك في نوح المساعي بأوله ؛ وأن لا يُحلي الدار
 العزيرة من إخلاصك في ولآئها ، ورغبتك في تحصيل مرضيها وشريف آرائها .

هذه مناجاة أمير المؤمنين - أدام الله تأييدك - آتبعي الله جزاءك فيها على عادة
 تكريمته ، وأعرب بها عن اعتقاده فيك وطويته ؛ ومكانك الأثيل في شريف
 حضرته ، وآبتهاجه بنعمة الله عندك وخيرته ؛ فتأملها تأملاً يشاكل طاعتك الصافية
 من الشوائب والأقذاء ، وتلقها بصدق الاعتماد عليها وحسن الإصغاء ؛ تفز بالإصابة
 قدأحك ، ويُقرن بالتوفيق مَعْدَاك ومرأحك ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك
 ورحمة الله وبركاته “ .



وكما كتب بعض كتاب الفاطميين عن الحافظ لدين الله : أحد خلفائهم إلى شمس
 الدولة أبي منصور محمد بن ظهير الدين بن نوري بن طُغتكين ببعلبك جواباً عن
 كتابه الوارد عنه على الخليفة ، ويذكر أنه حسن لفخر الملك رواج وروده على الخليفة
 بالديار المصرية ، ويذكر نصرته على الفرج بطرابلس ، وقتله القومص ملكها .

«من عبدالله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين،
إلى الأمير فلان .

أما بعد، فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك من يدفناه ووزيره ، وصفيه
وظهيره؛ السيد الأجل الأفضل؛ الذي بدل نفسه في نصره الدين تقي وليانا، وأوضح
الله للدولة الحافظية بوزارته حجة وبرهانا ، وأسبغ النعمة على أهلها بأن جعله فيهم
ناظرا ولهم سلطانا؛ ووقفه في حسن التدبير، والعمل بما يقضى بمصالح الصغير والكبير؛
وبما أعاد المملكة إلى أفضل ما كانت عليه من النصرة والهجة، ولم يخرج المادحون
لها إذا اختلفوا عن التحقيق وصدق اللهجة ؛ فقد ساوت سياسته بين البعيد
والقريب ، وأخذ كل منهما بأجرل حظ وأوفر نصيب ؛ وسارت سيرته الفاضلة
في الآفاق مسير المثل ، وأستوجب من خالقه أجر من جمع في طاعته بين القول
والعمل . وشقق عرضه من وصفك وشكرك ، والثناء عليك وإطابة ذكرك ؛ وأنهى
ما أنت عليه من الولاء ، وشكر الآلاء ؛ بما يضاهاى ما ذكرته فيه مما علم عند تلاوته ،
وأصغى إليه عند قراءته . وقد أستقر بحضرة أمير المؤمنين مكانك من المشايخه ،
وموقعك من المخالصة ؛ وكونك من ولاء الدولة على قضية كسبتك^(١) شرفا تفيأت
ظلاله ، وأفاضت عليك ملبسا جررت أذياله ؛ وسمت بك إلى محل لا يباهى من
بلغه ولا يطاول من ناله ؛ وكنت في ذلك سالكا للمنهج القويم، ومعتمدا ما أهل
بيتك عليه في القديم ؛ لا جرم أنه عاد عليك من حسن رأى أمير المؤمنين بما تقصّر
عنه كل أمنيه ، ويشهد لك بخالصة جمعت فيها بين عمل ونية ؛ والله يضاعف

(١) في المصباح في مادة كسب "ويتعدى بنفسه إلى مفعول ثان فيقال كسبت زيدا مالا وعلمها أى الله .
قال ثعلب وكلهم يقول كسبك فلان خيرا إلا ابن الأعرابي فإنه يقول أكسبك بالأنف ."

أجرك على أعتصامك من طاعة أمير المؤمنين، بالحبلى المتين، ويوزعك شكر ما منحك من الإستضاءة بنور الحق المبين .

فأما الأمير الأسفهلار نخر الملك رواج وبعثك له على الوصول إلى الباب، وحضك إياه على التعلق من الخدمة بمحصد الأسباب؛ فما كان الإذن له في ذلك إلا لأن كتابه وصل بلمتمسه، وعرض فيه نفسه وبذل المناصحة والخدمة، ويسأل سؤال من يعرف قدر العارفة بالإجابة إليه وموقع النعمة؛ فأجيب إلى ذلك إسعافاً له بمراده، وعملاً برأى الدولة فيمن يرغب إلى التحيز إليها من أقطاره وبلادها؛ وإلا فلا حاجة لها إليه ولا إلى غيره، لأن الله تعالى - وله الحمد - وفر حظها من الأولياء والأشياء، والأنصار والأتباع؛ والعساكر والجيوش والأجناد والأنجاد، والأعوان الأقياء الشداد؛ وعبيد الطاعة الذين يتبارون في النصح ويتنافسون في الاجتهاد والحرص، وسعة الأموال، وعمارة الأعمال، وجمع الرجال في العزائم بين الأفعال والأقوال؛ ولو وصل المذكور لكانت المننة للدولة عليه، والحاجة له في ذلك لا إليه، قال الله عز من قائل: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ .

وأما توجهه إلى طرابلس وظفره بقومصها وقتله إياه مع من بها، وعظيم أمره فيها؛ فإله تعالى يعز الإسلام وينشر لواءه، ويعلي مناره ويخذل أعداءه؛ وينصر عساكره وأجناده، ويبلغه في أحزاب الكفر والضلال مراده؛ وهو عز وجل يمتك من الولاء بما منحك، ويبيئك في دينك ودنياك أملك ومقترحك؛ فأعلم هذا وأعمل به، إن شاء الله تعالى» .

الأسلوب الثاني

(أن يُفْتَحَ الجواب بلفظ «أما بعد»)

كما كُتِبَ عن المقتنى إلى السلطان محمود بن محمد السَّلْجُوقِيّ جواباً عن كتابه الوارد بإخباره باجتماعه مع عمه سنجر؛ ونسخته :

أما بعدُ فإنَّ كتابك عرِّضَ بحضرة أمير المؤمنين ناطقاً بدرك الأوطار ، وحصول المقاصد على الآثار ، وما أنهيته من الاجتماع بعز الدنيا والدِّين جمع الله في طاعته تملكاً! ووصل بالألفة والتوَادُد حَبْلِكَا! ومن إكرام الوفاة الذي أنت أهله ووليّه ، وحقيق أن يتبع وسميّه لَدَيْكَ وِليّه ، والمواقفة على كل حال آذنت ببلوغ الأعراض وتيسرها ، ونجاز المساعي على أتم وفاق وتقرُّرها ؛ وانتظام الأمور على أجمل معتاد وأكمل مُراد ، وأحسن آتساق وأطراد ؛ وأستقرار القواعد على الوصف الجامع أشتات الأتفاق ، الدالّ على صدق المحافظة بينكما وفرط الإشفاق ؛ محفوفاً بالسعادة التي لا تزال ما تُرك في الطاعة الإمامية تملك قيادها ، وتُقلِّدك على الاتصال نجادها ، فتهللت بهذا النبأ المبهج أسرة البشرى ، وأصبح الحدُّلُ بمكانه أفعم عرفاً وأذكى نَشراً ، وقامت لأجله في عرّاص الدار العزيرة مواسم ، أضحيت المسرة بها مُقترّة الثغور ضاحكة المباسم ؛ وجدير بمن كان له من الهيم الشريفة مدد واف ، ومنجد يدفع في صدر كلّ خطب مؤاف ؛ أن تكتنّفه الميامن والسعود ، ويصدق في كل مرعى يُنحوه من النجح الموعود ؛ وتتقادله المصاعب دُلاً ، ويعود بين نقيبته كل عافٍ من الصلاح جديداً مُقبلاً ؛ ولا ينفك صنع الله جلّ اسمه لطيفاً ، ويربّاعه

(١) الولي على فعيل المطر بعد المطرودة يخفف عن كراع أنظر اللسان ج ٢٠ مادة ول ي .

(٢) لعله ويصادف ... النجح .

مُحَدِّقًا مُطِيفًا ، وَالتَّوْفِيقُ مُصَاحِبُهُ أَتَى حَلَّ وَثَوَى ، أَوْ سَخَى عِنَانَهُ إِلَى وَجْهِهِ وَلَوْى ؛
 وَاللَّهِ يَمْتَعُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْكَ بِالْعَضُدِ الَّذِي يُدْبُّ عَنْ دَوْلَتِهِ وَيَحَامِي ، وَيُنَاضِلُ دُونَهَا
 بِجُنُودِ الْإِخْلَاصِ وَيُرَامِي ؛ وَلَا يُجْهِلِكَ مِنْ رِعَايَتِهِ الَّتِي لَا يَزَالُ يَسْتَقِرُّ فِيهَا إِلَيْكَ ،
 وَيَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي إِسْبَاحِ لِبَاسِهَا عَلَيْكَ ، حَتَّى تُنَسِّئَ لَكَ الْمَطَالِبَ مَعًا ، وَيَعُدُّو الزَّمَانَ
 فِيهَا يَنْشَأُ مَتَّبِعًا .

هذه مفاوضة أمير المؤمنين إليك ، أدام الله تأييدك ، أجراك فيها على مألوف
 العادة ، وجدد لك بها بُرُودَ الفَخَّارِ والسَّعَادَةِ ؛ فَاجْرِعْ عَلَيَّ وَتَبَرِّكْ فِي إِتْحَافِ حَضْرَتِهِ
 بِطَبِيبِ أَخْبَارِكَ ، وَجَارِي الْأُمُورِ فِي إِيْرَادِكَ وَإِصْدَارِكَ ؛ تُهْدِ إِلَيْهَا آتِبَهَا جَا وَافِرًا ،
 وَأَبْتَسَامَا يَظَلُّ لثَامَهُ عَنْ حَمْدِ اللَّهِ الْمُسْنَدِ بِهَا سَافِرًا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثاني

(أَنْ يَكُونَ الْإِفْتِتَاحُ فِي الْجَوَابِ مُصَدَّرًا بِمَا فِيهِ مَعْنَى وَصُولِ الْمَكْتَابَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ)
 فَقَدْ جَرَتْ عَادَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنَ الْكُتَّابِ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ ذَلِكَ بِلَفْظِ « الْعَرَضُ عَلَيَّ
 الْخَلِيفَةُ » وَيُؤْتَى فِيهِ عَلَيٌّ مَا تَضَمَّنَهُ الْكُتَابُ الْمَجَابُ عَنْهُ ، ثُمَّ يُحْتَمُّ كَمَا تُحْتَمُّ الْإِبْتِدَائَاتُ .
 كَمَا كَتَبَ الْعَلَاءُ بْنُ مُوَصَّلَايَا عَنِ الْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ إِلَى « أَنْسَزْ » عِنْدَ وُرُودِ كِتَابِهِ
 عَلَى أَبْوَابِ الْخِلَافَةِ يَتَضَمَّنُ أَنْتِظَامَهُ فِي سِلْكِ الطَّاعَةِ وَغَلْبَتِهِ الْأَعْدَاءِ ، وَهُوَ :

عُرِّضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا وَرَدَ مِنْكَ دَالًّا عَلَيَّ تَمَسُّكَكَ مِنَ الطَّاعَةِ الْإِمَامِيَّةِ
 بِمَا لَا تَزَالُ تُجِدُّ فِيهِ مَلَائِسَ التَّوْفِيقِ حَالًا بَعْدَ حَالٍ ، وَتَجِدُّ بِهِ مَرَارًا السَّعْدَ مُخَصِّفَةً
 فِي كُلِّ حَلٍّ وَتَرَحَالٍ ؛ مُنْبِئًا عَنِ تَوْفُوقِكَ عَلَيَّ الْمَقَامَاتِ الَّتِي أَنْتَقَمْتَ بِهَا لِلهُدَى مِنَ
 الضَّلَالِ ، وَأَسْتَقَمْتَ فِيهَا حَتَّى أَجَلَّتْ عَنْ كُلِّ صِلَاحٍ مِمَّتِّ الظَّلَالِ ؛ شَاهِدًا بِمَا أَنْتَ

عليه من موالاة لا تألو جهداً في التزام شروطها بادئاً عائداً ، ولا تخلو فيها من حُسن
أثرٍ يكونُ لدعائم الصواب عامداً ، وتُرى فيه قاصداً لاجتلابِ الخير عائداً . ووقف
عليه وقوف من ارتضى ما يتوالى من قُربانك التي لا تزال في إعذابٍ ورؤدها ساعياً .
ولما يُفِضِي إلى إعشابٍ مرعاها في طلبِ الحمد مُراعياً ؛ وأنتضى منك للخدمة بتلك
الأعمال حُساماً باترا آجالَ بقايا الكُفْر هناك ، ماضياً في كل ما يُفِضِي بأنفساحِ مجالِ
آمالك في الدهر ومبارك ؛ وأعتد لك بما أناه عنك رسولُ أمير المؤمنين العائد من
قبلك ، وأوضحه من زُلفك التي شَفَع قولك فيها عملك ؛ وطالع به الرسولُ الذي نَفَذته
معه لقصدِ بابه ، والمُنابُ في تأكيدِ دواعي التُّجَح وتمهيد أسبابه ؛ وحلَّ كلُّ ذلك
لديه المحلَّ الذي ستجني ثمره كلما يَطِيبُ ويحلُّو ، ويسلمُ من كل الاستراة ويخلو ،
ويعزُّ مهرُ الفوز به على غيرك ويغلو ؛ وتأنل لك من الرتبة بحضرته ما يُدني لك كلَّ
مطلب إلى مُرادك آتِل ، ويدوي قلبَ كلِّ منحرفٍ عن وفائك مائل ؛ وصرتَ
من أعيان الخُلصاء الذين سَمَّت الهدى أفعالهم بالحمد ، وسَمَّت بالطاعة آمالهم
إلى توقُّلِ هَضابِ المجد ؛ فما تهمُّ بك الغيرُ إلا وتتقطع دُونك أعناقها ، وترجع في جِلبابِ
الحيَّة وحيضها إليك وإعناقها ؛ ولا تمتد نحوك يدٌ ضدَّ إلا ردها عنك جميل الآراء
الشريفة فيك وغلها ، وأوجبَ نهلها عن موارد القصور وعلها ؛ وكيف لا يكون ذلك
ولك في الطاعة كلُّ موقفٍ آغتندي بلبانِ الحمد ، وأعنى باشتهاره بلوغُ المدى
في وصفه والحدِّ ؛ فأحسنَ اللهُ توفيقك فيما أنت بإزائه من إجمادٍ لهبِ الباطل بتلك
الشعاب ، وإجهادِ النفس في إجمالِ المتاعب وإذلالِ الصعاب ؛ وأمدك بالعون
على ما بدأت له من جب فيما يليك ، وطبَّ أدواء القَساد في نواحيك . ومع

(١) كذا في الأصول ولعله من خلال الاستراة وفي المختار والقاموس "استراة استقره".

(٢) بياض في الاصول بهذا المقدار ولعله من جب اصول العناد الخ .

مأفوتَ به من هذه المنحة التي قد جاز قدرها التقدير والظن ، وجاد لك الدهر فيها بما كان نَحَّ به على أمثالك وضح ؛ فيجب أن تستدِيمها ، وتُحصن من النغل أديمها ، بمزيد من الخدمة تتهن الفرص بالإسراع إليه والبدار ، وتتهج أقوم الجدد في مقابلة الإيراد منه بالإصدار ، وتُنفد وتُسَمِّعك في كل مسعى يئني إليك عنانُ الشئاء معه ، وتُفق عُرْك في كل أمرٍ يجمع لك مرأى الرضا عنك ومسمعَه ؛ لتجد من جدوى ذلك ما ينظّم في السعادة شَمَلَك ، ويضحى به القيادُ فيما يصدق أملك أملك ؛ وأن تُحمد السيرة في الرعايا الذين غدوا تحت كنفك ، وتجعل الاشتمال على مصالحهم مُعرباً عن فضل شغفك بالخير وكلفك ؛ فإنهم ودائع الله تعالى يلزم أن تُحْمَى من ضياع يتسلط عليها في حال ، وتُحْمَى من در الإحسان برضايع لا يخطر الفطام عنه ببال ؛ فلا تقف عند غاية في إفاضة الفضل عليهم وإسباغ ظله ، وأعتادهم بتخفيف ثقل الحيف عنهم أو إزالة كُله ؛ ليكونوا في أفياء الأمن راتعين ، ولحرق كل ملمٍّ بحسن ملاحظتك راقعين ؛ فالذي يراه أمير المؤمنين في فرضك حتى يزداد بأعك طولا ، ولا يترك لك على الزمان اقتراحا ولا سولا ؛ يقتضى أن يتبع كل سابقٍ إليك من الإحسان بلا حق ، ويمرغ جناب النعمى لديك عند ذر كل شارق . وكذلك يرى أن يجدد لك من تشريفه المنور مطالع الفجر ، المنوه بالذكر في الدهر ؛ الذي لا تزال الهيمُ العالية تصبو إلى الفوز به وتميل ، وتقف عند حد الرجاء والتأمل ، ما أصحب رسولك المشار إليه لتدريج من خلاله ما الشرف الأكبر في مطاويه ، وتمتطي من صهوة العزف فيه ما يبعد على النظراء إدراك مرآيه . ويجب أن تتلقى مقدم ذلك عليك بما يُنبئ عن اقتران النعمة الغراء فيه ، واقار أهلة التوفيق عندك بما تقصد في المعنى وتنتجيه ؛ وإذا عاد رسولك إلى باب أمير المؤمنين حسب ما ذكرت ، أصدر على يده من ضروب التشريفات ما يُقَرِّ

فيك عيون من يودك ، ويقتر في مغانيك كل سعد يورى فيه زندك ، فاسكن إلى
 حباتك بالمزيد من كل رتبة أهلت لها ، وكن بحيث الظن فيك توفّر عليك أقسام
 الحمد كلها ، وثيق بمترادف آلاء ينضمّ لديك شملها ، ويثقل كل كاهل حملها ؛
 إن شاء الله تعالى .

الطرف التاسع

(في الكتب الصادرة عن ولاية العهد بالخلافة)

لم أقف على مكتبة صريحة التصوير عن ولاة العهد ، غير أن الإمام أبا جعفر
 النحاس في " صناعة الكتاب " بعد أن ذكر أن صورة المكتبة عن الخليفة : « من
 عبد الله أبي فلان فلان الإمام الفلاني إلى فلان » أتبع ذلك بأن قال : وليس أحد
 من الرؤساء يكتب عنه بالتصدير إلا الإمام وولى العهد ، ولم يزد على ذلك . وقد فسّر
 ابن حاجب النعمان في " ذخيرة الكتاب " التصدير بأن قال : يكتب « من عبد الله
 أبي فلان فلان » باسمه وكنيته ونعته . ويقال : أمير المؤمنين أبي فلان .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو إلى آخره ، على
 ما تقدّم بيانه .

وذكر النحاس في الكلام على العنوان من الرئيس إلى المرءوس أنه يُحذف
 من الكتاب عن ولى العهد لفظ الإمام ، ولفظ أمير المؤمنين ، ويقال فيه : ولى
 العهد . وظاهر ذلك أن المكتبة عن ولى العهد مشابهة للمكتبة عن الخليفة ،
 وأن لفظ ولى العهد في المكتبة عنه يقوم مقام أمير المؤمنين في المكتبة عن الخليفة
 نفسه ، وحينئذ فيتجه أن تكون المكتبة عنه « من عبد الله أبي فلان فلان المعتضد بالله
 مثلا ولى عهد المسلمين : سلام عليك فإنى أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو

وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : فإن كذا وكذا .
ويؤتى على المقصد إلى آخره . وعلى ذلك يدل كلام صاحب " ذخيرة الكتاب " .
فإنه قال بعد ذكر المكتبة عن الخليفة : وكذلك المكتبة عن ولي العهد . على أن
المكتبة عن ولي العهد قد بطلت في زماننا جملة .

الطرف العاشر

(من المكتبات عن الخلفاء المكتبات إلى أهل الكفر)

وكان الرِّسْمُ فيها أن يُكْتَبَ « من فلان إلى فلان » . ويقع التخلُّصُ فيها
إلى المقصود بـ «أما بعد» . ويختم الكتاب بلفظ «والسلام على من أتبع الهدى» .
فقد حكى أبو هلال العسكري في كتابه " الأوائل " أنه كان على الروم ملكة ،
وكانت تُلاطف الرشيد ولها ابنٌ صغير ، فلما نشأ فوضت الأمر إليه فعات
وأفسد ، فخافت أمه على ملك الروم فقَتَلَتْه ؛ فخرج عليها تففورُ ملك الروم فقتلها
وأستولى على ملكها وكتب إلى الرشيد :

«أما بعد فإن هذه المرأة وضعتك موضع الشاه ، ووضعت نفسها موضع الرِّخِّ ،
وينبغي أن تعلم أني أنا الشاه وأنت الرِّخُّ . فأدِّ إلى ما كانت المرأة تُؤدِّي إليك » .
فلما قرأ الكتاب ، قال لكتَّابه أجيئوا عنده ، فكتَّبوا ما لم يرتضه ؛ فكتب هو إليه :

«من عبد الله هارون أمير المؤمنين ، إلى تففور كلب الروم . أما بعد فقد فهيمتُ
كتابك ، والجواب ما تراه لا ما تسمعه ، والسلام على من أتبع الهدى» .

ويقال : إنه كتب « الجواب ما تراه لا ما تسمعه ، وسيعلم الكافر لمن عقيب

الدار . ولا يخفى ما في ذلك من البلاغة مع الإيجاز .

وكتب عن الحافظ لدين الله : أحد خلفاء الفاطميين بمصر إلى صاحب صِقلية^(١) وما معها من ملوك الفرنج :

« من عبدالله ووليه عبدالمجيد أبي الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ، إلى الملك بجزيرة صِقلية ، وأنكورية وأنطالية وقلورية وسترلو وملف وما أنضاف إلى ذلك ، وفقه الله في مقاصده ! وأرشده إلى العمل بطاعته في مصادره وموارده ؛ سلاماً على من أتبع الهدى ، وأمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو ويسأله أن يصلّي على جدّه مجدّ خاتم النبيّين ، وسيد المرسلين ؛ صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ؛ الأئمة المهديّين ؛ وسلّم تسليماً .

أما بعد : فإنه عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الواصل من جهتك ، ففُضّ ختامه وأجّلي ، وقُرئ مضمونه وتلى ؛ ووقعت الإصاخة إلى فصوله ، وحصلت الإحاطة بجمّله وتفصيله ؛ والإجابة تأتي على أجمعه ، ولا تُخلّ بشيء من مستودعه ؛ أما ما اقتنحتّه به من حمد الله تعالى على نعمه ، وتوسيعك القول فيما أولاك من إحسانه وكرمه ؛ فإنّ مواهب الله تعالى ومنّته التي جعل تواليها اختبار شكر العبد وأمتحانه على أنه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور عليم ، وهو القائل فيمن أنى عليهم : ﴿ أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾ لا يزال مضاعفها ومُرادفها ، ومُتبعها سالفها أنفها ؛ وهو يوليها كلّاً من عبيده بقدر منزلته عنده ، ويخصّ أصفياءه بأوفى مما تمنّاه الآمل المبالغ وودّه ؛ والله تبارك وتعالى يمنح أمير المؤمنين ، وآباء الأئمة الراشدين ؛ ما غدت مستقدمات الحمد والشكر عند لوازمه مستأجره ، إذ كان أفردهم دون الخليفة بأن أعطاهم الدنيا ثم أعطاهم معها

(١) في التعبير تساهل والغرض معلوم .

الآخره ؛ وأختصهم من حباته بما لا يُحصيه عدد، وخوّلهم من آلائه بما لا يقوم بشكره أحد .

وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجزيرة لما شرحته من عدوان أهلها، وعدوهم عن طرق الخيرات وسبلها ؛ وأجترأهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها ؛ وأستعالم الظلم تمردا، وتماديهم في النجى تباهاً في الباطل وغلوا، يأساً من الجزاء لما أستبطئوه ، فإن من كانت هذه حاله حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية ، وخليق أن يأخذه الله من مأمنيه أخذة راييه ؛ كما أنه من كان من أهل السلامه ، وسالكا سبيل الاستقامة ؛ ومقبلا على صلاح شانه ، وغير متعد للواجب في سره وإعلانه ؛ تعين أن نوفر من الرعاية سهمه ، ونُجزل من العناية نصيبه وقسمه ؛ ويومن مما يلقفه ويُرجمه ، ويقصد بما يسره ويُبهرجه ؛ ويصان عن أن يناله مكروه ، ويحجى من أدنى يلُم به ويعروه .

وأما شكرك لوزيرك الأمير تأييد الدولة وعضدها عز الملك وفخره نظام الرياسة، أميرالأمرء، فإن من تهدب بتهديبك، وتخلق بأخلاقك وتادب بتأديبك ؛ لا ينكر منه إصابته المرأى ، ولا يستغرب عنده منجح المساعى ؛ وواجب عليه أن لا يجعل قلبه إلا منوياً للنصائح ، وأن لا يزال عمره بين غادٍ في المخالصة ورائح .

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيه ذا كرا ما أعتمده مقدم أسطوك من صونه وحمايته ، وحفظه ورعايته ؛ وإعادة ما كان أخذ منه قبل المعرفة بأنه جارٍ في الديوان الخاص الحافظى ، ففعل يجمل عنك صدره ، ويليق بك أن ينسب إليك ذكره وخبره ؛ ويدل على علم أصحابك برأيك وإحكام معاقدة المودة ، ويعرب عن إيثارك إبرازها كلنا تقادم عهدنا في ملابس بهجة مستجدته ؛ وهذا الفعل من

خلائقك الرضية غير مستبدع ، وقد ذخرت منه عند أمير المؤمنين ما حصل في أعز مقرر وأكرم مستودع ، لاجرم أن أوامره خرجت إلى مقدمي أساطيله المظفرة بما يُخينك ثمرة ما غرسته ، ويعلّي منار ثنائك الذي قورته على أقوى أصل وأسسته ؛ وقد نقدت مراسيمه بإجرائك على غلاتك المستمرة في المساحة بما وجب للديوان عما وصل برسمك على مراسيمك ، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرك ، والرسولين الواردين عن حق الورود إلى نعر الإسكندرية حماه الله تعالى ، ثم إلى مصر حرسها الله وحق الصدور عنهما ، وكل ما يصل من جهتك فعلى هذه القضية .

وأما شكرك على الأسرى الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابة لرغبتك ، ورسم بتسييرهم إليك محافظة على مرادك وبغيتك ؛ فأوزعنا شعارهم أنهم عتقاء شفاعتك ، وأرقاء ممتك ؛ فذلك من الدلائل على ما ينطوي عليه من جميل الرأي وكريم النية ، ومن الشواهد بأنه يُوجب لك ما لا يُوجب لأحد من ملوك النصرانية .

وأما سؤالك الآن في إطلاق من تجدد أسره ، وإنهاؤك أن ذلك مما يهّمك أمره ؛ فقد شفّعك أمير المؤمنين بالإجابة إليه على ما ألفت من كريم شيمته ، وسير إليك مع رسولك من تضمن الثبت ذكر عذته ، وقد علمت ما كان من أمر بهرام ووصوله إلى الدولة الفاطمية خلد الله ملكها شريداً طريداً ؛ قد نبّته به أوطانه ، وقدنفته دياره ؛ لا مال له ولا حال ، ولا عشيرة ولا رجال ؛ فقبلته أحسن قبول ، وبلغت به في الإحسان ما يزيد على السؤل ؛ وعمرته من الإنعام ما يقصّر عن اقتراحه كل أمل ، وجعلته فواضلها يقبّل الطرف بين الخيل والحوّل ؛ وكانت أموره كلّ يوم في نمو وزيادة ، وأحواله تُوفي على البغية والإرادة ، إلى أن جرت نوبة اقتضى التدبير في وقتها أن عُدقت به الوزارة ، ونيطت به السفاره ؛ فوسوس له خاطر ما زخره

البَطْر وَزَيْنَهُ ، وَصُورَهُ الشَّيْطَانُ وَحَسَنَهُ ؛ وَأَظْهَرَ مَاظْهَرَتْ أَمَارَاتُهُ ، وَوَضَحَتْ أُدْلَتُهُ
وَعَلَامَاتُهُ ؛ فَاسْتَدْعَى قَبِيلَهُ وَأُسْرَتَهُ ، وَجِنْسَهُ وَعَشِيرَتَهُ ؛ بِمَكَاتِبَاتٍ مِنْهُ سِرِّيَّةً ،
وَخَطُوطٍ عَثْرَ عَلَيْهَا بِالْأَرْمِينِيَّةِ ؛ فَكَانُوا يَصِلُونَ أَوَّلَ أَوَّلٍ ، إِلَى أَنْ أَجْتَمَعَ مِنْهُمْ عَشْرُونَ
أَلْفَ رَجُلٍ مِنْ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ ، وَمِنْ جَمَلَتِهِمْ أَبْنَا أَخِيهِ وَغَيْرَهُمَا مِنْ أَهْلِهِ ، فَدَلُّوهُ
بِالْغُرُورِ ، وَحَمَلُوهُ عَلَى مَا قَضَى بِالْأَسْتِيحَاشِ مِنْهُ وَالنُّفُورِ ؛ وَقَوَّوْا عِزَمَهُ فِيمَا يُؤَدِّي
إِلَى أَضْطِرَابِ الْأَحْوَالِ وَأَخْتِلَالِ الْأُمُورِ ، فَامْتَعَضَ الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةُ مِمَّا أَسَاءَ بِهِ
سِيَاسَتَهُمْ ، وَأَبَوُا الصَّبْرَ عَلَى مَا غَيَّرَ بِهِ رَسْمَهُمْ وَعَادَتَهُمْ ؛ فَلَمَّا رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ
أَسْتَعْظَمَ الْحَالَ فِيهِ ، وَتَيَقَّنَ أَنَّ التَّغَافُلَ عَنْهُ يَقْضِي بِمَا يُعْسِرُ اسْتِدْرَاكَهُ وَتَلَافِيهِ ؛
فَكَاتَبَ وَلِيَّهُ وَصَفِيَّهُ الَّذِي رُبِّيَ فِي حَجْرِ الْخِلَافَةِ ، وَسَمَّا بِهِ أَسْتَحْقَاقَهُ إِلَى أَعْلَى دَرَجِ
الْإِنَافَةِ ؛ وَحَصَلَتْ لَهُ الرِّيَاسَةُ بِاِكْتِسَابِهِ وَأَنْتَسَابِهِ ، وَغَذَا النَّظْرُ فِي أُمُورِ الْمَمْلُوكَةِ
لَا يَصْلُحُ لغيرِهِ وَلَا يَلِيْقُ إِلَّا بِهِ ؛ السَّيِّدُ الْأَجَلُّ الْأَفْضَلُ ، وَهُوَ يَوْمِئِذٍ وَالِي الْأَعْمَالِ
الْغَرِيبَةِ ، وَصَدَرَتْ كُتُبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تُشْعِرُهُ بِهَذَا الْأَمْرِ الصَّعْبِ ، وَتَسْتَكْشِفُ بِهِ
مَا عَرَا الدَّوْلَةَ مِنْ هَذَا الْخَطْبِ ؛ فَأَجَابَ دُعَاءَهُ ، وَلَبَّى نِدَاءَهُ ؛ وَقَامَ قِيَامَ مِثْلِهِ مِنْ
أَجْزَلِ اللَّهِ حِظَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَجَعَلَهُ جَلًّا وَعِزًّا حَسَنَةً هَذَا الزَّمَانِ ؛ وَأَخْتَصَّهُ بِعِنَايَةِ
قُوِيهِ ، وَأَمَدَهُ بِمَوَادِّ عُلُوِيهِ ؛ وَأَيْدَهُ بِعَانَةِ سَمَاوِيهِ ، تَخْرُجُ عَنِ الْإِسْتِطَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ؛
بِجَمْعِ النَّاسِ وَقَامَ خَطِيْبًا فِيهِمْ ، وَبَاعَثَا لَهُمْ عَلَى مَا يُزِلُّهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَيُخْطِئُهُمْ ؛ وَمَوْضِعًا لَهُمْ
مَا يُخْتَنِي عَلَى الدَّوْلَةِ مِنَ الْأَمْرِ الْمُنْكَرِ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ كَاجْتِمَاعِهِمْ يَوْمَ الْحَشْرِ ؛ وَغَضِبَتْ
النُّجُودُ وَالْأَغْوَارُ ، وَأَمْتَلَاتِ السُّهُولُ وَالْأَوْعَارُ ؛ وَضَاقَتِ الْأَرْضُ عَلَى سَمْعَتِهَا
بِالْخَلَاثِقِ ، وَارْتَفَعَتْ فِي تَوْجُّهِهِمْ لَطَبِ الْمَذْكُورِ الْأَعْدَارُ وَالْعَوَاتِقُ ؛ وَلَمْ يَبْقَ فِضَاءٌ
إِلَّا وَهُوَ بِهَرَمِ شَرْقٍ ، وَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ مَزْرَعٌ بِقَصْدِهِ وَعَلَى تَأَخُّرِ ذَلِكَ قَلْبِ . وَكَانَ
بِهَرَامٍ وَأَحْبَابُهُ بِالْإِضَافَةِ إِلَيْهِمْ كَالشَّامَةِ فِي اللَّوْنِ الْبَسِيطِ ، وَكَالْقَطْرَةِ فِي الْبَحْرِ الْمُحِيطِ ؛

وسأروا مع السيد الأجلّ الأفضّل نحوه مسارعين ، وعلى الأتقياض عليهم
متهاقين ؛ فلما شعر بذلك لم يبق له قرار ، ولآذ بالهرب والفرار ، يهجر المناهل ،
ويطوى المراحل ؛ ويرى الشroud غمًا ، ويعدّ السلامة حُمًا ؛ وأستقرت وزارة
أمير المؤمنين لهذا السيد الأجلّ الأفضّل الذي لم تزل فيه رايغبه ، وله خاطبه ؛
ونحو توليه إياها متطلعه ، وإلى نظره فيها مبادرة متسرّعه ، ولم تنفك لزينة دسّمها
مستبطنه ، وفي التلهّف على تأخر ذلك مديدة مُبدئه ؛ فأحسن إلى الكافة قولاً
وفِعلاً ، وعَمِل في حقّ الدولة ما لم يجعل له في الوزراء شِبها ولا في الملوك العُظماء
مثلاً ؛ وغدا لليلة الحنيفيّة حُجّة وبرهاناً ، وأولى الأولياء إعزازاً وتكريماً والأعداء
إذلالاً وإهواناً ؛ وصان الخِلافة عن نفاذ حيله ، وتماّم غيله ؛ ومُحادعة ما كره ، ومُخالفة
غادر ؛ فلذلك أنتضاه أمير المؤمنين حُساماً باتراً ماضى الغرار ، وأجتباه هُماماً
في المصالح لا يطعم جفنه غير الغرار ؛ وأصطفاه خليلاً وظهيراً لتساوى باطنه
وظاهره في الصّفاء ، وأستخلصه لنفسه لمفآخره الجمّة التي ليس بها من خفاء ،
وأنتظمت الأمور بكفآلته في سلك الوفاق ، وعمت الخيرات بوزارته عموم الشمس
بأنوارها جميع الآفاق ؛ فسعدت بنظره الجُدود ، وتظاهرت ببركاته الميامن والسُّعود ؛
وأصبح غُصن المعالي يمينه مورقاً ، وعلى المِلّة من يمين آرائه تمام من مسّ الحوادث
ورقياً ، فآثاره تُوفي على ضياء الصّباح ، وعزّماته تُررى بمضآء المهنّدة الصّفّاح ، وآثره
تفوّت شأو النّناء وغاية الإمتداح . فآله تعالى يحفظ النعمة على الخِلافة الحافظيّة ،
ويوزع شكره على سُبوعها كافّة البريّة ؛ بكرمه وفضله ، ومنّه وطوله .

ولما أمعن بهرام في الهرب ، وجدت العساكر المنصورة وراءه في الطّلب ؛
وضاقت عليه المسالك ، وتيقّن أنه في كل وجهة يقصدها هالك ؛ عاد لمكارم الدولة

وعواظِهَا ، وسأل أماناً على نفسه من متالفِهَا ؛ فشمِلَتْهُ الرَّحْمَةُ ، وَكُتِبَ لَهُ الْأَمَانُ
فَعَاوَدَتْهُ النَّعْمَةُ ؛ وَأَخْتَلَطَ بِرِجَالِ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ ، وَصَارَ حَظُّهُ بَعْدَ أَنْ كَانَ
مَبْخُوساً مِنَ الْحُظُوظِ الْمَوْفُورَةِ .

وَأَمَّا أَعْتِدَارُ الْكَاتِبِ عَمَّا وَجَّهَ إِلَيْهِ بَانَ مِنَ الْكَلَامِ مَا إِذَا نُقِلَ مِنْ لُغَةٍ إِلَى لُغَةٍ
أُخْرَى أَضْطَرَبَ مَبْنَاهُ فَأَخْتَلَّ مَعْنَاهُ ، وَلَا سِيماً إِنْ غُرِّسَ فِيهِ لَفْظٌ لَيْسَ فِي إِحْدَى
اللُّغَتَيْنِ سِوَاهُ ؛ فَقَدْ أَبَانَ فِيمَا نُسِبَ إِلَيْهِ السُّهُوفِ فِيهِ عَنْ وُضُوحِ سَبَبِهِ ، وَقَدْ قُبِلَ عِذْرُهُ
وَلَمْ تُفَكَّ يَدُهُ عَنِ التَّمَسُّكِ بِهِ .

وَأَمَّا مَا سَيَّرَتْهُ إِلَى خِزَائِنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُخْفَةَ وَهْدِيَّةً ، وَأَبْنَتْ بِهِ عَنْ هِمَّةِ بَدَوَاعِي
الْمَجْدِ مَلِيَّةً ؛ فَإِنَّهُ وَصَلَ وَتَسَلَّمَ كُلَّ صِنْفٍ مِنْهُ مَتَوَلَّى الْخِزَائِنِ الْمُخْتَصِمَةَ بِهِ بَعْدَ عَرَضِهِ
عَلَى الثَّبَتِ الْمَعْطُوفِ كِتَابُكَ عَلَيْهِ وَمَوَاقِفَتِهِ ، وَقَدْ أَجْرَى رَسُولُكَ فِي إِكْرَامِهِ وَمَلَّا حِظَّتْهُ
عَلَى أَفْضَلِ مَا يَعْتَمِدُ مَعْ مِثْلِهِ بِمَنْزِلَةٍ مَنْ وَرَدَ مِنْ جِهَتِهِ ، وَعَلَى قَدَرٍ مَنْ وَصَلَ بِرِسَالَتِهِ ؛
وَقَدْ سَيَّرَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَسْرَاءِ دَوْلَتِهِ ، وَوَجَّهَ الْمُتَقَدِّمِينَ بِحَضْرَتِهِ ؛ الْأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ،
الْمَنْصُورَ ، الْمُتَخَبَّ ، مَجْدَ الْخِلَافَةِ ، تَاجَ الْمَعَالِي ، نَخْرَ الْمُلْكِ ، مُوَالِيَ الدَّوْلَةِ وَشُجَاعَهَا ،
ذَا النَّجَابَتَيْنِ ، خَالِصَةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبَا مَنْصُورِ جَعْفَرِ الْخَافِظِيِّ رَسُولًا بِهَذِهِ الْإِجَابَةِ ،
لِمَا هُوَ مَعْرُوفٌ مِنْ سَدَادِهِ ، وَمَوْصُوفٌ مِنْ مَسْتَوْفَقِ قَصْدِهِ وَمَسْتَضَوَّبِ أَعْتِمَادِهِ ،
وَأَلْقَى إِلَيْهِ مَا يَذْكُرُهُ وَيُشْرَحُهُ ، وَعَوَّلَ عَلَيْهِ فِيمَا يُشَافِيهِ بِهِ وَيُوضِّحُهُ ؛ وَأَصْحَبَهُ مِنْ سَبَابِيهِ
وَالطَّافِيهِ ، مَا تَضَمَّنَتْهُ الثَّبَتِ الْوَاصِلُ عَلَى يَدِهِ ، إِبَانَةَ لِحَالِكَ عِنْدَهُ ، وَمَوْفِقِكَ مِنْهُ ، وَمَكَانِكَ
لَدَيْهِ . وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَتَطَلَّعٌ إِلَى وَرُودِ كُتُبِكَ مُتَضَمِّنَةً مِنْ سَائِرِ أَنْبَائِكَ وَطِيبِ أَخْبَارِكَ
مَا يُسْكُنُ إِلَى مَعْرِفَتِهِ ، وَيَثِقُ بِعِلْمِ حَقِيقَتِهِ ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَأَعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الفصل الثالث

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معانهم مما الجارى عليه الحال

في زماننا ، وهو على قسمين)

القسم الأول

(المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى أهل الإسلام ، وفيه أطراف)

الطرف الأول .

(في مكاتبتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في ترتيب كتبهم إليه صلى الله عليه وسلم على سبيل الإجمال)

كانت أمراء سراياه صلى الله عليه وسلم ومن أسلم من الملوك تفتتح المكاتبه إليه صلى الله عليه وسلم باسمه صلى الله عليه وسلم ، ويثنون بأنفسهم ، ويأتون بالتحميد والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، ويتخلصون إلى المقصود بأما بعد أو غيرها ، ويختتمون بالسلام . وملوك الكفر يبدؤون بأنفسهم ؛ وربما بدؤوا باسمه صلى الله عليه وسلم . وكان المكتوب عنه منهم يعبر عن نفسه بلفظ الأفراد . مثل : أنا ، ولى ، وقلت ، وفعلت . وربما عبر بعض الملوك عن نفسه بنون الجمع . ثم إن كان المكتوب عنه مسلماً ، خاطبه صلى الله عليه وسلم بلفظ الرسالة والنبوة مع كاف الخطاب وتاء المخاطب ؛ وإن كان كافراً ، خاطبه بالكاف والتاء المذكورتين ، وربما خاطبه باسمه . فإن كان المكتوب عنه مسلماً ختم الكتاب بالسلام عليه صلى الله عليه وسلم .

أما عَونَةُ هذه الكُتُب، فيظهر أنها إن أُفْتُحَتْ باسمه صلى الله عليه وسلم، ومُنِيَ باسم المكتوب إليه عُنُونَتٌ كذلك، فيكتب في الجانب الأيمن «لحمدي رسول الله» أو نحو ذلك، وفي الجانب الأيسر «من فلان» وإن كانت ممن يفتتح المكتبة باسم نفسه عُنُونَتٌ على العكس من ذلك .

الجملة الثانية

(في صورة مكاتبتهم إليه صلى الله عليه وسلم)

[وفيه أسلوبات :

الأسلوب الأول

(١) [أن تفتتح المكتبة باسم المكتوب إليه]

كما كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه إليه صلى الله عليه وسلم بإسلام بني الحارث، بالكتاب الذي تقدمت إجابته صلى الله عليه وسلم عنه، وهو على ما ذكره ابن هشام في "السيرة" .

"لحمدي النبي صلى الله عليه وسلم رسول الله من خالد بن الوليد :

السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمدُ إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعدُ يا رسول الله صلى الله عليك ، فإنك بعثتني إلى بني الحارث بن كعب ، وأمرتني إذا أتيتهم أن لا أقابلهم ثلاثة أيام ، وأن أدعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا قبلت منهم وعامتهم معالم الإسلام ثلاثة أيام وكتاب الله وسنة نبيه ، وإن لم يسلموا

(١) الزيادة ساقطة من الاصول وهي لازمة لانظام الكلام وانتساقه كما يظهر من الأسلوب الثاني الآتي .

قاتلتهم . وإني قدمت إليهم فعدوئهم إلى الإسلام ثلاثة أيام كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعثت فيهم كتاباً^(١) : يا بني الحارث أسلموا تسلموا . فأسلموا ولم يُقاتلوا وأنا مقيم بين أظهرهم ، أمرهم بما أمر الله به ، وأنهم عمّا نهاهم الله عنه ، وأعلمهم معالم الإسلام وسنة النبي حتى يكتب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . والسلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ! ” .



وكما كتب النجاشي ملك الحبشة إليه صلى الله عليه وسلم في جواب كتابه صلى الله عليه وسلم إليه .

ونسخته على ما ذكره ابن إسحاق :

” إلى محمد رسول الله ، من النجاشي أصحمة ،

سلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ، الذي لا إله إلا هو ، الذي هداني

للإسلام .

أما بعد ، فقد بلغني كتابك يا رسول الله ، فما ذكرت من أمر عيسى فورب السماء والأرض إن عيسى عليه السلام ما يزيد على ما ذكرت تفروقاً ، إنه لكما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقدم ابن عمك وأصحابه (وفي رواية : وقد قربنا ابن عمك وأصحابه) وأشهد أنك رسول الله [صادقاً مصداقاً] ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك ، وأسلمت على يديه لله رب العالمين . وقد بعثت إليك يا نبي ، وإن شئت

(١) في ” مفتاح الأفكار ” ص ٦٦ وبعثت فيهم رجباً قالوا يا بني الحارث . والزيادة التي في آخر

أَتَيْكَ [بِنَفْسِي] ^(١) فَعَلْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَإِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ مَا تَقُولُهُ حَقٌّ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .“



وكما كتب المَقْوِسُ صاحب مصر إليه صلى الله عليه وسلم جواب كتابه الوارد عليه منه في رواية ذكرها ابن عبد الحكم ، وهو :

”لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، مِنَ الْمُقَوِّسِ عَظِيمِ الْقَبْطِ . سَلَامٌ عَلَيْكَ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ قَرَأْتُ كِتَابَكَ وَفَهِمْتُ مَا ذَكَرْتَ فِيهِ وَمَا تَدْعُو إِلَيْهِ . وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ نِيَا قَدِ بَقِيَ وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّهُ يَخْرُجُ بِالشَّامِ ، وَقَدْ أَكْرَمْتُ رَسُولَكَ وَبَعَثْتُ إِلَيْكَ بِجَارِيَتَيْنِ لِهَما مَكَانٌ فِي الْقَبْطِ عَظِيمٌ وَكِسْوَةٌ ، وَأَهْدَيْتُ إِلَيْكَ بَغْلَةً لِتَرْكَبَهَا ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ .“

وَلَمْ يَزِدْ عَلَيَّ هَذَا . وَزَادَ غَيْرُهُ أَنَّ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . وَذَكَرَ الْوَاقِدِيُّ : أَنَّ فِي كِتَابِهِ إِلَيْهِ :

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ ، مِنَ الْمُقَوِّسِ إِلَى مُحَمَّدٍ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَقَدْ بَلَغَنِي كِتَابُكَ وَفَهِمْتَهُ وَأَنْتَ تَقُولُ إِنَّ اللَّهَ أَرْسَلَكَ رَسُولًا ، وَفَضَّلَكَ تَفْضِيلًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ قُرْآنًا مُبِينًا ، فَكَشَفْنَا عَنْ خَبْرِكَ فَوَجَدْنَاكَ أَقْرَبَ دَاعٍ دَعَا إِلَى اللَّهِ ، وَأَصْدَقَ مَنْ تَكَلَّمَ بِالصِّدْقِ ، وَلَوْلَا أَنِّي مَلَكَتُ مُلْكًا عَظِيمًا ، لَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِكَ ، لِعِلْمِي أَنَّكَ خَاتِمُ النَّبِيِّينَ وَإِمَامُ الْمُرْسَلِينَ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ مِنِّي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

(١) الزيادة من رواية المواهب ج ٣ ض ٣٩٥ وروايته آتيتك . قال شارحه : في موضع المفعول

الأسلوب الثاني

(أن تفتَحَ المكتبةُ باسم المكتوب عنه)

كما كتب مسيامةُ الكَذَّابُ إليه صلى الله عليه وسلم الكتابَ الذي تقدَّمت إجابته صلى الله عليه وسلم في المكاتبات الصادرة عنه، وهو :

« من مُسَيِّمَةِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدِ رَسُولِ اللَّهِ .

أما بعدُ، فَإِنِّي قَدْ أَشْرَكْتُ فِي الْأَمْرِ مَعَكَ، إِنَّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ وَلِقْرِيشَ نِصْفِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّ قَرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ .

الجملة الثالثة

(في المكاتبات التي كتبت إليه قبل ظهوره صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته)

أما الكُتُبُ التي كُتِبَتْ إليه صلى الله عليه وسلم قبل ظهوره، فقد حكى "صاحب الهناء الدائم بمولد أبي القاسم" أن تُبِعَ الْأَوَّلَ حين مرَّ بموضع المدينة النبوية، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام، أخبره من معه من علماء أهل الكتاب أن هذا الموضع مهاجرٌ نبوي يخرج في آخر الزمان، فعمَّ هناك مدينةً وأسكن فيها جماعة من العلماء، وكتب إليه كتاباً فيه :

«أما بعدُ، يا محمدُ فَإِنِّي آمَنْتُ بِكَ وَبِرَبِّكَ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِكَابِهِ الَّذِي يُنَزَّلُ عَلَيْكَ وَأَنَا عَلَى دِينِكَ وَسُنَّتِكَ . آمَنْتُ بِرَبِّكَ وَرَبِّ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِكُلِّ مَا جَاءَ مِنْ رَبِّكَ مِنْ شَرَائِعِ الْإِسْلَامِ وَالْإِيمَانِ . وَإِنِّي قُلْتُ ذَلِكَ، فَإِنْ أَدْرَكْتَكَ فِيهَا وَنِعِمَّتْ، وَإِنْ لَمْ

أَدْرِكَكَ فَاشْفَعْ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا تَنْسِنِي ، فَإِنِّي مِنْ أُمَّتِكَ الْأَوَّلِينَ ، وَتَابِعْتُكَ قَبْلَ
جَيْحِكَ وَقَبْلَ أَنْ يُرْسَلَكَ اللَّهُ ، وَأَنَا عَلَى مِلَّتِكَ وَمِلَّةِ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ ^(١) .

وَحْتَمَ الْكِتَابَ . وَنَقَشَ عَلَيْهِ « لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ
بِنَصْرِ اللَّهِ » .

وَكُتِبَ عُنْوَانُهُ : « إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ خَاتَمِ الْمُرْسَلِينَ وَرَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ ، مِنْ تَبَعِ الْأَوَّلِ حَمِيرٍ ، أَمَانَةٌ اللَّهِ فِي يَدٍ مَنْ وَقَعَ إِلَيْهِ أَنْ يَدْفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ » .

وَدَفَعَهُ إِلَى رَئِيسِ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ رَتَّبَهُمْ بِالْمَدِينَةِ ، فَبَقِيَ عِنْدَهُ وَعِنْدَ بَنِيهِ يَتَدَاوَلُونَهُ
وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، حَتَّى هَاجَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمَدِينَةِ ، فَلَقِيَهُ الَّذِي صَارَ
الْكِتَابُ إِلَيْهِ يَوْمَئِذٍ مِنْ بَنِي ذَلِكَ الْعَالَمِ فِي طَرِيقِ الْمَدِينَةِ وَدَفَعَ إِلَيْهِ الْكِتَابَ .



وَأَمَّا الْكُتُبُ الَّتِي تُكْتَبُ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ وَفَاتِهِ ، فَقَدْ جَرَتْ عَادَةٌ
الْأُمَّةِ مِنَ الْمُلُوكِ وَغَيْرِهِمْ بِكِتَابَةِ الرِّسَالِ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْدَ وَفَاتِهِ بِالسَّلَامِ
وَالْتَحِيَّةِ وَالتَّوَسُّلِ وَالتَّشْفِعِ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْمَقَاصِدِ الدُّنْيَوِيَّةِ وَالْآخِرَوِيَّةِ ،
وَتَسْيِيرِهَا إِلَى تُرْبَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَأَكْثَرُ النَّاسِ مَعَاطَاةً لَذَلِكَ أَهْلُ الْمَغْرِبِ
لِبُعْدِ بِلَادِهِمْ ، وَزُجُوجِ أَقْطَارِهِمْ .

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا رَأَيْتُ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَا كَتَبَ بِهِ ابْنُ الْخَطِيبِ وَزَيْرُ ابْنِ الْأَحْمَرِ
بِالْأَنْدَلُسِ ، وَصَاحِبُ دِيْوَانِ إِنْشَائِهِ عَنْ سُلْطَانِهِ يُوسُفَ بْنَ فَرَّجَ بْنِ نَصْرٍ :

إِذَا فَاتَنِي ظِلُّ الْحِمَى وَنَعِيمُهُ ، * كَفَانِي وَحَسْبِي أَنْ يَهَبَ نَسِيمُهُ !

(١) تقدم هذا الكتاب في ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ من هذا المؤلف .

وَيَقْنِنِي أَنِّي بِهِ مَتَكَيْفٌ : * فَرَضَ مَهْ دَمْعِي ، وَجِسْمِي حَاطِمَةٌ !
 يَعودُ فُؤَادِي ذِكْرُ مَنْ سَكَنَ الغَضَى * فَيُقْعِدُهُ فَوْقَ الغَضَى وَيُقِيمُهُ !
 وَلَمْ أَرِ شَيْئًا كَالنَّسِيمِ إِذَا سَرَى ، * شَفَى سَقَمَ القَلْبِ المَشُوقِ سَقِيمُهُ !
 نُعَلِّلُ بِالتَّدْكَارِ نَفْسًا مَشُوقَةً * نُذِيرُ عَلَيْهَا كَأْسَهُ وَنَدِيمَهُ !
 وَمَا شَفَنِي بِالغُورِ رَنْدٌ مَرَّحٌ ، * وَلَا شَاقِنِي مِنْ وَحْشٍ وَجَرَةٌ رِيمُهُ ،
 وَلَا سَهَرَتْ عَيْنِي لِبَرْقِ نَيْبَةٍ * مِنَ التَّغْرِ يَبْدُو مَوْهِنًا فَأَشِيمُهُ .
 بَرَانِي شَوْقٌ لِلنَّبِيِّ مَجْدٍ * يَسُومُ فُؤَادِي بَرَحَهُ مَا يَسُومُهُ !
 أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَادَاكَ ضَارِعٌ * عَلَى البُعْدِ مَحْفُوظُ الودَادِ سَلِيمُهُ
 مَشُوقٌ إِذَا مَا اللَّيْلُ مَدَّ رِوَاقَهُ * تَهْمٌ بِهِ تَحْتَ الظَّلَامِ هُمُومُهُ
 إِذَا مَا حَدِيثٌ عَنكَ جَاءَتْ بِهِ الصَّبَا ، * سَجَاهُ مِنَ الشَّوْقِ الحَدِيثِ قَدِيمُهُ
 أَيَجْهَرُ بِالتَّجْوَى ، وَأَنْتَ سَمِيعُهُ ! * وَيَسْرَحُ مَا يَخْفَى ، وَأَنْتَ عَلِيمُهُ !
 وَتَعْوِزُهُ الشَّقِيَا ، وَأَنْتَ غِيَاثُهُ ! * وَتُثَلِّفُهُ البَلْوَى ، وَأَنْتَ رَحِيمُهُ !
 يَنُورِكَ نُورِ اللَّهِ قَدْ أَشْرَقَ الهُدَى * فَأَقْمَرُهُ وَضَاحَةٌ وَنُجُومُهُ !
 بِكَ أَنهَلَّ فَضْلُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ سَابِغًا * فَأَنَاوَهُ مُتَنَفِّسَةٌ وَغَيُومُهُ !
 وَمِنْ فَوْقِ أَطْبَاقِ السَّمَاءِ بِكَ أَقْدَى * حَلِيلُ الَّذِي أَوْطَأَكَهَا وَكَلِيمُهُ !
 لَكَ الخَلْقُ الأَرْضِيُّ الَّذِي بَانَ فَضْلُهُ * وَمَجْدُ فِي الذِّكْرِ العَظِيمِ عَظِيمُهُ !
 يَجِلُّ مَدَى عَلَيْكَ عَنِ مَدْحِ مَادِحٍ * فَمُوسِرُ دَرِّ القَوْلِ فِيكَ عَدِيمُهُ !
 وَلِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيكَ وَرَاثَةٌ ! * وَمَجْدُكَ لَا يَنْسَى الدَّمَامُ كَرِيمُهُ ،

وَعِنْدِي إِلَى أَنْصَارِ دِينِكَ نِسْبَةٌ * هِيَ الْفَخْرُ لَا يَحْسِيْ أَنْتَقَالًا مَقِيمُهُ!
 وَكَانَ يُودِي أَنْ أَزُورَ مَبُوءًا * بِكَ أَفْتَحَرْتُ أَطْلَالَهُ وِرْسُومُهُ!
 وَقَدْ يُجْهِدُ الْإِنْسَانُ طَرْفَ اعْتِرَامِهِ * وَيُعَوِّزُهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ مَرُومُهُ.
 وَعُذْرِي فِي تَسْوِيفِ عَزْمِي ظَاهِرٌ * إِذَا ضَاقَ عُذْرُ الْعَزْمِ عَمَّنْ يَلُومُهُ.
 عَدْتِي بِأَفْصَى الْغَرْبِ عَنْ تَرْبِكَ الْعِدَا، * جَلَالِ لَقَّةِ النَّغْرِ الْغَرِيبِ وَرُومِهِ،
 أَجَاهِدُ مِنْهُمْ فِي سَبِيلِكَ أُمَّةً * هِيَ الْبَحْرُ يَمْعِيْ أَمْرُهَا مِنْ يَرُومِهِ!
 فَلَوْلَا أَعْتِنَاءُ مِنْكَ يَا مَلْجَأَ الْوَرَى! * لَرَبِيعَ حِمَاهُ، وَأَسْتَبِيحَ حَرِيمِهِ!
 فَلَا تَقْطَعْ الْحَبْلَ الَّذِي قَدْ وَصَلْتَهُ، * فَمَجْدُكَ مَوْفُورُ النَّوَالِ عَمِيمِهِ!
 وَأَنْتَ لَنَا الْغَيْثُ الَّذِي تَسْتَدِرُّهُ، * وَأَنْتَ لَنَا الظِّلُّ الَّذِي تَسْتَدِيمُهُ!
 وَلَمَّا نَأَتْ دَارِي وَأَعْوَزَ مَطْمَعِي * وَأَقْلَقَنِي شَوْقٌ تُشَبِّحُ جِجِيمِهِ،
 بَعَثْتُ بِهَا جُهْدَ الْمُقِلِّ مَعُولًا * عَلَى مَجْدِكَ الْأَعْلَى الَّذِي جَلَّ خِيمُهُ!
 [وَكَلْتُ بِهَا هَمِّي وَصِدْقَ قَرِيحِي * فَسَاعَدَنِي هَاءُ الرُّوِي وَمِيمُهُ ^(١)]
 فَلَا تَسْنِي يَا خَيْرَ مَنْ وَطِئَ الرَّثَى * فَمِثْلُكَ لَا يُسْنِي لَدَيْهِ خَدِيمُهُ!
 عَلَيْكَ صَلَاةُ اللَّهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ، * وَمَا رَأَى مِنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ وَسِيمِهِ!

إلى رسولِ الحقِّ، إلى كافَّةِ الخلقِ، وعمَّامِ الرحمةِ الصادقِ البرِّقِ، والخاصِّ في ميدانِ
 أصطفاءِ الرحمنِ قَصَبِ السَّبْقِ؛ خاتمِ الأنبياءِ، وإمامِ ملائكةِ السماءِ، ومنَ وجبتَ له
 النبوةُ وآدمِ بينِ الطِّينِ والماءِ؛ شفيعِ أربابِ الذُّنُوبِ، وطبيبِ أدواءِ القُلُوبِ،
 ووسيلةِ الخلقِ إلى عِلَامِ الغُيُوبِ؛ نبيِّ الهدى الَّذِي طَهَّرَ قلبَهُ، وغُفِرَ ذَنْبُهُ؛ وختمَ به

الرسالة ربه، وجرى في النفوس مجرى الانفاس حبه، [الشفيح^(١)] المشفيح يوم العرض، المحمود في ملا السماء والأرض؛ صاحب اللواء المنشور يوم النشور، والمؤمن على سر الكتاب المسطور، ومخرج الناس من الظلمات إلى النور؛ المؤيد بكفاية الله وعصمته، الموقور حظه من عنايته وحرمته، الظل الخفاق على أمته؛ من لو حازت الشمس بعض كماله ما عدت إشراقاً، أو كان للآباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقاً؛ فائدة الكون ومعناه، وسر الوجود الذي به الوجود سناه، وصفي حضرة القدس الذي لا ينأى قلبه إذا نامت عيناه؛ البشير الذي سبقت له البشرية، ورأى من آيات ربه الكبرى، ونزل فيه سبحانه الذي أسرى؛ من الأنوار من غنصر نوره مستمد، والآثار تخلق وآثاره مستجد؛ من طوى بساط الوحي لفقده، وسد باب الرسالة والثبوة من بعده، وأوتى جوامع الكلم فوفقت البلغاء حسرى دون حده؛ الذي آتقل في الفرر الكريمة نوره، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره، وطيفت الملائكة تحييه وفودها وتزوره؛ وأخبرت الكتب المترلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته، وأخذ عهد الأنبياء به على من اتصلت بمبعثه منهم أيام حياته؛ المفرغ الأمتع يوم الفرغ الأكبر، والسند المعتمد عليه في أهوال المحشر. ذى المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس، وأقربها الجن والإنس: من جماد يتكلم، وجذع لرفاقه يتألم، وقرله ينشق، وشجر يشهد أن ماجاء به هو الحق؛ وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس، وماء من بين أصابعه يتجسس؛ وغمام باستسقائه يصب، وطوى بصق في أجاجها فأصبح مأوها وهو العذب المشروب. المخصوص بمناقب الكمال وكال المناقب، المسمى بالحاشر العاقب، ذى المجد البعيد المرأى والمرأب؛ أكرم من

(١) الزيادة عن فتح الطيب (ص ١٧٥، ج ٤) المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٧٩ هـ. وكذا هو في الريحانة.

(٢) في الفتح "الإيمان به" وكذا هو في ريحانة الكتاب.

رُفِعَتْ إِلَيْهِ وَسِيلَةُ الْمُعْتَرِفِ الْمُغْتَرِبِ ، وَنَجَّحَتْ لَدَيْهِ قُرْبَهُ الْبَعِيدِ وَالْمُقْتَرِبِ ، سَيِّدِ
الرُّسُلِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَلِّبِ ، الَّذِي فَازَ بِطَاعَتِهِ الْمُحْسِنُونَ ، وَأَسْتُنْقِذِ
بِشَفَاعَتِهِ الْمُذْنِبُونَ ، وَسَعِدَ بِاتِّبَاعِهِ الَّذِينَ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ . صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمَعَ بَرَقٌ ، وَهَمَّعَ وَدَقَّ ، وَطَلَعَتْ شَمْسٌ ، وَنَسَخَ الْيَوْمَ أَمْسٌ .

من عتيق شفاعته ، وعبد طاعته ، المعتصم بسببه ، المؤمن بالله ثم به ، المستشفى
بذكرة كَلِمَا تَأْتَمُّ ، الْمُفْتَحِ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ كَلِمَا تَكَلِّمُ ، الَّذِي إِنْ ذُكِرَ تَمَثَّلَ طُلُوعَهُ بَيْنَ
أَصْحَابِهِ وَآلِهِ ، وَإِنْ هَبَّ النَّسِيمُ الْعَاطِرُ وَجَدَ فِيهِ طِيبَ خِلَالِهِ ، وَإِنْ سَمِعَ الْأَذَانَ
تَذَكَّرَ صَوْتَهُ بِآلِهِ . وَإِنْ ذُكِرَ الْقُرْءَانُ اسْتَشْعَرَ تَرْدُّ جَبْرِيلَ بَيْنَ مَعَاهِدِهِ وَحِلَالِهِ ؛
[لَا تَمِ تَرْبُهُ وَمَوْمِلِ قُرْبَهُ ، وَرَهين طَاعَتِهِ وَحِبِّهِ ^(١)] الْمُتَوَسِّلِ بِهِ إِلَى رِضَا رَبِّهِ ؛
« يَوْسُفُ بْنُ إِسْمَاعِيلِ بْنِ نَصْرٍ » .

كُتِبَتْهُ [الْيَكُ] يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالِدَمْعُ مَاحٌ ، وَخَيْلُ الْوَجْدِ ذَاتُ حِمَاحٍ ؛ عَنْ شَوْقِ
يَزْدَادٍ كَلِمَا تَقْصُ الصَّبْرَ ، وَأَنْكَسَارِ لَا يُتَاحُ لَهُ إِلَّا بَدُو مَزَارِكِ الْجَبْرِ ؛ وَكَيْفَ لَا يُعْنَى
مَشْوُوكٌ بِالْأَمْرِ ، وَيُوطِئُ عَلَى كَيْدِهِ الْجَمْرَ ، وَقَدْ مَطَلَّتِ الْأَيَّامُ بِالْقُدُومِ عَلَى تَرْبَتِكَ
الْمُقَدَّسَةِ الْفُخْدِ ، وَوَعَدَتِ الْأَمَالَ وَدَانَتْ بِإِخْلَافِ الْوَعْدِ ؛ وَأَنْصَرَفَتِ الرَّفَاقُ وَالْعَيْنُ
بِنُورِ ضَرِيحِكَ مَا آكَتْحَلَّتْ ، وَالرَّكَّابُ إِلَيْكَ مَا رُحِلَتْ ، وَالْعِزَامُ قَالَتْ وَمَا فَعَلْتُ ؛
وَالنَّوَاطِرُ فِي تِلْكَ الْمَشَاهِدِ الْكَرِيمَةِ لَمْ تَسْرَحْ ، وَطُيُورُ الْأَمَالِ عَنْ وَكُورِ الْعَجْزِ لَمْ تَبْرَحْ ؛
فِيهَا مِنْ مَعَاهِدٍ فَازَ مِنْ حَيَّاهَا ، وَمَشَاهِدَ مَا أَعْطَرَ رِيَّاهَا ؛ بِلَادٌ نَيْطَتْ بِهَا عَلَيْكَ
الْتِمَامُ ، وَأَشْرَقَتْ بِنُورِكَ مِنْهَا التَّجُودُ وَالتَّهَامُ ؛ وَنَزَلَ فِي حُجْرَاتِهَا عَلَيْكَ الْمَلَكُ ، وَأَنْجَلَى
بِضْيَاءِ قُرْفَانِكَ فِيهَا الْحَلَّكَ ؛ مَدَارِسُ الْآيَاتِ وَالسُّورِ ، وَمَطَالِحُ الْمُعْجَزَاتِ السَّافِرَةِ

(١) الزيادة من فتح الطيب ص ٥١٨ ج ٤ وكذا هوفي الريحانة .

الْعُرْبَ ؛ حَيْثُ قُضِيَتِ الْفُرُوضُ وَحْتِمَتْ ، وَأَفْتُتِحَتْ سُورَةُ الْوَحْيِ وَخْتِمَتْ ؛
وَأَبْتَدِيَتِ الْمَلَّةُ الْحَنِيفِيَّةُ وَتَمَّتْ ، وَنُسِخَتْ الْآيَاتُ وَأُحْكِمَتْ . أَمَا وَالَّذِي بَعَثَكَ
بِالْحَقِّ هَادِيَا ، وَأَطَّلَكَ لِلخَلْقِ نُورًا بَادِيَا ؛ لَا يُطْفِئُ غَلَّتِي إِلَّا شَرْبُكَ ، وَلَا يُسَكِّنُ لَوْعَتِي
إِلَّا قُرْبُكَ ؛ فَمَا أَسْعَدَ مِنْ أَفَاضَ مِنْ حَرَمِ اللَّهِ إِلَى حَرَمِكَ ، وَأَصْبَحَ بَعْدَ أَدَاءِ
مَا فَرَضْتَ عَنِ اللَّهِ ضَيْفَ كَرَمِكَ ؛ وَعَقَّرَ الْخَدَّ فِي مَعَاهِدِكَ وَمَعَاهِدِ أَسْرَتِكَ ، وَتَرَدَّدَ
مَا بَيْنَ دَارِي بَيْعَتِكَ وَهَجْرَتِكَ !

وَإِنِّي لَمَّا عَاقَنِي عَنْ زِيَارَتِكَ الْعَوَاقِقُ وَإِنْ كَانَ شُعْلَى عِنكَ بِكَ ، وَعَدَّتْنِي الْأَعْدَاءُ
فِيكَ عَنْ وَصْلِ سَبِيِّ بِسَبَبِكَ ، وَأَصْبَحْتُ مَا بَيْنَ بَحْرِ تِلَاطِمٍ أُمُوجُهُ ، وَعَدُوٌّ تَتَكَافَفُ
أَفْوَاجُهُ ، وَيَجِيبُ الشَّمْسَ عِنْدَ الظَّهِيرَةِ عَجَاجُهُ ؛ فِي طَائِفَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِكَ وَطَنُوا
عَلَى الصَّبْرِ نَفْسَهُمْ ، وَجَعَلُوا التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ لُبُّوسَهُمْ ؛ وَرَفَعُوا إِلَى مُصَارَحَتِكَ
رَأْسَهُمْ ، وَأَسْتَعْدَبُوا فِي مَرَضَاتِهِ اللَّهُ تَعَالَى وَمَرَضَاتِكَ بُوسَهُمْ ؛ يَطِيرُونَ مِنْ هَيْعَةٍ
إِلَى أُخْرَى ، وَيَتَلَفَّتُونَ وَالْخَاوِفُ يَمْنَى وَيُسْرَى ، وَيَقَارِعُونَ - وَهُمْ الْفِتْنَةُ الْقَلِيلَةُ -
جَمُوعًا بِكَمُوعٍ قِصَرَ وَكُسْرَى ؛ لَا يَلْبِغُونَ مِنْ عَدُوِّكَ كَالذَّرِّ عِنْدَ أَنْتِشَارِهِ ، مِعْشَارَ مِعْشَارِهِ ؛
قَدْ بَاعُوا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، لِأَنَّ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعُلْيَا ؛ فَيَالَهُ مِنْ
سِرْبِ مَرْوَعٍ ، وَصَرِيحِ إِلَّا عِنكَ مَمْنُوعٍ ، وَدَعَاءِ إِلَى اللَّهِ وَإِلَيْكَ مَرْفُوعٍ ؛ وَصِيبِيَّةِ حُمُرِ
الْحَوَاصِلِ ، تَخْفِقُ فَوْقَ أَوْكَارِهَا أَجْنَحَةُ الْمَنَاصِلِ ؛ وَالصَّلِيبُ قَدْ تَمَطَّى وَمَدَّ ذِرَاعِيهِ ،
وَرَفَعَتِ الْأَطْوَاعُ بَضْبِعِيهِ ؛ وَقَدْ حُجِبَتْ بِالْقَتَامِ السَّمَاءُ ، وَتَلَاطَمَتْ أُمُوجُ الْحَدِيدِ
وَالْبَاسِ الشَّدِيدِ فَاتَّقَى الْمَاءَ ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الدَّمَاءُ ، وَعَلَى ذَلِكَ فَاصْغُرَتِ الْبَصَائِرُ
وَلَا سَاءَتِ الظُّنُونُ ، وَمَا وَعِدَ بِهِ الشَّهَادَةُ تَعْتَقِدُهُ الْقُلُوبُ حَتَّى تَكَادَ تَرَاهُ الْعُيُونُ ،
إِلَى أَنْ نَلْقَاكَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَقَدْ أَبْلَيْتَنَا الْعُدْرَ ، وَأَرْغَمْنَا الْكُفْرَ ، وَأَعْمَلْنَا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَسَبِيلِكَ الْبَيْضَ وَالسُّمْرَ .

استنبت رُفَعِي هَذِهِ لِتَطِيرَ إِلَيْكَ [مِنْ شَوْقِي] بِجِنَاحِ خَافِقٍ ، وَتُسَعَّدَ مِنْ نَبِيِّ النَّبِيِّ الَّتِي
تَصْحَبُهَا بِرَفِيقٍ مُوَافِقٍ ؛ فَتُؤَدِّي عَنْ عِبْدِكَ وَتَبْلُغُ ، وَتَعْفَرُ الخَدَّ فِي تُرْبَتِكَ وَتَمْرُغُ ؛
وَتَطِيبُ بَرِيًّا مَعَاهِدِكَ الطَّاهِرَةَ وَبُيُوتِكَ ، وَتَقِفُ وَقُوفَ الخُشُوعِ وَالخُضُوعِ نُجَاهَ تَابُوتِكَ ؛
وَتَقُولُ بِلِسَانِ التَّمَلُّقِ ، عِنْدَ التَّشَبُّثِ بِأَسْبَابِكَ وَالتَّعَلُّقِ ، مِنْ كَسْرِ الطَّرْفِ ، حَذِرًا بِهَرَجِهَا
مِنْ عَدَمِ الصَّرْفِ : يَاغِيَاثَ الأُمَّةِ ، وَعَمَامَ الرَّحْمَةِ ؛ اِرْحَمِ غَرْبِي وَأَنْقِطَاعِي ، وَتَعَمَّدِ
بَطُولِكَ قِصْرَ بَاعِي ، وَقَوِّ عَلَيَّ هَيْبَتِكَ خَوَرِ طِبَاعِي ؛ فَكَمْ جُرْتُ مِنْ لُجِّ مَهُولٍ ، وَجُبْتُ
مِنْ حُرُونٍ وَسُهُولٍ ؛ وَقَابِلِ بِالْقَبُولِ نِيَّاتِي ، وَعَجَلِ بِالرِّضَا إِجَابَتِي . وَمَعْلُومٌ مِنْ كِمَالِ
تِلْكَ الشِّيمِ ، وَسَجَايَا تِيكَ الدِّيمِ ؛ أَنْ لَا تُحِبَّ قِصْدَ مَنْ حَطَّ بِفَنَائِهَا ، وَلَا يَظْمَأْ
وَارِدًا أَكْبَّ عَلَيَّ إِثْنَانِهَا .

اللَّهُمَّ يَا مَنْ جَعَلْتَهُ أَوَّلَ الأَنْبِيَاءِ بِالمَعْنَى وَأَخْرَجْتَهُ بِالصُّورَةِ ، وَأَعْطَيْتَهُ لُؤَاءَ الحَمْدِ يَسِيرَ
أَدَمُ فَمِنْ دُونِهِ تَحْتَ ظِلَالِهِ المَنْشُورَةِ ؛ وَمَلَكَتْ أُمَّتَهُ مَا زُرِي لَهُ مِنْ زَوَايَا البِيسِيطَةِ
المَعْمُورَةِ ، وَجَعَلْتَنِي مِنْ أُمَّتِهِ المَجْبُولَةِ عَلَيَّ حُبِّهِ المَفْطُورَةِ ؛ وَشَوَّقْتَنِي إِلَى مَعَاهِدِهِ المَبْرُورَةِ ،
وَمَشَاهِدِهِ المَزُورَةِ ؛ وَوَكَّلْتَ لِسَانِي بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، وَقَلْبِي بِالحَنِينِ إِلَيْهِ ، وَرَغَبْتِي
بِالتَّمَّاسِ مَا لَدَيْهِ ؛ فَلَا تَقْطَعْ عَنْهُ أَسْبَابِي ، وَلَا تَحْرِمْنِي فِي حُبِّهِ أَجْرَ ثَوَابِي ، وَتَدَارِكُنِي
بِشَفَاعَتِهِ يَوْمَ أَخْذِ كِتَابِي .

هَذِهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَسِيلَةٌ مِنْ بَعْدَتِ دَارِهِ ، وَشَطَطِ مَزَارِهِ ، وَلَمْ يُجْعَلْ بِيَدِهِ آخِيارُهُ ؛
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْقَبُولِ أَهْلًا فَانْتَ لِلإِغْضَاءِ وَالسَّمَّاحِ أَهْلًا ، وَإِنْ كَانَتْ أَلْفَاظُهَا وَعَرَّةً بِجَنَابِكَ
لِلْقَاصِدِينَ سَهْلًا ؛ وَإِذَا كَانَ الحَبُّ يُتَوَارَثُ كَمَا أَخْبَرْتَ ، وَالعُرُوقُ تَدُسُّ حَسَبَ مَا
إِلَيْهِ أَشْرَتْ ؛ فَلِي بِانْتِسَابِي إِلَى (سَعْدِ) عَمِيدِ أَنْصَارِكَ مَزِيَّةً ، وَوَسِيلَةَ إِثْرَةِ حَفِيَّةً ،
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لِي عَمَلٌ تَرْتَضِيهِ فَلِي نِيَّةً ؛ فَلَا تَنْسِنِي وَمَنْ بِهِذِهِ الخَزِيرَةِ المَفْتَحَةَ بِسَيْفِ

كلمتك، على أيدي خيار أمتك؛ وإنما نحنُ بها وديعةٌ تحتَ بعضِ أقفالِكَ، نعوذُ بوجهِ ربِّكَ من إغفالك؛ ولتستشِقْ من ریحِ عِنَايَتِكَ نَفْحَهُ، ونزْتَقِبْ من نُورِ مُحْيَا قَبُولِكَ لِحْمَهُ؛ نُدَافِعُ بِهَا عَدُوًّا طَغَى وَبَغَى، وَبَلَّغْ من مُضَايَقَتِنَا مَا أَبْتَغَى؛ فمَوَاقِفُ التَّمَحِيصِ قَدْ أُعِيَتْ مَن كَتَبَ وَوَرَّخَ، وَالبَحْرُ قَدْ أَصَمَّتْ من أَسْتَصْرَخَ؛ وَالطَّاعِيَةُ فِي العُدْوَانِ مَسْتَبْصِرٌ، وَالعُدُوُّ مَحَلَّقٌ وَالْوَالِيُّ مَقْصَرٌ. وَبِجَاهِكَ نَدْفَعُ مَا لَا نُطِيقُ، وَبِعِنَايَتِكَ نَعَالِجُ سَقِيمَ الدِّينِ فَيُفِيقُ؛ فَلَا تُفْرِدْنَا وَلَا تُهْمِلْنَا، وَنَادِ رَبَّكَ فِينَا: رَبَّنَا وَلَا تُحْمَلْنَا؛ وَطَوَائِفُ أَمْتِكَ حَيْثُ كَانُوا عِنَايَةً مِنْكَ تَكْفِيهِمْ، وَرَبُّكَ يَقُولُ لَكَ وَقَوْلُهُ الحَقُّ: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ .

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ يَا خَيْرَ مَنْ طَافَ وَسَعَى، وَأَجَابَ دَاعِيًا إِذَا دَعَا؛ وَصَلَّى اللهُ عَلَى جَمِيعِ أَحْزَابِكَ وَآلِكَ، صَلَاةً تَلِيقُ بِجَلَالِكَ وَتَحِقُّ لِكِبَالِكَ؛ وَعَلَى صَحْبَيْكَ وَصِدِّيقَيْكَ، وَحَبِيبَيْكَ وَرَفِيقَيْكَ: خَلِيفَتِكَ فِي أَمْتِكَ، وَفَارُوقِكَ الْمَسْتَخْلَفِ بَعْدَهُ عَلَى جِسْمِكَ، وَصِهْرِكَ ذِي النُّورَيْنِ الْمَخْصُوصِ بِرِّكَ وَنَحْلَتِكَ، وَابْنِ عَمِّكَ بِسَيْفِكَ الْمَسْلُوكِ عَلَى حَلَّتِكَ، بِدَرِ سَمَائِكَ وَوَالِدِ أَهْلَتِكَ؛ وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ ^(١) [كثيرا بشيرا] وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

من حضرة جزيرة الأندلس غرناطة صانها الله ووقاها، ودفع عنها ببركتك كيد عداها .

(١) الزيادة عن "فتح الطيب" .

الطرف الثاني

(في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأهراء السرايا، إلى الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في ترتيب هذه المكاتبات على سبيل الإجمال)

كانت المكاتبُ إليهم تُفْتَحُ تارةً بلفظ « من فلان إلى فلان » ويؤتى في الصدر بالسلام والتحميد على نحو ما تقدم في المكاتب عن الخلفاء . ويقع التخلُّص إلى المقصود بـ «أما بعد» وتارةً يقع الافتتاح بـ «أما بعد» ويؤتى بالمقصود تلو ذلك ؛ ويعبرُ المكتوبُ عنه فيها عن نفسه بلفظ الأفراد ، وعن الخليفة بأمر المؤمنين ، وتختتمُ بالسلام على أمير المؤمنين .

الجملة الثانية

(في صورة هذه المكاتبات، وهي على أسلوبين كما تقدمت الإشارة إليه)

الأسلوب الأول

(أن تُفْتَحَ المكاتبُ بلفظ «لفلان من فلان»)

وكان الرسم فيها أن يُكْتَبَ : « لعبد الله فلان أمير المؤمنين ، سلامٌ عليك فأني أحمدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو أما بعدُ فإن كذا » .

كما كتب عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في جواب الكتاب منه إليه المقدم ذكره في المكاتب عن الخلفاء من الصحابة ، وهو : « لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، سلامٌ عليك فأني أحمدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو . أما بعدُ ، فإنه أتاني كتابُ أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مالٍ فسألني ، وانه يعرفني قبلي

ذَلِكَ وَلَا مَالَ لِي، وَإِنِّي أَعْلَمُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَنِي بَبَلِدِ السَّعْرُفِيهِ رَخِيصٍ، وَأَنِّي أَعَالِجُ
 مِنَ الزَّرَاعَةِ مَا يُعَالِجُهُ النَّاسُ، وَفِي رِزْقِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَعَةً. وَوَاللَّهِ لَوِ رَأَيْتُ خِيَانَتَكَ
 حَلَالًا مَا خُتِكَ، فَاقْصِرْ أَيُّهَا الرَّجُلُ فَإِنَّ لَنَا أَحْسَابًا هِيَ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ لَكَ، إِنْ
 رَجَعْنَا إِلَيْهَا عَشْنَا بِهَا! . وَلَعَمْرِي إِنَّ عِنْدَكَ مَنْ لَا يَدُمُّ مَعِيشَةً وَلَا تُدْمُّ لَهُ، فَإِنْ
 كَانَ ذَلِكَ فَلَمْ يَفْتَحْ قُفْلَكَ وَلَمْ يَشْرُكْ فِي عَمَلِكَ؟

الأسلوب الثاني

(أن تفتتح المكتبة بلفظ «أما بعد» ويتوصل منه إلى المقصود)

كما كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية - وهو على بعض أعماله - يستعفيه
 عن العمل .

أما بعد، فقد كبر سنِّي ورفق عظمي وأقترب أجلي وسفهنى سفهاء قريش، فرأى
 أمير المؤمنين في عمله .

الطرف الثالث

(في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العيال، وأمراء السرايا أيضا
 إلى خلفاء بني أمية، وهي في ترتيبها على ما تقدم في المكاتبات إلى الخلفاء
 من الصحابة رضي الله عنهم . وهي على أسلوبين)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكتبة بلفظ «من فلان إلى فلان» على نحو ما تقدم في المكتبة

عنهم إلى الخلفاء من الصحابة مع زيادة الدعاء بطول البقاء)

كما كتب الجراح بن يوسف إلى عبد الملك بن مروان في جواب كتابه الوارد عليه

منه، في توبيخه له بسبب تعرضه لأنس بن مالك رضي الله عنه على ما تقدم ذكره .

«لعبدالله عبدالمملك أمير المؤمنين، [أصلح الله] ^(١) أمير المؤمنين وأبقاه، وسهل حظّه وحاطه ولا عدمناه؛ فقد وصلني كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاه، وجعلني من كل مكروه فداء؛ يذكرك شمي وتوييحي بأبائي، وتعييري بما كان قبل [نزول النعمة بي] ^(٢) من عند أمير المؤمنين أتم الله نعمته عليه، وإحسانه إليه. ويذكر أمير المؤمنين أستطالة مني على أنس بن مالك، وأمير المؤمنين أحق من أقال عثرتي، وعفا عن ذنبي وأمهلتني ولم يعجلني عند هفوتي؛ للذي جيل عليه من كريم طبائمه، وما قلده الله من أمور عباده؛ فرأى أمير المؤمنين - أصلحه الله - في تسكين روعتي، وإفراج كربتي؛ فقد ملئت رعباً وقرقاً من سطواته، وحقات نقماته؛ وأمير المؤمنين - أقاله الله العثرات، وتجاوز له عن السيئات؛ وضاعف له الحسنات، وأعلى له الدرجات - أحق من صفح عفا، وتعمد وأبق؛ ولم يثبت بي عدواً مكيباً، ولا حسوداً مضباً؛ ولم يجرعني غصصاً. والذي وصف أمير المؤمنين من صينعته إليّ، وتوويه لي بما أسند إليّ من عمله؛ وأوطاني من رقاب رعيته، فصادق فيه مجزي عليه بالشكر، والتوسل مني إليه بالولاية، والتقرب له بالكفاية؛ وقد خضعت عند كتاب أمير المؤمنين، فإن رأيت [أمير المؤمنين] ^(٣) - طوقني الله بشكره، وأعانني على تادية حقه، وبلغني إلى ما فيه موافقة مرضاته، ومدلي في أجله - أن يأمر بالكتاب إليّ من رضاه، وسلامة صدره، ما يؤمنني به من سفك دمي، ويرد ما شرد من نومي، ويطمئن به قلبي فعل، فقد ورد

(١) في الأصل "سلام على أمير الخ" والتصحيح عن مفتاح الأفكار (ص ١٨٢).

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن مفتاح الأفكار. وفيه بعد لفظ أنس بن مالك مانص.

"خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جراً على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند خطته، وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من مجد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم النبيين أحق الخ".

(٣) الزيادة عن مفتاح الأفكار.

على أمر جليل خطبه ، عظيم أمره ، شديد كثره . أسأل الله أن لا يُسَخِّطَ أمير المؤمنين على ، وأن يُبَيِّله في حزمه ، وعزمه ، وسياسته ، وفراسته ، ومواليه ، وحشمه ، وعماله ، وصنائه ، ما يجتد به حسن رأيه ، إنه وليُّ أمير المؤمنين والذائب عن سلطانته ، والصانع له في أمره ، والسلام .

الأسلوب الثاني

(أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ «أما بعد» ويُتَوَصَّلَ منه إلى المقصود)

كما كتب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مروان في خلافته :
أما بعد ، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر . سلامٌ عليك فإنني أحمدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ، وأمرني بالسمع والطاعة على كتاب الله وسنة نبيه فيما أستطعت .

الطَّرْفُ الرَّابِعُ

(في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معناهم إلى خلفاء بنى العباس ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(في المكاتبات العامة من الملوك إلى الخلفاء ، ولها حالتان)

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه في ابتداء دولة بنى العباس وأوساطها)

أما ابتداء دولتهم ، فكان الأمر فيه على ما تقدم في مكاتبات العمال ونحوهم إلى خلفاء بنى أمية ، وقد تقدم تمثله . إلا أنه زيد فيه في صدور المكاتبات سؤال الصلاة

على النبي صلى الله عليه وسلم من حين رتبته المأمون في صدور الكتب، وتكنيه الخليفة من حين أحدثه الأمين في كتبه على ما تقدم بيانه في المكاتبات عن الخلفاء فيما سلف .



وأما أوساط دولتهم من حين ظهور ملوك بني بويه وعلبتهم على الأمر ، فلكتاب فيه أسلوبان :

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكاتبه بلفظ «لفلان من فلان» وتصدر بالسلام والتحميد وسؤال الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ويتخلص إلى المقصود بأما بعد) والرسم فيه على ما ذكره قدامة في كتاب الخراج أن يكتب : «لعبد الله فلان أبي فلان - بأسمه وكنيته ونعته - أمير المؤمنين ، سلام على أمير المؤمنين ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو وأسأله أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد ، أطل الله بقاء أمير المؤمنين وأدام عزه وتأييده وكرامته وحراسته ، وأتم نعمته عليه ، وزاد في إحسانه إليه ، وفضله عنده وجميل بلائه لديه ، وجزيل عطائه له » .

وزاد في «صناعة الكتاب» : في السلام «ورحمة الله وبركاته» . قال في «صناعة الكتاب» : ثم يقال : أما بعد فقد كان كذا وكذا ، حتى يأتي على المعاني التي يحتاج إليها . وتكون المكاتبه : - وقد فعل عبد أمير المؤمنين كذا - فإن زادت حاله لم يقل عبد أمير المؤمنين ، فإذا بلغ إلى الدعاء ترك فضاء وكتب : أتم الله على أمير المؤمنين نعمته وهنأه وكرامته ، وألبسه عفو وعافيته وأمنه وسلامته : والسلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكتب يوم كذا وكذا من شهر كذا من سنة كذا .

وقال الفضل بن سهل: يُدعى للخليفة :

أما بعدُ، أطل الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزَّهُ وتأييده، وأتمَّ نعمته وسعادته وتوفيقه؛ وزاد في إحسانه إليه وموآبه له . ولا يكتب إليه « وجعلني فداه » ويكون أول فصوله : أخبر أمير المؤمنين - أطل الله بقاءه - أن كذا وكذا . ثم يوالى الفصول بـ «أيده الله وأدام عِزّه» . ونحو هذا .

وإن شئت كتبت : أما بعدُ أطل الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزَّهُ وتأييده وكرامته، وأتمَّ نعمته عليه، وزاد فيها عنده وحاطه وكفاه، وتولى له ما ولّاه .

وإن شئت كتبت : أطل الله بقاءَ أمير المؤمنين في العِزِّ والسَّلامة، وأدام كرامته في السَّعادة والزيادة؛ وأتمَّ نعمته في السُّبُوح والغِبطة، وأصلحه وأصاح على يديه ونصره؛ وكان له في الأمور كلها ولياً وحافظاً .

وإن شئت كتبت : أطل الله بقاءَ أمير المؤمنين في أعزِّ العِزِّ، وأدوم الكرامة والسُّرور والغِبطة، وأتمَّ نعمه في علوِّ من الدرجة، وشرف من الفضيلة، ومُتَابِع من العائدة، ووهب له السَّلامة والعافية في الدنيا والآخرة .

والذى كانت عليه قاعدة ملوك بني بويه فمن بعدهم إن كان الكتاب في معنى حدوثِ نعمة من فتح ونحوه، أتى بعد ذلك بالتحميد مابين مرة واحدة إلى ثلاث مرَّات . ويعبر المكتوبُ عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمر المؤمنين، ويختتم الكتابُ بالإِنْهاء وما في معناه .

وهذه نسخةُ كتابٍ كتب به أبو إسحاق الصَّابي عن عز الدولة بن بويه إلى المطيع لله عند فتحه الموصل، وهزيمة أبي تغلب بن حمدان صاحب حلب في سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وهى :

(١)
 لعبدِ الله الفضلِ [الإمام] المطيعِ لله أميرِ المؤمنين، من عبده وصنيعته عزَّ الدولة
 ابنُ مِعزِّ الدولة مَوْلَى أميرِ المؤمنين . سلامٌ على أميرِ المؤمنين ورحمة الله، فإنِّي أحمدُ
 إلى أميرِ المؤمنين الله الذي لا إلهَ إلا هو، وأسأله أن يصليَ على محمد عبده ورسوله
 صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم .

أما بعدُ - أطل الله بقاءَ أميرِ المؤمنين وأدامَ له العِزَّ والتأييدَ، والتوفيقَ والتسديدَ؛
 والعلوَّ والقُدْرَةَ، والظُّهورَ والنُّصرَةَ - فالحمدُ لله العليَّ العَظيمَ، الأزليَّ القديمَ، المتفردَ
 بالكبرياءِ والمَلَكُوتِ، المتوحدِ بالعِظَمَةِ والجَبْرُوتِ؛ الذي لا تُحَدُّه الصِّفاتُ،
 ولا تُحَوِّزُهُ الجِهاتُ؛ ولا تُحَصِّرُهُ قَرَارَةُ مَكانٍ، ولا يُغَيِّرُهُ مَرُورُ زَمانٍ؛ ولا تُنَمِّثُهُ العُيونُ
 بنواظِرِها، ولا تُنخِيلُهُ القلوبُ بِنَواظِرِها . فَاطِرِ السَّمواتِ وما تُظَلُّ، وخالقِ الأرضِ
 وما تُقَلُّ؛ الذي دَلَّ بِلطيفِ صَنعَتِهِ، على جَليلِ حِكْمَتِهِ؛ وَيَبِينُ بِجَلِيٍّ بُرْهَانِهِ، عن
 خَفِيِّ وَجَدَانِهِ؛ وَأَسْتغْنِي بِالقُدْرَةِ عن الأَعوانِ، وَأَسْتَعْلِي بِالعِزَّةِ عن الأَقْرانِ . البعيدِ
 عن كُلِّ مُعادِلٍ ومُضارِعٍ، المُمْتَنِعِ على كُلِّ مُطاولٍ ومُقارِعٍ؛ الدائمِ الذي لا يُزولُ
 ولا يُجولُ، العادلِ الذي لا يُظلمُ ولا يُجورُ؛ الكَرِيمِ الذي لا يَظُنُّ ولا يَنتَهِلُ، الحَلِيمِ الذي
 لا يَعتَجلُ ولا يَجهَلُ؛ ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ لا إلهَ إلا هو فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ، مُنْزِلُ
 الرَّحْمَةِ على كُلِّ ولىٍّ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَفَوَّضَ إِلَيْهِ؛ وَأَمْرًا وَأَمْرَهُ، وَأَزْدَجَرَ بِزَواجِرِهِ،
 وَحَمَلَ النِّقْمَةَ بِكُلِّ عَدُوٍّ صَدَّ عن سَبيلِهِ وَسَنَنَهُ، وَصَدَفَ عن فرائضِهِ وَسُنَنَهُ، وَحَادَهُ
 في مَكْسَبِ يَدِهِ وَمَسْعاةِ قَدَمِهِ، وَخائِنَةَ عَينِهِ وَخافِيَةَ صَدْرِهِ؛ وَهُوَ رانِعٌ رَتَعَةَ النِّعمِ
 السَّامَةِ، في أَكْلاءِ النِّعمِ السَّابِغَةِ؛ وَجاهِلٌ جَهْلُها بِشُكْرِ آلائِها، ذاهِلٌ ذُهوْلُها عن
 طُرُقِ اسْتِبقائِها؛ فلا يَلْبَثُ أن يُنزِعَ سَرايِلَها صاغِرا، وَيَتَعَزَّى مِنْها حاسِرا؛ وَيَجْعَلُ

الله كَيْدَهُ فِي تَضْلِيلٍ ، وَيُورِدُهُ شَرَّ الْمَوْرِدِ الْوَبِيلِ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ،
وَلَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ .

والحمد لله الذي أصطفى للنبوة أحقَّ عباده بحمل أعبائها ، وأرتداء رداءها ؛ «مجداً»
صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وعظم خطره وكرم ؛ فصَدَعَ بالرسالة ، وبالغ في الدلالة ؛
ودعاً إلى الهداياه ، ونجى من الغوايه ؛ ونقل الناس عن طاعة الشيطان الرجيم ، إلى
طاعة الرحمن الرحيم ؛ وأعلقهم بجائل خالقهم ورازقهم ، وعصمة محييم وميتمهم ؛
بعد استحالة الأَكاذيب والأباطيل ، وأستشعار المحالات والأضاليل ؛ والتهوك
في الاعتقادات الذائدة عن النعم ، السائمة إلى العذاب الأليم ؛ فصلَّى اللهُ عليه
من ناطقٍ بالحق ، ومُتَقَدِّمٍ لِخَلْقٍ ؛ وناصحٍ لِلرَّبِّ ، ومؤدِّ للقرض ؛ صلاةً زاكية نامية ،
رائحة غادية ؛ تزيد على اختلاف الليل والنهار ، وتعاقب الأعوام والأدوار .

والحمد لله الذي آتجَبَ أمير المؤمنين [أطال الله بقاءه] من ذلك السِّنخ الشريف ،
والعُنصر المُتَيْف ؛ والعِترَة الثابت أصلها ، المتمدُّ ظلُّها ؛ الطيب جناها ؛ المنوع حماها ؛
وحازله مواريت آباءه الطاهيرين ، صلوات الله عليهم أجمعين ؛ وأختصه من بينهم
بتناول أمد الخلافة وأستخفاف حبلها في يده ؛ ووقفه لإصابة الغرض من كل
مرمى يرميه ، ومقصد ينتجيه ؛ وهو - جل ثناؤه - الحقيق بإتمام ذلك عليه ،
والزيادة فيه لديه . وأحمده سبحانه حمداً أبتدئه ثم أعيده ؛ وأكرره وأستريده ؛
على أن أهل ركن الدولة أبا علي ، وعصمة الدولة أبا شجاع مؤلى أمير المؤمنين ، وأهلتي
للأثرة عنده التي بددنا فيها الأكفاء ، وقُتْنَا فيها القُرناء ؛ وتقطعت دُونها أنفاسُ
المنافسين ، وتضرمت عليها أحشاء الحاسدين . وأن أولاني في كل مغزى في خدمة

أمير المؤمنين أغزوه، ومنحى أحوه، وثأى أرابه، وشعث أئمه، وعدوا رُغمه،
وزائع أقومه، أفضل ما أولاه عباده السليمة غيوبهم، النقية جيوبهم، المأمونة
ضمايرهم، المشحوذة بصائرهم، من تمكين يده، وثبتت قدمه، ونصرة رايه، وإعلاء
كلمة، وتقريب بغيه، وإنالة أمنيته، وكذلك يكون من إلى [ولاء] أمير المؤمنين^(١)
اعتراؤه، وبشعاره اعتراضه، وعن زناذه قدحه، وفي طاعته كدحه، والله ولي
[بإدامة] ماخولنيه من هذه المنقبه، وسوغنيه من هذه الموهبه، وأن يتوجه
أمير المؤمنين في جميع خدمه الذائبن عن حوزته، المتممين إلى دعوته، بمن الطائر،
وسعادة الطالع، ونجاح المطلب، وإدراك الأرب، وفي أعدائه الغامطين لنعمته،
الناقضين موثيق بيعته، بإضرع الخلد، وإتعاس الخلد، وإخفاق الأمل، وإحباط
العمل، بقدرته .

ولم يزل مولانا أمير المؤمنين [أطال الله بقاءه] ينكر قديما من "فضل الله" بن
ناصر الدولة أحوالا حقيقا مثلها بالإنكار، مستحقا من ارتكبا الإعراض،
وأنا أذهب في حفظ غيبه، وإجمال محضه، وتمثل مجبجه وتلفيقها، وتأليف
معاذيره وتميقها، مذهبي الذي أعم به كل من جرى تجراه من ناشئ في دولته،
ومُعْتَدِ بنعمته، ومنسب إلى ولايته، ومُشْتَهَر بصنيعته، وأقدر أن أستصلحه
لأمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - وأصلحه لنفسه بالتوقيف على مسالك الرشد،
ومناهج السداد، وهو يريني أن قد قيل وأرعوى، وأبصر وأهدى، حتى رغبت
إلى أمير المؤمنين فيما شفعي متفضلا فيه، من تقليده أعمال أبيه، والقناعة منه
في الضمان بمسور بذله، وإيثاره به على من هو فوقه من كبراء إخوته وأهله .

فلما بَلَغَ هذه الحال، أَلَطَّ بِالْمَالِ، وَخَاسَ بِالْعَهْدِ، وَطَرَّقَ لَفْسَخَ الْعَقْدِ؛ وَأَجْرَى إِلَى أُمُورِ كَرِهَتْهَا، وَنَفَدَ الصَّبْرَ مِنِّي عَلَيْهَا؛ وَخِفْتُ أَنْ أَسْتَمِرَّ عَلَى الْإِغْضَاءِ عَنْهَا وَالْمَسَاحَةِ فِيهَا، فَيَطَّلِعَ اللَّهُ مِنِّي عَلَى إِضَاعَةِ الْأَحْتِيَاظِ فِي أَمْرِ قَلْدُنِي أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ زِمَامَهُ، وَصَمْنِي دَرَكَهُ، وَإِرْخَاءِ لَبِّ رَجُلٍ قَبِيلٍ فِي الْأَعْتَادِ عَلَيْهِ رَأْيِي، وَعَوَّلٍ فِي أَخْذِهِ بِمَا يَلْزِمُهُ عَلَى نَظْرِي وَأَسْتَيْفَانِي - فَنَتَاوَلْتُهُ بِأَطْرَافِ الْعَدْلِ مُلَوَّحًا، ثُمَّ بِأَثْبَاجِهِ مُفْصِحًا مُصَرِّحًا .

وَرَسَمْتُ لِعَبْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاسِحِ أَبِي طَاهِرٍ أَنْ يُجِدَّ بِهِ وَبُوسَطَانِهِ وَسُفْرَانِهِ فِي حَالٍ، وَيَدْخُلَ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِ الْمَشُورَةِ وَالرَّفْقِ فِي أُخْرَى، وَيَتَقَلَّلَ مَعَهُ بَيْنَ الْخُسُونَةِ الَّتِي يَقْفُو فِيهَا أَثْرِي، وَاللَّيْنِ الَّذِي لَا يَجُوزُ أَنْ يُحْسِسَهُ مِنِّي، تَقْدِيرًا لِأَنَّثَانِهِ، وَزَوَالِ آتِنَاوَاتِهِ؛ فَفَعَلَ ذَلِكَ عَلَى رَسْمِهِ فِي التَّائِي لِكُلِّ فَاسِدٍ حَتَّى يَصْلُحَ، وَلِكُلِّ آبٍ حَتَّى يَسْمَحَ؛ وَلَمْ يَدَّعِ التَّنَاهِي فِي وَعْظِهِ، وَالتَّمَادِي فِي نُصْحِهِ، وَتَعْرِيفِهِ سُوءَ عَاقِبَةِ الْجَبَّاحِ، وَمَغْبَةِ الْإِحْرَاجِ؛ وَهُوَ يَزِيدُ طَمَعًا فِي الْأَمْوَالِ وَشَرَاهَا، وَعَمَى فِي الرَّأْيِ وَعَمَّهَا؛ إِلَى أَنْ كَادَ أَمْرُنَا مَعَهُ يَخْرُجُ عَنْ حُدِّ الْأَنْتِظَارِ، إِلَى حُدِّ الرِّضَا بِالْإِصْرَارِ؛ فَاسْتَأْنَفْتُ أَدْرَاعَ الْحَزْمِ، وَأَمْتَطَاءَ الْعَزْمِ؛ وَنَهَضْتُ إِلَى أَعْمَالِ الْمَوْصِلِ وَعِنْدِي أَنَّهُ يُعْنِينِي عَنِ الْإِتْمَامِ، وَيَتَلَقَّانِي بِالْإِعْتَابِ وَيُنْقَادُ إِلَى الْمُرَادِ، وَيَتَجَبَّبُ طَرُقَ الْعِنَادِ .

فَإِنْ عَرَفَ خَبَرَ مَسِيرِي، وَجَدَّي فِيهِ وَتَسْمِيرِي؛ بَرَزَ بَرُوزَ الْمُخَالَفِ الْمَكَاشِفِ، وَتَجَرَّدَ تَجَرَّدَ الْمَوَاقِفِ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ إِذَا أَرَدَدْتُ مِنْهُ قُرْبًا، أَرَدَادَ مِنِّي رُعْبًا؛ وَإِذَا دَلَّفْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، نَكَّصَ عَنِّي بَاعًا .

وتوافقت إلى حضرتي وجوه القبائل من عقيل وشيبان وغيرهما في الجمع الكثيف من صعاليكهما ، والعدد الكثير من صناديدهما ؛ داخلين في الطاعة ، متصرفين في عوارض الخدمة .

فلما شارفت الحديثة، أنتقضت عزائم صبره، وتقوضت دعائم أمره؛ وبطلت أمانيه ووساوسه، وأضحلت خواطره وهوأجسه؛ وأضطرب عليه من نقايه وغلمانه من كان بهم يعتصد، وعليهم يعتمد؛ وبدءوا بخذلانه والأخذ لنفوسهم، ومفارقتهم والطلب بحظوظهم؛ وحصل منهم بحضرتي إلى هذه الغاية زهاء خمسمائة رجل ذوى خيل مختارة، وأسلحة شاكية؛ فصادفوا عندي ما أملاؤا من فائض الإحسان، وغامر الأمتنان؛ وذكروا عن وراءهم من نظرائهم التزى إلى الانجذاب، والحرص على الاستئمان؛ وأنهم يردون ولا يتأخرون، ويبادرون ولا يتلومون .

ولما رأى ذلك، لم يملك نفسه أن مضى هاربا على طريق سنجان، منكشفا عن هذه الديار؛ قانعا من تلك الآمال الخائبة، والظنون الكاذبة؛ بسلامة حشاشة هي رهينة غيبها، وصريرة بغيبها .

وكان أنهزأه بعد أن فعل الفعل السخيف، وكادنا الكيد الضعيف؛ بأن أغرق سفن الموصل وعروبها، وأحرق جسرها وأستدتم^(١) إلى أهلها؛ وتزود منهم اللعن المطيف به أين يم، الكائن معه حيث خيم .

ودخلتها يومى هذا - أيد الله أمير المؤمنين - دخول الغانم الظافر، المستعلي الظاهر؛ فسكنت نفوس سكانها، وشرحت صدور قطنها؛ وأعلنتهم ما أمرنى

(١) نوع من السفن الرواكد كان في دجلة ولكنه عبر عنها في القاموس بالعربات . أى فواحدها

عربة بالتحريك .

(٢) أى فعل ما يذم عليه .

به أمير المؤمنين - [أدام الله عزه] وأعلى الله أمره - من تأنيس وحشتهم، ونظم ألفتهم، وضم نثرهم، ولم شعثهم؛ وإجمال السيرة فيهم في ضروب معاملاتهم وعلقتهم، و صنوف متصرفاتهم ومعاشيهم؛ فكثرت منهم الثناء والدعاء؛ والله سامع ما رفعوا، ومُجيب ما سألوا .

وأجلت حال هذا الجاهل - أيد الله أمير المؤمنين - عن أقبح هزيمه، وأذل هزيمه، وأسوأ رأي، وأنكر اختيار؛ لأنه لم يلقني لقاء البائع بالطاعة، المعتذر من سالف التفريط والإضاعة؛ ولا لقاء المصدق لدعواه في الاستقلال بالمقارعة، المحقق لزمه في الثبات للدافعه؛ ولا كان في هذين الأمرين بالبر التقي، ولا الفاجر الغوي، بل جمع بين نقيصة شفاقه وغدره، وفضيحة جبنه وخوره؛ متنكبا للصالح، عادلا عن الصواب؛ قد ذهب عنه الرشاد، وضربت بينه وبينه الأسداد، وأنزله الله منزلة مثله ممن أساء حفظ الوديعه، وجوار الصنيعه؛ وأستوجب تزعمهما منه وتحويلهما عنه .

وتأملت - أيد الله مولانا أمير المؤمنين - أمره بالتجريب، وتصفحته على التقلب؛ فإذا هو الرجل الذي أطاع أبوه فيه هوى أمه،^(١) وعصى دواعي رأيه وحزمه؛ وقدمه من ولده على من هو أنس رُشدا، وأكبر سنا؛ وأثبت جأشا، وأجرأ جنانا؛ وأشجع قلبا، وأوسع صدرا؛ وأجدر بمخايل النجابه، وشمائل اللبابه .

فلما اجتمعت له أسباب القدرة والثروة، وأمكنته مناهز الغرة والفرصة، وثب عليه وثبة السرحان، في ثلثة الضان؛ وجزاه جزاء أم عامر لمخيرها، إذ فرته بأنبيائها وأظافيرها؛ واجتمع [هو] وأخوه من الأثم، المرتضع معه لبان الإثم؛ المكثي

(١) هي فاطمة بنت أحمد الكردية وكانت مالكة أمر ناصر الدولة . من هامش مخبرات الصابي المطبوعة .

أبا البركات - وليس بأب لها ، ولا حريّ بشيء منها - على أن نَسَرَنا عنه وَعَقَّاه ،
 وَقَبَضَا عليه وَأَوْتَقَاه ؛ وَأَقْرَاهُ من قَلْعَتِهما بِمِثْ تَقَرُّ العُتَاه ، وَتُعَاقِبُ الجُنَاه ؛ ثم أَتَبَعَا^(١)
 ذلك باستحلالِ دمه ، وإفاضة مُهْجَتِه ، غيرَ رَاعِيَيْنِ فِيهِ حَقِّ الأَبُوهُ ، ولا حَانِيَيْنِ عَلَيْهِ
 حُقُوقِ البُتُوهُ ؛ ولا مَتَدَمِّمِيْنَ من الإِقْدَامِ عَلَى مِثْلِه مِمَّنْ تَقَدَّمَتْ عِنْدَ سُلْطَانِه قَدْمُه ،
 وَتَوَكَّدَتْ أَوَاصِرُه وَعِصْمُه ؛ ولا رَاحِمِيْنَ لَهُ من ضَعْفِ شَيْخُوختِه ، وَذَهَلِ كِبَرَتِه ؛
 وَلا مُضْغِيَيْنِ إِلَى وَصِيَّةِ اللهِ إِيَّاهُمَا ، الَّتِي نَصَّها فِي مُحْكَمِ كِتَابِه ؛ وَكَرَّرَها فِي آيِه وَبَيِّنَاتِه
 إِذْ يَقُولُ : ﴿ أَشْكُرُ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴾ ، وَإِذْ يَقُولُ : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا
 إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا
 وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَآخِفْضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ أَرْحَمُهُمَا
 كَمَا رَبَّيْتَنِي صَغِيرًا ۝ .

فَبَأَيِّ وَجْهِ يَلْقَى اللهُ قَاتِلَ الْوَالِدِ حَدِيدٍ قَدْ أَمَرَ أَنْ لَا يَنْهَرَهُ ؟ وَبَأَيِّ لِسَانٍ يَنْطِقُ
 يَوْمَ يُسْأَلُ عَمَّا اسْتَجَازَه فِيهِ وَقَعَلَه ؟ وَتَاللهِ ! لو أَنَّ بِمَكَانِه عُدُوًّا لَهَا قَدْ قَارَضَهُمَا
 الدُّحُولُ ، وَقَارَعَهُمَا عَنِ النَّفُوسِ ؛ لَتَبَّحَّ بِهِمَا أَنْ يَلُومَا ذَلِكَ اللُّؤْمَ عِنْدَ الظَّفَرِ بِهِ ،
 وَأَنْ يَرْبِكَا تِلْكَ الخُطَّةَ الشَّنْعَاءَ فِي الأَخْذِ بِنَاصِيَتَيْهِ ؛ وَلَمْ يَرْضَ « فَضَّلَ اللهُ » بِمَا
 أَتَاهُ إِلَيْهِ حَتَّى اسْتَوْفَى حُدُودَ قَطْعِ الرَّحْمِ ، بَأَنْ تَتَّبَعَ أَكْبَابَ إِخْوَتِه السَّالِكِينَ خِلاَفَ

(١) فِي سِنَةِ سِتِّ وَخَمْسِينَ وَثَلَاثَةَ قَبَضَ أَبُو تَغْلِبِ بْنِ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ بْنِ حَمْدَانَ عَلَى أَبِيهِ وَحَبَسَهُ فِي قَلْعَةٍ
 وَذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَ قَدْ بَلَغَ مِنَ الكِبَرِ عِتْيًا وَسَاءَتِ أَخْلَاقُه وَضَيَّقَ عَلَى أَوْلَادِه وَخَالَفَهُمْ فِي أَهْوَاءِهِمْ فَضَجَرُوا مِنْهُ
 وَكَانَ مِنْ جَمَلَةٍ مَا خَالَفَهُمْ فِيهِ أَنَّهُ عِنْدَ وَفَاةِ مَعزِ الدَّوْلَةِ وَوَلَايَةِ ابْنِهِ بِخِتَارِ عَزَمُوا عَلَى قَصْدِ العِرَاقِ فَنَعِمَهُمْ قَاتِلًا
 أَنْ مَعزِ الدَّوْلَةِ قَدْ خَلَفَ لِوَلَدِه مِنَ المَالِ مَا يَمَكِّنُ مَعَهُ مِنَ الظُّهُورِ فَاصْبَرُوا حَتَّى يَتَفَرَّقَ مَالُه فَوُثِبَ عَلَيْهِ أَبُو تَغْلِبِ
 وَوَضَعَهُ فِي مَحْبَسٍ فَغَضِبَ بَعْضُ إِخْوَتِه وَوَقَعَ الخِلاَفُ بَيْنَهُمْ وَانْتَشَرَ أَمْرُهُمْ . وَكَانَ نَاصِرِ الدَّوْلَةِ يَسْتَنْصِرُ بِابْنِهِ
 حَمْدَانَ عَلَى أَبِي تَغْلِبِ وَأَبِي بَرَكَاتِ فَغَلَّاهُ إِلَى قَلْعَةٍ كَوَاشِي وَتَوَفَّى فِي الإِعْتِقَالِ فِي رِبِيعِ الأَوَّلِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ
 وَثَلَاثَةَ أَهْ مِنْ هَامِشِ المَخْتَارَاتِ المَطْبُوعَةِ .

سَيْلِهِ ، المتبرئين إلى الله من عظيم ما اكتسب ، ووخيم ما احتقبت ، لما غضبوا
لأيهم ، وامتعضوا من المستحل فيه وفيهم : فقبض على محمد بن ناصر الدولة حيلة
وغيلة ، وغدرا ومكيدة ؛ ونابد حمدان بن ناصر الدولة مُنابذةً خار الله له فيها ، بأن
أصاره من فناء أمير المؤمنين إلى الجانب العزيز ، والحزب الحريز ؛ وأن أجرى الله على
يده الحرب الواقعة بينه وبين المعروف بكنيته أبي البركات ، التي لقاء الله فيها تحسه ،
وأتلّف نفسه ؛ وصرعه بعقوبه وبعنيه ، وقنعه بعاره وخرّيه ؛ وهو مع ذلك لا يتعظ ؛
ولا يتزع ولا يقلع ولا يزيدجر ؛ إصراراً على الخرائر التي الله عنها حسيبه ، وبها طليبه ؛
والدنيا والآخرة مُرصدتان له بالجزء المحقوق عليه ، والعقاب المسوق إليه .

وأعظم من هذا كله - أيد الله أمير المؤمنين - خطبا ، وأوعر مسلكا ولجبا ، أن
من شرائط العهد الذي كان عهد إليه ، والعقد الذي عُقد له ؛ والضمان المخفف
مبلغه عنه ، المأخوذ عفو منه ؛ أن يتناهى في ضبط الثغور وجهاد الروم وحفظ
الأطراف ، ورم الأكَاف ؛ فما وفى بشيء من ذلك ، بل عدل عنه إلى الاستئثار
بالأموال واقتطاعها ، وإحرازها في مكائنها وقلاعها ؛ والضن بها دون الإخراج
في وجوهها ، والوضع لها في حقوقها ؛ وأن تراخى في أمر عظيم الروم مهملًا ، وأطرح
الفكر فيه مغفلاً ؛ حتى هم في الديار ، وأثر الآثار ؛ ونكى القلوب ، وأبى العيون ؛
وصدع الأبدان ، وأحر الصدور ؛ فما كان عنده فيه ما يكون عند المسلم القارئ للكتاب
الله إذ يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيَعْيِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ بل صدف
عن ذكر الله لاهيا ، وعدل عن كتابه ساهيا ؛ وأستفسخه ذلك البيع والعقد ، وتجزه
الوعيد لا الوعد ، ولاطف طاغية الروم وهاداه ، وماره وأعطاه ؛ وصانعه بمال

المسلمين الذي يَلْزِمُهُ - إن سَلِمَ دِينُهُ وَصَحَّ يَقِينُهُ - أن يُنْفِقَهُ فِي مَرَابِطِهِمْ ، وَيُدَبِّ بِهِ
 عَنْ حَرِيمِهِمْ ؛ لَا أَنْ يَعْكِسَهُ عَنْ جِهَتِهِ ، وَيُلْفِتَهُ عَنْ وِجْهِتِهِ ؛ بِالنَّقْلِ إِلَى عَدُوِّهِمْ ،
 وَإِدْخَالَ الْوَهْنِ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ . وَقَادَ إِلَيْهِ مِنَ الْخَيْلِ الْعِتَاقِ مَا هُوَ الْآنَ عَوْنٌ لِلْكَفْرِ
 عَلَى الْإِيمَانِ ، وَنَجْدَةٌ لِلطَّاعِيَةِ عَلَى السُّلْطَانِ ؛ وَكَانَ فِيهَا أَتَّخَفَهُ بِهِ الْخَمْرُ الَّتِي حَظَرَ اللَّهُ
 عَلَيْهِ أَنْ يَشْرَبَهَا وَيَسْقِيَهَا ، وَتَعَبَّدَهُ بِأَنْ يَجْتَنِبَهَا وَيَجْتَنِبِيَهَا ؛ وَصُلبَانُ ذَهَبٍ صَاغَهَا لَهُ
 وَتَقَرَّبَ بِهَا إِلَيْهِ تَقَرُّبًا قَدْ بَاعَدَهُ اللَّهُ فِيهِ عَنِ الْإِصَابَةِ وَالْأَصَالَةِ ، وَأَدْنَاهُ مِنَ الْجَهَالَةِ
 وَالضَّلَالَةِ ؛ حَتَّى كَانَهُ عَامِلٌ مِنْ عُمَّالِهِ ، أَوْ يَطْرُقُ مِنْ بَطَارِقَتِهِ .

فَأَمَّا فَشْلُهُ عَنْ مَكَانَتِهِ ، وَلِهَاجِهِ بِمَلَاطِفَتِهِ ، فَضِدُّ الَّذِي أَمَرَهُ اللَّهُ بِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْمُوا أَنْ
 اللَّهُ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَأَمَّا نَقْلُهُ مَا نَقَلَ مِنَ الْخَيْلِ مِنْ دِيَارِ الْمُسْلِمِينَ إِلَى دِيَارِ أَعْدَائِهِمْ ، فَتَقْيِضُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ
 ﴿ وَأَعْدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .
 وَأَمَّا إِهْدَاؤُهُ الْخَمْرَ وَالصُّلْبَانَ ، فَخِلَافٌ عَلَيْهِ تَبَارَكَ اسْمُهُ ، إِذْ يَقُولُ : ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ
 وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

كُلُّ ذَلِكَ عِنَادًا لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ، وَطَمَسًا لِأَعْلَامِ الدِّينِ ؛ وَضَنًا بِمَا يُجَاهِي عَلَيْهِ مِنَ
 ذَلِكَ الْحُطَامِ ، الْمَجْمُوعِ مِنَ الْحَرَامِ ، الْمَثْمَرِ مِنَ الْآثَامِ ، الْمَقْتَطَعِ مِنْ فِئَةِ الْإِسْلَامِ ؛
 وَقَدْ فَعَلَ الْآنَ بِي وَبِالْعَسَاكِرِ الَّتِي مَعِيَ وَمَنْ نَضَمَ مِنْ أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ هُمْ
 إِخْوَتُهُ وَصَحْبُهُ - إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا ، وَأَنْصَارُهُ وَحِزْبُهُ - إِنْ كَانَ مُؤَقِّنًا ؛ مِنْ تَوْعِيرِ
 الْمَسَالِكِ وَتَغْرِيقِ الْعُرُوبِ ، وَتَضْيِيقِ الْأَقْوَاتِ ، وَأَسْتِهْلَاكِ الْأَزْوَادِ ؛ لِيُؤْصَلَ إِلَيْنَا
 الضَّرُّ ، وَيُلْحَقَ بِنَا الْجَهْدُ ؛ فَعَلَّ الْعَدُوِّ الْمُبِينِ ، الْمَخَالَفِ فِي الدِّينِ ؛ فَهَلْ يَجْتَمِعُ

﴿ في أحد من المسأوي - أيد الله أمير المؤمنين - ما اجتمع ﴾^(١) في هذا الناد العائد ، والشاذ الشارد ؟ ، وهل يُطمع من مثله في حق يقضيه ، أو فرض يوديه ؛ أو عهد يرعه ، أو ذمام يحفظه ؛ وهو لله عاص ، وإمامه مخالف ، ولوالده قاتل ، ولرحمه قاطع ؟ كلا والله ! بل هو الحقيق بأن تُثنى إليه الأعنة ، وتُشرع نحوه الأسنة ؛ وتُنصب له الأرصاء ، وتُشخذ له السيوف الحداد ؛ ليقطع الله بها داره ، ويحبب غاربه ؛ ويصرعه مصرع الأئيم المأيم ، المستحق للعذاب الأليم ؛ أو يُقنى إلى الحق ، إفاءة الداخل فيه بعد خروجه ، العائد إليه بعد مروره ، التائب المنيب ، النازع المستقبل ؛ فيكون حُكْمه شبيهاً بحكم الراجع عن الردة ، المحمول على ظاهر الشريعة ؛ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فالحمد لله الذي هدانا لمرآشدنا ، ووقف بنا على السبيل المنجية لنا ؛ والمقاصد المفضية إلى رضاه ، البعيدة من سطاه .

والحمد لله الذي أعز أمير المؤمنين بالنصر ، وأعطاه لواء القهر ؛ وجعل أولياءه العالين الظاهرين ، وأعداءه السافين الهابطين ؛ وهنأه الله هذا الفتح ولا أخلاه من أشكال له تقفوه وتتبعه ، وأمثال نثلوه وتشفعه ؛ واصلاً فيها إلى ما وصل فيه إليه من حيازته مهناً ؛ لم يُسفك فيه دم ، ولم يُنتهك محرم ، ولم يُنل جهد ، ولم يمسس نصب . أنهيت إلى أمير المؤمنين ذلك ، ليضيف صنع الله له فيه ، إلى السالف من عوارفه عنده وأياديه ، وليجدد من شكره جلّ وعلا ما يكون داعياً إلى الإدامة والمزيد ، مقتضياً للعون والتأييد ؛ إن شاء الله تعالى .

﴿ وكتب يوم الجمعة لتسع ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة ﴾^(٢)

(١) الزيادة عن مختارات رسائل الصابي المطبوعة (ج ١ ، ص ٩١) وهي لازمة لانتظام الكلام .

(٢) الزيادة من مختارات رسائل الصابي .

الأسلوب الثاني

(أن تفتتح المكتبة بلفظ «كتابي للخليفة والحال على كذا وكذا» ويدعى للخليفة

بطول البقاء في أثناء ذلك ، ويعبر الملك المكتوب عنه عن نفسه

بلفظ الأفراد مع التصدير بالعبودية ، ويخاطب الخليفة

بأمر المؤمنين ويحثم بالدعاء ونحوه)

كما كتب أبو الفرج البغا عن السلطان أبي تغلب بن ناصر الدولة أحد ملوك بني حمدان بحلب وما معها ، جواباً للكتاب الوارد عليه من الطائع أو المطيع بالكنية والخلع ماضورته :

« كتابي - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - وعبد أمير المؤمنين مستديم بشكر الله تعالى مدد النعم المتظاهرة عليه ، والمنح المتناصرة لديه ؛ بجميل رأيه أدام الله علوه وتقديمه - معترف بما طوقته به السعادة من عوارف تشريفه ؛ متمسك من الطاعة بما أحله كنف إحسانه ، متوصل بالطرف إلى الاستزادة من طوله وأمتانه .

والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيد المرسلين ، محمد وآله الطاهرين .

ووصل كتاب أمير المؤمنين - أدام الله نصره - مشتملاً على فوائد الإرشاد

والتوقيف ، مقترناً بخصائص التكرمة والتشريف ؛ فاقتديت من أوامره - أعلاها

الله تعالى ! - بأهدى دليل ، وسلكت في شكر ما أعمدني من إشاره أوضح سبيل ؛

وبرزت لسائر من آخترني - أيده الله - لسياسته من الخاصة والعامة في الحلل

الحالية بسبب تشريفه وإكرامه ، متدرعاً ثوبى هديه وسكينة ، ومختلاً منها ما بين كنفى

دفاعه ومعونته ؛ ومتقلداً غضبه الذى هز النصر غراره ، وأطلق المضاء سفاره ؛

وعالياً على عُتق الزمان، بامتطاء ما جَبَانِي به من الحملان؛ مسترقِّ النية بالرغبة إليه،
ومستخديم النطق بالثناء عليه؛ ومقتصفاً أثر أسلافِي في خدمته وخدمة آبائه المؤمنين،
من الخلفاء الراشدين، صلواتُ الله عليهم أجمعين؛ وأقتفاءً مذهبهم في الذب عن فِئَةِ
الخلافة والمُرَامة دُونَ المِلَّةِ، والاجتهادِ في طاعة الأئمَّة .

فالحمدُ لله الذي جعل صنائعَ أمير المؤمنين مستقرةً عند مَنْ يرتبطُها بعلائقِ الشكر،
ويحرسها بالتوقُّرِ على ما أفاد الإجماعَ وجميلَ الذِّكرِ؛ وأدامَ علوَ أمير المؤمنين! وأيدنا
بعزِّ دولته، وبسَطِ بالتمكينِ قُدْرته، وحرَس من الغيرِ سلطانه، وقرنَ بنفاذِ الأمرِ يده
ولسانه؛ ولا أخلاه من ولى ينشيه ويصنعه، وشكَّور يُعليه ويرفعه؛ وعزمٌ يحمدهُ أثره
ويرتضيه، ورأيٍ بالتوفيقِ يُبرمه ويمضيه . ووقَّفى من القيامِ بحقِّ خدمته،
والتمسكِ بفرائضِ طاعته، والمعرفةِ بمواقعِ أصطناعه وتفضله، والاعتدادِ بمنحِ إنعامه
وتطوُّله؛ لما يستريذني من أياديهِ وآلائهِ، ويحرسُ على مَكَاني من جميلِ آرائهِ،
إنه جواد كريم .

وقد آذنتُ من بعدِ وقربِ برفعِ أمير المؤمنين - أدامَ اللهُ بسطته - ذِكْرِي عن
تعريفِ الاسمِ بنباهةِ الكُنْيَةِ، وإصدارِ ذلكِ إلى الأسماعِ من شريفِ عبارته،
والإذنِ فيه لسائرِ مَنْ يذكُرني بحضرتِهِ، زادَ اللهُ في جلالِها . وتقدمتُ بإثباتِ ذلكِ
على عُنواناتِ الكُتُبِ أمثالاً لأمرِهِ، وأخذاً بإذنه، ووقُوفاً عندِ رسمِهِ؛ عارفاً قدرَ
النعمةِ والموهبةِ فيه . وأعددتُ بما أعلمنيه أمير المؤمنين من نيابةِ فلانِ عبدهِ
وما توخَّاه من محمودِ السَّفارةِ، وحُسنِ الوَساطةِ، ووجدتُ ما يجعني وإياه من
الإخلاصِ في ولاءِ أمير المؤمنين أقربِ الأنسابِ، وأوكدَ الأسبابِ؛ في تأكُّدِ
الألفَةِ، وتثبيتِ قواعدِ الطاعةِ؛ واللهُ يحرسُ أمير المؤمنين في كافَّةِ رعيتِهِ، وخاصَّةِ
أوليائه وصنائعِ دولته؛ من اختلافِ الآراءِ، وتشدُّبِ الأهواءِ؛ ويُعيني من النهوضِ

بمفترّصات أياديه ، وواجبات ما يُسديهِ إلىّ ويؤيِّله ؛ [على] ما قرَّب منه وإليه ،
وأزَلَّف عنده ولَدَيْهِ ؛ بمنه ومَشِيئته ، وحوْلُه وقُوته .



الحالة الثانية — من مكاتبات الملوك إلى خلفاء بني العباس ما كان عليه الأمرُ
في آخر دولتهم ببغداد .

والحال فيه مختلف : فتارةً يفتتح بالدعاء للديوان العزيز ، وتارةً بالدعاء لما يُؤود
عليه ، وتارةً بالصلاة ، وتارةً بالسلام . وربما أفتتحت المكتابةُ بآية من القرآن
الكريم مناسبة للحال .

قال المقرّ الشهابيُّ بن فضل الله في كتابه " التعريف " : والصدرُ نحو العبد
أو المملوك أو الخادم يُقبَّل الأرض ، أو العتبات ، أو مواطئِ المواقف أو غير ذلك .
ويخاطب الخليفة في أثناء الكتاب بالديوان العزيز ، وبالمواقف المقدسة أو المشرفة ،
والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشرف ، والجانب الأعلى أو الشريف ،
وبأمر المؤمنين مجرّدة عن سيدنا ومولانا ، ومرةً غير مجرّدة مع مراعاة المناسبه
والتسديد والمقاربه . ويختم الكتاب تارةً بالدعاء ، وتارةً بطالع أو أنهى أو غيرهما مما
فيه معنى الإنهاء .

قال : وأختلِف فيما يخاطبُ به المكتوب عنه عن نفسه : فكتب صلاح الدين
أبن أيوب « الخادم » وكتب بنوه والعدل أخوه « المملوك » وكتب الكامل بن العادل
« العبد » وجرى على هذا أبْنُه الصالح . وكتب الناصر بن العزيز « أقلُّ الممالك »
وكتب الناصر داود « أقلُّ العبيد » ؛ وكان علاء الدين خوارزم شاه يكتب « الخادم
المطواع » وتبعه على ذلك أبْنُه جلال الدين ، وكانت أم جلال الدين تكتب
« الأمة الداعية » . هذا على شتم أنوف الخوارزمية وعلو شأنهم .

وعنوان هذه المكاتبات على اختلافها « الديوانُ العزيز، العالى، المولوى،
السيدى، النبوى، الإمامى، الفلانى (بلقب الخلافة) أدامَ اللهُ أيامه، أو خلد
الله أيامه، أو أدامَ اللهُ سلطانه » على مناسبة ما فى صدر الكتاب .
ثم هو على ستة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكاتبه بالدعاء للديوان العزيز)

قال فى "التعريف" : والمراد بالديوان ديوانُ الإنشاء، لأن المكاتبه عنه
صادرة وإليه واردة . قال : وسبب مخاطبتهم بالديوان الخضعان عن مخاطبة
الخليفة نفسه ، ويكون الدعاء للديوان بما فيه معنى دوام العز والسلطان وبسط
الظل وما أشبه ذلك . مثل : أدامَ اللهُ أيامَ الديوان العزيز، أو أدامَ اللهُ سلطانَ
الديوان العزيز، أو خلدَ اللهُ أيامَ الديوان العزيز، أو خلدَ اللهُ سلطانَ الديوان العزيز،
وأدامَ اللهُ ظلَ الديوان العزيز، وخذَ اللهُ ظلَ الديوان العزيز، وبسطَ اللهُ ظلَ الديوان
العزيز، وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة كتاب كتب به القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف
ابن أيوب» صاحب الديار المصرية ، إلى الناصر لدين الله الخليفة يومئذ ببغداد ،
بفتح القدس وما معه ، واقتلاع ذلك من أيدي الفرنج وإعادته إلى ما كان عليه
من الإسلام، وهى :

«أدامَ اللهُ أيامَ الديوان العزيز النبوى الناصرى، ولا زال مظفر الحد بكل
جاحد، [غنى] التوفيق عن رأى كل رائد، موقوف المساعى على آقتناء مطلقات

المحامد، مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعي الفضل وإن كان لا يليق إلا بشكر واحد، [ماضى حكم القول بعزم لا يمضى إلا بنسل غوي وریش راشد] ^(١) ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء] ^(١) أنواع إلى المراجع وأنواراً إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيالاً إلى المراقب وخيالاً إلى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلومصدر عنه مما كان يجرى مجرى التبشير بصبح هذه الخدمة، والعنوان لكاتب وصف هذه النعمة، فإنها بحر للأقلام فيه سجع طويل، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب، ويسرى للأسرار في إظهارها مسارب؛ ولله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضي. وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، وأستبنت عقائد أهله على بصائرهما؛ وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلمبا وقع الشرط حصل المشروط؛ وكان الدين غريباً فهو الآن في وطنه، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه؛ وأمر أمر الحق وكان مستضعفاً، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا؛ [وجاء أمر الله وأتوف أهل الشرك راغمه] ^(١) فأدبجت السيوف إلى الآجال وهي نائمة، وصدق وعد الله في إظهار دينه على كل دين، وأستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين؛ وأسترد المسلمون تراثنا كان عنهم أبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيقاً على النأي طارقاً؛ وأستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما شفى بالماء ظلهم .

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ .

ولما قَدِمَ الدينُ عليها عرف منها سُويْدَاءَ قلبه ، وهنَّا كَفَرُهَا المجرُ الأسودُ بِنْتِ عَصْمِيَّهَا من الكافرِ بجرِّه ؛ وكان الخادم لايسعى سعيه إلا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤسى إلا رجاء هذه النعمى ؛ ولا يَنَاجِزُ من استمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنَا من تمادى في عتبه ؛ إلا لتكون الكلمة مجموعته ، والدعوة إلى سامعها مرفوعه ؛ فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرض الأدنى من الدنيا ؛ وكانت الألسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطرُ ربما غلت عليه مَرَّاجِلُهَا فأطفاها بالاحتمال والأضطبار ؛ ومن طلب خطيراً خاطراً ، ومن رام صَفْقَةً رابحة تجاسر ، ومن سمَا لأن يُجَلِّيَ عَمْرَةَ غامر ؛ وإلا فإنَّ القعود يُلين تحت نُيُوب الأعداء المعالجِمَ قععضها ، ويُضعِف في أيديها مهتر القوائم فتقضيها ؛ هذا إلى كون القعود لا يقضى فرض الله في الجهاد ، ولا يُرعى به حقُّ الله في العباد ؛ ولا يوفى به واجبُ التقليد الذي تطوقه الخادم من أئمة قضاوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم لله يسألون ؛ لاجرم أنهم أورتوا سرورهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، وتجلَّهم الأكبر ؛ وقيتهم الشريفه ، وطعنتم المنيفه ، وعُلوان صحيفه فضيلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفه ؛ فما غابوا لما حضر ، [ولا غَضُوا^(١) لما نظر ، بل وصلهم الأجر لما كان به موصولاً ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولاً ومنه مقبولاً ؛ وخلص إليهم إلى المضاجع ما أطمأنت به جنوبها] وإلى الصفائح ما عبقَّت به جُيوبها^(١)] وفاز منها بذكر لا يزال الليلُ به سَميراً ، والنهارُ به بصيراً ؛ والشرقُ يهتدي بأنواره ، بل إن أبدى نُورا من ذاته هتف به الغربُ بأن واره ؛ فإنه نور لا تُكثته أغساق السدف ، وذكر لا تُواريه أوراق الصُحف .

(١) الزيادة من رسائل الفاضل القوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ .

وهي لازمة كما لا يخفى .

وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا، وطارت فرقه فرقا، وفل سيةه فصار عصا، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وحصا، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تُصرف فيه العنان بالعيان، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان؛ وعترت قدمه وكانت الأرض لها حليفه، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفه؛ ونام جفن سيفه وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون، وجذعت أنوف رماحه وطالما كانت شاحخة بالمنى أو راعفة بالذنون؛ وأضحيت الأرض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث، والرّب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث؛ فبيوت الشرك مهذومه، وثيوب الكفر مهتومه؛ وطوائفه المحاميه، مجتمعة على تسليم البلاد الحاميه، وشجعانه المتوافيه، مُدعنة ببذل المطامع الوافيه؛ لا يرون في ماء الحديد لهم عضره، ولا في فناء الأفنية لهم نُصره؛ وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنه، وبدل الله مكان السيئة الحسنه، ونقل بيت عبادته من أيدي أصحاب المشامة إلى أيدي أصحاب الميمنه .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاء الأولى فأمده الله بمداركته، وأنجده بملائكنه؛ فكسرهم كسرة ما بعدها جبر، وصرعهم صرعة لا يعيش معها بمشينة الله كُفر؛ وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل؛ وأجلبت المعركة عن صرعى من الخليل والسلاح [والكفار، وعن أنصاف محيل فانه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكار، فنيلوا بنار من السلاح ونالوه أيضا بشار^(١)]؛ فكم أهلة سيوف تقارضن الضراب بها حتى عادت كالعراجين، وتم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالطاعين؛ وكم فارسية ركض عليها فارسها السهم إلى أجل فاختلسه، وفقرت تلك القوس فاها فإذا فوها قدنهنش القرن

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفتوحراية .

على بُعد المسافة فاقتَرَسَه ؛ وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ؛ وكان الكُفْرُ مفقودا ، والإسلام مولودا ، وجعل الله ضلوع الكُفَّار نار جهنم وقودا ؛ وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، وآكد وصله بالدين وعلائقه : وهو صليب الصلْبوت ، وقائد أهل الجبروت ؛ وما دُهِموا قطُّ بأمر إلا وقام بين دهايمهم يَبْسُط لهم باعَه ، ويحترضهم وكان مدُّ اليدين في هذه الدفعة وداعه ؛ لا جرم أنهم تهافت على نارهم فرأشهم ، وتجمّع في ظل ظلامه خَشاشُهم ؛ فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقَه ، ويرونه ميثاقا يَبْنُون عليه أشدَّ عقْدٍ وأوثقَه ، ويعُدونه سورا تحفِرُ حوافر الخيل خندقَه .

وفي هذا اليوم أُسِرَت سرائهم ، وزهبت دُهايمهم ؛ ولم يُفْلِت معروفٌ إلا القومُ وكان لعنه الله ملياً يوم الظفر بالقتال ، ويوم الخذلان بالأحتيال ؛ فنجا ولكن كيف ، وطار خوفا من أن يلحقه منسر الرُحِّ وجناحُ السيف ، ثم أخذه الله بعد أيام بيده ، وأهلكه لموعده ؛ فكان لعنتهم فذلك ؛ وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نَسَر عليها من الراية العباسية السوداء صبغا ، البيضاء صُنعا ، الخالقة هي وقلوب أعدائها ؛ الغالبة هي [وعزائم أوليائها] ^(١) المستضاء بانوارها إذا فتح عينها البشر ، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر ؛ فافتتح بلد كذا وكذا وهذه أمصار ومدن ، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن ؛ وكل هذه ذوات معاقل ومعاقرة ، وبحارٍ وجرائر ؛ وجوامع ومناير ، وجموع وعساكر ؛ يتجاوزها الخادم بعد أن يُحَرِّزها ، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها ؛ ويحصد منها كُفرا ويزرع إيمانا ، ويحط من منائر جوامعها صلبانا ويرفع أذانا ؛ ويبدل المذابح

(١) الزيادة من رسائل الفاضل .

مناير والكائس مساجد، ويؤى بعد أهل الصلبان أهل القران للذب عن دين الله
مقاعد؛ ويقتر عينه وعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بجار
ومجور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلاله وزياله إلى يوم النخ في الصور.
ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها
كل قريب منهم وبعيد، وظنوا أنها من الله مانعهم، وأن كنيستها إلى الله شافعهم؛
فلبها نازلها الخادم رأى بلدًا كبلاد، وجمعًا كيوم التناد، وعزائم قد تألفت وتألبت
على الموت فنزلت برصته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته؛ فزاول البلد
من جانب فإذا أودية عميقة، ولجج وعرة غريقه، وسور قد انعطف عطف السوار،
وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار؛ فعدل إلى جهة أخرى كان للطامع
عليها معرج، ولخيل فيها متوج؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقرب منها؛ وضربت
خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه، ويزاحمه السور بأكفاه؛ وقابلها ثم قاتلها،
ونزلها ثم نازلها؛ وبرز إليها ثم بارزها، وحاجرها ثم ناجرها؛ فضمها صمة ارتقب
بعدها الفتح، وصدع أهلها فإذا هم لا يصبرون على عبودية الجدد عن عتق الصنح؛
فراسلوه ببذل قطيعة إلى مده، وقصدوا نظرة من شدة وانتظارًا لنجده؛ فعرفهم
في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول؛ وقدم المنجنقات التي تتولى عقوبات
الحصون عصيها وحبالها، وأوترهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ولا يفارق
سهامها فصالحها؛ فصالح السور بأكفاه فإذا سهمها في شأيا شرفاتها سواك،
وقدم النصر نسرا من المنجنق يُخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو عو له إلى السماء؛
فشج مرادع أبراجها، وأسمع صوت عيجها، ورفع مئار عجاجها، فأحلى السور من
السياره، والحرب من النظاره؛ فأمكن الثقاب، أن يسفر للحرب الثقاب، وأن يعيد

الحجر إلى سيرته من التراب؛ فتقدم إلى الصخر فوضع سرده، بأنياب مِعُولِهِ، وحلَّ عقده، بضربه الأخرق الدالَّ على لَطَافَةِ أَمَلِهِ، وأسمع الصخرة الشريفة حينئذ واستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبِّله؛ وتبرأ بعض الحجارة من بعض، وأخذ الخراب عليها موتفا فلن تبرح الأرض؛ وفتح في السور باب سد من نجاتهم أبوابا، وأخذ نقب في حجرة قال عنده الكافر: يَا لَيْتِي كُنْتُ تُرَابًا؛ حينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور.

وفي الحال خرج طاغية كُفْرِهِمْ وزمام أمرهم ابن بارزان سائلا أن يؤخذ البلد بالسلم لبالعنوه، وبالآمان لبالسطوه؛ وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذلُّ الملكة بعد عزِّ الملكة، وطرح جبينه في التراب وكان حينئذ لا يتعاطاه طارح، وبذل مبلغًا من القطيعة لا يطمح إليه طرف أملٍ طامح؛ وقال: ها هنا أسارى مؤمنون يتجاوزون الألوف وقد تعاهد الفَرَنْج على أنهم إن هُجِمَت عليهم الدار، وحملت الحرب على ظهورهم الأوزار؛ بُدئ بهم فَعَجَّلُوا، وُئِي بنساء الفَرَنْج وأطفالهم فقتلوا، ثم آستقتلوا بعد ذلك فلم يُقتل خصم إلا بعد أن يتنصف، ولم يسَلَّ سيف من يده إلا بعد أن تنقطع أو ينقص؛ وأشار الأمراء بالأخذ بالميسور، من البلد المأسور؛ فإنه إن أخذ حربا فلا بد أن تتحجم الرجال الأتجاد، وتبذل أنفسها في آخر أمرٍ قد نبيل من أوله المراد. وكانت الجراح في العساكر قد تقدم منها ما اعتقل الفتكات، واعتاق الحركات، فقيل منهم المبدول عن يدهم صاغرون، وأنصرف أهل الحرب عن قُدرة وهم ظاهرون، وملك الإسلام خطة كان عهدُه بها دمنة سگان، فخدمها الكفر إلى أن صارت روضة جنان؛ لاجرم أن الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضى أهل الحق

وَأَسْخَطَهُمْ، فَإِنَّهُمْ - خَذَلَهُمُ اللَّهُ - حَمَّوْهَا بِالْأَسَلِ وَالصَّفَاحِ [وَبَنَوَهَا بِالْعَمَدِ وَالصَّفَاحِ ^(١)]
 وَأَوْدَعُوا الْكِنَاسَ بِهَا وَبِيوتِ الدِّيْوِيَةِ وَالْإِسْتَبَارِيَةِ مِنْهَا كُلَّ غَرِيبَةٍ مِنَ الرُّحَامِ الَّذِي
 يَطْرُدُ مَأْوَهُ، وَلَا يَطْرُدُ لِأَلْوَاهِ، قَدْ لَطَفَ الْحَدِيدُ فِي تَجْزِيعِهِ، وَتَفَنَّنَ فِي تَوْشِيْعِهِ،
 إِلَى أَنْ صَارَ الْحَدِيدُ، الَّذِي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، كَالذَّهَبِ الَّذِي فِيهِ نَعِيمٌ عَتِيدٌ، فَمَا تَرَى
 إِلَّا مَقَاعِدَ [لِلرِّيَاضِ لَهَا مِنْ بِيَاضِ التَّرْخِيمِ رَقْرَاقٌ، وَعَمَدًا كَالْأَشْجَارِ لَهَا مِنْ
 اللَّغْنِيْتِ أَوْرَاقٌ ^(١)] .

وَأَوْزَعِ الْخَادِمُ بَرْدَ الْأَقْصَى إِلَى عَهْدِهِ الْمَعْهُودِ، وَأَقَامَ لَهُ مِنَ الْأَيْمَةِ مَنْ يُؤْفِقُهُ
 وَرَدَّهُ الْمُرُودِ، وَأُقِيمَتِ الْخُطْبَةُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ رَابِعَ شَهْرِ شَعْبَانَ، فَكَادَتِ السَّمَوَاتُ
 يَتَقَطَّرْنَ لِلسُّجُومِ لِالْوُجُومِ، وَالْكَوَاكِبُ يَنْثَرْنَ لِلطَّرْبِ لِالرُّجُومِ، وَرُفِعَتِ إِلَى اللَّهِ
 كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَكَانَتْ طَرَائِقُهَا مَسْدُودَةً، وَظَهَرَتِ قُبُورُ الْأَنْبِيَاءِ وَكَانَتْ يَنْبَهُمُ بِالنَّجَاسَاتِ
 مَكْدُودَةً؛ وَأُقِيمَتِ الْخَمْسُ وَكَانَ التَّثْلِيثُ يُقْعِدُهَا [وَجَهَرَتِ الْأَلْسُنُ بِاللَّهِ أَكْبَرُ وَكَانَ
 سِحْرُ الْكُفْرِ يَعْقِدُهَا ^(١)] وَجُهِرَ بِاسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي قُطْبِهِ الْأَقْرَبِ مِنَ الْمِنْبَرِ، فُرِحَّ بِهِ
 تَرْحِيبَ مَنْ بَرَّ بِرَّ، وَخَفَقَ عَلامَهُ فِي حِفافِهِ، فَلَوْ طَارَ بِهِ سُرُورًا لَطَارَ بِجَنَاحِهِ .

وَكِتَابُ الْخَادِمِ وَهُوَ مُجَدِّدٌ فِي اسْتِفْتَاكِ بَقِيَّةِ الثُّغُورِ، وَاسْتِشْرَاحِ مَا ضَاقَ بِتَمَادِي
 الْحَرْبِ مِنَ الصُّدُورِ، فَإِنَّ قُوَى الْعَسَاكِرِ قَدْ اسْتَنْفَدَتْ مَوَارِدُهَا، وَأَيَّامَ الشِّتَاءِ
 قَدْ مَرَدَّتْ مَوَارِدُهَا، وَالْبِلَادُ الْمَأْخُودَةُ الْمَشَارُ إِلَيْهَا قَدْ جَاسَتِ الْعَسَاكِرُ خِلَالَهَا،
 وَنَهَبَتْ ذَخَائِرَهَا وَأَكَلَتْ غِلَالَهَا . فَهِيَ بِلَادٌ تُرُودُ وَلَا تُسْتَرْفَدُ، وَتُجْمُّ وَلَا تُسْتَفْقَدُ،
 وَيُنْفَقُ عَلَيْهَا وَلَا يُنْفَقُ مِنْهَا، وَتُجَهَّزُ الْأَسَاطِيلُ لِبَحْرِهَا، وَتَقَامُ الْمَرَايِطُ لِبَرِّهَا، وَيُدْأَبُ
 فِي عِمَارَةِ أَسْوَارِهَا وَمَرَمَاتِ مَعَاقِلِهَا؛ وَكُلُّ مَشَقَّةٍ فِيهَا بِالْإِضَافَةِ إِلَى نِعْمَةِ الْفَتْحِ

مُحْتَمَلَةٌ ، وَأَطَاعَ الْفَرَنْجَ فِيمَا بَعْدَ ذَلِكَ مَذَاهِبُهَا غَيْرُ مَرْجِيَّةٍ وَلَا مُعْتَرَلَةٍ ، فَلَنْ يَدْعُوا دَعْوَةَ
يَرْجُو الخَادِمَ مِنَ اللَّهِ أَنَّهُ لَا تَسْمَعُ ، وَلَنْ تَزُولَ أَيْدِيهِمْ مِنْ أَطْوَاقِ الْبِلَادِ حَتَّى تُقْطَعَ .

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تتشخص ، ولا بما سوى
المشاهدة تتلخص . فلذلك تفذنا لسانا شارحا ، ومبشرا صادحا ، ينشر الخبر على
سياقته ، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته .

الأسلوب الثاني

(أن يفتتح الكتاب بالدعاء لغير الديوان بما فيه تعظيم الخليفة)

كما كتب القاضي الفاضل عن الملك الناصر « صلاح الدين يوسف بن أيوب »
إلى ديوان الخلافة ببغداد .

أَسْعَدَ اللَّهُ عِظَاءَ الْأَمْلَاقِ بِالْإِتِّسَابِ إِلَى الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ ، وَأَوْزَعَهُمْ
مَا أَسْرَهُمْ بِهِ مِنْ طَاعَتِهَا . وَخَلَّدَ مُلْكَ الدِّيَوَانِ الْعَزِيزِ النَّبَوِيِّ مَا دَامَتِ الْأَفْلاكُ قَائِمَةً ،
وَالْتَجُومُ نَاجِحَةً ، وَنَقَعَ بَعْمَأُهَا غَلَلِ الْأَمَالِ الْحَائِمَةِ ، وَفَسَّرَ بِمَكَارِمِهَا حُلْمَ الْأَمَانِيِّ
الْحَالِمِ ، وَرَتَّقَ بِتَبْدِيرَاتِهَا الْمَعْصُومَةَ فَتَوَقَّ النَّوْبَ الْمُتَعَاظِمَةَ ، وَأَظْهَرَ عَلَى أَيْدِي
أَوْلِيَائِهَا مَعْجَزَاتٍ نَصَرَهَا ، وَصَرَفَ الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ بَيْنَ الْمَرْضِيِّينَ لِلَّهِ نَهْيَهَا وَأَسْرَهَا ،
وَأَوْدَعَ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ بِمُودَعِهَا وَمُسْتَقَرِّهَا .

المملوك - وإن كان قد يسر الله له مذ أطلق عذبة لسانه خدمة الدولة العباسية ،
فنفسح في وسيع ماثرها ، وتخير من بديع جواهرها ، وامتاح من نَمِيرِ زَوَاجِرِهَا .
فإنه لا يعتذر عن الحصر الذي اعتراه في وصف المنعم عليه به من الخطاب الشريف ،

(١) أى الخدمة النبوية والمراد بها الخلافة .

الذى لولا أن عَصَمَةَ الموالاة تُثَبِّتُ فُوَادَه الخَافِقِ ، وتَسَدُّ لِسَانَهُ النَاطِقِ ، لما تَعَاظَى
وَصَفَّ ما أَعْطَاه من كِتَابِهِ المَرْقُومِ ، وَسَبَقَ إِلَيْهِ من سَحَابِهِ المَرْكُومِ ، فَإِنَّهُ مِمَّا يَشْفُفُ
عَنهُ الأَمَلَ نَاكِصًا وَهُوَ كَسِيرٌ ، وَيَتَقَلَّبُ دُونَهُ البَصْرُ حَاسِسًا وَهُوَ حَسِيرٌ ، إِلا أَن الإِنْعَامَ
الشَرِيفَ يَبْدَأُ الأَوْلِيَاءَ بِمَالِهِمْ وَكَلَمَهُمْ إِلَى أَمَانِيهِمْ لِتَهَيَّبَتْ أَنْ تَتَعَاظَى حَظِيَّتَهُ ، وَلَوْ فَوْضَهُ
إِلَى رَاحَتِهِمْ لَنَكَلَّتْ عَن أَنْ تَتَرَفَّى نِصْبَتَهُ ، وَلَا غَرَّو لَسَحَابِ أَنْ يُصَافِحَ قَطْرَهُ الثَّرَى ،
وَالفَجْرِ أَنْ يُشْرِقَ نورهَ عَلَى عَيْنِ الكَرَى وَالسَّرَى .

فالحمد لله الذى قَرَّبَ عَلَى المَمْلُوكِ مَنَالَ الأَمَالِ ، وَثَبَّتْ حِصَاةَ فُوَادِهِ لِمَا لَانْتَسِقِلُ
بِحَمْلِهِ صُمُّ الجِبَالِ . وَيَسْتَنْبِئُ عَن جَهْرِ الشُّكْرِ بِسِرِّ الأَدْعِيَةِ ، وَيَقْتَصِرُ عَلَى مَا يُفِضِي بِهِ
إِلَى المَحَارِبِ وَإِن لَمْ يَقْصُرْ عَمَّا يُقْصُهُ فِي الأَنْدِيَةِ ، وَيُطَالِعُ بِأَنَّ مَمْلُوكِ الخِدْمَةِ
وَأَبْنِ مَمْلُوكِهَا أَخَذَ الكِتَابَ بِقُوَّةٍ ، وَشَمَّرَ لخدمَةِ أَشْرَفِ خِلافةٍ لِأَشْرَفِ نُبُوَّةٍ ، وَتَلَقَّاهُ تَلَقَّى
أَبِيهِ الأَوَّلِ الكَلِمَاتِ ؛ وَرَأَى إِطْلَاعَ اللهِ لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلَى مَا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ طَاعَتِهِ
لِأَحَدِي المَعِجِزَاتِ وَالكِرَامَاتِ ، وَسَمِعَ المِشَافَهَةَ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا ، وَأَشْتَمَلَ عَلَيْهَا بِفَهْمِهِ
سَامِيًا طَرَفُهُ مُتَطَلِّعًا .

ولقد أشبه هذا الكتاب الكريم بيعة أخذت عليه ، مد إليها يده أخذنا بكتنا يديه .
والمملوك يرجو بل يتحقق أن هذا العبد المشار إليه سيوفى على سابقه من عبيد الدولة
العباسية في الزمان ، ويكون بمشيئة الله أسبق منهم بالإحسان .

وقد صدرت خدمتان من جهته وبعدهما تصدر الخدم ، ولا يألو جهدا في الخدمتين
مباشرا بيده السيف ومستنيدا عنها العلم ، وله نصرة باقية في الولاء وهو غني بها
عن النصير ، وسريرة بادية في الطاعة هو إليها أسكن منها إلى كل مشير . يعود
المملوك إلى ما لا يزال يفتتح به الصلوات المفروضة ، ويختتم به الختمات المعروضة ؛

من الدعاء الصالح الذي [وان] أغنى الله وليه عنه فقد أوحى ذوى العقائد السليمة إليه :
 لأنه مُزَكَّ لأعمالهم ، بل متمم لإسلامهم ، وكيف لا يدعون لمن يدعون به يوم يُدعى
 كلُّ أناسٍ بإمامهم ؛ فيقول : - جمع الله لأمر المؤمنين طاعة خلقه ! ، وأذلَّ رقابَ
 الباطل سيفُ حقه ! ، وجعل الله ما هو قبضته في الأخرى قبضة أمير المؤمنين
 في الأولى ! من الأرض التي هي موطوءة كالسماوات العلى ، وأدام نعمه على
 هذه الأمة بإمامته ، وأظهر كرامة نبيه عليه السلام بما يُظاهره من كرامته ؛ وعجَّل
 لمن لا يقومُ بفرض ولايته إقامة قيامته ، وردَّ بسُيوفه التي لا تُردُّ ما الإسلام ممطوئاً
 به من ظلامته ، وأقام به مناهج الدين لأهله ، وأظهره بمظاهرتة على الدين كله ،
 حتى يلقى الله وما خَلَّف في الدنيا كافراً ، ولا ضميراً إلا بالتوحيد عامراً ، ولا بلداً
 إلا وقد بات الإسلام به أهلاً وقد أصبح منه الكفر داثراً ، إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثالث

(أن يبدأ آية من كتاب الله تعالى تناسب الحال)

كما كتب القاضي الفاضل ، عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب »
 إلى الخليفة المستضيء ببغداد بشرى بفتح بلد من بلاد التوبة والنصرة عليها :

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) :
 (سلام قولاً من رب رحيم) : (فروح وريحان وجنة نعيم) . وصلاة يتبعها
 تسليم ، وكأس يمزجها تسنيم . وذكر من الله سبحانه في الملا الأعلى ورحمة الله وبركاته
 معلومة من النشأة الأولى على مولانا الإمام « المستضيء بالله » المستضاء بأنواره ،
 المستضاف بداره ، الداعي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، الراعى للخلق كما يرعى

النسيم النسيم، العام فضله، التام عدله، المطروق مورد فناءه، المصدوق في مورد ثنائه، المحقوق من كل ولي بولائه، ابن السادة العتر، والقادة الزهر، والذادة الحُمس، والشادة للحق على الأُس، سقاة الكوثر وزمزم والسحاب، وولاة الموسم والموقف والكتاب، والموصول الأنساب [يوم] إذا نُفخ في الصور فلا أنساب، والصابرون على حساب أنفسهم فهم الذين يُؤتون أجرهم بغير حساب .

مملوك العتبات الشريفة وعبدها، ومن أشتمل على خاطره ولأؤها وودها، وكانت المشاهدة لأنواره العلية التي يودها، ومن يقرن بقرض الله سبحانه فرضها، ويسابق بطاعته إلى جنية وصفها الله تعالى بقوله ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ﴾ : يَلْمُ وَجَهَ تُرَابِهَا، ويرى على بُعد دارها الأنوار التي ترى بها، ويقف لديها وقوف الخاضع، ويضع أقال الآنام عن ظهره منها بأشرف المواضع للواضع، ويحبت إليها إخبار الطامخ الطامخ، ويرجو فضلها رجاء الطامخ الطامخ . ولولا أن الكتاب حجاب بينه وبين المهابة التي تحول بين المرء وقلبه، والجلالة التي هو في تعظيمها على نور من ربه، لكان خاطره في قبضة الملعع أسيرا، ولا نقلب إليه البصر خاسئا حسيرا، ولكن قامه قد تشاجع، أن كان لسانه عن الإبانة قد راجع . فيقول :

إن الله قد رفع ملة الإسلام على الملل، وكفل نصرها وكفى ما كفل، وحمى ملكها وحمل، وجعل لها الأرض في أيدي المخالفين ودائع، ومكن يده من أعناقهم فهي إما تعقد الأغلال أو تصوغ الصنائع، والحق بها قائم العمود، والسيف الكفاية لازم العمود، والبشائر تسمى الصبح وتُحلق الدجى، والخليل على طول ما تشتمل الوحا تتعل الوجى، والأيام زاهره، والآيات باهره، وعزة أولياها قاهره، وذلة أعدائها ظاهره، وعنايات الله لديها متوالية متظاهره . إذا تغرب أسمها يوما عن

مَبْرُوحٌ أُعِيدَ إِلَى وَطَنِهِ غَدَا ، وَإِذَا أُوقِدَتْ نَارُ فِتْنَةٍ فِي مَعْصِيَتِهَا أُوقِدَتْ فِي طَاعَتِهَا نَارُ هُدًى .

وقد كان النيلُ قَدَمَا قَرَّتْ عَنِ الْفُرَاتِ أُنْبَأُوهُ ، وَتَحَصَّنَتْ غُلَلُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْهُ فَلَمْ يَتَغَلَّغَلْ إِلَيْهَا مَأْوُهُ ، وَكَادَتْ السَّمَاءُ لِأُتْعِينَهُ بِمَطَرِهَا ، وَالْأَرْضُ لِأُتُوشِيَهُ بِزَهْرِهَا ، وَالْأَعْنَاقُ قَدْ تَقَاصَرْدُونَ الرَّاجِينَ بَدْوِ مَعْصِيَتِهَا ^(١) ، وَالْقُلُوبُ قَدْ لَادَتْ بِأَسْتَارِ الْجِدَارِ مَعْصِيَتِهَا ^(١) ، وَالْأَوْثَانُ مَنْصُوبَةٌ ، وَالْآيَاتُ مَغْصُوبَةٌ ، وَالتَّيْجَانُ بغيرِ أَكْفَائِهَا مِنَ الْهَامَاتِ مَعْصُوبَةٌ ، وَالدِّينُ أَدْيَانَا ، وَالْمَدَكَّرُونَ بِالْآيَاتِ يَخْرُونَ عَلَيْهَا صَمًّا وَعُمِيَانًا ، وَالْعَادِلُونَ بِاللَّهِ قَدْ وَطَّنُوا السِّنَّةَ وَصَرَّحُوا عَقَائِدَ ، وَالْمَعْتَدُونَ قَدْ أَضَلُّوا فِعَالًا وَضَلُّوا مَقَاصِدَ ، وَكَرَاسِيٌّ خِلافةِ اللَّهِ قَدْ أُلْقِيَ عَلَيْهَا أَجْسَادٌ كَانَتْ تَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدُ ، وَمَنَابِرُ كَلِمَاتِ اللَّهِ قَدْ كَادَ كَيْدُهُمْ يَأْتِي بُنْيَانَهَا مِنَ الْقَوَاعِدِ ، وَبَحَرَتْ عَلَى بُنْيَانِ النَّبُوَّةِ أَشَدُّ نَبْوَهُ ، وَقَصُرَتْ الْإَيْدِي فَلَاحِدٌ سَوَاطِئُهَا وَوَلَا حُدَّ سَطْوُهُ ، ثُمَّ قَسَّتْ قُلُوبٌ (فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَهُ) وَغَرَّتِ الْأَيَّامُ وَمَا وَعَدَتْ ، وَأُورِدَتْ الْهِمَمُ وَمَا أَصْدَرَتْ ، وَطَفِي طُوفَانِ الطُّغْيَانِ وَوَلَاعِصِمُ ، وَسَمَاءُ بِنَاءِ الْهَيْتَانِ وَوَلَاهَادِمُ ، وَضَاقَتِ الصُّدُورُ ، وَرَحَلَتْ بِغَلِيلِهَا إِلَى الْقُبُورِ ، وَظَنَّ أَنَّ طَيِّبَ دَوْلَتِهِمْ مَعْدُوقٌ بِالنُّشُورِ ، حَتَّى إِذَا جَلَّاهَا اللَّهُ لَوْقِيَتِهَا ، وَأُنْجَزَ جَمُوعَ الضَّلَالِ إِلَى مِعَادِ شَتَّىهَا ، وَأَرَاهِمُ آيَةَ مَعْدَلَتِهِ (وَمَا تُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا) (وَجَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُوَ كَرِيمٌ) : (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِاطِلٌ مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

كَانَتْ نِعْمَةً مِنَ اللَّهِ يُمْنُهَا عَلَى الْمَمْلُوكِ أَنْ أَنْتَجَبَهُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ أَرْضِهِ ، وَأَنْتَجَبَهُ لِإِقَامَةِ مَا أَمَاتَ الْبَاطِلُ مِنْ قَرَضِهِ ، وَيَسَّرَهُ لِمَا يَسَّرَهُ مِنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ وَأَهْلِهِ ، وَبَشَّرَهُ

(١) كذا في الاصول بهذا الرسم ولم نعر على هذه الرسالة في الرسائل .

بما بَشَّرَهُ من لواء النصر ومدَّ من ظِلِّهِ ، وألهمه الهِمَّةَ التي أَفْتَرَعَ منها بَكَرًا ، ومنحه النُّصْرَةَ فما استطاع العدوُّ صَرْفًا ولا نَصْرًا . مَكَّنَهُ من صِيَّاصِهِمْ فَخَلَّهَا ، ومن دِمَائِهِمْ فَطَلَّهَا ، ومن سِيُوفِهِمْ فَخَلَّهَا ، ومن أَقْدَامِهِمْ فَاسْتَرَّهَا ، ومن مَنَابِرِ دُعَاتِهِمْ فَجَعَلَ تَدَاعِيَهَا ، ومن أَنْفُسِ أَعْدَائِهِمْ فَأَكْثَرَ تَتَاعِيَهَا ، وَأَبْرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ، وَيَسَّرَ الَّذِينَ كُتِبَ لَهُمُ الْعَفْوُ إِلَى مَنَافِعِهِمْ ، وَتَرَخَّرَ زَاتِ الْمُلْكِ مِنْ تَيْجَانِهَا ، وَفَضَحَ عَلَى يَدِهِ وَبِلْسَانِهِ مَا زَوَّرَتْهُ مِنْ أَنْسَابِهَا ، وَحَاسَبَهَا فَأَظْهَرَ زَيْفَ حِسَابِهَا ، وَنَقَلَهَا مِنْ ظُهُورِ أَسْرَتِهَا إِلَى بُطُونِ تُرَابِهَا ، وَعَمَدَ إِلَى أَهْلِ دَعْوَتِهَا الَّذِينَ بَسُقُوا بُسُوقَ النُّخْلِ فَأَعْلَاهُمْ عَلَى جُدُوعِهَا ، وَحَمَلَتْ قُلُوبُهُمْ فُوفَ الْحَقْدِ فَأَخْرَجَهَا مِنْ أَكْجَامِ طُلُوعِهَا ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ ، أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ مِنْ لَاحِيهِ ، أَوْ تَجِدُ إِلَيْهِمْ مِنْ صَاحِيهِ ، فَأَصْبَحُوا لِأَثَرِي إِلَّا مَسَاكِينَهُمْ أَوْ مَسَاكِينَهُمْ ، وَحُصِدُوا حَصْدَ الْحَشِيشِ ثُمَّ لِأَنْخَافِ سِيُوفِهِمْ وَلَا سَكَائِيْنَهُمْ ، وَاسْتَزَلُّوا مِنْ عِقَابِ اللُّوحِ ، وَسُجِنُوا فِي الْهَمِّ مِنْ طَوْلِ مُدَاوِمَةِ عِقَابِ الرُّوحِ ؛ ثُمَّ تَدَارَكُوا إِلَى الدَّرَكِ ، وَاسْتَرَكُوا فِي الشَّرْكِ ، وَأَقْفَرَتْ مِنْهُمْ عِرَاصُ ، وَزَهَدَتْ فِيهِمْ خَوَاصُ ، وَعُلِمَ أَنَّ لَيْسَ لِلَّهِ غَالِبٌ ، وَأَنَّ لَيْسَ يُفَوِّتُهُ طَالِبٌ ، وَأَنَّ الْمَلِكََ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَأَنَّ الْوَيْلَ لِمَنْ تَجَاوَزَ أَمْرَهُ وَحَدَّهُ .

وَكَانَ الْمَمْلُوكُ مِنْ عَطَلٍ مِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَأَبْطَلٍ مِنْ أَدْيَانِهِمْ ، فَاتِّزًا بِحَسَنَةِ يَنْظُرَ إِلَى حَسَنَاتِ خَلِيلِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كَيْدِهِ الْأَصْنَامِ وَتَكْسِيرِهَا ، وَتَضْلِيلِهِ عَابِدِيهَا وَتَكْفِيرِهَا . وَعَمَدَ الْمَمْلُوكُ إِلَى الْمُحَاضِرِ بِجَمْعِهَا ، وَإِلَى الْمَنَابِرِ قَرَفِهَا ، وَالْجَمْعَةِ فَاطَّاعَ مِنْ شَرْعِهَا ، وَأَسْمَاءِ صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَصَلَهَا بِاسْمِهِ وَمَا قَطَعَهَا ، وَعَمُومَتِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فَتَلَّهَا لَهُ وَأَتَّبَعَهَا ؛ وَأَشَادَ بِاسْمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِتَكُونَ الصَّلَاةُ جَامِعَةً ، وَالذِّكْرُ شَامِلَةً وَالْإِمَامَةُ لِلْجَمَاعَةِ شَارِعَةً ، وَالْهُدَايَةُ لِلضَّلَالَةِ صَارِعَةً ، فَعَادَتْ لِلْمَلَّةِ أَعْيَادُ ، وَأَخْضَرَّتْ لِلنَّبْرِ أَعْوَادُ ، وَأُنْجِزَ لِلْأُمَّةِ مِعَادُ .

وبعد ذلك تحاشدت أولياءَ الذاهبين وتنادت، وتساعت نحو مستقرِّ المملوك وتعادت
 ﴿وَإِذْ زَيْنُ لَمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ
 فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقِيْبِهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ﴾ وكانوا حمية حاميةً
 من بنى حامٍ كالجراد أرجلاً، إلا أن الله أصلاها بنيرانه، وكلماء مدا إلا أن الله
 أغرقها بطوفانه، وكانممل لونا وطرقا إلا أن الله حطمها بسليانه، مع من أنضمَّ
 إليهم من ألافٍ وأطراف، وأوشابٍ وأوباش: من جندى كسبه سيفه ذله، وطرده
 عن مواقف الكرام وبمحال الخزي أحله، ومن أرمى كانوا يفرعون إلى نصره
 نصرانته، ويعتمدون منه على ابن معموديته، ومن عاتى أجابهم لفرط عماءه وتفريط
 عاميته؛ فملا العيون سوادهم الأعظم، ووراءهم بأس الله الذي لا يرد عن أجرم،
 فامطرتهم السيوف مطرا كانوا غناء لسيوله الجوارف، وعصفت بهم الأعنة عصفا
 كانوا هباءً لوجه العواصف؛ ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ وعوتبت الأنفس
 والأروس ﴿فَقَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾. وظلت قحاف بنى حامٍ تحت غربان الفلاغربانا،
 وشوهدت ظلمات بعضها فوق بعض أفعالا وألوانا؛ وصفت موارد السلطان
 من القذى، وطفى ذلك الفحم فلا يجيد النفاق بعده ما تتعلق به الحدى، وبلغت
 الغايات فى كشف كل أذى، لا بضرب بموعده يقال فيه إذا .

وكتب المملوك، واسم أمير المؤمنين قد كتب سطره على جبين التقدين، وسمع
 لفظه من قم المنبرين بالبلدين، ومد كل منبريدا بل يدين؛ فحين سمع الناس قالوا
 حقا ماقاله ذو اليدنين، وصارت تلك الأسماء دبر الآذان ووراء الظهور، وحصلت
 المحبة العباسية سرا من أسرار القلوب إذا حصل ما فى الصدور، والخلائق مباحية
 متابعة وافية بعهد متوافية، داخلون فى الحق أوجا، سالكون منه شرعة
 ومنهاجا .

والحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين إماما خلّقه ، ووارثا لأرضه ولم يذّر فوق الأرض
منازعا لحقه ، ولا مناهبا لأرضه ، وأرتجع له الحقّ الذي كان نادا ، وردّ عليه الأمر
الذي لم يكن له غير الله رادا ، وبلغ كلّ مؤمن من إعلاء كلمة الإيمان به ما كان له
وآذا ، وأخذ بيد انتقامه من كان عن سبيله صادّا ، والإسلام قد استنار كنشأته ،
والزمان قد استدار كهيئته ، والحقّ قد قرّ في نصّابه ، والأمر قد قرّ عن صوابه .
فقد وفي الله القرار له بضمانه ، وأخذ بيده ما روى عن ابن عمه صلى الله عليه وسلم
وأصفي من لسانه .

فالحمد لله الذي صدّقه وعده ، وأورثه الأرض وحده ، وجدّد علاه وأعلى جدّه ،
وأسعد نجه وأنجم سعده ، ووعده ثجحه وأنجح وعده ، وأورده وصفه وأصفي ورده .
المملوك ينتظر الأمثلة ليتمثلها ، والأمانة ليحملها ، والتقليدات المطاعة ليتلوها ،
والتشريفات الشريفة ليجلوها ، والسواد ليجلي الحلك عن ضمائر المبطلين ، والسيف
الحالي لحكمه في رقاب المعطلين ، والآراء الشريفة فصل برهانها ، وفضل سلطانها ،
وأمرها الذي لا يخرج حين يخرج عن عزّ الملة وتوطيد بنيانها ، وعزمها الذي يرفع
حين يرفع ظلمة أذخانها . إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الرابع

(أن يتبدأ الكتاب بالصلاة)

كما كتب القاضي الفاضل ، عن الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب"
إلى الخليفة ببغداد ، في البشري بفتح بلد من بلاد النوبة أيضا ، وانتهزام ملكها
بعساكره .

صلواتُ الله التي أَعَدَّهَا لِأَوْلِيَائِهِ وَذَخَّرَهَا ، وَتَحِيَّاتُهُ الَّتِي قَدَفَ بِسُوءِهَا شَيَاطِينَ
أَعْدَائِهِ وَذَخَّرَهَا ، وَبَرَكَاتُهُ الَّتِي دَعَا بِهَا كُلَّ مُوَحَّدٍ فَاجَابَ ، وَأَنْقَشَعَ بِهَا عَمَامُ الْعَمِّ وَظُلَامُ
الظُّلْمِ فَانْجَابَ عَنِ أَنْجَابٍ ، وَزَكَاتُهُ الَّتِي هِيَ لِلْمُؤْمِنِينَ سَكَنٌ ، وَسَلَامُهُ الَّذِي لَا يَعْتَرِي
الْمُؤَقِنِينَ فِي تَرْدِيدِهِ حَصْرٌ وَلَا لَكَنٌ - عَلَى مَوْلَانَا عَاقِدِ أَلْوِيَةِ الْإِيمَانِ ، وَصَاحِبِ دَوْرِ
الزَّمَانِ ، وَصَاحِبِ ذَيْلِ الْإِحْسَانِ ، وَغَالِبِ حِزْبِ الشَّيْطَانِ ، الَّذِي زَلَزَلَتْ إِمَامَتُهُ قَدَمَ
الْبَاطِلِ ، وَحَلَّتْ خَلَاقَتُهُ تَرَائِبَ الدَّهْرِ الْعَاطِلِ ، وَاقْتَضَتْ سَيُوفَهُ دِيُونََ الدِّينِ مِنْ
كُلِّ غَيْرِيٍّ مَاطِلِ ، وَأَمَضَتْ غَرْبَ كُلِّ عِزْمٍ لِحَقِّ مَقُولِ وَأَطْلَعَتْ غَارِبَ نَجْمِ كُلِّ
هُدًى آفِلِ ، وَشَفَعَتْ يَقْضَاتُ اسْتِغْفَارِهِ إِلَى غَافِرِ ذَنْبِ كُلِّ غَافِلٍ ؛ وَعَلَى آبَائِهِ الْغَايَةِ
وَالْمَفْرَعِ ، وَالْمَلَاذِ فِي وَقْتِ الْفِرْعِ ، وَالْقَائِمِينَ بِمَحْمُوقِ اللَّهِ إِذْ قَعَدَ النَّاسُ ، وَالْحَاكِمِينَ
بِعَدْلِ اللَّهِ إِذْ عُدِمَ الْقِسْطُ ، وَالْمُسْتَضِيئِينَ بِأَنْوَارِ الْإِلَهَامِ الْمُورُوثَةِ مِنَ الْوَحْيِ
إِذَا عَجَزَ الْأَقْتِبَاسُ ، وَالصَّابِرِينَ فِي الْبِأَسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبِأَسِ ؛ نُحْرَانَ الْحِكْمِ ،
وَحُقَاقِظَهَا ، وَمَعَانِي النَّعْمِ ، وَأَلْفَاقِهَا ، وَأَعْلَامِ الْعُلُومِ الْمُنْشُورَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ،
وَكَالِي السُّرُوحِ الْمُنْتَشِرَةِ مِنْ كَلَا سَيِّدِ الْإِمَامَةِ ؛ وَمَنْ لَا يَنْفَعُهُمْ سَهْمٌ عَمَلٍ إِلَّا إِذَا سُحِّدَ
بِمَوَالِيهِمْ ، وَلَا يَتَأَلَّقُ صَبْحُ هِدَايَةٍ إِلَّا إِذَا اسْتَصْبَحَ السَّارَى بِدِلَالَتِهِمْ .

المملوك يقبل الأرض بمطالع الشرف ومنازله ، ومرابع المجد ومعاقله ؛ ومجالس
الجود ، ومحال السجود ؛ ومختلف أنباء الرحمة المنزله ، ومرسى أطواد البسيطة
المتزلله ؛ ومفتر مباسم الإمامه ، ومجتر مساحب الكرامه ؛ ومكان جنوح أجنحة
الملائك ، ومشتجر مناسك المناسك ، حيث يدخلون من كل باب مسلمين ،
ويتبعهم ملوك الأرض مستسلمين ؛ ومشاهد الإسلام كيوم أنزل فيه اليوم أكلت
لكم دينكم - ويتعقد على الولاية فأما غيره فله قوله : قاتلوا الذين يلونكم ؛ ويتأخوها

(١) كذا في الأصول مضبياً عليه وفي الضوء "المنتشرة بيد الامامة"

بلسان جلى الإخلاص الصادق عقيدته، وأنشط الولاء السابق عقيلته، وأرهف الإيمان الناصع مضاربه، وفصح المعتقد الناصح مذاهبه، فأعرب عن خاطر لم يحظر فيه لغير الولاء خطر، وقلب أعانه على ورود الولاء [أن] صفاء المصافاة فيه فطره - ويخبر أنه ما وهن عما أوجبه الأوه ولا وهى، ولا أنتهى عزمه عن أن يقف حيث أظلت سدرة المنتهى، ووضحت الآيات لأولى النهى . والله سبحانه يزيل عنه في شرف المثل عوائق القدر وموانعه، ويكشف له عن قناع الأنوار التي ليست همته بما دون نظرها قانعه - وكان توجه منصوراً بجيش دعائه، قبل جيش لوائه، وبمسكر إقباله، قبل عسكر قتاله، وبنصال سُلطانة، قبل نصال أجدانه؛ لاجرم أن كُتبت الرعب سارت أمام الكُتائب، وقواضب الحذر عُحضت في جفونها عيون القواضب - وسار أولياء أمير المؤمنين الذين تجعوا من كل أمه، وتداعوا بلسان النعمة، وتصرفوا بيد الخدمة، وصالوا بسيف العزمه؛ متواخية نياتهم في الإقدام، متألقة طوياتهم في طاعة الإمام؛ كالبنيان المرصوص أنتظاماً، وكالغاب المشجر أعلاماً؛ وكالنهار المانع حديداً وهاجاً، وكالليل الشامل عجاجاً عجاجاً؛ وكالنهر المتدافع أصحاباً، وكالمشط المطرد أصطحاباً؛ والأرض ترحل برجلهم لما ترفعه الحوافر من غيومها، والسماء تنزل نزولهم لما تضعه الدوابل من نجومها؛ فما أنتشرت رياضها المزهره، وغياضها المشجره؛ إلا دلت على أن السحاب الذى سقاهم كريم، والإنعام الذى عمرهم عظيم، والدنيا التي وسعتهم من عزمهم تظعن وتقيم .

ولما علم العدو أن الخطب المظنون قد صرح خطابه، والأمل المخدوع قد صفر وطأه؛ راسل ورأى سل الشيوف يغمده، وما كرم وما كرم لعلمه أن الخنف يعمده، وأنذفع هاربا هائبا، وخضع كائبا كاذبا؛ فمضى المملوك قدما، وحمله ظلمه وقد خاب من حمل ظلمها؛ وأجابه بأنه إن وطئ اليساط برجله وإلا وطئه برأسه، وإن قدم

على المملوك بأمله وإلا أقدمه بيأسه، وإن لم يُظهر أثر التوبة وإلا أقام عليه الحدَّ بسُكْرَةِ الموت من كأسه؛ فلم يَخْرُجْ من مُراوغة تحتها مُغاورة، ومُكاسرة وراءها مُكاشره؛ فاستخار الله في طلبه، وأتتهز فيه فُرصة شغل قلبه برييه، ولم يَغْرُه ما أملى له في البلاد من تَقْلِبِهِ؛ وسار ولم يزل مقتحجا، وتقدم أوّل العسكر محتدما؛ وإذا الدار قد ترحل أهلها منها فبانوا، وظعنوا عن ساحتها فكأنهم ما كانوا؛ ولم يبق إلا موافد نيران رحلت قلوبهم بضرامها، وأنانف دُهم أعجلت المهابة مارد سبهم عن طعامها؛ وغربان بين كأنها في الديار ما قُطِع من رءوس بني حامها، وعوافي طير كانت تنتظر من أشلائهم فطر صيامها؛ وعادت الرسل المنقذة لأقتفاء آثارهم وأداء أخبارهم؛ ذاكرة أنهم ليسوا الليل حدادا على النعمة التي خلعت، وغسلوا بماء الصبح أطاع نفس كانت قد تطلعت؛ وأنهم طلّعوا الأوعار أوعالا والعقاب عقبانا، وكانوا لمهابط الأودية سيولا ولأعالي الشجر قُضباناً - فرأى المملوك أن الكتاب فيهم قد بلغ أجله، والعزم منهم قد نال أمه، والفتك بهم قد أعمل مُنصله؛ وأن سيوف عساكر أمير المؤمنين مزهة أن تريق إلا دماء أكفائها من الأبطال، وأن تلقى إلا وجوه أنظارها من الرجال؛ وأن المذكورين تمل حطمه سليمان عليه السلام وجنوده، ورمل أطاره العاصف الذي يسحفه ويقوده - وأصدر هذه الخدمة والبلاد من معرفتهم عاريه، والكلمة بانخفاضهم غالية عالية؛ ويُد الله على أعدائه عاديه، وأنفس المخاذيل في وثاق مهابته العالية عانيه - فرأى المملوك أن يرتب بعده الأمير فلانا ليبدل الأمانات، لسوق أهل البلاد ومزارعيها، ويفصل المحاكات، بين متابعي السلطنة ومطواعيها، ويفسح مجال الإحسان لمعاودي المواطنين ومراجعيها؛ فيعمر من البلاد ما قد شغرت، ويشعر بالأمانة من لا شعر؛ فإن مقام المملوك ومن معه من عساكر تمنع الشمس من مطلقها،

(١) هو بالفاء من قولهم صحفت الريح السحاب اذا ذهب به اللفاف في الأصول تصحيف .

وترد حرية البحر عن موقعها ، مما يضرب بالغلل ويَسْفها ، ويُجحف بالرعايا
ويُسفها .

فالحمد لله الذى جعل النصر لائذاً بأعطاف أعتارمه ، وأنامل الرغب السائر إلى
الأعداء محرّكةً عذبات أعلامه ، والعساكر المناضلة بسلاح ولائه ، تُغنى بأسمائها عن
مُرَهقاتها ، والكائب المقاتلة بشعارِ عَلائه ، تقرأ كُتُبَ النصر من مُحامتها .

الأسلوب الخامس

(أن يتبدأ الكتاب بالسلام)

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان "صلاح الدين" أيضاً ، يعتذرله عن تأخر
الكتب ، ويذكر له خبر صاحب قُسطنطينية وصاحب صِقْلِيَّة من ملوك النصرانية
من الروم والفرنج :

سلامُ الله الأطيب ، وبركاته التى يستدرها الحُضْر والغُيب ، وزكواته التى ترفع
أولياءه إلى الدَّرَج ، ونعمته التى لم تجعل على أهل طاعته فى الدين من حرج - على
مولانا سيّد الخلق ، وسادّ الخرق ، ومسدد أهل الحق ، ولايس الشعار الأطهر
سوادا ، ومستحق الطاعة التى أسعد الله من خصّه بها بدءا ومعادا ، ومولى الأمة الذى
تشابه يوم نذاه وبأسه إن ركض جوداً أو جوادا ، وواحد الدهر الذى لا يُنتى ،
وإليه القلوب تُنتى ، ولا يقبل الله جمعا لا يكون لولائه جمع سلامة لا جمع تكسير ،
ولا استقبال قبلة من لا تكون محبته فى قلبه تُقيم وأسمه فى عمله إلى الله يسير ، مولانا
أمير المؤمنين ، وعلى آبائه المالى الأرض عدلا ، الملاء أهلا وفضلا ، والضار بين فصلا
والقائلين فصلا ، ومن تقول الجنة لأهلها بهم أهلا ، المخصوصين بالعناية الإلهية ،

الحاكمين فكلُّ أمةٍ بطاعتهم مأمورةٌ وعن معصيتهم منيةٌ ، والمشرِّ في الأسارى على أسرة الشرف فكم ملأتِ البهو مناظرهم البهية .

المملوك — يخدم الحرم الشريف باحترامه ، والفناء الكريم بإعظامه ؛ والبساط المقبل بطول آستلامه ، والستر الذي أسبله الله على العباد بتحيته وسلامه ؛ وينهى أنه آخر الخدم عن أن ينتظم الأوقات المتجدده ، ويقتضب الحالات المتجرده ؛ والرسل عن أن تتوارد دراكا ، وتتوالى وشاكا ؛ والإنهاءات عن أن تثبت بالمقامات الشريفة النبويه ، ومجالس العرض عليه ؛ ما آتته إليه الأقدار ، وما أفضى إليه من كثير المناج وقليل الأعذار ؛ فإن أدب الأمل عن المطالعة كالصوم لا يفض ختامه ، ولا يحل نظامه ؛ إلا بعيد يطع هلاله مبشرا ، ويبت خبره في الآفاق معطرا ؛ فلو أن متكلما أظفر قبل موعدة ، وورد الماء قبل مورده ؛ لكان مفسدا لعقده ، ناكثا لعهد .

كذلك المملوك أمسك حين كانت الأخبارُ يجانبه مشتهيه ، والحقائقُ لديه غير متوجهه ؛ فإن طاغيتي الكفر بفسططينية وصقلية كانا قد أوقدا للحرب نارا ، ورفعا لها أوزارا ؛ وآخذًا لها أسطولا جاريا وعسكرا جارا ، وتباريا ولم يزد الله الظالمين إلا تبارا ؛ وكتبا إلى الفرنج بعد انهزامهم بالنجدة والنصرة ، وتضمننا لهم الخروج والكراهة ، ويصفان ما آستعدا به بما لا يعبر عنه إلا بالكثرة ؛ وآستطارت الشناعة وتداولتها الألسن ، وخرجت من الأفواه حتى لقد كادت تدخل فيما رآته الأعين ؛ وورد إلى المملوك رسول من طاغية القسطنطينية وهو أقدم ملوك النصرانية قداما ، وأكثرهم ملامتا ؛ فعرض عليه موادة يكون بها عسكره مودعا ، ويكون له بها مفرعا ، له ولصاحب صقلية الذي زعم أنه أصل للشركون الشر منه مفرعا ؛ فلم ين ولم يجب إلى السلم ، ولم يرعه أن عسكره خذله الله مبار في البر وفي اليم ؛ إن شاء الله تعالى .

الأسلوب السادس

(أن تفتتح المكاتبة بخطبة مفتحة بالحمد لله)

وذلك يختص بالفتوح وغيره مما حدث فيه نعمة، وربما بدئت بآية من كتاب الله، كما كتب العباد الأصقهاى عن السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلى الناصر لدين الله ببغداد بفتح القدس :

﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ .
الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ؛ وعلى أن أجرى هذه الحسنة التي ما أشتمل على شبهها كرام الصحائف ، ولم يُجادل عن مثلها في المواقف ؛ في الأيام الإمامية الناصرية زادها الله غررا وأوضاحا ، ووالى البشائر فيها بالفتوح غدوا ورواحا ؛ ومكن سيوفها في كل مازق ، من كل كافر ومارق ، ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدي أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق ، وأنجزها الحق وقدف به على الباطل الزاهق ، وملكها هوادى المغارب ومرامى المشارق ؛ ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفتح ، وأطراف أستنها لدماء الأعداء نوازع .

والحمد لله الذى نصر سلطان الديوان العزيز وأيدته ، وأظفر جنده الغالب وأنجده ، وجلا به جلايب الظلماء وجدد جده ؛ وجعل بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهون الأمر الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدين بقوله : ﴿ ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾ : فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والأخرى هذه التى عتق فيها من رق الكآبه ؛ فهو قد أصبح حرا فالزمان كهيئته أستدار ، والحق بمهجته قد أستنار ؛ والكفر قد ردم كان عنده من

المُسْتَعَار ، وَغَسِلَ ثَوْبُ اللَّيْلِ بِمَاجِرِ الْفَجْرِ مِنْ أَنْهَارِ النَّهَارِ ؛ وَأَتَى اللَّهُ بِنِيَانِ الْكُفْرِ
 مِنَ الْقَوَاعِدِ ، وَشَفَى غَلِيلَ صُدُورِ الْمُؤْمِنِينَ بِرُقْرَاقِ مَاءِ الْمَوْرِدَاتِ الْبَوَارِدِ . أَنْزَلَ
 مَلَائِكَةً لَمْ تَظْهَرِ لِلْعُيُونِ الْأَلْحَظْهَ ، وَلَمْ تَخَفْ عَنِ الْقُلُوبِ الْحَافِظْهَ ؛ عَزَّتْ سِيمَا
 الْإِسْلَامِ بِمَسْوَمِهَا ، وَتَرَادَفَ نَصْرُهُ بِمُرْدَفِهَا ، وَأَخَذَتِ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ قَتْرَى مُتْرِفِيهَا
 كَأَنَّ لَمْ تُؤَوِّ فِيهَا ؛ فَكَمْ أَقْدَمَ بِهَا حَيُومٌ ، وَرَكَضَ فَاتَّبَعَهُ سَحَابٌ عَجَّاجٌ مَرْكُومٌ ، وَضَرَبَ
 إِذَا ضَرَبَهُ كِتَابُ حِرَاجِ مَرْقُومٍ ؛ وَإِلَّا فَإِنَّ الْحُرُوبَ إِنَّمَا عُنِدَتْ سِجَالًا ، وَإِنَّمَا جَمَعَتْ
 رِجَالًا ، وَإِنَّمَا دَعَتْ خِيفًا وَثِقَالًا ؛ فِيمَا سَيُوفٌ تَقَاتِلُ سَيُوفًا ، أَوْ زُحُوفٌ تَقَاتِلُ
 زُحُوفًا ؛ فَيَكُونُ حُدُّ الْحَدِيدِ بِيَدٍ مُدْكَرًا وَيَبْدُ مَوْثَنًا ، وَيَكُونُ السَّيْفُ فِي الْيَدِ الْمَوْحِدَةِ
 يُعْنِي بِالضَّرْبَةِ الْمَوْحِدَةِ وَفِي الْيَدِ الْمَثَلَّةِ لَا يُعْنِي بِالضَّرْبِ مَثَلًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي فِتْنَتَيْنِ
 التَّقَاتَا ، وَعُدُوتَيْنِ لَغَيْرِ مَوْدَّةٍ اعْتَنَقَتَا . وَإِنْ هَذِهِ النَّصْرَةُ إِنْ زُوِيَتْ عَنِ مَلَائِكَةِ اللَّهِ
 مُجِدَّتْ كِرَامَاتُهُمْ ، وَإِنْ زُوِيَتْ عَنِ الْبَشَرِ فَقَدْ عُرِفَتْ قَبْلُهَا مَقَامَاتُهُمْ ؛ فَمَا كَانَ
 سَيْفٌ يَبْقِظُ مِنْ جَفْنِهِ قَبْلَ أَنْ يَنْبَهُ الصَّرِيخُ ، وَلَا كَانَ ضَرْبٌ يُطِيرُ الْهَامَ قَبْلَ ضَرْبِ
 يَرَاهُ النَّاطِرُ وَيَسْمَعُهُ الْمُصِيخُ ، فَكَمْ فَرِيَّةً كَأَنَّهَا هِجْرَةُ الْمَوْتِ وَبِهَا التَّارِيخُ ، وَكَمْ طَعْنَةً
 تَنْخَرُ لَهَا هِضَابُ الْحَدِيدِ وَلَهَا شَمَارِيخُ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعَادَ الْإِسْلَامَ جَدِيدًا نَوْبَهُ ، بَعْدَ أَنْ كَانَ جَدِيدًا حَبْلُهُ ، مُبِيضًا
 نَصْرُهُ ، مُحَضَّرًا نَصْلُهُ ، مَتَسِعًا فَضْلُهُ ، مَجْتَمِعًا شَمْلُهُ . وَالْحَلَامُ يَشْرُحُ مِنْ نَبِيٍّ هَذَا الْفَتْحِ
 الْعَظِيمِ ، وَالنَّصْرِ الْكَرِيمِ ؛ مَا يَشْرُحُ صُدُورَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَمْنَحُ الْحُبُورَ لِكَافَةِ الْمَسْلَمِينَ ؛
 وَيُكْرِرُ الْبُشْرَى بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ - مِنْ يَوْمِ الْخَمِيسِ الثَّلَاثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ رَبِيعِ الْآخِرِ

(١) أى مقطوعا قال الشاعر .

أبى حبي لسلبى أن يبيدا * وأسى حبلها خلقا جديدا

فأ فى الأصل والضوء من الحاء المهمله اهل من الناصح .

إلى يوم الخميس منسَلَخِه - وتلك سبْعُ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةُ أَيَّامٍ حُسُومُهُ سَخَّرَهَا اللهُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ ورأيتهَا إِلَى الْإِسْلَامِ ضَاحِكَةً كَمَا كَانَتْ مِنَ الْكُفْرِ بَاكِه ؛ فَيَوْمَ الْخَمِيسِ الْأَوَّلِ فُتِحَتْ طَبْرِيَّةٌ وَفَاضَ رِيُّ النَّصْرِ مِنْ بُحَيْرَتِهَا ، وَقَصَبَتْ عَلَى جَسْرِهَا الْفَرَّجُ فَقَصَبَتْ نَجَبَهَا بِحَيْرَتِهَا ؛ وَفِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ وَالسَّبْتِ كُسِرَ الْفَرَّجُ الْكَسْرَةَ الَّتِي مَالَهُمْ بَعْدَهَا قَائِمُهُ ، وَأَخَذَ اللهُ أَعْدَاءَهُ بِأَيْدِي أَوْلِيَائِهِ أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ . وَفِي يَوْمِ الْخَمِيسِ مَنْسَلَخَ الشَّهْرَ فُتِحَتْ عَكَا بِالْأَمَانِ ، وَرُفِعَتْ بِهَا أَعْلَامُ الْإِيمَانِ ؛ وَهِيَ أُمُّ الْبِلَادِ ، وَأَخْتُ إِرَمِ ذَاتِ الْعِمَادِ ؛ وَقَدْ أَصْبَحَتْ كَأَنَّ لَمْ تَغْنُ بِالْكَفْرِ وَكَأَنَّ لَمْ تَفْتَقِرْ مِنَ الْإِسْلَامِ .

وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلْبُوتِ مَأْسُورٌ ، وَقَلْبُ مَلِكِ الْكُفْرِ الْأَسِيرِ جَيْشُهُ الْمَكْسُورُ مَكْسُورٌ ؛ وَالْحَدِيدُ الْكَافِرُ الَّذِي كَانَ فِي الْكُفْرِ يَضْرِبُ وَجْهَ الْإِسْلَامِ ، قَدْ صَارَ حَدِيدًا مُسَلِمًا يُفَرِّقُ خُطُوبَاتِ الْكُفْرِ عَنِ الْأَقْدَامِ ؛ وَأَنْصَارُ الصَّلِيبِ وَبِكَارِهِ ، وَكُلُّ مَنْ الْمَعْمُودِيَّةُ عُمْدَتُهُ وَالذَّيْرَادَةُ ؛ قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ يَدُ الْقَبْضَةِ ، وَأَخَذَتْ رَهْنًا فَلَا تُقْبَلُ فِيهِ الْقَنَاطِيرُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ؛ وَطَبْرِيَّةٌ قَدْ رُفِعَتْ أَعْلَامُ الْإِسْلَامِ عَلَيْهَا ، وَنَكَصَتْ مِنْ عَكَا مَلَّةُ الْكُفْرِ عَلَى عَقْبَيْهَا ، وَعَمَّرَتْ إِلَى أَنْ شَهِدَتْ يَوْمَ الْإِسْلَامِ وَهُوَ خَيْرُ يَوْمَيْهَا ؛ بَلْ لَيْسَ مِنْ أَيَّامِ الْكُفْرِ يَوْمٌ فِيهِ خَيْرٌ ، وَقَدْ غُسِلَ عَنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ بَدْمَاءُ الشَّرْكِ مَا كَانَ يَتَخَلَّلُهَا فَلَا ضَرَرَ وَلَا ضَيْرَ ؛ وَقَدْ صَارَتْ الْبَيْعُ مَسَاجِدَهُمْ بِهَا مِنْ أَمْنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَصَارَتْ الْمَنَاحِرُ مَوَاقِفَ لُحُطْبَاءِ الْمَنَابِرِ ، وَأَهْتَرَتْ أَرْضُهَا لَوْقُوفِ الْمُسْلِمِينَ فِيهَا وَطَالَمَا اِرْتَجَّتْ لِمَوَاقِفِ الْكَافِرِ ؛ وَالْبَأْسُ الْإِمَامِيُّ النَّاصِرِيُّ قَدْ أَمْضَى مِشْكَاتَهُ عَلَى يَدِ الْخَادِمِ حَتَّى بِالذَّنْبِ فِي الْكَائِسِ ، وَإِنْ عَزَّ أَوَّلَ الْإِسْلَامِ بِحَطِّ تَاجِ فَارِسَ ، فَكَمْ حَطَّتْ سَيُوفُهُ فِي هَذَا الْيَوْمِ مِنْ تَاجِ فَارِسِ .

فأما القتل والأسارى فإنها تزيد على ثلاثين ألفا .

وأما فرسان الديوية والأستبارية فقد أمضى الله حكمه فيهم وقطع بهم سيوف نار الجحيم ، ووصل الراحل منهم إلى الشقاء المقيم ؛ وقتك بافرنس كافر الكفار ، ومشيد النار ، من يده في الإسلام كما كانت يد الكليم ؛ وأقرت النصره عن ثغر عكا بجمد الله الذى يسر فتحها ، وتسلمتها الملة الإسلامية بالأمان وعرفت في هذه الصفقة ربمها .
وأما طبرية فافترتها يد الحرب فانهرت الحرب بجرحها .

فالحمد لله حمدا لا تضرب عليه الحدود ، ولا تُزكى بأزكى منه العقود ؛ وكأنه بالبيت المقدس وقد دنا الأقصى من أقصاه ، وبلغ الله فيه الأمل الذى علم أن يُحصيه وأحاط بأجله وأقصاه ؛ لكل أجل كتاب ، وأجل العدو هذه الكئاب الجامعة ، ولكل عمل ثواب ، وثواب من هدى لطاعته جنات نعيمه الواسع ؛ والله المشكور على ما وهب ، والمسئول في إدامة ما استيقظ من جد الإسلام وهب .

وقد توجه من جانبه الأمير رشيد الدين دام تأييده في إهداء هذه البشري نيابة عن الخادم ، ووصف مايسره الله لأوليائه من العزائم . والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : « طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، القزله ، الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كثيرة . والولد المظفر تقي الدين بصور وحصن تينين . والأخ العادل سيف الدين نصره الله قد أوفت (؟) بالوصول من عنده من عنده من العساكر فينزل في طريقه على غزّة وعسقلان ، ويجهز مراكب الأسطول المنصور ويكثر عددها ، ويسير بها إلى ثغر عكا المحروس ويشحنها بالرجال ويوفر سلاحها وعددها ؛ والنهوض إلى القدس فهذا أو أن فتحه ولقد دام عليه ليل الضلال ، وقد آن أن يستقر فيه الهدى مشكور الإحسان ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الخاصة، إلى خلفاء بني العباس)

قال أبو جعفر النحاس : وقد يكتب الإمام بغير تصدير إذا لم يكن ذلك في شيء من الأمور التي سبيلها أن تُنشأ الكتب بها من الدواوين . كما كتب القاسم بن عبد الله إلى المكتفي مهتناً له بالخلافة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، وأسأل الله أن يعظم بركة هذا الأمر على أمير المؤمنين وعلى الأمة كافة .

قال : والمستعمل في هذا الوقت في مكتبة الوزير الإمام :

أطال الله بقاء أمير المؤمنين ! وأعزّه وأيده ، وأتمّ نعمته عليه ، وأدام كرامته له . ثم قال : وربما استُخدمت مكتبة المرءوس إلى الرئيس على غير ترتيب الكتاب . كما كتب إبراهيم بن أبي يحيى إلى بعض الخلفاء يعزّيه :

أما بعد فإنّ أحقّ من عرف حقّ الله عليه فيما أخذ منه ، من عظم حقّ الله عليه فيما أبواه له ، وأعلم أنّ أجر الصابرين فيما يصابون أعظم من النعمة عليهم فيما يعاقون فيه .

الطرف الخامس

(في المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية.)

قد ذكر في "موادّ البيان" أن المستعمل في دولتهم أن يقال بعد البسملة : أفضل صلوات الله وبركاته ، وأشرف رضوانه وتحياته ، على مولانا وسيدنا الإمام الفلاني أمير المؤمنين ، وعلى آباءه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين - إن كان له أبناء - فإن لم

يكن له أبناء قيل مكان الأكرمين : المتظرين . ثم يقال بعد فضاء واسع : كتب عبد الموقف النبوي خلد الله ملكه ، من مقرّ خدمته بناحية كذا ، وأمور ما عُدق به وردّ إلى نظره منتظمة بسعادة مولانا أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وعلى جدّه - والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين وسلّم تسليماً . ثم يقال : العبد يُنهي كذا وكذا ينص الأغراض التي بُني الكتابُ على إنهاؤها وشرح حالها . قال : فإن كان الكتاب مبنياً على المطالعة ببعض الأخبار ، قيل في آخره بعد فضاء يسير : ” أنهى العبد ذلك ليستقرّ علمه بالموقف الأشرف ” إن شاء الله تعالى . وإن كان مبنياً على الاستمرار في بعض الأحوال ، قيل في هذا الموضع : ” ولمولانا أمير المؤمنين صلى الله عليه الرأى العالى في ذلك ” إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط في جوابٍ عن كتابٍ ورد من الخليفة بالسؤال عن المكتوب عنه في مرضه ، وهو :

صلواتُ الله الرّأى ، وتحياته الذّكيّة الدّأى ، وسلامه الذى يتنزل على الرّوح بالروح ، ويؤذن من رضا الله بأشرف موهوبٍ وأكرم ممنوحٍ ، وبركائه التى فيها للمؤمنين سكنٌ ، وبشفاعتها تُتقبل أعمال المؤمن بقبول حسن - على إمام الحق المنظور المعنى عن المتظر ، وحجة الله التى أرسلها نذيراً للبشر ، وخليفة الله الذى نزلت بمدحه مرتلاتُ السور ، قبل مرتبات السّير ، وبعثه الله بالنور الذى لا يمكّن الكافر من إطفائه ، وبرهان الله الذى لا يطمع الجاحد فى إخفائه ، ونائب النبوة ووارثها ، ومحيى القلوب وباعيها ، ومفيض أسرار الأنوار وناقفها ، سيدنا ومولانا الإمام القلانى : ولا زالت الأقدار له جُنوداً وجُدوداً ، والجديدان يسوقان إليه من أيامهما وليالهما إماءً وعبيداً ، وعلى آبائه الذين سبقت لهم من ربهم الحسنى ، ورغبوا عن عرض هذا الأدنى ، ولا تتم ولا تتم على الخيان ، ولا يتم للثقلين أن ينفذوا ما لم يكونوا منهم

بُسْطَان - وعلى أبنائه وجوه الهدى البارزة من الأكنه ، وأيدي الندى والأعنة والأسنه .

كتب عبد الموقف النبوي خلد الله ملكه من مقتر خدمته بالمكان الفلاني ، وأمور ماعدق به ورد إلى نظره على أتم حال وأكله ، وأحسن نظام وأجمله ؛ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه وعلى جده وآبائه الطاهرين . العبد ينهي أنه لو أخذ في شكر المن التي ترقيه في كل يوم لهضاب بعيدة المرتقى ، وتورده جمات قريبة المستقى ، وتوجب على لسانه أن يبذل جهد من أسترسل وعلى قلبه أن يبذل جهد من أتقى ؛ لقصر به الوصف ، وأعياء من ورق الجنة الخصف ؛ وكيف يجارى من يده ديمة الله بقلمه ، أو كيف يتزح بحر الجود الذي يمدّه سبعة أبحر نعمه ، ولما ورد عليه التشریف بالسؤال الذي أحياء بنسيم روحه ، ونفخ فيه من روحه ؛ فوقع له ساجدا ، وثاب إلى السجود عائدا ؛ وبذل مع ضراغته الأبهال جاهدا ، وأخلص قرص الولاء معتقدا ورفع لواء الحمد عاقدا ؛ وكشف عنه الضر ، وأطاعت على وجهه النعم الغز ، وتكافأت الأنداد في محل عيشه فلي الحلومر المتر ؛ وأتته من الدعوات إلى ما أتته به المرص ، وتقلل منه الجوهر الذي عزل به العرض ، وصاغ بمهجته السهام التي نقد بها الغرض ؛ وكاد يشاهده مرتفعا به الضنى والألم ، وفعلت أنواره في ظلمته مالا تفعل الأنوار في الظلم ؛ ولم يرد قبله حلوا الأوقل والآخر ، مأمون الموارد والمصادر ، مضمون الشفاء في الباطن والظاهر ، عادت القلوب على الأجسام بفضله ، وسطت العافية على الأسقام بفضله بل بفضله ؛ والله سبحانه يملكه أعناق البلاد ، كما أجرى على يديه أرزاق العباد ، إن شاء الله تعالى . وكتب في يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا .

الطرف السادس

(في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معناهم

إلى خلفاء بني أمية بالأندلس)

وكانت المكتبة إليهم بالافتتاح بالدعاء بطول البقاء، مع الإطناب في الإطراء في شأن الخليفة ومدحه والثناء عليه والدعاء له ، والخطاب فيه للخليفة بأمر المؤمنين منعوتاً بمولاي وسيدى ونحو ذلك ؛ والتعبير عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة من تاء المتكلم ونحوها . كما كتب أبو المطرف بن المنثى من إنشائه عن المنصور إلى هشام ابن الحكم يخبره بجرىان الصلح بينه وبين الموفق ، بعد ما كان بينهما من عداوة :

أطال الله بقاء أمير المؤمنين ! مولاي وسيدى وسيد العالمين ، وأبن الأئمة الراشدين ؛ عزيزاً سلطاناً ، منيراً زمانه ؛ ساميةً أعلامه ، ماضيةً أحكامه ؛ ظاهرًا على من ناواه ، قاهرًا لمن عاداه ؛ كما يحبُّ - أيد الله أمير المؤمنين مولاي وسيدى على أحسن ما يكون عليه .

العبدُ المُخلص ، والمولى المتخصِّص ؛ الذى حَسُنَ مضمَره ، وأستوى سِرُّه وجَهْرُه ؛ ولاح آستبصاره وجِدُّه ، وتساهى سعيه وجُهدُه ؛ فى مِضمار الجرى إلى الطاعة ، وبذل إذعانه وأتقياده ، وأستعبد إمكانه وإجهاده ؛ فيما يقبى بتكفين الإمامة المهديَّة ، والخلافة المرصية ، ويشدُّ مبانى المملكة المصدقة لتباشير اليمين والبركة ؛ والله سبحانه ولىّ العون والتأييد ، والملىّ بالتوفيق والتسديد ، لأربِّ غيره .

وبعد - أبقى الله أمير المؤمنين - فإن كتابى إليه سلف مُعرباً عن التزغة التى كانت بينى وبين الموفق مملوكه ، وقد يما نزع الشيطان بين المرء وصديقه ، والأخ وشقيقه ؛ وضرب ساعيا بالتشتيت والتشغيب ، والتبعيد والتقريب ؛ بين الأب الحانى الشفيق ،

والأبن البر الرفيق ؛ ثم يعود ذُو البصائر والنهي ، وأولو الأحلام والحجما ؛ إلى ما هو
 للشحناء أذهب ، وبالتجامل أولى وأوجب . وكتابي هذا وقد نسخ الله بيننا آية
 الأفتراق ، بالاتصال والافتراق ؛ ومحاسمة التباين والخلاف ، وبدو التألف والإنصاف ؛
 وعادت النفوس إلى صفائها ، وأنطوت على وفائها ؛ وخبث نار الفتنة ، وأمتد رواق
 الهدنة ؛ وثبتت الأسباب الراسخة ، والأواصر العاطفة بأزمة قلوبنا إلى معاهد الخلة
 القديمه ، ومواطن العشرة الكريمة ؛ والمعروف من الأمتزاج في كل الأحوال والتشابك
 وجلاء الشك باليقين ، وقرت بالانتظام العيون ، وصرنا في القيام بدعوة أمير المؤمنين
 مولانا وسيدنا رضيعي لِيَان ، وشريكى عَنَان ؛ وألقيت تناصراً ، وحليفتي تظافر ؛ فنحن
 عن قوس واحدة في نُصرتها نرحم ، ومن ورائها نذودُ جاهدين ونهجم ؛ قد فتنا الحياذ
 في السَّبْق إلى الطاعة ، وأحرزنا قَصَب السبق في المظاهرة والمشايعة ؛ فما نفتأ نسعى
 في تمهيدها ونذهب ، ولا ننفك نكدح لها وننصب ؛ والله الكفيل بانجادنا بعزته
 وقدرته ، وحوله وقوته ؛ لا إله إلا هو .

وإن الذي عقده الله تعالى لنا ، وحسمه من دواعي القطيعة عنا ؛ ما أطرد وتأتى ،
 وسنح وتهياً إلا بسعد طائر أمير المؤمنين سيدنا ومولانا أعزّه الله ، ويمن نقيبته ،
 فمن تمسك بعروته وعاد بعصمته ، فقد فاز قدحُه ، وتبجح في ظلم الأمور صُبْحُه ؛
 وأستدل بأوضح الدليل ، وعرض بالرأى الأصيل ؛ وأستنار بأضواء سراج ، وسلك
 على أقصد منهاج ؛ ولم يُزِيل الرِّشَادُ آراءه ، وصاحب السداد أُنْحَاءه . والله تقدس اسمه
 لا يزال يعترفنا من سعادة الدعوة الزكية ما يصلح به أحوالنا ، ويُفسح به آمالنا ، بمنه .

ولما أتاح الله من السلم ما أتاحه ، وأزاح من المكروه ما أراحه ؛ لم أجد في فسحة
 ولا غنى ولا سعة ؛ من إطلاع أمير المؤمنين مولاي وسيدي من ذلك على الخلية ؛

وإعلامه بالصورة؛ فأنهضت إلى حضرته العالية ذا الوزارتين عبد الرحمن بن مطروح
رسول وعبدى وخاصتي مملوكه لينهى إليه الحال على حقيقتها، ويوفّيها بكليتها؛
وأقرن به رسول الموفق، متحملاً مثل ما تحمّله رسولى، ومتقلداً كالذى تقلده؛
ولأمير المؤمنين مولاى وسيدى الفضل العميم فى الإصغاء إليهما، والوعى عنهما،
والسماح منهما جميع ما يوردانه ويوصّحانه، ويستوفّيانه ويشرحانه، والتطول
بالمراجعة فيه، بما يستوجب ويقتضيه، وإصلاً لعزّ مننه وأيديه؛ إن شاء الله تعالى.

الطرف السابع

(فى المكتبة الصادرة إلى خلفاء الموحّدين بالمغرب، القائم بقاياهم الآن بتونس
وما معها من سائر بلاد أفريقيا . وفيه ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتَح المكتبة بالدعاء، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تكون المكتبة من ملك آخر)

والرسم فيه أن تُفتَح بالدعاء المناسب للحال، ويعبر المكتوب عنه عن نفسه بنون
الجمع ويخاطب المكتوب إليه بأمر المؤمنين . كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان
«صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن :
أحد خلفائهم فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة، يستجيشه على الروم الفرنج القاصدين
بلاد الشام والديار المصرية، وهو :

فتح الله بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيد العالمين ، وقسيم الدنيا والدين ؛
أبواب الميادين ، وأسباب المحاسن ؛ وأحلّه من كفايته في الحرم الآمن ، وأنجزه
من نصرة الحق ما الله له ضامن ، وأصلح به كلّ رأى عليه الهوى رائئ ؛ ومكّن له
في هذه البسيطة بسطه ، وزاده بالعلم غبطه ؛ حتى يكون للأنياء بالعلم وللأرض
بالعزم وارثاً ، وحتى يُسَيِّد بجادٍ قديماً من مجده الذى لا يزال بنقض الحديث حادثاً .

كان من أوائل عزمنا وفواتح رأينا عند ورودنا الديار المصرية مفاتحة دولة سيدنا ،
وأن نتيمن بمكاتبها ، ونترنّين بمخاطبتها ؛ ونهض إليها أمائل الأصحاب ، ونستسقي
معرفة أسسقاء السحاب ؛ وننتجعها بالخواطر ونجعل الكتب رسلاً ، وأيدي الرسل
سبلها ؛ وميسك طرفاً من جبل الجهاد يكون بيد حضرة سيدنا العالية طرفه ، ونمسح
غرة سبقي وارثها ووارث نورها سلفه ؛ ونجتاذب أعداء الله من الجانين ، لاسيما
بعد أن نبنا عنه نيابتين في نوبتين : فالأولى تطهير الأرضين المصرية واليمينية من ضلالة
أغضت عيون الأيام على قداها ، وأنامت عيون الأنام بائعة يقظتها بكرها ؛ ونياية
ثانية في تطهير بيت المقدس ممن كان يعارض برجسه تقديسه ، ويزعج ببناء ضلاله
تأسيسه ؛ وما كان إلا جنة إسلام فخرج منها المسلمون خروج أبيهم آدم من الجنة ،
وأعقبهم فيها إبليس الكفر وما أجارته مما أعقبه اللعنه ، وما كانت لنا بذلك قوة
بل لله القوه ، ولا لنا على الخلق منة بل لله المنه .

ولما حطت لدين الكفر تيجان ، وحطمت لذويه صلبان ؛ وأنحرس الناوس
الأذان ؛ ونسخ الإنجيل القراء ؛ وفكّت الصخرة من أسرها ، وخف ما كان على
قلب الحجر الأسود بخفة ما كان على ظهرها ؛ وذلك أن يد الكفر غطتها وعمرتها .
فنه الحمد أن أحرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهرها ما طر من دم

الكُفْر وما كان يُطَهِّرُها البحرُ المحيطُ ؛ فهناك غلبَ الشركُ وأتقلبَ صاغراً ،
واستجاشَ كافرٌ من أهله كافراً ؛ وأستغضبَ أنفاره النافره ، وأستصرخَ نصرانته
المتناصره ؛ وتظاهروا علينا وإن الله مولانا ، وطاروا إلينا زرافاتٍ ووحدانا ؛ فلم يبق
طاعيةً من طواغيمهم ، ولا أنفيةً من أنافيهم ؛ إلا ألجمَ وأسرج ، وأجلبَ وأرجم ، ونحرج
وأنرحج ، وجاد بنفسه أو بولده ، وبعده وبعده ؛ وبذات صدره وبذات يده ،
وبكائبه برآ ، وبمراكبه بحرا ؛ وبالأقوات للخيول والرِّجال ، والأسلحة والجُنن لليمين
والشمال ؛ وبالنقدين على اختلاف صنفيهما في الجمع ، وأتلاف وصفيهما في النفع ؛
وأنهضَ أبطالَ الباطل ، من فارسٍ وراجلٍ ؛ وراحمٍ ونايلٍ ، وحافٍ وناعلٍ ،
ومواقفٍ ومقاتلٍ ؛ كلُّ خرج متطوعاً ، وأهطعَ مُسرِعاً ، وأتى متبرعاً ، ودعا نفسه قبل أن
يُستدعى ؛ وسعى إلى حتفها قبل أن يُستسعى ؛ حتى ظننا [أت] في البحر طريقاً يبسا ،
وحتى تيقنا أن ما وراء البحر قد خلا وعسا ؛ وقلنا : كيف نترك ، وقد علم أنه يُدرك ؛
وزادت هذه الحُشود المتوافيه ، وتجاقت عنها الهمم المتجافيه ؛ وكثرت إلى أن خرجت
من سبحن حصرها ، ومستقر كُفْرها ، وبقية نعرها - وهو صور - فنازلت نعر عكا
في أسطولٍ ملك بحره ، وجمع سلك بره - فنهضنا إليه ، ونزلنا عليهم وعليه ؛ فضرب
معنا مصافاً قُتلت فيه فرسانه ، وجُدلت شُبعائه ، وحُدلت صُلبانه ؛ وساوى الضربُ
بين حاسِر القوم ودارعهم ، وبرز الذين كُتِب عليهم القتلُ إلى مضاجعهم ؛ فهناك
لأذوا بالخنادق يحفرونها ، وإلى الستائر ينصبونها ؛ وأخذوا إلى الأرض متناقلين ،
وحملوا أنفسهم على الموت متحاملين ، وظاهروا بين الخنادق ، وراوحوا بين المجانيق ؛
وكما يُبجِنُّ القتلُ من عددهم مائةً أوصلها البحرُ من يصل وراءه بألف ، وكما قلوا
في أعيننا في زحف ، قد كثرُوا فيما يليه من الرِّحف ؛ ولو أن دُرْبة عسا كرنا في البحر

كُذِّبَتْهَا فِي الْبَرِّ، لَعَجَلُ اللَّهِ مِنْهُمْ الْإِتِّصَافَ وَأَسْتَقَلَّ وَاحِدُنَا بِالْعَشْرَةِ وَمَا تَنَا بِالْأَلْفِ ؛
 وَقَدْ أَشْتَهَرَ خُرُوجُ مَلُوكِ الْكُفَّارِ فِي الْجَمْعِ الْجَمِّ ، وَالْعَدَدِ الدُّهْمِ ، كَأَنَّهُمْ إِلَى نَصَبٍ يُوفِضُونَ ،
 وَعَلَى نَارٍ يُعْرِضُونَ ؛ وَوَصُولُهُمْ عَلَى جِهَةِ الْقِسْطَنْطِينِيَّةِ - يَسِرُّ اللَّهُ فَتَحَهَا - عَلَى عِزْمِ الْإِتِّتَامِ
 إِلَى الشَّامِ فِي مُنْسَلَخِ الشِّتَاءِ وَمُسْتَهَلِّ الصَّيْفِ ، وَالْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ لَهُمْ تَسْتَقْبِيلٌ ،
 وَإِلَى حَرْبِهِمْ تَنْتَقِلُ ؛ فَلَا يُؤْمَنُ عَلَى ثُغُورِ الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَطَّرَقَ الْعَدُوُّ إِلَيْهِمْ وَإِلَيْهَا ،
 وَيَفْرُغَ لَهَا وَيَتَسَلَّطَ عَلَيْهَا ؛ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ . وَإِذَا قُسِمَتِ الْقُوَّةُ عَلَى تَلْقَى
 الْقَادِمِ وَتَوَقَّى الْمُقِيمِ ، فُرُبَّمَا أَضْرَبَ الْإِسْلَامُ أَنْقِسَامَهَا ، وَتَلَمَّهَ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ أَنْتِلَامُهَا .
 وَلِمَا حَمَّضَ النَّظْرُ زُبْدَهُ ، وَأَعْطَى الرَّأْيَ حَقِيقَةَ مَا عِنْدَهُ ؛ لَمْ نَرَلُمُكَاتِرَةَ الْبَحْرِ إِلَّا
 بَحْرًا مِنْ أَسَاطِيلِهِ الْمَنْصُورَةِ فَإِنَّ عَدَدَهَا وَافٌ ، وَشَطْرُهَا كَافٌ ؛ وَيُمْكِنُهُ - أَدَامَ اللَّهُ
 تَمْكِينَهُ - أَنْ يَمُدَّ الشَّامَ مِنْهُ بَعْدَ كَثِيفٍ ، وَحَدَّ رَهِيْفٍ ، وَيَعْهَدَ إِلَى وَالِيهِ أَنْ يُقِيمَ
 إِلَى أَنْ يَرْتَبِعَ وَيَصِيْفَ ؛ وَيُمْكِنُهُ أَنْ يَكْفِفَ شَطْرًا لِأَسْطُولِ طَاغِيَةِ صِقْلِيَّةٍ لِيَحْصُ
 جَنَاحَ قُلُوعِهِ أَنْ تَطِيرَ ، وَيَعْقِلَ عُبَابَ بَحْرِهِ أَنْ يُغَيِّرَ ، وَيَعْتَقِلَهُ فِي جَزِيرَتِهِ ، وَيَجْرِي
 إِلَيْهِ قَبْلَ جَرِيرَتِهِ ؛ فَيَذْهَبَ سَيْدُنَا وَعَقْبُهُ بِشَرْفٍ ذِكْرٍ لَا تُرَدُّ بِهِ الْحَامِدُ عَلَى عَقْبِهَا ،
 وَيُقِيمَ عَلَى الْكُفْرِ قِيَامَةً يُطْلَعُ بِهَا شَمْسَ النَّصْرِ مِنْ مَغْرِبِهَا ؛ فَإِذَا نَفَذَ طَرِيقَهُ وَعَلِمَ
 النَّاسَ بِمُؤِيدِهِ ، أَوْرَدُوا وَأَصْدَرُوا فِي مَوْرِدِهِ ؛ وَشَخَّصَ الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ : هَذَا يَنْتَظِرُ
 بُشْرَى الْيَدَارِ ، وَهَذَا يَسْتَطْلِعُ لِمَنْ تَكُونُ عُقْبَى الدَّارِ ؛ وَخَافَ وَطَاءَةً مَنْ يَصِلُ
 مِنْ رِجَالِ الْمَاءِ مَنْ وَصَلَ مِنْ رِجَالِ النَّارِ . وَلَوْ بَزَقَتْ عَلَيْهِمْ بَارِقَةٌ غَرِيْبَةٌ لِأَغْرَقَهُمْ
 طُوفَانُهَا ، وَلَوْ طَلَمَتْ عَلَيْهِمْ جَارِيَةٌ بِحَرِيْبَةٍ لَنَعَقَتْ فِيهِمْ بِالْشِّتَاتِ غَرِبَانُهَا .

وما رأينا أهلاً لهذه العزمة إلا حضرة سيدنا أدام الله صندق محبة الخير فيه ،

(١) إذ كان متحمة عادة في الرضى به وقُدرة على الإجابة ، ورغبة في الإنايه ؛ ولاية لأمر

(١) كذا في الأصول ولم نثر عليها في رسائل القاضى الفاضل .

المسلمين، ورياسةً للدنيا والدين، وقيامًا لسلطان التوحيد القائم بالموحدين؛ وغضبًا لله ولدينه، وبدلًا لمدُخوره في الذنب عنه دون ما عوده؛ والآن فقد خلا الإسلام بملائكته، لما خلا الكفر بشياطينه؛ وما أُجِلت السوابق إلا لإطلاقها، ولا أثلت الذخائر إلا لإنفاقها؛ وقد آستشرف المسلمون طُلوعها من جهته المحروسة جارا من الأساطيل تغشى البحار، وليالي من المراكب تركب من البحر النهار؛ وإذا خفقت قلوبها خفقت للقلاع قلوب، وإذا تجافت جنوبها عن الموج تجافت من الملاعين جنوب؛ فهي بين نغر كُفر تعقله وتحصره، وبين نغر إسلام تُخرج عنه وتنصره، يكون بها مصائب عند المسلمين (؟) وتظل قلائد المشركين لغربان بحره طرائد، ويمضي سيف الله الذي لا يعدم في كل زمان فيعلم معه أن سيف الله خالد؛ أعز الله الإسلام بما يزيد حضرة سيدنا من عزها، فيما مد عليها من ظلها، وبما يسكنه من حرزها، فيما يبسط على الأعداء بها من بأسها ويترل بهم من رجزها، وبما يجرده من سيوفها التي تقطع في الكفر قبل سلها وهزها.

وقد أوفدناه على باب حضرة سيدنا، وهو الداعي المُسمع، والمبلغ المُقنع، والمجمع المستجمع؛ علمناه أمرا يسرا، وبأنه الصدر فكان وجها، وأودعناه السر فكان صدرا.

الضرب الثاني

(أن تكون المكتبة صادرة عن بعض الأتباع)

والرسم فيه أن تُفتح المكتبة بالدعاء بطول البقاء، مثل أن يكتب أحد أتباعه إليه؛ ويعبر المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمر المؤمنين. كما كتب أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلى بعض خلفائهم جواب كتاب ورد بالكشف عن عامل نغر شقورة.

« أطال الله بقاء أمير المؤمنين ، وناصر الدين والدنيا بفضلہ العَمِيم ؛ ولا بِرِحْتِ مصالِح العباد ببالہ الکریم جائلہ مانلہ ، وسيرته الحميدة لدانيمهم وقاصيمهم شاملہ کافله ، ولا زالَ لله في أرضه بالقسط قائماً ، وعلى ماينفع الناس محافظاً دائماً .

كتبته - أيد الله أمره ! صدر جمادى الأولى ، سنة أربع وعشرين وخمسة ، بعد امتثال ماحدثه ، والانتهاه إلى ماوجب الانتهاه عنده ؛ من أمر نغر شقورة حرسه الله !

على ما أنص مناقله ، وأعرض مراتبه ومنازله ؛ وذلك أن كتابه العزيز وافانى على يد رجل من أهلها فيه فصول رفعها ، وأحاديث سطرها وجمعها ؛ وأندرج الكتاب المرفوع بذلك طيه ، لينظر إليه من ادعى عليهم رفعه ، ويستبين حقيقته أو وضعه ؛

وبإبطاء هذا الرفع سبقته الأبناء ، وأستقرت عند جمعها الأفاض والأئحاء ؛ فأجتمعوا إلى عاملهم فلان وقفه الله ، وحضرهم حاكم الجهة أبقاه الله ؛ ونبغوا تلك الوجوه بالرد لها ، والإنكار على القائم بها ؛ وعقد وافى كل عقد منها عقدا يناقضه ،

وأستظهروا بشهادات تنافيه وتعارضه ؛ وأندرجت العقود ، ثابتة في كتاب الحاكم على السبيل المعهود في إثبات العقود ؛ فثبتت عندى لثبوتها عنده ، وخاطبوني مع ذلك متبرين من هذا الرفع ، واضعين له في عقله ودينه بأحط المواضع ؛ وصرحوا بارتضائهم بسيرة عاملهم وأغبتاهم بحمايته وسداد نظره ، وعلى تيقنة ذلك وصل هذا الرفع بالكتاب العزيز وما أندرج طيه على ما قدمت ذكره ؛ فاستأنفت النظر ، وأعدت العمل ، وخاطبت الحاكم والأعيان والكافة هنالك بما ورد في أمرهم ؛ وأردفت الكتاب المرفوع ليقفوا على نصه ، وينظروا إلى شخصه ؛ فراجعوني أنه لامزيد عندهم على ما قدموه ، ولا خلاف فيما تقدموه وأحكموه ، وأحالوا على ما ثبت به العقود ،

وهي من الناس المقاطع والحدود ؛ فأقتضى النظر إعلام أمير المؤمنين وناصر الدين أعلى الله أمره ، حسب ما حدثه ، بما وقعت عليه الحال ، ليرفع الإشكال ،

ولا يتعلق بهذه الحبيبة البال ؛ وقد أدرجتُ إلى حضرته السامية الكتب المذكورة لتعرضَ عليها، وتستقرَّ الحليةُ منها لئيبها؛ إن شاء الله .

وأندرجت العُقودُ إلى الفقيه فلان قاضي الحضرة وفقه الله، والله يشكرُ لأُمير المؤمنين وناصر الدين تحريه وأجهاده، وتوفيقه وسداده ؛ ويوالي من والاه، ويكيد من عاداه. ولو كانت الحال بسقورة على ماصوره هذا الرفع لما أنطوت عني أسرارها، ولا [خفيت على] على البعد أخبارها؛ وسفوف إلى فلانة^(١) بين، وهو متشرع متدين، وعضده على ما هو بسبيله في ذلك الثغر متعين ؛ والله يسر الجميع إلى ما يقضى حقوق النعمة، ويقم فروض الخدمة؛ بعونه وقدرته ! .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبةُ بألقاب الخليفة نفسه ثم يؤتى بالصدر معبرا عن المكتوب عنه بالبعد . ومخاطبا للخليفة بيمين الجمع للتعظيم ، ويختم الكتاب بالسلام . وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن يوصف الخليفة بالمقام)

كما كتب أبو الميمون أيضا عن بعض أهل دولتهم إلى الناصر لدين الله أحد خلفائهم :

المقام الأعلى ، المقدس ، المكرم ، الإمامي ، الطاهر ، الزكي ، مقام الخليفة المؤيد بنصر الله ، الإمام « الناصر لدين الله » كلاً الله جلالهم ، وقياً ظلالهم ، وبواً وُقود السُّعود ووجود الظهور والصُّعود مواطنهم المقدسة وحلالهم .

(١) كذا في الأصول وعليه علامة توقف ولعله وتعفف والى فلانة الخ والمراد براءته مما نسب إليه .

عبدهم المتقلب في نعمتهم ، المتقرب إلى الله عز وجل بالمناسبة في خدمتهم ،
المتسبب إلى الزلغنى عندهم بالترام طاعتهم ، والأعتصام بعصبتهم ، فلان .

كتب عبدُ المقامِ الأعلى ، والنديُّ الذي أُسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان
وأحتوى على الفضائل وأستولى ، من موضع كذا حماه الله تعالى ؛ وجنَّاه لطاقتم
قُطب ، ولسانهُ بشكر نعمتم رطب ؛ فبتلك رجاءُ الفوز ، وبها ابتغاءُ نيل الآمال
والحوز ؛ وكيف لا يطاوعه الجنان ، وشكر اللسان مستمداً لإدرار الإحسان ؛ وللمقام
الأسنى عوارف ، لا يتقلص ظلها الوارف ، وقطراتُ بالرحمة مسطراتٌ بمِدار سجابها
الواكف ؛ وقد كانت للعبد سهام ، فاضت عليه بها من النعمة رهام ؛ ثم جَزَرَ الماءُ
باسترجاعها الآن ، وسقى العبدُ بانتزاعها كأسَ الحزن مَلَّات ؛ ورددت لك بهذه
الجهة أنقطاع المواساه ، وأمتناع الألسن بالمكابدة لشطف العيش والمقاساه ؛
وإلى المقام الأعلى الأسنى 'نفزع حين نفزع ، ونذهب حين نرجو ونذهب ، ونلجا
فلا تؤخر طلباتنا ولا تُرجأ ، وخدمةُ العبد هذه تتوبُ عنه في تقبيل ذلك المقام الأسنى ،
والتعرض لما عهد لديه من نفحات الرضى ، والتضرع في إدرار ما جَزَرَ من تلك
المنَّة ، وغِيضٍ من فيض تلك النعمى ؛ ويُنبهى من رغبته في بركة تلك الأذعيه ،
التي هي للخيرات كالأوعيه ؛ ما يرجوه بشفاعه تأكُد الأمتنان ، ومجرد عوارف الرأفة
والحنان ؛ إن شاء الله تعالى .

والرب تعالى يُبقِي المقامَ الأعلى والنصر له مظاهر ، والخير لديه مظاهر ،
والسعدُ لوليِّه ناصر ، ولعدوه قاهر ، بحول الله تعالى وقوته لا ربَّ غيره ، ولا خير
إلا خيره ؛ والسلام .

الضرب الثاني

(أن يعبر عن الخليفة بالحضرة)

كما كتب أبوالمطرف بن عميرة عن صاحب أرغون من الأندلس إلى المستنصر بالله أحد خلفائهم ، يستأذنه في وقادة صاحب أرغون من الأندلس أيضا على أبواب الخلافة مغاضبا لأهل مملكته :

الحضرة الإمامية المنصورة الأعلام ، الناصرة للإسلام ، المخصوصة من العدل والإحسان بما يجلو نوره متراكم الإنظام ؛ حضرة سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، أبي يعقوب آبن سادتنا الخلفاء الراشدين ؛ وصل الله لها إسعاد القدر ، وإنجاد النصر والظفر ؛ ولا زال مقامها الأعلى ساجي النظر ، مبارك الورد والصدر ؛ ويفيض منه الجود ، فيض المطر ، ويحيط به السعود ، إحاطة الهالة بالقمر .

نشأة أيامها العز ، وربى إنعامها المواظب على الحمد والشكر ، المشرف باستخدامها الذي هو نعم العون على التقوى والبر ، عبدها وآبن عبدها فلان .

سلام الله الطيب المبارك وتحياته ، تخص المقام الأشرف الأعلى ورحمة الله وبركاته . وبعد فكتب العبد - كتب الله للمقام الأعلى فتوحا يعم جميع الأمصار ، وسعودا يقضى بقل السمر الطوال والبيض القصار - من بلنسية ، وبركاته تظهر ظهور النهار ، وتفويض على البلاد والعباد فيض الأنهار ، فالتلق من وارد في سلسلها المعين ، وراج للذي منها وهو من رجائه على أوضح مراتب اليقين ؛ والله يبق عن الإسلام ببقائه ، ويعيننا على أمثال أوامره المباركة معشر عبيده وأرقائه ! بمنه .

(١)
وقد تقرّر له من المقام الكريم - أدام الله علّوه ، وكبّت عدوّه ؛ أمر بالسك -
وطال ماله في البلاد الأرغونية من زعامية في شأوها برز ، ولغايتها أحرز ؛ وكان
قد كفّل صاحب أرغون في الزمان المتقدم كفالة دار أمرها عليه ، وألّق زمامها
إليه ؛ وتفرد منها بعبء وحمله ، وخُطّة بلغ منها أمّله ؛ ثم إنه حطّ من رُتبته ،
وتأكّدت المبالغة في نكته ؛ لقضية عرّضت له مع أهل أرغون ، فلفظته تلك
الجنّات ، وأزعجه أمر لم يمكنه عليه الثبات ؛ ورأى أن يلجأ بجاله إلى المقام الباهر
الأنوار ، العزيز الجوار ؛ فواصل هذا الموضع قبل مقدّم العبد عليه ، مقرراً ما نزل به ،
ومستأنّداً في الوجه الذي تعرّض لطلبه ؛ فأذن له في مقصده ، وأنصرفت عن التأهب
للحركة من بلده ؛ ثم لما وصل العبد هذه الجهة وفرغ هو من شأنه أقبل متوجّهاً إلى
الباب الكريم ، ومتوسّلاً بأمله إلى فضله العميم ؛ والظاهر من حنقه على أهل أرغون
وشدة عداوته لهم ، وما تأكّد من القطيعة بينه وبينهم ؛ أنه إن صادف وقت فنة
معهم ووجد ما يؤمّله من إحسان الأمر العالی أيده الله فينتهي من نكائتهم والإضرار
بهم إلى غاية غريبة الآثار ، مُفضية به إلى درك النار ؛ وكثير من زعماء أرغون
ورجالها أقاربه وقرّسانيه ، وكلّهم في حبله حاطب ، ولإنجاده متى أمكنه خاطب ؛
وللمقام الكريم أعلى الرأي فيه أبقاه الله شافياً للعَلل ؛ وكافياً طوارق الخطب الجلل ،
مأمولاً من ضروب الأمم وأصناف الملل ، وهو سبحانه يديم سعادة جدّه ، ويخصّه
من البقاء الذي يسرّ أهل الإيمان ويضعف بهجة الزمان بأطوله وأمدّه ،
والسلام .

الأسلوب الثالث

(أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بأوصافِ الخِلافةِ والثناءِ عليها، والخطابُ فيه بأمرِ المؤمنين
وعن المَكْتُوبِ عنه بنونِ الجمعِ)

وهذه المَكاتِبُ من المَكاتِبِ البديعةِ المُسْفِرةِ عن صُبحِ البلاغةِ .

ونسَخَتْها بعدِ البِسْمِلةِ على ما كَتَبَ به ابنُ الخطيبِ عن سُلطانِهِ ابنِ الأَمرِ
صاحبِ الأندلسِ إلى المُستَنصِرِ باللهِ أبي إسحاقِ إبراهيمِ خليفَةِ الموحِّدينِ يومئذِ
بالأندلسِ . والأستفاحُ :

الخِلافةُ التي أرتَفَعَ عن عقائدِ فضلِها الأصيلِ القواعدِ الخِلافِ ، واستقلَّتْ مَباني
فخريها الشائِعِ وعِزِّها الذائعِ على ما أسَّسه الأَسلافُ ؛ ووجبَ لِحَقِّها الجازمُ وفَرْضُها
اللازمِ الاعترافِ ؛ ووَسَّعتِ الآمِلينَ لها الجوانِبُ الرحيبَةُ والأَكْثافُ ، فامتزَجتُنا بَعَلانِها
المُنيفِ ، وولَّانِها الشَريفِ ، كما أَمْتَرَجَ المِاءُ والسُّلافُ ؛ وثَنانُنا على مَجْدِها الكَريمِ ،
وفَضْلِها العَميمِ ، كما تَأَرَّجَتِ الرِياضُ الأَفْوافُ [لَمَّا زارها الغَمامُ الوَكافُ] ^(١) ودُعاؤُنا بِطولِ
بقائِها ، وأتصالِ عَلائِها ، يَسْمُو به إلى قَرعِ أبوابِ السَمواتِ العَلا الأَسْتِشْرافِ ؛
وَحِرْصِنا على تَوْفِيَةِ حَقوقِها العَظيمِ ، وفواضِلِها العَميمِ ، لا تَحْضُرُه الحُدودُ ولا تُدْرِكُه
الأوصافُ ؛ وإن عَدَّ رَفي التَقْصيرِ ، عن نَيْلِ ذلكِ المِرامِ الكَبيرِ ، الحَقُّ والإِنصافُ . خِلافةُ
وِجْهَةٌ تَعْظِمنَا إذا تَوَجَّهَتِ الوِجْوهُ ، ومَنْ نُؤْثِرُه إذا هَمَّنا ما نَرْجُوهُ ، ونُقَدِّيه ونُبَدِّيه
إذا اسْتَمْنَحَ المَحبوبِ وأَسْتَدْفِعَ المَكرُوهِ ؛ السُلطانِ [الخِليفةُ] ^(١) الجليلِ ، الكَبيرِ ، الشَهيرِ ،
الامامِ ، الهامِ ، الأَعلى ، الأوحدِ ، الأَصعَدُ ، الأَسعَدُ ، الأَسْمى ، الأَعَدلُ ، الأَفْضَلُ ،
الأَسنى ، الأَطْهَرُ ، الأَظْهَرُ ، الأَرْضى ، الأَحْفَلُ ، الأَكَمَلُ ، أميرِ المؤمنينِ أبي إسحاقِ

(١) الزيادة من كتاب "ريحانة الكتاب" المخطوط المحفوظ بدار الكتب الخديوية تحت نمرة ٤

أبن الخليفة الإمام البطل الهمام؛ عين الأعيان، وواحد الزمان؛ الكبير، الشهير؛
 الطاهر، الظاهر؛ الأوحى، الأعلى، الحسيب، الأصيل، الأسمى، العادل،
 الحافل، الفاضل، المعظم، الموقر، الماجد، الكامل، الأرضي، المقدس، أمير المؤمنين
 أبي يحيى أبي بكر، أبن السلطان الكبير، الجليل، الرفيع، الماجد، الظاهر، الطاهر،
 المعظم، الموقر، الأسمى، المقدس، المرحوم أبي زكريا، أبن الخليفة الإمام، المجاهد الهمام
 [الكبير الشهير، الخطير، بطل الميدان، مفضّر الزمان، الطاهر الظاهر، الأسمى المقدس
 الأرضي أمير المؤمنين أبي إسحاق أبن الخليفة^(١)] الهمام الامام ذى الشهرة الجاهة، والمفاتيح
 الواضحة؛ علم الأعلام، نحر السيف والأقلام؛ المعظم، المجد، المقدس، الأرضي،
 أمير المؤمنين، المستنصر بالله أبي عبد الله بن أبي زكريا أبن عبد الواحد بن أبي حفص
 أبقاه الله. ومقامه مقام إبراهيم رزقا وأمانا، لا ينحس جلب الثمرات إليه وقتا ولا يعين
 زمانا، وكان على من يتخطف الناس من حوله مؤيدا بالله معانا. معظم قدره العالى
 على الأقدار، ومقابل داعى حقه بالابتدار؛ المثني على معاليه المخلدة الآثار،
 فى أصونة النظام والنثار، ثناء الروضة المعطار على الأمطار؛ الداعى إلى الله بطول
 بقائه فى عصمة منسدلة الأستار، وعزّة ثابتة المركز مستقيمة المدار، وأن ينحتم له
 بعد بلوغ غايات الآجال ونهايات الأعمار، بالزلفى وعقبى الدار.

سلام كريم كما حملت نسمات الأستار، أحاديث الأزهار، وروت ثغور الأفاحي
 والبهار، عن مسلسلات الأنهار، وتجلّى على منصبة الأشتار، وجه عروس النهار،
 [ينحس خلافتكم الكريمة النجار^(١)] العزيزة الجار، ورحمة الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذى أخفى حكته البالغة عن أذهان البشر، فعيّزت عن قياسها،
 وجعل الأرواح كما ورد فى الخبر، أجنادا مجنّدة تحن إلى أجناسها. منجد هذه

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

الملة ، من أوليائه الحِلَّة ، بمن يروض الآمال بعد شماسها ، ويُيسر الأعراض قبل آتماها ، ويُعنى بتجديد المودات في ذاته وابتغاء مرضاته على حين إخلاق لباسها ، الملك الحق واصل الأسباب بحوله بعد انتكاث أمراسها ، ومُغنى النفوس بطوله بعد إفلاسها - حمداً يدرُ أخلاف النعم بعد إنساسها ، ويُبشر رم الآمال من أرماسها ، ويُقدِّس النفوس بصفات ملائكة السموات بعد إبلاسها .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الهداية ونيراسها ، عند اقتناء الأنوار واقتباسها ، مطهر الأرض من أوضارها وأدناسها ، ومُصطفى الله من بين ناسها ، وسيد الرسل الكرام ما بين شيئها وإلياسها ، الآتى مهيئنا على آثارها في حين قترتها ، ومن بعد نضرتها وأستناسها ، مُرغم الضراغم في أخياسها ، بعد أقرارها وأقرارها ، ومعقر أجرام الأصنام ومُصميت أجزاسها .

والرضا عن آله وأصحابه وعترته وأحزابه حمة شرعته البيضاء وحراسها ، ومُلقحى غراسها ، ليوث الوغى عند احتدام مراسها ، ورهبان الرجاء نتكفل بمنجاة السميع العليم ، في وحشة الليل البهيم ، بإيناسها ، وتفاوح نواسم الأسمار عند الاستغفار بطيب أنفاسها .

والدعاء لخلافتكم العلية المستنصرية بالسعادة التي تشعشع أيدى العزة القعساء من أكواسها ، ولا زالت العصمة الإلهية كفيلاً باحترامها واحتراسها ، وأبناء الفتوح ، المؤيدة بالملائكة والروح ، ریحان جلاسها ، وآيات المفاجر ، التي ترك الأول للآخر ، مكتتبه الأسطار بأطراسها ، وميادين الوجود مجالاً لجياد جودها وباسها ، والعز والمعدل منسوين لفسطاطها وقسطاسها ، وصفيحة النصر العزيز تفيض كفيها المؤيدة بالله على رياسها ، عند أحتاج أصدادها وشرة إنكاسها ، لآتهاب البلاد وآتھاسها ، وهبوب رياح رياحها وتمرد مرداسها .

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من كتاب نصره أمدادا تُدعِنُ أعناقُ الأنام،
 لطاعة ملككم المنصورِ الأعلام ، عند إحساسها ، وآتاكم من آيات العنايات آيةً
 تُضرب الصخرة الصماء من عصاها بعضها فتبادر بانجاسها - من حمراء غمرناطة -
 حرسها الله - وأيام الإسلام ، بعناية الملك العلام ، تحتفل وفودُ الملائكة الكرام
 لولائمها وأعراسها ، وطواعين الطعان ، في عدو الدين المعان ، تجدد عهدا
 بعامِ عمواسها .

والحمد لله حمداً يعيد شوارِدَ النعم ، ويستدِرُّ مواهبَ الجود والكرم ، ويؤمن من
 أنتكاب الجُدودِ وانتكاسها ، ولَى الآمالِ ومكاسها . وخلافتكم هي المثابة التي
 يزهى الوجودُ بمحاسن مجدها زهو الرياض بوردها وآسها ، وتُستمدُّ أضواءُ الفضائل من
 مقباسها ، وتروى رُوءةُ الإفادة والإجادة غريبَ الوجادة عن صحاكيها وعباسها ،
 وإلى هذا أعلى الله معارج قدركم وقد فعل ، وأنطق بحجج نقركم من آحتفى وأنتل ،
 فإنه وصلنا كتابكم الذي حسبناه على صنائع الله لنا تيممةً لا تلقع بعدها عين ، وجعلناه
 على أحل مواهبه قلادة لا يحتاج معها زين ، ودعوانه من جيب الكاية آية بيضاء الكتابة
 لم يبق معها شك ولا مین ، وقرأنا منه وثيقة ود هضم فيها عن غريم الزمان دين ؛
 ورأينا منه إنشاء ، خدَم اليراع بين يديه وشاء ، وأخترع بهميان عقده مشاء ، وسئل
 عن معانيه الاختراع فقال : إنا أنشأناهن إنشاءً ؛ فأهلاً به من عربى أتى يصف
 السائح وألبانه ، ^(١) ويبين فبحسن الإبانة أدى الأمانة ، وسئل عن حيه فأتى إلى كانه ؛
 وأفصح وهو لا ينيس ، وتهللت قسماته وليل حبره يعيس ؛ وكان خاتمه المقفل على
 صوانه ، المتحف بياكر الورد في غير أوانه ، رَعَف من مسك عنوانه . والله من قلم

(١) ضب عليه في الاصول بعلامة التوقف ولم نهتد الى تقيقه .

دَبَّحَ تِلْكَ الْحُلَّالَ ، وَنَقَعَ بِحُجَّاجِ الدَّوَاةِ الْمُسْتَمْتِدَةِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ الْغُلَّلِ ؛ فَلَقَدْ تَخَارَقَ فِي الْجُودِ ، مُقْتَدِيًا بِالْخِلَافَةِ الَّتِي خُلِدَ نَخْرُهَا فِي الْوُجُودِ ؛ بِخَادِ بَسْرِ الْبَيَانَ وَكِبَابِهِ ، وَسَمَّحَ فِي سَبِيلِ الْكَرَمِ حَتَّى بَمَاءِ شَبَابِهِ ؛ وَبَجَّحَ لِفِرطِ بَشَاشَتِهِ وَفَهَامَتِهِ ، بَعْدَ شَهَادَةِ السَّيْفِ بِشَهَامَتِهِ ، فَهَشَى مِنْ التَّرْحِيبِ فِي الطَّرْسِ الرَّحِيبِ عَلَى أُمَّ هَامَتِهِ .

وَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ حَكِيمٍ أَفْصَحَ بَمَلْعُوزِ الْإِكْسِيرِ ، فِي الْفَلْظِ الْيَسِيرِ ، وَشَرَحَ بِلِسَانِ الْخَبِيرِ ، سِرَّ صِنَاعَةِ التَّنْدِيرِ ؛ كَأَنَّمَا خَدَمَ الْمَلَكَةَ السَّاحِرَةَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ، قَبْلَ أَشْتِجَارِ الْجِلَادِ ، فَآثَرْتَهُ بِالطَّارِفِ مِنْ سِحْرِهَا وَالتَّلَادِ ؛ أَوْ عَثَرَ بِالْمَلْعُقَةِ ، وَتِيكَ الْقَدِيمَةَ الْمَطْلُوقَةَ ؛ بِدَفِينَةِ دَارِ ، أَوْ كَتَرْتَحَتَ جِدَارِ ، أَوْ ظَفَرَ لِبَانِي الْحَنَابَا ، قَبْلَ أَنْ تَقْطَعَ بِهِ عَنْ أَمَانِيَّتِهِ الْمَنَابَا ، بِبِدْيَعِهِ ، أَوْ خَلَّفَ بِجَرِيرِ الرُّومِ ، قَبْلَ مَنَازِلَةِ الْقُدُومِ ، عَلَى وَدَيْعِهِ ؛ أَوْ أَشْهَمَهُ ابْنُ أَبِي سَرِّحٍ ، فِي نَسَبِ اللَّفْتَحِ وَسَرِّحٍ ؛ أَوْ حَتَمَ لَهُ رَوْحَ بِنِ حَاتِمِ بَيْلُوعِ الْمَطْلَبِ ، أَوْ غَلَبَ الْحَطُوطَ بِمُخْدَمَةِ آلِ الْأَغْلَبِ ؛ أَوْ خَصَّصَهُ زِيَادَةُ اللَّهِ بِمَزِيدِ ، أَوْ شَارَكَ الشَّيْعَةَ فِي أَمْرِ ابْنِ أَبِي يَزِيدِ ؛ أَوْ سَارَ عَلَى مَنَاهِجِ ، فِي مُنَاصِحَةِ بَنِي صِنَهَاجِ ، وَفَضَّحَ بِتَخْلِيدِ أُمْدَاحِهِمْ كُلِّ هَاجِ .

وَأَعْجَبَ بِهِ ! وَقَدْ عَزَزَ مِنْهُ مَثْنَى الْبَيَانِ بِثَلَاثِ ، بِجَلَبِ سِحْرِ الْأَسْمَاعِ ، وَأَسْتَرْقَاقِ الطَّبَاعِ بَيْنَ مَثْنَى الْإِبْدَاعِ وَمَثَلِثِ . كَيْفَ أَقْتَدَرَ عَلَى هَذَا الْمُجِيدِ ، وَنَاصِحِ مَعَ التَّثْلِيثِ مَقَامِ التَّوْحِيدِ ؛ نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَلِيَّ الْعَوْنِ ، عَلَى الصَّمْتِ وَالصَّوْنِ ، فَالْقَلَمِ هُوَ الْمَوْحَدُ قَبْلَ الْكَوْنِ ، وَالْمَتَّصِفُ مِنْ صِفَاتِ السَّادَةِ ، أُولَى الْعِبَادَةِ ، بِضُمُورِ الْجِسْمِ وَصُفْرَةِ اللَّوْنِ ؛ إِنَّمَا هِيَ كِرَامَةٌ فَارُوقِيَّةٌ ، وَأَثَارَةٌ مِنْ حَدِيثِ سَارِيَّةٍ وَبِقِيَّةٍ ؛ سَفَرَ وَجْهَهَا فِي الْأَعْقَابِ ، بَعْدَ طَوْلِ الْإِنْتِقَابِ ، وَتَدَاوَلَ الْأَحْقَابِ ، وَلِسَانُ مُنَابِ ، عَنْ كَرِيمِ جَنَابِ ؛ وَإِصَابَةُ السَّهْمِ لِسَوَاهِ مُحْسُوبِهِ ، وَإِلَى الرَّامِي الَّذِي سَدَّدَهُ مَنَسُوبِهِ ؛ وَلَا تُشْكِرُ

على الغمام بارقه، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامةً خارقه، فما شاءه الفضل من غرائب برّ وجد، ومحارِبِ خُلُقِ كريم رُكِعَ الشُّكْرِ فيها وسجّد. حديقة بيان استتارت نواسيم الإبداع من مهبها، واستترت غمام الطّباع من مصبها، فأتت أكلها مرتين بإذن ربّها؛ لا، بل كتيبة عزّ طاعتت بقنا الألفات سطورها، فلا يرومها التقد ولا يطورها، ونزعت عن قسي الثّونات خطوطها، وأصطفت من بياض الطّرس وسواد النّفس بُلُقَ تحوطها.

فكأس المدير، على الغدير، بين الخورنق والسدير؛ تقاصر بند الحباب، عقول ذوى الأسباب، وتغرّق كسرى في العباب، وتهدى وهى الشّمطاء نشاط الشّباب؛ وقد أسرج ابن سريج وألجم، وأفصح الغريص بعد ما جمجم، وأعرب النّسأى الأتجم؛ ووقع معبد بالفضيب، وشرعت في حساب العقد بنان الكف الخضيب؛ وكان الأنايل فوق مثالث العود ومثانيه، وعند إغراء الثقل بثانيه؛ وإجابة صدى الغناء بين مغانيه؛ المرآود تُسرّع في الوشى، أو العناكب تُسرّع في المنشى؛ وما الخبر بنيل الرغائب، أو قدوم الحبيب الغائب؛ لا بل إشارة البشير، بكم المشير على العشير. بأجلب للسرور، من زائره الملقى بالبرور؛ وأدعى للعبور، من سفيره المبعج للسفور؛ فلم نر مثله من كتيبة كتاب يُجنب الجرد [تمرح] في الأرسان، وتشتوف مجالى ظهورها إلى عرائس الفرسان؛ وتهزّ معاطف الأرتياح، من صهيلها الصّراح بالنغفات الحسان، إذا وجدت الصريح نازعت أثناء الأعتة، وكاثرت بأسنة آذانها مشرعة الأسنه، فإن أدعى الظلم أشكاه فهو ظالم، أو نازعها الطّي هواديهما وأكفاهها فهو هاذي أو حالم، وإن سئل عن عيوب الغرر والأوضاح، قال مشيرا إلى وجوهها الصّباح، جلدة بين العين والأنف سالم؛ من كلّ عبل الشوى،

مُسَابِقٍ لِلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ، سَامِي التَّلِيلِ ، عَرِيضٍ مَا تَحْتَ الشَّلِيلِ ، مَسْجُوحَةٍ أَعْطَافَهُ
بِمَنْدِيلِ النَّسِيمِ البَلِيلِ : مِنْ أَحْمَرَ كَالْمَدَامِ ، مُجَلِيٌّ عَلَى النَّدَامِ عَنِ النَّدَامِ ، أُتْحِفَ
لُونُهُ بِالْوَرْدِ ، فِي زَمَنِ البَرْدِ ، وَحِيٌّ أَفْقٌ مُحْيَاهُ بِكُوكَبِ السَّعْدِ ، وَتَشَوَّفُ الوَاصِفُونَ
إِلَى عَدِّ مَحَاسِنِهِ فَأَعَيْتَ عَلَى العَدِّ ، بِمَجْرِي سَاجِلِ البَحْرِ عِنْدَ المَدِّ ، وَرِيحٌ تَبَارَى الرِّيْحَ عِنْدَ
الشَّدِّ ، بِالذَّرَاعِ الأَشَدِّ ، حَكَمَ لَهُ مَدِيرُ فَلَكَ الكَفَلُ بِاعْتِدَالِ فَصْلِ القَدِّ ، وَمِيزَهُ قَدْرُهُ
المُيَزِيُّ يَوْمَ الأَسْتَبَاقِ ، بِقَصَبِ السَّبَاقِ ، عِنْدَ أَعْتَابِ الحَدِّ ، وَوَلَدَ مَخْطُطَ عُرَّتِهِ أَشْكَالَ
الجَمَالِ ، عَلَى الكَمَالِ ، بَيْنَ البِيَاضِ وَالحُمْرَةِ وَتَقَاءِ الحَدِّ ، وَحَفِظَ رِوَايَةَ الخَلْقِ الوَاجِبِ
[عَنْ جَدِّهِ الوَاجِبِ] ^(١) وَلَا تُتَكَرَّرُ الرِوَايَةُ عَلَى الحَافِظِ بِنِ الحَدِّ - وَأَشْقَرُ أَبِي الخَلْقِ وَالوَجْهَ الطَّلَاقِ
أَنْ يَحْقِرَ كَأَمَّا صَبِغَ مِنَ العَسْجِدِ ، وَطُرْفَ البَدْرِ وَأَنْعَلَ بِالزَّبْرِجَدِ ، وَوَسِمَ فِي الحَدِيثِ
بِسِمَةِ الأَيْمَنِ وَالبِرْكَةِ ، وَأَخْصَصَ بِفَلْجِ الحِصَامِ ، عِنْدَ أَشْتِجَارِ المَعْرَكَةِ ، وَأَنْفَرَدَ بِمُضَاعَفِ
السَّهَامِ [الْمَنْكُوسَةِ عَلَى الهَامِ] ^(١) فِي الفُرَائِضِ المَشْتَرَكَةِ ، وَاتَّصَفَ فَلَكَ كَفَلَهُ بِمَجْرَكَتِي
الإِرَادَةِ وَالتَّطَبُّعِ مِنَ أَصْنَافِ الحَرَكَةِ ، أَصْغَى إِلَى السَّمَاءِ بِأَذْنِ المُلْهَمِ ، وَأَعْرَبَ لِسَانُ
الصَّهِيلِ ، عِنْدَ التَّبَاسِ مَعَانِي الهَمْزِ وَالتَّسْهِيلِ ، بَيَانَ المَبْهَمِ ، وَفَتِنَتِ العَيُونَُ مِنْ ذَهَبِ
جِسْمِهِ ، وَبُلْبُيْنِ نَجْمِهِ بِحُبِّ الدِّينَارِ وَالدَّرْهِمِ ، فَإِنْ انْقَضَ فَرَجَمَ أَوْ رِيحٌ لَهَا هَجْمٌ ،
وَإِنْ أَعْتَرَضَ فَشَفَقَ لِاحٍ بِهِ لِلنَّجْمِ نَجْمٌ - وَأَصْفَرَ قَيْدَ الأَوَايِدِ الحِزْمَ ، وَأَمْسَكَ الحَاسِنِ
وَاطْلَقَ الفُرْمَةَ ، وَسُئِلَ مَنْ أَنْتَ فِي قُوَادِ الكِتَابِ ، وَأُولَى الأَخْبَارِ العَجَائِبِ ،
فَقَالَ أَنَا المَهْلَبُ بْنُ أَبِي صُفْرَةَ ؛ نَزَجَسَ هَذِهِ الأَلْوَانَ ، فِي رِيَاضِ الأَكْوَانِ ،
تَحِيًّا بِهِ وَجُوهِ الحَرْبِ العَوَانَ ، أَغَارَ بِخَوْفِ الصَّائِلِ ، عَلَى مُعْصَفَرَاتِ الأَصَائِلِ فَارْتَدَاهَا ؛
وَعَمَدَ إِلَى خِيُوطِ شُعَاعِ الشَّمْسِ ، عِنْدَ جَانِحَةِ الأَمْسِ ، فَالْحَمَّ مِنْهَا حُلَّتَهُ وَأَسْدَاهَا ؛
وَأَسْتَعَدَّتْ عَلَيْهِ مَلِكُ الحَاسِنِ فَا أَعْدَاهَا ، فَهُوَ أَصْيَلٌ تَمَسَّكَ بِذَيْلِ اللَّيْلِ عُرْفَهُ

(١) الزيادة من الريحانة .

وَذَيْلُهُ ، وَكَوْكَبٌ يُطْلَعُهُ مِنَ الْقَتَامِ لَيْلُهُ ، فَيَحْسُدُهُ فَرَقَدَ الْأَفْقَ وَسَهَيْلُهُ - وَأَشْهَبَ
 تَعَشَّى مِنْ لَوْنِهِ مُضَاضُهُ ، وَتَسْرِبَلٌ مِنْهُ لِأُمَّةٍ فَضْضَاضُهُ ، قَدْ أَحْتَفَلَ زَيْنُهُ ، لَمَّا رُقِمَ
 بِالنَّبَالِ بَحْيَيْنُهُ ، فَهُوَ الْأَشْمَطُ ، الَّذِي حَقُّهُ لَا يُغْمَطُ ، وَالذَّرَاعُ الْمُسَارِعُ ، وَالْأَعْزَلُ
 الدَّارِعُ ، وَرَاقِي الْحِضَابِ الْفَارِعُ ، وَمَكْتُوبُ الْكِتَابَةِ الْبَارِعُ ، وَأَكْرَمُ بِهِ مِنْ مُرْتَضٍ
 سَالِكٍ ، وَمَجْتَهِدٍ عَلَى غَايَاتِ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مَتَهَالِكٍ ، وَأَشْهَبُ يَرُوي مِنَ الْخَلِيفَةِ ،
 ذِي الشِّيمِ الْمُنِيفَةِ ، عَنْ مَالِكٍ - وَحُبَارِيُّ كِلَيْمَا سَابِقُ وَبَارِي ، أَسْتَعَارَ جَنَاحَ الْحُبَارِيِّ ؛
 فَإِذَا أُتِمَّتْ هَذِهِ الْحِسْبَةُ ، قِيلَ مِنْ هُنَا جَاءَتِ النَّسْبَةُ ، طَرَدَ النَّمِرُ ، لَمَّا عَظُمَ
 أَمْرُهُ وَأَمِرُ ، فَنَسَخَ وَجُودَهُ بَعْدَمِهِ ، وَأَبْتَرَهُ الْفَرُوءَةَ ثُمَّ لَطَّخَهُ بِدَمِهِ ، وَكَأَنَّ مَضَاعِفَ
 الْوَرْدُنِثْرِ عَلَيْهِ مِنْ طَبَقِهِ ، أَوْ الْفَلَكِ ، لَمَّا ذَهَبَ الْحَلَكُ ، مُزِجَ فِيهِ بِيَاضَ صُبْحِهِ بِجَمْرَةٍ
 شَفَقَةٍ - وَقِرْطَاسِيَّ حَقُّهُ لَا يَجْهَلُ ، حَتَّى مَاتَرِقِي الْعَيْنِ فِيهِ تَشْهَلُ ، إِنْ نُزِعَ عَنْهُ جُلُّهُ ،
 فَهُوَ نَجْمٌ كُلُّهُ ، أَنْفَرَدَ بِمَادَّةِ الْأَلْوَانِ ، قَبْلَ أَنْ تَشُوبَهَا يَدُ الْأَكْوَانِ ، وَتَمَزَّجَهَا أَقْلَامُ
 الْمَلَوَانِ ، يَتَقَدَّمُ مِنْهُ الْكِتَابَةُ الْمُقْبِلَةُ لَوَاءً نَاصِعٍ ، أَوْ أَيْبُضُ مِمَاصِعٍ ، لَيْسَ وَقَارَ
 الْمَشِيبِ ، فِي رَيْعَانِ الْعُمَرِ الْقَشِيبِ ، وَأَنْصَتَتْ الْأَذَانُ مِنْ صَهِيلِهِ الْمُطِيلِ الْمُطِيبِ ،
 لَمَّا آرْتَدَى بِالْبِيَاضِ إِلَى نَعْمَةِ الْخَطِيبِ ، وَإِنْ تَعَتَّبَ مِنْهُ لِلتَّأْخِيرِ الْمَتَعَتَّبِ ،
 قَلْنَا الْوَأُولَا لَا تُرْتَّبُ ، مَا بَيْنَ بَخْلِ وَحِرِّهِ ، وَبَهْرْمَانَةِ وَدُرِّهِ ، وَيَا لَلَّهِ مِنْ آبْتَسَامِ غُرِّهِ ،
 وَوَضُوحِ يُمَيْنِ فِي طَرِّهِ ، وَبَهْجَةِ الْعَيْنِ وَقُرِّهِ ، وَإِنْ وَلِعَ النَّاسُ بِامْتِدَاحِ الْقَدِيمِ ،
 وَخَصَّوْا الْحَدِيثَ بِفَرِيِّ الْأَدِيمِ ، وَأَوْجَبَ الْمَتَعَصَّبِ ، وَإِنْ أَبِي الْمَنْصُوبِ ، مَرْتَبَةً
 التَّقْدِيمِ ، وَطَمَحَ إِلَى رُتْبَةِ الْخَدُومِ طَرْفَ الْحَدِيدِ ، وَقُرْنَ الْمُثْرَى بِالْعَدِيمِ ، وَبُخَسَ
 فِي سُوقِ الْحَسَدِ الْكَيْلِ ، وَدَجَى اللَّيْلِ ، وَظَهَرَ فِي فَلَكِ الْإِنْصَافِ الْمَيْلِ ، لَمَّا تُدْوِرَتْ
 الْحَيْلُ ، بَغْيٌ بِالْوَجِيهِ وَالْخَطَّارِ ، وَالذَائِدِ وَذِي الْخِمَارِ ، وَدَاحِيسِ وَالسَّكْبِ ،
 وَالْأَيْجَرِ وَزَادَ الرَّكْبِ ، وَالْجَمُوحِ وَالْيَحْمُومِ ، وَالْكُئَيْتِ وَمَكْتُومِ ، وَالْأَعْوَجِ وَحُلُوانِ ،

ولاحقٍ والغضبان ، وعفرورٌ (؟) والزّعفران ، والمحبر ، واللّعب ، والأغرُّ والغراب ،
 وشُعلةُ والعُقَاب ، والقيّاض واليعبُوب [والمذّهب واليعسوب ، والصّموت
 والقطيب ، وهيدب والصيب وأهلوب ^(١)] وهَدّاج ، والحُرُون وخَرّاج ، وجَلوى ،
 والجناح والأحوى ، ومَجّاج والعصا ، والنّعامه ، والباقاء والحمامه ، وسكّاب والجرّاده ،
 وحوصاء ، والعرّاده . فكم بين الشاهد والغائب ، والفروض والرغائب ؛ وفرق ما بين
 الأثر والعيان ، غيٌّ عن البيان ؛ وشتان بين الصريح والمشبه ، والله القائل في مثلها
 « حُدّ ما تراه ودع شيئاً سمعت به » والناسخ يختلفُ به الحكم ، وشرُّ الدوابِّ عند
 التفضيل بين هذه الدوابِّ الصّمُّ البُكم ؛ إلا ماركبه نبي ، أو كان له يوم الافتخار برهان
 خبي ؛ ومفضّل ما سمع على ما رأى غيٌّ ، فلو أنصفت محاسنها التي وصفت
 لأقضمت حبّ القلوب علقا ، وأوردت ماء الشينّة نطفًا ؛ وأُنخذت لها من عُدر
 الخدود الملاج عُدر موشيه ، وعُلّت بصفير ألحان القيان كلّ عشيّه ؛ وأنعلت
 بالأهله ، وعُطيت بالرياض بدل الأجلّة .

إلى الرقيق ، الخليق بالحسن الحقيق ، تسوقه إلى مثنوى الرعاية روفة الفتيان
 رعاته ويهدى عقيقتها من سبجه أشكالاً تشهد للخرع سبحانه بإحكام مخترعاته ،
 وقفت ناظر الاستحسان لا يريم ، لما بهره منظرها الكريم ، وتخالل الظلم ونضآل
 الرّيم ، وأحرس مقوله اللسان وهو بملكات البيان الحفيظ العليم ، وناب لسان الحال ،
 عن لسان المقال ، عند الاعتقال ، فقال يخاطبُ المقام الذي أطلعت أزهارها غمام
 جوده [وأقضت اختيارها بركة وجوده ، ^(١)] : لو علمنا أيها الملك الأصيل ،
 الذي كرم منه الإجمال والتفصيل ؛ أنّ الثناء يوازيها لکننا لك بكمك ،

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

أو الشكر يُعَادِلُهَا وَيُجَازِيهَا لَتَعْرِضُنَا بِالْوَشَلِ إِلَى نَيْلِ نَيْلِكَ ، أَوْ قَلْنَا : هِيَ الَّتِي
أَشَارَ إِلَيْهَا مَسْتَصْرِخٌ سَلَفَكَ الْمَسْتَنْصِرُ بِقَوْلِهِ : أَدْرِكْ بِحَيْلِكَ ، حِينَ شَرِقَ بِدَفْعِهِ
الشَّرْقُ ، وَأَنْهَزِمَ الْجَمْعُ وَأَسْتَوَى الْفَرْقُ وَأَتَسَعَ فِيهِ وَالْحَكْمُ لِلَّهِ الْخَرْقُ ؛ وَرَأَى أَنْ
مَقَامَ التَّوْحِيدِ بِالْمَظَاهِرَةِ عَلَى التَّثْلِيثِ ، وَحِزْبِهِ الْخَلِيفَةِ ، هُوَ الْأَوَّلِيُّ وَالْآخِيقُ .
وَالآنَ قَدْ أَغْنَى اللَّهُ بَتْلَكَ النَّيِّهَ ، عَنِ إِنْجَادِ الطَّوَالِ الرَّدِّيْنِيَّةِ ، وَبِالدَّعَاءِ مِنْ تَلْكَ
الْمَثَابَةِ الدِّيْنِيَّةِ إِلَى رَبِّ الْبَيْنَةِ ، عَنِ الْأَمْدَادِ السَّيْنِيَّةِ ، وَالْأَجْوَادِ تَخْوُضِ بَحْرِ الْمَاءِ
إِلَى بَحْرِ الْمَيْتَةِ ، وَعَنِ الْجُرْدِ الْعَرَبِيَّةِ فِي مَقَاوِدِ اللَّيْثِ الْأَبِيَّةِ . وَجَدَّدَ يَرْسَمُ هَذِهِ
الْهَدْيَةَ ، مَرَّاسِيمَ الْعَهْدِ الْوُدِّيَّةِ ، وَالذَّمَّ الْمَوْحِدِيَّةِ ، لِتَكُونَ عَلَامَةً عَلَى الْأَصْلِ ،
وَمَكْدَبَةً لِدَعْوَى الْوَقْفِ وَالْفَصْلِ ، وَإِشْعَارًا بِالْأَلْفَةِ الَّتِي لَا تَزَالُ أَلْفَهَا أَلْفَ الْوَصْلِ ،
وَلَا مُهَا حَرَامًا عَلَى النَّصْلِ .

وَحَضَرَ بَيْنَ يَدَيْنَا رَسُولُكُمْ فَلَانَ فَقَرَّرَ مِنْ فَضْلِكُمْ ، مَا لَا يُنْكِرُهُ مَنْ عَرَفَ عُلُوَّ
مِقْدَارِكُمْ ، وَأَصَالَةَ دَارِكُمْ ، وَفَلَكَ إِبْدَارِكُمْ ، وَقُطْبَ مَدَارِكُمْ ؛ وَأَجْبَنَاهُ عَنْهُ بِجُهْدِ مَا نُكِّنَا
لِنَقْتَعِ مِنْ حَنَاهُ الْمَهْتَصِرِ ، بِالْمَقْتَضِبِ الْمُخْتَصِرِ ، وَلَا تُقَابِلِ طُولَ طَوْلِهِ بِالْقِصْرِ ،
لَوْلَا طُرُوءُ الْحَصْرِ .

وَقَدْ كَانَ بَيْنَ الْأَسْلَافِ - رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرِضْوَانُهُ - وَدُّ أُرِمَتْ مِنْ أَجْلِ اللَّهِ
مَعَاقِدُهُ ، وَوُثِّرَتْ لِلْخُلُوصِ ، الْجَلِيلِيَّ النَّصُوصِ ، مَضَاجِعُهُ الْفَازَةَ وَمَرَاقِدُهُ ، وَتَعَاهُدُهُ
بِالْجَمِيلِ تَوَجَّعَ لِفَقْدِهِ فَاقِدُهُ ؛ أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَكُمْ الْفَضْلُ فِي تَجْدِيدِهِ ،
وَالْعَطْفُ بِتَوْكِيدِهِ ؛ فَتَحْنُ الْآنَ لَا نَدْرِي أَيُّ مَكَارِمِكُمْ نَذْكُرُ ، أَوْ أَيُّ فَوَاضِلِكُمْ نَشْرَحُ
أَوْ نَشْكُرُ ، أَمْفَاتِحُكُمْ الَّتِي هِيَ عِنْدَنَا فِي الْحَقِيقَةِ فَتْحُ ، أَمْ هَدْيَتِكُمْ وَفِي وَصْفِهَا لِلْأَقْلَامِ
سَبْحُ ، وَلِعَدْوِ الْإِسْلَامِ بِحِكْمَةِ حَكْمَتِهَا كَبْحُ ، إِنَّمَا نَكُلُّ الشُّكْرَ لِمَنْ يُؤَيِّ جِزَاءَ الْأَعْمَالِ

البره، ولا يَخَسُ مثقالَ الذَّرةِ ولا أدنى [من] مثقالِ الذَّره، ذى الرحمة الثَّره، والألطفِ المتصلة المستمزه ، لا إله إلا هو .

وإن تَسَوَّقَم إلى الأحوال الراهنه ، وأسباب الكُفْر الواهية بقدره الله الواهنه ؛ فنحن نُظَرَفَم بِظُرْفِهَا ، ونُظَلَعَم على سبيل الإجمال بِظُرْفِهَا ؛ وهو أننا لمَّا أعاد الله من التمحيص ، إلى مثابة التخصيص ، من بعد المَرَام العويص ؛ كحلنا بتوفيق الله بَصَر البصيره ، ووقفنا على سبيله مساعى الحياة القَصيره ؛ ورأينا كما نُقَل إلينا، وكُرِّر على مَنْ قَبَلنا وعلينا ؛ أَنَّ الدنيا - وإن غَزَّ الغُرور ، وأنام على سُرر الغفلة السُّرور ؛ فلم يَنفَع الخُطور على أجداث الأحباب والمُرور - جَسْرُ بَعْر ، ومتاع لا يُبْط من حِي به ولا يُجْبِر ، إنما هو خبر يُجْبِر ، وأن الحَسرة بمقدارها على تركه تجبر ؛ وأن الأعمار أحلام ، وأنَّ الناس نِيَام ؛ ورُبَّمَا رَحَل الراحل عن الخان ، وقد جَلَّه بالأذى والدَّخان ؛ أو ترك به طِينًا ، وثناء يقوم بعده للآتى خَطِيئًا ؛ فجعلنا العدل فى الأمور مَلَاكًا ، والتفقد للثُّغور مسواكًا ؛ وَصَجِّع المهاد ، حديث الجهاد ، وأحكامه مناط الاجتهاد ، وقوله : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ) من مُجِّج الاستشهاد ، وبادرنا من الحصون المضاعة وجنح التقيَّة دامس ، وسا كُنْها بأُس ، والأعصم فى شَعَقَاتِهَا من العِصمة يَأُس ؛ فزَيَّنَّا ببيض الشُّرُفات ، ثناياها ، وأفعمنا بالعذب الثُّرات ، رَكَاياها ؛ وغَشِينَا بالصفيح المضاعف أبوابها ، وأحْتَسَبْنَا عند مَوْقِ الأَجور ثوابها ، وبيَّضْنَا بناصع الكِئس أبوابها ؛ فهى اليوم تُوهم حِس العيان ، أنها قَطَع من بيض العنان ، تكاد تَتَاوَل قُرْص البدر بالبَّنان ، متكفلةً للؤمن من فَرَع الدنيا والآخرة بالأمان ؛ وأقرضنا الله قَرْضًا ، وأوسلنا مَدُونَةَ الجيش عَرْضًا ، وفرضنا إنصافه مع الأهلة فرضًا ؛ وأستندنا من التوكل على الله الغنى الحميد إلى ظلِّ لواء ،

وَبَدَّنَا إِلَى الطَّاعِيَةِ عَهْدَهُ عَلَى سِوَاءٍ ؛ وَقَلْنَا : رَبَّنَا أَنْتَ الْعَزِيزُ وَكُلُّ جَبَّارٍ لِعِزِّكَ ذَلِيلٌ ، وَحِزْبُكَ هُوَ الْكَثِيرُ وَمَا سِوَاهُ قَلِيلٌ [أَنْتَ الْكَافِي ، وَوَعْدُكَ الْوَعْدُ الْوَاقِي ، فَأَنْضِ عَلَيْنَا مَوَازِعَ الصَّابِرِينَ ^(١)] وَكُنْتُمْ مِنَ الْفَائِزِينَ بِحُطُوظِ رِضَاكَ الظَّافِرِينَ ، وَثَبَّتْ أقدامَنَا وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ .

فَتَحَرَّكْنَا أَوْلَى الْحَرَكَاتِ ، وَفَاتِحَةً مُصْحَفِ الْبَرَكَاتِ ؛ فِي خِيفٍ مِنَ الْحُشُودِ ، وَأَقْتَصَارٍ عَلَى مَا بَحْضَرْتَنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ الْمُظْفَّرَةِ وَالْجُنُودِ ؛ إِلَى حِصْنِ آشِ الْبَازِي الْمِطَّلِ ، وَرِكَابِ الْعُدُوِّ الضَّالِّ الْمِضِلِّ ، وَمُهْدِي نَفَثَاتِ الصَّلْبِ ؛ عَلَى أَمْتِنَاعِهِ وَأَرْتِفَاعِهِ ، وَمُؤَيِّقَاتِهِ ؛ وَمَا بَدَّلَ الْعُدُوِّ فِيهِ مِنْ أَسْتَعْدَادِهِ ، وَتَوْفِيرِ أَسْلِحَتِهِ وَأَزْوَادِهِ ، وَأَنْتِخَابِ أَنْجَادِهِ ؛ فَصَلَّيْنَا بِنَفْسِنَا نَارَهُ ، وَزَاخَمْنَا عَلَيْهِ الشَّهْدَاءَ نُصَابِرُ أَوَارِهِ ، وَتَلَقَّيْنَا بِالْجُورِ الْعَزِيزَةِ سَهَامَهُ الْمَسْمُومَةَ ، وَجَلَامِدَهُ الْمَلُومَةَ ، وَأَحْجَارَهُ ؛ حَتَّى فَرَعْنَا بِجَوْلٍ مَنْ لَاحَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِهِ أَبْرَاجَهُ الْمُنِيعَةَ وَأَسْوَارَهُ ، وَكَفَفْنَا عَنِ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ أَضْرَارَهُ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَضَفْنَا إِلَيْهِ حِصْنَ السَّهْلَةِ جَارَهُ ؛ وَرَحَلْنَا عَنْهُ بَعْدَ أَنْ شَحَّنَاهُ رَابِطَةً وَحَامِيَهُ ، وَأَزْوَادًا نَامِيَهُ ؛ وَعَمَلْنَا بَيْنَنَا فِي رَمِّ مَائِلَمِ الْقِتَالِ ، وَبَقَرْنَا مِنْ بَطُونِ مَسَالِحِهِ الرِّجَالَ ، وَأَقْتَدَيْنَا بِنَبِينَا صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامِهِ فِي الْخَنْدَقِ لَمَّا حَمَى ذَلِكَ الْمَجَالَ ، وَوَقَعَ الْأَرْتِجَازُ الْمُنْقُولُ خَبْرَهُ وَالْأَرْتِجَالَ ، وَمَا كَانَ لِيَقِرَّ لِلْإِسْلَامِ مَعَ تَرْكِهِ الْقَرَارِ ، وَقَدْ كَتَبَ الْجُورُ ، وَتَدَاعَى الدَّعْرَةُ وَتَعَاوَى الشَّرَارُ .

وَكَأَ غَرْبِنَا الْجِهَةَ الْغَرْبِيَّةَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِمَدِينَةِ بُرْغَةِ الَّتِي سَدَّتْ بَيْنَ الْقَاعَتَيْنِ : مَالَّةً وَرُنْدَةً الطَّرِيقِ ، وَأَلْبَسَتْ دُلَّ الْفِرَاقِ ذَلِكَ الْفَرِيقَ ، وَمَنْعَتْهُمَا أَنْ يُسَيِّغَا الرِّيقَ ؛ فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْإِلْمَامِ ، لَطِيفِ الْمَنَامِ فِي الْأَحْلَامِ ، وَلَا رِسَالَةَ إِلَّا فِي أَجْنَحَةِ

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

هَدَى الْحَمَامَ ؛ فَيَسَّرَ اللهُ فَتْحَهَا ، وَعَجَّلَ مَنَحَهَا ؛ بَعْدَ حَرْبٍ أُنْبِتَتْ فِيهَا النُّحُورُ ،
وَتَزَيَّنَتْ الْحُورُ ؛ وَتَبِعَ هَذِهِ الْأُمَّ بَنَاتُ شَهْرِهِ ، وَبُقِعَ لِلزَّرْعِ وَالضَّرْعِ خَيْرُهُ ، فَشَفِي
النَّعْرُ مِنْ بُوْسِهِ ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُ الْإِسْلَامِ بِتِلْكَ النَّاحِيَةِ بَعْدَ عُبُوسِهِ .

ثم أعملنا الحركة إلى مدينة الجزيرة على بُعد المدى، وتعلقها على بلاد العدا،
وأقتحام هول الفلا وغول الردا؛ مدينة بنتها حصص فأوسعت الدار، وأغلت الشوار،
وراعت الاستنكار، وبسطت الأعتار؛ رَجَّحَ إلينا قَصْدَهَا على البعد، والطريق
الجعْد؛ ما أسفت به المسلمين، من استئصال طائفة من أسراهم مرؤا بها آمنين،
وبطاريها المشؤوم متيمين؛ قد أنهكهم الإعتقال، والقيود الثقال؛ وأضرعهم
الإسار، وجللهم الإنكسار؛ جفدلوهم في مصرع واحد، وتركوهم عبدة للرائي
والمشاهد؛ وأهدوا بوقيعتهم إلى الإسلام نُكَلَّ الواحد، وتيرة الماجد؛ فكيسناها
كبسا، وجفانها بإلهام من لا يضل ولا ينسى؛ فصبحتها الخيل، ثم تلاحق الرجل
كما جن الليل، وحقاق بها الويل؛ فأبيح منها الدمار، وأخذها الدمار، ومحقت
من مصانعها البيض الأهلة وخسفت الأبقار، وشسفت من دماء أهلها الضلوع
الحرار، وسلطت على هياكلها النار، وأستولى على الآلاف العديدة من سنيها
الإسار، وأتتهى إلى إشبيلية الثكلى المغار، بخلل وجوه من بها من كبار النصرانية
الصغار، وأستولت الأيدي على مالا يسعه الوصف ولا تقله الأوقار .

وعدنا والأرض تموج سبيا، لم تترك بعفرين شبلا ولا بوجرة ظيبا، والعقائل
حسرى، والعيون تبهرها الضع الأسرى، وصبح الأسرى قد حمد من بعد بعد المسرى،
فُسبحانَ الذي أسرى . [ولسانُ الحمية يُنادي، في تلك الكائنات المختزبة والنوادى،
يا لثاراتِ الأسرى]^(١)

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

ولم يكن إلا أن نُقِلت الأنفال ، وُوسِمَت بالأرضاخ الأغال ، وتميزت الهوادى والأكفال ، وكان إلى غزو مدينة جِيانَ الاحتفال ؛ قُدنا إليها الجُردُ تُلاعِبُ الظلالَ نَسَاطا ، والأبطالَ تَقْتَحِمُ الأخطارَ رِضًا بما عندَ اللهِ وَأَغْتَبَاطا ، والمهندةَ الزُّرْقُ تَسْبِقُ إلى الرقابِ آسْتِلاَوا واختراطا ، والرْدِينِيَّةُ السُّمُرُ تسترط حياة النفوسِ آسْتراطا ، وأزحنا العِللَ عَمَّنْ أرادَ جِهَادًا مُنْجِيا غُبَارُهُ من دُخَانِ جَهَنَّمَ وِرِبَاطًا ؛ ونادينَا الجهادَ الجهاد ، يَأْمَةُ الجهاد ، راية النبي الهاد ، الجَنَّةُ الجَنَّةُ تحت ظلالِ السيوفِ الحِدادِ ؛ فَهَزَّ النداءُ إلى الله تعالى كُلَّ عامرٍ وِغامرٍ ، وأُتْمَرَ الجُحْمُ من دعوة الحقِّ إلى أمرٍ أمرٍ ، وأتى الناسُ من الفُجُوجِ العميقةِ رِجالًا وعلى كُلِّ ضَامِرٍ ؛ وكاثرتِ الراياتُ أزهارَ البِطَاحِ لَوْنًا وَعَدَا ، وَسَدَّتِ الحُشُودُ مسالكَ الطريقِ العريضةِ سَدًّا ؛ ومدَّ بِمَجْرُها الزاحِرُ مَدًّا ، فلا يجد لها الناظرُ ولا المناظرُ حدًّا .

وهذه المدينةُ هي الأُمُّ الوُلُودِ ، والجَنَّةُ التي في النارِ لِسُكَّانِها من الكُفَّارِ الخُلُودِ ؛ وكرسىُّ المُلْكِ ومجنته الوسطى من الممالكِ بَاءَتْ بالمزايَا العديدةِ وَنَجَحَتْ ، وعندِ الوِزَانِ بغيرها من أُمَمَاتِ البُلْدانِ رَجَحَتْ ؛ غابُ الأَسُودِ ، وَجَحْرُ الحَيَّاتِ السُّودِ ؛ وَمَنْصَبُ التماثيلِ الهائلِ ، ومَعْلَقُ النواقيسِ الصائِلِ .

وأدينَا إليها المَراحِلُ ، وَعِينًا لَتُجَّارِ المحلاتِ المستقلاتِ منها الساحِلِ ؛ ولما أَكْثَبْنَا جوارها ، وكِدنا نَمَحُ نارها ، تَحْرُكُنا وَوِشاحُ الأفقِ المرقومِ ، بزهرِ النجومِ ، قد دارَ دائرُهُ ؛ واللبلُ من خوفِ الصِّباحِ ، على سَرَحِ المُسْتَباحِ ، قد شابتَ غَدائِرُهُ ، والنَّسْرُ يَرِفِرِفُ باليمنِ طائرُهُ ، والسَّمَاكُ الراجحُ يَنارُ نَغْرَ الإسلامِ نائِرُهُ ؛ والنعاثُ راعِدَةٌ فرائصُ الجَسَدِ ، من خوفِ الأَسَدِ ؛ والقوسُ يُرْسِلُ سَهْمَ السعادةِ ، بَوْتَرَ العادةِ ، إلى أهدافِ النِّعَمِ المُعادِ ؛ والجوزاءُ عابرةُ نَهْرِ المَجْرَةِ ، والزُّهْرَةُ تَغَارُ من الشَّعْرَى العَبُورِ بالضَّرِّ ؛

وعَطَّارِدُ يُسَدِّي فِي حَيْلِ الْحُرُوبِ عَلَى الْبَلَدِ الْمَحْرُوبِ وَيُلْحِمُ ، وَيُنَظِرُ عَلَى أَشْكَالِهَا
الْمَهَنْدِسِيَّةِ فَيُفْهِمُ ، وَالْأَحْمَرُ يَبْهَرُ ، وَالْعَلَمُ الْأَبْيَضُ يَقْرَى وَيَنْهَرُ ؛ وَالْمَشْتَرِي يَبْدِي فِي فَضْلِ
الْجِهَادِ وَيُعِيدُ ، وَيُرَاحِمُ فِي الْخَلْفَاتِ عَلَى مَالِ السَّعَادَةِ مِنَ الصَّفَاتِ وَيَزِيدُ ؛ وَزُحَلُ
عَلَى الطَّالِعِ مَزْحَلُ ، وَعَنْ الْعَاشِرِ مَرْتَحَلُ ، وَفِي زَلْقِ السُّقُوطِ وَحَلُ ، وَالْبَدْرُ
يُطَارِحُ حَجَرَ الْمَنْجَنِيْقِ ، كَيْفَ يَهْوِي إِلَى النَّيْقِ ؛ وَمَطْلَعُ الشَّمْسِ يَرْقُبُ ، وَجِدَارُ
الْأَفْقِ يَكَادُ بِالْعَيْونِ عَنْهَا يُتَقَبُ .

وَمَا فَشَا سِرُّ الصَّبَاحِ ، وَأَهْتَرَّتْ أَعْطَافُ الرِّيَاطِ لَتَحِيَّاتِ مَبَشِّرَاتِ الرِّيَاحِ ؛ أَطْلَلْنَا
عَلَيْهَا إِطْلَالَ الْأَسْوَدِ عَلَى الْفَرَائِسِ ، وَالْفُحُولِ عَلَى الْعَرَائِسِ ؛ فَنَظَرْنَا مَنَظَرًا يَرُوعُ بِأَسَا
وَمَنَعَهُ ، وَيَرُوقُ وَضَعًا وَصَنَعَهُ ؛ تَلَقَّعْتَ مَعَاقِلَهُ الشَّمَّ لِلسَّحَابِ بِرُودِ ، وَوَرَدَتْ مِنْ
عَدِيرِ الْمُزْنِ فِي بُرُودِ ، وَأَسْرَعَتْ لِاخْتِنَافِ أَزْهَارِ التُّجُومِ وَالذَّرَاعِ بَيْنَ النِّطَاقِ مَعَاصِمُ
رُودِ ؛ وَبَلَدًا يُعْيِي الْمَسَاحَ وَالذَّرَاعَ ، وَيَنْتَظِمُ الْحَمَانِي وَالْأَجَارِعَ ؛ فَقلْنَا : اللَّهُمَّ نَفِّله أَيْدِي
عِبَادِكَ ، وَأَرِنَا فِيهِ آيَةً مِنْ آيَاتِ جِهَادِكَ ؛ فَزَلْنَا بِسَاحَتِهَا الْعَرِيضَةَ الْمُتُونِ ، نُزُولَ
الغَيْثِ الْمُتُونِ ؛ وَتَيَمَّنَّا مِنْ فَحْصِهَا الْأَفْجِحِ بِسُورَةِ التَّيْنِ وَالزَّيْتُونِ ، مَتْرَبَةً مِنْ أَمَانِ
الرَّحْمَنِ لِلبَلَدِ الْمُفْتُونِ ؛ وَأَعْجَلْنَا النَّاسَ بِحِمِيَّةِ نَفُوسِهِمُ النَّفِيسَةَ ، وَسَحِيَّةِ شَجَاعَتِهِمُ الْبَيْيسَةَ ؛
عَنْ أَنْ نُبَوِّئَ لِلْقِتَالِ الْمَقَاعِدَ ، وَنُدْنِي بِإِسْمَاعِ شَمِيرِ النَّفِيرِ مِنْهُمْ الْأَبَاعِدَ ؛ وَقَبْلَ أَنْ يَلْتَقِيَ
الْحَدِيدُ بِالْمَخْدُومِ ، وَيَرْكَعَ الْمَنْجَنِيْقُ رُكْعَتِي الْقُدُومِ ؛ فَدَفَعُوا مَنْ أَسْحَرَالِيهِمْ مِنَ الْفُرْسَانِ ،
وَسَبَقَ إِلَى حَوْمَةِ الْمِيدَانِ ؛ حَتَّى أُجْحَرُوهُمْ فِي الْبَلَدِ ، وَسَلَبُوهُمْ لِبَاسَ الْجِلْدِ ، فِي مَوْقِفِ
يُذْهِلُ الْوَالِدَ عَنِ الْوَلَدِ ؛ صَارَتِ السَّهَامُ فِيهِ عَمَامَا ، وَطَارَتِ كَأَسْرَابِ الْحَمَامِ تُهْدِي
حَمَامَا ، وَأَضْحَتِ الْقَنَا قَصْدَا ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ شَهَابًا رَصْدَا ؛ وَمَاجَ بَحْرُ الْقَتَامِ بِأَمْوَاجِ
النُّصُولِ ، وَأَخَذَ الْأَرْضَ الرَّجْفَانُ لَزْزَالِ الصَّبَاحِ الْمَوْصُولِ ؛ فَلَا تَرَى إِلَّا شَهِيدَا

تُظَلِّلُ مَصْرَعَهُ الحُورَ، وَصَرِيحًا تَقْدِفُ بِهِ إِلَى السَّاحِلِ أَمْوَاجُ تِلْكَ البُحُورِ، وَنَوَاشِبَ
تَبَايُهَا الوُجُوهُ الوَهِيبَةُ عِنْدَ اللَّهِ وَالتُّحُورِ؛ فَاَلْمَقْضَبُ، فَوَدَّه يُحْضَبُ، وَالأَسْمَرُ؛
غُضْنَهُ يَسْتَمِرُّ؛ وَالمَغْفَرُ، حِمَاهُ يَحْفَرُ؛ وَظُهُورُ القَيْسِيِّ تُقْصَمُ، وَعِصَمَ الجُنْدِ الكَوَافِرِ
تُقْصَمُ؛ وَوَرَقَ اللَّيْلِ، فِي المُنْقَلَبِ، يَسْقُطُ، وَالبُتْرُ تَكْتَبُ وَالسُّمْرُ تَنْقُطُ؛ فَاقْتَحِمِ
الرَّبِضَ الأَعْظَمَ لِحِينِهِ، وَأَظْهَرَ اللَّهِ لِعَيُونِ المُبْصِرِينَ وَالمُسْتَبْصِرِينَ عِزَّةَ دِينِهِ،
وَتَبْرًا الشَّيْطَانَ مِنْ حَدِيثِهِ؛ وَنُهْبَ الكُفَّارِ وَحُدِلُوا، وَبِكُلِّ مَرَضٍ جُدُّلُوا؛ ثُمَّ دَخَلَ
البَلَدُ بَعْدَهُ غَلَابًا، وَجُلِّلَ قِتْلًا وَاسْتَلَابًا؛ فَلَا تَسْلُ، إِلا الظُّبَى وَالأَسْلُ، عَنِ قِيَامِ
سَاعَتِهِ، وَهَوَلِ يَوْمِهَا وَشَاعَتِهِ؛ وَتَخْرِيْبِ المَبَائِتِ وَالمَبَانِي، وَغِيَابِ الأَيْدِي مِنْ خَرَائِنِ
تِلْكَ المَعَانِي، وَنَقْلِ الوُجُودِ الأَوَّلِ إِلَى الوُجُودِ الثَّانِي؛ وَتَخَارِقِ السَّيْفِ بِخَاءِ بَغِيرِ
المَعْتَادِ، وَنَهَلَتِ القَنَا الرُّدَيْنِيَّةُ مِنَ الدَّمَاءِ حَتَّى كَادَتْ تُورِقُ كالأَغْصَانِ المَعْتَرَسَةِ وَالأَوْتَادِ؛
وَهَمَّتْ أَفلاكُ القَيْسِيِّ وَصَحَّتْ، وَأَرْنَتْ حَتَّى بَحَّتْ، وَنَفِدتْ مَوَادُّهَا فَشَحَّتْ
بِمَا أَلَحَّتْ؛ وَسَدَّتِ المَسَالِكَ جُثُثُ القَتْلِ فَمَنَعَتِ العَايِرَ، وَاسْتَأْصَلَ اللَّهُ مِنْ عَدُوِّهِ
الشَّافَةَ وَقَطَعَ الدَائِرَ، وَأَزَلَّفَ الشَّهِيدَ وَأَحْسَبَ الصَّابِرَ، وَسَبَقَتْ رُسُلُ الفَتْحِ الَّذِي
لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ العَايِرِ، تَنْقُلُ البُشْرَى مِنْ أَفْوَاهِ المَحَابِرِ، إِلَى آذَانِ المَنَابِرِ.

أَقْنَاهَا أَيَّامًا تَعْفَرُ الأشْجَارُ، وَنَسْتَأْصِلُ بِالتَّخْرِيْبِ الوِجَارَ، وَلسَانَ الأَنْتِقَامِ،
مِنْ عِبْدَةِ الأَصْنَامِ، يُنَادِي بِالنَّارَاتِ الإسْكَندَرِيَّةِ تَسْفِيًا مِنَ الفُجَّارِ، وَرَعِيًا لِحَقِّ
الجَارِ؛ وَقَفَلْنَا وَأَجْنِحَةُ الرِّيَابِ، بِرِيَاكِ العِنَايَاتِ، خَافِقَهُ؛ وَأَوْفَاقِ التَّوْفِيقِ،
النَّاشِئَةِ مِنْ خَطُوطِ الطَّرِيقِ، مُوَافِقَهُ؛ وَأَسْوَاقِ العِزِّ باللهِ نَافِقَهُ، وَحَمَلَاءِ الرِّفْقِ
مِصَاحِبَةَ - وَالمُحَمِّدُ اللَّهِ - مُرَاقِقَهُ؛ وَقَدْ ضَاقَتْ ذُرُوعُ الجِبَالِ، عَنِ أَعْنَاقِ الصُّهْبِ
السَّبَالِ؛ وَرُفِعَتْ عَلَى الأَكْفَالِ، رُدْفَاءُ كَرَامِ الأَنْفَالِ؛ وَقُلِقِلْتِ مِنَ النِّوَاقِيسِ أَجْرَامِ

الجبال بالهندام والأحتيال ، وهلك بمهلك هذه الأم بنات كُنَّ يرضعن نُدِيهَا الحوافل
ويستوثرن حجَّرها الكافل ، شمل التخريب أسوارها ، وعجَّلت النار بوارها .

ثم تحركنا بعدها حركة الفتح ، وأرسلنا دلاء الإدلال قبل المنح ، فبشَّرت بالمنح ؛
وقصدنا مدينة أبدة وهى ثانية الجناحين ، وكبرى الأختين ، ومساهمة جيان
في حين الحين ؛ مدينة أخذت عرض الفضاء الأخرق ، وتمشت فيه أرباضها تمشى
الكتابة الجاححة في المهرق ؛ المشتمة على المتاجر والمكاسب ، والوضع المتناسب ،
والفالج المعبي ريعه عمل الحاسب ، وكوارة الدبر اللاسب ، المتعددة اليعاسب ؛
فأناخ العفاء بربعها العامره ، ودارت كئوس عقار الحنوف ، بنان السيوف ،
على متديريها المعاقرة ، وصبحتها طلائع الفاقرة ، وأغریت ببطون أسوارها عوج
المعاول الباقره ؛ ودخلت مدينتها عنوة السيف ، فى أسرع من خطرة الطيف ،
ولا تسأل عن الكيف ؛ فلم يبلغ العفاء من مدينة حافله ، وعقيلة فى حُلل المحاسن
رافله ؛ ما بلغ من هذه البائسة التى سجدت لآلهة النيران ابراجها ، وتضاعل بالرعام
معرأجها ؛ وضفت على أعطافها ملابس الحدلان ، وأقفر من كئاسها كئاس
الغزلات .

ثم تأهبنا لغزو أم القرى الكافره ، ونزرائن المزاين الوافره ، ورببة الشهره السافره ؛
[والأبناء المسافره] ^(١) قُرطبة وما أدراك ماهيه ، ذات الأرجاء الحالية الكاسيه ، والأطواد
الرائحة الراسيه ، والمباني المباهية والزهره الزاهيه ، والمحاسن غير المتناهيه ؛ حيث هالة
بدر السماء ، قد استدارت من السور المشيد البناء ؛ ونهر الحجره من نهرها الفياض ،
المسلول حسامه من عمود الغياض ؛ قد لصق بها جارا ، وفلك الدولاب المعتدل

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الانقلاب قد آستقام مَدَارًا، وَرَجَعَ الْحَيْنَ أَشْتِيَاقًا إِلَى الْحَبِيبِ الْأَوَّلِ وَأَدْكَارًا؛
 حَيْثُ الطَّوْدُ كَالْتَّاجِ، يزدان بُلْجَيْنَ العَدْبِ الْمُجَاجِ؛ فيزري بتاج كسرى ودارًا؛ حَيْثُ
 قِسْيُ الجُسُورِ المديرة، كأنها عُوْجُ المطى الغريرة، تعبرُ النهرَ قطارًا؛ حَيْثُ أَنَارُ العامريّ
 المجاهد، تعبقُ بين تلكِ المعاهدِ، شَدَى مِعْطَارًا؛ حَيْثُ كِرَائِمُ السَّحَابِ، تزورُ عرَاسِ
 الرياضِ الحبابِ، فتحمِلُ لها من الدرِّ نثارًا؛ حَيْثُ شَمُولُ الشَّمالِ تُدارُ على الأُدواحِ؛
 بِالغُدُوِّ وَالرَّوْاحِ، فترى الغُصُونَ سُكَارِي وَمَاهِي بُسْكَارِي؛ حَيْثُ أَيْدِي الأَفْتاحِ،
 تَفْتَضُّ من شقائق البِطَاحِ، أبكارًا؛ حَيْثُ تُغَوِّرُ الأَفَاحِ الباسمِ، تقبلها بالسَّحَرِ
 زُؤارِ النَّوَّاسِمِ، فَتَخْفِقُ قلوبُ النُّجُومِ الغياريّ، حَيْثُ المِصْلَى العتيقُ قد رَحِبَ مَجَالًا
 وطال مَنَارًا، وَأزرى بِلَاطِ الوَليدِ أَحْتِقَارًا؛ حَيْثُ الظُّهُورِ المِثارة بِسَلاحِ الفَلاحِ
 تُجَبُّ عن مثلِ أسنمةِ المَهَارَا، والبَطُونُ كأنها لتَدْمِيتِ الغائمِ بَطُونُ العَدَارِي، والأُدواحُ
 العالِيَةِ تَخْتَرِقُ أعلامها المِهادِيَةَ بِالْحَدَاوِلِ الحَبَّارَا؛ فإسْتَمْتُ من جوِّ صَقِيلِ،
 وَمُعْرَسَ لِحُسْنِ وَمَقِيلِ، وَمالِكِ للعقلِ وَعَقِيلِ. ونحوائلِ كَمَ فيها للبلابلِ من قَالٍ وَقِيلِ،
 وَخَفِيفِ بِمِجَاوِبِ بِثَقِيلِ. وسنابلِ تَحْكِي من فَوْقِ سُوْقِهَا، وَقُضِبِ بِسُوْقِهَا، الهَمَزَاتِ
 فَوْقِ الأَلْفَاتِ، والعِصافِيرِ البِديعةِ الصِّفَاتِ، فَوْقِ القُضْبِ المُوْتَأَفَاتِ، تَمِيلُ بِهُبُوبِ
 الصِّبَا وَالْحَنُوبِ، مائِلَةٌ الجُيُوبِ بِدَرَرِ الحُيُوبِ. وبطَاحِ لا تُعْرِفُ عَيْنَ المَحَلِّ، فَتَطْلُبُهُ
 بِالذَّحْلِ؛ وَلا تُصْرِفُ في خِدمةِ بِيضِ قِبابِ الأزهارِ، عِندَ أَفْتِتاحِ السَّوْسَنِ وَالبَهَارِ؛
 غَيْرَ العُبدانِ من سُودانِ النَّخْلِ، وَبِحَرِّ الفِلاحةِ الَّذِي لا يُدْرِكُ سَاحِلُهُ، وَلا يَبْلُغُ
 الطَّيَّةَ البَعِيدَةَ راحِلُهُ، إِلَى الوادِي، وَسَمَرِ النَّوَادِي، وَقَرارِ دُمُوعِ الغَوَادِي؛ المِنتِجاسِ
 عَلَيَّ تَخْطِيهِ، عِندَ تَمْطِيهِ، الجَسْرِ العادِي؛ وَالوَطَنِ الَّذِي لَيْسَ من عَمْرٍو وَلا زَيْدِ،

والفرا الذي في جوفه كل صيد؛ أقل كرسية خلافة الإسلام، وأغار بالرصافة والجسر
دار السلام، وما عسى أن تطنب في وصفه السنة الأرقام، أو تعبّر به عن ذلك الكمال
فنون الكلام .

فأعلمنا إليها السرى والسير، وقُذنا إليها الخيل وقد عقد الله بنواصيا الخير .

ولما وقفنا بظاهرها المبهت المعجب، وأصطفقنا بخارجها المنبت المنجب؛
والقلوب تلمس الإعانة من منعم مجزل، وتستنزّل مدد الملائكة من منجد مُنزّل،
والراكب واقفة من خلفنا بمعزل، تتناشد في معاهد الإسلام: فقفا نبك من ذكركى
حبيب ومنزّل - برزمن حاميتها الحاميه، ووقود النار الحاميه، وبقية السيف
الوافرة على الحصاد الناميه، قطع الغائم الهاميه، وأمواج البحور الطاميه، وأستجنت
بظلال أبطال المجال أعداد الرجال الناشبة والرامية، وتصدى للزّال، من صناديدها
الصهب السبال، أمثال الهضاب الراسيه، تجنّاجن السّوايح الكاسيه، وقواميسها
المفادية للصلبان يوم يوسها بئفوسها المواسيه، وخنازيرها التي عدتها عن قبول
مُحج الله ورسوله ستور الظلم الغاشيه، ومُحجور القلوب القاسيه؛ فكان بين الفريقين
أمام جسرها الذي فرق البحر، وحلي بلجينه ولائى زينه منها النحر؛ حرب لم تأسج
الأزمان على منوالها، ولا أتت الأيام الحبالى بمثل أجنة أهوالها؛ من قاسها بالفجار
أفك وجفر، أو مثلها بجفر الهباء تحرف وهجر، ومن شبهها بحرب داحس والغبراء
فما عرف الخبر، فليسأل من جرب وخبر؛ ومن نظرها بيوم شعب جيله، فهو
دوبله؛ أو عادتها بطن عاقل، فغير عاقل؛ أو أحتج بيوم ذى قار، فهو إلى المعرفة
ذو افتقار؛ أو ناضل بيوم الكديد، فسهمه [غير السديد]، إنما كان مقاما غير معتاد،

ومرعى نفوس لم يف بوصفه لسان مُرتاد، وززال جبال أوتاد، ومتلّف مدّخور
لسلطان الشيطان وعتاد، أعلم فيه البطل الباسل، وتورد الأبيض الباتر وتاود الأسمر العاسل،
ودوم الجلمد المتكاسل، وأنبعث من حدب الحنية إلى هدف الرمية الناشر النَّاسِل،
ورويت لمرسلات السهام المراسل؛ ثم أفضى أمر الرماح إلى التشاجر والأرتباك،
ونسبت الأسننة في الدرّوع تشب السّمك في الشباك؛ ثم اختلط المرعى بالهمل،
وعزّل الرديني عن العمل؛ وعادت السيوف من فوق المفارق تيجانا، بعد أن شقت
عُدّ السوانج خُلجانا؛ وأتحدت جداول الدرّوع فصارت بحرا، وكان التعائق فلا ترى
إلا نحرًا يلازم نحرًا؛ عناق وداع، وموقف شمل ذى أنصداع، وإجابة منادٍ إلى
فراق الأيد وداع؛ وأستكشفت مآل الصبر الأنفس الشفافة، وهبت بريح النصر
الطلائع المبشرة الهفافة؛ ثم أمد السيل ذلك العباب، وصقل الاستبصار الأبواب،
وأستخلص العزم صفوة اللباب، وقال لسان النصر: أدخلوا عليهم الباب؛ فأصبحت
طوائف الكفار، حصائد مناجل الشفار، فمفارقهم قد رضيت حرمانها بالاعقار،
ورءوسهم مخطوطة في غير معالم الاستغفار، وعلت الرايات من فوق تلك الأبراج
المستطرفة والأسوار، ورقرق على المدينة جناح البوار، لولا الاتهاء إلى الحد والمقدار،
والوقوف عند آخفاء سرّ المقدار.

ثم عبرنا نهرها، وشددنا بأيدي الله قهرها، وضيقتنا حصرها، وأقمتها أياما
تحموم عقبان البؤود على فريستها حياما؛ وترى الأرواح بيوارها، وتسلط النيران
على أقطارها، فلولا عائق المطر، لحصلنا من فتح ذلك الوطن على الوطر؛ فرأينا
أن نروضها بالأجثاث والأنتساف، ونوالى على زروعها ورُبوعها كرات رياح
الاعتساف؛ حتى يهيا للإسلام لوك طعمتها، ويتهنا بفضل الله إرث نعمتها؛

ثم كانت عن مؤقفها الإفاضة من بعد نحر النُحُور ، وقَدَفِ جمار الدَّمَارِ عَلَى العَدُوِّ
المدحُورِ ، وتدافعت خَلَفْنَا السابِقاتِ المُستَقِلَّاتِ تَدافِعَ أمواجِ البُحُورِ .

وبعد أن أتحنا على جَنَّاتِها المُصِحِّرةِ ، وكُرومِها المُشجِّرةِ ، إلحاحِ الغريمِ ، وعَوْضِها
المنظَرِ الكَريهَةِ من المَنظَرِ الكَريمِ ، وطافَ عليها طائِفٌ من رَبَّنَا فأصبَحَتِ كالصَّريمِ ،
وأغرَبَتِنا حِلاقِ النارِ بِجَمِّ الحَجمِ ، وراكبنا في أجوافِ أجوائِها غَمائمِ الدُّخانِ ، تُدَكِّرُ
طَيِّبَةَ البانِ ، بيومِ الغَميمِ ؛ وأرسلنا رِياحِ الغاراتِ لا تَدْرُ من شَيْءٍ أَنتَ عليه إلا جَعَلتَهُ
كالرَّميمِ ؛ وأستقبَلنا الوادِيَّ يهولُ مَدًا ، وَيُرُوعُ سِيقُهُ الصَّقِيلِ حدًّا ، فيسِرهُ اللهُ من
بعد الإِعوازِ ، وَأَظَلَقَتِ عَلَى الفُرْضَةِ [بتلك الفُرْضَةِ] أَيْدِي الأَتهازِ ، وسألنا من ساءلَهُ
أَسَدُ بَنِ الفِراتِ فَأَقْبَى بُرْجِحانِ الجَوازِ فَعَمَّ الأَكْتِساخُ والأِستِباخُ جَميعَ الأَحْوازِ ؛ فَأَدِيبُ
المَصُونِ ، وَأَتَهَيْتِ القُرَى وَهُدِمَتِ الحُصُونُ ، وَاجْتَنَّتِ الأُصُولُ وَحُطِمَتِ الغُصُونُ ؛
ولم نَرَفِعْ عَنا إلى اليَومِ غارَةً تُصاحِفُها بالبُوسِ ، وَتُطَلِّعُ عَلَيْها غُمرَها الضاحِكَةَ باليَومِ
العَبُوسِ ؛ فَهِيَ الآنَ مَجْرَى السَوابِقِ وَمَجْرَى العَوالِي ، عَلَى التَوالِي ، وَالْحِسراتُ تَجَدُّدُ
في أَطْلالِها البَوالِي ؛ وَكانَ بِها قَدِ صُرِعَتِ ، وَإلى الدَّعْوَةِ المَحمَديَّةِ قَدِ أُسْرَعَتِ بِقُدْرَةٍ
من لو أَنزَلَ القُرآنَ عَلَى الجِبالِ لَحَشَعَتِ من خَشْيَةِ اللهِ وَتَصَدَّعَتِ ، وَعِزَّةٍ من أذَعَنَتِ
الجِبابِرُ لِعِزِّهِ وَخَنَعَتِ ؛ وَعُدنا وَالبُنودُ لا يَعرِفُ اللَّفَّ نَشْرُها ، وَالوَجوهُ المِجاهِدَةُ
لا يَحايطُ التَقْطِيبَ نِشْرُها ؛ وَالأَيْدِي بِالعُرْوَةِ الوُثْقِيِّ مَعْتَلِقَةً ، وَالأَلْسُنُ بِشُكْرِ نَمِّ اللهِ
مُنطَلِقَةً ، وَالسِوْفُ في مَضاجِعِ الغُمُودِ قَلِقَةً ، وَسرابيلُ الدُّروعِ خَلِقَةً ، وَالحيادُ من
رَدِّها إلى المَرابِطِ وَالأَوارِي رَدِّ العَوارِي حَنِقَةً ، وَبِعبَرَاتِ الغَيْظِ المَكْظُومِ مَخْتَبِقَةً ؛
تَظُنُّرِنا نَظَرَ العائِبِ ، وَتَعوُدُ من مِيادينِ المِراَحِ وَالأَخْتِيايِلِ تَحْتَ حُلَلِ السِّلاحِ عَوَدُ

الصَّبِيانِ إِلَى الْمَكَاتِبِ ، وَالطَّبْلُ بِلِسَانِ الْعِزَّادِرِ ، وَالْعَزْمُ إِلَى مُنَادِي الْعَوْدِ الْحَمِيدِ مُبَادِرِ ، وَوَجُودُ نَوْعِ الرَّيَّاحِ ، مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ الْكِفَاحِ ، نَادِرِ ، وَالْقَاسِمُ تَرْتَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ السَّبِي النَّوَادِرِ ، وَوَارِدُ مَنَهْلِ الْأَجُورِ ، غَيْرِ الْمُحَلِّ وَلَا الْمَهْجُورِ ، صَادِرِ ، وَمُنَاطِرُ الْفَضْلِ الْآتِي عَقِبَهُ أُخِيهِ الشَّانِي عَلَى الْمَطْلُوبِ الْمَوَاتِي مُصَادِرِ ؛ وَاللَّهُ عَلَى تَيْسِيرِ الصَّعَابِ وَتَخْوِيلِ الْمَتَنِ الرَّغَابِ قَادِرِ ؛ لِإِلَهٍ إِلَّا هُوَ ، فَمَا أَجْمَلَ لَنَا صُنْعَهُ الْخَفِيِّ ! وَأَكْرَمَ بِنَا طُفْقَهُ الْخَفِيِّ ! اللَّهُمَّ لِأَخِيهِ ثَنَاءً عَلَيْكَ ، وَلَا نَلْجَأُ مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا نَلْتَمِسُ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ إِلَّا لَدَيْكَ ، فَأَعِدْ عَلَيْنَا عَوَائِدَ نَصْرِكَ يَا مُبْدِيَّ يَا مُعِيدَ ، وَأَعِنَّا مِنْ وَسَائِلِ شُرَكَكَ عَلَى مَا نَمُنُّ بِهِ الْمَزِيدَ ، يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ يَا فَعَّالًا لِمَا يُرِيدُ .

وَقَارَنْتُ رِسَالَتَكُمْ الْمَيْمُونَةَ مِنْهُ لَدَيْنَا حَدِّقْ فَتَحْ بَعِيدَ صَيْتِهِ ، مَشْرَبٌ لَيْتُهُ ، وَنَفْرٌ مِنْ فَوْقِ النَّجُومِ الْعَوَاتِمِ مَيْتِهِ ، عَجِبْنَا مِنْ تَأْتِي أَمَلِهِ الشَّارِدِ ، وَقَلْنَا الْبَرَكَةَ فِي قُدُومِ الْوَارِدِ ، وَهُوَ أَنَّ مَلِكَ النَّصَارَى لَا طَفْنَا بِجَمَلَةٍ مِنَ الْحُصُونِ كَانَتْ مِنْ مَمْلَكَةِ الْإِسْلَامِ قَدْ غُصِبَتْ ، وَالْتِمَائِلُ فِيهَا يَبُوتُ اللَّهُ قَدْ نَصِبَتْ ؛ أَدَاهَا اللَّهُ بِمَحَاوَلَتِنَا الطَّيِّبِ مِنَ الْخَلِيئِ ، وَالتَّوْحِيدِ مِنَ التَّثْلِيثِ ؛ وَعَادَ إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ عَوْدَةَ الْأَبِ الْغَائِبِ ، إِلَى الْبَنَاتِ الْحَبَائِبِ ؛ يَسْأَلُ عَنْ شُؤْنِهَا ، وَيَمْسَحُ دُمُوعَ الرَّقَّةِ عَنْ جُفُونِهَا ؛ وَهِيَ لِلرُّومِ حُطَّةٌ خَسِيفٌ قَلَمًا أَرْتَكِبُوهَا فِيمَا نَعْلَمُ مِنَ الْعُهُودِ ، وَنَادِرَةٌ مِنْ نَوَادِرِ الْوَجُودِ ؛ وَالِىَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُمْ عَوَارِفَ الْجُودِ ! ، وَجَعَلْنَا فِي مَحَارِبِ الشُّكْرِ مِنَ الرَّكْعِ السُّجُودِ ! .

عَرَفْنَاكُمْ بِمَجْمَلَاتِ أُمُورٍ تَحْتَهَا تَفْسِيرٌ ، وَيَمُنُّ مِنَ اللَّهِ وَتَيْسِيرٌ ، إِذْ أَسْتَيْفَأُ الْجَزْمِيَّاتِ عَسِيرٍ ؛ لِنَسْرِكُمْ بِمَا مَنَحَ اللَّهُ دِينَكُمْ ، وَتَتَوَجَّعُ بِعِزِّ الْمَلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ جَبِينَكُمْ ، وَتُخْطَبُ بَعْدَهُ دَعَاكُمْ وَتَأْمِينَكُمْ ؛ فَإِنَّ دَعَاءَ الْمُؤْمِنِ لِأَخِيهِ بَظَهْرِ الْغَيْبِ سِلَاحُ مَاضٍ ، وَكَفِيلٌ بِالْمَوَاطِبِ الْمَسْئُولَةِ مِنَ الْمُنْعِمِ الْوَهَّابِ مِيْفَاضٍ ؛ وَأَتَمُّ أَوْلَى مَا سَاهَمَ فِي بَرٍّ ، وَعَامِلٌ لِلَّهِ بِمُخْلُوصٍ

سِرِّ ؛ وأين يذهب الفضل عن بَيْتِكُمْ ، وهو صفة حَيْكَمٍ وَثَرَاتٍ مَيْتِكُمْ ؛ ولكم مَرْيَّةُ الْقِدَمِ ، ورسوخُ الْقَدَمِ ؛ والخِلافةُ مَقْرَها إِيوانُكُمْ ، وأصحابُ الإمامِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مَسْتَقْرَها قَيْرِوانُكُمْ ؛ وهجيرُ المنابرِ ذِكْرُ إمامِكُمْ ، والتوحيدُ أعلامُ أعلامِكُمْ ؛ والوقائعُ الشَّهيرَةُ في الكُفرِ منسوبةٌ إلى أَيامِكُمْ ، والصحابةُ الكرامُ فَتَحَها أوطانِكُمْ ، وسُلالةُ الفاروقِ عليه السلامُ وَشائِخُ سُلطانِكُمْ ، ونحنُ نَسْتَكثِرُ من بركةِ خِطابِكُمْ ، ووُصلةُ جَنابِكُمْ ، ولولا الأَعذارُ لَوالينا بالمتريدياتِ تعريفَ أباؤِكُمْ .

والله عز وجل يتولى عنا من شُكْرِكُمْ المحتومِ ، ما قَصَرَ المكتوبُ منه عن المَكْتُومِ ؛ ويُقيِّمُكم لإقامةِ الرُسومِ ، ويُجِلُّ محبَّتِكُمْ من القلوبِ محلَّ الأرواحِ من الجُسومِ ؛ وهو سبحانه يَصِلُ سَعَدَتِكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، ويوالى نِعْمَةَ عِندِكُمْ .

والسلامُ الكريمُ ، الطَّيِّبُ البُرِّ العميمُ ؛ يَخْصِمُكم كثيرا أنيرا ، ما أطلع الصُّبْحُ وجهَها مُنيرا ، بعد أن أرسل النسيمَ سَفيْرا ، وكان الوميضُ الباسمِ ، لأَكْواسِ الغمامِ ، على أزهارِ الكِئامِ مُدِيرا ؛ ورحمةُ اللهِ وبركاته ، إن شاء اللهُ تعالى .

الطرف الثامن

(في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العُعالِ وأمراءِ السَّرايا)

في صدر الإسلام إلى مَنْ في معناهم)

وكان الغالبُ في مكاتباتهم الأفتاحُ بأما بعد والتعبيرُ عن المكتوبِ عنه بلفظِ

الوَحدةِ ، وخطابُ المكتوبِ إليه بالكافِ .

كما كتب الحجاجُ بنُ يوسفٍ إلى المهلبِ بنِ أبي صُفْرةَ ، وهو يومئذ نائبٌ عن الحجاجِ

على بعضِ الأعمالِ والحروبِ .

أما بعد، فإنك تترأخى عن الحرب حتى تأتيك رُسلى ويرجعون بعدرك، وذلك أنك
 تمسك حتى تبرأ الجراح وتُنسى القتلى ويجم الناس، ولو كنت تلقاهم بذلك الحد
 لكان الداء قد حُسم، والقُرْن قد قُصم، ولعمري ما أنت والقوم سواء، لأن من
 ورائك رجالا، وأمامك أموالا؛ وليس للقوم إلا ما معهم، ولا يدرك الوجيف
 بالديب، ولا الظفر بالتعدير.

وكما كتب المهلب إلى الججاج مجيباً له عن ذلك .

أما بعد، فإنى لم أعط رُسلك على قول الحق أجراً، ولم أحتج فيهم مع المشاهدة
 إلى تلقين. فذكرت أنى أجم القوم، ولا بد من راحة يستريح فيها الغالب ويحتال
 المغلوب. وذكرت أن فى الجمام تُنسى القتلى وتبرأ الجراح، وهيهات أن يُنسى
 ما بيننا وبينهم، يابى ذلك قتل من لم ينج، وقروح لم تعرق، ونحن والقوم على حالة
 وهم يرقبون منا حالات، إن طمعوا حاربوا، وإن ملأوا وقفوا، ونطلب إذا هربوا،
 فإن تركتني فالداء بإذن الله محسوم، وإن أعجنتني لم أطعك ولم أعص وجعلت
 وجهى إلى بابك، وأنا أعود بالله من سخطه ومقت الناس .

الطرف التاسع

(فى المكاتبِ الصادرة عن الملوکِ ومن فى معناهم، إلى الملوکِ ومن فى معناهم،
 على ما كان عليه مصطلح أهل المشرق، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(أن تكون المكاتبَةُ عن ملك إلى غير ملك)

ورسمهم أن يفتح الكتابُ بلفظ « كتابنا إليك فى يوم كذا، ومن مكان كذا،
 والأمر على كذا وكذا » ويذكر الحال التى عليها المكتوبُ عنه حينئذ وألتي عليها

الخليفة إن كان المكتوب عنه من أتباع الخليفة، أو التي عليها الملك إن كان من أتباع الملك ونحو ذلك، ويكون التعبير في هذه المكاتبة عن المكتوب عنه بنون الجمع، والخطاب للمكتوب إليه بالكاف. ولا يقال في المكتوب إليه في هذه الحالة: سيدي ومولاي، ولا سيدنا ولا مولانا. وبذلك يكتب عن الملوك ومن في معناهم من سائر الرؤساء إلى المرءوسين.

ثم هو على مرتبتين:

المرتبة الأولى - أن يُرعى جانب المكتوب إليه في الرقة بعض المراجعة.

كما كتب أبو إسحاق الصابي عن صمصام الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة ابن بويه، إلى صاحب كافي الكفاة إسماعيل بن عباد وزير غفر الدولة، في الشفاعة في شخص من بعض أزمته:

كاتبنا - أدام الله تأييد صاحب الجليل كافي الكفاة - وإن وثقنا من المسؤولين بالإيجاب والإجابة، ومن المأمورين بالامتثال والطاعة؛ فإننا نخص بكتبنا الصادرة عنا في المآرب العارضة لنا، من خصت من كلا الفريقين نهضة إليها، وظهرت منارته عليها؛ وإذا آتينا إليه - أدام الله عزه - في ذلك عددنا مع ما قدم الله عندنا من رتبته في الطبقة الأولى، وميزنا مع ما وفر الله علينا من طاعته عن الطبقة الأخرى؛ وأنسنا منه عادة مشكورة في أتباع محبوبنا، والإسعاف بمطلوبنا؛ ليسلس لنا إلى مخاطبته قياد يتقاعس عن سواه، وتنبسط منا في مكاتبتنا أنامل نتجدد عن لايجري مجراه؛ ولا سيما إذا كان ذلك في مكرمة يطيب ثاؤها، ومنقبة يساد بناؤها؛ والله يمدد ويمدنا فيه من طيب السجايا، وصالح العطايا؛ بما هو الوليُّ به، والحقيق بالشكر عليه.

وكتابتنا هذا - أدام الله عزَّه الصاحب الجليل كافي الكفأة - مبنى على إذكاره بحق لنا رعيته ، وذيما من أجله أوجبناه ؛ وذلك أسد لإحكامه وألزم لإيجابه ، وأوكد لأسبابه ؛ وقد عرف مكان أبي منصور يزداها دار بن المرزبان من خدمتنا ، وموقعه في حملتنا ، وتوفر حفظه من جميل رأينا ، وخالص اعتقادنا ؛ ومن أوجه وسائله لدينا ، التي أوجبنا له ذلك علينا ، أنا لانزال عده عليه ، من الاعتداد باحسان الصاحب الجليل كافي الكفأة إليه ، وإلى أبيه من قبله ، والاعتراف بأنه أيدته الله أبو عذرة صنعته ، والسابق إلى الجذب بضعه ؛ ولن كان أقرله من ذلك معروف لاينكر ، ودخل من الثناء عليه في إجماع لا يحرق ؛ فقد بين عن نفسه أنه ممن يطبق حمل المن ، ويحسن مصاحبة النعم ؛ ويستحق أن تقتر عنده أسلافها ، وتدر عليه أخلافها ؛ إذ لم يذهله الربوع فيها عن التحيد من اصطرافها وأنصرافها ، ولم يله التوسط لها عن حياطة أطرافها وأكفافها ؛ ومن لنا اليوم بالشكور الذي لا يعمط ، والذكور الذي لا ينسى ؟ والعلم بما يلزمه ، والقوم بما يحق عليه . وأعلمنا حال قريين له يقال لها الفرکان بن حرزاد ، ورستم بن يزد ؛ وأنها تصرفاني بعض الخدمة تصرفا تزيلا فيه عن نهج السداد ، وسن الرشد ؛ وأقتضى ذلك أن طلبا بالتقويم والتهذيب ، وولجا مضيق القصاص والتأديب ؛ وأنه قد مضت لها فيه مدة طويلة في مثلها ما صلح المعاقب ، واكتفى المعاقب ؛ وسؤاله لها ، ومرادنا له فيهما ، شفاعته الصاحب الجليل كافي الكفأة إلى مولانا الأمير السيد شاهنشاه نجر الدولة في أن يسعهما العفو ، ويدركهما العطف إما باستخدام يتطوقان به المن ، ويأذن لها بانصراف إلى الوطن ؛ وقد استظهرنا بكتاب كتبناه في أمرهما : هذا الكتاب يشتمل عليه ، حتى إذا وجب أن يجعله الصاحب الجليل كافي الكفأة ذريعة إلى

(١) كذا في الأصول ولعله أنه لا يزال بعد ما عليه من الاعتداد الخ .

الغرض ، ومطيةً إلى المقصد ؛ أمضى في ذلك رأيه ، وعقد عليه تديبه . فإن رأى
الصاحب الجليل أن يتوصل في هذا الأمر إلى ما يُشاكل عادته عندنا في الأمور
الواردة عليه فعل ، وتوثق في الجواب أن يكون متضمناً لذكر الفعل دون القول ،
والإنجاز دون الوعد ؛ إن شاء الله تعالى .



وكما كتب الصابي عن صمصام الدولة المقدم ذكره ، إلى الصاحب بن عباد أيضا
في حالة أخرى ، بسبب رد إقطاع إلى أبي جعفر محمد بن مسعود قرين كتاب
إلى نخر الدولة

كأبنا والسلامة لدينا راهنه ، وعادة الله لإقرارها ضامنه ؛ والحمد لله رب العالمين ،
والصاحب الجليل كافي الكفاة - أدام الله تأييده - يعلم أنه لم يزل لمالكنا أفيئة
تقام بها أسواق المكارم ، وتحيا بها سنن المحامد ؛ وقد جعله الله بتفضله الحافظ
لجمال ذلك علينا ، والضارب بسهمه فيه معنا ؛ فالحمد لله على أن قرن الحظوظ التي
خولنا ، والمنازل التي تولنا ، بالخلائق الخليفة بها ، الداعية إلى استقرارها ، والطرائق
المطرقة إلى ثباتها واستمرارها ، وأن زان أيا منّا هذه الحاضره ، بآثار الصاحب
كافي الكفاة أدام الله عزه فيها الناضره ؛ ومساغيه الرشيدة ، وأفعاله المستقيمة ،
وأحاديثه الجميلة ؛ وإياه نسأل أن يُجربنا وكلّ ناصح على أفضل ما عودنا وأحسن
ما أولاه ومنحنا بقدرته .

وإذا كان مولانا الأمير السيد شاهنشاه نخر الدولة ، وفلك الأمة ؛ بالمحل الذي
أهله الله له : من استعذاب الإحسان إلى أوليائه ، وأقراض الإفضال على نصحائه ؛
وكان الصاحب الجليل بالحال التي هو بها من القيام بما حمل به المناب فيه عنه ،
(١)

(١) في الاصل « من القيام قد كل له والمناب الخ » وهو تخليط من الناسخ .

فقد وجب أن تكون الرعاية لدوي الحُرْمَاتِ مستَحِكَمَةَ الأسباب ، ثابتة الأطناب ؛
واضحة الأعلام ، ماضية الأحكام ؛ ولا سيما فيمن تعلق منا بالعبادة ، وأخذ
من ذمامنا بالوثيقة ؛ و « أبو جعفر محمد بن مسعود » أيده الله جامع لَلَوَاتِّ ، التي
يستحقُّ بها اجتماع العناية ؛ سالفًا صالحًا في الخدمة ، وسابقةً متمكنةً في الجملة ؛
وأشتملاً على كلِّ ما وجبت به الحقوق ، ولزمت به الرعايات . وذكَّر أنه كانت له
بنواحي الجبل تسويغاتٌ ومعاشٌ أنعم بها مولانا الأمير السيد نخر الدولة عليه
في حالٍ بعد حال ، وشرفه بها في مقام بعد مقام ، منها كذا وكذا ، وإذا جُمع الجميع
كان قليلا في جنب ما يُفِيضُه مولانا الأمير السيد شاهنشاه نخر الدولة ، وفلك الأمة
على خدَمه : من جليل عوارفه الجارية على يد صاحب الجليل كافي الكفاة أدام الله
تأييده ، والواصله إلى مستحقيها بلطيف توصله ، وجميل معتقده . وكان موقعه
جليلا عند أبي جعفر محمد بن مسعود أيده الله في جنب ما يُصلِح من شأنه ، ويُقيم
من جاهه ، ويرب من معاشه ، ويُلم من حاله . وقد كتبنا إلى مولانا في ذلك كتابا
بجملنا قصرناه على الرغبة إليه ، في ردِّ هذه المعاش عليه ؛ وعولنا على صاحب الجليل
في إخراج أمره العالی بذلك له ، وإحكام المناشير والوثائق بجميعة ، والتقدم بمكاتبة
العمال والولاية بتقوية أيدى أصحابه ، في استيفاء ما يجب من الأسلاف والبقايا ، على
الأكره والمزارعين ، والوكلاء والمعاملين ، وتأکید الكتب بغاية ما تؤكِّد به أمثالها ،
ويبلغ به أبو جعفر محابه كلها . فإن رأى صاحب الجليل أن يأتي في ذلك كله ما يجيده
ويعده ويرعاه ويحفظه ، جاريا على المؤلف من مثارته على ما عاد علينا وعليه معنا
بطيب الذكر والبشر ، وثناء اليوم والغد ، فقد أنفذنا بهذا الكتاب ركائب لنا دلالة
على خصوص متضمنه في تعلقه بالأهتام منا ، فعل إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(أن تكون المكاتب من ملك إلى ملك)

ورسمهم في ذلك أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ : كِتَابِي وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا وَكَذَا ، وَيُؤْتَى
 بالتعبير عن المكتوب عنه في أثناء الكِتَابِ بلفظ الإفراد دون الجمع ، وهنا يَفْتَحُ
 شَأْنَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، فَيَعْبَرُ عَنْهُ بِمَوْلَايَ وَسَيِّدِي ، وَمَوْلَانَا وَسَيِّدِنَا ، وَنَحْوِ ذَلِكَ .
 ثم هو على مراتب ^(١) :

المرتبة الأولى

(أن يكون المكتوب إليه ملكاً أيضاً)

فيخطبه على قدر مقامه بالسيادة أو غيرها مع الدعاء بما يناسبه : من طول البقاء
 ونحوه ؛ ثم تارة يَقَعُ التَّعَرُّضُ فيها بذكر الطلب ورفق الحال التي هو عليها ، وتارة لا يقع
 التَّعَرُّضُ إلى ذلك - كما كتب أبو إسحاق الصَّابِي عن عز الدولة ، بن مُعز الدولة ،
 ابن بويه ، إلى عضد الدولة بن بويه في طَلَبِ الصُّلْحِ ، وقد جرى بينهما اختلافٌ .

كُتِبَ - أطال الله بقاء مولانا الملك الجليل المنصور عضد الدولة - من العسكر
 بظاهر سوق الأهواز ، ومولانا أمير المؤمنين مشمولٌ بالكفاية والتأييد ، مخصوصٌ
 بالعز والتمكين ؛ يجرى على أفضل ما عود الله خلفاءه في أرضه ، وأجابه في رعاية خلقه ؛
 من التَّكْفُلِ لهم بالإظهار والإداله ، وتوليهم بالإعلاء والإنافه ؛ وأنا مستظِلُّ بِكَتْفِ
 طاعته ، مستكنٌّ في حرم مشايعته ؛ شاكرٌ لله على بلائه ، مثنٍ عليه بألائه ؛ راغبٌ

(١) لم يذكر في الأصول غير الأولى ويظهر أن التقسيم سوفان المقسم هو الكتابة من ملك إلى ملك وهو
 عين المرتبة الأولى فتأمل .

إليه أن يعصمني في مولانا الملك الحليل المنصور. وفي نفسي من كل مكروه
ومستهجن، ويوقفتي وإياه لكل مستحب ومستحسن، ويعيدنا من المقام على
الفرقة، والزوال عن سنن الألفه، وهو المحمود رب العالمين .

والحقوق بين مولانا الملك وبينى فيما قررته منا اللحمه، وأكده العضمه، وأثلته
الأسلاف، ونشأت عليه الأخلاف، حقيقة بأن لا تسرع إليها دواعي التقص،
ولا تتمكن منها ملهات النسخ، ولا ييم للشيطان عليها ما يحاوله بنزفه، ويوصل إليه
بكيده، وأن تتراح العوارض عنها، وتضمحل دون التأثير فيها، وأن نعقد جميعا
أن بتقارضا رعايتها ثبات النعم المتصلة بها، فلا يستنكف مستنكف منا أن
يخفض جناحه لأخيه، ويغض من حماه في مقاربه ذويه، إذ كان ذلك حاميا
له في أهول الأحوال مما هو أشد خفضا، وأبلغ رضا، وأسوأ مغبة، وأنكر عاقبة .

وقد علم مولانا الملك المنصور بالثاقب من تأمله، والصحيح من تمييزه وتدبره،
أن دولتنا - حرسها الله - مبنية على أسس التراقد والتعاضد، موضوعة على قاعدة التوازن
والنظائر، وأن مشيختنا وسادتنا رضوان الله عليهم جعلوا الأثلاف رتاجا بين
الأعداء وبينها، ثم إن مفتاحه هو الخلاف المتطرق لهم عليها، ولو حدث التناقض
في أيام رياسه أضعفنا منه، وأوهنا عقده، وأحدثنا سنا، وأقلنا حنكة، لكان ذلك
أقل في التعجب من أن يعرض في رياسه أحصفنا رأيا، وأسدنا تدبيرا، وأوفانا
حما، وأكلنا حزما . وقد تكررت - أيد الله مولانا - على ذات بيننا قوارص
أحتقرناها حتى آمتلأ الإناء من قطرها، وأستقينا منها على العظيمة التي لا تواء بعدها،
وما أعود على نفسى بلوم في آبداء قبيح آبدائه، ولا بمركب شنيع ركبته ولا حق
أطرحته، ولا أستصلاح تركته، ولا أدفع مع ذلك أنى قابلت لما تضاعف بالأقل

الأيسر، وجازيت لما ترادف بالأدوين الأثرز؛ إلا أنى ما أثرت كثيره ولا قلبه، ولا آخرت دقيقة ولا جليله؛ لكنه لم يصلح في السيرة - وقد أشفينا على التراحم للحرب، والتدائف للطعن والضرب - أن أستعمل ما كنت عليه من توفية الحقوق، وإقامة الرسوم، فيراني الأولياء الذين بهم تُحَى البيضة، وتُحاط الحوزة؛ متناقض الفعلين، متنافي المذهبين؛ وكنت في ذلك الفعل الذميم، والرأى الذى ليس بمستقيم؛ مقتدياً لا مبتدياً، ومُتبعاً لا مبتدعاً. ولو وقف بى مولانا الملك الجليل قبل أواخر الحفاء، وعطف معى إلى أول شرائع الصفاء؛ لكانت عريكتى عليه ألين، وطريقته إلى ارتباط طاعتي وولائى أقصد؛ لكنه أيده الله أقام على ما لا يليق به من مجانبتي ومغالطتي، وبثّ الحبائل لى ودسّ المكاييد إلى، ومتابعته الجواسيس والكتب إلى الأولياء فى عسكري الذين هم أولياؤه، إن أنصف وعدل، ونصحأوه، إن أحسن وأجمل.

وكان الأشبه بمولانا لو كنت الغالط عليه، والباعث لهذه الأسباب إليه، أن يسوسنى سياسة الحكيم، ويستخلصنى استخلاص الكريم؛ إذ كُنا لم تقدمه معشر أهل البيت علينا، ونوّله أزيمة أمورنا؛ إلا لياسو جروحنا، ويجهر كسورنا؛ ويتعهد مسيئنا، ويستميل نافرنا؛ فأما أن يُحاول منا استباحة الحريم، وإركاب المركب العظيم؛ فكيف يجوز أن تُدوم على هذا طاعه، أو تُصلح عليه جماعه؛ أو يُغضى عليه مُغض، أو يُصَفح عنه صافح؟. وكان من أشدّ هذه الحفوة وأفظعها، وأفساها وأغلظها؛ أن عاد رسولى من حضرته خالياً من جواب بما كتبت إليه، وما أعرف له أيده الله فى ذلك عنراً يبسطه، ولاسلك منه السبيل التى تشبهه؛ وبالله جهد القسم ومنهاها، وأجلّها وأوفاها؛ لقد سار مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وسرت إلى هذا الموضع، واعتقادنا لا يجاوز حفظ الحدود والأطراف، وحياطة النهايات

والأكناف ؛ والأغلب علينا أنّ مولانا الملك - أدام الله تأييده - لا يتجاوز معنى المعاتبة اللطيفة ، والمحاطبة الجميلة ؛ والاستدعاء متى لما يسوغ له أن يطلبه ولى أن أبدله ، من تعفية السالف ، وإصلاح المستأنف ، وتوفية للحق في رتبة لا أضنُّ بها عليه ، ولا أستكثر التزول عنها له ؛ وتقرير أصل بيننا يكون أيد الله به معقلا لى وموثلا ، وأكون نائباً له ومظفراً - إلى أن بدأ الأصحاب بالغيث في هذه البلاد ؛ وألحوا عليها بالفارات ، وأعتمدوها بالنكيات ؛ وكان هذا كالرشاش الذى يؤذن بالانسكاب ، والوميض الذى يوعد بالأضطرار - وأوجبت قبل المقابلة عليه والشروع فى مشله فى حقّ مولانا الملك الجليل ، الذى لا أدع أن أحفظ منه مادعاني إلى إضاعته ، وأتمسك بما أضطررتى إلى مفارقتة ؛ أن أقدم أمام الالتقاء على الحرب التى هى سجال كما يعلم ، وإبلاغ نفسى عذرها وإعطاء المقادة منها ؛ داعيا له إلى طاعة الخالق والإمام ، وصلة الثم والأرحام ؛ وحقن الدماء والمهج ، وتسكين الدهماء والرهج ؛ وثنى العنان عن الموزد الذى لا يذرى وارده كيف يصدر عنه ، ولا يثق بالسلامة منه ؛ وتعريفى ما يريد منى لأتبعه ما لم يكن نالما لى ، وعائدا بالوهن على ؛ والله الشاهد على شهادة قد علم إخلاصى فيها ، وسماحة ضميرى بها ؛ وأننى أكره أن أنال منه ، كما أكره أن ينال منى ؛ وأنال من أن أظهر عليه ، كما أنال من أن يظهر على ، وأحب أن يرجع عنى وأرجع عنه ؛ وقد ألتقت قلوبنا ، وتآلف على الجليل شملنا ؛ وطرفت أعين الأعداى عنا ، وأنحسمت مطامعهم فينا ؛ فإن فعل ذلك فحقيق به الفضل ، وهو لعمر الله له أهل ؛ ولا عذره فى أن لا يفعله ، وقد وسع الله ماله ، ووفر حاله ، وأغناه عما يلتمسه الصعلوك ، ويخطر له السبروت ؛ وجعله فى جانب الغنى والثروة ، والحزم والحيطه ؛ وإن أبى فكناى هذا حجة عند الله الذى نستنزله منه المعونه وعند الناس الذين تلمس منهم العصية ؛ وقد أنفذت به إسفندار بن خسرويه وإبراهيم

أَبْنِ كَالِي ، وَهَمَا نِقَتَايَ وَأَمِينَايَ ، لِيُؤَدِّيَاهُ وَيُسَافِهَاهُ عَنِّي بِمَثَلِ مَنْتَضَمَنِهِ وَنَجْوَاهُ ؛
وَاللَّهِ يُعِيدُنَا فِي مَوْلَانَا الْمَلِكِ الْجَلِيلِ مَنْ أَنْ يَخْتَارَ إِلَّا أَوْلَى الْأَمْرَيْنِ وَأَلْيَقَهُمَا بِدِينِهِ
وَمُرُوءَتِهِ ، وَهُوَ أَوْلَى مَا يَرَاهُ فِي الْأَمْرِ بِتَعْجِيلِ الْإِجَابَةِ بِمَا أَعْمَلُ عَلَيْهِ ، وَأَتَمِّهِ
بِالتَّوْبِيخِ إِلَيْهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثالث

(أن تكون المكاتبه عن دُونِ الْمَلِكِ إِلَيْهِ)

ورسمهم فيه أن يُتَدَأَ بلفظ كِتَابِي ، والدعاءِ لِلْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ بِطُولِ الْبَقَاءِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ،
وَيُخَاطَبُ فِي أَوَّلِ الْكِتَابِ بِمَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، وَفِي أَثْنَاءِ الْكِتَابِ بِالسَّيِّدِ
وَالْمَلِكِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ وَيُعْبَرُ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ بِلفظِ الْإِفْرَادِ :

كَمَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي عَنْ الْأَمِيرِ نَصْرُخُوذَه فَيُرْوِزُ بِنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ إِلَى
أَبْنِ عَمِّهِ شَرَفِ الدَّوْلَةِ يَذْكُرُهُ حَالَهُ مَعَ أَخِيهِ صَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ .

كِتَابِي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ ، شَرَفِ الدَّوْلَةِ ، وَزَيْنِ الْمِلَّةِ ،
وَالسَّلَامَةِ لِي شَامِلَةٌ بِمَا مَدَّهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ مِنْ ظِلِّهِ الظَّلِيلِ ، وَرَأْيِهِ الْحَسَنِ الْجَمِيلِ ؛
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَقَدْ تَأَدَّى إِلَى مَوْلَانَا الْمَلِكِ السَّيِّدِ مِنْ أَخْبَارِي مَا أَسْتَعْفِي بِهِ
عَنْ تَطْوِيلِ الْمَفْصَلِ ، وَأُكْتَفِي بِهِ عَنْ إِجْمَالِ الْمُجْمَلِ ؛ وَذَلِكَ أَنْ أَسْفَارَ بِنِ كَرْدُويِهِ
وَعَبْدِ الْعَزِيزِ بِنِ بَرَسَفِ الْكَافِرِينَ لِنِعْمَاءِ اللَّهِ وَنِعْمَةِ الْمَلِكِ السَّيِّدِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ أَبِينَا
رَحِمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ قَبْلَنَا ، الْغَامِطِينَ لِمَا تَطَاهَرَ عَلَيْهِمَا مِنْ إِحْسَانِنَا وَإِفْضَالِنَا ؛ هَجَمًا عَلَيْنَا
يُحْدِثُ تَطَافُرًا عَلَيَّهَا ، وَشُبُهَةً جَدْبَانِي إِلَيْهَا ؛ وَأَبْرَمًا كَذِبًا مِنَ الْقَوْلِ لَمْ أَظْهِنَمَا يُقْدِمَانِ

على مثله ، ولا يتفوهان باطلا به ؛ فأصغيت إليهما إصغاءً واثقٍ بهما لا المنخدع لهما ؛
فلما أنزلاني على حكمهما ، وأوثقاني بحيث لا أستطيع مخالفتها ؛ ظهرت الحيلة ،
ووضحت الغيلة ؛ وفاتني الأختبار ، وغلبني المقدار ؛ فخرى ما كانت عاقبته خذلان الله
أيأهما ، وإزاله بأسه وبقمته عليهما ؛ وخلاصي بسلامة الصدر ، واتضح القدر ،
من حباثلهما المنصوبه ، وأشراكهما المبثوثه . ولما حصلت في كنف الملك السيد
صمصام الدولة أقالني العثره ، وقيل مني المَعْدِرَه ؛ وأحلني من دراه وجماه بحيث
لم أعدم عاده ، ولا أنقطعت عني مادّه ؛ وكانت الحال تُوجب مقامي فيها إلى أن
تتغى آثارُ الفتنة التي أثارها ذانكا الخبيثان الحانيان .

ثم ورد فلان في الرسالة ، وتمم الله على يده عقد الصلح والمسالمة ؛ فأخرجت
عن الاحتجاب إلى الظهور ، وعن الاحتجار إلى البروز ؛ وأزلت من الدار المعمورة
في جانب يصل إلى منه سبب وصوله على العموم دون الخصوص ، وعاملني الملك
السيد صمصام الدولة بما يليق بفضله متبعا في ذلك مقاطعة السيف بينه وبينى ؛
وطاعة مولانا الملك السيد الأجل شرف الدولة في أمرى ، وجدد عندي من الإنعام
والتوسعة والإيثار والتكرمة آخر ما شفّع تلك الشفقة أولا ؛ ولقيني فلان دَفَعَات ،
وشافهني مرّات ؛ وتمجّل عنى إلى مولانا الملك موالاتي الشكر كثيرا ، واعتدادا
طويلا عريضا ؛ ودعاء الله يسمع مرفوعه ، ويوجب مسموعه ؛ بمنّه وقدرته ؛
وحوله وقوته .

والآن فإذا قد جمع الله الكلمه ، ووكد الألفة وحرس النعمه ؛ وحصن الدولة
وأخرج عنها من كان يسب الفتنة ، ويسدى وينير في الفرقه ؛ فإني واثق بالله جل
وعز وبما تترقى الحال إليه في غاية محبوبى ، ونهاية مطلوبى ؛ وأفاصى ماتيلعه

أُمْنِيَّ ، وتَسْمُو إِلَيْهِ هَمِّي ، وتَقْتَضِيهِ أُخُوَّتِي وَعِصْمَتِي ؛ وَلِلَّهِ الْمَشِيئَةُ ، وَمِنْهُ الْمَعُونَةُ ؛
فَإِنْ رَأَى مَوْلَانَا الْمَلِكُ السَّيِّدُ أَنْ يَسْكُنَ إِلَى سَكُونِي ، وَيَطْمَئِنَّ إِلَى طَمَأْنِينِي ،
وَيُجْرِيَ إِلَيَّ غَايَةَ فَضْلِهِ وَطَوْلَهُ فِي الْأَمْرِ الَّذِي أَحْسَنَ فِيهِ وَأَجْمَلَ : لِيَشْمَلَنَا إِنْعَامُهُ ،
وَيَتَظَاهَرَ عَلَيْنَا أَمْتِنَانُهُ ؛ وَأَسْتَوْفِي بَقِيَّةَ حَظِّي مِنْ ثَمَرَةِ ذَلِكَ وَعَائِدَتِهِ ، وَجَدْوَاهِ
وَفَائِدَتِهِ ؛ وَيَأْمُرَ بِتَشْرِيفِي بِكَتَابِهِ ، وَتَأْهِيلِي بِجَلِيلِ خِطَابِهِ ؛ وَتَصْرِيْفِي بَيْنَ أَمْرِهِ
وَنَهْيِهِ ، فَعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

تم الجزء السادس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السابع

وأوله الطرف العاشر

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

”استدراك لمافات“

نُبّه في صفحة (٥٤) من الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى هذا على بعض كلمات مطموسة بالخبر لم تهتد إليها عند طبع ذلك الجزء . أما وقد عُثِرَ الآن في بعض المكتبات الأهلية على أصل ذلك الجزء فرؤى تكميلاً للقائدة إثبات المطموس هنا ليصلحه القارئ في مواضع إن أراد . وتسهيلاً لمعرفة مواضع البياض من أول نظرة قد نقلت الصفحة بتمامها وجعل ما كان ساقطاً لطمسه بين قوسين هكذا () . وهي :

يجهز بریدی بطلب هذه الأقلام من ولاة الوجه القبلي ، ويؤتى بها فتحفظ عند كاتب السر ويبرئ منها ما يحتاج إليه (في كتابة السلطان و) يوضع في دواته بقدر الحاجة . قال في ”منهاج الإصابة“ : ولا بد فيه (من ثلاثة شقوق أو أكثر) بقدر ما يحتاج إليه في حجّ القلم الحبر في القرطاس .

وأعلم أن للكاتب فيه طريقتين — إحداهما طريقة الثلث ، فتجري الحال فيه على الميل إلى (التقوير — و) الثانية طريقة المحقق ، فتجري الحال فيه على الميل إلى (البسط دون التقوير وسأتي إيضاح الطر) يقتين وكيفية (تشكيل حروفهما فيما بعد إن شاء الله تعالى) .

وقد ذكر السمرريّ في أرجوزته اختصاص قلم الطومار بأمور : أحدها أن مستداراته كلها تكون بوجه القلم ، والمدات بسنّه ، والتعاريق بوجهه مفتلاً فيها على اليمين — الثاني أن الميم منه تكون مفتوحة مدوّرة) والفاء والقاف فيه (أوساطها محدّدة وجنباها) مدوّرة — الثالث (أن يكون البياض بين الأحرف كمثلته بين السطور) — الرابع أن يكون (الفضل من جانبي القرطاس متساوياً في المقدار — الخامس أن لا يكون) فيه صاد مدوّرة (ولا) كاف مشكولة .

وذكر المولى زين الدين شعبان الآثاريّ في ألفيته (أنه يدخل) فيه الترويس في الألف ، والباء ، والجيم ، والدال (والراء ، والطاء ، والكاف المجموعة) واللام والنون في الأفراد والتركيب عند الابتداء وأنه (لا يجوز فيه) الطمس في شيء من عُقده كالصا، والطاء، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة بحال، والمعنى فيه أن الطمس لا يليق بالخط الجليل .

فهرس

الجزء السادس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- المهييع الثانى - فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كتاب الزمان
 وبيان معانيها؛ وهى نوعان ٥
- النوع الأول - الألقاب الإسلامية؛ وهى صنفان ٥
- الصنف الأول - المذكورة؛ وهى ضربان ٥
- الضرب الأول - الألقاب المفردة المختصة فى اصطلاح الكتاب باسم
 الألقاب ٥
- » الثانى - المركبة المعبر عنها فى اصطلاح الكتاب بالنعوت ... ٣٥
- الصنف الثانى - (وكتب خطأ الضرب الثانى) من الألقاب المفردة المؤنثة ٧٥
- » » - (لعل الصواب النوع الثانى كما نبه عليه) من الألقاب المفترعة
 على الأصول ألقاب من يكتب إليه من أهل
 الكفر ... وهى على ضربين ٧٨
- الضرب الأول - الألقاب المذكورة؛ وهى نمطان ٧٩
- النمط الأول - المفردة ٧٩
- » الثانى - الألقاب المركبة ٨٣
- الضرب الثانى - من ألقاب أهل الكفر الألقاب المؤنثة ٩٥
- الجملة السابعة - فى تفاوت الألقاب فى المراتب؛ وهى قسمان ... ٩٧
- القسم الأول - مايقع التفاوت فيه فى الصعود والهبوط؛ وهو نوعان ٩٧
- النوع الأول - « » « بحسب القلة والكثرة ٩٧
- » الثانى - مايقع فيه التفاوت فى العلو والهبوط بحسب مايقضيه
 جوهر اللفظ أو ماوقع الاصطلاح عليه؛ وهو صنفان ٩٨

صفحة

- الصف الأول — الألقاب المفردة؛ وهى على أربعة أنماط ... ٩٨
- النمط الأول — التوايح ... ٩٨
- » الثانى — ما يقع التفاوت فيه بحسب لحوق ياء النسب
وتجزده منها ... ٩٩
- » الثالث — ما يقع التفاوت فيه بصيغة مبالغة غير ياء النسب ... ١٠١
- » الرابع — فيه التفاوت بحسب ما فى ذلك اللقب من
اقتضاء التشريف لعلو متعلقه ورفعته ... ١٠١
- الصف الثانى — الألقاب المركبة؛ وهى على ضربين ... ١٠٢
- الضرب الأول — ما يترتب بعضه على بعض لقباً بعد لقب؛ وله اعتباران
الاعتبار الأول — أن يشترك فى رعاية الترتيب أرباب السيوف والأقلام
وغيرهم؛ وهو على ثلاثة أنماط (صوابه أربعة) ... ١٠٢
- النمط الأول — ما يضاف إلى الإسلام ... ١٠٢
- » الثانى — إلى الأمراء والوزراء ونحوهم ... ١٠٥
- » الثالث — إلى الملوك والسلطين ... ١٠٦
- » الرابع — لأمير المؤمنين ... ١٠٨
- الاعتبار الثانى — أن يختص الترتيب فى الألقاب بنوع من المكتوب
له؛ وهو أربعة أنماط ... ١٠٩
- النمط الأول — ما يختص بأرباب السيوف ... ١٠٩
- » الثانى — بالوزراء ومن فى معناهم ... ١١١
- » الثالث — بالقضاة والعلماء ... ١١١
- » الرابع — بالصلحاء ... ١١٢

صفحة

- القسم الثانى - مما تفاوت فيه مراتب الألقاب ما يقع التفاوت فيه بالتقديم والتأخير؛ وهو نوعان ١١٥
- النوع الأول - الألقاب المفردة؛ وهى على ستة أنماط ١١٥
- النمط الأول - « التى تلى الألقاب الأصول ١١٥
- « الثانى - ما يلى العالى أو السامى من الألقاب ١١٦
- « الثالث - ما يلى لقب الوظيفة ١١٧
- « الرابع - ما يقع قبل لقب التعريف ١١٧
- « الخامس - « فصلا بين الألقاب المفردة والمركبة ١١٨
- « السادس - ما ليس له موضع مخصوص من الألقاب المفردة ١١٨
- النوع الثانى - مما تفاوت فيه مراتب الألقاب بالتقديم والتأخير
- الألقاب المركبة؛ وهى على ثلاثة أنماط ١١٩
- النمط الأول - ما يلى لقب التعريف ١١٩
- « الثانى - ما يقع فى آخر الألقاب المركبة ١١٩
- « الثالث - ما بين أول الألقاب المركبة وبين آخرها ١٢٠
- الجملة الثامنة - فى بيان محل اللقب المضاف إلى الملك ولقب التعريف الخاص به ١٢٠
- « التاسعة - فى ترتيب جملة الألقاب الفروع على الألقاب الأصول
- على قدر طبقاتها؛ وهى قسمان ١٢١

صفحة

- القسم الأول - الألقاب الإسلامية ١٢١
- الضرب الأول - « المتعلقة بالخلافة وما يلتحق بها ؛ وهي
ثلاثة أنواع ١٢٢
- النوع الأول - ألقاب الخلفاء ١٢٢
- « الثاني - « ولاية العهد بالخلافة ١٢٣
- « الثالث - « إمام الزيدية باليمن ١٢٣
- الضرب الثاني - الألقاب المملوكية ؛ وهي نوعان ١٢٣
- النوع الأول - « التي أصطلح عليها للسلطان بالديار المصرية ١٢٣
« الثاني - « التي يكتب بها عن السلطان لغيره من الملوكة ؛
وهي على ثلاثة أصناف ١٢٥
- الصف الأول - ألقاب ولاية العهد بالسلطنة ١٢٥
- « الثاني - « الملوك المستقلين بصغار البلدان ١٢٥
- « الثالث - « المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب
السلطانية ؛ وهي نمطان ١٢٦
- النمط الأول - ما يصدر بالألقاب المذكورة ١٢٦
- « الثاني - « المؤنثة ١٢٩
- الضرب الثالث - من الألقاب الإسلامية، الألقاب العامة لسائر
الطوائف ؛ وهي ثمانية أنواع ١٣٠
- النوع الأول - ألقاب أرباب السيوف من أهل المملكة وغيرهم ١٣٠
- « الثاني - من الألقاب الإسلامية الألقاب الديوانية ١٤٦

- صفحة
- النوع الثالث - من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الوظائف الدينية ١٥٤
- » الرابع - من الألقاب الإسلامية ألقاب مشايخ الصوفية وأهل الصلاح ١٦١
- » الخامس - ألقاب التجار الخواجكية ١٦٥
- » السادس - من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية كرياضة الطب ١٦٨
- » السابع - من الألقاب الإسلامية ألقاب الحاشية السلطانية ... ١٧٠
- » الثامن - « « « النساء ١٧١
- القسم الثاني - « المرتبة « أهل الكفر؛ وهي على ثلاثة أضرب ١٧٣
- الضرب الأول - ألقاب متدينتهم؛ وهي نوعان ١٧٣
- النوع الأول - « بطارقة النصارى' ١٧٣
- » الثاني - « رؤساء اليهود ١٧٤
- الضرب الثاني - ألقاب ملوكهم وتختص بالنصارى؛ وهي نمطان ... ١٧٤
- اللفظ الأول - الألقاب المذكورة ١٧٤
- » الثاني - « المؤنثة ١٧٩
- الضرب الثالث - ألقاب تواب ملوكهم وكخالصتهم؛ وهي على نوعين ١٨٠
- النوع الأول - « التواب ١٨٠
- » الثاني - « الكخالصة ١٨٠

صفحة

- الجملة العاشرة — في ذكر ألقاب تقع على أشياء متفرقة قد جرت
 في عرف الكتاب؛ وهي على ضربين ١٨٣
- الضرب الأول — فيما يجرى من ذلك مجرى التفاؤل، ويختلف باختلاف
 الأحوال والوقائع ويتنوع إلى أنواع... .. ١٨٣
- » الثاني — ما يجرى من ذلك مجرى التشریف، ويختلف أيضا
 باختلاف الأحوال، ويتنوع أنواعا ١٨٦
- الباب الثاني — من المقالة الثالثة في مقادير قطع الورق وما يناسب
 كل مقدار منها من الأقلام؛ وفيه فصلان ١٨٩
- الفصل الأول — في مقادير قطع الورق؛ وفيه طرفان ١٨٩
- الطرف الأول — « » « في الزمن القديم ١٨٩
- » الثاني — في بيان مقادير قطع الورق المستعمل في زماننا
 (زمن المؤلف)؛ وفيه ثلاث جمل ١٩٠
- الجملة الأولى — في مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب
 السلطانية بالديار المصرية ١٩٠
- » الثانية — في مقادير الورق المستعملة بدواوين الإنشاء
 بالممالك الشامية ١٩٢
- » الثالثة — في مقادير قطع الورق الذي تجرى فيه مكاتبات
 أعيان الدولة ١٩٣
- الفصل الثاني — من الباب الثاني من المقالة الثالثة في بيان ما يناسب
 كل مقدار من مقادير قطع الورق المتقدمة الذكر
 من الأقلام الخ؛ وفيه طرفان ١٩٤

صفحة

- الطرف الأول — فيما يناسب كل مقدار منها من الأقلام ١٩٤
- » الثاني — في مقادير البياض الواقع في أول الدرج وحاشيته وبعده
- ما بين السطور في الكتابة ١٩٥
- الباب الثالث — من المقالة الثالثة في بيان المستندات وكتابة الملخصات
- وكيفية التعيين؛ وفيه فصلان ١٩٧
- الفصل الأول — في بيان المستندات : وهي التوقيع على القصص
- وما يجري مجراها؛ وهو على ضربين ١٩٧
- الضرب الأول — السلطانيات؛ وهي صنفان ١٩٧
- الصنف الأول — ما يصدر عن متولى ديوان الإنشاء ١٩٧
- » الثاني — ما يصدر عن غير صاحب ديوان الإنشاء ١٩٩
- الضرب الثاني — ما يتعلق بالكتب في المظالم؛ والنظر فيه من وجهين
- ٢٠٢
- الوجه الأول — فيما يتعلق بالقصص ٢٠٢
- » الثاني — فيما يتعلق بالنظر في المظالم وما يكتب على القصص؛
- وهو ستة أنواع ٢٠٤
- النوع الأول — ما يرفع إلى السلطان في آحاد الأيام ٢٠٦
- » الثاني — ما يرفع لصاحب ديوان الإنشاء ٢٠٦
- » الثالث — ما يرفع من القصص بدار العدل عند جلوس السلطان
- للحكم في المواكب ٢٠٧
- » الرابع — ما يرفع منها للنائب الكافل إذا كان ثم نائب ٢٠٨
- » الخامس — ما يرفع من القصص إلى الأتابك إذا كان في الدولة
- أتابك عسكر وهو الأمير الكبير ٢٠٨
- » السادس — ما يرفع منها للدوادار ٢٠٩

صفحة

- الفصل الثانی - فی التعمین وکيفية كتابة صاحب ديوان الإنشاء على
 الرقاع والقصص ٢١٠
- الطرف الثاني - في كتابة الملخصات والإجابة عنها ٢١٢
- الباب الرابع - من المقالة الثالثة في الفواتح والخواتم واللواحق ؛
 وفيه فصلان ٢١٧
- الفصل الأول - في الفواتح ؛ وفيه ستة أطراف ٢١٧
- الطرف الأول - في البسملة ٢١٧
- » الثاني - في الحمدلة ٢٢٤
- » الثالث - في التشهد في الخطب ٢٢٦
- » الرابع - في الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم
 وعلى آله وصحبه في أوائل الكتب ٢٢٧
- » الخامس - في السلام في أول الكتب ٢٢٩
- » السادس - في أما بعد ٢٣١
- الفصل الثاني - في الخواتم واللواحق ؛ وفيه سبعة أطراف ٢٣٢
- الطرف الأول - في الاستثناء بالمشيئة بأن يكتب إن شاء الله تعالى ... ٢٣٢
- » الثاني - في التاريخ ٢٣٤
- » الثالث - في المستندات ٢٦٢
- » الرابع - في الحمدلة في آخر الكتاب ٢٦٥
- » الخامس - في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الكتاب
 وما يلحق بذلك ٢٦٧

صفحة	
٢٦٩ الطرف السادس - في الحسبة في آخر الكتاب
٢٧١ السابع - في اللواحق

المقالة الرابعة

٢٧٤ في المكاتبات ؛ وفيها بابان
٢٧٤ الباب الأول - في أمور كلية في المكاتبات ؛ وفيه فصلان
٢٧٤ الفصل الأول - في مقدمات المكاتبات ؛ وفيه ثلاثة أطراف
٢٧٤ الطرف الأول - في أصول يعتمدها الكتاب في المكاتبات
٣١٥ الثاني - في بيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز
٣٢٣ الثالث - في أمور تختص بالأجوبة
	الفصل الثاني - من الباب الأول من المقالة الرابعة ، في ذكر أصول
٣٢٧ المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ؛ وفيه طرفان
٣٢٧ الطرف الأول - في ذكر أصولها وترتيبها
٣٤٥ الثاني - في ذكر لواحق المكاتبات ولوازمها
	الباب الثاني - من المقالة الرابعة ، في مصطلحات المكاتبات الدائرة
	بين كتاب أهل الشرق والغرب والديار المصرية في كل
	زمن من صدر الإسلام إلى زمننا (زمن المؤلف) ؛
٣٦٥ وفيه ستة فصول
	الفصل الأول - في الكتب الصادرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛
٣٦٥ وفيه ثلاثة أطراف
	الطرف الأول - في ذكر ترتيب كتبه صلى الله عليه وسلم في الرسائل
٣٦٥ على سبيل الإجمال

صفحة

الطرف الثاني - في كتبه صلى الله عليه وسلم إلى أهل الإسلام ... ٣٦٧

» الثالث - « « « « الكفر للدعاية

إلى الإسلام ... ٣٧٦

الفصل الثاني - من الباب الثاني من المقالة الرابعة في الكتب الصادرة

عن الخلفاء ؛ رهي على قسمين ... ٣٨٣

القسم الأول - المكاتبات إلى أهل الإسلام ؛ وفيه تسعة [عشرة]

أطراف ... ٣٨٣

الطرف الأول ... في الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة

رضي الله عنهم ... ٣٨٣

» الثاني - في الكتب الصادرة عن خلفاء بني أمية ... ٣٨٩

» الثالث - « « « « بنى العباس ببغداد ،

وولاية العهد بالخلافة ؛ وفيه ثلاث جمل ... ٣٩٢

الجملة الأولى - في بيان ترتيب كتبهم في الرسائل على سبيل الإجمال ٣٩٢

» الثانية - في الكتب العامة ... ٣٩٥

» الثالثة - في الكتب الخاصة مما يصدر عن الخلفاء ... ٤١٥

الطرف الرابع - في الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس في الديار

المصرية بعد مصير الخلافة إليها ... ٤٢١

» الخامس - في الكتب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار

المصرية ... ٤٣٢

» السادس - في الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أمية بالأندلس ٤٤٣

- صفحة
- الطرف السابع — في الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ... ٤٤٣
- » الثامن — في الأجوبة ... ٤٤٧
- » التاسع — في الكتب الصادرة عن ولاة العهد بالخلافة ... ٤٥٦
- » العاشر — من المكاتبات عن الخلفاء : المكاتبات إلى أهل الكفر ٤٥٧
- الفصل الثالث — من الباب الثاني من المقالة الرابعة في المكاتبات
الصادرة عن الملوك ومن في معناهم مما الجارى عليه
الحال؛ وهو على قسمين ... ٤٦٤
- القسم الأول — المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى أهل الإسلام؛
وفيه أطراف ... ٤٦٤
- الطرف الأول — في مكاتبتهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ... ٤٦٤
- » الثانى — في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء
السرايا إلى الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ... ٤٧٧
- » الثالث — في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء
السرايا أيضا إلى خلفاء بنى أمية ... ٤٧٨
- » الرابع — في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معناهم
إلى خلفاء بنى العباس ... ٤٨٠
- » الخامس — في المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار
المصرية ... ٥٢١
- » السادس — في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معناهم
إلى خلفاء بنى أمية بالأندلس ... ٥٢٤
- » السابع — في المكاتبة الصادرة إلى خلفاء الموحدين بالمغرب ٥٢٦

صفحة

الطرف الثامن — في المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء

السرايا في صدر الإسلام إلى من في معانهم ٥٥٨

» التاسع — في المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن في معانهم

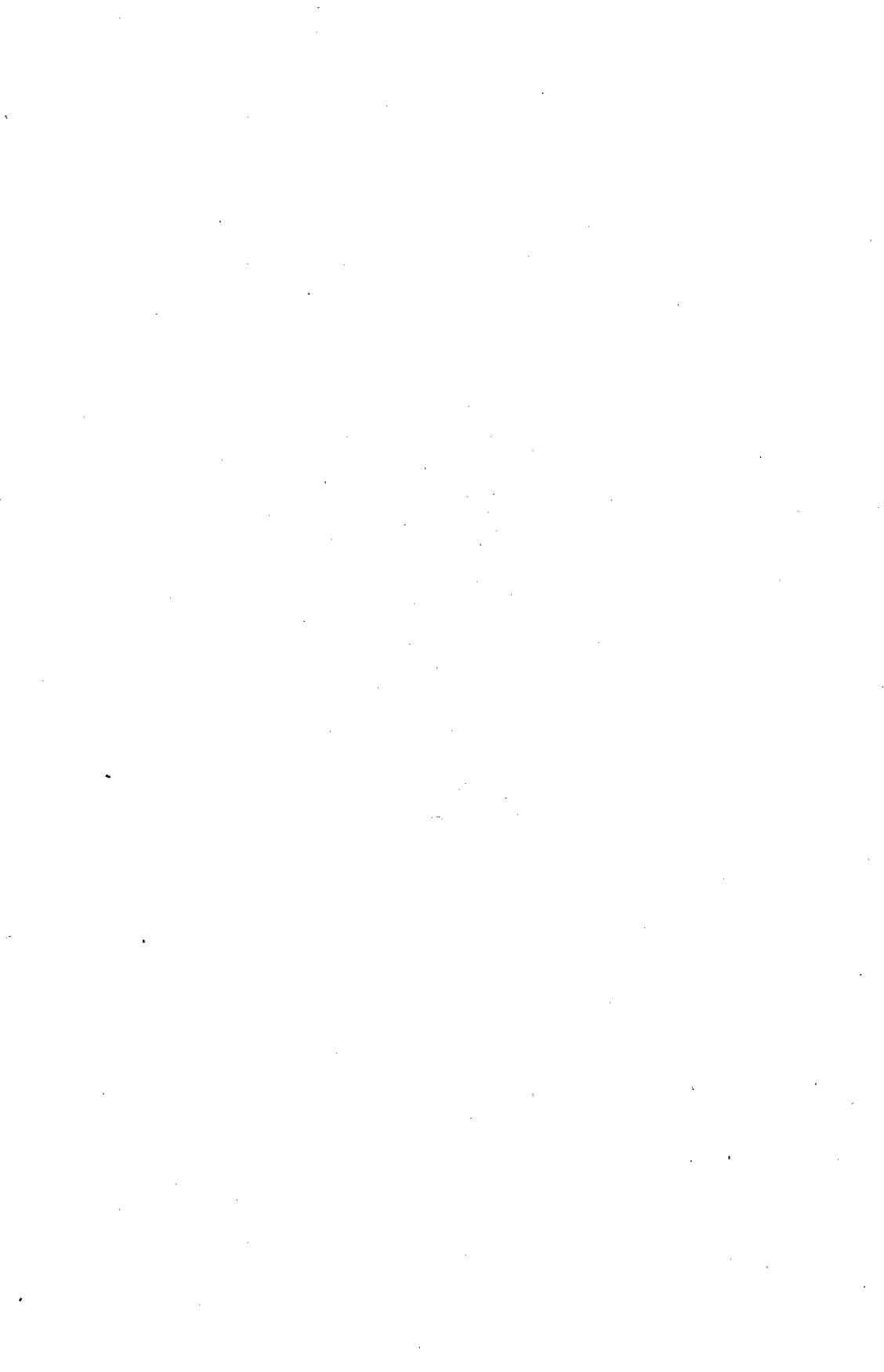
إلى الملوك ومن في معانهم على ما كان عليه مصطلح

أهل المشرق ٥٥٩

(تم فهرس الجزء السادس من كتاب صبح الأعشى)

صِبْحُ الْأَسْبَعِ

الجزء السابع



دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء السابع

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَصَلَّى اللّٰهُ عَلٰی سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ

الطَّرَفُ العَاشِرُ

فِي المَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ مَلُوكِ الدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ
(وَلَهَا حَالَتَانِ)

الحَالَةُ الأُولَى

(مَا كَانَ الأَمْرُ عَلَيْهِ قَبْلَ دَوْلَةِ الخُلَفَاءِ الفَاطِمِيّينَ بِهَا فِي الدَوْلَةِ
الأخشيديّة والطولونيّة وما قبلهما)

والذِي وَقَفْتُ عَلَيْهِ مِنْ رِيسِ المَكَاتِبَةِ عَنْهُمْ أَنْ تُفْتَحَ بِلَفْظِ: «مَنْ فَلَانَ إِلَى فَلَانٍ». .
كَمَا كَتَبَ أَبُو عَبْدِ كَانٍ عَنِ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ إِلَى ابْنِهِ العَبَّاسِ حِينَ عَصَى^(١) [عَلَيْهِ]
بِالإِسْكَانْدَرِيَّةِ، مَنذِرًا لَهُ وَمَوْجِّحًا لَهُ عَلَى فِعْلِهِ، وَهُوَ:

«مَنْ أَحْمَدَ بْنِ طُولُونَ مَوْلَى أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، إِلَى الظَّالِمِ لِنَفْسِهِ، العَاصِي لِرَبِّهِ، المُعْلِمُ
بِذَنْبِهِ، المُفْسِدُ لِكُتُبِهِ، العَادِي لَطَوْرِهِ، الجَاهِلُ لِقُدْرِهِ، النَّاكِسُ عَلَى عَقْبِهِ، المَرْكُوسُ
فِي فِتْنَتِهِ، المَبْخُوسُ [مِنْ] حَظِّ دُنْيَاہِ وَأُخْرِيَتِهِ!»^(١)

سَلَامٌ عَلَى كُلِّ مُنِيبٍ مُسْتَجِيبٍ، تَائِبٍ مِنْ قَرِيبٍ، قَبْلَ الأَخْذِ بِالكَظْمِ، وَحُلُولِ
القَوْتِ وَالنَّدَمِ .

(١) الزيادة من الضوء للؤلّف ص ٤٦٦، ٤٦٧ .

وأحمدُ الله الذي لا إلهَ إلا هو حمدَ معترفٍ له بالبلاءِ الجميل ، والطولِ الجليل ؛
 وأسأله مسألةً مخيصةً في رجائه ، مجتهدٍ في دُعائه ؛ أن يصليَ عليَّ محمدَ المصطفى ،
 وأمينه المرتضى ، ورسوله المجتبي ؛ صلى اللهُ عليه وسلم .

أما بعد ، فإن مثلكَ مثلُ البقرةِ تُشيرُ المديَّةَ بقرنيها ، والنملةُ يكونُ حنْفها في جناحيها ،
 وستعلمُ - هيلتكِ الهَوائلُ ! أيُّها الأحمقُ الجاهلُ ؛ الذي نثيَ عليَّ النوىَ عطْفه ، وأعتر
 بضجاجِ المَوآكبِ خلفه - أيُّ مَورِدَةٍ هَلَكَةٍ بإذنِ الله توردتُ ، إذ عليَّ اللهُ جل وعز
 تمردتُ وشردتُ ، فإنه تبارك وتعالى قد ضَرَبَ لك في كتابه مثلاً : ﴿ قَرِيْبَةٌ كَانَتْ آمِنَةً
 مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ
 وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ .

وإنَّا كُنَّا نُقرِّبُكَ إلينا ، ونَسْبُكُ إلى بُيوتنا ؛ طَمَعًا في إنايتِكَ ، وتأميلاً لفيئتكِ ؛
 فلما طال في النوى - أنهما كُك ، وفي عَمْرَةٍ الجَهْلِ آرتبا كُك ؛ ولم نَرَ الموعظةَ تَلينَ كِيدِكَ ،
 ولا التدكُّيرَ يقيمُ أودَكَ ، لم تُكنْ لهذه النسبةِ أهلاً ، ولا لإضافتِكَ إلينا مَوْضِعًا
 ومَحَلًّا ؛ بل لا تُكنيَ أبى العباسِ إلا تَكَرَّها وطَمَعًا بأن يهبَ اللهُ منك خَلْفًا نقلده اسمك
 ونُكنيَ به دُونَكَ ، ونَعُدُّكَ كَنَتَ نِسْيَا مَنْسِيًّا ، ولم تَكْ شَيْئًا مَقْضِيًّا ؛ فانظُرْ ولا نَظَرَ
 بك إلى عاريِ نِسْبَتِهِ تَقَلَّدتُ ، وتَحَيَّطُ من قِبَلِنَا تَعَرَّضتُ ؛ وأعلمُ أن البلاءَ بإذنِ الله
 قد أَظَلَّكَ ، والمكروهَ إن شاء اللهُ قد أَحاطَ بِكَ ؛ والعساكَرَ بحمدِ اللهِ قد أَنتَكُ كَالسَّيْلِ
 في الليلِ ، تُؤذِنُكَ بحربٍ ويَويْلُ ؛ فإنَّا نُقسِمُ ، وزُجُوجُ أن لا تُجُورَ ونَظْمُ ؛ أن لا نُنْثِي
 عنكَ عَنانًا ، ولا نُؤثِرَ عليَّ شَانِكَ شَانًا ؛ ولا نَتوقَّلُ ذِرْوَةَ جَبَلٍ ، ولا تَلِجَ بطنِ وادٍ ؛
 إلا جعلناكَ بحولِ اللهِ وقُوَّتِهِ فيهما ، وطلبناكَ حيثُ أُمَّتُ منهُما ؛ مُنْفِقِينَ فيكَ كُلَّ
 مالٍ خطيرٍ ، ومستصغِرِينَ بسَيْدِكَ كُلَّ حَظْبٍ جليلٍ ؛ حتى تَسْتَمِرَّ من طَمَعِ العيشِ

(١) لعله "بعباك" والمراد اقتفاء أثره حيث يم .

ما آسحتليت، وتستدفع من البلى ما آستدعيت؛ حين لادافع بحول الله عنك،
ولا مزحرج لنا عن ساحتك؛ وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت، وتود أنك هبئت
ولم تكن بالمعصية عجلت، ولا رأى من أضلك من غواتك قبليت؛ ^(١) فحينئذ يتفرى
لك الليل عن صبحه، ويسير لك الحق عن محضه؛ فننظر بعينين لا غشاوة عليهما،
وتسمع بأذنين لا وقرف فيهما؛ وتعلم أنك كنت متمسكا بجبال غرور، متماديا
في مقابح أمور؛ من عقوق لا ينأ طالبه، وبغى لا ينجو هاربه؛ وغدر لا يتعش
صربه، وكفران لا يودي قتيله؛ وتقف على سوء رويتك، وعظم جريرتك؛ في نركك
قبول الأمان إذ هو لك مبدول، وأنت عليه محمول؛ وإذ السيف عنك مغمود،
وباب التوبة إليك مفتوح؛ وتتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه
مسرعا، وآتقت إليه متصحا.

وإن مما زاد في ذنوبك عندي ماورد به كتابك على بعد نفوذى على الفسطاط من
التمويهات والأعليل، والعدايات بالأباطيل؛ من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت
أنه فسد على، حتى ملت إلى الإسكندرية، فأقمت بها طول هذه المدّة. وآستظهارا
عليك بالهجة؛ وقطعا لمن عسى أن يتعلّق به معذرة علم بأن الأناة غير صادّة، ولا أنه
خالجنى شك ولا عارضنى ريب فى أنك إنما أردت التزوح والاحتيال للهرب، والتزوع
إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إيّاها يوديك، ولعل مصيرك إليها يكفينيك؛
ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعا إلا تلوتك،
ولا تاتى بلدا إلا قفوتك؛ ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تحيك إلا آستعنت بالله عز وجل
فى جدّ جبلها، وفصم عروتها؛ فإن أحدا لا يؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين

(١) أى ينشق يقال، فراه فافقرى وتفقرى انظر المختار.

من دينٍ أو دُنْيَا . فَمَا الدِّينَ فَانْتَ خَارِجٌ مِنْ جَمَلَتِهِ لِمَقَامِكَ عَلَى العُقُوقِ ، وَمُخَالَفَةِ رَبِّكَ وَإِسْخَاطِهِ . وَأَمَّا الدُّنْيَا فَمَا أَرَاهُ بَقِيَ مَعَكَ مِنَ الحَطَامِ الذى سَرَقْتَهُ وَحَمَلْتَ نَفْسَكَ عَلَى الإِيثَارِ بِهِ ، مَا يَتَّبِعُكَ لَكَ مَكَاتِرُنَا بِمِثْلِهِ ، مَعَ مَا وَهَبَ اللهُ لَنَا مِنْ جَزِيلِ النِّعْمَةِ الَّتِي نَسْتُوْدِعُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِيَّاهَا ، وَنَرْغَبُ إِلَيْهِ فِي أَنْعَامِهَا ، إِلَى مَا أَنْتَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ مِنَ البَغْيِ الذى هُوَ صَارِعُكَ ، وَالْعُقُوقِ الذى هُوَ طَالِبُكَ .

وَأَمَّا مَا مَنَيْتَنَاهُ مِنْ مَصِيرِكَ إِلَيْنَا فِي حُشُودِكَ وَجُمُوعِكَ ، وَمَنْ دَخَلَ فِي طَاعَتِكَ ؛ لِإِصْلَاحِ عَمَلِنَا ، وَمُكَالِفَةِ أَعْدَائِنَا ؛ بِأَمْرٍ أَظْهَرُوا فِيهِ الشَّمَاتَةَ بِنَا ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِسَبِّكَ فَاصْلِحْ أَيُّهَا الصَّبِيُّ الأَحْرَقُ أَمْرَ نَفْسِكَ قَبْلَ إِصْلَاحِكَ عَمَلِنَا ، وَأَحْزِمْ فِي أَمْرِكَ قَبْلَ اسْتِعْمَالِكَ الحَرْمِ لَنَا ؛ فَمَا أَحْوَجَنَا اللهُ وَلهِ الحَمْدُ إِلَى نُصْرَتِكَ وَمُؤَاوَزَتِكَ ، وَلَا اضْطُرُّرْنَا إِلَى التَّكْثُرِ [بِكَ] عَلَى شِقَاقِكَ وَمَعْصِيَتِكَ : ﴿ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾

وَلَيْتَ شِعْرَى عَلَى مَنْ تُهَوَّلُ بِالْجُنُودِ ، وَتَمْتَحَرُّ بِذِكْرِ الحَيُوشِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِأَنَّ المُسَخَّرُونَ لَكَ ، الْبَاذِلُونَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَدْيَانَهُمْ دُونَكَ ؟ دُونَ رِزْقِ تَرْزُقُهُمْ إِيَّاهُ ، وَلَا عَطَاءِ تُدْرَهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ إِنْ كَانَ لَكَ تَمْيِيزُ ، أَوْ عِنْدَكَ تَحْصِيلُ ؛ كَيْفَ كَانَتْ حَالُكَ فِي الوَقْعَةِ الَّتِي كَانَتْ بِنَاحِيَةِ أَطْرَابُلُسَ ، وَكَيْفَ خَدَّكَ أَوْلِيَاؤُكَ وَالمُرْتَقَةُ مَعَكَ حَتَّى هُرِمْتَ ، فَكَيْفَ تَعْتَرَّبُ مَنْ مَعَكَ مِنَ الجُنُودِ الذى لَا أَسْمَ لَهُمْ مَعَكَ ، وَلَا رِزْقَ يَجْرَى لَهُمْ عَلَى يَدِكَ ؟ فَإِنْ كَانَ يَدْعُوهُمْ إِلَى نُصْرَتِكَ هَيْبَتِكَ وَالمَدَارَاةَ لَكَ وَالخَوْفَ مِنْ سُلْطَانِكَ ، فَإنَّهُمْ لَيَجْذِبُهُمْ أَضْعَافُ ذَلِكَ مِنَّا ، وَوَجُودُهُمْ مِنَ البَسْطِ الكَثِيرِ وَالعَطَاءِ الجَزِيلِ عِنْدَنَا مَا لَا يَجِدُونَهُ عِنْدَكَ ، وَإِنَّهُمْ لِأَحْرَى بِجَدِّكَ ، وَالمِيسَلِ إِلَيْنَا دُونَكَ . وَلَوْ كَانُوا جَمِيعًا مَعَكَ وَمُقِيمِينَ عَلَى نُصْرَتِكَ ، لَرَجَوْنَا أَنْ يَمَكِّنَ اللهُ مِنْكَ وَمِنْهُمْ ، وَيَجْعَلَ دَائِرَةَ السَّوَاءِ عَلَيْكَ وَعَلَيْهِمْ ، وَيُجْرِيَنَا مِنْ عَادَتِهِ فِي النَّصْرِ وَإِعْزَازِ الأَمْرِ عَلَى مَا لَمْ يَزَلْ . يَتَفَضَّلُ

علينا بأمثاله ، ويتطوّل بأشباهه . فما دعاني إلى الإرجاء لك ، والتسهيل من خنّاقك ،
والإطالة من عَنانك ، طوّل هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على احتقار أمرك
وأستصغاره ، وقلة الاحتفال والاعتناء به ؛ وإني أقصرت من عقوبتك على
ما خلقتة بنفسك من الإباق إلى أقاصي بلاد المغرب شريدا عن منزلك وبلدك ،
فريدا من أهلِكَ وولَدِكَ - والآخرا تى علمتُ أن الوحشة دعّتك إلى الانحياز إلى
حيثُ انحزتَ إليه ، فأردتُ التسكين من نِفارك ، والطمأنينة من جأشك ؛ وعمِلتُ
على أنك تَحِنُّ إلينا حينَ الولدَا ، وتُثَوِّقُ إلى قُرْبنا توقانَ ذى الرِّحْمِ والنَّسَبِ ؛ فإنَّ
فى رِفْقنا بك ما يعطُفُك إلينا ، وفى تَأخِيننا إياك ما يرُدُّك علينا ، ولم يَسْمَعْ منا سامع
فى خَلَاء ولا مَلَأ انتقاصًا بك ، ولا غَضًّا منك ، ولا قَدْحًا فىكَ ؛ رِقَّةً عليك ، وأستمتاما
لليدِ عندك ؛ وتأميلا لأن تكونَ الراجِعَ من تلقاءِ نَفْسِكَ ، والموقِّقَ بذلك لِرُشْدِكَ
وحظِّكَ ؛ فأما الآنَ مع اضطرارك إياى إلى ما اضطررتنى إليه من الانزعاج نحوكَ ،
وحَبْسِكَ رُسُلَى النافذينَ بعهدِ كثيرٍ إلى ما قبْلِكَ ؛ وأستعمالِكَ المواربةِ والخِدَاعِ فيما
يجرى عليه تديريك . فما أنت بموضعٍ للصيانة ، ولا أهلٍ للإبقاء والمحافظة ، بل اللعنةُ
عليك حاله ، والدِّمَّةُ منك بريه ، والله طالبُك ومُؤاخذُك بما أستعملتَ من العُقُوقِ
والقطيعه ، والإضاعة لرحمِ الأبوة - فعليك من ولدِ عاقِّ شاقِّ لعنةِ الله ولعنةِ اللاعنين ،
والملائكةِ والناسِ أجمعين ؛ ولا قَبيلَ الله لك صرْفا ولا عدلا ، ولا تركَ لك مُتقلبا
ترجعُ إليه ، وخذلكَ خذلانَ من لا يُؤوبُه له ، وأنكلكَ ولا أمهلك ، ولا حاطك
ولا حَفِظك . فوالله لأستعملنَّ لَعْنَكَ فى دُبُرِ كُلِّ صلاةٍ ، والدعاءِ عليك فى آتاءِ الليلِ
والنهارِ ، والغُدُوِّ والآصالِ ؛ ولأُكتبنَّ إلى مِصرَ ، وأجنادِ الشاماتِ والثغورِ ،
وقنَسرينَ ، والعواصمِ ، والجزيرةِ ، والحجازِ ، ومكَّةَ ، والمدِينَةَ كُتبا تُقرأ على منابرها

فيك ، باللَّعْنِ لك ، والبراءة منك ، والدلالة على عُقُوقِكَ وَقَطِيعَتِكَ ؛ يَتَنَاقَلُهَا آخِرُ عَنِ
أَوَّلِ ، وَيَأْتِيهَا غَائِرٌ عَنِ مَاضٍ ، وَتُحَلَّدُ فِي بَطُونِ الصَّحَائِفِ ، وَتَحْمَلُهَا الرُّكَّانُ ، وَيُحَدِّثُ
بِهَا فِي الْآفَاقِ ، وَتُلْحِقُ بِكَ وَبِأَعْقَابِكَ عَارًا مَا أَطْرَدَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ ، وَآخَتَلَفَ الظَّلَامُ
وَالْأَنْوَارُ .

فحينئذٍ تعلم أيها المخالف أمر أبيه ، القاطع رحمته ، العاصي ربه ؛ أي جنابة على
نفسك جنت ؟ وأي كبيرة آقترفت واجتنت ، وتمتني لو كانت فيك مسكته ،
أو فيك فضل إنسانية ؛ أنك لم تكن وُلِدْتَ ، ولا في الخلق عُرِفْتَ ؛ إلا أن تراجع
من طاعتنا والإسراع إلى ما قبلنا خاضعاً ذليلاً كما يلزمك ، فقيم الاستغفار مقام
اللعنة ، والرقعة مقام الغلظة ؛ والسلام على من سمع الموعدة فوعاها ، وذكر الله
فاتقاه ، إن شاء الله تعالى .



وكما كتب الأخشيدي محمد بن طُفَّحٍ [صاحب الديار المصرية] ^(١) وما معها من البلاد
الشامية ، والأعمال الحجازية ، إلى أرماتوس : ملك الروم ، وقد أرسل أرماتوس إليه كتابا
يذكر من جملته بأنه كاتبه وإن لم تكن عادته أن يكتب إلا الخليفة ، فأمر بكتابة
جوابه فكتب له الكتاب عدة أجوبة ورفعوا نسختها إليه ، فلم يرتض منها إلا ما كتبه
إبراهيم بن عبد الله النجيري وكان عالماً بوجوه الكتابة :

ونسخته على ما ذكره ابن سعيد في كتابه "المغرب في أخبار المغرب" :

من محمد بن طُفَّحٍ مولى أمير المؤمنين ، إلى أرماتوس عظيم الروم ومن يليه .

سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحقون ، فإننا نحمد الله الذي لا إله إلا هو ، ونسأله أن

يصلِّيَ على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد، فقد تُرجم لنا كتابك الوارد مع نُقولاً وإسحاق رسولك ، فوجدناه مفتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نُمي عنا إليك ، وصحَّ من شيننا فيها لديك ، وبما نحن عليه من المعدلة وحسن السيرة في رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر الفداء والتوصل إلى تخلص الأسرى ، إلى [غير] ذلك مما أشتمل عليه وتفهمناه .

فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة فن سيد القول ، الذى يليق بذوى الفضل والنبل ، ونحنُ بجد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ، وإليه راغبون ، وعليه باعثون ، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصون وعاملون . وإياه نسأل التوفيق لمرآشد الأمور وجوامع المصالح بمنه وقدرته .

وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإننا نرغبُ إلى الله جلَّ وعلا الذى تفرَّد بكل هذه الفضيلة ، وهبها لأوليائه ثم أتاهم عليها ، أن يوفِّقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، ويسرنا للاجتهاد فيها ، والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعرة القسوة بها ، ويجعل ما أودع قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته ، وموجبات مرضاته ؛ حتى نكون أهلاً لما وصفتنا به ، وأحقَّ حقاً بما دعوتنا إليه ؛ ومن يستحقُّ الزلفى من الله تعالى ، فإننا فقراءُ إلى رحمته . وحقُّ لمن أنزله الله بحيثُ أنزلنا ، وحمله من جسيم الأمر ما حملنا ؛ وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، أن يتَّهَّل إلى الله تعالى في معونته لذلك وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ .

وأما ما وصفته من ارتفاع محلِّك عن مرتبة من هو دون الخليفة في المكاتبه لما يقتضيه عظم مُلككم ، وأنه المُلْك القديم الموهوب من الله ، الباقى على الدهر ، وأنك إنما خصصتنا بالمكاتبه لما تحققت من حالنا عندك ، فإنَّ ذلك لو كان حقاً

وكانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن منزلة من تكاتبه ، وكان لك في ترك مكاتبنا غم
ورشد ، لكان من الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلّك أن يعمل
بما فيه صلاح رعيته ، ولا يراه وضة ولا تقيصة ولا عيبا ، ولا يقع في معاناة صغيرة
من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السأس الفاضل قد يركب الأخطار ، ويخوض الغمار ،
ويعرض مهنجه ، فيما ينفع رعيته ؛ والذي تجشمته من مكاتبنا إن كان كما وصفته
فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ؛ وجل نفعه وصلاحه وعائدته تحضكم ، لأن
مذهبنا أنتظار إحدى الحسنيين ، فمن كان منّا في أيديكم فهو على بينة من ربه ،
وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسيدله ؛ وإن في الأسارى من يؤثر
مكانه من ضنك الأسروشد البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن متقلبه ، وحميد
عاقبته ؛ ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفنته ، ولم يعده من أن يتلّيه . هذا
إلى أوامر الإنجيل الذي هو إمامكم ، وما توجه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل
إلى استنقاذ أسرائكم ؛ ولولا أن إيضاح القول في الصواب ، أولى بنا من المسامحة
في الجواب ؛ لأضربنا عن ذلك صفحا . إذ رأينا أن نفس السبب الذي من أجله
سما إلى مكتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو عدا عنهم إلى من حل محلنا
في دولتهم ؛ بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتئمسه
من جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله في إجابتهم ، ولا غار على
أحد وإن جل قدره في ردهم ؛ ومن وثق في نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل
السييلين عليه ، وأدناهما إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم . وكذلك كاتب
من حل محلّك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا ؛ فمال كعادته ، كان يتقلد
في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن .

فمنها مُلْكُ مصر الذى أطفى فرعونَ على خَطَرِ أمره، حتى آدَعَى الإلهية وأفتخر على نبيِّ الله موسى بذلك .

ومنها ممالكُ اليمن التى كانت للتبابعة، والأقوالُ العَبَاهِلَةُ : ملوكِ حِمْيَرَ، على عَظَمِ شأنهم، وكثرةِ عَدَدِهِمْ .

ومنها أجنَادُ الشَّامِ التى

منها جُنْدُ حِمَاصٍ، وكانت دارُهُم ودارُ هِرَقْلِ عَظِيمِ الرومِ وَمَنْ قَبْلَهُ من عَظَمَائِهَا .

ومنها جُنْدُ دِمَشْقَ على جَلَالَتِهِ فى القَدِيمِ والحَدِيثِ، وآخِيارِ المُلُوكِ المُتَقَدِّمِينَ لَهُ .

ومنها جُنْدُ الأَرْدُنِّ على جَلَالَةِ قَدْرِهِ، وَأَنَّهُ دارُ المَسِيحِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وغيرِهِ من الأنبياءِ والحواريِّينَ .

ومنها جُنْدُ فِلَسْطِينَ، وهى الأَرْضُ المُقَدَّسَةُ، وبها المُسجِدُ الأَقْصَى، وكِرسِيُّ النصارِيَّةِ، ومَعْتَقَدُ غَيْرِهَا، وَمَحَجُّ النصارِيِّ واليهودِ طُرًّا، ومَقَرُّ داوُدَ وسليمانَ ومَسجِدَهُمَا . وبها مَسجِدُ إِبْرَاهِيمَ وَقَبْرُهُ وقَبْرُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَيُوسُفَ وإِخْوَتِهِ وَأَزْواجِهِم عليهم السلامُ، وبها مَوْلِدُ المَسِيحِ وأُمَّه وَقَبْرُهَا .

هذا إلى ما تَنقَلَدُهُ من أمرِ مَكَّةِ المُخَفُوفَةِ بِالآيَاتِ البَاهِرَةِ، والدَّلالاتِ الظاهِرَةِ؛ فإنا لو لم نَتَقَلَّدْ غَيْرِهَا لكانت بِشَرَفِهَا، وَعِظَمِ قَدْرِهَا، وما حوتُ من الفِضْلِ تُوفَى على كُلِّ مَمْلَكَةٍ، لِأَنَّها مَحَجُّ آدَمَ وَمَحَجُّ إِبْرَاهِيمَ وارثِهِ ومُهَاجِرُهُ، وَمَحَجُّ سائِرِ الأنبياءِ، وَقَبْلَتُنَا وَقَبْلَتُهُم عليهم السلامُ ودارُهُ وَقَبْرُهُ، وَمَنْبِتُ وِلْدَانِهِ، وَمَحَجُّ العَرَبِ على مَرِّ الحَقَبِ، ومَحَلُّ أَشْرافِهَا، وَدَوَى أخطارِهَا، على عَظَمِ شأنِهِمْ، ونِغَامَةِ أَمْرِهِمْ . وهو البَيْتُ

(١) كذا فى "المغرب" أيضا ويظهر أنه مقدم على ما بعده ويكون الضمير فيه عائدا على سيدنا إسماعيل فان مكة كانت داره ومنبته تأمل .

العتيق ، المحترم المحجوج إليه من كل حج عميق ، الذى يعترف بفضلِهِ وقدمه أهل الشرف ، من مَضَى وَمَنْ خَلْفَ ؛ وهو البيت المعمور ، وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بترتبه ، وانها مهبط الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر ، والسهمل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها ، وتتأرجح أقطارها ؛ وكثرة سُكَّانِهَا فى حاضرتها وباديتها ، وعظمتها فى وفودها وشدتها ، وصِدْقُ بأسها وتجدتها ؛ وكبر أحلامها ، وبعُد مَرَامِهَا ، وأنعقاد النصر من عند الله براياتها . وإن الله تعالى أباد خضراء كبرى ، وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها . هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ؛ وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من أعظم كراسيكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والإسكندرية . مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العتاد . وإذا وقَّيت النظر حقه علمت أن الله تعالى قد أصفانا بمجل الممالك التى ينتفع الأنام بها ، وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دُنْيَا وآخِرَةً ، وتحققت أن منزلتنا بما وهب الله لنا من ذلك فوق كل منزلة . والحمد لله ولى كلِّ نعمة .

وسياستنا لهذه الممالك قريبا وبعيدها على عظيمها وسعتها بفضل الله علينا وإحسانه إلينا ومعونته لنا وتوفيقه إيانا كما كتبت إلينا وصحَّ عندك من حُسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات من الأولياء والرعية ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا على نعمه التى تفوت عندنا عدد العادين ، وإحصاء المجتهدين ، ونشر الناشرين ، وقول القائلين ، وشكر الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا ممن تحدت بنعمته عليه شكرا لها ، ونشرا لما منحه الله منها [ومن رضى

اجتهاده في شكرها، ومن أراد الآخرة^(١) وسعى لها سعيها، وكان سعيه مشكورا، إنه حميد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره ، ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة، والقُدرة القاهرة، ثم الفوز الأكبر يوم الدين . لكنك سلكت مسلكا لم يحسن أن نعدل عنه ، وقلت قولاً لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإننا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكائرتك، ولا آعتمدنا تعيين فضل لنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومثرتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك في الإحسان إليهم ، جمع من تقدمك من سلفك . ومن كان محموداً في أمره، رغب في محبته، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبك ومماثلتك من آتسعت مملكته، وعظمت دولته، وحسنت سيرته؛ فهذه ممالك عظيمة ، واسعة جمّة ؛ وهي أجل الممالك التي ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف . فإن الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذي جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصوصين بذلك إلى مالنا بقدينا وحديثنا وموقعنا . والحمد لله رب العالمين الذي جمع لنا ذلك بمنه وإحسانه، ومنه نرجو حسن السعي فيما يرضيه بلفظه . ولم ينطو عنك أمرنا فيما آعتمدناه ،

وإن [كنت] تجرى في المكاتبه على رسم من تقدمك فإنك لو رجعت إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحلّ محلنا ، ولا أغنى

(١) الزيادة من "المغرب في أخبار المغرب" .

(٢) في المغرب "لم يجوز لنا أن نعدل الخ" .

غَاءَنَا ، ولا سَأَسَ في الأمور سياستَنَا ، ولا قَلَدَهُ مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قَلَدْنَا ، ولا فَوْضَ إليه ما فَوْضَ إلينا ، وقد كُوتِبَ أبو الجَيْشِ نَحَارُويه بن أحمد ابن طُولون ، وآخر من كُوتِبَ تِكِينِ مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مِصْرَ وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخرا على نِعْمِهِ التي يفوت عندنا عددها عدَّ العاديين ، ونُشِرَ الناشرين . ولم نرد بما ذكرناه المفارقة ، ولكننا قصدنا بما عددنا من ذلك حالاتٍ : أولها التحدُّثُ بنعمة الله علينا ، ثم الجوابُ عما تضمنه كتابك من ذكر المحلِّ والمترلة في المكتبة ، ولتعلم قدر ما بسطه الله لنا في هذه المسالك ، وعندنا قُوَّةٌ تامةٌ على المكافأة على جميل فعلك بالأسارى ، وشكراً وافٍ لما تُولِيهم وتتوخاه من مسرتهم إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة ، والتوفيق للسداد في الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذي يُجِبُّه ويرضاه ويشيب عليه ، ويرفعُ في الدنيا والآخرة أهله ، بمنه ورحمته .

وأما المُلْكُ الذي ذكرت أنه باقٍ على الدهر لأنه موهوبٌ لكم من الله خاصةً ، فإنَّ الأرضَ لله يُورِثُها مَنْ يَشَاءُ من عباده والعاقبةُ للتقين . وإن المُلْكَ كلُّهُ لله يُؤْتِي المُلْكَ من يَشَاءُ وَيَتَرَعُ المُلْكَ من يَشَاءُ وَيُعِزُّ من يَشَاءُ وَيُنْزِلُ من يَشَاءُ بيده الخير وإليه المَصِيرُ ، وهو على كل شيءٍ قدير . وإن الله عزَّ وجلَّ نسَخَ مُلْكَ الملوكِ وجبريَّةَ الجبارين بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشَفَعَ نبوته بالإمامة وحازها إلى العترة الطاهرة من العنصر الذي منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، والشجرة التي منها عُصْنُهُ ، وجعلها خالدةً فيهم يتوارثها منهم كابرٌ عن كابر ، ويُلقِيها ماضٍ إلى غابر ، حتى تَجَزَّ أمرُ الله ووعده ، وبهر نصره وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمود الدين بالأئمة

المهتدين ، وَقَطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ أُحِيقَ الْحَقُّ وَيُطْلَى الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ .

وإنَّ أَحَقَّ مُلْكٍ أَنْ يَكُونَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، وَأَوْلَاهُ وَأَخْلَقَهُ أَنْ يَكُنْفَهُ اللَّهُ بِجِرَاسَتِهِ وَحِيَاطَتِهِ ، وَيُحَفِّهِ بَعْرَهُ وَأَيْدِهِ ، وَيَجَلِّهَ بِهَاءِ السَّكِينَةِ فِي بَهْجَةِ الْكِرَامَةِ ، وَيَجْمَلُهُ بِالْبَقَاءِ وَالنَّجَاءِ مَالِاحَ بَجْرِ ، وَكَرَّرَ دَهْرَهُ ، مُلْكُ إِمَامَةٍ عَادِلَةٍ خَلَقَتْ نَبْوَةَ بَجْرَتْ عَلَى رِسْمِهَا وَسَنَنِهَا ، وَارْتَسَمَتْ أَمْرَهَا ، وَأَقَامَتْ شَرَائِعَهَا ، وَدَعَتْ إِلَى سُبُلِهَا ؛ مُسْتَنْصِرَةً بِأَيْدِهَا ، مُتَجَزِّةً لَوْعِهَا ؛ وَإِنَّ يَوْمًا وَاحِدًا مِنْ إِمَامَةٍ عَادِلَةٍ خَيْرٌ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ عُمْرِ الدُّنْيَا تَمْلُكًا وَجَبَرِيَّةً .

ونحن نسأل الله تعالى أن يُدِيمَ نِعَمَهُ عَلَيْنَا ، وَإِحْسَانَهُ إِلَيْنَا بِشَرَفِ الْوِلَايَةِ ، ثُمَّ بِحُسْنِ الْعَاقِبَةِ بِمَا وَفَّرَ عَلَيْنَا خَيْرَهُ وَعُلَاهُ ، وَمَجْدَهُ وَإِحْسَانَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ، وَبِهِ الثِّقَةُ ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

وَأَمَّا الْفِدَاءُ وَرَأْيُكَ فِي تَخْلِيصِ الْأَسْرَى ، فَإِنَّا وَإِنَّا كُنَّا وَاتَّقِينَ لَمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ بِالْحُدَى الْحُسَيْنِيِّ ، وَعَلَى بِنْتِ لَهْمٍ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَتَبَاتَ مِنْ حُسْنِ الْعَاقِبَةِ وَعِظْمِ الْمَثُوبَةِ ، عَالِمِينَ بِمَا لَهْمٌ ، فَإِنْ فِيهِمْ مِنْ يُؤَثِّرُ مَكَانَهُ مِنْ ضَنْكِ الْأَسْرِ وَشِدَّةِ الْبِأْسَاءِ عَلَى نَعِيمِ الدُّنْيَا وَلَدَّتْهَا ، سَكُونًا إِلَى مَا يَتَحَقَّقُهُ مِنْ حُسْنِ الْمُنْقَلَبِ وَجَزِيلِ الثَّوَابِ . وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَاذَهُ مِنْ أَنْ يَفْتِنَهُ ، وَلَمْ يَعِدْهُ مِنْ أَنْ يَبْتَلِيَهُ ؛ وَقَدْ تَبَيَّنَّا مَعَ ذَلِكَ فِي هَذَا الْبَابِ مَا شَرَعَهُ لَنَا الْأُئِمَّةُ الْمَاضُونَ ، وَالسَّلَفُ الصَّالِحُونَ ؛ فَوَجَدْنَا ذَلِكَ مُوَافِقًا لِمَا آتَمَسْتَهُ ، وَغَيْرَ خَارِجٍ عَمَّا أَحْبَبْتَهُ ؛ فَسُرِّرْنَا بِمَا تَيْسَّرَ مِنْهُ ، وَبَعَثْنَا الْكُتُبَ وَالرُّسُلَ إِلَى عُمَّالِنَا فِي سَائِرِ أَعْمَالِنَا ، وَعَزَمْنَا عَلَيْهِمْ فِي جَمْعِ [كُلِّ مَنْ قَبْلَهُمْ وَأَتْبَاعَهُمْ بِمَا وَفَرَ الْإِيمَانَ فِي إِفْقَادِهِمْ ، وَبَدَلْنَا فِي ذَلِكَ] ^(١) كُلِّ مِمَّا مُمْكِنٌ ، وَأَخْرَجْنَا إِجَابَتَكَ عَنْ كِتَابِكَ لِيَتَقَدَّمَ فَعْلَانَا

(١) الزيادة من "المغرب في أخبار المغرب" .

قولنا ، وإنجازنا وعدنا ، ويوشك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وقع أحسن الموقوع منك إن شاء الله .

وأما ما ابتدأنا به من المواصله ، وأستشعرته لنا من المودّة والمحبة ، فإن عندنا من مقابلة ذلك ما توجبّه السياسة التي تجمعنا على اختلاف المذاهب ، وتقتضيه نسبة الشرف الذي يؤلّفنا على تباين النحل ، فإن ذلك من الأسباب التي تُخصّصنا وإياك . ورأينا من تحقيق جميل ظنك بنا إيناس رُسلك وبسطهم ، والاستماع منهم والإصغاء إليهم والإقبال عليهم ؛ وتلقينا أنبساطك إلينا ، والطاقك إيانا بالقبول الذي يحقّ علينا ؛ ليقع ذلك موقعه . وزدنا في توكيد ما اعتمدته ما حملناه رسلك في هذا الوقت على استقلالنا إياه من طرائف بلدنا وما يطراً من البلاد علينا ؛ وإن الله بَعْدَه وحكمته أودع كلّ قرية صنفاً ، ليتشوّف إليه من بعد عنه ، فيكون ذلك سبباً لعجّارة الدنيا ومعايش أهلها . ونحن نفردك بما سلّمناه إلى رسولك لتقيّف عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفدته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأذنا لهم في البيع وفي آبتباع ما أرادوه وأختاروه ؛ لأننا وجدنا جميعه مما لا يحظره علينا دين ولا سياسة . وعندنا من بسطك وبسط من يرد من جهتك ، والحرص على عمارة مابدأنا به ورعايته ، وربّ ما غرسته ، أفضل ما يكون عند مثلنا لمثلك . والله يعين على ما تنويه من جميل ، ونعتقه من خير ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومن ابتدأ بجميل لزمه الجري عليه والزيادة ، ولا سيما إذا كان من أهله وخليقته . وقد ابتدأنا بالمؤانسة والمبأسطة ، وأنت حقيق بعجّارة ما بلينا ، وباعتدانا بجوائجك وعوارضك قبلنا ؛ فأبشّر بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمد لله أحق ما ابتدئ به ، وختم بذكره ؛ وصلى الله على محمد نبي الهدى والرحمة ، وعلى آله وسلّم تسليماً .

الحالة الثانية

(من حالات المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ما كان
الحال عليه بعد الدولة الفاطمية في الدولة الأيوبية)

وقد ذكر «عبدالرحيم بن شيث» أحد كتّاب الدولة الأيوبية في أواخر دولتهم مصطلح ما يكتب عن السلطان في خلال كلامه، فقال: إن الناس كانوا لا يكتبون «المجلس» إلا للسلطان خاصة، ويكتبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم «الحضرة» ثم أفرّدوا السلطان بالمقام والمقرّ، وصاروا يكتبون «المجلس» لمن دونه، ولم يسوغوا مكتبة السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحضرة. قال: ويكتب السلطان إلى ولده المستخلف عنه: «المجلس» دون المقام. وأصطلحوا على الاختصار في نعت الملوك المكتوب إليهم والدعاء، بخلاف من هو تحت أمر السلطان وتحت حوزته، فإنه كلما كثرت النعت والدعاء له في مكتبة السلطان إليه، كان أبلغ: لأن ذلك في معنى التشريف من السلطان، وأنه لا يقال في المقام «السامى» بل «العالى». وأنه إذا كتب السلطان إلى من هو دونه من ذوى الأقدار عبر «بالمجلس السامى»، ولا يزداد على ذلك، ثم يفرد عن النسب بعد السامى، فيقال: الأمير الأجل من غيرياء النسب. وأنه لا يقال العالى مكان السامى في الكتابة عن السلطان، وقد يجمع بينهما لذوى الأقدار، وأنه يضاف في نعت كل أمير «عمدة الملوك والسلاطين عن الإسلام، أو نصرته الإسلام، أو فارس المسلمين» أو ماشابه ذلك من غير ضبط ولا تخصيص لأحد دون أحد إذا أحرزوا النعت الذى أشتهر به المكتوب إليه. وأنه يقال: «عمدة الملوك والسلاطين» و«عمدة الملوك والسلاطين» و«ذخر الملوك» ودونها «أختيار الملوك». وللاقارب «نقر الملوك» و«جمال الملوك» و«عز الملوك» و«زين الملوك». وللا مائل «معين الملوك» و«نصرة الملوك» وما أشبه ذلك.

وأنه يكتب للأمرء الأعيان : «حُسَام أمير المؤمنين» و«سَيْفُ أمير المؤمنين» .
ولكبراء الدولة من الكُتَّاب : «خَاصَّةُ أمير المؤمنين» و«وَلِيُّ أمير المؤمنين»
و«صَفْوَةُ أمير المؤمنين» . و«ثِقَّةُ أمير المؤمنين» و«صَنِيعَةُ أمير المؤمنين» على
مقدار مراتبهم . وأن نعتَ الأجلِّ يذكر بعد العلوِّ والسُّموِّ بأن يقال : «المجلس العالى
الأجلِّ» أو «السامى الأجلِّ» وربما كان بعد ذكر الإمرة أو القضاء فيقال
«الأمير الأجلِّ» أو «القاضى الأجلِّ» . وأن السلطان لا يتبدى بالدعاء فى كتبه إلى
أحدٍ إلا من مائله فى المُلْك . وأن السلطان لا يكتب إلى أحد من هو تحت أمره
«بلا زَالَ» «ولا بَرِحَ» فى الدعاء ، وإنما يكتب بذلك إلى من مائله من المُلُوك ،
أو إلى ولده المستخلف عنه فى المُلْك . وأن الدعاء للملوك يكون مثل «أدام الله أيامه»
و«خَلَّدَ سلطانه وثبَّتَ دولته» وما أشبه ذلك . وأن التَّحْمِيدَ فى أوائل الكُتُبِ
لا يكون إلا فى الكُتُبِ الصادرة عن السلطان . وأن غاية عَظْمَةِ المكتوب إليه أن
يكون الحمدُ ثمانية وثلاثة فى الكُتَابِ ، ثم يؤتى بالشهادتين ، ويصلَّى على النبيِّ صلى الله
عليه وسلم . وأنه يكتب فى الكتب السلطانية «صدرتْ» و«أصدرناها» ولا يكتب
«كتبتْ» . وأن الذى يُخاطَبُ به الخِلافةُ عن السلطان : «المواقِفُ المقدَّسةُ
الشريفةُ ، والعتباتُ العالِيةُ ، ومقرِّ الرحمةُ ، ومحلُّ الشرفِ» . والذى يُخاطَبُ به
الملوكُ : «المقام العالى ، والمقرِّ الأشرف» ولا يقال «المقام السامى» . والذى
يُخاطَبُ به الوزراء : «الجناب العالى ، والمحَلُّ السامى» . ومن دون ذلك «المجلس
السامى» ودونه «مجلس الحضرة» . ودونه «الحضرة» . وأنه لا يكتب عن السلطان
لمن هو تحت أمره إلا بنون الجمع لدالاتها على العَظْمَةِ ، ولا يُكْتَبُ «تسعر» إلا عن
السلطان خاصةً بخلاف «تعلم» وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة
الطرَّة ، وتكون بقلم جليلٍ غير دقيق . وأنه يُوسَّع بين السطور حتى يكون بين كل

سطين ثلاث أصابع أو أربع أصابع . وأنه لا يخرج عن سَمَتِ البسملة في الكتابة ، ولا يحتمل ذلك إلا في الحمدلة . وأنه لا يكثر التقط والشكل في الكتب الصادرة عن السلطان لاسيما في الألفاظ الظاهرة . وأن الدعاء على العدو كان محظورا في الكتب الصادرة عن السلطان إلى مَنْ دُونَهُ ، ثم أَسْتَعْمَلَ ذلك . وأنه لا تترك فضلة في آخر الكتاب بياضا ، ولا يكتب في حاشية الكتاب . وأن الترجمة عن السلطان في كتبه لمن تحت أمره أعلامهم وأدناهم ، العلامة ؛ فان أراد تمييز أحد منهم كتب له شيئا بخطه في مكان العلامة . وأن العلامة تكون إلى البسملة من السلطان أقرب ، وأنه لا حرج على السلطان أن يترجم للقضاة والعلماء والعُباد بأخيه وولده . وأن عَنُونَةَ الكتاب وختمه مختص بصاحب ديوان الإنشاء ليدل ذلك على وقوفه على الكتاب . وأنه لا يجوز عَنُونَةُ الكتاب قبل أن يكتب عليه السلطان ترجمته أو علامته . وأن الكتب لا تبقى مفتوحة إلا أن تكون بإطلاق مال ، لأن كرم الكتاب ختمه ، ولا أكرم من كتب السلطان ؛ ويكون طيُّ الكتاب الصادر عن السلطان عَرْضَ ثلاث أصابع .

ثم مشهور مكاتبتهم على أربعة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بالدعاء للمجلس أو الجَناب)

مثل : أدام الله أيام المجلس ، أو أدام الله سلطان المجلس ، أو أدام الله نعمة المجلس ، أو أدام الله آفتدار المجلس ، أو أدام الله سعادات المجلس ؛ أو خلد الله أيام المجلس أو سلطان المجلس ، أو ثبت الله دولة المجلس ، وما أشبه ذلك مما فيه معنى

(١) في الضوء " وأنه يترك " بغير النافية وإثباتها أوضح .

الدوام؛ وربما أبدل لفظ الدوام وما في معناه بالمضاعفة، مثل: ضاعف الله نعمة المجلس. ويؤتى على الألقاب إلى آخرها، ثم يقال: نُشِعِرَ المجلس أو الأمير بكذا ونحو ذلك، ويؤتى على المقصود إلى آخره، ويُحْتَمَ بالدعاء وقد يُحْتَمَ بغيره. وهذه نسخة مكاتبة من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح غزرة وأقتلاعها من الفرنج الديوية، الذين كانوا مستولين عليها، وهي:

« أدام الله سعاداتِ المجلس، وأحسن له التدبير، وأصفى عيشه من التكدير، وحقق له وفيه أحسن الرجاء والتقدير، وجعل وجهه من أهلة الأكابر والتكبير، وأعاد تأخير أجله من التقديم وتقديم حظه من التأخير.

نُشِعِرَ المجلس بما من الله تعالى به من فتح مدينة غزرة يوم الجمعة الجامع لشمّل النصر، القاطع لحبل الكفر؛ وهذه المدينة قد علم الله أنها من أوسع المدائن، وأمل الكائن، وأثرى المعادِن؛ وهي كُرسى الديوية ومهبط رؤوسهم، ومحط نفوسهم، وحي كليهم بل كلابهم، وظهير صليهم بل أصلابهم؛ وما كانت الأبصار إليها تطمح، ولا الأقدار بها قبلنا تسمع، ولها قلعة أنفها شاخ في الهواء، وعطفها جامع عن عطفة اللواء؛ قد أوغلت في الجوّ مرتفعه، وأومضت في الليل مُتمعه، ويرداء السحاب ملتفعه؛ قد صاحفتها أيدي الأنام بالسلامة من قوارعها، وهادتها حوادث الأيام على الأمن من روائعها، إلى أن أتيح لها من أتاح لها الحين، وقُض لها من أقتضى منها الدين؛ فصبّحها بما ساء به صباؤها، وزعزعها بالزئير الذي نخرس له نباحها. وكان من خبرها أننا لما أطلنا عليها مغيرين، وأطفنا بها دائرين، ولكؤوس الحرب مديرين؛ تغلبت الأنجاد والأبطال على الزحف، وأعجل آرتياح النصر عن انتظام عقد الصف؛ وآتقوا عليها، آتقواض البراة على طرائدها، وأسرعوا إليها، إسراع العطاش إلى مواردها؛

ورُفِعَتِ الألوِيَةُ حَافِقَةً كذَوَائِبِ الضَّرَامِ ، طَالَعَةً بِرَسَائِلِ الحِمَامِ ، مُشِيرَةً بِالْعَدَابَاتِ
إِشَارَةً لَمْ يَطْمَئِنُوا إِلَيْهَا بِالسَّلَامِ ؛ وَجَاءَهُمُ المَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَمْطَرَتِ الشُّهُبُ
مِنْ كُلِّ سِنَانٍ ؛ فَرَأَوْا مَثَوَاهِمَ الحَيِّيبِ ، وَمَحَلَّهُمُ الخَصِيبِ ؛ وَقَدْ رَكَضَتْ فِيهِ خِيُولُ
الغَيْرِ ، وَأَعْرَضَتْ فِيهِ سُيُولُ العَبْرِ ، وَجُرِدَتْ فِيهِ نُصُولُ القَدَرِ ؛ وَالنَّارُ قَدْ لَعِبَتْ فِيهِ
مُجَدَّهَ ، وَأَحْمَرَتْ فِيهِ خَدُودَهَا مَحْدَهَ ؛ وَأَقْوَاتَهُمُ المَدَنَحَهَ ، وَأَمْوَالَهُمُ المَثْمَرَهَ ؛ نَفَلَا
مُبَاحًا ، وَزَبَدًا مُطَاحًا ؛ وَمَغْنَمًا مُشَاعًا ، وَنَهْبًا مُضَاعًا ؛ قَدُمِلْتُ مِنْهُ الرِّحَالُ وَأَخْصَبْتُ ،
وَأَتَّسَعَتْ بِهِ الأيْدِي وَضَاقَتْ بِهِ الأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ .

الأسلوب الثاني

(أن تُفتتح المكتبة بلفظ الإصدار)

مثل : أصدَرْنَا هذه المكتبة ، أو أصدِرْتُ ، أو صدرت ؛ ويؤتى على المقصود
على ما تقدم .

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل ، عن السلطان
«صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى أخيه سيف الإسلام سلطان اليمن ، يستقدمه
إليه معاونًا له على قتال الفرنج خذلهم الله ! وينشره بفتح كوكب ، وصفد ، والكرّك
في سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو :

«أصدَرْنَا هذه المكتبة إلى المجلس ، ومما تجدد بحضرتنا فتوح كوكب : وهي كرسى
الاستبارية ودار كفرهم ، ومستقر صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذخرهم ؛
وكان يجمع الطرق قاعدا ، ولملتق السبل راصدا ؛ فتعلقت بفتحه بلاد الفتح
وأسطوتنت ، وسابت الطرق فيها وأمنت ، وعمرت بلادها وسكنت ؛ ولم يبق
في هذا الجانب إلا صور ، ولولا أن البحر يُجدها ، والمراكب تردها ؛ لكان قيادها

قد أمكن ، وِحاحُها قد أذعن ؛ وما هم بحمد الله في حِصن يحميهم ، بل في سِجن يحويهم ؛ بل هم أسارى وإن كانوا طلقاءً ، وأمواتٌ وإن كانوا أحياء ؛ قال الله عز وجل : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ ولكلِّ أمرئٍ أجلٌ لا بدُّ أن يَصُدَّقه غائبه ، وأملٌ لا بدُّ أن يَكْذِبه خائبه . وكان نزولنا على كوكبٍ بعد أن فُتحت صَفْدُ بلدِ الديوية ومعقلهم ، ومشتغلهم وعملهم ، ومحلهم الأحصن ومنزلهم ؛ وبعد أن فتحنا الكركَ وحصونه ؛ والمجلس السيفي أسماه الله أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته المثقلة ، وقضيته المشككة ، وعلته المعضلة ؛ وأن الفرج - لعنهم الله - كانوا يقعدون منه مقاعد السَّمع ، ويتبوعون منه مواضع النَّفع ؛ ويحولون بين قات وراكبها ، فيدللون الأرض بما كان منه ثقلاً على مناكبها ؛ والآن ما أمن بلادِ الهرمين ، بأشدَّ من أمنِ بلادِ الحرمين ؛ فكُلُّها كان مشتركاً في نُصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت تُرامى ولا تُرام ، وتُسامى ولا تُسام ؛ وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال ، وأنفقنا فيها أعمار الرجال ، وقرعنا الحديدَ بالحديد إلى أن صجَّت النصال من النصال ؛ والله المشكور على ما أنطوى من كلمة الكُفر وانتشر من كلمة الإسلام . وإن بلاد الشام اليومَ لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قِيلاً سَلاماً سَلاماً . وكان نزولنا على كوكبٍ والشتاءُ في كوكبه ، وقد طلع بين الأنواءِ في موكبه ؛ والولوجُ تنشر على البلاد ملاءها الفضيض ، وتكسو الجبالَ عمامتها البيض ؛ والأوديةُ قد تجت بهاها ، وفاضت عند أمتلابها ؛ وشمخت أنوفها سيولا ، نخرقت الأرضَ وبلغت الجبالَ طولاً ؛ والأوحالُ قد اعتقلت الطرقات ، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات ؛ فتجشمتنا العناء نحن ورجالُ العساكر ، وكأثرنا العدو والزمان وقد يُحزُّ الحظُّ المكاثِر ، وعلم الله النيسةَ فأوجدنا بفضلها ، وضمير الأمانة فأعان على حملها ؛ وزلنا من رؤوس الجبال بمنازل كان

(١) في "الروضين" ج ٢ ص ١٣٦ هكذا : بلد الديوية المصونة ، وفتحنا الكرك وحصونه الخ .

الاستقرارُ عليها أصعبَ من نَقْلِها ، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نَقْلِها ؛ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

والحمد لله الذى أهدانا بِنِعْمَتِهِ الحديثَ ، ونصرَ بسيفِ الإسلامِ الذى هو سيفُهُ وسيفِ الإسلامِ الذى هو أخونا الطيبَ على الخِيثِ ؛ فذُحَّ السيفِ يَنقَسِمُ على حدَّيه ، ومدحُ الكريمِ يتعدى إلى يَدَيْهِ ؛ والآنَ فالجِلسُ - أسماءُ الله - يعلمُ أنَ الفَرَجَ لا يَسْلُونُ عما فَتَحنا ، ولا يَصِدُّونَ على ما جَرَحنا ؛ فإنهم - خذلهم اللهُ - أمُّمٌ لا تُحصى ، وجيوشٌ لا تُستقصى ؛ ووراءهم من ملوكِ البحرِ مَنْ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غَضِبا ، ويَطْمَعُ فى كلِّ مدينةٍ كَسِبا ؛ ويدُ اللهِ فوقَ أيديهم ، واللهُ محيطٌ بأقربِيهم وأبعديهم ؛ و﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ ، ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللهُ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ .

وما هم إلا كلابٌ قد تعاوتَ ، وشياطينٌ قد تعاوتَ ؛ وإن لم يُقَدِّفُوا من كلِّ جانبٍ دُحُورا ، ويَتَّبِعُوا بكلِّ شهابٍ ناقيةٍ مَدْحُورا ، آسَأَسَدُوا وآسَتَكَلَّبُوا ، وتَأَلَّبُوا وجَلَّبُوا وأجَلَّبُوا ، وحارَبُوا ، وحزَّبُوا ؛ وكانوا لباطِلِهِم الداحضُ ، أنصرَ منَّا لحَقِّنا الناهضُ ؛ وفى ضلالِهِم الفاضحُ ، أبصرَ منَّا لهدانا الواضحُ . واللهُ دُرٌّ جَريرِ حيث يقولُ :

إِنَّ الْكِرِيمَةَ يَنْصُرُ الْكَرَّمَ أَبْنَاءُ ، * وَأَبْنُ اللَّيْمَةِ لِلنَّامِ نَصُورُ !

فالبِدَارُ إلى النَّجدةِ البِدَارُ ! والمُساَرَعَةُ إلى الحِنَةِ فإنها لا تُسألُ إلا بإيقادِ نارِ الحربِ على أهلِ النَّارِ ؛ والهِمَّةُ الهِمَّةُ ! فإن البحارَ لا تُلقَى إلا بالبحارِ ، والملوكُ الكبارَ لا يقفُ فى وجوهها إلا الملوكُ الكبارُ :

وما هيَ إلا نَهْضَةٌ تُورِثُ العِلا * ليومِكَ ما حَتَّتْ رِوَاظِمُ نَيْبُ !

ونحنُ فى هذهِ السنةِ - إن شاء اللهُ تعالى - نَنزِلُ على أنطاكيةَ ، وينزلُ ولَدُنا الملكَ المظفَّرَ - أظفره اللهُ - على طرابُلُسَ ؛ ويستقرُّ الرِكابُ العادِلَى - أعلاه اللهُ -

بمصر؛ فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تُطْرَق، وأن الطلب على الشام
ومصر تفرَّق؛ ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفي - أسماه الله - بحرًا في بلاد
الساحل يَنْحَرِ سِلَاحًا، ويَجْرُدُ سَيْفًا يكون على ما فَتَحْنَاهُ قُفْلًا ولما لم يَفْتَحْ بَعْدُ مِفْتَاحًا؛
فإنه ليس لأحدٍ مَالًا أُخِ من شِعْمَةٍ لها في كل مَسْمَعٍ سَمِعَهُ، وفي كل رُوعٍ رُوعَهُ؛
وفي كل مَحْضَرٍ مَحْضَرٍ، وفي كل مَسْجِدٍ مَنبَرٍ، وفي كل مَشْهَدٍ مَحْبَرٍ؛ فما يُدْعَى العَظِيمُ
إِلَّا للعَظِيمِ [لَا يُرْجَى] ^(١) لموقف الصبر الكَرِيمِ إِلَّا الكَرِيمِ [هذا] والأقدارُ ماضية، وبمشيئة
الله جارية؛ فإن يشاء الله ينصر على العدو المضعف، بالعدد الأضعف؛ ويوصل إلى
الجوهر الأعلى بالعرض الأدنى؛ فإننا لانرتاب بأن الله ما فتح علينا هذه الفتوح ليعْلَمَها،
ولا يجمع علينا هذه الأمة ليفرِّقها؛ وأن العدو إن خرج من داره بطراً، ودخل
إلى دارنا كان فيها جِزْرًا؛ وما بقى إن شاء الله إلا أموالٌ تُساق إلى ناهبها، ورقابٌ
تقَادُ إلى ضارِبِها، وأسلحةٌ تُجْمَلُ إلى كاسِبِها؛ وإنما تُؤَثِّرُ أن لا تنطوي صحائف الحمد
خالية من اسمه، ومواقف الرشد حاوية من عِزِّه؛ وتؤثر أن يساهم آل أيوب
في ميراثهم منه مَوَاقِعَ الصبر، ومطالع النصر؛ فوالله إنا على أن نُعْطِيَهُ عَطَايَا الآخِرَةِ
الفاخرة، أشدَّ مِنَّا حِرْصًا على أن نُعْطِيَهُ عَطَايَا الدنْيَا القاصره؛ وإنا لا يسرُّنا أن ينقضى
عمره في قتالٍ غير الكافر، ونزالٍ غير الكُفِّء المناظر؛ ولا شك أن سيفه لو اتصل
بلسانٍ ناطقٍ وقَمٍّ، لقال ما دُمْتُ هُنَاكَ فَلَسْتُ بِمٍّ؛ وما هو محمول على خُطَّةٍ يَخَافُها،
ولا متكلفٍ قَضِيَّةٍ بِحِكْمِنَا يَعَافُها؛ والذي بيده لا نَسْتَكْثِرُهُ، بل نَسْتَفْصِرُهُ عن حقه
ونَسْتَصْغِرُهُ؛ وما ناولناه لفتح أرضه السَّلاح، ولا أَعْرَنَاهُ لِلْمَلِكِ مَرَكْرَهُ النَّجَاح؛ إلا على
سخاءٍ من النفس به وبأمثاله، على علمٍ مِنَّا أنه لا يَقْعُدُ عَنَّا إِذَا قَامَتْ [الحرب] بنفسه
وماله؛ فلا نُكْنِ بِهِ ظَنًّا أَحْسَنَ مِنْهُ فِعْلًا، ولا نَرْضَى وقد جعلنا الله أهلاً أن لانزاه

لنَصْرِنَا أَهْلًا ؛ وَلَيْسَتْشُرْ أَهْلَ الرَّشَادِ فَإِنَّهُمْ [لَا يَأْلُونَهُ] ^(١) حَقًّا وَأَسْتَنْهَاضًا ، وَلَيَعِصُ أَهْلَ
 الْغَوَايَةِ فَانْهَمَ إِنَّمَا يَتَغَالَوْنَ بِهِ لِمَصَالِحِهِمْ أَغْرَاضًا ؛ وَمَنْ بَيْتَهُ يَطْعَنُ ، وَإِلَى بَيْتِهِ يَقْفُلُ ؛ ^(٢)
 وَهُوَ يُجِيبُنَا جَوَابَ مِثْلِهِ لَمَنْلَنَا ، وَيَتَوَى فِي هَذِهِ الزِّيَارَةِ جَمْعَ شَمَلِ الْإِسْلَامِ قَبْلَ نِيَّةِ جَمْعِ
 شَمَلْنَا ؛ وَلَا تَقْعُدْ بِهِ فِي اللَّهِ نَهْضَةً قَائِمًا ، وَلَا تَخْذُلْهُ عِزْمَةً عَازِمًا ، وَلَا يَسْتَفْتِ فِيهَا فَوْتَ
 طَالِبٍ وَلَا تَأْخُذْهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا ؛ فَإِنَّمَا هِيَ سَفَرَةٌ قَاصِدَةٌ ، وَزَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ؛
 فَإِذَا هُوَ قَدْ بَيَّضَ الصَّحِيفَةَ وَالْوَجْهَ وَالذِّكْرَ وَالسَّمْعَةَ ، وَدَانَ اللَّهُ أَحْسَنَ دَيْنٍ
 فَلَا حَرَجَ عَلَيْهِ إِنْ فَاءَ إِلَى أَرْضِهِ بِالرَّجْعَةِ ؛ وَلَيَتَدَبَّرْ مَا كَتَبْنَاهُ ، وَلَيَتَفَهَّمْ مَا أَرَدْنَا ؛
 وَلَيُقَدِّمِ الْإِسْتِخَارَةَ ، فَإِنَّهَا سِرَاجُ الْإِسْتِنَارَةِ [وَلَيَغْضِبُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلِدِينَهُ وَلَأَخِيهِ
 فَإِنَّهَا مَكَانُ الْأَسْتِغْضَابِ وَالْأَسْتِشَارَةِ] ^(٣) وَلَيُحْضِرْ حَتَّى يَشَاهِدَ أَوْلَادًا لِأَخِيهِ
 يَسْتَشْعِرُونَ لِفُرْقَتِهِ عَمَّا ، وَقَدْ عَاشُوا مَا عَاشُوا لَا يَعْرِفُونَ أَنْ لَمْ يَمُوتْ مَعَهُمْ عَمَّا ؛
 وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَلْهَمُهُ تَوْفِيقًا ! وَيَسْلُكُ بِهِ إِلَيْهِ طَرِيقًا ؛ وَيُجِدُّنَا بِهِ سَيْفًا لِرِقْبَةِ الْكُفْرِ
 مَرَقًا وَدَمِهِ مَرِيْقًا ؛ وَيَجْعَلُهُ فِي مِضْمَارِ الطَّاعَاتِ سَابِقًا لَا مَسْبُوقًا .

الأسلوب الثالث

(أن تفتتح المكتبة بلفظ « هذه المكتبة إلى المجلس »)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح أيلة التي تحت العقبة في ممر
 حجاج مصر . وهي :

هذه المكتبة إلى المجلس الفلاني أعلى الله سلطانه ، وعمّر بالنجاح آماله وبالسعادة
 أوطانه ؛ ولا زالت يد النصر تُصرف يوم اللقاء عنانه ، ويد لطف الله تُفيض على

(١) في الأصل فانهم يألوه والصواب ما أثبتناه في الصلب .

(٢) كذا في الأصل والمراد أنهم يجعلونه غرضا لنوال مصالحهم الذاتية .

(٣) الزيادة مما ساقى له في المبع الثالث من هذا الجزء .

الخلق يومَ العلياءِ عَنانَه، وتمكَّن من هامِ الأعداءِ وُحُورِهِم سيقَه وسِنانَه؛ (شُعْرَه) أنه
 لم تزلْ عوائدُ الله سبحانه عندنا متكفِّلةً ما يُوجِبُ أن يُبَدَأَ الحمدُ ويُعاد، مقربَةً لنا من
 الآمالِ كُلِّ ما كان رَهينَ نَأْيِ وِيعاد، موافقةً لنا بالتوفيقِ فكأننا وإياه على ميعاد،
 مُعِينَةً لنا على ما يعتدُّه الغاشُّ معاشٍ وِعيدٍ مُعاد. وقد كان ما علم من غزوتنا إلى أيلةَ
 التي آخذها العدوُّ مَعْقِلاً، وتديرها مَنزِلاً، وعدّها مَوْتِلاً؛ وغاصَّ بها رونقُ الجملةِ،
 وفاضَ بها أهلُ القبلةِ؛ وصارت على مَدارجِ الأنفاسِ، وعلى مراصدِ الأفتِراسِ
 والأفتِراسِ؛ وخصَّصَ الحرمينَ بأعظمِ قادح، وأشدَّ عن حادثتها من لُطفِ الله أعظمُ
 فاتح؛ ولما توجَّهنا إليها، ونزلنا عليها؛ شاهدنا قلعةً يَحْتاجُ راميا إلى الدهرِ المديدِ،
 والأملِ البعيدِ؛ والزادِ العتيدِ؛ والبأسِ الشديدِ؛ تَنبُو بِعُظْفِ جامعٍ عن الخِطْبِه، وتُعْرِضُ
 بِذِكْرِ مانعٍ عن الضربه؛ وتُعْطِفُ بأنفٍ على السحابِ شاخِ، وتطلُّعُ في الصِّباحِ بوجهِ
 شادخ؛ كأنما يَبْنِها وبين الأيامِ دِمَام، وكأنَّ نارَ الحوادثِ إذا بلغتْ ماءها بردٌ وسلام؛
 فأطَفْنَا بها متبصِّرين، ونزلنا من ناحيةِ البرِّها مفكِّرين؛ وبيْنَا نحنُ نأمرُ بالحربِ
 أن يُسَبَّ أوارُها، وبالخيلِ أن تُسِيرَ أسرارُها؛ وبنارِ اللِّقاءِ أن يستطيرَ شرارُها،
 وبقناتِ طيرِ الموتِ من القسيِّ أن تُعقِّدَ أوتارُها؛ وبالمجانيقِ أن تُعقِّدَ حناياها وتُحَلِّ
 أزرارُها، وبالكواكبِ أن تُذيقَهُم طعمَ الصِّغارِ كِبَارُها؛ إذ نادى منادٍ من أعلى قَمَّتْها،
 ورأسِ قَمَّتْها؛ مُعلِّناً بالأمانِ، ناسخاً لآيةِ الكفرِ بآيةِ الإيمانِ؛ فأعارته الأسماعُ
 إنصاتها، وأستحقتِ القلوبُ حصانها؛ وعمدت إليه بنتُ بجر، عادتْ بابَ نصر،
 وساعةُ بدهر؛ وبشَّرنِي بغلامٍ على كِبَر، وبظَفَرِي سَفَرِ على قَدَر؛ فأعطى فرنجها
 ما طلبوا، وأتى اللُّطفُ للمسلمينِ بما لم يَحْتَسِبُوا؛ وفي الحالِ رُفِعَتْ عليها ألويةُ الإسلامِ
 ونُشِرَتْ، وأوتِ إليها فِئَةٌ الحقِّ وحُشِرَتْ، وتظاهرت عليها أولياءُ الله وظهرتْ؛
 وقيل الحمدُ لله ربِّ العالمين .

الأسلوب الرابع

(أن تفتح المكتبة بلفظ : « كتابنا » وبقى الأمر على نحو ما تقدم)

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كتب به القاضي الفاضل عن الملك الناصر «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود . وهي :

كُتِبْنَا هَذَا إِلَى الْأَمِيرِ ، مَعْرِينَ بِالرُّزْءِ الَّذِي كُنْتَ أَقْسَامَهُ وَتَمَّتْ ، وَرَمَتْ أَحْدَانُهُ الْقُلُوبَ فَأَصَمَّتْ وَطَرَقَتْ أَحَادِيثُهُ الْأَسْمَاعَ فَأَصَمَّتْ ، وَأَبَى أَنْ تَعْفُو كَلْمُهُ ، وَكَادَ لِأَجْلِهِ الْأَفْقُ تَتَكَيَّفُ بِدَوْرِهِ وَتَسْكُدُ رُجُومُهُ ، وَتَلَمَّ جَانِبَ الدِّينِ لِفَقْدِ مَنْ لَوْلَاهُ لَدَرَسَتْ أَعْلَامُهُ وَلَمْ تُدْرَسْ عِلْمُهُ ، وَفَجَا فَاسْتَوْلَى عَلَى كُلِّ قَلْبٍ وَجَيْبِهِ وَعَلَى كُلِّ خَاطِرٍ وَجُومِهِ ؛ بَانْتِقَالَ الْمَوْلَى «نور الدين» إِلَى سُكْنَى دَارِ السَّلَامِ ، وَقُدُومِهِ عَلَى مَا أَعَدَّهُ اللَّهُ مِنْ جَزَاءِ ذَنْبِهِ عَنِ الْإِسْلَامِ ؛ وَبَكَى أَهْلَهُ عَلَى فَقْدِ عِزَائِمِهِ الَّتِي بِهَا حُفِظَتْ وَحْرِيَّتْ ، وَشَكَّتْ الْمَمَالِكُ وَحَشَّةً بَعْدَهُ وَإِنْ أَبْتَهَجَتِ الْمَلَائِكَةُ بِقُرْبِهِ وَأَنْسَتْ ؛ فَلِلَّهِ هُوَ ! مَنْ مَصَابٍ أَغْرَى الْعَيُونَ بَفِيضِهَا ، وَالنَّفُوسَ بِفِيضِهَا ؛ وَنَقَلَ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ ظِلِّ الْمَسْرَةِ وَنَعِيمِهَا إِلَى هَجِيرِ الْمَسَاءَةِ وَقِيْظِهَا ؛ وَأَوْجَبَ تَنَاجِيَ الْكُفَّارِ بِالنَّجَاةِ مِنْ تِلْكَ السَّطْوَةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَرِيدُهَا عَمَّا وَتَرُدُّهَا بِفِيضِهَا .

ومهنيين بما أسأ الكلم وداواه ، وحوى الحق إلى الجانب الأيمن وآواه ؛ مِنْ جُلُوسِ وَلَدِهِ «الملك الصالح» ذِي التَّصْوِيبِ وَالتَّسْيِيدِ مَشْمُولًا مَنَّا بِالْعُرْفِ الْعَمِيمِ ، وَالطَّوْلِ الْجَسِيمِ ؛ جَارِيًا عَلَى سُنَنِهِ الْمَعْبُودَةِ ، وَعَادَتِهِ الْمَحْمُودَةِ ؛ فِي رَفْعِ صَالِحِ أَدْعِيَتِهِ عَنِ صِفَاءِ سِرِّيَّتِهِ ، وَخُلُوصِ عَقِيدَتِهِ ؛ مُسْتَمِرًّا عَلَى جَمِيلِ تَحِيَّتِهِ ، فِي إِمْدَادِنَا بِرُكْنَيْهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : والمصطلح الجارى عليه الحال في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية في زماننا مأخوذة من الأساليب الثلاثة : الأولى والثاني والثالث المقدم ذكرها .
على أن في الدولة الأيوبية أساليب أخرى لا يسع أستيعابها ، ويغتنى عنها بما تقدم ذكره .

الطرف الحادى عشر

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب)

وقد انفردوا عن كُتاب المشرق وكُتاب الديار المصرية بأمر :

منها أن المخاطبة تقع للمكتوب إليه بيمين الجمع مع الأفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الأفراد .

ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم : كتبنا ، بأن يقال : « كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا » .

ومنها أنهم يترضون عن الخليفة القائم بدعوته في كتبهم .

ومنها أنهم يذكرون اسم المكتوب إليه في أثناء الكتاب ، وباقي مكاتباتهم على نحو من مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ؛ وكتبهم تُختم بالسلام غالباً ، وربما ختمت بالدعاء ونحوه .

ومنها أن الخطاب يقع عندهم بلفظ الرياسة مثل أن يقال : رياستكم الكريمة ونحو ذلك . ولها حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم ، وهو على أربعة أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تُفْتَحَ المَكْتَبَةُ بلفظ "من فلان إلى فلان" ويُدْعَى للمكتوب إليه ، ثم يقع

التخلُّص إلى المقصود بأما بعد ، ويُؤْتَى عليه إلى آخره ، ويُحْتَمُّ بالسلام)

كما كتب أبو بكر بن هشام عن أبي محمد بن هود ، في قيامه بالدعوة العباسية ببلاد المغرب إلى أهل بلدٍ من رعيته .

"من فلان إلى أهل فلانة ، أدام الله كرامتهم وآثرهم بتقواه ، وعرفهم عوارف نعماءه ؛ وكنفهم في حرمة المنيع وحماه ، وجعلهم من وفق إلى رضاه ، وحف بجير ما قدره وقضاه ، بسلام

أما بعد حمد الله على متابع واسع فضله ، هازم الباطل وأهله ، ومورط الجاهل في مهواة جهله ؛ المالى بدعوة الحق ما أتسع من حزن المعمور وسهله ، والصلاة على سيدنا محمد نبيه المصطفى خاتم رسله ، المؤيد بالقرءان الذى تجزى الجن والإنس أن يأتوا بمثله ؛ وعلى آله وصحبه الجارين على قويم سنته وواضح سبله ؛ والرضا عن الإمام العباسى أمير المؤمنين ، الذى لا إمام سواه للمسلمين ؛ المفرج من محتده الكريم وأصله ، المدافع عن حرم أمره بسديد نظره وحديد نضله ؛ والدعاء لمقامه العلى ، ومكانه السنى ؛ بالسعد المصاحب بمصاحبة ظله ، والعصدي الفاتح مالم يفتح لأحد من قبله ، فإننا كتبناه لكم - كتبكم الله من أنتفع بقوله وعمله ، وتوجه إلى رضاه بمبسوط أمله ، وجرت له الأقدار بأفضل معاد وأجمله - من فلانة ، والتوكل على الله سبحانه نتائج تبرزها الأيام ، ويستجدها السعد والحسام ، ويستدنيها التفويض

إلى الله سبحانه والأستسلام ؛ والدعوة العلية - أدام الله أيامها ، وأسعد أعلامها -
الآثار التي تجلّت بها المذاهب ، والأنوار التي وصّحت بها المساري والمسارب ،
وأضاءت بها المشارق والمغارب . والمحمد لله حمدا كثيرا - المكان الذي تجدد
حرمته ، وثنا كد ذمته ؛ ولا توضع عن يد الاعتناء والأهتمام أزمته ، وإذا أنهضت
العزائم لمصالح العباد تقدمت كل العزومات عزمته ؛ لأنه المكان الذي صرف وجوه
الأعداء ، وصابر مكابدة الإضرار والأعتداء ؛ وأحتمل مكروه الدواء ، في معالجة
الشفاء ومعالجة حسم الداء ؛ فكرمت آثاره ، وتعين تخصيصه بالمزيد وإيثاره ؛
وطابت أخباره ، وطالت في مصابيح مجال الرجال أسنته وشفاره ، فنحن نوجب
تكريمه ، ونؤثر تقديمه ؛ ونُتبع حديثه في الاعتناء قديمه ، والله يتولى تكميل قصدينا
الجميل فيه ونتميمه ! .

وقد بلغ - بلغكم الله أملك ، وأتم نعمته قبلكم - تحرك ذلكم الخائن للإضرار بالبلاد ،
وإيثاره دواعي الشر والفساد ؛ ومتى احتيج إلى إعلام جهة من الجهات بأحواله ،
وما يتصوره بفساد خياله ؛ وتغلب كبره المردي وأختياله ، وما يصدر عنه من قبيح
آثاره وأعماله ؛ فإنما يستعلم تحقيقها منكم ، ويتعرف تصديقها من لديكم ؛ يصدق
جواركم ، ودنؤ داركم ، وتداخل آثاره مع آثاركم ؛ فأنتم أقرب أطلاعا على خبث سره ،
وسوء مكره ، وما يضمّر للمسلمين من إذايته وضره ؛ فتمى أنصرفت وجوه المسلمين
إلى جهادهم ، وأشتغلوا بتأمين بلادهم ؛ آتتهز الفرصة في فساد يحدته ، وعقد ينكته ،
وآستعجال ما يعجل عليه ولا يلبثه ؛ ونحن نعرض عنه إعراض من يرجو متابه ،
ويرتقب رجوعه إلى الحق وإيابه ؛ وهو متخبط في أهوائه ، مستمر على غلوائه ، مضر
على إضراره وأعدائه ؛ لا يكف الكف عنه من استطالته ، ولا يريه الاستبصار
وجهة جهاته ؛ فوجب علينا بحكم النظر للبلاد التي لحقها عدوانه ، وأضر بها مكانه ،

وتكرّر عليها امتحانه، أن نعالج حَسَمِ عِلَّه ، ونُسَدَ مَوَاقِعِ خَلَّه ، ونردّ عليه كلَّ
 مَضْرَءٍ لاحِقَةٍ من قِبَلِه ؛ حتّى يَسْتَرِيحَ النَّاسُ إلى أَمْنٍ مَبْسُوطٍ ، وَكَنْفٍ مَبْسُوطٍ ،
 وَحَوْزٍ بِالْكَفَايَةِ وَالْوَقَايَةِ مُحُوطٍ ؛ وَقَدْ كُنَّا عِنْدَ الْفَرَاغِ مِنْ مَصَالِحِ الْبِلَادِ الْغَرْبِيَّةِ ،
 وَأَتَمَّاءَ الْفَتْحِ فِيهَا إِلَى مَا لَمْ يَدْرُ بِالْخَاطِرِ وَلَمْ يُحَسَّبِ بَالِنَبِيِّ ؛ نَظَرْنَا فِي إِعْدَادِ جُمُوعٍ مِنْ
 أَجْنَادِ الْغَرْبِ ، وَتَحْيَرْنَا مِنْهُمْ كُلَّ مَنْ دَرَبَ بِالطَّعْنِ وَالضَّرْبِ ؛ وَسَعِدَ لَكُمْ (؟) مِنْ جَمَاهِيرِ
 الْأَغْرَابِ وَجُرُولَةِ وَسَائِرِ الْقَبَائِلِ النَّازِلِينَ بِالْبِلَادِ ، الْمُتَأَهِّبِينَ لِمَا يُطَلَّبُونَ بِهِ مِنَ الْغَزْوِ
 وَالْجِهَادِ ؛ وَرَسَمْنَا لَهُمْ أَنْ يَلْحَقُوا بِنَا عِنْدَ الْأَسْتِدْعَاءِ ، عَلَى مَا جَدَدْنَا لَهُمْ فِي الْإِتْتِخَابِ
 وَالْإِتْتِقَاءِ ؛ لِتَأْخُذَ الْجُمُوعُ كُلُّهَا مِنْ حَوْثِ هَذَا الْخَائِنِ بِنَصِيبٍ ، وَتَضْرِبَ فِيهِ ، وَفِي كُلِّ
 عَمَلٍ يَعْظِيهِ ، بِسَهْمٍ مُصِيبٍ ؛ لَكِنْ لَمَّا تَعَجَّلَ حَرَكَتَهُ الَّتِي تَعْجَلُ بِهَا الْحَيْنُ ، وَسَاقَهُ إِلَيْهَا
 الْقَدْرُ الَّذِي أَعْمَى الْبَصِيرَةَ وَالْعَيْنَ ؛ رَأَيْنَا أَنْ نُنْفِذَ إِلَيْهِ قَصْدَنَا ، وَأَنْ نَعَاجِلَهُ بِمَا حَضَرَ
 عِنْدَنَا ؛ مُتَوَافِرَةَ الْأَعْدَادِ ، غَنِيَّةً عَنِ الْأَسْتِمْدَادِ ، غَيْرَ مَفْتَقِرَةٍ إِلَى الْإِزْدِيَادِ ؛ وَمَعَ هَذَا
 فَقَدْ أَمَرْنَا أَهْلَ الْجِهَاتِ كُلِّهَا بِاللِّحَاقِ بِنَا ، وَأَنْ يَنْهَضَ جَمِيعُ أَعْدَادِهِمْ مِنَ الْخَيْلِ وَالْبَطَلِ
 وَالرُّمَاتِ عَلَى سَبِيلِنَا وَمَذْهَبِنَا ؛ لِتَكُونَ الْأَيْدِي فِي هَذِهِ الْمَصْلُحَةِ الْعَامَّةِ وَاحِدَةً ، وَالْعَقَائِدُ
 فِي دَفْعِ هَذَا الضَّرَرِ عَنِ الْكَافَةِ مُتَعَاوِدَةً ، حَتَّى يَذْهَبَ أَثْرُ هَذِهِ النُّكْبَةِ وَعَيْنُهَا ، وَيُزُولَ
 عَنِ بَهْجَةِ الْإِحْقَاقِ وَالْإِتِّفَاقِ شَيْئُهَا ؛ وَإِذَا وَجِبَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْجِهَاتِ أَنْ يَنْفِرُوا
 فِي هَذِهِ الدَّلَاةِ خَفَافًا وَثِقَالًا ، وَيُيَادِرُوا رُجَانًا وَرِجَالًا ؛ كَانِ الْوَجُوبُ فِي حَقِّكُمْ
 وَجُوبِينَ ، وَالْفَرَضُ عَلَيْكُمْ فَرَضِينَ ؛ لِمَا يُحْصِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الْمَصْلُحَةِ الَّتِي أَنْتُمْ أَوْلَى مِنْ
 يَحْتَلِي صُورَهَا ، وَيَحْتَنِي ثَمَرَهَا ، وَيُجِدُّ فِي حَالِهِ وَأَسْتَقْبَالِهِ إِثْرَهَا ؛ فَلْيَكُنْ أَسْتِعْدَادُكُمْ
 بِحَسَبِ ذَلِكَ ، وَأَسْتَوْعُوبُكُمْ جَمِيعَ أَنْجَادِكُمْ ، مِنْ خَيْلِكُمْ وَرُمَاتِكُمْ وَرِجَالِكُمْ ؛ وَكُونُوا وَاقِفِينَ
 عَلَى قَدَمِ التَّأَهُبِ إِلَى أَنْ يَكُونَ الْأَجْتِيَازُ مِنْ هُنَاكُمْ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى وَالسَّلَامُ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بلفظ «أما بعد» وهو على ضربين)

الضرب الأول

(أن تُعقب البعديَّةُ بالحمد لله ، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها ، ثم يتخلَّص

إلى المقصود ويختتم بالسلام على نحو ما تقدم)

كما كتب أبو عبد الله بن الجيان عن أبي عبد الله بن هود أيضا إلى أكابر بلده بالرَّفَق بالرعية عند ورود كتابهم عليه بتحسين البلد ، وبلوغه جوراً المستخْدمين بها على الرعية ، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى مُعَلِّ مَنَارِ الحَقِّ ورافِعِهِ ، ومُوَلِّ مَوَالِي الإِنعامِ ومُتَابِعِهِ ؛
والصلاةِ على سيدنا محمد عبده ورسوله مشفَع الحَشْر وشافِعِهِ ، المبعوثِ ببدايع الحِكمِ
وجوامِعِهِ ؛ وعلى آله وصحبه المبادِرِينَ إلى مَقاصِدِهِ العليةِ ومَنازِعِهِ ، والذائِبِينَ عن
حَوْزَةِ الإِسْلامِ ، بمواضِي الأَعْتِرامِ ، وقواطِعِهِ ؛ والرضا عن الخليفة الإمام العباسيِّ
أمير المؤمنين ذِي المجدِ الذي لا يُنَالُ سِمْوُ مَطالِعِهِ .

فإنا كتبنا إليكم - كتب الله لكم عِزَّةً قَدْحُهَا بالثبوتِ فائزٌ ، وسعادةً قَسَطُهَا للنماءِ
حائزٌ - من فلانة ، وكلمة الحق منصورَةٌ اللواءِ ، منشورةٌ الأضواءِ ؛ والتوكلُ على الله
في الإعادةِ والإبداءِ ، والتسليمُ إليه مناطُ أمرنا في الإتياءِ والأبتداءِ ؛ وحمدُ الله تعالى
وشكرُهُ وَصَلْنَا إلى نَيْلِ مَزِيدِ النِّعماءِ والألواءِ ؛ ومكانتكم لدينا مكانةُ السَّنيِّ المَناصِبِ ،
المتِمِّي إلى كِرامِ المَتمِمِّياتِ والمَناسِبِ ، المتحلِّي في الغناءِ والأكتفاءِ ، والخلوصِ والصِّفاءِ ،
بأكرمِ السَّجِيَّاتِ والمَناقِبِ ؛ المعلومِ مالديه من المصالحةِ السالكةِ بأكرمِ السَّجِيَّاتِ
في المَناحِي الحِسانِ على المَهْمِيعِ الأوضحِ والسَّنَنِ اللَّاحِبِ .

وقد وقفنا على كتابكم معلماً بنجر فلانة وما رأيتموه من المصلحة في تخصيصها ،
والاجتماع في أسباب تأمينها ، ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح ، وتوحدون
ما تتوسمون فيه النجاح ؛ لكن أهم الأمور عندنا ، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا ، الرفق
بالرعية ، وحملها على قوانين الإحسان المرعية - وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب
[أهل] فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم ، ويتظلمون من متحيفيهم
ومتعسفهم ؛ وفي هذا ما لا يخفى عليكم ، ولا ترضون به لو انتهى إليكم ؛ فإنه إذا كان
الناظر في خدمة من لا يحسن سياسة الأمور ، ولا يعلم طريقة الرفق الجارية بوفق
الخاصة والجمهور ؛ أعاد التسكين تفتيرا ، والتيسير تعسيرا ؛ وتعلمون أنا لا نقدم
على إظهار العدل في عباد الله المسلمين عملا ، ولا نبغى لهم باطنة بغير التخفيف
عنهم والإحسان إليهم بدلا ؛ وأنتم أولى من يعتقد فيه أنه يكفل هذا المقصد ،
ويتحرى في مصالح الرعايا هذا السنن الأرشد ؛ وقد خاطبنا أهل فلانة بما يذهب
وجلهم ، ويضطأ أملهم ؛ وعزفناهم بأنكم لو علمتم من جار عليهم من الخدمة لأخذتم
على يده ، وجازيتموه بسوء معتقده ؛ وأشعرناهم بأننا قد استوصيناكم بهم خيرا ،
ونبهاكم على ما يدفع عنهم ضيما ويرفع ضيرا ؛ وأنتم - إن شاء الله - تستأنفون
نظرا جميلا ، وتؤثرون عنهم الخدمة الذين لا يسلكون من السياسة سبيلا ؛
وتقدمون عليهم من تحسن فيهم سيرته ، وتكرم في تمشيته الرفق علايته وسيرته ،
ومثلكم لا يؤكده عليه في مذهب تحسن عواقبه ، وغرض يوافق القصد الاحتياطي
ويصاحبه ، إن شاء الله تعالى والسلام .

الضرب الثاني

(أن تعقب البعديّة بذكر المقصود من غير خُطبة ، ثم يؤتى على المقصود إلى آخره على نحو ما تقدّم)

كما كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعيّ ، المعروف بالأبار ، عن الأمير أبي جميل إلى أهل ناحية بولايةٍ وإلّ عليهم وهي :

أما بعدُ ، فالكتاب - كتب الله لكم ملء الجوانبِ ، قرّارا ، وأرسل عليكم سماءَ المواهب ، مذرّارا ، من فلانة ، وليس إلا الخيرُ الدائم ، واليسرُ الملازم ؛ وقد توالى إعلامكم بالعرض الجميل فيكم ، والأعتناء المتّصل بتمهيد نواحيكم ؛ وأتم اليوم بشغريّ متحيّف ، وجنابٍ متطرّف ؛ يتضاعف الاحتياط عليه ، ويّجب تيسيرُ المير إليه ؛ فالنظر له معمل ، والتهمُّ به لا يهمل ؛ وهذه السنُّ قد مُلك قيادها ، وأوثر بوجوه القرابة إمدادها ، وفلان قد خاطب يستأذن في القدوم على الباب الكريم ، ويؤكّد ما عنده في الخدمة والتصميم ؛ والخيرات بسبيل الاتّصال ، والمسرات واردة مع البُكور والآصال .

والحمد لله الجسيم فضله ، والعظيم نيّله ؛ فأحمّدوا الله على ما يسرّ لنا ولكم ، وأسوّزوه شكر ما خولنا وخولكم ؛ وأعلموا أنّنا نرعاكم ، كما رعى أولنا أولاكم ؛ وقد عيّن لموضعكم كذا وكذا فأنفدوا إلينا بعضكم مُعجلا ، وأسّتشعروا إنماء الأثرة ، وأطراد النصرة ، حالًا ومستقبلاً ؛ والحركة الكبرى - يمتّها الله - قد شرّح في أسبابها ، وأتى ما يؤتّى بمشيئة الله الفتح القريب من بابها ؛ ولا غنى بما يدار في ذلك عن فلان وقد حوّط بالوصول ، ووجه إليكم فلان واليا عليكم ، وثاويًا لديكم ؛ وهو من خبرت كفايته ، وآرتضيت لجر أحوالكم سياسته ، وشكرهنا فأوثرتم به هنالك ؛ وقد فوّض

(١) إليكم من نظر لخاصتكم وجمهوركم، وقد بما يستقل أتم الاستقلال من تدبير أموركم؛ وأمضى معه من الأجناد طائفةً يحسنون الدفاع والذيادة، ولا يفارقون الحد والأجتهاد؛ ووراء هذا من كريم العناية وجميل النظر، ما يقضى لكم بالفلج والظفر، ويديلكم بالأمانة الشاملة من الذعر والحدّر، إن شاء الله تعالى والسلام .

الأسلوب الثالث

(أن تفتح المكتبة بلفظ « كتابنا إليكم من موضع كذا، والأمر على كذا وكذا »
ويؤتى على المقصد إلى آخره ويختم بالسلام)

وربما قيل : « هذا كتابنا إليكم » وربما قيل : « كتبنا إليكم » ونحو ذلك .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن ابن هود في البشارة بفتح حصن، وهو :
كتابنا إليكم - أطلع الله عليكم من البشائر أنورها جبيننا، وأوضحها صبحا مئيننا - من
فلانة في يوم كذا .

سلامٌ عليكم فإني أحمدُ إليكم الله الذي تكفل بنصر من ينصره، ونصلي على
سيدنا محمد الكريم محمّده الزاكي عنصره؛ ونجدد مشفوع الصلوات، ونزدد مرفوع
الدعوات؛ للإمام الخليفة « المستنصر بالله أمير المؤمنين » ذي المناقب التي لا عاَد
يعدها، ولا حاصر يحصرها .

والحمد لله الذي أنعم علينا بتقليد إمامته، التي لا تُعقد معها إمامه، وأقامنا لإقامة
دعوته، التي لا تجوز على غيرها إقامه؛ وجعلنا نرعى الغرض باسمه الأشرف فنصبيه،
ونستوهب فضل الله سبحانه فيتوقر قلبنا نصيبه؛ ونستزِلُ بخلافته المباركة جوامع
النصر، كما استنزل الفاروق بغرة جدّه هوامع القطر؛ فتسير أمام رايته السوداء بالأثر

(١) لعله "إليه النظر الخ" .

المبيض ، وتروى هذه أوام القلوب كما أروى ذلك أوام الأرض ؛ وما زلنا منذ كان
الزول على هذا الحصن نتعرف فيه من مخايل النجح ، ودلائل الظفر والفتح ؛
ما أعطانا فتلج اليقين بأنا نقيم عروته ، ونفرع ذروته ، ولم يزل العزم يذل شماسه ،
ويقلل ناسه ؛ حتى أذعنوا لما عرقتهم به من الزول لوقت معدود ، وأمد محدود .
ثم إنهم خامرهم طارق الوجل ، فعجلوا أداء دينه قبل حلول الأجل ؛ وأمكن الله
من هذا المعقل الفد في المعقل ، وقتل الظانين لامتناعهم والحسام إن شاء الله تعالى
في يد القاتل ؛ وقد صدت رايأتنا على السور ، وسعدت إدارتنا بالعزم المنصور ؛
وشيد الله من هذا الفتح الجليل أقصى الفتوح بعلو ، وأشجأها للعدو ، وأدها على
نجح عملي مستأنف وبلوغ أملي مرجو .

والحمد لله الذي رد حقتنا المعتصب ، وكفانا في وجهنا هذا التعب والنصب ؛
وعزفناكم بهذا الخبر الذي هو غذاء للروح ، والمنبئ عن فتح الفتوح : لتشكروا الله
عليه شكرا ، وتوفوه حقه إذاعة له ونشرا ؛ وتجددوا بحمد الله [على] ما أولى من خالص
النعم ، ووافر القسم ؛ ما يطيب به المعرس والمقيس ، ويستقصر به الأمد الطويل .
وأكتبوا من خطابنا هذا تسعاً إلى الجهات ليأخذ منها كل بحظه ، وينعم القريب
والبعيد بجلالة معناه وجرالة لفظه ؛ أعاننا الله وإياكم على شكر إحسانه الجزيل ،
ولا أخل من لطفه العميم ونظره الجميل ، بمنته والسلام .

الحالة الثانية

(ما الأمر مستقر عليه الآن مما كان عليه علامة متأخرى ككتاب المغرب)

أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزير ابن الأحمر : صاحب

حمراء غرناطة من الأندلس)

والأمر فيها على نحو ما تقدم في الحالة الأولى : من التعبير عن المكتوب إليه بجمع الجمع وإن كان واحداً ، والتزام الدعاء بمعنى الكتابة عند قولهم كتبنا إليكم ونحو ذلك . وعادتهم أن يكتب كتاب السلطان في طومارٍ كامل ، فإن استوعب الكلام جميع الطومار كتب على حاشيته ، ويكتب صاحب العلامة علامة السلطان في آخره ، ويطوى طياً عريضاً في نحو ثلاث أصابع معترضة ، ثم يكسر ويطوى نصفين ، ويكتب العنوان بالألقاب التي في الصدر ، ويحزم بدسرة من الورق ، ثم يختم بخاتم السلطان على شمع أحمر كما تقدم بيانه .

وهي على ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكتوبة باللقب اللائق بالمكتوب إليه ، وهو على ضرب)

الضرب الأول

(أن يبتدأ بلفظ «المقام» وهو مختص بالكتابة إلى الملوك)

والرسم فيه عندهم أن يقال : «المقام» وينعت بما يليق به ، ثم يقال : «محل أخينا ، أو محل ولدنا ، أو محل والدنا السلطان» ويؤتى بالقبه ثم يسمى ، ثم يقال : «من فلان» ويقال فيه كذلك إلى منتهى نسبه ، ويدعى له بالبقاء وما يتبعه ،

ثم يقال : معظّم قدره أو معظّم مقامه ، وما أشبه ذلك ، ويذكر اسمُ المكتوب عنه ؛
ثم يقال : أما بعد حمد الله ويؤتى بالخطبة إلى آخرها ؛ ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم
من موضع كذا ، ويؤتى على المقصود إلى آخره ، ويختم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب أبو عبد الله بن الخطيب المقدم ذكره عن سلطانه ابن الأحمر المذكور
أعلاه ، إلى السلطان أبي عنان بن أبي الحسن المرينيّ صاحب فاس ، عند موت
الطاغية ملك قشتالة من إقليم أشبيلية ، وطليلة ، وقرطبة وما معها بعد نزوله على
جبل الفتح من مملكة المسلمين بالأندلس لمحاربة المسلمين فيه ، ورحيل قومه بعد
موته به ، وهو :

المقام الذي أنارت آياتُ سعده ، في مسطور الوجود ، وتبارت جياذ مجده ،
في ميدان البأس والجود ، وضمنت إيايته لمن بهذه الأقطار الغربية تجديد السعود ،
وإعادة العهود ، واختلفت كتابُ تأييد الله ونصره لوقته المشهور فيها ويومه المشهود ؛
مقام محلّ أخينا الذي نعظمه ونرفعه ، ويوجب له الحقّ العليّ موضعه ؛ السلطان
أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن ، ابن السلطان أبي سعيد ، ابن السلطان
أبي يوسف ، بن عبد الحق - أبقاه الله يتهلّل للشرى جنابه ، ويفتح لوارِد الفتح
الإلهيّ بابُه ؛ وتعمل في سبيل الله مكارمه وعزائمه وركابُه ، ويتوفّر بالجهاد فيه
مجده وسعده ونفخه وثوابُه ؛ معظّم قدره الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين
أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر ، سلام كريم مشفوع بالبشائر والتّهاني ، محفوف
[الركاب^(١)] ببلوغ الأمانى ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله مطّيع أنوار الصنائع العجيبة متألقّة الفرّ ، ومُنشئ سخائب
الإطاف ، الكريمة الأوصاف ، هامية الدرر ، الكريم الذي يُجيب دعوة المضطرّ إذا

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

دعاه، وَيَكْتَسِفُ السُّوءَ وما أمرُهُ إلا واحدةٌ كَلَمَحٍ بالبصرِ، حَجَبَ كَامِنُ الطَّافَةِ عن قُوَى الفِطْنِ وَمَدَارِكِ الفِطْرِ، فما ﴿يَعْلَمُ جنودَ رَبِّكَ إلا هُوَ وما هِيَ إلا ذِكْرِي للبَشَرِ﴾ .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله ذى المعجزات الباهرة والآيات الكُبرى، الذى يجاهه الحصين نمتسع عند استشعار الحدَر، وبنور هُدهاه نستضىء عند التباسِ الوُردِ والصَدَر، فنحْضِلُ على الخير العاجِلِ والمتنظَرِ؛ والرضا عن آله وأصحابه الكرامِ الأثر، الذين جَنَوْا من أفنانِ الصبرِ فى الله ثَمَارَ الظَّفَرِ؛ وفازوا من إنجازِ الوعدِ بأقصى الوَطَرِ، وأنتظموا فى سِلكِ المِلَّةِ الرَفيعةِ آنتظامَ الدَّرَرِ؛ والدعاء لمقامِكِ الأعلى باتصالِ المَسَرَّاتِ وتوالى البُشَرِ، والسعدِ الذى تجرى بأحكامه النافذة تصاريْفُ القَدَرِ، والصنْعِ الذى يُجَلِّى عَجائِبُهُ فى أجملِ الصُورِ - فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من حُطُوطِ فضلِهِ وإحسانِهِ أَجْرَلِ الأقسامِ، وعَرَّفَكُم عوارِفَ نِعَمِهِ الثَّرةِ وآلائِهِ الجِسامِ - من حمراءِ غَمْرَ ناطةٍ - حرسها الله - واليُسْرُ بفضلِ الله طارِدُ الأزماتِ بعد ما قاعدتْ، وكاشفُ الشدائدِ بعد ما أبرقتْ وأرعدتْ . ثم ما عندنا من الاعتدادِ بآياتِكُم التى أنجزتْ لنا فى الله ما وعدتْ، ومددنا إليها يدَ الانتصارِ على أعدائه فأسعدتْ؛ إلا الصنْعُ العجيبُ، واليُسْرُ الذى أتاحَ الطَّافَةَ السميعِ الحُجيبِ؛ واليُمْنُ الذى رفعَ عمادَهُ التيسيرِ الغريبِ، ومدَّ رِواقَهُ الفرجِ القريبِ؛ وإلى هذا أيدِكُم الله على أعدائه، وأجزلَ لديكم مواهِبَ آلائِهِ؛ وحَكَمَ للإسلامِ على يديكم بظهورِهِ وأعتلائِهِ، وعَرَّفَكُم من أخبارِ الفتحِ الهنئِ المدفَعِ وأنبائه كلِّ شاهدٍ برحمته وأعتنائه . فإنا كتبناه إليكم مُحَقَّقٌ لديكم البُشْرَى التى يمثُلها تُنضَى الرِّكابِ^(٢)، ويُخاضُ العُبابِ؛ وتَعْرِضُ عليكم ثَمرةَ سعدِكُم الحديدِ الأتوابِ؛ المَفْتَحُ للأبوابِ؛ علمها بما عندكم

(١) فى رِجْانةِ الكُتابِ "مَكابِرُ" .

(٢) الرِكابِ المَطَى واحداها راحلةٌ من غيرِ لفظِها .

من فضل الأخلاق، وكرم الأعراق ؛ وأصالة الأحساب ، والمعرفة بمواقع
نعم الله التي لا تجرى خلقه على حساب ، والعناية بأمر هذا القطر الذي تعلق
بأذيال ملككم السامى الجناب . [وقد تقرر لدى مقامكم الأسنى ما كانت الحال
آلت إليه بهذا الطاغية^(١)] الذى غرّه الإمهال والإملاء ، وأقدمه على الإسلام
التحصيص المكتوب والابتلاء ؛ فتملاً تيهها وُعجبا ، وأرتكب من قهر هذه الأمة
المسامية مَرَكبا صعبا ؛ وسام كلمة الإسلام بأسا وحربا ، فكاتب برّه توسع
الأرجاء طعنا وضربا ؛ وكاتب بجره تأخذ كل سفينة غصبا ؛ والمحاوف قد تجاوزت
شرقا وغربا ؛ والقلوب قد بلغت الحناجر عمّا وكربا ؛ وجبل الفتح الذى هو باب
هذه الدار ، وسبب الاستعداد على الأعداء والانتصار ، ومسلك الملة الحنيفة
إلى هذه الأقطار ؛ قد رماه ببوائقه ، وصير ساحته مجرّ عوالبه ومجرى سوابقه ؛
وتأخذ دَارَ مَقَامِهِ ، وجعله سُغْلَ يَقْظَتِهِ وحُلْمَ مَنَامِهِ ، ويُسرله ما يجاوره من المعامل
إملاء [من الله] لأيامه ؛ فاستقر به القرار، وأطمأنت الدار، وطال الحصار، وعجزت
عن نصره الخيل والأنصار، ورجمت الظنون وساءت الأفكار، وشجر نظار القلوب
الأضطرار، إلى رحمة الله والافتقار، فجز الله الخواطر عظم بها الإنكسار، ودار بإدالة
الإسلام الفلك الدوار، وتمحّص عن عجائب صنع الله الليل والنهار، وهبت نواصم
الفرج ، عاطرة الأرج ، ممن يخفق ما يشاء ويختار ؛ لا إله إلا هو الواحد القهار .
ويبنا نحن نخوض من الشفقة على ذلك المعقل العزيز على الإسلام لجة مترامية
المعاطب ، ونقتعد صعبا لا يليق بالراكب ؛ ولولا التعلق بأسبابكم فى أنواء تلك
الغياب ، وما خلص إلى هذه البلاد من مواهبكم الهامية المواهب ؛ ومواعيدكم الصادقة
ومكارمكم الغرائب ، وكُتبتكم التى تقوم عند العدو مقام الكتاب ؛ وإمدادكم المتلاحق

(١) ساقط من الاصل والتصحيح من ربحانة الكتاب .

تلاحق العظام الجَنَائِبُ ، لما رَجَعَ الكُفْرُ بِصَفْقَةِ الخَائِبِ ؛ إذ تجلَّى نورُ الفَرْجِ من خِلالِ تلكِ الظُّلْمَةِ ، وهَمَّتْ سحابُ الرِّحْمَةِ والنِّعْمَةِ على هذه الأُمَّةِ ؛ ورمى اللهُ العُدُوَّ بِجَبِيشٍ من جُيُوشِ قُدْرَتِهِ أغْنَى عن العَدِيدِ والعُدَّةِ ، وأرانا رَأَى العِيَانَ لطائفِ الفَرْجِ من بعدِ الشَّدَّةِ ؛ وأهلكِ الطاغيةَ حَتَفَ أَنفِهِ ، وقَطَعَ به عن أمله قاطِعُ حَتْفِهِ ، وغالته أَيْدِي المُنُونِ في غِيْلِهِ ، وأنتهى إلى حُدُودِ القواطعِ القويَّةِ والأشعَّةِ المِريخيةِ نصيرُ دليله ؛ فشفى اللهُ منه داءً ، وأخذهُ أشدَّ ما كان أعْتِداداً وأعْتِداءً ؛ وحى الجزيرةَ الغريبةَ وقد صارتْ نُهْبَةً طُغْياتِهِ ، وأشرفه بِرِيقِهِ وهى مُضْغَةٌ في كُؤُواتِهِ ؛ سبحانَهُ لا مبدلَ لِكلماتِهِ .

فانتثرَ سُلُكُهُ الذى نَظَّمَهُ ، وأختلَّ تديبُهُ الذى أحكمه ؛ ونطقتْ بَتَّارِ مَحَلَّاتِهِ ألسنةُ النارِ ، وعاجلتْ أنْتَظَمَها أَيْدِي الأنتثارِ ؛ وركدتْ رِيحُهُ الرِّعْزِعُ من بعدِ الإِعْصارِ ، وأصبح من استَظْهَرَ به من الأَشْياعِ والأَنْصارِ ﴿ يُجَرِّبُونَ بِيُوتِهِمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الأَبْصَارِ ﴾ وولَّوا به يَحْتُونُ التُّرابَ فوقَ المَفارِقِ والتُّرابِ ، ويخيطونَ بَيرَ السَّبَالِ الصُّهْبِ بَدُوبِ الدَّوَابِ ؛ قد لَيْسُوا المُسَوِّحُ حُرْناً ، وأرسلوا الدَّمُوعَ مُرْناً ؛ وشقُّوا جُوبَهُمْ أَسْفاً ، وأضرُّوا قلوبَهُمْ تلهُفاً ؛ ورأوا أنَّ حِصْنَ اسْتَبُونَةَ لا يَتَأَثَّرُ لهُمُ به امْتِناعٌ ، ولا يَمَكِّنُهُمُ لمن يرومُهُ من المُسلمينَ دِفَاعٌ ؛ فأخَلَّوهُ من سُكَّانِهِ ، وعاد فيه الإسلامُ إلى مَكَانِهِ ؛ وهو ما هو من طِيبِ البُقْعَةِ ، وأنْفِساخِ الرُّقْعَةِ ؛ ولو تَمَسَّكَ به العُدُوُّ لكان ذلكِ الوَطَنُ بسُوءِ جِوارِهِ مَكْدُوداً ، والمُسَلِّكُ إلى الجِبلِ - عِصْمَةُ اللهِ - مُسْدُوداً ؛ فكان الصنِيعُ فيه طِرازاً على عاتقِ تلكِ الحِلَّةِ الضَّافِيَةِ ، ومزِيداً حُسْبِيَّ العارِفَةِ الوافِيَةِ ؛ فلَمَّا اسْتَجَلِينا غَرَّةَ هذا الفِتحِ الهَيْبِيِّ ، والمَنْعِ السَّنِيِّ ، قابِلنَا بِشُكْرِ اللهِ تَعَالَى وحمْدِهِ ، وَضَرَعْنَا إِلَيْهِ فى صِلَةِ نِعْمَةٍ فلا نِعْمَةٌ إلا من عِنْدِهِ ؛ وَعَلِمْنَا أَنَّهُ عُنْوانٌ على مُزِيدِ مَلِكِكُمُ الأَعْلَى وَعِلامَةٌ على سَعْدِهِ ، وَأَثَرٌ نَبِيَّتِهِ

للإسلام وحسن قصده ؛ ونغر ذخره الله لأيامكم لا نهاية لحده ، فإنكم صرفتم وجه عيانتكم إلى هذا القطر على نأى المحلّ وبعده ؛ ولم تشغلتم الشواغل عن إصلاح شأنه وإحزال رّفده .

وأما البلد المحصور ، فظهر فيه من عزّمكم الأمضى ما صدق الآمال والطنون ، وشرح الصدور بمقامكم وأقرّ العيون : من صلة الإمداد على الخطر ، وتردد السابلية البحرية على بُعد الوطن وتعذر الوطر ؛ واختلاف الشواني التي تسرى إليه سرى الطيف ، وتخلص سهامها إلى غرضه بعد أذى وكيف ؛ حتى لم تعدم فيه مرفقة يسوء فقداؤها ، ولا عتة يهيم شأنها ؛ فجزاؤكم عند الله موفور القسم ، وسعيكم لديه مشكور الذم ؛ كفا الله أعمالكم العالية الهمم ، وخلالكم الزاكية الشيم ؛ فقد سعد الإسلام - والحمد لله - بملككم الميمون الطائر ، وسرت أبناء عيانتكم بهذه البلاد كالمثل السائر ؛ وما هو إلا أن يستتب اضطراب الكفار واختلافهم ، ويتنازع الأمر أصنافهم ؛ فتغتمون إن شاء الله فيهم الغرة التي ترتبها العزائم الشريفة ، والهمم المنيفة ؛ وتجمع شيمكم العليا ، بين نخر الآخرة والدنيا ، وتحصل على الكمال الذي لا شرط فيه ولا ثنيا ؛ فاهنؤوا هذه النعمة التي حباها الله إلى أيامكم ، والتحفة التي بعثها السعد إلى مقامكم ؛ فإنما هي بتوفيق الله ثمرة إمدادكم ، وعقبى جهادكم ؛ أوزعنا الله وإياكم شكرها ، وأهمننا ذكورها .

عرفناكم بما أتصل لدينا ، وورد من البشائر علينا ؛ عملاً بما يجب لمقامكم من الإعلام بالمتريّيات ، والأحوال الوارِدات ؛ ووجهنا إليكم بكتابتنا هذا من ينوب عنا في هذا الهناء ، ويُقرّر ماعندنا من الولاء ، وما يتردّد لدينا بالأبناء ؛ خالصة إنعامنا ، المتميّز بالوسيلة المرعية إلى مقامنا ؛ الحظيّ لدينا ، المقرب إلينا ؛ القائد الفلانيّ أبا الحسن عبادا وصل الله عزّته ، ويمنّ وجهته ؛ ومجدكم ينعم بالإصغاء إليه ، فيا أحلنا فيه من ذلك عليه ، والله يصل سعدكم ، ويحرس مجدكم ؛ والسلام .



وكما كتب عنه أيضا إلى السلطان (أبي سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب تلمسان، عند بعثه بطعام إلى الأندلس، شاكرًا له على ذلك، ونخبًا له بفتح حصن من حصون الأندلس يسمى حصن قنيط، وهو :

المقام الذى تحدثت بسعادته دولة أسلافه ، واتفق به قولنا من بعد اختلافه ، وعاد العقد إلى انتظامه والشمل إلى اتئلافه ، مقام ولينا فى الله الذى هيا الله له من جميل صنعه أسبابا ، وفتح به من [مهمهم^(١)] السعد أبوابا ، وأطلع منه فى سماء قومه شهابا . وصفيينا الذى نسمب القول فى شكر جلاله ووصف خلاله إسبابا ، السلطان أبو سعيد عثمان ، ابن الأمير أبى زيد ، ابن الأمير أبى زكريا ، ابن السلطان أبى يحيى يغمراسن ، بن زيان ، مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه - أبقاه الله للدولة الزبانية - يزين بالأعمال الصالحة أجيادها ، ويملك بالعدل والإحسان قيادها ، ويجرى فى ميدان التمدى والباس ، ووضع العرف بين الله والناس ، جيادها . سلام كريم كما زحقت للصباح شهب المواكب ، وفتحت عن نهر المجرة أزهار الكواكب ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد حمد الله جامع الشمل بعد أنصداعه وشتاته ، وواصل الجبل بعد انقطاعه وأثباته ، سبحانه لامبدل لكلماته ، والصلاح على سيدنا ومولانا محمد رسوله الصادع باياته ، المؤيد بيناته ، الذى أصفاه لحمل الأمانة العظمى ، وحباه بالقدر الرفيع والحل الأسمى ، والله أعلم حيث يجعل رسالته . والرضا عن آله وصحبه وأنصاره وحره وحماته ، المتواصلين فى ذات الله وذاته ، القائمين بنصر دينه وقهر عداته . فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم سعدا ثابت الأركان ، وعزاسا ساجى المكان ، ومجدا

(١) الزيادة من ربحانة الكتاب .

وَثِيقَ الْبُنْيَانِ ، وَصُنْعًا كَرِيمَ الْأَثْرِ وَالْعِيَانِ - مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةِ - حَرَسَهَا اللَّهُ - وَالثَّقَّةُ بِاللَّهِ
سُبْحَانَهُ أَسْبَابُهَا وَثِيقُهُ ، وَأَنْسَابُهَا عَتِيقُهُ ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ لَا تَلْتَبِيسَ مِنْ سَالِكِهِ طَرِيقَهُ
وَلَا تَخْتَلُطُ بِالْحَاجِزِ مِنْهُ حَقِيقُهُ ؛ وَعِنْدَنَا مِنَ الْإِعْتِدَادِ بِكُمْ فِي اللَّهِ عُقُودٌ مُبْرَمَةٌ ، وَأَيُّ
فِي كِتَابِ الْإِخْلَاصِ مُحْكَمَةٌ ، وَلَدَيْنَا مِنَ السَّرُورِ ، بِمَا سَنَّاهُ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ أَسْبَابِ الظُّهُورِ ،
الَّذِي حُلَّلَهُ مُعَلِّمُهُ ، وَحُجِّجَهُ الْبَالِغَةُ مَسَلَّمُهُ ، مَا لَانْفِي الْعِبَارَةِ بِبَعْضِ حُقُوقِهِ الْمُتَلَتَّمَةِ ؛
وَالِي هَذَا - أَيْدِ اللَّهِ أَمْرًا - فَإِنَّا وَرَدْنَا عَلَيْهَا فَلَانِ وَصَلَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ ، وَسَنَّى سَلَامَتَهُ ؛
صَادِرًا عَنْ جِهَتِكُمُ الرِّفِيعَةِ الْجَانِبِ ، السَّامِيَةِ الْمَرَاقِبِ ؛ طَلَّقَ اللِّسَانَ بِالنِّسَاءِ بِمَا خَصَّكُمْ
اللَّهُ بِهِ مِنْ فَضْلِ الشَّمَائِلِ وَكَرَمِ الْمَذَاهِبِ ، مُحَدِّثًا عَنْ بَحْرِ مَكَارِمِكُمْ بِالْعَجَابِ ؛ فَخَضَرَ
بَيْنَ يَدَيْنَا مُلْقِيًا مَا شَاهَدَهُ مِنْ زَيْدِيَادِ الْمَشَاهِدِ ، بِتِلْكَ الْإِيَالَةِ ، وَاسْتَبْشَارِ الْمَعَاهِدِ ، بِعُودَةِ
ذَلِكَ الْمَلِكِ الرَّفِيعِ الْجَلَّالِ ، الشَّهِيرِ الْأَصَالَةِ ؛ وَوَصَلَ صُحْبَتَهُ مَا حَمَّتْ جَفْنَةٌ مِنَ الطَّعَامِ
بِرِسْمِ إِعَانَةِ هَذِهِ الْبِلَادِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ ، وَالْإِمْدَادِ الَّذِي آفَتْحَتْكُمْ بِهِ دِيْوَانَ أَعْمَالِكُمُ السَّنِيَّةِ ،
وَأَعْرَبْتُمْ بِهِ عَمَّا لَكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ خَالِصِ النَّيَّةِ ؛ وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ لَأِنَّمَا هُوَ رِشَّةٌ
مِنْ عَمَّامٍ ، وَطَلِيعَةٌ مِنْ جَيْشِ هَلَامٍ ؛ وَوَفَّدَ مِنْ عَدَدٍ ، وَبَعْضٌ مِنْ مَدَدٍ ؛ وَأَنَّ عِزَّائِكُمْ
فِي الْإِعَانَةِ وَالْإِمْدَادِ عَلَى أَوْلَاهَا ، وَمَكَارِمِكُمْ يُنْسَى الْمَاضِي مِنْهَا بِمُسْتَقْبَلِهَا ؛ فَأَثْنِينَا عَلَى
قَصْدِكُمُ الَّذِي اللَّهُ أَخْلَصْتُمُوهُ ، وَبِهَذَا الْعَمَلِ الْبَرِّ خَصَّصْتُمُوهُ ؛ وَقَلْنَا : لَا يَنْكَرُ الْفَضْلُ
عَلَى أَهْلِهِ ، وَهَذَا يَرْصَدُ عَنْ مَحَلِّهِ ؛ فَلَيْسَتْ إِعَانَةُ هَذِهِ الْبِلَادِ الْجِهَادِيَّةِ بِيَدْعٍ مِنْ
مَكَارِمِ جَنَابِكُمُ الرَّفِيعِ ، وَلَا شَاذَّةٍ فِيمَا أَسْدَى عَلَى الْأَيَّامِ مِنْ حُسْنِ الصَّنِيعِ ؛ فَقَسَدَ عِلْمُ
الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ ، وَلَوْ سَكَّتُوا أَثْنَتْ عَلَيْهَا الْحَقَائِبُ ؛ مَا تَقَدَّمَ لَسَلْفِكُمْ فِي هَذِهِ الْبِلَادِ
مِنْ الْإِرْفَاقِ وَالْإِرْفَادِ ، وَالْأَخْذِ بِالْحِظِّ الْمَوْفُورِ مِنَ الْمُدَافَعَةِ وَالْجِهَادِ ؛ وَأَتَمَّ أَوْلَى مَنْ
جَدَّدَ عُهْدَ قَوْمِهِ ، وَكَانَ غَدُهُ فِي الْفَخْرِ أَكْبَرَ مِنْ يَوْمِهِ ؛ وَقَدْ ظَهَرَتْ لَكُمْ فِي حِزِّ تِلْكَ

(١) مراده سفينة أو نحو ذلك .

الإيالة الزبانية نتيجة تلك المقدمات، وعُرفت بركة ما سلفتَه من المكرّمات. وسنى
الله سبحانه بين يدى وصول مابه تفضّلتهم، وفي سبيله بذلتهم، أن فتح جيشنا حصناً
من الحصون المجاورة لغربى مالقة يُعرف بحصن قنيط من الحصون الشهيرة المعروفة،
والبقع المذكورة بالحِصْب الموصوفه؛ ودفع الله مضرته عن الإسلام وأهله، ويسره
بعمهود فضله؛ فجعلنا من ذلك الطعام الذى وجّهتم طعمة حماته، ونفقات رجاله
ورماته، اختياراً له فى أرضى المرافق من سبيل الخير وجهاته. وأما نحن فإن ذهبنا إلى
تقرير ما عندنا من الثناء، على معالى ملككم الأصيل البناء، والأعتداد بمقامكم الرفيع
العماد، والأستناد إلى ولائكم الثابت الإسناد؛ لم نبغ بعض المراد، ولا وفى اللسان
بما فى القوادى؛ فمن الله نسأل أن يجعله فى ذاته، وذريعة إلى مرضاته؛ ومرادنا
من فضلكم العميم، وودكم السليم؛ أن تحسبوا هذه الجهة بجهتكم فيما يعرض من
الأغراض: لنعمل فى نتميمها بمقتضى الود العذب الموارد، الكريم الشواهد؛ والله
يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام.

الضرب الثانى

(أن يقع الإبتداء بالمقتر)

والرسم فيه أن يقال: المقتر، ويُنعت، ثم يقال: مقتر فلان، ويُنعت بالألقاب،
ثم يُذكر المكتوب عنه. ثم يقال: أما بعد حمد الله، ويؤتى على الخطبة إلى آخرها؛
ثم يقال: فإننا كتبناه لكم من موضع كذا، ويُتخلّص إلى المقصد بلفظ: وإلى هذا
فإن كذا وكذا، ويؤتى على المقصد إلى آخره ويُختم بالسلام.

كما كتب ابن الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر إلى عجلان سلطان مكة شرفها
الله تعالى وعظّمها، وهو:

المَقَرَّ الأَشْرَفُ ، الذِي فَضَّلَ المَحَالَ الدِينِيَّةَ مَحَلَّهُ ، وَكَرَّمَ فِي بَرْزَمِزَمَ مَبْنُطَ إِسْمَاعِيلَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَهْلَهُ وَعَلَّهُ ، وَخَصَّه بِإِمْرَةِ الحَرَمِ الشَّرِيفِ الأُمِينِ مَنْ بِيَدِهِ الأَمْرُ كُلُّهُ ؛ فَاسْفَرَ عَنْ صُبْحِ النُّصْرِ العَزِيزِ فَضَّلَهُ ، وَأَشْتَمَلَ عَلَى خَوَاصِّ الشَّرْفِ الوَّضَاحِ جَنْسُهُ وَفَضَّلَهُ ، وَطَابَتْ فُرُوعُهُ لَمَّا آسَمَدَتْ مِنْ رِيحَاتِي الجَنَّةِ أَصْلُهُ .

مَقَرُّ السُّلْطَانِ الجَلِيلِ ، الكَبِيرِ ، الشَّرِيفِ ، الطَّاهِرِ ، الظَّاهِرِ ، الأَجْمَدِ ، الأَسْعَدِ ، الأَوْحَدِ ؛ الأَسْمَى الشَّهِيرِ البَيْتِ ، الكَرِيمِ الحَيِّ وَالمَيِّتِ ، المَوْقَرِّ ، المَعْظَمِ ، ابنِ الحُسَيْنِ ، وَحَافِدِ سَيِّدِ الثَّقَلَيْنِ ؛ تَاجِ المَعَالِي ، عَزِّ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبِي السَّبْقِ عِجْلَانَ ، ابنِ السُّلْطَانِ الكَبِيرِ ، الشَّهِيرِ ، الرَّفِيعِ ، الخَطِيرِ ، الجَلِيلِ ، المَثِيلِ ، الطَّاهِرِ ، الظَّاهِرِ ، الشَّرِيفِ ، الأَصِيلِ ، المَعْظَمِ ، الأَرْضِيِّ ، المَقْدَسِ ، المَنْعَمِ ، أَسَدِ الدِّينِ ، أَبِي الفَضْلِ "رَمِيثَةَ" بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي سَعِيدِ الحُسَيْنِيِّ - أَبَقَاهُ اللهُ ، وَجَعَلَ أَفئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَى إِلَى قَاطِنِي مَثَوَاهُ ، عَلَى بُعْدِ الدَّارِ ، وَتَتَقَرَّبُ فِيهِ إِلَى اللهِ بِالنِّثَامِ التَّرَابِ وَاسْتِلَامِ الحِدَارِ ، وَتُجِيبُ أَذَانَ نَبِيِّهِ إِبرَاهِيمَ بِالحُجِّ إِجَابَةً الإِيتِدَارِ ؛ وَهَنَاهُ المِزِيَّةَ الَّتِي خَصَّه بِهَا مِنْ بَيْنِ مُلُوكِ الأَقْطَارِ ، وَأَوَّلِي المَرَاتِبِ فِي عِبَادِهِ وَالأَخْطَارِ ؛ كَمَا رَفَعَ قَدْرَهُ عَلَى الأَقْدَارِ ، وَسَجَّلَ لَهُ بِسِقَايَةِ الحُجِّ وَعِمَارَةِ المَسْجِدِ الحَرَامِ عَقْدَ الفَخَارِ . وَيُنْهَى إِلَيْهِ أَكْرَمَ التَّحِيَّاتِ نَتَاجُجَ عَنْ شَدَا الرُّوْضَةِ المِعْطَارِ ، عَقَبَ الأَمْطَارِ ، مَعْظَمَ مَاعِظَمِ اللهُ مِنْ شَعَائِرِ مَثَوَاهُ ، وَمَلْتَمَسُ البَرَكَةِ مِنْ أَبْوَابِ مِفْتَاحَتِهِ وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَاهُ ؛ وَمُوجِبُ حَقِّهِ الذِي يَلِيقُ بِمَنْ يَتَوَلَّى وَالرِّضَا أَبَوَاهُ ، الشَّيْقُ إِلَى الوَفَادَةِ عَلَيْهِ وَإِنْ مَطَّلَهُ الدَّهْرُ وَلَوَّاهُ ؛ فَلَان . كَانَ اللهُ لَهُ فِي غَرْبَتِهِ وَأَنْفَرَادِهِ ، وَتَوَلَّى عَوْنَهُ عَلَى الجِهَادِ فِيهِ حَقَّ جِهَادِهِ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ وَبِإِلَى الحَمْدِ فِي الأَوَّلِي وَالأَآخِرِ ، وَمَطْمَاحِ النُّفُوسِ العَالِيَةِ وَالمِهْمَمِ الفَاخِرِ ؛ مُؤَيِّدِ العِزَائِمِ التَّعَاوُضَةِ فِي سَبِيلِهِ المِتَنَاصِرَةِ ، وَمُعِزِّ الطَّائِفَةِ المُؤْمِنَةِ وَمُنَدِّ

الطائفة الكافرة ، ومُنِيلِ القياصرة الغلب والأكاسره ، وتاركِ أرضها عبْرَةَ لآذَانِ السامعةِ والعيونِ الباصرة .

والصلاةِ على سيدنا ومولانا محمدٍ عبده ورسوله نبيِّ الرحمة الهاميةِ الهامره ، والبركاتِ الباطنةِ والظاهرةِ ؛ المجاهدِ في سبيلِ الله بالعزائمِ الماضيةِ والصَّوارمِ الباتره ، مُصمِّمِ الشَّقَاشِقِ الهادره ، ومُرغِمِ الضَّلالةِ المكابره ؛ المنصورِ بالرَّعبِ من جنودِ ربِّه الناصره ، المحروسِ بحرسِ الملائكةِ الوافره ، الموعودِ مَلِكِ أُمَّتِهِ بما رُوى له من أطرافِ البَسِيطَةِ العامره ، حسبَ ما ثبتَ بالدلائلِ المتواتره .

والرِّضا عن آلهِ وأحزابه ، وعِترتهِ وأصحابِهِ ، المجاهدةِ الصابره ؛ أولى القلوبِ المُراقِبةِ والألسُنِ الذاكِره ، والآدابِ الحريضةِ على الأهتداءِ بهداهِ المتأثره ؛ الذين جاهدوا في الله حقَّ جهادهِ يخوضون لأن تكون كلمةُ الله هي العليا بحارِ الرِّوعِ الزَّاحِره ؛ ويُقدِّمون بالجموعِ القليلةِ على الآلافِ المتكاثِره ، حتى قُتِلَتْ بظهورِ الإسلامِ العيونُ الناظِره ، وحلَّتْ في العدوِّ الفاقِره ، فكانوا في الذَّبِّ عن أُمَّتِهِ كالأسودِ الحارِره ، وفي الهدايةِ سِماءِ ملتهِ كالنجومِ الزاهِره .

والدعاءِ لشرفِكُم الأصيلِ المَناسبِ الطاهره ، والمكَّارِمِ الزاهيةِ بِنُوءِ الزَّهراءِ البتُولِ بِضَعَةِ الرِّسولِ الزَّاهِره ، بالصَّنْعِ الذي يُسْفِرُ عن الغُمرِ المشرقةِ السَّافِره ، والعِزِّ الذي يَضْفُو منه الجَنَاحُ على الوفودِ الوافِره ، والفُضلاءِ من المجاوره ، ولا زال ذِكْرُكُمْ بالجَميلِ هَيَّيرِ الرِّكائبِ الوارِدةِ والصابِره ، والثناءِ على مكارِمِكُم يُججَلُ أنفاسَ الرِّياضِ العاطِره ، عَقِبَ الغائمِ الماطِره .

فإنَّا كتبناهُ إليكم - كتب اللهُ لكم عنايةً تحجبُ الأسواءَ [بجُنْهِها] الساتِره ، ورعايةً تجمعُ الأهواءَ المختلفةَ والقلوبَ المتنافِره - من حمراءِ غرناطةِ دارِ المَلِكِ الإسلاميِّ

(١) الزيادة من ربحانة الكتاب .

بالأندلس - حرسها الله ووفّر جموع حاميتها المناغره - وسدّ بيد قدرته ما هم بها من أفواه العدى الفاغره ، ولا زالت سمائب رحمة الله الحائطة لها الغامره ، تُظَلِّلْ جموع جهادها الظافره ، وتجوّد ريم شهادتها الناخره ، ونعم الله تحطُّ ركائب المزيد في نواديا الحامدة الشاكره .

والحمد لله كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله . وجانبكم موفى حقّه من التعظيم الذى أناف وأربى ، وقدرتم يعرفه من صام وصلّى فضلاً عن حجّ ولبي ، ومستند ودمكم ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وإلى هذا - حرس الله مجدكم ومقرّم الأشراف ، كما سحّب على البيت العتيق ظلكم الأورف - فإنّ الجهاد والحجّ أخوان ، يشهد بذلك الملوان ، مرتضعان ندى المناسبه ، ويكادان يتكافآن في المحاسبه : سقرا وزادا ، ونيةً وأستعدادا ، وإتلافاً لمصون المال وإنقادا ، ونروجاً إلى الله لا يؤثّر أهلا ولا ولداً وإن أقرقا محلاً فقد أجتما جهادا ، ورفعاً لليلة منارا سامياً وعمادا ، ووطننا - والحمد لله - على هذا العهد المخصوص بكمال هذه المزيه ، والقيام بفرض كفايتها البحرية والبرية عن جميع البرية ، [السليمة من الضلال البرية] وهذا النسب واشجة عروقه ، صادقة بروقه ، ومئاته لا يفضله مئات ولا يفوقه . ونحن نعرفكم بأحوال هذا القطر المستمسكة فروعه بتلك الجرثومة الراسية ، الممدودة أيديه إلى مثابتها المتصدقة بالدعاء الموائيه ؛ فاعلموا أن الإسلام به مع الحياة في سقّ حرج ، وفي أمر مريج ؛ وطائفة الحق قليل عددها ، منقطع إلا من الله مددها ، مستغرق يومها في الشدة وغدها ؛ فالطلائع في قنن الجبال تُور ، والمُصحر من بيته مغزّر ؛ والصيحة مع الأحيان مسموعه ، والأعداء لرد ما أستخلصه الفتح الأول مجموعه ؛ والصبر قد ليست مدارعه ، والنصر قد أتمست مشارعه ؛ والشهداء تتوش أشلاءهم

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" . (٢) المئات مايمت به .

القشاع ، وتحتفلُ منها للعواصِ الولائم والمطاعم ، والصَّيَّاتُ تُدْرَبُ على العمل بالسَّلاح ، وتُعَلَّمُ أحكامَ الجهادِ تعلَّمُ القرءان في الألواح ، وأذانُ الخيل مستشرفة للصَّياح ، ومفارقِ الطائحين في سبيل الله تعالى تَبَلُّ بِأيدى الرياح ، والمآذنُ تُجيبها النواقيسُ مناقِضه ، وتراجِعُها مُغاضِبَةٌ معارِضه ، وعددُ المسلمين لا يبلغُ من عدد الكفار ، عَشْرُ المعشار ، ولا وَبْرَةٌ من جلود العِشار ، إلا أن الله عز وجلَّ حلَّ بولآيتنا المَحْنَقِ المشدود ، وفتح إلى التيسير المِهْيَعِ المشدود ، وأضفى ظلالُ الأيمن الممدود ، وأهَمَّ - وله الشكرُ على الإلهام ، وتسديد السَّهام . والحمد لله الذي يفوت مدارك الأفهام - إلى اجتهادِ قُرْنٍ به التوفيق ، وجهادِ نُهْجٍ به إلى النجاة المُنْجِيَةِ الطريق ، سبحانهُ من كريمٍ يُلْهِمُ العملَ ليُثيب ، ويأمرُنا بالدعاء ليُجيب ، فتحركنا حركاتٍ ساعدَها - والله المنَّة - السعد ، وتولى أمرَها ونُصرتَها مَنْ له الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْدُ .

ففتحنا مدينةَ بُرْغَةَ الفاصلةَ كانت بين البلادِ المُسلمه ، والشَّجَا المَعْتَرِضِ في نَحْرِ الكَلِمه ، وتبعها بناتُ كَنْ يَرْضَعْنَ أخلافَ دِرَّتِها ، ويتعلَّقْنَ في الحربِ والسَّلمِ بأرْزَتِها . ثم نازلنا حصنَ آشِ رِكابِ الغاراتِ الكافره ، ومستقرَّ الشوكةِ الوافره ، فرفع الله إِصْرَه الثقيل ، وكان من عَثْرَةِ الدِّينِ فيه المَقِيل .

ثم قصدنا مدينةَ الجزيرة بنتَ حاضرة الكفر ، وعَمْرَيْنِ الأسودِ العُلبِ وكِئاسِ الظَّباءِ العُقر ، فاستبحناها عَنوةَ أضرمت البلادَ ناراً ، ودارت بأسوارها المنيعه سِوَاراً ، وآستأصلنا أهلها قَتلاً وإساراً ، وملأتِ الأيدي من نُقاوَةِ سَبِي تَعَدَّدت آلافه ، وموفورُ غنمٍ شَدَّتْ عن العبارة أوصافهُ .

ثم كانت الحركةُ إلى مدينةَ جِيانَ وشُهْرَتِها في المعمور ، وشياعُ وصفها المشهور ، تُغْنِي عن بسطِ مالها من الأمور ، ففتحها الله على يَدِينا عَنوةَ وجعلت مقاتلتها نهباً

للسيوف الرقاق، وسببها ملكة للأسترقاق، وأهله مبانيها البيض دريعة للمحاق،
وأستولت على جميعها أيدي الهدم والإحراق؛ ثم دكت الأسوار، وعقرت الأشجار،
وأستخلف على خارجها النار، فهي اليوم صَفْصَف ينشأ بها الاعتبار، وتعجب
الأبصار .

وغزونا بعدها مدينة أبدة أختها الكبرى، ولدتها ذات المحل الأسمى؛ وكانت
أسوة لها في التدمير، والتتير، والعفاء المبير .

ثم نازلنا مدينة قرطبة وهي أم هذه البلاد الكافرة، ودار النعم الوافرة، وذات
المحاسن السافرة؛ فكدنا نستبيح حاماها المنيع، ونُسنت شملها الجميع، ونحتفل بفتحها
الذي [هو للدين أجل] صنيع^(١)، لولا عوائق أمطار، وأجل مته إلى مقدار؛ فرحلنا عنها
بعد آتهاك زلزل الطود، ووعدناها العود؛ ونؤمل من فضل الله إنفاذ البشري بفتحها
على بلاد الإسلام، ومناحة من بها من الملوك الأعلام، بالإخبار به والإعلام .
وبلغ [من] صنيع^(١) الله لنا وهو كافٍ من توكل عليه، وفوض الأمور إليه؛ أن لاطفنا
النصر بخصون أربعة لم نوجف عليها ركابا، ولا تملكها غلابا؛ فطهرنا بيوت الله
من دنس الأوثان، وعوضنا النواقيس بكلمة الإيمان . والحمد لله على مواهب
الإمتان، ومنه نستريد عوائد الإحسان .

وهذه المجملات تحتل شرحا، تسبح في بجره سنان الأعلام سبحا؛ من أوصاف
مغانم شدت عن الحصر، ومواقف لتزل السكينة وهبوب النصر؛ وما ظهر من جد
المسلمين في آفتاح تلك المعادل المنيع المنيقه، ومقارعة الجموع الكثيفه؛ وبركة
الحرم الشريف في كل حال موجوده، وأقطار الإسلام بها مجوده، والوسائل إلى الله
بأهله في القديم والحديث لا محبة ولا مردوده؛ فهو الأصل، والغمد الذي سل

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الريحانة .

منه النَّصْلُ ؛ حتى بلغ التَّخَوُّمَ القاصيه ، وذَلَّلَ المالك المتعاصيه ، وقاد من تَفَاعِدِ
أو تَفَاعَسِ بالناصيه .

وقد ظهر لنا أن نوجه الى المدينة المقدسة صلوات الله على من بها وسلامه رسالة
نعرفه بهذه البركات الهامية من سماء عنايته المعدودِ خارقها آية من آياته ، وكلنا جناه ،
وما بُكَّا لَهْتِدِي لولا أن هدانا الله هُدَاهُ ؛ وأصحبنا أشخاصا من نواقيس الفَرَجِ مما
تأثى حملة ، وأمكن نَقْلُهُ ؛ وما سواه فكانت جبالا ، لا يقبل نقلها آحتيالا ؛ فتناول
درعها المَسْخُ والتكسير ، وُسْفِي بذهاب رسومها الاقامة والتكبير ، والأذَانُ الجَهِير ؛
ومرادنا أن تُعْرَضَ بجمتمع الوفود تَذَكْرَةً تستدعى الإمداد بالدعاء ، وتقتضى بتلك
المعاهد النَّصْرَ على الأعداء ؛ ثم تُصْحَبَ رِكَابَ الزِّيَارَةِ ، الى أبواب النبوة ومطالع
الإناره ؛ وأتم تعملون في توفية هذه الأحوال ورعايتها ، وإبلاغها الى غايتها ؛ ما يلبق
بجسِمِكِ الوَضَاحِ ، ومجدكم الصُّرَاحِ ، وشرفكم المتبلجة أنواره تبليج الإصباح (فأتم خير
من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح) ولكم بذلك الحظُّ الرَّغِيبُ في هذه
الأعمال البرة ، والله سبحانه لا يُضِيعُ مثقال الذرة ؛ وهو سبحانه يتولاكم بما تولى به
من أعزَّ شعاره وعظَّمها ، ورعى وسائله واحترمها ؛ ويصل أسباب سعدكم ،
وينفعكم بقصدكم . والسلامُ الكريم ، الطيبُ البرُّ العميم ؛ يُجِيئُ معاهدكم الكريمة
على الله عهودها ، النامية بغائم الرِّحْمَاتِ والبركات عهودها ؛ ورحمة الله وبركاته .

وربما قُدِّمَ على لفظ المقرِّصلة يُعتمدُ عليها في البُداءِ .

كما كتب عنه أيضا في معنى ذلك إلى أمير المدينة النبوية على ساكنها سيدنا محمد
افضل الصلاة والسلام .

يعتمد المقرُّ الأشرفُ الذي طاب بطيبة نَشْرُهُ ، وجَلَّ بإمارتها الشريفة أمرُهُ ،
وقدَّرَ في الآفاقِ شَرَفُهُ وشَرُفَ قسدرُهُ ، وعظُمَ بِخِدْمَةِ ضريحِ سيدِ ولدِ آدمِ نَحْرُهُ ،

(١) [أبقاه الله منشرحاً بجوار روضة الجنة صدره ، مُشرقاً بذلك الأفق الأعلى بדרه ،]
ذائعاً على الألسن المادحة ، في الأقطار النازحة ، حمدُه وشُكْرُه ، مُزرياً بشدًا المسك
الأذفر في الجمع الأوفرِ ذِكْرُه ؛ تحيةً مُعظَّم ما عَظَّم اللهُ من دار الهجرة داره ،
ومَطَّلَعِ إبداره ، الملتَمِسِ بركة آثاره ، المتقرب إلى الله بحبه وإيثاره . فلان .

أما بعد حمد الله الذي فَضَّلَ البُقَعِ بخصائصها الكريمة ومزايها ، تفضيلَ الرياض
الوَسِيمةِ برَّيَّها ، وجعل منها مَنَابِتِ رحمةٍ تضربُ إليها العبادُ آباطَ مطاياها ، مؤمِّلةً
من الله عُفْرانَ زَلَّاتِها وحَطَّ خطاياها ؛ وحَصَّ المدينةَ الأَمِينَةَ بصرحِ سيدِ المرسلين
فأسعدَ منها مَمَاتِها ومَحْيَاها ، ورفعَ عليها .

والصلاةِ على سيدنا ومولانا محمدٍ رسولِهِ الكريمِ ، الرؤوفِ بالمؤمنينَ الرَّحِيمِ ؛
مُطَّلِعِ أوجهِ السعادةِ يبروقُ مَحْيَاها ، ومُوضِّحِ أسرارِ النَّجاةِ ومَيِّنِ خَفَايَاها ؛ الذي
تَدَارَكَ الخَلِيقَةَ بهديهِ وكَشَفَ بَلَايَاها ، ورعى لِسُنَّةِ اللهِ رَعَايَاها ، وجمعَ بينَ صلاحِ
دينِها ودُنْيَاها .

والرضا عن آله وصحبه ، وعِترتهِ وحِزبه ؛ التي كُرِّمَتْ سَجَايَاها ، وعَظُمَتْ أَلْفَاظُها
المُهاديةُ وهَدَايَاها ؛ وجَاهَدَتْ بعده طوائفَ الكُفَّارِ ، تُسَعِّشُ لها في أكواسِ
الشِّفَارِ ، مَنَايَاها ، وتُطَّلِعُ عليها في الليلِ البَهِيمِ ، سَنَا الصَّبَاحِ الوَسِيمِ ؛ من عُرَّرَ
سَرَايَاها ، وتَسُدُّ بَعَمَامِ الأَسَدِيَّةِ ورياحِ ذَوَاتِ الأَعِنَّةِ ثَنَايَاها .

والدعاء لِمَقَرِّ أَصَالِيتِكُمُ الشَّرِيفَةِ حَيَاها اللهُ وَبَيَّها ، كما شَرَّفَها بِوِلادَةِ الوَصِيِّ الذي قَوَّرَ
وَصَايَاها ، وَسُلَالَةَ النَّبِيِّ الذي أَعْظَمَ مَوَاهِبَ فَخْرِها مِنهُ وَعَطَايَاها ، بِالسَّعَادَةِ التي تُبْرِزُ
أَكْفُ الأَقْدَارِ على مرورِ الأَعْصَارِ حَبَايَاها ، والعِزِّ الذي يُزَاحِمُ فِرْقَدَ السَّمَاءِ وَثَرِيَّها .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) كذا في الريحانة أيضا وأبن الخطيب يستعمل هذا الجمع كثيرا ولكن الذي في كتب اللغة أن جمع

الكاس أكواس وكرس وجر .

فانا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من مواهب الصنع الجميل أغياها ، كما طيب
بذكركم أطراف البسيطة وزواياها ؛ وجعل فخر الحوار الكريم في عبيكم كلمة صدق
لا تختلِف قضاياها ، ممرضت الرياض مرسات عشاياها ؛ فجعات من النواسم
مشمومها ومن الأزهار البواسم حشاياها . من حمراء غرناطة - حرسها الله -
ونعم الله بحوك حللها الجهاد ، والسيوف الحداد ، وتلبسها البلاد والعباد ، وتزيها .
وقول الكفرنا كصة على الأعقاب ، من بعد شد الوثاق وضرب الرقاب ، نزيهاها ؛
وبركات حرم النبي الوجيه على الله يستظلها الإسلام ويتقيها ، ويتنع الغلل
من رواياها .

والحمد لله كثيرا كما هو أهله ، فلا فضل إلا فضله ؛ ولمعاهدكم الكريمة الأرياح ،
كلما أو مضت البروق وخفت الرياح ؛ ولسني عنايتها الأتماح ، إذا أشجرت
الراح ؛ وفي تأميل المتول بها تعمل الأفكار وإن هيض الخناح ، وهداها الاستنارة
إذا خفي للمرآشد الصباح ، وبالإعتال في مرضاة من صمه منها الثرى القواح ، والصفيح
الذي تراث سا كنه العوامل المجاهدة والصفاح والجهاد الصراح ، يعظم في الصدر
الأشراح ، ويعز المغدئ في سبيل الله والمرآح .

وإلى هذا أجزل الله مسرتكم بظهور الدين ، وأعتلاء صبحه المئين ؛ فاننا نعزفكم
أنسا فتح الله علينا وعلى إخوانكم المؤمنين بهذه الثغور المنقطعة الغريه ، الماتية
على الآماد البعيدة بالذم العربية ؛ فتوحا حوزت من مملكة الكفر البلاد ، ونقلت
الطارف والتلاد ؛ حسب ما تنصه مخاطبتنا إلى نبينا الكريم الذي شرفكم الله بخدمة
لحده ، وأستخلفكم على دار هجرته من بعده ؛ إذ لاجابة إلى التكرار بعد ما شرحت
به الصدور من الأخبار ، في الإيراد والإصدار ؛ ووجهنا صحتها من النواقيس التي
كانت تُشيع نداء الضلال ، وتعارض الأذان بجلاذ الحدال ، وتبادر أمر التمثال

بالإمتثال؛ ما يكون تذكراً تحين بها القلوب إلى هذه الطائفة المسلمة إذا رأتها، وتنتظر قبول الدعاء لها من الله كلما نظرتها، وتصور الأيدي المجاهدة التي جنتها من أفنان المستشرفات العالية وأهتصرتها إذا أبصرتها .

وهذا كله لا يتحصل على التمام إلا بمشاركة منكم تسوغه، وإعانة تؤديه وتبلغه؛ تسبيح لكم عند تعرفها الثناء الدائم الترداد، والدعاء بحسن المكافأة من رب العباد، وسهمكم في أمر الجهاد؛ وأتم تعملون في ذلك بما يناسب مثلكم من الشرفاء الأجداد، والله عز وجل يواليكم بنعمه الثرة العهاد، ويعرفكم عوارف السعادة في المبدأ والمعاد، ويختم لنا ولكم بسعادة المعاد؛ والسلام الكريم يخصكم عوداً على بدء ورحمة الله تعالى وبركاته .

الضرب الثالث

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ الإمارة)

بأن يقال : الإمارة التي نعها كذا وكذا إمارة محل أخينا فلان، ويدعى له .
ثم يقال : معظّم إمارته، أو معظّم أخوته فلان . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
أما بعد حمد الله ، ويؤتى بخطبة ؛ ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم كتب الله لكم كذا وكذا من موضع كذا ؛ ثم يختص إلى المقصود بلفظ وإلى هذا، ويؤتى على القصد إلى آخره، ويختم بالسلام على نحو ما تقدم في غيره من الضروب ، وبذلك يكتب إلى الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم . كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر إلى أبي علي الناصر ابن السلطان أبي الحسن المريني بفاس ، عند ما أرسله والده إلى ناحية من النواحي لعمارتها وإصلاح حالها ، مهنتاً له بما أجزاه الله على يديه من الصلاح ، وهو :

الإمارة التي لها المكارمُ الراضية، والعزائمُ الماضية، والحلّالةُ الراقية، والأعمالُ الصالحةُ الباقية، إمارةٌ محلّ أخينا الذي نُعظّمُ مجده السامى الجلال، ونُنثي على سميّه الظاهرة الجلال، ونعتدُّ بوده الكريم الأفعال والأعمال، ونُسرب ما يسنيه الله لعزّه الفسيح الجبال، من عوائد اليمن والإقبال .

الأمير الأجل، الأعز، الأسمى، الأظهر، الأظهر، الأسنى، الأسعد، الأرشد، الأرضى، المؤيد، الأمضى، الأفضّل، الأكل، أبو على الناصر ابن محلّ أبينا الذي نُعظّمه ونجّه، ونوجب له الحقّ الذي هو أهله، السلطان الجليل الكذا أبو الحسن ابن السلطان المؤيد، المعان المظفر، صاحب الجود الشهير في الأقطار، والفضل المتألق الأنوار، والمآثر التي هي أبهى من محيّا النهار، أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل ربّ العالمين، أبي سعيد ابن أمير المسلمين وناصر الدين، قامح الكافرين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي يوسف بن عبد الحق . أبقاه الله والسعود إليه مبتدرة مستيقه، والمسرات لديه منتظمة متسقه، وغرر أيامه واضحة مشرقه، والأهواء على محبته متفقه . معظّم إمارته الرفيعة الجانب، القائم من إجلالها ونسرخلالها بالحقّ الواجب، المثني على مالها من السير الفاضلة المذاهب، والأصالة الرفيعة المناسب، والبسالة الماضية المضارب، والمكارم التي تشهد بها مواقف الجهاد، وظهور الحيات، وصحائف الكتب وصفائح الجلال، الأمير عبد الله يوسف ابن أمير المسلمين، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر . سلام كريم، برعميم، نتأرجح الأرجاء من طيب نفتحته، ويشرق نور الودّ الأصيل على صفحته، يخصّ أخوتكم الفاضله، وإمارتكم الحافله، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذي شرح بالتوكل عليه صدورا ، و [جعل الوُد في ذاته كثرًا^(١) مذخورا] والأعمال التي تقرب إليه نوراً؛ والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بعثه بالحق هاديا وبالرعب منصورا، ورفق لدعوته العالية لواءً من عنايته منشورا، وأختاره لإقامة دين الحق والأرض قد ملئت إفكا وزورا، حتى بلغ ملك أمته ما كان منها معمورا .

والرضا عن آله وأحزابه الذين آتسقوا في قلائد ملته الرفيعة سُدورا ، وطلّوا في سمائها بدورا ، وبدلوا نفوسهم النفيسة في نصره وإعلاء أمره فكانت شفاعته لهم جزاء وكان سعيهم مشكورا .

والدعاء لإمارتكم العالية بالسعد الذي يصاحب منه ركبها مددا موفورا، والتوفيق الذي يوسع عملها نُجحا وأملها سُورا .

فإنا كتبنا إليكم - كتب الله لكم سَعدا متجدد الإحكام، وصنعا مُشرق القسام وافر الأقسام، وعرفكم ماعودكم من عوارف الإنعام، وعوائد النصر الواضح الأعلام- [ولازائد بفضل الله سبحانه، ثم بركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي أوضح برهانه، ثم بما عندنا من التشيع في مقام محل أئمتنا والدم السلطان الجليل، أسعد الله سلطانه! ومهد به أوطانه! إلا ما يرجى من عوائد الله الجميلة، ومِنَّته الجزيلة، وأطافه الكافية الكفيله] وعندنا من التعظيم لتلك الإمارة الرفيعة ما هو أشهر من الشهير، وأعظم من أن يحتاج إلى التفسير؛ فلا نزال نعتد بجانب أخوتها بالعتاد الكبير، والذخر الخطير، ونثني على مكارمها بالقلم واللسان والضمير. وإلى هذا أيد الله إمارتكم، وسنى إرادتكم، وأسعد إدارتكم؛ فقد علم الغائب والشاهد، والصادر والوارد؛ ماعندنا لكم من الحب الذي

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

صَفَتْ مِنْهُ الْمَوَارِدُ ، وَالْوَلَاءِ الَّذِي تَضَوَّعَتْ مِنْ طِيْبِهِ الْمَعَاهِدُ ؛ وَإِنَّا تَعَرَّفْنَا
مَا كَانَ مِنْ قَدُومِكُمُ السَّعِيدِ عَلَى أَحْوَاظِ الْمَرِيَّةِ مِنْ تِلْكَ الْأَفْطَارِ ، وَطُلُوعِكُمْ عَلَيْهَا بِالْعَزْمِ
الْمَاضِي وَالْحَيْشِ الْجَزَارِ . وَأَنْ مَحَلَّ وَالدِّنَا وَصَلَ اللَّهُ لَهُ عُلُوُّ الْمَقْدَارِ ، قَدَّمَ مِنْكُمْ بَيْنَ
يَدَيْهِ مُقَدِّمَةَ الْيَمْنِ وَالْإِسْتِيشَارِ ، وَرَأَيْدَ السَّعَادَةِ الْمُشْرِقَةِ الْأَنْوَارِ ، بِجَلَالِ مَا يَتَلَاخُقُ بِهَا
رِكَابُهُ الْعَالِي قُدْرُهُ عَلَى الْأَقْدَارِ ؛ وَأَنْ مَحَايِلَ النَّجْحِ لِإِمَارَتِكُمُ الرَّفِيعَةَ قَدْ ظَهَرَتْ ، وَأَدِلَّةُ
الصَّنْعِ الْجَمِيلِ قَدْ بَهَّرَتْ ؛ وَمَنْ بَتَلَكَ الْجِهَاتِ ، مِنْ الْقَبَائِلِ الْمُخْتَلِفَاتِ ، بِالطَّاعَةِ
قَدْ أَبْتَدَرَتْ ؛ وَأَبَاؤَ أَمْرِهَا الْإِمَارِيَّةِ قَدْ أَثْمَرَتْ ؛ وَأَنْكُمْ قَدْ أَخَذْتُمْ فِي تَسْكِينِ الْأَوْطَانِ
وَتَهْمِيدِهَا ، وَأَسْتِثْنَاؤِ الْعَزَائِمِ وَتَجْدِيدِهَا ، [وَإِطْفَاءِ نَارِ الْفِتَنِ وَإِحْمَادِهَا] وَإِعْلَاءِ أَرْكَانِ
تِلْكَ الْإِيَالَةِ وَرَفْعِ عِمَادِهَا ؛ فَكَتَبْنَا إِلَيْكُمْ هَذَا الْكِتَابَ نَهْتِكُمْ بِمَا سَنَاهُ اللَّهُ لِمَجْدِكُمُ الرَّفِيعِ ،
مِنْ حُسْنِ الصَّنِيعِ ؛ وَتَقَرَّرَ مَا عِنْدَنَا مِنَ الْوُدِّ الْكَرِيمِ ، وَالْحُبِّ الصَّامِمِ ، وَنَسْتَفْهِمُ عَنْ
أَحْوَالِ أَخْوَاتِكُمْ لِنَتَّوَنَ مِنْ عِلْمِهَا عَلَى السَّنَنِ الْقَوِيمِ ؛ وَحَتَّى لَا تَزَالَ الْأَسْبَابُ مُتَّصِلَةً ،
وَالْمَوَدَّةُ جَدِيدَةً مُقْتَبَلَةً ؛ وَلَوْلَا الْعَوَائِقُ الْمَانِعَةُ ، وَالشُّقَّةُ الْبَعِيدَةُ الشَّاسِعَةُ ، وَالْأَمْوَاجُ الْمَتْرَامِيَّةُ
الْمُتَدَاوِلَةُ ، لَمْ نَغِبْ الْمَخَاطِبَةَ ، وَلَوْصَلْنَا الْمُرَاسِلَةَ وَالْمَكَاتِبَةَ ؛ وَمَجْدُكُمْ يَقْبَلُ الْأَعْذَارَ الصَّحِيحَةَ
بِمَقْتَضَى كِمَالِهِ ، وَمَعْهُودِ إِفْضَالِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُصَلِّحُ بِكُمْ الْأَحْوَالَ ، وَيَسْكُنُ الْأَهْوَالَ ،
وَيُبَلِّغُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ الْأَمَالَ . وَغَرَضُنَا أَنْ تَعْرِفُونَا بِمَا لَدَيْكُمْ مِنَ الْمُتَرَيِّدَاتِ ، وَالصَّنَائِعِ
الْمُتَجَدِّدَاتِ ، وَبِمَا عِنْدَكُمْ مِنْ أَحْوَالِ مَحَلِّ أَيْبِنَا وَصَلَ اللَّهُ عَوَائِدَ النَّصْرِ لِسُلْطَانِهِ ، وَتَكْفُلَ
بِإِعْلَاءِ أَمْرِهِ وَتَهْمِيدِ أَوْطَانِهِ . وَقَدْ كَتَبْنَا إِلَيْهِ صَحْبَةً هَذَا كِتَابًا غَرَضُنَا مِنْ أَخْوَاتِكُمْ
الطَّاهِرَةِ ، أَنْ يَصَلَ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ تَحْتَ عِنَايَتِكُمْ وَوَصَاتِكُمْ ، وَالرَّعَايَةِ الَّتِي تَلِيْقُ
بذَاتِكُمْ ؛ وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَصِلُ سَعْدَكُمْ وَيُحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، وَيَحْفَظُ وِلَاءَكُمْ الْكَرِيمِ وَوُدَّكُمْ ،
وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

الاسلوب الثاني

(أن تُفْتَحَ المَكَاتِبَةُ بِاسْمِ المَكْتُوبِ إِلَيْهِ أَوِ المَكْتُوبِ عَنْهُ ، وَهُوَ عَلَيَّ ضَرْبَيْنِ)

الضرب الأول

(أن تُفْتَحَ المَكَاتِبَةُ بِاسْمِ المَكْتُوبِ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ)

والرسم فيه أن يقال : إلى فلان ، وَيُنَعَّتْ بِمَا يَلِيقُ بِهِ ؛ ثُمَّ يُؤْتَى بِالسَّلَامِ ، وَيُقَالُ :
أما بعد وَيُؤْتَى بِمَخْطَبَةٍ ، ثُمَّ يُقَالُ : فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابَ اللَّهِ لَكُمْ كَذَا وَكَذَا ، مِنْ مَوْضِعِ
كَذَا ، وَيُتَخَلَّصُ إِلَى المَقْصُودِ بِلَفْظِ « وَإِلَى هَذَا » وَيُؤْتَى عَلَى المَقْصُودِ إِلَى آخِرِهِ
وَيُخْتَمُ بِالسَّلَامِ .

كما كتب أبو الخطيب عن سلطانه ابن الأحمر إلى الأمير يلبغا العمري الشهر
بالخاصكي : أتاك العساكر بالديار المصرية في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » .
إلى الأمير المؤمن علي أمر سلطان المسلمين ، المقلد بتدبيره السيد قلادة الدين ،
المعني علي رسوم بره المقامة لسان الحرم الأمين ، الأوي من مرضاة الله تعالى ورسوله
إلى ربوة ذات قرار ومعين ، المستعين من الله علي ما تحمله وأمله بالقوى المعين ؛
سيف الدعوة ، ركن الدولة ، قوام المله ، مؤمل الأمة ؛ تاج الخواص ، أسد
الجوش ، كافي الكفاة ؛ زين الأمراء ، علم الكبراء ؛ عين الأعيان ، حسنة الزمان ؛
الأجل ، المرفع ، الأسنى ، الكبير ، الأشهر ، الأسمى ، الحافل ، الفاضل ، الكامل
المعظم ، الموقر ، الأمير ، الأوحاد ، « يلبغا الخاصكي » وصل الله له سعادة تُشْرِقُ
عُرَّتُهَا ، وصنائع تُسَحُّ فلا تُسَحُّ دِرَّتُهَا ، وأبقى تلك المثابة قلادة الله وهو دُرَّتُهَا ؛
سلام كريم ، طيب عميم ؛ ينحس إمارتكم التي جعل الله الفضل علي سعادتها أماره ،

وَأُسْرَهَا شَارَهُ ، فَيَسَاعِدُ الْفَلَكَ الدَّوَارَ مَهْمَا أَعْمَلَتْ إِدَارَهُ ، وَتَمَثِّلُ الرُّسُومَ كَلَّمَا
أَشَارَتْ إِشَارَهُ .

أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ بَعْلَمُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ ، مِنْ قَاصِ وَدَانٍ ، وَإِلَيْهِ تُوجَّهُ
الْوَجُوهُ وَإِنْ آخْتَلَفَتِ السَّيْرُ وَتَبَاعَدَتِ الْبُلْدَانُ ، وَمَنْهُ يُتَمَسَّ الْإِحْسَانُ ؛ وَبَذَكَرَهُ
يَنْشُرُ الصَّدْرُ وَيَطْمئنُّ الْقَلْبُ وَيَمْحُ الْلِّسَانُ .

وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الْعَظِيمِ الشَّانِ ، وَنَبِيِّهِ الصَّادِقِ
الْبَيِّنِ ، الْوَاضِحِ الْبُرْهَانِ .

وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ ، وَأَعْمَامِهِ وَأَحْزَابِهِ ، أَحْلَاسِ الْخَيْلِ ، وَرُهْبَانِ اللَّيْلِ ،
وَأَسْوَدِ الْمَيْدَانِ .

وَالدُّعَاءِ لِإِمَارَتِكُمْ السَّعِيدَةِ بِالْعَزِّ الرَّائِقِ الْخَبَرِ وَالْعِيَانِ ، وَالتَّوْفِيقِ الْوَثِيقِ الْبُنْيَانِ ؛
فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ إِلَيْكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ حَقًّا مِنْ فَضْلِهِ وَأَفْرًا ، وَصَنِيْعًا عَنْ مِحْيَا السُّرُورِ
سَافِرًا ، وَفِي جَوِّ الْإِعْلَامِ بِالنِّعَمِ الْجِسَامِ مُسَافِرًا . مِنْ حَمْرَاءِ غَرْنَاطَةَ - حَرَسَهَا اللَّهُ -
دَارِ الْمَلِكِ بِالْأَنْدَلُسِ ، دَافِعِ اللَّهِ عَنْ حَوَزَتِهَا كَيْدِ الْعُدَاةِ ، وَأَتْخَفِ نَصْلَهَا بَيَّوَاكِرِ
النَّصْرِ الْمُهْدَاةِ ؛ وَلَا زَائِدَ إِلَّا الشُّوقُ إِلَى التَّعَارُفِ بِتِلْكَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي أَنْتُمْ
عُنْوَانُ كِتَابِهَا الْمَرْقُومِ ، وَبَيْتُ قَصِيدِهَا الْمَنْظُومِ ، وَالتَّمَاثُلِ بِرَكَاتِهَا الثَّابِتَةِ الرُّسُومِ ،
وَتَقْرِيرِ الْمَثُولِ فِي سَبِيلِ زِيَارَتِهَا بِالْأُرُوحِ عِنْدَ تَعَدُّرِهِ بِالْجُسُومِ .

وَإِلَى هَذَا فَإِنَّا كَانَتْ بَيْنَ سَلَفِنَا - تَقَبَّلَ اللَّهُ جِهَادَهُمْ وَقَدَّسَ نُفُوسَهُمْ وَأَمَّنْ مَعَادَهُمْ -
وَبَيْنَ تِلْكَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ - أَلْقَى اللَّهُ عَلَى الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ظِلَالَهَا ، كَمَا عَزَّفَهُمْ
عَدْلَهَا وَإِفْضَالَهَا - مِرَاسِلَةَ نَيْمٍ عَرَفَ الْخُلُوصَ مِنْ خِلَالِهَا ، وَتَسَطَّعَ أَنْوَارَ السَّعَادَةِ
مِنْ آفَاقِ كَلِمَاتِهَا ؛ وَتَمَتَّحَ مِنْ أَسْطَارِ طُرُوسِهَا مَحَاسِنُ تِلْكَ الْمَعَاهِدِ ، الزَّاكِيَةِ الْمَشَاهِدِ ،

وَتُعْرَبُ عَنْ فَضْلِ الْمَذَاهِبِ وَكَرَمِ الْمَقَاصِدِ، أَشْتَقْنَا إِلَى أَنْ نُجَدِّدَهَا بِحُسْنِ مَنَابِكُمْ،
وَنَصِلَهَا بِمَوَاصِلَةِ جَنَابِكُمْ، وَنَعْتَمِمْ فِي عَوْدِهَا الْحَمِيدِ مَكَانَكُمْ، وَنَفْضِلُ لَهَا زَمَانَكُمْ، بِخَاطِبِنَا
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ فِي هَذَا الْغَرَضِ بِخَاطِبِيَّةٍ تَجَمُّلَةٍ مِنَ التَّقْصِيرِ، وَجِلَّةٍ مِنَ النَّاقِدِ الْبَصِيرِ؛
وَتُوَمِّلُ الْوَصُولَ فِي خِفَارَةِ يَدَيْكُمْ الَّتِي لَهَا الْأَيْدِي الْبَيْضُ، وَالْمَوَارِدُ الَّتِي لَا تَفِيضُ؛ وَمِثْلُكُمْ
مَنْ لَا تَخِيبُ الْمَقَاصِدَ فِي شِمَائِلِهِ، وَلَا تَضْحَى الْمَآمِلُ فِي ظِلِّ نَحَائِلِهِ؛ فَقَدْ أَشْتَهَرَ مِنْ
عَظِيمِ سِيرَتِكُمْ مَا طَبَّقَ الْآفَاقَ، وَصَحَّبَ الرَّفَاقَ وَأَسْتَلْزَمَ الْإِصْفَاقَ؛ وَهَذِهِ الْبِلَادُ مَبَارَكُهُ،
مَا أَسْلَفَ أَحَدٌ فِيهَا مُشَارَكُهُ؛ إِلَّا وَجَدَهَا فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَدِينِهِ وَعِيَالِهِ، وَاللَّهُ أَكْرَمُ
مَنْ وَفَى لِأَمْرِيٍّ بِمِثَالِهِ، وَاللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ يَجْمَعُ الْقُلُوبَ عَلَى طَاعَتِهِ، وَيَنْفَعُ بِوَسِيلَةِ
النَّبِيِّ الَّذِي نُعَوِّلُ عَلَى شَفَاعَتِهِ؛ وَيُبْقِي تِلْكَ الْأَبْوَابَ مَلْجَأً لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ،
وِظْلًا لِلَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ، وَإِقَامَةً لَشِعَائِرِ الْحَرَمِ الْأَمِينِ؛ وَيَتَوَلَّى إِعَانَةَ إِمَارَتِكُمْ عَلَى
وِظَائِفِ الدِّينِ، وَيَجْعَلُكُمْ مِنْ أَنْعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجَاهِدِينَ؛ وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يُخَصِّمُ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الضرب الثاني

(أن تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِاسْمِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ ، وَهُوَ عَلَى صِنْفَيْنِ)

الصنف الأول

(مَا يَكْتُبُ بِهِ إِلَى بَعْضِ الْمُلُوكِ)

وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يُقَالَ : مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ ، بِأَلْقَابِهِ وَنَعْوَتِهِ وَنُعُوتِ آبَائِهِ عَلَى
مَا تَقَدَّمَ ؛ ثُمَّ يُقَالُ بِالسَّلَامِ ، وَيُقَالُ أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ ، وَيُقَالُ بِخُطْبَةٍ ثُمَّ يُقَالُ
فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابَ اللَّهِ لَكُمْ كَذَا ؛ ثُمَّ يُقَالُ : وَإِلَى هَذَا فَإِنْ كَذَا وَكَذَا ، وَيُقَالُ
عَلَى الْمَقْصُودِ إِلَى آخِرِهِ ، وَيَخْتَمُ بِالْدَعَاءِ ثُمَّ بِالسَّلَامِ عَلَى نَحْوِ مَا مَرَّ .

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر إلى بعض ملوك العرب يهتبه بدخول مدينة بجاية في طاعته ماصورته :

من أمير المسلمين عبد الله محمد، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر أيد الله أمره، وأعز نصره، إلى محل أخينا الذي نصل له أسباب الإعظام والإجلال، ونثني عليه بما له من كريم الشيم وحيد الحلال، ونسره ببلوغ الآمال، ونجاح الأعمال، في طاعة ذي الجلال، السلطان فلان ابن السلطان فلان، بالألقاب اللائقة بكل منهم، وصل الله له سعدًا متصل الدوام دائم الاتصال، وصنعا تجلّى وجوهه من ثنایا القبول والإقبال، وعزًا تقيًا ظلاله عن اليمين والشمال، سلام كريم، برعميم، يخص سلطانكم الأسنى، ويعتمد مقامكم المخصوص بالزيادة والحسنى، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الواهب الفاتح، المانع المانع، مظهر عنايته بمن خالص إليه قصبه، وقصر على ماله صدره وورده، أبدى من محميا النهار الواضح . الذى وعد من أتقاه حق ثقافته، على السنة سفرة الوحي وثقافته، ينجح الخواتم والقواتح .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المبتعث لدرء المفاسد ورعى المصالح، وسعادة الغادى والرائح، مقذ الناس يوم الفرع الأكبر وقد طاحت بهم أيدي الطوائح، وهاديهم إلى سواء السبيل بأزمة النصائح، ومظفرهم من السعادة الدائمة بأربح البضائع وأسنى المنائح .

والرضا عن آله وأصحابه، وعترته وأحزابه، الذين خلفوه امتثالاً لأمر الصحائف وإعمالاً للصفائح، وكانوا لأمتهم من بعده في الاقتداء بسنته والمحافظة على سنته كالنجوم اللوائح .

والدعاء لسطانكم الأسمى ، بالسعد الذي يَغْنَى بوثاقه سببه ، ووُضُوح مذهبه ،
عن زجر الباريح والساخ ، والعزّ البعيد المطارح ، السامى المطاخي ، والصنع
الجميل الباهر الملاح ، ولا زال توفيقُ الله عائداً على تديركم السعيد بالسعى الناجح ،
والتجرّ الرابع .

فإنا كتبناه إليكم - كتب الله لكم من فضله أوفر الأقسام وأوقاها ، وأوردكم من
موارد عنايته أعتب الجمام وأصفاها ، كما أسبغ عليكم أثواب المواهب وأصفاها . .
[وأبدي لكم وجوه اللطائف الجميلة وأحفاها] من حمراء غرناطة - حرسها الله -
وفضل الله هامية ديمه ، وعوائد اللطف يصلها فضله وكرمه ، والإسلام بهذا الثغر
الجهادى مرعية ذمه ، وجاه النبوة المحمدية يعمل بين إرغام العدو الكافر ، وإهداء
المسرات والبشائر ، سيفه وقلمه . والسرور بما يبلغ من مزيد سعديكم وميضه
خافق علمه ، وودكم ثابت في مواقف الخلوص قدمه .

وقد اتصل بنا ما كان من دخول حضرة بجاية حرسها الله في طاعتكم ، وانتظامها
في سلك جماعتكم ، وانقطاعها إلى عصمتكم ، وتمسكها بأزمتكم ، وعقدكم منها
ومن أختها السابقة الذمام ، الخليفة بمزيد الأهتمام ، على عقيلتى الأقطار التي لا يجمع
بينهما إلا ملك همام ، وخليفة إمام ، ومن وصحت من سعاداته أحكام ، وشهرت
بعناية الله له أدلة واضحة وأعلام ، ومن جمع الله له بين البر المتراكم الخيول ،
والجيش المتدافع السيمول ، والحصب الذى تُنضى مواجده المستنجرة ظهور الخيول ،
وبين البحر الشهير بنجدة الأسطول ، وإنجاز وعد النصر الممتول ؛ ومرسى السفن
التي تخوض أحشاء البحار ، وتجلب مرافق الأمطار والأقطار ، وتُخف على النأى
بطرف الأخبار .

بِحَايَةٍ وَمَا بِحَايَةٍ ! دَارُ الْمَلِكِ الْأَصِيلِ الْعَتِيقِ ، وَكَرْسَى الْعِزِّ الْوَشِيقِ ، وَالْعُدَّةِ ،
 إِذَا تُوَفِّعَتِ الشَّدَّةُ ، كَمَا ثَبَّتَتْ عَلَى الزَّلْزَالِ ، وَصَابَرَتْ مَوَاقِفَ التَّرَالِ ، أَمْطَاكُم السَّعْدُ
 صَهْوَتَهَا ، وَأَحْلَكُمُ التَّوْفِيقُ رَبُّوتَهَا ، مِنْ غَيْرِ مُطَاوَلَةٍ حِصَارِ ، وَلَا أَسْتِنْفَادِ ذِي
 وَسْعٍ وَأَقْتِنَادِ ، وَلَا تَسْوِيرِ جِدَارِ ، فَأَصْبَحَتْ دَوْلَتُكُمُ السَّعِيدَةُ نَتْفِيًا [جَنَى الْجَنَّتَيْنِ ،
 وَتَخْتَالُ فِي حَلَّتَيْنِ ، وَنَجْمٌ بَفْتِيًا ^(١)] السِّيَوفِ الْمَالِكِيَّةِ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْأَخْتَيْنِ ، أَوْزَعَكُم
 اللَّهُ شُكْرَهَا مِنْ نِعْمَةٍ جَلَّتْ مَوَاهِبُهَا ، وَوَسَّخَتْ مَذَاهِبُهَا ، وَصَنِيعَةٌ بَهَّرَتْ عَجَائِبُهَا .
 وَإِذَا كَانَتْ عَقَائِلُ النَّعْمِ تَحْطُبُ أَكْفَاءَهَا ، وَمَوَارِدُ الْمِنِّ تَعْرِضُ عَلَى الْوَرَادِ
 صَفَاءَهَا ، فَاتَمَّ أَهْلُهَا الَّذِينَ لَكُمْ تُذَخَّرُ ، وَبِمَنْ دُونَكُمْ تَسَخَّرُ ، فَإِنَّكُمْ تَمِيزْتُمْ بِخِصَالِ
 الْعَفَافِ وَالْبَسَالَةِ ، وَالْحَسَبِ وَالْجَلَالَةِ ، وَأَصْبَحْتُمْ فِي بَيْتِكُمْ صَدْرًا ، وَفِي هَالَةِ
 قَوْمِكُمْ بَدْرًا ، مَوَاقِفِكُمْ شَهِيرَةٌ ، وَسِيرَتُكُمْ فِي الْفَضْلِ لَا تَفْضُلُهَا سِيرَةٌ ، وَنَحْنُ نَهْنُوكُمُ
 بِمَا مَنَحَكُمُ اللَّهُ مِنْ أَنْفِسَاحِ الْإِبَالَةِ ، وَتُمُومِ الْجَلَالَةِ ، وَالنَّعْمِ الْمُتَمَالَةِ ، بِسُلْطَانِ الْوَقْدِ
 عِنَانَهُ إِلَى مِثْلِكُمْ قَدْ آخْتَارَهُ لِقِيَادِهِ ، وَأَرْتَادَ فَسَعِدَ فِي آرْتِيَادِهِ ، وَتَكْفَلُ الْخَزِيمُ بِحِفْظِ
 بِلَادِهِ ، وَصَوْنِ طَارِفِهِ وَتِلَادِهِ ، وَكَأَنَّ بِهِ قَدْ أَسْتَوْلَى عَلَى أَمَادِهِ ، وَتَطَاوَلُ لِإِرْثِ
 أَجْدَادِهِ . وَلَنَا فِيكُمْ - عِلْمُ اللَّهِ - وَدٌّ [تَأَسَّسَ بِنَاؤُهُ ، وَكَرَّمَتْ أَبْنَاؤُهُ] ^(١) وَحُبٌّ وَجِبَ
 بِالشَّرْعِ إِنْفَادُهُ إِلَيْكُمْ وَإِنْهَاؤُهُ . وَغَرَضُنَا الَّذِي نُؤَيِّرُهُ عَلَى الْأَغْرَاضِ وَالْمَقَاصِدِ ، وَنَقَدَّمُهُ
 بِمَقْتَضَى الْخُلُوصِ الَّذِي زَكَّتْ مِنْهُ الشَّوَاهِدُ ، أَنْ تَتَّصَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْمَخَاطِبَةُ ،
 وَتَتَعَاقَبَ الْمَوَاصِلَةُ وَالْمَكَاتِبَةُ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَعِينُ عَلَى مَا يَجِبُ لَوْ دَكُمُ مِنْ رِتْرِكْتِكُمْ
 وَاجِبُهُ ، وَتَوْضُحِ مَذَاهِبِهِ ، وَاعْتِقَادِ جَمِيلِ يَتَسَاوَى شَاهِدُهُ وَغَائِبُهُ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَصِلُ
 سَعْدَكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، وَالسَّلَامُ الْكَرِيمُ يَخْصُكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الصنف الثاني

(ما يكتب به إلى الرعايا)

والحكم فيه على نحو ماتقدم في الصنف الذي قبله ، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا .
كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر أيضًا إلى بعض رعاياه بمدينة المرية
بالأندلس ، بالشارة بموت الطاغية ملك قشتالة بجبل الفتح ، ورحيل قومه به إلى
بلادهم ماصورته :

من الأمير عبد الله يوسف ، ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج
ابن نصر أيد الله أمره ، وأعز نصره ، وأسعد عصره ؛ إلى أوليائنا في الله تعالى الذين
نباد إليهم بالبشائر السافرة العُمر ، ونجلو عليهم وجوه الصنائع الإلهية كريمة^(١) الخُبر والخبر ،
ونعلم ما لهم من الوُدِّ الكريم الأثر : القائد بالمرية ، والقاضي بها ، والفقهاء ، والأشياخ ،
والوزراء والأمرء والكافة والدُّهماء من أهلها ؛ عرفهم الله عوارف الأداء ، وأوزعهم
شكر نعمة هذا الفتح الرباني الذي تفتحت له أبواب السماء ، وأُنشرت معجزاته ميث
الرجاء في هذه الأرجاء . سلام كريم ، طيب برعميم ؛ تُنشق منه تفحات الفرج ، عاطرة
الأرج ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله فاتح أبواب الأمل بعد استغلاقتها ، ومُتدارك هذه الأمة المحمدية
بالصنع الذي تجلَّى لها ملء أحدافها ، والرحمة التي مدت على النفوس والأموال ،
والحُرُمات والأحوال ، ضافي رواقها .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذي دَعَوْتُهُ هي العروة الوثقى لمن
تمسك باعتلاقتها ، وأقام على ميثاقها ؛ ذى المعجزات التي بهرت العقول بائتلاقها ،

(١) في الريحانة ج ٢ " من وجوه الغنائم الإلهية كريم " الخ .

الذى لم ترعه في الله الشدائد على أشتداد وثاقها، وفطاعة مدافها؛ حتى بلغت كلمة الله ما شاءت من انتظامها وأتساقها .

والرضا عن آله وصحبه ، وعترته وحزبه ؛ الفائزين في ميدان الدنيا والدين يتحصل سبأها . فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم شكراً لنعيمه ، ومعرفة بمواقع كرمه . من حمراء غرناطة - حرسها الله - ولا زائد بفضل الله سبحانه إلا ما آمن الأرجاء ومهدداً ، وأنشأ معالم الإسلام وجددها ، وأسس أركان الدين الحنيف وأقام أودها ؛ وأتم الأولياء ، الذين نعلم منهم خلوص الأهواء ، وتحقق ما عندهم من الخلوص والصفاء . وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذى جرى في ميدان الأمل جرى الجموح ، ودارت عليه نعمة النخوة والحيلاء مع الغبوق والصبوح ؛ حتى طفح بسكر اغتراره ، ومحص المسلمون على يديه بالوقائع التى تجاوزت منتهى مقداره ؛ وتوجهت إلى استئصال الكلمة مطامع أفكاره ، ووثق بأنه [يطفىء] نور الله بناره ، ونازل جبل الفتح فشدت تحت حصاره ، وأدار أشياعه في البر والبحر دور السوار على أسواره ؛ وانهز الفرصة بانقطاع الأسباب ، وأنهم الأبواب ، والأمور التى لم تجر للمسلمين بالعدوتين على مألوف الحساب ؛ وتكالب التثليث على التوحيد ، وساء الظنون في هذا القطر الوحيد ؛ المنقطع بين الأمم الكافرة ، والبحر الزانحة ، والمرام البعيد . وإنما صابراً بالله تيار سيئه ، وأستصناً بنور التوكل عليه في جئح هذا الخطب ودجنة ليله ؛ وبلجنا إلى من بيده نواصي الخلاق ، وأعتقنا من حبله المتين بأوثق العلائق ، وفسحنا مجال الأمل في ذلك الميدان المتضابق ؛ وأخلصنا لله مقيل العنار ، ومولى أولى الأضرار ، قلوبنا ، ورفعنا إليه أمرنا ، ووقفنا عليه مطلوبنا ؛ ولم نقصر مع ذلك في إبرام العزم ، واستشعار الحزم ؛ وإمداد

الثُّغُورُ بأقصى الإمكان ، وبعث الجيوش إلى ما يليها من بلادها على الأحيان ؛
 فرحم الله أنقطاعنا إلى كرمه ، حين لجأنا إلى حرمة ؛ فجلا بفضلها سبحانه ظلام الشدة ،
 ومدّ على الحریم والأطفالِ ظلالَ رحمته الممتدة ، وعرفنا عوارف الصنْع الذي قدّم
 به العهدُ على طول المدة ؛ ورماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيحاف الركب ،
 وأحتشاد الأحزاب ؛ وأظهر فينا قدرةً مُلكه عند انقطاع الأسباب ، وأستخلص
 العبادَ والبلاد من بين الظُّفر والناب ؛ فقد كان سدّ الحجاز بأساطيله ، وكأثر كلمة الحقِّ
 بأباطيله ؛ ورمى الجزيرة الأندلسية بشُبوب شره ، وصيرها فريسةً بين غربان بجره
 وعقبان بره ؛ فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرفقة إلا على الخطر الشديد ،
 والإفلات من يد العدو العنيد ، مع توفّر العزائم - والحمد لله - على العمل الحميد ،
 والسعي فيما يعود على الدين بالتأييد .

وبينا شققمتنا على جبل الفتح تُقيم وتُعيد ، وكَلَبُ الأعداء عليه يبرق ويرعد ،
 واليأس والرجاء خصمان هذا يقرب وهذا يبعد ؛ إذ طلع علينا البشيرُ بانفراج
 الأزمه ، وحلّت تلك العزمه ؛ وموتِ شاة تلك الرُقعته ، وإبقاء الله على تلك البُقعته ؛
 وأنه سبحانه أخذ الطاغية أكل ما كان آغتراراً ، وأعظم أنصاراً ؛ وزلزل أرض
 عزّه وقد أصابت قراراً ؛ وأنّ شهاب ساعده أصبح آفلاً ، وعلم كبره أنقاب
 سافلاً ؛ وأن من بيده ملكوت السموات والأرض طرّقه بحتفه ، وأهلكه
 برغم أنفه ؛ وأن محنته عاجلها التّبابُ والتّبار ، وعانت في منازل النار ، وتمخّص
 عن سوء عاقبته الليل والنهار ؛ وأن حماها يُجربون بيوتهم بأيديهم ، ويُنادي بشتات
 الشّمل لسان مُناديهم ؛ وتلاحق بنا الفُرسان من جبل الفتح : المعقل الذي عليه من
 عناية الله رواق مَضروب ، والرّباط الذي من حاربه فهو المحروب ؛ فأخبرت بانفراج
 الضيق ، وارتفاع العائق لها عن الطّريق ؛ وبرء الداء الذي أشرق بالرّيق . وأن

النصارى دمرهم الله جدت في آرتحالها، وأسرعت بجيفة طاعتها إلى سوء مآلها،
وسمحت [للسهب^(١)] والنهب والنار بأسلابها وأموالها، فبهربنا هذا الصنع الإلهي الذي مهد
الأقطار بعد رجفانها، وأنام العيون بعد سهاد أجبانها؛ وسألنا الله أن يعيننا على شكر
هذه النعمة التي إن سلطت عليها قوى البشر فضحمتها وربحمتها، أو قيست بالنعمة
فضلتها؛ ورأينا سر اللطائف الخفية كيف سر يائه في الوجود، وشاهدنا بالعيان
أنوار اللطف الإلهي والجلود؛ وقلنا إنما هو الفتح الأول شفيح بنان، وقواعد الدين
الحنيف أيدت من صنع الله ببيان .

اللهم لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة، ومنك الوافره، أنت ولينا
في الدنيا والآخرة، وأمرنا للدين فقلدت لبات المناير بهذا الخبر، وجلت
في جماعات المسلمين وجوه هذا الفتح الرائق بالغرر؛ وعجلنا تعريفكم به ساعة
استجلائه، وتحقق أنبائه؛ لتسحبوا له أبواب الجدل ضافيه، وتردوا به موارد الأمل
صافيه؛ فإنما هو ستر الله شمل أنفسكم وحرمتكم، وأمانه كفل ظعنكم ومقيمكم؛
فقرطوا به الأذان [وبنشروا به الإقامة والأذان] وتملأوا بالعيش في ظله، وواظبوا
حمد الله ولي الحمد وأهله؛ وأنشروا فوق أعواد المنابر من خطبه راية ميمونة
الطائر، وأجعلوا هذه البشارة سجلاً في فرقان البشائر؛ فشكر الله سبحانه يستدعي
المزيد من نعمه، ويضمن اتصال كرمه؛ وعزفوا بذلك من بليكم من الرعية لياخذ
مثل أخذكم، ويلاحظ هذا الأمر بمنزل الحظكم؛ لتحقيق عليكم أن تسيّدوا بهذا
الخبر في الحاضر والباد، وتجعلوا يوم عاشوراء الذي تجلّى فيه هذا الصنع ثالث
الأعياد؛ والله سبحانه يجعله لسرات عنوانا، ويطلع علينا وعليكم وجوه صنعه غراً
حسانا؛ والسلام الكريم يخلصكم ورحمة الله وبركاته .

الأسلوب الثالث

(أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظ «أما بعد»)

والرسم فيه أن يقال أما بعد حمد الله ، أو أما بعدُ فالحمدُ لله ، ويؤتى بخطبة . ثم يقال : فإننا كتبناه إليكم من موضع كذا كتب الله لكم كذا وكذا ؛ ثم يُتَخَلَّصُ إلى المقصود ويؤتى عليه إلى آخره ، ويُخْتَمُ بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحرر من الأندلس .

(١)
أما بعد حمد الله مُحَسَّنَ العَوَاقِبِ ، ومُحَمَّدَ المَنَاقِبِ ؛ ومُعَلَّى المَرَاقِي فِي دَرَجِ عِلْيَةِ المَرَاقِبِ ، وَمَسْحَرِ النَجْمِ الثَّاقِبِ ، فِي الغَسَقِ الوَاقِبِ ، وَالكَفِيلِ بالحُسْنَى للتَوَكُّلِ عَلَيْهِ المَرَاقِبِ ، نَاسِخِ التَّمْحِيصِ ، بِالعَنَايَةِ وَالتَّخْصِيصِ ، لِتَظْهَرِ حِكْمَةُ المُثِيبِ وَالمَعَاقِبِ .
وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ رَسُولِهِ المَاسِحِي الحَاشِرِ العَاقِبِ ، ذِي القَدْرِ المُسَامِي لِلزُّهْرِ المُصَاقِبِ .

وَالرِّضَا عَنِ آلِهِ الَّذِينَ كَانُوا فِي سَمَاءِ مَلَّتْهُ لَهْدَايَةُ أُمَّتِهِ كَالشَّهْبِ الثَّوَابِقِ ؛
فإننا كتبناه إليكم - كتب الله لكم توالي المواهب ، ووضوح المذاهب ؛ ووقوف الدهر لديكم موقف الثائب من القدرح الثائب ؛ ووالي لديكم مفتاح الكتب المهتة بفتوح الكتاب - من حراء غرناطة - حرسها الله - وفضل الله بتعرف صنعه لكم هامي السحاب ، وكفيل بئيل الرغائب ؛ والسرور بما سناه الله لكم من استقامة أحوالكم شأن الشاهد والغائب ، والرائح والآب .

والحمد لله على ماتوالي من الألفاظ والعجائب . وقد وصل كتابكم الذي أكد السرور وأصله ، وأجمل مقتضى البشرى وفصله ، ونظم خبر الفتح ووصله ؛ وراش سهم

(١) في الريحانة في "درج عنايته والمراقب" .

السَّعَادَةِ وَالسَّادَاتِ ، وَالْعَنَائَةِ وَالْإِمْدَادَ ، وَنَصَلَهُ ، وَأَحْرَزَ حَظَّ السَّعَادَةِ وَحَصَلَهُ ؛ تَعْرِفُونَ مَا أَتَاكُمْ لَكُمْ اللَّطِيفُ الْخَيْرِ ، وَالرُّبِيُّ النَّصِيرُ ؛ مِنْ الصَّنْعِ الَّذِي آتَسَّقُ نِظَامَهُ ، وَالنَّصِيرِ الَّذِي سُنَّتْ فِي أُمَّ الْكُتَابِ أَحْكَامُهُ ؛ وَالْعَزِ الَّذِي خَفَقَتْ أَعْلَامُهُ ، وَالتَّوْفِيقِ الَّذِي قَوَّطَسَتْ الْغَرَضَ سِهَامُهُ ؛ وَأَنْتُمْ مِنْ بَعْدِ الْكَائِنَةِ الَّتِي رَأَى لَطْفُ اللَّهِ بِهَا وَجِبَرَ ، وَأَحْسَنَ الْخَيْرِ وَأَدَالَ الْخَبَرَ ، وَجَعَلَ الْعَاقِبَةَ الْحُسْنَى لِمَنْ صَبَرَ ؛ جَهَزْتُمْ الْجِيُوشَ الْمُخْتَارَةَ ، وَالْعَسَاكِرَ الْجَرَّارَةَ ؛ يَقُودُهَا الْمُخْلِصَانُ مِنَ الْوُزَرَاءِ ، وَتَتَقَدَّمُ رَأْيَتَاهَا مِيَامِنُ الْآرَاءِ ؛ فَكَتَبَ اللَّهُ ثَبَاتَ أَقْدَامِهَا ، وَتَوَلَّى نَصْرَ أَعْلَامِهَا ؛ وَلَمْ يَكُنْ إِلَّا أَنْ حَمَى وَطِيسُ التَّرَالِ ، وَرَجَفَتْ الْأَرْضُ لَهْوِ الزَّلْزَالِ ، وَتُعْطِيتُ كُؤُوسُ الْأَجَالِ ، فِي ضَنْكِ الْمَجَالِ ؛ وَدَجَا الْقَتَامُ ، وَتُوهِمُ مَعَ فَضْلِ اللَّهِ الْإِغْتِنَامَ ، وَعَبَسَ الْوَجْهُ الْعَبَّاسُ وَصَحَّكَ النَّصْلُ الْبَسَّامُ ، وَأُورِدَ الْخَيْلَ مَوَارِدِ الطَّعَانِ الْإِقْدَامَ ؛ فَكَانَ لِحَزْبِكُمْ الظُّهُورُ الَّذِي حَكَّمَ الْمَهْنَدَةَ فِي الرَّقَابِ ، وَالسُّمَرَ الطَّوَالَ فِي الثُّغْرِمِ فِي الْأَعْقَابِ ، وَبَشَّرَتْ بَرُؤِيَةَ هَلَالِ الْفَتْحِ عُمُونَ الْأِرْتِقَابِ ، وَحَطَّ عَنْ وَجْهِ الصَّنْعِ الْجَمِيلِ مَارَانٌ مِنَ النَّقَابِ ؛ وَأَنْ مَنْ بَغَى عَلَيْكُمْ حَسَبَ مَا قَرَّرْتُمْ ، وَعَلَى نَحْوِ مَا أَجْهَلْتُمْ وَقَسَّرْتُمْ ، مِنْ شِيُوخِ الْغَرْبِ الْمُجَلِّهِ ، وَوُجُوهِ الْخَدَمِ الْمَتَمِّمَةِ إِلَى حَسَنِ الْعَهْدِ الْمُنْتَسِبَةِ ؛ تَحَصَّلَ فِي حُكْمِ اسْتِرْقَاقِكُمْ ، وَتَحَتَّ شَدُّ وِتَاقِكُمْ ؛ وَرَبَّمَا أَسْفَرَ الْمَكْرُوهَ عَنِ الْمَحْبُوبِ ، وَأَنْجَلَى الْمَرْهُوبَ عَنِ الْمَرْغُوبِ ، وَاللَّهُ مَقَلَّبَ الْقُلُوبَ ؛ وَشَيْتَكُمْ فِي آتِلَافِ النَّافِرِ ، وَالْأَخْذِ مِنْ فَضْلِ الْعَفْوِ بِالْحِطِّ الْوَافِرِ ، كَفِيلَ لَكُمْ بِالصَّنْعِ السَّافِرِ ؛ وَاللَّهُ يَجْلِكُمْ عَلَى مَا فِيهِ رِضَاهُ ، وَيَخِيرُكُمْ لَكُمْ فِيمَا قَضَاهُ ؛

فُسِّرْنَا بِمَا أَتَّصَلَ لَكُمْ مِنَ الصَّنْعِ وَأَطْرَدَ ، وَرَحَّبْنَا بِهَذَا الْوَارِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي وَرَدَ ؛ وَشَكَرْنَا فَضْلَكُمْ فِي التَّعْرِيفِ بِجَبْرِهِ الْمُوْدُودِ ؛ وَالشَّرْحِ لِمَقَامِهِ الْمَحْمُودِ ؛ وَكَتَبْنَا نَهْتِكُمْ بِهِ هِنَاءَ مَشْفُوعَا ، وَبِالدَّعَاءِ لَكُمْ مَتَّبِعَا ؛ وَاللَّهُ يُطَّلِعُ مِنْ تَوَالِي مَسَرَّتِكُمْ عَلَى مَا يَسِطُّ

الآمال، وَيُنَجِّحُ الأَعْمَالِ ؛ وَيَفْسَحُ فِي السَّعْدِ المَجَالِ . والذي عندنا من وُدِّكُمْ أعظمُ من أَسْتِيفائِهِ بالمَقَالِ ، أو نَهْوِضِ الرِّيَاحِ بوظائفِهِ الثَّقَالِ ؛ يَعْلَمُ ذَلِكَ عالمُ الخَفِيَّاتِ ، والمَجَازِي بالنِّيَّاتِ ؛ سَبْحانَهُ . واللهُ يَصِلُ سَعْدَكُمْ ، وَيَحْرُسُ مَجْدَكُمْ ، والسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ .

الطَّرْفُ الثَّانِي عَشَرَ

(في الكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَن وُزَرَاءِ الخُلَفَاءِ المُنْفِذِينَ أُمُورَ الخِلافةِ
اللاحيين بَشَأُ المُلُوكِ ، وفيه جَمَلتان)

الجُمْلَةُ الأُولَى

(في الكُتُبِ الصَّادِرَةِ عَن وُزَرَاءِ خُلَفَاءِ بَنِي العَبَّاسِ بِبَغدَادِ
وَوُزَرَاءِ مَلُوكِهَا يَوْمَئِذٍ)

أما وُزَرَاءُ إقْطَاعِها ، فَقَدْ ذَكَرَ أبو جَعْفَرِ النُّعْمانِ فِي "صِناعَةِ الكُتُبِ" أَنَّ المَكْتابَةَ مِنَ الوَظَرِ إِلَى الخِليفةِ فِي زمانِهِ كانَتْ : « أَطالَ اللهُ بقاءَ أميرِ المُؤمِنينَ وَأَعزَّهُ وأَيَّدَهُ وَأَتَمَّ نَعْمَتَهُ عَلَيْهِ ، وَأَدَامَ كِرامَتَهُ لَهُ » .

قالَ ابنُ حاجِبِ النُّعْمانِ فِي "ذَخِيرَةِ الكُتُبِ" : وَإِنْ كانَتْ المَكْتابَةُ مِنَ الوَظَرِ إِلَى مَنْ دُونَهُ فِدَعاؤُهُ لَهُ : « أَطالَ اللهُ بقاءَكَ وَأَدَامَ تَأْيِيدَكَ وَتَمهيدَكَ وَكَرامَتَكَ » . ودُونَهُ « أَطالَ اللهُ بقاءَكَ وَأَدَامَ عِزَّكَ وَحِراسَتَكَ » . قالَ : وَعَلَى مَقْدارِ المَكْتابِ يَكُونُ الدِعاءُ . وَأقسامُهُ كَثيرَةٌ . ثمَّ ذَكَرَ الأَدْعِيَةَ العَامةَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى التَّرتيبِ ، فَقالَ : إِنْ أَعلاها يَوْمَئِذٍ « أَطالَ اللهُ بقاءَهُ وَأَدَامَ تَمكينَهُ وَرَفَعَتَهُ وَبَسَطَتَهُ وَعَلَّوَهُ وَسَمَّوَهُ ، وَكَبَّتْ أَعْداءَهُ وَحَسَدَتَهُ » . ودُونَهُ « أَطالَ اللهُ بقاءَهُ ، وَأَدَامَ تَمكينَهُ وَارْتِقاَهُ ، وَرَفَعَتَهُ

وسناه ، وتمهيدته وكتب أعداءه . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام تأييده ونعماءه وكتب أعداءه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام تأييده وحرس حوَّباه^(١) » . ودونه « أطل الله بقاءه ، وأدام تأييده ونعماءه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام عزَّه » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام توفيقه وتسديده » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام سدادَه وإرشاده » . ودونه « أطل الله بقاءه وأدام حراسته » . ودونه « أدام الله تأييده وتمهيدَه » . ودونه « أدام الله توفيقه وتسديده » . ودونه « أدام الله عزَّه وسناه » . ودونه « أدام الله عزَّه » . ودونه « أدام الله حراسته » . ودونه « أدام الله كرامته » . ودونه « أدام الله سلامته » . ودونه « أدام الله رعايته » . ودونه « أدام الله كفايته » . ودونه « أبقاه الله » . ودونه « حفِظه الله » ودونه « أعزَّه الله » . ودونه « أيَّده الله » . ودونه « حرسه الله » . ودونه « أكرمه الله » ودونه « وَّفَّقه الله » . ودونه « سلَّمه الله » . ودونه « رعاه الله » . ودونه « عافاه الله » .

ثم المكاتبات الصادرة عنهم على أسلوبيين :

الأسلوب الأول

(أن تُفتَح المكاتبَةُ بلفظ «كتابي»)

والرسم فيه أن يقال كتابي - أطل الله بقاء سيدي ، أو بقاء مولانا - والأمر على كذا وكذا ، ومولانا أمير المؤمنين ، أو الجانب الأشرَف ونحو ذلك على حال كذا ؛ ثم يتخلَّص إلى المقصد بعد ذلك بما يقتضيه المقام ويحتم بقوله ورأى حضرة سيدنا أعلى .

(١) في القاموس الحوَّباه النفس .

كما كتب بعض الكُتَّاب عن الوزير قوام الدين بن صدقة إلى بعض وزراء ملوك زمانه في معنى أمير مكة المشرفة ، وما كان بينه وبين أمير الحاج في بعض السنين ما صورته :

كتابي - أطال الله بقاء حضرة سيدنا - وموَّاهبُ الله سبحانه في أمر مولانا أمير المؤمنين جاريةً على الإرادة ، مقابلةً بالشكر المؤذنين لها بالدوام والزيادة ؛ والحمد لله رب العالمين . وقد نتابعت المكاتبات في أمر النوبة المكيّة نتابعا علمه السامي به مُحيط ، والعُدْرُ في الإيجار بها مع إتمام النظر بسببها مبسوط ؛ وبعد ما صدر آتفا في المعنى المذكور وصل كتابُ زعيمِ مكة بما نفذ على جهته يُعلم منه ومما لا ريب أنه أصدره إلى الديوان العالی السلطاني - أعلاه الله - حقائق الأحوال بغير شك : أنه قد أتضح تفريط من فرط في هذه النوبة وعجل ، وتحقق المشل السائر « رَبِّ وائْتِي نَجِل » ، وأسبابُ ثمره الهوى الذي مازال يَجْحُ براكبه ، ويُريه سوء عواقبه ؛ وعلم أنه لم يُحْطَ فيما شرع فيه ، واستمرت على الخطأ وأحزّه ومبأديه ، إلا بوعد أُخلف ، ومالٍ أُتلف ؛ وخطرٍ آرْتِكِب ، وصوابٍ تُتَكَب ؛ وحزمٍ أُضِيع ، وهوى أُطِيع ؛ حتى كان فُصَّاراه دَنَعُ الأئمة عنه ، فإنه أوصل التجميع إلى مقصودهم وأعادهم ، وأحسن التواصل حتى أدركوا من أداء الفريضة مُرادهم ؛ وهل أعترض دُونَ هذا الأمر مانع ، أو كان عنه دافع ؟ لولا ما صورته من الأسباب التي أفسد بها الأمور ، وأوغر بمكائنها الصُّدُور ؛ وكفل بعد ما قرره من ذلك ومهده ؛ ماعكسه سفه الرأي عليه ، وأبعده العجز عن الوصول إليه ؛ وأى عذر في هذا المقام يُستمع ؟ أم أى لائمة عنه تندفع ؟ وقد جرت الحال على ما علم ، وتحدثت بانخراق حجاب الهيبة كل لسانٍ ناطقٍ وقم ؛ ووقع الانفاق من كافة الحاج على أن تَمَسُّك نائب مكة بطلب الرضا ، وتكفيل خصمه باستدراك ما تَلَف من التفريط في معاشه ومضى ؛

ونظَرَه في العاقبة التي يَنْظُرُ فيها ذُوو الألباب ، وعمَلَه بما أُصدره الديوانُ العزيزُ من
مكاتبَةِ أُمِرٍ فيها بالطاعة وخطابُ ؛ هو الذي لَأَمَّ النوبةَ وشَعَبَها ، وسَهَّلَ عسيرَها
ومستَضَعِبَها ؛ ولو أَفقرت إلى سَعْيِ أميرِ الحاجِّ واجتهاده ، وإبراقِه بعسكره وإعادِه ؛
لكان الحجُّ ممتنعًا والخطرُ العظيمُ متوقعًا ؛ ولم يحصلُ الوفدُ إلا على التغيرِ بالنفوسِ ،
والبُحُودِ منها بكل مَضُنُونٍ به مَنفُوسٍ ؛ ثم عَرَبُ الطريقِ الذي مازال أميرُ الحاجِّ
في حقِّهم خاطبًا ، وإلا كرامهم بالقولِ المتكرِّرِ طالبًا ؛ وجاعلاً ماعله يتأخَّرُ من رسمِ
أحدِهم من دَوَاعِي الخطرِ في سلوكِ [الطريقِ] المُردِيه ، ومُوجِباتِ الفَسَادِ
في المَنَاهِلِ والأودِيه ، يتلو من النَّهْبِ والأجتياحِ ، والأذْيِ العائدِ على فاعله بالأقترافِ
العظيمِ الوزرِ والأجتراحِ ، بما يُؤلمُ شجاعةَ القلوبِ ويحرِّقُها ، ويُنكِي العيونَ ويورِّقُها ؛
ولقد آتتهى أن العسكرَ المنفَّذَ أمامه كان يتنقَّلُ في هِضابِ البرِّيَّةِ وغيطنانها ، ويُنقَّبُ
عن منازلِ العربِ وأوطانها ؛ فيستقْرِى أحياءَهُم حياً خفياً ، ويتخلَّلُ الفِجَاجَ فجأً فججاً ؛
فاذا شارفوا قبيلةً منهم طلب النجاةَ منهم بالحشاشاتِ رجالها ، وأسلمت إليهم نساؤها
وأطفالها وأموالها ؛ فيتحرَّكون في ذلك تحكُّمٍ من أستحلَّ موقعه في إباحةِ محارِمِ الله
ومُقامه ، وأمنِ مكرِه الحائِقِ بالظالمينِ وانتقامه ؛ ويستيدِّحون حريمَ كلِّ برِيء غافلٍ لم
يُعارِفِ ذنبًا ، وطائعٍ لا يستحقُّ غارةً ولا نهبًا ؛ فأين كان [من] النظرِ عند هذا الفعلِ
في حِفْظِ عَرَبِ الطريقِ ؟ وكيف عَزُبَ عنه في هذا الرأى منهُجِ التوفيقِ ؟ وهل
تُتصوَّرُ الثَّقَةُ بكل قبائلِ العربِ عن إفسادِ الآبارِ والمصانعِ ؟ والعبَثُ بكل مستطاعِ
في المَنَاهِلِ والمشارِعِ ؛ خاصَّةً إذا علموا أن الذي ظلمهم ، وأباح حُرْمَهُم ؛ هو السالكُ
للطريقِ أنفًا ، والتمكَّنُ فيهم من مُعاودةِ الأذْيِ الذي أضْحَى كلُّ به عارفاً ، وأستدراكُ
الفارِطِ في هذا الأمرِ المِهْمُ متعين ، ووجه الرأى فيه واضحٌ متبيِّن ؛ والإشارةُ في كتابِ
زعيمِ مكة ، إلى ما جرى من المعاهدةِ وأستقرتِ القاعدةُ عليه [من] إعادةِ ارتفاعه المأخوذِ

ورسومِهِ على التمام والكمال إليه ، أدلُّ الأدلَّة على بُعد النوبة من الائتتام ، ودخول الخلل عليها وأنحلال النِّظام ؛ وتعدُّ الحجَّ في المستقبل . على أن من أفسدها ، لم يتأمل لنفسه طريق الصِّدْر حين أوردَها ؛ والألمعيةُ الساميةُ المعزيةُ حرس الله عزَّها اللامحةُ ببديتها العواقب ، المستشفعةُ سرائرها بالرأى الثاقب ؛ أهدى إلى تديرها بما يستدرك الفارط ، ويتلافى غلط الغالط ؛ ويعيد الأحوال إلى جدد الصلاح وسدنه ، ويُجرها على أجمل قانونٍ مألوفٍ وأحسنه ؛ وما أولاه بالتقديم في هذا المهيم الذي لا أحق منه بالأهتمام ، وإِحْدَ الصادق التام ؛ بما تطمئنُّ به النفوس إلى صلاحه وانتظامه ، وأرتفاع كلِّ مخشى من الخلل الداخلي عليه وأنحسامه ؛ والإعلام في الجواب بما يقع السكون إلى معرفته ، ويحصل الأُنس والشكر في مقابلته ؛ ورأى حضرة سيدنا أعلى إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثاني

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ الإصدار)

مثل أن يقال : أُصِدِرَت هذه المكاتبة ، أو هذه الجملة ، والأمرُ على كذا وكذا ، بعد أن يدعى للمكتوب إليه بعد لفظ الإصدار ؛ ثم يتخلَّص إلى المقصود بما يليق بالمقام ، ويؤتى على القصد إلى آخره ، ويختم بقوله : ورأى حضرة سيدنا أعلى . كما كتبت عن الوزير قوام الدين بن صدقة أيضا إلى ملك سمرقند جواباً عن كتاب وصل منه إليه :

(١) أُصِدِرَت هذه الجملة - أطال الله بقاء حضرة مولانا - ومواهبُ الله سبحانه في الجناب الأشرف - لازالت مطالعُ سعوده منيره ، وأعوادُ علانه موقرةً

(١) تارة يعبر بالجملة وتارة بالخدمة .

نَضِيرِهِ - آهَلَةُ الرَّبُوعِ ، عَدْبَةُ الْيَنْبُوعِ ؛ قَارَةٌ لَا يَطْعُنُ رَكْبَهَا ، دَائِرَةٌ لَا يَعْزُ حَلْبَهَا ؛
والحمد لله رب العالمين .

ووصل كتابه أدام الله علوه الصادر على يد الشيخ الأجل العالم أبي الحسن بن علك
ووقفت عليه وعرفت فحواه ، وتضاعف الشكر لله سبحانه بما حواه ؛ من أطراد
الأمور واتساقها ، وطلوع شمس النجح في سماء مباعيه وإشراقها ؛ وأحدث آبتهاجا
بوروده متوقفا ، وأغبتا بما أولاه جلت الآؤه من صنعه الذي أصبح ذنب الأيام
معه مغتفرا ؛ وعرضت خدمته المقترنة به على مجالس العرض الشريفة قدسها الله
مشفوعة بذكر ما لبته الكريم وسلفه الزاكي الأرومة من المآثر التي أضحى بها
في الفخر علما ، وعلى ناصية المجد محتويا محتكما ؛ في ضمن إيضاح المحاسن التي أصبح
أيد الله سموه بها منفردا ، ولنجاد المحامد بحسبها مقلدا ؛ والمواقف في الطاعة الإمامية
التي أصبحت غمرة في جبهة الزمان ، ولم يسع في مثلها لغيره قدما ؛ وأتته في تمكين
القواعد وتوطيدها ، وتأكيده الأحوال وتمهيدها ؛ والتجرد في تحصيل الأرب ،
وتيسير المطلب ؛ إلى ما يوجبه الود المحصف الأمراس ، والمصافاة الخالصة من
الشوائب والأدناس ؛ فأست في مقابلة ذلك من الالتفات إلى ما أوردته مما بين عن
أطف مكاتبته بالموقف الأشرف ويعرب ، ويصفو مورد الفخار بمثله ويعذب ؛
وجدد من التشریف والزيادة فيه ما يوفي على الذي تقدمه قدرا ، ويحل طوقه عن
أن يرضى عمرا ؛ وشفع ذلك بتنفيذ التشریفات لولده أيد الله علوه والمطفيين
بحضرتة ، واللائذين بحوزته ؛ وأبتدأهم بالإحسان والإنعام ، والتكرمة الموفية على
المرام ؛ إجابا لشانه ، وإبانة عن محله من الآراء الشريفة ومكانه ؛ وإيثارا لإعظام
أمره ، وإعلاء قدره ؛ ليعلم - أيد الله علوه - مكان التجرد في هذه الحال ، وصدق

السعي الذي أقرت ثغوره عن نبح الآمال ؛ وأرجو أن يصادف حسن المقام في ذلك عنده موقعه ، ويلقى لديه اعترافاً يوافق مرآه مسمعه .

فأما الإشارة إلى المشار إليه في التوزع لتلك الهنات الجارية ، التي مازالت الأيام يمثلها جائيه ؛ والاستبشار بزوال ما عرض وأضحلاله ، وعود الرأي الأشرف إلى أكل أحواله ؛ وقد عرفها بزيد الاعتداد والشكر قائلها ، ولم يكن الذي جرى مما يُسبب فكراً ، أو يتوزع سراً ؛ فإن الاعتداد الأشرف كان بحمد الله محفوظاً ، والاجتهاد في الخدمة بين الاعتراف والرضا ملحوظاً ؛ لم يُحله حال متجدده ، ولا رتعت الحوادث مورده ؛ وما زالت ثغور الأيام في كل وقت عن الزيادة باسمه ، وتُحبه بفتح اشتطاط الآمال ساحمه ؛ والمندوب لتحمل المنال وما يقترن به من التشريف فلان ، وهو من أعيان العلماء ، ومن له في ميدان السبق شأؤ القراء ؛ وله في الدار العزيزة مجدها الله الخدمة الوافيه ، والمكانة الوافره ؛ وما زالت مذاهبه في خدمه حميده ، ومقاصده على تقلب الحالات مرضية سديده ؛ وجدير بتلك الألمعية الثاقبة أن تتلق ما يورده بالإصغاء ، وتقابل النعم المسداة إليه بالشكر الماطر الأنواء ؛ وتوقظ ناظر آهتاهم للنموض بأعباء الخدمة الإماميه ، وحيازة المراضى المكرمة النبويه ؛ وتُمهي عزيمتها فيما يكون بالإحسان الأشرف مُحظيا ، ولأمثال هذا العرف المصنوع مستدعياً ؛ ولرأي حضرة سيدنا في ذلك علو رأي إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

فقد ذكر علي بن خلف من كتّاب دولتهم في كتابه "موادّ البيان" أنه إذا كانت المكتبة من الوزير إلى من دونه ، تكون بغير تصدير ، إلا أن الخطاب فيها يجب أن يُبنى على أقدار المخاطبين في مراتبهم في الدولة ، ولم يزد على ذلك .

والذى وقفت عليه منه أسلوبٌ واحد: وهو أن يفتتح الكتاب بلفظ «كأننا والأمر على كذا» ويتعرض فيه لذكر حال الخلافة والخليفة، ثم يتخلص إلى المقصود بما يقتضيه الحال، ويؤتى عليه إلى آخره، ويختم بالدعاء.

كما كتب القاضى الفاضل عن بعض وزراء العاصد: آخر خلفائهم إلى بعض الملوك ماصورته:

كأننا - أطال الله بقاء الملك - عن مودة ظاهرة الأسباب، متظاهرة الأنساب، ضافية جلباب الشباب؛ وعوائد عوارف لا يتنكر معروفها، ووفود فوائد لا يتصدع تأليفها؛ ومسامحى مساعد لا يتقص معروفها ولا ينفض مسوفها؛ وسعادة بالخلافة التى عدق إليه أمرها وأوضح سرها؛ وملاً سرائرها وسريها، وأطلع شمسها وقمرها. بولانا وسيدنا أمير المؤمنين نوالى ميامنها، وتلاً لمحاسنها، وتشرّف درجاتها، وتضاعف سعادتها؛ والكلمة قائمة على أصولها، وأمور الخلق جارية على ما هوها، ونظام الإسلام بسياستها لا يهوى، وسياقة الدوام فى سعادتها لا تنهى؛ والله الموزع شكر هذه المنن، المسئول فى الإنهاض لما نهضت فيه النية وقصرت عنه المنن؛ ولم نزل - أدام الله إقبال الملك المعظم - معظمين لأمره، عارفين بئبل قدره وجليل نخره، مشيدين بجميل ذكركه وجزيل نصره، معيدين لما تنهأى الألسن من مستطاب نشره، قارئين من صفحات الأيام ما أمدها به من بشره، غير مستيمين لذكر اسمه الكريم إلا بصيامه وشكره، مؤردين مما هو يئلغه من بارع صرائبه بالمقامات الشريفة من آثار سلفه وما أثرهم، وما أثور مكارمهم ومفاحرهم؛ وأستناد المكرمات إلى أولهم وآحريم؛ ومشهور ذبهم عن الملة، ودفاعهم عن أهل القبله؛ وسدادهم فى الأمور، وسدادهم الثغور، وسيادتهم الجمهور؛ وأستقلالهم بالمشقات المتقدمة، وإخماذهم نيران الخطوب المضطرمه، وكفهم سيول السيوف العرمه؛ ومواليتهم أمور الدولة

العلوية التي اشتهر بها منهم الأكارب، وورثها كابر عن كابر، وحافظوا منها على سيرة معروف لا ينسخ، وعقد صفاء لا يفسخ؛ وسريرة صدق تستقر في الضمائر وترسخ، وتتوضح بها غرّة في جباه السبق وتشدخ؛ وتستهدى عند إيراد هذا الذكر العطر، والشاء المشتهر؛ من الدعوات الشريفة العاضدية المعضودة بالنجح، المتوضحة عن مثل فلق الصبح؛ ما يتهلل لمساغيه بالميامن المستهله، ولمراميه بالإصابة المتصلة، بينه وبين هذه الدولة العالیه، والخلافة الحالیه؛ بكتاب منه نهجنا فيه طريقها اللاحب، وأستدعينا به إجابته التي تتأق بالمراحب؛ وأعلمناه أن تمدى الأيام دون المراسلة وتطاولها، وتنقل الأحوال والدول وتناقلها؛ لا يزيد مودته إلا أستحكام معاقده، وأنتظام عقائده، ووفاء مواعده، وصفاء موارد؛ وأنه لاتباعد بين القلوب بغرض المرعى المتباعد، ولا تفرق المسافات القواصي ما بين النيات القواصد. فلما تأخرت الإجابة، تقدمت الإسترابه؛ وتناجت الظنون المعتلجة، وتراجعت الآراء المحتلجة؛ بأن الرسول عاقته دون المقصد عوائق، وتقسّمته من الأحداث دون الطريق طرائق؛ فلم ترد المكاتبه إلى جنابه، ولا أسعد السعي بطروق جنابه، الذي تئال السعادة وتنجى به؛ وإلا فلو أنه أم له، بلغ ما أمله، ولو وصله، لأجاب عما أوصله؛ لأن مكارم خلائقه تبعث على التبرع بالسنون فكيف بقضاء المفروض؛ وشرائف طرائقه تأبى للحقوق الواجبه أن تقف لديه وقف المطرح المرفوض. فجددنا هذه المكاتبه مشتملة على ذلك المراد، وفواضله بما يعيره الإصغاء، ويحببه الإلغاء؛ ويحسن له الإنصات، ولا يحتاج فيه إلى الوصات. ورسمنا أن يكتمه حتى عن لسانه، وأن يطويه حتى عن جنانه، وأن يتمسك بالأمر النبوي في أستعانه على أمره بكتمانه؛ فمن حسن الحزم سوء الظن، وهل لأرباب الأسرار فرج إلا مادامت في السجن؛ وقد أستلزمنا المرتهن لما أستعظمنا الرهن، وفوضنا إلى من لا يعترينا فيه الوهم ولا منه الوهن؛

ونحن نَحْبِبُنَا بما يُعَلِّمُ به حَسَنُ مَوْعِ رِسَالَةِ الْأَسْتِرْسَالِ ، وبما يَبَيِّنُ به عن دَلَالَةِ الإِدْلَالِ ، وبما يَرْحُبُ بِمُودَتِهِ مَجَالَ الْجَمَالِ ؛ وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يُؤَيِّدُ الْمَلِكَ بِنَصْرٍ تُسْتَخْدَمُ لَهُ الْأَقْدَارُ ، وَسَعَادَةٌ لَا تَنْصَرِّفُ فِي تَصْرِيفِهَا أَحْكَامُ الْفَلَكَ الْمُدَّارِ ، وَإِقْبَالٌ يُقَابِلُ آرَاءَهُ وَأَدَابَهُ فِي فَاتِحَةِ الْوَرْدِ وَعَاقِبَةِ الْإِصْدَارِ ، وَعِزٌّ لَا يَزَالُ مِنْهُ مُتَوَقِّلًا فِي دَرَجَاتِ الْاِقْتِدَارِ .
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطرف الثالث عشر

(فِي الْمَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ الْأَتْبَاعِ ، إِلَى الْمُلُوكِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ؛
وَفِيهِ ثَلَاثُ جُمَلٍ)

الجُمْلَةُ الْأُولَى

(فِي الْمَكَاتِبَاتِ الصَّادِرَةِ عَنِ اتِّبَاعِ مُلُوكِ الشَّرْقِ إِلَيْهِمْ
فِي الزَّمَنِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَهِيَ عَلَى أُسْلُوبَيْنِ)

الْأُسْلُوبُ الْأَوَّلُ

(أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَةَ بِلَفْظِ : « كِتَابِي »)

وَيَدْعَى لِلْكِتُوبِ (١) كَذَا وَكَذَا ، وَيُخَلِّصُ إِلَى الْمَقْصُودِ بِمَا تَقْتَضِيهِ
الْحَالُ ، وَيَخَاطَبُ السَّاطَانَ فِي أَثْنَاءِ الْكِتَابِ بِمَوْلَانَا أَوْ بِمَوْلَانَا الْمَلِكِ ، وَيَعْبُرُ الْمَكْتُوبَ
عَنْهُ عَنِ نَفْسِهِ بِنَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَلَفْظِ الْإِفْرَادِ ، وَيُحْتَمُّ بِقَوْلِهِ : فَإِنْ رَأَى أَنْ يَفْعَلَ كَذَا فَعَلْ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . وَيُدْعَى لِلْكِتُوبِ إِلَيْهِ بِطَوْلِ الْبَقَاءِ مَعَ التَّعَرُّضِ لَذِكْرِ الْخَلِيفَةِ
فِي أَثْنَاءِ الْكِتَابِ .

(١) فِي الْأَصْلِ مَحْوٍ وَاعْلَهُ وَيَدْعَى لِلْكِتُوبِ إِلَيْهِ ثُمَّ يُقَالُ وَالْأَمْرُ عَلَى كَذَا الْخ .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب، كتب به أبو إسحاق الصابي عن أبي الفضل الشيرازي: أحد تُوَّابِ بنِي بُوَيْهٍ إلى عَضُدِ الدَوْلَةِ بنِ بُوَيْهٍ، في جواب كتاب وصل منه إليه، يخبره بفتح خراسانَ وطاعةِ صاحبها، وهو:

كاتبِي - أطال الله بقاءَ مولانا - والأُمُورُ التي أخدمُ فيها جاريةً على السَّداد، مستمرةً على الأَطْرادِ؛ والنِّعمُ في ذلك خَلِيقَةٌ بالتَّمامِ، مُؤَدَّةٌ بالدَّوامِ.

والحمدُ لله حقَّ حمده، وهو المُسئولُ إطالةَ بقاءِ مَوالينا الأُمراءِ، وحراسةَ ما خُوِّفهم من العزِّ والعلاءِ؛ وأن لا يُخْلِيهم من صَلَاحِ الشانِ^(١)، وسُمُوِّ السُلطانِ؛ وظهورِ الولى، وتُبُورِ العدوِّ.

ووصل كتابُ مولانا [الأمير أطال الله بقاءه]^(٢) الصادرُ من معسكره المنصور بكازرين، بتاريخ كذا، مُخبراً بِسُمُولِ السَّلامِ، مَبشِراً بِعُمُومِ الأِسْتِقامِهِ؛ مَوجِباً لشُكْرِ ما منح اللهُ من فَضله وأعطى، مَقْتَضِياً [نَشْرَ]^(٣) ما أسبغ من طَوِّله وأضفى؛ مشروحاً فيه الحالُ فيما كان يجرى من الخِلافِ بين مولانا الأمير السَّيدِ «رُكنِ الدَوْلَةِ» وبين ولاةِ خُراسانَ، وجهادِهِ إِيَّاهُم في حِياطةِ الدِّينِ، وحمايةِ حَرِيمِ المُسلمينَ؛ والدعاءِ إلى رضا ربِّ العالمينَ، وطاعةِ مولانا أميرِ المُؤمِنينَ؛ وتَدَمُّمِهِ مع ذلك من دماءِ كانتِ بِاتِّصالِ الحروبِ تُسْفِكُ، وحُرَماتِ باسْتِمْرارِ الوَقائِعِ تَنهَكُ؛ ونُغُورِ شُهَمَلِ بعد أن كانتِ مَاحِظُهُ، وَحُقُوقِ نُضاعٍ بعد أن كانتِ مُحْفُوظُهُ؛ وإنه لما جُدِّدَتِ العزيمَةُ على قِصْدِ جُرجانَ ومنازعةِ ظهيرِ الدَوْلَةِ أبي منصور بنِ شَمَكِرِ مولى

(١) في المختارات المطبوعة ص ٩٣ من علو الشان.

(٢) الزيادة من نسخة المختارات المطبوعة والمخطوطة.

(٣) في المختارات «بدارزين» وكلتاها من بلاد فارس.

أمير المؤمنين [على تلك الأعمال، ودفعه عما ولاه أمير المؤمنين] ^(١) بوسيلة موالينا الأمراء
أدام الله تمكينهم منها ومنازعتهم ومجادبتهم فيها، نهض مولانا [الأمير الجليل عضد الدولة] ^(١)
إلى كُرمان على اتفاق كان بين مولانا الأمير السيد ركن الدولة وبينه في التوجه إلى
حدود نخراسان . فحين عرف القوم الحد في ردهم ، والتجريد في صدهم ، وأنه
لامطع لهم في جنبة إلى طاعة أمير المؤمنين آنتسابها ، وبذمام سادتنا الأمراء
اعتصامها ، آتعضوا وآترعوا ، وعرجوا ورجعوا سالكين أقصد مسالكهم ، منتهجين
أزسد مناهجهم ، معتمدين أعود الأمور على المسامحة عموماً وعليهم خصوصاً باجتماع
السلم ، وآتصال الجبل ، وأمن السرب ، وعُدوبة الشرب ، وسكون الدهماء ،
وشمول النعماء ، فخطبوا الصلح والوصله ، وجتحووا إلى طلب السلم والألفة ، وأن
مولانا [الأمير عضد الدولة] ^(٢) آثر الأحسن وآختار الأجل : فأجاب إلى المرغوب
فيه إليه ، وتوسط ما بين الأمير السيد ركن الدولة وبين تلك الجنبة فيه ، وتكفل
بتقريره وتمهيده ، وتحقق بتوطيده وتشبيده ، وأخرج أبا الحسن عابد بن على
إلى نخراسان حتى أحكم ذلك وأبرمه ، وأمضاه وتممه ، يجتمع من الشيوخ والصلحاء ،
ومشهد من القضاة والفقهاء ، وأن صاحب نخراسان عاد على يد مولانا [الأمير عضد
الدولة] ^(٢) إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين ومشايعته ، والإمساك بعلائق ولآئه وعصمته ،
وصار ولياً بعد العداوه ، وصديقاً بعد الوحشه ، ومُصافياً بعد العناد ، ومخاطباً بعد
الإنفراد ، وفهمته . وتأمّلت - أيد الله مولانا - ما في ذلك من ضروب النعم المتشعبة ،
وصنوف المنح المتفرعة ، العائدة على الملك بالجمال ، وعلى الرعية بصلاح الحال ،

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية .

(٢) الزيادة من المختارات .

الداعية إلى الائتلاف والآنفاق، المزيلة للخلاف والشقاق؛ فوجدت النفع بها عظيماً، والحظ فيها جسيماً؛ وحمدت الله حقَّ حمده عليها، وشكرته أن أجراها على يد أولى الناس بها؛ وأحقهم بالمكارم أجمعها، وأن قرب الله بيمينه [ما كان بعيداً مُعضلاً ويسر بركته^(١)] ما كان ممتنعاً مشكلاً . فأصلح ذات البين بعد فسادها، وأحمد نيران الفتن بعد تلهبها وآنقادها؛ ووافق ما بين نيات القلوب، وطابق بين نخائل الصدور، وتحت الضلوع بُجج سعيه على التآلف، وأنضمت الجوانحُ بميمون رآيه على التعاطف؛ وحصل له في ذلك من جزيل الأجر، وجميل الذكر؛ وجيل الفخر، وأريج النشر؛ مالا تزال الرواة تُدرسه، والتواريخ تُحرسه؛ والقرون تُتوارثه، والأزمان تتداوله؛ والخاصة تتعلّى بفضله، والعامّة تأوى إلى ظله .

فالحمد لله كثيراً، والشكر دائماً على هذه الآلاء المتواترة، والعطايا المتناصرة، والمفاحر السامية، والمآثر العالیه؛ وإياه أسأل أن يُعرّف مولانا الملك الحيرة فيما آرتاه وأمضاه، والبركة فيما أولاه وأجراه؛ وأن يُهينته نعمه عنده، ويظهر مواهبه لديه؛ ويسهل عليه أسباب الصلاح، ويفتح أمامه أبواب النجاح؛ ويعكس إلى طاعته الرقاب الآبية، ويذل لموافقته النفوس النائيه؛ ولا يُعدهم وموالينا الأمراء أجمعين المنزلة التي يرى معها ملوك الأرض قاطبةً التعلق بجلهم أمنا، والإمساك بذمامهم حصناً؛ والانتماء إلى مخالطهم عزاً، والاعتراء إلى مواصلتهم حرزاً؛ إنه جل وعز على ذلك قدير، وبإجابة هذا الدعاء جدير .

وقد آجهدت في القيام بحق هذه النعمة التي تلمّني، وتأدية فرضها الذي يجب علىّ: من الإشادة بها والإبانه، والإشاعة والإذاعة؛ حتى آشهرت في أعماله التي

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية وهي مناسبة .

أنافيتها ، وأستوى خاصتها وعامتها في الوقوف عليها ؛ وأنشرحت صدور الأولياء معها ، وكبت الله الأعداء بها ، وأعددت بالنعمة في المطالعة بها والمكاتبة فيها ؛ وأضفتها إلى ما سبق من أخواتها وأمثالها ، وساف من أترابها وأشكالها ، فإن رأى مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أن يأمر أعلى الله أمره باجرائى على أكرم عاداته فيها ، وأعتادى بعوارض أمره ونهيه ككلمها ؛ فإن وفور حظى من الإخلاص ، يقتضى لى وفور الحظ من الاستخلاص ؛ فعل . إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثانى

(أن يفتح الكتاب بالإصدار)

مثل : أصدر الخادم أو العبد ونحوه ، ويؤتى بالصدر إلى آخره ؛ ثم يتخلص إلى المقصود بما يقتضيه المقام ، ويختتم بقوله : وللراى العالى مزيد العلو ونحو ذلك .
كما كتبت عن بعض وزراء الراشد أو المسترشد إلى السلطان سنجر السلجوقى ، فى حق قطب الدين أبى منصور أزدشير العبادى : وقد ورد إلى أبواب الخلافة ببغداد رسولا ، وكان أبوه وخاله وسلفه من أهل العلم والزهد ، وهو من الفصحاء البلغاء ما صورته :

أصدر خادم المجلس العالى هذه الخدمة عن ضمير معموير بالولاء ، وإخلاص دواعيه متصله على الولاء ؛ وعكوف على ما يرجوه حصول المراضى العليه ، والتحقق لمشايعته الواضحة شواهدا الجليه ، والحمد لله رب العالمين .

وبعد ، فما زال الجناب العالى السلطانى الشاهنشاهى الأعظمى أعلاه الله لكل خير منبعا ، وحرمة الأمن للفوائد الجممة مغائنا ومربعا ؛ والسعادة والتوفيق مقروين

بسامى آرائه ، مُطِيفِينَ به من أمامه وورائه ؛ فى كل رأى يرتبته ، ومقرب يصطفيه ؛ وأمرى يتخيره ويقلده ، وأمر يحلّه ويعقده ؛ وصنع جميل يُصيب من الاستحقاق موضعه ، ويعيد طيب الذكر مجهزه ومبضعه ؛ مناقب تفتت الإحصاء عدا ، وترد من مفانح الوصف منهلًا عذبًا وتسير بذكرها الرفاق غورا ونجدا ، وتجاوز غايات المدح علاء ومجدا ؛ وكفى على ذلك دليلًا قاطعًا ، وبرهانًا ساطعًا ؛ ما اقتضته الآراء العلية من التعويل على فلان العبادى فى تحمّل الرسالة الأعظمية التى عدت منه بالنبيّ الجيب ، البرى من العيب ، العارى من دنس الشكّ والريب ؛ فإن آخياره لهذا الأمر طبق مَفْصِل الصواب ، ولشاكلة رمى الرأى أصاب ؛ إذ هو الفدّ فى علمه وفضله ، السديد فى قوله وفعله ؛ البارع فى إيجاز الخطاب وفضله ، المعرّف فى الزهادة والديانة المزيّنين لفرعه وأصله .

ولما وصل إلى الأبواب العزيزة الإمامية - ضاعف الله تعالى مجدها - مثل بالخدمة مؤديًا من فرضها ما يلزم أمثاله من ذوى العقائد الصحيحة ، والموالاة المحضة الصريحة ؛ وصادف من التكرمة والإنعام ما يُوجب له محلّه من العلم الذى لا تُكدر الدلاء بجره ، ولا تُدرِك الأرشية بطولها قعره ؛ فهو فيه نسيج وحده ، وناسيج برده ؛ وناشر علمه ، ومستغز ديمه . وألقى من ذلك ما يقتضيه اختبار أحواله الشاهدة بأنه من أصحاب فى يده قياد الفصاحة الأبيّ ، وملكته زمامها الممتنع على من عداه العصى ؛ وجمع له من الفضائل ما أصبح فى سواه متفرقًا ، وخير له منها ما جعل جفن حاسده لفرط الكمد مؤرقًا ؛ إلى ما زان هذه الخصائص التى تفرد فيها وبرع ، وطال مناكب الأقران وفرع : من الإخلاص الدالّ على تمسكه بحبل الدين المتين ، واستقراره على جدّه الواضح المبين ؛ وفصل عن الأبواب العزيزة فائزًا من شرف الإراء ، ما وفر الحظوظ والأنصباء ؛ حاصلًا من حميد الآراء ، على أنفس العطاء وأجزل الجباء .

وقد تمهد له من الوجاهة والمكانة ما يفخر بمكانه ، وتنقطع دُونَ بلوغ شأوه أنفاسُ
أقرانه ؛ ورسم - أعلى الله المراسيم الإمامية وأمضاها - مطالعة المجلس العالى السلطاني
أعلاه الله بهذه الحال ، تقريرا لها عند العلم الكرمي ، وأستمدادا للطول والإنعام ،
باختصاص قطب الدين بالاحترام ؛ الذى هو حقيق بمثله ، وخلق أن لا يصحى
عن وارف ظله ؛ وما يؤعز به من ذلك يُصادف من دواعى الاستحقاق أوفها ، ويرد
من مناهل الذكر الجميل أعذبها وأصفها ، ويتلق من شرف المحامد بأطفها وأحفها ،
وللرأى العالى علوراىي ، إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار المصرية إليهم ،
والمختار منه أسلوبان)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء)

مثل أن يدعى بعز الأنصار ، أو إدامة السلطان ، أو تخليده ، أو إدامة بسطة
السلطان ، أو إدامة الأيام ونحو ذلك . ويخاطب السلطان فيه بمولانا ، ويعبر
المكتوب عنه عن نفسه بالملوك ، ويحتم بالدعاء . وهى طريقة القاضى الفاضل ومن
تلاه من كتاب الدولة الأيوبية بالديار المصرية .

قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يقال فى مخاطبة السلطان : سيدنا مكان
مولانا ، وإن كان السيد من الألقاب السلطانية ، لأن لفظ سيدنا مما أصطلح عليه
لأكابر المتعممين من الفقهاء والقضاة والكُتَّاب ، فأجتنب فى حق السلطان كى لا تقع
المشاركة بينه وبين غيره فى الخطاب .

وهذه نسخة كتاب من هذا الأسلوب كُتِبَ به إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب في جواب كتاب ورد منه بالبشارة بفتح خِلاط وهي :

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل وزاده من فضله ! ، ومدَّ على خَلْقِهِ وارِفَ ظِلِّهِ ، وأظهر به دينَه على الدِّينِ كُلِّهِ ؛ وأوضح إلى مَرْضَاتِهِ مَا سَأَلْتَهُ مِنْ سُبُلِهِ ، ولا عَدِمْتَ يَدَ الإسلامِ والمسلمينَ التعلُّقَ بوثيقِ حَبْلِهِ ؛ وفَرَّجَ به الخَطَطَ المُطْبِقَةَ ، وفتح به البلادَ المستغْلِقَةَ ؛ وأخضع لطاعته الأعناقَ ، وعمَّ بفتوحه الآفاقَ ؛ ودَمَّرَ الكُفْرَ بمقامه ، وطوى أيامَهُمْ بما ينشُرُهُ وَيُدِيمُهُ من أيامه ، وأنزل النصرَ في مواقف التَّزَالٍ بما ترفعه رايأته من أعلامه .

وقف المملوكُ على ما أنعم به مولانا: من كتابِ البشارة التي وصلت إلى كلِّ قلبٍ وسَمِعَ ، وأمل بها كلُّ مسلمٍ كلَّ خيرٍ ونفعٍ ، وعلم ما وراءها من جمعٍ شَمَلٍ كان عزيزَ الجمعِ ، وعلم ما يتبعها من عواطف مولانا التي عودها منه أكرمُ طَبَعٍ ، وتحقق أن الله سبحانه قد قلَّدَ الدينَ منه سيفاً خَلَقَهُ للوصلِ وخلقَ السُّيُوفَ للقطعِ .

وبالجملة إن الله سبحانه نظر إلى هذه المِلمة بنظر مولانا لها ، وكفَّالته لأهلها ، وسياستهم بشرفِ السَّجِيَّةِ وَعَدْلُهَا ؛ وإن كل ما آخِطَسَ المَلِكُ الناصرُ رحمه الله فإن الله يُتِمُّهُ على يديه ، ويَجْبُرُ به تارة بصفحة وتارة بحديده ؛ ويَهَبُ له عُمرًا نُوحِيًّا إلى أن لا يَدْرَ على الأرض من الكافرين ديارًا ، وإلى أن يُورِثَ الإسلامَ بسيفه منهم أرضًا ومالًا وديارًا ؛ وهذه مخايل لا يُخْلِفُ اللهُ بَارِقَتَهَا ، بل يُرِدُّ إلى جهة الكفر صاعقَتَهَا ؛ فما يَحْسَبُ المملوكُ أن جانبًا يتلوَّى على طاعة مولانا ولا يَحْرِفُ ، ولا أن كلمةً عليه بعد اليوم تختلفُ ، ولا أن ممتنعًا بالأمس يكون معه اليوم إلا أن يرضى عنه مولانا وعليه ينعطف .

وعلى هذا فالشام الفرنجي متأخذ بجناح إلى الأخذ وبقية عمر المؤمن كما قال
صلى الله عليه وسلم لا ثمن لها، والفرص تتمرّ من السحاب، والمستعاض بالله من حسرات
القوت بعد الإمكان (ولينصرن الله من ينصره) وما يشخص لخطاب الله تعالى^(١)
بالجهاد إلا مولانا: النية خالصه، والبصيرة ثاقبه، والعزيمة ماضيه، والشجاعة منحة
من الله له موهوبه، والساحة خليقة من خلائقه الكريمة موجوده، والرجال
تطأ عقبيه، والملوك تطيع أمره والشجعان تبذل أنفسهم بين يديه، والعدو يعرف
منه خصما طالما خاطبه بلسان السيف منه إليه. وليس كل من قدر عليه أراده،
وعكا أقرب من خلاط وأنفع للسامين فتحا، وأعظم في الكفار قدحا، فوالله لئن أنفلق
باب الشام في وجه الكفر، لتقطعن آمال أهل البحر والبر، وما دام في الشام بقية
من الكفر فهو يقبل الزيادة، وينتظر النجدة ويؤمل الاستعادة، وما كرر الملوك
هذا الحديث جهلا بما يجب في خدمة الملوك من الأدب في أن لا يتكلم في القضية
إلا من استشير فيها، ولا يجترئ على الكلام إلا إذا كان جيبيا بما يؤمر بالإجابة
عنه، ولكن الملوك غلب على الصبحه، وأقطع عن الخدمة، وعلم أنه لو كان حاضرا
لكان مولانا ينسبطه ولا يقبضه، ويستشف ما عنده ويستعرضه، ويسف قلبه
في لسانه إذا هفا، ويمحله على صفاء ضميره فيما يقوله فلا يقابل بالتكدير من صفا،
فقد علم الله أن الملوك يمتحن للسامين أن يرد عليهم حقهم، وترجع إليهم بلادهم، وأن
تكون هذه الأمانة جارية على يد مولانا ومستفادة من عزمته، ومكتوبة في صحيفته،
ومغتنمة فيما يئمه الله في حياته، فإن الأمور فيما بعد ملموحه، ولكن أبواب قدرة الله
مفتوحه، فالله يجعل منها أن يفتح على مولانا فيه بلاد الساحل، وأن يأخذ للإسلام به
أهبة المقيم وللمقيم أهبة الراحل، وما يخطط الملوك هذا المهيم بغيره، طالع به، ولمولانا
علق الرأي .

(١) لعله وما يختص بخطاب الخ .

الأسلوب الثاني

(أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بِقَبْلِ الأَرْضِ مَصَدَّرًا بِالمَمْلُوكِ)

وهي من مصطلحات الدولة الأيوبية أيضا إذا كان المكتوب عنه دُونَ من تقدم .

كما كتب القاضي الفاضل عن نفسه إلى السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب»

يهنئه بمولودٍ وُلِدَ له :

المملوك يقبل الأرض بالمقام العالی الناصريّ نصر الله الإسلام بمقامه ، وأهلك أعداء الحقّ بانتقامه ، ولا أعدم الأمة المحمدية عقْدَ أعترائه بكفالتها ومضاء أعتامه .
 يهنئ المملوك المولى بنعمة الله عنده وعند الإسلام وأهله بمنّ زاده في ولده ،
 وكثره في عدده ؛ وهو الأمير «أبوسليمان داود» أنشأه الله إنشاء الصالحين ، ومنّ الله
 بكال خلقه ، ووسامة وجهه ، وسلامة أعضائه ، وتهلّل غرته ، وأبتسام أسرته ؛
 ودل على أن هذا البيت الكريم فلك الإسلام لا يطلع فيه إلا البُور ، كما دلّ على
 عناية الله بأبيه ، فإن الله تعالى قال : ﴿ يَبُّ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا لَهُ بِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورُ ﴾
 فطريق المولى هذه قد توالّت فيها البشائر ، ونصر الله فيها بأطاف أغنت بلطف
 الخواطر عن قوّة العساكر ، وآشمت عليه (؟) في الغائب من أمره والحاضر
 ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ وكيف يُحصيها المحصى ويحصرها الحاصر ،
 أيحيط ما يفتنى بما لا ينفد ؟ .

فالحمد لله الذي جعل كتب المولى إلى أوليائه وكتبهم إليه مبنسمة عن المسار ،
 ناطقة بأطيب الأخبار ، منكشفة أسرارها عما يروح الأسرار ؛ وهذا الولد المبارك
 هو الموقى لأئمتي عشر ولدا ، بل أئمتي عشر نجما متوقدا ؛ فقد زاد الله في أنجمه عن أنجم

يوسف عليه السلام نبجاً ، وراهم المولى يقظةً ورأى ذلك الأنجم حلماً ؛ وراهم ساجدين له ورأينا الخلق له سُجوداً ، وهو سبحانه قادرٌ أن يزيدَ جُودَ المولى إلى أن يراهم آباءً وجدوداً .

الجملة الثالثة

(في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب إليهم ،
والمختار منه أربعة أساليب)

الأسلوبُ الأولُ

(أن تفتتحَ المكاتبة بـلقب المکتوبِ إليه)

مثل : المقامُ أوالجناب ، ويُنتعت ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم يُؤتى بالسلام ثم بالبعديَّة ، ويُؤتى بخطبة ، ويُتخلَّصُ إلى المقصد ، ويُؤتى عليه إلى آخره ، ويُختتم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ابنُ البَنَاءِ عن ابنِ خلاص إلى أمير المسلمين الوائِقِ بالله أبي بكر بنِ هُودٍ ، في جوابِ كتابٍ ورد عليه منه ماصورته :

المقام العلى ، الوائِقِ المعْتَصِمِ ، المبارك السامى السنِّى ، معدنُ الفضل ومقرّه ، ومسحَبُ ذيلِ الفخر ومجرّه ، ومَنَاطُ حملِ أمانة المسلمين التي لا يجهلها إلا أبلجُ الشرف أغرّه ، ولا يتقلدُ قِلاَدَتَها إلا تقيُّ المنشأ برّه ؛ مقامُ مولانا جمالِ الملك وبهائه ؛ والباعث في معطفه أُرِيحِيَّةُ النجابة وأزدهائه ؛ الأميرُ الأجلُّ المعظم ، المكبرُّ الهامُ المكرم ؛ المبارك الميمونُ السعيد ، الموفقُ الرشيد ؛ المظفرُّ المؤيد ، المرفَعُ المجد ؛ والى العهد ، وواسطة عِقدِ المجد ، والمُلبَسُ سراييلَ اليُمنِ والسعد ؛ الوائِقِ بالله ، المعْتَصِمُ به ،

أبي بكر ابن مولانا مجد الإسلام، وجمال الأنام، ومجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين. أبقاه الله وارداً من مشارع التأييد أعدبها، متحوّلاً من صنْع الله الجميل مايسدّد أبعاد الأمة وأقربها، ممتداً مد السعادة ماجلت غرة الفجر حنّس الظلماء وغيّبها. عبدُ بابهِ الأشرَف، ومملوكُ إحسانه الأسمَح الأذرف، مسترّفهُ الآوى إلى ظل سلطانه الأمدِّ الأورف، الحسن بن أحمد بن خلاص .

سلام الله الطيب الكريم وتحياته، يعتمد الواثق المعتمى ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى له الأمر من قبل ومن بعد، والصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى تربّت على آجتنا به الشقاوة ووجب باتباعه السعد، وعلى آله وصحبه الذين ناضلوا عن ديانته حتى وضع السنن وبان القصد - والرضا عن خليفته وأبن عمه الإمام العباسى أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور المستنصر بالله، وارث شرفه النبوى، ومجده الهاشمى، بخصائصه التى لا تُغنى أنوارها الأبرار، ولا يطمس آثارها الحجر. وعن مولانا مجد الإسلام، جمال الأنام، مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين، ذى العزّات التى لا تُغنى غنائها الذبّل التى منبتها الخطّ، ولا القُضب التى منشؤها الهند. والدعاء لتمام الثقة والأعتصام، ومقرّ الإحسان والإنعام، بالنصر الذى يؤازره الظفر، ويظاهاه العضد .

فكتبه عبد المقام الواثق المعتمى - كتب الله له تأييداً يحفظ على الدين نظامه، وتخليداً يرث لىلى الدهر وأيامه - من إشبيلية حرسها الله تعالى، وللبركات المتوكّيات والوائقيات بها آنتيال كما نتابع القطر، وسطوع كما أبتسم فى مطالعه الفجر، وتعهد

(١) لعل الصواب "البكر".

(٢) جمع الذابل ككتب وركع أنظر القاموس .

لا تزال تقرُّ به العينُ وينشرح له الصدر، والخدمةُ اللازمةُ للثابة العلية الواثقة المعتمية - أعلى الله مكانها، وشيّد بعضده أركانها - فرض لا يسعُ تأخيرها، وحق لا يعلّق به تفریط المتقلّد له ولا تقصيره، ولازم من اللوازم التي لا يُشغل بسواها سرّ المملوك ولا ضميره، والله يُجحد من ذلكم على ما يتسوّغ به صفو المنّ وتميره. وإن الخطاب الكريم الواثق شرف الله منازعه، وتور بأنوار السعادة مطالعه، ورد على العبد مُشيدا بذكره، مُعليا من قدره، مُسميا لرتبة نغره، متضمنا من واسع الإنعام وعمره، مالو وزع على العالم لشملهم بأسره، وأغرقهم بفيض يسير من بحره، فتناوله المملوكُ بيمين إجلاله وإعظامه، ووفى الواجب من ثمّه وأستلامه، وألقى به ربا ناعما لغليل الشوق المبرح إلى آجتلاء عُزته الكريمة وأوامه، وجعل يتبع سُطوره، ويستقرى فقره وسُدوره، فلا يقف من ذلكم كله إلا على ما يملأ حوباءه جدلا، ويحوّله الأبتهاج عُنا ونفلا، ويبوّئه أسنى مراتب التشریف قننا وقللا، وهو على ما حكمت به الأفضية من شحطه عن المثابة الواثقة شرفها الله وشُسوعه، وإيواء مغاني أنسه لذلكم ورجوعه، لا يجد أنسا إلا ما يتوالى قبله من متعهّد آهتامها، وتهديه إليه ألسنة أعلامها، فكلمها وقد عليه من صحائفها المكترمة وافد، وورد من حضرتها المعظمة وارد، فقد جدد الزمانُ عنده يدا غرّا، وأطلع عليه بدرا، وأفاده من الأبتهاج ما يعمر الخلد، وينشر نسيم الاستبشار إذا سکن وركد، وما ينفك على نأي المكان، وبعد الأوطان، يحافظ على رسمه من خديها، ويؤدّي وظائف الشكر بجسيم منحها وعميم نعمها، ويجعل على نفسه المملّكة رقيبا من أن يحلّ في سرّ أو جهر بعهد من عهودها أو ذمة من ذمّتها، ومهما تجدد صنع يتعين إهداؤه، ويجب قضاء الحق بالدلالة عليه وأداؤه، لم يصحبه في المطالعة به توان، ولم يعبر في جلّائه أوانا إلى أوان. وقد كان قدم مطالعته قبل إلى الباب الواثق

شرفه الله باسماً لتفاصيل الأحوال ، وشارحاً لها على الاستيفاء والكمال ؛ ولم يتجدد بعد ذلك إلا تمكن الرجاء في فتح لبلة يسر الله مرآتها عن دؤب بحول الله وقرب ، وأنطق لسان الحال بتيسير كل عصى من محاولاتها وصعب . ولو أن مكانا عضه الدهر من أنياب حوادثه الجون بما به عضها ، وفص الحصار أفعالها التي فضها منه مافضها ؛ لكان قد ذهب شمسها ، وخفي عن أن يسمع حسيه ؛ لكن أبي الشقاء الغالب على أهلها إلا أن يمد عليهم أمد العذاب ، ويُرخي لهم طول المهلة المشفية بهم كل يوم على مهاوى الخسار والتباب ، حتى يبلغ الكتاب فيهم أجله ، ويصل إلى الحد الذي شاء الله أن يصله ؛ فيأخذهم أخذ من عمي عن إدراك الحق بصره وبصيرته ، وخبث في معاندته سره وسريته ؛ ويرجي أن الوقت في ذلك دن بإمكان ، والله تعالى يديم للمقام الوثيق ماعوده من توالى السعود وأطرادها ؛ وإصحاب الآمال وأقيادها ؛ وسلام الله الطيب يراوحها ويغادها ، وتحياته ، ورحماته الموصولة وبركاته .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بالحضرة)

وتوصف ويدعى لها ، ثم يقع التخلُّص إلى المقصد ، ويختم بالدعاء والسلام . كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى المتوكل بن هود القائم بالدعوة العباسية بالأندلس عن بعض أتباعه ، عند ورود كتابه عليه يخبره بفتح ... من الأندلس وقتل الثائر بها ، وهو :

(١) بياض بالأصل ولعله " بفتح المراد وهو حصن بقرطبة من الخ " كما يؤخذ من تضايف الجواب حيث قال (كيف لا وقد بشر خبره بالمراد في المراد) وفي معجم " باقوت " المراد حصن قريب من قرطبة بالأندلس .

الحضرة العلية أبقى الله ظل ملكها على العباد، وعرفها من تأييده وإنجائه أفضل المعتاد، وجعل لها من الملقب إليه والتوكل عليه أكثر الجموع وأكثر الأعداد، ولا زالت أحاديث نصرها سالمة المتون صحيحة الإسناد، وصحائف فتوحها تجمع صلاح العباد، وتطلع صباح البشائر من ليل المراد، عبدها ومملوكها، السالك من الخدمة والنصيحة الطريق التي يجب سلوكها، فلان .

وبعد : فكتب العبد - كتب الله للقيام العلي المجاهد المتوكل سعاداً يرد الصعاب دلاً، ويسد من المكاره سبلاً، وأمدّه بملائكة رسله جاعل الملائكة رسلاً - من فلانة وبركاته مروية للظاء، وحركاته مسكنة للدهماء، وآثاره في يومئذ سيئه وحرية آثار الأسياء على الكفار والرحماء، والأرض بوضوح محياه، وفتوح أسنته وطبائه، تهنأ أعطافاً، وتعتز مواسط وأطرافاً، وتبرز في أنوارها القشيب فيزداد حسنها أضعافاً، والأيام بالبشائر التي فضت ختامها عفو على قدر، وقضت مسامها صفواً بلا كدر، لها أنف الشاخي تيبها، ووجه الضاحك المتهازل إشادةً بحالها وتوحيها، ودلالة على ربح مجالها وتيبيها . والحمد لله حمد من عرف قدر نعمائه فوق حق أسمائه تقديساً وتزيها . وإن الخطاب العلي الكريم ورد راصفاً أجل الدرر، واصفاً أجمل الفتوح الغرر، رافلاً في حلل الأيد والقهر، رافعاً منسأة الحوادث بإحدى حسنات الدهر، فياله من كتاب ! أودع بدائع الكلم، وجوامع البيان الملتئم المنتظم، ولو آسئد سنائه أول الفلقين لم يك كاذباً، ولو أعير محياه ثاني الشفقين كان عن ضوء النهار نائباً، ذكر بأيام الله المشهودة بالملائكة والروح، ومد باع الكلام في فتح الفتوح، وأطال ديول القول مفتاحاً منه للصعب الجموح، فكان الغزير الصيب، والكثير الطيب، والمتبع إن مضى بقلوب وأسماع، والمضاعف حسنه إن كرر إلى غير انقطاع . كيف لا ؟ وقد بشر خبره بالمراد في المراد، وأوقع اليقين بما حرق

العادات من الإسعاف والإسعاد، وكان من آحاد الأخبار لا من أخبار الآحاد؛ ومما اقتضه ما جرى من أوائل الحركة السعيدة، وأعترض من المتاعب الشديده، وأن الشتاء كان في ابتدائه، والغيم ساحب لردائه، ساكب فضل أمدائه، والمكاره في طيها النعم الحسام، والنفوس الجارثت في مرادها الأجسام؛ ولذلك هانت على المقام العلى - أيده الله - تلك المشاق، وربحى من عمله ونظره ما جنى من ثمرة العاق؛ فسار إليه بالمخفّل الأحفل، والعزيمة الزعيمة بقصّ المُقفل، ورَضّ الأعلى والأسفل؛ وقد أعتزَّ بأجلّ المدائن شانا، وأوثقها بُنيانا، وأبعدها صينياً ومكانا؛ وهى التى أعيّت رياضتها كلّ راض، وسخّرت بكلّ قاعد بقنونها راض؛ وجمع إليها من طرد الآفاق، وأعداد الاجتماع والاتفاق؛ أتباع كلّ ناعق، وأشياع كلّ مارد مارق؛ فاستحلوا الدماء، وركبوها مضملة عمياء، وأدرك كلّ منهم مما شاء للإسلام ماشاء؛ وعدوا الله يقتل لهم فى الذروة والغارب، ويضرب لهم سُكَّان البلد ضرب الغرائب؛ حتى أباد خضراءهم، وجعلهم شرّ خلف فيمن وراءهم؛ غير مبال بما احتقَب من الجرائر، وأقترف من إباحة الحرائر؛ فاجترأ مدّة بالجللاء، وأزداد إثمًا بالإملاء؛ وحينئذ سمّت إليه عساكر الإسلام، وناولته بالموت الزوأم، ورأى عيانا ما كان يطير إليه قلبه لوراه فى المنام؛ وتداولته المطاولة المستدرجه، والعاجلة المزججه؛ وفى كلّ ذاق عذاب الهون، فأحس بقاصمة المتون وقاضية المنون؛ وأتقسمت شدته إلى المهلكين: خوف وإعدام، وأستكثت تسعة أشهر وكان الفتح عندها لتنام؛ وإنه للولد الذى هنى به الإسلام، وضنت بمثله الأيام، وأستبشر بوجوده

(١) القنة بالضم الجبل الصغير أو الجبل السهل المنبسط على الأرض جمعه قنن وقنان وقنون انظر

الأنام ؛ فما أعلى مقامه ! وأبهج يومه وأسعد عامه ! ؛ ولا غرو أن تكون غرته
أبهى الغرر، ومفتحه مباركا كالبشر؛ وقد أسفر عن أيمن وجه التُّجج ، وخرج
من عموم الأيام بمخصّص هذا الفتح ؛ وانتقم الله فيه من الشقيّ الظالم، العظيم الجُراة
على ارتكاب المظالم؛ فطاح بمويق أعماله ، وعجل الله به إلى ما أعدّ لأمثاله ؛ وكان
دمه شرّ ديم أريق ، وأديمه أخبت أديم لاقى التمزيق .

والحمد لله الذى نصر الراية العباسية وأعلاها، وأظهر آية عنايته وجلّلاها ، وأسبغ
نعمه الحسيمة ووالاها . وحين ورد هذا النبا العظيم [كان] أندى من قطر الندى
على الأكباد ، وسرى في البلاد سريان الأرواح فى الأجساد ؛ وكفّت به الأسماعُ
والأسمار، وسمت به وإليه الأمصارُ والأبصار ؛ وأستقرّ من ارتجاع البلد، وارتزاع
النفس الذاهبة إلى جرى الأبد ؛ حُكّان مدركهما الفعل والإقرار ، وعملان تمّ بهما
المراد والاختيار؛ فرفعت الأدعية إلى سامعها، وغصت الأندية بحاضري مجامعها؛
وذاع بالبشرى فياحسن ذائعها وشائعها؛ وأذعنت الآمال لإدناء نازحها وشاسعها؛
وأخذ العبد من المسرة بحظّ أخلص العبيد مشهدا ومغيبا، وأجمعهم لمعالى الحدّ
تطنيا، ولمعانى الشاء والحمد تطيبا؛ وجدّد من شكر الواهب لجزيل هذه الهبة ،
والفاتح لأعظم المعامل الأشبه (؟) ما يستغرق المدد، ولا يبلغ الأمد؛ وأتى [المثل] أن
يصف البشرى الواصله ، أو يُنصف المقالة المتطاولة ؛ ولو حلب أشطر الإحسان ،
وجلب أبحر البيان ؛ وكيف والفكر قد قعد حصرا، والمدى لا يؤاخذ التقدير قسرا،
والقول لا يجيب مطولا ولا يُختصرا؟ فحسبه دعاء هوله رافع ، ولأوقات الخلوات به
قاطع ، وإلى الله سبحانه فى قبوله ضارِع ؛ والله يجيب فى المقام العلى المتوكلى أفضل
دعاء الخلق، ويضاعف له مع السابقين ثواب السبق، ويجزيه خير الجزاء عما أزاله

من الباطل وأداله من الحق ؛ وهو تعالى ينصره يومَ الباس ؛ ويعصمه من الناس ،
ويبقى رفده للاكتساب ونوره للاقتباس ، ويعرفه في كل ما يستنبطه من أصل
التوكل صحة القياس ، بمنه والسلام .

الاسلوب الثالث

(أن تفتح المكتبة بما بعد، ويتخلص إلى المقصد ويختم بما يناسب المقام)

كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى المتوكل بن هود المقدم ذكره ، عن نفسه ،
يهنئه بوصول هدية الخليفة العباسي إليه من بغداد :

أما بعد ، فكتب العبد - كتب الله للقيام العليّ الناصريّ المتوكليّ مجدداً يحل
الكواكب ، وجدداً يقلّ الكتاب . من شاطبة ، وبركات دعوته السعيدة قد
طبقت البسيطة ، وكأثرت البحار المحيطه ؛ وأنجزت للإسلام أفضل مواعده ،
وجددت عهده لأهل بيت النبوة الرافعة لقواعده ؛ وفسحت له مجال البشري ،
وأطلعت عليه أنوار العناية الكبرى ؛ فعاد إلى الوطن ، ووجد حال الشهد طعم
الوسن ؛ وأورق عوده ، وأتسقت سعوته ؛ وعاد إلى صحته بالنظر الإمامي الذي
جاء يعوده . وحين صدور رسول دار السلام ، ومثابة أهل الإسلام ؛ ومقعد
الجلالة ، ومضعد إقرار الرسالة ؛ ومعه الكتاب الذي هو غريب ، أنس به الدين
الغريب ، وبعيد الدار نزل به النصر القريب ؛ وآية بأدلتها الصادقة لتبطل الشبه
الآفكه ، وسكينته من ربنا وبقية مما ترك آل نبينا تحمله الملائكة - أطمأنت القلوب ،
وحصل المطلوب ؛ ودرت أخلاف الإيناس ، وأرتفع الخلاف بين الناس ؛ وعلموا
أن السالك قد أضاعت له المحجّه ، والحق لا يعدو من بيده الحجّه ؛ وأن من أمرته

الخِلافةُ العباسيةَ فطاعته تجبُ قطعاً، ومخالفتهُ تحرمُ شرعاً؛ ولم يبقَ إلا أن يبين للعِيان شخصُوه، ويردَّ على الآذان نصُّه؛ فيكون يومه غُرَّةَ الليالي المعتكرات، وعلمَ الأيام المنكرات؛ واليومَ الذي به تؤرَّخ الأيامُ المستقبلة، وتُرفعُ فيه الأعمالُ المتقبلة. وبإقبال الركب السعيد إلى هذه ينزل به من سماء العِلاء محكمٌ وحكمه، ويصلُّ به إلى الأنام فضلٌ من الله ونعمه؛ ويُقتضى دينٌ على الأيام، لا يبقَى معه عسره، ويوجدُ جبرٌ للإسلام، لا يكون بعده كسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حَسْرَه.

الأسلوب الرابع

(أن تفتَحَ المكتبة بالخطاب بلفظ «سیدی» أو «مولای»

مع حرف النداء أو دونه)

كما كتب أبو عبدالله بن الخطيب وزير ابن الأحمر صاحب الأندلس عن نفسه إلى السلطان أبي عنان ابن السلطان أبي الحسن المريني صاحب فاس، عند ورود كتابه إلى الأندلس بفتح تلمسان، معترضاً بأن صدور كتابه من عند قبر والده السلطان أبي الحسن بالأندلس، ما صورته :

مَوْلَايَ! فاتح الأقطار والأمصار، فائدة الأزمان والأعصار، أثير هبات الله الآمنة من الاعتصار، قُدوة أولى الأيدي والأبصار، ناصر الحق عند فُعود الأنصار، مستصرخ الملك الغريب من وراء البحار، مصداق دعاء الأب المولى في الآصال والأشجار. أبقاكم الله! لا تقف إياتكم عند حد، ولا تُحصى فتوحات الله عليكم بعد؛ ولا يُفنى أعداؤكم من كد، ميسراً على مقامكم الكريم ماعسر على كل أبٍ كريم وجد.

(١) في الأصل قصور وهو تصحيف والتصحيح من "ريحانة الكتاب" ج ٢ ص ٣٣.

عبدكم الذى خَلَصَ لِبُرِيذِ عِبُودِيَّتِهِ مُلْكُ مَلِكِكُمُ الْمَنْصُورِ، الْمُعْتَرِفُ لِأُذُنِي رَحِمَةٍ
 مِنْ رَحْمَاتِكُمْ بِالْعَجْزِ عَنْ شُكْرِهَا وَالْقُصُورِ، الداعى إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَنْ يَقْصُرَ عَلَيْكُمْ
 سَعَادَةَ الْقُصُورِ، وَيُدَلِّلَ بَعْزَ طَاعَتِكُمْ أَنْفَ الْأَسَدِ الْمَهْصُورِ، وَيُبْقِيَ الْمُلْكَ فِي عَقَبِكُمْ
 إِلَى يَوْمٍ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ . فَلان .

من الصَّريحِ المقدَّسِ : وهو الذى تعددت على المسلمين حقوقه ، وسطع نوره وتلألأ
 شُرُوقُه ، وبلغ مجده السماءَ لما بسقت فروعهُ ورسخت عُروقه ، وعظم بتبوتكم خفزه
 فما فوق البسيطة فخر يفوقه ؛ حيثُ الجلالُ قد رست هضابُه ، والمُلْكُ قد سرت
 بأستار الكعبة الشريفة قبأه ، والبيتُ العتيقُ قد ألحفت الملاحد الإمامية أثوابه ،
 والقرءان العزيزُ ترتل أحرابه ، والعملُ الصالحُ يرتفعُ إِلَى اللَّهِ ثوابه ، والمستجيرُ يخفى باطنه
 سؤاله فيجهر بنعرة العز جوابه ؛ وقد تقياً من أوراق الذكر الحكيم حديقه ، وخميلة
 أنيقه ، وحطَّ بجودي الحَقِّ نفسا في طوفانِ الضَّرِّ غريقه ، والتحفَ برقِ الهيبةِ الذى
 لا تهدي للنفس فيها إلا بهدايةِ الله طريقه ، وأعتزَّ بعزِّ الله وقد توسَّطَ جيشَ الحرمةِ
 المرينيةِ حقيقه ، إذ جعل المولى المقدَّسَ المرحومَ أبا الحسنِ مقدمه وأباه وجده
 سقاه المولى الكريمُ بهذا المجد سيبَ رُحماه ، وطنَّبَ عليه من الرضا فسُطاطا ، وأعلى
 به يدَ العنايةِ المرينيةِ أهتاماً وأغتباطا ؛ وحرَّره أحكامَ الحرمةِ نصاً جليلاً وأسنباطا ،
 وضمنَ له حُسنَ العُقبي التراما وأستراطا ؛ وقد عقَّدَ البصرَ بطريقِ رحمتكم المنتظرةِ
 المرتقبه ، ومدَّ اليدَ إِلَى اللطائفِ بشفاعتكم التى تتكفل بعنق المسال كما تكفلت بعنق
 الرُقبه ، وشرعَ فى المراحِ بيمانِ نِعَمكم بعد أقتحامِ هذه العقبة ؛ لما شنت الآذانَ
 البشرى التى لم يبقَ طائرٌ إلا سجعَ بها وصدحَ ، ولا شهابٌ دُجنته إلا أقتبسَ من نورها
 وأقتدحَ ، ولا صدرٌ إلا أنشرحَ ، ولا غصنٌ عطفَ إلا مرَّحَ ؛ بشرى الفتحِ القريبِ ،

وخبر النصر الصحيح الحسن الغريب ، ونبأ الصنع العجيب ، وهداية السميع المحيب :
 فتح تلبسان الذى قلده المناير عقود الإبتهاج ، ووهب الإسلام منيحة النصر غنية
 عن الهياج ، وألحف الخلق ظلاً ممدوداً ، وفتح باب الحج وكان مسدوداً ، وأقر
 عيون أولياء الله الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً ، وأضرع بسيف الحق جباهها
 أئمةً وخدوداً ؛ وملكم حق أبيكم الذى أهان عليه الأموال ، وخاض من دونه
 الأهوال ، وأخلص فى الصراعة والسؤال ؛ من غير كد يعجز عطف المسره ، ولا جهد
 يكدر صفو نعم الله ؛ ولا حصر ينفض به المنجنيق ذوابته ، ويظهر بتكرار
 الركوع إنابته .

فالحمد لله الذى أقال العنار ، ونظم بدعوتكم الانتشار ؛ وجعل ملككم يحدد
 الآثار ويأخذ النار . والعبء يبنى مولاه ، بما أنعم الله به عليه وأولاه ؛ وما أجدره
 بالشكر وأولاه ! فاذا أجال العبيد قداح السرور فللعبد المعلى والرقيب ، وإذا استهموا
 حظوظ الحدل فى القسمة الوافرة والنصيب ؛ وإذا اقتسموا فريضة شكر الله تعالى
 فى الحظ والتعصيب ؛ لتضاعف أسباب العبودية قبلى ، وتزاد النعم التى عجز
 عنها قولى وعملى ، وتقتصر فى آبتغاء مكافأتها وجدى وإن تطاول أملى ؛ فمقامكم
 المقام الذى نفس الكربة ، وآنس الغربة ، ورعى الوسيلة والقربة ؛ وأنعش
 الأرماق ، وفك الوثاق ، [وأدر الأرزاق ، وأخذ على الدهر بالاستقالة بالعهد والميثاق]^(١)
 وإن لم يباشر العبد اليد العالية بهذا الهناء ، ويمتثل بين يدي الخلافة العظيمة السنا
 والسنا ، ويمد بسبب البدار إلى تلك السماء ؛ فقد باشره اليد التى يمن مولاي
 لتذكر تقبلها ، ويكمل فروض المجد بتوفية حقوقها الأبوية وتكملها ؛ ووقفت بين
 يدي ملك الملوك الذى أجال عليها القداح ، ووصل فى طلب وصالها المساء بالصباح .

وكان فتحه إياها أبا عُدْرَةَ الْإِفْتِاحِ ؛ وقلتُ يهنيك يا مولاي رُدُّ ضَالَّتِكَ الْمَنْشُودِ ،
 وَخَبْرُ لَقَطَّتِكَ الْمَعْرِفَةَ الْمَشْهُودَةَ ؛ [ودالتك المودودة] ^(١) فقد أَسْتَحَقَّهَا وارثُكَ الْأَرْضِي ،
 وَسَيْفُكَ الْأَمْضَى ؛ وَقَاضَى دَيْنِكَ ، وَقَرَّةُ عَيْنِكَ ؛ مَسْتَقْدُ دَارِكَ مِنْ يَدِ غَاصِبِهَا ،
 وَرَأْدُ رَتْبِكَ إِلَى مَنَاصِبِهَا ؛ وَعَاصِرُ الْمَثْوَى الْكَرِيمِ ، وَسِرُّ الْأَهْلِ وَالْحَرِيمِ .

مولاي ! هذه تلمسانٌ قد أطاعت ، وأخبارُ الفتحِ على وِلْدِكَ الْحَبِيبِ إِلَيْكَ
 قد شاعت ، وَالْأُمَمُ إِلَى هَنَائِهِ قد تَدَاعَتْ ؛ وَعُدُوكُ وَعُدُوهُ قد شَرَّدَتْهُ الْخَفَافَةُ ،
 وَأَنْصَافَ إِلَى عَرَبِ الصَّحْرَاءِ نَفَضَتْهُ الْإِضَافَةُ ؛ وَعَنْ قَرِيبٍ نَتَحَكَّمُ فِيهِ يَدُ أَحْتِكَامِهِ ،
 وَتُسَلِّمُهُ السَّلَامَةُ إِلَى حِمَامِهِ ؛ فَلْتَطِبْ يَا مَوْلَايَ نَفْسُكَ ، وَلْيَسْتَبَشِّرْ رَمْسُكَ ، فَقَدْ نَمَتْ
 بِرَبِّكَ وَزَكَى غَرَسُكَ . نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُورِدَ عَلَيَّ ضَرِيحَكَ مِنْ أَنْبَاءِ نَصْرِهِ مَا تُفْتَحُ لَهُ
 أَبْوَابُ السَّمَاءِ قُبُولًا ، وَيُرَادِفُ إِلَيْكَ مَدَدًا مَوْصُولًا ، وَعَدَدًا آخِرْتُهُ خَيْرُكَ مِنَ الْأُولَى ،
 وَيَعْتَرِيهِ بَرَكَةُ رِضَاكَ ظَعْنًا وَحُلُولًا ، وَيُضْفِي عَلَيْهِ مِنْهُ سِتْرًا مَسْدُولًا .

ولم يقنع العبد بخدمته النَّثْرُ ، حَتَّى أَجْهَدَ الْقَرِيحَةَ الَّتِي رَكَضَهَا الدَّهْرُ وَأَنْضَاهَا ،
 وَأَسْتَشْفَى الْحَادِثَ الْجَلَلَ وَتَقَاضَاهَا ؛ فَلَفَّقَ مِنْ خِدْمَةِ الْمَنْظُومِ مَا يَتَعَمَّدُ حُلْمُكُمْ
 تَقْصِيرَهُ ، وَيَكُونُ إِغْضَاؤُكُمْ إِذَا لَبِيَ مَعْرَةَ الْعَتَبِ وَلِيَهُ وَنَصِيرَهُ ؛ وَإِحَالَةَ يَا مَوْلَايَ عَلَيَّ
 اللَّهُ فِي نَفْسِ جَبْرَاهَا ، وَوَسِيلَةَ عَرَفَهَا مَجْدَهُ فَمَا أَنْكَرَهَا ، وَحَرَمَةَ بَضْرِيحِ مَوْلَايَ وَالِدِهِ
 شَكَرَهَا ؛ وَيَطَّلِعُ الْعَبْدُ مِنْهُ عَلَيَّ كَمَالِ أَمَلِهِ ، وَتُجْحِ عَمَلَهُ ؛ وَتَسْوِغِ مَقَرَّحَهُ ، وَتَمِيمِ
 مَطْمَحِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى :

[يَا أَبْنَ الْخَلَاِيفِ يَا سَمِيَّ مَجْدٍ * يَا مَنْ عَلَاهُ لَيْسَ يَحْضُرُ حَاصِرًا !
 أَبْشِرْ فَا نَتَّ مَجْدُ الْمَلِكِ الَّذِي * لَوْلَاكَ أَصْبَحَ وَهُوَ رَسْمٌ دَائِرًا !

مَنْ ذَا يُعَايِدُ مِنْكَ وَارِثُهُ الَّذِي * بُسْعُودِهِ فَلَكَ الْمَشِيئَةُ دَائِرًا
 أَلَقْتَ إِلَيْكَ يَدَ الْخِلَافَةِ أَمْرَهَا * إِذْ كُنْتَ أَنْتَ لَهَا الْوَلِيُّ النَّاصِرُ!
 هَذَا وَبَيْنَكَ لِلصَّرِيحِ وَبَيْنَهَا * حَرْبٌ مُضَرَّسَةٌ وَبَحْرٌ زَانِحٌ!
 مَنْ كَانَ هَذَا الصَّنْعُ أَوَّلَ أَمْرِهِ * حَسِبْتَ لَهُ الْعُقْبَى وَعَزَّ الْآخِرُ!
 مَوْلَايَ عِنْدِي فِي عِلَاكَ مَحَبَّةٌ * وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ ضَمَائِرُ!
 قَلْبِي يَحْدِثُنِي بِأَنَّكَ جَائِرٌ * كَسَرِي وَحَظِّي مِنْكَ حَظٌّ وَافِرُ!
 بَشْرِي وَجُودِكَ قَدْ حَطَطْتُ قَرِيحِي * وَوَسَيْلِي لِعِلَاكَ نُورٌ بَاهِرُ!
 وَبَذَلْتُ سَعْيِي وَأَجْتَمَدِي مِثْلَ مَا * يُلْقَى الْمُلُوكَ سَيْفُ أَمْرِكَ عَامِرُ!
 وَهُوَ الْمَوْلَى الَّذِي آقَتَحَمَ الرَّدَى * وَقَضَى الْعَزِيمَةَ وَهُوَ سَيْفُ بَأْرُ!
 وَوَلِيُّ جَدِّكَ فِي الشَّدَائِدِ عِنْدَ مَا * خَذَلَتْ عُلَاهَهُ قِبَائِلٌ وَعِشَائِرُ!
 فَاسْتَهَدَ مِنْهُ الشُّجْعَ وَأَعْلَمَ أَنَّهُ * فِي كُلِّ مُعْضَلَةٍ طَيْبٌ مَاهِرُ
 إِنْ كُنْتُ قَدْ عَجَّلْتُ بَعْضَ مَدَائِحِي * فَهِيَ الرِّيَاضُ وَالرِّيَاضُ بَوَا كَرُ^(١)

الطرف الرابع عشر

(فيا يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوكة وإليهم)

والرسم فيه أنه إن كان الجواب صادرًا عن ملك، فالتعبير عن الملك بنون الجمع، وخطابُ المكتوب إليه بالكاف. وإن كان عن بعض أتباع الملك إليه، فالتعبير عن المكتوب عنه بالخدام، أو العبد، أو المملوك ونحو ذلك، ومخاطبةُ الملك بما تليقُ به مخاطبةُ الملوكة. ثم الجوابُ تارةً يكونُ الابتداء [فيه] بنفس وورود

(١) لم يذكر في الأصل ما أشار إليه من النظم وقد عثرنا عليه في "ريحانة الكتاب" فنقلناه منها استيفاء

المكاتبة ، وقد تقدّم في مثل ذلك في الكتب الصادرة عن الخلفاء أن المكاتبة
يبدأ فيها بلفظ عِرْض . أما الأجوبة المتعلقة بالملوك فإنه يقال فيها بدل عرض :
وصل ، أو ورد ، أو نحو ذلك .

ثم هي على ضربين :

الضرب الأول

(الأجوبة الصادرة عن الملوك إلى غيرهم، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك المشرق، وفيه أسلوبان)

الأسلوب الأول

(أن تفتح المكاتبة بلفظ: « كتابنا » و « وصل كتابك »)

ويذكر تاريخ الكتاب، ويشار إلى ما فيه، ثم يؤتى بالحواب إلى آخره، ويختم
بإسماحة الرأي في ذلك الأمر؛ كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صمصام الدولة
إلى حاجب الحجاب أبي القاسم سعد بن محمد، وهو مقيم بنصيبين على محاربة
باد الكردى .

كتابنا ، ووصل كتابك مؤرخا بيوم كذا، تذكر فيه ماجرى عليه أمرك في الخدمة
التي نيّطت بكفائتك وغنائك ، ووكلت إلى تديرك ورأيك : من رد باد الكردى
عن الأعمال التي تطرّقها ، وحدّث نفسه بالتغلب عليها ، وتصرفك في ذلك
على موجبات الأوقات ، والتردد بين أخينا وعدتنا أبي حرب زياد بن شهرا كويه
وبينك من المكاتبات ، وحسن بلائك في تحيفه ، ومقاماتك في حصّ جناحه ، وآثارك

فى الأقتضاض على فريق بعد فريق من أصحابه ؛ وأضطرارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التى أستعملتها، والسياسات التى سُنّت أمره بها، إلى أن نزل عن وُورة المعصية إلى سهولة الطاعة، وأنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية ؛ وتراجع عن السُّوم إلى الأقتصار وعن السَّرَف إلى الأقتصاد، وعن الإباء إلى الإقياد، وعن الإعتياص إلى الإذعان . وأن الأمر أستقر على أن قِيلَت منه الإنابة، وبذلت له فيما طَلَب الإستجابة ؛ وأستُعيد إلى الطاعة، وأستضيف إلى الجماعة، وتصرَّف على أحكام الخدمه، وجرى مجرى من تَضُمه الجملة ؛ وأخذت عليه بذلك العهود المستحكمة والأيمان المغلظة ؛ وجُددت له الولاية على الأعمال التى دخلت فى تقليده، وضرت عليها حدوده؛ وفهمناه .

وقد كانت كتبُ أختنا وعُدَّتنا أبى حرب [زيد بن شهر الكويه] ^(١) مولى أمير المؤمنين تردُّ علينا، وتصلُّ إلينا؛ مشتملةً على كُتُبك إليه، ومطالعاتك إياه؛ فنغرف من ذلك حُسن أثرِكَ وحزم رأيك ؛ وسداد قولك ، وصواب أعتادِك ؛ ووقوع مَضارِبك فى مفاصلها، وإصابة مراميك أغراضها؛ وما عدوت فى مذهبك كلها، ومتقلباتك بأسرها؛ المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أمرت به عَنَّا ؛ ولا خلت كتبُ أختنا وعُدَّتنا أبى حرب من شكرٍ لسَعِيك، وإحمادٍ لأثرِك؛ وثناءٍ جميلٍ عليك، وتلويح وإفصاح بالمناصحة الحقيقة بك ، والموالاته اللازمة لك ؛ والوفاء الذى لا يُستغرب من مثلك، ولا يُستكثرُ من حلِّ فى المعرفة محلك ؛ ولئن كنت قصدت فى كل نهج أستمررت عليه، ومعدِّل عدلت إليه؛ مكافئةً هذا الرجل ومرامته، ومصابرته ومنازلته ؛ والتماس الظهور عليه فى جميع ما تراجعته من قول ، وتنازعته من حدِّ ؛

(١) الزيادة من مختارات الصابى الخطية .

فقد أجمع لك إلى إحمادنا إياك ، وأرضائنا ما كان منك ، المنةُ عليه إذ سَكَّنت جاشه ، وأزلتَ آستيجاشه ؛ وأستلته من دنس [لباس] ^(١) المخالفه ، وكسوته من حُسن شعار الطاعة ؛ وأطلت يده بالولايه ، وبسطت لسانه بألججه ؛ وأوفيت به على مراتب نظرائه ، ومنازل قُربائه ؛ حتى هابوه هيبة الولاه ، وأرتفع بينهم عن مطارح العُصاه .

فالحمدُ لله على أن جعلك عندنا محمودا وعند أخينا وعدتنا أبي حرب مشكورا ، وعلى هذا الرجل مانا وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثابا ماجورا ؛ وإياه نسال أن يُجرى علينا عادته الجارية في إظهار راياتنا ، ونُصرة أوليائنا ؛ والحكم لنا على أعدائنا ، وإنزالهم على إرادتنا ؛ طوعا أو كرها ، وسلبا أو حربا ؛ فلا يخلو أحدٌ منهم أن تحيط لنا بعُنقه رِبقةُ أسر ، أو مِنَّةُ عفو ؛ إنه جلُّ ثناؤه بذلك جدير ، وعليه قدير . ويجب أن تُنفذَ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبه على بادِ الكردي إن كنت لم تُنفذها إلى أوانِ وصول هذا الكتاب : لتكون في خزانتنا محفوظه ، وفي دواويننا منسوخه ؛ وأن تُصرف في أمر رسله وفي بقية [ان كانت بقيت من أمره] ^(١) على ما يرئمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حرب ، فرأيك في العمل على ذلك ، وعلى مطالعته بأخبارك وأحوالك ؛ وما يحتاج إلى عمله من جهتك موقفا ، إن شاء الله تعالى .

الاسلوب الثاني

(أن تفتح المكتبة بلفظ : «وصل كتابك»)

والأمر في ترتيبه على نحو ما تقدم في الأسلوب الذي قبله .

كما كتب أبو إسحاق الصابي عن صمصام الدولة أيضا إلى أبي العلاء عبيد الله ابن الفضل في جواب كتابه الوارد عليه بالظفر بأهل الاقتباس ما صورته :

(١) الزيادة من "مختارات الصابي" .

وصل كتابك - أدام الله عزك - المؤرخ بوقت الظهر من أمسنا وهو يوم كذا،
تذكر ماسهله الله لك، وأجراه على يدك؛ ويمن تديرك، وبركة خدمتك: من الإيقاع
بالعصاة أهل الاقتباس، وإذاقتهم وبال ما كانوا عليه: من خلع الطاعة، وشن
الغارة وأستباحة المحارم، وأرتكاب العظام؛ وإيخانك فيهم قتلا وأسرا، وتشريدا
وتشتيتا؛ وفهمناه وحمدنا الله عليه، وشكرنا ما أولى فيه، وحسن منا موقع أثرك،
وتضاعف فيه جميل معتقدنا فيك ولك؛ وأرتضينا فعل الأولياء في الخفوف إليه،
والمناصحة فيه؛ وسبيلك أن تبحث عن أموال هؤلاء القوم وتُمَرَّها، وتستدركها
وتحصّلها، وتكتب بما يصح منها؛ وتقدم بقص أمير الهارين حتى تلحقهم بالهالكين،
وتشيع الرهبة في سائر شقي الفترات، وتوثق طوائف الأشرار والحُرَّاب، ومُخَيِّفِي
السبل والساعين في الفساد بالتبع لهم ووضع اليد عليهم؛ فإن بحسب النكاية في أهل
الجهل والدعارة سُكُون أهل السلامة والأستقامة؛ فرأيك في العمل بذلك والمطالعة
بما يوفّقك الله له مستأنفا من مثل هذا الفعل الرشيد، والمقام الحميد؛ وبسائر
الأمر التي تترى عنها وتحتاج إلى معرفة مجاريها، موقفا إن شاء الله تعالى والسلام.

الجملة الثانية

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية من وزراء الخلفاء الفاطميين

القائمين مقام الملوك الآن فمن بعدهم)

والذي وقفت عليه منه أسلوب واحد، وهو الأفتتاح بالفظ: «وصل».

كما كتب بعض كُتّاب الدولة الفاطمية عن بعض وزراء الحافظ إلى امين الدولة

زنكي كشتكين ماصورته:

وصل كتابك أيها الأمير الأجل الدال على مصالحته ، المُعربُ عن مناصحته ، الشاهد له بمؤنل الحُطوة والأثره ، والموضح من أفعاله وخِلاله مالم تزل قضيته مرتسمة في النفوس مَمَّوَّره ، وعرضنا ما أقرن به من مطالعة المقام المقدس النبوي الحافظي - ضاعف الله أنواره ، وشاد مناره ، وأعز أشياعه وأنصاره - وشفعناه من الثناء على الأمير الاسفَهسلار بما لم تزل عادتنا جارية به مع من نعلم طاعته ، وتحقق مشايعته ، ونزى باطنه يضاهاى ظاهره ، وسره يوافق علانيته ، ووقفنا على ما أنهاه من حال الفرج المشركين الملعونين ، وما كان من نعم الله تعالى من الظفر بهم ، والإدالة منهم ، والخفض من منارهم ، والتقويض لغمارهم ، والإبادة لغارسهم وراجلهم ، وإرشاد السيوف والسهام إلى مقائلهم ، وتطهير الأرض منهم بدمائهم ، والإحاطة بهم عن أيمانهم وشمائهم ، ومن أمامهم وورائهم ؛ فابتهجنا بذلك الابتهاج الذى يوجهه التوحيد ، وآتهى بنا السرور إلى الحد الذى ما عليه مزيد . على أننا كما نود أن يكون ذلك بصفاحنا وأسنتنا ، وأن يثبت الله لنا فى صحيفتنا ؛ وإنا لراجون من نعم الله عندنا ، وإحسانه إلينا كما عودنا ، أن يكون من بقى من المذكورين بنا مستأصلا ، ويكون أجرهذه الخاتمة لنا حاصلًا . وقد عزم الله لنا عدد ووقفنا على كتابه ، بما نخرج به أمرنا إلى جميع من بأعمال الدولة الحافظية خلد الله ملكها . بعيدها ودانها ، وقصبيها ونائبيها من العساكر المظفرة المؤيده ، وقبائل العربان المستخاضه ؛ وكافة الطوائف على اختلاف أنواعها ، وتباين أجناسها ؛ وتفاوت منازلها ، وتغاير مراتبها ؛ بأن ينفروا خفافا وثقالا ، ورُجُبا ورجالا ؛ بقوتهم وتجدتهم ، ووفور عدهم وعدتهم ، وكثرة الاتيم وأسلحتهم ؛ وبالغزوات الماضية ، والضامرات الخالصة ؛ والنيات المستدقة ، والعقائد المتفق ، وفسحنا للتطوعة أن يختلطوا بالمرتزقة ؛ وأمرناهم بمسيرهم متتابعين ، وتوجههم مترادفين ؛ وأن يكونوا كائب متناصره ، ومحافل متواتره ؛ وعساكر متواليه ،

لا ترى الأرض منها إلى العدو خاليه ؛ ومن الله نطلبُ مادةَ العون والإسعاد ، ونسأله توفيقاً لما يقضى بتضاعف أجرنا في العاجلة والمعاد . وقد شكرنا الأمير الأسفهم الاركون ما أنهاه سببا لهذه الغنيمة المتوقعة من فضل الله وإحسانه ، والنصرة لدينه التي تؤملها من جزيل كرمه وأمتانته ؛ وأضفنا ما اقتضته مطالعته من جَدَانَا وَغِبَطَانَا ، إلى المستقرِّ عندنا من محبته لنا ، وإيثاره الذي لا يحتاج فيه إلى زيادةٍ على معرفتنا ؛ فليعلم هذا وليعمل به . إن شاء الله تعالى .



وكما كتب القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى صاحب مكة المشرفة ، جواباً عن كتابٍ ورد منه عليه في معنى وُصُولِ غِلَالٍ بَعَثَ بها إلى مكة ماصورته :

وصل كتابك ، أيها الشريف مُعَرِّباً عن المُشَايعة الشائعة أنبأؤها ، والمُخَالِصَةَ الخالصة أسرارها الوافرة أنصباؤها ؛ وحسان الخلال ، التي آتسم طرقَ الحمد إعادتها وإبدائها ، ومكرّمات الآل ، التي تساوى في آقتناء المجد أنبأؤها وآبأؤها ؛ وفضائل الإفضال ، التي لا تخف على غير أهل العباء صلوات الله عليهم أعبأوها . ونشر كتابك من محاسنك ما أنطوى ، ووردنا منه منهلًا أروى وأردّه وأرآوى ؛ ووقفنا منه على أثرِ فضل أشتمل على عين الكرم وأحتوى ، ووقفنا وإياه من الحمد مالا يُخَلِّفه نحن ولا هو مكانًا سوى ؛ فاقتضانا مزيداً في رفع قدره ، وأختصاصه من الإنعام بكلّ غريب الموقِع نذره ، وأصرنا كتابه إلى مستقرِّ كاتبه من قلب الودِّ وصدره ؛ وكيف لا يكون ذلك وقد أشخّرت لبيته الأنساب ، وخرّت الأنصاب ، وسجدت الرقاب ، ورُدّت له بعد ماتوارت بالحجاب ، وشهد بفضل توقيعهم الحربُ وبفضل ليلهم المحراب .

فأمّا ما أشار إليه من الشكر على ما سير من الغلات التي كان الوعد بها علينا نذرا ، وروحنا بإرسالها قلبا وشرحنا بتسييرها صدرا ؛ وأنها حلت ربة الجذب وفكتها ،

وَجَلَّتْ هَبْوَةُ التَّحْطُطِ وَكَفَّتْهَا ؛ وَهَوَّنَتْ مَصَابِعَ الْمَسَاغِبِ ، وَخَلَفَتْ سَوَاحِبَ السَّحَابِ ، وَأَطْفَأَتْ - وَبِاللَّهِ الْحَمْدُ - بَوَارِ النَّوَائِبِ ؛ فَقَدْ سُرِّرْنَا بِحَسَنَاتِنَا جَعَلَهُ اللَّهُ مِنْ تَسْرِهِ الْحَسَنَةَ ، وَقَدْ نَبَّهْنَا مِنْ سِنِينَا لِأَنَّ نَسْتَقْبِلَ بِالْحَمْدِ لَوْلَى السَّنَةِ ؛ وَقَدْ قَوَّى النِّيَّةَ وَقَوْمَهَا ، وَأَسْتَرَادَ لَمْ بِلِسَانِ الشُّكْرِ الْفَصِيحِ ، وَتَنَاوَلَ لَمْ بِنَاعِ التَّلَطُّفِ الْفَسِيحِ ، وَأَلْفَحَ لَمْ بِسَحَابِ عَمَلِهِ مِنْهَا مَحَلٌّ مُلْتَحِجًا مِنَ الرَّيْحِ ؛ وَأَقْتَضَى مَا يَبْعُرُضُهُ أَنْ نَحْرَجَ الْأَمْرَ بِأَنْ يَضَاعَفَ الْحَمُولُ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَلَا يُحْصَى بِهِ خَاصٌّ دُونَ عَامٍ ؛ وَأَمَرْنَا أَنْ يُوَفَّرَ جَلْبُ الْجَلَّابِ ، وَتُوَقَّرَ ظُهُورُ الرِّكَابِ ، لِيُجْمَعَ لِلْحَرَمِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَبَيْنَ حَمْلِ الْبَطْنِ وَالظَّهْرِ ؛ فَتَظَلَّ السَّنَةُ دُودًا وَوُدًا ، وَيُشَاهَدُ الْمَحَلَّ الشَّرِيفُ وَقَدْ نَأَى عَنْهُ الْمَحَلُّ شَرِيدًا ؛ وَتُحْطُّ الْقُلُوعُ عَمَا يُحْطُّ عَنْهُ أَمْثَالُهَا مِنَ السَّحَابِ ، وَتَسْتَرِيحُ الْأَنْفُسُ لِلْوَاغِبِ ، فَأَمَا مَا أَلْقَاهُ إِلَى رَسُولِهِ ، فَقَدْ أَسْمَعَ مَا أَسْنَدَهُ إِلَيْهِ ، وَأُعِيدَ بِمَا يُعِيدُهُ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ تَكَاثَرَتْ بَوْلَاءَ الشَّرِيفِ الْأَشْهَادِ ، فَغَنَى عَنِ الْأَسْتِمَادِ ، وَأَغْنَتْهُ الْحُطُوةُ بِجَمِيلِ رَأْيِنَا عَمَا نَأَى أَخْذَهُ لَشَفْعَةِ الْعَطَاءِ بَلْ لَشَفَاعَةِ الْأَجْتِهَادِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الجملة الثالثة

(في الأجوبة الصادرة عن ملوك القرب)

وهي على النحو المتقدم ، وربما صدر بلفظ : « قد » ونحوها .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم في جواب كتاب ورد عليه

بطاعة بلد .

قد وصل كتابكم - وصل الله معونتكم وكلاءكم - تذكرونا ما تقرّر عندكم

هنالك من أحوال تلك الجهة ، وباشرتموه من أمورنا ؛ وأتم عندنا بحمل الصدق ،

ومكان الإيثار للحق . وقد رسمنا لكم أن تثبتوا في أهل تلك الجهات كلها حميد الرأي

فيهم ، وحسن القبول لإنايتهم ، وقصد الرفق بخاصتهم وعامتهم ، وأنا قد تقبلنا أو تبهم ،
 وأغفرنا زلتهم ؛ وأوليكم المشبثون بسبب الدمام ، عرفوهم أنكم رغبتم في شمول الصفح
 عنهم ، والإقالة لما كان منهم ؛ فأسعفنا رغبتم فيهم ، وأدخلناهم في العقوم مع غيرهم ؛
 وبدلنا لهم الأمان ، وأغضينا عن جميع ما كان ؛ فعرفوهم بهذا كله ، وأخبروهم عننا
 بإعطاء التامين لجميعهم وبدله ؛ وإن كان أطيب لنفوسهم أن يصلهم مكتوبٌ بذلك
 عرفتمونا ، ووجهناه إليكم . وأقيموا أتم هنالك أياما خلال ما يصلكم من مُتثاقل
 الأحوال ما تطالعون به ، وتحاطبون بما تعتمدونه إن شاء الله تعالى . أدام الله كرامتكم .
 أشرت في خطابكم إلى أن عندكم من تلك الأحوال ما تذكرونه مشافهةً ، وربما
 يكون ذلك أمدا يبنى عليه نظر ، أو يتوجه بحسبه عمل ؛ فمن الجيد أن تكتبوا
 بشرحه ، إن شاء الله تعالى والسلام .

الضرب الثاني

(الأجوبة الواردة على الملوك)

وهي على نحو ما تقدم في الأجوبة الصادرة عن الملوك من الابتداء بلفظ :
 «وصل» إلا في الخطاب ، فإن المكتوب عنه يقع الخطاب منه بـ «الخدم أو المملوك
 أو العبد» . ويخاطب الملك المكتوب إليه بمولانا أو مولانا الملك أو نحو ذلك ؛
 وربما كتب بدل وصل : ورد .

كما كتب القاضي الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» في جواب
 كتاب ورد عليه مخبرا فيه بالحركة للقاء العدو ما صورته :

ورد على الملوك - أدام الله أيام المجلس العالي الملكي الناصري - ونصره على أعدائه ،
 ومملكه أرضه بعدل حكم سمائه ، ولا أخلى من نعمتي خيره ونظره قلوب وعيون

أوليائه، وأعرز الإسلام ورفع عن أهله البلوى بلوائه . الكتب القديمة التي تسر الناظرين من شعارها الأصفر، وتبشر الأولياء إن كانوا غائبين مع الغيب بأن حظهم حاضر مع الحضر؛ وقد كانت الفترة قد طالت أيامها، وأستطالت آممها، والطرقاات قد سبق إلى الأنفس إبهامها .

فالحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، وأولى من النعمة ما أشتري الحمد بلا تمن؛ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس . ووعد [الله] سبحانه منتظر، إذ يقول في كتابه : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ . وصدق صلى الله عليه وسلم في قوله : "إِنَّ أَخْتِيَارَ اللَّهِ لِلزُّمَيْرِ خَيْرٌ مِنْ اخْتِيَارِهِ، وَإِنَّ مَوَاضِعَ الْأَمَلِ لِلْعَبْدِ خَيْرٌ مِنْهَا مَوَاقِعُ أَفْضِيَةِ اللَّهِ وَأَقْدَارِهِ" . فقد كانت حركة أحتاجت إليها البلاد التي انفصل عنها، والبلاد التي قدم عليها . أما المصرية منها فبكونها على عدة من تجده آجلا، وأما الشامية فبكونها على ثقة من نصره عاجلا؛ فقد تأسكت من المسلمين الأرماق، وقد أقطعت من المشركين الأعناق :

تِهَابُ بكَ الْبِلَادُ تُحُلُّ فِيهَا * وَلَوْلَا اللَّيْثُ مَا هَيْبَ الْعَرِينُ!

وعرض المملوك ما وصل إليه من مكاتبات المولى على العلم العادلي وأدركها تحصيلا، واحاط بها جملة وتفصيلا؛ والمولى - خلد الله ملكه - فكل ما أشار إليه من عزيمة أباها، ونية أمضاها، فهو الصواب الذي أوضح الله له مسالكه، والتوفيق الذي قرب الله عليه مداركه؛ ومن أطاع الله أطاعه كل شيء، ومن استخاره بين له الرشد من الغي؛ والله تعالى يجعل له من كل حادثة نحو^(١)ه، ويكتب أبعره في كل حركة ونفس وخطوه . إن شاء الله تعالى .

(١) النخوة العظيمة

القسم الثاني

(المكتباتُ الصادرةُ عنهم إلى ملوك الكُفْر، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الأبتداءات، وفيه ثلاثُ جمل)

الجملة الأولى

(في المكتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق من بني بويه فمن بعدهم)

وقد كان الرسم فيها أن تُفتَح المكتبة بلفظ "كتابي أو كتابنا إلى فلان" ويخاطب المكتوب إليه بملك الروم أو نحو ذلك، ويختتم بقوله: فإن رأى ذلك فعل إن شاء الله تعالى.

كما كتب أبو إسحاق الصابي عن القائد أبي الفوارس ختور التركي المعزى، إلى وردس بن قنبر المعروف بعسقلاروس.

[كتابي إلى] ملك الروم الفاضل، الجليل، النبيل، الخطير، أدام الله كفايته وسلامته، ونعمته وسعادته، وعافيته وحراسته. من الحضرة الجليلة بمدينة السلام ثمان ليالٍ خلونَ من ذى الحجة سنة تسع وسبعين وثلثمائة، وهو اليوم التاسع من أذار، عن شمول السلامه، وعموم الأستقامه، وصلاح حالي في ظل الدولة المنصوره. والحمد لله رب العالمين وحده لا شريك له، وصلى الله على محمد وآله وسلم تسليماً.

ووصل كتاب مولانا ملك الروم الفاضل الجليل الصادر عن العسكر بمرج لارضة بتاريخ التاسع من حزيران، وفهمته وجلّ عندى موقعه، وعظّم في نفسى خطره؛

وَحَدَّثَ اللهُ عَلِيَّ مَاشَهَدَ بِهِ مِنْ أُنْتِظَامِ أَحْوَالِهِ ، وَأَطْرَادِ أُمُورِهِ ، وَسَأَلْتَهُ أَنْ يَتِمَّ النِّعْمَةَ عَلَيْهِ ، وَيَزِيدَ فِيهَا لَدَيْهِ ، وَيُوَصِّلَ إِحْسَانَهُ إِلَيْهِ ، وَيُطِيلَ مَدَّتَهُ ، فِي أْتَمِّ رَشْدٍ وَهَدَايَةٍ ، وَأَرْفَعَ قَدَمَ وَمِزْلَةَ ، وَأَعْلَى خَطَرٍ وَرَتَبَةَ ، بِمَنَّةٍ وَطَوْلِهِ ، وَجُودِهِ وَبِحَمْدِهِ .

فَأَمَّا مَا ذَكَرَهُ سَيِّدُنَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ : مِنْ مُقَامِهِ عَلَيَّ الْعَهْدِ ، وَاقْتِقَارِهِ إِلَى الْمِيلِ وَالْوُدِّ ، فَذَلِكَ يُوجِبُ فَضْلَهُ الْبَارِعَ ، وَكِرْمَهُ الشَّائِعَ ، وَخِلَالَ الْخَيْرِ الَّتِي أَهْلَهُ اللهُ لَهَا ، وَخَصَّهُ اللهُ بِهَا ، وَبِاللَّهِ أَحْلَفُ إِنِّي مَا خَلَوْتُ مِنْذُ أَقْتَرْنَا مِنْ مَطَالَعَةِ أَخْبَارِهِ ، وَتَبِعَ آثَارِهِ ، وَأَسْتَعْلَمُ مَجَارِي شُؤْنِهِ ، وَالسَّرُورِ بِكُلِّ مَا تَمَّ لَهُ وَوَصَلَ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى كَأَنِّي حَاضِرُهُ ، وَضَارِبٌ بِأَوْفَرِ سَهْمٍ فِيهِ ، بَلْ مَخْصُوصٌ بِجَمِيعِهِ . وَاللَّهُ يُجْرِيهِ عَلَى أَحْسَنِ مَا أَوْلَاهُ وَعَوْدَهُ ، وَلَا يُخْلِيهِ مِنَ الصَّنْعِ الْجَمِيلِ فِيمَا أَعْطَاهُ وَقَلَّدَهُ ، بِرَحْمَتِهِ .

وَكُنْتُ قَبْلَ ذَلِكَ عِنْدَ وُرُودِ رَسُولِي فِي الدَّفْعَةِ الْأُولَى عَلَيَّ غَايَةَ النِّعَمِ وَشُغْلَ الْقَلْبِ بِسَبَبِ الْغَدْرِ الَّذِي لَحِقَهُ مِنْ عَدُوِّهِ الَّذِي أَظْفَرَهُ اللهُ بِهِ ؛ وَأَنْهَيْتُ ذَلِكَ فِي وَقْتِهِ إِلَى الْمَلِكِ السَّعِيدِ الْمَاضِي ، شَرَفِ الدَّوْلَةِ ، وَزِينِ الْمُلْكِ ؛ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ . فَاشْتَغَلَ قَلْبُهُ - رَحِمَهُ اللهُ - بِهِ ، وَعَمِلَ عَلَيَّ إِتْقَانًا الْعَسَاكِرَ لِنُصْرَتِهِ ؛ ثُمَّ أَتَى مِنْ قَضَاءِ اللهِ فِي أَمْرِهِ مَا قَدَّ عَرَفَهُ .

وَلَمَّا أَنْتَصَبَ فِي الْمَمْلَكَةِ مَوْلَانَا السَّيِّدُ بِهَاءِ الدَّوْلَةِ ، وَضِيَاءُ الْمَلِكِ - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ - شَرَحْتُ لَهُ مَا جَرَى قَدِيمًا عَلَيَّ سِيَّاقَتِهِ ، وَمَهَّدْتُ الْحَالَ عِنْدَهُ ، وَوَجَدْتُهُ - أَدَامَ اللهُ سُلْطَانَهُ - مَعْتَقِدًا لِسَيِّدِنَا مَلِكِ الرُّومِ الْجَلِيلِ - أَدَامَ اللهُ عِزَّهُ - أَفْضَلَ آعْتِقَادٍ ، وَسُرَّ بِمَا أَنْتَهَتْ إِلَيْهِ أُمُورُهُ ، وَتَجَزَّتْ الْكُتُبُ إِلَى مُوَصِّلِهَا الرُّسُولَ حَفِظَهُ اللهُ ؛ وَسَمِعْتُ مِنْهُ مَا كَانَ تَحْمَلُهُ عَنِ سَيِّدِنَا مَلِكِ الرُّومِ أَدَامَ اللهُ تَأْيِيدَهُ ، وَأَخْرَجَتْ مَعَهُ صَاحِبِي أَبَا الْقَاسِمِ الْحُسَيْنِ بْنِ الْقَاسِمِ ، وَحَمَلْتَهُمَا جَمِيعًا مَا يُنْبِئَانِي بِهِ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ الَّتِي يَرَى عَرَضُهَا وَيَحْتَاجُ إِلَى مَعْرِفَتِهَا .

وأنا أسأل سيدنا الملك الجليل - أدام الله بركته - تعجيل رده إلى ، فإنه ثقتى ،
ومن أسكنُ إليه في أموري ؛ وأن يتفضلَ ويكفني حوائجه ومهماته ، وأمره ونهيه
لأقوم في ذلك بالحق الواجب له ، فإن رأى سيدنا ملك الروم الفاضل الجليل ،
الخطير النبيل ؛ أن يعتمدى من ذلك بما يتضاعف عليه سُكْرى ، وتجلُّ النعمة فيه
عندى ، ويشاكل الحالَ بينه وبينى ، فعل إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إليهم)

والذى وقفتُ عليه من ذلك أُسلوب واحد : وهو الأبتداء بـ «أما بعد» والخطابُ
فيه بالملك ، والأختتامُ بالدعاء .

كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بردويل
أحد ملوك الفرنج ، وهو يومئذ مستولٍ على بيت المقدس وما معه ، معزياً له في أبيه
ومهنئاً له بجلوسه في المُلْك بعده ، ماصورته :

أما بعد - خصَّ الله الملك المعظم حافظ بيت المقدس بالحدِّ الصاعد ، والسَّعد
الساعد ؛ والحظَّ الزائد ، والتوفيقِ الوارد ؛ وهنأه من ملك قومه ماورثه ، وأحسن
من هداه فيما أتى به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء
قلوب الأصا^(١)ديق ، والنَّعي الذى وِدَدْنَا أَنْ قائله غيرُ صادق ؛ بالملك العادل الأعزَّ
الذى لقاَه الله خيرَ مالقٍ مثله ، وبلغ الأَرْضَ سعادته كما بلغه محله ؛ معزِّباً بما يجب فيه
العزاء ، ومتأسِّفٌ لفقده الذى عظمت به الأرزاء ؛ إلا أن الله سبحانه قد هون
الحادث ، بأن جعل ولده الوارث ؛ وأنسى المصاب ، بأن حفظ به النَّصاب ، ووهبه

(١) جمع جمع لصديق مفردة أصدقا .

النعمتين : الْمَلِكَ وَالشَّبَابَ ؛ فهيناً له ما حاز ، وسقياً لقبر والده الذي حَقَّ له الفداء لو جاز ؛ ورسولنا الرئيس العميد مختار الدين أدام الله سلامته قائمٌ عنا بإقامة العزاء من لسانه ، ووصفٍ مانالنا من الوحشة لفراق ذلك الصديق وحُلُوِّ مكانه ؛ وكيف لا يستوحشُ ربُّ الدار لفرقة جيرانه . وقد آستفتحنا الملك بكتابنا وارتبادنا ، وودنا الذي هو ميراثه عن والده من وِدادنا ؛ فليلقَ التحيةَ بمثلها ، وليأتِ الحسنةَ ليكون من أهلها ؛ وليعلم أناله كما كنا لأبيه : مودَّةٌ صافية ، وعقيدةٌ وافية ، ومحبةٌ ثبت عقدها في الحياة والوفاء ، وسريرةٌ حكمت في الدنيا بالمُوافاه ؛ مع مافي الدِّين من المخالفات . فليسترسِلْ إلينا آسترسالَ الواثق الذي لا يُججل ، وليعتمدْ علينا آعتيادَ الولد الذي لا يجملُ عن والده ماتجملُ ؛ والله يُديمُ تعميره ، ويحرسُ تأميره ؛ ويقضى له بموافقة التوفيق ، ويُلهمه تصديقَ ظنِّ الصديق .

الجملة الثالثة

(في الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغرب)

والرسم فيه أن تفتح المكاتبه بلفظ : « كتابنا » والمخاطبة بنون الجمع عن المكتوب عنه وميم الجمع عن المكتوب إليه ، والاختتام بالسلام مع الدعاء بما يليق .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن أبي جَمِيلِ زِيَّان ، إلى ملك قشتالة من بلاد الأندلس في مُراودة الصلح :

كتابنا إليكم - أسعدكم الله برضاه ، وأدام عزكم وكرامتكم بتقواه - من مُرسية ، ونحن نحمد الله الذي لاشيء كمثلَه ، ونلجأ إليه في أمرنا كُلِّه ، ونسأله أن يوزعنا شكري إحسانه وفضلِه - وعندنا لجانباكم المرفوع تكريمه نستوفيها ، ومبرة ننتهي إلى الغاية فيها ، وعلمنا

بِحَلْمِكُمُ الشَّهِيرِ، وَكِتَابِكُمُ الحَطِيرِ، يَسْتَدْعِي الزِّيَادَةَ مِنْ ذَلِكُمْ وَيَقْتَضِيهَا؛ وَقَدْ كَانَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ الْمُعْتَادِ، وَجَمِيلِ صُنْعِهِ فِي أَنْتِظَامِ الكَلِمَةِ فِي هَذِهِ البَلَادِ، مَا أَكْتَفَيْتُهُ العِضْمَةَ، وَكَلَّمْتُمْ بِهِ النِّعْمَةَ وَالْمِنَّةَ؛ وَتَيَسَّرَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ فَتَحَّ أَقْرَبُ العَيُونِ، وَرَضِيَهِ الإِسْلَامُ وَالْمُسْلِمُونَ، وَكَانَتْ مَطَالَعَتُكُمْ بِهِ مِمَّا آمَنَّا تَقْدِيمَهُ، وَرَأَيْنَا أَنْ نَحْفَظَ مِنَ الأَسْبَابِ المَرْغِيَّةِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالجَمَلَةِ [حَدِيثِهِ وَقَدِيمِهِ] وَحِينَ تَرَجَّحَتْ خِطَابَتُكُمْ مِنْ هَذَا المَكَانِ، وَمَفَاوِضَتُكُمْ فِي هَذَا الشَّانِ؛ رَأَيْنَا مِنْ تَكَلُّمِ المَبْرَةِ، وَتَوْفِيَةِ العِنَايَةِ البَرَّةِ؛ أَنْ نُنْفِذَ إِلَيْكُمْ مِنْ يُشَافِيهِكُمْ فِي هَذَا المَعْنَى، وَيَذَكِّرُ مِنْ قَصْدِنَا مَا نُؤَلِّعُ بِهِ وَنُعْنِي؛ وَهُوَ فُلَانٌ فِي ذِكْرِ السَّلْمِ وَمَحَاوَلَتِهَا، مَا يَتَأَذَى مِنْ قِبَلِهِ عَلَى الكَمَالِ بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى. وَإِنْ رَأَيْتُمْ إِذَا أَنْصَرَفَ مِنْ عِنْدِكُمْ، أَنْ تَوَجَّهُوا زِيَادَةً إِلَى مَا تُنْقُوهُ إِلَيْهِ مِنْ رِجَالِكُمْ وَخَاصَّتِكُمْ؛ فِي مَعْنَى هَذَا العَهْدِ وَإِحْكَامِهِ، وَمَحَاوَلَتِهِ وَإِبْرَامِهِ؛ فَعَلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا نَرْتَقِبُ أَثَرَهُ، وَنَصْرِفُ إِلَيْهِ مِنَ الشُّكْرِ أَوْفَاهُ وَأَوْفَرَهُ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى؛ وَهُوَ المَوْفُوقُ لِأَرْبِّ سِوَاهُ، وَالسَّلَامُ الأَتَمُّ عَلَيْكُمْ كَثِيرًا.

الطَّرْفُ الخَامِسُ عَشْرَ

(المكاتبات الصادرة إلى ملوك الكفر في الأجوبة [وهي] إما أن تصدَّر بما يصدَّر به الأبتداء وقد تقدَّم، وإما أن تصدَّر بلفظ وصل أو ورد)

كما كتب بعضُ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ الأيوبيَّةِ عَنِ المَلِكِ الجَوَادِ: أَحَدُ مَلُوكِهِمْ، فِي أَيَّامِ المَلِكِ الكَامِلِ مُحَمَّدِ بْنِ العَادِلِ أَبِي بَكْرٍ، جَوَابَ كِتَابٍ وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ فِرَانِكِ: أَحَدُ مَلُوكِ الفَرَنْجِ فِي شَعْبَانَ سَنَةِ ثَلَاثِينَ وَسِتَّمِائَةَ:

وردت المكتابة الكريمة الصادرة عن المجلس العالى، المولى، الملك، الأجل، الأعز
الكبير، المؤيد، الخطير، العالم العامل، الظهير، العادل، الأوحد، المجتبي، شمس الملة
النصرانية، جلال الطائفة الصليبية، عضد الأمة الفرنجية، نحر أبناء المعمودية،
عمدة الممالك ضابط العساكر المسيحية، قيصر المعظم فلان معز إمام روميه، ثبت
الله لديه نعمه، وعزز موارد جوده وديمه، وأمضى صوارم عزائمه وأعلى هممه،
ولا برحت أنوار سعده، نتللا، وأخبار مجده، تبسط وتعالى، وسحاب الألسنة
الناطقة بمجده تستهل وتتوالى؛ إلى أن يتحلّى جيد الضحى بعقود الليل، وتطلع
الشعري من مطالع سهيل - بجدد الثناء على جلاله، وأكد المدح لإحسانه وإفضاله؛
وأنقَس أسباب المودة والحصافه، وشدت أوائى الإخلاص والموافاة فاستبشرت
النفوس بوروده، وسرت القلوب بوفوده؛ ووقف منه على الإحسان الذى نعرفه،
ووجد عقده مشتملاً على جواهر الوداد الذى نألفه؛ فشكر الله على هذه الألفة
المنتظمة، والمحبة الصادقة المكرمه . والمجلس العالى الملك الأجل أعلى الله قدره،
ونشر بالخير ذكره، أولى من أهدى المسرات، بورود المراسم والحاجات، ووصل
الأنس بكريم المكتابات، مضمّنة السوانح والمهمّات .

فأما ما ذكره المقام العالى الساطانى الملى الكاملى الناصرى - زاده الله شرفا
وعلوا - من أنه لا فرق بين المملكتين، فهذا هو المعتقد فى صدق عهده، وخالص
وده؛ ولا زال ملكه عالياً، وشرفه نامياً، إن شاء الله تعالى .

الفصل الرابع

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ، على ما استقر عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة ، مما أكثره مأخوذةً من ترتيب الدولة الأيوبية التي هي أصل الدولة التركية ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلفاء من بني العباس)

قد تقدّم في الكلام على المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى خلفاء بني العباس أنها على أساليب في ابتداء المكاتبات : منها ما يفتتح بآية من القرآن الكريم ثم بالسلام ؛ ومنها ما يفتتح بالسلام ابتداءً ؛ ومنها ما يفتتح بالصلاة على الخليفة على مذهب من يرى جواز إفراز غير الأندياء بالصلاة ؛ ومنها ما يفتتح بالدعاء لديوان الخلافة .

ولكن الذي ذكره المقتر الشهابي بن فضل الله في كتابه " التعريف بالمصطلح الشريف " مما الحال . مستقرّبه أن المكاتب إلى ديوان الخلافة الشريفة : «أدام الله أيام الديوان العزيز ، المولوى ، السيّدى ، النبوى ، الإمامى ، الفلانى» ثم الدعاء المعطوف ، والصدر بالتعظيم المألوف ؛ وأنها قد تفتتح بغير هذا الدعاء نحو : «أدام الله سلطان» و«خلد الله سلطان» أو «أيام» أو غير ذلك مما يقتضى العزّ والدوام . وأن الصدر نحو : «العبد ، أو المملوك ، أو الخادم ، يقبل الأرض أو العتبات أو مواطنه الموافق» أو غير ذلك . وأن ختم الكتاب يكون تارةً بالدعاء ، وتارةً بـ«طالع أو أنهى»

أو غيرهما مما فيه معنى الإنهاء . ويخاطب الخليفة في أثناء الكتاب بالديوان العزيز، وبالمواقف المقدسة أو المشرفة، والأبواب الشريفة، والباب العزيز، والمقام الأشرف، والجانب الأعلى أو الشريف . وبأمر المؤمنين مجرّدة عن سيدنا ومولانا، ومرة غير مجرّدة، مع مراعاة المناسبة، والتسديد والمقاربه . وأن خطاب المكاتب عنه بحسب من كتبت عنه : فكتب بعض ملوك بني أيوب بالديار الشامية « الخادم » . وبعضهم « المملوك » وبعضهم « العبد » وبعضهم « أقل الممالك » وبعضهم « أقل العبيد » . وأن علاء الدين خوارزم شاه : صاحب بلاد خوارزم وما معها، وأبنة جلال الدين كانا يكتبان « الخادم المطواع » ، وأن أم جلال الدين كانت تكتب « الأمة الداعية » . قال : في « التثقيف » : وعنوانه « الديوان العزيز » إلى آخر الألقاب، ثم الدعاء يعنى من نسبة الصدر، نحو « أدام الله أيامه وخلّد الله سلطانه » وما أشبه ذلك . قال : وعادة العلامة إليه « الخادم » أو « المملوك » أو « العبد » . وكتب بعضهم « أقل الممالك » وبعضهم « أقل العبيد » . يريد أن العلامة تكون مطابقة لما يقع في أثناء المكاتب عن المكتوب إليه من الخادم وغيره مما تقدّم ذكره، بحسب ما يؤثّر الملك المكتوب عنه الخطاب به عن نفسه .

وهذه عدّة صدور مختلفات الأبتداءات منقولة من التعريف وغيره .

أما قطع الورق الذى يكتب فيه إلى الخليفة، فقد تقدّم في الكلام على مقادير قطع الورق في المقالة الثالثة، نقلا عن ابن عمر المدائنى في « كتاب القلم والدواة » أنه يكتب للخلفاء في قرطاس من ثلثي طومار، وأن المراد بالطومار الفرخة الكاملة، وأن المراد الورق البغدادي، وحينئذ فينبغى أن يمرّ على ذلك تعظيماً للخلافة .

صدر : أدام الله أيام الديوان العزيز، ولا زالت سيوف أوليائه في رقاب أعدائه
مُحَمَّه، وصنوف الكفار، في أيدي عسكره الحزار، بالنهاب مقسمة، وصفوف أهل
الشرك مُزَلَّلة بخوافق أعلامه المطهرة وسنابك جياده المطهمة؛ ولا برحت ملائكة
النصر من أمداده، وملوك العصر بيض الوجوه بتعظيم شعار سواده .

الخدم ينتهب ترى العتبات، الشريفة بالتقبيل، وينتهي في فُصاري الطلّبات، على
الوقوف في تلك الربوع، ويكلل رُبي تلك الساحات، هو وكلّ ابن سبيل بلائ
الدُموع؛ خضوعاً في ذلك الموقِف الذي تُشكر القلوب فيه الصدور، وتلصق منه
الترابُّ بالثُجور؛ ويظهر سيمًا الجلالة في الوجود، ويُصدق على الأولياء فيعرفون
بسيماهم من أثر السجود . ويُنبئ أن ولاءه القديم، وبلاءه العظيم؛ وأيامه السالفة،
وأفعاله النالدة والطارفه؛ وسوابق خدمه في أمثال الأوامر الشريفة التي لم يزل
يتسارع إليها، ويقارع عليها، ويصارع غلب الأسود على تنفيذ مراسمها، وإقامة
مواسمها؛ وإطارة صيتها، ودوام تثبيتها، تحمّل الخادم على الأسترسال، وتحمّل له
السؤال، والذي ينهيه كذا وكذا .



صدر آخر من " التعريف " : أدام الله سلطان الديوان العزيز، ولا زالت
الخلائق بكرمه مُصَيِّفه [والكائب في هجير وطيسه مصيِّفه] ^(١) . والأبصار في نصر
أنصاره مصنِّفه، والمواضي بأوامره في قبضات عساكره مُصرِّفه، والنقود إلا ما تشرف
باسمه مُزيِّفه، والقلوب في صدور الأعداء بخواطف رُعبه مُسيِّفه، والوعد إلا بما
تُخزّه مواهبه مُسوِّفه، والوغى لا تُرى إلا برماحه متقففة، والسماء وإن علت لا تكون

(١) الزيادة من " التعريف " .

إلا لأذيالِ سُيوفِهِ مَسَّجِفِهِ ، وأَمَاهِبُهُ بَسَطَاهُ إِمَا لِلْعَاقِلِ فَاتِحَةً وَإِمَا عَمَّا يُطْمَعُ أَنْ تَنَالَهُ
الْأَيْدِي مِنْهَا مُجَحِّفِهِ ، وَالْأُمَمُ عَلَى آخْتِلَافِهَا تَحْتِ رَايَاتِهِ الْمَنْصُورَةِ مَقَاتِلَةً وَأُخْرَى لَهُ
مُخَالِفِهِ ، وَالْأَعْلَامُ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا الْإِسْلَامُ بِهِ جِوَارَ الْجُوزَاءِ مَحَلِّفِهِ ، وَالْأَبْطَالُ لِقِتَالِ
الْكَفْرِ بِبِوَارِقِ سُيُوفِهِ ، قَبْلَ مَضَاقِقِ صُفُوفِهِ ، وَمَخَانِقِ زُحُوفِهِ مُخَوِّفِهِ .

الْخَادِمُ يُقْبِلُ بَوْلَانِهِ إِلَى ذَلِكَ الْجَنَابِ ، وَيَقْبِلُ الْأَرْضَ وَكِتَابَهُ يُحْسِنُ الْمَنَابِ ؛
وَيُقْبِلُ عَثْرَاتِهِ إِذَا كَانَتْ بِهِ قَدْ لَازَدَ ، وَيُقِيمُ مَعَاذِيرَهُ إِذَا كَانَ بِهِ قَدْ عَازَدَ ؛ وَيَتَسْرَبِلُ
بَطَاعَتِهِ سَرَائِيلَ تَقِيهِ إِذَا خَافَ مِنْ سِهَامِ الدَّهْرِ إِلَى مُهْجَتِهِ التَّفَاقُذِ ، وَيُصُولُ بِانضِمَامِهِ
إِلَى تِلْكَ الْعِصَابَةِ الْمَنْصُورَةِ لِأَبْمَا يُطْبَعُ مِنَ الْفُؤَادِ ؛ وَيُجِلُّ تِلْكَ الْمَوَاقِفَ الْمُقَدَّسَةَ
أَنْ يُسَلَّ مَوَاطِنُهَا بِدَمْعِهِ ، وَأَنْ يُحُلَّ مَوَاطِنُهَا بِقَلْبِهِ قَبْلَ أَنْ يُعَاجِلَ كُلَّ عَدُوِّ بَقْمَعِهِ ؛
وَيَعُدُّ مَاهِدِي إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْتِصَامِ بِسَبَبِهَا سَبَبًا لِقَوْزِهِ ، وَمُوجِبًا لِمَلِكِ رَقِّ عُنُقِ كُلِّ
عَاصٍ وَحَوْزِهِ ؛ وَيَنْهَى كَذَا وَكَذَا .



صدر آخر : خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَ الدِّيَوَانِ الْعَزِيزِ ! وَلَا زَالَتْ أَيَّامُهُ شَاخِخَةَ الدَّوَابِّ ،
شَارِخَةَ الصَّبَا [حَتَّى] حَيْثُ يَأْحَقُ الشَّيْبُ الشَّوَابَّ ، رَاسِخَةَ الْفَخَّارِ فِي الطُّهُورِ
بِالْعَجَابِ ، نَاسِخَةَ فِي قَهْمِ اللَّيْلِ جَمْرَ الْكِتَابِ ، صَارِخَةَ وَالزَّعْدُ تَرْتَعِدُ فِرَائِضَهُ بَيْنَ
السَّحَابِ ، نَاسِخَةَ دَوْلَةَ كُلِّ عَلِيَاءَ بِمَا تَأْتِي بِهِ مِنَ الْغَرَائِبِ ، وَتَبْدُلُهُ مِنَ الرَّغَائِبِ ، فَاسِخَةَ
عَقْدَ كُلِّ خَالِعٍ يُرِدُهُ اللَّهُ إِلِيْهَارْدَةَ خَائِبِ ، بِأَذْخَةَ عَلَى مَاضِي كُلِّ زَمَانٍ ذَاهِبٍ مِنْ عُسُورِ
الْخُلَفَاءِ الشَّرَفَاءِ وَأَيْبِ ، سَانِخَةَ لِجِلْدَةِ كُلِّ أَيْمٍ ظَنَّ أَنَّ فِي أَنْيَابِ رُجْحِهِ النَّوَابِ .

الْخَادِمُ يَقْبِلُ الْعَتَبَاتِ الشَّرِيفَةَ سَاجِدًا بِجَمِينِهِ ، وَشَاهِدًا يَسْتَأْذِينَهُ لَهُ عَلَى يَمِينِهِ ،
وَجَاهِدًا كُلَّ وِلَاءٍ وَسُوِيٍّ وَأَوْلَانِهِ الْمَعْقُودِ بِجَمِينِهِ ، وَعَاقِدًا بِشَرَفِ الْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ عَقْدَ دِينِهِ ،

(١) الأيم ككيس والاييم بالكسر الحية أنظر القاموس .

(١) وحامداً الله الذي جعله [من] طاعة أمير المؤمنين عند حسن يقينه؛ وعائداً بأمله إلى كرم تُثمر به الآمال، وتُقمَر به اللَّيالي لأنها شعاره الذي تُضرب به الأمثال، وتُطرَب به السُّحب الجَهَام فتُضحى بها آية الإحمال . وينهى ورود المِثال الشريف الذي طلع نيره فأنار، وسطع متضاده فألف بين الليل والنهار؛ وأقبل فما رآه إلا كتابه الذي أوتيه باليمين، وسحابه الذي أعطيه يندى منه الجبين؛ ونصره أكثر من الألوف، وأنصفه أعجل من السيوف، وزاحم به الدهر فضلاً عن الصُّفوف، وزار به الوغى لايمهاها وخَطَّيات القنا وقُوف؛ فتشرف به وطار بغير جناح، وقاتل بغير سلاح، وقرأه وبات قري له في السباح، وتسامه كأنما تسنم به المعاول وتسلم منه المفتاح .



صدر آخر : خلد الله أيام الديوان العزيز! ولا زالت سطاوته تجدُّ برعها الأبطال المدججة ، وتحمُّد بفيضها النيران المؤججه، وتحمُّل بركر نفاذها إلى القلوب الرماح المزججه، وتجنُّل معها بعوائد كرمها السحب المنججه، وتخف لديها أوقار الجبال المفججه، وتجزُّ بل تخور خوفاً أن تترقى إليها الأصوات المضججه، وتخص بالغرق من خاطر في يحارها المنججه، وتخلف بسطانها للموت أشهى من البقاء إلى طرائد سيوفها المهججه، وتخلد النصر بمججها القائمة على الخصماء المنججه .

الخدائم يقب وجّهه في سماء الفخار بتقيل الأرض التي طالت السماء، فأطالت النعماء، وفضلت النجوم اللوامع، وأوتيت بالكها - أعز الله سلطانه - كلم الفضل الجوامع، وأحلت شواخ المجد من حلها، وأجلت قدر من جد فأجلها، وأعطت مفايح الكنوز كنوز الشرف لمن قبلها كما يقبل الحجيج الحجر، أو أملها كما يؤمل السارى طلوع القمر؛ وينهى كذا وكذا .

(١) من من "التعريف" وهي لازمة لوضوح المعنى .

(٢) في التعريف "خطار" وكل صحيح .



صدر آخر : قال في "التعريف" : وهو غريب الأسلوب .

أدام الله أيام العدل والإحسان ، والنعم الحسان ، والفضل المشكور بكل لسان ؛
الأيام التي أشرق صباحها السافر ، وعمّ سباحها الوافر ، وآمنَ بيمنها كلُّ مسلم ضُرب
عليه سُرْدُقُ الليل الكافر ، وعلتْ شموسها وقد جنحتِ العصور الذواهب ، وقُدِحتْ
أشعتها فأضاءتْ بين لآبتي الغياهب ؛ أيام الديوان [العزيز الملووى ، السيدى ،
النبوى ، الإمامى ، الحاكمى] ، لا بَرَحَتْ أيامه مَفَنَّتْه ، وأحكامه مَقَنَّتْه ، وسُجِبَه
على الظَّاءِ مَحَنَّتْه ، وقُرْبُه بفقد ماحوته مَحَنَّتْه ، وحقائقه غير مَطَنَّتْه ، وطرائقه للخير
مَسَنَّتْه ، والخلائقُ تحت جناح رَأْفَتِه ورُحْمَاهِ مَكَنَّتْه ؛ ولا زال ولاؤه ضير من
اعتقد ، ومير من أخذ من الدهر ما نقد ، ومير الأسود المتضائلة لديه كالنقد ، ومير
من تَبَّه وصحَّيح من رَقَد ، ومير البرق ندى كرمه وقد وقَد ، ومير متعالى الصَّباح
من راياته العالية بما عَقَد ، ومير من لاذ به حتى لا يضره من قَفَد ، ومير عَدَاهُ بَرَدَاهُ
الذى إن تأنَّحْ إلى حين فَقَد .

الخدَامُ يَحْدُمُ تلك العتباتِ الشريفة التي إن تاهتْ على السماء فَمَا ، وإن دنتْ
للتقبيل فإن الثرى تود أن تكونَ فَمَا ؛ وينهب تراب تلك الأرض التي هي مَسَاجِدُ ،
ويقبَلُ ذلك الإساط الذي لا مَوْضِعَ فيه إلا مَكَانَ لائِمٍ أو سَاجِدٍ ؛ ويَزْهَى
عن سَوَاكِبِ دمعته : لأنَّ ذلك الحَرَمَ [الآمن] لا تُطَلُّ فيه الدماء ، ويُجْلَى عنها
نَمُّه لأنها لا تَأْتِمُّ السماء ؛ ويرفع صالح الدعاء وإنما إلى سماءها يرفعُه ، وينهى صادق
الولاء وما تَمُّ من يدفعُه ، ويتنحَرُ من صحيح البودية ما يرجو أنه ينفعُه ؛ ويطالع العلوم
الشريفة بكذا وكذا .

(١) الزيادة من "التعريف" .



صدر آخر : أدام الله النعمة على الدين والدنيا بإيالة الديوان العزيز! وأسبغ نعمه
فالنعم في ضمنها ، وملاً الآمال منها وأفاض من أنوارها التي علم قرْن الشمس أنه
غير قرنها ، وأدال دولته التي نزل الخلق من جنات عدلها جنات عدنها ؛ وأمضى
سيوفها التي تُعرب فيُعرب ضمير النصر في لحنها ، وأعلى آراءها التي تالقى العداة بدروع
يقينها ، وتلقى الغيوب بسهم ظنّها ؛ ولا زالت البشائر تنبأرى إليه بردها ، ويضفؤ
على أعطاف الإسلام بردها ؛ ولا برحت راياته سويدات قلوب العساكر ، وأجنحة
الدعاء المحلّق إلى أفق السماء من أفق المنابر ، وولأوها السرّ المنهَم الذي هو مما تُبلى
به السرائر . الخادم



صدر آخر : أعلى الله الموحدين على الملّحين ، وثبت كلمة المتقين على اليقين ؛
بدوام أيام الديوان العزيز وروض بولاته كل ديوان ، ووسم بولاته كلّ أوان ؛ وأنطق
بجده كلّ لسان ، وألهم الخلق أن يعنُونوا بطاعته صحائف الإيمان ، وأسعدهم
بما يتناولونه في الدنيا من كُتب المنّ وفي الآخرة من كُتب الأمان ؛ فكلّها طائرٌ
في العنق يكون بالطاعة قلائدٍ في الأطواق ، وبالمعصية جوامع أسير في الأعناق .

ورد على المملوك كتابٌ إن لم يكن أنزل من السماء ، فهو من الذين أنزل عليهم
كتاب من السماء ، وإن لم تنزل ألفاظه بالماء ، فهو من الذين أنزلت ألفاظ دعواتهم
الماء ؛ وإن لم يكن كتاب العمل : لأنه ليس بيوم الكتاب ، فإنه قطُّ مجلّ له قبل يوم
الحساب ؛ ولولا أن أمّ الكتاب أعقمت لكان ابن أمّ الكتاب ، وإن هو إلا طائر
ألزم في عنقه وما وكر طائرُه إلا المحراب .



صدر آخر : أتمَّ اللهُ ما أنعم به على الديوانِ العزيزِ وعلى الخلقِ ، وأشركَ في هذه النعمةِ أهلَ الغربِ والشرقِ ، وميزَ الحظوظَ فيها بحسبِ درجاتِ السُّبُقِ . فإنه (لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتَلُوا وَكَلَّا وَعَدَّ اللهُ الْحُسْنَى) والله لا يخلف موعده ، والديوانُ العزيزُ لا يكدر مؤرده ، ولا رَفَعَ عن أيدي الخلقِ يده ؛ بل يجري عليها ما صمته ، ويمكئها بما بسط لها في الأرضِ ومكئها ، ويرسلُ عليها سحابَ رحمة ، وينشيئُ منها ناشئةَ نعمته ؛ ويوجِّهُ إلى قلبها وجهَ كلِّ أملٍ ، ويُفيضُ طوفانها فلا يكون به للغليلِ قِبَلٌ ، ولا يأوى إلى حصاةِ قلبٍ فيعصمها ولو أنه جبل .

قلت : ولم أقف على مكتبة عن أحدٍ من ملوكِ الديارِ المصريةِ إلى أبوابِ الخلافةِ مُدَّ صارت دأرَ الخلافةِ بالديارِ المصريةِ . والظاهر أنه لم تجرِ مكتبةٌ عن السلطانِ إلى الخليفةِ ، لأنَّ الخليفةَ لا يكاد يُفارقُ السلطانَ سقراً ولا حضراً مفارقةً تُوجبُ المكتبةَ إليه ، كما أشار إليه صاحبُ "التثقيف" . وقد لوحَّح في "التعريف" إلى ذلك فقال : وأول ما نبداً بما يُكْتَبُ به إلى الأبوابِ الشريفةِ الخليفيةِ (كذا) زادها الله شرفاً ، جرياً على قديمِ العادة ، ورجاءً لملاحظةِ السَّعادة .

وهذه نسخةُ مكتبةٍ من هذا النوعِ مما كتب به القاضي الفاضلُ عن السلطانِ «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله إلى ديوانِ الخلافةِ ببغدادَ في أيامِ الناصر لدين الله بجبرِ ملكِ الألمانِ من القرنيحةِ والقتالِ معه ، في جوابِ كتابٍ ورد عليه ، يُوضِّحُ في هذا الموضعِ بيانَ هذا الأسلوبِ ، ويُغني عن مراجعةِ [كثير] من الأمثلةِ المذكورةِ في المكتباتِ إلى الخلفاءِ على ما تقدَّم ، وهو :

أدام الله ظلَّ الديوان العزيز النبوي، الإمامي، الشريف الناصري، ومده على الأمة ظليلاً، وجعل الأنوار عليه دليلاً، وحاطه بلطفه وتقبل أعماله بقبولٍ حسنٍ وأنتها، وأرغم أعداءه وكتبها، ومسها بعدايب من عنده وسختها، ولا زالت رأيتُه السوداءً بيضاءً الخبر، محجرةً المخبر في العداة مسودة الأثر.

ورد على الخادم ما كُتِبَ به من الديوان العزيز رائداً في استخلاصه، مبرهنًا عن اختصاصه، مُطلقاً في الشكر للسانه، وفي الحرب لعنانه، ومقتضياً لأمنية كان يتهيأ، ومفيداً لمكرمة لو سمت نفسه إليها كان يتهمها؛ فله هو! من كتاب كأنه سورة وكل آية منه سجدة، قابله بالخشوع كأنما قلم الكتاب القضيب وطرسه البرد، وتلاه على من قبله من الأولياء مسترهقاً به لعزائمهم، مستجيزاً به لمغانمهم؛ مستثباتاً به للازمهم، مستدعياً به الخدمة للوازمهم؛ مرهقاً به طباهم في القتال، فاسحاً به خطاهم يوم النزال؛ فأثر فيهم كالافتداح في الزند، وكالأنجاس من الصلْد، وكالاستلال من الغمد؛ فشمّر من كان قد أسبل، وأتمى من كان قد أجبل؛ وكأما أعطوا كتاباً من الدهر بالأمان، أو سمعوا منادياً ينادى للإيمان؛ وقالوا: سمعنا وأطعنا، وعلينا من الخدمة ما استطعنا؛ هذا مع كونهم أنضاء زحوف، وأشلاء حُوف، وضرائب سيوف؛ قد وسمت وجوههم علامات الكفاح، وأحالت عرضهم أقلام الرياح؛ صابرين مصابرين، مكابرين مكابرين، مناضلين مناضلين؛ قد قاموا عن المسلمين بما قعد عنه سائرهم، ونزلوا بمارة القراع فلا يسير عنها سائرهم؛ وسدست كعوب الرياح أنملهم، وأبتوا في معترك الموت أرجلهم؛ كل ذلك طاعة لله ولرسوله وخليفتيهما، وإذا رموا فأصابوا قالوا ولكن الله رمى.

ومن خبر الكفار أنهم إلى الآن على عكا يمدّهم البحر بمراكب أكثر عدّة من أمواجه، ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاهه؛ قد تعاضدت ملوك الكفر

على أن يُنْهَضُوا إليهم من كلِّ فرقةٍ منهم طائفه، ويقلِّدوا لهم من كلِّ قرنٍ يُعْجِزُ بالكثرةِ وإِصْفَه؛ فاذا قتل المسلمون واحداً في البرِّ بعث البحرُ عِوضَه ألفاً، وإذا ذهب بالقتل صنْفٌ منهم أخلفَ بدلهِ صنفاً؛ فالزرعُ أكثرُ من الحِدادِ، والثمرةُ أعمى من الحِصادِ. وهذا العدو المقاتل - قاتله الله - قد زرَّ عليه من الخنَاق أدراعا متينه، وأستجَنَّ من الجنوياتِ بِحُصُونِ حَصِينِه؛ مَضِحِرّاً ومُتَمِّعاً، وحاسِراً ومتدَرِّعاً ومُواصِلاً ومُنْقَطِعاً؛ وكُلُّها أخرجَ رأساً قد قُطِعَت منه رُؤوسٌ، وكُلُّها كَشَفَ وجهاً كَشِفَت من غِطاءِ أجسادها نُفوسٌ؛ فكم من يومٍ أرسَلُوا أَعْنَةَ السوابقِ فذَمُّوا عَقْبِي إرسالها، وكَم من ساعةٍ فَضُّوا فيها أَفْعالَ الخنَاقِ فأضَى إليهم البلاءُ عندَ فَضِّ أَفْعالِها؛ إلا أنَّ عدَدَهم الجَمِّ قد كاثَرَ القَتْلَ، وراقبهم الغُلبَ قد قَطَعَت النِّصْلَ لِشِدَّةِ ما قَطَعها النِّصْلَ. ومَنْ قَبَلَ الخادِمَ من الأولياءِ قد آثَرَتِ المدة الطويلةُ، والكُلْفُ الثقيلُ؛ في أَسْتَطاعَتِهم لا في طاعَتِهم، وفي أجوالهم لا في شِجاعتِهم؛ فالبرُّكُ قد أنْضَوْه، والسِّلاحُ قد أَحْفَوْه، والذَّهَبُ قد أْفَنَوْه؛ وكلُّ من يَعْرِفُهم من أهلِ المَعْرِفَةِ، ويراهم بالعينِ فما هم مثلَ مَنْ يراهم بالصفِّ؛ يَناشِدُ اللهُ المُناشِدَةَ النبويَّةَ، في الصِّبْحَةِ البَدْرِيَّةِ؛ اللَّهُمَّ إِنْ تَهَلَّكَ هَذِهِ العِصَابَةُ، وَيُخْلِصِ الدِّعَاءُ وَيَرْجُو عَلِيَّ يَدَ أميرِ المؤمنينِ الإِجابَةَ. هذا والساحلُ قد تَماسَكَ، وما تَهالكُ؛ وتَجَلَّدَ، وما تَبَلَّدَ؛ وشَجَعَتَهُ مَواعِدُ النِّجْدَةِ الخارِجَةِ، وأَسَلَّتَهُ عنِ مِصارِعِ العِدَّةِ الدَّارِجَةِ؛ فكيفَ به إذا نَحَرَجَ دَاعيَةُ الألمانِ، ومُلُوكُ الصُّلْبانِ؛ وِجُوعُ ما وراءَ البحرِ، وحُشُودُ أَجناسِ الكُفْرِ؟ وقد حَرَّمَ ياهاهم - لعنةُ اللهِ عليهم وعليه - كلُّ مِباحٍ وأَسْتَخْرِجَ منهم كلَّ مَذْخُورٍ، وأَغْلَقَ دُورَهم الكُنايسَ، وآبَسَ وأَبَسَهم الحِدادُ، وحَكَّمَ عليهم أن لا يَزَالُوا كَذَلِكَ أو يَسْتَخْلِصُوا المَقْبُرَةَ، وَيُعِيدُوا القُمامَةَ. ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهْمُ الشَّيْطَانِ أَعْمالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمْ اليَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾.

اللهم أخفِرْ جواره، وأصْرِفْ جوره، وأخْلِيفْ وعده، وأكسِرْ صمَّانه، وأنكِصْه
 على عَقِبِه، ونَجِّلْ في الدنيا والآخرة منهم تَبَاهِه . وما بدأنا به من نعمتك فلا تقطعه،
 وما وهبنا من نصرك فلا تَسْلُبْه، وما سترته من عَجْرنا فلا تَهْتِكْه . [و] في دُونِ ما الدِّينُ
 مستَقْبِلُه ، وعدوّه خذله الله يؤمِّله ؛ ما يستفرغُ عزائم الرجال ، ويستنفدُ خزائن
 الأموال ؛ ويوجب لإمام هذه الأمة أن يحفظَ عليها قِبَلتها ، ويُزيحَ في قتل عدوِّها
 علَّتْها ؛ ولولا أنَّ في التصريح ، ما يعودُ على عدالته بالتَّجريح ، لقال ما يُسِكِّي العينَ ويُنكي
 القلوب ، وتَشقُّ له المرائرُ وتُشقُّ له الجُوب ؛ وليكنَّه صابراً محتسباً ، منتظراً لنصر
 الله مُرْتَقِباً ، قائماً من نفسه بما يجب ؛ ربِّ إني لأملك إلا نفسي وأخي ، وهاهو
 قد هاجر إليك هجرةً يرجوها عندك مقبوله ، وولدي وقد أبرزتُ لعدوك صفحات
 وجوههم ، وهانَ على محبوبك بمكروهى فيهم ومكروههم . ونقفُ عند هذا الحدِّ ،
 والله الأمرُ من قبلُ ومن بعدُ ؛ وإن لم يشكِّ الدِّينُ إلى «ناصره» والحقُّ إلى مَنْ قام
 بأقوله وإلى اليوم الآخر يُقومُ بآخِرِه ؛ فإلى مَنْ يُشكِّى البتَّ ، وعند من يتفرج
 بالنفثِ ؟ ، ومنفعةُ الغوثِ قبل العطبِّ ، والنجاءُ قبل أن يصل الحِزامُ الطَّيِّينَ ،
 والبلاغُ قبل أن يصل السيلُ الزُّبِّي .

فيا عَصَبَةَ محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم أخلفه في أمته بما تظمن به مضاجعُه ، ووفَّه
 الحقَّ فينا ؛ فإنَّا وإنَّ المسلمين عندك ودائعُه ، وما مثل الخادمِ نفسه في هذا القول
 إلا بحالةٍ من وقفٍ بالباب ضارعا ، وناجئاً بالقول صادعا ؛ ولو رُفِعَتْ عنه العوائقُ
 لهاجر ، وشافهَ طيبَ الإسلام بل مَسِيحَه بالداء الذي خامر ؛ ولو أمِنَ عدوُّ الله أن
 يقول فرِّ لسافر ، وبعدُ ففيه وإن عَضَّ الزمانُ بقيه ، وقِبَلَه وإن تدارأتِ الشُّهاد
 دَرِيه ؛ فلا يزالُ قائماً حتى يُنصرَ أو يُعدَّر ، فلا يصل إلى حُرْمِ ذريةِ أحمدَ صلَّى الله
 عليه وسلم ومن ذريةِ أيوبَ واحدٍ يذكُر .

أنجز الله لأمر المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْرِهِ! وتَمَّ مَسَاعِدَةَ دَهْرِهِ! وَأَصْفَى مَوَارِدَ إِحْسَانِهِ! .
وأرْسَى قَوَاعِدَ سُلْطَانِهِ! وَحَفِظَهُ وَحَفِظَ بِهِ فَهُوَ خَيْرُ حَافِظًا ، وَنَصْرَهُ وَنَصَرَ عَلَى يَدَيْهِ
فَهُوَ أَقْوَى نَاصِرًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ثم أعلم أن المقرَّ الشَّهَابِيَّ بنَ فضل الله قد ذكر في "تعريفه" أيضا أنَّ المَكَاتِبَةَ
إلى أبواب الخِلافة من الملوك والسُّوقَةَ لا تَخْتَلِفُ ، بل تَكُونُ عَلَى الْأَنْمُودَجِ الْمُقَدَّمِ
ذَكَرَهُ ، وَأَسْتَلْزِمُ ذَلِكَ : بِغَيْرِي عَلَى هَذَا الْمِصْطَلَحِ فِيمَا كَتَبَ بِهِ إِلَى الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ
الْحَاكِمِيِّ ، أَحْمَدَ بْنَ أَبِي الرَّبِيعِ سَلِيمَانَ : أَحَدِ الْخُلَفَاءِ الْعَبَّاسِيِّينَ بِالْأَيْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، عَنْ
رُمَاةِ الْبُنْدُقِ بِالشَّامِ ، جَوَابًا عَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ مِنْ كِتَابِهِمْ ، وَهُوَ مُتَكَلِّمٌ عَلَى رُمَاةِ الْبُنْدُقِ
يَوْمئِذٍ فِي أَمْرِ نَاصِرِ الدِّينِ بْنِ الْحَمْصِيِّ وَهُوَ أَحَدُ الرُّمَاءِ .

أدام الله تعالى أيامَ الدِّيْوَانِ الْعَزِيزِ ، الْمَوْلِيِّ ، السَّيْدِيِّ ، النَّبَوِيِّ ، الْإِمَامِيِّ ،
الْحَاكِمِيِّ ؛ وَنَصْرَهُ بِجَمْعِ الْإِيمَانِ ، وَبُشْرَ بِأَيَّامِهِ الزَّمَانِ ، وَمَتَّعَهُ بِالْمَلِكِ الَّذِي
لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ بِمَا وَرِثَهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ؛ وَلَا زَالَ يَخْضَعُ لِمَقَامِهِ كُلُّ جَلِيلٍ ،
وَيُعْرَفُ لِأَيَّامِهِ كُلُّ وَجْهِ جَمِيلٍ ؛ وَيُعْتَرَفُ لَشَرَفِهِ كُلُّ مُعْتَرِفٍ بِالتَّفْضِيلِ ، وَيَشْهَدُ
بِنَفَازِ أَوَامِرِهِ مِنْ دَوِي نَسَبِهِ الشَّرِيفِ كُلِّ أَيْحٍ وَخَلِيلٍ ؛ وَلَا كَانَ إِلَّا كَرَمَهُ الْمَأْمُولِ ،
وَدَعَاةَ الْمَقْبُولِ ، وَعَدُوَّةَ الْمَصْرُوعِ وَوَلِيَّةَ الْمَحْمُولِ ؛ وَلَا بَرِحَتْ طَاعَتُهُ يُعْقَدُ عَلَيْهَا
كُلُّ جَمْعٍ ، وَمَرَامِئِهِ يُنْصِتُ إِلَيْهَا كُلُّ سَمْعٍ ، وَطَوَائِفُ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَيْهِ لَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ إِلَّا تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ .

المالِكُ يَقْبَلُونَ الْأَرْضَ بِالْأَبْوَابِ الْعَالِيَةِ الَّتِي هِيَ خُطَّةُ شَرَفِهِمْ ، وَمَكَانُ تَعْبُدِ
الْقَدَمَاءَ مِنْهُمْ وَمَنْ سَلَفِهِمْ ؛ وَيَلُودُونَ بِذَلِكَ الْمَقَامِ ، وَيُؤَدُّونَ بِذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي

لا يبعد نسبه من البيت الحرام؛ ويؤمنون ذلك الكرم الذى مامنهم إلا من ساعد به طائره، وجاءته به فى وجه الصبح أشائه؛ وفى وجه العشاء بشائره؛ فنالوا به أقصى المرام، وقضوا به من العمر ما إذا قالوا: ياسعد! لا يعنون به إلا ذلك الإمام؛ ويتمون إلى ما ورد به المرسوم الشريف الذى ما من المالك إلا من مات لديه بتقديم عبوديته ورقه، وسارع إلى طائره الميمون وحمله بسبقه؛ وفتح له عينه وظن أنه حاكم، وأتمثلوا أمره وكيف لا تمتثل الرماة أمر الحاكم؟، ولا سيما ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الإمام الحاكم؛ وأجأوه عن رفته على العين إذ كانت تلك بمنزلة الحاجب، وقدموا إليه خفوق قلوبهم الطائرة وما علموا أن كانوا قاموا بالواجب؛ ووقفوا على أحكام حاكمه فما شكوا أن زمان هذا الفن بجية ناصره فى بغداد قد عاد، وأن مثاله المتمثل فى سواد الحدق مما حكته أيامه العباسية من شعار السواد؛ وعلموا مارسم به فى معنى محمد بن الحصى الذى ما نورت اليلة أكاريجه، ولا بعدت فى الإقعاد له تواريجه؛ بل أخذت دموع ندمه نيرانه المشتعله، وأصبح به لا يجمل القوس فى يده إلا أنه مشغله؛ وما كان أمهات الديوان العزيز مما لم تذكر الخواطر الشريفة بأنه قبة المفترى، وأنه صاحب القوس إلا أن ماله سعادة المشتري؛ وأنه مؤه تمويه الجاحد، وتلون مثل قوس قرح وإلا فقوس البندق لون واحد؛ وأدلى بغروره، وعرض المحض الذى حمله على تغريه؛ وذلك فى غيبة الأمير بهاء الدين أرسلان البندقدار الحاكمى، الذى لو كان حاضرا لكان حجة عليه، ومؤكدا لإبطال رميه وقوسه وبندقه فى يديه؛ لما تضمنه الخط الشريف المقيد اللفظ المكتتب على المصطلح، الساحب ذيل نغاره على المقترح؛ الذى هدى إلى الخير، وبدأ به ما هب من الملك السليمانى الذى أوتى من كل شيء وعلم منطق الطير؛ فإنه لم يكتب له إلا بأن يرمى على الوجه المرضى واستيفاء شروط البندق،

والخروج من جميع الأشكال عملاً بقواعده ؛ ويُعلم بأنه ما رعى حقَّ قُدُمته ، ولا فعل في البابِ العزيزِ ما يجبُ من التحلِّي بشِعارِ الصِّدقِ في خِدْمته ؛ وأنه خالف عادةَ الأدبِ ، وأخطأ في الكلِّ لکنه نَدب ؛ وذلك بعد أن عَمِلَ له جميعُ رُماةِ البندقِ ، وسئِلَ فأجاب : بأنه سالمٌ من كلِّ إشْكالٍ يُشْکِلُ ، وأنه بعد أن أقعد رمي وحملٍ وحملٍ ؛ فشهد عليه السادةُ الأمراءُ ولاةُ العهدِ إخوةُ أميرِ المؤمنينِ ومن حضر ، وكتبوا خطوطَهُم في المحضرِ ؛ وما حصل الآنَ عند عَرْضِ قصةِ الممالِكِ بالمواقفِ المقدَّسه ، ووضوحِ قضيتِهِ المدنَّسه : من التعجبِ من اعترافِ الممالِكِ ، لكونِهِم رمواً معه بعد أن رأوا الخطَّ الشريفَ وهو لفظٌ مقيِّدٌ ، وأمرٌ أيَّد به رأيُ الإمامِ الحاكمِ بأمرِ الله المسترشدِ باللهِ والمؤيَّد ؛ وكلُّ ما أمرَ به أميرُ المؤمنينِ لأمعدِلِ عن طُرُقِهِ ، ولا جدالَ إلا به إذا أُلْزِمَ كلُّ أحدٍ طائرِهِ في عُنُقِهِ ، وأميرِ المؤمنينِ بحرِ لا يرد إلا من عِلبِهِ ، وهو الحاكمُ ولا رادَّ لحُكْمِهِ . وإنما ابنُ الحصَى المذكورِ عَدِمَ السِّدادَ ، وخالف جاريَ العادةِ في الحِمصِ فإنه هو الذي سُلِقَ في الافتراءِ بألسنةِ حدادٍ ؛ ولم يُوقِفِ الممالِكِ من الخطِّ الشريفِ إلا على بعضِهِ ، ولا أراهم من برِّهِ المتملِّ غيرَ ومُضِهِ ؛ والذي أوقفَهُم عليه منه أن يرمى محمدُ بنُ الحصَى ويُرْمَى معه ، وكلمةُ أميرِ المؤمنينِ مستمعه ، ومراسمِهِ متبَعَهُ ؛ وإذا تقدَّم كان الناسُ تبَعَهُ . غيرَ أن المذكورَ بدتْ منه أمورٌ قطعَ بها الأميرُ صارمُ الدينِ صاروجا الحاكمِ البندقدارِ في حقِّهِ ، وأقعدَهُ عن قُدُمته التي كان يمتُّ فيها بسبقِهِ ؛ وانتقل عنه غلمانُهُ ، ونقلَ عليه زمانُهُ ؛ ونوْدِي عليه في جمعِ كبيرٍ يزيدُ على تسعينِ قوساً ، وجرِحَ بخطأِ بُندُقِهِ جرحاً لأيوبيٍّ ؛ ثم بعد مدَّةِ سنينِ توَسَّلَ بولدِ الأميرِ المرحومِ سيفِ الدينِ تنكرُ إلى أبيهِ ، وتوصَّلَ به إلى مرَّامِيهِ ؛ فأمرَ أن يرمى معه وهَدَّدَ المخالفَ بالضربِ ، ولم يرمِ معه أحدٌ برضاهِ إلا خَوْفٌ أن تُوقَدَ نارُ الحربِ ؛ فلما مضتْ تلكَ الأيامُ ، وأنقضتْ

تلك الأحمال ، جمع مملوك الأبواب العالية الأمير علاء الدين بن الأوبكرى الحاكم في البندق الآن من رمة البندق جمعا كبيرا ، وأهتّم به أهتّمًا كثيرًا ؛ وذكر أمر المذكور ، وأحضر محضره المسطور ؛ ولم يكن عليه تعويل ، ولا في حكم الحاكم المتقدم تعليل ، ولا عند هذا الحاكم الذى أدعى له وأدعى عنده تجوز الأباطيل ؛ وتحقق أنّ الحقّ فيما حكم به عليه فُتبع ، وترجع أن لا يُقام منه من أقعد ولا يوصل منه ما قطع ؛ فنفذ حكم الحاكم المتقدم ، واستمر بقعوده المتحتم ؛ ووافق على هذا سائر الرماة بالبلاد الشامية وحكامها ، ومن يرجع إليه فى الرماية وإحكامها ؛ وبطلت قُدّمة المذكور التى ذهبَ فيها عمره ضائعًا ، وزمانه الذى لو اشترت منه ساعة بالعمُر لم يكن نافعًا .

ولما ورد الآن هذا المرسوم الشريفُ زاده الله شرفًا قبلوا الأرضَ لديه ، وأوقفوا عليه حاكمهم المسمى فوقف له وعليه ؛ وجمع له جمعا لم يدع فيه من الرماة معتبرًا ، ولا من يُلقم القوسَ وترًا ؛ ولا من إذا قعد كالعين جرى ماجرى ؛ ثم قرأ عليهم ماتضمن ، ودعوا لأمير المؤمنين ولم يبقَ منهم إلا من دعا أو أمن ؛ وتضاعف سرورهم بحُكمه الذى رفع الخلل ، وقطع الجدل ، وقالوا : لاعدنا أيام هذا الحاكم الذى أنصف والإمام الذى عدل ؛ وبقى ابن الحمصى مثله ، ونودى عليه إنه من رمى معه كان مخطئًا مثله ؛ ووقرت هذه المناداة فى كلّ مسمع ، وقرت استقرار الفضل عليه المُجمَع ؛ وذلك بما فهم من أمير المؤمنين ، وبنص كتابه المبين ، وبما قضى الله به على لسان خليفته الحاكم والله أحكم الحاكمين ؛ وطالعوا بها وأنها صورة الخال ، وجمعوا فى إمضائه الآمال . لا زالت سعادة أمير المؤمنين مرّهة عن الشبه ، آخذة من خير الدارين كل اثنين فى وجه ، حتى تحصل كل رمية من كُتب ، ولا يرعى فى كل

أمنة إلا كل مصطحب ، ماغب في السماء المرزم ، ووقع العقاب على نينة يقرع
سنة ويتندم ، وعلا النسر الطائر والواقع على آثاره وسائر طيور النجوم والحوم ؛
إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد أعترض في " التنقيف " كلام المقر الشهابي بن فضل الله
في " التعريف " فقال : وفيما ذكره في " التعريف " من التسوية في المكاتبه بين
الملوك والسوقة نظر . وما أشار إليه من النظر ظاهر : فإن الذي تجب مكاتبهم به
ما يكتب به المرءوس رئيسه بحسب ما تقتضيه الحال في ابتداء المكاتب من يقبل
الأرض ، كما تكاتب الملوك ، بل هم بذلك أحق وأجدر . ويكون الخطاب لهم
في أثناء المكاتبه بما أشار إليه في " التعريف " بالديوان العزيز ، والمواقف المقدسة
أو المشرفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشرف ، والجانب الأعلى ،
ومولانا أمير المؤمنين ، ونحو ذلك بحسب ما تقتضيه الحال على ما تقدم ذكره .

الطرف الثاني

(في المكاتبه إلى ولاة العهد بالخلافة)

أما على المصطلح القديم حين كانت المكاتبه إلى الخلفاء « لفلان من فلان »
فقال في " صناعة الكتاب " : ويكون التصدير في المكاتبه إلى ولي العهد على
ما تقدم في المكاتبه إلى الخلفاء مع تغيير الأسماء ، غير أنه جعل الفرق بين الإمام
وغيره ممن يكتب بالتصدير أن يقال للإمام في التصدير مع السلام : وبركاته ،
في أول الكتاب وآخره . ومن سوى الإمام تحذف وبركاته من التصدير وثبتت
في آخر الكتاب .

وقد تقدم أن التصدير إلى الخليفة حينئذ كان " لعبد الله أبي فلان فلان أمير المؤمنين ، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، فإني أحمدُ إلى أمير المؤمنين الله الذي لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصليَّ على محمد عبده ورسوله . أما بعد ، أطال الله بقاء أمير المؤمنين إلى آخره ، ويختتم بقوله : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " .

وحينئذ فتكون المكتوبة إلى وليّ العهد على ما أشار إليه في "صناعة الكتاب" من الابتداء بالتصدير مع تغيير الأسماء : " لعبد الله أبي فلان فلان وليّ عهد المسلمين ، سلامٌ على وليّ عهد المسلمين ، فإني أحمدُ إليه الله الذي لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصليَّ على رسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعد : أطال الله بقاء وليّ العهد ، ويختتمه بقوله : والسلامُ على وليّ عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته " أو نحو ذلك .

وأما على المصطلح الذي حدّث بعد ذلك ، فقد ذكر المقرّ الشهابيّ بن فضل الله في كتابه "التعريف" أن رسم المكتوبة إلى وليّ العهد بالخلافة : ضاعف الله تعالى جلال الجانب الشريف ، المولويّ ، السيديّ ، النبويّ ، الفلانيّ ، ثم الدعاء المعطوف . وأبدل في "التثقيف" لفظ الجانب بالجَنَاب . والخطابُ له بمولانا وسيدنا وليّ العهد ونحو ذلك . والتعبير عن المكتوب عنه بـ«الخادمُ يقبل العتباتِ الشريفةَ أو اليدَ الشريفةَ» أو نحو ذلك . قال في "التثقيف" : والعلامةُ إليه «الخادم» والعنوان «الجَنَاب الشريف» وبقية الألقاب المذكورة إلى آخرها .

قال : وهو أحسن من الجَنَاب : لعدم اشتراك غيره معه فيه بخلاف الجَنَاب . قال : وهذا أيضا على عادة من تقدم من الملوك ، أما في زماننا وقبله بمدة مديدة ،

فلم يتفق وجودُ ولىّ عهدٍ للخلافة ؛ وبتقدير وجوده فإذا لم يكن الخليفةُ يكتبُ في هذه الأيام فكيف بولىّ عهده .

وهذه صدور مكاتبات إليه أوردتها في "التعريف" .

صدر : ضاعف الله تعالى جلال الجانب . وأطلع مع وجود الشمس بدره التمام ، وأحوج مع زاهر البحر منه إلى مدد العمّام ، وقدمه إماماً على الناس وأطال بقاء سيدنا أبيه الإمام ؛ ولا عُدَم منه مع نظر والده الشريف جميل النظر ، ولا برح صدر دسسته العلى إذا غاب وثانيه إذا حضر ؛ ولا زال الزمان مختلفاً من جُود وجودهما لا عرف الله الأنام قدره إلا بالزهر والثمر ، ولا زاد فيض كرم إلا وهو من كفّ أبيه فاض أو من وبّله العميم أنهمر .

الخدام يخدم تلك العتبات الباذخة الشرف ، الناصخة بما وجده من الخير في تقبيلها قول من قال : لا خير في السرف . وينهى ولأء ما عقد على مثله ضمير ، ولا انعقد شبيهه لولىّ عهد ولا أمير ؛ وإخلاصه في آتماء أشرق منه على الجبين ، وأشرف فراه فرضاً عليه فيما نطق به القراءن ورقيم في الكتاب المئين .



صدر آخر : أعز الله أنصار الجانب الشريف ، ولا يحجب منه سر ذلك الجلال ، ولا معنى ذلك البدر المشرق منه في صورة الهلال ، ولا فيض ذلك السحاب المشرع منه هذا المورد الزلال ، ولا تلك المآثر التي دلّ عليها منه كرم الجلال ، ولا تلك الشجرة المفترعة ولأما أمتد منها به من الغصن الممتد الظلال ، ولا ذلك الإمام الذي هو ولىّ عهده وهو أعظم من الاستقلال .

الخدم يقبّل تلك اليد مؤفياً لها بعهدہ [ومُضْفِياً منها لورده] ^(١) ومُضْفِياً منها جلابيب الشرف على عطفه ، وحسبه تخاراً أن يدعى في ذلك المقام بعبدہ ؛ وبتراعى على تلك الأبواب ، ويلتم ذلك الثرى ويرجو الثواب .



صدر آخر : ولا زالت عهود ولايته منصوصه ، وإيائته بعموم المصالح مخصوصه ؛ وصفوف جيوشه كالبنان مرصوصه ، وقوادم أعدائه بالحوالق مخصوصه ، وبدائع أنبائه فيما حلفت إليه دعوته الشريفة مقصوصه [والوفود في أبوابه أجنحتها بالندى مبلولة مقصوصه] ^(١) .

الخدم يجدد بتلك الاعتاب خدمه ، ويراحم في تلك الرحاب خدمه ، ويقف في تلك الصفوف لا تتقل عن الطاعة قدمه ، ويتمثل بين تلك الوقوف ويميز عليهم إذا ذكر في السوابق قدمه ؛ ويدلى بحجج سيوفه [التي أشهرها ، وصروفه التي لاقى أشهرها ، ومواقفه] ^(١) التي ما أنكرها الديوان العزيز منذ أنبتها ، ولا حط رماحها منذ أنبتها ؛ ولا محاسن طورها ، منذ كتبتا ، ليغيظ الأعداء ولا يشفى صدورها ، منذ كتبتا ؛ وينهى كذا وكذا .



صدر آخر : ولا زالت مواعيد الظفر له منصوصة ، ورؤوس من كفر بطوارقه مرصوصه ، وصحائف الأيام عما يسر به الزمان فيه مفضوصه ، وجفون عداه ولو أتصلت بمقل النجوم مفضوصه ، وطوارق الأعداء التي تجوهم منه بسيوفه معضوصه .
الخدم يخدم أرضه المقدسة بتراعى قبله ، وتقليب وجهه إلى قبله ؛ ويتطوف بذلك الحرم ، ويتطول من فواضل ذلك الكرم ؛ ويتطوق بقلائد تلك المنن ،

(١) الزيادة "من التعريف" .

وفرائد تلك المواهب التي إن لم تكن له وإلا فمن ؛ فإنه والله يشهد له لا يعتد بعد
ولاء سيدنا ومولانا أمير المؤمنين ، والقيم بأمور الدنيا والدين ؛ عليه الصلاة والسلام
إلا وآءها ، ولا يؤمل بعد تلك الآلاء إلا آءها ؛ ولا يرجو من غير هذه الشجرة
المباركة لأمله إثمارة ، ولا ليله إقاراب ؛ ولا لأيامه حافظا ، ولا لحال إقدامه في قدم
صديق ولائه لافظا ؛ قائما في خدم هذه الدولة القاهرة يجهد في منافعها [ويجد في كبت
مدافعها] ^(١) ويذبح شفاعتها العظمى إذا جاءت كل أمة بشافعها ، وينهى كذا وكذا .

الطرف الثالث

(من المصطلح المستقر عليه الحال ، في المكاتب الصادرة عن ملوك الديار
المصرية إلى أهل المملكة : من مصر والشام والحجاز ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصود الأول

(في المكاتب المفردة ، وفيه مسلكان)

المسلك الأول

(في بيان رتب المكاتب ورتب أهلها ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(المكاتب إلى الملوك على ما كان عليه الحال في الزمن المتقدم)

مما لعله يعود مثله ، وهي الدعاء للقيام ، وفيه مكاتبان)

الأولى — المكتبة إلى ولي العهد بالسلطنة [وهي] على ما ذكره في "التتيف" :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالي ، الملكي ، الفلاني ، الأخوي ، أو الولدي ،

إن كان أخوا أو ولدا . ثم الدعاء اللائق به ، ثم يقال : « أصدرناها إلى المقام العالي

(١) الزيادة من "التتيف" .

ويطالع علمه الشريف « والعلامة «أخوه» سواء كان أخاً أو غير أخ، و « والده» إن كان والداً . ولم يذكر تعريفه، والذي يظهر أنه يكتب له «ولى العهد بالسلطنة الشريفة» . ولم يذكر قطع الورق لهذه المكتبة، والذي يظهر أنه في قطع العادة على قاعدة المكتبات إلى أهل المملكة . قال في «التثقيف» : ولعل هذه المكتبة نظير ما كتب به إلى الملك الصالح علاء الدين على ولد المنصور قلاوون : فإنه كان ولى عهد أبيه المذكور، توفى في حياته . ثم قال : ورأيت أمثلة كثيرة صدرت عنه بخلاص الحقوق، وعلامته عليها «على بن قلاوون» .

الثانية — المكتبة إلى صاحب حماة من بقايا الملوك الأيوبية قبل مصيرها نيابة، وآخر من كان منهم في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» الملك الأفضل ناصر الدين محمد بن الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل، لما صارت إليه بعد أبيه المذكور .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في «التثقيف» في قطع العادة : « أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف، العالى، السلطانى، الملكى، الأفضلى، الناصرى، ونحوهما » . ثم الدعاء، وبعده «أصدرناها إلى المقام الشريف» والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب حماة» . قال في «التثقيف» : ولم يزل الحال على ذلك إلى أن عُزل عنها الأفضل المشار إليه بعد الأيام الشهيدة الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الناصر محمد بن قلاوون، وأستقر بها بعده نائباً الأمير طغاي الحموى أمير مجلس كان، فبقيت نيابة بعده إلى الآن .

الضرب الثاني

(المكاتب إلى من عدا الملوك من أرباب السيوف والأقلام وغيرهم
من جرت العادة بمكاتبته، وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(١) (في رتب المكاتب، وهي على عشر درجات)

الدرجة الأولى

(الدعاء للمقتز)

وصورته على ما ذكره في "التتيف": «أعز الله تعالى أنصار المقتز الكريم،
العالى، المولوى، الأميرى، الكبرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى،
العونى، الغيائى، المناغرى، المرابطى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، العايدى،
الناسكى، الأتابكى، الكفيلى، الفلانى، معز الإسلام والمسلمين، سيد أمراء
العالمين، ناصر العزة والمجاهدين، ملجأ الفقراء والمسكين، زعيم جوش الموحدين،
أتابك العساكر، ممد الدول، مشيد الممالك، عماد الملة، عون الأمة، ظهير الملوك
والسلاطين، عضد أمير المؤمنين». ثم الدعاء المعطوف والتصدير المناسب: مثل أن
يقال: «ولا زال عزمه مؤيدا، وعززه مؤبدا، وسعده على ممر الحديدين مجددا،
أصدرناها إلى المقتز الكريم تُهدى إليه من السلام أتمه، ومن الشاء أعمه». ثم يقال:
«وتُهدى لعلمه الكريم كذا وكذا، ومرسومنا للمقتز الكريم أن يتقدم أمره الكريم بكذا
وكذا، فيحيط علمه الكريم بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

الدرجة الثانية

(الدعاء للجناب الكريم)

وصورته على ما أورده في "التثقيف" عما استقر عليه الحال «أعزَّ الله تعالى نُصرة الجناب الكريم، العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغيائى، المثاغرى، المرابطى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الكافى، الفلانى؛ عزَّ الإسلام والمسلمين، سيف الأمراء فى العالمين، نُصرة الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، سيف المؤمنين». ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل أن يقال: «ولا زالت عزائمهُ مؤيده، وأوامرهُ السعيدة مسدده؛ صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاماً طيباً، وثناءً مُطنباً؛ وتوصِّح لعلمه الكريم كذا. ومرسومنا للجناب الكريم أن يتقدّم أمره الكريم بكذا وكذا؛ فيحيط علمه الكريم بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

قلت: والذي في "التعريف": «أعز الله تعالى أنصار الجناب الكريم، بإبدال نصرة بأنصار؛ واختلاف بعض الألقاب المقدمة».

الدرجة الثالثة

(الدعاء للجناب العالى بمضاعفة النعمة)

وصورته على ما في "التثقيف": «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى، الزعيمى، المهدى، المشيدى، الظهيرى، الكافى، الفلانى؛ عزَّ الإسلام والمسلمين، سيف الأمراء فى العالمين، نُصرة الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، مقدّم العساكر، مُمهد الدول، مشيد

المالك، عمادِ الملة، عونِ الأمة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، سيفِ أمير المؤمنين». ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل: «ولا زال قدره عاليا، ومدحه متواليا، وجيدُ الدهر بحاسته حاليا، وتوضَّح لعلمه الكريم كذا؛ ومرسومنا للجناب العالی أن يتقدّم أمره الكريم بكذا؛ فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

الدرجة الرابعة

(الدعاء للجناب العالی بدوام النعمة)

وصورتها على ما أورده في "التثقيف": «أدام الله تعالى نعمة الجناب العالی، الأميري، الكبيرى، العالی، العادلى، المؤيدى، الأوحدى، النصيرى، العونى، الهمامى، المقدسى، الظهيرى، الفلانى؛ عز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نصره الغزاة والمجاهدين، مقدم العساكر، كهف الله، ذخرك الدولة؛ عماد المملكة، ظهير الملوك والسلاطين، حُسام أمير المؤمنين» والدعاء والتصدير (١)

المناسب، مثل أن يقال: «ولا زال قدره رفيعا، وعزّه منيعا، و

مريعا. صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب العالی تهدى إليه سلاما طيبا، وثناء صيبا» ثم يقال: «وتوضَّح لعلمه المبارك كذا، فيحيط علمه الكريم بذلك؛ والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه».

(١) بياض بالأصل ولعله وجنابه مريعا.

الدرجة الخامسة

(الدعاء للجلس بدوام النعمة)

ورسمها : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ، الأوحدي ، النصيرى ، الهامى ، المقدمى ، الظهيرى ، الفلانى ؛ عز الإسلام والمسلمين ، سيّد الأُمراء فى العالمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، كهفِ الملّة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حسام أمير المؤمنين » ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل : « ولا زال عالياً قدره ، نافذاً أمره ، جارياً على الألسنة حمده وشكره . صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى تُهدى له سَلاماً ، وثناءً بسَلاماً » ثم يقال : « وتوضّح لعلمه المبارك كذا . ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدّم أمره المبارك بكذا ، فيُحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنّه وكرمه » .

الدرجة السادسة

(صدرت والعالى ، ويعبر عنها بالسامى بالياء)

وصورتها على ما فى "التثقيف" : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العَضدى ، الذُخرى ، النصيرى ، الأوحدي ، العونى ، الهامى ، المقدمى ، الظهيرى ، الفلانى ؛ مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأُمراء المقدمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، دُخْر الدولة ، كهفِ الملّة ؛ ظهير الملوك والسلاطين » ثم الدعاء المناسب ، مثل : « أدام الله سعادته ، وأجزل من الخيرِ به وإفادته ، مُوصِّحةً لعلمه المبارك كذا ؛ ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدّم بكذا ، فيُحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنّه وكرمه » .

الدرجة السابعة

(صدرت والسامى ، ويعبر عنها بالسامى بغير ياء)

وصورتها : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الأجلى ، الكبيرى ، العضدى ، الذخرى ، النصيرى ، الأوحدى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضد الملوك والسلاطين » ثم الدعاء مثل : « أدام الله سعادتَه ، وأجزل من الخير عادته ؛ نتضمّن إعلامه كذا ، ومرسومنا للمجلس السامى أن يتقدّم بكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه » .

الدرجة الثامنة

« يعلم مجلس الأمير ، الأجل ، الكبير ، الغازى ، المجاهد ، المؤيد ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الأمراء ، زين المجاهدين ، مدّة الملوك والسلاطين » والدعاء ، مثل : « أدام الله سعده ، وأنجح قصده ؛ أنّ الأمر كذا ، ومرسومنا له أن يتقدّم بكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه » .

قلت : وقد تقدّم فى أول المكاتبات أنه يتعين أن يكون الدعاء للمكتوب إليه مناسباً للحال ، مثل أن يكون موافقاً لأسم المكتوب إليه أو لقبه أو وظيفته ، أو محلّ نيابته ، أو الأمر المكتوب بسببه : من استطلاع أمر ، واستهداف عزم ، وفتح وظفر وبشارة وغيرها وما يجرى مجرى ذلك ، وتقدّم هناك ذكر جملة من الأدعية فى الأمور المختلفة المعانى .

ونحن نذكر هنا نبذة من الأدعية والتصديرات اللائقة المتقدمة ، مما يدعى به للنواب ومن فى معانهم ؛ ليقرب تناوله باقترانه بصور المكاتبات .

الأدعية والصدور لتواب السلطنة

أدعية تصلح للنائب الكافل

ولا زالت كَفَالَتُهُ تَبَسُّطُ الْمَعْدَلِ ، وعزائمُه على الإنصافِ والإسعافِ مُشْتَمِلَةٌ ،
وتقدماته تُبَلِّغُ كُلَّ ذِي قَصْدٍ أمله . أصدرناها إلى المَقْتَرِ الكَرِيمِ تُهْدِي إليه من السلام
أكله ، ومن الشناء الحَسَنِ أجزله ، وتُبْدِي .

آخر : ولا زالتِ الممالكُ كُلُّها في كَفَالَتِهِ ، والمسالكُ على اختلافِ طُرُقِها آئِلَةٌ
إلى إيالته ، والملائكُ محوِّمةٌ على بنوده محفَّةٌ بهالته ، والأرائكُ لأنتهى إلا على دَسْتِ
نَخَّاره ولا تُعَدُّ إلا لجلالته . أصدرناها إلى المَقْتَرِ الكَرِيمِ تخصُّه بأفضل السلام ،
وأطيبِ الشناء المرقومِ على أعلى الأعلامِ ؛ وتُبْدِي .

آخر : ولا زالتِ كَفَايَةُ كَفَالَتِهِ تزيدُ على الآمالِ ، وتنتقربُ إلى الله بصَلاحِ
الأعمالِ ، وتكفُلُ ما بين الجُنبِ وأقصى الشَّمالِ . أصدرناها إلى المَقْتَرِ الكَرِيمِ
وصدْرُها بذِكْرِهِ منشرح ، وبِيرته فَرِحَ ، وبِعُلُوِّ قدره في أيامنا الزاهرةِ يُسِرُّ ويؤمِّلُ
منه ما يزيدُ على أملِ المَقْتَرِحِ ، وتبدي .

أدعيةٌ تصلحُ لنائب الشام المحروس

و[لا زالتِ] الممالكُ [تؤيد] بعزمه ورأيه تأييدا ، والدولُ [تسدّد] بكفالاته تسديدا ^(١)
و[تسديد] تسديدا ^(١) . أصدرناها إلى المَقْتَرِ الكَرِيمِ تُهْدِي إليه سلاما تضاعفُ أجزاءه ،
وشناءً يهبج الخواطرَ سناؤه ، وتُبْدِي لعلمه .

آخر : ولا زالتِ النفوسُ يُمننُ كَفَالَتِهِ فائمه ، والخواطرُ في محبته متوافقه ،
والألْسُنُ بشكرِ محاسنه ناطقه ، وقلوبُ الأعداءِ من بأسه ومهابته خافقه . أصدرناها

(١) الزيادة يقتضيا المقام تمام الكلام .

إلى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُهْدَى إليه أنواعُ السَّلامِ المُناسِبَةِ وأجْناسِهِ المُناسِقَةِ ، وتُنْبِئُ على أوصافِهِ التي أَصْبَحَتِ الأَفْواءُ في ذِكْرِها صَادِقَةً ، وتَبْدَى لِعَلْمِهِ .

آخِرُ : ولازالت عِزائِمُهُ مُرَهَفَةَ الحَدِّ ، وكَفالَتُهُ كَفِيلَةَ بِنُجْحِ القَصْدِ ، ومَغائِمُهُ في سَبيلِ اللَّهِ تُعَرِّبُ عَنِ الاجْتِهَادِ في قَهْرِ الأَعْداءِ وَالِحَدِّ . أَصْدَرناها إلى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُهْدَى إليه سَلاماً يَفوقُ شَداهُ العَنبرِ والنَّدِّ ، وشِئاً مَجاوزاً أبدأ الحَضْرَ وأمداً العَدْبِ ؛ وتَبْدَى لِعَلْمِهِ .

(١) آخِرُ : ولازالت قلوبُ أَهلِ الإيْمانِ من كَفالَتِهِ مُؤْتَلِفَةً ، وفَرَّقُ أَهلِ من بَأْسِهِ وخَوْفِهِ مُخْتَلِفَةً ، وأحوالُ أَهلِ العِنادِ بِجَميلِ تَدبيرِهِ في أَسْتِطالِعِها وإِضْحِجِّها مُنكَسِفَةً . أَصْدَرناها إلى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُنْبِئُ على هِمَّتِهِ التي لَمْ تَزَلْ على المِصالحِ مَعْتَكِفَةً ، وتُهْدَى إليه تَحِيَّةٌ شَموسُها مَشْرِقةٌ غَيْرُ مُنكَسِفَةٍ ؛ وتَبْدَى لِعَلْمِهِ .

آخِرُ : ولازالت سَعادَتُهُ بِحِكمِ الأَقْدارِ دائِمَةً ، والمَعَدِلَةُ بِجَميلِ حِلْمِهِ وصائِبِ رَأْيِهِ قائِمَةً ، والعيونُ بِبَيِّنِ كَفالَتِهِ في مِهَادِ أَمْنِهِ نائِمَةً . أَصْدَرناها إلى المَقَرِّ الكَرِيمِ تُهْدَى إليه تَحِيَّةٌ طَيِّبَةٌ المَسْرِيُّ ، وشِئاً حَسَنَ وَصْفًا وطابَ ذِكْرُها ، وتَبْدَى لِعَلْمِهِ .

آخِرُ : ولا زال النَصْرُ حَلِيَّةَ أَيامِهِ ، وشامَةَ شامِهِ ؛ وعَمامَةُ ما يَحْتَقِ على بِلَدِهِ المُخَضَّرِ من غَمامِهِ . أَصْدَرناها إلى المَقَرِّ الكَرِيمِ بِسَلامٍ لا يَرْضَى حافِرُ جِوَادِهِ الهَلالِ نَعْلًا ، ولا يَحْطِي بِه إلا بِلَدُهُ ونَحْصَ مِنْهُ الشَرَفِ الأَعْلَى ؛ وتَبْدَى لِعَلْمِهِ .

آخِرُ : وسقَى عَهْدُهُ العِهَادَ ، وشَفَى بَعْدْلَهُ العِبادَ ، وزانَ به حَسَنَ بِلَدِهِ التي لَمْ يُحْتَقِ مِثْلُها في البِلادِ ، وهى إِرْمُ ذاتِ العِمادِ . أَصْدَرناها إلى المَقَرِّ الكَرِيمِ بِسَلامٍ تُسَرُّ بِهِ النَفوسُ ، وَيَطوِّقُ بِهِ فَضْلُهُ الجامِعِ وتَحَلَّى بِهِ العُرُوسُ ؛ وتَبْدَى لِعَلْمِهِ .

(١) بياض بالاصل ولعله الكفر .

آخر : ووقى بسور جيوشه المتنعة ضرر الضراء ، وكسر بأسود جنوده ذئاب
الأعداء الضراء ، وسبق دهماء الليل وشهباء النهار [وحراء الشفق^(١)] وصفراء الأصيل
وشقراء البرق بسابقته الخضراء . أصدرناها إلى المقتر الكريم بسلام يملأ حلق
حدائقه نورا ، وقلب عساكره سرورا .

أدعية ومصدور

(تصلح لكل من النائب الكافل ، ونائب الشام ،

ومن في معناهما كالأتابك ونحوه)

دعاء من ذلك : ووصل المسار بعلمه الذي لا ينكر ، وحلمه الذي يشكر ،
وحكمه الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . أصدرناها إلى المقتر الكريم بسلام
يسرع إليه ، وثناء يرد منا عليه ؛ وتبدي لعلمه .

آخر : ولا زالت الدول برأيه مقبلة السعد ؛ مترقية في الصعود ، مملوءة
الرحاب : تارة تبعث البعث وتارة تفد عليه الوفود . أصدرناها إلى المقتر الكريم
تهدي إليه من السلام أشرقه نجوما ، ومن الثناء أغدقه غيوما ؛ وتبدي لعلمه .

آخر : ولا زالت الممالك بآرائه منيره ، وبراياته لأعدائها وأعداء الله مبيره ،
وبرؤياه نتضاءل الشمس المشرقة وتحجل السحب المطيره . أصدرناها إلى المقتر
الكريم تهدي إليه من السلام دُرره ، ومن الثناء غرره ، وتبدي لعلمه .

آخر : ولا برحت آرائه كأن نجوم بعيدة المدى ، قريبة الهدى ، متهللة
كالغمام : للأعداء منها الصواعق وللأولياء منها الندى . أصدرناها إلى المقتر الكريم
بسلام حسن الأفتاح ، وثناء كما نظم الوشاح ؛ وتبدي لعلمه الكريم .

(١) الزيادة من "التعريف"

آخر : ولا برحت آراؤه تُبِيرُ غِيَاهِبَ الخُطُوبِ ، وعزائمُه تُبِيرُ سَنَايِكَ الحِيَادِ
للجهاد فتظفر من التأيد بكل مطلوب ، وصواريمُه تفتيك بالأعداء فتَهْتِكُ منهم كلَّ
سِتْرٍ محبوب . أصدرناها إلى المَقَرِّ الكريم تُهْدِي إليه سلامًا أزهى من الزَّهْرِ ، وأبهى
من رَوْضٍ وافٍ نَضَارته النَّظَرُ ، وتبدى لعلمه .

آخر : ولا برح التأيد يُصَحِّبُ رايته ، والعزم يُحْدِمُ عَزْمته ، والرَّعب يُؤْمِ
طليعته ، والظفر يُحْكِمُ في العدو سيفه فلا يَسْتَطِيعُ عاصي الحُصُونِ عِصْمته . أصدرناها
إلى المَقَرِّ الكريم تُكَافِي بمزيد الشُّكْرِ هَمَّتته ، وتوافي إليه ببناءٍ وافٍ يَحْسُدُ المسكُ
نَفْحته ، وتنبى لعلمه .

آخر : ولا برحت سيوفُه تَسِيلُ يوم الرُّوعِ جَدَاوِلُهَا ، وعزائمُه تُنْصِرُ
كثائبها وجماعاتها ، ومنزلته على ممر الزمان بين السماكين منازلها . أصدرناها إلى المَقَرِّ
الكريم تُثْنِي على محاسنه التي بهرت أوصافها ، وأختالت في ملابس الحمد أعطافها ؛
وتبدى لعلمه .

أدعية وصور

(تصلح لنائب حلب المحروسة)

دعاء من ذلك : ولا زال يُعَدُّ ليوم تَشِيْبِ منه الوِلْدَانِ ، ويُعَدُّ دونه
[كلُّ محارب ^(١)] بَيْنَهُ وبين الشَّهَاءِ والمَيْدَانِ ، وَيُعَمُّ حَلَبَ من حِلِّي أيامه مالا يُفْقَدُ
معه إلا أسمُ ابنِ حَمْدَانَ .

فإن كان لقبه سيف الدين ، قيل « وَيُعَمُّ حَلَبَ من حِلِّي أيامه مالا يُفْقَدُ معه
سيفُ الدِّينِ إن فُقِدَ سيفُ الدَّولةِ بنِ حَمْدَانَ . صدرت هذه المكاتبه إلى الجناح

(١) الزيادة من "التعريف" .

الكريم تُهْدِي إليه سلاماً مامراً على روض إلا آتتهب طيبه نبها، وثناءً تُعَقِّد له أعلامه
على كتيبته الشُّهبا، وتوضِّح لعلمه .

آخر : وفتح بسُيوفه الفتح الوجيز، وأحلَّ عقائل المعائل منه في الكنف
الحريز، وأعاد به رونق بلد ماجفت بها زُبْدَة حَلِيٍّ وهو فيها العزيز . صدرت هذه
المكتبة إلى الجناب الكريم بسلام ذَهَبُه لا يذُهب، وثناءٍ لا تُصْلح لغير عَقِيلَة الشهباء
قلادة عنبره الأشهب، وتوضِّح لعلمه الكريم .

آخر : ولا زالت هَمَمُه مُطَلَّة على النجوم في منازلها، مُطاولَةً للبروق بمناصِلها،
قائمة في مصالح الدول مقام بحافِلها . صدرت هذه المكتبة إلى الجناب الكريم
تُهْدِي إليه سلاماً كالذُرر، وثناءً طويل الأوضاح والغُرر، وتبدي لعلمه .

آخر : وأمدّه بعونه، وجمَّه بصونه، ولا زال رأيه في النقيضين : لهذا سبب
فنائنه ولهذا علّة كونه . صدرت هذه المكتبة إلى الجناب الكريم تُهْدِي إليه سلاماً
رَطيّيا، وشكرا يكون على ما تُخفي الصدور رَقيبا، وتوضح لعلمه .

آخر : وأعلى له من الأقدار قَدرا ، وضاعف لَدَيْه من لَدُنْه سُورا
وإِشرا، ولا أعدم الممالك من عزائمها تأييدا ونصرا . صدرت هذه المكتبة إلى
الباب الكريم تُهْدِي إليه سلاما يُفوقُ الزَّهر، ويسابقُ في سَيره الشمس والقمر،
وتبدي لعلمه .

آخر : وخصّه بجِمال المناقب، ومنحه من المَزِيدِ علو المراتب، وضاعف لَدَيْه
من الإيثار شريف المَوَاهِب . صدرت هذه المكتبة إلى الجناب الكريم تُهْدِي إليه
سلاماً كَرَمٌ وفُودُه، وثناءً حَسَنَ وصفه وعدُّبَ ورُودُه، وتوضِّح لعلمه .

آخر : ولا زالت الخواطرُ تشهدُ منه صدقَ المحبة ، والنفوسُ تتحققُ أنه قد جعل
النصيحةَ لأيماننا الشريفةَ دأبه . صدرت هذه المكتبةُ إلى الجنابِ الكريمِ تُهدى إليه
سلاما زاكيةً أقسامه ، وثناءً لكلِّ عقده وأتسقَ نظامه ؛ وتوضع لعلمه الكريم .

آخر : وزاد عزمه المباركُ تأييدا ، ومنحَ نعمه على ممرِّ الأوقاتِ مزيدا ، وجعل
حظه من كلِّ خيرٍ سعيدا ، وسعده بتجديدِ الأيامِ جديدا . صدرت هذه المكتبةُ إلى
الجنابِ الكريمِ تُهدى إليه تحيةً حسنَ إهداؤها إليه ، وثناءً يبهج الخواطرَ ورؤده
عليه ؛ وتوضع لعلمه .

آخر : وجعل السعدَ المؤبدَ من مغانمه ، وأقامه لإبقاء الخير في معادنه وإثبات
العزِّ في معاملته . صدرت هذه المكتبةُ إلى البابِ الكريمِ تُهدى إليه تحيةً طاب نشرها
العاطر ، وثناءً أبهج ذكره الخاطر ؛ وتوضع لعلمه .

آخر : ولا زال بالملائكة منصورا ، وبمزيدِ النعمِ مسرورا ، وبكلِّ لسان
موصوفاً مشكورا . صدرت هذه المكتبةُ إلى البابِ الكريمِ تُهدى إليه سلاماً يَضُوعُ
نشره ، وثناءً يَفُوحُ عطره ، وتوضع لعلمه .

دعاء وصدور

(يصلح لنائب السلطنة بطرابلس^(١))

[وهو من هذه النسبة وما لا يبعد منها .

والدعاء مثل قولنا : وأطاب أيامه التي مارقت على مثلها أسحار ، وعدد في مناقبه
العقول التي تحار ، وأخذ بنواصي الأعداء بيده لا تنأى بهم البرارى المقفرة
ولا تحصنهم البحار .

(١) ظهر من غوى المقام أن هنا سقطا من قلم الناخذ . وقد تداركناه من "التعريف" ووضعناه بين قوسين

هكذا [] تيمنا للكلام فليتنبه .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى بسلام وفرت منه أسهمه التي يدربها العدا في نحرها، وثناء مطرب ترقص به الخيل في أعتتها والسفن في بحرها .

دعاء آخر وصددر

ولا زالت صفوفه تُسد بنيان الحرب، وسيوفه تعد للقتل وإن قيل للضرب، وسجوفه تُجر على بلد مامله في شرق ولا حصل على غير المسعى منه غرب .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاما يزيد أفعه تزيينا، وثناء يأتيه من فائق الدر بما يستهون معه بالمينا .

دعاء وصددر

(يصلح لنائب السلطنة بحماة)

وأتم بخدمه كل مبره، وبهممه كل مسره، وضان ماويله أن يكون به غير النهر «العاصي» أو يُنسب إليه سوى البلد المعروف « معره » .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاما تُمسح أُنديته بالسحاب، وثناء يأتي به حماة وقرونها المشورة بالويته معقودة الدواب .

[دعاء آخر وصددر^(١)]

وحى حماه، وزان موكبه بأحسن حماه، وحسن كائن سهامه التي لا يصلح لها غير بلده حماه^(١) .

صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلاما تحمله إليه الركائب السائره، وثناء تُشرق منه الكواكب أضعاف ما تربه أفلاك الدواليب الدائر، وتوضح لعلمه .

(١) ما بين هذين القوسين [تداركاه من التعريف لينظم به الكلام فليأمل .

دعاء وصدر

(يصالح لنائب صفد)

وشكرهممہ التي وفّت ، وعزائمہ التي كَفّت ، وأعلىٰ به بلداً مُدّ وليه قيل :
صفدٌ قد صفّت . صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالي تُهدى إليه سلاماً
لا تزال شعائره تُقام ، وثناءً مُدّ هبّ علىٰ بلده قيل : إنَّ هواءها يشفي الأسقام ؛
وتوضع لعلمه .

آخر : ولا زالت مساعيه تسوقُ إليه الحُظوظ [البطيّة^(١)] وتقدّم له العلياء مثل
المطيّة ، وتنهيه بما خُصّ به من صفد وهي العطيّة ؛ [صدرت هذه المكتبة
إلى الجناب العالي تُهدى إليه سلاماً يحميه في محله ، وثناءً يودع في معقله الذي لا تصل
أعلىٰ الشوايح إلا إلى ماسفل من ظله^(١)] وتوضع لعلمه .

ادعية وصدور

(تصلح لكل من نواب طرابلس وحماة و صفد ومن في معناهم)

دعاء وصدور من ذلك : ولا يرح منصور العزّات ، مسدداً في الآراء
والحرّكات ، مشيداً قواعد الممالك بماله من جميل التقدّمات . صدرت هذه المكتبة
إلى الباب العالي تُهدى إليه سلاماً أرجا ، وثناءً بهجا ؛ وتوضع لعلمه .

آخر : ولا زال سيفه ماضيا ، وجيده حاليا ، وصدّه خاسيا . صدرت هذه
المكتبة إلى الجناب العالي تُهدى إليه سلاما ، وتسدّد رأيه الصائب سهما ،
وتوضع لعلمه .

(١) من التعريف .

آخر : ولا زالت آراؤه سعيدة ، وتأثيراته حميدة ، وسُيوفه لرقاب العدا
مُبيده . صدرت هذه المكتبةُ إلى الجناب العالى تُهدى إليه سلامًا يتأرجح ، وثناءً
نشره نشر الثوب المدبج ، وتوضح لعلمه .

آخر : ولا زالت آراؤه عالية ، وأجيادهُ عالية ، ونِعْمُ اللهُ عليه متواليه . صدرت
هذه المكتبةُ إلى الجناب العالى تُهدى إليه السلام التام ، والثناء الوافر الأقسام ،
وتوضح لعلمه .

أدعية وصـدور

(تصلح لنائب الكرك ومن في معناه ممن رتبته المجلس العالى مع الدعاء)

دعاء من ذلك : وأيد عزمه ، وأبد حزمه ، وفوق إلى نحر العدا سهمه .
صدرت هذه المكتبةُ إلى المجلس العالى تُهدى إليه سلاما ، وتُسَدِّد لرأيه الصائب
سهما ، وتوضح لعلمه .

آخر : ولا زال عاليا قدره ، نافذا أمره ، جاريا على الألسنة حمده وشكره .
صدرت هذه المكتبةُ إلى المجلس العالى تُهدى إليه سلاما ، وثناءً بساما ، وتوضح لعلمه .

المهَيِّع الثاني

(في بيان مراتب المكتوب إليهم من أهل المملكة ، وما يستحقه
كلُّ منهم من المكاتبات . وهم ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(أرباب السيوف ، وهم على ثلاثة أقسام)

القسم الأول

(من هو منهم بالديار المصرية ، وهم ستة أصناف)

الصنف الأول

(تُواب السلطنة الشريفة ، وهم أربعة تُواب)

الأول — النائب الكافل : وهو نائب السلطنة الشريفة بالحضرة . وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه أعلى تُواب السلطان رتبة . قال في "التثقيف" : "وقل أن يُكاتب إلا إذا كان السلطان مسافرا في غزاةٍ أو سرحة للصيد .

ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التعريف" : أعزَّ الله تعالى أنصار الجنب الكريم على ما تقدم في الدرجة الثانية من الدرجات العشر . قال في "التعريف" :^(١)
وقد رأيت بعض الكُتاب قد كتب في ألقابه بعد الأُميرى « الأمرى » . قال :
والكاتب المذكور كاتبٌ صالحٌ في المعرفة وليس بحجَّة ، وكاتبه الأمرى ليست بشيء ، وإنما حمله عليها كثرة الملقى . وقد نقل في "التعريف" عن هذا الكاتب أنه كتب

(١) لم يتقدم لإثمان فتنه .

في تعريفه « نائب السلطنة وكافل الممالك الشريفة الإسلامية » . قال : وهو مقبولٌ منه . ثم قال : والذي أراه أن يُجَمَّع ذكر النيابة والكفالة في تقليده ، فيقال : « أن يُقَلَّدَ نيابةَ السلطنة المعظَّمة ، وكفالةَ الممالك الشريفة الإسلامية » أو ما هذا معناه ، نحو : « وكفالة الممالك الشريفة : مصرًا وشامًا وسائر البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية » ونحو ذلك .

فأما في تعريف الكتب ، فقد جرت عادة نواب الشام أن تقتصر في كتبها إليه على « كافل الممالك الإسلامية المحروسة » . قال : ولعمري في ذلك مَقْنَعٌ وإنَّ في الأقتصار عليها ما هو أكثرُ نَخَامَةً . وعليه عملُ أكثرِ الكُتَّابِ بديوان مصر أيضا ، ويؤيِّده أنهم مقتصرون فيما يكتب بإشارته على هذا التعريف ، فأعلم ذلك .

ورسمُ المكتبة إليه على ما استقرَّ عليه الحال ، على ما ذكره في "التثقيف" : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقْتَرِ الكريم ، كما في الدرجة الأولى من الدرجات العشر ، والعلامة إليه « أخوه » . وتعريفه : « كافلُ الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . قال في "التثقيف" : وإنما كُتِبَ له أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقْتَرِ ، وزيدت ألقابه على ما كانت عليه لمَّا كُتِبَ بذلك لنائب الشام في ولاية بيدمر الخوارزمي ، وكافل المملكة يومئذ الأمير منجك ، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكون نائبُ الشام مميِّزا على كافل السلطنة ، على ما سيأتي في الكلام على مكتبة نائب الشام .

قال في "التعريف" : أما نائبُ الغيبة ، وهو الذي يُتْرَكُ إذا غاب السلطان والنائب الكافل وليس إلا لإيحاء النوائر وحلاص الحقوق ، فحُكِّمَ تحكُّمه في المكتبة إليه .

الثاني — نائب نجر الإسكندرية المحروس : وهو ممن أستحدثت نيابته في الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» عند طُروق العدو المخذول، في سنة سبع وستين وسبعائة من الفَرَّنج المخذولين .

ورسم المكاتبه إليه : ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى، على ما تقدم ذكره، إلا أنه لا يقال في ألقابه «الكافى» والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بنجر الإسكندرية المحروس » .

واعلم أن بالإسكندرية حاجباً يكاتبُ عن الأبواب السلطانية . قال في «التتيف» : ورسمُ المكاتبه إليه : «هذه المكاتبه إلى المجلس السامى» إن كان طبلخاناه، و« يعلمُ مجلس الأمير » إن كان عشرةً، والعلامة الشريفة له الاسم بكل حال . وتعريفه «الحاجبُ بنجر الإسكندرية المحروس» .

الثالث — نائب الوجه القبلى : وقد تقدم أن مقر ولايته مدينة أُسيوط ، وأنَّ أستحدثت نيابته كان في الدولة الظاهرية «برقوق» في سنة ثمانين وسبعائة .

ورسم المكاتبه إليه : « ضاعف الله تعالى نعمة الجَناب العالى » على ما تقدم ذكره . ولا يقال فيه «الكافى» أيضاً ، والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه القبلى» .

الرابع — نائب الوجه البحرى : وقد تقدم أن مقر ولايته مدينة دمنهور الوَحش من أعمال البحيرة ، وأن نيابته أستحدثت بعد نيابة نائب الوجه القبلى ، ولذلك لم يتعرض له في «التتيف» .

ورسم المكاتبه إليه : « ضاعفَ الله تعالى نعمة الجَناب العالى » كما في نائب الوجه القبلى . والعلامة الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه البحرى» .

الصنف الثاني

(الكشاف)

وقد تقدم أنه كان قبل استقار نيايتي الوجهين : القبلي والبحري كاشفان
بالوجهين المذكورين : كاشف بالوجه القبلي ، وكاشف بالوجه البحري .
فلما استقرت النيابةان ، استقرت بالفيوم والبهنساوية كاشف ، وبالشرقية وما قاربها
كاشف ، وكل منهما أمير طبخاناها .

ورسم المكاتبه إلى كل منهما : « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى »
والعلامه لكل منهما الاسم الشريف ، وتعريف كاشف الفيوم « الكاشف بالفيوم
والبهنساوية » وتعريف الآخر « الكاشف بالوجه البحري » .

الصنف الثالث

(الولاية بالوجهين : القبلى والبحرى)

وكل من ولاية الوجهين لا يخرج عن طبخاناها أو عشرة وما فى معناها كالعشرين
ونحوها .

فأما الوجه القبلى ، ففیه ستة ولاة ، منهم ثلاثة طبخاناها : وهم والى قوص وإنحيم .
ووالى الأشمونين . ووالى البهنسا .

ومنهم ثلاثة عشرات : وهم والى الحيزية ، وكان قبل ذلك طبخاناها . ووالى
إطفيح . ووالى منفلوط . وكان قبل ذلك طبخاناها ، وهو اليوم إمرة عشرين .

وأما الوجه البحرى ، ففیه سبعة ولاة : منهم ثلاثة طبخاناها . وهم والى الغربية .
ووالى المنوفية . ووالى الشرقية . وكان بدمهور والى طبخاناها قبل استقرارها نيابة .

ومنهم أربعة عشرات، وهم : والى قَلْيُوب . ووالى أَشْمُوم : وهى الدقهليَّة
والمرُتاجيَّة . ووالى دِمِيَاط . ووالى قَطِيَّا .

ورسم المكاتبه إلى كلِّ من ولاة الطبلخاناه منهم : « هذه المكاتبه إلى المجلس
السامى » وإلى كلِّ من ولاة العشرات منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة لكل
من الطبلخاناه والعشرات الأسمُ الشريف ، وتعريفُ كل منهم « والى فلانة » .

الصنف الرابع

(من يتوجه من الأبواب السلطانية من الأمراء لبعض الأعمال المتقدمة الذكر:

لكشف الجسور وعمارتها أو لتخضير البلاد أو لقبض الغلال)

قال فى "التتيف": فمن كان منهم طباخاناه، فرسم المكاتبه إليه السامى بالياء .
ومن كان منهم عشرة ، فرسم المكاتبه إليه السامى بغير ياء . والعلامةُ للجميع الأسم
الشريف . قال : ولا تذكر الوظيفة التى توجه بسببها، ولا الإقليم الذى هو به .

الصنف الخامس

(باقى الأمراء بالديار المصرية)

وقد رتبهم فى "التتيف" على أربع مراتب :

المرتبة الأولى — مقدّموا الألوْف، وقد ذكر أنّ لجارهم أسوة بكار التّواب بالمالك
الشامية، كالشام وحلب . ولاؤسطهم [أسوة أوسطهم] كحماة وطرابلس وصدف .

(١) الزيادة من "التتيف"، وهى ساقطة من قلم الناسخ .

ولأصغرهم أسوة أصغرهم ، كغزّة وحمص . ثم قال : فاعلم ذلك وقس عليه . ثم قال بعد ذلك : والذي نقوله أن ل كبار المقدمين بالأبواب السلطانية «الجناب الكريم» [ثم الجناب العالی] ثم «المجلس العالی» . وهذا على ما كان في زمانه ؛ أما على ما استقرّ عليه الحال آنحرا ، فإنه يكون لكبارهم «المقرّ الكريم» كما يكتب للأتابك الآن ، ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالی» ثم «المجلس العالی» .

المرتبة الثانية — الطبلخانات . قد ذكر أن منهم من يكتب له «المجلس العالی» كمن يكون معيناً للتقدمة ، وله عدة ثمانين فارساً أو سبعين فارساً أو نحو ذلك ، وكالمقربين من الخاصيّة ، أو من له عراقه نسب كبقايا الملوك ، أو أرباب وظائف جليّة : كحاجب كبير ، أو إستدار جليل ، أو مدبر دولة لم يصرّح له بالوزارة ، أو وادار متصرف . ثم قال : وهؤلاء وإن كتب لهم بالمجلس العالی ، فإنه يكتب لهم بغير افتتاح بالدعاء ، والكتابة لهم بالعالی على سبيل العرض لا الاستحقاق ، وإلا فأجل رسم مكاتبه أمراء الطبلخاناه «السامى» بالياء ولجمهورهم «السامى» بغير ياء .

المرتبة الثالثة — العشرات . وقد ذكر أن لكل منهم «مجلس الأمير» ، ثم قال : فإن زيد قدر أحد لسبب ما ، كتب له «المجلس السامى» بغير الياء .

المرتبة الرابعة — مقدمو الجند . وقد ذكر أن لهم أسوة أمراء العشرات في المكاتبه . ثم قال : وأما الجند ، فالأمير الأجل . وأما جند الأمراء فالطواشى . وكأنه يريد ما إذا كتب بسببهم مكاتبه أو كتب لأحد منهم توقيع ، وإلا فالجند لا يكتب أحد منهم عن الأبواب السلطانية حتى ولا تواب القلاع بالشام ، كما سأتى ذكره هناك إن شاء الله تعالى .

الصنف السادس

(العربان بالديار المصرية وبرقة)

وقد تقدم الكلام عليه مستوفى في الكلام على أنساب العرب ، فيما يحتاج إليه الكاتب في المقالة الأولى . وقد ذكر في " التعريف " أن العرب بمصر في الوجهين القبلي والبحري جماعات كثيرة وشعوب وقبائل . ثم قال : ولكنهم على كثرة أموالهم ^(١) وآتساع نطق جماعاتهم ، ليسوا عند السلطان في الذروة ولا السنام ، إذ كانوا أهل حاضرة وزرع ، ليس منهم من يُنجد ولا يُتيم ، ولا يُعرق ولا يُسَم ، ولا يخرجون عن حدود الجُدران ، وعلى كل حال * فالمندل الرطب في أرجائه حطب * .

ثم قد قسم منازلهم إلى الوجه القبلي والوجه البحري ، وذكر أن بكل من الوجهين من يكاتب عن الأبواب السلطانية .

فأما عرب الوجه البحري فعلى ضربين :

الضرب الأول

(عرب البحيرة)

قال في " التعريف " : وأمرأؤهم عرب الديار المصرية . قال : وهم أشبه القوم بالتخاطق بجلالتي العرب في الحلل والترحال ، يُغربون إلى القيروان وقابس ، ويفدون على الحضرة السلطانية وفود أمثالهم من أمراء العرب . وذكر أن الإمرة فيهم في زمانه ، كانت في محمد بن أبي سليمان وفائد بن مقدم . وقال : إن رسم المكتابة إلى كل منهما : « هذه المكتابة إلى المجلس السامي ، الأمير » والعلامة السلطانية « أخوه » ولم يتعرض لتعريفهما ، والذي يظهر أن تعريف كل منهما اسمه .

(١) في الاصل : أبدالهم ، وهو تصحيف والتصحيح من " التعريف " .

أما بعده ، فقد تغيّرت تلك الأحوال ، وتناقصت رتبةُ عرب البَحيرة ، وزالت الإمرةُ عنهم ، ولم يبقَ فيهم إلا مشاع عربان ذوو أموال بحمة ، كان منهم في الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» رحاب ، وموسى بن خضر ، وأولاد بدران الغريبي ، ومن جرى مجراهم ، ثم صار اليوم بها ^(١) بن رحاب ، وخضر بن موسى .

الضرب الثاني

(عربُ الشَّرقية)

وقد ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه منهم نجم بن هجل شيخ عائد . وذكر أنه دون محمد بن أبي سليمان وفائد بن مقدم : أميرى عرب البَحيرة . ثم قال : ورسم المكاتبه إليه : «هذه المكاتبه إلى المجلس السامى الأمير» .

قلت : ثم تغيّرت الأحوال بعد ذلك وصارت رئاسةُ عرب الشرقية متداولةً في جماعة ، إلى أن كان منهم في الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن عيسى أمير ^(١) وأولادهم ، وكانت الإمرة فيهم أولاً في ^(٢) ثم قُتل بسيف السلطان في الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» وأستقر مكانه

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين .



وأما عرب الوجه القبليّ ، فقد ذكر في " التعريف " أنه كان منهم في زمانه نَفران : أحدهما ناصر الدين عُمر بن فضل . وذكر أن رسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامى » أيضا . وثانيهما سُمرة بن مالك . قال : وهو ذو عدد جمّ ، وشوكية مُنيكية ، يغزو الحبشة وأمم السودان ، ويأتى بالنهاب والسبايا ، وله أثر محمود ، وفعل ماثور . وفد على السلطان وأكرم مَثواه ، وعقد له لواءً وشرف بالتشريف ، وقُد ذلك ، وكتب إلى ولاة الوجه القبليّ عن آخرهم وسائر العُربان به بمساعدته ومُعاضدته ، والركوب للغزو معه متى أراد . وكتب له منشورٌ بما يفتح من البلاد ، وتقليدٌ بإمرة العُربان القبليّة مما يلي قُوص إلى حيث تصل غايته . ثم قال : ورسم المكتبة إليه " السامى الأمير " كمن تقدّم .

قلت : ثم كان بعد ذلك عدد من أمراء العُربان ، كان آخرهم أبو بكر بن الأحذب . ثم لما أنتقلت هُوارة إلى الوجه القبليّ ، صارت الإمرةُ فيهم في الصعيد الأدنى ، في بنى غريب ، وأميرهم الآن ^(١) وفي الصعيد الأعلى في بنى عُمر ، وأميرهم محمد بن عمر ، ورسم المكتبة إلى كل منهما ^(٢)

(١) بياض بالاصل .

(٢) بياض بالاصل مقدار سطرين . والظاهر أنه بيض لهذا كما بيض لما قبله أنتظارا لوضع مثال المكتبة الحارثية في زمانه فأخترته المنية قبل أن يثبت مرغوبه ويدرك مطلوبه .

وأما عربُ بَرْقَةَ ، فقد ذكر في "التعريف" أنه لم يبقَ منهم في زمانه من يكتب إلا جَعْفَرُ بْنُ عَمْرٍو، وأنه كان لا يزال بين طاعةٍ وعِصيانٍ ، ومخاشنةٍ وليانٍ ؛ وأن أمراءَ عربِ البَحيرةِ كانت تُعْرَى به ، وتغيَّرَ خاطرُ السلطانِ عليه ، وأنَّ الجيوشَ كانت تمتدُّ إليه ، وقيلَ أن ظَفِرَتْ منه بطائلٍ ، أو رجعتَ بِمَغَمٍّ إن أصابته نوبةٌ من الدهرِ . وكان آخرَ أمره أنه ركبَ طريقَ الواحِ حتى خرجَ من الفيومِ ، وطرقَ بابَ السلطانِ لائذًا بالعفو ، ولم يُسبقَ به خَيْرٌ ، ولم يعلمِ السلطانُ به حتى استأذنَ المستأذنُ عليه وهو في جملةِ الوُقوفِ بالبابِ ؛ فأكرمَ أُمَّ الكرامةِ ، وشرفَ بأجلِ التشاريفِ ، وأقامَ مَدَّةً في قِريِّ الإحسانِ وإحسانِ القِريِّ . وأهلُه لا يعلمون بما جرى ، ولا يعرفون أينَ يَمُّ ، ولا أيَّ جهةٍ نَحَا ، حتى أتتهم وافداتُ البشائرِ . وقال له السلطانُ : لأىِّ شىءٍ ما أعلمتَ أهلكَ بقصدك إلينا؟ قال : خِفْتُ أن يقولوا : يفتك بك السلطانُ ، فأتبَطَّ . فاستحسن قولَه ، وأفاضَ عليه طَوْلَه ؛ ثم أعيدَ إلى أهلِه ، فاقبلَ بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسه سوءٌ ، ولا رزئُ له صاحبٌ ، ولا شِمتَ به عدُوٌّ .

النوع الثاني

(من يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية أربابُ الأعلام ،

وهم على ضربين :

الضرب الأول

(أربابُ الدواوينِ من الوُزراءِ ومن في معناهم)

قال في "التعريف" ، ولم تزلْ مكاتبةُ أجلاءِ الوزراءِ بـ«المجلسِ العالى» . ثم كتب لآخرهم بالديار المصرية «الجنابِ العالى» . وكُنيتُ بالشامِ للمصاحبِ عزِّ الدينِ

أبي يعلى، حمزة بن القلاقي رحمه الله، بحلالة قدره، وسابقة خدمه، وعناية من كتب إليه بها. ثم قال: والذي أستقر عليه الحال للوزير بمصر «الجناب». أما من يجرى مجرى الوزراء ولا صريح له بها: مثل ناظر الخاص، وكاتب السر، وناظر الجيش، وناظر الدولة، وكاتب الدست، و«السامي» بالياء، ومن دون هؤلاء فغير ياء؛ ثم «مجلس القاضي أو الصدر».

قلت: وكأنه يريد ألقاب هؤلاء في الجملة، إما في مكتبة تكتب بسبب أحد منهم، وإما في توقيع ونحوه يكتب لأحدهم، وإلا فن ذكره من الأصغر لا يكتب عن الأبواب السلطانية عادة. والذي صرح في «التثقيف» بذكر المكتبة إليه من هذا الضرب نفران:

الأول — كاتب السر إذا تحلف عن الركب السلطاني لعارض. وذكر أن رسم المكتبة إليه: «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي» على ما تقدم ذكره، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة».

الثاني — ناظر الخاص الشريف. وذكر أن رسم المكتبة إليه على ما أستقر عليه الحال في أيام ابن نقولا «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالي» على ما تقدم ذكره، والعلامة «الاسم» وتعريفه «ناظر الخواص الشريفة».

قلت: ولم يتعرض لمكتبة الوزير، إنما ذكر ألقابه في الألقاب العامة مما يكتب في الولايات وغيرها، ولا يستغنى عن ذكر المكتبة إليه؛ وقد تقدم في كلام صاحب «التعريف» أن الذي أستقر عليه الحال في المكتبة إليه «الجناب العالي» ولم يعين صورة الدعاء له. والذي ذكره في «التثقيف» في ألقابه أن الدعاء له «ضاعف الله

تعالى نعمته « وحينئذ فتكون المكتبة إليه إن كتب إليه » ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى « بالألقاب السابقة .

الضرب الثانى

(أرباب الوظائف الدينية والعلماء)

قد ذكر فى " التعريف " أن كلاً من قضاة القضاة بمصر يكتب له « المجلس العالى » والمحاسب بها يكتب له « السامى » بالياء ، ومن دونهم من أرباب الوظائف الدينية وبقية العلماء وأكابهم « السامى » بغير ياء ، ومن دونهم « مجلس القاضى » او « الشيخ » بحسب ما يلىق به . وكأنه يريد مطلق الألقاب كما تقدم فى غيره ، وإلا فهؤلاء لا يكتبون عن الأبواب السلطانية . ولم يذكر فى " التنقيف " مكتبة لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوى قاضى القضاة تاج الدين الإخنائى المالكى ، وقد حجَّ فى سنة سبع وستين وسبعائة فى الدولة الناصرية « حسن » ، جواباً عما ورد منه ، وكتب له الدعاء و « المجلس العالى » . والعلامة الأسم . قال : وأما قاضى القضاة عز الدين بن جماعة فإنه كان يُحجَّ ويمجور كثيراً ، ولكنى لم أره كتب له قط ، وأنا شاكُّ فى أمره .

قلت : رأيت فى " إيقاظ المتغفل " لابن المتوجِّج ، أنه كتب إليه وهو مجاور بمكة : « أعز الله تعالى أحكام المجلس العالى » ولم يتعرض للعلامة ، والظاهر أن العلامة له « أخوه » ، ويكون التعريف « قاضى القضاة الشافعية أو المالكية بالديار المصرية » .

النوع الثالث

(من يُكاتب عن الأبواب السلطانية ممن بالديار المصرية الخوندات السلطانية : من زوجات السلطان وأقاربه ممن تدعو الضرورة إلى مكاتبته لسفره أو لسفر السلطان)

وقد ذكر في "التثقيف" منهن جماعة، نذكرهن ليكن أمودجا لمن يكون في معناهن .
الأولى - ابنة المقام الشريف الشهيد الناصري «محمد بن قلاوون» لما كانت بحلب مع زوجها أبي بكر بن أرغون ، كتب إليها ما صورته : «الذي يمحيط به علم الحُرمة الشريفة ، العالمة ، المصونة ، الولدية ؛ عصمة الدين ، جلال النساء ، شرف الخواتين ، سليلة الملوك والسلاطين ، ضاعف الله تعالى جلالها» والعلامة «والدها» وتعريفها «الدار السيفية بحلب» والأسطر متقاربة كالملطف .

الثانية - طغاي زوجة المقام الشريف الناصري المشار إليه ، المعروفة بأم أنوك ، كتب إليها لما توجهت إلى الحجاز الشريف : «ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة ، العالمة ، المعظمة ، المحجبة ، المصونة الكبرى خوند خاتون ؛ جلال النساء في العالمين ، سيده الخواتين ، قرينة الملوك والسلاطين» . ثم الدعاء ، والعلامة الأمم الشريف ، وتعريفها «والدة المقر الكريم الولدي السيفي أنوك» : والأسطر على ما تقدم في المكاتب السابقة .

الثالثة - أخت المقام الشريف الناصر حسن جهة الامير طاز ، كتب لها لما كانت بالحجاز الشريف : «ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة العالمة الكريمة المحجبة المصونة الكبرى الخاتون ، جلال النساء في العالمين ، جميلة المحجبات ، جليلة المصونات ، كريمة الملوك والسلاطين ، والعلامة «أخوها» .

الرابعة - الحاجة السّتّ حدّق . كُتِب لها وهى بالمجاز الشريف عن الناصر حسن : « ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة العالية الكبيرة المحجّبة المصنوية الحاجّية الوالدية ، جلال النساء فى العالمين ، بركة الدولة ، والدة الملوك والسلاطين » . ثم الدعاء والعلامة الأسم الشريف ؛ وتعريفها « الحاجة ست حدق » .

الخامسة - والدة السلطان الملك الأشرف « شعبان بن حسين » . كتب إليها عند توجّها للحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالى جلال الجهة الشريفة » . ثم قال : وقد كنت أنكرت ذلك : لأنه كان يعظمها كثيرا ويقبل يديها غالبا ، فكان يمكن أن يُكْتَب لها بتقيل اليد .

قلت : وصورة المكاتبة على ما رأيتة فى بعض الدساتير : « ضاعف الله تعالى جلال حجاب الجهة الشريفة العالية الكبرى ، المعظمة المحجّبة العصى الخاتونى ، جلال النساء فى العالمين ، سيدة الخواتين ، جميلة المحجّبات ، جليلة المصنونات ، والدة الملوك والسلاطين » ثم الدعاء ، وكانت الكتابة لها فى ورق دمسقّ فى قطع الفرخة بالطول كاملة بقلم الثلث الخفيف أو التوقيع .

القسم الثاني

(مَنْ يَكْتَبُ بِالْمَالِكِ الشَّامِيَّةِ ، وَهِيَ أَرْبَعَةُ أَنْوَاعٍ)

النوع الأول

(أَرْبَابُ السُّيُوفِ مِنَ النَّوَابِ الْكُفَّالِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَهِيَ ثَمَانُ نِيَابَاتٍ)

النِيَابَةُ الْأُولَى

(نِيَابَةُ دِمَشْقَ ، الْمَعْبُورُ عَنْهَا فِي عُرْفِ الزَّمَانِ بِالْمَمْلُوكَةِ الشَّامِيَّةِ)

وَالْمَكْتُوبُونَ بِهَا عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ ضَرْبَانِ :

الضرب الأول

(مَنْ بِمَدِينَةِ دِمَشْقَ ، وَهِيَ ثَلَاثَةٌ)

الأول — كَافِلُ السُّلْطَانَةِ بِهَا ، وَهُوَ مِنْ أَكْبَرِ مَقْدَمِيِّ الْأُلُوفِ . وَكَانَ رَسَمُ الْمَكْتُوبَةِ إِلَيْهِ عَلَى مَا أوردَهُ الْمَقَرُّ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التَّعْرِيفِ" : « أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ » . قَالَ فِي "التَّنْقِيهِ" : وَلَمْ تَزَلِ الْمَكْتُوبَةُ إِلَيْهِ كَذَلِكَ مِنْ بَعْدِ الدَّوْلَةِ الشَّهِيدِيَّةِ النَّاصِرِيَّةِ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ إِلَى آخِرِ سَنَةِ نَحْمَسَ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةَ ، وَاسْتَقَرَّ الْأَمِيرُ بِيَدِهِمُ الْخَوَارِزْمِيُّ نَائِبَ السُّلْطَانَةِ بِهَا فِي وِلَايَتِهِ الثَّلَاثَةَ ، فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ «شُعْبَانَ بْنِ حَسِينٍ» فَاسْتَقَرَّ رَسَمُ الْمَكْتُوبَةِ إِلَيْهِ : « أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِ الْكَرِيمِ » عَلَى الرَّسْمِ الْمُتَقَدِّمِ ، وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ إِلَيْهِ « أَخُوهُ » وَتَعْرِيفُهُ « نَائِبُ السُّلْطَانَةِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْحُرُوسِ » . قَالَ فِي "التَّنْقِيهِ" : « أَوْ كَافِلُ الْمَمْلُوكَةِ الشَّامِيَّةِ الْحُرُوسَةِ » وَلَا يُقَالُ فِي نُعُوتِهِ : كَافِلُ السُّلْطَانَةِ .

الثاني - نائب قلعة دِمَشق . ورسمُ المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی » على ما تقدم رسمه . والعلامة « والده » . قال في « التثقيف » : ثم استقرت المكتبة إليه « السامی » بالياء : لأنه طبلخاناه ، والعلامة الشريفة له الأسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » .

الثالث - حاجب الحُجَّاب بها . ورسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » على ما تقدم رسمه ، والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه « أمير حاجب بالشام المحروس » .

الضرب الثاني

(من بأعمال دمشق من نواب المُدُن والقلاع، وهم خمسة نواب)

الأول - نائب حِمْص ، قال في « التثقيف » : كان يكتب إليه نظير نائب الكرك ، يعنى « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » والعلامة الشريفة له « والده » لما كان من مقدمى الألوף بالشام ، ثم استقر من أمراء الطبلخاناه ، وأستقرت مكاتبته « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامی » فيما أظن ؛ وقد تقدم رسمها . والعلامة الشريفة له الأسم الشريف ، وتعريفه « النائب بحمص المحروسة » .

الثاني - نائب الرِّحْبَة . وقد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك أنه كان من حقها أن تكون من مضافات حلب . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی » على ما تقدم رسمه . والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه « النائب بالرَّحْبَة » .

الثالث — نائب بَعْلَبَك . قال في "التثقيف" إن كان من أمراء الطبلخاناة فكاتبتة «صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى» والعلامة له الأسم الشريف . وإن كان من العشرات ، فالمكاتبه إليه « يعلم مجلس الأمير » والعلامة له الأسم الشريف وتعريفه « النائب بَعْلَبَك المحروسة » .

الرابع — نائب مِصِياف . وقد تقدم في الكلام على المَسَالِك والممالك أنها كانت مضافة إلى طرابُلُس في جملة قِلاع الدَّعوة ، ثم استقرت في مضافات الشام . ورسم المكاتبه إليه « هذه المكاتبه إلى المجلس السامى » والعلامة الشريفة له الأسم الشريف .

الخامس — نائب القُدُس الشريف . وهو من استحدثت نيابته في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » في سنة سبع وسبعين وسبعائة ، وكانت قبل ذلك ولاية وهو طبلخاناة ، وربما أضيف إليه نظر الحرمين : حرم القُدُس ، وحرم الخليل عليه السلام . ورسم المكاتبه إليه « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى » . والعلامة « والده » وتعريفه « النائب بالقُدُس الشريف » .

قال في "التثقيف" : وكان قد استقر بأماكن تُذكر من البلاد الشامية تواب ، واستقرت مكاتبه كل منهم : إن كان مقدما « صدرت » و « العالى » والعلامة « والده » . وإن كان طبلخاناة « السامى » بالياء والعلامة الأسم الشريف . وهى تَدْمُر ، والسُّخنة ، والقَرَيَتان ، وسَلَمِيَّة . قال : ثم بطل ذلك . ثم قال : ومن التواب بالقلاع الشاميه جماعة لم تجر لهم عادة بمكاتبه عن المواقف الشريفة ، ولا تصدُر ولا يتهم من الأبواب الشريفة ، بل نائب الشام مستقل بذلك . وهم ، نائب عَجَلُون ، ونائب صَرْحَد ، ونائب الصُّبَيْبِيَّة ، ونائب شَقِيْف آرُون .

قال : وممن كُتِبَ إليه أيضا وليس بنائب ولا والٍ جمال الدين يوسف شاه الأتابك بمصيف في سنة أربع وسبعين وسبعمائة على يد نافع بن بدران . ورسم ما كتب به إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی» وكتب في ألقابه «الأتابكي» وكتب تعريفه «يوسف شاه الأتابك» . قال : والظاهر أن العلامة «والده» .

النيابة الثانية

(نيابة حلب)

والمكاتبون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأول

(من بمدينة حلب ، وهم ثلاثة)

الأول — النائب بها . وهو من أكاير مقدمي الألف . ورسم المكاتبه إليه « أعز الله تعالى نصره الجناح الكريم » على ما تقدم رسمه . والعلامة الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة» .

الثاني — نائب القلعة بها . ورسم المكاتبه إليه « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى » على ما تقدم رسمه . والعلامة له الأسم الشريف . وتعريفه «نائب القلعة المنصورة بحلب المحروسة» .

الثالث — حاجب الحجاب بها . ورسم المكاتبه إليه « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالی » . والعلامة «والده» وتعريفه «أمير حاجب بحلب المحروسة» .

الضرب الثاني

(مَنْ بأعمال حَلَبَ مِنَ التَّوَابِ ، وَهُم أَحَدٌ وَعِشْرُونَ نَائِبًا)

الأول — نائب البيرة . ورسم المكاتبه إليه « المجلس العالى » . والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه « النائب بالبيرة المحروسة » .

الثانى — نائب قلعة المسلمين المعروفة بقلعة الروم . ورسم المكاتبه إليه والعلامة كذلك ^(١) . وتعريفه « النائب بقلعة المسلمين المحروسة » .

الثالث — نائب مطية ^(٢) . ورسم المكاتبه إليه والعلامة الشريفة كذلك ، وتعريفه « النائب بمطية المحروسة » .

الرابع — نائب طرسوس . ورسم المكاتبه إليه « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى » والعلامة « والده » وتعريفه « النائب بطرسوس » .

الخامس — نائب أذنة . ورسم المكاتبه إليه والعلامة له كذلك ، وتعريفه « النائب بأذنة المحروسة » .

السادس — نائب الأبلستين . ورسم المكاتبه إليه والعلامة الشريفة له كذلك ، وتعريفه « النائب بالأبلستين المحروسة » .

السابع — نائب بهسنى . ورسم المكاتبه إليه « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى » والعلامة له « والده » وتعريفه « النائب بهسنى المحروسة » .

قال فى « التثقيف » : « ولم يُعلم لأحد من أرباب السيوف قديمًا « والده » مع « السامى » بالياء غيره .

(١) أى « المجلس العالى » و « والده » مثل الذى قبله .

(٢) صوابه بهذا الضبط قال فى المعجم « والعامه تقوله بتشديد الباء وكسر الطاء » . وقال فى القاموس

« وتشديده لحن » .

الثامن — نائب آياس^(١) . وهو المعبر عنه بنائب الفتوحات الجاهانية . قال في "التثقيف" : إن كان مقدما فالمكاتبة إليه بنسبة مكتبة نائب البيرة ، فيكون رسم المكاتبة إليه «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالى» والعلامة «والده» . وإن كان طبلخاناه فيكون «صدرت هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» والعلامة الأسم ، وتعريفه بكل حال «النائب بآياس^(١)» أو «النائب بالفتوحات الجاهانية المحروسة» .

التاسع — نائب جعبر . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في "التثقيف" «هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» والعلامة الأسم ، وتعريفه «النائب بقلعة جعبر المحروسة» .

العاشر — نائب عيتاب . ورسم المكاتبة إليه على ما في "التثقيف" «يعلم مجلس الأمير» والعلامة الأسم ، وتعريفه «النائب بعيتاب المحروسة» .

قال في "التثقيف" : ورأيت بخط القاضى ناصر الدين بن النشائى أن مكاتبته الأسم و«السامى» بغير ياء . ثم قال : وما تقدم هو ما استقر عليه الحال آخر . قال : وقد يكون ذلك لأنه كان بها أمير طبلخاناه ، وتعريفه «النائب بعيتاب» .

الحادى عشر — نائب درنده . قال في "التثقيف" : إن كان طبلخاناه ف«السامى» بغير ياء ، وإن كان عشرة ف«مجلس الأمير» والعلامة الأسم بكل حال ، وتعريفه «النائب بدرنده» .

الثانى عشر — نائب القصير . قال في "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «يعلم مجلس الأمير» والعلامة الأسم ، وتعريفه «النائب بالقصير» .

(١) تقدم للمؤلف فى ص ١٣٣ ج ٤ أن قال بفتح الهمزة المدودة . وقال صاحب القاموس «كسحاب» .

الثالث عشر - نائب الرَّأْوَدَان . ورسم المكاتبه إليه كمثل نائب القَصِير ،
وتعريفه « النائب بالرَّأْوَدَانِ » .

الرابع عشر - نائب الرَّهَّا . قال في "التثقيف" : جرت العادة أن يكون نائبها
طَبْلَخَانَاه ، فتكون مكاتبته « السامى » بغير ياء ، والعلامة الأسم . ثم قال : وقد
استقرت في الأيام المنصورية في سنة ثمان وسبعين وسبعائة مقدم ألف ، فقد
يكتب إليه نظير نائب البيرة وقلعة المسلمين ، يعنى فتكون مكاتبته « صدرت »
و « العالى » . والعلامة « والده » وتعريفه بكل حال « النائب بالرُّهَّا » .

الخامس عشر - نائب شَيْر . قد ذكر في "التثقيف" أن مكاتبته « هذه المكاتبه
إلى المجلس السامى » فتكون العلامة الأسم ، وتعريفه « النائب بشَيْر » .

السادس عشر - نائب كَرَكَر . ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التثقيف"
« يعلم مجلس الأمير » فتكون العلامة الأسم ، وتعريفه « النائب بكرَكَر » .

السابع عشر - نائب الكَخْتَا . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
بالكَخْتَا » .

الثامن عشر - نائب بَغْرَاس . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
ببَغْرَاس » .

التاسع عشر - نائب الشُّغْر وبَكَاس . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بالشُّغْر وبَكَاس » .

العشرون - نائب الدَّرْبَسَاك . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بالدَّرْبَسَاك » .

الحادى والعشرون — نائب إسفندكار . ذكر في "التثقيف" أن رسم المكاتبه إليه كذلك . ثم قال في "التثقيف" لكنني رأيت بخط القاضي ناصر الدين بن النشائي أن مكاتبته الأسم و«السامى» بغير ياء، يعنى «هذه المكاتبه إلى المجلس السامى» . قال : وما يبعد أنه كان إذ ذاك طبلخاناه . والمستقر عليه الحال ما تقدم .

قلت : وقد ذكر في "التثقيف" ست قلاع استجدت مكاتبه توابها بعد ذلك ، ولم يذكر رسم المكاتبه إليهم : وهم نائب سجر شغلان ، ونائب كومي ، ونائب قلعة كولاك ، ونائب قلعة بارى كروك ، استجدت مكاتبته في سنة ستين وسبعائة ، ونائب قلعة كاورا ، استجدت مكاتبته في سنة تسع وستين وسبعائة ، ونائب كرزآل ، استجدت مكاتبته في سنة سبع وسبعين وسبعائة . ولم يذكر رسم المكاتبه إليهم . والذي يظهر أن رسم المكاتبه إلى كل منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة الأسم ، والتعريف «النائب بفلانة» . وحينئذ فيكون المكاتبون من تواب أعمال حلب سبعة وعشرين نائبا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابلس)

والمكاتبون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأول

(من بمدينة طرابلس ، وهم آثان)

الأول — نائب السلطنة بها ، ورسم المكاتبه إليه : « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى » على الرسم المتقدم . والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة » .

الثانى — الحاجب بطرأبلس . ورسم المكاتبه إليه « صدرت » و « العالى » .
والعلامه « والده » وتعريفه « امير حاجب بطرأبلس المحروسه » . وليس بطرأبلس
قلعه فيكتب إلى نائبا .

الضرب الثانى

(من بأعمال طرأبلس من التواب ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(تواب قلاع نفس طرأبلس ، وهم سبعة تواب)

الأول — نائب الأذقية . ورسم المكاتبه إليه « السامى » بغيرياء . والعلامه
الاسم ، وتعريفه « النائب بالأذقية » .

الثانى — نائب صهيون . ورسم المكاتبه إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامه
الاسم ، وتعريفه « النائب بصهيون » .

الثالث — نائب حصن الأكراد . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بحصن الأكراد » .

الرابع — نائب بلاطس . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه « النائب
ببلاطس » .

الخامس — نائب المرقب . ورسم المكاتبه إليه كذلك .

السادس — نائب حصن عكار . ورسم المكاتبه إليه كذلك ، وتعريفه
« النائب بحصن عكار » .

الصنف الثاني

(نواب قلاع الدعوة المضافة إلى طرابلس)

وهي : قلاعُ الإسماعيلية الذين يُسمَّون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهاديَّة . وكانت سبع قلاع فأضيفت مضافاً منها إلى دِمَشقَ على ما تقدّم في الكلام على المسالك والممالك ؛ وبقي من مضافات طرابلس ست قلاع ، وهي الكهف ، والمينقة ، والعليقة ، والقدموس ، والحوابي ، والرصافة . ومكتبة كلّ منهم « يعلم مجلس الأمير » والعلامة الأسم . وتعريف كلّ منهم « النائب بقلانة » .

النيابة الرابعة

(نيابة حماة)

والمكاتبون بها ضرب واحد بمدينة حماة خاصّة ، وهما اثنان :

الأول — نائب السلطنة بها . وقد تقدّم في أوائل هذا الطّرف أنها كانت بيد بقايا بني أيّوب ، يطلق عليهم فيها لفظ السلطنة ، يتولّونها من ملوك مصر إلى أن كان آخرهم الأفضل محمد بن المؤيد عماد الدين إسماعيل في الدولة الناصرية محمد ابن قلاوون ، ثم صارت نيابةً بعد ذلك يتداولها النواب نائباً بعد نائب . ورسم المكتبة إلى نائبها « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالی » والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » .

الثاني — الحاجب بها . ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « الحاجب بحماة المحروسة » .

قال في "التتقيف" : ولم يكن بها قلعة فيُكْتَبُ إلى نائبيها . قلت : وليس بأعمالها توابٌ فيكتب إليهم إنما بها ولاةٌ يكتبون عن توابها .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفَد)

والمكتوبون بها ضُربَ واحد أيضا، وهم من المدينة خاصَّةً وهم ثلاثة :

الأول — نائبُ السلطنة بها . ورسمُ المكتبة إليه «ضاعفَ الله تعالى نعمةَ الجناب العالی» . والعلامة «والده» . وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بصَفَد المحروسة» .

الثاني — الحاجبُ بها . ورسمُ المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبةُ إلى المجلس السامی» . والعلامةُ الأسمُ . وتعريفه «الحاجب بصَفَد المحروسة» .

الثالث — نائبُ القلعة بها . ورسمُ المكتبة إليه « هذه المكتبةُ إلى المجلس السامی» . والعلامةُ الأسمُ . وتعريفه «نائب القلعة المنصورة بصَفَد المحروسة» .

قلت : ولم يكن بأعمالها توابٌ فيكتبون عن الأبواب السلطانية، بل بها ولاةٌ يكتبون عن نائبيها خاصَّةً كما تقدَّم في حماة .

النيابة السادسة

(نيابة غزّة)

والمكاتبون بها أيضا ضرب واحد، وهم من المدينة خاصّة، وهما آثنان :

الأول — النائب بها . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنه إن اجتمع له البلاد الساحلية والجبليّة ، عبّر عنه بنائب السلطنة ؛ وإن قُصّر أمره على البلاد الساحلية فقط ، عبّر عنه بمقدّم العسكر وكان تحت أمر نائب دمشق . وبكل حال فإن رسم المكاتبه إليه « أدام الله تعالى نعمة الجناح العالی » والعلامة « والده » . ثم إن أضيف له الجهتان قيل في تعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغزّة » .

الثاني — الحاجب بها . ورسم المكاتبه إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « الحاجب بغزّة المحروسة » .

قلت : وليس بعملها ثواب ، بل ولاة يكتبون عن نائبها أو مقدّم العسكر بها . إلا أنه قد استحدث في أواخر الدولة الظاهرية « برقوق » مكاتبه كاشف الرملة ، وأستقرت مكاتبته « صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « الكاشف بالرملة » .

النيابة السابعة

(نيابة الكرك)

والمكاتبون بها من المدينة خاصّة، وهما آثنان :

الأول — نائب السلطنة بها . ورسم المكاتبه إليه « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » . والعلامة والده ، وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بالكرك » .

الثاني - وإلى القلعة بها . ورسمُ المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي » . والعلامة الأسم ، وتعريفه « وإلى القلعة المنصورة بالكرك المحروس » . قلت : ولم يكن بها حاجبٌ يكتب ولا بأعمالها ثواب ، بل ولاةٌ يكتبون عن النائب بها خاصة .

النيابة الثامنة

(نيابة سيس)

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها مما استجد فتحه في الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » . وقد ذكر في « التثقيف » أن مكتبة النائب بها كانت « ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالي » كائب طرابلس ومن في معناه . ثم قال : وقد صح لي بعد هذا أنه استقرت مكاتبته نظير غزوة . وهي « أدام الله تعالى نعمة الجنب العالي » . والعلامة حينئذ « والده » ، وتعريفه « مقدم العسكر المنصور بغزة »^(١) وما ذكره آخرًا هو المستقر عليه الحال إلى آخر وقت . قال في « التثقيف » : ولم أطلع على مكتبة الحاجب بها . ثم قال : وما يبعد أن يكون « مجلس الأمير » لأنه فيما أظن أمير عشرة . قال : وإن كان طلبخانا ، فالأسم و« السامي » بغير ياء إن كتب إليه . ولم يكن بها نائب قلعة كما ذكره في الكلام على ثواب القلاع .

قلت : وهنا أمران أشار إليهما في « التثقيف » ينبغي التنبه لهما .

(١) لعلها بسيس لأن الكلام فيها .

أحدهما — أن القاعدة فيمن عدا أكار التواب : كنواب القلاع والمجباب ونحوهم أن المكتوب إليه إن كان مقدما ف«والده» و«صدرت» و«العالى» . وإن كان طبلخاناه فالأسم و«السامى» بغير ياء . وإن كان عشرة ، فالأسم و«مجلس الأمير» . وحينئذ فلا يتوقف مع المكاتبات السابقة ، بل يُنظر من هو مستقر في ذلك الوقت ويكتب إليه بما تقتضيه رتبته ، فإنه تارة تكون عادة تلك النيابة طبلخاناه ثم تستقر عشرة وبالعكس ، وتارة تكون طبلخاناه يستقر فيها مقدم ألف وبالعكس . والعبرة في ذلك بحال من هو مستقر حال الكتابة ، خلا ما هو مستقر من قديم الزمان لا يتغير مثل مكاتبة نائب بهسى ونحوه .

وثانيتها — أن نائب السلطنة بدمشق ، ونائب السلطنة بحلب ، ونائب السلطنة بطرابلس ، ونائب السلطنة بحماة ، ونائب السلطنة بصفد ، ونائب السلطنة أو مقدم العسكر بغزة ، ونائب السلطنة بالكرك ، ونائب السلطنة بالقدس الشريف يكتب إليهم في جليل كل أمر وحقيره من المهمات السلطانية وخلاص الحقوق وغيرها .

أما من عداهم من نواب القلاع والتواب الصغار الذين بأعمال هذه الممالك والمجباب ، فإنه لا يكتب إليهم إلا في المهمات والأمور السلطانية : إما في مثال شريف مفرد لأحدهم ، أو في مطلق شريف عام لجمعهم أو لبعضهم ، وكذلك في البشري بوفاء النيل ، فإنه يكتب إلى كل واحد منهم مثال بمفرده ، خلا المجباب فإنه لا يكتب إليهم بذلك .

النوع الثاني

(مَنْ يَكْتُبُ بِالْمَمْلُوكِ الشَّامِيَّةِ أَرْبَابُ الْأَقْلَامِ، وَهُمْ صِنْفَانِ)

الصنف الأول

(أَرْبَابُ الْوِظَائِفِ الدِّيَوَانِيَّةِ)

والذي يَكْتُبُ مِنْهُمْ بِالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ الْوَزِيرُ بِدِمَشْقَ ، أَوْ نَاطِرُ النَّظَارِ الْقَائِمُ مَقَامَهُ ،
حَيْثُ لَمْ يُصَرِّحْ لَهُ بِالْوِزَارَةِ .

أَمَّا الْوَزِيرُ بِدِمَشْقَ ، فَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" أَنَّهُ كُتِبَ لِلصَّاحِبِ عِزِّ الدِّينِ
أَبِي يَعْلَى حَمْزَةَ بْنِ الْقَلَاقِسِيِّ ^(١) « الْجَنَابِ » لِجَلَالَةِ قَدْرِهِ ، وَسَابِقَةِ خِدْمَتِهِ ، وَعِنَايَةِ
مَنْ كَتَبَ إِلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّ الَّذِي اسْتَقَرَّ عَلَيْهِ الْحَالُ لِلْوَزِيرِ بِالشَّامِ « الْمَجْلِسِ الْعَالِيِ »
بِالدَّعَاءِ . كَمَا كُتِبَ لِلصَّاحِبِ « أَمِينِ الدِّينِ » أَمِينِ الْمَلِكِ فِي وَزَارَتِهِ فِي الْأَيَّامِ
النَّاصِرِيَّةِ « مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ » « ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِ ، الْقَاضِيِ ،
الْوَزِيرِيِّ ، الْأَجَلِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ، الْمُؤَيَّدِيِّ ، الْأَوْحَدِيِّ ، الْقَوَامِيِّ ،
النِّزَامِيِّ ، الْمَدَبَّرِيِّ ، الْمَاجِدِيِّ ، الْأَيْمَرِيِّ ، الْمَشِيرِيِّ ، الْفَلَائِيِّ ، صِلَاحِ الْإِسْلَامِ
وَالْمُسْلِمِينَ ، سَيِّدِ الْوُزَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، رَئِيسِ الْأَمْرَاءِ ، كَبِيرِ الرُّؤَسَاءِ ، بَقِيَّةِ الْأَصْحَابِ ،
مَلَاذِ الْكُتَّابِ ، عِمَادِ الْمَلِكِ ، خَالِصَةِ الدَّوْلَةِ ، مُشِيرِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، وَلِيِّ أَمِيرِ
الْمُؤْمِنِينَ » . وَالدَّعَاءِ ، ثُمَّ « صَدَرَتْ » . وَالْعَلَامَةُ « أَخُوهُ » . وَتَعْرِيفُهُ « مَدَبَّرِ
الْمَمْلُوكِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ » .

قال : ولم يكتب لأحد بذلك بعده ولا قبله . ثم قال : وأستقر في الدولة الناصرية
حسنين ، الصاحب نحر الدين بن قروينة وزيراً بالشام أيضاً على قاعدة جدّه لأمه ،
أمين الدين المذكور . ولم أعلم ما كُتِبَ بِهِ : هل كما كُتِبَ لجدّه المذكور أو دونه؟ .

(١) في "التعريف" القلاسي . (٢) ساقط من "التعريف" ولعله من النسخ .

وأما ناظر النظار، فقد ذكر في "التثقيف" أن المكتبة إليه «حرس الله تعالى مجده المجلس العالی، القضائی، الكبیری، العالی، الفاضلی، الکاملی، الأوحدی، الرئیسی، الأیبری، القوامی، النظامی، المنقذی، المنتصری، العلامی، مجد الإسلام والمسلمین، سید الرؤساء فی العالمین، أوحده الفضلاء، جلال الكبراء، حجة الكتاب، صفوة الملوك والسلاطين، خالصة أمير المؤمنين». والدعاء ثم «صدرت». والعلامة الأسم، وتعريفه «ناظر النظار بالشام المحروس» .

قال في "التثقيف" : وهذا هو الذي استقر عليه الحال إلى آخر وقت .

الصنف الثاني

(القضاة والعلماء)

قد ذكر في "التعريف" : أن المكتبة لقاضي القضاة الشافعي بالشام بـ «المجلس العالی» ولم يذكر صورتها . قال في "التثقيف" : والذي كُتِبَ به الشيخ تقي الدين السبكي رحمه الله، وهو قاضي القضاة بالشام : «أعز الله تعالى أحكام المجلس العالی، القاضوي، الكبيري، العالی، العالی، الأفضلي، الأکلي، الأوحدی، البليغي، الفريدي، المفیدی، النجیدی، القدوی، الحجي، المحقق، الإمامي، الأصيلي، الموقق، الحاکمي، الفلاني؛ جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العالمين، أوحده الفضلاء المقيدين، قُدوة البلغاء، حجة الأمة، عمدة المحدثين، نخر المدرسين، مفتي المسلمين، جلال الحكام، حكم الملوك والسلاطين، ولي أمير المؤمنين» . والدعاء ثم «صدرت هذه المكتبة». والعلامة «أخوه». وتعريفه «قاضي القضاة بالشام المحروس» .

ثم ذكر فيما بعد أنه كان يُكْتَب في نُعُوتِه : «صَدْرُ الشَّامِ ، مَعزُ السَّنَةِ ، مُؤَيِّدُ المِلَّةِ»
قال في "التتقيف" وكانت مكاتبتُه « شمسُ الشريعة ، رئيسُ الأصحاب ، لسانُ
المتكلمين » ، ولم يعين مكانها . قال : وكتب بذلك إلى ولده قاضي القضاة
تاج الدين السبكي ، وهو قاضي القضاة بالشام غير مرة . ثم زيد في ألقاب أخيه
الشيخ بهاء الدين عند استقراره في القضاء بالشام مكانه بعد القاضوي « الشَّيْخِي »
وبعد المحققي « الورعي » ، الخاشعي ، الناسكي ، الإمامي ، العلامي ، الأصيلي ،
العريقي » . وزيد في تعريفه بعد جلال الحكام « بركة الدولة » .

النوع الثالث

(ممن يكتب بالبلاد الشامية العُربان)

قد تقدم في الكلام على أنساب العرب في المقالة الأولى، فيما يحتاج إليه الكاتب
أنَّ عرب الشام عدَّة بطون من عدَّة قبائل . وقد قال في "التعريف" : إنهم جُلُّ
القوم وعين الناس ، لاعتناء الملوك لإلإبهم ، ولا مبالاة بغيرهم .
ونحن نذكر هنا ما يتعلق بالمكاتبات إلى أمرائهم ومشايخهم خاصة .

البطن الأول

(آل فضل من آل ربيعة)

وقد تقدم أنهم من طيِّب ، من كهلان ، من العاربة . قال في "التعريف" :
وآل فضل منهم هم الذين في نحر العدو، ولهم العديداً أكثر، والمال الأوفر . قال :
وقد صاروا الآن أهل بيتين : بيت مهنا بن عيسى ، وبيت فضل بن عيسى .

قال : وهم في جوار الفرات . ولذلك يُضَاعَفُ إكْرَامُهُمْ ، وتُوَفَّرُ لَهُمُ الإِقْطَاعَاتُ
وُتُسْنَى . والإمرأة الآن منهم في بيت مهنا بن عيسى . وهو المعبر عنه بأمر آل
فضل . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان في زمانه قارا بن مهنا، ثم كان في الدولة
الظاهرية «برقوق» محمد بن حيار بن مهنا بن [عيسى بن مهنا بن ماتع بن حديثة
أبن عتبة بن فضل بن ربيعة] ، ثم استقر بعده في الدولة الناصرية «فرج» أبنه
العجل ، وهو المستقر إلى الآن .

قال في "التعريف" : ورسم المكاتبية إلى الأمير منهم «أدام الله تعالى نعمة
المجلس العالی الأميری» «بألقاب جلیلة معظمة منفضمة . وذكر في "التثقيف"
أتم رسم المكاتبية إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی الأميری، الکبیری،
العالمی، المجاهدی، المؤیدی، الأوحدي، النصیری، العونی، الهمامی، المقدمی،
الظهیری، الأصيلی، الفلانی، عز الإسلام والمسلمین، شرف أمراء العربان
في العالمین، نصره الغزاة والمجاهدين، مقدم العساكر، كهف الملّة، ذخرة الدولة،
عماد العرب، ظهير الملوك والسلاطين، حسام أمير المؤمنين» . ثم الدعاء
و«صدرت هذه المكاتبية» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

قال في "التعريف" أما من هو نظيره أو مدانيه وعدته الإمرأة، فرسم المكاتبية
إليه : «صدرت هذه المكاتبية إلى المجلس العالی» ومن دونه «السامي الأميری» .
قال : ولكل هؤلاء العلامة الشريفة «أخوه» ولعن دون هؤلاء «السامي الأمير»
والعلامة الشريفة الأسم الشريف .

وقد ذكر في "التثقيف" أسماء جماعة من أكابر بيت مهنا بن عيسى، وبيت
فضل بن عيسى وذكر لكل منهم رسم مكاتبية .

فأما بيت مهنا المذكور، فهم خمسة :

الأول منهم — عَسَّافُ بنُ مُهَنَّأ . ورسم المكتبة إليه : « هذه المكتبةُ إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، الفازى ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحى ، الأصيل ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، نحر القبائل ، زين العشائر ، عماد الملوك والسلاطين » والدعاء ثم « صدرت » والعلامة « والده » وتعريفه اسمه .

الثانى — عَنَقَاءُ بنُ مهَنَّأ أخو عَسَّاف . مثله فى المكتبة على السواء .

الثالث — زاملُ بنُ موسى بنُ مهَنَّأ ، « صدرت » و« السامى » . والعلامة « والده » وتعريفه اسمه .

الرابع — محمد بن حيار بن مهنا : وهو نُعَيْرٌ ، مثل عمِّيه : عَسَّاف وعَنَقَاء .

الخامس — على بن سليمان بن مهَنَّأ . ذكر أنه كان يكتب بـ« السامى » بالياء . والعلامة الأسم . وذكر أن أخاه عَوَّادا لم يعلم أنه كُوتِبَ عن الأبواب السلطانية .



وأما بيت فضل ، فذكر منهم مُعَيْقِلُ بنُ فَضْل ، وقال : إن رسم المكتبة إليه « السامى » بالياء . والعلامة « والده » . ثم قال : ولم يكتب الآن من بنى فضل غيره ، فإن أخويه : سَيْفًا وأبا بكر كانا يكتبان عن الأبواب الشريفة ، ثم توفياً إلى رحمة الله تعالى ، ولم يبق من أكا بر بنى فضل غيره هو وأولاد أخويه ، لكنهم لم يكتبوا بشيء . فإن اتفق أن يكتب أحد من أولاد أخويه المذكورين أو من أولاد مهَنَّأ ، مثل أولاد فياض ، وبقية أولاد حيار ورُمَيْثَةَ بنِ عُمَرَ بنِ موسى ونحوهم ، فأعلاهم الأسم و« السامى » بغير ياء ، وأدناهم الأسم و« مجلس الأمير » .

البطن الثاني

(آلِ مِرا)

قد تقدّم في الكلام على أنساب العرب فيما يحتاج إليه الكاتب، في المقالة الأولى، أن مِراً وفضلاً أخوان . قال في "التعريف" : ومنازلهم بلاد حوران . وقد ذكر في "التثقيف" أن الإمرة في زمانه كانت مقسومة نصفين بين عَنقاء بن شطىّ ابن عمرو بن نونة ، وعمّه فضل بن عمرو بن نونة . ثم قال : ومكاتبه كلّ منهما «صدرت» و«السامى» . والعلامة «والده» وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الثالث

(آلِ عليّ)

وقد تقدّم في الكلام على الأنساب أنهم من آلِ فضل . قال في "التعريف" : وإنما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مهنا ، وبقى عيسى جار الفرات في تلابيب التّار . قال في "التعريف" : ورسم المكاتبه إلى أميرهم «صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس السامى الأميرى» . والعلامة الشريفة «أخوه» . وقد ذكر في "التثقيف" أن أميرهم في زمانه كان عيسى بن رملة بن جَمّاز . وقال : إن رسم المكاتبه إليه كما ذكر في "التعريف" وهى : «صدرت» و«السامى» لكنه ذكر أن العلامة «والده» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الرابع

(بنو مهدي)

وقد تقدم في الكلام على الأنساب أن منازلهم البلقاء من مضافات دمشق .
قال في "التعريف" : والإمرة فيهم في أربعة ، رسم المكتبة إلى كل منهم « مجلس
الأمير » . وذكر في "التثقيف" أنها كانت في زمانه باسم برو بن ذؤيب بن سعيد
ابن محفوظ العقيسي ، وسعيد بن نجسرى بن حسن العقيسي ، وزامل بن عبيد بن
محفوظ العقيسي ، ومحمد بن عباس بن قاسم بن محمد بن راشد العسري . وأن مكتبة
كل منهم « مجلس الأمير » كما تقدم في "التعريف" . ثم قال : ومن كان معه
نصف الإمرة منهم ، كانت مكاتبته الاسم و « السامي » بغيراء ، وتعريف كل منهم
« فلان بن فلان » .

البطن الخامس

(بنو عقبة)

وقد تقدم في الكلام على الأنساب أن مرجعهم إلى جذام ، وأن منازلهم الكرك
والشوبك . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إلى أميرهم مثل أمير آل مرآ .
وكذلك رسم المكتبة إلى أقاربه كرسم المكتبة إلى أقارب أمير آل مرآ أيضا ، فتكون
مكتبة أميرهم « صدرت » و « السامي » . ومكتبة أعيان أقاربه « السامي الأمير »
ولمن دونهم « مجلس الأمير » . وقد ذكر في "التثقيف" أن إمرةهم في زمانه كانت
باسم خاطر بن أحمد بن شطى بن عبيد . وذكر أن رسم المكتبة إليه الاسم
و « السامي » بالياء ، وتعريفه « فلان بن فلان » ولم يتعرض لأقربائه .

(١) في ج ٤ ص ٢١٣ من هذا المطبوع « ابن ذئب بن محفوظ العنسي » ويظهر أنها هي الصواب .

(٢) الذي تقدم هناك « بحري » بالياء والحاء .

البطن السادس

(جَرم)

وقد تقدّم في الأنساب أن مرّجعهم إلى طيّب^(١) ، وأن منازلهم ببلاد غزّة .
وقد ذكر في "التعريف" أن إمرتهم في زمانه كانت بأسم فضل بن حجي . وذكر
أن رسم المكتبة إليه « مجلس الأمير » . والذي ذكره في "التثقيف" أن لهم مقدّما
لا أميراً ، وأنه كان في زمانه علي بن فضل . وذكر أن رسم المكتبة إليه الأسم
و « السامى » بغير ياء . وهذا عجب فإنه إذا كان أميراً ورسم المكتبة إليه « مجلس
الأمير » فكيف يكون رسم المكتبة إليه « السامى » بغير ياء وهو مقدّم ، والإمارة
فوق التّقدمة بلا ريب .

قال في "التعريف" : وأما بقية عرب الشام ، نحو زبيد المرح ، وزبيد حوران ،
وخالد حمص ، والمشاركة ، وغزيرة إذا أطاعوا ، وزبيد الأحلاف ، فأجل كبرائهم
وأشياخهم من يُكتَب له « مجلس الأمير » . وذكر في "التثقيف" نحوه ، ثم قال :
هذا إن انفرد أحد منهم بالمكتبة ، وإلا فالعادة أن يُكتَب لكل طائفة من هؤلاء
مطلق شريف . ثم قال : على أنه لم تجر العادة بمكتبة أحد من هؤلاء القبائل ،
لا على الأفراد ولا على الاجتماع . وهذا كلام متناقض ؛ حيث يقول : إن العادة
أن يُكتَب لكل طائفة منهم مطلق شريف ، ثم يقول : إن العادة لم تجر بمكتبة
أحد منهم لا على الأفراد ولا على الاجتماع .

قلت : وقد تقدّم الكلام على أنساب جميع هذه البُطون وأما كتبها مستوفى
في الكلام على الأنساب في المقالة الأولى . ووقع بسط الكلام على ذلك وغيره
في كتابنا المسمى "نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب" .

(١) الذي في التعريف "حجى" ولكنها وردت في نسختنا في مواضع كثيرة "حجى" كما هنا . انظر ج ٤
ص ٢١١ ، وكذلك وردت في الضوء للزلف أنظر ص ٣٢١ . (٢) تقدم في ج ٤ من هذا المطبوع .

النوع الثالث

(من يكتَبُ بالممالك الشامية، التُّركان)

قد تقدّم ذكرُ نَسَبِ التُّركانِ في الكلامِ على أنساب الأُممِ في المقالة الأولى .
وقد ذكر في "التتقيف" أن التُّركانِ بهذه المملكة طوائفٌ كثيرةٌ، وجماعةٌ كبيرةٌ .
ثم قال: وغالبهم لا يكتَبُ إليه إلا إذا ضمَّهم مطلقاً شريف . فإن كتب إلى أحد من
أعيانهم، كتب إليه الأسم و«السامى» بغير ياء إن كان طبلخاناه؛ وإن كان عشرةً
أو عشرين، كتب إليه الأسم و«مجلس الأمير» لا غير، ثم أخلى بياضاً متسعاً
ولم يصرح باسم أحد منهم . ثم ذكر في الكلام على تُركانِ البلاد الشرقية عدّة
طوائف، عدّ منهم الأوسرية، وقال: هم تُركانِ حَلَبَ، والورسقى . وقال: وهم
تُركانِ طرسوس، ولم يتعرّض لمواضع غيرهم . وسيأتى كلامه مستوفى عند الكلام
على تُركانِ البلاد الشرقية إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(من يكتَبُ بالممالك الشامية الأكرادُ)

وقد تقدّم ذكرُ نَسَبِهِم في الكلامِ على أنساب الأُممِ في المقالة الأولى . وقد ذكر
في "التتقيف" أن بهذه المملكة منهم طوائفٌ كثيرةٌ كالتُّركانِ، وأنّ غالبهم لا يكتَبُ
إليه إلا إذا ضمَّهم مطلقاً شريف، وأنه إن كتِبَ لأحد من أعيانهم، كتِبَ له الأسم
و«السامى» بغير ياء، إن كان طبلخاناه . وإن كان أميرَ عشرةٍ أو عشرين، كتب
إليه الأسم و«مجلس الأمير» كما تقدّم في التُّركانِ من غير فرق .

القسم الثالث

(من يكتب بالبلاد الحجازية ، والمعتبر في المكاتبين منهم ثلاثة)

الأول - أمير مكة المعظمة .

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك ذكر أمرائها من ابتداء الإمرة وهلمَّ جراً إلى زماننا، والقائم بها الآن [حسن بن أحمد] ^(١) بن عجلان .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" : «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، العضىدى ، النصيرى ، الذخرى ، الغوثى ، المفيدى ، الأوحدى ، الظهيرى ، الرعىمى ، الكافلى ، الشريفى ، الحسىبى ، النسبى ، الأصبلى ، الفلانى ، عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، جلال العترة الطاهره ، كوكب الأسرة الزاهره ، فرع الشجرة الزكية ، طراز العصابة العلوية ، ظهير الملوك والسلاطين ، نسيب أمير المؤمنين » ثم الدعاء المعطوف . وبعده «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى بالسلام والثناء وتوضع لعلمه الكريم كذا وكذا» .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التثقيف" : «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، الشريفى ، الحسىبى ، النسبى ، العالمى ، المجاهدى ، المفيدى ، الأوحدى ، النصيرى ، العونى ، الهمامى ، المقدمى ، الظهيرى ، الأصبلى ، العريقى ، الفلانى ، عز الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء الأشراف فى العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، كهف الله ، عون الأمة ، فخر السلالة الزاهره ، زين العترة

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما تقدم للؤلف (أنظر ج ٤ ص ٢٧٥) عند ذكر أمراء مكة المكرمة .

الطاهرة، بهَاءِ العِصَابَةِ العَلَوِيَّةِ، جمالِ الطائفةِ الهاشِمِيَّةِ، ظهيرِ الملوِكِ والسلاطينِ،
نَسِيبِ أميرِ المؤمنينِ» ثم الدعاءُ و«صدرتُ» .

وهذا دعاءٌ وصدرٌ يليقُ به ذَكَرَهُ في "التعريف" : « ولا زال حَرَمُهُ آمِينًا،
ومكانُهُ مَكِينًا، وشرفُهُ بِيضٌ له ^(١) بجاورةِ الحَجَرِ الأَسْوَدِ عِنْدَ اللَّهِ وَجْهًا وَيُضِيءُ جَبِينًا .
صدرتُ هذهِ المَكاتِبَةُ إلى المجلسِ العالِيِ تَحْمِلُ إليه سَلامًا تَمِيلُ به الرِّكائِبُ، وثناءٌ
تُنثِي على مِسْكِهِ الحَقائِبُ، وشوقًا أوسقُ قلبَهُ لمن نُسِكُهُ مع الحِسابِ، وتوضُّحُ
لعلمه الكَرِيمِ» .



صدر آخر : ومَتَّعَ بِجِوَارِ بَيْتِهِ الكَرِيمِ، وزاد بِجَمِيلِ مَساعِيهِ شَرَفَ نَسبِهِ
الصَّمِيمِ، وَأَنَسَهُ بِقَرَبِ الحِجْرِ الأَسْوَدِ والرُّكْنِ وَالْحَطِيمِ . صدرتُ هذهِ المَكاتِبَةُ إلى
المجلسِ العالِيِ تُهْدِي إليه سَلامًا، وثناءٌ تَطِيبُ به الصُّبَا قبلَ أنْ تَحْمِلَ شَيْحًا أو نُحْرَامِي،
وتوضُّحُ لعلمه الكَرِيمِ .



صدر آخر : وأَرَاهُ مَناسِكَه، وَأَنَسَ بِالتَّقْوَى مَسالِكَه، وأشهدَ على عَمَلِهِ
الصَّالِحِ بِطُحَّاءِهِ وما يَنْزِلُهُ [من] الملائِكَةِ . صدرتُ هذهِ المَكاتِبَةُ بِتَحِيَّاتِها المَبارِكَةِ،
وأُثْنِيَّتِها التي لا تَزَالُ إليه بها أَفئدَةٌ من الناسِ سالكِها، وتوضُّحُ لعلمه الكَرِيمِ .

الثاني - أميرُ المَدِينَةِ النَبَوِيَّةِ على صاحِبِها أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ .

وقد تَقَدَّمَ في الكلامِ على أَمْرائِها في المَسالِكِ والمَمالِكِ من المَقالَةِ الثالِثَةِ أَن
إِمارتِها مَسْتَقَرَّةٌ في بَنِي الحُسَيْنِ، وَأَها الأَنَ في بَنِي جَمَّازِ بنِ شَيْحَةَ، وَأَن جَدَّهُم كانَ

(١) في التعريف "ينير" .

فقيهاً بالعراق، فقدم على السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله، فولاه المدينة فاستقرت فيها قدمه ثم قدمُ بنيه، وأنَّ القائم بها الآن [ثابت بن جَمَّاز ابن هبة بن جَمَّاز بن منصور بن جَمَّاز بن شيحة بن نعيم] ^(١).

ورسَّمُ المكتبة إليه كرسَمِ المكتبة إلى أمير مكة على الاختلاف السابق في النقل عن "التعريف، والتتقيف". فقد ذكر كلُّ منهما رسَمَ المكتبة إلى أمير مكة. ثم قال: ورسَّمُ المكتبة إلى أمير المدينة كذلك.

وهذا صدرُ مكتبة يليق به، وهو: ولا زال في جِوارِ الله ورسوله، ومَهْبطِ الوحي ونُزُوله، ومكانٍ يُردِّد فيه من أبويه الطاهرين بين حَيْدره وبتُّوله. صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى بِسلامٍ يُحدو ركابها، وثناءَ يَزِينُ في قُبَا قِبابها، وشوقٍ إلى رؤيته في الروضة التي طالما آستسقى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سَحَابها، وتوضيح لعلمه الكريم كذا وكذا.



صدر آخر: وزاده من الله ورسوله قُربا، وأكَّده بِحِمايةِ حَرَمه حُبًا، وأبهجه كُلمًا رأى جَدَّه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد جاور آلًا وجالسَ صَحْبًا. صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى مطربةً بِالسَّلام، مُطْبِيةً في ثناءه المَفْصَلِ النَّظَام، وتوضيح لعلمه الكريم.

الثالث - النائب بالنيبَع.

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما تقدم في ص (٣٠١ ج ٤) عند الكلام على أمراء المدينة المنورة.

وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنها في بني حسن أيضا . قال
في "التثقيف" : ورسم المكتبة إليه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي الأمير » .
والعلامة الأسم ، وتعريفه « النائب بالينبع » .

أما سائر العربان بالحجاز فقد ذكر في "التثقيف" أن لبني حسن القوام بمكة
« مجالس الأمراء » . والعلامة الأسم . ومن عدا بني حسن فقد ذكر في "التعريف"
أنهم على ضربين :

الضرب الأول — أهل الدرّيين : المِصرى والشامى . قال : وليس فيهم من
هو في غير ولا تفير ، ولا يجل في ذروة ولا غارب ، وأجل من فيهم إذا كتبت له
« مجلس الأمير » كان كمن سور وطوق ، لابل طيس وتوج .

الضرب الثاني — شيوخ لام ، وخالد ، والمنيفق ، وعائد الحجاز . قال : وهؤلاء
من كان منهم المشار إليه كتبت إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي
الأميرى » والعلامة « أخوه » . ثم من يليهم بالسامي بغير ياء . ثم الأعيان من بقيتهم
« مجلس الأمير » .

المسلك الثاني

(في معرفة ترتيب المكاتبات المقدمة الذكر، وكيفية أوضاعها . وفيه مأخذان)
المأخذ الأول — في ترتيب متون المكاتبات ، ولا يكون إلا ابتداء . أما الجواب
فإنه لا يتأثر فيها .

ثم هي على ضربين :

الضرب الأول - ما يكتب في خلاص الحقوق .

وهو ما يكتب فيه لثواب الإسكندرية ، ونائبى الوجهين : القبلى والبحرى من الديار المصرية ، وولائهما ، وثواب الشام ، وحلب ، وطرابلس ، وحماة ، وصفد ، والكرک ، ومقدم العسكر بغزة ، من الممالك الشامية على ما تقدم ذكره في الكلام على مكانة أهل المملكة .

والرسم في ذلك إذا كانت المكتبة إلى نائب الشام مثلاً ، بسبب قضية تتعلق بالأمير الدوادار أن يكتب : « أعز الله تعالى المقر الكريم » إلى آخر الألقاب والصدر ؛ ثم يكتب : « وتبدي لعلمه الكريم أن الجناب العالى » ويذكر ألقابه إلى آخرها « ضاعف الله تعالى نعمته عرفنا كذا وكذا » . ويذكر ما في قصته برمته . ثم يكتب : « ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بكذا كذا » ويأتى بما رسم له به إلى آخره ؛ ثم يقول : « فيحيط علمه بذلك » ويكمل على ما تقدم . وإن كان المكتوب بسببه أمير عشرة مثلاً ، كتب بدل « عرفنا » : « ذكر » . وإن كان من آحاد الناس كتب بدل ذلك : « إن فلانا أنهى » ويكمل على ما تقدم . وهذه نسخة مكاتبة إلى نائب الشام بسبب خلاص حق :

أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، العونى ، المئاغرى ، المرابطى ، المهدى ، المشيدى ، الزعيمى ، الظهيرى ، العايدى ، الناسكى ، الأنايكى ، الكفيلى ، الفلانى ، معز الإسلام ، والمسلمين ، سيد أمراء العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، ملجأ الفقراء والمساكين ، أتايك العساكر ، زعيم الموحدين ، مهد الدول ، مشيد الممالك ، عون الأمة ، كهف

المَلَّة ، عماد الدولة ، ظهير الملوك والسلاطين ؛ عَضُد أمير المؤمنين ، ولا زال عالياً
قَدْرُهُ ، نافذا أمرُهُ ، جارياً على الألسنة حمده وشكرُهُ .

أصدرناها إلى المقرِّ العالی تُهْدِي إليه من السلام أُمَّة ، ومن الثناء أَعْمَهُ ؛ وتُبْدِي
لعلمه الكريم أَنَّ الجَنَابَ العالی ، الأَمِيرِيَّ ، الكَبِيرِيَّ ، العَالِيَّ ، العَادِلِيَّ ، المُؤَيَّدِيَّ ،
العَوْنِيَّ ، العِيَانِيَّ ، المَرَابِطِيَّ ، المَهْدِيَّ ، المَشِيدِيَّ ، الظَّهِيرِيَّ ، الرَّعِيمِيَّ ، المَقْدَمِيَّ ،
الفَلَانِيَّ ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ؛ فلان رأس نوبة
الظاهرِيَّ ضاعف الله تعالى نعمته عَرَفْنَا أَنَّ له دَعْوَى شرعيةً على أقوام بدمشق
المحروسة ، وهم فلان وفلان . ومرسومنا للمقرِّ الكريم أن يتقدّم أمرُهُ العالی بمجلهم
صُحْبَةَ فلان فاصد المشار إليه ، إلى الأبواب الشريفة ، محتفظاً بهم ، قولاً واحداً ،
وأمرًا جازماً ، ليصل كلُّ ذى حقٍّ إلى حقه ، فيحيط علمُهُ بذلك ، والله تعالى يؤيِّده
بمنه وكرمه .



آخر : وتبدي لعلمه الكريم أن المجلس السامِيَّ ، الأَمِيرِيَّ ، الكَبِيرِيَّ ،
العَضُدِيَّ ، الذُّخْرِيَّ ، الأَوْحَدِيَّ ، الفَلَانِيَّ ؛ عمدة الملوك والسلاطين : فلان
أدام الله سعادته ، ذكر لنا أن الصَّدَقَاتِ الشريفة شملتَهُ بِخَلاصِ حَقِّهِ من فلان .
وقد وَكَّلَ في ذلك المجلس السامِيَّ القَضَائِيَّ الأَجَلِّيَّ فلان الدين . ومرسومنا للمقرِّ
الكريم أن يتقدّم أمرُهُ العالی بِطَلَبِ الغريم المذكور ، وَخَلاصِ الحَقِّ منه بِتَمَامِهِ
وِكَالِهِ . وإن أمتنع عن ذلك يُحْمَلُ للأبواب الشريفة مع الوصية بوكيله في ذلك ،
فيحيط علمُهُ بذلك .



آخر : وتبدي لعلمه الكريم أن الأمير، الأجل، الكبير، فلان الدين، فلان الفلاني، أنهى أن بيده إقطاعاً بالحلقة الشامية، وأن الوزير بالشام المحروس في كل وقت يتعرض إلى إقطاعه، ويأخذ الموجب المقر له بغير طريق. ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بطلب المباشرين، والأرتجاع عليهم بما آتسوه من إقطاعه، على ما يشهد به الديوان المعمور، بتمامه وكاله، ويستقر هذا المثال الشريف بيده بعد العمل به، فيحيط علمه الكريم بذلك، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه.



آخر : وتبدي لعلمه الكريم أن فلانا الفلاني أنهى أن شخصاً يسمى فلانا تزوج بأخته، وهو مقيم بالشام المحروس، وتوفيت أخته إلى رحمة الله تعالى، ووضع الزوج المذكور يده على جميع مالها. ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره العالى بخلاص الحق على حكم الشرع الشريف مع الوصية به، فيحيط علمه بذلك.



آخر : وتبدي لعلمه الكريم أن قصة رفعت إلى أبوابنا الشريفة بأسم تجار الفرنج، أنهم فيها أنهم يبيعون ويتأعون البضائع، ويقومون بما عليهم من الموجب السلطاني. ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره بخلاص حقوقهم ممن تتعين في جهته على حكم الحق، وكف أسباب الضرر عنهم، ومنع من يتعرض إليهم بغير حق ولا مسند شرعي، والوصية بهم ورعايتهم وملاحظتهم، فيحيط علمه بذلك.

الضرب الثاني

(ما يكتب من متعلقات البريد في الأمور السلطانية، وهي صنفان)

الصنف الأول

(ما يُكْتَبُ به ابتداءً)

ويختلف الحال فيه باختلاف مقتضيه : فإن كان مقتضيه بُرُوزَ أمر السلطان بفعل شيء أو تركه أو الحركة في شيء، كتب : « إنَّ المراسيم الشريفة أقتضتُ كذا وكذا » . أو « إن مَرَّ اسمينا الشريفة أقتضت كذا » . أو « إن المرسوم الشريف أقتضى كذا » . أو « إن مرسومنا الشريف أقتضى كذا » : فإن كان ذلك الأمر مما يحتاج إلى إدارة الرأي فيه ، كُتِبَ : « إنَّ الرأى الشريف أقتضى كذا » . أو « إنَّ آراءنا الشريفة أقتضت كذا » ، وما يجزئ هذا المجزئ . وإن كان مقتضيه بلوغ خبرٍ من حركة عدوٍّ أو اطلاع على أمر خفى ، كتب : « إنه أتصل بالمسامع الشريفة كذا وكذا » . أو « إنه أتصل بسماعنا الشريفة كذا وكذا » . وإن كان بسبب طلب مالٍ أو جبايةٍ تجرَّح ونحو ذلك ، كتب : « إنَّ لديوان خاصنا الشريف في الجهة الفلانية كذا » . أو « إنَّ لنا في الجهة الفلانية كذا » . ونحو ذلك مما يخرط في هذا السِّلْك ، ثم يكتب : « ومرسومنا للمقرِّ الكريم ، أو للجناب الكريم ، أو للجناب العالى » على حسب المكاتبه « أن يتقدَّم أمره بكذا وكذا » على ما تبرز به المراسيم السلطانية .

وهذه مكاتبات من ذلك إلى نائب الشام، يُنسخ على منوالها .

مكاتبةٌ — باستقرار نائبٍ في نيابة بعض القلاع : وتبدى لعلمه الكريم أن المراسيم الشريفة أقتضت استقرار الأمير فلان الدين فلان في النيابة الشريفة

(١)

وجهنا مرسومه الشريفين على يد المتوجه بهذا المثال الشريف الأمير الأجل فلان الدين فلان ، أعزه الله تعالى . فيتقدم المقرّ الكريم تجهيزه إلى جهة قصده بما على يده من ذلك ، وإذا عاد ، يعيده إلى الأبواب الشريفة مكرّماً مرعياً على عوائد همته العلية ، فيحيط علمه بذلك .



مكاتبة — بنقل نائب سلطنة من نيابة إلى نيابة : وتبدي لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى نقل الجناح الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الغوثى ، الغياثى ، المقدمى ، الكافى ، الفلانى ، ظهره الملوك والسلاطين ، سيف أمير المؤمنين ، فلان الظاهرى ، أعزّ الله نصرته — من نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بحلب المحروسة . والجناح العالى الأميرى الكبرى الفلانى ، ظهره الملوك والسلاطين فلان الظاهرى من نيابة السلطنة بصفد المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة . والجناح العالى الفلانى الظاهرى من مقدمة العسكر المنصور بغزة المحروسة ، إلى نيابة السلطنة الشريفة بصفد المحروسة . وكتبنا لهم تقاليد شريفة بذلك ، وجهنا إليهم تشاريفهم وهى واصلة عقيها على يد متسقرهم ، وجهنا الأمير الأجل الأعز فلان الدين ، مؤتمن الملوك والسلاطين ، فلان الخاصكى الظاهرى أعزه الله تعالى للبشارة للشار إليهم بذلك : ليأخذوا حظهم من هذه البشرى ، وتضاعف أديعتهم بدوام أيماننا الشريفة ، وآثرنا إعلام المقرّ الكريم بذلك : ليكون على خاطره ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

(١) بياض بالأصل ولعله "وجهنا مرسومه وتشريفه الشريفين" الخ .



مكاتبة — بجمل شخص للأبواب السلطانية : وتبدي لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى 'تقدّم المقرّ الكريم حال وقوفه عليها، وقبل وضعها من يده بطلب فلان الفلانيّ وفلان الفلانيّ'، وتجهيزهما إلى الأبواب الشريفة في أسرع وقت وأقربه، من غير قرة ولا توائن . ونحن نُؤكّد عليه غاية التأكيد في سرعة تجهيزهما إلى الأبواب الشريفة صحبة الأمير الأجل، فلان الدين فلان، إلى الأبواب الشريفة محتفظًا بهما، محتترزا عليهما؛ ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالی بأعتاد ما أقتضاه مرسومنا الشريف، والأهتمام بذلك، والاحتفال به، فيحيط علمه بذلك، والله تعالى يؤيده بمنّه وكرمه .



مكاتبة — باستقرار بعض الأمراء بالقدس الشريف بطّالا : وتبدي لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف أقتضى 'استقرار الأمير فلان أحسن الله تعالى عاقبته بالقدس الشريف مقيمًا بها، وشملتته الصدقات الشريفة أن ^(١) فلانة وفلانة باسمه، بمقتضى مرسوم شريفٍ مجهز صحبة متنسّفه الأمير الأجل الكبير الأوحد، فلان الدين فلان، البريديّ بالأبواب الشريفة، أعزّه الله تعالى، المتوجه بهذا المثال الشريف . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالی بإثبات المرسوم الشريف المذكور بديوان الجيوش المنصورة بالشام المحروس على العادة؛ وتجهيز البريديّ المذكور إلى حدود الديار المصرية، مكرّمًا مرعيًا على العادة؛ فيحيط علمه الكريم بذلك .

(١) بياض بالأصل ولعله "أن تقطع جهة فلانة" الخ .



مكاتبة — بيع غلّة للديوان السلطاني : وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءنا الشريفة أقتضت تجهيز كذا وكذا إردباً من القمح من ديواننا المفرد صُحبة فلان . ومرسومنا للمقرّر الكريم أن يتقدّم أمره العالی بطّلب فلان الحاجب بالشام المحروس : ليتولّى بيع ذلك بسعّر الله تعالى بما فيه الغبطة والمصلحة ، وتجهيز الثمن إلى الأبواب الشريفة برسالة دالّة على ذلك في أسرع وقتٍ وأقربه ، مع مضاعفة الوصية بذلك والأحتفال به ، فيُحيط علمه بذلك .



مكاتبة — وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءنا الشريفة أقتضت توجه الأمير الأجلّ الكبير، الأوحد، فلان الدين فلان؛ إستادار الأمير المرحوم فلان كان، بسبب أستخراج الأموال وبيع الغلال والأصناف الديوانية المتحصّلة من القرى المستأجرة، المرتجعة للورثة عن المشار إليه بمقتضى التذكرة المسطرة على يده . ومرسومنا للمقرّر الكريم أن يتقدّم أمره بمساعدة المذكور وتقوية يده على ما تضمّنته فصول التذكرة ومراعاة أحواله، وإزالة ضروراته، وخلاص الحق منه ممن يتعيّن في جهته، ويشمله بنظره الكريم فيما تعلق بفصول التذكرة . فإنّ تعلّقات الورثة المذكورين تحت نظرنا الشريف . فيبادر المقرّر الشريف إلى ذلك وسرعة عوده بعد قضاء شغله، وتجهيز المتحدّث والمباشرين للأبواب الشريفة، ومحبّبتهم حسابهم عند نهاية فصول التذكرة المذكورة . ويقوم عنهم من يعوضهم إلى حين عودهم من الأبواب الشريفة على ما هو المعهود من همّة الكريمة وأحتفاله، فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة - بسبب طلب عصى الجواكين والكرايبيج والأكر: وتبدي لعلمه الكريم أن المرسوم الشريف أقتضى تجهيز عصى الجواكين والكرايبيج والأكر إلى السلاح خاناه من الشام المحروس، على العادة في كل سنة سريعا، وآثرنا علمه الكريم بذلك . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومنا الشريف من ذلك كله على جارى العادة في كل سنة ، والأهتمام بذلك ، والاحتفال به ، بحيث لا يتأخر ذلك غير مسافة الطريق ؛ فإن الأتظار واقعٌ لذلك ، وفي همته الكريمة ما يغني عن بسط القول في ذلك ، فيحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة - بسبب استقرار قاض يدمشق عوض من كان بها : وتبدي لعلمه الكريم أن الصدقات الشريفة شملت المجلس العالى ، القضائى ، الكبيرى ، العالمى ، العلامى ، الإمامى ، الفلانى ، الفريدى ، المفيدى ، المحيدى ، الأصلى ، العريقى ، الأئبلى ، الأثيرى ، الأوحدي ، الخطيبى ، الشىخى ، الحاكى ، الفلانى ؛ جلال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، إمام البلاء ، خطيب الخطباء ، شيخ مشايخ العارفين ، ملاذ المريدن ، مفتى الفرق ، موضح الطرق ، لسان المتكلمين ، مفيد الطالبين ، حاكم الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين ، فلان الفلانى الشافعى .

أعز الله تعالى أحكامه - بتفويض قضاء قضاة الشافعية بالشام المحروس إليه ؛ عوضا عما عمن به ، بحكم عزله مضافا إلى خطابة الجامع الأموى ، ومشيخة الشيوخ بالشام المحروس . وكتبنا توقيعا شريفا له بذلك ، وجهزناه إليه قرين تشریف شريف على يد فلان المتوجه بهذا المثال الشريف . وآثرنا علمه الكريم بذلك ، ليكون ذلك على خاطره الكريم . ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره الكريم بتقرير القاضى

فلان الدين فلان الفلاني فيما شملته به الصدقاتُ الشريفةُ من ذلك كله ، وتقوية
يده في مباشرة ذلك والشَّد منه ، وتأيد أحكامه الشرعية ، وتنفيذ كلمته ، ورعاية
جانبه ، وإكرامه واحترامه ، على عادة هممه الكريمة ، وتقدماته السعيدة ، فيُحيط
علمه بذلك .



مكاتبة — بسبب حمل الثلج إلى الأبواب السلطانية : وتبدي لعلمه الكريم
أنَّ المرسومَ الشريفَ اقتضى تجهيزَ نقلات الثلج إلى الشَّرابِ خاناه الشريفة على
العادة . ومرسومنا للقر الكريم أن يتقدم أمره العالی بسرعة تجهيز النقلة الأولى ،
بمحيث لانتانحر أكثر من مسافة الطريق على ماهو المعهود من همته العالیه ، وتقدماته
السعيدة . وقد جهَّزنا هذا المثال الشريف على يد الأمير الأجل فلان الدين فلان
الفلاني ، أعزه الله تعالى ، فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة — بتكفين شخص من الحضور للأبواب السلطانية . وتبدي لعلمه الكريم
أنَّ فلانا كان قصدَ الاجتماع بأهله وأقاربه بالقاهرة المحروسة . ومرسومنا للقر الكريم
أن يتقدم أمره العالی بتكينه من الحضور إلى القاهرة المحروسة على خيله : ليجتمع
بأهله وأقاربه . وقد جهَّزنا بهذا المثال الشريف فلانا البريدي بالأبواب الشريفة ،
فيُحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة — بمنع العُربان من الدُّخول إلى البلاد قبل فراغ الزرع . وتبدي لعلمه
الكريم أنَّ المراسيمَ الشريفةَ اقتضت أنه لا يدخل أحدٌ من العُربان إلى البلاد الشامية

المحرّوسة : كبيرهم وصغيرهم ، جليلهم وحقيرهم ، إلى أن يُشال الزرع على العادة .
ومتى - والعيادُ بالله - حصل منهم مخالفةٌ لذلك ، حلَّ بهم من الانتقام الشريف
مالاً مزيداً عليه . ومرسومنا للمقرّر الكريم أن يتقدّم أمره العالى باعتماد ما اقتضته
المراسيمُ الشريفةُ من ذلك ، مع الأهتمام به ، والأحتفال والأجتهاد فيه ، قولاً واحداً ،
وأمرًا جازماً ، على عادة همته العالية ، وتقدّماته المرضية ، فيحيط علمه بذلك .



مكاتبة - بحفظ السواحل : وتبدي لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف اقتضى
الأجتهاد في حفظ السواحل والموانى ، والأهتمام بأمرها ، وإقامة الأيذك والأبدال
في أوقاتها على العادة ، وإلزام أربابها بمواظبتها ، وكذلك المنورون بالديديانات
والمناظر والمناور ، في الأماكن المعروفة ، وتعهّد أحوالها : بحيث تقوم أحوالها على
أحسن العوائد وأكلها ، ولا يقع على أحد دركٌ بسببها . ومرسومنا للمقرّر الكريم أن
يتقدّم أمره العالى باعتماد ما اقتضاه مرسومنا الشريف من ذلك ، مع مضاعفة
الأحتفال بذلك والمبادرة إليه ، حسب ما اقتضته المراسيمُ الشريفةُ . وقد جهّزنا بهذا
المثال الشريف مجلس الأمير الأجل : فلان الدين فلان البريدى ، المقدم بالأبواب
الشريفة ، فيتقدّم أمر المقرّر العالى بتجهيزه إلى جهة قصده بما على يده ، وإعادته عند
عوده إلى الأبواب الشريفة ، على ما هو المعهود من همته ، فيحيط علمه الكريم بذلك .



مكاتبة - باستعمال القماش . وتبدي لعلمه الكريم أن آراءنا الشريفة اقتضت
استعمال القماش الجارى به العادة برسم الركابجاناه ، والإصطبلات الشريفة ، على
ما استقر عليه الحال إلى آخر السنة الخالية والتي قبلها . وقد كتبت تذكرة شريفة

من ديوان آستيفاء الصُّحبة الشريفة مَفَصَّلةً بذلك ، وجَهَّزَها قَرِينَ هذه المفاوضة
 تُتْقَرَأُ على مَسَامِعِهِ الكريمة . ومرسومنا للمقرَّر الكريم أن يتقدَّم أمرُهُ العالى بتأمُّلِها ،
 وُبرُوزِ أمرِهِ بَطَلَبِ وزيرِ المملِكة الشريفة ، وناظرِ المُهَمَّاتِ الشريفة ، وآسْتِعمالِ
 القُفَّاشِ الذى تَضَمَّنَتْهُ التذكرةُ الشريفة ، والأهْتِامِ بذلك ، والأحْتِفالِ بِسُرْعَتِهِ .
 وقد آكْتَفِينَا بِهَمَّةِ المقرَّر الكريم عن تجهيزِ أميرِ اخورية وأوجاقينة من إصْطَبَلَاتِنَا
 الشريفة لآسْتِعمالِ ذلك ، لأنَّ المُهَمَّاتِ الشريفةَ تحتِ نظره الكريم ، فيصْرِفُ هَمَّتَهُ
 العالِيةَ إلى الإسْرَاعِ فى ذلك ، والأحْتِفالِ به والأهْتِامِ . وفى أهْتِامِهِ وتَفْيِيزِهِ لمراسمِنَا
 الشريفة ما يُغْنِي عن التأكيدِ فى ذلك ، فَيُحِيطُ عِلْمُهُ بذلك .



مكاتبه — بجواز . وتبدي لعلمه الكريم أنَّ مرسومنا الشريف آقتضى تجهيز
 فلان البريدى بالأبواب الشريفة ، أعزَّه الله تعالى ، إلى جهة فلان بما على يده
 وما حُجِّبَتْهُ . ومرسومنا للمقرَّر الكريم أن يتقدَّم أمرُهُ العالى بإزاحة أَعْدَارِهِ ، وتجهيزِهِ
 إلى المشارِ إليه فى أسْرِعِ وَقْتٍ وأقْرَبِهِ . وإذا عاد يتقدَّم بتجهيزِهِ إلى خُدْمَةِ الأبوابِ
 الشريفة على العادة فى ذلك ، على عَادَةِ هَمَّتِهِ العلية ، وشِمِيهِ المَرْضِيَّةِ ، فيحيطُ عِلْمُهُ بذلك .



مكاتبه — وتبدي لعلمه الشريف أن مرسومنا الشريف آقتضى أن لا يُمكن
 أحدٌ من نَقْلِ سلاحٍ ولا عُدَّةٍ حربٍ إلى جهة البلادِ الرُومِيَّةِ . ومرسومنا للمقرَّر الكريم
 أن يتقدَّم أمرُهُ العالى بأن لا يُمكن أحدٌ من نَقْلِ سلاحٍ ولا عُدَّةٍ إلى جهة البلادِ
 المذكورة ، والأحْتِرازِ على ذلك كَلِّ الأحْتِرازِ ، فيحيطُ عِلْمُهُ بذلك .



مكتابة — وتبدي لعلمه الكريم أنه أتصل بالمسّامع الشريفة أن غالب البلاد بالصّفقة الفلانية مجيئة متجاهية على الكُشّاف والرّعايا، ويوؤون المفسدين . وأن يد الكُشّاف لا تصل إلى هذه البلاد، ولا إلى النّصفة ممن بها من المفسدين . وحصل بذلك الضرر للبلاد والعِبَاد . وأقتضى الرأى الشريف الكُشّف عن هذه البلاد وسائر الأعمال ، والمناداة في البلاد بإبطال الحِماية والرّعاية، والمساواة بين العِبَاد في سائر البلاد بالعدل والإنصاف ، وكفّ أكفّ الظلم والعُدوان . ومرسومنا للفقير الكريم أن يتقدّم أمره الكريم بالمناداة في سائر البلاد بإبطال الحِماية والرّعاية ، والمساواة بين الخاصّ والعامّ، وتطهير الأرض من المفسدين ؛ وأن لا يُجْحَى أحدٌ ببلد من البلاد . ومن تظاهر بحِماية أو إيواء مفسدٍ ببلد من البلاد، حلّ ماله وروحه . والتأكيد على أهل البلاد في ذلك ، والتشديد والفحص عن يتجاهر بذلك وردّعه ونشر العدل والإنصاف بتلك الأقطار، والأهتمام في ذلك كله، على عادة هممه الكريمة، وتقدّماته السعيدة، فيحيط علمه الكريم بذلك ، والله تعالى يؤيده بالملائك .



مكتابة — وتبدي لعلمه الكريم أنه أتصل بمسامعنا الشريفة أن فلانا تعرّض للجهة الفلانية الجارية في ديوان خاصنا الشريف ، وأخذ منها مبلغ كذا وكذا . ومرسومنا للفقير الكريم أن يتقدّم أمره العالى بطلب الغريم المذكور، وتجهيزه إلى الأبواب الشريفة، وإلزامه بما استأداه من ذلك، محترزاً عليه مع مضاعفة الوصية بمباشري الجهة المذكورة والإحسان إليهم، فيحيط علمه بذلك .

الصنف الثاني

(ما يكتب في الجواب عما يريد من التواب وغيرهم)

والرسم فيه أن يكتب بعد التصدير : « إن مكاتبته الكريمة » أو « مكاتبته » على قدر رتبته من ذلك « وردت على يد فلان فوقفنا عليها وعلمنا ماتضمنته على الصورة التي شرحها » ثم يذكر ما يناسب الجواب في ذلك من شكر الأهتمام أو غيره . ثم إن أشتمت على مقصد واحد ، أجاب عنه .

وهذه مكاتبته يُسج على منوالها ، وهي : وتبدي لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت على يد فلان فوقفنا عليها ، وعلمنا ما أصدرته من تجهيزه إلى خدمة أبوابنا الشريفة بما على يده من كتاب مخدومه . وقد وصل ، وأحاطت علومنا الشريفة بما تضمنته ، وأعدناه الآن بجوابه وبهذا الجواب الشريف ، فيحيط علمه الكريم بذلك .

وإن أشتمت المكاتبه المجاب عنها على عدة فصول ، أتى على فصولها فصلاً فصلاً ، وربما قال : « فأما ما أشار إليه من كذا » إذا كان على الرتبة ، ككاتب الشام ونحوه ، « فقد علمناه » وصار على خاطرنا الشريف أو « فقد رسمنا به » أو « فلم نرسم به » . ونحو ذلك على ما يقع به الجواب السلطاني في الملخص المكتوب عن مكاتبته المكتوب إليه بالجواب .

وهذه مكاتبته من هذا النمط يُسج على منوالها ، وهي : وتبدي لعلمه الكريم ، أن مكاتبته الكريمة وردت على يد مملوكه الأمير الأجل فلان الدين فلان ، أعزّه الله تعالى ، فوقفنا عليها ، وعلمنا ماتضمنته على الصورة التي شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وتقدماته السعيدة ، ورأيه السعيد ، وأعتاده الحميد .

فأما ما أشار إليه من وصوله ومن صحبته ، ونائب السلطنة الشريفة بطرأبأس
وصفد المحروستين ، إلى ملطية المحروسة في التاريخ الفلاني ، وتلقى نائب السلطنة
الشريفة بجلب وحماة المحروستين ، المقر الكريم ، ومن معه على ظاهر المدينة
المذكورة ، واستمرار إقامتهم جميعاً بالمنزلة المذكورة إلى تسطير مكاتبته المشار إليها
في انتظار من رسم له بالحضور إليهم من عساكر القلاع المنصورة وغيرهم ، من أمراء
التركان والأكراد ومن معهم من أتباعهم والزامهم ، حسب ما اقتضته المراسيم
الشريفة في المهم الشريف وما كتب به إلى نائب طرأبأس ، وإلى قرايوسف النائب
بالرها المحروسة : من الحضور إلى المهم الشريف ، وإجابتهما إلى ذلك ؛ وكذلك
ما كتب به إلى الحاكم بسيواس ، وإلى أحمد بن طرغلي ، وما أجابا به من الحضور
إلى المهم الشريف ، والملتقى في المكان الذي عينه حاكم سيواس ، إلى غير ذلك مما
بسط القول فيه [فقد علمناه ^(١) على الصورة التي شرحها ، وتضاعف شكرنا لعمته
العلية وتقدماته السعيدة .

وأما ما أشار إليه من أعماده ما برزت به المراسيم الشريفة في الجواز الشريف
الوارد إليه على يد مجلس الأمير الأجل فلان الدين فلان ، والمطلق الشريف المجهز
على يده ، وأمثال ما تحمله من المشافهة الشريفة ، وتقديمه بجميع نواب السلطنة الشريفة
المكتوب إليهم ، وعقد المشورة معهم على اعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة ، وتعيين
جاليش العساكر المنصورة ونائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة ومن معه
من الأمراء المقدمين وأتباعهم من دمشق وحلب المحروستين ، ونائب السلطنة
الشريفة بحماة المحروسة ، ومن معه من العساكر المنصورة ، وسيرهم في التاريخ
الفلاني ، وسيره في أثرهم بن بقي معه من العساكر المنصورة الشامية الحلبية ؛

(١) الزيادة يقتضيا تصحيح الكلام ولعلها ساقطة من قلم الناسخ .

وأن سيرهم على جهة بلد كذا على الصورة التي شرحها لما قصدته من ذلك من المصلحة ، فقد علمنا ذلك على الصورة التي شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وحسن فكرته الصحيحة .

وأما ما أشار إليه من أن نائب مَاطِيَةَ جَهَّزَ الكُتَابَ الواردَ عليه من ابن تمرلنك ، على يد قاصدٍ من جهة تَلَمَّانَ باللسان الأجمي^(١) ، وأنه عَرَّبَهُ وَفَهَّم مضمونه وجَهَّزَهُ لِيُحِيطَ العِلْمَ الشريفةَ بمضمونه ، وهي على الخواطر الشريفة ، فيكون ذلك على الخاطر الكريم ، وشكرنا همته العلية .

وأما ما أشار إليه من ورود كتاب تَلَمَّانَ عليه ، وهديته على يد قاصده ، وأنه لم يقبل هديته وأعاد جوابه ، فإنه إن كان مناصحاً في الخدمة الشريفة وهو صادق في كلامه ، فيحضر إلى المهم الشريف ، وما شرح في هذا المعنى فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وشكرنا جميلَ اعتمادِهِ وسعيده رأيه . وكذلك أحاطت العلوم الشريفة بما ذكره من أمر حاكم عربكبر(؟) وما شرحه في ذلك ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها .

وأما ما أشار إليه من أمرِ مَلَطِيَةَ المحروسة ، وأنها تحتاج إلى الفكر الشريف ، والنظر في أحوالها وترتيب مصالحها ، وإقامة عسكر لرجال يُحْمِنُهَا من طوارق الأعداء المخدولين : إلى غير ذلك مما شرحه في هذا المعنى ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وبقى ذلك على خواطرنَا الشريفة . وعقبها إن شاء الله تعالى تبرزُ المراسيم الشريفة بما فيه المصلحة للبلد المذكور على أكمل ما يكون .

وقد استصوبوا رأيَ المقرِّ الكريم في هذا الفكر الحسن ، فإنه أمر ضروري . وقد شكرنا للمقرِّ الكريم جميلَ اعتمادِهِ ، وحسن رأيه ، وبذلَ همته واجتهاده في هذا

(١) كذا في الأصل غير واضح .

المهم الشريف . والقصد منه الاستمرار على ما هو فيه من بذل الاجتهاد في المهمات الشريفة بقلبه وقالبه ، والعمل على بياض وجهه عند الله تعالى ، من الذب عن عباده وبلادهم ، وبذل المال والروح في رضا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم في ذلك ، واستقرار خواطرننا الشريفة بذلك . فإن المقر الكريم يعلم ما نحن متأبرون عليه ، ومُنقادون إليه ، من محبة رضا الله تعالى في النصيحة بصالح العباد ، وعمارة البلاد ، وتسطير ذلك في صحائف حسنات الدهر بين يدي الله تعالى . والمقر الكريم يعلم أن جل اعتمادنا عليه في أكبر دولتنا الشريفة . ونحن واثقون برأيه السديد في حركاته وسكاته في المهمات الشريفة والأشغال السلطانية . ولأجل ذلك قزبناه ، ورضينا به لنا وعلينا ، وكلما بلغنا عنه اعتماد حسن تتضاعف منزلته عندنا . والآن فإن ثواب السلطنة الشريفة وأمرآء دولتنا كبيرهم وصغيرهم تحت أمره ومشورته ، وما بقي مثل هذه الأيام المباركة والأوقات السعيدة ، ولم يبق سوى آتهاز الفرص ، وأغتنام أوقات السعادة ، وهو الحاضر والنائب عنا في كل ما يحصل من المصالح العائد نفعها على البلاد والعباد . والمبادرة إلى عملها من غير معاودة الآراء الشريفة في كل قضية تتفق له ، فإن المسافة بيننا وبينه بعيدة ، وتضيع المصلحة في وصول الخطاب وعود الجواب . وقد فوضنا إليه الرأي في ذلك ، والعمل بما تقتضيه المصلحة الحاضرة ، في جليل الأمور ودقيقها ، فيكون ذلك على خاطره الكريم ، ويعمل بمقتضاه . وقد أعدنا مملوكه بهذا الجواب ، فيحيط علمه بذلك .



وهذه نسخة مكتوبة في معنى الرضا عن ابن دلغادر التركماني وغير ذلك :

وتبدي لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت على يد فلان الدين فلان مملوكه ،

فوقفنا عليها وعلما ما تضمنته .

فأما ما ذكره في معنى 'أبن دلغادر، وتكرار كُتبه بالتصريح والتراخي عليه في سؤال الصدقات الشريفة في الرضا والعمو عنه ، فقد علمنا ذلك ؛ والذي نعرف به المقرّ الكريم أنا كما رسمنا بأن لا يُكتب له جواب وردّ كتابه وقاصده ؛ ولما تكرّر استشفاعه بالمقرّ الكريم، ودخل دُخُولَ الْحَرِيمِ، وعرفنا أنه ضاقت عليه الأرض برُحْبها وأخلص في النَّدم، عطفت عليه الصدقات الشريفة بالحنوّ والعمو كرامةً للمقرّ الكريم ، وإعلاءً لشانه، ورفعاً لمكانته ومكانه . ورسمنا للمقرّ الكريم أن يكتب المذکور بهذا المعنى، ويلتزم على نفسه العمو الشريفة، والصّفح المُنيف ؛ وإيصال أنواع الخير وفوق مافي خاطره من الأمان على نفسه وماله ، وغير ذلك . والذي نعرفه أنه كان جرى على اللسان الشريف الحلف أنه لا بدّ من حضوره إلى الأبواب الشريفة ودّوس البساط الشريف ، ولا بدّ من تحقيق ذلك لحصول البرّ والحلاص من الحلف الشريف ، وقيام الناموس عند القريب والبعيد : ليعلموا أنّ سلطاننا غالبٌ على مَنْ تمرد ، ومرآحنا شاملة لمن يلتجئ إلى حرم عمّونا الشريف ، وأنه قريبٌ منه .

وأما ما ذكره في معنى 'كشّف الصّفقة الفلانية ، ووقوع الاختيار على فلان الدين فلان ، وما عرّضه على الآراء الشريفة من تقريره في ذلك ، وبروز المراسيم الشريفة بكتابة مرسومه وتقرير غيره ، فقد علمنا ذلك ورسمنا بتقريره ، وكتبنا مرسومه الشريف ، وجهّزناه على يد فلان العائد بهذا الجواب الشريف .

وأما ما ذكره من جهة الزاوية المستجدة بسقّحَب وتجهيز قائمة متضمنة بما تدعو الضرورة إليه من تقرير السماط وأرباب الوظائف ، وما عرّضه على الآراء الشريفة من كتابة مرسومٍ شريفٍ مرّيع على حُكْمها ، أو بما تقتضيه الآراء الشريفة من زيادة أو نقص ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به حسب ما اقتضته الآراء الشريفة : من استقرار

(١) امله وتقريره (٢) يظهر أن في الكلام سقطا ولعله «وما عرضه على الآراء الشريفة من الخ» .

فلان الدين فلان في الولاية في الثغر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به ، وكتبنا مرسومه الشريف ، وجهزناه على يد العائد بهذا الجواب الشريف . فالمقر الكريم يوصيه بحسن السيرة وترك ما كان عليه .

وأما ما ذكره من جهة خفارة الجهة الفلانية ، وما عرضه على الآراء الشريفة : من إمضاء القائمة المجهزة بأسماء من قزره في الخفر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورسمنا بإمضائه حسب ما قصده المقر الكريم .

وأما ما ذكره من جهة فلان المعتقل بقلعة دمشق ، ووقوف أولاده وعياله وشكواهم حالهم بعد كشف ما نقل عنه وعدم صحته وما عرضه على الآراء الشريفة من الإفراج عنه ، فقد علمنا ذلك ورسمنا به فيتقدم أمر المقر الكريم بالإفراج عنه .
وأما ما ذكره في معنى ما ورد به كتاب النائب بالرجبة المحروسة : من الأخبار والمتجددات ، فقد علمناه وصار على خواطرننا الشريفة .

وأما ما ذكره من وصول قاصدي حاكم الدر بند وحاكم القنيطرة بما على أيديهما وتجهيز ماورد معهما من الكتب وأستئذان الآراء الشريفة على ما نعتمه في أمرهما وفيمن يحضر بعدهما ، فقد علمنا ذلك ، وكتبنا الجواب عن ذلك ، وجهزناه قرين هذا الجواب الشريف ، فيتقدم باعادتهما إلى مرسلهما . وكذلك يفعل في كل من حضر من تلك النواحي إلا في مهم شريف على عوائدهم . وقد أعدنا مملوكه إليه بهذا الجواب الشريف ، فيحيط علم المقر الكريم بذلك .



مكاتبة أخرى — من هذا النمط في معنى أمور مختلفة . وتبدي لعلمه الكريم أن مكاتبة الكريمة وردت على يد المجلس السامي الأميري فلان . فوقفنا عليها وعلمنا ما تضمنته على الصورة التي شرحها .

فأما ما أشار إليه : من وصوله إلى دمشق المحروسة عائداً من الأغرور السعيدة ، وأنه وجدها وسائر أعمالها وضواحيها والسواحل والموانئ في حِرْز الأَمْن والسلامة ، فقد علمنا ذلك وحمدنا الله تعالى وشكرناه على ذلك .

وأما ما أشار إليه : من أنه جهَّز من متحصِّل دار الضرب السعيدة بدمشق المحروسة كذا وكذا مثقالاً بمقتضى رسالة وما قصَّد من إعادة رَجْعَة شريفةً بذلك ، فقد علمناه ووصل المبلغ المذكور ، وكُتِبَ به رَجْعَة شريفةً على العادة في مثل ذلك ، وُجِهَتْ على يد فلان المشار إليه ، فيكون ذلك على خاطرهِ الكريم .

وأما ما ذكره : من أمر النَّحَّاسِ وَقَلْتِه من عدم وصول شيء منه ، وأنه لم يُوجَد منه بعد الجَهْدِ سوى مبلغ عشرين قنطاراً عند الفَرَجِّج ، وأمر الفُلُوسِ العُتُق وبقائها ، وكثرة الفلوس الجُدِّد ، وَقَلَّةِ وجود الدرهم والدينار ، وتوقف المعاييش بسبب ذلك ، وما عرضه على الآراء الشريفة إن اقتضت الآراء الشريفة إبطال دار الضرب نحو شهرين إلى أن يحضُر نحاسٌ يستعمل ، وتخيَّف الفلوس ويستصرف ما في أيدي الناس ، فقد علمنا ذلك وأجبنا سؤاله فيه . ومرسومنا أن يعمل فيه بما تكون [به] المصلحة عامة للرعية ، وتبطل دار الضرب مدَّة يراها المقرُّ الكريم .

وأما ما أشار إليه : من أمر الأمير فلان وما قصده من حُسْنِ النظر الشريف في حاله ، وما شرحه من ذلك ، فقد علمناه على الصورة التي شرحها ، وصار ذلك على الخواطرِ الشريفة .

وأما ما أشار إليه : من أمر فلان ، وما اتَّفَق من الكَشْفِ عليه حسب ما اقتضته المراسيم الشريفة ، وما ادَّعى عليه من كذا وكذا ، وما كُتِبَ عليه من المحاضر وتجهيزها إلى الأبواب الشريفة ، وتجهيز المشار إليه إلى الأبواب الشريفة صُحْبَة البريدي المجهَّز

في طلبه في أثناء ذلك ، فقد علمنا ذلك على الصورة التي شرحها ، وأحاطت العلوم الشريفة به جملةً وتفصيلاً ، وبما أشتملت عليه المحاضر المذكورة ، وبقي ذلك على الخواطر الشريفة ؛ وأقتضت الآراء الشريفة إعادته ومن معه للخلاص من شكائته عند المقر الكريم ، وقد أعدناهم صحيفة من يحضرونهم إلى المقر الكريم ليكشف عليه وتنظم المحاضر وتجهز .

(١)

وأما ما أشار إليه من تجهيز وتعريف الحسبة بالأسعار عن البرّ الفلاني على العادة في ذلك إلى الأبواب الشريفة ، فقد علمنا ذلك ووصل ماجهزه من ذلك ، وأحاطت العلوم الشريفة بما أشتمل عليه ، وشكرنا همة المقر الكريم وسعيد تقدّماته ، وجميل أعماداته . وقد أعدنا الأمير فلانا بالجواب الشريف ، فيحيط علمه بذلك .

قلت : وعلى ذلك يُقاس ما يُكتب به إلى سائر التواب بالشام والديار المصرية فمن دونهم ممن جرت العادة بمكاتبته من الأبواب السلطانية في الابتداء والجواب .

المأخذ الثاني

(في معرفة أوضاع هذه المكاتب)

أول ما يجب من ذلك معرفة قطع الورق الذي يكتب فيه . وقد سبق في المقالة الثالثة في الكلام على قطع الورق بيان مقادير قطعه ، وأن من جملتها قطع العادة : وهو القطع الصغير . وفي هذا القطع تُكتب عامة المكاتب المتقدمة ، مما يكتب به لأرباب السيوف والأقلام بمصر والشام على اختلاف مقاديرهم ، وتباين مراتبهم

في الرَّفْعَةِ وَالضَّمْعَةِ؛ خلا ما تقدّم ذكره : من أنه كُتِبَ إلى والده السلطان الأشرف
« شعبان بن حسين » في قطع الشامى الكامل . وقد تقدّم هناك أنّ الكتابة في قطع
العادة جملةً تكون بقلم الرِّقَاع . فتكون كتابه جميع هذه المكاتبات به .

ثم أول ما يكتُبُ الكاتب في المكاتبة التعريفُ بالمكتوب إليه : وهو أن يكتُبُ
في رأس الدَّرَجِ ، من وجه الوصل ، من أوله ، من الجانب الأيمن « إلى فلان » .
ويكتب على سَمْتِهِ في الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » . ويكتب في وَسْطِهِمَا
على سَمْتَيْهِمَا التعريفُ بالعلامة التي تُكْتَبُ . فإن كانت العلامة الأسم ، كتب « الأسمُ
الشريفُ » . وإن كانت بالأخوة ، كُتِبَ « أخوه » . وإن كانت بالوالدية ، كتب
« والده » . ثم يَقلِبُ الدَّرَجَ فيكتب على ظاهره عنوانَ المكاتبة في أسفل ما كتب
عليه في رأس الورق باطنا من أول عرض الدَّرَجِ إلى آخر ألقاب المكتوب إليه .
ويقلب الدعاء المبتدأ به في المكاتبة ، فيدعوه به في آخر الألقاب . ثم يخلى بياضاً
ويكتب تعريف المكتوب إليه : من نياية سلطنة أو ولاية أو أسم أو غير ذلك .
وتكون الأسطر متقاربة متلاصقة .

فإن كان المكتوب إليه النائب الكافل مثلاً ، كتب في العنوان : « المقرّ ، الكريم ،
العالى ، الأميرى ، الكبيرى » إلى آخر ألقابه . فإذا آتته إلى آخر الألقاب ، كتب
« أعز الله تعالى أنصاره » . ثم يترك بياضاً ويكتب : « كافل الممالك الشريفة
الإسلامية أعلاها الله تعالى » بحيث ينتهى آخر كتابة ذلك إلى آخر السطر .

وإن كان المكتوب إليه كافل السلطنة بالشام ، كتب : « المقرّ الكريم » إلى آخر
الألقاب « أعز الله تعالى أنصاره » ثم يترك البياض المذكور ؛ ثم يكتب : « كافل
السلطنة الشريفة بالشام المحروس » .

وإن كان المكتوب إليه نائب السلطنة بجلَب ، كتب : « الجَنَابَ الكَرِيمَ » إلى آخر ألقابه « أعز الله تعالى نُصْرته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائبُ السلطنة الشريفة بجلَب المحروسة » .

وإن كان المكتوب إليه نائب الإسكندرية ، أو نائب طرابلس ، أو نائب حماة ، أو نائب صفد ، كتب : « الجَنَابَ العَالِيَّ » إلى آخر ألقابهم « ضاعف الله تعالى نعمته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السلطنة الشريفة بشغر الإسكندرية المحروس » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بصفد المحروسة » . وكذا في البواقي بحسب تعريف كل من المكتوب إليهم على ما مر ذكره في مواضعه .

ثم إذا كتب العنوان : فإن كان المكتوب إليه من يكتب له « المقتر الكريم » ، أو « الجَنَابَ العَالِيَّ » ، أو « المجلس العَالِيَّ » مع الدعاء ، ترك من أعلى الدرج ثلاثة أوصالٍ بياضا بالوصل المكتوب في ظاهره العُنْوَانُ ، ثم تكتب البسملة في رأس الوصل الرابع بهامش من الجانب الأيمن .

وإن كان المكتوبُ إليه ممن يُكْتَبُ له « المجلس العَالِيَّ » مع « صدرت » فما دون ذلك ، تُرِكَ في أعلى الدرج وصلانٍ بياضًا فقط . وتكتبُ البسملة في رأس الوصل الثالث ؛ ثم يكتبُ سطران من أوّل المكاتبة تحت البسملة على ستمتها ملاصقًا لها ؛ ثم يُحْتَلَى بِبَيْتِ العَلَامَةِ بياضًا ويكتب السطر الثاني على رأس إصبع (١) أو نحوه من أسفل ذلك الوصل ؛ ثم يكتب السطر الثالث في الوصل الذي يليه على بُعد ثلاثة أصابع معترضات من السطر الثاني ، ويؤتى على ذلك إلى آخر المكاتبة .

(١) المراد على قدر إصبع .

وقد كانت أوصال الورق في الزمن المتقدم طويلةً : فكان يُكتب في كل وصل ثلاثة أسطر ، وبين كل سطرين أكثر من عرض ثلاثة أصابع . أما الآن ، فقُصرت الأوصال ، وصار كل وصل لايسع في الغالب أكثر من سطرين . فإذا انتهى إلى آخر المكتبة ، أخلى بياضاً سيرا ، ثم كتب في وسط الوصل : « إن شاء الله تعالى » ثم يكتب : « كتب في كذا من شهر كذا » في سطر ، وتحت سنة كذا وكذا في سطر تحته ، بينهما قدر إصبعين ؛ ثم يكتب المستند بعد تقدير إصبعين . فإن كان بتلق كاتب السر كتب « حسب المرسوم الشريف » . وعلى ذلك يجري الحكم في جميع ما يكتب في البريد ، وهو المختص بالأمور السلطانية .

وإن كان من دار العدل بتلق كاتب السر أو أحد من كتاب الدست ، كتب : « حسب المرسوم الشريف » في سطر ، وتحت « من دار العدل الشريف » في سطر آخر . وإن كان بقصة مشمولة بخط السلطان ، كتب : « حسب الخط الشريف » بمقتضى أعلى ذلك . وإن كان بخط النائب الكافل ، كتب : « بالإشارة العالية الأميرية العالمية الفلانية » في سطر ، وتحت في سطر آخر « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان بأمر الوزير ، كتب « بالإشارة العالية الأميرية الوزيرية الفلانية » في سطر ، وتحت في سطر آخر « مدبر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالى » . وإن كان الوزير صاحب قلم ، كتب « بالإشارة العالية الوزيرية الصحافية الفلانية ، مدبر الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالى » سطرين على نحو ما تقدم . وإن كان برسالة الدوادار : فإن كان مقدم ألف ، كتب « برسالة الجناح العالی الأميری الكبيری الفلانی » في سطر ، وفي سطر آخر تحت « الدوادار الناصري أو الظاهري » ونحو ذلك « ضاعف الله تعالى نعمته » . وإن كان طبلخاناه ، كتب بدل الجناح « المجلس » ويدعوله « أدام الله تعالى

نعمته» . وإن كان بأمر الإستاذار ، كتب «بالإشارة العالية الأميرية الفلانية إستاذار الفلانية أعلاها الله تعالى» . وإن كان من ديوان الجيوش المنصورة ، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحت «من ديوان الجيوش المنصورة» في سطر آخر . وإن كان من ديوان الخواص الشريف ، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف من ديوان الخواص الشريف» على ماتقدم . وإن كان من الدولة الشريف : بأن يكون بخط ناظر الدواوين وهو قليل ، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف من الدولة الشريف» على نحو ماتقدم . وقد تقدم الكلام على المستندات في الجملة ، في مقدمة الكتاب عند الكلام على ديوان الإنشاء .

المَقْصِد الثاني

(في المكتبات العامة إلى أهل هذه المملكة : وهي المطلقات)

قال في "التعريف" : وأقسامها لا تخرج عن ثمانية أقسام : إلى الوجه القبلي ، وإلى الوجه البحري ، وإلى عامة الديار المصرية ، وإلى بعض البلاد الشامية ، وإلى البلاد المصرية والشامية ، وإلى الممالك الإسلامية وما جاورها ، وإلى بعض أولياء الدولة ؛ كالأمرء بدمشق أو حلب ، وإلى قبائل العرب ، أو التركمان ، أو الأكراد أو بعضهم .

قلت : والقاعدة في المطلقات أنه إذا اجتمع في المطلق كبار وصغار ، يلقب حكم الأكبر منهم على الأصغر : تعظيماً لأمر الأكبر . فإن كان في المطلق من الألقاب ماتخص به الأكبر دون غيرهم ، استوفى للكبير ما يختص به من الألقاب وأتى بالقدر المشترك فيه بعد ذلك .

ثم المطلقات منها ما يُحْتَم . قال في "التعريف" : وهو ما كان لبعض أولياء الدولة إذا كان في سِرِّيكُمْ ولا يُرَادُ إظهاره إلا عند الوُوف عليه ، فيُحْتَم على عادة الكُتُب . وهذا يكون عنوانه بظاهرة كما في غيره من المكاتبات المفردة .

ومنها ما لا يُحْتَم ، وهو سائر المطلقات . قال في "التعريف" : وعنوانها (مخالف لعنوان^(١)) الكُتُب المفردة للاحاد : فإنَّ تلك في ظاهر الورق ، وهذه في باطن الورق ، فوق وصلين أو ثلاثة ، فوق البسملة . ويقال فيها : مثلاً شريفٌ مطلقٌ إلى الولاية والثواب ، أو غير ذلك من نحو ما في الصدر ، فيصمّن العنوانُ ملخّص ما فيه . ثم يقال : على ما شرح فيه ، أو حسب ما شرح فيه . ومن قاعدتها أن يصرّح بذكر المكتوب إليهم في المطلق ، بخلاف غيرها من المكاتبات المفردة . قال في "التعريف" : ثم بعد التعريف في المطلقات الدعاء ، ثم الإفضاء إلى الكلام ، وفي آخرها يتعيّن أن يقال : «فليعلموا ذلك ويعتمدوه» .

وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأول

(المطلقات المكبّرة)

قال في "التعريف" : وهي ما يكتب إلى سائر الثواب بالمالك الشريفة ، خلا سبب فإنها مستجدة ، غير أنه إن رسم باضاقة إليهم ، فيحتاج إلى تحرير الحال في أمره : هل يكتب له بعد نائب طرابلس أو بعد نائب صفد ؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدم العسكر بغزة ، ولا نائب الكرك ، لأن رتبته في المكاتبه أعلى منهما . فإنها نظير مكاتبه نائب طرابلس وحماة وصفد .

(١) في الاصل "وعنوانها كعنوان" الخ وهو خطأ والنصحیح من التعريف (ص ٨٢)

قلت : هذا على ما كان الامر أستقر عليه من كونها نياحة في أول الامر ، أما بعد
استقرارها تقدمت عسكراً ، فإنه يكون بعد مقدم العسكر بغزة : لأن كلاً منهما مقدم
عسكراً ، ومقدم العسكر بغزة أقدم من مقدم العسكر بسيس . وأيضاً فإن غزوة
مضافة إلى دمشق وسيس مضافة إلى حلب ، ودمشق أكبر من حلب .
قال في "التتيف" : وصورة هذا المطاق أن يكتب في الطرة : «مثال شريف
مطلق إلى الجنابين الكريمين ، العالين ، الأميرين ، الكافلين ، الفلانيين ، نايجي
السلطنة الشريفة بالشام وحلب المحروستين ، أعز الله تعالى نصرتهما ، وإلى الجنابات
العالية الأميرية الفلانية أو الفلاني والفلاني» على الترتيب . ثم يقال : «تؤاب السلطنة
الشريفة بطرأبؤس وصدق وحماة المحروسات . وإلى الجناب العالي والمجلس العالي
الأميري الأميرين الفلانيين أو الفلاني والفلاني ، مقدم العسكر المنصور بغزة
المحروسة ، ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس ، أدام الله تعالى نعمتهما ، بما رسم
لهم به أن يتقدم أمرهم الكريم بكذا وكذا ويشرح ما رسم به إلى آخره . ثم يُحلي
بباصاً سيراً . ثم يكتب «على ما شرح فيه» ويترك ثلاثة أوصال بياضاً بالوصل الذي
تكتب فيه الطرة . ثم تكتب البسملة في أعلى الوصل الرابع . ثم يكتب قبل آخره
بإصبعين ماصورته : «أعز الله تعالى نصره الجنابين الكريمين ! وضاعف وأدام نعمة
الجناب العالي ، والمجلس العالي ، الأميرية ، الكبيرة ، العالمية ، العادلية ، المؤيدية ،
الزعيمية ، العوثية ، العياثية ، المتأخرية ، المرابطية ، المشيدية ، الظهيرية ، الكافية ،
الفلانية أو الفلاني والفلاني» إلى آخرهم : «أعزاء الإسلام والمسلمين ، سادات
الأمرء في العالمين ، أنصار الغزاة والمجاهدين ، زعماء الحيوش ، مقدمي العساكر ،
مهدي الدول ، مشيدي الممالك ، عمادات الملة ، أعوان الأمة ، ظهيري الملوك
والسلاطين ، سيوف أمير المؤمنين ، تؤاب السلطنة الشريفة بالشام وحلب

وطرأ بلس وحماء وصفد المحروسات ، ومقدم العسكر المنصور بغزة المحروسة ،
 ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس « ثم الدعاء لهم بصيغة الجمع . ثم يقال :
 « صدرت هذه المكاتب إلى الجنابين الكريمين والجنابات العالية ، والمجلس العالى ،
 تهدي إليهم من السلام كذا ، وتوضح لعلمهم الكريم كذا وكذا ، فيحيط علمهم الكريم
 بذلك ، والله تعالى يؤيدهم بمنه وكرمه » . وتكلم بالمشيئة وما بعدها . والعلامة
 « أخوهم » . قال : في « التثقيف » : وإن أضيف إليهم نائب سيسى (١)
 في الطرة والصدر حسب ما تقدم ذكره .

قال في « التثقيف » : ومما ينبه عليه أنه قد يكتب تارة إلى بعض هؤلاء التواب
 ويختصر البعض ، بحسب ما تدعو الحاجة إليه ، فيكتب كذلك ويختصر منه من
 رسم باختصاره ، ويذكر كل واحد منهم في محله ومرتبته على الصورة المتقدمة من
 غير تقديم ولا تأخير ، ولا زيادة ولا نقص . ثم قال : وهذا هو الذي لم يزل الحال
 مستقرا عليه حين كانت مكاتبه نائب الشام « الجناب الكريم » نظير نائب حلب .
 أما الآن حيث استقرت مكاتبته « المقر الكريم » . فإنه لا يليق أن يكتب لغيره بالقباه
 الخاصة به . وإن اختصرت الألقاب الخاصة به كان فيه نقص لرتبته ؛ فيلزم من
 ذلك أن يكتب إليه على أفرادها ، ويكتب المطلق لمن رسم به ممن عداه من
 التواب المذكورين .

قلت : وقد رأيت في بعض الدساتير كتابة المطلق الشامل لكافل الشام وغيره من
 التواب بعد استقرار مكاتبه نائب الشام بالمقر الكريم على صورتين :

(١) بياض بالأصل ولعله يضاف ، أو أضيف في الطرة الخ .

الصورة الأولى — أن تُستوفى ألقابُ المقترِّ الكَرِيم بدعائه، ويؤثى بألقابه الخِصَّة به، ثم يُعطَّف عليه الجَناب الكَرِيم، والجَنابات العالِية، والمجالس العالِية، بالألقاب المُشترَكة؛ ويميِّز ما يمكن تميِّزه منها، ويكجِّل على نحو ما تقدَّم: وذلك بأن يكتب في الطرَّة «مثالُ شريفٍ مطلقٌ إلى كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أعزَّ الله تعالى أنصاره؛ وتُوابِ السلطنة الشريفة بجلب، وطرابُلس، وحمَّاة، وصَفَدَ، ضاعف الله تعالى نعمتهم؛ ومقدِّم العسكر المنصور بغزَّة وسيس المحروستين، أدام الله تعالى نعمتهما بما رسم لهم به» إلى آخره. ثم يُجَلِّي ثلاثة أوصال، على ما تقدَّم؛ ويُكْتَب تلوَّ البسملة في أوَّل الوصل الرابع: «أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقترِّ الكَرِيم العالِية، المُوَلَّوي، الأُميري، الكبيري، العايدِي، النَّاسِكِي، الأتايِكِي، ونُصرة الجَناب الكَرِيم، وضاعف وأدام نعمة الجَنابات، والمجالس العالِية، الأُميريَّة، الكبيريَّة، العالِية، العادِليَّة، المُتاغِريَّة، المرابطيَّة، العونيَّة، الذُخريَّة، الغياثيَّة، المهدِيَّة، المشيَّديَّة، المُقدِّميَّة، الظهيريَّة، الكافليَّة، الفلاني والفلاني» إلى آخرهم: «معزِّ وعزِّ الإسلام والمسلمين، سيِّدى الأُمراء في العالمين، ناصر ونُصرة العزَّاة والمجاهدين، زُعماء الجيوش أتاك ومقدِّمى العساكر، مُمهدى الدول، مشيَّدى الممالك، أعوانِ الأُمَّة، كُهوِّف الملة، ظُهرَاء الملوك والسلاطين، عَضد وسيوف أمير المؤمنين، كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس، وتُوابِ السلطنة الشريفة بجلب، وطرابُلس، وحمَّاة؛ ومقدِّم العسكر بغزَّة وسيس؛ ونائب السلطنة الشريفة بالكرك المحروس» ولا زال إلى آخره. «أصدرناها إلى المقترِّ والجَناب الكَرِيم والجَنابات والمجالس العالِية، تُهدى اليهم من السلام كذا، ومن التَّناء كذا، وتُبدي لهم الكَرِيم كذا وكذا. ومرسومنا للمقرِّ والجَناب الكَرِيم والجَنابات والمجالس العالِية أن يتقدَّموا بكذا وكذا، فيُحيط علمهم بذلك».

الصورة الثانية - أن تُكْتَبَ الطَّرَّةُ على ماتقدم؛ ثم تكتبُ ألقابُ المقرِّ إلى آخرها . ثم يقال : « وتبدي لعلمه الكريم وعلم الجنباب الكريم والجنابات العالية والمجلس العالى الأميرية الكبيرة» إلى آخر الألقاب «أن الأمر كذا وكذا . ومرسومنا للمقر والجناب الكريمين والجنابات العالية والمجلس العالى أن يتقدموا بكذا وكذا، فيحيط علمهم بذلك» والعلامةُ في هذا المطلق «أخوهم» اعتبارا بالعلامة إلى كافل الشام ونائب السلطنة بحلب .

الضرب الثانى

(المطلقات المصغرة)

وقد ذكرها في "التعريف" قواعد كلية، وأشار إلى اختلاف مقاصدها في ضمن الكلام الجُمْلِيّ، فقال : وفي كلّها يُكْتَبُ : « مثلنا هذا إلى كلّ واقف عليه من المجالس السامية ، الأمراء ، الأجلء ، الأكابر ، المجاهدين ، المؤيدين ، الأنصار ، الغزاة ، الأتجاد ، الأتجاد ، أمجاد الإسلام ، أشراف الأمراء ، أعوان الدولة ، عَدَدُ الملوك والسلطين : الولاة ، والنواب ، والشادّين ، والمتصرّفين ، بالوجه الفلانى ، أو بالديار المصرية ، أو بالبلاد الشامية ، [أو بالبلاد الفلانية ، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية^(١)] وسائر الممالك الاسلامية » . قال : وقد يزداد في هذا لمقتضيه : « والتتور والحُصُون والأطراف المحروسة » . قال : فإذا كان إلى الممالك الاسلامية ، قيل « بالديار المصرية ، والبلاد الشامية ، وسائر الممالك المحروسة ، وما جاورها من البلاد الشرقية ، والممالك القانية » . وقد تكون إلى جهة الرُّوم . فيقال : « وما جاورها من البلاد الرومية وما يليها » . ثم عَقَّبَ ذلك بأن قال : فأما إذا كان إلى بعض أولياء

(١) ساقط من قلم الناسخ والتصحيح من التعريف .

الدولة نظر : فإن كان إلى عامّة أمراء دمشق ، قيل : « صدرت هذه المكتبة إلى المجالس العالية الأمراء » . وبقية الألقاب من نسبة ما يكتب للجلوس العالي . فإذا آتتهى إلى أعضاء الملوك والسلاطين ، [أو عضد الملوك والسلاطين ويحوز إطلاق هذا الافراد على الجمع ^(١)] قال : جماعة الأمراء مقدمى الألوّف ، وأمراء الطبليخاناه ، وسائر [مجالس الأمراء] أمراء العشرات ، ومقدمى الحلقة المنصورة . وإن كان يكتب إلى حلب أو غيرها من الممالك فبالسامية . وإن كان لأمراء العربان أو الأتراك أو الأكراد ، كتب على عادة المطلقات بالسامية ، وكتب بعد عدد الملوك والسلاطين « الجماعة الفلانية » أو غير ذلك مما يقتضى التعريف بن كتب إليه .

أما فى "التتقيف" فقد رتبّ المطلقات المصغرة على ستة أصناف :

الصنف الأول — المطلقات إلى جميع نواب القلاع بالمملكة الشامية ، أو بالمملكة الحليّة .

وصورة ما يكتب إليهم فى الطرة : « مثأل شريف مطلق إلى المجالس العالية والسامية الأميرية ، ومجالس الأمراء النواب بالقلاع الفلانية المحروسة ، أدام الله تعالى نعمتهم بما رسم لهم به من كذا وكذا » إلى آخره . ثم يقال : على ما شرح فيه ، ثم يُحلى وصلان بياضا بوصل الطرة ؛ ثم تكتب البسملة فى أعلى الوصل الثالث ؛ ثم يكتب بعد البسملة : « صدرت هذه المكتبة إلى المجالس العالية والسامية الأميرية » وبقية ألقابهم . « ومجالس الأمراء الأجلاء ، الأكابر ، المجاهدين ، المؤيدين ، الأنصار ، أجداد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء فى العالمين ، أنصار الغزاة والمجاهدين ، مقدمى العساكر ، كهوف الملة ، أعوان الأمة ، ظهرى الملوك

(١) الزيادة من التعريف .

والسلاطين، التّواب بالقلاع المنصورة بالملكة الفلانية المحروسة». والدعاء إلى آخره «موضحة لعلمهم كذا وكذا . ومرسومنا للجالس العالية والسامية ، ومجالس الأمراء أن يتقدموا بكذا وكذا ، فيحيطُ علمهم بذلك . والله تعالى يؤيدهم بمنه وكرمه» والعلامة «والدهم» .

الصف الثاني — المطلقات إلى أصغر تواب القلاع، ممن يكتب إليه بالسامية بالياء، أو بالسامى بغير ياء، أو بمجلس الأمير .

وصورة ما يكتب إليهم في الطرة : « مثلاً شريف مطلق إلى المجالس السامية، ومجالس الأمراء التواب بالقلاع الفلانية ، أو يولاية فلانة وفلانة ، أدام الله تعالى علوهم» بما رُسم لهم به نظير ما تقدم . وبعد البسملة : «مثالنا هذا إلى كل واقف عليه من المجالس السامية، ومجالس الأمراء، الأجلاء، الأكابر، الغزاة، المجاهدين، المؤيدين، الأنصار، أمجاد الإسلام ، أشرف الأمراء، زُيون المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين، أو عدد الملوك والسلاطين، التواب بالقلاع الفلانية المحروسة» حسب ما كتب في الطرة ، والدعاء « يتضمن إعلامهم أن الأمر كذا وكذا ومرسومنا للجالس السامية ومجالس الأمراء أن يتقدموا بكذا وكذا ، فليعلموا ذلك ويعتمدوه ويعملوا بحسبه ، والله الموفق بمنه وكرمه» والعلامة الأسم الشريف .

الصف الثالث — المطلقات إلى عربان الطاعة بالمالك الشامية .

والأمر فيه كما في الصف الذي قبله . قال في «التثقيف» : فإن كان المطلق إلى طائفة من العربان ممن له عادة بمكاتبة جليلة : بأن تكون العلامة « والده» أو نحو ذلك : كآل مهنا، وآل فضل، وآل علي، وآل مرآ، ونحوهم، فإنه تكون صورة ما يكتب في الطرة : «مثال شريف مطلق إلى جماعة العربان، آل فلان»

إلى آخره . وفي الصدر بعد البسملة : «مثالنا هذا إلى كلِّ واقف عليه من المجالس السامية ومجالس الأمراء» وبقية الألقاب «الكُشَّاف^(١) والوَلَاة والتَّوَاب بالوجهين القبلي والبحري» . ثم الدعاء . ثم يقال : «يتضمَّن إعلامهم كذا وكذا» . ثم البقية من نسبة ما تقدَّم .

قال في "التثقيف" : وغالبا يُفرد الوجه القبلي بمطلق شريف ، والوجه البحري بمطلق شريف . قال : وقد تضاف إلى الوجه البحري الثُّغُور . فيقال : «الكُشَّاف والوَلَاة والتَّوَاب بالوجه البحري والثُّغُور المحروسة» . قال : وإضافة الثُّغُور لاتقع إلا نادرا ، لا سيما وقد صار نغرا الإسكندرية نياية لا ولاية . ثم قال : وفي هذا الوقت قد يتعدَّر إضافة نائب الوجه القبلي مع الوَلَاة في المطلق لأرتفاع مكاتبته عنهم بدرجات ، فيفرد بمثال شريف ، ويكتب المطلق إلى بقية الكُشَّاف والوَلَاة . ثم قال : هذا الذي يظهر .

قلت : ويمكن أن يجمع معهم ، بأن يكتب : «أدام الله تعالى نعمة الجنب العالی» إلى آخره . ثم يقال : «صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالی» إلى آخره «وتوضَّح لعلمه الكريم وعلم المجالس السامية ومجالس الأمراء» إلى آخر ألقابهم «الوَلَاة بالوجه القبلي» أن الأمر كذا وكذا : ويكمل على ما تقدَّم .

قال في "التثقيف" : ومما جرت العادة به أن يكتب مطلق شريف إلى الأمراء بالملكة الطرابلسية ، أو الحموية ، أو الصَّفدية وغيرها ، عند ولاية نائب السلطنة

(١) من هنا إلى قوله بعد قال في التثقيف ومما جرت العادة به الخ لا يتعلق بالكلام على مطلقات عربان الطاعة بالملك الشامية الذي هو موضوع الصنف الثالث كما لا يخفى ، ولعله مقدَّم مما يأتي بعد في الكلام على المطلقات بالديار المصرية فتنبه .

بتلك المملكة بإعلامهم بذلك ؛ فيكتب على هذا الحكم، ولكنه بعنوانٍ بغير طُرَّة .
قال : وصورته في الصدر بعد البسملة : « مثألنا هذا إلى كل واقف عليه من المجالس
السامية ، ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكبر » إلى آخر الألقاب ، والدعاء « يتضمن
إعلامهم كذا وكذا » إلى آخره كما تقدم ، ولكنه لا يصرّح بذكر الولاية والنواب كما يصرّح
بذكر من يُكتب إليه المطلق في غير هذه الحالة . والعنوان : « المجالس السامية
ومجالس الأمراء الأجلّاء الأكبر » إلى آخر الألقاب والنعوت جميعها ، والدعاء ،
والتعريف « أمراء الطبّخانات والعشّرات بطرابلس المحروسة ، أو بحماة ، أو بصفد ،
أو بغزة . قال : أما مملكتنا الشام وحلب ، فإنه لم تجر العادة بكاتبه مطلق بولاية
نائبهما ، بل يكتب إلى أمير حاجب بتلك المملكة بإعلامه بذلك . وأما الكرك :
فإنه يكتب إلى والي القلعة به بمثل ذلك . وكذلك يكتب إلى الحاجب
بالإسكندرية مثل ذلك .

وهذان شيان يجب التنبه لهما .

(١)

أحدهما كل ما كان من ألقاب المطلقات بصيغة الجمع وهو
كأعضاء، فإنه يجوز فيه الأفراد فيقال : فيه عَضُد، وهذا مما نبّه عليه في "التعريف"
في الكلام على المطلقات .

الثاني . قال في "التثقيف" : فإن قلت : لأي شيء تُذكر أسماء الولاية والنواب
والعربان وغيرهم في الصدر بعد تمام النعوت وقبل الدعاء، ولا تُكتب في صدر
المطلقات إلى الأمراء بالملك المتقدمة الذكر عند ولاية النائب بها أو غيره ؟

(١) يياض بالأصل . ولعله وهو في الأصل مصدر كأعضاء الخ كما تقدم مثله للؤلؤ في الألقاب

فالجواب أن ذلك في صدر المثال الشريف هو التعريفُ الذي من عادته أن يكون في العُنوان ولا يُستغنى عنه فهو قائم مقامه ، حيث لأعنوان لذلك المطلق ، إنما هو بطرّة لا غير ، ولها عُنوانات ، والتعريف مذكورٌ فيها فلا حاجة إلى ذكره في الصدر . ثم قال : ومن الجماعة من يُنازع في ذلك ، ويدعى أن ذلك في الطرّة كافٍ ومعين عن ذكره في الصدر، وقائمٌ مقام التعريف في العُنوان . ثم قال : وهو خطأ، وليس بشيء . والأصح ما قلناه .

(١)
[الصنف] الرابع — قال في "التثقيف" : إذا كان المطلق في أمر يتعلق بالديار المصرية والبلاد الشامية، تكون صورته « إلى الكُشّاف والوَلَاة والنوّاب والشادّين والمتصرفين بالطُرقات المصرية والبلاد الشامية . وإن كان يتعلق بالبلاد الشامية خاصة، اختصر منه ذكر الطرقات المصرية » .

(١)
[الصنف] الخامس — ذكر في "التعريف" أنه يقال في آخر المطلقات بعدَ فليعلموا ذلك ويعتمدوه : « بعد انخط الشريف » . قال في "التثقيف" ولعل هذا كان في الزمن الذي كان هو مباشرا فيه ، أما الآن فإنه لم تجر بذلك عادةً ، ولم يكتب ذلك في مطلق شريف مكبرٌ ولا غيره أصلا .

(١)
[الصنف] السادس — ذكر في "التثقيف" أنه رأى بخط القاضي ناصر الدين ابن النشائي أنه كتب مطلقا إلى المجاهدين بمصياف ؛ يعني السداوية صورته : « يعلم كل واقف على مثالنا هذا من المقدمين الأجلاء الغزاة المجاهدين المؤيدين الأنصار، الأتابك فلان والأتابك فلان جماعة المجاهدين » ثم الدعاء .

(١) زدنا هذا اللفظ توضيحا للقام وتبعا لمقسم الكلام .

الضرب الثاني

(من المطلقات، البرّاع)

(١) بالباء الموحدة والراء المهملة والألف واللام والغين المعجمة جمع برّاع، وهي لفظة تركية معناها المرسوم؛ وعليها جرى عُرف كُتاب بلاد الشرق، وقيل أن تُكْتَب بالديار المصرية، ولذلك لم يتعرّض لها في "التعريف" ولا في "التتقيف": وهذه صورة برّاع شريف رأيتها في تذكرة المقتّر الشهابي بن فضل الله في الجزء السادس والأربعين منها، بخط أخيه المقتّر العلائي بن فضل الله رحمهما الله تعالى؛ كتب في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون». في عاشر شهر رجب الفرد سنة تسع وعشرين وسبعمائة لتمرّبغاً، الرسول الواصل إلى الديار المصرية، عن القان أبي سعيد صاحب مملكة إيران بالإكرام والمساحة بما يلزمه. وصورته في أول الدرج.

مثال شريف مطلق إلى كافة من يصل إليه، ويقف عليه، للجلس السامى الأميرى السيفى تمرّبغا الرسول، بالطرخانية، وتمكين أصحابه من التردد إلى الممالك الشريفة الإسلامية، وإكرام حاشيتهم وتسهيل مطلبهم، ومساعدتهم في البيع والشراء بما طلب من الحقوق على اختلافها، وتحذير من سيمع هذه المراسيم المطاعة ثم أقدم على خلافها. وبعد البسملة:

الحمد لله الذى بسط أيدينا الشريفة بالحدود، ونصب أبواننا الشريفة كعبة تهوى إليها أفئدة الوفود، وأطاب مناهلها لكافة الأمم لتتناها في الصدور والورود.

نحمده على نعمه التى كم بلغت راجياً ما يرجوه، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبيض بها الوجوه، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى ندب

(١) كتب بهامش الأصل ما نصه «لولم يقيدته بالباء الموحدة لكان أولى على ما لا يخفى» ومراده أنه بالبناء التحتية كما تقدم.

إلى مكارم الاخلاق بقوله : « إذا أناكم كريم قويم فأكرموه » ؛ صلى الله عليه صلاةً تزيد من يقرن الثناء بهاتكريما ، ثم على آله وصحبه وسلم تسليما .

وبعد : فإنه لما حضر المجلس السامى الأميرى ، الأسفَهَسَلارى ، السيفى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدمين ؛ ناصح الدولتين ، ثقة المملكتين ؛ نقرُ الخواصِّ المقرَّبين ، عضدُ الملوك والسلاطين ؛ تمرغا الرسول - أنجح الله تعالى مساعيه ، وأوجب الرعاية لمن يُراعيه - إلى أبوابنا الشريفة ونور ولائه يسعُ بين يديه ، وإخلاص نيته يظهر عليه ؛ بلغ إلينا ما أرسل فيه عن الحضرة الشريفة العالمة ، السلطانية ، العالمية ، العادلة ، الشاهنشاهية ، القانية ، الأوحديّة ، الولديّة ، العزيزية ، المعظميّة ، الملكيّة ، العالائيّة ؛ أبى سعيد بهادر خان - زیدت عظمتُه - وظهر لنا من كمال صفاته مارحى البدر التمام بنقصه ، ومن حسن تآتیه فى خدمة من أرسله ما يُعرف به أنه أرسل حكما ولم يُوصّه ؛ وعرض على نظرنا الشريف البرغ الشريف المكتتب له عن الحضرة الشريفة ، السلطان الأعظم ، الولد العزيز المعظم ؛ الملك بوسعيد ، أعز الله تعالى شأنه بالطرخانيه ، وما نبه عليه من مكانته العلية ، ورفه مطالبه من تأكيد الوصيه ؛ ثم رغب إلينا فى الكتابة على حُكْمِهِ إلى كافة الممالك ، وأن يُسَطَّر له منها صحائفُ حسنات تقضى بها الملوك وترضى بها الملائك ؛ فأجرته مراحنا الشريفة على كرمها المعتاد ؛ وأجارتها نِعْمنا الجزيلة وجاورته حيث سار من الأرض أو أقام من البلاد ؛ وأجابت صدقاتنا الشريفة بتحقيق المأمول ، وأكرمت كتابه بما يستحق أن يكرم به كتابُ الرسول . ومرسومنا إلى كل واقف عليه من النّوَاب والوَلَاة والشادّين والمتصرفين والمباشرين والمتحدّثين وبقية الحكام أجمعين إلى كافة الممالك الشريفة الإسلامية شرقا وغربا ، وبعدا وقربا ؛ أيدهم الله بالتوفيق ، ويسر لهم الطريق ، وجعل حُسن تلقّيهم الوفود يأتي بهم من كل فج عميق ؛ أن يُجرى

الأمير الكبير المقرب ترمبغا الرسول على ما ألقه في أبوابنا الشريفة من كرم إكرامه ، وفارقنا عليه من توفير جانبه وتوفير احترامه ؛ ويُفسح لكل من يصل من جهته في التردد إلى هذه الممالك الشريفة ، والتردى بملابس النعم المطيفة ؛ وأن تضاعف له الإعانة والعناية ، والمراعاة والرعاية ؛ ولا يُطلب أحد منهم في البيع والشراء ، والأخذ والعطاء ؛ بشيء من المقررات الديوانية ، والموجبات السلطانية ؛ ولا يؤخذ منهم عليها شيء سواء كان قليلاً أو كثيراً ، جليلاً أو حقيراً ؛ ولا يتأول عليهم أحدٌ في هذا المرسوم الشريف ، ولا يتعدى حكمه في تصرف ولا تصرف ؛ بل يقف كل واقف عليه عنده ، ويعمل به في اليوم وما بعده ، ولا يحظ منه على من خالفه سيقاً مسلولاً وعلى من تجاوز حده ؛ فنحن نحذر وننذر من سطواتنا الشريفة من سمعه ثم زاغ قلبه عنه ، أو من بلغه من لا يفهم مضمونه ثم لا يسأل عما هو فرب حامل كلام إلى من هو أوعى منه ؛ فلتكن عيونهم له مُراعِيه ، ومسامعهم منصتة إلى سماعه بأذن واعيه ؛ والاعتماد على الخطّ الشريف أعلاه الله تعالى وشرقه .

المقصد الثالث

(من المكاتبات ، في أوراق الجواز وبطاق الحمام ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في أوراق الجواز)

وهي المعبر عنه في زماننا بأوراق الطريق . قال في "التثقيف" : تكون ورقة الطريق في ثلاثة أوصال في قطع العادة ، يُكتب في أعلاها سطر واحد ، صورته : « ورقة طريق على يد فلان بن فلان الفلاني » لا غير . ثم يُجلى بيت العلامة تقدير شهر ، ويكتب في بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثاني بأربعة أصابع مطبوقه بغير

بسملة : « رُسِمَ بالامر الشريف العالى المولوى السلطانى الملكى الفلانى - أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه - أن يَمَكَّن فلان الفلانى » . وتذكر ألقابه إن كان أميراً ، أو متعمماً كبيراً ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة أو غير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال « من التوجه إلى جهة قصده والعود . ويحمل على فريس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور من مركزٍ إلى مركزٍ على العادة متوجّهاً وعائداً » فإن كان متميز المقدار كُتِبَ : « ويعامل بالاكرام والاحترام ، والرعاية الوافرة الأقسام ؛ فليعتمد ذلك ويعمل بحسبه ، من غير عدول عنه بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه » . قال : وما تقدم من كتابة أنه يَمَكَّن من التوجه والعود ، هو فيما إذا كان عائداً ورُسِمَ بتَمَكِينه من العود ، وإلا فيكتب « أن يَمَكَّن من التوجه إلى جهة قصده » . فإن كان قد حضر إلى الأبواب وهو عائداً ، فالأحسن أن يكتب فيه « أن يَمَكَّن من العود إلى جهة قصده » . وكذا « ويعامل بالإكرام والاحترام » لا يكتب إلا لأمر ، أو ذى قدر كبير . فإن كان غيره ، كتب [بد] له « مع الوصية به ورعايته » ونحو ذلك . وإن رسم له بنفقة ، كتب بعد ذكر خيل البريد : « ويصرف له من النفقة في كل يوم كذا وكذا درهما » خلا الأماكن المرسوم باطلها . وذلك أن بالطرق أماكن لا يُصرف فيها شيء الآن ، فيحتاج إلى أن تُستثنى ، وكانت قبل ذلك تُعَيَّن ، وهى : بلبس ، وطفيس ، وأربد وغيرها . ثم كثرت عن التعداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : ومما ينبى عليه أن صاحب ورقة الطريق إن كان من ممالك التواب أو رُسل أحد من أكابر البلاد ، ذكر فيه بعد ذكر ما يليق به من الألقاب : « فلان مملوك فلان أو رسول فلان » . وتذكر ألقاب مخدمه التى كوتب بها اختصاراً . ^(١) والا تذكر نعوته على يد من رسم بنفيه ،

(١) كذا فى الاصل ولعله ولا تذكر نعوته وعلى يد من ، وإن رسم بنفيه كتب الخ تأمل .

كتب : « أن يمكّن الأميرُ فلان الدين فلان من التوجه صُحبةً فلان البريديّ بالأبواب الشريفة ، أو أحد النقباء بالبواب الشريف ليوصله إلى المكان الفلاني ، ويحمل على كذا وكذا فرساً من خيل البريد المنصور » إن كان قد رُسم له بشيء من خيل البريد « ويحمل البريدي على كذا من خيل البريد المنصور » أو « ويحمل النقيبُ على فرسٍ واحدٍ من خيل الكبراء من ولاية إلى ولاية على العادة في ذلك ، ويمكّن البريديّ إن كان بردياً أو النقيبُ إن كان نقيباً من العود إلى الباب الشريف » . ثم يكمل بنسبة ما تقدم . وإذا فرغ من صورته ، كتب بعد ذلك « إن شاء الله تعالى » ، ثم التاريخ والمستند على العادة .

قال : في «التثقيف» : والمستند في أوراق الطريق أحدُ ثلاثة أمور : إما خطُّ كاتب السر ، وهو الغالب . أو رسالةُ الدوّادار ، وهو كثير أيضاً . أو إشارةُ نائب السلطان إن كان ثمّ نائب ، وهو نادر . فإن كان بخطّ كاتب السر ، كُتِب على الهامش من الجانب الأيمن سَطْر واحد يكون آخرُه يقابل السطرَ الأول الذي هو رُسم بالأمر الشريف ، وهو « حَسَبَ المرسوم الشريف » . وكذا إن كان بإشارةِ النائب ، كُتِب سطران على الهامش المذكور آخرهما أيضاً يقابل أول السطر الأول « بالإشارة العالية » كما تقدّم في الكلام على المستندات في المقالة الثانية . قال :^(١) وفي هاتين لا يُكْتَب في ذيلهما بعد التاريخ سوى الحسبلة لا غير . وإن كان برسالة الدوّادار ، كتب على الهامش « حَسَبَ المرسوم الشريف » فقط ، وكُتِب تحت التاريخ سطران هما « رسالة المجلس العالي الأميريّ الفلاني فلان الدوّادار المنصوريّ أدام الله تعالى نعمته » ، ثم الحسبلة .

(١) صوابه الثالثة . والذي تقدم في ج ٦ ص ٢٦٤ « فيكتب » - بالإشارة العالية الأميرية الكبيرة الكافية ، كافل المسالك الشريفة الاسلامية أعلاها الله تعالى - سطرين ويكون آخر السطر الأول الكافية الفلانية .

الجملة الثانية

(في نُسْخِ البَطَائِقِ ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(أن تكون البِطَاقَةُ بعلامةٍ شريفةٍ)

قال في "التثقيف" : وتكونُ نحوَ ثُلثي وَصَل من ورق البَطَائِقِ . قال : وصورتها أن يكتب في رأس الورق المذكور في الوسط سواءً « الأسمُ الشريف » وتحتَه مُلصَقاً به من غير بياض سَطْرٌ واحدٌ كامل من يمين الورق بغير هامش بما يأتي ذكره . ثم يُجَلَى بيْتُ العلامةِ تقديراً أربعة أصابع مطبوقيةً ، ثم تُكْتَبُ نِمْطَةُ الكلامِ أسطراً متلاصقةً بنسبة الأول ، بغير هامش أصلاً إلى آخره . والذي يكتب من يمين الورق . « الله الهادى . سُرح الطائر الميمونُ ورفيقه ، هداهما الله تعالى في الساعة الفلانية من اليوم الفلاني من الشهر الفلاني من سنة كذا وكذا ، إلى المجلس الكريم ، أو النسامي ، الأمير فلان وإلى فلانة ، أو نحو ذلك ، يُعلمه أن الأمر كذا وكذا . ومرسومنا له أن يتقدم بكذا وكذا ، فليعلم ذلك ويعتمده ، والله الموفق بمنه وكرمه إن شاء الله تعالى ، حَسْبنا الله ونعم الوكيل » . والمستند لها « حَسَبَ المرسوم الشريف » .

الضرب الثاني

(أن تكون بغير علامة)

وصورتها أن يكتب في رأس الورقة في الوسط موضع الأسم : « الله الهادى بكرمه » ، والأسطر متلاصقةً بغير هامش ، ولا يُجَلَى فيها بيْتُ علامة . وصورة

ما يكتب فيها : « المرسوم بالأمر الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ،
 الفلانى ، الفلانى ، أعلاه الله تعالى وصرّفه - أن يمرّح هذا الطائر الميمون ورفيقه ،
 هداهما الله تعالى فى وقت كذا وكذا » . ويكجلى على حسب ما تقدّم « والله الموفق ،
 حسب المرسوم الشريف ، إن شاء الله تعالى » . قال فى « التثقيف » : وقد يقتضى
 الحال نقلها من مكان إلى مكان آخر ، مثل أن تنقل من بلبس إلى قطياً ، فيكتب بعد
 ذكر المرسوم به : « ويتقدّم بنقل هذه البطاقة إلى فلان الفلانى ليعتمد مضمونها
 ويعمل بحسبها » . فإن كانت منقولة إلى مكان ثالث ، كتب بعد ذلك : « ثم ينقلها
 إلى فلان ليعتمد مضمونها أيضا ويعمل بمقتضاها فيعلم ذلك ويعتمده » . والتتمة
 حسب ما تقدّم .

الطرف الثالث

(فى المكاتبات إلى عطاء ملوك الإسلام ، ومن أنطوت عليه ممالكهم من دونهم
 من الملوك والحكام المنفردين ببعض البلدان ، والأمراء والوزراء وسائر
 من صمّه نطاق كل مملكة من تلك الممالك ، ممن جرت العادة بمكاتبتهم
 عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، ممن هو مستمر المكاتبه
 أو زالت مكاتبته بزواله : ليقاس عليه من لعله يظهر مظهره)
 وأعلم أن مكاتب الديار المصرية يراعون فى المكاتبه إلى كل مملكة صورة المكاتبه
 الواردة عن تلك المملكة فى غالب حالها : فى الأبتداء والخطاب والأختتام وغير ذلك .

وفيه أربعة مقاصد :

المقصد الأول

(في المكاتب إلى عطاء ملوك الشرق، ومن أنطوت عليه كل مملكة من ممالكهم، ممن جرت العادة بمكاتبته، وفيه أربعة مهايع)

المهيع الأول

(في المكتبة إلى الملوك والحكام، ومن جرى مجراهم بمملكة إيران، وهي مملكة الأكَسرة الصائرة إلى بيت هولاكو من بني جنكوخان)

وقد تقدم في المقالة الثالثة في الكلام على المسالك والممالك ذكر حدود هذه المملكة وقواعدها ومُدنها، وإلى من تُنسب، ومن ملكها جاهليَّةً وإسلامًا إلى زماننا. والمقصود هنا ذكر المكاتب فقط؛ ويشتمل المقصود منها على ثلاث مجل.

الجملة الأولى

(في رسم المكتبة إلى قانها الأعظم الجامع لحدودها، على ما كان الأمر عليه من مبدأ ملك بيت هولاكو وإلى آخر دولة أبي سعيد، وله حالتان)

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه في رسم المكتبة في أوائل الدولة التُركية، والعداوة بعد قائمة بين ملوك الديار المصرية وبين ملوكها. وفيه أسلوبان

الأسلوب الأول — أن يكتب تحت البسملة من الجانب الأيمن «بقوة الله تعالى» ويكون «بقوة الله» سطرًا و«تعالى» سطرًا؛ ثم يكتب من الجانب الأيسر: «بإقبال دولة السلطان الملك الفلاني». ويكون «بإقبال دولة» سطرًا، وباقي الكلام سطرًا ثانيًا. ثم يكتب تحت ذلك «كلام فلان» سطرًا ثانيًا «إلى السلطان فلان سطرًا ثالثًا». ثم يُؤتى ببعدية وخطبة، ويُؤتى بالمقصود.

وطريقهم فيه على التكلم عن لسان صاحب مصر بنون الجمع ، والخطاب لسلطان إيران بميم الجمع الغائب ، مضاهاة لمكاتبتهم الواردة عنهم في جميع ذلك .

وهذه نسخة كتاب ، كُتِبَ به عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، صاحب الديار المصرية ، في جواب كتاب ورد عن السلطان أحمد القان بيران في زمانه . يذكر فيه أنه أسلم ، إذ كان أول من أسلم من ملوكهم ، ويذكر فيه أن أخاه الكبير كان قد عزم على دخول ممالك الديار المصرية قبل موته ، وأنه منع ذلك ، وأنه لا يجب المسارعة إلى القتال ، وأن المشير بذلك الشيخ عبد الرحمن : أحد صلحاء بلادهم ، وأنه حرم على عساكره الغارات على البلاد ، وتعرض فيه إلى أمر الجواسيس ، وأشار إلى أن الاتفاق فيه صلاح العالم ، وأشار إلى أشياء حملها لرسله يذكرونها مشافهة ، ووقع الجواب عن جميع ذلك على ما سيأتي ذكره في الكتب الواردة على الديار المصرية . وكتب بخط ناصر الدين شافع بن علي بن عباس : أحد كتّاب الإنشاء ، في رمضان سنة إحدى وثمانين وستمائة . والتكلم بنون الجمع ، والخطاب بالجمع الغائب كما تقدم في الأسلوب الأول ، وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باقبال دولة
السلطان الملك المنصور

بقوة الله
تعالى

كلام قلاوون

إلى السلطان أحمد

أما بعد حمد الله الذي أَوْصَحَ بنا ولنا الحَقَّ مِنْهَا جَاءَ بِنَاءِ نَصْرِ اللَّهِ وَالْفَتْحِ
وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا وَنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ

على كلِّ نبيٍّ نبيٌّ به أمته وعلى كلِّ نبيٍّ ناجا، صلاةٌ تُنير مادجاً ؛ فقد وصل الكتابُ الكريم، المتلقّى بالتكريم، المشتملُ على النَّبِيَّ العَظِيمِ ؛ من دُخُولِهِ فِي الدِّينِ ، وَخُرُوجِهِ عَمَّنْ سَلَفَ مِنَ العَشِيرَةِ الأَقْرَبِينَ ؛ ولما فُتِحَ هَذَا الكِتَابُ بِهَذَا الخَبْرِ العَلَمِ المُعْرَمِ ، والحديثِ الَّذِي صَحَّحَ عِنْدَ أَهْلِ الإِسْلَامِ إِسْلَامَهُ وَأَصَحَّحَ الحَدِيثَ مَارُويَ عَنِ مُسْلِمٍ ، تَوَجَّهَتْ الوُجُوهُ بالدعاءِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَهُ فِي أَنْ يُشَبِّتَهُ عَلَى ذَلِكَ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ ، وَأَنْ يُنَيِّتَ حَبَّ حَبِّ هَذَا الدِّينِ فِي قَلْبِهِ كَمَا أَنْبَتَ أَحْسَنَ الثَّبَتِ مِنْ أَخْشَنِ المَنَابِتِ ؛ وَحَصَلَ التَّأَمُّلُ لِلْفَصْلِ المَبْتَدِئِ بِذِكْرِهِ مِنْ حَدِيثِ إِخْلَاصِهِ فِي أَوَّلِ عُنْفَوَانِ الصَّبَا إِلَى الإِقْرَارِ بِالوَحْدَانِيَةِ ، وَدُخُولِهِ فِي المِلَّةِ المَحْمُودِيَةِ ، بِالقَوْلِ وَالعَمَلِ وَالنِّيَّةِ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ شَرَحَ صُدْرَهُ للإِسْلَامِ ، وَأَلْهَمَهُ شَرِيفَ هَذَا الإِلْهَامِ ؛ فَحَمِدْنَا اللهُ عَلَى أَنْ جَعَلْنَا مِنْ السَّابِقِينَ إِلَى هَذَا المَقَالِ والمَقَامِ ، وَثَبَّتَ أَقْدَامَنَا فِي كُلِّ مَوْقِفٍ أَجْتِهَادٍ وَجِهَادٍ تَتَرَلَزَلُ دُونَهُ الأَقْدَامُ .

وَأَمَّا إِفْضَاءُ التَّوْبَةِ فِي المُلْكِ وَمِيرَاثُهُ بَعْدَ وَالدِّهِ وَأَخِيهِ الكَبِيرِ إِلَيْهِ ، وَإِفْاضَةُ جَلَابِيْبِ هَذِهِ النِّعْمَةِ العَظِيمَةِ عَلَيْهِ ؛ وَتَوَقُّفُهُ لِلاِسْرَةِ الَّتِي طَهَّرَهَا اللهُ بِإِيْمَانِهِ ، وَأَظْهَرَهَا بِسُلْطَانِهِ ؛ فَفَلَقْدَ أَوْرَثَهَا اللهُ مَنْ أَصْطَفَاهُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَصَدَّقَ المَبَشِّرَاتِ مِنْ كِرَامَةِ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَعِبَادِهِ .

وَأَمَّا حِكَايَةُ الإِخْوَانِ والأَمْرَاءِ الكِبَارِ وَمَقْدَمِي العَسَاكِرِ وَزُعْمَاءِ البِلَادِ فِي مَجْمَعِ فُورِيَلِيَايِ الَّذِي يَنْقَدِحُ فِيهِ زَنْدُ الآرَاءِ ، وَأَنْ كَلِمَتُهُمْ أَتَفَقَّتْ عَلَى مَا سَبَقَتْ بِهِ كَلِمَةُ أَخِيهِ الكَبِيرِ فِي إِفْضَاءِ العَسَاكِرِ إِلَى هَذَا الجَانِبِ ، وَأَنَّهُ قَدْ فَكَّرَ فِيهَا أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آرَأُهُمْ ، وَأَتَتْهُ إِلَيْهِ أَهْوَاؤُهُمْ ؛ فَوَجَدَهُ مَخَالَفًا لِمَا فِي ضَمِيرِهِ : إِذْ قَصَدَهُ الصَّلَاحُ ، وَرَأْيُهُ الإِصْلَاحُ ؛ وَأَنَّهُ أَطْفَأَ تِلْكَ النَّارَ ، وَسَكَّنَ تِلْكَ النَّارَ ؛ فَهَذَا فِعْلُ المَلِكِ المَتَّقِي ، المُشْفِقِ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى مَنْ بَقِيَ ؛ المَفْكَرِ فِي العَوَاقِبِ ، بِالرَأْيِ الثَّاقِبِ ؛ وَإِلَّا فَلَوْ تَرَكُوا

وَأَرَاءَهُمْ حَتَّى تَحْمِلَهُمُ الْغِزَاهُ ، لَكَانَتْ تَكُونُ هَذِهِ هِيَ الْكِرَاهُ ، لَكِنْ هُوَ كَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ، فَلَمْ يُوَافِقْ قَوْلَ مَنْ ضَلَّ وَلَا فِعَلَ مَنْ عَوَى .

وأما القول منه إنه لا يُحِبُّ المسارعة ، إلى المَقَارَعَةِ ، إلا بعد إيضاح المَحَجَّةِ ، وَتَرْكِيبِ الْحُجَّةِ ، فبانتظامه في سلك الإيمان صارت حُجَّتَنَا وَحِجَّتَهُ مَتْرَكَةً ، عَلَى مَنْ غَدَّتْ طَوَاغِيَتُهُ عَنِ سَلُوكِ هَذِهِ الْمَحَجَّةِ مُتَنَكِّبَةً ، فَإِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى وَالنَّاسَ كَافَّةً قَدْ عَلِمُوا أَنَّ قِيَامَنَا إِنَّمَا هُوَ لِنُصْرَةِ هَذِهِ الْمِلَّةِ ، وَجِهَادَنَا وَاجْتِهَادَنَا إِنَّمَا هُوَ لِلَّهِ ، وَحَيْثُ قَدْ دَخَلَ مَعْنَى فِي الدِّينِ هَذَا الدُّخُولُ ، فَقَدْ ذَهَبَتْ الْأَحْقَادُ وَزَالَتْ الدُّخُولُ ، وَبَارْتِفَاعِ الْمُنَافَرَةِ ، تَحْصُلُ الْمُظَافَرَةُ ، فَالْإِيمَانُ كَالْبُنْيَانِ يُسَدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا ، وَمَنْ أَقَامَ مَنَارَهُ فَلَهُ أَهْلٌ بِأَهْلِ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَجِيرَانٌ بِجِيرَانٍ بِكُلِّ أَرْضٍ .

وأما ترتيبُ هذه الفوائد الجمَّة على إِذْكَارِ شَيْخِ الْإِسْلَامِ قُدْوَةِ الْعَارِفِينَ كَمَالِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، أَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَرَكَاتِهِ ، فَلَمْ يُرَ لَوْحِي قَبْلَهُ كَرَامَةً كَهَذِهِ الْكَرَامَةِ ، وَالرَّجَاءُ بِبِرْكَتِهِ وَبِرَكَةِ الصَّالِحِينَ أَنْ تُصْبِحَ كُلُّ دَارٍ إِسْلَامَ دَارٍ إِقَامَهُ ، حَتَّى تَمَّ شَرَايِطُ الْإِيمَانِ ، وَيَعُودَ شَمْلُ الْإِسْلَامِ مَجْتَمِعًا كَأَحْسَنِ مَا كَانَ ، وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ بِكَرَامَتِهِ أَبْتَدَأَ هَذَا التَّمَكِينِ فِي الْوُجُودِ ، أَنَّ كُلَّ حَقٍّ بِبِرْكَتِهِ إِلَى نِصَابِهِ يَعُودُ .

وأما إنْفِذَادُ أَقْضَى الْقَضَاةِ قُطْبِ الْمِلَّةِ وَالدِّينِ ، وَالْأَتَابِكِ بَهَاءِ الدِّينِ ، الْمَوْثُوقِ بِنَقْلِهِمَا فِي إِبْلَاحِ رِسَائِلِ هَذِهِ الْبَلَاغَةِ ، فَقَدْ حَضَرَا وَأَعَادَا كُلَّ قَوْلٍ حَسَنِ مِنْ أَحْوَالِ أَحْوَالِهِ ، وَخَطَرَاتِ خَاطِرِهِ ، وَمَسَطَّرَاتِ نَاطِرِهِ ، وَمَنْ كُلِّ مَا يُسْكِرُ وَيُجِدُّ ، وَيَعْنَعُنُ حَدِيثُهُمَا فِيهِ عَنِ مُسْتَدِّ أَحْمَدَ .

وأما الإشارة إلى أَنَّ النَّفُوسَ ^(١) إِنْ كَانَتْ تَتَطَلَّعُ فِي إِقَامَةِ دَلِيلٍ ، تَسْتَحْكِمُ [بِهِ] دَوَاعِيَ الْوَدِّ الْجَمِيلِ ، فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا ظَهَرَ مِنْ مَآثِرِهِ ، فِي مَوَارِدِ الْأَمْرِ وَمَصَادِرِهِ : مِنَ الْعَدْلِ

(١) لعل زيادة "إن" من قلم الناسخ

والإحسان، بالقلب واللسان، والتقدم بإصلاح الأوقات ، فهذه صفات من يريد
لملكه الدوام ؛ فلها ملك عدل، ولم يلتفت إلى ثوم من عدا ولا لوم من عدل . على
أنها وإن كانت من الأفعال الحسنه ، والمثوبات التي تستنطق بالدعاء الأئسنه ؛
فهى واجبات تؤدى ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أو عليه يقتصر ، أوله يدخر ؛
إنما يفتخر الملك العظيم بأن يعطى ممالك وأقاليم وحُصون ، أو يبذل فى تشيد
ملكه أعزّ مصون .

وأما تحريمه على العساكر والقراغولات والشحاني بالأطراف التعرض إلى أحد
بالأذى ، و [تحميم] إصفاء موارد الواردين والصادر من القذى ؛ فمن حين بلغنا تقدمه
بذلك تقدمنا أيضا بمثله إلى سائر الثواب ، بالرحبة وحلب وعينتاب ؛ وتقدمنا إلى
مقدم العساكر بأطراف تلك الممالك ، بمثل ذلك ؛ وإذا آتحد الإيمان ، وأنعدت
الإيمان ؛ تحتم إحكام هذه الأحكام ، وترتب عليه جميع الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أمسك وأطلق وأن بسبب من تزيًا من الجواسيس
بزي الفقراء قتل جماعة من الفقراء الصلحاء رجما بالظن ، فهذا باب من ذلك
الجانب ستروه ، وإلى الأطلاع على الأمور صوروه ؛ فظفر الثواب منهم بجماعة فرجع
عنهم السيف ، ولم يكشف ماغظته خرقه الفقر ولا كيف .

وأما الإشارة إلى أن فى اتفاق الكلمة يكون صلاح العالم ، وينتظم شمل بنى آدم ؛
فلا راد لمن طرق باب الأتحاد ، ومن جنح للسلم فجار ولاحاد ؛ ومن ثنى عنائه
عن المكافه ، كمن يريد المصاحفة للصلح ؛ والصلح وإن كان سيد الأحكام فلا بد
من أمور ثنى عليها قواعد ، وتعلم من مدلوها فوائده ؛ فإن الأمور المسطورة فى كتابه
عن كليات لازمة ينعم بها كل معنى معلوم إن تهبأ صلح أو لم ، وثم أمور لا بد أن تحكم ،
وفى سلكها عقود العهود تنظم ؛ قد تجملها لسان المشافهة التي إذا أوردت أقبلت

من معنى دخوله في الدين ، وانتظام عقده بسلك المؤمنين ؛ وما بسطه من عدل وإحسان ، وسيرة مشهورة بكل لسان ، فالمنة لله في ذلك فلا يشبها منه بامتنان ؛ وقد أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم في حق من آمن بإسلامه :
 ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ .

ومن المشافهة أنه قد أعطاه الله من العطاء ما أغناه به عن امتداد الطرف إلى ما في يده من أرض ومال ، فإن حصلت الرغبة في الاتفاق على ذلك فالأمن حاصل ؛ فالجواب أن ثم أموراً متى حصلت عليها الموافقة ، تمت المصاحبة والمصادقة ؛ ورأى الله تعالى والناس كيف يكون إذلال معادينا ، وإعزاز مضافينا ؛ فكم من صاحب وجد حيث لا يوجد الأب والأخ والقرابة ، وما تم أمر الدين المحمدي وأستحكم في صدر الإسلام إلا بمظاهرة الصحابة ؛ فإن كانت له رغبة مصروفة إلى الاتحاد ، وحسن الوداد ، وجميل الاعتضاد ، وكبت الأعداء والأضداد ، والاستناد إلى من يستند به الأزرق عند الاستناد ، فقد فهم المراد .

ومن المشافهة إذا كانت رغبتنا غير ممتدة إلى ما في يده من أرض ومال ، فلا حاجة إلى إنقاذ المغيرين الذين يؤذون المسلمين بغير فائدة تعود ؛ فالجواب أنه لو كُف كُف العدوان من هنالك ، وحل للملوك المسلمين ما لهم من ممالك ؛ سكنت الدهماء ، وحقت الدماء ؛ وما أحق به أن لا ينهى عن خلق ويأتي مثله ، ولا يأمر بشيء وينسى فعله ؛ وقنرطاب بالرؤم الآن ، وبين بلاد في أيديكم خراجها يجبي إليكم ، فقد سَفَكَ فيها وقتك ، وسبى وهتك ؛ وباع الأحرار ، وأبى إلا التمدد على ذلك والإصرار .

ومن المشافهة أنه إن حصل التصميم على أن لا تبطل هذه الإغارات ، ولا يقتصر عن هذه الإثارات ؛ فتعين مكانا يكون فيه اللقاء ، ويعطى الله النصر لمن يشاء ؛

فالجواب عن ذلك أن الأماكن التي اتَّفَقَ فيها ملتقى الجمعين مرّةً ومرّةً ومرّةً قد عافَ مواردَها من سلفٍ من أولئك القوم ، وخافَ أن يعاودها فيعاوده مُصرَعُ ذلك اليوم ؛ ووقَّتَ اللقاءَ علمه عند الله لا يُقدَّر ، وما النصر إلا من عند الله لمن أقدرَ لمن قدر ؛ وما نحن ممن ينتظرُ فلتَه ، ولا يَمُنُّ له إلى غير ذلك لَفْتَه ، وما أمرُ ساعةِ النصر إلا كالساعة التي لا تأتي إلا بَغْتَه ؛ والله تعالى الموفِّق لما فيه صلاحُ هذه الأمة ، والقادر على إتمام كلِّ خير ونعمه ؛ إن شاء الله تعالى . مُستَهَلَّ شهر رمضان المعظم قدره ، سنة إحدى وثمانين وستمائة . الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه . حسبنا الله ونعم الوكيل .

الأسلوب الثاني

(أن يُكْتَبَ تحتَ البسملة على حِيَالِ وَسَطِهَا « بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِينَ الْمَلَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ »)

ويكون « بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى » سطرا . و « مِيَامِينَ الْمَلَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ » سطرا ثانيًا . ثم يُوقَى ببعديةٍ وخطبةٍ مختصرةٍ ؛ ثم يُكْتَبُ سطران بياض من الجانين ، فيهما : « بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْفُلَانِي ، كَلَامِ فُلَانِ بْنِ فُلَانِ » . ويكون السطر الأول « بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ » وبقية الكلام في السطر الثاني . ثم يقال : « فليعلم السلطان فلان » . ويوقَى على المقصود إلى آخره .

وهذه نسخةُ كتاب من إنشاء القاضي علاء الدين علي بن فتح الدين محمد بن محيي الدين بن عبد الظاهر ، صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية في جواب كتاب وردَّ عن السلطان محمود غازان ، القان بمملكة إيران ، يذكر فيه أن جماعة من عساكر البلاد الشامية أغاروا على ماردین ، وأن الحمية أقنضت الركوب في مقابلة

ذلك . وذكر أنه قدّم الرُّسُلَ بالإنذار . ويذكر فيه أنهم صَبَرُوا على تماديهم في غيِّهم ؛
ويذكر فيه نُصْرَتَهُ على العساكر الإسلامية في المرّة السابقة . ويذكر فيه أنه أقام
بأطراف البلاد ، ولم يدْخُلْهَا خَوْفَ التخريب والفساد . ويذكر فيه جمع العساكر
وتهيئةَ المَجَانِيقِ وغير ذلك من آلة القتال . ويذكر أنه إذا لم تجرِ مَوْجِبَاتُ الصلح
كانت دماءُ المسلمين مطلولةً ؛ ويذكر إرسال رُسُلِهِ بكتابه ويلتمس التَّحْفَ والهدايا ،
مما كُتِبَ به عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، في المحرم سنة إحدى
وسبعائة وهي :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِينِ الْمَلَّةِ الْمَحْمَدِيَّةِ

أما بعد حمد الله الذي جعلنا من السابقين الأولين ، الهادين المهتدين ؛ التابعين
لسنة سيد المرسلين ، بإحسانٍ إلى يوم الدين ؛ والصلوة والسلام على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه الذين فضّل الله من سبق منهم إلى الإيمان في كتابه المكنون . فقال
سبحانه وتعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .

بإقبال دولة السلطان الملك

الناصر كلام محمد بن قلاوون .

فليَعْلَمِ السُّلْطَانُ المَعْظَمُ محمود غازان أن كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله
من الإكرام ، ورعينا له حقَّ القصد فتلقيناه منا بسلام ؛ وتأمّلناه تأمل المتفهم
لدقائقه ، المستكشف عن حقائقه ؛ فألفيناه قد تضمّن مؤاخذات بأمويرهم بالموأخذة

عليها أخرى، معتذرا في التعدي بما جعله ذنوبا لبعض طالب بها الكل، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ .

أما حديث من أغار على ماريدين من رجالة بلادنا المتطرفة وما نسبوه إليهم من الأمور البديعة، والآثام الشنيعة؛ وقولهم: إنهم أنفوا من تهجمهم، وغاروا من تهجمهم؛ وأقتضت الحمية ركونهم في مقابلة ذلك، فقد تلمحنا هذه الصورة التي أقاموها عذرا في المدون، وجعلوها سببا إلى ما ارتكبه من طغيان؛ والجواب عن ذلك أن الغارات من الطرفين [و] لم يحصل من المهادنة والمواذعة ما يكف يدنا الممتدة، ولا يقتر همها المستعدة؛ وقد كان أبائكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والشقاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق؛ ولم يزل ملك ماريدين ورعيته منقذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم، متولين كبر تكريمهم؛ والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ يَتَّوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ . وحيث جعلتم هذا ذنبا للحمية الجاهلية، وحاملا على الانتصار الذي زعمتم أن همتمكم به عليه؛ فقد كان هذا القصد الذي ادعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التي أوجب ذلك فعلها، والاقتصار على أخذ النار من نار، أتباعا لقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ لأن تقصيدوا الإسلام بالجموع الملققة على اختلاف الأديان، وتطأوا البقاع الطاهرة بعبدة الصلبان؛ وتنهكوا حرمة البيت المقدس الذي هو ثاني بيت الله الحرام، وشقيق مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ وإن احتججتم بأن زمام تلك الغارة بيدنا، وسبب تعديهم من سنتنا؛ فقد أوضحنا الجواب عن ذلك، وأن عدم الصلح والمواذعة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين، واقتفاء آثار المتقدمين، في إنفاذ الرسل أولا، فقد تلمحنا هذه الصورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة؛ والجواب

عن ذلك أنّ هؤلاء الرُّسُلَ ما وضُّوا إلينا إلا وقد دنتِ الحِيَامُ من الحِيَامِ، وناضلتِ السَّهَامُ السَّهَامَ، وشارفَ القومُ القومَ، ولم يبقَ للقاءِ إلا يومٌ أو بعضُ يومٍ؛ وأُشْرِعتِ الأَسِنَّةُ من الجانيينَ، ورأى كلُّ خصمه رأى العينَ؛ وما نحنُ من لاحتَ له رغبةٌ راعيةٌ فتشاعَلَ عنها، ولا من يُسالمُ فيقابلُ ذلكَ بِجَفْوَةِ النَّفَارِ، واللهُ تعالى يقولُ: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ . كيف والكتابُ بعنوانه ! وأميرُ المؤمنينِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ رضِيَ اللهُ عنه يقولُ: « ما أَصَمَّ إنسانٌ شيئاً إلا ظَهَرَ في صَفَحَاتِ وَجْهِهِ وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ ». ولو كان حضورُ هؤلاءِ الرُّسُلِ والسيوفُ وادعةٌ في أعْمالِها، والأَسِنَّةُ مستكنةٌ في أعوادِها؛ والسَّهَامُ غيرُ مَفَوَّهٍ، والأَعْنَةُ غيرُ مُطْلَقةٍ؛ لسمِعنا خِطابَهُمْ، وأعدنا جوابَهُمْ .

وأما ما أطلقوا به لسانَ قلمِهِمْ، وأبدَوْه من غليظِ كَلِمَتِهِمْ؛ في قولِهِمْ: فصبرنا على تَمَادِيكُمْ في غِيَمِكُمْ، وإخْلادِكُمْ إلى بَغِيَمِكُمْ؛ فأشَى صَبْرٌ من أرسلَ عِناهُ إلى المِكْلَافَةِ، قبل إرسالِ رُسُلِ المِصَالِحَةِ؛ وجاسَ خِلالَ الدِّيارِ، قبل ما زعمَهُ من الإِعْدادِ والإِنذارِ؟ وإذا فَكَّرُوا في هذهِ الأسبابِ، ونظروا ما صدرَ عنهم من خِطابِ؛ علموا العُدْرَ في تأخيرِ الجوابِ، وما يتدَكَّرُ إلا أولوا الألبابِ .

وأما ما تَبَجَّحُوا به مما أَعْتَقَدُوهُ من نُصْرِهِ، وظنُّوه من أنّ الله جعل لهم على حِزْبِهِ الغالبِ في كلِّ كَرَةِ الكَرْهِ؛ فلو تأملُوا ما ظنُّوه ربِحاً لوجُدُّوه هو الخُسْرانِ المِمينِ، ولو أنعمُوا النَّظَرَ في ذلكَ لما كانوا به مَفْتَحِرِينَ؛ ولتَحَقَّقُوا أنّ الذي اتَّفَقَ لهم كان عُزْماً لا عُزْماً، وتدَبَّرُوا معنى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا تُمَلِّى لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ . ولم يخفَ عنهم ما نالتهِ السيوفُ الإسلاميةُ منهم، وقد رأوا عِزْمَ مَنْ حضرَ من عساكرنا التي لو كانت مجتمعةً عندَ اللِّقاءِ ما ظهرَ خِبرُ عنهم؛ فإننا كُنَّا في مُفْتَحِحِ مُلْكنا، ومبتدأِ أمرِنا؛ حلَّنا بالشَّامِ للنظرِ في أمورِ البلادِ والعبادِ . فلما تحقَّقنا خِبرَكُم، وقَفَّونا أثرَكُم؛

بأذننا نُقدِّم أديم الأرض سيرا، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضرا وضيرا؛ ونؤدى من الجهاد السنّة والقرض، ونعمل بقوله تعالى: ﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾. فاتفق اللقاء بين حضر من عساكرنا المنصوره، وتوقا بقوله تعالى: ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً ﴾. وإلا فأكبركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطئت موطئا يغيظ الكفار فكتب لها عمل صالح، وسارت في سبيل الله ففتح عليها أبواب المناجح؛ وتعددت أيام نصرتها التي لو دققتم الفكر فيها لازالت ما حصل عندكم من لبس، ولما قدرتم أن تشكروها وفي تعب من ينكر ضوء الشمس، وما زال الله نعم المولى ونعم النصير، وإذا راجعتموهم قصوا عليكم نبأ الأستظهار ولا يثبتك مثل خير؛ وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجرى المواقف التي هي بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب؛ وكم من ملك أستظهر عليه ثم نصر، وعاوده التأييد فجز بعد ما كسر؛ خصوصا ملوك هذا الدين، فإن الله تعالى تكفل لهم بحسن العقبى فقال تعالى: ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِينَ ﴾.

وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا؛ في كوننا لم نسير إليهم رسولا عند ماحلوا بدمشق، فنحن عند ما وصلنا إلى الديار المصرية لم نزد على أن أعدينا وجمعنا جيوشنا من كل مكان، وبذلنا في الأستعداد غاية الجهد والإمكان؛ وأنفقنا جزيل الأموال في العساكر والمخافل، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ ﴾. ولما خرجنا من الديار المصرية، بلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد؛ فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رعبه عن حث الركاب، وتثبتنا تثبت الراسيات ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾. وبعثنا طائفة من العساكر

لمقاتلة من أقام بالبلاد فما لاح لنا منهم بارق ولا ظهر ، وتقدمت فخطفت من حملة على التائر الغرر ، ووصلت إلى الفرات فما وقفت للقوم على أثر .

وأما قولهم : إننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يتلقونا على حلب أو الفرات ، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقين ، فالجواب عن ذلك أنهم من حين بلغنا حركتهم جزمنا ، وعلى لقاءهم عزمنا ، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الواجب الطاعة على كل مسلم ، المفترض المبايعة والمتابعة على كل منازع ومسلم ، طائعين لله ولرسوله في أداء مفترض الجهاد ، باذلين في القيام بما أمرنا الله تعالى غاية الاجتهاد ، عالمين بأنه لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته ، ومن والاه فقد حفظه الله تعالى وتولاه ، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذله الله ، فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدمت عساكرنا تملأ السهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله تعالى في النصر الرجاء والأمل ، ووصلت أوائلها إلى أطراف حماة وتلك النواحي فلم يقدم أحد منهم عليها ، ولا جسر أن يمدح حتى ولا الطرف إليها ، فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد ، وإخلافه موعد اللقاء والله لا يخلف الميعاد ، فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تندفع في طاعتنا أندفاع السيل ، عاملين بقوله تعالى ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ﴾ .

وأما ماجعلوه عدرا في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها ، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أنحرب البلاد مرورها ، وبإقامتهم فسدت أمورها ، فقد فهم هذا المقصود . ومتى ألفت العباد والبلاد منهم هذا الإشفاق ؟ ومتى أتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق ؟ وها آثارهم موجودة على ملك آل سلجوق وما تعرضوا

لدارٍ ولا جارٍ ، ولا عَفَّوْا أَثْرًا مِنَ الْآثَارِ ؛ وَلَا حَصَلَ لِمُسْلِمٍ مِنْهُمْ ضَرَرٌ ، وَلَا أُوْذِيَ فِي وِرْدٍ وَلَا صَدْرٍ ؛ وَكَانَ أَحَدُهُمْ يَشْتَرِي قُوَّتَهُ بِدِرْهَمِهِ وَدِينَارِهِ ، وَبِأَبِي أَنْ تَمْتَدَّ إِلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يُدْإِضِرُّهُ ؛ هَذِهِ سُنَّةُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، وَفَعُلَ مَنْ يُرِيدُ الْمَلِكَةَ الدَّوَامَ .

وأما ما أُرْعَدُوا بِهِ وَأَبْرَقُوا ، وَأُرْسَلُوا بِهِ عِنَانَ قَلْبِهِمْ وَأُطْلِقُوا ؛ وَمَا أَبَدُوا مِنَ الْأَهْتَامِ بِجَمْعِ عَسَاكِرِهِمْ وَتَهْيِئَةِ الْمَجَانِيقِ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا ذَكَرَهُ مِنَ التَّهْوِيلِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

وأما قولهم : وَإِلَّا فِدْمَاءُ الْمُسْلِمِينَ مَطْلُوبَةٌ ، فَمَا كَانَ أَغْنَاهُمْ عَنْ هَذَا الْخِطَابِ ، وَأَوْلَاهُمْ بَأَنْ لَا يَصْدُرَ إِلَيْهِمْ عَنْ ذَلِكَ جَوَابٌ ؛ وَمَنْ قَصَدَ الصُّلْحَ وَالْإِصْلَاحَ ، كَيْفَ يَقُولُ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِي عَلَيْهِ فِيهِ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ جِهَةِ رَسُولِهِ أَيْ جُنَاحٌ ؟ وَكَيْفَ يُضْمِرُ هَذِهِ النِّيَّةَ ، وَيَتَّبِعُ بِهَذِهِ الطَّوْيَةَ ؟ وَلَمْ يَخْفَ مَوَاقِعَ زَلَلِ هَذَا الْقَوْلِ وَخَلَّهِ ، وَالنَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ” نِيَّةُ الْمَرْءِ أُنْبِغُ مِنْ عَمَلِهِ ” وَبِأَيِّ طَرِيقٍ تُهْدِرُ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي مِنْ تَعَرُّضِ إِلَيْهَا يَكُونُ اللَّهُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَطَالِبًا وَغَيْرِيهَا ، وَمَوْأَخِدًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ ؟ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَالْبُشْرَى لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ مِنَ الْهِمَمِ الْمَصْرُوفَةِ إِلَى الْأَسْتِعْدَادِ ، وَجَمْعِ الْعَسَاكِرِ الَّتِي تَكُونُ لَهَا الْمَلَائِكَةُ الْكِرَامُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَنْجَادِ ، وَالْأَسْتِكْرَارِ مِنَ الْجِيُوشِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمُتَوَقِّعَةِ الْعَدَدِ ، الْمُتَكَثِّرَةِ الْمَدَدِ ، الْمُوَعُودَةِ بِالنَّصْرِ الَّذِي يُحْفَظُ فِي الظَّنِّ وَالْإِقَامَةِ ، الْوَاتِقَةِ [بِهِ] مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ ^(١) ”

(١) أي بالنصر وزدنا الجار والمجرور لاقتضاء الكلام إياه .

على عدوهم إلى يوم القيامة . المبلغة في نصردين الله آملا، المستعدة لإجابة داعي الله إذا قال : ﴿ أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ .

وأما رسلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووفدوا علينا، وأكرمنا وفادتهم، وغررنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا عليهم جوابهم، هذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم، ولا ضعف أمرهم، وأنهم ماذقوا لأفواه الخطوب، إلا لما ارتكبوه من ذنوب، وما كان ينبغي أن يرسل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا يتدب لمثل هذا الأمر المهم إلا من يجمع على فصل خطابه وفضله .

وأما ما آتمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها، ولو أنحفونا بثخفة، لقابلناها بأجل عوض عنها . وقد كان عمهم الملك أحمد راسل والدنا الشهيد، وناجى بالهدايا والتحف من مكان بعيد، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب .

والآن حيث انتهت الأجوبة إلى حدها، وأدركت الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدتها، فنقول : إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملة الحمدية ممثلاً ما أمر الله تعالى به مجتنباً ما عنه نهى، وانتظم في سلك الإيمان، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان، وتجنب التشبه بمن قال الله تعالى في حقهم : ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ . وطابق فعله قوله، ورفض الكفار الذين لا يحل له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولا من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلاً، ويروق خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد عند عوده : ﴿ يَا لَيْتَنِي آتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْلًا ﴾ .

صارت حجتنا وحجته مركبةً على مَنْ خالف ذلك ، وكلمتنا وكلمته قامةً أهل الشرك في سائر الممالك ، ومظافرتنا له تكسب الكافرين هواناً ، والشاهد لمصافاتنا مفادُ قوله تعالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ﴾ . وينتظم إن شاء الله تعالى شمل المصالح أحسنَ انتظام ، ويحصل التمسك من الموادعة والمظافرة بعروة لا انفصال لها ولا انفصام ، وتستقر قواعد الصلح على ما يرضى الله تعالى ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحالة الثانية

(ما كان عليه رسم المكاتب في الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" إلى أبي سعيد بهادرخان بن خدابندا : آخر ملوك بني هولاكو، ملك إيران)

قال في "التعريف" : وهو كتاب يكتب في قطع البغدادى الكامل ؛ يتبدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة الغراء المكتوبة بالذهب المزمك ، بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات ؛ ثم تكمل الخطبة وتفتح ببعدية إلى أن تساق الألقاب ، وهى : « الحضرة الشريفة ، العالمة ، السلطانية ، الأعظمية ، الشاهنشاهية ، الأوحدية ، الأخوية ، القانية ، الفلانية » من غير أن يخلط فيها « الملكية » هوانها عليهم وأخطاها لديهم ثم يدعى له بالأدعية المعظمة المفخمة الملوكية : من إعزاز السلطان ونصر الأعوان ، وخلود الأيام ، ونشر الأعلام ، وتأييد الجنود ، وتكثير الوفود . وغير ذلك مما يجرى هذا الجرى . ثم يقال ما فيه التلويح والتصريح بدوام الوداد ، وصفاء الاعتقاد ، ووصف الأشواق ، وكثرة الأتواق ، وما هو من هذه

(١) في التعريف ص ٤٤ "بالطغراء" وهو تصحيف .

النسبة . ثم يؤتى على المقاصد ، ويختتم بدعاء جليل ، وتستعرض المراسيم والخدم ،^(١)
ويوصف التطلع إليها ، ويظهر التهاقت عليها .

وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطفراه [وعنوانه] بالذهب المزكم ، وذلك^(٢)
كل ما وقع في أثنائه من أسم جليل ، وكل ذي شأن نبيل : من أسم لله تعالى ،
أو لنبينا صلى الله عليه وسلم ، أو لأحد من الأنبياء ، أو للملائكة عليهم السلام ،
أو ذكر دين الإسلام ، أو ذكر سلطاننا ، أو السلطان المكتوب إليه ، أو ما هو متعلق
بهما . مثاله « عندنا وعندكم » و « لنا ولكم » و « كتابنا وكتابكم » . كل هذا يكتب
بالذهب ، وما سواه يكتب بالسواد .

فأما العنوان ، فهو بهذه الألقاب إلى أن ينتهي إلى اللقب الخاص ، ثم يدعى له
بدعوة أو اثنتين ، نحو : « أعز الله سلطانها ، وأعلى شأنها » أو نحو ذلك . ثم يسمى
أسم السلطان المكتوب إليه ، ثم يقال « خان » كما كنا نكتب ، فنقول : « بوسعيد
بهادرخان » فقط . ويطمغ بالذهب بطمغات عليها ألقاب سلطاننا ، تكون على
الأوصال ، يبدأ بالطمغة على اليمين في أول وصل ، ثم على اليسار في ثاني وصل ، ثم
على هذا النمط إلى أن ينتهي في الآخر إلى اليمين . ولا يطمغ على الطرة البيضاء .
والكاتب يخلى لمواضع الطمغة مواضع الكتابة ، تارة يمنة ، وتارة يسرة .

وأوضح ذلك في "التثقيف" وبينه ، فقال : والمكتوبة إليه في عرض البغدادى
الكامل ، والطرة ثلاثة أوصال ، والبسملة ذهب مزكم بالفات طوال بالمسطرة
بحط الذهب ، ثم الخطبة ، وأولها « الحمد لله » والسطر الذى يلي البسملة الشريفة

(١) في التعريف ص ٥٤ « الحواجج » .

(٢) الزيادة من التعريف .

وثانيه من أوائل الورق زائدان عن بقية السطور التي من أول السطر الثالث إلى آخر الكتاب . وبين هذين السطرين المذكورين ، (وهو موضع بيت العلامة الشريفة) طرقة ذهب بالألقاب الشريفة ، ثم بعد هذين السطرين الملاصقين للطرة المذكورة بقية السطور بهامش جيد في يمين الورق على العادة . وجميع السطور مكملة إلى آخر الورق ، لا يخلى فيها للطمغة مكان . وبعد الخطبة ما يناسب الابتداء إن كان ، أو الجواب إلى أن يتصل الكلام بالألقاب ، وهي : «الحضرة، الشريفة، العالية، السلطانية، الأعظمية، العالمية، العادلية، الأكلية، القانية، الشاهنشاهية، الولدية، العزيزية، الملكية، الفلانية» . ثم الدعاء . وفي أثناء خطابه «الحضرة الشريفة» تارة، وتارة «الحضرة العالوية» والدعاء في أوساطه نحو «زيدت عظمته، ودامت معدلته، وأعلى الله مقامه، وأعز الله شأنه» . والخطبة جميعها بالذهب المزمك . وبعدها بالأسود خلا ذكر الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو ما أضيف إليهما ، أو ما يعظم ذكره : كالحق والعدل وأمثالهما ، أو كل لقب أو نعت ، أو كلمة مضافة إلى المكتوب عنه أو المكتوب إليه ، أو ضمير فيهما ، فإنه بالذهب . والعنوان بألقابه كاملة ، وفي آخرها الدعاء له من غير توقف .

قال : وكان قد استقر من أمر العلامة الشريفة أن يكتب على جانب يمين السطرين : الثاني والثالث ، وهو مما يلي بيت العلامة «المُشْتاق محمد» . ثم قال : ورأيت بخط القاضي المرحوم ناصر الدين بن النشائي أن ذلك نظير الكتاب الوارد منه في رجب سنة تسع وعشرين وسبعائة . ثم قال : وقد ذكر في "التعريف" ثلاثة أمور زائدة ^(١) التنبيه عليها .

(١) بياض بالاصل ولعله لا بد من التنبيه .

أحدها — أنه يذكر تعريفه في العُنوان . فيكتب بعد ذكر الأسم « خان » .
 فيقال : « بوسعيد بهادرخان » .

ثانيها — أنه تستعمل الطمغات على الأوصال .

ثالثها — أنه لا يكتب في ألقابه « الملكية » . وذكر أنه لم يكتب لأحد بهذه
 المكتبة بعد السلطان أبي سعيد ، خلا ما ذكر القاضى ناصر الدين بن النشائى أنه كتب
 نظير ذلك بعد أبى سعيد لطفائى تمرخان . قال : ولو كتب بالمغلية كتب فى القطع
 المذكور . أما اللطفات ، فى قطع الثلث .

وهذه نسخة مكتبة كتب بها المقرّ الشهابى بن فضل الله عن السلطان الملك الناصر
 « محمد بن قلاوون » إلى السلطان أبى سعيد بهادرخان المقدم ذكره ، وهى :

الحمد لله الذى جعلنا بنعمته إخوانا ، وجمعنا على طاعته أصولا لا تتفرق أغصانا ،
 نحمده على ما أولانا ، ونشكره على ما أولانا ، ونرغب إليه فى مزيد أطفاه التى شملت
 أقصانا وأدنانا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة كالشمس لا تتدع
 فى الأرض مكانا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى شيد بنا لشريعته
 أركاننا ، وشد بعضنا ببعض لنكون كما شهبنا به بنانا أو بنينا ، صلى الله عليه وعلى
 آله صلاة لا تتوانى ، ورضى الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانا ،
 وسلم تسليما كثيرا .

وبعد : فإن من أعظم المبهجات لدينا ، المبهجات لطريق السرور إلينا ، المبهجات
 بوصف أكرم وارد علينا ، هو الكتاب الشريف ، بل السحاب المطيف ، بل البحر
 الذى يقذف دررا ، ويقص عن السحاب أثرا ، ويرفع سررا ، ويطلع قمرأ ، ويطول
 أوضاحا وغررا ، ويحدث عن العجائب خبرا ، بل ينشر الروض خبرا ، ويهب الرياح

سَحْرًا، وَيُبْرِقُ ذَهَبُهُ الْمَوْهَ أَصَالًا وَبُكْرًا؛ الصَادِرُ عَنِ الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ الْعَالِيَةِ السُّلْطَانِيَّةِ،
الْأَعْظَمِيَّةِ، الْعَالِمِيَّةِ، الْعَادِلِيَّةِ، الشَّاهِنشَاهِيَّةِ، الْأَخْوِيَّةِ، الْقَانِيَّةِ؛ زَادَهَا اللَّهُ شَرْفًا،
وَأَدَامَ بِهَا نُحْفًا؛ وَصَاغَ بِهَا لِكُلِّ سَمْعٍ شَنْفًا، وَأَيْدَهَا بِزَائِدٍ مَزِيدِهِ حَتَّى تَقُولَ: حَسْبِي
وَكُنْفِي؛ فَإِنَّهُ وَصَلَ صُحْبَةَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ الْأَمِيرِ، الْكَبِيرِ، الْمُقَرَّبِ، الْمُجْتَبَى، الْمُرْتَضَى،
الْمُخْتَارِ، شَرَفِ الدِّينِ، مَجْدِ الْإِسْلَامِ، زَيْنِ الْأَنْامِ، جَمَالِ الْمُقَرَّبِينَ، مَرْتَضَى الْمُلُوكِ
وَالسُّلْطَانِينَ، الْحَاجِّ أَحْمَدَ الْأَشْقَرِ؛ وَالشُّوقَ إِلَيْهِ شَدِيدًا، وَالتَّطَلُّعَ إِلَيْهِ كَمَثَلِ الْعِيدِ؛
فَقَرَّبَنَاهُ إِلَيْنَا نَجِيًّا، وَتَلَقَيْنَاهُ مِنْهُ مَهْدِيًّا؛ وَكَأَنَّ السَّمَاءَ أَلْقَتْ مِنْهُ حُلِيًّا، أَوْ أَقَلَّتْ كَوْكَبًا
دُرِّيًّا؛ أَوْ مَدَّتْ مِنَ الْحَجَرَةِ دَرَجًا، وَعَطَفَتْ مِنْ مَهْنَدَاتِ الْبُرُوقِ خُلُجًا؛ وَقَدَّتْ
مِنْ سَوَادِ الْقُلُوبِ شَطْرَ كُلِّ سَطْرِ فِيهَا، وَأَغَارَتْ مُقَلَّةَ كُلِّ رَيْمٍ قَامَ بِسَوَادِ نَازِرِهِ
يُقَدِّمُهَا، وَسَرَّحْنَا مِنْهُ الْحَدَقَ فِي حَدَائِقِ، وَنَفَّحْنَا بِهِ لِلْحَقَائِبِ حَقَائِقَ؛ وَاسْتَطَلَعْنَا بِهِ
شُمُوسَ الْإِفْتِقَادِ، وَأَطَّلَعْنَا مِنْهُ عَلَى نُفُوسِ نَفَائِسِ الْوِدَادِ؛ وَصَادَفَ مِنَّا قَلْبًا صَادِيًّا
إِلَى مَا يَرُوقُ مِنْ أَخْبَارِهِ، وَشَوْقًا إِلَى مَا يَهْبُ مِنْ نَسِيمِ دِيَارِهِ؛ وَتَطَّلَعْنَا إِلَى مَنْ يَرِدُ
مِنْ رُسُلِهِ الْكِرَامِ، وَيُقْصُ عَلَيْنَا مَا لَا يُسْتَقْضَى مِنْ مَوَاقِعِ الْعَمَامِ؛ وَعَلِمْنَا مِنْهُ وَمَا
ذَكَرَهُ الْمُقَرَّبُ الْحَاجُّ شَرَفُ الدِّينِ أَحْمَدُ مَالِ الْحَضْرَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ يَلْتَحِفُ
بِمَلَابِسِهَا، وَيَقْتَطِفُ مِنْ مَغَارِسِهَا؛ وَتُجْرَى فِي السَّيْفِ رَوْنَقًا، وَتُرَيِّنُ بِالْكَوَاكِبِ
أَفْقًا، وَتُجْرَى عَلَى الْكُثْبَانِ مِنَ الشَّمُوسِ رِدَاءً مَخْلَقًا. وَأَحْضَرْنَا الْحَاجَّ شَرَفَ الدِّينِ
أَحْمَدَ بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ، وَشَمِلْنَاهُ بِحُسْنِ مُمْلَاحَتَيْنَا الَّتِي زَادَتْ تَشْرِيفَهُ؛ وَكَانَ
حُضُورَهُ وَرِكَابُنَا الشَّرِيفِ يَهْبِجَانِ الصَّيْدَ الْمَحْمُودَ، وَنَحْنُ نَأْلِهَجُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ أَتْمَازِ كُلِّ
فُرْصَةٍ فِي الصَّبُودِ؛ وَمَا حَصَلْنَا فِيهِ عَلَى لَذَّةِ ظَفَرٍ إِلَّا وَتَمَنِينَا أَنْ يَكُونَ لَهُ فِيهَا مِشَارَكَةٌ
شُهُودًا، أَوْ أَنْ يَكُونَ جَاضِرًا يَرَى كَيْفَ يُسَهِّلُ اللَّهُ لَنَا بَلُوغَ كُلِّ مَقْصُودٍ؛ وَنَحْجُ مَعَنَا
إِلَى الْمَصَائِدِ، وَتَفْرَجُ عَلَى الصَّائِدِ؛ وَرَأَى مَا حَفَّ بِمُوكَبِنَا الْمَنْصُورِ مِنْ ذَوَاتِ الْوَابِرِ

والجنّاح، وما سُخِّرَ لنا من جِياذ الخيول من الرياح؛ فشاهد ما أوتينا من المُلْكِ السُّلْمَانِيّ
 في سُرْعَةِ السَّيْرِ، وأخْتِلافِ ما جُمِعَ لنا من الإنس والوحش والطَّيْرِ؛ وأسْتغرقت أوقَاتنا
 الشريفة في السُّؤال عن مِزاجه الكريم، وما هو عليه من السُّرورِ المُستديم؛ والتأييد
 الذي أنقلب به أولياؤه بنعمة من الله وفضلٍ لم يَمَسَّهم سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ
 وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ؛ وتجددت المَسَرَّات، بهذه البشائرِ المُسَرَّات^(١)؛ وأضفنا هذه النعمة
 إلى ما نحمدُ الله عليه مما أيدنا به من النصر والظَّفَر والتأييد، والنعم التي توالَّتْ إلينا ونحن
 نرجو المزيد؛ ونُضاعفُ الحمد والشكر لله على هذه المواهب التي أطافت بنا بِطافاتها
 الثمينة، وأنارت في آفاقنا أبقارها الميئنة؛ وشملت ملوك الإسلام نعمها من كل جانب،
 وأشرقت شمسها حتى ملأتْ بأنوارها المَشَارِقَ والمَغَارِبَ .

وأما ما أُنْحَفَتْ به من البلكات الشريفة فقد وصلت، وتقبَّلت وقبَّلت؛
 وأكْرمت لأن مَهْدِيها كريم، وأُعْظمت لأنها تُحْفَةٌ من عظيم؛ وأُشِينا عليه بما
 طاب، وشكرَ بحرُّنا الزاخر جُودَ أخيه السَّحاب .

وأما الإشارة العالية إلى تقاضى تجهيزه من الملاكين والسوقات فقد رسمنا بالآتِهاء
 إليه، لأنه لا فرق بيننا وبين أخينا فيما يخصُّ مِراسِمنا جميعاً عليه؛ وقد جُهِّزَ من
 الملاكين والطين المحتوم ما أمكَنَ الآن، ومنه ما نُكِّمنا بِاسْتِعْماله من البلكات بِاسْمِهِ
 الشريف وتأنر؛ فلما فرغَ جُهِّزَ معه، وبعد هذا جُهِّزَ من يتوجَّه إلى حضرته
 العالية ليجدَّ عَهْداً، ويؤدِّي إليه وُداً؛ وما يتأنر إلا ريثماً تتجلى السُّحُب المتواليه،
 ويمكنُ التوصل سألنا إلى حضرته العاليه .

(١) حقيقته السارات وإنما أتى به بهذه الصيغة على توهم أسره بمعنى أفرحه كما حكاه ابن سيده في تفسير

المثل « كل مجر بانغلا. مسر » انظر اللسان (ج ٦ ص ٢٦) .

وأما غير هذا : فهو أن الحاج أحمد أحضر إلينا ورقة كريمة ، بل دُرَّةً يَتِيَمَهُ ؛ بخط يد الحضرة الشريفة فَأُعْجِبْنَا بِهَا ، ووجدناها في غاية الحُسْنِ التي لا يعدُّ زَهْرُ الرياض لها مُشْبِهاً ؛ وما رأينا مثل ما كُتِبَ فيها ، كأن السماء قد نَظَّمَتْ في سَطُورها النجومَ الزَّهْرَ من دَرَارِيها ؛ فَأَكْرِمَ بِيَدِ كِتَابَتِ سَطُورِهَا اعْتَرَفَ بِهَا الرَّحْمَ لِلْقَلَمِ ! وَأَسْتَمَدَ السَّحَابُ من طُرُوسِهَا الكَرَمَ ! وَجَرَتْ بِجَامِدِ ذَهَبٍ وَسَائِلِ دَمٍ ، وَتَنَافَسَتْ عَلَى إِبَاتِهَا صَحَائِفُهُ وَأَقْلَامُهُ وَدُويُهُ وَالْحَقُّ وَالْبُرُوقُ وَالذَّيْمُ ؛ وَطَلَعَتْ مِنْهَا تَبَاشِيرُ النَّجَاحِ ، وَتَحَاسَدَ عَلَيْهَا مِسْكُ اللَّيْلِ وَكَافُورُ الصَّبَاحِ ؛ وَأَتَفَقَتْ عَلَى مَعْنَى وَاحِدٍ وَقَدْ تَوَعَّتْ قِسْمَا ، وَأَشْرَقَتْ فَتَمَنَّتْ السَّمَاءُ أَنْ تَكُونَ لَهَا صَحِيفَةً وَالْبَرْقُ قَلَمًا ؛ فَأَرْخَصَتْ قَدْرَ يَاقُوتٍ فِي التَّقْلِيْبِ ، وَحَسَّنَتْ بِمَاسِنِهَا هِجْرَانَ حَبِيبٍ ؛ لَقَدْ أُوتِيَتْ مِنْ ائْخَاطِ غَايَةِ الكَمَالِ ، وَبَسَطَتْ يَدَ ابْنِ هَلَالٍ فِيهِ عَنِ فَمِ ابْنِ هَلَالٍ ؛ فَأَمَّا الْوَلِيُّ فَإِنَّهُ مِنْ أَوْلِيَائِهَا ، وَأَنْوَاؤُهُ مِمَّا فَاضَ مِنْ إِنْائِهَا ؛ طَالَمَا حَدَّقَ إِلَيْهِ أَبُو عَلِيٍّ فَأَخْتَلَفَ بِرُقَّةِ أَبَاهُ مُقَلَّهُ ، وَفِطْنِ ابْنِ أَسَدٍ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَهُ أَبُوهُ لَنَسِيَ شِبْلَهُ ؛ فَسَبِحَانَ مَنْ صَرَفَ فِي يَمِينِهِ الْقَلَمَ بِلِ الْإِقَالِيمِ ، وَوَهَبَهُ مِنْ أَفْضَلِ كُلِّ شَيْءٍ ﴿ ذَلِكِ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

وقد أعيد المقربُ شرفُ الدين أحمد ، وحمل من المشافهات الشريفة ما تفض على أختينا عقوده ، وتفاض بروده ؛ والحضرة الشريفة لا تقطع أخبارها عنا التي تسر بانبيائه ، وتسير ببحر سنامه ؛ لازالت مناقبه مسموعة ، والقلوب على ما يجمع كلمة الإيمان مجموعه . إن شاء الله تعالى .

تنبيه — أما الملتقطات التي كانت تُكْتَبُ إلى هذا القان ، فقد ذكر في "التثقيف" أنها في قطع الثلث ، وكذا ما يُكْتَبُ به بالمُعَلَّى ، فإنه يكون في القطع المذكور أيضا .

الجملة الثانية

(في المكاتب إلى من ملك توريذ وبغداد بعد موت أبي سعيد)

قد تقدم أنه ملك توريذ وبغداد بعد السلطان أبي سعيد (موسى خان) ثم محمد بن عبدجى، ثم الشيخ حسن الكبير، ثم ابنه الشيخ أويس، ثم ابنه حسن، ثم أخوه أحمد. ومنه أتت بها تمرلك. وذكر في "التقيف" أنه ملك بعد أبي سعيد أرفاخان، ثم موسى خان، ثم طغاي تمرخان؛ بعد أن ذكر أنه لم يكتب إلى أحد بعد أبي سعيد بالمكاتب المتقدمة. ثم قال: ورأيت بخط القاضي ناصر الدين بن النشائي أن مكتبة طغاي تمرخان كانت نظير مكتبة أبي سعيد. ثم قال: وهذا يدل على أنه لم يكتب بذلك بعد أبي سعيد غير طغاي تمرخان المذكور.

قلت: وقد وقفت على مكتبة عن الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى موسى خان المقدم ذكره من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، فيما ذكره صاحب «الدرر الملتقط» جواباً عن كتاب ورد منه يذكر فيه النصرة على عدوله؛ والقائم بتدبير دولته يومئذ على باشا. بدأ فيها بعد الافتتاح بآية من القرآن الكريم في معنى النصرة بقوله:

«إلى الحضرة الشريفة» إلى آخر الألقاب المناسبة «من أخيه ومحبه»؛ ثم خطبة بعد ذلك مفتوحة: «الحمد لله». ثم «وبعد» فقد ورد الكتاب الشريف. والخطاب بـ «الحضرة الشريفة». والأختتام بالدعاء. ولاخفاء في أن هذه نحو المكتبة إلى أبي سعيد؛ لكني لم أقف على مقدار قطع الورق فيها، ولاصورة الكتاب. وهذه نسختها:

(١) كذا في الأصل هنا وتقدم في ج ٤ ص ٢٤٤ (عبرجى).

(وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور) . (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصرون يشاء وهو العزيز الرحيم) .

إلى الحضرة الشريفة العالية ، السلطانية ، الأعظمية ، العالمية ، العادلة ، الأوحديّة ، الشاهنشاهيّة ، القانيّة ، الأخوية ، الأخ العزيز ، الكبير ، المعظم ، موسى خان ، أعز الله سلطانه ، وثبت بسعادة ملكه أوطانه . من أخيه ومحبه ، الخالص في حبه ، الصادق المودّة له في بعده وقربه .

الحمد لله الذي أيد الإسلام بنصره ، وضيق على أعدائه مجال حصره ، وجدد بتأييده في زمانه ما تمخلى به أعطاف عصره . نحمده عن الدين الحنيف على نصرة أضاء لها الوجود بأسره ، وأوقعت كل خارج على الدين والمملك في قبضة أسره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يخلص قائلها غاية أجهاده ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي جاهد في الله حق جهاده ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تستقل ببشائرها أعباء عباده ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فقد ورد الكتاب الشريف من الحضرة الشريفة العالية ، السلطانية ، القانيّة ، أختنا وولدنا العزيز ، المؤيد بالنصر على الأعداء والفتح الوجيز ؛ لزالته دولته الشريفة دائمة الإقبال ، متريدة تزيد الهلال ، على يد المجلسين الساميين ، الأميرين ، الكبيرين ؛ عضدى الملوك والسلاطين : "دلتجى ، وكراى" أدام الله تعالى عزتهما - بالبشائر بنصرة الإسلام ، وتأيد أختنا على عدوه الخارج على الدين والمملك .^(١) وحمدا لله تعالى على هذه النصرة ، وتضاعفت بها المسرة ؛ ونحن كفا خارجين بجميع العساكر والجيوش المنصورة الإسلامية ، لتساعدكنا على نصرة الإسلام . وما تأخرنا

(١) في الأصل "خارجى" .

إلا لما جاءت إلينا ماري (؟) الأخبار وما كانت تحققناها ثم تحققنا بحمد الله تعالى هذه الأخبار؛
 وضربنا لها البشائر في سائر الأقطار، وعرفنا بها عناية الله تعالى بأخذ المسلمين بنواصي
 الكفار؛ وقيام الجناب الكريم العالی الأمير الكبير التوین العادل المعظم على باشا،
 أعز الله تعالى نصرته في إعادة الحق إلى أهله، وصبره على ما سبق به كل أحد
 إلى جميل فعله، وأجتهاده في هذا الأمر الأجهاد الذي ما كان يُطلب إلا من مثله؛
 وكذلك الجنابات العالیة الأمراء التوینات الأكار، زیدت سعادتهم! فإنهم سارعوا
 إلى ما كان يجب ويتعين عليهم في خدمة سلطانه، ومن هو أحق بهم وأولى من عظيم
 عظم قانهم؛ وما من الأمير التوین العادل على باشا وبقية الأمراء الأكار إلا من قام
 بما كان عليه من العهود، وبذل آجهاده حتى حصل بحمد الله المقصود؛ وما
 قصروا في قيامهم حتى تسلم المستحق حقه وميراثه وما هو أحق به وأولى. وهم -
 جزاهم الله الخیر- قد عملوا ما يجب عليهم، وبقى ما يجب على الحضرة الشريفة من
 الإحسان إليهم.

وأما قول الحضرة الشريفة: إنه مثل ولدنا فهو هكذا مثل الولد وأعز من الولد،
 وكل أحد منا لأخيه في الاتفاق على المصالح الإسلامية عضد ويد، وذخر وسند؛
 وقد سبق من تألف القلوب ما أشدت به الآن وأخيه، وأضحى له منا شفقة
 الولد على الولد وتوقير الأخ لأخيه؛ وقد أعدنا رسله الكرام وحملائهم مشافهة ووصية
 للحضرة الشريفة في أمور تقتضيها مصلحته، فإنه عندنا أعز من الولد. وما القصد
 إلا الاتفاق على مصالح الإسلام، وما فيه نظام كلمة الوفاق [والوئام]، فيديم المواصلة
 بكتبه وأخباره السارة، والله تعالى يديم مساره ويضاعف مباره؛ إن شاء الله تعالى.
 ولم أقف لهذه المكاتبه على قطع ورق، والظاهر أنها في قطع النصف لما سياتي
 أنه الذي عليه الحال في مكاتبه صاحب بغداد وتوريز، فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وأعلم أن صاحب "التثقيف" قد ذكر أن المكاتبه إلى الشيخ أويس : صاحب بغداد وتوريز، وأبنة حسن بعده في ورق قطع النصف . ورسمها : «أعز الله تعالى أنصار المقام الشريف العالی، الكبيری، السلطانی، العالمی، العادلی، المجاهدی، المؤیدی، المرابطی، المنصوری، الملکی، الفلانی» بلبق السلطنة «الفلانی» بلبقه الخاص . والدعاء بما يناسبه «أصدرناها إلى المقام الشريف تهدي وتبدي» و«القصد من المقام الشريف» . ويختتم بدعاء يناسب، مثل : «أعز الله أنصاره» ونحو ذلك . ومحاطبته بـ«المقام الشريف» . والعنوان «المقام الشريف» إلى آخر الألقاب المذكورة . والدعاء «أعز الله تعالى أنصاره» . وتعريفه «فلان بهادرخان» مثل أن يقال : «الشيخ حسن بهادرخان» . والعلامة إليه «أخوه» . قال في "التثقيف" : وكان الشيخ أويس المذكور عند استقراره بتوريز وبغداد يكتب له «المقام العالی» ، ثم كتب له بعد ذلك «المقام الشريف» .

وهذه نسخة مكاتبه كتب بها إلى الشيخ أويس المقدم ذكره، جواباً عن كتاب ورد منه، من لإنشاء القاضي تقي الدين ابن ناظر الجيش، حين كان يكتب إليه «المقام العالی» لأبتداء أمره، على ما تقدم، وهي :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالی، إلى آخر ألقابه، ولا زال الملك زاهراً زاهياً بشرف سلطانه، والملك يجري باعزاز قدره، وإحراز نصره، مدى زمانه، والفتك منه بالأعداء يسر الأولياء من أهل مودته وإخوانه، وسلك جواهر عقد ولانه منظم من الإخلاص بجمانه، ولا برح مؤيدا بأنصار الإسلام وأعوانه، مجددا سعده الذي يبيلغه جميل أوطاره في جميع أوطانه .

أصدرناها إلى المقام العالی تصف ما لدينا من المحبة التي ظهر دليلها بواضح برهانه، وتبث لنا أبناء مكنون المودة التي تغني عن صريح القول وتبينانه، وتبدي لعلمه

الكريم أن كتابه الكريم ورد على يد فلان رسوله فأقبلنا عليه، وصرفنا وجه الكرامة إليه؛ وعلينا ما تضمّنه من محبته وموالاته، ومخالصته ومصافاته؛ وما أشتمل عليه ضميره من صحيح الوداد، وصريح الأئحاد؛ وجميل الاعتقاد، وجزيل المخالصة التي يتم بها الأمل والمُراد . وأن المقام العالى جهز رسوله المشار إليه ليوضح إلينا ماهو عليه من ذلك، ويُنهي إلينا أسباب الائتلاف التي عمّرت أرجاء الجهتين هنا وهناك؛ ويبيد ما تتحمّله عنه من المشافهات، وتفهمه من الرسائل والإشارات؛ وقد أحطنا علماً بذلك ووصل رسوله المذكور، وتمثّل بمواقف سلطاننا المنصور؛ وسَمِلَه إقبالنا الشريف، وإعنا المُنطيف؛ وسمعنا جميع كلامه، وما تتحمّله من المشافهة الكريمة من على مقامه؛ وشكرنا محبة المقام العالى ووّده الجميل، وأثنينا على موالاته التي لا تَمِيدُ عنها ولا تَمِيلُ، وآبتهجنا بسلامة مقامه الجليل . وقد أعدنا فلانا رسوله المذكور بهذا الجواب الشريف، إلى المقام العالى أعزَّ الله أنصاره، فُتِحَ بمكاتبته ومهمّاته، والله تعالى يمدّه بالتأييد في حركاته وسكّاته، ويعزُّ نصره ويزيد في حياته .



أما المنفرد بتّويريز خاصّة، فقد ذكر في "التتيف" أنّ المكتبة إلى الأشرف (أبن علاء الدين تمرتاش) الذي كان قد وثب على تيريز خاصّة فلُكها، في قطع الثلث بقلم التوقيعات «ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالى الأميرى الكبرى» وبقية الألقاب والتعوت، ومنها التّويني . ثم الدعاء . «صدرت هذه المكتبة إلى الجناح العالى وتوضّح» والعلامة «أخوه» . وتعريفه «الأشرف بن تمرتاش» .

ثم ذكر أنّ أنحى جق الذي وثب عليه وقتله وأستولى على تيريز بعده أستقرت مكاتبته كذلك، وأنه كان يُكْتَب في تعريفه «أنحى» لا غير . ثم قال: وقد ماتا وبطل ذلك .

(أبو بكر بن خَوَاجَا على شاه) وزير صاحب تَبْرِيزَ «الأسْمُ» و «السامى» وتعريفه أبو بكر ابن الخوِاجَا المرحوم على شاه . قال فى «التثقيف» : ولم أعلمُ وُزَرَ فى زَمَنٍ من من المتولين

(عُمَرُ بَك) أحد أمراء الأشراف بن تمر تاش صاحب تَبْرِيزِ فى قَطْعِ الثالث ، الدعاء و «العالى» والعلامة «أخوه» وتعريفه «عمر بك» . قال فى «التثقيف» : وهذا ممن بطل حكمة بزوال مَخْدومه .

الجملة الثالثة

(فى رسم المكتبة إلى من أنطوت عليه مملكة إيران، ممن جرت عاداته بالمكتبة عن الأبواب السلطانية، فى أيام السلطان أبى سعيد فمن بعده، وهم ثمانية أصناف)

الصنف الاول

(كُفَّالِ المملكة بحضرة القان ، وهم على ضريين)

الضرب الاول

(كُفَّالِ المملكة بالحضرة فى زمن القانات العظام كابى سعيد ومن قبله من ملوكهم حين كانت المملكة على أتم الأبهة وأعلى الترتيب)

قد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثالثة أن القائم بتسيير العسكر لهذه الدولة حين كانت قائمة على نمط القانية المتقدم إلى آخزمن أبى سعيد أربعة أمراء، يعبر عنهم بأمراء الأوس، ويعبر عن أكبرهم بيكلارى بك بمعنى أمير الأمراء . وربما أطلق عليه أمير الأوس أيضا . والقائم بتسيير الأمور العامة هو الوزير .

(١) يظهر قياسا على ما قبله أنه سقط هنا من قلم الناسخ شيء نحو المكتبة ضاعف الله الخ . ثم الدعاء والعالى الخ .

فأما الأمراء المذكورون ، فقد كان كلُّ من الأمراء الأربعة والوزير يكاتب عن الأبواب الشريفة السلطانية . وقد ذكر في "التعريف" أن المكتبة إلى بكلارى بك في قطع النصف : « أعزَّ الله تعالى نصرَ المقرِّ الكريم » . وإلى الثلاثة الذين دونه في قطع الثلث : « أدام الله تعالى نصرَ الجنب الكريم » . وأنه يقال لكلِّ من الأربعة « التَّوَيْتِي » . ثم قال : ومثُل هذا مكتبة أرتنا بالرُّوم ، وأمير التُّومان بديار بَكر : من سُوناي وبنيه وكذلك سائرُ الامراء التَّوِينات : وهم أمراء التَّوامين .

والذى ذكره في "التثقيف" أن المكتبة إلى الشيخ حسن الكبير أمير الألوس كانت على ما استقرَّ عليه الحال إلى حين وفاته ببغداد في قطع الثلث بقلم التوقيعات : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ الجنب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، الرِّعيمي ، العونى ، الغيائى ، المثاغرى ، المرابطى ، الممهدى ، المشيدى ، الظهيرى ، التَّوَيْتِي ، الفلانى : عون الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأمراء فى العالمين ، ناصرِ الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحِّدين ، مُمهد الدَّول ، عمادِ الملل ، عونِ الأُمم ، كافي الدولة القانيَّة ، كافي الملكة الشَّرقيَّة ، أميرِ التَّوامين ، أميرِ الألوس ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضدِ أمير المؤمنين » . والدعاء أربع قرائن أو أكثر : « أصدرناها إلى الجنب الكريم » و « تبدى » و « القصد من الجنب الكريم » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه « الشَّيخ حسن أُلوس بك » .

قال في "التثقيف" : « ولما توفى الشَّيخُ حسنُ المذكور إلى رحمة الله تعالى لم يُقْم غيره مكانه فيما أظن ، ولا كُوتِب أحدٌ بعده بهذه المكتبة . قال : والتَّوَيْتِي فى ألقاب هؤلاء بدل «الكافلى» فى ألقاب التَّوَاب ، يعنى بالملكة المِصريَّة والشامية . ثم قال : وهو نعتٌ يُستعمل دائماً لأهل تلك البلاد ، ولا يُستعمل الكافلى أصلاً .

وهذا عجيب منه ! فقد أثبت هو «الكافلي» في الألقاب التي أوردتها في المكتبة إلى الشيخ حسن الكبير .

وأما الوزير بهذه المملكة فقد ذكر في «التعريف» أن رسم المكتبة إليه في قطع الثلث «ضاعف الله تعالى نعمة المجلس العالي الأميري الوزيري» على عادة المكتبات إلى الوزراء بالألقاب الوزارة . قال : فإن لم تكن له إمرة ، فيقال له «الوزيري» ولا يُقال له «الصاحبي» لهُوانها لديهم . ولم يتعرض في «التتقيف» إلى المكتبة إلى وزير هذه المملكة ، ولا إلى الأمراء الثلاثة الباقين من أمراء الألوُس ، بل عدل عن ذلك إلى المكتبة إلى الوزير ببلاد أربك . وسيأتي ذكرها في موضعها إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد مُحِيت رسوم تلك المملكة ، وعُفَّت آثارها بزوال ترتيب المملكة بموت السلطان أبي سعيد : آخر ملوك بني جنكرخان بهذه المملكة . وإنما ذكرنا ذلك حفظاً لما كان الأمر عليه : لاحتمال طُرُق مثل ذلك فيما بعد ، فيُنسَج ما يأتى على منوال ماضى ، ويُجرى في المستقبل على منباج الماضى ؛ فالأمور ترتفع ثم تنخفض ، وربما أنخفضت ثم ارتفعت . والله تعالى يقول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ .

الضرب الثاني

(كُفِّأَلِ الْمَمْلَكَةِ بِالْحَضْرَةِ بَعْدَ مَوْتِ أَبِي سَعِيدٍ)

قد ذكر في «التتقيف» منهم جماعة : منهم محمد الكازروني وزكريا وزيراً الشيخ أويس . وقد ذكر أن رسم المكتبة إلى كلٍّ منهما في قطع العادة «صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي ، الأجلّي ، الكبيرى ، الأوحدي ، المقدمي ، المنتخبي ، الفلاني ؛ مجد الإسلام ، بهاء الأنام ؛ شرف الرؤساء ، أوحداً الأعيان ؛ صفوة الملوك

والسلاطين» . ثم الدعاء . والعلامة «الأسْمُ الشريف» وتعريفه «فلان وزير الشيخ أويس بهادرخان» .

ومنهم - الطّواشي مرّجان، نائب القان أويس ببغداد، ولقبه أمين الدين بالس . ورسم المكتابة إليه «والده» و«السامي» بالياء . وتعريفه «خوآجا مرّجان» .

ومنهم - محمدفلتان، نائب الشيخ أويس أيضا . وذكر أنّ رسم المكتابة إليه مثل المكتابة إلى مرّجان . والعلامة «الأسْمُ الشريف» . وتعريفه : «فلتان نائب الشيخ أويس» .

قلت : فإن اتفق أن أقيم لصاحب بغداد : كأحمد بن أويس ومن في معناه مثل هؤلاء ، كانت المكتابة إلى كلّ منهم نظير مثله من المذكورين بحسب ما يقتضيه الحال .

الصنف الثاني

(مَنْ جَرَتْ العادة بمكاتبته بمملكة إيران عن الأبواب السلطانية، صغارا الملوك المنفردين ببعض البلدان، والحكام بها من هو بمملكة إيران)

قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنّ مملكة إيران تشتمل على عدّة من الأقاليم داخلية في حدودها، منتظمة في سلكها . وقد ذكر في «التعريف» جملة من المكاتبات عن الأبواب السلطانية إلى بعض هؤلاء الملوك . وخالفه في «التثقيف» في بعض المواضع وزاد عليه عدّة مكاتبات . وها أنا أذكر ما ذكره من ذلك ، وأزيد ما اتفق زيادته ممّيزا لكل إقليم من أقاليم هذه المملكة بمن فيه من الملوك والحكام ومن جرى مجراهم .

فَمَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمَكَاتِبِهِ مِنَ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ بِالْجَزِيرَةِ الْفُرَاتِيَّةِ، مِمَّا بَيْنَ دِجْلَةَ
وَالْفُرَاتِ مِنْ دِيَارِ بَكْرِ وَرَبِيعَةَ وَمُضَرَ وَغَيْرِهَا عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ
فِي الْمَقَالَةِ الثَّلَاثَةِ

صَاحِبُ مَارِدِينَ — وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ أَنَّهَا مَدِينَةٌ ذَاتُ قَلْعَةٍ حَصِينَةٍ
بِدِيَارِ بَكْرِ مِنْ هَذِهِ الْجَزِيرَةِ، وَأَنَّهَا بِيَدِ بَقَايَا بَنِي أَرْثُشَاسْتِ^(١) الْمُسْتَقِلِّينَ بِمُلْكِهَا مِنْ قَدِيمِ
الزَّمَانِ وَإِلَى الْآنِ.

وَرَسَمُ الْمَكَاتِبَةِ إِلَيْهِ فِيمَا ذَكَرَهُ فِي "التعريف": «اعزَّ اللهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ
الْعَالِي، الْكَبِيرِيِّ الْمَلِكِيِّ الْفُلَانِيِّ الْفُلَانِيِّ» يَعْنِي بِاللُّقْبِ الْمُلُوكِيِّ، وَاللُّقْبِ الْمُضَافِ إِلَى
الذِّينِ؛ مِثْلُ «الصَّالِحِي الشَّمْسِيِّ» وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. ثُمَّ الدَّعَاءُ. قَالَ فِي "التَّنْقِيهِ":
ثُمَّ يُقَالُ: «أُصْدِرْنَا إِلَى الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ»، «وَتُبْدَى لَعَلْمَهُ الْكَرِيمِ». «فِي تَقَدُّمِ أَمْرِهِ
الْكَرِيمِ». وَيُحْتَمَّ بِمَا صَوَّرْتَهُ «فِي حَيْطِ عِلْمِهِ الْكَرِيمِ بِذَلِكَ». وَالدَّعَاءُ. وَالْعَلَامَةُ
«أَخُوهُ». وَتَعْرِيفُهُ «صَاحِبُ مَارِدِينَ». وَوَرَقُهُ قَطْعُ الْعَادَةِ. ثُمَّ قَالَ: وَيَتَعَيَّنُ أَنْ
تَكُونَ أَلْفَابُهُ إِلَى آخِرِ اللَّقْبِ الْمُلُوكِيِّ سَطْرَيْنِ سَوَاءً، وَأَنْ يَكُونَ لِقْبِهِ الْعَادِي
كَالْفَخْرِيِّ مِثْلًا أَوَّلِ السَّطْرِ الثَّلَاثِ.

وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" ثَلَاثَةَ صُدُورٍ لِمَكَاتِبَةِ تَتَعَلَّقُ بِصَاحِبِهَا فِي زَمَانِهِ، وَهُوَ
«الصَّالِحُ شَمْسُ الدِّينِ صَالِحٌ».

أَحَدُهَا — وَلَا زَالَ مَلِكًا تَأْجُهُ الْمَدَائِحُ، وَمِنْهَا جُهُ الْمَنَاحُ، وَطَرِيقَتُهُ إِذَا وُصِفَتْ
قِيلَ: هَذِهِ طَرِيقَةُ الْمَلِكِ الصَّالِحِ. أُصْدِرْنَا إِلَيْهِ وَشَكَرْنَا تَسْوِقَهُ إِلَيْهِ حُدَاةُ الرِّكَابِ،
وَتَشَوَّقُ مِنْهُ إِلَى لِقَاءِ الْحَبَائِبِ؛ وَتُنْتَبِئُ عَلَى مَكَارِمِهِ الَّتِي كَلَّمَا أَقْلَعَتْ مِنْهَا سَحَابُ
أَعْقَبَتْ بِسَحَابٍ؛ وَتُوَضَّحُ لِلْعِلْمِ الْكَرِيمِ.

(١) هُوَ بِهَذَا الضَّبْطِ كَمَا فِي ص ٨٦ ج ١ مِنْ تَارِيخِ ابْنِ خُلْكَانِ.

الثانى - ولا زالت شمسُه في قُبَّةِ فَلَكِهَا ، وسمَاءُ مَمَالِكِهِ مملوءةٌ حَرَسًا شديدًا
وَشُهْبًا بَمَلِكِهَا ؛ وَنِعْمُهُ نَتَعِبُ الْبِحَارَ إِذَا وَقَفَتْ فِي طَرِيقِهَا ، وَالغَائِمَ إِذَا جَازَتْ
فِي مَسَلِكِهَا . أَصْدَرْنَاهَا إِلَيْهِ وَالسَّلَامُ مُتَنَوِّعٌ عَلَى كَرَمِهِ ، مُتَضَوِّعٌ بِأَطْيَبِ مِنْ أَنْفَاسِ
الْمِسْكِ فِي نِعْمِهِ ، مُتَسَرِّعٌ إِلَيْهِ تَسْرِعُ مَوَاهِبِهِ إِلَى وَفُودِ حَرَمِهِ . وَتَوَضَّحَ لِلْعِلْمِ الْكَرِيمِ .
الثالث - وَلَا زَالَتِ الْعُقَاةُ تَلْتَحِفُ بِنِعْمَاتِهِ ، وَتَنْتَجِعُ مَسَاقِطُ أَنْوَانِهِ ، وَتَسْتَضِيءُ مِنْهُ
بِأَشْرَقِ شَمْسٍ طَلَعَتْ مِنَ الْمَلِكِ فِي سَمَائِهِ ؛ أَصْدَرْنَاهَا وَشَاوَهَا يَسَاقِقُ نَجْمًا ، وَمَدَانِحُهَا
تُجِيدُ مَتْرُوبًا وَمُرْتَجِلًا ؛ وَشَكَرَهَا لَوْرُصٍ مَعَ الْجَوَاهِرِ لِأَقَامِ عُدْرَ الْيَاقُوتِ إِذَا آكُتْسَى
خَذَهُ الْحَمْرَةَ نَجْمًا ، وَتَوَضَّحَ لِلْعِلْمِ الْكَرِيمِ .

قلت : وعلى نمط هذه الصدور يجرى الكاتبُ فيما يَكْتُبُهُ إلى صاحبها مناسبًا
لحالهِ وَلِقْبِهِ بِحَسَبِ مَا يَتَضَمَّنُهُ الْحَالُ مِنَ الْمُنَاسِبَاتِ .

وهذه نسخةُ كِتَابِ ، كُتِبَ بِهِ إِلَى الْمَلِكِ "الصالح شرف الدين محمود بن الصالح"^(١)
صالح" ، جَوَابًا عَمَّا وَرَدَ بِهِ كِتَابُهُ : مِنْ وَفَاةِ وَالِدِهِ الْمَنْصُورِ أَحْمَدَ . نَقَلْتَهَا مِنْ مَجْمُوعِ
بِحَطِّ الْقَاضِي تَقِيَّ الدِّينِ ابْنِ نَازِرِ الْجَيْشِ وَهُوَ :

أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى نُصْرَةَ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ ، إِلَى آخِرِ أَلْقَابِهِ - وَلَا زَالَ الْمَلِكُ بَاقِيًا فِي بَيْتِهِ
الْكَرِيمِ ، وَالْفَلَكَ جَارِيًا بِإِظْهَارِ شَرَفِهِ الْعَمِيمِ ؛ وَأَعْظَمَ لَهُ الْأَجْرُ فِي أَكْرَمِ مَلِكٍ أَنْتَقَلَ
إِلَى جَنَّاتِ النِّعَمِ ، وَهَنَاءَهُ بِمَا أَوْرَثَهُ مِنْ ذَلِكَ الْحَلِّ الْأَسْنَى الَّذِي هُوَ الْأَوْلَى فِيهِ بِالتَّقْدِيمِ ؛
وَضَاعَفَ لِسُلْطَانِهِ الصَّالِحِ عَلُوَّ جَدِّهِ ، بِمَا مَنَحَهُ مِنْ مُلْكِهِ الْمُورُوثِ عَنِ الْمَنْصُورِ أَبِيهِ
وَالصَّالِحِ جَدِّهِ ، وَبِمَا خَصَّهُ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ وَإِحْسَانِنَا الْمُسْتَدِيمِ . أَصْدَرْنَاهَا مُعْرَبَةً
عَنِ الْوَدِّ الثَّابِتِ الصِّمِيمِ ؛ مَهْنَةً لَهُ بِقِيَامِهِ بِأُمُورِ مَمْلَكَتِهِ الَّتِي تَجَلَّتْ بِمَحْمُودِ صِفَاتِهِ

(١) هو على ما يؤخذ من نسخة الجواب بعد : محمود بن أحمد بن صالح فنسبه إلى جدّه .

وَمَنْ سَلَفَ مِنْ أَسْلَافِهِ فِي الْحَدِيثِ وَالْقَدِيمِ ، مُبْدِيَةً لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ أَنْ مَكَاتِبَتَهُ الْكَرِيمَةَ ،
وَمُخَاطَبَتَهُ الَّتِي فَضَّحَتْ مِنَ الذُّرِّ نَظِيمَهُ ؛ وَرَدَّتْ عَلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةَ عَلَى يَدِ فُلَانٍ
فَأَقْبَلْنَا عَلَيْهَا ، وَأَلْقَتْنَا وَجْهَ الْكِرَامَةِ إِلَيْهَا ؛ وَعَلِمْنَا مَا تَضَمَّتْهُ مِنْ أَسْتِمْسَاكِ الْمُقَرَّرِ الْكَرِيمِ
بِأَسْبَابِ الْوِدَادِ ، وَأَقْتَفَانَاهُ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ ؛ وَمَا شَرَحَهُ فِي مَعْنَى 'مَا قَدَّرَهُ
اللَّهُ تَعَالَى مِنْ وَفَاةِ وَالِدِهِ طَابَ ثَرَاهُ ، مَسْتَمِرًّا عَلَى الْإِحْلَاصِ فِي الطَّاعَةِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ
شَانُهُ شَيْنٌ وَلَا أَعْتَرَاهُ ؛ وَأَنَّهُ مَضَى - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى الْجَنَّةِ وَقَدْ حَلَّفَ مِنْ
حَلْفِهِ ، وَارْتَضَى بِمَا نَالَ مِنَ الرِّضَا عَمَّا قَدَّمَهُ مِنَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ وَأَسْلَفَهُ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ :
مِنْ أَنَّهُ إِنْ أَقْتَضَتْ مَرَأِسُنَا الشَّرِيفَةَ وَأَرَاؤُنَا الْعَالِيَةَ أَنْ يَقُومَ مَقَامَهُ ، وَيَرْعَى فِي حَقُوقِهِ
وَمَصَالِحِ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ ذِمَامَهُ ؛ فَزَسُمُ بِإِجْرَائِهِ عَلَى السُّنَّةِ الْمَعْتَادَةِ ، مِنْ إِحْسَانِ بَيْتِنَا
الشَّرِيفِ الَّتِي بَدَأَ بِهِ وَأَعَادَهُ ؛ وَإِلَّا فَتَبَرَّزْ الْأَوَامِرَ الشَّرِيفَةَ بِمَنْ يُسَدُّ آخِثَلَهَا ،
وَيُسَدِّدُ أَحْوَالَهَا ، وَيُسَيِّدُ مَبَانِيهَا وَيُصَلِّحُ أَعْمَالَهَا ؛ لِيَقْصِدَ الْمَقَامَ الشَّرِيفَ بِأَبْوَابِنَا
الشَّرِيفَةَ سَالِكًا سَبِيلَ الطَّاعَةِ الْمَيِّينِ ، مُنْتَظِمًا فِي سِلْكِ أَوْلِيَانَا الْمُقَرَّرِينَ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا حَمَلَهُ لِأَسْتَادِ دَارِهِ مِنْ مَشَافَهَتِهِ ، وَجَمِيلِ مَقَاصِدِهِ وَوَافِرِ مَحَبَّتِهِ وَطَاعَتِهِ ؛ وَقَدْ
أَحْطْنَا عَلَمًا بِذَلِكَ وَسَمِعْنَا الْمَشَافَهَةَ الْمَذْكُورَةَ ، وَشَكَرْنَا مَحَبَّتَهُ الْمَأْثُورَةَ ؛ وَإِحْلَاصَهُ
فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَجَمِيلِ الْمَوْلَاةِ الَّتِي تَمْنَحُهُ تَكْرِيمَهُ وَتَشْرِيفَهُ ؛ وَأَسْتِمْسَاكَهُ
بِسُنَّةِ آبَائِهِ الْكِرَامِ ، وَأَجْتِهَادَهُ فِي الْمُنَاصَحَةِ وَالطَّاعَةِ الَّتِي لِأَسْمَائِي مِنْ مِثْلِهِ وَلَا تُسَامُ ؛
وَنَحْنُ نَعْرِفُ الْمُقَرَّرَ الْكَرِيمَ أَنَّ مَحَلَّهُ وَمَحَلَّ بَيْتِهِ الْكَرِيمِ لَمْ يَزَلْ لَدِينَا رَفِيعًا مِقْدَارُهُ ، عَلِيًّا
مَنَارُهُ ؛ وَأَنْ مَكَاتِبَتَهُ مِنْ خَوَاطِرِنَا الشَّرِيفَةِ مِمَّا كُنْتُمْ ، وَمَنْزِلَتَهُ قَدْ صَحَّتْ أَحَادِيثُهَا
الْمَعْتَمَنَةُ ؛ وَهُوَ الْأَحَقُّ بِمَجَلِّ مُلْكِهِ ، وَالْأَوْلَى بِأَنْ يَكُونَ مِنْ نِظَامِ عُقُودِ مُلُوكِهِ وَاسْطَةِ
سِلْكِهِ ؛ وَقَدْ أَقْتَضَتْ آرَأُونَا الْعَالِيَةَ أَنْ يَقُومَ مَقَامَ وَالِدِهِ الْمَرْحُومِ ، وَيَحُلَّ مَحَلَّ هَذِهِ
السُّلْطَنَةِ لِيَعْلُو قَدْرُهُ بِأَقْبَالِنَا الشَّرِيفِ عَلَى زُهْرِ النُّجُومِ ، وَيَجْلِسَ بِمَكَانِهِ ، وَلِيَسْتَسِطُّ

المعدلة لتكون حلية زمانه ، وليستنصر على أعدائنا وأعدائه بأنصار الملك وأعوانه ؛ وليستقر على ما هو عليه من المحافظة على الوداد ، وليستمسك بعرى الإخلاص المبرر من شوائب الانتقاد ؛ وليقتف في ذلك سبيل سلفه الكريم ، وليواصل بمكاتبته وأخباره على سننهم القويم ؛ وقد أعدنا إستاناد داره بهذا الجواب الشريف إليه .

وأعلم أنه قد ذكر في "التثقيف" أن من يكتب إليه عن الأبواب السلطانية من أتباع صاحب ماردين نائبه ، وذكر أنه كان اسمه في زمنه «بهادر» . وأن رسم المكتبة إليه الأسم والسامى بغيرياء ؛ وكذلك نائب الصالحية من عمل ماردين ؛ وأن رسم المكتبة إليه الأسم و «مجلس الأمير» . فليجركاتب على سنن ذلك إن احتيج إلى مكاتبتهما .

صاحب حصن كيفا - وهي مدينة من ديار بكر من بلاد الجزيرة ، بين دجلة والفرات . وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أن صاحبها من بقايا الملوك الأيوبية ، ومن تنظر إليه ملوك مصر بعين الإجلال : لمكان ولأهمهم القديم لهم ، وأستمرار الوداد الآن بينهم .

ورسم المكتبة إليه فيما ذكره في "التعريف" : «أدام الله نعمة المجلس العالى ، الملكى ، الفلانى» باللقب الملوكى «العالمى» ، العادلى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المرابطى ، المشاغرى ، الأوحدى ، الأصيلى ، الفلانى» باللقب المتعارف «عز الإسلام والمسلمين ، بقية الملوك والسلاطين ، نصرة الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، شرف الدول ، ذخر الممالك ، خليل أمير المؤمنين» . وربما قيل : «عضد أمير المؤمنين» إذا صغر .

وذكر في "التثقيف" ما يخالف في بعض ذلك ، فقال : إن مكاتبته : «أدام

الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المرابطى ،

المثاغريّ، الأوحديّ، الفلانيّ» باللّقب الملوكي واللّقب المتعارف . «عزّ الإسلام والمسلمين، زعيم جيوش الموحدّين . دُخِرَ الملة، سليل الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين» . ثم الدعاء . «صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس العالی . «والعلامة» أخوه» وتعريفه «صاحب حصن كيفا» . قال : والكتابة إليه في قطع العادة . وقد ذكر في «التعريف» صدور المكاتبته .

صدر : وأستعاد به من الدهر من عهود سلفه ماتسلف ؛ وحازله من موارث الملك أكثر مما خَلَى له أوله وماخلف ، وحطّ للرحال في حصن كيفا به على ملك : أما المستجير به فيتحصن وأما فضله فلا يكف ؛ وأعان السحاب الذي كلّ عن مجاراته ويجرى هو ولا يتكلف . أُصدرت هذه المكاتبَةُ إليه ونوعها يصب ، ولأؤها تُشَقُّ به الظلماء الجيوب ، وتناؤها على حُسن بلائه في طاعة ربه يقول له : صبرا صبرا كما تعودتم يا آل أيوب .

صدر آخر : وشدّ به بقية البيت ، وحيّا طلله البالي وأحارشمه الميت ؛ ودكر به من زمان سلفه القديم ما لا يُعرف فيه هيت ، وأبقى منه ملكا من بني أيوب لا يثني وعده اللئى ولا يقال فيه لبت ؛ ونور الملك بغرته لا بما قرع السمع عن الشّمع وورد المصابيح من الزيت ، وحفظ منه جوادا لو عينه أخوه السحاب على السبق ، لقال له : هيات كم خلقت مثلك خلفي وخليت . أُصدرت هذه المكاتبَةُ إليه ، أعزّ الله جانبه والتحيات موشحة بنطقها ، مصبحة لسجايه الكريمة بحلقها ، ساحبة إليه ذيل خيلائها : لأنها إذا آختالت به تختال ، وبسببه على السرور تختال . ملوك كيلان - قال في «التعريف» : وهم جماعة كل منهم مستقل بنفسه ، منفرد بملكه ، على ضيق بلادهم وقرب مجاورة بعضهم من بعض . وقد

(١) كذا بالأصل ، وفي التعريف «عنه» والاولى عاتبه أنظر كتب اللغة .

تقدم الكلام على بلادهم في المسالك والممالك . قال في " التعريف " : ورسلهم قليلة ، وكُتبتهم أقل من القليل .

ورسم المكاتبه إلى كل منهن على ما ذكره في " التعريف " نحو ما يكتب إلى صاحب حصن كيفا . يعنى يكتب لكل منهن : « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الملكى الفلانى » إلى آخر ما تقدم هناك . قال في " التعريف " : إلا صاحب يؤمن فإنه يكتب له بـ « الجنب » . وهو مثلهم في بقية الألقاب . قال في " التثقيف " : ولم أر لهم مكاتبه ، ولا كتب لهم في مدة مباشرتى بديوان الإنشاء الشريف شىء ؛ غير أنى رأيت بخط المولى القاضى المرحوم زين الدين خضر ، أنه كتب أمثلة شريفة إلى جماعة ، منهم « حرم الدين » . بيومن ، ثم قال : وهذا هو الذى ذكر القاضى شهاب الدين أن مكاتبته أعلى مكاتبهم ؛ وأنه يكتب إليه « الجنب » . قال : وما يبعد أن الجماعة الذين كتب إليهم على ما ذكر القاضى زين الدين المشار إليه هم من جملة ملوك كيلان . ثم عدد من كتب إليه منهم فقال : وهم نوباد شاه ، وسالوك ولده ، فى قطع العادة .

ورسم المكاتبه إليهما : « خلد الله تعالى سعادة الجنابين الكريمين ، العالين ، الكبيرين ، العاديين ، المجاهدين ، المرابطين ، الملكيين : الشرفى والسيفى » . والدعاء . والعلامة « أخوهما » . والعنوان سطران . وتعريفهما : نوباد شاه وسالوك ولده صاحباً كوحسفا (؟) .

ناصر الدين بهلوان ، وشرف الدين شرف الدولة صاحباً لاهجان مثل ذلك سواء .

فلك الدين صاحب دشت كذلك .

حُسام الدين صاحب بومين كذلك . ثم قال نقلا عن ابن الزبيني خضر أيضا :
وقيل إنَّ حُسام الدين هذا كان صاحب بومين ، وصاحبها الآن أخوه علي ما ذكره
محمود بن إبراهيم بن اسفندار الكيلاني حين كتب إليهم .

قلت : وهؤلاء هم ملوك كيلان ، وهذه مدنهم على ما تقدم في المسالك والممالك .
والعجب كيف وقع الشك في ذلك من صاحب "التتقيف" حتى قال : وما يبعد .
وأما التسوية في الآخرين صاحب بومين وغيره ، فيجوز أن قدره انحط بعد زمن
صاحب "التعريف" أو جهل الكاتب الثاني مقداره .

صاحب هرارة - وهي مدينة من حراسان . قال في "التعريف" : ولا يجزى على
الألسن الآن إلا صاحب هرئ . قال : وكان ملكها الملك غياث الدين . ولم أسمع
أعجمياً يقول إلا قياس الدين . وكان ملكا جليلا نبيلاً مفتحاً معظماً ، له مكانة عند
الملوك الهولوكوهية ، ومنزلة رفيعة عليه . وكان بينه وبين التوئين جوبان مودة أكيدة
وصداقة عظيمة ؛ فلما دارت به دوائر الزمان وأفضت به الحال إلى الهرب ، لحا
إلى صاحب هرئ هذا ، على أنه يسئل له الوصول إلى صاحب الهند ؛ أو إلى ملك
ماوراء النهر ، فأجابه وأنزله ، وبسط أمله ؛ وأسر له الخداع حتى أطمأن إليه ،
فأصعدته إلى قلعته ليضيفه ، فصعد معه ابنه جلوقان ، وهو ابنه من خوند بنت
السلطان خدابندا ؛ وجلوقان هذا هو الذي أوجب إلى تزويجه بنت السلطان الملك
الناصر ، وعلى هذا تمت قواعد الصلح . وبني جوبان أمره على أنه بعد الترويح
ياخذ له ملك بيت هولوكو بسبهة أنه ابن بنت خدابندا ؛ وأنه لم يبق بعد أبي سعيد
من يرث الملك سواه . ثم يستضيف له ملك مصر والشام بسبهة أن بنت صاحب
مصر هي التي ترث الملك من أيها ؛ فحالت المنايا دون الأمان .

وحال صعودِ جُوبانِ وأبْنِه جُلوقانِ القلعةَ أمسكهما غياثُ الدينِ وختقهما لِيَتَّخِذَ وجهاً بذلك عندَ أبي سعيدٍ ، وبعثَ بذلك إلى أبي سعيدٍ ، فشكرَ له إمساكَهُما ، وانكرَ عليه التعجيلَ في قتلِهما ، فاعتذرَ بأنِّي لو لم أقتلُهما لم آمِنَ أَسْتعدادَ مَنْ معهما لمحاصرتي ؛ فقبلَ عُذْرَهُ ، وطلبَ منه إيهامَ جُوبانَ ليعْرِفَ أنه قد قتلَهُ ، وكان فيه زيادةُ سلعةٍ ظاهرةٍ يُعْرِفُ بها ، فجهَّزَهُ إليه فأكرمَ رُسُلَهُ وبعثَ إليه بالخِلمِ ، وأمرَ بإصبعِ جُوبانِ فطيفَ بها في الممالكِ . ثم سألتُ بغدادَ خاتونَ بنتِ جُوبانِ : امرأةُ أبي سعيدٍ ، وكان شديدَ الكَلْفِ بها ، في نقلِ أجسادِهما فُنِقلتُ ، فَعَقَدْتُ لها الماتَمَ ، ثم أمرتُ بحملِهما إلى مَكَّةِ المَعظِمةِ ، ثم إلى المدينةِ المُشرَفةِ ليدفنا في التربةِ الجُوبانيةِ التي كان جُوبانُ أَعَدَّها لدفنِهِ في حالِ حياتِهِ ؛ فمُكِّنْتُ من ذلك إلا من الدفنِ فإنهما دُفِنَا بالبقيعِ . ثم حَصَرَ غياثُ الدينِ حضرةَ أبي سعيدٍ ، فأكرمَ وَأَعْطَى العطايا السنيةَ ؛ ثم لم يلبثَ أن مات وولىَ أبْنَهُ . قال : ولم يكن صاحبُ هذه المملِكةِ ممن يكتبُ عن السلطانِ حتى كانت واقعةُ جُوبانِ فكتبَ إليه .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" : « أعزَّ الله تعالى نصرَ المَقَرِّ الكَرِيمِ ، العَالِي ، العَالِمِي ، العَادِلِي ، المِجَاهِدِي ، المُوَيَّدِي ، المِرابِطِي ، المُنَاغِرِي ، الأَوْحَدِي ، المَلِكِ الفَلَانِي ، شَرَفِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ ، خَلِيلِ أميرِ المُؤْمِنِينَ » . قال في "التثقيف" : ولم أُطَّلِعْ على ما يكتبُ إليه سوى ما ذكره القاضِي شهابُ الدينِ بعد واقعةِ جُوبانِ . قال : والذي يظهر لي أنه لم يكتبَ بعد ذلك هو ولا مَنْ قامَ مَقَامَهُ : لأنه لم تكن له مكاتبة مشهورةٌ متداوِلةٌ بين الموالِي الجماعةِ ، ولا كتبُ إليه في مَدَّةٍ مباشرتِي شيءٌ . على أن القاضِي شهابَ الدينِ لم يذكر تعريفه

(١) أي أصبغهُ الابهام .

الحكام بهذه المملكة

(مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِمَكَاتِبِهِ مِنَ الْحُكَّامِ بِالْجَزِيرَةِ الْقُرَاتِيَّةِ مِنْ هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ)

الحاكم بِشِمَشَاطٍ — وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنّها بلدة من ديار مَضْرِبِينَ آمِدٍ وَخَرَّتْ رِبَّتَ . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامة الأسمُ . وتعريفه «الحاكم بِشِمَشَاطٍ» .

الحاكم بِمَيَّافَارِقِينَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها قاعدة ديار بَكْرٍ . قال : في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بغير ياء . والعلامة الأسمُ . وتعريفه «الحاكم بِمَيَّافَارِقِينَ» .

الحاكم بِحِيْزَانَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها مدينة من ديار بَكْرٍ . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامة الأسمُ . وتعريفه «الحاكم بِحِيْزَانَ» وهو معدود في "التثقيف" في جملة الأكراد .

الحاكم بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها مدينةٌ صغيرةٌ على دجلة من غربيها . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إليه «السامى» بالياء . والعلامة له الأسمُ . وتعريفه «الحاكم بِجَزِيرَةِ ابْنِ عُمَرَ» . وذكره في "التثقيف" في جملة الأكراد، وقال : كان بها عز الدين أحمد اليخشى . وذكر أن رسم المكتبة إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «أحمد بن سيف الدين اليخشى الحاكم» . وأستقر بعد وفاته ولده عيسى ، وورد كتابه في صفر سنة أربع وستين وسبعائة ، أخبر فيه بوفاته والده وأستقراره مكانه . على أنه قد ذكر معبراً عنه بصاحب الجزيرة ، وسماه بكلمش . وذكر أن المكتبة إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء .

الحاكم بِسِنْجَارٍ — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنّها مدينةٌ من ديار ربيعة . قال في "التثقيف" : وكان قد كتب لشيخو الحاكم بها مرسومٌ شريفٌ بأن يكون

نائباً بها حسب سؤاله في سنة ثلاث وستين وسبعائة . قال : وكانت المكتبة إليه
أولاً الأسم و « مجلس الأمير » وكتب له حينئذ « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتلّ أعفر — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قلعة بين سنجار
والموصل . قال في « التثيف » : ورسم المكتبة إليه « السامى » بالياء . والعلامة له
الأسم وتعريفه « الحاكم بتلّ أعفر » .

الحاكم بالموصل — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قاعدة بلاد الجزيرة كلها
في القديم حيث كانت بيد الجرامقة . قال في « التثيف » : والمكتبة إليه في قطع
العادة الأسم ، و « صدرت » و « السامى » . وتعريفه « الحاكم بالموصل » . ورأيت
في بعض الدساتير أن العلامة استقرت له « والده » عند استقراره نائب السلطنة بها .

الحاكم بالحديثة — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها بلدة على الفرات . قال
في « التثيف » : ورسم المكتبة إليه الأسم و « السامى » بالياء . وتعريفه « الحاكم
بالحديثة » . وهى غير حديثة الموصل . وهى بلدة شرقى دجلة تعدّ في بلاد العراق .

الحاكم بعانة — وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها بلدة صغيرة على جزيرة
في وسط الفرات . قال في « التثيف » : ورسم المكتبة إليه الأسم و « السامى »
بالياء . وتعريفه « الحاكم بعانة » . ورأيت في بعض الدساتير أن المكتبة إليه
« السامى » بغير ياء .

الحاكم بتكريت — وفي « التثيف » صاحب تكريت . وقد تقدّم في المسالك
والممالك أنها مدينة من آخر مدن الجزيرة بين دجلة والفرات . قال في « التثيف » :
ورسم المكتبة إليه مثل الحاكم بالموصل ، فتكون في قطع العادة . والعلامة الأسم .
وتعريفه « الحاكم بتكريت » .

(١) في معجم ياقوت بفتح التاء والعلامة يكسرونها .

الحاكم بقلعة كُشَاف - وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها في الجَنُوب عن المَوْصِل بين الرّابِّ والشَّطِّ، وأنه عدّها في "تقويم البُلدان" من بلاد الجزيرة مرّةً، ومن عراق العجم أُخرى. وأنه أوردّها في "التثقيف" بإثبات الألف واللام. قال في "التثقيف": ورسمُ المكتبة إليه مثلُ حاكمي عانة والحديثة، فتكون المكتبة إليه «السامى» بالياء. ورأيتُ في بعض الدساتير أن المكتبة إليه «السامى» بغير ياء. وتعريفه «الحاكم بقلعة كُشَاف».

الحاكم بإسْعَرْد - وهي سِعْرَتْ. قد تقدّم في المسالك والممالك أنها مدينةٌ من ديار ربيعة. قال في "التثقيف": ورسم المكتبة إليه «مجلس الأمير». وحينئذ فتكون في قَطْع العادة. والعلامة الأسم. وتعريفه «الحاكم بإسْعَرْد».

صاحب حَاني - ويقال لها حَنَا. وهي مدينةٌ من ديار بكر. وقد ذكر في "التثقيف" أن صاحبها تاج الدين. ورسمُ المكتبة إليه الأسم «والسامى» بغير ياء.

من جرت العادة بالمكتبة إليه

بالجانب المختصّ بنبي جنكرخان من بلاد الروم من مارية وما معها

أرتنا، الذي كان قائماً بهذه البلاد عن نبي هولاكو من التتر. ورسم المكتبة إليه في قَطْع الثلث: «ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى، الرعىمى، المهيدى، المشيدى، الظهيرى، التوينى، الفلانى؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيّد الأمرء فى العالمين، نُصرة الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدّم العساكر، كهف الملة، دُخر الدولة، ظهير الملوك والسلطين، سيف أمير المؤمنين». والدعاء والسلام. والعلامة «أخوه».

وذكر في "التثقيف" أنه كتب إلى ولده محمد بعده كذلك في قِطْعِ الورق والمكاتبِ والعلامة . وأنه كتب إلى علي بك بن محمد المذكور بعده كذلك ، إلا في العلامة فإنها استقرت له «والده» وكتب تعريفه : «علي بك ابن أرتنا» .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد العراق

الحاكم بهيت — وعبر عنه في "التعريف" بصاحب هيت . وقد تقدم في المسالك والممالك أنها شمالي الفرات من أعمال بغداد . قال في "التثقيف" : ورسم المكاتبه إليه الأسمُ و«السامى» بالياء ؛ وتعريفه «الحاكم بهيت» .

الحاكم بالقنيطرة — وقد تقدم في المسالك والممالك أنها بلدة بالقرب من مرسى الحلة . قال في "التثقيف" : والمكاتبه إليه «السامى» بالياء . والعلامة الأسمُ . وتعريفه «الحاكم بالقنيطرة» . ثم قال : وأحرما استقرت مكاتبته عليه «السامى» بغير ياء . وعبر عنه في موضع آخر «ابراهيم صاحب القنيطرة» . وذكر أن المكاتبه إليه الأسمُ و«السامى» . وأن تعريفه اسمه خاصةً .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد الجبل

«وهى عراق العجم»

الحاكم بإربيل — وعبر عنه في "التثقيف" بصاحب إربيل . قال في "التثقيف" : كان بها الشريف علاء الدين على الدلقندى ؛ ثم استقر بها الشريف يحيى ؛ ثم استقر بها على ولده . قال : والمستقر بها الآن على ماتحزور في سنة ثلاث وسبعين وسبعائة أسد الدين أسد . ورسم المكاتبه إليه الأسمُ و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «الحاكم بإربيل» .

صاحب قاشان - وسمّاها في "التثقيف" قَيْشَان. ورسم المكتّبة إليه «السامى»
بغير ياء .

صاحب باب الحديد - المعروفة عند الترك بِمَرَقَابُو . وهى باب الأبواب .
قال في "التثقيف": كان بها كأووس ، وكتب إليه جوابٌ في ثمانى عشر ربيع الأول
سنة اثنتين وستين وسبعائة أويس في قَطْع الثُلث ، والدعاء والعالى . وتعريفه
أَسْمُهُ لَا غَيْرُ .

مَنْ جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ، ببلاد فَاْرِسَ

الحاكم شيراز - وقد تقدّم في المسالك والممالك أنها قاعدة بلاد فارس . قال
في "التثقيف": والمستقرّ بها على ماتحرّر في سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ، شاه شجاع ،
أخو شاه ولى . وذكر أنه لم يُكْتَب إليه فى مدّة مباشرته من ديوان الإنشاء ،
ولا وقف على مكتبةٍ إليه . ثم قال : غير أنه يمكن أن تكون المكتبةُ إليه نظير
المكتبة إلى الأشرف تمرتاش المستولى على تيريز ، فإنه قال : إن شيراز قدر تيريز
ونظيرها . فعلى هذا يكون رسم المكتبة إليه فى قَطْع الثلث : «ضاعف الله تعالى نعمته
الجناب العالى الأميرى ، الكبيرى» وبقية الألقاب والنوعوت . ويكون فيها «الثوينى»
كما فى مكتبة المستولى على تيريز .

من جرت العادة بمكاتبته ببلاد كَرْمَانَ

صاحب هُرْمُز - قد تقدّم فى المسالك والممالك أن قاعدة كَرْمَانَ القديمة السيرجان
وأن هُرْمُز فُرْضة كَرْمَانَ ، وأنها حربها التتر عند نُجُوجهم على تلك البلاد بكثرة
الغارات ، وانتقل معظم أهلها إلى جزيرةٍ يَحْيُرة ببحر فارس على القرب منها تسمى
وَزْرُونَ . وقد كُتِب إلى صاحبها عن سلطان العصر "الملك الناصر فرج" ابن الظاهر
(٢)

(١) كذا فى الاصل ولعله زائد من قلم الناسخ (٢) هى بهذا الضبط فى الأصل ولم تذكر فى المعجم ولا فى التقيوم

(١)

برقوق في سنة ثلاث عشرة ومائاتة مفاحة في قطع

من جرت العادة بمكاتبته من بلاد أرمينية وأران وأذربيجان

النائب بخلاط من أرمينية — قد تقدم في المسالك والممالك أنها كانت قاعدة بلاد الكرج . قال في "التثقيف" : ويقال إن حاكمها من الأكراد ، وأسمه أبو بكر بن أحمد بن أربك . ثم قال : ورسم المكتبة إليه الأسم و «السامى» بالياء ؛ فيكون في قطع العادة . وتعريفه «النائب بخلاط» .

الحاكم بحصن أرزن — وهى أرزن الروم . قال في "التثقيف" : وهو — على ما أتضح آخراً في رمضان سنة ست وسبعين وسبعماية — علاء الدين على بن قرأ . وردت مكاتبته أن صاحب حصن كيفا ابن خاله . ورسم المكتبة إليه على ما في "التثقيف" مثل صاحب حصن كيفا من غير زيادة ولا نقص . على أنه في "التعريف" قد ذكر أن المكتبة إليه «السامى» بالياء . قال في "التثقيف" : والصحيح ما تقدم ، فإنى كتبت إليه هذه المكتبة مرات ، وهو المتداول بين الموالى الجماعة إلى آخر وقت . وقد تقدم في المسالك والممالك أنها في آخر بلاد الروم من جهة الشرق .

صاحب بدليس — قد ذكر في "التعريف" أنه كان في زمانه الأمير شرف الدين أبو بكر . وقال : إنه يتهم بمذهب النصيرية . ثم قال : وبلده صغير ، ودخله يسير ، وعمله

ضيق . وهو طريقُ المازة وقصَادِ الأبواب السلطانية إلى الأردن وإذا لم يكن بالعراق وله خِدْمَة مشكوره . وعده في "التثقيف" في جملة الأكراد . قال في "التعريف" :
 ورسمُ المكتبة إليه : « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامي الأميري » أسوة
 الأمراء . وذكر في "التثقيف" أنه كان بها ضياءُ الدين أبو الفوارس الروشكي أخو
 الغرس بالوب ، وأن المكتبة إليه الأسم و« السامي » بالياء . وتعريفه « صاحب بذليس » .
 وأنه أستقر بعده ولده الرحاح ، وكتب بمثل ذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعائة .
 صاحب موقان — وهي موغان . وسمّاها في "التثقيف" ميوغان . قال
 في "التثقيف" : وكان بها محمد شاه بن أميرشاه ، وكتب إليه مستجداً في سنة سبع
 وستين وسبعائة « السامي » بغير ياء .

النائب بحرت برت — وهي حصن زياد . ذكره في "التثقيف" من جملة تركمان
 البلاد الشرقية ، وذكر أن اسمه يومئذ باليس ، وأن رسم المكتبة إليه الأسم و« السامي »
 بالياء . وتعريفه اسمه ، ثم قال : وهكذا كان يكتب إلى صاحب نخرت برت قبله .
 ثم ذكر أنه رأى بخط القاضي شهاب الدين بن الصفدي أنه أستقر بها علاء الدين
 ابن خالد المليكنشي بعد حسام الدين نخرتدة ، وأن مكاتبته « السامي » بالياء .

الصنف الثالث

(من يكتب بهذه المملكة العربان ، وهم : عبادة وحقاجة)

وقد تقدم في الكلام على أنساب العرب أن نسبهما في عامر بن صعصعة من
 قيس عيلان . وأجل من يكتب إليه منهم رسمه « هذه المكتبة إلى المجلس السامي
 الأمير » . على أن صاحب التثقيف قد ذكر أنه لم يطلع على مكتبة إليهم .

الصنف الرابع

(من يكتاب بهذه المملكة التُّركان)

قال في "التثقيف": والأكابرُ في البلاد الشرقية الذين يُكْتَب إليهم من هذه الطائفة مفردا قليلٌ . أما بقيتهم من تُركان الطاعة الشريفة، فقد يُكْتَب إليهم عند المهمات مُطلقاً شريفة، ثم ذكر جماعةً ممن يكتب إليه على أنفراده، ولم يعين لأحد منهم بلدا ولا رياسة قومٍ معروفين . وها أنا أذكرهم على ما ذكرهم : ليقاس عليهم لدى تحقُّق مقامهم .

منهم - مُراد خَواجَا . ورسم المكاتبه إليه الأسم و « السامى » بغيرياء . وتعريفه اسمه .

ومنهم - باكيش الكبير ابن أنحى تُوْزطوغان . ورسم المكاتبه إليه الأسم و « السامى » بغيرياء . وتعريفه اسمه .

ومنهم - زَيْنُ الْمَلِكِ تُوْزطوغان . ورسم المكاتبه إليه الأسم و « السامى » بغيرياء . وتعريفه «مُقَدِّمُ التُّركان بالبلاد الشرقية» .

ومنهم - على بن إينال التُّركانى من الطائفة البوزقية . ورسم المكاتبه إليه الأسم و « السامى » بغيرياء وتعريفه اسمه .

ومنهم - يعقوب بن علي شار . ورسم المكاتبه إليه الأسم و « السامى » بالياء . وتعريفه اسمه . قال في "التثقيف": وقد ذكر القاضى ناصر الدين بن النشائى أنه كتب إليه كذلك في سنة إحدى وأربعين وسبعمئة .

ومنهم - سالمُ الدلكرى، ورسم المكاتبه إليه الأسم و « السامى » بالياء، وتعريفه اسمه .

وأعلم أنه قد تقدّم في الكلام على تُرْجَانِ البلاد الشامية نقلاً عن "التتيف" أن من طوائف التُّرْجَانِ الذين هم تحت الطاعة مَنْ لم يُكْتَبْ إليه بعدُ ؛ بل إذا كَتِبَ في مهمٍّ شريفٍ ، كَتِبَ إلى كلِّ طائفة منهم أو إلى سائر الطوائف مطلقاً شريف . وعدّ منهم طوائف :

الأولى — البوزقية : جماعة ابن دلغادر وابن إينال المقدم ذكره .

الثانية — أولاد رمضان : الأمرية .

الثالثة — الأوشرية : تُرْجَانِ حَلَبَ .

الرابعة — الدلكرية : جماعة سالم الدلكري .

الخامسة — الخربندلية : جماعة مصطفي .

السادسة — الأغاجرية .

السابعة — الورسوق : تُرْجَانِ طَرَسُوسَ .

الثامنة — القنقية .

التاسعة — الباندرية : وهم القنقية^(١) .

العاشر — البكرية^(٢) : أولاد طشحون .

الحادية عشرة — البياضية .

ثم قال : وتمّ جماعٌ كثيرة لا يمكن آستيعابهم .

قلت : فإن كان من هذه الطوائف شيءٌ بهذه البلاد ، فحكه ماتقدّم في الكلام

على تُرْجَانِ البلاد الشامية .

(١) في الضوء ص ٣٢٧ وهم من القنقية .

(٢) في الضوء ص ٣٢٧ البلوية وأولاد طشحون .

الصنف الخامس

(ممن يكاتب بهذه المملكة الأكراد)

وقد تقدم الكلام على طوائفهم ومنزلهم من بلاد الجبال من عراق العجم . قال في "التعريف" : وهم خلائق لا يُحصون ، ولولا أن سيف الفتنة بينهم يستحصد قائمهم ، ويُنبئهم ، وافاضوا على البلاد ، واستضافوا إليهم الطارف والتلاد ؛ ولكنهم رُموا بشتات الرأي وتفرق الكلمة ، لا يزال بينهم سيفٌ مسلول ، ودمٌ مطلول ، وعقد نظام محلول ، وطرفٌ باكية بالدماء مبلول . وهم على ضربين :

الضرب الأول

(المنسوب منهم إلى بلادٍ ومقراتٍ معروفة)

قال في "التعريف" : ولهم رأسان كلُّ منهما رجل جليل ، ولكلُّ منهما عدد غير قليل . أحدهما - صاحبُ جُولمَرَك ، من جبال الأكراد من عراق العجم . قال في "التعريف" : وهو الكبير منهما الذي تتفق طوائف الأكراد مع اختلافها على تعظيمه ، والإشارة بأنه فيهم الملك المطاع والقائد المتبع . وهو صاحب مملكة متسعة ومدن وقلاع وحُصون ، وله قبائل وعشائر وأنفار . قال : وهم ينسبون إلى عُتْبة ابن أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف . ثم قال : وكانت الإمرة قد آتته فيهم إلى أسد الدين موسى بن مجلي بن موسى بن منكلان . وكان رجلا كريما عظيما هابيا وهابا ، تُجَلُّه ملوك الممالك الجلييلة ، وتعظمه حُكَّام الأردو وصاحب مصر . وإشارته مقبولة عند الجميع . وإذا اقتتل طائفتان من الأكراد فتقدم إليهما بالكف كفوا ، وسمعوا له سمع [مراع لاسمع^(١) مطيع . وذكر أن القائم

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

فيهم إذ ذاك من بينه الملك عماد الدين مجليّ : وهو رجل يحب أهل العلم والفضل ،
ويجلّ منهم عنده من أتاه أعظم محل . وقد مضى القول على ذلك مستوفى في الكلام
على الأكراد عند ذكر عراق العجم من المسالك والممالك ، من المقالة الثانية . قال
في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی الأميري»
والألقاب التامة الكاملة .

الثاني — صاحب عقروش من بلاد الجزيرة . قال في "التعريف" : ومُلوكها
الآن من أولاد المبارزك . قال : وكان مبارز الدين كك هذا رجلاً شجاعاً كريماً
تعلّب عليه [غرائب من] الهوس . فيدعي أنه ولي من الأولياء يقبل النذور .
وكانت تُندّر له النذور تقرباً إليه ؛ فإذا أتاه النذرُ أضاف إليه مثله [من ماله] وتصدق
بهما جميعاً . قال : وأهل هذا البيت يدعون عراقة الأصل في الإمرة وقدم السؤدد
والحشمة . ويقولون إنهم عُقدت لهم ألوية الإمارة وتساموا أزمة هذه البلاد
وتسّموا صهوات الصياصي بمناشير الخلفاء ؛ وأنهم كانوا لهم أهل وفاء . ولهم في هذا
حكايات كثيرة ، وأخبار مأثوره ؛ وهم أهل تنعم ورفاهية ونعمة ظاهره ، ويزة
فاحره ؛ وأدب من تحرفه ، ورياض موفوه ؛ وخيول مسومه ، وجوارح معلمه ؛ وخدم
وغلمان ، وجوارح حسان ؛ ومعازف وقيان ، وسماط ممدود وخوان . قال : وموقع
بلادهم من أطراف بلادنا قريب ، والمدعو منهم من الرحبة وماجاورها يكاد يُجيب .
ثم قال : ومُلوكنا تشكرهم إخلاص نصيحه ، وصفاء سريرة صحيحه . وذكر أن
القائم فيهم في زمانه شجاع الدين ابن الأمير نجم الدين خضر بن المبارزك ، إلا أنه

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

(٢) في التعريف زيادة (بما تنفق عليه لا اعتقاداً فيه فيسر بذلك) .

(٣) في التعريف ص ٣٩ زيادة (وأهل عشرة وأخوان) .

لم يبلغ مبلغ أبيه، بل لأيقار به ولا يُدانيه؛ على أنه قد ملك مُلكه، ونظّم سلّكه .
 وقد تقدّم الكلام على ذلك أيضا في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية .
 ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التعريف" مثل صاحب جُولَمَرَك، وهى :
 «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى الأميرى» . وذكر فى "التثقيف" أن المكاتبه
 كانت إلى خَضِر بنِ المَبَارِزِ كُ «صدرت» و«العالى» . والعلامة «أخوه» .
 وتعريفه «خَضِر بنِ المَبَارِزِ كُ» . مع عدم تعريجه على ما فى "التعريف" جملة .
 وقد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعة سِوَى مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ هَم منهم بالجزيرة، كالحاكم
 بجزيرة ابن عمر، والحاكم بجانى، وصاحب عقرشوش . ولم يذكر بلاد من ذكره
 منهم ممن يأتى ذكره منهم ومن كان بكل بلد منهم من أكابره وحكامهم ؛ ورسم
 المكاتبه إليهم على ما ذكره ، وهم قسمان :

القسم الأول — من علمت المكاتبه إليه، وهم :

صاحب برخو — وهو يومئذ أمير حسين بن الملك أسد . ورسم المكاتبه إليه
 الأسم و«السامى» بالياء .

صاحب الباهتية — قال : وكان بها شمس الدين بن البيلىق ، ثم استقر بعده أخوه
 أحمد . ورسم المكاتبه إليه الأسم و«السامى» بالياء أيضا .

صاحب الدرْبَنْدَه — وهو سيف الدين أصبر بن أزشير الحسينانى . ورسم المكاتبه
 إليه الأسم و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «أمير أزشير الحسينانى صاحب الدرْبَنْدَه» .

صاحب كَرَمَلِيس — وهو سحِب مسعود . ورسم المكاتبه إليه الأسم و«السامى»
 بغير ياء .

(١) فى التعريف ولا أظنه يقاربه الخ .

(٢) لعله وهو المعروف بخت مسعود .

صاحب العِمَادِيَّة — عمادُ الدين إسماعيلُ بن عليّ بن موسى . ورسمُ المكتبةِ إليه «السامى» بغير ياء . وتعريفه «صاحب قلعة العِمَادِيَّة» . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك أنهم بالقرب من طائفة الجولمركية . قال في «التتقيف» وكان بها أولادُ الحاجّي بن عمر، وردت مطالعته كذلك «الحاجّي بن عمر صاحب العِمَادِيَّة» في سنة أربعين وسبعائة .

صاحب ماز كرد — حسنُ بن إسماعيل . ورسمُ المكتبةِ إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب رندشت — بيجال همدان وشهرزور . وهو عبدُ الله بن حسام الدين رسلان . ورسمُ المكتبةِ إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب جردقيل — بهاءُ الدين عمرُ بن إبراهيم الهكاري . ورسمُ المكتبةِ إليه الأسمُ و «السامى» بغير ياء .

صاحب سكراك — كرجي بك . ورسمُ المكتبةِ إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .

صاحب فلس — سلطان شاه . ورسمُ المكتبةِ إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .^(١)

صاحب شكوش — أمير أحمد . ورسمُ المكتبةِ إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم .

صاحب جرموك — «مجلس الأمير» . والعلامة الأسم الشريف .

(١) كذا بهذا الرسم في الأصل ولم نعر عليها كما لم نعر على كثير غيرها من هذه الاسماء ويظهر أنها أسماء مدن حدثت أو تغيرت .

صاحب بهرمان - عبد الصمد . ورسمُ المكتبة إليه « مجلسُ الأمير » .
والعلامةُ الأسم .

صاحب حِضْنُ أَرَان - وهو حِضْنُ الملك - شُجاع الدين خِضْر بن عيسى
الشهرى . ورسمُ المكتبة إليه « مجلسُ الأمير » والعلامةُ الأسم .

القسمُ الثاني - من ذكره في التثقيف ولم يذكر مكاتبته وقال : إنه وقف عليه
كذلك ، وهم :

صاحب حُفْتِيَان - تاجُ الدين أخو باشاك .

صاحب سُوبَج - أمير عيسى بن باشاك .

صاحب أكريسنا - ملكُ بن باشاك .

صاحب يزا كرد - بهاءُ الدين الزَّرْزَارِي .

صاحب زاب - نغرُ الدين عثمان الزَّابِي .

صاحب الرنسه - شمسُ الدين بن بهاءُ الدين .^(١)

صاحب الدرَبَنَدَات القَرَايِلِيَّة - عليُّ بن كزافي ، تعريفه « صاحبُ دَرَبَنَد القَرَايِلِيَّة » .

صاحب قلعة الجبَلِين - حُسامُ الدين بن تاجُ الدين العَامِلِي .

صاحب سيدكان - أمير عليُّ بن حسامُ الدين الزَّرْزَارِي .

صاحب هررور - بهاءُ الدين حَسَنُ بن عمادُ الدين .

صاحب رمادان - أمير عبد الله الكُرْكَانِي .

صاحب الشَّعْبَانِيَّة - حُسامُ الدين أمير مرى السِينِي .

(١) كذا في الأصل بغير نقط .

- صاحب نمرية — بهاء الدين .
- صاحب سياح — سنقر^{مه} .
- صاحب المحمدية — الشيخ محمد .
- صاحب كركيك — .

الضرب الثاني

(من لم يُصَرِّح له بمكان)

وقد ذكر في "التثقيف" منهم جماعة ممن كان في الزمن المتقدم، وصرح بذكر المكتبة إليهم، فذكر منهم أبو بكر بن المبارز كك الاسم و «إلسامى» بغير ياء، وتعريفه اسمه .

مبارز الدين عبد العزيز أخوه مثله .

على وعمر ولدا ابن روى خليل بن روى^(١) . ورسم المكتبة إلى كل منهما الأسم^(١) و «إلسامى» بغير ياء .

خالد المليكى كذلك .

أولاده : محمود وأحمد «مجلس الأمير» .

بهاء الدين بن الغرس بألو - الأسم و «إلسامى» بغير ياء .

عبد الله الشهرى - الأسم و «إلسامى» بغير ياء .

شجاع الدين خضر بن عيسى الشهرى أخو عبد الله الشهرى - الأسم و «إلسامى»

بغير ياء .

(١) كذا بالاهمال ولم نعر عليه بعد البحث .

مبارز بن عيسى بن حسن السلاري - الأسم و « السامى » بغير ياء . قال
فى « التثقيف » : ومكاتبته مستجدة فى العشر الأول من شعبان سنة ثلاث وستين
وسبعمائة .

خضر بن محمد الهكاري - الأسم و « السامى » بغير ياء . قال : وهو مستجد المكتبة
أيضا فى العشر الآخر من صفر سنة تسع وستين وسبعمائة .

قلت : فإن اتفق المكتبة إلى أحد من هؤلاء المجهولى الكتابة أو غيرهم من
الأكراد كتب له على قدر مقداره بالنسبة إلى من علمت المكتبة إليه .

قال فى « التعريف » هنا : ومما ينبه عليه أن فى طرق المارين ، ومسالك
المسافرين ، من بلادنا إلى نخراسان ومنها إلينا يظهر فى بعض الأحيان أهل فساد
يعدون إلى عميد يقدمونه عليهم فيقطعون السبل ، ويخيفون الطرق ، وتطير سمعة
عميدهم ، وتنتشر فى قريتهم وبعيدهم ؛ فيكتب ذلك العميد من أبواب الملوك ،
ويضطر إليه لفتح الطريق بالسلوك ، ويكون من غير بيت الإمرة ، وربما هوى نجه ،
فانقطع بانقطاع عمره اسمه ، مثل الجموك الخارج بطريق نخراسان ، والغرس بالو
الخارج فيما يقارب بلاد شهر زور ، ومثل الخارجين على دربند القرايلى . قال :
وهؤلاء وأمثالهم يطلعون طلوع الكآة لأصل ممتد ، ولا فرع مشتد ؛ فهؤلاء لا يعرف
لأحد منهم رتبة محفوظة ، ولا قانون فى رسم المكتبة معروف ؛ وإنما الشأن
فما يكتب إلى هؤلاء بحسب الإحتياج وقدر ما يعرف لهم من اشتداد الساعد ، وعدد
المساعد . قال : ولقد كتبنا إلى كل من الجموك والغرس بالو ، بالسامى بالياء ،
وجّهت إليهما الخلع وأخفا بالتخف .

الصنف السادس

(من يكتب بمملكة إيران أرباب الأعلام)

ذكر في "التثقيف" أنه كُتِبَ إلى مجد الدين أخى الوزير غياث الدين: «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى، الصاحي، الأجل، الكبرى، العالمى، الكافى، الماجدى، الزينى، الأميرى، الأوحدي، المعظمى، الذخرى، المجاهدى». قال في "التثقيف": هذا ما وجدته بخط القاضي ناصر الدين بن النشائي؛ ولم يذكر تعريفه ولا العلامة إليه. وكُتِبَ إلى علاء الدين صاحب الديوان مثله. والعلامة إليه «أخوه». قال في "التثقيف": هكذا وجدته في خط ابن النشائي ولم يذكر تعريفه.

الوزير شمس الدين — قال في "التثقيف": نقلت من خط القاضي شهاب الدين ابن الخضر أن مكاتبة في قطع العادة الأسم و «السامى الأميرى الشريفى الحسينى النسبى». وبقية الألقاب. ولم يكتب له «الصاحي» ولا «الوزيرى». قال: ولم يذكر شيئاً غير هذا. ثم قال: ولا أعلم لمن وُزِّرَ المذكور، ولا من أى بلاد الشرق.

ضياء الدين صاحب الديوان — المكاتبة إليه حسب ما نقله في "التثقيف" عن خط ابن الخضر أيضا الأسم و «السامى الأمير الأجل». وذكر أنه كُتِبَ إليه على يد سراج الدين قاضى قيسارية. قال في "التثقيف": وعلى هذا أن ضياء الدين هذا من أهل المملكة الرومية.

مُعِينُ الدِّينِ صَاحِبُ الدِّيوَانِ — مِثْلُهُ .

الصنف السابع

(من يكتب بمملكة إيران أكابر المشايخ والصلحاء)

قد ذكر في "التثقيف" من كُتِبَ من مشايخ هذه البلاد ثلاثة مشايخ . فنحن نذكرهم لِيُقَاسَ عليهم ، ولا يَهْمَلُ شيءٌ مما أورده في التثقيف .

الأول — شمس الدين الطوطى . قال في "التثقيف" : وهو فيما أُظُنُّ من كان يُكْتَبُ إليه قديما ، ولم يُكْتَبْ إليه بعد ذلك . قال : ورسمُ المكتابة إليه حسب ما نقلته من خط القاضي ناصر الدين بن النَّشَائِي : «صدرت هذه المكتابة إلى المجلس السامى الشيخى ، الأجلّى ، العالمى ، العالمى ، الكاملى ، الفاضلى ، الزاهدى ، الورعى ، العايدى ، الخاشعى ، الناسكى ، القدوى ، الأوحدى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، صدر الأنام ، بقية السلف الكرام ، نجر العلماء ، أوحد الكبراء ، زين الزهاد ، عماد العبادة ، قدوة المتورعين ، دُحْرِ الدُول ، ركن الملوك والسلاطين» . والدعاء «وتصف لعلمه المبارك» . والعلامة الأسم . قال في "التثقيف" : هذا صورة ما وجدته من غير زيادة . ولم يذكر تعريفه ولا محله من البلاد . قال : وقد كُتِبَ في نعوته : «ركن الملوك والسلاطين» . وهو غريبٌ لأنه خلاف ما جرت به العادة .

الثانى — الشيخ غياث الكججى تبريزى . ورسم المكتابة إليه فيما ذكره المشار إليه : «أعاد الله تعالى من بركة المجلس السامى الشيخى» . وبقية الألقاب «الغياثى» وتكملة النعوت بما يناسب . والعلامة الأسم ، وتعريفه «محمد الكججاني» .

الثالث — الشيخ حسن بن عبد القادر الجيلانى . وكان من المناصحين الذين يُكْتَبُ إليهم قديما . قال في "التثقيف" : ورسمُ المكتابة إليه الأسم و«السامى» بالياء . ثم قال : ومن ألقابه : «الشيخ العالم العامل القدوة المرشد فلان الدين» .

قلت : هذا دُھول منه، وإلا فمقتضى هذه الألقاب المجردة عن الياء أن تكون الكتابةُ إليه «السامى» بغير ياء .

الصنف الثامن

(من يكاتب بمملكة إيران النساء)

وقد ذكر في "التتيف" المكاتبَة إلى أربع منهن^(١) :

الأولى — دلّ شاد زواج الشيخ حسن الكبير . كُتِبَ إليها في قطع العادة : «أدام الله تعالى صونَ الجهة المحجّبة، المصونة، العُصميّة، الخاتُونيّة، المعظميّة، سيّدة الخواتين، زينة نساء العالمين، جميلة المحجّبات، جليّة المصُونات، قرينة نويْنِ الملوك والسلطين» . والدعاء، والعلامة «أخوها» . وتعريفها «الخاتون المعظمة دل شاد» .

الثانية — كامش والدة بولاد مثلها ، غير أنّ العلامة الأسم ، وتعريفها أسمها المذكور .

الثالثة — زوجة أملكان ابن الشيخ حسن الكبير على ما استقرّ عليه الحال عند ما كتب جوابها على يد رسولها في ذى القعدة سنة أربعين وسبعائة مثل دلشاد، والعلامة «والدها» . وتعريفها سلطان نختى .

المهيمع الثانى

من المكاتبَة إلى الملوك

(مملكة تُوران ، وهى مملكة الخاقانيّة)

قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية نقلاً عن المقرّ الشهبانىّ ابن فضل الله في كتابه "التعريف" أنّ هذه المملكة من نهر بلخ إلى مطلع الشمس

(١) لم يذكر الرابعة في الأصل .

على سَمْتِ الوَسَطِ ؛ فَمَا أَخَذَ عَنْهَا جَنُوبًا كَانَ بِلَادَ السَّنَدِ ، ثُمَّ الْهِنْدِ ؛ وَمَا أَخَذَ عَنْهَا
شَمَالًا كَانَ بِلَادَ الْخَفْجَاجِ وَهِيَ طَائِفَةُ الْقَبْجَاقِ ، وَبِلَادَ الصَّقَلَبِ ، وَالْجَهَارِكْسِ ،
وَالرُّوسِ ، وَالْمَاجَارِ ، وَمَا جَاوَرَهُمْ مِنْ طَوَائِفِ الْأُمَمِ الْمُخْتَلِفَةِ سُكَّانَ الشَّمَالِ .
فَيَدْخُلُ فِي هَذِهِ الْمَمْلَكَةِ مَمَالِكُ كَثِيرَةٌ وَبِلَادٌ وَاسِعَةٌ ، وَأَعْمَالٌ شَاسِعَةٌ ، وَأُمَمٌ مُخْتَلِفَةٌ
لَا تَكَادُ تُحْصَى ؛ تَشْتَمِلُ عَلَى بِلَادِ غَزْنَةَ ، وَالْبَامِيَانَ ، وَالغُورِ ، وَخُوَارِزْمَ ، وَدَشْتِ
الْقَبْجَاقِ ؛ وَمَا وَرَاءَ النَّهْرِ : نَحْوَ بَجَارَا ، وَسَمَرْقَنْدِ ، وَالصُّغْدِ ، وَالخُوجَنْدِ . وَبِلَادِ
تُرْكْمَنِستانَ ، وَأَشْرُوسَنَةَ ، وَقَرْغَانَةَ . وَبِلَادِ صَاعُونَ ، وَطِرَازَ ، وَصَرِيوْمَ . وَبِلَادِ الْخِطَا
نَحْوَ بَشَالِقِ وَالْمَالِقِ إِلَى قَرَأُقُومَ ، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ بِلَادِ الصِّينِ وَصِيْنِ الصِّينِ ؛
فَإِنَّهَا كَانَتْ فِي الْقَدِيمِ بِيَدِ فَرَاسِيَابِ ، بِنِ شَنْكِ ، بِنِ رُسْتَمِ ، بِنِ تَرْكِ ، بِنِ كُومَرِ ،
أَبْنِ يَافِثِ ، بِنِ نُوحِ عَلَيْهِ السَّلَامِ . وَهُوَ مَلِكُ التُّرْكِ فِي زَمَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
عَلَى خِلاَفِ فِي نَسَبِهِ سَبَقَ هُنَاكَ . وَأَنَّهَا الْآنَ بِيَدِ بَنِي جَنْكِرْخَانَ مِنْ وَلَدِ طُوجِي خَانَ
أَبْنِ جَنْكِرْخَانَ .

ثم هذه المملكة بيد ثلاثة ملوك عظام من بني جنكرخان .

الأول — صاحبُ خُوَارِزْمِ وَدَشْتِ الْقَبْجَاقِ . وَتُعْرَفُ فِي الْقَدِيمِ بِمَمْلَكَةِ
صَاحِبِ السَّرِيرِ ، ثُمَّ عُرِفَتْ فِي الدَّوْلَةِ الْجَنْكِرْخَانِيَّةِ بِبَيْتِ بَرَكَةَ ، نَسَبًا إِلَى بَرَكَةَ
أَبْنِ طُوجِي خَانَ بِنِ جَنْكِرْخَانَ . وَقَاعِدَتُهَا مَدِينَةُ السَّرَايِ وَهِيَ مَدِينَةٌ عَلَى نَهْرِ إِتِيلِ ،
بَنَاهَا بَرَكَةُ بِنِ طُوجِي خَانَ الْمَقْدَّمِ ذَكَرَهُ . وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفٍ فِي الْكَلَامِ
عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ .

ثم فيها جملتان :

(١) هي مدينة الصراي بالصاد المهملة المتقدمة في ج ٤ ص ٤٥٧ .

الجملة الأولى

(في رسم المكاتبه إلى قائمها القائم بها)

قال في "التعريف": وكان صاحبها في الأيام الناصرية، (يعني محمد بن قلاوون) «أزبك خان». وقد خطب إليه السلطان فزوجه بنتا تقرباً إليه. قال: وما زال بين ملوك هذه المملكة وبين ملوكنا قديم اتحاد، وصديق ووداد؛ من أول أيام الظاهر بيبرس وإلى آخر وقت. ثم قال: والملك الآن فيهم [في أولاد أزبك]: إمامتي بك، وإماماني بك، وأظنها في تني بك. وقد تقدم أن الملك بعد أزبك كان جاني بك لا تني بك، على خلاف ما ظنه في التعريف.

ورسم المكاتبه إلى قائمها الجامع لحدودها قال في "التعريف": والأغلب أن يكتب إليه بالمغلى. وذلك مما كان يتولاه إيتمش الممدي، وطايربغا الناصري، وإرغدلق الترمجان. ثم صار يتولاه قوصون الساقى. ورأيت في بعض الدساتير نقلا عن القاضي علاء الدين بن فضل الله أنه كتب له مسودة على أن تكتب له بالعربى ثم بطل وكتب بالمغلى. قال: فإن كتب له بالعربى، فرسم المكاتبه إليه ما يكتب إلى صاحب إيران.

وقد تقدم نقلا عن "التعريف" أنه يكتب في قطع البغدادى الكامل، يبدأ فيه بعد البسملة وسطر من الخطبة المكتبة بالذهب المزمك - بألقاب سلطاننا على عادة الطغراوات؛ ثم تكمل الخطبة، ويفتح بعبدية إلى أن تساق الألقاب، وهى: «الخصرة الشريفة، العالية، السلطانية، الأعظمية، الشاهنشاهية، الأوحديّة، الأخوية، القانية. ولا يخلط فيها «الملكية» هوانها عليهم. ثم يدعى له بالأدعية المعظمة المفخمة الملوكية: من إعزاز السلطان، ونصر الأعوان، وخلود

الأيام، ورفع الأعلام، وتأييد الجنود، وتكثير البنود، وما يجري هذا المجرى .
ثم يؤتى بذكر دوام الوداد والشوق؛ ثم يذكر القصد؛ ثم يختم بدعاء جليل وتستعرض
المراسيم ويوصف التطلع إليها والتهاوت عليها .

قال في "التتيف": وكان يُكتب إلى أربك في الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون»
في ورق عرض البغداديّ الكامل . وبعد بالبسملة الشريفة سطران هكذا :

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَامِنِ الْمَلَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ

ثم يخلى موضع بيت العلامة؛ ثم تكتب الألقاب السلطانية، وهي: «السلطان
الأعظم» وبقية الألقاب الشريفة على العادة حسب ما يأتي ذكره . ثم بعد الحمدلة
وخطبة مختصرة جداً: «فقد صدرت هذه [المكتبة] إلى الحضرة الشريفة العالية،
حضرة السلطان الكبير، الأخ، الشفيق، العالم، العادل، القان الأعظم، الأوحدي،
شاهنشا، الملك، أربك إل خان؛ سلطان الإسلام والمسلمين، أوحدي الملوك
والسلطين، عمدة الملوك، سلطان المغل والقبجاق والترک، جمال ملوك الزمان، ركن
بيت جنكرخان، معز طغاج، صاحب التخت والتاج، عضد المتقين، دُخر المؤمنين .
والدعاء بما يناسبه . «فإننا نخصه بالسلام وأستعلام أخباره ونفاوض علمه الشريف» .
قال : والكتابة بالذهب والأسود حسب ما تقدم في المكتبة إلى أبي سعيد، وكذا
العنوان . ثم قال : ولم يكتب أحد بعده بنظير ذلك . وكان قد ورد على الأبواب
الشريفة في سنة ست وخمسين وسبعائة كتاب جاني بك ابن أربك، وكتب إليه
الجواب الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنده، وهو في ورق دون البغداديّ
بثلاث أصابع مطبوقه، والافتتاح بخطبة مناسبة مكتوبة بالذهب جميعها، ثم أما بعد

بالأسود خلا ما تقدم ذكره في مكتبة أبي سعيد. والعنوان بالذهب. والذي كُتب إليه من الألقاب: «الحضرة الشريفة، العالمة، السلطانية، الأعظمية، العالمية، العادلةة، الأكليّة، القانية، الأخوية، العزيزية، الملكية، الشريفة زيدت عظمتها». قال: ولما كان في العشر الآخر من ربيع الأول سنة ست وسبعين وسبعائة، رسم لي بالكتابة إلى القان محمد يبلاد أزبك، وهو القائم مقام أزبك على ما قيل، على يد رسل الأبواب الشريفة، بالسلام والمودة وأستعلام الأخبار ونحو ذلك فكتبت إليه في عرض البغدائي الكامل حسب ما رسم به، بخطبة مختصرة بالذهب، والبقية بالأسود والذهب على ما تقدم ذكره في مكتبة القان أبي سعيد. وكُتب له من الألقاب بعد المراجعة: «المقام العالی، السلطاني، الكبيرى، الملكى، الأكرمى، الأعدلى، الشمسى، شمس الدنيا والدين، مؤيد الغزاة والمجاهدين، قاتل الكفرة والمشركين، ولي أمير المؤمنين خلّدت سلطنته». والعنوان بالذهب بغير تعريف. وعلم له في بيت العلامة الشريفة بالمغرة العراقية «المشتاق شعبان». وهذه نسخة ما كتب إليه بعد البسملة الشريفة.

الحمد لله الذى وهبنا ملكا دانت له ملوك الأقطار، وأزدانت الأسيرة والتيجان بما له من عظمة وفخار، وأذعنت العظاء لعزة سلطانه الذى شمل الأولياء وقصم الأعداء ببره الجابر وقهره الجبار، وقاد الجيوش إلى أن فتح الله على يديه الشريقتين معاقل الكفار، بأمره الجارى على الرقاب وعسكره الحرار، ومنحه خدمة الحرمين الشريفين اللذين لم يزل لهما منه الانتصاب وبهما له الانتصار. نحمده على أن جعل مملكتنا الشريفة هى محل الإمامة العباسية فلا مجود ولا إنكار، ومرتبنا المنيفة بما عهد به إلينا أمير المؤمنين إلى قيام الساعة عليّة المقدار، ونشكره على أن أورثنا ملك أسلافنا الشهداء فأقر العيون وسرّ الاسرار، وجعل السلطنة المعظمة فى بيتنا المكرم تنقل

تَثَقُلُ الْبُدُورُ فِي بُرُوجِهَا إِلَّا أَنهَا آمَنَةٌ مِنَ السَّرَارِ . ونشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لم نزل قائلين بُنصرتها، قانتين بالإخلاص في كلمتها . لُنَعَدَّ بِذَلِكَ مِنَ الْأَبْرَارِ ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله المؤيد بملائكته، المخصوص بنبوته ورسالاته، الذي عَظَّمَ اللهُ قَدْرَهُ عَلَى سَائِرِ الرُّسُلِ كما جاءت النصوص والأخبار. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أولى الفضل الداخ، صلاةً دائمةً باقية بدوام الليل والنهار؛ وسَلَّمَ .

أما بعد ، فإن قلوب الأولياء وإن تئات الأجسام متعارفةً بالأختلاف، متقاربةً على بُعد الديار حيث لاتناكر بينها ولا أختلاف، لاسيما ملوك الإسلام، الذين هم متحدون بالمصافاة والاستسلام ؛ فإن سرائرهم لم تزل متدانية ، وضمايرهم متكافية ؛ هذا والمحبة لبيته الكريم قديمه ، والمودة بين الأسلاف لم تزل مستديمه ؛ فلم نكن ورثنا ذلك عن كلاله ، بل تبعنا فيه سبيل السلف الصالح على أحسن حاله : لما هو محكم من عقود الإتحاد والولاء ، حيث المحبة في الآباء صلة في الأبناء ؛ وكان لنا مددة مديدة وقد تأخرت رسلنا عن حضرته ولم تصدر من جهتنا الشريفة ، كذلك ولا وردت رسل من جهته ؛ ولم يشغلنا عن ذلك إلا موقعة الفرج المخذولين أعداء الدين ، ومقارعتهم في سائر السواحل بشدة البأس والتكبير ؛ إلى أن أمكن الله عز وجل من نواصيهم وصياصيمهم بنصر من عنده ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

والآن فقد صدرت هذه المكاتبة إلى المقام العالی السلطانی - وبقية الألقاب والنسب إلى آخرها حسب ماتقدم ذكره - تُحْضُ مقامه بسلام أرق من اللسيم ، وألطف من اجأ من التسنيم ؛ وثناء قد ازرى نشره بالعبير ، وسرى بشره فغدت تهلل به الأسارير. وتبدي لعلم المقام العالی زیدت معدته أنه لما يبلغنا من عدل الحضرة الشريفة ، وإنصافه للرعايا وتأمين سبل الجور المحيفه ؛ وسلوکه سنن الإحسان ،

وتؤكد عقود المحبة على عادة من سلف في سالف الزمان ؛ قصّداً مفاتحته بهذه المكتبة ، و اردنا بدآته بهذه المخاطبة ؛ ليعلم ما نحن عليه من صحیح الوداد ، وأكيد الأتحاد ؛ وجميل الاعتقاد ، وحسن الموالاة الخالصة من شوائب الانتقاد ؛ وجهّزنا بها رُسُلنا فلان وفلان ومن معهما نستدعي وده ، ونستدني ولآءه الذي أحكم عقده ؛ لتؤكد المصافاة بين هاتين الدولتين ، والمخالصة من كلتا الجهتين ، والموالاة بين المملكتين ؛ ويأمر المقام العالی لازال عالياً بتردد التجار من تلكم الديار ، والمواصلّة بالأخبار على حسب الاختيار ؛ ومتابعة الرُّسل والقصّاد ، على أجمل وجه معتاد .

وقد وجهنا إلى المقام العالی أعلى الله شأنه صحبة رُسُلنا المذكورين من الأقمشة السكندريّة وغيرها على سبيل الهدية ، والمواهب السنيّة ؛ ما تضمّنته الورقة المحبّزة طيّها ؛ فليأمر المقام العالی دامت معدّته بتسليم ذلك ، ويدينقن وفور المحبة من سلطاننا المالك ؛ وتؤكد أسباب المودة على أجمل المسالك ، والله تعالى يجمل ببقاء سلطانه ملك الممالك ؛ ويديم عدله المبسوط على الأولياء ويرمي ببأسه الأعداء في مهاوى المهالك ، ويخلّد ملكه الذي تفتخر بالملك من مقامه العالی السُرر والأرائك ؛ بمنه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

وأعلم أنّ صاحب "التثقيف" قد ذكر أن المكتوب إليه بهذه المكتبة هو القائم مقام أربك ، وأن اسمه محمد ، وأن المكتبة إليه كانت في سنة ستّ وسبعين وسبعمائة . وقد تقدّم ذكر من ولي هذه الملكة بعد أربك ولم يكن فيهم من اسمه محمد . وقد كان القائم بهذه الملكة في سنة ستّ وسبعين المذكورة اسمه "أرض" وهو الذي أتزع الملكة من أيبك خان المقدم ذكره ؛ وأصله من خوارزم على ما مرّ ذكره في الكلام على المسالك والممالك ، فيحتمل أن يكون اسمه محمد وأرض لقب

عليه ، كما كان خَدَابَنْدَا والدُ أَبِي سَعِيدٍ من ملوك إيران ، أَسْمُهُ مُحَمَّدٌ ، ولقبه خَدَابَنْدَا .
والأمر في ذلك راجع إلى النقل ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

قلت : وقد كُتِبَ في الدولة الناصرية "فوج" بن الظاهر برقوق ، للقان القائم بها في سنة أَمْتَقَى عشرةً وثمانمائةً في قَطْعِ البغدادىِّ الكاملِ من الورقِ المِصرىِّ المعمولِ على هيئةِ البغدادىِّ ، أبتدئُ فيه بعد خمسةِ أوصالٍ بياضٍ بالبسملةِ في أعلى الوصلِ السادس ، بياضٍ من جانبيها عرضُ إصبعين من كل جهة ، والسطر الثاني على ستمته في آخرِ الوصلِ ، بخلو بياض من الجانبين بقدرِ السطرِ الأولِ ، والطُّغْرَاةُ بينهما بالقبابِ سلطاننا على العادة ، مكتوبةٌ بالذهبِ بالقلمِ المحقَّقِ مزَمَكٌ بالسواد ، بأعلى الطُّغْرَاةِ قدرُ عرضِ ثلاثةِ أصابعٍ بياضًا ، ومثل ذلك من أسفلها ، وباقي السُّطورِ جهامش من الجانبِ الأيمن على العادة ، وبين كلِّ سطرين قدرُ نصفِ ذراعٍ بذراعِ القماشِ القاهِرىِّ ، والأسماءُ المعظَّمةُ : من أَسْمِ الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وأَسْمِ سلطاننا والسلطانِ المكتوبِ إليه ، والضميرِ العائدِ على واحدٍ منهما بالذهبِ المزَمَكِ كما تقدَّم تقريره في الكلامِ على مكتبةِ صاحبِ إيرانِ في القديم .

وهذه نسخة مما أنشأته ، كتبتُ بإشارةِ المقرِّ العالى الفتحىِّ : صاحبِ ديوانِ الإنشاءِ الشريفِ وهى :

الحمد لله مؤيد سلطاننا «الناصر» بعزیز نصره ، ورافع قدر مقامنا الشريف بإعلاء مناره وإعظام ذكره ، ومُشيد أركان ملكنا الشاىخ بإسعاد جدّه العالى والله غالبٌ على أمره . نحمده على ماجنب من مواقع الحرج ، وجعل أمور رعايانا بمعدلتنا الشريفة بعد الضيق إلى فرج ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يتوارثها عظماء الملوك كابرًا عن كابر ، ويتناقلها منهم الخلف بعد السلف فيُسندها الناصر عن

الظاهر ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي جمع بمعموم دعوته مفترق الأمم ، ووفق بحجيفي ملته بين أقيال العرب وأساورة العجم ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آخى بينهم فسنن المؤاخاه ، ونق من نغل الضغائن صدورهم ففازوا بأكل المصافاة وأتم الموافاة ؛ صلاة تسير بفضلها الركائب ، وتزعم بذكرها الحداة فعم نفتحها المشارق والمغارب ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن الأرواح إذا تمازجت تاجت بالضمائر ، والقلوب إذا تآلفت اعتتت بشواهد الحال عن إبراز مافي السرائر ؛ والأجساد إذا تباعدت تعلت بالمكاتبات في بلوغ الأوطار ، والديار إذا تئمت آكتفت بالمراسلة عن تقارب الدار ؛ والمودة إذا صفت لا يؤثر فيها البعاد ، والمحبة إذا صدقت لا تزال كل يوم في أزيداد ؛ (والأذن تعشق قبل العين أحياناً) ، والوصف يحرك من الشوق أعصاناً وأفناناً .

هذا وإن أحق ما اتخذته الملوك ذريعة لدواعي الإبتهاج ، وأهم ما هم به متختت بتخت أو متوج بتاج ؛ إحياء مدهاب الملوك السالفة في الوداد ، واقتفاء آثارهم الجميلة في موارد المكاتبات على التئاني والبعاد ؛ ومن ثم صدرت هذه المكاتبه إلى المقام العالی ، السلطاني ، الكبيرى ، الأخوى ، الفلاني ؛ ركن الملة الإسلاميه ، عماد المملكة الحنكرانيه ؛ ذخيره الدين ، خليل أمير المؤمنين - زیدت عظمته ، ودامت معدلته - تحضه بسلام تهب به الجنوب فتؤثر به في الشمال القبول ، وتحض به إلى السراي سراها ليكون لها بيت بركة أشرف قدم وأكرم وصول ؛ وتمتد على خوارزم والدشت فضل رواقه المديد ؛ وتنشر على مملكة السريرواءه فيعم ما بين جيحون وطرنا ويشمل ما بين الخطا والباب الحديد . وتناجى علمه الشريف بأنه غير خاف عن شريف مقامه

(١) لعله طنا . أو طرلو .

(٢) هو بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف في الآخر كما تقدم ضبطه كذلك في ج ٤ ص ٨٣ .

أَنْ مَنْ سَلَفَ مِنْ مُلُوكِ مَمْلَكَتِنَا الْعَالِيَةِ الذَّرِي، وَالْمَمْلَكَةِ الْقَانِيَةِ الْمَرْفُوعَةِ الذَّكْرَ رَفَعَ نَارِ
 الْقِرَى؛ لَمْ تَزَلْ مُلُوكُهُمْ مَجْتَمِعَةً مَعَ تَنَائِي الدِّيَارِ، مُؤْتَلِفَةً عَلَى الْحُبَّةِ وَإِنْ شَطَّ الْمَزَارِ،
 مَحَافِظِينَ عَلَى تَسَابُعِ الرُّسُلِ وَإِنْ حَالَ دُونَهُمُ الصَّفَاحُ، مَشَارِيرِينَ عَلَى تَوَارِدِ الْكُتُبِ
 وَلَوْ عَلَى أَجْنَحَةِ الطَّيْرِ وَمُتُونَ الرِّيَّاحِ؛ وَقَدْ مَضَتْ مَدَّةٌ مَدِيدَةٌ لَمْ يَقْدَمْ عَلَيْنَا مِنْ
 الْمَقَامِ الشَّرِيفِ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - رَسُولٌ يُطْفِئُ لَوَاعِجَ الْإِشْتِيَاقِ، وَلَا وَرَدَ عَنْهُ
 كِتَابٌ يَتَعَلَّلُ بِالْحُبِّ بِتَلْقِيهِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّلَاقِ؛ بَلْ سُدَّ بَابَ الْمَكَاتِبَةِ حَتَّى كَأَنَّ الْمَكَاتِبَةَ
 لَمْ تُخْلَقْ، وَأُغْلِقَ بَابَ الْمِرَاسَلَةِ وَإِنْ كَانَ بَابُ الْحُبَّةِ - بِحَمْدِ اللَّهِ - لَمْ يُغْلَقْ؛ فَطَمَحَ
 بِخَاطِرِنَا الشَّرِيفِ طَامِحِ الشُّوقِ الْمُتَرَايِدِ، وَحَمَلْنَا مَوْصُولَ الْحُبَّةِ الْمُسْتَعْنِي بِمَوَاصِلَتِهِ عَنْ
 الصَّلَةِ وَالْعَائِدِ؛ أَنْ تُفَاتِحَ الْمَقَامَ الْعَالِيَّ دَامَتْ مَعْدَلَتُهُ بِهَذِهِ الْمُقَاوِضَةِ: لِنُجَدِّدَ مِنْ
 الْعُهُودِ الْقَدِيمَةِ رُسُومَهَا، وَتُطْلِعَ مِنْ مَشَارِقِ الْمَخَاطَبَةِ نُجُومَهَا؛ وَتَسْخِخَ آيَةَ الْمَجْرَانِ
 وَتَحْمُوهَا، وَتَصْقِلَ مِرَاةَ الْمُصَافَاةِ وَتَجْلُوهَا؛ وَتَسْتَجَلِبَ الْأَنْسَ وَإِنْ صَحَّ الْمِيثَاقُ،
 وَتَذَكَّرَ الْخَوَاطِرَ الْوِدَادِ وَإِنْ ثَبَّتَ مِنْهُ الْأَصُولُ وَرَسَخَتِ الْأَعْرَاقُ؛ وَتَتَوَبَّعَ عَنْ
 نَظَرِنَا الشَّرِيفِ فِي مُشَاهَدَةِ مَحِيَّاهِ الْكَرِيمِ، وَمُصَاحَفَةِ كَفِّهِ الَّتِي حَدِيثٌ وَدَهًا قَدِيمٌ؛
 وَتَسْتَطْلِعَ أَخْبَارَهُ، وَتَسْتَعْرِضَ عَلَى تَعَاقُبِ الْأَزْمَانِ أَوْطَارَهُ .

وقد آخترنا لتبليغ رسالتها، وأداء أمانتها؛ المجلس السامى المقرب الأمين خواجا
 فلان أعزه الله تعالى، وحملناه من السلام ما يهتدى بصوته السارى، ويفوق بعرفه
 العنبر الشحرى والمسك الدارى: ليحكم بحسن السفارة من الخالصة مبانيتها،
 ويعقد منها بمتابعة الرسل والقصاص أواخيها؛ وجهزنا صحبته كذا وكذا على سبيل
 الهدية المندوب بذلها وقبولها، والحاكم بصحة عقد الحبة كثيرها وقليلها؛ والله تعالى
 يزيد في ارتفاع قدره الخطير، ويحوط به من ملكه الجنكرخانى ما يحقق أنه
 صاحب التاج والسريير .

الجملة الثالثة

(في رسم المكاتبة إلى من أنطوت عليه هذه المملكة من الأتباع والحكام؛
وهم على^(١) أصناف)

الصنف الأول

(كفّال المملكة)

قد تقدم أن ترتيب هذه المملكة في أمراء الألوس والوزير نحو مملكة إيران،
وإن لم يكن لأمير الألوس والوزير بهذه المملكة من نفاذ الأمر نظير ما هنالك .
ومقتضى ذلك أن يكونا منحنطين في الرتبة عن أمراء الألوس بـإيران والوزير بها؛
وهذه الرسوم التي وقعت في مكاتباتهم على ما أورده في "التثقيف" .

وأمرء الألوس أربعة، أكبرهم يسمّى بكلارى بك بمعنى أمير الأمراء كما تقدم
في مملكة إيران . فقد ذكر في "التثقيف" أنه كان منهم في سنة اثنتين وثمانين
وسبعائة قتلوبغا إيناق ، وأنه كتب إليه في عاشر جمادى الآخرة منها ما صورته :
«ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ،
المؤيدى ، العونى ، الرعى ، المهدي ، المشيدى ، الظهري ، التويى ، السيفى ،
عز الإسلام والمسامين ، سيف الأمراء فى العالمين ، نصره الغزاة والمجاهدين ، زعيم
الجوش ، مقدم العساكر ، كهف الملل ، ذخر الدوله ، ظهير الملوك والسلاطين ،
سيف أمير المؤمنين » . ثم الدعاء والعلامة « أخوه » وتعرفه « قتلوبغا إيناق نائب
القان جاني بك » .

(١) بياض في الأصل ومع ذلك لم يذكر الاصفين .

ثم ذكر أنَّ الأمر كان عند القان محمد بمثابة الأمير يلغا العمري، يعني الخاصكيّ
بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وأنه استحدثت المكتبةُ إليه في سنة ثلاثٍ
وسبعين وسبعائة، وأنه كتب إليه في قطع الثلث ما صورته :

«أدام الله تعالى نعمة الجناح العالی، الأميری، الكیبری، العالی، المجاهدی،
المؤیدی، الذخري، النصيري، الهمامي، المقدمي، التويني، السيفي، عز الإسلام
والمسلمين، سيد الأمراء في العالمين، نصره الغزاة والمجاهدين، مقدم العساكر،
ذخر الدولة، عضد الملوك والسلاطين، حسام أمير المؤمنين». والدعاء المناسب .
والعلامة «والده». وتعريفه «مماي». وفي هذا نظر : لأنه إذا كان بمثابة ما كان
عليه يلغا بالديار المصرية، فمقتضاه أن يكون أكبر أمرائه . وإذا كان كذلك،
فكيف يكتب إليه دون أمراء الألوُس؟ فقد تقدم أنه يكتب إليهم : « ضاعف
الله تعالى نعمة الجناح العالی » .

الوزير بهذه المملكة . قد ذكر في "التتيف" أن الوزير بها كان اسمه
محمودا، ولقبه حسام الدين، وكان يعرف بمحمود الديوان . وذكر أن رسم المكتبة
إليه في قطع الثلث ما صورته :

«أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی، الأميری، الكیبری، الذخري، الأوحدي،
الاکلي، المتصرفي، العوفي، الوزيري، الحسامي، مجد الإسلام والمسلمين،
شرف الأمراء والوزراء في العالمين، جمال المتصرفين، أوحد الأولياء المقربين، ذخر
الدولة، مشير الملوك والسلاطين . ثم الدعاء، والعلامة «والده». وتعريفه «خوآجا
محمود وزير المملكة القانية» .

قلت : وقد علمت أنّ المكتبة إلى أمراء الألوُس والوزير بهذه المملكة دُونَ
المكتبة إلى أمراء الألوُس والوزير بمملكة إيران ، فقد تقدم أن المكتبة إلى
بكلارى بك أكبر أمراء الألوُس بمملكة إيران : « أعزَّ الله تعالى نصرَ المقرِّ الكريم » .
وإلى الثلاثة الذين دُونه : « أدام الله تعالى نصرَ الجنب الكريم » ، ثم استقرَّ « أعزَّ
الله تعالى أنصارَ الجنب الكريم » . وأن المكتبة إلى الوزير : « ضاعفَ الله تعالى
نعمةَ المجلس العالى » . والمعنى فى ذلك ما تقدم من أنه ليس لأمراء الألوُس والوزير
بهذه المملكة من التصرف بالأمراء الألوُس والوزير من التصرف بتلك المملكة .

فجاء على بك بهذه المملكة . قال فى "التثيف" : وهو من أسَّحدثت المكتبة
إليه فى سنة خمس وستين وسبعائة .

ورسم المكتبة إليه فيما ذكره فى "التثيف" الأسم و« السامى » بالياء وتعريفه
أسمه .

الصنف الثانى

(الحُكَّام بالبلاد بهذه المملكة)

وها أنا أذكُر من ذكر المكتبة إليه منهم فى "التثيف" .

الحاكم بالقرم : وهو إقليم شماليّ بحر نييطش . وقاعدته مدينة صلغات ، وهى
مدينة على نصف يوم من البحر ، وقد غلب عليها أسم القرم . وقد ذكر فى "التثيف"
أن الحاكم بها فى سنة خمسين وسبعائة كان أسمه زين الدين رمضان ؛ ثم استقرَّ بعده
على بك ابن عيسى بن تلكتمر . وقد رأيت فى بعض التواريخ أن الحاكم بها
فى حدود سنة ستّ وسبعين وسبعائة كان مامأى المقدم ذكره . وقد ذكر

في "التثقيف" أن رسم المكتبة إلى الحاكم بها في قطع العادة، والعلامة «أخوه» و«صدرت» و«العالى». والذي رأيتُه في دُستورِ يُعزى في الأصل للقرّ العَلَّائى بن فضلِ الله أنه يكتَبُ إليه في قطع الثُلث وأن المكتبةَ إليه «السامى» بالياء . وتعريفه «الحاكم بالقرم» .

الحاكم بأوزاق : وهى مدينةٌ على بحر مانيطش المقدم ذكره فى الكلام على المسالك والممالك . وهو المعروف الآن ببحر الأزق ، وهى عن القرم فى جهة الجنوب والشرق ، وبينهما نحو خمس عشرة مرحلة . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكتبة إلى الحاكم بها مثل الحاكم بالقرم على السواء . والذي رأيتُه فى الدستور المقدم ذكره أنه فى قطع الثلث «السامى» بالياء كما فى الحاكم بالقرم .

الثانى

(من ملوك توران من بنى جنكوزخان صاحب ماوراء النهر)

وقاعدة ملكه فى القديم بخارا ، والآن سمرقند . ومن مضافاتها غزنة وما والاها من متاخم الهند . وقد تقدم الكلام عليها مستوفى فى الكلام على المسالك والممالك . وقد ذكر فى "التعريف" أن أنحرما أستقرت لترماشيرين ، وكان حسن الإسلام عادل السيرة ، طاهر الذليل ، مؤثرا للخير ، محبا لأهله ، مكرما لمن يرد عليه من العلماء والصالحاء ، وطوائف الفقهاء والفقراء .

قال : وكتب إليه على رسم المكتبة إلى صاحب إيران . وقد تقدم فى الكلام على المكتبة إلى صاحب إيران نقلا عن "التعريف" أنه يكتَبُ إليه فى قطع

البَغْدَادِيّ الكَامِل ، يَتَبَدَأُ فِيهِ بَعْدَ البِسْمَلَةِ وَسَطْرَ مِنْ الخُطْبَةِ الغَرَاءِ المَكْتُوبَةِ
بِالذَّهَبِ المَزْمَكِ بِالقَابِ سُلْطَانَنَا عَلَيَّ عَادَةَ الطُّغْرَاوَاتِ ؛ ثُمَّ تَكْمُلُ الخُطْبَةُ وَيُفْتَحُ
بِبعْدِيَةِ إِلَى أَنْ تُسَاقَ الألقَابُ ، وَهِيَ : « الحَضْرَةُ العَالِيَةِ ، السُلْطَانِيَّةِ ، الأَعْظَمِيَّةِ ،
الشَاهِنشَاهِيَّةِ ، الأَوْحَدِيَّةِ ، الأَخْوِيَّةِ ، القَانِيَّةِ ، الفَلَانِيَّةِ » . وَلَا يَخْطُبُ بِهَا « المَلِكِيَّةِ »
لَهُوَئِهَا عَلَيْهِمْ ؛ ثُمَّ يُدْعَى لَهُ بِالأَدْعِيَةِ المَفْخَمَةِ المَلُوكِيَّةِ : مِنْ إِعْرَازِ السُّلْطَانِ ، وَنَصْرِ
الأَعْوَانِ ، وَخُلُودِ الأَيَّامِ ، وَنَشْرِ الأَعْلَامِ ، وَتَأْيِيدِ الجُنُودِ ، وَتَكثِيرِ البُنُودِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا يَجْرِي هَذَا المَجْرَى . ثُمَّ يُقَالُ مَا فِيهِ التَّصْرِيحُ وَالتَّلْوِيحُ بِدَوَامِ الوِدَادِ ، وَصَفَاءِ
الأَعْتِقَادِ ، وَوَصْفِ الأَشْوَاقِ ، وَكَثْرَةِ الأَتْوَاقِ ، وَمَا هُوَ مِنْ هَذِهِ النِّسْبَةِ ؛ ثُمَّ يُؤْتَى عَلَيَّ
المَقَاصِدِ ، وَيُنْتَمَتُ بِدَعَاءِ جَلِيلٍ وَتَسْتَعْرِضُ المَرَاسِيمَ وَالحِدْمَ ، وَيُوصَفُ التَّطَلُّعُ إِلَيْهَا ،
وَيُظْهِرُ التَّهَافُتُ عَلَيْهَا ؛ وَأَنَّهُ تَكْتَبُ جَمِيعَ خُطْبَةِ الكِتَابِ وَطُغْرَاهُ بِالذَّهَبِ المَزْمَكِ ،
وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا وَقَعَ فِي أَثْنَائِهِ مِنْ أَسْمِ جَلِيلٍ ، وَكُلِّ ذِي شَأْنٍ نَبِيلٍ : مِنْ أَسْمِ اللَّهِ تَعَالَى
أَوْلَئِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ أَوْ ذَكَرِ الإِسْلَامَ ، أَوْ ذَكَرَ سُلْطَانَنَا أَوْ السُّلْطَانَ المَكْتُوبِ
إِلَيْهِ ، أَوْ مَا هُوَ مُتَعَلِّقٌ بِهِمَا ، مِثْلَ لَنَا وَلَكُمْ ، وَكِتَابُنَا وَكِتَابِكُمْ ، جَمِيعُ ذَلِكَ يَكْتَبُ
بِالذَّهَبِ وَمَا سِوَاهُ بِالسَّوَادِ . وَأَنَّ العُنْوَانَ يَكُونُ بِالألقَابِ إِلَى أَنْ يَتَمَهَى إِلَى اللِّقَبِ
الْخَاصِّ ؛ ثُمَّ يُدْعَى لَهُ بِدَعْوَةٍ أَوْ اثْنَتَيْنِ نَحْوَ أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهَا ، وَأَعْلَى شَأْنَهَا ؛
وَنَحْوِ ذَلِكَ . ثُمَّ يُسَمَّى أَسْمُ السُّلْطَانَ المَكْتُوبِ إِلَيْهِ ؛ ثُمَّ « يُقَالُ » خَانَ : مِثْلَ أَنْ
يُقَالُ : تَرَمَاشِيرِينَ خَانَ ، وَيُطَمَّعُ بِالذَّهَبِ طَمَعَاتٍ عَلَيْهَا ألقَابُ سُلْطَانَنَا تَكُونُ عَلَيَّ
الأَوْصَالِ ، يَبْدَأُ بِالطَّمَعَةِ عَلَيَّ الِئِمِينَ فِي أَوَّلِ وَصْلِ ، وَعَلَيَّ الِيسَارِ فِي ثَانِي وَصْلِ ، ثُمَّ عَلَيَّ
هَذَا النَّمَطِ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ فِي الآخِرِ إِلَى الِئِمِينَ ؛ وَلَا يُطَمَّعُ عَلَيَّ الطَّرَةِ البِيضَاءِ . وَالكِتَابُ
يُخْلِجُ لِمَوَاضِعِ الطَّمَعَةِ مَوَاضِعَ الكِتَابَةِ تَارَةً يَمَنَةً ، وَتَارَةً يَسْرَةً ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا سَبَقَ
الْقَوْلُ عَلَيْهِ .

قلت : وآخر ما أستقرت هذه المملكة لثُمَّرلنك ، وُثِرَ اسمه الذي هو عَلِمَ عليه ، ومعناه بالتركية حديد . ولأنك لُقِبَ عليه ، ومعناه بالفارسية أَعْرَج : لأنه كان به عَرَجٌ ظاهرٌ ، ولذلك تسميه التُّركُ ثُمَّرَ أَقْصَق ، إذ أَقْصَقُ عندهم بمعنى أَعْرَج . وهو يتسَمَّى في كُتُبِهِ تَيْمُورْ كُورْ كان . ومن هذه المملكةِ أَنَسَابُ عليّ بلادِ إِيْرَانَ حتَّى أُسْتُولِيْ عليّ جميعها ، وسار إلى بلاد الهند فأسْتُولِيْ عليها ، ثم طاح إلى الشام في سنة ستٍّ وثمانمائة وعاثَ فسادًا ، وَخَرَّبَ وَأَفْسَدَ ولقيه السلطانُ « الملك الناصر » فَرَجَ ابن الظاهر بقوق صاحب مصر والشام على دِمَشْقَ ، وجرت بينهما مرآسةٌ ؛ ثم طرأ للسلطان الملك الناصر ما أوجب عَوْدَهُ إلى مصر لِأَمْرِ عَرَضَ له من جهة بعض أمرائه ، وبقِي لثُمَّرلنك نازلًا بالشام محاصِرًا لدِمَشْقَ ، إلى أن خَدَعَ أهلها وفتحها صُلْحًا ، ثم غَدَرَ بهم ونهبها وسبها حريمها ، ثم حَرَّقَهَا بعد ذلك بعد أن أسرف في القتل وأثخن في الجراح ، وأمعن في الأسر .

وللكاتبه اليه حالتان :

الحالة الأولى - حين كان السلطانُ الملك الناصر فرج - عزَّ نصره - بالشام محاربا له ، وكُتِبَ حينئذ تَرِدُ في القطع الصغير على ماسيأتي ذكره ، وكان يكتب إليه حينئذ في قطع^(١)

(١) بيض المؤلف لبقية الكلام ، وأستدرك بعضهم له بقية وأثبتها في النسخة الخطية بخط مغاير لخط الأصل وعنونها هكذا "بمافات المؤلف" .

مما فات المؤلف رحمه الله تعالى

ما كتبت عن مولانا الشهيد الملك الظاهر أبي سعيد برقوق، تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه، في جواب الأمير تمرلنك المدعو تيمور، عن الكتب الواردة منه قبل ذلك - من إنشاء المرحوم المقر البدرى محمد، ابن المرحوم المقر العلاءى على ابن المرحوم المقر المحيوى يحيى، بن فضل الله العمري العدوى القرشى رحمهم الله تعالى - في سنة ست وتسعين وسبعمائة، عند سفر مولانا السلطان المشار إليه إلى حلب المحروسة الملتقى المذكور، في قطع الثلث بغير علامة؛ وسعة ما بين السطور قدر عرض الإصبعين. والطرزة وصلان، طولها نحو الذراع الهاشمي، وكان عنوان كتاب تمرلنك الذي ورد آخرًا وهو الذي اقتضى الحركة الشريفة والجواب المشار إليه :

سلام وإهداء السلام من البعد * دليل على حسن المودة والعهد

فكتب العنوان الشريف :

طويل حياة المرء كاليوم في العد * فخيرته أن لا يزيد عن الحد!

فلا بد من نقص لكل زيادة * لأن شديداً البطش يقتص للعبد!

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله العلى الشان، العظيم السلطان؛ العميم الإحسان، العليم بما كان وما يكون في كل زمان ومكان؛ تاهت في ميادين فلوات معرفته سوابق جياذ الأفهام، وتدكدت لهيبة جلالة جبال العقول والأوهام؛ وصلى الله على سيدنا محمد حبيب الرحمن، وسيد الأكوان، وصاحب المعجزات والبرهان، المبعوث إلى الخلق أجمعين من الإنس والجنات؛ والمنعوت بالفضل العميم، والخلق العظيم، في التوراة والإنجيل والزبور

والفرقان؛ وعلى آله وصحبه الغرِّ الكرامِ الحسان؛ وعلى التابعين لهم بإحسان؛ وسلم تسليماً كثيراً ما تعاقب الحدّان .

وبعد، فقد وصل إلى أبوابنا الشريفةِ العاليةِ كُلَّ ما جهزته أولاً وأخيراً يا أمير تيمور من كتاب، وأحاطت علومنا الشريفة بما فيها من كلامٍ وخطابٍ؛ وقصيدةٍ وعتابٍ، وإرعادٍ وإرغابٍ وإرغابٍ .

فأما ما ذكرته في أول كُتُبِك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم، والتبجيل والتفخيم؛ فقد علمناه وعرفناه، ولكن وجدنا الكلمتين اللتين في الطمغات آخر الكتب وهما رأستي رِستِي منافيتين لذلك التعظيم، وهذا غير مستقيم؛ لأنه متناقض غير متناسب، فعجبنا من هذا التناقض الواضح، والتخالف الفاضح؛ وفي المثل السائر: « أصلح وقابل وأفسد وقابل » .

وأما إرسالك السيف والتركاش لنا، فقد تعجبنا منه إلى الغاية، وأنكرناه إلى النهاية: لأنك لم ترل في كُتُبِك كلها تستشهد بتاريخ جنكرخان وأخباره وأحواله، وتقتدى به في أقواله وأفعاله؛ وما سمعنا في النوارخ ولا اتفق قط من جنكرخان، ولا ممن تقدّمه وتأخّره من ملوك مملكته في زمنٍ من الأزمان؛ أنه أهدى إلى خادم الحرمين الشريفين سيفاً ولا تركاشاً؛ ما اختلف في ذلك آثنان . فإرسالها منك إلينا هل هو من باب المحبة أولاً، وإن كان تخويفاً، فنحن ما نخاف من سيفك وتركاشك بعناية الله العظيم الأعلى .

السيف والرمح والنشاب قد علمت * منّا الحروب فسَلها فهى تُنبيكا!

إذا التقينا تجد هذا مُشاهدة * في الحرب، فأنبت فأمر الله آتيكا!

بخدمه الحرمين الله شرفنا * فضلاً وملكتنا الأمصار تمليكاً!

وبالجَمِيلِ وحُلُوِّ النَّصْرِ عَوْدَنَا، * خُذِ التَّوَارِيخَ وَأَقْرَأْهَا تَلِيكًا!
والأَنْبِيَاءَ لَنَا الرُّكْنَ الشَّدِيدُ فَكَمْ * بِجَاهِهِمْ مِنْ عَدُوِّ رَاحٍ مَفْلُوكًا!
وَمَنْ يَكُنْ رَبَّهُ الْفَتَّاحَ نَاصِرَهُ، * مِمَّنْ يَخَافُ؟ وَهَذَا الْقَوْلُ يَكْفِيكَ!

وقد أجبناك عن السيف والتركاش فيما مضى قبل هذا الوقت وتقدم، فاعرف ذلك وأعلم .

وأما ما ذكرته من قولك : إنك فتحت معنا باب المحبة والوداد ، والصُّحْبَةِ والأَيْتَادِ ، لا بابِ المَخَاصِمِ والمُشَارَرَةِ والعِنَادِ ؛ فقد علمنا ذلك وفهمناه . والذي نَعَرَفَكَ به أَنَّ الذي وقع منك بخلاف ما قُلْتَ : لأنك لو كنت صادقاً في قولك ، كنت لَمَّا حضر إليك شُكْرُ أَحْمَدَ وَأَرْغُونُ السَّلَامِيِّ اللذان هما من بعض مماليكنا ومن جملة رَعَايَانَا أَمْسَكْتَهُمَا وَجَهَزْتَهُمَا إِلَيْنَا بَعْدَ أَنْ قَيَّدْتَهُمَا ؛ فَمَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بَلْ عَمِلْتَ بِالضَّدِّ مِنْهُ لِأَنَّكَ أَوْيْتَهُمَا ، وَحَمَيْتَهُمَا وَعَظَّمْتَهُمَا وَأَكْرَمْتَهُمَا ؛ وَجَعَلْتَهُمَا مِنْ خَوَاصِّكَ وَأَحْبَابِكَ ، وَأَوْلِيَائِكَ وَأَصْحَابِكَ . وَأَيْضًا تَوَجَّهَ إِلَيْكَ صَوْلَةُ بِنِ حِيَارِ الَّذِي هُوَ قِطْعَةٌ هَجَّانٌ مِنْ هَجَّانَاتِنَا فَأَكْرَمْتَهُ ، وَأَلْبَسْتَهُ التَّاجَ وَعَظَّمْتَهُ ؛ وَبَعَثْتَ مَعَهُ خِلْعَةً إِلَى نُعَيْرِ الْمَذْكَورِ وَإِلَى غَيْرِهِ مِنْ عُرْبَانِهِ ، وَوَعَدْتَهُ بِالتَّقْدِيمَةِ وَالْإِمَارَةِ ، بِالتَّصْرِيحِ الْعَظِيمِ لَا بِالتَّلْوِيحِ وَالْإِشَارَةِ ؛ وَكَتَبْتَ إِلَيْهِ كِتَابًا مَا تَرَكْتَ فِيهِ وَلَا خَلَيْتَ ، وَأَظْهَرْتَ كُلَّ مَا كَانَ عِنْدَكَ وَمَا أَبْقَيْتَ ؛ بِجَهْزِهِ إِلَيْنَا وَقُرِيِّ عَلِيٍّ مَسَامِعِنَا الشَّرِيفَةَ كَلِمَةً كَلِمَةً ، وَعَرَفْنَا وَاضِحَ مَعْنَاهُ وَمُبَهَمَهُ ؛ وَهَذَا نَحْنُ نَسْرَحُهُ لَكَ لِنَعْلَمَ وَنُتَحَقَّقَ أَنَّهُ وَصَلَ إِلَيْنَا ، وَأَطَّلَعْنَا عَلَيْهِ وَمَا خَفِيَ أَمْرُهُ عَلَيْنَا . وَهَذَا نَصَهُ :

(١) هذا الضبط من الأصل و رسم فيه تحتها حاء صغيرة إشارة إلى الإهمال ولكن الذي سبق في الأجزاء المتقدمة جبار بالجيم والباء تبعاً للأصل والضوء والتعريف فحرف .

دام دولته

الأمير الكبير، المعظم أمير نعيّر، أدام [الله] دولته شمساً. نُعرض لعلو علومه المحروسة أنه قد اتصل بنا طردك عن الشام، ومعاملتهم معك غير الواجب. حال وقوفك على هذا المثال تُسرّع في الوصول إلينا بحيث نُعطيك ما أعطى المرحوم عمك أمير سليمان طاب ثراه، ونجعلك مقدّم العساكر المنصورة؛ وبهذا برز الحكم المطاع من الحضرة العالسة؛ ففي عزم العساكر والجيوش المعظمة الوصول إلى أطراف البلاد شرقاً وغرباً ورومياً من سائر النواحي والأمصار، والبلاد والأقطار؛ وإن أبطأ ركابك عن الوصول، فنحن واصلون إليكم في طريقنا إلى مصر وغيره، ولا يبقى لطاعتك مزية ولا منة، فيكون ذلك على الخاطر المبارك. فينبغي أن لا يكون جواب الكتاب، إلا قدوم الركاب؛ ففيه لكم الفوائد العظيمة، والعطايا الجسيمة؛ ومع ذلك [إصابة الرأي منكم، تُغني عن تأكيد الوصية إليكم؛ ومهما عُرِض من المهام يقضى حسب المراد، ومنهج السداد؛ والله الموفق .

وبحاشية الكتاب المذكور ما نصّه :

وقد كتبنا إلى السلطان أحمد أن يصل إلينا، فانظر كيف كان عاقبة أمره؟ فينبغي أن تتوجه أو يتوجه بعض أولادك إلينا لأجل مصالحك كافة .

فيا أمير تيمور لو كنت صادقاً، وكلامك بالحق ناطقاً، ما وقع منك مثل هذا ولا صدر، ولا اتفق بل ولا ببالك خطر؛ ولكن كل ما يكون في خاطر الإنسان يظهر من الكلام الذي يخرج من فيه، وكل وعاء ما يوضح إلا بما فيه .

يافاعلاً بالضد من قوله * فعل الفتي دال على باطنه،

والمرء مجزئ بأعماله * إذ أظهرت ما كان في كامنه!

وأما طلبك منا السلطان أحمد الحلايري غير مرة، فقد علمناه. ولكن عرفنا يا أمير
تيموريش عمل بك؟ حتى حلفت له عدة مرار بأيمان الله تعالى العظيمة وأعطيته
العهود والمواثيق بأنك ما نتعرض إليه ولا إلى مملكته ولا توافيه ولا تشوش عليه،
حتى آطمأن بأيمانك، وركن إليك، وأحسن ظنه فيك، ووثق بك، واعتمد عليك،
ثقتَه وغدرتَه، وأتيته بغتة على حين غفلة وبدرته؛ وأخذت مملكته وبلاده،
وأمواله وأولاده. وأعظم من ذلك أنك أخذت أيضا حريمه وهن في عقد نكاحه
وعصمته وأعطيتهن لغيره، وقد نطق الكتاب والسنة بتحريم ذلك وعظم ذنب فاعله
وقبيح جرمه؛ ففي أي مذهب من المذاهب يحل لك أخذ حريم المسلمين، وإعطاؤهن
لغير أزواجهن من المُفسدين الظالمين؟ وهن في عصمة أزواجهن وعقد نكاحهن
إن هذا لهُو البلاء المبين؛ وكيف تدعى أنك مسلم وتفعل هذه الفِعال؟ عرفنا
في أي مذهب لك هذا حلال؟ فأعمالك هذه كلها منافية لدعواك، بل منافية
لدين الإسلام، وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. قال الله تعالى:
﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ وقال: ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ وقد بين لنا الخير والشر،
والحلال والحرام وأهلها فقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً
وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ وقال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ آتَبَعَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ
فَأُولَئِكَ هُمُ الْمَادُون ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ

حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ“ . وقال عليه السلام: ”الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ
وَلِسَانِهِ“ . ففى أىّ مذهب من دين الإسلام تستحلُّ هذه المحرمات العظيمة ،
والمُنكراتِ القبيحة الشنيعة الجسيمة ، التى يهتَّ لها العرشُ وَيَغْضَبُ اللهُ عزَّ وجلَّ
لها ورُسُلُهُ والملائكةُ والناسُ أجمعون ؟ وما كفى ما فعلت مع القان أحمد المشارِ
إليه حتَّى تطلبه منا ؟ . اعلم أنَّ القان أحمد المشارِ إليه قد استجار بنا وقصدنا ، وصار
ضيفنا ، وقد ورد : مَنْ قَصَدَنَا وَجَبَ حَقُّهُ عَلَيْنَا . وقال تعالى لسيد الخلق
أجمعين فى حقِّ الكفار الذين هم أنحس الناس : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ
فَأَجْرُهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلغَهُ مَأْمَنَهُ﴾ فكيف بالمسلمين إذا استجاروا بالمسلمين ؟
وكيف بالملوك أبناءِ ملوك المسلمين ، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع ملوك الإسلام
خُدّامِ الحرمين الشريفين مُحَبَّةٌ ومُحَبَّةٌ وأخوةٌ فى الله تعالى ؟ ولو لم يكن ذلك كيف
يجوز فى شرع المروءة والنخوة والوفاء أن نُسَلِّمَ ضيفنا ونزيلنا والمستجير بنا ؟ خصوصا
وجنسنا حركس جنس ملوك الإسلام السالفين ، خُدّامِ الحرمين الشريفين الذين
أتفق لهم مع التتار ما تشهدُ به التواريخ ، ومن عادتنا وشأننا وطباعِ جنسنا أننا لأنُسلِّمَ
ضيفنا ولا نزيلنا ولا من استجار بنا لأحدٍ . وإن كنت ما تُصدِّق ذلك فعندك من هم
من جنسنا ، سلَّهم يعرفوك ، فنحن لا يُضام لنا نزيل ، ونقرى الضيف ونعامه
بالجميل ، وهذه جيلتنا الغريزية وعادة أصلنا الأصيل ؛ فأرسأ القان أحمد إليك
أمر مستحيل .

إِنَّا ذُوو الْفَضْلِ الْغَزِيرِ الْوَارِفِ * أَبُو أَبْنَا هِي مَلْجَأٌ لِلْحَائِفِ !

نَقْرَى الضُّيُوفَ وَلَا يُضَامُ نَزِيلُنَا ، * شِيمٌ وَرَثْنَا فَضْلَهَا عَنْ سَالِفِ !

وَكَلِمَةٌ تَكْفَى الَّذِي هُوَ عَاقِلٌ ، * وَالرَّمْزُ تَصْرِيحًا غَدًّا لِلْعَارِفِ !

وقولك : إن العادة كانت جارية بين من سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار ، أنه من هرب من جهة إلى أخرى يُمسكه الملك الذي يهرب إليه ويقيده ويجهزه إلى الملك الذي هرب من عنده ، وأن دم دماش بن جوبان لما هرب في الزمن الماضي من ملكه وبعاء إلى سلطان مملكتنا المعظمة المشرفة ، أمسكه وقيده وأرسله إليه ، فقد علمناه ، وليس هذا الذي قلته وحكيته بصحيح ، لأن الذي وقع وأتفق بخلافه : وهو أن أميراً من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمى قرأسنقر ، هرب من عنده وراح إلى أبي سعيد فقطع رأسه ، وجهزه إلى الملك الناصر . وأما دمرداش المذكور فالملك الناصر ما أرسله إلى أبي سعيد مثل ما قلت وما مات دمرداش المذكور إلا في مصر المحروسة ، فليكن ذلك في علمك ثابتاً ، وعلى كل حال فكلأكم حجة عليك لا لك : لأنك قد آويت شكر أحمد وأرغون السلمي وأكرمتها وقرتتها ، وكذلك كل من حضر إليك من ممالئنا ورعايانا وخدمنا من أهل مملكتنا ، فلو أمسكتهم وقيدتهم وجهزتهم إلينا ، كنت تكون صادقاً في قولك ، وكنت إذا طلبت منا أحداً متألام على طلبه ، فكيف وأنت البادى والمعتدى ؟ فهذا الكلام كله شاهدٌ عليك لا لك .

وأما قولك : إن صاحب تكريت كان حرامياً قاطع طريق ، ففعلت معه ما فعلت مقابلة له على نجسه وحراره وقطعه الطرقات ، فقد علمناه وسأنا لك هذا الأمر ، بيض الله وجهك ، وما قصرت فيه ، فبذا ما عملت ، ونعم ما فعلت في حقه من إعطائه جزاءه . أفأهل بغداد كانوا حرامياً قاطع طريق حتى فعلت بهم ما فعلت ، وقتلت منهم من التجار خاصة ثمانمائة نفس في المصادرة بالعقوبة والعذاب . ففي أى مذهب يجوز هذا ؟ وهل يحل لمن يدعى الإسلام أن يعمل بخلق الله تعالى الذين أمر بالشفقة عليهم والإحسان إليهم ونشر العدل فيهم هذه الفعال ؟ وقد تعجبنا منك

يا أمير تيمور إلى الغاية ! كيف تدعى أنك عادل، وتعمل بأهل بغداد المسلمين
الموحدين وبغيرهم من المسلمين هذه العمائل؟ أما تعلم أن الشفقة على خلق الله
تعظيم لأمر الله، وأن الله رحيم يحب من عباده الرحماء، وأن الظلم حرام في جميع
الملل؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله تعالى يقول: يا عبادي إني
حرمتُ الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا". وقال عليه السلام:
"لا أحد أغبر من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن".
وورد: "إن فاني ظلم ظالم فانا الظالم" وحسب الظالمين رب العالمين الذي قال
في حقهم ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وقال ﴿إِنَّهُ لَا يَفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾. والباغي
له مَصْرَع. ولما جاء هولاكو ومنكوتر وغازان وقصدوا ملوك الإسلام خدام
الحرمين الشريفين، الذين كانوا من جنسنا كما ذكرنا لك أعلاه، اتفق لهم ما اتفق
مما هو مشروح في التواريخ ومعلوم عند الناس؛ فهما أخذه أولئك تأخذه
إذا جئت.

وأما قولك في كُتُبك: إنه إن لم نجهز إليك السلطان أحمد الخلايري مقيداً تجي
في أول فصل الربيع إذا نزلت الشمس برح الحمل، أو لمَّا نزل الميزان، وإن
جهزناه إليك مقيداً، نتأكد المحبة والصحبة بيننا وبينك، فقد علمناه؛ والذي
نعرفك به هو أننا كنا نتوقع أنك تجيء قبل هذا الوقت، فقد أبطأت كثيراً، وملوك
الإسلام خدام الحرمين الشريفين الذين كانوا قبلنا ما تصالحوا مع مثل هولاكو
وغيره إلا حتى تزاورا وتقابلوا واجتمعوا، ونحن أيضاً كذلك ما نصطليح إلا بعد
أن تزاوروا وتقابلوا وتجمعوا. وأنت طلبت أحمد الخلايري، وهانحن واصلون إليك به،
نطلب منك أن تشفقنا فيه، وتبيننا ذنبه الذي صدر منه، وندخل عليك بسببه،
ونسأل إحسانك أن تعين لنا موضعاً نلتقي معك فيه، حتى نأتيك بأحمد الخلايري

المذكور فيه ، ونشفع فيه عندك . فعين لنا الموضع المذكور على حسب ماتختار : إما من ذلك الجانب من الفرات ، أو من هذا الجانب . وأى موضع عينته وسميته لنا جنتك بالمشار إليه فيه ، وتدخل عليك في أمره ، ونستوهب ذنبه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول ، فقد علمناه . والذي نعرفك به هو أن الرسول المذكور كان يكتب المنازل منزلة منزلة إلى بلادنا المحروسة ، وأطلع عليه في ذلك جماعة من جهتنا ؛ ولما وصل إلى الرحبة المحروسة ، قال للنائب بها : يس الأرض للأمير تيمور وأقرأ الخطبة باسمه . فلو كان رسولا مصلحا ما كان كتب المنازل ، ولا أكثر فضوله ، وتحدث بما لا ينبغي له ، وتكلم فيما لا يعنيه ، وتعدي طوره : لأنه لا ينبغي للرسول أن يكون إلا أعمى إلا أعمى غزير العقل ، ثقيل الرأس ، كما قال بعضهم :

إذا قصدت الملوك فالبس * من الثقي والعقاف ملبس !

أدخل إذا ما دخلت أعمى ، * وأخرج إذا ما خرجت أحرص !

وكيف يمكن نائبا الذي هو من جملة ممالئنا ، وجبل لحمه ودمه على أنعمنا وصدقائنا ، وغدنى وربى بلبان فضلنا وجودنا [أن] يبوس الأرض لغيرنا ، أو يخطب باسم غيرنا؟ وكيف يترك اسم خادم الحرمين الشريفين أستاذه ، ويدكر اسم غيره؟ . فقد تكررت منك الفعال القبيحة ، الموجبة لما يقدره الله تعالى؟ ونحن نقسم بالله تعالى لولا قلت لنعير تعال حتى أعملك مقدم العساكر ، وتمشى على الشام ومصر؛ وقربت ممالئنا وأوتيتهم ، وبدأت بهذا كله وحصل منك التعدي ، ما كان يتفق لرسلك ما اتفق . ولكن الجزء من جنس العمل ، والخير بالخير والبادى أكرم ، والشّر بالشّر والبادى أظلم . وأيضا كل وقت تسأل عن ممالئنا المصونة ، وكثرة عساكرنا المنصورة من قتلها . فلو كنت طالبا المحبة والصحبة والمصادقة ، ما وقع منك هذا .

• أما قولك إنَّ هُولا كو أخذ من كلِّ مائة رجلٍ رجلين وجاء بهم ، وأنت قد جئتَ بالرجلَيْنِ وبالمائة ، وأعتادك على كثرة عَسْكَرك على قولك فقد علمناه ، وإن كان أعتادك على كثرة عَسْكَرك فاعتادنا نحن على الله تعالى وأستمدأنا من الحرمين الشريفين ، ومددنا ممَّن بهما من الأنبياء ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، والصحابةِ والصالحين رضى الله عنهم . فاذا تلاقينا يكون ما يقدره الله تعالى ويُعطى الله النصر لمن يشاء ، وتعلمُ ذلك الوقتَ لمن العاقبةُ ؛ ويظهرُ فعلُ الله الرَّبِّ القادر تعالى ، وعوائده الجميلةُ بنا التي لا شكَّ عندنا فيها ولا ريبَ ، وقطُّ ملوكُ التتار ما آتتصروا على ملوك الإسلام ، بل ملوكُ الإسلام خدامُ الحرمين الشريفين ، هم المؤيدون المنصورون المظفرون بعون الله تعالى ، وببركة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، معودون من الله الكريم بالفضل والإحسان والغنائم والفُتُوحات : لأنهم أهل الكتاب والسنة والعدل والخير والخوف من الله تعالى ، لا يقعون في محارمه ، ولا يُقَدِّمون على ارتكاب ما ينهى عنه ، فهم المؤمنون المتَّقون . وقال الله تعالى : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقال : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ وسوف يُنجزُ الله تعالى وعده ، لأنه لا يُخْلِفُ الميعاد .

وأما ما ذكرته من أمر قرا يُوسف وير حسن وغيرهما ، وأنَّ في معاشهم زغلا ، وأنهم مفسدون . وجعلك لكل واحدٍ منهم ذنبا ، وأنت العادل الخير المصلح ، والناس كلُّهم مناحيس وأنت الصالح ؛ والله يعلم المفسد من المصلح ، فقد علمناه . والذي نعرفك به هو أنَّ النور لا يجتمع مع الظلام ، ولا اليقظة والنمَام ، ولا الخير والشر في حيز واحد : لأنها متضادة ، ليس بينها اتفاق ولا آتئام ، وفعلُ المرء دالٌّ على نيته وطويته ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلِهِ ﴾ وقال :

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ وقال : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ وشتان ما بين أهل الخير والفساد، وأهل العدل وأهل البغي والعدا، فالخير هو المتقى، ومن يرتكب ما حرم الله ويعتقد أنه على الحق فهو الشقي .

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَعْرِفْ قَبِيحَ خَطِيئَتِهِ * وَلَا الذَّنْبَ مِنْهُ مَعَ عَظِيمِ بِلِيَّتِهِ
فَذَلِكَ عَيْنُ الْجَهْلِ مِنْهُ مَعَ الْخَطَا * وَسَوْفَ يَرَىٰ عُقْبَاهُ عِنْدَ مَنِيَّتِهِ
وَلَيْسَ يُجَازِي الْمَرْءَ إِلَّا بِفِعْلِهِ * وَمَا يَرْجِعُ الصَّيَادُ إِلَّا بِنَيْتِهِ!

وأما قولك إن نعيم العرب أرسل بالخفية يطلب السلطان أحمد، وأنا نرسم لنوينا أن يحترزوا من توجهه إليه ولا يمتكئوه من ذلك، فإنه إن اتفق توجهه إليه يكن ذلك سببا لخراب الديار، فقد علمناه. والذي نعرفك به هو أننا نتحقق أن ما يحصل خراب الديار والدمار ومحو الآثار إلا لمن يسعى ويتكلم بخراب الديار ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ . وستعلم ديار من تحرب، وعمر من يذهب، وعلى من تكون دائرة السوء دائرة، وسطوات المنيا قاهره؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ . وهانحن واصلون بجيوش وجنود وعساكر مؤيدة من السباع أسع، لا تروى أسلحتهم من دماء البغاة ولا تشبع، والجواب ما ترى لا ماتسمع :

قُلْ لِلَّذِي فِي الْوَرَىٰ أَصْحَىٰ يُعَادِينَا : * أَحْذَرُ فَأَمْرَكَ رَبُّ الْعَرْشِ يَكْفِينَا!
مَا زَالَ يَمْنَحُنَا فَضْلًا وَيَكُونَا * وَفِي الْعِدَا بَعْظِيمُ النَّصْرِ يَشْفِينَا!
أَقَامَنَا رَحْمَةً لِلنَّاسِ أَجْمَعِهِمْ ، * وَلَمْ يَزَلْ مِنْ جَزِيلِ الْجُودِ يُعْطِينَا!
بِالْعِزِّ وَالنَّصْرِ وَالتَّأْيِيدِ عَوَدْنَا ، * وَزَادَنَا فِي مَدِيدِ الْأَرْضِ تَمْكِينَا!
وَالجَمِيلِ وَفِعْلِ الْخَيْرِ وَقَفْنَا ، * شُكْرًا لِه سِتْرِهِ الْأَعْلَىٰ يَنْطِينَا!

قَدْ أَسْكَنَ الرَّحْمَةَ الْحُسْنَى الَّتِي أَمِنْتَ * بِهَا الْأَنَامُ بِأَقْصَى مُلْكِنَا فِينَا!
فَكَلَّمَا بِالْدُعَاءِ الْمُرْتَضَى نَطَقَتْ * لَنَا الرَّعَايَا، أَجَابَ الْكَوْنُ آمِينَ!
اللَّهُ حَافِظُنَا، اللَّهُ نَاصِرُنَا، * مَنْ ذَا يُعَانِدُنَا؟ مَنْ ذَا يُقَاوِينَا؟

واللهُ الموفقُ بفضلِهِ العَمِيمِ ، والهادى إلى الصراطِ المستقيمِ ، بِمَنَّةِ وَكَرَمِهِ ، وَجُودِهِ
وَنِعْمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

كتب في ... من جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعائة^(١) .

الحالة الثانية — حين عاد السلطان من الشام إلى الديار المصرية ونحرب هو
دمشق وحرَّقها، ثم انتقل عنها، وتردَّت رسله بطلب أطلمش : أحدِ أمرائه الذى
كان قد أسرف في أيام السلطان الملك الظاهر ”برقوق“ .

وفي هذه الحالة كان يُكْتَب له في قطع الثلثين ، والعنوان بقلم جليلِ الثُلث بحلِّ
الذهب سطرانٍ ، مضمونهما « المقامُ الشريفُ العالى ، الكبيرُ ، العالمى ،
العادى ، المؤيدى ، المظفرى ، المَلَجى ، المَلادى ، والودى القُطْبى ، نُصرة الدين ،
مَلجأ القاصدين ، ملاذُ العائدين ، قطبُ الإسلام والمسلمين ، دامت معدلته تيموركور
كان » . والبسملة في أول الوصل الرابع ، والخُطبةُ جميعها بالذهب ، وكذلك البَعْدية وما
يتعلَّق بالمكتوب إليه على عادة القانات ، والعلامةُ بجليلِ الثُلث بحلِّ الذهب بالهامش
ماصورته : « المشتاقُ فرجُ بن برقوق » إلا أنه اختلف مكانها في المكاتبات على
ماسياتى ذكره . إلا أن افتتاح المكتابة إليه في هذه الحالة كان على ضربين بحسب
ما اقتضاه الحال .

(١) هنا آخر ما أضيف إلى الأصل من بعضهم .

الضرب الأول

(الافتتاح بـ «أما بعد» وذلك عند أول عقد الصلح)

وهذه نسخة مكتوبة كتبت إليه جواباً عما ورد منه بطلب أطلمش المذكور
والتماس الصلح. جهزت صحبة الأمير شهاب الدين أحمد بن غلبك، والأمير قاني بيه^(١)
صحبة رسوله خواجه مسعود الكججاني رسوله الوارد بكتابه، في جمادى الأولى سنة
خميس وثمانمائة. وعلم له فيها في الهامش بين السطرين الثاني والثالث بقلم جليل
الثلاث بحل الذهب «المشتاق فرج بن برقوق» على ما تقدم ذكره؛ والورق قطع
الثلاثين وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل الأرواح أجناداً مجتهدة، ووصل أسباب الرشد والفلاح
بين افتتاح باب الإصلاح ولم يخلف موعده، وكفل لمن توكل عليه في أموره النجاح
يومه وعدّه. والشهادة له بأنه الله القاهر فوق عباده بقدرته المؤيّد، والصلوة والسلام
على أشرف نبي طيب الله عنصره ومجتهده؛ وأصلح ببعض نسله الشريف بين فتيين
عظيمتين بلغ كل منهما من الخير مقصده. وعلى آله الطاهرين، وذريته الظاهرين
بالمصالح المرشدة، وأصحابه الذين كانت غالب قضاياهم صلحاً بين الناس ورسولهم
بالإتفاق مرددة ومن عدم الشقاق غير متردده؛ صلاةً وسلاماً نصل بهما حبلاً البتة
بالأبوة المتجددة، ونحمد بهما نار الحرب المتوقّدة.

فقد أصدرنا هذه المفاوضة إلى المقام الشريف، العالي، الكبير، العالمي،
العادلي، المؤيّد، المظفر، الملجئ، الملاذ، الوالدي، القطبي، نصره
الدين، ملجأ القاصدين، ملاذ العائدين، قطب الإسلام والمسلمين، تيموركوركان،
دامت معدته. تُهدى إليه سلاماً تتلى سورة وآياته، وثناء تتوالى غدواته وروحاته

(١) سياق قرياقاني باي الخالصي .

ولا لتناهي غايته ؛ وتبدي لشريف علمه أن مفاوضته العالية [التي] وردت أولا وأحرا ، تضمنت رموزها باطنا وظاهرا ؛ تجهيز الأمير أطمش لزم المقام الشريف إلى حضرته العليّة : لتتجسّم مادّة الحركات ، وتسكن القلوب والخواطر في سائر الجهات ؛ وتبجّد الملكان في الصداقة والوفاء ، والمحبة والصفاة ؛ على الصورة التي شرحها ، وبين مناهجها ووصفها ؛ خصوصا ما أشار إليه من أن لجواب الكتاب حقّا لا يضيع ؛ فوقفنا عليها وقوف إجلال ، وفهمنا ما تضمنته على التفصيل والإجمال .

والذي نبديه إلى علومه الشريفة أن سبب تأخير أطمش أنه لما قدم المقام الشريف إلى حدود الممالك الشاميّة ، وتوجّهنا من الديار المصرية ؛ عرض لنا ما أوجب العود إليها سريعا ، وكان الحزم فيما فعلناه بمشيئة الله تعالى . ثم تحقّقنا من المفاوضة الواردة على يد سودون ، وسودون (؟) والنمر ، والحاج يسق أحد أمراء أخورية ، قسّمه بالله الطالب الغالب ، المدرك المهلك ، الحى الذى لاينام ولايموت أنه إن جهز إليه أطمش المشار إليه ، رجع المقام الشريف إلى بلاده ، وأنه متوقّع حضوره إليه بقارة ، أو سميّة ، أو حصّ ، أو حماة . فأخذنا في تجهيزه إلى حضرته الشريفة على أجهل ما يكون .

فبينما نحن على ذلك إذ وردت علينا الأخبار بما اتفق لدمشق وأهلها : من أنواع العذاب وتخريب قلعتها وديارها ؛ وإحراق جامعها الذى هو الجامع الفرد في الممالك الإسلاميّة ، وغيره من المساجد والمدارس والمعاهد والمعابد . فلما تواترت هذه الأخبار ، وتحققت هذه المصائب ؛ لحنا من عدم ترحلكم عن دمشق وهى عامرة نقض ما تقرّر ، وعدم التفتاكم إلى الأمير أطمش المذكور وتجهيزه . فلما وردت مفاوضته الشريفة المجهّزة إلى صاحب ماردين ، أرسلها إلينا [وهى] الواصلة على يد المجلس السامى ، الشيخى ، الكبيرى ، العالمى ، الناسكى ، الحسبى ، النسيبى ، الشرفى ، عبد المؤمن ، شيخ

(١) الجبال، ابن ولي الله، إمام العارفين، عبد القادر الكيلاني، أعاد الله تعالى من بركاته. والصدر الأجل نحر الدين التاجر السفار، المؤرخة بثاني عشر ذي القعدة الحرام من سنة أربع وثمانمائة، المتضمنة وصول المقام الشريف إلى أرزنكان وكماخ قاصداً للبلاد الرومية، والقصد فيها تجهيز الأمير أطمش وأن يفتح باب المصالحة، ويسلك طريق المصادقة، رعاية لصالح الملكتين، ونظراً إلى إصلاح ذات البين؛ وأنه لا مطمع إلا في صحة المودة، وإرسال أطمش صحبة شخص من مقربي حضرتنا الشريفة: لينظر ما يصدر بعد وصولها من تمهيد قواعد الجمالة، وتشديد مباني المحبة. وأن المقام الشريف - زيدت عظمته - أقسم بالله الذي هو في السماء إله وفي الأرض إله، أن يكون في هذه الحياة محباً لمن يحبنا، مبغضاً لمن يبغضنا، وأنا نتلفظ بحضور الأمير أطمش كما تلقظتم. فعند ذلك اجتمعنا مع مولانا أمير المؤمنين، المتوكل على الله، أدام الله تعالى أيامه، والشيخ الإمام الفرد، شيخ الإسلام سراج الملة والدين عمر البلقيني - أعاد الله تعالى من بركته - وقضاة القضاة ومشايخ العلم والصالح، وأركان الدولة الشريفة، وقُرئت المفاوضة بحضورهم. فلما سمعوا ما تضمنته من عظيم القسم، والحلف ببارئ النسم، وعلموا أن جل القصد فيها تطلع المقام الشريف إلى تجهيز الأمير أطمش المذكور، فأجتمعت الآراء على إرساله إلى حضرته الشريفة صحبة من اقتضته الآراء الشريفة. ثم وردت بعد ذلك المفاوضة من المقام الشريف - زيدت عظمته - على يد شخص من أهل أزمير - مؤرخة بثاني عشر شهر صفر المبارك سنة تاريخه، متضمنة ما حصل من النصر على ابن عثمان، والظفر به، والاستيلاء على غالب قلاعه. وزبدة الكلام فيها الإسراع بتجهيز أطمش المذكور، ليجتمع شمله بأولاده بالحضرة الشريفة. ثم بعد ذلك وردت

(١) يريد أنه من ذريته لان عبد القادر توفي سنة ٥٦١ هـ.

علينا مفاوضة شريفة^١ على يد المجلس السامى ، الشيخى ، الكبيرى ، الأوحدي ، العارفى ، السالكى ، المقربى ، مسعود الكججاني ، رسول المقام الشريف . وصحبه المجلس السامى ، الشيخى ، الكبيرى ، العالمى ، العالمى ، الإمامى ، القدوى ، الشمسى ، شيخ القراء ، إمام أئمة الكبراء ، محمد بن الجزرى أدام الله النفع به . مؤرخة بغرة ربيع الأول سنة تاريخه ، متضمنة معنى الكائين المجهزين من ماردین وأزمير . وجُلُّ القصد فيها تجهيز الأمير أطمش لتحصل طمأنينة قلوب العالمين ، وإحمادُ باب الفتن ، وأنَّ العمدة على المشافهة التي تجلها الخواجا نظام الدين مسعود المشار إليه ، وأن قوله قول المقام الشريف . ومهما عقد الصلح عليه وآلزم به ، كان من رأى المقام الشريف وشوره ، لا يخرج عنه ولا يميل إلى غيره بقول ولا فعل . فلما أحضرناه وأصغينا إلى ما تجلّه من المشافهة ، فإذا هي مشتملة على خالص المحبة ، وأن يكون المقام الشريف والدنا عوضاً عن قدس الله تزيه به ، وأن تجهز الأمير أطمش إليه ، وتكون عمدتنا بعد الله عز وجل عليه ، فقابلنا ذلك بالقبول والاستبشار ، ونحونا آية ليل الحفء ، وأثبتنا آية نهار الوفاء ، فى الإعلان والإسرار ؛ وقبلنا أبقته الكريمة على مدى الأزمان وتوالى الأعصار ، وشاهد الخواجا مسعود حال أطمش ، وعلم اهتمامنا بتجهيزه قبل وصوله بمدة اعتماداً على ألبته السابقه ، ووثوقاً بما صرح به من الأئحاد والمصادقه ، وعقدنا الصلح مع الشيخ نظام الدين مسعود المذكور بطريق الوكالة الشرعية عن المقام الشريف ، وحافنا نظير ما حلف عليه ، بموافقة مولانا أمير المؤمنين - أدام الله أيامه - على ذلك مجحضر من شيخ الإسلام ، وقضاة القضاة ، ومشايخ العلم والصّلاح ، وأركان الدولة الكبار ، مع حضور الأمير أطمش ، لزم المقام الشريف ، وشهادة من يضع خطه على نسخ الصلح التي

(١) كذا فى الأصل وهى عامية لأصل لها فى اللغة بالمعنى المراد له اذ مراده المشورة كما لا يخفى .

كتبت ، وجهنا منها نسختين مثنويتين إلى حضرته الشريفة قرين هذا الجواب الشريف ، لتحيط العلوم الشريفة بضموميهما ؛ وأحدهما خطنا الشريف لتخلد بخزانته الشريفة ، والأخرى يشملها بخطه الشريف وتعاد إلينا صحبة رسولنا : المجلس العالى الأسمى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، المقرئى ، الأعزى ، الأخصى ، الأصلى ، الشهابى ، أحمد بن أغلبك الناصرى مقرئنا ومقرئ والدنا الشهيد - أدام الله تعالى نعمته - وجهنا صحبته المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المقرئ ، المرتضى ، الأخص ، الأكل ، سيف الدين ، قانى باى الخالصى الناصرى ، أدام الله سعاده ، المتوجهين بهذا الجواب الشريف ، المجهزين صحبة الأمير أطمش ، وبقية قصاد المقام الشريف ورسله .

وما نبديه لعلومه الشريفة أنه مما تضمنه الملخص الشريف المجهد عطف الكتاب الواصل على يد الشيخ مسعود الكججاني مضاعفة الوصية بأولاد الشيخ شمس الدين الجزرى ورعاية أحوالهم وتعلقاتهم . وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقبول وقررنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله - وكفى به شهيدا - قد أخلصنا النية للمقام الشريف ، وعاهدنا الله عز وجل في التعاضد والتناصر والاجتهاد ، في عمل المصالح للعباد والبلاد ، وعدم التقاصر والعمل بما فيه بياض الوجه عند الله في الدنيا والآخرة ، وإجراء الأمور على السداد . بتوفيق الله عز وجل ، وطلباً لرحمته الباطنة والظاهرة . ثم أستقبل لسان الحال ينشدنا :

* يا أول الصفو هذا آثر الكدر *

فيكون ذلك في علومه الشريفة ، والله تعالى يديم عوارفه الوريفه ، بمنه وكرمه .

والمستند «حسب المرسوم الشريف» .

الضرب الثاني

(ما صار إليه الأمر بعد وُصول أطلمش إليه)

وهذه نسخة جواب

والعنوانُ سطران بقلمِ الثُلثِ بماء الذهب ماصورتهُ :

«المقامُ الشريفُ ، العالى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المظفرى ،
الملجئى ، المَلادى ، الوالدى ، القُطبي ، نُصرةُ الدين ، ملجأُ القاصدين ، مَلادُ
العائدين ، قطبُ الإسلام والمسلمين ؛ تيموركوركان - زيدت عظمته - .

والطَّرَةُ ثلاثة أوصال ، والبسملةُ الشريفة في أول الوصل الرابع . ثم « الحمد لله »
وتمةُ الخُطبة بالذهب ، وبيت العلامة عرضُ أربعة أصابع مضمومة ، وما يليها
من الأسطر سعةُ ثلاثة أصابع ، والعلامةُ الشريفة بين السطر العاشر والحادى عشر
من سطور الكتابة ، موافقا لآتِهاء الخُطبة عند « أما بعد فقد صدرت هذه
المفاوضة » . والعلامةُ الشريفة بجليل الثُلث بماء الذهب « المشتاقُ فرج بن برقوق » .
وهامشُ الكتاب أربعةُ أصابع مطبوقة ، والخُطبة وما يليها من البَعْدية وألقاب المقام
القُطبي المركبة والمفردة الجميع بالذهب . ومضمونه بعد البسملة :

الحمد لله الذى شيد قواعد الإصلاح ، ومهد مواطن الرشد والنجاح ؛ وجعل أذنان
المؤمن يُجيب داعى الفلاح .

نحمده على أن أَلَّف بين القلوب بلطف الأرتياح ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له إلهٌ زَمَّ نفوسَ المؤمنين بحبل التقوى من حية الجحاح ؛ ونشهد
أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى وَصَّح من نُور رسالته بجر الإيمان ولاح ، ونَفَّح

من نور معجزاته زهر الدين الحنيفي وفاح ، صلى الله عليه وعلى آله الذين شئنا
ظهور كلهم من الصديق باتقن وشاح ، وعلى صحابته الذين بينوا من عهدهم (؟) بفقوهم
في الدين الواجب والمندوب والمحظور والمباح ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فقد صدرت هذه المفاوضة إلى المقام الشريف ، العالى ، الكبيرى ،
العالمى ، العادى ، المؤيدى ، المظفرى ، الملجئى ، الملاذى ، الوالدى ، اللطفى ،
نصرة الدين ، ملجأ القاصدين ، ملاذ العائدين ، قطب الإسلام والمسلمين :

مَلِكٌ يُفوقُ الخَلْقَ طَرَأَ هَيْبَةً * فِيهِ نِهَايةُ غَايَةِ التَّأْمِيلِ !

تيموركور كان — زيدت عظمته ، ودامت معدنته ؛ ولا زالت زيات نصره
خافقة البنود ؛ وآيات فضله متوأة فى التهايم والنجود ؛ وسحب فضائله هامية بالكرم
والجود ، ومهابة سطوته تملأ الوجود — تهدى إليه من السلام ماحلا فى حالى
الصدور والورود ، ومن الإخلاص ما صفا وضفت منه البرود .

وتبدي لعلمه الشريف أن مفاوضته الشريفة وردت علينا جوابا عما كتبناه
إلى حضرته الشريفة ، على يد المجلس العالى الأميرى الشهابى ، أحمد بن غلبك
وسيف الدين ، قانى بيه الناصرى ، المجهزين صحبة المجلس العالى ، الأميرى ،
الجلالى أطمش ، لزم المقام الشريف ، بوصول الأمير جلال الدين أطمش
إلى حضرته الشريفة طيبا ، مبديا بين يديه ماحلناه من رسائل الأشواق ، مبينا ما هو
اللائق بخلاله الحسنة عن حضرتنا مادبج به الأوراق ؛ شاكرًا لإنعاماتنا التى هى
فى الحقيقة من شيم فضلكم الخفاق ، مثبتًا منه ومن حوى الخطاب فى نظم الكتاب
صدق المقال وصحة العهد ورسوخ الميثاق ؛ وأنه قد ثبت بما ثبت من غرائب المعانى
حصول الأمانى ، وسرى بعد ما يكون من هدايا التهانى ؛ وأن الذى آتفق الآن هو

كان حُجْل معناها على لسان المجلس السامى، النظامى، مسعود الكججاني أولاً، المجهز الآن صحبة الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانى بيه، وأن القصد أن نأمر من بها من الثواب أن تسلمها لتوايه، والمعول فى آنتظام الأمور على ماتحملها المشار إليه وعزول عليه؛ وأنه شاكر لمرافقتنا، موافق لموافقنا؛ وأنه يصغى إلى ما نبديه، وتُخف به ونهديه؛ على الصورة التى أبداها، والتحية التى بكرىم الشيم أهداها؛ فقد علمنا ذلك جملة وتفصيلاً، وشكرنا حسن صنيعه إقامةً ورحيلاً؛ وتضاعف سرورنا بوصول الأمير أطمش إلى الحضرة الشريفة. ووصل إلينا الأمير شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانى بيه مرتلين من ذكر محاسنكم تزيلاً، وعرضاً ماتفضلتم به فى حقنا إكراماً وتوقيراً وتجيلاً؛ وأنها بين أيدينا ماعوملاً به من الفضل الذى ماعليه مزيد، والبر الذى تعجز الفصحاء أن تُبدئى بعض محاسنه أو تُعيد؛ وأنها كانا كل يوم من توفّر الفضل فى يوم عيد، وحصل لهما من الإقبال مالا يُحصى بالحصر والتحديد؛ فحمدنا للقيام الشريف الوالدى حسن هذا الفضل العام، وشكرنا جميل تفضله الذى أنجمل الغمام؛ وتزايد شوقنا وحبنا حيث زُمرمت ألفاظ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام.

ليس على الله بمستنكر * أن يجمع العالم فى واحد!

وهذا هو اللائق بالجلال الشريفه، والمؤمل فى جلال صفاته المنيفه؛ ووصل الخواجا نظام الدين صحبتها مبدياً عن جنابكم من رسائل المحبة والصفاء، والمودة والوفاء؛ ما يعجز عن وصفه الناظم والنائر، مظهرها من حسن المودة وغزير المعرفة ما يفخر به الموالى والمؤثر؛ سالكا من تأكيد أسباب الصلح ما تجمل به مفاقر المفاخر، معتذراً عما تقدم فما قدر ربما يكون سبباً لإصلاح الآخر؛ متكفلاً عن صفاء طويتكم لنا بما يسر السرائر. فضاعفنا إكرامه، وادفنا إنسامه، ووقرنا من العز

أقسامه ؛ وأنزله مَنزلاً يليقُ به ، ووصلنا كلَّ خيرٍ بسببه ؛ وما هو إلا مستحقُّ لكل ما يراد به من فيض فضل وفضل .

وأما ما أشار إليه من إعادة القسم تأكيداً للصُّلح ، وتوضيحاً للشُّجح ؛ ولو كان القسم الذى أفسمنا به مصرحاً لكان أولى ، فقد علمنا ذلك وكتبنا ألفاظ القسم فى كتاب الصُّلح مصرحاً ، وأعدناه إلى حضرته ليقرأ على مسامعه الشريفة ؛ ويسمِّله الخط الشريف ويُعادَ إلينا ؛ ونحن نكرّر القسم ، ببارئ النِّسم ؛ الذى لا إله إلا هو ، الطالبُ الغالب ، المدركُ المهلك ، الحى الذى لا ينام ولا يموت ، أنا من يومنا هذا لأتحالف ما أنتظم من عقْد الصُّلح المسطور ، إلى يوم البعث والنُّشور ؛ ولا تُحلُّ عُراه الوثيقةُ المشارُ إليها ، إلى أن يرث الله الأرضَ ومنَّ عليها ؛ ونكونُ حرباً لمن حاربه ، وسلاماً لمن سالمه ؛ ومُبغِضين لمُبغِضيه ، ومُحِبِّين لمُحِبِّيه ؛ ومنَّ أشار بإشاره ، أو شقَّ على أحد من [رعاياه] غاره ؛ رادفنا إسعافه وضاعفنا استظهاره ؛ وأخلصنا القولَ والعملَ فى مصافاة المقام الشريف : لأن الصلح بحمد الله قد تمَّ وكمل ، فيكون ذلك فى شريف علمه .

وأما ما أشار إليه من أمر القُرئى التى قصد تسليمها لتوابعه ، وأنها داخلَةٌ فى حدود مملكته : كأبْلِستين ، وملطية ، وكركر ، ونكتنا ، وقلعة الروم ، والبيرة ، فقد علمنا ذلك . ونحن نُبدي إلى علومه الشريفة أنَّ هذه البلاد لا يحصل لنا منها خراج ، ولا ينالُ ملكنا وتوابعنا منها فى كلِّ وقتٍ إلا الأتزعاج ؛ وإذا جهزنا إليها أحداً من التوابع ، نتكفَّل له غالباً بالخيال والرَّجل والركاب ؛ وبضواحيها من سُراق التُرُكمان ، وقطَّاع الطريق من العُربان ؛ مالا ينجى عن مقامه . ولو كانت دِمَشقُ أو حلبُ ، أو أكبر من ذلك مماله (؟) عن الطَّلب ؛ ماتوقِّفنا فيها عن قبول إشارته لنا كيد المحبِّه ، واتِّحاد الكلمتين من الجانيين فى أعلى رُتبته ؛ غير أنَّ لتسليمها من الوهن لملكتنا منافاةً لما

تفضّل به المقام الشريف من سؤال الله تعالى في زيادة سلطنتنا . خصوصاً وقد وعدّ المقام الشريف الوالدئى بما سنرى ، وسوف تظهر نتيجته مما يتفضّل به بين الورى ؛ وأنّ الذى سمح لنا به من الاستظهار ماناله أحد من الناس ، وما حصل لنا بما أبداه الخوارج مسعود بين أمراء دولتنا من المشافهة عن مقامه الشريف من قوة الجاش والإيناس ، ونحن نترقب بين حركاته ، وسديد إشاراته ، زيادة الخير في النفس والمُلك والمال ، ونتوقع من جميل كفالته السعادة الأبدية في الحال والمآل ، فيكون ذلك في شريف علمه .

وقد جهّزنا بهذه المفاوضات المجلس العالى ، الأميرئى ، الكبيرئى ، الأعزئى ، الأخصئى ، المقرئى ، المؤمنئى ، الأوحديئى ، النّصيرئى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء الخواص في العالمين ، منتخب الملوك والسلاطين ، منكلي بغا الناصري أمير حاجب ، أدام الله تعالى سعده ، وأنجح قصده ، وعلى يده من الهدية المصرية ما تهيأ تجهيزه بمقتضى القائمة الملتصقة بديها ، وأعدنا المجلس العالى النظامئى : مسعوداً ومن معه إلى المقام الشريف ، متحمّلين من رسائل الأشواق والاتّحاد ، ما يقع عليه الحصر والتعداد ، وما أحرنا الخوارج نظام الدين مسعوداً هذه المدة بالباب الشريف إلا لأمرٍ عرض من قضية السلطان أحمد بن أويس ، وهزبه من بغداد إلى حلب ، وجهّزنا من الباب الشريف من يحمّضه إلى دمشق ليحصل منه الأرب ، ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من كافل الشام الحروس ، بوصول قرأ يوسف بن قرأ محمد إلى دمشق في نفر قليل . فجهّزنا أحد الأمراء إلى كافل الشام بمشال شريف ، يتضمن القبض على السلطان أحمد بن أويس وقرأ يوسف المذكورين ، وإيداعهما الاعتقال بقلعة دمشق المحروسة ، وفاء

للعهد وتأكيذا . وَحَمَلْنَا الأَمِيرَ سَيْفَ الدِّينِ مِنْكَلِي بِنَا المَذْكُورِ، مَشَافَهَةً فِي مَعْنَاهُمَا .
وَالْقَصْدُ مِنْ جَمِيلِ مَحَبَّتِهِ، وَحَزِيلُ أُتُونَهُ؛ قَبُولُ المَجْهُزِّ مِنْ ذَلِكَ، وَبَسْطُ العِذْرِ فِيهِ
إِذَا وَصَلَ إِلَى حَضْرَتِهِ هُنَاكَ : لِأَنَّ الدِّيَارَ المِصْرِيَّةَ وَأَعْمَالَهَا حَلَّ بِهَا مِنَ المَحَلِّ لِعَدَمِ
طُلُوعِ النَّيْلِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ مَا لِأَيُّحَصَّرَ وَلَا يَحْصِي، وَلَا سَمِعَ بِمِثْلِهِ . وَشَمُولُ نَسْخَةِ الصَّلْحِ
المَعَادَةِ بِالخَطِّ الشَّرِيفِ ، وَمِضَاعِفَةُ إِكْرَامِ حَامِلِهَا الأَمِيرِ مِنْكَلِي بِنَا البَرِّ الوَرِيفِ ؛
وَالِإِصْغَاءُ إِلَى مَا تَجَمَّلَهُ مِنَ المَشَافَهَةِ فِي مَعْنَى أَحْمَدِ بْنِ أُوَيْسٍ وَقَرَأَ يَوْسُفَ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَشِيدُ بِتَمْهِيدِهِ قَوَاعِدَ الدِّينِ الحَنِيفِ ، بِمَنَّةٍ وَكِرْمَةٍ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الثالث

(من مُلُوكِ تُورَانَ مِنْ بَنِي جَنْكِرْخَانَ القَانِ الكَبِيرِ، صَاحِبِ التَّخْتِ،

وَهُوَ صَاحِبُ الصِّينِ وَالْحِطَّا)

قال في "التعريف": وهو أكبر الثلاثة، ووارث تخت جنكرخان . قال : ولم يكن
يكتب لترقعه وإبائه، وطيرانه بسمعة آبائه؛ ثم تواترت [الآن] الأخبار بأنه قد أسلم
ودان دين الإسلام، ورقم كلمة التوحيد على ذنائب الأعلام . قال : وإن صحَّ ذلك
- وهو المؤمل - فقد ملأت الأمة الحمديَّة الخافقين، وعمت المشرق والمغرب ،
وأمتدت بين صفى المحيط . ثم قال : فإن صحَّ إسلامه وقُدِّرت المكتبة إليه، تكون
المكتبة إليه كالمكتبة إلى صاحب إيران ومن في معناه من سائر القانات المقدم
ذكرهم، أو أجل من ذلك .

قلت : ولم يتعرض إلى المكاتبه إليه على تقدير بقائه على الكفر، ويشبه أن تكون
 المكاتبه إليه على ذلك وشدة سطوته، فيعطى من قطع الورق بقدر رتبته . ثم يجوز
 أن تبدأ المكاتبه إليه كصاحب القسطنطينية ومن في معناه ، مع مراعاة معتقده
 في ديانتته بالنسبة إلى ^(١) كما يُرعى مثل ذلك في المكاتبه إلى ملوك النصرانية،
 والوقوف في الخطاب وما يتخبط في سلوكه عند الحد اللائق به . والأمر في ذلك
 موكل إلى اجتهاد الكاتب ونظره .

المهييع الثالث

(في المكاتبات إلى من يجزيرة العرب مما هو خارج عن مضافات
 الديار المصرية، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في المكاتبات إلى ملوك اليمن، وهم فرقان)

الفقرة الأولى

(أئمة الزيدية)

قال المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" : وهو من بقايا الحسينيين
 القائمين بأمل الشط من بلاد طبرستان، وقد كان سلفهم جاذب الدولة العباسية
 حتى كاد يطبع رداءها، ويُسَمِّت بها أعداءها. وهذه البقية الآن بصنعاء وبلاد
 حضرموت وما والاها من بلاد اليمن . قال : والإمامة الآن فيهم في بني المطهر،
 وتقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أن أول من قام من هذه
 الأئمة بايمن الإمام (يحيى الهادي) بن الحسين الزاهد، بن أبي محمد القاسم الرسي،

(١) لعله على ذلك بنسبة قدرته وشدة الخ تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعله العوت والألقاب كما يعلم مما تقدم .

أبن إبراهيم طباطبَا، بن إسماعيل الديباج ، بن إبراهيم الغمَر ، بن الحسن المثنى ،^(١)
 أبن الحسن السَّبَط ، أبن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضى الله عنه ، فى سنة
 ثمان وثمانين ومائتين فى خلافة [المعتضد]^(٢) ؛ وأنه كان فقيها عالما مجتهدا فى الأحكام ،
 حتى قال فيه ابن حزم : إنه لم يُعَد عن الجماعة فى الفقه كلَّ البعد . ثم [ولى
 بعده أبْنُه محمد المرتضى] وتمت له البيعة فاضطرب الناس عليه وأضطرب إلى تجريد
 السيف بجرده ومات سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثنتين وعشرين سنة من
 ولايته و[ولى بعده أخوه (أحمدُ الناصر) ثم أخوه (القاسمُ المختار) ثم (الحسين^(٣)
 المنتجب) . وأطرد أمرهم بصنعاء إلى أن غلب عليهم السليمانيون أمراء مكة عند
 نُخْرُوجهم منها ، فاستقرت بأيديهم إلى أن ملك اليمن من جهة الساحل (أحمدُ الموطئ)
 أبن الحسين المنتجب المقدم ذكره ، وذلك فى أيام سيف الإسلام أبن أيوب سنة
 خمس وأربعين وستمائة . وبقي أمر الزيدية هناك فى عقبه .

وقد ذكر المقر الشهابي بن فضل الله أن الإمامة فى زمانه ، فى الدولة الناصرية
 أبن قلاوون كانت فى (حمزة) وذكر فى "مسالك الأبصار" أن يحيى بن حمزة ولى بعد
 أبيه ، وكان فى زمن المؤيد داود بن يوسف صاحب اليمن . وذكر قاضى القضاة
 أبن خلدون أن الإمام قبل الثمانين والسبعائة كان (علي بن محمد) من أعقابهم ، وتوفى
 قبل الثمانين . وولى أبنه (صَلَّاح) وتابعه الزيدية ، وكان بعضهم يُنكر إمامته لعدم

(١) ذكره فى تقديم فى ج ٥ ص ٤٧ "عبد الله" . وقد نهنا هناك نقلا عن "الكامل لابن الأثير"
 أنه إبراهيم كما هنا ، فليتبناه .

(٢) فى الاصل المأمون وهو خطأ فان المأمون توفى سنة ٢١٨ وقد تقدم الكلام على هذه الدولة
 فى ج ٥ ص ٤٧ وما يليها فارجع إليه .

(٣) الزيادة من جزء ٥ ص ٤٨ وهى لازمة لأن أحمد الناصر أن يحيى الزاهد لا أخوه .

(٤) أخره فى تقديم عما بعده .

استكمال الشروط فيه فيقول : "أنا لكم ماشئتم إمام أو سلطان" . ثم مات سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وقام بعده ابنه (تجاح) فامتنع الزيدية من بيعته فقال : أنا "مُحْتَسِبٌ لله تعالى" . قال في "التعريف" : وأمرأء مكة تُسرُّ طاعته ، ولا تفارق جماعته . قال : ويكون بين هذا الإمام وبين الملك الرَّسُولِيَّ باليمن مهادنات ، ومفاسحات تارة وتارة . قال : وهذا الإمام وكلُّ من كان قبله على طريقة ماغيروها . وهي إمارة أعرابية لا كبر في صدورها ، ولا شتم في عرائنها ؛ وهم على مسكة من التقوى ، وتردُّ بشعار الزُّهد ؛ يجلس في ندى قومه كواحدٍ منهم ، ويتحدَّث فيهم ويحكم بينهم ، سواءً عنده المشروفُ والشريفُ ، والقوى والضعيفُ ؛ وربما اشترى سلعته بيده ، ومشى في أسواق بلده ، لا يُعَلِّطُ الحجاب ، ولا يكلُّ الأمور إلى الوزراء والحجاب ، يأخذ من بيت المال قدر بلقته من غير توسع ، ولا تكثُر غير مُشْبِعٍ ؛ هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدلٍ شاملٍ ، وفضلٍ كاملٍ . قال : في "مسالك الأبصار" : ولشيعة هذا الإمام فيه حُسن الاعتقاد ، حتى إنهم يستشفون بدعائه ، ويمرون يده على مرضاهم ، ويستسقون به المطر إذا أجدبوا ، ويبالغون في ذلك كلِّ المبالغة . ثم قال : ولا يكبر لإمام هذه سيرته - في التواضع لله ، وحسن المعاملة خلقه ، وهو من ذلك الأصل الطاهر والعنصر الطيب - أن يُجاب دعاؤه ويُقبَل منه . قال : وزى هذا الإمام وأتباعه زى العرب في لباسهم والعمامة والحناك ، ويُنادى عندهم بالأذان «حى على خير العمل» .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" : أدام الله تعالى أو ضاعف الله تعالى نعمة ، أو جلال الجانب الكريم ، العالى ، السيدي ، الإمامي ، الشريفى ، النسبى ، الحسينى ، العلامى ، سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوى ، نحر النسب العلوى ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلياء ،

صالح الأولياء، علم الهداة، زعيم المؤمنين، ذخّر المسلمين، مُنجد الملوك والسلاطين .
 ولا زال زمانه مُربعا، وغيله مُسبعا، وقرآه مُشيعا، وكرمه لفيض نداء منبعا، وهدهاه
 حيث أم بالصفوف متبعا، وملّكه المجتمع باليمن لو أدركه سيف بن ذى يزن لم يكن
 إلا لديه منتضى وتبع لم يكن له إلا تبعا . ولا فتنت معاقده شرفه بالحوزاء، وعقائد
 حبه تعد لحسن الجزاء، ومعاهد وطنه أهلة بكثرة الأعرزاء، ومياسم أهل ولائه تعز
 إليه بالأعتراء، ومباسم ثغور أودائه ضاحكة السيوف في وجوه الأرزاء؛ هذه التجوى
 إلى روضه الممرع . وإلا فما تزم الركائب، وإلى حوضه المترع . وإلا فما الحاجة إلى
 السحاب ؛ وإلى حماه المخضب . وإلا فقيم يسرى الرائد، وإلى مرماه المُطنب فوق
 السماء . وإلا إلى أين يريد الصاعد ؛ تسرى ولها من هادى وجهه دليل ، وفي نادى
 كرمه مقبل ، وإلى بادى حرمة وما فيه للعاكف ، وإلى على ضرمة ما لا ينكره العارف ،
 وفي آثار قدمه ما يحكم به كل عائف ؛ وفي بدار خدمه ما يدر عدها كرماد اشتدت
 به الریح في يوم عاصف . مبدية وأول ما تبدأ بسلام تُقدمه على قول كيت وكيت ،
 وثاء ولا مثل قوله : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ ﴾ .



صدر آخر— ولا عطل محراب هو إمامه ، ولا بطل عمل هو تمامه ، ولا جف
 ثرى نبات هو عمامه ، ولا خف وقار امرئ بيده المصرفة زمانه ، ولا آرتد مضرب
 سيف رؤس أعاديه كجأه ؛ ولا آرتأى فى حصول الخيرة له من كان إلى كنفه
 أنضمأه . وأطال الله باع عليائه، وأطاب بأبناؤه سماع أوليائه، وأدام إجماع السرور
 عليه، ومصافاته لأصفيائه وتراميه إليه . صدرت بها الركائب إليه محفة، وسرت

بها النجائب لتقف عليه والقلوب بها مُحْفَةٌ^(١)؛ وأهوت لذيده يشمخ بها لوصولها إليه الكبر، وطوت إليه اليد طي الشقة تقيسها المطايا بالأذرع والثريا بالشبر؛ تأتي بالعجب إذ تجلب إليه المسك الأذفر، وتجلوه الصباح وما لاح والليل وما أسفر؛ وتحل في مقر إمامته، وتحل العاطل بما نثره من الطل صوب عماته؛ مؤصلة لعلمه مالا يقطع، ومضوعة عنده من عبر الشجر ما يستبضع، ومعلمة له كيت وكيت .

قلت : هذا ما أصله في "التعريف" وحاصله أنه يأتي بالصدر المقدم ذكره إلى قوله : « منجد الملوك والسلاطين » ، ثم يأتي بالدعاء المناسب ؛ ثم يقول : « هذه النجوى » إلى آخره « مبدية لعلمه » أو « معلمة » أو « صدرت بها الركائب » ونحو ذلك .

ثم لم يتعرض في "التعريف" لقطع الورق الذي يكتب إليه فيه، ولا للعلامة له، ولا لعنوان كتابه، ولا لتعريفه، ونبه على ذلك في "التثقيف" وأنه أهمل ذلك ثم لم ينبه هو عليه . وقد رأيت في دستور منسوب للمقر العلاءي بن فضل الله بيان ما أهمله من ذلك فقال : والخطاب له بمولانا الإمام، والطلب منه « والمسئول » وختم الكتاب بالإيناء، والعنوان بالألقاب والدعاء المقدم ذكره، والعلامة « الخادم » .

وقد ذكر في "التعريف" أنه وصل إلى الديار المصرية، في الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » سقى الله عهده رسولاً من هذا الإمام [ابن مطهر إمام الزيدية^(٢)] من صنعاء، بكتاب منه يقتضى الاستدعاء . أطلال فيه الشكوى من صاحب اين، وعدد قبائحه،

(١) لعله محنفة فانه ليس في كتب اللغة التي بأيدينا أحف به ولكن حف به واحتف فحبه .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٥ .

ونشر على عيون الناس فضائحه؛ وأستنصر بمدد يأتي تحت الأعلام المنصورة لإجلاته عن دياره، وإجرائه تُجرى الذين ظلموا في تعجيل دماره؛ وقال: إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها، وقاد إليها الأشراف والعرب أجمعها؛ ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه، وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه. ثم قال: فكتبت إليه مؤذنا بالإجابة، مؤذيا إليه ما يقتضى إعجابي؛ وضمن الجواب أنه لا رغبة [لنا] ^(١) في السلب، وأن النصرة تكون لله خالصة وله كل البلاد لا قدر ما طلب.

وهذه نسخته:

ضاعف الله تعالى جلال الجانب - بالألقاب والنعوت - وأعز جانبه عزنا تُعقد فواضله بنواصي الخليل، وصياصي المعازل التي لم يطلع على مثلها سهيل؛ وأقاصي الشرف الذي طلع منه في الطوق وتمسك سواه بالذيل؛ وقدمه للثقلين إماما، وجعله للمستقين عماما، وشرقه على المرتقين في علا النسب العلوى وتوره وصوره تماما، ومن على اليمن يُمنسه، وأعلم بصنعاء حسن صنيعه وبحضرموت [حضور] ^(٢) موت أعدائه، وبعدن أنها مقدمة لحنات عدنه؛ ولا زالت الآفاق تؤمل من فيضه سحابا دانيا، وتهلل إذا شامت له برقًا يمانيا، وتنتقل في رتب محامده ولا تبلغ من المجد ما كان بانيا.

هذه النجوى وكفى بها فيما يقدم بين يديها، ويقوم ولا يقوم من كل غالى الثمن ماعليها؛ تطوى المراحل، وتجوب البر والبلد الماحل، وتنب إليه البحار وتقذف منها العنبر إلى الساحل؛ وترسى به سفنها، وتحط إليه بل تخط لديه مدنها، وتؤذن علمه - سر الله - بما لم يحل إليه من نظره، ولم يخل منه من سبب ألف به النوم أو نقر؛ وروود وارد

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٥ .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ١٦ .

رسوله فقال : يا بشرى ولم يقل هذا غلام ، ووصوله بالسلامة والسلام ، وما تضمنه ما استصحب منه من صحيفة كلها كرم ، وأخبار صحيحة كلها مما لو قُذِفَ به الماء لأضطرم ، ذكر فيها أمر المتغلب العادى ، [والصاحب الذى يفعل فعل الأعادى] ،^(١) والجار الذى جارَ والظالم البادى ، وما مدَّ الأيدى إليه من النهاب ، وما اختطف به القلوب من الإرهاب ، وتحدثت عن أخباره وعيننا علمه ، وأخبر عن أفعاله مما له أجر الصبر عليه وعليه ظلمه ، وقصَّ رسوله القصص ، وزاد الشجى وضيق مجال الغصص ، وأطار من وكر هذا العُدوان طائراً كأنما كان فى صدره ، وحرك منه لأمرٍ كان يتجرع له كأس صبره ، وقد أسمع الداعى ، وأسرع الساعى ، وبلغ الأمانة حاملها ، وأوصل الكلمة قائلها ، ومرحباً مرحباً بداعى القيام من قبله ، وأهلاً أهلاً بما بلغ على السنة رسله ، وهلمَّ هلمَّ إلى قلع هذه الشجرة التى لم يُحِبَّ ظنُّ غارسها ، وقطع هذه الصخرة التى لم تُنصب إلا مرلقةً لدائسها ، والتعاضد التعاضد بما هتف به هاتفه الصارخ ، وسمعه حتى الریح الأصم والسيف المتصاوخ ، فليأخذ لهذا الأمر الأبهة ، وليشدَّ عليه فقد آتت الوثبة ، فقد سطرت وقد نهض إلى الخيل ملجمها ، وبأدر وضع السهام فى الكائن مزمجها ، وكأنه بأول الأعنة ، وآذان الحياذ تفوق بين شطرى وجهها الأسنه ، وكأنه برسوله القائد وفى أعقابه الجيش المطلق ، والألوية وكل بطل باسل يتدبر الوغى ولا يستدل ، ولا أرب لنا فى استزادة بلاد وسع الله لنا نطاقها ، وكثر بنا مواد أموالها وقدر على أيدينا إنفاقها ، وإنما القصد كله والأرب جميعه كشف تلك الكرب ، وتدارك [ذلك الدماء الذى]^(١) أو شك أو كرب ، وإن قدر فتوح ، وتيسر ما طرف سوانا إليه طموح ، كان هو أحق بسقيه : لأنه جار^(٢)

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح عن التعريف ص ١٧ .

(٢) فى الأصل والتعريف بسبقه وهو تصحيف مكافئ كما لا يخفى .

الدار، والأوّل الذي كان له البدار؛ ويقال له لعظيم شرفه ما نسمح به وإن جَلَّ،
ومانهبه منه وإن عَظُمَ - شأنُ كلِّ تبع وهو ببعضه ما استقلَّ؛ وكأنه والحيلُ قد وافته
تُجَدِّ في الإحظار، وتُسرع إليه وتكفيه مؤونة الانتظار؛ إن شاء الله تعالى .

الفرقة الثانية

(أولاد رسول)

وهم المعروفون بملوك اليمن عند الإطلاق، ومقرُّ ملكتهم حصنُ نَعَزٍ . ورسولُ
هذا الذي كان يُنسب إليه ملوك هذا النسب من اليمن هو رسولُ أميرِ أخور الملك
الكاملِ محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب . قال في "التعريف" : ولما بعثَ الملكُ
الكامل ولده الملك المسعود أطسز، وهو الذي تسميه العامة أفسيس ، بعثَ معه
رسولاً أميراً خور في جملة من بعثه معه . قال : ثم تنقلت الأحوال حتى استقلَّ
رسول بملك اليمن، وصار الملك في عقبه إلى الآن . والذي ذكره المؤيد صاحب
حماة، وقاضى القضاة وليُّ الدين بن خلدون في تاريخيهما وهو الصواب أن أوّل
من ملك اليمن على بن رسول، ثم ابنه المنصورُ عمرُ، ثم ابنه المظفرُ يوسفُ، ثم ابنه
الأشرفُ عمرُ، ثم أخوه المؤيدُ هزبرُ الدين داودُ، ثم ابنه المجاهدُ سيفُ الدين عليُّ،
وهو الذي قال المقرّ الشهابيُّ بن فضل الله في "التعريف" إنه كان في زمنه ،
ثم المنصورُ أيوبُ، ثم المجاهدُ عليُّ المقدم ذكره ثانياً، ثم ابنه الأفضلُ سيفُ الدين
عبّاس . وهو الذي قال في "التتيف" إنه كان في زمنه في الدولة الأشرفية «شعبان
أبن حسين» ثم ابنه المنصورُ محمدُ، ثم أخوه الأشرفُ إسماعيلُ، وهو الذي كان
في الدولة الظاهرية بقوق . ثم ابنه [الملك الناصر أحمد] وهو القائم بها الآن .^(١)

(١) بياض بالأصل هنا وفي ج ٥ ص ٣٣ أيضاً عند الكلام على ملوك اليمن من أولاد رسول والتصحيح

من بغية المستفيد لابن الديع .

وأعلم أنَّ المكتبات بينَ صاحبِ مصر وصاحبِ اليمنَ من حينِ استقرتْ مملكةُ اليمنِ مع بنى أيوبٍ ملوكِ مصر وصارتِ المملكةانِ كالمملكةِ الواحدةِ ، ثم تواصلتِ المكتباتُ بينَ ملوكِهما وتأكدتِ المودةُ إلى زماننا هذا، خلاَ ما وقعَ في خِلالِ ذلكِ من حصولِ تباينٍ وقعَ بينَ أهلِ المملكتينِ في بعضِ الأزمانِ ، وهو علىَ ضربينِ :

الضرب الأول

(ما كان الأمرُ عليه في الدولة الأيوبية ، وهو أن تفتتح

المكتبة بلفظ « أصدرناها »)

وهذه نسخةُ كتابٍ عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحبِ مصر والشام ، إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن يستقدمه إليه ، معاونًا له على قتال الفرنج ، ويُنجزه بما وقع له من الفُتوحات في سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وهي :

أصدرنا هذه المكتبةَ إلى المجلس ، ومما تجدد بحضرتنا فتوح « كوكب » وهي كرسى الاستبارية ودار كفرهم ، ومستقر صاحب أمرهم ، وموضع سلاحهم وذخرم ، وكان يجمع الطرق قاعدا ، وملتقى السبل راصدا ، فتعلقت بفتحه بلاد الفتح وأستوطنت ، وسليكت الطرق فيها وأمنت ، وعمرت بلادها وسكنت ، ولم يبق في هذا الجانب إلا « صور » ولولا أن البحر يُنجدها والمراكب تردها ، لكان قيادها قد أمكن ، وجاحها قد أذعن ، وما هم بحمد الله في حصن يحميهم ، بل في سجن يحويهم ؛ بل هم أسارى وإن كانوا طلقاء ، وأموات وإن كانوا أحياء ؛ قال الله عز وجل : ﴿ فلا تعجل عليهم إنا نعد لهم عدا ﴾ ولكل أمرئ أجل لا بد أن يصدقه غائبه ، وأمل لا بد أن يكذبه خائبه .

وكان نزولنا على «كوكب» بعد أن فتحنا «صفد» بلد الديوية ومعقلهم ،
 ومشتغلهم وعملهم ومحلهم الأحصن ومنزلهم ؛ وبعد أن فتحنا «الرك»
 وحصونه ، والمجلس السيفي - أسماء الله - أعلم بما كان على الإسلام من مؤنته
 المثقلة ، وقضيته المشكلة وعالته المعضلة ؛ وأن الفرنج - لعنهم الله - كانوا يقعدون
 منه مقاعد السمع ، ويتبوءون منه مواضع للدفع ؛ ويجولون بين قات (؟) وراكبها ،
 فيدللون الأرض بما كان منه ثقلاً على منّا كبا . والآن ما من بلاد الحرمين ، بأشد
 من بلاد الحرمين ؛ فكأها كان مشتركا في نصرة المسلمين بهذه القلعة التي كانت ترمى
 ولا ترام ، ونسأى ولا تسام ؛ وطالما استفرغنا عليها بيوت الأموال ، وأنفقنا فيها
 أعمار الرجال ، وقرعنا الحديد بالحديد إلى أن صجّت النصال من النصال ؛ والله المشكور
 على ما أنطوى من كلمة الكفر وانتشر من كلمة الإسلام . وإن بلاد الشام اليوم
 لاتسمع فيها لغوا ولا تأثيما إلا قياتا سلاماً سلاماً [فادخلوها بسلام] ؛ وكان نزولنا^(١)
 على «كوكب» والشتاء في كوكبه ، وقد طلع بين الأنواء في موكبه ؛ والتلوج تنشر على
 البلاد ملاءها الفضيض ، وتكسو الجبال عمائمها البيض ؛ والأودية قد تجت بئامها ،
 وفاضت عند أمتلائها ؛ وشمخت أنوفها سيولا ، وغرقت الأرض وبلغت الجبال
 طولا ؛ والأوحال قد اعتقلت الطرقات ، ومشي المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات ؛
 فتجشمتنا العناء نحن ورجال العساكر ، وكأثرنا العدو والزمان وقد يحجز الحظ المكابر ؛
 وعلم الله النية فأنجدنا بفضلها ، وضمير الأمانة فأعان على حملها ؛ ونزلنا من رؤوس
 الجبال بمنازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها ، والوقوف بساحتها أهون من
 ثقلها ﴿ وأما نعمة ربك فحدث ﴾ .

(١) الزيادة عن كتاب الروضتين في أخبار الدولتين (ج ٢ ص ١٣٦) .

والحمد لله الذى ألهمنا بنعمته الحديث ، ونصر بسيف الإسلام الذى هو سيفه
وسيف الإسلام الذى هو أخونا الطيب على الخبيث ؛ فمدح السيف ينقسم على
حديه ، ومدح الكريم يتعدى إلى يديه ؛ والآن فالمجلس - أسماء الله - يعلم أن الفرنج
لا يسنلون عما فتحنا ، ولا يصبرون على ما جرحنا ؛ فإنهم - خذلهم الله - أم لا تخطى ،
وجيوش لا تستقضى ؛ ووراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غضبا ،
ويطمع فى كل مدينة كسبا ؛ ويد الله فوق أيديهم ، والله محيط بأقربهم وأبعدهم ؛
و«سيجعل الله بعد عسر يسرا» . (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا) .

وما هم إلا كلاب قد تعاوت ، وشياطين قد تعاوت . وإن لم يؤدبوا من كل
جانب دحورا ، ويتبعوا بكل شهاب نقيب مدحورا ؛ آستأسدوا وأستكلبوا ، وتآلبوا
وجلبوا وأجلبوا ، وحاربوا وحرّبوا ؛ وكانوا لباطلهم الداحض ، أنصر منا لحقتنا
الناهض ؛ وفى ضلالهم الفاضح ، أبصر منا لهدانا الواضح ؛ والله درّ جريح حيث يقول :

إِنَّ الْكِرِيمَةَ يَنْصُرُ الْكَرَمَ أَبْنَاهُ * وَأَبْنُ اللَّيْمَةِ لِلثَّامِ نَصُورُ!

فالدّار إلى النّجدة الدّار ! ، والمُسارعة إلى الجنة فإنها لن تُنال إلا بإيقاد نار
الحرب على أهل النار ، والهمة الهمة ! فإن البحار لا تلتقى إلا بالبحار ، والملوك الكبار
لا يقف فى وجوهها إلا الملوك الكبار :

وما هى إلا نهضة تورث العلاء * ليومك ما حنت روازم نيب !

ونحن فى هذه السنة - إن شاء الله تعالى - نزل على أنطاكية ، وينزل ولدنا الملك
المظفر - أظفرو الله - على طرابلس ؛ ويستقر الركب العادى - أعلاه الله - بمصر
فإنها مذكورة عند العدو - خذله الله - بأنها تطرق ، وأن الطاب على الشام ومصر
تفرق ؛ ولا غنى عن أن يكون المجلس السيفى - أسماء الله - بحراً فى بلاد الساحل

يَزْخُرُ سِلَاحًا، وَيَجْرُدُ سَيْفًا يَكُونُ عَلَى مَا فَتَحْنَاهُ قُفْلًا، وَمَا لَمْ يُفْتَحْ بَعْدُ مُفْتَاحًا؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ
لِأَحَدٍ مَّا لِلْآخِ مِنْ سُمْعَةٍ لَهَا فِي كُلِّ مَسْمَعٍ سَمْعُهُ، وَفِي كُلِّ رُوعٍ رَوْعُهُ؛ وَفِي كُلِّ
مَحْضَرٍ مَحْضَرٌ، وَفِي كُلِّ مَسْجِدٍ مَنِيرٌ، وَفِي كُلِّ مَشْهَدٍ مَخْبَرٌ؛ فَمَا يُدْعَى الْعَظِيمُ إِلَّا لِلْعَظِيمِ،
وَلَا يُرْجَى الْمُوقِفُ الصَّبْرِ الْكَرِيمِ إِلَّا الْكَرِيمِ؛ وَالْأَقْدَارُ مَاضِيَةٌ، وَبِمَشِيئَةِ اللَّهِ جَارِيَةٌ؛
فَإِنَّ يَسْبَأُ اللَّهُ يَنْصُرُ عَلَى الْعَدُوِّ الْمَضْعَفِ، بِالْعَدَدِ الْأَضْعَفِ؛ وَيُوصِّلُ إِلَى الْجَوْهَرِ
الْأَعْلَى، بِالْعَرْضِ الْأَدْنَى؛ فَإِنَّا لَنْزَابُ بَأَنَّ اللَّهَ مَا فَتَحَ عَلَيْنَا هَذِهِ الْفُتُوحَ لِيُغْلِقَهَا،
وَلَا جَمَعَ عَلَيْنَا هَذِهِ الْأُمَّةَ لِيُفَرِّقَهَا؛ وَأَنَّ الْعَدُوَّ إِنَّمَا نَخْرُجُ مِنْ دَارِهِ بَطْرًا،
وَدَخَلْنَا إِلَى دَارِنَا كَانَ فِيهَا جَزْرًا؛ وَمَا بَقِيَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَّا أَمْوَالٌ تُسَاقَى إِلَى
نَاهِبِهَا، وَرِقَابٌ تُقَادُ إِلَى ضَارِبِهَا، وَأَسْلِحَةٌ تُحْمَلُ إِلَى كَاسِبِهَا؛ وَإِنَّمَا نُؤَثِّرُ أَنْ لَا تَطْوِيَّ
صَحَائِفُ الْحَمْدِ خَالِيَةً مِنْ أَسْمِهِ، وَمَوَاقِفُ الرُّشْدِ خَاوِيَةً مِنْ عَزَمِهِ؛ وَنُؤَثِّرُ أَنْ يُسَاهِمَ
آلُ أَيُوبَ فِي مِيرَاثِهِمْ مِنْهُ مَوَاقِعَ الصَّبْرِ، وَمَطَالِعَ النُّصْرِ؛ فَوَاللَّهِ إِنَّا عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ عَطَايَا
الْآخِرَةِ الْفَاحِرَةَ، أَشَدُّ مَنَّا حِرْصًا عَلَى أَنْ نُعْطِيَهُ عَطَايَا الدُّنْيَا الْقَاصِرَةَ، وَإِنَّا لَا يُسْرِنَا
أَنْ يَنْقُضِي عُمُرَهُ فِي قِتَالِ غَيْرِ الْكَافِرِ، وَنِزَالِ غَيْرِ الْكُفِّ الْمُنَاطِرِ؛ وَلَا شَكَّ أَنَّ سَيْفَهُ
لَوْ اتَّصَلَ بِإِسَانٍ نَاطِقٍ وَقَمٍّ، لَقَالَ: مَا دُمْتُ هُنَاكَ فَلَسْتُ بِمَمٍّ؛ وَمَا هُوَ مَحْمُولٌ عَلَى خُطَّةٍ
يَخَافُهَا، وَلَا مَتَكَلِّفٍ قَضِيَّةٍ بِحُكْمِنَا يِعَافُهَا؛ وَالَّذِي بِيَدِهِ لَا تَسْتَكْبِرُهُ، بَلْ تَسْتَقْصِرُهُ عَنْ
حَقِّهِ وَنَسْتَصْغِرُهُ؛ وَمَا نَاوَلْنَاهُ لَفْتَحَ أَرْضِهِ السَّلَاحَ، وَلَا أَعْرَنَاهُ لِمَلِكٍ مَرْكَزِهِ النَّجَاحَ؛
إِلَّا عَلَى سَخَاءٍ مِنَ النَّفْسِ بِهِ وَبِأَمَثَالِهِ، عَلَى عِلْمٍ مَنَّ أَنَّهُ لَا يَقْعُدُ عِنَّا إِذَا قَامَتْ [الْحَرْبُ]
بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ؛ فَلَا نَكُنُّ بِهِ ظَنًّا أَحْسَنَ مِنْهُ فَعَلًا، وَلَا نَرْضَى وَقَدْ جَعَلْنَا اللَّهَ أَهْلًا أَنْ لَا نَرَاهُ
لِنَصْرِنَا أَهْلًا؛ وَبَلِيسْتَشِرُّ أَهْلَ الرِّشَادِ فَإِنَّهُمْ [لَا يَأْلُونَهُ] حَقًّا وَأَسْتَنْبَاضًا، وَلِيَعِصَّ أَهْلَ الْغَوَايَةِ

(١) فِي الْأَصْلِ «بِالْوَهِّ حَقًّا» كَمَا تَقَدَّمَ أَيْضًا فِي ص ٢٧ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ وَالصَّوَابُ مَا أَمْتَنَاهُ فِي الصَّلَابِ

كَمَا يَقْتَضِيهِ الْمَعْنَى وَقَوَاعِدُ اللَّغَةِ تَأْمَلُ .

فإنهم إنما يتفألون به لمصالحهم أغراضاً؛ ومن بيته يظعن وإلى بيته يقفل، وهو يجيبنا جواباً مثله لثنا، وينيوي في هذه الزيارة جمع شمل الإسلام قبل نية جمع شملنا؛ ولا تقعدُ به في الله نهضة قائم، ولا تخذله عزيمة عازم؛ ولا يستفت فيها قوت طالب ولا تأخذه في الله لومة لائم؛ وإنما هي سفرة قاصده، وزجرة واحدة؛ فإذا هو قد بيّض الصحيفة والوجه والذكر والسَّمعه، ودان الله أحسن دين ولا حرج عليه إن فاء إلى أرضه بالرحمة؛ وليندبر ما كتبناه، وليتفهم ما أردناه؛ وليقدم الاستخاره، فإنها سراج الاستنارة، وليغضب الله ورسوله ولدينه ولأخيه؛ فإنها مكان الاستغصاب والاستنارة. وليحضر حتى يشاهد أولاد أخيه يستشعرون لفرقة عمّا، وقد عاشوا ماعاشوا لا يعرفون أنّ لهم مع عمّهم عمّا؛ والله سبحانه يُلهمه توفيقاً، ويسلك به إليه طريقاً؛ ويُحدّثنا به سيفاً لرقبة الكفر ممزقاً ودمه مريقاً، ويجعله في مضمار الطاعات سابقاً لا مسبوقة. إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني

(من المكاتبات إلى صاحب اليمن ما الأمر عليه من ابتداء الدولة التركيّة)

وهلمّ جراً إلى زماننا، وهو على ثلاثة أساليب)

الأسلوب الأوّل

(أن تفتح المكتبة بلفظ «أدام الله تعالى نعمة [أيام] المقام العالی»)

وهذه نسخة كتاب كتبت عن الملك الناصر محمد بن قلاوون، جواب كتاب ورد من صاحب اليمن في مقابلة البشري بدخول العساكر المنصورة إلى بلاد الأرمين، وطلب سلامش نائب التتار بالروم الدخول في الطاعة؛ وذكر أن نائباً كان لأبيه

(١) أي صاحب اليمن في كتابه الذي ورد منه في مقابلة البشري.

في قلعة طمع وعصى عليه فظفر به فبشر بذلك ؛ ويحرضه على الجهاد وإنقاذ الأموال، ويهدده، ويوجهه به قصاده إليه . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله، وهى :

أدام الله تعالى نعمة أيام المقام العالى ! وأنهضه بفرض الجهاد الذى بمثله يُتمجج، وأيقظه لمتعين الغزو الذى ما ^(١) له تُدرك الرُتب وترتفع الدَرَج ؛ وأشهده فى سبيل الله مواقف النصر التى إذا أودعنا نُشر بشرها الطروس عبقت بما فيها من الأراج ؛ وأراه مشاهد فتوحنا التى إذا حدثت الأحلام عن عجائبها حدثت عن البحر ولا حرج ؛ وصان مجده عن إضاعة الوقت فى غير حديث الجهاد الذى هو أولى ما بُدلت له الذخائر وأبتدلت فيه المهج .

صدرت هذه المكاتبة تخصه بحية لتضوع نُشرا ، وتُحفه من متجددات الظفر بشرى ، يملأ الوجود مسرة وبُشرى ، وتقُص عليه من متجددات فتح يأتي على ما أتعبت فيه الأفكار قرائحها من مشتهى التهانى فلا يدع له ذكرا، وتتلو على من ظن بعد ما سمع من البلاغ بلاغ العدا أن إزالة وإلٍ عن مركزه فتح كبير : لقد جئت شيئا نكرا . وتوضَّح لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمة وردت مقصورة على نبيا لا يُعتد بذكره ، محصورة على خبر لا ينبغي لمثل مجده أن يُمره على فكره ، مطلقه عنان القلم فيما كان ينبغي طى خبره وتعفى أثره ، وإخفاء سببه وتركه نسيا منسيا فضلا عن التبرجح بذكره ، والتهنئة به ، إذ فى ذلك مقابلة البحر بالثاد ، والروح بالجماد ؛ والشمس بالذبال ، والهدى بالضلال ؛ فلم يكمل له فى ذلك المراد ، وأتى بما قالت له التهانى : (نحن فى وادٍ وأنت فى وادٍ) ؛ وقابلناها مع ذلك بالقبول الذى آجتلى غررها ،

(١) بياض فى الاصل ولعله الذى بالقيام به تدرك الخ .

وَأَحَدَتْ لَدَيْهِ وَرَدَهَا وَصَدَرَهَا ، فَأَحْطْنَا عَلِمًا بِمَا تَضَمَّتْهُ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي أَبْدَاهَا ، وَالْمُتَّحِدَاتِ الَّتِي عَظُمَ مَوْجِعُ نَشْرِهَا عِنْدَهُ فَأَهْدَاهَا .

(١) وأما ما ذكره من أمر القلعة التي كان [النائب بها] لوالده شخصاً اعتمد عليه ، وولاه مستحفظاً ظنّه مع تغيّر الأحوال مؤتمناً على ما في يديه ؛ وأن ذلك الشخص بعد انتقال والده رحمه الله طمع فيما استودع بفتح الوديعه والموداعه ، ورام المنازعة والمقاطعة ، وخالف وحالف ، وقارب العُصيان وقارف ؛ وأنه في هذا الوقت قلع ذلك النائب ، من تلك القلعة المفتصه ، وأراح من همّه الناصب ، أفكاره ووصبه ؛ إلى غير ذلك مما أورده على وجه البشرى لهذا السبب الضعيف ، وأبرزه في معرض التهنئة من هذا الأمر الطفيف ؛ وأراد أن يتكثّر فيه بما لا مدخل له في كثره وقله ، فذكر بروزه بجمعه إلى شخص واحد في قبالة ما اتصل به من نبيا كل موطن برز فيه الإسلام كله إلى الشرك كله ؛ وظاهر الأمر أن ذلك الشخص ماعطى بالمكان الذي كان فيه إلا لما رأى بالمملكة اليمنية من اضطراب الأحوال ، وأسباب الاختلاف والاختلال ؛ والوهن الذي حسن له الاحتراز والاختزال ؛ والحلوة التي حملته على أن (طلب الطعن وحده والتزل) ؛ وامتداد الأيدي العادية بكل جهة إلى ما يليها ، وضياح رعايا كل ناحية بالاشتغال عن اقتقاد أحوال من يباشرها وانتقاد تصرف من يليها ؛ فهو الذي أوجب طمعه ، وقوى ضلعه ، وحمله من مركب العناد ، وأراه نظراء بتلك الجهة ممن سلك الفساد . وهذا الأمر ما خفي علينا خبره ، ولا توارى عنا ورده ولا صدره ؛ فإن أخبار مملكة اليمن ما زالت متواصلة إلينا بما هي عليه من اضطراب واف ، واختلاف غير خاف ، وهيج لا يرجع الأمر فيه إلى كاف كاف ؛ وما أحرنا لحق جيوشنا المنصورة ، وعساكرنا التي ممالك العدا بمهاتها محصورة ؛

(١) لم يأت لأما بجواب واضح ولكنه يدرك بالتأمل .

عن الوصول إلى المملكة اليمنية لتقويم أودها، وتمكين شدتها، وإقامة أمر الملك فيها، وحسم مادة الفساد عن نواحيها، وتطمين البلاد، وإقامة الرعايا من الأمن في أوطان مهاده، والأحترار على الخزائن والأموال، وصونها عن الإنفاق في غير جند الله الذين منعوا دعوة الشرك أن تقام وكلمة الكفر أن تقال؛ إلا لأن عساكرنا كانت الآن في الممالك والأقاليم التي بيد الكفر: من التتار المخدولين، ومن يقول بقولهم من أعداء الدين؛ تقتل وتأسر، وتلقى الجيوش الكافرة فتكسب وتكسر؛ وتضحهم حيث حلوا طلائع رعبها، وتصبحهم منها أين طلوا ريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها.

وماسطرنا هذه المكتبة إلا وجيوشنا المنصورة قد وطئت عقر بلادهم فأذلتها وأذلتها، وغيرت أحوالها وحالاتها، وقاسمتهم شرقسمة فلها منها الحصون والمصون، والجنات الوارفة الغصون، ولهم منها الخراب والتباب، والدارس الذي لا يحصل بكف دارس بيته إلا التراب؛ وهاهي قادمة إلينا يقدمها النصر، ويتقدمها من أسر العدا وغنائمهم ما يربى عن الحصر؛ وما بيننا وبين ركب هذا البحر ملك تمهده، وعدل تجده؛ وبغاة تكف غربها، ورعاة تؤمن بالمهابة سربها، وتصفى من أكدار الفتن شربها؛ وخزائن لها عن غير الإنفاق في سبيل الله تصونها إلا بمقدار ما تستقر^(١) بها المنازل آسقرار السنة بالحقون لا النوم، وأضمرت

نواحيها، وآسأقت أهلها ومواسيها؛ وجعلت قصورها صعيدا، وزرعها حصيدا؛ وعقالها إماء، ومعاقها هباء؛ وأبتذلت مصونها الذي جعله الله لها أنقلا، وأختارت من حصونها لملكنا ما كانت سيوفنا له مفتح فلما فتح عدن له أقفلا؛ وأقتلعت من القلاع التي كانت بيد الكفر كل معقل أشب، وحصن شابت نواصي

(١) بياض بالأصل ولعله لا النوم بالعيون فما من جهة للعدا إلا وأضمرت الخ تأمل

اللَّيْلَ وهو لم يَسِبْ ؛ قد صُفِّحَ بِالصَّفَاحِ ، وَشُرِّفَ بِأَسِنَّةِ الرَّمَاحِ ، وَاسْتَدَارَ بَقِنَّةِ قَلْبِهِ
يَنْبَ التَّرْقِيَّ إِلَيْهَا هُوَجَ الرِّيحِ ؛ فَطَهَّرْتَهُ مِنَ النَّجَسِ ، وَعَوَّضْتَهُ بِصَوْتِ الْأَذَانِ
عَنْ صَوْتِ الْحَرَسِ ، وَأَحْرَسَتِ النَّاقُوسُ بِسُورَةِ الْفَتْحِ الَّذِي عَوَّذْتَهُ نُوبُ الدَّهْرِ
بِآيَاتِ الْحَرَسِ ؛ مَعَ مَا أُضِيفَ إِلَى تِلْكَ الْقِلَاعِ مِنْ يِلَادٍ وَتِلَادٍ ، وَأَغْوَارٍ وَنِجَادٍ ؛
وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ، وَأَمْوَالٍ أُرْتَجِعُ بِهَا مَا كَانَ لِلْإِسْلَامِ فِي ذِمَّةِ الْكُفْرِ مِنْ بَقَايَا الدُّيُونِ .
وَكَلَّ تِلْكَ الْغَنَائِمِ مَنْحُنَا جُيُوشَنَا الْمَنْصُورَةَ وَأَجْنَحَانَا ، وَقَوَيْنَاهُمْ عَلَى أُمْتَالِهَا مِنَ الْفُتُوحِ
بِرَفْعِ الْعَوَائِقِ الَّتِي أَرْزَلْنَاهَا ، بِالْقَنَاطِيرِ الْمُقْتَطِرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَأَرْحَانِهَا ؛
وَمَا وَصَلَ الْآنَ قُصَادُهُ إِلَى أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ إِلَّا وَالْبَشَائِرُ تَنْطِقُ بِأَلْسِنَةِ التَّهَانِي ، وَتَحْفِقُ
بِمَجْدِدَاتِ هَذِهِ الْفُتُوحِ فِي الْأَفَاصِي مِنْ مَمَالِكِهَا وَالْأَدَانِي ؛ وَقَدْ شَاهَدُوا ذَلِكَ وَشَهِدُوهُ ،
وَرَأَوْا مَا رَأَى غَيْرُهُمْ مِنْ نَوَادِرِ الْفُتُوحِ الَّتِي أَرَبَتْ عَلَى مَا أَلْفُوهُ مِنْ قَبْلُ وَعَهِدُوهُ .
هَذَا وَمَا وَضَعْتَ الْحَرْبُ إِلَى الْآنَ أَوْزَارَهَا ، وَلَا نَحْمَدُ نَارَ الْوَعْغَى الَّتِي أَعَدَّتْ
جُيُوشَنَا الْمَنْصُورَةَ لِلْأَعْدَاءِ أَوْارَهَا ؛ وَمَا يَمِضِي وَقْتُتْ إِلَّا وَالْبَشَائِرُ مُتَوَارِدَةٌ عَلَيْنَا بِفَتْحِ
جَدِيدٍ ، وَنَصِيرُهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ مُخَلَّقٌ تَحْقُقُ فِي كُلِّ بَرِّ بَرِيدٍ . وَقُصَارَى أَمْرِ الْعَدُوِّ الْآنَ
أَنَّهُمْ لَيْسَ لَهُمْ بَلَدٌ ، إِلَّا وَقَدْ (أَخْنَى عَلَيْهِ الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدٍ) ؛ وَوَلَادَارٌ إِلَّا وَقَدْ أَحْضَتْ
كَدَارِمِيَّةً الَّتِي (أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَمْدِ) ؛ وَلَا جَيْشٌ إِلَّا وَقَدْ فَرَّوْا وَأَيْنَ يَفْتَرُ
وَهُوَ يَطْوِي فِي قَبْضَتِنَا الْمَرَاحِلَ ؟ ، وَلَا طَرَائِدُ بَحْرِ إِلَّا وَهِيَ مَطْرُودَةٌ فِي الْبَلْجِ لِتَيْقُنِهِمْ
أَنَّ الْعَطْبَ لَا السَّلَامَةَ فِي السَّاحِلِ .

فَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ رَأَيْنَا أَنَّ أَشْتَغَالَ جَيْشِ الْإِسْلَامِ بِجَانِبِ الْكُفْرِ هُوَ الْمَهْمُ الْمَقْدَمُ عَلَى
مَاسِوَاهِ ، وَالغَرَضُ الَّذِي نَيْتُنَا فِيهِ إِنْقَاذُ أَهْلِ الْإِسْلَامِ مِنْ كَلِمَةِ الْكُفْرِ وَتَحْكِيمُهُ «وَلِكُلِّ
أَمْرِيٍّ مَانَوَاهُ» وَرَأَيْنَا أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْجِهَةِ مَا يَفُوتُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ وَتَمَكِينِهِ ، وَإِذَا
كَانَ اللَّهُ قَدْ أَقَامَ بِقُدْرَتِهِ مَنَا مَلِكًا لِنَصْرَةِ دِينِهِ فَإِنَّ الْيَمِينَ وَغَيْرَهُ فِي يَمِينِهِ ؛ وَهِيَ مُحْسَبَةٌ

من أعداد ممالك المحروسه ، ومعدودة من أقسام بلادنا التي هي بوقود الفتح مأنوسه ؛ ولا بُد من النظر في أمرها ، وإعمال الفكر في إزاحة ضرها ؛ وتجريد العساكر المنصورة إليها ، وإقدام الجيوش التي عادت الإقدام في الوغى عليها ؛ ليكون العمل في أمرها بما يرضى الله ورسوله ، ويبلغ من كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يطيقه سوله ؛ فإن المملكة المذكورة توالث عليها الممدد ، ومضى عليها الأبد ؛ وهمة من فيها إلى اللهو مضروفة ، وعلى اللذات موقوفة ؛ وأحكام الجهاد عندهم مرفوضة حتى كأن الجهاد لم يبلغهم وغره حلمه ، ولا أحاطت أفكارهم بشيء من علمه ؛ بل كأنه على غيرهم وجب ، وكأن ما أعد الله من الأجر عليه إنما أريد به الذين يكثرون الذهب ؛ وتمادت الأيام وليس في نكايه أعداء الله منهم مصيب ، وتفرقت الأموال وما لجند الله فيما احتووا عليه من ذلك سهم ولا نصيب ؛ وأى عذر عند الله لمن جعله مؤتمناً على ماله فلم يكن له في سبيل الله إنفاق ؟ وأى حجة لمن [لم] يقف موقف جهاد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من نفاق " .

والآن فإن الله سبحانه وتعالى قد أقامنا لنصرة الإسلام ورفع كلمة الإيمان وتمهيد البلاد ، وإجراء الأحوال في القريب منها والبعيد على ما يرضى الله تعالى ويرضى رسوله عليه السلام من السداد ؛ وأهم الأمور عندنا أمر الغزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلا مُسكٌ بعنان فرسه ، مكتحلٌ بسهاد حرسه ؛ لا يأمن العدو مهاجمة خيله في سراه ، ولا مفاجاة خياله في كراه ، حصنه ظهر حصانه ، وجوابه على لسان سنانه ، كلماً سمع هبة أو وقعة طار على متن فرسه يلتبس الموت والقتل في مظانه ؛ وهؤلاء هم جيوشنا الذين دوخوا البلاد ، وأذلوا أهل العناد ؛ وطهروا السواحل ، وأجروا في كل

موطن من أنهار الدماء ما يروى البلد الساحل؛ وهزموا جيوش التتار وهم في أعداد الكواكب، وحصدوهم بسيوفهم عروزة (١) وهم في نحو المائة ألف راكب؛ حتى إن ملوك التتار الآن ليمنون إرضاءنا وإغضائنا، وليستدعون ويدعون للآباد ولآئنا؛ ويطلبون المسألة منا، ويودون نسيمة قبول تصدُر إليهم عنّا؛ والطويلُ العمر منهم ومَن والاهم هو الذي يهرب من بين يدي جيوشنا المنصورة ليسلم بنفسه؛ وإن أسلم ما يعزُّ عليه من ماله وولده وعِرسه. فمثل هؤلاء الذين يستحقون أموال المالك الإسلامية ليستعينوا بها في جهازهم لجهادهم، ويُنفقوها في إعدادهم لأعدائهم؛ ويضرفوها في ذبهم عن دين ربهم.

وهذه المملكة اليمنية قد أجمع فيها من الأموال ما يربي عن الحصر والحد، ويزيد على الإحصاء والعد؛ لا ينفق منها شيء في الجهاد، ولا يعد منها مصروف إلا بما لا تحمد عاقبته في المعاد؛ قد صد عنها جند الله الذين ينفقونها سرا وجهراً؛ ويستزلون بها أرواح أعداء الله على حكم سيوفهم قسراً وقهراً؛ وأيحت لمن تأبى الجهاد جانباً، ورضى باللهو صاحباً؛ وأقتنى السلاح لغير يوم الباس، وأعتنى بارتباط الحيات بطراً ورتاء الناس.

وكان كتابنا قد تقدم في أمر المجاهدين وما يحتاجونه من الإعانة بما يحمل إليهم من الأموال بالمملكة اليمنية؛ ليصرف ذلك في حقه، ويصل إلى مستحقه؛ ويكون قد أعد منها للإنفاق في سبيل الله جانب بحيث لا يضاع، ووصل إلى مجاهدي الأمة نصيب من مال الله الذي هو في يد من ولّاه شيئاً من أمور عياده على حكم الإيداع؛ ويدخل ذلك في زمرة الذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها؛ فحصلت المكابرة في الجواب عن ذلك، وأى عُذر في المكابرة عن

(١) كذا في الأصل ولعله ويخرج بذلك من زمرة الخ تأمل.

مثل هذا الأمر وسَعَلَ الوقت بذكره ؟ ونحن عندنا في كل وقتٍ من البشائرِ
بمَوَاهِبِ الفتح ، وغرائبِ المَنَح ، ومتجدداتِ الظَّفَر والنصر ، ومتحلياتِ التأييد التي
قَسَمَت أَعْدَاءُ الله بين الحَصَد والحَصْر ، ما يَهْبُ نُشْرُهُ هبوبَ الرِّيحِ في البرِّ والبحارِ ،
ويودُّ الدهرُ لورقته بذهبِ الأصيلِ على صَفَحَاتِ النَّهَارِ ، وكلُّ ذلك في أشدِّ أَعْدَاءِ
الله تعالى : من التتار ، الذين عُرِفَ عَدَدُهُمْ وجَلَدُهُمْ ، والفرَسِجِ الذين طال وكثُر
في عداوةِ الإسلامِ أبَدُهُمْ ومددُهُمْ ، والأرمن الذين هم أكثرُ الطائفتينِ في الظاهرِ
وإفقا ، وأشدَّ الفتنينِ في الباطنِ نَفَرًا ونَفَاقًا ، وهم لهؤلاءِ وهؤلاءِ مادةٌ تمير وتمير ،
وتغريمهم وتغريمهم فتصيرهم من نارِ الحربِ المَضْرَسَةِ لسيوفنا إلى جهنمٍ ونِسِّ المَصِيرِ ،
وأى شيءٍ من ذلك يُدَكِّرُ عند مواقف جيوشنا المنصورة ، وظَفَرِ عساكرنا المؤيَّدة ؟ ،
لو كان حَصَلَ عنده الفكرُ الصائبُ ماوردتْ مكابتهُ إلا وهى مقترنةٌ بما يُرضى اللهُ
ورسولهُ وأهلَ الإسلامِ : من إمدادِ الغزاةِ بالأموالِ ، وإعانتِهِمْ على الكُفِّ التي كُلِّمًا
أعد لها مال [بَدَتْ] حالُ يَلَامُهَا الإنفاقُ في سبيلِ الله وَيَسْتَلُونَكَ عن الجبالِ ، وهامى
قادمةٌ إلينا يَقدُمُها النصرُ ، ويتقدَّمُها من أسرى العدا وغنائمِهِمْ ما يُرِي عن الحَصْرِ ،
وما بينها وبين رُكُوبِ تَبِجِ هذا البحرِ مُلْكٌ تُمَهِّدُهُ ، وَعَدَلٌ تُجَدِّدُهُ ، وَبِغَاةٌ تُكْفِ
غَرِبَهَا ، وَرَعَايَا تُؤَمِّنُ بِالْمَهَابَةِ سِرْبَهَا ، وَتُصَفِّي من أكَدَارِ الفِتَنِ سِرْبَهَا ، وَأموالٍ
تصونها ، وخرائنٌ يُنَزِّه عن غيرِ الإنفاقِ في سبيلِ الله مَصُونُهَا ، إلا بمقدارِ ما تستقرُّ بها
المنازلُ استقرارِ السَّنةِ بالِحْفُونِ لالانوم ، وتَأْخُذُ أَهْبَةَ لذلِكَ المَهْمِ في يومٍ أو بعضِ يومٍ .
أَللهم إلا أنْ تَلْبِي دَعْوَةَ الجِهَادِ من تلكِ الحِجَّةِ بِالسَّنةِ النَّفِيرِ ، وَتَعْبِي صُفُوفِ
الجِلَادِ في الجَوَارِي التي تكادُ بأجنحةِ القُلُوعِ تَطِيرُ ، أو تُنَوِّبُ عنها خرائنُ الأموالِ
التي تُتَفَّقُ في سبيلِ الله تعالى ، أو تَقُومَ مَقَامَهَا النِّفَقَاتُ التي تُصَرِّفُ إلى جنودِ الله
التي تُتَفَرُّ في سبيلِ الله تعالى خِفَافًا وَثِقَالًا ، لِيَكُونَ قد آسَدَرَّ بِبركةِ ذلكِ الطَّلِّ

أخلاف الوابل ، وأنفق ما اخترته في سبيل الله الذي مثل ما ينفق فيه كمثل حبة
 أنبت سبع سنابل ؛ وتستعد الجيوش المنصورة إلى طوي يصون برأيه ملكه
 ويصون ، ويستطيل على الوجود ولو أن البرسيوف والبحر نصول ؛ والله تعالى يرشده
 إلى ما هو أقرب للتقوى ، ويمسكه من طاعته بالسبيل الأقوم والسبب الأقوى ؛
 إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثاني

(وهو المذكور في " التعريف ")

أن تفتح المكاتب بلفظ : « أعز الله تعالى جانب المقام العالی » إلى آخر الألقاب ،
 ثم الدعاء ، مثل : ولا زال يُحسِن ولاية حسبه ، وينهض بجناح نسبه ، ويصون ملكه
 بعدله أكثر من قضبه ، ويثبت في اليمن اليمن في حالة إقامته ومنقلبه .
 أصدرناها إلى مقامه موشحة المعاطف بحليه ، شاكرة علا عليه ، ذاكرة من محامده
 ما يتكثر السحاب بوليّه ، مبدية لعلمه الكريم كيت وكيت .

وهذه أدعيةٌ وصدور تناسب كل سلطانٍ بها :

ولا زال به « تعزُّ » تعزُّ وتفوز ببه زبيد ، ويخرج من عدن عدن فضله المديد ،
 وتمتلي بوفود البر والبحر : هذا تطير به المراكب وهذه الركائب كلاهما من مكان
 بعيد ؛ ولا برحت به أهلة الأوطان ، مشتقة صفات فطره اليمنى من « الإيمان يمان » ؛
 محجوباً بالجلالة أو محجوباً لما ينسب إليه من أحد الأركان .

أصدرناها والسلام يبارى ما ثبت أرضه من نباتها الطيب ، ويجارى بالثناء
 ما ينهل في أكفاه الجنوية من سخابها الصيب ؛ وتسرى إليه بتحياتنا الشريفة على
 قادمة كل نسيم ، وفي طي كل عام له وقوف على ربه وتسليم ؛ وتوضح لعلمه الكريم .

دعاءً وصدرٌ يختصُّ بالمجاهدِ على ، وهو :

ولا زال أفضلَ متوَجِّحٍ في يَمَنِهِ ، وأعلىَ علىَّ إذا قيسَ بأبنِ ذى يَزَنِهِ ، وأشجعَ من حمى بعهوده مالا تقدرُ السُّيوفُ على حمايته من وطنه ؛ ولا أنفكُ الملكَ المجاهدَ عن عِرضه المصُونِ ، وسيفَ الدين الذى يقومُ فى المفروض من مرأى الله بالمستون ؛ وأبأ الحسنَ لما يحسنُ فى قِطنته الحُسنى أو فِطرتَه من الظنون ، والعالى قدرًا إذا أخذتِ الملوكةُ مراتبها وحدقتِ إليه العيون .

صدرت هذه المفاوضةُ إلى حضرته وسلامها يتفاحُ لديها ، ويصالحُ غمائمها فى يديها ، وتجرى سفائنُ إخلاصه حتى تقفَ عليها ، وتسمى بتجارتنا محلقةً بالبشرى فى صباح كلِّ يومٍ يقربُ من الوصولِ إليها ، وتبدي لعلمه الكريم .

قلت : ولم أقف على صورة مكاتبة مفتحة بلفظ «أعزَّ الله تعالى جانب المقام» كُتِبَ بها إلى بعض ملوك اليمن فى زمنٍ من الأزمان ؛ فأوردتها استشهاداً لهذا الأسلوب .

الأسلوب الثالث

(أن تفتَحَ المكاتبةُ بلفظ : «أعزَّ الله تعالى نُصرة المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كتب به إلى صاحب اليمن أيضاً ، عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، مبشراً بفتوح صافيتا^(١) ، من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، وهو :

(١) لم نجد لفتح مصدرنا على فعول فإما أن يكون جارى العرف وإما أن يكون جمع المصدر باعتبار أنواعه ووقائمه وهو بعيد تأمل .

أعزَّ الله تعالى نُصرة المَقَامِ العَالِي، المَوْلَى، السُّلْطَانِي، المَلِكِي، المِظْفَرِي، الشَّمْسِي، وأشْرَكَه فِي كُلِّ بَشْرِي تُسَدُّ الرِّحَالُ لِاسْتِمَاعِهَا، وَتُحَلُّ الحَبِي لِاسْتِطْلَاعِهَا، وَتَهْفَأُ التَّوَارِيخُ وَالسَّيْرُ عَلَى اسْتِرْفَاعِهَا، وَتَتَنَافَسُ الأَقْلَامُ وَالسِّيُوفُ عَلَى الأَفْهَامِ بِأَجْنَاسِهَا وَأَنْوَاعِهَا؛ وَلَا خَلَا مَوْقِفُ جِهَادٍ مِنْ اسْمِهِ، وَلَا مَصْرِفُ أَجْرٍ مِنْ قَسْمِهِ، وَلَا غَرَضٌ هِنَاءٍ مِنْ سَهْمِهِ، وَلَا أَفْقُ ابْتِهَاجٍ مِنْ بَزْوَعِ شَمْسِهِ وَطُلُوعِ نَجْمِهِ. سَطَّرَ المَمْلُوكُ هَذِهِ البُّشْرَى وَالسَّيْفُ وَالقَلَمُ يَسْتَمِدَّانِ : هَذَا مِنْ دِيمٍ وَهَذَا مِنْ نَفْسٍ، وَيَمْضِيَانِ : هَذَا فِي رَأْسٍ وَهَذَا فِي طَرْسٍ؛ وَيَتَجَاوَبَانِ : هَذَا بِالصَّلِيلِ وَهَذَا بِالصَّرِيرِ، وَيَتَنَاوَبَانِ : هَذَا يَسْتَمِيلُ وَهَذَا يَسْتَمِيرُ؛ وَكُلُّ مِنْهُمَا يَنَافِسُ الآخَرَ عَلَى المِشَافَهَةِ بِخَبَرِ هَذَا الفَتْحِ الِذِي مَاسَمَتْ إِلَيْهِ هُمُ المَمْلُوكِ الأَوَائِلِ، وَلَا وَسِمَتْ بِهِ سَيْرِهِمُ الَّتِي بَدَتْ أَجْيَادُهَا مِنْ حِلَاهِ عَوَاطِلِ؛ وَلا دَارَ فِي خَلَدٍ أَنْ مِثْلُهُ يَتَّبِعُ فِي المُدَدِ الطَّوِيلِ، وَلَا تَشَكَّلُ فِي ذَهْنِ أَنَّهُ سَيُذْرِكُ بِحَوْلٍ وَلَا حِيلَةٍ؛ وَهُوَ النَّصْرُ المَرْتَّبُ عَلَى حَرَكَتِنَا الَّتِي طَوَى اللهُ لِرِكَابِنَا فِيهَا المَرَاحِلَ، وَأَلْقَى بِدَرَرِ عَسَاكِرِنَا مِنْ بَحْرِ الحَدِيدِ المَاسِجِ إِلَى السَّاحِلِ؛ وَهُجُومِنَا عَلَى البَلَادِ الفَرَنْجِيَّةِ: وَهِيَ طَرَابُلُسُ وَصَافِيَتَا وَأَنْطَرُسُوسُ وَمَرْقِيَّةُ وَالمَرْقَبُ، كَمَا يَهْجُمُ الغَيْثُ؛ وَمُضَادِمَتِنَا صُدُورَهَا كَمَا يَصْدِمُ اللَّيْثُ، وَسَلُوكِنَا مِنْهَا حَيْثُ لَمْ يَبْقَ حَيْثُ؛ وَمَا جَرَى فِي هَذِهِ الوِجْهَةِ مِنْ إِغَارَاتٍ أَحْسَنَتْ مَتَقَلَّبَ الأَعْيُنِ؛ وَتَعَلَّقَ السِّيُوفُ وَخَتَرَقَ الأَسِنَّةَ؛ وَمَاتِيًّا مِنْهَا مِنْ فُتُوحِ صَافِيَتَا الَّتِي هِيَ أُمُّ البَلَادِ، وَتَمْتَجِعُ الحَاضِرِ وَالبَادِ؛ وَكُونُهَا قَدَمَتْ نَفْسَهَا فِي جَمَلَةٍ مَا يُقْرَى بِهِ الضَّيْفُ، وَقَالَتْ : هَذَا فُتُوحٌ حَضَرَ عَلَى هَذَا الفُتُوحِ لِهَذَا السَّيْفِ؛ وَتَلَطَّفَتْ فِي مَسْحِ أَطْرَافِ الأَمَانِ، وَطَلَبَتْ شُكْرًا وَمِنَّا شُكْرَانٍ؛ وَأَحْضَرَتْ إِلَيْنَا مِنْ أَهْلِهَا الوَقْتَ وَهَدَّتِ السِّيُوفُ فِي أَعْنَاقِهِمْ فَتَشَبَّهَتْ بِهَا الأَغْلالُ، وَأَنْفَتِ أَيْمَانُ أَهْلِ الإِيمَانِ مِنْ مُصَاحِقِهِمْ لِأَنَّهُمْ أَصْحَابُ الشَّمَالِ؛ فَاطْلَقَهُمْ سَيْفِنَا وَأَمَلَهُ يَمِينُنَا إِلَى مَنْ هُوَ أَعَزُّ مِنْهُمْ مَالًا، وَأَكْثَرُ أَحْتِفَالًا،

وأبزمًا لا، وأهز سيوفًا قصارا ورماحًا طوالا، وأستطار منها شرار نار الحرب الموقدة إلى غيرها من القلاع، وأستطال إلى سواها من الحصون منهم الباع، فلا حصن إلا وأفترت نيتته عن نصر مسهل، وفتح معجل ومؤجل .

فمن ذلك حصن الأكراد الذى تاه بعطفه على الممالك والحصون، وشخ بأنفه عن أن تمتد إلى مشله يد الحرب الزبون، وعدا جاذبا بصبغ الشام، وأخذًا بمخاتق بلاد الإسلام، وسلا في يد البلاد، وشجا في صدر العباد، تنقض من عشه صقور الأعداء الكاسره، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائره، وتريض بأرضه آساد تحي تلك الآجام، وتفق من قسيه سهام تسمى مفوقات السهام، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون، ويصطفى كرام أمواهم وهم صابرون لامصارون، كم شكته منه حماة ثنى بنكرها قلة الإنصاف، ومخافته معزة وما من معزة خاف، ما زالت أيدي الممالك تمتد إلى الله بالدعاء عليه تشكو من جور جواره تلك الحصون والصياصى، وتبكي بمدمع نهرها من تأثير آثاره مع عصيانها وناهيك بمدمع العاصى، حتى نبه الله الحافظ سيوف الإسلام من جفونها، ووفى النصرة ماوجب من ديونها، وذلك بأننا قصدنا فسيح ربه، ونزلنا ونازلنا محي صغعه، وختمنا بنصنا على قلبه وسعته، وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهى كالأنامل، وتكاد بروجه ترى كالمطايا المقطرة وهى منها بمنزلة الزوامل، ماخيمنا به حتى أستبحنا محي تلك المدائن المكنى عنها بالأرباض، وأسحنا بساحتها بحرا من الحديد ماأندفع حتى فاض، وأخذنا الثقوب فى أسوار لا تنقض ولا ينقض بئنانها المرصوص، ولا تقرر المعاول مانحواتم أبراجها من نقوش الفصوص، ونصننا عليها عدة مجانيق حملت فى شواهد الجبال، على رؤوس الأبطال، فتغيط السمهرية أن الذى تقوم به هذه تلك به لا تقوم، وأن مامننا إلا له من الأيدي والرؤوس مقام معلوم، وصار يرمى بها كل

كفى محتسب ، وأروع منتهس ، وكل لبث غايه يجمها وتحميه ! فشكراً لأسود حتى غاباتها
تفترس ، إلى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب
فصارت تميزد من العجب ، وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب ، وأشتد
الأمر على الكفار فقاتلوا قتالاً أفض مضاجع الأسلحة ، وأطار حجارة مجانيقهم بغير
أجنحة ، وأشجى بشجو النصول المترمة على عصون السهام المترحة ، وهذا وأهل
الإيمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهداً ، وإقدام يتلقى صدى الحديد
بأبجاد مازالت إلى موارده قصداً ، يقتحمون نار الحرب التي كلما أوقدوها أطفأها الله
وقال يانار كوني برداً ، والبلاد الفرنجية قد غضت منها الأبصار وخشعت القلوب ،
واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب ، فهذه تود لو أكتتها
البحار تحت جناح أمواجها ، وهذه لو أسبلت الرياح العواصف عليها ذبول عجاجها ،
وهذه لو أجتتت من فوق الأرض مالها من قرار ، وهذه لو خسف بها الزرى وعفت
منها الآثار ، وذلك لما بلغهم وشاهدوه من ويل حل بأهل هذا الحصن المنيع ،
ومن قنك أحمل ربه المريخ ، وضيق مجاله الوسع ، وقرايع أشجر الحديد من الحديد
والأبطال لم تضجر ، ونضال أسهر كل جفن حتى جفون السيوف لانا عودناها مثل
جفوننا أن تسهر ، فكم شكت القلوب من منا كهم زحاما ، والشرفات من ترقبهم
التراما ، والرقاب من سيوفهم آقتساما ، وكم حمدت التجارب من رأيهم شيئا وحيد
الإقدام من ثبوتهم غلاما ، قد دوخوا البلاد فلا موطن إلا لهم به معركة ، وأرملوا
الخلائل فلا مشرك إلا وقد أرمل من مشركه ، وأزعجوا الكفر فلا قلب إلا به منهم
خوف ولا سمع إلا لهم به حركة ، وملئوا الأرض كثرة وكيف لا يكثر الله جمعاً للإسلام
جعل الله فيه بركة .

وكتبتنا هذا والمولى بحمد الله أحق من هنيء بهذا الفتح الذي تُثني على كتاب
بشائره الحقائق ، وتجري إلى سماع أخباره الركائب ، وتراحم على المسير تحت
البرد الواصلة به متون الصبا وظهور الجنايب ، وإذا ذكرت ملاحمة ، قال كل :
هذا كتاب أم كتيبة تلوح ، وإذا شوهدت حمرة طرسه قيل : وهذا ما صبغته في اليد
المعلمة عليه دم الكفر المسفوح ، وينعم - أعز الله نصره - بالإعلان بهذا النبأ
الحسن الذي تستروح إليه الأسماع ، وتسرّ بالإفهام به أخوات هذا الحصن من مدنه
ومن قلاعه العظيمة الامتناع ، فإنه ما برح الأخ يفرح بأخيه ، وإذا كان الهناء عظيما
أشرك كل شيء فيه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر إلى صاحب اليمن من هذا الأسلوب : كتب به الفاضل
محي الدين بن عبد الظاهر أيضا ، عن الملك المنصور قلاوون ، جواب تعزية أرسلها
إليه في ولده الملك الصالح في ورق أزرق ، وكانت العادة أن تكون في ورق أصفر .
ونصها بعد البسملة .

أعز الله تعالى نصرة المقام إلى آخر الألقاب ، وأحسن بتسليته الصبر على كل
فادح ، والأجر على كل مصابٍ قرح القرائح وجرح الجوانح ، وأوفد من تعازيه كل
مسكن طاحت به من تلقاء صنعاء اليمن الطوائح ، وكتب له جزاء التصبر عن جار
من دمع طافح ، على جار لسويداء القلب صالح .

المملوك يخدم خدمة لا يدود المواصلة بها حادث ، ولا يؤخرها عن وقتها أمر
كارث ، ولا ينتهها عن تحسينها وترتيبها بواعث الاختلاف ولا اختلاف البواعث ؛
ويطالع العلم الكريم على ورود مشال كريم ، لولا زرقه طرسه وزرقه لبسه لقال :

﴿وَأَبْيَضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . تتضمن ما كان حدث من رُزءٍ تَلَّافِي اللهُ بِنَاسِيهِ ، وتوافي بَعُودَ الصَّبْرِ فَتَوَلَّى التَّسْلِيمَ تَلِيْنِ تَقَاسِيهِ وَتَمْرِيْنِ قَاسِيهِ ؛ فَشَكَرْنَا اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا أَعْطَى وَحَمَدْنَاهُ عَلَى مَا أَخَذَ ، وَمَا قُلْنَا : هَذَا جَزَعٌ قَدْ آتَبَنَّهُ إِلَّا وَقُلْنَا هَذَا تَثَبَّتْ قَدْ آتَبَدُ ، وَلَا تَوْهَمْنَا أَنَّ قِلْدَةَ كَبَدٍ قَدْ آخُطِفَتْ إِلَّا وَشَاهَدْنَا حَوْلَنَا مِنْ ذُرِّيَّتِنَا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فَلَدَّ ؛ وَأَحْسَنَّا الْأَحْتِسَابَ ، وَدَخَلَتْ الْمَلَائِكَةُ عَلَيْنَا مِنْ كُلِّ بَابٍ ، وَوَقَّانَا اللهُ عِزَّ وَجَلَّ أَجْرَ الصَّابِرِينَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ؛ وَلَنَا - وَالشُّكْرُ لِلَّهِ - صَبْرٌ جَمِيلٌ لَا نَأْسَفُ مَعَهُ عَلَى فَائِتٍ وَلَا نَأْسِيْ عَلَى مَفْقُودٍ ، وَإِذَا عَلِمَ اللهُ سَبْحَانَهُ حُسْنَ الْأِسْتِنَابَةِ إِلَى قَضَائِهِ ، وَالْأَسْتِكَانَةَ إِلَى عَطَائِهِ ، عَوَّضَ كُلَّ يَوْمٍ مَا يَقُولُ الْمُبَشِّرُ بِهِ : هَذَا مَوْلىٌ مَوْلُودٌ . وَليست الإِبْلُ بِأَغْلَظَ أَكْبَادًا مِمَّنْ لَهُ قَلْبٌ لَا يُيَالِي بِالصَّدَمَاتِ كَثُرَتْ أَوْ قَلَّتْ ، وَلَا بِالتَّبَارِيحِ حَقُرَتْ أَوْ جَلَّتْ ؛ وَلَا بِالْأَزْمَاتِ إِنْ هِيَ تَوَالَتْ أَوْ تَوَلَّتْ ، وَلَا بِالْجُفُونِ إِنْ أَلْقَتْ بِمَا فِيهَا مِنَ الدَّمُوعِ وَالْمُجْجُوعِ وَتَحَلَّتْ ؛ وَيَخَافُ مِنَ الدَّهْرِ مَنْ لَاحَلَبَ أَشْطَرَهُ ، وَيَأْسَفُ عَلَى الْفَائِتِ مَنْ لَا بَاتَ بِنَبِيٍّ الْخَطُوبِ الْخَطِرَةِ ؛ عَلَى أَنْ الْفَادِحِ بِمَوْتِ الْوَلَدِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - وَإِنْ كَانَ مُنْكِيَا ، وَالنَّافِحِ بِشُجُوهِهِ وَإِنْ كَانَ مُبْكِيَا ، وَالنَّائِخِ بِذَلِكَ الْأَسْفِ وَإِنْ كَانَ لِنَارِ الْأَسْفِ مُدْكِيَا ؛ فَإِنْ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنْ تَثْبِيْتِ اللهِ عِزَّ وَجَلَّ مَا يَنْسِفُهُ نَسْفًا ، وَمَنْ إلهَامِهِ الصَّبْرَ مَا يَجِدُّ لِمُزِيْقِ الْقُلُوبِ أَحْسَنَ مَا بِهِ تَرْفِيٌّ . وَبِكَتَابِ اللهِ تَعَالَى وَبِسُنَّةِ رَسُوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَنَا حُسْنُ اقْتِدَاءٍ يَضْرِبُ عَنْ كُلِّ رِثَاءٍ صَفْحًا ، وَمَا كُنَّا مَعِ ذَلِكَ - وَالْمِنَّةُ لِلَّهِ - نُسْخِيْ لِمَنْ يُؤْتَبُ وَيُؤَبَّنُ أَذْنَا ، وَلَا نُعِيْرُهَا لِمَنْ يَلْحَا إِذِ الْوَلَدُ الذَاهِبُ فِي رِضْوَانِ اللهِ تَعَالَى سَالِكًا طَرِيقًا لَا عِوَجَ فِيهَا وَلَا أَمْتًا ، وَأَنْتَقَلَ سَارًا بَارًا صَالِحًا صَالِحًا وَمَا هَكَذَا كُلُّ الْمَوْتِيْ نَعِيَا وَنَعْنَا ، وَلَيْتَ كَانَ نَفَعْنَا فِي الدُّنْيَا فَهِيَ نَحْنُ بِالصَّدَقَاتِ وَالتَّرْحَمِ عَلَيْهِ نَنْفَعُهُ ، وَإِذَا كَانَ الْوَلَدُ عَمَلِ أَبِيهِ وَقَدْ رَفَعَ اللهُ تَعَالَى رُوحَ

ولدنا إلى أعلى عليين تحقق أنه العمل الصالح يُرفعه ؛ وفيما نحن بصدد من اشتغال بالحروب ، ما يهون ما يهول من الكروب ؛ وفيما نحن عاكفون عليه من مكافحات الأعداء ما بين المرء وقلبه يحول ، بل عن تحيّل أسف في الخاطر يحول .

إذا أعناد الفتى خوص المنايا * فاهون مامّره الوحول !

فلنا بحمد الله تعالى ذرية درية ، وعقود والشكر لله كلها درية .

إذا سيد منهم خلا قام سيد * قؤول لما قال الكرام فعول !

مامنهم إلا من نظر سعده ومن سعده ينتظر ، ومن يحسن أن يكون المبتدأ وأن يسدّ حاله بكفّالته وكفّالته مسدّ الخبر ، (والشمس طالعة إن غيب القمر) ؛ لاسيما من الذي يراد هو صلاحه أعرف ، ومن إذا قيل لبناء ملك هذا عليه قد وهى قيل هذا خير منه من أعلى بناء سعيد أشرف . وعلى كل حال لا عدم إحسان العمل الذي يتنوع في برّه ، ويعاجل قضاء الحقوق فيساعف مرسومه في توصيله طاعة بجره وبرّه ؛ وله الشكر على مساهمة المولى في الفرح والتّرح ، ومشاركته في الهناء إذا سنع وفي الدمع إذا سنفح ؛ وما مثل مكارم المولى من يعزب ذلك عن علمها ، ولا يعزى إلى غير حكمها وحلمها ؛ وهو - أعزه الله - ذو التجارب التي محضت له من هذه وهذه الزبده ، وعرضت عليه منها الهضبة والوهده . والرغبة إلى الله تعالى أن يجعل تلك المصيبة للرزايا خاتمه ، كما لم يجعلها للظهور قاصمه ؛ وأن يجعلها بعد حمل هذا الهمم وفصاله على عليه فاطمه ؛ وأن يحبب إلينا كل ما يلهى عن الأموال والأولاد ، من غزوة وجهاد ، وأن يخولنا فليس يُحدّ لدينا على مفقود تأدبا مع الله عز وجل غير السيوف فإنها تُعرف بالحداد ، وأن لا تُقصّف رماحنا إلا في فود أو فؤاد ، ولا تُحول سروج خيلنا إلا من ظهر جواد في السرايا إلى ظهر جواد ؛ وأن لا تُشق لدينا إلا

أَكْبَادُ النَّادِ، وَلَا تُجَزَّ غَيْرُ شُعُورِ مَلُوكِ التَّنَارِ تُتَوَجُّ بِهَا رُؤُوسُ الرِّمَاحِ وَيُصْعَدُ بِهَا عَلَى قِيمِ الصَّعَادِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُ لِلْوَلِيِّ سَعَى مَرَائِيهِ الَّتِي لَوْلَا لُطْفُ اللَّهِ بِمَا صَبَرْنَا بِهِ لِأَقَامَتِ الْجَنَائِزِ، وَأَسْتَحْفَتِ النَّحَائِزِ، وَلَا هَوَتْ بِالنُّفُوسِ فِي أَسْتِعْمَالِ الْجَنَائِزِ مِنَ الْأَسْفِ وَغَيْرِ الْجَنَائِزِ، وَلَا شَغَلَ اللَّهُ لُبَّ الْمَوْلَى بِفَادِحِهِ، وَلَا خَاطَرَهُ بِسَائِحَةِ مِنَ الْحُزْنِ أَوْ بَارِحِهِ، وَلَا أَسْمَعَهُ لَغَيْرِ الْمَسْرَاتِ مِنْ هَوَاتِفِ الْإِبْهَاجِ صَادِحِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الأسلوب الرابع

(أَنْ تَفْتَحَ الْمَكْتَابَةَ بِلَفْظِ «أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْعَالِي»

وَعَلَيْهَا كَانَ الْأَمْرُ فِي أَوَّلِ الدَّوْلَةِ التَّرْكِيَّةِ)

وهذه نسخة كتاب من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنِ الْمَلِكِ الْمُظْفَرَقُطْزِ - وَصَاحِبِ الْيَمِينِ يَوْمَئِذٍ الْمَنْصُورِ - بِالْبِشَارَةِ بِهَزِيمَةِ التَّنَارِ . وَأَظْهَرَهَا مِنْ لِنِشَاءِ الْقَاضِي مُحَمَّدِ بْنِ الدِّينِ بْنِ عَبْدِ الظَّاهِرِ، وَهِيَ :

أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمُقْتَرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي، الْمَوْلَوِيِّ، السُّلْطَانِيِّ، الْمَلِكِيِّ، الْمَنْصُورِيِّ، وَأَعْلَى مَنَارِهِ، وَضَاعَفَ آقْتِدَارَهُ؛ تُعَلِّمُهُ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ النُّصْفُ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْفَرْدِ، فَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى بِنَصْرِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعَّرَ بِأَسِهِ * لِأَخْضَرَ جُودًا فِي يَدَيْهِ الْأَسْمَرِ

فصدرت هذه التهينة إليه راوية للصدق عن اليوم المحجل الأغر :

يَوْمَ غَدَاً بِالنَّقْعِ فِيهِ يَهْتَدِي * مَنْ ضَلَّ فِيهِ بِأَنْجُمِ الْمُرَانِ

فَفِي أُذُنِ الدَّهْرِ مِنْ وَقَعِهِ صَمَمٌ، وَفِي عِرْنَيْنِ الْبَدْرِ مِنْ نَقْعِهِ شَمَمٌ؛ تَرْفَعُهُ رِوَاةُ الْأَسَلِ عَنِ الْأَسْنَةِ، وَيُسْنِدُهُ مَجْرُّ الْعَوَالِي عَنِ مَجْرِّ الْأَعْنَةِ، أَمَا النَّصْرُ الَّذِي شَهِدَ

الضربُ بصِحَّتِهِ ، والطعنُ بنصيحته ؛ فهو أن التتر خذلهم الله تعالى أستطالوا على الأيام ، وخاصوا بلاد الشام ، واستنجدوا بقبائلهم على الإسلام :

سعى الطمعُ المردي بهم لحتوفهم * ومن يمسكن ذيل المطامع يعطب

فاعتاضوا عن الصحة بالمرض ، وعن الجوهر بالعرض ؛ وقد أرخت الغفلة زمامهم ، وقاد الشيطان خطامهم ؛ وعاد كيدهم في نحورهم : ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا﴾ .

رامو الأمور فمد لاحت عواقبها * يضد ما أملوا في الور والصدر ،

ظلوا حيارى وكأس الموت دائرة * عليهم شرعا في الور والصدر!

وأضعف الرعب أيديهم فطعنهم * بالسهمرية مثل الوخز بالإبر!

لاجرم أنهم لسن الندم قارعون ، وعلى مقابلة إحساننا بالإساءة نادمون .

تدرعوا بدروع البغي سابعة * والمرء يحصد من دنياه مازعا!

فأقلعت بهم طرائق الضلال ، وسارت مراكب أمانهم في بحار الآمال ؛ فتلك

آمال خائبه ، ومراكب للظنون عاطبه ؛ وأقلعوا في البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ؛

وساروا وللشيطان فيهم وساوس ، تغرهم أمنيّة الظنون الحواس ؛ فساوس

الشیطان كُفرا إلا وأحرقه الإيمان بكوكب هذا

وعساکر المسلمين مستوطنة في مواطنها ، جاذبة عقباتها في وكر ظباها ، رابضة

أسادها في غيل أفتانها ، ماتزلزل لمؤمن قدم إلا وقدم إيمانه راسخه ، ولا تثبت لأحد

حجة إلا وكانت الجمعة لها ناسخه ؛ ولا عقد [ت] برجمة ناقوس إلا وحلها الأذان ،

ولا نطق كتاب إلا وأحرسه القراء ؛ ولم تزل أخبار المسلمين تنتقل إلى الكفار ،

وأخبار الكفار تنتقل إلى المسلمين إلى أن خَلَطَ الصَّبَاحُ فَضَّتَهُ بَدَهَبِ الأَصِيلِ ،
وصار اليومُ كأمس ، ونُسِخَتْ آيَةُ اللّيلِ بِسُورَةِ الشَّمْسِ ؛ وَآكْتَصَلَتِ الأَعْيُنُ بِمِرْوَدِ
السَّيِّآتِ ، وَخَافَ كُلُّ مِنَ المَسْلَمِينَ إِصْدَارَ البَيَّآتِ

يَنَامُ بِإِحْدَى مُقْتَلَيْهِ وَيَتَّقِي * بِأُخْرَى الأَعَادِي ، فَهُوَ يَقْظَانُ نَائِمًا !

إلى أن تراءتِ العينُ بالعين ، وَأَصْطَرَمَ نارَ الحَرْبِ بَيْنَ الفَرِيقَيْنِ ؛ فلم تَرَ إِلا ضَرْبًا
يَجْمَلُ البَرَقَ نِضْوًا ، وَيَتْرُكُ فِي بطنِ كُلِّ مِنَ المَشْرِكِينَ سَلْوًا ؛ حَتَّى صَارَتِ المَفَاوِزُ
دِلَاصًا ، وَمَرَاتِعُ الظُّبَا لِلظُّبَا عِرَاصًا ؛ وَأَقْتَنَصَتْ آسَادُ المَسْلَمِينَ المَشْرِكِينَ أَقْتِنَاصًا ،
وَرَأَى المَجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُوهَا ولم يَجِدُوا عَنْهَا مَنَاصًا ؛ فلا رَوْضَةَ إِلا دِرْعٌ
ولا جَدُولَ إِلا حُسام ، ولا عَمَامَةَ إِلا نَعَقٌ ولا وَبَلَ إِلا سِهَامٌ ؛ ولا مُدَامَ إِلا دِمَاءٌ
ولا نَعَمَ إِلا صَهِيلٌ ، ولا مُعْرِبِدَ إِلا قَاتِلٌ ولا سَكَرَانَ إِلا قَتِيلٌ ؛ حَتَّى صَارَ كَأَفْوَرِ الدِّينِ
شَقِيقًا ، وَتَلَوْنَ الحِصْبَاءَ مِنَ الدِّمَاءِ عَقِيقًا ؛ وَضَرَبَ النُّعُقُ فِي السَّمَاءِ طَرِيقًا ، وَأَزْدَحَمَتِ
الجَنَائِبُ فِي الفِضَاءِ بِجَعَلَتِهِ مَضِيقًا ؛ وَقُتِلَ مِنَ المَشْرِكِينَ كُلِّ جَبَّارِ عَنِيدٍ ، ذَلِكَ بِمَا
قَدَمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ .

قلت : وهذه النسخة تلقفتها من أفواه بعض الناس ، ذكر أنه وجدها في بعض
المجاميع فحفظها منه ، وهي في غاية من البلاغة ، إلا أنها لا تخلو من تغيير وقع
في بعض أماكنها ، ولعله من الناقل لها ، من حيث إنه ليس من أهل هذه
الصناعة . ولم يسعني ترك إيرادها لما فيها من المحاسن ، ولأنفرادها بأسلوب من
الأساليب التي كتب بها إلى ملوك اليمن ؛ فأوردتها على ما هي عليه ، وجزئ الله خيرا
من ظفر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصححها وأصلح ما فيها .

الأسلوب الخامس

(وهو ماجرى عليه في "التثقيف" أن تُفْتَحَ المكتبة بلفظ

أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الْعَالِيِ)

صدره على ما ذكره في "التثقيف" أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الْعَالِيِ، السُّلْطَانِيَّ، الْمَلِكِيَّ، الْفُلَانِيَّ، الْفُلَانِيَّ، مِثْلَ أَنْ يُقَالَ: الْأَفْضَلِيُّ السَّيْفِيُّ، ثُمَّ الدَّعَاءُ، ثُمَّ يُقَالَ: أَصَدَرْنَاهَا وَتُبِدَى لِعَلِمِهِ الْكَرِيمِ كَذَا وَكَذَا. قَالَ فِي "التثقيف" وَالمكتبة إليه في قَطْعِ النِّصْفِ وَالمَطْلَبِ مِنْهُ «والمقصود من المقام العالی» وَخاتمة الكتاب بالدعاء، وَالعَلَامَةُ «أخوه» وَتعريفه «صاحب اليمن». وَفِي دُسْتُورِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللهِ أَنْ خُطَابَهُ يَكُونُ بِالْمَقَامِ الْعَالِيِ .

وهذه نسخة كتاب إليه، ذكر المقرّر الشهابي بن فضل الله في تذكرته أنه أنشأها جواباً عن هديته ولم يكتب بها إليه، وهو يومئذ الملك المجاهد سيف الدين عليّ ابن داود .

أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ الْمَقَامِ الْعَالِيِ، وَلَا زَالَتْ مَكَارِمُهُ يُخَصُّ مِنْ كُلِّ نَوْعٍ بِأَحْسَنِهِ، وَتُحْفٍ بِأَزِيدِهِ وَأَزَيْنِهِ، وَتَجْلُبُ كُلُّ غَرِيبِ الدِّيَارِ مِنْ وَطَنِهِ، وَتَمْنَحُ مِنَ السَّوَابِقِ بِمَا تَمْتَدُّ الْمَجْرَةُ فِي رَسَنِهِ، وَمِنَ الْحَاسِنِ بِمَا يُمَلِّي عَلَى (عَلِيٍّ) أَوْصَافَ حُسْنِهِ، وَيُعْرَبُ عَنِ الْفَرَسِ وَالسَّيْفِ وَالرَّحْمِ بِأَطْيَبِ لَحْنٍ فِي نَصْبِهِ وَجَرِّهِ وَرَفْعِهِ .

صدرت إلى المقام العالی أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى اللهُ جَانِبَهُ تَصِلُ بُوْدَادَهُ، وَتَنْصِفُ حُبًّا عَلِقَ بِفُؤَادِهِ، وَتَعْرِضُ بِرَحَاءِ يَمِينِهِ أَحْلَامَ الْكَرْبِيِّ طَمَعًا أَنْ يَرَى طَيْفَهُ فِي رُقَادِهِ . وَتُبِدَى أَنْ كَتَابَهُ الْكَرِيمِ وَرَدَّ جَالِبًا لِدَرِّ مَنَنْهُ، جَالِبًا لِلْيَمْنِ مِنْ يَمِينِهِ، نَافِحًا بِالطَّيْبِ

من عَدَنِهِ ، نَاقِدًا من قُوَّة السِّوْفِ بِمَا لَا يَدْعِيهِ ابْنُ ذِي يَزَنَةَ ؛ فُتُوْمَلِّ مَا حَوَى من
كَرَمٍ لَا يُجَارَى ، وَنِعِيمٍ تَمَلَأُ الْبَرَّ بِرَأٍ وَالْبَحَارَ بِحَارًا ؛ وَأَبْدَعُ فِي الْهَبَةِ الَّتِي قَدَّرَ مُهْدِيهَا ،
وَقَدَّرَ فِيهَا مِنَ التُّحْفِ مَا لَا يُوجَدُ إِلَّا فِيهَا ؛ وَجَاءَ بِكُلِّ مَا يَسْتَعِينُ بِهِ الْمُرَابِطُ ، وَتَهْتَرُّ بِهِ
الْخِزَانُ وَالْمُرَابِطُ ؛ وَتَفْتَحِرُّ مِنَ الرَّمَاحِ بِكُلِّ مَعْتَدِلٍ قَاسِطٍ ، وَبِمَا يُرِدِي الْعِدَا من
أَسِنَّةٍ بِكُلِّ نَجْمٍ هَابِطٍ . كَمْ لَهَا من فَعَلٍ جَمِيلٍ لَا يُشَارِكُ ، وَكَمْ قَالَ طَعِينٍ : إِنْ لَهَا
كَعْبًا مُدَوَّرًا وَمَا قَدَّرَ الطَّاعِنُ أَنْ يَقُولَ إِلَّا أَنَّهُا كَعْبٌ مُبَارَكٌ . وَمِنَ السُّيُوفِ بِمَا
لَا يُطْبِعُ النَّهْرَ فِي نَصْلِهِ ، وَلَا يَطْمَعُ الْبَرْقُ فِي مَنَاصِلِهِ مِثْلِهِ ، وَلَا يَطْمَحُ الْهَلَالُ أَنْ
يَسْتَقِيمَ عَلَى شَكْلِهِ ؛ كَمْ أَحْمَدْتُ أَنْفَاسًا وَلَهَا أَلْتِهَابُ ، وَلَمَعَتْ من نَوَاحِي الْعُمُودِ
كَمَا نَصَلَتْ أَمَلٌ من خِضَابٍ . وَمِنَ الْخَيْلِ بِمَا تُرْقِصُ فِي أَعْيُنِهَا ، وَتَفْتَحِرُّ عَلَى الْبُدُورِ
بِأَنَّهَا تَدُوسُ عَلَى أَهْلَتِهَا : من كُلِّ أَشْهَبٍ يُحْسِنُ آتِسَادَارًا ، وَيُحْسَبُ قَمْرًا قَدْ تَكَلَّلَ
إِبْدَارًا ، وَيُطَالِعُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ نَهَارًا جَهَارًا . وَأَدْهَمَ قَدْ غَصَبَ الظَّلَامُ ، وَأَسْتَدَارَتْ
غُرَّتُهُ فَاسْفَرَ وَجْهُهُ تَحْتِ بُرْقُعٍ من لَثَامٍ . وَأَخْوَى أَخْضَرَ الْجِلْدَةَ من بَيْتٍ لِلْعَرَبِ ،
قَدْ حَوَى من الرُّوضِ مَا سَلَبَ . وَكَمَيْتَ يَنْضُو النَّقْعَ وَهُوَ سَبُوقٌ ، وَتَقَدَّمَ فِي مِيَادِينِهِ
بِجَاءِ مَضْمَحًا بِالْخُلُوقِ . وَأَشْفَرَ قَدْ كَشَفَ الْبَرْقُ عِذَارَهُ ، وَأَطَارَ الرَّكْضُ مِنْهُ شَرَارَهُ ؛
وَمَعَهَا كُلُّ فَيْلٍ كَأَنَّهُ نَعْمَامٌ تَبْدَى ، أَوْ مَلِكٌ مُفْتَدَى ؛ بِجُرْطُومٍ يَرْتَدُّ كَالصَّوْبِ لِحَانَ ،
وَيَمْتَدُّ كَالْأَفْعُونَ ؛ وَيَهْوُلُ مَنظَرُهُ كَأَنَّهُ من تَمَامِ الْخَلْقِ بُنْيَانٍ ، وَيَتَحَرَّكُ فَتَحْسَبُهُ كَمْ
رَاقِصَةٍ تُسِيرُ بِهِ إِلَى النَّدْمَانِ ؛ تَقْشَعِرُّ مِنْهَا الْجُلُودُ ، وَتَقْتَلُ نَفْسَهَا بِنِيرَانِ الْحِقْدِ مَحَافِظَةً
عَلَى عُهُودِ الْهُنُودِ ؛ كَمْ أَحْسَنْتَ بِجَرَاطِيمِهَا لَهَا من صُدُورِهَا الضَّيِّقَةِ مَحْرَجًا ،
وَأَضَاءَتْ من فُرُوجِهَا بَيْنَ أَنْبِهَا طُرَّةٌ صُبُحَ تَحْتِ أَذْيَالِ الدُّجَى ، وَزَرَافَةٌ ، لَهَا نَافَةٌ ،
كَأَنَّهَا شَفَقٌ بَيْنَهُ نَجُومٌ ، أَوْ بُرُوقٌ تَكَالَّتْ بِقَطْرِ الْعِيُومِ ؛ لَهَا فِي الْمَدْخَلِ عَلَى الْقُلُوبِ

(١) لعله التي دلت على الخ تأمل .

حذاقه، ووُج من بابٍ ودُخُولٍ من طاقه. وحمارةٍ وحشيةٍ جاءت بوصف الربيع في اعتدال الليل والنهار، وجمعت الهالات والأفكار، ودلت على أصل كريم تفتحت في فروعه الأزهار، وحثت بحطوطها الدوح مما تراكم ظلّه فأظلم وأنفجح فأناز. وممرٌ يؤلف على نيفاره، ويسبح ليله في أنهار نهاره؛ يتدفق في مثل أنبوب القناة المضطمر، ويصدق من شبه ركود الربا على الرمال بقطعة من جلدة النمر. وقط الزباد الذي لا تحكيه الأسود في صورها، ولا تسمح غزلان المسك بما يحزنه من عرفه الطيب في سررها، كم تنقل في بيوت وطابت موطننا، ومشى من دار أصحابه فقالوا: ربنا عجل لنا قطنًا، وكذلك من الطيب ما يطيب، وما يزور بنفحة الحبيب؛ قد بعث أكبره، وأفاد أكثره؛ وأستخدم المتعممون به صندله وكافوره وعنبره. وغير هذه الأنواع مما جاد بإرساله، وأتى من كل بديع به وبأمثاله؛ فقبولت بالقبول هذه التحف، وأكرمت إكرام من لها عرف و[بها] اعترف، وحمد سبحانه الذي تسرعت مواطره، وبعثت من طرفها بالروض وما تنوء عنه أزاره، وشرعت بما اتصلت بمصر أوائله وباليمين أو آخره؛ والله تعالى يشكرهممته التي تعالت، وشيعة العلوية التي لأجلها المحامد قد توالى. وقد جهزنا له من التحف المنعم بها ما أمكن تعجيل حمله، وجرت عوائد ملوك الأقاليم بالتشريف من خزائننا العالية بمثله؛ وحملنا رسله من السلام ما تعبق به الفجاج، وتعذب به البحار وهي ملح أجاج. والمراد منه أن يواصل بمكاتبته التي تتناوب الصدور، وتنب عن نحة البذور، وتؤب بما تقدم به من السرور؛ والله تعالى يديم لسلطانه التأيد، ولملكه التأيد، ولاقتداره مابه تعز وتعمد زبيد. إن شاء الله تعالى.

فائدة — المكاتبه إلى صاحب اليمن عن ولي العهد بالسلطنة كالمكاتبه إليه عن السلطان نفسه في جميع المكاتبه على السواء.

وعلى ذلك كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر عن «الأشرف خليل
ابن قلاوون» قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلى صاحب اليمن، بالبشرى بفتح
طرابلس .

وهذه نسخته :

أعزَّ الله تعالى نُصرةَ المقام ! وأوفدَ عليه كلَّ بُشْرَى أحسنَ من أختها ، وكلَّ
تهنئةٍ لا يجلِّها إلا هو لوقتها ؛ وكلَّ مُبهجةٍ يعجزُ البنانُ والبيانُ عن ثبتها ونعتها ، وتبليجِ
فتوئدِ الدررِ والدراريِّ لو رقتْ هذه إلى ترقِّيها وسمتْ هذه إلى سَمِّها . وصبَّحه منها
بكلِّ هاتفةٍ أسمعَ من هوائفِ الحمامِ ، وبكلِّ عارفةٍ أسرعَ من عوارِفِ الزَّهرِ عند
عزائمِ النَّسائمِ ؛ وبكلِّ عاطفةٍ أعنةُ الإتحافِ بالإيجافِ الذي شكَّرتِ الصَّفاحُ منه
أعظمَ قادرٍ والصَّحائفُ أكرمَ قادمٍ ؛ والغزو الذي لا يُخصَّ تهامةً ببشراه بل جميعَ
التُّجودِ والتَّهائمِ ، وذوى الصَّوارمِ والصَّرائمِ ، وأولى القوى والقوائمِ ، وكلَّ ثغرٍ عن
آبهاجِ الإسلامِ باسمِ ، وكلَّ برٍّ بتوصيلِ ماترتبَ عليه من ملاحمِ ؛ وكلَّ بحرٍ عذبٍ
يمونُ كلَّ غازٍ لا يجيبسُ عن جهادِ الكُفَّارِ في عُقرِ الدَّارِ الشَّكائمِ ، وكلَّ بحرٍ ملحٍ كم تغيظُ
من مجاورةِ أخيه لأهلِ الشُّركِ ومشاركتهم فيه فراحَ وموجهُ المتلاطمِ .

المملوكُ يخدمُ خدمةً يقتضى فيها أثرَ والده ، ويجرى في تجليلها على أجهلِ عوائده ؛
ويستفتح فيها أسئلتها تحفُّ به من هنا ومن هنا تحفُّ بحامده ، ويصفُ ولاءً
قد جعله الله أجهلَ عُقوده وأكملَ عقائده ؛ ويسفَعُها باخلاصٍ قد جعله ميله أحسنَ
وسائله وقلبه أزينَ وسائده ؛ ويُطلعُ علمه على أن من سبَّحها المتعرضين إلى الإعلانِ
بشكرِ الله تعالى في كلِّ ما يعرضُ للمسلمين من نصرٍ ، ويفترض لهم من أجرِ غزوٍ كم
قعد عنه ملكٌ فيما مضى من عصرٍ ؛ أن يقدرُوا هذه النعمةَ حقَّ قدرها من التحدُّثِ

بِنِعْمَتِهَا ، وَالتَّنْبِيْهِه بِسَمَاعِ نِعْمَتِهَا ، وَإِرْسَالِ أَعْنَةِ الْأَقْلَامِ بِهَا فِي مِيَادِينِ الطَّرُوسِ ،
وَإِدَارَةِ حِرْبَاءٍ وَصِفِ حَرْبِ (?) إِلَى مُوَاجَهَةِ خَيْرِ الشَّمُوسِ .

وَمَا كَانَتْ غَزَوَاتُ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ مَلِكِ الْبَسِيْطَةِ الْوَالِدِ خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ قَدْ
أَصْبَحَتْ ذِكْرِي لِلْبَشَرِ ، وَمُوَافِقُهُ لِلنَّصْرِ كَمَا جَاءَتْ هِيَ وَالْقَدْرُ عَلَى قَدْرٍ ؛ وَقَدْ صَارَتْ
سَيْرُهَا وَسَيْرُهَا هَذِهِ شَدُو فِي الْأَسْمَارِ ، وَهَذِهِ جَادَةٌ تَسْتَطِيْبُ مِنْهَا حُسْنَ الْخَدُو السُّفَارِ ؛
فَكَمْ قَاتَلَتْ مَنْ يَلِيهَا مِنَ الْكُفَّارِ ، وَكَمْ جَعَلَتْ مِنْ يُوَالِيهَا وَهُوَ مَبْصُورُهَا مَنْصُورًا
بِالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ .

وَمَا أَذَلَّ اللهُ بِأَسْهَابِ طَوَائِفِ التَّنَّارِ فِي أَقَاصِي بِلَادِ الْعِجَمِ ، وَجَعَلَ حَظَّ قُلُوبِهِمْ
الْوَجَعَ مِنَ الْخَوْفِ وَنَضِيبَ وَجُوهِهِمْ الْوَجَمَ ؛ وَأَخْلَى اللهُ مِنْ نُسُورِهِمُ الْأَوْكَارَ
وَمِنْ أُسُودِهِمُ الْأَجَمَ ، وَقَصَّرَتْ بِهِمْ هِمَمُهُمْ حَتَّى صَارُوا يَخَافُونَ الصُّبْحَ إِذَا هَجَمَ ،
وَالظَّنَّ إِذَا رَجَمَ ؛ وَصَارَتْ رُؤْيَا الدَّمَاءِ تَفْرِعُهُمْ فَلَوْ أَحْتَجَّ أَحَدُهُمْ لَتَنْقِيصِ دَمِ
لِمَرِيضٍ لِأَجْحَ مِنْ خَوْفِهِ وَمَا أَحْتَجَّ . وَأَبَادَ اللهُ الْأَرْمَنَ فُحْلَ الْبَنْبِيلِ مِنْهُمْ الْوَيْلَ ،
وَمَا شَمَّرَ أَحَدٌ مِنَ الْجُنُودِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَنْ سَاعِدِ إِلَّا وَشَمَّرَهُ مِنَ الذَّلِّ الذَّلِيلِ ؛ وَلَا
أَثَارَتِ الْحِيَادُ مِنَ الْحَيْلِ عَثِيرًا مَنَعِدًا إِلَّا وَظَنُوهُ مَسَاءً قَدْ أَقْبَلَ أَوْ لَيْلَ ، وَأَتَتْهُ
نُوبَةُ الْقَتْلِ بِهِمُ وَالْإِسَارَ إِلَى التَّكْفُورِ لِيْفُونَ مَلِكِ الْأَرْمَنِ الَّذِي كَانَ يَجِي سَرَّحَهُمْ ،
وَيَمُرُّ صَرَّحَهُمْ ، وَيَسْتَنْطِقُ هَتَفَ التَّنَّارِ وَيَسْتَرْجِعُ صَدَّحَهُمْ ؛ وَتَعَثَّرَ طَرَابُلُسُ
الشَّامِ بِأَنَّهُ خَالَ أِبْرَنْسَهَا الْكَافِرَ ؛ وَلسَانُ شُورَتِهِ السَّفِيرِ وَوَجْهُهُ تَدْيِيرُهُ السَّافِرِ . وَطَالَمَا
غَزَّ وَأَغْرَى ، وَأَجْرَّ وَأَجْرَى وَضَرَّ وَأَضْرَى ؛ فَلَمَّا تَوَكَّلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَعَزِمَ
فَوَكَّلَ ، وَتَحَقَّقَ أَنَّ الْبِلَاءَ بِهِ قَدْ نَزَلَ وَمَا تَشَكَّكَ أَنَّ ذَلِكَ فِي ذِهْنِ الْقَدْرِ قَدْ تَصَوَّرَ
وَتَشَكَّلَ ؛ وَأَنَّ يَوْمَهُ فِي الْفَتَكِ سَيَكُونُ أَعْظَمَ مِنْ أَمْنِيَّتِهِ ، وَأَعْظَمُ مِنْهَا مُعَادَاةُ غَدِهِ ،

وَأَنَّ نَصْرَ اللَّهِ لَنْ يُخْلِفَهُ صَادِقٌ وَعَدَهُ؛ أَكَلَّ يَدَهُ نَدَامَةً عَلَى مَا قَرِطَ فِي جَنْبِ اللَّهِ
 وَسَاقِ الْحَتْفَ لِنَفْسِهِ بِيَدِهِ، فَعَمَّرَ اللَّهُ بُرُوحَهُ الْخَبِيثَةَ الدَّرَكَ الْأَسْفَلَ مِنَ النَّارِ، وَسَقَاهُ
 الْحَتْفَ كَأْسًا بَعْدَ كَأْسٍ لَمْ يَكُنْ لَهَا غَيْرُ الْمَلِكِ مِنْ نَحَارٍ . وَكَانَتْ طَرَابِلُسُ هِيَ ضَالَّةَ
 الْإِسْلَامِ الشَّرِيدَةَ، وَإِحْدَى أَبْقَاتِهِ مِنَ الْأَعْوَامِ الْعَدِيدَةِ؛ وَكَلِمَا مَرَّتْ شَمَخَتْ بِأَنْفِهَا ،
 وَتَأَثَّقَتْ فِي تَحْسِينِ مَنَازِهِ مَنَازِحِهَا وَتَرْبِيَةِ رَيْحَانِهَا وَعَضْفِهَا، وَمَرَّتْ وَهِيَ لِاتْفَازِلُ
 مَلِكًا بَطْرَفِهَا ، وَكَلِمَا تَقَادَمَ عَهْدُهَا تَكَثَّرَتْ بِالْأَفْوَاجِ وَالْأَمْوَاجِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا وَمِنْ
 خَلْفِهَا . إِذِ الْبَحْرُ لَهَا جِلْبَابٌ وَالسَّحَابُ لَهَا نَحَارٌ، وَلَيْسَ لَهَا مِنَ الْبَرِّ إِلَّا بِمَقْدَارِ
 سَاحَةِ الْبَابِ مِنَ الدَّارِ؛ كَأَنَّهَا فِي سَيْفِ ذَلِكَ الْبَحْرِ جَبَلٌ قَدْ أَنْحَطَّ، أَوْ مَيْلٌ أَسْتَوَاءٌ
 قَدْ حَرَجَ عَنِ الْخَطِّ ، وَمَا قَصِدُ أَحَدٌ شَطْطَهَا بِنِكَايَةِ الْإِشْطِ وَأَشْطَطَ .

قَدَّرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ صَرَفَ مَوْلَانَا السَّلْطَانَ إِلَيْهَا الْعِنَانَ، وَسَبَقَ جَيْشُهُ إِلَيْهَا كُلَّ خَيْرٍ
 وَ”لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْعِيَانِ“، وَجَاءَهَا بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةِ وَالسَّعَادَةِ قَدْ حَرَسَتْهُ عَيْونُهَا وَتَلَكَّ
 الْمَخَافُوفُ كُلُّهَا أَمَانَ، وَقَدْ آتَّخَذَ مِنْ إِقْدَامِهِ عَلَيْهَا خَيْرَ حِبَائِلٍ وَمِنْ مُقَاجَاةِهَا أَمَدَّ عِنَانَ؛
 وَفِي خِدْمَتِهِ جُنُودٌ لَا تَسْتَبْعِدُ مَقَازِهِ، وَكَمْ رَاحَتْ وَغَدَتْ وَفِي نَفْسِهَا لِلْأَعْدَاءِ حَرَازَهُ؛
 فَامْتَطَوْا بِجُيُوهِمُ مِنْ جِبَالِ لُبْنَانَ نِيْجَانًا لَهَا صَاغَتَهَا التَّلُوجُ، وَمَعَارِجَ لِمُرَاقِقِهَا غَيْرُ
 الرِّيَاحِ الْهُوجِ؛ وَأَنْحَطَّتْ تَلَكُ الْجِيُوشُ مِنْ تَلَكِ الْجِنَادِلِ، أَنْحَطَّاطُ الْأَجَادِلِ؛
 وَانْدَفَعُوا فِي تَلَكِ الْأَوْعَارِ، انْدَفَاعُ الْأَوْعَالِ؛ وَلَمْ يَحْفَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِسَرَبٍ لِاصِقِ،
 وَلَا جَبِيلٍ شَاهِقِ؛ فَقَالَ: أَهَذَا مِنْخَفِضُ أَوْعَالِ، وَشَرَعُوا فِي التَّحْصِيلِ لِمَا
 يُوْهِي ذَلِكَ التَّحْصِينَ، وَأَبْتَنَى كُلُّ سُورَا أَمَامَ أَسْوَارِهَا مِنَ التَّدْبِيرِ الْحَسَنِ وَالرَّأْيِ
 الرَّصِينِ؛ فَمَا لَبِثُوا إِلَّا بِمَقْدَارِ مَا قِيلَ لَهُمْ دُونَكُمْ وَالْإِخْتِطَابِ، وَقِيلَ الْجَانِبِيُّ عَلَى
 الْإِخْلِيلِ وَعَلَى الرِّقَابِ؛ حَتَّى جَرَّوْهَا بِأَسْرَعٍ مِنْ جَرِّ النَّفْسِ، وَأَجْرَوْهَا عَلَى الْأَرْضِ
 سَفَائِنَ وَكَمْ قَالُوا: السَّفِينَةُ لَا تَجْرِي عَلَى الْيَسِّ؛ وَفِي الْحَالِ قِيلَتْ إِلَيْهَا فَرَاوًا مِنْ

متوقِّفًا مَنْ يَمْشِي بِهَا عَلَى رَجُلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ، وَوَجَّهَتْ سِبَاهُهَا
 وَجُوهَهَا إِلَى مَنَافِذِهَا فَمَا شُوهِدَتْ مِنْهَا عَيْنٌ إِلَّا وَكَانَ قُدَّامَهَا مِنْهَا إِصْبَعٌ ، وَالْقَيْتِ
 الْعَدَاؤُةُ بِنِ الْحَجَارَةِ مِنَ الْحَجَارَاتِ وَالْحَجَارَةُ مِنَ الْأَسْوَارِ ، فَكَمْ تَقَبَّتْ وَنَقَبَتْ عَنْ فُلْدَةٍ
 كَبِدَهَا ، عَنْ (١) وَأَوْقَدَتْ نِيرَانُ الْمَكَايِدِ ثُمَّ فَكَمْ حَوْلَهَا مِنْ صَافِرِينَ
 وَمِنْ صَافِرِينَ ، وَكَمْ رَمْتَهُمْ بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ فَوْقَ الْحَافِرِ كَمَا يُقَالُ عَلَى الْحَافِرِ ، وَمَا بَرِحَتْ
 سُوقُ أَهْلِ الْإِيمَانِ فِي تَفَاقٍ ، عَلَى أَهْلِ التَّفَاقِ ، وَأَكْبَرُهُمْ تُسَاقُ ، أُرَاحَهُمُ الْخَبِيثَةُ
 إِلَى السَّاقِ .

وَكَانَ أَهْلُ عَكَّا قَدْ أُنْجِدُوهُمْ مِنَ الْبَحْرِ بِكُلِّ بَرٍّ ، وَرَمَوْا الْإِسْلَامَ بِكُلِّ شَرٍّ
 وَبِكُلِّ شَرٍّ ، فَصَارَ السُّهْمُ الَّذِي يُخْرَجُ بِهَا لَا يُخْرَجُ إِلَّا مُقْتَرِنًا بِسِبَاهٍ ، وَشُرْفَاتُ
 ذَلِكَ النُّعْرُ كَالثَّلَاثَايَا وَلَكِنِهَا لَكَثْرَةٌ مِنْهَا لَا تَقْتَرُنَ عَنِ ابْتِسَامِ .

وَمَا زَالَتْ جُنُودُ الْإِسْلَامِ كَذَلِكَ ، وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ لَا تُرَى جَمَاعَةٌ مُقَدِّمَةٌ وَلَا مُتَقَدِّمَةٌ
 إِلَّا وَهُوَ يُرَى بَيْنَ أَوْلَادِكَ . وَأَسْتَمَرَّ ذَلِكَ مِنْ مَسْتَهَلِّ رِبْعِ الْأَوَّلِ إِلَى رَابِعِ رِبْعِ الْآخِرِ ،
 فَرَحَفَ إِلَيْهَا فِي بُكْرَةِ ذَلِكَ النَّهَارِ وَهُوَ الثَّلَاثَاءُ زَحْفًا يَقْتَحِمُ كُلُّ هَضْبَةٍ وَوَهْدَةٍ ، وَكُلُّ
 صُلبَةٍ وَصَلْدَةٍ ؛ حَتَّى أَنْجَزَ اللَّهُ وَعْدَهُ ، وَفَتَحَهَا لِلْمُسْلِمِينَ مَجَازًا وَفِي الْحَقِيقَةِ فَتَحَهَا
 وَحْدَهُ ؛ وَطَلَعَتْ سَنَاحِقُ الْإِسْلَامِ الصُّفْرَ عَلَى أَسْوَارِهَا ، وَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ،
 وَجَاسَتْ الْكِسَابَةُ إِلَى دِيَارِهَا ؛ فَاحْتَازَهَا مَوْلَانَا السُّلْطَانُ لِنَفْسِهِ مَلِكًا ، وَمَا كَانَ
 يَكُونُ لَهُ فِي فَتْحِهَا شَرِيكٌ وَقَدْ نَفَى عَنْهَا شِرْكَاءَ ؛ وَكَلَّمَا قِيلَ هَذِهِ طَرَابُلُسُ فُتِحَتْ قَالَ
 النَّصْرُ لِمَنْ قُتِلَ فِيهَا مِنَ النَّجْدِ الْوَاصِلَةِ : وَكَثْرَ عَكَّا وَأَهْلَ عَكَّا ؛ وَأَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا
 قُوَّةَ الْكُفْرِ أَنْكَانًا ، فَكَانَ أَحَدُهَا مِنْ مِائَةِ سَنَةٍ وَثَمَانِينَ سَنَةً فِي يَوْمِ ثَلَاثَا ، وَأَسْتَرِدَّتْ
 فِي يَوْمِ الثَّلَاثَا .

(١) بياض بالاصل .

ولما عَمَّتْ هذه البشائر ، وكلَّ بها مولانا السلطان إلى كلِّ من يَسْتَجِلي حِسانَ هذه العرَّاس ، ويستحلي نَفيس هذه النَّفائس .

سير مولانا السلطان إلى المولى كلِّ بشرى تَقَعَّعَ بها البريد ، لُتَّلى بأمره على كلِّ من ألقى السمع وهو شهيد ؛ وكما عمَّ السرورُ بذلك كلِّ قريب قصد أن يُعمَّ الهناء كلِّ بعيد .

وأصدر المملوك هذه الخدمةَ يتجرب بين يديه نجواها ، ويتوثب بعد هذه الفاتحة المباركة لكلِّ سانحةٍ يحسن لدى المولى مستقرها ومثواها ؛ لأبرح المقام العالى يستبشر لكافة الإسلام بكلِّ فضل وبكلِّ نعمى ، ويفرح بسرح الكفر إذا أتمك وبسفع الملك إذا أيجى ، وبسمع الشرك إذا يصم وبقلمه إذا يصمى ؛ والله الموفق .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات إلى عرب البحرين ومن أنضاف إليهم)

قد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أن بلاد البحرين لم تزل بيد العرب ، وأنها صارت الآن بيد بنى عقيل - بضم العين - من بنى عامر بن صعصعة ، من هوازئ ، من قيس عيلان ، من العدنانية . قال فى " التعريف " : ومنهم قوم يصلون إلى باب السلطان ووصول التجار ، يجلبون جياذ الخيل وكرام المهارى والأولؤ وأمتعة من أمتعة العراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحباء والإنعام والقماش والسكر وغير ذلك ؛ ويكتب لهم بالمساحة فيردون ويصدرون . قال : وبلادهم بلاد زرع وضرع ، وبر وبحر ، ولهم متاجر مريحة ، وواصلهم إلى الهند لا ينقطع ، وبلادهم ما بين العراق والحجاز ، ولهم قصور مبنية ، وأطام عليه ، وريف غير متسع ، إلى ما لم من التعم والماشية ، والحاشية والغاشية ؛ إلا أن الكلمة قد صارت بينهم شتى ،

والجماعة متفرقة . وقد سبق الكلام على بلادهم مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك .

قال في "التعريف" : ورسم المكاتبية إلى كُبرائهم «السامى» بالياء . والعلامة الشريفة «أخوه» ثم مادون ذلك لمن دُونهم .

وَأعلم أنه في "التثقيف" قد جمع بين عرب البحرين وعرب البصرة وما والى ذلك ، وجعل المكاتبية إليهم على ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى — مَنْ يكتب إليه «السامى» بالياء والعلامة الأسم ، وذكر أن بها يكتب أميرهم ، وسماه حينئذ «صَدَقَة بن إبراهيم بن أبى دلف» وأن تعريفه فلان بن فلان . وذكر في رتبته في المكاتبية يومئذ محمد بن مانع ، وأخوه حسين بن مانع ، وعلي بن منصور .

المرتبة الثانية — من يكتب إليه «السامى» بغير ياء والعلامة الأسم . وذكر منهم بَدْران بن مانع — رُويمى بن أبى دلف — زَيْن بن قاسم — يُوْسُف بن قاسم ، سَعِيد بن مَعْدَى — راشد بن مانع — عيسى بن عَرَفَة — ظالم بن مُجَاشِع — إِسْمَاعِيل بن صَوَارَى — كَلْبَى بن ماجد بن بَدْران — مانع بن على — مانع بن بَدْران .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه «مجلس الأمير» والعلامة الأسم . وعدّ منهم جماعة ، وهم عظيم بن حسن بن مانع — موسى بن أبى الحسن — سعد بن مَعَامَس — زيد بن مانع — هلال بن يحيى — معمر بن مانع — محمد بن حَافِيَة .

قلت : وحاصل ما ذكره في "التعريف" و"التثقيف" أن جملة المكاتبية إليهم لاتباع المراتب الثلاثة المذكورة ، والكاتب يستخبر أخبارهم في المقدار ، ويُزَل كل واحد منهم على قدر مرتبته من ذلك كما في الأسماء المتقدمة الذكر .

المهيم الرابع

(في المكاتبه إلى صاحب الهند والسند)

وقد ذكر في " التعريف " أن صاحبه في زمانه كان اسمه أبا المجاهد محمد بن طغلقشاه . ثم قال : وهو أعظم ملوك الأرض شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً ، وبراً وبحراً ، وسهلاً وقفراً ؛ وأن سيمته في بلاده « الإسكندر الثاني » ثم قال : وتالله إنه يستحق أن يسمى بذلك ويوسم به : لانتساع بلاده ، وكثرة أعداده ، وغزير أمداده ؛ وشرف منابت أرضه ، ووفور معادنه ، وما تنبت أرضه ، ويخرج به بخره ، ويحجى إليه ، ويرد من التجار عليه . وأهل بلاده أمم لأخصى ، وطوائف لاتعد . ثم حكى عن قوم ثقات منهم قاضى القضاة سراج الدين الهندى الحنفى ، وهو يومئذ مدرس البيدمرية بالقاهرة ، والتاج البزى ، والشيخ مبارك الأنبجى : أن عسكر هذا السلطان نحو التسعمائة ألف فارس ، وعنده زهاء ألفي فيل يقاتل عليها ، وخلق من العبيد تقابل رجاله مع سعة الملك والحال ، وكثرة الدخل والمال ؛ وشرف النفس والإباء ، مع الاتضاع للعلماء والصلحاء ؛ وكثرة الإنفاق ، وعميم الإحلاق ؛ ومعاملة الله تعالى بالصدق ، وإخراج الكفاية للترزقه ؛ بمرتبات دائمة ، وإدراجات متصلة ؛ بعد أن حكى عن رسوليته دميخوان واقتنار ما قال : إنه لو سكنت النفوس الى براءتهما من التعصب [فيه] لحكى منه العجائب ، وحدث عنه بالغرائب ؛ ثم ذكر أنه أرسل مرة مالا برسوم الحرمين وبيت المقدس ، وهديته للسلطان تزيد على ألف دينار ؛ فقطع عليها الطريق باليمن ، وقيل محضها بأيدي ممالك صاحب اليمن ، لأمر بيت بلبيل ؛ ثم قتل قائلوه ، وأخذ أهل اليمن المال وأكلوه ؛

وكتب عن السلطان إلى صاحب اليمن في هذا كتاب منه « وقد عددت عليه فعلته »
 وقيل فيه : « وفعل مالا يليق ، وأمسى وهو يعدد من الملوك فأصبح يعدد من قطاع
 الطريق » . وقد سبق في الكلام على المسالك والممالك من عظيم هذه المملكة وعظيم
 قدر رجالها ما فيه كفاية عن الإعادة .

قال في " التعريف " : ورسم المكتبة إليه رسم المكتبة إلى القانات الكبار
 المقدم ذكرهم ، في هيئة الكتاب وما يكتب به والطغرة والخطبة . وألقابه « المقام
 الأشرف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الأعظمى ، الشاهنشاهى ، العالمى ،
 الجهادى ، المرابطى ، المناغرى ، المظفرى ، المؤيدى ، المنصورى ، إسكندر
 الزمان ، سلطان الآوان ، منبع الكرم والإحسان ، المعفى على ملوك آل ساسان ، وبقايا
 أفراسياب وخازان ، ملك البسيطة ، سلطان الإسلام ، غياث الأنام ، وأحد الملوك
 والسلاطين » ويُدعى له . قال : ولم يكتب إليه في ذلك الوقت لقب ينسب
 إلى الخلافة نحو « خليل أمير المؤمنين » ومايجرى هذا الجرى ، إذ كان قد بلغنا أنه يربأ
 بنفسه إلى أن يدعى الخلافة ، ويرى له فضل الإنافه .

قلت : مقتضى ما ذكره في " التعريف " حيث قال : إن رسم المكتبة إليه رسم
 المكتبة إلى القانات الجبار في هيئة الكتاب وما يكتب به ، والطغرة والخطبة ،
 أن المكتبة إليه تُفتتح بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله » كما تقدم في افتتاح المكتبات إلى
 القانات . والذي ذكره في " التثقيف " أن المكتبة إليه تكون في قطع البغدادى
 الكامل بالذهب والأسود ، كما جرت العادة به ، يعنى في كُتُب القانات ، إلا أنه
 جعل رسم المكتبة إليه : « أعز الله تعالى أنصار المقام ، العالى ، السلطانى ،

(١) في الأصل وقد سبق القول في الكلام الخ ولكن زيادة « القول » ضارة .

العالمى ، العادلى ، الملكى ، الفلانى » . ثم قال : وهذه الألقاب سلطان كاملان وبينهما بيت العلامة على العادة ، وبعد السطرين المذكورين فى الجانب الأيمن من غير بياض « أبو المجاهد محمد ابن السلطان طغلقشاه زيدت عظمته » . ولا يذكر لقبه . والدعاء ، والعلامة « أخوه » . وتعريفه « صاحب الهند » . وقد رأيت تصويره فى بعض الدساتير على هذه الصورة :

أعز الله تعالى أنصار المقام العالى

بيت العلامة

السلطانى ، العالمى ، العادلى ، الملكى ، الفلانى
قال فى " التعريف " : والعنوانُ جميعُه بالذهب وهو سلطان ، وتعريفه « صاحب الهند » . وبقية الكتاب بالسواد والذهب أسوة القانات ؛ وبه يُشعر كلام " التعريف " فيما تقدم .

وهذا دعاء معطوف وصدر يلىق به ، ذكره فى " التعريف " وهو :

ولا زال سلطانه للأعداء مُبيرا ، وزمانه بما يقضى به من خلود مُلكه خيرا ،
وشأنه وإن عظم يتدفق بحرا ويُرسي تيرا ، ومكانه وإن جل أن يجلبه مسكى الليل -
يملاً الأرجاء أربجا والوجود عيرا ، وإمكانه يستكين له الإسكندر خاضعا وإن حاز
نعيما جما ومُلكا كبيرا ، ولا برحت الملوك بولائه نتشرف ، وبآلائه نتعزف ، وبما
تطع مهابتة من البيض بيض الهند فى المهج نتصرف . المملوك يخدم بدعاء يحلق إلى
أفقه ، [ويحل العلياء والحجرة فى طرفه ^(١)] ، ويهدى منه ما يعبدل به الناج فوق مفرقه ،
ويعتد له النجم ولا يثنيه إلا وسادة تحت مرفقه ؛ ويسمو إلى مقام جلاله ولا يسأم

(١) الزيادة من " التعريف " وهى لازمة .

من دعاء الخير، ولا يَمَلُّ له إذا مَلَّتْ النجوم عن السير، ولا يزال يَصِفُ ملكه المَحْمَدِيَّ
بأكثر مما وُصِفَ به المُلْكُ السليمانى، وقد قال: وأوتينا من كلِّ شَيْءٍ ، وعلمنا
مَنْطِقَ الطير .

قلت : وهذا الدعاء المعطوف مما يؤكد آبتداء المكتابة بالدعاء، خلافا لما تقدم
أنه مقتضى تصوير كلامه في "التعريف" .

وأعلم أنَّ في هذه المكتابة على ما ذكره في "التعريف" شيئين قد خالف فيهما
قاعدة المكتابات عن الأبواب السلطانية .

أحدهما - إتيانه في "التعريف" في ألقابه بالمولوى . والثانى - قوله في الصدر المتقدم
الذكر « المملوك يخدم » . فقد ذكر صاحب "التعريف" في كتابه "عرف التعريف" :
أن السلطان لا يكتب عنه في العلامة « المملوك » وإنما خالف القاعدة في ذلك هنا
تعظيماً لمقام المكتوب إليه وإعلاءً لرتبته ، حيث قال في أول كلامه : إنه أعظمُ
ملوك الأرض على ما تقدم ذكره ، فعبّر عن مقامه بما يليق به ، وخاطبه بما يليق
بخطابه ، كما تقدم أنه كان يُكْتَبُ إلى أبواب الخلافة « المملوك » أو « الخادم ينتهبُ
ثرى الأعتاب » أو « يقبَلُ الأرض » ونحو ذلك تعظيماً لمحل الخلافة ، لاسيما
وقد تقدم أن صاحب الهند حينئذ كان يدعى الخلافة ، إلا أن نظام هذا الملك قد
أخْلَ ونَقَصَ عما كان يموت السلطان محمد بن طغلقشاه حين توفى ، وأستقر مكانه
أبن خالته فيروز شاه .

ولعل المكتابة التي ذكرها في "التثقيف" إنما رُتبت على حُكْم ما كان في أيامه
بعد ذكر المكتابة المذكورة، بعد أن ذكر أن محمد بن طغلقشاه مات وقام فيروز شاه

(١) لعل هذه البعدية برمتها من زيادة الناصح أو طغيان القلم كما لا يخفى .

مقامه ، إلا أنه مثل المكتبة المذكورة بمحمد بن طغلقشاه ، فاقتضى أن يكون هو المعنى بالمكتبة . ثم تفرقت المملكة بعد ذلك في سلطنتين ، فيما أخبرني به بعض أهل الهند ؛ ثم تزايد تقصُّها بعد أن غزا [ها] تمولك وغلب عليها ؛ ثم نزع عنها . وبكل حال فلا ينبغي أن يقصَّر بصاحب الهند عن رتبة القانات . ولم أقف على نص مكتبة كتب بها إلى صاحب الهند فأذكرها .

المقصود الثاني

(من المصطلح المستقر عليه الحال من المكتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية في المكتبات إلى ملوك الغرب ، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(في المكتبات إلى صاحب أفريقية ، وهو صاحب تونس ، وتتضم إليها بجاية وفسنطينة تارة ، وتنفرد عنها أخرى)

وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أن حد هذه المملكة غربا من جزائر بني مرغان إلى عقبة برقة الفارقة بين طرابلس وبين برقة ، وهي نهاية الحد الشرقي ؛ ومن الشام البحر^(١) ؛ ومن الجنوب آخربلاد الجريد والأرض السواخة ؛ إلى ما يقال إنه موقع المدينة المسماة بمدينة النحاس . ثم قال : وهو أجل ملوك الغرب مطلقا .

وقد تقدم هناك أيضا ذكر حال مملكتها ومن ملكها جاهلية وإسلاما ، وأنها كانت قبل الإسلام بيد البربر حين كان معهم جميع المغرب ؛ ثم آتت منها الروم

(١) أي الروم كما تقدم في ج ه أثناء الكلام على مملكة تونس .

والفرنج إلى أن آتته حال الفتح الإسلامي إلى جرجيس ملك الفرنج في جملة ممالك المغرب، ودار ملكه يومئذ سبيلة، إلى أن فتحت في خلافة عثمان رضى الله عنه على يد عبد الله بن أبي سرح، وتوالت عليها نواب الخلفاء، وصارت دار المملكة بها القيروان حتى صارت منهم إلى [بني الأغلب] ^(١) ثم إلى العبيديين بنى عبيد الله المهدي، ثم الموحدين أصحاب المهدي بن تومرت، وهي بأيديهم إلى الآن. وهي مستقرة الآن بيد الحفصيين منهم، وهم يدعون النسب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فيقولون: أبو حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وأثود بن علي بن أحمد بن والآل بن إدريس بن خالد بن اليسع بن إلياس بن عمر بن واقتن ابن محمد بن نجيه بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمون بها من بنى أبي حفص يدعون الخلافة، ويدعى القائم منهم في بلاده بأمير المؤمنين، وربما كتبه بها بعض ملوك المغرب. قال في "التعريف": ومن أهل النسب من ينكر ذلك، ويجعلهم تارة بنسب إلى عدي بن كعب: رهط عمر بن الخطاب دون بنى عمر. ومنهم من ينسبهم إلى هنتاة من قبائل البربر بالمغرب، وهي قبيلة عظيمة مشهورة.

وهي الآن (إلى حدود الثمانمائة) بيد السلطان أبي فارس عزوز؛ وقد دوح البلاد وأظهر العدل ورفع منار الإسلام. وقد ذكر في "التعريف" أن السلطان بها في زمانه كان المتوكل على الله أبو يحيى أبو بكر.

ورسم المكاتبه إليه فيما ذكره في "التعريف" أن يكتب بعد البسملة. «أما بعد حمد الله» بخطبة مختصرة في مقتضى الحال، ثم يقول فهذه المفاوضات، أو النجوى، أو المذاكرة، أو المطارحة، أو ما يجرى مجرى ذلك، ثم يدى من طيب السلام (ومن

هذا ومثله (إلى الحضرة الشريفة ، العليّة ، السنية ، السريّة ، العالمة ، العادليّة ، الكاملية ، الأوحديّة ، حضرة الإمارة العدويّة ، ومكان الإمامة القرشيّة ، وبقية السّلالة الطاهرة الزكيّة ، حضرة أمير المسلمين ، وزعيم الموحّدين ، والقائم في مصالح الدنيا والدين ، السلطان السيّد الكبير ، المجاهد ، المؤيّد ، المرابط ، المناظر ، المظفر المنصور ، المتوكّل على ربه ، والمجاهد في حبه ، والمناضل عن الإسلام بذبه ، فلان ويدعى له بما يناسب مختصراً ، ثم يذكر ما يليق بكرم الحدود .



صدر آخر - من "التعريف" أيضا :

صدرت إليه تهدي من طيب السلام ما ترقى في جانبه الغربي أصابته ، و يروق فيما ينصبّ لديه من أنهار النهار جداوله ، ويحمله لكلّ غادٍ ورائح ، وتجري به السفن كالمُدُن والركائب الطلائح ، وتخصّ ذلك المقتر منه بثناءٍ يعزّل لأنّ ينيب بعده الدار ، ويستطلع ليل العراق به من فرق أفريقية النهار ، وتحامى مصر عن جارها المنعّه ، وتفخر بجارتها الشمس التي لا ترى في أفقها إلا مبرّقه .

ولم يذكر في "التعريف" قطع الورق ، ولا العنوان ، والخاتمة ، والعلامة ، وما في معنى ذلك . والذي ذكره في "التثقيف" أنّ رسم المكتبة اليه في قطع الثلث بقلم التوقيعات ، نظير ما كتبت به لصاحب فاس ؛ وهو أن يكتب بعد البسملة بحيث يكون تحتها سواءً في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبد الله ووليه » ثم ينحلي مقدار بيت العلامة ؛ ثم تكتب الألقاب الشريفة من أول السطر مسامتا للبسملة . وهي « السلطان ، الأعظم ، المالك ، المملك ، الفلاني ، السيّد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المؤيّد ، المجاهد ، المرابط ، المناظر ، المظفر ، الشاهنشاه . وهذه

تختصر غالباً - ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محي العدل في العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ، فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقاليم والأمصار ، إسكندر الزمان ، مولى الإحسان ، جامع كلمة الإيمان ، مملك أصحاب المنابر والتخوت والتيجان ، ملك البحرين ، مسلك سبيل القبلتين ، خادم الحرمين الشريفين ، ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ؛ سلطان البسيطة ، مؤمن الأرض المحيطة ؛ سيد الملوك والسلاطين ، ولي أمير المؤمنين ، أبو فلان فلان ، ابن الملك الفلاني فلان الدين والدنيا « ويرفع في نسبه إلى منتهاه « خلد الله سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه . ويجهتد أن يكون « وأعوانه » آخر السطر أو قريباً من آخره . قال : والواجب بدل ولي أمير المؤمنين قسيم أمير المؤمنين ؛ ثم يقول : يخص الحضرة ، العالمة ، السنية ، الشريفة ، الميمونة ، المنصورة ، المصونة ؛ حضرة الأمير العالم ، العادل ، الغايد ، المؤيد ، الأوحد ، فلان ؛ ذخر الإسلام والمسلمين ، عدة الدنيا والدين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، سيف جماعة الشاكرين ، صلاح الدول ، والدعاء بإهداء السلام والشكر . ثم بعد حمد الله بحطبة مختصرة جداً ، فإننا نوصح لعلمه الكريم ؛ وتعريفه « صاحب تونس » .

قلت : وخطابه بالإخاء .

وهذه نسخة كتاب كتب بها عن الظاهر ”برقوق“ من إنشاء علاء الدين ، وهي

بسم الله الرحمن الرحيم :

من عبد الله وليه .

السلطان الأعظم المالك ، المملك الظاهر ، الأجل العالم العادل ، المجاهد المرابط ، المناغر المؤيد ، المظفر ، سيف الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ،

مُحِي العَدْلُ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، قَامِعِ الْخَوَارِجِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ؛
 وَارِثِ الْمُلْكِ ، مَلِكِ مَلُوكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالثَّرَكِ ، مُبِيدِ الطَّغَاةِ وَالْبَغَاةِ وَالْكَفَّارِ ،
 مَمْلَكِ الْمَمَالِكِ وَالْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ ؛ إِسْكَندِرِ الزَّمَانِ ، نَاشِرِ لِرِوَاءِ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ؛
 مَلِكِ أَصْحَابِ الْمَنَابِرِ وَالْأَسْرَةِ وَالتَّخُوتِ وَالتَّيْجَانِ ؛ مَالِكِ الْبَحْرَيْنِ ، صَاحِبِ سُبُلِ
 الْقِبْلَتَيْنِ ، خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ؛ ظَلَّ اللَّهُ فِي أَرْضِهِ ، التَّائِمِ بِسُنَّتِهِ وَقَرَضِهِ ، سُلْطَانِ
 الْبَسِيطَةِ ، مُؤَمِّنِ الْأَرْضِ الْحَيْطَةِ ؛ سَيِّدِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ ، قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
 «أَبِي سَعِيدِ بَرْقُوقٍ» خَلَدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ ، وَنَصَرَ جُنُودَهُ وَأَعْوَانَهُ ، وَأَفَاضَ عَلَى الْعِبَادِ
 وَالْبِلَادِ جُودَهُ وَإِحْسَانَهُ ؛ تَحِيَّةً تُتَارَجُ نَفْحًا ، وَتَبْلُجُ صُبْحًا ؛ وَتَطْوِي بِعَرْفِهَا نَشْرَ
 الْخُزَامِي ، وَتَعِيدُ مَيِّتَ الْأَشْوَاقِ حَيًّا إِذَا مَا ؛ تُحْصُ الْحَضْرَةَ الْعَلِيَّةَ ، السَّنِيَّةَ السَّرِيَّةَ ؛
 الْمَظْفُورَةَ الْمَيْمُونَةَ ، الْمَنْصُورَةَ الْمُصُونَةَ ؛ حَضْرَةَ الْأَمِيرِ الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْمَجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ،
 الْأَوْحَدِ ؛ ذُنْحِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، عُدَّةِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، قَدْوَةِ الْمُوَحِّدِينَ ، نَاصِرِ الْغُرَاةِ
 وَالْمَجَاهِدِينَ ، سَيْفِ جَمَاعَةِ الشَّاكِرِينَ ، صِلَاحِ الدُّوَلِ ، الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ أَحْمَدِ ،
 ابْنِ مَوْلَانَا الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ ، ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِي يَحْيَى أَبِي بَكْرٍ ،
 ابْنِ الْأَمْرَاءِ الرَّاشِدِينَ ، أَعَزَّ اللَّهُ دَوْلَتَهُ وَأَذَلَّ عِدَاتَهُ ، وَأَنْجَزَ مِنْ صُعودِ أَوْلِيَائِهِ
 وَسُعودِ آلائِهِ صَادِقَ عِدَاتِهِ .

بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ جَامِعِ الشَّمْلِ بَعْدَ تَفْرِيقِهِ ، رَاتِقِ خَلِّ الْمَلِكِ عِنْدَ تَمْزِيْقِهِ ؛ وَالشَّهَادَةِ
 بِأَنَّ لِلَّهِ إِلهًا هُوَ مُبِيدُ الْبَاطِلِ بِحَقِّ سِرِّهِ وَسِرِّ تَحْقِيقِهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا
 مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مَوْحِّحِ سَبِيلِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَطَرِيقِهِ . وَإِهْدَاءِ سَلَامٍ مَا الزَّهْرُ
 بِأَعْبَقٍ مِنْ قَبِيْقِهِ ، وَثَنَاءِ مَا الرُّوضُ بِأَعْطَرٍ مِنْ خَلُوقِهِ ؛ فَإِنَّا نُؤَمِّعُ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ أَنَّ كِتَابَهُ
 الْكَرِيمِ وَرَدَّ وَرُودَ السَّنَةِ عَلَى الْجَنِّ السَّاهِرِ ، أَوْ الْمُنْزَنَةِ عَلَى الرُّوضِ الزَّاهِرِ ؛ أَوْ الزَّلَالِ
 عَلَى الْأَوَامِ ؛ أَوْ الْبُرْءِ عَلَى السَّقَامِ ؛ فَهَدَدْنَا إِلَيْهِ يَدَ الْقَبُولِ ، وَارْتَحْنَا لَهُ أَرْتِيَا حِ الشَّمَالِ

إلى السَّمُول، ومِلْنَا إلى مَفَاكِهِتِه مِيلَ الغُصُونِ إلى الرِّيحِ، وامتزجنا بمصافاته آمتراج
الماء بالراح، وفضضنا ختامه عن فضي كلامه، وذهبنا إلى ذهبي نثاره ونظامه،
وتأملناه تأملا كل نظير عبده وخدامه، ووقفنا عليه ووقف شحيح ضاع في التراب
حاتمه، ونظمنا جواهر اعتباره في قلائد الأفكار، وصوبنا إلى اختياره كما صبت
النفوس إلى الإذكار، وفتحنا له جهد الطاقة بابا من المحبة لم يعلق، ونقسم بمن خلق
الإنسان من علق أنها غير قلوبنا لم تعلق، فإذا سطوره جنود مصطفه، أو قيان بها
الحسان محتفه، وإذا رفه طراز حله، أو عقد شدة البنان وحله، وإذا لفظه قدرق
وراق، ومرر بالأسماع فملا بجلاوته الأوراق، وإذا معناه أطف من النسيم
السارى، وأعذب مذاقا من الماء الجارى، وإذا سجعهم يفوق سجع الحمام، ويؤزرى
بالروض الضاحك لبكاء الغمام، وإذا سلامه قد حيته الأزاهر، وطوى بعرفه نشر
الروض الزاهر، وإذا هناؤه قد ملك عنان التهانى، وأستطر عنان الأمان من سماء
الأماني، فعبّر لنا لفظ غيره عن معنى المحبة، وقرب شاسع الذكر وإن بعد المدى
بين الأحبه، وأقام شاهد الإخاء على دعوى الإخلاص فقليلناه، ونادى مطيع المودة
فاستجبنا له ولبيانه، سقيا له من كتاب غدى بلبان الفصاحه، وجرى جواد التماحه
من مضمار الملاحه، لاعيب فيه، سوى بلاغه فيه، ولا نقص يعتريه، سوى كمال
باريه، لعمرى لقد فاق الأواحر والأوائل، فما أجدر كلامه بقول القائل :

وكلام كدمع صب غريب * رق حتى الهواء يكثف عنده!

راق لفظا ورق معنى فأضحى * كل شعر من البلاغة عبده!

لله دره من كتاب حلب دز الأفرح، وجدد من أبواب المسرة ما كان قد أخلقت
يد الأثرح، فهمنا معناه فهمنا، وشرحنا متن فخواه فأنشرحنا، وعلمنا ما اتصل

بِسْمِعِكُمْ مِنْ خَبَرِنَا الْعَجِيبِ ، وَحَدِيثِ أَمْرِنَا الْقَدِيمِ الْغَرِيبِ ، الَّذِي أَظْهَرَ فِينَا اللَّهُ
 أَسْرَارًا ، وَكَتَبَ لَنَا مِنْهُ عَنَايَةً كَبَتَ بِهَا أَسْرَارًا ، جَلَّ جَلَالُهُ خَافِضٌ رَافِعٌ ، مُعَلِّمٌ بِحِكْمَتِهِ
 وَاضِعٌ ، سَبْحَانَهُ أَوْجَدَ بَعْدَ الْعَدَمِ وَأَنْسَى شَيْئًا أَنْشَأَ ، قُلِ اللَّهُمَّ مَا لِكَ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمَلِكَ
 مِنْ تَشَاءَ ، كَسَرَ وَجَبَرَ ، وَقَرَنَ الْمَبْتَدَأَ بِالْخَبَرِ ، وَهَبَّ مَا كَانَ سَلْبًا ، وَجَعَلَ لَصَبْرِنَا حَسَنًا
 الْمُنْقَلَبَ ، أَعَادَنَا إِلَى الْمَلِكِ مَعَ كَثْرَةِ الْأَعْدَاءِ وَقِلَّةِ الْأَنْصَارِ ، وَأَظْهَرَنَا بَعْدَ الْخَفَاءِ
 فَاعْتَبَرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ، وَأَبْرَزَ إِبْرِيذَنَا بَعْدَ السَّبْكِ خَالصًا يَرُوقُ النَّاطِرَ ، وَيَفُوقُ
 بَرَوْتَهَ وَجَهَ الرِّوْضِ النَّاضِرِ ، فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ فِي ذَلِكَ سِرًّا خَفِيًّا ، لَمْ يَزَلْ بِبِرْكَةِ رَسُولِهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَا حَفِيًّا ، فُتِمَ لَنَا فِيهِ بِوَأَجِبِ الْهَنَاءِ ، وَأَحَاطَ بِنَا طَوْلُكُمْ الطَّوِيلُ
 مِنْ هَاهُنَا وَهَاهُنَا ، فَاسْتَجَلَيْنَا مِنْ كِتَابِكُمْ عَرَائِسَ بُشْرَاهُ ، وَحَمِدْنَا عِنْدَ صَبَاحِ طَرْسِهِ
 لَيْلَ مَسْرَاهُ ، وَشَكَرْنَا لَهُ هَذِهِ الْأَيْدِيَّ الَّتِي تَقْصُرُ عَنْهَا الْأَيْدِي الْمُنْتَاطِلِ ، وَشَيْنَا إِلَيْكُمْ
 عِنَانَ الثَّنَاءِ الَّذِي فَاقَ بِمَجَالِيهِ الرِّوْضَ الْأَرِيضَ وَنَحَائِلَهُ .

وَمَا تَمَثَّلَ إِلَيْنَا رَسُولُكُمْ الْمَكْرَمُ ، وَصَاحِبُكُمْ الْكَامِلُ الْمَعْظَمُ ، بِذُو الْأَصْلِ الطَّاهِرِ ،
 وَالنَّسَبِ الْبَاهِرِ ، وَالرَّأْيِ السَّدِيدِ ، وَالْبَأْسِ الشَّدِيدِ ، فَلَانَ : لِأَزَالَ عَلَى مَقَامِهِ حَسَنًا ،
 وَجَفَنُ عَلَيْهِ لَا يَبِيعُ الْجَهْلُ عَلَيْهِ وَسَنًا ، فَأَبْدَى إِلَيْنَا مَا فِي وَطْأِهِ ، وَأَنْجَلَ الصُّدُورَ
 بِحِكْمَةِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ خُطَابِهِ ، وَأَخَذَ يَجَادِبُنَا عَنْكُمْ أَطْرَافَ الْأَحَادِيثِ الطَّيِّبَةِ ، وَيُرْسِلُ عَلَيْنَا
 مِنْ سَمَاءِ مَحَبَّتِكُمْ مَرْزَنَهَا الصَّيْبَةَ ، وَأَطْرَبَنَا بِسَمَاعِ أَخْبَارِكُمْ ، وَنَصْرِ أَعْوَانِكُمْ وَأَنْصَارِكُمْ ،
 وَنَبَّهَ عَلَيَّ مَا أُوْدِعَهُ كِتَابِكُمْ ، وَتَضَمَّنَتْهُ مِنَ النُّصْرَةِ خُطَابِكُمْ ، وَدَوَسَ جُنُودَكُمْ جَزِيرَةَ
 «غُودِش» وَعَوَّدَهُم بِالْمَنِّ وَالْمَنْحِ ، وَتَلَاوَتِهِمْ عِنْدَ الْإِنْتِصَارِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾
 وَقُفُّوهُمْ مُتَفَيِّئِينَ مِنَ الْجِهَادِ بِظَلَّةٍ ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، بَعْدَ أَنْ نَعَقَتْ مِنْهُمْ
 عَلَى الْكُفَّارِ الْغُرَبَانَ ، وَأَقْتَنَصَتْ الرِّجَالَ آجَالَهُمْ أَقْتِنَاصَ الْعِقْبَانِ ، وَجَاءَتْهُمْ كَالْجِبَالِ

الرَّوَّاسِي ، وَظَفِرَتْ بِهِمْ أَظْفِيرُ الرَّمَاةِ وَمَخَالِبُ المَرَّاسِي ؛ وَغَنَّتْ عَلَيْهِمُ أوتَارُ القِيسِيَّةِ
فَأَرْقَصَتْ رُؤسَهُمْ عَلَى الصَّرْبِ ، وَسَقَمَتْهُمْ كُؤُوسُ الرَّدَى مُتْرَعَةً وَنَعِمَ هَذَا الشَّرْبُ
لأَوْلَائِكَ الشَّرْبِ ؛ وَأَعَادَتِ المَسْلِمِينَ بِالعَنَائِمِ إِلَى الأوطَانِ بَعْدَ نَيْلِ الأوطَارِ ، وَبَشَّرَتْ
الْحَوَاطِرَ بِمَا أَقْرَبَ العُيُونَ مِنَ النَّجَاحِ وَالنَّجَاةِ مِنَ الأَخْطَارِ ؛ هَذَا وَالعَدُوُّ المُلْقَى السَّلْمَ عِنْدَ
الجِهَادِ ، جِيءَ بِهِمْ مَقْرَبِينَ فِي الأَصْفَادِ ؛ يَاهَا غَزَاةُ أَشْرُقِ نُورِهَا كَالغَزَالَةِ ، وَأَشْرُقِ
يَوْمَ إِسْلَامِهَا عَلَى لَيْلِ الكُفْرِ فَأَزَالَهُ ، وَتَوْلَدْ مِنْهَا الجِهَادُ فَلَا يَرَى بَعْدَهَا إِنْ شَاءَ اللهُ
عَقِيماً ، وَتَلَا لِسَانُ الشُّوقِ إِلَيْهِ ﴿ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . لَا زَالَتْ
رِقَابُ الأَعْدَاءِ لِأَسْيَافِكُمْ قِرَابًا ، وَغَزَّ وَاتَمَّ الصَّالِحَةُ تُنِيلِكُمْ مِنَ اللهِ أَجْرًا وَثَوَابًا .

وَمَا عُرِضَتْ عَلَيْنَا مِنْ جُودِكُمْ عِنْدَ العِشِيِّ الصَّافِيَاتِ الجِيَادِ ، وَحَلَيْنَا مِنْهَا
بِقَلَائِدِ مَنَّا الأَجْيَادِ ؛ نَقَسَ لَقَدْ حَيْرَتَنَا ، أَلْوَانُهَا إِذْ حَيْرَتَنَا .

فَمِنْ أَشْهَبَ - كَأَنَّ الشُّهْبَ لَهُ قَيْصَهُ ، أَوِ الصَّبَاحَ أَلْبَسَهُ قَيْصَهُ ؛ أَوْ كَأَنَّما قَلْبُ
مِنَ المُجَلِّينِ فِي قَالِبِ البِياضِ ، وَسُقِيَ سِوَادُ أَحْدَاقِهِ أَقْدَاحَ الرِّبَاحَةِ مِنْ غَيْرِ حِيَاضِ .
وَمِنْ أَدْهَمَ - كَأَنَّ النَّقْسَ لِمَسِّهِ فِي مِدَادِهِ ، أَوِ الطَّرْفَ أَمَدَ طَرَفَهُ بِسِوَادِهِ ؛ أَوْ كَأَنَّما
تَقَمَّصَ إِهَابَ اللَّيْلِ ، لَمَّا طَلَعَ عَلَيْهِ بَجْرُ غُرَّتِهِ فَوَلَّى مَشْمَرَ الذَّيْلِ .

وَمِنْ أَحْمَرَ - كَأَنَّما صَبِغَ مِنَ الذَّهَبِ ، أَوْ كَوَّنَ مِنَ النَّارِ وَاللَّهَبِ ؛ أَوْ كَأَنَّ الشَّقَقَ
أَلْبَى عَلَيْهِ قَيْصَهُ ثُمَّ أَشْفَقَ ، أَوِ الشَّقِيقَ أَجْرَى عَلَيْهِ دَمْعُهُ دَمًّا وَجِيهَهُ شَقَقَ .

وَمِنْ أَشْقَرَ - كَأَنَّما أَلْبَسَ ثَوْبَ الأَصِيلِ ، وَبَشَّرَ السَّرِيَّةَ يَمِينُ طَلَعْتَهُ بِالنَّصْرِ
وَالتَّحْصِيلِ ؛ أَوْ كَأَنَّ النَّصَارَ كَسَاهُ حُلَّةَ العُشَاقِ ، وَقَدْ آدَرَعُوا بِأَسْوَاقِ المِحْبَةِ مَطَارِفَ
الأَشْوَاقِ ؛

ومن أخضر - كما تَلَفَّع من الروض الأريض بأوراقه، أو صَبَّغ بِالْعِدَارِ الْخَضِرَ
وقد سُقَّتْ عَلَيْهِ مِرْأَةُ عِشَاقِهِ؛ أَوْ كَمَا تَمَّا الرُّمُودُ تَلْوِيئُهُ، أَوْ مِنْ شَارِبِ الشَّادِنِ تَكْوِينُهُ؛
كُلُّ بَطْرِفٍ مِنْهَا يَسْبِقُ الطَّرْفَ، وَيُرْوِقُ النَّاطِرَ بِالْحُسْنِ النَّاضِرِ وَالطَّرْفَ؛ يُقَامُ بِهِ حُجَّةٌ
الإعراض وهو باعترافٍ ممتطيه قادر ملي، وينصب إلى الإدراك حسن السير جُحْمُودِ
صَخْرِ حَطِّهِ السَّيْلُ مِنْ عَلِيٍّ - فَاسْرَجْنَا لَهَا جِوَادَ الْقَبُولِ، وَأَمْتَطَيْنَا مِنْهَا صَهْوَةَ كُلِّ
مَامُولٍ؛ وَأَعَدَدْنَاهَا مَرَاكِبَ لَأَوَاكِبِ، وَلِلدَّلِيلِ الْمَهْمَاتِ الْوَاقِعَةَ بَدُورًا وَكَوَاكِبِ؛
وَأَطْلَقْنَا أَعْنَةَ شُكْرَاهَا فِي مِيَادِينِ الْحَامِدِ، وَطَفِقْنَا نُرْجِعُ ذِكْرَهَا بَيْنَ شَاكِرٍ وَحَامِدِ .

مكاتبة وزير تونس

رأيت في الدستور المنسوب للقرت العلاثي بن فضل الله أنه كتب إلى أبي عبد الله
أبن بعلاص .

صدرت هذه المكاتبه إلى ^(٢) الشَّيْخِيّ، الكبيريّ، العالميّ، الفاضليّ،
الأوحديّ، الأكلبيّ، الأرشديّ، الأجمديّ، الأثيريّ، البليغيّ، الفلانيّ، مجد
الإسلام، بهاء الأنام، شرف الفضلاء، زين العلماء، نجل الأكاير، أوحد الأعيان،
بركة الدولة، صفوة الملوك والسلاطين؛ (ويدعى له بما يناسبه) . وتوضَّح لعلمه المبارك
كيت وكيت؛ ولم يذكر قطع الورق ولا العلامة ولا التعريف . والذي يظهر أن قطع
الورق العادة، والعلامة «أخوه» . والتعريف «وزير تونس» .

(١) الظاهر أن هذا هو جواب لما عرضت قد قرن بالفاء وهو جائز بعد لما وحتى إذا تأمل .

(٢) بياض بالأصل والظاهر أنه " إلى المجلس الشينخي الخ " .

الجملة الثانية

(في مكتبة صاحب الغرب الأوسط ، وهو صاحب تلمسان)

وقد تقدّم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك الكلام على هذه المملكة ومن ملكها جاهليّة وإسلامًا ، وهي الآن بيد بني عبد الواد من زناتة من قبائل البربر - والقائم بها الآن منهم إلى حدود الثمانمائة من الهجرة هو السلطان أبو زيّان ، ابن السلطان أبي حمو : موسى بن يوسف ، بن عبد الرحمن ، بن يحيى ، ابن يغمراسن ، بن زيّان ، بن ثابت ، بن محمد ، بن ركدار ، بن تيدوكس ، بن طاع الله ، ابن علي ، بن القاسم ، بن عبد الواد .

قلت : وذكر هذه المملكة في "مسالك الأبصار" مضافةً إلى مملكة فاس :
لأنّ نضمامها حينئذٍ إليها في مملكة السلطان أبي الحسن المرينيّ : صاحب فاس في زمانه ،
ولذلك لم يذكر لصاحبها مكتبةً في "التعريف" . على أنّي رأيت من صاحبها موسى
ابن يغمراسن مكتبةً إلى الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب مصر . وسيأتي إيرادها
في جملة المكتبات الواردة إلى هذه المملكة . وذكر صاحب "التثقيف" أن صاحبها
في زمانه في الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» أي سلطانها يومئذ أبو حفص
عمر بن أبي عمران موسى ، وأن المكتبة إليه مثل المكتبة إلى صاحب تونس المقدم
ذكره على السواء . وذكر أنه كتب ذلك إليه ورأى جماعة كتّاب الإنشاء يكتبونه ،
وكذلك رأيت في الدستور المنسوب إلى المقرّ العلائي بن فضل الله ، ولم أظفر بصورة
مكتبة فأذكرها .

(١) في "العبر" ج ٧ ص ٧٥ ذكرها وحرر .

الجملة الثالثة

(في المكتبة إلى صاحب الغرب الأقصى)

وهو صاحب فاس، وتعرف مملكته ببرِّ العُدوة . وقد تقدم الكلامُ على مملكتها وأحوالها ومن ملكها جاهليَّةً وإسلاماً في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ، وأنها الآن بيد بني عبد الحق من بني مرِّين من زناتة من قبائل البربر، وأنها الآن بيد السلطان أبي فارسٍ عثمان، ابن السلطان أبي العباس أحمد، ابن السلطان أبي سالم إبراهيم، ابن السلطان أبي الحسن عليّ، ابن السلطان أبي سعيد عثمان، ابن السلطان أبي يوسف يعقوب، ابن عبد الحق، بن محيو، بن أبي بكر، بن حمّامة، ابن محمد، بن ورصيص، بن فكّوس، بن كوماط، بن مرِّين، بن ورتاجن، ابن ماخوخ، بن ورحيح، بن قاتن، بن بدر، بن نجفت، بن عبد الله، بن ورتييص، ابن المعز، بن إبراهيم، بن رجيك، بن واشين، بن بصلتن، بن شرا، بن أكيا، ابن ورشيك، بن أديت، بن جانا، وهو زناتة .

وقد ذكر في " التعريف " أن السلطنة فيهم في زمانه في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » صاحب مصر كانت في السلطان أبي الحسن عليّ بن عثمان المقدم ذكره . ثم قال : وورث هذا السلطان ملك العزفيين بسبته، وملك بني عبد الواد يتلمسان، وأطاعه ملك الأندلس، ودان له ملك أفريقيّة، وعرض عليه آبنته فتزوجها، فساقها إليه سوق الأمة . ثم قال : وبنو مرِّين رجال الوغى وناسها ،

(١) تقدم في ج ٥ ص ١٤٤ " ورزيز " .

(٢) تقدم " جدجج " .

(٣) تقدم " ورشد " .

وأبطال الحرب وأحلامها؛ وهم يفخرون بغزارة علمه وفضل تقواه . قال : وهو اليوم ملك ملوك الغرب ، وموقد نار الحرب .

ورسم المكتابة إليه على ما ذكره في "التعريف" بعد البسملة :

من السلطان الأعظم الملك الفلاني ، إلى آخر الألقاب المذكورة في المكتابة لصاحب تونس ، إلى قوله ونصر جيوشه وجنوده وأعوانه . ثم يقول : تحية يفتح بها الخطاب ، ويقدم منها ما زكا وطاب ؛ وتقال هنا سمجات مختصرة نحو أربع أو خمس ، يخص بها الحضرة الشريفة العلية ، الطاهرة الزكية ، حضرة المقام العالی ، السلطان ، السيد ، الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، المناغر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الأسرى ، الأسنى ، الزكى ، الأتقى ؛ [المجاهد في الله] ^(١) المؤيد على أعداء الله ؛ أمير المسلمين ، قائد الموحدين ، مجهز الغزاة والمجاهدين ، مجتهد الجنود ، عاقد البند ، مالي صدور البرارى والبحار ، منزع أسرة الكفار ، مؤيد السنة ، معز الملة ، شرف الملوك والسلاطين ، بقية السلف الكريم ، والحسب الصميم ، ربيب الملك القديم ، أبى فلان فلان بن فلان . ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أول نسبه . ويقال : فى كل منهم : أمير المسلمين أبى فلان فلان ؛ ثم يدعى له : نحو أعز الله أنصاره أو سلطانه أو غير ذلك من الأدعية الملوكية بدعاء مطول مقخم . ثم يقال : أما بعد حمد الله ، ويخطب خطبة مختصرة . ثم يقال : أصدرت إليه ، وسيرت لتعرض عليه ، تُهدى إليه من السلام كذا وكذا . ثم يقال : ومما تبديه كذا وكذا .

صدر : يليق بهذه المكتابة - تُهدى إليه من السلام ما يطلع عليه نهاره المشرق من مشرقه ، ويحييه به الهلال الطالع من جانبه الغربى على ألقه ؛ وتصف شوقاً أقام

(١) زدناها من "التعريف" .

بين جَفْنِيهِ والكَرَى الحَرْب ، وودادا يَمْلأُ برسله كُلَّ بحرٍ ويأتى بكلِّ صَرْبٍ ، وثَنَاءٌ يُسْتَرَوَحُ بنسيمه وإن كان لا يَسْتَرَوَحُ إلا بما يَهْبُ من الغرب ، مقدِّمةً شُكْرًا لما يَهْر من عَزَماته التي أعزَّتِ الدين ، وغَزَتِ الملحدِين ؛ وحلَّقت على مَنْ جاورها من الكُفَّار [تحليق^(١)] صقور الرجال على مُسِفَّةِ الغُرْبان ؛ وتُقيم عند الشجاع عُدْرَ الجبان ؛ وتبيِّن آثارها في أعناق الأعداء وللسيوفِ آثارٌ بيَّان ؛ وإن كان فعله أكثر مما طارت به الأخبار ، وطافت به مُحلِّقات البشائر في الأقطار ؛ وسار به المجهجُ تعرِّفُ آثاره عرَّفَات ، وصارت تَسْتَعْلِمُ أخباره وتتدبُّ قبل زمانه مافات .

والذى ذكره في "التتقيف" أنه كان السلطان في زمانه في الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون» عبدالعزيز بن أبي الحسن على المقدم ذكره ، وذكر أن المكتبة اليه في قطع النصف ، وأنه يكتب تحت البسملة في الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله «عبد الله ووليه» ثم يخلى بيت العلامة ؛ ثم تكتب الألقاب السلطانية في أول السطر مسامتا للبسملة «السلطان الاعظم الملك الفلاني» إلى آخر الألقاب السلطانية المذكورة في المكتبة إلى صاحب تونس ، إلى قوله : ونصر جيوشه وأعوانه . ثم يقول : تحضُّ المقام العالى ، السلطان ، الملك ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المعاضد ، المرابط ، المناغر ، المُكْرَم ، المعظم ، المظفر ، الموقر ، المؤيد ، المسدد ، الأسعد ، الأبعد ، الأرشد ، الأنجد ، الأوحد ، الأجد ، البهي ، الزكي ، السنّي ، السرى ، فلان ، أمير المسلمين ابن أبي فلان فلان ، إلى عبد الحق المريني . والدعاء بما يناسب ذلك المقام ؛ ثم أما بعد حمد الله ، بخطبة لطيفة ، فإننا نقاوضُ علمه الكريم ونحو ذلك . وأكثر مخاطبته بالإخاء وتُحتم بالدعاء ،

(١) زدنا هذه الكلمة وان لم تكن في الاصل ولا في التعريف لما لا يخفى من لزومها لصحة الكلام .

والعلامة «أخوه» وتعريفه «ملك الغرب» . وفي الدستور العلاني أن الطلب منه بالمستمد، ويختم باستعراض الحوائج والخدم مكملاً بالدعاء .

وهذه نسخة كتاب من الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى السلطان أبي الحسن المريني، في جواب كتاب ورد عليه منه وهي :

عبدالله ووليه ، السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدل في العالمين ، مؤمن أولياء الله المؤمنين ، ظل الله الممدود ، وميسر السبل للوفود ، حامي القبليين بحسامه من أهل الجود ، وخادم الحرمين الشريفين متبعاً للسنة الإبراهيمية في تطهير بيت الله للطائفين والعاكفين والزجاج الشجود ، والقائم بمصالح أشرف روضة وطيبه يعطر طبيها في الوجود ؛ ولي أمير المؤمنين جمع الله به كلمة الإسلام بعد الأفتراق ، وقمع برعبه أهل العناد والشقاق ؛ وأوزعه شكر نعم الله التي ألفت على ولائه قلوب ملوك الآفاق ، وأمنعه بها منحة صيرت له الملك بالإرث والاستحقاق ؛ وسيرت كواكب مناقبه فلها بالمغارب إضاءة وبالمشارك إشراق . ابن السلطان السعيد الشهيد الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سقى الله عهدته عهاد الرحمة ذوات إغراق ، وأبقى مجده بمحمد الذي للأمة الحمديّة على تعظيمه إجماعاً وعلى تقديمه اتفاقاً ؛ يخصّ المقام العالی ، الملك الأجل الكبير ، الحبير ، العاضد ، المناغر ، المظاهر ، الفائز ، الحائز ، المنصور ، الماثور ، الفاتح ، الصالح ، الأمكن ، الأضون ، الأشرف ، الأعرف ، الكريم ، المعظم ، أبا الحسن علياً أمير المسلمين ، ابن السلطان السعيد ، الحميد ، الطاهر ، الفاجر ، الماهد ، الزاهد ، الأورع ، الأروع ، أمير المسلمين ، أبي سعيد عثمان ، ابن السلطان ، السعيد ، الرشيد ، السابق ، الوامق ، الجامع ، الصادق ، أمير المسلمين

أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، ناظم مُفَرَّقِ الفَخَّارِ ، وهازِمِ فِرْقِ الفُجَّارِ ، والملازم لإحياء سنة الجهاد المتروكة في الأقطار ، حتى يجمع في ملكه أطراف الغرب الأقصى للاستيلاء والاستظهار ، ويُخضع لفتكته كل متكبر جبار ، ويرضع في سلكه ماناثي وصعب من تلك الديار ، ويرفع لئسكه أعمالاً من الجهاد والاجتهاد تُسرّ الحفظة الأبرار ، يظهر فيها لبركة الاسم العلوّى من نشر الهدى ، وقهر العدا ، أوضح الأدلة وأبين الآثار ، ويؤثر سلطاننا المحمديّ من عليّ عزّمه ، وحجّي حزمه ، بأعزّ الأعوان والأنصار ، فتظفر دار الإسلام من قومه بمهاجرين من أبناء البلاد يقرّ لهم بأمر القرى قرار ، ويسير سواهم للبيت ذى الجمر والحجر والباب والميزاب والمترّم والجدار والأستار ، بسلام مشرق الفرر ، موق الحبر ، وثناء مع رياه لا يعبا بالعير مع نشره ولا يعتبر ، ووداد مخفيّ الخبر ، وأعتداد يطول منه في السنة الشكر عن إحصائه واستقصائه قصر ، وإيراد لمفآخره التي سارت بها الأخبار والسير ، وأعتقاد لماثره التي سبق عثمانها إلى إحراز مرآيا الفضل وجاء عليها على الأثر .

أما بعد حمد الله الذي أمر أولياءه المؤمنين بالمعونة والمظافرة ، ونهى عباده الصالحين عن المباينة والمنافرة ، ورعى الحجاج بيته حرمة القصد وكتب لهم أجر المهاجره ، ودعا إلى حرمة ، من أهله من خدّمه ، فأجابه بالتلبية وأتابه وآجره . والشهادة له بالواحدانية التي تُسعد بمصاحبة المصابره ، وتُصعد إلى الدرجات الفآخره . والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المناقب الباهره ، والمواهب الزآخره ، والمراتب التي منها النبوة والرسالة في الدنيا والوسيلة والشفاعة في الآخره ، وعلى آله وصحبه الذين أفتى الله الشرك بصوارمهم الحاصدة وأذنى القتل بعزائمهم الحاضرة ، صلاة إلى مظان الرضوان متواتره ، ماربحت وفود مكة البركة الوافره ، ووصحت لفاصدي الكعبة البيت الحرام أوجه القبول سافره .

فإنه ورد - أورد الله تعالى البُشرى على سمعه ، وأيد أهتمامه بتأليف شمل السعد وجمعه - من جانبه المُكرم ومعهده وربعه ، كآب كريم نسبه ، نعيم أدبه ، على منصبه ، ملي إذا أخلف السحاب بما يهبه ، سري سرت إلى بيت الله وحرَم رسوله القريب قُربه ، على يد رسوله : الشيخ الأمين الأزكى ، الأورع الأتقى ، الخطيب البليغ ، المدرّس ، المفيد أبي إسحاق ابن الشيخ الصالح أبي زيد ، عبد الرحمن بن أبي يحيى ، نفع الله به ، وحاجبه الكبير المختار ، المرتضى ، الأعز ، أبي زيّان عريف ابن الشيخ المرحوم أبي زكريا ، أيد الله تعالى ، وكاتبه الأجدد الأسعد أبي الفضل ابن الفقيه المُكرم أبي عبد الله ، بن أبي مدين ، وفقه الله تعالى وسدده ، ومن معهم من الخاصّة والزعماء والفُرسان المائلين في خدمة الجهة المصونة بَلغها الله أربها ، وقيل قُربها ، الواصلة بركبكم المبارك الرواح والمعدى ، المُعان على إكمال فرض الحج المؤدى ، المرحولين بحمد العقبي كما حمد المبدأ ، ففضضنا ختامه الذكى ، وأفضنا في حديث شكره الزكى ، وعرضنا منه بحضرتنا روضا يانع الروض به محكى ، وحضضنا نوابنا على إعانة خاصّة وفده وعامتهم على قضاء التُّسك بذلك الحرم المكيّ ، وتلمحننا فصوله الميمونة فإذا هي مقصورات على مَثوبات محضه ، ورغبات تُؤدى من الحج فرضه ، وهبات يعامل بها من يضاعف أجره ويوفيه قرضه ، وقربات يجمد فاعلها يوم قيام الأشهاد تُشره وحشره وعرضه .

فأما ما ذكره من ورود الكائين الواصلين إلى حضرته سُحبة الشيخين الأجلين « أبي محمد عبد الله بن صالح ، والحاج محمد بن أبي لحان » وأنه أمضى حكهما ، وأجرى رسمهما ، فقد آثرنا للأجر حوزة ، وآخترنا بالشكر فوزه ، وقصدنا بهما تجديد جلباب الوداد ، وتأكيد أسباب الولاء على اليعاد ، وإلا فجع وجود إنصافه الحقوق

من غاصبها تُستعاد ، والوُثُوقُ بِنَصْرِهِ لِلظُّلُومِ وَقَهْرِهِ لِلظَّالِمِ لَا يَخْتَلِفُ فِيهِ اعْتِقَادٌ ،
وقد شكرنا لكم ذلك الاحتفال ، وآثرنا حمدكم في المحافل والمحال .

وأما مانعته مما أشرتم إليه مما يتعين له التقديم ، ويستحق توفية حقه من تكريم
التكريم ، وهو تجهيز ركبكم المحروس في السرى والمقام ، في خدمة من يقوم مقام
الوالدة المرحومة في الاحترام ؛ سقى الله صوب الرحمة صفيحها ، ورتقى إلى العرفات
روحها ؛ ومعها وجوه دولتكم العز ، وأعيان مملكتكم من سرة بنى مرين الذين تُبهج
مراثيهم وتسر ؛ وما نهتم عليه من ارتفاع شانهم ، واجتماع فرسانهم ، واستيداع
أمانتنا نفائس أنفسهم وأديانهم ؛ فقد استقبلناهم على بُعد بالإكرام ، وأحللناهم من
القرب في أعلى مقام ، وصرفنا إلى تلقائهم وجه الإقبال والاهتمام ، وعرفنا حقهم
أهل الإسلام ؛ ونشرنا لهم بفنائنا الأعلام ، ويسرنا لهم باعتنائنا كل مرام ؛ وأمرنا
بتسهيل طريقهم ، وتوصيل البر لفرقيهم ؛ وأسدلنا الخلع على جميعهم ، واحترفنا بهم
في قديمهم ومقامهم وتشييعهم ؛ وأجزلنا لهم أقسام الإنعام في توجيههم ، وكذلك
يكون في رجوعهم ؛ وعرضوا بين أيدينا ما أحجبتهم من الطرف والهدايا ، التي لا تحلها
ظهور البحار فكيف ظهور المطايا ؛ من عقود منظمه ، وبرود مسهمه ، ومطارف
معلمه ، ولطائف بالإمكان والإتيان معلمه ، وصنائع محكمه ، وبدائع للأفهام مفحمه ،
وذخائر معظمه ، وضرائر للشموس في الكون والسسمه ، وبوآثر تفرق بين الهام
والأجسام والهام ملحمه ، وأخير بمقدار مهديها في الجلال مفهمه ، وخيول مسومه
بالأهلة مسرجة وبالنجوم منجمه ، معودة نزال الأبطال معلمه ، ذوات صدور
مبقورة وأكفال مسلمه ؛ تسحب من الحرير أذيالا ، وتصحب من الوشي سربالا ،
وتميس مجللها وحلاها عجبا وأختيالا ، ويقيس مشبهها سرعتها بالبرق فلا يتغالى ،
عائيات الأجسام ، عاليت كالا كام ؛ لفحوظها صهيل يدعر الأسود ، ولسنايكها

وقع يَفِطْرُ الجُلمود، أُنْعِبَتِ الرُّواض، وَرُكِبَتِ مِنْهَا صَهْوَةٌ كُلِّ بَحْرِ سَابِحٍ حَيْثُ لُجِحُ
الموت نُحَاض، وَفُرِنَتْ مَرَابِطُهَا بِحِمَايَةِ جِوَاهِرِ النُّفُوسِ مِنَ الأَعْرَاضِ، وَجَنِيْبِيَّةِ
تُجْرُ مِنْ دُيُوبِهَا كُلِّ فِضَاضٍ، وَحُسِبَتِ لِأَخْتِلَافِ شِيَاتِهَا كَأَنَّهَا قَطَعَ الرِّياضِ : مِنْ
شُهْبٍ كَأَنَّهَا آرَدَتِ الأَفَاحَ، أَوْ غَدَتِ رَافِلَةً فِي حُلَلِ الإِصْبَاحِ . وَدُهْمٌ نَفَضَتِ
عَلَيْهَا اللَّيَالِيَّ صَبْعَهَا فَلَا بَرَّاحَ، وَرَبِمَا أُغْفِلَتِ مِنْ ذَلِكَ غُرُورٌ وَأَوْضَاحُ . وَكُنْتُ كَأَنَّهَا
فَتَحَ صُلْبِ البِطَاحِ، تَطِيرُ إِلَى الظَّفَرِ بِجَنَاحِ . وَحُمْرُ كَأَنَّهَا خَلِقَتِ لِلنَّجَاحِ، وَأُطْلِقَتْ
أَعْيُنُهَا فَقَالَتْ أَلْسِنَةُ أَسِنَّتِهَا لِلطَّرَائِدِ : لِأَبْرَاحِ . وَخُضْرُ كَأَنَّهَا البُرْءَةُ المَوْشَاةُ الوِشَاحِ،
أَوْ مَشِيْبٌ فِي الشَّسَابِ قَدْ لَاحَ . وَشُقْرُ تَكْبُو فِي طَلَبِهَا الرِّياحِ، وَتُحْبَوْنَ نارُ البَرَقِ إِذَا
أَمْسَى بَسَنًا سَنَابِكُهَا أَفْتِدَاحِ .

ووراءها البغال، التي تجل الأنتقال، ولا تزل في الأحوال بحال، وعليها الزناريات
الموشعة، وحليها الجلال الملمعة، وهي تمشي رويدا، وتبدي قوة وأيدا، كأن
قلامتها قناه عيدا (؟) وهي وافرة الأمداد، فاحرة على الحياض، باهرة العدد متكاثرة
الأعداد، راسخات القوائم كأنها أطواد، شامخات الرؤوس حاليات الأجياد، باذخات
الأكفال غلاظ شداد، وسارت لها إلى رحابنا أنقياد، وصارت من محلل إيساد
إلى مواطن إيصعاد، فتقبلنا أجناسها وأنواعها، وتاملنا غرائبها وإبداعها، وجعلنا
يوما أو بعض يوم في حواصلنا إيداعها، ثم استصفينا منها نفائس آثرنا إليها إرجاعها،
وفرقتنا في اولياتنا أجماعها، وقسمنا مشاعها، وغنمنا لما أفاء الله صفاياها ومرباعها،
فتولت لكل ولى منها منح، وسارت إلى كل صفي منها ملح، وقالت الألسنة
وطالت في وصف ما عليه به فتح، فاستبان ووضوح، وكان لأهل الإيمان ببعته
أعظم هناء وأكبر فرح .

(١) من جملة معاني الفتح الماء الجاري على وجه الأرض شبهها في جريها بالماء الجاري على البطحاء الصلبة تأمل .

وسطرناها وركبكم المبارك قد رامت السرى نجائبهم ؛ وأمت أم القرى ركائبهم ؛
يسائرهم الأمن ويصاحبهم ، ويظايرهم اليمن ويواظبهم ؛ فقد أعدت لهم المير في جميع
المنازل ، وشئت لهم الهجان البوازل ؛ وأترعت لهم الموارد والمناهل ، وأمرعت
لهم بالميرة الففار والمراحل ؛ ووكلت بهم الحفظة في المخاوف ونصبت لهم الأدلة
في المجاهل ؛ وجرّد معهم الفرسان ، وجدد لهم الإحسان ، وأكد لهم حقان حق
مرسلهم وحق الإيمان ، وقد درك حياتهم أمراء العربان ، وشوهد من تعظيمنا
لهم ما يحسددهم عليه ملوك الزمان بكل مكان ؛ وكتبنا على أيديهم إلى أمراء الأشراف
بالثبوت في خدمتهم والوقوف ، وأن يحيط بهم كل مقدم طائفة ويظوف ،
يتسامهم زعيم من زعيم ، إلى أن تُحط رحلهم بالحطيم ؛ ويحل كل منهم بالمقام ويقم ،
وتجمل مناسكهم بشهود الموقف العظيم .

وكذلك كتبنا إلى أمراء المدينة المشرفة ، أن نتلق بالقبول الحسن مصحفه ؛ ونجمله
بين الروضة والمنبر ، ونجمله فقد ربح سعى كاتبه وبر ، وكتبت له بعدد حروفه أجور
توفر ؛ ويمكن من يرق لتلاوته في الأصال والبكر ، ويهمن على ذلك فإنه من بيت
هم الملاك الأعلى وعندهم وفيهم جاءت الآيات والسور .

وعما قليل يتم مجهم وأعتارهم ، ويوم طيبة الطيبة العاطرة زوارهم ؛ فيكرم
جوارهم ويعظم نغارهم ، وتنعم بإشراق تلك الأنوار بصائرهم وأبصارهم ؛ وتفوح
أرواح نجد من نياهم ، وتلوح أنوار القبول على شبيهم وشبابهم ؛ ثم يعودون إلينا
فنعيد لهم الصلات ، ونفيد كلاً منهم ديم النعم المرسلات ؛ ثم يصدرن إن شاء الله
إليكم ركائبهم بالمنائح مثقلات ، ومطالبيهم بالمنائح مكالات ؛ ويظفرون من الله
في الدارين بقسم النعم أنجزلات حتى يلقوا برحابكم عصا التسيار ، ويصونوا حر
وجوههم بالصبر على حر الهجير [من] لفتح النار ؛ ويدخروا بما أنفقوا عند الله من

دُرهم ودينار، أجزاً جمًّا وما عند الله خيرٌ للأبرار؛ والله تعالى يقتربه من تلك المواطن، ويؤدبه منها بالظاهر وإن كان يسرى إليها بالباطن؛ ويسهل [له] ذلك الحرم، وإن كان قد أعان القاطن والقادم، حتى تحلَّ ركائبه بين المروتين وتجزى، ويكون له بذلك على ملوك الغرب تمييز، وما ذلك على الله بعزيز.

لا زالت مقبولةً على المدى هداياه، مجبولةً على الندى سجاياه، مدلولةً على الهدى قضاياه، منصورهً على العدا سراياه، مبرورةً أبدأ تحاياه. والسلام الأتم الذي يعقب رياه، والثناء الأعم المشرق محياه، عليكم ورحمة الله وبركاته، والخير يكون، إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة جواب الكتاب الوارد على الملك الناصر «محمد بن قلاوون» من ابن أبي الحسن على المريني، صاحب فاس المغرب، بالبشارة بفتح بحاياه، والانتصار على تلمسان.

وآستفتاحه بعد البسملة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ثم المكتبة المعهودة: من ألقاب المليكين، والدعاء. والصدر:

قهر الله بياسه من ناواه من أمة الكفر وطغاته، ونصره على من لاواه من حزب الشيطان وحمايته. ونشر أعلامه بالظفر بن خالفه من عداة الله وعداته. وأجراه من بلوغ الوطرفى سكونه وحركاته، على أجمل أوضاعه وأكل عاداته. ويسرله بدوام سعوته فتح ما استغلق من معاقل الحائدين عن مرضاته. ولا زالت ركائب البشائر عنه تسرى وإليه من تلقائنا تسير، ومصير الظفر حيث يصير، ويدور الفلك المستدير، بسعده الأثيل الأثير، ويتور الخلك بضوء جبينه الذى يهتدى به الضال

وَلِنَجَا إِلَيْهِ الْمَسْتَجِيرِ، وَتَغُورُ أَعْيُنُ الْعِدَا إِنْ عَايَنُوا بِحَفْلِهِ الْجَزَارَ وَنَاهَدُوا جَيْشَهُ الْمَيِيرَ . بِنُحْيَةٍ تَحْكِي اللَّطَائِمَ عُرْفَهَا الشَّمِيمَ ، وَتَوَدُّ الْبِجَائِمُ لَوْ تَفْتَقَتْ عَنْ مِثْلِ مَالِهَا مِنْ نَضَارَةٍ أَوْ تَسْنِيمٍ ، وَيُودِعُ عِتْدُ الْجَوْزَاءُ لَوْ أَنْتَضَمَ فِي عِقْدِهَا النَّضِيدَ النَّظِيمَ .

وكيف لا وهي تحية صادرة عن مقام شريف إلى روضة غناء تُزْرَى بالنبت العميم ، واردة من محل عظيم ، على نُحْيَا وَسِيمٍ ، منظوية على الأرض من سلامة وملوك الإسلام من سلام سليم ، وطُرفَةٌ نُشْرُهَا كالمسك الذي ينبغى أن ينجتم به هذا الكتاب ، وثناء يستفز الألباب ، ويستقر في حبات قلوب الأحاب ، ويستدر أخلاف الودين المتحابين في الله فلا غرو أن دخلت عليهم ملائكة النصر من كل باب .

يتسابقان إلى ذلك المجد الأسنى في أسعد مضمار ، ويتساوقان بجزاز قصبات السبق إلى تلك العُصبة المشرفة الأنوار ؛ ويزداد فيهما بالوفود عليه طيبا ، ويندو عود الود بهما رطيبا ؛ حيث الربع مر يع ، والمهيع منبع ، والعز مجدد والقدر مطيع ؛ وسحب الكرم ثره ، ورياض الفضل مخضره ، وعساكر النصر تحل نحوه من الحجرة ؛ حيث تستعرب الحرب ، ويستعجر الضرب ، وتشرق شمس المشرفيات لامعه .

أما بعد حمد الله مظهر دينه على كل دين ، ومطهر أرجاء البسيطة من الماردين المارقين ؛ ومجرد سيف النصر على الجاحدين الخائدين ؛ وموهن كيد الكافرين ، ومجزل أبحر الصابرين ؛ ومجزز وعد من بشرهم في كتابه المبين بقوله : ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ .

(١) هي أوعية المسك أو أسواقها واحداها لطيفة وفي الأصل العظام وهي تصحيف .

(٢) بياض بالأصل ولعله على ملء الأرض .

(٣) بياض في الأصل يسير .

الذى عصم حى الإسلام بكل ملك قاهر ، وقصم عرى الشرك بكل سلطان
غدا على عدو الله وعدوه بالحق ظاهر ، وقصم كل فاجرٍ بمهابة أئمة المهدي الذين
مأمهم إلا من هو للحاسن ناظم ولقائم العدا ناثر ؛ ناشر علم الإيمان بحجة الامصار ،
وناصر علم الإسلام بملوك الأفطار ، وجاعل كلمته العلي وكلمة الذين كفروا
السفلى ، لاجرم أن لهم النار ؛ جامع قلوب أهل الإيمان على إعلاء علم الدين الحنيف
وإن بعدت بينهم شقة النوى وشط المزار .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسله الله رحمة للعالمين ونعمة على
الكفار ؛ ونصره بالرعب مسيرة شهر وبالملائكة الكرام فى إيراد كل أمرٍ وإصدار ؛
والآن ببأسه صليب الصلوات وأهان بالتنكيس عبدة الأصنام وسدنة النار ، وأيده
بال وأصهار ، وأصحاب وأنصار ، وجنود تهون التقع المثار ؛ وأتباع ما أظلم خطب
إلا أجالوا سيوفهم فبدا نجم الظفر فى سماء الإيمان وأثار ، وأمة ظاهرة على من
ناواها ، ظافرة بمن عاداها ، ما تعاقب الليل والنهار ، صلاة وتسليماً يدومان بدوام
العشى والإبكار .

فقد ورد علينا كتابٌ محتومٌ بالتكريم ، محتومٌ بالتبجيل والتقديم ؛ محتومٌ على وصف
فضل الله العميم ، ونصره العظيم ، ومنه الجسيم ؛ فأكرمنا نزلهُ ، ونسرننا حلله ،
وتفهمنا تفاصيله وحمله ؛ فقيمنا بوصوله ، وتاملنا مخايل النصر العزيز من فضوله ؛
ووجدناه قد أشتمل من سعادة مرسله على أنواع ، ومن وصف تعداد نصرته على
عوى من الله ومن يعين الله فهو المنصور المطاع .

فأما ما ذكره المقام العالى من أمر الوالدة المقدس صفيحها ، المغمور بالرحمة
صريحها ؛ وما كانت عزمت عليه من قصد مبرور ؛ وتجارة إن تبور ، وأم إلى البيت

الآمين والحريم المعمور، وما فاجأها من الأجل، وعاجلها من أمر الله عز وجل؛ فالمقام أجزل الله ثوابه يتحقق أن النية في الأجور أبلغ من العمل، وأنه من أجاب داعي الحما فلا تقصير في فعله ولا خلل؛ والله نسأل أن يكتب لها ما نوتته من خير، وأن يطيف روحها الزكية ببيت المعمور في جنات عدن كما أطاف أرواح الشهداء في حواصل ذلك الطير.

وكما نود أن لو قدمت لبتلقاها منا زائد الإكرام، ويوفي مضاربتها وافد الاحتفال والأهتمام؛ ونستجلب دعواتها الخالصة الصالحة، وتظفر هي من مشاهدة الحرم العظيم والمثوى المكرم والبيت المقدس بالصفقة الراجحة. على أنه من ورد من تلقائكم قابلناه من جميل الوفادة بما به يليق، وتقدمنا بمعاملته بما هو به حقيق؛ ويسرنا له السبيل وهديناه الطريق، وأبلغناه في حرز السلامة مع ركبنا الشريف أملة من قضاء المناسك والتطواف بالبيت العتيق.

وأما ما أشار إليه من أمر من كان «بتامسان» وأنه ممن لا يعرف مواقع الإحسان، وما وصفه المقام العالی من أحوال ليس الخبر فيها كالعيان، وأنه أعتدى على من يتاخمه من الملوك، وخرج عن القصد فيما أعتمده من ذلك السلوك، حتى أن ملك تونس أرسل إلى المقام ابنه ووزيره، وسأله أن يكون ظهيره على الحق ونصيره، وأن المقام العالی أرسل إلى ذلك الشخص منكرا اعتياده، طالباً لإصلاحه لا لإفساده؛ راجياً أن يكون ممن تنفعه الذكرى، ظاناً أنه ممن يأبى أن يقال له: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْرًا﴾ وأنه بعد ذلك تهادى على غيبه، وأراد أن يدوق طعم الموت في حبه؛ وأبى الظالم إلا نقورا، وذكر الملك عنه أنه قتل أباه بعد أن آتاه الله به نعمة وملكاً كبيراً. وأن المقام العالی آتاه نبأ عن أخيه المقيم بسجلماسة، وخبر صدق أوجب أن يعامل بما يليق بجميل السياسة وحرز الحراسه؛ فخذ المقام له

جُنُودًا ، وَعَقَدَ بُنُودًا ، وَأَضْرَى أَسُودًا أَوْهَنْتَ كَيْدَهُ ، وَأَذْهَبْتَ أَيْدَهُ ، وَعَاجَلْتَ صَيْدَهُ ، وَأَذَلَّتْ بَاسَهُ ، وَأَزَالَتْ عَنْهُ سِيْمَا الْمَلِكِ وَنَزَعَتْ لِبَاسَهُ . وَأَنَّهُ فِي غُضُونِ ذَلِكَ أَتَاهُ سُلْطَانُ الْأَنْدَلُسِ يَسْتَصْرِخُ بِهِ عَلَى عَدُوِّ اللَّهِ وَعَدُوِّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَسْتَعْدِيهِ عَلَى الْكُفْرَةِ الْمُعْتَدِينَ . وَأَنَّ الْمَقَامَ لِي دَعْوَتِهِ مُسْرِعًا ، وَأَكْرَمَ نَزْلَهُ مُمْرِعًا ، وَوَعَدَهُ الْجَمِيلَ ، وَحَقَّقَ لَهُ التَّامِيلَ . وَأَنَّ صَاحِبَ تَلْمِيسَانِ لَمَّا غَرَّهُ الْإِمْهَالُ ، وَظَنَّ هَذِهِ الْمَهَامَّ تَوَجَّبَ لِلْمَقَامِ بَعْضَ أَشْتِغَالٍ ، أَعْمَلَ أَطْعَامَهُ فِي التَّجَرِّيِّ عَلَى بَعْضِ مَمَالِكِهِ الْمَحْرُوسَةِ وَمَدَّ ، وَسَارَ إِلَى مَحَلٍّ هُوَ بَيْنَهُمَا كَالْحَدِّ . وَأَنَّ الْمَقَامَ عِنْدَ ذَلِكَ صَرَفَ إِلَيْهِ وَجْهَ الْعَزْمِ ، وَأَخَذَ فِي حِفْظِ شَأْنِهِ بِمَا لِأَعْلَامِ النَّصْرِ مِنْ نَصَبٍ وَمَا لِلْإِعْتِدَاءِ مِنْ رَفْعٍ وَمَا لِلْإِهْتِمَامِ مِنْ جَزْمٍ . وَأَنَّهُ لَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ حَدَّرَهُ مِنْ أَلِيمِ الْعِقَابِ حُلُولًا ، وَتَمَسَّكَ فِيهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَدِّينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [وَلَمَّا^(١)] لَمْ يَنْفَعَهُ الْإِنْذَارُ ، وَأَبَى إِلَّا الْمُدَاوِمَةَ وَالْإِضْرَارَ ، أَرْسَلَ إِلَيْهِ الْمَقَامَ الْعَالِيَّ مِنْ جَيْشِهِ الْخِصْمَ ، وَعَسَاكِرَهُ الَّذِي طَالَكَ تُعَصُّدُهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ وَإِلَى أَعْدَادِهِ تَنْصَمَ ، كُلٌّ بِأَسْلِحِهِ يَاقُومُ مَقَامَ الْكُتَيْبَةِ ، وَكُلٌّ مُشَاهِدٌ يَشَاهِدُ مِنْهُ فِي الْعَرِينِ كُلِّ غَرِيْبِهِ ، وَكُلٌّ ضَرْغَامٌ تَعْرِفُ الْعِدَا مَوَاقِعَ ضَرْبِهِ لَكِنَهَا تَجْهَلُ نَيْدَهُ أَوْ ضَرْبِيهِ ، فَأَذَاقُوهُ كَأْسَ الْجِمَامِ صَرَفًا ، وَلَمْ يَتَنَفَّحُوا عَنْ حِمَاهُ بِدُونِ نَفْسِهِ عَدْلًا وَلَا صَرَفًا ، إِلَى أَنْ أَخَذُوهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ بَنِي أَبِيهِ ، وَشِرْذِمَةٍ قَلِيلَةٍ مِمَّنْ كَانَتْ تَخَالُصُهُ فِي الشَّدَائِدِ وَتُوَافِيهِ ، وَأَنَّ الْمَقَامَ الْعَالِيَّ بَعْدَ ذَلِكَ سَيَّرَ مَطَارِفَ الْعَدْلِ فِي الرَّعِيَّةِ ، وَأَقْرَأَ أَحْوَالَهُمْ فِي عَدَمِ التَّعَرُّضِ إِلَى الْأَمْوَالِ وَالذَّرِّيَّةِ ، عَلَى مَا هُوَ الْمَسْنُونُ فِي قِتَالِ الْبُغَاةِ مِنَ الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ . وَفَهَمْنَا جَمِيعَ مَا شَرَحَهُ فِي هَذَا الْفَصْلِ ، وَمَا أَخْبَرَ بِهِ مِنْ هَذَا الظَّفَرِ الَّذِي أَبْيَضَ بِهِ وَجْهُ الْفَتْحِ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَحْتَرَبَهُ صَدْرُ النَّصْلِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُ مُلْكَهُ رُقِيًّا ، وَيَجْزِيهِ لِقَبُولِ النَّعْمِ لُقِيًّا ، وَيَجْعَلُهُ دَائِمًا

(١) فِي الْأَصْلِ "فَلَمْ يَنْفَعَهُ" بِدُونِ لَمَّا .

كوصفه مظفراً وكأبيه علياً . وأن المقام العالى لما فرغ وجهه من هذه الوجهة ،
وجاز هذا الملك الذى لم يحز أبأوه كُنْهه ، عاد إلى المهم الذى قدم فيه سلطان
الأبدلُس لأنه ابدى ما المسلمون فيه من محاورة الأذى ، ومحاورة العدا ، وقرب
المسافة بين هذين العدوَيْن كالشجَا . وفى عيونهم كالقذَى . وأنه توى به من الطغاة
من أسدل على المسلمين أودية الردى . وأنه على جانب البحر المعروف بالزقاق ، وبه
قُطَانٌ يمتعون الإرفادَ والإرفاقَ ، ويصدون عن السبيل من قصد سلوكة من الرفاق .
وأن البراً أيضاً مملوءٌ منهم بصقور صائده ، وعلوج مُكايده ، وكفار معانده ، وفجار على
السوء متعاضده ، والبحر مشحونٌ بغربان طائرة بأجنحة القلوع طارده ، صادرة
بالموت وارده ، جارية فى فلك البحر كالأعلام إلا أنها بالإعلام بالخبر شاهده ، تختطف
كلَّ أمٍّ وقاصد ، وتتعهد لأهل الإيمان بالمرأصد ، وتُدنى الموت الأحمر ، ممن ركب
البحر الأخضر ، وتمنع السالك ، إلا أن يكون من أهل الضلال الخالك ، من
بنى الأصفر .

وأنَّ المقام العالى عند ذلك قام لله وغاز ، وأنجد جنوده فى طلب النار من أهل
النار وأغار ، وأنجد قاصد حرمه ببُعوث كرمه وأعار ، وأرسل عقبان فرسانه محلقة
إلى ذلك الجبل الشاخ الذرى وأطار ، إلى أن احاطت بهم جنوده إحاطة الآساد
بالفرائس لإحاطة الهالات بالأقمار ، فسا منهم إلا من أعمل على العدا رحن المنون
وادار ، وسار وناعى البين يقدمه إلى أين سار ، وقدم عليهم ولده الميمون النقيبه ،
المنوح غربة من مواقع النصر بكلِّ غريبه ، الجارى على سنن آبائه الكرام ، المظفر
أشئ سرى المدوح حيث أقام . وأنه مرَّق جموعهم الكشيفه ، وهدم معاقلم المنيفه ،
وأسندنى منهم القاصى ، وأسئزل العاصى ، وأخذ بالأقدام والنواصي ، وأحلَّ العذاب
والنكال ، بمن يستحقه من أهل الإلحاد والمعاصى ، وقرن بين الأرواح والآجال ،

وأذكرهم بهذا النصر أيام ابن نصر وأعاد ، وأثبت لهذا الجبل حقيقة أسم المدح ،
وأستقر في صحائف فعله المقام إلى آخر هذا المنح .

وعلمنا أيضا ما اعتمده الطاغى المغتال لعنه الله من الحضور بنفسه ، وجمعه
الملحدين من أبناء خدمته والمارقين من جنسه . وأنه أعظم هذا الأمر وأكبر ،
وأبدئ الزفير لهذا المصاب وأظهر ، وأقسم بمعبوده المصوّر وصليبه المكسر ، أن لا يعود
إلا بعد أن يظفر بما سلبه الحق إياه وتبصر ، فأبى الله والمؤمنون أن تكون النية
إلا خائبه ، وقضت سعادة الإسلام أن تكون الأيام لما عقده من الطوية الردية
ناكبه ، فلما طال عليه الأمد وحان الحين ، عاد صفر اليمين ولكن بحفى حين ؛
ناكصا على عقبه ، خاسئا لسوء منقلبه ، وأسرع إلى مقر طاغوته سرى وسيرا ،
ولو كان من ذوى الألباب لتعقل في أمر قول الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِعَيْطِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ . وأنّ المقام العالى أزمه بعد ذلك ما كان على أهل
«أغرناطة» له في كل عام موظفا ، ووضع عنهم إضر ما يرح كالأسر مجحفا .

وهذه عزة إسلامية جدد الله على يد المقام بذلك القطر صدورها ، وسطر
في صحائف حسناته أجورها ، وأبقى له مدخورها ، وأعدّها له ليوم تجد فيه كل نفس
ما عملت من خير محضرا إذا شاهدت عرضها ونشرها . ومنّة من الله أربت على العدا ،
وتجاوزت الحد ، ومزينة لا تطمح الآمال إلى ميلها في جانبها ولا تمتد ، وربّ جد
يلحق بها الولد الناجم في سماء المعالى ربّ الكرام من أب له وجد - والله يجعله مظفرا
على العدا ، منصورا على من حاد عن سواء السبيل وأعدى ، مستحقا لحاسن
الأخبار على قرب المدة وبعد المدى .

وقد كان أخونا أمير المسلمين ، وسلطان الموحدين ، والدك الشهيد قدس الله
سره ، وبوآه دار النعيم وبها أقره ، في كل آونة يُخبرنا بمثل هذا الفتح ، ويذكر لنا

ماناله من جَزِيلِ المنح؛ (فهذه شِنْشَنَةٌ نَعْرِفُهَا من أنْحَرَم)، وَسَنَةٌ سَلَكَ فِيهَا الشَّبْلُ الصَّائِدُ
 سَنَنَ ذَلِكَ الصَّيِّمِ الأعْظَمِ، وَنَحْنُ نَجْمُدُ اللهَ الَّذِي أَقَامَ المَقَامَ مَقَامَ أَبِيهِ لِنُصْرَةِ الإسلامِ
 وَأَبِي، وَصَدَّقَ بِمَا تُنْشِئُهُ من حُسْنِ أفعالِكَ وَسَعِيدِ آرائِكَ أَنَّكَ أَبُو الحُسَيْنِ وَأَنَّ
 أَبَاكَ أَبُو سَعِيدٍ حَقًّا .

وحيثُ سَلَكَ المَقَامَ سَنَنَ والدهِ الشَّهِيدِ، وَأُخْفِنَا من أنْبائِهِ بِكُلِّ جَدِيدٍ؛ وَقَصَّ عَلَيْنَا
 أَحاديثَ ذَلِكَ الجَانِبِ الغَرْبِيِّ المَشْرِقِ بأنوارِهِ، وَنَصَّ مُتَجَدِّدَاتِهِ مَفْصَلَةً حَتَّى صِرْنَا
 كَأَنَّنا مَشَاهِدُونَ لِذَلِكَ النُّصْرِ وَمَوَاقِعِ آثارِهِ، فَقَضَى الوُدَّ أَنْ تُخْفِيَهُ من أَحاديثِ جَيْشِنَا
 الَّذِي أَشْرَقَتْ لَمَعَاتُ سِوْفِهِ فِي الشَّرْقِ الأعلى بِمَا يُسَنَّفُ سَمْعَهُ، وَيُسِّرُ مَعْشَرَ الإسلامِ
 وَجَمْعَهُ، وَمَوْطِنَهُ وَرَبْعَهُ : لِيَتَحَقَّقَ أَنَّ نِعَمَ اللهِ لِكُلِّ مَنْ قامَ بِتَشْيِيدِ هَذَا الدِّينِ
 المَحْمُودِيِّ عَامَّةً، وَمِنْتَهُ لِدِيهِمْ تامَّةً، وَأَلْطَافُهُ بِهِمْ حافَّةً، وَمُناصَرَتُهُ لِيَدِ سُلْطَانِ الإسلامِ
 فِي أعناقِ العِدَا مُطْلَقَةٌ وَلَا تُكْفَى أَهْلِ الشَّرْكِ كَافَّةً، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

فَمَا يُبْدِيهِ لِعَلَمِهِ، وَهُدْيِهِ لِسَعِيدِ فَهْمِهِ، أَنَّ من جَمَلَةٍ من يَجِلُّ لِأَبوابِنَا الشَّرِيفَةِ
 من مَلوكِ الكُفْرِ القَطِيعَةِ فِي كُلِّ عامٍ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ من جَمَلَةِ الإِفْضالِ عَلَيْهِ
 وَالإِنعامِ؛ مِمَّا لَكَ سَيْسٌ، الَّذِي هُوَ فِي مِلَّتِهِ من ساكِنِي البَرِّ كَالرَّئيسِ، وَيَبِينُ بِطَارِقَتِهِ
 وَطَعَاتِهِ كَالكَتَدِ الأعْظَمِ أَوْ كَالقَدِيسِ النِّفيسِ؛ وَعَلَيْهِ مع ذَلِكَ لِأَبوابِنَا الشَّرِيفَةِ من
 القِنائِطِرِ المَقَنْطَرَةِ من الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَلِيلِ المُسَوِّمَةِ ما لا يَجِدُ عَنْهُ وَلَا يَجِيسُ،
 وَمَرَّتَبٌ لا يَقْبَلُ التَّنْقِيسَ وَلَا يَسْمَحُ لِحِناقِهِ بِتَنْفِيسِ، تَجَلُّهُ نُوابِهِ إِلى أَبوابِنَا الشَّرِيفَةِ
 عَن يَدِهِ وَهَمَّ صاغِرُونَ، وَيَقومُونَ بِهِ عَلى قَدَمِ العُبُودِيَّةِ وَهَمَّ ضارِعُونَ .

وَلَمَّا كانَ فِي العامِ المَاضِي سَوَّفَ بَعْضُهُ وَأَنجَرَ، وَداعَقَ عِندَ إِبائِهِ وَقَصَّرَ، وَسألَ
 مَراحمَتَنَا فِي تَنْقِيسِ بَعْضِ ذَلِكَ المُقَرَّرِ، وَأرسلَ ضَراعاتِهِ إِلى نُوابِنَا بِالمالِكِ الشامِيَةِ

في هذا المعنى وكرّر، وقدّر في نفسه المِراوغةَ وأسرَّ خُسرا في ارتعا (؟) والله أعلم بما
 قدر، فاقتضت آراؤنا الشريفة أن نُرسل إليه بعثاً يدلُّ قياده ، ويُنكسِ صِعاده ،
 ويخرّبُ بلادَه ، ويوطئُ أطواده ، ويوهنُ عناده ، ويذهبُ فساده ، ويفرِّق
 أجناده ، ويمزقُ أنجاده ، ويقلِّلُ اعدادَه ، ويُقلِّلُ جموعه ، ويُدكِّكُ رُبعه ،
 ويُدري على مُلكه دُموعه ، ويُدني خُصوعه ، ويفصلُ تلك الأبدان التي هي
 للطغيانِ مجموعَه ، فأنهَضنا إليه من الأبطالِ كُلِّ باسل ، وأنهدنا إليه منهم
 كُلِّ ضِرغامِ خادِرٍ يُظنُّ الجاهلُ أنه مُتكاسل ، وأشهدنا حرَّبه كُلِّ مؤمنٍ يرى الشهادةَ
 مغنًى ، والتخلفَ مأثماً ، والتباطؤَ مغرماً ، والعدوَّ في هذا المهِمِّ أمراً محرماً . ويعدُّ
 الرُكوبَ إلى هذا السِّفرِ قُرْبَه ، والرُّكُونَ إلى وطنه عُربَه ، ويرغَبُ فيما وعد الله به
 جيشه المنصورَ وحرَّبه ، ويربأُ بنفسه أن يكون من الخالفين حُبَّاً لها وتكريماً ،
 ويبادرُ إلى ما أمرَ به رغبةً في قوله تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ
 أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . على صافاتِ جِياذ ، ليس لها غيرُ الطَّيرِ في سُرعة المَرَامِ أضداد ،
 وعادياتِ عادياتِ على أهلِ العناد ، وضاحياتِ ذابحاتِ لدوىِ الفساد ، ومُغِيراتِ
 طالماً أسفرَ صُبْحها عن النَّجاح ، ومُثيراتِ نَفْعٍ يتبَلَّجُ غيبتها عن تحقُّقِ النَّجاةِ وإزالةِ
 الجُنَاح . وصَوَاهِلِ عِراب ، كم للفضلِ بها من نُكُونٍ وللموتِ اقْتِراب ، وأصائلِ خَيْلٍ ،
 تُحَيِّلُ لراكبها أنها أُجْرى من الرياحِ وأسرَى من اللَّيْلِ ، قد عَقِدَ الخَيْرُ بنواصِيها ، وعُهِدَ
 النصرُ من أعرافها وصِياصِيها ، وتَسَمَّ راكبوها لِدِرْوَةِ العِزِّ من ظُهورها ، واحتَوُوا
 على الكِبيرِ الأعلى من نُصرتها على العِدا وظُهورها ، بسُيوفِ تبدُّدِ الأوهام ، وتُرَيْلِ
 الإِيهام ، وتَقَدُّ الهام ، وتُدنى الموتِ الرُّؤام ، وتُطهِّرُ بِمِياَمِنِها نَجَسَ الشُّركِ ودَنَسَه ،
 وتَفَرِّعُ أجسادَهُم فَتَعْدُو كُلُّها عِيوناً ولكنَّ بالدِّماءِ مُنَجِّسَه ، قد تَسْرِبُ كُلِّ منهم
 من الإِيمانِ دِرْعاً حَصِيناً ، وأنخذلُبُسه جُنَّةً ولكن من الذهبِ والإِسْتَبْرَقِ ليكون

لفضل الله مُظهِرًا وإِحْسَانًا مُبِينًا، وَاتَّخَذَ لِسَهَامِ الْقِسِيِّ يَوْمَ اللِّقَاءِ الْأَسْنَنِ الْحِدَادَ،
وَمَدَّ يَدَ الْمُظَاهِرَةِ بِيَضِ قِصَارٍ وَسُمْرٍ صِعَادٍ .

فَلَمَّا جَاسُوا خِلَالَ تِلْكَ الدِّيَارِ ، وَمَاسُوا بِرُقُلُونٍ فِي حُلَلِ الْإِيمَانِ الَّتِي تَشْفِي
صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَتَغِيظُ الْكُفَّارَ ، لَمْ يَسْلُكُوا شِعْبًا إِلَّا سَلَكَ شَيْطَانُ الْكُفْرِ شِعْبًا
سِوَاهُ ، وَلَا وَطِئُوا مَوْطِنًا إِلَّا وَكَلَّ كَافِرٌ يَأْبَاهُ ؛ وَلَا نَالُوا مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ
بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ كَمَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ ؛ وَمَا أَتَوْا لَهُمْ عَلَى ضَرْعٍ حَافِلٍ إِلَّا جَفَّ ، وَلَا مَرُّوا
عَلَى زَرْعٍ حَاقِلٍ إِلَّا أَصْبَحَ هَشِيمًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ أَوْ حَطِيمًا تَكْفِيهِ الْكَفَّ ؛ وَلَا هَشِيمٍ
إِلَّا حَرَّقُوهُ ، وَلَا جَمْعَ إِلَّا فَرَّقُوهُ ، وَلَا قَطِيعَ شَاءٍ إِلَّا قَطَّعُوهُ وَمَزَّقُوهُ ، وَلَا ضَائِرًا إِلَّا ضَنُّوا
عَلَيْهِ أَنْ يَدْعُوَهُمْ أَوْ يُطَلِّقُوهُ ، وَمَا بَرِحُوا كَذَلِكَ إِلَى أَنْ نَازَلُوا الْبَلَدَ الْمَسْمُومَ بِأَيَّاسَ ،
فَحَصَلَ لِأَهْلِيهِ مِنْ مَسَاءِهِ الْأَشْتَقَاقُ الْأَصْغَرَ وَالْأَشْتَقَاقُ الْأَكْبَرَ بِقَطْعِ الْأَمَلِ مِنْهُ
وَاتِّصَالِ الْإَيَّاسِ ؛ فَنَادَاهُمْ مِنْ بَدَلِ الْحِصْنِ مِنْ أَسَارِي الْمُؤْمِنِينَ :

يَا رَحْمَةَ اللَّهِ حُلِّيْ فِي مَنَازِلِنَا * حَسْبِي بِرَأْحَةِ الْفِرْدَوْسِ مِنْ فَيْكِ

وَيَا نَصْرَ اللَّهِ أَنْشُرْ بِالظَّفَرِ رِيَابَاتِ مُوَاجِهِنَا وَمَنَازِلِنَا فَطَالَمَا كُنَّا نَوَمُّكَ وَنَرْجِيكَ ؛
وَيَا خَيْلَ اللَّهِ أَرْكَبِي ، وَيَا خَيْلَ الْكُفَّارِ أَذْهَبِي ، وَيَا جُنْدَ إِبْلِيسِ أَرْهَبِي ، مَنْ جُنِدِ اللَّهِ
الْفَالِيبِينَ ؛ وَأَنْ وَجَدْتِ مَنَاصِمًا فَانْفِرِي ، وَيَا مَأْمَانَ لِلْإِسْلَامِ مِنْ جُنُودِ وَأَنْصَارِ ، قَاتِلُوا
الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ .

وَكَانَتْ مُوَافَاةٌ عَسْكَرِنَا الْمَنْصُورِ إِلَيْهِمْ عِنْدَ الْإِسْفَارِ ، فَلَمْ يَمْلِكُوا الْقِرَارَ ، وَلَا اسْتِظَاعُوهَا
الْفِرَارَ ، وَلَمْ يَجِدُوا مَلْجَأً مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ . وَقَالَ : لَا وُزَرَ وَكَيْفَ بِهِ لِمَنْ يُلِي الْأَوْزَارَ ،
وَرَأَوْا مَا أَعَدَدْنَا لِلْحَصَارِهِمْ مِنْ مَجَانِيقَ تَقْدُّ الصُّحُورَ ، وَتُدَكِّكُ الْقُصُورَ ، وَتَغِيضُ بِهَا
مِيَاهُ نَفُوسِ تِلْكَ الْأَجْسَادِ الْخَبِيثَةِ فَلَا يَجْتَمِعَانِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ؛ وَأَنَا أَمَدُّنَا

جُيُوشَنَا بِجَارِيَاتٍ فِي بَحْرِ الْفُرَاتِ ، مَشْحُونَةٍ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَقْوَاتِ ، وَالْعُدَدِ وَالْآلَاتِ ؛
وَأَرْفَدْنَا هُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِالْقَنَاظِيرِ الْمَقْنَطَرَاتِ ، وَأَوْفَدْنَا عَلَيْهِمْ مِنْ أُنْجَادِنَا
بِالْدِيَارِ الْبَكْرِيَّةِ ، وَأَطْرَافِ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ ، جُيُوشًا كَالسَّحَابِ الْمَتْرَاكِمِ ، وَأَطْرْنَا عَلَيْهِمْ
عَقِبَانَ اقْتِنَاصٍ مِنْ عَقِبَانِ التَّرَاكِيمِينَ اعْتَادَتْ صَيْدَ الْأَرَاقِمِ ، وَأَسْرَ الضَّرَاغِمِ ؛ فَلَمَّا
تَحَقَّقُوا الدَّمَارَ ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا كَمَا وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى حَالَ مَنْ أَهْلَكَ مِنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ .

فَعِنْدَ الظَّهْرِ حَمِيَّ الْوَطِيسِ ، وَنَكَصَ عِنْدَ إِعْلَانِ الْأَذَانِ عَلَى عَقْبِهِ الْبَلِيسِ ؛
وَشَاهَدُوا الْمَوْتَ عِيَانًا ، وَتَحَقَّقُوا الذَّهَابَ أَمْوَالًا وَإِخْوَانًا وَوُلْدَانًا ؛ أَدْعَنُوا إِلَى السَّلْمِ ،
وَنَادَوْا الْأَمَانَ الْأَمَانَ يَا أَهْلَ الْإِيمَانِ وَالْعِلْمِ ؛ وَالْكَفَّ الْكَفَّ يَا جُنْدَ الْمَلِكِ الْمُوصُوفِ
عِنْدَ الشَّقَاقِ بِالْحَزْمِ ؛ وَعِنْدَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْعِقَابِ بِالْحِلْمِ . وَأَرْسَلَ طَاغِيَتَهُمُ الْأَكْبَرَ
لِيفُونَ ، يُقَسِّمُ بِصَلْبِهِ : إِنَّا مِنْ الْقَوْمِ الَّذِينَ يَقُومُونَ بِمَا عَلَيْهِمْ مِنَ الْحِزْبِيَّةِ وَيُوقُونَ ؛
وَمِنَ الرَّعِيَّةِ الَّذِينَ يُطِيعُونَ أَمْرَ مَلِكِهِمُ الْأَعْظَمِ وَعَنْ حَمِيَّ الْإِسْلَامِ يَكْفُونَ ؛ فَعِنْدَ
ذَلِكَ رَأَى نَوَابِنَا بِذَلِكَ الْعَسْكَرِ أَنْ تُكْفَّ عَنْهُمْ شُقَّةُ الشَّقَاقِ وَتُطْوَى ، وَلَانَتْ قُلُوبُهُمْ
لِتَذْكَارِ قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَنْ تَعَفُّوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ . وَطَالَعُوا عَلُومَنَا بِمَا سَأَلَهُ الْقَوْمُ
مِنَ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ ، وَمَا ضَرَعُوا إِلَيْهِمْ فِيهِ مِنَ الْأَمَانِ وَالْأَلْفَةِ ؛ وَإِعْطَاءَ مَا كُنَّا رَسْمَنَا بِهِ
مِنَ تَسْلِيمِ قِلَاعِ مَعْدُودِهِ ، وَتَسْوِغِ أَرْضِ مَحْدُودِهِ ، تَسْتَقَرُّ بِيَدِ نَوَابِنَا وَتُقَطَّعُ بِالْمَنَاشِيرِ
الشَّرِيفَةِ لِأَهْلِ الْجِهَادِ مِنْ أَبْوَابِنَا ، مَعَ اسْتِقْرَارِ مَارَسْمَنَا بِهِ مِنْ قَطْعِهِ ، وَعَقْدِ الْهَدَنَةِ
عَلَى أُمُورِهِ عِنْدَنَا مُحِبَّةً وَلَدَيْهِمْ فَطِيعَةً .

هَذَا بَعْدَ أَنْ اسْتَوْلَتْ عَسَاكِرُنَا عَلَى قِلَاعِ لِهْمٍ وَحُصُونِ ، وَمُحَرَّرَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ
وَمُصُونِ ؛ وَطَلَعَتْ أَعْلَامُنَا الْمُحَمَّدِيَّةَ عَلَى قَلْعَةِ آيَاسَ ، وَنَزَلَ أَهْلَ الْكُفْرِ عَلَى حُكْمِ

(١) لعله وحين شاهدوا الخ ليعلق به أذعنوا بعد .

أهل الإيمان وزال التحقُّط والإحتراس، وأُعلن بالأذان في ذلك الصَّرح، وظهرت كلمة الإيمان كما بدأت أول مرة وهذا يُغني عن الشرح، وعلت الملة الحنيفة بذلك القطر وقام أهلها وصالوا، وغلت أيدي الكفار ولعنوا بما قالوا .

وكان جيشنا قبل ذلك أخذ قلعة تسمى « بكورا » واستزلوا أهلها قسرا، واستراؤهم عنها ما بين قتلى وأسرى؛ وهي قلعة شامخة الذرى، فسيحة العرا، وثيقة العرا، يكاد الطرف يرجع عنها خاسئا .

ولما اتصل بأبوابنا هذا الخبر السار، وشفع لنا من نرى قبول شفاعته في إجابة ماسأله هذا الشعب من إرجاء عذاب أهل الكفر إلى نار تلك الدار؛ منا عليهم بالأمان، وقابلناهم بعد العدل بالإحسان؛ وتقدم أمرنا إلى نوابنا بكف السيف وإغماده، وإطفاء مسعر الحرب وإخماده؛ وأن يُجرى المن على مالوفه منا ومعتاده، بعد تسليم تلك القلاع، وهدم الأسوار التي كان بها لأهل الكفر الإمتناع؛ واستبقاء الرعية، واستحياء الذرية، وإجراء الهدنة المسؤولة على القواعد الشرعية؛ وعاد عسكرنا منشور الذوائب، مظفر الكائب، مؤيد الموابك، مشحونا بغرائب الرغائب .

وعند وصولهم إلى أبوابنا فتحنا لهم أبواب العطاء الأوفر، وبدلناهم بالتي هي أحسن وعوضناهم الذي هو أكثر؛ وأفضنا عليهم من خلع القبول ما أنساهم مشقة ذلك السرى وشقة السير، وتلا عليهم لسان الإنصاف ﴿وَلِيَأْسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ .

وبعد ذلك ورد علينا كتاب بعض نوابنا بالأطراف من أولاد قرمان، القائمين بمشارك ممالكا على وجه الأمن وسعة الأمان، بأنهم عند عودهم من سيس؛ ونصرتهم على حرب إبليس، استطردوا فأخذوا للكفر تسع قلاع، ما برحت شديدة الإمتناع،

لا تَمْتَدَّ إِلَيْهَا الْأَطَاعَ ؛ فَتَكِلُ الْمَأْخُودُ فِي هَذِهِ السَّفَرَةِ وَمَا قَبْلَهَا نَحْسَ عَشْرَةَ قَلْعَهُ ،
وَبَدَّدَ اللَّهُ شَمْلَ الْكُفْرِ وَفَرَّقَ جَمْعَهُ ، وَأَثَرْنَا أَنْ نُعَلِّمَ الْمَقَامَ الْعَالِيَّ بِأَمْحَةٍ مِمَّا لِلَّهِ لَدِينَا
مِنَ النَّعْمِ ، وَلِهَذَا مِنْ شَارَةِ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى أَثَرِ اخْتِلافِ كَالدَّيْمِ ، وَنُطْلَعَهُ عَلَى دَرَّةٍ مِنْ
سَبَابِ ، وَعَرَفَهُ مِنْ بَحْرِ عُبَابِ ؛ وَطُرْفَةَ نَشْرَهَا كَالْمِسْكَ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَنْجَتَمَّ بِهَا
هَذَا الْكِتَابُ .

وَنَحْنُ نَرْغَبُ إِلَى الْمَقَامِ أَنْ يُوَاصَلَ بِكُتُبِهِ الْمَفْتَحَةِ بِالْوِدَادِ ، الْمَشْتَمَلَةِ عَلَى النُّصْرَةِ
عَلَى أَهْلِ الْعِنَادِ ، الْمَشْحُونَةِ بِمَوَاقِعِ الْفَتْحِ وَالظَّفَرِ الَّتِي تَنْتَضِعُفُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَتَرْدَادُ ؛
الْمَحْتَوِيَةِ عَلَى الطَّرَافِ مِنَ الْإِخْلَاصِ وَالتَّالِدِ ، الْمَتَّصِلِ سَبَبُهَا بَيْنَ الْآبَاءِ الْكِرَامِ
وَمُجَبِّاءِ الْأَوْلَادِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ دَائِمًا لَثْمَاتِ النَّصْرِ مِنَ الرِّمَاحِ يَجْتَنِي ، وَلُجُوهِ
الْفَتْحِ مِنَ الصَّوَارِمِ يَجْتَنِي ؛ وَيُدِيمُ عَلَى الْإِسْلَامِ مَزِيدَ الْعِزِّ الَّذِي يَتَجَدَّدُ كُلَّ آوِنَةٍ مِنْ
طَلَائِعِ رَايَاتِ مُحَمَّدٍ وَبِدَائِعِ آرَاءِ عَلِيٍّ ، بِمَنْهَ وَكْرَمِهِ .



وهذه نسخة كتاب جواب إلى صاحب فاس حيث ورد كتابه بالتعرض لوقعة
« تمرلنك » من إنشاء مؤلفه ، كُتِبَ بِذَلِكَ عَنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « فَرِجِ بْنِ
بَرْقُوقٍ » وَهُوَ .

عَبْدُ اللَّهِ وَوَلِيُّهُ السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ (إِلَى آخِرِ أَلْقَابِ سُلْطَانِنَا) أَجْرَى اللَّهُ تَعَالَى
الْأَقْدَارَ بِرِفْعَةِ قَدْرِهِ ، وَأَدَارَ الْأَفْلاكِ بِتَأْيِيدِهِ وَنَصْرِهِ ، وَأَذَلَّ رِقَابَ الْأَعْدَاءِ بِسَطْوَتِهِ
وَقَهْرِهِ ، وَنَحَنَ الْأَقْطَارَ بِسُمُوعَتِهِ وَمَلَأَ الْأَفَاقَ بِذِكْرِهِ ، يُخَصُّ الْمَقَامَ الْعَالِيَّ (إِلَى آخِرِ
الْأَلْقَابِ) : رَفَعَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِي مُلْكِهِ الشَّامِخِ مَنَارًا ، وَجَعَلَ النَّصْرَ وَالظَّفَرَ لَهُ شِعَارًا ،
وَأَحْسَنَ بِحُسْنِ مُوَاتَاتِهِ إِلَّا لِأَهْلِ الْكُفْرِ جَوَارًا ، بِسَلَامٍ يَفُوقُ الْعَبِيرَ عَيْقَهُ ، وَيَزْرِي

بَفَيْقِ الْمَسْكِ الدَّارِيَّ فَيْقُهُ ، وَيُجِلُّ الرُّوضَ الْمُنَمَّ إِذَا تَزَيَّنَ بِالْبَهَارِ خُلُوقَهُ ، وَثَنَاءُ
تَكَلُّ الْإِلْسِنَةِ الْبَلِيغَةِ عَنْ وَصْفِهِ ، وَيَعِجُزُ بِنَاءُ الْمَجْدِ الْأَثِيْلِ عَنْ حُسْنِ رِصْفِهِ ؛ وَتَعَرَّفُ
الْأَزَاهِرُ بِالْقُصُورِ عَنْ طَيْبِ أَرْجِهِ وَمَسْكِ عَرْفِهِ ، وَشَكَرَ يُوَالِي الْوَرْدُ فِيهِ الصَّدْرَ ،
وَيَحَقِّقُ الْخُبْرُ فِيهِ الْخَبْرَ ، وَيُشِيعُ فِي الْأَفَاقِ ذِكْرَهُ فَتَحْتَهُ الشَّمَارُ حَدِيثَ سَمَرٍ .

أما بعد حمد الله واصل أسباب المودة وحافظ نظامها، ومؤد كدعلائق المحبة بشدة الثنائها، ورباط جاش المعاضدة بالتحاد كلمتها وتتأسب مرامها، ومجدد مسرات القلوب بتوالي أخبارها المبهجة عن عالي مقامها. والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل نبي رعى الذمام على البعاد، وأكرم رسول قرن صدق الإخاء منه بصحة الوداد، صلاة تبلغ من رتبة الشرف مئتمها، وتتطوى الشقة البعيدة دون بلوغ مداها، فإنه ورد علينا على يد رسولكم فلان كتاب كريم طاب وروده، وتهللت بالبشر سعوته، وشهد بصدق المحبة الصادقة شهوده، وطلع من الجانب الغربي هلاله فلاحت بالمشرق بحسن التلق سعوته، فقر منه برؤيته الناظر، وأبتج بموافاته انلطاطر، ولاحت من جوانبه لوائح البشر فأحسن تلقيه سلطاننا الناصر.

وقابلناه من القبول بما كاد باطنه لجمال الموافاة يكون عنوانا للظاهر، وفضضنا ختامه المصون عن بديع كلام مخترع، وبنات فكر قبله لم تفتزع، وفضاحة قد أحكم اللسن مبانها، وبلاغة تناسبت ألفاظها فكانت قوالب لمعانيها، وبراعة قد أحسنت البديهة ترتيبها بجاءت وتواليها تتبع هوايها، وفهمنا ما أظهره من كوامن المحبة التي بلغت من القلب الشغاف، وبوارح الشوق الذي عندنا من مثله أضعاف أضعاف، وانبهينا إلى ما أشار إليه المقام العالی من التلويح إلى ما طرق أطراف ممالكنا الشريفة من طارق الاعتدا، وما كان من الواقعة التي كاد خبرها لفظاعته يكون كالمبتدا.

ونحن نبدي لعلم المقام العالى ما يوضح له أن ما وقع من هذه القصة لم يكن عن سوء تدبير، ونورد عليه من بيان السبب ما يحقق عنده أن ذلك لم يكن لعجز ولا تقصير، بل لأمرٍ قدر في الأزل، ومقدور الله تعالى لا يدفع بالحليل .

وذلك أنه لما اتصل بمسامعنا الشريفة قصد العدو إلى جهتنا، وتجاوز حده بلادنا إلى أطراف مملكتنا؛ بأدركنا الحركة إليه في عسكر لجب، وجيوش يضيق عن وسعها الفضاء الرحب؛ من كل بطل عركته الحروب، وثقته الخطوب؛ وحنكته التجارب، ونجم عوده بكثرة المنازلات قراع الكائب. قد امتطى طرفاً عربى الأصل كريم الحسب، خالص العتق صريح النسب؛ يفوت الطرف مدى باعه المديد، ويسبق حافره موقع بصره الحديد. ولبس درعا قد أحكم سردها، وأزم شدتها، وبالغت في السبوغ فاتصفت بصفات الكرام، وضاعت عينها فمغنت شبحاً حتى ذباب السهام. ووضع على رأسه بيضة تحطف الأبصار وميض برقها، وتزلق السهام الراشقة صلابه طرفها؛ وترفعها الأبطال على الرؤوس فلا ترى أنها قامت ببعض حثها. وتقلد سيفاً يمضى على الرقاب نافذ حكمه، ويقضى بانقضاء الأجل انقضاءً نجه، لا ينبو عن ضريبة فيرد، ولا يقف حده في القطع عند حد. وأعتقل رُحماً يجرى الدماء سنانه بأنايبه، ويمد إلى الفارس باعه الطويل فيأخذ بتلابيبه؛ وتمسك المنايا بأسبابه فتعلق منه بالأذيال، وتضرس الحرب بزرق أنيابه كأنها أنياب أغوال . وتتك قوساً موعز الأجال هلال هلالها، ومورد المون إرسال نبالها؛ ومدرك النارنة وترها، وموقد نار الحرب قدح شررها، قد أقرن بها سهام تسابق الريح في سرعتها، وتعاجل الموت بصرعتها؛ وتختطف العيون في ممرها، وتختلس النفوس من مقرها؛ تدخل هجماً كل محتجب، وتأتي الحذر من حيث لا يحسب . وتناول عموداً يهجم على الأضالع بأضلاعه فيقدغها، ويصافح الرؤوس بكفه الملتحمة الأصابع

فِيَدْمَعُهَا ، يُقْتَرَبُ مِنَ الْأَجْلِ كُلِّ بَعِيدٍ ، وَيُخْلَقُ مِنَ الْعُمُرِ كُلِّ جَدِيدٍ ، وَلَا يُقَاوِمُهُ
فِي الدَّفَاعِ بَيْضَةٌ وَأَثَى تُقَاوِمُ الْبَيْضَةَ زُبْرَةٌ مِنْ حَدِيدٍ .

وتحررنا من الديار المصرية في جيوش لا يأخذها حصر، ولا يلحقها هضر، ولا يظنُّ
بها على كثرة الأعداد كسر، ولم نزل نُحِثُّ السير، ونُسرع الحركة للقاء العدو إسرَاعَ
الطير، حتى وافينا دمشق المحروسة فنزلنا بظاهرها، مستمطرين النصر في أوائل
حركتنا وأوانحها، وأنضمَّ إلينا من عساكر الشام وعربانها، وتركنا الزائدة على العَدِّ
وعشرانها، ما لا ينقطع له مدد، ولا يدخل تحت حصر ولا عدد. وأقبل القومُ
في لنيف كالجراد المنتشر، وأمواج البحر التي لا تنحصر: من أجناسٍ مختلفه،
وجموع على تباين الأنواع مؤتلفه، وتراءى الجمعان في أفسح مكان، ورأى كل قبيل
الآخر رأى العين وليس الخبر كالعيان، وأعدَّ الفريقان للنزال، وأحفرُوا خنادق
للاحتراس وتبوأنا مقاعد القتال، ولم يبق إلا المبارزة، وآلتقاء الصفوف والمناجزة،
إذ ورد وإرد من جهتهم بطلب الصلح والموادة، والجَنوح إلى السلم وقطع المنازعة،
فأجبتناهم بالإجابة، ورأينا أن حَقَّنَ الدماء من الجانبين من أتم مواقع الرأي إصابه،
وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لَمَّا أَتَانَا مِنْكُمْ قَاصِدٌ * يَسْأَلُ فِي الصَّلْحِ وَكَيْفَ الْقِتَالِ

قُلْنَا لَهُ نَعَمْ الَّذِي قُتِلَهُ * وَالصَّلْحُ خَيْرٌ وَأَجَبْنَا السُّؤَالَ

فبينما نحن على ذلك، واقفون من المواعدة على المواعدة على ما هنالك، إذ بلغنا أن
طائفة من الخوذة الذين ضلَّ سعيهم، وعاد عليهم بالوبالِ والله الحمد بغيهم، توجهوا
إلى الديار المصرية للاستيلاء على نُحْتِ مُلْكِنَا الشريف في الغيبة، آملين ما لم يحصلوا
منه إلا على الخيبة، فلم يسع إلا الإسراعُ في طلبهم، للقبض عليهم وإيقاع النكال

بهم، وجازيناهم بما يُجازى به الملوک من رام مرامهم، وظنَّ العدو أن قصدنا الديار المصرية إنما كان لخوف أو فشل، فأخذ في خداع أهل البلد حتى سأموه إليه وفعل فعلته التي فعل، ليقضى الله أمرا كان مفعولا .

ثم لم نزل ندأب في تحصين البلاد وترويح أعمالها، وترتيب أمورها وتعديل أحوالها، حائطين أقطارها المتسعة بجيوش لا يكلُّ حُدَّها، ولا يعقب بالجزر مدَّها، ليكونوا للبلاد أسوارا، وللدولة القاهرة إن شاء الله تعالى أعوانا وأنصارا، وأعاد الله تعالى المملكة إلى حالها المعروف، وترتيبها المألوف، فاستقرت بعد الاضطراب، وتوطئت بعد الاعتزاب .

وفي خلال ذلك تردت الرسل إلينا في عقد الصلح وإمضائه، ودفن ما كان بين الفريقين من المباشنة وإخفائه؛ فلم يسعنا التلکؤ عن المصالحة [بل سعينا] سعيها؛ والله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ . فعقدنا لهم عقد الصلح وأمضيناه، وأحكمتنا قواعدهُ توكلا على الله تعالى وأبرمناه، وجهزنا إليهم نسخة منه طمغت بطمغة قاهم عليها، وأعيدت إلينا بعد ذلك ليكون المرجع عند الاختلاف والعياذ بالله تعالى إليها: ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُؤِيَّتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

والله تعالى يحب إخاءكم الكريم مواقع الغير، ويقرب مودته الصادقة بصفاء لا يشوبه على ممر الزمان كدر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في مكتبة ملك المسلمين بالأندلس)

وهو صاحب غرناطة ، وقطعتها تسمى حمرأ غرناطة . وقد تقدم في المقالة الثانية في المسالك والممالك ذكر هذه المملكة وأحوالها ، ومن ملكها جاهلية وإسلاما ، وأنها الآن بيد نبي الأحمر . وقد ذكر في " التعريف " أنهم من ولد قيس بن سعد ابن عبادة سيد الخزرج الأنصارى : صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهي منهم الآن بيد السلطان محمد بن يوسف بن محمد الخلوع ابن يوسف بن إسماعيل ابن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ؛ وقد أزل الله من يجاوره من نصارى الفرنج بسيفه ، وأمتنع في أيامه ما كان يؤديه من قبله من أواخر ملوك الأندلس إلى ملك الفرنج من الإتاوة في كل سنة ، لاستقبال سنة ثنتين وسبعين وسبعائة وإلى آخر وقت .

وقد ذكر في " التعريف " أن سلطانها كان في زمانه في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » أبا الفضل يوسف ؛ ولعله يوسف بن إسماعيل المقدم ذكره . قال : وهو شاب فاضل له يد في الموشحات . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التعريف " بعد البسملة " أما بعد " بخطبة مختصرة ، « فهذه المفاوضة إلى الحضرة العلية ، السنية ، السرية ، العالمية ، العادلة ، المجاهدية ، المؤيدية ، المرابطية ، المناغرية ، المظفرية ، المنصورية ، بقية شجرة الفخار ، وخالصة سلف الأنصار ، المجاهد عن الدين ، والذاب عن حوزة المسلمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، خالصة الخلافة المعظمة ، أمير الإمامة المكرمة ، ظهر أمير المؤمنين ، أبي فلان فلان . »

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره في "التعريف" وهو .

صدرت هذه المكاتبة إليه متكفلةً بالنصر على بُعد الدار، مجرّدة النصل إلا أنه الذي لا يؤخّره البدار؛ مُسعدةً بالهمم ولولا الاشتغال بجهاد أعداء الله فيمن قُرب لَمَّا تقدّمت سرعان الخيل، ولا أقبلت إلا وفي [أوائل^(١)] طلائعها للأعداء الويل؛ ولا كُتبت إلا والعجاج يُترّب السطور، والفجاج تقذف ما فيها على ظهور الصّواهل إلى بطون البحور. مبديةً ذكر ما عندنا بسببها لمجاورة الكُفّار، ومجاورة السيوف التي لا تملّ من النفار، مع العلم بما لها في ذلك من فضيلة الجهاد، ومزية الجلّد على طول الحلالد، ومصابرة السهر لأوقات منيمه، ومكاثرة هذا العدو بالصبر ليكون لها غنيمه، ونحن على إمدادها - أيدها الله - بالنصر والبدعاء الذي هو أخف إليها من العساكر، وأخفى مسيراً إذا قدر حقه الشاكر؛ ثقةً بأن الله سينصر حزبه الغالب، ويكفّ عدوه المغالب، ويصل بإمداد الملائكة لجُنّده، ويأتي بالفتح أو بأمرٍ من عنده، لتجرى أظافه على ما عوّدت، ويؤخذ الأعداء بالجريرة، ولينصرن الله من ينصره وينظر إلى أهل هذه الجزيرة .

والذي ذكره في "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه مثل صاحب تونس في القطع والخطابة، والاختتام، والعلامة، والتعريف "صاحب حمراء غرناطة" .

وهذه نسخة جواب إلى صاحب حمراء غرناطة . وقد ورد كتابه في ورقٍ أحمر يتضمن قيامه بأمر الجهاد في الكُفّار، وما حصل من أستيلاء بعض أقاربه على ملكه ونزعه منه، وأنه استظهر بعد ذلك على المذكور وقتله، وعاد إلى ملكه على عادته . في جمادى الأولى سنة خمس وستين وسبعائة، وهي :

(١) من "التعريف" زدناه .

تُحْصُ الحَضْرَةَ العَلِيَّةَ ، حَضْرَةَ الأَمِيرِ فُلانَ ، وألقابه ، جعل الله له النَّصْرَ أَيْنَ سَارَ قَرِينًا ، وَالظَّفَرَ وَالإِسْتِظْهَارَ مَصاحِبًا وَخَدِينًا ، وَزَادَ فِي مَحَلِّه الأَسْنَى تَمْكِينًا وَتَأْمِينًا ، وَمَنْحَ أَفْقَهَ الغَرَبِيِّ مِنْ أَسِرَّةِ وَجْهه المِثْلَئِي الإِشْرَاقِ ، وَمَهَابَةَ بَطْشِهِ الذِي يُورِدُ العِدَا مَوَارِدَ الرَّدَى بِالإِتِّفَاقِ ، تَحْصِينًا وَتَحْصِينًا - بِإِهْدَاءِ السَّلَامِ الذِي يَتَأَرَّجُ عَرَفًا ، وَيَتَبَلَّجُ وَصْفًا ، وَيَكادِ يَمَازِجُ النَّسِيمَ لُطْفًا - وَإِبْدَاءَ الشُّكْرِ الذِي جَلَّلَهُ مَلابِيسُ الإِكْرَامِ وَأَضْفَى ، وَأَجْمَلَ مِنْهُ نَفائِسَ عَقْدِ المُوَدَّةِ الَّتِي أَظْهَرَهَا فَلَمْ تَكُنْ تَحْفَى .

ثُمَّ بَعْدَ حَمْدِ اللهِ مُؤَكِّدِ أَسْبَابِ عُلَاهِ ، وَمُؤَيِّدِ مَوْجِبَاتِ نَصْرِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلا مِنْ عِنْدِ اللهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الذِي أَمَدَّهُ بِمَلَائِكَتِهِ المَقَرَّبِينَ ، وَنَصْرَهُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ كَمَا وَرَدَ بِالنَّصِّ وَالتَّعْيِينِ ؛ وَرَفَعَ بِاسْمِهِ أَلْوِيَّةَ المُؤْمِنِينَ المُوَحِّدِينَ ، وَقَعَّ بِأَسْهِ نَائِرَةِ البُعَاةِ وَالمُتَمَرِّدِينَ .

وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الذِينَ لَازَمُوا التَّمَسُّكَ بِأَسْبَابِ الدِّينِ ، وَجَاهَدُوا فِي إِقَامَةِ مَنَارِ الإِسْلَامِ لِمَا عَلِمُوا مِقْدَارَ أَجْرِهِمْ عِلْمَ اليَقِينِ ، صَلَاةً مُتَوَالِيَةً مُتَوَاتِرَةً عَلَى مَرَّ الأَحْقَابِ وَالسَّنِينَ ؛ فَإِنَّا نَوْضِحُ لِعَلْمِهِ الكَرِيمِ أَنَّ كِتَابَهُ وَرَدَ عَلَيْنَا مُشْتَمِلًا عَلَى المَحاسِنِ الغَرَّاءِ ، مُغْرِبًا بِلِ مَعْرِبًا لَنَا بِجَمْرَةِ لَوْنِهِ أَنْ نَسْبَتَهُ إِلَى الحُمْرَاءِ ؛ مُشْمًا وَرَدَ الحُدُودَ وَالنَّقْصَ فِيهِ كَالخَالِ ، أَوْ شَقَائِقَ التُّعْمَانِ كَمَا بَدَأَ رَوْضَهُ غِيبَ السَّحَابِ المُتَوَالِ . فَوْقَنا عَلَى مَضْمُونِهِ جَمِيعِهِ ، وَتَلَمَّحْنَا بِدِيحِ مَعَانِيهِ مِنْ جَمِيلِ تَوْشِيْعِهِ وَتَرْصِيْعِهِ ، وَعَلَّمْنَا مَا شَرَحَهُ فِيهِ : مِنْ أَسْتِمْرَارِهِ عَلَى عَادَةِ سَلْفِهِ فِي القِيَامِ بِأَمْرِ الجِهَادِ ، وَقَطْعِ دَابِرِ الكُفْرَةِ ذَوِي الشَّقَاقِ وَالعِنَادِ ، وَتَوْطِيْدِ مَا لَدَيْهِ مِنْ تِلْكَ البِلَادِ ، وَتَطْمِينِ مَا بَهَا مِنَ العِبَادِ ؛ وَمَا آتَفَقَ مِنْ قَرِيبِهِ فِي الصُّورَةِ لِانْفِ المَعْنَى ، وَكَيْفِ أَسْأءِ إِلَيْهِ فِعْلاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِهِ ظَنًّا ، وَأَنَّهُ رَصَدَ الغَفْلَةَ مِنْ جَنَابِهِ ، وَأَقْدَمَ عَلَى مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ مِنْ اقْتِرَافِ البَغْيِ وَالتَّمَسُّكِ بِأَسْبَابِهِ ، وَلَمْ

يَزُلُّ يُرَاعِي غَيْبَةَ الرَّقِيبِ وَهُجُوعَ السَّامِرِ ، إِلَى أَنْ تَمَكَّنَ مِنَ الْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى ذَلِكَ الْمَلِكِ
الَّذِي ظَنَّ أَنَّ أَمْرَهُ إِلَيْهِ صَائِرٌ ، لَكِنَّهُ مَعَ كَوْنِهِ قَدْ اقْتَحَمَ فِي قَعْلَتِهِ هَذِهِ الْأَهْوَالَ ، وَتَوَهَّمُ
أَنَّهُ قَدْ حَصَلَ بِمَكَرِهِ عَلَى بُلُوغِ بَعْضِ الْأَمَالِ ، فَإِنَّهُ مَاسَلَمَ لِلَّهِ الْحَمْدُ وَالْمِنَّةَ حَتَّى وَدَّعَ ،
وَلَا أَقْبَلَ سَحَابَ اسْتِيْلَائِهِ حَتَّى أَقْشَعَ بِمَا قَدَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِحَضْرَةِ الْأَمِيرِ مِنْ نُصْرَتِهِ ،
وَعَوْدِهِ إِلَى مَحَلِّ أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ . وَأَنَّهُ آثَرَاطَّلَاعِ عُلُومِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى هَذِهِ الْوَاقِعَةِ ،
لَمَّا يَعْلَمُ مِنْ تَأْكِيدِ الْمُوَدَّةِ الَّتِي غَدَّتْ حَامِمًا عَلَى أَفْنَانِ الْمَحَبَّةِ سَاجِعًا ، وَقَدْ عَلِمْنَا
هَذَا الْأَمْرَ ، وَشَكَرْنَا جَمِيلَ مَحَبَّتِهِ الَّتِي لَمْ يَنْسُجْ عَلَى مَنَوَالِهَا زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو ، وَأَبْتَهَجْنَا
بِمَا يَسْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَتَهَزَّنَا فُرْصَ الشَّرُورِ بِمَا مَنَحَهُ اللَّهُ مِنْ ظَفَرِهِ
الْمُتَقَارِبِ الْمَتَدَارِكِ ، وَحَمِدْنَا اللَّهَ تَعَالَى عَلَى تَأْيِيدِ هَذِهِ الْعِصَابَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا مَنَّ بِهِ
مِنْ عَوْدِ شَمْسِ هَذَا الْأَفْقِ الْغَرْبِيِّ إِلَى مَطَالِعِهَا السَّنِيَّةِ ، وَلَا جَرَمَ إِنْ كَانَتْ لَهُ النَّصْرَةُ ،
وَالْأَسْتِيْلَاءُ وَالْقُدْرَةُ : لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَكَفَّلَ سَبْحَانَهُ لِأَوْلِيَائِهِ بِمَزِيدِ التَّكْرِيمِ وَالتَّعْزِيزِ ،
إِذْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصَرَّهُ اللَّهُ ﴾
﴿ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

وَأَمَّا غَيْرُ ذَلِكَ ، فَفَقَدْ وَصَلَ رَسُولُ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ إِلَيْنَا وَتَمَثَّلَ بِمُوَاقِفِنَا الْمَعْظَمَةِ ،
وَمَحَالِّ مَمْلَكَتِنَا الْمَكْرَمَةِ ، وَأَقْبَلْنَا عَلَيْهِ ، وَضَاعَفْنَا الْإِحْسَانَ إِلَيْهِ ، وَأَدَّى إِلَيْنَا مَا تَحَمَّلَهُ
مِنَ الْمَشَافَهَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَرَسَائِلِ الْمَحَبَّةِ وَالْمُوَدَّةِ الْقَدِيمَةِ ، فَرَسَمْنَا بِإِجَابَةِ قَصْدِهِ ، وَتَوْفِيرِ
رَبِّهِ وَرِفْدِهِ ، وَقَضَاءِ شُغْلِهِ الَّذِي حَضَرَ فِيهِ ، وَتَسْهِيلِ مَآرَبِهِ بِمَزِيدِ التَّنْوِيلِ وَالتَّنْوِيهِ ،
وَمَسَاحَةِ الْحَضْرَةِ الْعَلِيَّةِ بِمَا يَتَعَيَّنُ عَلَى مَا قِيمَتُهُ الْقَادِينَارُ مِصْرِيَّةً حَسَبَ مَا عَيْنَهُ رَسُولُهُ
الْمَذْكُورُ ، وَلَوْ كَانَ سَأَلْنَا أَعْصَافَ ذَلِكَ لِأَجْبِنَا سُؤَالَهِ مِنْ غَيْرِ تَرَوُّ وَلَا فُتُورِ . وَقَدْ جَهَّزْنَا
إِلَيْهِ حُجْبَتَهُ مَا نَعَمَّتْ بِهِ صِدْقَاتُنَا الشَّرِيفَةَ عَلَيْهِ مِنَ الدَّرِّيَاقِ وَدُهْنِ الْبَلْسَانَ ، فَلْيَتَحَقَّقْ

ماله عندنا من المكانة والمحل الرفيع الشأن ؛ وقد أعدنا رسوله المذكور إلى جهته
الكريمة بهذا الجواب الشريف ، محترماً مكرماً مشمولاً من إحساننا بالتأييد والطريف ؛
فُحيطَ علماً بذلك والله تعالى يُمدّه بمزيد التأيد ، ويمتعه من جميل الإقبال ، وجزيل
النوال ، ما يُرَبِّي على الأمل وَيَزِيد ! .

تم الجزء السابع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثامن

وأوله المقصد الثالث

(في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبي من جرت العادة بالمكتبة إليه
من العرب والسودان ، وفيه ثلاث جمل)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء السابع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

- الطرف العاشر — في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ،
 ولها حالتان... .. ٥
- الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها
 في الدولة الأخشيدية والطاوية وما قبلهما... .. ٥
- » الثانية — ما كان الحال عليه بعد الدولة الفاطمية في الدولة
 الأيوبية... .. ١٩
- الطرف الحادى عشر — في المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب ،
 ولها حالتان... .. ٣٠
- الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم... .. ٣١
- » الثانية — ما الأمر مستقر عليه مما كان عليه علامة متأخرى
 كتاب المغرب أبو عبد الله محمد بن الخطيب... .. ٣٩
- الطرف الثانى عشر — في الكتب الصادرة عن وزراء الخلفاء المنفذين
 أمور الخلافة اللاحقين بشأو الملوك ، وفيه جملتان ٧٢
- الجملة الأولى — في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بنى العباس
 ببغداد ووزراء ملوكها يومئذ ٧٢
- » الثانية — في الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين
 بالديار المصرية ٧٨
- الطرف الثالث عشر — في المكاتبات الصادرة عن الأتباع إلى الملوك
 ومن في معناهم ، وفيه ثلاث جمل ٨١

صفحة

- الجملة الأولى - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الشرق إليهم
 في الزمن المتقدم ٨١
- » الثانية - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار
 المصرية إليهم ٨٧
- » الثالثة - في المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب
 إليهم ٩١
- الطرف الرابع عشر - فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك إليهم،
 وهي على ضربين ١٠٣
- الضرب الأول - الأجوبة الصادرة عن الملوك إلى غيرهم،
 وفيه ثلاث جمل ١٠٤
- الجملة الأولى - في الأجوبة الصادرة عن ملوك المشرق ١٠٤
- » الثانية - في الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية
 من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مقام الملوك
 الان فمن يعلمهم ١٠٧
- » الثالثة - في الأجوبة الصادرة عن ملوك الغرب ١١٠
- الضرب الثاني - الأجوبة الواردة على الملوك ١١١
- القسم الثاني - المكاتبات الصادرة عنهم إلى ملوك الكفرة،
 وفيه طرفان ١١٣
- الطرف الأول - في الأبتداءات، وفيه ثلاث جمل ١١٣

صفحة

- الجملة الأولى — في المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق
 ١١٣ من بنى بويه فمن بعدهم
- » الثانية — في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية
 إليهم ١١٥
- » الثالثة — في الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغرب ... ١١٦
- الطرف الثاني — (وكتب خطأ الخامس عشر) المكاتبات الصادرة إلى
 ملوك الكفر في الأجوبة، وهي إما أن تصدر بما
 يصدر به الابتداء وقد تقدم، وإما أن تصدر
 بلفظ وصل أو ورد ١١٧
- الفصل الرابع — من الباب الثاني من المقالة الرابعة في المكاتبات
 الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما استقر
 عليه الحال من ابتداء الدولة التركية وإلى زمان
 المؤلف على رأس الثمانمائة، وفيه أربعة أطراف
 (وكتب خطأ ثلاثة) ١١٩
- الطرف الأول — في المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلقاء من بنى
 العباس ١١٩
- » الثاني — في المكاتب إلى ولاية العهد بالخلافة ... ١٣٤
- » الثالث — في المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية
 إلى أهل المملكة من مصر والشام والمجاز،
 وفيه ثلاثة مقاصد ١٣٨

صفحة

- المقصود الأول - في المكاتب المفردة ، وفيه مسلكان ١٣٨
- المسلك الأول - في بيان رتب المكاتب ورتب أهلها ،
وهي على ضربين ١٣٨
- الضرب الأول - المكاتب إلى الملوك على ما كان عليه الحال
في الزمن المتقدم ١٣٨
- » الثاني - المكاتب إلى من عدا الملوك من أرباب السيوف
والأقلام وفيه مهيعان ١٤٠
- المهيع الأول - في رتب المكاتب ، وهي على عشر درجات ١٤٠
- » الثاني - في بيان مراتب المكتوب إليهم من أهل
المملكة وهم على ثلاثة أنواع ١٥٤
- النوع الأول - أرباب السيوف ١٥٤
- » الثاني - أرباب الأقلام ، وهم على ضربين ١٦٣
- الضرب الأول - أرباب الدواوين من الوزراء ومن في معناهم ١٦٣
- » الثاني - أرباب الوظائف الدينية والعلماء ١٦٥
- النوع الثالث - ممن يكتب عن الأبواب السلطانية
- الخوندات السلطانية ١٦٦
- المسلك الثاني - في معرفة ترتيب المكاتب المقدمة الذكر وكيفية
أوضاعها ١٩٤

صفحة

- المقصد الثاني - في المكتبات العامة إلى أدل هذه المملكة وهي
 المطلقات، وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب ٢١٨
- الضرب الأول - المطلقات المكبرة ٢١٩
- » الثاني - المطلقات المصغرة ٢٢٣
- » الثالث - (وكتب خطأ الثاني) من المطلقات البرالغ ٢٢٩
- المقصد الثالث - من المكتبات في أوراق الجواز وبطاق الحمام،
 وفيه جملتان ٢٣١
- الجملة الأولى - في أوراق الجواز ٢٣١
- » الثانية - في نسخ البطائق، وهي على ضربين ٢٣٤
- الضرب الأول - أن تكون البطاقة بعلامة شريفة ٢٣٤
- » الثاني - أن تكون بغير علامة ٢٣٤
- الطرف الرابع - (وكتب خطأ الثالث) في المكتبات إلى عطاء ملوك
 الإسلام ومن انطوت عليه ممالكهم ممن دونهم
- وفيه أربعة مقاصد ٢٣٥
- المقصد الأول - في المكتبات إلى عطاء ملوك الشرق
- وفيه أربعة مهارج ٢٣٦
- المهجع الأول - في المكتبة إلى الملوك والحكام ومن جرى مجراهم
 بمملكة إيران ويشتمل المقصود منها على
 ثلاث جمل ٢٣٦

صفحة

- الجملة الأولى - في رسم المكتبة إلى قانها الأعظم ٢٣٦
- « الثانية - في المكتبات إلى من ملك توريز وبقداد بعد
- موت أبي سعيد ٢٥٧
- « الثالثة - في رسم المكتبة إلى من أنطوت عليه مملكة إيران ٢٦٢
- المهيح الثاني - من المكتبة إلى الملوك، مملكة توران ٢٩٢
- « الثالث - في المكتبات إلى من بجزيرة العرب ... وفيه جملتان ٣٣٢
- الجملة الأولى - في المكتبات إلى ملوك اليمن ٣٣٢
- « الثانية - في المكتبات إلى عرب البحرين ومن أنضاف إليهم ٣٧٠
- المهيح الرابع - في المكتبة إلى صاحب الهند والسند ٣٧٢
- المقصد الثاني - في المكتبات إلى ملوك الغرب، وفيه
- أربع حمل ٣٧٦
- الجملة الأولى - في المكتبات إلى صاحب افريقية وهو صاحب
- تونس ٣٧٦
- « الثانية - في مكتبة صاحب الغرب الأوسط وهو صاحب
- تلمسان ٣٨٥
- « الثالثة - في المكتبة إلى صاحب الغرب الأقصى ٣٨٦
- « الرابعة - في مكتبة ملك المشامين بالأندلس ٤١٢

(تم فهرس الجزء السابع من كتاب صبح الأعشى)

صنعة الأندلس

الجزء الثامن

Handwritten text, possibly a signature or name, located in the center of the page. The text is faint and difficult to decipher.

دار الكتب السلطانية

كتاب

صنعة الأسيجة

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الثامن

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٤ هـ
م ١٩١٥

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وصلی اللہ علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ

المقصود الثالث

فی المکتبۃ إلی أهل الجانب الجنوبي من جرت العادة بالمکتبۃ إلیه
من العرب والسودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

(فی المکتبۃ إلی من هذا الجانب من العربان)

وقد ذکر فی " التثقیف " من کتوب منهم جماعة بالطرق الموصلة من الدیار
المصریة إلی بلاد الحبشة وغيرها . ثم قال : ولعل هؤلاء أيضا من عربان الممالک
المحروسة ، غیر أنه لا إقطاع لهم ، وعد منهم ثمانية أشخاص ، و ذکر أنه كتب
إلی کل منهم الأسم ومجلس الأمير :

الأول — سمرۃ بن کامل العامری .

الثانی — عبّاد بن قاسم .

الثالث — کمال بن سوار . قال : وهو مستحدث المکتبۃ فی العشر الأول من

جمادی الأولى سنة ثلاث وستین وسبعائة .

الرابع — جنید : شیخ الجوابرة من الهکاريّة بأبواب النوبة . قال : وهو

مستحدث المکتبۃ فی سنة تسع وستین وسبعائة .

الخامس - شريف : شيخ النمامة ، بأبواب التوبة أيضا ، ومكاتبته مستجدة حينئذ .

السادس - عليّ : شيخ دُعيم .

السابع - زامل الثاني .

الثامن - أبو مهنا العمرانيّ .

الجملة الثانية

(في المكتبة إلى مسليى ملوك السودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول - ملك التوبة . وهو صاحب مدينة دنقلة : وقد تقدم الكلام عليها مستوفى في الكلام على المقالة الثانية في "المسالك والممالك" . قال في "التعريف" : وهو رعية من رعايا صاحب مصر ، وعليه حمل مقتر ، يقوم به في كل سنة ، ويخطب [ببلاده] ^(١) خليفة العصر ، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهذه الإناوة كانت مقررة عليهم من زمن الفتح ، في إمارة عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ثم صارت تنقطع تارة وتُجمل أخرى ، بحسب الطاعة والعصيان . وهي الآن مملكة مستقلة بذاتها ، ولذلك أوردت مكتبة صاحبها في جملة الملوك :

ورسم المكتبة إليه إن كان مسلما على ما ذكره في "التعريف" :

صدرت هذه المكتبة إلى المجلس الجليل ، الكبير ، الغازی ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحيد ، العُضد ، مجد الإسلام ، زين الأنام ، نحر المجاهدين ، عمدة الملوك والسلطين .

(١) الزيادة من "التعريف" .

وذكر ذلك في «التتقيف» نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكتبة متداولة بين الجماعة . قال : ولم يكتب له شيء في مدة مباشرتي بديوان الإنشاء ، ولم يزد على ذلك .

ورأيت في الدستور المنسوب للمقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبته هذه المكتبة أيضا ، وأنه يقال بعد عمدة الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادتَه ، وبلغه في الدارين إرادته ، نتضمن إعلامه كَيْتَ وكَيْتَ ، فيتقدم بكذا وكذا ، فيحيط علمه بذلك» . ثم قال : والمكتبة إليه في قطع العادة ، والعلامة «أخوه» ولا يخفى أن العنوان بالألقاب ، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنْقلة» .

الثاني — ملك البرنو . قال في «التعريف» : وبلاده تحُدُّ بلاد [ملك] التَّكُور^(١) من الشرق ؛ ثم يكون حدّها من الشمال بلاد [صاحب]^(١) أفريقية ، ومن الجنوب الهمج ؛ وقد تقدّم الكلام عليها مستوفى في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك . ولم يذكر هذه المملكة في «مسالك الأبصار» . قلت : وملكها يزعم أنه من ذُرِّيَةِ سَيْفِ بن ذِي يَزَنَ ملك ابن علي ماورد به كتابه في أواخر المائة السابعة . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في «التعريف» :

أدام الله تعالى نصر الجناح الكريم ، العالى ، الملك الجليل ، الكبير ، العالم ، العادل ، الغازى ، المجاهد ، الهمام ، الأوحيد ، المظفر ، المنصور ، عز الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التَّكُور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعى له بما يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتشوق هذه المفاوضة تبدي ، على ماسياتى ذكره في مكاتبته .

(١) الزيادة من «التعريف» .

وهذا صدر يليق به : ولا زالت هم سلطانة غير مقصرة ، ووفود حجة غير محصرة ، وسيفه في سواد من جاوره من أعدائه الكفار يقول : ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة ﴾ صدرت ، ولها مثل مسكة أفعه عبق ، وعنبرة طينته سواد إلا أنه من السواد اليق ، وشيبة ملكه الذي يفديه سواد الحدق . أوجها وذ أسكنه [مسكنه] ^(١) من سويداء القلب لا يريم ، وأراه غرة الصباح الوضاح تحت طزة الليل البهيم . وحكى ذلك عنه في "التتقيف" ولم يزد عليه .

ورأت في الدستور المنسوب للقر العلاءي بن فضل الله أن مكاتبته في قطع الثلث ، والعلامة « أخوه » وتعريفه « صاحب بزؤ » .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب في الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكى فيه من عرب جذام المجاورين له ، ويذكر أنهم أخذوا جماعة من أقاربه بأعوم في الأقطار ، وسأل الكشَف عن خبرهم ، والمنع من بيعهم بمصر والشام ، وأرسل هدية صالحة من زبتي وغيره . وكتب جوابه بخط زين الدين طاهر : أحد كتّاب الدتست . صدره : أعز الله تعالى جانب الجناب الكريم ، العالى ، الملك الجليل ، العالم ، العادل ، الغازى ، المجاهد ، الهام ، الأوحد ، المظفر ، المنصور ، المتوكل ، نحر الدين أبى عمرو عثمان بن إدريس : عز الإسلام ، شرف ملوك الأنام ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيف الجلالة ، ظهير الإمامه . وبعث إليه به مع رسوله الوارد صُحبة الحجيج ، فأعيد وقد كتب الجواب على ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث - ملك الكانم . قال في "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدة اسمها « جيمي » ومبدأ مملكته من جهة مصر بلدة اسمها « زلا » وأحرها طولاً بلدة

(١) الزيادة من "التعريف" ص ٢٩ .

يقال لها « كَاكَا » وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثمون ، ومليكم على حَقارة سلطانه ، وسوء بُقعة مكانه ، في غاية لأندرك من الكبرياء ، يمسح برأسه عَنان السماء ، مع ضَعْف أجناد ، وقلة متحصِّل بلاد ، محجوب ، لا يراه أحد إلا في يوم العيدين بكرة وعند العصر ، وفي سائر السنة لا يكلمه أحد ولو كان أميراً إلا من وراء حجاب .

وقال في "التعريف" ملوكها من بيت قديم في الإسلام ، وجاء منهم من ادعى النسب العلووي في بني الحسن ، وهو يمتدب بمتدب الشافعي . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كرم مكتبة صاحب البرنو ، بدون الكريم ، وتبعه على ذلك في "التتيف" ناقلا له عنه . ثم قال : ولم أطلع على مكتبة له غير الذي قد ذكره .

الرابع — ملك مالي . قال في "مسالك الأبصار" وهي في نهاية الغرب متصلة بالبحر المحيط ، وقاعدة الملك بها بني . وهي أعظم ممالك السودان ، وقد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك ذكر أحوالها ، وما تيسر من ذكر ملوكها ، وأن مالي أسم للإقليم ، والتكرور مدينة من مدنه ، وكان ملكها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » منسا موسى ، ومعنى منسا السلطان .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" أنه وصل منه كتاب عن نفسه لنفسه فيه (١) ناموسا ، وأنه وصل إلى الديار المصرية حاجا ، وأجتمع بالسلطان الملك الناصر ، فقام له وتلقاه ، وأكرمه وأحسن نزله ، على ما هو مبسوط في موضعه .

(١) عبارة "المسالك" في الكلام على مملكة مالي نصها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان إلى الحضرة الساطانية بمصر وهو بالخط المغربي في ورق عريض ، السطر إلى جانب السطر وهو يمسك فيه ناموسا لنفسه » فلعن مالي الأصل هكذا « عن نفسه وهو يمسك لنفسه الخ » فتدبر .

قال في "التعريف": «وملك التكرور هذا يدعى نسبا إلى عبد الله بن صالح
ابن الحسن، بن علي، بن أبي طالب .

ورسم المكاتبه إليه على ما ذكره في "التعريف": «أدام الله تعالى نصر المقتز
العالى، السلطان، الجليل، الكبير، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، الأوحيد،
عز الإسلام، شرف ملوك الأنام، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين،
جمال الملوك والسلاطين، سيف الجلالة، ظهير الإمامة، عضد أمير المؤمنين»
الملك فلان. ويدعى له بما يناسب. وبعد إهداء السلام والتشوق «هذه
المفاوضة تبدي» .

قال: ولا يعرض له ولا يقرب بشيء من الالتاب الدالة على النسب العلوئى .
وهذا صدر لهذه المكاتبه ذكره في "التعريف" .

ويسرله القيام بفرضه، وأحسن له المعاملة فى قرضه، وكثر سواده الأعظم
وجعلهم بيض الوجوه يوم عرضه، ومتعته بملك يجد الحديد ينجف سمائه والذهب
نبات أرضه. صدرت هذه المفاوضة وصدورها به مملو، وشكرها عليه يملو، ومن آيا
حبه فى القلوب سر كل فؤاد، وسبب ما حلى به الطرف والقلب من السواد؛ تنزل
به سفنها المسيرة فى البحر وترسى، وتحل عند ملك ينقص به زائده وينسى موسى
منسى، وتقيم عليه والدهر لا يطرفه فيما ينوب، والفكر لا يسوقه إلا إذا هبت صبا
من أرضه أو جنوب .

والمتداول بين جماعة كتاب الإنشاء أن المكاتبه إليه: «أعز الله تعالى جانب
الجناب الكريم العالى، الملك، الجليل، العالم، العادل، المجاهد، المؤيد، المرائط،
المتاخر، العابد، الناسك، الأوحيد، فلان، دخر الإسلام والمسلمين، نصرة الغزاة

والمجاهدين، عَوْنِ جُيُوشِ الموحِّدين؛ رُكْنِ الأئمة، عمادِ المِلَّة، جمالِ الملوك
والسلاطين، ولى أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك في الدُّستور المنسوب للفقير العلأى بن فضل الله؛ ثم قال ويقال :
«صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى مملوءة الصدر بشُكْره ، باسمَةِ الثغر برفعةِ
قَدْره، موصَّحةً لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ . وذكر أن خطابه بالجناب الكريم، والطلب
والقصد والختم بالإحاطة؛ وذكر هو وصاحب "التثقيف" أن المكتبة إليه في قطع
الثلاث، والعلامة «أخوه»؛ وتعريفه «صاحب مالى وغانة» .

الجملة الثالثة

(فى المكتبة إلى ملوك المسامین بالحِشَّة)

قد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أن ببلاد الحِشَّة
سبعة ملوك مسلمين، لهم سبعُ ممالك؛ كلُّ مملكة منفردةٌ بملك؛ وبها الجوامعُ
والمساجدُ ينادى فيها بالأذان، وتُقامُ بها الجُمُوعُ والجماعات، وهم مع ذلك تحتَ أمر
صاحبِ أمْحَرَا ملكِ ملوكِ الحِشَّة؛ يُختار لولاية ممالكهم من شاء توليته، ولا يردون
ويصدرون إلا عن أمره، وهى مملكة أوقات والزَّبيع، ومملكة دَوَّارو؛ ومملكة
أَرَابِينِي؛ ومملكة هَدِيَّة؛ ومملكة شَرْحَا؛ ومملكة بالِي؛ ومملكة دَارَة .

وقد تقدّم الكلام عليها وعلى أحوالها مستوفى عند الكلام عليها فى المقالة الثانية .
قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الممالك تُجاور ناصع، وسواكن، ودَهْلَك؛
وليس بها مملكة مشهورة .

قال في "التعريف": ولم يرد من هذه الملوك السبعة كتاب ، ولا صدر إليهم خطاب . قال : فإن ورد منهم شيء فتجربى مكاتبتهم مثل مكاتبة صاحب الكانم والبرنو . وقد تقدم أن رسم المكاتبة إليهما على ما ذكره في "التعريف" : «أعزَّ الله تعالى نُصرةَ الجَنابِ الكَريمِ ، وأعزَّ اللهُ تَعَالَى جَانِبَ الجَنابِ الكَريمِ» على ما كتب به القاضي زين الدين طاهر في جواب صاحب البرنو على ما هو مذكور في موضعه .

المقصود الرابع

(في المكاتبة إلى أهل الجانب الشمالي ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات إلى أمراء الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الروم)

(المسماة الآن ببلاد الدروب)

قال في "التعريف": وهي البلاد المنحصرة بين بحري القرم والخليج القسطنطيني تنهى في شقيها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش ، وفي الغرب إلى الخليج القسطنطيني وتنهى متشاملة إلى القسطنطينية ، وتنهى جنوبا إلى بلاد الأرمن ، يحدها البحر الشامي . قال : وهذه البلاد بلاد متسعة ، وهي مفترقة لملوك مجتمعه ، ولكنه لا يطلق عليهم إلا اسم الإمارة ؛ ولا انتظام لكلمتهم ، ولا اجتماع لجلتهم ؛ ثم قال : وأكبرهم صاحب كرمان ، وله بينهم وضع محفوظ ، ونظام مرعي .

أما ملوكها ، فأجل من لديهم منهم جماعة بنى قرمان ، لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنكياتهم في ممتلك سيس وأهل بلاد الأرمن ، وأجتيابهم لهم من ذلك

الجانب، مثل اجتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب؛ فمكاتبتنا إلى نبي قرمان لا تكاد تنقطع، وأما إلى البقية فأقل من القليل، وأخفى من مرأى الضئيل. ثم عد منهم ستة عشر أميراً، وذكروا رسم المكاتبه إلى كل واحد منهم :

الأول - صاحب كرميان . قال في "التعريف" : ولم يكتب إليه مدة مقامى بالأبواب السلطانية ؛ ويُسبِه أن تكون المكاتبه إليه بالمقر نظير صاحب ماردین، لكن بأبسط ألقاب : إذ هي ادعى لأستحسانهم لقله معارفهم ، وعلى هذا التقدير يكون رسم المكاتبه إليه : « أعز الله تعالى نصر المقر الكريم ، العالی ، الملکی ، الأجلی ، العالی ، العادلی ، المجاهدی ، المؤیدی ، المرابطی ، المناغری ، المظفری ، المنصوری ، الفلانی ، عون الأنام ؛ شرف الملوك والسلاطين ، نصير الغزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، ظهير أمير المؤمنين » .

قال : فإن لم يُسمع له بكل هذه المخاطبه ، ولم يؤهل لنظير هذه المكاتبه ؛ كتبت إليه هذه الألقاب مع الجانب الكريم ، وخوطف بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالملك .

قال في "التتيف" ولعل مكاتبته بالجانب مع هذه الألقاب كما ذكر ومخاطبته بالإمارة أولى : لأنه إذا كان بنو قرمان أجل لدى ملوكنا ، ومكاتباتهم بالدعاء والمجلس العالی ، فيتعين حيث هو أكبر منهم أن يكون هو أعلى منهم رتبة في المكاتبه بدرجتين (١) وهي : الجانب الكريم . قال : هذا هو الأولى عندي .

قلت : وهذا كله إنما كان قبل أن يعلو قدر ابن عثمان صاحب برسا الآتي ذكره ، ويرتفع قدره على من بتلك البلاد جملة ؛ أما بعد ارتفاعه وأحطاطهم دونه فينبغي أن يُنظر في قدر المكتوب إليه ، ويكتب إليه بحسب ما تقتضيه الحال .

(١) لعله بدرجة تأمل .

الثاني - صاحب طَنْغَزْلُو . قال في "التعريف" ورسم المكتبة إليه :
«صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی الأمیری» ولم يذكر العلامة إليه . قال
في "التثقیف" والذي وجدته مسطوراً في مكاتبته الأسم والسامی بالياء .

الثالث - صاحب تُوَازَا . قال في "التعريف" : وهو في المكتبة نظيرُ
صاحب طَنْغَزْلُو ، ولم يزد على ذلك ، غير أنه ذكر أن اسمه في زمانه كان «على أرينه»
وذكر في "التثقیف" أنه لم يقف له على رسم مكتبة سوى ذلك .

الرابع - صاحب عَيْدَلِي . قد ذكر في "التعريف" أن اسمه في زمانه دَنْدَار
أخو يُوُس صاحب أنطاليا ، وأنه نظير صاحب تُوَازَا في المكتبة ، فتكون المكتبة
إليه : صدرت والعالی . قال في "التثقیف" ولم أقف على رسم مكتبة إليه سوى
ذلك ، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدلیو . وقال : إن المكتبة إليه الأسم والسامی
بالياء ، وذكر أن المقر الشهابی بن فضل الله لم يتعرض إلى ذكره في "التعريف"
ثم قال : وقد تكون هي عَيْدَلِي المقدم ذكرها ، وإنما تكررت بتغيير الحروف . قال
ولم يتحزر هل هما آثان أو واحد .

الخامس - صاحب كَصَطْمُونِيَّة وهي قَسَطْمُونِيَّة . قال في "التعريف"
وكانت آخروقت لسلیمان باشا ، وكان أميراً كبيراً ، كثير العدد ، موفور المدد ، ذاهية
وتمنع . ثم قال : وورث ملكه أبنه إبراهيم شاه ، وكان عاقاً لأبيه ، خارجاً عن
مرأضيه ، وكان في حياته منفرداً بمملكة سنوب . قال : وهي الآن داخله في ملكه ،
منخرطة في سلكه .

وذكر أن رسم المكتبة اليه : «أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی الأمیری» بأكل
الألقاب ، واتم ما يكتب في هذا الباب ؛ وذكر في "التثقیف" نقلاً عن القاضي
ناصر الدين بن النشائي ، وأمين الدين خضر مثل ذلك ، وأن العلامة إليه «أخوه» .

السادس — صاحب فإويآ . قال في "التعريف" وهو (يعنى فى زمانه) مراد الدين حمزة ، وهو ملك مضعوف ، ورجلٌ مجالس أنسه مشغوف . قال : ورسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى الأميرى » بالياء . قال فى "التثقيف" وهو غير بعيد .

السابع — صاحب برسا . وقد ذكر فى "التعريف" انه فى زمانه أرخان بن عثمان . ثم قال : وهو نظير صاحب فإويآ فى المكتبة ، فتكون مكاتبته السامى بالياء . قال فى "التثقيف" ولم أطلع على رسم للمكتبة إليه غير ذلك ، إلا أنه ذكر فى الفصل الأول من الباب الرابع فى الكلام على مكاتبات الحكام أرخان بن عثمان . وقال : إن لقبه سيف الدين . ثم قال : ويقال إنه صاحب برسا ، وذكر أن رسم المكتبة إليه فى قطع العادة والدعاء والمجلس العالى ، والعلامة أخوه ، وتعريفه اسمه .

قلت : وقد تقدم فى الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل فى بنى عثمان إلى أرخان بن عثمان جق ؛ ثم إلى ابنه مراد بك ؛ وأنه أوسع ملكه وجاوز فى الفتح الخليج القسطنطينى حتى قارب خليج البنادقة ؛ ثم إلى ابنه أبى يزيد فزاد فى الملك على ما كان بيد أبيه ؛ وتزوج فى بنى قرمان ، ودخل بنو قرمان وسائر التركمان فى طاعته ، ولم يبق خارجاً عن ملكه إلا سيواس ؛ فإنها كانت مع قاضيا إبراهيم المتغلب عليها ، ولم يزل كذلك حتى قصده تمرلنك وأسرته ، ومات فى يديه ؛ وملك بعده ابنه سليمان چلبى . ثم مات ؛ وملك بعده أخوه محمد بن أبى يزيد بن مراد بك ابن عثمان جق ، وهو القائم بها إلى الآن . وكانت المكتبة قد استقرت إلى أبى يزيد
(١)

فى الأيام الظاهرية (برقوق)

(١) ترك بياضا فى الاصل لصورة المكتبة .

(١)
الثامن - صاحب أكبرا . قد ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه دمرخان
ابن قرآشي ؛ وذكر أن مكاتبته نظير مكتبة صاحب برسا ، يعني السامى بالياء ؛
وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف على سوى ذلك .

التاسع - صاحب مرمرأ . وقد ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان
بجشي بن قرآشي . وقال : إن رسم المكتبة إليه : « صدرت هذه المكتبة إلى
المجلس العالى » .

قلت : وقد تقدم في المسالك والممالك أن هذه البلدة كانت جزيرةً بالخليج
القسطنطيني بها مَقَطَع رُخَام ، وأنَّ النصارى غلبوا عليها .

العاشر - صاحب مغنيسيا . ذكر في "التعريف" : أن اسمه صاروخان .
وقال : إن المكتبة إليه السامى بالياء . وذكر في "التثقيف" : أنها صارت بعده
إلى ابنه إسحاق بن صاروخان ؛ وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة
بالإسم والسامى بالياء .

الحادى عشر - صاحب نييف . ذكر في "التعريف" : أنه في زمانه كان
على باشا أخو صاروخان صاحب «مغنيسيا» المقدم ذكره ؛ وذكر أن رسم المكتبة
إليه مثل أخيه المذكور ، فتكون صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى .

الثانى عشر - صاحب يركي . ذكر في "التعريف" : أنها في زمانه كانت
بيد ابن أيدين ولم يصرح باسمه . قال : وإن المكتبة إليه « أدام الله تعالى نعمة
المجلس العالى » بالألقاب التامة ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف له على مكتبة
غير ذلك .

(١) هي كذلك في كتاب "المسالك" والذي تقدم في ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضا صاروخان ،
وليست في نسخة "التعريف" التي بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فوكه . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه أرخان ابن منتشاء ، وأن المكتبة إليه نظير صاحب بريكي ، فتكون الدعاء مع العالی بالألقاب التامة أيضاً ، وذكر في "التثقيف" : أنه لم يقف في مكاتبته على غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه خضر بن يونس . وقال : إن رسم المكتبة إليه « صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالی » . وذكر في "التثقيف" : أن خضر بن يونس المذكور كان يلقب سنان الدين ، وأنه استقر بعده دادى بك ، ثم استقر بها آخراً محمد المعروف بكاجوك ، وذكر أن المكتبة إليه « أخوه » والدعاء والعالی . ثم قال : وهو الأصح لأنه آخر ما استقر عليه الحال في مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قرأصار . ذكر في "التعريف" : أنه كان في زمانه اسمه زكرياً ، وأن رسم المكتبة إليه : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، بلاياء ؛ وذكر في "التثقيف" : أنه لم يطلع على مكتبة إليه سوى ذلك ؛ وأنه لم يكتب إليه شئ في مدة مباشرته .

السادس عشر — صاحب أرمناك . ذكر في "التعريف" : أنها كانت في زمانه بيد ابن قرمان ولم يصرح باسمه ؛ وذكر في "التثقيف" : أن اسمه علاء الدين سليمان . قال في "التعريف" : ورسم المكتبة إليه : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی بأجل الألقاب وأكبرها ، وأجمعها وأكثرها . وذكر في "التثقيف" : أن آخر من استقر بها في شوال سنة سبع وستين وسبعائة علاء الدين على بك بن قرمان ؛ ووافق على رسم المكتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه « أخوه » وتعريفه « فلان بن قرمان » .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال في "التعريف": "ولإخوة صاحبها ابن قِرمان المذكور رسوم في المكاتب، فأكبرهم قَدْرًا، وأفتكهم نابًا وطُفْرًا، الأمير بهاء الدين موسى . وقد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحجّ مع الزكب الشريف؛ ثم عاد إلى الأبواب السلطانية، وأجلس في المرّتين مع أمراء المشورة، وأشرك في الرأي . وسأل السلطان في كتابة منشورٍ بما يفتح من بلاد الأرمن فكُتِب له . قال في "التعريف": "وأستقرت المكاتبُ إليه مثل مكتبة أخيه . قال : أما بقية بني قِرمان فدُونهما في المكاتبه ."

وَأَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَ "التَّحْقِيفِ" قَدْ زَادَ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرَاءِ هَذِهِ الْبِلَادِ سِتَّةَ نَفَرٍ .

أحدهم — الحاكم بالعلايا . وذكر أنه كان اسمه حسام الدين محمود بن علاء الدين، وأنه كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «أخوه» والدعاء، والعالى، في قَطْعِ الْعَادَةِ .

الثاني — صاحب بلاط وريح . ذكر أنه كان بها «أمير موسى» بن إبراهيم ابن منتشا، وأن المكاتبه إليه في قَطْعِ الْعَادَةِ «والده والدعاء، والمجلس العالى» .

الثالث — صاحب أكردور وهي أكردون . ذكر أنه كان بها إلياس بن مصطفى من بني حميد، وأن رسم المكاتبه إليه على ما استقر عليه الحال عند ما كتب إليه في شوال سنة سبع وستين وسبعائة «والده» والسامى بالياء .

الرابع — صاحب آيا سلوق . ذكر أنه كان بها عيسى بن أيدين، وأنه كتب إليه في شوال من السنة المذكورة أيضا .

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدم في القواعد «بلاط» فقط ولم نعر عليها بعد البحث والتصحيح .

الخامس — صاحب بلي شار . ذكر أنه كان بها الأمير محمد ولم يذكر نسبه .
وقال : إن المكتبة إليه الأسم والسامى بالياء .

السادس — الأمير ذروان بن كيمان بن منشا . ذكر أنه ممن استجذت مكاتبته
في شوال سنة سبع وستين وسبعائة .

وأعلم أنه قد زاد في "التثقيف" ذكر مكتبة جماعة لم أتحقق هل هم من أهل
هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحنفاء؛ ذكر أنه كان اسمه سيف الدين قوجى؛ وأن المكتبة
إليه في قطع الثلث والسامى بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، في قطع الثلث الأسم والسامى بالياء، وتعريفه اسمه .
ومنهم صاحب بكجرى : استجذت الكتابة إليه في شوال سنة سبع وستين
وسبعائة، وكتب إليه الأسم والسامى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقلعة أبيض كتب إليه الأسم ومجلس الأمير .

ومنهم الحاكم بقلعة نعمة، كتب إليه الأسم ومجلس الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشنى : وهى أشنوكتب إليه كذلك .

على أنه قد ذكر منهم جماعة أيضا ليسوا من أهل هذه البلاد جملة؛ منهم نائب
خلاط، وصاحب موغان، وهى موقان، والحاكم بإسعد وهى سيرت، وصاحب
قيشان وهى قاشان .

وقد تقدم أن خلاط من أرمينية، وموقان من أرمينية، وإسعد من ديار ربيعة
من الجزيرة الفراتية، وقاشان من عراق العجم؛ وبالجملة فقد خلط في "التثقيف"
في البلدان تخطيا كثيرا، وخلط بعض أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدّم في صدر الكلام على المكاتبات ذكر أصول يعتمدها الكاتب في كتبه تُمّ الكتب السلطانية وغيرها ، وأنا أذكر هنا ما يختصّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان على النمط الجاري عليه الاصطلاح الآن ليسهل التصدُّ إليها لقربها ، ويحصل الغرض من ذلك ، بذكر [تسعة] أمور :

أولها — مقاديرُ قطع الورق ، قد تقدّم في الكلام على مقادير قطع الورق المستعملة في دواوين الإنشاء جملةً ، والذي يختصّ منها بالكتب الصادرة عن السلطان أربعة مقادير :

أحدها — قطع البغدادى الكامل ، وقد مرَّ أنه يكتبُ فيه للقانات .

وثانيها — قطع النصف ، وفيه يكتبُ إلى أكابر الملوك من دون القانات .

وثالثها — قطع الثلث ، وفيه يكتبُ إلى الرتبة الثانية من الملوك .

ورابعها — قطع العادة ، وفيه يكتبُ إلى أصاغر الملوك والولاة وغيرهم .

الثانى — العُنوان ، قد تقدّم في مقدّمة الكتاب أنّ الذى كان يكتبُ عُنوانات

الكتب السلطانية في الزمن المتقدم هو صاحب ديوان الإنشاء دون غيره ، أما الآن ،

فإنّ كاتب كلِّ كتاب صار هو الذى يكتبُ عُنوانه بنفسه .

وقد جرت العادة في عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هي ألقاب

المكتوب إليه وتُعوّنه التي في صدر المكتبة في الباطن ، ثم يدعى للمكتوب إليه

في آخر الألقاب بالدعوة التي صدر بها الدعاء في الصدر مثل : أعزَّ الله أنصاره ،

أو ضاعف الله نعمته ، وما أشبه ذلك من الأدعية التي تُفتتح بها المكاتبات ، فإن

كان الكتاب مفتتحاً بالجملة أو بلفظ من فلان ، كُتِب في العنوان الألقاب التي

في صدر الكتاب بعد ذلك ، ثم بعد الدعاء يُحلى بياضاً قليلاً ، ثم يذكر تعريف

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدم ذكره من التعريفات .
وتكون كتابة العُنوان بنظير قلم الباطن في الدقة والغِلظ . وتكون أسطرُه متصلةً من
أول عَرَض الدَّرَج إلى آخره، وأسطرُه متلاصقةً متتاليةً .

الثالث — الطَّرَة التي يُكْتَب فيها تعريفُ المكتوب إليه ، والعلامةُ التي يكتبها
المكتوبُ عنه ، والسببُ في كتابته .

وقد جرتِ العادةُ في ذلك أنه يكتب في رأسِ الدَّرَج في الجانبِ الأيمن
«إلى فلان» وفي الجانبِ الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفي الوسطِ العلامةُ التي يعاينها
السلطانُ مثل «أخوه» أو «والده» أو «أسمه» : لِيُنْظَرَ عند علامة السلطان على
الكتاب فيعلم حالَ الكتاب، ويجرى الأمرُ في العلامة على هذا الرسم، وتكون كتابتها
بقلمِ الكتاب من ثلث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتابُ مختَصراً الطُّومار في قطع
البغدادى فيكون ذلك بقلمِ الثلث . وهذه الطَّرَة تقطع بعد أن يعلم على الكتاب .

الرابع — البياض في أعلى الكتاب ، وقد جرتِ العادةُ في الكُتُب السلطانية أن
العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت «أخوه» أو «والده» ترك فيه ثلاثة أوصال
بياضا بما فيه من وصل العُنوان؛ ثم تكتبُ البسمةُ في رأسِ الوصلِ الرابع؛ وإن
كانت العلامةُ إليه الأسم، ترك وصلان بياضاً فقط وكتبتُ البسمةُ في أولِ الوصلِ
الثالث؛ ثم يُكْتَب السطرُ الأول من الكتاب على سمتِ البسمة ملاصقاً لها؛ ثم يحلّي
موضع العلامة بياضاً، ويكتبُ السطرُ الثاني على سمتِ الأول في أواخر ذلك
الوصل على قدر إصبعين من آخره؛ ثم يجعل بين كل سطرين أربعة أصابع مطبوقة،
إن كان القطع صغيراً، وإن كان القطع كبيراً كان فيه قدر رُبع ذراع أو نحوه بحسب

(١) لعله في الكتابة أى يكتب ما يناسب العلامة .

المناسبة؛ فإذا آتتهى إلى آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالى» في الوَسَطِ على بُعدٍ قدر إصبعين من السطر الآخر. ثم يكتب : «كُتِبَ في تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا» ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر، ومن أول سنة كذا إلى آخره سطر. ثم يكتب المستند على نحو البُعد المذكور : فإن كان بتلقُّ كاتب السَّرِّ خاصَّةً كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» فقط. وإن كان بتلقُّ كاتب السروكَّابِ الدَّسْتِ من دار العَدْلِ كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «مِنَ دار العَدْلِ الشريف» في سطر. وإن كان برسالة الدَّوَادِرِ كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر، وتحتَه بقدر إصبع «برسالة الجنابِ العالی الأميریِّ الفلانیِّ الدَّوَادِرِ الفلانیِّ» بلقب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمته» . وإن كان من ديوان الخاص، كتب «حَسَبَ المرسوم الشريف» في سطر وتحتَه «من ديوان الخاص الشريف» . وإن كان بخط السلطان : بأن كُتِبَ على القِصَّةِ بالخط الشريف، كتب «حَسَبَ الخطِّ الشريف» في سطر واحد. وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالیة الأميریة الکبریة الفلانیة» في سطر، وكتب تحتَه بقدر إصبع «كافِلِ المالك الشریفة الإسلامیة أعلاها الله تعالى» . وإن كان بإشارة أستاذ الدار، كتب «بالإشارة العالیة الأميریة الکبریة الفلانیة» في سطر؛ ثم يكتب تحتَه بقدر إصبع «أستاذ الدار العالیة أعلاها الله تعالى» . على أنه قد تقدّم في الأقباب أن كتابتهم أستاذ الدار هو عرف جرى عليه أصطلاحهم؛ وأنَّ الصواب فيه إستدّار بغير ألف بعد التاء . وتكون كتابة المستند ببياض من جانبيه، سواء كان سطرا واحدا أو سطرین؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستند، كتب الحمدلة والصلاة على النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سطر كامل على بُعدٍ قدر إصبعين من المستند؛ ثم يكتب الحَسْبَةَ على قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلة.

وقد تقدّم في الكلام على الخواتم في المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شيث أن موضعها من ثلث السطر الأخير من أوله إلى حين تنتهي كتابتها .

الخامس — قد ذكر ابن شيث في معالم الكتابة أنه لا يُكتب في حواشي الكتب السلطانية : لأن في ذلك سُخًا بالورق ، وذلك مما لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاء في استقباح ذلك ، بل قد يُستبَح ذلك في غير السلطان كما سيأتي ذكره في الإخوانيات .

السادس — العلامة السلطانية على المكتوب ، في بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر في "التعريف" أن أكبر من يكتب إليه من الأمراء ومماليك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومن دون ذلك « الأسم الشريف » ؛ أما الغرباء كملوك المساهمين والعربان وأكابر القضاة وأهل الصلاح والأكابر؛ فترجمته بالخط الشريف « أخوه » ومن دون ذلك الأسم الشريف .

والذي استقر عليه الحال آخر في زماننا أن لأكابر الأمراء من التواب وغيرهم « أخوه » لرفعته مكان الأخ على الولد ، ولمن دونهم « والده » ولمن دون ذلك « الأسم » وبقى الحال على ما ذكره ؛ وقد سبقت ترجمة كل مكتوب إليه في الكلام على المكتبة إليه .

أما القانات الكبار فقد تقدّم في الكلام على المكتبة إليهم أنه تكتب لهم طُغرة بالألقاب السلطانية في موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكُفَر ، فسيأتي أنه تكتب طُغرة بالألقاب السلطانية فوق البسمة .

السابع — طيُّ الكُتُب السلطانية : قد تقدّم في صدر الكلام على المكتبات نقلاً عن ابن شيث من كُتُب الدولة الأيوبية أن كُتُب السلطان يكون طيها

في عَرْض أربعة أصابع ، وأن مقتضى ذلك أن كُتِبَ السلطان بالديار المصرية كانت تُطَوَّى على هذه الهيئة كما في كُتُب أهل المغرب الآن؛ والذي أَسْتَقَرَّ عليه الحال آخراً أنها يجعل طيها في صورة أُنْبُوبِ القَنَاة ولا تُضَغَط في طيها لتكون نبيلة تعظيماً لأمر السلطان وإجلالاً لقدره .

الثامن — ختم الكتاب : قد تقدم في الكلام على الخواتم واللواحق في المقالة الثالثة أن الكتب السلطانية كانت تُخْتَمُ بِسِحَاءة^(١) ، ويُطَبَّعُ عليها بِطِينِ أحمر ، يُوتَى به من سِيرَاف ، وتُخْتَمُ بِخَاتَمٍ كما تُخْتَمُ المغاربة الآن ؛ أما الآن فقد أَسْتَقَرَّ الحال على أن الكتب تُلصَقُ بالنِّشَاءِ أو ما في معناه من الكَثِيرَاءِ ونحوها ؛ وقد سأل الشيخ جمال الدين بن نباتة في رسالته التي كتبها إلى الشهاب محمود رحمه الله حين بلغه وقوع بعض كُتُبِ دِمَشْقَ في حقه عن غير طين الختم إلى النِّشَاءِ ، ولم أَقِفْ على زمان تغير ذلك ولا مَنْ غيرِه ، على أني حللت معظم أسئلة هذه الرسالة في خلال هذا الكتاب مفرقة في مواضعها .

التاسع — أن الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلى أحد من عظماء الملوك كالتقانات ببلاد الشرق ، أو ملوك بلاد المغرب ونحوهم ممن يتعانى البلاغة في الكتب الصادرة عنه ، كتبت مسجوعةً كلها ؛ وإن كانت إلى صغار الملوك والحكام كتبت غير مسجوعة ؛ وإن كانت إلى أحد من أهل المملكة ؛ فإن كانت في أمرٍ بعد وقوعه : كالكتابة بالبشارة بوفاء النيل ، أو جلوس السلطان على التخت لأوّل أمره ، أو بُرئِه من المرض ، أو ولادة ولد له ، أو البشارة بفتح ، أو الإعلام بركوب الميدان ، أو الإنباع بحبل أو نحوها ؛ كتبت مسجوعةً ، وإلا كتبت مُرْسَلَةً غير مسجوعة .

(١) يريد تلف عليها سحاة كما يؤخذ من بقية العبارة وما تقدم في جزه .

الطرف الثاني

(في المكتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطلح المستقر عليه

الحال، إلى ملوك الكفر)

وأعلم أن ملوك الكفر المكاتبين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الروم ،
والفرنج ، والكرج ، والحبشة وغيرهم ؛ إذ كانوا هم المستونين على أكثر الممالك ؛
أما اليهود ، فإنهم لم يبق لهم مملكة معروفة ، بل هم تحت الذمة أين كانوا . قال
تعالى : (ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدِّلَّةُ أَيْنًا تَقْفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ) .
قال في " التعريف " وجميع الكتب المكتوبة إلى ملوك الكفر لا يشتملها الخط
الشريف أصلاً ، بل يكتب فوق البسملة في الكتاب بخط الكاتب عوض العلامة
الشريفة أسطر قصيرة بياض من الجانيين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملك الناصر - مثلاً - العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ،
المثابر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الشاهنشاہ ؛ فلان الدنيا والدين ، سلطان الإسلام
والمسلمين ، محي العدل في العالمين ، وارث الملك ، ملك العرب والعجم والترك ؛
ظل الله في أرضه ، القائم بسنته وفرضه ؛ إسكندر الزمان ، مملك أصحاب المنابر
والثخوت والتيجان ؛ واهب الأقاليم والأمصار ، مبيد الطغاة والبغاة والكفار ؛ حامي
الحرمين والقبلتين جامع كلمة الإيمان ، ناشر لواء العدل والإحسان ؛ سيد ملوك
الزمان ، إمام المتقين ، قسيم أمير المؤمنين ؛ أبي فلان ، ابن السلطان الشهيد الملك
الفلاني فلان ، خلد الله سلطانه ، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه » .

وأوضح ذلك في " التثقيف " فقال : ويكون في الطرة بعد وصلين بياضاً من أول
الكتاب بهاميش جيد من الجانيين يمنة ويسرة ، ويكونان في قدر بياضهما سواء

تقدير أربعة أصابع فأكثر من كل جانب، من الورق العريض؛ وفي قطع العادة دون ذلك. وتكون الأسطر متقاربة، ما بينهما من البياض تقدير إبهام أو أزيد منه بشيء يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يترك بعدها وصلًا أبيض؛ ثم يكتب البسملة الشريفة، وبعدها رسم المكتابة للمكتوب إليه.

الطرف الثالث

(في المكتابة إلى من وراء بحر القريم بالجانب الشمالي منه)

وهو صاحب البلغار والسرب. وهي بلاد في نهاية الشمال، متاخمة لصاحب السراي؛ وقد ذكر في "التعريف" المكتابة إليه في المكتابة إلى جملة ملوك المسلمين. وقال: إن صاحبها يظهر الأتقياء لصاحب السراي، وإنه أرسل رسله تطلب له الأولوية من الأبواب السلطانية فجهزت إليه مع ما جرت به العادة من السيف والتشريف والخيال المسرجة الملجمة. وذكر أن رسم المكتابة إليه على ما كتبت إذ ذاك:

«عزَّ الله نصرَ الجناب الكريم، العالی، المَلَكِي، الأَجَلِّي، الكَبِيرِي، العَالِمِي، العَادِلِي، المَجَاهِدِي، المؤَيَّدِي، المُرَابِطِي، المُنَاغِرِي، الأَوْحَدِي، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم الجيوش، مقدّم العساكر، جمال الملوك والسلاطين، دُخْر أمير المؤمنين».

ثم هذا الطرف يشتمل على أربعة مقاصد مشتملة على الجهات الأربع:

المقصد الأول

(في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ، وجملة من بها من ملوك

النصارى المكاتبين عن هذه المملكة مملكتان)

الأولى - مملكة الكرج من النصارى الملكية . قال : في "التعريف" ويقال في المسلمين الكرد، وفي النصارى الكرج . قال : وموقع هذه [البلاد] بين بلاد الروم وبين بلاد أرمينية . وهي بلاد جليسة ، ومملكة مفحمة ، وكأنها مقتطعة من البلادين ، ولها ملك قائم ، وبها ملك دائم ؛ وأمها مدينة تفليس ، وسلطان بيت هولانكو بمملكة إيران يحكم عليها ، ويرالغها تصل إليها ؛ إلا أنه لا يطغى بها سيئه ، ولا تجوس خلال ديارها للحرب المضرمة خيله ؛ وإنما له بها تومان اتخذ سدادا لتغرها ، وقياماً بأمرها ؛ منزلهم فسيح بواديها ، أهل حل وترحال ، وتنقل من حال إلى حال . قال : وآخر من كان له في هذه البلاد سبعة ، وأقيمت به للمهابة صرعه ؛ الشيخ محمود بن جوبان ، وكان باسلاً لا يطاق ، ورجلاً مر المداق ؛ ولما جرت الكائنة لأبيه ، لاذ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تطل له مده ، ولا أنفجرت له حاق شده ؛ وأتاه أجله وما أستطاع رده . ثم قال : وعسكر الكرج صليبة دين الصليب وأهل البأس والتجده ، وهم للعساكر الهولانكوهية عتاد وذخر ، ولهم بهم وثوق وعليهم أعماد ، [ولا] سيمياً لأولاد جوبان وبنيه ، وبقايا مخلفيه ، لسالف إحسان جوبان إليهم ، ويد مشكورة كانت له عندهم ، وكان صديقاً للملكهم برطلمانا يفرس عنده الصنائع ، ويستترعيه الودائع ؛ فكان أخص خصيص به ، وأصدق صديق له ، يدعوه للمهم ، ويستصرخ به في الملم ، ويعده رداءً لعسكره ؛ ومزيلة لمنكوه .

وعقب ذلك بأن قال : وبرطما المذكور عهدى به حتى يرزق من أجل ملوك
النصرانية ، وأعرق أنساب بنى المعمودية ، وقد كان كاتب الأبواب السلطانية
بسبب كنيسته المصلبه ، وأن ترفع عنها الأيدي المتغلبه ، فبرزت الأواصر المطاعة
بإعادتها عليهم وكانت قد أخذت منهم - وهى بظاهر القدس الشريف - وأتخذت
مسجدا ، وعز هذا على طوائف العلماء والصالحاء وان لم يعمل هذا سدى . قيل
إنه كان يحسن لجوبان قصد البلاد ، ويبدل له عليه الطارف والتلاد . وذكر أن
رسم المكتبة إليه : « أدام الله تعالى بهجة الحضرة العلية ، حضرة الملك الجليل
الهمام ، الباسل ، الضرغام ، السميندع الكرار ، الغضنفر ، المتخت ، المتوج ، العالم
فى ملته ، العادل فى رعيته ، بقية الملوك الأغر يقية ، سلطان الكرج ، ذخر ملك البحار
والخلج ، حامى حى القُرسان ، وارث آبائه فى الأسرة والتيجان ، سراج بلاد الروم
وإيران ، سليل اليونان ، خلاصة ملوك السريان ، بقية أبناء التخت والتيجان ،
معز النصرانية ، مؤيد العيسوية ، مسيح الأبطال المسيحية ، معظم البيت المقدس
بعقد النبيه ، عماد بنى المعمودية ، ظهير الباب بابا رومية ، مواد المسلمين ، خالصة
الأصدقاء المقربين ، صديق الملوك والسلاطين » .

وهذا دعاء أورده فى " التعريف " يلىق به وهو : وحى ملكه بوده لا يجنده ،
وبوفائه بعهده لا يجيشه ومدبته ، وبما عندنا من سخايا الإحسان لا بما يظن أنه من
عنده ، وبما فى رأينا المورى لا بما يقدر النار من زنده - وربما قيل مضافى
المسلمين بدل مواد المسلمين .

أما فى " التثقيف " فقد ذكر أن للكرج ملكين (أحدهما) صاحب تقيس المقدم
ذكره ، وذكر أنه كان اسمه إذ ذاك « داود » (الثانى) الحاكم « بسخوم » و « أنجاس »
وهما مدينتان على جانب بحر القريم من الجانب الجنوبي كما تقدم ذكره فى الكلام على

الممالك والممالك في الجانب الشمالي ، وسمى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال :
ورسم المكتبة إلى كلٍّ منهما في قطع النصف : أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك
الجليل ، المكرّم ، الخطير ، الباسل ، الهام ، المقدّس ، الروحاني ، فلان ؛ عزّ الأُمَّة
المسيحية ، كنز الطائفة الصليبيّة ، نغردين النصرانية ، ملك الجبال والكرج
والخرجان ، صديق الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما ”ملك الكرج“ .

ثم قال : وقد ذكر القاضي المرحوم شهاب الدين بن فضل الله في المكتبة
المذكورة من التغييرات مالا حاجة إلى ذكره : لأنّ ما ذكرته هو المستقرّ في المكتبة
إليه إلى آخر وقت .

قلت : وذلك لأنه في زمن المقرّ الشهابي بن فضل الله كان مرعى الجانب
بملاة التتر وانضمامه إلى جوبان ، كما تقدّمت الإشارة إليه ؛ فكانت المكتبة إليه
إذ ذاك أعلى وأخفم ، فلما زالت دولة التتر من إيران ونجّمت قسوتهم انحطت رتبة
المكتبة إلى ملك الكرج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدّم في المسالك والممالك
في الكلام على مدينة تفليس أنّها من إقليم أران ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون .
ثم غلب عليها الكرج وملكوها ، فلو عبّر عن صاحبها بتملك تفليس كما كان يعبر عن
المستولى على سيس من الأرمن بتملك سيس ، وعن المستولى على قبرس بتملك
قبرس على ما سيأتي ذكره على الأثر إن شاء الله تعالى .

الثانية — مملكة الأرمن وقاعدتها مدينة ”سيس“ قبل فتحها ؛ وقد سبق
في الكلام على مدينة سيس عند ذكر مضافات حلب ، في الكلام على المالك الشامية
في المسالك والممالك ذكر حدود هذه البلاد وبيان أحوالها ؛ وأنها كانت تسمى

في زمن الخلفاء بلاد الثغور والعواصم؛ وأنها كانت بأيدي المسلمين، وأهلها نصارى
 أرمن؛ وعليهم جزية مقررة يؤدونها إلى الملوك؛ إلى أن كانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك
 السلاجقة ببلاد الروم، والعمال والشحاني على بلادهم من جهة الملك السلجوقي حتى
 ضُعت تلك الدولة، وسكنت شقاشق تلك الصولة، وانتدب بعضهم لقتال
 بعض، وصارت الكلمة شورى، والرعية فوضى، وشواخ المعافل مجالاً للتخريب،
 والبلاد المصونة قاصية من الغم للذيب، وطمع رئيس النصارى بهذه البلاد حينئذ
 فيها وأستنسر بغائه، وأشد إنكائه، ورأى سواماً لا ذائد عنه فساقه، ومتاعاً لاحامية
 له فلا منه أوساقه؛ فأستولى على هذه البلاد وتملكها، ونحيف مواريث بنى سلجوق
 وأستهلكها. وذكر في "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمى قليج بن لأون.

قال في "التعريف" وقد أخذ في أنحريات الأيام الناصرية، يعنى (محمد بن قلاوون)
 بلاد ماوراء نهر جاهان وأمها آياس، وكان قد أخذ بعض ذلك [أيام] الملك المنصور
 (لاچين) وأستنيب به أستدمر الكرجي؛ ثم أعيدت إلى الأرمن بمواطاة أستدمر
 حين قتل لاچين وضُعت الدولة. وذكر أنه قرّر على الأرمن ملوك الديار المصرية
 قطعة مقررة بلغت ألف ومائتي ألف درهم مع أصناف، ثم حطّ لهم منها؛
 ثم صاروا بعد ذلك بين طاعة وعصيان. وذكر أنه كان ملوك البيت الهولا كوهي
 عليهم حكم قاهر، وله فيهم أمر نافذ، قبل ضعف شوكتهم، ولين قسوتهم، وخلو
 غيهم من قسورتهم. ثم قال: ولو تمكّنوا من دمشق لمحو آثارها، وأنسوا أخبارها؛
 ثم أشار إلى أن ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرس ليتقوى به، وأنه مع ذلك أوصى
 سلطاننا صاحب مصر على ابنه بوصية أشهد عليها أهل مملكته، وجعل ذلك وسيلة
 لبقاء دولته؛ وكتب له تقليد عوضاً عن أبيه وجّهز إليه، وأليس التشریف فلبس

(١)
 وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِهِ وَخَدِمَ . قَالَ فِي "التعريف" : وَمَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ سَمِيَ التَّكْفُورَ ،
 سَمَةً جَرَتْ عَلَيْهِمْ مِنْذُ كَانُوا وَإِلَى الْآنَ . قَالَ : وَمَلَكَهُمْ مَلَكَ عَرِيقٌ مِنْ أَبْنَاءِ الْمُلُوكِ ،
 يَزْعُمُ أَنْ أَصْلَهُ مِنَ الْبَيْتِ الْقُسْطَنْطِينِيِّ . قَالَ : وَعِنْدِي نَظَرٌ فِي دَعْوَاهُمْ ذَلِكَ : إِذْ
 كَانَ أَهْلُ ذَلِكَ الْبَيْتِ هُمْ صَالِيَةُ الرُّومِ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْمَلَكَانِيَّةِ وَالْبَيْتُ التَّكْفُورِيُّ
 أَرْمَنُ وَمَعْتَقَدُهُمْ مَعْتَقَدُ الْيَعَاقِبَةِ أَوْ مَا يُقَارِبُهُ ، وَبَيْنَ الْمَعْتَقِدِينَ بَعْدَ عَظِيمٍ ، وَبَوْنٌ نَاءً .
 وَقَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" أَنَّ اسْمَهُ لِيْفُورِ بْنِ أُوشِيرٍ . وَذَكَرَ أَنَّ رَسْمَ الْمَكْتَابَةِ
 [إِلَيْهِ] صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى حَضْرَةِ الْمَلِكِ ، الْجَلِيلِ ، الْبَطْلِ ، الْبَاسِلِ ، الْهَامِ ،
 السَّمِيدِ ، الضَّرْغَامِ ، الْغَضَنْفَرِ ، فَلَانَ بْنِ فَلَانَ ، فِخْرِ الْمَلَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، ذُخْرِ الْأُمَّةِ
 النَّصْرَانِيَّةِ ، عِمَادِ بْنِ الْمَعْمُودِيَّةِ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ .

وهذه أدعية — ذكرها في "التعريف" تناسبه :

وَفَقَّهَ اللَّهُ تَعَالَى لَطَاعَةَ يَكْفُفُهُ ذِمَامُهَا ، وَيَقِيهِ مَصَارِعَ السُّوءِ الْتِرَامُهَا ؛ وَتَجْرِي لَهُ
 بِالسَّلَامَةِ فِي النَّفْسِ وَالْمَالِ أَحْكَامُهَا .

آخِرُ : وَلَا عِدَمَ مِنْ مَنِينِ الْكَرَمِ الَّذِي أَجَارَهُ ، وَالْأَمْنَ الَّذِي أَمَّنَ جَارَهُ ،
 وَالْأَمَانَ الَّذِي وَسَّعَ عَلَيْهِ وَجَارَهُ ، وَالْعَفْوَ الَّذِي وَقَاهُ فِي الدُّنْيَا قَبْلَ الْآخِرَةِ نَارًا وَقُودَهَا
 النَّاسَ وَالْحِجَارَةَ .

آخِرُ : أَبْقَاهُ اللَّهُ لَوْلَاءَ يُبِيدُهُ ، وَقَرَّضَ مِنْ الْخِدْمَةِ يُؤَدِّيهِ ، وَدَيْنٌ فِي ذِمَّتِهِ مِنْ
 الْوِظِيْفَةِ يَقُومُ بِهِ مَعَ طَرَائِفِ مَا يُهْدِيهِ .

(١) في التعريف بدون خدم .

(٢) في التعريف المطبوع ص ٥٧ ليعون بن أوشين ، ونخشي أن يكون تصحيحاً .

آخر : أراه الله ما يستدفع به من مواضع السيوف البلاء إذا نزل ، والسّمهرى الذى لا يرويه البحر إذا نهل ، والسّيل الذى لا يقف فى طريقه شيء ولا يمشى على مهل .

آخر : صان الله تعالى بمصانعه من أهل ملته كل قبيل ، وأمن الله بمداراته من خوف جيوشنا المنصورة كل سبيل ، وصد عنه بصدق صداقته بعث جنودنا الذى لا يرد وأوله بالقرات وآخره بالنيل .

آخر : ولا زال يتوقى بطاعته بوادر الأسنه ، وعوادى الخيل موشحة بالأعنه ، وعيث الجيش حيث لا يبق إلا أحد الأقسام الثلاثة : القتل أو الأسر أو المنه .

آخر : جنب الله رأيه سوء التعكيس ، وشراً ما يزين لمثله إبليس ، وأخذ جنائب قلاعه وأول تلك الجنائب سيس .

والذى ذكره فى "التثيف" أنه كان اسمه كستندين بن هتيوم ؛ وأن رسم المكتبة إليه على ما كان أستقر عليه الحال إلى حين الفتح فى سنة ست وسبعين وسبعائة ، فى قطع العادة : «صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعظم ، المعزز ، الهام ، الباسل ، فلان بن فلان ؛ عزّ دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بن العموديه ، صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مهجته ، تباه كذا وكذا» . وتعريفه «مملك سيس» قال : وكتبت أنا والجماعة إليه بهذه المكتبة مرّات .

قلت : وقد بطلت هذه المكتبة بفتح سيس حين فتحها قُشتمر المنصورى نائب حلب فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» فى التاريخ المقدم ذكره ،

وَأَسْتَقَرَّتْ نِيَابَةٌ فِي رَتْبَةِ نِيَابَةِ طَرَابُلُسَ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ؛ ثُمَّ أَسْتَقَرَّتْ تَقْدِيمَةَ عَسْكَرِ فِي مُضَافَاتِ حَلَبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ هُنَاكَ . وَإِنَّمَا كَانَ يُقَالُ لَهُ مَمْلُوكٌ سِيسَ دُونَ مَلِكٍ سِيسَ لِمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّهَا كَانَتْ أَوْلَى بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، ثُمَّ وَثَبَ عَلَيْهَا رِئِيسُ الْأَرْمَنِ الْمَقْدُمُ ذَكَرَهُ فَلَكَهَا مِنْ أَيْدِي الْمُسْلِمِينَ ، وَبِاللَّهِ الْحَمْدُ فِي إِعَادَتِهَا إِلَى يَدِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأَسْتَقَرَّرَاهَا فِي جَمَلَةِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

المَقْصِدُ الثَّانِي

(فِي الْمَكْتَابَةِ إِلَى مَلُوكِ الْكُفَّارِ بِيَلَادِ الْمَغْرِبِ مِنْ جَزِيرَةِ الْأَنْدَلُسِ)
 وَمَا وَالَاهَا مَا هُوَ سَمَّى الْأَنْدَلُسَ مِنَ الْأَرْضِ الْكَبِيرَةِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ مِنَ الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَانُوا قَدْ آفَتْحُوا جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ فِي خِلَافَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَنَّهَا أَقَامَتْ بِأَيْدِي الْمُسْلِمِينَ إِلَى رَأْسِ السِّتِّائَةِ مِنَ الْهَجْرَةِ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بِيَدِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا غَرْنَاطَةَ وَمَا مَعَهَا مِنْ شَرْقِ الْأَنْدَلُسِ ، عَرَضَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي طُولِ عَشْرَةِ أَيَّامٍ ؛ وَبَاقِي الْجَزِيرَةِ عَلَى سَعْتِهَا بِيَدِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ نَصَارَى الْفَرَنْجِ ، وَأَنَّ الْمُسْتَوْلَى عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ أَرْبَعَةُ مَلُوكٍ :

الأول — صَاحِبُ طَلِيْطَلَةَ^(١) وَمَا مَعَهَا ، وَلَقَبُهُ الْأَذْفُونَسُ : سَمَّاهُ عَلَى كُلِّ مَنْ مَلَكَ مِنْهُمْ ، وَعَامَّةُ الْمَغَارِبَةِ يَسْمُونَهُ الْفُئْسَ ، وَهُوَ مَمْلُوكَةٌ عَظِيمَةٌ وَعُمَلَاتٌ مَتَّسِعَةٌ ، تَشْتَمِلُ عَلَى طَلِيْطَلَةَ ، وَقَشْتَالَةَ ، وَإِشْبِيلِيَّةَ ، وَبَلَنْسِيَّةَ ، وَقَرْطَاجَنَةَ ، وَجِيَّانَ ، وَجَلِيْقِيَّةَ ، وَسَائِرِ أَعْمَالِهَا .

(١) ضبطها ياقوت عن الحميدي بضم الطاءين وفتح اللامين ثم قال وأكثر ما سمعناه عن المغاربة ضم الاولي وكسر الثانية . وكذلك ضبطه المؤلف فيما تقدم في جزءه هـ فليتبينه .

الثاني — صاحب أشبونة وما معها، وتُسمى البرتقال، ومملكته صغيرة واقعة في الجانب الغربي عَرْضاً له، تشتمل على أشبونة وغرب الأندلس .

الثالث — صاحب برشلونة، وأرغون، وشاطبة، وسرقسطة، وبلنسية^(١)، وجزيرة دانية، وميورقة .

الرابع — صاحب بيرة: وهي بين عمالات قشتالة، وعمالات برشلونة، وقاعدته مدينة يَنْبُلُونَةُ؛ ويقال للملكها ملك البشكنس . ووراء هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحبُ إفرنسة التي هي أصل مملكة الفرنج كما تقدم في الكلام على المسالك والممالك، ومملكها يقال له الرّيد إفرنس . قال في "التعريف": وهو الملك الكبير المُطَاع؛ وإنما الأدفونش هو صاحب السطوة، وذكره أشهر في المغرب لقربه منهم، وبعد الرّيد إفرنس .

والمكاتب منهم ملكان :

الأول — الأدفونش المبدأً بذكره . قال في "التعريف": ويبيده جمهور الأندلس، وبسبب وفه فَيَنْتَ بِجَاحِجْهَا الشُّمْسُ، وهو وارث ملك لذريق . ولذريق هذا الذي أشار إليه في "التعريف" هو الذي آتتْهَا المسلمون من يده حين الفتح في صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف": وحدثني رسول الأدفونش بتعريف تَرْجَمَانٍ موثوقٍ به من أهل العَدَالَةِ يسمّى صلاح الدين الترجمان الناصري: أن الأدفونش من ولد هِرَقْلِ المَفْتَحِ منه الشام؛ وأنَّ الكُتَّابَ الشريف النَّبِيَّ الوَارِدَ على هِرَقْلٍ متوارثٌ عندهم مَصُونٌ؛ يَأْفُ بالدِّيَاج والأطلس، ويدنحراً أكثر من ادخار الجواهر والأعلاق، وهو إلى الآن عندهم لا يُخْرَجُ، ولا يُسَمَّحُ بإخراجه،

(١) هي بلنسية المتقدمة أضيفت إلى برشلونة فيما بعد .

يُنظَرُ فِيهِ بَعِينُ الْإِجْلَالِ ، وَيُكْرِمُونَهُ غَايَةَ الْكِرَامَةِ ، بَوْصِيَّةٍ تَوَارَثَهَا مِنْهُمْ كَابِرٌ عَنْ كَابِرٍ وَخَلْفٌ عَنْ سَلْفٍ .

قال : وكان الأدفونش من قَوِيّ طَمَعُهُ فِي بِلَادِ مِصْرَ وَالشَّامِ فِي أُخْرَى لِيَالِي الْأَيَّامِ الْفَاتِمِيَّةِ . ثُمَّ قَالَ : وَمَكَاتِبَاتُهُ مُتَوَاصِلَةٌ ، وَالرُّسُلُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ مَا تَنْقَطِعُ عَلَيَّ سُوءِ مَقَاصِدِهِ ، وَخُبْتُ سِرَّهُ وَعَلَانِيَتَهُ ؛ أَهْدَى مَرَّةً إِلَى السُّلْطَانِ سَيْفًا طَوِيلًا وَثَوْبًا بُنْدُقِيًّا وَطَارِقَةً طَوِيلَةً دَقِيقَةً ، تَشْبَهُ النَّعْشِ ، وَفِي هَذَا مَا لَا يَخْفَى مِنْ أَسْتِفْتَاكِ بَابِ الشَّرِّ وَالتَّصْرِيحِ الْمَعْرُوفِ بِالْكَفَايَةِ ؛ فَكَانَ الْجَوَابُ أَنْ أُرْسَلَ إِلَيْهِ حَبْلٌ أَسْوَدٌ وَحَجْرٌ ، أَيْ إِنَّهُ كَلَبٌ إِنْ رُبِطَ بِالْحَبْلِ وَالْإِرْمِيُّ بِالْحَجْرِ .

قال في "التعريف" : وَرَسَمَ الْمَكَاتِبَةَ إِلَيْهِ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْحَضْرَةِ السَّامِيَّةِ ، حَضْرَةِ الْمَلِكِ الْجَلِيلِ ، الْهَمَامِ ، الْأَسَدِ ، الْبَاسِلِ ، الضَّرْثَامِ ، الْغَضَنَقَرِ ، بَقِيَّةِ سَلْفِ قَيْصَرَ ، حَامِي حُمَاةِ بَنِي الْأَصْفَرِ ، الْمُنْعِ السُّلُوكِ ، وَارثَ لَدْرِيقَ وَذَرَارِيَّ الْمُلُوكِ ؛ فَارَسَ الْبَرَّ وَالْبَحْرَ ، مَلِكَ طَلَيْطَلَةَ وَمَا يَلِيهَا ، بَطْلَ النُّصْرَانِيَّةِ ، عَمَادِ بَنِي الْمَعْمُودِيَّةِ ، حَامِلَ رَايَةِ الْمَسِيحِيَّةِ ، وَارثَ التَّيْجَانَ شَبِيهَ مَرْيَحِنَا الْمَعْمَدَانَ ، مُحِبِّ الْمُسْلِمِينَ ، صَدِيقِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ .

دعاء وصدور يليقان به

وَكَفَاهُ شَرَّفَ نَفْسَهُ ، وَجَنَاهُ ثَمَرَ غَرَسِهِ ، وَوَقَاهُ فَعَلَ يَوْمَ يُجْرُ عَلَيْهِ مِثْلَ أَمْسِهِ ، وَأَرَاهُ مِقْدَارَ النَّعْمَةِ بِالْبَحْرِ الَّذِي تَمَنَعَ لِسُورِهِ وَتَوَقَّى بِرُؤْسِهِ .

أَصْدَرْنَاهَا إِلَيْهِ وَجَنَدُ اللَّهِ لَا يَمْنَعُهُمْ مَانِعٌ ، وَلَا يُضِرُّهُمْ فِي اللَّهِ مَا هُوَ جَامِعٌ ، وَلَا يَلِيَاؤُونَ أَكْتَابَ يُخَلِّفُونَهَا أَمْ كُتِبْنَا ، وَجَدَاوِلُ تَعْرِضُ لَهُمْ أَمْ بِحَارٌ لَا تَنْقَطِعُهَا إِلَّا وَثْبًا .

آخِرُ : وَوَقَاهُ بِتَوْفِيقِهِ تَلَاْفَ الْمُهَجِّ ، وَوَقَاهُ بِأَسِّ كُلِّ أَسَدٍ لَمْ يُجِجْ ، وَحَمَاهُ مِنْ شَرَفْتِهِ لِأَيْلِ الْبَحْرِ الَّذِي تَحَصَّنَ بِهِ غُبَارَهَا مِنَ الرَّجْحِ .

أصدرناها إليه وأسنننا لا تُرد عن نحر ، وأعتننا لا تُصد بسور ولو ضرب من وراء البحر .

قلت : وينبغي أن تكون في قطع النصف .

الثاني — صاحب برجلونة ، وهم في ” التثقيف “ بفعله هو الأدفونش المقدم ذكره . وقال : إنه يلقب أفتونش ، دُون حاكم . ثم قال : وهم طائفة الكيتلان ورسم المكتبة إليه في قطع النصف بقلم الثلث الكبير « آدم الله تعالى بهجة الحضرة الموقرة ، الملك الجليل ، المكرم ، المبجل ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرم ، الريدأرغون ، فلان ؛ نصير النصرانية ، نخر الأمة العيسوية ، ذخر الملة المسيحية ، حامى الثغور ، ممتلك السواحل والبحور ، عماد العمودية ، ظهير بابا روميه ؛ ملاذ الفرسان ، جمال التخوت والتيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب برجلونة » .

قال في ” التعريف “ : أما الريد فرنس فلم يرد له إلا رسول واحد ، أ برق وأرعد ، وجاء يطلب بيت المقدس على أنه يفتح له ساحل قيسارية أو عسقلان ، ويكون للإسلام بهما ولاية مع ولاته ، والبلاد مناصفة ، ومساجد المسلمين قائمة ، وإدراتات قومها دارة ، على أنه يبذل مائتي ألف دينار تعجل ومحمل في [كل] سنة ، نظير دخل [نصف] البلاد التي يتسلمها على معدل ثلاث سنين ، ويطرف في كل سنة بغرائب التحف والهدايا . وحسن هذا كتاب من كتبة القبط ، كانوا صاروا رؤوساً في الدولة بعائم بيض وسراير سود ، وهم أعداء زرق ، يجرعون الموت الأحمر ، وعملوا على تمشية هذا القصد و [ان] سرى في البدن هذا السم ، وتطلب له الدرياق فعز .

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من ” التعريف “ ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليلٌ معجَّلٌ ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نُقْطَةٌ في بحرٍ ،
وحصاةٌ في دهناء .

قال : وبلغ هذا أبي رحمه الله ، فألى أن يُجَاهِرَ في هذا ، ويجاهدَ بما أمكنه ،
ويدافعَ بهما قدرَ عليه ، ولولاوى السلطانَ على رأيه إن أصغى إلّا أولئك الأفكدة ؛
وقال لى : تقوم معى وثنكلم ، ولو خُضبت منا ثيابنا بالدم ، وراسلنا قاضى الفضاة
القزوينى الخطيب ، فأجاب وأجاد الإستعداد ؛ فلما بكرنا إلى الخِدمة وحضرنا بين
يدى السلطان بدار العدل ، حضرت الرسل ، وكان بعضُ أولئك الكتبة حاضرا ،
فاستعدَّ لأن يتكلم ، وكذلك استعدينا نحن : فما آستم كلامهم حتى غَضِبَ السلطانُ
وحجى غضبه ، وكاد يتصرَّم عليهم حطبه ، ويتعجَّلَ لهم عطبه ، وأُسِكتَ ذلك المنافقُ
بخزيتِه ، وسكتنا نحن اكتفاءً بما بلغه السلطان مما رده بحجيتِه ؛ فصدَّ ذلك
الشیطانُ وكفى الله المؤمنین القتال ؛ وردت على راميا النصال . وكان الذى قاله
السلطان : والكم أتم عرقم ما لقیم نوبة دمیاط من عسكر المَلِكِ الصالح ، وكانوا
جماعة أكرادٍ ملفقة مجمعة ؛ وما كان بعد هؤلاء الترك ؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال
الترک ؛ ونحن اليوم بحمد الله تعالى صلح [نحن وإياهم] ^(١) من جنسٍ واحد ما يتخلى بعضه
عن بعض ، وما كنا نريد إلا الابتداء ؛ فأما الآن فتحصّلوا وتعالوا ، وان لم تجوا
فنحن نجیکم ولو أننا نخوض البحر بالخیل ؛ والكم صارت لكم السنة تذكرون بها
القدس ؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابَه إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب !
وصرخ فيهم صرخة زعزعت قواهم ، وردهم أقبح رد ، ولم يقرأ لهم كتابا ، ولا رد
عليهم سوى هذا جوابا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن اتفق أن يكتب إلى الريد إفرنس المذكور فتكون المكتابة إليه مثل المكتابة إلى الأدفونش أو أجل من ذلك .

وأعلم أن الريد فرّنس هو الذي قصد الديار المصرية بمواطاة الأدفونش : صاحب طليطلة المقدم ذكره ، وماكوا دميّاط ، وكانت الواقعة بينهم في الدولة الأيوبية في أيام الصالح أيوب ؛ وأخذ الريد فرّنس وأميسك وحيس بالدار التي كان ينزلها نحر الدين بن لقمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورسم عليه الطواشي صبيح ، ثم نفّس عنه ؛ وأطلق لأمر قرّر عليه ؛ وقال في ذلك جمال الدين بن مطروح أبياته المشهورة وهي :

[قُلْ لِلْفَرَنْسِيِّسِ إِذَا جَتَّه * مَقَالَ صِدْقٍ مِنْ قَوْلِ نَصُوحِ
أَتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَغِي مُلْكَهَا * تَحْسَبُ أَنَّ الزَّمْرَةَ يَاطِبُلُ رِيحِ
وَكُلُّ أَصْحَابِكَ أَوْدَعَتْهُمْ * بِحَسَنِ تَدْبِيرِكَ بَطْنُ الضَّرِيحِ
خَمْسِينَ أَلْفًا لَاتَرَى مِنْهُمْ * غَيْرَ قَتِيلٍ أَوْ أُسِيرٍ جَرِيحِ
وَقَفَّكَ اللَّهُ لِأَمْثَالِهَا * لَعَلَّ عَيْسَى مِنْكُمْ يَسْتَرِيحِ
أَجْرَكَ اللَّهُ عَلَى مَا جَرَى * أَفْنَيْتَ عَبَادَ يَسُوعَ الْمَسِيحِ
فَقُلْ لَهُمْ إِنْ أَضْمَرُوا عَوْدَةً * لِأَخْذِ نَارٍ أَوْ لِقَصْدِ صَبِيحِ :
دَارُ ابْنِ لُقْمَانَ عَلَى حَالِهَا * وَالْقَيْدُ بَاقٍ وَالطَّوَاشِي صَبِيحِ^(١)

(١) بيض لهذه الأبيات في الاصل وقاناها مما تقدم في ج هـ

المقصود الثالث

(في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي)

والمكاتب بهذا الجانب منهم مِلْكان :

الأول - صاحب أَمْحَرَا: ملكِ مُلُوكِ الحَبَشَةِ ، ولقبه عندهم حَطَّى - بفتح الحاء وكسر الطاء المشددة المهملتين ، سَمَّةَ على كَلِّ من مُلْكٍ عليهم منهم .

قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية أنه نصراني يعقوبي ، يحكم على تسعة وتسعين ملكا ، منهم سبعة مسلمون ، وهم صاحب وقَات ، وصاحب دَوَارو ، وصاحب أَرَايِنِي ، وصاحب شَرْحَا ، وصاحب هَدْيَةَ ، وصاحب بَالِي ، وصاحب دَارَةَ ، وأنه لولا أن معتقد دين النصارى لطائفة اليعاقبة أنه لا يصحُّ تعمد معمودي إلا باتصال من البَطْرِيْرِك ، وأن كَرِسِيَّ البَطْرِيْرِك كنيسته الإسكندرية فيحتاج إلى أخذ مَطْرَانٍ بعد مَطْرَانٍ من عنده ، لشمخَ بأَنفه عن المكتبة ، لكنه مُضطرٌّ إلى ذلك .

قال في " التعريف " ورسم المكتبة إليه :

أطال الله بقاء الحضرة العالمة ، الملك ، الخليل ، الهمام ، الضَّرْدَام ، الأسد ، الغَضَنَفَر ، الخطير ، الباسِل ، السَّمِيدَع ، العالم في ملته ، العادل في مملكته ، المنصف لرعيته ، المستمع لما يجب في أقضيته ؛ عزَّ الملة النصارى ، ناصر الملة المسيحية ، رُكِن الأُمَّة العيسوية ، عمادِ بنى المعمودية ، حافظ البلاد الجنوبية ، متبع الحواريين ، والأخبار الربانيين ، والبطاركة القديسين ، معظَّم كنيسته صهيون ، أُوحد مُلُوكِ اليعتوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاءً مفحماً يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما في "التعريف":
وأظهر فضله على من يدانيه من كل ملك هو بالتاج معتصب، ولكف البجاج
بالعدل معتصب، ولقطع حجاج كل معاند بالحق معتصراً وللحق معتصب.

صدرت هذه المفاوضة إلى حضرته العلية ومن حضرة القدس مسراها، ومن
أسرة الملك القديم سراها؛ وعلى صفاء تلك السريرة الصافية ترد وإن لم يكن بها
خليل، وإلى ذلك الصديق الصديق [المسيحي] تصل، وإن لم تكن بعثت إلا من
تلقاء الخليل.

ولم يذكر القطع الذي يكتب إليه فيه. أما في "التثقيف": فإنه ذكر أنه
يكتب إليه في قطع الثلث بقلم التوقعات مانصه:

أطال الله بقاء الملك، الجليل، المكرم، الخطير، الأسد، الضرعام، الهمام،
الباسل، فلان بن فلان، العالم في ملته، العادل في مملكته، حطى ملك أمحوا، أكبر
ملوك الحبشان، نجاشي عصره، سند الملة المسيحية، عضد دين النصرانية، عماد بن
المعمودية، صديق الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «صاحب الحبشة».

قال: فإن كانت المكتبة جواباً، صدر الكتاب إليه بما صورته: ورد كتاب الملك
الجليل، ويذكر بقية المكتبة. ثم قال: وهذه المكتبة هي التي استقر عليها الحال عند
ما كتب جوابه في التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة.



وهذه نسخة جواب كتاب ورد عن صاحب الحبشة من سبطنة الملك المظفر
صاحب اليمن، على الملك «الظاهر بيبرس» رحمه الله، بطلب مطران يقيمهم لهم
البطرك؛ مما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهي:

ورد كتابُ الملك، الجليل، الهام، العادل في ملته، حظّى ملك أمحراً أكبر ملوك
 الخُشنان، الحاكم على ما هم من البلدان، نجاشي عصره، صديق الملوك والسلاطين،
 سلطان الأمحرا حرس الله نفسه، وبني على الخير أسه، فوقفنا عليه وفيهنا ماتضمنه:
 فأما طلبُ المطران فلم يحضر من جهة الملك أحدٌ حتى كان تعريفُ الغرض المطلوب،
 وإنما كتابُ السلطان الملك المظفر صاحب اليمن ورد مضمونه أنه وصل من جهة
 الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتى يسير إليه الجواب. وأما ما ذكره من كثرة
 عساكره، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالى يكثر في عساكر
 الإسلام. وأما وخم بلاده فالآجالُ مقدرة من الله تعالى، ولا يموت أحدٌ إلا بأجله،
 ومن فرغ أجله مات.

وأعلم أن العادة جرت أنه كلما كتب إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب
 قرينه كتابٌ عن البطريرك. قال في "التعريف": ولأوامر البطريرك عنده
 ما لشريعته من الحرمة، وإذا كتب كتاباً فأتى ذلك الكتابُ أول مملكته، خرج
 عميدُ تلك الأرض فحمل الكتابَ على رأس علم، ولا يزال يحملُه بيده حتى يُخرجه
 من أرضه، وأربابُ الديانة في تلك الأرض: كالقسوس والشمامسة حوله مشاةً
 بالأدخنة؛ فإذا خرجوا من حدّ أرضهم تلقاهم من يليهم أبداً كذلك في كل أرض
 بعد أرض حتى يصلوا إلى أمحرا، فيخرج صاحبها بنفسه، ويفعل مثل ذلك الفعلِ
 الأول؛ إلا أن المطران هو الذي يحمل الكتابَ لعظمته لا لتأبى الملك. ثم لا يتصرف
 الملك في أمر ولا نهى، ولا قليل ولا كثير، حتى ينادى للكتاب، ويجتمع له يوم الأحد
 في الكنيسة، ويقرأُ والملك واقف؛ ثم لا يجلس مجلسه حتى ينفذ ما أمره به.

الثاني - صاحب دُنقلَة. قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك
 أن دُنقلَة هي قاعدة مملكة النوبة، وأنها كانت في الأصل يكون ملكها من نصارى

الثوبة، ومعتقدهم معتقد اليعاقبة، وأنه ربما غلب عليها بعض المسلمين من العرب فلما كتبها؛ وقد تقدم ذكر المكتبة إلى صاحبها إذا كان مسلماً؛ أما إذا كان نصرانياً فقد ذكر في "التثقيف" أن المكتبة إليه: هذه المكتبة إلى النائب، الجليل، المبجل، الموقر، الأسد، الباسل، فلان؛ مجد الملة المسيحية، كبير الطائفة الصليبية، غرس الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «النائب بدُّنقله» .

المقصد الرابع

(في المكتبة إلى ملوك الكُفَّار بالجانب الشمالي من الروم والفرنجية على اختلاف أجناسهم، وجميعهم معتقدهم معتقد الملكانية)

وجملة ما ذكر من المكاتب في "التعريف" و"التثقيف" اثنتا عشرة مكتبة:

الأولى - مكتبة الباب، وهو بطريرك الملكية، القائم عندهم مقام الخليفة؛ والعجب من جعله في "التثقيف" بمنزلة القان عند التتار، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر، والباب ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحرير .

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطارقة أنهم كانوا يُسمون القسيس ونحوه أباً، ويُسمون البطريرك أباً؛ فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمه له تميزه عن غيره من الآباء، فاختاروا له لفظ الأب؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء؛ ثم لما غلب الروم على المملكة، وعلت كلمتهم على اليعاقبة، خصوا اسم الباب ببطريركهم؛ فصار ذلك علماً عليه، ومقره مدينة رومية على ما تقدم

(١) مراده أن يطلقوا على البطريرك سمة الخ .

هناك ، ورسمُ المكتبة إليه على ما ذكره في ” التثقيف “ ضاعفَ اللهُ تعالى بهجةَ الحضرة السامية ؛ الباب الحليل ، القديس ؛ الروحاني ؛ الخاشع ؛ العامل ؛ بأبأ رومية ؛ عظيم الملة المسيحية ، فُدوة الطائفة العيسوية ، مملكِ ملوكِ النصرانية ، حافظ الجُسور والخُجان ، ملاذِ البَطاركة والأساقفة والقُسوس والرهبان ، تالي الإنجيل ، معرف طائفته التحريم والتحليل ، صديق الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكتبة .

قال في ” التثقيف “ : هذا ما وجدته مسطورا ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه . ولم يتعرض له المقر الشهابي بن فضل الله في ” التعريف “ جملةً ، ورأيت في بعض الدساتير أنه لم يكتب إليه إلا مرة واحدة ، وأن الكتابة إليه في قطع النصف مع المكتبة المتقدمة .

الثانية - المكتبة إلى ملك الروم صاحب القُسطنطينية . قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك أنها صارت آخر إلى بني الأشكرى ؛ فصار الأشكرى سمة لهم ملكا بعد ملك . قال في ” التعريف “ وقد كان قبل غلبة الفرنج ملكا جليلا ، يرجع إليه من عبَاد الصليب سائر الملوك ، ويفتقر إليه منهم الغني والصعلوك ؛ وكتب التواريخ مشحونةً بأخباره ؛ وذكر وقائعه وأثاره ، وأول من ألبس هامته الذلَّة ، وأصار جمعه إلى القلَّة ، هارون الرشيد حين أغزاه أبوه المهدي إياه ، فأزال السَّم من أنفه ، وثنى جامع عطفه . فأما غزوات مسلمة بن عبد الملك ويزيد بن معاوية فإنها لم تبلغ فيه حدَّ النكايه ؛ ولا أعظمت له الشكايه ؛ قال : وهذا الملك الآن كان السلطان (أربك) قد كاد يبترتاجه ، ويعقم نتاجه ؛ ويحل من جانب البحر المغلق رتاجه ؛ فأحتاج إلى مداراته وبذل له نفائس المال ، وصحب أيامه على مَضض

الآحتمال؛ وكانت له عليه قطيعةٌ مقرّره، وجملةٌ مالٍ مقدّره؛ ثم عمّيت علينا بعده منهم. الأخبار، وتوتّى بالدنيا الإديبار .

ورسم المكتابة إليه على ما ذكره في " التعريف " : ضاعف الله تعالى بهجةَ الحضرة العالية ، المكرّمة ، حضرة الملك ، الجليل ، الخطير ، الهمام ، الأسد ، الغصنفر ، الباسل ، الضّرغام ، المعرّق ، الأصيل ، المجدد ، الأثير ، الأثيل ، البلالوس ، الرّيدأرغون ، ضابط الممالك الروميّة ، جامع البلاد الساحليّة ، وارث القياصرة القدّماء ، محيي طرق الفلاسفة والحكماء ، العالم بأموار دينه ، العادل في مملكه ، معزّ النصرانيه ، مؤيد المسيحيّه ، أوحد ملوك العيسويه ، محوّل التخوت والتيجان ، حامى البحار والخُلقان ، آحر ملوك اليونان ، ملك ملوك السّريان ، عماد بنى المعموديّه ، رضىّ الباب پاپا رومية ، ثقة الأصدقاء ، صديق المسامين ، أسوة الملوك والسلاطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكر قطع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به ، أوردهما في التعريف .

وجعل له من السّلامة يّاً لا تُزعزعه من أوطانه ، ولا تنزعه من سلطانه ، ولا تُوجب له إلا استقراً لتيجانه ، واستمراً بمملكه على مادارت على حصونه مناطق حُلقانه ، ولا برحت ثمار الودّ تدنو من أفنانه ، وموآثيق العهد تبتوى له مايسر به من إشادة معالم سلفه وشدّ بناء يونانه : أصدرناها ، وشكره بكاره البحر لا يوقف له على آحر ، ولا يوصف مثل عقده الفاجر ، ولا يكثر إلا قيل : أين هذا القليل من هذا الزاخر .

آخره : وَنَظَمَ سِلْكَه ، وَحَمَى بِحُسْنِ تَأْتِيهِ مُلْكَه ، وَفَفَى مُحِبَّه هُلْكَه ،
وَأَجْرَى بُوْدَه رَكَابَه وَفُلْكَه ، وَوَقَاهَ كِذْبَ الْكَاذِبِ وَكَنَفَ إِفْكَه ، وَأَشْهَدَ عَلَى وَدَه
الليل والنهار وما جنَّ كافرُ هذا كافرُه ولا مسك هذا مسكُه .

قلت : هذا الدعاء والصدْر وإن أوردته في "التعريف" في جملة الأدعية له
والصدور ، فإنه منحط الرتبة عن المكاتبة السابقة ؛ اللهم إلا أن يُخصَّ هذا بحالة
مناذرة أو تهديد ، ونحو ذلك .

وذكر في "التتيف" أن الذي استقر عليه الحال في المكاتبة إليه أنه يُكتَب إليه
في قطع النصف ما نصه : ضاعف الله تعالى [بهجة ^(١)] حضرة الملك الجليل ،
المكرم ، المبجل ، الأسد ، الخطير ، البطل ، الباسل ، الهمام ، الضرغام ، فلان ،
العالم في ملته ، العادل في أهل مملكته ، عز الأمة المسيحية ، كبير الطائفة الصليبية ،
جمال بنى المعمودية ، صمصام الملوك اليونانية ، حسام المملكة الماكسونية ،
مالك اليرغلية والاملاحيه ، صاحب أمصار الروس والعلان ، معز اعتقاد الكرج
والشربان ، وارث الأسرة والتيجان ، الحاكم على الثغور والبحور والخلجان ، الضوقس
الأنجالوس الكنينيوس الببالوغس ، صديق الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء .
صدرت هذه المكاتبة إلى حضرته تشكراً لمولاته ، (ومن هذه المادة) وتوضَّح
لعلمه السعيد .

ورأيت في بعض الدساتير أنه يختمها بقوله : فيحيط بذلك علما ، والله تعالى
يديم بهجته .

(١) مقتبسة من "التعريف" لصحة الكلام .

قال في "التثقيف" : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكتبة هي المتداولّة بديوان الإنشاء بين كُتّابه ، وأنه هو كُتّب بها إليه ، ولم يتعرّض لإيراد المكتبة التي ذكرها في "التعريف" بل أحال في معرفتها لمن أرادها على النظر فيه .

الثالثة - المكتبة إلى حُكّام جنوة : وهم جماعة متفاوتو المراتب ، وهم : البودشطا ، والكبطان ، والمشايخ . ورسم المكتبة إليهم على ما ذكره في "التثقيف" في قطع التُّلث :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة البودشطا والكبطان الجليلين ، المكرّمين ، الموقّرين ، المبجلّين ، الخطيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكاير المحترمين ، أصحاب الرأي والمسورة ، الكنون بجنوه^(١) ، أمجاد الأئمة المسيحية ، أكابر دين النصرانية ، أصدقاء الملوك والسلاطين ، ألهمهم الله تعالى رشدهم ، وقرن بالخير قصدهم ، وجعل النصيحة عندهم . تتضمن إعلامهم كذا وكذا . وتعريفهم « الحُكّام بجنوة » .

قال في "التثقيف" والذي استقرّ عليه الحال آخرا في مفتتح سنة سبع وستين وسبعائة إبطل المكتبة إلى البودشطا والكبطان ، بحُكم أنهما أبطلا ، وأستقرّ [ت مكتبة] الدوج مكانهما بما نصه :

صدرت هذه المكتبة إلى الدوج الجليل ، المكرّم ، المبجلّ ، الموقّر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقي على ما تقدّم ذكره .

قلت : هكذا هو في "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم في آخره كانا على ماسياتي ذكره في الكلام على صاحب البندقية على الأثر .

(١) لعله الحاكون بجنوة .

وأعلم أنه قد ذكر في "التثقيف" أنه كان لصاحب جنوة مُقَدِّم على الشَّوَانِي بِقُبْرَسٍ ، وقيل إنه كان بالمأغوصة ، وأنه كتب إليه في رمضان جواباً عما ورد عنه في قَطْع العادة مانصه :

وردت مكتبة المُحْتَشِمِ ، الجليل ، المَبَجَّل ، الموقر ، الاسد ، الباسل ، فلان ؛ مَجْدِ الملة المَسِيحِيَّةِ ، كبير الطائفة الصَّليبيَّةِ ، غرَس الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء .
وتعريفه «مقدم الشَّوَانِي الجَنَوِيَّةِ بِقُبْرَسٍ» .

الرابعة - المكتبة إلى صاحب البندقيَّة . قال في "التثقيف" : ورسم المكتبة إليه على ما استقرَّ عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه في شهر رجب سنة سبع وستين وسبعائة ، وهو يومئذ مَرَكْرِيَادُو في قطع الثلث :

وردت مكتبة حضرة الدُّوج ، الجليل ، المَكْرَم ، الخطير ، الباسل ، الموقر ، المَفَحَّم ، مَرَكْرِيَادُو نَجْرِ الملة المَسِيحِيَّةِ ؛ جمال الطائفة الصَّليبيَّةِ ، دُوج البندقيَّةِ والمانسية ، دوج كرال دين بن المعمودية ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء .
وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلاً عن خط القاضي ناصر الدين ابن النشائي أنه كتب في الجواب إلى دُوكِ البنادقة :

وردت مطالعةُ الدُّوكِ الجليل ، المَكْرَم ، المَبَجَّل ، الموقر ، البطل ، الهام ، الضَّرغام ، الغَضَنَفَر ، الخطير ؛ مَجْدِ الملة النَّصْرَانِيَّةِ ، نَجْرِ الأئمة العيسويَّةِ ، عماد بن المعمودية ، معزُّ بابا رومية ، صديق الملوك والسلاطين ، دُوكِ البنادقة ، وديارقة ، والرُّوسا ، والإصطنبوليَّة . ثم قال : ولم يذكر تعريفه ولا قَطْع الورق الذي يُكْتَب إليه فيه ؛ ثم نقل عنه أيضاً أن المكتبة إلى دُوكِ البندقيَّةِ : هذه المكتبة إلى حضرة المحتشم ، الجليل ، المَبَجَّل ، الموقر ، المَكْرَم ، المَفَحَّم ، الباسل ، الضَّرغام ، فلان ؛

عزَّ الامَّة المسيحيَّة، جمال الطائفة العيسويَّة، دُخر الملة الصليبية، صديق الملوك والسلاطين . ثم قال : هكذا رأيتُه من غير ذكر تعريفه ولا القُطْع الذي يكتب إليه فيه . قال : وما يبُعد أنه غيرُ الأوَّل ولم يزد على ذلك .

قلت : ومقتضى ما ذكره من جميع ذلك أن الدوك غيرُ المملكِ نفسِه . على أن المكتبة الأولى والثانية في الجواب متقاربتان . اما المكتبة الثالثة فنحطَّة عن الأوَّلَتين . على أنه قد تقدّم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البندقيَّة نقلا عن ابن سعيد أن ملك البنادقة يقال له الدوك بضم الدال المهملة وواو وكاف في الآخر، وهذا مما يحتاج إلى تحرير؛ فإن كان الدوك هو المملك فتكون المكتبة إليه اختلفت باختلاف الحال، أو باختلاف غرض الحُكَّاب، أو عدم اطلعهم على حقيقة الأقدار والوقوف مع ما يُلقي إليهم من المزاحمة في كل وقت وهو الظاهر .

الخامسة — المكتبة إلى صاحب سنوب، من سواحل بلاد الروم، قبل أن تُفتح ويستولى عليها التُّركان . قال في "التعريف" وهي على ضفَّة الخليج القُسطنطينيِّ، وملكها روميٌّ من بيت المملك القديم، من أقارب صاحب القُسطنطينيَّة . قال : ويقال إن أباه أعرق من آباءه في السلطان . قال : ولكن ليس ملكه بكبير، ولا عدده بكثير، ويكونُ بينه وبين أمراء الأتراك حروب، يكون في أكثرها المغلوب . وذكر أن رسم المكتبة إليه مثل مملك سيس، فتكون على ما ذكره في مكتبة مملك سيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك، الجليل، البطل، الباسل، الهمام، السميّدع، الضرغام، الغضنفر، فلان؛ فخر الملة المسيحيَّة، دُخر الامَّة النصرانيَّة، عماد بن المعمودية، صديق الملوك والسلاطين .

وهذا دعاء يليق به، ذكره في "التعريف" :

وكفاه شَرَّ مَائُتُوبٍ ، وروحَ حَاطِرِهِ فِي الشَّمَالِ بَرِيًّا مَائِبٌ مِنَ الجُنُوبِ ، ووقاه
سُوءَ فِعْلٍ يُورِثُ النَّدَمَ وَأَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّنَّ سَنُوبٌ .

السادسة - المكتبة إلى صاحب البلغار والسرب . قد تقدم في الكلام على
المكتبات إلى ملوك الإسلام بالجانب الشمالي نقلا عن " التعريف " ما يقتضى أن
ملكها مسلمٌ ، وُذِكِرَتْ مكاتبته الإسلامية هناك ، وعلى ذلك اقتصر في "التعريف"
وتقدم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارت إلى ملوك النصرانية ، وعليه اقتصر
في "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في " التثقيف " نقلا عن ابن النشائي في قطع
الثالث ما نصه :

أطال الله تعالى بقاء حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، الهام ، الضرغام ،
الباسل ، الدوقس ، الأنجالوس ، الكمينوس ، فلان ؛ عماد النصرانية ، مالك السرب
والبلغار ، نحر الأئمة العيسويه ، ذنر الملة المسيحية ، فارس البحور ، حامى الحصون
والثغور . والدعاء ، أصدرنا هذه المكتبة ، وتعريفه «صاحب البلغار» .

وأعلم أنه في "التثقيف" بعد أن أورد المكتبة المتقدمة لصاحب السرب والبلغار،
نقلا عن ابن النشائي ذكر نقلا عنه أيضا أن المكتبة إلى صاحب السرب في قطع
الثالث نظير متملك سيس ، فتكون المكتبة إليه على ما تقدم أنه الذى استقر عليه الحال
في المكتبة لتملك سيس :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، المبجل ، المعزز ،
الهام ، الباسل ، فلان ؛ عز دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بنى

(١) أى البلد التى هى عاصمة ملكه .

المعمودية، صديق الملوك والسلاطين ، أدام الله نعمته ، وحرس مهجته ، تعلمه
كذا وكذا؛ وتعريفه «صاحب السَّرب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارةً فيكون بهما آثان تارةً وواحد
تارةً أم لا . ثم قال : على أنه لو كان الأمر كذلك لكان يتعين أن يذكر مكالبة
صاحب البُلغار وحده مفردًا كما ذكر مكالبة صاحب السَّرب وحده مفردًا .

قلت : كِلا الأمرين محتملٌ ، فيجوز أنهما كانا مجتمعين لواحدٍ ، وأنه كتب
تعريفه بالإضافة إلى أحدهما استغناءً به عن الآخر ، أو أنه كتب إلى صاحب
السَّرب بمفرده ، ولم يحطَّ رتبته في قِطْع الورق عن رتبة من اجتماعه له ، ولا يلزم من
ذلك أنه كان يكتب لصاحب البُلغار بمفرده لاحتمال أنه لم يكتب إليه شيءٌ حينئذٍ ،
وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل .

السابعة — المكالبة إلى ملك رُودِس . قال في "التعريف" وهي جزيرة تقابل
شُطوط البلاد الرومية . قال : وأهلها في البحر حرامية ، إذا ظفروا بالمسلم ،
أخذوا ماله ، وأحيوه ، وباعوه أو استخدموه ؛ وإذا ظفروا بالقرنجي ، أخذوا
ماله وقتلوه .

ورسم المكالبة إليه مثل مملك سِيس ، إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية ،
وتختصر بعض ألقابه لأنه دونه ، وحينئذٍ فيتجه أن تكون المكالبة إليه :

صدرت هذه المكالبة إلى حضرة الملك الجليل ، البطل ، الباسل ، السَّميدع ،
فلان ؛ نجر الملة المسيحية ، ذخر الأمة النصرانية ، صديق الملوك والسلاطين ، وأنحو
ذلك . على أنه في "التعريف" لم يذكر في المكالبة إلى مملك سِيس ، معزٍ بابا
رومية ؛ فلم يكن ليحتاج أن يقول : إلا أنه لا يقال فيه معزٍ بابا رومية .

وهذا دعاء يليق به ، ذكره في "التعريف" وهو
 قَدَّمَ اللهُ لَهُ الْأَعْدَارَ ، وَكَفَاهَ قَوَامِعَ الْإِنْدَارِ ، وَحَدَّرَهُ عَاقِبَةَ الْبَغْيِ قَبْلَ أَنْ لَا يَنْفَعَ الْحِدَارُ .
 آخِرُ : فَكَ اللهُ مِنْ وَثَاقِهِ كُلِّ مَاسُورٍ ، وَأَقَالَ كُلَّ غَرَابٍ لَهُ مِنَ الرَّجُوعِ
 وَجَنَاحُهُ مَكْسُورٌ ، وَعَصَمَهُ بِالتَّوْبَةِ مِمَّا آقَرَفَ ، لَا بِالْبَحْرِ وَلَوْ أَنَّهُ سَبْعَةُ أَمْجُرٍ ، وَسُورِ
 مَدِينَتِهِ وَلَوْ أَنَّهُ مِائَةٌ سُورِ .

الثامنة - المكتبة إلى صاحب جزيرة المصطكى . قال في "التعريف" : وهي
 جزيرة صغيرة لا تبعد مدى من الإسكندرية ، وصاحبها صغيراً في مالٍ ولا في رجال ؛
 وجزيرته ذات فحط لا يطربها بزرع ، ولا يدربها بضرع ؛ إلا أنها تبتت
 هذه الشجرة فحمل منها وتجلب ، وترسى السفن عليها بسببها وتطلب ؛ قال :
 وفي ملكها خدمة لرؤسنا إذا ركبوا شبح البحر ، وتجهز لهم إلى حيث أرادوا ، وتجزئ
 لهم إذا توجهوا وإذا عادوا . ورسم المكتبة إليه على ما ذكره في "التعريف" كالمكتبة
 إلى صاحب جزيرة رودس المتقدمة الذكر آنفاً وهي :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك الجليل إلى آخر ما تقدم .

وهذه أدعية تليق به ذكرها في "التعريف" ، دعاء من ذلك ، وفقه الله لطاعته ،
 وأنهضه من الولاء بقدر طاقته .

آخر : أطاب الله قلبه ، وأدام إلينا قربه .

آخر : لا زال إلى الطاعة يبادر ، وعلى الخدمة أنهض قادر ، ومكانه تزم
 إليه ركائب السفن بكل واردٍ وصادر .

التاسعة - المكتبة إلى ممتلك قبرس . وإنما قيل له ممتلك قبرس لأنها كانت
 قد فتحها المسلمون ، ثم تغلب عليها النصارى وملكوها ؛ فقيل لمن غلب عليها ممتلك

ولم يُقَلْ له مَلِكٌ ؛ وذكر في ”التثقيف“ عن القاضي ناصر الدين بن النشائي أن المكتبة إليه [مثل] ممتلك سيس ولم يزد على ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكتبة إليه مثل ما استقر عليه الحال في المكتبة إلى ممتلك سيس في قطع العادة :

صدرت هذه المكتبة إلى حضرة الملك ، الجليل ، المكرم ، البطل ، المعزز ، الهام ، الباسل ، فلان ؛ عز دين النصرانية ، كبير الطائفة الصليبية ، عماد بن المعمودية ؛ صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمته ، وحرس مهجته . وتعريفه « ممتلك قبرس » .

قال صاحب ”التثقيف“ : ولم أقف على مكتبة إليه ابتداءً ولا جواباً سوى ذلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاي اليوسفي عند وقوع الصلح في سنة اثنتين وستين وسبعائة ، يعني عند ما كان الجاي أتابك العساكر المنصورة .

العاشرة — المكتبة إلى ملك مؤنفراد . ذكر في ”التثقيف“ أنه كان بها ابن ملك إصطنبول ، وأنه كتب إليه في سنة ثلاث وثلاثين وسبعائة :

أصدرناها إلى حضرة الملك الجليل ، المكرم ، البطل ، الهام ، الأسد ، الضرغام ، فلان ؛ مجد النصرانية ، نجر العيسوي ، عماد بن المعمودية ، جمال الطائفتين الرومية والفرنجية ، ملك مؤنفراد ، وارث التاج ، معز الباب ، أدام الله بقاءه ، وحفظه ووقاه ، وأورثه من أبيه تحته وتاجه وولاه ؛ تتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هذا ما وجدته مسطوراً في رسم المكتبة المذكورة ، ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولم أدر ما تعريفه ، ولا في أي قطع يكتب إليه . قال : والذي يظهر أنه يكتب إليه في قطع العادة ، وأن يكون تعريفه « ملك مؤنفراد » .

الحادية عشرة - المكتبة إلى صاحبة نابل . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان اسم صاحبها جوانا، وأنه كتب إليها في أواخر سنة ثلاث وسبعين وسبعائة ما صورته :

صدرت هذه المكتبة إلى الملكة، الجليلة، المكرمة، المبجلة، الموقرة، المفخمة، المعززة، فلانة، العالمة في ملتها، العادلة في مملكته، كبيرة دين النصرانية، نصيرة الأئمة العيسوييه، حامية الثغور، صديقة الملوك والسلاطين . ثم الدعاء؛ نتضمن إعلامها، وتعريفها «صاحبة نابل» ولم يذكر قطع الورق لمكتبتها، ولا خفاء أنه يكتب إليها في قطع العادة لصغر مقامها .

قلت : فإن ولي مملكته رجل، فينبغي أن يكتب إليه بهذه المكتبة على التذكير أو أعلى من ذلك، لميزة الرجال على النساء . وهؤلاء جملة من تعرض إلى مكاتبته في "التعريف" و"التثقيف" من ملوك الكفر؛ فإن اتفقت المكتبة إلى أحد سواهم فليقس على من هو مثله منهم . ثم قد ذكر في "التثقيف" القنصل بكفا، وذكر أنها جارية في حكم جنوة؛ وأنه لم يكتب إليه شيء عن المواقف الشريفة، ولا خفاء في ذلك، فإن مقام القنصل دون أن يكتب عن الأبواب السلطانية .

الفصل الخامس

من الباب الثاني من المقالة الرابعة

(في الكتب الواردة على الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية ؛
من جرت العادة بمكاتبتة إليها من أهل المملكة وغيرها من
سائر الممالك المكتاتبة عن هذه المملكة ؛ وهي نوعان)

النوع الأول

(المكاتبُ الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي على قسمين)

القسم الأول — في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة ، بالديار المصرية ،
والبلاد الشامية ، ممن يؤهل للمكاتبة إلى الأبواب السلطانية ، من التواب وغيرهم ؛
من الأمراء ، وأرباب الأقاليم : من الوزراء ، والعلماء ومن في معانهم ؛ وهم على
ضريين :

الضرب الأول

(في المطالعات الواردة عن أكابر أهل الدولة بالديار المصرية)

والبلاد الشامية : من التواب ومن في معانهم)

قد جرت عادة من يكتب إلى الأبواب السلطانية من أهل هذه المرتبة ، أن
يكتب جميعهم كتبهم في قطع العادة ؛ فإن كان بالديار المصرية فن الورق البلدي ،
وإن كان بالبلاد الشامية فن الورق الشامي ، وجميع ذلك في الورق الأبيض ، إلا
نائب الشام ونائب الكرك ، فإنهما قد جرت العادة فيهما بأنهما يكتبان إلى الأبواب
السلطانية في الورق الأحمر الشامي ، شيء اختصابه دون سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر في "عرف التعريف" أن الملوک لا یکتب إلیهم إلا «یقبل الأرض»
 ویُنهی . ویُختم الکتاب بما صورته : طالع الملوک بذلك وللآراء العالیة مزید العلو؛
 أو أنهى الملوک ذلك وللآراء العالیة مزید العلو؛ والعنوان «الملکی الفلانی» ، مطالعة
 الملوک فلان » وحينئذ فالذى جرت به العادة فى ذلك أن یتدی الکتاب فىکتب
 فهرست الکتاب فى رأس الدرّج من جهة وجهه ، فى عرض إصبع ، فى الجانب الأيمن
 « إلى الأبواب الشریفة » وفى الجانب الأيسر « بسبب کذا وكذا » ثم یقلب الدرّج
 ویکتب فى ظاهره ، بعد ترک ما کتب الفهرست فى باطنه ، العنوان ؛ فىکتب :
 «الملکی الفلانی» فى أول العنوان ، و«مطالعة الملوک فلان» فى آخره . ثم بعد ذلك
 یقلب الدرّج ، ویترك وصلا أبيض ، ویکتب بالبسملة فى رأس الوصل الثانى بعد
 خلّو هامیش من الجانب الأيمن . ثم یکتب تحت البسملة ملاصقا لها ما صورته
 «الملکی الفلانی» بحيث یكون آخر الملکی الفلانی مسامتا لجلالة البسملة ، بلقب
 السلطان ، كأنه ینسب نفسه إلى سلطانه . ثم یكتب صورة المکتابة على سمت البسملة
 فى سطر ملاصق للملکی الفلانی « یقبل الأرض ویُنهی کذا وكذا » فإن كان ابتداء
 کتب ویُنهی أن الأمر کذا وكذا ، ویأتى بمقاصد المکتابة : فإن كانت فصلا
 واحدا ذكره وختم الکتاب بانحر کلامه ؛ وإن كان الکتاب مشتملا على فصول أتى
 بالفصل الأول إلى آخره . ثم یخلى بياضا قدر خمسة أسطر . ثم یسرد الفصول بعد
 ذلك فصلا فصلا : یخلى بین كل فصلین قدر خمسة أسطر أيضا ، ویقول فى أول
 كل فصل « الملوک ینهى کذا وكذا » وإذا أتى على ذکر السلطان ، قال : خلد الله
 سلطانه ؛ أو خلد الله ظلّه ؛ أو أتى على ذکر المرسوم الشریف ، قال : شرفه الله
 وعظّمه ونحو ذلك ؛ وإذا سأل فى أمر ، قال : والمملوک یعرض على الآراء الشریفة
 کذا وكذا ، أو إن اقتضت الآراء الشریفة کذا فلها مزید العلو ، ولا یقال : یسأل

الصدقات الشريفة، إلا في أمر جليل أو شيء مهم، والعرض أبلغ في الأدب، ولا يلقب أحدا بالجناب والمجلس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا في الدولة كالنائب الكافل، ونائب الشام، أو نائب حلب، أو أمير كبير. قال: إن مملوك مولانا السلطان خلّد الله ملكه الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، كافل الممالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفة بالمملكة الشامية المحروسة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصري مثلا، أو القاضي فلان الدين، أو ناظر الجيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجرى هذا المجرى، ولا يدعى في المطالعة لأحد. وإذا آتته الفصول إلى آخرها، قال: وقد جهز المملوك بمطالعتة هذه مملوكه فلانا السيقي مثلا المائل بها. وإن كان ثم مشافهة، قال: وقد حملته مشافهة يسأل المسامع الشريفة سماعها إن اقتضت ذلك، أو يُنهيها إلى المسامع الشريفة إذا رُسم له بإنهائها، طالع بذلك، أو أنهى ذلك.

ثم قد جرت عادة الثواب بالبلاد الشامية أن يُقدّموا في صدر المكاتب ما شتمل على أخبار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاورة لأواجر هذه المملكة: من تجدد أمر، أو حركة عدو، أو حكاية حال مهمة من أحوال تلك البلاد، مثل أن يقال في أول المكاتب، وينهى أن قصاده عادوا من البلاد الشرقية مخبرين بكذا وكذا، ويشرح الحال التي أخبر بها قصاده.

وإن كان الخبر نقلا عن نائبي من نواب الأطراف كالرها ونحوها، قال: إن مطالعة نائب فلانة وردت بكذا وكذا، ويذكر ما تضمنته ملخصا. وإن كانت المطالعة جواب مثال شريف ورد فقط، قال: وينهى أن المرسوم الشريف

شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريديّ بالأبواب الشريفة يتضمّن ما اقتضته المراسيم الشريفة ، أو ما اقتضته الآراء الشريفة شرفها الله تعالى وعظمها : من كذا وكذا ، ويذكر نصّ المثال الشريف حرقاً حرقاً . ثم يقال : وتفهّم المملوك ما رسم له به ، وقابل المراسيم الشريفة - زاد الله تعالى شرفها - بتكرار تقبيل الأرض والامثال ؛ وتقدّم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذي ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقّف .

ثم إن كان النائب عظيم القدر كئيب السلطنة الشريفة بالشام أو حلب ، جعل بعد ما بين كل سطرين تقدير رأس إصبع ؛ وإن كان دون ذلك جعل ما بينهما أقل من ذلك حتى ينتهى فى أقل الرتب إلى ملاصقة السطور بعضها ببعض .

وإن كانت المطالعة فى أمر مهمّ كأسقرار نائب أو بشارية بفتح أو نحو ذلك ، أتى بجميع الكتاب مسجّعا وإلا فلا .

وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام ابتداءً .

يقبل الأرض ، ويُنهى أنه ورد على المملوك مكاتبة نائب السلطنة الشريفة بحلب المحروسة ، يذكر فيها أن قُصّاده عادوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدو المخدول فلانا قد نرح علىه عدو من ورائه وقصد بلاده فكرّ راجعا إليه بعد أن كان قاصداً هذه الجهة ، وأحبّ المملوك إحاطة الخواطر الشريفة بذلك .

المملوك يُنهى أن مطالعة نائب الرّحبة المحروسة وردت على المملوك يخبر فيها أن فلانا التركمانى قد عاد إلى الطاعة الشريفة ، ولاذ بمراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله على ما وقع منه من عدم المقابلة إلا انخوف من السطوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمان شريف له وجماعته ومن يليه بأن يكونوا آمينين على أنفسهم ،

وأموالهم ، وسائر ذات يدهم ، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية ، وتمثل بالمواقف الشريفة ، وأمثلة ما تبرز به الأوامر المطاعة في أمره وأمر جماعته . والمملوك ينظر ما يردُّ به الجوابُ الشريف في أمره لكاتبِ نائب الرِّحبة المحروسة بما يعتمدُه في أمره .

المملوكُ يُنهي أنه قد بلغ المملوك أنَّ البحر مشغولٌ بمراكب الفرنج ، ولم يعلم إلى أيِّ مكان يقصِّدون ، وقد أخذ المملوك في الاحتراز على السواحل المذكورة بإقامة المرَّكبين ، وأمرهم بالاحتراز والاحتفاظ ، وقد عرض المملوكُ ذلك على الآراء العالية ليكون ذلك على الخواطر الشريفة ، ويكتب به التواب بالبلاد المجاورة للبحر .

المملوكُ يُنهي أن الأمير فلانا الفلاني : أحد أمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة قد توفِّي إلى رحمة الله تعالى ، والمملوك يسأل الصدقات الشريفة في استقرار أمرته باسم مملوك مولانا السلطان عز نصره ، ولد المملوك فلان ، إعانة له على الخدمة الشريفة ، وجبراً لحاطر المملوك ، فإن حسن ذلك بالآراء الشريفة ، وإلا فالرأى العالى مزيد العلو .

المملوكُ يُنهي أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس ، كان قد برزت المراسيمُ الشريفةُ باستقراره في نيابة صفد المحروسة ، وقد توجه إلى محلِّ نيابته ، والمملوك يعرض على الآراء الشريفة إن حسن بالرأى الشريف أن يستقر في الوظيفة المذكورة الأمير فلان الدين فلان : أحد الأمراء الطبلخاناة بدمشق المحروسة ، فإنه كفاء لذلك ، أو يستقر من تبرز به الآراء الشريفة .

المملوكُ ينهي أن فلانا : أحد رجال الحلقة المنصورة بدمشق المحروسة ، قد درج بالوفاة ، وقد كتب المملوكُ مربعةً باسم فلان الدين فلان باستقراره على إقطاعه ، وجهزها إلى الأبواب الشريفة لتعرض على الآراء العالية ، فإن حسن بالرأى الشريف

إمضاؤها وإلا فيستقرّ على إقطاعه من تبرُّز المراسيم الشريفة باستقراره، وقد جهّز المملوك هذه المطالعة على يد مملوكه فلان إلى الأبواب الشريفة .

طالع بذلك، إن شاء الله تعالى ثم يكمل .



وهذه نسخة مطالعة عن نائب الشام أيضا، في جواب مكتبة شريفة وردت عليه وهي :

يقبل الأرض ويُنهى أن المرسوم الشريف - شرفه الله تعالى وعظّمه - ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان البريدى، بالأبواب الشريفة، يتضمّن أنّ المرسوم الشريف اقتضى الاجتهاد والاهتمام في حفظ السواحل والموانى، وإقامة الأيالك والأبدال في أوقاتها على العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر والمناور في الأماكن المعروفة، وتعهّد أحوالها وتفقدّها، وتقويم أحوالها بحيث تقوم أحوالها على أحسن العوائد وأكملها، ولا يقع على أحدٍ درك بسببها . وأنّ المملوك يتقدّم باعتماد ما اقتضاه المرسوم الشريف من ذلك مع مضاعفة الاحتفال بذلك والمبادرة إليه . فوقف المملوك على المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظّمه، وتفهم ما رسم له به، وقابل المراسيم الشريفة زاد الله تعالى شرفها بالامتثال، وتقدّم باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة من ذلك، وأخذ في حفظ السواحل والموانى، وإقامة الأيالك والأبدال، وإلزام أربابها بمواظبتها، وإلزام المنورين بالديبانات والمناظر [فقامت الأحوال] على أحسن العوائد، وجرّت على أكمل القواعد، ولم يكن عند المملوك غفلة عما هو بصّده من ذلك؛ وقد أعاد المملوك فلان الدين فلانا البريدى المذكور بهذه المطالعة : ليحصل الوقوف عليها . طالع بذلك



وهذه نسخة مطالعة تشتمل على ابتداء وجواب : يقبل الأرض وينهى أنه قد حضر رسولاً من القان فلان بالمملكة الفلانية [وقصدّه التوجه] إلى الأبواب الشريفة ، والمملوك يعرض على الآراء العالية أمره ، فإن أذن له في التوجه إلى أبوابه الشريفة ، جهزه المملوك إليها على العادة .

المملوك ينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ورد على المملوك على يد فلان الدين فلان المسفر من الأبواب الشريفة ، يتضمن طلب فلان الفلاني ، وحمله إلى الأبواب الشريفة محتفظاً به ، فبادر المملوك ما برزت به المراسيم الشريفة بالأمثال ، وتقدم بطلب فلان المذكور وسلمه إلى فلان الدين المسفر المذكور ، وبعث معه من يحتفظ به في الطريق إلى حين وصوله إلى الأبواب الشريفة .



صورة وضع المطالعة من نواب السلطنة ومن في معناهم ، إلى الأبواب الشريفة
الجانب الأيمن الطرة الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة
العنوان

الملكي الفلاني مطالعة المملوك
فلان

الصدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكي الظاهري مثلاً

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه ، ورد على المملوك ، على يد فلان الدين فلان البريدي ، ويكل عليه إلى آخره .

الضرب الثاني

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

(١)
المطالعات الواردة من الولاية ومن في معناهم .

القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسلامية المكتوبة عن هذه المملكة . وحالها مختلف باختلاف حال مصطلح أهل البلاد وحال المكتوب عنه في رفعة القدر . وفائدة معرفة ذلك أنه إذا عرف الكاتب مصطلح كل مملكة في الكتابة ، ظهر له ما هو وارد عن ملكها حقيقة وما هو مفتعل عليه ، ولا يخفى ما في ذلك من كبير الفائدة ، وعظيم النفع ، وارتفاع قدر الكاتب عند ملكه بإظهار الزيف بحك المعرفة .

ومن غريب ما وقع في هذا المعنى أنه ورد رسول من الشرق ، في الأيام الظاهرية الشهيديّة برقوق سقى الله تعالى عهده ، وأظهر لأهل الطرقات أنه رسول من عند طقتمش صاحب بلاد أذربك ، ورفعت بطاقته بالقلعة المحروسة بذلك ؛ فأمر السلطان النائب الكافل وأكابر الأمراء بالخروج لملاقاته على القرب من القاهرة ، فخرجوا وتلقوه بالتعظيم ، على أنه رسول طقتمش خان المقدم ذكره ؛ وأنزل بالميدان الكبير تعظيماً لأمره ؛ فلما عرض كتابه نظر فيه المقرّ البدرى بن فضل الله ، تغمده الله تعالى برحمته ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، فوجده غير جارٍ على مصطلح كتب القانات في الورق والكتابة ؛ فاستفسر الرسول المذكور عن ذلك ونوقش في قضيته ؛ فأخبر أنه عن الحاكم بالقرم من أتباع طقتمش خان ، فأنكر عليه ذلك ، وحطّ رتبته عند السلطان وأهل دولته عما كان عليه ، وعلا بذلك مقدار المقرّ البدرى بن فضل الله المشار إليه عند السلطان ، وشكر له ما كان من ذلك .

ويشتمل على أربعة مقاصد :

المقصود الأول

(في الكتب الواردة عن أهل الشرق؛ وفيه أطراف)

الطرف الأول

(الكتب الواردة عن القانات العظام من بني جنكرخان؛ ولها حالان)

الحال الأولى — ما كان الأمر عليه قبل دخولهم في دين الإسلام .

وكان الأمر يجري في كتابتهم مجرى المخاشنة ، والتصريح بالعداوة ، ولم أقف على مقادير قطع ورق كتبهم يومئذ ولا ترتيب كتابتها .

وهذه نسخة كتاب كتب به هولانكو بن طوحى ، بن جنكرخان ، المنتزع العراق من أيدي الخلفاء العباسيين . كتب به إلى الملك المظفر قطز في سنة ثمان وخمسين وسبعائة ، وهو :

من ملك الملوك شرقاً وغرباً القان الأعظم :

باسمك اللهم باسط الأرض ورافع السماء .

يعلم الملك المظفر قطز الذى هو من جنس المماليك الذين هربوا من سيوفنا إلى هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه ، ويقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفر وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حوّلها من الأعمال ، أننا جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من أحلّ عليه غضبه ، فسأموا إلينا أموركم تسألوا ، قبل أن ينكشف الغطاء فتندموا ، وقد عرفتم أننا نخرّبنا البلاد ، وقتلنا العباد ، فلکم منا الهرب ، ولنا خلقكم الطلب ؛

فما لكم من سُيوفنا خَلاص : خيولنا سَوابق ، وسُيوفنا قَواطع ، وقلوبنا كالجبال ،
 وعددنا كالرّمال ، ومنَ طلبَ حربنا نَدِم ، ومنَ قصدَ أماننا سَلِم ؛ فإن أتمَ لشرطنا
 وأوامرنا أطعتم فلنكم مالنا ، وعلينكم ماعلينا ؛ فقد أَعَدَر منَ أُنذَر . وقد ثبت عندكم
 أننا كَفَره ، وثبتَ عندنا أنكم الفَجَره ، فأسرِعوا إلينا بالجواب قبل أن تُضِرَ الحربُ
 نارها ، وتريمكم بشرارها ، فلا يبقَ لكم جَاهٌ ولا عِزٌّ ، ولا يعصمكم منّا جَبَلٌ ولا
 حِرْزٌ ، فما بقی لنا مقصِدٌ سِوَاكم ، والسلامُ علينا وعليكم ، وعلى من أتبع الهدى ،
 وخشيَ عواقبَ الرّدى ، وأطاعَ الملِكَ الأعلى .

الحال الثانية — ما كان الأمر عليه بعد دُخولهم في دين الإسلام مع قيام العداوة
 بين الدولتين .

وكان عادتهم في الكتابة أن يُكْتَبَ بعد البسملة « بقوة الله تعالى » ثم يُكْتَبَ
 بعد ذلك « بإقبال قان فرمان فلان » يعني كلام فلان .

ولهم في ذلك طريقتان .

إحدهما — أن يُكْتَبَ بسم الله سطرًا ، ويُكْتَبَ « الرحمن الرحيم » سطرًا
 تحتها ، ويكتب « بقوة الله » سطرًا « وتعالى » سطرًا آخر تحتها ؛ ثم يكتب تحت
 ذلك في الوسط بهامش من الجانبين « بإقبال قان » سطرًا ، وتحت « فرمان فلان »
 باسم السلطان المكتوب عنه سطرًا آخر .

والطريقة الثانية — أن تُكْتَبَ البسملةُ جميعها سطرًا واحدًا ، ثم يكتب تحت
 وَسَطَ البسملة « بقوة الله تعالى » سطرًا « وميامينِ الملة المحمّدية » سطرًا آخر ؛
 ثم يكتب تحت ذلك سطرًا آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فرمان السلطان فلان »
 يعني كلام السلطان فلان .

ولم أَقِفْ على قَطْعِ الورقِ الذِي كُتِبَ فِيهِ حينئذٍ ، والظاهرُ أَنَّهُ في البَغْدَادِيَّ الكَامِلِ تعظيماً لِشَأْنِ المَكْتُوبِ عَنْهُم . وبالجملة فَإِنَّ الظاهرَ أَنَّ الكُتُبَ الوَارِدَةَ عَنْهُم على تَمَطِّ الكُتُبِ الوَارِدَةَ مِنْ هَذِهِ المَمْلَكَةِ إِلَيْهِمْ ، جَرِيًّا على قَاعِدَةِ كُتَابِ هَذِهِ المَمْلَكَةِ مِنْ أَنَّ الغالبَ مَضَاهَاتُهُمْ لِأكْبَرِ المَمْلُوكِ فِي كُتُبِهِمْ فِي الهَيْئَةِ وَالتَّرْتِيبِ شَرْقًا وَغَرْبًا .

وهذه نسخةُ كُتَابِ على الطَّرِيقَةِ الأُولَى ، وَوردَ عَنِ السُّلْطَانِ « أَحْمَد » صَاحِبِ مَمْلَكَةِ إِيْرَانِ ، مِنْ بَنِي هُوَلَاكُو المَقْدَمِ ذَكَرَهُ ، وَهُوَ أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ ، كُتِبَ بِهِ إِلَى المَلِكِ المَنْصُورِ « قَلَاوُونَ » صَاحِبِ الدِيَارِ المِصْرِيَّةِ ، تَعَمَّدَهُ اللهُ تَعَالَى بِرِضْوَانِهِ ، وَوردَ مُؤرَّخًا بِأَوْسَطِ جُمَادَى الأُولَى سَنَةِ إِحْدَى وَثَمَانِينَ وَسِتْمِائَةَ ، وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الدَسَاتِيرِ أَنَّهُ مِنْ إِتْشَاءِ الفَخْرِ بْنِ عِيْسَى المَوْصِلِيِّ ، وَوردَ بِنَحْوِهِ وَهُوَ :

بِقُوَّةِ اللهِ

بِسْمِ اللهِ

تَعَالَى

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِإِقْبَالِ قَانِ .

فِرْمَانَ أَحْمَدِ .

إِلَى سُلْطَانِ مِصْرٍ ، أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى بِسَابِقِ عِنَايَتِهِ ، وَنُورِ هِدَايَتِهِ ، قَدْ كَانَ أَرْشَدَنَا فِي عُقُوقَانِ الصَّبَا ، وَرِيعَانِ الحَدَاثَةِ ، إِلَى الإِقْرَارِ بِرُبُوبِيَّتِهِ ، وَالأَعْتِرَافِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَالشَّهَادَةِ لِمُحَمَّدٍ ، عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ، بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ ، وَحُسْنِ الأَعْتِقَادِ فِي أَوْلِيَائِهِ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ وَبَرِيَّتِهِ ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَمْشَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ فَلَمْ نَزَلْ نَمِيلُ إِلَى إعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ ، وَإِصْلَاحِ أُمُورِ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ ، إِلَى أَنْ أَضْفَى إِلَيْنَا بَعْدَ أَيْنَا الجَلِيلِ ، وَأَخِينَا الكَبِيرِ ، نَوْبَةُ المُلْكِ ، فَأَضْفَى عَلَيْنَا مِنْ

جَلَّابِيبِ الطَّافَةِ وَطَائِفِهِ ، مَا حَقَّقَ بِهِ آمَالَنا فِي جَزِيلِ آيَاتِهِ وَعَوَارِفِهِ ، وَجَلَّى هَذِهِ الْمَمْلَكَةَ عَلَيْنَا ، وَأَهْدَى عَقِيلَتَنَا إِلَيْنَا ، فَاجْتَمَعَ عِنْدَنَا فِي قُورِيَّائِيَانِ الْمُبَارَكِ - وَهُوَ الْمَجْتَمِعُ الَّذِي تُقَدِّحُ فِيهِ الْآرَاءُ - جَمِيعُ الْإِخْوَانِ وَالْأَوْلَادِ وَالْأَمْرَاءِ الْكِبَارِ ، وَمَقَدِّمُو الْعَسَاكِرِ ، وَزَعَمَاءُ الْبِلَادِ ، وَأَتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَى تَنْفِيزِ مَا سَبَقَ بِهِ حُكْمُ أُخِينَا الْكَبِيرِ ، فِي إِنْفَازِ الْحَمِّ الْغَفِيرِ ، مِنْ عَسَاكِرِنَا الَّتِي ضَاقَتْ الْأَرْضُ بِرُحْبِهَا مِنْ كَثْرَتِهَا ، وَأَمْتَلَأَتْ الْأَرْضُ رُعبًا مِنْ عَظِيمِ صَوْلَتِهَا ، وَشَدِيدِ بَطْشَتِهَا ، إِلَى تِلْكَ الْجَهَةِ بِهَمَّةٍ تَخَضَعُ لَهَا صُمُّ الْأَطْوَادِ ؛ وَعِزْمَةٍ تَلِينُ لَهَا الصُّمُّ الصَّلَادِ ، فَفَكَّرْنَا فِيمَا تَمَخَّضَتْ زُبْدُ عِزَائِهِمْ عَنْهُ ، وَاجْتَمَعَتْ أَهْوَاؤُهُمْ عَلَيْهِ ، فَوَجَدْنَاهُ مَخَالِفًا لِمَا كَانَ فِي ضَمِيرِنَا مِنْ اقْتِضَاءِ الْخَيْرِ الْعَامِّ ، الَّذِي هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ تَقْوِيَةِ شِعَارِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يُصْدِرَ عَنْ أَوْامِرِنَا مَا أَمَكْنَا إِلَّا مَا يُوجِبُ حَقْنَ الدِّمَاءِ ، وَتَسْكِينَ الدِّهْمَاءِ ، وَتَجْرِي بِهِ فِي الْأَقْفَارِ رُخَاءُ نَسَائِمِ الْأَمْنِ وَالْأَمَانِ ، وَيَسْتَرِجِحُ بِهِ الْمُسْلِمُونَ فِي سَائِرِ الْأَمْصَارِ ، فِي مِهَادِ الشَّفَقَةِ وَالْإِحْسَانِ ؛ تَعْظِيمًا لِأَمْرِ اللَّهِ ، وَشَفَقَةً عَلَى خَلْقِ اللَّهِ ، فَالْهَمْنَا اللَّهُ تَعَالَى إِطْفَاءَ تِلْكَ النَّائِرَةِ ، وَتَسْكِينَ الْفِتَنِ النَّائِرَةِ ، وَإِعْلَامَ مَنْ أَسَارَ بِذَلِكَ الرَّأْيِ بِمَا أُرْشَدْنَا اللَّهُ إِلَيْهِ : مِنْ تَقْدِيمِ مَا يُرْجَى بِهِ شِفَاءُ مِرْجَاحِ الْعَالَمِ مِنَ الْأَدْوَاءِ ، وَتَأْخِيرِ مَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ آخِرَ الدَّوَاءِ ، وَأَنْتَنَا لَا نَحِبُّ الْمَسَارَعَةَ إِلَى هَرِّ النَّصَالِ لِلنِّصَالِ إِلَّا بَعْدَ إِبْصَاحِ الْمَحْجَّةِ ، وَلَا نُبَادِرُهَا إِلَّا بَعْدَ تَيِّينِ الْحَقِّ وَتَرْكِيْبِ الْحُجَّةِ ، وَقَوَى عِزْمَتَنَا عَلَى مَارَأِينَاهُ مِنْ دَوَاعِي الصَّلَاحِ ، وَتَنْفِيزِ مَا ظَهَرَ لَنَا بِهِ وَجْهُ النَّجَاحِ ؛ إِذْ كَانَ ، الشَّيْخُ قَدْوَةُ الْعَارِفِينَ « كَمَالُ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ » الَّذِي هُوَ نِعْمَ الْعَوْنُ لَنَا فِي أُمُورِ الدِّينِ ؛ فَارْسَلْنَاهُ رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِمَنْ [لَبَّى] دُعَاةَ ، وَنِقْمَةً عَلَى مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ وَعَصَاهُ ؛ وَأَنْفَذْنَا أَقْضَى الْقَضَاةِ قُطْبَ الْمِلَّةِ وَالْدِّينِ ، وَالْأَتَابِكُ بِهَاءِ الدِّينِ ، الَّذِينَ هُمَا مِنْ نِقَاتِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الزَّاهِرَةِ لِيَعْرِفُوهُمْ طَرِيقَتَنَا ، وَيَتَحَقَّقَ عِنْدَهُمْ مَا تَنْطَوِي عَلَيْهِ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ جَمِيلُ نَيْتِنَا ، وَبَيْنَا لَهُمْ أَنَّا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ

يُجِبُّ ما قبله ، وأنه تعالى ألقى في قلوبنا أن نتبع الحق وأهله ، ونشهد أن عظيم
نعمة الله للكافة بما دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، أن لا يجرموا بالنظر
إلى سائر الأحوال فكل يوم هو في شأن ؛ فإن تطلعت نفوسهم إلى دليل تستحکم
بسببه دواعي الإعتماد ، ومجّة يثقون بها من بلوغ المراد ؛ فينظروا إلى ما ظهر من
أمرنا مما أشتهر خبره ، وعم أثره ، فإننا ابتدأنا بتوفيق الله بإعلاء أعلام الدين
وإظهاره ، في إيراد كل أمر وإصداره ، تقديمًا لنا ميسر الشرح المحمدي ، على
مقتضى قانون العدل الأحدي ، إجلالًا وتعظيمًا ؛ وأدخلنا السرور ، على قلوب
الجمهور ، وعفونا عن كل من أجتراح سيئة واقترف ، وقابلناه بالصفح ولنا عفا الله عما
سلف ؛ وتقدمنا بإصلاح أمور أوقاف المسلمين من المساجد والمشاهد والمدارس ،
وعمارة بقاع الدين والريط الدوآرس ؛ وإيصال حاصلها بموجب عوائدها القائمة إلى
مستحقها بشروط واقفيها ؛ ومنعنا أن يلمس شيء مما استحدث عليها ؛ وأن لا يغير
أحد شيئًا مما قرر أولًا ؛ وأمرنا بتعظيم أمر الحجّاج وتجهيز وفدها ، وتأمين سبلها ،
وتسيير قوافلها ؛ وإنّا أطلقنا سبيل التجّار المترددين إلى تلك البلاد ليسافروا بحسب
أختيارهم على أحسن قواعدهم ؛ وحرّمنا على العساكر والقراغولات والشحّاطي
في الأطراف التعرّض لهم في مصادرههم ومواردهم ، وقد كان قراغول صادف جاسوسا
في زى الفقراء كان سبيله أن يهلك ، فلم يهرق دمه : حرمة ما حرّمه الله تعالى وأعدناه
إليهم . ولا يخفى عنهم ما كان في إنفاذ الجوّاسيس من الضرر العامّ للمسلمين ، فإن
عساكرنا طالما رأوهم في زى الفقراء والنسّاك وأهل الصّلاح ، فسأدت ظنونهم
في تلك الطوائف ، فقتلوا منهم من قتلوا ، وفعلوا بهم ما فعلوا ، وآرتفعت الحاجة
بحمد الله إلى ذلك بما صدر إذنتنا به من فتح الطريق وتردد التجّار ، فإذا أمعنوا الفكر
في هذه الأمور وأمثالها لا يخفى عنهم أنها أخلاق جيّلة طبيعيّة ، وعن شوائب

التكلف والتصنع عريه . وإذا كانت الحال على ذلك فقد ارتفعت دواعي المصرة التي كانت موجبة للخالفه ، فإنها إن كانت طريقا للذب والدود عن حوزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالى في دولتنا النور الميين ، وإن كانت لما سبق من الأسباب ، فن يتجرى الآن طريق الصواب ، فإن له عندنا لزلفي وحسن مآب . وقد رفعنا الحجاب ، وأتينا بفصل الخطاب ، وعرفناهم [طريقتنا و] ما عزمنا بنية خالصة لله تعالى على استئنافها ، وحرمتنا على جميع العساكر العمل بخلافها ، لنرضي الله والرسول ، ويُلوح على صفحاتها آثار الإقبال والقبول ؛ وتسترخ من اختلاف الكلمة هذه الأمة ، وتتجلى بنور الائتلاف ، ظلمة الاختلاف ، والغمة ، ويشكر سابغ ظلها البوادي والحواضر ، وتقرّ القلوب التي بلغت من الجهل الحناجر . ويعنى عن سالف الجرائر ؛ فإن وفق الله سلطان مصر إلى ما فيه صلاح العالم ، وانتظام أمور بني آدم ، فقد وجب عليه التمسك بالعروة الوثقى ، وسلوك الطريقة المثلى ، بفتح أبواب الطاعة والإلتحاد ، وبذل الإخلاص بحيث تعمّر تلك الممالك وتيك البلاد ؛ وتسكن الفتنة النائرة ، وتعمد السيف الباتره ، وتحل العامة أرض الهوينى وروض الهدون ، وتحلص رقاب المسامين من أغلال الذل والهون . وإن غلب سوء الظن بما تفضل به واهب الرحمة ، ومنع معرفة هذه النعمة ، فقد شكر الله مساعينا وأبلى عُدنا ، (وما كنا معدّين حتى نبعث رسولا) والله تعالى الموفق للرشاد والسداد ، وهو المهيم على البلاد والعباد ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب على الطريقة الثانية ، كتبت به عن السلطان « محمود غازان » صاحب إيران أيضا ، إلى السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصرية وما معها من البلاد الشامية ، وهي :

بسم الله الرحمن الرحيم

بِقُوَّةِ اللَّهِ تَعَالَى

وَمِيَّامِينَ الْمَلَائِكَةِ الْحَمِيدَةِ

فرمان السلطان محمود غازان

لِيَعْلَمَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ، أَنَّهُ فِي الْعَامِ الْمَاضِي، بَعْضُ عَسَاكِرِهِمُ الْمُفْسِدَةُ دَخَلُوا
أَطْرَافَ بِلَادِنَا، وَأَفْسَدُوا فِيهَا لِعِنَادِ اللَّهِ وَعِنَادِنَا، كِبَارِدِينَ وَنَوَاحِيهَا، وَجَاهِرُوا
اللَّهَ بِالْمَعَاصِي فَيَمَنَ ظَفَرُوا بِهِ مِنْ أَهْلِهَا، وَأَقْدَمُوا عَلَى أُمُورٍ بَدِيعِهِ، وَأَرْتَكَبُوا
آثَامًا شَنِيعَةً، مِنْ مُحَارَبَةِ اللَّهِ وَخَرْقِ نَامُوسِ الشَّرِيعَةِ، فَأَنْفَنَّا مِنْ تَهْجُمِهِمْ، وَغَرْنَا
مِنْ تَقْصَمِهِمْ، وَأَخَذْنَا الْحِمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ بِخُذْبَتِنَا إِلَى دُخُولِ بِلَادِهِمْ، وَمَقَابِلَتِهِمْ عَلَى
فَسَادِهِمْ، فَرَكِبْنَا بِنِ كَانِ لَدَيْنَا مِنَ الْعَسَاكِرِ، وَتَوَجَّهْنَا بَيْنَ اتَّفَقَ مِنْهُمْ أَنَّهُ حَاضِرٌ،
وَقَبْلَ وَقُوعِ الْفِعْلِ مَنَا، وَأَشْتَهَارِ الْفِتْكَ عِنَا، سَلَكْنَا سَنَنَ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَأَقْتَفَيْنَا آثَارَ
الْمُتَقَدِّمِينَ، وَأَقْتَدَيْنَا بِقَوْلِ اللَّهِ ﴿لَثَلَا يَكُونَنَّ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ وَأَنْفَذْنَا
صُحْبَةَ يَعْقُوبَ السَّكْرَجِيَّ جَمَاعَةً مِنَ الْقُضَاةِ، وَالْأُئِمَّةِ الثَّقَاتِ، وَقَلْنَا ﴿هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ
النَّذْرِ الْأُولَى أَرْفَتِ الْآزِفَةَ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ فَقَابَلْتُمْ ذَلِكَ بِالْإِصْرَارِ،
وَحَكَمْتُمْ عَلَيْكُمْ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ بِالْإِضْرَارِ، وَخَالَفْتُمْ سَنَنَ الْمُلُوكِ، فِي حُسْنِ السُّلُوكِ،
وَصَبَرْنَا عَلَى تَمَادِيكُمْ فِي غَيْبِكُمْ، وَخُلُودِكُمْ إِلَى بَغْيِكُمْ، إِلَى أَنْ نَصَرْنَا اللَّهَ، وَأَرَاكُم
فِي أَنْفُسِكُمْ قُضَاءَهُ ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ﴾ وَظَنَّنَّا أَنَّهُمْ حَيْثُ تَحَقَّقُوا كُنْهَ
الْحَالِ، وَآلَ بِهِمُ الْأَمْرُ إِلَى مَا آلَ، أَنَّهُمْ تَدَارَكُوا الْفَارِطَ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَرَتَقُوا مَا فَتَقُوا
بَعْدَرِهِمْ، وَوَجَّهَ إِلَيْنَا وَجْهَ عُنْدَرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ رُبَّمَا سَيَّرُوا إِلَيْنَا حَالَ دُخُولِهِمْ إِلَى الدِّيَارِ
الْمِصْرِيَّةِ، رُسُلًا لِإِصْلَاحِ تِلْكَ الْقَضِيَّةِ، فَبَقَيْنَا بِدِمَشْقَ غَيْرِ مُتَحَنِّينَ، وَتَبَطَّنَا تَبَطُّ
الْمُتَمَكِّنِينَ، فَصَدَّمْهُمْ عَنِ السَّعْيِ فِي صِلَاحِ حَالِهِمُ التَّوَانِي، وَعَلَّقُوا نُفُوسَهُمْ عَنِ الْيَقِينِ

بالأماني، ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، ورأوا
 جبراً ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب والفراه، وأن عزيمتهم
 مصر على ذلك لا سواه؛ فجمعنا العساكر وتوجهنا للقاهم، ووصلنا الفرات مرتقين
 ثبوت دعواهم، وقلنا لعل وعساهم، فامع لهم بارق، ولا نذر شارق، فقدمنا إلى
 أطراف حلب، وعجبنا من تبطيطهم غاية العجب؛ وفكرنا في أنه متى تقدمنا بعساكرنا
 الباهرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أنحرب البلاد مروها، وبإقامتهم فيها
 فسدت أمورها، وعم الضرر العباد، والخراب البلاد؛ فعدنا بقياً عليها، ونظرة لطف
 من الله إليها. وها نحن الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة، ومُسحِدُونَ غِرَارَ
 عزائمنا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحصار، وعازمون بعد
 الإنذار ﴿وما كنا معدّين حتى نبعث رسولاً﴾. وقد سيرنا حاملي هذا الكتاب
 الأمير الكبير ناصر الدين على خواجاً، والإمام العالم ملك القضاة جمال الدين موسى
 ابن يوسف، وقد حملناهما كلاماً شافهما به، فلتيقوا بما تقدمنا به إليهما فإنهما
 من الأعيان، المعتمد عليهما في الديوان، كما قال الله تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ
 فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ فلتعدوا لنا الهدايا والتحف، فإ بعد الإنذار من عاذر،
 وإن لم تداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالهم مطولة بتديريهم، ومطلوبة عند الله
 في طول تقصيرهم.

فليمنع السلطان لرعيته النظر في أمره. فقد قال صلى الله عليه وسلم «من ولّاه
 الله أمراً من أمور هذه الأمة فاحتجب دون حاجتهم وحلتهم، احتجب دون
 حاجته وحلته وفقره». وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذر، والسلام على من

(١) أتبع الهدى - في العشر الأوسط من شهر رمضان سنة سبعمائة - بجمال الأكراد،
والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا [محمد] المصطفى وآله وصحبه
وعترته الطاهرين .

قلت : وقد تقدم جواب هذين الكآين في الكلام على المكآبات إلى القانات
ببلاد الشرق من نبي جنكرخان فلينظر هناك .

الطرف الثاني

(في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل الشرق :
(٢)
من الملوك والحكام ببلاد أتباع القانات ومن في معناهم)

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الاوسط بل العشر الوسطى أو الوسط قال وبعض النحويين أجازوه
فما في الجواب على ذلك الرأي .

(٢) ترك في الأصل باقي الصفحة بياضا ولم يكتب عن هذا الطرف شيئا .

الطرف الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليمَن إلى هذه المملكة)

وعادةً مكاتبتِه أن يحدو حدو الديار المصرية ، فيما يُكتب إليه عنها ، فيبتدئ المكاتبَةَ بلفظ : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف ، العالی ، المولوی ، السلطانی ، الفلانی بلبق السلطنة ؛ ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقصد ، ويختم بالدعاء ونحوه ، ويكتبون في قطع الشاميِّ الكامل بقلم الثلث .

وهذه نسخة كتابٍ عن الملك الأشرف « إسماعيل » صاحب اليمن ، إلى الملك الظاهر « برقوق » صاحب الديار المصرية ، في شهر سنة ثمانٍ وتسعين وسبعائة ، على يد القاضي برهان الدين المحلِّي ، تاجر الخصاص ، والطواشي آفتخار الدين فاجر دَوَادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور ، وهو :

أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقام الشريف العالی السلطانی الظاهريِّ ، وزاده في البسطة والقُدرة ، وضاعف له موادَّ الاستظهار والنظر العزيز ، وجعل الظفر مقرونا برايته أينما يمت ما بينهما تمييز ، ومحبوباً إلى عساكره المنصورة حيث توجهت وفتح بركة أيامه كلَّ مقفل ممتنع بأميٍّ وجيز ؛ ولا زال ممتثل الأوامر والمراسم ، رافلاً في أردان العزِّ والمكارم ، ممدوداً على الأمة [منه] ظلُّ المراحم ، بمنه وكرمه .

أصدرها إليه من زُبدة زبيد المحروسة مُعربةً عن صدق ولآئه ، متمسكةً بوثيق أسباب آلائه ، ناشرةً طيب شئائه ، مترجمةً ناظمةً لمشور الكتاب الكريم الظاهريِّ الوارد على يد المجلس العالی البرهانيِّ ، بتاريخ ذی الحجة عظم الله بركاتهما ؛ سنة سبع وتسعين وسبعائة ، أحسن الله خاتمتها ؛ فتلقيناها باليدين ، ووضعناه على الرأس والعين ، وأستدللنا به على شريف همته ، وصفاء مودته ، وتأکید أحوته ، وسألنا الله

تعالى أن يمتنعنا بقاء دولته القاهرة، وينشر في المشارق والمغرب أقلامه الزاهره؛
ففضضنا ختامه، فوجدنا فيه من نشر السلم الأريج أذكاه، ومن أنوار ما مجه القلم
الشريف ما يحجل منه توار الربيع وبهائه، فانشرح به الصبور، وتزايد به السرور؛
وقرت به الأعين، وكثر التهد به لما استعدتبه الألسن، وأمتلنا المرسوم الشريف
في تعظيم المجلس العالى ذى الجلالين؛ برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى، ومراعاته
في جميع أموره وسرعة تجهيزه؛ على أنا نُجَلِّه ونُجَلِّه، ونوجب حقه ولا نجعله، فهو
عندنا كما كان في عهد الوالد المرحوم الملك الأفضل، بل أمكن وأفضل، فهو لدينا
المكين الأمين؛ وجهزنا له المتجر السعيد الظاهري، وبرزت مرآسنا إلى النواب
بشعر عدن المحروس أن لا يعترض في عشور ونول، وحملناه على ظهور مرآكبنا عزيزنا
مكرما، وعرفناه أن لا يصرف على الحمل السعيد ولا الدرهم الفرد، وذلك قليل منا
لأجل غلمان بابكم الشريف شرفه الله تعالى وعظمه؛ وجهزنا الهدية السعيدة المباركة
المتقبلة، محبته هو والأمير الأجل الكبير الافتخارى : أفتخار الدين فاجر الدوادار،
وصارت بأيديهما بأوراق مفصلة، للقام الشريف والأمرء الأجلء الكبراء، ومحبتهما
نفر من المعلمين البازدارية، برسم حمل الطيور للصيد السعيد، والمهتارية للصافيات
الحياد . على أنا لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهري أعز الله أنصاره
بمقدار همته الشريفة العالیه، ورؤيته المنيفة السامية، لاستصغرت الأفلاك الدائرة،
والشهب السائر، وأستقلت السبعة الأقاليم تحفه، والأرض وما أقتته طرفه، ولم
نرض أن نبعث إليه الأنام ممالك وخولا، ونجبي إليه ثمرات كل شيء قبلا، ولو رام
محب المقام هذه القضية، لقصر عنه حوله، ولم يصل إليه طوله، ولكنه يرجع
إلى المشهور، بين الجمهور، فوجدنا العمل يقوم مقام الاعتقاد، وليس على المستمر

(١) لعله "الاعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقامه الاعتقاد" تأمل .

على الطاعة سوى الاجتهاد ، والمخلص في الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد ،
فوتق بهذه القضية ، وأفد إلى المقام الشريف على يد موصولها هذه الهدية ، راغباً
إلى إنعامه في بسط عذره ، وحمله على شروط المحبة طول دهره ، وتصريفه بين
أوامره المثلثة ، ومراسيمه المتقبلة . والمسئول الإتحاف بالمهمات والمراسيم الشريفة
شرفها الله تعالى وعظمها .

ونوضح لعلمه الكريم ما أفاء الله به علينا من النصر الذي خفقت بؤده ، وأشرقت
سعوده ، وبرقت سيوفه في رقاب المارقين ، وأطردت في راياته المارب فتناولها باليمين
(نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) وفتح القلاع والمصانع ، والاستيلاء على
العرايع والمزارع ، واستئصالنا شافة المارقين ، واسترجاع حصن قاف المحروس بعد
طول مكثه تحت يد العرب ، فكم من كمي مقتول ، وأسير مكبول ، وحصان ترك
سبيلها ، ورب حصان كثر عليه عوبلها ، فخرنا المعاقل ، وأطلقنا العقائل ، وأوطنناهم
الحميم (وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله
العزيز الحكيم) وغير ذلك ما أرسلنا على يد المجلس البرهاني والأمير آفتخار الدين :
فانحر الدوادار ، لفضاء بعض الحوامج الطارئة من الديار المصرية « ألف وأربعمائة
وسبعون قطعة من أصناف البهار ، وسبع قطع حرير » والمستمد من إحسان المقام
الشريف العالی ، بروز أمره الأشرف العزيز النافذ المطاع ، أنفذه الله تعالى شرقاً
وغرباً ، وأمضاه بعداً وقرباً ، في قضاء حوائجها وسرعة تجهيزها وقبولها إلى يمين
اليمين ، وعزّ تعزّ قريباً .

وبعد ، فإن الجلالة والاحترام بهما دوام الموالاة ، وتوفير الحُرّمات ، بل
هي أعظم الكرامات ، والمسئول من المقام الشريف الظاهري أعز الله تعالى
أنصاره ، وضاعف اقتداره ، بروز أمره الأشرف إلى النواب بمصر المحروسة ،

وغير الإسكندرية، والشام، بالجلالة والإحترام، لكافة غلماننا الواردين إلى الديار المصرية، ومن أنتسب إلينا من تاجر وغيره، مسافراً كان أو مقيماً، وأن يُعار في مهماته، جلالة تقياً ظلالها، ويشمله إقبالها، كما سبق للوالد المرحوم المقدس الملك المجاهد، تغشاه الله برحمته، بل نرجو فوق ذلك مظهرها، إن شاء الله، فتم خطوط ناصرية من السلطان حسن والملك الصالح خدامنا القديما، لما أرسلوا إلى الإسكندرية ودمشق، كتبت لهم مربعات ومثالات شريفة، ولا غرو أن يُبدي المستعطي مافي ضميره إلى المعطي، والأشتهار بما بيننا وبين المقام الشريف من الأخوة المههدة، والمصافاة المؤكدة، والمودات المحككة، والأسباب الثابتة، أوجب ذلك؛ وحسن الظن الجميل نطق به لسان الحال، في هذا الإرسال؛ ولم يخف عن المقام الشريف أن لله عوارف يجذب بها القلوب إليه، ولطائف خفية يستدل بها المحب عليه؛ وتعاطى كأس الوداد، يدل على حسن الاعتقاد؛ ولذلك نطق اللسان، وكتب البنان، بما أفترض على عباده الرحمن؛ فقال في محكم كتابه المين ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ . ومحب المقام الشريف يقدم الكتاب، ويسأل الجواب، بالإذن الشريف : ليعتمد بعد الله عليه في حج البيت الحرام، عند تيسير الله تعالى لذلك، فقد حسن ظنه بذلك، وركن إليه لقضاء الفرض والتبرك بالمساعرة العظام، فلا زالت أيام المقام الشريف على منابر الدنيا تُنلى، وآيات الشكر لله سبحانه على استقراره في الملك العقيم تُملى . جميع هذا الخطاب مقدمة الإيجاب بالإذن بالحج، وتفسير المحمل في كل عام، إلى بيت الله الحرام، لحاج اليمن تعذرت عليه الطرقات، ولم يُطبق حمل النفقات، ونرجو من الله تعالى أن يفتح ببركة أيامه الشريفة، وشمول الفكر الشريف، بحل عقدة هذه الأسباب، إنه هو الكريم الوهاب، بمنه وكرمه .

وأما ما نعتقده من أمانة المجلس البرهانيّ فإنها متينة ، وشواهدُها من أقواله وأفعاله مُبينه ، خصوصاً في المقام الشريف ، وأسماؤه للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نظّم معاقِدَ الائتلاف ، وتزايد بشرحه الأئس في محاورته والإختلاف ؛ ولولا المهّم الشريف لاستوقفناه عندنا عامّاً كاملاً من بعد هذا التاريخ : يُملّي علينا آياتِ المقام الشريف ؛ شرفه الله تعالى وعظّمه . وعلى لسانه ما يُديه في المواقف الشريفة شفاهاً إن شاء الله تعالى .

في سابع جمادى الآخرة سنة ثمانٍ وتسعين وسبعائة ، أحسن الله تعالى ختامها ، والحمد لله أولاً وآخراً ، وباطناً وظاهراً .

قلت : أما إمام الزيدية باليمن فلم أقف له على مكتّبة ، وإن كان المقرّ الشهابيّ ابن فضل الله قد أشار في كتابه "التعريف" إلى أنه ورد عنه مكتّبةٌ إلى الأبواب السلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشه على صاحب اليمن ، والغالب على الظنّ أنّ مكتّبه أعرابية ، كما أن إمارته أعرابية : إذ لا اعتناء لأهل البادية وعربان الوادي بفنّ الإنشاء جملةً ؛ وإنما يكتبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقلّعون من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يُعول .

الطرف الرابع

(في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدّم أن المكتّبة إلى صاحب الهند تُسبّه المكتّبة إلى القانات العظام بإيران وتوران . وتقدّم أن الكتب الواردة عن القانات المذكورين تكون في معنى الكُتب الصادرة إليهم في قطع الورق والترتيب ، من حيث إن الغالب جريانُ العادة

في الأجوبة بأن تكونَ على تَمَطِّ الكُتُبِ الواردة ، وحينئذ فيكون مقتضى ذلك أن الكُتُبِ الواردة من صاحب الهند في هيئة الكُتُبِ الصادرة إليه في قطع الورق وغيره ، فتكون في البَغْدَادِيَّ الكَامِلِ بقلم مختصر الطُّومار بالطُّغْرَاءِ والخَطْبَةِ المكتَتَبَتَيْنِ بالذهب ، إلى ما يجري مجرى ذلك مما تقدم ذكره في المكاتبات إلى القانات .

قلت : ولم أقف على صورة مكتبة من ذلك ولا على نسخة شيء ورد ، لكن قد تقدم في الكلام على المسالك والممالك في المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة ممالك الهند مملكة تُعرف بالسيلان ، وقد رأيت في تذكرة (محمد بن مكرم) التي جمعها في وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية ؛ أنه في سنة أثنين وثمانين وستمائة ، وصل كتاب من صاحب السيلان هذه في صحيفة ذهب رقيقة ، عرض ثلاثة أصابع ؛ في طول نصف ذراع ، وحواله مدورة (حلقه) داخلها شبيه بالخوص أخضر ، عليه كتابة تُشبه الخط الرومي أو القبطي ، فطلب من يقرؤه فلم يوجد ؛ فسئل الرسل عما هو مكتوب فيها . فقيل : إنه سيررسوله رومان ورفيقه ، وقصد أن يسير معهما الهدية إلى الباب الشريف ، فقيل له : ما لهم طريق . فقال لهم : سافروا إلى (هرمز) فحضروا إليها ، وذكروا أن مضمون الكتاب السلام ، والدعاء للسلطان ، وأن بلاد السيلان مصر ، وبلاد مصر السيلان ؛ وأنه ترك صحبة صاحب اليمن مرة واحدة ، وتعلق بحجة مولانا السلطان خلد الله ملكه ؛ وسأل أن يحضر رسول من عند مولانا السلطان إلى عنده صحبة رسله ، ورسول آخر إلى عدن ينتظر حضورهم من تلك الجهة على تلك الطريق ، وأن عنده الجواهر والألالي والفيلة والقماش الكثير من البر وغيره ، وكذلك البقم والقرفة وجميع ما يطلب الكارم ؛ وأن عنده في كل سنة عشرين مراكبا يسيرها إليه ، فيطلق مولانا السلطان التجار إلى

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر في هذه السنة يتسلم التّقادِمَ والفيلةَ حتّى يسافروا إلى اليمن فردّه ، ولم يُعطه شيئاً ، وأنه يُعَيّ التّقادِمَ والفيلةَ إلى أبواب مولانا السلطان ، وأنّ بمملكة سيّلان سبعمائة وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهرِ والياقوتِ ومَعاصُ اللؤلؤِ . ولم يزد على ذلك . ورأيت في كتاب "الذيل" على تاريخ ابن الأثير نحو ذلك ، وفيه ذكر البلاد التي مرّت عليها رسلُ صاحب السّيّلان في طُرُقها .

المقصد الثاني

(في المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب)

والعادةُ الجاريةُ في الكتب الواردة عنهم أن تكونَ على تَمَطِّ واحدٍ في الورق ، مع تقاربِ الحال في الترتيب ، وتكونُ كتبهم في طومارٍ واحدٍ ، في عَرَضِ نحوِ شبرين ، في طول نحو ثلاثة أشبار ، والبسملةُ بعد بياضِ نحوِ شبرٍ وثلاثةِ أصابعٍ مطبوقة من أعلى الطومار ، وعَرَضُ سبعةِ أصابعٍ مطبوقة عن يمين البسملة ؛ والسُّطورُ منحطَّةُ الأوائِلِ مرتفعةُ الأواخرِ حتّى يصيرَ البياضُ الذي في أعلاها في آخرِ سَطْرِ البسملة قدرَ شبرٍ فقط ، وبين كلِّ سَطْرَيْنِ قدرُ عَرَضِ إصبعٍ ونِصْفِ إصبعٍ ؛ وكلُّ سَطْرٍ يتقص عن الذي فوقه قليلاً من جهة اليمين على التدريج ، حتّى يكونَ السَطْرُ الآخِرُ قطعةً لطيفةً في زاوية الطومار التي على اليسار من أسفل ؛ ثم يكتب بحاشية الطومار من أسفله آخذاً من آخر السطر الأخير ، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأسِ خِنَصِرٍ ، ويتبدى السطرُ الأوّلُ منها بقطعَةٍ لطيفةٍ منحطَّةِ الأوّلِ مرتفعةِ الآخِرِ ثم السطرُ الثاني قطعةً أطولَ من ذلك ، ولا يزال كذلك حتّى يكمل السطرُ فيكتب أسطراً كاملةً ، إلا أنه في أوّل كلِّ سَطْرٍ ينقصه قليلاً عن الذي قبله حتّى يكونَ السَطْرُ

الأخيراً قدر الأتملة في زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدرُ إصبعين بياضاً إلى سمت البسملة ، أسطرًا متضابفةً حتى ينتهي إلى آخر الكلام ؛ ويكتب في آخره بقلم الثلث : وكتب في التاريخ المؤرخ ، ويزاد فيه هاء مشقوفة راجعة إلى الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولى

(في المكتبة الواردة عن صاحب تونس)

وعادة مكاتبته أن تفتتح بلفظ : « من عبدالله الفلاني » بلقب الخلافة الخاص به ، « أمير المؤمنين ابن فلان » . ويقال : في كل من آباءه أمير المؤمنين إن كان قد ولي الخلافة ويدعى له « إلى أختينا فلان » ويؤتى بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبعدية إلى المقصد ، ويختتم الكتاب .

وهذه نسخة كتاب عن المتوكل على الله أحمد بن أبي عبدالله بن أبي بكر ، إلى السلطان الملك الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جواباً عن كتابه إليه . وهو :

من عبدالله ، المتوكل على الله ، أمير المؤمنين « أحمد » ابن مولانا الأمير أبي عبدالله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبي يحيى أبي بكر ، ابن الأمراء الراشدين ؛ أعلى الله به كلمة الإسلام ، وضاعف نوافل سيفه من عبدة الأصنام ، وغض عن جانب عزه عيون حوادث الأيام .

إلى أختينا الذي لم نزل نُسأله من إخوانه الكريم ، في ذات الرب الرحيم ، قبلة صفاء لم تغيرها يد بعاد ولا أنتراح ، ونثار من حفظ عهده ، والقيام بحق وده ، على ما يؤكّد معرفة الخلوص من لدن تعارف الأرواح ؛ ونبادر لما يبعث القلوب على الإبتلاف ، والأمن بفضل الله من عوائق الإختلاف ؛ وإن شحطت الدار وتنابت

الصُّور والأشباح . وَتَعْتَرِفُ بِمَا لَهُ مِنْ مَزِيدِ الإِعْظَامِ ، بِمَجَاوِرَةِ البَيْتِ الحَرَامِ ، وَالقِيَامِ بِمَا هُنَاكَ مِنْ مَطَالِعِ الوَحْيِ الكَرِيمِ وَمَشَاعِرِ الصَّلَاحِ ، وَنَجْتَلِي مِنْ أَنْوَانِهِ الكَرِيمَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَمَطَالِعِهِ العَالِيَةِ المُنِيفَةِ ، وَجُوهَ البَشَائِرِ رَائِقَةَ العُرْرِ والأَوْضَاحِ . وَتَسْتَمْدِي مَا يُسْرِنَا مِنْ أَنْبَاءِهِ ، مِمَّنْ يَرِدُ مِنْ تِلْقَائِهِ ، حَتَّى مِنْ أَنْوَارِ الصَّبَاحِ وَسُقْرَاءِ الرِّيَاحِ ، وَتَبْتَهِلُ إِلَى اللَّهِ بالدعاء أَنْ يُخْبِرَنَا عَنْهُ ، وَيُطَاعِنَا مِنْهُ ، عَلَى مَا يُقَرُّ عِيُونَ القَوْزِ وَيُشْرَحُ صُدُورَ النَجَاحِ - السُّلْطَانِ الجَلِيلِ الطَّاهِرِ ، المَلِكِ الأَعْظَمِ «الظَّاهِرِ» ، بِجَمَالِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، مُؤَيِّدِ كَلِمَةِ اللَّهِ العُلْيَا ، سَيْفِ المِلَّةِ المَرْهُوبِ المَضَاءِ ، بِيَدِ القَضَاءِ ، وَرُكْنِهَا البَاسِقِ العَلَاءِ ، فِي أَوْجِ عِزِّهَا المُنْدَاحِ لِلقَضَاءِ ، المَشْهُودِ لَهُ مِنْ لَدُنْ حَلِّ التَّائِمِ ، وَلَوْثِ العَامِّ ، بِالشَّهَامَةِ الَّتِي تُرْعِبُ الأَسَدَ فِي أَحْجَاهَا ، وَتَسْتَعْجِدُ لَهُ سَائِرَ الأُمَّمِ : تُرْكِيهَا وَعَرَّيْهَا وَعَجَمَهَا ، المَخْتَارِ للقِيَامِ بِحَقِّهِ بَيْنَ عِبَادِهِ ، فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ، الفَائِزِ مِنْ جِوَارِ بَيْتِ اللَّهِ وَمَقَامِ خَلِيلِهِ ، وَمُشْرِعِ الحُجُجِ إِلَيْهِ وَتَيْسِيرِ سَبِيلِهِ ، بِمَا أَحْرَزَ لَهُ سَعَادَةَ الدَّارَيْنِ ، وَعِزَّ المَقَامَيْنِ ، كَوَكْبِ السَّعْدِ الَّذِي شَقِيَتْ بِهِ أَعْدَاؤُهُ ، وَبَدْرِ الدِّينِ الَّذِي اسْتَضَاءَتْ بِهِ أُنْحَاؤُهُ ، مِيزَانِ العَدْلِ لِإِنصَافِ الحَقُوقِ ، وَشَمْسِ الهُدَايَةِ النَّبِيَّةِ العُروْبِ والشُّرُوقِ ؛ (أَبِي سَعِيدِ بَرَقُوقِ) وَصَلَ اللَّهُ لَهُ رَتَبَةً رَاقِيَةً يَتَدَوَّى بِمَحَامِلِهَا ، وَنِعْمَةً بَاقِيَةً يَتَقَيَّأُ بِظِلِّهَا ، وَعِزَّةً وَاقِيَةً تَسِيمُ وَجُوهَ أَعْدَائِهِ خَسَفَهَا وَدُظِّلَهَا ، بِمَنِّهِ وَكِرْمِهِ .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وَبَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ نَازِمِ الشَّمْلِ وَقَدْ رَابَ نَثْرُهُ وَشَتَاتُهُ ، وَجَابِرِ الصَّدْعِ وَقَدْ آتَسَعَتْ عَنِ الحَبْرِ جِهَاتُهُ ، وَرَادَ الأَمْرَ وَقَدْ أَعْيَا ذَهَابُهُ وَفَوَاتُهُ ، وَوَاوَصِلِ الحَبْلِ وَقَدْ آسْتَوَى انْقِطَاعُهُ وَأَنْبِتَاتُهُ ، العَالِمِ الَّذِي لَا يُعْزَبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِمَّا تُكْنِئُهُ أَرْضُهُ وَسَمَوَاتُهُ ، الَّذِي قَرَنَ العُسْرُ يُسْرًا ، وَجَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ، فَلَا تُتَحَرَّكُ ذَرَّةٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ وَلَا يَكُونُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا تُنْفِذُهُ أَحْكَامُهُ وَإِرَادَاتُهُ .

والصلاة والسلام الأكالين ، على سيدنا ومولانا محمد رسول الله الذى صدعت بالحق آياته ، وقامت بحجة دعواه معجزاته ، ونطقت بأنه رسول الله على لسان وحيه الصادق الأمين كلماته ، المبعوث بالملة السمحة ، ومن أركاها حج بيت الله المقدسة أركانه ووجراته ، المعظمة عند الله حرمانه ، المعفورة ان سبقت له الحسنى بحجه سبائته ، وعلى آله وأصحابه الذين قضاوا رضى الله عنهم وهم أولياء دينه الكريم وولائه ، وأنصار حزيه المفلح وحماته ، وليوث دفاعه فى صدور الأعداء ووجاته .
والرضا عن الإمام المهدي القائم بهذه الدعوة الموحدية قيام من خاصت لله نيافته ، وصدقته فى ذاته دعواته ، وصممت لإظهار دينه القويم عزماته ؛ وصلة الدعاء لهذا المقام الأحمدي المتوكل الفاروقى ، بنصر ترضى به فى صدور أعدائه شبائته ، وعز يطرد به استقلاله وثباته ، وسعد تطيب به أيامه المتصلة وأوقاته ، وتطول به حياته .

فإننا كتبنا لسلطانكم - كتب الله لكم من إسعاده ما يتكفل بعزه ونصره ، ويتضمن إطالة زمنه المبارك وعصره ، ويقوم بحفظ قطره الشريف ومصره - من حضرتنا العلية "تونس" كلاًها الله تعالى ، ووجوه نصر الله العزيز لدينا وضاحة الأسرة متبلجة الصور ، وآيات فتحه المبين والله المنة محكمة السور ، وأحاديث الشكر على نعمه سبحانه مسلسلة الخبر ، وبشرنا بما من الله به عليكم قد عمل بمقتضاه من تحت إيالتنا الكريمة من البشر . وإلى هذا فوجهه إليكم بعد تقريب حب شرعت فى ملّة الوفاء قواعده ، وقيل فى عقد الصفاء شاهده ، وأستقل بصلة الخلوص عائده ، وثبت فى مرسوم الصداقة الصادقة زائده ؛ إعلامكم أنا علم الله من حين اتصل بنا خبركم الذى جره القدر المقدور ، وجرى به فى أم الكتاب الحكم المسطور ، لم نزل نتوجه إلى

(١) مراده من تحت حكمتنا وسياستنا .

الله تعالى في مَظَانَّ قُبُولِ الدَّعَاءِ، وَرَفَعَ النِّدَاءَ؛ بَانَ يُجْبِرُكُمْ بِفَضْلِهِ مِنْ حَيْثُ صَدَعَ، وَيَصِلُكُمْ بِخَيْرِهِ إِثْرَ مَا قَطَعَ، وَيُعْطِيكُمْ مِنْ نِعْمَتِهِ أَضْعَافَ مَا مَنَعَ، إِلَى أَنْ دَارَكَ اللَّهُ بُلُطْفَهُ وَأَجَابَ، وَتَأَذَّنَ بِفَضْلِهِ فِي قُبُولِ الدَّعَاءِ بَظَهْرِ الْغَيْبِ وَهُوَ مُسْتَجَابٌ، فَرَدَّ عَلَيْكُمْ مُلْكَكُمْ، وَصَرَفَ إِلَيْكُمْ مِلْكَكُمْ، فَأَخَذَ الْقَوْسَ بَارِيهَا، وَفَوَّقَ السَّهْمَ مَقْرَظُهَا وَرَامِيهَا، وَأَنْفَذَ الْقَضَايَا حَكْمًا وَمُقْتَبِيهَا، وَإِذَا كَانَ الْعَوِيلُ يُفْضِي إِلَى النَّجْدِ، وَالْبِلَاءُ يَقْضِي بِالْجِدَّةِ، وَالْفَرْجُ يُدَافِعُ فِي صَدْرِ الشَّدَةِ، فَلَا جَرَمَ خَفَرَ اللَّهُ لِلْأَيَّامِ مَا اقْتَرَفَتْ، لَمَّا أَنْابَتْ وَأَعْتَرَفَتْ، وَهَلْ هُوَ إِلَّا التَّمْحِيصُ الْإِلَهِيُّ أَرَاكُمْ اللَّهُ مِنْ بَاطِنِ الضَّرَاءِ سَرَاءِكُمْ، وَأَجْزَلَ مِنْ جَانِبِ الْغَمِّاءِ نَعْمَاءِكُمْ، وَالتَّبَرُّعَ بَعْدَ السَّبْكِ يُرِيقُ النُّوَاطِرَ خُلَاصَةً نُضَارِهِ، وَالبَدْرُ بَعْدَ السَّرَارِ تَتَأَلَّقُ أَشْعَةُ أَنْوَارِهِ .

ولما جاءنا بنصركم البشير، وطلع من نية الهناء بأحكام السرور إلينا يسير، هزرتنا له أعطاف الأرتياح، وتلقينا منه وارد التهانى والأفراح، وحمدنا الله لكم على ما من به من الفوز والتجاح؛ ورأينا أن تهنتكم به من فروضنا المؤكدة، وعهودنا المجددة، وأنه لا يقوم به عنا هنالكم، ويؤدى ما يجب منه بين يدي كرمي جلالكم، إلا من له من ديار الملوك، قرب الأدب والسؤلك؛ فاقضى نظرنا الجميل أن عيناً له شيخ دولتنا المستشار، وعلمها الذي في مهماتها إليه يسار؛ فلان .

وقد كان منذ أعوام يتطارح علينا في أن نحلى للبحر سبيله، ونبلغه من ذلك مأمولة، ويد الضنة لا تسمح به طرفه دين، ونفس الإعتباط لا تُجيب فيه دواعي البين، إلى أن تعين من تهنتكم الكريمة ماعيته، وسهل شأنه علينا وهونه، فوجهناه والله تعالى يُسعد وجهته، ويجعل حجه لقبول الأعمال حجة . وحملاه من أمانة الحب ما باقى إليكم، ومن حديث الشوق ما يقص أخباره عليكم، ومن طيب الثناء ما يقص ختامه

بين يديكم، وأحسبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة ما يسر الحُب سبيلها، وأوضح الخُلوص دليلاً، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها، إذ لو كانت الملوكة تُهادى على قدر جلالها، لما أَسَّعت لذلك خزائن أموالها، لكنّها عنوان الحُب السليم، حسب ما اقتضاه الحديث النبوي الكريم .

وفي أثناء شروعبنا في ذلك، وسُلوكتنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرّف النواظر في وجوه بشارته نضرة النعم؛ فأطلعنا منه على ما راق العيون وصفا ونعتا، وعبر للخُلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمّتا، والله هو من كتاب كتب من البيان كتاب، وأستأثر بفلك الإجابة فأحرز به سعادة الكاتب، فقسمنا بالقلم وما سطر! والحبر وما حبر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به لبيد لأعاده في مقام بليد، ولو قصص على قس إباد فصاحته لنزله عن منبر خطابته بعكاز، أو سحب على سبحان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولّد السحر الحلال بين المعاني الرائقة والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه، وخطابه الكريم ونجواه؛ تشوقكم لأخبار جهادنا، وسروركم بما يسنيه الله من ذلك بلادنا، رأينا أن نُخف أسمعكم منه بما قوت به أعين الإسلام، وأتلع صدور الليالي والأيام . وذلك أنا من حين صدر من عدو الملة في الجزيرة ماصدر، حسب ما جرّه محتوم القدر، لم نزل يُبيح لأساطيلنا المنصورة حرمة وحماه، ونطرق طروق الغارة الشعواء بلادَه وقراه، ونكتسح بأيدي الاستلاب ما جمعت بها يدها، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم، وتعرّفوا عاقبة مكرمهم .

وكان من جزائهم المعترضة شبيبا في حُلوق الخطّار، ومتجشمي الأخطار، وركاب البحار: من الحجّاج والتجار، جزيرة "غودش"، وبها من أعداء الله جم كثير، وجمع

كبير، فأرسلنا عليهم من أسطولنا المنصور غير بانا نعقت عليهم بالمنون ، وعرفت المسلمين بركة هذا الطائر الميمون ، وشحنها عدداً وعدداً ، وأستمددنا لها من الله ملائكة سمائه مدداً ، فسارت تحت أجنحة النجاح إليها ، وتحوم إلى أن رمت تحالب مراسيها عليها ؛ فلما نزلوا بساحتها ، وكبروا تكبيرة الإسلام لإباحتها ، هبت الذي كفر ، وودَّ الفرار والحين يناديه أين المفزء ؛ فلما قضى السيف منهم أوطاره ، وشفى الدين من دماهم أواره ، وشكر الله من المسلمين أنصاره ، عمدوا إلى ما تحطاه السيف من والدٍ وولد ، ومن أخلد إلى الأرض من رجالهم عن المدافعة فلم يعترضه بالقتل منهم أحد ، فجمعوا منهم عدداً يُنيف بعد الأربعائة على الأربعين ، وجاءوا بهم في الأصفاد مقرنين ، وأمتلأت بغنائمهم والحمد لله أيدي المسلمين ، وأقلبوا فرحين بما آتاهم الله مستبشرين ، إلى أن دخلوا حضرتنا العلية بسلام آمنين .

فعرّفناكم بهذا الفتح : لتأخذوا بحظكم من شكر الله عليه ، وتوجهوا في مثله بصالح أدعيتكم إليه ، وهو سبحانه وتعالى يطاعنا ويطلعكم على ما يسر النفوس ويهينها ، ويحلو وجوه البشائر ويبيديها ، بمنه وكرمه ، والسلام العطر المحيا الجميل المحيا عائداً عليكم ورحمة الله وبركاته .

الجملة الثانية

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "تلمسان" من بني عبد الواد)

ورسم مكاتبه فيما وقعت عليه في المكاتب الواردة على صاحب الديار المصرية أن يبدأ الكتاب بقوله : إلى الحضرة الفلانية حضرة فلان - بالألقاب المعظمة المفحمة ثم يدعى له بما يناسب الحال ، ويؤتى بحُطبة ، ثم بالسلام ؛ ويقع الخطاب في أثناء الكتاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويحتم بالدعاء المناسب .

كما كتب عبد الرحمن بن أبي موسى بن يعمراسن ، إلى السلطان الملك الناصر
(محمد بن قلاوون) في سنة خمس وعشرين وسبعائة :

إلى الحضرة العلية السامية ، السنية ، الماجدة ، المحسنة ، الفاضلة ، المؤيدة ،
المظفرة ، المنصورة ، المالكة ، حضرة السلطان ، الملك ، الجليل ، الفاضل ،
المؤيد ، المنصور ، المظفر ، المعظم ، ناصر الإسلام ، ومُبدل عبدة الأصنام ؛ الذي
أيده الله بالبراهين القاطعة ، والأنوار المنيرة الساطعة ، الأعلى ، الأوحد ، الأكل ،
الأرفع ، الأمجّد ، الأسمى ، الأسمى ، ذى الجدى الظاهر ، والشرف الباهر ، الملك
الناصر ، ابن السلطان ، الملك ، الجليل ، الجادل ، الفاضل ، المؤيد ، المظفر ، الأعلى ،
الأوحد ، الأكل ، الأرفع ، الأمجّد ، الأسمى ، الأسمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ،
ومُعلي كلمة الموحدين ، المقدس ، المرحوم ، ذى المجد المشهور ، والفخر المنشور ،
والذكر المدخور ، الملك المنصور ، أدام الله علوقه في الدنيا والآخرة ، وأسبغ عليه
نعمه باطنة وظاهرة ، وجعل وجوه محاسنهم في صفحات الدهر سارة سافره ،
وصفقة أعدائهم خائبة خاسره .

وبعد حمد الله الذى أظهر الأمر العلى الناصرى وأيده ، وبسط في قول الحق
وفعله لسانه ويده ، وسدد نحو الصواب منحاه كله ومقصده ، والصلاة التامة المباركة
على سيدنا محمد رسوله المصطفى ، الذى خصه الله بعموم الدعوة وأفرده ، وقرن ذكره
بذكره فأبقاه أبد الدهر وخلده . والرضا عن آله الكرام ، وصحابة الأعلام ، الذين
حفظوا بالتوقيير والتعزير مغيبه ومشمده ؛ وكانوا عند استئلال السيوف ، ومجال
الحتوف ، عدده المظفر وعدده . والدعاء لذلك المقام الشريف بسعد يطيل في شرف
الدين والدنيا مدده وأمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، من أخيكم، البرّكم، الحريص على تصافيتكم، عبد الرحمن بن أبي موسى بن يغمراسن . وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم أنجح المقاصد وأرخصها، وأثبتها عزاً وأوضحها، من حصن "نلمسان" حرسها الله تعالى، ولا ناشئ بفضل الله تعالى إلا ما عود من بشائر نحث جياؤها، ومسار يتناول إلى المزيد أعتيادها - وإلى هذا أعلى الله كلمتكم، وأمتع المسامين بطول بقائكم، فإننا نعرفكم بوصول كتابكم الخطير الأثير، فنلقيناه بما يجب من التكريم والتعظيم، وتبّعنا فصوله، وأستوعبنا فروعه وأصوله، وتحققنا مقتضاه ومحصوله، وعلمنا ما أنطوى عليه من المنن والإفضال، وأشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومن أعظم ذلك إذنكم لنا في أداء فرض الحج المبرور وزيارة سيد البشر، الشفيع في المحشر، الذي وجبت له نبوته، ومثى الغيب عليه مُسدل، وأدم صلوات الله عليه في طينته مُنجدل، وعلم الله أننا لم نزل آمالنا متعلقة بتلك المشاعر الكريمة، وقلوبنا متشوقة إلى تلك المشاهد العظيمة؛ فلنا في ذلك نيات صادقة التحويم، وعزّات داعية التصميم، وكان بودنا لو ساعدنا المقدار، وجرى الأمر على ما نحبّه من ذلك ونختار، أن نمتع برؤية المواطن التي تُتمرّ أبصاراً، ويتشفي بها إيراداً وإصداراً، ولعلّ الله تعالى ينفعنا بخالص نياتنا، وصادق طويّاتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجب شكركم علينا من كلّ الجهات، وأتصلت المحبة والمودة طول الحياة، غير أنّ في قلوبنا شيئاً من ميلكم إلى غيرنا وأستئناسكم، ونحن والحمد لله أعلم الناس بما يجب من حقوق ذلك المقام الشريف، ولنا القدرة على القيام بواجبكم، والوفاء بكرم حقكم، وليس بيننا وبين بلادكم من يُحشئ والحمد لله من كيده، ولا يبالي بهزله ولا جدّه، وقد توجه إلى بابكم الشريف قرأبنا الشيخ الصالح الحسيب الأورع الأكل الزاهد أبو زكريّا يحيى ابن الشيخ الصالح المرابط المقدّس المرحوم أبي عبدالله

محمد، بن جرار الوادى، وهو من أهل الدين والخير، وقد شافهناه بما يلقيه إلى ذلكم المقام الشريف من تقرير الود والإخاء، والمحبة والصفاء، مما يعجز عنه الكتاب، فالمقام الشريف يثق إلى قوله ويعامله بما يليق ببيته ودينه. وغرضنا أن نعرفوه بجميع ما يصلح لذلك المقام الشريف مما في بلادنا، ويصلكم إن شاء الله في أقرب الأوقات، على أحسن الحالات، ولكم بذلك علينا المنّة العظمى، والمزية القصوى، والله تعالى يُبقي ذلكم المقام الشريف محروس المذاهب، مشكور المناقب، إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة

(في المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب

السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتح بلفظ « من عبد الله فلان أمير المسلمين ». وأول من كتب منهم أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » حين استولى على المغرب، قبل بنى مرين، خضوعاً أن يتلقب بأمر المؤمنين مضاهاةً للخلفاء. وهو: من عبد الله على أمير المسلمين، وناصر الدين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، ومالك العدوتين، ^(١) أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، ملك البرين، وسلطان العدوتين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا في الأصل الوحيد وصوابه "أبي الحسن" كما يؤخذ مما تقدم في الكلام على ملوك فاس من أن علياً هذا يكنى أبا الحسن وأنه ابن السلطان أبي سعيد عثمان ابن السلطان أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق فلعل ما في الأصل من أعمال النسخ قننه.

دين الحق ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفَسَّحَ لفتح
معاقِل الكفر وكَسَّرَ جحافل الصُّفْرَ أَيْامَهُ .

إلى السلطان ، الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الحافل ،
الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المناغر ، المؤيد ، المظفر ، المنصور ، الأُسعد ،
الأُسعد ، الأرق ، الأوق ، ناصر الدنيا والدين ، وقامع البُغاة والمعتدين ، مُفيد الأوطار ،
مُبيد الكُفَّار ، هازم جيوش الأرمن والفرننج والكُرج والتتار ؛ ما لي صدور البراري
والبحار ، حامى القبلتين ، خديم الحرمين ، غيث العُفاه ، عون العُناه ، مُصرف
الكُتَّاب ، مُشرف المَوَاقِب ، ناصر الإسلام ، ناسِر الأعلام ، فَخِر الأنام ، ذُنْحَر الأيَّام ،
قائد الجنود ، عاقد البُنود ، حافظ الثُغور ، حامى الجمهور ، نِظَام المصالح ، بقية السلف
الصالح ، ظهير الخِلافة وَعَضُدِهَا ، وليّ الإمامة وسندِهَا ، عاضِدِ كلمةِ الموحِّدين ، وليّ
أمير المؤمنين ، أبي المعالي (محمد) ابن السلطان ، الكبير ، الجليل ، الشهير ، الشهيد ،
الخطير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الحافظ ، الحافل ، المؤيد ، المظفر ، المعظم
المبجل ، المكبر ، الموقر ، المعزز ، المجاهد ، المرابط ، المناغر ، الأوحِد ، سيف الدين
(قلاوون) أدام الله فضلَ عزمه الماضى بتأييده ، وأدار الأفلاك بتشيده مُلكه
الشامخ وتمهيده ، وطهر أرجاءه من أرجاس المنافقين ، وأذناس المارقين ، بما يُرىق
عليها من دمائمهم ، فما كلُّ متطهرٍ يُجْزَى عنه غَسْلُ مائه أو تيمُّ صعيده .

سلام كريم ، طيب عميم ، أرجب السَّميم ، متضوع النَّسيم ، تستمدُّ الشمسُ باهرَ
سَنَاه ، ويستعيرُ المسكُ عاطرَ شَدَاه ، يُخْصُ إخاءَ كم العليّ ، ووفاءَ كم الوفيّ ،
ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الذى أيد المؤمنين ، على عُدُوهم فأصبَحوا ظاهرين ، وعرف
الإسلام وأهله من السَّرِّ العجيب ، والصُّنْعِ الغريب ، ما فيه عِبْرَةٌ للسامعين والنَّاظرين ؛

حِكْمَةٌ عَجَزَتْ عَنْ فَهْمِ سِرِّهَا الْمَكْتُومِ ، وَقَصُرَتْ عَنْ كُنْهَيْهَا الْمُخْتُومِ ، أَلْبَابُ عَيْبِهِ
الْقَاصِرِينَ . وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ الَّذِي أُرْشِدُ بِهِ الْخَائِدِينَ
الْحَاثِرِينَ ؛ وَأَرْسَلَهُ بِالْمُهْدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ بَرِّغْمَ الْجَاهِدِينَ
الْكَافِرِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هَاجَرُوا إِلَيْهِ وَبِلَادِهِمْ هَجَرُوا ، وَالَّذِينَ آوَأُوا مِنْ أَوْىِ
إِلَيْهِمْ وَنَصَرُوا ، وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ فَصَبَرُوا ، فَفَازُوا بِذِكْرِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
وَأَجْرِ الْمُجَاهِدِينَ الصَّابِرِينَ ؛ وَصِلَةَ الدَّعَاءِ لِحِزْبِ الْإِسْلَامِ فِي مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا
بِفَضْلِ لَا يَزَالُونَ مَعَهُ لِأَعْدَائِهِمْ قَاهِرِينَ ، وَسَعْدٍ لَا يَنْفَكُونَ لَهُ بِأَمْلِهِمْ ظَافِرِينَ ،
وَنَصْرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا لَكُمْ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ مَجْدًا مَدِينَةَ الظَّلَالِ ، وَعَضُدًا حَدِيدَ الْإِلَالِ ، وَسَعْدًا^(١)
جَدِيدَ السَّرْبَالِ - مِنْ مَنْصُورَةٍ "تَيْمَسَان" حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى ، وَالصَّنَائِعَ الرَّبَّانِيَّةَ تُكَيِّفُ
الْعَجَائِبَ ، وَتُعَرِّفُ الْعَوَارِفَ الرِّغَائِبَ ، وَتَسَنِّفُ الْأَسْمَاعَ بِمَا تُسْمِعُهَا مِنْ إِجْزَالِ
الْمُنُوحِ وَالْمَوَاهِبِ ، وَتُقَوِّفُ الرَّقَاعَ بِمَا تُودِعُهَا مِنْ أَحَادِيثِ الْفُتُوحِ الْغُرَائِبِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ
عَلَى مَا يَسَّرَ مِنَ الْمَأْرَبِ ، وَسَهَّلَ مِنَ الْمَوَاهِبِ . وَإِخَاؤُكُمْ الصَّادِقُ مَبْرُورُ الْجَوَانِبِ ،
مَأْثُورُ الْمَنَاقِبِ ، مُشْرِقُ الْكَوَاكِبِ ، مُغْدِقُ السَّحَابِ ، نَامِي الْمَرَاتِبِ ، سَامِي الْمَرَاقِبِ ،
وَاللَّهُ تَعَالَى يُقَيِّمُهُ فِي ذَاتِهِ ، وَيَقِيهِ مِنْ صَرْفِ الدَّهْرِ وَأَذَاتِهِ . وَإِلَى هَذَا وَصَلَ اللَّهُ
لَكُمْ سَعْدًا جَدِيدًا ، وَجَدًّا سَعِيدًا ، وَبِحَمْدِ حَمِيدًا ، وَحَمْدًا مَجِيدًا ؛ فَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكُمْ
الْأَثِيرَ ، الْمُزْرَى بِالْمَسْكِ الثَّيْرِ ، فَاجْتَلَيْنَا مِنْهُ رَوْضَةً جَادَهَا الْبَيَانُ فَأَمْرَعَهَا ، وَرَادَهَا الْبَيَانُ
فَوْشَعَهَا ، وَاجْتَنَيْنَا مِنْ غُصُونِ سَطُورِهِ ثَمَرَاتٍ وَدَادٍ مَا أَيْنَعَهَا ، إِنْبَاءً عَمَّا تَلَقَّاهُ الْإِخَاءُ
الْكَرِيمَ مِنْ قِبَلِ الشَّيْخِ الْأَجَلِّ ، أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ الْجَرَّاحِ مِمَّا عَنَّا تَحْمَلُ ، وَفِي إِقْلَائِهِ

(١) جمع آلة بمعنى الحرية .

وأدائه بمحضرتكم الكريمة أحسن وأجمل ، وهو ما كان عليه عزم مولاتنا الوالدة
ألحقها الله تعالى رضوانه ، وبوأها جنانه : من حج البيت المحرم ، وزيارة [القبر] المعظم
المكرم ، والصلاة بالمسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم ، وثالثها في شد
الرحال المسجد الأقصى ونعم المغنم ، وقضاء النسك بتلك المناسك والمشاهد ، والتبرك
بتلك المعالم المنيفة والمعاهد ، وما وصف مع ذلك بهذا الجانب الغربي ، ووصف
من أمر قتالنا لكل مارق أبي وكافر حربي ، وما منحنا الله من تدبير لقلوب أهل
الإيمان مبهج ، ولصُدور عبدة الصلبان مُحرج ، وأن الإخاء الكريمة حصل له بذلك
أهبي آتتهاج ، وحل منه محلّ القبول الذي آتتهج له من آقنفي سبيل القصد أنهي
آتتهاج ؛ فعقد العزم على تلقى الوافد من تلقائنا ، والوارد رجاء أداء فرض الحج من
أرجائنا ، بتسهيل سبيله ، وتيسير آرتحالنا إلى بيت الله ورسوله ، وأنه متى وقع الشعور
بمقدم المولاة رحمها الله تعالى على بلاده ، وقرئها من جهاته المجودة من جود جوده
بمهاده ، يقدم للخروج من يتلقى ركبها ، ويعتمد بالبر والتكريم جنابها ، حتى تتحد وجهتها
الشريفة بجميل نظره وإيابها ، وقام عنا بما نودّه من برّها ، وساهم فيما تقدّمه إلى الله عزّ
وجلّ من صالح أجرها . وقد قابلنا هذا الفضل من الشكر بأجرله ، ومن البرّ بأحفاه
وأحفله ، وحصل لدينا بإزائه سليم وده وكريم إخوانه ، من تخليص ولآئه ، وتمحيص
صفائه ، منّا لا يزال عهد الأتيق في نهائه ، وحقده الوثيق في أزياده ونمائه ، وغضنه
الوريق في رونق غلوائه ؛ ولئن كانت المولاة الوالدة قدس الله روحها ، وبرد ضريحها ،
قد وافت بما قدمت عند الله من صالح العمل ، وماتت على ما أبرمته في قصد البيت
الشريف من نية وأمل ، اذ كانت رحمة الله تعالى عليها قد تأهبت لذلك ، واعتدت
لسلوك تلك المسالك ، وأداء ما فرض الله من السعاية والمناسك ، وعلى الله إجزال
نواياها ؛ وعنده نحتسب ما ألمّ فآلم من مصابها - فإنّ لدينا ممن يمت بحرمة الحرم إلينا ،

ويلزم بحق التربية علينا، من يقوم عندنا مقامها، ويروم من ذلك المقصد الشريف مرآمتها، وسنوردها إن شاء الله تعالى على تلکم البقاع، ونوردها من تلکم الأقطار والأصقاع؛ ما يجمل بحسن نظركم مورده ومصدره، ويطابق في جميل أعتنائكم وحفيل أحتفالكم خبره ومخبره، بفضل الله وعونه .

وأما تشوق ذلكم الإخاء، لمواصلة الكتب بسار الأبناء؛ فإن من أقرها عهدا، وأعدتها حديثا يهادى ويهدى، ما كان من أمر العاق قاتل أبيه، الحال من إقليم تلمسان ومالكها بالمحل النبیه؛ وذلك أن أسلافه بنى زيّان، كانوا قد استولوا على هذه المملكة في سالف الزمان، ولم يزل بينهم وبين أسلاف المحتوين على ملك المغرب الأقصى وقائع توردهم الحام، وتذيقهم الموت الرؤام، فيدعون المنازعه، ويعودون للوادة، ثم لم يلبثوا، أن ينكثوا، ولم يصبروا، أن يغدروا، إلى أن كان من حصار عمنا المقدس المرحوم أبي يعقوب قدس الله تربته إياهم، فأكثر موتهم وكدر محياهم، وتماضى بهم الحصار تسع سنين، وما كانوا غير شردمة قليلين، وهنالكم أنصلت بينكما المرأسله، وحصلت الصداقة والمواصله، ثم حمّ موته، وتمّ فوته، رحمة الله تومه، ورضوانه يشمله ويعمه، فنفس خناقهم، وعاد إلى الإبدار محاقهم، وصرف القائم بعده عنهم الحين، عمما كان هو رحمه الله قد طوعه من بلاد مغراوة وتجين، فألّسعت عليهم المسالك، وملكوا ما لم يكن فيه لأوائلهم طمع من الممالك، لكن هذا الخائن وعمه كانا من أسارته الفتن، وعم به فيها غوامر المحن، فسلكا مسلك أسلافهما في إذاعة المهادنه، والروغان عن الإعلان بالمقاتنه .

ولما سؤل الشيطان لهذا العاق قتل والده، والإستيلاء على طارفه وتالده، لم يقدم عملا على إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقدس أبي سعيد، قدس الله

مَنَواهُ ، وجعل الجنة مأواه ، في السَّلمِ راعبا ، ولحُكْمٍ ، ووادعته طالبا ، فاقنضى النظر المصلحي حينئذ موافقته في غرضه ، وإن كان باطنه على مرضه ، فقوى أمره ، وصرى ضره ، وصرى شره ، ووقد تحت الرماد جمره ، وسرى إلى بلاد جيرانه الموحدن داؤه ، وطال عليهم تضييقه وأعداؤه ، وأستشعر ضعفهم عن مدافعتِهِ ، ووهنهم عن مقاومتِهِ ومنازعتِهِ ، فبغى وطفى ، ولم يدر أن من فوقه سقب السماء رغا ، وباطن جماعة من عرب أفريقيا المفسدين وجروه بحبل الأطماع إليها ، وأقام على بجاية عشرين سنة يشد على بجاية الحصار ، ويشن على أحواز تونس الغار ، حتى كان من هزيمة جيشه لصاحبها ما كان ، بمالأة منهم ومن غيرهم من وراثيه (؟) كابن الليثاني ، وابن الشهيد ، وابن عمران ، فأدنى ذلك صاحبها السلطان أبا يحيى أعزّه الله تعالى أن بعث إلينا وزيره في طلب النصرة رسولا ، وأوقد علينا أعزّ ولده أبا زكريا في إذهاب المضرة عنه دحیلا ، فحاطبنا إذ ذاك هذا الخائن العاق مبصرين ، وبقوله تعالى ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين أقتلتا فأصلحا ما بينهما ﴾ مذكرين ، فما زادت الموعظة الأشرأ ، ولا أفادت التذكرة إلا بطرا ، وحين ذُكر فلم تنفعه الذكرى ، وفكر فلم يتيسر لليسرى ، أمثلنا فيه أمر الله تعالى المرتب على قوله ﴿ فإن بغت إحداهما على الأخرى ﴾ فأزمننا قدعه ، وأجمعنا رده وردعه . وفي أثناء ذلك وصل إلينا أيضا سلطان الأندلس مستغيثا على النصارى أعداء الله جيرانه على طاغيتهم ، المصير على عداوته وعداوتهم ، فجهرنا معه ولدنا عبد الواحد في أربعة آلاف من الأبطال ، وأممدناهم بما كفاهم من الطعام والعدة والمال ، فأجاز من سبته إلى الخضراء بحیلا ، ولم يُقدم على منازلة جبل الفتح عملا ، وكان هذا الجبل الخطير شأنه منذ استولى عليه العدو قصمه الله في سنة تسع وستين سبجا في لهوات أهل العدوتين ، وغصّة نفوس الساكنين بالحيتين ،

لإطلائه عليهما، وإرساله جوارح جواريه إليهما، تحطف من رام العبور ببحر الزقاق، وما يقرب الملجأ إلى هذا المعقل المستقر من اللحاق، فكم أرمل وأتم، وأنكل وأيم - فأحاطت به العاديات السواجج برأ وبحرا، وأذاقت من به من أهمج الأعلاج شرا وحضرا؛ إلى أن أساموه للسلمين قهرا وقسرا، ومنح الله حزبه المؤمنين فتحا ونصرا، وسمع الطاغية الغادر إجابة الله تعالى بأمره، فطار بما قدر عليه من حشوده وجنوده إلى إغائته ونصره، فوصله بعد ثمانية أيام، من تسليحه للإسلام، فنزل بجبله ورجله إزاعه، وأقسم بمعبوده لا يبرح فناءه، حتى يعيد إليه دينه، أو يلقى منونه دونه، فأكذب الله زعمه، وأوهن عزمه، وأحنت يمينه، وأقاع بعد شهرين وأيام مذبلا، وأسرع العود إلى مستقره وأسأله كيف نجما، وكان ذلك سبب إنايته للسلم وأقياده، وإجابته لترك ما كان له على أصحاب "عمرناطة" من معتاده، وكانوا يعطونه ما ينيف على الأربعين ألفا من الذهب في العام، ضريبة أزمهم الطاغية أداءها في عقد مصالحته أي إزام؛ فبمناها تركها وإسقاطها، وأزمنها فيما عقدها له من السلم أن يدع أشراطها؛ والحمد لله الذي أعز بنا دين الإسلام، وأذل رقاب عبدة الأصنام، وقد آعتنينا بتحصين حصن هذا الجبل تميها لها وتكيلا، وأبتدأنا من تحصين أسواره وأبراجه بما يغدو على جبينه تاجا وإكليلا . وكأ في هذه المدة التي جرت بها هذه الأحوال، وعمرت فيها هذه الأهواء والأهوال، منازلين أخانا المتنع "بسيجلماسة" من بعض بلاد القبلة، ومحاولين من إزاحة ضره، والإراحة من شره، ما فيه الصلاح والصلاح على التفصيل والجملة، لعنايته في الفساد، ودعايته إلى العناد، ومعاضدته صاحب "تلمسان"، ومساعدته على البغي والعُدوان، فسهل الله آفتاحها، وعجّل من صنائه الجميلة منها مباحها؛ وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونصف، ويسر الله تعالى في ذلك من بدائع الصنائع ما يقصر عنه كل نعت ووصف .

وفي خلال تلك المنازلة ، وحال تلك المحاولة ، لاحت للخائن التماساني قُرْصه ، جُرَّعَ منها غُصَّه ، إذ ظنَّ أنا عنه مشغولون ، وفي أمرٍ ماعرض من سِجِّلماسة وجبل الفتح معتمِلون ، فخرج من بلدِه على حين غفلة بالعزيمة والحدِّ ، إلى حصن ماوررت الذي هو بين بلاده وبلادنا كالحدِّ ؛ فوجد هناك ولدنا الأسعدَ تاشفين ، في ثلثة من بني مرين ، آسادِ العرين ، فلما نذروا به ناروا إليه مسرعين ؛ فنكص على عقبيه ، ولم ير له جنة أوقى من هربه ، وواد لذلك ثانيه ، فلم تكن عساكرنا عن طرده وانيه ، بل ردتَه في الحافره ، وأنشدته بلسان حالها الساعره :

إن عادتِ العقبُ عُدنا لها * وكانت النعلُ لها حاضره

ولما فرغنا والحمد لله من تلك الشواغل ، وأرغنا من الخائن التماساني ترك ما هو فيه من إثارة الفتن واغل ؛ فأعرض وأشاح ، وما لاحت عليه مخيلة فلاح ؛ نهدنا نحو أرضه ، لتجزيه بقُرْصه ؛ بجيوش يضيق عنها فسيح كل مدي ، وخبول تذر الأكم للحوافر سُجدا ؛ تنقض على الأقران أمثال الأجادل ، وتقض الجنادل من حوافرها بأصلب من الجنادل ؛ فكفنا بتسلم منازلِه منزلا فمزلا ، وتسئم معاقله معقلا فمعقلا ؛ وجل رعاياه تُقرُّ بفضلنا ، وتفرُّ من جورِه إلى عدلنا ؛ ومن تسك منهم بجبله ، أو سلك من النى في سبله ؛ قاده السيْفُ برعْمه ، وأستزله على حُكْمه ؛ والعفو مع ذلك يؤمهم ، والإحسانُ يشملهم ويعمهم ؛ حتى لم يبق إلا معقله الأشب ، ومنزله الذي رأى أنه عن عين الشوايب محتجب ؛ قد شمخ أنفا حيا ، وصاح كفا للثريا ؛ ولم يرض لمانته عمائم إلا الغائم ، ولا لأنامل شرفاته خواتم ، إلا النجوم العواتم ؛ فنزلنا بساحه ، وأقبلنا على كفاحه ؛ وجعلنا تقدفهم من حجارة المجانيق ، بأمثال النيق ؛ ومن كيزان النقط الموقده ، بأمثال الشهب المرصده ، ومن السهام العقاره ، بأمثال العقارب

(١) كذا في الأصل باهال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الجرّارَه ؛ حتى غَدَّتْ جُدْرَانُهُمْ مَهْدُومَه ، وَجَسُومُهُمْ مَكْلُومَه ؛ وَتَغُورُ شُرْفَاتُهُمْ
 فِي أَفْوَاهِ أِبْرَاجِهِمْ مَهْتُومَه ؛ وَظَلَّتِ الْفَعْلَةُ تُسَيِّدُ إِزَاءَ أِبْرَاجِهِمْ أَبْرَاجَا ، وَتَمَهَّدَ مِنْهَا
 لَتَسْوِيرِ أَسْوَارِهِمْ أَذْرَاجَا ؛ وَلِلْعَاوِلِ فِي أَسَافِلِهَا إِعْوَالٌ ، وَلِلْعَوَاسِلِ عَلَى أَعَالِيهَا أَعْمَالٌ ،
 وَلِلْأَشْقِيَاءِ مَعَ ذَلِكَ شِدَّةٌ وَجَلْدٌ ، وَعُدَّةٌ وَعَدَدٌ ، وَحِدَّةٌ وَلَدَدٌ ، يَقَاتِلُونَ حِمِيَه ؛ وَيَنَازِلُونَ
 بِنَفْسِ أَيْبِه ، وَحِجَارَةُ الْحَجَانِيْقِ تُسَدِّخُ هَامُهُمْ ، وَبِنَاتُ الْكِكَايْنِ تُنْزِلُ أَقْدَامَهُمْ ؛ وَهُمْ
 فِي مِثْلِ ذَلِكَ لِأَزْمُونِ إِقْدَامِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَشْتَدَّتْ أَزْمَتُهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا لَهَا مِنْ فَارِحٍ ،
 وَأَحَاطَتْ بِهِمُ الْأَوْجَالُ مِنْ خَارِجٍ ؛ وَهَدِمَتْ أِبْرَاجُهُمُ الشَّوَاهِقَ ، وَرُدِمَتْ حَفَائِرُهُمْ
 وَالْحِنَادِقُ ؛ وَأَخَذَتِ الْكُكَّةُ ، فِي الْعُرُوجِ ، إِلَى الْبُرُوجِ ، وَالْحِمَاةُ ، فِي السَّبَاقِ ، إِلَى الْأَنْفَاقِ ،
 وَالرَّمَاةُ ، فِي النَّضَالِ ، بِالنَّصَالِ ، فَهِنَّ مُرْتَقِي سُلَمَا ، غَيْرُ مُتَقِي مَوْلَا ، وَمَشْتَغِلِ بِالنَّقَبِ ،
 غَيْرُ مُحْتَفِلِ بِشَابُورِ الْحِجَارَةِ الْمَنْصَبِ ؛ وَأَفْرِجِ الْمَضِيْقَ ، وَأَتَهَيَّجِ الطَّرِيْقَ ؛ وَأَقْتَحِمْتَهُ
 أَطْلَابُ الْأَبْطَالِ ، وَوَجَحْتَهُ أَقْيَالُ الْقَبَائِلِ وَوَلَّى الْأَشْقِيَاءُ الْأَذْبَارَ ، وَعَاذُوا بِالْفِرَارِ ،
 وَبَدَتْ عَلَيْهِمْ عِلَامَاتُ الْإِدْبَارِ ؛ وَسَابَقُوا إِلَى الْأَبْوَابِ ، فَكَانَ مَجِيئُهُمْ مِنْ أَقْوَى
 الْأَسْبَابِ ، وَقَتْلُ مِنْهُمْ الرِّحَامُ ، مِنْ أَسَارِهِ الْهَدْمُ وَالْحُسَامُ ؛ فَمَمْلَكَنَا مَا دَارَتْ عَلَيْهِ
 الْأَسْوَارُ الْخَارِجَةُ : كَفَرَارِ السَّبْعِ وَالْمَلْعَبِ ، وَجَمِيعِ الْحِنَانِ وَالْعُرُوشِ الَّتِي مَا أَنْفَكَ الشَّقِيُّ
 يَجْتَهِدُ فِي عِمَارَتِهَا وَيَتَعَبُ ؛ وَأَعْلَنَّا بِالنَّدَاءِ أَنْ كُلٌّ مِنْ جَاءَنَا هَارِبًا ، وَوَصَلَ إِلَيْنَا تَائِبًا ،
 مَنَحْنَاهُ الْعَفْوَ ، وَمَحَوْنَا عَنْهُ الْهَقْفَ ؛ وَأُورِدْنَاهُ مِنْ إِحْسَانِنَا الصَّفْوَ ؛ فَتَبَادَرُوا عِنْدَ ذَلِكَ
 يَتَسَاقَطُونَ مِنَ الْأَسْوَارِ ، تَسَاقَطَ جَنَابَاتُ الثَّمَارِ ؛ فُرَادَى وَمَثَى ، آتِيَيْنِ إِلَى الْحُسْنَى ؛
 فَيَسْعُهُمُ الصَّفْحُ ، وَيُجْسِبُهُمُ الْمُنُّ وَالْمُنْحُ .

ولما رأى الخائن قلة من بقي معه ، وشاهد تفرق من ذلك الموقف جمعه ، أمر
 بسراح من قبضته وسجنه ، واعتقدهم عوناً له فكانوا أعون شيء على وهيه ووهيه ،
 واعتمد الناس في بقية يومهم السور فتوسع أنقابه ، وتخرق أبوابه ؛ إلى أن جهم

الليل، وحقّ منهم بالأعداء الويل؛ ولزم كلّ مكره، ولم يكن الليل ليحجبه من عمله ولا يحجزه؛ وبات الفرار إلينا يهربون، ومن كل نفق يتسربون؛ فلما ارتفع الضياء، ومع الضحاء، أمرنا ولدينا: يعقوب وعبد الواحد، ووزيرنا القاعدل بالمرأصد، بأن زحفوا إليها، مع أطلابنا تحت راياتنا المنصورة عليها؛ فرجفت قلوبهم، ووجبت جنوبهم؛ ولم يكن إلا كلاً حتى امتطيت تلك الصهوة، وتسنمت فيها الدرّوه، وتسلمت بيد العنوه، وفصمت عراها عروة عروه، وأززلوا من صياصيمهم؛ وتمكنت يد القهر من نواصيمهم، وحقّت عليهم كلمة العذاب من معاصيمهم؛ وفرّ الشقي إلى فناء داره، في نفر من ذويه وأنصاره؛ وفيهم ولداه مسعود وعثمان، ووزيره موسى ابن عليّ معينه عليّ البغي والعصيان؛ وعبد الحق بن عثمان الخائن الغادر، وابن أخيه العامل بعمله ثابت بن عامر، فتكفّهم هنالك أولياء دولتنا عليه، فأوردوهم ويوسف ولد الشقيّ السالب حياض المنية، ونذت بالعرء أجسامهم، وتقدّمتنا للبين، بأن يمدّ على الرعية ظلّ التامين؛ ويوطأ لهم كفّ التهدئة والتسكين، ويوطد لهم مهاد العافية، وتكفّ عنهم الأكفّ العاديه، حتى لا تمتدّ إليهم كفّ متبب، ولا ينفت نحوهم طرف مستلب؛ ومن آتتبه شيئاً أمر برده، وصدّ عن قصده - وكلّ لنا والحمد لله بالاستيلاء على هذا القطر جميع البلاد، الداخلة في ولاية بني عبد الواد؛ ونسخت منها دولتهم، ومجيت من صحيفتها دعوتهم؛ وعوض الرعايا من خوفهم أمنا، ومن شومهم يمنا؛ وشملتهم كلمتنا الراقية، المنصورة بكلمة الله الباقية؛ وفي ذلك معتبر لأهل اليقين، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للّٰئقين .

والحمد لله على هذه النعمة التي أفاضت على النعم جلالاً، والصنيفة التي بهرت الصنائع جمالاً؛ وأضفت على المسامين من الصلاح والعافية سربالاً. وقد رأينا من حقّ هذا الإنعام الجسيم، والصنغ الرائق الوسيم؛ أن نتبع العفوب بعد المقدّره،

(١)
بالإحسان لمن أسلف لنا غمّطه أو شكره ؛ [فبتنا] على قبائل بني عبد الوادِ ، وأضفينا
عليهم صنوف الملابس نساءً ورجالاً ، وأوسعنا لهم في العطاء مجّالاً ، وأفعمنا لهم
من الحياء سبجلاً ، وأقطعنا لهم من بلاد المغرب حاطها الله تعالى ما هو خير
من بلادهم ، وحبّوناهم منها بما كفل بإحساب مرّادهم ، وإخصاب مرّادهم ،
وخططناهم بقبائل بني مرّين ، وحططناهم بانّحاد الكلمة من تقوّل المتقولين ، وتزوير
المزورين ؛ وأعدّنا منهم لأوان الجهاد أوفر عدد ، وأعدّنا من فرسانهم ورجالهم
لطيّان الأعادي أكبر مدد ؛ وأزِيل عن الرعايا هذه البلاد الشرقيّة إضرهم ، وأزيح
عنهم بتوتحي العدل فيهم جورهم ووزرهم ؛ وحققنا عنهم ما آد من المعارم ، وهاد
من المكّارم ؛ فانشرحت صدورهم ، وصلحت أمورهم .

والحمد لله الذي تلى محالّ الباغين ومجالهم ، وأورثنا أرضهم وديارهم وأموالهم ،
وأخذهم بما احتقبوا من المآثم ، واكتسبوا من الجرائم واستحلّوا من المحارم ؛
وأباحوا من المسكرات ، وأذاعوا من المنكرات ، وطالما أصبح ربّعهم معيدن
الفسوق ، وموطن العقوق ، ومقطن إضاعة الحقوق ، لاسيّما في أيام المسرور بهنّاته ،
المغرور بما سؤل له الشيطان وأملّ له من ترهّاته ، المشهور بقتل أبيه ، الماثور
من مثالبه ومعاييه بما لم يأت الدهر له بشييه ، ولقد طبقت الآفاق معاصيه ،
وبلغت أخبار خيانتيه من باطراف المعمور وأفاصيه ، ولكن الله تعالى أملّ له
ليكثر ما نّمه ، حتى إذا شاء أخذه أخذ القرى وهى ظالمه .

والحمد لله الذى طهر بايدينا هذه الأرجاء من أرجاسه ، ورخص عنها بايدينا
أوضار أدناسه وأنجاسه ؛ وأتاح لأهلها بهلاك هذا المرید المراد ، وأراح منه ومن شيعته

(١) بيض في الأصل لهذه الكلمة وقد أفتيسناها من المقام قبل من قبائل بني عبد الوادِ

(١١) البلاد والعباد ؛ ولولم يكن إلا مانال الجُحَّاج من تَعْنِيهِ وتَعَدِّيهِ ، وطال عليهم من تعرُّضه لهم وتصدِّيهِ ؛ حتى حَجَزَ عن الحِجَاز الشريف قُصَادَهُ ، وحجَرَ بقطع السبيل عن بيتِ الله الحرام من أَرَادَهُ ؛ فكَم سَلَبَ الجُحَّاج ، وسَدَّ عليهم المَسَالِكَ والفِجَاجَ ؛ وفَرَّقَ فَرِيقَهُم ، وعَوَّقَ طَرِيقَهُم . والآنَ بِمَجدِ الله حَقَّتْ الحَقَائِقُ ، وأرْتَفَعَتِ العَوَائِقُ ؛ وَصَحَّ العَلِيلُ ، وَوَصَحَّ السَّبِيلُ ؛ وَتَسَهَّلَ المَرَامُ ، وَتَسَّرَ القَصْدُ إلى البَيْتِ الحَرَامِ ؛ مَكَانَ تَرَدُّه الزُّوَارَ عليكم أرسالا ، ووفود الأبرارِ لِلسَّلْمِ خِفَافًا وَثِقَالًا ؛ يَأْتُونَ من كُلِّ فَجٍّ عميقٍ ، ويقضون ما يقضون من مناسكهم ، آمين في مسالكهم ، إلى البيت العتيق ؛ وهكذا أيضا خلا وجهنا لجهاد الروم ، ولإعداد من يغزونها في عُقر دارهم للقصد المروم ؛ وأن نجدد من هذا العمل بجزيرة الأندلس حماها الله تعالى ما لسلفنا بها سلف ، ونبدد من شمل عباد الصليب ما خلفهم بفضل الله تعالى خير خلف ؛ فعمل الجهاد ، بهذه البلاد ، هو الفضيلة التي لنا الله سبحانه ذخرها ، والحسنة التي في صحائف أعمالنا سطرها ، وبجيوشنا المنصورة عز دين الإسلام بهذا المغرب الغريب ، وبسيوفنا المشكورة والله المشكور ذل بها الصليب ، أوزعنا الله تعالى شكر الآله ، وأمتعنا بتواتر نعائه ، بمنه وفضله .

وأهينا لعالمكم الكريم هذه الأنباء السارة ، والآلاء الدآره : لما ذكركم من تشوقكم لإستطلاعها ، وسطركم من تشوقكم لإستماعها ، ولعلمنا أنكم تُسرون بقطع دابر الباغين ، وتُسبشرون بحسب أدواء الطاغين ؛ وتؤثرون الإخبار بإئتلاف الكلمة على أعداء الله الكافرين بإثار الحامدين لفعل الله تعالى في إظهار دينه الشاكرين . لازلم تُشرع تحوكم البشائر ، وتُفرع بذكركم المنابر ، وترقع لأجتلاء آثار أمركم الستائر ،

(١) لم يذكر في الكلام جواب لو ، ولكنه معلوم أى تكفى تأمل .

وَأَسْجَلَاءَ أَخْبَارِ سِيرِكُمْ الْبَاهِرَةِ النَّوَظِرِ، وَتُجَمِّعُ لَسْجَايَاكُمْ السَّنِيَّةِ الْعَلَاءِ، وَمَزَايَاكُمْ الْعَلِيَّةِ السَّنَاءِ؛ نَوَاقِبُ الْمَنَاقِبِ وَقَوْلُ خَيْرِ الْمَفَاحِرِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَالسَّلَامُ الْأَثْمُ ، الْأَضْوَعُ الْأَثْمُ ، يُحْصِ إِخَاءَكُمْ الْأَوْفَى ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقدم] في الكلام على المكتاتبات عن الأبواب السلطانية في المكتاتبات إلى الملوك .



وهذه نسخة كتاب ورد من أبي الحسن المرينيِّ صحبة الهدايا ، والحرَّة الحاجة في شهر رمضان المعظم سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ونصه بعد البسملة :

من عبد الله على أمير المسلمين ، ناصر الدين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، مالك العدوتين ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملا البرين ، وسطان العدوتين ، أبي سعيد ، ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسطان العدوتين ، أبي سعيد ،^(١) ابن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ملك البرين ، وسطان العدوتين ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق ، منح الله التأييد مقامه ، وفسح لفتح معاقل الكفر وكسر جحافل الصفر أيامه .

إلى السلطان الجليل ، الكبير ، الشهير ، العادل ، الفاضل ، الكامل ، الكافل ، الملك ، الناصر ، المجاهد ، المرابط ، المؤيد ، المنصور ، الأسعد ، الأصعد ، الأرقى ، الأوقى ، الأجد ، الأجد ، الأضخم ، الأوح ، الأوفى ، ناصر الدين ، عاضد كلمة المسلمين ، محيي العدل في العالمين ، فاتح الأمصار ، حائر ملوك الأقطار ، مفيد

(١) تقدم في ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه على سلسلة نسب أبي الحسن فتنبه .

الأوطار، مُبِيد الكُفَّار، هازِمُ جِيوشِ الأَرَمَنِ والفَرَنْجِ والكُرُجِ والتَّارِ، خادِمِ
 الحَرَمِينَ، غَيْثِ العُقَاةِ، غَوْتِ العُنَاةِ، مُصَرِّفِ الكُتَابِ، مُشَرِّفِ المَوَاكِبِ، ناصرِ
 الإِسْلَامِ، نَاشِرِ الأَعْلَامِ، نَخْرِ الأَنَامِ، ذُنْحِرِ الأَيَّامِ، قائِدِ الجُنُودِ، عاقِدِ البُنُودِ، حافِظِ
 الثُّغُورِ، حائِطِ الجُمُهورِ، حاميِ كَلِمَةِ المُوَحِّدِينَ، أبنِ المَعَالِي، مُحَمَّدِ بنِ السُّلْطَانِ،
 الجَلِيلِ، الكَبِيرِ، الشَّهِيرِ، الشَّهِيدِ، الخَطِيرِ، العَادِلِ، الفَاضِلِ، الكَافِلِ، الكَامِلِ،
 الحَافِظِ، الحَافِلِ، المُؤَيَّدِ، المُكْرَمِ، المُبَجَّلِ، المُكَبَّرِ، المُوقَّرِ، المُعَزَّرِ، المُعَزَّزِ، المُجَاهِدِ،
 المُرابِطِ، المُتَنَاغِرِ، الأُوْحِدِ، الأُسْعَدِ، الأَصْعَدِ، الأَوْفَى، الأَنْفَعِ، الأَخْصَمِ، المُقَدَّسِ،
 المُرْحومِ، المُلِكِ المُنْصُورِ، سَيفِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ، قَاسِمِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ . أبقَى اللهُ مُلْكَهُ
 مُوصُولِ الصَّوْلَةِ وَالأَقْتِدَارِ، مَحْمِيَّ الحَوْزَةِ حَامِيًا لِلدِّيَارِ، حَمِيدِ المَائِثِ المَأْثُورَةِ وَالأَثَارِ،
 عَزِيزِ الأَوْلِيَاءِ فِي كُلِّ مَوْطِنٍ وَالأَنْصَارِ .

سَلامٌ كَرِيمٌ، زَاكٍ عَمِيمٌ، تُشْرِقُ إِشْرَاقَ النِّهَارِ صَفْحَاتُهُ، وَتَعْبِقُ عَن شِدَا الرُّوضِ
 المُعْطَارِ نَفْحَاتُهُ، يُخْصُّ إِحْاءَ كَمِ العَالِيَةِ، وَرَحْمَةَ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ .

أما بعد حمد الله الذي وسع العباد منّا جسيماً ، وفضلاً جزِيلاً ، وأهمهم الرِّشَادَ
 بأنْ أبدى لهم من آثار قدرته ، على مَقْدَارِ وَحدته ، بُرْهَانًا وَاضِحًا وَدَلِيلًا ، وَأَلْزَمَ أُمَّةَ
 الإِسْلَامِ ، حَجَّ بَيْتِهِ الحَرَامِ ، من أَسْتَطَاعَ إِليه سَبِيلًا ؛ وَجَعَلَ تَعْظِيمَ شَعَائِرِهِ من تَقْوَى
 القُلُوبِ ، وَمَثَابَاتِ مَحَطِّ الأَوْزَارِ وَالدُّنُوبِ ؛ فَمَا أَجْزَلَ نِعْمَتِهِ مَنِيلاً ، وَأَجْمَلَ رَحْمَةَ رَبِّهِ
 مَقِيلًا ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدِ المُصْطَفَى من أَفْضَلِ العَرَبِ
 فَصِيلَةٍ ، فِي أَكْمَلِ بَقَاعِ الأَرْضِ فَضِيلَةٍ ، وَأَكْرَمِهَا جَمَلَةً وَتَفْصِيلًا ، المُحْتَبَى لِنَحْتُمِ الرِّسَالَةَ ،
 وَحَسْمِ أَدْوَاءِ الضَّلَالَةِ ، فَأَحْسَبَ اللهُ بِهِ النُّبُوَّةَ نَتْمِيًا وَالرِّسَالَةَ تَكْمِيلًا ، المُخْصُوصِ بِالْحَوْضِ
 المَوْرُودِ ، وَالمَقَامِ المُحْمُودِ ، يَوْمَ يَقُولُ الظَّالِمُ ﴿ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا حَلِيلًا ﴾ المَبُوءَا

من دار هجرته ، ومقرّ نصرته ، محلاً ما بين بيته ومنبره فيه روضةٌ من رياض الجنة لم يزل بها تزيلاً ، والرضا عن آله الأبرار ، وأصحابه الأخيار ، الذين فضّلتهم سابقةُ السعادة تفضيلاً ، وأهّلتهم العناية [بأمر الدين إلى أن يُوسِعُوا الأحكام برّهانا ودليلاً ، فإننا نحيط علم^(١)] الإخاء الأعزّ ما كان من عزّم مولاتنا الوالدةِ قدس الله رُوحها ، وتورّضَ رِيحها ، على أداء فريضة الحجّ الواجبه ، وتوفيةِ مناسكه اللابيه ؛ فاعترض الحِمَام ، دُونَ ذلك المَرَام ، وعاقَ القَدَر ، عن بلوغ ذلك الوَطَر ، فطوى كتابها ، ومجّل إلى مقرّ الرحمة بفضل الله ما بها ، وعلى الله أجرها ، وعنده يُحتسبُ دُخْرها ، وإنّ لدينا من نُوجب إعظامها ، وتُقيمها بحكم البرِّ مقامها ، وعزّمها إلى ما أمّلته مصروف ، وأمّلها إلى ما كانت أمته موقوف ؛ وهى محلّ والدتنا المُكرّمة ، المبرورة ، الأثيرة ، الموقرة ، المبجّلة ، المفصلة ، المعززة ، المعزرة ، المعظمة ، المطهرة ؛ أسنى الله مكانتها ، وسنى من هذا القصد الشريف لبانتها ؛ وقد شيعناها إلى حجّ بيت الله الحرام ، والمُتَوَلِّ بِحَوْلِ الله تعالى ما بين زمزمَ والمقام ، والفوز من السلام ، على صريح الرسالة ، ومثابة الحلاله ، بِنَيْلِ السؤل والمَرَام : لتظفرَ بأملها المرغوب ، وتُفرَّ بعد أداء فرضها لأكرم الوجوب .

وحينَ شَخَّصَ لذكَمِ الغرضِ الكريم ، موكبها ، وخالص إلى قصد الحَرَمِ العظيم ، مذهبها ؛ والكرامةُ تُلحِقُها ، والسلامةُ إن شاء الله تكفّفُها ؛ أصحابنا من حُورِ دولتنا وأحظيائها ، ووجوه دعوتنا العليةِ وأوليائها ؛ من اخترناه لهذه الوجهة الحميدة الأثر ، والرحلة السعيدة الورد إن شاء الله تعالى والصدْر ، من أعيانِ بنى مَرِينِ أعزّهم الله تعالى والعرب ، وأولادِ المشايخِ أُولَى الديانةِ والتقوى المائلين دِلاءَ القُرب ، إلى

(١) فى الأصل وأهّلتهم العناية الإخاء الخ ولا يخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناسخ شىء فزدنا ما بين

التربيين لاعلى أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْدَ الْكَرْبِ ؛ وَكُلٌّ مِنْ لَهُ أَثْرَةٌ مَشْهُورَةٌ ، وَشَهْرَةٌ بِالْمَزَايَا الرَّابِحَةِ وَالسَّجَايَا الصَّالِحَةِ مَأْثُورَةٌ ؛ وَقَصْدُهُمْ مِنْ أَدَاءِ فَرِيضَةِ الْحَجِّ قَصْدُهَا ، وَوَرُدُّهُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَنَهْلِ بَرَكَاتِهِ الْجَمَّةِ وَرُدُّهَا ؛ وَهَكَذَا سَيَّرْنَا مِنْ تَحْفِيفِ هَذِهِ الْبِلَادِ إِلَيْكُمْ مَا تَيْسَّرَ فِي الْوَقْتِ تَيْسِيرُهُ ، وَإِنْ تَعَدَّرَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَصَدْنَاهُ وَلِهَذَا الْغَرَضِ أَرْدْنَاهُ تَيْسِيرُهُ ، لِطَوْلِ الْمَغِيبِ عَنْ الْحَضْرَةِ ، وَالشُّغْلِ بِتَهْيِيدِ الْبِلَادِ الَّتِي فَتَحَهَا اللَّهُ عَلَيْنَا فِي هَذِهِ السَّفَرِ ؛ وَعَيْنًا لِإِيرَادِهَا لَدَيْكُمْ ، وَإِيرَادِهَا عَلَيْكُمْ ؛ أَبَا إِسْحَاقَ ابْنَ الشَّيْخِ أَبِي زَكَرِيَّا يَحْيَى بْنِ عَثْمَانَ السُّوَيْدِيَّ ؛ وَأَمِيرَ الرِّكْبِ الْحَسَنَ بْنَ عِمْرَانَ وَغَيْرَهُمْ ، كَتَبَ اللَّهُ سَلَامَتَهُمْ ، وَيَمِّنْ ظَنَّهُمْ وَإِقَامَتَهُمْ . وَمَقَامُ ذَلِكَ الْإِخَاءِ الْكَرِيمِ يُسَنِّيْ لِهَمِّ مِنَ الْيُسْرَى وَالتَّسْمِيلِ الْقَصْدِ وَالسُّوْلِ ، وَيَأْمُرُ نُوَابَ مَالِهِ مِنَ الْمَمَالِكِ ، وَقُؤَامَ مَا بَهَا مِنَ الْمَسَالِكِ ، لِتَكْمُلَ الْعِنَايَةُ بِهِمْ فِي الْمَمَرِّ وَالْقَفُولِ . وَمَعْظَمُ قَصْدِنَا مِنْ هَذِهِ الْوَجْهِةِ الْمُبَارَكَةِ إِيصَالُ الْمُصْحَفِ الْغَزِيْرِ الَّذِي خَطَّطْنَاهُ بِيَدِنَا ، وَجَعَلْنَاهُ ذَخِيرَةً لِيَوْمِنَا لَعَدْنَا ؛ إِلَى مَسْجِدِ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا ، وَعَصْمَةِ دِينِنَا وَدُنْيَانَا ؛ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِطَبِيبَةِ زَادَهَا اللَّهُ تَشْرِيفًا ، وَأَبْنَى عَلَى الْأَيَّامِ نَحْرَهَا مُنِيفًا ، رَغْبَةً فِي الثَّوَابِ ، وَحِرْصًا عَلَى الْقَوْزِ بِحِطِّ مِنْ أَجْرِ التَّلَاوَةِ فِيهِ يَوْمَ الْمُنَابِ .

وَقَدْ عَيْنًا بِيَدِ مَحَلِّ الْوَالِدَةِ الْمَذْكُورَةِ فِيهِ ، كَرَّمَ اللَّهُ جَبْهَتَهَا ، وَيَمِّنْ وَجْهَتَهَا ، مِنْ الْمَالِ مَا يُسْتَرَى بِهِ فِي تِلْكَ الْبِلَادِ الْمُحَوَّطَةِ مِنَ الْمَسْتَعْلَاتِ مَا يَكُونُ وَقْفًا عَلَى الْقِرَاءَةِ فِيهِ ، مُؤَبَّدًا عَلَيْهِمْ وَعَلَى غَيْرِهِمْ مِنَ الْمَالِكِيَّةِ فَوَائِدُهُ وَمَجَانِيهِ . وَالْإِخَاءُ الْكَرِيمُ يَتَلَقَّى مِنَ الرُّسُلِ الْمَذْكُورِينَ مَا إِلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الْأَغْرَاضِ أَلْتَيْنَاهُ [وَيَأْمُرُ] بِاحْضَارِهِمْ لِأَدَائِهِمْ بِالْمَشَافَهَةِ مَا لَدَيْهِمْ أَوْعَيْنَاهُ ، وَيُوعِزُّ بِإِعَانَتِهِمْ عَلَى هَذَا الْغَرَضِ الْمَطْلُوبِ ، وَيُسِّرُّ لَهُمْ أَسْبَابَ التَّوَصُّلِ إِلَى الْأَمَلِ وَالْمَرْغُوبِ ، وَشَأْنَهُ الْعَوْنُ عَلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَلَا سِيَّمَا

ما كان من أمثال هذا إلى مثل هذه السبيل الواضحة؛ وشكراً بآدراككم موطن الأساس،
مطرّد القياس، متجدّد مع اللحظات والأنفاس؛ والله يصل للإخاء العلى نصرة أيامه،
ويوالى نصرة أعلامه؛ ويبيق الثغور القصية، والسبيل السريّة، بنوطة بتقضيه
وإبرامه، محوطة بمعاوضة أسيافه وأقلامه، والسلام الكريم العميم، يخص إخاءكم
الأعزّ، ورحمة الله وبركاته - وكتب في يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين
من ربيع الأول عام ثمانية وثلاثين وسبعائة .



(١)
وهذه نسخة كتاب عن السلطان عثمان بن أبي العباس المرينيّ، في العشر الأوسط
من شعبان سنة أربع وثمانائة، وهو:

من عبد الله وولّيه: عثمان أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، سلطان
الإسلام والمسلمين، ناشر بساط العدل في العالمين، المقتدى بآثار آبائه الكرام،
المقتفى سنتهم الحميدة في نصرة الإسلام، المعجل نفسه العزيزة في التهم بما قلده
الله من أمور عباده، وحياطة ثوره وبلاده، سيف الله المسلول على أعدائه، المنتشر
عدله على أقطار المعمور وأنجائه، ظلّ الله تعالى في أرضه، القائم بسنته وقرضه،
عماد الدنيا والدّين، علم الأئمة المهتدين، ابن مولانا السلطان المظفر القان الخليفة
الإمام، ملك الملوك الأعلام؛ فاتح البلدان والأقطار، ممدّد الأقاليم والأمصار؛ جامع
أشتات المحامد، ملجأ الصادق والوارد؛ الملك الجواد، الذي حلّت محبته في الصدور
محلّ الأرواح في الأجساد؛ أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين؛ أبي العباس
ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سالم، ابن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النسخة وإن كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط .

أمير المسلمين، المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين،
 المجاهد في سبيل رب العالمين، أبي سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل
 رب العالمين، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ وصل الله تعالى أسباب تأييده
 وعَضِدِهِ، وقضى باتصال عُرف تجديد سَعْدِهِ، وأناله من جميل صنعه ما يتكفّل
 بتيسير أمره وبلوغ قصده .

إلى محلّ أحيانا الذي نُؤثِرُ حَقَّ إخوانه الكريم، ونُثْنِي على سلطانهِ السعيد ثناء الوليّ
 الحميم، ونشكر ماله فينا من الحُبِّ السليم، والوَدِّ الثابت المُقيم، السلطانِ الجليل،
 الماجدِ الأصيل، الأعزَّ الخطيرِ المَثِيل، الشهيرِ الأُمجدِ الأرفع، الهامِ الأَمعّ؛
 السَّرى الأَرْضِي؛ المجاهدِ الأَمْضِي؛ الأُوحدِ الأَسْنِي، المَكِينِ الأَحْمِي؛ خَدِيمِ
 الحرمين الشَّرِيفِينَ، حائِزِ الفَخْرَيْنِ المُنِيفِينَ؛ ناصرِ الدُّنْيَا والدِّينِ، مُجِي العَدْلِ
 في العالمين؛ الأَجَدِّ، الأَوَدِّ، المَكِينِ، الأَخْلَصِ، الأَفْضَلِ، الأَكْمَلِ، أبي السَّعَادَاتِ
 فَرَجِ، ابنِ السلطانِ الجليل، الأعزَّ المَثِيل، الخطيرِ الأَصِيل، الأَرَفِّ، الأُمجدِ،
 الشهيرِ، الهَامِ، الأُوحدِ، الأَسْمِي، الأَسْرِي، الأَرْضِي، المجاهدِ، الأَمْضِي، خَدِيمِ
 الحرمين الشَّرِيفِينَ، حائِزِ الفَخْرَيْنِ المُنِيفِينَ، الأَفْضَلِ، الأَكْمَلِ، المَبْرُورِ، المَقْدَمِ،
 المَرْحُومِ، أبي سعيد (برقوق) بن أنص؛ وصل الله تعالى لسلطانهِ المؤيِّدِ جَدًّا
 لا يُعْجَمُ عُوْدُهُ، وَعِزًّا لا يَمِيلُ عَمُودُهُ، ونصرا يملأ قُطْرَهُ بما يَغْصُ به حَسُودُهُ،
 وَعَضُدًا يأخُذُ بِرِمَامِ أَمَلِهِ السَّنِي فَيُسَوِّقُهُ وَيُقَوِّدُهُ .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

أما بعد حمد الله على سُبُوغِ نعمائه، وترادفِ لُطْفِهِ وآلائِهِ؛ الذي عَرَّفَنَا من وِلائِكُمْ
 الكريمِ ما سَرَّنا من أَطْرَادِ أَعْتِنائِهِ، وأبْهَجِ النُّفُوسِ والأَسْمَاعِ من صَفَاءِ وِلائِهِ،

ومواصلته صَفَائِهِ ، والصلاة والسلام الأَكْبَرِ عَلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ رُسُلِهِ وَأَنْبِيَائِهِ ، وَمَبْلَغِ رِسَالَتِهِ وَأَنْبَاءِهِ ، صَاحِبِ الْمَقَامِ الْمُحْمُودِ ، وَالْحَوْضِ الْمُرْوُودِ ، وَاللَّوَاءِ الْمُعْقُودِ ، فَأَكْرَمَ بِمَقَامِهِ وَحَوْضِهِ وَلِوَانِهِ ؛ وَالرِّضَا عَنْ آلِهِ وَصَحْبِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ، الَّذِينَ هُمْ لِلدِّينِ بِدَوْرٍ أَهْتَدَائِهِ وَنُجُومِ آفْتَدَائِهِ ؛ وَصَلَةَ الدُّعَاءِ لِمَقَامِكُمُ الْكَرِيمِ بِدَوَامِ عِزِّهِ وَأَعْتِلَانِهِ ، وَأَقْبِيَالِ النَّصْرِ الْمُبَالِغِ فِي أَحْتِفَالِهِ وَأَحْتِفَائِهِ ، وَحَيَاطَةِ أَنْحَائِهِ وَأَرْجَائِهِ ، وَتَأْيِيدِ عِزِّ مَاتِهِ وَأَرَائِهِ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ سَعْدًا سَافِرًا ، وَعِزًّا مَا ظَافِرًا ، مِنْ حَضْرَتِنَا الْعَالِيَةِ بِالْمَدِينَةِ الْبَيْضَاءِ كَلَّأَهَا اللَّهُ تَعَالَى وَحَرَسَهَا ، وَنِعْمَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ لَدِينَا وَكَفَّةِ السَّجَالِ ، وَوَلَاؤُهُ جَلٌّ جَلَّالُهُ سَابِغُ الْأَذْيَالِ ، وَخِلَافَتِكُمْ الَّتِي نَزَعْنَا بِعَيْنِ الرَّجْوَانِيهَا ، وَنَقْتَنِي فِي كُلِّ مَنْقَبَةٍ كَرِيمَةٍ سَيَّرَهَا الْحَمِيدَةَ وَمَدَاهِبَهَا - وَإِلَى هَذَا وَصَلَّ اللَّهُ سَعْدَكُمْ وَوَالِي عِزِّدِكُمْ ، وَكَتَبْنَا هَذَا يُقَرِّرُ لَكُمْ مِنْ وِدَادِنَا مَا شَاعَ وَذَاعَ ، وَيُؤَكِّدُ مِنْ إِخْلَاصِنَا إِلَيْكُمْ مَا نَتَحَدَّثُ بِهِ الشُّرَّارَ فُتُوْعِيهِ جَمِيعَ الْأَسْمَاعِ ؛ وَقَدْ كَانَ أَتَيْتُمُ الْإِنْسَانَ حَرَكَةً عَدُوًّا لِلَّهِ وَعَدُوًّا لِلْإِسْلَامِ ، الْبَاغِي بِالْأَجْتِرَاءِ عَلَى عِبَادِهِ سَبْحَانَهُ بِالْبُؤْسِ وَالْإِتِّقَامِ ، الْآخِذِ فِيهِمْ بِالْعَيْثِ وَالْفَسَادِ ، السَّاعِي بِجَهْدِهِ فِي تَهْدِيمِ الْحُصُونِ وَتَخْرِيبِ الْبِلَادِ ، وَتَعَرَّفْنَا أَنَّهُ كَانَ يَعْتَاقُ أَمَلَهُ الْخَائِبَ بِالْوُصُولِ إِلَى أَطْرَافِ بِلَادِكُمُ الْمِصْرِيَّةِ ، وَأَتَهَازَ الْفُرْصَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ خِلَافَتِكُمُ الْعَالِيَةِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَفَى بِفَضْلِهِ شَرَّهُ ، وَدَفَعَ نِقْمَتَهُ وَضَرَّهُ ، وَأَنْصَرَفَ نَاكِصًا عَلَى عَقْبِهِ ، خَائِبًا مِنْ نَيْلِ أَرِيهِ . وَلَقَدْ كُنَّا حِينَ سَمِعْنَا بِسُوءِ رَأْيِهِ الَّذِي غَلَبَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ؛ وَمَا أَضْمَرَ خَلْقُ اللَّهِ مِنَ الشَّرِّ الَّذِي يَجِدُهُ فِي أَجْرَاهِ ظَلَمٌ يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ [عِزُّنَا عَلَى] أَنْ تُمَدِّدَ مِنْ عَسَاكِرِنَا الْمَظْفُورَةِ بِمَا يَضِيقُ عَنْهُ الْفَضَا ، وَنَجْهَزَ لِحَيْتِكُمْ مِنْ أَسَاطِينِنَا الْمَنْصُورَةِ مَا يُجْمَعُ فِي إِمْدَادِ الْمُنَاصِرَةِ وَيُرْتَضَى ؛

فالحمد لله على أن كفى المؤمنين القتال ، وأذهب عنهم الأوجال ، ويسر لهم الأعمال ،
وهياً لخلافكم السنة وللسلمين ، هناءً يتضمن السلامة لكم ولهم على تعاقب الأعوام
والسنين .

وبحسب ما لنا فيكم من الود الذي أسست المصافاة بُنيانه ، والحب الذي أوضح
الإخلاص بُرهانه ، وقع تحيُّرنا فيمن يتوجه من بابنا الكريم لتفصيل مجمله ، وتقدير
مالدينا فيه على أتم وجه الاعتقاد وأكمله ؛ على الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارك ،
الأصيل ، الأسنى ، الحظي ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأجل ، الأوجه ، الأئوه ،
الأرفع ، الأجد ، الآثر ، الأزهي ، الشريف ، الأصيل ، المعظم المثل ، الأشهر ،
الأخطر ، الأمثل ، الأجل ، الأفضل ، الأكل ، المرضي ، المقدس ، المرحوم
أبي عبد الله محمد ، بن أبي القاسم ، ابن نفيس الحسني العراقي ؛ وصل الله تعالى
سعادته ، وأحمد على حضرتكم السنة وفادته ، حسب ما يفي بشرح ما حملناه نقله ،
ويكل بايضاحه لديكم يقظته ونبله ، إن شاء الله تعالى ، وهو سبحانه وتعالى يُديم
سعادتكم ، ويحفظ مجادتكم ، ويسني من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته .

الجملة الرابعة

(في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس)

والرسم في ذلك أن يكتب «الأبواب الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب
السلطان الدلاني» ويصفه ، ويذكر ألقابه ، ثم يدعوله ، ثم يقول : «سلام كريم»
ويصفه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعد حمد الله ،

ويأتى بـمُحطبة في المعنى تشتمل على التحميد، والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم،
والرضا عن الصحابة رضى الله عنهم، ثم يقول: فإننا كتبنا اليكم، ويأتى على مايناسب
المقام، ثم يخرط في سلك المقصود إلى آخره ويختم بالدعاء.

وهذه نسخة كتاب كتب به عن أمير المسلمين السلطان أبى عبد الله محمد بن
أبى الحجاج يوسف بن نصر بن الأحمر، صاحب غرناطة - من الأندلس،
إلى السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون،
إنشاء الوزير أبى عبد الله بن الخطيب، صاحب ديوان إنشائه، يشير فيه إلى حادثة
الفرنج بالإسكندرية، الواقعة في سنة سبع وستين وسبعمائة، إلا أنه وهم في لقبه
الملوكي فلقبه المنصور. وهى:

الأبواب الشريفة^(١) التى تعنو لعزة قدرها الأبواب، وتعتري إلى نسب عدلها
الحكمة والصواب، وتناديها الأقطار البعيدة مفتخرة بولائها، واصلة السبب بعلائها،
فيصدُر بما يشفي الجوى منها الجواب، فإذا حسن مناب عن أمة الهدى، وسبق
المدى، كان منها عن عمومة النبوة النواب، وإذا ضفت على العفاة بغيرها أثواب
الصلوات، ضفت منها على الكعبة المقدسة الأثواب - أبواب السلطان الكبير،
الجليل الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحى، الأسعد، الأصعد، الأجد، الأعلى،
العادل، العالم العايل، الكامل، الفاضل، الكافل، سلطان الإسلام والمسلمين،
رافع ظلال العدل على العالمين، جمال الإسلام، علم الأعلام، نجر الليالي والأيام،
ملك البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمل الأمصار والأقطار، وعاصب تاج
الفتح، هزيم الفرنج والترك والتار، الملك المنصور أبى الفتوح شعبان، ابن الأمير،

(١) فى الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "تفتح".

الرفيع المجآده ، الكريم البنوة والولآده ، الطاهر الظاهر ، الكبير ، الشهير ، المعظم ،
 المجدد ، الأسمى ، الموقر ، الأعلى ، نخر الملة ، سيف الأمة ، تاج الإمارة ، عز
 الإسلام ، جمال الأيام ، قمر الميادين ، أسد أجمة الدين ، سمام الطفاة والمعتدين ،
 المقدس ، المظفر ، الأمير أبي عليّ حسين ، ابن السلطان الكبير ، الشهير ،
 ملك الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سيف خلافة الله في العالمين ، وليّ
 أمير المؤمنين ، وظهير الدين] سلطان الحجّ والجهاد ، وكاسي الحرم الأمين ،
 قامع المعتدين ، قاهر الخوارج والمتمردين ، ناصر السنّة ، محيي الملة ، ملك البرين
 والبحرين ، مقيم رسوم الحرمين الشريفين ، العادل ، العالم ، العامل ، الطاهر ،
 الظاهر ، الأبعد ، الأصعد ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيد المعان ، المرفع ،
 المعظم ، المبجل ، المؤمل ، المجاهد ، المرابط ، الغازي ، أبي عبد الله محمد بن قلاوون ،
 الصالحى أبقاه الله ، وفقّ الصباح يشهد بكاله ، وخدمة الحرمين الشريفين طراز
 مذهب على حلة أعماله ، ومسورات الإسلام ، أمنة على طول الأيام ، من إهماله ،
 ولا زال ركنًا للدين الحنيف ، تترأحم على مستلمه الشريف ، شفاه أماله .

سلام كريم ، برعميم ، كما استودعت الرياض أسرارها ، صدر النسيم ، وأرسلت
 مطالع الفجر أنهارها ، من بحر الصباح الوسيم ، يسرى من الطيب ، والحمد المظيل
 المظيب ، فى الصّوان الكريم ، ويقف موقف الأدب والفهامه • بما استحفظ
 من الأمانة إلى محل الإمامه ، وقوف الحفيظ العليم ، يعمد مشاريع تلك الأبواب
 الشارعة إلى الفضل العميم ، المقابلة لذمام وسائل الإسلام بالصّدر المشروح ، والبر
 المنوح ، والقلب السليم - من معظ سلطاناه ، ومجلّ شاناه ، المفتخر بالانتظام فى سلّك

خُصَّانَه ، أمير المسلمين بالأندلس ، عبد الله الغالب بالله ، محمد بن يوسف بن إسماعيل
 ابن فرج بن نصر ، بلغه الله من رضاه أفضى سوله ، وأعانه على جهاد عدو الله
 وعدو رسوله .

أما بعد حمد الله جاعل قِلادة الإسلام ، على الدوام ، آمنة من الإنحرام ، والإنتثار ،
 مفصلة النظام ، بحرز المآثر العظام ، والآثار . معترف أهلها ، في حزن البسيطة وسهولها
 عوارف الصنع المثار ، وإقالة العثار . القوى العزيز الذي لا يغالب قدره بالإحتشاد
 والأستكثار ، ولا يبدل غيبه المحجوب ، بعد ما عين حكمة الوجوب ، في خزائن
 الأستثثار ، حتى تظهر خبيثة عنيته بأوليائه ، المعترفين بآلائه ، بادية للأبصار ، فيما
 قرب وبعد من الأعصار ، ورحمته عند الأستغاثة به والأنتصار ، في مختلف الأقطار
 والأمصار . الولي الذي لا تمكدر هبات فضله شروط الأعتصار ، ولاتسبين حُطَب
 حمده ضرائر الأقتصار والأختصار .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسوله نُحبة الاكوان ، وسرَّ الدهور والأزمان ؛
 وفائدة الأدوار . نور الله المتميز باختصاصه ، وأستصفائه واستخلاصه ، قبل خلق
 الظلمات والأنوار . ورحمته الوارفة الشاملة ، الهامية الهاملة ، على الهضاب والوهاد
 والتجاد والأغوار . أقرب عوالم الشهادة والخلق ، إلى حضرة الحق ، على تعدد الرتب
 وتفاضل الأطوار . منقذ الناس من البوار ، ومبويههم من جور الله خير الجوار .
 نبي الرحمة والجهم والغوار . المنصور على الأحزاب عند ما استداروا بمثوى نبوته على
 الأطم والأسوار دور السوار . الواعد عن ربه بظهور دينه الحق على الأديان فمهما
 أوقدوا نار الحرب تكفل الله لهم بإطفاء النار وإخماد الأوار .

والرضا عن آله وأصحابه حمة الدمار ، ومقتحبي الغمار ، وباذل كرائم الأموال من
 دونه وفائس الأعمار ، القاميين في سماء ملته للاهتداء بسنتهم ، والأقتداء بسنتهم ،

مَقَامَ النُّجُومِ الْهَادِيَةِ وَالْأَقْصَارِ؛ مَا صَقَلَتْ مَدَاوِسُ النَّسِيمِ سُيُوفَ الْأَنْهَارِ، وَتَجَلَّ
الْوَرْدُ مِنْ تَبَسُّمِ الْبَهَارِ، وَغَازَلَتْ عَيُونُ زَهْرِ الْحَبْرَةِ عُيُونَ الْأَزْهَارِ، وَطَرَدَ أَدْهَمُ اللَّيْلِ
أَشْهَبَ النَّهَارِ .

وَالدُّعَاءِ لَتِلْكَ الْأَبْوَابِ، الْمُتَعَدِّدَةِ الْمَجَابِ، الْمَعُودَةِ بِاجْتِلَاءِ غُرِّ الْفَتْوحِ، وَالْمَطَالَعِ
الْمَشِيدَةِ الْمَصْنَعِ عَلَى الْعَزِّ الْمُنُوحِ، وَالْأَوَاوِينَ، الْمُؤَيَّدَةِ الدَّوَاوِينَ، بِالْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ،
بِإِعْلَاءِ الْمَظَاهِرِ وَالشُّرُوحِ، وَإِنَارَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِأَهْلَةِ تِلْكَ الشُّرُوحِ سَاحَاتِ تِلْكَ
الشُّرُوحِ، وَلَا زَالَتْ أَقْلَامُ بَشَائِرِهَا تَأْتِي عَلَى سُورَةِ الْفَتْحِ بِأَكْلِ الشُّرُوحِ .

فَإِنَّا كَتَبْنَا لِمُنَابِتِكُمُ السَّلْطَانِيَّةَ دَارِ الْعِزِّ الْأَحْمِيِّ، وَالْمُلْكَ الْأَشْرَفِ الْأَسْمِيِّ،
وَالصِّبْتِ الْبَعِيدِ الْمَرْحَمِيِّ، كَتَبَ اللَّهُ لَهَا مِنْ عِنَايَتِهِ - وَقَدْ فَعَلَ - أَوْفَرَ مَقَاسِمِ النُّعْمِيِّ،
وَجَعَلَ غَيْثَ نَوَاهِهَا الْأَهْمِيِّ، وَحَفَّظَ جَلَالَهَا مِنْ اللَّهِ الْأَثْمِيِّ، وَدَامَتْ كَوَاكِبُ سُعُودِهَا
تَمُزَّقُ جَلَابِيبَ الظُّلْمَا، وَأَخْبَارَ بِأَسْهَائِهَا وَجُودِهَا، وَسَعَادَةَ وَجُودِهَا، تُهْدِيهَا عَلَى الْبُعْدِ
رَكَابُ الدَّأْمَا، وَتَرْفِرُ بِرِيَّاحِ آرْتِيَا حِجَاهَا أَجْنِحَةُ بَنَاتِ الْمَا، مِنْ مَنزِلِنَا الْمُحِبُّورِ،
بِسَعَادَةِ سُلْطَانِكُمُ الْمَنْصُورِ، وَخِزْيِ عَدُوِّهِ الْمُدْحُورِ، بِحِمَاةِ غَرْنَاطَةِ: دَارِ مَلِكِ الْجِهَادِ
بِحَزِيْرَةِ ثَغْرِ الْأَنْدَلُسِ، وَالِي اللَّهِ عَنْهَا الدَّفَاعِ، وَأَنَارَ بِمَشْكَاةِ نُورِهِ الَّذِي وَعَدَ بِإِتْمَامِهِ
الْأَعْلَامَ مِنْهَا وَالْإِيْفَاعِ، وَوَصَلَ لَهَا بِشَرَفِ مَخَاطِبَتِكُمُ الْإِرْتِفَاعِ وَالْإِنْتِفَاعِ، حَتَّى تَشْفَعَ
بِتَهَانِيكُمُ الْأَوْتَارَ وَتُوتِرَ الْأَشْفَاعِ، وَالْأَاءُ اللَّهُ لَدَيْنَا، بِنِعْمَةِ دِينِ الْإِسْلَامِ عَلَيْنَا،
قَدْ أَجْلَيْتِ اللِّسَانَ الشُّكُورِ، وَإِنْ أَسْتَنْفَدْتَ الرُّوْحَ وَالْبُكُورَ، وَالثَّقَّةُ بِاللَّهِ فِي هَذَا
الشُّعْرِ الْغَرِيبِ قَدْ كَثُرَتْ الْعَدَدُ الْمَنْزُورِ، وَالْحَقُّ الصَّرِيحُ قَدْ كَافَى الزُّورَ، وَالنُّوْطَيْنُ عَلَى
الشَّهَادَةِ قَدْ شَرَحَ الصُّدُورَ، وَأَقْطَعَتْ فِي الْجَنَّةِ الْمَنَازِلَ وَاللُّدُورَ، وَالْمَعْرِفَةُ بِمَقَامِ تِلْكَ
الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَقِيدَةٌ لِأَسْبَدَلِ، وَأَدْوَاخُ عَلَانِهَا حَائِمٌ الْجَمْدِ بِهَا تَهْدَلُ، وَمَحَافِلُ

شأنها تترآكم في سماءها الألوَّة والمندل؛ [والحال ما علمتم : بحر زاجر الأوج ، وعدو
 وأفر الأفواج] وحرم^(١) لولا آقاء الله مفتحم السسياج ؛ وحياد ضمرتها مصابرة الهياج ،
 وداء على الأيام متوقع الأهتياج ، وعدد إلى الإصراخ والإنجاد عظيم الأحتياج ؛
 فالنفوس إلى الله تُجهز وتُسَلَّم ، والصبيان في المكاتب تُدرَّب على مواقف الشهادة
 وتعلم ، والألسنة بغير شعاع الإسلام لا تنبس غالباً ولا تنكلم ، إلا أن عادة الخبير
 اللطيف ، تخفيف الدعر المطيف ، ونصر النزر الضعيف ، على عدد التضعيف ؛
 والحال تُرجح بين الحرب والسلم ، والمكاملة والكلم ، وتأميل الجبر ، وأرتقاب عاقبة
 الصبر ، على حمة الدبر .

وإلى هذا فإننا أتصل بنا مارامت الروم من المكيدة التي كان دفاع الله من دونها
 سداً ، والملائكة جنداً ، والعصمة سورا ، والروح الأمين مددا منصورا ، وأنها
 استنفدت الوسع في أحشادها ، حتى ضاقت البلج عن أعوادها ، وبلغت المحجود
 في أستفادها ، حتى غص كافر البحر بكفارها ، يصيح بهم التائب ، ويدمرهم
 الصليب ، وقد سول لهم الشيطان يكاد تغر الإسكندرية شجاً صدورهم ، ومرمى
 أمال غرورهم ، ومحوم قديمهم ، ومتعلل غريمهم ، ليتموا تغر الإسلام بصدمتها ،
 ويقودرا جنائب الساحل في رمتها ، ويرفعوا عن دينهم المعزة ، ويتلقفوا في القدس
 كرة الكزة ؛ ويقلصوا ما أمتد من ظلال الإسلام ؛ ويثيموا^(٢) سيوف التغلب على
 الشام ؛ ويحولوا بين المسلمين وبين محط أوزارهم ، وحجهم ومزارهم ، وبيت ربهم
 الذي يقصدونه من كل فج عميق ، ويركبون إليه نهج كل طريق ، وقبر نبيهم الذي
 يظفئون بزيارته من الشوق كل حريق ، ويكحلون الجفون بمشاهدة آثاره عن بكاء

(١) الزيادة من الربحانة وهي لازمة كما لا يخفى .

(٢) شام السيف غمده واستله ضد . والمراد هنا المعنى الثاني كما لا يخفى .

وشهيق ، وشوقٍ بذلك الحبيبِ خَلِيق . ويقطعوا حبلَ المسلمين حتى لايتأتى بلوغُ فريق ولا غرضٌ تشريق ، والله من ورائهم مُحِيط ، وبدمائهم مُشِيط ، وعباده بصير ، ولدينه الحقُّ وليٌّ ونصير ، ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ . فما هو إلا أن صمأ جرادهم ، وخلص إليها مرأدهم ، وفاض عليها بحرهم ، وعظم من المحاولة أمرهم ، حتى آسرتك الشرك بعض أسوارها ، ونال النهبُ مستطرف ديارها ، وظننت أنها الوهية التي لا تُرْفَع ، والمُصيبة التي غلظها لا تُنقَع ، واشتعل الباس ، ودُعمَ الناس ، وأرى الشدة من تدارك بالفرج ، وأعاد إلى السعة من الحرج ، وأنشأ ربح النصر عاطرة الأرج ، ونصر حزب الإسلام من لا غالب لمن ينصره ، وحصر العدو من كان العدو يحصره ، وظهر الحق على الباطل ، والحالي بزينة الله على العاطل ، فخرج العدو الخاسر عما حازه والسيوفُ تُرْفَعُ حيث تُفْلِيه ، والسهام تُثْبِتُه وتَفْلِيه ، وغرماً كره الإسلام تستقضي منه دينها وتستوفيهِ ، والخزى قد جَلَّ سبَّاله الصَّهْب ، وحناء الدماء قد خضبت مشيخته الشهب ، والغلب قد أخضع رقبته الغلب ؛ فكم من غريق أزدته دُرُوعه ، لمَّا حشى بالروع رُوعه ، وطعينٍ نُظِمَتْ بالسهمري ضلُوعه ، فغلبوا هنالك وأنقلبوا صاغرين ، وأحقَّ الله الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين ، و﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ . فأى رحمة منشورة صفت على الإسلام ظلالها ، وخطة نعمة أوسع نطاقها ورحب مجالها ، ومجلى صنيعه راق عيون المؤمنين جمالها ، فاهترت بها الأرض وربت ، وشكر الله جلَّ جلاله أعربت ، وأستبشرت النفوس ، وذهب البوس ، وضا بمنة الله اللبوس ، وظهرت عناية الله بمقامكم ، وإقالة عثرة الإسلام في أيامكم ؛ فما كان الله سبحانه ليضيع لكم خدمة

(١) صمأ عليهم كنع طلع أنظر القاموس في باب المهموز.

الحرمين ، وإنها للوسيلة الكبرى ، والدريعة إلى سعادة الدنيا والأخرى ؛ وهي
عهدة الله التي يَصُونُهَا من كل أهتِضام ، وقِلاَدَتُهُ التي ما كان يتركها بغير نظام .
وكان من لطائف هذا الفتح الذي أجزَلَ البشري ، وأوسع أعلام الإسلام نَشْرًا ،
ورُودَهُ بعد أن شُفِيَتِ العِلَّةُ ، ونُصِرَتِ المِلَّةُ ، وبعد أن جَفَا الدهرُ وتجاوَى ، وعادى
ثم صافى ، وهجرَ ووَافى ، وأمرَضَ ثم عافى ؛ فلو ورد مُقَدِّمُهُ قبل تَالِيهِ ، ونَقَدَهُ متأخرًا
عن كَالِيهِ ، أو كانت أوارِحُهُ بعيدًا ما بينها وبينَ أَوَالِيهِ ، لَأَوْحَشَتِ الظُّنُونُ وساءتْ ،
وبلغتِ الهمومُ من النفوسِ ماشاءتْ ؛ فإنَّ الإسلامَ كالجسدِ يتداعى كله لتألم بعضه ،
ويتسأهم إخوانه في بسطه وقبضه ، وسماؤه مرتبطة بأرضه ، ونقله متعلق بقرضه ،
فالحمد لله الذي خفف الأتقال ، وألمَّ حالَ الضَّرِّ الأتقال ، وسوَّغَ في الشُّكْرِ المَقَالَ ،
وزاروا قال ، وجمع بين إيقاظ القلوب ، وإزالة المطُوب ، وأنَّ وجد العدو طعم
الإسلام مرًا فما ذاقه ، وعوده ضلبيًا فما أطاقه ، يورِّعُ عن طريق بيتِ الله ماعاقه ،
وقاد إليكم في بيوتكم فضل الجهادِ وساقه [وردَّ المكرَ السيِّءَ على العدوِّ وأحاقه]^(١)
فما كانت هذه المكيِّدة إلا داهيةً للكفر طارقه ، ونكثةً لعصب التثليث عارقه ،
ومُعْجِزَةٌ من آثار النبيِّ الشريف لهذا الدين المنيفِ خارقه ، واستأصلتْ للعدوِّ المالَ ،
وقطعتْ الآمالَ ، وأوهنتِ اليمينَ والشَّمالَ . فبادرنا عند تعرُّفِ الخبرِ ، المختالِ من
أثوابِ المسرَّةِ في أبهى الخبرِ ، المَهْدِيِ أعظمِ العِبَرِ ، إلى تهنئتكُم تطيرُ بنا أجنحةُ
الإرتياحِ ، مُبارِيَةً للرياحِ ، وتستفِرُّنا دواعي الأفراحِ ، بحسبِ الوُدِّ الضُّراحِ ؛ وكيف
لا يُسْرُّ الأيسارَ يمينه [والوجهُ بيمينه ، والمسلمُ بدينه ، وخاطبنا كم مهتئين ولولا العوائق]^(١)
التي لا تبرحُ ، والموانعُ التي وصَّحتْ حتى لا تُسْرَحُ ، ومكايِدةُ هذا العدوِّ الذي يأسُوبه
الدهرُ ويَجْرَحُ ، لم نَجْتَرِ بإعلامِ القلمِ ، عن إعمالِ القَدَمِ ، حتى نتشرَفَ [بالورودِ على

(١) الزيادة من "الريحانة" .

(١) تلك المثابة الشريفة، وامتازَ بزيارة الأَبوابِ المنيفة، فنفضى [الفرض تحت رِعْمِها، وبركة سَعِيها، لكن المرءَ جَنِيبُ أَمَلِه، ونيةُ المؤمنِ أبلغُ من عملِه؛ فهينئناً بما حَوَّلَكم اللهُ من ظَفِيرِ شَهِدَتْ بِرِضَا اللهُ مِنْ أَسْمِهِ، وَأَقْتَرَتْ عَنْ تُغُورِ الْعِنَايَةِ الرَّبَّانِيَّةِ مَبَاسِمِهِ، وَتَوَقَّرَتْ لِدَيْكُمْ مَوَاهِبُهُ وَمَقَاسِمُهُ، وَيَهَيُّ الْبَيْتِ الْمُقَدَّسُ مَكَانُ فَضْلِ اللهِ وَمَنِّهِ، وَسَلَامَةِ مَجْنَه، وَيَهَيُّ الْإِسْلَامِ عِصْمَةَ تُغْرَهُ الْمُؤَثَّرِ، وَطَهَارَةَ كِتَابِهِ الْمُنَشَّرِ، وَجَمَالَ عُنْوَانِهِ، وَقُفْلِ صَوَانِهِ، وَبَابِ إِيوَانِهِ : مَرَفَا الْفُسْطَاطِ، وَمَرَكَزِ لَوَاءِ الرَّبَّاطِ، وَمَحَطِّ رِحَالِ الْإِغْتَابِ، وَمَتَخِيرِ الْإِسْكَندَرِ عِنْدَ الْبِنَاءِ وَالْإِخْتِطَاطِ . وَمَا زَادَنَا بِجَحَا بِهَذَا الْفَتْحِ، وَسُرُورًا زَائِدًا بِهَذَا الْمَنْحِ، مَا تَحَقَّقْنَا أَنَّهُ يَشِيرُ مِنْ شَفَقَةِ الْمَسْلَمِينَ لِهَذَا الْقَطْرِ الَّذِي لَا يَزَالُ يَطْرُقُهُ مَا طَرَقَ الْإِسْكَندَرِيَّةَ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ، وَتُجَلِّبُ عَلَيْهِ بَرًّا وَبِحِرًّا عَبْدَةَ الْأَصْنَامِ، بِحَيْثُ الْبَرُّ مُوَصُولٌ، وَالْكَفْرُ بِكَثْرَةِ الْعَدَدِ يَصُولُ، وَنِيرَانُ الْحِوَارِ [مُتْرَائِيَّةٌ لِلْعِيَانِ، وَالْفَرَاسِخُ الْقَلِيلَةُ] ^(١) مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ مُخْتَلِفِ النَّحْلِ وَالْأَدْيَانِ، وَالْعَدَدُ لَا يُنْسَبُ، وَالصَّرِيحُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا يُحْسَبُ، فَتَنْجِدُنَا بِالْإِسْنَةِ فَضْلَانَهُ، وَتُسَهِّمُنَا خَوَاطِرُ صَالِحِيهِ وَأَوْلِيَانِهِ، وَاللهُ لَا يَقْطَعُ عَنِ الْجَمِيعِ عَوَائِدَ آلَانِهِ، وَيَعْرِفُنَا بِرَكَّةِ أَنْبِيَانِهِ، وَيَنْصُرُنَا فِي أَرْضِهِ بِمَلَائِكَةِ سَمَائِهِ .

وقد كان اتصل بنا في هذه الأيام الفارطة الذُّخْرُ الَّذِي مَلَأَ الْيَدَ اسْتِكْثَارًا، وَالْحَلْدَ اعْتِدَادًا وَاسْتِظْهَارًا، وَالهِمَمَ تَفَارًا، وَأَضَاءَ الْقَطْرِ أَنْوَارًا: جَوَابِكُمْ الْكَرِيمُ يُنْمُ مِنْ نَفْحَاتِهِ شَدَا الْإِذْحَرِ وَالْجَلِيلِ، وَتُلْتَمَسُ مِنْ خِلَالِ حَاقَاتِهِ بَرَكَاتُ الْخَلِيلِ، وَتَقْرَى الْوُجُوهَ بِهِ آثَارَ الْمَعَاهِدِ، وَتُلْتَمَحُ مِنْ ثَنَائِهِ وَقَادَتِهِ بَوَارِقُ الْفَوَائِدِ، فَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ وَافِدِ مَخْطُوبِ، وَزَائِرِ مَرْقُوبِ، صَدَعْنَا بِهِ فِي حَفْلِ الْجِهَادِ اتِّجَاعًا وَأَفْتِخَارًا، ثُمَّ صُنَّاهُ

في كرائم الخزائن آفتاءً للخلف وأدخارا ، وجعلنا قرآه سُكْرًا مِعْطَارًا ، وثناءً يبقِي
 في الخاقين مَطَارًا ، ودعاءً يُعَلِي اللهُ به لمقامكم السني في أولياته مَتَدَارًا ، ويجهزُ به
 لِمُدِّكُمْ كما فعل أنصارا ، ويشيئكم الجنة التي لا يرضى السعداءُ بغيرها قرَارًا ،
 والله تعالى يجعل لأفلاك الهناء على مخاطبة مقامكم الرفيع العلاء مدارا ، ويُقيمُ الشكرَ
 ألزم الوظائف لحقكم آتيدارا ، والثناء أولى ماتحلى به مجدم شعارا ، ويقيمكم للإسلام
 رُحْمًا شديدًا ، وظلًّا مديدًا ، وسماءً مدرارا ، ما استأنفتِ البدورُ إبدارا ، وعاقب الليلُ
 نهارا ، والسلام .

المقصد الثالث

(في رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأول

(في المكاتبات ^(١) إلى صاحب مالي)

وهو المستولى على التكرور وغانة وغيرهما ، وهي أعظم ممالك السودان المسلمين
 مملكةً ، ولم أقف لأحدٍ منهم على صورة مكتبة إلى الأبواب السلطانية ، إلا أن المقر
 الشهابي بن فضل الله في كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام على هذه المملكة
 تعرض لذكر سلطانها في زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو منسى موسى ؛
 وذكر أنه ورد منه كتاب يُمسك لنفسه فيه ناموساً ولم يورد نسخته .

(١) كذا في الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالي » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطرف الثاني

(في المكاتبات الصادرة عن صاحب البرنو)

ورسم مكاتبه أن تُكْتَبَ في ورق مربعٍ يُحَطُّ نَحَطَ الماغاربة: فإن فضل من المكاتبه شيءٌ كُتِبَ بظاهاها، وتُفْتَحَ المكاتبه بِحُطْبَةِ مَفْتَحَةٍ بالحمد، ثم يَخْلَصُ إلى المقصدِ ببعديه، ويأتي على المقصدِ إلى آخره، ورأيتُه قد ختمَ مكاتبته إلى الأبواب السلطانية بقوله: والسلامُ على من اتبع الهدى. وكان ذلك جهلاً من الكاتب بمقاصد صناعة الإنشاء، إذ لا يبتدون إلى حقائقها.

وهذه نسخة كتابٍ ورد على الملك الظاهر «أبي سعيد برقوق» ووصل في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة، صحبة ابن عمه، مع هديةٍ بعث بها إلى السلطان بسبب ما يذكر فيه من أمر عرب جُدَامِ المجاورة لهم، وهي في ورق مربع، السطرُ إلى جانب السطر، بِحُطِّ مغربيّ، وليس له هامشٌ في أعلاه ولا جانبيه، ونِمةُ الكتاب في ظهره من ذيل الكتاب وهو:

بسم الله الرحمن الرحيم، صلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً.

الحمد لله الذي جعل الخطَّ ترأسلاً بين الأبعد، وترجماناً بين الأقارب، ومُصاحفةً بين الأحباب، ومؤنساً بين العلماء، وموحشاً بين الجهال، ولولا ذلك لبطلت الكلمات، وفسدت الحاجات. وصلواتُ الله على نبينا المصطفى، ورسولنا المرتضى، الذي أَعْلَقَ الله به بابَ النبوة وختم، وجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، ماناحِ الورق، وما عاقب الشروق الأصيل. ثم بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ، رضى الله عنهم أجمعين.

من المتوكل على الله تعالى ، الملك ، الأجل ، سيف الإسلام ، وربيع الأيتام ،
 الملك المقدم ، القائم بأمر الرحمن ، المستنصر بالله المنصور في كل حين وأوان ،
 ودهر وزمان : الملك ، العادل ، الزاهد ، التقى ، النقي ، الأتجد ، الأجمد ، الغشمشم ،
 نحر الدين ، زين الإسلام ، قطب الجلالة ، سلاله الكرماء ، كهف الصدور ، مصباح
 الظلام ، أبو عمرو عثمان الملك ، ابن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم ، كرم الله
 ضريحه ، وأدام ذرية هذا بملكه - هذا اللفظ وارد على [لسان] كاتبنا لأننا ولا نخر -
 إلى ملك المصر الجليل ، أرض الله المباركة أم الدنيا .

سلام عليكم أعطر من المسك الأذفر ، وأعذب من ماء الغمام وأليم ، زاد الله ملككم
 وسلطانكم ؛ والسلام على جلسائكم وفقهائكم وعلمائكم ، الذين يدرسون القرآن والعلوم ،
 وجماعتكم ، وأهل طاعتكم ، أجمعين .

وبعد ذلك ، فإننا قد أرسلنا إليكم رسولنا ؛ وهو ابن عمي ، اسمه إدريس بن محمد
 من أجل الحاجة التي وجدناها ، وملوكتنا ، فإن الأعراب [الذين] يُسمون جدّاما
 وغيرهم قد سبوا أحرارنا : من النساء والصبيان ، وضعفاء الرجال ، وقرابتنا ، وغيرهم
 من المسلمين . ومنهم من يشركون بالله ، يُمارقون للدين ، فغاروا على المسلمين
 فقتلوهم قتلا شديدا ؛ لفتنة وقعت بيننا وبين أعدائنا ، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا
 ملكنا ، عمرو بن إدريس الشهيد ، وهو أخونا ابن أبنينا إدريس الحاج ، بن إبراهيم
 الحاج ؛ ونحن بنو سيف بن ذي يزن ، و [الذين] قبيلتنا ، العربي القرشي ، كذا
 ضبطناه عن شيوخنا ، وهؤلاء الأعراب قد أفسدوا أرضنا كلها ، في بلد بنوكافة
 حتى الآن ، وسبوا أحرارنا وقرابتنا من المسلمين ، ويبيعونهم لجلاب مصر والشام
 وغيرهم ، ويخندمون ببعضهم ؛ فإن حكم مصر قد جعله الله في أيديكم من البحر إلى
 أسوان ، فإنهم قد اتحدوا متجرا ؛ فتبعثوا الرسل إلى جميع أرضكم ، وأمرائكم ،

ووزرائكم، وقضائكم، وحكامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظرون ويحنون ويكشفون؛ فإذا وجدوهم فليترعوهم من أيديهم، وليتلوهم، فإن قالوا نحن أحرار ونحن مسامون فصدقوهم ولا تكذبوهم؛ فإذا تبين ذلك لكم فأطلقوهم وردوهم إلى حريتهم وإسلامهم، فإن بعض الأعراب يفسدون في أرضنا ولا يصالحون، فإنهم الجاهلون كتاب الله وسنة رسولنا، فإنهم يزيتون الباطل، فاتقوا الله واخشوه ولا تتخذوهم يسترقوا ويأعوا. قال الله تعالى ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾. وقال الله تعالى لنبيه عليه السلام ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾. وقال الله تعالى ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم». وقال: «المؤمنون كالبنيان يسد بعضهم بعضاً إلى يوم القيامة». وقال: «المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يسامه» إلى آخره. وفي الحكمة: ومن الفرائض الأمر بالمعروف على كل من بسطت يده في الأرض (أراد به السلاطين) وعلى من تصل يده إلى ذلك (أراد بذلك القضاة والحكام والأمراء) فإن لم يقدر فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاء والعلماء) وإن لم يقدر فبقلمه، (أراد بذلك عامة المسلمين) أطل الله بقاءكم في أرضكم. فازجروا الأعراب المفسدين عن دعرهم، قال الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وقال عليه السلام: «كلكم راجع وكلكم مسئول عن رعيته». وقال في الحكمة: لولا السلطان لأكل بعضهم بعضاً. وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ مِمَّا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ والسلام على من أتبع الهدى - ولم يورث.

الطرف الثالث

(في المكاتبات الصادرة عن ملك "الكانم" ولم أقف له على مكتبة إلا أنه يُسبِّه أن تكون المكتبة عنه نظير المكتبة عن صاحب "البرنو"
فإنه على قرب من مملكته والله أعلم

المقصود الرابع

(في الكتب الواردة من الجانب الشمالي، وهي بلاد الروم)
قد تقدم ذكر المكتبة إلى أمراءها، وأن كبيرهم الذي صار أمرهم إليه وأنقادوا
إلى طاعته الآن هو ابن عثمان صاحب برساً^(١).

القسم الثالث

(من المكاتبات الواردة إلى هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار،
وهي على أربعة أضرب)

الضرب الأول

(الكتب الواردة عن ملوك الكرج)^(٢)

الضرب الثاني

(الكتب الواردة عن ملوك الحبشة)^(٣)

والعادة فيها أن ترد في قطع^(٣) باللسان^(٣) ولم أظفر بصورة مكتبة في هذا
المعنى إلا مكتبة واحدة وردت على الملك الظاهر بيبرس، ضمن كتاب إلى صاحب
اليمين، وصاحب اليمن أرسله إلى هنا فيما وقفت عليه في بعض المصنفات، وهو:

(١) لم يذكر في الأصل نموذجاً من المكتبة ولا ترك لها بياضاً كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجاً ولم يتكلم على رسمها كغيرها . (٣) بياض في الأصل .

أقل الممالك يقبل الأرض، وينهى بين يدي السلطان الملك الظاهر، خلد الله ملكه، أن رسولاً وصل إلى من وإلى قوص، بسبب الراهب الذي جاءنا، فنحن ما جاءنا مطران مولانا السلطان ونحن عبيده، فيرسم مولانا السلطان للبطريرك [أن] يجهز لنا مطراناً يكون رجلاً جيداً عالماً، لا ينجي ذهباً ولا فضة، ويرسله إلى مدينة "عوان". وأقل الممالك يسير إلى نواب مولانا الملك المظفر: صاحب اليمن ما يلزمه، وهو يسيره إلى نواب مولانا السلطان، وما كان سبب تأخير الرسل عن الحضور إلى [ما] بين يدي مولانا السلطان إلا أنني كنت في سكار (؟) والملك داود قد توفى، وقد ملك موضعه ولده، وعندي في عسكري مائة ألف فارس مسلمين؛ وأما النصارى فكثير لا يحصون، والكل غلمانك وتحت أمرك، والمطران الكبير يدعو لك والخلق كلهم يقولون آمين؛ وكل من يصل من المسلمين إلى بلادنا نكون له أقل الممالك، ونحفظهم ونسفرهم كما يحبون ويختارون؛ وأما الرسول الذي سفروه فهو مريض، وبلادنا ونحمة. أي من مريض لا يقدر أحد يدخل إليه، وأي من شم رائحته فيمرض فيموت. ونحن نحفظ كل من يأتي من بلاد المسلمين، فسيروا مطراناً يحفظهم.

قلت: وقد تقدم الجواب عن هذا الكتاب من كلام القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، في الكلام على الكتب الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الجانب الجنوبي من أهل الكفر، ولكن الكتاب المذكور يخالف ما تقدم هناك من ادعائه العظمة، وأنه لولا اضطرابه إلى أخذ المطران من بطريرك الديار المصرية لكان يسمع بنفسه عن المكاتب، ولعل ذلك كان في الزمن المتقدم.

الضرب الثالث

(الكتُّبُ الواردةُ عن ملوك الروم، ورأس الكَلِّ صاحبِ القُسطنطينية)

وقد وقفتُ على كتابٍ ورد منه في السابع والعشرين من صفر سنة أربع عشرة وثمانمائة في درج ورق فرنجيٍّ في نحو عشرين وصلاً قطع النصف، والبياض في أعلاه وصل واحد، وفي أسفله وصلان، وله هامش عن يمينه وهامش عن يساره، كلُّ منهما تقديرُ إصبعين، ومقدارُ ما بين السطور متفاوتٌ: فأعلاه بين كلِّ سطرين أربعة أصابع مطبوقة؛ ثم بعد تقدير ثلث الكتاب بين كلِّ سطرين قدر ثلاثة أصابع؛ ثم بعد ذلك بين كلِّ سطرين قدر إصبعين؛ ثم بعد ذلك بين كلِّ سطرين قدر ثلاثة أصابع إلى آخر الكتاب، والقلم في غاية [الدقة ب] قلم الرِّفَاعِ الدقيق، وفي آخره ثلاثة أسطر وقطعة بالحمرة بقلم أجل من الأول قليلاً.

وهذه نسخة كتابٍ معرَّبةٌ بترجمة بطرك المِلِكانيَّة، بحضور سيف الدين سيف^(١) التُّرْجَمَان، وهي:

المعظم، المجدد، المبجل، الضابط، السلطان، الكبير، سلطان مصر ودمشق وحلب وغيرها، الملك الناصر (فرج) ابن السلطان الكبير المرحوم الظاهر (برقوق) المحبوب إلى العزيز أكثر من أولاد مملكتي.

يُحِيطُ علمه أني ومملكتي طيبون بنعمة الله تعالى، وكذلك تكون - أن شاء الله تعالى - سلطنتك المجددة طيبة في خير، وأنَّ المحبة والمودة لم تزل بين والدك المرحوم وبين والدي إلى آخر وقت. ونحن بحمد الله قد تزايدت محبتنا على ذلك وتكاثرت،

(١) لعله سودون الآتي بعد في الضرب الرابع.

وتؤكد أيضا المحبة بيننا وبين سلطنتك المعظمة إلى الأبد ، فإن ذلك واجب ،
وتتردد رسلكم بكتبكم إلينا ، وكذلك رسلنا بكتبنا إلى ملككم ؛ وكان قصدنا أن نجهز
إليكم رسولا لكن الفتن في بلادنا ، وما بلغنا من سفر مولانا السلطان من تحت
مملكته ، ولم نعرف إلى أي مكان توجه ، أوجب تأخير ذلك ؛ وأن حامل هذا الكتاب
المتوجه به إلى السلطان المعظم المسمى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جهتنا ،
وله عادة بالتردد إلى مملكتم المعظمة ، ونحن نعلم أن سلطنتك تحب الطيور الكواهي ؛
فجهزنا لكم صحبة المذكور نحس كواهي و بازدار ، ليكون نظركم الشريف عليهم ،
وكذلك على البطاركة والنصارى والكائنس على حكم معدلة السلطان ومحبه ، والوصية
بهم ، ومعاوتهم و رعايتهم وإجراؤهم على جاری عواندهم ، من غير تشويش على
مالفوه من إنصافكم أولا وآخرا لأجل محبتكم لنا ومحبتنا ، واستمرار العناية بهم ،
مع أن البطاركة عرفونا أن مولانا السلطان يبرز مرسومه بمراعاتهم ، والإحسان
إليهم ، ولم يزالوا داعين له شاكرين من معدلته ، ونضعف شكرنا من إحسانكم
على ذلك ، وتكونوا ان شاء الله تعالى طيبين ، والمحبة متزايدة في أيامكم وأيامنا ،
ومهما كان لمولانا السلطان بمملكنا من أطواع ، فيرسم^(١) يعرفنا بها وينادِر بذلك .

والذي بآخره بالجرة علامة الملك مضمونها (مانويك المسيحي بنعمة الله ،

ضابط مملكة الروم البلاوغس) .

(١) كذا في الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضرب الرابع

(الكتب الواردة من جهة ملوك الفرنج بالأندلس، والجهات الشمالية،

وما والى ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللسان الفرنجى، وعادة الكتب الواردة عنهم جملة أن تكتب فى فرخة ورق قرنجى مربعة على نحو مقدار الفرخة البلدى أو دونها، بأسطر متقاربة، باللسان الفرنجى وقلمه، ثم يطوى طياً مسطحا ويعنون فى وسطه، ويطوى من جهتي الأول والآخر حتى يصير العنوان ظاهرا من الطى، ثم يحرز ويختم بسعاة، ويختم عليه بطمغة فى شمع أحمر على نحو ما تقدم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب، فاذا ورد على الأبواب السلطانية فكختمه، وترجم بترجمة الترجمان بالأبواب السلطانية وكتب تعريبه فى ورقة مفردة وأصقت به بعد كتابة الجواب من التعريب على ما تقدم ذكره فى مقدمة الكتاب.

وهذه نسخة كتاب وارد من دوج البنادقة ميكائيل، على يد قاصده نقولا البندقى فى سادس عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر، وسيف الدين سودون، الترجمة بالأبواب الشريفة، فى فرخة ورق قرنجى مربعة متقاربة السطور، وهو:

السلطان المعظم، ملك الملوك «فرج الله» ناصر الملة الإسلامية، خلد الله سلطانه.

يقبل الأرض بين يديه نقولا دوج البنادقة^(١)، ويسأل الله أن يزيد عظمته: لأنه ناصر الحق ومؤيده، وموئل الممالك الإسلامية كلها. ويبنى ما عنده من الشوق

(١) تقدم قبل بأسطر أن اسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا . فتنبه

والحجة لمولانا السلطان، وأنه لم تزل أكابر التجار والمحتمشين والمتردددين من الفرنج إلى الممالك الإسلامية شاكرين من عدل مولانا السلطان وعلو مجده، وتزايد الدعاء ببقاء دولته، وقد رغب التجار بالتردد إلى مملكته الشريفة بواسطة ذلك، ولأجل الصلح المتصل الآن بيننا والمحبة .

وأما غير ذلك، فإنه بلغنا ما اتفق في العام الماضي من حسن العرفي تغردمياط المحروس، وأن مولانا السلطان مسك قنصل البنادقة والمحتمشين من التجار بغير الإسكندرية المحروس، وزجرهم بالحديد، وأحضرهم إلى القاهرة، وحصلت لهم البهدة بين جنوسهم والضرر والقهرة الزائد، وكسر حرمتنا بين أهل طائفتنا، فإن الذي فعل مع المذكورين إنما فعل معنا، وتعجبنا من ذلك: لأن طائفتنا لم يكن لهم ذنب، وهذا مع كثرة عدل مولانا السلطان في مملكته، ومحبتنا له، ومناداتنا في جميع مملكنا بكثرة عدله، وبجيبته لطائفتنا، وإقباله عليهم، وقولنا لجميع ثوابنا: إنهم يكرمون من يجذونه من مملكة مولانا السلطان ويراعونه ويحسنون إليه، والمسئول من إحسانه الوصية بالفضل والتجار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتهم وإكرامهم والإقبال عليهم، والنظر في أمورهم إذا حصل ما يشبه هذا الأمر، ومنع من يشاكلهم لتحصل بذلك الطمانينة للتجار، ويترددوا إلى مملكته .



وهذه نسخة كتاب ورد من كبطان الماغوصة والمستشارين بها، في ثامن عشر صفر المبارك سنة أربع عشرة وثمانمائة، ترجمة شمس الدين سنقر وسيف الدين سودون التبرجانيين بالأبواب الشريفة، وهو:

الملك المعظم، ملك الملوك، صاحب مصر المحروسة، الملك الناصر، عظم الله شأنه .

يَقْبَلُ الأَرْضَ بَيْنَ أَيَادِيهِ الْكِبْطَانُ وَالْمُسْتَشَارُونَ، وَيُنْهَوْنَ أَنَّهُمْ أَنَاءَ اللَّيْلِ دَاعُونَ بِطُولِ بَقَائِهِ، مَجْتَهِدُونَ فِي أَسْتِمْرَارِ الصُّلْحِ وَالْمَوَدَّةِ الَّتِي لَا يَشُوهُبُهَا كَدْرُ بَيْنِ الْقَوْمُونَ (؟) وَبَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَأَنَّ فِي هَذَا الْوَقْتِ تَمَّ حَرَامِيَّةُ غَرَابِ يَتَحَرَّمُونَ بِأَطْرَافِ هَذِهِ الْبِلَادِ، وَالْمِينَ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ وَنَحْنُ لَمْ نَزَلْ نُسْحِطْهُمْ بِالْمَرَكَبِ وَالْأَغْرَبَةِ، وَنَمْنَعُهُمْ مِنْ ذَلِكَ جُهْدَنَا وَقُدْرَتَنَا، حَتَّى إِنْ أَحَدًا صَارَ لَا يَجْسُرُ عَلَى الدَّخُولِ إِلَى مِينَا الْمَاعُوصَةِ جَمَلَةً كَافِيَةً، مَعَ أَنَّا كَمَا خَلَّصْنَا فِي الْمُدَّةِ الْمَاضِيَةِ مِنَ الْحَرَامِيَّةِ الْمَذْكُورِينَ خَمْسَةً وَعَشْرِينَ نَفَرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَكْرَمْنَا هُمْ وَأَطْلَقْنَا سَبِيلَهُمْ [وَعَزَمْنَا أَنْ] نَجْهَظَهُمْ إِلَى دِمِيَاطٍ أَوْ إِلَى نَعْرِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ .

وَأَمَّا غَيْرَ ذَلِكَ، فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنْ بَرَطْلَمَا أَوْسَقَ لِلوَاقِفِ الشَّرِيفَةِ صَابُونًا فِي مَرَاكِبِهِ، وَكَانَ قَصْدُهُ أَنْ يَهْرُبَ بِذَلِكَ، فَلِلْحَالِ عَمَّرْنَا مَرَكِبًا كَبِيرًا، وَأَخَذْنَا بَرَطْلَمَا الْمَذْكُورَ بِالْمَحَارَبَةِ، وَأَحْضَرْنَا إِلَى الْمَاعُوصَةِ، وَعَهَدْنَا بِطُرُوقِ الْمَرْكَبِ إِلَى شَخْصٍ يُسَمَّى (أُرْمَانِ سَلْيُورِيُونِ) وَهُوَ رَجُلٌ مُشْكُورُ السَّيْرَةِ، وَقَلْنَا لَهُ إِنَّهُ يَتَوَجَّهُ إِلَى خَازِنِ الصَّابُونِ الْمَذْكُورِ وَيَسْتَشِيرُهُ إِنْ كَانَ يُوسِقُ شَيْئًا مِنَ الْأَصْنَافِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ، وَيَجْهَظُهُ إِلَى أَىِّ مَكَانٍ اخْتَارَهُ لِيَسْلِمَهُ لِيَدَّ مِنْ تَبَرُّزِهِ الْمَرَّاسِيمُ الشَّرِيفَةَ بِتَسْلِيمِهِ، فَيَفْعَلُ، وَهَذَا الْقَوْلُ كُلُّهُ يَكُونُ دَلِيلًا عِنْدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ عَلَى صِدْقِ الْوَلَاءِ وَالتَّمَسُّكِ بِالصُّلْحِ، وَالْمُسْتُولِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ الْإِقْبَالِ عَلَى التُّجَّارِ الْجَنَوِيَّةِ الَّذِينَ عِنْدَ مَمْلَكَتِهِ، وَكَفَّ أَسْبَابَ الضَّرْرِ عَنْهُمْ، وَيُنْشَرُ مَعْدَلْتُهُ عَلَيْهِمْ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ بَقَاءَهُ بِنَمَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الفصل السادس

[من الباب الثاني] من المقالة الرابعة

(في رسوم المكاتبات الإخوانيات - وهي جمع إخوانية، نسبة إلى الإخوان، جمع أخ - والمراد المكاتبات الدائرة بين الأصدقاء . وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في رسوم إخوانيات السلف من الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ؛ وهي في الغالب لا تخرج عن ضربين)

الضرب الأول

(أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب عنه)

وكان رسمهم فيه أن تفتتح المكاتبة بلفظ « من فلان إلى فلان ، سلام عليك ، إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو » فلما كانت خلافة الرشيد وأمر أن يزداد هنا في السلطانيات « وأسأله أن يصلي على سيدنا محمد عبده ورسوله » كما تقدم في موضعه ، جرى الكتاب في الإخوانيات على ذلك أيضا ، وكان الخطاب يجري بينهم في ذلك بأنا ، وأنت ، ولي ، ولك ، وعندي ، وعندك ؛ وما أشبه ذلك من ألفاظ الخطاب ، وكانت خاتمة الكتب عندهم بالسلام .

الضرب الثاني

(أن تفتَح المكاتبةُ بِاسْمِ المكتوبِ إليه : تفخيمًا لأمره ، وتعظيمًا لشأنه)
 وكان رسمهم في ذلك أن يفتتحوا المكاتبةَ بلفظ « إلى فلانٍ من فلان ، سلامٌ
 عليك ، فإني أحمدُ اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو » وباقي الكتاب على ما تقدم في الضرب
 الأول في الخطاب والختام وغيرهما .

الطرف الثاني

(في رسوم الإخوانيات المحدثّة بعد السلف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصد الأول

(في رسوم إخوانيات أهل المشرق ، وفيه أربعة مہايح)

المهيح الأول

(^(١) في صدور الأبتدآت ، وهي على أساليب)

الأسلوب الأول - أن تفتتح المكاتبةُ بالدعاء ، وعليه أقصر أبو جعفر النحاس
 في كتابه "صناعة الكتاب" وكان على رأس الثلثائة في خلافة الراضي ؛ وقد تقدم
 في الكلام على مقدمات المكاتبات نقلًا عن "مواد البيان" أن الأديبة كانت
 في الزمن الأول تُستعمل فيما يتعلّق بأمر الدين : مثل قولك : أكرمك الله ، وحفظه الله
 ووفقه ، وحاطه ، وما أشبه ذلك ؛ فعدّل عنها قصدًا للإجلال والإعظام إلى الدعاء
 بإطالة البقاء ، وإدامة العزّ ، وإسباغ النعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافس فيه أبناء

(١) لم يذكر منها الا الأسلوب الاول ونبه على أن النحاس أقصر عليه فتنبه .

الدينيا، جرياً على عادة الفرس . ثم رتبوا الدعاء على مراتب : فجعلوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العمر ، ثم بالمد في العمر ، وكذلك سائر المكتوبات على ما تقدم بيانه هناك .

ثم هو على ستة أضرب :

الضرب الأول

(المكتابة من المرءوس إلى الرئيس ؛ وهو على صنفين)

الصنف الأول

(المكتابة إلى الأمراء)

قد ذكر النحاس أنه يقال في افتتاح مكاتبتهم : أطال الله بقاء الأمير، فإذا أردت أجل ذلك كله، كتبت : أطال الله بقاء الأمير في أعز العز وأدوم الكرامة والشور والغبطة، وأتم عليه نعمه في علو الدرجة، وشرف من الفضيلة، ونتابع من الفائدة، ووهب له السلامة والعافية في الدنيا والآخرة ؛ وبلغ بالأمير أفضل ما تجرى إليه همته ، وتسمو إليه أمنته ، أو بلغ بالأمير أفضل شرف العاجل والآجل ، وأجزل له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاء الأمير في عز قاهر ، وكرامة دائمة ، ونعمة سابقة ، وزاد في إحسانه إليه ، والفضيلة لديه ، ولا أخلى مكانه منه .
قال : ومنه أطال الله بقاء الأمير ، وأدام عزه وتأييده ، وعلوه وتمكينه ، وكتب عدوه .

ثم ذكر أدعية أخرى للأمراء عن الفضل بن سهل . منها - أطال الله بقاء الأمير، ومكن له في البسطة وتزايد النعمة ، وزاده من الكرامة والفضيلة ؛ والمواهب

الجليله ، في أعزَّ عِزٍّ وأدوم سلامة ، وأسبل عافية - ومنها - أطال الله بقاء الأمير ، وأدام له الكرامة مرغوباً إليه ، وزاد في إحسانه لدينه ، وأتمَّ نعمته عليه ، ووصل له خير العاجل بجزيل الآجل .

الصنف الثاني

(المكتبة إلى القضاة)

وقد قال النحاس : إنه يدعى للقاضي بمثل ما يدعى به للأمير غير أنه يجعل مكان الأمير القاضي ، إلا أن الفضل بن سهل قال : يدعى لقاضي القضاة : أطال الله بقاء القاضي ، وأدام عِزَّهُ وكرامته ، ونعمته وسلامته ، وأحسن من كلِّ جميل زيادته ، وألبسه عَفْوَهُ وعافيته . وإنه يدعى له أيضا : أطال الله بقاء القاضي في عزٍّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسن زيادته ، وأتمَّ نعمته عليه في أسبغ عافية ، وأشمَل سلامة . قال : وقال غير الفضل : إن الكُفء يكتب كُفأه ومن كان خارجاً من نعمته : أدام الله بقاءك أيها القاضي .

الضرب الثاني

(المكتبة من الرئيس إلى المرعوس : كالمكتبة عن الوزير وقاضي القضاة)

وغيرهما ، والخطاب في جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهي على مراتب ، أعلاها في حق المكتوب إليه أطال الله بقاءك وأدام عِزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وإحسانه إليك وعندك . ودونه « أطال الله بقاءك ، وأعزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمته عليك وعندك » . ودونه « أدام الله عِزَّك ، وأطال بقاءك ، وأدام كرامتك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وأدامها لك » .

ودونه « أعزك الله، ومد في عمرك، وأتم نعمته عليك، وما بعده على توالي الدعاء ^(١) الذي تقدم ». ودونه « أكرمك الله وأبقاك، وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « أبقاك الله وحفظك وأتم نعمته عليك، وأدامها لك ». ودونه « أن تسقط وأدامها لك ». ودونه « حفظك الله وأبقاك، وأمتع بك ». ودونه « عافانا الله وإياك من السوء » .

قال في "صناعة الكتاب": هذا إذا جرى الأمر على نسبته ولم تتغير الرسوم، وإلا فقد يعرض أن يكون في الدولة من هو مقدم على الوزير أو مساوي به فتتغير المكتبة، فقد كان عبد الله بن سليمان (يعني وزير المعتضد) يكتب أبا الجيش (يعني ثمارويه بن أحمد بن طولون): أطال الله يا أخي بقاءك إلى آخر الصدر، للصاهرة التي كانت بين أبي الجيش وبين المعتضد ولأن المعتضد كاه . ثم قال : فإن كان الرئيس غير الوزير، فرمى زاد في مكاتبته زيادة لمن له محل : فيزيده ويكتبه زيادة التأييد ودوام العز . قال : ويدعى للفقهاء : أدام الله بقاءك في طاعته وسلامته وكفايته، وأعلى جدك وصان قدرك، وكان لك ومعك حيث لا تكون لنفسك . أو : أدام الله بقاءك في أسر عيش وأنعم بال، وخصك بالتوفيق لما يحب ويرضى ، وحباك برشده، وقطع بينك وبين معاصيه . أو : أطال الله بقاءك بما أطال به بقاء المطيعين ، وأعطاك من العطاء ما أعطى الصالحين . أو : أكرمك الله بطاعته ، وتولأك بحفظه ، وأسعدك بعونه ، وأيدك بنصره ، وجمع لك خير الدنيا والآخرة برحمته، إنه سميع قريب . أو : تولأك من يمسيك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ، وكان لك من هو بالمؤمنين رؤوف رحيم . أو : أكرم الله عن النار وجهك، وزين بالتقوى تجلك . أو : أكرمك الله بكرامة تكون لك في الدنيا عزاً، وفي الآخرة من النار حرزاً .

الضرب الثالث

(المكاتبة إلى النظراء، والمخاطبة فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" وأعلى ما يكتب في ذلك (يعنى بالنسبة إلى المكتوب إليه) ياسيدى «أطال الله بقاءك وأدام عزك وتأييدك إلى آخر الصدر» . ودونه «أطال الله ياسيدى بقاءك» . ودونه «ياسيدى وأحى أطال الله بقاءك» . ودونه «أدام الله يا أحى بقاءك» .

الضرب الرابع

(المكاتبة إلى الأبناء، والمخاطب فيه بالكاف)

قال في "صناعة الكتاب" يكتب الرجل إلى ابنه : أبى أنت ، أو : فداك أبوك . أو : مات قبلك . أو : أسأل الله عز وجل حفظك وحياتك ورعايتك . أو : أرشدك الله أمرك . أو : أحسن البلاغ بك . أو : بلغ الله بك أفضل الأمل ، وأتم السرور بك ، وجعلك خلفا صالحا ، وبقية زاكية .

الضرب الخامس

(المكاتبة إلى الفتيان، والمخاطب فيه بالكاف)

قال النحاس : يدعى لهم : صرف الله سوء عنك ، وعن حظى منك . أو : أطال الله بقاء النعمة عليك وعلى فيك . أو : جعلت أنا وطاري وتالدى فداك . أو : ملانى الله إزاءك ، وأدام بقاءك . أو : أستودع الله عز وجل ما وهب لى من خلقتك ، ومنحني من أخوتك ، وأعزنى به من مودتك . أو : حاط الله حظى منك ،

وأحسن المدافعة عنك . أو : ببقائك مُنعت ، وفقدك مُنعت . أو : نفسى تفديك ،
والله يُقيك ، ويقينى الأسواء فيك . أو : ملأنى الله النعمة ببقائك ، وهنأنى مامنحى
من إخالِكَ . أو : أبقِ الله النعمة لى ببقائها لك ، وبلغتها بك . أو : وفر الله حظى
منك ، كما وفر من المكارم حظك . أو : ملأنى الله ببقاك ، كما منحنى إخالِكَ .
أو : دافع الله لى وللكارم عن حوبائك ، وأمتعنى ببقائك ، وجمع أملى فيك بجمعه
المكارم لك . أو : زادك الله من النعم حسب تزيدك فى البرِّ لإخوانك ، وبلغ بك
أملهم كما بلغ بهم آمالهم فيك .

الضرب السادس

(المكاتبة إلى النساء)

قد ذكر النحاس أنهن يُكاتبن على نظير ما تقدم من مكاتبة الرئيس والمرؤوس
والنظير ، غير أنه قد وقع فى الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال فى مكاتبتهم وكرامتك
ولا وأتم نعمته عليك ، ولكن وأتم نعمته لَدَيْكَ ، ولا فضله عندك ، ولا سعادتك ،
ولا فعلت ولا أن تفعلى ، ولكن يقال : إن رأيت أن تمنى بذلك مننت به ، وما
أشبه ذلك ، وقد تقدم فى الكلام على مقدمات المكاتبات بيان كراهتهم لذلك .

قلت : ثم راعى الكُتَّاب فى تعظيم المكتوب إليه أن عدلوا عن خطابه بالكاف
عن نظير خطاب الموجهة إلى معنى الغيبة ، فقالوا : له ، وإليه ، وعنده ، ونحو ذلك
وخصوا الخطاب بالكاف بأدنى المراتب فى حق المكتوب إليه . على أنه قد تقدم
من كلام النحاس إنكار ذلك على من أعتمده محتجاً عليه بأنه لا أعظم من الله تعالى
مع أنه يقال فى الدعاء يا الله ونحو ذلك .

(١) كذا فى الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب الموجهة إلى الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان في كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعيةً مرتبةً على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه»، وأدام تمكينه وأرتقاءه، ورفعته وسنائه، وكتب عدوه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيدَه، وكتب عداه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوباءه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده ونعماه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام نعماه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام عزه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام توفيقه وتسديده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام سداه وإرشاده». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام حراسته». ودونه «أدام الله تأييده». ودونه «أدام الله توفيقه». ودونه «أدام الله عزه وسنائه». ودونه «أدام الله عزه». ودونه «أدام الله حراسته». ودونه «أدام الله كرامته». ودونه «أدام الله سلامته». ودونه «أدام الله رعايته». ودونه «أدام الله كفايته». ودونه «أبقاه الله». ودونه «حفظه الله». ودونه «أعزه الله». ودونه «أيدّه الله». ودونه «حرسه الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وقفه الله». ودونه «سلمه الله». ودونه «رعاه الله». ودونه «عافاه الله». وعلى معنى الغيبة يقال في الدعاء أطال الله بقاء الأمير. أو بقاء القاضي. أو بقاء سيدي. أو بقاء مولاي، وما أشبه ذلك في كل رتبة بحسبها.

وأعلم أن الداهيين من الكُتّاب إلى إجراء المخاطبة في المكاتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضي، وما أشبه ذلك؛ وذكره بالسيادة وما في معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيّدنا ومولانا على لفظ الأفراد كسيدي ومولاي؛ وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل، ويجعلون الأفراد دون ذلك في الرتبة فيقولون: سيدي، أو مولاي الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

(١) لعله كالحاجب الجليل. ان لم يكن زائدا من قلم الناسخ.

ونحو ذلك . ثم توسّعوا في ذلك ففعلوا الدعاء متوسطاً كلام الصدر على القرب من
الابتداء ، مقدّمين بعض كلام الصدر عليه ، ومؤخّرين بعضه عنه . مثل أن يقال
في المكتوبة بشكر : إذا كان الشكر - أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان - ترجمان النبي ،
ولسان الطويي ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الإختصاص ، وسبباً إلى الزيادة ،
وطريقاً إلى السعادة ، وكانت معارفه قد أحاطت بمعادنه ، واستولت على محاسنه ،
فألسن آثارها مع الصمت أفصح من لسانه ، وبيّنها مع الجحود أبلغ من بيّانه ،
ونحو ذلك . ثم أحدثوا اصطلاحاً آخر أضافوه إلى الاصطلاح الأول ، فقدموا على
الدعاء لفظ «كاتبنا» أو لفظ «كاتبى» رتبة دون رتبة ، مثل أن كتبوا : كاتبنا - أطال
الله بقاء الأمير - ونحن على أفضل ما عودنا الله من انتظام الأمور وسدادها ، واستقامتها
بحضرتنا وأطرادها . أو كاتبى - أطال الله بقاء مولاي الحاجب - عن سلامة ينغصها
فقدك ، ويتقصها فراقك ، وما يجرى مجرى ذلك . وربما أبدلوا لفظ كاتبنا أو كاتبى
بلفظ كتبت بصيغة الفعل ، وربما أبدعوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاختيار
إلى مصطلحات اصطلاحوا عليها مع بقاء بعض المصطلح القديم : فخطبوا بالحضرة
تارة ، وبالخدمة تارة ، وبالمجلس أخرى ، فكتبوا : كاتبى - أطال الله بقاء حضرة سيدنا
الوزير ، أو سيدنا الأمير ، ونحو ذلك ، أو أسعد الله الحضرة ، أو أسعد الله الخدمة ،
أو ضاعف الله جلال الخدمة ، أو أعز الله أنصار الخدمة . وربما كتبوا : صدرت
هذه الخدمة إلى فلان . وقد يكتبون : صدرت هذه الجملة ، إلى غير ذلك من
تفنياتهم التي لا يسع استيعابها ، ولا يمكن اجتماع متفرقاتها .

قلت : وبالجملة فضبط صدور الإخوانيات وابتدائها على هذا المصطلح
غير ممكن لأختلاف مذاهبهم في ذلك ، والذي تحصل لي من كلام النحاس

وَأَبْنُ حَاجِبِ النِّعَانِ، وَتُرْسُلُ أَبِي إِسْحَاقَ الصَّابِي، وَالْعَلَاءُ بْنُ مُوَصَّلَايَا، وَأَبِي الْفَرَجِ
الْبَيْهَقِيِّ، وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْكُتَّابِ الْمُجِيدِينَ أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْمَكَاتِبِ الدَّائِرَةُ بَيْنَ أَعْيَانِ
الدُّوَلِ عَلَى سَبْعَةِ أَسَالِيْبٍ :

الأسلوب الأول

أَنْ تَفْتَحَ الْمَكَاتِبَ بِالْدَعَاءِ

كَمَا كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّابِي إِلَى الصَّاحِبِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبَّادٍ بِالشُّكْرِ وَالتَّشَوُّقِ .

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِنَا الصَّاحِبِ الْجَلِيلِ ، فِي سَلَامَةِ دُنْيَا وَدِينِ ، وَنَفَازِ أَمْرٍ وَتَمَكِينِ ،
وَتَمَامِ عِزٍّ وَتَأْيِيدِ ، وَثَبَاتِ وَطَاءِ وَتَمْهِيدِ ، وَعُلُوِّ قَدْرِ وَسُلْطَانِ ، وَتَعَاظِمِ خَطَرٍ وَشَانِ ،
وَتَوْلَاةِ فِي نَفْسِهِ وَأَوْلِيَاءِهِ بِأَحْسَنِ مَا عُرِفَ وَأُلْفِ ، مِنْ نَعَمِ دَارَةِ الْحَلَبِ ، مَتَفَرِّعَةَ
الشُّعْبِ ، مَحْمِيَّةِ الْجِهَاتِ وَالْجَوَابِ ، مَحْجُوبِيَّةِ عَنِ النَّوَابِ وَالشُّوَابِ ، وَأَرَاهُ فِي حُسَادِ
فَضَائِلِهِ ، وَكُفَّارِ فَوَاضِلِهِ ، مَا عَوَّدَهُ فِيهِمْ مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ ، وَفُلُوقِ حُدُودِهِمْ ، وَحُلُولِ
النِّكَالِ بِهِمْ ، وَإِثْبَاتِ الْعِصْمَةِ مِنْهُمْ . وَجَعَلَ حُكْمَهُ قُطْبًا لِمَدَارِ الْأَنْفَالِكِ ، وَنَهَجًا
لِجَارِي الْأَقْدَارِ ، فَلَا يَنْزِلُ مِنْهَا مَحْبُوبٌ مَطْلُوبٌ إِلَّا تَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَتَحَاوَى ، وَلَا مَحْذُورٌ إِلَّا
أَعْرَضَ عَنْهُ وَتَحَامَا ، ثُمَّ كَانَ بَرُّهُ وَسِ مَعَانِدِيهِ حُلُولُهُ ، وَبِرِّقَابِهِمْ إِحَاطَتُهُ ، وَفَوْقَ
ظُهُورِهِمْ حَمَلُهُ ، وَعَلَى صُدُورِهِمْ جَحْمُهُ ، أَمْرًا جَزْمًا قَضَاهُ اللَّهُ لَهُ وَخَصَّهُ بِهِ ، وَأَعْطَتْهُ
الْأَيَّامُ عَلَيْهِ عَهْدَ أَمَانِيهَا ، وَأَمَرَّتْ لَهُ بِهِ عَقْدَ صَمَانِيهَا ، عَاطِفَةً عَلَيْهِ بِطَاعَتِهَا وَمَوَاتِنَاتِيهَا ،
مُغْضِيَةً لَهُ عَنِ نَوَائِبِهَا وَنَبَوَاتِيهَا ، وَحَقِيقٌ عَلَيْهِ جَلُّ أَسْمِهِ أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ ، وَيَسْمَعَ
هَذَا الدَّعَاءَ فِيهِ ، إِذْ كَانَ مَرْفُوعًا إِلَيْهِ فِي أَوْفَرِ عِبَادِهِ فَضْلًا ، وَأَعْمَرَهُمْ نَيْلًا ، وَأَجْرَهُمْ
أَدْبَا ، وَأَكْثَرَهُمْ حَسَبًا ، وَأَعْمَلَهُمْ بِطَاعَتِهِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِإِحْسَانِهِ وَمَعُونَتِهِ ،

كتبت هذا الكتاب أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجليل ، ثم آنخرط في سلك مقصده إلى آخره .

الأسلوب الثاني

أن يتوسط الدعاء صدر الكتاب بعد الإبتداء بكلام مناسب للحال .

كما كتب أبو إسحاق الصابي أيضًا عن بعض الأمراء إلى أمير آخر، مبشراً بفتح :
 ومن أعظم النعم - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل - خطراً ، وأحسنها أثراً ،
 نعمة سكنت ثوره ، وأطفاقت فوره ، وعادت على الناس بجميل الصنع ، وجيل النفع ،
 ونظام الأمور ، وصالح الجمهور ، فتلك التي يجب أن يكون الشكر عليها مترادفاً ،
 والاعتداد بها متضاعفاً ، بحسب ما أزلت من المضره ، وجددت من المسره ،
 وأماطت من المحذور ، ونشرت من المأمول . وحقيق على الناس أن يعرفوا حقها ،
 ويؤفوها من حمد الله قسطها ، ويتنجزوه وعده الحق في أدائها ، وإطالة الإمتاع بها ،
 والحمد لله على أن جعلنا ممن يعرف ذلك ويهتدى إليه ، ويعتقده ويتطوى عليه ،
 ويؤدى فرض الاجتهاد في الاستدامة والاستراة منه ، وأن خصنا من هذه النعم
 بذوات الفضل السابغ ، والظلل الماتع ، الجامعة لكبت العدو ومساءته ، وابتهاج الولي
 ومسرتة ، وهو المسئول جل اسمه وعز ذكره ، أن لا يسلبنا ما ألبسناه من سرايلها ،
 وأجرنا من فضل ذيولها ، وعودناه من جلاله أقدارها ، وتعاضم أخطارها ، ولا يعدمنا
 معونه منه على بلوغ أقصى الوسع في الاعتداد بها ، ومنتهى الطوق في البشرها ،
 بمنه وطوله ، وقوته وحوله .

وقد عرف مولانا الأمير فلان ما كاتب من كذا وكذا ؛ ثم أتى على ذكر الفتح

إلى آخره .

الأسلوب الثالث

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كتابي » كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله الحسن بن سعدان ، إلى نحر الدولة بن بويه في بشارة فتح .

كتابي - أطال الله بقاء مولانا الأمير الجليل نحر الدولة - ومولانا الملك السيد صمصام الدولة وشمس الملّة ، جارٍ على أفضل حال ، جمع الله بينهما في تمام عزّ ونصر ، ونفاد أمرٍ ونهى ، وعلو كلمةٍ ورأي ، وسبوغ موهبةٍ ونعمه ، وشكر الله يستريد من فضله ، ويستدرّ المادة من طوله ؛ وأنا جارٍ فيما أحمله من أعباء خدمتهما ، وأتولاه من تعاطم شؤونهما ، على أجمل ما عود الله وزراء هذه المملكة المناصحين لها ، وأولياؤها المحامين عنها ، من هداية إلى مر أشد الأمور ، وتوفيق لصواب التدبير ، والحمد لله رب العالمين ، وقد كان كذا وكذا .

الأسلوب الرابع

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بلفظ « كتبت » كما كتب الصابى إلى صاحب الجيش في تعزية :
 كتبت - أطال الله بقاء سيدنا صاحب الجيش - والعين عبرى ، والكيد حرى ،
 والصبر مسلوب ، والعزاء مغلوب ، بالفجعة في سيدي فلان نصر الله وجهه ، وكرم
 منقلبه ، التي هدّت الجلد ، وقتت في العضد ، وبسطت عذر الجزوع ، وهجنت حلم
 الحليم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، وإلى أمره صائرون ، وعند الله نحسبه غصنا
 ذوى ، وشهاباً خباً ، وعائق مضمنة علقّت به أيدي النوائب ، وتخيّرتة سهام
 المصائب ، وقارنت بين قلوب الأبعاد والأقارب ، والخواص والعوام في التألم لفقده
 والاستيحاش لمصرعه ، والكآبة لوقوع المهدور به ، وعزّ على أن يجرى لساني بهذا
 القول ، ويدي هذا الخط ، إلى آخر المكتبة .

الأسلوب الخامس

أن يُفْتَحَ الكِتَابُ بِالْحَطَابِ : كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه ، إلى شجاع الدولة وزير دمشق ، بعد هلاك زنيكي بن أقسقر .

أيها السيد الرئيس المحامي عن سرّبه ، والذي قصّر إلا في المعالي ، ربّ ناءٍ بجسمه وهو دانٍ بقلبه ، وغريب إذا نسبت وأمير على دمشق مطاع في صحبه ، وله بالعراق إخوانٌ من حزبه ، إلى آخر المكاتبة .

الأسلوب السادس

أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظ : «أنا» كما كتب الصابى عن نفسه إلى الأمير أبي الحسن بهنّته بعيد .

أنا - أطل الله بقاء سيدنا الأستاذ الأمير - أحاول الخدمة له والتربة منه منذ وصلت إلى العسكر المنصور ، فيعترض دون ذلك عوارض يجرى بها المقدور ، إلى الحين الموقت المسطور ؛ وقد علم مني وشهر عنى كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

الأسلوب السابع

أن تُفْتَحَ المَكاتِبَةُ بلفظ « صدرت » أو « أصدرت » كما كتب صاحب ديوان الإنشاء في زمن المسترشد عن نفسه إلى أبي الفرج سعد بن محمد تشوقا .

صدرت هذه الجملة إلى فلان ، ولواعج الأشواق إليه متضاعفة متردفة ، واستمرار الصبر على البعد عنه قد رث قواه ، ووهن عراه ، وأعوزنا وجدانه إذ عنت ذكراه ،

وإن كان ذِكْرُه سَمِيرَ الخاطر، وَتَجَاهَ الناظر، والغريم المَلْزِم، الذي يستحق غالبه اللبيب الحازم، إلى آخر الكتاب .

المهيع الثاني

(في الأجوبة على هذا المصطلح، وهي على ضربين)

الضرب الأول

أن يُفْتَحَ الجواب بما يُفْتَحُ به الابتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوصول الكتاب والجواب عنه : إما ملاصقاً لأوّل الابتداء ؛ وإما بعد كلام طويل .
فأما ما هو متصل بأوّل الابتداء، فكما كتب الصابى .

كتّابى — ووصل كتاب مولاى وفهمته ، وجلّ عندى قدره وموقعه ، وسكنتُ إلى مادّلٍ عليه من سلامته ، وسألتُ الله أن يُسَبِّحَ عليه ظلّها ، ويُلِّيه نِعَمه كلّها ؛ فأما ما ذكره من كذا وكذا ، إلى آخر الكتاب .

وأما ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضاً عن نفسه إلى الصاحب ابن عبّاد .

كتّابى — أطال الله بقاء مولانا الصاحب الجليل كافي الكفّاه — وليس من جارحة إلا ناطقةً بشكره وحمده ، ولا فى الدهر جراحة إلا عافيةً بفضله ورفده ، وأنا مستمرُّ له على دعاء : إن خلوتُ من أن يكون عائداً لصلاحى ، ورأيتُنا لحناجى ، لآلئتمه عن الأحرار العاشين فى نداه ، المستظّلين بظّراه ، فكيف وأنا أوّل ساهر فى مرابعه ،

(١) الدرر ما يستكن فيه الانسان والظال راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِدٍ لشرائعه، وأحوالى جاريةً على استقامةٍ أقوى أسبابها تصرف الأيام على آرائه،
 واتباعها إثاره في أوليائه وأعدائه؛ والحمد لله رب العالمين، قضاءً لحقه وأقتضاءً
 لمزيدة، واستدامةً للنعمة عنده، التي استحصفت في أيدينا سَعْمًا، وسالت علينا
 شعابها، وعمرتنا سجالها، وتفيات لنا ظلالها، وما يزال بين رغبة مولانا الصاحب الجليل
 كافي الكفاة - أدام الله علوه، وكبت عدوه، في عبده ورغبة عبده إليه سرٌّ مكنونٌ
 في الصدور، ومستورٌ تحت الضلوع، فهما يتناحيان به على بُعد الدار، ويلتقيان
 عليه بالأفكار، فإن تطلع من حجاب القلوب؛ وشد من ظهور الغيوب، فإن ظهوره
 يكون من جهته في تفحات الإنعام؛ ومن جهتي في ثمرات الكلام. وقد وصل كتابه
 المخطوط بكرمه لا بقرمه، إلى صنيعته المائل بين يديه بهمه لا بقدمه، فلم يستطع
 أن ينهض من الفكر، إلا بقدر ما يرى ساحة من الكفر، ويبلغه إلى آخر الاجتهاد
 والعدر؛ وأسأل الله أن يطيل بقاءه للأفضل المأخوذ منه، والفضل المأخوذ عنه،
 والعلم الذي ينخر به بحره؛ والفخر الذي يسحب له ذيله، والعز الذي ضرب عليه
 رواقه، والسلطان الذي أُنقِيَ إليه استحقاقه، والأمر والنهي اللذين يحويهما ترانًا
 واكتسابًا، إذا حوَّاهما غيره غلولا وأغتصابًا، بمنه وطوله؛ وقد كان كذا وكذا.

الضرب الثاني

(أن يفتح الجواب بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كتب الصابي عن الوزير أبي عبد الله بن سعدان في جواب كتاب ورد عليه .
 وصل كتابك - أطال الله بقاءك - وفهمته ، وأدى فلان ما تجمله عنك ووعيته ،
 وأزددت به بصيرة في سدادك ومعرفتك ، وفضلك وحصافتك ، واجتماع الأدوات
 الجميلة فيك ، الداعية إلى إعلاء محلِّك ، وحميد حالِّك ، والثقة بك ، والاستئمان إليك ،

وأُنهيْتُ ذلك إلى مولانا الملكِ فلان ، فأصغى إليه مستمعاً ، وأوجبَ لك به حقاً متضاعفاً ، وأمرني بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفرج البيهقي في جواب كتاب :

ورد كتابك مُشافهاً من البرِّ ، ومؤدياً من الفضل ، ومتحملاً من المنِّ ، ماتجاوز الإنصاف إلى الإسراف ، وقرن الإكرام بالإنعام ؛ ولم أدرِ أى المنح به أشكرُ ، ولا بأى العوارف له أعترف : أبما تحمله من جميل نيته ، أم ما أدنى من جليل مخاطبته ، أم ما ناجتني به فوائد ملاطفته ، أم ما اعتمدني من حلاوة مفاوضته ، إلى غير ذلك من الوصول إلى النعمة التي لا أطولها بشكر ، ولا أقاومها بمنة أعتداد : وهو ابتداءه إياي من المكاتبة بما أحرز به على عادته قصب السبق ، وزاد على الرغبة مبرهنها وبصايق الودِّ محجراً ، وإلى البسط دليلاً ، وعلى مستأنف الخدمة بالمواصلة باعثاً ، ووجدته أيده الله قد فعل كذا وكذا .

المهية الثالث

(في خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح)

وأعلم أنه لم يكن لهم ضابط للاختتامات ، ولا ما يقتضى ملازمة اختتام معين لصدر معين ، بل ذلك موكول إلى رأى الكاتب لا يراعى فيه غير علو الرتبة وهبوطها ، حيث تفاوتت رتب الاختتامات عندهم .

ثم الاختتامات لديهم على أنواع شتى .

منها — الاختتامُ باستمحة الرأى ، وهو على مراتب : أعلاها «ولمولانا علو الرأى في ذلك» كما كتب الصابى في خاتمة كتاب : ولمولانا علو الرأى في تشریف خادمه

بالقبول ، والتقدم بإعلامه بالوصول ، واستخدامه بما يتعلق بأرابه وأوطاره - ومن نظائر ذلك وأشكاله - إن شاء الله تعالى .

ودونَ ذلك - الأختتامُ بلفظ « فإن رأى كذا وكذا فعل » كما كتب الصابي في خاتمة كتابِ بشارَةِ بفتح ، فإن رأى سيدي أن يعرفني موقعَ هذه البشري منه ، ومقابلتها بالشكر الواجبِ عليها ، ويتقدم بإشاعتها في نواحيه وأعماله ، ليكتبَ الله به عدوه وعدونا ، ويكاتني بما أطلعته من أحواله وأخباره ، وأتعهد إسعافه به من مآربه وأوطاره ، فإنني أعتده شريكاً لنا مساهماً ، وخليطاً مفواضاً ، فعلَ إن شاء الله تعالى .

ودونه « فرأيك في كذا وكذا » كما كتب أبو الفرج البغاء في خاتمة كتاب في الحث على مواصلة الكتب ، فرأيك في إيناسنا بكتبك متضمنة ماؤثره من أنيساطك ، ونعلمه من أخبارك ، موقفاً إن شاء الله تعالى .

وقد تقدم في الكلام على أصول المكاتبات لأى معنى كان فرأيك دونَ فإن رأيت .

وذكر ابن حاجب الثعمان أن أعلى المراتب « وللآراء العالية فضلُ السمو ومزيد القدرة . ودونه « ولرأى المجلس الفلاني فضلٌ ومُسموه » . ودونه « ولرأى الحضرة الفلانية فضله » . ودونه « ورأى حضرة مولانا أسمى » . ودونه « ورأى حضرة مولاي العالى » . ودونه « ورأيه موقفاً » . ودونه « ورأيه السيد » . ودونه « ورأيه الأرشد » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحب أن يفعل كذا » . ودونه « ويجب أن يفعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « واحذر المخالفة » .

ومنها - الإختتام بالدعاء، كما كتب الصابى خاتمة كتاب «وأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يُطِيلَ بَقَاءَهُ ، وَيَصِلَ إِخَاءَهُ ، وَيَحْفَظَهُ بَعِيدًا وَقَرِيبًا ، وَيُرْعَاهُ غَائِبًا وَحَاضِرًا .

ومنها - الإختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب ؛ وأنا أسأله أَنْ يُوَصِّلَنِي بِكُتُبِهِ ، مُضَمَّنَةً أَخْبَارَهُ الطَّيِّبَةَ ، وَأَمْرَهُ المِثْلَ ، وَأَوْطَارَهُ وَمُهَمَّاتِهِ ، مَعْتَمِدًا بِذَلِكَ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - الإختتام بترك التكليف بالمكاتبة فى غير الضرورى ، كما كتب الصابى فى آخر مكاتبة ، وما أَطَالِبُ سَيِّدِي بِالمِكاتِبةِ إِلَّا عِنْدَ الحَاجةِ العارِضةِ ؛ فَإِنَّهُ يُعَيِّدُنِي بِهَا جَمِيلًا أَشْكُرُهُ ، وَيَسْتَفِيدُ مِنِّي سَعْيًا يَجِدُّهُ ، فَأَمَّا مَاعِدَا ذَلِكَ مِمَّا يَشْغَلُ أَوْقَاتَ راحتهِ ، وَيَسُدُّ فُرُجَ خَلْوَتِهِ ، فَإِنِّي أَسْتَعْفِي مِنْهَا أَسْتَعْفَاءَ المِنتَقِرِّ إِلَيْهِ ، المُوَثِّرِ لما خَفَّ عَلَيْهِ ، وَلَهُ فِيمَا سَأَلْتُ فَضْلُ النظرِ فِيهِ ، وَالإِسْعافِ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - الإختتام بالتحذير من المخالفة ، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب إلى جماعة بتحصيل قوم : وَيُكْتَبُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ بِحَبْرٍ مِنْ عَسَى أَنْ يَظْفَرَ بِهِ مِنْ هَؤُلاءِ ، أَوْ يَقِفَ عَلَى مَوْضِعِهِ ، أَوْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ خَبْرِهِ ، وَيُحْذَرُ مِنَ التَّقْصِيرِ فِي ذَلِكَ . إلى غير ذلك من الإختتامات التى لا تحصى كثرة .

وقد ذهب كثير من الكُتَّابِ [إلى عدم تفضيل بعض الإختتامات على بعض] على أَنَّ^(١) ابن حاجب النُّعْمَانُ قد قال فى "ذخيرة الكُتَّابِ" إِنَّ أَعْلَى ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى المِكتُوبِ إِلَيْهِ : وَلِلرَّاءِ الفِلاَنِيةِ فَضْلُ السُّمُوِّ وَمَزِيدُ القُدْرَةِ . ودونه « ولرأى المجلس الفِلاَنِى فَضْلُهُ وَسُمُوُّهُ » . ودونه « ولرأى الحِضْرَةِ الفِلاَنِيةِ فَضْلُهُ » . ودونه « ولرأى حِضْرَةِ سَيِّدِنَا أَسْمَى » . ودونه « ولرأى حِضْرَةَ مَوْلَاى العَالِى » . ودونه « ولرأيه

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتسم الكلام وعبارة ابن حاجب النُّعْمَانُ تحدثت فى الصفحة

مَوْقَفًا . . ودونه « ورأيه السَّديد » . ودونه « ورأيه الأرشُدُ » . ودونه « والمؤثر كذا » . ودونه « فأحبُّ كذا » . ودونه « ويجبُ أن يفعل كذا » . ودونه « وسبيله أن يعتمد كذا » . ودونه « فافعل كذا » . ودونه « فافعل كذا من غير مخالفة » . ودونه « وأحذرِ المخالفة » .

المهَيِّع الرابع

(في عُنوانات الكتب على هذا المصطَلح ، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولى - أن يكون العنواُن من الرئيس إلى المرءوس ، قد ذكر في "صناعة الكتاب" أن العُنُواناتِ من الوزير والقاضي وغيرهما من الرؤساء على تسع مراتب :

(الأولى) أن يكتبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطلال الله بقاءه وأعزّه » ، وفي الجانب الأيسر « من فلان بن فلان » باسم الوزير وأسم أبيه إن لم يكنه الإمام ؛ فإن كتَّاه ، كتب « من أبي فلان » ، والقاضي في معنى ذلك .

(الثانية) أن يُكتبَ في الجانب الأيمن « لأبي فلانٍ أطلال الله بقاءه » فقط ، ويُكتبُ الأسم ^(١) ولا يُكتبُ وأعزّه .

(الثالثة) أن يكتبَ في الدعاء للكتوب إليه ، أدام الله عِزّه .

(الرابعة) أن يكتبَ أعزّه الله .

(الخامسة) أن يُكتبَ أكرمه الله وأدام كرامته .

(١) أي أسم الوزير في الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزّه أي في الدعاء للكتوب إليه الذي هو في الجانب الأيمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتَبَ أكرمهُ اللهُ ، وفي ذلك يَكْتَبُ أَسْمُ الوَازِرِ في الجَانِبِ الأيسر .

(السابعة) أن يُكْتَبَ أبْقاءُ اللهُ ، ولا يذْكَرُ أَسْمُ الوَازِرِ في هذه المَرْتَبَةِ وما بَعْدَها .

(الثامنة) أن يَكْتَبَ حَفِظَهُ اللهُ ولا يَكْتَبُ أَسْمُ الوَازِرِ .

(التاسعة) أن يَكْتَبَ عَافَاهُ اللهُ .

وعلى نحو ذلك جرى أبْنُ حَاجِبِ النُّعْمَانِ في "ذخيرة الكُتَّابِ" فقال : إنه يَبْدَأُ في الجَانِبِ الأيمنِ بِذِكرِ المَكْتُوبِ إليه وَتُعْوِيهِ وَكُنْيَتِهِ وَأَسْمِهِ وَأَسْمِ أبِيهِ وَتَسْمِيَةِ المَشْهُورِ مِنْ نَاحِيَتِهِ أَوْ قَبِيلَتِهِ أَوْ بَلَدِهِ ؛ ثم يذْكَرُ المَكْتُوبَ عَنْهُ في الجَانِبِ الأيسرِ بِأَسْمِهِ وَأَسْمِ أبِيهِ ؛ فَإِنْ كَانَ الكُتَّابُ عَنِ الوَازِرِ ، ذَكَرَ كُنْيَتَهُ في الجَانِبِ الأيسرِ ، إِنْ كَانَ الإِمَامُ أَمْرَهُ أَنْ يَكْتَابَ مَتَكْنِيًّا أَوْ مَتَلَقَّبًا .

وقد سبق في الكلام على أصول المكاتبات في أول الباب الثاني من هذه المقالة أن من السلف من كره لأبي فلان وقال : الصواب أن يكتب إلى أبي فلان . قال في "صناعة الكُتَّابِ" ويكتب : لأبي الحسن ، فإن أعدت الكنية في الناحية الأخرى رفعت فقلت أبو الحسن على بن فلان على المبتدأ والخبر أو على إضمار مبتدأ ، وإن شئت خفضت على البدل ، فإن لم تعد الكنية كان الخفض أحسن فقلت لأبي الحسن ؛ ثم قال : وإن كتبت إلى رجلين كنية كل منهما أبو الحسن ، كتبت لأبوي الحسن إذا لم يكن لهما ولد يقال له الحسن ، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن ، جاز أن يكتب لأبوي الحسنين . قال : والاختيار أن يكتب لأبوي الحسن أيضا ، لأنَّ المعنى للذين يقال لكل واحد منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتب إلى الرجلين اللذين يكتبان بأبي الحسن : لأبي الحسن بفتح الباء وكسر الياء على لغة

من قال جاءني أبك ، والأصل فيه لأبين الحسن سقطت النون للإضافة ، ويكتب في الجميع لأبي الحسن بكسر الباء ، الأصل لأبين بكسرها أيضا ، سقطت النون للإضافة على لغة من قال : جاءني أبوك^(١) يعني بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيته أبو الحسن لأبا الحسن على لغة القصر ، كما يقال لفتى الحسن .

قال في "ذخيرة الكتاب" "وإن كان الكتاب إلى اثنين وكتابتهما مختلفة : كأبي جعفر ، وأبي منصور ، وأبي بكر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كتابتهما متفقة مثل أن تكون كنية كلٍّ منهم أبو جعفر كتبت آباء جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العنوان من المرعوس إلى الرئيس . قد ذكر «النحاس» عن الفضل بن سهل أنه إذا حوَّطب الكُفء يجعلني الله فداءك بالصدر الكامل ، فأحسن دُعائه للعنوان ، أعزه الله وأطال بقاءه ؛ وذكر أنه إذا كوتب بأعزه الله فأجمل العنوان مد الله في عمره . قال في "صناعة الكتاب" ولا يتكئ الرجل في كتبه ، إلا أن تكون كنيته أشهر من اسمه فيتكئ على نظيره ، ويتسمى لمن فوقه ؛ ثم يلحق المعروف أبا فلان ، أو المعروف بأبي فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما توجب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوان من الرجل إلى أبنه ومن في معناه ، قد ذكر النحاس أنه يُعنون إليه من فلان بن فلان إلى فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوة والرجل إلى أهل بيته .

(١) كذا في الأصل ولم نعثر في كتب النحو على هذه اللفظة ولعله تحريف من الناسخ والأصل جاءني أبك

يعني بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله إلى اثنين فأكثر وكتابتهما تأمل .

الحالة الرابعة — أن يكون المكتوبُ إليه امرأةً . قال في "صناعة الكُتَّاب" :
 إن كان المكتوبُ إليه أمَّ الخليفة ، كتب : للسيدة أمِّ فلانٍ أمير المؤمنين ، وإن
 كانت امرأة الخليفة وكان ابنها معهودًا إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أمِّ فلانٍ ولى
 عهد المسلمين ، وإن كانت امرأة رجل جليل ، كتب لحرَّة أمِّ فلانٍ ، ولا يكتب
 اسمها ، ويدعو لها بالدعاء الذى يكونُ خطابها به .

هذا ما كان الحالُ عليه فى زمن النحاس فى خلافة الراضى وما حوَّلها .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" أنَّ الحالَ تغيَّر عن ذلك عند
 تغيُّر المكاتبَات إلى المجلس العالى ، والحضرة السامية ، وما يجرى مجرى ذلك ؛ ثم قال :
 فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوتها ، فيجب
 أن يكتب عن نفسه بالملوك أو مملوكه أو العبد أو الخادم . وإذا كتب : الحضرة
 السامية أو العالمة ونعوتها ، فيجب أن يكتب عن نفسه الخادم أو خادمها أو عبدها .
 وإذا كتب : حضرة سيدنا ونعوتها ؛ فيجب أن يكتب عن نفسه خادمها أو خادمه
 وعبدها أو عبده . وإذا كتب : حضرة مولانا ونعوتها ، فيجوز أن يكتب عن نفسه ماشاء
 من ذلك . قال : وفى الكتابة إلى النظير لا ضابط لعنوانه كما لا ضابط لمكاتبته ،
 بل له أن يكتب عن نفسه بما شاء مما تقدم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتبَةُ من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكتب : حضرة
 الفلانى بغير مولاي — ودونه : الفلانى بغير حضرة ، وكنيته ونعوته واسمه وأسمُ أبيه ،
 ويكتب عن نفسه ما يختار أن يكتبه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروف مشهور ، ويزيد
 فى اسمه وأسم أبيه ألقا ولا ما ، إن كانا مما يجوز أن يُزاد [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس
 إلى الرئيس وكتب عن نفسه بما كتبه ، فيجب أن يحذف من اسمه وأسم أبيه الألف

واللام . قال : ولرئيس أن يكتب عن نفسه بما شاء من الكليات التي تليق بمنصبه وأسمه وأسم أبيه ونعته المقترن بأمر المؤمنين ، مثل ناصر أمير المؤمنين ، وحسام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصد الثاني

(في [رسوم] إخوانيات أهل المغرب)

وعادتهم فيها أن يكون الخطاب فيها خطاباً الموجهة ، مثل : أنت ، وأنا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربما خاطبوا الواحد بهم الجمع تعظيماً للكتوب إليه ، كما يعبر عن المتكلم الواحد بنون الجمع تعظيماً له . قال ابن شيث في "معالم الكتابة" ولا يعرف ذلك لغيرهم ، وربما وقع الخطاب عندهم على الغيبة أيضاً ، وفيه جملتان :

[الجملة الأولى]

(في مفتحات المكاتبات على اصطلاحهم ، وفيها مهيعان)

المهيع الأول

(في آبتداء المكاتبات ، وهي على طرق)^(١)

منها — أن تفتح المكتبة بالدعاء : إما بطول البقاء كما كتب عبد الله بن طاهر : أطال الله بقاء سيدي الأعلى ، ومفرعي في الجلى ، متممةً عليه النعم ، ميسرةً لديه الهيم ، أقول بدءاً أيديك الله : لقد أعشى الناظرين سنك ، كما أعيأ الطالبين مسعك ، ولئن فئت الجميع ، لقد أبدعت الصنيع ، فلا غاية لمجد إلا وأنت آتياها ، ولا ذروة لعز

(١) بيض لذلك في الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إلا ومن طَبَّكَ بَانِيهَا ؛ لَكَ الْهُدَى وَالنَّاسُ ضَلَّالٌ ، وَفِي يَدَيْكَ الضُّوْءُ وَالْكُلُّ أَغْفَالٌ ؛
وَإِنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة : أطال الله بقاء الأخ السريِّ الكريم ، الحريِّ
بالتقديم والتعظيم ؛ وأوحِدِ فُرْسَانَ الْإِحْسَانِ ، وَوَأَحَدِ عِقْبَانَ الْبَيَانِ ؛ وَلَا زَالَ قَلَمُهُ جَالِيَّ
بِدَائِعِ السَّحْرِ ، جَالِبَ بَضَائِعِ الشَّحْرِ ، مَغْبُوطَ السَّبْقِ ، عِنْدَ كَلَالِ حِيَادِ الْكَلَامِ ، مَبْسُوطَ
الرِّزْقِ ، فِي حَالِ إِمْلَاقِ الْأَقْلَامِ ، إِنَّ ذِكْرَكَ - أَبْقَاكَ اللَّهُ - الْبَلَاغَةُ فَمَنْ عَلِيَ مَوْرِدَهَا
يُسَاجِلُكَ ، أَوْ قِيلَ فِي ثَمَرِيعَتِهَا بُنِيَتْ عَلَيَّ نَحْمَسٌ فَإِنَّمَا هِيَ أَنَا مَلِكٌ ، صَفْوُهَا مَتَفَجَّرَ
مِنْ مَعِينِكَ ، وَشَاوُهَا لَا مَطْمَعَ فِيهِ لِغَيْرِ يَمِينِكَ ، وَشَاوُهَا تَسْتَوْفِيهِ فِي هَيْئَةِ مَمْتَهَلٍ ،
وَجَنَاهَا تَرَعَاهُ بَعِزَّةٌ أَحْيَى مُهْلَهْلٍ ، فَقَدْ صرَّتْ أَمَامَ أُمَّمِهَا ، لَا بِلِإِمَامِ أُمَّمَتِهَا ، وَالرَّاضِعَ
لِرِسْلِهَا ، بَلِ الْوَاضِعَ لِأَصْلِهَا . فَهَيِّنَا لَهَا أَنْ كُنْتَ سَابِقَ غَايَتِهَا ، وَسَائِقَ رَايَتِهَا ، وَبُشْرَى
لِمُهْرَقِ وَشْتِهِ يِرَاعَتِكَ ، وَمَشْتِهِ بِرَاعَتِكَ ، لَقَدْ أُوتِيَ مِنَ الْحُسْنِ مَا تَشْتَرِيهِ الْقُلُوبُ
بِحَبَابَتِهَا ، وَتَشْتَبِيهِ النُّفُوسُ أَكْثَرَ مِنْ حَيَاتِهَا ؛ وَإِنَّ الْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .
وإِذَا بِالْبَقَاءِ الْمَجْرَدِ .

كما كتب أبو محمد بن عبد البرِّ ، إِلَى بَعْضِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ :
أَبَى اللَّهُ الشَّيْخَ فِي عِزَّةٍ تَالِدَةٍ طَارِفِهِ ، وَسَعَادَةٍ لَا تَزَالُ طَارِقَةً بِكُلِّ عَارِفِهِ ؛ وَلَا زَالَ
قَاصِدُهُ نَحْيًا مِنْ رِفْدِهِ بَرُوضِ نَاصِرٍ ، وَمُحَوِّمًا مِنْ مَجْدِهِ عَلَى مَسْرَةِ سَمْعٍ وَقُرَّةِ نَاطِرٍ ؛
وَالْأَمْرَ كَذَا وَكَذَا .

وإِذَا بِالْإِعْدَاءِ لِلْحَضْرَةِ .

كما كتب أبو زيد الفارازي :

أبى الله حضرة السيد ناضرة أدواح السعد، عاطرة أفواح المحمد، ساكبة أنواع الجدد، صائبة سهام الحد، ولا زالت مغشية الحناب، بوفد الحمد، موشية الإهاب، بسودد الحفد. الظل إذا رُحِب، ازدحم عليه الضاحون، والورد إذا عُدب، ازدلف إليه المتأخون؛ وظل الحضرة المكرمة كثيف الأفياء، ووردها مغني عن وسائط الأرضية والدلاء، فلا غر وأن تُضرب إليها أكبأد الإبل، وتغص بالوفود عليها أفواه السبل، والله تعالى يعين الحضرة المكرمة على الأيادي تسوغها، والآمال تبلغها، بمنه. وإن الأمر كذا وكذا.

وإما بالدعاء للحل.

كما كتب أبو المطرف بن عميرة في صدر شفاعته.

أبى الله المحل الأعلى حرماً يتخاماه الأنام، وعلماً تتضاءل له الأعلام؛ ولا زالت آراؤه الناجحة، تستمدّها العقول والأفهام، ومساعيه الصالحة، يشكرها الله والإسلام. إن مجدنا ساعى الكواكب بمنّواه، وسارى الغر السواكب في جدواه؛ لداع إلى استلام كفه عليه، ولا استهم على وصفه الذى له حقيقة الأوليه؛ وكيف لا وقد أجار من الدهر المخيف، وصار قبلة كل داخل تحت التكليف؛ يعيد متى أخطأها صلاة الأمل، ويرى الاجتهاد في طلبها من راحة العمل؛ وإن الأمر كذا وكذا - إلى غير ذلك من أنواع الدعاء.

ومنها - أن تفتح المكتبة بلفظ « كتابي » كما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض العلماء.

كتابي إلى سيدى - حفظه الله مقيماً وسائراً، وأبقاه لغرّ البيان ساحراً، وعن وجه الإحسان سافراً؛ ولا زالت آدابه تُشرق وتروق ساهراً، ومحاسنه كالشمس إذا لم

يَلْقَى نَوْرَهَا سَاتِرًا - من فلانة - وَالْوَدَّ رَوْضَةً مَطْلُولَةً ، وَرَحِمٌ مُوَصُولَةٌ ؛ خَلَصَ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى حَبَّتِهِ ، وَأَخْتَصَّ مِنْهُ بِمَا لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْ أَحِبَّتِهِ ؛ وَأَثَارٌ شَوْقًا عَلَى قَدْرِهِ ، وَهَوَى نَوَى فِي صَدْرِهِ ؛ وَأَسْفًا عَلَى عَهْدٍ أَصْبُو إِلَى ذِكْرِهِ ، فَاتَتْ ، وَرَدُّ الْفَائِتِ يَعْسُرُ ، وَقَصْرٌ ، وَأَيَّامُ السَّرُورِ تَقْصُرُ ؛ كَأَنَّمَا كَانَ قِرَاءَةَ سَطْرٍ ، أَوْ إِغْفَاءَةَ بَحْرٍ ؛ أَوْ زِيَارَةَ مُجْتَازٍ ، أَوْ عِبَارَةَ ذِي إِيجَازٍ . فَمَنْ لَنَا بِذَلِكَ الْأَرْجِ الذِّكْرِي ، وَالْأَرْيَحِيِّ يَرْتَاحُ لَمَّا يُخْتَرَعُ أَوْ يُحْكَى ، وَمَتَى نَفُوزُ بَيْنِ نِيحَتٍ مِنْ صَخْرٍ ، وَيُزْرِي بِأَبِي صَخْرٍ ، وَيَعْرِفُ مِنْ بَحْرِ ، وَيَجْرِي مَعَ أَبِي بَحْرٍ ؛ وَيَجْمَعُ إِسْنَادَهُ بَيْنَ الْجَامِعِ وَالْمُسْنَدِ ، وَيُنْشِدُ مِنْ بَدَائِعِ حَفِظِهِ مَا يُؤَثِّرُ فِي الْمُسْنَدِ ، شَجَرَةٌ عِلْمٌ تُؤْتِي كُلَّ حِينٍ أَكْلَهَا ، وَمُزْنَةٌ فَضْلٌ تَجُودُ مَا نَحْشَى بُحْلَهَا ، وَضَالَّةٌ أَدَبٌ يَقِلُّ لَهَا أَنْ يُجْعَلَ الْقَارِئُ جُعْلَهَا ، فَاتَ عَنَا ، فَاتَعَبَ وَعَنَى ، فَهَلْ مَعِينٌ عَلَى دَوَاءِ إِنْ نَحْنُ لُسَعْنَا ، أَوْ سَبِيلٌ إِلَى مَا يَفِيدُنَا مِنَ الْكَلَامِ فَتَحْنُ فِي حُرُوفِ تَجِيءُ بِغَيْرِ مَعْنَى ، وَإِنْ الْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا .

ومنها - أن تفتتح المكتابة بلفظ : كتبت .

كما كتب أبو زيد الفازازي .

كتبتُ - كتب الله للأخ الأبرّ الأوفى ، والفاضل الذي أثار مآثره لانتخفي ، مجدًا هامج الرّبابه ، سامي الرّابه ، وذكرًا منتحلًا بالإطالة والإطابه ، وقرن أعماله بالقبول ودعواته بالاستجابة - من مكان كذا ، ولا جديد يُمن الله تعالى إلا صنعه الجميل ، ولطفه العريض الطويل ، والحمد لله رب العالمين ، حمدًا يؤمن آلاءه من التغيير والتبديل ، والأمر على كذا وكذا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بكفاية عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة لبعض الرؤساء .

الجناب الرياسي أدام الله اعتلاءه، وحرس مجده وسنائه .

صدرت هذه الخدمة إليه من فلانة، ولا مزيد على ما يجب لجلاله من التعظيم،

ولفضله من التقديم، ولآلائه من الشكر العميم، وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بن عيسى شافعاً في أنصاري .

السيد العماد، والماجد الجواد، والملجأ المنيع المريع لمن يرتاع أو يرتاد، أدام الله

علاءه، وضاعف عنده آلاءه، بذر الجملة الشريفة، وفرع الدوحة المنيفة، من

آل قيس الجود، وقيل بنى قبيلة الباذلين الموجود، أولئك الذين عز المهاجرون

بإحاثهم وبخائهم، فلا غرو أن تكلف الألسنة بمدحه، وتمد الأيدي إلى منحه،

ويصدر باسمه تاريخ الأجداد فهو أحق مفتحه، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة، عن الأمير أبي جميل زيان، إلى الأمير

أبي زكريا بن إسحاق .

الأمير الأجل الهام الأعلى حرس الله مقامه، وأسعد أيامه، وظاهره بالنصرة

مضاهه وأعتزاه، راسخ شرف التجار، ثابت أصل الفخار، مستهل آلاء السحب

الغزار، والعيون إليه ساميه، والهيم إلى مالدیه متراميه، والصدور بالأمل فيه تُشرح،

والنفوس الحرة إلى استرقاقه تطمح، ولا غرو والكرم من بعض شيمه، والغنى

من فضل ديمه - أن يسير إليه في البر والبحر كل ذي رغبة، وتراعى نحوه ركائب

الرجاء من كل ترابه . ومحاطبتنا هذه إلى مجلسه أيده الله عما نعلمه من كبير قدره،

ونوجه لعالى أمره، ونبيح به من طيب خبره، وجميل ذكره، والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شلبون :

العِمَادُ المذَنَرُ، والمَلَادُ الذى بولائه أفضَرَ، جعل الله قدره عالياً، ودهره مجاسنه
حالياً، ولا زال للنعم قابلاً وللا [سواء] قالياً، كتبتُ من مكان كذا، والوُدُّ حليّةٌ
يتألَّقُ روتقُها، وشجرةٌ لا يسقط ورقُها، وإنها مغروسة، لا تقبل بذرَ العوادي،
ومحروسةٌ، لا يقع عليها من يقع في شجر الوادي؛ والأمر كذا وكذا.

وكما كتب أبو المطرف بن عميرة إلى بعض الفقهاء شافعا موصياً :

المحلُّ الأعلى - ضاعف الله أنوار هدايته، وأبقى على الجميع آثار عنايته - مستودع
الكَمال، ومشرع الآمال؛ ومقعد أرباب السؤال، ومصدع الصالح من الأعمال،
وإن فلانا من أمره كذا وكذا.

وكما كتب ابن أبي الحِصَال :

الشيخُ الأجلُّ أدام الله عزَّه ونعماه، ووصل رفعتَه وعلاه بتقواه؛ بحُجْل قدركم،
وملتمَّ رِثْمَ وشُكْرِكُمْ، العارفُ بحقِّكم، فلان؛ فكتب يعظّمكم كتب الله لكم خيراً
مستمراً، ورضاً على ما رضونه ناسياً مستقراً، من مكان كذا، على الرسم الملتزم من
توفير علائكم، والشكر لا لائكم، والرَّبُّ تعالى يُنهض بحقِّكم اللازم الأزم، ويصل
حِرَاسَةَ مجدِّكم الأتليد الأقدم؛ بمنه وفضله، وإنَّ الأمر كذا وكذا.

وأعلم أنه ربِّما أتى بعد ذكر النعوت بالسلام، ثم بحمد الله تعالى والصلاة على
النبي صلى الله عليه وسلم وعلى آله؛ ثم الرضا عن الخلفاء الماضين والخليفة القائم.
وعلى ذلك كانت طريقة كتاب دولة الموحدين أتباع «المهدى بن تومرت» كما كتب
أبو محمد بن عبد البر :

الشيخ الأجل، أدام الله عزَّته، ووصل كرامته ورفعته . مجلُّ قدره، وملتمز بره
وشكَّره، المسرورُ بما يُجْرِيه إحصانه من طيب ذكره .
سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمد الله العظيم ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله الكريم ، وعلى آله -
والرضا عن الإمام المعصوم مهديه ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين - والدعاء لسيدنا
الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، ابن الأئمة الخلفاء أمراء المؤمنين ، بالنصر الأعز ،
والفتح الأتم الأوفى ، فكتب كتب الله لكم مجدا لا يهَى شرفه ، وسعدا لا يبي
طرفه ، من فلانة - حسبا الله - ولا ناشئ عن الله تعالى وعميم لطفه إلا الخير
الأكل ، والصنع الأجل ، والحمد لله رب العالمين كثيرا، وإن الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلى هذه الطريقة كانت كتابة أبي عبد الله بن الخطيب : كاتب ابن
الأحمر بالأندلس على القرب من زماننا .

ومنها - أن تفتتح المكتبة بالخطاب ، إما مع حذف ياء النسب أو مع إثباتها .
أما مع حذفها ، فكما كتب أبو المطرف بن المشي :

سَيْدِي وَمَفْخَرِي ، وَعِصْمَتِي وَوَزْرِي ، وَرُكْنِي وَعِمَادِي ، وَذَخِيرَتِي
وَعَتَادِي ، أَبْقَاكَ اللهُ نَاهِجًا سُبُلَ الْمَكَارِمِ وَالْمَعَالِي ، مُوقِّ حَوَادِثَ الْأَيَّامِ وَاللَّيَالِي .
كُتِبِي أَعَزَّكَ اللهُ عَنْ عَهْدِ حَسَنِ لَكَ قَدْ أَحْكَمْتَ مَعَاقِدُهُ ، وَوَدَّ مَحْضُ فَيْكِ قَدْ صَفَتْ
مَوَارِدُهُ ، وَنَفْسِي تَرْتَاحُ لَذِكْرِكَ ، وَلِسَانِي لِأَهْ بَيْنَ مَحَاسِنِكَ وَعُلَاكَ ، قَدْ أَنْفَسِحَ فِي نَسْرِ
فَضَائِكَ مِيدَانَهَا ، وَفَاقَ فِي وَصْفِ قَوَاضِيكَ بَيَانَهَا ، فَهِيَ تَنْظُمُ عُقُودَ مَجْدِكَ ، عَلَى أَجْيَادِ
شُكْرِكَ ، وَتُحَوِّكُ مِنْ بُرُودِ تَقْرِيطِكَ وَتَسَائِكَ ، خِلْعًا لِمَجْدِكَ وَسَنَائِكَ ، وَشَيْهَا الذِّكْرُ
الْخَطِيرُ ، وَطِرَازُهَا التَّرْفِيعُ وَالتَّوْقِيرُ ، تَكْسِرُ عَصَبَ عَدْنٍ ، وَتُعْفِي عَلَى وَشَى الْيَمَنِ ؛

وَتَطَّلِعُ مِنْ رِيَاضِ أَخْلَاقِكَ ، فِي مَنْابِتِ أَعْرَاقِكَ ، مَا يُزِيرِي بَنَسِيمِ الْمِسْكِ تَضَوُّعُ
عَرَفِهِ وَأَنْتِشَارِهِ ، وَيُرِي عُلَى حُسْنِ النُّجُومِ الزَّاهِرَةِ طَوَالِعُ أَزْهَارِهِ وَأَنْوَارِهِ ، وَأَخْلَاقُ
بِمَنْ جَمَعَ اللَّهُ الْعَالَمَ فِيهِ ، وَحَرَسَ مَعَاهِدَ الرَّبِّ الْبَكْرِيمِ مَسَاعِيهِ ، أَنْ لَا تُعْزَى خَلَّةٌ نَبِيلَةٌ إِلَّا
إِلَيْهِ ، وَلَا تُقْصَرُ مَنَقِبَةٌ جَلِيلَةٌ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا تُؤْثَرُ مَأْثَرَةٌ نَفِيسَةٌ إِلَّا عَنْهُ ، وَلَا تُقْتَبَسَ
سِيرَةٌ جَمِيلَةٌ إِلَّا مِنْهُ ، وَاللَّهُ تَقَدَّسَ اسْمُهُ يَجِي هَذِهِ الْأَوْصَافَ الْبَدِيعَةَ ، وَالْحِلَالَ
الرَّفِيعَةَ ، مِنْ طَوَارِقِ الدَّهْرِ وَتَوَازِلِ الْغَيْرِ ، وَيَجْعَلُ عَلَيْهَا يَدَهُ ، وَيَصْرِفُ عَنْهَا مَعْرَةَ
كُلِّ خَطْبٍ وَشَدَّةٍ ، بِحَوْلِهِ وَطَوْلِهِ ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا ، وَيَكُونُ الْأَمْرُ كَذَا .

وَأَمَّا مَعَ إِثْبَاتِ يَاءِ النَّسَبِ ^(١) ، فَكَمَا كَتَبَ أَبُو الْمَطَرِ بْنِ الدَّبَّاحِ إِلَى بَعْضِ الْأَدْبَاءِ
عِنْدَ وَرُودِهِ إِلَى بِلَادِهِ :

يَا مَوْلَايَ ، وَسَيِّدِي ، الْعَظِيمِ شَأْنُهُ وَأَمْرُهُ ، الْعَالِي صِيتُهُ وَذِكْرُهُ ، وَمَنْ أَبْقَاهُ اللَّهُ
فِي عِزٍّ لَا تَقْصِمُ عُرَاهُ ، وَحِرْزٍ لَا يُسْتَبَاحُ حِمَاهُ ، لَمْ أَزَلْ - أَبْقَى اللَّهُ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ -
تَسْمُوبِي إِلَى الْكِتَابَةِ هِمَّةً ، وَتَتْرَاحِي بِي إِلَى الْبَلَاغَةِ عَزْمَةً ، حَتَّى تَذَلَّتْ لِي صِعَابُهَا
فَامْتَطَيْتُ ، وَتَسَهَّلَتْ لِي حُرُوفُهَا فَارْتَقَيْتُ . وَلَمَّا رُفِعَتْ لِي عَنْ غَرَائِمِهَا الْأَسْتَارُ ،
وَعَلِمْتُ مِنْ غَوَامِضِهَا الْأَسْرَارُ ، وَفُزْتُ بِالْمَعْلَى مِنْ سِهَامِهَا ، وَالْمَوْفُورِ مِنْ أَقْسَامِهَا ،
جَعَلْتَ بَأَى أُمَّتِهَا أَهْتِي وَأَهْتِدِي ، وَإِلَى أَى رُؤْسَائِهَا أَنْتَسِبُ وَأَعْتَرِي ، نَاطِرًا فِي ذَلِكَ
إِلَى شَائِعِ الْأَخْبَارِ ، وَمُتَدَاوِلِ الْآثَارِ ، فَوَجَدْتُ الْأَلْسِنَةَ إِذَا تَنَاوَلَتْ صِفَةَ سِوَاهُ ، تَحَلَّتْ
بَعْضَ حِلَاهُ ، أَوْ أَرْقَتْهُ إِلَى رُتْبَةٍ مِنَ الْعِلْيَاءِ ، تَمَثَّلَتْ بِهِ فِي الرَّفْعَةِ وَالسَّنَاءِ ، ثُمَّ تُفْرَدُ
أَعْرَهُ اللَّهُ دُونَهَا بِالْفَهْمِ الْمَتِينِ ، وَالْعِلْمِ الْمَشْهُورِ ، وَالْحِلْمِ الْمُتَعَارَفِ ، وَالْفَضْلِ الْمُتَوَاصِفِ ،
وَالرُّتْبَةِ السَّامِيَةِ ، وَالْجَلَالَةِ الْمُتَنَاهِيَةِ . فَكُلَّمَا رَأَيْتُ مُحَاسِنَ مَجْدِهِ تُجَلِّي ، وَسُورَ فَضْلِهِ

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

تُتلى، هَمَّمتُ أَنْ أُطِيرَ إِلَى حَضْرَتِهِ بِجَنَاحِ الْإِرْتِيَاحِ، وَأَرْكَبَ إِلَى أَفْقِهِ نَوْرَهُ اللَّهُ أَعْنَاقَ
الرِّيحِ، وَالْأَيَّامُ تَقْطَعُنِي بِمَصَائِبِهَا، وَتَقِيدُنِي بِأَحْدَاثِهَا وَبِجَوَائِبِهَا، حَتَّى قَضَى اللَّهُ أَنْ
يَرِدَ هَذَا الْأَفْقَ فَأَفْرَخَ الْأَمَلَ بِغَيْرِ نَصَبٍ، وَأَنَالَ الْبُغْيَةَ بِغَيْرِ طَلَبٍ :

وَلَيْسَ الَّذِي يَتَّبِعُ الْوَبْلَ رَائِدًا * كَمَنْ جَاءَهُ فِي دَارِهِ رَائِدُ الْوَبْلِ

ومنها - أَنْ تُفْتَحَ الْمَكَاتِبُ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة :

نُحِصُ الْأَبْنَ حُبَّةً وَمِقَّةً، وَالْعِبَادَ أَعْتَدَادًا بِجَانِبِهِ وَثِقَةً، حَفِظَ اللَّهُ نَجَابَتَهُ ؛ وَجَعَلَ
لِدَاعِي السِّيَادَةِ تَلْيِيتَهُ وَإِجَابَتَهُ، تَحِيَّةَ الْإِجْلَالِ وَالتَّكْرِمِ، وَالْمَوَدَّةَ الْخَالِصَةَ الْمُتَحَكِّمَةَ ،
وَرَحْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَرَكَاتِهِ، مِنْ مَكَانِ كَذَا، وَالْوُدَّ كَلْفًا، وَالْعَهْدُ بِالصَّوْنِ مِنْ جَمِيعِ جَوَانِبِهِ
مَكْتَنَفًا، وَتِلْكَ الذَّاتِ السَّنِيَّةُ ذَخِيرَةٌ جَلِيلَةٌ، وَأَمَلٌ لِأَسْخَطِي مِنْهُ مَحْيَلُهُ، وَهَبَةٌ يُكْذِبُ
مَعَهَا أَنْ يُقَالَ الْأَيَّامُ بِجَيْلِهِ . وَكَمَا نَظَنُّ أَنْ بِنَاءَ الْكَرَمِ صَمَّ صَدَاهُ، وَمَرِيعَ الْفَضْلِ
عَاصِبُ بَرْدَاهُ، وَغَائِبٌ عَنِ الرَّشْدِ أَدَاهُ، وَتَقُولُ : مَا كُلُّ مَنْ أَعْقَدْتَهُ الْعَيْلَةَ عُجْمِيهِ،
وَمَتَى يَفْطَنُ عَمِيرَ عَمْرٍ وَبِجَيْلِهِ، فَكَمَا بِكِفَاتِهَا، وَهَلْ سَوَى قَيْسٍ لِرِحَى الْعُجُوزِ عَدِمَتْ
جَدَاتِهَا، حَتَّى تَمَثَّلَ هَذَا الْمَجَاهِدُ مِنْ طَرْفِيهِ، الْمُسْتَقْبِلُ آثَارَ سَلْفِيهِ، حَفِظَ اللَّهُ الْأَلْفَاظَ
وَالْأَلْسِنَةَ، وَحَمَلَةَ الْأَقْلَامَ وَالْأَسِنَّةَ .

وكما كتب أبو زيد الفازازي .

السَّلَامُ الْكَرِيمُ الْعَمِيمُ، عَلَى الشَّيْخِ الَّذِي أَثْبَتُ عَلَى وُدِّهِ فَلَا أُتَحَوَّلُ، وَأُطْنَبُ
فِي حَمْدِهِ فَلَا أُسْتَعِيرُ وَلَا أَتَأَوَّلُ، وَأَتَعَلَّلُ بِذِكْرِهِ عِنْدَ عَدَمِ مَرَاتِهِ وَلَا مَرِّمًا أَتَعَلَّلُ ؛
فَلَانِ - أَدَامَ اللَّهُ رِفْعَتَهُ، وَحَرَسَ مِنَ الْأَسْوَاءِ مُهْجَتَهُ . كَتَبَ أَخُوكُمْ، الْبَرُّبِكْمُ، الشَّيْقُ

(١) كذا في الأصل ولم تقف عليه في غيره بعد البحث .

إليكم، الشاكرُ لمَحاسِنكم، المسرورُ بما سَمِعَهُ من صَلَاحِ أحوالكم، فلان، ولا جَدِيدَ
بِمنَّ الله تعالى إِلا الخَيْرُ والحمدُ لله كثيرا والأمرُ كذا وكذا .

ومنها - أن تُفَتِّحَ المَكاتِبُ بِالكِتابَةِ عن المَكْتُوبِ عنه .

كما كَتَبَ ابنُ أَبِي الحِصَالِ إِلى بَعْضِ الكُتَّابِ يَسأَلُهُ حاجَةً :

مَعْظَمُ الشَّيخِ الأَجَلِّ أَبِي فلان، وَجِلهُ المَكبَّرِ له فلان، أَعلى اللهُ قَدْرَكم، وَأوزَعَ
أولِئاءَكم شُكْرَكم، أَياديكم أدام اللهُ كرامَتكم أوكُفْ من العَمامِ، وَنِعْمَكم أَلزَمُ للأَعناقِ
من أَطواقِ الحَمَّامِ، وَإِنَّ وَلِيَّكم ومَعْظَمَكم يَحْتَاجُ إِلى كذا وكذا .

ومنها - أن تُفَتِّحَ المَكاتِبُ بلفِظِ من فلان .

كما كَتَبَ [بَعْضُهُم] من فلان، إِلى الشَّيخِ الحافِظِ الأَكْرَمِ أَبِي فلان : أدام اللهُ
كرامَتَهُ بِتَقْواهُ، فَالكَتابُ إِليكم كَتَبَ اللهُ لَكم أحوالاً صالِحَةً، وَخَيراتٍ عَلَيكم غادِيَةً
رائِحَةً، من مَوْضِعِ كذا، وَالبركاتُ متوافِرَةٌ، والخَيراتُ متظاهِرَةٌ، والحمدُ لله تعالى،
وَإِنَّ الأَمْرَ كذا وكذا .

ومنها - أن تُفَتِّحَ المَكاتِبُ بلفِظِ إِلى فلان .

كما كَتَبَ بَعْضُهُم إِلى والِدِهِ .

إِلى مَولايَ المَعْظَمِ وَأبي، المَتَكفِّلِ بِتَعلِيمِي وَحُسنِ أَدبِي، أَبقاهُ اللهُ ناظِرًا إِلى
بِعينِ رِضاهِ، وَأعانِي على الجَرى في رِبِّهِ على حُكْمِ الشَّرْعِ القَويمِ وَمُقْتَضاهِ ؛ من أبنِكَ
المَعْظَمِ لَكَ، بَلْ عَبدِكَ، المَتَطَلِّعِ إِلى ما يَصلُ مِنَ الأَنْبِاءِ الكَرِيمَةِ من عِندِكَ، المَواصِلِ
المَسعُى في شُكْرِكَ وَحَمْدِكَ، فلان : بِأبي كَتَبْتَهُ كَتَبَ اللهُ لَكم لِيانًا مِنَ العِيشِ
وَخَفَضًا، وَجَمَعَ بَعْدَ الأَفْتراقِ بَعْضًا مِنَّا وَبَعْضًا ؛ وَيَسرُّ لِي بِطَولِهِ ومِنتِهِ أَن يَصَفَحَ
عَنِّي وَأَنْ يَرْضَى ، من مَوْضِعِ كذا ، وَلا جَدِيدَ إِلا نِعَمٌ مِنَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ تُراوِحُ

وَتُعَادِي، وَتَجْرِي الخَوَاتِمُ مِنْهَا عَلَى حُكْمِ الْمَبَادِي، وَشَوْقٌ إِلَيْكُمْ يَعْمُرُ أَحْنَاءَ صُلُوعِي
وَفُؤَادِي، وَيَجْسِمُ عَنِّي قَطِيعِي دَمِيعِي الْهَتُونِ وَسَهَادِي، وَاللَّهُ جَلٌّ وَعَزٌّ يَسِّرُ أَنْقِضَابَ
غُرْبَةِ النَّوَى، وَيُرِيحُ النَّفُوسَ مِنْ مُحْرِقِ اللَّوْعَةِ وَلَا عِجَجَ الْجَوَى؛ وَالْأَمْرُ كَذَا وَكَذَا.

المهية الثاني

(في الأجوبة)

(وهي على ما تقدم في أجوبة المشاركة من أنها على ضربين)

الضرب الأول

(أن يفتح الجواب بما يفتح به الابتداء، ثم يقع التعرض

إلى وُصول الكتاب، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجي :

وَعِنْدَكَ الْكَرِيمُ - أَدَامَ اللَّهُ عَزَّكَ - دِينَ، وَقَضَاؤُهُ شَرَفٌ وَزَيْنٌ، وَمِثْلُكَ مِنْ تَحْلِي
بِحَاسِنِ الشِّيمِ، وَزَاوَجَمَ فِي السِّيَادَةِ بِالْمَنْكِبِ الْعَمَمِ؛ وَحَفِظَ الْعَهْدَ لِمَا أُضِيعَ، وَأَشْتَرَى
الْمَجْدَ بِمَا بِيَعُ؛ وَالتَّرَمَ لِلْوَفَاءِ شَرْطًا لَا يُفْسَخُ، وَرَأَاهُ شَرْعًا لَا يُسَخَّ؛ وَوَصَلَ كِتَابَكَ الْعَزِيزُ
فِي مَعْنَى كَذَا وَكَذَا.

الضرب الثاني

(أن يفتح الجواب بورود الكتاب وُصوله ابتداء)

كما كتب ابن أبي الخصال :

وَرَدَ كِتَابُكَ فِي أَمْرِ فُلَانٍ يَفْرِضُ الْجَمَلَ عَلَيْهِ فِي التَّفْوِذِ لِوَجْهَتِهِ، وَالتَّقَدُّمَ إِلَى رُتْبَتِهِ،
وَلَيْسَ عِنْدِي إِلَّا عَوْنٌ وَإِنْجَادٌ، وَطَاعَةٌ وَأَتْقِيَادٌ، غَيْرَ أَنَّ فِي الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا.

الجملة الثانية

(في خواتم المكاتبات على اصطلاحهم ، وهي على أساليب)

منها — أن يُحتم الكتاب بالسلام المجرد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجي في خاتمة كتاب :

وأقرأ عليك سيدي ، وأسنى عددي ، أجرل السلام وأحفله ، وأتمه وأكمله .

ومنها — أن يُحتم بالدعاء .

كما كتب أبو المطرف بن الباغ في خاتمة كتاب :

والله لا يُخلى مولاي من عيدٍ يسترقه ، ومنعم يُنعم عليه [بما] يستحقه ، وجميل يُوليه ، وصنع يُسديده ، بمنه وجميل صنعه .

ومنها — أن يُحتم بذكر التودد والمحبة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب في آخر كتاب :

وإن لم يكن لي من الحق ما لا أتبسّط به عليه ، فلي من الود ما أمّت به إليه ، فحسى به سلماً إلى فضلك ، وذريعة إلى مجديك ، إن شاء الله تعالى والسلام .

ومنها — أن يُحتم باستمحة النظر في أمر المكتوب عنه .

كما كتب أبو المطرف بن المنثي في خاتمة كتاب :

ولك الطول العام ، والفضل الزاهر ، في اعتبار أمرى ، وتحقيق خبرى ، والسلام ؛ إلى غير ذلك من الخواتم التي تستدعيها المكاتبة وتستوجبها المقاصد ، وفيما ذكر من الصدور والخواتم ابتداءً وجواباً مقنع لمن تأمل ، والله المستعان في الأمر كله .

المقصد الثالث

(في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية، وفيه ثلاثة مصطلحات)

المصطلح الأول

(ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية وماقاربه مما جرى

عليه ابن عبد كان وغيره، وفيه ثلاثة مهايح)

المهَيِّحُ الأول

(في الصدور، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(الابتدآت، ولهم فيه أساليب)

الأسلوب الأول

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء، وعليه غالب كتابتهم، وهي على أنماط)

منها — الدعاء بطول البقاء وما في معناه .

كما كتب ابن عبد كان في صدر مكاتبة : أطال الله بقاءك ، ففي إطالته حياة الأنام وأنس الأيام والليالي ، وأدام عزك ، ففي إدامته دوام الشرف ونمو المعالي ؛ وأتم نعمته عليك فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تكره الآلاء مكانه ، ولا تتكر الفواضل محله .

وكما كتب : عمر الله بك الأزمنة والدهور ، وأنس ببقائك الأيام والشهور ، وأمتع بدوام عزك السعداء بمحظهم منك .

ومنها — الدعاء بدوام النعمة .

كما كتب : أسبغ الله عليك نعمة الراهنة بنعمة المستظفر، وصانها لَدَيْكَ بإيزاع الشكر عليها ، فلم أرَ والله الحمد نعمةً قصدتْ مستقرَّها ، وتوختْ وليَّها ، وتمنتْ كُفُوها ، إلا نعمتك أكسبتْ أولياءها عزًّا ونصرةً ، وملاأتْ أعداءها ذلَّةً وغضاضةً ، وتمكَّنتْ محلَّ الصيانة والرعاية ، وخيمتْ بمستقرِّ الشكر والحمد .

ومنها — أطراح الدعاء بدوام النعمة لتقيدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفى الله عزَّ وجلَّ مؤونة الدعاء، لنعمتك بالثناء : لأنها توختْ لَدَيْكَ محلَّها ، فحلتْ بفنائك سازه ، مطمئنة قاره ، تستوثرُ مهادها قبلك ، وتسهنى مواردها عندك ؛ ولم تزل تائقةً إليك ، متطلعةً نحوك بما استجمع لها فيك : من لطيف السياسة وحسن الاحتمال لأعباء المغارم ، فهناكها الله متصلة البقاء بطول مدة بقائك ، ومتحليةً بحسن فنائك ؛ فلا زلتْ لعوارف النعم مستدعيًا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتريًا ؛ وبدوام الحمد رُدْفها مستمرًا .

ومنها — الدعاء بجعلات فِداك .

كما كتب : جعلني الله فِداك ، فإنَّ في ذلك شرفًا في العاجل ، وذخر العقبى في الآجل ، وخير تراثٍ لخلفي من بعدى . دعاء أخلصته النبيه ، وصدقته الطوية .

ومنها — أستكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلتُ في كُتبي إليك : جعلني الله فِداك ، فأكون قد بحسنتك حظَّ إحسانك إليّ ، وحقَّ مفترضك عليّ : لأنها نفسٌ لا تُوازنُ ساعةً من يومك ، ولا تُوازي طرفةً من دهرك ، وإنما يُفدى مثلك بالأنفس التي هي أنفس من الدنيا وأعرض من أقطار الأرض .

ومنها - تَقْدِيَةُ النِّعْمَةِ إِعْظَامًا لَهَا :

كما كتب : جعلني الله فِدَاءَ نِعْمَتِكَ الَّتِي عَلَتْ ذِرْوَةَ سَنَاْمِهَا ، وَفَاضَتْ دِرَّةً سَمَائِهَا ، فَعَمَّرَتْ أَقْفَارَ الْآمِلِينَ ، وَنَضَّرَتْ جَنَابَ نَاحِيَةِ الْمُعْتَمِدِينَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِصَلَاحِ الدُّنْيَا وَغِبْطَةِ الْآخِرَةِ :

كما كتب : أَسْعَدَكَ اللهُ بِعَوَاقِبِ قَضَائِهِ وَقَدْرِهِ ، وَوَهَبَ لَكَ الصَّلَاحَ فِي دِينِكَ وَالسَّلَامَةَ فِي دُنْيَاكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِكَيْتِ الْعَدُوِّ :

كما كتب : مَكَّنَ اللهُ يَدَكَ مِنْ نَاصِيَةِ عَدُوِّكَ بِالصَّوْلَةِ عَلَيْهِ ، وَمِنْ زِمَامِ وِلَايَتِكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ ، وَبَلَّغَكَ مِنْ كِلْتَا الْحَالَتَيْنِ مَا يَتِمُّ عَلَى تَأْمِينِكَ ، وَيُوفِّي عَلَى تَمْنِيكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ وَالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ :

كما كتب : أَدَامَ اللهُ أُنْسِيَّ بِحَيَاتِكَ ، وَحَرَسَنِي مِنَ الْغَيْرِ فِي نِعْمَتِكَ ، وَأَكْرَمَنِي بِصِيَانَةِ أَيَّامِكَ وَوِلَايَتِكَ ، وَأَعَزَّنِي بِذُلِّ عَدُوِّكَ وَقَمَعِ حَاسِدِيكَ .

ومنها - الدِّعَاءُ بِطَيْبِ الْحَيَاةِ :

كما كتب : عِشْ أَطْيَبَ الْأَعْمَارِ ، مُوَفًِّ مِنْ سُوءِ الْأَقْدَارِ ، مَبْلَغًا نِهَائِيَّةً الْآمَالَ ، مَغْبُوطًا فِي كُلِّ الْأَحْوَالِ ، لَا يَنْقُضِي عَنْكَ حَقٌّ عَارِفِيَّةً حَتَّى تُجَدِّدَ لَكَ أُخْرَى أَجَلَّ مِنْهَا ، وَلَا يَمُرُّ بِكَ يَوْمٌ مِنَ الْأَيَّامِ إِلَّا كَانَ مُؤْمِنًا عَلَى أَمْسِهِ مَقْصِرًا عَنْ فَضْلِهِ غَدِهِ .

ومنها — الدعاء باقتضاء العدل والإنصاف :

كما كتب : جعلك الله ممن ينظر بعين العدل ، وينطق بلسان القسط ، ويزن بقسطاس الحق ، ويكيل بمعيار الإنصاف .

ومنها — الدعاء بإيزاع الشكر .

كما كتب : وصل الله لك كل نعمة يُنعمها عليك من الشكر بما يكون لحقها قاضيا ، ولزيد إليها داعيا ، ومن الغير مؤمنا ، وللسلامة موجبا .

ومنها — الدعاء للحاج بالبلاغ .

كما كتب : أوطاك الله في مسيرك أوثر المطايا ، وخولك فيما نويته أسبغ العطايا ، وأوردك الهداية إلى كريم المشاهدة وزكى المواقف وأولاها بالزلفة المقبولة ، والقربة المأمولة .

ومنها — الدعاء للسافر .

كما كتب : جعلك الله في حفظه وكنفه ، وأحاطك بحيطته ، وجعل سفرك أيمن سفرٍ عليك ؛ ورجع لك بدرك الحاجة ، وبلوغ الأمل ، ونجح الطلبة ، ونيل السؤل .

ومنها — الدعاء بالعافية من المرض .

كما كتب : مسح الله ما بك ، وعاد بالبر عليك ، وعجل الشفاء لك ، ومحص بلواك .

ومنها — الدعاء للوالة .

كما كتب : أجرى الله بالخير يدك ، وصمما (؟) بالبر طرفك ، وأوطأ كل مكرمة قدمك ، وأطال إلى كل غاية هممك ، وبلغك أقصى محبتك .

ومنها - الدعاء في الأُصْحِيَّةِ بِقَبُولِ النَّسْكِ .

كما كتب : جعلك الله بِقَبُولِ النَّسِيكَةِ والقُرْبَانِ ، فائزًا بالأجر والرضوان ، مُخْلِصًا لله بالإيمان ، في السر والإعلان ، مؤدبًا لما أقرضَ عليك ، شاكرًا لإحسانه إليك .
ومنها - الدعاء بالهناء في الأعياد .

كما كتب : عَرَّفَكَ اللهُ في هذا العيدِ المَبَارَكِ من السَّلَامَةِ وعمومِها ، والعافيةِ وشُمُولها ، والعارِفةِ وسُبُوغها ، والحِياطةِ وكِمالها ، والحِمايةِ وجمالها ، أفضلَ ماعرَّفَكَ في ماضِي أعيادِكَ ، وسالِفِ أعوامِكَ .
ومنها - الدعاء بدفعِ النوائِبِ .

كما كتب : كان اللهُ جاركَ من بَخَائِعِ الدَّهْرِ ونُوبِهِ ، ووليَّ إِنْعامِ النِّعمَةِ فيما آتَاكَ من فَضْلِهِ ، وتَطَوَّلَ عَلَيْكَ من حُسْنِ الحِياطةِ لما تَوَلَّأَكَ والذَّبِّ عَمَّا أَفَادَكَ .

الأسلوب الثاني

(أن تفتح المكتابة بلفظ : كتابي أو كتبت)

فأما كتابي ، فكما كتَبَ ابنُ عبدِ كان : كتابي إليك ، وأنا أَسْتَعْتِبُ الأيَّامَ فيكَ ، وَأَصانِعُ الزَّمانَ في تَقْرِيبيكَ ، ورُبُّعِ الحِوارِ الذي كما نَسُكُنُ تحتَ ظِلِّهِ ، وِنتَفِيًّا بِرِوَقِ جَمالِهِ ، بأجلِّ مُخَفِّهِ ، وأيسرِ أُلْفِهِ ، وأعَدَبِ مُشاهِدِهِ ، وأصدَقِ مُشاهِدِهِ ، ولعلَّ أن يَرْتاحَ فيشعَبَ صَدْعًا ، ويؤلَّفَ جَمعًا .

وأما كتبت ، فكما كتَبَ ابنُ عبدِ كان أيضًا ؛ كتبتُ وأنا من حِينِ الصَّبابةِ إِلَيْكَ ، وإِرْزامِ الشُّوقِ نَحْوِكَ ، وألِيمِ التَّشوقِ إِلَيْكَ ، ولايِحِ اللُّوعَةِ بِكَ ، على ما سألُ اللهُ أن يرحمَ ضَعْفِي وَيَتصدَّقَ عَلَيَّ بِرؤيتِكَ ، وَيَهَبَ لي النَظَرَ إلى وَجْهِكَ وَجَمالِ عَمْرَتِكَ ، التي هي حَلِيفُ الجَدَلِ ، ونُزْهَةُ الأملِ .

الأسلوب الثالث

(أن تُفْتَحَ المَكَاتِبُ بِالْحِطَابِ بِأَنَا)

كما كتب : أنا من جُملة صَنَائِعِكَ ، وَحَفَظَةِ وَدَائِعِكَ ، وَشُكْرَةِ إِحْسَانِكَ ،
مَتَى تَصَرَّفْتُ فِي البِلَادِ ، فَأَنَا المَعْرُوفُ بِمَعْرُوفِكَ ، وَالعَائِشُ بِجَدْوَالِكَ ، وَأَنْتَ مَنزَعُ
هَمَّتِي وَفُورَةَ عَيْنِي ، وَمَدَارُ أَمَلِي ، وَمَحَلُّ رَجَائِي .

الضرب الثاني

(الأَجْوِبَةُ)

وَأَبْتَدَأُهَا إِذَا كَانَ فِي الصُّدُورِ الأَبْتِدَاءَاتُ كَمَا تَقَدَّمَ ثُمَّ يَقَعُ التَّعَرُّضُ لَوْصُولِ الكِتَابِ ؛
وَإِذَا بَانَ تُصَدَّرُ بِوَصُولِهِ وَهُوَ الأَكْثَرُ .

كما كتب ابن عبدِ كَانٍ : وَصَلَ كِتَابُكَ فَدَفَعَ تَبَارِيحَ الشُّوقِ ، وَقَعَّ كَأَبَّةَ البَيْنِ ،
وَأَطْفَأَ هَيْبَ الحُرُوقِ ، وَبَرَّدَ حَرَّ الصَّبَابَةِ .

وَمَا كَتَبَ : وَصَلَ كِتَابُكَ مُشْتَمِلًا مِنْ أَنْوَاعِ البِرِّ ، عَلَيَّ مَا يَقْصُرُ فِي جَنْبِ أَيْسَرِهِ
أَعْظَمُ الشُّكْرِ .

وَمَا كَتَبَ : وَصَلَ كِتَابُكَ المَصْدَرُ بِجَوَاهِرِ لَفِظِكَ ، وَبِدَائِعِ مَعَانِيكَ ، وَمَحَاسِنِ
نَظْمِكَ ؛ مُسْتَوْدِعًا مَا لَا يُقَدَّرُ عَلَيَّ حَمْدُهُ وَشُكْرُهُ إِلاَّ بِالْإِعْتِرَافِ بِالعَجْزِ عَنْهُ ؛ وَمَا
أَشْبَهَ ذَلِكَ .

المهيمع الثاني

(في خواتم الكتب)

وكان آختم المكاتب عند أهل هذا المصطلح على ما تقدم في مكاتب أهل
المشرق من استمحة الرأي : إما بلفظ فإن رأيت :

كما كتب ابن عبد كان : فإن رأيت أن تأتي فيه مؤنفاً ، ما لم تزل تأتيه سلفاً ، فعلت .
وإما بلفظ فرأيتك .

كما كتب : فرأيتك فيه بما أنت أهله ، فإن الرأي [الذي] أنت أهله ، فوق
ما يلتمسه المشرق في همته ، والمتبسط في أمينته .

وكما كتب : فرأيتك في ذلك بما تقضى به الحق وتصل به الذمام ، وتحفظ به
الحرمة وتصدق به الأمل ، وتقعد به الصنعة ، وتستوجب به الشكر .

المهيمع الثالث

(في عنوانات الكتب)

ومصطلحهم فيه على نحو ما تقدم في مكاتب أهل المشرق : من كتابة إلى فلان
من فلان ؛ أو من فلان إلى فلان .

فأما ما يكتب إلى فلان من فلان . فكما كتب ابن عبد كان : للسيد الذي
أستعبد الأحرار بفضله .

وكما كتب : لمن قره به يمن وسعادة ، ونأيه نكد ومحنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صريح الشوق إليه ، وأسير الرقة عليه .

وكما كتب : ممن لا يتنى الخير إلا له ، إذ كان لا يناله إلا به .

المصطلح الثاني

(من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال في الدولة الأيوبية

مما جرى عليه القاضي الفاضل ومن بعده . وهو على قسمين)

القسم الأول — الأبتداء : وليس لمصطلحهم ضابط في الأبتداء ولا في الترتيب في الرِّفْعَة والضَّعَة ، بل أفتتاحاتهم في ذلك متباينة .

فمن ذلك الأفتتاح بالدعاء ، وهو أكثر ما يقع في مكاتبتهم ، والغالب في ذلك الدعاء للجلّس ، كما كتب القاضي الفاضل إلى العماد الأصفهاني : أدام الله أيام المجلس التي لحسنات المدلّ مديله ، ولعثرات المقلّ مقيله ، ولمعاطف العزّميّه ، ولمقاطف الفوز منيّه ، ولقداح الجدوى مجيله ، ولا زالت الآراب بمكارمه باجحه ، والآراء بمراسمه ناجحه ، ومتاجر المفاخر بمولاته راجحه ، وأيدي الآمال لأيديه بمصافاته مصافحه ، وأرواح أوليائه بروح آلائه في مواطاة أعطياته عابقه فأئحه ، وأدعية الداعين لآيامن أيامه ، المدعين لعهود إنعامه ، طيبة صالحه .

ومن ذلك أفتتاح العماد الأصفهاني في اعتذار تأخر المكاتبات : إن تأخرت مكاتباتي ، فإن العذر معلوم ، والأجر محتوم ، والقلم مصدود ، واللقم مسدود ، والبلد محصور .

إلى غير ذلك من أساليبهم المشهورة التي لا يسع أستيعابها ، ولا حاجة إلى الإمعان في ذكرها .^(١)

(١) لم يذكر القسم الثاني وهو قسم الكلام على الخواتم ولم يترك له بياضا نعم يفهم ذلك مما تقدم في الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصطلح الثالث

(من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات، ماجرى عليه الأصلاح في الدولة التركية، مما رتبته القاضى محى الدين بن عبد الظاهر، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمقر الشهابي بن فضل الله، ومن جرى مجراهم: من فضلاء الكُتاب إلى زماننا، مما هو دائريين أعيان الملكة وأكابر أهل الدولة: من تواب السلطنة وسائر الأمراء والوزراء، ومن في معانهم: من أعيان الكُتاب ومن نهج نهجهم من أرباب الوظائف)

وفيه مهيعات:

المهيع الأول

(في رتب المكتبات المصطلح عليها)

وقد اختلفت مقاصدهم في ترتيبها اختلافاً متقارباً في الزيادة والنقص والتقديم والتأخير، مع مراعاة أصول المراتب. وها أنا أذكر ما استقر عليه الحال من ذلك، وأنبه على ماخالفه من ترتيبهم المتقدم الذكر: لتحصّل الإحاطة به، ويعلم ماجرى عليه أهل كل عصر منهم مما لعلّ مختاراً يختاره، أو ينسج على منواله، منها على وهم من وهم في شيء من ذلك.

وأعلم أنهم قد بنوا هذا النوع من الإخوانيات على قاعدتين، تتعين معرفتهما قبل الخوض في رتب المكتبات:

القاعدة الأولى — فيما يتعلق بورق هذه المكتبات.

قد جرت العادة أن تكون جميع هذه المكتبات: من الأعلى إلى الأدنى، ومن الأدنى إلى الأعلى، ومن النظير إلى النظير، في ورق قطع العادة دون ما فوقه من مقادير

قَطَعَ الورق المتقدمة الذكر ، غير أن أعيان أهل الديار المصرية يكتبون في الورق المصرى ، وأعيان أهل الشام يكتبون في الورق الشامى : لكثرة وجوده عندهم ، والمعنى في ذلك أن كتب السلطان الصادرة عنه إلى جميع أهل المملكة من الثواب وغيرهم في هذا القطع ، فلا جائز أن تعلقوا مكتبة أحد منهم على مكتبة السلطان في ذلك .

ثم قد أصطلحوا على أن يكون في أعلى المكتبة عن كل أحد من أعيان الدولة قبل البسملة وصل واحد بياضا ، إذ كان أقل ما يجعل بياضا في كتب السلطان وصلين فاقصروا على وصل واحد ، كي لا يساويه غيره في ذلك . وأصطلحوا أيضا على أن لا تقصص المكتبات المذكورة عن ثلاثة أوصال : الوصل الأبيض في أعلى المكتبة على ما تقدم ، ووصلان مكتوبان : إذ لو نقص عن ذلك ، لخرج الكتاب في القصر عن الحد فيزدري ، أما لو دعت الضرورة إلى الزيادة على الثلاثة لزيادة الكلام فلا مانع منه . وأصطلحوا على أن يترك للكتاب حاشية بيضاء تكون بقدر رُبع الدرّج على ما تقدم ذكره في غير هذا الموضع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلق بخط هذه المكتبات ، وكيفية أوضاعها .

قد أصطلحوا على أن جميع هذه المكتبات تكتب بقلم الرقاع على ما تقدم ذكره في الكلام على قطع الورق [من] أن لقطع العادة قلم الرقاع . وأصطلحوا أيضا على أن تكون كتابة البسملة في أول الوصل الثانى من المكتبة ، وأن يكون تحت الجلالة من البسملة لقب المكتوب عنه المضاف إلى ملكه أو أميره ؛ فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كتب السلطنة وغيرهم من الأمراء والوزراء ومن في معانهم من رؤساء الكُتاب السلطانية ، كتب الملكى الفلانى — بلقب ملكه السلطان ؛ مثل الملكى الظاهرى ونحو ذلك كما في هذه الصورة :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَلِكِ الظَّاهِرِيِّ

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأُمراء كإستدّار أميرٍ ونحوه، أنتسب في كتابته إلى لقب أميره الخاصِّ مما يُضَاف في التلقب إلى الدّين؛ فإن كان أميرُه لقبه سيفُ الدّين مثلاً، كُتبَ بدَل المَلِكِ الفلانيّ: السيفيّ؛ وإن كان لقبُ أميره ناصرِ الدّين كتبَ الناصريّ؛ وإن كان لقبُه علاءَ الدّين كتبَ العَلّائيّ؛ ونحو ذلك. وإذا كتب تحت الجلالة من البسملة المَلِكِ الفلانيّ ونحو ذلك، جعل ما قبله في السطر بياضاً وما بعده بياضاً، ويكون ذلك قطعةً من سطر مفردةً بذاتها. وأصطلحوا على أنه كلما دقَّ القلم وتقاربت الأُسُطر، كان أعلى في رتبة المكتوب إليه، وكلما غلظَ القلم وتباعدت الأُسُطر كان أنزل في رتبة المكتوب إليه. وأصطلحوا على أن في الرتبة العلية من المكاتبات يكون السطرُ الأوّل من المكاتبَةِ نَلَوَ المَلِكِ الفلانيّ وما في معناه ملاصقاً له، وفيما دونَ ذلك من المكاتبات يُترك بياضٌ يسير، ولا يكتُبُ فيه شيءٌ؛ وكأن المكتوبُ عنه يقولُ للمكتوب إليه هذا محلُّ العلامة، ولكنّي قد تركت الكتابة فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدباً معك ورفعةً لقدرك؛ وفيما دونَ ذلك يُترك بياضٌ أوسع من ذلك ويكتُبُ فيه المكتوبُ عنه علامته على ما سيأتي بيانه في مواضعه إن شاء الله تعالى. وأصطلحوا على أنه بعد آتهاء الكلام في المكاتبَةِ يكتُبُ "إن شاء الله تعالى" في خطّه؛ ثم يكتُبُ التاريخ في سطرين: اليوم والشهر في سطر، والسنة في سطر؛ ثم تكتب الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في سطر؛ ثم الحسبلة في سطر على ما تقدم بيانه في الكلام على القَوَاتِحِ والخَوَاتِمِ في المقالة الثالثة.

وَلْيُعْلَمَ أَنَّ هَذِهِ الْمَكْتَابَاتِ عَلَى قَسْمَيْنِ :

القسم الأول — الأبتداءات ، وهو على أربع درجاتٍ سبق توجيه ترتيبها في الكلام على أصول المكاتب ، في أول هذه المقالة

الدرجة الأولى — [المكاتب] بتقريب الأرض ، وهي أعلاها رتبةً بالنسبة إلى المكتوب إليه .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ كُتَّابِ الزَّمَانِ يَظُنُّونَ أَنَّ الْمَكْتَابَةَ بِقَبْلِ الْأَرْضِ مِنْ مَخْتَرَاتِ كُتَّابِ الدَّوْلَةِ التُّرْكِيَّةِ ، بَلْ بَعْضُهُمْ يَظُنُّ أَنَّهَا مِنْ مَخْتَرَاتِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ وَبَلَيْسَ كَذَلِكَ ؛ بَلِ الْمَكْتَابَةُ بِذَلِكَ كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بِبَغْدَادَ ، ثُمَّ سَرَتْ إِلَى الدِّيَارِ لِلْمِصْرِيَّةِ فِي أَوَائِلِ الدَّوْلَةِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، فَاسْتَعْمِلَتْ بَعْضَ الْأَسْتِمَالِ ، وَالْمَكْتَابَةُ بِذَلِكَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ الْقَاضِي الْفَاضِلِ فِي بَعْضِ الْمَكْتَابَاتِ الْمُلُوكِيَّةِ ؛ وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ إِلَى السُّلْطَانِ « صِلَاحِ الدِّينِ يُوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ » فِي صَدْرِ كِتَابِ تَهْنِئَةٍ بِمَوْلُودَ :

الْمُلُوكُ يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَامِ الْعَالِي النَّاصِرِيِّ ، نَصَرَ اللَّهُ الْإِسْلَامَ بِمَقَامِهِ ، وَأَهْلَكَ أَعْدَاءَ الْحَقِّ بِأَنْتِقَامِهِ ، وَلَا أَعْدَمَ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ عَقْدَ التِّزَامِهِ ، بِكَفَالَتِهَا وَمَضَاءِ اعْتِرَازِهِ . ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ الْكُتَّابُ بَعْدَ ذَلِكَ حَتَّى كَاتَبَ بِهِ الْآحَادُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ،

وَقَدْ رَتَّبُوا الْمَكْتَابَةَ بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ فِي الْمِصْطَلَحِ الْمُسْتَقَرَّرِ عَلَيْهِ الْحَالُ عَلَى نَحْمَسِ مَرَاتِبَ :

المرتبة الأولى — الإتيان بالإنياء بعد يقبل الأرض من غير تعرضٍ لذكرٍ دعاءٍ ولائشاءٍ ، مع مراعاة الاختصار وعدم السجع وتقارب السطور ، مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذي تحت البسملة :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ ، وَسؤالُ الْمَمْلُوكِ مِنَ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةِ بُرُوزَ
 الْأَمْرِ الْعَالِيَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ ، أَوْ الْمَمْلُوكِ يُعْرِضُ عَلَى الْآرَاءِ الْعَالِيَةِ كَيْتَ وَكَيْتَ ،
 وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَيُحْمِ الْكَتَابَ بِقَوْلِهِ : أَنهَى ذَلِكَ ، أَوْ طَاعَ بِذَلِكَ ، وَالْآرَاءُ الْعَالِيَةَ مِنْ يَدِ
 الْعُلُوِّ ؛ وَيَعْبَرُ عَنِ الْمَكْتُوبِ عَنْهُ فِي خِلَالِ الْمَكَاتِبَةِ بِالْمَمْلُوكِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي خِطَابِ
 الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ : فَإِنْ كَانَ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَهُوَ نَائِبُ سُلْطَنَةِ خُوطَبَ بِمَوْلَانَا
 مَلِكِ الْأَمْرَاءِ عَزَّ نَصْرُهُ أَوْ عَزَّ اللَّهُ أَنْصَارَهُ ؛ وَإِنْ كَانَ أَمِيرًا غَيْرَ نَائِبِ سُلْطَنَةِ ،
 خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الْمُخْدُومِ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ سَيْفٍ
 خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا رَبِّ قَلِمٍ ، خُوطَبَ بِمَوْلَانَا الصَّاحِبِ ،
 وَرَبِّمَا قِيلَ مَوْلَانَا الْوَزِيرِ ؛ وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا خُوطَبَ بِمَوْلَانَا قَاضِيِ الْقُضَاةِ ؛ وَإِنْ كَانَ
 عَالِمًا كَبِيرًا ، خُوطَبَ بِمَوْلَانَا شَيْخِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِنْ كَانَ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَةِ ، خُوطَبَ
 بِمَوْلَانَا شَيْخِ الشُّيُوخِ ؛ وَعَلَى ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَرَاتِبِ وَالْوِطَائِفِ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ رَأْيُ
 الْكَاتِبِ بِمَا يُنَاسِبُ الْحَالَ .

وَالعنوانُ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ : الْفُلَانِيَّ مَطَالَعَةُ الْمَمْلُوكِ فُلَانٌ ، وَيَعْبَرُ عَنِ ذَلِكَ : بِالْفُلَانِيَّ
 بِمَطَالَعَةٍ . وَقَدْ يَعْبَرُ عَنِ ذَلِكَ عَنِ نَفْسِ الْمَكَاتِبَةِ . وَصُورَتُهُ : أَنْ يَكْتُبَ فِي رَأْسِ ظَاهِرِ
 الْمَكَاتِبَةِ مِنَ الْجَانِبِ الْأَيْمَنِ « الْفُلَانِيَّ » بِاللَّغَبِ الْخَاصِ بِالْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ ، كَالسَّيْفِيِّ ،
 وَالنَّاصِرِيِّ ، وَالشَّمْسِيِّ ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ ؛ وَيَكُونُ ذَلِكَ مَمْتَدًا إِلَى نَحْوِ رُبْعِ عَرْضِ
 الدَّرَجِ ، وَتَحْتَهُ فُلَانٌ بِمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُ مِنْ وَظِيفَةٍ أَوْ شُهْرَةٍ . فَإِنْ كَانَ نَائِبَ سُلْطَنَةِ
 كَتَبَ تَحْتَ الْفُلَانِيَّ : مَوْلَانَا مَلِكِ الْأَمْرَاءِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ وَزِيرًا كَتَبَ :
 مَوْلَانَا الْوَزِيرِ بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ . وَإِنْ كَانَ قَاضِيًا قُضَاةً ، كَتَبَ : مَوْلَانَا قَاضِيِ الْقُضَاةِ

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

المرتبة الثانية — أن يأتي بعد « يَقْبَلُ الأَرْضَ » بذكر الدعاء دُونَ التَّسَاءِ مع تَقَارُبِ الأَسْطَرِ أيضاً وَاجْتِنَابِ السَّجْعِ . وقد أَصْطَلَحُوا في هذه المَكْتَابَةِ على أن يَكْتُبُوا تحتَ البِسْمَلَةِ مع لَقَبِ المَكْتُوبِ عنه الذِي هو المَلِكِيُّ الفُلَانِيّ ونحوه لَقَبَ المَكْتُوبِ إليه : كَالسِّيْفِيِّ ونحوه ، على سَمْتِ المَلِكِيِّ الفُلَانِيّ من الجِهَةِ اليَمْنِيِّ مع بَيَاضٍ بَيْنَهُمَا ، بحيث يَقَعُ بعضُ اللَقَبِ في حَاشِيَةِ الكِتَابِ ، وبعضُه تحتَ أَوَّلِ البِسْمَلَةِ على هذه الصُّورَةِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الملكى الظاهرى

السيفى

ثم يأتى بصورة المَكْتَابَةِ بعد ذلك . ويختلف الحال في هذه المَكْتَابَةِ بِاخْتِلَافِ حَالِ المَكْتُوبِ إليه ، فإن كَانَ نَائِبَ سَاطِنَةٍ ، كتب « يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهَى بعدَ رُفْعِ الأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، أو بعدَ آتِبَالِهِ إلى الله تعالى بالأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ ، تَقْبَلُهَا اللهُ تعالى من المَمْلُوكِ ومن كُلِّ دَاعٍ مَخْلِصٍ ، ببقاء مولانا ملكِ الأُمَرَاءِ ، أو بدَوَامِ أيامِ مولانا ملكِ الأُمَرَاءِ ، وَخُلُودِ سَعَادَتِهِ ، ومزِيدِ تَأْيِيدِهِ ، وعلُوِّ دَرَجَاتِهِ في الدُنْيَا والآخِرَةِ ، بِمُحَمَّدٍ وآلِهِ : أنَّ الأُمَرَائِ كَيْتَ وَكَيْتَ ، والمَمْلُوكِ يَسْأَلُ الصَّدَقَاتِ العَمِيمَةَ ، أو الصَّدَقَاتِ الكَرِيمَةَ ، أعزَّ اللهُ تعالى أنصَارَهَا بِرُوزِ الأَوَامِرِ المَطَاعَةِ بِكَيْتَ وَكَيْتَ . ثم يقول : والمَمْلُوكُ مَمْلُوكُ مولانا ملكِ الأُمَرَاءِ وَعَبْدُ بَابِهِ وَنَشْءُ إِحْسَانِهِ ، ويسألُ تَشْرِيفَهُ بِمَرَاسِمِهِ وَخِدْمَتِهِ ، أو المَمْلُوكِ يَسْتَعْرِضُ المَرَاسِمَ الكَرِيمَةَ ، وَالخِدْمَةَ العَالِيَةَ ، لِيُبَادِرَ إلى امْتِنَانِهَا ، وَالقُوَّةِ بِقَضَائِهَا ، أو المَمْلُوكِ مَمْلُوكُ الأَبْوَابِ العَالِيَةِ وَنَشْئُهَا وَغَلَامُهَا ، ويسألُ دَوَامَ النَظَرِ الكَرِيمِ عَلَيْهِ في أَحْوَالِهِ كُلِّهَا ، ونحو ذلك مما يَقتَضِيهِ الحالُ ، وقد جَهَّزَ المَمْلُوكُ

بهذه المكتبة فلاناً أو مملوكه فلانا . فإن كان قد حمّله كلامَ مشافهةٍ ، قال : وحمّله من المشافهة ما يسأل الصدقة عليه بسماعه والإصغاء إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذلك والرأى العالى أعلاه الله تعالى أعلى . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخدوم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضياً ، كتب « ببقاء مولانا قاضى القضاة ، أو بدوام أيام مولانا قاضى القضاة » . وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب « ببقاء مولانا شيخ الشيوخ » ونحو ذلك ، وبقى المكتبة على ما تقدم بحسب ما يقتضيه الحال . والعنوان فى هذه المكتبة « الأبوابُ الفلانية ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعبر عن ذلك بالأبواب بمطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلاف حال المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائب سلطنة ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العالمةُ ، المولويةُ ، الأميريةُ ، الكبيرةُ ، المالكيةُ ، المخدوميةُ ، الكافيةُ ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالى فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإن كان المكتوب إليه أميراً غير نائب سلطنة أسقط منه الكافية . وإن كان وزيراً رب سيف ، كتب بعد الأميرية : الوزيرية . وإن كان وزيراً رب قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحبية . وإن كان من رؤساء الكُتاب من فى معنى الوزراء : ككاتب السرّ ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ونحوهم ، أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقاضوية . وإن كان قاضى حُكم ، أتى مع القاضوية قبل الفلانية بالحاكية . وإن كان من مشايخ الصوفية أبدل القاضوية بالشيخية ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أول عرض الدرّج سطرًا إلى آخر المالكية ، ويحلّ بياضاً فى آخر السطر بقدر ربع الدرّج ، ثم يكتب المخدومية الفلانية فى أول

السطر الثاني مُلاصقًا للأول ، ثم يُحلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتب : أعلاها الله تعالى ، ثم يُحلى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتب « فلان الفلاني » تحت آخر السطر الأول ؛ ثم يكتب في آخر الدرّج من الجهة اليسرى بعد خلوّ بياض « مطالعة المملوك فلان » ثلاثة أسطر على ما تقدم في العنونة بالفلاني بمطالعة كما في هذه الصورة :

الأبواب الكريمة ، العالية ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، المالكية ، مطالعة
المخدومية ، السيفية أعلاها الله تعالى أمر دَوَادار الظاهري المملوك
فلان

والعلامة « المملوك فلان » بقلم ضئيلٍ مُسامتٍ يقبل كما في المكتبة قبلها .

قال في « التثقيف » : وبهذه المكتبة يُكتب عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائب الشام وحلب فيما أُظن .

قال : وكذلك كان يكتب المقرّ العلاءي بن فضل الله كاتب السرّ الشريف إلى المشار إليه ، يعني نائب حلب ، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفل الكتاب دون أعلاه .

قلت : وعلى هذا يكون للعلامة في هذه المكتبة رُتبتان ، إن عظمه ، كتب له العلامة على سمت يقبل ، وإلا ففى أسفل الكتاب ؛ ومن ثم ذكرت قول صاحب « التثقيف » هنا وإن كان محله رُتب المتكاتبين على ما سأتى ذكره في موضعه إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة — أن لا يكتب في أول المكتبة عن يمين أسفل البسملة الفلانيّ ويأتي بذكر الدعاء والثناء مسجوعا ؛ مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذي هو المملوك الفلاني : يقبل الأرض ، ويُنهى بعد رفع دعائه ، وإخلاصه في محبته وولائه ، وأعرافه بإحسان مولانا وجزيل آلائه ؛ أن الأمر كيت وكيت ؛

والمملوك يسأل إحسانَ مولانا، أو صدقاتِ مولانا، أو إحسان المخدم، أو صدقاته في كَيْتٍ وكَيْتٍ ؛ ثم يقول : والمملوكُ فهو مملوك مولانا ومُحِبُّهُ ، والداعي لإحسانه ، ويسأل تشریفه بمراسيمه وخدمته ؛ وقد جهَّز المملوكُ بهذه العبودية فلانا، أو مملوكه فلانا، وحمله من الدعاء والولاء ما ينهيه من لسانه، ويُعرب عنه ببيانهِ ؛ أو وقد حمَّله المملوكُ ما يقومُ عنه به في إنهائه، من رصف الأديعة، ووصف الأئنية ؛ والمملوكُ يسأل الإصغاءَ إليه، والتشريفَ بالمراسيمِ العاليةِ والخدمِ الكريمة : ليفوزَ بإقبالها، ويُبادرَ إلى أمثالها . طالعَ بذلك ، أو أنهى ذلك ؛ أو والمملوكُ يستعرضُ المراسيمِ العاليه، والخدمِ الكريمة المتواليه : ليتشرفَ بقضاها، ويتشوفَ إلى إضاها .

صدر آخر : ويُنهى بعد رَفْعِ الأديعه ، وبثِّ الحامدِ والأئنيه ، والموالاة التي نيجلُ منها علي الألوِيه ، أن الأمر كَيْت .

آخر : ويُنهى بعد رَفْعِ دعائه الذي لا يقترُ لسأته عن رَفْعِهِ ، ولا يخفى إن شاء الله إبانَ نفعه ، وأبتاله الذي يرفعُ السُّحبَ ، وشوقه الذي يهْدِي النَّجْبَ ؛ أن الأمر كَيْتٍ وكَيْتٍ .

آخر : ويُنهى بعد دُعائه المقبول ، وشوقه الذي لا يحولُ عنه ولا يزول ؛ وسلامه الذي يعجزُ عن شرحه القلمُ ويضعفُ عن حمله الرسول .

آخر : ويُنهى بعد دُعائه يرفعه بالغدو والآصال ، وولاءٍ لا يتغيرُ مادامتِ الأيامُ والليال ، وثناءٍ أطيَّبَ من عَرَفَ الرُّوضِ إذا مرَّ عليه نَسِيمُ الشَّمالِ ، أن الأمر كَيْتٍ وكَيْتٍ .

آخر : ويُنهى بعد رَفْعِ الدعاء ، ونصبِ لواءِ الولاء ، وجرِّ ذِيولِ الفِخْرِ بالانتسابِ إلى عبودية مولانا والإعتراء ، أن الأمر كَيْتٍ وكَيْتٍ .

آخر : وينهى بعد دعائه المرْفُوع ، وثناؤه الذى هو كالمسك يَضُوع ، وشكره الذى يُسَمَعُ منه ويُسَمَعُ أَطِيبُ مَسْمُوع ، أَنَّ الأَمْرَ كَيْتَ وَكَيْتَ .

والعنوان لهذه المكاتبه «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيف وهو نائب سلطنة، كتب «الأبواب الكريمة، العالیه، المولوية، الأميرية، الكبيرة، السيدية، المالكية، المخدمية، الكافلية، الفلانية، أعلاها الله تعالى» ثم يقال : نائب السلطنة الشريفة المحروسة ؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة ؛ وباقي عنوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيف والأفلام على ما تقدم في العنونة بالأبواب بمطالعة .

وصورة وضعه أن يكتب «الأبواب الكريمة إلى آخر الكافلية» مثلا سطرًا واحدًا من أول عرض الدرّج إلى آخره ؛ ثم يكتب «الفلانية أعلاها الله تعالى» في أول السطر الثاني ملاصقًا له ؛ ثم يترك بياضًا قدر رأس إبهام ؛ ثم يكتب في آخر السطر الثاني «كافل الممالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما في هذه الصورة :
 الأبواب الكريمة ، العالیه ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ، السيدية ، المالكية ، المخدمية ، الكافلية ،
 السيفية ؛ أعلاها الله تعالى كافل الممالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة في ذيل الكتاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «الملوك فلان» وكأنتهم لما آنحطت رتبة المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامة إليه على سمت «يقبل» ليكون في معنى القصّة كما تقدم ، أخذ المكتوب عنه في التنازل إلى آخر المكاتبه تواضعًا للمكتوب إليه وتأدبًا معه .

قال في «التتقيف» وبذلك كان يُكتب عن الأمير يلبغا العمري: يعنى الخالصكى وهو أتايك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلى نائبي الشام وحلب .

قال : وكذلك كتب بعده إلى المذكورين : الأمير منكلي بغا ، والأمير الجاى ،
وتؤاب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبة الرابعة — أن يأتى بصدر المكتبة على ماتقدم فى المكتبة قبلها من
الابتداء بيقبل الأرض ويُنهى بعد رفع دعائه وما فى معناه على ماتقدم من غير فرق :
ولا يختلف الحال فى الصدر ولا فى متن الكتاب ، والعنوان « الباب الكريم » ولا يكون
إلا بغير مطالعة . فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب « الباب
الكريم ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ،
المالكي ، المخدومى ، الفلانى ؛ أعلاه الله تعالى ، فلان الفلانى — باسم المكتوب إليه .
وإن كان من أرباب الأقاليم أو غيرهم فعلى ماتقدم فى « الأبواب بمطالعة » من إبدال
الأميرى بالقضائى ، أو الشيخى ، وزيادة قاضى الحكم الحاكمى قبل الفلانى .

وصورة وضعه : الباب الكريم — بالألقاب المتقدمة إلى آخر المالكي سطرًا
واحدا من أول عرض الدرّج إلى آخره ؛ ثم يكتب المخدومى الفلانى أعلاه الله تعالى
فى أول السطر الثانى ، ويترك بياضا ، ثم يكتب فلان الفلانى باسم المكتوب إليه
أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، المالكي .
المخدومى ، السيفى ، أعلاه الله تعالى
بهادر أمير اخور الأشرقى .

تنبيه — كل ما كان العنوان فى الباب الكريم ، كان العنوان فى المسافرين « الخيم »
بدل الباب ، وبقى الألقاب على حالها كما نبّه عليه فى « التثقيف » وغيره ؛ والعلامة
فى آخر المكتبة مقابل حسبي الله ؛ إذ لمّا كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابل

تحت الحَسْبَلَة كانت العلامةُ فيما فَوْقَ ذلك أنزَلَ في رُتْبَةِ المَكْتُوبِ إليه وأعلى في رُتْبَةِ المَكْتُوبِ عنه .

المرتبة الخامسة — يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ الشريف . والرَّسْمُ فيه أن يَتْرَكَ بعد البِسْمَلَةِ وما تحتها من المَلَكِي الفلاني قدرَ سطرٍ أو سَطْرَيْنِ بياضاً ؛ ثم يكتب يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ الشريف ؛ ويختلف الحال فيه : فإن كان المَكْتُوبُ إليه من أرباب السُّيُوفِ ، كتب « يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ الشريف ، العالی ، المَوْلَوِيّ ، الأَمِيرِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَادِلِيّ ، المُوَيْدِيّ ، الذُّخْرِيّ ، الظَّهْرِيّ ، المَسْنَدِيّ ، الرِّعْمِيّ ، المَالِكِيّ ، المَخْدُومِيّ ، الفلاني ، أعزَّ اللهُ تعالى أنصارَه ، وأعلى مَنَارَه ، وضاعف مَبَارَه ، ويُنْهِئِي بعد وصفِ مَجْدِه ، وبَثَّ أَثْنَيْتَه ، كَيْتَ وِدَيْتَ ، والمسئُولُ من إحسانه كَيْتَ وَكَيْتَ » وربما كتب : « والمملوكُ يسألُ كَيْتَ وَكَيْتَ » كما في المَكْتَابَاتِ السابقة ؛ أو « والمملوكُ يسألُ تشريفَه بمِراسِمِه وخِدْمَه ، والله تعالى يُدِيمُ عليه سِوَايَغَ نِعْمَه » .

دعاء آخر لهذه المَكْتَابَةِ : أعزَّ اللهُ تعالى أنصارَه ، وأدامَ أَتْنِصارَه ، وجعل على غَايَاتِ النُّجُومِ أَقْتِنِصارَه ، ويُنْهِئِي .

آخر : لازالتِ الرِّقَابُ لِمَهَابَتِه خاضِعَه ، والرِّكَابُ به فَوْقَ النُّجُومِ وَاضِعَه ، وأجِنَّةُ السُّيُوفِ بِمَضَارِ به منِ ماءِ الأعداءِ راضِعَه ، ويُنْهِئِي .

آخر : لازالتُ أعلامُه مُشْرِفَه ؛ وأقلامُه مُصَرِّفَه ، وأيامُه بطِيبِ شائِه بين الخافِقِينَ مُعْرِفَه .

آخر : لازالتِ الدنيا ببقائه مُجَمَّلَه ، والعلِيَاءُ لِأرتقائه مُؤَمَّلَه ، والنَّعْمُ على أختلافها جواهرَ مَكْمَلَه ، ويُنْهِئِي .

قلت وربما أتى بصورة الإنهاء مسجوعة أيضا؛ مثل أن يكتب : ويُنهى بعد تعبه بولائه، وقيامه بحقوق آلائه . أو ويُنهى بعد دعاء يقوم بوظائفه، وولاء يتردى بمطارفه . أو ويُنهى بعد رفع أديته، وقطع العمر في موالاته وعبوديته، ونحو ذلك . وعلى ذلك جرى في "عرف التعريف" إلا أن الغالب في كتابة أهل الزمان إهماله . والعنوان إن قصد تعظيمه : الباب العالى - بألقاب الباب الكريم في المكتبة قبلها، إلا أنه يُحذف منها الكريم . وإن لم يقصد تعظيمه فالمقر الشريف بالألقاب التي في صدر الكتاب . وصورة وضعه في الباب العالى على ما تقدم في الباب الكريم : أن يأتي به في سطرين كاملين من أول عرض الدرّج إلى آخره، كما في هذه الصورة :

المقر الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبرى ، العالى ، العادلى ، المؤيدى ، الذخرى ، الظهيرى ،
المستدى ، الزعيمى ، المالكى ، المخدومى ، السيفى ، أعز الله تعالى أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس
والعلامة في هذه المكتبة « المملوك فلان » بقلم الرقاع ، بأسافل الكتاب ، مقابل
إن شاء الله تعالى .

وأعلم أن هذه المراتب الخمس هي الدائرة في المكتبات بين كُتاب زماننا بملكمة الديار المصرية وما جرى على نهجها، والمعنى في ترتيبها على هذا الترتيب أنه في المرتبة الأولى منها حذف الدعاء والثناء المقتضيان للدالة من المكتوب عنه على المكتوب إليه ، وأقتصر على السير من الكلام دون الكثير الذى فيه سامة المكتوب إليه وإسجاره ، عند قراءة الكتاب ؛ وعُنوانت بالفلانى كالسيفى ونحوه، من حيث إنه لقب مؤد إلى رُفعة ؛ وأتى فيه بمطالعة المملوك فلان ، إشارة إلى التصريح بالرق والعبودية من المكتوب عنه للمكتوب إليه مع إقامته في مقام الرُفعة بذكر لقبه المؤدى إلى رُفعة قدره - وفي المرتبة الثانية أتى فيها بالفلانى داخل المكتبة دون

العنوان فكانت أنزل مما قبلها : من حيث إنَّ العُنْوَانَ ظاهراً وباطنَ المكتابَةِ خفيٌّ^١ والظاهر المؤدَّى إلى الرفعة أعلى من الخفيِّ من ذلك ، وأُتِيَ بالدعاء فكانت أنزل رتبةً من التي قبلها لما تقدّم من أنّ الدعاء فيه معنى الدالّة ، وأجتنب فيه السجع من حيث إنَّ في الإتيان به تفاعلاً على المكتوب إليه ، وعُنُونَ الأبواب إشارةً إلى شرف محلِّ المكتوبِ إليه من حيث الإشعارُ بأن له أبواباً يُوقَفُ عليها ؛ وجعلتْ دونَ المرتبة الثانية من حيث إنَّ العُنُونَةَ في المرتبة الأولى باللَّقبِ المؤدَّى إلى الرفعة مع دلالاته على الذات . وفي الثانية عُنُونَ الأبوابِ الموصّلة إلى محلِّ الشخص ؛ ولا يخفى أنّ مادلاً على نفس الشخص أعلى مما هو موصّل إلى محله ؛ وأُتِيَ فيها بمطالعة المملوك فلان إشارةً إلى التصريح للمكتوبِ إليه بالرقِّ والعبودية كما تقدّم في المرتبة الأولى - وفي المرتبة الثالثة حذف منها الفلاني المؤدَّى إلى الرفعة من داخل المكتابَةِ فكانت أنزل من التي قبلها فأُتِيَ فيها بذلك ؛ وأُتِيَ بالدعاء مسجوعاً فكانت أنزل مما قبله لما في السجع من التفاح على المكتوب إليه ، وأسقط من عنوانه مطالعة المملوك فلان فكانت أنزل من حيث إنّه لم يقع فيه تصريحٌ بـرقِّ وعبودية كما في المرتبة الأولى والثانية - وفي المرتبة الرابعة بقي الصّدْرُ على حاله وعُنُونُ فيها بالباب بلفظ الإفراد ، فكانت أنزل مما قبلها ، من حيث إنّ الإفراد دونَ الجمع بديلٌ أنه بعضٌ من أبعاضه - وفي المرتبة الخامسة قيل يُقبَلُ الأرض بالمقرّ ؛ يعني مقرّ المكتوبِ إليه ، فكانت أنزل مما قبلها من حيث إشعارُ ذلك بالقرب من محله بخلاف يُقبَلُ مطاق^(٢) الأرض فإنه لا يخصر في ذلك ، ثم إنَّ عُنُونَتَ بالباب العالی مجرداً عن الكريم ، كانت أنزل مما عُنُونُ فيه بالكريم لما جرى عليه الاصطلاح من رفعة رتبة الكريم العالی

(١) لعله دون المرتبة الأولى ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعلّة التي ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغير أن تقيّد بالمقر .

على العالى المجرد عن الكريم ، على ما تقدم في الكلام على الألقاب في المقالة الثالثة ، وإن عُنُونَتِ بالمَقَرِّ الشريف فهي على أنْحَطَّاطِ الرتبة عما قَبَلَهَا من حيثُ إشعاره بقُربِ المحلِّ من المكتوب إليه . على أنَّ في عُنُونَةِ هذه المكتبة بالمَقَرِّ الشريف نظراً ، فإنَّ أعلى مَرَاتِبِ الْإِبْتِدَاءِ في المكتبة بالدعاء هي الدعاء للمَقَرِّ الشريف ، وهو بعد تقبيل الباسِطِ والباسِطَةِ واليدِ على ما سيأتى ذِكرُه في الدرجة الثالثة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فُرِّبَ التَّبَسُّعُ عنوانُ هذه بعُنُونِ تلكَ قبل فَضَّها ، والوقوفُ على صَدْرِها هل هو مَفْتَتِحٌ يَقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ أو بالدعاء للمَقَرِّ ، إلَّا أنَّ كُتَّابَ الزمان قد رَفَضُوا المكتبة بالدعاء للمَقَرِّ الشريف وأقْتَصَرُوا على الدعاء للمَقَرِّ الكريم ، إذ كان هو أعلى ما يَكْتَبُ به عن السلطان لأكابرِ أمراءِ المملكة على ما تقدم ذِكرُه في الكلام على مكاتباتِ السلطان إلى أهلِ المملكة في المقالة الرابعة .

قلت : وفي الدساتير المؤلَّفة في الإخوانِيَّاتِ في الدولة التُّرْكِيَّةِ في الزمنِ السابقِ ما يخالِفُ بعضَ هذا الترتيب ، بفعل في "عُرْفِ التعريف" أعلى المراتبِ يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهِي كَيْتَ وَكَيْتَ ، والعنوانُ «الفلافي بمطالعة» على ما تقدم ذِكرُه في الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعينه ، والعنوان «الأبوابُ بمطالعة» . ودونه : كذلك والعنوان «الأبوابُ» بغير مطالعة . ودونه : « يَقْبَلُ الأَرْضَ بالمَقَرِّ الشريف ، والعنوان إما البابُ العالى أو المَقَرِّ الشريف » .

وفي دُستورِ يُعزَى لبعضِ بنى الأثير أنَّ أعلى المراتبِ يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهِي كَيْتَ وَكَيْتَ على ما تقدم . ودونه : « يَقْبَلُ الأَرْضَ ويدعو مثلُ يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهِي بعد رفع دعائه الذي لا يفتُرُ لسانُه عن رَفْعِهِ ؛ ولا يخفى إن شاء الله إِبَّانُ

نَفْعَهُ . ودونه : « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مثل : يَقْبَلُ الْأَرْضَ حَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ الزَّمَانِ ، وَأَكْتَنَفَهَا بِالْأَمَانِ ، مِنْ صُرُوفِ الْحَدَثَانِ ، وَلَا زَالَتْ مَحَطَّ وَفُودِ الْجَدَا ، وَكَعْبَةَ قُصَادِ النَّدَا ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَصِفُهَا ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الْأَرْضَ الَّتِي هِيَ مُلْجَأُ الْعَفَاةِ ، وَمَلْتَمَّ الشَّفَاةِ ، وَمَحَلُّ الْكَرَمِ الَّذِي لَا يَنْجِبُ مِنْ اقْتِفَاةِ ، وَمَقْصِدُ الرَّاجِي الَّذِي إِذَا عَوَّلَ عَلَيْهِ كَفَاةِ ، وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » . ودونه « يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيَدْعُو لَهَا ، مثل أن يكتب : يَقْبَلُ الْأَرْضَ لِأَزَالَتْ مُحْرُوسَةَ الرَّحَابِ ، هَامِيَةَ السَّحَابِ ، فَسِيحَةَ الْجَنَابِ ، لَمَنْ أَنَابَ ؛ وَيُنْهَى كَيْتَ وَكَيْتَ » .

وجرى في "التثنيف" على الترتيب المتقدم في المرتبة الأولى والثانية والثالثة والرابعة على ما تقدم في المراتب الخمس السابقة، وجعل المرتبة الخامسة يقبل الأرض مع وصفها على ما تقدم في الدستور المنسوب لبعض بني الأثير مع العنونة بالباب العالی، وجعل يقبل الأرض بالمقرّ الشريف مرتبة سادسة مع العنونة بالباب العالی أو المقرّ الشريف .

وفي غير هذه الدساتير ما يخالف بعض ذلك في الترتيب والتقديم والتأخير؛ وفي بعض الدساتير بعد تقبيل الأرض تقبيل العتبات، مثل أن يكتب : يُقْبَلُ الْعَتَبَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَبْرَحَتِ مَطْلَعِ السُّعُودِ ، وَمَنْبَعِ الْجُودِ ، وَمَهْيَعًا لِلْقَامِ الْحُمُودِ . أو : يَقْبَلُ الْعَتَبَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَزَالَتِ الْأَفْلَاقِ تَمَّتْ أَنَّهَا بِهَا تُخْفَ ، وَأَنَّهَا لِنَجْمِهَا إِلَيْهَا بِحَوْضِ الْوَالِدِينَ (؟) تَرْفُ . أو : يُقْبَلُ الْعَتَبَاتِ الْكَرِيمَةِ ، لِأَزَالَتِ الْأَمَالِ بِهَا مُطِيفُهُ ، وَالسُّعُودِ لَهَا حَلِيفُهُ ، وَسَعَادَتُهَا لِأَسْتِخْدَامِ كُلِّ ذِي إِسْمَامٍ مُضِيفُهُ .

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر إلا أن يكون انحطاطها من حيث صيغة الدعاء تأمل .

ولا يخفى أن بعض هذه الاختيارات غير مُحْكَمِ الأساس، ولا موضوع على أصل يقتضى صحة الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجع إلى التسهل، كلما تقدم متقدم في دولة من الدول أحب أن يؤثر مخالفة غيره، ويجعل له شيئا يُجِدُّه لِيُنَسَّبَ إليه ولا يُبَالَى وافق في ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وَقَلَّ مَنْ يَصِيبُ الغَرَضَ في ذلك . على أن تقديم بعض هذه المراتب على بعض في العلوِّ والهبوط إنما هو من جهة استحسانه، لو تكلف المتكلف تأخير ما تقدم فيها أو تقديم ما أخر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانية

(المكتبة بتقيل اليد، وقد رتبوا ذلك على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى — يُقْبَلُ الباسطُ الشريف ، وهي الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسم فيها أن يترك الكاتب تحت المَلِكِيّ الفلاني بعد البسملة قدرَ سَطْرَيْنِ بياضًا كما في المسألة قبلها ، ويختلف الحال في ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيف، كتب : يقبل الباسط الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادى ، المؤيدى ، السيدى ، المالكى ، المخدمى ، المحسنى ، الفلانى ؛ لازلت ساحتُه مقبله ، وسماحتُه مؤمله ، ويُنْهَى بعد وصف خدَمه ، وشُوبت قيامه فيها على قدمه ، أن الأمر كيت وكيت ؛ والمسئول من إحسانه كيت وكيت ؛ والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

دعاء آخر : يليق بهذه المكتبة ؛ يقال بعد تكملة الألقاب : لازلت نِعْمه باسطه ، وأيامه لعقود الأيام واسطه ، ويُنْهَى كيت وكيت .

آخر: لازال جناح كرمه مبسوطا، وجناب حرمه من المخاوف محوطا،
ويُنهي كيت وكيت .

آخر: لازال يُصرف الأئنة والأسنة، ويقلّد أعناق أعدائه كلُّ أجل
وأعناق أودائه كلِّ منه، ويُهيى .

آخر: لازالت حائل السيف تتسابق إلى بنانه، وأعقاب الرماح تأوى
إلى أنامله: لِيُمكِّنها من قلوب أعداء الله يوم طعانه، ومُتون الخيل متحصّنة بعزائم
فيقوى جنانها بجنانه .

آخر: لازالت رحي حروبه على أعدائه تُدار، وأسنة رماحه تُنادى الأعداء
البدار البدار، وجنوده تقايل سفرة الوجوه إذا قاتل الأعداء في قرى محصّنة أو
من وراء جدار .

آخر: لازالت أعلام النصر معقودة بأعلامه، وجواري اليم السعيد معدودة
من خدامه، وسطور البأس والكرم مُثبتة إما بأفلام الخط من رماحه وإما برماح
الخط من أفلامه .

آخر: لازالت الأئنة والأسنة طوع يمينه وشماله، والآمال والأحوال
تحت ظلال كرمه وكرم ظلاله، والسيف والأفلام: هذه جارية بعوائد بأسه،
وهذه جارية بعوائد نواله .

آخر: ولازالت وجوه النصر تُترأى في مرعاة صفاحه، وثمار النصر تُجتنى
من أغصان رماحه، ولا يرح السيف والقلم يتباريان في ضرّ الأعداء ببأسه ونفع
الأولياء بسماحه — وإن كان المكتوب إليه وزيراً ربّ سيف، كتب بعد الأُميرى
«الوزيرى» — وإن كان وزيراً ربّ قلم، كتب قبل الفلاني أيضا الصاحبيّ —

وإن كان من أعيان الكُتَّاب: ككاتب السَّرِّ وناظر الخاصِّ وناظر الجيش وناظر
الدَّولة وکُتَّاب الدَّست ونحوهم ، كتب بدل الأميرِ القَضَائِيّ ؛ ثم يكتب للجميع
بعد الوزيرِ أو القَضَائِيّ ؛ العالميّ ، العادليّ ، الممهّديّ ، المشيّدیّ ، المالکیّ ،
المخدوميّ ، المحسنيّ ، الفلانيّ ؛ أسبغ الله تعالى ظلاله ومدّها ، وشيّد به مباني الملك
وشدّها ، ووهب الأيام منه هبةً لا تستطيع الليالي ردّها ؛ وينهى كيت وكيت .

دعاء آخر يليق بهذه المكتبة ، يقال بعد تكلمة الألقاب ، ولا زالت أقلامه
تروّع الأسد في آجامها ، وتزيد على الغيوث في أنسجامها ، وتعلم الرّماح الإقدام
إذا نكصت لإحجامها ، وينهى .

آخر : ولا زالت الدُّول مشيّدّة بتصرفه ، مجدّدة لتشريفه ، مؤيّدّة بين صرير
القلم وصريره .

آخر : ولا زالت أقلامه تهزأ بالغيوث الهامية ، وأنعمته تفوق على البحار
الظامية ، وموارد إحسانه تأوى إليها الوفود الظامية .

آخر : وأدام القصد لبابه ، ونزول الآمال برحابه ، وصعودها إلى سحابه .

آخر : لازال فسيحا للقاصد جنابه ، مجرّبا للنّاجح بابه ، صريحا في ابتغاء خير
الدينا والآخرة طلابه — وإن كان من القضاة الحُكّام ، كتب : يُقبّل الباسط
الشريف ، العالی ، المولویّ ، القَضَائِيّ ، العالميّ ، الإماميّ ، العلّامیّ ، السيّدیّ ،
المالکیّ ، المخدوميّ ، المحسنيّ ، الحاکیّ ، الفلانيّ ؛ أعزّ الله تعالى أحكامه ،
وجملّ به الدهر وحُكّامه ، وثبّت به الأمر وزاد أحكامه ، وينهى كيت وكيت .
دعاء آخر يناسبه : يقال بعد تكلمة الألقاب : أعزّ الله تعالى أحكامه وأنفدّها ،
وتدارك به الأمة وأنفدّها ، وأسعفّ به الملة الإسلامية وأسعدّها ، وينهى .

آخر: نَضَرَ اللهُ الدِّينَ بِنُورِهِ ، وَسَقَى الْغَمامَ باقِيَ سُوْرِهِ ، وَحَمَى حِمَى الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِمَا ضَرَبَ عَلَيْهِ مِنْ سُوْرِهِ .

آخر: وَجَمَلَ الدَّهْرَ بِمَنَاقِبِهِ ، وَزَيَّنَ سَمَاءَ العِلْمِ بِكُؤُوبِهِ ، وَلَا زَالَ الزَّمَانُ يَقُولُ لِمَنْصِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِشَخْصِهِ وَرَأْيِهِ : * عَزَّ يَدُومُ وَإِقْبَالَ لِصَاحِبِهِ * .
آخر: وَأَمْضَى بِيَدِهِ سِوْفَ الشَّرْعِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامُهُ ، وَأَعْلَى طُرُوسِ العَدْلِ وَالْحَقِّ فَإِنَّمَا أَعْلَامُهُ ، وَلَا زَالَتْ يَدُ القَصْدِ مُشِيرَةً إِلَيْهِ ، وَلَا يَنْعَقِدُ إِلَّا عَلَيَّ ثَنَاتِهِ خِصْرٌ وَلَا يَنْجَلِي إِلَّا يُهْدَاهُ إِيَّاهُمْ .

آخر: وَسَدَّدَ سِهَامَ الحَقِّ بِأَفْضِيَّتِهِ ، وَشَيَّدَ أَرْكَانَ الشَّرْعِ بِأَبْنِيَّتِهِ ، وَأَيَّدَ الإِسْلَامَ بِأَقْلَامِ سِجِّلاتِهِ القَائِمَةِ لِلنَّصْرِ مَقَامَ أَلْوِيَّتِهِ — وَإِنْ كَانَ المَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ مَشايخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : يُقْبَلُ البَاسِطَ الشَّرِيفَ ، العَالِيَّ ، المُوَلَّوِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العَالِمِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الخَاشِعِيَّ ، النَّاسِكِيَّ ، السَّيِّدِيَّ ، المَالِكِيَّ ، المَخْدُومِيَّ ، المُحْسِنِيَّ ، الفَلَانِيَّ ؛ لَا زَالَ يِقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فِسادَ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَيَجْلُو دُجَى الظُّلْمَاءِ بِصَبَاحِهِ ، وَيُنْهِي .

آخر: وَنَفَعَ بِيَرَكَاتِهِ فِي الرُّوحَاتِ وَالغَدَوَاتِ ، وَجَمَلَ بِبِقَائِهِ المَحَافِلَ وَالْمَلَوَاتِ ، وَبَسَطَ فِي صَالِحِ الدُّوَلِ [يَدَهُ] : إِمَامًا فِي مِبَاشَرَتِهِ بِصَالِحِ التَّدْبِيرِ وَإِمَامًا فِي انْقِطَاعِهِ بِصَالِحِ الدَّعَوَاتِ .

والعنوان في هذه المكاتبة «الباسط الشريف» بالألقاب التي في صدر المكاتبة على السواء، والدعاء له بأول سبعة من دعاء الصدر أو نحوها، بحسب حال المكتوب إليه ، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف ، أعزَّ اللهُ تعالى نصره ؛ أو عزَّ

نَصْرُهُ . ولئن هو من رُؤساء الكُتَّاب : أسبغ اللهُ ظِلَّالَهُ . ولئن هو قاضى حُكْم :
أعزَّ اللهُ أحكامه . ولئن هو من مشايخ الصوفية : أعاد اللهُ من بَرَكَاته .

وصورة وضعه فى الورق أن تكتب الألقاب والدعاء والتعريف فى سطرين
كاملين من أول عَرْض الورق إلى آخره ، إلا أنه يُفصل بين الألقاب والدعاء
ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياض لطيف كما فى هذه الصورة .

الباسط الشريف ، العالى ، المولوى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، السيدى ،
المالكي ، المخدومى المحسنى ، الفلانى أعزَّ اللهُ أنصاره أمير حاجب بحلب المحروسة

وقد ذكر فى "عرف التعريف" : أنه إن قصد تعظيمه ، عنونه بالمقر الشريف
بالألقاب المتقدمة على السواء ، ولا تخفى صورة وضعه بعد ما تقدم ، والعلامة
«المملوك فلان» بقلم الرقاع مقابل إن شاء الله كالمكتبة بالمقر الشريف المتقدمة .

(١)

المرتبة الثانية — [يقبل الباسطة الشريفة] والرسم فيها أن يترك تحت الملكية
الفلانى قدر سطرين بياضاً كما فى المكتبة قبلها ، ثم يكتب يقبل الباسطة الشريفة
بالتأنيث ، ويمجرى الحال فى ذلك كما فى الباسط — فإن كان المكتوب إليه من أرباب
السيوف ، كتب : يقبل الباسطة الشريفة ، العالمة ، المولوية ، الأميرية ، الكبيرة ،
العالمية ، العادلية ، المؤيدية الذخرية ، المالكية ، المحسنية ، الفلانية ؛ لازلت سحائبها
مستهلّة ، ومواهبها للبحار مستقلّة ؛ ويُنهى كيت وكيت ، والمستمد من محبته كيت
وكيت . وربما قيل والمسئول ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لازلت سيوها تملأ الرحاب ، وسيوفها تُسرع
السّل إلى الرقاب .

(١) زدنا هذه العبارة أخذاً مما سياتى على الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخر : لا زالت خناصرُ الحمدِ على فضلِ بنائها معقوده ، وما أثرُ البأسِ والكرمِ لها ومنها شاهدةٌ ومشهودة ، وبوآثرِ السُّيوفِ مُسيرةُ القصدِ إلى مُناصرةِ أعلامِها المنضودة .

آخر : ضاعف الله تعالى موائدِ نعيمِها ، وجوآدِ كرمِها ، وأتصالِ الآمالِ بمساقطِ ديمِها .

آخر : لا زالت الآمالُ لائذةً بكرمِها ، عائذةً بحرَمِها ، مستنجدةً على جذبِ الأيامِ بسقى ديمِها .

آخر : لا زالت لرُسومِ الكرمِ مقيمِها ، ولصنائعِ المعروفِ مُديمِها ، ولأيادي الإحسانِ متابعِةً إذا قصرتُ عن البروقِ ديمِها — وإن كان المكتوبِ إليه من رءوسِ الكُتُبِ كيتب بدل الأُميريِّ القضائيِّ ، والباقي على ما تقدم ؛ ثم يدعى له بما يناسبه . دعاء يناسب ذلك : لا زالتِ السُّيوفُ خاضعةً لأعلامِها ، والنجومُ خاشعةً لكلامِها ، والجبالُ متواضعةً لإعلاءِ أعلامِها .

آخر : لا زالت مولاتُها فريضةً ، وأجنحةُ أعدائها مهيبه ، ومقلُ الأسنَةِ إذا خاصمتها ألسنةُ أعلامِها غَضِيضه .

آخر : أسبغ الله ظلَّها ، وهنَّ بها أُمَّةٌ قَرَبَ مبعثُ زمانِها وأظلَّها ، وهدى الآمالَ وقد حيرَها الحرمانُ وأصلَّها .

آخر : لا زال قلمُها مفتاحَ الرِّزقِ لطالبه ، والجاهِ لكاسِه ، والنصرِ لمستنَّيبِ كُتُبِها عن كُتَّابِه .

آخر : لا زال رِفْدُها المطلوبِ ، وسَعْدُها المكتوبِ ، وقلمُها المُخاطبِ في مصالحِ الدولِ والمُخَطَّوبِ .

آخر : بَسَطَ اللهُ ظِلَّهَا وَلَا قَلَصَهَا ، وزادها من فَضْلِهِ وَلَا تَقَصَّهَا ، وَلَا جَرَعَ كَيْدَ حَاسِدِهَا الظَّامِيَةَ إِلَّا غُصَّصَهَا .

آخر : ولا زال عمياً إنعامها ، قديماً وحديثاً ديمها وإكرامها ، قاضية بسعدها النجوم التي هي خدامها .

آخر : لا زالت بسيطاً ظلها ، مديداً فضلها ، سريعاً إلى داعي الندى والردي قامها في المهات ونصلها - وإن كان من قضاة الحكم زاد مع القاضوى قبل الفلاني الحاكمي ودعا بما يناسب .

دعاء : أعزَّ اللهُ شأنها ، وأذلَّ مَنْ شأنها ، وأغصَّ بأدْمَعِ أَعْدَائِهَا الضَّرِيحَةَ شَانَهَا (١) .
دعاء آخر يليق بذلك : ولا زالت الآمال إليها وإفده ، والصلوات عائده ، ومعاني الفضل عن أخبار معني زائده .

آخر : لا زالت خناصر الحمد معقودة على فضل بنانها ، وفصل بيانها ، وعوائد الفضل والكرم شاهدة بالحسين من فضلها وأمتنانها - وإن كان من مشايخ الصوفية أبدال القضاية بالشيخية وأسقط العادلية والحاكمية ودعا له نحو قوله :
ومتع الإسلام ببقية الصالحه ، وبيض صحائف أعماله التي لأيدي الملائكة الكرام مصافحه .

آخر : لا أخلى الله من بركات خلواته ، وأعاد من نواحي دعواته ، وسواي درجاته وتوجهاته ، ونحو ذلك .

والعنوان الألقاب التي في صدر المكتبة ، والدعاء بالسجعة الأولى من الدعاء باطنه أو نحوها .

(١) الشأن مجرى الدعاء الى العين . قاموس .

وصورة وَضَعَهُ أَنْ تَكْتُبَ الْأَلْقَابَ وَالِدَعَاءَ وَالتَّعْرِيفَ فِي سَطْرَيْنِ كَمَا تَقَدَّمَ
فِي الْبَاسِطِ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ .

الْبَاسِطَةُ ، الشَّرِيفَةُ ، الْعَالِيَةُ ، الْمَوْلَوِيَّةُ ، الْأَمِيرِيَّةُ ، الْكَبِيرِيَّةُ ، الْعَالِمِيَّةُ ، الْعَادِلِيَّةُ ، الذَّنْحَرِيَّةُ ،
السَّنْدِيَّةُ ، الْكَامِلِيَّةُ ، الْمَحْسِنِيَّةُ ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَنْصَارَهَا أَمِيرِحَاجِبِ بِحِمَاةِ الْمَحْرُوسَةِ .
وَالْعَلَامَةُ « الْمَمْلُوكُ فَلَان » بِقَلَمِ الرَّقَاعِ فِي أَوَّلِ الْوَصْلِ الثَّلَاثِ عَلَى الْقُرْبِ مِنَ
اللِّصَاقِ .

الْمُرْتَبَةُ الثَّلَاثَةُ — يَقْبَلُ الْيَدَ الشَّرِيفَةَ بِالْقَابِ الْبَاسِطَةَ الْمُنْتَقِمَةَ ؛ ثُمَّ الْيَدَ الْكَرِيمَةَ ؛
ثُمَّ الْيَدَ الْعَالِيَةَ مَعَ حَذْفِ الْكَرِيمَةِ رُتْبَةً بَعْدَ رُتْبَةٍ ، وَالْأَلْقَابُ بِحَالِهَا وَيُدْعَى لَهُ ؛
ثُمَّ يُقَالُ وَالْمُسْتَمَدُّ مِنْ مَحَبَّتِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ . وَالْحَالُ فِي آخْتِلَافِ
بَعْضِ أَلْقَابِهَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى أَرْبَابِ السُّيُوفِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْبَاسِطَةِ .

وَهَذِهِ أَدْعِيَةٌ لِأَرْبَابِ السُّيُوفِ فِي هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ

دَعَاءٌ مِنْ ذَلِكَ : يُقَالُ بَعْدَ اسْتِكْمَالِ الْأَلْقَابِ : لَا زَالَتْ مَقْبَلَةُ الْبَنَانِ ، مُؤَمَّلَةٌ
الْإِحْسَانِ ، مَفْضَلَةٌ عَلَى أَنْوَاءِ السُّحُبِ بِكُلِّ لِسَانٍ ، وَيُنْهَى .

آخِرُ : لَا زَالَتْ تَرْدُّ بِالسُّيُوفِ صُدُورَ الْكُتَّابِ ، وَتَرِدُ الظُّمَاءُ مِنْهَا مَوَارِدَ
السُّحَابِ ، وَتُحَدِّثُ عَنِ الْبَحْرِ وَكَمْ فِي الْبَحْرِ مِنَ الْعَجَائِبِ .

آخِرُ : لَا زَالَتْ بَرِّهَا مَأْمُونَةٌ ، وَبَدَّيْهَا مَمْنُونَةٌ ، وَأَيَّامُهَا تَصْبِحُ الْأَعْدَاءَ بِأَسْتَبْهَا
الزُّرْقُ الْمَسْتُونَةُ .

آخِرُ : لَا أَخْلَى اللَّهُ مِنْ وُدِّهَا ، وَلَا قَطَعَ وَظَائِفَ حَمْدِهَا ، وَلَا قَضَى مَغِيبَهَا
إِلَّا جَعَلَ لَهَا ذِكْرِي بَعْدَهَا .

آخر: لازالت مصالحها تظفر بالني، وتحصل على الغنى، وتطلق لسانه
بعاطر الشا .

آخر: لازالت لتقليد المنن سابقة في الجود العدل، مقسمة في مكارم
التكريم: باطنها للندى وظاهرها للقبيل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعد استيفاء الألقاب: لازالت مستهلة بالندا، مستقلة بكتب العدا،
مطلة على النجوم على بعد ما بينهما من المدى .

آخر: لا برحت مفانحها مفضله، ومحبتها في الخواطر ممثله، والكواكب
تود لو فارقت فلكنها وأصبحت لديها مسبله .

آخر: لازالت لصحائف الإحسان مسطره، ولقلوب الأعداء مفضطره،
ولصنائع المعروف إذا أمسكت الأنواء مُمطره .

آخر: أعلى الله تعالى شأنها، وضاعف إحسانها .

والعنوان. اليد الشريفة، أو اليد الكريمة، أو اليد العالية، بالألقاب التي في صدر
الكتاب من غير زيادة ولا نقص؛ والدعاء بأول سبعة من المدعو به في صدر الكتاب
أو نحوها؛ والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه في الكتابة أن يكتب سطران على ما تقدم في الباسط والباسطة كما
في هذه الصورة :

اليد الشريفة، العالية، الملووية، الأميرية، الكبيرة، العالمية، العادلية، الذخرية،
المالكية، المحسنية، الفلانية . أعلى الله تعالى شأنها نائب ملطية المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، في آخر الوصل الثاني من الكتاب، على القرب من موضع لصاقه^(١).

وأعلم أنه ربما وُصف التقبيل في هذه المراتب بعد الدعاء بالأوصاف الدالة على زيادة التأدب ورفعة قدر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى في «عُرف التعريف». وقد يستعمله بعض كتّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول في تقبيل الباسط بعد استعمال الدعاء: تقبيلًا يحوم على مناهله، ويحلق نسر السماء على منازله؛ أو يقول: تقبيل محبٍّ أخلص ولاءه، ومحص الصدق ووفاءه - أو تقبيلًا يواليه، وينظم لآليه - أو تقبيلًا يواصل به الخدم، ويودّ لو سعى لأدائه على الرأس إن لم تُسعف القدم - أو تقبيلًا لا يروى الكرم إلا عنه، ولا تُستفاد المكارم إلا منه - أو تقبيل واريده على ذلك الزلال، رائد في ذلك الروض المتمد الظلال - أو تقبيل مسارع إليها، مزاحم عليها . وربما أتى في الإنهاء بما يلائم المقام، مثل أن يقول: وينهى بعد وصف خدمه، وتمنيه لو وقف في صفّ خدمه؛ وما أشبه ذلك .

قلت: وفي بعض الدساتير بعد تقبيل اليد العالمة، يُقبل يد الجناب الكريم، العالی، الأميری، الکبیری، العالی، المؤیدی، النصیری، الزعمی، الفلانی؛ وبعد ذلك: ینخدم الجناب الکرم بنحو هذه الألقاب؛ وفي «التثقیف» یقبل ید الجناب العالی، وینخدم الجناب العالی، بدون الکرم؛ ثم یقال بعد ذلك ویئدی لعلمه کیت وکیت؛ والقصد من محبته کیت وکیت؛ فحیط علماً بذلك. وبعضُ الكُتّاب يستعمل ذلك إلى الآن؛ وهو ذُهل، إذ سيأتي في أول الدرجة الثالثة أن أعلى المراتب المفتحة بالدعاء للدعاء للقرّ الشريف على المصطاح الأول، وللقرّ الكريم على ما استقرّ عليه الحال الآن؛ وإذا كان كذلك فكيف يتأتى أن تكون مرتبة من مراتب الجناب الكريم أو الجناب العالی قبل المقرّ الشريف أو المقرّ الكريم .

(١) الأظهر من موضع لصقه .

الدرجة الثالثة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتبوا المكاتبة بالدعاء على [ثلاث] مراتب ^(١):

المرتبة الأولى — الدعاء للمقتّر، والرسم فيه أن يُترك بعد «الملكى الفلانى» قدر عرض ثلاثة أصابع بياضاً، ثم يؤتى بصدر المكاتبة على سمت البسملة .

ويختلف الحال في ذلك : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب أعزّ الله تعالى أنصار المقتّر الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ، النصيرى ، الفلانى ؛ ثم يدعى له بما يناسب ، نحو: ولا زالت جيوشه جائله ، وجنوده بين الأعداء وبين مطأليها حائله ، وأولياؤه على صهوات خيلها لديه قائله ؛ أصدرناها إلى المقتّر الكريم ، تهدي إليه من السلام أطيبه ، ومن الثناء أطنبه ؛ وتبدي لعلمه الكريم أن الأمر كيت وكيت ؛ والقصد من اهتمامه كيت وكيت ؛ فيحيط علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكلمة الألقاب : وأيد عزائمهم ونصرها ، وأعلى أعلامه ونسرها ، ودقق في مقاتل الأعداء حيث تزور الأسنان نظرها ، وينهى .

آخر : ولا يرحح الآمال بكرمه تعترف ، وبوارق صوارمه لأبصار الأعداء تختطف .

(١) بياض في الأصل .

آخر : وأعلى قدره ، وأنفذ أمره ، أصدرناها .

وإن كان من رؤساء الكُتَّاب ، كتب : بسطَ اللهُ ظلَّ المقرِّ . أو أسبغَ اللهُ ظلالَ المقرِّ الكريم ، العالی ، القضاة ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، المؤيدى ، السيدى ، السندي ، المالكي ، المخدومي ، المحسني ، الفلاني ، وبقى المكتبة كما في أرباب السيوف .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

دعاءٌ يليق به : ولا زالتِ الأمورُ إليه مَفَوَّضه ، ومَضَارِبُ العِزِّ إلا عنه مَقْوَّضه ، وصحائفُ الحسَناتِ بتسويده على أثناءِ الدَّهرِ مُبَيَّضه ؛ أصدرناها .

آخر : وصرفَ لسانَ قلمه ، وشرفَ مكانَ قدمه ، وعرفَ من كان يُناويه أنه أصبحَ لا يُعدُّ من خَدَمه .

قلت : وقد ذكر في "عرف التعريف" أن القضاة والحكام لا مدخل لهم في المكتبة بالمقرِّ ، وعلى ذلك جرى في مشايخ الصوفية . على أنه قد كُتِبَ بذلك . وقد رأيتُ المكتبةَ بذلك في بعض الدساتير ؛ وحينئذ فُكِّتَبُ : أعزَّ اللهُ تعالى أحكامَ المقرِّ العالی ، القضاة ، الكبيرى ، العالمى ، العلامى ، الإمامى ، المالكي ، المحسني ، الحاكمي ، الفلاني ؛ ويُدعى له بما يناسب . مثل : وجدِّ له إقبالا ، وبلغه من الدارين آمالا ، وأحسنَ إليه مَبْدَأَ ومآلا ، ونحو ذلك . والباقي على نحو ما تقدَّم .

وهذه أدعيةٌ تناسب ذلك :

لابرح الشريعة محوطةً بأقلامه ، مضبوطةً بأحكامه ، منوطةً بما يُشيدُ مبانيها ومثانيها من أحكامه ، مؤرَّخةً أيامَ سُعودها بأيامه .

آخر : حرس الله بأحكامه سرح المدى ، ولا برحت فتاويه بها يقتدى ،
ويظهر على المناوين والمتدعين من تجريدها مهندا مهندا .

آخر : لا برحت أنوار فتاويه لامعه ، وسيوف أعلامها بها قاطعه ، وحدودها
إلى [موارد] أحكام الشريعة المحمدية شارعه .

والعنوان لهذه المكاتبه المقر الكريم بنظير ما فى الصدر ، والدعاء بأول سبعة
فى الصدر من الدعاء .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقاب والدعاء والتعريف
كما فى هذه الصورة :

المقرّ الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،
النصيرى ، الفلانى ؛ أعزّ الله تعالى أنصاره . فلان الفلانى
والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكاتبه .

المرتبة الثانية : الدعاء للجناب ، وهو على ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى — أعزّ الله تعالى نصرة الجناب الكريم . والرسم فيه أن يترك
تحت « الملكى الناصرى » عرض ثلاثة أصابع بياضا كما فى المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيف ، كتب : أعزّ الله تعالى نصرة
الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ، العونى ،
الذخرى ، العضىدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأعلى قدره ، وأفدّ أمره ،
صدرت هذه المكاتبه إلى الجناب الكريم ، تُهدى إليه سلاماً رائقاً ، وشاء عاقبا ،
وتوضّح لعلمه الكريم كَيْتَ وَكَيْتَ ، والقصد من أهتامه كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فيحيط علمه
بذلك ، والله تعالى يحرسه بمنه وكرمه .

وهذه أدعية تُناسِبُ ذلك .

دعاء منه : ولا زالت عزائمُه تُعير السُّيوفَ المِضَاءَ ، وتُعَلِّمُ السَّهَامَ التُّقُوذَ
في القِضَاءِ .

آخر : ولا زال جنابُه مرَّعًا ، وسحابُه مرَّبعًا ، ورُعبُه لا يدع من قلوب
الأعداءِ مَوْضِعًا .

آخر : ولا زالت عزائمُه تُباري السُّيوفَ ، وتُسِّقُ الصُّفوفَ ، وتُجارِي
إلى مَقَاتِلِ الأعداءِ الحُتُوفَ ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّابِ ، كتب : أدام الله تعالى جلالَ الجَنابِ الكريمِ ، العالى ،
القضائِيَّ ، الكبيرِيَّ ، الصِّدْرِيَّ ، الرَّئِيسِيَّ ، العَوْنِيَّ ، الغِيَاثِيَّ ، المَلَاذِيَّ ، الفلَانِيَّ ،
ويُدعى له بما يناسبه ، والباقي من نِسْبَةِ أربابِ السُّيوفِ .

دعاء يناسبه : وحرسَ سماءَه التي تَغْنِي عن المِصَابِيحِ ، ونِعْمَاءِ التي هي للنَّعمِ
مَفَاتِيحِ .

آخر : وبلغه أشرفَ الرُّتَبِ ، ومَلَأَ به قلوبَ الأعداءِ غَايَةَ الرَّهْبِ ، وشَكَرَ
ندىَ قلمه الذى لم يدعَ للغَمَامِ إلا فَضْلَ ما وهبَ ، صدرت .

وإن كان قاضيًا ، كَتَبَ : أعزَّ الله تعالى أحكامَ الجَنابِ الكريمِ العالى ،
القضائِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العالىَّ ، العَلَامِيَّ ، الأُوْحَدِيَّ ، الفلَانِيَّ . ويدعوه ، نحو :
وَنورَ بعلمه البصائرَ ، وسرَّ مُحْكَمِ السَّرَائِرِ ، وجعلَ فيضَ يَمِّه مما لا تُودَعُ دُرُّهُ إلا
في الضمائرِ . والباقي من نِسْبَةِ ما تقدَّم .

وإن كان من مشايخِ الصُّوفِيَّةِ ، كَتَبَ : أعاد الله تعالى من بَرَكَاتِ الجَنابِ
الكريمِ ، العالى ، الشَّيْخِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، العالىَّ ، العَامِلِيَّ ، الوَرَعِيَّ ، الزَاهِدِيَّ ، الفلَانِيَّ .

وَيُدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَلَا زَالَ يُقَاتِلُ بِسِلَاحِهِ ، وَيُقَابِلُ فَسَادُ الدَّهْرِ بِصَلَاحِهِ ، وَتُجْلَى
دُجَى الظُّلَمَاءِ بِصَبَاحِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدَى إِلَيْهِ
سَلَامًا يزدان بَعْرُضٍ بِخِدْمَتِهِ ، وَيَزْدَادُ نَضْرَةَ بِنَظْرَتِهِ .

وَالعنوان لِكُلِّ مِنْهُم بِاللقابِ الصِّدْرِ ، وَالِدَعَاءِ بِأَوَّلِ سَجْعَةٍ مِنْ دَعَائِهِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .
وَصُورَةٌ وَضَعَهُ أَنْ يَكْتُبَ فِي سَطْرَيْنِ ألقابَهُ وَدَعَاءَهُ وَتَعْرِيفَهُ كَمَا فِي هَذِهِ الصُّورَةِ :
الجناب الكريم ، العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ،
النصيرى ، الفلانى ، أعز الله تعالى نصرته فلان الفلانى

وَالعِلَامَةُ « الْمَلُوكِ فُلَانٍ » بِقَلَمِ الثَّلَاثِ مَقَابِلِ السَّطْرِ الثَّانِي كَمَا فِي الْمَكَاتِبَةِ
الَّتِي قَبْلُهَا .

الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ — مِنَ الْمَرْتَبَةِ الثَّانِيَةِ : ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي .
وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَتْرَكَ تَحْتَ الْمَلِكِيِّ الْفُلَانِيَّ قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعَ بِيَاضًا ، ثُمَّ يَخْتَلِفُ الْحَالُ
فِي ذَلِكَ .

فَإِنْ كَانَ الْمَكْتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَرْبَابِ السُّيُوفِ ، كُتِبَ : ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى
نِعْمَةَ الْجَنَابِ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ، الْمُؤَيَّدِيِّ ، الْعَوْنِيِّ ،
النَّصِيرِيِّ ، الذُّنْحَرِيِّ ، الْفُلَانِيِّ ؛ ثُمَّ يَدْعَى لَهُ ، نَحْوُ : وَنَصْرَهُ فِي جِلَادِهِ ، وَأَيْدِهِ
فِي مَوَاقِفِ جِهَادِهِ ؛ صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْعَالِي تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا
يَسُوقُ ، وَثَاءً يَرُوقُ ، وَتَوْصِحَ لِعَلْمِهِ كَيْتَ وَكَيْتَ ؛ فَالجناب العالى ، يَتَقَدَّمُ بِكَيْتَ
وَكَيْتَ ؛ فَيُحِيطُ عِلْمُهُ بِذَلِكَ ، وَاللهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

دَعَاءٌ آخَرٌ يَنْسَبُ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ : يُقَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الألقابِ ، وَلَا زَالَ
عَزَمَهُ مُؤَيِّدًا ، وَعِزَّهُ مُؤَبِّدًا ، وَاجْتِهَادَهُ وَجِهَادَهُ : هَذَا يَسُرُّ الأَوْلِيَاءَ وَهَذَا يَسُوءُ العِدَاءَ ؛

صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تحُصّه بالسّلام، والثناء الوافر الأقسام، وتوضّح لعلّه كيت وكيت .

آخر : ولا زالت آراؤه كواكب يهتدى بلوامعها ، وتقرأ سورة النصر في جوامعها ، وتسير كالسحب فترمي الأعداء بصواعقها وتأتى الأولياء بهوامعها .

وإن كان من الكُتاب، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، القضاى، الكبرى، الصدى، الرئيسى، القوامى، النظامى، الفلانى ؛ ثم يدعى له نحو : ولا زال يربحى لكلّ جليل ، ويؤمل لكلّ جميل ، ويؤهل لكلّ منتهى تقصردونه أصابع النيل ؛ صدرت هذه المكتبة ، والباقي على ماتقدم في أرباب السيوف .

وإن كان من القضاة، كتب : ضاعف الله تعالى نعمة الجنب العالى، القضاى، العالى، الفاضلى، الأوحدى، الصدى، الرئيسى، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : ودفع عنه الأبطال، وأرشد هدهداه من الأضاليل .

وإن كان من مشايخ الصوفية، كتب : أعاد الله تعالى من بركة الجنب العالى، الشيخى، الإمامى، العالى، الكاملى، الورعى، الزاهدى ؛ ويدعى له، نحو : ولا زال تُكشَف به اللأواء، وتطبّ به الأدواء . صدرت هذه المكتبة إلى الجنب العالى تُهدى إليه سلاماً، وتفضّ عن مثل المسك ختاماً، وتوضّح لعلّه .

دعاء آخر : نفع الله بدعواته التى لا حاجب لها عن الإجابة، ولا عارض يمنعها عن الإجابة، وأمتع ببركاته التى هى أمن للناس ومثابه . صدرت .

والعنوان الألقاب التى فى صدر المكتبة . والدعاء : ضاعف الله تعالى نعمته ؛ ثم التعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما فى هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، العونى،
النصيرى، الذخرى، الفلانى . ضاعف الله تعالى نعمته فلان الفلانى
والعلامة «المملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابل السطر الأول من المكتبة .
الطبقة الثالثة — أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى وما فى معنى ذلك . والرسم
فيه أن يُترك تحت الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل الذى فيه البسمة
ما يسع سطرين فقط . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة
الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النصيرى ، الذخرى ، الفلانى . ويدعى له ، نحو : وأيد عزمه وأظهره ، وكتب
عدوه وقهره ؛ صدرت هذه المكتبة إلى الجناب العالى تهدى إليه سلاما طيبا ، وثناء
مُطنبا ، وتوضّح لعلمه كيت وكيت ، فالجناب العالى يتقدّم بكيت وكيت ؛ فيحيط
علمه بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموه بجهاده كل سنان ، ونبه بجلاده جفن كل سيف
وسنان . صدرت هذه المكتبة تحية بسلام يطيب ، وثناء يهتر غصنه الرطيب ،
وتوضّح لعلمه .

وإن كان من الكُتاب ، كُتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ، القضائى .
والألقاب من نسبة ما تقدّم فى ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء ،
نحو : ولا زال قلمه لأبواب الأرزاق فاتحا ، ونجم رفده [لأنواء الفضل مانحا]^(١)
صدرت .

(١) بيض فى الاصل لبقية هذه السجعة فاشتناها ليلتم الكلام .

وإن كان من القضاة ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ، والألقابُ من نسبة ما تقدم في ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى . والدعاء ، نحو : ولا أخلى الله أفق الفضل من كوكبه ، ولا مجال الحدال من مرّكبه . صدرت .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى الشيخى . وبقية الألقاب من نسبة ما تقدم مع ضاعف الله تعالى نعمة الجناب . والدعاء ، نحو : نفع الله بركات خلواته التى كم أنجلت عن الرّشاد ، وبان فى مرءاتها نُور الهدى للعباد ، وأنارت إنارة الشمس لإنارة الزّناد .

والعنوان بنظير الألقاب التى فى صدر المكاتبه ؛ والدعاء أدام الله تعالى نعمته . وصورة وضعه فى الورق أن يُكتب فى سطرين الألقابُ والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

الجناب العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، العونى ،
النّضيرى ، الذّحرى ، الفلانى ؛ أدام الله نعمته فلان الفلانى
والعلامة «المملوك فلان» تحت البسملة بقلم مختصر الطومار .

المرتبة الثالثة — الدعاء للجلس ، ويختص بالجلس العالى ، واليباض فيه تحت الملكى الفلانى بحيث يبقى من الوصل قدر سطرين كما تقدم فى الجناب العالى . ويختلف الحال فيه .

فإن كان من أرباب السيوف ، كتب : أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّحرى ، العونى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : وأيد عزّمه ، ووفرّ من الخيرات قسّمه ؛ صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى تُهدى إليه سلاما ، وتوفّر له من الخير أقساما ، وتوضح لعلمه المبارك

كِتَ وَكِتَ ، فالجلسُ يتقدّم بكِتَ وَكِتَ ، فيحيطُ بِذلكِ عَلِمًا . والله تعالى
يؤيِّدهُ بِمنه وكرمه .

وهذه أدعية تليق بهذه المكتابة .

دعاء من ذلك : ولا زالَ مَشكورَ الأهِتَامِ ، موصوفَ المحاسِنِ وَصَفَ البَدْرِ
الثَّامِ ، معروفًا بِجميلِ الأثرِ مِثْلَ ما تُعرفُ مواقعُ الغَمَامِ . صدرتْ هذه المكتابةُ
إلى المجلسِ العالى تُهدى إليه سلامًا ، وتُسَدِّدُ لرأيه الصائبِ سِهَامًا ، وتوضِّحُ
لعلِّمه الكريمِ .

آخر : ولا زالَ سَيِّفًا يُدْفَعُ بِجَدِّه ، وَيَجْرِي مَاءُ النَصْرِ من فِرْنِدِه ، ويتنقُّعُ به
الظَّفَرُ فيقتلُ بتجريده وَيُخَافُ وهو في غَمْدِه .

وإن كان من الكُتَّابِ ، كتب : أدام اللهُ تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضَائِيَّ ،
الأجَلِّيَّ ، الكَبِيرِيَّ ، الرَّيْسِيَّ ، المَاجِدِيَّ ، الأُوْحِدِيَّ ، الأَيُّورِيَّ ، الفِلاَنِيَّ ؛
ويُدْعَى له ، نحو : وسَدِّدْ رأيه وَوَقِّفه ، وَصَدِّقْ فِيه الظَّنَّ وَحَقِّقه ، وَجَمْعُ له سَمَلٌ
السَّعَادَةِ ثم لافرقه . صدرتْ هذه المكتابةُ إلى المجلسِ العالى تُشْكِرُ مَسَاعِيه ، وَأَهْتِمَامُه
الذى باتَ طَرْفُ النَّجْمِ وهو يُرَاعِيه ، وتوضِّحُ لعلِّمه الكريمِ .

آخر : ولا نزعَ عنه ثوبَ سَعَادِه ، ولا غَيْرَ منه جَمِيلَ عادِه ، ولا عُرِفَ سِوَى
بابه الذى لو كان له الحقُّ فى جَبْهَةِ الأَسَدِ لاسْتَعَادِه . صدرتْ هذه المكتابةُ إلى
المجلسِ العالى تُهدى إليه السلام ، والثَّنَاءُ الذى تَنطِقُ به ألسنةُ الأَقلامِ ، وتوضِّحُ
لعلِّمه .

وإن كان من القَضَاةِ ، كتب : أدام اللهُ تعالى نعمةَ المجلسِ العالى ، القَضَائِيَّ ،
الكَبِيرِيَّ ، العَامِلِيَّ ، العَامِلِيَّ ، الفاضِلِيَّ ، الأُوْحِدِيَّ ، الفِلاَنِيَّ ؛ ويُدْعَى له ،

نحو : ولا بَرِحَتْ طُلُبته مُفيدةَ الْمَطالِبِ ، مُورِيَةَ الْهُدىِّ في الْغِيابِ ، قائِمةَ أَقلامِ هدايَها في ليالى الحيرةِ مقامِ الْكواكبِ .

آخِر : ولا بَرِحَتِ الدنيا مَمْطورةً بَغَمامِهِ ، مَجبورةً بدخولِها تحتَ ذِمامِهِ .

وإن كان من مشايخ الصوفية^(١)، كتب : أدام الله تعالى بركة المجلس العالى ، الشَّيخى ، الإمامى ، العالمى ، العاملى ، العابدى ، الورعى ، الزاهدى ، الأوحدى ، الفلانى ، ويدعى له نحو : ولا زال نُورُهُ يسعى بين يديه ، ويدعى باسمه إليه .

آخِر : أعاد الله من بركاته على الراعى والرعيِّه ، وجعل خَلواته خلواتِ كلِّ نفسٍ راضيةٍ مرَضِيَّةٍ ؛ والباقي على ما تقدّم .

والعنوان الألقاب التى فى الصِّدْر ؛ والدعاء : أدام الله تعالى نعمته . ثم التعريف . وصورة وضعه فى الورق أن تُكتب ألقابهُ والدعاءُ والتعريفُ كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، العالمى ، المجاهدى ، المؤيدى ،

الذخرى ، العونى ، الفلانى ؛ أدام الله تعالى نعمته فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » بقلم مختصر الطومار تحت المَلِكى الفلانى ، على ما تقدم

فى المكاتبه قبلها .

وأعلم أن ترتيب هذه الدرجة على هذه المراتب : من الدعاء بأعزَّ الله تعالى أنصار المقرِّ الكريم ؛ ثم أعزَّ الله تعالى نصرة الجناب الكريم ؛ ثم ضاعفَ الله تعالى نعمة الجناب العالى ؛ ثم أدام الله تعالى نعمة الجناب العالى ، ثم أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى - هو المستقرُّ عليه الحال بين كُتاب الزمان بالديار المصرية . وجعل فى «عُرْفِ التعريف» أعلى المراتب فى الدعاء : أعزَّ الله تعالى أنصار المقرِّ الكريم ؛

(١) الطلبة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعتة .

ثم أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ المَقْرِّ الكَرِيمِ؛ ثم أعزَّ الله تعالى نَصْرَ المَقْرِّ الكَرِيمِ؛ ثم أدام الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الشَّرِيفِ؛ ثم أدام الله نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ؛ ثم ضاعف الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي، وحرَّسَ الله تعالى نعمةَ الجَنَابِ العَالِي، مع آخْتِصَارِ الألقَابِ وحَدْفِ بعضها؛ ثم أدام الله تعالى نعمةَ المَجْلِسِ العَالِي. وعلى كثيرٍ من ذلك كان الحال جارياً إلى آخر الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس في التغير إلى أن صار الأمرُ على ما هو عليه الآن .

قلت : وكانوا في الزمن السالف في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وما والاها لا يأتون مع المَقْرِّ الشَّرِيفِ، والمَقْرِّ الكَرِيمِ، والمَقْرِّ العَالِي، والجَنَابِ الشَّرِيفِ، بأصدرناها ولا بصدرت هذه المكاتبَةُ كما هو الآن؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقْرِّ الشَّرِيفِ» : المملوكُ يقبَلُ الباسِطَةَ . ثم يأتي بالإنتهاء بعد ذلك مثل أن يقول : المملوكُ يقبَلُ الباسِطَةَ الكَرِيمَةَ التي هي معدنُ السَّمَّاحِ، وموطنُ ما يوهنُ العِدَا من صدور الصَّفَّاحِ، وينهى . أو يقول : يقبَلُ الباسِطَةَ الكَرِيمَةَ، ويرتفع منها في كلِّ ديمه؛ وينهى . أو والمملوكُ يقبَلُ اليدَ الشَّرِيفَةَ، ويلجأ إلى ظلالها الوَرِيفَةَ، وينهى . ومع «الجَنَابِ الشَّرِيفِ» لفظُ «المملوكُ يَحْدُمُ» . ثم يقول : ويئدى مثل أن يكتب : المملوكُ يَحْدُمُ بأثنيته، ويفضُّ عقودَ الشُّكْرِ على أُنْدِيته، ويئدى لعلمه الكَرِيمِ . أو المملوكُ يَحْدُمُ بأثنيته التي تزيد الطَّيْبَ طيباً، وتسرِّي سُرَى السُّحْبِ فلا تدعُ في الأرض جريباً؛ ويئدى لعلمه الكَرِيمِ . وربما أعاض ذلك بقوله : صدرت هذه الخدمةُ، مثل أن يقول : صدرت هذه الخدمةُ وسلامُها يتضوِّعُ، وثناؤها السافرُ لا يتبرِّقُ .

الدرجة الرابعة

(الابتداء بصيغٍ مُتَرَعَّةٍ من صدور مكاتبات الأدمية)

اعلم أن صدور المكاتبات المفتحة بالأدمية يقال فيها بعد الدعاء المعطوف :
أصدرناها أو صدرت هذه المكاتبه ؛ ثم يقال : وتبدي لعلمه أو وتوضح لعلمه .
ومن أجل ذلك جعلت هذه الدرجة دون درجة الأفتتاح بالدعاء ؛ لأن هذه فرع
من فروع تلك ، وحينئذ فيكون الصدر مُشتملاً بعد الدعاء على ثلاثة أشياء .

أحدها — [أفتاح] صدور المكاتبه بقوله : أصدرناها أو صدرت .

والثاني — الإشارة إلى المكاتبه بقوله : هذه المكاتبه .

والثالث — الإعلام بما صدرت بسببه المكاتبه . فانتظم من ذلك ثلاث مراتب .

المرتبة الأولى — الأفتتاح بصدور المكاتبه ، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولى — صدرت والعالى ؛ وهى أن تُفصح المكاتبه ، بأن يقال : صدرت
هذه المكاتبه إلى المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُيوف ، كتب : صدرت هذه المكاتبه
إلى المجلس العالى ، الأميرى ، الكبرى ، المجاهدى ، المؤبدي ، الذخرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له نحو : أدام الله تعالى نعمته ، ووفّر من الخير قسّمته ، تتضمّن
إعلامه كيت وكيت . فالمجلس العالى يتقدّم بكيت وكيت ؛ فيعلم ذلك ويعتمده
والله الموفق .

وإن كان من الكُتاب ، كتب : صدرت هذه المكاتبه إلى المجلس العالى ،
القسائى ، الكبرى ، الرئيسى ، الكاملى ، الماجدى ، الأبيرى ، الأوحدي ،
الفلانى ، ويدعى له ، نحو : حرس الله مجده ، وأنجح قصده ، والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
القضائى ، الأجلّى ، الإمامى ، الصّدرى ، الفقيهى ، الكاملى ، الفاضلى ، الفلانى ؛
ويدعى له ، نحو : أيد الله أحكامه ، ووفّر من الخير أقسامه ؛ والباقي على ماتقدم .
وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : صدرت هذه المكتبة إلى المجلس العالى ،
الشّيخى ، الإمامى ، العالمى ، العاملى ، الزاهدى ، العابدى ، الورعى ، الأوحدى ؛
ويدعى له نحو : أعاد الله من برّكته ، ونفع المسلمين بصالح أدعيته ؛ والباقي
على ماتقدم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصّدر وأول سبعة من الدعاء فيه . وتكون الألقاب
والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الذّخرى ،

الأوحدى ، الفلانى ، أدام الله رفّعتَه فلان الفلانى

والعلامة « المملوك فلان » تحت « الملكى الفلانى » بقلم مختصر الطومار الثقيل ،
وربما جعل بعضهم العلامة « أخوه » .

الطبقة الثانية - صدرت والسامى . وهى أن تُفتَح المكتبة بأن يقال :
صدرت هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى كما
فى المكتبة التى قبلها : بحيث لا يبقى من الوصل إلّا ما يسعُ سطرين فقط
على ماتقدم .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كتب : صدرت هذه المكتبة
إلى المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العزّدى ، الذّخرى ،
الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له نحو : أدام الله سعده ، وأنجح قصده . ثم يقال :

تُضَمَّنُ إِعْلَامَهُ كَيْتَ وَكَيْتَ . فالمجلس السامى يتقدّم بكيّت وكيّت ، فيعلمُ ذلك ويعتمده ويبادرُ إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السامى القضائى ، الأجلّى ، الكبيرى ، الزينى ، الماجدى ، الأثيرى ، الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : ضاعف الله تعالى إقباله ، أو أدام الله سعادته ، وبلغه إرادته ؛ والباقي على ما تقدم .

وإن كان من الفُضَاة ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السامى ، القضائى ، الصّدرى ، الفقيهى ، الإمامى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدى ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كُتِبَ : صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس السامى ، الشّيخى ، العالمى ، العاملى ، الورعى ، الزاهدى ، الأوحدى ، الفلانى ؛ ويدعى له ، نحو : لا أخلاه الله من أنسه ، ولا أبعده من حضرة قُدسه . والباقي على نحو ما تقدم .

والعنوان الألقابُ التى فى صدر المكاتبَةِ بالسَّجعة الأولى مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأميرى ، الكبيرى ، المجاهدى ، العضدى ، الذنخرى ،
الأوحدى ، الفلانى . أدام الله سعده فلان الفلانى

والعلامة «أخوه فلان» تحت المملكى الفلانى ، بقلم مختصر الطومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الأفتاح بالإشارة إلى المكتبة ، وهى أن يُكْتَبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى بغير ياء فى ألقابه ، ويعبر عنه بالسامى بغير ياء ، والبياض فيها تحت الملكى الفلانى متسع أيضا : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يتسع سطرين فقط . ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السيوف ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ، الذَّحْر ، فلان الدين ؛ ويُدعى له نحو : أدام الله إقباله ، وبلغه آماله ؛ أو أُنَجِّحَ اللهُ قَصْدَه ، وأعذب وِرْدَه ، تُعلمه كَيْتَ وكَيْتَ : فالمجلس يتقدم بكَيْتَ وكَيْتَ : فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، الصَّدر ، الرئيس ، الأوحِد ؛ ويدعى له ، نحو : أدام الله سعادتَه ، وبلغه من الخير إرادته ؛ تُعلمه كَيْتَ وكَيْتَ . والباقي على ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كُتِبَ : هذه المكتبة إلى المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحِد ، فلان الدين . والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : هذه المكتبة الى المجلس السامى الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، فلان الدين ، نفع الله تعالى بركته ، ولا أخلى مجالس الذكر من محاسن سَمْتِه وسَمْتِه . والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان الألقاب التى فى صدر الكتاب ، وأوّل سَجْعَةٍ من الدعاء الذى فيه وتعريفه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيد ، الأوحِد ،
الذَّحْر ، فلان الدين . أدام الله إقباله فلان الفلانى

المرتبة الثالثة — الأفتاح بالإعلام بالقصد ، وهو أن يكتب : يعلم فلان ، وقد تقدم في الكلام على مقدمة المكاتبات من هذه المقالة أن الصواب فيها ليعلم بإثبات لام الأمر في أوله ، فحذف كتاب الزمان منها اللام اللازم لإثباتها وأجروها مجرى الخبر. والرسم فيه أن يُترك تحت المَلَكِيّ الفلانيّ بياضٌ : بحيث لا يبقى من الوصل إلا ما يسع سطرين كما في المكاتبة قبلها وما قبل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السيوف ، كُتِبَ : يعلم الأمير، الأجل ، الكبير، المؤيد، الذئب، المرتضى ، المختار، فلان الدين ، ويدعى له ، نحو : أدام الله عزه ، ووفر من الخير كثره ، كَيْتَ وكَيْتَ ؛ فيجلس الأمير يتقدم بكَيْتَ وكَيْتَ ، فيعلم ذلك ويعتمده ويبادر إليه ، والله الموفق بمنه وكرمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِبَ : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من القضاة ، كتب : يعلم مجلس القاضى ، الأجل ، الكبير ، العالم ، الفاضل ، الكامل ، الأوحد ، فلان الدين ؛ كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والباقي من نسبة ما تقدم .

وإن كان من مشايخ الصوفية ، كتب : يعلم مجلس الشيخ ، الصالح ، الورع ، الزاهد ، الأوحد ، الكامل ، فلان الدين ، كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والباقي من نسبة ما تقدم .

والعنوان لهذه المكاتبة الألقاب التي في الصدر والدعاء بأول سبعة مما فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه في الورق أن يكتب ذلك في سطرين كما في هذه الصورة :

المجلس الأمير، الأجل، الكبير، المؤيد، الذخر، المرتضى، المختار،
فلان الدين . أدام الله عزّه
فلان الفلانيّ
والعلامة تحت البسملة الأسمُ بقلم مختصر الطومار الثقيل .

قلت : ومما يجب التنبيه عليه أن الألقاب المذكورة في صدور المكاتبات
وعنواناتها ليست موقوفاً عندها ، بل لكل واحد فيها اختياراً من تقديم وتأخير ،
وتبديل لقبٍ بلقبٍ ، وزيادة ونقص ؛ إلا أن الزيادة والنقص يكونان على المقاربة ،
مثل زيادة لقبٍ ولقبين وثلاثة ، ونقصها . على أنهم في الزمن السابق كانوا يتعاطون
في الإخوانيات الألقاب المركبة في الصدور والعنوانات فيما يبدأ فيه بالدعاء وما بعد
ذلك إلى آخر المراتب كما هو في السلطانيات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للقتل الشريف لأرباب السيوف
بعد استيفاء الألقاب المفردة : عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ،
زعيم الجيوش ، مقدم العساكر ، عون الأمة ، غياث الملّة ، ممدد الدول ، مشيد
الممالك ، ظهير الملوك والسلاطين ، عضد أمير المؤمنين . ومع الدعاء للقتل الكريم :
عز الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء في العالمين ، نصرّة الغزاة والمجاهدين ، زعيم
جيوش الموحدّين ، عماد الدولة ، عون الأمة ، دُخر الملّة ، ظهير الملوك والسلاطين ،
سيف أمير المؤمنين ؛ وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسبها .

وإن كان من رؤساء الكتّاب ، قيل : جلال الإسلام والمسلمين ، سيد الكبراء
في العالمين ؛ رئيس الأصحاب ، قوام الأمة ، نظام الملّة ، مدبر الدولة ؛ دُخر الممالك ،
ظهير الملوك والسلاطين ؛ وكذلك إلى آخر المراتب كل مرتبة بحسبها . وكذلك القول

في القضاة ومشايخ الصوفية كلُّ أحد منهم بما يناسبه من الألقاب لوظيفته ورُتبته .
ثم اقتصرُوا بعد ذلك على استعمال اللَّقبِ المضافِ إلى الملوك والسلاطين ، مثل ظهير
الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كُتِّبَ الزمان هذه الألقاب المركَّبة جملةً
أختصاراً ، وهو مستحسن : لما في ذلك من ميل النفوس إلى الاختصار ، ولتخالف
المكاتبات الصادرة عن السلطان ، فتكون مخصَّصةً بالألقاب المركَّبة دون غيرها .

القسم الثاني

(من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيان المملكة وأكابر

أهل الدولة ، الأجوبة ؛ وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يُفتَح من ذلك بما تُفتَح به الأبتداءاتُ المتقدمةُ الذَّكر)

والرسم فيها أن يكتب صدرُ الكتاب كما يُكتب أن لو كان ابتداءً ؛ ثم يذكر ورودُ
الكتاب المجاوب عنه ، ويُؤتى بالجواب عما تضمَّنه ؛ وهو على أربع مراتب :

المرتبةُ الأولى — وهي أعلاها في تعظيم الكتاب الوارد ، أن يعبر عنه بالمثال .
وذلك مع الأبتداء بلفظ يقبل الأرض وينهى كيت وكيت . وصورته أن يقول بعد
كمال الصَّدر : ^(١) ورود المثال الكريم العالی أعلاه الله تعالى على المملوك على يد فلان ،
ويدكر ما يليق به من المجلس العالی أو المجلس السامی أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقَبَّل
المملوكُ لوروده الأرض ، وأدئى من واجبه الفرض ؛ وتضاعف دعاء المملوك لتأهيله
لغلمانية الأبواب الكريمة ، وأبتهج بوروده ، وحمد الله وشكره على ما دل عليه : من
عافية مولانا ملك الأمراء أعز الله أنصاره — إن كان المثال قد ورد من نائب سلطنة —
أو من عافية مولانا قاضي القضاة — إن كان قاضياً — أو من عافية الخدم وصحة مزاجه

(١) أى الذى منه وينهى ورود المثال الخ وهكذا فى الآتى .

المحروس . وقابل المملوك المراسيم الكريمة بالامتثال ؛ ففهم ما رسم له به من كيت وكيت ، والمملوك لم يكن عنده غفلة ولا إهمال فيما رسم له به . وإن كان ثم فصول كثيرة ، قال : فأما ما رسم له به من كيت وكيت فقد أمثله المملوك ؛ ويجاب عنه . ثم يقول : وأما ما رسم له به من كيت وكيت ، فالأمر فيه كيت وكيت ، حتى يأتي على آخر الفصول ؛ فإذا انتهى إلى آخرها ، قال : وسؤاله من الصدقات العميمة ، إمداده بمراسيمه الكريمة وخدمه ، ليفوز بقضاها ، ويأدر إلى أمثالها ؛ والمملوك مملوكه وعبدُ بابه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمثل العالى بدون الكريم ، وذلك مع الابتداء بلفظ يُقبل الأرض ويُبنى بعد آتباله إلى الله تعالى ؛ والابتداء يُقبل الأرض بعد رفع دعائه ؛ ويقبل الأرض بالمقرّ الشريف ؛ ويقبل الباسط الشريف . فأما مع يُقبل الأرض بعد آتباله ، فالأمر على ما تقدم في جواب المكاتبه قبلها ، إلا أنه يقتصر على المثال العالى دون الكريم كما تقدمت الإشارة إليه . وأما مع يُقبل الأرض بعد رفع دعائه ، فإنه يقول بعد تكلمة الصدر : ورود المثال العالى أعلاه الله تعالى على يد فلان ، فقبله حين قابله ، ووقف على ما تضمنته من كيت وكيت ، وفرح بما دلّ عليه من عافية الخدم ، وحمد الله تعالى وشكره على ذلك ، وفهم ما أشار إليه من كيت وكيت ؛ ويجاب عنه ، ثم يقول : والمملوك يسأل إحسان الخدم بتشريف المملوك بمهماته ومراسيمه ليفوز بقضاها ، فإن المملوك وقف المالك ؛ طالع بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقبل الأرض بالمقرّ الشريف ، ويقبل الباسط الشريف ؛ فإنه يُقال ورود المثال العالى أيضا ، وربما قيل ورود مثاله العالى . وقد يقال المشرف الكريم العالى على ما تقتضيه رتبة المكتوب إليه ، ويرتضيه المكتوب عنه ؛ والباقي على نحو ما تقدم .

المرتبة الثالثة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمشرفة ، على التأنيث ؛ وذلك مع يقبل الباسطة ويقبل اليد . ويختلف الحال في ذلك بحسب المراتب . فيقال : يقبل الباسطة ويُنهى ورود المشرفة الكريمة ، ومع اليد الشريفة ، والكريمة ، والعالية ؛ وفي معنى ذلك يخدم إذا كتب بها ؛ وكذلك أعز الله تعالى أنصار المقتز الكريم ، وإن كان المكتوب عنه يكتفى عن نفسه بنون الجمع المقتضية للتعظيم . ثم يقول : في كل منها فقبلها المملوك حين قابلها ، ووقف على ماتضمنته من محبته ومودته ، وفهم ما شرحه من أمر كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : والمستمد من محبته تشریف المملوك بمراسيمه ومشرقاته وخدمه : ليقوز بقضائها ، ويأدر إلى امتثالها ؛ فإن المملوك ما عنده غفلةً فيما يقتضيه رأيه العالی ، والله تعالى يؤيده بمنه وكرمه .

المرتبة الرابعة — أن يعبر عن الكتاب الوارد بالمكاتبة . وذلك مع الإبتداء بالدعاء بلفظ : ضاعف الله تعالى نعمة الجناح العالی ؛ وأدام الله تعالى نعمة المجلس العالی ؛ وصدرت هذه المكاتبة إلى المجلس العالی ، أو المجلس السامی ؛ أو هذه المكاتبة إلى المجلس السامی ؛ أو يعلم مجلس . فيقال : وتوضح لعلمه ، أو موصحة لعلمه ، أو تتضمن إعلامه ، أو تعلمه ، أو يعلم على حسب المراتب المتقدمة ، وورود مكاتبة ، فوقنا عليها ، وأحطنا علماً بما تضمنته من كيت وكيت ، ويجاوب عنه ؛ ثم يقول : فيتقدم الجناح أو المجلس أو مجلس الأمير ونحو ذلك مما يقتضيه الحال ، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحواله .

وأعلم أن لكاتب السر أجوبةً لتواب السلطنة وغيرهم ممن ترد عليه مكاتبتهم بطلب الملاحظة عند عرض مكاتبتهم على الحضرة السلطانية ، وتحسين السفارة في ذلك ؛ ويقع الخطاب في جواب كل منهم على حسب رتبته .

ففي جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحروس يكتب ما صورته : ويُنبئ بعد رفعِ
أدعيته الصالحة تقبلها الله تعالى من المملوك ومن كلِّ داعٍ مُخلص ، بدوامِ أيامِ مولانا
ملكِ الأمراء ، أعزَّ الله تعالى أنصاره ، وخلُودِ سعادته عليه ، أنَّ المثالَ الكريمَ وردَ
على المملوكِ على يدِ فلان ؛ فهَضَّ له المملوكُ ، وأجمل في تلقَّيه السُّلوكُ ؛ وفَضَّه عن
صدقاتِ عميمه ، وتفَضُّلاتِ جسيمه ؛ وفرِحَ بما دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ
الأمراء - أعزَّ الله أنصاره وعافيته ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ؛ وتضاعفَ سرورُ المملوكِ
بذلك ، وتزايدَ آتباؤه به ، وسألَ الله تعالى أنْ يُديمَ حياةَ مولانا ملكِ الأمراء ،
أعزَّ الله أنصاره ، ويُقيمه ؛ وآتتهى إلى ما تضمَّنته الإشارةُ الكريمةُ في معنى تجهيزِ
المشارِ إليه إلى خِدمةِ الأبوابِ الشريفةِ بما على يده من المكاتبَةِ الكريمةِ ، وما رَسَمَ به
من القيامِ في خِدمتها وعرضها بين يدي المواقفِ الشريفةِ شرفها الله تعالى وعظَّمها ؛
وقابلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالامتثالِ بالسَّمعِ والطاعة ، وبأدرَ إلى ما رَسَمَ به ؛
وقد عرَّضَ المملوكُ المكاتبَةَ الكريمةَ على المسامعِ الشريفةِ ، وكتَبَ الجوابَ الشريفَ
عن ذلك بما سَتَحِيطُ به العلومُ الكريمةُ ؛ وعادَ بذلك إلى خِدمةِ مولانا ملكِ الأمراء
أعزَّ الله أنصاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء عزَّ نصره ، ومُحِبُّه القديم ،
والمعتَرِفُ بإحسانه وصدقاته ؛ ويسألُ تشريفه بالمهمَّاتِ والخدمِ ، أنهى ذلك ، إن شاء
الله تعالى .

وفي جوابِ بقيةِ التَّوَابِ بالمالكِ الشاميةِ : كَتُوبِ السلطنةِ بحِجَّةِ وطرايئسِ وصدَدِ
والكَرْكِ ، ومقدِّمِ العسكرِ بغزَّةِ ، يكتب : ويُنبئ بعد رفعِ دُعائه ، وإخلاصه في محبته
وولائه ، وأعتراؤه بإحسانِ مولانا وآلائه ، أنَّ المثالَ العالى - أعلاه الله تعالى -
وردَ على المملوكِ على يدِ فلان ، فقبَّله المملوكُ ، وأحسن في تلقَّيه السُّلوكُ ؛ وفرِحَ بما دَلَّ
عليه من عافيةِ مولانا وسلامته ، وصحَّةِ مزاجه المحروس ، وحَدَّ الله تعالى على ذلك ،

وَأَتَتْهُ إِلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ : من تجهيز المطالعة الكريمة إلى الأبواب الشريفة ، شرفها الله تعالى وعظّمها ، وفهم المملوك ذلك ، وأمتثل ما أشار إليه بالسَّمْع والطاعة ؛ ووقَفَ في خدمتها عند العَرَضِ على المَسَامعِ الشريفة ، وأحاطت العلوم الشريفة بمضمونها ؛ وكتبَ الجوابَ الشريفَ عن ذلك بما سَيُحِيطُ به علمُ مولانا ؛ وقد عاد فلان بالجواب الشريف وبهذه الخدمة ، وحمله المملوك من السلام والشوق والدعاء والولاءِ وتقبيل الأرض ما يُبْدِيهِ لِمَسَامِعِ مولانا . والمملوكُ يسأل إحسانه الإصغاءَ إلى ذلك ، والتشريفَ بمراسمِهِ وخدمته : لِيبادِرَ إلى قبولها . والله تعالى يُؤَيِّدُهُ ويحرسُهُ بمنه وكرمه .

وعلى قياس ذلك في غير هذه من المكاتبات بحسب ما تقتضيه رتبة كل واحد من أصحابها .

الضرب الثاني

(من الأجوبة ما يفتتح بورود المكاتبة مصدرا بلفظ : وردت أو وصلت

أو وقفت على المكاتبة ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثالُ الكريمُ الفلاني ، وذِكْرُ سلامته أحلى من ذِكْرِ الأوائِلِ ، وقد تطرّز منه طرازاً أشرف من طراز الغلائِلِ ؛ وما سكن القلبُ إلى شيءٍ كسكونه إليه ، ولا رأى وارداً أكرم منه عليه ؛ فقابل نعمة قُدومه بدوام شكرها ، وطوى صحائف الآمالِ إلّا من نشرها ؛ وإذا كان وجه الأيام مُقَطَّباً استغنى بيشير وجهه الميمون عن بيشيرها ؛ فإن حُسنَ في رأيه الإجراءُ على عوائد إحسانه [من التشريف بمراسمِهِ وخدمته] والمواصلَة بها ، [نالت] النفسُ من وُرودها نهايةً أَرَبَهَا .

(١) بياض في الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبة المطلقة : وهي الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكُتَّاب ، وعيون أهل الأدب ، ممن له ملكة في الإنشاء ، وقوة في النظم والنثر ، فإنها لا تتوقف على ابتداءٍ مخصوصٍ ، آتداءً ولا جواباً ؛ بل قد تكون مبتدأة بما تقدم من الابتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الافتتاحات التي يختارها صاحب الرسالة ، بل أكثرها مفتتح بالشعر المناسب للحال المكتوب فيها ، بل ربما أقتصرت فيها على الشعر خاصةً دون النثر .

المهيمع الثاني

(في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم : من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، وما يستحقه كل منهم من رتب المكاتبات السابقة على ما الحال مستقر عليه في زماننا)

اعلم أنَّ المكتوب عنهم من أعيان الدولة على طبقات ، لكل منهم مكاتبات بصدر يختص به ، إلى من فوق رتبته أو مساو له في الرتبة أو دونه فيها ، مرتبة على ترتيب المكاتبات الصادرة عن الأبواب السلطانية إلى أهل الدولة :

الطبقة الأولى - من المكتوب عنهم من يكتب إليه عن السلطان « أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم » ككافل السلطنة : وهو نائب السلطان بالخرصة ، وأتابك العساكر ، ونائب السلطنة بالشام . والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى - من يكتب له عن هذه الطبقة « الفلاني بمطالعة » ، ومن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته - أتابك العساكر بالأبواب الشريفة ، وكان ما كتب له « المخدومي الأتابكي فلان الفلاني » باللقب المضاف إلى لقب السلطان ، « أتابك العساكر المنصورة » .

المرتبة الثانية - من يُكْتَبُ إليه « الأيوأب بمطالعة » ومن يُكْتَبُ إليه بذلك عن النائِبِ الكافلِ بالحضرة، والأتابِكِ-نائِبِ السلطنة بالشام. فقد قال في "التتقيف":
 إِنَّ بهذه المكاتبه يكتَبُ عن أكابر أمراء الديار المصرية إلى نائِبِ الشام وحلبَ
 فيما أُظُنُّ؛ ومن يكتب إليه بذلك عن نائِبِ الشام- الدوادارُ، وأميرأخورُ، ومقدمو
 الألوْفِ بالديار المصرية، وأكابر الأمراء مقدمي الألوْفِ بالشام، وكافلِ الملكة
 الشريفة الحليية .

المرتبة الثالثة - من يُكْتَبُ له عن هذه الطبقة « الأيوأب بغير مطالعة » وبذلك
 يكتَبُ عن كافلِ السلطنة بالحضرة إلى نائِبِ السلطنة بحلب . وقد ذكر في "التتقيف"
 أنه كان يكتب بذلك عن الأمير يلبغا العمري (يعني الخاصمي) وهو أتابِكُ الديار
 المصرية، إلى نائِبِ الشام أيضا . ثم قال: وكذلك كُتِبَ بعده إلى نائِبِ الشام وحلبَ،
 الأمير منكلي بفا، والأمير الجاي؛ وتوَابِ السلطنة بالديار المصرية؛ وبذلك يكتبُ
 عن نائِبِ الشام إلى كلِّ من قضاة القضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزيرُ
 وكاتبُ السربها .

المرتبة الرابعة - من يكتبُ له عن هذه الطبقة «الباب الكريم والباب العالي»
 (١)
 أما الباب الكريم، فإنه يكتبُ بذلك عن النائِبِ الكافلِ والأتابِكِ

وبذلك يكتبُ عن نائِبِ الشام إلى الأمراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وإستادار
 الأملاك الشريفة، وناظرِ الجيوش المنصورة بالأيوأب السلطانية، وناظرِ الخواصِّ،
 وناظرِ الدولة، وحاجبِ الحجاب بالشام، وقاضي القضاة الشافعي بالشام، وكاتبِ

(١) بياض في الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله الى نائِبِ الشام ونايِبِ طرابلس
 الى آخر ما يأتي بعد . وحرر .

السَّرْبَه، ونائب السلطنة بطرَابُلُس، ونائب السلطنة بِحَمَاة، ونائب السلطنة بِصَفَد،
ونائب السلطنة بِالكَرْك .

أَمَّا مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ الْبَابِ الْعَالِي بُدُونِ الْكَرِيمِ ، فَقَدَّمَ الْعَسْكَرَ
الْمَنْصُورَ بَغْزَةَ ، وَالْقُضَاةَ الثَّلَاثَةَ بِالشَّامِ ، مَا خَلَا الشَّافِعِيَّ الْمَقْدَمَ ذِكْرُهُ ؛ وَالْوَزِيرَ
بِالشَّامِ .

المرتبة الخامسة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « يَقْبَلُ الْأَرْضَ بِالْمَقَرِّ
الشَّرِيفِ » وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ ، إِلَى نَائِبِ طَرَابُلُسَ ،
وَنَائِبِ حَمَاةَ ، وَنَائِبِ صَفَدَ ، وَنَائِبِ الْإِسْكَندَرِيَّةِ ، وَأُمَرَاءِ الْأُلُوفِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ؛
وَبِهِ يُكْتُبُ عَنِ نَائِبِ الشَّامِ .

المرتبة السادسة — مَنْ يَكْتُبُ إِلَيْهِ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْبَاسِطُ الشَّرِيفِ » وَبِذَلِكَ
يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ ، إِلَى مَقْدَمِ الْعَسْكَرِ بَغْزَةَ ، وَمَقْدَمِ الْعَسْكَرِ سَيْسَ ،
وَنَائِبِ السُّلْطَنَةِ بِالكَرْكِ ، وَحَاجِبِ الْمُحْجَبِ بِالشَّامِ ، وَحَاجِبِ الْمُحْجَبِ بِحَلَبَ .

المرتبة السابعة — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْبَاسِطَةُ الشَّرِيفَةُ » وَمَنْ
يَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ قَاضِي الْقُضَاةِ الشَّافِعِيَّ بِحَلَبَ .

المرتبة الثامنة — مَنْ يَكْتُبُ لَهُ عَنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ « الْيَدُ الشَّرِيفَةُ » أَوْ « الْيَدُ الْكَرِيمَةُ »
أَوْ « الْيَدُ الْعَالِيَةُ » . وَبِذَلِكَ يَكْتُبُ عَنِ النَّائِبِ الْكَافِلِ وَالْأَتَاكِ ، إِلَى نَائِبِي الْوَجْهِ الْقِبْلِيِّ
وَالْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ وَنَائِبِ الْقُدْسِ ، وَنَائِبِ حِمَصَ ، وَنَائِبِ الرَّجْبَةِ ،
وَنَائِبِ الْبَيْرَةِ ، وَنَائِبِ قَلْعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَنَائِبِ مَلْطِيَّةَ ، وَنَائِبِ دَبْرُكِي ، وَنَائِبِ الْأَبْلَسْتِينِ ،
وَنَائِبِ طَرَسُوسَ ، وَنَائِبِ أَدْنَةَ ، وَنَائِبِ بَهْسَنِي ؛ وَأُمَرَاءِ الْأُلُوفِ بِالشَّامِ وَحَلَبَ .
وَبِذَلِكَ يُكْتُبُ [أَيْضًا] عَنِ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى أُمَرَاءِ الْعَشْرَاتِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَقُضَاةِ

العسكر بها ، وحاجب الحُجَّاب بِحَلَب ، والقُضَاة الثلاثة : الحنفيّ ، والمالكي ، والحنبليّ ، بها .

المرتبة التاسعة — مَنْ يَكْتَبُ له عن هذه الطبقة « أعزَّ اللهُ تعالى أنصارَ المقتَرِ الكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى كاشف الصَّفْقَةِ القِبلية ، وإلى الأُمراء مقدِّمِ الألوْفِ بالشام ، وناظرِ الجيش به ، وأميرِ آلِ فَضْلِ ، ونائبِ حِمص ، وكاتبِ السِّرِّ بِحَلَب ، ونائبِ المملكةِ بها ، ونائبِ دَوْرَكِي ، ونائبِ دَرَنْدَة .

المرتبة العاشرة — مَنْ يَكْتَبُ له عن هذه الطبقة « أعزَّ اللهُ تعالى نُصْرَةَ المقتَرِ الكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى نائبِ قلعةِ دِمَشْق ، والحاجبِ الثاني بها ، ووكيلِ بيتِ المالِ بها ، ومقدِّمِ الألوْفِ بِحَلَب ، ونائبِ الجيشِ بها ، ونائبِ الرَّحبة ، ونائبِ الأَبْلُسْتينِ ، ونائبِ مَلطِيَّة ، ونائبِ قلعةِ المُسلمينِ ، ونائبِ بَهْسَنِي ، ونائبِ البيرة ، ونائبِ جَعْبَر ، ونائبِ الرُّها ، ونائبِ حُسبان .

المرتبة الحادية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ له عن هذه الطبقة « أعزَّ اللهُ تعالى نُصْرَةَ الجَنابِ الكَرِيمِ ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراءِ الطَّبْلخاناةِ بالشام ، ونائبِ القُدس ، ونائبِ بَعْلَبَك ، ومتولِّي صَيْدا ، وأمراءِ الطَّبْلخاناةِ بِحَلَب ، ووكيلِ بيتِ المالِ بها ، والمحْتَسِبِ بها ، وناظرِ خاصِّ البريدِ بها ، وأميرِ حاجبِ بَصَفَد .

المرتبة الثانية عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إليه عن هذه الطبقة : « ضاعَفَ اللهُ تعالى نعمةَ الجَنابِ العالِي ». وبذلك يكتب عن نائب الشام ، إلى واليِ قَطِيَا ، ورُبَّمَا زيد فيه الكَرِيم .

المرتبة الثالثة عشرة — مَنْ يَكْتَبُ إليه عن هذه الطبقة : « أَدَامَ اللهُ تعالى نعمةَ الجَنابِ العالِي ». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى أمراءِ العَشْرَاتِ بِمصر ، وأمراءِ

العشرينات بالشام، والمحسب بها، والحاجب الكبير بغزة، ومقدم عرب بنى عقبة، وأكابر عرب آل فضل، وأمير عرب آل علي، وأمير آل موسى، ونائب مضياف، ومتولى بيروت.

المرتبة الرابعة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة: «المجلس العالی مع الدعاء». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى العشرات بدمشق، ووالى المدينة، ووالى البرها، والحاجب الثانى بغزة، وأمير آل مرآ، ومقدم عرب جرم، ومقدم بنى مهدي، وأمرء العشرينات بحلب.

المرتبة الخامسة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة: «صدرت والعالى». وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى كاشف الوجه البحرى من الديار المصرية، وكاشف الفيوم والبهنساوية، ووالى أسوان، وكشاف الجسور من أمرء الطبلخاناه بالوجهين: القبلى والبحرى بالديار المصرية، ونائب قلعة حلب، ونائب آياس، ونائب جعبر، ونائب درندة، وحاجب الحجاب بطرابلس، وحاجب الحجاب بحماة، وحاجب الحجاب بصفد، وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى أجناد الحلقة بمصر، والحاجب الكبير بمحصر، وأمرء العشرات بحلب.

المرتبة السادسة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة: «صدرت والسامى». وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى والى قوص، ووالى منقلوط، ووالى الأشمونين، ووالى البهنسى، ووالى منوف، ووالى الغربية، ووالى الشرقية، ووالى قطيا، ونائب مضياف، ونائب بعلبك، ونائب قلعة صفد، ونائب عيتاب، والحاجب الكبير بغزة. وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى مقدم الحلقة بالشام، وأعيان الجند بها، ومقدم بنى مهدي، ومتولى الصلت ومجلون، ومتولى صرخد،

والحاجب الصغير بجمّص، ووالى تدمر، ومقدم إقليم الحروب بصيدا، ومقدم إقليم النعاج، ووالى البقاعين، ووالى بلنياس.

المرتبة السابعة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة « هذه المكتبة »
وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأنايك، إلى والى الحيزية، ووالى إطفيح،
ووالى قلوب، ووالى أشموم الرمان بالديار المصرية. وبذلك يكتب أيضا إلى
نائب الكحّتا، ونائب كركر، ونائب حجر شغلان، ونائب سرفندكار، ونائب القصير،
ونائب بغراس، ونائب الراوندان، ونائب الشغر وبكاس، ونائب الرها، ونائب
الدرّبساك، ونائب شيزر بالملكة الحلبية، وإلى نائب اللاذقية، ونائب صهيون،
ونائب حصن الأكراد، ونائب حمص، ونائب المرقب، ونائب بلاطس، ونائب
الكهف، ونائب القدموس، ونائب الخواي، ونائب العليقة، ونائب المينقة :
من أعمال طرابلس، ونائب شقيف ترون من معاملة صفة. وبذلك يكتب [أيضا]
عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بمصر، وإلى كاشف الرملة، ومتولى حسابات،
وحامى الخربة .

المرتبة الثامنة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة « يعلم ». وبذلك يكتب
عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بالشام .

وأعلم أنّ وراء ما تقدم من المكاتب عن نائب الشام مكاتبات أخرى إلى من هو
خارج عن المملكة؛ وهم على مراتب .

المرتبة الأولى — من يكتب له عنه : « يقبل الأرض » — صاحب بغداد :
كما كان يكتب للقان أحمد بن أويس، كان يكتب إليه في ورق قطع نصف الحموى
بقلم الثلث الصغير : يقبل الأرض لدى الحضرة الشريفة، العالسة، الملووية،

السلطانية، العالمة، العادلية، المؤيدية، المالكية، القانية، ولا زالت عزماؤها مؤيده، وآراؤها مسدده؛ ويُنهى إلى العلم الكريم — صاحب السراى : ودشت القَبْجاق مثله بأبسط ألقاب .

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الشريف »
 أبْنُ السلطان أحمد بن أُويس المذكور . وورقه نظيرُ ورق والده ، وقلمه نظير قلمه — صاحب هَرَاة : مثله .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله أنصارَ المقرِّ الكريم » — صاحبُ ماردين : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم العالى ، المولوى ، الكبيرى ، العادلى ، السلطانى ، المَلِكى ، الفلانى ؛ ورَقَّ مقداره ، وأجزل مَبَارَه . المملوك يَجِدُّ الخِدْمَةَ العالیه ، ويصِفُ أشواقَه المتواليه ؛ ويُنهى لعلمه الكريم — صاحب بُرْصا : من بلاد الروم ، وهو ابن عُثمان . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يزيد بن مراد بك بن عثمان : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرِّ الكريم ، العالى ، المولوى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، العونى ، الغيائى ، المهديى ، المشيدى ، الزعيمى ، الغازى ، المجاهدى ، المناغرى ، المرابطى ، العابدى ، الناسكى ، الزاهدى ، المقدمى ، الأتابكى ، المحسنى ، الظهيرى ، المَلِكى ، الفلانى ؛ مُعزَّ الإسلام والمسلمين ، سيد الأمراء فى العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، مُبِيد المشركين ، قامع أعداء الدين ، مقتلِ الخُصُون من الكافرين ؛ عونِ الأُمَّة ، عِمَادِ المَلَّة ، دُخْرِ الدولة ، ظهير الملوك والسلاطين ، حاكم البلاد الرومىة ، صاحب بُرْصا وقيسرية ؛ سيف أمير المؤمنين ؛ قَهْر [الله] أعداء الدين الحنيفى بجزائمه وسَطَواته ، وجعله مؤيدا فى حركاته وسكَّاته ، وأيده فى جهاده واجتهاده بالنصر الذى لا يفارق ألوية أعلامه وراياته ،

ولا زالت رعاياه محبوبه، وعساكره منصوره؛ هؤلاء بجوده [وهباته]، وهؤلاء بوجوده
وحياته . المملوك يقبل اليد التي لازال القصد بها يزيد ، وبحر البر من أناملها مديد،
ونواها يناله الوافدون حيث أموه من قريب وبعيد؛ ويصف صفاء محبة يتضاعف
نمائها كل يوم جديد ، وترادف تحيات أشواقها بالمؤالة والتحميد ، ويتوأم
بهادي رسائلها يصدق الموّدة الدائمة على التأييد ؛ ويؤيدى إلى العلم الكريم .

قلت : كذا رأيت في دستور بخط القاضي ناصر الدين بن أبي الطيب : كاتب
سرّ الشام كان . وفيه اضطرابٌ وتخليطٌ من نعته في ألقابه [بقوله] «الملكى الفلانى» ؛
وقوله سيد الأمراء فى العالمين ، حيث وصفه أولاً بأوصاف المملوك ، ثم وصفه
بأوصاف الأمراء ؛ إلى غير ذلك من الخبط الذى لا يخفى على متأمل .

المرتبة الرابعة — « أعز الله أنصار المقر العالى » — وزير صاحب بغداد ،
ورقه فى قطع الحموى بقلم الثلث الخفيف — قاضى بغداد : مثله سواء — صاحب
لارندا : من بلاد الروم بمملكة بنى قرمان . ويقال فى ألقابه : الأصيلى . نوين
التوامين ، مجهز المقاب ، دُخر القانات — صاحب سيواس : من البلاد الرومية
أيضا — صاحب آياس لوق : من البلاد الرومية — صاحب جومرك : من بلاد
الأكراد .

المرتبة الخامسة — « الجناح الكريم » — صاحب حصن كيفا : من بلاد
الجزيرة ، ويقال فيه : الملكى الفلانى — مقدم التركان البيضاء .

المرتبة السادسة — « الجناح العالى » — صاحب أرزنجان — صاحب جزيرة
أبن عُمَر من بلاد الجزيرة — صاحب أنطاليا من بلاد الروم — ابن الشيخ
عبد القادر الكيلانى شيخُ الجبال .

المرتبة السابعة — « المجلس العالى » — صاحب مِيَّافَارِقِينَ : من بلاد
الجزيرة — صاحب أَكَلٍّ : من الجزيرة أيضا — صاحب أَرْقِين — صاحب
قَلْعَةَ الْجَوْزِ — صاحب جرموك — صاحب أَمَاسِيَا : من بلاد الروم — نائب
مَارِدِينَ — خادم صاحب مَارِدِينَ — صاحب بُطْنَانَ — صاحب سِنْجَارَ : من
بلاد الجزيرة — صاحب حاسك (؟) — صاحب أَزْبَك — صاحب المَوْصَل —
صاحب سَنُوب — صاحب بوشاظ — صاحب الدَّرْبَنْد — صاحب عَيْنِ دَارَا —
صاحب الحُمَّة — صاحب خِلَاطَ — صاحب طلان — صاحب تاخ — صاحب
جَمَشْدَاك — نائب كَرْبَزَاك — صاحب القَنْطَرَةَ — نائب خِرْتِ رِيْت — صاحب
البَارِعِيَّة — صاحب حَرَّانَ — صاحب العِمَادِيَّة — صاحب حَايِي — نائب مازكرد —
نائب صاحبة مَارِدِينَ — أمير التركان الشهرية — صاحب أَشْنُو .

الطبقة الثانية — ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية ، مَنْ
يُكْتَبُ إليه عن السلطان : « أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ » وهو نائب
السلطنة بِحَلَبَ .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » وهو النَّائِبُ الكَافِلُ بالحضرة السلطانية ،
وَأَتَايَكُ العسَاكِرُ المَنْصُورَةُ .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » وهو نَائِبُ السَّلْطَنَةِ بالشام ، والاميرُ الدَّوَادَارُ
بالأبواب السلطانية ، وأستادُ الدَّارِ بها ، وأكابرُ الأُمراءِ المَقْدَمِينَ الخَاصِيَّةَ .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب الشَّامِ .

المرتبة الرابعة — «البابُ الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطرأبُلس، ونائب السلطنة بحمّاة، ونائب السلطنة بصفد، وكذلك يكتب به إلى الطبقة الثانية من الأمراء المقدمين بالحضرة ممن دون الخاصكية؛ وفي معنى ذلك الوزير، وكاتب السرّ، وناظر الخاصّ، وناظر الجيش، ومن في معانهم.

المرتبة الخامسة — «يقبل الأرض بالمقرّ الشريف». وبذلك يكتب إلى حاجب الحجاب بالشام.

المرتبة السادسة — «يقبل الباسطة» وبذلك يكتب إلى الحاجب الثاني بالشام، وحاجب الحجاب بحلب، وحاجب الحجاب بحمّاة، وحاجب الحجاب بطرأبُلس، وقاضي القضاة الشافعي بحلب، وكاتب السرّ بها.

المرتبة السابعة — «يقبل اليد الشريفة». وبذلك يكتب إلى نائب البيرة، ونائب ملطية، ونائب قلعة المسلمين، ونائب جعبر، ونائب الرها، ونائب الأبلستين، ونائب حمص، وأمراء الطبلخاناه بدمشق.

المرتبة الثامنة — «أعز الله تعالى أنصار المقرّ الكريم». وبذلك يكتب إلى نائب طرسوس، ونائب الرحبة، والحاجب الثاني بطرأبُلس، ومقدمي الألوفا بها، والقضاة الثلاثة: المالكي، والحنفي، والحنبلي بحلب. إلا أنه يقال: «أعز الله تعالى أحكام المقرّ».

المرتبة التاسعة — «أعز الله تعالى أنصار المقرّ الكريم العالی» وبذلك يكتب إلى نائب بهسنی، ونائب الرحبة، وأكابر الطبلخاناه بالشام، ومن تولى الإمرة من عرب آل فضل ثم عزّل؛ وقضاة العساكر المنصورة بحلب، وناظر الملكة بها، وأمير آل عليّ.

المرتبة العاشرة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَنَابِ الكَرِيمِ ». وبذلك يُكْتَبُ إلى أعيان أمراء الطبلخاناة بِحَلَبَ ، والحاجبِ الثالث والرابع بها ، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضَلِ .

المرتبة الحادية عشرة — « ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الجَنَابِ العَالِيِ » وما في معناه مما يُكْتَبُ به إلى أرباب الأقاليم وغيرهم . وبذلك يكتب إلى نائب شَيْزَرِ ، وأمراء الطبلخاناة بِحَلَبَ ، غير الأعيان ، وناظر الأملاك الشريفة بِحَلَبَ ، وناظر خاص البريد وموقعي الدستِ بها .

المرتبة الثانية عشرة — « صَدَرَتْ وَالعَالِيِ ». وبذلك يُكْتَبُ إلى نائب عَيْنَتَابَ ، ونائب الرَّاوَنْدَانِ ، ونائب الكَحْتَا ، ونائب كَرْكَرِ ، ونائب بَغْرَاسِ ، ونائب الدَّرْبَسَاكِ ، ونائب الشُّغْرِ وَبَكَاسِ ، ونائب القُصَيْرِ ، وأمراء العَشْرِينَاتِ بِحَلَبَ ، وأعيان العَشْرَاتِ بها .

المرتبة الثالثة عشرة — « صَدَرَتْ وَالسَّامِيِ ». وبذلك يُكْتَبُ إلى مُقَدِّمِي الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، ومقدمي البريديَّةِ بها ، وأعيانهم .

المرتبة الرابعة عشرة — « السَّامِيِ » بغير ياء . وبذلك يُكْتَبُ إلى والي سَرْمِينِ ، ووالِي البَابِ ، ووالِي عَزَّازِ ، ووالِي أَنْطَاكِةَ ، ووالِي حَارِمِ ، ووالِي كَفَرِ طَابِ ، ووالِي الجَبُولِ ، ووالِي مَنبِجِ ، ووالِي تَلِّ بَاشِرِ ، وأجنادِ الحَلَقَةِ بِحَلَبَ ، وصغار البريدية بها ، وعداد التريكان وعداد الأكراد .

وأعلم أن وراء ما تقدم من المكاتبات الصادرة عن نائب حلب [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة، كما تقدم في المكاتبات الصادرة عن نائب الشام، وهي على مراتب :

المرتبة الأولى — المكاتبه بـ «يُقْبَلُ الأَرْضَ» — القان صاحب بَعْدَادَ : كما كان يُكْتَبُ إلى القانِ أُوَيْسَ ، وأَبْنِهِ أَحْمَدَ : يُقْبَلُ الأَرْضَ بالمقام الشريف العالى ، المَوْلَوِيّ ، السُّلْطَانِيّ ، الأَعْظَمِيّ الأَوْحَدِيّ ، المِلادِيّ ، العَطَوِيّ ، المُحْسِنِيّ ، القَانِيّ ، المَلِكِيّ القَلَانِيّ ، الجَلَالِيّ ؛ أعلى الله تعالى شأنه ، وأعز سلطانه ، وأمكن من رِقَاب الأعداء مكانه ؛ ولا زال لَوَاؤُهُ يَتَأَزَّرُ بالنصر وَيَرْتَدِي ، وَفِنَاؤُهُ يَرُوحُ إليه العِزُّ وَيَعْتَدِي ، وَعَزْمُهُ يَتَّقِفُ صرفَ الزَّمانِ فلا يعتاد أن يعتدى ؛ ولا يَرِحَ محموداً في مَوْقِفِ النَّصْرِ مَوْقِفُهُ ، مَا ضِيًّا في هَامَاتِ أَعْدَائِهِ مَرَّهْفُهُ . وَيُنْهَى بعد أدعية رفعها إلى مواطن الإجابة ﴿ فَتَقْبَلْهَا رَبُّهَا بِقَبُولِ حَسَنِ ﴾ وَمُوَالاةٍ شَفَعَهَا بالإخلاص ، فَعَجَزَ عن وصفها دَوُوُ البلاغة والسَّن ، وَأَثْنِيَّةٍ جَمَعَهَا فَلَدَّتْ بها الأَسْمَاعُ لَدَاذَةَ الأَعْيُنِ السَاهِرَةِ بِالوَسْنِ ؛ أن الأمر كَيْتَ وَكَيْتَ .

المرتبة الثانية — من يُكْتَبُ له «أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ المَقَرِّ الشريف» — صاحب مَارِدِينَ . والرسم أن يُكْتَبُ إليه : أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ المَقَرِّ الشريف ، العالى ، المَوْلَوِيّ ، الكَبِيرِيّ ، العَالِمِيّ ، العَادِلِيّ ، السُّلْطَانِيّ ، المَلِكِيّ ، القَلَانِيّ ؛ ويدعى له ، نحو : لَأَزَلَّتْ أيامُهُ مَسْعُودُهُ ، وَأَبْوَابُهُ مَقْصُودُهُ ، وَأَلْوِيَةُ النَّصْرِ بِنِوَاصِي خَيْلِهِ مَعْقُودُهُ ؛ المملوك يُقْبَلُ اليَدَ الشريفه ، ويقوم من الخِدْمَةِ بِأَكْلِ وَظِيفِهِ ؛ وَيُنْهَى لعلمه الكريم بعد السلام الزكى ، والثناء المِسْكِيّ ؛ كَيْتَ وَكَيْتَ ، فيحيط بذلك علمه الكريم ، وَيُتَّقِفُ بالمُشَرَّفَاتِ على عادة فضله العميم .

المرتبة الثالثة — «أَعَزَّ اللهُ تَعَالَى أَنْصَارَ المَقَرِّ الكَرِيمِ» . وبذلك يكتب إلى ابن قِرْمَانَ نَائِبِ السلطنة بالبلاد القَرْمَانِيَّة — حاكم جولمرك — صاحب بُرْصَا وهو ابن عثمان — صاحب آيَاس لوق .

المرتبة الرابعة — « المقرّ العالى » وبذلك يكتب إلى صاحب حصن كيفا،
والوزير بالممالك القانية وقاضيا .

المرتبة الخامسة — « أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجَنابِ الكَرِيمِ » . وبذلك يكتب
إلى صاحب أنطاليا من بلاد الروم .

المرتبة السادسة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجَنابِ العالى » . وبذلك يُكتب
إلى نائب كرنك ، وحاكم جمشكراك ، وحاكم سيواس ، وحاكم أماسيا ، وحاكم
سنوب ، والحاكم بخرت برت .

المرتبة السابعة — « أدام الله تعالى نعمة الجَنابِ العالى » . وبذلك يكتب إلى نائب
صاحب ماردين ، ونائب الصالحية ، وبعض خدام صاحب ماردين .

المرتبة الثامنة — « صَدَرَتْ والعالى » . وبذلك يكتب إلى حاكم حران ، ونائب
مازرد ، وحاكم قلعة الجوز .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية —
من يكتب إليه عن السلطان : « ضاعف الله تعالى نعمة الجَنابِ العالى » كوزير المملكة
بالديار المصرية ، وناظر الخاص ، على ما استقر عليه الحال آنحرا ، وأرباب الوظائف
من الأمراء المقدمين بها : كأمير سلاح ، وأمير مجلس ، وأمير أخور ، والدوّادار ،
وإستادار ، وحاكج الحجاب ، ونائب الإسكندرية ، وكذلك تواب السلطنة
بطرابلس ، وحمّة ، وصفد ، من الممالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة على [تسع] مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » وهم : النَّائب الكافل ، وأتابك العساكر ،

ونائب الشام .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حلب .
 المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طرابلس ،
 ونائب حماة ، ونائب صفد ، ونائب الكرك ، وأمير سلاح وغيره من سائر من في هذه
 الطبقة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي
 والبحري بالديار المصرية ، ومقدمي العسكر بغزة وسياس ، والأمراء المقدمين
 المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة وقبض الغلال .

المرتبة الخامسة — « يقبل الأرض بالمقر الشريف » إن قصد تعظيمه ، أو الباسط
 الشريف إن لم يقصد ، وبذلك يكتب إلى (١)

المرتبة السادسة — « يقبل اليد العالمة » . وبذلك يكتب إلى أمراء الطليخان
 المتوجهين من الأبواب السلطانية لكشف الجسور والمساحة والقبض . وربما
 أمحطت رتبة أحد هؤلاء فكتب إليه : أعز الله تعالى أنصار المقر الكريم ، وأنصرة
 الجناب الكريم ؛ أو ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی .

المرتبة السابعة — « ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالی » . وبذلك يكتب إلى
 كاشفي الوجه البحري وكاشفي القيوم والبهنساوية .

المرتبة الثامنة — « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالی » . وبذلك يكتب إلى الولاة
 الطليخان بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية : كقوص والمحلة ، وغيرهما .
 وربما كتب "صدرت والعالی" لأحدهم .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ وَالسَّامِي » . وبذلك يكتب إلى ولاية العشرات بالوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالى نعمة المجلس العالى » . ككاتب السرّ وناظر الجيـش ، وكذلك المـجـاب الطـبـلـخـانـاه بالديار المصرية . وعلى ذلك كان ناظر الخاصّ فى الزمن المتقدّم . فلما جُمع للصاحب شمس الدين المقسى بين الوزارّة ونظر الخاصّ ، كان يُكتب عنه بما يُكتب به عن الوزراء كما تقدّم . فلما انفصل الخاصّ عن الوزارة رُوِيَ فى الخاصّ ذلك القَدْر ، فكُتِبَ عن ناظر الخاصّ كما كتب عن الوزير؛ والأمر على ذلك إلى الآن .

والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقة على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانى بمطالعة » . وبذلك يُكتب إلى النّائب الكافل ، والأنايك ، ونائب الشام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائب حلب ، فكتبوا إليه الفلانى .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلى نواب السلطنة بطرأبلُس ، وحمّاة ، وصفد ، وثغر الإسكندرية .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائبي الوجهين القبلي والبحري بالديار المصرية ، ومقدّمى العسكر بغزة وسيس ، وربما كُتِبَ إلى أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلى نائب الكرك .

المرتبة الخامسة — « يقبل الباسطة » . وبذلك يكتب إلى نائب القُدس الشريف ، ونائب الرّجبة ، وكاشف الوجه البحرى ، وكاشف القيوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — « يقبل اليدّ العالية » . وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناة ،
بالوجهين القبليّ والبحريّ ، بالديار المصرية .

المرتبة السابعة — « يخدم الجناح العالى » . وبذلك يكتب إلى الولاة العشرات
بالوجهين القبليّ والبحريّ أيضا .

قلتُ : وعلى هذه الطبقات الأربع يُقاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن
السلطان ، صدرت والعالى ، ككاتبَيْ القُدسِ والرَّحبةِ ؛ وَمَنْ يُكتب له : صدرت
والسامي ، كالكاشف بالوجه البحريّ ، وكاشفِ القُيُومِ ؛ ومن يكتب له : هذه
المكاتبة ، كالولاة الطبلخاناة بالوجهين القبليّ والبحريّ ؛ ومن يكتب له : « يَعْلَمُ »
كالولاة العشرات بالوجهين أيضا . على أن الغالب في مثل هؤلاء أن تكون الكتابةُ
عنهم لأعيان الدولة « الفلانيّ بمطالعة » وفيمن هو مثلهم أو دونهم يقاس على
ما تقدّم .

وأعلم أن هذه المراتب المضمّنة للطبقات ليست على سبيل اللزوم في الوقوف
عند حدّها ، بحيث لا يجوز تجاؤها بزيادة ولا التناخُرُ عنها بنقص ، بل هي على
سبيل التقريب ؛ والأمر في زيادة رتبة المكتوب إليه زيادةٌ لا تُخرِجه عن حدّه
في المقدار موكولٌ إلى اختيار الكاتب ، يزيد في ذلك وينقص ، بحسب ما يقتضيه
الحال : من رفعة قدر المكتوب إليه ، لمزيد رفعته عن نوعه ، أو محاباته لأستمالته
إلى القصد المطلوب منه ، أو الغضّ منه بحطيطة رُتبته أو نحو ذلك .

الفصل السابع

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى مقاصد المكاتبات ، وهى الأمور التى تكتب المكاتبات بسببها)
وهى الجزء الأعظم من صناعة الترسُّل ، وعليها مدارُ صنعة الكتابة ، إذ الولايات
من مقاصد المكاتبات ، وهى أهمُّ ما تَصَلَّحَ به الكاتبُ ، وألزمُ مامهرَ فيه ؛ وهى قسمان :

القسم الأول

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهى على نوعين)

النوع الأول

(ما يُكْتَبَ عن الخلفاء والملوك ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن صاهاهم)

مما هو مستعمل الآن مما كان عليه الحال فى الزمن القديم مما يقل ويكثر ،
ويتكرر تداوله فى الكتابة وسائر المكاتبات فى الحوادث المألوفة التى يكثر تداولها ،
وتتكرر الكتابة فيها بتكرار وقائعها ، وما رسمُ الكتابة به باقٍ إلى زماننا ، وإن تغير
مصطلح الابتداء والخطاب وغيرهما من رسوم المكاتبات . وهو على أصناف :

الصنف الأول

(الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة)

قال فى "مواد البيان" : جرت العادة أن تُنْفَذَ الكتبُ إلى ولاة الأعمال فى مثل
هذه الحالة ، مُتَّصِمَةً ماجرى عليه الأمر بالحضرة : من اتقياد الأولياء والرعايا

إلى الطاعة، ودخولهم في البيعة بصدورٍ مُنْشَرِحَةٍ، وحَضٍّ مِنَ الْأَعْمَالِ من رجال السلطان ورعيته على الدخول فيما دخل فيه أمثالهم، وإِعْطَاءِ الرَّعَايَا عَلَى ذَلِكَ صَفْقَةً أَيْمَانِهِمْ .

وقد كان الرِّسْمُ فيها أَنْ تُصَدَّرَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى عَوَارِفِهِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ تَكْتَشِفُ الخَطْبُ، وَتَرَابُ الشَّعْبِ، وَتَدْفَعُ الْمُهِمَّ، وَتَرْفَعُ الْمَلْمُومَ، وَتَجْبِرُ الْوَهْنَ، وَتُسَبِّغُ الْأَمْنَ، وَالصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَكَرَ خِصَائِصَهُ وَمَنَاقِبَهُ، وَتَشْرِيفَ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِإِقْرَارِ الْإِمَامَةِ فِي أَقَارِبِهِ، وَتَخْصِيصِهَا بِنَبِيِّ عَمِّهِ الَّذِينَ هُمْ أَحَقُّ النَّاسِ بِهِ، وَمَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ طَلَبِ مَوَدَّتِهِمْ مِنَ الْأُمَّةِ بِقَوْلِهِ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَقَاءِ الْخِلَافَةِ فِيهِمْ بِقَوْلِهِ لِعَمَّةِ الْعَبَّاسِ : « أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ، بِإِخْتِمَاتِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلَدِكَ تَخْتُمُ الْخِلَافَةَ » وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَتَلَوُ ذَلِكَ بِالْإِفْصَاحِ عَنْ شَرَفِ الْخِلَافَةِ وَفَضْلِهَا، وَالْإِبَانَةِ عَنْ رَفِيعِ مَكَانِهَا وَمَحَلَّتِهَا؛ وَأَنَّهَا ظِلُّ اللَّهِ الْمَمْدُودِ، وَحَبْلُهُ الْمَشْدُودِ؛ وَمِسَاكُ الدِّينِ وَنِظَامُهُ، وَمِلَاكُ الْحَقِّ وَقَوَامُهُ . وَأَمْتِنَانِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى الْعِبَادِ بِأَنْ جَعَلَ فِيهِمْ أُمَّةً يُقْسِطُونَ الْعَدْلَ عَلَيْهِمْ ، وَيُقِيمُونَ الْحُدُودَ فِيهِمْ ؛ وَيُقِيمُونَ أَدْيَانَهُمْ ، وَيَهْدُونَ إِيْمَانَهُمْ ؛ وَيُرْهِفُونَ بَصَائِرَهُمْ ، وَيَهْدُونَ حَاثِرَهُمْ ؛ وَيَكْفُونَ ظُلُومَهُمْ ، وَيُنْصِفُونَ مَظْلُومَهُمْ ، وَيَجْمَعُونَ كَلِمَتَهُمْ ؛ وَيَجْمَعُونَ ذِمَارَهُمْ ، وَيَحُوطُونَ دِيَارَهُمْ ؛ وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . ثُمَّ يَذْكُرُ مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ لِلْإِمَامِ مِنَ الطَّاعَةِ وَحَسَنِ التَّبَاعَةِ أَيَّامَ حَيَاتِهِ ، وَالْأَقْيَادِ لِأَمْرِهِ فِي طَاعَةِ مَنْ يَنْصُ عَلَيْهِ فِي الْقِيَامِ مَقَامَهُ بَعْدَ وَفَاتِهِ : لِيَتَّصِلَ حَبْلُ الْإِمَامَةِ بَيْنَهُمْ ، وَيَتَمَدَّ ظِلُّ الْخِلَافَةِ عَلَيْهِمْ . فَإِنْ كَانَ قَدْ تَلَقَّى الْخِلَافَةَ بَعْدَ عَهْدِ خَلِيفَةٍ قَدِمَاتٍ : مِنْ أَبِي أَوْ غَيْرِهِ ، أَوْ بِمَقْدَمَةٍ فِي ذِكْرِ الْمَوْتِ ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَوَّى فِيهِ بَيْنَ بَرِيَّتِهِ ، وَجَعَلَ فِي تَطَرُّقِهِ

إلى رسوله أُسْوَةٌ لخليقته ، وتَفَرَّدَ بالبقاء ، وأمتنع عن الفناء . ثم يقال : وإن الله تعالى لما آختر لعبده ووليه فلان الثَّقَلَةَ إلى دار كرامته ، والحُلُولَ بفناء طاعته ، وأعانه على سياسة بريته ، وأنهضه بما حمَّله ، وأيده فيما كَفَّلَه ؛ من الذبِّ عن المسلمين ، والمراماة عن الدين ؛ والعمل بكتابه وسنته في القول والفعل ، وأستشعار خيفته ومراقبته في السرِّ والجمهور ؛ وما يليق بهذا - استخلص عبده ووليه فلاناً الإمام الفلاني لخلافته ، وأهْمِي سَاءَ الرحمة بإمامته ؛ وأحلَّ عزيز النصر بولايته ، وألقى في نفيس رأيه النصَّ عليه ، والتفويضَ إليه ؛ لما علم سبحانه في ذلك من شمول المصلحة للعباد ، وعموم الأمانة للبلاذ ؛ فأَمْضَى - قدس الله روحه - ما أَلْهِمَهُ ، وَكَلَّمَهُ قبل نخروجه من دار الدنيا وتممه ؛ عالماً بفضل اختياره ، وأنه لم يَمَلْ به الهوى في إشاره ؛ فقام أمير المؤمنين الإمامُ الفلاني مقامه ، وَحَفِظَ نِظَامَهُ ؛ وسَدَّ ثَمَمَتَهُ ، وَعَفَى رِزِيَّتَهُ ؛ وأقر الله تعالى الإمامة به في نصابها ومقرها ، وزاد باستخلافه في صِيبِ الخِلافة وَقَدَّرَهَا .

وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يخص وليه السعيد بقره بأفضل صلواته ، وأشرف تحياته ، ويحسن جزاءه في سعيه في صلاح العباد ، وسداد البلاذ ؛ وأن يُلْهِمَ أمير المؤمنين الصبر على تجرع الرزية فيه [ويجزيه] أفضل ماجزئ به صابراً مُحْتَسِباً ، وأن يَجْبِرَ كَسْرَهُ في فقدِه ، وَيُوقِّعَ لجميل العزاء من بعده ؛ وَيُسَدِّدَهُ في مصادره وموارده ، وَيَهْدِيَهُ لما يُرِضِيهِ في جميع مقاصده ؛ وَيُعِينَهُ على تأليف الأهواء ، وَجَمْعِ الآراء ؛ وَنَظْمِ الشَّمْلِ ، وَكَفِّ القتل ، وإرخاء الظل .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أجمع من بحضرته ، من ذوى جهته وأمرائه دولته ؛ وَكَافَّةَ جُنْدِهِ وَجَمَاعَةِ حَوَازَتِهِ على بيعته ، وإعطائه صَفَقَةَ أَيْمانهم على طاعته

ومشايته ؛ عن صدور مُخْلِصة نَقِيَّة ، وسَرَائِرِ صَافِيَة سَلِيمة ؛ وعقائد مشتملة على الوفاء بما عَقَدُوا عليه ، وأنقادوا مختارين إليه ؛ وشَمِلْتهم بذلك الرحمه ، وَصَفْت عليهم النعمة ؛ فما بَرِحُوا الرِّزِيَّة ، حتى فَرِحُوا بالعطية ، ولا وَجَمُوا للصيبه ، حتى بَسَمُوا للربغيبه ؛ ولا أَظْهَمُوا لفقد الماضي ، حتى أَضَاء الوجود بالآتي .

فنه الحمد على هذه النعمة التي جَبَرَت الوهن ، وحققت في فضله المن ؛ حمدا يَسْتَدِرُّ أخلاف فَضْله ، ويستدعى سابغ طوله ؛ وصلَّى الله على عهد وآله . وأمير المؤمنين يراك من أهل محالسته ، والمتحققين بطاعته ؛ وهو يأمرك أن تأخذ البيعة له على نفسك ، وعلى جميع أوليائه المقيمين قبلك ، وكافة رعاياه الذين هم في عملك ؛ وتُسْعِرهم بما عنده للسارعين لطاعته ، المبادرين إلى أتباعه ؛ من تيسير الإنصاف والعدل ، وإفاضة الإحسان والفضل ؛ وما لمن نكَبَ عن الطريقة المثلى ، وحَادَ عن الأولى ، من الكفِّ الرَادِع ، والأدب الوَازِع ؛ ويتوسَّع في هذا المعنى توسعاً يشرح صدور أهل السلامه ، المستمرين على نهج الاستقامه ؛ ويردع أهل الفساد ، ويفض من نواظر ذوى العناد . ويحلِّي الكتاب بآيات من القرآن الكريم تحسن أستعارتها في باب العزاء ، ويبلغ ذكراها في باب الإشادة بالخلافة والخلفاء . فان كان الكتاب مما يقرأ بالحضرة . قال في موضع «وكتاب أمير المؤمنين إليك» : «وأتم معاشر أقارب أمير المؤمنين : من إخوته وبنى عمه وخوَّاص الدولة وأمرائها وأجنادها وكُتَّابها وقضائها وكافة رعيها ، ومن أشتمل عليه ظل مملكته - أحق من حافظ على عوارف أمير المؤمنين وأعتد بلطائفه ؛ وقام بشكر نعمته ، وسارع إلى أتباعه وأعتصم بحبل دعوته ؛ فأجمعوا على متابعته ، وإعطائه صفة أيمانكم على مبايعته ؛ ليجمع الله على التأليف كلمتكم ، ويحى بالتأزر بيضتكم » ويتبع ذلك من وعد أهل الطاعة

بما يضاعف جُودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بما يُصَفِّرُ خُدودهم ؛ على نسق ما سبق في الترتيب .

وهذه نسخة كتاب في المعنى ، كُتِبَ به عن الأمر بأحكام الله تعالى عند أستقراره في الخلافة بعد أبيه المُستَعْلَى بالله ، والدَّوْلَةُ مُشْتَمَلَةٌ على وزير ؛ من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

الحمد لله المتوحد بالبقاء ، القاضى على عباده بالفناء ؛ الذى تَمَجَّدَ بالأزليَّةِ والقِدَمِ ، وتفرد بالوجود وتَزَّهَى عن العَدَمِ ؛ وجعل الموت حَتْمًا مقضياً على جميع الأمم .

يمجده أمير المؤمنين على ماخصه به من الإمامة التى قَصَّصَهُ سِرِّهَا ؛ ووزَّنه غفراها وجمالها ؛ حمد شاكراً على جزيل عطيه ، صابراً على جليل الرزية ، مُسَلِّمٌ إليه فى الحُكْمِ والفضيه ؛ ويسأله أن يصلى على جدّه محمد الذى ثبت حجته ، ووضَّحت حجته ؛ وعلت كلمته ، وأنافت على درج الأنبياء درجته ؛ صلّى الله عليه وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامة كلمة فى عقبه باقيه ، وحبه جنة يوم الفزع الأكبر واقيه ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلى يوم الدين .

وإن الإمام المستعلى بالله أمير المؤمنين قدس الله رُوحَه وصلّى عليه ، كان من أوليائه الذين أصطفاهم لخلافته فى الأرض ، وجعل إليهم أزيمة البسط والقبض ؛ وقام بما حمّله من أوق الإمامة ^(١) ، ولم يزل عاملاً بمرضاة الله إلى أن نقله إلى دار المقامه ؛ فإننا لله وإنا إليه راجعون ، رضا بقضائه ، وصبرا على بلائه ؛ وإلى الله يرغّب أمير المؤمنين فى إلهامه حُسن الصبر على هذا المُصَابِ ، وإجزال حظه عليه من الأجر والثواب ؛ وإمداده فى خلافته بمواد الإرشاد والصواب ؛ بكرمه .

وكتب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلاني من سنة كذا؛ بعد أن جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء: عُمومته وأوليائه وخدم دولته، وسائر أجناده وغبيد مملكته، وعامة شيعته، وأصناف رعيته؛ وأنوار الخلافة عليه مشرقه، وأغصان الإمامة مُثمرة مُورقه؛ والسيد الأجل الأفضل الذي أمده الله في نصرته الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهان الإمامة الآمرية فوضحت أنوارها للبصائر والأبصار، وشهر له من المناقب ما سار مسير الشمس في جميع الأقطار؛ يتولى الأمر بحضرته تولى الكافل الزعيم، ويباشر النظر في بيعته مباشرة القسيم الحميم؛ والناس داخلون في البيعة بانسراح صدور، وإظهار آبتهاج وسرور؛ يعطون صفة أيمانهم، ويعلمون ما لهم من الحظ في طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شمول السعد وعُموم الرشد، وتيقنوا خيرة لهم في العاجلة والمعاد؛ وأمير المؤمنين يعزبك ومن قبلك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة في الإمام المستعلي بالله - صلى الله عليه - التي قطعت من النفوس أملاها، وأسكنت الألباب جرحا وولها، ويهنيك وإياهم بمتجدد دولته التي تهلل لها وجه الزمان، وأستهلت بها سحاب الفضل والإحسان . وأمير المؤمنين يمد الله الذي أقر الحق في منصبه، وأفرده بما كان والده الإمام المستعلي بالله أفرده به .

فأعلم ما أعلمك أمير المؤمنين من هذا الخطب الجسم، والنبي العظيم، وأشكر الله على ما جدد لك ولكافة المسلمين، من النعمة بامامة أمير المؤمنين؛ التي أوفت بأساء الزمان وجنابته، وشفقت من داء كلمه ونكايته؛ وتقدم إلى الدعاء (؟) قبلك بأخذ البيعة على نفسك وعلى كافة من في ولايتك، وأستحمد إلى أمير المؤمنين أنت وهم بالإخلاص في طاعته، والأجتهاد في مناصحته، والتمسك بعصم مشايخته؛ لتنالوا

في العاجلة حظاً جسيماً ، ونُحِرْزُوا في الآجلة أجراً كريماً : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالع بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين عليّ الحاضرين قبلك ، وإذاعته في الواردين عليك والمستوطنين مملك ، ليحمدوا الله على ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصنع العائد على العباد ، وصلاح البلاد - وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب عن الأمر بأحكام الله المقدم ذكره ، كتبت به إلى ولاية الأطراف بعد قراءة عهده ، مهتاً بخلافته ، وتجديد ولايته ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي .

أما بعد ، فالحمد لله مولى المنائح من نعمه ، ومجزل العطايا من مواهبه وقسمه ، ومعود الصنع الجميل من لطفه وكرمه ، الذي له الحكم الظاهر عدله ، ولديه الطول الفائض فضله ، وعنده مفايح الغيب وإليه يرجع الأمر كله .

يحمده أمير المؤمنين عليّ ما أفرده به من سنيّ المواهب ، ونظمه له من عقود المناقب ؛ ونقله إليه من تراث آبائه الكرام الذين جلا ضياؤهم ظلام الغيابه ؛ وتزينت بهم الأرض تزيّن السماء الدنيا بزينة الكواكب ؛ ويسأله أن يصلى على جدّه محمد الذي نشر الله به الرحمه ، وكشف الغمه ، وأنقذ الأمه ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمّه عليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين ، والمذكور في زبر الأولين ، وعلى الصفوة من ذريتهما الهداة الراشدين ، صلاة باقية إلى يوم الدين .

وإن النعم تتفاضل أقدارها بحسب مواقعها ، وتتفاوت أخطارها بقدر مواضعها ؛ ومن أطفها مكانا ، وأشرفها محلاً وشانا ، وأولاها بأن تستنطق به الأقلام ، وأحقها بأن يتناقل ذكرها الخاص والعام ؛ ما خصّ الله به أمير المؤمنين من المن الظاهره ،

وتولاه من المنح المتظاهره ؛ وأصاره إليه من الخِلافة في أرضه ، وأستخلفه عليه من القيام بسُننِ دينه وفرضه ؛ وأسترعاه إِيَّاه من حياطة بلاده ، وأوجهه من طاعته على كافة خلقه وعباده ؛ وذخره لدولته من كفيله وخيله ، ومقيم أدلة حقه وموضح سبيله ؛ السيد الأجلّ الأفضّل الذي آرتضاه الله للدبّ عن الإسلام ، وآنتضاه لنصرة إمام بعد إمام ؛ وشهر مناقبه في كلّ موقف ومقام ، وخصّه بفضائل لم تر جمعةً للملك من ملوك الإسلام ؛ لاجرم أنّ أمير المؤمنين قد أحله منه محلّ الروح من الجسد ، والوالد من الولد ؛ وفوضّ الأمور إليه تفويض معول على يمنّ تقيته معتمد ، مبالغ في حسن الاختيار للأمة مجتهد ؛ والله تعالى يمتّع أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسن ما جرى به مُخلصاً جمع في الإيمان بين القول والعمل ؛ بكرمه .

ولما وقف أمير المؤمنين بما طالعه به السيد الأجلّ الأفضّل عند مثوله بحضرته ، وإنهائه أمور دولته وأحوال مملكته ؛ على أمرك الذي آستحدمه في الخدمه ، وآستحققت به إفاضة الإحسان وإسباغ النعمه ؛ وأن لك في الدولتين : المستصيريه والمُسْتَعْلِيَّة من الخدم المشكوره ، والمساعى المبروره ؛ ما يدلّ على مناصحتك وإخلاصك ، ويعتُ على أصطناعك وآستخلاصك - أمر بكتب هذا السجلّ لك مؤكداً لأواخيك ، ومُعرباً عن رأيه الجميل فيك ؛ ومجدداً من ولايتك ، ومُجرباً لك فيها على مُستمرّ رسمك ومستقرّ عادتك . فقابل نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص في طاعته بما يرتبطها ، ووفّها من حقّ الاجتهاد ما يُقرّها عندك ويُدبّطها ؛ وأجعل تقوى الله تعالى عمادك ، وأطو عليها طويّتك وآعتقادك ؛ ومكّن في نفوس الأولياء بحيل رأي أمير المؤمنين فيهم ؛ وإحمّاده لمواقفهم في الخدمه ومساعدتهم ؛ وحقّق عند كافة المُستقرّين لديك ، والواردين عليك ؛ ما يكفون به من الأمر الشامل ،

ويعمرون به من حُسنِ النظر المتواصل؛ وأجرِ على العادة المألوفة في إفاضة العدل والإنصاف، وتتكب سبيل الجور والإجحاف؛ ومهد السبل قبلك، وأحيم من أسباب الفساد ولايتك وعملك؛ وأخصص متولى الحكم والدعوة الهادية - ثبتها الله تعالى - بالإعزاز والرعاية، ووفر حظهم من الملاحظة والعناية؛ وخذ المستخدم في الخطبة العلوية باقامتها في أوقاتها، على أفضل قوانينها وواجباتها؛ معلناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذي يتوج فروق المنابر، ويسنف أسماع البوادي والحواضر؛ وتوفر على مائمه الأموال وأئمة ماها، وغزرها ورخاها، وقضى بوفورها وحصولها، ودعا إلى درورها ومواصلة حموها؛ وأنظر في أمر الرجال المستخدمين معك نظراً يؤدي إلى مصلحتهم. فأعلم هذا من أمير المؤمنين، وأغبط بما أصاره الله إليه أغبط أمثالك من المخلصين، وأعتقد طاعته أعتقد من يجاريك من أهل اليقين، وأعمل بوصاياه ومراشده تحظ في الدنيا والدين؛ وطالع بالكائن منك بعد قراءة هذا السجل على كافة الناس أجمعين؛ وكتب في كذا وكذا.

وأعلم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن الخليفة بانتقال الخلافة إليه، يكتب ملطف عن الوزير، يلف كتاب الخليفة ضمنه، ويوجه به إلى حيث المقصد:



وهذه نسخة ملطف في هذا المعنى، كتبت به عن وزير في الدولة الفاطمية، يلف كتاب الخليفة طيه؛ وهو:

ينطوى هذا الأمر الوارد على الأمير، على كتاب مولانا وسيدنا الإمام الفلاني لدين الله، أمير المؤمنين؛ صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين، أو أبنائه المنتظرين، إن كان لا ولده - بما أصاره إليه من شرف

الإمامه، وبوأه إياه من مقام العظمة والكرامة؛ إثر انتقال الإمامِ فلانِ أمير المؤمنين - قدس الله روحه - إلى جوارِ ربه . فاعتمد العملَ بمضمونه في أخذ البيعة على نفسك ومن يليك، وتلاوته على رءوس الأَشهاد، وإذاعة مكنونه في الحاضر والباد، على الرسم المعتاد؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

قلت : وهذا المعنى في الكتابة بانتقال الخلافة إلى الخليفة جارٍ في زماننا بانتقال السلطنة إلى السلطان؛ ويعبر عن ذلك بجلوسه على تخت الملك، والأمر على ما تقدم في الخلافة من التعزية بالماضي، والتهنئة بالمستقر، ونحو ذلك مما يجري مجراه .



وهذه نسخة مكتوبة بالبشارة بجلوس الملك الصالح صالح ابن الملك الناصر محمد ابن قلاوون على التخت، في شهر رجب الفرد سنة آثنتين وخمسين وسبعائة، بعد خلع أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصدر والألقاب :

وأورد عليه من البشائر أسنى البشر، وأسمعه من التهاني ما أنتشى حديثه بين البرايا وانتشر، وحفظ عليه وعلى الأمة ما أراد لهم من الخير وولى عليهم خيارهم وجعل ملكهم صالح البشر .

صدرت هذه المكتوبة إلى فلان^(١) وصرها مقدماً بالظفر، وذكرها قد ملأ الأقطار بجمع عليه كل قلب كان قد نقر؛ تُهدى إليه سلاماً عن وجه الشكر سفر، وثناء يحصل منه على النصيب الأوفر؛ وتوضح لعلهم أن الجنابات العالية الأمراء الأكابر، أمراء الدولة الشريفة، ضاعف الله نعمتهم؛ كانوا قد عظموا أخانا الناصر، وحكموه، ومشوا إلى خدمته على أحسن سنن؛ وما أبقوا في خدمته ممكناً من التعظيم، والإجلال والتحكيم، وأمثال الأمر في كل جليلٍ وحقيق؛ فلم يرع لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك، ولا آلتفت إلى ما لهم عليه من حقوق الخدمة؛ وآتفت مع الصبيان، وأراد القبض على الأمراء، وإمساك الجنابات العالية الأمراء الأكبر والإيقاع بهم . فلما تحققوا منه ذلك، اجتمعت الأمراء، وآتفت الكلمة على خلعهِ من الملك الشريف وإقامتنا . فخلع المشارُ إليه؛ وكان جلوسنا على تخت الملك الشريف وكرسى السلطنة المعظمة في يوم الاثنين المبارك، بحضور الإمام المعتضد بالله أمير المؤمنين أبي الفتح أبي بكر، ابن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبي الربيع سليمان المستكفي بالله، ومبايعته لنا، وحضور المجالس العالية قضاة القضاة بالأبواب الشريفة، أعز الله تعالى أحكامهم؛ وحلف لنا أمراء الدولة الشريفة على جارى العادة في ذلك؛ وضربت عند ذلك البشائر، وشهد هذا الهناء كل بادٍ وحاضر، وتسنفت الأسماع وقرت العيون واستقرت الخواطر؛ وأبتجت بذلك الأمم، وتباشرت بهذا السعد الذي كتبت لنا من القدم؛ وأصبح كل من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا .

فليأخذ المقر حظه من هذه التهنیه، وليذع خبرها لتكون المسار معيدة ومبديه؛ ويتحقق ماله عندنا من مكانه، والمحل الذي زان بالإقبال الشريف زمانه؛ ويتقدم أمره الكريمُ بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالملكة الفلانية، ويتقدم أيضا بضرب البشائر وبالزينة على العادة .

وقد تجهز إلى الجناب العالی نسخة يمين شريفة يحلف عليها، ويكتب خطه، ويجهزها إلينا حجة المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، العُضد، الذخرى، النصيرى، الأوحدي، عضد الملوك والسلاطين، يلبغا الحموى الصالحى، أدام الله علوه، المتوجه بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسخة يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراء بطرابلس ويكتبوا خطوطهم، ويجهزها إلينا على العادة حجة المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالی صحبة المشار إليه تشریفاً شریفاً كاملاً؛ فيتقدم الجناب العالی بتسلمه منه وتبسیه ، ويتحقق ماله عندنا من المكانة والمترلة ، ويُعيد الأمير سيف الدين يلغا المشار إليه إلى الباب الشريف ، فيحيط علمه بذلك .

الصنف الثاني

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ في الدعاء إلى الدين ، وهو من أهم المهمات)
قال في "مواد البيان" : أشرف ما يُنشئه الكاتبُ الدعاءُ إلى دين الإسلام الذي أظهره الله تعالى على كلِّ دين ، وأعزّه على كره المشركين ، وأسْتَجْرَأَ مخالفيه إليه ، وأجتذَبَ الخارجين عن دائرته إلى الدخول فيه ؛ عملاً بما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده ، لأنه قوامُ الملك ونظامُ السلطان اللذان لا يصحّان إلا به .

قال : والكاتب يحتاج في إنشاء هذه الكُتُبِ إلى علم التوحيد وبراهينه ، وشرع الرسول صلى الله عليه وسلم خاصه وعممه ، ومعجزاته ، وآيات نبوته : ليتوسّع في الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح حجته .

ثم قال : والرسم فيها أن تُفتَحَ بحمد الله الذي اختار دين الإسلام فأعلاه وأظهره ، وقَدَّسه وطَهَّرَه ؛ وجعله سبيلاً إلى رضاه وكرامته ، وطريقاً إلى الزلفى في جنته ؛ وشفيعاً لا يُقبلُ عملٌ عاملٍ إلا به ، وأباً لا يصلُ وأصلٌ إلا منه ؛ فلا تُغفرُ السيئات إلا لمن اعتصم بحبله ، ولا تُقبلُ الحسنات إلا من أهله . وشكره تعالى على الهداية إليه ، والتوقيف عليه ؛ وذيادته عن مجاهل الضلالة بما أوضحه من برهانه ، وتوره من تبيانه . وتمجيدته من تعظيم آياته ، وباهر معجزاته ؛ وحكيم صنعته ، وبديع فطرته . وتزيينه عما لا يليق بسُلْطانه ، ولا تجوز إضافته إلى عظيم شأنه . وتسييحه

عما يصفه به المُلحدون، ويحتلُّه الجاحدون؛ والصلاة على رسوله محمدٍ صلى الله عليه وسلم، والإفصاح عن دلائل نبوته، وبراهين رسالته؛ وما خصه الله تعالى به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الباهرة، والآيات الظاهرة.

ثم يُدبِعُ ذلك بالدعاء إلى الدين والحصِّ عليه. وإيضاح ما في التمسُّك به من الرِّشَادِ في دَارِ الْمَبْدِئِ وَالْمَعَادِ. والتبشير بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه؛ من تَمْجِيسِ السَّيِّئَاتِ، ومُضَاعَفَةِ الْحَسَنَاتِ، وعِزِّ الدُّنْيَا وَفَوْزِ الْآخِرَةِ. والإنذار بما أوعَد الله به النَّاكِبِينَ عن سبيله، العَادِلِينَ عن دَلِيلِهِ؛ من الإذْلالِ في هذه الدار، والتَّخْلِيدِ بعد العَرْضِ عليه في النار؛ وتَصْرِيْفِ الْمُخَالَفِينَ بين الرِّغْبَةِ والرَّهْبَةِ، في العَاجِلِ وَالْمَغْبِئَةِ.

قال: وينبغي أن يتأني الكاتب فيما يُورده من هذه الأغراض، ليقع في المواقع اللائقة به، ويَجْلُوَ الْحَجَجَ في أحسن المعارض، ويفصح عنها بأقرب الألفاظ من النفوس. فإنه إذا وفق لذلك، ناب كتابه مناب الجيوش والأجناد، وأقر السيوف في الأعماد. ثم قال: ومن صدقت في هذا الفن رغبته، أيد الله تعالى غيرته، وعصده بديته ورويته.

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية قد بطل في زماننا، فلم يُعهد أن ملكاً من الملوك كتب إلى بلاد الكفر بالدعاية إلى الدين. إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغلبة والقوة والقهر. كما كان الخلفاء في الزمن المتقدم، والكفر مقهور معهم، مذلول لديهم. أما الآن فلولا ما أخبر به صلى الله عليه وسلم بقوله: «وَنَصْرَتُ الرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» وفي رواية «وَنَصْرَتُ أُمَّتِي» لَأَجْتَاكَ أَهْلُ الْكُفْرِ الْإِسْلَامَ؛ ولكن الله وعد دينه أن لا يُخْدَلَ.

الصنف الثالث

(من الكتب السلطانية الكُتِبَ بالحثِّ على الجِهَادِ)

قال في "موادِّ البيان" : كما أن الدين يَنْتَظِمُ بالدعاء إليه والترغيب فيه ، كذلك يَنْتَظِمُ بصيانته حَوَازِئَهُ ، وما دخل في مملكته ؛ وَكَفَّ أعدائه عن تَتَقُّصِ أطرافه ، وَالتَّغْلِبِ على بلاده . ولهذا فرض الله تعالى الجِهَادَ وأوجبه ، وأكَّدَ الأمرَ فيه وشدَّده ؛ والسلطانُ يحتاجُ عند الحوادث التي تَحْدُثُ من تَطَرُّقِ المخالفين إلى بعض الثُّغُورِ ، أو سَنِّ العَارَةِ على أهل الإسلام ، ان يَدْعُوَ إلى الجِهَادِ ومُقَارَعَةِ الأعداء ؛ وَصَوْنِ حريمِ الملة ، وَحِفْظِ نظامِ الدولة .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على جميل صنيعه : على إعزاز الكلمة ، وإسباغ النعمة باظهار هذه الملة ، وما وعد الله به من نصر أوليائه ، وخِذْلَانِ أعدائه ؛ وإدالة الموحدين ، وإدالة الملحدين ؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، وَذِكْرِ طَرَفِ من موافقه في الجِهَادِ ، ومُقَارَعَتِهِ لِشَيْعِ الإلحاد ، وتأييد الله تعالى أنصاره على أهل العناد . ثم يذكر الحادثة بنصها ، ويشرح القصة على فصها ؛ ويندب من جاوره وداناه من أهل الملة أجمعين ، ويخاطبهم بما يرهف عزائمهم في نُصْرَةِ الدين وكافة المسلمين ، وَأَتْبَاعِ سبيلِ السلفِ الصالحين ، الذين خَصَّهم الله تعالى بِصِدْقِ الضمائر ، وَنَفَازِ البصائر ؛ وَصِحَّةِ الدين ، وَوَثَاقَةِ اليقين ؛ فلم يكونوا ليرؤموا هرا ما إلا سهل لهم ماتوعر ، ويسر عليهم ما تعسر ؛ وسما بهم إلى ما هو أقصى منه مرعى وأبعد مدى ؛ رغبةً فيما رغبهم فيه من نُصْرَتِهِ ، وَتَعَرُّضًا لما عرَّضهم له من جزيل مثوبيته ؛ وَأَن يَحْضَمَّهم على التمسك بعزائم الدين ، والعمل على بصائر المخلصين ؛ وَأَقْتِرَاضِ ما فرض الله عليهم من جِهَادِ أعدائه ، وَتَحْيِيزِ ما وعدهم به

من الإظهار بهم والإظهار عليهم؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرِينَ، ويؤدوا الحَقَّ مُحْتَسِبِينَ،
ويُقدِّمُوا رَسَالًا لَنَا كَصِبِينَ وَلَا شَاكِّينَ وَلَا مُرْتَابِينَ؛ مُتَّبِعِينَ الحَقَّ حَيْثُ يَمُوقصده،
ومضارين دونه من صدِّ عنه وَعَدَدَ؛ وَيُبَالِغُ فِي تَخِيَّةِ أَهْلِ البَسَالَةِ وَالتَّجْدَةِ، وَالبَّاسِ
وَالشَّدَةِ؛ وَيُعِثُّهُمْ عَلَى نَصْرِ حَقِّهِمْ وَطَاعَةِ خَلْقِهِمْ؛ وَالفَوْزِ بِدَرْكِ الثَّوَابِ وَالرِّضْوَانِ،
وَتَتَوَرُّ البَصَائِرُ فِي الإِيمَانِ؛ وَفَضِيلَةِ الأَنْفِ مِنَ الضَّمِيمِ، وَالبُعْدِ مِنَ الذَّمِّ؛ إِلَى غَيْرِ
هَذَا مِمَّا يَعْدِلُ الأُرُوحَ وَالمُهْجَ، وَالإِقْدَامَ عَلَى مِصَارِعِ التَّلَفِّ. فَإِنَّ المُلُوكَ المَاضِينَ -
لَعَلَّهُمْ أَنَّ النَّاسَ إِنَّمَا يُجُودُونَ بِذَلِكَ لِلْفَوَائِدِ الَّتِي تُوجِبُهُ - كَانُوا يَبْدُلُونَ لِمَنْ يَدْعُوهُ
إِلَى المِكَالِفِ، وَيَعْرِضُونَهُ لِلذَّابِحِ؛ الرِّغَابِ الَّتِي تُهَوِّنُ عَلَيْهِمُ إِقْدَاءَ نَفْسِهِمْ فِي المِهَالِكِ
تَارَةً، وَيَذَكِّرُونَهُمُ الأَحْقَادَ وَالضَّغَائِنَ وَيُخَوِّفُونَهُمُ مِنَ الوُقُوعِ فِي المَدَلَّةِ أُخْرَى .

ثم قال : وينبغي للكاتب أن يُقدِّمَ في هذه الكُتُبِ مُقدِّمَاتٍ، يرتبها على ترتيب
يهزُّ الأَرِيحِيَّاتِ، وَيُسَبِّحُ العِزَّاتِ؛ لِيُجْمَعَ بَيْنَ خِدْمَةِ سُلْطَانِهِ وَالفَوْزِ بِنَصِيبِ
مِنَ الأَجْرِ.

قلت : وهذا الصَّنْفُ مِنَ المِكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّاتِ مُسْتَمَرَّ الحُكْمِ إِلَى زَمَانِنَا . فَمَا
زَالَتِ المُلُوكُ يَكْتُبُونَ إِلَى مَا يَلِيهِمْ بِالحَثِّ عَلَى الجِهَادِ، وَالقِيَامِ بِأَمْرِهِ، وَالحِصْصِ عَلَى
مُلاقاةِ العَدُوِّ، وَالأَخْذِ بِنُصْرَةِ الدِّينِ . وَقد تَقَدَّمَ فِي الكَلَامِ عَلَى مُقدِّمَاتِ المِكَاتِبِ
فِي أَوَّلِ هَذِهِ المَقَالَةِ : أَنَّ الشَّيْخَ شِهَابَ الدِّينِ مَحْمُودًا الحَلْبِيَّ ذَكَرَ فِي "حُسْنِ التَّوَسُّلِ"
أَنَّهُ إِذَا كُتِبَ عَنِ المَلِكِ فِي أَوَاقَاتِ حَرَكَاتِ العَدُوِّ إِلَى أَهْلِ الثُّغُورِ، يُعَلِّمُهُمُ بِالحَرَكَةِ لِلِقَاءِ
عَدُوِّهِمْ - أَنَّهُ يَبْسُطُ القَوْلَ فِي وَصْفِ العِزَّاتِ، وَوَقْوَةِ الهِمَمِ، وَشِدَّةِ الحِمِيَّةِ لِلدِّينِ،
وَكَثْرَةِ العَسَاكِرِ وَالجِيُوشِ، وَسُرْعَةِ الحَرَكَةِ، وَطَيِّ المَرَاحِلِ، وَمُعَاجَلَةِ العَدُوِّ، وَتَحْيِيلِ
أَسْبَابِ النِّصْرِ، وَالوُثُوقِ بِعَوَائِدِ اللَّهِ فِي الطَّفَرِ، وَتَقْوِيَةِ القُلُوبِ مِنْهُمْ، وَبَسْطِ آمَالِهِمْ،
وَحَثِّهِمْ عَلَى التِّيَقُّظِ، وَحِصْصِهِمْ عَلَى حِفْظِ مَا بِأَيْدِيهِمْ مِنْ ذَلِكَ وَمَا أَشْبَهَهُ . وَأَنَّهُ يُبْرِزُ

ذلك في أيّين كلامٍ وأجلّه ، وأمّكِنِه وأقربِه من التّوّة والبسالة ، وأبعدِه من اللّين والرّفقة ؛ ويبالِغ في وصف الإنابة إلى الله تعالى وأستنزالِ نصّره وتأييده ، والرجوع إليه في تَثْبِيَتِ الأقدام ، والأعتصامِ به في الصّبر ، والأستعانة به على العُدوّ ؛ والرّغبة إليه في خِذْلانِهِمْ ، وزلزلةِ أقدامِهِمْ ، وجعلِ الدائرة عليهم ؛ دون التصريح بسؤالِ بطلانِ حركتِهِمْ ، ورجاءِ تأخيرِهِمْ ، وأنْتَظارِ العرَضِيّاتِ في تحلّفِهِمْ ، لِمَا في ذلك من إيهامِ الضّعْفِ عن لِقائِهِمْ ، وأستشعارِ الوهنِ والخوفِ منهم ؛ وأن زيادةَ البَسْطِ وتقصّها في ذلك بحسبِ المكتوب إليه .

وهذه نسخةٌ مُكَاتَبَةٌ من ذلك عن السلطان إلى بعض نوابِ الثُّغور ، من إنشاءِ الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبِيِّ ، أوردناها في "حسن التوسل" وهي :

أصدرناها ومُنَادِي النَّصْرِ قَدْ أَعْلَنَ بِيَاخِيلَ اللهُ أَرْكَبِي ، وَيَا مَلَائِكَةَ الرَّحْمَنِ أَصْحَبِي ، وَيَا وَفُودَ الظَّفَرِ والتأييدِ أَقْرَبِي ؛ وَالْعَزَائِمُ قَدْ رَكَضَتْ عَلَى سَوَابِقِ الرِّكْضِ إِلَى الْعِدَاءِ ، وَالهِمُّ قَدْ نَهَضَتْ إِلَى عَدُوِّ الْإِسْلَامِ فَلَوْ كَانَ فِي مَطْلَعِ الشَّمْسِ لِأَسْتَقْرَبَتْ مَا بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ مِنَ الْمَدَى ؛ وَالسُّيُوفُ قَدْ أَنْفَتْ مِنَ الْعُمُودِ فَكَادَتْ تَنْفِرُ مِنْ قُرْبِهَا ، وَالْأَسِنَّةُ قَدْ ظَمِئَتْ إِلَى مَوَارِدِ الْقُلُوبِ فَتَشَوَّفَتْ إِلَى الْآرْتَوَاءِ مِنْ قُلُوبِهَا ؛ وَالْحِكْمَةُ قَدْ زَارَتْ كَاللُّيُوثِ إِذَا دَنَتْ فِرَائِسُهَا ، وَالْجِيَادُ قَدْ مَرِحَتْ لِمَا عَوَدَتْهَا مِنَ الْإِتْعَالِ بِمَجَامِعِ الْأَبْطَالِ فَوَارُسُهَا ؛ وَالْجِيُوشُ قَدْ كَثُرَتْ النُّجُومُ أَمْدَادُهَا ، وَسَارِبَهَا لِلْهَجُومِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ أَمْدَادُهَا ؛ وَالنَّفُوسُ قَدْ أَضْرَمَتْ الْحَمِيَّةَ لِلدِّينِ نَارَ غَضَبِهَا ، وَعَدَاهَا حَرُّ الْإِشْفَاقِ عَلَى تُغُورِ الْمُسْلِمِينَ عَنِ بَرْدِ الثُّغُورِ وَطِيبِ شَنْبِهَا ؛ وَالنَّصْرُ قَدْ أَشْرَقَتْ فِي الْوُجُودِ دَلَائِلُهُ ، وَالتَّأْيِيدُ قَدْ ظَهَرَ عَلَى الْوُجُوهِ مَجَالِيلُهُ ؛ وَحُسْنُ الْيَقِينِ بِاللَّهِ فِي إِعْزَازِ دِينِهِ قَدْ أَنْبَأَتْ بِحُسْنِ الْمَالِ أَوَائِلُهُ ؛ وَالْأَلْسُنُ بِأَسْتِزْلَالِ

نَصَرَ اللهُ لِهَجَبِهِ ، والأدجاء بأرواح القبول أرحه ، والقلوب بعوائد لطيف الله بهذه الأمة مبتهجة ؛ والحماة وما منهم إلا من استظهر بإمكان قوته وقوة إمكانه ، والأبطال وليس فيهم من يسأل عن عدد عدوه بل عن مكانه ؛ والنبات على طلب عدو الله حيث كان مجتمعاً ، والخواطر مطمئنة بكونها مع الله بصدقها و«من كان مع الله كان الله معه» ؛ وما بقي إلا طي المراحل ، والنزول على أطراف الثغور نزول الغيث على البلد الساحل ؛ والإحاطة بعدو الله من كل جانب ، وإنزال نفوسهم على [حكم] ^(١) الأمرين [الآخرين] : من عذاب وأصيب وهم ناصب ؛ وإحالة وجودهم إلى العدم ، وإحالة السيوف التي إن أنكرها أعناقهم فما بالعهد من قدم ؛ وأصطلامهم على ما بأيدي العصابة المؤيدة بنصر الله في حربها ، وأبتلاؤهم من حملاتها بريح عاد التي تدمر كل شيء بأمر ربها ؛ فيكن مترقباً طلوع طلائعها عليه ، متيقناً من كرم الله استئصال عدوه الذي إن فر أدركته من ورائه وإن ثبت أخذته من بين يديه ؛ وليجتهد في حفظ ما قبله من الأطراف وصمها ، وجمع سوائم الرعايا من الأماكن الخوفة ولمها ؛ وإصلاح ما يحتاج إلى إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرفة ورمها ، فإن الاحتياط على كل حال من أكد المصالح الإسلامية وأهمها ؛ فكأنه بالعدو وقد زال طمعه ، وزاد ظلمه ؛ ودم عفي مسيره ، وتحقق سوء منقلبه ومصيره ؛ وتبرأ منه الشيطان الذي دلأه بغروره ، وأصبح لجه موزعاً بين ذئاب القلا وضباعها وبين عقبان الجور ونسوره ؛ ثقة من وعد الله وتمسكاً منه باليقين ، وتحققاً أن الله ينصر من ينصره ^{هـ} والعاقبة للتيقن .

وهذه نسخة مرسومة في المعنى ، بل هو أصرح في ذلك مما قبله ، كتبت به عند ظهور الفرج اللوسارية والشوال بالبحر : من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

الحَلْبِيِّ؛ وهو وإن لم يكن عن السلطان فإنه في معناه، لقيام النائب بالملكية قيام السلطان الذي أستتابه، وهو:

المرسوم بالأمر العالى أعلاه الله تعالى، لازالت هراسمه النافذة تَبْلَغُ أهل العِصَابَةِ المحمّدية غَايَةَ الآمال، وأوامره المَطَاعَةُ تُقْضَى بكسر اللّو سارية وشين الشوال؛ أن تتقدم العساكر المنصورة بالملكية الطرابُلسية أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة، وأدّل بسيوفهم الطائفة الكافره؛ بارتداء ملابس الجهاد، والتحلّى بمرارة الصبر على اجتلاء الحِلَادِ، وأن يجيبوا داعي الدين، ويكفوا أيدي المعتدين؛ ويفوقوا سهامهم، ويجعلوا التقوى أمامهم؛ ويشرعوا رماحهم، ويحملوا سلاحهم؛ ويومضوا بروق السيوف، ويرسلوا نبال الخوف؛ ويهدموا بنيان الكفار، ويطلعوا أهلة القسي بمد الأوتار؛ ويهضموا جانب أهل العناد، ويقابلوا البحر بملء بجر من الحيادة؛ وينظروا أمواجه بأموج النصال، ويقاتلوا الفرقة الفرنجية أشد القتال؛ ولا يهملوهم بالنهار ولا بالليل، ويعدّوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل؛ ويثوروا بمصايح الرباط في سبيل الله ظلام الدجّة؛ وأن يصابروا ويصبروا، فإذا استنفروا فلينفروا؛ ويبالغوا في الغدو والرواح ليلغوا الرعية من الأمن أمانها. فقد قال صلى الله عليه وسلم: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها». ويعتمدوا على القريب المحيب، ويجهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب؛ وينافسوا في أمر الآخرة ويدعوا الدنيا، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا؛ ويشهدوا المواقف، ويبدلوا التلذذ والطارف؛ وليبرز الفارس والراجل، ويظهر الرامح والنابل؛ فإن الجهاد، سطورة الله تعالى على ذوى الفساد، ونقمة القائم على أهل الشرك والعناد؛ وهو من القروض الواجبه، التي لم تزل سهام أصحابه صائبه؛ فواظبوا على فعله،

ولاتذهبوا عن مذاهبه وسُئله ؛ وأطلبوا أعداء الله برأ وبجراً ، وقسموا بينهم الفتكات قتلاً وأسراً ، وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ؛ وخدوا من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الرّبح الثمين ؛ ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطّغاة والمشركين ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ وسابقوا الأعداء ، وهزوا أعطاف الأسيه ؛ وشتموا عن ساق العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ؛ واتخذوا الخيام مساكن ، وأجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ؛ وأنصبوا الألوية والأعلام ، وأطفئوا جمرة الشّرذمة الفائزة للإسلام ؛ ولا تحشوا من جمعهم الآئيل إلى التفريق ، وحشدهم الذي هو عمّا قليل إن شاء الله تعالى غيريق ؛ ولا تعبثوا بسفنهم البحريه ، فإن سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ؛ ولا تنظروا إلى مجاديفهم الخشبية ، فإن مجاديفكم السيوف والرماح ؛ فأقلعوا قلوبهم ، وشئتوا جموعهم ؛ وأذهبوا الجحف والحيف ، وخاطبوهم بالسنة السيف ؛ وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والأحتراز نارا ، وأدعوا الله أن لا يذر على الأرض من الكافرين دياراً ؛ ونكسوا صلبهم المنصوب ، وبادروا إلى حرب حزبهم المغلوب ؛ وأرفعوا باليقين شك هذه المحنة ، وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ؛ وآهروا في ذات الله طيب المنام ، وأقلوا الأقدام إلى الأقدام ؛ وأكشفوا عنكم أستار الملل والملام ، وأهتموا بما يعلى كلمة الإسلام والسلام ؛ فليرفعنكم الله إلى منازل العز والتميز ، ﴿ وَلِيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصِّنفُ الرَّابِعُ

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فِي الْحَثِّ عَلَى لُزُومِ الطَّاعَةِ وَذَمِّ الْخِلَافِ)

قال في "مواد البيان": طاعة السلطان والالتقياد إليه، والرجوع إلى رأيه والاعتماد عليه، أبدى الأسباب، في استمرار الالتساق والاستتباب؛ وهي فرض أوجبه الله تعالى. فقال: ((أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ)) ولا تصح مملكة ولا تدوم دولة إلا بأمرين: أحدهما عدل السلطان، والآخر طاعة الرعية له؛ فحتى أرتفع أحدهما، فسَدَ السَّائِسُ وَالْمَسُوسُ. ولم تزل ملوك الأزمنة يقدمون إلى الرعايا لزوم الطاعة، والاعتصام بحبل الشريعة والنهي عن مفارقة الجماعه.

قال: والرسم فيها أن تفتح بالحمد لله على النعم في تأليف قلوب أهل الدين، وجمع كلمة الموحدين؛ وعاية أهوائهم إلى الاتفاق، وصيانة عصاهم عن الالتساق؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم، والتنبيه على فضائل الطاعة، فإنها العروة الوثقى، والمعقل الذي لا يرقى؛ والحضن الحصين، والكنف الأمين؛ والحجى الأمتع، والمرقب الأرفع؛ وأن من حافظ عليها فاز وسلم، ورجح وغنم؛ ومن فارقها خسرو وخاب، ونكب عن سبيل الصواب؛ وإيضاح مافي سبيل الطاعة من اتفاق الكلمة، وانتظام شمل الأمة؛ وشمول الخيرات، وعموم البركات؛ وعمارة البلاد، وصلاح العباد؛ وما في المشاققة من الفساد العام، العائد بانتثار النظام؛ وأنبات الحبل، وتفريق الشمل، وأجنتات الأصل؛ وطُمُوسِ الديار، وصيال الأشرار، وأتصاع الأخيار؛ وتوالى الفتن التي لا تُصيبُ الظالم خاصة دون العادل، ولا المشاقق دون الموافق؛ وحلول التوائب المزيلة للنعم؛ وإتباع ذلك بما يجب من إعدار وإنذار، وترهيب وترغيب، وتذكير وتبصير، ووعظ وتخويف؛ وبعث العلماء

الحُصَفَاءَ ، عَلَى رَدْعِ الْجُهَلَاءِ السَّخَفَاءِ ، وَتَنْبِيهِ أَهْلِ السَّلَامَةِ وَالصَّلَاحِ ، عَلَى كَفِّ ذَوَى الْعَيْثِ وَالطَّلَاحِ ؛ إِلَى نَحْوِ هَذَا مِمَّا يَجَارِيهِ . وَأَنْ يَبَالِغَ فِيمَا يُورِدُهُ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي ، فَإِنَّ هَذِهِ الْكُتُبَ إِذَا كَانَتْ بَلِيغَةً مُسْتَوْفَاةً جَيِّدَةً الْعِبَارَةَ ، أَخَذَتْ بِجَمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَأَغْنَتْ عَنِ الْكَلَامِ فِي إِدْرَاكِ الْمَطْلُوبِ .



وهذه [مكتبات] في معنى ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد في ترسله ، وهي :
أما بعد ، فإن الله أفترض الطاعة وأوجبها ، وأمر بها ورغب فيها ؛ وجعلها عِصْمَةً من كل فتنه ، وضياء من كل شبهه ، وسلامة من كل هلكه ؛ وسببا للظفر بخير الدنيا والآخرة ؛ من أراد الله به خيرا وفقه لها ، وألزمه المحافظة عليها والاعتصام بحبلها ؛ فتعجل عزها وشرفها ، وسعها وأمنها ؛ وأستحق السعادة في الدار الآخرة بها ، والمثوبة عليها .

آخر : وقد علمت ما جعل الله في الطاعة ولزومها ، والمحافظة عليها : من العز والمِنَّعَةِ والأَيْدِ والقُوَّةِ والفُوزِ بخير الدنيا والآخرة [وما] في خلافتها من صُنُوفِ الخَافِوِ ، وأنواع المتالف .

آخر : وقد كانت الطاعة أُنَافَتْ بك على كُلِّ ظَلِيلٍ ، وَأَفْضَتْ بك إلى لِينِ مَهَادٍ عند إقْبَاضِ المضاجع ، وصفاء المشارب عند تَكَدُّرِ المناهل ، وَأَنْصَالَ أَمْنَةٍ عند حدوث الخَافِوِ ؛ حَتَّى فَعَلْتَ كَذَا وَكَذَا .

آخر : فلم يَمْرِقْ من طاعته مَارِقٌ ، ولا فارقها مُفَارِقٌ ؛ إِلَّا صَرَخَ اللهُ خَدَّهُ ، وَأَتَعَسَ جَدَّهُ ؛ وَخَضَّ شَوْكَتَهُ ، وَأَكْذَبَ ظَنَّهُ وَأُمْنِيَّتَهُ ، وجعله لسيوف الله غَرَضًا ، ولأوليائه غنيمة .

آخر : والطاعة هي العروة الوثقى ، والطريقة المثلى ، والغنيمة لاهلها في الأخرى والأولى .

« عبد الحميد » : - فان الفتنة تشوف لأهلها بأنق منظر ، وأزبن ملبس ؛ تجر لهم أذيالها ، وتعدهم تتابع لذاتها ، حتى ترمي بهم في حومات أمواجها ؛ مسلمة لهم : تعدهم الكذب وضمنهم الخدع ؛ فاذا لزيمهم عضاضها ، ونفر بهم شماسها ؛ تحللت عنهم خاذلة لهم ، وتبرأت منهم معرضة ؛ قد سلبوا أجمل لباس دينهم ، وأستزلوا عن أحصن معاقل دنياهم : من الغناء البيبي منظره ، الجميل أثره ؛ حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم ، والإيجاف في التعب ، وسوء المقلب ؛ فن آثر دينه على دنياه تمسك بطاعة ولآته ، وتحرز بالدخول في الجماعة ، تاركاً لأثقل الأمرين ، وأوبل الحالين .

« ابن عبد كان » في دم الخلاف : - وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، أعوره إنعامنا ، وتوه به إكرامنا ؛ وشرفه ولأؤنا ، وحسن عنده بلاؤنا ؛ وأبتينا له الأموال ، وأسئنا له الأعمال ، وأوطأنا عقبه الرجال ؛ فلم تقع النعم منه عند شاكر ، ولا الصنعة عند محتمل ؛ فلما رفع الله بمكاننا خسيسته ، وبلغه من شرف الذكر ونباهة القدر وأنبساط يده ما كانت همته تعجز عنه ، وآماله تقصر دونه ؛ أضراه ذلك وأبطره ، وأطغاه وأكفره ؛ فأختال زاهياً ، وأستكبر عالياً ؛ وغدر باغيا ، وشاق عاصياً ؛ وأوضع في الفتنة لنا حرباً ، ولأعدائنا حرباً ؛ ولمن أنحرف عنا يداً ، ولمن مال إلينا ضداً ؛ من غير سبب أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ؛ فكان كما قال الله عز وجل في كتابه : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ وأن رأه أستغنى) وكقوله : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ فلما ورد الخبر بما هيا الله لنا من الرجوع إلى الفسطاط على الحال السائة لأوليائنا ، الغائظة لأعدائنا ، سقط في يده ، وفكر في غليظ جريمه

وخيانته ، فأذاه الخوف الذى أستشعره ، والإشفاق الذى خامرَه ؛ إلى أن ركب عظيما من الأمور ، وكاشف بالعصبية والغرور ؛ مكاتفا أعداء (١) ، ومواليا ذوى العداوة والشنارة ؛ وزجو بحول الله وقوته ، وإرادته ومشيئته ، وما لم يزل الله - تقدس اسمه - يُجزيه عندنا من جميل عاداته فيمن سفه الحق ، وزاغ عن القصد ؛ أن يُنسل هذا الخائن بجبايت أعماله ، ويُسلمه لقبائح أفعاله ، وأن يصرعه بأسوا مصارع أمثاله ؛ فإن أحدا لم يحمد النعمة ، إلا أستدعى النقمه ؛ ولم يدع الشكر ، ويستعمل الكفر ؛ إلا كانت العثرة منه قريبه ، والبلايا محيطه ؛ قولاً لا يُبدل رسمه ولا يُحوّل .

من كتاب موسى بن عيسى .

أما بعد ، فإن أمراً لو خلص من فلتات الخطأ وخطوات الملا ، بفضيلة رأي ولطافة بصر بالأمور ، كنت أحجى بذلك دون أهل زمانك ، للذى جرت لك عليه تصاريف التبّع ، وتعرضت لك به وجوه العبر ؛ ولما أستقبلت من موارد أمور نفسك ، وتعبت من مصادر أمور غيرك ؛ ولكن الله إذا أراد أمراً جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عللا ؛ فمن مقادير علل البلاء تضييع المعرفة ، وإلغاء ما تُفيدُه تجربته ؛ ومن أسباب السلامة الانتباه بالعبر ، والأستدلال بما كان على ما يكون . وأنت أمرؤ جرت لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحاء من الحجج ، عرفت بها مالك وعليك ؛ فان تأخذ بها ، عرفت كيف تسلك مسالكه ، وإن تدع الأخذ بذلك ، تدعه على علم . وقد رأيت الذى أتقادت لك به النعمة ، وهبت لك به العافية ؛ فيما ألهمك الله من طاعة ولاة أمورك ، والصبر لها على مواطن الحق التى رفع الله بها ذكرك ، وأحسن عليها عقباك وذنرك ؛ فلم تمض بك فى طاعتهم رتبته ، إلا قربك الله بها فى الخير عقبه ، ولا تبذل من نفسك نصحا ، إلا أوجب

(٢) الملا هنا معناه الظن والطمع .

(١) بياض فى الأصل ولعله الامارة .

لك به مُجْحَاً ، ولم تَفْتَأُ تَوَاتُرَ ذَلِكَ : من مناصحتك وحُسنِ طاعتك ، حَتَّى طُلَّتْ بِهَا عَلَى مَنْ طَاوَلَكَ ، وَفَضَلْتَ بِهَا مِنْ فَاضِلِكَ ؛ وَجَرِيَتْ مَمْدُوداً عِنَانَكَ إِلَى قُصُوفِ غَايَاتِ أَمْلِكُ ، فَأَصْبَحَتْ قَرِيحَ الْمَسَامِينِ ، بَعْدَ خَلِيفَةِ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَيْرَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ ، بَعْدَ ذَوِي الْفَضْلِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ؛ حَتَّى مَالَكَ مِنْ رِجَالِ الْعَرَبِ نَظِيرَ فِي مَنَزَلَةٍ ، وَلَا نَدِيدَ فِي حَالٍ وَلَا رُتْبَةٍ ؛ بَلْ هُمْ فِيكَ رِجَالَانِ : إِمَارَاهُ بِكَ مِنْكَ ، وَإِمَارَاغِبُ فِيكَ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمر الكتابة إلى زماننا . فما زالت الملوك يكتبون إلى من يَخَيَّلُونَ مِنْهُ خَلَعَ الطاعة من التَّوَابِ وَمَنْ فِي مَعْنَاهُمْ ، وَيَحْتَوِنَهُمْ عَلَى لُزُومِ الطاعة ، وَيَحذِرُونَهُمُ الْخَالَفَةَ وَالخُرُوجَ عَنِ الْجَمَاعَةِ .



ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي إلى مملك سيسى عند كَسْرَةِ التتار ، بَعْدَ قِيَامِهِ مَعَهُمْ فِي الْمَصَافِّ ، وَمُسَاعَدَتِهِ إِيَّاهُمْ ، وَهُوَ :

بَصَّرَهُ اللَّهُ بِرُشْدِهِ ، وَأَرَاهُ مَوَاقِعَ غِيَّةٍ فِي الْإِصْرَارِ عَلَى مَخَالَفَتِهِ وَتَقْضِ عَهْدِهِ ، وَأَسْلَاهُ بِسَلَامَةِ نَفْسِهِ عَمَّنْ رَوَعَتْهُ السُّيُوفُ الْإِسْلَامِيَّةُ بِفَقْدِهِ .

صَدْرَتْ تَعْرِفُهُ أَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ مَا كَانَ مِنْ أَمْرِ الْعَدُوِّ الَّذِي دَلَّاهُ بِغُرُورِهِ ، وَحَمَلَهُ التَّمَسُّكَ بِخُدَاغِهِ عَلَى مِجَانِبَةِ الصَّوَابِ فِي أُمُورِهِ ؛ وَأَنَّهُمْ أَسْتَنْجَدُوا بِكُلِّ طَائِفَةٍ ، وَأَقْدَمُوا عَلَى الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ بِنَفُوسِ طَامِعَةٍ وَقُلُوبِ خَائِفَةٍ ؛ وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ أَقَامُوا مَدَّةً يَسْتُرُونَ الْمَخَادِعَةَ بِالْمَوَادِعَةِ ، وَيُسِرُّونَ الْمَصَارِمَةَ فِي الْمَسَالِمِ ؛ وَيُظْهِرُونَ فِي الظَّاهِرِ أُمُورًا ، [وَيُدَبِّرُونَ فِي الْبَاطِنِ أُمُورًا] ^(١) وَيَعِدُّونَ كُلَّ طَائِفَةٍ مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ وَيَمْتَنُونَهُمْ وَمَا يَعِدُّهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ؛ وَكَمَا بَمَكَّرَهُمْ عَالِمِينَ ، وَعَلَى مَعَاجِلَتِهِمْ عَامِلِينَ ؛ وَحِينَ

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩٧) .

ثَبِينَ مَرَادُهُمْ، وَتَكَلَّلَ أَحْتَشَادُهُمْ؛ أَسْتَدْرَجْنَاهُمْ إِلَى مَصَارِعِهِمْ، وَأَسْتَجْرَرْنَا هُمْ لِيَقْرَبُوا فِي الْقَتْلِ مِنْ مَضَاجِعِهِمْ، وَيَبْعَدُوا فِي الْهَرَبِ عَنْ مَوَاضِعِهِمْ؛ وَصَدَمْنَا هُمْ بِقُوَّةِ اللَّهِ صَدْمَةً لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهَا قِبَلٌ، وَحَمَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمَلَةً أَلْجَاهُمْ طُوفَانُهَا إِلَى ذَلِكَ الْجَبَلِ: وَهَلْ يَعِصُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ جَبَلٌ؟ فَحَصَرْنَا هُمْ فِي ذَلِكَ الْفِضَاءِ الْمَتَّسِعِ، وَضَايِقْنَا هُمْ كَمَا قَدْ رُوِيَ وَمَرَّقْنَا هُمْ كَمَا قَدْ سَمِعَ؛ وَأَنْزَلْنَا هُمْ عَلَى حُكْمِ السَّيْفِ الَّذِي نَهَلَ مِنْ دِمَائِهِمْ حَتَّى رُوِيَ وَأَكَلَ مِنْ لُحُومِهِمْ حَتَّى شَبِعَ؛ وَبَعَثْنَا جِيُوشَنَا الْمَنْصُورَةَ تَحَطَّفَتْهُمْ رِمَاحُهَا، وَتَلَقَّفَتْهُمْ صَفَاحُهَا؛ وَبَيَّدَهُمْ فِي الْقَلَوَاتِ رُعْبَهَا، وَبَفَرَّقَهُمْ فِي الْقِفَارِ طَعْنُهَا الْمُتَدَارِكُ وَضْرِبُهَا؛ وَيَقْتُلُ مَنْ فَاتَ السِّيُوفَ مِنْهُمْ الْعَطَشُ وَالْجُوعُ، وَيُخَيِّلُ لِلْحَيِّ مِنْهُمْ أَنَّ مَوْضِعَهُ كَالدُّنْيَا الَّتِي لَيْسَ لِلنَّيِّتِ إِلَيْهَا رُجُوعٌ؛ وَلَعَلَّهُ قَدْ رَأَى مِنْ ذَلِكَ فَوْقَ مَا وَصَفَ عَيَانًا، وَتَحَقَّقَ مِنْ كُلِّ مَا جَرَى مَا لَا يَحْتَاجُ أَنْ زَيِّدَهُ بِهِ عِلْمًا وَلَا تُقِيمَ عَلَيْهِ بُرْهَانًا.

وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ أَمْرَ هَذَا الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ مَا زَالَ مَعْنَا عَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ، وَأَنْهُمْ مَا أَقْدَمُوا إِلَّا وَنَصَرْنَا اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ؛ وَمَا سَاقَتْهُمْ الْأَطَاعُ فِي وَقْتٍ مَا إِلَّا إِلَى حُتُوفِهِمْ، وَلَا عَادَمْنَاهُمْ قَطُّ فِي وَقْعَةٍ إِلَّا أَحَادٌ يُخْبِرُ عَنْ مَصَارِعِ أُلُوفِهِمْ؛ وَلَقَدْ أَضَاعَ الْحَزْمَ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَسْتَدِمْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ [بِطَاعَتِنَا] الَّتِي كَانَ فِي مِهَادِ أَمْنِهَا، وَوَهَادِ يُمْنِهَا؛ وَحِمَايَةِ عَفْوِهَا، وَبَرْدِ رَأْفَتِهَا الَّتِي كَدَّرَهَا بِالْخَالِفَةِ بَعْدَ صَفْوِهَا؛ يَصُونُ رِعَايَاهُ بِالْبِطَاعَةِ عَنِ الْقَتْلِ وَالْإِسَارِ، وَيُنَجِّي أَهْلَ مِلَّتِهِ [بِالْحَذَرِ عَنِ الْحَرَكَاتِ] الَّتِي مَا نَهَضُوا إِلَيْهَا إِلَّا وَجَرُوا ذُبُولَ الْخَسَارِ؛ وَلَقَدْ عَرَّضَ نَفْسَهُ وَأَصْحَابَهُ لِسُيُوفِنَا الَّتِي كَانَ مِنْ سَطَوَاتِهَا فِي أَمَانٍ، وَوَثِقَ بِمَا ضَمِنَ لَهُ النَّتَارُ مِنْ نَصْرِهِ وَقَدْ رَأَى مَا آلَ إِلَيْهِ [أَمْرٌ] ذَلِكَ الضَّمَانُ؛ وَجَرَّ لِنَفْسِهِ بِمَوْلَاةِ النَّتَارِ عَنَاءً كَانَ عَنْهُ فِي غَنِيٍّ، وَأَوْقَعَ رُوحَهُ بِمُظَافَرَةِ الْمُغْلِ فِي حَوْمَةِ السِّيُوفِ الَّتِي تَحَطَّفَتْ

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨) .

أولياءه من هنا ومن هنا؛ وأقتحم بنفسه موارد هلاكٍ سلبت رداء الأمن عن منكبيه، وأغترَّ هو وقومه بما زين لهم الشيطان من غروره ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وما هو والوقوف في هذه المواطن التي تتزلزل فيها أقدام الملوك الأكاسره؟ وأتى لضعاف النقاد قدرة على الثبات لوثبات الأسود الضارية والليوث الكاسره؟ لقد أعترض بين السهم والهدف بحجره، وتعرض للوقوف بين ناب الأسد وطفره؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعى له حقوق طاعة أسلافه التي ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التي بذلوا نفوسهم ونفائسهم في التوصل إليها؛ ومجريه وأهل بلاده مجرى أهل ذمتنا الذين لا تؤيسهم من عفونا ما استقاموا، ونسلك فيهم حكم من في أطراف البلاد من رعايانا الذين هم في قبضتنا: تزحوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقق أنه ما بقي ينسئ ملازمة ربة الخنف خنأقه، ولا يرجع يورد نفسه في موارد الهلاك وهل يرجع إلى الموت من ذأقه؟ فيستدرك باب الإنابة قبل أن يغلق دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تبدل السيوف الإسلامية مصونه؛ ويبادر إلى الطاعة قبل أن يئدها فلا تقبل، ويتمسك بأذيال العفو قبل أن ترفع دونه فلا تسبل؛ ويعجل بجمل أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده في جملة ما يحمل منها إلينا، ويسلم مفتح ما عدا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجميع ما تأخر من بلاده بين يدينا؛ ويكون هو السبب في تمزق شمله، وتفرق أهله، وقلع بيته من أصله؛ وهدم كائسه؛ وأبتدال نفسه ونفائسه؛ وأسترقاق حرمة، وأستخدام أولاده قبل خدمه؛ وأستقلاع قلاعه، وإحراق ربوعه ورباعه؛ وتعجيل رؤية ما وعد به قبل سماعه. ومن لغازان أن يجاب إلى مثل ذلك، أو يسلم له مع الأمن من سيوفنا ببعض ما في يده من الممالك؛ ليتفع بما أهدت جيوشنا المؤيدة في يده من الخيل والحول، ويعيش

في الأيمن ببعض ما نسمح له به ومنّ للعور بالحوّل ؛ والسيوف الآن مُصْغِيَةٌ إلّا جوابه لتُكفّف إن أبصر سبيل الرشاد، أو نَتَعَوَّضَ برءوس حُمَّاتِهِ وَكِبَاتِهِ عن الإغماد إن أصرَّ على العباد؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ إلى من نكث العهد من المخالفين)

قال في "موادّ البيان" : إذا نقض معاهد عهده ، أو نفّض من شروط الهدنة يده ؛ فالرسم أن يصدر ما يكتب به بالحمد لله تعالى على موهبتته في إظهار الدين ، وإعزاز المسلمين ؛ وما تكفّله من النصر على الباغين ، ووعده به أهل العدل من الإدالة والتّمسك ؛ والصلاة على سيدنا محمد النبي صلى الله عليه وعلى آله أجمعين ؛ وإيراد طرف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التي تتخرط في هذا النظام ، وتليق بهذا النمط من الكلام ؛ ثم يتبع ذلك بمقدمة تدلّ على متانة البصائر في الدين ، وثاقة العقائد في إذالة الحادّين ؛ ومضياء العزائم في مجاهدة المعتدين ، والاستطالة على المعاندين ؛ مع ما تضمّنه الله تعالى من نصره وإظفاره ، ووعده به من تأييده وإقراره ؛ وسهله من إهواء الأهوية إليه ، وجمع الكلمة عليه ؛ بما خوله من بأس وشده ، وعديد وعدة . وما يليق بذلك مما يُعرب به عن علو السلطان ، ووفور الإخوان ؛ واتّساع القوة والأيد ، وصدق العزم والحد . ثم يذكر الحال التي انعقدت الهدنة عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غزوه في عُقر دارهم ، وتسرّيدهم بالغارات المبثوثة براً وبحرا عن قرارهم ؛ وإنما قبولاً لمساءلتهم ، وأمثالاً لأمر الله تعالى في مسألتهم . ويأخذ في تعديد الوقائع التي أوقعها أهل الإسلام بهم ؛ والمشاهد التي نصر الله تعالى فيها عليهم ، والمعاقل المستترعة من أيديهم ؛

وَأَنَّ تِلْكَ الْعِزَامُ مُضْطَرَمَةٌ مُتَوَقَّدَةٌ ، وَتِلْكَ السِّيُوفُ مُشْحَذَةٌ مُهَنْدَةٌ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ أَبَاحَ حَرَمَ مَنْ نَقَضَ عَهْدَهُ ، وَنَقَضَ مِنَ الدِّمَامِ يَدَهُ ؛ وَأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ مُوجِفَةٌ وَرَاءَ هَذَا الْكِتَابِ ، فِي جَيْشٍ يُلْحَقُ أَنْجَبَتْ بِالْهَضَابِ ؛ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ مَبَادِرَةٌ إِلَى الْإِقْلَاعِ وَالْإِنَابَةِ ، وَمَكَاتِبَةٌ فِي الصَّفْحِ وَالْأَسْتِنَابَةِ ؛ وَأَنَّهُ قَدْ قَدَّمَ الْأَعْذَارَ ، وَبَدَأَ قَبْلَ الْإِقْدَامِ بِالْإِنْذَارِ ؛ وَمَا يَقْتَضِيهِ الْحَالُ مِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ .

قال : فَإِنْ كَانَ الْكِتَابُ جَوَابًا عَنْ كِتَابٍ وَرَدَّ ، أُجِيبَ بِمَا يَنْقُضُهُ ، وَبُئِيَ الْأَمْرُ فِيهِ عَلَى مَا يَبْسُطُ الْهَيْبَةَ ، وَيَدْعُو إِلَى التَّزْوُلِ عَلَى أَحْكَامِ الطَّاعَةِ . وَيَخْتَلِفُ الْحَالُ فِي ذَلِكَ بِأَخْتِلَافِ الْأُمُورِ الْحَادِثَةِ ، وَالْأَسْبَابِ الْعَارِضَةِ ؛ فَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَحْتَاظَ فِيهَا بِطَلْقِ بَعْضِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَعَانِي الْخَطِيرَةِ : لِأَنَّهَا مَزَاحِمَةٌ بِالْأَدُولِ وَالْمَلِكِ ، وَحُجْجٌ تَحْصُلُ مِنْ كُلِّ دَوْلَةٍ عِنْدَ الْآخَرِينَ ؛ وَدَرَكٌ مَا يَقَعُ فِيهَا عَائِدٌ عَلَيْهِ ، وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهِ .



وهذه نسخة كتاب كتبت به عن الحافظ لدين الله الخليفة الفاطمي بالديار المصرية ، إلى بهرام النصراني الأرميني الذي كان أستورزه ، ثم خرج عليه رضوان بن ولخشي ، أرتغاما للدين ، لتحكّم نصراني في أهل الملة ، وولي الوزارة مكانه ، فقهر هاربا إلى الشام ناقضا للعهد ، وكتب إلى الحافظ يطلب أهله وجماعته من الأرمين الذين كانوا معه في جملة جنود الديار المصرية ، مظهرا للطاعة والرغبة إلى التخلّي عن الدنيا ، والانتقطاع في بعض الديرة لتتعبد مكرّا وخديعة ؛ فكتب له بذلك جوابا عن كتابه الوارد منه . ونص ما كتب إليه :

عُرِضَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْكِتَابُ الْوَارِدُ مِنْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ ، الْمَقْدَمُ ، الْمُؤَيَّدُ ، الْمَنْصُورُ ؛ عَنْ الْخِلَافَةِ وَتَشْمُسِهَا ، تَأْجُ الْمَمْلُوكَةَ وَنِظَامُهَا ؛ فَخَرُّ الْأَمْرَاءِ ، شَيْخِ الدَّوْلَةِ

وعمادها؛ دُوَّ الْمُجَدِّينَ ، مصطفى أمير المؤمنين . ووقف على جميعه ، وأستولى بحكمه على مضمونه .

فأما ما وَسَّعَتِ الْقَوْلَ فِيهِ وَبَسَطَتْهُ ، وَتَفَسَّحَتْ فِيهَا أوردته منه وذَكَرْتَهُ ؛ مِمَّا خَوَاهُ وَمَحْصُولُهُ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ ، وَالْوَلَاءِ وَالْمَشَايِعَةِ ؛ وَالْأَعْتِرَافِ بِنِعَمِ الدَّوْلَةِ عَلَيْكَ ، وَالْإِقْرَارِ بِإِحْسَانِهَا إِلَيْكَ ؛ فَلَعَمْرُؤِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ هَذَا الَّذِي يَلِيْقُ بِكَ وَيَحْسُنُ مِنْكَ ، وَيَحْسُنُ أَنْ يَرِدَ عَنْكَ ، وَيَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ لَكَ ؛ وَقَدْ كَانَتِ الدَّوْلَةُ أَسْلَفَتَكَ مِنْ حُسْنِ الظَّنِّ قَدِيمًا ، وَتَقَلَّتْكَ فِي دَرَجَةِ التَّنْوِيهِ حَدِيثًا ؛ حَتَّى رَفَعْتُكَ إِلَى أَعْلَى الْمَرَاتِبِ ، وَبَلَّغْتُكَ مَا لَمْ تَسْمُ إِلَيْهِ هِمَّةٌ طَالِبٌ ؛ وَأَوْطَأَتِ الرَّجَالَ عَقَبَكَ ، وَجَعَلْتَ جَمِيعَ أَهْلِ الدَّوْلَةِ تَبَعَكَ ؛ مِمَّا أَغْنَى اعْتِرَافُكَ بِهِ عَنِ الْإِطَالَةِ بِشَرْحِهِ ، وَالْإِطْنَابِ فِي ذِكْرِهِ .

وأما ما ذَكَرْتَهُ مِمَّا كَانَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أُعْطَاكَ التَّوْتِيَةَ عَلَيْهِ ، فَأَجَابَكَ مِنْهُ إِلَى مَا رَغِبْتَ فِيهِ ، فَاسْتَقَرَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ فِي مَعْنَاهُ مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ ؛ فَلَمْ يَزَلْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا ، وَنِيَّةِ وَعَلَانِيَةٍ ؛ وَاعْتِقَادُهُ أَنْ لَا يَرْجِعَ عَنْهُ ، وَلَا يُغَيِّرُ مَا أَحْكَمَهُ مِنْهُ ؛ وَإِنَّمَا حَالُ بَيْنِهِ وَبَيْنَ هَذَا الْمُرَادِ أَنْ كَافَّةَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبُعْدِ وَالْقُرْبِ غَضِبُوا لِمَلَّتْهُمْ ، وَأَمْتَعَضُوا مِمَّا لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً فِي شَرِيعَتِهِمْ ؛ وَنَفَرَتْ نَفُوسُهُمْ مِمَّا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الصَّبْرَ عَلَيْهِ قَادِحٌ فِي دِينِهِمْ ، وَمُضَاعِفٌ لِأَمَلِهِمْ ؛ وَأَنَّهُ ذَنْبٌ لَا يُغْفَرُ ، وَوِزْرٌ لَا يُجَاوِزُ وَلَا يُصْفَحُ [عنه] حَتَّى إِنْ أَهْلَ الْمَشْرِقِ أَخَذُوا فِي ذَلِكَ وَأَعْطَوْا ، وَعَزَمُوا عَلَى مَا اتَّفَقُوا عَلَيْهِ مِمَّا صَرَفَهُ اللَّهُ وَكَفَى مَثَوْتَهُ وَالْأَشْتِقَالَ بِهِ .

وأما ما أَلْتَمَسْتَهُ مِنْ تَسْيِيرِ مَنْ بِالْبَابِ مِنْ طَائِفَتِكَ إِلَيْكَ ، فَهَذَا أَمْرٌ لَا يَسُوغُ وَلَا يُمْكِنُ فَعْلُهُ ، وَلَوْ جَازَ أَنْ يُؤَمَّرَ بِهِ لَمَنَعَ الْمُسْلِمُونَ مِنْهُ فَلَمْ يَفْسَحُوا فِيهِ . وَالْآنَ فَلَنْ

يَحْلُو حَالِكٌ مِنْ أَحَدِ قَسْمَيْنِ : إِمَّا أَنْ تَكُونَ مُتَعَلِّقًا بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَغَيْرِ مُتَفَصِّلٍ عَنْهَا ،
فَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يُحْيِيكَ فِي وِلَايَةِ أَحَدِ ثَلَاثَةِ مَوَاضِعَ : إِمَّا قُوصَ ، أَوْ إِنْجِمْ ، أَوْ أَسْوَطَ ؛
فَأَيُّهَا أَحْتَرْتُ وَلَآكَ إِيَّاهُ ، وَرَدَّ أَمْرَهُ وَالنَّظَرَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ عَلَى أَنْ تَقْتَصِرَ مِنَ الَّذِينَ
مَعَكَ عَلَى خَمْسِينَ أَوْ سِتِينَ فَارِسًا ، وَتُسَيِّرَ الْبَاقِينَ إِلَى الْبَابِ لِيُجْرُوا عَلَى عَادَاتِهِمْ ،
وَرُسُومِهِمْ فِي وَاجِبَاتِهِمْ وَإِقْطَاعَاتِهِمْ ؛ إِذْ كَانُوا عَيْدَ الدَّوْلَةِ وَمَتَقَلِّبِينَ فِي فَضْلِهَا ،
وَأَكْثَرَهُمْ مَتَوْلِّدُونَ فِي ظِلِّهَا . وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ عَلَى الْقَضِيَّةِ الَّتِي مَا زِلْتَ تَذْكَرُ رَغْبَتَكَ
فِيهَا وَإِيثَارَكَ لَهَا : مِنَ التَّخَلِّيِ عَنِ الدُّنْيَا وَلِزُومِ أَحَدِ الدَّيْرَةِ ، وَالْإِقْطَاعِ إِلَى الْعِبَادَةِ ؛
فَإِنْ كُنْتَ مَقِيمًا عَلَى ذَلِكَ فَتَخَيَّرْ ضَيْعَةً مِنْ أَىِّ الضَّيَاعِ سِتَّتَ يَكُونُ فِيهَا دَيْرٌ تَقِيمُ فِيهِ
وَتَقْطَعُ إِلَيْهِ ؛ فَتُعَيِّنِ الضَّيْعَةَ لِيَجْعَلَهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ تَسْوِينًا لَكَ مُؤَبَّدًا ، وَإِقْطَاعًا
دَائِمًا مُخَلَّدًا ؛ وَتَجْرَى مَجْرَى الْمَلِكِ ، وَيُكْتَبُ لَكَ بِذَلِكَ مَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِمِثْلِهِ ، مِمَّا تَطْمَنُ
إِلَيْهِ وَتَسْتَحْكِمُ نَفْسَكَ بِهِ . وَإِنْ أَبَيْتَ الْقَسْمَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ . وَلَمْ يُرِضْكَ الْأَوَّلُ مِنْهُمَا ،
وَلَا رَغِبْتَ فِي الثَّانِي ، فَتَحَقَّقْ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ بِأَجْمَعِهِمْ ، وَكَافَّةً مِنْهُمْ ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ يَقُولُ
بِالشَّهَادَتَيْنِ : مِنْ قَاصِّ وَدَانٍ ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ ، وَكَبِيرٍ وَصَغِيرٍ ، يَنْفِرُونَ إِلَيْكَ ، وَيَتَّفِقُونَ
عَلَى الْقَصْدِ لَكَ ، وَلَا يَخْتَلِفُونَ فِي التَّوَجُّهِ نَحْوَكَ ؛ وَهُوَ عَمَلٌ دِينِيٌّ ، لَا يُرِيثُهُ أَمْرٌ دُنْيَوِيٌّ ؛
فَتَأْمَلْ مَا تَضَمَّنَتْهُ هَذِهِ الْإِجَابَةُ مِنَ الْأَقْسَامِ ، وَطَالِعْ بِمَا عِنْدَكَ فِي ذَلِكَ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَّةِ لَا وَجُودَ لَهُ فِي زَمَانِنَا لِعَدَمِ وَقُوعِ
الْهُدَنِ الْمُرْتَبِ عَلَيْهِمَا هَذَا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكَاتِبِ ؛ فَإِنْ أَحْتِجَّ إِلَى ذَلِكَ مَشَاءَ الْكَاتِبِ
عَلَى الْقَاعَةِ الْقَدِيمَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ .

الصنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلى من خلَعَ الطاعة)

قال في "موادّ البيان" : وهذه الكتب تختلف رسومها بحسب اختلاف أقدار المكاتبين وأحوالهم في الخروج عن الطاعة . قال : وجمع أوضاعها كلها في قانون كليّ عسير المرام ، إلا أننا نرسم فيها رسوماً يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تفتد هذه الكتب إلى من تُرجى إناسته ، وتؤمل مراجعته . فأما من وقع الإياس من استصلاحه ، ودعت الضرورة إلى كفاحه ، فلا حاجة إلى معاتبته ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بالتحميد المناسب لمعنى الكتاب ، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، بما يدعو إلى إيناسه ، ويزيل أسباب استيحاشه ، ويعود بثبات جاشه ، ويبعثه على مراجعة فكره ، ومعاودة النظر في أمره ؛ ويدكره ما أسدى من العوارف إليه ، وأفيض من النعم عليه ؛ وأنه لا ينفق سربها بجمدها وكفرها ، ويوحش ربعا بإهمال حمدها وشكرها ؛ ويربطها بحسن الطاعة ، ويستترهنها بالتأدب في التباعة ؛ ولا يجتزئ الوبال إلى نفسه بالخروج عن العصمه ، في عاجل ذميم الوصمة وفي آجل أليم النقمه . ويبصره بعاقبته ومن يليه من ذوى الجند بما يقتضى ربّ الإنعام لديهم ، وإقرار الفضل عليهم ؛ وأن يسلبهم ملبس الظل الظليل ، وأن يعطّاهم من حلّي الرأى الجميل ، ويتدرّع في أثناء ذلك بشعار التفاق ، ويتسم بميسم الشقاق ؛ ويتعجل إزاجه من داره ، وبعده من قراره ؛ وهدم ماشيده الإخلاص من ذكره ، وتقويض ما رفعتّه الطاعة من قدره ؛ ويعود بعد أن كان مجاهداً عن الحوزة مجاهداً مجتهداً ، وبعد أن كان مرامياً عن السدة مرماً بيداً ؛ ويضبع

مَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ ، وَأَفِيضَ مِنَ الْإِحْسَانِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا ذَهَبَ مِنَ الْيَقِينِ فِي تَدْرِيجِهِ إِلَى مَرَاتِقِ
السِّيَادَةِ ، وَمِنَ الرَّغَائِبِ فِي إِحْلَاقِهِ بِأَهْلِ السَّعَادَةِ ؛ وَلَا يَغْتَرُّ بِمَنْ يَزِينُ لَهُ عَاجِلَ الْآجِلِ ،
وَيَتَقَرَّبُ إِلَيْهِ بِمُجْدَعِ الْبَاطِلِ ؛ وَيَجْعَلُ أَقْوَالَهُمْ دَبْرَ سَمْعِهِ ، وَيُبْعِدُ أَشْخَاصَهُمْ عَنِ نَظَرِهِ ؛
نَاطِرًا فِي عَاقِبَتِهِ ، وَحَارِسًا مُهَجَّتِهِ ؛ وَرَاغِبًا فِي حَقْنِ دَمِهِ ، وَصِيَانَةً حَرَمِهِ ؛ وَلِيَرْجِعَ
إِلَى الْفِنَاءِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُحْزِرُهُ ، وَالْكَفِّ الَّذِي لَمْ يَزَلْ يُعِزُّهُ ؛ وَلَا يَجْعَلُ مُسَالِمَةَ الْعُنُودِ
مَنَازِعًا ، وَمُؤَاصَلَةَ بِالْحُجُودِ مَقَاطِعًا ؛ وَوَاهِبَهُ بِالْكَفْرِ سَالِبًا ، وَمَطْعَمَ النِّعْمَةِ بِضِيَاعِهِ
حَقِّهَا مَغْرِبًا ؛ وَقَدْ بَقِيَ فِي الْحَبْلِ مُمْسِكٌ ، وَفِي الْأَمْرِ مُسْتَدْرِكٌ ؛ لِأَنَّ يَهْبَ مِنْ رَقْدَتِهِ ،
وَيَسْتَبْدِلُ مِنْ لِفَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِلِقَاءِ حَضْرَتِهِ . ثُمَّ يَقُولُ : فَإِنْ كَانَ مَا جَنَاهُ قَدْ هَدَّ
سِرْبَهُ ، وَكَدَّرَ شِرْبَهُ ؛ وَأَحْسَ فِي نَفْسِهِ سُوءَ الظَّنِّ ، وَأَخَافَهُ بَعْدَ الْأَمْنِ ؛ فَلْيَبْعَثْ
رَسُولَهُ يَسْتَوْتِقُ وَيُعَاقِدُ ، وَيَتَوَكَّدُ وَيُعَاهدُ ؛ فَإِذَا عَادَ إِلَيْهِ بِمَا يَمَلَأُ قَوَادِهِ أَمْنًا ،
وَيَكُونُ عَلَيْهِ حِصْنًا ؛ سَارِعًا إِلَى أَمْتِثَالِ الْمَرَاسِمِ ، وَجَرِيًّا فِي الطَّاعَةِ عَلَى سَنَنِهِ الْمُتَقَادِمِ ؛
وَلَا يَسْتَمْتِرْ عَلَى الْمُدَافَعَةِ وَالْمَطَاوَلَةِ ، وَيَقْتَصِرْ عَلَى الْمَغَايِظَةِ وَالْمَهَاطَلَةِ .

ثُمَّ يُقَالُ بَعْدَ هَذَا : وَقَدْ قَدَّمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كِتَابَهُ هَذَا إِلَيْكَ نَائِبًا عَنْهُ فِي أَسْتِصْلَاحِكَ ،
وَقَائِدًا يَقُودُكَ إِلَى طَرِيقِ نَجَاحِكَ ؛ قَبْلَ تَجْرِيدِ مَوَاضِيهِ ، وَإِحْلَاقِ مُسْتَأْنَفِهِ فِي الْحَرْبِ
بِمَاضِيهِ ؛ وَخِيُولِهِ مُجَادِبِ الْأَعْنَةِ ، وَدَوَائِلِهِ مُشْرَعَةِ الْأَسْنَةِ ؛ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا قَصْدُكَ
فِي عُقْرِ دَارِكَ الَّتِي بَوَّأَكُمَا ، وَأَنْتَرَاعِ نِعْمَتِهِ الَّتِي أَعْطَاكُمَا ؛ لِتَذُوقِ مَرَارَةِ الْخَالَفَةِ ،
وَتَزِينِهَا بِجَلَاوَةِ الْمَوَاقِفِ ؛ فَكُنْ عَلَى نَفْسِكَ لِنَفْسِكَ حَاكِمًا ، وَلَا تُكُنْ لَهَا ظَالِمًا ؛
وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَلِيْقُ بِهِ .

وَإِنْ كَانَتِ الْمَكْتَابَةُ إِلَى رَجُلٍ قَدْ سَبَقَتْ لَهُ سَابِقَةٌ بِخُلُوعِ الطَّاعَةِ ، ثُمَّ سَأَلَ الْإِقَالََةَ
فَأَقْبَلَ بَعْدَ مُشَارَفَةِ الْإِحَاطَةِ بِهِ وَالنَّكَايَةِ فِيهِ ، ثُمَّ رَاجَعَ الْعَصِيَانَ ؛ فَالرَّسْمُ أَنْ تَفْتَحَ .

بِحَمْدِ اللَّهِ جَاعِلِ الْعَاقِبَةِ لِلتَّقِيْنَ ، وَالْعُدُوَانِ عَلَى الظَّالِمِيْنَ ؛ وَالْعِزَّةِ لِحُرِّيَّتِهِ ، وَالنَّدَاةِ لِحُرِّيَّتِهِ ؛
وَالْإِظْهَارِ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ ، وَالْحَسَارِ لِأَهْلِ مَعْصِيَتِهِ ؛ وَدَائِرَةِ السُّوءِ عَلَى الْخَالِعِيْنَ طَاعَةً
حَلْفَانَهُ ، الْقَائِمِيْنَ بِحُجَّتِهِ . ثمَّ يُقَالُ : أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى مَا رَأَى تَخَوُّلَهُ بِهِ مِنْ تَصْدِيقِ
أَمَالِهِ ، وَتَوْفِيقِ أَفْعَالِهِ ؛ وَتَسْدِيدِ مَرَامِيهِ ، وَهَدَايَةِ مَسَاعِيهِ ؛ وَإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ ،
وَتَحْقِيقِ رَغْبَتِهِ ؛ بِإِدَالَةِ مُوَالِيَتِهِ ، وَإِذَالَةِ مُعَادِيَتِهِ ؛ وَمُعَوْنَتِهِ عَلَى مَا وُلَّاهُ . وَتَمَكِّيْنَهُ
مِنْ نَوَاهِ ؛ وَيَسَالَهُ الصَّلَاةَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ .

ثمَّ يُؤْتَى بِمَقْدَمَةِ تَدْلِ عَلَى جَمِيلِ عَاقِبَةِ الطَّاعَةِ ، وَذَمِيمِ مَغْيَةِ المَعْصِيَةِ ؛ يَبْسُطُ الْقَوْلَ
عَلَيْهَا ، وَيَتَوَسَّعُ فِيهَا ، لِتَكُونَ فِرَاشًا لِمَا يَتْلُوهَا . ثمَّ يُقَالُ بَعْدَهَا : وَإِنَّمَا يَجْمَلُ ذَلِكَ
أَهْلَ الْغَرَارَةِ الَّذِينَ لَمْ يُلُوكُوا شُكَاثِمَ التَّجَارِبِ ، وَلَمْ يُمَارِسُوا ضَرَامِ النُّوَابِ ؛
وَأَنْتَ فَقَدْ تَدَوَّقْتَ مِنْ كِرَاهَةِ المَعْصِيَةِ وَمِرَارَتِهَا ، وَعُدُوْبَةِ الطَّاعَةِ وَحِلَاوَتِهَا ؛
مَا يَرْجُو أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْ يَكُونَ قَدْ وَعَظَكَ وَأَدَبَكَ ، وَقَوْمَكَ وَهَدَبَكَ ؛ وَكَشَفَ لَكَ
عَنْ عَاقِبَتِهَا ، وَعَرَّفَكَ بِغَايَتِهَا ؛ فَدَعَتَكَ الطَّاعَةَ إِلَيْهَا بِمَا أَسْبَغَتْهُ عَلَيْكَ مِنْ لِبَاسِ
شَرَفِهَا وَمَجْدِهَا ، وَأَسْتَحْدَمَتْهُ لَكَ مِنْ أَنْصَارِ إِقْبَالِهَا وَسَعْدِهَا ؛ وَتَهَنَّتَ المَعْصِيَةَ عَنْهَا
بِمَبْلُوتِهِ مِنْ نَوَائِبِهَا وَصَنَائِعِهَا ، وَجَرَّبَتْهُ مِنْ مَرْمِضِ مَرَامِيهَا وَمَوَاقِعِهَا ، لِأَنَّهَا أَقَلَّتْ
عَدَدَكَ ، وَمَزَّقَتْ مُطْرَفَكَ وَمُتَلَدَكَ ؛ حَتَّى تَدَارَكَكَ مِنْ عَطْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ مَا أَنْبَتَكَ
بَعْدَ الْحَصْدِ ، وَرَأَشَكَ بَعْدَ الْحِصِّ ؛ وَأَتَهَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِيْنَ أَنْكَ حَيَّتَ إِلَى أَتْبَاعِ
الضَّلَالَةِ الَّذِينَ غَرُّوكَ ، وَمِلَّتَ إِلَى أَشْيَاعِ الْفِتْنَةِ الَّذِينَ اسْتَهْوَوْكَ ؛ فَاصْغَيْتَ إِلَى أَقْوَالِهِمْ
الَّتِي ظَاهَرَهَا نُصْحٌ وَبَاطِنُهَا غِشٌّ ، وَأَرَائِهِمُ الَّتِي مَوَارِدُهَا صَلَاحٌ وَمَصَادِرُهَا فِسَادٌ ؛
وَمِلَّتَ إِلَى مَعَاوِدَةِ الشُّشَقِاقِ وَالْأَرْتِكَاسِ فِي الْعِصْيَانِ ، وَمُقَابَلَةِ التَّعْمِيِّ بِالْكَفْرَانِ ؛
فَقَدَّمَ كِتَابَهُ إِلَيْكَ مُدَّكِرًا ، وَمَنَحَكَ خَطَابَهُ مُعْذِرًا مُنْذِرًا ؛ لِيَعْرِفَكَ حَظَّكَ ، وَيَهْدِيَكَ
رُشْدَكَ ؛ [وَيُدَلِّكَ] عَلَى الْأَحْسَنِ لَكَ فِي مَبْدِئِكَ وَعَاقِبَتِكَ ، وَيُحَدِّدَكَ مِنْ مَرَاجِعَةِ

ماقارفته ؛ وأن تَزَلَّ عن المنزلة التي رَقَّكَ إليها ، وتُجَدِّبَ رباعَكَ من النعمة التي أرتَعَكَ فيها ، وتُتَخَلَّى عن مرابع الدَّعةِ التي أوردَكَ عليها ؛ فانظر لنفسك حَسَنًا ، وَكُنْ إليها مُحْسِنًا ؛ وَاَتَنَفَّعْ بِمِرَاشِدِ أمير المؤمنين ، وَلَا تُفْسِدَنَّ بِخِلَافِكَ عَنْ أمره نَصِيكَ من الدنيا والدِّينِ ؛ فَارْجِعْ إليه مُسْتَرِغَمًا فَإِنَّهُ يَقْتَدِي بِاللَّهِ فِي الرَّحْمَةِ لِلْحَسَنِينَ ، مَا دَامَ مُؤَثِّرًا لِرَبِّ النِّعْمَةِ لَدَيْكَ ، وَإِقْرَارَهَا عَلَيْكَ . فَاعْمَلْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قال : وإن كانت المكتوبة إلى رعيةٍ قد خرجت عن الطاعة كتبت إليها بما مثاله :

أما بعد ، وَفَقِّمُكَ اللَّهُ لَطَاعَتِهِ ، وَعَصَمَكَ مِنْ مَعْصِيَتِهِ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يُدْبِلِي الْإِنْسَانَ بَغْرُورَهُ ، وَيَقِيمُ لَهُ الضَّلَالَاتِ فِي صُورَةِ الْهُدَى بِبُهْتَانِهِ وَزُورِهِ ؛ مُسْتَخْفًا لَطَائِشِي الْأَبْطَابِ ، وَمُسْتَرِيًّا لِلْأَقْدَامِ عَنْ مَوْقِفِ الصَّوَابِ ؛ مُحْسِنًا بِكَيْدِهِ لِأَعْتِقَادِ الْأَبْطَالِ ، مُزِينًا بِغِيَّةِ اتِّبَاعِ الْأَضَالِيلِ ، صَارِفًا بِمَكْرِهِ عَنْ سِوَاءِ السَّبِيلِ ؛ مُصَوِّرًا لِلْحَقِّ فِي صُورَةِ الْمُنَى ، مُغْطِيًّا عَلَى الْقُلُوبِ بِسِغَافِ الرِّينِ ؛ وَالْحَازِمُ الْيَقِظُ مِنْ تَحَرُّزٍ مِنْ أَشْرَاكِهِ وَحَبَائِلِهِ ، وَتَحْفَظُ مِنْ تَحَايِلِهِ وَغَوَائِلِهِ ؛ وَأَتَّهَمُ هَوَاجِسِ فِكْرِهِ ، وَأَسْتَرَابَ بوساوسِ صَدْرِهِ ؛ وَعَرَضَ مَا يَعْرِضُ لَهُ عَلَى عَقْلِهِ ، وَكَرَّرَ فِيهِ النَّظَرَ مُتَحَرِّزًا مِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ وَخَتَلِهِ ؛ فَإِنْ أَلْفَاهُ عَادِلًا عَنِ الْهَوَى ، مَا ثَلَا إِلَى التَّقْوَى ؛ بَرِيثًا مِنْ خُدَعِ الشَّيْطَانِ ، آمِنًا مِنْ عَوَادِي الْأَفْتِنَانِ ؛ أَمْضَاهُ وَإِنِقَاءً بِسَلَامَةِ مَغْبِتِهِ وَعَاقِبَتِهِ ، وَشُمُولِ الْأَمْنِ فِي أَوْلَاهُ وَأَنْحَرَاهُ .

وَأَتَهَى إِلَى أمير المؤمنين أَنْ الشَّيْطَانَ الْمَرِيدَ اسْتَحْفَفَ أَحْلَامَ جَمَاعَةٍ مِنْ جُهَالِكُمْ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَى أَفْهَامِ عِدَّةٍ مِنْ أَرَادِكُمْ ؛ وَحَسَّنَ لَهُمْ شِقَّ عَصَا الْإِسْلَامِ ، وَمَعْصِيَةَ الْإِمَامِ ؛ وَمَفَارِقَةَ الْجَمَاعَةِ ، وَالْأَنْسِلَاحَ مِنَ الطَّاعَةِ ؛ الَّتِي فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْجُمْهُورِ ، وَجَعَلَهَا نِظَامَ الْأُمُورِ ؛ فَقَالَ جَلَّ قَائِلًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ وَاخْتِيَارَ الْفُرْقَةَ الَّتِي نَهَى اللَّهُ عَنْهَا . فَقَالَ :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ ﴾ وَمَجَانِبَةَ الْأَلْفَةِ التي عدّها في جلائل نِعْمِهِ ، فقال مُتَسَنِّبًا بها على عبادته : ﴿ وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وَسَوَّلَ لَهُمُ التَّعَرَّى مِنْ آدَابِ الدِّينِ ، وَالْمُجَاهَرَةَ بِالْخِلَافِ عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، فَنَبَذُوا مَا بَأْيَدِهِمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ، وَسَلَبُوا مِنْ ظِلِّ دَعْوَتِهِ ؛ وَرَكِبُوا مِنْ ذَلِكَ أَوْعَرَ الْمَرَاقِبِ ، وَسَلَكُوا أَوْحَشَ الْمَسَارِبِ ؛ وَسَعَوْا فِي الْبِلَادِ بِالْفَسَادِ ، وَقَامُوا فِي وَجْهِ الْحَقِّ بِالْعِنَادِ ، وَأَسْتَخَفُّوا بِحَمْلِ الْآثَامِ ، وَبَسُطُوا أَيْدِيَهُمْ إِلَى الدِّمَاءِ الْحَرَامِ ، وَشَنُّوا الْغَارَاتِ عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ .

وقد علمتُم أن من أقدم على تأثير مثل هذه الآثام، فقد استنزل في هذه الدار سُخْطَ الْجَبَّارِ، وَتَبَوَّأَ فِي الْآخِرَةِ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ؛ وَجَرَى عَلَى غَيْرِ الْوَاجِبِ فِي إِقَامَةِ الْفُرُوضِ وَالصَّلَوَاتِ ، وَتَأْدِيَةِ الْعِبَادَاتِ وَالزَّكَّوَاتِ ، وَعَقْدِ الْعُقُودِ وَالْمُنَاقِحَاتِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْأَحْوَالَ إِنَّمَا تُرْضَى وَتُرْفَعُ ، وَتُحْبَبُ وَتُسْمَعُ ؛ إِذَا تَوَلَّاهَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَوْ مَنْ يَسْتَخْلِفُهُ مِنْ صَلَحَاءِ الْمُسْلِمِينَ ؛ فَأَمَّا إِذَا اسْتَبَدَّتُمْ فِيهَا بِأَنْفُسِكُمْ ، وَأَقْتَدَيْتُمْ فِي تَأْدِيَتِهَا بِبَنَائِكِ عَنْ سَبِيلِهِ ، مُجَانِبِينَ لِدَلِيلِهِ ؛ فَقَدْ تَسَكَّعْتُمْ فِي الضَّلَالَةِ ، وَتَطَاقَمْتُمْ عَلَى الْجَهَالَةِ ؛ وَكُلُّ رَاضٍ مِنْكُمْ بِذَلِكَ ، عَاصٍ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَوَلِيِّهِ .

وَمَا أَطَّلَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ بِسُوءِ الْإِخْتِيَارِ ، وَرَكِبْتُمُوهُ مِنْ مَرَاكِبِ الْأَعْتِرَابِ ؛ لَمْ يَرِ أَنْ يُلْفِيَكُمْ وَيَهْجُرْكُمْ ، وَيُغْفِلَكُمْ وَلَا يُبَصِّرْكُمْ ؛ فَقَدِمَ مَكَاتِبَكُمْ مُعْذِرًا مُنْذِرًا ، وَمُخَوِّفًا مُحْذِرًا ؛ وَبَدَأَ بِكُمْ بِوَعْظِهِ مُشْفِقًا عَلَيْكُمْ مِنْ زَلَّةِ الْقَدَمِ ، وَمَوْقِفِ النَّدَمِ ؛ وَجَازِبًا لَكُمْ عَنْ مَضَالِّ الْعَوَايِهِ ، إِلَى مَرَاشِدِ الْهَدَايِهِ ؛ وَأَفْتَحَكُمْ بِاللَّفْظِ الْأَحْسَنِ ، وَالْقَوْلِ الْأَلِينِ ؛ وَهَدَاكُمْ إِلَى السَّبِيلِ الْأَوْضَحِ ، وَالْمَنْجَرِ الْأَرْبَحِ ؛ وَأَخْتَارَ أَنْ يَهْدِيَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ ، وَيُدَلِّكُمْ عَلَى مَقَاصِدِ السَّدَادِ ؛ وَيُعِيدَكُمْ إِلَى الْأَوَّلَى ،

وَيَبْعَتَكُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَثَلِيِّ ، وَأَنْ تَعْرِفُوا الْحَقَّ فَتَعْتَصِمُوا فِي أَيْدِيكُمْ مِنْ بَيْعَتِهِ ،
وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ، وترجعوا إلى إجماع المسلمين ، وما آتفت عليه
كلمة إخوانكم في الدين ؛ وتبّعوا مذاهب أهل السلامة ، وأولى الاستقامة ؛ فإن وقع
ما ألقاه إليكم الموقّع الذي قدّره فيكم ، وسألتكم الإقالة ، فالتوّبه تنفعكم ، والعفو
يسعكم ؛ وإن تماديت في غيكم وباطلكم ، وغروركم وجهلكم ؛ تقدّمت إليكم جيوش
أمير المؤمنين مُقَوِّمَه ، ومن عصاتكم متقممه ؛ وذلك مقام لا يميز فيه البريء من السقيم ،
ولا الجاهل من العليم ؛ ألا تسمعون الله تعالى يقول : ﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ
ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾ ؟ وأيّ فتنة أشد من طاعة الشيطان ، ومعصية السلطان ؛ وشقّ
العصا ، وإراقة الدّما ، وإثارة الدهما ؟ فاتّقوا الله وأرجعوا ، وتأملوا وراجعوا ؛
وتبصّروا واستبصّروا ؛ وقد أوضح لكم أمير المؤمنين الحجّج ، وبدأكم بالحجّج ؛ فأوجِدوه
السبيل إلى ما ينويه لكم ولكافة أهل الإسلام : من حقن الدماء ، وصيانة الحرّيم ،
وتحصين الأموال ، وشمول الأمن والأمان ؛ وأجيبوا عن كتابه هذا بما يوفّقكم الله
تعالى [إليه] : من إجابة دعائه والعمل برأيه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من نرحج عن الطاعة ، وهو :

أما بعد : بلغني كتابك تذكر أنك تحمّل المرد على الجرد ؛ فسترد عليك جنود الله
المقربون ، وأولياؤه الغالبون ؛ ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول ، على
الفحول ؛ كأنها الوعول ، تنحوض الوحول ؛ طوال السبال ، تختضب بالجربال ، رجال
هم الرجال ؛ بين راح وناشب ، ليس معهم إلا كلب محارب ؛ ولا يتكلون عن الأصحاب .
قد ضروا بضرب الهام ، وأعتادوا الكتر والإقدام ، ليسوا بدوى هينة ولا إجمام ؛
يقضون بالسيوف ، ويخالطون الرخوف ، في أعتهم الخوف ؛ يزارون زبير الأسود ،

ويَبُونُ وَثُوبُ الْفُهودِ؛ ليس فيهم إلا شاكٌ مُحْتَبِكٌ، في الحَرْبِ مُجْرَبٌ؛ قد شَرِبَ على
 نَاجِدِ الحَرْبِ وأَكَلَ، ذُو شِقْشِقَةٍ وَكَلْكَلٍ؛ كَأَمَّا أَشْرِبَ وَجْهَهُ تَقِيعَ الحِنَاءِ؛ قد رَمَى
 الحَرْبَ وَرَضَعَهَا، وَغَدَّتْهُ وَأَلْفَهَا؛ فهي أُمُّهُ وَهُوَ آبُهَا، يَسْكُنُ إِلَيْهَا وَيَأْتِسُ بِقُرْبِهَا؛
 فهو بَطْلِبُهَا أَرَبٌ، وعلى أهلها حَرْبٌ؛ لا يروعه ما يروعه، ولا يزيغه ما يزيغ العُمر
 الجَبَانَ؛ حين يَسْتَدُّ الوَعْيَ، وَتَخْطُرُ القَنَا؛ وَتُقْلَصُ الشِّفَاهُ، وَتُسْفَرُ الكِمَاهُ؛ فعند ذلك
 تُسَامِكُ المُرْدُ، وَتُكْشَفُ عن الجُرْدِ. فَهَابَ لَدَيْكَ أَهْبَتَكَ، وَأَخْطَبَ لَكَ خِطْبَتَكَ،
 مِنَ المَسَاكِينِ وَالْحَوَاكِي؛ ثم كِيدُونِي جَمِيعًا فَلَا تُتَطْرُونَ؛ فإِذَا اسْتَأْرَكَ الجَمُوعُ،
 وَحَشَدُكَ الخِيُولُ؛ فَإِنَّكَ لَا تُكْتَفَى جَمْعًا، وَلَا تُسْرَبُ خِيَلًا؛ إِلَّا وَثِقْنَا بِأَنْ سَمِدْنَا
 اللهُ مِنَ مَلَائِكَتِهِ، وَيَزِيدُنَا مِنْ نَصْرِهِ؛ بما قد جَرَّتْ بِهِ سُنَّتُهُ، وَسَلَفَتْ بِهِ عَادَتُهُ؛
 وَنَحْنُ نَجْرِي مِنْ ذَلِكَ على نِقَمَاتٍ مِنَ اللهِ وَنَكَالٍ وَسَطَوَاتٍ مُهْلِكَةٍ؛ فَرَأَيْتُمْ ذَلِكَ
 فِي المَنَازِلِ، وَعَرَفْتُمُوهُ فِي المَوَاطِنِ الَّتِي يَجْمَعُهَا الحَقُّ وَالبَاطِلُ؛ فَأَبَشِّرْنَا بِمَا سَاءَكَ
 صَحْرًا، وَمَشَّاكَ تُقَادُ كَمَا يُقَادُ الجَمَلُ المَحْشُوشُ .



ومن أحسن الكتب المكتبة في هذا الباب ما كتب به قوام الدين (يحيى بن زيادة)
 وزير أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفة ببغداد إلى (طغرل) مُقَطِّعِ البَصْرَةِ بأمر
 الخليفة له في ذلك، وقد بلغه أنه نَزَحَ عنها، قاصدًا بعض الأطراف، مفارقًا لطاعة الخليفة،
 عند ما طَلِبَ من ديوانه شَيْءٌ من المال، فأوجب ذلك أنْتِئَاءَهُ عن عَزْمِهِ وَتَوَجُّهَهُ
 إلى بَغْدَادٍ داخِلًا تحت الطاعة، ومُقابَلَتَهُ بالصَّفْحِ وَتَلْقِيهِ بالقبول . وهذه نسخته :
 أصدرتُ هذه الخِدمَةَ إلى الجَنابِ الكَرِيمِ، الأَمِيرِيِّ، الأَسْفَهَسَلَارِيِّ، الأَجَلِيِّ،
 الكَبِيرِيِّ، السَّيِّدِيِّ، العِمَادِيِّ، الرُّكْنِيِّ، الظَّهَيْرِيِّ، المُحْتَرَمِيِّ، العَزِيِّ، الجَمَالِيِّ،
 أميرِ الجُيُوشِ؛ أَطال اللهُ بقاءَهُ، وأدامَ علُوهُ وَنِعْمَتَهُ؛ وَأنا أوقعُ الأَقوالَ المتواترة،

والأموال المتناصرة، مُسْتَعْرَبًا لها، مُتَعَجِّبًا منها، كأني أسمعها في المنام، وتخطبني بها أَضْعَافُ أَحْلَامٍ؛ فلو لا أن الأيام صَحَائِفُ العجائب، ولا يأنس بِمُتَجَدِّدَاتِهَا إلا مَنْ حَنَّكَهُ التَّجَارِبُ؛ لم أَصَدِّقْ هذه الحركة المباركة التي وقعت منه بسعادته؛ فإني ما أراها إلا عَثْرَةً من جَوَادٍ، وعورة على كماله؛ وإلا فمن أين يدخل الزَّلُّ على ذلك الرَّأْيِ السَّيِّدِ، والعقل الرَّاجِحِ، والفكر الصَّائِبِ؟ الذي يُعَلِّمُ الآرَاءَ كَيْفَ تُتِيرُ، وَيُعَرِّفُ النُّجُومَ كَيْفَ تُتَسِيرُ، ويهدي غيره في المُشْكَلاتِ إلى صواب التَّدْيِيرِ. والفائتُ لا كَلَامَ فيه، غير أن العَقْلَ يَقْضِي بِأَسْتِدْرَاكِ المُمْكِنِ وتَلَاْفِيهِ؛ بالانحراف عن الهوى إلى الرَّأْيِ الصَّادِقِ، والرُّجُوعِ عن تَأْوِيلِ النفسِ إلى مراجعة الفِكرِ النَّاصِحِ؛ فالعُودُ إلى الحقِّ أَوْلَى مِنَ التَّمَادِي عَلَى الباطلِ، وَأَحَبُّ أَنْ تَسْمَعَ مَا أَقُولُ بِأَذْنِ وَاغِيَةٍ وَقَلْبِ حَاضِرٍ؛ وَحُوشَى أَنْ تَسْتَدْفِعَهُ الكَوَادِبُ عَنْ تَدَبُّرِ الحَقَائِقِ، وَعِرْفَانِ النَّصَائِحِ؛ فَإِنَّ مِنَ القَوْلِ مَا بُرْهَانُهُ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَاهِدٍ مِنْ غَيْرِهِ .

قبل كُلِّ شَيْءٍ: ما الَّذِي أَحْوَجَ إِلَى هذه الحَالِ القَبِيحَةِ السُّمَّعَةِ، وَرُكُوبِ الخَطَرِ فِي هذه الحَرَكَةِ؛ وَأَحْتِمَالِ هذه المَشَاقِّ، والأَنْزَعِاجِ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَدْعُوَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ؟ هَلْ هُوَ لِشَيْءٍ جَرَّتْ العَادَةُ بِمِثْلِهِ، وَبِمَطَالَبَةِ دِيوانِهِ بِمَا كَانَ يَنْدَفِعُ الأَمْرَ بَعْضُهُ؟ كَمَا جَرَّتْ عَادَةُ الدَّوَاوِينِ، وَخِدْمُ السُّلْطَانِ؛ ثُمَّ إِنَّهُ عَمِدٌ - أَدَامَ اللهُ نِعْمَتَهُ - بِأَوَّلِ خَاطِرِهِ، وَبَادئِ رَأْيِهِ فِي هذه العَجَلَةِ، مِنْ غَيْرِ تَثْبِيتٍ وَلَا رَوِيَّةٍ. لِمَ لَا رَاجِعَ فِكرَهُ الكَرِيمَ، وَيَقُولَ لِنَفْسِهِ: إِلَى أَيْنَ أَمْضِي؟ وَلِمَنْ أَخْدُمُ؟ وَعَلَى أَيِّ بَابِ أَقِفُ؟ وَتَحْتَ أَيِّ لِوَاءٍ أَسِيرُ؟ وَبِأَيِّ غَبَارٍ أَكْتَحِلُ؟ وَفَضْلَ مَنْ أَطْلُبُ؟ وَعَلَى حُكْمِ مَنْ أُنزِلُ؟ بَعْدَ أَنْ رُبِّيتُ فِي عَرَصَةِ الخِلَافَةِ، وَدَارِ النُّبُوَّةِ، وَحِضْنِ المَمْلَكَةِ؛ أَنشَأْتِي نَعِيمًا صَغِيرًا، وَقَدَّمْتِي كَبِيرًا؛ وَكُنْتُ مَأْمُورًا بِجَعْلِي أَمِيرًا، وَطَارَ صَبْتِي فِي الدُّنْيَا وَلَمْ أَكُنْ شَيْئًا مَذْكَورًا؛ فَأَنَا خَيْرٌ مِنْ مَلِكٍ أَقْصَدُهُ، وَأَمْثَلُ مِنْ كُلِّ

مَنْ أَرْجُوهُ وَأَسْتَجِدُّهُ؛ أَفَأَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْحَضِيضِ، وَأَهْدِمُ مَا بَنَى الْإِنْعَامُ عِنْدِي فِي الزَّمَنِ الطَّوِيلِ الْعَرِيضِ؟ ! هَذَا هُوَ الْمَكْرُوهُ الْأَعْظَمُ، الَّذِي تَعَوَّدَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ حِينَ قَالَ: "اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ" وَمَنْ يَكُونُ حَضِيضَ خِلَافَةٍ كَيْفَ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ تَابِعَ إِمَارَةٍ؟ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَا هَجَمَ عَلَيْهِ إِلَّا هَذَا لَكُنْتُ . ثُمَّ لِمَ لَا يَلْتَفِتُ فِي هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي هُوَ عَلَيْهَا، الَّتِي صَحِبْتَهُ بِوَفَائِهَا، وَيَسْمَعُ خُطَابَهَا بِلِسَانِ حَالِهَا تَمَّ؟ تَقُولُ لَهُ: يَا عِمَادَ الدِّينِ! أَمَا هَذِهِ خِيَامُ الْإِنْعَامِ عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ الْخَيْلُ الْمُسَوَّمَةُ تَحْتَكُ؟ أَمَا هَذِهِ مَلَابِسُهُ الْفَاخِرَةُ مُفَاضَةً عَلَيْكَ؟ أَمَا هَذِهِ مَمَالِكُهُ حَافَةٌ بِكَ؟ أَلَيْسَ الْأَصْطِنَاعُ رَفَعَ قَدْرَكَ إِلَى الْمَنْزِلَةِ الَّتِي تُثْقَلُ عَلَيْكَ بَعْضُ الْأَنْحِطَاطِ عَنْهَا، وَوَهَبَ لَكَ الْهِمَّةَ الَّتِي أَبَيْتَ الضَّيْمَ بِهَا؟ خُوشِيَتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ تَوَاتَرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ فَلَهَا، وَتَكَاثَرَتْ عَلَيْهِ فَضَعَّفَ عَنْ حَمْلِهَا؛ فَيَالَيْتَ شِعْرَى! مَاذَا يَكُونُ جَوَابُهَا؟ وَاللَّهِ إِنِّي أَقُولُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ وَلَا أَعُقِبُ: وَلَوْ أَنَّهُ قَدْ تَحَقَّقَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - وَقُوعَ كُلِّ مَحْذُورٍ، وَحُلُولَ كُلِّ مَكْرُوهٍ؛ لَمْ يَكُنْ فِي هَذِهِ الْحَرَكَةِ مَعْذُورًا، فَكَيْفَ بظنِّ مَرَجِّمْ، وَقَوْلِ مُسَوِّفٍ مُتَوَهِّمٍ؛ وَرَأْيِ فِطِيرٍ غَيْرِ مُخْتَمِرٍ . وَلَقَدْ كَانَ أَسْتِسْلَامُهُ لِمَالِكِ الرَّقِّ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ - أَحْسَنَ فِي الدُّنْيَا وَأَحْمَدَ فِي الْعُقُبَى؛ وَاقْعَا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِهِ حَيْثُ وَقَعَ . وَالْآنَ فَالْوَقْتُ ضَاقَ فِي إِصْدَارِ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةِ، عَنْ اسْتِقْصَاءِ الْعِتَابِ وَالْمُحَاقَقَةِ؛ وَإِيرَادِ كُلِّ مَا تَلَزَمَ بِهِ الْحُجَّةُ، لَكِنِّي أَقُولُ عَلَى سَبِيلِ الْجَمَلَةِ:

إِنِّي أَخَافُ عَلَى سَدِيدِ ذَلِكَ الرَّأْيِ إِجَابَةَ دَاعِي الْهَوَى، فَإِنَّ الْجَبَّاحَ مِنْ أَوْسَعِ مَدَاخِلِ الشَّيْطَانِ عَلَى الْإِنْسَانِ، وَحُوشَى كَلَامُهُ مِنْ هَذَا الْقِسْمِ .

وَالثَّانِي اسْتِشْعَارُهُ بِسَعَادَتِهِ مِنْ بَادِرَتِهِ، وَأَسْتِيحَاشُهُ مِنْ عَجَلَتِهِ؛ وَهَذَا أَيْضًا مِنْ أَدَقِّ مَكَايِدِ النَّفْسِ الْأَمَّارَةِ بِالسُّوءِ، فَإِنَّهَا تُؤْمِنُ مِنَ الْخَوْفِ، وَتُخَوِّفُ مِنَ الْمَأْمُونِ،

وَتَسْحَرُ الْعَقْلَ بِالتَّحْيِيرِ وَالشَّكِّ ، فَلَا تَصِحُّ لَهُ عَزِيمَةٌ ، وَلَا تَصْفُو لَهُ فِكْرُهُ ؛ وَهَذَا التَّوَعُّعُ إِذَا عَرَّضَ فِي الصَّدْرِ يَجِبُ دَفْعُهُ بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَقِّ وَشِجَاعَةِ الْقَلْبِ ، وَالْإِخْلَادِ إِلَى مُنَاطَرَةِ النَّفْسِ ؛ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ ، وَالزَّلُّ فِي الرَّأْيِ لَيْسَ مِنْ أَوْصَافِ الْجَمَادِ ، بَلْ مِنَ الْأَوْصَافِ اللَّازِمَةِ لِلْبَشَرِيَّةِ ؛ وَلَيْسَ الْكَمَالُ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْوَاحِدِ الصَّمَدِ .

فَإِذَا عَرَّضَ لَهُ بِسَعَادَتِهِ هَذَا الْأَسْتِشْعَارَ ، فَيُدْفَعُهُ عَنْ نَفْسِهِ ؛ فَلَيْسَ سُلْطَانُ الْوَسْوَاسِ الْخِنَاسِ ، إِلَّا فِي صُدُورِ النَّاسِ ؛ فَلِهَذَا لَا يَنْبَغِي الْمُدْنِبُ أَنْ يَقْنَطَ ، وَلَا الْمُسِيءُ أَنْ يَسْتَوْحِشَ ؛ لِاسْمِيًّا إِذَا أَتَبَعَ الذَّنْبَ بِالْأَسْتِقَالَةِ وَالْأَسْتِغْفَارِ ، وَالْأَعْتَادِ وَالْإِقْلَاعِ ؛ وَعَلَى الْخُصُوصِ إِذَا كَانَتْ الْخِيَانَةُ عِنْدَ مَنْ لَا يَتَعَاطَمُهُ عَفْوُهَا ، وَلَا يَضِيقُ حِلْمَهُ عِنهَا ؛ فَإِنَّ كُلَّ كَبِيرَةٍ تُوجِبُ الْخِيفَةَ ، تَغْرُقُ فِي بَحْرِ عَفْوِ الْخِلَافَةِ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يُقَرَّرَ بِسَعَادَتِهِ ذَلِكَ فِي نَفْسِهِ ، وَيُجْرَجَ سَوْءَ الظَّنِّ وَالْأَسْتِشْعَارَ مِنْ خِيَالِهِ ؛ فَإِنْ مَثَلَهُ مِنْ خُلُصَانِ الْمَالِكِ لَا يُسْمَحُ بِهِ ، وَلَا يُسْغَبُ عَلَيْهِ عِنْدَ هَفْوَةٍ بَادِرَةٍ .

وَالثَّالِثُ الْإِتْقَابُضُ وَالْحَيَاءُ . فَانَّهُ رُبَّمَا يَقُولُ فِي نَفْسِهِ : يَا وَجْهَ أَلْقَى مُوَلَايَ ؟ وَيَا عَيْنَ أَبْصَرَ مَوَاطِنَ الدَّارِ الْعَزِيزَةِ ؟ رَبَّانِي وَأَنْسَانِي ! . وَهَذَا أَيْضًا لَا يَصْلُحُ خُطُورُهُ بِأَلِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ ، فَإِنَّهُ مِنْ ضَعْفِ النَّحِيْزَةِ ، وَالْمَيْلِ مَعَ خَوَائِدِ الطَّبْعِ ، عَنْ نَصَائِحِ الْعَقْلِ وَالشَّرْعِ ؛ فَإِنَّ الْحَيَاءَ إِتْبَاعُ زَلَّةِ الْقَدَمِ بِالنَّدَمِ وَالْأَعْتَادِ ، لَا التَّهَوُّكُ فِي الْبَلَّاجِ وَالْإِصْرَارِ . فَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْمُلُوكِ لِحَلِصِيصٍ مِنْ خَوَاصِّهِ ، عَصَاهُ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِهِ :

« يَا عَيْنَ تَلْقَانِي وَقَدْ عَصَيْتَ أَمْرِي ؟ » فَقَالَ : « بِالْعَيْنِ الَّتِي أَلْقَى بِهَا رَبِّي فِي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ ، وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَرَانِي عَلَى فَوَاضِحِ الْمِعَاصِي » . وَقَدْ أَثْنَى اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى مَنْ أَدْنَبَ ثُمَّ تَابَ ، وَشَرَدَ عَنْ طَاعَتِهِ ثُمَّ أَنْابَ . وَبِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى مَا جَرَى مَا يَقْتَضِي فَرْطَ الْأَسْتِشْعَارِ . هَلْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ خَافَ بِأَدْرَةِ مَوْلَاهُ ، فَتَنَحَّى مِنْ مَكَانِهِ إِلَى أَنْ يَعْطَفَ

(١) فِي الْأَصْلِ "بَل" وَلَا مَعْنَى لَهَا .

عليه برحمته؟ وليس هذا بديع، ولا من الصَّفحِ ببعيد. على أنه بسعادته لو أنصف من نفسه لما استشعر. فكم أخرجت الخزائن الشريفة عليه من الأموال حتى نبت عرقه، وأورق غصنه، وكبر شأنه، وجمع ضمان البصرة عشر معشار ذلك .

والرابع إصغاه - والعياذ بالله - إلى قول من لا ينصحه، ويغويه ولا يرشده؛ ويتقرب إليه بمتابعة هواه. وهذا ما لا يخفى عن لمة الناقد، ولا يحتاج في الإعراض عنه إلى باعث؛ فقدما قيل: «صديقك من نهاك، وعدوك من أغراك» والله تعالى يوفقه لتحقيقه النظر في هذه الأقسام الأربعة، التي أحدرها عليه، وأحدره منها؛ ويسره لليسرى .

وبعد ذلك فأنا أنصفه من نفسي، وأقول الحق: إن نفساً رباًها خليفة الله في أرضه - صلوات الله عليه وسلامه - بإنعامه، وأعلى همتها باختصاصه، وشرفها بنسب عبوديته؛ لا تحمل الهوان، ولا تقر على الأبدال؛ فغالبا ظني أن نفوره بسعادته إنما هو من ديوان الزمام المعمور. والآن فأنا وهو بسعادته عبدان، ولكني أفرد عنه بالسِّن والتجريب؛ وطريقي هو بسعادته يعرفها، وإنني لأدحر عن أحد نصحا. فالصواب أن يقبل قولي، ويتحقق صحة مقصدي في نصيحتي ومقصده، فإني أوجب ذلك له على نفسي، وأراه من واجبات خدام مالك الرق - صلوات الله عليه وسلامه - أيضا .

وقد علم الله تعالى أني قد أوصحت من عُدري، وأحسن المناب عنه بسعادته، ما لو حضره وتولاه بنفسه لما زاد عليه؛ ورأيت الإنعام يستغني عن كل شرط ولا يحتاج إليه، وتقررت قاعدته بسعادته أن لا يكون له مع ديوان الزمام المعمور حديث، ولا مع غيره ممن لا يعرف حقه، ولا يوفيه من الاحترام واجبه؛ فإن أمر

أَنْ أَتَوَّلَى وَسَاطَتَهُ فَأَنَا أَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِي مَرَضِيهِ ، وَتَمَشِيَةِ أَمْرِهِ أَكْثَرِمًا فِي نَفْسِهِ .
 وَإِنْ آخْتَارَ بِسَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ غَيْرِي وَسِيْطَهُ وَسَفِيرَهُ ، فِعَيْنٌ مَنْ يَخْتَارُهُ : لِيَكُونَ
 حَدِيثُهُ مَعَهُ . وَقَدْ أَسْلَفْتُ مِنْ وَظَائِفِ إِحْسَانِ الْمَنَابِ أَنْتَى تَنْجَزْتُ لَهُ بِسَعَادَتِهِ أَمَانًا
 مُتَوَجِّبًا بِالْقَلَمِ الْأَشْرَفِ الْمُقَدَّسِ ، عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ وَمَالِهِ وَأَوْلَادِهِ - وَالْأَمَانَ الْمَذْكُورَ
 طَى كِتَابِي هَذَا - مَقْرُونًا بِجَاتِمِ أَمَانِ ثَانٍ ؛ فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ هُوَ بِسَعَادَتِهِ جَوَابَ
 ذَلِكَ . إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ الْجَوَابُ إِلَّا هُوَ بِنَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ ؛ فَلَا يَشْعُرُ بِهِ أَحَدٌ
 إِلَّا وَهُوَ مُقَابِلُ التَّجِجِ الشَّرِيفِ ، مُلْقِيًا نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكِهَا الَّذِي هُوَ أَرْحَمُ لَهَا ،
 وَالطَّفِ بِهَا ، وَأَشْفَقَ عَلَيْهَا مِنْهَا ؛ تَالِيًا مَا حَكَاهُ الْقِرْعَانُ الْحَمِيدُ عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
 إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْتُومٌ : (سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) فَإِنَّهُ يَرَى -
 بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَوْفِيقِهِ - كُلُّ مَا يُجِبُّ ، وَيَأْمَنُ كُلُّ مَا يَحْذَرُ . وَأَنَا أَسْتَسْرِعُ وَصُولَهُ
 عَنْ أَسْتِعْرَاضِ مُهِمَّاتِهِ ، وَلِرَأْيِهِ كَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : فَإِنْ آتَقَفَتِ الْمَكَاتِبَةُ فِي مَعْنَى ذَلِكَ فِي زَمَانِنَا ، رَاعِي الْكَاتِبُ فِيهِ صُورَةَ
 الْحَالِ ، وَجَرَى فِي ذَلِكَ عَلَى مَا يَلَائِمُ حَالَهُ ، وَيُنَاسِبُ مَا هُوَ فِيهِ ؛ مَعَ النَّظَرِ فِي كَلَامِ
 مَنْ سَبَقَهُ إِلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ؛ وَالنَّسْجِ عَلَى مَنَوَالِ الْحَمِيدِ ، وَالْإِقْتِدَاءِ بِالْمُحْسِنِ فِي إِيرَادِهِ
 وَإِصْدَارِهِ .

الصَّنْفُ السَّابِعُ

(الْكُتُبُ فِي الْفُتُوحَاتِ وَالظَّفَرِ بِأَعْدَاءِ الدَّوْلَةِ وَأَعْدَاءِ الْمِلَّةِ ،

وَأَسْتِرْجَاعِ الْمَعَاقِلِ وَالْحُصُونِ ، وَالْأَسْتِيْلَاءِ عَلَى الْمُدُنِ)

وَأَصْلُهَا مِنْ فَتْحِ الْأَقْفَالِ وَدُخُولِ الْأَبْوَابِ . كَأَنَّ الْمَدِينَةَ أَوْ الْحِصْنَ كَانَ مُقْفَلًا

مُتَمَتِّعًا بِالْأَغْلَاقِ عَلَى قَاصِدِهِ حَتَّى يُفْتَحَ لَهُ فَيَدْخُلُ .

قال في "مواد البيان" : وهو من أعظم المكتاتب خطراً، وأجلها قدراً؛ لأشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذي وعد به أهل الطاعة في إظهار دينهم على كل دين، وتوفير حظهم من التأييد والتأييد، وما يمر فيها من الأساليب المختلفة التي يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكتاب يحتاج إلى تصريف فكره فيها ، وتهذيب معانيها : لأنها تُتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين ، ويُجعل نصب عيون المتصفحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله العفو الحليم ، الغفور الرحيم ، العليم الحكيم ؛ ذى البرهان الأمين والفضل الجسيم ، والقوة المتين والعقاب الأليم ؛ مُبيد الظالمين ، ومُبرِّ القاسطين ؛ ومؤيد العادلين ، وجاعل العاقبة للمتقين ؛ المُملي إمهالاً وإنذاراً ، والمعاقب تنبيهاً وإذكاراً ؛ الذى لا يُنجي منه مهربٌ ، ولا يبعد عليه مَطْلَبٌ ؛ وكيف يُعتمَم منه وهو أقرب من جبل الوريد ، وله على كل لافظٍ رقيبٌ وعيّد ؟ . والصلوة على رسوله الأمين ، الذى حتم به النبيين ؛ وفضله على المرسلين ، وأيده بأوليائه الثابتين ؛ الذين قاموا فى نصرته ، وإعزاز رأيتِه ؛ المقام الذى فازوا فيه بالخصل ، فاستولوا به على قصبَات الفضل ؛ فشرَكهم معه فى الوصف والثناء ، فقال جلّ قائلاً : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رِجْمَاءٌ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يُوتى بمقدمةٍ تشتمل على التحدّث بِنِعْمَةِ اللَّهِ فى شُحْدِ الْعِزَائِمِ لِنُصْرَتِهِ ، وتثبيت الأقدام فى لقاء عدوه ومجاهدته ؛ وإيجازه وعدّه فى الإعزاز والإظهار ، والظفر والإظفار ؛ والأستبشار بموقع النعمة فى الفتح الحليل ، والإشادة بإبقاء هذا الأثر الجميل . ثم يفيض بما جرت العادة به فى مقارنة العدو ومداناته ، وبثّ البلائع لتنفيذ السرايا فى مبادئ ملاقاته ؛ وما أفضى إليه الأمر فى التقابل

والمؤابيه ، والتواشج في المطاعنة والمضاربه ؛ وذكر مواقف الشجعان في الكفاح
والمجاهده ، والذئب والمجالد ، وثبوت الأقدام ، والحدود بالنفوس ، وأشدتاد الأيدي ؛
وقوة الشكائم ، وأستصحاب العزائم ؛ وتفخيم أمر العدو : بوصفه بكثرة الرجال
والأجناد ، والقوة والأستعداد : لأن توقع الظفر بمن هذه صفتة أعظم خطراً ، وأوقع
في النفوس أثراً .

ثم يذكر مجال بين الفريقين من قراع ومصاع ، ومضاربة ودفاع ؛ ومصاولة
ومناضله ، ومناهدة ومكافهه ؛ وحماية ومناخه ، وثبات ومصاففه ؛ ومقاومة ومواقفه ،
ومحادعة ومطامعه ؛ وينعت المواقب والكائب ، والخيل والأسلحة ؛ والجرحى
والمجذلين ، والأسرى والمقتلين . وأستعمال التشبيهات الفائقه ، والأستعارات الرائقه ؛
وإرداف المعاني في الإبانة عن لمعان أسنة الذوابل ، وبريق صفحات المناصل ؛
وإعمال المقاصل في القمم ، وظهور نجوم السيوف من ليل الحرب في دياحي الظلم ؛
وينعت الدماء المنبعثة من الجراح ، على متون الريح والصفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالى : من تكامل النصر ودلائل الظفر ، وما أنجلت عنه
الحرب : من قتل من قتل وأسر من أسر ، وهزيمة من هزم ؛ وما فاز به الرجال
من الأسلاب والأموال ، والذواب والرجال ؛ وما جرت عليه الحال من أنفال العدو
عند المقاتلة ، أو أسر العدو وإن أسر ، أو اعتصامه بمقيل لا يمحصنه ؛ أو امتناعه بحيث
يحتاج إلى منازله باستنزاله قسراً ؛ أو حيازة المعقل الذي كان بيده ، وما أعتمد فيه :
من حسن السيره ، وتخفيف الوطأة عن الرعية وحسم أسباب الفتنة ؛ أو رغبتة
في المسالمة ، وسؤاله في المهادنه ؛ لخوف أظله ، وهلع أحتله ؛ وما تردد من رسائل ،
وتقرر من شروط وعقود ؛ وإنفاذ الأمر في ذلك كما أوجبه الحزم ، وأقتضاه
صواب الرأي .

وإن كان السلم قد وقع، والتنازع قد ارتفع؛ ذكر اتفاق الحزبين^(١)، واتحاد الكلمة، وشمول النعمة .

وإن كان لم يجبه إلى المهادنة، حذرًا من المكر والمخادعة، ذكر ما مر في ذلك من رأي وتديبر، وتسديد وتقرير .

وإن كان طلب المهادنة ليجد فسحة المهل فيكثر عدده، ويجم عدده، وتتم حيلته؛ فأطلع منه على ذلك، فبادره مقللاً لكيده ومكره، مذكراً له وبال أمره؛ شرح الحال على نصحها وما أنتهى إليه آخرها .

قال : وقد يقع من هذه الأمور ما لا يحسب، وسبيل جميعه هذا السبيل .

ثم قال : ويؤتم الكتاب بحمد الله القاضى لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذاله؛ الذى يستدرج بحلمه إمهالاً؛ ولا يلقى العادل عن حكمه إمهالاً؛ والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله .

وقد تقدم فى الكلام على مقدمة المكاتبات فى أوائل المقالة الرابعة من الكتاب، أن هذه الكتب مما يجب بسطها والإطناب فيها؛ وأن ما وقع فى كتاب المهلب ابن أبى صفرة، من كتابه إلى الحجاج فى فتح الأزارقة من الخوارج، على عظم الفتح وبعد صيته، على سبيل الإيجاز والاختصار، حيث قال فيه :

أما بعد، فالحمد لله الذى لا تقطع مواد نعيمه عن خلقه حتى تقطع منهم مواد الشكر. وإنا وعدونا كذا على حال يسرنا منهم أكثر مما يسوءنا؛ ويسوءهم منا أكثر مما يسرهم؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يزيدنا وينقصهم، ويعزنا ويذلهم، ويؤيدنا ويخذلهم، ويخصنا ويحققهم؛ حتى بلغ الكتاب أجله . ﴿ قَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ

(١) فى الاصل "آساع الحربين" وهو غير مناسب .

ظَلَمُوا وَالحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ فَأَتَمَّا سَلَكَ فِيهِ سَبِيلَ الْإِيحَازِ ، لَكُونَهُ مِنَ التَّابِعِ إِلَى الْمَتَّبِعِ ؛ إِذِ الْحَجَّاجُ كَانَ هُوَ الْقَائِمَ بِأَمْرِ الْعِرَاقِ وَمَا وَالَاهُ لِعَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، عَلَى شِدَّةِ سَطْوَتِهِ ، وَمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنْ قُوَّةِ الشَّكِيمَةِ وَشِدَّةِ الْبَأْسِ ؛ مَعَ كَوْنِ الْأَدَبِ فِي مَكَاتِبِ الْمَرْعُوسِ الرَّئِيسِ الْإِيثَانَ بِقَلِيلِ اللَّفْظِ الدَّالِّ عَلَى الْمَقْصِدِ ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ شَغْلٌ لِلرَّئِيسِ بِطُولِ الْكَلَامِ وَبَسْطِ الْقَوْلِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانَهُ فِي مَوْضِعِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْكِتَابَةَ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ وَمَعَاقِلِهِمْ وَالْأَسْتِيَاءِ عَلَى بِلَادِ الْبَغَاةِ تَكَادُ أَنْ تَكُونَ فِي الْكِتَابَةِ عَلَى نَسَقٍ وَاحِدٍ ؛ إِلَّا أَنَّ مَجَالَ الْكَاتِبِ فِي فَتُوحَاتِ بِلَادِ الْكُفْرِ أَوْسَعُ ، مِنْ حَيْثُ عِزَّةُ الْإِسْلَامِ عَلَى الْكُفْرِ ، وَظُهُورُ دِينِهِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ .

وهذه نسخة كتاب بفتح فتحه الخليفة وعاد منه ، وهي :

الحمد لله مُدَبِّلِ الْحَقِّ وَمُنِيرِهِ ، وَمُذِلِّ الْبَاطِلِ وَمُبِيرِهِ ؛ مُؤَيِّدِ الْإِسْلَامِ بِبَاهِرِ الْإِيحَازِ ، وَمَتَمِّمِ وَعِدِهِ فِي الْإِظْهَارِ بُوْشَيْكِ الْإِيحَازِ ؛ وَأَتَمِّدُ كُلَّ دِينٍ وَأَعْلَاهُ ، وَرَفُضَ كُلِّ شَرِّعٍ وَأَجْتَبَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ نُورَهُ الْأَلَامِعِ ، وَظَلَّمَهُ الْمَاتِعِ ؛ وَأَبْتَعَتْ بِهِ السَّرَاحَ الْمُتَبِيرَ ، وَالْبَشِيرَ النَّذِيرَ ؛ فَأَوْضَعَ مَنَاهِجَهُ ، وَبَيَّنَّ مَدَارِجَهُ ؛ وَأَنَارَ أَعْلَامَهُ ، وَفَصَّلَ أَحْكَامَهُ ؛ وَسَنَّ حَلَالَهَ وَحَرَامَهُ ، وَبَيَّنَّ خَاصَّهُ وَعَامَهُ ؛ وَدَعَا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ ، وَحَصَّ عَلَى التَّمَسُّكِ بِعِصْمِ دِينِهِ ؛ وَتَمَرَّ فِي نَصْرِهِ مُجَاهِدًا مَنْ نَدَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَعِنْدَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ حَتَّى قَصَدَ الْأَنْصَابَ وَالْأَصْنَامَ ، وَأَبْطَلَ الْمَيْسِرَ وَالْأَزْلَامَ ؛ وَكَشَفَ غِيَابَاتِ الْإِظْلَامِ ، وَأَتَعَلَّتْ خَيْلُ اللَّهِ بِقِبَائِلِ الْمَهَامِ (٣) .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيح الذي أوردناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيح الذي أوردناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أمير المؤمنين أن [جعله من ولاة أمره ، ووقفه لاتباع سنة رسوله وأقتفاء أثره ، وأعانه على تمكين الدين ، وتوهمين المشركين ، وشفاء صدور المؤمنين و]^(١) أنهضه بالمرامة عن الملة ، والمجامة عن الحوزة ، وإعزاز أهل الإيمان ، وإذلال حزب الكفران ؛ ويسأله الصلاة على خيرته أئمتي ؛ وصفوته المنتصي ؛ مجد أفضل من ذب وكافح ، وجاهد وناخ ؛ وحى الذمار ؛ وغزا الكفار ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيفه القاطع ، ومجته المدافع ؛ وسهمه الصارد ، وناصره المعاضد ؛ فارس الوقائع ، ومفترق الجماع ؛^(٢) مبيد الأقران ، ومبيد الشجعان ؛ وعلى الطهرة من عترته أئمة الأزمان ، وخالصة الله من الإأس والجان .

وإن أولى النعم بأن يرقل في لباسها ، ويتوصل بالشكر إلى إيناسها ؛ ويتهادى^(٣) طيب خبرها ، ويتفاوض بحسن أثرها ؛ نعمة الله تعالى في التوفيق لمجاهدة أهل الإلحاد والشرك ، وغزو أولى الباطل والإفك ؛ والهجوم عليهم في عقردارهم ، وأجنتات أصلهم والحد في دمارهم ؛ واستزاهم من معاقلهم ، وتشريدهم عن منازلهم ؛ وتعميض نواظرهم الشوس [وإلباسهم لباس البوس] لما في ذلك من ظهور التوحيد وعزه ، ومحمود الإلحاد وعمره ؛ وعلومة المسلمين ، وأنخفاض دولة^(٤) المشركين ؛ ووضوح [محجة] الحق ومجته ، وصدوع برهانه وآيته .

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك وقد أنكفا عن ديار الفلانيين المشركين إلى دسنت خلافته ، ومقر إمامته ؛ بعد أن غزاهم براً وبحراً ، وشردهم سهلاً ووعراً ، وجرعهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠) .

(٢) ورد بدل هذه الكلمة في (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها .

(٣) كذا هنا ، والذي في (ج ٦ ص ٤٤١) "لباسها" .

(٤) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

من عواقب كفرهم مُرًا ؛ و فرَّق جماعهم التي تُطبَّق سهوب الفِضَاءِ [خيلا ورجلا ،
وتضيق بها المهامة حزنا وسملا ، و مرَّق كآبهم التي تُلحِق الوهاد بالنجاد ، و تختطفُ
الأبصار بوارق الأغماد] ^(١) و تجعل رعود سنايكها في السماء ، و سبي الدَّرَارِيَّ
و الأطفال ، و أسرَّ البطاريق و الأقيال ، و أفتح المعاقِل و الأعمال ، و حازَّ الأسلاب
و الأموال ؛ و استولى من الحصون على حصن كذا و حصن كذا ؛ و محامها رسوم الشرك
و عقابها ، و أثبت سنن التوحيد بها و أمضاها ؛ و غمَّ أولياء أمير المؤمنين ، و متطوعة ^(١)
المسلمين [من الغنائم] ما أقرَّ العيون ، و حَقَّق الظنون ؛ و انفصلوا وقد زادت بصائرهم
نفاذا في الدين ، و سرائرهم إخلاصا في طاعة أمير المؤمنين ؛ بما أولاهم الله من النصر
و الإظفار ، و الإعزاز و الإظهار ؛ و وصَّح للشركين بما أنزل الله عليهم من الخذلان ،
و أنالهم إياه من الهوان ؛ أنهم على مضلة من النى و العمى ، و منجاة من الرشد و الهدى ؛
فصرعوا إلى أمير المؤمنين في السلم و الموادعة ، و تجملوا بدلا بدلوه [نفاديا] ^(٢) من الكفاح
و المقارعة ؛ فأجابهم إلى ذلك متوكلا على الله تعالى ، و أمثالا لقوله إذ يقول :
﴿وَأِنْ جَنَّحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ و عاقد طاغيتهم
على كتاب هُدنة كتبه له ، و أقره في يده ؛ حجةً بضمونه .

أشرك أمير المؤمنين ذلك : لتأخذ من هذه النعمة بنصيب مثلك من الخُصيين ،
و تعرف موقع ما تفضل الله تعالى به على الإسلام و المسلمين ؛ فيحسن ظنك ،
و تقر عينك ؛ و تشكر الله تعالى شكر المستمد من فضله ، المعتد بطوله ؛ و تتلو كتاب

(١) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) في (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع " وبعده " .

(٣) الزيادة عما تقدم في (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين ، على كافة من قبلك من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نصره وتمكينه ، وإذلال عدوهم وتوهمته ، فأعلم ذلك وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفْر ، وإما فتح لما استولى عليه البُغاة من المسلمين .

فأما فتح بلاد الكُفْر فكان سبيلهم فيه أن يُصدّر الكتاب بحمد الله تعالى على علو دين الإسلام ورفعته ، وإظهاره على كل دين ؛ ثم على بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالهداية إلى الدين القويم ، والصراف المستقيم ؛ ويذكر ما كان من أمره صلى الله عليه وسلم من جهاد الكُفْر . ثم على إقامة الخلفاء في الأرض حفظاً للرعيه ، وحيطة للبريه ، وصونا للبيضة ؛ ويخص خليفة زمانه من ذلك بما فيه تفضيله ورفعة شأنه ؛ ثم يؤخذ في تعظيم شأن العدو وتهويل أمره ، وكثرة عدده ، ووفور مدده ؛ ثم في وصف جيوش المسلمين بالقوة والاستعداد ، والأشداد في الله تعالى ، والقيام في نصرة دينه ؛ ثم تذكر الملحمة وما كان من الوقعة والنحام القتال ، وما أنجحت عنه الملحمة من النصرة على عدو الدين وخذلانه ، والإمكان منه ، وقتل من قتل منهم ، وأسر من أسر ، وتفريق شملهم ، وانتظام كلمة الإسلام ، وطاعيتهم بهلاك عدوهم ، وما في معنى ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلى الديوان العزيز ، أيام الناصر لدين الله ، عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، بفتح القدس الشريف ، وإنقاذه من يد الكُفْر ، في آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسة ، من إنشاء القاضي الفاضل ، وهو :

أدام الله أيام الديوان العزيز النبوي الناصري، ولا زال مظفر الحد بكل جاحد،
 غني التوفيق عن رأي كل رائد؛ موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد؛
 مستيقظ النصر والسيف في جفنه راقدا، وأرد الجود والسحاب على الأرض غير وأرد؛
 متعدّد مساعي الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، ماضي [حكم القول] بعزم^(١)
 لا يمضي إلا بنسل غوي وريش راشد، ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء]^(٢)
 أنواع إلى المراقب وأنوارا إلى المساجد؛ وبعوث رعيه إلى الأعداء خيلا إلى المراقب
 وخيالا إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجري مجرى التبشير لصبح
 هذه الخدمة، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة، فإنها بجزء للأقلام فيه سبح
 طويل، وأطف تحمل الشكر فيه عبء ثقيل؛ وبشري للخواطر في شرحها مآرب،
 وبشري للأسرار في إظهارها مسارب؛ والله في إعادة شكره رضا، وللنعمة الرأهنة
 به دوام لا يقال معه: هذا مضي؛ وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها،
 وأستبقت عقائد أهله على أيّين بصايرها؛ وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط،
 وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط؛ وكان الدين غريبا فهو
 الآن في وطنه، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس في ثمنه؛ وأمر الحق وكان
 مستضعفا، وأهل ربه وكان قد عيف حين عفا؛ وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك
 راغمة، فأدجحت السيوف إلى الآجال وهي نائمة؛ وصدق وعد الله في إظهار دينه

(١) كذا هنا وفيما تقدم، والذي في وفيات الأعيان لأبن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤)

”غنيا بالتوفيق“ .

(٢) الزيادة عن رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السلطانية مرة ٢٢٩٤

على كلِّ دين ، وأستطارت له أنوارُ أبانت أن الصَّباحَ عندها حيانَ الحين ؛ وأستردَّ المسلمونُ ترائماً كان عنهم أيقاً ، وظفروا يقظةً بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفاً على النَّأي طارِقاً ؛ وأستقرت على الأعلى أقدامهم ، وخفقت على الأقصى أعلامهم ؛ وتلاققت على الصَّخرةِ قلوبهم ، وشفيت بها وإن كانت صخرةً [قلوبهم] كما تُسنى بالماء غلهم .

ولما قَدِمَ الدِّينَ عليها عَرَفَ منها سويداءَ قلبه ، وهنَّ كفوها الحجرُ الأسودُ بيتَ عِصمتها من الكافرِ بحرِّه ؛ وكان الخادمُ لا يسعى سعيه إلا لهذه العُظمى ، ولا يقاسى تلك البؤسى إلا رجاءَ هذه النعمى ؛ ولا يناجز من يستمطئه في حرِّه ، ولا يعاتب بأطراف القنأ من يتماذى في عتبه ؛ إلا لتكون الكلمةُ مجموعه ، والدعوةُ إلى سامعها مرفوعه ؛ فتكون كلمةُ الله هي العُلى ، وليفوز بجوهر الآخرة لا بالعرَضِ الأذنى من الدنيا ؛ وكانت الألسنةُ ربَّما سلقته فأنضح قلوبها بالأحتمار ، وكانت الخواطرُ ربَّما غلت عليه مرَّاجلها فأطفأها بالأحتمال والأصطبار ؛ ومن طلبَ خطيراً خاطر ، ومن رامَ صفةً راجحةً تجاسر ، ومن سَمَّا لأنَّ يجلى عمرةً غامر ؛ وإلا فإن القعودَ يلينُ تحتِ نيوبِ الأعداءِ المعاجمِ فتعضها ، ويضعفُ بأيديها مهز القوائم فتقضها ؛ هذا إلى كونِ القعودِ لا يقضى فرضَ الله في الجهاد ، ولا يرعى به حقُّ الله في العباد ؛ ولا يوفى به واجبُ التقليدِ الذى تطوَّقه الخادمُ من أئمةٍ قضوا بالحقِّ وبه كانوا يعدلون ، وخلفاءُ الله كانوا في مثل هذا اليومَ لله يسألون ؛ لأجرمَ أنهم أوثوا سرهم وسريرهم خلفهم الأطهر ، ونجلهم الأكبر ؛ وبقيتهم الشريفه ، وطلعتهم المُنيفه ، وعنوانَ صحيفه فضلهم لا عدمِ سوادِ العليمِ وبياضِ الصحيفه ؛ فما غابوا

(١) كذا فيما تقدم أيضاً (ج ٦ ص ٤٩٧) وفي رفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) "عند حسان الجين" .

(٢) الزيادة عن رفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمَّا حَضَرَ، وَلَا غُضُّوا لَمَّا نَظَرَ؛ بِلِ وَصَلَّهُمُ الْأَجْرِمَا كَانَ بِهِ مَوْصُولًا، وَشَاطِرُوهُ
 الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ عَنْهُ مَنَقُولًا وَمِنْهُ مَقْبُولًا؛ وَخَلَصَ إِلَيْهِمْ إِلَى الْمُضَاجِعِ مَا أَطْمَأَنَّتْ بِهِ
 جُنُوبُهَا، وَإِلَى الصَّحَائِفِ مَا عَبَّقَتْ بِهِ جُيُوبُهَا؛ وَفَازَ مِنْهَا بِذِكْرِ لَا يَزَالُ اللَّيْلُ بِهِ سَمِيرًا،
 وَالنَّهَارُ بِهِ بَصِيرًا؛ وَالشَّرْقُ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِ، بِلِ إِنْ أَبَدَى نُورًا مِنْ ذَاتِهِ هَتَفَ بِهِ الْغَرْبُ
 بَانَ وَارِهِ؛ فَإِنَّهُ نُورٌ لَا تُكِنُّهُ أَغْشَاقُ السُّدُفِ، وَذِكْرُ لَا تُوَارِيهِ أَوْرَاقُ الصُّحُفِ .

وَكِتَابِ الْخَلَادِمِ هَذَا، وَقَدْ أَظْفَرَ اللَّهُ بِالْعَدُوِّ الَّذِي تَشَطَّتْ قَنَاتُهُ شَقَقًا، وَطَارَتْ
 فِرْقُهُ فَرَقًا؛ وَفَلَّ سَيْفُهُ فَصَارَ عَصَا، وَصُدِعَتْ حَصَاةُهَا وَكَانَ الْأَكْثَرُ عَدَدًا وَاحِصًا؛
 وَكَلَّتْ حَمَلَاتُهُ وَكَانَتْ قُدْرَةُ اللَّهِ تُصَرِّفُ فِيهِ الْعِيَانَ بِالْعِيَانِ، عُقُوبَةٌ مِنْ اللَّهِ لَيْسَ
 لِصَاحِبِ يَدَيْهَا يَدَانِ؛ وَعَثَرَتْ قَدَمُهُ وَكَانَتْ الْأَرْضُ لَهَا حَلِيفَةً، وَغَضِبَتْ عَيْنُهُ
 وَكَانَتْ [عُيُونٌ] السُّيُوفِ دُونَهَا كَسِيفَهُ؛ وَنَامَ جَفْنُ سَيْفِهِ وَكَانَتْ يَقِظَتُهُ تُرِيْقُ نَظْفَ
 الْكَرَى مِنَ الْجُفُونِ، وَجُدِعَتْ أُنُوفُ رِمَاحِهِ وَطَلَمًا كَانَتْ شَاخِجَةً بِالْمُنَى أَوْ رَاعِقَةً
 بِالْمُنُونِ؛ وَأُصْحَبَتِ الْأَرْضُ الْمُقَدَّسَةَ الطَّاهِرَةَ وَكَانَتْ الطَّامِثِ، وَالرَّبُّ الْمَعْبُودُ الْوَاحِدَ
 وَكَانَ عِنْدَهُمُ الثَّلَاثُ؛ فَيُؤْتِ الشَّرْكَ مَهْدُومَهُ [وَيُؤَبُّ الْكُفْرَ مَهْتُومَهُ] وَطَوَائِفَهُ ^(٢)
 الْمُحَامِيَةَ، مُجْتَمِعَةً عَلَى تَسْلِيمِ الْبِلَادِ الْحَامِيَةِ، وَشُجْعَانِهِ الْمُتَوَافِيَةِ، مُدْعِنَةً لِبَدَلِ الْمَطَامِعِ
 الْوَافِيَةِ؛ لَا يَرَوْنَ فِي مَاءِ الْحَدِيدِ لَهْمَ عُسْرِهِ، وَلَا فِي فِنَاءِ الْأَفْنِيَةِ لَهْمَ نُصْرِهِ؛ وَقَدْ ضُرِبَتْ
 عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ، وَبَدَّلَ اللَّهُ مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ؛ وَنَقَلَ بَيْتَ عِبَادَتِهِ مِنْ أَيْدِي
 أَصْحَابِ الْمَشَامَةِ إِلَى أَيْدِي أَصْحَابِ الْمَيْمَنَةِ .

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٣) في وفيات الأعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الأولى فأمدّه الله بمداركه، وأُنجده بملائكته، فكسرهم كسرةً مابعدها جبر، وصرعهم صرعةً لا يتعش بعدها بمشيئة الله كُفر، وأسر منهم من أسرت به السلاسل، وقتل منهم من فتكت به المناصل، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح [والكفار، وعن أنصاف محيل فإنه قتلهم بالسيوف الأفلاق والرماح الأكسار، فيلوا بنارٍ من السلاح ونالوه أيضا بنار] ^(١) فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها حتى صارت كالعراجين، وكم أنجم أسنة تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين؛ وكم فارسية ركض عليها فارسها الشهم إلى أجل فأختلسه، وفغرت تلك القوس فأها فإذا فوها قد نهش القرن على بُعد المسافة فأترسه، وكان اليوم مشهودا، وكانت الملائكة شهودا؛ وكان الكفر مفقودا والإسلام مولودا، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا؛ وأسر الملك وبيده أوثق وثاقه، وأكد وصله بالدين وعلاقته؛ وهو صليب الصلوت، وقائد أهل الجبروت؛ وما دهموا قط بأمرٍ إلا وقام بين دهماهم ينسط لهم بآعه، ويحرضهم وكان مدّ اليدين في هذه الدفعة ودأعه؛ لاجرم أنهم يهافت على ناره فرأشهم، ويجمع في ظل ظلامه خشائهم؛ ويقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدق، ويرونه ميثاقا ينون عليه أشد عقد وأوثق، ويعدون سورا تحفر حوافر الخيل خندقه .

وفي هذا اليوم أسرت سرانهم، وذهبت دهاهم [ولم يقلت منهم معروف إلا القومص، وكان لعنه الله مليا يوم الظفر بالقتال، ومليا يوم الخلدان] ^(٢) بالأحتيال؛ فنجأ ولكن كيف، وطار خوفاً من أن يلحقه منسر الرمح أو جناح السيف؛

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل .

(٢) في وفيات الأعيان وفي رسائل القاضي الفاضل الفتوغرافية "قماً" .

(٣) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذَه اللهُ تعالى بعد أيام بيده، وأهلكه لموعده؛ فكان لعديتهم فذلك، وانتقل من ملك الموت إلى مالك .

وبعد الكسرة مر الخادم على البلاد فطواها بما نشر عليها من الرؤية العباسية السوداء صبغا، البيضاء صنعا؛ الخافقة هي وقلوب أعدائها، الغالبة هي [وعزائم أوليائها] ^(١) المستضاء بانوارها إذا فتح عينها البشر، وأشارت بأنامل العذبات إلى وجه النصر؛ فافتتح بلد كذا وكذا وهذه [كلها] ^(١) أمصار ومدن، وقد تسمى البلاد بلادا وهي مزارع وفدن؛ وكل هذه ذوات معاقل ومعاقر، وبحار وجزائر، وجوامع ومنائر، وجموع وعساكر؛ يتجاوزها الخادم بعد أن يحرزها، ويتركها وراءه بعد أن ينتهزها؛ ويحصده منها كفرا ويزرع إيمانا، ويحط من منائر جوامعها صلبانا ويرفع آذانا؛ ويبدل المذابح منائر والكائس مساجد، ويؤى بعد أهل الصلبان أهل القرآن للدب عن دين الله مقاعد . ويقر عينه ويعيون أهل الإسلام أن تعلق النصر منه ومن عسكره بحار ومجورور، وأن ظفر بكل سور ما كان يخاف زلزاله وزياله إلى يوم النسخ في الصور . ولما لم يبق إلا القدس وقد اجتمع إليها كل شريد منهم وطريد، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد؛ وظنوا أنها من الله ما نعتهم، وأن كنيستها إلى الله شافعتهم؛ فلما نازها الخادم رأى بلدا كبلاد، وجمعا كيوم التناد؛ وعزائم قد تألبت وتألفت على الموت فزلت بعرضته، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بغصته؛ فراول البلد من جانب فإذا أودية عميقة، ولحج وعرة غريقة؛ وسور قد انعطف عطف السوار، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار؛ فعدل إلى جهة أخرى

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لما الأولى مفهوم من المقام . أنظر ما كتبه عند الكلام على هذه الرسالة فيما تقدم

كان للطامع عليها مُعْرَجٌ، ولخَيْلٍ فيها مُتَوَجِّحٌ؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقرب منها؛
 وضرب خيمته بحيث يناله السّلاح بأطرافه، ويُرَاحمه السُّور بأكفاه؛ وقابلها
 ثم قاتلها، ونزلها ثم نازلها، وبرز إليها ثم بارزها، وحاجرها ثم ناجرها؛ فضمها صمّةً
 أرقتب بعدها الفتح، وصدع أهلها فإذا هم لا يبصرون - على عبودية الخلد - عن عتيق
 الصّبح؛ فراسلوه ببذل قطيعة إلى مدّه، وقصدوا نظرة من شدّة وانتظاراً لنجده؛
 فعرفهم الخلد في لحن القول، وأجابهم بلسان الطول؛ وقدم المنجنيقات التي تتولى
 عقوبات الحصون عصيها وحبالها، وأوترهم قسيها التي تضرب فلا تُفارقها سهامها
 ولا يفارق سهامها نصالها؛ فصاحت السُّور بأكفاه فإذا سهمها في شأيا شرفاتها سواك،
 وقدم النّصر نسرًا من المنجنيق يُخلد إخلاده إلى الأرض ويعلو علوه إلى السماء؛
 فشجّ مرادع أبراجها، وأسمع صوت عجيجها [صمّ أعلاجها] ^(١) ورفع منار عجاجها؛ فأخلى
 السُّور من السيّارة، والحرب من النّظاره؛ فأمكن النّقاب، أن يسفر للحرب النّقاب،
 وأن يعيد الحجر إلى سيرته [الأولى] ^(١) من التراب؛ فتقدم إلى الصّخر فضع سرده
 بأنياب معوله، وحلّ عقده بضربه الأخرق الدالّ على لطفة أمّله، وأسمع الصّخرة
 الشريفة حنينه وأستغاثته إلى أن كادت ترق لمقبله؛ وتبرأ بعض الحجارة من
 بعض، وأخذ الحراب عليها مومّقا فلن تبرح الأرض، وفتح في السُّور بابا سدّ من
 نجاتهم أبوابا، وأخذ يتقب في حجره فقال عنده الكافر: (يَالَيْتِي كُنْتُ تَرَابًا) فينثذ
 يئس الكفار من أصحاب الدور، كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وجاء أمر الله
 وغرهم بالله الغرور.

وفي الحال خرج طاغية كفرهم، وزمأم أمرهم؛ ابن بارزان سائلا أن يؤخذ
 البلد بالسلام لا بالعنوة، وبالأمان لا بالسّطوة؛ وألقى بيده إلى التهلكة، وعلاه ذلّ

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان.

الْمَلَكَةِ بعد عِزِّ الْمَلِكَةِ، وطرح جَبِينَهُ في التراب وكان جَبِينًا لَا يَتَعَاظَاهُ طَارِحٌ، وبذل مَبَلَةً من القطيعة لَا يَطْمَحُ إِلَيْهِ طَرْفٌ أَمِيلٌ طَامِحٌ، وقال : هَاهُنَا أُسَارَى مُؤْمِنُونَ يتجاوزون الألوفَ ، وقد تعاقد الفَرَنْجُ على أَنَّهُمْ إِنْ هُجِمَتْ عَلَيْهِم الدارُ ، وَحَلَّتْ الحَرْبُ على ظهورهم الأوزارِ؛ بَدَى بِهِمْ فَعَجَلُوا، وَثِيَّ بِنِسَاءِ الفَرَنْجِ وَأَطْفَالِهِمْ فَقَتَلُوا؛ ثم آسَفْتُوا بعد ذلك فلم يُقْتَلْ خَصْمٌ إِلَّا بعد أن يَنْتَصِفَ ، ولم يُسَلِّ سَيْفٌ من يَدِ إِلَّا بعد أن تَقْطِعَ أَوْ يَنْقِصِفَ؛ وَأشار الأُمراءُ بالأخذ بالميسورِ، من البَلَدِ المأسورِ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أُخِذَ حَرْبًا فَلَا بُدَّ أَنْ تَقْتَحِمَ الرِّجَالُ الأَبْجَادَ، وَتَبْدُلَ أَنْفُسَهَا في آخِرِ أَمْرِ قَدْ نَبِيلٍ من أولِهِ المُرادِ؛ وكانت الحِرَاحُ في العساكرِ قد تقدمت منها ما أَعْتَقَلَ الفَتَكَاتِ ، وَأَعْتَقَ الحَرَكَاتِ؛ فُقِبِلَ مِنْهُم المَبْدُولُ عن يَدِ وَهْمِ صَاغِرُونَ، وَأَنْصَرَفَ أَهْلُ الحَرْبِ عن قُدْرَةٍ وَهْمِ ظَاهِرُونَ؛ وَمَلَكَ الإِسْلَامُ خِطَّةً كان عَهْدُهُ بها دِمْنَةً سُكَّانَ، فقدمها الكُفْرُ إلى أن صارت رَوْضَةَ جِنَانٍ؛ لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ أخرجهم منها وأهبطهم ، وأرضى أَهْلَ الحَقِّ وأَسْخَطَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ خَدَّعَهُمُ اللهُ حَمَوهَا بِالْأَسْلِ وَالصَّفَاحِ [وَبَنَوَهَا بِالْعَمَدِ وَالصَّفَاحِ] وَأودعوا الكائِنَاتِ بِها وبيوتِ الدُّيُوبِ والأَسْتَبَارِيَةِ مِنْهَا كُلَّ غَرِيبَةٍ من الرُّخَامِ الذي يَطْرُدُ ماؤُهُ، وَلَا يُطْرِدُ لِأَلَاؤِهِ؛ قَدْ لَطَّفَ الحَديدُ في تَجْزِيعِهِ، وَتَفَنَّنَ في تَوْشِيْعِهِ؛ إلى أن صار الحَديدُ، الذي فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ، كَالذَّهَبِ الذي فِيهِ نَعِيمٌ عَنِيدٌ؛ فَمَا تَرَى إِلَّا مَقَاعِدَ كَالرِّيَاضِ لَهَا من بِيَاضِ التَّرْخِيمِ رَقْرَاقٍ، [وَعَمَدًا كالأَشْجَارِ لَهَا مِنَ التَّنْيِيتِ أَوْرَاقٍ] .

(١) في وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٨) ورسائل القاضي الفاضل "يفك" .

(٢) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ووفيات الأعيان وأنظر ما تقدم من هذا المطبوع

(ج ٦ ص ٥٠٣) .

(٣) في الأصل "كالأسمار" وفي رسائل القاضي الفاضل "للرياض" والتصحيح من وفيات الأعيان .

(٤) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ووفيات الأعيان .

وأوعز الخادم برد الأقصى إلى عهده المعهود، وأقام له من الأئمة من يوفيه ورده المورود؛ وأقيمت الخطبة يوم الجمعة رابع شهر شعبان فكادت السموات تتفطرن للسجود لا للوجوم، والكواكب [منها] ينتثرن للطرب للالرجوم؛ ورُفعت إلى الله كلمة التوحيد وكانت طرائقها مسدوده، وظهرت قبور الأنبياء وكانت بالنجاسات مكدوده؛ وأقيمت الخمس وكان التثليث يُقعدُها [وجهرت الألسن بالله أكبر وكان سحر الكفر يعقدها] ^(١) وجهر باسم أمير المؤمنين في وطنه الأشرف من المنبر، فرحب به ترحيب من بر بمن بر، وحقق علماه في حقايقه، فلو طار به سرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مجد في أستفتاح بقية الثغور، وأستشراح ماضق بتمادي الحرب من الصدور؛ فإن قوى العساكر قد أستنفدت مواردُها [وأيام الشتاء قد مردت مواردُها] ^(١) والبلاد المأخوذة المشار إليها قد جاست العساكر خلالها، ونهبت ذخائرُها وأكلت غلالها؛ فهي بلاد ترفد ولا تسترفد، وتجم ولا تستنفد؛ وينفق عليها، ولا ينفق منها؛ وتجهز الأساطيل لبحرها، وتقام المرائب لبرها، ويداب في عمارة أسوارها، ومرمات معاقليها؛ وكل مشقة فهي بالإضافة إلى نعمة الفتح محتملة، وأطاع الفرنج فيما بعد ذلك مذهبها غير مرجئة ولا معتزلة؛ فلن يدعوا دعوة يرجو الخادم من الله أنها لأسمع، ولن تزول أيديهم من أطواق البلاد حتى تقطع . ^(٢)

وهذه البشائر لها تفاصيل لا تكاد من غير الألسنة تشخص، ولا بما سوى المشافهة تتلخص؛ فلذلك نفذنا لسانا شارحا، ومبشرا صابا؛ ينشر الخبر على سياقته، ويعرض جيش المسرة من طليعته إلى ساقته .

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضى الفاضل "ولن يفكوا" .

قلتُ : وقد وَقَفْتُ على نسخة كُتِبَ به عن المُكْتَفَى بالله، عند ما بعث محمد بن سليمان الكاتب إلى الديار المصرية، فانترعها من يد بني طولون وأستولى عليها للخليفة، في نحو كُرَّاسِيَّة، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين، أوها : أما بعدُ فالحمد لله العليُّ الكبير، العزيز القدير؛ أَضْرَبْتُ عن ذكرها الطولها .

الصنف الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان في الهزيمة)

قال في "مواد البيان" : من أخلاق العامة تقبيحُ سيرة السلطان إذا زلَّ في بعض آرائه ، والإزرأءُ على تديره في جيشٍ يُجهزه فيُكسر، ونحو ذلك : مما لا يسلم من مثله ، والإفاضة فيه والتشنيع به . فيحتاج إلى مكاتبتهم بما يتلافى الوهنَ وقيم العُذر، كما يكاتبهم بتفخيم المنح، وتعظيم التُّوحات، والتحدُّث بمواقع المواهب . وشكرالله تعالى على إسباغ النعم ، والإظفار بأعداء الدين والدولة : ليقوى بذلك مُنتهم، ويُرهِف بصائرهم ويستخلص طاعتهم، ويملاً صدورهم رهبة . قال : وليست لهذه الكُتب رسومٌ ينتظم كلُّ ما وقع فيها : لاختلاف ما يلام فيه ويعتذر .

ثم قال : ونحن نرمم في أصوله قولاً وجيزاً : وهو أن يقتضب الكاتب له المعاذير التي تُحسن أحوالته ، وتستزلفه ، والمُجج التي تُعيد الأثم عاذراً ، والدَّام شاكراً ؛ وتوجبُ التقرير من حيث يجب التأنيب، والإحماد من حيث يستحقُّ التذنيب . مثل أن يعتذر عن هزيمة جيش، فيقول : وقد علمت أن الحرب سيجال ، والدنيا دُول تدال ؛ وقد تهب رِيحُ النصر للقاسطين على المُقسطين أمتحاناً من الله وبلوى،

لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى - من غير أن يصرح
بباطل، ولا يطلق كذبا محضاً ، ولا يخلق زوراً يعلم الناس خلافه ، فتضاعف
الهجنة، وتكاثف المحنة ؛ فإنه لا شيء أقبح على السلطان ، وأقدح في جلالة الشان ؛
من أن يعثر في كتبه على إفاك قد يعلمه بعض من يقف عليه ؛ بل ينبغي أن يعتمد
في ذلك حسن التخلص والتورية عن الغرض ، وأستعمال الألفاظ التي تدل على
أطراف الحال ولا تفسح بحقائقها .

وهذه نسخة كتاب من ذلك .

الحمد لله الذى ساس الأمور بحكمته ، وأبان فيها مواقع قدرته ؛ وسلك فيها
طريق مشيئته ، وصرفها على ما رآه عدلاً بين العباد فى أقسام نعمته ومحنته ، وأحوال
بلوآه وعافيته ؛ وجعل الأيام فيهم نوباً ، والأحوال بينهم عقبا ؛ فخص أوليائه وأهل
طاعته بالنصر فى المحاكمه ؛ والصالح عند المخاصمه ؛ والظهور على من شاقهم وعاداهم ،
والقهر لمن ضادهم ونأواهم ؛ إنجازا لما وعد به الصابرين المحسنين ، وإعزازا للدين
وأنصاره من المؤمنين ؛ ولم يحل أعداءه من دولة أداها لهم ، وجولة على الحق زادا
فى طغيانهم ؛ ووصل الإملاء لهم فيها بخذلانهم : ليجب الثواب للحسنين ، ويحق
العذاب على الكافرين . فقال فى محكم كتابه - وقد ظهر المشركون على المسلمين -
(**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**) .
وقال : (**لِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَحْقُقَ الْكَافِرِينَ**) وناب بين الفريقين
فى المصائب ، والمواهب ؛ والمسائر ، والمضائر ؛ ليشفى الله صدور المؤمنين ، وليمحص
مافى قلوبهم ؛ ويوجب لهم إخلاص السرائر فى طاعته ، والجهاد فى سبيله ، والنصرة

لرسوله ، والمرامة عن دينه ، والمدافعة عن حريمه ؛ ضِعْفَ الثَّوَابِ وَحُسْنَ الْمَأْتِ ،
وَيُحِلُّ بِالْمُشْرِكِينَ مَا أَعَدَّ لَهُمْ فِي دَارِ الْجَزَاءِ مِنَ أَلِيمِ الْعَذَابِ .

وإذا كان الحال بين الفريقين المتلاقيين ، والفئتين المتجاورتين ، والحزبين
المتحاربين ؛ في تعاور الغلبة ، وتعاقب الدولة ؛ جازيا على تقدير الله ومتصرفا على حكمه ،
ومستوسقا على ماسبق في علمه ؛ فليس يُعْنَى في ذلك زيادة عدد ، ولا اتصال مدد ؛
ولا قوة أيد ، ولا لطف كيد ؛ ولا اختيار وقت محمود للقتال ، ولا الأتخاب لأهل
البسالة والنجدة من الرجال ؛ ولا يجب أن يستريث النصر من أبطأ عنه ، ويستشعر
الجزع من نال خصمه منه ؛ بعد تحصيله السلامة في نفسه ، وقِيَامِ العُدْلِهِ بعنايته
وجده ؛ وقد جمع الله للأمر من المناقب - التي ورثها عن آبائه ، وحازها في صدره ؛
والحيازة فيما بان من فضل بأسه ، وثبات جأشه ؛ وأصالة رأيه ، وصحة تدييره ؛ وإيفائه
الحرب شروطها ، والمهيجاء حقوقها : من الخزم والثؤدة ، والإقدام عند الفرصه ؛
والإصابة في التقدير والتعبير ، والأحباط في سدّ مواقع الخلل والعوره ، وإعمال
النظر والرؤية ؛ لولا اعتراض القضاء الذي هو مالك نواصي العباد ، وغير مدفوع
بمحال ولا جلاذ ، ولا قوة ولا عدة ولا عتاد - ما أوفى حسنه على مزينة الظفر ،
وزاد عظمه في السناء والخطر ؛ إلى ما شمل عسكره في منقلبه بمراعاته لهم ، ومدافعتهم
من ورائهم ؛ حتى توافى الجمع موفورين ، وأبوا سالمين غانمين ؛ وبالله الحول والقوة
وعليه صمآن الإدالة على ما جرى به وعده الصادق ، وأخبر عنه كتابه الناطق ؛ وهو
حسب أمير المؤمنين وكافيه ، وناصره وواليه ، ونعم الوكيل والظهير ، والمولى
والنصير ؛ وصلّى الله على سيدنا محمد سيّد المرسلين ، وإمام المتقين ، وآله الطيبين
أجمعين ؛ وسلّم تسليما .



وفي مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جلّ جلاله جاريةٌ على سُبُلِ جامعةٍ لوجوه الحكمة ، منتظمةٍ لأسباب
 الصلاح والمعدلة . فمنها ما عرّف الله أوليائه والمندوبين بطاعته ، والمجموعين
 بهدأيته ؛ طريق المراد منه ، وسبب الداعي إليه ؛ والعلة فيما قضى من ذلك لحينه ،
 والصورة المقتضية له . ومنها ما استأثر بعلمه ، وطوى عن الخلق معرفة حاله ؛ فهو
 - وإن أشكل عليهم موضع الحاجة إليه ، وموقع العائدة به ؛ ورؤى بهم اضطراباً
 في ظاهره عند تأملهم إياه بمقادير عقولهم ، ومبالغ أفهامهم - مبني على أوثق أساس
 الحكمة ، وأثبت أركان الصواب على الجملة ؛ وكيف لا يكون كذلك ؟ والله خالق
 الأشياء كلها ، وعالم بها قبل كونها ؛ في أحوال تكوينه إياها وبعده في متزغ غاياتها
 ومقضى عواقبها ؛ فليس تخفى عليه خافية ، ولا تعزب عنه دانية ولا قاصية ؛ ولا يسقط
 عن معرفته فضل ما بين الخاطرين والوهمين في الخير والشر ، وما بين الجبلين والدرين
 في الوفور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ؛ ويخبر فيه عن موضع التدبير ، المحتاج
 فيه إلى إحكام الصنعة وإتقان التقدير ؛ ومن ظن أن شيئاً من ذلك يخرج عن نهج
 الصواب ، ويخالف طريق الصلاح ؛ فقد ضلّ من حيث ضلّ ، وغلط من
 حيث غلط ؛ واتّصل سوء ظنه ، وفساد فكره ؛ بالزراية على فعل ربه ، تعالى عن
 قول المبطلين ، ورجم الشياطين .

ثم إن الله جلّ جلاله عادة في الحيشين المتحارين ، والحزبين المتحاكين : من
 عباده المؤمنين ، وأضدادهم المفسدين الملحدين ؛ في المداولة بينهما ، والمعاقبة
 بين الفئتين منهما ؛ في العجز والظهور ، والوفاء والقصور ؛ والمعاقبة والامتحان ،

والتَّصَرُّفَ وَالْحِدْلَانَ ؛ والإِعْلَاءَ لِرَأْيَةِ الْحَقِّ فِي حَالِ ، وَالإِمْلَاءَ لِلْبَاطِلِ فِي أُخْرَى ؛
 بِتَضْمِينِ الْخَيْرَةِ لِأَوْلِيَائِهِ ، وَالدَّائِرَةَ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ عَاجِلًا بِالتَّمَحِيصِ لَهُؤُلَاءِ ،
 وَبِالْحَقِّ لِأَوْلِيكِ ؛ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِمْ مِنْ مُصِيبَتِهِ ، وَيُنُوبُهُمْ فِي حَاضِرِ الدُّنْيَا مِنْ رَغْبَتِهِ ؛
 وَيُجِلُّ الْعَادِينَ مِنَ الْمَشْرُوكِينَ دَارَ الْفَاسِقِينَ ، وَيَجْعَلُ الْعَاقِبَةَ لِلتَّقِيْنَ ^(١) ؛ وَمَنْ سَعَدَ
 بِقِسْمٍ مِنَ التَّوْفِيقِ ، وَحَظَّ مِنْ فَائِدَةِ الْإِرْشَادِ ؛ فَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ بَرِيادَةَ
 أَنْصَارٍ وَعُدَّةٍ ، وَفَضْلَ عِتَادٍ وَعُدَّةٍ ؛ وَبَسَالَةَ وَنَجْدَةٍ ، وَأَيْدٍ وَقُوَّةٍ ، وَسَعَةَ وَبَسْطَةَ ؛
 وَلَا يَعْدُو أَنْ يُسَلَّمَ لِلَّهِ تَعَالَى قَاضِيًا لَهُ وَعَلَيْهِ ، وَيُوفَى بِإِحْدَى الْحُسَيْنِيِّينَ مِنْ عُدُوِّهِ ،
 أَوْ غَلَبَةِ عُدُوِّهِ ، أَوْ يَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ؛ وَهُوَ حَسْبُهُ مُنْعَمًا ، وَمُتَحَنِّنًا وَمُعَافِيًا وَمُسَلِّمًا ؛
 وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل بين الكُتَّابِ ، دائر
 فِي مُصْطَلَحَاتِهِمْ إِلَى الْآنَ . وَالشَّيْخُ شَهَابُ الدِّينِ مُحَمَّدُ الْحَلَبِيُّ فِي ذَلِكَ تَفَنُّنَاتٌ
 كَثِيرَةٌ ، أورد بعضها فِي كِتَابِهِ "حُسْنُ التَّوَسُّلِ" .

فمن ذلك ما أنشأه فيمن هزيم هو وجيشه ، يتضمن إقامة عُدْرِهِ ، وَوَصْفَ اجْتِهَادِهِ ؛
 وَيُحِثُّ عَلَى مَعَاوَدَةِ عُدُوِّهِ ، وَالطَّلَبِ بِنَارِهِ ؛ وَهُوَ :

هذه المكتابة إلى فلان : لِأَزَالِ مَأْمُونَ الْغُرَّةِ ، مَأْمُولِ الْكَرْهِ ، مُجْتَنِيًا حُلُوقَ الظَّفَرِ
 مِنْ أَكْثَامِ تِلْكَ الْمَرَّةِ الْمُرَّةِ ؛ رَاجِيًا مِنْ عَوَاقِبِ الصَّبْرِ أَنْ يُسْفِرَ لَهُ مَسَاءُ تِلْكَ الْمَسَاءَةِ
 عَنْ صُبْحِ الْمَسْرَةِ ، وَاتِّقَا مِنْ عَوَائِدِ نَصْرِ اللَّهِ بِإِعَادَتِهِ وَمِنْ مَعَهُ فِي [الْقُوَّةِ] ^(٢) وَ[الْأَسْتَظْهَارِ
 كَمَا بَدَأَهُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .

(١) بياض في الأصل ولعله "فليس أنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد اتصل بنا نبأ ذلك المقام الذى أوصحت فيه السيوف عُذرها ،
 وأبدت به الكفاة صبرها ؛ وأظهرت فيه الحماة من الوثبات والثبات ما يجب عليها ،
 وبذلت فيه الأبطال من الحلال جُهدَها ولكن لم يكن الظفر إليها ؛ وكان عليهم
 الإقدام على عمرات المنون ، والأصطلاء بجرات الحرب الزبون ، ولم يكن عليهم
 إتمام ما قدر أنه لا يكون ؛ فكارت رقاب الأعداء فى ذلك الموقف السيوف ، وكثرت
 أعدادهم الختوف ، وتدققت بحارهم على جداول من معه ولولا حكم القدر لانتصفت
 تلك الآحاد من تلك الألوف ؛ فضاقت بأزدحام الصفوف على رجاله المجال ، وزاد
 العدد على الجلد فلم يُقد له الإقدام على الأوجال مع قدوم الآجال ؛ وأملى للكافرين
 بما قدر لهم من الإنظار ، وحصل لهم من الاستظهار ، وعوضوا بما لم يعرفوه من الإقدام
 عما ألفوه من الفرار . ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾
 وقد ورد أنهم ينصرون كما تنصر ، وإذا كانت الحروب سجالاً فلا ينسب إلى من
 كانت عليه [وبالآ] إذا اجتهد ولم يساعده القدر أنه قصر . مع أنه قد أشتهر بما فعله
 فى مجاله ، من اللدب عن رجاله ؛ وما أبداه فى قتاله ، من الضرب الذى ما تروى
 فيه خصمه إلا بדרه بارتجاله ؛ وأن الرماح التى امتدت إليه أحرس سيفه السنة
 أسنتها ، والحياذ التى أقدمت عليه جعل طعنة أكفأها مكان أعنتها ؛ فأثبت
 فى مستنقع الموت رجله ، ووقف وما فى الموت شك لواقف ليحصى خيله ورجله ؛
 حتى تحيز أصحابه إلى فئة مأمئهم ، وأقام نفسه دونهم دريئة لمن بدر من سرعان القوم
 أو ظهر من مكئهم ؛ وهذا هو الموقف الذى قام له مقام النصر ، إذ فاتته النصراء
 وفاته النصر ؛ والمقام الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أذن العدد وفقد

فيه من أعدائه مع ظهورهم أَوْفَ لا يدركهم الحَصْرُ؛ [وكذا فليكن قَلْبُ] الجيش
 كالقَلْبِ يَقْوَى بِقُوَّتِهِ الجَسَدَ، وإذا حَقَّ اللِّقَاءُ فلا يَفِرُّ عن كَنَاسِهِ إلا الطَّبِيُّ ولا يَتَجَمَّى
 [عَرِينَهُ] إلا الأَسَدُ؛ وما بَقِيَ إلا أن تَعْفُو الكُؤُومَ، وَتُؤَبِّبَ الحُلُومَ؛ وَتَسَدِمَلَ
 الحِرَاحَ، وَتَبْرَأَ من فُلُولِ المَضَارِبِ صُدُورُ الصِّفَاحِ؛ وَتَهَضَّ لاقْتِضَاءِ دَيْنِ الدِّينِ،
 من غُرَمَائِهِ المُعْتَدِينَ؛ وَتَبَادِرَ إلى آسْتِنَاجِازِ وَعَدِ اللهُ بِأن اللهُ يُمَحِّصُ المُؤْمِنِينَ، وَيُحَقِّقُ
 الكَافِرِينَ؛ وَاللَّيْثُ إِذَا جُرِحَ كَانَ أَشَدَّ لثَبَاتِهِ، وَأَمَدَّ لَوَثْبَاتِهِ؛ وَالْمَوْتُورُ لَا يُصْطَلَى
 بِنَارِهِ، وَالتَّائِرُ لَا يَرَهَبُ الإِقْدَامَ عَلَى المُنُونِ فِي طَلَبِ نَارِهِ؛ وَالدَّهْرُ ذُو دُوَلٍ، وَالزَّمَانُ
 مُتَلَوِّنٌ إِنْ دَجَّتْ عَلَيْكُمْ مِنْهُ بِالقَهْرِ لَيْلَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَدْ أَشْرَقَتْ لَكُمْ مِنْهُ بِالنَّصْرِ لَيْالٍ
 أَوَّلٌ، فَالْمَوْلَى لَا يَلْتَفِتُ إِلَى مَافَاتٍ، وَيُقْبَلُ بِفِكْرِهِ عَلَى تَدْيِيرِ مَا هُوَ آتٍ؛ وَيُعَدُّ
 لِلْحَرْبِ عُدَّتَهُ، وَيَعْجَلُ أَمَدَ الأَسْتِظْهَارِ وَمُدَّتَهُ؛ وَلَا يُؤَخِّرُ فُرْصَةَ الإِمْكَانِ، وَلَا يَعِيدُ
 ذِكْرَ مَاضِيٍّ فَإِنَّهُ دَخَلَ فِي خَبَرِ كَانٍ؛ وَلَا يُظْهِرُ بِمَا جَرَى عَجْزًا^(٢)، فَإِنْ العَاجِزُ مَنْ ظَنَّ
 أَنَّهُ يُصِيبُ وَلَا يُصَابُ، وَلَا يَتَّخِذُ غَيْرَ ظَهْرِ حِصَانِهِ حِصْنًا فَلَا حِرْزَ أَمْنٍ مِنْ صَهْوَةِ
 الجَوَادِ وَلَا سَلْمَ أَسْلَمٍ مِنَ الرِّكَابِ؛ وَلَيَعْلَمُ أَنَّ العَاقِبَةَ لِلتَّقِيينَ، وَيَدْرَعُ جُنَّةَ الصَّبْرِ
 لِيَكُونَ مِنَ النَّصْرِ عَلَى تِقَةٍ وَمِنَ الظَّفَرِ عَلَى يَقِينٍ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ؛ وَمَنْ كَانَ اللهُ
 مَعَهُ كَانَتْ يَدُهُ الطُّوْلَى، وَإِذَا لَقِيَ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّهُ فَلْيَصْبِرْ لِحِمْلَتِهِ فَإِنَّ الصَّبْرَ عِنْدَ الصَّدْمَةِ
 الأَوَّلَى؛ وَاللهُ تَعَالَى يَكْلُوهُ بَعِينُهُ، وَيُمِدُّهُ بَعُونُهُ، وَيَجْعَلُ الظَّفَرَ بَعْدُوهُ مَوْقُوفًا عَلَى
 مَطَالِبَتِهِ لَهُ بِدِينِهِ .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ماجرى الخ .



ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، ويصِفُ الأحنفَ
بأخذ الثَّارِ .

هذه المكتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه
عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصِّفاح والسنة الرِّمَّاحِ سره ، وأراه
من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كُسوف الشمس لا ينال طلعتها وان
سِرَّار القمر لا يضره . توخَّع لعلمه أنه ربما اتَّصل به خبر تلك الواقعة التي صدقنا فيها
اللِّقاء ، وصدَّمتنا العدو صدمةً من لا يُجِبُّ البقاء ؛ وأريناه حرباً لو أعانها التأيُّدُ فَلََّتْ
بُجوعه ، وأذقناه ضرباً لو أن حُكْمَ النَّصر فيه إلى النَّصْلِ أوجده مصارعه وأعدمه
رُجوعه . وحين شرعت رياح النَّصْر تهب ، وسحابُ الدماء من مقاتلهم تصوبُ
وتصبُ ؛ وكرعت الصِّفاح في موارد نُجورهم ، وكشفت الرِّمَّاحُ خبايا صدورهم ؛
وما بقى إلا أن نستجِلَّ سيوفنا الرِّى من دمائهم ، وتقفُ صُفوفنا على ربواتِ أشلائهم ؛
وتقبضُ بالكفِّ من صفحت الصِّفاح عن دمه ، وتكفُّ بالقبض يد من ألبسته
الجراحُ حُلَّةً عندهم ؛ - أظهروا الخرع في عزائهم ، وحكموا الطَّمَع في غنائهم ؛ فحصل
لجندنا نُجْبٌ أعجل سيوفنا أن تُمَّ هدم بنائهم ، وطمَعٌ منع جيوشنا أن تُكفِّ عن
النَّهب إلى أن تصير من ورائهم ؛ فاغتنم العدو تلك الغفلة التي ساقها المهلكان ، العُجْبُ
والطَّمَع ، وآتتهز فُرصة الإمكان ، التي أعانها عليها [المطمعان] إبداء الهلَع ، وتحلية ما جمع ،

(١) كذا في حسن التوسل وفي الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن « الغفوة » .

(٢) في حسن التوسل "فرصة" "الكرة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جمعنا] ^(١) بعض ذلك العقيد المنظم ، وانتفض من حزينا ركن ذلك الصف الذي أخذ فيه الزحام بالكظم ؛ وثبت الخادم في طائفة من ذوي القوة في يقينهم ، وأرباب البصائر في دينهم ، فكسرتنا جفون السيوف ، وحطمتنا صدور الرماح في صدور الصفوف ، وأرابتنا تلك الألوف كيف تعدد الأحاد بالألوف ؛ وحلنا بين العدو وبين أصحابنا بضرب يكف أطاعهم ، ويرد سراعتهم ، ويعمي ويصم عن الآثار والأخبار أنصارهم وأسماعهم ؛ إلى أن نفسنا للنهزم عن خناقه ، وآيسنا طالبه عن لحاقه ، ورددناه عنه خائباً بعد أن كادت يده تتعاقب بأطواقه ؛ وأحجم العدو مع ما يرى من قلتنا عن الإقدام علينا ، ورأى منا جداً كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا ؛ وعادوا ولنا في قلوبهم رعب يثنيهم وهم الغالبون ، [ويدركهم وهم الطالبون] ^(١) ويسلبهم رداء الأمن وهم السالبون ؛ وقد لم الخادم شعث رجاله ، وضم فرقتهم بذخائر ماله ؛ وأمدهم بنفقات أصاحت أحوالهم ، وأطلقت في طلب عدو الله أقوالهم ؛ وسلاح جدد استطاعتهم ، وأعان شجاعتهم ؛ وخيول تكاد تسابقهم إلى طلب عدوهم ، وتحضهم على أخذ حظهم من اللقاء كأنها تساهمهم في أجر رواجهم وعدوهم ؛ وقد نضوا رداء الإعجاب عن أكافهم ، واعتصموا بعون الله وتأيدته لابقوة جلدتهم ولا بجدة أسيافهم ؛ وسيعجلون العدو - إن شاء الله تعالى - عن أندمال جراحه ، ويتعجلون إليه بجيوش تسوءه طلائعها في مسائه وتصبحه كآئبها في صباحه ؛ والله تعالى لا يكلنا إلى جلدنا ، ولا يترع أعنة نصره من يدنا .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصل "وضربهم" ، والتصحيح عن حسن التوسل .

الصنف التاسع

(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتهمك به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرض إليه في "مواد البيان".
والذى ينبغي أن تُبنى المكاتبة فيه عليه ذِكرُ هزيمة المهزوم وما استولى عليه من
الغلبة والقهر، وصورة الحال في النصرة عليه، والاستيلاء على بلاده وأمواله وسائر
ذات يده؛ وأسر رجاله، وأسترقاق ذراريهم ونسائهم؛ وما يجرى مجرى ذلك : مما فيه
إيلام خاطره، وتقطيع قلبه حسرات على ما ناله؛ ونحو ذلك مما يدعو المكتوب
إليه إلى الطاعة، ويوجب الأقياد.

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط : كتب به القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر
رحمه الله، إلى البولس حمد ملك الفرنج، المستولى على طرابلس من الشام، وأنطاكية
من بلاد العواصم حين غزاه الملك ^(٢) في طرابلس، ثم قصد أنطاكية فأخذها
من عانه، ^(٣) وهى :

قد علم التومص الجليل المستقلة مخاطبته - بأخذ أنطاكية منه - من البولسية إلى
القومصية؛ ألهمه الله رشده، وقرن بالخير قصده، وجعل النصيحة محفوظة عنده؛
ما كان من قصدينا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار، وما شاهدته بعد رحيلنا من
إحراق العمار وهدم الأعمار؛ وكيف كُنست تلك الكائن من على بساط الأرض
ودارت الدوائر على كل دائر، وكيف جعلت تلك الجزائر من الأجساد على ساحل
البحر كالجزائر؛ وكيف قطرت الرجال وأستخدمت الأولاد ومثلكت الحرائر، وكيف
قطعت الأشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - إن شاء الله تعالى - والستائر؛

(١) كذا بالأصل باهمال النقط وفي "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠، ص ٢٥٤) "يمتد".

(٢) بياض بالأصل مقدار كلمة . (٣) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة".

وكيف مُهَبَّتْ لك وَلرِعَيْتِكَ الأموالَ والحريمَ والأولادَ والحواشيَ ، وكيف آسْتغْنَى
 الفقيرُ وتَاهَلَ العَازِبُ وآسْتخدِمَ الحَريمَ وَرَكِبَ المَاشِيَةَ ؛ هذا وَأنتَ تَنْظُرُ نَظَرَ المَغْشِيِّ
 عليه من المَوْتِ ، وَإِذَا سَمِعْتَ صَوْتًا قَلْتَ فَرَعًا : عَلَى هَذَا الصَّوْتِ ؛ وَكَيْفَ رَحَلْنَا
 عَنكَ رَحِيلَ من يَعودُ ، وَأَحْرَناكَ وَمَا كانَ تَأخِيرُكَ إِلا لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ وَكَيْفَ فَارَقْنَا
 بِلادَكَ وَمَا بَقِيَتْ فِيها مَاشِيَهُ ، إِلا وَهِيَ لَدِينا مَاشِيَهُ ؛ وَلا جَاريَهُ ، إِلا وَهِيَ فِي مَلِكنا
 جَاريَهُ ؛ وَلا سَاريَهُ ، إِلا وَهِيَ بَيْنَ أَيْدِي المَعَاوِلِ سَاريَهُ ؛ وَلا زَرَعٌ إِلا وَهُوَ مَحْصُودٌ ،
 وَلا مَوْجُودٌ إِلا وَهُوَ مَنكَ مَفْقُودٌ ؛ وَمَا مَنَعَتْ تِلْكَ المِغَايِرُ الَّتِي هِيَ فِي رُءُوسِ الجِبالِ
 الشَّاهِقَةِ ، وَلا تِلْكَ الأَوْدِيَةُ الَّتِي فِي التُّحُومِ مُحْتَرِقَةٌ وَلِلعَقُولِ خَارقَهُ ؛ وَكَيْفَ سُقنا
 عَنكَ وَلَمْ يَسْبِقنا إِلى مَدِينَتِكَ أَنْطَاقِيَةَ خَبَرَ ، وَكَيْفَ وَصَلنا إِليها وَأنتَ لا تُصَدِّقُ
 أَننا نَبْعُدُ عَنكَ وَإِن بَعُدنا فَسَنَعُودُ عَلَى الأَثَرِ ؛ وَها نَحْنُ نُعَلِّمُكَ بِما تَمَّ ، وَنُفهِمُكَ
 بالبلاءِ الَّذي عَمَّ .

كانَ رَحِيلُنا عَنكَ من طَربائِلِسَ يَومِ الأربِعا ، وَنَزولُنا أَنْطَاقِيَةَ فِي شَهِرِ رَمَضانَ ؛
 وَفِي حَالِ التُّزُولِ خَرَجْتَ عَسَا كَرُكًا لِلْمِبارَزةِ وَتَناصَرُوا فَمَ نُصِرُوا ، وَأَسِرَ من بَينَهُم
 كَدِ اسطِطْلَ فسَالَ فِي مَراجِعةِ أَصحابِكَ ، فَدَخَلَ إِلى المَدينَةِ ، فَخَرَجَ هُوَ وَجِماعَةُ من
 رُهبانِكَ : وَإِن رَأَيْهِمَ فِي الخَيرِ مُحْتَلِفٌ ، وَقَوْلُهُمَ فِي الشَّرِّ واحِدٌ ؛ فَلِما رَأَيْناهُمَ قَدِ فاتَ
 فِيهِمُ القَوتُ ، وَأَنَّهُمَ قَدِ قَدَّرَ اللهُ عَلِيهِمُ المَوْتُ ؛ رَدَدناهُمَ وَقُلنا : نَحْنُ السَّاعَةَ لَكُم
 مُخَاصِرُ ، وَهَذا هُوَ الأَوَّلُ فِي الإِنذارِ وَالآخِرُ ؛ فَرجِعُوا بِهِ مُتَشَبِّهِينَ بِفِعْلِكَ ، وَمَعْتَقِدِينَ
 أَنَّكَ تَدْرِكُهُم بِجَيْلِكَ وَرَجَلِكَ ؛ فَفي بَعضِ سَاعةِ مَرَّشانِ المَرشانِ ، وَدَاخَلَ الرُهبُ
 الرُهبانُ ؛ وَلَأنَّ لِلبِلاءِ القَسْطَ لَأنَّ ، وَجاءَهُمُ المَوْتُ من كُلِّ مَكانٍ ؛ وَفَتَحناها بِالسِّيفِ

(١) لم يرد في كتب اللغة جمع المغارة على مغاير، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا في الأصل باهمال جميع الحروف .

في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان؛ وقتلنا كل من آخرته لحفظها
 والحمامة عنها، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيء من الدنيا فما بقي أحد منا إلا وعنده
 شيء منهم ومنها؛ فلورأيت خيالك وهي صرعى تحت أرجل الخيول، ويأرك
 والنهابة فيها تصول والكسابة فيها تجول؛ وأموالك وهي توزن بالقطار، وإماءك
 وكل أربع منها تباع فتشترى من مالك دينار؛ ولورأيت كأنسك وصلبانها قد كسرت
 ونثرت، ومحفها من الأناجيل المزورة قد نثرت، وقبور البطارقة وقد تغيرت؛
 ولورأيت عدوك المسلم وقد داس مكان القدس، والمدبح وقد ذبح فيه الراهب
 والقسيس والشماس؛ والبطارقة وقد دهموا بطارقه، وأبناء المملكة وقد دخلوا
 في المملكة؛ ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تَحْتَرِقُ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار
 الآخرة تَحْتَرِقُ؛ وقصورك وأحوالها قد حالت، وكنيسته بونصر وكنيسة القسيان
 وقد زلت كل منهما وزالت - لكنت تقول: ياليتني كنت ترابا، وياليتني لم أوت
 بهذا الخبر ككاتب؛ ولكانت نفسك تذهب من حسرتك، ولكنت تطفئ تلك النيران
 بماء عبرتك؛ ولورأيت معانيك وقد أفقرت، ومرأبك وقد أخذت في السويدية
 بمراكبك، لصارت شوائبك من شوائبك؛ ولتيقنت أن الإله الذي أنطاك أنطاكية
 منك أسترجعها، والرب الذي أعطاك قلعتها منك قلعتها ومن الأرض أقتلها. وتعلم
 أنا قد أخذنا - بحمد الله - منك ما كنت أخذته من حصون الإسلام، وهو دركوش،
 وشقيف تل منس^(١)، وشقيف كفردين، وجميع ما كان لك في بلاد أنطاكية
 في هذه المدة إقامة(؟) وكونك ما كنت بها، فيكون إما قتيلا وإما أسيرا، وإما جريحاً

(١) في الاصل "تلميس" ولم نعر عليه في المعجم والذي في معجم البلدان لياقوت أن تل منس حصن

قرب معرة النعمان بالشام .

وإما كَسِيرًا؛ وسلامة النفس هي التي يفرح بها الحَيُّ إذا شاهد الأموات، ولعلَّ اللهَ
 إِنَّمَا أَحْرَكَ لَأَنْ تَسْتَدْرِكَ مِنَ الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ مَا فَاتَ ؛ وَلَمَّا لَمْ يَسْلَمْ أَحَدٌ يُخْبِرُكَ
 بِمَا جَرَى خَبْرُكَ ، وَلَمَّا لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ [أَنْ] يُبَاشِرَكَ بِالْبُشْرَى بِسَلَامَةِ نَفْسِكَ وَهَلَاكَ
 مَسَاوَاهَا بِأَشْرَانِكَ بِهَذِهِ الْمَفَاوِضَةِ وَبَشْرَانِكَ ، لَتَسْتَحَقِّقَ الْأَمْرَ عَلَى مَا جَرَى ، وَبَعْدَ هَذِهِ
 الْمَكَاتِبَةِ لَا يَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُكَذِّبَ لَنَا خَبْرًا ، كَمَا أَنَّ بَعِيدَ هَذِهِ الْمَخَاطِبَةِ يَجِبُ أَنْ لَا تَسْأَلَ
 عَمَّا جَرَى .



وهذه نسخة في هذا المعنى ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهي :
 هذه المكتبة إلى فلان أقاله الله عثرة زلته ، وأقامه من حفرة ذلته ، وتجاوز له
 عن كبيرة فراره من جمع عدوه على قلته .

بلغنا أمر الواقعة التي لقي فيها [العدو]^(١) بجمع قليل غناؤه ، ضعيف بناؤه ؛ وكيف
 في رأي العين جمعه ، خفيف في المعنى وقعه ونفعه ؛ أسرع في مفارقة المجال ، من الظل
 في الانتقال ، وأشبه في مُماتلة الوجود بالعدم من طيف الخيال ؛ يمشون^(٢) إليه
 بقلب واجب ، ويهتدون من تحرّصه برأي بينه وبين الصواب ألف حاجب ؛
 ويأتمون منه بمقدم يرى الواحد من عدوه كآلف ، ويتسرعون منه وراء مقدّم يمشي
 إلى الزحف ولكن إلى خلف ؛ جناح جيشه مهبط ، وطرف سنانة غضيض ؛
 وساقه عسكره طالعه ، وطلائعه كالنجوم ولكن في حال كونها راجعه ؛ تأسف
 السيوف بيمينه على ضارب ، وتأسى الجنائب حوله إذ تعدُّ لمحارب فتعدُّ لهارب ؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) في الأصل "يمضون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٣) كذا في "حسن التوسل" والذي في الأصل "ويهتدون من تجريبه وتهذيبه بينه" الخ ، ولا معنى له .

وأنه حين وقعت العين على العين ، وأيقن عدوه لما رأى^(١) من عدده وعدده معالجة الحين ؛ أعجل نصول العدا عن وصولها ، وترك غنيمة الظفر لعداه بعد أن أشرف على حصولها ؛ تناديه أسنة أسنته : الكرة الكرة فلا يلوي إلى نداءها ، وتسكو إليه سيوفه الظمأ وقد رأته موارد الوريد فيردها إلى العمود بدائها ؛ ففتح عدوه مقاتل رجاله ، وأباحهم كرائم مال جنده وماله ؛ وخطى لهم خزائن سلاحه التي أعدها لقتالهم فأصبحت معدة لقتاله ؛ فنجح منجى الحارث بن هشام ، وآب بسلامة أعذب منها - لو عقل - شرب كأس الحمام ؛ وأنسم بين أوليائه وأعدائه بسمة الفرار ، وكان يقال : النار ولا العار ، فجمع له فراره من الزحف بين النار والعار ؛ وعاد بجمع موفور من الجراح ، موقر من الإثم والأجترأح ؛ لا علم بما جرى عند أسيافهم ، ولا شاهد بمشاهدتهم الوغى غير مواقع الضبا في أكتافهم ؛ فباى جنان يطمع في معاودة عدوه من هذا قلبه ، وهؤلاء حزبه ، [وذلك القتال قتاله وتلك الحرب حربته]^(٢) .

وبعد فإن كانت له حمية فستظهر آثارها ، أو أريحية فستشيب نأرها ؛ أو أنفة فستحمله على غسل هذه الدنية ، وتبعته على طلب غايتين : إما شهادة مريحة أو حياة هنية ؛ والله تعالى يوقظ عزمه من سنته ، ويعجل له الانتصاف من عدوه قبل إكمال سنته .

الصنف العاشر

(في المكاتب بالتضييق على أهل الجرائم)

قال في "مواد البيان" : لم يزل السلطان يكتب إلى الولاة - عند ما ينتهي [إليه] من إقدام الرعايا على ارتكاب الجرائم ، وأستباحة المحارم ، وأقراف المآثم ؛ كالزنا

(١) في "حسن التوسل" « ولا يلتفت » .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللواط، وشرب الخمر، وقطع الطرق، والغصب والتظالم، وما يجري هذا الجرى-
 بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالى فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله البادئ بنعمته قبل افتراض طاعته، الممتن
 بفضله قبل إيجاب شكره؛ خالق الخلائق جوداً وكرماً، وموسعهم مناً ونعماً؛ الذي
 اختار دين الإسلام وطهره من الأرجاس، ونزهه عن الأدناس، وأختص به صفوته
 من الناس؛ وأبعث به محمداً سيد المرسلين : ﴿ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ
 عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن فوّض إليه إيالة خلقه، وأفدّره على القيام
 بخدمته؛ ونصبه لإعزاز دينه، والمحافضة على مفروضه ومسئولته؛ وزيادة العباد
 عن محاربه التي نهى عن التعدي إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها؛ ويسأله الصلاة
 على محمد صلى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإنَّ أمير المؤمنين يرى أنَّ من أعظم نعم الله تعالى عليه توفيقه لحفظ
 ما استَحفظه من شريعته، ورعاية ما استرعاه من بريته، وتوفير القيام على من قلده
 النظر فيهم، وأعتاد ما يعود بالصلاح في الدين والدنيا عليهم؛ ومساواته بين قريتهم
 وبعيدهم في تفقده، ومماثلته بين قاصيهم ودانيهم في تعهده؛ فلا ينال القريب [فقط]
 نصيباً من رعايته ويعلم جاهلهم، ويهدى حائرهم، ويُشجّد بصائرهم، ويُثقف
 مآذهم، ويصلح فاسدهم؛ ويتخوهم من مواعظه بما يرد الغلّ، ويشفي العلل؛
 وينسخ الشك باليقين، ويقبس مقابيس النور المبين [فن] أصغى إلى إرشاده سعد
 جده، وورى زنده، وأحمد يومه وعده؛ ومن خالف عن أمره ضلّ مسعاه، وخسر
 آخرته ودنياه، ودعا إلى اتباع أمر الله تعالى في تقويمه وإصلاحه، والكف بإقامة
 الحدود عليه من جماعه .

وَأَتَيْتُ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَقْدَمَ عَلَيْهِ الْأَحْدَاثُ وَأَهْلُ الدَّعَاةِ قَبْلَكُمْ مِنْ أَحْتِقَابِ
الْآثَامِ ، وَأَسْتِدْمَاثِ مَرَاكِبِ الْحَرَامِ ، وَالْأَسْتِهْتَارِ بِمَحْظُورِ اللَّذَاتِ ، وَالْإِتْجَابِ عَلَى
دِينِ الشَّمَوَاتِ ، الَّتِي تَسْلُخُ مِنَ الدِّينِ ، وَتُخْرِجُ عَنْ دَائِرَةِ الْمُسْلِمِينَ ؛ وَتَدْفَعُ عَنْ تَأْيِيدِ
الْعِبَادَاتِ ، وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ ؛ وَتَنْظِمُ فِي سِلْكِ الْبَهَائِمِ الْمُرْسَلَةِ ، وَالسَّوَائِمِ الْمُهْمَلَةِ .
وَتَقْصِيرُ مَشَائِخِهِمْ وَعُلَمَائِهِمْ عَنْ كَفِّهِمْ ، وَالْأَخْذِ عَلَى أَكْفِهِمْ ؛ وَتَعْرِيفُهُمْ وَجُوهَ
مَرَاشِدِهِمْ وَتَقْوِيمَ أَوْدِهِمْ ، فَاْمْتَعَّضَ مِنْ ذَلِكَ ، وَأَشْفَقَ مِنْ نَزُولِ الْقَوَارِعِ وَالْمَثَلَاتِ ،
وَحُلُولِ الْبَلِيَّاتِ وَالْآيَاتِ ؛ وَارْتِجَاعِ مَا أُوْدِعَكُمْ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمَتِهِ ، وَأَتْرَاعِ مَا أَلْبَسَكُمْ
مِنْ رَحْمَتِهِ ؛ وَبَادِرِ بَكَابِهِ مُوقِظًا لِعَافِكُمْ ، وَمُبْصِرًا لِدَاهِكُمْ ؛ وَبَاعِثًا لَكُمْ عَلَى مَرَاضِيهِ
الْأَوْلَى ، وَمَعَاوِدَةِ الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى ؛ وَمِبَادِرَةِ آجَالِكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ، وَالْأَخْذِ لِأُحْرَاكُمْ
مِنْ أَوْلَاكُمْ ، وَلَسَقَمِكُمْ مِنْ صِحَّتِكُمْ ، وَلِنَوْمِكُمْ مِنْ يَقِظَتِكُمْ ؛ عَالِمِينَ أَنَّ الدُّنْيَا لَعِبٌ
وَلَهْوٌ ، وَأَنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا كَسْفَرٍ شَارَفُوا الْمَنْزِلَ . فَاجْهَدُوا عِبَادَةَ اللَّهِ
وَأَحْتَشِدُوا ، وَأَقْلِعُوا وَارْجِعُوا ، وَاسْمِعُوا وَعُوا ؛ فَكُنْتُمْ وَاللَّهِ وَقَدْ تَوَضَّعْتُ خُدْعُهَا ،
وَتَصَرَّمْتُ مَتَاعُهَا ، وَجَلَّ مَتَوَقَّعُهَا ؛ وَالسَّعِيدُ مِنْ وَثِقَ بِمَا قَدَّمَ لِنَفْسِهِ بَعْدَ نَفَادِ أَيَّامِهِ ،
وَوُرُودِ حِمَامِهِ ؛ وَالشَّقِيُّ مِنْ أَفْرَطَ وَفَرَطَ ، وَنَدِمَ حَيْثُ لَامَنْدَمَ . وَأَوْعَزَ إِلَى وَإِلَى الْحَرْبِ
فَلَانَ بَقْرَاءَةَ مَانَصَّ فِيهِ عَلَيْكُمْ ، وَآخْتَبَارَ سَيْرِكُمْ بَعْدَ مَرُورِهِ عَلَى أَسْمَاعِكُمْ ؛ فَمَنْ رَغِبَ
فِي التَّقْوَى ، وَآثَرَ الْآخِرَةَ عَلَى الدُّنْيَا ؛ عَرَفَ ذَلِكَ وَتَوَخَّاهُ بِتَكْرِمَتِهِ وَتَحَوَّلَهُ ، وَمَنْ أَبَى
إِلَّا غَوَايَةَ وَضَلَالًا ، وَبِطَالَةً وَمِحَالًا ؛ أَقَامَ حَدَّ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ غَيْرَ مَرَاقِبٍ فِيهِ . فَرَحِمَ
اللَّهُ عِبَادًا صَانَ نَفْسَهُ فِي هَذِهِ الدَّارِ عَنِ الْعَارِ ، وَحَمَاهَا فِي الْآخِرَةِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ ؛
وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَرْجُو أَنْ يَنْفَعَكُمْ اللَّهُ بِهَدَايَتِهِ ، وَيَشْفِي صُدُورَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ ، وَيُرْشِدَكُمْ
إِلَى مَا يُفِضِي بِكُمْ إِلَى الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ . فَلْيَعْلَمْ فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ ذَلِكَ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَرَسْمِهِ ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ بِجُلَّتْهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصفحة الحادية عشر

(الكتب في النهي عن التنازع في الدين)

قال في "مواد البيان": من أهم ما صرف إليه السلطان تفقده، ووقف عليه [تعهده] أمر الرعايا في أعماله، وتففيذ الكتب إليهم بالنهي عن التنازع في الدين، وحسن أسباب المجادلة والمرء، والتحذير من اتباع البدع والأهواء، والإخلاق إلى مفضل النحل والآراء: لأنه متى فسح لهم في هذا الباب صاروا شيعاً متباينين، ورفقاً متحاربين؛ وأشقت عصاهم، وأتقضت حيلهم، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلى أحكام أهل الفتنة، وعاد ضرر ذلك على الدين والسلطان. ولهذا صرف إليه الساسة الحزمة من الملوك الأهتمام، ولم يخولوا بحسن مادته على تغاير الأيام.

ثم قال: والرسم فيها أن تصدر بحمد الله تعالى على نعمة في تأليف كلمة أهل الإسلام، وما من به عليهم من الاتفاق والائتنام، وشكره على موهبته في نزع الغل من صدورهم، والتأليف بين قلوبهم، وتصييرهم إخواناً متصافين، وخلاناً متوافين؛ وعونهم بما وفقهم له من إظهارهم على من شق عصاهم، وإقذارهم بما منحهم من الألفة على مرأمة من رآهم؛ والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم. ثم يشفع هذا بأن أمير المؤمنين بما مكته الله تعالى من مرضيه، ووقفه له من القيام بفرضه، والنهوض بحقوق طاعته، والعمل بكتابه وسنته، ورغبته في الخير العام، وشمول الصلاح لكافة الأنام - لا يزال يحض رعيته على ما يقضى بسداد دنياهم، وحسن المنقلب في أخراهم؛ ويرى أن أفنع ذلك عائده، وأجزله فائده؛ ما رفع عنهم أسباب التنافر، ودعاهم إلى التعاضد والتظافر؛ وحال بينهم وبين الخوض في محدث النحل والآراء، والإصغاء إلى مفضل البدع والأهواء؛ التي

تصدُّ عن سنن الهدى، وتُلقي في مهاوى الردى، وتدعو إلى شقِّ العصاب، وتقضى بانتثار النظام، واختلاف الآثام، وأنفصام عرى الإسلام. وكفَّهم عن المماراة في الدين، والإصغاء إلى سنة المضلِّين، المعطلة للسُنن، القادحة للفتن، الداعية إلى احتقَاب الآثام، وإراقة الدماء الحرام، ونحو هذا مما يضاويه .

ثم يقول : وأتتهى إلى أمير المؤمنين ألتفاتكم عن معاشكم التي جعلها الله لدنياكم قواما، وعبادتكم التي صيرها لآخرتكم نظاما، وإقبالكم على المماراة والمنازعة، والمناظرة والمجادلة، إلى شكوك يُقيمها من يرغب في الرياسة والتقدم: ليفوز بجيِّث المطعم، الذى يُعْمى البصائر، ويُفسدُ السرائر، ويقدح زند الضلال، ويُشبُّ نار المحال والأتحال، فامتعض أمير المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليم عاجلته، وذميم آجلته، وبأدركم بكابه هذا منبها لغافلكم، ومُرشدا لجاهلكم، وباعثا لكم على التَّشَاغُل بما أطاب أخباركم، وحسن آثاركم: من تلاوة كتاب الله الذى آثركم بتلاوته، وزياره بيوت عبادته، والتأدب بأدب نبيه وعترته، وأوعز إلى النائب فى الحرب بتقويم من خرج عن أمره، وتثقيف من أصرَّ على غيِّه، وأن يحسم الداء قبل استشرائه، ويستدركه دوين استفحالاه، فأصغوا إلى زواجير أمير المؤمنين ومواعظه، وأقتدوا بهديه ومرشده، لتفوزوا بطاعته، وتسعدوا برضاه، وتسلموا فى الحاضر، من مهانة أتم بغيرها أولى، إن سلكتم الطريقة المثلى، وفى الغابر مما أعدَّه الله لمن خالف عن أمره من العقاب فى الدار الأخرى، فأعلموا هذا وأعملوا به إن شاء الله تعالى .

قال : وقد يكتب السلطان إلى الرعية بالنهي عن التفانح بالبادية والتنازع فى العصبية . ثم قال : والطريقة فى هذا المعنى مشتقة من طريقة هذا الرسم .

الصف الثاني عشر

(المكتبة بالأوامر والنواهي)

قال في "مواد البيان" : على هذه الكتب مدارُ أشغال السلطان في أعماله ،
لأنها النافذة في تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم ولأيةٍ ومحملة .

قال : وليس لهذا أمثلة فنوردُها ، لِكِنَّه يَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يُؤَكِّدَ الْقَوْلَ بِهَا ، فَإِنْ
الْأَمْرَ فِيهَا وَالنَّهْيَ - وَإِنْ اأَخْتَلَفَ نَظْمُهُمَا - نَوْعٌ وَاحِدٌ : لِأَنَّ كُلَّ مَأْمُورٍ بِهِ مِنْهُ
عَنْ ضِدِّهِ ، وَكُلُّ مَنْهِيٍّ عَنْهُ مَأْمُورٌ بِضِدِّهِ ؛ فَيَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُؤَكِّدَ الْقَوْلَ فِي أَمْتِثَالِ
مَا أَمَرَ ، وَالْعَمَلِ عَلَيْهِ وَالْإِنْفَازِلهِ ، وَالْإْتِهَاءِ عَمَانَهِيْ عَنْهُ ، وَالْحَدْرِ مِنَ الْإِمَامِ بِهِ . وَيَجْزِمُ
الْأَمْرَ فِي الْعِبَارَةِ عَنْهَا جَزْمًا تَامًا لَا يُتِمَّكُنْ مَعَهُ مِنَ الْإِخْلَالِ بَعْضُهُمَا وَالنَّقْصِ فِيهِمَا
لِهَوَى ؛ وَيَأْتِي مِنَ الْمِبَالِغَةِ بِمَا يُضَيِّقُ الْعُدْرَ ، وَمَتَى وَقَعَ تَقْصِيرٌ أَوْ تَتَاقُلَ عَمَّا حُدِّدَ فِيهِمَا ،
فَإِنَّمَا يُمَثِّلُ ذَلِكَ بِمَثَلٍ جَامِعَةٍ مَعَ تَفْنِيْنِ الْمَعَانِي الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا وَيَنْهَى عَنْهَا .

ثم قال : والكاتب إذا عرف الترتيب الواقع في هذين الغرضين على طريق
الإجمال ، أمكنه أن يسطه إذا احتاج إلى التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالى .

وأعلم أنه كان للخلفاء والملوك وولاة الأمور في قديم الزمان عنايةً بالكتابة إلى الرعايا
بالأوامر والنواهي المتعلقة بالدين : من الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وما يجرى
مجرى ذلك ؛ وإلى العمال بالوصية بالرعايا ، والاجتهاد فيما لديهم من جباية الخراج ،
والإهتمام بأمر الدواوين ، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامر والنواهي المتعلقة بالدين ، فقد تقدم في الكلام على مُصْطَلَحِ أَهْلِ
الْعَرَبِ فِي أَوَائِلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي زَيْدِ الْفَارَازِيِّ مَا أَغْنَى ذِكْرَهُ هُنَاكَ عَنْ
إِعَادَتِهِ هُنَا أَوْ ذِكْرِ غَيْرِهِ .

وأما الأوامر والنواهي المتعلقةُ بأمور السلطنة، فمن ذلك ما كتب به أبو عبد الله
 ابن الحنان، عن الأمير أبي عبد الله بن هودٍ أحد ملوك الطوائف بالأندلس في الرفق
 بالرعية، وهو :

أما بعد حمد الله تعالى معلى منار الحق ورافعه، ومولى متوالى الإنعام ومُتتَابِعِهِ ؛
 والصلاة على سيدنا محمد رسوله مُشَفَّعِ الحُشْرِ وشَافِعِهِ ، المبعوث ببدائع الحكم
 وجوامعِهِ ؛ وعلى آله وصحبه المُبَادِرِينَ إلى مقاصده العلية ومنازعه، والدائين عن حوزة
 الإسلام بمواضى الاعتزام وقواطعه ؛ والرِّضَا عن الخليفة الإمام العباسى أمير المؤمنين
 ذى المجد الذى لا ينالُ سُمُوَ مطالعه .

فإنا كتبنا إليكم ، كتب الله لكم عزة قدحها بالثبوت فائز، وسعادة قسطها للنماء
 حائز؛ من فلانة : وكلمة الحق منصوره اللواء، منشورة الأضواء، والتوكل على الله
 فى الإعادة والإبداء، والتسليم إليه مناط أمرنا فى الانتهاء والابتداء؛ وحمد الله تعالى
 وشكوه ووصلتنا إلى نيل مزيد النعماء والآلاء؛ ومكانتكم لدينا مكانة السنن المناصب،
 المُتَمَتِّعِ إلى كرام المُتَمَتِّعَاتِ والمناسب؛ المُتَحَلِّى فى الغناء والأكتفاء، والخلوص
 والصفاء، بأكرم السجيات والمناقب؛ المعلوم مالدیه من المناصحة السالكة بأكرم
 السجيات فى المناحى الحسان على المهيع الأوضح والسنن الألاحب .

وقد وقفنا على كتابكم معلما بنجر فلانة وبما رأيتوه من المصلحة فى تحصيلها،
 والاجتهاد فى سبب تأمينها؛ ونحن نعلم أنكم تريدون الإصلاح، وتوخواون مانتوسمون
 فيه النجاح؛ لكن أهم الأمور عندنا، وأولى ما يوافق غرضنا وقصدنا؛ الرفق
 بالرعية، وحملها على قوانين الإحسان المرعية؛ وعلى أثر وصول كتابكم وصلنا كتاب
 [أهل] فلانة المذكورة يشكون ضرر الخدمة المتصرفين فيهم، ويتظلمون من
 متحيفيهم ومتعسفيهم؛ وفى هذا ما لا يخفى عليكم، ولا ترضون به لو آتتهى إليكم؛

فإنه إذا كان الناظر في خِدْمَةٍ مِّنْ لَا يُحْسِنُ سِيَّاسَةَ الْأُمُورِ ، وَلَا يَعْلَمُ طَرِيقَ الرَّفِيقِ الحَاوِيَةَ لِرَفِيقِ الْخَاصَّةِ وَالْجُمْهُورِ؛ أَعَادَ التَّسْكِينَ تَنْفِيرًا ، وَالتَّسِيرَ تَعْسِيرًا ؛ وَتَعْلَمُونَ أَنَّا لَا نَقْدَمُ عَلَى إِيْشَارِ الْعَدْلِ فِي عِبَادَةِ اللَّهِ الْمُسْلِمِينَ عَمَلًا ، وَلَا نَبْنِي لَهُمْ بَاطِنَةً بَغِيرَ التَّخْفِيفِ عَنْهُمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ بَدَلًا ؛ وَأَنْتُمْ أَوَّلُ وَأَوْلَى مِنْ يُعْتَقَدُ فِيهِ أَنَّهُ يُجَلَّلُ هَذَا الْمَقْصَدُ ، وَيَتَحَرَّى فِي مَصَالِحِ الرِّعَايَا هَذَا السَّنَنَ الْأُرْشُدَ ؛ وَقَدْ خَاطَبْنَا أَهْلَ فَلَانَةَ بِمَا يُذْهِبُ وَجَلَّتْهُمْ ، وَيَسْطُرُ أَمَلَهُمْ ؛ وَعَرَّفْنَاكُمْ بِأَنْكُمْ لَوْ عَلِمْتُمْ مَا هُوَ جَارٍ عَلَيْهِمْ مِنْ [بَعْضِ] الْخِدْمَةِ لِأَخْذْتُمْ عَلَى يَدِهِ ، وَجَازَيْتُمُوهُ بِسُوءٍ مَعْتَمِدِهِ ؛ وَأَشْعَرْنَاكُمْ بِأَنَّ قَدْ آسَتْ وَصِينَاكُمْ بِهِمْ خَيْرًا ، وَنَبَّهْنَاكُمْ عَلَى مَا يَدْفَعُ عَنْهُمْ ضِيًّا وَيَرْفَعُ ضَيْرًا ؛ وَأَنْتُمْ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - تَسْتَأْنِفُونَ نَظْرًا جَمِيلًا ، وَتَوَنُّحُونَ عَنْهُمْ الْخِدْمَةَ الَّذِينَ لَا يَسْلُكُونَ مِنَ السِّيَّاسَةِ سَبِيلًا ؛ وَتَقْدَمُونَ عَلَيْهِمْ مَنْ تَحْسُنُ فِيهِمْ سَيْرَتُهُ ، وَتَكْرُمُ فِي تَمْشِيَةِ الرَّفِيقِ عَلَانِيَتُهُ وَسِرِّيَّتُهُ ؛ وَمِثْلَكُمْ لَا يُؤَكِّدُ عَلَيْهِ فِي مَذْهَبٍ تَحْسُنُ عَوَاقِبُهُ ، وَغَرَضُ يُوَافِقُهُ الْقَصْدُ الْإِحْتِيَاطِيَّ - وَيُصَاحِبُهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث عشر

(المكاتب عند حدوث الآيات السماوية)

قال في "مواد البيان" : جرت العادة أن يكتب السلطان إلى الرعايا - عند حدوث الآيات الموهولة التي يريد الله تعالى بها إرشاد عباده إلى الإقلاع عن معصيته ، والإقبال على طاعته ، كالرياح العواصف ، والزلازل والصواعق ، وأحتماس القطر ونحوه في التسكاب عما جرت به العادة - كتباً يضمنها من الوعظ الشافي الرفيق ما يأخذ بجماع القلوب ، ويشعرها التقوى والرهبنة ، ويبعث على المراقبة والنظر في العاقبة .

قال : وينبغي للكاتب أن يتلطف في الموعظة، ويبالغ في الذكرى التي تُحطَر الخواطر وتقدح الأنفس، وتُحزك العزائم نحو الإخلاص؛ فإنه إذا أبرز هذه المعاني في صورٍ [تُسعر] ^(١) الخليفة من غضب الله تعالى وعقابه، وترغب في عفوه وتوابه؛ نفع الله بذلك (؟) من رغب عن الهوى، ورغب في التقوى بكتابته .

قال : والرسم فيها أن تفتح بحمد الله تعالى على آياته التي يفيضها ابتلاء واختباراً، وآياته التي يرسلها تحويفاً وإنذاراً؛ وموهبته في التوقيف بسايع نعمته على طاعته، والتحذير بدافع نقمته من معصيته . والصلاة على رسوله الذي أُنقذ بشفاعته، وعصم من نزول القوارع بنبوته . ثم يقدم مقدمة تتضمن أن الله تعالى يقدم الإعداد أمام سُخطه وعذابه، ويبدأ بالإنذار قبل غضبه وعقابه؛ فمن استيقظ من سنته، ونظر لعاقبته [ونَهَض] ^(١) إلى طاعته، وأقلع عن معصيته، كشف الرين عن قلبه، وضاعف أجره؛ ومن أضرب عن موعظته، وتعمى عن تبصيره وتذكيره، أخذته على غرته، وسلبه سربال نعمته .

ثم يأخذ في حث الأمة على الفرع إلى الصلوات، والمسارة إلى بيوت العبادات؛ والإكثار من التضرع والخشوع، والاستكانة والخنوع، بإذراء سحائب الدموع؛ وإخلاص التوبة عن مُحْتَب الآثام ومُخْتَرع الأوزار، والتوسل إلى الله تعالى في قبول الإجابة بقلوب تقيه، وطويات على الطهارة مطوية؛ وسراير صريحة، ونيات صحيحة؛ يصدقها الندم على الماضي، وعقد العزم على الإقلاع في الآتي؛ والرغبة إليه في رفع سُخطه وإنزال رحمته، وما يجارى هذا .

قلت: وهذا الصنف من المكاتبات قد ترك في زماننا فلا عناية لأحد به أصلاً، وإن كان مما يجب الأهتمام به وتقديمه .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصِّنف الرابع عشر

(المكاتبُ في التنبيه على شرفِ مواسمِ العبادة وشريفِ الأزمنة)

قال في "موادِّ البيان": إن الله وَكَّتَ لعباده أوقاتاً عَظُمَ شأنها، ورفعَ مكانها، وأمرهم أن يتقربوا فيها إليه بتأدية ما فرضه عليهم لطفاً بهم ورأفةً، وحناناً ورحمةً .

قال : ولم يزل السلطان يكتب إلى عُمَّاله بتنبية الرعايا عليها ، وتعرّيفهم فضلِ العبادة فيها : ليستقبلوها بالإخباتِ والخُشوعِ ، ويتلقَّوها بالتَضَرُّعِ والخُضوعِ ؛ ويتوسلوا في قبُولِ التَّوْبَاتِ ، وغُفْرَانِ الخَطِيئَاتِ ؛ حِفْظاً لنظامِ الدينِ ، وتفقداً لمصالحِ المسلمين .

قال : وينبغي للكاتب أن يحسن التَّأثُّرَ في هذه الكتب ^(١) ويُدَكِّرَ النَّاسِيَّ وينبه العَافِلَ اللّاهِيَّ ، والمُهْمِلَ السَّاهِيَّ ؛ ويحرِّكَ النفوسَ نحو مصالحها ، ويبعثها على الأخذِ بفاضلِ الأعمالِ وصالحِها .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على أن وهب لعباده أوقاتاً يتقبل فيها قُرْبَهُمُ وأعمالهم ، وَيُخَفِّفُ بالإِنبَاءِ إليه عند حلولها أوزارهم وأنقالهم ؛ فيغفر مُسْتَفْرِهَمَ ، وَيَعْفُو عن مُسِيئَتِهِمْ ؛ ويتقبل التَّوْبَةَ عن تائبهم . والصلاة على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلى آله . ثم يقدم مقدمة مبنية على تعظيم هذه الأوقات ، والإِنبَاءِ عَمَّا فِي قَصْرِهَا على العبادات ، والمسابقة إلى الخيرات ، من عظيم الثواب . وَيَسْفَعُ بِبِعْثِ الوَلَاةِ على أخذ الرعايا بالمحافظة على السُّنَنِ ، وتعهُّدِ حَقِّ اللهِ تعالى فيها ، والتَّوَسُّعِ في توكيد الحُجَّةِ ، ونفى الشبهة ؛ وإيراد المواظظ الرادعه ، والزواجر الوازعه ؛ التي تعود بِسِحْذِ البصائرِ ، وصفاءِ الضمائرِ ، والإِتْيَانِ بحقوق هذه الأوقات وواجباتها ،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة .

والفوز بما يوفّره من جزيل بركاتها ، والتوفّر على حُسن مجاورتها ، والتقرب إلى الله تعالى ببذل الصدقات ، والإقبال على الصلوات وزيارة بيوت العبادات ، ومدّارة أهل الدين ، والسعي في مصالح المسلمين ؛ ونحو ذلك مما يناسبه .

ثم قال : فإن كان الكتاب مقصورا على الدعاء إلى الحجّ ، أفتتح بالحمد لله على أن جعل لعباده حرّما آمنا يمحّص ذنوبهم بزيارته ، ويمحو آثامهم بحجّه وفادته ؛ وبلى ذلك ما يليق به من الحثّ على تأدية المناسك ، وتكامل الفرائض والسّنن ، وزيارة قبر النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وكذلك الحكم في سائر الأبواب الدنيّة .

الصفحة الخامسة عشر

(المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد وما ينخرط

في سلكها من المواكب الجامعة)

قال في "موادّ البيان" : جرّت العادة أن يكتب السلطان عمّاله وولّاته بسلامة المواسم الإسلامية كلّها : لأنها تُشاهد لجميع أصناف الرعايا وذوي الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، والقلوب المتعادية والمتصاحبة في أمر الدين والدنيا ؛ وكلّ مُتربّصٍ لفتنةٍ ينتهز فرصتها . فلا تكاد هذه المشاهد تخلو من ثورةٍ وحدثٍ أحدث منكرةٍ تُفضي إلى الفتن التي لا تُرفع . فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها ، وجب التحدّثُ بنعمته ، والشكر لمشيئته ؛ وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قبله إلى عمّاله ، لتسكن الكافة إلى ذلك ، ويشركوا في حمد الله تعالى عليه .

وأعلم أن المواسم التي كان يعتاد الخلفاء الركوب فيها والكتابة بالسلامة منها هي : عيد الفطر ، وعيد النحر . وكان الخلفاء الفاطميّون بالديار المصرية يعتادون

مع ذلك الركوب في عُمرَةِ السَّنَةِ ، وفي أولِ رَمَضانَ ، وفي الجمعة الأولى ، والجمعة الثانية ، والجمعة الثالثة منه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغدير" : وهو عيدٌ من أعياد الشيعة كما سيأتي ذكره . ونحن نُشير إلى ذكر مواكبها موكباً موكباً ، ونذكر ما جرت به العادة في الكتابة في البشارة بالسلامة في ركوب كلِّ موكب منها .

الأول — البشارة بالسلامة في الركوب في عُمرَةِ السنة . وقد تقدم الكلام على صورة الموكب في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، أورده أبو الفضل الصوري في تذكرته ، وهي : الحمد لله الذي لم يزل يولي إحساناً وإنعاماً ، وإذا أبلى عبيده عاماً أجدهم بفضله عاماً ؛ فقد أمدكم معاشر [الخلفاء] ^(١) كرمًا ومنا ، وآتاكم من جوده أكثر مما يمتنى ؛ ومنحك من عطائه ما يوفى على ما أردتموه ، ﴿وتخّر لكم الليل والنهار وآتاكم من كلِّ ما سألتموه﴾ وقد استقبلتم هذه السنة السعيدة ، وإذا عمّتم بالطاعة كنتم مستنجزين من نواب الله الأغراض البعيدة .

وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه الذي غدت الجنة مدخراً لمن عمل بهداه لما سمعه ، ومهيأة لمن آمن به واتبع النور الذي أنزل معه ؛ وبين بإرشاده ما تجرى أمور السنين عليه في العدد والحساب ، ونسخ ما كانت الجاهلية [تفعله] فيه زيادة في الكفر وضللاً عن الصواب ؛ وعلى أخيه وأبن عمّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي كمل الله الإسلام بإمامته ، وضاعف الأجر لأهل ولايته ، ومنح شيعته مقبول شفاعته ؛

(١) يياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

وعلى الأئمة من ذريتهما خلفاء الله على خلقه ، والقائمين بواجب حقه ؛ والعالمين
في سياسة الكافية بما يرضيه سبحانه ، ويضمن غفرانه ورضوانه ، وسلم عليهم
أجمعين ، سلاماً باقياً إلى يوم الدين .

وإن أحق النعم بنشر الذكر ، وأوجبها للوصف وإعمال الفكر ؛ نعمة رفعت الشك
وأزالت اللبس ، ووضّح ضياؤها لأولى الألباب ووضوح الشمس ؛ وأشترك الناس
فتضاعفت الفائدة لديهم ، وانتفعوا بذلك في توارينهم ومعاملاتهم ومالهم وعليهم ؛
وتلك [هي] المعرفة باليوم الذي هو مطلع السنة وأولها ، ومبدؤها ومُستقبلها ؛
وحقيقة ذلك ظهور إمام كل زمان . وكان ظهور إمام زماننا مولانا وسيدنا الإمام
فلان - ليتساوى في الشرف برؤيته العامة والخاصة ، فيكون استقلال ركابه إشعاراً
بأن اليوم الذي تجلّى فيه لأولياته ، ولرعاياه المتفتحين ظلّ لوائه ؛ هو افتتاح السنة
وأول محرمها ، وعليه المعتمد في عدد تامّ الشهور وناقصها من مُفتتحها إلى مُحْتَمَمها -
يوم كذا غرة المحرم من سنة كذا ، في عساكر لا يحصر عددها ، وقبائل لا ينقطع
مددها ؛ وإذا اضطرت نار الكفر والتبّت ، طفئت بأنوارهم وخبّت ؛ وقد تطلّدت
هنديّة تروع إذا أشرقت وسكنت ، فما الظنُّ إذا أصطحبت ؛ والأرض بمرورها عليها
مبهجة موقّنه ، وملائكة الله عزّ وجلّ حافّة به مُحدّقه ؛ فأذن بأن اليوم المذكور هو
غرة السنة المعينة ، وأن اليوم الفلاني أمسه أنسلاخ كداسنة كذا المتقدمة : لتستقيم
أمورهم على أعدل نهوجهم ؛ وليحفظ نظام دينهم في صومهم وفطيرهم وحجّهم ؛
وكذلك أصدر هذا الكتاب ليتلوه الأمير على من يسكن عمله ، وجميع من قبله ؛
ويتمثلوا في معرفته ، ويحمل كلّ منهم الأمر عليه في معتقده وأسباب معاملاته ؛
ويشكروا الله على النعمة عليهم بهديته . وهو يعتمد ذلك ويطلع بكائه فيه
إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

الثاني — البشارة بالسلامة في الركوب في أول شهر رمضان ، وهي على نحو مما تقدم في الركوب في غرة السنة .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهو :

الحمد لله كإني خلقه في اليقظة والمنام ، والكافل لهم بمضاعفة الأجر في شهر الصيام ، وصلى الله على سيدنا محمد الذي بعثه رحمةً للأمم ، وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب أخلص ولي ، وأشرف وصي ، وأفضل إمام ، وعلى الأئمة من ذريتهما الداعين إلى دار السلام ، صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة في الغدو والآصال .

وإن من المسرة التي تُتهادى : والنعمة الشاملة للخلق جميعاً وفرداً ، ما من الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ، يوم كذا غرة شهر رمضان من سنة كذا ، إعلاما بأول الشهر وافتتاحه ، وأن الصيام الأول من فحره الأول قبل تنفس صباحه ، وتوجهه إلى ظاهر المعزية القاهرة المحروسة في عساكره المظفرة وجنوده ، وأوليائه وأنصاره وعبيده ، والمينة برؤيته قد تساوى فيها الكافه ، وملائكة الله مطيفة حافه ، وعوده إلى قصوره الزاهره ، وقد شمل المستظلين بأفيائه بسعادتي الدنيا والآخرة .

أصدر إليك هذا الأمر لتقف على الجملة ، وتشكر النعمة السابغة على أهل الله ، وتتلوها على أهل عمك ، وتطالع بكائيك في ذلك ، فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

الثالث — الكتابة بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الأولى من شهر رمضان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي أيضاً ، وهي :

أفضل مُسَيَّرٍ ذِكْرُهُ ، ووجب حمدُ الله تعالى عليه وشُكْرُهُ ، ما عَادَ على الشريعة بالجمال
 والبهجة ، وأضحى وأصفه صحیح المقالِ صادقِ اللّهجه ؛ فضاغفَ حَسَنَةً ومَحَصَّ
 سَيِّئَةً ، وجعل أسباب السعادة مُتَسَهِّلَةً مُتَهَيِّئَةً ؛ وذلك ما يَسِّرُهُ الله تعالى من أَسْتَقْلَالِ
 رِكَابِ سَيِّدِنَا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛ يوم
 الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا : مُؤَدِّياً خُطْبَتَهَا وصلَاتَهَا ، وضامنا لِأُمَّةٍ أُتِمَّتْ به
 خَلَاصُهَا يوم الفزع الأكبر ونجاتها ؛ في وقَارِ النبوة وسكينة الرِّسَالَةِ ، والهَيِّبَةِ المُسْتَوْلِيَةِ
 على العِظَمَةِ والجَلَالَةِ ، والعساكرِ الجَمَّةِ التي تُفَلِّقُ بمهَابَتِهَا وترعج ، وتُظَنُّ لكَثْرَتِهَا
 واقِفَةً والرَّكَّابِ يَهْمَلِجُ ؛ ولما أنتهى إليه ، خَطَبَ ووعظَ ففتح أبواب التَّوْبَةِ ،
 وآب إلى الطاعات مَنْ لم يُطَمَعْ منه بالأوْبَةِ ؛ وصلَّى صلاةً تَقْبَلُهَا جَلٌّ وعزٌّ بقبُولِ
 حَسَنٍ ، وقَصَرَ في وَصْفِهَا ذُوو الفِصَاحَةِ واللِّسَنِ ؛ وعاد إلى مُسْتَقَرِّ الخِلافَةِ ، ومثوى
 الرحمة والرافة ؛ وَعَيْنُ الله له مَلَا حِظَّهُ ، وملائِكَتُه له حَافِظُهُ . أُعْلِمَتَ ذلك لُتْدِيَعَهُ
 في أهلِ عَمَلِكَ ، وتطالع بكائِكَ .

الرابع - المكاتبه بالبشارة بالسلامة في ركوب الجمعة الثانية من شهر رَمَضَانَ .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة بالديار المِصْرِيَّةِ في الدَّوْلَةِ الفَاطِمِيَّةِ ،
 في المقالة الثانية : أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثانية من شهر رَمَضَانَ إلى الجامع
 الأنور ، وهو جامعُ بابِ البَحْرِ ، الذي عمَّره الحائِمُ بأمر الله ، وجدده الصَّاحِبُ
 شمس الدين المَقْسِيُّ .

وهذه نسخة كُتِّبَ في المعنى ، من إنشاء ابن الصِّيرَفِيِّ أيضا ، وهى :

لم يَزَلْ غَايِرُ كَرَمِ الله وَفَضْلِهِ ، يَفُوقُ حَاضِرُهُ ما كان من قَبْلِهِ ؛ فنعمته الله تعالى
 سابغه ، وَمِنْتَه مُتَتَابِعُهُ ، ومَلَابِسُها ضَافِيَهُ ، ومَغَارِسُها نَامِيَهُ ، ومَحَائِبُها هَامِيَهُ ؛ وهو جَلٌّ

وعزَّ يضاعفها على مَنْ صَلَّى وَصَامَ، ويواليها عند من تَمَسَّكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى التي لا انفصال لها ولا انفصام ؛ وتجدد من ذلك ما كان من بُرُوزِ مولانا وسيدنا الإمام فلان : صَلَوَاتُ الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين ؛ يوم الجمعة من شهر رَمَضَانَ من سنة كذا : في شَاحِخِ عِرْزِهِ، وبَازِيحِ جَبْهِهِ، وتَوَجُّهِهِ إِلَى الْجَامِعِ الْأَنْوَرِ الْمُنْسُوبِ إِلَى مَوْلَانَا الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ جَدِّهِ ؛ سَلَامَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَصَلَوَاتِهِ، وَبَرَكَاتِهِ وَتَحِيَّاتِهِ ؛ وَعَسَاكَرِهِ قَدْ تَجَاوَزَتْ الْحَدَّ، وَكَثُرَتْ عَنِ الْإِحْصَاءِ وَالْعَدِّ، فَإِذَا تَأَمَّلَهَا الطَّرْفُ أَتَقَلَّبَ عَنْهَا حَاسِبًا وَأَرْتَدَّ .

ولما وصل إلى الجامع المذكور خَطَبَ فَأُورِدَ مِنَ الْقَوْلِ أَحْسَنَهُ، وَعَظَّ فَأَسْمَعَ مِنَ الْوَعْظِ أَوْصَحَّهُ وَأَيْبَنَهُ ؛ وَصَلَّى صَلَاةً جَهْرًا بِالْقِرَاءَةِ فِيهَا وَرَتَّلَهَا، وَعَادَ إِلَى قُصُورِهِ الشَّرِيفَةِ وَقَدْ شَمِلَتْ الْبَرَكَاتُ بَرُؤِيَّتَهُ، وَوَفَّقَ مَنْ عَمِلَ بِمَوْعِظَتِهِ، وَنَجَّى مَنْ آقَدَى بِهِ فِي صَلَاتِهِ، وَأَسْتَوَى عَلَى السَّعْدِ مِنْ جَمِيعِ أَرْجَائِهِ وَجِهَاتِهِ . أَعْلَمْنَاكَ ذَلِكَ لِتَعْرِفَ قَدْرَ النِّعْمَةِ بِهِ، فَأَشْكُرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِمَقْتَضَاهُ، وَأَعْتَمَدَ تَلَاوَةَ هَذَا الْأَمْرِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ؛ فَأَعْلَمَ ذَلِكَ .

الخامس — المكتبة بالسَّلامَةِ فِي الرُّكُوبِ فِي الْجُمُعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ شَهْرِ رَمَضَانَ .

قد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة في المقالة الثانية أن الخليفة كان يركب في الجمعة الثالثة منه إلى الجامع العتيق بمصر^(١)، فيخطب فيه ويعود إلى قصره .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، من إنشاء ابن الصَّيْرِي، وهي :

(١) ما تقدم في (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح في أنه كان يركب في الجمعة الثالثة من رمضان إلى الجامع الأزهر، وأنه لا يركب إلى الجامع العتيق إلا في الجمعة الرابعة، التي أهلها هنا ذكره إليها وحاصل ما تقدم أنه يركب في جمع رمضان ماعدا الأولى .

من عوائد الله - سبحانه - الإحسان إلى عبيده ، وتعويضهم للشكر عليه بموهبه
ومزيدة ، والامتنان بتيسير عصبه ، وتعجيل قصيه ، وتقريب بعيده ؛ فهو لا يُخلِّمهم
من نواجمه ، ولا يُفهمهم من هواجمه .

ولما أقبل هذا الشهر الشريف كان من عموم بركاته ، وشُمول خيراته ؛ أن مولانا
وسيدنا الإمام الفلاني صلوات الله عليه وعلى آباءه الطاهرين ، وأبنائه الأكرمين ؛
والى فيه بركاته ، وزكى أعمال المؤمنين فى استماع أخطابه والائتمام بصلاته ؛
وفى هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رمضان ، أعمل ركابه إلى الجامع العتيق بمصر
ليُسبِّحهم لهذه المدينة من حظي الدنيا والآخرة ، مثل ما أسهمه وعجله لأهل المعززة
القااهرة . فكانت هيئته يُعجز وصفها كل لسان ، وظهر - عليه السلام - فى الردائين :
السيف والطيلسان ؛ والجوش قد أنبسطت وأنتشرت ، والنفوس قد أتهجت
وأستبشرت ، والألسنة قد عكفت على الدعاء بتخليد ملكه وتوفرت . وعند وصوله
خطب فأحسن فى الألفاظ والمعاني ، وحدد من تأخير التوبة والتضجيع فيها
والتوانى ؛ وصلى صلاة شرفها الله وفضلها ، ورضيها تبارك وتعالى وتقبلها ؛ وأنكفا
عائدا إلى قُصوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثوابه وأجره ، وأوجب شكره
ورفع ذكره ؛ ويجب أن تعتمد إذاعة ذلك لِيَبَالِغَ الكفاة فى الاعتراف بالنعمة فيه ،
ويواصلوا شكر الله تعالى عليه ، والمطالعة بما أعتمد فيه .

السادس - ما يكتب بالبشارة بالسلامة فى رُكُوب عيد الفطر .

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية فى المقالة الثانية : أن الخليفة

كان يركب لصلاة عيد الفطر صبيحة العيد ، ويخرج من باب العيسد من أبواب

القصر، ويتوجه إلى [المُصَلِّي] ^(١) فُيَصَلِّي وَيُحْطَبُ، ثم يعود إلى قصوره، ويكتب بذلك إلى أعمال المملكة، تارةً مع خُلُوِّ الدَّوْلَةِ عن وزيرٍ، وتارةً مع اشتغالها على وزيرٍ .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك، مع خُلُوِّ الدولة عن وزيرٍ، من إنشاء ابن الصيرفي، وهو :

الحمد لله ناشر لوائه في الأقطار، ومعوّض المطيعين من جزائه بلوغ الأوطار، الذي نسخ الإفطار بالصيام ونسخ الصيام بالإفطار؛ وكف عباده ما يطيقونه ووعده عليه جزيل أجره، وأسبغ من نعمه ما لا يطعم [في القيام] بواجب حمده عليه وشكره؛ وصلّى الله على سيدنا محمد نبيه الذي أعلن بالإيمان وبأح، وبين المحظور في الشريعة والمباح؛ وأرشد إلى ما حرّمه الإسلام وحلّله، ومهد سبل الهدى لمن استغواه الشيطان وضلّله؛ وأوضح مراتب الأوقات ومنازلها، وعرف تفاوت الأيام وتفاضلها؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الذي مضت في الله عزّ مائه، وبيّضت وجه الدين الحنيف مواقفه ومقاماته؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الذين تكفّلوا أمر الأمة نصّاً، وأمتطّوا على منارها فلم يألوا جهداً ولم يتركوا حرصاً؛ فال حاضر منهم يوفى على من كان [من] قبليه، وأحزاب الحق فرحون بما آتاهم الله من فضله؛ وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقطاع لدوامه، وشرفهم تشریفاً لا انفصام لإبرامه؛ وأسنى ومجّد، وتابع وجدّد .

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد الفطر من سنة كذا : بعد أن وفي الصيام حقّه، وحاز أجر من جعل الله على خزائنه رزقه؛ وبعد أن أفطر بحضرة الأولياء من آله وأسرته، والمقدّمون من رؤساء دولته، والمتميزون من أوليائه

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم في هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣) .

وَشِيعَتِهِ . وكان من نبأ هذا اليوم أن أمير المؤمنين لما أرتقب بروزه من قُصوره ،
 وتجلّى فأشرقت الأرض بنوره ، توجه إلى المصلّى قاضياً لسنة العيد ، فكانت نعمة
 ظهوره بالنظر [للحاضر] وبالخبر للبعيد ؛ وأستقلّ ركابه بالعساكر المنصورة التي أبدت
 منظرًا مُفتنًا مُعجبا ، وجعلت أديم الأرض بالحلل والرجل مُحجّبا ، وذخرت الأتقَامَ
 من شقّ العَصَا ، وتجاوزت في الكثرة عدد الرمل والحصا ؛ وزينت الفضاء بهيبتها ،
 وروعت الأعداء بهيبتها ؛ وجمعت بين الطاعة وشدة البأس ، وأدرعت من التقوى
 أمنع جنة وأحصن لباس ؛ ولم يزل سائرا في السكينة والوقار ، ناظرا للدينا بعين
 الاحتقار ؛ والثرى بالجباه والشفاه مصافح ملثوم ، فهما موسومتان به وهو بهما
 موسوم ؛ إلى أن وصل إلى مقرّ الصلاه ، ومحلّ المناجاة ؛ فصلى أتم صلاة وأكملها ،
 وأداها أحسن تأدية وأفضلها ؛ وأخلص في التكبير والتهليل إخلاص من لم يفت
 أمرا وينحى الله ويتقيه ونصح في إرشاده ووعظه ، وأعرب ببدیع معناه وفصیح
 لفظه ؛ وعاد إلى منوى كرامته ، وفلك إمامته بحمود المقام ، مشمولا بالتوفيق
 في التقض والإبرام . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتذيعه فيمن قبلك ، وتشكروا الله
 على النعمة الشاملة لهم ولك ؛ فأعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى . وكتب
 في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدولة مشتملة على وزير ، عن الحافظ
 لدين الله العلوي خليفة الديار المصرية ، في سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، وهي :

الحمد لله الذي أعز الإسلام وشيّد مناره ، وأيد أوليائه ونصر أنصاره ؛ وأظهر
 في مواسمه قوته وأستظهاره ، وختم الشرائع بشرف أبدى فكان حظها منه إيثاره ،

وَحَظَّ الْإِسْلَامَ أَسْتَبْدَادَهُ بِهِ وَأَسْتِثَارَهُ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَىٰ جَدِّنا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَرَّمَهُ بِاصْطِفَائِهِ ،
 وَأَسْعَدَ مِنْ حَافِظٍ عَلَىٰ اتِّبَاعِ نَهْجِهِ وَأَقْتِفَائِهِ ؛ وَبَيَّنَّ بِشَرْعِهِ مَا حَلَّلَهُ وَحَرَّمَهُ ، وَدَعَا
 الْأُمَّةَ بِإِرْسَالِهِ إِلَىٰ دِينٍ قِيمٍ أَعْلَىٰ بِنَاءِهِ وَأَحْكَمَهُ ؛ وَوَعَدَهُمْ عَلَىٰ مَقْرُوضِهِ وَمَسْنُونِهِ جَزِيلَ
 الْأَجْرِ ، وَأَمَرَ فِي أَعْتِقَادِ خِلَافِهِ بِالذَّفْعِ وَالْمَنْعِ وَالزَّجْرِ ؛ وَعَلَىٰ أُخِيهِ وَابْنِ عَمِّهِ أَبِينَا
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوَّلِ الْأُمَّةِ الْخُلَفَاءِ ، وَالْمُشْتَهَرَةِ فِضَائِلُهُ أَشْتَهَارَا
 لَيْسَ بِهِ مِنْ حَقَاءٍ ؛ وَمَنْ حَبَاهُ اللَّهُ الْمَحَلَّ الرَّفِيعَ وَالْمَنْ الْجَزِيلَ ، وَخَصَّهُ مِنَ الشَّرَفِ
 بِمَا جَاءَ فِيهِ مِنْ مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ ؛ وَعَلَىٰ الْأُمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتَيْهِمَا الْقَائِمِينَ بِفَرْضِ اللَّهِ وَالْمُؤَدِّينَ
 لِحُقُوقِهِ ، وَالَّذِينَ كَفَلَتْ أَمَانَتَهُمْ بِأَبْسَاطِ نُورِ الْحَقِّ وَأَنْتِشَارِ لُؤَائِهِ وَخُفُوقِهِ ؛ وَسَلَّمْ
 وَكْرَمْ ، وَبِحَمْدِ وَعَظْمِ .

وَكِتَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ يَوْمَ كَذَا عِيدِ الْفِطْرِ مِنْ سَنَةِ إِحْدَىٰ وَثَلَاثِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ،
 الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ فِيهِ بِمَا نَهَىٰ عَنْهُ مِنْ قَبْلِهِ ، وَضَاعَفَ الْأَجْرَ بِكَرَمِهِ وَفَضَّلَهُ ؛ فَرَفَعَ تَكَالِيفَ
 الصَّوْمِ ، وَأَوْجَبَ الْإِفْطَارَ فِي هَذَا الْيَوْمِ ؛ وَسَاوَىٰ فِي ذَلِكَ [بَيْنَ] كُلِّ مُتِمِّهِ وَمُنْجِدِ ،
 وَأَمَرَ بَنِي آدَمَ فِيهِ بِأَخْذِ الزَّيْتِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ؛ وَكَانَ مِنْ خَبْرِهِ أَنَّ الْفَجْرَ لَمَّا طَلَعَ
 مُبَشِّرًا بِالشَّمْسِ ، وَمُؤَذِّنًا بِبَعْثِهَا مِنَ الرَّمْسِ ؛ فَتَابَعَتِ الْجُيُوشُ الْمَوْفُورَةَ ، وَالْعَسَاكِرُ
 الْمَنْصُورَةَ ؛ إِلَىٰ أَبْوَابِ الْقُصُورِ الزَاهِرَةِ تَوَكُّفًا لِأَنْوَارِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَتَرَقُّبًا لِظَهْوَرِهِ
 قَاضِيًا حَقَّ الدِّينِ ؛ فَلَمَّا أَسْفَرَ الصُّبْحُ وَأَضَاءَ ، وَمَلَأَتْ الْخَلَائِقُ الْفَضَاءَ ؛ تَجَلَّىٰ مِنْ
 أَفْلَاكِ إِمَامَتِهِ ، وَبَرَزَ فَأَغْطَىٰ كُلُّ مُؤْمِنٍ بِنَبَاتِهِ عَلَىٰ الْمَشَايِعَةِ وَإِقَامَتِهِ ؛ وَكَانَ ظَاهِرًا
 وَهُوَ مُحْتَجِبٌ بِالْأَنْوَارِ ، وَمُتَمَنِّعًا وَهُوَ مُنْتَهَبٌ بِالْأَبْصَارِ ؛ وَالْكَافَّةُ يُصَاحِبُونَ الْأَرْضَ
 وَيَحْتَرِدُونَ فِي الدَّعَاءِ بِإِخْلَاصِ نِيَّاتِهِمْ ، وَالْعَسَاكِرُ الْمُؤَيَّدَةُ لَوْ أَنَّهَا عَمَّتِ الْأَرْضَ
 بِنَطْقِهَا ، وَسَاوَتْ بَيْنَ قَرَبِيهَا وَسَحِيقِهَا ؛ وَصَارَتْ كَالْجِبَالِ الرَّوَاسِي فِيهَا ، لَكَانَتْ
 قَدْ تَزَلْزَلَتْ وَمَادَتْ بِأَهْلِهَا ، وَهِيَ مَعَ تَبَائِنِ أَجْنَاسِهَا وَطَوَائِفِهَا مُتَطَافِرَةٌ عَلَىٰ مُعَانِدِي

الدولة ومخالفها، متلامة على الولاء، متمالئة على الأعداء، تتلفت إلى المجاهدة كأنها الأسود إقداماً وبأساً، وكأما فصلت جوامد الغدران سلاحاً لها وليأساً، والسيد الأجل الأفضل التي عظمت به المواهب وجلت، وذهبت بوزارته الغياهب وتجلت، وتهلل بنظره وجه الملة وكان عانسا، وأعاد الدولة معصراً وقد كانت قبله عانسا، وحسنت الدنيا بأيامه إذ ليس فيها من يضايه، وانتظمت أمورها على الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيه، ترتب المواكب بمهاتيه، ويستغنى بتوغلها في القلوب عن إيمائه وإشارته، وكل طائفة مقبلة على شانها، لازمة لمكانها، متصرفة على تهذيبه وتقريره، عاملة بأدابه: فوقوقها بوقوفه ومسيرها بمسيره.

وتوجه أمير المؤمنين إلى المصلى مخفواً بأنوار تجللى ما أنشأته سنابك الخليل، وتمحو آية تقع مئارها مقام ظلام الليل، وعليه من وقار الإمامة، وسكينة الخلافة، ما خصه الله تعالى به دون البرية وحده، لأنه مما ورث أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وجده، ^(١) ولما انتهى إليه قصد [المحراب] ^(٢) وأدى الصلاة ^(٣) أكمل أداء وأتمه، ثم انتهى إلى المنبر فعلاه، ومجدد الله تعالى وحده على ما أولاه، ووعظ وعظاً خوفاً عاقبة المعاصي والذنوب، وحل وكاء العيون ودأوى مرض القلوب، وأمر بسلوك سبيل الطاعات وأفعال البر، وحث على التوفى عليها في الجهر والسرى، وعاد إلى قصوره المكرمه، ومواطنه المقدسه، وقد بذل في نصحه لله ولرسوله وللمؤمنين جهده، وفعل في الإرشاد والهداية ما لا غاية بعده.

(١) كذا بالأصل .

(٢) بياض بالأصل، والتصحيح من المقام .

(٣) في الأصل «إلى المحراب فصلاه» ولا معنى لها .

أنبأك أمير المؤمنين خبر هذا اليوم لتشكر الله على النعمة فيه ، وتُدعيه قبلك على
الرسم فيما يُجاريه ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .

السابع — ما يكتب بالبشارة بالسلامة في ركوب عيد النحر .

قد تقدم في الكلام على ترتيب دولة الفاطميين في المقالة الثانية أن الخليفة كان
يركب لصلاة عيد النحر كما يركب لصلاة عيد الفطر، تارة مع آشتمال الدولة على
وزير، وتارة مع عدم آشتمالها على وزير .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، من إنشاء ابن الصيرفي ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله الذي أعلّى منار الله ، وشرف مواسم أهل القبلة ؛ وكفل
أمير المؤمنين أمر الأيام ، كما كفله أمر الأنام ، فرأى الناس من حسن سيرته أيقاظاً
ملايرونه مجازاً في المنام ؛ وصلى الله على جدنا محمد نبيه الذي أرسله إلى الناس كافة ،
وجعل العظمة مُحيطَةً به حاقه ؛ فأطلع في ظلام الشرك شمس التوحيد وبدره ،
وآمن به من شرح الله للإسلام صدره ، وعصاه من تمزّد فأتقل الوزر ظهره ؛ وبين
عبادات كرم أجرها وعظم ثوابها ، وألزم طاعات جعل الجنة للعاملين بها مفتحةً
أبوابها ؛ وعلى أخيه وابن عمه أمير المؤمنين على بن أبي طالب مظافره ومظاهره ،
والمساوي في حكمه بين باطنه وظاهره ؛ ولم يزل حاملاً على المحجة البيضاء جاعلاً ذلك
من قربه وذخائره ، قائماً بحقوق الله جاهداً في تعظيم حرّماته وشعائره ؛ وعلى الأئمة
من ذريتهما نجوم الأرض وهداة أهلها ، والواجبة طاعتهم على من في وعبرها
وسهلها ؛ والدائين بالمشرفية عن حمى الشريعة ، والذين متابعتهم من أوجه ذريعه .

وكتب أمير المؤمنين هذا إليك يوم كذا عيد النحر سنة كذا وكذا : وهو يوم

أظهر الله فيه قوة الدولة وأقدارها ، وأوجب فيه — رغبة ورهبة — مسارعة النفوس

المخالفة إلى الطاعة وأبتدأها؛ وذلك أن عساكر أمير المؤمنين توجهت إلى قُصوره الزاهرة عند أنفجار الفجر، وحافظت على ما تحرّره من كريم الثواب وخزير الأجر؛ وأستزلت الرحمة برؤية إمام الأمة، وأعدت الإخلاص في خدمته من أوفى الحرّات وأقوى الأذمة؛ وأقامت إلى أن برز أمير المؤمنين والأنوار الساطعة طواله، ومهابته تمنع كل طرف من استقصاء تأمله وتدفعه؛ وقصد المصلّي في كتابه، ومواكب التعظيم مستوحيه؛ وعزّة نبيين في الشائيل والصفحات، وقوة يشهد بطيب وصفها أريج الصفحات؛ قد غدت عددها محكمه؛ وخيولها مطهّمة؛ وذوابها إذا ظمّنت كانت مقومه، وإذا رويت عادت محطّمة؛ تتقلد صفايح متى أنتضيت أنصفت من الحائر الحائف، ومتى أنتضبت عملاً كان اقتضابها مبيّضاً للصحائف؛ وفي ظلها معاقل للأئدين، ومجدّها مصارع للأئدين؛ وهى للدماء هوارق، وللهمات فوالق، ولستغلق البلاد مفايح ولستفتحها مغالق .

ولما انتهى إلى المصلّي قضي الصلاة أحسن قضاء وأداها أفضل تأديه، وأستزل رحمة لم تزل بصلاته متماديه؛ وأنهى إلى المنبر فريقيه، وخطب خطبة من استخلفه الله فكان مراقبه ومتقيه؛ ووعظ أبلغ وعظ، وأبان عمّا للعامل بوضحه في الدنيا والآخرة من فائدة وحظ . وعطف على الأضحى المعدة له فحرّها جرياً في الطاعات على فعلها المتهادي، وأضحّت تتوقع التكميل بإنجازه وعيده في الأعدى؛ فالله يقضى بتصديقه، ويمنّ بخياله وتحقيقه؛ وعاد إلى قُصوره المكرّمة مشكوراً سعيه، مضموناً نفعه؛ مرضياً فعله، مشمولاً عيده منه بما هو أهله . أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وأعمل به . وكتب في اليوم المذكور .



وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، والدولة مشتملة على وزيره ، من إنشاء ابن قادوس ، وهي :

أما بعد ، فالحمد لله ماحي دنس الآثام بالحج إلى بيته الحرام ، وموجب الفوز في المعاد لمن عمل بمرشد أئمة الهدى الكرام ، ومضاعف الثواب لمن اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، ومحوّل الغفران لمن كان بفرائض الحج ونوافله شديد اللوعة والغرام ، وصلى الله على جدنا محمد الذي لبى وأحرم ، وبين ما أحل الله وحرم ، وعلى أخيه أئمة المؤمنين على بن أبي طالب الذي ضرب وكبر ، وحقر من طغى وتجبّر ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الدين ، وحُوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم .

وإن من الأيام التي كملت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عزّ صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة كذا : وكان من قصصه أن الفجر لما سلّ حسامه ، وأبدى الصباح أبشامه ، نهض عبيد الدولة في جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور الزاهرة متبركين بأفئتها ، ومستملين بسعادتها ، وتألّفوا صفوفًا تبهر النواظر ، ويحجل تألّفها تألّف زهر الرّوض الناضر ، مستصحين فنونا من الأزياء تروق ، ومستتبعين أصنافًا من الأسلحة يعرض لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام خافقه ، والرايات بألسنة النّصر ، على الإخلاص لإمام العصر ، متوافقه ، فأقاموا على تسوّف لظهوره ، وتطلّع للتبرك بلامع نوره .

ولما بزغت شمس سعادته، وجرت الأمور على إيثاره وإرادته؛ وبدت أنوار الإمامة الجليلية، وظهرت طلعتها المعظمة البهية؛ نحر الأنام سُجوداً بالدعاء والتمجيد، والاعتراف بأنهم العبيدُ بنو العبيد؛ وأستقل ركاب أمير المؤمنين، ووزيره السيد الأجل الذي قام بنصر الله في إنجاد أوليائه، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه؛ ونأصل عن حوزة الدين وجاهد، ونأصل أحزاب الكفار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزارة، وتدير الدولة تدير أولى الإخلاص والطهارة؛ ويتبع آراء أمير المؤمنين فيما تنفذ به أوامره، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره؛ ويحسن السياسة والتدبير، ويتوخى الإصابة في كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير؛ ويخلص لله جل وعز وإمامه، ويكفكف من الأعداء بيدل الجهد في أعماله لهذمه وحسامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكر متتابعة في أثره، متوافقة على أمثال أمره؛ قد رفعت السنابك من العجاج سحاباً، وخيلت جنن الجند للناظرين في البرعبابا؛ والحياض المسومة تروج في أعينها، وتختال في مراكبها وأجلتها؛ وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً، وتفيد المتعرض لوضفها إفراطاً، وتهدي لمن يحاول مماثلتها غلواً وأشتطاطاً؛ وأصوات مرتفعة بالتهليل، وأصوات الحديد تُسمعُ بشائر النصر بترجمة الصليل؛ ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل، وترض سنابكها الهضاب وتغدو صلابها كالكتيب المهيل.

ولما انتهى ركاب أمير المؤمنين إلى المصلّى والتوفيق يكتنفه، والسعادة تصرفه؛ قصد المحراب فأقام الصلاة، ونحا المنبر فشرّفه إذ علاه؛ وأدى الصلاة على أكل الأوضاع وأتمّها، وأجمع [الأحوال] لمراضى الله وأعمّها؛ وأنثى البذن المعدة فنحر ما حضر تقرّباً بالخالق، وأجرى القانون على حقائقه؛ وعاد إلى قصوره الزاهرة وقد غفر الله بسعيه الذنوب، وطهر برويته القلوب، وبلغ الأمم من المرشد نهاية المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأ هذا اليوم الذي تشتمل المسار على جميعه أولاً وآخراً ،
 وباطناً وظاهراً ؛ لتذيع نبأه في عمل ولأيتك ، وتشييع خبره في الرعايا على جارِي
 عادتك ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجاس النظر السیدی الأجلی بما أعمدته
 في ذلك ، إن شاء الله تعالى . وكتب في اليوم المذكور .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات قد رُفِصَ وتُركَ استعماله بديوان الإنشاء
 في زماننا .

الصنف السادس عشر

(المكاتبة بالبيشارة بوفاء النيل والبيشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج)

وهذه المكاتبة من خصائص الديار المصرية ، لا يشاركها فيها غيرها من الممالك .
 ولم يزل القائمون بالأمر بالديار المصرية من قديم الزمان وهلم جرا يكتبون بالبيشارة
 بذلك إلى ولاة الأعمال ، اهتماماً بشأن النيل ، وإظهاراً للسُرور بوفائه ، الذي يترتب
 عليه الخصب المؤدى إلى العمارَة وقوام المملكة ، وانتظام أمر الرعية . وقد كان للخلفاء
 الفاطميين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبير العناية ووافر الاهتمام ؛ وكانت
 عادتهم في ذلك أنهم يكتبون بالبيشارة بوفاء النيل كتباً مفردة ، وفتح الخليج
 وهو المعبر عنه في زماننا بالكسر كتباً مفردة . ولعل فتح الخليج كان يتراخى في زمنهم
 عن يوم الوفاء ، فيُفردون كل واحد منهما بكتب .

فأما وفاء النيل المبارك فهذه نسخة كتاب البيشارة به في الأيام الفاطمية ،
 من إنشاء ابن قادوس ، وهي :

النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ؛ فأولها بشكر تُنشر
 في الآفاق أعلامه ، وأعتدَادِ مُحْكَمٍ بإدراك الغايات أحكامه ؛ نعمة يشترك في النفع بها

العباد، وتبْدُو بركتها على الناطق والصابم والجماد، وتلك النعمة النيل المِصرى الذى تبرز به الأرض الجُرْز في أحسن الملابس، وتظهر حُلل الرِّياض على القيعان والبسائس؛ وتُرى الكُنوز ظاهرة للعِيان، مُتبرجةً بالجواهر والألجِين والعِقيان؛ فُسْبُجان من جعله سبباً لإنشار المَوآت، وتعالى من ضاعف به ضروب البركات، ووفّر به موادّ الأرزاق والأقوات؛ وهذا الأمر صادرٌ إلى الأمير، وقد منّ الله جلّ وعلا بوفاء النيل المبارك، وخُلع على القاضى فلان بن أبى الرِّدادِ في يوم كذا وكذا، وطاف بالخَلع والتشريفات، والمَوَاهب المُضاعفات؛ بالقاهرة المحروسة ومصر على جارى عادته، وقديم سيرته؛ ونوْدَى على الماء بوقائه ستة عشر ذراعاً وإصبعاً من سبعة عشر ذراعاً؛ وأستبشر بالنعمة بذلك الخلاق، وواصلوا بالشكر مواصلةً لا تستوقفهم عنها العوائق؛ وبدأ من مسرات الأمم وأبتهاجهم ما يضمن لهم من الله المزيد، ويُنيلهم المنال السعيد، ويقضى لهم بالمآل الحميد. ومُوصِّل هذا الأمر إليك فلان، فاعتمد عند وُصوله إليك إكرامه وإعزازَه، وإجمال تلقّيه وإفضاله؛ إلى ما جرت به عادة مثله من رجاءٍ وتوْيه وأحتفاء، وإكرام وأعتناء؛ ليعود شاكرًا. فاعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء ابن الصيرفى، وهى :

أولى ما تحدّث به ناقله وراويه، وتَجَلَّ المَسرة به حاضره ورأيه، ما كانت الفائدة به شائمةً لا تتعزى، والنعمة به ذائمةً لا يتخصّص أحدٌ بشمولها ولا يميز؛ إذ كان علةً لتكاثر الأقوات، وبها يكون الثمائل فى البقاء والتساوى فى الحيات؛ وذلك ما منّ الله تعالى به من وفاء النيل المبارك : فإنه انتهى فى يوم كذا من سنة كذا، إلى ستة عشر ذراعاً وزاد إصبعاً من سبعة عشر ذراعاً؛ وقد سيرنا أيها الأمير فلانا

بهذه البشري إليك ، وخصصناه بالورود بها عليك ؛ فتلقها من الشكر بمستوجبها ،
وأستقبلها من الأبتهاج والأعتباط بما يليق بها ؛ وأجعل الرسوم التي جرت العادة
بتوظيفها لفلان بن أبي الرداد محمولةً من جهتك إلى حضرتنا ، لتولى إليه من جهتنا ؛
فاعمل هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب في اليوم المذكور .

وهذا الصنف من المكاتبات متداول بالديار المصرية إلى آخر وقت ، يكتب به
في كل سنة عن الأبواب السلطانية إلى نواب السلطنة بالمالك الشامية عند وفاء
النيل ، وتسير به البريديّة ؛ وربما جى للبريدي من المالك شيء بسبب ذلك .
وإذا كانت الدولة عادلة ضمن الكتاب أنه لا يجي للبريدي شيء بسبب ذلك .



وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك .

ولا زال يروى عنه وإليه حديث الوفاء والنّدا ، ويورد على سمعه الكريم نبأ
الخصب الذي صفا موردا ؛ ويهني بكلّ نعمة تكفّلت للرعايا بمضاعفة الجود
ومرادفة الجدا ، ويخص بكلّ منة عمّت مواهبها الأنام فلن تنسى أحدا .

صدّرت هذه المكتابة إلى الجناب العالي : ومجرّ كرمها لا يتهى إلى مدى ،
ويشربُ بشرها دائماً أبدا ؛ تهدي إليه سلاماً مؤكدا ، وثناء أضخى به الشكر مرّدا ؛
وتوضّح لعالمه الكريم أن الله تعالى قد أجرى على جميل عاداته ، وأراد بالأمة من الخير
ما هو المألوف من إراداته ؛ ومنح مزيد النعم التي لم تزل تُعهد من زيادته ؛ فأسدى
معروفة المعروف إلى خلقه ، وأيدهم بما يكون سببا لمادة عطاءه ورزقه ؛ فبلغهم
تأميلهم ، وأجرى نيلهم ؛ وزادهم بسطة في الأرض ، وملا به الملا وطبق به البلاد
طولها والعرض ؛ ونسّر على الخافقين لواء خصبه ، وأتى بعسكر ربه لقتل المحل

وجَدَيْهِ ، وبينما هو في القَاصِ إذ بلغ بأذن رَبِّهِ ؛ بفعل من الدَّهَبِ لِبَاسِهِ ، وعَطَّرَ
بالشَّدَا أنفاسَهُ ؛ ولم يترك خِلالَ قُطْرٍ إلا جاءه بِقَاسِهِ ، ونَصَّ السِّيرَ فسيرَ نَصَّ مجيئه
في الأرضَ لَمَّا صحَّحَ بالوفاءِ قِيَاسَهُ ، وغازلته الشمسُ فكسَّته حُمرةً أصيلها لما غَدَت
له بمشاهدتها مَاسَهُ ؛ ولم يكن في هذا العام إلا بمقدار ما قِيلَ : أقبَلْ إذ قِيلَ : وُقِيَ ،
ومدَّ في الزيادة بَاعًا وبَسَطَ ذِرَاعًا ، وأطلق بمَوَاهِبِ أصابعه كَفًّا ؛ وعاجل إدراكَ الهَرَمِ
في آبتداءِ أمرِهِ مطالَ شَبَابِهِ ، ومَرَّ على الأرضِ فَحَلَا في الأفواه لَمَّا سَاغَ شُكْرُ سَائِغِ
شَرَابِهِ ، وأَعتمدَ على نَصِّ الكُتَابِ العَزِيزِ فكاد أن يَدْخُلَ كُلَّ بَيْتٍ من بَابِهِ .

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القِطْبِ بادرتُ إلى الوفاءِ
شِيمِهِ ، وأغثتُ أمواجهُ عن مِينَةِ السُّحْبِ فَدُمْتُ عندها دِيمَهُ ؛ وزار البلادَ منه أَجْلُ
صَيِّفِ فَرَشَتْ له صَفْحَةَ خَدِّها للقرى فَعَمَّها كَرَمُهُ ؛ وبلغ من الأذْرُعِ ستة عشر ذراعًا
ورفع لَوَاعَهُ بالمزيد ونَشَرَ ، وجاء للبشرِ بأنواعِ البُشرِ ؛ فرسمنا بتعليقِ سِترِ مِقْيَاسِهِ ،
وتَحْلِيْقِهِ وتَضْوِيعِ أنْقَاسِهِ ؛ وفي صبيحة اليوم المذكور كَسِرَ سَدُّ خَلِيْجِهِ على العاده ،
وبلغ الانام أفضى الإِرادَةِ ؛ وتبشر بذلك العامُ والخاصُ ، وأعلنت الأُنْسَةُ بِمُجْدِ
رَبِّها بالإِخْلَاصِ ؛ وَسَطَّرَها وهو بفضلِ الله ورحمته مُتَتَابِعِ المَزِيدِ ، بَسِيطِ بَحْرِهِ
المديد ، مُتَجَدِّدِ التَّمَوُّ في كُلِّ يَوْمٍ من أَيَّامِ الزَّيَادَةِ جَدِيدِ . فالجناب العالى يأخذ من
هذه البُشرى بأَوْفَرِ نَصِيبِ ، ويشكر نِعْمَةَ الله على ما مَنَحَ - إن شاء الله - هذا العامَ
الْحَصِيبِ ؛ وَيُدْبِعُ لها خَبْرًا وَذِكْرًا ، وَيُضَوِّعُ بَطْنًا هَنَأُها نَشْرًا ؛ ويتقدم بأن لا يُجِئُ
عن ذلك بِشَارَةٍ بِالْجُمْلَةِ الكافية ، لتَغْدُو المِنَّةُ تَامَةً والمَسْرَةُ وَافِيَةً ؛ وقد جهزنا بهذه
المكتبة فلانا ، وكتبنا على يده أمثلة شريفة إلى نَوَابِ القِلاَعِ الفلانية [جربا] على
العادة ، فيتقدم بتجهيزه بذلك على عادة هِمَّتِهِ ، فيحيطُ عِلْمُهُ بذلك .

(١) بياض بالأصل مقدار كلمة والتصحيح يقتضيه المقام .



وهذه نسخة أخرى في معنى ذلك، كُتِبَ بها في سابع عشر ذى القعدة سنة ست وستين وسبعائة، وصورتها بعد الصدر :

وَبَشِّرْهُ بِأَخْصَابِ عَامٍ ، وَأَخْصِ مَسَرَّةَ هَنَاؤُهَا لِلْوُجُودِ عَامٍ ، وَأَكْمِلِ نِعْمَةَ تَقَابُلِ
العالم من عيون الأرض بمزيد الإنعام .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدِي إليه أتمَّ سَلامٍ ، وأعمَّ ثناء تامٍ ؛
وتوضِّح لعالمه الكريم : أن الله تعالى - وله الحمد - قد جرى في أمر النيل المبارك على
عوائد أطرافه ، ومنح عباده وبلائه من مديد نعمة مزيد إسعافه ؛ وأورد الآمال
من جوده مَهلاً عُدبا ، وملاًها به إقبالا وخصباً ؛ وأحيا به من موات الأرض
فاهتتت وربت ، وأنبت كلَّ بهيج وأنجبت ؛ وأينعت الرياض بخرت فيها الروحُ
ودبت ، وأمتلأت الحياض ففاضت بالمياه وأنصبت ؛ وطلع كالبدر في آزياده ،
وتوالى على مديد الأرض بأمداده ؛ إلى أن بلغ حدّه ، ووصل القرح ومنع الشده ؛
وفي يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القبط ؛ وفاه الله ستة عشر
ذراعا فاه فيها بالنجح ، وعم ترأه الأرض فأشرق بعد ليل الجذب بالرخاء أضواً صبيح ؛
وفي ذلك اليوم علق ستره ، وخلق مقياسه فاشتهر ذكوه ، وكسر سده ، وتوالى مده ،
ونجز من الخصب وعده ؛ وعلا الترغ والجروف ، وقطع الطريق فأمّن من الجذب
الخوف ؛ وأقبل بوجهه الطلق الحيا ، وأسبل على الأرض لباس النفع فبدلها بعد
الظميرياً ؛ فحمدنا الله تعالى على هذه النعم ، ورأينا أن يكون للجناب العالى أوفر
نصيب من هذا الهناء الأعم ؛ وآثرنا إعلامه بذلك : ليكون في شكر هذه النعمة أكبر
مشارك ؛ فالجناب العالى يأخذ حظّه من هذه البُشرى ، ويتحقّق ماله عندنا من

المكانة التي خصّته في كلّ مُهَبَّجَةٍ بِالذِّكْرِ؛ ويتقدّم أمره الكريم بأن لا يُجِبُّ
عن ذلك حقّ بشاره، ولا يتعرّض إلى أحدٍ بخساره؛ وقد جهّزنا بذلك فلانا .

الصنف السابع عشر

(فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير بخطّ اللوق)

عند وفاة النيل في كلّ سنة)

وهو مما يتكرر في كلّ سنة عند ركوب الميدان ، ويكتب به إلى جميع النواب
الأكابر والأصاغر ؛ وتجهّز إلى أكابر النواب خيولٌ مُحَبَّبة المثل الشريف ، ويرسم
لهم بالركوب في ميادين الممالك لِلْعِبِّ الكُرّة ، تأسّيّاً بالسلطان ؛ فيركبون ويلعبون
الكُرّة . والعادة في مثل ذلك أن تُنْشَأَ نسخةُ كتاب من ديوان الإنشاء الشريف ،
ويكتب بها إلى جميع النواب ، لا يختاف فيها سوى صدرها ، بحسب ما يقتضيه
حال ذلك النائب .

وهذه نسخة مثال شريف في معنى ذلك ، كُتِبَ به في ذى القعدة سنة ستين
وسبعائة لنايب طرابلس ، وصورته بعد الصدر :

ولا زال يُحْمَلُ إليه أنباء ما يبرد غلته من مضاعفة السرور ، وتبث له أقوال الهناء
بما يجبُّ غلته من النصر الموفور ، وتخصّصه من إقبالنا الشريف بأكل تكريم
وأتمّ حبور .

صدرت هذه المكتبة تُهدى إليه من السلام والثناء كذا وكذا ، وتوضّح لعلمه الكريم
أننا نتحقّق مضاء عزائم حرباً وسلاماً ، وأعتلاء هممه التي تُحرّس بها الممالك ونُجِّى ؛

وَأَنْ صَوَّافِنَهُ تُرْتَبَطُ لُتْرَكُضَ ، وَتُحْبَسُ لَتَنْهَضَ ؛ فَلذَلِكَ نُعَلِّمُهُ مِنْ أَنْبَاءِ أَسْتَظْهَارِنَا مَا يُبْهِجُ خَاطِرَهُ ، وَيُقِرُّ نَاطِرَهُ ؛ وَهُوَ أَنَّنَا لَمَّا كَانَ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارِكِ خَامِسِ سُؤَالَ ، تَوَجَّهَ رِكَابُنَا الشَّرِيفُ إِلَى الْمَيْدَانِ السَّعِيدِ وَفَاضَ بِهِ جُودُنَا فَأَخْضَرَتْ مَرْوَجُهُ ، وَظَهَرَ بِهِ نَيْرَانَا الْأَعْظَمُ فَأَشْرَقَتْ آفَاقُهُ وَتَشَرَّفَتْ بِرُوجِهِ ، وَأَقْرَّ الْعَيُوبَ مِنْبِرُ وَجْهِنَا الْمُبَارِكِ وَبَهَّجَهُ ؛ وَغَدَا كُلُّ وَلِيٍّ بِمَوْلَاةٍ إِنْعَامِنَا مَشْمُولًا ، وَبِمَنَالَاتٍ إِكْرَامِنَا مُوصُولًا ؛ وَرَكَضَ الْأَوْلِيَاءُ بَيْنَ أَيْدِينَا جِيَادًا أَلْقَتْ نِزَالًا وَعَرَفَتْ طِرَادًا ، وَأَنْعَطَفَتْ لِينًا وَأَنْقِيَادًا ؛ وَعَدْنَا إِلَى مُسْتَقَرِّ مَلِكِنَا الشَّرِيفِ وَقَدْ جَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَى لَنَا إِسْعَادًا ، وَأَيَّدَ لِعَزْمِنَا الْمَعَانِ مَبْدَأً وَمَعَادًا ؛ وَآتَرْنَا إِعْلَامَ الْجَنَابِ الْعَالِي بِهَذِهِ الْوِجْهَةِ الْمِيْمُونَةِ ، وَالْحَرَكَةَ الَّتِي هِيَ بِالْبَرَكَةِ مَقْرُونَةٌ : لِيَأْخُذَ حَظَّهُ مِنَ الشَّرُورِ بِذَلِكَ وَالْهِنَا ، وَيَتَحَقَّقَ مِنْ إِقْبَالِنَا الشَّرِيفِ عَلَيْهِ مَا يَبْلُغُ بِهِ الْمُنَى .



وهذه نسخة مثالي شريف في المعنى ، كُتِبَ بِهِ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ شَعْبَانَ ، سَنَةِ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . وَصُورَتُهُ بَعْدَ الصَّدْرِ :

وَلَا زَالَتْ مِيَادِينُ سَعْدِهِ لَا تَنْتَاهِي إِلَى مَدْيِ ، وَكُرَاتُ كِرَاتِهِ فِي رِحَابِ النَّصْرِ تَلْمَعُ كَنْجَمِ الْهُدَى ؛ وَمُدُورٌ صَوَالِحِهِ كَشَوَاحِرِ الْمُرَّانِ تَحْلُو بِتَأْيِيدِهَا لِلْأَوْلِيَاءِ وَتَقْدُو مَرِيرَةً لِلْعِدَا .

صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ وَظَفَرُهَا لَا يَزَالُ مُؤَيَّدًا ، وَنَصْرُهَا لَا يَبْرَحُ مُؤَيَّدًا ؛ تُهْدَى إِلَيْهِ سَلَامًا مُؤَكَّدًا ، وَشَاءَ كَنْشِرِ الْأَرْضِ بِالنَّدَى ؛ وَتَوَضَّحَ لِعَلْمِهِ أَنَّنَا لَمْ نَزَلْ بِحَمْدِ اللَّهِ نَتَّبِعُ سَنَنَ سَلَفِنَا الشَّرِيفِ ، وَنُجْرِي الْأُمُورَ عَلَى عَوَائِدِ جَمِيلِهِمُ الْمُنِيفِ ؛ وَنُرِي تَمْرِينَ الْأَوْلِيَاءِ عَلَى مُمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَنُؤَيِّرُ إِبْقَاءَ آثَارِ الْجِهَادِ فِيهِمْ عَلَى أَحْسَنِ أُسْلُوبِ ؛

فذلك لا نُحِلُّ في كُلِّ عامٍ بالتَّعَاهُدِ إلى المِيدَانِ السَّعِيدِ، والركوبِ إليه في أَسْعَدِ طَالِعِ
يُمْدَى النَّصْرِ وَيُعِيدُ : لِمَا في ذلك من آتِبِهَاجٍ يَتَجَدَّدُ ، وأسبابِ مَسْرَّةٍ لِكَافَّةِ الأَنَامِ
تَتَأَكَّدُ ، ودَعَوَاتِ أَسْتَهْتَهَا تَتَضَاعَفُ مِنَ الرِّعْيَةِ وَتَتَرَدَّدُ .

ولما كان في يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَبِ الفَرْدِ ، ركبنا إلى المِيدَانِ
السَّعِيدِ في أُمَّمٍ وقتٍ أَخَذَ مِنَ السَّعْدِ يَجْمُوعِهِ ، وأَظْهَرَ في أَفْقِ العِساكَرِ مِنْ وَجْهِهَا
الشَّرِيفِ البَدْرَ عِنْدَ طُلُوعِهِ ؛ وَلَمْ نَبْرَحْ يَوْمَنَا المَذْكَورِ في عَطَاءٍ نُجِيدِهِ ، وَإِنْعَامِ نَفِيدِهِ ،
وَإِطْلَاقِ نُبْدِهِ وَنُعِيدِهِ ؛ والأولياء بين أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ يَمْرُحُونَ ، وَفِي بَحَارِ كَرَمِنَا المُنِيفِ
يَسْبَحُونَ ، وَفِي مِيدَانِ نَائِيدِنَا المُطِيفِ يَسِيحُونَ ؛ وَالكَرَاتِ كَالشَّمْسِ تَجَحُّ تَارَةً
وَتَغِيبُ ، وَتَحْشَى مِنْ وَقَعِ الصَّوَالِجَةِ فَتَقَابِلُهَا بِوَجْهِ مُصَفَّرٍ مُرِيبٍ ؛ ثُمَّ عُدْنَا إِلَى القَلْعَةِ
المَنْصُورَةِ عَلَى أُمَّمٍ حَالٍ ، وَأَسْعَدِ طَالِعِ بَلَّغِ الأَنَامِ الأَمَانَ وَالآمَالَ ؛ وَالعِساكَرِ بِجَدْمَتِنَا
الشَّرِيفَةِ مُحْدِقُونَ ، وَمَمَالِكِنَا بِعُقُودِ لَآئِنَا مُطَوَّقُونَ ؛ وَالرَّعَايَا قَدْ أَلْبَسَهَا السُّرُورَ أَثُوبًا ،
وَفَتَحَ لَهَا مِنَ الأَبْتِهَاجِ أَبُوبًا ؛ وَقَدْ آثَرْنَا إِعْلَامَ الجَنَابِ بِذَلِكَ لِأَخَذِ حَظِّهِ مِنْ هَذِهِ
المَسْرَّةِ والبُشْرَى ، وَيُسْتَرْتَكُ هُوَ وَالْأَنَامُ فِي هَذِهِ التَّعْمَةِ الكُبْرَى ؛ وَمَرَسُومُنَا لِلجَنَابِ
أَنْ يَتَقَدَّمَ بِالرُّكُوبِ بَيْنَ عِنْدِهِ مِنَ الأَمْرَاءِ فِي مِيدَانِ طَرَابُلُسَ المَحْرُوسَةِ ، وَيَلْعَبَ
بِالْكُرَّةِ عَلَى جَارِي العَادَةِ فِي ذَلِكَ ؛ لِيَسَاهِمَ أَوْلِيَاءَ دَوْلَتِنَا القَاهِرَةِ فِي ذَلِكَ ، وَيَسْلُكَ
مِنْ طَرَفِهِمُ الجَمِيلَةَ أَجْمَلَ المَسَالِكِ .

قلت : وهذا الصَّنْفُ مِنَ المَكَاتِبِ السُّلْطَانِيَةِ لَمْ يَزَلْ مُسْتَعْمَلًا بِدِيَوَانِ الإِنْشَاءِ ،
يُكْتَبُ بِهِ كُلَّمَا رَكِبَ السُّلْطَانُ إِلَى المِيدَانِ الصَّالِحِي بِخَطِّ اللُّوقِ ، إِلَى أَنْ عَطَّلَ جِيدَهُ
مِنَ الرُّكُوبِ فِي أَوَاخِرِ الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ « بَرُوقِ » وَأَقْتَصَرَ عَلَى لَعِبِ الكُرَّةِ فِي المِيدَانِ
الَّذِي جَرَتْ بِهِ العَادَةُ ؛ فَتَرَكْتَ المَكَاتِبَةَ بِذَلِكَ مِنْ دِيَوَانِ الإِنْشَاءِ وَرَفِضَ اسْتِعْمَالَهَا .

الصنف الثامن عشر

(المكاتبة بالإشارة بحج الخليفة)

لما كانت الأسفار، محلّ الأخطار؛ وموقع الاختلاف وحدث الفتن؛ كانت الخلفاء يكتبون الكتب إلى عمّاهم بالسلامة عند الإياب من السفر للحج وغيره . والرسم فيها أن يذكر أن الحج من أجل العبادات ، وأن من النعمة [أن يمين] الله تعالى بقضاء المناسك ، والوقوف بالمشعر الحرام ، والطواف بالبيت العتيق ، والسعي بين الصفا والمروة ، وما يجري مجرى ذلك من شعائر الحج ؛ ثم بعد زيارة النبي صلى الله عليه وسلم ، واتفق الكلمة في جميع هذه الأحوال ، على كثرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سفر الحج ، وهي :

الحمد لله الذي جعل بيته مثابة للناس وأمناً ، وحرماً من دخله كان آمناً ؛ الذي اختار دين الإسلام على الأديان ، وأبتعت به صفوته من الإنس والجان ؛ مجداً أكرم نبي معذّب بن عدنان .

يمجده أمير المؤمنين أن أعانه على تادية حقه ، ونصبه لكفالة خلقه ؛ ووفقه للعمل بما يرضيه ويؤدني إليه . ويسأله أن يصلّي على خير من غار وأئجد ، وصدر وورد ؛ وركع وسجد ، ووحّد ومجّد ، وصلّى وعبد ؛ وحلّ وأحرم ، وحجّ الحرم ؛ وأتى المستجار والمكتمّم ، والحطيم وزمزم ، مجد سيد ولد آدم ؛ وعلى أخيه وابن عمّه مصباح الدلالة ، وحجاب الرّسالة ؛ إمام الأمة ، وباب الحكمة ؛ أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ،

مُزَّقِ الكُتَّابَ ، وَمُزَقِّ المَوَاقِبِ ، وَمُحَطِّمِ القَوَاضِبِ ، فِي القُلَّالِ وَالْمَنَاقِبِ ، وَعَلَى الأُمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الهَادِينَ ، صَلَاةً بَاقِيَةً فِي العَالَمِينَ .

وَإِنَّ أَوْلَى النِّعَمِ بَأَن يُسْتَعَدَّبَ ذِكْرُهَا ، وَيُسْتَعَطَّرَ نَشْرُهَا ، وَتُحَدَّثَ بِهَا الأَلْسِنَةُ ، وَتُعَدَّ فِي مَوَاهِبِ اللهِ الحَسَنَةِ ، نِعْمُ اللهُ تَعَالَى فِي التَّوْفِيقِ لِحُجِّ بَيْتِهِ الَّذِي جَعَلَهُ مَثَابَةً لِرِزَائِيهِ ، وَالإِطَافَةَ بِحَرَمِهِ الَّذِي يُوجِبُ المَغْفِرَةَ لِقَاصِدِيهِ ، وَالتَّزْوِيلَ بِأَفْنِيَّتِهِ الَّتِي مِنْ يَحْدُمِ بِهَا فَقَدَ أَنْسَلَخَ مِنَ السَّيِّئَاتِ ، وَتَلَبَّسَ بِالحَسَنَاتِ ، وَكُتِّبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا إِلَيْكَ يَوْمَ النَّفَرِ الأوَّلِ : وَقَدْ قَضَى بِحَمْدِ اللهِ تَفَنُّهُ ، وَوَفَّى نَذْرَهُ ، وَتَمَّ حَجَّهُ ، وَكَمَّلَ طَوَافَهُ ، وَشَهِدَ مَنَافِعَهُ ، وَأَدَّى مَنَاسِكَهُ ، وَوَقَفَ المَوْقِفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ قَانِتًا دَاعِيًا ، وَرَاجِيًا رَاجِيًا ، وَعَرَّفَهُ بِعَرَفَاتٍ إِعْلَامَهُ قَبُولَ سَعْيِهِ ، وَإِجَابَةَ تَلْبِيَّتِهِ ، وَبَلَّغَهُ فِي مَنِيِّ أَمَانِيَّتِهِ مِنْ رَأْفَتِهِ ، وَأَرَاهُ مِنْ مَحَابِلِ الرَّحْمَةِ ، وَدَلَّائِلِ المَغْفِرَةِ ، مَا تَلَأَّتْ أَنْوَارُهُ ، وَتَوَسَّحَتْ أَنْوَارُهُ ، وَأَجْرَاهُ عَلَى تَفْصِيلِ العِبَارَةِ فِي شُمُولِ السَّلَامَةِ لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بِحَجِّهِ ، وَوَقَفَ مَوْقِفَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ وَخَاصَّتِهِ ، وَعَامَّتِهِ وَرِعِيَّتِهِ ، وَأَنْعَمَ بِاتِّفَاقِ كَلِمَتِهِمْ ، وَأَجْتِمَاعِ أَهْوِيَّتِهِمْ ، وَأَكْتِنَافِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ لَهُمْ ، وَزَوَالِ الإِخْتِلَافِ وَالمُبَاقِيَةِ بَيْنِهِمْ .

فَإِنْ أَرَادَ زِيَارَةَ قَبْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : وَهُوَ يَصْدُرُ بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى عَنْ مَوْقِفِهِ هَذَا مِنَ البَيْتِ الحَرَامِ ، إِلَى زِيَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

فَإِنْ أَرَمَعَ الأَنْكَفَاءَ إِلَى مَقَرِّهِ ، قَالَ :

وَأَشْعَرَكُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ذَلِكَ وَهُوَ عَائِدٌ بِمَشِيئَةِ اللهِ تَعَالَى إِلَى مَقَرِّ خِلَافَتِهِ ، فِي عِزٍّ مِنْ قُدْرَتِهِ ، وَعُلوٍّ مِنْ كَلِمَتِهِ ، وَأَمْتِدَادٍ مِنْ سُلْطَانِهِ ، وَتَضَاعُفٍ مِنْ جُنْدِهِ وَأَعْوَانِهِ : لِتَأْخُذَ بِمِحْطِكَ مِنَ الأَبْتِهَاجِ وَالجَدَلِ ، وَتُدَيِّعَهُ بَيْنَ أَهْلِ العَمَلِ : لِيشَارَكَكَ العَامَّةُ فِي العِلْمِ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ فَيُخَالِصُوا اللهُ الشُّكْرَ عَلَيْهَا ، وَيَرْغَبُوا إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سفر في الجملة .

والرسم فيه أن تُذكر نعمة الله تعالى بما منح أمير المؤمنين في سفره ذلك : من بلوغ المآرب ، وتسهيل المقاصد ، وإدراك الأوطار ، وشمول النعمة في الذهاب والإياب ، وما يجري مجرى ذلك مما يخرط في هذا السلك ، وهذه نسخته :

الحمد لله ذي الطول والإنعام ، والفضل والإكرام ، والمنن العظام ، والأبدي الحسام ، الذي أرعى أمير المؤمنين من حياطته عينا لا تنام ، وأستخدم لحراسته والمرامة دونه الليالي والأيام ، وقضى له بالتوفيق والسعادة في الظعن والمقام .

يحمده أمير المؤمنين أن استخلصه لإمامة الأنام ، وعَدَّق به أساليب النقص والإبرام ، ويسأله الصلاة على من آخضه بشرف المقام ، وأبتغته بدين الإسلام ، وجلا به حنادس الظلام ، مجد حاتم الأنبياء الكرام ، وعلى أخيه وأبن عمه الهمام الضرغام ، أمير المؤمنين على بن أبي طالب مكسر الأصنام ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام الأحكام ، وأدلة الحلال والحرام .

وإن أمير المؤمنين لا يزال يتحدث بنعم الله مُستدرا لأخلافها ، متصببا لقطافها ، ويُفيض في ذكرها ، مُستدعيا للزيادة بشكرها ، ويُطلعُ خُلصاءه على حُسن آثارها لديه : وسُبوح ملامسها عليه ، ليأخذوا بحظ من الغبطة والاستبشار ، ويسرحوا في مسارح المباح والمَسَار ، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين استقرت ركابُه بناحية كذا ، مبشرا لك بنعمة الله في حياطته ، وموهبته في سلامته ، وما أولاه من انارة (؟) الدليل ، وتسهيل السبيل ، وطى الجاهل ، وتقريب المنازل ، وإعذاب المناهل ، وإنالة الأوطار ، وتدميث الأوطار ، وبركة المتصرف ، وسعادة المنصرف ، ووُصوله إلى مقصده

قَرِيرَ الْعَيْنِ ، قَلِيلَ الْإِيْنِ ؛ مَحْفُوظًا سَارِيًّا وَأَثْبًا ، مَكْلُوعًا عَائِدًا وَذَاهِبًا ؛ مُسْرَدَ النَّصَبِ
مَسْرُورًا ، مَوْفُورَ النَّصِيبِ مَحْبُورًا ؛ فِي أَجْتِمَاعِ مِنْ كَلِمَةِ أَوْلِيَاءِهِ عَلَى طَاعَتِهِ ، وَنُفُوزِ
بَصَائِرِهِمْ فِي نَصْرِ زَايَتِهِ ؛ وَإِعَانَتِهِ عَلَى مَا اسْتَحْفَظَهُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَأَسْتِرْعَاهِ مِنْ بِلَادِهِ : لِيَأْخُذَ
بِالْحِطِّ الْأَجْزَلِ ، مِنْ الْأَبْتِهَاجِ وَالْحَدَلِ ؛ وَيَشْكُرَ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ ،
وَيُضِيفُهَا إِلَى سَوَالِفِ نِعَمِهِ التَّالِدَةِ ؛ وَيُذَيِّعُهَا بَيْنَ رَعِيَّتِهِ ، وَأَنْصَارِ دَعْوَتِهِ ؛ لِيَشْتَرِكُوا
فِي آرْتِسَافِ لُعَائِمِهَا ، وَاللِّتْحَافِ أَنْوَابِهَا ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وهذا الصَّنْفُ مِنَ الْمَكْتَابَاتِ السُّلْطَانِيَةِ قَلِيلُ الْوُقُوعِ ، فَإِنْ وَقَعَ مِثْلُهُ
لِلْمَكْتَابِ فِي زَمَانِنَا ، خَرَّجَهُ عَلَى نِسْبَةِ الْأَسْلُوبِ الْمُتَقَدِّمِ .

الصنف التاسع عشر

(الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع)

وهذا الصَّنْفُ مِمَّا أَغْفَلَهُ صَاحِبُ "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَلَا يَدْرِي مِنْهُ .

وَالرَّسْمُ فِيهِ أَنْ يَكْتُبَ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَوْ السُّلْطَانِ إِلَى مَنْ أَخْلَصَ فِي الطَّاعَةِ ،
أَوْ ظَهَرَتْ لَهُ آثَارُ كِفَايَةِ : كَفَتْحِ أَوْ كَسْرِ عُدُوٍّ ، وَمَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ .

وهذه نسخة كتاب كتبه به أبو إسحاق الصَّاهِبِيُّ عَنِ الطَّائِعِ لِهَ ، إِلَى صَمَّامِ الدَّوْلَةِ
أَبْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهِ ، قَرِينِ خَلْعَةٍ وَفَرَسَيْنِ بِمَرْكَبَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ وَسَيْفٍ
وَطَوْقٍ ، وَهِيَ :

من عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى صمَّامِ الدَّوْلَةِ
وشمس الملة أبي كَالِجَارِ بْنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن
يُصَلِّيَ على جده محمد عبده ورسوله صَلَّى اللهُ عليه وسلم .

أما بعد، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المِثْلَةَ العُلَيَّا،
وأنا لك من أُنْتَرْتَهُ الغَايَةَ القُصْوَى ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضْدَ الدَّوْلَةِ وتاج المِلَّةِ
- رحمة الله عليه - من القَدْرِ والمَحَلِّ ، والمَوْضِعِ الأَرْفَعِ الأَجَلِّ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند
كُلِّ أَثْرِيكُونٍ منك في الخِدمَةِ ، ومَقَامِ حَمْدِ تَقْوَمِهِ في حِمَايَةِ البَيْضَةِ ؛ إنعاماً يُظَاهِرُهُ ،
وإِكْرَاماً يُتَابِعُهُ ؛ ويُوَاتِرُهُ ؛ والله يَزِيدُكَ من تَوْفِيقِهِ وتَسْديدِهِ ، ويمُدُّكَ بِمَعْوَنَتِهِ وتَأْيِيدِهِ ؛
ويَجِيرُ لَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فيما رَأَيْتَهُ مُسْتَمِرًّا عَلَيْهِ من مَزِيدِكَ وتمَكِينِكَ ، والإِبْقَاءِ بِكَ
وتَعْظِيمِكَ ؛ وما تَوْفِيقُ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ إلا باللهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وإِلَيْهِ يُنِيبُ .

وقد عرفت - أدام الله عزك - ما كان من [أمر كردويه] كافر نعمة أمير المؤمنين
ونعمتِكَ ، وجَاحِدِ صَنِيعَتَهُ وصَنِيعَتِكَ ؛ في الوَثْبَةِ التي وَثَبَهَا ، والكَبِيرَةِ التي آرْتَكِبَهَا ؛
وتَقْدِيرِهِ أن يَنْتَهَزَ الفُرْصَةَ التي لم يَمِكَّنْهُ اللهُ مِنْهَا ، بل كان من وراء [ذلك] دَفَعَهُ
ورَدَّهُ عَنِهَا ؛ ومَعَاجَلَتِكَ إِيَّاهِ الحَرْبَ التي أَصْلَاهُ اللهُ نَارَهَا ، وَقَنَّعَهُ عَارَهَا وَسَنَارَهَا ؛
حتى أَنهَزَمَ والأَوْغَادَ الذين شَرِكُوهُ في إثَارَةِ الفِتْنَةِ ، على أَقْبَحِ أحوالِ الذَّلَّةِ والقِلَّةِ ؛
بعد القَتْلِ الدَّرِيعِ ؛ والإِثْمَانِ الوجِيعِ . فالْحَمْدُ لله على هذه النعمة التي جَلَّ مَوْقِعُهَا ،
وبَانَ على الخِصَّصَةِ والعَامَّةِ أَثْرُهَا ؛ ولَزِمَ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ خصوصاً والمُسْلِمِينَ عموماً نَشْرُهَا
والْحَدِيثُ بِهَا ، وهو المُسْتَوْلُ إِقامَتَهَا وإِدَامَتَهَا بِرَحْمَتِهِ .

(١) تقدم في هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند ذلك أثرًا .

(٢) الذي تقدم « يؤيدك » وما هنا أوضح .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح عما تقدم .

وقد رأى أمير المؤمنين أن يُجَازِيكَ عن هذا الفتح العظيم، والمقام المحيد الكريم؛
 بخلع تامّة، ودابتين بمركبين من ذهب من مراكبه، وسيف وطوق وسوارٍ مرصّع .
 فتلق ذلك بشكر الله تعالى عليه ، والاعتدادِ بِنِعْمَتِهِ فيه ؛ وألبس خلع أمير المؤمنين
 وتكرّمته ، وسر [من بابه] ^(١) على حملاته ، وأظهر ما حبّاك به لأهل حضرته ، ليُعزِّزَ
 الله بذلك وليه ووليّك ، ويُبدّلَ عدوّه وعدوك ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام عليك
 ورحمته وبركاته . وكتب فلان لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين
 وثلاثمائة : أطال الله بقاءك ، وأدام عزّك ، وأجزل حفظك وحياطتك ، وأمتع أمير
 المؤمنين بك وبالنعمة فيك وعندك .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باقٍ على الاستعمال ، متى أُنعم
 السلطان على نائبٍ سُلْطَنَةٍ أو أميرٍ أو وزيرٍ أو غيره بخلعةٍ بعث بها إليه وكتب
 قرينها مثلاً شريف بذكر ذلك ؛ إلا أنه أهمل في ذلك السجع والأزدواج ، واقتصر
 فيه على الكلام المحلول كما في غيره من المكاتبات ، إلا في النادر المعنى بشأنه .

الصنف العشرون

(المكاتبة بالتّنويه والتلقيب)

قال في "مواد البيان" : جرت عادة الخلفاء بالكاتب بالتلقيب ، لأن اللقب موهبة
 من مواهب الإمام : أمضاها وأجازها ؛ فإذا جرت عليه كانت كغيرها من نعمة التي يمنحها
 على عبيده ؛ والكنية تكملة يستعملها الناس فيما بينهم ، فليس حكمها حكم اللقب .

(١) بياض بالأصل والصحيح عما تقدم (ج ٦ ، ص ٣٩٧) .

(٢) سماه فيما تقدم « أحمد بن محمد » .

قال : والرسم في هذه الكتب أن تفتح بحمد الله على نِعْمِ السَّابِقَةِ الضَّافِيَةِ ،
ومَوَاهِيهِ الزَّاهِيَةِ النَامِيَةِ ، وَعَوَارِفِهِ الَّتِي جَعَلَهَا جَزَاءً لِلْحَسَنِينَ ، وَزِيَادَةً لِلشَّاكِرِينَ ؛
ونحو هذا مما يليق أن يفتح به هذا الغرض ؛ والصَّلَاةُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسلم . ثم يقال :

وإنَّ أميرَ المؤمنين بما خَوَّلَهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ نِعْمِهِ ، وَبَوَّأَهُ مِنْ قِسْمِهِ ؛ وَخَصَّهُ
بِهِ مِنَ التَّمَكِينِ فِي أَرْضِهِ ، وَالْمَعُونَةِ عَلَى الْقِيَامِ بِفَرْضِهِ ، يَرَى الْمَنْ عَلَى خُلُصَاتِهِ ،
وَإِسْبَاحِ النِّعَمِ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ؛ وَأَخْصِصَاصَهُمُ بِالنَّصِيبِ الْأَوْفَرِ مِنْ حِبَائِهِ ؛ وَالْإِمَالَةَ بِهِمْ
إِلَى الْمَنَازِلِ الْبَادِحَةِ ، وَالرُّتَبِ الشَّائِخَةِ . وَإِنْ أَحَقَّ مِنْ وَفَّرَ قِسْمُهُ مِنْ مَوَاهِبِهِ ، وَعَزَّرَ
سَهْمُهُ مِنْ عَطَايَاهُ وَرِعَائِيهِ ؛ مَنْ تَمَيَّرَ بِمَا تَمَيَّرَتْ بِهِ مِنْ إِخْلَاصٍ وَمُطَاوَعَةٍ ، وَوَلَاءٍ
وَمُشَافَعَةٍ ، وَأَنْقِيَادٍ وَمُتَابَعَةٍ ؛ وَصَفَاءٍ عَقِيدَةٍ وَسَرِيرَةٍ ، وَحُسْنِ مَذْهَبٍ وَسِيرَةٍ ؛ وَلِذَلِكَ
رَأَى أميرَ المؤمنين أَنْ يَنْعَتَكَ بِكَذَا لِأَسْتِقَافِهِ هَذَا النَّعْتِ مِنْ سِمَاتِكَ ، وَأَسْتِنَابِطِهِ إِيَّاهُ
مِنْ صِفَاتِكَ ؛ وَشَرَفَكَ مِنْ مَلَابِسِهِ بِكَذَا ، وَطَوَّقَكَ بِطَوِّقٍ أَوْ بَعْقِدٍ ، وَقَلَّدَكَ بِسَيْفٍ
مِنْ سِيوفِهِ ، وَعَقَدَ لَكَ لِيَوَاءً مِنْ أَلْوِيَّتِهِ ، وَحَمَلَكَ عَلَى كَذَا مِنْ خَيْلِهِ وَكَذَا مِنْ
مَرَاحِيهِ . وَبِحُسْنِ الْوَصْفِ فِي كُلِّ نَوْعٍ مِنْ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ وَأَسْتِقْفَاقِ الْأَلْفَاظِ
مِنْ مَعَانِيهِ ، يَعْرَبُ عَنْ قَدْرِ الْمَوْهَبَةِ فِيهِ . ثُمَّ يَقَالُ : إِبَانَةٌ لَكَ عَنْ مَكَانِكَ مِنْ حَضْرَتِهِ ،
وَإِبَانَةٌ عَلَى تَشْمِيرِكَ فِي خِدْمَتِهِ ؛ فَالْبَسُ تَشْرِيفَهُ وَتَطَوُّقُ ، وَتَقَلُّدُ مَا قَلَّدَكَ بِهِ ؛ وَأَرْكَبُ
حَمُولَاتِهِ ، وَأَبْرُزُ لِلخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ فِي مَلَابِسِ نِعْمَائِهِ ، وَأَرْفُلُ فِي حُلِيِّ آلِيَّتِهِ ، وَزَيْنُ
مَوْكِبِكَ بِلَوَائِهِ ؛ وَقُلْ ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ وَأَعِنِّي عَلَى
مَا يَسْتَرْهِنُهَا لَدَيَّ ؛ وَخَاطِبُ أميرَ المؤمنين مُتَلَقِبًا بِسِمَتِكَ ، مُتَنَعِّتًا بِنِعْتِكَ .

وهذه نسخة مكتوبة إلى الأفضل بن ولحشى ، وزير الحافظ لدين الله الفاطمي ،
أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، حين قرَّرَ الحافظ نُعُونَهُ : السَّيِّدُ ، الْأَجْلُ ،

الأفضل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الأنام، كافل قضاة المسلمين،
وهادى دعاة المؤمنين، وهى :

أما بعد ، فالحمد لله الذى تفرّد بالإلهية ، وتوحد بالقدم والأزلية ؛ وأبدع من برأ
وخلق ، وأنشأهم من غير مثال سبق ؛ وأصطفى لتدبيرهم فى أرضه من بعثه برسالته ،
وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارة لطفه بهم ودلالته ؛ وصلّى الله على جدنا محمد
رسوله الذى جعل رتبته اخيراً ونبوته أولى ، فكان أفضل من تقدمه نبياً وسبقه
رسولاً ؛ وعلى أخيه وابن عمّه أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى ذخره لخلافته ،
وأيدّه بوزارته ؛ مع كونه من منزلة الأصطفاء ، وتأيد الوحي الظاهر من غير خفاء ؛
بحيث لا يفتقر إلى وزير ، ولا يحتاج إلى ظهير ؛ وإنما جعل ذلك تعليماً لمن يستخلفه
فى الأرض من عباده ، وتمثيلاً نصّ - جلّ وعزّ - إلى قصده وأعتاده ؛ لما فيه من
ضمّ النشْر ، وصلاح البشر ، وشمول المنافع ، وعموم الخيرات التى أمن فيها من مُدافع ؛
وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين بمرضاته ، والمتقين له حقّ تقاته ، والكافرين لكلّ
مؤمنٍ بأمانه يوم الفرع الأكبر ونجاته ؛ وسلّم عليهم أجمعين ، سلاماً متصلاً إلى
يوم الدين .

والحمد لله الذى جعل النعم التى أسبغها على أمير المؤمنين ، بحسب ما اختصّه به
من منزلته التى فضّله بها على جميع العالمين ؛ فجعله خليفة فى الأرض ، والشّفيع لمن
شايعه يوم الحساب والعرض ؛ وأجزل له من مننه ما لا يباهضه شكر إلا كان ظالماً ،
ولا يقابله اعتداد إلا استولى عليه العجز فلم يكن بما يجب له طامعاً ، وإن من
أرفعها مكاناً ، وأعظمها شاناً ؛ وأنعمها قدراً ، وأنبهها ذكراً ؛ وأعمّها نفعاً ، وأحسنها
صنعاً ؛ وأغزرها مادّة ، وأثبتها قاعدة إذا غدت النعم شاردةً نأده ؛ وأعودها فائدة

على الخاص والعام ، وأضمنها للسَّعْدِ المُسَاعِدِ والحِظِّ الوافر التَّامِّ - ما كان من المنَّةِ
الشامخة الذرى ، والمنحةِ الشاملة لجميع الورى ؛ والعارفة التي أعترف بها التوحيد
والإسلام ، والموهبة التي [إذا] أنفق كلُّ أحدٍ عمره في وصفها وشكرها فما يُعَدُّ ولا
يُلام ؛ والآية التي أظهرها الله للملَّة الحنيفة على قرة من الرُّسل ، والمعجزة التي هدى
أهله لها دون كافة الأمة إلى أعدل السُّبُل ؛ والبرهان الذي خصَّ به أمير المؤمنين
وأظهره في دولته ، والفضيلة التي أبانت مكانه من الله وكريم منزلته ؛ وذلك ما منَّ الله
به على الشريعة الهادية ، والكلمة الباقية ؛ والخلافة النبوية ، والإمامة الحافظية ؛
منك أيها السيد الأجل الأفضل : ولقد طال قدرك في حلال الثناء ، وجلَّ استحقاقك
عن كلِّ عِوضٍ وجرأ ؛ وغدت أوصافك مسألة آجتاج وأتلاف ، فلو كانت مقالة لم
يقع بين أرباب الملل شيء من التناقض فيها والاختلاف ؛ وأين يبلغ أمد استيجابك
من متحيه ، أو يتسهل إدراك شأوه على طالبه ومبتغيه ؛ والإيمان لو تجسم لكان
على السعي على شرك أعظم منابر ، والإسلام لو أمكنه النطق لقام بالدعاء لك خطيبا
على المنابر ؛ فأما الشرك فلو أبقته حيا لتصدى وتعرض ، لكنك أنحيت عليه
وأدلت التوحيد منه فانهت بناؤه بحمد الله وتقوى ؛ فكان لك في حق الله العصب
الذي تقربت به إليه فأرضيته ، والعزم الذي صممت عليه في نصرة الحق فأمضيته ؛
والباطن الذي أطلع عليه منك فنصرك ولم ترق دما ، ولا روعت مساما ؛ ولا أقلقت
أحدا ولا أزعجت ، ولا عدلت عن منهج صواب لما أتهجت ؛ وذلك مما أشرك
الكافة في معرفته ، وتساووا في علم حقيقته ؛ مع ما كان من تسييرك العساكر المظفرة
صحبة أخيك الأجل الأوحَد : أدام الله به الإمتاع وعضده ، وأحسن عنه الدفاع
وأيدته ؛ مما جرت الحال فيه بحسن سياستك ، وفضل سيادتك ؛ على أفضل ما عودك الله
من بلوغ آمالك ، من غير أذى لِحَقَّ أحدا من رجالك ؛ والأمر في ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأمين من ضياءِ فَلَاقِ الصَّبَاحِ ؛ وهذا إذا تأمَّله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقَابِلَكَ من إحسانه ، بغاية ما في إمكانه ؛ وأن يُولِيَكَ من مَنَّتِهِ ، أفضى ما في استطاعته وقُدْرَتِهِ ؛ ولم يرَ أَحْضَرَ من أن قررَ نُعُوتَكَ «السَّيِّدُ، الأَجَلُّ، الأَفْضَلُ» ، أمير الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأنام ، كافلُ قُضَاةِ المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين ، أبو الفَتْحِ رِضْوَانِ الحَافِظِيَّ « إذلا أولى منك بكفالة قُضَاةِ دَوْلَتِهِ وإرشادِهِمْ ، وهِدَايَةِ دُعَاتِهَا إلى ما فيه نَجَاةُ المُسْتَجِيبِينَ في مَعَادِهِمْ ؛ وجدد لك ما كان قَدَمَهُ : من تكفيلك أمرَ مَمْلَكَتِهِ ، وإعادةِ القَوْلِ فيما أسلفه من رَدِّهِ إليكَ تَدْبِيرَ ما وراءَ سِرِّيرِ خِلافتِهِ ؛ التذاذَا بِتَكَرُّرِ ذَلِكَ وترديده ، وأبْتِهَاجًا بِتَطَرُّبِهِ ذِكْرَهُ وَتَجْدِيدَهُ ؛ فأُمُورُ المِلَّةِ والدَّوْلَةِ مَعْدُوقَةٌ بِتَدْبِيرِكَ ، وأحوالُ الأَدَانِي والأَقَاصِي موكولةٌ إلى تَقْريرِكَ ؛ وقد جمع لك أمير المؤمنين من استخدامِ الأَقْلَامِ ، وجعلَ السِّيَادَةَ لك على سائرِ القُضَاةِ والدُّعاة والحُكَّامِ ؛ وأَسْجَلُ لك بالأختصاصِ بالمَعَالِي والأَنْفِرَادِ ، والتَّوْحِيدِ بأنواعِ الرِّيَاسَاتِ والأَسْتِبْدَادِ ؛ ولك الإِبْرَامُ والتَّقْضُ ، والرَّفْعُ والحَفْضُ ؛ والوَلَايَةُ والعَزْلُ ، والتَّقْدِيمُ والتَّأخِيرُ ، والتَّنْوِيهُ والتَّامِيرُ ؛ فالقَدَمُ من قَدَمَتِهِ ، والمحمود من حَمْدَتِهِ ؛ والمؤخَّر من أُنْحَرَتِهِ ، والمذموم من ذَمَّتِهِ ؛ فلا مخالفةَ لما أَحَبَّتَهُ ، ولا مَعْدِلَةَ عما أَرَدَّتَهُ ؛ ولا تَجَاوَزَ لما حَدَدَّتَهُ ، ولا خُرُوجَ عما دَبَّرَّتَهُ ؛ وأبن ذلك مما يُضْمِرُهُ لك أمير المؤمنين وَيَتَوَيَّهُ ، ويعتقده فيك فلا يزال مدى الدهر يُعِيدُهُ وَيُيَدِّدُهُ ؟ ولو لم يكن من بركاتك على دَوْلَةِ أمير المؤمنين ، وَيُؤَيِّنُ تَدْبِيرِكَ العائد على الإسلام والمسلمين ، إلا أن أَوَّلَ عَسْكَرِ جَهْرَتِهِ إلى جِهَادِ الكُفْرَةِ المَلَاعِينَ : وكان له النَّصْرُ العَزِيزُ الذي تَبَلَّجَ بَجْرِهِ ، والفَتْحُ المُبِينُ الذي جَلَّ قَدْرُهُ وَأَنْتَشَرَ ذِكْرُهُ ؛ وَالظَّفَرُ المُبْهِجُ لِلدِّينِ - العَسْكَرُ المَنْصُورُ على الطائفة الكافرة : قَتَلًا لأبْطالِهَا ، وَأَسْرًا لأَعْنَاقِ رِجَالِهَا ؛ وأخذًا لِقِلاعِ المَلْسرة (١)

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فواتها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن "الكفرة" .

منها، وأنه لم يُقَلِّتْ من جماعتها إلا مَنْ يُحْبِرُ عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظيماً يخرج عما تَضَمَّنَه هذا السِّجْلُ لما أَقْتَصَرَ عليه ، إلا أنه عَاجَلَه ما يَسُرُّه بِفَاحِرٍ لَكَ^(١) بما هو مُسْتَقَرٌّ لَدَيْهِ ؛ والله عَزَّ وَجَلَّ يُجِدُّكَ السُّعُودَ ، وَيُحْصِكَ مِنْ مَوَاهِبِهِ بما يتجاوز المعهود ؛ وَيَمُدُّكَ بِمَوَادِّ التَّوْفِيقِ والتَّأْيِيدِ ، وَيَقْضِي لَكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ كَمَا يَلَازِمُ مَوْضِعَ فِيهِ لِلزَّيْدِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

قُلْتُ : وَهَذَا الصَّنْفُ مِنَ الكُتُبِ السَّلْطَانِيَّةِ قَدْ رُفِضَ وَتُرِكَ اسْتِعْمَالُهُ فِي زَمَانِنَا فَلَا مَعْوَلَ عَلَيْهِ أَصْلًا .

الصنف الحادى والعشرون

(المكاتبة بالإحاد والإذام)

قال في "مواد البيان" : السلطان محتاج إلى مكاتبة مَنْ يَقِفُ مِنْهُ عَلَى طَاعَةٍ وَأَجْتِهَادٍ ، وَمُنَاصِحَةٍ وَإِحْلَاصٍ ، بِالشُّكْرِ والإِحَادِ ، وَالبَعْثِ عَلَى الأَزْدِيَادِ مِنَ المَخَالِصَةِ وَحُسْنِ السَّعْيِ فِي الخِدْمَةِ وَغَيْرِهَا ؛ بما يَرْتَبِطُ بِهِ النِّعْمَةُ ، وَيَسْتَوْجِبُ مَعَهُ حِفْظَ الرُّتْبَةِ . وَمُكَاتَبَةُ مَنْ يَعْتَرُ مِنْهُ عَلَى تَقْصِيرٍ وَتَضَجُّعٍ ، وَتَفْرِيطٍ وَتَضْيِيعٍ ؛ بِالذَّمِّ وَالتَّقْرِيعِ وَالتَّنَائِبِ : لِأَنَّهُ لَا يَجْلُو أَعْوَانُ السَّلْطَانِ مِنْ كُفَاةِ يَسْتَدِيمِ كِفَايَتِهِمْ بِتَصْوِيبِ مَرَامِيهِمْ ، وَاسْتِحْسَانِ مَسَاعِيهِمْ ؛ وَإِحْمَادِهِمْ عَلَى تَشْمِيرِهِمْ ، وَشَرْحِ صُدُورِهِمْ بِسَيْطِ آمَالِهِمْ ؛ وَالعِدَّةِ بَرَفِ مَنَازِلِهِمْ وَمِحَالِّهِمْ ، وَتَمْيِيزِهِمْ عَلَى نَظَائِرِهِمْ وَأَشْكَالِهِمْ ؛ وَتَحْذِيرِهِمْ مِنَ التَّوْبِيخِ وَتَقْدِيمِ الأَعْذَارِ ، وَالتَّخْوِيفِ مِنْ سَقُوطِ المَرَاتِبِ ، وَوُقُوعِ المَصَابِرِ وَالعَوَاقِبِ .

(١) فِي الأَصْلِ "وَشَاهِدٌ" .

قال : وينبغي للكاتب أن ينتهي في خطاب من انتهى في الحالين إلى غايتيهما ، إلى المعاني الناجعة في الغرضين ، ويتوسط فيهما سبباً التوسط الذي يقتضيه الحال المقاض فيها : لأن في ذلك تقريراً للمُحسِن على إحسانه ، ونقلاً للمُسيء عن إساءته : لأنه إذا علم النَّاهِضُ أنه مُثاب على نَهْضَتِهِ ، وألوانِي أنه مُعاقَبٌ على وَبَيْتِهِ ؛ أجتهد هذا في الاستظهار بِخِدْمَتِهِ بما يزيد في رُتْبَتِهِ ، وخاف هذا من حَطِّ منزلته وتغيُّر حالته . ثم قال : والرسوم في هذه المكاتب تختلف بحسب اختلاف أغراضها ، ونشعب بِنَشْعَبِ معانيها ؛ والأمر في ذلك موكولٌ إلى نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كُلِّ شَيْءٍ في موضعه ، وترتيبه إياه في مرتبته .

فأما المكتبة بالإجماع ، فكما كُتِبَ عن صَمَّامِ الدولة بن عَضِدِ الدَّوْلَةِ بن بُوَيْه ، إلى حاجب الحُجَّابِ أبي القاسم سعد بن محمد وهو مقيم بنصيبين على مُحارَبَةِ باد الكردى .

كنا بنا ، ووصل كتابك مؤرخاً بيوم كذا ، تذكُّر فيه ماجرى عليه أمرُك في الخِدْمَةِ التي نِيَطَتْ بِكَفَايَتِكَ وَغَنَائِكَ ، وُوكِلْتَ إلى تديرك ووفائك : من رد باد الكردى عن الأعمال التي تطرقها ، وحدث نفسه بالتغلب عليها ؛ وتصرَّفك في ذلك على موجبات الأوقات ، والتردد بين أحنينا وعدتنا أبي حرب : زياد بن شهر الكويه وبينك من المكاتب ؛ وحسن بلائِك في تحيفه ، ومقاماتك في حصِّ جناحه ، وآثارك في الانقضاء على فريق بعد فريق من أصحابه ؛ وأضطرارك إياه بذلك وبضروب الرياضات التي أستمعتها ، والسياسات التي سُست أمره بها ؛ إلى أن نزل عن وُورَةِ المعصية إلى سهولة الطاعة ، وأنصرف عن مجاهل الغواية إلى معالم الهداية ؛ وتراجع عن السُّومِ إلى الاقتصار ، وعن السَّرْفِ إلى الإقتصاد ؛ وعن الإباء إلى الانقياد ،

وعن الأعتياص إلى الإذعان؛ وأن الأمر استقرّ على أن قيلت منه الإنابة، وبذلت له فيما طلب الاستجابة؛ وأستعبد إلى الطاعة، وأستضيف إلى الجماعه؛ وتصرّف على أحكام الخدمه، وجرى مجرى من تضمه الجملة؛ وأخذت عليه بذلك العهود المستحكه، والأيمان المغلظه؛ وجددت له الولاية على الأعمال التي دخلت في تقليده، وضربت عليها حدوده، وفهمناه .

(١) وقد كانت كتبُ أختينا وعدتنا أبي حرب [زيد بن شهر الكويه] مولى أمير المؤمنين ترد علينا، وتصل إلينا؛ مشتملة على كُتُبِك إليه، ومطالعاتك إياه؛ فنعرف من ذلك حسن أثرك [وحزم رأيك] وسداد قولك، وصواب اعتمادك؛ ووقوع مضاربك في مقاصلها، وإصابة مرّاميك أغراضها؛ وما عدوت في مذاهبك كلها، ومتقلباتك بأسرها؛ المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أمرت به عنا؛ ولا حلت كتب أختينا وعدتنا أبي حرب من شكرٍ لسعيك، وإحمادٍ لأثرِك؛ وثناءٍ جميلٍ عليك، وتلويحٍ وإفصاحٍ بالمناصحة الحقيقة بك، والمؤالاة اللازمة لك؛ والوفاء الذي لا يستغرب من مثلك، ولا يستكثر من حلّ في المعرفة محلّك؛ ولئن كنت قصدت في كلّ نهجٍ استمرت عليه، ومعدّلٍ عدلت إليه؛ مكافئةً هذا الرجل ومراغمته، ومصابرته ومنازلته؛ والتماس الظهور عليه في جميع ما تراجعتماه من قول، وتنازعتاه من حدّ؛ فقد أجمع لك إلى إحمادنا إياك، وأرضائنا ما كان منك؛ المنّة عليه إذ سكنت جاشه، وأزلت استيحاشه؛ وأسألته من دنس لباس الخالفه، وكسوته حسن شعار الطاعة؛ وأطلت يده بالولاية، وبسطت لسانه بالحجّه؛ وأوقيت به على مراتب نظرائه، ومنازل قرّانه؛ حتى هابوه هيبة الولاه، وأرتفع بينهم عن مطارح العصاه .

(١) الزيادة عن رسائل الصابي المخطوطة .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا، وعند أخينا وعدتنا أبي حربٍ مشكورا؛ وعلى هذا الرجل مانا، وفي إصلاح ما أصلحت من الأمر مثنابا ماجورا؛ وإياه نسأل أن يُجِرَى علينا عادته الجارية في إظهار آياتنا، ونصرة أوليائنا؛ والحكم لنا على أعدائنا، وإنزالهم على إرادتنا؛ طوعا أو كرها، وسائما أو حربا؛ فلا يخلوا أحدا منهم من أن تحيط لنا بعنقه ربة أسرا، أو مينة عفو؛ إنه جل ثناؤه بذلك جدير، وعليه قدير.

ويجب أن تُنفذ إلى حضرتنا الوثيقة المكتتبة على باد الكردى إن كنت لم تُفذهها إلى أوانٍ ووصول هذا الكتاب : لتكون في خزائنا محفوظة، وفي دواويننا منسوخة؛ وأن نتصرف في أمر رُسُلِهِ وفي بَقِيَّةِ - إن كانت بقيت من أمره - على ما يرسمه لك عنا أخونا وعدتنا أبو حربٍ، فرأيك في العمل على ذلك، وعلى مطالعتنا بأخبارك وأحوالك؛ وما يُحتاج إلى علمه من جهتك، موقفا إن شاء الله تعالى.

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه باختلاف الملوّم فيه والمدموم بسببه. فمن ذلك الدم على [ترك] الطاعة وشقّ العصا.

كما كتب عمارة يصف شخصا بأنه لما ارتفع مكانه، وعلا قدره؛ بطر معيشته، ونحرج عن طاعة الخليفة؛ وأن فلانا كان ممن عرفت حاله : في غموض أمره، وحمول ذكره؛ وضيق معيشته، وقلة عدده وناهضته؛ ولا تُجاوز حياته ما يقوله، ولا يتعاطى ما وراء ذلك ولا يرومه؛ ولا يمينه نفسه، ولا يدفع يد لأمس عنه بقوة تنوء بملا، ولا عز يلبأ إليه. فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشرفه، وبلغ به الغاية التي لم يكن يرجوها ولا تُرجى له؛ وبسط له من الدنيا، وآتاه من غضارتها ونعمتها، وعزّها وسلطانها، ما لم يؤت أحدا من أهل زمانه. فلما مكّن الله

له في الدنيا طغى وتَجَبَّرَ، وَعَلَا وَتَكَبَّرَ؛ وَظَنَّ أَنَّ الَّذِي كَانَ فِيهِ شَيْءٌ قَادَهُ إِلَى نَفْسِهِ
بِحَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ : تَهْوِيلًا مِنَ الشَّيْطَانِ ، وَأَسْتَدْرَاجًا مِنْهُ لَهُ .

وَمَا كَتَبَ عَبْدُ الْحَمِيدِ فِي مِثْلِهِ :

أَمَا بَعْدَ ، فَقَدْ بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ أَمْرٌ لَمْ يَحْتَمِلْهُ لَكَ ، إِلَّا مَا أَحَبَّ مِنْ رَبِّ
صَنِيعَتِهِ قَبْلَكَ ، وَأَسْتِثْمَامَ مَعْرُوفِهِ إِلَيْكَ ؛ وَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقَّ مَنْ أَصْلَحَ مَا فَسَدَ
مِنْكَ ؛ وَإِنَّكَ إِنْ عُدْتَ لِمِثْلِ مَقَالَاتِكَ ، وَمَا بَلَغَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَنْكَ ؛ رَأَى فِي مُعَاجَلَتِكَ
رَأْيَهُ ؛ فَإِنَّ النَّعْمَةَ إِذَا طَالَتْ بِالْعَبْدِ مُمْتَدَّةً أَبْطَرَتْهُ : فَأَسَاءَ حَمَلُ الْكِرَامَةِ ، وَأَسْتَنْقَلَ
الْعَافِيَةَ ؛ وَنَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ إِلَى حِيلَتِهِ ، وَحُسْنِ نَبْتِهِ وَرَهْطِهِ وَعَشِيرَتِهِ . وَإِذَا نَزَلَتْ بِهِ
الْغَيْرُ ، وَأَنْكَشَفَتْ عَمَائَةَ الْعَشِيِّ عَنْهُ ؛ ذَلِكَ مُنْقَادًا ، وَنِدْمَ حَسِيرًا ؛ وَتَمَكَّنَ مِنْهُ عَدُوُّهُ :
قَادِرًا عَلَيْهِ ، وَقَاهِرًا لَهُ . وَلَوْ أَرَادَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ ، وَمُعَاجَلَةَ
إِفْسَادِكَ ، جَمَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَنْ شَهِدَ قِلَاتِ خَطِّكَ وَعَظِيمَ زَلَّتِكَ ؛ وَلِعَمْرِي لَوْ حَاوَلَ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُكَافَأَتَكَ بِلَفْظِكَ فِي مَجْلِسِكَ ، وَبِحُجُودِكَ فَضْلَهُ عَلَيْكَ ، لَرَدَّكَ إِلَى مَا كُنْتَ
عَلَيْهِ ، وَلَكُنْتَ مُسْتَحَقًّا .

وَفِي مِثْلِهِ :

إِنَّ صَاحِبَ الْبَرِيدِ كَتَبَ إِلَيَّ عَنْ أَصْحَابِكَ بِكَذَابٍ ، فَقُلْتُ : لِيَنْهَمَ لَمْ يُقَدِّمُوا عَلَيَّ
مَا أَقْدَمُوا عَلَيْهِ حَتَّى عَجْمُوكَ ، فَعَرَفُوا خَوَرَ عُوْدِكَ ، وَضَعْفَ مَكْبِرِكَ ، وَمَهَانَةَ
نَفْسِكَ ، وَأَنَّهُ لَا غَيْرَ عِنْدَكَ وَلَا نَكِيرَ .

وَمِنْ ذَلِكَ الذَّمُّ عَلَى الْخَطِّ ، كَمَا كَتَبَ أَحْمَدُ بْنُ يُوْسُفَ :

كَأَنَّ الْبُخْلَ وَالشُّؤْمَ صَارَا مَعًا فِي سَهْمِهِ ، وَكَأَنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي قِسْمِهِ ؛ فَخَازِمَا
بِالْوَرَاثَةِ ، وَأَسْتَحَقَّ مَا أَسْتَمَلَكَ مِنْهُمَا بِالشَّفْعَةِ ؛ وَأَشْهَدُ عَلَى حِيَازَتِهِمَا أَهْلَ الدِّينِ

والأمانة حتى خلاصه من كل ممانع، وسأله من تبعه كل منازع؛ فهو لا يصيب إلا مخطئا، ولا يحسن إلا ناسيا؛ ولا ينفق إلا كارها، ولا ينصف إلا صاعرا .
قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وقوعه في وقت من الأوقات . فإن عرّض له موجب، راعى الكاتب فيه صورة الحال، وكتب على ما يوجبه المقام، وتقتضيه تلك الوقعة .

الصنف الثاني والعشرون

(ما يكتب مع الإنعام لتؤاب السلطنة بالخليل والجوارح)

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصنف من المستعمل في زماننا كل وقت فأما ما يكتب مع الإنعام بالخليل، فقد جرت العادة أن السلطان ينعم بالخليل على تؤاب السلطنة بالشام، ويكتب بذلك منآلات شريفة إليهم . وربما أنعم بالخليل وكتب بها في غير ذلك .

وهذه نسخة منآل شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نعمة الجناب وخصه من النعم بما لا تحصى له آثار، ولا يتعلق له بقبار؛ ولا يوصف بحالٍ واحدة : لأنه إن جرى فبحر وإن وقف فنار .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بكل سلام لا تدرك لسوابقه غايه ، ولا تحصى له نهايه ؛ ولا يرد منه كل ماجاء وله في وجهه كفلق الصبح آيه ، ولا يتقدم في ميدان إلا وقد حمل له في كل مكان رايه . وتوضح علمه الكريم أنه قد جهز له قرينها ماجرت به عادته من الحصن التي لا يدعى البرق أنه لها نظير ، ولا تجارى الرياح من سوابقها ما يطير؛ كم لها في ميدان بحال ، وكم لها في رؤية دويّة آرتجال ؛

وكم دُعِيَ الوغى بها على كُلِّ ضَامٍ فَأَتَتْ رَجَالًا تَقْدَحُ سَنَابِكُهَا نَارًا، وَتَفِيضُ جَوَائِبَهَا
 مِنَ الرَّكِيضِ عَقَارًا، وَيَتَكَفَّلُ بِدَيْعِهَا بِكُلِّ مَرَامٍ، وَتُعْطِي مَا فِي يَدَيْهَا لِأَنَّهَا مِنَ الْكِرَامِ؛
 وَقَدْ تَشَرَّفَتْ مِنْ نِعْمَانَا الشَّرِيفَةِ بِالسُّرُوجِ وَاللُّجْمِ وَالْعِدَّةِ الْمُكَمَّلَةِ، وَتَحَلَّتْ مِنَ الذَّهَبِ
 وَالْفِضَّةِ مَا يُغْنِي بِجَمَلَتِهِ الْمُفْصَلَةَ؛ وَأَرْسَلْنَاهَا إِلَيْهِ تَرْفُصٌ فِي أَعْنَتِهَا زَهْوًا، وَتَتْرُكُ بِطِيبِ
 صَهِيلِهَا كُلَّ بَحْرِ تَحْوُضُهُ إِلَى الْمَنَائِبِ رَهْوًا، وَتُوَجَّهُ بِهَا فِلَانٌ كَالْعُرَائِسِ الْمَجْلُوتَةِ فِي حُلَاهَا،
 وَالتُّجُومِ لَوْلَا مَا تَمَيَّزَتْ بِهِ مِنْ حَلِيٍّ عَطَلِهَا؛ وَالسَّحَابِ إِلَّا أَنَّهَا لَا تَحْتَاجُ مِنْهُ الرِّيَّاحَ
 فِي تَقْلُّهَا .

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ الشَّرِيفَةَ بِشُكْرِهَا ، وَلِيَتَسَلَّمَ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ الْعَمِيمَةَ الَّتِي
 تَعْتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بِقَدْرِهَا ؛ وَلِيَحْمَدَ اللَّهَ مِنْ تَفَقُّدَاتِنَا الشَّرِيفَةِ عَلَى كَرَمِ فَرْسٍ جَاءَ
 وَهُوَ سَابِقٌ ، وَجُودِ جَوَادٍ لَا يَدُورُ مَعَهُ السَّحَابُ فِي طَائِقٍ ؛ وَيَعْتَمِدُهَا لِارْتِقَاءِ كُلِّ
 صَهْوَةٍ مُنِيفَةٍ ، وَجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ عَلَيْهَا بَيْنَ أَيْدِينَا الشَّرِيفَةِ ؛ وَيَعِيدُ الْوَاصِلَ بِهَا إِلَى
 خِدْمَةِ أَبْوَابِنَا الْعَالِيَةِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَدِيمُ عَلَيْهِ بِنَا النِّعَمِ الْمُتَوَالِيَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



آخِرُ : وَلَا زَالَ إِقْبَالُنَا يُمِدُّهُ مِنَ الصَّافِنَاتِ الْجِيَادِ بِمَا يُبَارِي الرِّيَّاحَ ، وَيَتِمَنَّ
 بَغْرُهَا الصَّبَاحَ ، وَيَطْلُقُ أَعْنَتَهَا فِي حَلْبَةِ السَّبَاقِ فَتَسْبِقُ بِرَكْبِهَا ذَوَاتِ الْجَنَاحِ ؛
 وَلَا يَرْجُحُ إِنْعَامُنَا يُخَفِّفُهُ بِكُلِّ طَرْفٍ يَبْهَجُ الطَّرْفَ ، وَيَتَلَجُّ الصَّدْرُ بِمَا اسْتَمَدَّ عَلَيْهِ مِنَ
 الْمَلَاخَةِ الَّتِي تَرُوقُ الْعَيْنَ وَتَفُوقُ الْوَصْفَ ، وَيُقَرِّدُهُ بِمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ الْحُسْنِ وَالْإِيمَنِ :
 إِذْ هُوَ وَاحِدٌ كَالْأَنْفِ - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَعْبُقُ بِطِيبِ نَشْرِهِ أَرْجَاؤُهُ ، وَتَنَاءُ عَرَبِ
 عَمَّا فِي ضَمِيرِهِ مِنْ عُلُوِّ قَدْرِهِ وَسُمُوِّ ذِكْرِهِ فَيُشْرِقُ سَنَأُوهُ وَيُضَاعَفُ تَنَأُوهُ ؛ وَتَوْصِحُّ لِعَلْمِهِ
 الْكَرِيمِ أَنَّهُ غَيْرُ خَافٍ عَنْهُ مَا يَصِلُ إِلَى أَبْوَابِنَا الشَّرِيفَةِ مِنَ الْخَيْولِ الْبَرِّقِيَّةِ فِي كُلِّ عَامٍ ،

وما نُحِصُه منها بـكُلِّ ميمونِ الغرةِ مُبارِكِ الطَّلعةِ هنيءِ السَّيرِ على الإِنعامِ ؛ وقد أرسلنا إلى جنابه الكريم من ذلك سَهْمَه ، وأضفنا إلى ذلك ما اسْتَصْلَحناه من الخيلِ العَرَبِيَّةِ الغريبه والعِتاقِ العجيبه العَرَبِيه (؟) مما الخيرُ معقودُ بنواصيها ، فترهُقُ على صَهَوَاتِها نفوسَ الأعداءِ وتَسْتَتِرُها من صَيَاصِيها ؛ فيأخذ الجَنابُ العالی ما يُحِصُه من ذلك ، ويفرِّقُ الباقِي على من رَسَمنا له به يَمِينِ رَأْيِهِ المُبارِكِ الذی لا یَسَاهِمُه فيه أحدٌ ولا یُشَارِكُ ؛ ویجَهِّزُ الخیلَ المخصوصةَ بفلانِ إليه ، والله تعالی یضاعفُ عِزَّ ظُهُورِها عندَ أمتطائها لديه .

وأما ما یکتب مع الإِنعامِ بالحوارح [فَمَا یُکْتَبُ]^(١) مع إرسالِ سُنُقُر .

وقد بعثنا إليه بسُنُقُرٍ كأنه مَلِكٌ مُتَوَجِّجٌ ، وِرْزُقٌ مُرَوِّجٌ ؛ تَجَزَّأً على سَفْكِ الدَّماءِ ، وأبى أن یَطْلُبَ رِزْقَه إلا من السماء ؛ یودُّ الكُرْثی لو خَلَصَ من مَحَالِیِسه ، ویخَافُ أن یَسْلَمَ من خِطِّ الشَّبْكَةِ ویقعَ فی کَلالِیِسه ؛ یُدْرِكُ الصَّیْدَ ولا یُوجِّلهُ ، ویرفَعُ صَدْرَه ثم یُومِی إليه برأسه كأنه یَسْتَعجِلُه ؛ قد جَمَعَ من المحاسنِ کُلَّ الصُّنُوفِ ، وَكُنِيتُ علیه أَسْطُرٌ تُقْرَأُ بما تُقْرَأُ به الصُّیُوفُ .

ومما یکتب مع إرسالِ صَقْر .

وقد وجَّهنا إليه بصَقْرٍ لا تُؤسَى له من الصَّیْدِ جِراحُ ، ولا یَدْعُ من وَحْشٍ یَسْرَحُ ولا طَائِرٍ یطیرُ یَجْنَحُ ؛ أیما تَوَجَّهَ لآیاتِ إلا بِحَیْرٍ ، وَحِیثُما أُطْلِقَ كان حَتْفُ الوَحْشِ والطَّیْرِ ؛ یَدْعُ أَقْطَارَ الفَلَاةِ مُجَزَّره ، أو رَوْضَةَ الدَّماءِ مُزْهِره ؛ یَجِدُّ إلى الطیرِ فی عَنقِه ، ویحَلِّقُ إلى السماءِ فیرجعُ وطَّائِرُهُ فی عُنقِه ؛ تَحَافُه العُقْرُ على نفوسِها ، وَتَحْضَعُ له ولأمثاله فما تخرجُ إلا والطَّیْرِ على رُعُوسِها ؛ یزیدُ خَبْرَه فی مَطَانِّ الصَّیْدِ على الخَبْرِ ،

(١) بیاض بالأصل ، والتصحیح یقتضیه المقام .

(٢) کذا فی الأصل و"التعریف" .

وتخرج الطَّبَّاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا مِنْهُ فِي مَلَأَةٍ مِنَ الْعَجَاجِ مَخِيطَةٌ مِنْ قَرُونِهَا بِالْإِبْرَةِ؛
شَدِيدِ الْأَيْدِ ، قَدِ بَنَى عَلَى الْكَسْرِ حُرُوفَ الصَّيْدِ ؛ يَحْمَدُ مُقْتَنِيهِ أَيَّامَهُ الْعُزْرَ ؛ وَيَقُولُ
لَهُ إِذَا تَلَفَّتْ إِلَى الصَّيْدِ : إِنْ جَلَبْتَ ضَبْعًا فَأَنْتَ حَرْبٌ ، لَا يَصْحَبُ مُسْتَصْحِبَهُ مَعَهُ
إِلَّا مَرَّادَهُ ، وَأَيْمًا سَارَ حَامِلُهُ - وَهُوَ مَعَهُ - كَانَ مَعَهُ زَادَهُ .

ومما يكتب مع إرسال شاهين .

وقد وَجَّهَ إِلَيْهِ بِشَاهِينَ إِذَا حَاقَّ وَرَاءَ الطَّيْرِ شَاهَتْ بِهِ الْوُجُوهُ ، وَشَاهَدَتْ الْأَمَالَ
بِهِ مَا تَرْجُوهُ ؛ قَدْ أَصْبَحَ كُلُّ مُحَلَّقِ الْجَنَاحِ رَهِينَ يَدِهِ ، وَكُلُّ سَارِبٍ مِنَ الْوَحْشِ طَعَامُ
يَوْمِهِ أَوْ غَدِهِ ؛ لَا يُتَعَبُّهُ حَلْفُ الطَّرِيدَةِ بَعْدَ الْمَدَى ، وَلَا يَرُدُّهُ خَوْفُ مَسَافَةٍ وَلَا تَقَحُّمُ
رَدَى ؛ رَبِيَّةٌ عَامٌ لَمْ يُتَمَّعْ بِطُولِ مَادَهْرِ ، وَمَمْتَدَّةٌ مِنْهُ فِي الطَّلَاقِ مِثْلَ رِيحِ سُلَيْمَانَ غَدُوها
شَهْرٌ وَرَوَّاحُهَا شَهْرٌ .

ومما يكتب مع إرسال كوهية .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ كُوهِيَّةً ، هِيَ بِالْمَحَاسِنِ حَرِيَّةً ، وَلِكثْرَةِ الْإِقْدَامِ جَرِيَّةً ؛ يَكِلُ بِهَا
صَاحِبُهَا أَمْرَ مَطْبَخِهِ ، وَيَمْدُهَا مِنَ الطَّيْرِ مَنْ لَيْسَ بِمُصْرِخِهِ ؛ لَا تَعْفُ عَنْ دَمٍ ،
وَلَا تُرَى أَطْرَافُهَا إِلَّا مُثْمَرَةً بَعْنَابٍ ^(١) أَوْ مُخَضَّبَةً بَعْنَدَمٍ ؛ قَدْ أَخَلَّتْ مِنْ كُلِّ سَائِحٍ ،
وَلَيْسَتْ زِيَّ الرَّاهِبِ الْمُتَعَبِّدِ وَفَتَكَتْ بِكُلِّ سَائِحٍ .

ومما يكتب مع سقاوة .

وقد جَهَّزْنَا إِلَيْهِ بِسَقَاوَةٍ ، مَحَالِيهَا عَلَى الطَّيْرِ كَالْحَدِيدِ أَوْ أَشَدُّ قَسَاوَةً ؛ تُسِيلُ دِمَاءَ
الصَّيْدِ كَالْمَدَانِبِ ^(٢) ، وَتَكْسُو الْأَرْضَ حَبْرًا مِنْ رِيَّاسِ الْحُبَّارِيِّ وَفِرَاءٍ مِنْ جُلُودِ الْأَرَانِبِ ؛

(١) كذا في "التعريف" (ص ٢٢٥) وفي الأصل «مسمر» .

(٢) في الأصل «قد أخلت من كل سائح» والتصحيح عن "التعريف" .

(٣) كذا في "التعريف" وفي الأصل «كالدايب» .

وجعلت في قبضة الكف ما كانت العين عليه تدور ، وتكفلت بكفاية المطبخ
وملأت القدور .

ومما يكتب مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه بيان مهمما لقي لقف ، ومهما خطا لديه خطف ، كأما خط
جوهره بقلم ، أوريش عليه من الصباح والظلم ، قد أعد للطوارق ، وأدرا بمثل
الطوارق ، قد دحض مجج الجمل ، وكسرها حتى أبان عليها حمرة النجل ، لا يسأل
في الصيد عما نهب ، ولا تعرف له قيمة إلا أن له عينا من الذهب .

ومما يكتب مع الفهد .

وقد أنعمنا عليه بفهد أهرت الشدق ، ظاهر الحدق ، بادي العبوس ، مدتر
الملبوس ، شئن البرائن ، ذى أنياب كالمدي ومخالب كالحاجن ، قد أخذ من الفلق والغسق
إهابا ، وتمصص من مجل الحدق جلبابا ، يضرب المثل في سرعة وثوب الأجل به
وبشبهه ، وتكاد الشمس مذ لقبوها بالغزاة لا تطلع من الوجل على وجهه ، يسبق
إلى الصيد مرامي طرفه ، ويفوت لحظ مرسله إليه فلا يستكمل النظر إلا وهو
في كفه ، وتتقدمه الصواري إلى الوحش فإذا وثب له تعثرت من خلفه .^(١)

وأما ما يكتب مع الإنعام بالسلاح .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سيفا تلمع مخايل النضر من غمده ، وتشرق جواهر
الفتح في فرنده ، وإذا سابق الأجل إلى قبض النفوس ، عرف الأجل قدره فوقف
عند حده ، ومتى جرد على ملك من ملوك العدا وهت عزائمهم ، وعجز جناح جيشه

(١) وقع في هذه الرسالة تحريف كثير في الأصل ، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أَنْ تَهَضَّ بِهِ قَوَادِمُهُ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ سَيُفِنَا الَّذِي عَلَى عَاتِقِ الْمَلِكِ [الْأَعْرَبِ] نَجَادُهُ وَفِي يَدِ
جَبَّارِ السَّمَوَاتِ قَائِمُهُ .

الصنف الثالث والعشرون

(المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولده رزقه)

والرسم فيها أن يذكر شرف الخلافة وعلو رتبته، ويشير إلى تخصيص الخلافة
بمصيها إليه دون سائر البرية ، وأنتقلها إليه بالتوارث من آبائه الطاهرين كآبائهم
عن كآبائهم ، وبقائها في عقبه إلى الأبد . ثم يتخلص إلى ذكر النعمة على أمير المؤمنين
التي أنعمها الله تعالى عليه ، وأن من أعظمها نعمة أن رزقه الله تعالى ولداً ، ويذكر
اسمه وكنيته ، ويصفه بما يناسبه .

وهذه نسخة كتاب في معنى ذلك ، وهي :

الحمد لله مؤيد الإسلام بحلفائه الراشدين ، ومظهر الإيمان بأوليائه الهادين ، الذي
جعل الإمامة كلمة باقية فيهم إلى يوم الدين ، وأقام منهم الحاضر المتبع ، والمرجو
المتوقع ، وأطلع منهم في سماء الهداية شهبا لا يحبو منها شهاب حتى يتوقد شهاب ،
وفتح بهم للإرشاد أبوابا لا يربح منها باب حتى يفتح باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوض إليه منازل آباءه ، ووقفه (؟) بانتقال ماورثه من آباءه
إلى أبنائه ، ويسأله أن يصلي على من كرمه بولادته وشرفه بالانتساب إلى شجرة
سيدنا محمد خاتم رسله ، المترجم عن توحيده وعدله ، وعلى أخيه وأبن عمه على بن
أبي طالب قسيمه في فضله ، ووصيه على أمته وأهله .

وإن أولى النعم بأن يُفَاضَ في سُكْرِها، وتُعَطَّرَ الحَافِلُ بِنَشْرِها ؛ نِعْمَةٌ حَاطَتْ
 دَعَائِمَ الدِّينِ، وَأَمَرَتْ حِجْلَ المُسْلِمِينَ ؛ وَتَسَاوَى فِي [تَنَاقُلِ] ^(١) قِطَافِها الكَافِة، وَأَذْنَتْ
 بِسُيُوعِ الرَّحْمَةِ وَالرَّافِة؛ وَأَضَحَّتْ بِها النُّبُوَّةَ مُشْرِقَةَ الأَنْوَارِ، وَالإِمَامَةَ عَالِيَةَ المَنَارِ؛
 وَإِخْلَافَةَ مُحَالَةَ المِزْبَرِ وَالسَّرِيرِ، رَافِلَةً فِي حُلَلِ الأَبْتِهَاجِ وَالسُّرُورِ .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك ، وقد رزقه الله تعالى ولدا ذكرا مباركا رضيًا، سماه
 فلانا ، وكناه أبا فلان ، بخلا بنهار غرته الدامس ، وأقتر بمقدمه العائس ، وأخضر
 بين [نقيبته] ^(١) اليايس ؛ ووثقت الآمال بسعادة مقدمه ، وتطلعت الأعناق إلى جوده
 وكرمه ؛ مبشرا لك بهذه النعمى الحسنة الأثر ، القليلة الخطر ؛ علما بمكانك من ولائه
 ومخالصته ، وسرورك بما يفيضه الله عليه من شآبيب نعمته : لتأخذ من المسرة
 والجذل بحظ المولى الخالص ، والعبد المتخصص ؛ ولتشيح مضمون كتابه فيمن قبلك
 من الأولياء ، أيشاركونا في الشكر والثناء ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .

[قلت] ^(١) وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستعمل في الإشارة عن السلطان
 إذا حدث له ولد ، فيكتب بالإشارة به إلى تواب السلطنة وأهل المملكة .

الصف الرابع والعشرون

(ما يُكْتَبُ عَنِ السُّلْطَانِ بِالْبِشَارَةِ بِعَافِيَتِهِ مِنْ مَرِيضٍ)

وهذه نسخة كتاب بعافية الملك الناصر « محمد بن قلاوون » من مريض ، إلى
 صاحب مآردين ، وهو :

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

ولا زالت البشائر على سَمْعِهِ الكَرِيمِ مُتَوَاتِرَةً ، وَالْمَسَارُّ إِلَى مَقَامِ مُلْكِهِ سَائِرَةٌ ؛
 وَالتَّهَانِي ، بِبُلُوغِ الْأَمَانِي ، مِنْ كَمَالِ شَفَائِنَا تَجْعَلُ ثُغُورَ الثُّغُورِ بِاسْمَةِ وَجْهِهِ الدُّهُورِ
 نَاصِرَهُ ؛ وَنِعْمَ اللَّهُ تَعَالَى مُقَابَلَةً بِالشُّكْرِ الْجَزِيلِ عَلَى أَنْ أَجَدَّ مَلِكَ الْإِسْلَامِ بِاقتِفَادِهِ ،
 وَأَبْقَى لِلدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ نَاصِرَهُ . أَصْدَرْنَا إِلَى الْمَقَامِ الْعَالِيِ وَمَوَارِدُنَا مِنَ الصَّحَّةِ حُلُوهٌ
 فِي الْأَفْوَاهِ ، وَالسِّنْتُنَا شَاكِرَةٌ لِنِعْمِ اللَّهِ ؛ وَعَافَيْتُنَا مُجَدِّدُ فِي كُلِّ جَدِيدٍ ، وَصَحَّحْنَا قَدْ بَلَغْتَ
 مِنَ الْمَزِيدِ مَا تُرِيدُ ؛ وَقَدْ أَلْبَسْنَا اللَّهَ تَعَالَى مِنَ الشِّفَاءِ ثَوْبًا قَشِيبًا ، وَنَصَرْنَا نَصْرًا عَزِيزًا
 وَفَتَحْنَا لَنَا فَتْحًا مُبِينًا - تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا تَتَأَرَّجُ بِهِ أَرْجَاءُ مُلْكِهِ ، وَتُنَازِعُ الْأَنْبِيَاءَ
 فِي سُلْكِهِ ؛ وَتُوضِّحُ لِعَالَمِهِ الْكَرِيمِ مَا حَصَلَ مِنْ عَافِيَتِنَا الَّتِي تَضَاعَفَ بِهَا فَرَحُ الْإِسْلَامِ
 وَالْمُسْلِمِينَ ، وَوَجِبَ الشُّكْرُ عَلَيْهِمْ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

الضرب الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان في الجواب)

وَكُلُّ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي الْوَارِدِ بِهَا الْكُتَابُ إِلَيْهِ يُسْتَقَّ جَوَابُهُ مِنْهَا ، وَغَالِبُ مَا يُعْتَنَى
 بِهِ مِنْ ذَلِكَ جَوَابُ مَا يَرِدُ مِنَ الْمَكَاتِبَاتِ بِالتَّقَادُمِ وَالْهَدَايَا ، وَمَا فِي مَعْنَى ذَلِكَ .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها في أوائل الأجوبة عن المعاني التي ترد فيها .

جواب سُلْطَانِيٍّ عَنْ وَصُولِ خَيْلٍ : - وَلَا زَالَ يُخْفِ بِكُلِّ صَاهِلٍ فِي الْجَحْفَلِ ،
 وَجَمَالٍ فِي الْمَحْفَلِ ؛ وَأَجْرَدَ إِذَا أَمَّ غَايَةَ لَمَعَتْ فِي أَثَرِهِ الْبُرُوقُ تَتَطَفَّلُ ، وَمُسَوِّمٌ يَلْتَرَمُ
 جَلَالَهُ بِمَزِيدِ جَلَالِهِ ، وَكَيْفَ لَا وَهِيَ إِذَا أُسِدِلَتْ عَلَيْهِ يَتَكَفَّلُ ! . أَصْدَرْنَا وَالْعِطْرُ
 يَضُوعٌ مِنْ سَلَامِهَا ، وَالْمَسْكُ يُفُوحُ مِنْ خِتَامِهَا ، وَأَثَارُ النَّدَى تَحْكِي آثَارَ أَقْلَانِهَا .

آخر في المعنى : ولا زال مُحَنَفًا بِالْحِيَادِ وَإِرْسَالَهَا ، وَمُهْدِيًا لِرِكَابِ الشَّرِيفِ
السَّوَابِقِ الَّتِي إِذَا لَمْ يَسَابِقْهَا شَيْءٌ مِنْ أَلْيَوَانَ تَجَلَّتْ فِي مُسَابَقَةِ ظِلَالِهَا ، وَيَتَّقَى لِمَوَاقِبِنَا
الْحَيُولِ الَّتِي إِذَا أَصْبَحَتْ فِي مَدَى أَصْبَحَتْ الرِّيحُ تَتَعَلَّقُ بِأَذْيَالِهَا . أَصْدَرْنَاهَا .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي إِلَيْنَا مِنَ الْحِيَادِ بَحْرًا ، وَيَقُودُ مِنَ الْعَرَابِ مَاتَمَلًا
غُرَّتُهُ الْمَوَاكِبَ بِشْرًا ، وَإِذَا طَلَعَ فِي الْكَتِيبَةِ يَزِيدُهَا عِزًّا وَنَصْرًا ، مِنْ كُلِّ طَرَفٍ
تَأْصَلُ حُسْنًا وَحَسَنًا إِهَابًا وَجَلَّ قَدْرًا .

آخر في مثله : وأعلى له على صهوات العتاق مرتقى ، وخصه بكل جواد وهو منتقى
إليه منتقى ، وأطلع عليه نواصي الصوائف التي عقد الخير بها عقداً مؤثقا . أصدرناها
ونور التحايا من أرجائها يُنير ، ومفانحها تشرف بها كل منبرٍ وسرير ، وركائب أثبتها
تسير إلى مقامه فتطيب راحلةً في ذلك المسير .

آخر في مثله : ولا زال يُهْدِي مِنَ الْحِيَادِ الْمُسَوِّمَةَ أَصَائِلَهَا ، وَيُحْفُفُ مِمَّا يَحْيِيهِ عِنْدَ
الرِّفَادَةِ عَلَيْهِ صَاهِلَهَا ، وَيَقَابِلُ أَكْرَمَ غُرَّةِ الْخَيْرِ مَعْقُودَ بِنَاصِيَتِهَا وَالْيَمْنَ يَقَابِلُهَا ، وَيَمْتَعُ
بِأَعْزِ جَوَادٍ حَلِيَّةٍ الشَّفَقِ دُونَ إِهَابِهِ إِذْ يَمَاطِلُهَا ، وَسُرْعَةُ الْبَرَقِ خِفَّتُهُ إِذْ يُسَاجِلُهَا .

الضرب الثالث

(من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نواب السلطنة إلى النواب)

(بسبب ما يرد عليهم من المثالات السلطانية)

اعلم أنه قد جرت العادة بأنه إذا ورد على نائب السلطنة بالشام مثال شريف من
الأبواب السلطانية ، يأمرهم ^(١) كتب نائب الشام إلى نواب السلطنة بورود

(١) بياض بالأصل ولعله بأمر .

المثال الشريف مُبَشِّرًا بِذَلِكَ ، وَيُجَهَّزُ إِلَى كُلِّ مِنْهُمْ مَعَ الْمَثَالِ الْوَارِدِ إِلَى كُلِّ نَائِبٍ مِنْ تَوَابِ السُّلْطَانِ مَعْنَى الْمَثَالِ الْوَارِدِ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِذَلِكَ . إِلَّا أَنَّهُ يَكُونُ حَاجِبًا لِصُورَةِ الْمَثَالِ الْوَارِدِ بِذَلِكَ ، لِأَنَّهُ مُبْتَدَأُهُ ، وَيَشْتَمِلُ ذَلِكَ عَلَى عِدَّةِ أُمُورٍ .

فَمِنْ ذَلِكَ جُلُوسُ السُّلْطَانِ عَلَى تَحْتِ الْمَلِكِ ، فَيُخْبِرُ نَائِبُ الشَّامِ فِي الْكُتَابِ الصَّادِرِ عَنْهُ إِلَى بَعْضِ التَّوَابِ بِأَنَّ الْمَثَالَ الشَّرِيفَ وَرَدَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَنَّهُ وَرَدَ كِتَابٌ إِلَى الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ بِجَهْزِهِ إِلَيْهِ .

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كُتِبَ بِهِ عَنْ نَائِبِ الشَّامِ إِلَى بَعْضِ تَوَابِ السُّلْطَانَةِ ، بِالْبِشَارَةِ بِسُلْطَانَةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ ، وَقَدْ وَرَدَ عَلَى يَدِ بَعْضِ الْمُجَابِّبِ . مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نَبَاتَةَ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثٍ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَهِيَ بَعْدَ الصَّدْرِ :

أَمْتَعَهُ [اللَّهُ] مِنَ الْبَشَائِرِ بِمَا يَتَوَضَّعُ عَلَى جَبِينِ الصَّبَاحِ بِشْرُهُ ، وَبِمَا يَتَرَجَّحُ عَلَى مِيزَانِ الْكَوَاكِبِ قَدْرُهُ ، وَبِمَا يَنْفَسُحُ مِنْ أَوْقَاتِ أَمْنٍ لَا يَخْتَصِمُ فِي ظِلِّهَا زَيْدٌ وَعَمْرُو حَتَّى يَقَالَ : وَلَا زَيْدٌ النَّحْوِ وَعَمْرُو . وَيُنْهَى بَعْدَ دَعَاءِ يَتَبَلَّجُ فِي اللَّيْلِ فَجْرَهُ ، وَشَاءَ يَتَّارِحُ فِي طَيِّ النَّسِيمِ نَشْرُهُ ، وَوَلَاءَ يَتَسَاوَى فِي دَرَجَاتِ الصَّفَاءِ سِرُّهُ وَجَهْرُهُ . أَنَّ خَيْرَ الْبَشَائِرِ مَا خَصَّ أَوْلِيَاءَ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةَ وَعَمَّ الرِّعَايَا ، وَسَمَّا إِلَى نُغُورِ الْإِسْلَامِ خَبْرَهُ الْحَلِيَّ فَقَالَ : «أَنَا ابْنُ جَلَاوِطَّلَاعِ الثَّنَائِيَا» وَقِسِمَتْ مَسْرَّتُهُ عَلَى كَافِلِي الْمَمَالِكِ فَقَالَتْ مَمْلُوكَةٌ مَوْلَانَا : «لَنَا الْمِرْبَاعُ مِنْهَا وَالصَّفْقَايَا» وَسَلَكَ الْمَمْلُوكُ مِنَ الْإِسْرَاعِ بِإِسَاعَتِهِ الْحَقَّ الْوَاجِبَ ، وَجَهَّزَ خِدْمَتَهُ بَيْنَ يَدَيْ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ الَّذِي سَبَقَ طَائِرُ يَمْنِهِ وَلَكِنَّهُ جَاءَ فِي خِدْمَتِهِ حَاجِبٌ ، وَهِيَ الْبَشْرَى الْوَارِدَةُ فِي الْأَمْثَلَةِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَّةِ ، الْمَالِكِيَّةِ الْمَلِكِيَّةِ ، الصَّالِحِيَّةِ الْعَمَادِيَّةِ ، الْعَرِيقَةِ فِي نَسَبِ النَّصْرِ بِالْأَنْسَابِ النَّاصِرِيَّةِ الْمَنْصُورَةِ ، أَعْلَى اللَّهِ

تعالى أبداً على قواعد الملك عمادها، وصرف بها الأئمة لما سرّ وصرّفها عمادها،
 يجلوسه على كرسيّ الملكة الذي هو آية سعده الكبرى، وتحت السلطنة الذي عينه
 ملك الجود والعلم فقال: السّلام عليك بحراً، وإجماع الأمة على أنه صالح المؤمنين،
 وكفاة الحلّ والعقد على أنه سلطان الإسلام والمسلمين، وأركان البيت الناصريّ
 على أنه عماده، وعلى أنه سنده المكلّم وإذا انقضّ بيت سناده؛ فياله جلوساً قامت
 فيه كواكب السعد مشدودة المناطق، وياله إجماعاً آتفق فيه - حتى من تصميم
 السيوف وتعبير الأقلام - كل صاميت وناطق؛ وياله بيت ملك أبي الله إلا أن يقيم
 وزنه أفضل الأفاعيل، وياله ملكاً قال الدهر الطويل أنتظاره: ﴿الحمد لله الذي
 وهب لي على الكبير إسماعيل﴾. وياله أمراً بلغ خبره وخبره الأوطار والأوطان،
 ونفذت برده المصرية على حين فترة تالية له السعود: ﴿فأنفذوا لاتفتنون إلا سلطان﴾
 وحشر الناس صحنى ليوم الزينة، وجاءوا إليها مستبشرين من أدنى وأقصى كل من
 في المدينة؛ وضربت البشائر ويا عجباً! أنها تضرب ومكاتها من القلوب مكيته.
 حتى إذا أخذت مضرب حظها من الهناء قسّمت على الأمصار، وأضاء بأرق نثرها
 من كل وجه فسمت بالشامات غرة الابصار؛ وركض بريد الخير بمبارك باب البريد،
 ووصل نيل النيل إلى أنهار دمشق فبردى على الشكر نابت ويزيد؛ وبشر الإسلام
 من وجه الخلف الصالح بأكرم من بر، وأستفاض الأسم الشريف: فلو كلف مشتاق
 فوق وسعه لسعى إليه المنبر.

فالحمد لله على أن سرّ البيت الشريف الناصريّ يجمع شمله، وعلى أن أتى الملك
 العقيم الصالح من أهله؛ وقد جهز المملوك المثل الشريف المختص بمولانا: ومولانا
 أولى من أنتظمت لديه درر هذه الأخبار الثمينه، وعظمت بناحيته شعائر هذه الدولة
 المكيته، وكل خير حماه خير قرينه؛ والله تعالى يعز الإسلام بعزمه، ويمضي الآجال

والأرزاق على يدي حربه وسلمه ؛ ويُحزُّ لرأيه ورأيته النصر قبل أن يطوف الأولياء بعلمه ، وقبل أن يحيط الأذكاء بعلمه .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافية السلطان الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، في خلافة المعتضد بالله أبي الربيع سليمان ؛ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الهناء كل سرى يسره ، وكل سني يقرُّ أمام ناظره الكريم ويقره ، وكل وفي إذا طلع في آفاق حلب قيل : لله دره ؛ ولا زالت البشائر تلقاه بكل وجه جميل ، وبكل جلي جليل ، وبكل خير تصح الدنيا بصحته فليس بها غير النسيم عليل ؛ تقبيلاً يزاحم عقود الثغور ، ويكاد يمنع ضم الشفتين للثم طول الأبتسام للسرور ؛ وينهى بعد رفع اليد بدعائه ، وضم الجوانح على ولائه ؛ وجزم الهناء المشترك بمسرة مولانا وهنائه ؛ أن المثال الشريف زاده الله شرفاً ، وزاد فضل سلطانه على العباد شرفاً ؛ ورد بالبخشارة العظمى ، والنعماء التي ماضتها الأيام قبل بنعمي ؛ والمسرة التي يأكل حديثها أحاديث المسرات أكلاماً ، ويحبها الإسلام والمسلمون حباً جماً ؛ بسلامة جوهر الجسد الشريف من ذلك العرض ، وشفائه الذي في عيون الأعداء منه شفاً تطعن وفي قلوبهم مرض ؛ وأن مادة الأعداء بحمد الله قد انحسرت ، والواردة من الأفتقاد بالأجر والعافية قد آبتسمت ؛ وأن ظنون الإشفاق قد أضمحلّت ، وسمات الروض قد فدت الحسم الشريف فأعتلت ، وأخبار الهناء يعينها كل بريد تشوان من الفرج [ينشد] أسألها أي المواطن حلت ؛ فيالها بشارة خصت الإسلام وعمت بنيه ، وسارت فوق الأرض وسرت تحتها أسلاف الملك ومبتهيه ؛ وشملت البلاد وعبادها ، والسلطنة وقد حجب الله عمادها عمادها ، والملك السليمانى وقد ثبت الله

به على الدنيا من السماء خيمتها ومن الجبال أوتادها؛ والطير وقد حملت ورقه أوراق السورور، والوحش وقد قالت مهاة : على عيني أنحمّل ذلك السقام أودك الفتور؛
 ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيًّا ﴾ والألطف الرّاحم بها المؤمنين من خلقه
 ﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴾ .

وكان وروود هذا المثال الشريف على يد فلان ، فيآله من وأرد لمشاريع الأمن
 أورد، ولروائع الناس عن القلوب حجب أورد؛ وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف
 المختص بمولانا وهذه الخدمة بعد أن ضربت البشائر مسوعة في كل ضرب من
 التهانى ، وزينت البلد زينة ما نظمت فيها غير العقود أيدي العواني ؛ فيأخذ حظه
 من هذه البشري ، ونصيبه من هذا الوجه الذى ملأ الوجود بشرًا ، وشطره من الهناء
 المخصوص الذى تعجل منه المملوك شطرًا ؛ والله تعالى يسره بكل خير شرق زواهره ،
 وتعبق في كرائم الدروج أزاهره ، ويتألق على يد بريده من المخلقات كل كوكب صبح
 تملأ الدنيا بشائره .

ومن ذلك المكاتبه بورود المثال الشريف بوفاء النيل .

إذا ورد على نائب الشام بوفاء النيل المبارك ، كتب نائب الشام عن نفسه إلى
 نائب حلب وغيره ، من تواب السلطنة بالممالك الشامية ، بورود المثال الشريف عليه
 بذلك ، ويكتب عنه كما يكتب عن السلطان : من السجع ، وإيراده مورد البشارة ،
 وإظهار الفرح والسورور بذلك ، لا يكاد يخافه إلا فى كونه وأردًا مورد الحكاية لمثال
 السلطان ، ومثال السلطان محير بذلك ابتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين
 ابن نباتة ، كتب به لسنة ثلاث وأربعين وسبعائة ، وهى بعد الصدر :

لا زالت مبشرة بكل مبهجة ، مغطرة الأرجاء بكل سائرة أرجه ؛ مبسرة الأوقات بمقدمتي سماع وعيان : كلاهما للسائر منتهجه ، مستحضرة في معالي الكرم كل دقيقة تشهد بسطة النيل أنها أرفع منه درجة ؛ وينهى بعد دعاء مالروض أعطر من شذاه ، ولا ماء النيل وإن كرم وفاء بأوفى من جداه ؛ أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفاً ، ورد بوفاء النيل المبارك وحبذا هو من وفي موافى ، ومغير الجبري وعيش البلاد به العيش الصافي ، وحسن الزيارة والرحيل ماضاهته الغيوت في ولافي ؛ ووارد من معبد بعيد ، وحميل لا جرم أن مده ثابت^(١) وزيد ؛ وجائد إذا نتاج حيث تياره يقد بره ودره من الأرض وساكنها كل جيد ، وإذا ذكر الخصب لمكان عيده المشهود ألقى السمع وهو شهيد ؛ وذلك في يوم كذا ، وأن البلاد جبرت بكسر خليجه ، واستقامت أحوالها بتفريجه : وأثنت عليه بالائه ، ووسمت لونه الأصب على رغم الصهباء بأحسن أسمائه ؛ وخلق فلات الدنيا بسائر مخلقه ، وعاق ستره المصري التبري فزكا على معلقه ، وخلق مسير ترأعه على القرى فبات على النداء صيف مخلقه ؛ وحدث عن البحر ولا حرج ، وأنخرج على البقاع يلوى معصمه فله أوقات ذلك اللوى والمنعرج ؛ وأستقرت الرعايا آمين آمين ، وقطع دابر الحدب بسعود هذه الدولة القاهرة ﴿ وقيل الحمد لله رب العالمين ﴾ ورسم أن لا يجي حق بشارة ، ولا تعب يد التنقيص منها ليزداد الخبر نوراً على نور ، ويكون في إثارة وحسنه الخبر الحسن الماثور ؛ ووصل بهذا الخبر فلان وعلى يده مثال شريف يختص بمولانا وقد جهز به ؛ فيأخذ مولانا حظه من هذه البشرية ، ويوضح بها على كل الوجوه

(١) في الاصل "لا جرم أن يده".

بُشْرًا؛ والله تعالى يملأ له بالمسرات صدرا، ويضع بعدله عن الرعية إصرا؛ ويسرهم في أيامه بكلِّ وارِدٍ يقول الإحسان لم تحمله: (لَوْ شِئْتَ لَأَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا) إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة كتاب آخر في المعنى إلى بعض التواب، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة أيضا، وهي بعد الصدر:

وضاعف مواد نعمة ونعمائه، ومسرتة وهنائه؛ وحفظ عليه ما وهبه من المناقب التي يروى النيل عن كرمه ووفائه، وشرف السيوف لكونها من سمات كرمه والسيول لكونها من سمائه .

المملوك يُجَدِّدُ الخِدْمَةَ بِنَفْحَاتِ سلامه وثنائه، ويصف ولأء لو تجسم لاستمدت عين الشمس من سنائه؛ وينهى أن المرسوم الشريف زاده الله تعالى شرفا، ورد مبشرا بوفاء النيل المبارك في يوم كذا؛ فياله ربيعا جاء في ربيع، وحاملا في مقرده الفضل الجميع؛ وداعيا بالخصب ينشد كل ثانية اثنين ربحانة الداعي السميع، ومتغنيا على منصصة المقياس عرسه يحلى عليه من شبا كها الستر الرفيع؛ وأنه أقبل والبلاد أشهى ما تكون للقياه، وأشوق ما ترى لمباشرة ربه ورياه؛ وقد امتدت أيدي الجسور لقمه، وأستعدت شفاه الحروف اللعس للشمه؛ فكرم عليها زائره، وصحبها بالثجج ساريه وسائره، ودارت على الجذب من خطوط الأمواج دوائر؛ وعمت المنافع، وتلفت عيون الفلا ناهلة بالأصابع؛ وفاض البحر بيرة، ونشر رداءه على الأرض وسيضوع روضها بنشره؛ وخلق المقياس فيالك من قياس بشري غير ممنوع، وكسر الخليج فياله غصن قلم على النيل وطائر سبجه على القرات مسموع؛ ورسم أن

لا يُجِبُّ حَقُّ بِنَايِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِيهَا التَّنْقِيصُ لِدَارٍ وَلَا التَّنْغِيصُ لِدَارِهِ ؛ وَوَصَلَ بِهَذَا الْأَمْرَ فَلَانَ وَقَدْ جُهِّزَ بِمَا عَلَى يَدِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَتِّعُ مَوْلَانَا مِنْ أَقْسَامِ الْمَسَارِّ بِصُنُوفٍ ، وَيُدْفِعُ عَنْ حُصُونِ الْإِسْلَامِ بِمِنْهَ أَيْدِي الصُّرُوفِ ؛ وَيَنْفَعُهَا بِظِلَالِهِ الَّتِي آوَاهَا مُلْكُهُ الْكَرِيمُ إِلَى جَنَّةٍ : وَكَذَلِكَ الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ .

الضرب الرابع

(من المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ عَنِ النَّوَابِ وَالْإِتْبَاعِ إِلَى الْخَلِيفَةِ أَوِ السُّلْطَانِ ، وَفِيهِ مَهِيَعَاتٌ)

المهيعة الأولى

(في الأجوبة عن الكُتُبِ السُّلْطَانِيَّةِ السَّابِقَةِ فِي الضَّرْبِ الْأَوَّلِ)

قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَقَدِّمَةِ الْمَكَاتِبَاتِ فِي أَوَّلِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ ذِكْرُ الْخِلَافِ : هَلِ الْكُتُبُ الْإِبْتِدَائِيَّةُ [أَعْلَى رُتْبَةٍ ^(١)] فِي الْإِتْيَانِ بِهَا أَمْ الْجَوَابِيَّةُ ، وَذِكْرُ الْأَحْتِجَاجِ لِكُلِّ مِنَ الْمَذْهَبَيْنِ ، وَذِكْرُ التَّحْقِيقِ فِي ذَلِكَ ؛ فَلْيَرَجِعْ مِنْ مَوْضِعِهِ هُنَاكَ . وَنَحْنُ نَذَكُرُ الْكَلَامَ عَلَى أَجْوَبَةِ الْكُتُبِ السَّابِقَةِ عَلَى التَّرْتِيبِ الْمَتَقَدِّمِ ، جَارِينَ فِي ذَلِكَ عَلَى مَا قَرَّرَهُ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" .

فَأَمَّا الْجَوَابُ عَنِ الْكُتُبِ الْوَارِدِ بِانْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَى الْخَلِيفَةِ ، فَإِنَّ الْكُتَابَ إِنْ كَانَ مُتَضَمِّنًا التَّعْزِيَةَ فِي سَلْفِهِ ، وَالْهَيْئَةَ بِمُتَجَدِّدِ النَّعْمَةِ عِنْدَهُ فِي أَنْتِقَالِ الْخِلَافَةِ إِلَيْهِ ، فَارْسَمَ فِيهَا يُكَاتَبُ بِهِ عَنِ الْخَلِيفَةِ أَنْ يُبْنَى عَلَى الْأَسْتِشَارِ بِالنَّعْمَةِ فِي خِلَافَتِهِ ،

(١) بياض بالأصل . والتصحيح عما تقدم في (ج ٦ ص ٣٢٣) .

والمسارعة بإخلاص الضمير إلى الدخول في طاعته وبيعته ؛ وأنفساح الآمال في دولته ، والشكر لله تعالى على جبر الوهن وعلو كلمة الإسلام والمسلمين بدعوته ؛ وتعزيبته عن أبيه ، بما يوجب محل المحنة ويقتضيه ؛ يعني إن كان الخليفة الميت أباه ، فالدعاء له بأن ينهضه الله تعالى بما حمّله ، ويعينه على ما كفّله ؛ ويقرن ملكه بالحدّ السعيد ، والخلود والتأييد ؛ وإدالة الأولياء ، وإدالة الأعداء ؛ ونحو هذا مما يجاريه .

وإن كان الكتاب الوارد بانتقال الخلافة إليه عن أبيه ، ومن في معناه ممن يواليه في المحبة ، فإنّ الكاتب يحوم في الجواب على ما حصل بذلك من صلاح حال الأمة ، وأستقامة أمر الرعية بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يصرّح بدمّ الذهاب قبله . ولا يخفى أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلى السلطان وجلوسه على تحت الملك في معنى الجواب في انتقال الخلافة إلى الخليفة ، لا يكاد يفرق بينهما ، على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالدعاء إلى الدين ، فإنما يتكلّمها كتاب محالفي الملّة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال في "موادّ البيان" : إلا أنه لاغنى لكتاب الإسلام عن علم ما يقع فيها ، لتتقدّم عندهم المعرفة بما يجيب به المخالفون ، يأخذوا عليهم بأطراف الحجّة إذا كاتبهم ابتداءً أو جواباً .

قال : ولا تخلّوا أجوبة هذه الكتب من أربعة معانٍ :

أحدها — إجابة الدعاء إلى الدين ، وقبول الإرشاد والهدى ، والنزوع عن الغي ، والإقبال على التّبصرة والتذكرة ، بعقائد خالصة ، ونيات صريحة .

والثاني — الإصرار على ما هم متمسكون به ، وتمحلّ الشبهة في نصرته ، وأدعاء الحقّ فيما يعتقدونه ، والمغالطة عن الإجابة إلى قبول ما دعوا إليه .

والثالث — بَدَلُ الحِزْبِيَّةِ والمُصَالِحِ، والجُنُوحِ إلى السَّلْمِ والمُؤَادَعَةِ .

والرابع — إظهار الحِمِيَّةِ ، والقيامُ في دفاعِ مَنْ يَرُومُ اقْتِسَارَهُمْ على مفارقةِ شرائعهم وأديانهم ، وبَدَلُ الأَنْفُسِ في مُقَارَعَتِهِ .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالحثِّ على الجِهَادِ، فقد ذكر في "موادِّ البيان" أنها لا تخرج عن معنيين :

أحدهما — إجابة الصَّرِيحِ، والمُبَادَرَةُ إلى التَّشْمِيرِ في الجِهَادِ ، والقيامُ في مَعُونَةِ الأولياءِ، على كِفَاحِ الأعداءِ .

والثاني — الأَعْتِذَارُ والتَّعَلُّلُ والتَّنَاقُلُ .

هذا إن كانت الكُتُبُ صادرةً إلى القُوَّادِ والمُقَدِّمِينَ . أما إذا كانت مقصورةً على الاستنفارِ، فلا جوابَ لها إلا التَّفُورُ أو الإِمْسَاكُ . قال في "موادِّ البيان" :
والطريق إلى إقامة العُدْرِ لِيُصْرَخَ في التأخر عن مُسْتَصْرِخِهِ متى أراد الاعتذار عنه صَعْبٌ على الكاتبِ، ولا سِيَّما إذا كانت الأَعذارُ مُتَكَلِّفَةً غيرَ صحيحةٍ .

قال : وينبغي أن يتأثى لذلك ويُحَسِّنَ التَّلَطُّفَ فيه ، ولا يَعْتَلَّ بكذبِ صُرَاحٍ ينكشفُ لِعُتْدَرِ إليه .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة بالحثِّ على لُزُومِ الطاعةِ ، إذا وردت على التَّوَابِ والوَلَاةِ وأَمْرٍ وَا بقرائها في أعمالهم على الرِّعَايَا ، فإنه يكون : إما بانقياد الرِّعَايَا إلى مادُّعُوا إليه ، أو استدامتهم لمركبِ التَّفَاقِ ، وأَسْتِدْعَاءِ مادَّةٍ لتقويمهم .

وأما الجواب عن الكُتُبِ إلى مَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ مِنَ المُعَاهِدِينَ ، فقد ذكر في "موادِّ البيان" أنها لا تخلو من أحد أربعة معانٍ .

أولها — الاعتذار والاستقالة من مراجعة النكث، والرغبة في الصبح عن النبوة، والمسامحة بالهفوة .

والثاني — المغالطة والمراوغه، وأستعمال المدهانة والمخادعة .

والثالث — التجليح والمكاشفة .

والرابع — إيجاب المحبة على المحبوب (؟) عنه في أنه المبتدئ بفسخ ما عاقد عليه . قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كل معنى من هذه المعاني الغرض اللائق به في الصناعة .

وأما الجواب عن الكتب إلى من خلع الطاعة ، فقد قال في "مواد البيان" :
إنها تحمل معنيين : أحدهما الاعتذار ، والآخر الإصرار ؛ وكل واحد منهما محتاج إلى عبارة لائقة به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا ، عرّف سبيل التخصّص فيها بمشيئة الله تعالى .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالفتوح، فإنها إن صدرت من السلطان إلى ولاةه، فينبغي أن يُبنى جوابها على الاستبشار بموقع النعم في الظفر بالعدو، والجدل بمتجدد الفتح؛ وأن ذلك إما تهيأ بسعادته، وعلوّ رأيه وأنبساط هيئته؛ وما عودته من إظهار أوليائه، وخذلان أعدائه؛ وأنهم قد أشاعوا هذا النبا في الخاصة والعامة من رعاياه فابتهجوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودعوا له بصالح الدعاء . وإن صدرت من ولاة الحرب إلى السلطان، فينبغي أن يكون ما يبيحهم به مبنيا على حمد الله تعالى على عوارفه، والرغبة في مضاعفة لطائفه؛ وشكره على إنجاز وعده في الإنظار بأعداء الملّة والدولة ونحو هذا . ومخاطبة أهل الطاعة بما يرهف عنائهم، ويقوى شوكتهم؛ وتقرّظ وإلى الحرب ووصفه بما يشهد بصيرته في الخدمة، والثناء على

الأجناد ، ووعدهم بجزيل الجزاء على الجهاد والإبلاء ، إلى غير هذا مما يقتضيه الحال ، ويوجبُه تدبير الأمر الحاضر .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأعتذار عن السلطان عند ما يحصل له زلُّ في التدبير أو [في] الظفر قبض الأعداء على جيش من جيوشه ، فإنما تقع الإجابة عنها إذا نُفِّدَتْ إلى أحد العُمال خصوصاً . قال في "مواد البيان" : وحينئذ فينبغي أن يكون الجوابُ عنها مبنياً على تقوية نفس السلطان وتوثيقه بالأدلة ، وأن ماناله لا يتوجه كثيراً على ذوى الحرم ، إلا أن عواقب الفلج والظفر والإصابة في الرأي والتدبير تكون لهم ، ونحو هذا مما يُجاريه ويليق به .

قال : أما إذا كانت المكتبة في ذلك إلى الكافية ، مُهددة لعدو السلطان ، قاطعة قالة الرعية عنه ، فإنه لاجواب عنها : لأنها إذا لم توجه إلى واحد بعينه لاستدعي خطاباً .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن السلطان بالنهي عن التنازع في الدين ، إذا صدرت إلى العُمال ، وأمرُوا بقراءتها على الرعايا على منابر أعمالهم ، فإنه ينبغي الأمر فيها على امتثال الأمر ، والمطالعة بآرتسام القوم ما رسم لهم فيها . أما إذا كانت صادرة لتقرأ على العامة ليُصروا ما فيها ويعملوا عليه ، فإنه لاجواب عنها ، لأنها إنما تشتمل على مواعظ ومراشد تتخول بها الأئمة رعاياهم .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأوامر والنواهي ، فقد ذكر في "مواد البيان" أن الكتاب الوارد في ذلك : إن كان شيئاً قد جزم المتبوع فيه الأمر ، وضيَّق على التابيع في إيثاره سبيل المراجعة فيه ، فإن الجواب عنه سهل : لأنه إنما يجبُ بجواب جامع ، وهو وقوفه على ما أمر به وإنفاذه له . وإن كان الوارد أمراً محتملاً للمراجعة ، من حيث إن في إمضائه إذا أمضى إفساداً للعمل ، وإخلالاً بأسباب

المُلكِ والسلطان، فالجواب عنه شاقٌّ صعبٌ: لأنه ينبغي أن يُبنى على تَلَطُّفٍ شديدٍ في الإبانة عما يُنتجُه ذلك المأمور به إذا أُنْفِذَ على وجهه من قَتِيٍّ وَخَلَلٍ ؛ وموردُ المراجعة في ألفاظه لا يتيسرُ فيه إزراءٌ على رأيِ الرئيس ولا طَعْنٌ في تدييره: بأن تكون ناطقةً بأن رأيه الأعلى، وتدييره الأصوب؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفا على الصواب، وظاهره تصويبا وتقريظا: لأن كثيرا من الرؤساء والملوك يعجبون بأرائهم، ويترأون أنفسهم بحكم الرياسة في منزلة من لا يرآجع ولا يعارض فيما يأمر به .

قال: وقد أتى من كُتِبَ الأوامر كُتِبَ يأمر الرئيس فيها المرءوسَ بِشَرْحِ حالٍ وأقتصاصِ أمور . ثم قال: وأجوبة هذه الكُتُبِ يجب أن تكون مُسْتَقْصِيةً للغيِّ المُشْرِحِ، مُسْتَوَلِيةً على حَوَاشِيهِ، غير مُخِلَّةٍ بشيءٍ مما يحتاج إلى تعرُّفه منه .

وأما الجواب عن الكُتُبِ الواردة عن الإمام عند حدوث الآيات السماوية، وهي مشتملة على مَوَاعِظٍ وَمَرَاشِدٍ تَحْوُلُ بها الأئمة رعايَهم؛ فإذا صدرت إلى العُمَّالِ وأمرُوا بقراءتها على الرعايا، فأجوبتها إنما تُبنى على أمثال الأمر والمطالعة بأرتسام القوم ما رَسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صادرةً لثُقَرَاءٍ على العامة لِيَتَبَصَّرُوا بما فيها ويعملوا عليه، فإنه لا جواب عنها .

وأما الجواب عن التَّيْبِيةِ على مواسم العبادة، فإنه يصدر عمن وَرَدَ عنه إلى الإمام بعد شُهودِ ذلك المَوسِمِ، والأَنْفِصَالِ عنه على حال السلامة، كما في صلاة العيد ونحوها . قال في "موادِّ البيان": وأجوبتها تصدر إلى الخلفاء مقصورةً على ذِكْرِ ما منَّ الله تعالى به من قَضَاءِ الفريضة على حالِ الأتِّلافِ والأَتِّفاقِ، وشُمُولِ الأَمْنِ والهُدَى والسُّكُونِ، وسُبُوغِ النِّعمَةِ على الكَافَّةِ؛ وأن ذلك بسعادةٍ وعِنايةِ الله تعالى بِدَوْلَتِهِ وبرِعِيَّتِهِ، ونحوها مما يقتضيه المعنى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلى ولاة أمره بالسلامة في ركوب أول العام وُعْرَةَ رَمَضَانَ ، والجمعة الأولى والثانية والثالثة منه ، وعِيدِي الفِطْرِ والأَضْحَى ، وَفَتْحَ الحَلِيجِ بعد وفاء النيل ، فقد قال في "موادّ البيان" : إنّه إن كان الكُتَاب عن السلامة في صلاة العِيدَيْنِ أَوْجَمَ رَمَضَانَ ، فينبغي أن يكون مَبْنِيًّا عَلَى وُرُودِ كُتُبِهِ متضمنةً ما أعان الله تعالى عليه أمير المؤمنين من تَأْدِيَةِ فريضته ، والجمع في صلاة عيد كذا بَرَعِيَّتِهِ ؛ وما ألبسه الله تعالى من الهدى والوقار ، وأفاضه عليه من البهاء والأنوار ؛ وبروزه في خاصّته وعامّته إلى مُصَلَّاه ، وسماع خطبته وعوده إلى قصره الزاهر ، وعليه تَلَأُّ القَبُولِ لصلّاته ودُعائه ، مما أجراه الله تعالى فيه على عادة آلائه ؛ ووقف عليه وقابله بالشكر والإحاد ، والاعتراف والاعتداد ، وأفتضه على رءوس الأشهاد ؛ فأغرّقوا في شُكْرِ الله تعالى على الموهبة في أمير المؤمنين ، ورغبوا إليه في إطالة بقائه مُرَامِيًّا عن الإسلام والمسلمين ؛ ونحو هذا مما يُجَارِيهِ .

ثم قال : فإذا نُفِذَتْ هذه الكتب من العَمَلِ إلى أمير المؤمنين مُبَشِّرَةً بآجتاع رعاياه لتأدية فريضتهم ، وعودهم إلى منازلهم سالمين ، فينبغي أن يكون الجواب عنها : «وصل كتابك مُتضمّنًا ما لا يزال الله تعالى يُؤليه لأمر المؤمنين في رِعِيَّتِهِ ، وخاصّته وعامّته : من اتفاق كلمتهم ، وأئتلاف أفئدتهم وسلامة كآفتهم ؛ وما منّ الله به عليه وعليهم من آجتاعهم لتأدية فريضتهم ، وعودهم إلى منازلهم ؛ على السّلام من ضمائرهم ، والطّهارة من سرائرهم ؛ فحمّد أمير المؤمنين الله تعالى على ذلك وسأله من يدهم منه ، وتوفيقهم لما يُرضيه عنهم ؛ وشكر مسعاك في سياستهم ، وأمّتداد يدك في إيالتهم ؛ وهو يأمرك أن تجرّى على عادتك ، وتسير فيهم بحمّل سيرتك » وما يليق بهذا .

ثم نبى على ذلك سائر كتب السلامة، وقال: ينبغى أن يُستَبَطَّ من نَفْسِ كُلِّ كِتَابٍ منها المعنى الذى تجب الإجابة به، مثل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلى أحد عماله، مُبَشِّرًا بسلامته من سفره؛ فينبغى أن يُبْنَى جوابه على ما صورته: «ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بما هَيَّاه الله تعالى له من السلامة ويمن الوجهه، مع تقريب الشقه؛ وإنالة المسار، وتسهيل الأوطار، وإدناء الدار؛ فوقف العبد عليه، وأمثل المرسوم فى إطلاع الأولياء على ما نُصَّ فيه من هذه البشرى؛ فَعُظِّمَتِ المِنْحَةُ لديهم، وَجَلَّتِ النِّعْمَةُ عندهم؛ وأنشِرتْ صُدُورهم، وأنفسحت آمالهم، ووقفوا بَصْنَعِ الله تعالى لهم؛ وأرتفعت أيديهم إلى الله سبحانه بالرغبة فى حياطة أمير المؤمنين قَاطِنًا وظاعنًا، وحسن صحابته حالًا وراحلا؛ وجميل الخِلافة على من خلفه من حامته وعمته، وأهل دعوته وخاصة دولته؛ والله تعالى يجب فى أمير المؤمنين صالح الدعاء، ويمدّه بطول البقاء» وما ينظم فى سلك هذا الكلام ويضاهيه .

قلت: وقد تقدم فى الكلام على المكاتب السلطانية الابتدائية: أن المكاتبه بالبشارة بالسلامة فى رُكُوبِ العيدين وما فى معناها من قدوم السفر وغيره، قد ترك استعماله بديوان الإنشاء فى زماننا . فإن قُدِّرَ مثله فى هذه الأيام، أجزاه الكتاب على نحو ما تقدم، على ما يقتضيه مصطلح الزمان فى المكاتب السلطانية .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخلع وما فى معنى ذلك، فينبغى أن يكون مبنيًا على تعظيم المنه، والاعتراف بجزالة المنحه؛ وجميل العطية، وزائد الفضل؛ وأن ما أسدى إليه من ذلك تفضل عليه، وتطول من غير استحقاق لذلك؛ بل فائض فضل، وجزيل امتنان؛ وأنه عاجز عن شكر هذه النعمة والقيام بواجبها، لا يستطيع

لها مكافأة غير الرغبة إلى الله تعالى بالأدعية لهذه الدولة . وما يناسب ذلك من الكلام ويلائمه .

وأما الجواب عن الكُتُب بالتنويه والتلقيب إذا صدرت إلى نواب المملكة ، فالذي ذكره في "مواد البيان" أن المنوه به يُجيبُ عما يصله من ذلك بوصول الكتاب إليه ، ووقوفه عليه ، ومعرفة بقدر العارفة مما تضمنته الرغبة إلى الله تعالى في إيزاعه الشكر ، ومعونته على مقابلة النعمة بالإخلاص والطاعة . أما إذا كتبت بالتنويه والتلقيب لأحد من المقيمين بحضرة الخلافة ، فإنه لاجواب لها .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالإحماذ والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماذ والتقرير ، بجوابه مقصور على الشكر الدال على وقوع ذلك الإحماذ موقعه من المحمود ، ومطالبتة لنفسه بالخروج من حقه باستفراغ الوسع في الأسباب الموجبة للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فإن كان ذلك لموجدة بسبب أمر بلغه عنه من عدو أو حاسد نعمة أو منزلة هو مخصوص بها من رئيسه ، كان الجواب بالتنصل والمقابلة بما يرى ساحتها ، ويدل على سلامة ناحيته ؛ وأن يورد ذلك بصيغة تُزيل عن النفس ما سبق إليها ، وتبعث على الرضا . وكذلك في كل واقعة بحسبها ، مما يحصل به التنصل والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة مع الإنعام السلطاني ، فعلى نحو ما سبق في الخلع : من تعظيم المنية ، والاعتراف [بجزالة المنحة ^(١)] وجميل العطية ، وزيادة الفضل ، وما في معنى ذلك مما تقدم ذكره .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الخليفة أو السلطان بتجدد واد ، فإنه يكون بإظهار السرور والأغباط ، وزيادة الفرح والسرور بما من الله تعالى به من تكثير

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم قريبا في الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزيَادَة المَدَد؛ والرَّغْبَة إلى الله تعالى في أن يُوَالِيَ هذا المَزِيدَ وَيُضَاعِفَهُ .
ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بعافية الخليفة أو السلطان من مَرَضٍ كان قد عَرَضَ له ، فطريقه حَمْدُ الله تعالى وشُكْرُهُ على ما مَنَّ اللهُ تعالى به من العافية ، وتَفَضُّلٍ به من إزاحة المَرَضِ ، ووقاية المَكْرُوه ، وإظهارُ الفَرَحِ والسُرورِ بذلك . وما يخطر في هذا السِّلْكِ .

(١)
وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالتعزية بولدٍ أو قَرِيبٍ ، فإنه يظهر فيه الغمُّ والحُزْنُ والكَآبَة ، وحمدُ الله تعالى على سلامة نَفْسِهِ ، والرَّغْبَة إلى الله تعالى في الخَلْفِ عليه ، إن كان المَيِّتُ وُلْدًا ، مع الدعاء بِطُولِ البَقَاءِ وُخُلُودِ الدَّوْلَةِ ، وما يجرى هذا المجرى . وهذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، مما يكثر وقوعه ، ويتعدد تكراره ، يَسْتَضِيءُ بها الكاتب في كتابة الأجوبة ، وَيَسْجُعُ على مُنَوَالِهَا .



نسخة جواب عن كُتَابٍ وصل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِبَ به إلى أمير الأُمراء ، قَرِينِ خَلْعَةِ وَسَيْفِ وَتَاجِ وَسَوَارِينِ ، من إنشاء أبي الحسين بن سعد ، وهو :

فإن كان سَيِّدُنَا أمير المؤمنين ، بما أعلم من فَضْلِ مُرَاعَاتِهِ لأُمُورِ الدِّينِ ، وَصِدْقِ عَيْنَيْهِ بِمَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَأُفَيْضَ لَهُ (؟) مِنْ مَوَاهِبِ اللَّهِ عِنْدَهُمْ ، وَصُنُوفِ نِعَمِهِ عَلَيْهِمْ ، فَمَا هَدَاهُ مِنْ طُرُقِ الرَّشَادِ ، وَبَصَرَهُ لِيَاهِ مِنْ مَبَاهِجِ الصَّوَابِ ، وَقَرَنَهُ بِهِ مِنَ التَّوْفِيقِ فِي عَزَائِمِهِ ، وَالْجِدِّ فِي مَرَّاسِمِهِ ، وَتَوَعَّدَهُ فِيهِ بِالْخَيْرَاتِ التَّامَّةِ ، وَالْكِفَايَةِ الْعَامَّةِ ؛ فِي كُلِّ

(١) في الاصل "التنعم" ولم نثر عليه في كتب اللغة .

أَمْرٍ يُمِضِيهِ ، وَرَأْيٍ يَزَيِّنِيهِ ؛ أَعْتَادًا لَهُ بِحُسْنِ الْمَعُونَةِ عَلَى مَا اسْتَرَعَاهُ ، وَوَصْلِهِ بِالزَّرِيدِ
فِي خَوْلِهِ وَأَعْطَاهُ ؛ وَحِرَاسَةِ مَسَاقِهِ إِلَيْهِ مِنْ إِرْثِ النَّبُوَّةِ ، وَحَمَلَهُ إِيَّاهُ مِنْ ثِقَلِ الْإِمَامَةِ ؛
لَمَّا عَرَفَهُ مِنْ نُهْوِضِهِ بِالْعَبَاءِ ، وَقِيَامِهِ بِالْحَقِّ فِيمَا نَاطَهُ وَأَسْنَدَهُ إِلَيْهِ ؛ وَتَأَمُّلِهِ مَا تَأَمَّلَهُ
مِنْ حَالِ عِبْدِهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لِبَطَاعَتِهِ مُعْتَقِدًا ، وَبِعِصْمَةِ وِلَايَتِهِ مُعْتَصِدًا ؛ وَلَوْ قِيَّتْ
يُسْلُغُهُ مَنزِلَةَ الْإِحْمَادِ ، وَيُحَوِّزُهُ عَائِدَةُ الْأَجْتِهَادِ ، فِيمَا أَرْضَاهُ مُرْتَضِدًا ؛ وَلَسَعِيهِ وَنَيْبَتِهِ ،
وَظَاهِرِهِ وَطَوَيْتِهِ ، مُعْتَمِدًا ؛ وَوُجُودِهِ أَيْدَهُ اللَّهُ فِي سَيْرِ مَا أَمْتَحَنَ بِهِ بِلَاءَهُ ، وَعَرَفَ
فِيهِ غَنَاءَهُ ؛ مَوْضِعًا لِلصَّبِيغَةِ ، مُحْتَمِلًا لِلْعَارِفَةِ ؛ مُقْرًا بِحَقِّ النِّعْمَةِ ، عَارِفًا بِقَدْرِ الْمَوْهَبَةِ ؛
وَتَرْقِيهِ فُرْصَةً يَنْتَهِزُهَا فِي إِبْدَاءِ عَزْمِهِ ، وَإِمضَاءِ رَأْيِهِ ؛ وَأَنَّهُ [وَأَثَقُ] بِالْإِسْتِظْهَارِ بِمَكَانِهِ ،
وَإِلْسَامِهِ لَهُ فِي عِزِّ سُلْطَانِهِ ؛ حَتَّى أَسْفَرَتْ رَوِيَّتُهُ ، وَأَسْتَقَرَّتْ عِزِّيَّتُهُ ؛ فَأَخْتَصَّ
عَبْدَهُ بِجَيْسِلِ الْأَثَرِ ، وَأَصْطَفَاهُ بِلَطِيفِ الْحُطُوبَةِ ، وَأَعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي إِمَارَةِ الْأُمَرَاءِ ،
مُوفِيًا بِهِ عَلَى رُتْبَةِ النُّظْرَاءِ ، وَكَاسِيًا لَهُ حُلَّةَ الْمَجْدِ وَالسَّنَاءِ ؛ وَرَدَّ إِلَيْهِ تَدْيِيرَ الرِّجَالِ ،
وَتَقْدِيرَ أُمُورِ الْعُمَالِ ؛ وَشَفَعَ ذَلِكَ بِالتَّكْنِيَةِ وَالتَّلْقِيْبِ فِي مَشَاهِدِ حَفَاتِهِ ، وَمَجَالِسِ
خَلْوَتِهِ ؛ وَأَكْمَلَ الصَّنْعَ عِنْدَهُ بِالْحَاقِ عِبْدَهُ فِيمَا قَسَمَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنْ شَرِيفِ
حِبَابَتِهِ ، وَسَنَى عَطَائِهِ ؛ وَتَجَاوَزَ فِي التَّكْرِمَةِ لَهُ إِلَى أَعْلَى الْأَحْوَالِ ، وَأَرْزَقَ الرُّتْبَ وَالْمَحَالَ ؛
فِيمَا أَمَرَ - أَعْلَى اللَّهِ أَمْرَهُ - بِحَمَلِهِ إِلَيْهِ مِنَ الْخَلْعَةِ الَّتِي يَبْقَى شَرَفُ لِبَاسِهَا [عَلَى] الْأَيَّامِ ،
وَيُحَلِّدُ ذِكْرَهَا عَلَى الدَّهُورِ وَالْأَعْوَامِ ؛ وَالسَّيْفِ الَّذِي تَفَاعَلُ لِعَبْدِهِ فِيهِ بِمَا يَرْجُو مِنْ
مَوْلَاهُ وَسَعَادَةِ حَمْدِهِ : أَنْ يُحَقِّقَهُ اللَّهُ فِي الْأَعْتَادِ بِهِ عَلَى أَعْدَائِهِ ، وَعَمْدِهِ فِي نُحُورِ مُشَاقِيهِ
وَعَامِصِي نَعْمَائِهِ ؛ وَالتَّاجِ الْمُرْصَعِ الَّذِي نَظَّمَ لَهُ جَوَامِعَ الْفَخْرِ ، وَالْوَشَاحِ الْمَوْشَى الَّذِي
وَشَّحَّهُ حَلِيَّةَ الْجَمَالِ مَدَى الدَّهْرِ ؛ وَالطُّوقِ الَّذِي طَوَّقَهُ فَلَانِدُ الْمَجْدِ ، وَالسَّوَارِيْنَ اللَّذِينَ
أَذْنَاهُ بِقُوَّةِ الْعَضْدِ وَبَسْطَةِ الْيَدِ ؛ وَاللَّوَاءِ الْمَعْقُودِ بِهِ مَفَاتِحُ الْعِزِّ فِي طَاعَتِهِ ، الْمَرْفُوعِ بِهِ
مَعَالِمُ النَّصْرِ عَلَى شَانِي دَوْلَتِهِ ؛ وَوَصَلَ إِلَى وَفَهَمَتِهِ .

وسيدنا أمير المؤمنين - فيما أكرمه الله به من خلافته ؛ وأتمنه من الحكم على
 برته ؛ ووكله إليه من حقوق الدين ، وحياطته كرم المسلمين ؛ وإحياء السير الرضية ،
 والشنن الحميده ؛ وإماطة الأحكام الجائرة ، والمظالم الظاهرة ؛ وتقويم أود المملكة
 بعد تزعزع أركانها ، وتصدع بُنيانها ؛ وإعزاز الأمة وإيناسها ، بعد أن أشتمت
 [الذلة ^(١)] عليها وتمكنت الوحشة فيها ؛ وحكم اليأس في آمالها ، وغلب القنوط على
 أطعائها ؛ وتفاعل بما أعتمده له ، وفوضه إلى نظره : من الحلية بحقائقه ، والتوكيد
 بما لم تزل الخبايل فيه لآئحه ، والأمارات منه واضحة ؛ والشواهد به صادقه ،
 والدلائل عليه ناطقه ؛ حتى تدارك بنعمة الله الدين بعد أن طمس مناره ، وتعتفت
 آثاره ؛ ودرست رسومه ، وغارت مجومه ؛ وأنحى الشيطان بجرانه ، وأشراب لتبديله
 بعدوانه ؛ وأتدب لنصرة الإسلام برأي يستغرق آراء الرجال ، وحلم يستخف رواسي
 الجبال ؛ وروية تستخرج كوامن الغيوب ، وتكشف عنها حنادس الشكوك ؛ وباع
 لما يمتد إليه بسيط ، وذراع لما ينتظم عليه رحيب ؛ وصدر يتسع لمعضلات
 الأمور ، ويشرق في مدهجات الحوادث ؛ فشرّد أعداء الله بعد أن اتصلت بهم مهلة
 الاعتزاز ، ونطاولت بهم مدة الإصرار ؛ ومدد رواق الملك وضرب قبابه ، وثبت أواخيه
 وأحصد أسبابه ؛ وقطع أطاع الملحدين ، وأبطل كيد الكافرين ، وفَتَّ في أعضاء
 المنايدين ؛ فتحصنت البيضة ، واجتمعت الكلمة ؛ واتفقت الأهواء المتفرقة ،
 وانتظمت الآراء المتشعبة ، وسكنت الدهماء المضطربة ، وقرت القلوب المترجحة ؛
 وصدقت خواطر الصدور المثجحة ؛ وظهر الحق ورسخ عموده ، وبهر جماله ونصر
 عوده ؛ ونشرت أعلامه وطلعت سعوته ، وعز أولياؤه ونصرت جنوده ؛ وساخ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) في الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدُمه ، وَأَنْقَطَعَتْ وَصَائِلُهُ وَعِصْمُهُ ؛ وَأَنْبَتَتْ حِبَالُهُ وَرُمُّهُ ، وَأَخْلَتْ أَسْبَابَهُ
 وَذِمُّهُ - حَقِيقٌ بِمَا بَانَ مِنْ فَضْلِهِ ، وَأَسْتَفَاضَ فِي الْأُمَّةِ مِنْ عَدْلِهِ ، وَعَمَّ كَافَّةَ الرَّعِيَّةِ
 مِنْ طَوْلِهِ ؛ وَوَصَلَتْ إِلَى الْمَلِيِّ وَالذَّمِيِّ وَالِدَانِيِّ وَالْقَاصِيِ عَائِدَةُ الْخَيْرِ فِي أَيَّامِهِ ، وَفَائِدَةُ
 الْأَمْنِ بِمَمْلَكَتِهِ وَسُلْطَانِهِ ؛ وَمَأْمُولٌ لِأَفْضَلِ مَا بَدَأَ لِعَبْدِهِ مِنْ ثَمَرَةِ أَجْتِبَائِهِ وَأَصْطِفَائِهِ ،
 وَمَا تَعَمَّدَهُ بِهِ مِنَ النِّعَمِ الْعَظِيمَةِ ، وَالْمَوَاهِبِ الْجَسِيمَةِ ؛ وَأَسْبَغَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْعَوَارِفِ
 السَّنِيَّةِ ، وَرَفَعَهُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَازِلِ الْعَلِيَّةِ ؛ الَّتِي تَقْصُرُ عَنْهَا هِمُّ ذَوِي الْأَقْدَارِ ، وَتَقْفُ دُونَهَا
 آمَالُ أَوْلِي الْأَخْطَارِ ؛ مُقَدِّمًا لَهُ عَلَى أَهْلِ السَّوَابِقِ مِنْ أَنْصَارِ دَوْلَتِهِ ، وَأَشْيَاعِ دَعْوَتِهِ .

فلو ترادفت ألسنُ العباد - أيد الله أمير المؤمنين - على اختلاف لغاتهم ، وتباين
 طبقاتهم ، وتفاوت حالاتهم ؛ في مقابلة نعمة سيدنا التي أعشى العيون بهاؤها ، وتأدية
 حقوقه التي أعيأ المجتهدين قضاؤها ؛ لكانت - حيث انتهت ، وأنى تصرفت ؛
 على استفراغ القدرة وأستنفاد الطاعة - غير مُقَارِبَةٍ حَدًّا مِنْ حُدُودِهَا ، وَلَا مُؤَدِّيَةٍ
 فَرَضًا مِنْ فُرُوضِهَا ؛ وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ - أَيْدَى اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - فِي قُوَّةِ
 الْإِحْسَانِ مَقَادِيرِ الشُّكْرِ ، وَإِيْفَائِهِ عَلَى مَبَالِغِ الْوُسْعِ ؛ فَقَصْدُ عَيْدِهِ فِي جَبْرِ النِّقِيصَةِ ،
 وَسَدِّ الْخَلَلِ ؛ الْأَزْدِيَادِ فِي الطَّاعَةِ ، وَالْإِحْلَاصِ فِي الْمُوَالَاةِ وَالْمُشَايَعَةِ ؛ وَإِدَامَةُ الْأَبْتِهَالِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَرَفْعُ الرَّغْبَةِ فِي مَعُونَةِ عَبْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَجَافَاةِ بَلَائِهِ ، وَالتَّنْفِرُ
 بِجَزَائِهِ ، وَتَجْدِيدُ الْمَسْأَلَةِ فِي إِطَالَةِ بَقَائِهِ ؛ فِي عِزِّ لَاتَبَلِيٍّ جَدَّتُهُ ، وَسُلْطَانٍ لَاتَنْتَهِيٍّ مُدَّتُهُ ؛
 وَمَوَادِّ مِنْ مَنَاسِيِحِهِ وَمَوَائِدِهِ ، وَرَوَادِفٍ مِنْ عَوَائِدِهِ ؛ مُتَّظَاهِرَةً لَا يَنْقَطِعُ مِنْهَا أَوَّلٌ
 حَتَّى يَلْحَقَ تَالِيَهُ ، وَلَا يَنْصَرِمُ سَالِفُهُ حَتَّى يَنْصَرِفَ آتِيَهُ ؛ وَيَكُونُ الْمَالُ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ
 شُرُوطِ الْأَمَلِ ، وَتَقَضَى حُدُودِ الْمَهَلِ ؛ إِلَى النِّعَمِ الْمُقِيمِ ، فِي جِوَارِ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ .

ومن تمام إفضال سيدنا على عبده، ونظام معرفه عنده ؛ بدؤه إياه بما يتمحن به خفة نهضته ، وسرعة حركته ؛ وفعوده لأمره بجد حديد ، وبعيش عبيد ؛ وصمده لما يحظيه لذلك مولاه ، ويجوز له حمده ورضاه ؛ بصدق بصيره ، وخلوص سريره ؛ وأستسهال لكل خطه ، وتجشم لكل مشقه ؛ دنن المسافة أم شسعت ، قربت الطية أم نزحت ؛ وسيدنا أهل لأستتام يد ابتدائها ، وإكمال عارفة أنشأها وكرامة ابتدائها ؛ باستعمال عبده بأمره ونهيه ، وأعتاده لمهمات بحضرتة وفي أطراف مملكته ؛ إن شاء الله تعالى .



قلت : وهذه نسخة كتاب أشأته : ليكتب به إلى أمير المؤمنين المستعين بالله ، أبي الفضل العباس خليفة العصر ، عن نائب الغيبة بالديار المصرية ، حين وردت كتبه الشريفة من الشام إلى الديار المصرية بالقبض على الناصر فرج بن الظاهر برقوق بالشام ، وأستبداده بالأمر دون سلطان معه ، في أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، مفتتحا له «بقبل الأرض» التي يكتب بها الملوك . وإن كان قد تقدم من كلام المقر الشهابي بن فضل الله أن المكتبة إلى أبواب الخلافة بالدعاء للديوان ، لا يختلف فيه ملك ولا سوقة ، وهو :

يُقبَلُ الأَرْضَ وَيُنْبِئُ وَرُودَ المِثَالِ الأَشْرَفِ المِيمُونِ طَائِرُهُ ، المَرْقُومِ عَلَى صَفْحَاتِ الأَفلاكِ تَهَانِيهِ المَحْمُولِ عَلَى مَتَنِ السَّحابِ بَشَائِرِهِ ، الشَّاهِدِ بِالفَتْحِ المُبِينِ أوَائِلُهُ وَبِالنَّصْرِ العَزِيزِ أوَائِرُهُ ؛ مُتَضَمَّنًا ما مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ مِنْ جَمِيلِ الصَّنْعِ الَّذِي وَكَّفَتْ بِالخَيْرِ سَخَائِبُهُ ، وَخَفِيَّ اللُّطْفِ الَّذِي بَهَرَّتِ العُقُولَ عَجَائِبُهُ ؛ بِما مَنَّ اللهُ تَعَالَى بِهِ مَوْلانا أمير المؤمنين مدد الله تعالى على الإسلام وأرف ظلّه ، وَأَنَا مِ الأَنامِ بَمَدِّ رِواقِ

الإمامة المعظمة في مهَادِ عَدْلِهِ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي الْأَرْضِ كَمَا مَكَّنَ لِآبَائِهِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ قَبْلِهِ : مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى سُدَّةِ الْخِلَافَةِ الْمُقَدَّسَةِ الَّتِي وُصِّلَ مُنْقَطِعُ حَدِيثِهَا بِإِسْنَادِهِ ، وَحَازَ مِنْهَا بِأَشْرَفِ مَقْعَدٍ تَرَاثَ آبَائِهِ الْكِرَامِ وَأَجْدَادِهِ ؛ وَأَبْتَسَمَ تَغَرُّرَ الْخِلَافَةِ بِعِبَاسِهِ ، وَتَأَسَّسَ مِنْهَا جَانِبَ الدِّينِ بَعْدَ الْأَسْتِيحَاشِ بِإِيْنَانِهِ ؛ فَقَبَّلَ الْمَمْلُوكُ لَهُ الْأَرْضَ خَاصِعًا ، وَوَلَّى أَوَامِرَ الشَّرِيفَةِ ضَارِعًا ، وَأَجَابَ دَاعِيَهُ بِالْإِمْتِثَالِ سَامِعًا طَائِعًا ؛ وَسَجَدَ سُجُودَ الشُّكْرِ لِذَلِكَ فَعَرِيفَ بَسِيْمَاهُ ، وَأَنْتَسَبَ إِلَى الْوَلَاءِ الشَّرِيفِ الْإِمَامِيِّ أَنْتَسَابًا شَامِلًا لِأَسْمِهِ وَمَعْنَاهُ ؛ وَأَعْلَمَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ وَالْأَجْنَادِ بِذَلِكَ فَقَابَلُوهُ بِالْأَسْتِشَارِ طُرًّا ، وَتَلَقَّوْهَا تَلَقِّيًّا يَلِيْقُ بِمِثْلِهَا وَإِنْ كَانَ لَا مِثْلَ لِهَذِهِ الْبُشْرَى ؛ وَقُرِئَتْ الْمُطْلَقَاتُ الشَّرِيفَةُ عَلَى الْمَنَابِرِ فَسَكَنَتِ الدِّهْمَاءُ وَقَرَّتْ ، وَسَرَّتْ أَلْفَاظُهَا إِلَى الْأَسْمَاعِ الشَّيْقَةِ فَسُرَّتْ ، وَكُرِّرَتْ أَلْفَاظُهَا الْعَدْبَةُ مَرَارًا فَخَلَّتْ لَدَى النُّفُوسِ إِذْ مَرَّتْ ؛ وَارْتَفَعَتِ الْأَصْوَاتُ بِالْإِدْعَاءِ بِدَوَامِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ النَّبَوِيَّةِ دَوَامًا لَا يَسْتَشْعِرُ مُسْتَشْعِرٌ خِلَافَهُ ، فَحَقِيقٌ ظُهُورٌ مُعْجِزَةٌ أَكْرَمَ مُرْسَلٍ بَعْدَ الثَّمَانِيَّةِ بِقَوْلِهِ لَعَمَّ الْعَبَّاسُ : « أَلَا أُبَشِّرُكُمْ بِأَنَّكُمْ سَيَكُونُونَ خِيَمَتِ النَّبُوَّةِ وَبَوْلَدِكُمْ تُحْتَمُّ الْخِلَافَةُ » .



وهذه نسخة جواب عن نائب طرابلس عن مِثَالِ شَرِيفٍ وَرَدَ بِوَفَاةِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ « مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ » وَأَسْتِقْرَارِ وَلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ « أَبِي بَكْرٍ » مَكَانَهُ فِي الْمَلِكِ بَعْدَهُ مِنْ أَبِيهِ . مِنْ إِنْشَاءِ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ الْبَارْبَنْبَارِيِّ ، بَعْدَ التَّعْزِيَةِ بِأَبِيهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، وَهِيَ :

وَيُنْهَى وَرُودَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ أَمْرَ الْمَصَابِ الَّذِي كَادَتْ لَوْ قُوعَهُ الْأَرْضُ تَتَزَلُّ بِأَهْلِهَا ، وَالْعُقُولُ تَتَرَيُّلُ عَنْ مَحَلِّهَا ، وَبَلَغَتْ الْقُلُوبُ

الحنَّاحِر، وأستوحِشَتِ القُصُورُ وأستأنستِ المقَارِبُ، وتصدَّعتْ له صُدُورُ السُّيُوفِ
ورُءُوسُ المَنَارِبِ؛ وقصمَ الظُّهورَ، وشيَّبَ السُّودَ من الشُّعُورِ؛ وجرَّعَ كُؤُوسَه،
وصدَّعَ الحُوْزَةَ المحروسَه؛ وذلك بما قدر الله تعالى من أنتقال مولانا السلطان السعيد،
الشهيد؛ والدمولانا السلطان - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَه - إلى رَحْمَتِهِ وَرِضْوَانِهِ: فأجرى المملوكُ
عِوَضَ الدَّمُوعِ دَمًا، وأقام الإسلامُ والمسلمون عليه مَأْتَمًا، وتغيرَ البدرُ المُنِيرُ لِقُدِّهِ
فأمسى مُظْلِمًا؛ وَنَدَبَهُ الإسلامُ في سائرِ مَحَارِبِهِ وَمُصَلَّاهُ، وَأَسَفَ عَلَيْهِ الْبَيْتُ الْحَرَامُ
وَرُكَّاهُ ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

لَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، أَشْرَقَ مِنْهَا ذَلِكَ الْيَوْمَ كُلُّ شَيْءٍ، وَيَوْمَ
قُبِضَ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ؛ وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ الصَّادِقُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَثْبَتَ النَّاسِ يَوْمَ
وَفَاتِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ الْخَلِيفَةُ مِنْ بَعْدِهِ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ الشَّهِيدُ - قُدَّسَ
اللهُ رُوحَه - كَانَ مُنْشَرَفًا بِأَسْمِ نَبِيِّهِ، وَمُتَبَرِّكًا فِي ذُرِّيَّتِهِ الشَّرِيفَةِ بِذِكْرِ سَمِيهِ؛
وَلَوْ ذَابَتِ الْمُهْجُ أَسْفًا عَلَيْهِ لَمَّا أَنْصَفَتْ، وَقَدْ أَسَفَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّمُ بِأَسْرِهِا وَحَقِّ لَهَا
أَنْ أَسَفَتْ؛ نَبَتَتْ لِحُومِنَا مِنْ صَدَقَاتِهِ، وَعَمَّرَتْ الْمَمْلُوكَ وَالْمَالِكَ مَجْزَلَاتُ هِبَاتِهِ؛
وَمَا نُقِلَ مِنْ قَصْرِهِ إِلَّا إِلَى جَنَاتِ النَّعِيمِ، وَمَا فَارَقَ مُلْكَه إِلَّا وَبَاتَ فِي جِوَارِ
اللهِ الْكَرِيمِ؛ وَكَانَ سُلْطَانًا وَهُوَ الْيَوْمَ عِنْدَ اللهِ سُلْطَانٌ، فَسُقِيَ اللهُ عَهْدَهُ صُوبَ
الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ.

وَبِحَمْدِ اللهِ قَدْ جَبُرَتِ الْقُلُوبُ الْمُنْصَدَعَةُ بِجُلُوسِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَه -
عَلَى تَحْتِ السُّلْطَنَةِ الْمُعْظَمَةِ وَاللَّهُ مَعَهُ، وَمَا جَلَسَ عَلَى كُرْسِيِّ الْمَلِكِ إِلَّا أَهْلُهُ، وَلَا قَامَ
بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا مَنْ عِلْمَ فَضْلِهِ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ وَارِثُ الْمَلِكِ النَّاصِرِيِّ الْمَنْصُورِ

حَقًّا ، والقائمُ بِسَانِ السلطنةِ غَرِبًا وشرَقًا ؛ وَخُلَاصَةُ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ نَصْرًا ، وَأَدَامَ مُلْكَهُ دَوَامًا مُسْتَمِرًّا ؛ وَالْعُيُونُ الْبَاكِيةُ قَدِ قَرَّتِ الْآنَ بِهَذِهِ الْبُشْرَى ، وَالْقُلُوبُ النَّالِكَةُ قَدِ مَلَّتْ هَهْجَةً : ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ وَأَسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ بَعْدَ قَلْقِهِ ، وَنَامَ عَلَى جَفْنِهِ بَعْدَ أَرْقِهِ ؛ وَأَسْتَقْبَلَتِ الْأُمَّةُ عَامًّا جَدِيدًا ، وَسُلْطَانًا مَنْصُورًا سَعِيدًا ؛ وَأَسْتَبَشَرَتِ الْقِبْلَتَانِ ، وَتَنَاجَى بِالْمَسْرَةِ الثَّقَلَانِ ؛ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَمْسَوْا خَائِبِينَ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا أَحْمَقُوا فَرِحِينَ ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ هُوَ الْعَرِيقُ فِي سُلْطَنَةِ الْإِسْلَامِ ، وَالْإِمَامُ الْأَعْظَمُ ابْنُ الْإِمَامِ ؛ فَخَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ مَا دَامَتِ الْأَيَّامُ ، وَأَحْسَنَ عَزَاءَهُ فِي خَيْرِ سُلْطَانِ الْأَنَامِ ؛ وَأَبْتَهَلَتِ الْأُسْنَةُ بِالْتَرَحُّمِ عَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ - قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ - بِدُمُوعِ سَائِلِهِ ، وَقُلُوبِ مَوْجُوعَةِ بِجَرَاحَاتِ النَّيَّاحَاتِ ثُمَّ عَوَّضُوا بِالْمَسْرَاتِ الْكَامِلَةِ ؛ وَالدُّعَاءُ مَرْفُوعٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - بَرًّا وَبِحَجْرًا ، وَالْبِلَادُ مُطْمَئِنَّةٌ وَالْعَسَاكِرُ عَلَى مَا يَجِبُ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَالتَّشْرِيفِ بِإِقْبَالِ دَوْلَةِ سُلْطَانِهِمْ ، وَوَارِثِ سُلْطَانِهِمْ ؛ وَكَانَ الْمَمْلُوكُ يُوَدُّ لَوْ شَهِدَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - عَلَى ذَلِكَ السَّرِيرِ وَالْمِنْبَرِ ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ بَيْنَ يَدَيْ الْمَوَاقِفِ الْمُعْظَمَةِ وَالْمَقَامِ الْأَكْبَرِ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جَوَابٍ عَنْ وُرُودِ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ بِرُكُوبِ السُّلْطَانِ بِالْمِيدَانِ ، وَالْإِذْنِ لِلنُّوَابِ فِي لِعَبِ الْكُرَّةِ ، وَهِيَ :

وَيُنَبِّئُ وُرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ شَرَفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ ، يَتَضَمَّنُ الصَّدَقَةَ الَّتِي أَجْرَتْ أَوْلِيَاءَهَا عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ مِنَ الْأَحْتِفَالِ ، وَالْمَرَاحِمِ الشَّامِلَةِ الَّتِي وَسَّعَتْ لَهُمْ كَرَمَهَا سَافِرَةً عَنْ أَوْجُهِ الْإِقْبَالِ ، وَالْبُشْرَى الَّتِي جَمَعَتْ مِنْ أَنْوَاعِ الْمَسْرَاتِ مَا بَلَغَتْهُ

الآمال ؛ وهو أنَّ الرَّكَّابَ الشَّرِيفَ اسْتَقَلَّ إِلَى الْمِيدَانِ السَّعِيدِ نَهَارَ السَّبْتِ فِي كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا : فِي أَسْعَدِ طَالِعٍ ، وَأَيْمَنِ وَقْتِ مُطَاوِعٍ ؛ وَفِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ مِنَ الْأُمَرَاءِ - كَثَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى - مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِهِمْ مِنْ كُلِّ كَيْمِيٍّ مُقَنَّعٍ ، قَدْ لَبَسَ مِنَ الطَّاعَةِ بُرْدًا وَبِالْإِخْلَاصِ تَدَرَّعَ ؛ وَأَمْتَطَى مِنْ فَائِضِ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ صَهْوَةً سَابِقِي قَدْ شَمَّرَ لِلسَّبْقِ ذَيْلًا ، وَفَزَّ كَبْرِيٍّ لَمَعَ لَيْلًا .

وَأَنَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - طَلَعَ عَلَيْهِمْ طُلُوعَ الْبَدْرِ عِنْدَ الْكَمَالِ ، وَحَوْلَهُ الْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ كَالْأَنْجُمِ الزَّاهِرَةِ الَّتِي لَا تُعَدُّ وَلَا تُسَبَّهُ بِمِثَالٍ ؛ وَالْحِيَادُ لَا يُرَى لَهَا أَثَرٌ مِنَ الرَّكْضِ ، وَالْكُرَّةُ تَنْشَرَفُ بِالصُّوْبِ لِحَانٍ كَمَا تَنْشَرَفُ بِالتَّقْيِيلِ الْأَرْضُ ؛ وَعَادَ الرَّكَّابُ الشَّرِيفُ - زَادَهُ اللَّهُ شَرَفًا وَعَظَمَهُ - إِلَى الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، إِلَى مَحَلِّ الْمَمْلُوكَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَفِي دَسْتِ السُّلْطَانَةِ الْمُعْظَمَةِ ؛ مُحْفُوفًا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى بِلُطْفِهِ ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ .

وَمَا أَقْتَضَتْهُ الْآرَاءُ الشَّرِيفَةُ ، وَالْمَرَاحِمُ الْمُطِيفَةُ ؛ وَآثَرَتْ بِهِ إِعْلَامَ الْمَمْلُوكِ بِذَلِكَ ، وَالْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَمَهُ - أَنْ يَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالتَّزْوِيلِ إِلَى مِيدَانِ فُلَانَةَ الْمَحْرُوسَةِ ، وَمَعَهُ مَمَالِكُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَالْأُمَرَاءُ ؛ فَقَابَلَ الْمَمْلُوكُ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ ، بِتَقْيِيلِ الْأَرْضِ وَرَفْعِ الدَّعَوَاتِ ؛ وَجَمَعُوا بَيْنَ الْكُرَّةِ وَالصُّوْبِ لِحَانٍ ، وَحَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَسْرَاتِ مَا لَا يَحْصُرُهُ بَيَانٌ ؛ وَأَنْبَسَطَتْ نَفُوسُهُمْ إِذْ أَصْبَحُوا فِي أَمْنٍ وَأَمَانٍ ، وَابْتَهَلُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِدَوَامِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الَّتِي تَوَعَّتُهُمْ بِأَنْوَاعِ الْإِحْسَانِ ؛ وَصَجُّوا بِالْأُدْعِيَةِ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - الَّتِي عَمَّتْ مَوَاهِبُهُ وَفَاقَ بِمَكَارِمِهِ الْمَبَاضِينَ ، وَأَرْبَى عَلَى سَلْفِهِ الشَّرِيفِ بِالْعَطَاءِ وَالتَّمْكِينِ ، جَعَلَ اللَّهُ أَعْدَاءَهُ تَحْتَ قَهْرِهِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة جواب بوفاء النيل المبارك، كتب به عن نائب طنرابلس، وهي :

وَيْهَى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ - شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - الَّذِي أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ
تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ، وَعَمُومِ الرَّعَايَا
بِتَوَاتُرِ عَمِيمِ النَّعْمَةِ؛ وَوَفَاءِ النَّيْلِ الْمُبَارَكِ الَّذِي مَا بَرِحَ فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ يَنْفِي
بِعَهْدِهِ، وَيَسْلُ سَيْفَ الْخَضْبِ مِنْ غَمِّهِ، وَيَقْتُلُ الْحَلَّ بِجُمْرَةٍ مَنَّهَ وَجَوْهَرٍ حَدَّه؛
مُهَنِّئًا لِلْأَوْلِيَاءِ بِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الَّتِي أَصْبَحَتْ قُلُوبُهُمْ مُطْمَئِنَّةً بِالْأَمْنِ وَالرِّخَاءِ، مَسْرُورَةً
بِمَا مِنْ الله بِهِ مِنْ تَرَادُفِ الْآلَاءِ وَعُمُومِ النَّعْمَاءِ؛ وَحَالَ مَا وَرَدَ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ
- شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهُ - بَادِرَ الْمَمْلُوكِ إِلَى آمْتَالِ الْمَرْسُومِ الشَّرِيفِ بِتَقْبِيلِ الْأَرْضِ
وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَأَخَذَ كُلَّ حَظِّهِ مِنْ هَذِهِ الْبُشْرَى، الَّتِي عَمَّتْ تَهَانِيَهَا بَرًّا وَبِحَجْرًا؛
وَجَعَلَتْ أُمُورَ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَيْنَ بَرَكَةِ هَذِهِ الْأَيَّامِ الشَّرِيفَةِ بَعْدَ عُسْرِ يُسْرًا؛ وَقَدْ عَادَ
فَلَانُ الْبَرِيدِيِّ وَمَنْ مَعَهُ إِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ بِالْجَوَابِ الشَّرِيفِ، طَالِعَ بِذَلِكَ
إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



آخر في المعنى :

وَيْهَى وَرُودَ الْمَثَالِ الشَّرِيفِ زَادَهُ اللهُ عُلُومًا وَشَرَفًا، وَبَيَّضَ لَهُ فِي الْقِيَامَةِ صُحُفًا؛
يَتَضَمَّنُ أَنْوَاعَ الْإِنْعَامِ الْجَزِيلِ، وَإِبْدَاءَ آثَارِ السُّرُورِ بِمَا يَسَّرَ اللهُ مِنْ وَفَاءِ النَّيْلِ؛
فَأَشْرَقَتْ أَنْوَارُ تَهَانِيهِ، وَتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ؛ فَبَشَّرَتْ بِفَيْضِ فَضْلِ الرَّحْمَةِ،
وَعَمُومِ الرَّعَايَا بِتَوَاتُرِ عَمُومِ النَّعْمَةِ؛ إِذْ جَاءَ مُحْيَاهُ فِي هَذَا الْعَامِ طَلْقًا، وَسَلَّكَ فِي عَوَائِدِ
الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ طُرُقًا؛ وَأَذِنَ بِلُغِ الْمَرَامِ وَالْمُرَادِ، وَكَسَّرَ سَدَّ خَلِيجِهِ جَبْرًا لِلْعِبَادِ

والبلاد؛ حيث ملأ الأرض ريباً، وأهدى من ففحات الأمن والمن ريباً؛ والمرسوم الشريف - شرفه الله وعظمه - بأن لا يُجْبَى على ذلك حق بشاره، ولا يُعترض إلى أحدٍ بجساره؛ فقابل المملوك المشال الشريف والمرسوم الشريف بتقبيل الأرض والسَّمْع والطاعة، وبأدْر المملوك إلى إِذَاعَةِ هذه البُشْرَى، التي عمّت تَهَانِيهَا بَرّاً وبحراً؛ وجعلت أمور هذه الأمة يُبَيِّن بَرَكَتِ هذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ لَسْرَا؛ وأستنطق الألسنة بالدعاء لهذه الدَّوْلَةِ القاهره، وجلاً وتلاً صُورَ الهَنَاءِ وَسُورَ الآلَاءِ بهذه النعمة الوافية والمنة الوافرة؛ وسأل الله تعالى أن يُخَلِّدَ مُلْكَ مولانا السلطان، ويؤالي أُنْبَاءَ البشائر في أيامه الشريفة مرويةً بالأسانيد الحسان؛ وقد عاد فلان البريدى بالأبواب الشريفة - شرفها الله تعالى وعظمها - بهذا الجواب الشريف، وقد عاين آتتهال أهل هذه المملكة الفلانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزاهرة السارة بهذه البشائر بخلوها من الكلف والخسارة، طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جوابٍ عن مشال شريف بوصول فرس إناعام، كُتِبَ به عن نائب طرابلس، وهي :

يَقْبَلُ الأَرْضَ وَيُنْهِي وَرُودَ المرسوم الشريف أعلاه الله تعالى وشرفه، يتضمن ما أقتضته الآراء الشريفة من الخَيْرِ التَّامِّ، والإناعام العام، والصدقة الوافية الوافرة الأقسام؛ التي ما برحت ممالك هذه الدَّوْلَةِ الشريفة في إناعامها العميم تتقلب، والخيَلُ السَّوَابِقُ بسعادتها الأبدية مُجْلِبٌ ومُجْنِبٌ وتُرْكَبُ : من تجهيز الحصان البرقي بسرجه ولجامه وعدته الكاملة، وشمول المملوك بالصدقات التي ما برحت متردفة متواصله، ولعبد هذا البيت الشريف شامله؛ وقبل المملوك الأرض وقبل حوافره، وأخذ

بهذه النعمة الباطنة والظاهرة؛ وأعدّه ليومئ تجلّ وجهه، ولقاء عدوّه وطراد؛ والله تعالى يخلّد هذه الصدقات الشريفة التي ما برحت تشمل القريب والبعيد، والموالي من أولياء هذه الدولة الشريفة والبعيد؛ طالع بذلك، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة جواب عن وصول خيل من الإنعام السلطانيّ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ .

ويُنهي وصول ما أنعم به من الخيل التي وجد الخير في نواصيها، وتتخذ صواتها حصوناً يعتصم في الوغى بصياصياها .

فمن أشهب غطاءه النهار بجلته، وأوطاه الليل على أهله؛ يمدوح أديمه رياً، ويتأرجح رياً، ويقول من استقبله في حلّ لجأه: هذا الفجر قد طلع بالثريا؛ إن أنفلت في المضايق أنساب أنسياب الأيم، وإن أنفرجت المسالك مرّ مرور الغيم؛ كم أبصر فارسه يوماً أبيض بطلعه، وكم عين [طرف] السنان مقاتل العدو في ظلام النقع بنور أشعته؛ لا يستنّ داحس في مضاره، ولا تطمع الغبراء في شقّ غباره، ولا يظفر لاحق من لحاقه بسوى آثاره؛ تسابق يده مرامي طرفه، ويدرك شوارد البروق ثانياً من [عطفه] .

ومن أدهم حالك الأديم، حالي الشكيم، له مقلّة غانية وسالفة ريم؛ قد ألهسه الليل برده، وأطلع بين عينيه سعده؛ يظن من نظر إلى سواد طرفه، وبياض مجوله

(١) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وأذخرت» .

(٢) في "حسن التوسل" (ص ٩٩) إن «ألقت المضايق» وهي أوضح .

(٣) بياض بالأصل والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

وُغْرَتِهِ ؛ أَنَّهُ تَوَهَّم النَّهَارَ نَهْرًا خَافِضَهُ ، وَأَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ نُقْطَةً مِنْ رَشَاشِ تِلْكَ الْمَخَاضَةِ ؛
لَيْنِ الْأَعْطَافِ ، سَرِيعِ الْأَنْعَاطِ ؛ يُقْبِلُ كَاللَّيْلِ ، وَيَمْرُجُ كَالْمُهْوَدِ [صَحْرِي^(١)] حَطَّهُ السَّيْلُ ؛
يَكَادُ يَسْبِقُ ظِلَّهُ ، وَمَتَى جَارَى السَّمَمِ إِلَى غَرَضٍ بَلَغَهُ قَبْلَهُ .

وَمِنْ أَشَقَرٍ : وَشَاهُ الْبَرْقِ بِلَهِيهِ ، وَغَشَاهُ الْأَصِيلُ بَدْهِيهِ ؛ يَتَوَجَّسُ مَالِدِيَهُ بِدَقِيقَتَيْنِ ،
وَيَنْفُضُ وَفَرْتِيَهُ عَنْ عَقِيقَتَيْنِ ، وَيَنْزِلُ عِدَارُ لِحَامِهِ مِنْ سَالِفَتِيهِ عَلَى شَقِيقَتَيْنِ ؛ لَهُ مِنْ
الرَّيَاحِ لَوْثُنَا ، وَمِنْ الرِّيَاحِ لِيُنْهَأَ ؛ إِنْ جَرَى فَبَرْقٌ خَفَقَ ، وَإِنْ أَسْرَعَ فَهَيْلَالٌ عَلَى شَفَقٍ ؛
لَوْ أَدْرَكَ أَوَائِلَ حَرْبِ بَنِي وَائِلٍ لَمْ يَكُنْ لِلْوَجِيهِ وَجَاهَهُ ، وَلَا لِلنَّعَامَةِ نَبَاهَهُ ، وَلَكَانَ
تَرَكُ إِغَارَةً [سَكَابِ لَوْمًا وَتَحْرِيمٌ بِنَعِيهَا سَفَاهَهُ] يَرْكُضُ مَا وَجَدَ أَرْضًا ، وَإِذَا أَعْتَرَضَ
بِهِ رَاكِبُهُ بِحَرًّا وَثَبَّ عَرْضًا .

وَمِنْ مُكَيْتٍ نَهْدٍ ، كَأَنَّ رَاكِبَهُ فِي مَهْدٍ ؛ عِنْدِمِي الْإِهَابِ ، شِمَالِي الذَّهَابِ ؛ يَزِلُّ
[الْغَلَامُ]^(٤) الْخِلْفَ عَنْ صَهَوَاتِهِ ، وَكَأَنَّ نَعْمَ الْغَرِيضِ وَمَعْبَدٍ فِي لَهَوَاتِهِ ؛ قَصِيرِ الْمَطَا ،
فَسِيحِ الْخُطَا ؛ إِنْ رُكِبَ لَصَيْدٍ قَيْدَ الْأَوَايدِ ، وَأَعْجَلَ عَنِ الْوُثُوبِ الْوَحْشِ اللَّوَايدِ ؛
وَإِنْ جُنِبَ إِلَى حَرْبٍ لَمْ يَزُورْ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلْبَانِهِ ، وَلَمْ يَشْكُ لَوْ عَلِمَ الْكَلَامَ بِلِسَانِهِ ،
وَلَمْ يُرَدِّدْ بُلُوغَ الْغَايَةِ وَهِيَ ظَفَرُ رَاكِبِهِ ثَانِيًا مِنْ عِنَانِهِ ؛ وَإِنْ سَارَ فِي سَهْلٍ أَخْتَالَ
بِصَاحِيهِ كَالثَّمَلِ ، وَإِنْ أَصْعَدَ فِي جَبَلٍ طَارَ فِي عِقَابِهِ كَالْعُقَابِ وَأَنْحَطَّ فِي مَجَارِيهِ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) في "حسن التوسل" «يتوخش» .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) في الأصل «ومقبل» والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) في الأصل «سريع» والتصحيح عن " » » .

كَالْوَعِلِ ؛ مَتَى مَا تَرَقَّ الْعَيْنُ فِيهِ تَسَهَّلَ ، وَمَتَى أَرَادَ الْبُرْقُ مَجَارَاتَهُ قَالَ لَهُ الْوُقُوفُ
عِنْدَ قَدْرِهِ : مَا أَنْتَ هُنَاكَ فَمَهَّلَ .

(١) وَمِنْ حَبَشِيٍّ أَصْفَرَ يَرُوقُ الْعَيْنُ ، وَيُسْوِقُ الْقَلْبَ بِمِشَابَهَةِ الْعَيْنِ ؛ كَأَنَّ الشَّمْسَ
أَلْقَتْ عَلَيْهِ مِنْ أَسْعَتِهَا جِلَالًا ، وَكَأَنَّهُ نَفَرَ مِنَ الدُّجَى فَأَعْتَقَ مِنْهُ عُرْفًا وَأَعْتَقَ أَحْجَالَ ؛
ذِي كَفَلٍ يَزِينُ سَرَجَهُ ، وَذَيْلٍ يَسُدُّ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ مِنْهُ فَرَجَهُ ؛ قَدْ أَطْلَعَنَّهُ الرِّيَاضَةَ
عَلَى مُرَادِ فَارِسِهِ ، وَأَغْنَاهُ نَضَارَ لُونِهِ وَنَضَارَتَهُ عَنْ تَرْصِيعِ قَلَائِدِهِ وَتَوْشِيعِ مَلَابِسِهِ ؛
لَهُ مِنَ الْبُرْقِ خِفَّةٌ وَطَيْبَةٌ وَخَطْفَةٌ ، وَمِنَ النَّسِيمِ لِينٌ مُرْوَرٌ وَلُطْفَةٌ ، وَمِنَ الرَّيْحِ هَرَمِيْزُهَا
إِذَا مَا جَرَى شَاوِيْنٍ وَأَبْتَلَّ عِطْفُهُ ؛ يَطِيرُ بِالْغَمَزِ ، وَيُدْرِكُ بِالرِّيَاضَةِ مَوَاقِعَ الرَّمْزِ ،
وَيَعْدُو كَأَلْفِ الْوَصْلِ فِي اسْتِغْنَاءِ مِثْلِهَا عَنِ الْهَمَزِ .

وَمِنْ أَحْضَرَ حَكَاهُ مِنَ الرُّوضِ تَقْوِيْفُهُ ، وَمِنَ الْوَشْيِ تَقْسِيمُهُ وَتَأْلِيْفُهُ ؛ قَدْ كَسَاهُ
النَّهَارُ وَاللَّيْلُ حُلَّتِيَّ وَقَارِ وَسَنًا ، وَاجْتَمَعَ فِيهِ مِنَ السَّوَادِ وَالْبَيَاضِ ضِدَانٍ لَمَّا اسْتَجْمَعَا
حَسَنًا ؛ وَمِنَحَهُ الْبَازِي حُلَّةً وَشِيْهَ ، وَنَحَلَّتَهُ الرِّيَّاحُ وَهَمَّاتُهَا قُوَّةَ رَكْبِهِ وَخِفَّةَ مَشِيْهِ ؛
يُعْطِيكَ أَفَانِيْنَ الْجُرَى قَبْلَ سُؤَالِهِ ، وَلَمَّا لَمْ يُسَاقِمْهُ شَيْءٌ مِنَ الْخَلِيلِ أَغْرَاهُ حُبُّ الظَّفَرِ
بِمَسَاقِمَةِ حَيَالِهِ ؛ كَأَنَّهُ [تَفَارِيْقُ] ^(٢) شَيْبٍ فِي سَوَادِ عِدَارٍ ، أَوْ طَلَائِعُ بُحْرٍ خَالِطِ بَيَاضِهِ
الدُّجَى ، فَمَا سَجِي ، وَمَا زَجَ ظَلَامَهُ النَّهَارَ ، فَمَا أَنَارَ ؛ يَخْتَالُ لِمَشَارِكَةِ أَسْمِ الْجُرَى بَيْنَهُ
وَبَيْنَ الْمَاءِ فِي السَّيْرِ كَالسَّيْلِ ، وَيُدُلُّ بِسَبْقِهِ عَلَى الْمَعْنَى الْمُشْتَرِكِ بَيْنَ الْبُرُوقِ وَاللَّوَامِعِ

(١) فِي الْأَصْلِ « الْعَيْن » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ « طَرُوقَهُ » وَالتَّصْحِيحُ عَنْ « » « » .

(٣) الزِّيَادَةُ عَنْ « حَسَنِ التَّوَسُّلِ » .

وبين البرقية من الخيل ؛ ويكذب [المأنوية^(١)] لتولد أين فيه بين إضاءة النهار وظلمة الليل .

ومن أبلق ظهره حرم ، وجريه صرم ؛ إن قصد غاية فوجود الفضاء بينه وبينها عدم ، وإن صرّف في حرب فعمله ما يشاء البنان والعنان وفعله ما تريد الكف والتدم ؛ قد طابق الحسن البديع بين ضدّي لونه ، ودلت على اجتماع التقيضين علة كونه ؛ وأشبه زمن الربيع باعتدال الليل فيه والنهار ، وأخذ وصف حلتى الدجى في حلتى الإبدار والسرار ؛ لا تكلم منا كبه ، ولا يضل في سجات الجيوش را كبه ، ولا يحتاج ليله المشرق بمجاورة نهاره إلى أن تسترسل فيه كوا كبه ؛ ولا يجاريه الخيال فضلاً عن الخيل ، ولا يملّ السرى إلا إذا مله مشبهاه : النهار والليل ؛ ولا تمسك البروق اللوامع من لحاقه بسوى الأثر فإن جهدت فبالذيل ؛ فهو الأبلق الفرد ، والجواد الذى يجاريه العكس وله الطرد ؛ قد أعتته شهرة نوعه في جنسه عن الأوصاف ، وعدل بالرياح عن مباراته لسلوكها له في الاعتراف جادة الإنصاف .

فتربى المملوك إلى رتب العز من ظهورها ، وأعدّها خطبة الحنان إذ الجهاد عليها من أنفس مهورها ؛ وكلف برؤيها فكلما أكله عاد ، وكلما أمّله شره إليه فلو أنه زيد الخيل لما زاد ؛ ورأى من آدابها مادد على أنها من أكرم الأصائل ، وعلم أنها ليومى سنجيه وحره جنة الصائيد وجنة الصائل ؛ وقابل إحسان مهديها بثنائها ودعائه ،

- (١) بياض بالاصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .
- (٢) كذا في "حسن التوسل" ، وفي الأصل «زبد البحر والخيل» .
- (٣) كذا في "حسن التوسل" ، وفي الاصل «جنة للصائل وجنة للصائل» .
- (٤) في الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وَأَعَدَّهَا فِي الْجِهَادِ لِمُقَارَعَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَعْدَائِهِ [وَاللَّهُ تَعَالَى يَشْكُرُ بِهِ الَّذِي أُوْفِرَدَهُ فِي النَّدَى بِمَدَاهِيهِ، وَجَعَلَ الصَّافِنَاتِ الْحِيَادَ مِنْ بَعْضِ مَوَاهِبِهِ] ^(١).

المهيوع الثاني

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ بِهِ عَنْ نَوَابِ السُّلْطَانَ وَالْأَتْبَاعِ إِلَى السُّلْطَانَ أَبْتِدَاءً)

وهو على أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِيءُ بِهِ الْكَاتِبُ فِي مِثْلِهِ .
فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ عَنْ نَائِبِ كُلِّ مَمْلُوكَةٍ إِذَا وَصَلَ إِلَى مَحَلِّ وِلَايَتِهِ .

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلى مملكته ومقر ولايته، كتب إلى السلطان يُخَبِّرُهُ بِذَلِكَ وَبِمَا الْمَمْلُوكَةُ عَلَيْهِ .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كُتِبَ بِهَا عَنْ نَائِبِ حَلَبَ فِي مَعْنَى ذَلِكَ، وَهِيَ :

يَقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْبِئِي أَنَّ الْمَمْلُوكَ وَصَلَ إِلَى الْمَمْلُوكَةِ الْفُلَانِيَةِ الْمَحْرُوسَةِ، وَحَلَّ بِمَحَلِّهَا الْمَأْنُوسَةَ، الَّتِي شَمِلَتْهُ الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بِكِفَالَتِهَا، وَأَهْلَتْهُ الْمَرَاحِمُ الْمُنِيفَةُ لِإِيَالَتِهَا؛ رَافِلاً فِي حُلِّ الْإِنْعَامِ الشَّرِيفِ، مُتَفِيئاً ظِلَّ الْعِزِّ الْوَرِيفِ؛ صُحْبَةَ فُلَانٍ مُسْفَرِهِ، وَدَخَلَهَا يَوْمَ كَذَا مِنْ شَهْرِ كَذَا لِأَسْبَابِ تَشْرِيفِهِ الشَّرِيفِ الْمُنْعَمِ بِهِ عَلَيْهِ، مَا شَيْئاً لِمَحَلِّ الْكِرَامَةِ الَّذِي سَارَ إِلَيْهِ؛ [بِحَضُورٍ مَنْ جَرَتْ الْعَادَةُ بِحُضُورِهِ] ^(٢) مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ وَالْحُجَّابِ، وَالْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ وَالْأَصْحَابِ؛ عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ، وَأَكْمَلِ

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠).

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهي من سقط النسخ.

القَوَاعِدِ؛ وَقَبْلَ الْأَرْضِ بِيَابِ الْقَاعَةِ الْمَنْصُورَةِ، وَدَخَلَ دَارَ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ وَقَطُوفَ الْأَمَانِيِّ لَهُ مَهْضُورَهُ؛ وَقُرِئَ بِهَا بِحَضْرَةِ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ تَقْلِيدُهُ، وَعَظَّمَ الْمَرَاسِمَ الشَّرِيفَةَ تَأْيِيدُهُ؛ وَتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْهُ لَهُ الْمَرَاسِمُ الشَّرِيفَةُ مِنْ إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ، وَتَنْفِيذِ كُلِّ مِهِمٍّ شَرِيفٍ وَمَرْسُومٍ؛ وَتَصَفِّحَ أحوالِ الْمَمْلُوكَةِ، وَسَلَكَ كُلَّ أَحَدٍ مَسْلَكَهَ؛ وَأَسْتَجَلَبَتِ الْأَدْعِيَةَ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ، وَاجْتَهَدَ فِي حَيَاةِ الْبِلَادِ مَنْ يَمُدُّ إِلَيْهِ شَيْطَانُ الْمُفْسِدِينَ بِأَشْطَانٍ؛ وَأَنْتَظَمَ لَهُ أَمْرَ الْمَمْلُوكَةِ بِالْمَهَابَةِ الشَّرِيفَةَ أَحْسَنَ أَنْتَظَامٍ، وَبَلَغَ بِهِ كُلَّ وَلِيٍّ مِنْ قَهْرِ الْعُدُوِّ غَايَةَ الْمَرَامِ؛ وَقَدْ أَعَادَ الْمَمْلُوكُ فَلَانًا مُسَفَّرَهُ إِلَى خِدْمَةِ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ مُزَاحَ الْأَعْدَارِ، مُبَلِّغَ الْأَوْطَارِ؛ عَلَى الْعَادَةِ - طَالِعَ بِذَلِكَ - وَلَا زَالَ مِنْهُ مَزِيدُ الشَّرَفِ وَالْعُلُوِّ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وهذه نسخة كتاب في المعنى إلى الأبواب السلطانية عن نائب طرابلس، وهي:

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى أَنَّهُ وَصَلَ إِلَى طَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ مَعْمُورًا بِالصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ، وَالْإِنْعَامَاتِ الْمُطِيفَةِ؛ صُحْبَةَ مَمْلُوكِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ، وَأُلَيْسَ تَشْرِيفَهُ الشَّرِيفِ، وَقُرِئَ تَقْلِيدُهُ الشَّرِيفِ بَدَارَ الْعَدْلِ، وَقَبْلَ الْأَرْضِ مِرَارًا عَلَى الْعَادَةِ. وَتَقَدَّمَ الْمَمْلُوكُ بِالْحَافِيفِ الشَّرِيفِ عَلَى النُّسْخَةِ الْمُجَهَّزَةِ صُحْبَةَ الْمُشَارِ إِلَيْهِ مِنَ الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ عَظَّمَهَا اللَّهُ تَعَالَى؛ بِحُضُورٍ مِنْ جَرَتِ الْعَادَةِ بِحُضُورِهِ: مِنْ قُضَاةِ الْقُضَاةِ وَالْأَمْرَاءِ، وَكَتَبَ خَطَّهُ عَلَيْهَا؛ وَأَنْتَصَبَ الْمَمْلُوكَ لِحَلَاصِ الْحَقُوقِ، وَإِزَالَةِ الْمَظَالِمِ؛ وَتَشْرِيفِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ، لِيَنْتَصِفَ الْمَشْرُوفُ مِنَ الشَّرِيفِ، وَيَنْزَجِرَ الْقَوِيُّ عَنِ الضَّعِيفِ؛ وَأَتَّبَعَ الْحَقَّ فِي الْقَضَايَا، وَأَسْتَجَلَبَ الْأَدْعِيَةَ بِدَوَامِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْعَادِلَةَ مِنَ الرِّعَايَا؛ وَرَتَّبَ أُمُورَ الْآزَاكِ الْمَنْصُورَةَ عَلَى أَكْمَلِ عَادَةٍ وَأَجْمَلِ

قاعدة؛ وقد عاد فلان إلى الأبواب الشريفة، شرفها الله تعالى وعظّمها، لِيُنْهِىَ بَيْنَ يَدَى الْأَيْدَى الْمُعْظَمَةِ مَا عَابَتْهُ مِنَ الْمَمْلُوكِ مِنْ إِخْلَاصِهِ فِي الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ وَمُعَالَاتِهِ . طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك ما يكتب به في التهنئة بالخلافة :

أما التهنئة بالخلافة ، فقد قال في ”موادّ البيان“ : من الأدب المستفيض ترفيه الخلفاء عن الهناء والعزاء ، إيجاباً لهم وتعظيماً . إلا أننا رأينا ذوى الأخطار من القداماء قد شافهوهم بالعزاء مسلين ، وبالهناء داعين ؛ وربما دُفِعَ الكاتبُ إلى صُحْبَةِ رَيْسٍ يَقْتَضِي مَحَلَّهُ أَنْ يَهْنِئَ الْخَلِيفَةَ بِمُتَجَدِّدِ النِّعَمِ لَدَيْهِ ، وَيُعْزِيَهُ لِمُتَطَرِّقِ النُّوَابِ إِلَيْهِ ؛ فَحَتِيحٌ إِلَى أَنْ يُرْسَمَ فِي هِنَاءِ الْخُلَفَاءِ وَعِزَائِهِمْ مَا يُحْتَدَى عَلَيْهِ ، عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى اسْتِعْمَالِ مِثْلِهِ .

وهذه نسخة تهنئة بالخلافة ، أوردتها في ”موادّ البيان“ وهي :

أولى النعم - خلد الله ملك مولانا أمير المؤمنين - بأن تتطّق بها السنن الدارّين يَضُوعُ عَطْرُهَا ، وَتُنْتَفِلُهَا أَفْوَاهُ الشَّاكِرِينَ يَفُوحُ نَشْرُهَا - نعمة إيلانه في خلاقته التي جعلها ذخراً للأنام ، وعِصْمَةً للإسلام ، وَحَاجِزًا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ؛ وَقِيَامًا لِلاتِّتِلافِ وَالِاتِّفَاقِ ، وَزِمَامًا عَنِ الْاِخْتِلافِ وَالِافْتِراقِ ؛ وَنِظَامًا لِصَلَاحِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ ، وَسَبِيلاً إِلَى اجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ وَسُكُونِ الْأُمَمِ ؛ وَسَبَبًا لِحَقِّقِ الدِّمَاءِ ، وَدَعَةِ الدِّهْمَاءِ ، وَجَاهِدَةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَإِقَامَةِ الصَّلَوَاتِ ، وَإِيْتَاءِ الزَّكَوَاتِ ؛ وَالْعَمَلِ بِالْفَرَائِضِ وَالسُّنَنِ ، وَحَسْمِ الْبِدْعِ وَالْفِتَنِ ؛ وَعَدَقِهَا بِالْأَخْيَارِ وَرَثَةِ نَبِيِّهِ وَعِترته ، وَالْأَبْرَارِ الطَّهْرَةِ مِنْ أَرْوَمَةِ رَسُولِهِ وَشَجَرَتِهِ ؛ الَّذِينَ نَصَبَهُمْ دُعَاةً إِلَى طَاعَتِهِ ، وَهُدَاةً لِبَرِيَّتِهِ ، وَأَعْلَامًا لَشَرِيعَتِهِ ؛ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَأْتُمِرُونَ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيَتَّقُونَ ، وَيَقْضُونَ

بالحقِّ وبه يعدُّون ؛ وكلِّما لحقَّ منهم سلفٌ بمقرِّ أوليَّته ، أقام خلفاً يختصُّه بانتخابه
وتكرِّمته .

والحمد لله الذى قصرَ خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضى الذى
كانت مفوضةً إليه ، والآتى الذى أقرت عليه ؛ وأنجز لهم ما وعدَّهم من إبقاء الإمامه ،
فى عقبيهم إلى يوم القيامة ؛ وأستخلص لها فى عصرنا هذا وليها الحامى لحقيقتها ،
المرامى عن حوزتها ؛ المعزِّ لكلماتها ، الرافع لراتبها ؛ المحدِّد لحدودها ، الحافظ لعقودها ؛
وسلم قوساً منه إلى باريها ، وناطها بكفئتها وكافئها ؛ وأفضى إليه بشرف الولادة
والأبوة ، وميراث الإمامة والنبوَّة ؛ وألف به بين القلوب الآبية ، وجمع عليه النفوس
النائية ، وأنفقت الآراء بعد تباينها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على اختلافها وتعاديتها ؛
وأستدت ثلثة الدين بعد أنغارها ، وأطمأنت الدهماء بعد نفاها ، حمداً يكون لنعمته
كفاء ، ولموهبته جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لا تنزع الهمم إليها ، ولا تتطلع الأمانى عليها :
لاختصاص الله بها صفوته من بريته ، وخالصته من أهل بيت نبيه وعترته ؛ فإن أمير
المؤمنين يتعاطم عن تهنئته بوصولها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ؛ إذ لا يسوغ أن يهنأ
بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات الليل والنهار ؛ والعبد
يسأل الله تعالى ضارِعاً إليه فى إنهاض أمير المؤمنين بما حمَّله وكنَّه ، وتوفيقه فيما
كفَّله وأستخلفه ؛ وأن يُمكن له فى الأرض ، ويُعلي يده بالسطِّ والقبض ؛ ويمدِّه بعزِّ
السلطان ، وعلوِّ الشان ؛ وظهور الأولياء ، وشُور الأعداء ؛ وإعزاز الدين ، وأبتزاز
الملحدين ؛ وتقوية يده فى نصره الإسلام ، وسياسة الأنام ؛ ويعرف رعيته من بين
دولته ، وسعادة ولايته ؛ ما يجمعهم على الطاعة والمواقفة ، ويعصمهم من المعصية والمفارقة ؛

ويوفقهم من الإخلاص في موالاته، لما يوفر حظهم من مرضاته؛ ويجعل ولايته هذه مقرونةً بانفساح المدة والأجل، وبلوغ المنى والأمل، وصالح القول والعمل؛ ويبلغه في مملكته ودولته أفضل ما بلغه خليفة من خلفائه، ووليًا من أوليائه .

ومن ذلك ما يكتب في البشارة بالفتوح .

قد جرت العادة أن السلطان إذا وجه جيشاً لفتح قلعةٍ أو قُطرٍ من الأقطار وحصل الفتحُ على يديه أن يكتب إلى السلطان مبشراً بذلك الفتح، منوهاً بقدره، معظماً لأمره؛ وما كان فيه : من عزيز النصر وقوة الظفر .

(١)

[فن مكاتبة في البشارة بفتح حصن المرقب، وهي] :

قد أسفر عن الفتح المين صباحه، والتأيد وقد طار به مخلق النباشير
نفق في الخافقين جناحه؛ والإسلام وقد وطئ هامة الكفر بمقدمه، والدين وقد
عز بفتكات سيفه المنصور فإنف أن يكون الشرك من خدمه؛ والأفلاك وقد
علمت أنه لهذا الفتح القريب كان أجمع كواكبها، والأفلاك وقد نزلت لتشهد
أحمد النصر البدرية في صفوفها ومواكبها؛ وحصن المرقب وقد ألق عليه الملة
الإسلامية أشعة سعدها، وأنجزت له الأيام من الشرف بها آماله بعد ما طال أنتظاره
لوعدها، وأمتته الأقدار التي ذللت للإسلام أن تطاول إليه الحوادث من بعدها؛
وقد أحاطت العلوم بأن هذا الحصن طالما شمت الأحلام، أن تحيل فتحه لمن
سلف من الأنام؛ فما حدثت الملوك أنفسهم بقصده إلا وثأها النجل، ولاخطبته ببئيل

(١) لم يذكر المؤلف عنواناً لهذه المكاتبة، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام لينتم الكلام .
وقد بحثنا عن هذه المكاتبة في الكتب التي بأيدينا فلم نهند إليها، غير أن الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي
قد ذكر فقرات منها في "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النَّفَاسُ وَالنُّفُوسُ إِلَّا وَكَانَتْ مِنَ الْحَرَمَانِ عَلَى ثِقَةٍ وَمِنْ مُعَاجَلَةِ الْأَجَلِ وَقَتَهُ عَلَى وَجَلٍ ؛
 وَحَوْلَهُ مِنَ الْجِبَالِ كُلِّ شَاخِجٍ تَهَيَّبُ عِقَابُ الْجَوِّ قَطْعَ عِقَابِهِ ، وَتَقِفُ الرِّيحُ خَدَمًا
 دُونَ التَّوْقِلِ فِي هِضَابِهِ ؛ [وَحَوْلَهُ مِنْ] الْأَوْدِيَةِ خَنَادِقُ لَا تُعْلَمُ مِنْهَا الشُّهُورُ إِلَّا بِأَنْصَافِهَا ،
 وَلَا تُعْرَفُ فِيهَا الْأَهْلَةُ إِلَّا بِأَوْصَافِهَا ؛ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ قَدْ تَقَرَّرَ بِالنُّجُومِ ، وَتَقَرَّرَقَ
 بِالْيَوْمِ ، وَسَمَا قَرَعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَرَسَا أَصْلُهُ فِي النَّخُومِ ؛ نُحَالُ الشَّمْسُ إِذَا عَلَتْ أَنَّهَا
 تَتَنَقَّلُ فِي أَبْرَاجِهِ ، وَيُظَنُّ مِنْ سَمَا إِلَى السَّهَاءِ أَنَّهُ ذُبَالَةٌ فِي سِرَاجِهِ ؛ فَكَمْ مِنْ ذِي جِيُوشٍ
 قَدْ مَاتَ بِعُقْبَةِ ، وَذِي سَطَوَاتٍ أَعْمَلُ الْحَيْلَ فَلَمْ يَفْزَ مِنْ نَظَرِهِ عَلَى الْبُعْدِ بِفُرْصَةٍ ؛
 لَا يَعْلُوهُ مِنْ مُسْمَى الطَّيْرِ سِوَى نَسْرِ الْفَلَكَ وَمِرْزَمِهِ ، وَلَا يَرْمُقُ مَتَبَرِّجَاتِ أَبْرَاجِهِ غَيْرَ
 عَيْنِ شَمْسِهِ وَالْمَقَلِ الَّتِي تَطْرِفُ مِنْ أَنْجُمِهِ ؛ وَقَدْ كَانَ نُصِبَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَجَانِيقِ مَا سَهَمَهُ
 أَنْفَذَ مِنْ سِهَامِ الْجَفُونِ ، وَخَطَرَاتُهُ أَسْرَعُ مِنْ لِحَظَاتِ الْعُيُونِ ؛ لَا يَحْتَاطَبُ إِلَّا بِوَسَاطَةِ
 رُسُلِهِ بِضَمِيرِ الطَّلَابِ ، وَلَا يُرَى لِسَانُ سَهْمِهِ إِلَّا كَمَا تُرَى خَطَفَاتُ الْبَرَقِ إِذَا تَأَلَّقَ
 فِي عُلُوِّ السَّحَابِ ؛ فَتَرَلَّتْ عَلَيْهِ الْجِيُوشُ نُزُولَ الْقَضَاءِ ، وَصَدَمَتْهُ بِهِمَمِهَا الَّتِي تَسْتَعِيرُ
 مِنْهَا الصَّوَارِمُ سُرْعَةَ الْمَضَاءِ وَرُوعَةَ الْأَنْتِضَاءِ ؛ فَنَظَرَتْ مِنْهُ حِصْنًا قَدْ زَرَرَ عَلَيْهِ الْجَوُّ
 جَيْبَ غَمَامِهِ ، وَأَفْتَرَّتْ نَفْرَهُ كَمَا جَدَبَ عَنْهُ الْبَرَقُ فَاضِلَ لِشَامِهِ ؛ فَتَدَلَّتْ صِعَابُهُ ،
 وَسَهَلَتْ عِقَابُهُ ؛ وَرَكِرَتْ لِلْجُنُوبَاتِ (؟) فِي سَفْحِهِ وَطَالَمَا رَامَتِ الطَّيْرُ أَدْنَاهُ فَلَمْ تَقْوَعْ عَلَيْهِ
 النَّوَادِمَ ، وَكَمْ هَمَّتِ الْعَوَاصِفُ بِتَسْمِ رَبَاهُ فَأَصْبَحَتْ مُحَلَّفَةً تَبْكِي عَلَيْهَا الْغَائِمَ ؛ فَضُرِبَ
 بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْحِصْنِ بَسُورٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَدَابُ ، وَنُصِبَتْ فَوْقَهُ
 مِنَ الْأَسِنَّةِ تُغَوِّرُ بَرَاقَةَ الثَّنَائِيَا وَلِكِنِّهَا غَيْرَ عَدَابٍ ؛ فَعَادَ ذَلِكَ السَّفْحُ مُصَفَّحًا بِصِفَاحِهَا ،

(١) في الأصل «ففي الأودية» والتصحيح من «حسن التوسل» .

(١) مُشْرِقًا بِأَعْلَامِ أَسِنَّةِ رِمَاحِهَا؛ فَأُرْسِلَتْ إِلَى أَرْجَائِهَا مَا أُرْبَى عَلَى الْعَمَائِمِ، وَزَادَ فِي نَفْسِهِ عَلَى التَّمَائِمِ .

وَكَانَ بِهَا مِثْلُ الْجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * وَمِنْ جِثِّ الْقَتْلِ عَلَيْهَا تَمَائِمُ!

وَنُصِبَتْ عَلَيْهَا الْمَجَانِيقُ فَلَمْ تَرَعْ حَقَّ جُنْسِهَا؛ وَسَطَّتْ عَلَيْهَا فَأَصْبَحَ عُنْدَهَا فِي التَّحَامُلِ أَبْعَدَ مِنْ أُمْسِهَا، وَأَسْتَنْصَحْتُمَا الْعِدَا فَأَعْلَمْتُمُهَا أَنَّهَا لَا تُطِيقُ الدَّفَاعَ عَنْ غَيْرِهَا بَعْدَ أَنْ عَجَزَتْ عَنْ نَفْسِهَا؛ وَسَطَّتْ أَنْفَهَا أَمَارَةً عَلَى الْإِذْعَانِ، وَرَفَعَتْ أَصَابِعَهَا؛ إِمَّا إِجَابَةً أَنْ تَدُلَّ لِلشَّهْدِ وَإِمَّا إِنَابَةً إِلَى طَلَبِ الْأَمَانِ؛ نَخَافُ الْعِدَا مِنْ ظُهُورِ هَذَا الْأَسْتَظْهَارِ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْمَجَانِيقَ قَوْلٌ لَا تَثْبِتُ لَهَا الْإِنَانُ الَّتِي عَمِرْتِ مِنَ النَّفْعِ بِأَيْدِيهِمْ نَأْسْتَعَانُوا عَلَيْهِنَ مَعَ الْعِدَا بِطُولِ الْجِدَارِ؛ فَمَنْدَ ذَلِكَ عَدَّتْ تَكُنُّ كُمُونَ الْأَسَاوِدِ وَتَثِبُ وَتُوبُّبُ الْأُسُودِ، وَتُبَارِي بِهَا الْحُصُونُ السَّمَاءَ فَكُلَّمَا قَدَفَتْ هَذِهِ بَكَوَا كِبَاهِ النَّيْرَةِ قَدَفَ هَذَا بَكَوَا كِبَاهِ السُّودِ؛ وَلَمْ يُكْسِرْ لَهُمْ مَنْجَنِيْقٌ إِلَّا وَنَصَبُوا آخَرَ بِمَكَانِهِ، وَلَا فُطِعَتْ لِأَحَدٍ إِصْبَعٌ إِلَّا وَصَلَ الْآخَرَ بِبَنَانِهِ؛ فَظَلَّتْ تَتَحَارَبُ مِثْلَ الْكِبَاهِ، وَتَتَحَامَلُ تَحَامُلَ الرَّمَاهِ؛ حَتَّى لَقِحَتْ وَفَسَحَتْ لِلرِّضَا مَجَالًا، وَمَالَتْ وَمِيلَ فِيهَا وَكَذَلِكَ الْحَرْبُ تَكُونُ سِجَالًا .

هَذَا وَالتُّقُوبُ قَدْ دَبَّتْ فِي بَاطِنِهِ دَيْبَ السَّقَامِ، وَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ كَمَا تَمَشِّي فِي مَفَاصِلِ شَارِبِهَا الْمُدَامِ؛ وَحَشَتْ أَضَالِعَهُ نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الْهَوَى: مُتَحَرِّقُ الْأَحْشَاءِ وَلَا يَبْدُو لَهَا ضِرَامٌ؛ قَدْ دَاخَلَتْ مَرَسَلَةَ الْوَجَلِ، فَتَحَقَّقُوا حُلُولَ الْأَجَلِ؛ وَعَلِمُوا أَنَّ هَذَا الْفَتْحَ الَّذِي تَمَادَّتْ عَلَيْهِ الْأَيَّامُ قَدْ جَاءَ يَسْعَى إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى عَجَلٍ، وَأَيَقِنَنَّ الْحِصْنَ بِالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْمَالِكِ الشَّرِيفَةِ فَكَادَ يُرْقِصُهُ بَيْنَ فِيهِ فَرَطُ الْحَدَلِّ؛ وَزَادَ

(١) كَذَا بِالْأَصْلِ وَلَعَلَهُ فِي نَفْسِهِ .

شَوْقُهُ إِلَى التَّشْرِيفِ وَيَا صَابِغَةً لَوْ سَمَّهَا وَأَسَمَّهَا مُشْتَاقٌ لِكُنْهَمْ أَظْهَرُوا الْجِلْدَ ، وَأَخْفَوْا
ضَرَامَ نَارِ الْجَزَعِ وَكَيْفَ تَخْفَى وَقَدْ وَقَدَ ؛ وَتَدَفَّقَتْ إِلَيْهِمُ الْجِيُوشُ فَلَائِ الأَفُقِ ،
وَأَحَاطَتْ بِهِمْ إِحَاطَةَ الطُّورِ بِالْعُنُقِ ؛ وَنَهَضَتْ إِلَيْهِمْ مُسْتَمِدَّةً مِنْ عَزَمَاتِ سُلْطَانِيهَا ،
مُسْتَعِدَّةً لِاتِّزَاعِ أَرْوَاحِ العِدَا عَلَى يَدَيْهَا مِنْ أَوْطَانِيهَا ؛ فَانْقَطَعَتْ بِهِمُ الطُّنُونُ ،
وَدَارَتْ عَلَيْهِمْ رَحَى المُنُونِ ، وَأَمْطَرَتْ عَلَيْهِمُ المَجَانِيقُ أَجْمَارَهَا (فَوْقَ الحَقِّ وَبَطْلَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) وَحَطَّتْ بِسَاحَتِهَا عِقْبَانُ تِلْكَ الأَحْجَارِ ، فَهَدَمَتِ العَائِرَ والأَعْمَارَ ،
وَأَجَرَتْ فِي أَرْجَائِهَا أَنهَارَ الدَّمَاءِ فَهَآكُوا بِالسَّيْفِ وَالنَّبِيلِ وَالنَّارِ ؛ وَتَحَكَّمَتْ هَذِهِ الثَّلَاثَةُ
فِي أَهْلِ التَّثَلُّثِ فَبَدَّلُوا بِالْخَوْفِ مِنْ أَمْنِهِمْ ، وَهَرَبُوا مِنْهَا إِلَى مَحَايِلِ حِصْنِهِمْ .

وَمَا رَكِبَ الأَوَّلُ لِلزَّخْفِ فِي جُيُوشِهِ الَّتِي كَثُرَتْ بِالْبَحْرِ بِأَمْوَاجِهِ ، تَنْزِيلَ الحِصْنِ
لِشِدَّةِ رُكُوبِهِ ، وَتَضَعُّعِ مَنْ خَوَّفَ عِصْيَانَهُ فَالْحَقَّتْ سَمَاؤُهُ بِأَرْضِهِ ؛ وَتَحَلَّتْ قَوَاعِدُ
مَا شِيدَ مِنْ أَرْكَانِهِ فَانْحَلَّتْ ، وَأَلْقَتِ الأَرْضُ مَا فِيهَا وَتَحَلَّتْ ؛ وَمَشَتْ النَّارُ مِنْ تَحْتِهِمْ
وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ، وَنُفِخَ فِي الصُّورِ بِلِ فِي السُّورِ إِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ ؛ وَمَا كَانَ
إِلَّا أَنْ قَابَلَتِ العَسَاكِرُ ذَلِكَ البُرْجَ حَتَّى أَهْوَى يَلِيمُ التُّرَابِ ، وَتَادَبَ بِأَدَابِ الطَّاعَةِ
فَفَخَّرَا كَعَا وَأَنَابَ ؛ فَهَاجَمَتْهُمُ الْجِيُوشُ مُهَاجِمَةً الحُتُوفِ ، وَأَسْرَعَتِ المِضَاءُ وَالأَنْتِضَاءُ
فَلَمْ تَدْرِ العِدَا : أَهْمُ أَمْ الدِّينِ فِي أَيْمَانِهِمُ السُّيُوفُ الَّتِي تَسْبِقُ العَدْلَ . وَثَبَّتَ مِنْهُمْ
مَنْ لَمْ يَجِدْ وَرَاءَهُ مَجَالًا فَلَجَّجُوا إِلَى الأَمَانِ ، وَتَمَسَّكَ دَنِيءٌ كُفْرَهُمْ بِعِزَّةِ الإِيمَانِ ،
وَتَسَبَّحُوا بِسَاحِلِ العَفْوِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ وَجَاءَهُمُ المَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ؛
وَسَأَلُونَا أَنْ يَكُونُوا لَنَا مِنْ جُمَلَةِ الصَّنَائِعِ ، وَتَضَرَّعُوا فِي أَنْ يُجْعَلَ أَرْوَاحَهُمْ لِسُيُوفِنَا
مِنْ جُمَلَةِ الودائعِ فَتَصَدَّقَ عَلَيْهِمْ بِأَرْوَاحِهِمْ كَرَمًا ، وَظَلُّوا عَلَى مَعْنَى الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ :

يَرُونَ الْمَمَاتَ يَقْظَةً وَالْحَيَاةَ حُلْمًا وَأَطْلَقْتَهُمُ الْيَدَ الَّتِي لَا يَجِيبُ لَهَا الْإِمْسَاقُ ، وَأَعْتَقْتَهُمُ
 الْيَمْنَى الَّتِي فَجَّاحُ الْأَرْضِ فِي قَبْضَتِهَا : فَتَى تَشَاءُ تَجْمَعُ عَلَيْهِمُ الْأَنْامِلُ ؛ وَخَرَجُوا بِنُفُوسٍ
 قَدْ تَجَزَّدَتْ حَتَّى مِنْ الْأَجْسَامِ ، وَمَقِيلٌ طَلَّقَتْ الْكِرَا خَوْفًا مِنَ الصَّوَارِمِ الَّتِي تَسْلُهَا
 عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ؛ وَسُطَّرَتْ وَالْمَدِينَةُ قَدْ تُسَنَّمُ أَعْلَاهَا ، وَشِعَارُ الْإِيمَانِ قَدْ جَرَّهَا مِنْ لِبَاسِ
 الْكُفْرِ وَأَعْرَاهَا ؛ وَالْأَعْلَامُ قَدْ سَلَكَتْ إِلَى ذَلِكَ الْحِصْنِ أَعْلَى مَرْقَى ، وَالسَّعَادَةُ
 قَدْ بَدَلَتْ بَيْعَهُ مَسَاجِدَ وَمَحَارِبِيَهُ قِبَلَةً وَكَانَتْ شَرْقًا ؛ فَأَصْبَحَ يَرْفُلُ فِي حُلَلِ الْإِيمَانِ ،
 وَأُذْعَنَ بِالطَّاعَةِ فَأَخْرَسَ جَرَسَ الْجَرَسِ بِهَ صَوْتُ الْأَذَانِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

[ومن ذلك] ما يكتب به في التعازي إلى الخلفاء .

وقد تقدم في الكلام على التهنئة بولاية الخلافة ، أنه كما ينبغي أن لا يهنا الخليفة
 بالخلافة إعظاما ، فكذلك ينبغي أن لا يعزى في مصابه . إلا أنه ربما دعت ضرورة
 الكاتب إلى ذلك : لإكرام بعض أخصاء الخليفة إياه بالكتابة بذلك إلى الخليفة .
 ولا ينبغي أن الحال في ذلك تختلف باختلاف المعزى : من والدٍ أو ولدٍ أو غيرها .

(١) وهذه نسخة مكتوبة في معنى ذلك [ذكرها في "مواد البيان" وهي :

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل خلافته خلقه قواما ، ولبريته نظاما ؛ وجعل له
 خلفاء يدنرهم لمراثها ، ويحتشمهم بتراثها ؛ فإذا آنقضت مدة ماضيهم : لما يريد الله
 من أستدناؤه إلى مقر خصاصه ، نقلها إلى نوره بأصطناه وأصطفائه .

والحمد لله الذي قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم زعيمهم
 الماضي الذي كانت بيديه موارثها ، والآتي الذي صار إليه [تراثها] .

والحمد لله الذى ختم لأمر المؤمنين المتَّقِل إلى دار الكرامة بأفضل الخاتمته ،
وأحسن له الجزاء عن السعي في الأمة ؛ وأنعم باستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خليفته ،
وحياطة شريعته ؛ وحماية بلاده ، وسياسة عبادته ؛ ولوراثته تراث آبائه وأجداده ؛
وجعل الماضى منهم مرضياً عنه ، والآتى مرضياً به ؛ وأعتدت الرعية من عدل
أمير المؤمنين ما جبر كسرهما في خليفته ، وصبرها في رزيته ؛ وهو المسئول أن يُلهمه
على المصيبة في سلفه الطاهر صبراً ، وعلى ما أخلفه عليه في تأهيله لخلافته التي
لا كفاء لها شكراً ؛ بمنه وفضله إن شاء الله تعالى .



[وهذه نسخة كتاب في التعزية أيضاً] ^(١) وهى :

إنَّ الله خصَّ أمير المؤمنين بما هو أهله من خلافة ، وعظم محله بما نصَّبه له
من إمامة بريته ؛ وجعله عماداً لأهل الإسلام يجتمع عليه أهواؤهم ، وتسكن إليه
أملاؤهم ؛ ويصلح به دينهم ودنياهم ، ويستقيم به أمر أولاهم وأخراهم ؛ فإذا أسبغ
نعمة من نعمه عليه ، وظاهر موهبة من مواهبه لديه ؛ شركوه فيها ، ونهضوا معه
على الشكر عليها ؛ وإذا ابتلاه ببليته ، وأمتحن صبره برزيه ؛ أخذوا بالنصيب العظيم
من الحادث ، والحظَّ الجسيم من الكارث ؛ [و] ما أفردوه بثواب الله فيها وما جعله
جزاءً من الأجر عليها .

وإن الله تعالى كان أعار أمير المؤمنين من ولده فلان - رضى الله عنه - عاريةً
من عواريه ، وبلغه من الاستمتاع بها ما احتسب من أمانيه ؛ ثم استرجعها ليثقل بها
ميزانه ، ويضاعف إحسانه ؛ ويجعلها له ذخراً ، ونوراً يسعى بين يديه وأجراً ؛ فعظم

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح يقتضيه المقام .

بذلك المصائب على رعيته، وكبر الرزء على أهل دعوته، لما كانوا يرجونه من سُكون
القلوب، وتقع الخطوب، واستقرار قواعِدِ الخِلافه، وشُمول الرِّحمة والرِّافه؛ وقد
حصل أمير المؤمنين على نعيم كثيرة من موهبته وتوايه في استعادته، وحصل كافة
خاصته على القلق لفقده، والأسى من بعده؛ وقد جعله الله تعالى صلاح كل فساد،
ونقاف كل مباد، ومهبط كل رحمة، وطريق كل نعمة؛ وهو خليق بأن يظهر
من صبره، ورضاه بقضاء الله وتسليمه لأمره؛ ما يبعث على التأسى به، والتأديب
بأديه؛ والله تعالى يُحسنُ لأُمير المؤمنين الخلف، ويعوضه أحسن العوض في الموتف؛
ويوفر حظّه من الثواب، ويعظم له الأجر على المصائب؛ ويريه في أوليائه وأحبابه،
أعظم محابه وغاية آراه؛ وينقل المنقول إلى إيوان الكرامة والأحتفاء، بأفاضل
الأجداد والآباء؛ بفضلِهِ ورحمته، إن شاء الله تعالى .



[وهذه] نسخة كتاب : كُتِبَ به إلى الأبواب السلطانية عند فتح (آياس)

(١)

قاعدة بلاد الأرمن وأتراعها من أيديهم، وهي :

يُقْبَلُ الأرض وَيُنْهَى أن لَيْلَةَ الانتظار أَطْلَعَتْ صَبَاحَهَا، ومَوَاعِدَ الآمال بعثت
على يد الإقبال نَجَاحَهَا؛ والعساكر المنصورة جَرَدَتْ رَابِعَ ربيعِ الأوَّلِ بمدينة آياس
صَفَاحَهَا، وأوردت إلى الصُدُورِ رِمَاحَهَا؛ فلم يَكُنْ إلا كَهَجِ البَصْرِ، وَلِسَانِ صِدْقِ
الْقِتَالِ قَائِلٌ: بأنَّ الجَيْشَ النَّاصِرِيَّ قد أَنتَصَرَ؛ وأنقضى ذلك النَّهَارُ، بِيَقَادِ نارِ حَرْبِ
الْحِصَارِ؛ على أبراجِ وأسوارِ، أُدِيرَتْ على المِينَا كما أُدِيرُ المَعَصِمُ على السَّوَارِ؛ فما أشرق

(١) كان الأولى ذكر هذه المكتبة مع المكاتب التي ذكرت في البشارة بالفتح، إذ لامناسبة في ذكرها

صَبَّاحُ الصَّفَاحِ وَوَلَّاحُ ، إِلَّا وَالْأَعْلَامِ النَّاصِرِيَّةِ عَلَى قَلْعَةِ الْقَلْعَةِ مَائِسَةُ الْأَعْطَافِ مِنْ
الْأَرْتِيَّاحِ ؛ مُعَلِّمَةٌ أَلَسَّتْهَا بِحَيٍّ عَلَى الْفَلَاحِ وَحَى عَلَى النَّجَاحِ ، وَعِزُّ الْإِسْلَامِ يُقَابِلُ ذُلَّ
الْكُفْرِ ؛ بِهَذَا النَّصْرُ وَهَذَا الْإِفْتِيحُ ، وَجَمْعُ الْأَرْمَنِ الْمَلَا تَفَرَّقَ مَا بَيْنَ قَتْلِ وَأَسِيرِ
وَأَنْتِرَاحِ ؛ وَلَعِبَتْ أَيْدِي النَّيْرَانِ فِي الْقَلْعَةِ وَجَوَانِبِهَا ، وَتَفَرَّقَتْ مِنَ الْأَسْوَارِ أَعْضَاءُ
مَنَّاكِبِهَا ، وَنَطَقَ بِالْأَقْدَارِ لِسَانُ النَّارِ : هُدَى مَنَازِلُ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ .

ثم أنتقلت المحاصرة إلى قلعة البحر، وضم الأرمين الملا إليها سيف القدرة والقهر؛
وهذه القلعة عروس بكر في سماء العز شاهقه، لم يسبق لأحد من الملوك الأوائل إلى
خطبتها سابقه؛ قد شمخت بأنفها، ونأت بعطفها؛ وتاهت على واميها، وغصت عين
راميقها؛ فهي في عقاب لوج الحو كالطائر، وسورها البحر والخجر فلا يكاد يصل
إلى وكرها الناظر؛ وقد أوثقت بخلقات الحديد، وقيدت كأنها عاصية تساق بالأصفاذ
إلى يوم الوعيد؛ فأرسل عليها المنجنيق عقابه، وأعلق بها ظفره ونابه؛ فكشف
من شرفاتها شنب نعرها، وسقاها بأكف أسهمه كئوس حجارة فتمايلت من شدة
سكرها؛ وفص من أراجها الصناديق المقله، وفصل من أسوارها الأعضاء
المتصلة؛ فترزل عمدتها، وزيل عن مكانه جملتها؛ وعلت الأيدي المرامية بها،
وغلت الأيدي المحامية عنها؛ وأشد مرضها من حرارة وهج الحصار، وضعفت قوتها
عن مقاومة تلك الأحجار؛ ولم يبق على سورها من يفتح له جفنا، وشن المنجنيق
عليها غارته إلى أن صارت سنا؛ فأرسل إليها من سماء غضبه رجوما، وإلى ذلك
عليها سبع ليل وثمانية أيام حسوما؛ فبادرت إلى الطاعة وأستسلمت، وكررت نحوها
رؤوعه فسجدت؛ وركبت الجيوش المنصورة عوض الصافات الحج، وسمحت
في سبيل الله عز وجل بالمهج؛ فعند ذلك سارع أهلها إلى التعلق بأسباب الهرب،

وكان نَحْرَابُ قَلْعَةِ الْمِينَا هَذِي نَحْرَابٍ قَلَعْتَهُمْ مِنَ الْجَرْبِ ، وَأَحْرَقُوا كَيْدَهَا مِنْ أَيْدِيهِمْ
 بِنَارِ الْعَضْبِ ، وَأَتْرَحُوا مِنْهَا لَيْلًا ، وَجَرُوا مِنَ الْهَزِيمَةِ ذَيْلًا ، وَتَسَلَّمَهَا الْمَسَامُونَ ،
 وَتَحَسَّرَ عَلَيْهَا الْحَسْرَةَ الْكُبْرَى الْكَافِرُونَ ؛ وَهَدِمَتْ حَجْرًا حَجْرًا ، وَصَاحَتْ بِجَبْهَتِهَا وَجْهَ
 الثَّرَى ، وَأَعْدَمَتْ مِنَ الْوُجُودِ عَيْنًا وَأَثْرًا ؛ فَمَا أُعْجِبَ هَذَا الْفَتْوحَ وَأَغْرَبَ ! ،
 وَمَا أَحْلَى ذِكْرَهُ فِي الْأَفْوَاهِ وَمَا أَعْدَبَ ! ! ، وَمَا أَلَدَّ حَدِيثَهُ فِي الْأَسْمَاعِ وَمَا أَطْرَبَ ! ! ،
 وَمَا أَسْعَدَ هَذَا الْجَيْشَ النَّاصِرِيَّ وَمَا أُعْجِبَ ! ! ! .

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هَذَا النَّصْرُ وَالظَّفَرُ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي قَدْ كَانَ يَنْتَظِرُ !
 فَتَحَ مَبِينٌ وَنَصْرٌ جَلَّ مَوْقِعُهُ * سَارَتْ بِهِ وَلَهُ الْأَمْلَاكُ وَالْبُشْرُ !
 عَجَابٌ ظَهَرَتْ فِي فَتْحِهِ بَهْرَةٌ * لَمْ تَأْتِ أَمْثَالَهَا الْأَيَّامُ وَالسَّيْرُ !
 لَوْ كَانَ فِي زَمَنِ مَاضٍ بِهِ نَزَلَتْ * فِي وَصْفِ وَقَعَتِهِ الْآيَاتُ وَالسُّورُ !
 هَذِي أَيَّاسُ الَّتِي قَدْ عَزَّ جَانِبُهَا * وَعَزَّ حَاطِبُهَا حَتَّى أَتَى الْقَدْرُ !
 جَاءَتْ إِلَيْهَا جِيُوشٌ كَمْ بِهَا أَسْدٌ * بِيضُ الصَّفَاحِ لَهَا الْإِنْيَابُ وَالظُّفَرُ !
 جَيْشٌ لَهَا مِ كَبْحَرٍ زَاخِرٍ لَبِ * إِذَا سَرَى لَا يُرَى شَمْسٌ وَلَا قَمَرُ !
 يَسِيرُ بِالنَّصْرِ الَّتِي سَارَ مَتَجِّهَا * مَا زَالَ يَقْدُمُهُ التَّائِبُ وَالظَّفَرُ !
 جَيْشٌ لَهُ اللَّهُ وَالْأَمْلَاكُ نَاصِرَةٌ ، * مَلِيكُهُ نَاصِرٌ لِلدِّينِ مُتَّصِرُ !
 يَوْمَ الْخَمِيسِ رَأَيْتُ الْخَيْلَ حَامِلَةً * عَلَى رُءُوسِ عُدَاةٍ هَامَهَا أُكْرُ ،
 وَقَلْعَةَ الْبَحْرِ كَانَتْ آيَةً لَهُمْ * فَعَنَّ يَسِيرٍ فَأَصْحَتْ لِلرُّورَى عِبْرُ !
 كَانَتْ بِأَفْقِ سَمَاءِ الْعِزِّ شَاهِقَةً * أَبْرَاجُهَا بِأَسْقَاتٍ نَحْرَتْهَا خَطْرُ !

فَرَكَبَ الْمُسْلِمُونَ الْبَحْرَ بَأَذَلَّةً * أَرْوَاحَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَدَحَّرُ،
لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ أَمِيرٌ وَلَا وَلَا مَلِكٌ * يَا أُوِيَّ مَقْرًا إِلَى أَنْ مَدَّتِ الْجَسْرُ!
وَعَجَّلَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ الْمُبِينِ لَهُمْ * هَذَا الْفَتْوحُ الَّذِي تُوْفِي لَهُ النَّذْرُ
يَرْضَى بِهِ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ قَاطِبَةً * وَشَاهِدُ الْقَوْلِ فِيهِ الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ!

تم الجزء الثامن . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء التاسع

وأوله القسم الثاني

(من مقاصد المكاتبات الإخوانيات)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ

فهرس

الجزء الثامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- المقصد الثالث - في المكتبة إلى أهل الجانب الجنوبي : من العرب
 ٥ والسودان، وفيه ثلاث جمل ٥
 الجملة الأولى - في المكتبة إلى من بهذا الجانب من العربان ... ٥
 » الثانية - » » مسامى ملوك السودان ٦
 » الثالثة - » » ملوك المسامين بالحبشة ١١
- المقصد الرابع - » » أهل الجانب الشمالى ، وفيه ثلاثة
 أطراف ١٢
 الطرف الأول - في المكتبات إلى أمراء الأتراك ببلاد الروم المسماة
 الآن ببلاد الدروب ١٢
 » الثانى - في المكتبة عن ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر ٢٥
 » الثالث - » إلى من وراء بحر القرم، ويشتمل على
 أربعة مقاصد ٢٦
 المقصد الأول - في المكتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ... ٢٧
 » الثانى - » » » المغرب من
 جزيرة الأندلس وما والاها... .. ٣٣
 » الثالث - في المكتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبي ... ٣٩
 » الرابع - » » » الشمالى من
 الروم والقرنجة على اختلاف أجناسهم ٤٢
- الفصل الخامس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب
 الواردة على الأبواب السلطانية من أهل المملكة
 وغيرها، وفيه نوعان ٥٤

صفحة

- النوع الأول - المكتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهي
 على قسمين ٥٤
- القسم الأول - في الكتب الواردة عن أهل هذه المملكة بالديار
 المصرية والبلاد الشامية ، وفيه ضربان ٥٤
- القسم الثاني - في الكتب الواردة على الأبواب السلطانية عن
 أهل الممالك الإسلامية ، ويشتمل على أربعة
 مقاصد ٦٢
- المقصد الأول - في الكتب الواردة عن أهل الشرق ، وفيه أطراف
 الطرف الأول - الكتب الواردة عن القنوات العظام من بني
 جنكركان ٦٣
- « الثاني - في المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 أهل الشرق ٧١
- « الثالث - في رسم المكتبات الواردة عن صاحب اليمن إلى
 هذه المملكة ٧٢
- « الرابع - في الكتب الواردة إلى الأبواب السلطانية عن
 ملوك الهند ٧٦
- المقصد الثاني - في المكتبات الواردة عن ملوك الغرب ، وفيه جمل
 الجملة الأولى - في المكتبة الواردة عن صاحب تونس ٧٩
- « الثانية - في المكتبات الواردة عن صاحب تلمسان من
 بني عبد الواد ٨٤
- « الثالثة - في المكتبات الواردة عن صاحب فاس ٨٧
- « الرابعة - في عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس ... ١٠٦

صفحة

- المقصد الثالث - في رسم المكاتب الواردة عن ملوك السودان ،
 وفيه ثلاثة أطراف ١١٥
- الطرف الأول - في المكاتب إلى صاحب مالى ١١٥
- « الثانى - » الصادرة عن صاحب البرنو ١١٦
- « الثالث - » عن ملك الكانم ١١٩
- المقصد الرابع - في الكتب الواردة من الجانب الشمالى وهى
 بلاد الروم ١١٩
- النوع الثانى - [كتب خطأ القسم الثالث] من المكاتب الواردة إلى
 هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار،
 وهى على أربعة أضرب ١١٩
- الفصل السادس - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى رسوم
 المكاتب الإخوانيات، وفيه طرفان ١٢٦
- الطرف الأول - فى رسوم إخوانيات السلف من الصحابة والتابعين
 « الثانى - » الإخوانيات المحدثه بعد السلف، وفيه
 ثلاثة مقاصد ١٢٧
- المقصد الأول - فى رسوم إخوانيات أهل المشرق، وفيه أربعة مهايج
 المبيع الأول - فى صدور الأبتداءات ١٢٧
- « الثانى - فى الأجوبة على هذا المصطلح ١٣٩
- « الثالث - فى خواتم الإخوانيات على هذا المصطلح ١٤١
- « الرابع - فى عنوانات الكتب على هذا المصطلح ١٤٤

- صفحة
- المقصد الثاني — في رسوم إخوانيات أهل المغرب ، وفيه جملتان ... ١٤٨
- الجملة الأولى — في مفتحات المكاتب على أصطلاحهم ، وفيها مهيعان ١٤٨
- المهيع الأول — في آبتداء المكاتب ١٥٤
- » الثاني — في الأجوبة ١٥٨
- الجملة الثانية — في خواتم المكاتب على أصطلاحهم ١٥٩
- المقصد الثالث — في الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية ، وفيه
- ثلاثة مصطلحات ١٦٠
- المصطلح الأول — ما كان الأمر عليه في الدولة الطولونية ... وفيه
- ثلاثة مهايح ١٦٠
- المهيع الأول — في الصدور ١٦٠
- » الثاني — في خواتم الكتب ١٦٦
- » الثالث — في عنوانات الكتب ١٦٦
- المصطلح الثاني — من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال
- في الدولة الأيوبية ١٦٧
- » الثالث — من مصطلحات الديار المصرية في الإخوانيات
- ما جرى عليه الاصطلاح في الدولة التركية ، وفيه مهيعان ١٦٨
- المهيع الأول — في رتب المكاتب المصطلح عليها ... وهي
- على قسمين ١٦٨
- القسم الأول — الابتداءات ١٧١
- » الثاني — من المكاتب الإخوانيات الدائرة بين أعيان
- الملكة وأكابر أهل الدولة الأجوبة ٢١٢
- المهيع الثاني — في بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من
- أعيان الدولة ٢١٧

صفحة

- الفصل السابع - من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى مقاصد
المكاتبات، وهى قسمان ٢٣٣
- القسم الأول - مقاصد المكاتبات السلطانية، وهى على نوعين ... ٢٣٣
- النوع الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك، وهو على ثلاثة
أضرب [صوابه أربعة] ٢٣٣
- الضرب الأول - ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم، وهو
على أصناف ٢٣٣
- الصف الأول - الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة ٢٣٣
- » الثانى - من الكتب السلطانية الكتب فى الدعاء إلى الدين ٢٤٤
- » الثالث - « « « بالحث على الجهاد ٢٤٦
- » الرابع - « « « فى الحث على لزوم
الطاعة وذم الخلاف ٢٥٢
- » الخامس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من نكث
العهد من المخالفين ٢٥٩
- » السادس - من الكتب السلطانية الكتب إلى من خلع الطاعة ٢٦٣
- » السابع - الكتب فى الفتوحات والظفر ٢٧٤
- » الثامن - المكاتب بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ... ٢٩٠
- » التاسع - المكاتب بتوبيخ المهزوم الخ ٢٩٩
- » العاشر - فى المكاتبات بالتضييق على أهل الجرائم ... ٣٠٣
- » الحادى عشر - الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين ... ٣٠٦
- » الثانى عشر - المكاتب بالأوامر والنواهى ٣٠٨
- » الثالث عشر - المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية ... ٣١٠
- » الرابع عشر - « فى التنبيه على شرف مواسم العبادة الخ ٣١٢

صفحة

- الصف الخامس عشر — المكتبة بالسلامة في الركوب في المواسم والأعياد... ٣١٣
- « السادس عشر — المكتبة بالبشارة بوفاء النيل والبشارة بالسلامة في الركوب لفتح الخليج ... ٣٢٨
- « السابع عشر — فيما يكتب في البشارة بركوب الميدان الكبير الخ ٣٣٣
- « الثامن عشر — المكتبة بالبشارة بحج الخليفة ... ٣٣٦
- « التاسع عشر — الكتابة بالإنعام بالتشريف والخلع ... ٣٣٩
- « العشرون — المكتبة بالتنويه والتلقيب ... ٣٤١
- « الحادى والعشرون — المكتبة بالإحماذ والإذمام ... ٣٤٦
- « الثانى والعشرون — ما يكتب مع الإنعام لتواب السلطنة بالخيال والجوارح ... ٣٥١
- « الثالث والعشرون — المكتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رُزقه ... ٣٥٦
- « الرابع والعشرون — ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض ... ٣٥٧
- الضرب الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب عن السلطان فى الجواب ... ٣٥٨
- « الثالث — من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن تواب السلطنة الخ ... ٣٥٩
- « الرابع — من المكاتبات السلطانية ما يكتب عن التواب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، وفيه مهيعان ... ٣٦٦
- المهيج الأول — فى الأجوبة عن الكتب السلطانية ... ٣٦٦
- « الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن تواب السلطان والأتباع إلى السلطان آتداء... ٣٩٠

(تم فهرس الجزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)

صحة الأربعة

الجزء التاسع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

نالتف

الشيخ أبي العباس أحمد بن القلقشندي

الجزء التاسع

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وصلی اللہ وسلم علی سیدنا محمد وآلہ وصحبہ

القسم الثانی

من مقاصد المکتوبات، الإخوانیات

(مما یکتب به رئیسُ إلى المرءوس والمرءوسُ إلى رئیسٍ والنظیرُ إلى النظیرِ)

قال فی ”موادّ البیان“ : ولها مَوْقعٌ خَطِیرٌ من حیثُ تشترکُ الکافیةُ فی الحاجة إليها . قال : والمکتبُ إذا کان ماهرًا، أغربَ معانیها، ولطّفَ مبانیها، وتسهّلَ له فیها ما لا یکاد أن یتسهّلَ فی المکتبِ الّتی لها أمثلةٌ ورسومٌ لا تتغیّرُ ولا تُتجاوزُ، وهی علی سبعةَ عشرَ نوعًا :

النوع الأول

(التّهانی)

قال فی ”موادّ البیان“ : کُتِبَ التّهانی من المکتبِ الّتی تظهرُ فیها مقادیرُ أفهامِ الجُلبابِ، ومنازلُهم من الصّناعةِ، ومواقِعُهم من البلاغةِ . وهی من ضروبِ الكتابةِ الجلیلةِ النفیسةِ، لها فی التّهنئةِ البلیغةِ من الإفصاحِ بقدرِ النعمةِ، والإبانةِ عن مَوْقعِ الموهبةِ، وتضاعفِ الشُّرورِ بالعطیةِ . وأغراضُها ومعانیها متشعبةٌ لا تحفّ عند حدٍّ، وإنما نذکرُ منها الأصولَ الّتی تفرّعتُ منها فروعٌ رجعتُ إليها، وحملتُ علیها .

قال : ويجب على الكاتب أن يراعى فيها مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في الرسالة اللائقة بهما مما لا يتسأخ بمثله .
ثم التهاني على أحد عشر ضربا :

الضرب الأول

(التهنئة بالولايات ، وهي على تسعة أصناف)

الصنف الأول — التهنئة بولاية الوزارة :

قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على ترتيب الملكة أن الوزارة كانت في الزمن المتقدم هي أرفع وظائف الملكة وأعلىها رتبةً ، وأنها الرتبة الثانية بعد الخلافة . وكانت في زمن الخلفاء تكاد أن تكون كالسلطنة الآن ، فهي من الأتباع ومن^(١) في معانهم على نحو ما كانت في الزمن المتقدم بين الرؤساء والأكابر ، ومن الرؤساء والأكابر بحسب ما تقتضيه رتبة المهنة .

وهذه تسخ تهاين من ذلك على ما كان عليه الحال في الزمن القديم .

تهنئة بوزارة : من إنشاء أبي الحسين بن سعد ، كتب بها إلى الوزير محمد بن القاسم بن عبيد رحمه الله ، وهي :

من كانت النعمة — أيد الله الوزير — نافرة عنه وبفنائيه غريبة ، فهي تأوى من الوزير إلى مثوى معهود ، وكنت محمود ، ومجاور منه من يوفئها حقها ، ويقابلها بحسن الصحبة لها ، ويجرى في الشكر لآيولاه ، والرعاية لما يسترعاها ، على شاكلة مضى عليها السلف من أهله ، ونشأ في مثلها الخلف ، مقتدياً بالأول الآخر ، وبالماضى

(١) أى التهنئة من الأتباع الخ .

الغائب؛ تشابهاً في كرم الأفعال ، ورعايةً لحقوق الآمال ؛ وأعتاداً للرفاة والرحمة ،
وعموماً بالإنصاف والمعدلة ؛ إلى ما خصَّ الله به أهل البيت رضى الله عن الماضين
منهم وأقام عزَّ الباقيين وحراستهم : من العلم بالسياسة والدرابة بتدبير المملكة ورعاية
الأمة ؛ والهداية فيهم لطرق الحيلة ونهج المصلحة .

والحمد لله على ما خصَّ به الوزير من فضله الذى رفع قدره فيه عن مساماة
ومشكلة المقادير والشيبه ^(٢) ، وجعله فيما جباه به نسيج وحده ، وقريع دهره ؛ وجمع
له من مواهب الخير ، وخصائص الفضل ما أبان به موقعه في الدين ، وأعطاه
معه الولاية من جميع المسلمين .

والحمد لله حمداً مجدداً على ما جدده له من رأى أمير المؤمنين وأجبتائه ، ومحلّه
من اختياره وأصطفائه .

والحمد لله على ما منحه من كرامته ، وجدد له من نعمته ، فيما أعاد إلى تدبيره من
وزارته ، وأشركه فيه من أمانته ؛ احتياطاً منه للملكة ، ونظراً للخاصة والعامّة ؛ فإن
عائدة رأيه سوت بين الضعيف والقوى ، ووصلت إلى الداني والقصى ؛ وأعادت
إلى الملك بهاءه ، وإلى الإسلام نوره وضياءه ؛ فاكتست الدنيا من الحدة بعد
الإخلاق ، والنضارة بعد الإنهاج ، ما لم يكن يوجد مثله إلا بالوزير في شرف منصبه ،
وكرم مرگبه ؛ فهناك الله الوزير ما آتاه وتابح له قسمه ، ووصل له ماجدده بالسعادة ؛
وأمدته فيه بالزيادة ؛ وأعطاه من كل مأمول أعظم حظّ وأوفر نصيب وقسم ؛ تراخياً

(١) فى الأصل والوراثة لتدبير وهو تصحيف سخيّف .

(٢) فى القاموس "قادرته قايسه وفعلت مثل فعله" .

(٣) الإنهاج البلى ، أظن القاموس فى مادة (ن هج) .

في مُدَّة العُمُر، وتناهِياً في دَرَجَةِ العِزِّ، وأَحْتِياطاً بِالْمَوْهَبَةِ في العَاجِلِه ، وفَوْزاً بِالكَرَامَةِ في الآجِلِه ؛ إِنَّه فَعَّالٌ لِمَا يَشَاءُ .

تهنئة أُخْرَى في مِثْل ذلك : أوردَهَا في ترسُّله ، وهى :

التَهْنِئَةُ بِالْوَزِيرِ لِلزَّمَانِ وَأَهْلِهِ بِمَا جَمَلَهُمْ بِهِ ، وَجَدَّدَ لَهُمْ مِنْ مِيسَمِ العِزِّ ، وَسَرَّبَلَهُمْ إِيَّاهُ مِنْ حُلَّةِ الأَمْنِ بِوِلَايَتِهِ ، وَالنِّعْمَةَ عَلَى أَوْلِيَائِهِ وَرِعَايَاهُ عَلَى حَسَبِ مَوَاقِعِهِمْ مِنْ مِشَارِكَتِهِ وَخُطُوبِهِمْ مِنْ مَعْدَلَتِهِ ظَاهِرَةً ، وَلِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ الحَمْدُ الفَاضِلُ ، وَالشُّكْرُ الكَامِلُ . وَلِلوَزِيرِ مِنْ هَذِهِ النِّعْمَةِ الجَلِيلَةِ ، وَالدُّوَلَةِ السَّعِيدَةِ ؛ أَنَّهُهَا مَوْقِعًا ، وَأَسْرَاهَا مَلْبَسًا ، وَأَدُومُهَا مُدَّةً ، وَأَجْمَلُهَا نَعْيَةً ؛ وَأَثْرَاهَا مُبُوعًا ، وَأَسْلَمُهَا عُقْبَى ؛ فَنُؤَلِّهُ اللهُ بِالمُعُونَةِ وَالْحِرَاسَةِ ، وَأَيِّدُ اللهُ بِالنَّصْرِ وَالْكَفَايَةِ ؛ وَأَنْهَضَهُ بِمَا قَلَّدَهُ وَأَسْتَرْعَاهُ ، وَبَلَّغَهُ مَحَابَّةً وَمُنَاهً ، وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ مَوْقِعِي مِنْ ثِقَّةِ الوَزِيرِ يُلِحِّقُنِي عِنْدَهُ بِمَنْ مَكَّنْتَهُ الأَيَّامُ مِنْ قَضَاءِ الحَقِّ فِي التَّلَقِّيِّ وَالإِبْعَادِ ، وَيُعَوِّضُنِي بِتَفْضِيلِهِ مِمَّا حُرِمْتُهُ مِنْهَا مَحَلَّ ذَوَى الإِخْلَاصِ وَالإِعْتِدَادِ .

تهنئة أُخْرَى في مِثْل ذلك : أوردَهَا في ترسُّله أَيْضًا ، وهى :

وهذا أَوَّلُ يَتْلُوهُ مابَعْدَهُ بِلَا تَنَاهٍ وَلَا نَقْصٍ بِإِذْنِ اللهِ وَمِشِيئَتِهِ ، بَلْ يَكُونُ مَوْصُولًا لِاتِّبَاعٍ مِنْهُ غَايَةً إِلا شَفَعَتْهَا دَرَجَةٌ تُرْقَى ، تُكَنِّفُ ذَلِكَ كِفَايَةً مِنْ اللهِ شَامِلَةً كَامِلَةً ، وَغِظْبَةً فِي البَدَنِ وَالعَاقِبَةَ بِلَا انْقِطَاعٍ ، وَلَا أَرْجَاعٍ ؛ حَتَّى يَكُونَ المُتَقَلِّبُ مِنْهُ يَعْدُ بُلُوغَ العُمُرِ مِنْتَاهُ ، إِلَى فَوْزٍ بِرَحْمَةِ اللهِ وَرِضَاهُ . فَهَنِيئًا لِلوَزِيرِ بِمَا لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَدَّعِي فِيهِ مُسَاعَفَةَ المِقْدَارِ ، وَلَا يَنَالَهُ بغيرِ اسْتِحْقَاقٍ ؛ إِذْ لَا مِثْلَ وَلَا نَظِيرَ لِلوَزِيرِ : فَضْلًا ظَاهِرًا ، وَعِلْمًا عَلَى العُلُومِ مُوفِيًا ؛ وَسَابِقَةً فِي تَقْلِيْبِ الخِلَافَةِ ظَهْرًا لِبَطْنٍ ، وَحَلْبَ الدَّهْرِ شَطْرًا بَعْدَ شَطْرٍ ؛ وَجَمْعًا مِنْ مَالِ السُّلْطَانِ لِمَا كَانَ مُتَفَرِّقًا ، وَحِفْظًا

لما كَانَ ضَائِعًا ؛ وَحَمَايَةَ لَبِيضَةِ الْمَلِكِ ، وَضَبْطًا لِلتُّغُورِ ، وَتَلَقِّيًّا لِلخُطُوبِ بِمَا يَفْلُ حَدَّهَا ، وَيُطْفِئُ نَارَهَا وَطَهَبَهَا وَيُقِيمُ أَوْدَهَا ؛ وَمَا وَهَبَ اللَّهُ فِي رَأْيِهِ مِنْ فَتْحِ الْبِلَادِ الْمُرْتَجَّةِ ، وَقَعَ الْأَعْدَاءُ الْمُتَغَلِّبَةَ ، وَسُكُونُ الدَّهْمَاءِ ، وَشُمُولُ الْأَمْنِ ، وَعُمُومُ الْعَدْلِ ؛ وَاللَّهُ يَصِلُ ذَلِكَ بِأَحْسَنِهِ .

تهنئةٌ أُخْرَى فِي مِثْلِ ذَلِكَ : مِنْ إِنْشَاءِ عَلِيِّ بْنِ خَلْفٍ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" وَهِيَ :

أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ خَضْرَى الْوِزَارَةِ السَّامِيَةِ ، فَارِعَةً مِنَ الْمَعَالِي أَسْمَقَهَا مُجُودًا ، كَارِعَةً مِنَ الْمِنَنِ أَعْدَبَهَا وَرُودًا ، سَاحِبَةً مِنَ الْمِيَامِينَ أَرْقَهَا بِرُودًا ، مُمْتَعَةً بِالنَّعْمِ الَّتِي يُرَامِي الشُّكْرَ عَنْ حَوْزَتِهَا ، وَيُحَامِي الْبِشْرَ عَنْ حَوْمَتِهَا ؛ مَبْلَغَةً فِي أَوْلِيَائِهَا وَأَعْدَائِهَا ، قَاضِيَةً مَا تَرْتَمِي إِلَيْهِ رِحَابُهَا ؛ فَلَا تَرَى لَهَا وَوَلِيًّا إِلَّا لِأَحَبِّ الْمَذْهَبِ ، نَاقِبَ الْكُوكَبِ ؛ سَامِيَ الطَّرْفِ ، حَامِيَ الْأَنْفِ ؛ وَلَا عَدُوًّا إِلَّا ضَيْقَ الْمَطْرَحِ ، وَعِزَّ الْمَسْرُوحِ ؛ صَالِدَ الزُّنْدِ ، مَفْلَلَانَ الْحَدَبِ ، رَاغِمَ الْعَرِينِ ، مَتَلُولًا لِلجَيْنِ . وَلَا زَالَتْ أَزِمَةُ الدُّنْيَا بِيَدِهَا حَتَّى تَبْلُغَ بِأَمَالِهَا مُنْتَهَاهَا ، وَتَجْرِيَ بِأَيَّامِهَا إِلَى أَقْصَى مَدَاهَا ؛ [فَهِيَ] مِنْ أَعْظَمِ النَّعْمِ خَطَرًا ، وَأَحْسَنِهَا عَلَى الْكَافَّةِ أَثْرًا ؛ وَأَوْلَاهَا أَنْ يُفَاضَ فِي شُكْرِهَا ، وَتَتَعَطَّرَ الْآفَاقُ بِذِكْرِهَا . وَوَلَسِيدُنَا الْوَزِيرَ الْأَجَلَّ يَرَاعُ يَسْتَيْقِظُ فِي صَلَاحِهِمْ وَهُمْ هَاجِعُونَ ، وَيَنْصَبُ فِي الذُّبِّ عَنْهُمْ وَهُمْ وَادِعُونَ ؛ وَكَلَّ تَدْنِيهِمْ فِيهِ ، إِلَى مَدْبَرِّ يُخَافُ اللَّهَ وَيَتَّقِيهِ ، وَيَعْمَلُ فِيمَنْ أَسْرَعَاهُ بِمَا يَرْضِيهِ ؛ وَلَا يَمُدُّ يَدَ الْإِقْتِدَارِ عَلَيْهِمْ مُتَسَلِّطًا ، وَلَا يَتَّبِعُ دَوَاعِيَ الْهَوَى فِيهِمْ مُتَسَقِّطًا ؛ وَاضِعًا الْأَشْيَاءَ فِي حَقَائِقِهَا ، سَالِكًا بِهَا أَمْثَلَ طَرَائِقِهَا ؛ مُلَانِيًا مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، مُحَاشِنًا مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ؛ قَرِيبًا مِنْ غَيْرِ صَعْرٍ ، بَعِيدًا مِنْ غَيْرِ كِبَرٍ ؛ مُرَغَّبًا بِلا إِسْرَافٍ ، مُرْهَبًا بِإِنْصَافٍ ؛ نَاطِرًا إِلَى مَحْفَرَاتِ الْأُمُورِ وَأَطْرَافِهَا ، كَمَا يَنْظُرُ فِي مَعَاظِمِهَا وَأَشْرَافِهَا ؛ آخِذًا بِوَنَائِقِ الْحَزْمِ ، مَتَمَسِّكًا بِعَلَائِقِ الْعَزْمِ ، رَامِيًا بِفِكْرَتِهِ مِنْ وَرَاءِ الْعَوَاقِبِ ، خَاطِمًا بِأَرَائِهِ نُوفَ الْمِصَابِعِ ؛

ناظماً بيايته عقود المصالح، مؤطناً برياضته ظهور الجوامح؛ إن تَفَفَّ ذَا التَّبَوَّةِ
 القَرِيدِ، والهِفْوَةِ الْوَحِيدِ؛ أَقْتَصَرَ عَلَى مَا يُؤَافِقُهُ الْوَالِدُ الْحَدْبُ، مِنْ مُقَوِّمِ الْأَدَبِ
 [وَإِنْ قَبَضَ] ^(١) عَلَى الْمَرْتَكِسِ فِي غَوَايَتِهِ، الْمُفْلِسِ فِي عِنَايَتِهِ؛ ضَيَّقَ عَلَيْهِ مَجَالَ الْعَفْوِ،
 وَأَحَاقَ بِهِ أَلِيمَ الْعَذَابِ وَالسَّطْوِ؛ فَقَدْ سَكَنَتِ الرَّعِيَّةُ فِي عَدْلِهِ، وَأَوْتَرَ حَرَمًا مَيْبَعًا مِنْ
 ظِلِّهِ؛ وَوَقَّتَتْ أَنَّ الْحَقَّ بِنَظَرِهِ شَاحِحٌ شَاقِقٌ، وَالْبَاطِلَ سَائِخٌ زَاهِقٌ؛ وَالْإِنْصَافَ مَبْسُوطٌ
 مَنْشُورٌ، وَالْإِحْكَافَ مَحْطُوطٌ مَبْتُورٌ؛ وَالشَّمْلَ مَنْظُومٌ، وَالشَّرَّ مَضْمُومٌ. فَنَطَقَتْ أَسِنَّتُهَا
 بِإِحْمَادِهِ، وَأَشْتَمَلَتْ أَفْنِدَتُهَا عَلَى وِدَادِهِ؛ وَأَنْفَقَتْ أَهْوَاؤُهَا عَلَى رِيَاسَتِهِ، وَتَطَابَقَتْ
 آرَاؤُهَا الْمَسَابِقَةُ عَلَى دَوَامِ سِيَادَتِهِ؛ وَعَرَفَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَدَقَ النَّظَرِ فِي دَوْلَتِهِ؛ وَسَلَّمَ
 أُمُورَ مَمْلَكَتِهِ إِلَى النَّصِيحِ الْمَأْمُونِ، وَالنَّجِيحِ الْمَيْمُونِ؛ الَّذِي وَفَّقَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَخْتِيَارِهِ،
 وَيَسَّرَهُ لِأَصْطِفَائِهِ وَإِيثَارِهِ؛ وَأَنَّهُ قَدْ نَاطَ أُمُورَهُ بِنَ لَمْ يَسْتَحْفَ تَقْيِيلَ حِمْلِهَا، وَنِيُوءُ
 بِبَاهِظٍ يَثْقُلُهَا؛ فَتَمَتَّعَ بِلَذِيذِ الْكَرَى، وَتَوَدَّعَ بَعْدَ السَّيْرِ وَالسَّرَى؛ وَأَلَمَ مِنَ الْإِمَامِ مُلْمٌ
 مُعْضِلٌ، وَحُدُوثٌ حَدِيثٌ مُشْكَلٌ. وَهَذِهِ نِعْمَةٌ تَعَمُّ الْخَاصَّةَ وَالْعَامَّةَ عُمُومَ الْغَيْثِ
 إِذَا هَمَعَ وَتَدَفَّقَ، وَتَشَمَّلَهُمْ شُمُولَ النَّهَارِ إِذَا لَمَعَ وَتَأَلَّقَ؛ وَهَمَّ أَوْلَى بِالْتَهِنَةِ فِيهَا
 وَشَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهَا.

وسيدنا الوزيرُ حَقِيقٌ بِأَنْ يُهْدَى إِلَيْهِ الدُّعَاءُ الْمَرْفُوعُ، وَالتَّضَرُّعُ الْمَسْمُوعُ؛ بِأَنْ
 يُهَيِّضَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِمَا حَمَلَهُ، وَيُعِينَهُ عَلَى مَا كَفَّلَهُ؛ وَيَتَوَلَّاهُ بِتَوْفِيقٍ يَثْقُبُ أُنُورَهُ،
 وَتَأْيِيدٍ يُطَبِّقُ غَرَارَهُ، وَتَسْدِيدٍ يَحْسِنُ آثَارَهُ؛ وَإِجْرَاءٍ مَا يَتَوَلَّاهُ عَلَى أَوْضَحِ سَبِيلِ
 وَأَقْصَدِهِ، وَأَرْجَحِ دَلِيلِ وَأَرْشَدِهِ؛ إِذْ لَا يَجُوزُ أَنْ يَهَيِّأَ بِمَالِهِ عِيَاؤَهُ وَكَلَّهُ، وَلِذَلِكَ
 صِلَاحُهُ كُلُّهُ. وَالْعَبْدُ لِيَسْأَلَ اللَّهَ ضَارِعًا لَدَيْهِ، بِاسْطَايِدِهِ إِلَيْهِ؛ فِي أَنْ يَقْبَلَ صَالِحَ
 أَدْعِيَتِهِ لِحَضْرَةِ الْوِزَارَةِ السَّامِيَةِ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ مَا أَحَلَّهُ فِي مَحَلِّهِ مِنْ رِيَاسَتِهَا، وَأَوْقَعَهُ

(١) الزيادة يقتضها المقام كما لا يخفى .

في موقعه من سياستها؛ دائباً لا يُنتزع، وخالدا لا يرتجع؛ وأن يؤيدها فيه بما يقضى له بالإحراز والتحويل، وبنيجه من الأبتزاز والتحويل؛ إنه سميع الدعاء، فعأل لما يشاء؛ إن شاء الله تعالى .

الصف الثاني - التهنئة بكفالة السلطنة :

وهذه نسخة من ذلك، كُتِبَ بها عن نائب الشام، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة، وهي بعد الألقاب :

لا زال دائراً بهنائه الفلك، مُنيرا بضيائه عدله وبشره الحلك؛ قريراً بحسن كفالته الملك شاهداً بفضل أسمائه وسماته الملك، مقسوماً بأمر الله نداءه وبأسه ليحياً من حى ويهلك من هلك؛ تقيلاً يُسأفه به التراب، ويُشاهد شرف مطلعته على السحاب .
 وينهى قيامه على قدم ولأءٍ ودعاء : هذا ينزل القلب وهذا يصعد إلى الأفق، ومقامه على بشرى وحمدٍ منهما الأيمن يحلى بوصفه النطق كما تحلى الأعطاف بالنطق؛ وأنه ورد مثال شريف على يد فلان يتضمن البشارة العامه، والمسرة التامه، والنعمة التي يعود سننا جبينها من كل عينٍ لأمه؛ وخبر الخير الذي حيت أزهاره المتضوعة ندمٍ مضر فأول ما بلغه منافس الشام شامه، بأن المواقف الشريفة - أعز الله تعالى سلطانها - قد فوضت إلى مولانا كفالة الإسلام وبنيه، وكفاية الملك بصالح مؤمنيه؛ ونيابة السلطنة الشريفة وما نسقت، وتدبير الممالك وما وسقت؛ فيالها بشرى آبتسمت لها ثغور البشر، ومسرة أستجلى سناها من آمن وبهت الذي كفر، وخبراً تلقت الأسماع بريده منشدة : قل وأعد بأطيب الخبر؛ هنالك أخذ المملوك حظّه من خير بشرى، ونصيبه من مسرة حمد بصباح طرسها المسرى؛ وحمد الله تعالى على أن أقام لسلطان البسيطة من يبسط العدل والإحسان لمنابه، ويقلد رعيتيه

عقود النعم إذا تقلد ما وراء سريره و بابه ، ومن إذا كفل سيفه ممالك الإسلام وثقت بالمعتم والسلامة ، وإذا كتب قلبه قالت ولا سيبا أخبار جند المسلمين : هكذا تكون العلامه ، وجهز المملوك هذه الخدمة نائبة عنه في تقبيل الأرض ، وعرض الهناء بين يدي من يسر المملوك بولائه اليوم ويرجو أن يسر به يوم العرض ، ولو وصف المملوك ما عنده من السرور والشوق لضاق الورق عن تسطير الواجب منه وضاق الوقت عن أداء الفرض ؛ والله تعالى يجدد مولانا ثمرات الفضل الواضح ، والرأى الراجح ؛ والتقدير الذى هو على ميزان الكواكب راجح ، وبتعنا كافة الممالك بدولة سلطانه الذى علم البيت الشريف أنه على الحقيقة الخلف الصالح .

وهذه نسخة تهئية لأمير جاندار بولاية إمرة جاندار ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، وهى بعد الألقاب :

أعلى الله منارها ومناها ، وخلد قبورها وإقبالها ، وأجزل من الغض الذى تناولته ثمرها وأسبح به ظلالها ؛ ولا زال فى سيفها وعصاها مارب للملك ، وفى بأسها وندائها مواقع للنجاة والهلك ؛ ولا برحت القضب من سيوف وغصون : هذه حاكمة بسعدها حكم الملك ؛ وهذه مسخرة فى تجريدها تسخير الفلك ؛ تقبيل محاص فى ولائه ودعائه ، مهنيا القلب مسرور بما يتجدد من مسرات مولانا وهنائيه ؛ وينهى أنه بلغه ما أفاضته الصدقات الشريفة على مولانا من المبرات ، وما جدت له من المسرات ؛ وأنها ضاعفت مزيد الإحسان إليه ، ودعته أمير جاندار ودت العصى النجومية لو قدمت نفسها بين يديه ؛ وأن المواقف الشريفة قرت به عينا وأقرت ، وأن الدولة القاهرة ألت عصاها إليه وأستقرت ؛ وكما سلمت إليه العصا فى السلم سلمت إليه السيف فى الحرب ، وكما قربته فى مواقف العدل والإحسان قربته فى مواقف الطعن والضرب ؛ فأخذ المملوك حظ من البشرى ، وأوجب على نفسه الفرح

وسجد لله شكراً ؛ وودّ لو حضر يُشافه بهذا الهناء الشامل ، ومثل قائماً لديه بحقّ
 التهنته القيام الحقيقي الكامل ؛ وحيث بُعدت داره ، ونأت عن العيان أخباره ؛
 فقد علم الله تعالى مواصلته بالأدعية الصالحة ليلاً ونهاراً ، والموالاة والمحبة التي يشهد
 بها الخاطر الكريم سرّاً وجهاراً ؛ والله تعالى المسؤل أن يزيد مولانا من فضله ،
 ويسره بمتجددات الخير الذي هو من أهله ؛ ويمتّعنا كافة الممالك بدوام سلطان هذه
 الدولة الذي شمل بظله ، وغنى بنصره عن نصله ؛ إن شاء الله تعالى .

الصف الثالث - التهنته بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنته من ذلك ، أوردها أبو الحسين بن سعد في ترسله ، وهي :

وهنا لله الأمير مواهبه الهنيئة ، وعطاياه السويبة ؛ وأدام تمكينه وقدرته ، وثبتت
 وطأته ، وحرس ماخوله ؛ وجعل ماهياً له من مؤتف الكرامة أيمن الأمور فاتحةً
 وأسعدّها عاقبه ؛ ووصل أيامه بأجل الولايه ، وأجل الكفايه ؛ حتى ينتهي [من]
 أستيفاء سعادات الحظوظ وحوز القسّم والآمال ، [إلى] الدرجة التي تليق بما أفرده
 الله به من الكمال ، وخصّه به من الفضل في جميع الخصال . ومن أفضل ما اعتدّ به
 من نعم الله على الأمير وبجميل رأيه ، ومحلى من طاعته وخدمته ؛ أنّي لا أخلو في كل
 وقت وحالٍ من بهجة تجدد لي ، ومسرّة تصل إليّ ، وتوفّر عليّ ، بما يسهله الأمير
 على يده من مستصعب الأمور ، ومستغلق الخطوب ؛ التي تبعد عنم يراوطة ،
 ويعمل الله بطوله وحوله للأمر القدره عليها ، ويتوحد بالكفاية فيها ؛ فينمو بجميل
 تديره ولطيف نظره ، ويطرّد بصاعد نجمه ويمن تقبّيته وعزّ دولته ؛ وذلك من
 فضل الله ونعمته ، يؤتي فضله من يشاء وهو ذو الفضل العظيم .

الصنف الرابع - التهنية بولاية الحجابة .

وقد كان لها في الزمن القديم المحل الوافر في الدولة وعلو الرتبة فيها .

من كلام الأقدمين :

تهنئة من إنشاء أبي الحسين بن سعد، كتبت بها إلى أبي بكر بن ياقوت حين ولي الحجابة بعد نكبة أصابته، وهي بعد الصدر :

وقد كانت أنفسنا معشر عبيد سيدنا وحملة إنعامه، ومؤمل أيامه، في هذه الأحوال التي تقد سيدنا منها فيما ابتلاه صبره، وأبان فيه قدره؛ وزاد العارف بفضلته نفوذا في البصيرة، وأعاد ذوى الإرتياب فيه إلى الثقة؛ فاستوى المنازع والمسلم، وأستوى العالم والمعاد - نعمة منه تعالى ذكره خصه بها وصانه عن مشاكلة النظير، ومزاحمة الأكفاء - على سبيل من القلق والإرتماض، والسقوط والإخفاض؛ جزعا من تلك الحال الغليظة، وإشفاقا على تلك النفس النفيسة؛ وخوفا على معالم البر والتقى، وبقيّة العلم والحجاء، وتاريخ الكرم والندى؛ أن يدرس منارها، وتطمس آثارها؛ ولولا ما من الله به من الخلاص منها وما منح بكرمه في عاقبتها، لأوشكت أن تأتي عليها وتُجلبها عن مواقيت آجالها؛ لكنه عظمت الأوه، وتقدست أسماءه؛ أتى بالأمن والفرج، بعد أستيلاء الكرب والوجل، وأنبأت أسباب الرجاء والأمل؛ فعرف سيدنا موقع الخيرة فيما قضاه، وميزله الخبيث من الطيب ممن عاداه وتولاه؛ وجعل النعمة التي جددها له فيما رده أمير المؤمنين إلى تديره من أمر داره ومملكته، وحراسة بيضة رعيته، مشتركة النفع والفائدة، مقسومة الخير والعائده؛ بين كافة الأمة فيما عم من المعدل، وشمل من المصلحة . ولاح من تباشير الخير، وأمارات البركة؛ في استقامة أمور البلاد، وصلاح أحوال العباد؛ وأفرد الله سيدنا بحظ من

المَوْهَبَةَ وَقَانِي فِيهِ عَلَى حُظُوظِ الْأَوْلِيَاءِ، وَزَادَنِي عَلَى سِهَامِ الشُّرَكَاءِ . وَأَنَا أَرْغَبُ إِلَى اللَّهِ فِي إِسْعَادِ سَيِّدِنَا بِمَا جَدَّدَهُ لَهُ ، وَتَعْرِيفِهِ بِرُكَّةٍ مُفْتَتِحَةٍ وَمِنْ خَاتِمَتِهِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ فِي مُبْتَدَأِهِ ، وَالسَّلَامَةُ فِي عُقْبَاهِ ؛ وَتَبْلِيغِهِ مِنْ حَظِّ مَأْمُولٍ ، وَخَيْرِ مَطْلُوبٍ ؛ وَحَالِ عَلَيْهِ ، وَرُتْبَةِ سَنِيَّةٍ ؛ أَفْضَلَ مَا بَلَغَ أَحَدًا آخِضَهُ بِفَضْلِهِ ، وَأَصْطَفَاهُ مِنْ خَلْقِهِ ، إِنَّهُ جَوَادٌ مَاجِدٌ . فَإِنْ رَأَى سَيِّدُنَا أَنْ يَتَطَوَّلَ بِإِجْرَاءِ عِبْدِهِ عَلَى كَرِيمِ عَادَتِهِ فِي تَشْرِيفِهِ بِمَكَاتِبَتِهِ ، وَتَصْرِيفِهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، مُحَقِّقًا بِذَلِكَ أَمَلَهُ ، وَزَائِدًا فِي نِعْمِهِ عِنْدَهُ ، فَعَلَّ إِنَّ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

تهنئةٌ أُخرى من ذلك ، من إنشاءِ علي بن خَلْفٍ أوردَهَا في "موادِّ البيان" وهي :

إِنَّمَا يُهَيِّئُ بِالْوِلَايَةِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْحَاجِبِ الْجَلِيلِ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ - مَنْ
 أَنْبَسَتْ إِلَيْهَا يَدُهُ بَعْدَ أَنْقِبَاضٍ ، وَأَرْتَفَعَ لَهَا قَدْرُهُ مِنْ أَنْخِفَاضٍ ؛ وَأَوْجَدَتْهُ الطَّرِيقَ
 إِلَى إِحْرَازِ جَزِيلِ الْأَجْرِ وَالْجَزَاءِ ، وَأَكْتَنَازِ جَمِيلِ الْبُرْكَاتِ وَالشَّنَاءِ ؛ وَأَفْضَتْ بِهِ إِلَى
 أَنْتِصَاحِ السُّلْطَانِ ، وَأَنْتِفَاحِ الْأَعْوَانِ ؛ فَأَمَّا مَنْ جَعَلَ اللَّهُ يَدَهُ الطُّوْلَى ، وَقَدْرَهُ الْأَعْلَى ،
 وَرِيَّاسَتَهُ حَاصِلَةً فِي نَفْسِهِ وَجَوْهَرَهُ ، وَسِيَادَتَهُ مُجْتَنِّئَةً مِنْ سِنِّهِ وَعُضْرَهُ ؛ فَالْأَوْلَى -
 إِذَا اسْتُكْفِيَ رَغْبَةً فِي أَنْصَافِهِ وَعَدْلَهُ ، وَحَاجَةً إِلَى سَدَادِهِ وَفَضْلِهِ ؛ وَأَفْتَقَرًا إِلَى
 فَضْلِ سِيرَتِهِ ، وَأَضْطَرَارًا إِلَى فَاضِلِ سِيَاسَتِهِ - أَنْ تُهَيِّئَ الرِّعْيَةَ بَوْلَايَتِهِ ، وَتُسِّرَ الْخَاصَّةَ
 وَالْعَامَّةَ بِمَا عُدِّقَ مِنْ أُمُورِهَا بِكِفَايَتِهِ ؛ وَغَيْرَ يَدِيعِ رِبْطِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَاجِبِ
 الْجَلِيلِ أَمْرٍ حِجَابَتِهِ ، وَنَصْبِهِ لِلزَّرْحَمَةِ عَنْ حَضْرَتِهِ ، وَجَعْلِهِ الْوَسِيطَ وَالسَّفِيرَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ
 خَوَاصِّ دَوْلَتِهِ ، وَقَدِ وَثِقَ يُؤْمِنُ تَقْيِينَتَهُ ، وَأَطَّلَعَ عَلَى خُلُوصِ نِيَّتِهِ ، وَسَكَنَ إِلَى صِدْقِ
 طَاعَتِهِ ؛ وَعَرَفَ طَهَارَةَ جَبِيهِ ، وَسَلَامَةَ غَيْبِهِ ؛ وَصِدْقَ هُجَّتِهِ ، وَحَصَافَةَ أَمَانَتِهِ ؛

(١) في الأصول ارباط ولم تقف على فعله فيما بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) أي الدفع والذب يقال زحمته عنه أي دفعته انظر المصباح .

واعْتِمَادَهُ لِلْحَقِّ فِيمَا يُورِدُ وَيُصْدِرُ ، وَيُنْهَى وَيُجِيبُ ؛ وَأَبْتَلَاهُ فَعَرَفَ طِيبَ طَعْمَتِهِ ، وَخِفَةَ وَطْأَتِهِ ؛ وَرَأْفَتَهُ بِالضَّعِيفِ الْمَهْضُومِ ، وَغَاظَتَهُ عَلَى الْعَسُوفِ الظُّلُومِ ؛ [فَرَأَى] أَنْ يُجِلَّهُ مَحَلًّا مَنْ لَا يَغِيبُ عَمَّا شَهِدَهُ ، وَلَا يَرْتَابُ بِمَا سَمِعَهُ ، عَلَى أَنَّيِّ الْمَهْنَأِ بِكُلِّ نِعْمَةٍ يَجِدُهَا اللَّهُ لَدَيْهِ ، وَسَعَادَةٍ يُسْبِغُهَا عَلَيْهِ ؛ [وَلَوْ أَنْصَفْتُ] لَسَلَكْتُ مِنَ الصَّوَابِ سَنَاءً ، وَأَعْتَقَدْتُ جَمِيلًا حَسَنًا : لَا سْتَشْعَارِي بِالْأَنْفَسِ مِنْ لَبُوسِ سَيَادَتِهِ ، وَتَحَلَّى بِالْأَنْصَحِ مِنْ عُقُودِ رِيَاسَتِهِ ؛ وَإِذَا كَانَتْ رِعِيَّتُهُ أَجْدَرَ أَنْ تُهَنَّأَ بِوِلَايَتِهِ ، وَتَعْرِفَ قَدْرَ مَا لَهَا مِنَ الْحِظِّ فِي نَظَرِهِ ؛ فَأَنَا أَعْدِلُ مِنْ هُنَائِهِ إِلَى الدُّعَاءِ لَهُ . بِأَنْ يَبَارِكَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ فِيمَا قَلَدَهُ ، وَيُوقِّعَهُ فِيمَا وَّلَاهُ وَيُسَدِّدَهُ ؛ وَيُلْهِمَهُ أَدْخَالَ الثَّوَابِ وَالْأَجْرِ ، وَأَكْتَنَازَ الْحَمْدِ وَالشُّكْرِ ؛ وَالْهِدَايَةَ إِلَى سَنَنِ الْأَسْتِقَامَةِ ، وَمَا عَادَ بِمَجْبَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَةِ ؛ وَإِنْهَاضَهُ فِي خِدْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْعَمَلِ مِنْ طَاعَتِهِ بِمَا يُزَلَّفُ فِي الدُّنْيَا وَالدِّينِ ؛ وَاللَّهُ يُسْتَجِيبُ فِي الْحَاجِبِ الْجَلِيلِ هَذَا الدُّعَاءَ وَيَسْمَعُهُ ، وَيَتَقَبَّلُهُ وَيَرْفَعُهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصفحة الخامسة - التهنئة بولاية القضاء .

التهنئة بذلك من كلام الأقدمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء علي بن خلف ، أوردتها في "مواد البيان" وهي :
 أَوْلَى الْمَنْحِ أَنْ يُتَفَاوَضَ شُكْرُهَا وَالتَّحَدُّثُ بِهَا ، وَيُتَقَارَضَ حَمْدُهَا وَالْقِيَامُ بِوَاجِبِهَا ؛
 نِعْمَةٌ شَمِلَتْ عِطَافُهَا ، وَعَمَّتْ أَطَافُهَا ؛ وَأَشْتَرَكِ النَّاسُ فِيهَا أَشْتَرَكَ الْعُمُومِ ، وَحَلَّتْ
 مِنْهُمْ فِي النِّعَمِ مَحَلَّ الْغَيْثِ السَّجُومِ . وَهَذِهِ صُورَةُ النِّعْمَةِ فِي وِلَايَةِ قَاضِي الْقَضَاةِ
 - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - لَمَّا تَنَزَّهَتْ مِنْ إِثْبَاتِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ ، وَأَنْحَسَارِ الْجَوْرِ
 وَالْإِبْخَافِ ؛ وَأَعْتَلَاءِ الْحَقِّ وَظُهُورِهِ ، وَأَخْتِلَاءِ الْبَاطِلِ وَثُبُورِهِ ؛ وَعِزِّ الْمَظْلُومِ وَإِدَالَتِهِ ،
 وَذُلِّ الظُّلُومِ وَإِدَالَتِهِ ؛ وَتَمَكِينِ الْمَضْعُوفِ وَأَقْتِدَارِهِ ، وَأَنْخِزَالِ الْعَسُوفِ وَأَقْتِسَارِهِ .

وإن هَنَأَهُ حرس الله علاه بموهبة أتى بارقها بجميل الثناء ، وجزيل الجزاء ؛ قد ناء من تحملها بياض الشيء ومتعبه ، وقام من سئها بكل الأدب ومنصبه ، عدلت عن الأمثل وضللت عن الطريقة المثلى ؛ لكنني أهنته خصوصا بالمواهب المختصة به اختصاص أطواق الحمايم بأعناقها - والمناقب المطيفة به إطفاء كواكب السماء بنطاقها ، في أن ألف الله القلوب المتباينة على الإقرار بفضله ، وجمع الأفتدة المتنافية على الاعتراف بقصور كل محل عن محله ، وجعل كل نعمة تُسبغ عليه ، ومِنَّة تُسدى إليه ؛ موافقة الآمال والأمانى ، مُفضية للبشائر والتهاينى ؛ لأن من أحب الحق وآثره ، وليس الصدق وأستشعره ؛ ينطق بلسان الإرادة والاختيار ، ومن تركهما وقلاهما ، وخلعهما وألقاهما ، ينطق بلسان الافتقار والأضطرار - والخصائص التي هو فيها نسيح وحده ، وعطر يومه وغده - والمحاسن التي هي أناسي عيون الزمان ، ومصايح أعيان الحسن والإحسان . ثم أعود فأهنته عموما بالنعم المشتركة الشمول ، الفضفاضة الذبول ؛ التي أقرت القضاء في نصابه ، وأعدت الحكم إلى وطنه بعد تجعته وأعتراه ؛ وأعلتهما في الرتبة الفاضله ، وقدعت بهما أنف الذروة العاليه . وأرفع يدي إلى الله تعالى داعيا في إمداد قاضي القضاة بتوفيق يسد مراميّه ، ويرشد مساعيّه ؛ ويهدب آراءه ويصححها ، ويبلغ أحكامه ويوضحها ؛ ويحلّد عليه النعمة خلودها على الشاكرين ، ويصّر بحسن العقبي في الدنيا والدين ؛ وهو سبحانه يتقبل ذلك ويرفعه ، إن شاء الله تعالى .

التهنئة بذلك ، من كلام أهل العصر :

تهنئة من ذلك : أوردتها الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في كتابه "زهر الربيع في الترسل البديع" وهي :

(١) في الأصل ويفخمها وهي تصحيف لا يناسب المقام .

أَفْعَدَ اللهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَشَكَرَ إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ ؛ وَخَلَدَهُ نَاصِرًا لِلشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةِ
وَأَدَامَهُ ، وَجَدَّدَ سَعْدَهُ وَأَسْعَدَ أَيَّامَهُ ؛ وَجَعَلَهُ الْمُسْتَرِشِدَ وَالْمُقْتَفَى بِأَمْرِ اللهِ وَالرَّاشِدَ
وَالْمُسْتَنْجِدَ وَالْمُسْتَنْصِرَ وَالنَّاصِرَ وَالْعَاضِدَ ، وَالْحَاكِمَ الْقَائِمَ بِأَمْرِ اللهِ (١)

من الفُضَاةِ الثَّلَاثَةِ الْوَاحِدِ .

الْمَمْلُوكُ يَقْبَلُ الْيَدَ الْعَالِيَةَ تَبْرُكًا بِتَقْبِيلِهَا ، وَأَدَاءً لِرِجَالِهَا ، وَأَدَاءً لِرِجَالِهَا ، وَيَهْتَبُ
الْمَوْلَى بِمَا خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى مِنْ مُضَاعَفَةِ نَفَاذِ كَلِمَتِهِ وَرَفْعِ مَرْتَبِهِ ، وَإِمَاءِ أَحْكَامِهِ
الشَّرِيفَةِ وَأَفْضَلِيَّتِهِ ، وَتَقْلِيدِهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ ، وَتَنْفِيزِ أَوَامِرِهِ فِي الْخَاصِّ وَالْعَامِ ؛ وَيَهْتَبُ
بِالْمَوْلَى مَنْ رُدَّتْ أُمُورُهُ إِلَيْهِ ، وَعُوِّلَ فِي مَلَا حِظَةِ مَصَالِحِهِ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ مَوْلَانَا مَازَالَ
بِالْعِلْمِ وَالْعَمَلِ مَشْهُورًا ، وَسَعِيهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ سَعْيًا مُشْكُورًا ، وَيَقْظَةُ مَوْلَانَا
جَدِيرَةٌ بِزِيَادَةِ الْإِهْتِمَامِ ، وَالْأَحْتِيَاظِ التَّامِ ؛ بِمَلَا حِظَةِ طَلِبَةِ الْعِلْمِ وَالْمُسْتَعْلِينَ ، وَالْفُقَهَاءِ
وَالْمُدْرِسِينَ ؛ وَسَبْرِ أَحْوَالِ التَّوَابِ ، وَأَنْ لَا يَكْفِيَهُ الْإِعْتَادُ عَلَى حَسَنِ الْبِرَّةِ وَطَهَارَةِ
الْأَثْوَابِ ؛ بَلْ يُعْنَى فِي الْأَطْلَاعِ عَلَى مَا يَعْتَمِدُونَهُ النَّظَرَ ، وَيُلَاحِظُ كَلَّا مِنْهُمْ إِنْ غَابَ
عَنْ مَجْلِسِهِ أَوْ حَضَرَ ؛ فَمَنْ رَأَاهُ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلَا يَقْرَبُ
إِلَّا بِالتِّي هِيَ أَحْسَنُ مَالِ الْيَتِيمِ ؛ فَيَحَقِّقُ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ أَمَلًا ، وَلَا يُضَيِّعُ أُجْرَ مَنْ
أَحْسَنَ عَمَلًا ؛ حَرَسَ اللهُ الْمَوْلَى وَمَتَّعَ بِحَيَاتِهِ ، وَأَعَادَ عَلَى الْكَافَّةِ بَرَكَةَ صِيَامِهِ الْمَقْبُولِ
وَصَلَاتِهِ ؛ وَنَفَعَ الْإِسْلَامَ بِمُسْتَجَابِ دَعَوَاتِهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

الصنّف السادس - التّهنئة بولاية الدعوة على مذهب الشيعة .

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة في الدولة الفاطمية، بالديار المصرية،
ذكر موضوعها وعلوّ رتبها عندهم؛ وإنما ذكرناها حفظاً للأصل ولأحتمال وقوعها.

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله حتى يكون من الفضاة الخ .

تهنئةٌ من ذلك : من إنشاء علي بن خلف ، أوردتها في "مواد البيان" وهي :

أطال الله بقاء داعي الدعوة لصباح من الرحمة يُبليجُه ، وطريق من الحكمة يُظهِرُ
 بيانه ، وليل من السنة يترع طيلسانه ، وحرسه على الإيمان يُجَدِّدُ ما أُخْلِقَ من بروده ،
 ويُنظِّمُ ما وهى من عقوده ؛ وعلى المؤمنين يفتح لهم أبواب الرِّشاد ، ويهيئ إليهم سماءَ
 الإفاة والإمداد . ولا زالت الحقائق مقصودةً منه بالميزة التي رَسَّخَتْه لحفظ مبانيها ،
 وأهله للعِبارة عن معانيها ؛ حتى يرقمها في الأخلاق ، ويمحو بهارِسوم العناد ، وينشر
 بُسْرَها في الآفاق والبلاد . أنا أعدل عن هَنا دَاعي الدُعاة - أطال الله بقاءه -
 بمأدق به من أمر الدُّعوة الهاديَّة العلوِيَّة ، ونُصِبَ له من فرِّ مضاحك المُشكلات
 عن أسرار الحقائق الإلهِيَّة ، والترجمة عن غوامض الحِكم الشرعيَّة ، والتوقيف على
 مَوارِدِ الهدى ومشارعه ، والإرشاد إلى مشارق الحق ومطالعِه ؛ إلى هَنا الدُّعوة
 وأهلها بما قيضه الله تعالى لهم من محلِّه الرفيع الذي ألقه العقل نحو هذا الكمال ،
 ووطأ له مدارج الترقى والاتِّصال ؛ فشَفَّتْ نفسه وشرفَتْ ، وتطلَّعت على عالم الملكوت
 وأشرفَتْ ؛ وجنى بيد التَّبصُّرة ثمار الحِكمه ، وأستنزَل بمنزِلِ المَوادِ غِيوْثِ النعمه ؛
 وجرَّد الضَّيَاء من الظلام ، تجرِّد الأرواح من الأجسام إلى دار السلام ؛ وأسَمَّتْ
 بلطيفته موائد علوم عالم اللطافه ؛ وأمدَّ بمركَّب ألقاظها تحاكم الكافه ، وحلَّ في الغبراء
 محلَّ الغراء في الخضراء ، إن أوضحت سبيل سائرٍ يجنب طريق جائرٍ توصل بنزوعها
 غاشية إظلام ، حُسِرَ عن الحق قناع إبهام ، أوفعلت في الجواهر زيادة وثمرة (؟)
 أخذت تعاديا (؟) فأدلته للهم العاملة شرفاً وسموا : لما أعلت بذلك من قدرها وقدرهم ،
 وطيب من ذكرها وذكركم ؛ وأعطف إلى الدعاء لداعي الدُّعاة بأن يجعل الله تعالى

ماخُوْلَه من هذه الرِّياسَة رَاهِنًا لَا يُرْتَجَع ، وما نُؤَلِه من هذه السِّيادَة مُسْتَقْرًا لَا يُنْتَرَع ؛
وَأَنْ يُؤَيِّدَه بِالتَّوْفِيقِ ، وَيُعَدِّ لَهُ مَنَاجِحَ التَّحْقِيقِ ؛ وَيُطَلِّقَ لِسَانَه بِالْبَيَانِ ، وَيُمِدُّهُ بِرُوحِ
مِنَه فِي نُصْرَةِ الْإِيمَانِ ؛ وَقَدْ حَتَمَ اللهُ تَعَالَى بِاجَابَةِ دَاعِيهِ ، وَلَا سِيَمَا دَاعِيَ الدُّعَاةِ
[فَإِنَّهُ] جَدِيرٌ بِأَنْ يُجَابَ الدُّعَاءُ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

قال في " موادّ البيان " : وإنما أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ ، لأن ألفاظ
هذا الدّاعي يجب أن تكون مشتقة من ألفاظ الدعوة ، مناسبة لمذهبها ؛ ولولا ذلك
لأغنى عنه مثال تهنته قاضي القضاة ؛ ومن تأملهما عرف ما بينهما من الفرقان .
الصنف السابع — التهنته بالتقدمة على الرجال .

رُقْعَةٌ مِنْ ذَلِكَ :

[من حلّ] محلّ سيدي — أطال الله بقاءه — من السُّؤدَدِ الناطقِ الشّواهدِ ،
المتنظّمِ المَعَاقِدِ ؛ الْمُتَضَارِعِ الطَّارِفِ والتَّالِدِ ، الْمُتَنَقِّلِ فِي الْوَالِدِ عَنِ الْوَالِدِ — وَالْمُجِدِّ الَّذِي
قَصَرَ عَنِ مُطَاوَلَتِهِ الطَّرَازُ الْأَوَّلِ ، وَتَطَاوَلَهُ الْإِنْعَامُ الْمُخَوَّلِ ؛ وَحَازَ مَاحَازَهَ مِنْ شَرَفِ
الرِّياسَة ، وَفَضَلَ السِّيَاسَة ، وَالْأَسْتِقْلَالَ بِمُحَقَّقِ مَاتَوْلَاهُ ، وَتَسَدِيدِ مَاتَوْلَهُ وَأَسْتَكْفَاهُ ؛
فَتَشَوَّقَتْ إِلَيْهِ أَعَالَى الرَّتَبِ ، وَتَشَوَّقَتْ إِلَيْهِ الْمَنَازِلُ السَّنِيَّةُ مِنْ كَثَبِ — خَطْبَتِهِ الْعُلَا
سَائِقَةً عَنْ مَهْرَهَا ، وَتَطَامَنَتْ لَهُ مَوْطِنَةٌ ظَهَرَهَا ؛ فَلَمْ يَكْثُرْ لَهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ عَلَى [أَهْلِ]
عَصْرِهِ فَضْلاً عَنِ قَبِيلَتِهِ ، وَيَتَأَمَّرَ عَلَى جَمِيعِ نَوْعِهِ فَضْلاً عَنِ طَائِفَتِهِ : لِأَنَّهُ الْمُتَقَدِّمُ عَلَيْهِمْ
بِالرِّتْبَةِ وَالطَّبَعِ ، لَا بِالْأَصْطِلَاحِ وَالْوَضْعِ ؛ فَشَكَرَ الْمَمْلُوكُ اللهُ تَعَالَى عَلَى بُرُوعِ هَلَالِهِ
وَأِبْرَاقِهِ ، وَطُلُوعِهِ لِمِيقَاتِ الْعِزِّ وَتَتَفَاقِهِ ؛ وَسَأَلَهُ أَنْ يُجْعَلَ مَا أَقْرَ الْعَيُونَ مِنْ سِيَادَتِهِ ،
وَحَقِّقَ الظُّنُونَ فِي سَعَادَتِهِ ؛ خَالِدًا رَاهِنًا ، وَمُقِيمًا قَاطِنًا ؛ وَأَنْ يَزِيدَهُ مِنَ السَّعَادَةِ ،
وَيُرْقِيَهُ كُلَّ يَوْمٍ فِي دَرَجِ السِّيَادَةِ : لِتَكُونَ هَذِهِ الرِّتْبَةُ عَلَى أَمْتِنَاعِ مَرْقَبِهَا ، وَأَرْتِفَاعِ

مركبها ؛ أول درجة تحطأها ، ومنزلة فرعها وعلاها ؛ ثم لا يزال راقيا فيما يتلوها حتى
يحتذى بكواكب الجوزاء ، ويطُحودارة على الحلفاء ، مهتأ غير منغص ، ومزيدا غير
منقص ؛ والله تعالى يجب هذه الأدعية الواقعة مواقعها ، والمستحقات الموضوعة
مواضعها .

الصف الثامن - التهئة بولاية الديوان .

رُقعة من ذلك :

وَيُهَيِّى أَنْ مِنْ حَلِّ مَحَلِّ مَوْلَانَا - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَهُ رَافِلًا فِي لُبُوسِ السَّعَادَةِ ،
مَتَحَفَّلًا بِسُلُوسِ السِّيَادَةِ ؛ مَتَنَقَّلًا فِي رُتَبِ الْمَجْدِ ، مَتَوَقَّلًا إِلَى غَدَنِ الْحَدِّ ؛ مَسْتَوِيًّا
عَلَى شِعَابِ الْعُلَا ، مَتَمَكِّنًا مِنْ رِقَابِ الْأَعْدَاءِ - فِي الْإِسْتِقْلَالِ وَالْإِضْطِلَاعِ ، وَالْمَعْرِفَةِ
بِحَقُوقِ الْإِضْطِفَاءِ وَالْأِضْطِنَاعِ ؛ وَرَفْعَةَ مَذْهَبِهِ عَلَى الْكِفَايَةِ وَالْغِنَاءِ ، وَالنَهْوِضِ بِثَقِيلِ
الْأَعْبَاءِ ؛ خَطْبَتَهُ التَّصَرُّفَاتِ حَامِلَةً عَنْهُ صَدَاقَهَا ، وَتَشَوُّفَتِهِ الْوَلَايَاتِ مُدَّةً إِلَيْهِ أَعْنَاقَهَا ؛
وَكَانَتْ وَاضِحَةً فِي مَخَائِلِ فَضْلِهِ ، لَا تُحِجُّ فِي دَلَائِلِ نُبُلِهِ ، مَكْتُوبَةٌ فِي صَفْحَاتِ الْأَقْدَارِ ،
مَرْقُومَةٌ بِسَوَادِ اللَّيْلِ عَلَى بَيَاضِ النَّهَارِ ؛ فَحِذْلِ الْمَمْلُوكِ بِذَلِكَ ، جَدَلِ الْحَمِيمِ الْمُشَارِكِ ،
وَسُرِّبِهِ سُرُورِ الْخَلِيطِ الْمُشَابِكِ ؛ وَبَلِ الْأَنَّ الْحَقِّ غَالِبِ الْحِظِّ فَعْلَبِهِ ، وَالْوَاجِبِ سَالِبِ الْمُحْكِنِ
فَسَلْبِهِ ؛ وَأَنَاخِ رِكَابِ الرِّيَاسَةِ فِي الْمَحَلِّ الْخِصْبِ الَّذِي يَجْمُدُهُ وَيَرْضِيهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَنْفَضِّلُ عَلَى رِعْيَتِهِ ، الْمَتَوَطِّنِينَ بِفَاضِلِ سِيَاسَتِهِ ، مِنْ حِبَائِهِ وَلَطْفِهِ ، وَرَأْفَتِهِ وَعَطْفِهِ ، بِمَا
يُسَيِّغُ عَلَيْهِمْ ظِلَالِ الْعَدْلِ ، وَيَقْلِّصُ عَنْهُمْ سُدُولَ الْجُورِ وَالْحَيْفِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وكتبتُ لَمَقْرَ البَدْرِ مُحَمَّدِ الكَلِستَانِي الشَّهيرِ بالسَّرايِ مهتِّئًا له باستقراره
في كِتابَةِ السَّرِّ الشَّرِيفِ بالديارِ المِصرِيَةِ في الدِولَةِ الظَاهِرِيَةِ « برقوق » في سلطته الأولى :

رَفَعْتَ لِلْمَجْدِ مَدًّا وُلِّيتَ بِنِيَانًا * وَشَدَّتْ لِلْفَضْلِ بَعْدَ الوَهْنِ أَرْكَانًا !
وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ فِي زَهْوٍ وَمَالِكُهُ * يَمِيسُ مُحِبًّا ، وَهَنَّا التَّخْتُ إِوَانًا !
قَدِمْتَ مِصْرًا فَامْسَتْ مِنْكَ فِي فَرِهِ * تَهَزُّ بِالْبِشْرِ مِنْ لُفْيَاكِ أُرْدَانًا !
وَعُودِ الرَّائِلِ مَدًّا وَافِيَتِ مُبْتَهَجًا * وَقَدِ رَمَى الصَّدَّ وَالْإِبْعَادُ جِيحَانًا !
أَلْفَاظُكَ الْغُرُصَارَتِ لِلرُّوِيِّ مَثَلًا * وَكُتِبُكَ الزَّهْرُ بَعْدَ اللَّثْمِ تَيْجَانًا !
تَفُوقُ قُسًّا إِذَا تَبَدُّو فِصَاحَتِهَا * وَتَفْضُحُ الْمِصْقَعَ الْمَلَّاقَ سَجَبَانًا !
قَدِ انْحَمَتْ فِي مَجَازَاتِ بِلَاغَتِهَا * تُرَكَّا وَرُومًا وَبَعْدَ الْفُرْسِ عُربَانًا !
كُلُّ الْمَوَالِي إِذَا وَلَّوْا فَلَا أَسْفُ * إِذْ أَنْتَ بَاقِي ، وَيَسْقِي اللهُ مَوْلَانَا !
مَوْلَى بِهِ قَدْ تَشَرَّفْنَا وَجَمَّانَا * بِوَجْهِهِ ، وَلِذِكْرِ الْقَوْمِ أَنْسَانَا !

الصفحة التاسع - التهئة بولاية عمل .

أبو الفرج البغاء :

عَرَّفَ اللهُ سَيِّدِي بَرَكَةَ هَذَا الْعَمَلِ الْجَلِيلِ ، بِنَبِيلِ نَظَرِهِ الْجَمِيلِ ، وَحَمِيدِ أَثَرِهِ
الْمَحْرُوسِ ؛ وَتَنَاصَرُ سِيَاسَتُهُ الشَّرِيفَةُ بِسِمَةِ رِيَاسَتِهِ ؛ وَوَفَّقَ رِعِيَتَهُ لَشُكْرِ مَاوَلِيهَا مِنْ
فَائِضِ عَدْلِهِ وَمُحَمَّدِ فِعْلِهِ ؛ فَالْأَعْمَالُ مِنْهُ - أَيْدِي اللهِ تَعَالَى - بِالْتَهْنَةِ أَوْلَى ، وَبِالتَّطَاوُلِ
بِمَا شَمِلَهَا مِنْ بَرَكَاتِ تَدْبِيرِهِ أَحْرَى ؛ وَاللهُ بِكَرَمِهِ يَسْمَعُ فِيهِ صَالِحَ الدَّعَاءِ ، وَيَبْلِغُهُ أَبْلَغَ
مُدَدِ الْبَقَاءِ ، فِي أَسْبَغِ نِعْمِهِ ، وَأَرْفَعِ مَنَزِلِهِ ، وَأُصْدَقِ أَمْنِيَّتِهِ ، وَأُنْجِحِ طَلِبَةَ بَنِيَّتِهِ .

وله في مثله :

لولا ما يَشْرِكُ التَّهَانِيَّ من بركات الدعاء الذي أرجو أن يسمعَ اللهُ فيك صالحه ،
ويُجِيبَ أحسنه ، لأجلناك عن التَّهِنَّةِ بمسجِدِ الأعمال ، ومستحدتِ الولايات ،
لقصورها عن استحقاك ، وأنحطاطها وإن جلت عن أيسر واجباتك ؛ وتعجلها
بمأثور كفايتك ، وبركاتِ نظرك ، ومواقعِ إنصافك . فهناك اللهُ نعمةَ الفضل التي
الولايةُ أصغرُ آلتها ، والرياسةُ بعضُ صفاتها ؛ ولا أخلاك من موهبةٍ مُجدَّده ،
ومنحةٍ مُؤبَّده .

وله في مثله :

سیدی - أيدَه اللهُ - أرفعُ قدرًا ، وأنبهُ ذكرا ؛ وأعظمُ نبلا ، وأشهرُ فضلا ؛ من
أن تُهِنَّه بولاية وإنَّ جَلَّ خطرُها ، وعَظُمَ قدرُها ؛ لأنَّ الواجبَ تهنئةُ الأعمالِ بفائض
عَدله ، والرعيةُ بمحمودِ فعله ، والأقاليمُ بآثارِ رياسته ، والولاياتُ بسِماتِ سياسته ؛
فعرَفه اللهُ يَمَنَ ما تولىه ، ورعاه في سائر ما استرعاه ؛ ولا أخلاه من التوفيقِ فيما يُعانيه ،
والتسديدِ فيما يُيرمه ويُمضيه .

الإجابة عن التَّهَانِيَّ بالولايات

قال في "مواد البيان" : هذه الكتب إذا وردت ، وجبَ على الحبيب أن يستنبط
من كل كتاب منها المعنى الذي يُجيب به . قال : والطريقة المستعملة فيها أن كتاب
الحبيب يجب أن يبنى على أن المهنيَّ قسيمٌ في النعمة المتجدده ، وشريكٌ في المنزلة
المستحدثة ، وأن الحظَّ الأوفر فيما ناله المهنيُّ للمهنيِّ وببركة دُعائه ، وتوقعه لما يردُّ

من حاجاته وتبعاته لينفدّها ، نازلا على أخلص مخالصته ، وعاملا بشروط مودّته ؛ ونحو هذا مما يضارعه . فإن كان المحيّب رئيسا أو مرءوسا ، وجب أن يرتّب الخطاب على ما تقتضيه رتبة كلّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردت المشرفة الكريمة ، أتم الله على مرسلها نعمته ، وأعلى قدره ومنزله ؛ وجعل جناح العدا مخفوضا ، وعيشه في دعة وخفض ، وقدره للتمييز مرفوعا ، وعدوه للتصير في آحطاط وخفض ؛ فتلقاها بايمين ، وظنها الريح الجنوب لما تجلته من رقة الحين ؛ وعلم ما أبداه فيها من تفضلاته ، وأعرّف بالتصير عن مجاراته ومجاراته ؛ فشتت سمعه بالفاظ كأنهن اللؤلؤ والمرجان ، وبيّنت البون الذي بينه وبين غيره تلك الفصاحة والبيان ؛ وقابل أيديّه بشكر لسانه ، وجازاه بحسن الدعاء عن إحسانه ؛ ولا يقوم بشكر فضله اللسان ولا الجئان ، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟ .

فأما ما أشار إليه من الهناء بالمكان الذي تولاه ، وأبداه من المحبة التي اوجبت عليه أن يتوالاه ؛ فالله تعالى يُعينه على ما هو بصددّه ، ويجعل الحق والخير جارين على لسانه ويده ؛ ويرزقه أتباع محكم كتابه وسنة رسوله ؛ ويحصل له من الرشد غاية سؤله ومأموله ؛ فإن هذه الولاية صعبة المراس ، وجوادها كثير الشئاس ؛ لكن بركات المولى يحصل من الله الأرب ، ويسهل لأوليائه القصد والإسعاد والطلب ؛ أدام الله ظلّ المولى وأسعده ، وأوضح لديه طريق السعادة ومهده ؛ ومنتحه من الألطاف الخفية أفضل ما عوده ؛ بمنه وكرمه .

الضرب الثاني

(التهنئة بكرامة السلطان وأجوبتها)

وفيه ثلاثة أصناف :

الصنف الاول - التهنئة بالإنعام والمزيد ولبس الخلع وغير ذلك .

من كلام الأقدمين :

ويُنهي أنه اتَّصلَ بالملوك ما أهل مولانا السلطان مؤلانا له : من المحلِّ السنيّ ،
والمكانِ العليّ ، الذي لم يزلْ موقوفاً عليه ، متشوّفاً إليه ، نافرّاً عن كلّ خاطبٍ سواه ،
جامحاً على كلّ راكبٍ إلاّ إياه ؛ فأقرّ الله عينَ الملوكِ بذلكِ لصدّق ظنه ، وعلم أنّ
ماأصاره الله تعالى إليه من هذه المنزلةِ المنيّفة ، والرّتبة الشريفة ؛ مدرّجةٌ تُفضي
إلى مدارج ، ومعرجةٌ تنتهي إلى معارج ؛ والله تعالى يزيدُ معاليه علواً ، ويضاعف
محله سُموّاً ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

ومنه - ويُنهي أنه اتَّصلَ بالملوكِ نبأُ الموهبةِ المتجدّدةِ لديه ، والنعمَةِ المُسبِغةِ
عليه ؛ وما اختصّه به مولانا السلطانُ من الأَصْطِفَاءِ والإيثَارِ ، والأجْتِنَاءِ والإِخْتِيَارِ ؛
وتقديمه للرّتبة الأثيرة ، والإنافةِ إلى المنزلةِ الخطيّرة ؛ فسرّ الملوكِ للرّئاسة إذ أحلّها
الله تعالى في محلّها ، وأنزلها على أهلها ؛ ووصلها بكفئتها وكافئها ، وسلّم قوسها إلى راميتها ؛
والله تعالى يجعلُ هذه الرتبةَ أوّلَ مرّقةٍ من مرّاقِ الآمالِ ، ومكبرِ الرّتبِ التي يقرّعها
من رتبِ الجلال ؛ إن شاء الله تعالى .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

أدام الله أنصاره، وجعل التقوى شعاره؛ وألبسه من الحماد أكرم حله، وتوله من المكارم أحمد خله؛ ولا زالت الخلع تتشرف إذا أفيضت عليه، والمدائح تُستطاب بذكره لاسمياً إذا أنشئت بين يديه .

الخادمُ يُنهي إلى علم المولى أنه اتصل به خبر أهدى إليه سُوراً، ومنحه بهجةً وجُوراً : وهو ما أنعم به المولى السلطانُ خلد الله سلطانه، وضاعف إحسانه : من تشريفه بخلعته ، وما أسبغه عليه من وارفِ ظلّه ووافرِ نعمته ، وأبداه من عناية به بالمولى ومحبتّه ؛ وقد حصل له من المسرة ما أجذله ، وبسط في مضاعفة سعد المولى أمله ؛ فإنه بلغه أن هذه الخالعة كالرياض في نضارتها ، وحسن بهجتها ؛ وأنها كلما برقت برق لها البصر، وظنّها حسنها حديقه وقد حدّق إليها النظر ؛ وقد جمعت ألوان الأزهار، وأزرى ناصجها في اللطف على نسمة الأستجار؛ وأسكنت حُبها حبات القلوب التي في الصدور، وسمت عن المدح برائق المنظوم وفائق المنثور ؛ وأن ابن سليمان لو رآها، لآترف بأن في لبسها لكلّ قتي شرفاً لا ريب فيه، ونسب البيت المنسوب إليه إلى أعاديه ؛ وأنه لو نظر نضرة نضارها لما جعل لها في الحسن نظيراً، ولو ألقاها على وجهه لأرتد لوقت بصيرا ؛ فلذلك أصدر هذه الخدمة مهنية، ومغربة عما حصل له من الفرح ومنية ؛ ولجيد مدحه العاطل من مثل هذه الألفاظ محليه ؛ توله الله في كل يوم مسرة وبُشرى، وأجرى له على الألسن حمداً وشكراً؛ وجعله لكل خير أهلاً، وشكره تفضلاً شاملاً وفضلاً ؛ ومتعه من العافية بلباس لا يبلى؛ إن شاء الله تعالى .

(١) مراده أبو العلاء المعرى أحمد بن سليمان .

الصف الثاني - التهئة برضا السلطان بعد غضبه .

من ذلك :

وتُنهي أنه أتصل بي ماجده الله تعالى لمولاي - أطال الله بقاءه - من حُسن عاطفة مولانا أمير المؤمنين - خلد الله ملكه - وأنعطفه عليه بعد أنصرافه ؛ وإعادته إلى رُتبته التي نَشَرَتْ عنه دَلالًا مَلالًا، وهَجَرَتْه هَجْرَ المستصَلحِ المستعْتَبِ ، لا هَجْرَ القالِي المتجَنِّبِ ؛ وكيف تَفْلَاهُ ، وهي لا تَجِدُ لها كُفُوًا سِوَاهُ ؛ ولتَوَقُّعِ المملوكِ بما وقع من هذه الحال ، وعلمِه أَنَّ عَوْدَهَا إِلَيْهِ كَعَوْدَةِ المودَعِ [إلى مودعه ،] لَاعَوْدَةِ المتَّجِعِ إلى مَرَبَعِهِ ؛ وَأَنَّ الذي وَقَعَ من الإِنْحِرَافِ إِصْلَاحٌ بِأَدِيهِ تَهْذِيبٌ وَتَقْوِيمٌ ، وَخَافِيهِ تَوْقِيرٌ وَتَعْظِيمٌ : لِمَا فِي عِتَابِ أمير المؤمنين من شَرَفِ الرُّتْبَةِ ، وَالدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِقْرَارِ الأَثَرِ والقُرْبَةِ ؛ وَحُلُولِهِ مَحَلِّ الصَّقَالِ ، من أبيض النَّصَالِ ، وَالثَّقَافِ مِنَ العَسَالِ ؛ وَلا سِيَّما وَرِيَاسَتَهُ مُحْفُوظَةً ، وَسِيَادَتَهُ مَلْحُوظَةً ؛ وَهَيْبَتَهُ فِي النُّفُوسِ مَائِلَةً ، وَجَلَالَتَهُ فِي القُلُوبِ حَاصِلَةً ؛ وَلَمْ يَرِ المملوكُ أَجَلَ مَوْهَبَةٍ مِنَ الله سَبْحَانَهُ مِنْ شُكْرِ سِتْرِهِنَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ وَيَحْلِدُهَا ، وَحَمْدٍ يَرْتَبِطُهَا وَيَقْيِدُهَا ؛ وَرَغِبْتُ إِلَى الله سَبْحَانَهُ أَنْ يَجْعَلَ هَذَا العِزَّ الحَادِثَ لَابْنًا لا يَتَحَوَّلُ ، وَالسَّعْدَ الطَّارِفَ مَا كُنَّا لا يَنْتَقِلُ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

ومن ذلك :

وَيُنْهَى أَنْ من عَادَةِ الزَّمانِ أَنْ يَكْفَ سَحَابُهُ ثُمَّ يَكْفُ ، وَيُرِفُ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَجِفُّ ؛ وَيَدْرَحُ حَلْبُهُ ثُمَّ يَنْقَطِعُ ، وَيُقْبِلُ خَيْرُهُ ثُمَّ يَرْتَجِعُ ؛ إِلا أَنَّهُ إِذَا سَلَبَ النِّعْمَةَ مِنْ نَيْسَتَوْجِبِ إِمْرَارِهَا عَلَيْهِ ، وَأَنْتَرَعَ المَوْهَبَةَ مِنْ يَسْتَحِقُّ اسْتِمْرَارِهَا لَدَيْهِ ؛

(١) لعل الواو زائدة ويكون متعلق اللام في قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

كَانَ كَالغَالِطِ الَّذِي يُرَاجِعُ نَفْسَهُ فَيَنْدَمُ عَلَى مَا فَرَطَ ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَسْتَدْرِكَ الْغَلْطَ ؛
 مُعْقِبًا نُبُوته بِإِنَابَتِهِ ، مُتَعَقِبًا هَفْوَتَهُ بِاسْتِفْقَالَتِهِ ؛ مَاحِيًا إِسَاءَتَهُ بِرَأْبِ مَائِمٍ ، وَأَسْوِ مَا كَلَّمَ ؛
 وَإِصْلَاحِ مَا أَفْسَدَ ، وَتَأْلِيفِ مَا شَرَّدَ . فَلَا جَرَمَ أَنَّ النُّفُوسَ بِإِقْبَالِهِ عَلَى مَنْ هَذِهِ
 صِفَتُهُ وَائْتِقَهُ ، وَالْأَمَالَ لِإِنْصِرَافِهِ إِلَى مَنْ هَذِهِ صُورَتُهُ مُتَحَقِّقَةً ؛ وَإِذَا سَلَبَهَا هَزْوَلَ
 فِي إِيدَاعِهَا لَدَيْهِ ، وَأَخَذَ [فِي] إِفَاضَتِهَا عَلَيْهِ . وَمَا زَالَ الْمَمْلُوكُ - مُدْعَا عَامِلَ الزَّمَانِ مُوَلَانَا
 بِسُوءِ أَدَبِهِ ، وَنَأْيِ عَنهُ بِجَانِبِهِ ؛ وَقَبْضِ بِنَانِهِ ، وَغَيْرِ عَلَيْهِ سُلْطَانَتِهِ - عَارِفًا أَنَّ هَذِهِ الْفَعْلَةَ
 فَلْتَةٌ مِنْ فَلَاتِهِ الَّتِي يَتَوَقَّئُ شَرَّهَا ، وَلَا يَرْجِعُ إِلَى مِثْلِهَا ؛ وَأَنَّ الْإِسْتِئْصَارَ ، يَقُودُهُ
 إِلَى الْإِعْتِدَارِ ، وَالْإِضْطِرَارِ ، يَحْدُوهُ عَلَى رَدِّ مَا أَنْتَرَعَهُ بِالْإِجْبَارِ : لِأَنَّهُ لَا يَجِدُ مِنْ يَجِلُّ
 مَحَلَّ مُوَلَانَا فِي آرْتِبَاطِهِ بِإِنْسَانِهِ ، وَتَعَهُّدِهِ بِسُقَى أَغْرَاسِهِ ؛ وَقِيَامِهِ بِسُكْرِهِ ، وَتَرْكِيئَتِهِ بِبِرِّهِ -
 مُتَوَقِّعًا لِأَنَّ تَنَبُّقَظَ عَيْنِهِ ، وَيُنْكَشِفُ رَيْئَهُ ؛ فَيَرَى مَا صَبَعَتْ يَدَاہُ ، وَيَبَادِرُ لِأَسْتِقَالَتِهِ
 مَا جَنَاهُ ؛ حَتَّى طَرَقَ الْبَشِيرُ بِمَا سَهَّلَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَنْحِسَارِ الْكُرْبَةِ ، وَعَوْدِ مُوَلَانَا إِلَى
 شَرَفِ الرَّتْبَةِ ؛ وَصَلَاحِ مَا أَفْسَدَ ، وَعَوْدِ السُّلْطَانِ أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ إِلَى مَا عَهَدَ ؛ وَرُكُونِهِ
 إِلَى حَضْرَتِهِ ، وَأَنْقِلَابِهِ عَنهُ رَافِلًا فِي تَشْرِيفِهِ وَمَكْرَمَتِهِ ؛ فَكَانَ مَعْتَقِدُ الْمَمْلُوكِ فِيهِ هِلَالًا
 فِي السَّرَارِ فَأَهْلًا ، وَجَنِينًا فِي الْحَشَا فَاسْتَهْلًا ؛ فَاسْتَوَى عَلَى الْمَمْلُوكِ مِنَ السُّرُورِ مَا عَمَّ
 جَوَارِحَهُ ، وَعَمَرَ جَوَانِحَهُ ؛ وَأَطَارَ بِجَنَاحِ الْمَرْحِ ، وَالْبَسَ حُلَّةَ الْفَرَحِ ؛ إِذْ مَا جَدَّدَهُ
 اللَّهُ تَعَالَى لَهُ مِنَ السَّعَادَةِ يُحَلُّ بِهِ فِي الْعُمُومِ ، مَحَلَّ الْغَيْثِ السَّجُومِ ؛ لِأَنَّهُ حَرَسَ اللَّهُ
 عِزَّهُ لِأَسْتَاثِرِ بَعَوَارِفِ اللَّهِ عِنْدَهُ ، وَلَا يُكْرَهُ عَلَى عَطَايَاهُ يَدَهُ ؛ بَلْ يَمْنَحُ مِمَّا مُنِحَ ؛
 وَيُؤَلِّقُ مِمَّا تَوَلَّى ، وَلَا يَضُنُّ بِمَالٍ وَلَا جَاهٍ ، وَلَا يَقْعُدُ عَمَّنْ أَمَلَهُ وَرَجَاهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
 يَجْعَلُ ذَلِكَ مِمَّا أَقْرَبَهُ الْعُيُونِ ، وَصَدَّقَ فِيهِ الظُّنُونِ ؛ لِأَتَحْلِقَهُ الْأَيَّامَ وَلَا تُبْلِيهِ ،
 وَلَا تَزْوِيهِ الْحَوَادِثُ وَلَا تُؤَثِّرُ فِيهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث - التهئة بالخلاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جَدَّدَ اللهُ سَعْدَهُ ، وَضَاعَفَ جَدَّهُ ؛ وَأَنْجَحَ قَصْدَهُ ، وَأَعَدَّبَ مِنْهَلَهُ وَوَرَدَهُ ؛ وَلَا أَنْفَكْتَ الْأَيَّامَ زَاهِيَةً بَقَائِهِ ، وَالْأَنْفُسَ مَسْرُورَةً بِأَرْتِقَائِهِ إِلَى رَبِّ عَالِيَانِهِ . أَصْدَرَهَا تُفْصِحُ عَنْ شَوْقٍ يَعْجِزُ عَنْ سَوْفِهِ الْجَنَانُ ، وَيَقْصُرُ عَنْ طُولِهِ اللِّسَانُ ؛ وَسُرُورٍ تَزِيدُ حَتَّى أَبْكَاهُ ، وَلَا عَجَبَ بِمَشَاهِدَةٍ طَلَعَتْهُ السَّعِيدَةُ أَغْرَاهُ ؛ وَثَنِيهِ بِمَا جَدَّدَ اللهُ لَهُ بَعْدَ الْأَعْتِقَالِ مِنَ الْفَرَجِ وَالْفَرَحِ ، وَمَنْ بِهِ بَعْدَ ضَيْقِ الْخَوَاطِرِ مِنَ الْإِتْبَاهِجِ وَالْمَرْحِ ؛ فَهَذِهِ الْمَسْرُورَةُ مَاءٌ زَلَالٌ بَرَدَ بِهَا الْأَوْامُ ، وَإِنْعَامٌ عَامٌ ، حَمِدَ اللهُ عَلَيْهَا الْخَاصُّ وَالْعَامُّ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَوَّضَهُ عَنْ مَأْتَمِ الْحُزْنِ بِمَأْتَمِ السُّرُورِ ، وَ[عَنْ] الْهَمِّ الْمَانِعِ عَنِ الْوُرُودِ وَالصُّدُورِ بِإِنْشِرَاحِ الصُّدُورِ ؛ فَإِنَّ الْقُلُوبَ شَعَفَهَا حُبُّهُ وَشَغَفَهَا ، وَضَاعَفَ لَتَعْوِيْقِهِ أَسَاهاً وَأَسْقَهَا ؛ بِحَيْثُ أَعْتَرَى الْمَنَاطِقَ قَلْقٌ وَعَلَاها أَصْفِرَارٌ ، وَعُطِّلَتْ يَدُ كُلِّ غَانِيَةٍ مِنَ الْحُلِيِّ فَمَا ضَمَّهَا قَلْبٌ وَلَا سِوَارٌ ؛ وَلَيْسَ الْخُطْبَاءُ حَزَنًا وَالْإِسْتِئْثَاءُ الْحَايِرُ ، وَكَادَتْ لَغَيْبَتِهِ وَفَقْدَ اسْمِهِ تَنْدُبُهُ الْجَوَامِعُ وَتَبْكِيهِ الْمَنَابِرُ ؛ خَلَّدَ اللهُ سَعَادَتَهُ ، وَسَهَّلَ لَهُ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ قَصْدَهُ وَإِرَادَتَهُ ؛ بِمَنِّهِ وَكِرْمِهِ .

الأجوبة عن التهئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه

قال في " مواد البيان " : يجب أن تكون أجوبة هذه الرِّقَاعِ مُودَعَةً مِنَ الثَّنَاءِ عَلَى الْمَهْنِيِّ - لِحَافِظَتِهِ عَلَى رُسُومِ الْمُوَدَّةِ وَقِيَامِهِ بِشُرُوطِ الْخُلَّةِ - مَا تَقْتَضِيهِ رِثَتُهُ وَرُتْبَتُهُ الْحَبِيبِ ، وَأَنَّهُ مَشَارِكٌ لَهُ فِي مُتَجَدِّدِ النِّعْمَةِ ، مُفَاوِضٌ فِي حَدِيثِ الْمَسْرُورَةِ ؛ وَالتَّيْمُنُ بِالِدَعَاءِ ، وَنَحْوِ هَذَا مِمَّا يَحْسُنُ مَوْقِعُهُ عِنْدَ الْمَبْتَدِئِ بِالْهِنَاءِ ؛ وَيَضَعُهُ بِحَيْثُ وَضَعَ نَفْسَهُ مِنَ الْإِخْتِصَاصِ بِمَنْ كَاتَبَهُ .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخلعة :

أدام الله علاءه ، وشكر آلاءه ، وضاعف سناءه ؛ وحيد منته التي أثقلت لكل
معتف ظهراً وخفقت همماً ، وأنالت لكل ولي نصيباً من عوارفها وقسماً . المملوك
ينهى إلى العلم الكريم ورود المكتبة التي كسنتها يده حلة جمال ، وألبستها ثوب
إفضال ؛ وأعدتها بكرمها ، وحسنت وجهها بلسان قلمها ؛ فأمرتته سحاب جود
أربنى على السحاب الهتون ، وأوقفته منها على ألفاظ كأمثال اللؤلؤ المكنون ؛ فأجتنى
ثمار الفضائل من أغصانها ، وأجتلي عروس محاسنها وإحسانها ؛ وفيهم ما أشار إليه
من التهنية بالخلعة التي أنعم المولى بها على خادمه وتصدق ، وحقق الأمل في مكارمه
وصدق ، وإنعامه خلد الله دولته ، وأعز نصرته ، قد كثر حتى أنجمه ، وميزه على
كثير من ممالك بيته العالی وفضله ؛ وأنالهُ من المنزلة ما سماها على أمثاله ، ورفق بها
بعد رقة حاله ؛ فالله يخلد سلطانه ، ويثبت بالسعادة أركانه ؛ وهذا بسعادة مولانا
ومساعدته ، ومعاونته ومعاضدته : فإنه كان السبب في الاتّصال ببابه أولاً وآخراً ،
ومن أغاثه بذلك وأعاناه عليه باطناً وظاهراً .

وكل خير توخّاني الزمان به * فانت باعته لي او مسبيه

الضرب الثالث

(من التهانى التهئية بالعود من الحج)

وهذه نسخ من ذلك يُنسخ على منوالها .

فمن ذلك :

ويُنهى أنه طرَقَ المملوكَ البشيرُ بَعُودَ مولانا - أطال الله بقاءه - من مَقامِ الطائفين ، إلى مَقامِ المعتفين ؛ وأوَيْتِه من كَعْبَةِ الإحرام ، إلى كَعْبَةِ الإِكرام ؛ وتثقله من مَوْقِفِ الحُجَّاج ، إلى مَوْقِفِ المحتاج ؛ وحلَّوْله بمنزله الذى هو قبلة ذَوِي الآمال ، ومحطُّ الرِّحال ؛ بالسَّعى المشكور ، والحجَّ المبرور ؛ والنسك المقبول ، والأجر المكتوب ؛ فخدمتُ الله تعالى على موهبته ، وسألته زيادته من مكرمته ؛ وأسئجتُ هذه المكاتبَةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهدته ، وأرجوه من الاستسعاد بملاحظته ؛ وبردَ أوارِ الشوقِ بمحاضرتِه ، ومجددًا عهودَ التيمنِ بمبايسته ؛ فإن أقتضى رأيه العالى أن يعرِّفَ المملوكَ جملةً من خبره فى بدئهِ وعوده ؛ ومنقلبه ومتوجهه ؛ وما تفضلَ اللهُ تعالى به من أمانِ سبيله ، وهدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وعناءِ سفره ، وتسهيلِ وطَّره : لِأَسْكُنَ إلى ذلكِ إلى حينِ التمثُلِ بِنظَره ، فله الفضلُ فى ذلك .
والله تعالى يبلغه سُوله ، ويوصله مرادَه ومأمولَه ؛ بمنه وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنهى أن مولانا لا يزال حاجًا إلى كعبةِ الحرم ، أو كعبةِ الكرم ؛ وطاقفًا بشعائرِ الوُفود ، أو بشعائرِ الجُود ؛ وواقفًا بموقِفِ الإِسْتِفْتاح ، أو موقِفِ السَّماح ؛ وناحرَ البدنِ مِنى ، أو ناثرَ البدرِ للنبى ؛ فلا يرتفع فى حاٍ من الأحوالِ بره ، ولا ينقطعُ عن الله

تعالى ذكَّره ؛ ومن كان بهذه المثابه ، في إحرار الأجر والإنايه ؛ فهو حقيقٌ أن تعمَّر
 بالتهنئة أوقاته وأزمانه ، كما عمَّرها سعيه وإحسانه ؛ وقد عرف المملوك أن كفاؤه
 - أدام الله علوه - عن مقام الطائفين والعاكفين ، إلى مقام القاصدين والمعتمدين ،
 وعوده إلى منزله المعمور ، بعد قضاءه فريضة السعي المشكور ؛ فعدلت في مخاطبته
 عن الهناء إلى الدعاء بأن يتقبل الله تعالى نُسكته ويثقل ميزانه ، ويُطلق في حلبة
 الخيرات عَنانَه ؛ ويُحييه لأجرٍ يحُرِّزه ، وثوابٍ يَكْتُرُه ؛ والله تعالى يُجيبُ ذلك فيه ،
 ويُريه في نفسه وأحبته ما يرتضيه .

ومن ذلك :

وَتُهِى أَنَّهُ قَدْ طَرَقَنِي الْبَشِيرُ بِأَنْكَفَاءِ مَوْلَانَا إِلَى مَقَرِّ عِلَائِهِ ، وَأَنْفِصَالِهِ عَنِ مَلَاذِ
 النَّسَاكِ وَالْعُبَادِ ، إِلَى مَعَاذِ الزُّوَارِ وَالْقُصَادِ ؛ فَعَرَفْتُ أَنَّ ذَلِكَ النَّسِيمَ الْعَلِيلَ مِنْ تَلْقَائِهِ ،
 وَذَلِكَ النُّورَ الصَّادِعَ مِنَ الْآلِيَةِ ؛ وَذَلِكَ الْأَقْتِرَارَ مِنْ أَسْرَتِهِ وَتَحَايِلِهِ ، وَتِلْكَ الْعُدُوبَةَ
 مِنْ شِمِيهِ وَشِمَائِلِهِ ؛ فَكَادَ الْمَمْلُوكُ يَطِيرُ - لَوْ طَارَ قَبْلِي غَيْرُ ذِي مَطَارٍ - فَرَحًا ، وَأُخْرِقُ
 الْأَرْضَ وَأَبْلُغُ الْجِبَالَ لَوْ أَمَكُنَ ذَلِكَ مَرَحًا ؛ وَأَنْفَتَحَ قَلْبِي حَتَّى كَادَتْ مَهْجَتُهُ تَفِيضُ
 سُرُورًا ، وَطَائَشَ حِلْمِي حَتَّى تَفْتَرِقَ مَجْمُوعُهُ بَهْجَةً وَحُبُورًا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ نِعْمَهُ
 مَوْصُولَةً الْحَبْلِ ، مَجْمُوعَةَ الشَّمْلِ ؛ بِمَنِّهِ وَكِرْمِهِ .

أبو الفرج البَغَّاءُ :

جعل الله سعيك مشكوراً ، وحمك مبروراً ؛ ونسكك مقبولاً ، وأجرك مكتوباً ؛
 وأجزلك من المثوبة جزاءك ، ومن عاجل الأجر وآجله عطاءك ؛ وقرن بالطاعات عزماتك ،
 وبالسعي إلى الخير نهضاتك ؛ ووفقك من صالح الأعمال ، وزكى الأفعال ، لما يجمع
 كل خير الدارين . ولما طرفتني البشارةُ بقُدومك ، بدأت بإهداء الدعاء ، وتجديد

الشكر لله تعالى والثناء ؛ وأستبنت في ذلك المكاتبه ، أمام ما أنا [عازم] عليه : من المشافهة والمخاطبة ؛ ولن أتأخر عن حظي من المسير إليك للتيمن بالنظر إلى غرَّتكَ ، ومداواة ما عانيته من ألم الشوق بمشاهدتك .

الضرب الرابع

(من التهانى ، التهنة بالقدوم من السفر)

من كلام المتقدمين :

على بن خلف :

ويُنهي أنه أتصل بالملوك خبرٌ توجهه إلى الناحية الفلانية ، فعرف المملوك أنه قصدها ليخص قاطنيها ، بنصيب من مواهبه ؛ وفيض على ساكنيها ، سجالاً من رغبته ؛ ويسوى بينهم وبين من رأسه بجبائه ، وجبره بنوافله وآلائه ؛ فسألت الله تعالى أن يطيل عمر المكارم بإطالة بقائه ، ويجمع شمل السؤدد بدوام علاقته ؛ ثم أتصل بي عوده إلى مقره ، خفيف الحقايب من وفره ، ثقيلاً من شأنه وشكره ؛ فحمد المملوك الله تعالى على إسفار سفره عن بلوغ الأوطار ، وانحسار أمنيته عن أذيال المسار ؛ وما خصه به من السير الشحيح ، والسعى النجيج ؛ والسلامة المفرقة على الوجهة والمتقلب ، والمفتتح والمعتقب ؛ ولما عرض للملوك ما قطعته عن مشافهته بالدعاء ، رفع يده إلى الله تعالى ضارحاً لديه في أن يتولاه في هذا المقدم الميمون ، بالسعد المضمون ؛ وإنالة الأمانى المقررة للعيون ؛ وأن يمنحه في الحِلِّ والترحال ، والقطن والإتقال ، توفيقاً يقارن ويصاحب ، ويساير ويواكب ؛ وأن يجعل ما حوَّله من نعمه راهناً خالداً ، وما أولاه من مواهبه بادئاً عائداً ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) في الأصل وجهته وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن في كتب اللغة التي بأيدينا على قول لا على فعل .

وله أيضا :

وَيُنْهَى أَنَّهُ طَلَعَ عَلَيْهِ الْبَشِيرُ ، طُلُوعَ الْقَمَرِ الْمُنِيرِ ؛ مُؤَذِّنًا بِمَقْدَمِ حَضْرَتِهِ ، وَمُعَلِّمًا
بِظُهُورِ طَلْعَتِهِ ؛ وَحُلُولِهِ فِي مَعَانِهِ الَّذِي هُوَ مَعَانُ الْإِقْبَالِ ، وَعَوْنُ الرِّجَالِ ؛ وَقِرَارُهُ
الْأَقْيَالِ ، وَمَحَطُّ الرِّجَالِ ؛ وَقَبْلَةُ الْجُودِ ، وَمُعْرَسُ الْوُفُودِ ؛ فَسَأَلَتْ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يُقَيِّمَهُ
جَمَالًا لِلْأَيَّامِ ، وَثِمَالًا لِلْأَنَامِ ؛ وَعِمَادًا لِلْقُصَادِ ، وَمَرَادًا لِلرُّوَادِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُخْلِيهِ
فِي تَصَرُّفَاتِهِ ، وَجَمِيعِ حَرَكَاتِهِ وَسَكِّنَاتِهِ ؛ مِنْ سَعَى سَعِيدٍ ، وَعَيْشِ رَغِيدٍ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .
أبو الفرج البغّاء :

مَنْ كَانَتْ غَيْبَةُ الْمَكَارِمِ مَقْرُونَةً بِغَيْبَتِهِ ، وَأَوْبَةُ النِّعَمِ مَوْصُولَةً بِأَوْبَتِهِ ؛ سَافَرَتْ
الْأَنْفُسُ حَيْثُ كَانَ إِلَيْهِ ، وَقَدِمَتْ الْأَمَالُ عِنْدَ قُدُومِهِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا زَالَتِ الْأَنْفُسُ
إِلَى الْأُمْنِيَّةِ بِقُرْبِهِ مَطْلَعُهُ ، وَلُورُودِ السُّرُورِ بِوُرُودِهِ مَتَوَقِّعُهُ ؛ إِلَى أَنْ أَنْسَتْ بَعْدَ
الْوَحْشَةِ بِإِقْبَانِهِ ، وَتَنَسَّمَتْ أَرْجَ مَنْهٍ وَتَعَانَهُ ؛ فَوَصَلَ اللَّهُ قُدُومَهُ مِنَ الْكِرَامَةِ ، بِأَضْعَافِ
مَا قَرَنَ بِهِ مَسِيرَهُ مِنَ السَّلَامَةِ ؛ بِمَحْرُوسًا مِنْ طَوَارِقِ الْغَيْرِ ، مَبْلَغًا أَبَعَدَ الْعُمُرِ .
وله في مثله :

مَنْ كَانَتْ مَادَّةُ سُرُورِهِ ، بِمَغْيِبِهِ وَحُضُورِهِ ؛ لَمْ يَجِدْ مَعَ بُعْدِكَ مُؤْنِسًا يَسْكُنُ إِلَيْهِ ،
وَلَا عَوَظًا يَعُولُ فِي السَّلْوَةِ عَلَيْهِ ؛ وَمَا زَلَتْ أَيَّامَ غَيْبَتِكَ - لَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِنْكَ -
بِالْوَحْدَةِ مَسْتَأْنِسًا ، وَبِالسُّوقِ إِلَيْكَ مُجَالِسًا ؛ الْأَقِيكَ بِالْفِكْرِ ، وَأَسَاهِدُكَ بِاتِّصَالِ الذِّكْرِ ؛
إِلَى أَنْ مِنْ اللَّهِ مِنْ أَوْبَتِكَ بِمَا عَظُمَتْ بِهِ النِّعْمَةُ ، وَجَلَّتْ لَدَيْ مَعَهُ الْمَوْهَبَةُ ؛
فَوَصَلَ اللَّهُ بِالسَّلَامَةِ نَهْضَاتِكَ ، وَبِالسَّعَادَةِ حَرَكَاتِكَ ، وَبِالتَّوْفِيقِ آرَاءَكَ وَعَزَمَاتِكَ ؛
وَحَرَسَنِي بِبَقَائِكَ وَبِقَاءِ النِّعْمَةِ عِنْدَكَ ، وَهَتَّأَنِي النِّعْمَةَ الْجَلِيلَةَ بِقُرْبِكَ .

(١) في القاموس واللسان « المعان المباءة والمنزل » وأوردها في مادة م ع ن .

وله في مثله :

مَنْ كُنْتَ نِهَآيَةَ أَمْنِيَّتِهِ ، وَقُطِبَ مَسْرَّتُهُ ؛ كَانَ مِنْ نَفْسِهِ مَسْتَوْحِشًا مَعَ بَعْدِكَ ،
وَبَدَهْرِهِ مَسْتَأْنِسًا مَعَ قُرْبِكَ ؛ وَمَا زِلْتُ مَعَكَ بِالنِّيَّةِ مُسَافِرًا ، وَبِالشُّوقِ سَافِرًا ؛
وَبِالفِكْرِ مَلَاقِيَا ، وَبِالْأَمَانِي مُنَاجِيَا ؛ إِلَى أَنْ جَمَعَ اللَّهُ شَمْلَ سُورِي بِأَوْتِكَ ،
وَسَكَنَ نَافِرَ قَلْبِي بِعَوْدَتِكَ ؛ عَلَى الْحَالِ السَّارَةِ مِنْ كَمَالِ السَّلَامَةِ ، وَوُفُورِ الْكُلْفَةِ ؛
فَأَسْعَدَكَ اللَّهُ بِمَقْدَمِكَ سَعَادَةً تَكُونُ بِهَا مِنَ الزَّمَانِ مُحْرُوسًا ، وَبِالْإِقْبَالِ مُقَابِلًا ،
وَبِالْأَمَانِي ظَافِرًا ؛ وَلَا أَوْحِشُ اللَّهَ مِنْكَ أَوْطَانَ الْفَضْلِ ، وَعَضَّدُ إِخْوَانَكَ بِبِقَائِكَ
وَبِقَاءِ النِّعْمَةِ عِنْدَكَ .

وله في مثله :

لَوْ كَانَ الْقَلْبُ يَجِدُ عَنْكَ مُنْصَرَفًا ، أَوْ يَرَى مِنْكَ فِي آكْتِسَابِ الْمَسْرَةِ خَلْفًا ؛
لَأَسْتَرَحَ إِلَيْهِ مِنْ أَلَمِ بَعْدِكَ ، وَأَسْتَنْجِدَهُ عَلَى مَرَارَةِ فِرَاقِكَ ؛ لِكِنَّكَ أَيْدِكَ اللَّهُ جَمْلَةً
مَسْرَّتِهِ ، وَنِهَآيَةَ أَمْنِيَّتِهِ ، فَلَيْسَ تُتَوَجَّهُ أَمَانِيهِ إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا تَقْفُ آمَالُهُ إِلَّا عَلَيْكَ ؛
فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَقْرَبَ بَقِيَّتِكَ أَعْيُنَ إِخْوَانِكَ وَأَوْدِيَّاتِكَ ؛ وَأَفَاكَ اللَّهُ مِنَ السَّعَادَةِ فِي أَوْتِكَ
أَضْعَافَ مَا آكْتَنَفَكَ مِنَ الْكِفَآيَةِ فِي ظَنِّكَ .

ابن أبي الخصال :

سَرَّ اللَّهُ مَوْلَايَ وَرَيْسِي ، وَرَبَّ تَشْرِيفِي وَأَيْسِي ؛ بِلِقَاءِ الْأَحْبَابِ ، وَأَتَّصَلَ
بِالْأَسْبَابِ ، وَأَوْبَى الْغِيَابِ ؛ وَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ تُتَصَنَّعُ لِإِقْبَالِهِ ، وَتُقَبَّلُهُ أَوْجُهُ الْعِزِّ
فِي آقْبَالِهِ ؛ وَتُؤْفِيهِ عَلَى رِغْمِ الْحَاسِدِ حَقَّ جَلَالِهِ .

البُشْرَى - أَدَامَ اللَّهُ أَعْتَارَهُ - بِمَقْدَمِ الْوَزِيرِ فُلَانٍ قَدْ أَوْضَعَتْ رِكَابَهَا ، وَأَتَّصَلَ
بِالنَّفُوسِ أَعْلَاقُهَا وَأَسْبَابُهَا ؛ فَهِنِيئًا مَعَشَرَ الْأَوْلِيَاءِ بِسُبُوحِ هَذِهِ النِّعْمَةِ الْجَلِيلَةِ ، وَالْمِنْحَةِ

الجزيلة ؛ ولا أستوفى شكرَ ما به أتى مُعظَّمُ قدره ، وملمَّتْ بِرِهْ ؛ من شئاءِ كَعْرِفِ الطيبِ
يُهْدِي ، ومَذَهَبِ في الإنهاضِ لا يُقْضَى واجبُه ولا يُؤدَّى ؛ ولا زالت حياةُ مولاي
تُفَدَّى ، وأفعالُ بِرِهْ تتعدَّى ؛ وقد لَمَّتْ مواقعَ أنامله ودًّا ، ووردتُ من محاسنِ بيانه
منهلاً عذباً [ووردنا] فامتغى اللهُ بحياته العزيزةَ الأيامِ ، الطيبةَ الإمامِ ، الموصولةَ
العهدِ والذمامِ ؛ وأقرأ على سيدي من سَلامِي ما يلمُّ يده ، ويقضى حقَّ اليراعِ [الذي]
أنشأ به البر وولده ، والسلامُ المعادُ عليه وعلى جنته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نباتة عن نائب الشام إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله
كاتب السرِّ الشريف ، بالأبواب الشريفة بالديار المصرية ، عند عودِه من الكرك
إلى الديار المصرية ، في سنة ثلاثٍ وأربعين وسبعمائة ، مهنتاً له بعودِه إلى منزله
بالديار المصرية ، وأستقراره وعودِه إلى كتابة السرِّ الشريف بالأبواب الشريفة
السلطانية ، وهي :

تُقبَلُ الباسطة الشريفة - إلى آثر الألقاب - لازالتُ خصائصُ الحمدِ على فضلِ بنانها
معقودة ، وماثرُ البأسِ والكرمِ لها ومنها شاهدةٌ ومشهودة ، وبواترُ السيوفِ مسيرةٌ
القصدِ إلى مناظرةِ أقلامها المقصودة ؛ تقبيلاً يودُّ لو شافهَ بشفاهه مَورِدَ الجُودِ من
الأناملِ ، وكأثرِ بَغْرِهِ عند المثلِ للتقبيلِ تُغورُ الأمائلُ ؛ فكان يُشافهُ بِسَوْفِهِ مَورِدَا
كثيرَ الرِّحامِ ، وكان يُكاثِرُ بعقدِ قبَلِه على يدِ الفضلِ عقوداً جزيلةَ الانتظامِ ، وكان
يُحَاكِمُ جَوْرَ الضَّمِيمِ إلى مَنْ أبى اللهُ لِحارِ مشاهدته أن يُضَامَ . ويُنهي ماوصل إليه
وإلى الأولياء من السرورِ ، وما رُفِعَ بينهم وبين الأبتهاج من الشُّرُورِ ، وما طُولِعَ
في أخبارِ المسرَّة من السُّطورِ ؛ بوصولِ مولانا ومنَّ معه إلى مساكنِ العزِّ ساكنين ،
ودُخُولِهِم كدُخُولِ يوسفَ عليه السلام ومنَّ معه إلى مِصرَ آمينين ؛ وأستقراره

في أشرف مكان ومكانه، واستنصار مصر بأقلامه على العادة فإن هذه سهام وهذه
كأنه؛ وإسفار غمام السفرة عن كوكب علا طاماً حرس يمينه أفق الملك وهده
وزانه؛ وما كانت إلا غيبة أحمد الله عقبها، وغيابة بعد من الله عز وجل وجلاها؛
وفرة ثنى الله فترتها فتنفس خناق المنصب المشتاق لوجهه الكريم، وهجرة صرف الله
هجيرها فسقى طرس الإنشاء الذي أبيضت عيناه من الحزن فهو كظيم؛ وما محاسن
مولانا إلا زينة من زين الدنيا فعلها يتشاكس المتشاكسون، وما مزاج كلماته إلا
من تسنيم ﴿ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴾ .

فالحمد لله على أن أقر العيون بمعاودة ظلّه الوريث، وعلى أن شفى الصدور
بقربه وأولها وأولها صدر السر الشريف؛ وعلى أن أجزل الهناء وقد شمل ظلّه،
وقد بكل بابن الفضل فضله؛ وقد بهر سناؤه وسناه، وقد تسعب القريب والبعيد
فإن أجدى على مصر مورده فقد جادت على الشام سماه . وقد أخذ المملوك حظّه من
هذه البشري، ووالى السجود لله شكراً؛ وجهاز خدمته هذه نائبة عنه في تقبيل بنان
إن سماه مولى الكرم بحرا، فقد سماه مربى الملك برا؛ لازالت الممالك متحفة بين
مولانا طاعناً ومقياً، متصفة بحمده وحمد سلفه الكريم حديثاً وقديماً؛ تالية على مهمات
الملا بصحبة بيته الشريف ﴿ وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في تهنئة بقدوم من سفر :

أدام الله ظلّه، ورفع محله، وشكر إعامه وفضله؛ وأعز أنصاره، وضاعف
أقناده؛ ولا زال مؤيداً في حركاته، مسدداً في سائر فعلاته؛ مصحوباً بالسلامة
في المهامه والفقر، مخصوصاً من الله تعالى بالأعوان والأنصار .

المملوك يُنهي بعد تقبيل الأرض ، والقيام بما يجب من سُنة والفرض ؛ علمه
 بجُلوس ركابه العالی بمغناه ، واستقرارِ خاطرِه الشريف في محله ومثواه ؛ وجمع السَّمَل
 بالأهل بعد طول الغيبة ، وبعْد القُقُول والأَوْبه ؛ فتضاعف لذلك فرحُه وسُروره ،
 وزال عن قلبه قليلُ الهمِّ وكثيره ؛ فالله يمنح المولى أطيَب المنازل ، وأسْرَ الرّواحل ؛
 ويجعلُ تجارةَ مجده راجحة ، وأوامرَ دوامِ عزّه لألحّه ، حتّى تُتشدّ نفسه الكريمة
 قولَ أبي الطيّب :

أنا من جميع الناس أطيَبُ منزلاً * وأسْرَ راحلةً وأزْبَحُ متَجراً!

لا زالت الأعيُنُ قريّةً برؤيته ، وقلوبُ الإخوان قازّةً بمشاهدته ؛ والأوجهُ وسيمةً ،
 والنعم الظاعنة مُقيمه ؛ إن شاء الله تعالى .

أجوبة التهئة بالقدوم من السفر

قال في "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرّقاع ينبغي أن تُبنى على الاعتراف للهنيئاً
 بحقّ تعهده ، وكرمِ تفقّده ، وإطلاعه على الحال في السّفَر ، وما أفضت إليه من
 السلامة ، والتأسّف على ما تقضى من الأيام في مُباعدته ، والتخلّف عن مُبايئته ؛
 وأنه لم يزل يدّرع الإدلاج ، ويقطع الفجاج ؛ رغبةً في القدوم إليه ، والوفادة عليه ؛
 وبلى الغلّة برؤيته ، وترويح النفس بمحاضرتّه ؛ وما يليق بهذا النمط من الكلام .

الضرب الخامس

(من التهنئات التهنئة بالشهور والمواسم والأعياد)

وهي على ثمانية أصناف :

الصنف الأول - التهنئة بأول العام وغرّة السنة .

من كلام المتقدمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبي مسلم محمد بن بحر :

أسعد الله سيدي بعامه ، والفضل منه وما حوى من الأعياد والأيام الخطيرة
وسائر شهوره وأيامه ، ومتصرف أحواله ، وبما يأتي ويكره عليه من زمانه ؛ سعادة
تسوق إليه حظوظ الدين والدنيا كامله ، وتجمع له فوائد الأمدن تامّة وإفيسه ؛
وترتبين إليه النعم فلا تزال لديه زائدة ناميه ؛ وبلغه بها الأمل ، ومدّ له في البقاء
إلى أنفس المهل .

ولأبي الحسين بن سعد :

عظم الله على مولاي بركة الشهر والسنة المتجددين ، وهب له فيهما وفيما يتلوها
من أيام محمره ، وأزمان دهره ، سعادة تجمع له أشنات الحظوظ ، وتصل لديه مواد
المزيد ، وتيسر له بلوغ الأمل في كل ما يطالع وينازع ، والأمن من كل ما يراقب
ويحاذر .

وله في مثله :

عظم الله على سيدي بركة الشهر والسنة ، وأعاشه لأمثالها مدة اختلاف الجديدين ،
وتجاوز الفرقدين ؛ ممتعا بالنعم السابغة ؛ والمواهب المترادفة ؛ والسعادة والغبطة ،
والعز والمسرّة .

وله في معناه :

جَدَّدَ اللهُ لِسَيِّدِي فِي الْأَيَّامِ الْحَاضِرَةِ وَالْمُسْتَقْبَلَةِ ، وَالْأَحْوَالِ الرَّاهِنَةِ وَالْمُنْتَقِلَةِ ؛
حُظُوظًا مِنَ السَّعَادَاتِ ، وَأَقْسَامًا مِنَ الْخَيْرَاتِ ؛ لَا يُحْصَى عَدْدُهَا ، وَلَا يَنْقَضِي
مَدَدُهَا .

وله في مثله :

عَظَّمَ اللهُ [عَلِيَّ مَوْلَايَ] بَرَكَةَ الشَّهْرِ وَالسَّنَةِ الْمُتَجَدِّدِينَ عَلَيْهِ ، وَعَرَّفَهُ فِيهِمَا
وَفِي الْأَيَّامِ بَعْدَهُمَا مِنْ حَادِثٍ صُنِعَ ، وَلَطِيفٍ كَفَّيْتَهُ ؛ مَا تُدْرِكُهُ فِيهِ السَّعَادَةُ ،
وَتَعْظُمُ بِهِ الْمِنَّةُ ، وَتَحْسُنُ فِيهِ الْعَاقِبَةُ .

وله في مثله :

عَظَّمَ اللهُ عَلِيَّ مَوْلَايَ بَرَكَةَ هَذَا الشَّهْرِ : الْمَاضِي [مِنْ] أَيَّامِهِ وَبَاقِيهَا ، وَهَذِهِ
السَّنَةَ ، وَجَعَلَهَا أَيْمَنَ سَنَةٍ حَالَتْ عَلَيْهِ وَأَسْعَدَهَا .
وَمِنْهُ : وَيُنْهَى أَنْ الْمَمْلُوكَ يُهَيِّئَ غُرَّةَ الْأَيَّامِ ، بَغْرَةَ الْأَنَامِ ؛ وَصَدْرَ الْعَامِ ، بِصَدْرِ
الْكَرَامِ ؛ بَلْ يَهَيِّئِ الزَّمَانَ كُلَّهُ نَعْمَ وَأَهْلَهُ بِالْحَضْرَةِ الَّتِي وَاسَتْ الْمَعَالِي .

الصفحة الثاني - التهنية بشهر رمضان .

من كلام المتقدمين :

لأبي الحسين بن سعد :

جَمَعَ اللهُ لِمَوْلَايَ فِي هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ شُرُوطَ آمَالِهِ وَأَحْكَامَ آمَالِيهِ ، فِي حَاضِرِ
أَمْرِهِ وَعَاقِبَتِهِ ، وَعَاجِلِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتِهِ ؛ وَأَبْقَاهُ لِأَمْنَالِهِ بَقَاءً لَا يَتَنَاهَى أَمَدُهُ ، فِي ظِلِّ
عَيْشِ يَرْضَاهُ وَيُحْمَدُهُ .

وله في مثله :

عَرَّفَ اللهُ سِيدِي بَرَكَةَ هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ وَأَعَاشَهُ لِأَمثَالِهِ ، مَا كَرَّ الْجَدِيدَانِ ،
وَأَخْتَلَفَ الْعَصْرَانِ ؛ مَمْتَعًا بِسَوَابِغِ النِّعَمِ ، مَحْرُوسًا مِنْ حَوَادِثِ الْغَيْرِ ، وَمُوقِّفًا فِي شَهْرِهِ ،
وَأَزْمَانَ دَهْرِهِ ؛ لِأَزْكَى الْأَعْمَالِ ، وَأَرْضَى الْأَحْوَالِ ؛ وَمَقْبُولًا مِنْهُ مَا يُؤَدِّيهِ مِنْ فَرَضِهِ ،
وَيَتَنَقَّلُ بِهِ قُرْبَةً إِلَى رَبِّهِ .

وله في مثله :

عَرَّفَهُ اللهُ بَرَكَةَ إِهْلَالِهِ ، وَأَبْقَاهُ طَوِيلًا لِأَمثَالِهِ ؛ مَوْقِّفًا فِيهِ مِنْ عَمَلِ الْخَيْرِ ،
وَمُرَاعَاةِ الْحَقِّ ، وَتَأْدِيَةِ الْفَرَضِ ؛ وَالتَّنَقُّلِ بِالرِّبِّ ، لِمَا يُرْضِيهِ ، وَيَسْتَحِقُّ جَزِيلَ الْمَثُوبَةِ
عَلَيْهِ ؛ مَمْتَعًا بَعْدَهُ بِسِنِّي الْمَوَاهِبِ ، وَجَسِيمِ الْفَوَائِدِ ؛ مَعَ أَنْصَالِ مُدَّةِ الْعُمُرِ ، وَاجْتِمَاعِ
أُمْنِيَّاتِ الْأَمَلِ .

وله في مثله :

عَرَّفَ اللهُ مَوْلَانَا بَرَكَةَ هَذَا الشَّهْرِ الشَّرِيفِ وَأَيَّامِهِ ، وَأَعَانَكَ عَلَى صِيَامِهِ وَقِيَامِهِ ؛
وَوَصَلَ لَكَ مَا يَزِيدُ مِنْ فَضْلِهِ وَإِنْعَامِهِ ؛ وَتَابَعَ لَكَ الْمَزِيدَ مِنْ مَنَائِحِهِ وَأَنْعَامِهِ ؛ وَخَتَمَ
لَكَ بِالسَّعَادَةِ الْعَظْمَى بَعْدَ الْإِبْتِقَالِ [فِي الْجَاهِ وَالرِّيَاسَةِ إِلَى] أَعْدِ الْمُدَى ؛ وَفِي الْعِزِّ
وَالثَّرْوَةِ إِلَى أَقْصَى الْمُنَى .

أبو الفرج البيهقي :

جَعَلَ اللهُ مَا أَظَلَّهُ مِنْ هَذَا الصِّيَامِ مَقْرُونًا بِأَفْضَلِ قَبُولِ ، مُؤَدِّنَا بِإِدْرَاكِ الْبُغْيَةِ وَنُجْحِ
الْمَأْمُولِ ؛ وَوَفَّقَهُ فِيهِ وَفِي سَائِرِ أَيَّامِهِ ، وَمَسْتَأْنِفِ شُهُورِهِ وَأَعْوَامِهِ ؛ لِأَشْرَفِ الْأَعْمَالِ
وَأَفْضَلِهَا ، وَأَزْكَى الْأَفْعَالِ وَأَكْمَلِهَا ؛ وَلَا أَخْلَاهُ مِنْ رَمْرَفُوعٍ ، وَدَعَاءِ مَسْمُوعٍ ؛
وَسَعَى مُشْكُورٍ ، وَأَمْرٍ مَبْرُورٍ ؛ إِلَى أَنْ يَقْطَعَ فِي أَجْمَلِ غَبِطَةٍ وَأَتَمَّ مَسْرَةٍ أَمثَالَهُ .

وله في مثله :

عَرَّفَكَ اللهُ بركةَ هذا الشهرِ المعظَّمِ قدره ، المشرفِ ذِكْرُه ، ووفَّقَكَ فيه لصالحِ
الأعمالِ ، وزَكَّى الأفعالِ ؛ وقابلَ بالقبولِ صيامَكَ ، وبتعظيمِ المثوبةِ تهجدَكَ وقِيامَكَ ،
ولا أخلاكِ في سائرِ ما يتبعُه من الشهورِ ، ويَلِيه من الأزمنةِ والدُّهورِ ؛ من أحرِّ
تذَنُّره ، وأثَرِ تشكُّره .

قلت : ومما كتبتُ به تهنئةً بالصومِ للفقيرِ الأشرفِ الناصريِّ محمدِ بنِ البارزِيِّ
كاتبِ السرِّ الشريفِ المؤيَّديِّ بالممالكِ الإسلاميةِ ، في سنة ستِّ عشرةٍ وثمانمائةٍ نظماً :

أَيَّا كَاتِبِ السَّرِّ الشَّرِيفِ وَمَنْ بِهِ * تَمَيَّسُ نَوَاحِي مِصْرَتَيْهَا مَعَ الشَّامِ !
وَمَنْ جَلَّتِ الْجُلُتِ كَتَابُ كُتُبِهِ ، * وَمَنْ نَابَ عَنِ وَقْعِ السُّيُوفِ بِأَقْلَامِ !
تَهَنَّأَ بِهَذَا الصَّوْمِ وَالْعِيدِ بَعْدَهُ ، * وَمِنْ بَعْدِهِ بِالْعِيدِ وَالْعَامِ فَالْعَامِ !
وَتَرَفَّى رُقَى الشَّمْسِ فِي أَوْجِ سَعْدِهَا * وَتَبَقَّى بَقَاءَ الدَّهْرِ فِي فَيْضِ إِنْعَامِ !

الصفحة الثالث - ما يصلحُ تهنئةً لكلِّ شهرٍ من سائرِ الشهورِ .

لأبي الحسين بن سعد :

عَظَّمَ اللهُ بركةَ إهلاله ، وأعاشه لأمثاله ، أطولَ المدةِ ، ممتعاً بأدومِ النعمةِ ، ومشفعاً (?)
بأفضلِ الأملِ والأمنيَّةِ .

وله : أسعدَ اللهُ سيديَ بأنصرامِهِ وإهلالِ ما بعده ، وأبقاه ما بَقِيَ الزمانِ ممتعاً
بالعزِّ والنَّعمةِ ؛ محروساً من الآفاتِ المخوفةِ ، والحوادثِ المخدَّورةِ .

وله : عَظَّمَ اللهُ على سيديَ بركةَ الماضيِ والمستقبلِ من الأيامِ والشهورِ [والأعوامِ]
والدُّهورِ ، ووصلَ له السعادةَ بأنصالحِها ، وجدَّدهُ النعمةَ بتجدُّدِها .

وله : عَظَّمَ اللهُ بَرَكَهَ أَنْسِلَاحِهِ ، وَإِهْلَالَ مَائِتْلُوهُ ؛ مُجَدِّدًا لَكَ بِتَجَدُّدِهِ فَوَائِدَ الْخَيْرَاتِ ، وَأَقْسَامَ الْبَرَكَاتِ ؛ تَدْوِمَ فِيهَا الْمُدَّةَ ، وَتَطْوِيلَ بِهَا النِّعْمَةَ .

وله : أَسْعَدَكَ اللهُ بِإِهْلَالِهِ ، وَأَعَاشَكَ أَبَدًا لِأَمْتَالِهِ ؛ مِمَّتَعًا بِدَوَامِ الْعِزِّ وَالنِّعْمَةِ ، وَاجْتِمَاعِ أَسْبَابِ الرَّخَاءِ وَشُرُوطِ الْمَحَبَّةِ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ .

[وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَى مَوْلَايَ بَرَكَاتِ هَذَا الشَّهْرِ وَمَائِتْلُوهُ ، وَبَلَّغَهُ مَايُجَاوِلُهُ وَيَخُوهُ ؛ فِي مَسْتَأْنِفِ الشُّهُورِ ، وَمُؤْتَفِ الدُّهُورِ ؛ مُضَاعَفًا لَهُ الْعِزَّ وَالتَّأْيِيدَ ، وَمَوْصُولًا لَهُ أَصْلُ النِّعْمَةِ بِمُحْسِنِ الْمَزِيدِ] ^(١) .

وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَى مَوْلَايَ بَرَكَهَ الشَّهْرِ ، وَأَدَامَ لَهُ سَلَامَةَ الدَّهْرِ ؛ مَوْفُورًا مِنَ الْعِزِّ وَالسُّلْطَانِ ، غَيْرَ مَدْعُورٍ بِنَوَائِبِ الزَّمَانِ .

وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَى سَيِّدِي بَرَكَهَ الْأَيَّامِ وَالشُّهُورِ ، وَالسِّنِينَ وَالْأَحْقَابِ ؛ وَجَمَعَ لَهُ الْمَوَاهِبَ كَامِلَةً ، وَالْفَوَائِدَ فَاضِلَةً ؛ دِينًا وَدُنْيَا ، وَحَاضِرَةً وَعُقْبَى .

وله : عَظَّمَ اللهُ عَلَيْكَ بَرَكَتَهُ ، وَعَرَّفَكَ يَمَنَّهُ وَسَعَادَتَهُ ؛ وَجَدَّدَ لَكَ الْخَيْرَاتِ ، بِتَجَدُّدِ الْأَوْقَاتِ وَالسَّاعَاتِ ؛ حَتَّى تَحُوزَ مِنْهَا أَسْنَى الْحُطُوظِ وَتَبْلُغَ مَا تَمَنَّاهُ أَقْصَى الْغَايَاتِ .

الصفحة الرابع - التهنية بعيد الفطر .

من كلام المتقدمين :

لأبي الحسين بن سعد :

عَظَّمَ اللهُ عَلَى سَيِّدِي بَرَكَهَ هَذَا الْعِيدِ ، وَأَعَاشَهُ لِأَمْتَالِهِ ؛ مِنَ الْأَعْيَادِ الْمَشْهُودَةِ ، وَالْأَيَّامِ الْجَدِيدَةِ ، [فِي] أَهْنًا عَيْشٍ وَأَرْغَدَةً ، وَأَطْوَلَ مَدَى وَأَبْعَدَهُ .

(١) الزيادة في بعض النسخ .

أبو الفرج البغاء :

أسعدك الله بهذا النِطْرِ الجَدِيدِ ، والعِيدِ السَّعِيدِ ؛ ووَصَلَ أَيَّامَكَ بَعْدَهُ بِأَكْمَلِ
السَّعَادَاتِ ، وَأَجْمَلَ الْبَرَكَاتِ ؛ وجعل ما أَسْلَفْتَهُ مِنَ الدُّعَاءِ مَقْبُولًا مَسْمُوعًا ،
ومن التَّهَجُّدِ زَايِكًا مَرْفُوعًا ؛ ولا أَخْلَاكَ مِنْ نِعْمَةٍ يَحْرُسُ الشُّكْرُ مَدَّتَهَا ، ولا يُخْلِقُ
الدَّهْرُ جِدَّتَهَا .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

المولى أدامَ اللهُ نِعْمَهُ ، وحرَسَ شَيْمَهُ ، هو سَيِّدُ الأفاضلِ ، ورئِيسُ الأُمَمِ ؛
وحسَنَةُ الزَّمانِ ، وليثُ الأَقْرانِ ؛ وهو في الأَنامِ ، كالأعيادِ في الأَيَّامِ ، فإنَّ الأَنامَ ليلٌ
والمولى المِصباحُ بل الصَّبَّاحُ ، وسائرُ الأَيَّامِ أجسادُ وسائرُ الأعيادِ هي الأرواحُ ؛ فإذا
كان المولى قد زُهِىَ على أبناءِ جِنْسِهِ ، ويومُ العِيدِ على غَدِهِ وأمسِهِ ؛ فقد صار كلُّ
منكأ إلى صاحبه يتَقَرَّبُ ، ويلزَمُ ويلزَبُ ، وهو أحقُّ النَّاسِ بأن يُبَهِّجَهُ مَقْدَمُهُ ، وأن
يَهْنِئَ بِيوْمِهِ الذى هو مجموعُ السُّرورِ وموسِمِهِ .

وإنخادمُ يَهْنِئُ المولى بهذا العِيدِ ، واليومُ السَّعِيدِ ؛ فإنه وافى في أوَّانِ الرَّبيعِ وزمانِهِ ،
لِيُباهِيَ بَغْضَنَ قَدِهِ أغْصانَ بَأنِهِ ؛ وَيَسْتَنشِقُ في صَدْرِهِ وورْدِهِ ، رائحةَ رِيحانِهِ وورْدِهِ ؛
ويختالُ في رِياضِهِ وحدائقِهِ ، ويلاحظُ بهجةَ أزهارِهِ وشقائقِهِ ؛ والعِيدُ والرَّبيعُ ضيفانِ
ومكارِمُ المولى جَدِيدَةٌ بِإكرامِ الضيفِ ، والتمتُّعُ بالملاذِّ فيهما قبلَ رَحيلِهِما وقُدومِ حرِّ
الصَّيفِ ؛ وأن يُحسِّنَ وَجْهَ عِيدِهِ ، بِحُلُولِهِ في مَغْناهِ ووُجودِهِ ؛ بما يُؤَلِّيه لُغْفاتِهِ مِنْ
إنعامِهِ ووُجودِهِ ؛ لازالتِ الأعيادُ تُهْنِئُ ببقائِهِ ، وألسنةُ الأَيَّامِ تُشْكُرُ سوابِغَ نِعْمائِهِ ؛
وتحمدُ جَزِيلَ عَطائِهِ ، وتُنطقُ بولائِهِ وثنائِهِ ، أبداً ؛ إن شاء اللهُ تعالى .

قلت : وما كتبتُ به مهثًا للقرّ الأشرف الناصريّ محمد بن البارزى صاحب
دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية فى الدولة المؤيدية «شيخ» بعيد الفطر
نظامًا ، بعد أن سألتُهُ حاجةً قضاها ، وأسنى لى الجائزة على نثر كتبتُهُ له .

سَأَلْتُ نِظَامَ الْمَلِكِ كَاتِبَ سِرِّهِ * إِزَالَةَ ضَنْكَ أَرْهَفَ الدَّهْرُ حَدَّهُ !
فَمَنْ بِجَاهِهِ زَعَزَعَ الْأَرْضَ وَقَعَهُ ، * وَجَادَ بِمَالٍ لَا يُرَى الْقَفْرُ بَعْدَهُ .
وَبِالْبَارِزِيِّ أزدَانَ وَصُفِّ مَكَارِمِ * فَأَشْبَهَ فِي فَضْلِ أَبَاهُ وَجَدَّهُ !
فِيهِنَّاهُ صَوْمٌ ثُمَّ عِيدٌ مَسْرُورَةٌ * وَطَالَعُ إِقْبَالٍ يُقَارِنُ سَعْدَهُ !
وَرَفَعُ دُعَاءٍ لَا يُغَيَّبُ تَتَابِعًا ، * وَطِيبُ ثَنَاءٍ خَامَرَ الْمِسْكَ نَدَّهُ !

الصفحة الخامس - التهنئة بعيد الأضحى .

من كلام المتقدمين :

أبو الحسين بن سعد :

كتابى والنحر - نحر الله أعداء مولاى وحساد نعمته ، وأمتعه بمواهبه عنده ،
وبارك له فى أعياده ومنتجده أيامه ، بركة تنظم السعادات ، وتضمن الخيرات ،
متصلة غير منقطعه ، وراهنة غير فانية .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

تَهَنُّنٌ فَإِيَّامُ السُّرُورِ أَوْاهِلُ * وَكُلُّ مَخُوفٍ عَن جَنَابِكَ رَاحِلُ !
وَتَجَمُّكَ مِنْ فَوْقِ الْكَوَاكِبِ طَالِعُ ، * وَنَجْمُ أَمْرِي يَشْتَانَا سُمُوكَ آفِلُ !

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي عَمَّ جُودُهُ : * فَدَتَكَ الْعَوَالِي وَالْحِيَادُ الصَّوَاهِلُ !
تَمَّتْ بَعِيدَ النَّحْرِ ، وَفَاكَ خَاضِعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيَاكَ مَا أَنْتَ آمِلُ !
وَدُمَّ كَابِتِ الْأَعْدَاءِ وَأَبْقِ مُحَمَّدًا * عَلَى الْمَالِ عَا ، بِالرَّعِيَّةِ عَادِلُ !
لَقَدْ رَاقَ مَدْحِي فِي مَعَالِيكَ مِثْلَ مَا * صَفَتْ مِنْكَ أَوْصَافُ وَرَقَّتْ سَمَائِلُ !

جعلَهُ اللهُ أَرْبَكَ الْأَعْيَادِ وَأَسْعَدَهَا ، وَأَيْمَنَ الْأَيَّامِ وَأَجْمَدَهَا ، وَأَجْمَلَ الْأَوْقَاتِ وَأَلْذَهَا
وَأَرْغَدَهَا ، وَلَا يَرْحَ مَسْرُورًا مُسْتَبْشِرًا ، مَنصُورًا عَلَى الْأَعْدَاءِ مُقْتَدِرًا ، مَسْعُودًا مُجُودًا ،
مُعَانًا بِمَلَائِكَةِ السَّمَاءِ مَعْضُودًا ، مُهْنًا بِالسُّعُودِ الْجَدِيدَةِ ، وَالْجُدُودِ السَّعِيدَةِ ، وَالْقُوَّةِ
وَالنَّاصِرِ ، وَالْعُمُرِ الطَّوِيلِ الْوَافِرِ :

وَلَا زَالَتْ الْأَعْيَادُ لِيَسْكَ بَعْدَهُ * [فَتَخْلَعُ ^(١)] مَحْرُوقًا وَتُعْطِي مُجَدِّدًا ،
فَذَا الْيَوْمُ فِي الْأَيَّامِ مِثْلُكَ فِي الْوَرَى * كَمَا كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحَدًا كَانَ أَوْحَدًا !

وَأَعَادَهُ عَلَى الْمَوْلَى فِي صِحَّةٍ دَائِمَةٍ ، وَسَلَامَةٍ مُلَازِمَةٍ ، وَأَصَارِ عِيدِهِ مُطِيعًا لِأَوَامِرِهِ
كَسَائِرِ الْعِيدِ ، وَعَيْدِهِ فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنَ الْمَسْرَةِ بِبَقَائِهِ لَهَا كَالْعِيدِ ، وَالْأَيَّامَ بِهِ ضَاحِكَةً
الْمَبَاسِمِ ، وَالْأَعْوَامَ جَمِيلَةَ الْمَوَاسِمِ ، وَمَتَعْنَا بِدَوَامِ حَيَاتِهِ ، وَأَسْتَجْلَاءَ جَمِيلِ صِفَاتِهِ ،
وَأَسْتِحْلَاءَ مَدَائِحِهِ بِأَنْشَادِ عُفَاتِهِ ، وَأَرَاهُ نَحْرَ أَعَادِيهِ ، بَيْنَ يَدَيْهِ كَأَضَاحِيهِ ، وَأَصَارَ الْحَجِّ
إِلَى بَابِهِ غَافِرًا سَيِّئَاتِ الْإِفْلَاسِ وَالْإِعْدَامِ ، وَمُيَسِّحًا لِيَسَّ الْخَيْطِ مِنْ إِنْعَامِهِ الْعَامِ ،
أَلْبَسَهُ اللهُ مِنَ السَّعَادَةِ أَجْمَلَ حُلَّةٍ ، وَمَنَحَهُ مِنَ الْمَكَارِمِ أَحْسَنَ خَلَّةٍ .

الصفحة السادسة — التهنية بعيد الغدير من أعياد الشيعة :

وكان لهم به اهتمام في الدولة الفاطمية بالديار المصرية . والطريق في التهنية به
على نحو غيره من الأعياد .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ما يصلح تهنئة لكلِّ عيد .

أبو الفرج البغاء :

لولا العادة المشهورة، والسنة الماثورة، بالإفاضة في الأدعاء، والمشاهدة بالتهنئة
والثناء، في مثل هذا اليوم الشريف قدره، الرفيع ذكره؛ لكان أيده الله دون رؤساء
الدهر، وملوك العصر يجل عن التهنئة : إذ كانت سائر أيامه بما يودعها من أفعال
الخير معظمه، وبما يثبتها من المحاسن مكرمه، فبلغه الله أمثاله محروساً في نفسه
ونعمته، محفوظاً في سلطانه ودولته؛ موفياً على أبعده أمانيه، مدركاً غايتها فيما يؤمله
ويرتجيه .

وله في مثله :

عرفك الله بمن هذا العيد وبركته، وضاعف لك إقباله وسعادته؛ وأحياك لأمثاله
في أسبغ النعم وأكملها، وأفسح المدد وأطولها؛ وأشرف الرتب وأرفعها، وأعز
المنازل وأيقعها؛ وحرس منحتك من المحذور، ووقى نعمتك من عثرات الدهور .

الصنف السابع - التهنئة بالنبيوز .

وهو من أجل أعياد الفرس، على ما تقدم ذكره في الكلام على أعياد الأمم،
في المقالة الأولى . وكان للكتاب به اهتمام في أوائل الدولة العباسية بالعراق، جرياً
على ما كان عليه الفرس من قديم الزمان .

وفيه لأبي الحسين بن سعد :

هذا يوم شرفته العجم، ورعى ذمامه الكرم؛ وهو من أسلاف سيدي دوي
النباهة، وأخلافه دوي الطهارة؛ بين منشي رنمه، ومؤدى حقه؛ وكاس له بقبول

أنتسأه إليه جمالاً يبقى على الأيام، وحالاً ينفق بها لدى الأنام؛ فليس أحد أحق بالتهنئة [به] من سنه أبأوه، وشيدته الأؤه؛ فصارت إلى أوليته نسبته، وبكرم سحيته عصمته .

وفيه له : هذا - أيد الله سيدي - يوم عظمه السآف من العجم، وسيدي وارث سنة الكرم؛ وللآدة على العييد في هذا اليوم رسم في الإلآف، وعليها لهم حق في القبول والإسعاف؛ وقد بعثت بما حضر جارياً على سنة الخدمه، وعادلاً عن طريق الحشمه؛ ومقتصرآ على ما آسعت له الحال، وما يوجبه قدر سيدي من المبالغة في الآحتفال، فإن رأى أن يشرف عبده بالآحتال إليه، وإجرائه مجرى الأأس عنده، فعل، إن شاء الله تعالى .

وفيه للكرجي :

هذا يوم تسموله العجم، ويستعجم في العرب؛ تشريقاً له وآعترافاً بفضله، وآقدياءً بأهله؛ وآخذآ بسنتهم فيه، فليهن لإحراز الدولة في العز [منزلاً] بحيث لأيرام، ولأيضآم؛ ولا ترقى إليه الأمانى، ولا يطمع في مساواته المسأوى؛ ولأنهم بعد تصرم الدولة على حميد آثارها، وجميل الذكر فيها؛ أعلام تضرب بهم الأمشال، وتزهو بأيامهم الأيام؛ وآثارهم تفتنى، وأعيادهم تنتظر؛ يتأهب لها قبل الآوان، ويعرف فيها أثر الزمان؛ وإنك منهم في الدررة الساميه، والرؤبة العاليه؛ ومحل لأعار معه على حرة في الخشوع لك، والتعلق بحملك. وقد وجدت الأتباع عند ساداتها في مثل هذا اليوم على عادة في الإلآف جسمتها، وسيرت بها على أقوام منحتهم ظهور الدعوى فيها، فأقبل قائلهم يقول : « لو كان باب الإهداء مفتوحآ غير مسدود،

(١) مراده أن العرب آتبع العجم في تعظيمه تأمل . (٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه

حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلاً بحيث الخ تأمل .

وَمُبَاحًا غَيْرَ مُمْنَعٍ ؛ لِأَتَحَفَّتْ بِالْغُرَابِ الْأَعْصَمَ ، وَالْكِبْرِيَّتِ الْأَحْمَرَ ، وَالْأَبْلَقِ الْعُقُوقَ ،
وَبَيْضَ الْأَنْوَقِ . وَقَدْ بَعَثْتُ بَهْدِيَّةً لَا تُرَدُّ (يعنى الدعاء) .

وفيه : من كان محلّك من العزّ ، ونبأه الذّكر ، وارتفاج الدرّج ، وعلوّ المنزله ،
وسعة البلد ، وبعُد الأمد ؛ لم يتقرّب متحلّ بالعلم والأدب إليه في يومٍ جديدٍ
إلا بصالح الدعاء ، وحسن الثناء .

وفيه : لو آخرنّا هذا أنتظاراً لوجود ما ستحقّه ، لأنقضت أيامنا ، بل أعمارنا ،
قبل أن نقضى لك حقّا ، أو نُؤدّي عن أنفسنا فرضاً : لارتفاع قدرك عمّا تحويه
أيدينا ، وعلوّ حالك عمّا تبلغه آمالنا ؛ وقد اقتديت بسنة الخدم والأولياء في الأعياد ،
وأوصحت العُدْر في ترك الاجتهاد ؛ وبعثت في هذا اليوم ، الذى أسأل الله أن يعيده
عليك ألف عام ، في نَمَاء من العزّ ، وعلوّ من القدر ، وتمائم من السُرور ، ومزِيد
من النعمة

الصفحة الثامن - التهنية بالمهرجانات .

وهو أحد أعياد الفرس ، على ما تقدم ذكره في المقالة الأولى ، في الكلام على أعياد
الأمم . وكان للكُتاب من الاحتفال بالتهنية به في أوائل الدولة العباسية ما لهم بالنيروز .

فيه - لأبي الحسين بن سعد :

لسيّدى علىّ في الأعياد المشهورة ، والأيام الجديدة ؛ عادةً اخترتلى عن بعضها
في هذا الفصل ، كلال الطبع عن البعض ؛ ووقوع الخطر (٤) بعرضه من الثناء نظماً
وثراً ، ومن الإهداء عرضاً وبرا ؛ دعاءً تزيد قيمته على الأطلاق الثمينه ، وموقعه على
الذخائر النفيسه ، ولطفه على التحف البديعه ؛ فأسعد الله سيدي بهذا اليوم سعادةً
تقيم ، ولا تريم ؛ وتزيد ، ولا تيبّد ؛ وتتوطن ، ولا تظعن ؛ وتجمع حظوظاً من

الخيرات، وفوائد من البركات؛ يتصلُّ سنُّها، ولا يتهى أمدُّها؛ وأبقاه في أسبغِ عِزِّ^١
وأرفعِ رُتبه وأرغدِ عيشه، مكنوفاً بحراسةِ تقيه [وآله] عوادي الزمان، وتصرف
عنهما طوارقِ الحدَثان؛ ما طرد الليلُ النَّهار، وطلع نجمٌ وغار؛ وعلى ذلك - أيد الله
سيدي - فإنَّ الحِرْصَ على إقامة الرِّسم والتَّطْيِير من إضاعة الحقِّ بعثاني على مُراجعة
التَّريجه، وأسْتِكَاد الرويه؛ فأسعفا بما قبَلته الضرورة؛ ولم أُطع في إهدائه سُلطان
الحِشمه؛ وفضلُ سيدي يتَّسع لقبولِ الميسور، وتحسينِ القبيح؛ والله المعينُ على
تأدية حَقِّه، والقيام بواجبِ فرضه .

وله فيه أيضاً، إلى من منع أن تُهدى إليه فيه هدية .

لو كنتَ فتحتَ باب الإلطف، ونهجتَ إليه سيلاً؛ لتنازع أولياؤك قصبَ
السِّبْق وتنافسوا في السَّرَف؛ فبان للجهْد فضلُه، وآتمس العذرُ في التقصير ملتئمسه؛
وعمت المنحةُ كآفتهم بما يظهر من موافعهم، وينكشِف من أحوالهم؛ لِكِنِّكَ
حظرتَ ذلك حظراً آستوى فيه الفريقان في الحُكم، وأمتدَّ فيه على ذوى الخلل
السُّتْر؛ ولم تحظرُ الدُّعاء، إذ حظرتَ الإهداء؛ فأنا أهديه ضرورةً واختياراً،
وإعلاناً وإسراراً؛ فأسعدَكَ الله بهذا العيد الجديد، الذي زاد بك في قدره، وشرفه
بأن جعلك من أربابه وولاه أمره .

أبو الفرج البغاء :

هذا اليوم من غرر الدُّهور المشهوره، وفضائل الأزمِنه المذكوره؛ معظم
في العهدِ الكِسْروِيّ، مستظرفٌ في العصرِ العربيّ؛ باعثٌ على عماره المودات،
مخصوص بالانيساط في الملائقات، ولستُ أستريده - أيده الله - من بريوليهِ،
ولا تطوّل إلى يسديهِ؛ غير إدخاله في جُملة من بسطته الأئسه، وتقفته المحبه؛

وتَقَرَّبْتُ مِنْهُ بِوَكَيْدِ الْحِدْمَةِ ، فِي قَبُولِ مَا إِنْ شَرَّفَ بِقُبُولِهِ ، كَانَ كَثِيرًا مَعَ قَلْتِهِ ، جَلِيلًا مَعَ نَزَارَتِهِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ يَقْوَى مِنْهُ تَقَيُّي ، وَيُقَابِلُ بِقَبُولِ مَا أَنْفَذْتَهُ رَغْبَتِي ، فَعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

قَدْ أَطَعْتُ فِي الْإِنْسِاطِ إِلَيْكَ دَوَاعِيَ النَّفْسِ ، وَسَلَكْتُ فِي التَّحَرُّمِ بِكَ سُبُلَ الْأَنْسَةِ ، وَتَوَصَّلْتُ بِمَلَاطِفَتِكَ إِلَى حَسَمِ مَوَادِّ الْحِشْمَةِ ؛ فَاسْتَشْهَدْتُ عَلَى تَقَيُّي بِكَ فِيمَا أَنْفَذْتَهُ بِمُفَارَقَةِ الْحَقْلَةِ^(١) ، وَكَلَّفَ الْمُكَاتِرَةَ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تَكَلِّفَنِي فِي تَقَبُّلِهِ إِلَى سَعَةِ أَخْلَاقِكَ ، وَتَسَلَّكَ فِي ذَلِكَ أَخْصَرَ طَرِيقِي إِلَى مَا أَخْطَبُهُ مِنْ مَوَدَّتِكَ ، وَأَزَاحِمُ عَلَيْهِ فِي إِخَائِكَ ؛ فَعَلْتُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

هَذَا الْيَوْمَ - أَيْدِ اللَّهِ سِيدِي - مِنْ أعيَادِ المُرْوَةِ ، وَمَوَاسِمِ الفُتُوَّةِ ، وَأوطَانِ السَّرورِ ، وَمَحَاسِنِ الأَزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ ؛ بَلَّغَهُ [اللَّهُ] أمثالهُ فِي أَنْضَرِ عَيْشٍ وَأَسْبَغِ سَلَامِهِ ؛ وَأَبْسَطِ قُدْرِهِ ، وَأَكْمَلِ مَسَرَّهُ ؛ وَقَدْ تَوَثَّبْتُ إِلَى الْاِقْتِدَاءِ فِيهِ بِأَدْبِهِ ، وَالْاِخْتِذِ بِمَعْرِفَةِ فُرُوضِهِ بِمَدْهَبِهِ ؛ وَأَطَعْتُ فِي الْاِنْسِاطِ إِلَيْهِ دَوَاعِيَ الثَّقَّةِ ، وَأَنْفَذْتُ مَا أَعْتَمَدْتُ فِي قَبُولِهِ عَلَى مَكَانِي مِنْهُ ، عَائِدًا بِالتَّقْلِيلِ مِنْ كَلْفِ الْمُكَاتِرَةِ ، وَمَسْتَتِقِلِ الكَلْفِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ يَأْتِي فِيمَا آتَمَسْتَهُ مَا يُنَاسِبُ شَرَفَ طَبْعِهِ ، وَسَعَةَ أَخْلَاقِهِ ؛ فَعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

لَوْ كَانَتِ المُلَاطَفَاتُ بِحَسَبِ الرُّتَبِ وَقَدَرِ المَنَازِلِ ، لَمَا آبَسَتْ قُدْرَةٌ وَلَا آتَسَعَ إِمكَانٌ لِمَا يَسْتَحِقُّهُ نَبِلُ مَحَلِّهِ ؛ وَوَجِبَاتُ رِيَاسَتِهِ ؛ وَلَكُنْتُ مِنْ بَيْنِ خَدَمِهِ ضَعِيفُ المُنَّةِ عَنْ خِدْمَتِهِ فِي هَذَا الْيَوْمِ السَّعِيدِ ؛ بَلَّغَهُ اللَّهُ أمثالهُ فِي أَفْسَحِ أَجَلٍ ، وَأَنْجَحِ أَمَلٍ ،

(١) كذا في الأصل ولعله «الكلفة» .

بما يخدمه به ذَوُّ الخِدْمَاتِ الوَكِيدَةِ عنده، المَكِينَةِ لَدَيْهِ ؛ غيرَ أَنِّي أُثِقُ منه -أيده الله-
بجملٍ قَلِيلٍ على عِلْمِهِ بإخْلَاصِي فِي وِلَايَتِهِ ، وَأَنْتَسَابِي إِلَى جُمْلَتِهِ ، وَأَخْتِلَاطِي بِأَنْسَابِهِ ؛
فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ يُجِيرَنِي فِي قَبُولِ ذَلِكَ عَلَى سُنَّةِ أَمثَالِهِ مِنْ ذَوِي الْجَلَالَةِ ، عِنْدَ أَمْثَالِي
مِنَ الْأَوْلِيَاءِ وَالْحَاشِيَةِ ، فَعَل .

وله في مثله :

لَوْ كَانَتِ الْهَدَايَا لَا تُسْتَقْبَلُ مَا لَمْ تُنَاسِبْ فِي نَفَاسَةِ الْقَدْرِ ، وَجَلَالَةِ الذِّكْرِ ، مَحَلٍّ مِنْ
يُتَقَرَّبُ بِهَا إِلَيْهِ ، وَمَنْزِلَةً مِنْ أَهْدَاهَا إِلَيْهِ عَلَيْهِ ، لَمَا سَمَتُ هِمَّةً ، وَلَا أَسَّعْتُ قُدْرَةً ،
لَمَا يَسْتَحِقُّهُ -أيده الله- . بِأَيْسَرِ وَاجِبَاتِهِ ، وَأَصْغَرِ مَقْتَرَضَاتِهِ ، غَيْرَ أَنَّ الْأَنْسَابَةَ
بِتَفْضُلِهِ ، وَالْإِعْتِدَادَ بِسَالِفِ تَطَوُّلِهِ ؛ وَالتَّحَقُّقَ بِخِدْمَتِهِ ، وَالْإِنْتِسَابَ إِلَى جُمْلَتِهِ ؛
بَسَطَنِي إِلَى إِنْفَازِ مَا إِنْ شَرَفَنِي بِقَبُولِهِ كَانَ مَعَ قَلَّتِهِ كَثِيرًا ، وَمَعَ نَزَارَتِهِ جَلِيلًا ؛ فَإِنْ
رَأَيْتُ أَنْ يَقْوَى بِذَلِكَ مِنْهُ نِقْتِي ، وَيَحْسِمَ مَادَّةَ أَحْتِشَامِي ، فَعَل .

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال في "مواد البيان" : هذه الكتبُ والرِّقَاعُ مضمونهاُ الهناءُ بالموسمِ الجدیدِ ،
والدعاءُ للمهنأِ فيه بجمليهِ . قال : وهذا المعنى مُقَاوِضٌ بَيْنَ الْمَهْنِيِّ وَالْمَهْنِيِّ ، وَيَنْبَغِي أَنْ
تَكُونَ أَجْوِبَتُهَا مُشْتَقَّةً مِنْهَا . ثم قال : وقد يتصرفُ الكُتَّابُ فِيهَا إِذَا كَاتَبُوا الرُّسَاءَ
تصرفًا يخرج عن هذا الحكم .

وهذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج البغفاء :

سَمِعَ اللهُ دُعَاءَكَ ، وَبَدَأَ فِي تَقْبُلِ الْمَسْأَلَةِ بِكَ ؛ وَأَجْزَلَ مِنْ أَقْسَامِهِ حَظُّكَ ؛ وَبَلَغَكَ
أَمْثَالَهُ فِي أَوْسَعِ مُدَدِ الْبَقَاءِ ، وَزَادَ فِيهَا خَوْلَكَ مِنَ الْمَوَاهِبِ وَالنِّعْمَاءِ ؛ وَلَا أَخْلَانِي
مِنْ بَرِّكَ ، وَأَنْهَضَنِي بِوَأَجِبَاتِكَ .

وله في مثله :

كُلُّ يَوْمٍ أَسْعَدُ فِيهِ بِمَشَاهِدَتِكَ ، وَأَقْطَعُهُ فِي ظِلِّ مَوْدَتِكَ ، حَقِيقٌ بِالْإِحْمَادِ ، مُوفٍ
عَلَى مَحَاسِنِ الْأَعْيَادِ ؛ فَسَمِعَ اللَّهُ دُعَاكَ ، وَأَطَالَ مَا شِئْتَ الْبَقَاءَ بَقَاكَ ؛ وَجَعَلَ سَائِرَ
أَيَّامِكَ مَقْرُونَةً بِالسَّعَادَاتِ ، مَوْصُولَةً بِتَنَاصُرِ الْبَرَكَاتِ .

من زهر الربيع :

يَخْدُمُ الْمَجْلِسَ الْعَالِيَّ جَعَلَ اللَّهُ قَدْرَهُ عَلَى الْأَقْدَارِ سَامِيًا ، وَجَزِيلَ نَوَالِهِ عَلَى مَنْ
هَامَ بِهِ مِنَ الْعَفَاةِ هَامِيًا ؛ وَنَصْرَهُ نَصْرًا عَزِيزًا ، وَأَسْكَنَهُ مِنْ حِرَاسَتِهِ حِصْنًا حَصِينًا
وَمِرْزَا حَرِيْزًا ؛ وَلَا زَالَتِ الْأَيَّامُ حَالِيَةَ الْحَيْدِ بِوُجُودِهِ ، وَالْأَيْدِي تَهَشُّ إِلَى تَنَاوُلِ
أَيْدِيهِ وَجُودِهِ ؛ وَأَخْبَارُ الْمَكَارِمِ عَنْهُ مَرْوِيَّةٌ وَإِلَيْهِ مَعْرُوفَةٌ ؛ وَآيَاتُ فَضْلِهِ وَفَضَائِلُهُ
بِكُلِّ لِسَانٍ مَثْلُوهٌ .

وَيُنْهَى إِلَى عِلْمِهِ وَرُودَ مَشْرِفَتِهِ الَّتِي حَلَّتِ الْأَسْمَاعَ عِنْدَ مَاحِلَّتِ ، وَسَمَّتْ عَنْ
الرِّيَاضِ لَمَّا جُلِّيَتْ عَرُوسُ فَضْلِهَا وَجَلَّتْ ؛ وَزَهَتْ عَلَى زُهُورِهَا ، بِرَقْمِ سُطُورِهَا ؛
وَطِيبَ عَرْفَهَا وَنَشْرَهَا ، بِمَا فَاحَ مِنْ طَيِّبِهَا عِنْدَ نَشْرِهَا ؛ وَفَائِقَ حُسْنِهَا وَبَهْجَتِهَا ، بِرَائِقِ
بِرَاعَةِ عِبَارَتِهَا ؛ وَمَعَامِلَتِهَا بِمَا يَجِبُ مِنْ فُرُوضِ إِكْرَامِهَا وَالسَّنَنِ ، وَالْمَشْيِ فِي تَجْمِيلِهَا
عَلَى الطَّرِيقِ الْمَأْلُوفِ مِنْ مُوَالَاتِهِ وَالسَّنَنِ ، وَعِلْمِهِ بِمَا أَشَارَ إِلَيْهِ مِنَ الْهِنَاءِ بِالْعِيدِ ،
وَالْيَوْمِ السَّعِيدِ ، وَقَدْ تَحَقَّقَ بِذَلِكَ إِحْسَانَهُ الَّذِي مَا بَرِحَ مَتَحَقِّقًا بِجَمِيلِهِ وَجَزِيلِهِ ،
وَشَاكِرًا لِكَثِيرِهِ وَقَلِيلِهِ ؛ وَحَصَلَتْ لَهُ الْبُشْرَى ، وَالْمَسْرَةُ الْكُبْرَى ؛ لَيْسَ لِلْعِيدِ بِمُفْرَدِهِ ،
وَلَا لِهَذَا الْهِنَاءِ بِمَجْرَدِهِ ؛ بَلْ لِبِقَاءِ الْمَوْلَى وَدَوَامِ سَعَادَتِهِ ، وَتَخْلِيدِ سَيَادَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ لِكُلِّ
إِنْسَانٍ عَيْنٌ وَلِكُلِّ عَيْنٍ إِنْسَانٌ ، وَهُوَ رُوحٌ وَالْأَيَّامُ وَالْأَنْأَمُ جُثْمَانٌ ؛ فَالْمَلُوكُ بِبِقَائِهِ كُلِّ

يَوْمٍ يَتَجَدَّدُ لَهُ عَيْدٌ جَدِيدٌ ، وَيَتَضَاعَفُ لَهُ جَدُّ سَعِيدٍ ؛ حَرَسَ اللَّهُ شُرْفَهُ الرَّفِيعَ مِنَ الْأَذَى ، وَأَرَاهُ فِي عَيْنِ أَعَادِيهِ جِدْعًا نَاتِنًا وَسَلَّمٌ لِحَظِّهِ الْمَحْرُوسِ مِنَ الْقَذَى ؛ وَأَصَارَ أَيَّامَهُ كُلَّهَا أَيَّامَ هَنَاءٍ ، وَبِدَايَةَ سَعَادَتِهِ بِغَيْرِ حُدٍّ وَاتِّهَاءٍ .

الضرب السادس

(التهنئة بالزواج والتسرى)

من كلام المتقدمين :

أبو الفرج البيهقي :

وَصَلَ اللَّهُ هَذَا الْإِتِّصَالَ السَّعِيدَ ، وَالْعَقْدَ الْحَمِيدَ ؛ بِأَحْمَدِ الْعَوَاقِبِ ، وَأَجْمَلِ الْمَنَحِ وَالْمَوَاهِبِ ؛ وَجَعَلَ شَمْلَ مَسْرَّتِكَ بِهِ مَلْتُمًا ، وَسَبَبَ أَنْسِكَ بِإِقْبَالِهِ مَتَّظًا ؛ وَعَرَّفَكَ بِهِ تَعَجَّلَ الْبَرَكَاتِ ، وَتَنَاضَرَ الْخَيْرَاتِ ؛ وَلَا أَخْلَاكَ فِيهِ مِنَ التَّهَانِي بِجُبَاءِ الْأَوْلَادِ ، وَكَبَّتْ بِكَثْرَةِ عَدَدِكَ سَائِرَ الْحُسَادِ ؛ وَهَنَانِي النِّعْمَةَ الْجَلِيلَةَ بِإِخَائِكَ ، وَعَضَّدَنِي وَسَائِرَ إِخْوَانِكَ بِبِقَائِكَ .

وله في مثله :

قَرَنَ اللَّهُ بِالْخَيْرَةِ مَا عَقَدْتَ ، وَبِالسَّعَادَةِ مَا جَدَّدْتَ ، وَبِجَمِيلِ الْعَاقِبَةِ مَا أَفْدَتَ ، وَعَزَّفَكَ بَرَكَاتِ هَذَا الْإِتِّصَالِ ، وَلَا أَخْلَاكَ فِيهِ مِنْ مَوَادِّ السَّعَادَةِ وَالْإِقْبَالِ ؛ وَعَضَّدَكَ بِالْبَرَّةِ مِنْ عَقَبِكَ ، وَالسَّادَةِ مِنْ دُرِّيَّتِكَ .

وله في مثله :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ مَلْتَحِفًا بِلُحْفِ مَوَدَّتِكَ ، وَمَتَمِّسًا بِعَصْمِ أُخُوَّتِكَ ؛ أَوْلَى بِالْتَهْنِئَةِ بِمَا يَحْدُثُ لَكَ مِنْ وُرُودِ نِعْمَةٍ ، وَأَتِّصَالِ مَوْهَبَةٍ ؛ فَإِنِّي مَا أُجِدُّ فَرَضَ الدِّعَاءِ لَكَ

ساقطاً ، ولا واجبَ الشكر لله تعالى على ما أولاني فيك زائلاً ؛ فعرفك الله بركة هذا
الاتصال الحميد ، والاتقان السعيد ؛ وجعله للسُّرور مكثرًا ، وباليمن مبشراً ؛ وأحياك
للتهاني بمثله في السادة من ولدك ، والتُّجباء من ذريَّتِكَ .

وله في مثله :

وصل الله هذا الاتِّصال الميمون بأرَّحِ البركات وأفضَلِها ، وأنجَحِ الطَّلِباتِ
وأكملِها ؛ وأحمدَ بدأه وعُقباه ، وبلغك الآمالَ في سائرِ ما تهواه ؛ وأحياكَ للتهاني
بأمثاله في البررة من ولدك ، والتُّجباء من عَقَبِكَ .

من كلام المتأخرين :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جعل الله الخيرة له فيما يذرُه ويأتيه ؛ والنجاحَ مقروناً بما يعيده من الأوامر ويُنْذِيه ،
والألْسنةَ شاكرةً ما يؤويله من الإنعامِ ويُسْديهِ . صدرتْ هذه الخدمةُ معربةً عن
ثناءِ تارِّجِ عرْفُه ، وولاءِ أعْجَزِ الألسنةِ شرحه ووصفه ؛ وتهنئةٍ بهذه الوصلةِ المباركةِ
جعلها الله للاتِّصالِ بالسعادةِ سبباً ، ومحْصَلةً من الخيراتِ مرَّاماً وإفراً وأرباباً ؛
وعرْفُه بركةَ هذا العرسِ الذي أصبحَ الخَيْرُ بِفَنائِهِ مُعرَّساً ، ونورُ الشمسِ من ضياءِ
بهجتهِ مقتبِساً ؛ فنحمدُ الله على هذه الوصلةِ سرّاً وجهراً ، ونشكرُه أن جعلَ بينه
وبين السُّعدِ نَسباً وصِهراً ؛ منحَ اللهُ المولى الرِّفاءَ والبَيْنَ ، والعُمُرَ الذي يُفْنِي الأيامَ
والسِّنِينَ ، ورزقه إسعافاً دائماً وإسعاداً ، وأراه أولادَ أولاده آباءً بل أجداداً ؛
إن شاء الله تعالى .

أجوبة التهئة بالزواج والتسرى

قال في "مواد البيان" : أجوبه هذه الرّاقع يجب أن تكون شكرا للهني على العناية والأهتمام، و[مشملة على] الإبانه عن موقع دعائه من التبرك والتمن به ، إلا أن تكون البدايه بمعنى يخرج عما هذا جوابه ، فينبغي أن يُجاب عنه بما يقتضى الإجابة عن ذلك .

الضرب السابع

(من التّهاني التهئة بالأولاد، وهو على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول - التهئة بالبنين .

مما أورده أبو الحسين بن سعد في ترسله .

إنه ليس من نعم الله وقرائد قسمة وإن حُسن موقعها، ولطف محلها؛ نعمه تعدل النعمة في الولد، لأنها في العدد، وزيادتها في قوة العُضد؛ وما يتعجل من عظيم بهجتها، ويرجى من باقي ذكرها في الخلوف والأعقاب، ولا حق بركتها في الدعاء والاستغفار .

ومنه : إنه ليس من النعم نسيه النعمة في الولد، لزيادتها في قوة العُضد، وحسن موقعها في الخلف والعقب؛ واتصل بي خبر مولود فسرتني ما وصل الله به من العارفة إليك، وشركتك في جميل الموهبة فيه شركة من له مالك وعليه ما عليك؛ وسألت الله أن يؤزعاك شكر النعمة ويؤنس بهذا المولود ربك، ويكثر به عددك؛ ويعظم بركته ويمن طاره عليك، ويزيد به في النعمة كذلك، ويفعل الله ذلك، بمنه وطوله .

وفيه لابي الحسين بن سعد إلى أبي مسلم بن بحر يهنئه بآب حديث له :
 فأما ماجتد الله من النعمة في القادم والموهوب لك ولدا وأنسا، ولنا سندنا
 ودنحرا، فقد جل قدر هذه الموهبة عن أن يحاط لها بوصف، أو يوفى لها بشكر.
 وفيه لعل بن خلف :

ويهي أنه اتصل بالملوك بزوغ نجم سعد في مشارق إقباله، مؤذن بالأساق سموه
 وجلاله؛ فأحدث من الجلال والاستبشار بمقدمه، والتبرك والتمن بقدمه؛
 ماتلألت على الملوك أنواره، وحسنت عنده آثاره؛ وسألت الله تعالى راغبا إليه
 في أن يعرفه سعادة مولده، ويمن موفده؛ ويجعله شادا لعضده، وموريا لزندة؛
 ويشفعه والسادة السابقين، بجباء متلاحقين؛ يتبجحون في نطاق سعادتة، ويتوسمون
 في آفاق سيادته؛ ويصون سلكتهم من الانفصام، وشملمهم من الانهدام؛ ويقيمهم
 غررا في وجوه الأيام، وأقارا في صفحات الظلام؛ بمنه وفضله، إن شاء الله تعالى.

وفيه له : ويهي أن الملوك يسكر الله تعالى على ما أنزله عند مولانا من عوارفه،
 وأختصه به من لطائفه؛ شكر من شاركه في النعمة المسبغة عليه، وأتهى إلى خبر
 السند المتجدد لمولانا، فطار الملوك بخوافي السرور ومقادمه، وأخذ من الإبتهاج بأوفى
 قسمة؛ وسأل الله تعالى أن يبارك له في عطيته، ويردده زيادته؛ ويوفر عدده،
 ويشد بصالح الولد عضده؛ ويخينه من هذا القادم ثمار المسرة، ويرى عينه منه
 أقر قرة؛ ويشفع المنحة في موهبته بإطالة مدته.

وفيه : ويهي أن أفضل النعم موقعا، وأشرفها خطرا وموضعا؛ نعمة الله تعالى
 في الولد؛ لزيادتها في العدد وقوة العضد؛ وما يتعجل من عظم جماله وزيتتها،
 ويرجى من حسن ما لها وعاقبتها؛ في حفظ النسب والأصل، وحسن الخلافة على

الأهل ؛ وجميل الذكر والشَّاء، ومتقبَّل الاستِغْفارِ والدُّعاء ؛ وقد اتَّصل بالملوك بزُوغِ هلالِ سماءِ المجدِّ ، ومتعلِّق الإقبالِ والسَّغد ؛ فأشرقَت الأيامُ بإشراقه ، ووثقتِ الآمالُ باجتلائه وأتساقه ؛ فقام المملوكُ عن مولانا بِشكرِ هذه النعمة المتجدِّده ، والموهبة الراهنة الخالده ؛ وهنأتُ نفسِي بها ، وأخذتُ بحظِّي منها ؛ والله تعالى يعرفه مِن المولودِ من أطهرِ والده وأطيبِ والده ؛ ويعمرُّ به منزله ، ويؤنسُ ببقائه رحله ؛ ويبلِّغُ محبِّيه ، من الآمالِ فيه ، ما بلِّغهم في الماجدِ أبيه ؛ إن شاء الله تعالى .

وفيه : وينهى أن نِعَمَ الله تعالى وإن كانت على مولانا متظاهره ، ولديه متناصره ؛ فقد كان المملوكُ يرغبُ إلى الله تعالى في أن يُجملَ الأيامَ من نسله ، بمن يحفظُ عليها شرفَ أصله ، ويحلِّفه بعد العُمُرِ الطويلِ في نُبْله وكرمِ فعله ؛ ولما اتَّصل بالملوكِ نبأ هذا الهلالِ البازغِ في سمائه ، المُقرِّعين أوليائه ، المحبِّين لظنونِ أعدائه ؛ حمدتُ الله تعالى على موهبته ، وسألته إقرارِ نعمته ؛ وأن يُعرفَ مولانا بركةَ قدمه ، ويُمنَ مقدِّمه ؛ ويوفِّرَ حظَّه من زيادته ، وسعادةِ وفادته ، وأن يجعلَه براً تقياً ، مباركاً رَضياً ؛ ويُفَسِّحَ في أجله ، ويبلِّغه فيه أمله ؛ إن شاء الله تعالى .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

هُنَّتْ بِالْإِسْعَافِ وَالْإِسْعَادِ * وَنَقَّاذِ أُمِّ فِي الْعِدَا بِنَقَادِ!
وَبَقِيَتْ مَا بَقِيَ الزَّمَانُ مَهْنَةً * وَوَقِيَتْ شَرَّ شِمَاتَةِ الْحُسَادِ!
يَا مَالِكِ الرَّقِّ الَّذِي أَضْحَى لَنَا * مِنْ جُودِهِ الْأَطْوَاقِ فِي الْأَجْيَادِ!
خُلِدَتْ فِي عَيْشِ هَنِيٍّ أَحْضَرِ * يَسْطُو بِبَيْضِ طُبَا وَسُمْرِ صِعَادِ،
حَتَّى يَخَاطَبَكَ الزَّمَانُ مَبْشَرًا : * مَتَّعَتْ بِالْإِخْوَانِ وَالْأَوْلَادِ!

جَدَّدَ اللهُ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ مَسْرَّةٌ وَبُشْرَى ، وَأَطَابَ لِعُرْفِهِ عَرَفًا وَتَشْرَابًا ، وَشَدَّ لَهُ
بَوْلَهُ السَّعِيدِ الطَّلَعَةِ أَزْرًا وَأَسْرًا ، وَسَرَّى بِهِ الِهْمُومَ عَنِ الْقُلُوبِ وَأَصْبَارَهَا لَدَيْهِ أُسْرَى ،
وَرَفَعَ دَرَجَتَهُ إِلَى سَمَاءِ الْمَعَالَى لِيُقَالَ : سُبْحَانَ الَّذِي بَعَدَهُ أُسْرَى .

المملوك يُخْدَمُ الْمَوْلَى وَيَهْنِيهِ وَيُشْكِرُهُ ، وَيُطْلِعُهُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْإِبْتِهَاجِ
لِلسَّبَبِ الَّذِي يُنْبِيهِ وَيَذْكُرُهُ ، وَهُوَ أَنَّهُ اتَّصَلَ بِهِ قُدُومُ الْمَسَافِرِ بِلِإِسْفَارِ الْبَدْرِ ،
وظُهُورُ مَيُونِ الْعُرَّةِ الَّذِي جَاءَ لِأَهْلِهِ بِأَمَانٍ مِنْ صُرُوفِ الدَّهْرِ ، وَهُوَ الْوَلَدُ الْعَزِيزُ
الْمَوْفِقُ النَّجِيبُ ، فَلَانَ ، أَبْقَاهُ اللهُ تَعَالَى لِيَحْيَا مَشْكُورًا مَجْمُودًا ، مَنْصُورًا بِسَيْفِ مَجْدِهِ
وَسِنَانِ سَعْدِهِ مَسْعُودًا ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَعُلَاهُ ، وَأَعْلَى نَجْمِهِ وَخَلَّدَ شَرَفَهُ وَبَهَاءَهُ ، وَضَاعَفَ
سَنَاءَهُ وَسَنَاهُ ، وَأَرَانَا مِنْهُ مَا أَرَانَا مِنَ السَّعَادَةِ فِي أَبِيهِ ، فَسُرُّوْا بِتَهْجِ هَذِهِ النِّعْمَةِ غَايَةَ
السُّرُورِ وَالْإِبْتِهَاجِ ، وَأَتَضَحَّ لَهُ فِي شُكْرِ إِحْسَانِ الْمَوْلَى وَحُسْنِ وِلْدِهِ كُلِّ طَرِيقٍ
وَمِنْهَاجٍ ، وَسَأَلَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُطَوِّلَ لَهُ عُمْرًا ، وَيَجْعَلَهُ لِإِسْعَادِ الْوَالِدِ وَإِسْعَافِهِ ذُنُجْرًا ،
لِيَرْتَعَا فِي رِيَاضِ الدَّعَةِ فِي صِحَّةٍ وَسَلَامَةٍ ، وَيَجْعَلَا فِي فَنَاءِ الْعُلَا لَهَا دَارَ إِقَامَةٍ ، وَيُلْغَا
مِنَ السَّعَادَةِ دَرَجَةً لَا تَرِيمُ عَالِيَةً وَلَا تُرَامُ ، وَتَخْضَعُ لَهَا اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ، وَيُرْشِقَاهُمَا
بِسِهَامِ الصُّرُوفِ وَيَطْعَنَاهُمَا بِأَسْتِنَتِهَا ، وَيَقْضِيَا دَعَاءَ الْأَيَّامِ لَهَا مِنْ صُدُورِهَا وَيَسْمَعَا
مِنَ أَسْتِنَتِهَا ، مَخَاطِبَةً لِأَبِيهِ ، وَمَنْشُدَةً لِسَائِرِ أَهْلِهِ وَمَحِيَّةً :

مَدَّكَ اللهُ الْحَيَاةَ مَدًّا ، * حَتَّى تَرَى نَجْمَكَ هَذَا جَدًّا

الصف الثاني - التهئة بالبنات .

من كلام المتقدمين :

أبو الحسين بن سعد :

النِّعْمَةُ نِعْمَتَانِ : إِحْدَاهُمَا تُجْعَلُ الْأُنْسُ ، وَالْآخْرَى تُدْنِرُ الْأَجْرَ ، وَعَلَى حَسَبِ

مَاتَلَقِي بِهِ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى ظَاهِرِ الْمَحْبُوبِ ، وَالتَّسْلِيمِ فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى بَعْضِ الْمَكْرُوهِ ؛
يَكُونُ الْمَتَاعُ عَاجِلًا ، وَالثَّوَابُ آجِلًا ؛ وَمَا قَدَّمْتُ الْقَوْلَ [إِلَّا] لِمَا ظَنَنْتَهُ يَعْرُضُ
لَكَ مِنَ الْوُجُومِ فِي هَذِهِ الْمَوْهَبَةِ ، فِي الْمَوْلُودَةِ الَّتِي أَرْجُو أَنْ يَعْظُمَ اللَّهُ بَرَكَتَهَا ، وَيَجْعَلَهَا
أَيْمَنَ مَوْلُودٍ فِي عَصْرِهَا ، وَدَالَّةً عَلَى سَعَادَةِ أَبِيهَا وَجَدِّهَا ؛ وَ[لِّئِنْ] كَانَ فِي الطَّبَعِ حُبُّ
الذُّكُورِ وَالشَّغْفُ بِالْبَيْنِ ، فَإِنَّ الْبَيْنَانَ مِنَ الْبَنَاتِ ، وَهِنَّ بِالْأَيْمَنِ مَعْرُوفَاتٌ ؛ وَبِالْبَرَكَاتِ
مَوْصُوفَاتٌ ، وَبِالذُّكُورِ فِي أَثَرِهِنَّ مَبْشِرَاتٌ ؛ فَهَنَّاكَ اللَّهُ النِّعْمَةَ فِيهَا تَهْنِئَةً لَا تَنْقِضِي
سَعَادَتَهَا ، وَلَا يَعْتَرِضُ النِّقْصَ وَالتَّقْدِيرَ شَيْئًا مِنْهَا ؛ وَابْقِي هَذِهِ الصَّبِيَّةَ مَمْتَعًا أَبُوهَا بِهَا ،
وَمُنْشَأً لَهُ الْحِطُّ مِنْ حَدَاتِهَا ؛ وَبَلِّغْهَا أَفْضَلَ مَبَالِغِ الصَّالِحَاتِ الْفَائِتَاتِ مِنْ أُمَّهَاتِهَا ؛
وَجْعَلْ فِي مَوْلِدِهَا أَصْدَقَ دَلِيلٍ عَلَى طُولِ عُمُرِ أَبِيهَا وَسَعَادَةِ جَدِّهِ ، وَتَضَاعُفِ نِعَمِ اللَّهِ
عِنْدَهُ ؛ إِنَّهُ لَطِيفٌ جَوَادٌ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

مَرْحَبًا بِبِكْرِ النِّسَاءِ ، وَبِكْرِ الْأَوْلَادِ ، وَعَقِيلَةَ الْخِجَاءِ ، وَالْمَأْمُولَةَ لِلْبَرَكَةِ ، وَالْمَشْهُورَةَ
بِالْأَيْمَنِ ؛ وَقَدْ جَرَّبْنَا فَوْجِدَانَهُ مَعْهُودًا مَسْعُودًا ؛ وَاللَّهُ يَعْرِفُكَ أَضْعَافَ مَا عَرَفَ
مَنْ قَبْلَكَ ، وَيُبَارِكُ لَكَ فِيمَا رَزَقَكَ ؛ وَيُنَيِّئُ لَكَ بِأَخٍ لِلْمَوْلُودَةِ وَيَجْعَلُهُ رَدِيفَهَا ،
وَفِي الْخَيْرِ قَرِينَهَا وَشَرِيكَهَا .

علي بن خلف :

وَيُنَبِّئُ أَنَّ الْمَمْلُوكَ أَتَّصَلَ بِهِ آرْتِمَاضٌ مَوْلَانَا بِمَقْدَمِ الْكَرِيمَةِ الْوَافِدَةِ ، بِطَالِعِ
السَّعَادَةِ الْمُتَجَدِّدَةِ ؛ فَعَجِبَ الْمَمْلُوكُ مِنْ وَقُوعِ ذَلِكَ مِنْ مِثْلِ مَوْلَانَا مَعَ كَمَالِ نُبُلِهِ ،

(١) المراد به التضييق انظر القاموس .

(٢) يريد قلقه وعدم انبساطه .

وشرف عقله وعلمه ؛ فإن الله تعالى جلَّ اسمه يقول : ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاءًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ وإن ما جتده الله تعالى من مواهبه جدير أن يتلقى بالسرور والفرح ، لا بالاستياء والترح ؛ لاسيما والذكر إنما يتفضل على الأنثى بنجابته ، لا بجلبته وصورته ؛ وقد يقع في الإناث من هو أشرف من الذكور طبعاً ، وأجزل عائدةً ونفعاً ؛ وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ” إِذَا رُزِقَ الْعَبْدُ الْأُنْثَى نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : يَا أَهْلَ الدَّارِ أَنْشُرُوا بِالرُّزْقِ ؛ وَإِذَا رُزِقَ ذَكَرًا نَادَى مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ : يَا أَهْلَ الدَّارِ أَنْشُرُوا بِالْعِزِّ ” فليستقبل مولانا الرزق بالشكر فإن العز يتبعه ، ولا يعارض الله تعالى في إرادته ؛ ولا يستقل شيئاً من هبته ؛ والله تعالى يعرفه بمن عهدها ، وسعادة قدمها ؛ وأن يسره بعدها بإخوة متابعين متلاحقين ؛ يؤيدون أمره ، ويحيون بعد العمر الأطول ذكوره .

أبو الفرج الببغاء :

لو كان الإنسان متصرفاً في أمره بإرادته ، قادراً على إدراك مشيئته ؛ لبطلت دلائل قدره ، وأستحالت حقائق الصنعه ؛ ودرست معالم الآمال ، وتساوى الناس ببلوغ الأحوال ؛ غير أن الأمر لما كان بغير مشيئته مصنوعاً ، وعلى ما عنه ظهر في الابتداء مطبوعاً ؛ كان المخرج له إلى الوجود من العدم ، فيما آرتضاه له غير متهم ؛ ومولانا - أيداه الله - مع كمال فضله ، وتناهي عقله ؛ وحيدة فطنته ، وثاقب معرفته ؛ أجل من أن يجهمل مواقع النعم الواردة من الله تعالى عليه ، أو يتسخط مواهبه الصادرة إليه ؛ فيرمقها بنواظر الكفر ، ويسلك بها غير مذاهب الشكر .

وقد أتصل بالملوك خبر المولودة كرم الله غررتها ، وأطال مدتتها ؛ وعرف مولانا البركة بها ، وبلغه أمله فيها ؛ وما كان من تغيره عند أنصاح الخبر ، وإنكار ما آختره

له سابقُ القَدَرِ؛ فمَجِبَ المملوكُ من ذلك وأَسْتَنَكَه، من مَوْلانا وَأَنْكَرَه؛ لِضِيقِ العُدْرِ في مثله عليه . وقد عَلِمَ مَوْلانا أَنَّهُنَّ أَقْرَبُ إلى القُلُوبِ ، وأنَّ اللهَ تَعَالَى بدأ بِهِنَّ في الترتيبِ فقال جَلَّ من قائلٍ : (يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَّا لَهُ وَهَبٌ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ) وما سَمَّاهُ اللهُ هَبَّةً فهو بالشُّكرِ أَوْلَى، وَبِحُسْنِ التَّقَبُّلِ أَحْرَى؛ وَلَكَم نَسِبَ أَفْدَنَ، وَشَرَفَ أَسْتَحَدَّثَنَ؛ من طُرُقِ الأَصْهارِ، وَالإِتِّصَالِ بِالْأَخْيَارِ . وَالْمَلْتَمَسُ مِنَ الذِّكْرِ نِجَابَتُهُ ، لِأَصُورَتِهِ وَوِلادَتِهِ ؛ وَلَكَم ذَكَرِ الأَثَى أَكْرَمُ مِنْهُ طَبْعاً ، وَأَظْهَرُ مِنْهُ نَفْعاً ؛ فَمَوْلانا يُصَوِّرُ الحَالَ بِصُورَتِهَا ؛ وَيَجِدُّ الشُّكْرَ عَلَى ما وَهَبَ مِنْهَا ؛ وَيَسْتَأْنِفُ الاعْتِرَافَ لَهُ تَعَالَى بِما هُوَ الأَشْبَهُ بِبِصيرَتِهِ ، وَالأَوْلَى بِمِثْلِهِ ؛ إِنْ شاءَ اللهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث - التهئة بالتوعم .

أَحْسَنُ ما رَأَيْتُ من ذلك قَوْلُ بعضِ الشُّعراءِ ما كَتَبَ بِهِ إلى بعضِ أَصْحابِهِ ، وَقَدْ وُلِدَ لَهُ ذِكْرُ وَائْتِيٍّ مِنْ جاريةِ سِوَداءَ ، وَهُوَ قَوْلُهُ :

وَخَصَّكَ رَبُّ العَرِشِ مِنْها بِتَوَعَمٍ * وَمِنْ ظُلُماتِ البَحْرِ يُسْتَخْرِجُ الدَّرْرَ!
وَاركَ أَضْحَى وارِئاً عِلْمَ جاريِ . * فَأَعْطَاكَ مِنَ ألقابِهِ الشَّمْسَ والقَمَرَ!

الأجوبة عن التهئة بالأولاد

قال في "مواد البيان" : أجوبة هذه الرِّقاعِ يَجِبُ أنْ تُبْنَى على شُكْرِ أَهْتامِ المَهْنِيِّ ورِعايَتِهِ ، وَالاعْتِدادِ بِعِنايَتِهِ ؛ وَأَنَّ الزيادةَ في تَجَدُّدِ المَهْنِيِّ [به] زيادةٌ في عَدَدِهِ ، وَأَنَّ نِصيبَهُ من تَحْرُكِ السُّرورِ فيما يَخْلُصُ إِلَيْهِ مِنَ المَواهِبِ كِنايَتُهُ ؛ لِتَناسُيِهِما في الإِخاءِ ، وَتَوافِيهِما في الصِّفاءِ ، وَأَنَّ تراعى مع ذلك مَرْتَبَةُ المَهْنِيِّ وَالْمَهْنِيِّ ، وَبِئْسَ الخِطابُ عَلَى ما يِقْتَضِيهِ كُلُّ مِنْهُما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وَيُنْهَى رُودَ الْكَتَابِ الَّذِي تَشْرَفُ الْمَمْلُوكُ بِرُودِهِ ، وَأَشْرَقَتِ الْأَيَّامُ بِكَالِ
سُعُودِهِ ، وَأَرْغَمَ بِبِلَاغَتِهِ مَعْطَسَ مُنَاوِيهِ وَحَسُودِهِ ؛ فَشَكَرَ أَيَادِيَّ مِنْ أَنْعَمَ بِإِرْسَالِهِ ،
وَأَ كَتَسَى بِالْوُقُوفِ عَلَيْهِ حُلَّةً مِنْ حُلَلِ نَخْرِهِ وَجَمَالِهِ ؛ وَبَالِغَ فِي إِكْمَالِهِ ، حَتَّى وَقَفَ
إِجْلَالًا لَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، ثُمَّ تَلَا آيَاتِ حُسْنِهِ عَلَى أُذُنَيْهِ ؛ فَوَجَدَهُ مَشْتَمِلًا عَلَى إِحْسَانِ
لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَى مِثْلِهِ أَحَدٌ ، وَمِنْ أَوْدَعَهَا فِيهِ فَلَا يُحْصِيهَا حَضْرًا وَلَا عَدَدًا ؛ فَهَيَّجَ بُرُودَهُ
رَسِيْسَ الْأَشْوَاقِ ، وَتَقَلَّدَ بِإِنْعَامِ مُرْسِلِهِ كَمَا قُلِّدْتَ الْحَمَائِمُ بِالْأَطْوَاقِ ، وَوَجَدَ لَوْعَةً
لَا يُحْسِنُ وَصْفَهَا لِسَانُ الْيَرَاعِ فِي الْأُورَاقِ ؛ وَعَلِمَ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ الْمَوْلَى مِنَ التَّهْنِئَةِ
بِالْوَلَدِ الْجَدِيدِ ، بَلْ بِأَصْغَرَ الْخَدَمِ وَالْعَبِيدِ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ مِنَ الْإِهْتِهَابِ لِمِيلَادِهِ ، وَأَظْهَرَهُ
مِنَ التَّفَضُّلِ الْمَعْرُوفِ مِنْ آبَائِهِ الْكِرَامِ وَأَجْدَادِهِ ؛ وَلَمْ لَا يَكُونُ الْأَمْرُ كَذَلِكَ
وَالْوَالِدُ مَمْلُوكُهُ ، وَهُوَ مَمْلُوكُ السَّادَةِ الْأَجْلَاءِ أَوْلَادِهِ ؛ حَرَسَ اللَّهُ مَجْدَهُ وَمَتَّعَهُ بِثَوْبِ
مَكَارِمِهِ ، وَخَفَّضَ قَدْرَ مُحَارِبِهِ وَرَفَعَ كَلِمَةَ مُسَالِمِهِ ؛ وَلَا زَالَ مَمَالِكُهُ تَتَرَدَّدُ تَزِيدُ
الْأَيَّامِ ، وَسَعَادَتُهُ بَاقِيَةٌ بَقَاءَ الْأَعْوَامِ ، وَعَيْنُ الْعِنَايَةِ تَحْرُسُهُ فِي حَالَتِي السَّفَرِ وَالْمَقَامِ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثامن

(من التهاني التهنئة بالإبلال من المَرَضِ وَالْعَاقِيَةِ مِنَ السَّقَمِ)

فمن ذلك :

وَيُنْهَى أَنَّهُ مَازَلَتْ أَجْسَامُ أَهْلِ التَّصَافِي ، تَشْتَرِكُ فِي الْأَسْقَامِ وَالْعَوَافِي ، كَمَا تَشْتَرِكُ
أَنْفُسُهُمْ فِي التَّخَالُصِ وَالتَّوَافِي ؛ وَلَمَّا أَلَمَ بِمَوْلَانَا هَذَا الْأَمُّ الَّذِي تَفَضَّلَ اللَّهُ تَعَالَى

بإماتته ، ومنّ فيه على السؤدد بحراسة مولانا وحياطته ؛ فرأيتُه حالاً في جوارحي ،
مُحَرِّقاً لجوائحي ؛ مازجاً لأعضائي ، ممتلكاً لأنوائِي^(١) ؛ ولئن كنتُ قد تجملتُ من ذلك
عباً ، وأرتقيتُ من تجلّه مُرتقى صعباً ؛ فلقد نخرتُ بمأسسته ، وأحمدتُ طبعي على
مُساكلته ؛ وشكرتُ الله تعالى إذ جعلني شُعبة من سرحته ، وجيلة من طينته ؛ وعلى
مأسرته من إقالته وإنعاشه ، ومُصافاته وإنشاشه ؛ وسألتُ الله تعالى أن يبقية نُورا
يُوضِّحُ مغربَ الدهرِ ومشرقه ، وُدراً يرضعُ فؤدَ المجدِ ومفرقه ؛ ويُحسِنَ الدِّفاعَ عن
حَوْبائه ، وهو سبحانه يُجيبُ ذلك ويتقبّله ، ويرفعه ويسمعه ؛ إن شاء الله تعالى .

وله في مثله :

المملوكُ يهنئُ مولاهُ خاصّةً إذ جعله الله تعالى من صفوةِ أوليائه ، وخالصةِ أحبائه ؛
الذين يتبليهم اختباراً ، ويتنابهم اختياراً ؛ ليجمع لهم بين تمحيصِ وزرهم ، ومضاعفةِ
أجرهم ؛ والحضّ على طاعته ، والألّانصرافِ عن معصيته ؛ ويهنئُ الكافّةَ عامّةً بالموهبةِ
في نُوره المُطلّعةِ لاملِ الإقبالِ ، المُرويةِ لمآحلِ الآمالِ ؛ ثم أعطفُ على خُد الله
على مآمنٍ به من إبلاله ، ويسره من استقلاله ؛ والرغبةِ إليه في أن يمنحه صححةً مُخلدً
وتُقيم ، وعافيةً ترهنّ ولا تريم ؛ وأن يجيئه من عوارضِ الأسقامِ ، ويصونه من حوادثِ
الأيامِ ؛ بفضله وجوده ، إن شاء الله تعالى .

أبو الفرج البغواء :

أفضلُ ما يفزعُ إليه العبدُ المُخلصُ ، والمولى المتخصّصُ ؛ فيما ينوبُ سيدهُ ويهم
وَلِيَّ نِعْمَتِهِ ، الدعاءُ المقترنُ بصدقِ النيةِ ، وصَفَاءِ الطويِّهِ [فالحمدُ لله الذي من بالصحةِ]
وتصدقُ بالإقالةِ ، وتداركُ بجميلِ المُدافعةِ ؛ وعمّ سائرَ خُدَمِهِ أيدهُ الله بالنعمه ، وأعادَه

(١) كذا في الأصل ولعله لأحشائي أرنحو ذلك .

إلى أجمل عاداته من السلامة والصحة، فائراً بمدخر الأجر، متعبداً بمستأنف الشكر؛ فلا أخلاه الله من زيادة فيما يؤليه، ولا قصدنا بسماع سوء فيه؛ وحرص من الغير مهيجته، ومن المحذور نعمته .

وله في مثله :

ما كنت أعلم أنّ عافيتي مقرونة بعافيتك، ولا سلامتي مضافة لسلامتك؛ إلى أن تحققت ذلك من مشاركتي إياك في حالتى الألم والصحة، والمرض والمحنة؛ فالحمد لله الذى شرف طبيعى بمناسبتك، وجمّل خلقى بملاءمتك؛ فيما ساء وسرّ، وإياه تعالى أشكر على ماخصنى به من كمال عافيتك، وسُبوغ سلامتك وسرعة إقالتك؛ وبه - جلّ اسمه - أتقّى فى مزيدك من تظاهر النعم، وتوفّر القسم .

وله فى مثله :

ولولا أنّ متضمن كتابك قرّن ذكر المرض الهاجم عليك، بذكر ما وهبه الله لك من عود السلامة إليك؛ لما اقتصر بى القلق على [ما] دون المسير نحوك، والمبادرة لمشاهدتك؛ غير أنّ السكون إلى ما أدّاه كتابك سابق الجزع، والطمانينة إلى ما وهبه الله من كفايتك حالت دون الهلع؛ فالحمد لله الذى من بالإقالة، وتصدق بالسلامة وعمم بالكفاية؛ وهو ولى حراستك وحراستى فىك .

وله فى مثله :

سيدنا فى سائر ما يدركه الله من هجوم ألم مؤذّن بصحة، وأعراض محنة مؤدّية إلى منحه؛ مرهوق بالعافية، محروس من الله جلّ اسمه بالحفظ والكلاءة؛ فهو مع العلة فائز بذخائر الأجر، ومع العافية موفق لا يستعادة الشكر؛ فالحمد لله الذى عقد الكرم ببقائه، وشفى مرض الآمال بشفائه؛ وكفاه أعراض الخوف، وعوارض الصروف .

وله في مثله :

مَا أَنْفَرَدَ جِسْمُكَ بِالْعِلَّةِ دُونَ قَلْبِي ، وَلَا أَخْتَصَّصْتُ نَفْسَكَ - حَرَمَهَا اللَّهُ تَعَالَى -
بِعْمَانَةِ الْمَرَضِ دُونَ نَفْسِي ؛ وَلَمْ أَزَلْ بِالْقَلْبِ تَالِيًا ، وَفِي سَائِرِ مَا شَكُوْتُهُ بِالنِّيَّةِ مُسَاوِيًا ؛
إِلَى أَنْ كَشَفَ اللَّهُ الْغُمَّةَ ، وَأَقَالَ الْعَثْرَةَ ، وَنَفَسَ الْكُرْبَةَ ؛ وَمَنْنَ بِالسَّلَامَةِ ، وَتَصَدَّقَ
بِالْكِفَايَةِ ؛ وَأَوْجَبَ بِالْعَافِيَةِ عَلَيْنَا جَمِيعًا فُرُوضَ الشُّكْرِ ، بَعْدَ مَا أَدَّخَرَ لَكَ بِالْأَلْمِ مِنْ
كَثْرَةِ الْأَجْرِ ؛ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذَلِكَ حَمْدًا يُؤَدِّي إِلَى حِرَاسَةِ مَا حَوَّلَكَ ، وَيُؤَدِّنُ بِالْمَزِيدِ
فِيَا مِنْحِكَ .

ومن كلام المتأخرين :

أَعْلَى اللَّهِ قَدَرَ الْجَنَابِ الْفَلَّانِي ، وَلَا زَالَتْ شُمُوسُ أَيَامِهِ لِاتِّخَافِ كُسُوفِهَا وَلَا أَقْوَالًا ،
وَأَقْمَارُ لِيَالِهِ تَغْرَسُ فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِهِ وَمَحَبِّيهِ فُرُوعًا وَأَصْصُولًا .

المملوكُ يخدمُ خدمةً من تجلُّ جميلًا ، ونال من تفضل الجنب الكريم جزيلا .

وَيُنْهَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ السُّرُورِ بِعَافِيَةِ مَوْلَانَا ، فَالشُّكْرُ لِلَّهِ عَلَى مَا جَدَّدَ مِنَ النِّعْمَةِ
التَّامَّةِ ، وَسَمَّحَ بِهِ مِنَ الْكِرَامَةِ الْعَامَّةِ ؛ حِينَ أَعَادَ الْبَدْرَ إِلَى كَمَالِهِ ، وَالسُّرُورَ إِلَى أُمَّتِّ
أَحْوَالِهِ ؛ وَمَا كَانَتْ إِلَّا غَلْطَةً مِنَ الدَّهْرِ فَاسْتَدْرَكَهَا ، وَصَفْقَةً خَارِجَةً عَنْ يَدِهِ فَمَلَّكَهَا ؛
فَقَرَّتْ بِذَلِكَ الْعُيُونَ ، وَتَحَقَّقَتْ فِي بُلُوغِ الْأَمَلِ الظُّنُونِ ؛ وَأَجْبَرَ قَلْبُهُ بَعْدَهَا وَهَنَ ،
وَعَادَ جَفْنُهُ بَعْدَ الْأَرْقِ إِلَى الْوَسَنِ ؛ وَقَالَ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ .
وَلَقَدْ كَانَ يَتَّبِعِي الْمَمْلُوكُ لَوْ فَازَ مِنَ الرُّؤْيَةِ الشَّرِيفَةِ بِحِطِّ السَّمْعِ وَالْبَصَرِ ، وَتَمَلَّى بِمَشَاهِدَةِ
وَجْهِهِ الْكَرِيمِ فَإِنَّ فِيهِ الْبُغْيَةَ وَالْوَطْرَ .

والمملوك فما يعد نفسه إلا من المحبين الذين بذلوا نفوسهم لمحبه وأعدوها ؛ والله
تعالى يسر الأولياء بتضاعف سعوده ، ويديم بهجة الأيام بميمون وجوده ؛ ويطيل

في مدته ويحرسها من الغير، ويحرس أحوال مزاجه الكريم على القائلون المعتبر،
ويكفي أوليائه ومحبيه فيه كل مكروه وحذر؛ إن شاء الله تعالى .

من زهر الربيع :

ولما شكوت، أشتكى كل ما * على الأرض وأهتر شرق وغرب!

لأنك قلب لجسم الزمان * وما صحَّ جسم إذا اعتلَّ قلب!

حرس الله جنابه، وأسبل عليه رداء السعد وأثوابه؛ ومنعه برود العافية وجلبابها،
وفتح له إلى نيل السعادة سائر أبوابها؛ ومنحه الكفاية والأمن في سريه، والعافية
في جسمه من فلق كل مرض وكرهه؛ وجمع له بين الثواب والأجر، وجازاه بجزيل
الغفران عن جميل الصبر .

المملوك يبشر نفسه ومولاه بما من الله به من صحة مزاجه الكريم، والإبلال من
مرض كاد يدير كئوس الحمام على كل صديق حميم؛ ويمجد الله على عافيته حمدا
جزيلا، ويشكره عليها بكرة وأصيلا؛ فإنه قد عوفي لعافيته المجد والكرم، وزال عنه إلى
أعدائه الألم؛ فالمولي حفظ الله صحته من السقم، وحماه من ألم ألم؛ وجعل سعادتَه
تترايد على ممر الأنفاس، وجسده سالما من الأذى كسلامة عرضه من الأذناس؛
إن شاء الله تعالى .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقى الله من الأسواء شخصه الكريم، وشمله النظيم؛ وقلب محبه الذي هو في كل
وادي من أودية الإشفاق يريم .

ولا زالتِ الصِّحَّةُ قَرِينَهُ حَتَّى لَا يَعْتَلَّ فِي مَنَازِلِهِ غَيْرُ مُرُورِ النَّسِيمِ . وَيَصِفُ شَوْقًا
يَزِيدُ بِالْأَنْفَاسِ وَقَدَا ، وَيَجِدُّ لِلْأَحْشَاءِ وَجْدًا ، وَيَبَاشِرُ الْقَلْبَ الْمُغْرَمَ فَيَمُدُّ لَهُ مِنْ
عَذَابِ الْإِنْتِظَارِ مَدًّا .

وَيَنْهَى أَنَّهُ جَهَّزَ هَذِهِ الْخِدْمَةَ نَائِبَةً عَنْهُ فِي اسْتِجْلَاءِ وَجْهِهِ أَكْرَمِ الْأَحْبَةِ ، وَتُصَاحِغِ
الْيَدَ الَّتِي أَقْلَامُ كُتُبِهَا فِي شَكْوَى الْبِعَادِ أَطْبَهُ ، مَبْدِيَةً إِلَى الْعِلْمِ الْكَرِيمِ أَنَّهُ مَعَ مَا كَانَ
يَكَابِدُهُ مِنَ الْأَشْوَاقِ ، وَيَعَالِجُهُ مِنْ خَوَاطِرِ الْإِشْفَاقِ ، بَلَّغَهُ ضَعْفُ الْجَسَدِ الْمَوْقِي ،
وَإِعْرَاضُ الْأَلْمِ الَّذِي اسْتَطَارَ مِنْ جَوَانِحِ الْمُحِبِّينَ بَرْقًا ؛ فَلَا يَسْأَلُ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ عَنْ
قَلْبِ تَأَلُّمٍ ، وَصَدْرِ صَامِتٍ بِالْهُمُومِ وَلَكِنَّهُ بِجِرَاحِ الْأَشْجَانِ تَكَلَّمَ ، وَلِسَانِ أَنْشَدَ :

أَلَا لَيْتَنِي حُمَلْتُ مَا بَيْكَ مِنْ ضَنْبِي * عَلَى أَنْ لِي مِنْهُ الْأَذَى وَلَكَ الْأَجْرُ!

ثُمَّ لَطَّفَ اللَّهُ تَعَالَى وَعَجَّلَ خَبَرَ الْعَافِيَةِ الْمَأْمُولَةَ ، وَالصِّحَّةِ الْمُقْبِلَةَ عَقِيبَ الدَّعَوَاتِ
الْمَقْبُولَةِ ؛ فَيَالِهَا مَسْرَّةً شَمَلَتْ ، وَمَبْرَةً كَلَّمَتْ ؛ وَتَهْنِئَةً جَمَعَتْ قُلُوبَ الْأَوْدَاءِ وَجَمَلَتْ ،
وَأَعْضَاءَ فَدَتْهَا عِيُونُ الْمَهَامَا فَتَقَلَّتْ عَنْهَا صِفَاتِ السَّقَامِ وَحَمَلَتْ ؛ وَعَافِيَةً حَوَّلَتْ إِلَى
قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ الْمَرَضِ ، وَجَوْهَرِ جَسَدِ طَاهِرٍ زَالَ [عَنْهُ] بِأَسِّ الْعَرَضِ ؛ فَهَنِيئًا لَهُ
بِهَذِهِ الصِّحَّةِ الْمُتَوَافِرَةِ الْوَاقِيَةِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى أَنْ جَمَعَ بَيْنَ حُصُولِ الْأَجْرِ
وَوُصُولِ الْعَافِيَةِ ، وَعَلَى أَنْ حَفِظَ ذَاتَهُ الْكَرِيمَةَ وَحَفِظَهَا هُوَ الْمَقْدَمَةُ الْكَافِيَةُ الشَّافِيَةُ :

وَتَقَاسَمَ النَّاسُ الْمَسْرَةَ بَيْنَهُمْ * قَسِمًا فَكَانَ أَجْلَهُمْ قَسِمًا أَنَا!

وَاللَّهُ تَعَالَى يُسْبِغُ عَلَيْهِ ظِلَالَ نِعْمِهِ ، وَيَحْفَظُهُ حَيْثُ كَانَ فِي نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ وَخَدَمِهِ ؛
وَكَأَسْرَ الْأَحْبَابِ بِجَبْرِ عَافِيَتِهِ كَذَلِكَ يُسْرُهُمْ بَعِيَانِ مَقْدَمِهِ .

أجوبة التهئة بالإبلال من المرض والعافية

قال في "مواد البيان": أجوبة هذه الرّاقع يجب أن تكون مبنية على وصف الألم وصورته وما تفضّل الله تعالى به من إماتته ، وشكر المهني بأهتامه وعنايته .

وهذه أمثلة من ذلك :

من زهر الربيع :

أدام الله نعمته ، وشكر مته ، وأدال دولته ؛ وأعلى قدره وكلمته ، وحّم على الألسنة شكره والقلوب محبته . ولا زالت التهانى من جهته وافده ، والبشائر واردة .

ويُنهى ورود الكتاب الذى أعدته يد المعالى فعاد كريما ، وشاهد حُسن منظره فصار وجهه وسما ، وأنه وقف عليه ، وأحاط علما بكل ما أشار المولى إليه ؛ فذكره أنسا كان بخدمته لم ينسه ، وجدد له وجدا ما زال يجد في قلبه ونفسه عينه ونفسه ؛ ونشر من مآثره الماثورة ، وفضائله المرقومة في صفائح الصحائف المسطورة ؛ ماشف به وشرف ، وشوق إلى لسانه وشوف ؛ وأقام البرهان على ذكي فطنته ، وزكي فطرته ؛ وعلم ما أنعم به وتفضل ، وأحسن وتطول : من تهئة المملوك بالإبلال من مرضه ، والبرء من سقمه ، والتخلص من يدى وجعه وألمه ؛ وسرور ورود كريم مشرفته ، أعظم من سروره بلباس ثوب عافيته ؛ وبدوام مجده وسعادته ، أكثر من صحّة مزاجه وأستقامته : فإن مكارم المولى كالحدايق الناضرة ، ومثرتة أعز في القلوب من الأحداق الناظرة .

فالحمد لله الذى من بالعافية من ذلك المرض ، والداء الذى ألمّ بعرضيه فاحتوى منهما على الجوهر والعرض ؛ وطال حتى أسأمه من نفسه وعواده ، وآيسه من الحياة

لولا لطف الله والله لطيف بعباده ؛ وهذا ببركة المولى ودعائه الذى كان يرفعه ،
والخواطر والأسماع مع بُعد الشقة تشهد به وتسمعه ؛ جعل الله التهانى مع الأبد
واردة منه وإليه ، وشكر إنعامه وأتم نعمته عليه ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وكتبت للمقر العلائى علاء الدين الكركى وهو يومئذ كاتب السر الشريف
فى الدولة الظاهرية «برقوق» فى سلطته الثانية ، وقد برأ من مرض نظما :

أفديه من جسد قد صح من سقم * فبات جوهره خال من العرض !
فاستبشرت بعلى القوم شيعته * ومات حاسده بالسقم والمرض !

الضرب التاسع

(التهنئة بقرب المزار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

قرب الله مزاره ، وأذنى جواره ، وأعان أعوانه ونصر أنصاره . ولا زالت
الأنفس لقربه مسروره ، ورايات مجده فى الملا الأعلى وأحزاب الإسلام بهيته على
اعداء الدين منصوره .

الملوك يقبل الباسطة العالية بسط الله ظلها ، وشكر على الأولياء فضلها . وينهى أنه
أتصل به طيب أخباره ؛ وقرب مزاره ؛ فتضاعف شوقه ، وتزايد توفقه ؛ وهيجت
صبايته لاجعه ، وسهلت إلى نيل المسرة طرقة ومناهجه :

وأبرح ما يكون الشوق يوماً * إذا دنت الديار من الديار !

فالله يقرب من أمد التلاقى بعيدا ، ويجعل رداء الاجتماع بخدمته قشيبا جديدا .

الضرب العاشر

(التهنئة بنزول المنازل المستجدة)

فمن ذلك [من إنشاء] علي بن خلف :

أشرف المنازل رُفَعه ، وأترفها بُقعه ، وأرفعها رُفَعه ، ما آتخذهُ مولانا لنفسه
 موطنًا ، وجعله بنزوله فيه حرماً آمناً ، وصيره بخصب مكارمه للعفاة مراداً ومقصدًا ،
 ومُعَدبِ نوافله للظُعاة مشرعا ومورداً ، وللشؤدد مجده مَعقِلا ، وللرياسة بشرفه
 منزِلا ، والله تعالى يجعل هذه الدار التي تديرها وحلها ، وحط بها رحله ونزلها ، مأهولةً
 ببقائه ، آسنةً بسبوغ نعمائه ، عامرةً بسعادته ، مشيدةً بتناصر عزه وزيادته ، لا تُخطئها
 حوائم الآمال ، ولا تخطأها ديم الإقبال ، ويعرفه من بركتها ، ويمين عتبتها ، ما يقضى
 بامتداد الاجل ، وأنفساح الأمل ، وبلوغ الأمانى ، وأتصال التهانى ، بمنه وكرمه ،
 إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك :

ويُنهى أنه قد اتصل بالملوك تحوُّل مولانا إلى المنزل المنشأ الحديد ، ذى الطالع
 السعيد ، والطائر الحميد ، فسألتُ الله تعالى أن يُيوِّته منه المَبوَأَ الكَريم ، ويمتعه فيه
 بالدعة والتعميم ، والتماء والمزيد ، والعيش الرغيد ، ويجعله واصلاً لحبله ، مأهولاً
 بأهله ، ويعرفه بركة عتبه ، ويمليه بيهاته ونضارته ، وحصل للملوك السرور بأن بلغه
 الله الوطر ، فى سُكنى ماعمر ، وأناله الأمل والألتذاذ بخدمته ، والسرور بانفِضاض
 عُدْرته ، إن شاء الله تعالى .

ومن ذلك :

مولانا - أمتع الله بوجوده - غنى عن الهناء بمنزل ينزله ومحل يحلله ، إذ الله
 سبحانه وتعالى قد كثّر أوطانه وأدره ، وبلغه فى تمام عمارتها وأنفساحها وطره ،

وخصه بأفضلها معانا ، وأشرفها مكانا ؛ والمستوجب في الحقيقة للهتاء هو الموضوع الذي اختاره دارا ، وأرتضاه مستقرا ؛ وعرف المملوك أنتقاله - لازلال يتنقل في بروج السعد ، ويأوى إلى ظل ظليل من المجد - إلى الدار الفلانية لازالت جامعة لشمله ، مانوسة بأهله ؛ فعدل عن خدمته بالهتاء ، إلى إخلاص الدعاء ، بأن يعرفه الله تعالى يمنها وبركتها ، ويريه إقبالها وسعادتها ؛ ويقرن تحوله إليها بأيمن طائر ، وأبرك طالع ؛ فإن للحركات أوقاتا محمودة ومدمومة : فإذا أعنى الله تعالى بعبد من عبيده ، وفرض له نصيبا من تأييده ؛ وفقه للحركة في الزمن السعيد ، والوقت الحميد ؛ لتكون مصادره مشاكلة لمبادئه ، وأعجازه مشابهة لهواديده ؛ والله تعالى يجعل بأبها محطاً للقصاد ، ومناخاً للوفاد ؛ ومزارا للعفاه ، وملاذا ^(١) للعناء [ويصل بها حبله ، وينشئ بها طفله ؛ ويضاعف بأسديطانها أنسه ، ويسر بتبويها نفسه ؛ إن شاء الله تعالى .

أبو الفرج البغاء :

أسعد المنازل وأشرف المواطن ما استوطنه أيده الله وتبواه ، وتحير نفسه وأرتضاه ؛ فعدا بشخصه وطن الإقبال ، وبفائض كرمه حرم الآمال ؛ وبشرفه للسؤدد معقلا ، وبئبله للرياسة منزلا ؛ فعرفه الله بمن هذه الدار المعمورة محلول البركات ، المحفوفة بتناصر السعادات ؛ وجعلها وكل ربيع يقطنه ، ومحل يسكنه ؛ مبشرا بامتداد بقائه ، وأهلا بالزيادة في نعمائه .

وله في مثله :

كل وطن يحله - أيده الله - ويقطنه ، ومحل يتحيره ويسكنه ؛ مقصود بالشكر والثناء ، أهل بالحمد والدعاء ؛ لا يخطئه متوارد الآمال ، ولا تنقطع عنه مواد الإقبال ؛

ولذلك صار هذا المنزل السعيد من فضائل الأرض ومحاسنها، وتجمع الآمال ومعادنها؛ فعرفه الله يمينه وبركته، وإقباله وسعادته؛ وقرن انتقاله إليه بأسبغ نعمه، وأكمل سلامة وأبسط قدره وأعلى رتبته .

وله في مثله :

عرفه الله [من] بركة هذا المنزل المورود، والفناء المقصود، ما يؤبى على سالف ما أولاه من تكامل البركات، وتناصُر السعادات؛ وجعل مستقره فيه مقروناً بمؤو الحال، ونتابع الإقبال؛ في أفسح المدد وأطولها، وأنجح المطالب وأفضلها؛ وعمر أوطان المكارم بإقباله، وعصّد الأمانى بالتساع نعمائه .

أجوبة التهئة بقرب المزار، ونزول المنازل المستجدة

قال في "مواد البيان" : أجوبة هذه الرقاع يجب أن تُبنى على الاعتداد للهني بتعهده، والشكر له على تودده؛ والابتهاج بهنائه، والتبرك بدعائه؛ وأن المستجد غير مبين لمنزله، ولا خارج عن أحكام محله؛ وأن تمام بركته، أن يؤنس فيه زيارته؛ وما يشابه هذا .

الضرب الحادى عشر

(نوادير التهانى، وهى خمسة أصناف)

الصفى الأول - تهئة الذمى بإسلامه .

فن ذلك ما أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسله، وهو :

وما زالت حالك ممثلة لنا جميل ما وهب الله فيك حتى كأنك لم تنزل بالإسلام مؤسوما، وإن كنت على غيره مقبياً؛ وقد كُفَّ مؤمليين لما صرت إليه، ومُشفقين لك

مَا كُنْتُ عَلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا كَادَ إِشْفَاقُنَا يَسْتَعْلَىٰ عَلَىٰ رَجَائِنَا ، أَتَتِ السَّعَادَةُ فَيْكَ بِمَا لَمْ تَزَلِ
الْأَنْفُسُ تَعُدُّ مِنْكَ ، وَنَسَأَلُ اللَّهَ الَّذِي تَوَرَّلَكَ فِي رَأْيِكَ ، وَأَضَاءَ لَكَ سَبِيلَ رُشْدِكَ ،
أَنْ يُوَهِّكَ لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَأَنْ يُؤْتِيكَ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَيَقِيكَ عَذَابَ النَّارِ .

ومن ذلك ، من كلام أبي العيَّان :

وَلَتَهْنِئَكَ نِعْمَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ فِي أَخْوَةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالتَّابِعِينَ بِإِحْسَانٍ ؛
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَوَّزَ قِدْحَكَ [وَأ] عَلَىٰ كَعْبِكَ ، وَأَنْقَدَ مِنَ النَّارِ شِلْوُوكَ ، وَخَلَصَكَ مِنْ لَبْسِ
الشُّكِّ ، وَحَيْرَةِ الشُّرْكَ ؛ فَأَصْبَحْتَ قَدْ اسْتَبَدَلْتَ بِالْأَذْيَارِ الْمَسَاجِدَ ، وَبِالْآحَادِ الْجُمُعَ ؛
وَبِقِبْلَةِ الشَّامِ ، الْبَيْتِ الْحَرَامِ ؛ وَبِتَحْرِيفِ الْإِنْجِيلِ ، صِحَّةَ التَّنْزِيلِ ؛ وَبِأَوْثَانِ
المشركين ، قِبْلَةَ الْمُوحِدِينَ ؛ وَبِحُكْمِ الْأُسُقُفِّ رَأْسِ الْمُلْحِدِينَ [حَكَمَ] أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ؛ فَهَنَّاكَ اللَّهُ مَا نَعَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، وَأَحْسَنَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ وَذَكَرَكَ شُكْرَهُ ،
وَزَادَكَ بِالشُّكْرِ مِنْ فَضْلِهِ .

أجوبة التهئة بإسلام ذمي

قال في "مواد البيان" : أجوبة هذه الرقاع ينبغي أن تكون مبنية على شكر المهتأ
للهنئ ، وأعتراه بنعمة الله تعالى عنده ، وأتجاهه بما زجته في الدين ، الذي جعل الله
أهله إخواناً متصافين ، وخُلَافاً متوافين ، ومنَّ عليهم به ، وبإماطة الحسائف من
قلوبهم ، ونحو هذا .

الصنف الثاني — التهئة بالختان ونحروج اللحية .

فمن ذلك تهئة لأمرٍ بختان ولدَيْن له :

فمن خصائص ما حباه الله بعد الذي قدَّم له في نفسه - نفس الله مدتها ؛ ووسع
له مهلتها ، وأفنى الأعداد دُونَ فَنَائِمًا ، والأعمار دُونَ تَصَرُّمِهَا وَأَتْمَائِمًا : [من] الفضائل

(١) الحسائف جمع حسيفة وهي الضغينة والسخيمة أنظر اللسان في ج ١٠ مادة ح س ف .

المشهوره، والمحاسن المذكوره، والمناقب الماثوره، وأقسام الفضل الذى يتقضى
دُونَ تصرُّم (?) منازلَه وصفُ الواصف إذا أفرط، ويتهى دون أئسرها أمل الآمل
إذا اشتط - ما وهب الله له من أولادٍ سادية فضلهم فى الأخلاق والصُّور، وأكلهم
فى الأجسام والمرَب؛ وقدمهم فى العُتول والأفهام؛ والقرايح والألباب، ولم يجعل
للعابب فيهم سيمه، ولا للإناث بينهم شركه؛ حتى يكون مسماً لهم قصب العُلا
والمفانخر، وصدور الأسرّة والمنابر؛ من غير منازع، ولا مقارع، ولا مساهم،
ولا مقاسم، وزادهم من الثماء فى النشء والبركة واليمن بما يؤذِن الحاضر منه بالغابر،
ويدلُّ البادى على الآحر؛ وعداً من الله تعالى ذكره لهم بأوفى السعادات، وأكمل
الخيرات وأعلى الدرجات؛ أرجو أن يجعل الله التُّجج قرينه، والنجاة ذريعته؛
وما أولاه فيهم فى هذه الحال الحادثة التى يعدق الله بها أداء الفريضة، وكإل
الشريعة؛ ويقع التطير بالختان، الذى جعله الله من شروط الإيمان، وفرضه على
جميع الأديان: من السلامة على عظم الخطر، وشدة الغرر؛ فى إمضاء الحديد على
أعضاء ناعمه، وإيصال الألم إلى قلوب وادعة، لم تقارع نصبا، ولم تُعانِ وصبا؛
وآجتماع فيه إلى رقة الصبا، وضعف الأسر والقوى؛ أعتياد الرحمة، ومخالفة الترفه
والتثقل بين الشهوات؛ على أن كل واحد من الأميرين شهيد المعركة أعزل حاسرا،
وباشر الحرب مغترا مخاطرا؛ فثبت لوقع السلاح، وصبر على ألم الجراح؛ وأبلى
بلاء الفارس المدجج، والكبي المتعب؛ ثم خرج خروج شبل الليث، وفرخ العقاب،
كالقذح المعثى والشهاب الساطع، والنجم الناقب؛ وكان فلان أكثرهما تغيراً فى وجه
قرنه، وسطوة على منازلِه؛ وكلُّ قد حصل فوق الحصل، وحوى فضيلة السبق؛
وآستحقَّ اسم البأس والشدة، وخطية البسالة والنجده.

ومن ذلك ما أورده أبو الحسين بن سعد في كتابه :

الحمد لله الذي كَسَاكَ بِاللَّحْيَةِ حُلَّةَ الْوَقَارِ ، وَرَدَّكَ رِدَاءَ ذِي السَّمْتِ مِنَ الْأُبْرَارِ
وَالْأَخْيَارِ ؛ وَصَانَكَ عَنِ مَيْسَمِ الصَّبَا ، وَمَطَامَعَ أَهْلِ الْهَوَى ؛ بِمَا جَلَّلَكَ مِنَ اللَّحْيَةِ
الْبَيْهَةِ ، وَأَلْبَسَكَ مِنْ لِبَاسِ ذَوِي الْأَلْبِ وَالرَّوْيَةِ ؛ وَأَلْحَقَكَ فِي مَتَصَرَّفَاتِهِ بِمَنْ يَسْتَقِلُّ
بِنَفْسِهِ سَاعِيَا ، وَيَسْتَفْنِي عَمَّنْ صَحْبِهِ حَافِظًا ؛ وَجَعَلَ مَا جَمَّلَ مِنْ صُورَتِكَ ، وَكَلَّ مِنْ
أَدَاتِكَ وَأَلَّتِكَ ؛ قِرْنًا لِمَنْ جَاذَبَكَ ، وَخَصْمًا لِمَنْ نَازَعَكَ ؛ وَفَنَى عَنْكَ ذِلَّةَ الْإِحْتِقَارِ ، مِنْ
أَهْلِ الْمَرَاتِبِ وَالْأَخْطَارِ ؛ تَسْتَوِي [بِهِمْ] فِي الْمَجَالِسِ الْحَافِلَةِ ، وَتَجْرِي جَرَاحِمَ فِي الْمَشَاهِدِ
الْحَامِعَةِ ؛ مَسْمُوعًا قَوْلُكَ إِذَا قُلْتَ ، وَمُضْنَى إِلَيْكَ إِذَا نَطَقْتَ ؛ أَمْنًا مِنْ أَنْصَرَفِ
الْأَبْصَارِ عَنْكَ لِقُرْبِ وِلَادِكَ ، وَمِنْ [عَدَمِ] الْإِسْتِمَاعِ لِحَدِيثِكَ لِقَلَّةِ الثَّقَةِ بِسَدَادِكَ ؛
وَجَارِيًا مَجْرَى كَلِمَةِ الرِّجَالِ عَلَى الْجُمْلَةِ ، إِلَى أَنْ يَكشِفَ اللَّهُ مَحَابِرَكَ بِالْمِحْنَةِ ؛ وَتَعْطَى
الْمَهَابَةَ مِنَ الدَّاعِرِ الْعَادِي ، وَمِنْ السَّبْعِ الضَّارِي ؛ وَلَوْ كَانَ عَارِيًا مِنْ هَذِهِ الْكُسُوفِ
الشَّرِيفَةِ ، وَالْحَلِيَّةِ الْمَلْحُوظَةِ ؛ لَسَيَقَتْ إِلَى الْإِزْدِرَاءِ بِالْأَعْيُنِ ، وَالْإِسْتِصْغَارِ بِالْقُلُوبِ
وَالْإِنْسَانِ ؛ أَصْنَافُ الْحَيَوَانِ : مِنَ الْبَهِيمَةِ وَالْإِنْسَانِ ؛ ثُمَّ لَا يُحْسِنُ مِنْ نَفْسِهِ قُوَّةً عَلَى
الدَّفْعِ عَنْهَا ، وَلَا مِنْ صَرَعَتِهِ ثَبَاتًا (؟) عَلَى يَدِهَا فِيهِ . وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ حَبَّكَ
بِمَرْتَبَتِهَا فِي جَمَالِ عَشَاكَ ، وَكِبَالِ أَمَّاكَ ؛ فَلْيُصَدِّقْ بِهَا اعْتِرَافَكَ وَشُكْرَكَ ، وَلْيُحْسِنِ تَنَاوُكَ
وَتَشْرُكَ ؛ قِضَاءً لِحَقِّ اللَّهِ عَلَيْكَ ، وَاسْتِذْرَارًا فِي الْمَزِيدِ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلَيْكَ .

الصفحة الثالث - التهنئة بالمرض .

أبو الفرج البغواء :

فِي ذِكْرِ اللَّهِ سَيِّدِي بِهَذَا الْعَارِضِ - أَمَاطَهُ اللَّهُ وَصَرَفَهُ ، وَجَعَلَ صِحَّةَ الْأَبَدِ خَلْفَهُ -
مَادَّلَ عَلَى مَلَاظَمَتِهِ إِيَّاهُ بِالْعَنَاءِ ، إِيقَظًا لَهُ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ ؛ إِذْ كَانَ تَعَالَى لَا يُدَكَّرُ

(١) غشى فلان فلانا أناه كغشاه يفشوه . قاموس .

بطُروق الآلام ، وتبْيِهِ العِظَات ، غَيْرَ الصَّفْوَةِ من عِبَادِهِ ، الحِيرَةِ من أولِيائِهِ ؛ فِهِنَاهُ
 اللهُ الفُوزَ بِأَجْرِ مَائِعَانِيهِ ، وَحَمَلَ عَنْهُ بِالطَّافَةِ نِقْلَ مَا هُوَ فِيهِ ؛ وَأَعْقَبَ مَا أَخْتَصَّهُ
 من دَخَائِرِ الْمُثُوبَةِ وَالْأَجْرِ بِعَافِيَةٍ تَقْتَضِيهِ ؛ وَلا سَلَبَ الدُّنْيَا جَمَالَ بَقَائِهِ ، وَلا نَقَلَ ظِلَّهُ
 عَنْ كَافَّةِ خَدَمِهِ وَأُولِيائِهِ .

الصنف الرابع - التهئة بالصرف عن الولاية .

أبو الفرج البيهقي :

مَنْ حَلَّ مَحَلَّهُ - أَيْدَهُ اللهُ تَعَالَى - مِنْ رُتَبِ الرِّيَاسَةِ وَالنُّبُلِ ، كَانَ مَعْظَمًا فِي حَالَتِي
 الْوِلَايَةِ وَالْعَزْلِ ؛ لَا يَفْتَدِحُ فِي قَدْرِهِ تَغْيِيرُ الْأَحْوَالِ ، وَلا يَنْقُلُهُ عَنْ مَوْضِعِهِ مِنَ الْفَضْلِ
 تَنْقُلُ الْأَعْمَالُ ؛ إِذْ كَانَ اسْتِيحَاشُهَا لِلْفَائِتِ مِنْ بَرَكَاتِ نَظَرِهِ ، بِحَسَبِ أَنْسَابِهَا كَانَ
 بِمَا أَفَادَتْهُ مِنْ مُجُودِ آثَرِهِ . فِهِنَاهُ اللهُ نِعْمَةَ الْكِفَايَةِ ، وَأَوْزَعَهُ شُكْرًا مَا أَحْتَازَهُ مِنَ
 النَّزَاهَةِ وَالصِّيَانَةِ ؛ وَلا أَخْلَاهُ مِنَ التَّوْفِيقِ فِي سَائِرِ مَتَسَرِّفَاتِهِ ، وَالْحِيرَةِ الضَّامِنَةِ
 لِمَوَاقِبِ إِرَادَاتِهِ .

وله في مثله :

لَوْ كَانَتْ لِمُسْتَحْدَثِ الْأَعْمَالِ وَمُسْتَجِدِّ الْوِلَايَاتِ زِيَادَةٌ عَلَى مَا أَخْتَصَّكَ بِهِ
 مِنْ كِمَالِ الْفَضْلِ ، وَمَأْثُورِ النُّبُلِ ، لِحَازِرْنَا أَنْتَقَالَ ذَلِكَ بِأَنْتَقَالِ مَا كُنْتَ نَتَوَلَّاهُ بِمُجُودِ
 كِفَايَتِكَ ، وَتَحَوُّطِهِ بِنَوَاطِرِ نَزَاهَتِكَ وَصِيَانَتِكَ ؛ غَيْرَ أَنَّ اللهُ تَعَالَى جَعَلَكَ بِالْفَضْلِ
 مَتَمِّمًا ، وَبِالْحَمَامِدِ مَتَخَصِّصًا ؛ فَالْأَسْفُ فِيمَا تَنْظُرُ فِيهِ عَلَيْكَ لِامْنِكَ ، وَالْفَائِدَةُ فِيمَا
 نَتَقَلَّدُهُ بِكَ لِالْإِثْمِ ؛ وَلِذَلِكَ كُنْتَ بِالصَّرْفِ مَهْنًا مُسْرُورًا ، كَمَا كُنْتَ فِي الْوِلَايَةِ مُجُودًا
 مُشْكَورًا ؛ فَلا أَخْلَاكَ اللهُ مِنْ تَوَاصُلِ آلائِهِ ، وَتَظَاهُرِ نِعْمَاتِهِ ؛ فِي سَائِرِ مَا تُبْرِمُهُ
 وَمُخْضِيهِ ، وَتَعْتَمِدُهُ وَتَرْتَبِيهِ .

أبو الحسين بن سعد - عمن تولى عملاً إلى من صرف عنه :
 قد قُلتُ العملَ بناحيك، فهناك الله تجديد ولايتك، وأنفدتُ خليقتي لخلافك ؛
 فلا تُحله من تبصيرك وهدايتك، إلى أن يمن الله بزيارتك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانت رياسة سيدي مجيبة من عُروش الولايات، وسيادته خارجه عن سادج
 التصرفات، لأشفق أولياؤه من زوالها بمزايلتهما، وحذرُوا من انتقالها بنقلهما؛ لكن
 مأوسم به من الكمال، وعلا به من رتب الجلال؛ موجود في غيرته وجود الفرد
 في السيف المأثور، والألاء في النور؛ وإذا تصرف، أورد الله الرعية من مشارعا
 نطافا، وأسبغ عليهم من ظلها عطافا؛ وإذا أنصرف بخير مسبل تقلص، وعيش
 رائع تنصص؛ والأسف على العمل السليب من حلل سياسته الفاضله، العاطل
 من حلي سيرته العادله؛ ولهذا أصبح - أيده الله - بالعزل مبهجا مسرورا، كما كان
 في الولاية محمودا مشكورا؛ وأنطلقت السنة أولياؤه، في هنائه، بما وهبه الله من الرفاهية
 والدعة، وحطه عنه من الأثقال المقلقة؛ ولا سيما وقد علم الخاص والعام أن الأعمال
 إذا ردت إليه، وعول فيها عليه؛ تسلم المودع وديعته، والناشد ضالته؛ وإذا عدل
 فيها إلى غيره تناولها الغاصب، وأستولى عليها أستيلاء السالب؛ فلا تزال نازعة
 إلى ربها، متطاعة إلى خطبها؛ حتى تعود إلى محلها، وترجع إلى نصيها؛ والله تعالى
 أسأل أن يقضى لمولانا ببلوغ الأوطار؛ إن شاء الله تعالى .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولاية والخدمة

قال في "مواد البيان": يجب أن تكون أجوبتها مبنية على شكر الأهتمام والاعتداد
 بالمشاركة في الأحوال، مع وقوع ما ورد من الخطاب الموقع اللطيف، وما ينتظم
 في هذا السلك .

جواب مَنْ ورد عليه كَتَابٌ من وِلِيِّ مكانه في معنى ذلك .

فمن ذلك :

ما أنصرفت عني نعمة أُهديت إليك ، ولا خلوتُ من كرامةٍ أشتمت عليك ؛ وإني لأجدُ صرْفِي بكَ ولايةً ثانيه ، وحلّةً من الوزر واقبه ؛ لما أمله بمكانك من حميد العاقبة وحسن الخاتمه .

الصفحة الخامس - تهنئة من تزوجت أمه بزواجها .

قد تقدم في أول المقالة الأولى في حكاية حائك الكلام مع عمرو بن مسعدة وزير المأمون ، أنه قال يُكْتَبُ إليه :

أما بعد ، فإنَّ الأمور تجري على خلافِ محابِّ المخلوقين [والله يُختار لعباده] ، فخار الله لك في قبضها [إليه ، فإن القبور أكرم الأكفاء] والسلام .

أبو الفرج البغاء : وقد أمره سيف الدولة ابن حمدان بالكتابة في معنى ذلك امتحاناً له :

مَنْ سَلَكَ إِلَيْكَ - أعزك الله - سبيلَ الأتيساط ، لم يستوعر مسلكاً من المخاطبة فيما يحسن الإقباض عن ذكر مثله . وأتصل بي ما كان من خبر الواجبة الحق عليك ، المنسوبة بعد نسبتيك إليها إليك - وفر الله صياتها - في اختيارها ما لولا أن الأنفس تتناكره ، وشرع المروءة يحظره ؛ لكننت في مثله بالرضا أولى ، وبالأعتداد بما جدده الله في صياتها أخرى ؛ فلا يسخطك من ذلك مارضية وجوب الشرع ، وحسنه أدب الديانة ؛ ومباح الله أحق أن يتبع ، وإياك أن تكون من لما عدم اختياره تسخط اختيار القدر له ، والسلام .

(١) تقدم في ج ١ ص ١٤٢ "وزير المنعم"

(٢) الزيادة مما تقدم في ج ١ ص ١٤٥ .

النوع الثاني

(من مقاصد المكاتبات التعازي)

قال في "موادّ البيان" : المكاتبَةُ في التعزية بالأحداث العارضة في هذه الدنيا واسعة المجال : لما تتضمنه من الإرشاد إلى الصبر، والتسليم إلى الله جلّت قدرته، وتسليّة المعزى عما يُسلبه بمشاركة السابقين فيه، ووعدِهِ بِجُسن العوض في الجزاء عنه؛ إلى غير ذلك مما ينتظم في هذا المعنى . قال : والكتابُ إذا كان جيدَ الغريزة حسنَ التأني فيها، بلغ المراد . ثم قال : وحكمها حكم التّهاني من الرئيس إلى المرعوس ومن المرعوس إلى الرئيس ومن النظر إلى النظر .
ثم التعزية على أضرب :

الضرب الأول

(التعزية بالآبين)

أبلغ ما كتبت به في ذلك ما كتب به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إلى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ، معزياً له بابنٍ له مات ، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد في ترسله ، وأبو جعفر النحاس في صناعة الكُتّاب ، وهو :

« من محمد رسول الله إلى مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ :

« سلامٌ عليك ، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ »

« أما بعد ، فعظم اللهُ لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك »

« الشكر . ثم إنَّ أنفسنا وأهلينا ومواليَنَا من مَوَاهِبِ اللهُ السنية ، وعوارِفِهِ »^(١)

(١) في أصولنا بالفناء ورواية المسنطوف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

«المستودعة ، تمتع بها إلى أجلٍ معدود ، وتقبضُ لوقتٍ معلوم ؛
 «ثم أفترض علينا الشكر إذا أعطى ، والصبر إذا ابتلى ؛ وكان أبنيك من
 «مواهبِ الله الهنيئة ، وعوارِفِهِ المستودعة ؛ متعك به في غبطةٍ وسُرور ،
 «وقبضه منك بأجرٍ كبير : الصلاة والرحمة والهدى إن صبرتَ
 «وأحتسبت ؛ فلا تنجعنَّ عليك يامعاذُ خصلتين إن يحبطُ جزعك
 «صبرك فتندم على ما فاتك ؛ فلو قدمت على ثوابِ مُصيبتك قد أطعت
 «ربك وتجزت موعوده ، عرفت أن المصيبة قد قصرت عنه . وأعلم
 «أن الجزع لا يردُّ ميتا ، ولا يدفعُ حزنا ؛ فأحسن الجزاء وتجز الموعود ؛
 «وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد .»

من كلام المتأخرين :

تعزية بولد . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهي بعد الألقاب .

وأحسنَ عزاءه بأعزَّ فقيد ، وأحبَّ حبيبٍ ووليدٍ ؛ وعوضَ بجَميلِ الصبرِ جوانحه
 التي سُئلت عن الأسيِّ فقالت : ثابتٌ ويزيد . صدرت هذه المفاوضة تُهدى إليه
 سلاما يعزُّ عليه أن يُتبع بالتعزية ، وثناءً يُسقُّ عليه أن يطارحَ حمائمَ سجمه المطربة
 بحمامِ الشَّجو المبيكة المنكية ؛ وتوضِّحَ لعلمه ورودَ مكاتبته المؤلمة ، فوقفنا عليها إلا أن
 الدمعة ماوقفت ، وخواطرُ الإشفاق عليه وعلى من عنده طفت حرقها وما أنطفت ؛

(١) في أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أي بالياء جمع عارية .

(٢) أي فقد الثواب وفقد الولد . وإليه يشير من عزى عمر بن عبد العزيز بأنه فقال :

وعوضت أجزا من فقيد فلا يكن * فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

وعلمنا ما شرحه ولم يشرح الصدر على العادة - من وفاة الولد فلان، سقى الله عهدَه
 وخدمَه ، ونصّر وجهه وتعمّد بالرّضوان خاله وخدّه ؛ وما بقى إلاّ التمسكُ بأسباب
 الصبر ، والتفويضُ إلى مَنْ له الأمر ؛ والدنيا طريقٌ والآخرة دارٌ ودهليزها القبرُ ؛
 وللرّء من تثبته وازرع ، والاجتماعُ بالأحبة الراحلين واقع ؛ إن لم يصبروا إلينا صرنا
 إليهم ، وإن لم يقدّموا في الدار الفانيّة علينا قدّمنا في الدار الباقيّة عليهم ؛ نسألُ الله
 تعالى أن يجمعنا في مستقر رحمته ، ويحضرنّا مع الأطفال أومع المتطفلين ولائم جنته ؛
 والله تعالى يدارك بالصبر الجميل قلبه ، ولا يجمعُ عليه فقدّ الثواب وفقدَ الأحبه .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

رزقه الله تعالى ثباتاً على رزيته وصبراً ، وجعل له مع كلِّ عسرٍ يسيراً ؛ وأبقاه
 مفضىً بالأنفس والنفائس ، وكان له أعظمَ حافظٍ من نوبِ الدهر وأجلَّ حارس .
 المملوك يُنهي علمه بهذه النازلة التي فتت القلوب والأكباد ، وكادت أن تفرّق
 بين الأرواح والأجساد ؛ وأدانت ذخائر العيون ، وأبتدلت من المدايع كلَّ مصون ؛
 وأذابت المهج تحرقاً وتلهباً ، وجعلت كلَّ قلب في نارِ الأسيء والأسف متقلّباً ؛
 وهي وفاةٌ ولده الذي صغر سنّه ، وتزايدَ لفقده همُّ المملوك وحرته :

ونجلك لا يبكي على قدر سنّه * ولكن على قدر المخيلة والأصل !

وكان الأمل يحدث بأنه يشدّ للوليّ أزره ، ويشرح برّه صدره ؛ ويؤثّل مجده ،
 ويبقى الذكّر الجميل بعده ؛ ففقد من بين أترابه ، وذوى عند ما أنع غصن شبايه ؛
 وغيب منظره الوسيم في لحدّه وترابه ؛ وسيدنا يعلم أنّ الموت ممهل لا بد من ورده ،
 وابن آدم زرع لا بد من حصده ؛ وأنّ المنية تشمل الصغير والكبير ، والجليل والحقير ،

(١) هو مصدر كالورود عن ابن سيده أنظر اللسان (ج ٤ ص ٤٧١) .

والغنى والفقير؛ فينبغي له استعمال صبره ، والاستبشار بمضاعفة أجره ؛ والله يمتعه
بأهله وطول عمره .

وله :

لَهْفِي وَمَا لَهْفِي عَلَيْكَ بِنَافِعِ ! * كَلًّا وَلَا وَجَدِي وَلَا حُرْقَاتِي !
يَا مَنْ قَضَى قَفْضِي سُرُورِي بَعْدَهُ * وَتَحَدَّرْتَ أَسْفًا لَهُ عِبْرَاتِي !
عُقْدُ التَّجَلُّدِ حَلَّهَا فَرَطُ الْأَسَى * وَالْقَلْبُ مَوْقُوفٌ عَلَى الْحَسْرَاتِ !
لَوْ كُنْتَ مَنْ يُشْتَرَى أَوْ يُقْتَدَى * لُقَيْدِيَتِ بِالْأُرُوحِ وَالْمُهْجَاتِ !
كُنْتَ الْمُدَّ لِنُصْرَتِي فِي شِدَّتِي * فَقَضَى الْحِمَامُ بِفُرْقَةٍ وَشَتَاتِ !
وَاللَّهِ لَا أُسَيْتُ نَدْبَكَ وَالْبُكََا * أَبَدًا مَدَى الْأَنْفَاسِ وَاللَّحْظَاتِ !
وَيَسُوءُنِي أَنْ عَشِيتُ بَعْدَكَ سَاعَةً * أَسْفًا لِفَقْدِكَ مَيِّتًا وَحَيَاتِي .

أعظم الله أجر مولانا ومنحه صبرا جميلا ، وأجرا جزيلا ، وثناء عريض الشقة
لثباته على هذه الفادحة طويلا ؛ وجعل هذه الرزية خاتمة الرزانيا ، ومحصنة جميع
الذنوب والخطايا ؛ ولا بفعه بعدها في قرة عين ، ولا أورد محبوبا شغف به قلبه الكريم
منهل الحمام ولا سقاه كأس الحين .

المملوك يقبل البساط الذي ماقى لنشر المعدلة مبسوطا ، وكل أمل بيده منوطا .
وينهى إلى العلم الشريف علمه بهذه المصيبة التي أصابت فؤاد كل محب فأصمته ،
وطرقت سمع كل ولي فأصمته ؛ وولجت كل قلب فأحرقته صبابه وحزنا ، ومررت
على الصلدة فصددته ولو كان حزنا ؛ وهي وفاة فلان سقى الله عهدته ، وأسكن الرحمة
ثره ولحده ؛ فشق أسفا على المفقود جيب كل جنان وطوى الأجداد على جراحها ،
وحسر الأجساد على أرواحها :

وَمَا هِيَ إِلَّا نَكْبَةٌ أَى نَكْبَةٌ * أَهَاجَتْ سَعِيرًا فِي الْحَشَا يَتَلَهَّبُ !
 فَلَا جِسْمَ إِلَّا بِالتَّحْرِقِ ذَائِبٌ * وَلَا قَلْبَ إِلَّا فِي الْأَسَى يَتَقَلَّبُ !
 بَكَى كُلَّ جَفْنٍ مَضْرَعِ السِّيفِ فَأَغْتَدَّتْ * عَيُونَ عَلَيْهِ فِي الْأَبَاطِحِ تَسْكُبُ !
 لَقَدْ هَالُ عُدَّالِي بُكَائِي تَعْجِبًا * وَإِنَّ بُكَائِي بَعْدَ فَقْدِهِ أَعْجَبُ !
 فَلَوْرَامَ قُسٍّ وَصَفَ حُزْنِي وَلَوْعَتِي * لَقَصَّرَ فِي أَوْصَافِهِ حِينَ يُسْهَبُ !
 فَوَاللَّهِ لَاجَفَّتْ جُفُونِي مِنَ الْبُكَاءِ * وَإِنْ زَادَ عُدَّالِي الْعِتَابَ وَأَطْنَبُوا !

ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعة يدعو لمولانا فيها ويعزيه، ويندب فقيدته بالسنة
 الأرقام ويبيكه، ويشره بما وعد الله الصابرين على مثل هذه الرزية ويسئله،
 فيالها نازلةً فجمعت بغضن رطيب، وقير يرفل من الشيبية في ثوب قشيب، وصدعت
 القلوب بفقد حبيب وأى حبيب :

والموت تقاد على كفه * جواهر يختار منها الحياد!

وبعد، فللمملوك في هذه الرزية مشاركة كادت تبين بين روجه والحسد،
 وهو المصيب لهذه المصيبة ما تجده الوالهة على فقد الولد؛ لا يستقر به قرار، ولا يُخيه
 من يد الحزن فرار؛ دأبه البكاء والعويل، وحزنه العريض الطويل؛ فواضعفاه
 عن حمل هذا المصاب، وواأسفاه على مسافر لا ينتظر له قدوم ولا إياب؛ وواعجباه
 لضدين اجتماعا لوالده الكريم الجناب !

تخون المنايا عهدَه في سلبه * وتصره بين الفوارس والرجل !

وعلى كل حال فهو أجدر من استعان على هذه الحادثة بصبره، وشرح لما قد قدر
 فسبح صدره، وشكر الله على حلو القضاء ومره؛ فإكان إلا أحد العمرين فقد
 خلفه عمر، وثاني القمرين أقل فقام مقامه هلال قدم من سفر؛ وفي بقاء المولى

ما يُوجب التسليم للقدَر والقضاء، والشكر لله تعالى في حالتى الشدة والرخاء؛ جعله الله في حُرز لا يزال حُرِيزاً مَكِيناً ، وَحِصْنٌ عَلَى مَمَرِ الْأَيَّامِ حَصِيناً .

وله : أعظمَ الله أجره ، وأطال عمره؛ وشرح صدره ، وأجزل صبره ، وسخر له دهره .

المملوك يُنبئ أنه أتصل به خبرٌ صدع قلبه ، وسرق رقادَه ولبَّه ، وضاعف أسفه وكرهه ؛ وهو [موت] فلان تغمده الله برحمته ، وأهمل عليه سحائب مغفرته ؛ وعامله بلطفه ، وجعل الخيرة له في حتمه ؛ فشق ذلك قلبه وعظم عليه ، وقارب لشديد حُرْزِه أن يصل إلى ما وصل المرحوم إليه ؛ لكنَّه ثبت نفسه وثبطها ، ورفع يده بالدعاء للولى وبسطها ؛ وسأل الله أن يطيل بقاءه ، ويحسن عزاءه ، ويحرسه من أزمات الزمان ، فإنه إذا سلم كان الناس في السلامة والأمان ؛ ويجعله عن كل فائت عَوْضاً ، كما أواره جوهراً وجعل غيره من الأنام عَرَضاً ؛ ولقد جلت هذه الرزية على كل جناب ، ودخل حُرْزُها إلى كل قلب من كل باب ؛ جعل الله أجره للولى من أعظم الدخائر ، ومنحه الحياة الأبدية التي لا تنتهي إلى أمدٍ ولا آخر ، إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(التعزية بالبنات)

من كلام المتقدمين :

ابن أبي الخصال المغربي :

الشيخ فلان عزاه الله على احتسابه ، وجعل الثواب المرتقب أفضل أقتنائه وأكتسابه . معزيه عن فليذة كبده ، ومساهمه في أرقه وسهده ، والفات في عضد صبره الجميل وجلده ؛ فلان . فإني كتبتُه - كتب الله لكم خيراً يذهب جزعكم ،

وَحَسَنَ مَنجَاكُم بِالتَّفْدَى الْجَمِيلِ وَمَنَزَعَكُم - عِنْدَ مَا وَصَلَنِي وَفَاةُ أَبْتِكُمْ الْمَرْحُومَةِ نَفْعَهَا اللَّهُ بِإِيْمَانِهَا، وَتَلَقَّاهَا بِرُوحِ الْجَنَّةِ وَرِيحَانِهَا؛ وَهِيَ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - وَإِنْ أَلَمَّكَ فَقَدْهَا، وَأَوْجَعَكَ أَنْ أَسْتَأْثِرَ بِهَا لِحَدُّهَا؛ فَلْيَعَزَّكَ عَنْهَا مُصَابِنَا بِنِينَا عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَعَلِمُكَ بِأَنَّا جَمِيعًا بِمَدْرَجَةِ الْحِمَامِ؛ أَتَجِدُ عَلَى الْأَرْضِ خَالِدًا، وَقَدِيمًا نَكَلُنَا وَلِيدًا نَجِيبًا وَوَالِدًا، فَمَنْ خُلِقَ لِلْفَنَاءِ، وَأَخْتَلَسَ بِمَرِّ السَّاعَاتِ وَالْآثَاءِ، جَدِيرٌ أَنْ يَتَّعِظَ بِنَفْسِهِ، وَلَا يَحْزَنَ لَذَهَابِ مَنْ ذَهَبَ مِنْ ذَوِي أُنْسِهِ؛ فَاحْمَدِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ رَجَحْتَ مِيزَانَكَ، وَضَمِنْتَ لَكَ يَوْمَ الْمَعَادِ جَنَانَكَ؛ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَرْزُقُنَا أَحْتِسَابًا جَمِيلًا وَصَبْرًا، وَيُوْنِسُكَ وَقَدْ آخْتَارَكَ الصَّهْرَ قَبْرًا، وَيَعْظُمُ لَكَ ثَوَابًا جَزِيلًا عَلَى مُصَابِكَ وَأَجْرًا؛ وَيُعِمْ فِقِيدَتَكَ بِالرَّحْمَى، وَيَسْكُبُ عَلَى جَدَّتْهَا مَزْنَهَا الْأَوْكُفَ الْأَهْمَى، وَيُؤْوِيكَ إِلَى كَنَفِهِ الْأَعْظَمِ الْأَهْمَى، بِمَنَّةِ وَرَحْمَتِهِ، لَا رَبَّ غَيْرَهُ؛ وَالسَّلَامَ عَلَيْكَ وَرَحْمَةَ اللَّهِ وَبَرَكَاتِهِ .

الضرب الثالث

(التعزية بالأب)

من كلام المتقدمين :

ابن أبي الخصال معزيا بوزير :

يَا سَيِّدِي وَوَاحِدِي، وَحَمَلِ الْإِبْنَ الْمَبْرُورِ، وَالْأَخِ الْمَشْكُورِ، عِنْدِي؛ أَعَزَّكَ اللَّهُ بِالتَّقْوَى، وَرَضَّاكَ بِمَا قَضَى، وَأَمَدَّكَ بِالتَّعْمَى، وَشَمَلَكَ بِالحُسْنَى؛ كَتَبْتَهُ - أَعَزَّكَ اللَّهُ - وَقَدْ وَصَلَ كِتَابُكَ الْكَرِيمَ بِمَا نَفَذَ بِهِ الْقَدْرَ الَّذِي هُوَ فِي الْعِبَادِ حَتْمٌ، وَلَهُ فِي كُلِّ عُنُقٍ حَتْمٌ؛ فِي الْوَزِيرِ الْفَقِيهِ الشَّهِيدِ أَبِيكَ كَانَ، رَحِمَهُ اللَّهُ وَأَكْرَمَ مَثْوَاهُ، وَجَعَلَ الْحُسْنَى الَّتِي أَعَدَّهَا لِأَوْلِيَائِهِ مَقَرَّهُ وَمَأْوَاهُ؛ فَاسْفُتْ كُلَّ الْأَسْفِ لِإِفْقِدَانِهِ، وَقَدْ كَانَ عَيْنَ زَمَانِهِ،

وعمدة إخوانه ؛ تغمده الله بغفرانه ، ونقله إلى رضوانه ؛ وتلك - أعزك الله -
 غاية الأحياء ، وسبيل الأعداء والأحباب ؛ كان على ربنا - جلّ وعلا - حتاً مقضياً ،
 ووعداً مأتياً ؛ والأسوة - أعزك الله - في عمره الففاض ، وربه الفياض ، وأنه حُتم له
 بالخير والأيقباض ؛ وكان آخر ذلك [الحسب] القديم ، والجيل الكريم ؛ وقد أمرك الخير
 فافعل ما أمرت به وكن كما ظنك وقدرك وترتك ؛ وإنك بفضل الله تُسد مسده ،
 وتبلغ في كل فضيلة حضره السابق وشده ، وتعدُّ لأيام من الحدِّ والإعتزام ما أعدّه ؛
 وإخوتك - أعزك الله - لك أظهر وأعضاء ، وفيهم غزومضات ؛ فأشتمل
 عليهم ، وأرفق بهم ؛ فإنهم يزلونك منزلة أبيهم ، وتجد أخلاقه وعونه فيهم ؛ وأما
 ما اعتقده من تكريمك ، وأراه من تفضيلك وتقديمك ؛ فشئء تشهد به نفسك ،
 ويذكره يقينك وحدسك ؛ أشد به آعتناء ، وأجمل له استواء ، وأوفى عنك رداً
 وغناء ؛ جعلنا الله من المتحايين في خلاله ، والمتقلبين في ظلاله ، وأمنا من الزمان
 واختلاف أحواله ؛ بمنه والسلام .

الضرب الرابع

(التمزية بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربي :

مآ مات من أنت بعده خلف * والكُل في البعض غير ممتنع !

كتب عبده القن ، من الأسى لأجله بعض ما يجن ؛ المنطوي على قلب تطمئن
 القلوب سلواً ولا يطمئن ؛ فلان : بعد وصول كتابه الكريم بصدع يضمني القلوب ،
 ويقد أقباء الجيوب ، ويترك الأحباب مصرعين على الجنوب ، فوقف العبد عليه
 متفرق المدامع ، متحرق الأضالع ، رائياً سامعاً سبجاً الأبصار وأسئ المسامع ؛ فيأسفى

لَخَطْبٍ ضَعُضِعَ رُكْنُ الْجِدِّ وَكَانَ وَثِيقًا ، وَصَوَّحَ رَوْضَ الْفَضْلِ وَكَانَ وَرِيقًا ؛
وَنَقَّصَ حَسَنَ الصَّبْرِ وَلَمْ يَزَلْ صَدِيقًا ، وَتَرَكَ الْعَبْدَ خَلِيقًا بِهَذَا الْقَوْلِ وَمِثْلِهِ مَعَهُ حَقِيقًا ؛
فَأَهَّ لِذَيْنِ وَمَرْوَةَ فُقْدَا فِي قَرْنٍ ، وَعَلَى صَوْنٍ وَعَقَافٍ أُدْرِجَا فِي كَفْنٍ ، وَحَصَانِ رَزَانٍ
لَا تُعْرَفُ بِوَضْمَةٍ وَلَا تُزَنُّ ؛ لَقَدْ أَصَمَّ بِهَا النَّاسِعِي وَإِنْ كَانَ أَسْمَعُ ، وَأَرَقَّ مَا شَاءَ الْفُؤَادُ
وَأَرَأَى الْمُدْمَعُ ؛ وَلَمْ يُبْقِ قَلْبًا لِلصَّبْرِ إِلَّا صَدَعَهُ ، وَلَا أَنْفًا لِلسُّلُوكِ إِلَّا جَدَعَهُ ؛ وَلَا بَابًا لِلتَّعَزُّيِ
إِلَّا أَرْتَجَهُ ، وَلَا عَقِيمًا لِلنَّاسِفِ إِلَّا أَنْتَجَهُ ؛ وَلَوْ قُبِلَ فِي الْمَوْتِ فِدَاءً وَصَحَّ أَنْ يُؤْخَذَ
فِيهِ فِدَاءً لَمَا خَلَّصَ إِلَيْكُمْ وَلَا أَلَمَّ ، وَلَا عَدَاكُمْ فِي صُرُوفِ الْمَنَائِبِ الْخَائِفَةِ سَلَمَ ؛
لَكِنْ أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ تَعَمَّ الْحَرْقَهُ ، وَتَسْتَوِي عَلَى الْوَقْتِ الْفَرْقَهُ .

الضرب الخامس

(التعزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وَكَتَبْتُ وَالْأَنْفُسَ مَرْتَمِضَهُ ، وَالْعَيْنَ غَيْرُ مَعْتَمِضَهُ ؛ وَالْأَنْفَاسُ تَتَّصَعِدُ ، وَالْأَحْزَانُ
تَتَأَكَّدُ ؛ أَسْفًا لِلصَّابِ الَّذِي عَمَّ وَعَمَّ ، وَأَسْمَعَ نَعِيَهُ فَاصَمَّ ؛ وَقَالَ لِلفَرَحِ : كُفَّ مِنْ
عِنَانِكَ ، وَلِلتَّرْحِ أَنْتَظِرُ لِأَوَانِكَ ؛ بِوَفَاةِ [الفرد] الَّذِي فِي رَأْسِهِ نُورٌ ، وَسَدَادِ الْآرَاءِ الْمُخْتَلِفَةِ
وَسَدَادِ الثُّغُورِ ؛ وَالْفِدَّ الَّذِي شَهِدَ الرِّجَالَ بِفَضْلِهِ ؛ وَعَقِمَ النِّسَاءُ فَمَا تَبْجَى بِمِثْلِهِ ؛
أَبِي فَلَانَ صِنُوكُمْ ، السَّابِقِ الَّذِي لَا يُجَارِي ، وَالشَّارِقِ الَّذِي لَا يُسَارِي ؛ وَالغَيْثِ الَّذِي
عَمَّ الْمُنَيْلَ وَالْمُسْتَيْلَ ، وَاللَّبِثِ الَّذِي وَرَدَ الْفُرَاتَ زَمِيرُهُ وَالنَّبِيلَ ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
رَاجِعُونَ ! تَسْلِيمًا لِلْقَدَرِ وَإِنْ سَاءَ ، وَشِمْلًا لِلرُّؤُسَيْنِ وَالرُّؤُسَاءِ ؛ فَيَا لِهَ الْمُصَابَا تَرَكَ كُلَّ رَأْسٍ
أَمِيًّا ، وَأَوْدَعَ صَمِيمَ كُلِّ فُؤَادٍ بُكْلًا صَمِيمًا ؛ لَقَدْ أَنْصَلَ السُّمَرَ اللَّهَّازِمَ ، وَأَعْمَدَ الْبَيْضَ
الصَّوَارِمَ ؛ وَعَطَّلَ الْكُتَّابَ وَالْمَقَاتِبَ ، وَأَوْحَشَ الْمَفَاوِزَ وَالسَّبَاسِبَ ؛ وَلَمْ يُبْقِ مَشِيدَةَ

عَلَا إِلَّا هَدَىٰ، وَلَا مَدِيدَ ثَاءٍ إِلَّا صَدَّه؛ وَلَمْ لَا وَهُوَ الشَّخْصُ يَمُوتُ بِمَوْتِهِ بِشَرِّ كَثِيرٍ،
 وَيَبْكِيهِ قَلَمٌ وَحُسَامٌ وَمِنْبَرٌ وَسِرِيرٌ؛ وَعِنْدَ اللَّهِ نَحْتَهُ بِهِ جَمِيعًا، وَنُوسِعُهُ بِمَجْزِ الصَّفَاءِ
 وَصَفْوِ النَّاءِ تَوْبَعًا وَتَشْيِيعًا؛ وَفَرَاقَهُ فِرَاقَ الصَّدْرِ خَلْدُهُ، وَالْمُصَابِ جَلْدُهُ؛ فَوَاسْفِي
 لِرُزْنِهِ مَا أَفْظَعَهُ مَوْقِعًا! وَوَأَحْرَبًا لِيَوْمِهِ مَا أَظْلَمَهُ مَطْلَعًا! وَوَأَحْرَبًا لِنَعْيِهِ مَا أَشْنَعَهُ
 مَرَأَى وَمَسْمَعًا!!! فَلَئِنْ جَرَّتِ الدَّمُوعُ لَهُ دِمَا، وَأَضْمَرْتَ الضُّلُوعُ بِهِ مُضْطَرَمًا؛
 لِمَا أَدَّتْ حَقَّهُ وَلَا كَرَبَتْ، وَلَا دَانَتْ بَعْضَ الْوَاجِبِ فِيهِ وَلَا أَقْرَبَتْ؛ وَلَوْلَا أَنَّ
 الْمِينَةَ مَنَهْلٌ لَا يَجْلَأُ وَارِدُهُ، وَمَعْلَمٌ يَهْدِي إِلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ أَهْدَىٰ سَمْتٍ مُبَاعِدُهُ؛ لَمْ يَبْقَ
 فِي أَنْسِ مَطْمَعٌ، وَلَا لِحْزَنِ مَسْتَدْفَعٌ، وَلَكَانَ التَّاكُلُ غَيْرَ مَا تَرَىٰ وَتَسْمَعُ؛ وَمَا أْتَمَّ
 أَيُّهَا الشَّيْخُ الْمَكْرَمُ مِمَّنْ يُبَيِّنُهُ عَلَىٰ ذُنُوحِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، يَكْتَسِبُهُ، وَصَبْرٍ فِي الرُّزْءِ
 الْفَادِحِ، يَحْتَسِبُهُ، فَصَبْرًا فَالْمُنُونُ غَايَةُ الْمُسِينِ وَالْمُصْبِحِينَ، وَالنَّبَأُ الَّذِي يُعْلَمُ ذَوْقًا
 وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ؛ وَهُوَ تَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يَرْقِعَ بِمَكَانِكُمْ هَذَا الْخَرْقَ الْمَتَّعِ، وَيَصِلَ
 بِجَنَابِكُمْ ذَلِكَ الشَّمْلَ الْمُنْصَدِعِ .

ابن أبي الخصال :

الشَّيْخُ فَلَانَ أَبْقَاهُ اللَّهُ يَتَلَقَّى الْأَرْزَاءَ بِحُسْنِ الصَّبْرِ، وَجَمِيلِ الْإِحْتِسَابِ، وَيَتَقَاضَى
 بِالْتَعَزَى مَرْتَقِبَ الْأَجْرِ، وَمُنْتَظِرَ الثَّوَابِ، مُعْزِيَهُ فِي أَخِيهِ الْكَرِيمِ عَلَيْنَا، الْعَظِيمِ مُصَابَهُ
 الْفَادِحَ لَدَيْنَا؛ فَلَانَ : فَإِنِّي كَتَبْتُهُ - كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ صَبْرًا تَجِدُونَ ذُنُوحَهُ، وَأَوْجِبَ
 لَكُمْ عَزَاءَ تَجِدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَانَهُ وَأَمْرَهُ - عِنْدَ مَا وَصَلَ مِنْ وَفَاةِ الشَّيْخِ أَبِي فَلَانَ
 أَخِيكُمْ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى مَا كَدَّرَ الْعَيْشَ وَنَغَّصَهُ، وَجَشَّمَ جُرْعَ الْحِمَامِ الْمَقْطُوعَةَ وَغُصَّصَهُ؛
 فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ!! أَسْتَسْلِمًا لِقَدْرِهِ وَقَضَائِهِ، وَأَخْذًا فِيمَا يُدِينِي وَيَقْرُبُ
 مِنْ إِرْضَائِهِ؛ وَمَا نَحْنُ إِلَّا بَنُو الْأَمْوَاتِ الَّذِينَ دَرَجُوا، وَسَنَخْرُجُ مِنَ الدُّنْيَا كَمَا
 قَبَلْنَا نَخْرُجُوا؛ جَعَلَنَا اللَّهُ جَمِيعًا مِمَّنْ يَنْظُرُ لِمَعَادِهِ، وَيَجْعَلُ التَّقْوَى خَيْرَ مَا أَوْعَاهُ بِجَدَادِهِ؛

وسلك بنا نهج هدايته وطريق رشاده . وهو جلّ وعلا يُجزل لكم على مصابكم نوابا
عميما موفورا، ويجعل قعيدكم بين أيديكم في يوم القيامة نورا؛ ويلقيّه في دار الفردوس
ملكا كبيرا وحبورا؛ ولولا كذا لسرت إليكم لأعزّيكم شفاها ، وأحدنكم عن ضلوع
أحرق هذا المصاب حشاها؛ لكن أمتثال أمره المطاع، حمل على البدار إلى ما أمر به
والإسراع؛ والله عزّ وجلّ يُديم لنا بكم الإمتاع، بمنه وكرمه، والسلام .

الضرب السادس

(التعزية بالزوجة)

من كلام المتقدمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد تقرّر عند ذوى الألباب، وثبت ثبوتا لا يعلل بالآرتياب، أن الدنيا قنطرة
دائره، ومعبرة إلى الآخرة، وأن ساكنها وإن طال عمره، وطار في الخالفين أمره،
لديغ ستمها؛ وصريع ستمها، فما تضحك إلا لتبكي، ولا تؤنس إلا لتنتكي؛ وقد نفذ
القدر الذى ماله ردّ، ولا منه بدّ؛ بوفاة فلانة ألحقها الله رضوانه، وأسكنها بفضله
المرجوج جنانه؛ فإنّا لله وإنا إليه راجعون!! تأسيا بالسلف الصالح، وتسليا عن ماء
الدّمع السّاخ، وزند القلب القادح . وعند الله نحسبها عقيلة معدومة المئيل، مفقودة
الدين والعفة في هذا الجيل؛ متحلية من دعاء الفقراء، وثناء الصّالحاء، بالغرّة الشاذخة
والنّحجيل؛ لقد ذهب لدهابها الرّفق والحنان، وعدم لعدمها الشّم البرّة والأخلاق
الحسان؛ وإنّ فقدّها نخرق لأيرفع، وغلة لا تتقع؛ وخطب لا يزال الدهر يتدّكر
فيصدع، ولولا العلم بأن اللّحاق بها أمر كائن، وأن الخلف في الدنيا لا محالة عنها

بائِن ؛ وَأَنْ التَّنْقَلُ لِلآخِرَةِ لِأَنَّكَ نَسِمُهُ وَنَعَايِن ، لَمَّا بَقِيَتْ صُبَابُهُ دَمْعٌ
 إِلَّا أَرْفَضْتُ ، وَلَا دِعَامَةٌ صَبْرٌ إِلَّا أَنْقَضْتُ ؛ وَلَكَانَ الْحُزْنَ غَيْرَ مَا تَسْمَعُ وَتَرَى ، وَالوَجْدُ
 فَوْقَ مَا يَجْرِي وَجَرَى ، لَكِنْ لَا مَعْنَى لِحُزْنٍ لَمَّا يَقَعُ فِيهِ الْأَشْتِرَاكُ ، وَلَا وَجْهَ لِأَسْفٍ
 عَلَيَّ مَا لَا يَصِحُّ فِيهِ الْأَسْتِدْرَاكُ . وَمَا أَنْتُمْ بِمَجْدِ اللَّهِ مِنْ يَدِّكَرٍ بِمَا هُوَ فِيهِ أَذْكَرُ ،
 وَلَا مِنْ يُنَبِّهَ عَلَيَّ مَا هُوَ بِالتَّنْبِيهِ عَلَيْهِ أَخْلَقُ وَأَجْدَرُ ؛ وَلَوْلَا أَنَّ التَّعَازِيَّ بِمَا أَطْرَدَ بِهِ
 الْعَمَلَ ، وَسَنَّهُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلَ ، لَمَّا سَلِكِ سَبِيلَهُ مَعَكُمْ وَأَنْتُمْ مِنْ قَدَرِ الْأُمُورِ
 قَدَرَهَا ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ لَوْ طَالَتْ فَالْمَوْتُ أَثَرَهَا ؛ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بَدٌّ ، وَلَمْ يَمْنَعْ
 مِنْهُ صَدٌّ وَلَا سَدٌّ ؛ فَالصَّبْرُ خَيْرٌ مِنَ الْجَزَعِ ، وَأَدْلُّ عَلَى كَرَمِ الْمَنْحَى وَالْمَتَرَعِ ، وَأَحْرَى
 بِأَنْ يَكُونَ الثَّوَابُ جَزِيلًا ، وَالْجَزَاءُ حَسَنًا جَمِيلًا ؛ وَاللَّهُ بِيَقِينِكُمْ أَنْتُمْ الْبَقَاءُ ، وَيُرَقِّبِكُمْ
 أَنْتُمْ الْارْتِقَاءُ .

ابن أبي الخصال :

الشيخ الأجلُّ فلان - أنسَ اللهُ وَحَشَتَهُ ، وَجَدَّدَ عَلَيَّ فَقِيدَتَهُ رَحْمَتَهُ . مَعَزِّيهِ عَنِ
 أَهْلِهِ الْهَالِكَةِ وَسَكَنِهِ ؛ وَمَسَاهِمُهُ بِأَوْجِبِ حُزْنٍ فِي الْقُلُوبِ وَأَسْكَنِهِ . فَلَانَ :
 فَإِنَّا كَتَبْنَاهُ عَنِ دُمُوعِ تَصُوبٍ وَتَسْرِبِ ، وَضُلُوعِ تَحْفَقٍ مِنْ وَجِيهٍ وَتَضْطَرَبِ ،
 وَأَنْسَ يُشْرِدُ مِنَّا وَيَحْتَجِبُ ، بِمَوْتِ فَلَانَةَ رَحِمَهَا اللَّهُ الَّتِي أودَعَتْ فِي جَوَانِحِنَا مِنَ الثُّكُلِ
 مَا أودَعَتْ ، وَرَضَتْ أَكْبَادَنَا بِمُصَابِهَا وَصَدَعَتْ ، عَزَّأَنَا اللَّهُ جَمِيعًا فِيهَا ، وَأَوْلَاهَا نَعِيمًا
 فِي الْفِرْدُوسِ الْأَعْلَى وَتَرْفِيهَا ، وَأَعْقَبَنَا مِنَ الْوَحْشَةِ أَنْسَا ، وَعَمَّرَ بِالرُّحْمَى جَدْنًا مَبَارَكًا
 وَرَمْسًا ؛ وَجَعَلْنَا كَلًّا مِنْ يَرْدَعِ عَنِ الْأَنْحِطَاطِ إِلَى الدُّنْيَا نَفْسًا ، بِمَنَّةٍ وَكْرَمِهِ .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

لَمَّا علم مملوك المجلس السامى أطلال الله بقاءه ، وأعظم أجره وأحسن عزاءه ، وفاة
السيدة المرحومة سقى الله عهدها عهداً يبلى الثرى ، وجعل الرحمة لمن نزلت به لها
القرى ؛ تألم لفقدها غاية الألم ، ووجد حُرقة كسسته ثوبى ضنى وسقم ؛ وحزنا لا يعبر عنه
بعبارة بيانه ، ولا يستوعب وصفه بلسان قلبه وبنانه :

ولو كان النساء كمن فقدنا * لفضلت النساء على الرجال !

والمولى أولى من عزى نفسه ، وأستحسن رداء الصبر ولبسه ؛ وعلم أن الموت
غريم لا ينجى منه كثرة المطال ، ولا يدافع بالأطلاب والأبطال ؛ وأنه إذا طالب
بذمة كان ألد الخصام ، وإذا حارب فعل بيده ما لا تفعله الكفاة بجد الحسام .

الضرب السابع

(التعازى المطلقة مما يصلح إيرأده فى كل صنف)

من ذلك ، من ترسل أبى الحسين بن سعد :

من صحب الأيام وتقلب فى آنائها ، أعتورته أحداتها ، وأختلفت عليه أحكامها ؛
بين مسرة ومساءة يعقبان ، وفرحة وترحة يتناوبان [وكان] فيما تأتبه من محبوبها على
غير ثقة من دوامه وأتصاله ، ولا أمن من تغيره وانتقاله ؛ حتى تعقب السلامة حسرة ،
وتستحيل النعمة محنة ؛ والسعيد من وفق فى كل حال لحظه ، وأعين على ما فيه
سلامة دينه : من الشكر على الموهبة ، والصبر على النازلة ، وتقديم حق الله تعالى

في حال العِبْطَةِ وَالرِّزِيَّةِ . ولم تكن بِالْفَجِيعَةِ به مُفْرَدًا عَنِّي وَإِنْ كَانَ النَّسَبُ يَقْرَبُهُ مِنْكَ ، وَالرَّحِمُ تَصَلُّهُ بِكَ : لَمَا كُنْتُ أَوْجِبُهُ مِنْ حَقِّهِ ، وَأَرْعَاهُ مِنْ مَوَدَّتِهِ ، وَأَخْتَصُّهُ بِالْأَعْتَادِ فِيهِ دُونَ أَدَانِي أَهْلِي وَالثَّقَةِ مِنْ إِخْوَانِي ، فَمَضَى رَحْمَهُ اللَّهُ أَقْوَى مَا كَانَ الْأَمَلُ فِيهِ ، وَأَكَلْ مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي لُبِّهِ وَأَدَبِهِ ، وَاجْتَمَعَ فَهْمُهُ وَكَمَالَ هَدْيِهِ ، وَانْتِظَامُ أَسْبَابِ الْخَيْرِ وَأَدَوَاتِ الْفَضْلِ فِيهِ .

ومنه : لَا يُنْكَرُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَتَنَاوَلَ مَوْلَاهُ عِنْدَ وَقُوعِ الْحِنَةِ فِي أَهْلِ خَاصَّتِهِ ، وَتَحَوُّنَ رَبِّبِ الْمُنُونِ مِنْ حَاشِيَتِهِ ، بِالْتَعَزُّيَةِ عَنْ مُصِيبَتِهِ ، وَالْإِخْبَارِ عَمَّا يُحْصُهُ مِنْ أَلَمِ جِيعَتِهِ وَعُظْمِ رَزِيَّتِهِ ، لِأَسْمِيًا إِذَا كَانَ بَحِيثٌ لَا يُرَى شَخْصُهُ فِي الْبَاكِينَ ، وَلَا تُسْمَعُ صَرَخَتُهُ بَيْنَ الْمُتَفَجِّعِينَ ، وَلَوْ سَعَيْتَ عَلَيَّ حَدَقَتِي .

ومن ذلك :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَمَرَ أَهْلَ طَاعَتِهِ ، بِتَنْزِيلِ هَذِهِ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَتِهَا مِنْ إِهَانَتِهِ ، وَسَوَى بَيْنَ الْبَرِّ وَالْفَاجِرِ فِي رِغَابِهَا وَمَصَابِيئِهَا ، وَلَمْ يَجْعَلِ الْعَطِيَّةَ دَلِيلًا عَلَى رِضَاهُ ، وَلَا الرِّزِيَّةَ دَلِيلًا عَلَى سُنْطِهِ ، وَلَكِنَّهُ أَلْزَمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الرِّضَا وَالسُّخْطِ مِنْ نَعْمِهَا بِنَصِيبٍ ، وَسَقَاهُمْ مِنْ حَوَادِثِهَا بِذُنُوبٍ : لِيَتَبَلَّى أَهْلَ رِضَاهُ فِي أَهْوَنِ الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ ، وَيُحْسِنَ لَهُمُ الْجَزَاءَ فِي أَكْرَمِهِمَا لَدَيْهِ ، وَلِذَلِكَ حَبَّبَ إِلَيْهِمُ الزَّهَادَةَ فِي زَهِيدِ فَائِدَتِهَا ، وَمُنُوحَ زَهْرَتِهَا ، وَسَمَاهَا لَعِبًا وَلَهْوًا : لِثَلَا يَعْتَقُوا بِحُطَامِهَا ، وَيَنْعَمِسُوا فِي آثَامِهَا ، وَخَمَمَهَا بِالْمَوْتِ الَّذِي كَتَبَهُ عَلَى خَلِيقَتِهِ ، وَسَوَى بَيْنَهُمْ فِي سَكَرَتِهِ : ﴿ لِيَجْزِيَ الْبَدِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ . وَيُقَرَّبُهُمْ بِدَارِ يَفْنَى الْمَوْتِ وَيَقْوُونَ فِيهَا بَعْدَهُ ، كَمَا فَنُوا فِي هَذِهِ الدَّارِ وَيَقِي الْمَوْتُ بَعْدَهُمْ ؛ فَإِنْ تَأَخَّرَ الْأَجَلُ فَلِئْلِ غَايِهِ ، وَإِنْ تَطَاوَلَ الْأَمَدُ فَلِئْلِ نِهَائِهِ ؛ وَلَا بُدَّ أَنْ يَلْحَقَ التَّالِي الْمَاضِي ، وَالْآتِي بِالسَّالِفِ ، وَهَذِهِ حَالُ نُصَبِ الْأَفْكَارِ ، وَتِلْقَاءِ الْأَبْصَارِ ، لِاتِّحْتَاجِ أَنْ يَرْتَضِيَ الصَّبْرُ عَلَى آلَمِهَا ،

والتحمل لمُعِضَلَاتِ سِهَامِهَا ، وَالجَزَعُ عِنْدَ وَقُوعِهَا قَادِحٌ فِي البصائرِ وَالأفهامِ ، دَالٌّ عَلَى الجَهْلِ بِاللَّيَالِيِ وَالْأَيَّامِ ؛ وَقَدْ طَرَقَ المَمْلُوكَ نَاعِي فلانَ فَهَدَّ جَلَدِي ، وَقَتَّتْ كَيْدِي ، لَا أَرْتِياعاً لِلْحَادِثَةِ : لِأَنَّهَا لَوْ لَمْ تُكُنْ فِيهِ لَكَانَتْ فِي المَمْلُوكِ ، وَلَوْ لَمْ تَتَطَرَّقْ إِلَيْهِ لَتَطَرَّقَتْ إِلَى المَدْرِكِ (؟) وَلَكِنِ الأَسْفُ عَلَى عَطَلِ الزمانِ مِنْ حِلْيَةِ فَضْلِهِ ؛ وَتَعَزِيهِ مِنْ حُلَّةِ نُبْلِهِ ، وَخُلُوِّ عِرَاصِهِ مِنَ الأُنْسِ بِمَثَلِهِ ، وَمَانالِ سَيِّدِي لَفَقْدِهِ ، وَتَجَمُّلِهِ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَإِلَى اللَّهِ تَعَالَى يُرَغَّبُ المَمْلُوكُ أَنْ يَرِيطَ عَلَى قَلْبِهِ بِالصَّبْرِ ، وَيُوقِّعَهُ لِتَنْجِزِ ما وَعَدَ بِهِ الصَّابِرِينَ مِنَ الأَجْرِ ؛ إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

علي بن خلف :

رُقْعَةٌ : لَيْسَ عِنْدَ المُصِيبَةِ - أَطالَ اللَّهُ بقاءَ سَيِّدِي - خَيْرٌ مِنَ التَّسْلِيمِ إِلَى اللَّهِ وَالرِّضَا بِقَضائِهِ ، وَالصَّبْرِ عَلَى بَلائِهِ ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى مَدَحَ الصَّابِرِينَ فِي كِتابِهِ ، وَوَعَدَهُمْ بِصَلواتِهِ . فَقَالَ جَلِ قَائِلًا : ﴿ أَيُّدِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلواتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾ . وَقَالَ جَلِ قَائِلًا : ﴿ وَبَشِّرِ المُخْتَبِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى ما أَصَابَهُمْ ﴾ . وَلَمْ تَرَلِ الأُولِياءُ مِنَ القَدَماءِ يُحْضِنُونَ عَلَى الصَّبْرِ وَهُمْ لا يَرْجُونَ عَلَيْهِ ثواباً ؛ وَيَنهَوْنَ عَنِ الجَزَعِ وَلا يُخافُونَ عَلَيْهِ عِقاباً ؛ وَمَنْ عَرَفَ الأَيَّامَ وَتَدَاوُلَها ، وَالأَحْوالَ وَتَحَوُّلَها ، وَسَعَّ صَدْرَهُ لِلنَّوائِبِ ، وَصَبَرَ عَلَى تَجَرُّعِ المِصائبِ ، وَمَنْ أَغْتَرَبَطُولَ السَّلامَةِ ، وَطَمِعَ فِي الأَسْتِمْرارِ وَالإِقامَةِ .

رُقْعَةٌ : وَقَدْ اتَّصَلَ بِالمَمْلُوكِ خَبَرُ الفَجِيعَةِ بِفلانَ ، فَأُفِضَتِ المَدامِعُ ، وَتَضَعَّضَتِ الأَضالِعُ ؛ وَزَفَرَتِ الأَنْفاسُ ، وَهَمَدَتِ الحِواسبُ ؛ وَأَذابَ الطَّرْفُ

(١) لم يذكر في الاصل لهذا الشرط جواباً ويملن أخذه من المقام أى «فقد حاول محالاً، وضل في سعيه

سواده على الوجنات بدلاً من الأنفاس، وخلعت القلوب سويداءها على الأجساد،
 عوضاً عن جلايب الحداد؛ وعضت الأنامل جزعاً، ومزقت الثياب تفجعاً
 وتوجعاً؛ وكل هذا وإن فارق حميد التماسك، ووافق ذميم التهالك، غير مؤوف بحق
 ذلك الدارج الذي بلغ المعالي وهو في مهده، وشد دعائم الفضل ولم يبلغ أوان
 رُشده؛ وعلم سيدي أن غاية الجازع وإن صدعت المصيبة قلبه، وأطاشت
 الفجعة لبه، الصبر والسلو؛ وأن نهاية القلق وإن هجمت عليه الحرقه بما لا تتوفر عليه
 الأضالع، ولا تمتسك معه المدامع، القرار والهدوء، والله تعالى لا يريه بعد هذا
 الرزء رزءاً يفنائه، وينقل ذلك عنه إلى حاسديه وأعدائه .

رقعة : من علم أن الأفضية لا تحطى سهامها ، والأفئدة لا ترد أحكامها ، سلم
 الأمر في السراء والضراء ، ورضى بما مناه في البلاء والإبتلاء ؛ ولا سيما في مصيبة
 الموت التي سوى بين الخليفة في تجريح صاها ، وأقتحام عقابها ؛ وقد أتصل بالملوك
 خبر الحادث الفاصم لعري الجلد ، البارح في الجلد ^(١) . فاستحالت في عين المملوك
 الأحوال ، ومالت عنه الآمال ، ورأى السماء وقد تكدر جوها ، والشمس وقد تعكر
 ضوها ، والسحاب وقد أخلف نوها ، والنهار وقد أظلم ، والليل وقد أدلهم ، والنسيم
 وقد ركد ، والمعين وقد جمد ، والزمان وقد سهمت وجهته ، وسلبت حليته ،
 وأفرجت قبضته عن التماسك ، وقبضت على التهالك ، وعدلت عن التجلد ، إلى
 التبلد ؛ ثم أفاق من عمرة فجيعته ، وهيب سنة رويته ، فسلم لله راضيا بأفضيته ،
 راغباً في مؤوته .

(١) لعله البادح والبلح والبدح بالاهمال والاعجم والشق والمراد ظاهر .

أبو الفرج البيهقي :

إذا كان أيده الله أهدي في النعم إلى سبيل الشكر، وأعرف في المحن بطرق الصبر؛ فكيف يُحاذرُ عليه من المصائب، ونذكره التسليم لمحتوم النوائب؛ والمصيبةُ بفلانٍ أعظمُ من أن نهدي فيها إلى سلوةٍ غير مستفاديةٍ منه، أو نقتدي في العزاء بغير مانأخذه عنه؛ إذ كانت قلوبنا تبع قلبه - سره الله - في طروق السراء والضراء، وحالاتي الشدة والرخاء. وأحسن [الله] عن الفجيرة عزاءه، وأجزل من المثوبة عطاءه؛ ولا شغله عن حلاوة شكر النعم بمرارة الصبر على ورود المحن، وجعل مانقل الماضي إليه، أنفع له وليسدي من الجزع عليه.

وله في مثله :

أتصل بي خبر المصيبة فجدد الحسره، وسكب العبره، وأضرم الحرقه، وضاعف اللوعة، وكان الأسف عليه، بقدر تشوف الآمال كانت إليه : فإننا لله وإننا إليه راجعون!! أخذنا بأمره، وتسلياً لحكمه، ورضاً بمواقع أفضيته، وأحسن الله في العزاء هدايته، وحرص من فتن المصائب بصيرته، وحمل عن قلبه ما أظله من ثقل المصيبة وعظم الرزية.

ولا أزال على جملة من القلق إلى أن يرد على كتابه - أيده الله - بما أكون فيه بأديه مقتدياً، وهداياته إلى سبيل العزاء والصبر مهتدياً؛ فإن رأى إجرأى من تشريفه بذلك على مشكور العادة، فعل، إن شاء الله تعالى.

وله في مثله :

أشترك القلوب فيما ألم بقلب سيدي بحسب تساويها في المسرة بما سره، إذ كان لا يختص دون أوليائه بنعمه، ولا ينفرد دون مؤمليه بحلول موهبه، والمصيبة بفلان

- وإن جَلَّ موقعها وعُظمت الفَجِيعَة [بها] - جَلَلٌ مع سُقُوطِ الأقدارِ دُونَهُ ،
وتجاوُزِها عنه ، ومُساخِمتِها به ، فلا شَغَلَ اللهُ قلبه بَعْدَها بمرارة الصبرِ عَمَّا تُوجِبُه النعم
من حلاوة الشُّكرِ ، ولا جاوَرَه برزِيَّة في حَميم ولا نعمه .

وله في مثله :

بصيرتكَ إلى العزاء تَهْدِيكَ ، وأغْتباطُكَ بثوابِ اللهِ يُسَلِّيكُ ، وعائِمُكَ بِقِلَّةِ الغنَاءِ
عن الجَزَعِ يَنْثِيكَ ، وجمَعنا بِكَ في الصبرِ مُقْتَدُونَ ، ولرَأْيِكَ في الرِّضا بما آخَرَهُ اللهُ
تعالى مَتَّبِعُونَ ؛ فحَمَلَ اللهُ عن قلبِكَ ثِقَلَ المِصِيبَةِ ، وحرَسَ يَقِينِكَ من أعتراضِ
الشبهة ، وأحسنَ إلى جميلِ الصبرِ هِدايَتَكَ ، وتولَّى من قِينِ المِحْنِ رِعايَتَكَ ، وجعل
ماتَّقِلَ الماضى إليه ، أنفَعَكَ لك وله من الأَسَفِ عليه .

وله في مثله :

(٢)
اتَّصلَ بي خَبْرُ المِصِيبَةِ فأضرمَ الحِسرَةَ ، وسكَبَ العَبْرَةَ ، وقَدَحَ اللُّوعَةَ ، وأمْتَرى
الدَّمْعَةَ ، وكانت مُشارِكْتِي إِيَّاكَ في المِصِيبَةِ به ، والفَجِيعَةِ لفقْدِهِ ، بحسَبِ اِختِصاصِي
بمواهِبِ اللهِ عِنْدَكَ ، وأغْتباطِي بِمِنَحِهِ لَدَيْكَ ؛ فَإنا لله وإنا إِلَيْهِ راجِعُونَ !! تسليماً
لأمرِهِ ، وأتقياداً لحُكْمِهِ ، ورضاً بمواقِعِ أقدارِهِ ، وأحسنَ اللهُ على العزاءِ توفيقَكَ ،
وإلى السَّلْوةِ إرشادَكَ ، ولا أخلاكَ فيما تَطْرُقُكَ به مِصِيبَةٌ من مصاحِبَةِ الصبرِ ،
وفيا تَقَدُّ به عليك نعمةٌ من الأستِرادَةِ بالشُّكرِ ؛ وحرَسَكَ في نَفْسِكَ وأحْيَيْتَكَ ، ودَوَى
عنايَتِكَ ونِعْمَتِكَ .

(١) أى يسير هين على حد قول امرئ القيس لما قتل أبوه :

بقتل بنى أسد ربههم * ألاك لشيء سواه جل

(٢) فى القاموس « ومرى الشيء أستخرجه كما تراه » .

وله في مثله :

قدرك أكبر، وبصيرتك أنور، وثقتك بالله تعالى أعظم من اعتراض الشُّكوك عليك فيما يطرُقك من عِظاته بالحوادث وإن عظمت، والمحن وإن جلت؛ اختياراً بالمصائب لصبرك، وبما يُظَاهِرُهُ عليك من النعم لشُكرك، ومثلك أيدك الله من قابل الفجیعة بفلان - إذ كانت من الواجب المحتوم - بأحسن عزاءٍ وأفضل تسليم، غير مراتب بما آختره الله له ولك فيه، فعظم الله به أجرَك وحرَسك وحرَس فيك .

الأجوبة عن التعازي

قال في "موادّ البيان" : أجوبة التعازي يجب أن تُبنى على وقوف المعزّي على كتاب المعزّي ، وأن إرشاده نفع غلته ، ووعظه نفع علته ، وتبصيره سكن أواره ، وتذكيره أحمد ناره ، وتنبهه أيقظ منه بحسن العزاء غافلاً ، وهدى إلى الصبر ذاهلاً ، وحسن عنده الرزية بعد جهامتها ، ودمت نفسه للمصيبة بعد فدأمتها ، فسلم الله تعالى متادباً بأدبه ، وعمل بالحكم مقتدياً بمذهبه ، وغالب الرزء بالعزم ، وأخذ فيه بالحزم ، وسأل الله تعالى أن يُحسن له العوض في رده ، ويجعله له خلفاً ممن أُصيب بفقده ، ونحو هذا مما ينخرط في سلكه .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعز الله سيدنا وأسعدّه ، وسهل له طريق المسرة ومهدّه ، وصان عن حوادث الأيام حجابّه ، وعن طوارق الحدّثان جنابّه ؛ وجعله في جمى عن عوارض الغير والغرر، وأصار أيامه محسنةً لوجوه الأيام كالغرر .

ورد الكتاب الذي أنعم بإرساله ، بل المشرف الذي كسته اليد العالية حلة من حلال جماله ، فوقف عليه وفهمه وتذكر به إحسانه الذي لا ينساه ، وتفضله الذي لا يعرف سواه ؛ فأما التعزية بفلان ، فإنه رد بعذب لفظها قوته ، وبلى بماء حسنها غلته ؛ وضبره على حادثته بفلان بعد أن عز عليه العزاء وأعوزه ، وطلب وعده من صبره فما أنجزه : لأنه كان وجد الموت المذكور حزنا ما استطاع له تركا ، وقد لموته خلا مثله يباح عليه ويئسكى ؛ وفي بقاء مولانا مسرة تطرد كل حزن ، وفي بهاء طلعتة عوض عن كل منظر حسن ، جعله الله ساميا على أترابه ، مقدما على أضرابه ؛ ماسمت الأسماء على الأفعال ، وتقدم الحال على الاستقبال .

آخر : ضاعف الله بقاءه وأطال عمره ، وشرح لإسداء المكارم صدره ؛ وأنقذ نبيه وأمره ، ولا زال إلى أوليائه محسنا ، وفضله يحصل لمحبيه غاية السؤل والمنى ؛ ورد مشرفه المعزى بوفاة فلان سقى الله عهده عهدا رضوانه ، وأسكنه في عُرف عُقرانه ؛ فبخر مصابا ، وفتح إلى الصبر أبوابا ؛ وهدى إلى طريق الخير وقال صوابا ؛ وسكن نفسه ، وذكره إحسانه الذي لم ينسه ، وأزال الوحشة وزاد أُنسه ، بعد أن كان فقد المذكور قد هتد ركنه وقت عضده ، وأوصله إلى أمد الحزن وضاعف على الأيام أمده ؛ وألبسه رداء الأكتاب ، على ترابه الذي أصبح تحت التراب ، وصديقه الموصوف بالصدق ، الذي فاق سناه ذلك الأفق ؛ جعله الله أصلا في تحصيل المسرة إذا ذوت الفروع ، وسيقا يقهر به وليه الحوادث التي تروع ؛ إن شاء الله تعالى .

آخر : جعل الله أجره عظيما كقدره ، والقلوب مجمعة على حبه كاجماع الألسنة على شكره .

المملوك يُعلمه بُرُود كتابه الكريم المعزى بفلان - قدس الله رُوحه، وأمطر سحابَ
الرحمة ضريحه - عليه، وعنده من شديد الحزن، ما أعدمه لذيذ الوسن؛ ومن زائد
الآكتئاب، ما كاد يحرمه التقمص بثوب الثواب؛ بحيث إنه عوض بالزمن الأسود
عن العيش الأخضر، وذاق من موجب لبس الأبيض طعم الموت الأبحر، وأنه ضمّه
إليه ضمّ المحبوب، وأبتهج به أبتهج من ظفر بغاية السؤل والمطلوب؛ فأعمدت
الكتابة خوفاً من قلمه سيفها، وأزالت الدنيا الدنية عنه حيفها؛ وعزى نفسه
وسلاها، وشغله إحسانه عن محاسن محا الموت سناها؛ فرفض من توجهه ما فرضته
حادثته، وسلك منهجا غير المنهج الذي فتتت فيه حشاه ومهجته؛ فالله تعالى يكفينا
مانحاذره في المجلس ويجرس سناها، ويديم سعده وعلاه.

النوع الثالث

(من مقاصد المكاتبات التهادى والملاطفة)

قال في "موادّ البيان": رِقَاعُ التَّهَادِي يجب أن تُودَع من الألفاظ المستحسنة
ما يهدد لقبول الملاطفة والمبرة التي تميز في المودة. قال: وينبغي أن يُطْرِف الكاتبُ
إذا كان مُهْدِياً أو مُسْتَهْدِياً؛ وقد جرت العادة أن تُودَع هذه الرقاع من أوصاف
الشيء المُهْدَى ما يحسّنه في نفس المُهْدَى إليه. قال: وينبغي لمن ذهب هذا
المذهب أن لا يعتمد تفخيم هديته، ولا الإشارة إلى جلاله خطرهما، فإن ذلك يُجِلُّ
بشروط المروعة ويتحاماها الكرماء.

ثم هي على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول

(ما يُكْتَبُ مع التَّقَادِمِ إلى المُلُوكِ من أهل مملكتهم

إلى القَائِمِينَ بإيصال التَّقَدِيمَةِ إلى المَلِكِ وكتابِ السَّرِّ ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلى كاتبِ السَّرِّ بالأبواب السلطانية صحبةً تَقَدِّمَةُ
من نائب الشام إلى السلطان :

لا زالت أعلامها لتتأجج الفضل مُقدِّمه ، ولمرأ كض الكرم والبأس جيداً مُسومه ؛
ولكتابِ الملك من كُتِبَ أعلاماً بشعارها العباسيِّ مُعلمه ، وفي يد صاحِبها من أصحاب
اليمينَةِ ، والذين كَفَرُوا بآياتِ الله ونِعِمِّها من أصحابِ المشأمة ؛ تقبيلٌ مُحِبٌّ لا تُفَسِّخُ
عقودُ وِلائه المُحكِّمه ، ولا تُنسخُ إلا في الكُتُبِ عقودُ شئائه المنظَّمه ، ولا تطوفُ
الأشواقُ بيئتِ قلبه إلا وهى من ملابسِ السُّلوانِ المحرَّمِ مُحْرِمه .

ويُنهى أنه قد اختارَ من عنايةِ مولانا بمقاصده أحسنِ الخبيرِ ، وبُورك له
في قصدها (ومن بُورك له في شئٍ فليزِمه) كما جاء الخبرُ ؛ وقد جهَّز فلانا إلى الأبواب
الشريفةِ خلد الله سلطانها بتقدمته على العادةِ في كلِّ سنة ، وأتبع سفارةَ مولانا بين
يديِ المواقِفِ الشريفةِ فاتَّبع من القولِ أحسنه ؛ وسأل حُسنَ نظرِ مولانا الذى إذا
لاحظَ قصداً أعلنه وسعدا عينه ، وقد جهَّز المملوكُ برسمِ مولانا ماهو بمقتضى الورقةِ
المجهَّزةِ عطفها ، المؤمَّلةِ وإن كانت ورقةً قُطِّفها ، وسأل مقابلتها بالخبرِ الذى يحسبُ
الأملِ حسابَه ، ويستفتحُ ببنانِ القلمِ بابه ، والإصغاءَ لما يُعْمَلُ من رسائلِ الشُّوقِ
فإنها من رسائلِ إخوانِ الصِّفا المستطابه ، لا يبرحُ القاصِدونَ مَرِحِينَ بأيامِ مولانا
وَحَقَّ لهم أن يَمْرَحُوا ، تالينَ نسبةِ بيته ورُحْمى الله على يده : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ
فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ .

وله إليه أيضا مع الجهّاز الشريف السلطاني :

أمتعها الله من خيرى الدنيا والآخرة بكرم الأمرين ، وبشرف الدّكرين ، وسرها
بما يجهز في الثناء والثواب من الوفّين ، وأعلى منارها المحقّق إلى السماء على وكر
النّسرين . ولا زالت الآمال لا تبرح حتى تبلغ من تلك اليدين بجمع البحرين ؛ بتقبل
مخلص في الولاء والدّعاء ، مستشهد بالخواطر الكريمة على ثبوت الأدّعاء ، واردة لموارد
النعم قبل صدور بل قبل ورود الرّعاء .

وينهى أنه ليس للملوك فيما يومئه ويتأمّله ، ويفصله من عقود المطالب ويجهله ؛
غير إحسان مولانا الذى لا يملّ على طول الإيناس والإلباس ، وعوارف بيته
المستجدة تالية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ ﴾ . وقد جهّز الملوك الولد فلانا
بالجهّاز المبارك إلى الأبواب الشريفة خلّد الله سلطانها ، وملاّ به جواهر حبات
القلوب ورينجانها ، وهو على قدر الملوك ومقداره ، لا على قدر مراده واختياره ؛ ولو أن
المراد مما يجهله العبد إلى سيّده ، ويقدمه من سبّد الحلال ولبده ، على قدر المحمول
إليه ، والمقدم بين يديه ، لضعفت قوى أكثر العبيد عن ذلك ، ويئس من الرضوان
جهدهم المالك ؛ وإنما على العبيد أن تنصب على قدرتها الحلال ، وعلى الساداب
أن تصرّف بعوامل الخبر مستقبل الأفعال . وعلم مولانا الكريم محيط بتنقل الملوك
في هذه السنين من بلد إلى بلد ، ومن أمدكّفه إلى أمد ، وبما حصل في ذلك من
التمحّق في إقطاعات كاد أن ينجني عليها الذى أخنى على لبد . وكان الملوك يودّ لو كان
هذا المحمول من الجهّاز من جواهر النجوم المنشورة ، وأخبية السعود الماثورة ،
وجميع ما زين للناس من الشّهوات المذكورة ، أضعاف أضعافه الآن ، بل أضعاف
أضعاف ما حمل الأوّلون من فلان وفلان ؛ كالحسن بن سهل مع الجهة المأمونية التي
حالا ذكرها ، وابن طولون مع المعتضدية التي كثر هذا الغيث قطرها ، والسامانيّ

وما أدراك، والسَّاجُوقِ وما أسراك، وجميع ما تضمَّنته التواريخ التي لو عاينت تاريخ هذه الدولة الشريفة عنت في الحال لمجدّه، وكان كلُّ مجلّد منها يموت للهية في جلده : لما خلّده أيامها الشريفة من أخبار حُكْمها وخيرها، وكرمها وبرّها، وعظفها على ممالك بيتها الشريف : تتقبل ميسورهم، وتكلُّ سرورهم ؛ وعلماً بجيوش الأئسراح صُدورهم ، وتبلغهم من همم مطلوبهم ؛ وتُقيل على زاهرات نجايهم ورياحين قلوبهم :

ولو لم تُطعهُ نِيَاتُ الْقُلُوبِ * لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعْمَالَهَا .

والمملوك يسأل من إحسان مولانا الذي ألفه، ومعروفه الذي عرفه، ملاحظة الولد فلان بين يدي المواقف الشريفة خلّد الله سلطانها، وإقامة عُذر المملوك بعبارته التي أحلَّ الله بحرها وبيانها ؛ فإلى المملوك في مقاصده مثل مودة مولانا الوايفة المتوافية ، ومقدمة عبارته الكافية الشافية ؛ والله تعالى يعين على شكر منته، والقيام بفرائض حمده وسننه ؛ والنهوض بأوصاف أياديه التي يُغزّد بها قلم الكُتّاب كما يُغزّد القمرى على فننه .

الضرب الثاني

(ما يكتب مع الهدية عند بعثها)

وهو على عشرة أصناف :

الصنف الأول — ما يكتب مع إهداء الخيل .

على بن خلف : في إهداء جوادٍ أدهمٍ أغرٍّ مجل .

وقد خدم المملوك ركابه الأكرم ، بجوادٍ أدهمٍ مطهّم ، قد سلب الليل غياهبه

وكواكبه ، فأشتمل بأديمه ، وتحلّى بجُومه ، وأطلع من غرته الساذجة قرماً متصلاً

بالحجره ، وتحلى من رُمته بالثرى^(١) أو النثره ، صافى القميص ، محوض الفصوص ،
 حديد الناظر ، صليب الحافر ، وثيق القصب ، نقي العصب ، قصير المطاء ، جعد
 النسا ، كأنما أنتعلت بالرياح الأربع أربعه ، وأصغى لأستراق السمع مسمعه ،
 إن ترك سار ، وإن غمز طار ، وإن ثنى أنحرف ، وإن أستوقف وقف ، أديب
 نجيب ، متين صليب ، صبور شكور ، والله تعالى يجعل السعادة مطلع غرته ، والإقبال
 معقد ناصيته .

من كلام المتأخرين :

كتاب عن نائب الشام إلى الملك الصالح : شمس الدين صاحب ماردین قرین خیل
 منعم بها إليه ، عن السلطان الملك الصالح : عماد الدين إسماعيل بن الناصر محمد
 ابن قلاوون - من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الألقاب .

وأجرى بالنصر جياده ، وبالظفر مراده ، وعلى عوائد السعد مطالع شمسه التي
 يُسميها عرف الملكة بلادَه ، ولا زالت منيرة بسعادة شمسه الأحلاك ، نظيمة بدر
 محامده الأسلاك ، مائلة خيول سعدة حتى حمر السوابق من البروق والشهب السواخ
 في الأفلاك .

المملوك يقبل اليد التي إذا بسطت فلأن تجود وتسلم ، وإذا قبضت فعلى سيف
 أوقلم .

ويُنهى بعدولاءٍ وثناءٍ للإخلاص شارحين ، وفي الضمائر والآفاق سائحين ، وأشتياقٍ
 وعهدٍ كانا أحق بالانتماء لاسمه ونعته وكان أبواهما صالحين ، أن المرسوم الشريف
 زاده الله تعالى شرفاً ، ورد يتضمن تشريف مولانا على العادة وإعظامه ، وأستقرار
 مكانته من الخواطر الشريفة في دار مقامه ، وأستمرار كرامته من الآراء المعظمة

(١) هي بالضم بياض في طرف أنف الفرس . تاموس .

ولا يُتكرين الصالح والصالح استمرار الكرامة ، وأنَّ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةَ أَنْعَمَتْ عَلَى
 مَوْلَانَا بِثَلَاثَةِ أَرْوَسٍ مِنَ الْخَيْلِ كَثَلَاثَةِ الرَّاحِ ، إِلَّا أَنْ حَبَّابَهَا عَرَقُ سَبْقِهَا ، وَثَلَاثَةَ
 الشَّجَرِ (؟) كَمَا قَالَ الطَّائِي تَسَاوَى شَرَفَ ثَمَرِهَا وَزَهْرَهَا وَعَرَفَهَا بِمَا مَنَّا إِلَّا مَنْ تَقْصُرُ^(١)
 الرِّيحُ أَنْ تَسْلُكَ بَجْهَ ، وَالْبُرُوقُ أَنْ تَتَّبِعَ نَهْجَهُ . وَمَنْ تَوَدُّ الثَّرِيًّا أَنْ تَكُونَ لِجَامِهِ
 وَالْهَالِلُ أَنْ يَكُونَ سَرَجَهُ . وَمَنْ يَتَمَطَّرُ كَالْغَمَامِ وَيَرْكُضُ كَالسَّيْلِ . وَمَنْ كَلَّمَتْ حِلَاهُ
 وَلَيْسَ حُلَّةُ الْفَخَّارِ فَشَى عَلَى الْخَالَتَيْنِ فِي الْخَلَّتَيْنِ مُسْبِلَ الدَّيْلِ . وَمَنْ عُقِدَ بِنَاصِيَتِهِ كُلُّ
 الْخَيْرِ وَعُقِدَ لَهُ لَوَاءُ الْفَخَّارِ عَلَى كُلِّ الْخَيْلِ : مِنْ كُلِّ خَضْرَاءٍ مُعْجِبَةٍ فِيهِ عَلَى الْمَجَازِ
 حَدِيقِهِ ، وَكُلِّ أَحْمَرَ سَابِقٍ فِيهِ الْبُرْقُ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَكُلِّ أَصْفَرَ شَفَقٍ إِلَّا أَنْ الرِّيحَ
 مِنْ مَجَارَاتِهِ عَلَى نَفْسِهَا شَفِيقِهِ . وَكَيْفَ لَا يُشَبَّهُ بِالشَّفَقِ وَهُوَ مِنَ الْأَصَائِلِ ، وَكَيْفَ
 لَا يَفْتَخِرُ الْعَسْكَرِيُّ بِهَذِهِ الْخَيْلِ وَخَنَاصِرُ عَدَدِهَا فِي الْحُسْنِ وَأَوَائِلِ ، قَدْ صُرِفَتْ وَجُوهُهَا
 الْمَقْبَلَةَ ، لِبابِ مَوْلَانَا أَحْسَنَ الْمَصَارِفِ ، وَكُتِبَتْ عَوَارِفُ الْفَضْلِ فِي مَعَارِفِهِ الْمُسَبَّلَةِ ،
 فَنَاهِيكَ مِنْهَا بِكَلْبِ عَوَارِفِ الْمَعَارِفِ ، وَوَصَلَ لِمَوْلَانَا بِذَلِكَ مِثَالُ شَرِيفٍ ، وَرَسَمَ
 لِلْمَمْلُوكِ بِتَجْهِيزِهَا مَع مَنْ يَرَاهُ ، وَقَدْ جَهَّزَ الْمَمْلُوكُ لخدمَةِ مَوْلَانَا الْخَيْلَ الْمَذْكُورَةَ مَعَ الْمِثَالِ
 الشَّرِيفِ صَحْبَةَ فُلَانٍ ، وَمَوْلَانَا أَدْرَى بِنَفَحَاتِ رِيَاضِ الْحَمْدِ بِهَذِهِ الدَّيْمِ الْمُطْلَعِ ،
 وَبِالتَّقْيِيلِ فِي الْأَرْضِ الَّتِي هِيَ سَمَاءُ حَوَافِرِ هَذِهِ الْخَيْلِ الَّتِي هِيَ أَهْلُهُ ، وَأَوْلَى أَنْ
 يَشْرَفَ الْمَمْلُوكَ بِمُهَمَّاتِهِ ، وَيُوَسِّسَ لِحَظِهِ بِطَيْفِ الْيَقْظَةِ مِنْ مَشْرِفَاتِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
 يَجِدُّ لِمَعَالِيهِ فِي كُلِّ قَصْدٍ مُجْحًا ، وَيَعْلَى لِمَجْدِهِ فِي كُلِّ حَالٍ قِدْحًا ، وَيُرْوِعُ الْأَعْدَاءَ^(٣)

(١) كذا في الأصل باستعمال من في غير العاقل .

(٢) في الأصل يخطر كالغمام ولعله مضحف عما أثنى به يقال تمطرت الخيل إذا جاءت مسرعة يسبق

بعضها بعضا تأمل .

(٣) في الاصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوَات خَيْلِهِ فِي بِلَادِهِم بِالْمَغِيرَاتِ صُبْحًا ، وَمِنْ خَطَرَاتِ ذِكْرِهِ فِي قُلُوبِهِم بِالْمُورِيَاتِ قَدْحًا .

وفي معناه :

يَقْبَلُ الْبَاسِطَةَ الشَّرِيفَةَ أَعْلَى اللَّهِ شَانَهَا ، وَجَمَّلَ بِبَقَائِهَا زَمَانَهَا ، وَضَاعَفَ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ بِرَّهَا وَإِحْسَانَهَا .

ويُنَبِّئُ : أَنَّهُ آتِبَاعُ جَوَادًا أَعْجَبَهُ ، وَطَرَفًا آتَنْجَبَهُ ، وَقَدْ قَدَّمَهُ لَوْلَى نِعْمَتِهِ ، وَمَالِكٌ عَهْدَتُهُ : لِأَنَّ الْكِرَامَ لَا تَكُونُ إِلَّا عِنْدَ سَيِّدِ الْكِرَامِ ، وَالَّذِي يَصْلُحُ لِلْوَلِيِّ عَلَى الْعَبْدِ حَرَامٌ ، فَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ التَّوْفِيقَ ضِيَاءَ غُرَّتِهِ ، وَالْيَمْنَ مَعْقِدَ نَاصِيَتِهِ ، وَالْإِقْبَالَ تَحْجِيلَ أَوْظَفَتِهِ ، وَالسَّعَادَةَ مَوْضِعَ الْجُلُوسِ مِنْ صَهْوَتِهِ ؛ وَالْمَمْلُوكُ يُسَالُ الْإِنْعَامَ بِقَبُولِهِ ، وَ[أَنْ] يَلْتَفِعَ مِنْ ذَلِكَ [غَايَةَ] مَأْمُولِهِ ؛ مُضَافًا إِلَى مَا سَبَقَ بِهِ سَابِقُ إِحْسَانِهِ الْعَمِيمِ ، وَفَضْلِهِ الْجَسِيمِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَحْرُسُهُ بَعِينُهُ الَّتِي لَا تَنَامُ ، آمِينَ .

الأجوبة بوصول الخيل

جوابٌ عن نائب الشام إلى أميرأخوَر بالأبواب الشريفة ، عن وصول خيلٍ إليه من الإنعام الشريف - من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الألقاب :

لَا زَالَتْ مَبْشَرَةً بِأَعْظَمِ الْخَيْرِ وَكِرَامِ الْخَيْلِ ، مَيَّسَرَةَ النِّعَاءِ بِسَوَابِقِ السَّيْرِ كَدَوَافِقِ السَّيْلِ ؛ مُسْفِرَةً عَنِ إِيجَادِ سَوَابِحِ إِلَّا أَنَهَا فِي الْفَخَّارِ وَالشَّيَةِ ضَافِيَةُ الذَّيْلِ ، سَفِيرَةٌ فِي الْجَوَادِ بِكُلِّ جَوَادٍ تَبَسَّمُ غُرَّتُهُ آبَتَسَامَ النَّهَارِ وَيُدْرِكُ طَلَبَهُ إِدْرَاكَ اللَّيْلِ ؛ تَقْيِيلًا يَسْتَبِقُ اسْتِبَاقَ الْجِيَادِ ؛ وَيَتَسَّقُ عَلَى الدَّرَجِ أَسْقَاقَ الْعُقُودِ عَلَى الْأَجْيَادِ .

(١) النعم والنعمة والنعمى والنعماء ما ينعم به ففعل الصواب الانعام .

وَيُنْهَى بَعْدَ ثَنَاءِ وَوْلَاءٍ : هَذَا يَهِيمٌ فِي كُلِّ وَاوٍ ، وَهَذَا يَهِيمٌ بِمَثَلِهِ كُلُّ وَاوٍ ؛ وَرُودٌ
 مَشْرُفَةٌ مَوْلَانَا الْكَرِيمَةِ بِمَا مَلَأَ الْقَلْبَ مَسْرَهُ ، وَالْعَيْنَ قُرَّهُ ، وَدَرَجَ عَامَ الْفَيْلِ مِنْ نُجُبِ
 الْخَيْلِ السَّيَارَةِ مُسْتَهْلٍ وَغُرَّهُ ؛ فَقَابَلَهَا الْمَمْلُوكُ بِتَقْيِيلِهِ ، وَقَامَ لَهَا عَلَى قَدَمِ تَجْيِيلِهِ ؛
 ثُمَّ قَامَ إِلَى الْخَيْلِ الشَّرِيفَةِ الْمُنْعَمِ بِهَا عَلَيْهِ فَقَبَّلَ مِنْ حَوَافِرِهَا أَهْلَةً ثُمَّ مِنْ غُرَرِهَا
 نُجُومًا ، وَتَأَمَّلَ شَيْئَاتِهَا الْبَرَقِيَّةَ وَاسْتَمَطَرَ مِنَ السُّعُودِ غُيُومًا ؛ فَأَدْنَتْ لَهُ مِنَ الْإِقْبَالِ أَمَدَ
 قَاصِيهَا ، وَظَلَّ بِمَنْزِلِهِ الْخَيْرُ الْمَعْقُودُ بِنَوَاصِيهَا ؛ وَتَضَاعَفَتْ أَدْعِيَتُهُ الصَّالِحَةُ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ
 الْقَاهِرَةِ الصَّالِحِيَّةِ زَادَهَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَالْوَقْتِ الَّذِي مَلَأَ الدُّنْيَا بِسَحَابِ جُودِهِ
 وَرِيَاحِ جِيَادِهِ وَرِيَاضِ عَدْلِهِ ؛ وَالْمَلِكِ الَّذِي لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، وَلَوْلَا شُهُودُ
 الْعَهْدِ الشَّهِيدِيِّ لَقَالَ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِهِ ؛ وَأَعَدَّ الْمَمْلُوكُ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ مِنَ الْخَيْلِ لِيُفْنِيَ
 عَلَيْهَا بِالْقِتَالِ أَهْلَ التَّعْطِيلِ وَالثَّلَاثِ ، وَيَسْتَخَفَّ بِهَا أَجَالَ الْأَعْدَاءِ بَيْنَ يَدَيْ
 مَالِكِهِ : فَإِنَّمَا مِنْ ذَوَاتِ الْعِزِّ وَالْعِزْمِ الْحَيْثُ ؛ وَمَا هِيَ إِلَّا كَوَاكِبُ سَعْدٍ تَمُدُّهَا أَسْتَبَّهَا
 الْوَقَّادُ ، وَزَهْرَاتُ حَسَنِ حَيْثُ بِهَا عَلَى الْبُعْدِ سَفَارَتُهُ الْمَعْتَادُ ؛ لِأَبْرَحَ مَوْلَانَا يَقْلُدُ
 بَعْنَايَتِهِ وَإِعَاتِيهِ الْمِنَنِ الْحَسَامِ ، وَيَنْصُرُ بِعِزَائِمِهِ الْقَاطِعَةَ ، وَكَيْفَ لَا يَنْصُرُ وَيَقْطَعُ
 وَهُوَ الْحَسَامُ ؟ .

وله في جواب وُصول أكديش وِبازٍ [وكوهية] :

لَا زَالَ جَزِيلاً سَمَّاحُهُ ، جَمِيلاً مِنَ الْحَمْدِ رَبَّاحُهُ ، جَلِيلًا بَرُّهُ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ طَائِرُ
 الْخَيْرِ وَيَمْنُهُ وَطَائِلُ الْخَيْلِ وَنَجَّاحُهُ . هَذِهِ الْمَفَاوِضَةُ تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا يَنْجِفُ جَنَاحَهُ ،
 وَثَنَاءً تُشْرِقُ غُرَّهُ وَأَوْضَاحُهُ ؛ وَتَوْصِحُّ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ وَرُودَ مَكَاتِبَتِهِ سَرِيعَةَ الْأَحْتِثَاتِ ،
 طَائِرَةٌ يَمُنُّ طَرْسُهَا وَهَدِيَّتُهَا بِأَجْنِحَةٍ مَنَى وَثَلَاثَ ؛ فَخَصَلَ الْوَقُوفُ عَلَيْهَا ، وَتَجَدَّدَ
 عَهْدُ الْأَرِيَاكِحِ لَدَيْهَا ؛ وَفَهَمْنَا مَا لَمْ نَزَلْ نَفْهَمُهُ مِنْ وَدِّ الْحَنَابِ الْعَالِي ، وَبِرِّهِ الْمُتَعَالِي ؛

ووفاء عهده الذي تتلقاه المحامد بأمالى المحب لا بأمالى القالى؛ ووصل الأكدش الايكر
 ظاهرًا حسنه، سافرا عن وفق المراد يمنه؛ نتجمل به الموائب، وثمانية الرياح
 وبعضها من خلفه جنائب؛ وكذلك وصل البازى والكوهية، وكلاهما بديع
 الأوصاف، سريع الأقطاف لأزاهير الطير والأخطاف، يسبق الطرف بجناحه
 اللموح، ويستعجل من الأفق وإرد الرزق المنوح؛ ويواصل الخير والمير إلى المطبخ،
 فكأن حوامج كاش تغدو إليه وتروح؛ لا برح إحسان الجناح العالى وإصلا، وذكره
 فى ضمير الإعتداد إصلا؛ وحكم سماحته وشجاعته باستحقاق الثناء إصلا .

جواب بوصول جوارح :

كتب به عن نائب الشام، جوابًا لمطالعة وردت على نائب الشام من الصالح
 صاحب ماردین من بقايا بنى أرتق، صحبة سناقر، هدية للصالح إسماعيل بن الناصر
 محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وأيد هيمه السوايح ، ونعمه السواخ ، وشيمه التى تنتظم منها عليه دُرر المحامد
 والمداح ؛ وشكر هداياه التى منها جوارح طير تحفُّ لفرط أسخسانها الجوارح .
 ولا زال من أجنحة نصره حتى السماك الراح ؛ ومن جنود سعده للأولياء سعد
 السعود، وفى الأعداء سعد الذامح ؛ ومن جياذ ركابه الشهب إلا أنها شهب الأفلاك
 السوايح ؛ ولا برح سلطان البسيطة مكافئًا عمل قلبه الوفي ، ولا ينكر العمل بالقلوب
 بين الصالح والصالح .

المملوك يقبل الأرض التى تستمد السحب من سمائها، وتستعد منازل الأيحم للتعلم
 من أنوائها؛ تقيلاً يودع ورق الرسائل أزاهره، ويطلع فى ليالى السطور زواهره،
 ويندجر فى أيدى الحروف إلى أن تصل إلى أجياد المنابر جواهره .

ويُهيى - بعد دعاءٍ صالح، إذا جُدِّدَ تجدِّد، وولاءٍ نأجج، إذا آنعطف تأكَّد، وثناءٍ سانج، إذا سرى لا يتوقَّف إلا أن نسيمة في الآفاق يتردد، وأرتياج لما يرد من أخبار دياره السائة إذا شافه سروره سمع الوليَّ شهيد وسمع الحاسدِ تشهد، حيث يتلقى ببلاده النجج والمقاصد، وصلات البرِّ والعوائد، ووفود الآمال من كل أوب:

فديار بكر ديار زيد وعمرو وخالد - ورود المشرف الكريم، بل الغيث السائر يخضب المقيم، على يد فلان ونعم اليد العائلة لأبأدى البرِّ العميم، ونعم المشرف الوارد عن مقر: هذا للأمل كهف وهذا للتأمل رقيم؛ ففضه المملوك عن علامة أسم لحسنا وسوم، ولها رسوم، وأستجلى مواقع تلك الأناجيل المضية وأقسم على فضلها بمواقع النجوم؛ وأتتهى إلى الإشارات العالیه، وعلم ما كان القلب يعلمه من ضمائر الودِّ الحالية لا الخالية، وقابل كل أمرٍ حسنٍ بما يجب من مذاهب الودِّ المتواليه، ووصلت السناقر المنير سنا فضلها، المير في معارك الصيد شبا نصلها، القائمة في كواسر الطير مقام الملوک الأکاسرة إلا في حُكمها وعدلها؛ لاجرم أنها إذا دخلت آفاق طيرٍ أفسدتها وجعلت أعزّة أهلها أذلّة؛ وإذا آنقضت على سربٍ وحشٍ جذبته من دم الأوردة بأرسانٍ حيث كستها من قوادم الأجنحة أجله؛ لأيسأل كاسرها في الطيور بأى ذنب قنلت، ولا يجلها جانب الطير والوحش إذا عاندته فيأعجبا لها على أيدي البشر كيف حملت؛ يُظلل الصيد فلا يحجب أن يفزع بها من ظله، وتكتبُ علائم الثين والظفر بما في لونها من شبه الخط وشكله، نعم الجالبة للخير والمير، والسائرة بما يُخيف المتصيدات وكيف لا؟ وعلى زوسها الطير، أزهمرُ حسنٍ لا يدع أن يكون لها كآئم، وبوارق العزم لاجرم أن أجنحتها نغمائم؛ ونواقل البأس والكرم عن مُرسلها فهما جمعت الشجاعة فرقت المكارم. أستجلاها المملوك بعد أنفاظ المشرف الكريم فقال: (تلك الرياض وهذه السحب،

وتلك الأنوار الهداية وهذه في أفق مطارها الشهب) ؛ وجهز المملوك المطالعة المحضرة
للأبواب الشريفة أعلاها الله وشرفها على يد فلان المذكور فقوبل بالإكرام والكرم ،
ومثل بالموافق الشريفة مثولاً رقى بهيمته إلى الكواكب لا جرم ؛ وذَكَرَ بصالح
بيت الأرتقاء صالح بيت أرتق حتى أنشد :

فَهَلْ دَرَى الْبَيْتِ أُنَى بَعْدَ فُرْقَتِهِ * مَا سِرْتُ مِنْ حَرَمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ !

وقد عاد معلماً من البشر بما يراه مولانا عليه ، معلماً بما تقدم من نجوى الإنعام
بين يديه ؛ حاملاً من كريم وجه يعدان للأولياء في يوم نزل وللأعداء في يوم نزال ، قائلاً
برجاء سعيه المؤمن : (يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا) ولن نزال ؛ والله تعالى
يُجْرِي كَرَمَ مولانا على عوائد إسعاده ، ويحرس بعينه وملائكته نفاسة نفسه وبلاده ؛
ويُدْخِلُهُ بِأَسْمِهِ وَمُسَمَّاهُ لَدَى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِهِ .

وله جوابٌ بوصولِ بازِيَيْنِ :

ولا زالت بُزاةُ كرمه على الحمد مُطْلَءً ، وسحائبُه مُسْتَهْلَةً ، وهيمه مُسْتَقِلَّةٌ بأعباء
المكارم وإن كانت لكثير ما يهديه مستقلة . هذه المفاوضة تُهْدِي إليه من السلام
أجله ، وتوضِّح لعلمه الكريم ووصول مكاتبتة العالية فوقنا عليها ، وعودناها بكلمات
الثناء التامة من خلقها ومن بين يديها ؛ وعلمنا ما لم نزل نعلمه من مولانته وآلاته
المُسْتَنَدِ فِي الشُّكْرِ عِنْدَهَا وَالْمُسْتَنَدِ فِي الْوَلَاءِ إِلَيْهَا ؛ وَوَصَلَ كِلَا الْبَازِيَيْنِ الْحَسَنَيْنِ الْمُحْسِنَيْنِ
كأنهما فرقداً سماءٍ قد اجتمعا ، وقرأ حُسنٍ طلعاً ، وعلى محاسن الصيد أطلعاً ؛ يسران
القلوب والأبصار ، ويحمل كل منهما على اليمين فيحُصِّلُ بِهِ الْيَسَارَ ؛ وما هما بأول
إحسانه الأسنى ، وبره الأهنى ؛ وأباده التي أبى الكرم إلا أن ترد منى منى . وعلم
اعتذاره عن الكوهية التي كان أدحرها فبنقت ، ولو أقيمت بها أسواق الصيد

فَفَقَّتْ ، وَأرسل بروايتها تحقيقاً لدَعْوَى المكارم التي من زمانٍ تحَقَّقَتْ ، واللهُ تعالى
يُشْكِرُ بِهِ ، ويملاً بِذِكْرِهِ بحرَ الشَّاءِ وبرِّهِ .

وله جوابٌ بوصولِ كُوهِيتَيْنِ على يدِ شخصٍ أسْمُهُ باشق :

لازالَتِ المحامدُ من مَصايدِ إنعامه ، وفوائدِ أيامه ؛ وثمراتِ البأسِ والكرَمِ من
قُضْبِ سُيوفه وأقلامه ؛ بتقبيلِ معترفٍ بإحسانها ، مغترفٍ من مَوارِدِ أمتِنانها ؛ متحفٍ
منها بعاليِ تَحْفِ تَدُلُّ على مَكانِها في الفضلِ وإمكانِها .

ويُنمى ورُودَ مشرفِ مولانا الكَرِيمِ على يدِ الولدِ « باشق » فياله باشقُ جاء
بِكُوهِيتَيْنِ جميلَتَيْنِ ، وطارَ للشُّرعةِ وهو حاملٌ مِتينِ جليلَتَيْنِ ؛ وقد وصلتا و [كُننا] هما
حسنةُ الخُبْرِ والخَبْرِ ، حميدةُ الوِردِ والصِّدرِ ، يُحسِنُ مَسْرَى كُلِّ منهما وسيرُهُ ؛ ويَتَجَمَّلُ بهما
بابُ الشُّكْرِ خاناهُ وصدرُها ويكثرُ خَيْرُ المَطْبِخِ وميرُهُ ، فمدَّ المملوكُ إليهما اليدَ المتحمِّلةَ
الحامِلَةَ ، وإلى المشرفِ الكَرِيمِ اليدَ المتولِّيةَ المُتناوِلَةَ ؛ وعلم ماتضمنته من الحُسْنِ
والإحسانِ ، وذكُرِ المِوالاةِ التي يحكُمُ بها القلبُ العالمُ قبلَ شهادَةِ اللِّسانِ ؛ وأعتدَارِ
مولانا عن تعدُّرِ وُجُودِ الشاهينِ ؛ وكلِّ إحسانِ مولانا شهيِّ كافيِ ، وكلِّ مَوارِدِ
نِعْمه هَنِيِّ صافيِ ؛ ومافاتِ مَقْصِدِ وإنعامِ مولانا وراءَ طَلَبِهِ وإن طال الأمدُ ، ولاقرَّ
مطلوبٌ حتَّى يأتِيَ به سَعْدُ مولانا مَقْرُونًا في صَفَدِ ؛ واللهُ تعالى يُشْكِرُ عوائدِ فضله ،
ولا يَضْحِي الأمالِ المتجتمِةِ [إليه] من ظَلَّةِ .^(١)

جواب بوصولِ طيورِ ، من إنشاءِ الشَّيخِ جمالِ الدينِ بنِ نباتةِ :

وشكَّرَ هداياهُ المتقبَّلَةَ ، وسجَّايَها التي هي بأفواهِ المحامدِ مُقبَّلَةَ ، ولا زال بدرَ سعادتهِ
المأمولةِ وطارَ هديتَهُ المتأملَةَ .

(١) مراده لايجرمها ولا يخلها .

صدرت هذه المكتبةُ إلى الجنابِ العالى تُهدى إليه من السلام أُمَّه، ومن الشناء أُمَّه؛ وتوضَّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبتِه الكريمه، ومكارمِه العَميمه؛ وطُيورِ هديتِه التى كلُّ منها فى الحُسْنِ بدرتِمْ، وظهرتْ ظُهورَ البدرِ لِتَمَمِّه فأبتْ محاسِنُها أنْ تنكُتِمْ، حُسْنِ وُرودِها، ورُعى بفضلِ التلُطفِ والتوُدِّ مقصودُها؛ وأقبلتْ تلكَ الطيورُ التَمِيَّةَ تامَّةَ الإِنعامِ، دالَّةٌ يَمُنُّ طائرُها على بركةِ عامَّةٍ وكيف لا؟ وقد جاءتْ بيضاءَ عددِ شهورِ العامِ؛ واللهُ تعالى يزيده من فضله، ويُجْرِى الأقدارَ بالسُّعودِ الشاملةِ لجمعه الجامعةِ لِشَمْلِهِ؛ إن شاء الله تعالى .

جواب فى المعنى، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ أيضا :

لازالَتِ الجوارِحُ شاهدةً بِيَرِّه، والجوانِحُ حائمةَ الجناحِ على شَرِيفِ ذِكْرِهِ؛ والمحامدُ من مَصايدِ أَقلامِهِ ورماحِهِ فى السَّلْمِ والحَرْبِ : فإِما بقوادِمِ سُمُرِهِ ، وإِما بَمَناسِرِ سُمُرِهِ ؛ تَقبِيلاً يَبْعَثُهُ على أَجْنحةِ أوراِقِ الرِّسائِلِ ، وَيَتَصَيِّدُ بِهِ على البُعْدِ مَشافِهَةً تلكَ الأنامِلِ الجَلالِ .

ويُنهى بعد دعاءٍ، تُحَلِّقُ إلى السماءِ كَلِماتُهُ الحَسَنَةَ ، وولاءٍ وثناءٍ : هذا تَحْفِيقٌ بِتَشَوُّقِهِ أَجْنحةُ القلوبِ ، وهذا تَحْفِيقٌ بِذِكْرِهِ أَجْنحةُ الأَلْسِنَةِ - أنْ كَتَبَ مولانا وِرْدَ على المملوكِ فأورِدَ عليه المَسارِبَ؛ و[ملاً] يده بالمبار، ومصايدَه بالمير، ومنازلَه بالخير؛ وآماله بأمالى الكرمِ لذي السرحاتِ المنشرحِ بِأَيَةِ (وَعَلِمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) فقابله المملوكُ بِتَقبيلِهِ؛ وواصلَ فَضْلَ الأِعتِدادِ بِتَفْضيلِهِ ، وحصلَ من هداياها وهداها على جملةِ الإحسانِ وتَفْصِيلِهِ ؛ وأتمنى إلى الإشاراتِ العالِيَةِ التى زَكَّتْ على العِيانِ وتأمَلِهِ . وأرَبْتُ على الجَنانِ وتأميلِهِ .

فَأَمَّا الْإِنْعَامَ بِالْكُوهِتَيْنِ اللَّتَيْنِ مَا قَذَفَ الْبَحْرُ إِلَى السَّاحِلِ أَهْبَىٰ مِنْ دُرِّهِمَا
 الْمَكُونَةِ ، وَأَزْهَرَ مِنْ جُوهِهِمَا الْمَبَارَكَةِ الْمِيمُونَةِ ، فَقَدْ وَصَلَ كِلَا الطَّائِرَيْنِ يُمْنَهُ ،
 وَالسَّابِقِينَ بِمَنَّةٍ ؛ وَالغَائِيَيْنِ فِي جَوْ السَّمَاءِ الْآتِيَيْنِ مِنَ الصُّيُودِ بِأَوْفَىٰ مِنْ قَطْرَاتِ مَوْنِهِ ،
 وَأَسْتَقْبَلَ الْمَمْلُوكُ مِنْهُمَا وُجُوهَ الْمَسَارِ ، وَحَمَلَتْ يَمِينُهُ الثَّرْوَةَ وَحَمَلَتْ عَلَى الْيَسَارِ ؛
 وَتَنَاوَلَتْ يَدَهُ يَدَىٰ إِحْسَانٍ يَسُرُّ النَّاطِرِينَ وَالسَّامِعِينَ ؛ وَأَسْتَعْدَمَا لِلشُّكْرِ خَانَاهُ وَلِحِفْظِ
 مَطْبَخِ بِلَاءِ عُيُونِ الْمُشْبَعِينَ وَالْجَائِعِينَ ؛ وَقَالَ صَنَعَ اللَّهُ لِصِنَاعَتِهِمَا : ائْتِيَا بِصُيُودِ السَّمَاءِ
 طَوْعًا أَوْ كَرْهًا (قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ) . قَدْ كَتَبْتُ بِالْيَمْنِ فِي مَطَاوِي رِيشِهَا أَشْبَاهَ الْحُرُوفِ ؛
 وَقَضَى الْجُودُ لِتِلْكَ الْأَحْرَفِ أَنْ تَقْرَى مَا تَقْتَرَى عَوَاصِي الطَّيْرِ لَهُ بِطَاقَةِ تَقْيِيدِ السَّابِحِ
 فِي طَلْقِهِ ، وَيَعُودُ مُطْلِقُهَا وَقَدْ أَلْزَمَ نَجَاحَ الطَّيْرِ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ إِحْسَانَ
 مَوْلَانَا الَّذِي أَلْخَفَ الْأَمَلَ جَنَاحَهُ ، وَالْقَصْدَ نَجَاحَهُ ؛ وَبَرَّ الَّذِي أَحْمَدُ فِي سَوَاحِ
 الطَّيْرِ وَبَوَارِحِهِ مَسَاءَهُ وَصَبَاحَهُ ؛ وَعَلِمَ مَا أَشَارَ مَوْلَانَا إِلَيْهِ فِي أَمْرِ فُلَانٍ وَأَمْرُهُ عِلْمُ
 اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي الْخَاطِرِ حَاضِرًا ، وَمَا يُؤَخَّرُ شُغْلَهُ عَنِ إِهْمَالِ وَعَائِبِ الْإِهْمَالِ غَادِرًا ؛
 وَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ فُلَانٍ أَمِيرِ شُكْرِهِ وَأَمِيرِ شُكْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَتَقَدَّمَ بِخَلَّاصِ حَقِّهِ ،
 وَأَسْتَنْزَلَ بِهَدِيَّتِهِ قَضَاءَ الشُّغْلِ مِنْ أَفْقِهِ ؛ لِأَبْرَحَ مَوْلَانَا مِمْتَلِّ الْأَوَامِرِ ، هَامِي سُبْحِ
 الْبِرِّ الْهُوَامِرِ ، مُجَدِّدًا فِي كُلِّ وَقْتٍ نِعْمِي ، مَالَتَا بِهَدَايَاهُ قُلُوبَ مُحِبِّيهِ وَبُيُوتَهُمْ شَجْمًا وَلِحْمًا ؛
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ .

وله جواب في وُصُولِ طُيُورِ الْعَقَقِ :

لَا زَلَّتْ مَتَّصِلَةٌ مِنْ إِرْفَاقِهَا وَإِرْفَاقِهَا ، نَازِلَةٌ عَلَى حُكْمِهَا [الْأَشْيَاءُ] حَتَّى
 الطَّيْرِ الْعَاقَّةِ مِنْ آفَاقِهَا ؛ خَافِقَةٌ أَعْلَامُ نَصْرِهَا بِالْأَجْنَحَةِ مُؤَمَّنَةٌ لظُنُونِ الْقَاصِدِينَ مِنْ

إخفاقها، تقبيل مُطَبِّقِ لِسَانِ الْحَمْدِ عَلَى عَوَائِدِ إِطْلَاقِهَا، مُجْتَنِّ لِمَرَاتِ الْإِحْسَانِ مِنْ
عُضُونِ أَقْلَامِهَا وَعُضُونِ أَوْرَاقِهَا .

وَيُنْهَى وَرُودَ مَشْرِفِ مَوْلَانَا الْعَالِي عَلَى يَدِ الْوَلَدِ فَلَانٍ فَوْقَ الْمَمْلُوكِ عَلَيْهِ، وَعِلْمِ
مِنْ جَمِيلِ الْأَحْتِفَالِ مَا أَشَارَ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ مَوْقِعٌ عَلَى الْمَقْصُودِ مِنْ طُيُورِ الْعَقَقِ فَأَوْقِعَهَا
مِنْ مَطَارِهَا، وَأَسْتَنْزِلَهَا مِنْ أَوْكَارِ أَفْقِهَا وَأَفُقِ أَوْكَارِهَا، وَأَرْسَلَهَا قَرِينَ مَشْرِفِهِ
الْكَرِيمِ، وَقَدْ عُنِقَ الْأَمَلَ بِعَقْدِهَا النَّظِيمِ؛ وَوَصَلَتْ سَبْعَةَ كَعْدَدِ أَيَّامِ الْجُمُعَةِ الْكَامِلَةِ،
وَالْكَوَاكِبِ الْمَائِلَةِ؛ وَالسَّمَوَاتِ لِاجْرَمِ أَنْ تُسْحَبَ يَمِينًا هَامِلَةً، حَسَنَةَ الشَّكْلِ
الْمُوصُوفِ وَالْوَصْفِ وَإِنْ كَانَ مَعَ عُقُوقِهِ الْمَأْلُوفِ، طَائِعَةً لِأَوَامِرِ تَوْقِيعِهِ فَاعْتَقَ
مِنْهَا شَيْءٌ غَيْرَ تَضَعْفِ أَسْمِهَا الْمَعْرُوفِ، لِابْرَاحِ إِحْسَانِ مَوْلَانَا مَتَنَوِّدًا، وَبِرِّهِ الْحَزِيلُ
مَتَبَّرَعًا، وَعُغْضُنُ قَلَمِهِ بِأَنْوَاعِ الْمَكَارِمِ مَتَفَرِّعًا .

وله جواب بوصول تيمت، وإوز صيني، وطلب إمرة عشرة :

حَمْدُ اللَّهِ تِلْكَ النَّعْمَةَ مِنَ الْغَيْرِ، وَأَطْلَعَهَا عَلَيْهِ بِأَيْمَنِ الْغُرْرِ، وَلَا بَرِحَ طَائِرُ مَنَّهُ
كُوصِفَهُ أَيْضَ الْخَبْرِ وَالْخَبْرِ . هَذِهِ الْمَفَاوِضَةُ إِلَى الْجَنَابِ الْكَرِيمِ تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا
يَشُوقُ الصَّبَاحَ، وَشَاءَ خَفَاقِ الْجَنَاحِ؛ وَتَوَضَّعَ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ وَرُودَ مَكَاتِبِهِ الْكَرِيمَةِ
جَمِيلَةَ الْفَوَائِدِ، جَلِيلَةَ الْمَصَائِدِ، تَمِيَّةَ الْبُدُورِ الْمَتَنَاوَلَةِ مِنْ مَنَالِ الْفَرَاقِدِ، فَوْقُنَا بِالْأَشْوَاقِ
عَلَيْهَا، وَعَطَفْنَا عَلَى الْعَادَةِ بِتَأْكِيدِ الْوَلَاءِ إِلَيْهَا؛ وَوَصَلَتْ تِلْكَ التَّمَاتُ وَاصْحَةَ الْأَنْوَارِ،
لَا تُحْمَةُ كِبْيَاضِ الثَّوَارِ، تَامَّةٌ تَمَامَ مِيقَاتِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَنَّهَا لِيَاضِهَا كَارِبِعِينَ
نَهَارًا؛ وَكَذَلِكَ الْبَطُّ الصِّينِيُّ كَأَيَّامِ الْحَجِّ عَشْرَةَ كَامِلَةً، مَقْتَرَضًا عَلَى عَشْرَتِهَا وِلَاءُ الْقُلُوبِ
الْمَتَامِلَةِ الْآمِلَةِ؛ صَيِّبَةً مَمْلُوءَةً بِحَاسِنِ الْأَلْوَانِ الَّتِي هِيَ بَغِيرُ مَثَلِ مَائِلَةٍ؛ وَحَصَلَ
الْإِعْتِدَادُ بِرِّهِ، وَالْإِزْدِيَادُ لِحَمْدِهِ وَشُكْرِهِ، وَفَهَمْنَا مَا ذَكَرَهُ مِنْ إِمْرَةِ الْعَشْرَةِ الَّتِي أَنْحَلَّتْ

عن فلان، وقد طالعنا بأمرها، وعجلنا بذكريها، وزجوا أن يعجل بأمانيتها المنتظرة، وأن يقابل بخوافق أعلامها خوافق بطه فتقابل عشرة بعشره، والله تعالى يعجل لمعاله الصعود، ويؤكد لمساعيه السُّعود؛ إن شاء الله تعالى .

الأجوبة عن وصول الصيود ولحومها

جواب عن نائب الشام إلى نائب حلب بوصول [لحم] طير صيد قديد وصحبتة بطيخ أخضر، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة . وهو بعد الألقاب :

لازالت تُقتنص الحامد بغطاياها المكره، وأوايد الصيد برماياه المقتورة، ورقاب الإنس والوحش : إما بسهام نعمة المتواترة، وإما بسهام قسيه الموترة؛ ولا برحت نفعات مكارمه، تشهد أن المسك بعض دم الغزال، وسرحات عزائمه، تمتد في صيد الوحش لقرى نزيل أوفى صيد الأعداء لتقريب نزال؛ تقيلاً تعطف أجياد الأطباء لمحاولة عقوده، وتزدحم أفواه الأولياء على مشافهة وروده .

ويُنهى بعد ولأء تقوم الخواطر الكريمة في دَعْوَاه مَقَام شُهوْدِه ، وشوق لا تزال النَّسَمَاتُ الشَّمَالِيَّةُ قَاضِيَةً بِاسْتِمْرَارٍ وَفُوْدِه - أَتْ مَشْرَفْ مَوْلَانَا الْكَرِيمِ وَرَدَ عَلَى الْمَمْلُوكِ عَلَى يَدِ فُلَانٍ وَصُحْبَتِهِ الْإِنْعَامُ الْمُتَجَدِّدِ ، وَإِنْ كَانَ قَدِيمًا فِي الْمَعْنَى ، وَاللَّحْمُ الْقَدِيدُ ، وَإِنْ كَانَ أَطْرَى مِنْ الرُّوْضِ النَّضِيرِ حُسْنًا ، وَالسَّمِينِ الْمَجْبُوبِ وَإِنْ كَانَ كَحَالِ عِدَاهِ الَّذِينَ تُقَدِّدُ جَسُومَهُمْ فِي الْحَيَاةِ قَبْلَ الْمَمَاتِ حُزْنًا ، فَجَابِلِ الْمَمْلُوكِ الْمَشْرَفِ الْكَرِيمِ ، بِتَقْيِيلِ أَحْرَفِهِ ، وَالْإِنْعَامِ الْعَمِيمِ ، بِقَبُولِ مُسْعِدِهِ وَمُسْعِفِهِ ؛ وَغَاثِقَهُمَا بِجَوَانِحِ آمَالِهِ ، وَأَخَذَ الْكَلْبَ وَالرِّكَا يُقَالُ يَمِينُهُ وَشِمَالُهُ ، فَيَالَهُمَا مِنْ ظَبَاءٍ تُعَشِّقُ وَإِنْ بَلِيَتْ حَاسِنُهَا ، وَغِرْلَانٍ تُغَازِلُ وَإِنْ بَادَتْ عِيُونُهَا إِلَّا أَنَّهُ مَا بَادَ حُبٌّ مِنْ يَاعِيْنِهَا ، وَصُيُودٍ تُوصَفُ وَإِنْ قَصَدَتْهَا قِصْدُ السَّهَامِ بَطْعُنْ ، وَيُتَّقَى بِقُرُونِهَا الْقِتَالُ وَالْقَسَى تَالِيَةٌ :

(كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ) . سَلَكْتَ خِيُولَ مَوْلَانَا لِقَنْصِهَا الْمَصَاعِبَ
وَأَتَّخَذَهَا الْآكِلُونَ سَهْلًا ، وَتَصَيَّدَهَا مِنَ الْفَلَاةِ وَأَصْطَادَهَا الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمِقْلَى ؛
ووصل معه البَطِيخُ الْأَخْضَرُ فَشَبَّهَهُ بِثَمَارِ الْجَنَّةِ الْمَشْبُوهُونَ ؛ وَقِيلَ : هَكَذَا تَرْتِيبُ مَا كُلَّ
الْجَنَّةِ لَمْ فِيهَا فَافَا كَهَّةٌ وَلَحْمٌ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ؛ لَا زَالَتْ مِنْ مَوْلَانَا مَشْرُوحَةً
مَشْرُوعَةً ، وَثَمَرَاتُ نَعْمِهِ مِنَ الدُّنْيَا كَثَمَرَاتُ أَهْلِ الْجَنَّةِ غَيْرَ مَقْطُوعَةٍ وَلَا مُمْنُوعَةٍ ؛
بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

أَجْوِبَةٌ هَدَايَا الْقَوَاكِهِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جَوَابُ وَصُولِ مَشْمِشِ لَوْلُؤِيٍّ وَدَعْمِيشِيٍّ مِنْ حَمَاةٍ .

بَسَطَ اللَّهُ ظِلَّهَا وَنَدَّاهَا ، وَأَطَّلَعَ بِالْيَمَنِ نُجُومَ هَدْيِهَا وَهَدَّاهَا ؛ وَلَا زَالَتْ مَوَاهِبُ
بِحَرِّهَا لَوْلُؤِيَّةٍ ، وَشَوَاهِدُ يَمِينِهَا كَوَكِيئَةٍ ، وَثَمَرَاتُ جُودِهَا فَضِيَّةَ الْأَعْيَانِ ذَهَبِيَّةً ، تَقْبِيلًا
حَلَّتْ مَوَاقِعَهُ ، وَجَلَّتْ مَطَالِعُهُ .

ويُنهِى بَعْدَ وِلَاةٍ وَحَمْدٍ : هَذَا قَدْ ثَبَّتَتْ فِي الْقَلْبِ شَرِيعَتُهُ وَهَذَا قَدْ عُدَّتْ
فِي السَّمْعِ مِشَارِعَهُ ، أَنَّ مَشْرُفَةَ مَوْلَانَا الْكَرِيمَةَ وَرَدَّتْ عَلَى الْمَمْلُوكِ نَتَضَمَّنِ الْحُسْنَ
وَالْإِحْسَانَ ، وَيَمِينِ الْبِرِّ الشَّامِلِ لِكُلِّ إِنْسَانٍ ؛ وَعَهْدَ الْحُبَّةِ الَّتِي حَكَمَتْ فِيهِ بَعْلَمُهَا
الْقُلُوبَ فَمَا تَحْتَاجُ إِلَى بَيِّنَةٍ لِلسَّانِ ؛ فَقَابَلَهَا الْمَمْلُوكُ مَقْبَلًا ، وَأَسْتَجَلَى وَجْهَ الْوَدِّ وَالْإِحْسَانِ
مُقْبِلًا ؛ وَوَصَلَ الْمَشْمِشُ الَّذِي شَفَى لَوْلُؤِيَّةَ نَظَرَ النَّاطِرِينَ ، وَنَوْعَهُ الْآخِرُ الدَّعْمِيشِيَّ
الَّذِي هُوَ الشَّهْدُ بِحَسَنِهِ وَلَا يُدَعَّمُشُ بِاسْمِهِ عَلَى الْحَاضِرِينَ ، فَتَنَاوَلَ الْمَمْلُوكُ عَوَارِفَ
بِرِّهِ الْمَعْرُوفِ وَالْمُبْتَكِرِ ، وَأَسْتَضَاءَ نُجُومَهُ الْمَتَرَدَّةَ مُنْشِدًا قَوْلَ الْمَعْرِيِّ : (كَمْ دُرٌّ ،
وَكَمْ يُرُّنَ هَذِهِ الْأَكْرُ) ، وَقَالَ : شَكَرَ اللَّهُ هَذِهِ الْمِنَّةَ الْحُلُوءَةَ الثَّمَرَاتِ ، الْمَتَّصِلَةَ

الخطرات ؛ وهذه المجاني التي طابت أوصولها وفروعها فلا أبعدهن الله من شجرات ،
 وحيًا حماة وما جلبت ، وجنبايات ذلك الوادي وما أنجبت ؛ وحدائق ذلك العاصي
 الذي أطاع ببركة مولانا فأنبئت أحلى وأحل ما نبت ؛ وقد جهز المملوك هذه الخدمة
 منطوية على وظائف الحمد المستجاده ، ولطائف الحب المستفاده ؛ وحمد المن التي
 لا تزال من مولانا عادة ومن المحبين شهاده . لا برحت يد مولانا الكريمة إن بسطت
 فيعوائد إنعامها ، وإن قبضت فعلى سيوفها لمصالح الدول وأقلامها ، وإن زهت^(١)
 فروع المكارم ، تساقطت ثمرات برها من زهرات أكرامها .

جواب بوصول مِشمِش وِبطِخِ حليّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

وِينِي بعد ولاء وثناء : لهذا في الأسماع أزهى وأزهر ثمرة ، ولهذا في القلوب
 أرسى وأرسخ شجرة . ورود المشرف الكريم على يد فلان بما ملأ السمع من أخبار
 مولانا المرتبة سرورا ، والعين من آثار يده الكريمة نورا ؛ والقم من هدايا المشمش
 الحموي كئوس لذة كان مزاجها كأفورا ؛ فقبل المملوك أسطره مستحليا مواقع
 رشفاته ، وقابله بعوائد المحامد مستجليا عوائد أفقاداته وصلاته ؛ ومد يده وفكره
 فالتقط النجوم المشرفة من هداياه وكلماته ، وتقلد جواهر المبرات الحسنة المحسنة ،
 والثمرات التي جاءت بدرية القدوم وإن كانت نجومية الهيئات المكونة ؛ وأستصوب
 نتائج الغيث فقال : لعل هذه بنادق قوس السماء الملوثة ، وصفا وطاب ظاهرها
 وقلبها وكذا تكون صفات ذوى القلوب المؤمنة ؛ والمؤمن حلوى لاجرم ، والحموي
 على عجمه الخراساني أولى بفصاحة الفخار والكرم ؛ لزالفت فعلات من مولانا
 مستجاده ، ونعمه لاسيما المشمشية مستترده ؛ وأفقاداته المشهورة لدى مماليكه

(١) لعل الصواب وان هزت ، كما لا يخفى .

ومجيبه منه عادةً ومنهم شهاده؛ وجاءت فاكهة البَطِيخِ الحَلِيّ وقد رَضَعَ حَلَبَ النَّعَامِ
فَأُنْجِبَ ، وَأَسْتَوَىٰ بَاطِنُهُ وَظَاهِرُهُ فِي الْحُسْنِ فَأَعْجَبَ مِنْ حِينَ أَعْشَبَ ؛ وَأَسْتَطَابَ
الذُّوقُ وَالشَّمُّ مَطْعَمَهُ وَأَنْفَاسَهُ ، وَوُصِفَ بِالرُّءُوسِ فَضَمَّهُ كُلُّ مَتَلَقٍّ وَقَبِلَ رَأْسَهُ ؛
وقال : نِعَمَ الْهَدِيَّةِ السَّرِيَّةِ ، وَالْفَاكِهَةَ الَّتِي طَاعَتُ حُرَزَ [ها] هَلَالِيَّةً وَثَمَرَتَهَا بَدْرِيَّةً .

جوابٌ عن وصولِ بَطِيخِ حَلِيّ ، من إنشائه أيضاً ، [وهو] بعد الألقاب :

وشكر سجاياها التي تلت ، وهداياها التي تكررت خلّت ، وافتقاداته التي طاب ظاهرها
وباطنها فكانتها من أخلاقه الجميلة نُقِلَتْ ؛ أصدرناها تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا يَتَقَدَّمُ
كهديته نَسِيمُهُ الْعَاطِرُ ، وَشَاءَ يُنْتِجَ أَطْيَبَ الثَّمَرِ مَقْدَمَاتُ غَيْثِهِ الْمَاطِرُ ، وَتُوَضِّحُ لِعَلْمِهِ
الكَرِيمِ أَنَّ مَكَاتِبَتَهُ الْكَرِيمَةَ وَوَرَدَتْ فَحَسَنْتُ بِالْوُدِّ مَشَافَهَتَهَا ، وَأَقْرَبْتُ فِي الْأَسْمَاعِ فَكَيْهَتَهَا
وَمُفَاكَيْهَتَهَا ؛ وَوَصَلَ الْبَطِيخُ فَلَهُ دُرٌّ حَلَبِهِ وَدُرٌّ جَلَبِهِ ، لَقَدْ حَسَنْتُ فِي مَلَاذِّ الْمَطَاعِمِ
طَرِيقَتَهُ الْمَرِضِيَّةَ ، وَلَقَدْ أَشْبَهَ الْقَنَادِيلَ بِتَكْوِينِهِ وَفَيْسَلَةَ عَمْرِقِهِ فَلَا جَرَمَ أَنَّ قَنَادِيلَهُ
عِنْدَ الشُّكْرِ مُضِيَّةٌ ، وَلَقَدْ مَلَأَ خَبْرَهُ وَخَبْرَهُ عَيْنَ الْبَصْرِ وَأَذْنَ الْمُصْبِخِ ، وَلَقَدْ خَلَقَ دَوَاءً
لِلْأَجْسَامِ حَتَّى صَحَّ قَوْلُ الْحَلِيّينَ لِلْأَرْمَدِ : دَوَاؤُكَ الْبَطِيخُ ؛ فَشَكَرَ اللَّهُ إِحْسَانَ الْجَنَابِ
الْعَالِي ، وَرَبَّهُ الْمُتَوَالِي ؛ وَعَلَى الْوَالِدِ وَالْوَالِدِ وَمَنْ عِنْدَهُمَا سَلَامٌ الْمَحَبِّ الْمُتَعَالِي ، وَاللَّهُ
تَعَالَى يَحْفَظُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْفَضْلِ مَا وَهَبَ ، وَيَرْزُقُهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَيَرْزُقُ الظَّنَّ فِيهِمْ
مَا حَسِبَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله أيضا جواب بوصولِ بَطِيخِ حَلِيّ ، وهو بعد الألقاب :

وشكر إحسانه الذي حلا مذاقه ، وزكت أعرافه ، وحيّا على البعد تحيةً طيبةً
ففتح بها أزهار الكتاب وأثمرت أوراقه ؛ هذه المفاوضة تُهْدِي إِلَيْهِ سَلَامًا طَيِّبًا
كهديته ، وَشَاءَ زَانِيًا كَطَوِيَّتِهِ ، وَتُوَضِّحُ لِعَلْمِهِ الْكَرِيمِ وَرُودَ مَكَاتِبَتِهِ الْجَامِعَةِ حَسَنَ

الأقوال والأفعال، المطلعة بوريد غمامها أطيب الثمر في الحال؛ فأحيت ولأء حاشي
 لوجوده من العدم، وجددت عهد البشر - وما بالعهد من قدم - ووصل البطيخ
 الحلبي أصله، الحموي فصله، الدمشقي ضمه وشمه وأكله، الفلكي ولا سيما من الأهلة
 المجتمعة شكله؛ فكرم مطلعاً، وحسن من الأفواه موقعا؛ وعم الحاضرين نوالاً،
 وأشتملهم بعطف الإحسان آشتيلاً، وأخذ الغلام السكين :

فقطّع بالبرق شمس الضحى * وناول كلاً هلال هلالاً

لابل أهلة كثر تعداها، وكرر ترداها، ورصد قربها ولا نقول كما يقول أصحاب
 الهيئة أبعادها؛ فشكر الله إحسان الجنب العالی حاضراً وغائباً، وبره الذي يطلع
 كل وقت من هداياه وكتبه أهلة وكواكب، ومرباه الذي نقل عن ملوك كانت
 منازلهم للحامد روضاً وكانت أيديهم للكرم سخائباً؛ إن شاء الله تعالى .
 وله جواب بوصول قصب سكر وأترج وقلقاس :

لا زالت أوصاف شيمها، تطرب كما يطرب القصب، وأطاف كرمها، مما يغدى
 الجسد وينعش الروح ويشفي الوصب، وأصناف نعمها من الحلو إلى الحامض
 مما يغدى الأيدي المتناولة فهي على الأعداء تنصب؛ تقبيل محب حلت له المنن
 فتناولها، ومواقع اللثم فعاج إليها وعاجلها .

وينهى ورود مشرف مولانا الكريم، على يد فلان يتضمن الحسنى والإحسان،
 والبر المأنور بكل فم المشكور بكل لسان، فقابله المملوك بما يجب من الخدمة لمثله،
 ولاقاه بعوائد تمد عوائد فضله، ووصل قرينه الإنعام الذي تنوع فنونا وأفنانا،
 وملا فم الشراب خاناه سكرًا ويد المطبخ إحساناً؛ وذكر نباته الطرابلسي عهد الديار
 المصرية، وأوقات الأتس بخدمة مولانا السنية؛ سقياً لها من أوقات وعهود، وشكراً

لجود مولانا الذى هو فى كلِّ وادٍ موجودٌ ، ولتدييره الشمسى الذى أحيا الله به على عباده عناصرَ هذا الوجودِ ، ولا برحمتِ مكارمِهِ متنوعه ، ونعم أياديه متفرعه : فمنها ما حلَّ فرعُه فأصبح لكلِّ حلوا أصلا ؛ ومنها ما طاب رِيحُه وطعمُه فكان للمؤمن مثلا ؛ ومنها ما لَدَّ طعامُه الشهيءُ فما هو مما يهجر وإن كان مما يُقلى .

وله جواب بوصول بأكورة خيار ومُلُوخِيَّة :

لا زالت تُشْرَحُ بمكارمها الصُّدورُ ، وتفتح بركاتِ الأعوامِ والشهورِ ؛ وتمنحُ من لطائفِ مِنها كلَّ جماعةٍ السُّرورِ ، وتمنحُ فى هداياها المستبقةِ إلى الأولياءِ خيارَ الأمورِ ؛ تقييلُ حُجْبٍ لا تُغيِّرُ ولاءَه الدُّهورِ ، ماشٍ من طريقِ المُصافاةِ والمُوافاةِ فى نُورٍ على نُورٍ .

ويُنهى وُرودَ مشرفةِ مولانا على يدِ فلانٍ تتضمنُ المعهودَ من وِلائِه وآلائِه ؛ والمشهودَ المشهورَ من إحسانِ نِداه قَبْلَ نِداثِه ؛ فقابِلهَا المملوكُ مقابَلَةَ الشَّقِّ إلى قُرْبِ الديارِ ، المُضَى فى الحِجَّةِ قَلْبَه لمولاه قَبْلَ شَرطِ الخِيارِ ، ووصلتْ لطائفُ هِدْيَتِه الخِصْرَةَ النَّضْرَه ، وطرائفُ الفضلِ الباكِرَةَ كَعِائِنِ اللفظِ المبتكره ؛ فتنجِّزُ المملوكُ الفاكهةَ قَبْلَ أوانِها البَدِيعِ ، ورصدَ من أفلاكِ العُلبِ فى ذى الحِجَّةِ غُرَّةَ ربيعٍ ؛ وتفاعلَ بالهديةِ المَجْمعةِ الأحبابِ فى أن يعودَ الشَّمْلُ وهو جَمِيعٌ ؛ وقد عادَ فلانٌ حَامِلاً من رسائلِ الشوقِ والشُّكرِ ما يُؤدِّيهِ بينَ أيديِ مولانا الكريمةِ ، ويحدِّدُ بذِكْرِهِ عهودَ الأُسِّ القديمه ؛ لا بَرَحَ مولانا سابقِ الكَرَمِ ، مُحضِرَ المَرابعِ بييضِ النِّعمِ .

قلت : وكتبت جواباً لبعض الأصحاب وقد أهدى لى سَمَكًا :

أهدى لنا سَمَكًا قَدْ طابَ مَطْعَمُه * أَكْرِمَ بِهِ سَمَكًا لَمْ يَسْكُنِ الرِّبَا !
لا شَكَّ أَنْ لَه بِالْبَحْرِ شَاكِلَةٌ * وَالْبَحْرُ عَادَتُهُ أَنْ يَهْدِيَ السَّمَكَا !

الضرب الثاني

(من كتب التهادى الأستهداء)

وأعلم أن كل ما يكتب مع إهدائه قد يكتب مع أستهدائه ، إلا أن الغالب مما جرت به عادة الكتاب في الأستهداء طلب الأشياء المستظرفة الخفيفة المنة دون ما يعظم خطره ، اللهم إلا أن يكون الأستهداء من الملوك ونحوهم فيطلب فيه ماجل وعظم .

والذي جرت عادة الكتاب بالكتابة في أستهدائه على أصناف :

الصنف الأول - آلات الكتابة : من الأدوية^(١) والمداد والأقلام :

ما تقدم ذكره في الإهداء .

أبو الفرج البغاء في أستهداء دواة :

أنفس الذخائر وأشرف الآمال ما كان للفضل نسبا ، وللصناعة والحظوة سببا ، وبالذوى تجنى ثمرة الصناعة ، ويحتلب درر الكتابة ، وقد أوحش المملوك الدهر مما كنت أقتنيه من نفائسها ، وضايقه في وجود الرضى على الحقيقة منها ، فإن رأى مولانا أن يميظ ببعض ما استخدمه من حالها أو عاطلها سمة عطلة المملوك ، ويسمح بإهدائها إلى أهل تصريفه ويقابل بالشجج والتقبل رغبته ، فعل ، إن شاء الله تعالى .

وله في أستهداء مداد :

التنافس - أيدك الله - في أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاحر في ظهور النعمة ، والتخير لبيان الإمكان والقدرة ، وإلا فسائر الذوى سواء فيما تصديره

(١) لعل الصواب من الذوى انظر القاموس .

الأقلام عنها ، وتستمده بطون الكتب منها ؛ وأولى آياتها بأن نتوفر العناية عليه ،
وينصرف التخير بالضرورة إليه ؛ المداد الذي هو ينبوع الآداب ، وعتاد الكُتَّاب ،
ومادة الأفهام ، وشرب الأقلام ؛ فجعلها الله بواجب القضية والحكم ، في حيز وصفه
من الحمد والذم ؛ ومازلت لنفاس الأخلاق موطنًا ، ولنجع الإخوان في الحِلِّ معدنًا ؛
ولا معدل بي عن استماحة خزائنك عمرها الله الممكن من جيده ، فإن رأيت أن تستنقذ
دواتي من نحول العطله ، وتزده قلبي عن ظمإ الغلة ، وتكشِف عنها سمة النقصان
والخله ، ففعلت ؛ إن شاء الله تعالى .

علي بن خلف ، في مثله :

أولى ما أنبسط في استهدائه ، وتسمح [نفسى] في استماحتِه وأستجدائه ، ما كان
ناقعًا لغلة الأقلام ، مقيّدًا لشوارد الأفهام ، محبًّا لبرود البيان ، حاليًّا في معارض
الحسن والإحسان ، وكتبت هذه الشكوى أطال الله بقاء سيدي :

الصنف الثاني - الشراب .

في استهداء مشروب .

أبو الفرج البغاء :

أنا - أيد الله سيدي - ومن ساعني الدهر بزيارته من إخواني وأوليائه ، عضد الله
جمعنا ببقائه ، وقوف بحيث يقف بنا اختياره : من القبول والإنبساط ، ويرتضيه لنا
إيثاره : من الهمم والشورر ، لأن الأمر في ذلك مما يؤلينا من المساعدة بالمكن من
المشروب إليه ، والاعتداد دون كل أحد في اجتماع شمل المسرة لنا به عليه ، فإن رأى
أن يكلني إلى أولى الظنين به وأحقهما بما نُور قوتّه ، فعل .

وله في مثله :

الطَّفُ الْمَنِّ مَوْضِعًا ، وَأَجْلُهَا مِنَ الْأَنْفُسِ مَوْقِعًا ، مَا عَمَّرَ أَوْطَانَ الْمَسْرَةِ ، وَطَرَدَ
عَوَارِضَ الْهَمِّ وَالْفِكْرِ ؛ وَجَمَعَ شَمْلَ الْمَوَدَّةِ وَالْأَلْفَةِ ، وَأَدَّى إِلَى اجْتِنَاءِ ثَمَرَةِ اللَّذَّةِ ؛
وَبَدَخَائِكَ مِنَ الْمَشْرُوبِ مَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ [مَا] يَسْتَرْقُ حُرَّ الشُّكْرِ ، وَيُحْرِزُ قَصَبَ
السَّبْقِ إِلَى النَّاءِ وَجَمِيلِ الذِّكْرِ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُنْحَدَ بِالْمَمِّكَ مِنْهُ مُرْوَتِي ، عَلَى قَضَاءِ
حَقِّ مَنْ أَوْجَبَ الْمَنَّةَ عَلَيَّ بِزِيَارَتِي ؛ فَعَلْتَ .

وله في مثله :

مَنْ كَانَ لِلْفَضْلِ نَسَبًا ، وَلِفَلَكَ الْفِتْوَةَ قُطْبًا ، لَمْ تَفْرَحِ الْقُلُوبُ مِنَ الْهَمِّ إِلَّا إِلَيْهِ ،
وَلَمْ تُعَوِّلِ الْأَنْفُسُ فِي اسْتِمَاحَةِ الْمَسَارِ إِلَّا عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ طَرَفَنِي مِنْ إِخْوَانِي مَنْ كَانَ
الدَّهْرُ يُمَاطِنِي بِزِيَارَتِهِ ، وَيَنْفَسُ عَلَيَّ بِقُرْبِهِ وَمُشَاهَدَتِهِ ؛ فَصَادَفَنِي مِنَ الْمَشْرُوبِ
مُعْسِرًا ، وَوَجَدْتُ الْإِنْسَاطَ فِي اتِّمَاسِهِ مِنْ غَيْرِكَ عَلَيَّ مُتَعَدِّرًا ، وَإِلَى تَفَضُّكَ
تَفْرَعُ مُرْوَتِي فِي الْإِسْعَافِ مِنْهُ بِمَا يَلْمُ شَعْتَ الْأَلْفَةِ ، وَيَجْمَعُ شَمْلَ الْمَسْرَةِ ؛ وَيَجْعَلُنَا
لَكَ فِي رِقِّ الْأَعْتِدَادِ بِالْمَنَّةِ ، وَيَقْضِي عَنِّي بِتَفَضُّكَ حَقُوقَ الْمَوَدَّةِ .

على بن خلف :

قَدْ أَنْتَظَمَ لَنَا - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - مَجْلَسٌ وَأَقَفَ بَيْنَ النَّشَاطِ وَالْفِتْوَرِ ، وَالكَاتِبَةِ
وَالسُّرُورِ : لُغْرُوبِ نُجُومِ الْجَمْرِ عَنِ سَمَائِهِ ، وَعَظْمِهِ مِنْ حُلِيِّ نُورِهِ وَلَا لَأَنَّهُ ؛ وَقَدْ عَوَّلْنَا
فِي إِطْلَاقِهِ إِلَى إِحْدَى الْجَهْتَيْنِ عَلَيْهِ ، وَجَعَلْنَا زِمَامَهُ بِيَدَيْهِ ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يُرْوَحَ أَفْكَارُنَا
بَشْيءٍ مِنْ رَاحِهِ الْمُشَابِهَةِ عَمِّقًا وَعِثْقًا لِأَخْلَاقِهِ وَأَعْرَاقِهِ ؛ فَعَلْ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وله في مثله :

أفضل ما أهدى سيدي ما أهدى السرور إلى أحبته ، ونظم شمل المتحققين بخدمته ؛
وحسم عنهم هواجس الفكر ، وأعداهم على الدهر ؛ وقد جمعنا مجلس وهبناه للشاء
عليه ، وزقت عرائس الخمر إليه ، فإن رأى إيثارنا بما يكمل نشاطنا ، ونتم
أنيساطنا ، فليعقر هومونا بشيء من عقاره ، وينظم [جمعنا] في سلك أياديه ومبارة ؛
إن شاء الله تعالى .

النوع الرابع

(الشفاعات والعنايات)

قال في "مواد البيان" : وهذه الكتب إنما تصدر عن ذوي الرتب والأخطار ،
والمنازل والأقدار ، الذين يتوسل بجاههم إلى نيل المطلوب ودرك الرغائب .

قال : والمتمس فيها ممن تنفذ إليه أحد ثلاثة أنواع : إما بذل ماله ولا يبذل
ماله إلا ذو مروءة يفرض على نفسه حقا فيه لفاصديه ؛ وإما بذل جاهه وفي بذل
الجاه إراقة ماء الوجه والتعرض لموقف الرد ؛ وإما الاستئزال عن سخيمة وموجدة
في النزول عنهما كف حد الغضب وغض طرف الحق ، وهما صعبان إلا على من
فضل حلمه ، ولطف فهمه .

ثم قال : والكتب يحتاج إلى التلطف فيهما وإيداعهما من الخطاب ما يخرج به
الشافع عن صورة المقتل على المشفوع إليه بما كلفه إياه ، ويؤدى إلى بلوغ غرض
المشفوع له ونجاح مطلبه ؛ ثم أتبع ذلك أن قال : وسبيل ما كان في آسماحة المسأل ،
أن يبنى على الإبانة عن موقع الإفضال ، وفضيلة النوال ؛ وأعتنا فرص الإقتدار ،

في معونة الأحرار، وما جرى هذا - وسبيل ما كان منهما في طلب الانتفاع بالجاه أن يُبني على هزّ الأريحية لأصطناع الصنائع، وتجلّ المشاقّ في تقليد المنن، وأدخار الفعل الحسن، وأغتنام الأجر والشكر - وسبيل ما كان منهما في الاستئزال عن السخائم أن يُبني على الملاطفة، والإشارة إلى فضيلة الحلم والصفح عن الخاطيء، وما في ذلك من حسن السمعة في العاجله، ومتوقر المثوبة في الآجله، ونحو ذلك.

وذكر أن أحسن ما قصد في هذا الفن مسلك الإيجاز والاختصار، وأن يسلك به مسلك الرقاع القصار الجملة؛ لالكثب الطوال المفصلة؛ وأن يرجع فيما يودعه إلى قدر الشافع والمشفوع فيه، والكتاب إذا كان مرآضا ماهرا لم يضلّ عن تنزيل كل شيء [في] منزلته، وترتيبه في مرتبه.

قلت: ومن أحسن ما يطابق هذا النوع ما رأيت في بعض المصنّفات: أن عمرو ابن مسعدة وزير المأمون كتب إلى المأمون في رُقعة:

أما بعد، فإن فلانا سألني أن أشفع له إلى أمير المؤمنين، فأخبرته أني لم أبلغ عند أمير المؤمنين مبلغ الشفاعة - فلما وصلت الرُقعة إلى المأمون وقع عليها بخطه: قد فهمنا تصريحك به وتعريضك بنفسك، وأجبتك إليهما وأتحفناك بهما.

من كلام المتقدمين:

الحسن بن سهل:

كلامي إليك كتاب معتن بمن كتب له واثق بمن كتب إليه، ولن يضع حامله

بين عناية وثقة، والسلام.

أبو الحسين بن سعد :

وقد توجه إليك فلان بقصدٍ فيه مستجمع ، وأملٍ فيما قبلك مُنبسط ، وليس بعد إصابتك عنده مَوْضِعًا وعندنا متحملاً للبد الحسنَة إلا آقراض ذلك منه ومِنَّا في أمره على يُسر في حاجته ، وتخفيفٍ من مَعُونته ؛ فإن رأيت أن تأتي في ذلك بما يشبه أمله وظنّه ، وتوجب عليه الحقّ به ، ونشكر لك منه ما يبقى عندنا ، بأنك بحيث تأتي الفضل وتوحي الصلّة ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالى .

آخر : معرفتي بأنك لا تنجاوز في العقوبة سبيلها من مواقع الأدب ، تتحملي على مُساءلتك ما أنت مُوجبٌ له والدّكوى تنفع المؤمنين ، ولولا ذلك لأستغنى صاحبُ كتابي عنه ؛ فإن كان دَنَبُه صغيراً فالصغير يُخرجه من حبسه ، وإن كان كبيراً فالعفو يسعه . وكتابي متفاض لك تقديم العفو على العقوبة ، والحسنة على السيئة ، والأستصلاح على القوّة في التأديب .

طفال بن شَبَّه :

وأحق من يعطف على أهل البيوتات ، ويؤود لهم بما يبقى ذكره ، ويحسن به ذُخره ، مثلك ؛ وقد وجهت إليك فلانا ، وهو من ذوى قراباتي ، وذوى الهيئة من أُسرتي ، وعرضته لمعرفك ، وأحببت أن تلبسه نعمتك وتصرفه إلى وقد أودعني وإياه ما تجده باقياً على البشر الجميل في الغيب والخضر .^(١)

ولغيره :

وقد جعلك الله غيائاً ، وجعل عندك لمؤمليك وراجي رفدك ، أبلغ ذريعة من كرمك وفضلك ؛ وقد أصبحت مفزع كل ذي همٍّ ، وملجأ كل ذي أربٍ ، وموضع كل أمل ، وأصبحت ملتقى السبل ، ومجمع الأصناف المختلفة ، والطوائف المتصرفة .

(١) لعله على نشر الجميل الخ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شهَّرتني باصطناعك [حتى] تكافأً في معرفة خبرها أهل بلدان المشرق
والمغرب . والذين عرفوني فصدّق منهم معتبط بذلك لي ، وشريك في النعمة به
على ، وقوى الظهر بما منحنيّه الله من رأيك ؛ وإذا نابت بعضهم نائبة يرجوك
لكشفها ولم يكن له إليك طريق يُدنيه ولا حرمة تُقر به . وتعطفك عليه ، سألني
الشفاعة له إليك ؛ ففعلت ذلك مُدلاً بما أعتقده من الشكر على نعمتك عندي ،
والإخلاص في طاعتك المفروضة على ؛ وانما بتسويغك إياي ما رقيت إليه من درجة
الشافع لغيره ، والسائل (؟) في طريقه وذوي الحق عليه : لتكون قد أكملت
على النعمة ، ووكدت لدى العارفة ، وأستممت عندي الصنيعة .

أبو الخطّاب بن الصابي :

أبسط الشفاعة وجهها ، وأقر بها نجحها ، وأوقعها في القلوب ، وأسرعها إلى التبول ،
مابوع من أقسام ثلاثة : من إدلال السائل بحسن الظن ، وأرتياح المسؤل إلى فعل
الخير ، وأستحقاق المسؤل فيه لقضاء الحق ؛ فإذا اجتمع لها ذلك كانت الثقة بها
زائده ، والفتوة لها رائده ، والفضل عليها قائماً ، والتجج بها قادماً ؛ وكان الشكر
من أقل موجوداتها ، والمِنَّة من أجل مدخوراتها .

وله : إن دَلَّ المملوك فيصدق المودّة ، أو عَوَّلَ فعلى حُسن النيّة ، أو أستظهر
فبقديم الحرمة ، أو أستنصر فبكريم الرّعاية ، ووراء ذلك همّة من مولانا بعيدة المرآمي ،
طويلة المساعي ، شائخة الأنف ، سابقة الطرف ، تُوجد الآمال سراحاً ، وتوسعها
نجاحاً ، وتأخذها نجاحاً ، وتردها بطاناً ، وتوردها هزلاً وتصدرها سماناً ؛ وثيقة مني
(١)

(١) لم يرد هذا الجمع في كتب اللغة التي بأيدينا والقياس على بطن وسمان لا ياباه .

قد أحكم عقدها الزمان، وأوثق شدتها الإمتحان، فصارت لأعراض المملوك رائده، وفي قوة نفسه زائده؛ فالمملوك من آتباع هذه الأقسام، ووجوب ما تقتضيه من الأحكام، بين ظن جميل لا مجال للشك عليه، ويقين صحيح لأوصول للارتياح إليه .

آخر : ولئن كان المملوك أسرف في مجارى التثقيب على مولانا، فإن المملوك لم يردّ بعضا من دواعي الأمل فيه، فإن المظنون من فتوة مولانا رائد الثقة بجميل نيته، ولن يعدم النجاح من اعتماد على الفتوة والثقة .

آخر : وينهى أن المملوك إن أدلّ، فبحقّ لدى مولانا أكده، أو استرسل، فبفضل منه عوده، وبين الدالة من المملوك والعادة من مولانا موضع لنجاح الحاجة، وبلوغ الإفادة، وقد فعل المملوك ما تعلق به واثقا بالكرم من مولانا؛ فليفعل مولانا ما تعلق به محققا للأمل فيه .

آخر : وينهى أن المملوك إن أنسى، فبدل بالحرمة الوكيدة، ومعوّل على النية الكريمة، أو أنقبض، فلهيئة الإقدام على مولانا ومراعاة التخفيف عنه، ولفضله فيما بين ذلك مسلك وغلبة تسلط يدعوان إلى حسن الظن بمولانا، ويوثقان من وجود النجاح لديه .

آخر : بدل الجاه في إعانة الضعيف، وإغاثة المهفوف، والترويح عن المضغوط، والتفريح عن المكروب المكدود؛ كبذل المال في إسعاف المعسر، وإسعاد المقتر، ومواساة المحروم، والتعطف على المرحوم، وما في الحالتين إلا ما للديانة له ضامن، والمروءة له قائمة؛ والحق به مستوجب، والأجر به مكتسب، والصنعة به معتقده، والمثوبة به مدخره .

آخر : وينهى أن حرمة الحوار من أوجب الحرمات حقاً ، وأحكها عقداً ، وأخصها بالناية ، وأحقها بالرعاية ، وما رعاها إلا ذو قدر عظيم ، وحُوقٍ كريم ، وأصل عريق ، وعهد وثيق . وفلان ممن يضرب بدألتها ، ويمت بوسيلتها ، ويخفف بذمتها ، ويتعلق بعصمتها ، ويعتدها وزراً مانعاً ، وذخراً نافعاً ، وعدة موجودة عند الحاجة ؛ وله أمرٌ يذكره مشافهةً ، فإن رأى مولانا أن يحقق من ظنه ما كان جميلاً ، ويصدق من أمله ما كان فضلاً مولانا إليه سبيلاً ، فهو المعهود من إحسانه ، والمؤمل من فضله .

آخر : من سافر إلى سيدي بأمله ورغبته ، ومَتَّ إلى حضرته بوفادته وهجرته ، فقد استغنى عن الشافع ، وكفى أمر الوسائل والذرائع ؛ وحامل كتابي هذا قد تجشَّم القدوم إليه ، وتمسك بدمام الوفاة^(١) عليه ؛ مع ما يتحقق به من حق المشاركة في الصناعة ، ويستوجبه بفضيلة الكفاية والأمانة ؛ وإتماً أصدر المملوك هذه الخدمة على يده مهيأة لأئسه ، ومقويةً لنفسه ؛ وإذا مثل بحضرته ، ونظره بعين نبأته ؛ فقد غني عن الشفاعة وبلغ الإرادة .

آخر : وينهى أن ما يفرضه مولانا لمن أمه بالرجاء ، ومَتَّ له بإخلاص الحمد والثناء ؛ من إدرار أخلاف الإفضال ، وتحقيق الرغبات والآمال ، يُغني قاصديه عن الشفاعات والوسائل ، ويكفي آمليه تحمل الذرائع والمسائل ؛ والواصل إليه بهذه الرقعة فلان ؛ ومولانا يعرف حقه على المملوك وماله من الموات لديه ؛ وقد توجه إلى حضرته ، راجياً أن يلحفه من ظل سعادته ما يتكفل بمصلحته ، ويقضي على الزمن بإعدائه ومعونته ؛ ومولانا أحق من تولاه بحسن خلافته فيه ، والتفضل على المملوك بتحقيق ما يرجيه .

(١) الدمام بالذال المعجمة الحق والحرمة .

أخر في معتقل : عِلْمُ المملوكِ بأنَّ مولانا لا يتعدى في العقاب موضع الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوز في الغضب موقع التثويم والتهديب ؛ عملاً بالعدل ، وتمسكاً بالفضل ؛ يبعثه على تنبيهه لما أغفله ، وأتقياده لما أصّله ؛ وفلان قد تطاولَ اعتقاله : فإن كان جرّمه صغيراً فقد ظلم في القصاص ، وإن كان كبيراً فقد استحقَّ الخلاص ؛ والمسئول من إحسانه أن يُعَوِّدَ جميل عاديته ، ويُراجِعَ كريمِ شيمته ؛ فيعملَ في أمره بالعدل ، إذا لم يره أهلاً للفضل ؛ وإن كانت حقوقه متأكّده ، وحرمة مؤكّده ؛ فلا يحسن أن يُضَاعَ ويُخَفَّرَ ، ولا ينبغي أن يُجْحَدَ ويُنكَرَ ؛ وهو حريٌّ أن يحقّق الظنَّ فيه ، ويقابل هذا السؤال بما يقتضيه .

آخر : على حسب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها ، والشكر من صرف رعايته إليها ؛ وقد كان المملوكُ أودعَ كنفَ مُرُوءته ، وفناءَ همّته ، فلان ؛ وهو دُرّةُ المحاسن الفريده ، ونادِرَةُ الدهرِ الشريده ؛ والجامعُ لأسبابِ المحامدِ بفضائله ومناقبه ، والناظمُ لثأرِ المآثرِ بحُلُقته وأدبه ؛ مع ماخُصَّ به من المعرفة بقدر الصنعة ، والتعويض بالشكر عن قليل العارفة ؛ والمملوكُ يرجو أن يكونَ مولانا قد أحسنَ خلاقته فيه ، ونزله من حياطته وتوليّه ، بما يوجبُه مكانه من المملوكِ ويقتضيه ؛ متعوضاً من شكر المملوكِ وشكره بما هو خليقٌ أن يطوّقَ أجيادَ معاليه ، وينظّمَ في سلكِ مساعيه .

رقعة - وينهى أن الأيام ، إذا قعدتْ بالإكرام ، فأنزلتهم بعد السعة ضيقاً ، أوجدتهم إلى التثقل على من يمتنون إليه بسالف الخدمة طريفاً ؛ ومن تحدّاه الزمن بنكده ، وعوضه ببوسه من رَغده ، فلان ؛ وكان قد فرّج إلى جماعة من الخُلّان ، واثقاً منهم بالأمتنان والإحسان ، فألفى وعداً جميلاً ، ومطلاً طويلاً ؛ فعدّل عنهم

إلى سيدى وعزل عنهم إليه، وتوجه إليه معتمداً بعد الله فى مقصده عليه؛ ثقةً
بفضل غيره، وحسن أثره؛ وتحمل عبودية المملوك هذه ذريعةً تبسط له من مولانا
حياه، وتوصله إلى ما يرجوه من معرفته ونداه. وما أولى مولانا بأن يحقق ظن
المملوك وظنه، ويموز شكره وشكره؛ إن شاء الله تعالى.

رقعة - وينهى أن رغبة سيدى فى إسداء المعروف، وغوث الملهوف،
تبعث على السفر إليه، والتقدم بالرغبات عليه؛ والله تعالى يواصل المنح لديه،
كما وصلها من يديه؛ وقد سبقت له عوارف لا ينساها المملوك، ولا يؤمل جزاءها
إلا برفوع الدعاء، وكريم الثناء؛ حتى تقتضى ضرائرها، وتستدعى نظائرها، وحامل
عبوديتى هذه، فلان؛ والمملوك يرضى لمولانا لسان شكره، كما يرضاه لتحمل يره؛
وقد ركض ظهر الأمل إلى حضرتة، ووثق ببلوغ الوطر من جهته؛ وأن ينظم
فى سلك من أسبغت عليه عوارفه، وعمته لطائفه؛ وعزز ذلك بأستصحاب كتاب
المملوك إلى بايه، وتقديمه ذريعةً فى التزام حقه وإيجابه.

رقعة - من كان سيدى شافعه أنبسط فى المنى، ولم يرض بغير العلاء؛ وقد علم
مولانا أن للشفاعة أحوالاً ثلاثاً؛ حالاً تحض الشافع، وحالاً تحض المستشفع؛
وحالاً تخص [المشفوع إليه] ولكل حد يجب الاتهاء إليه، ولا يجوز التقصير فيه؛
فعلى المستشفع آرتياد أخصب جناب، وأسكب سحاب، وقصد الجهة التى لا تصد
عن البغية سائلاً، ولا ترد عن الأمل أملاً، وأن ينهض بالشكر على العارفة، ويحدث
بالنعم عنه فى الأحوال الطارفة؛ وعلى الشافع أن يهريق ماء وجهه فى السؤال،

(١) غار الرجل يغوره ويفيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل.

(٢) فى الاصل الشفيع وهو غير مناسب.

ويجرد رغبته في تسهيل المنال ، ويعتقد أن ذلك من الدين المقترض ، والدين المقترض ، ويتكفل بالقيام بما يستدعى منه من المكافاه ، ويبتمس من العوض والمجازاه . وعلى المشفوع إليه أن يعلم أن الشافع والمستشفع ما قصدها إلا بعد الثقة بأحديته ، ولا أعتماه إلا بعد السكون إلى أريحته ، وأنه لا ينبغي أن يحسر متجرهما ، ولا يضيع سفرهما ، وقد آجتمعت هذه الأحوال الثلاث للرئيس المشفوع إليه ، وليسدى الشافع ، وخدامه المستشفع به ؛ ولم يبق إلا عزيمة منه تهز أفتان الإقبال فتساقط أثمارها ، وتنشئ عوارض الآمال فيتهافت قطارها .

أبو الفرج البغاء :

وموصل كتابي هذا غني عن شفاعتي له بما يمت من حرمت الرغبة إليك ، والوقوف دون كل مقصد عليك ، وبما يشفع ذلك من التقدم في الصناعة ، والتوصل بوجيه الكفاية ؛ وإنما زودته هذه الأحرف لأفتح له باب الأتسة ، وأسهل السبل إلى التعلق بالخلّة ؛ وأدل بها على ما تكشف منه المطاولة والخيرة ؛ وأنت أيدك الله ولي التطول بالتقدم في إيناسه وبسطه في الخدمة بما يستريد له محمود الأثر فيها من حسن النظر وجميل الرأي .

وله في مثله :

وموصل كتابي فيما يؤمله منك ويبلغه بك متمسك من رجائك بأوكد ذمه ، ومن شفاعتي بأوجب حرمه ، ومهما مت به بعد ذلك من ظهور كفاية أو تقدم في صناعة كان غير ضائع عند رعائتك ، ولا مجهول مع تيقظ عنايتك ؛ وأرجو أن يحل من تقبلك ، بحيث أحله حسن النظر تطولك .

وله في مثله :

وفي عليك ما أخذ به نفسى ، وأروض به أخلاقى : من الإقباض عن التسرع إلى مسألة ، والاحتشام من الانبساط في حاجة ، مادلك على موضع فلان ومكانه من إيثارى بواجبات حقوقه ، وسالف موآته ؛ ولذلك سمحت بالكتاب له إليك ؛ وفارقت رسمى بالثقل في قضاء حقه عليك ؛ وقد قصد نحوك بأمله ، وأختارك لرجائه ؛ وقدّر بك بلوغ البغية ، وأختصر بشفاعتى إلى تفضلك السبيل إلى إدراك المحبة^(١) ؛ فإن رأيت أن تأتى فى باب ما يشبه فضلك ، ويُناسب وكيد ثقته بك ؛ وأنى أشركه فى الشكر وأسأله فى الاعتداد ، فعلت .

آخر :

رَأَيْتُ الْمَسَاكِينَ قَدْ أَجْمَعُوا * عَلَى أَنْكَ الْوَزْرُ الْمُعْتَمَدُ !

فَأَنْتَ لِطِفْلِهِمْ وَالِدٌ * وَأَنْتَ لِشَيْخِهِمْ كَالْوَالِدِ !

السلام العَمِيمُ ورحمةُ الله وبركاته على مَنْ جعله الله للمسكينِ ظلاً يقيمهم ، وطلاً يسقيهم ، ونعمةً تعمهم ، ورحمةً تضمهم ؛ أبوفلان ، أبقاء الله فى عزرة تالدة طارفة ، وسعادة لاتزال طارقة بكل عارفه .

مَنْ أقامه الله مقامك أيها الشيخ المبرور بالترقى بالفقراء ، والإحسان إلى الضعفاء ، لم يعدم مريضاً يقصده فى الشفاء ، ولا يعدم فيضاً يعتمده للاكتفاء ، لاسيما إذا توسل وحده ، وتسقّع بمن لا يضيع عمل عامل عنده ، ومتحملها فلان قصّ الفقر جناحه ، وأخنى عليه الدهر وأجتاحه ؛ ولما رأى الفقراء ببركم من تفيقين ، وعلى

(١) اعلمه الطلّيه .

شكركم متففين ؛ أممك حسن الظن بالمن ، ولم يقدم شفيحاً دنيوياً ، ولا طريقاً واضحاً
سويّاً ؛ وأنتم أيها الشيخ الموقر تزلونونه منزلة سواه ، ممن توى متواه ؛ وتوى فيكم
من الأجر والشكر ما تواه ؛ إن شاء الله تعالى ، والسلام الكريم العميم ، يخص جنابكم
ورحمة الله وبركاته :

فالله سبحانه يُبقيك في دعة * وحسن حالٍ وتيسيرٍ وإقبالٍ !

مقدم المجد في عزٍّ وفي كرم * مؤمل النفع من جاهٍ ومن مالٍ !

الشفاعات من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

شفاعة في آستخدام كاتب درج :

جعل الله تعالى دوره رجة العراض ، وسعادته في الأزياد وأعاديته في الأنتقاص ؛
والدعاء لإحسانه مقروناً بصدق النية والإخلاص :

وهذا دعاء لو سكت كفيته * فإني سألت الله فيك وقد فعل !

صدرت هذه الخدمة تستمطر سحب كرمه ، وهامى ديمه ، وتساءل جميل شيمه ،
في معنى مملوك المولى وداعيه ، والشاكر لأياديه ، والملازم على رواية أخبار فضائله
وبثها ؛ ونشر تفضلاته وثبها ؛ فإنه من بيت كريم التجار ، زائد الفخار ؛ وله على
مولانا حق خدمة ؛ وهويتمت بسالف معرفة ؛ ومحبة المملوك له شديده ، والصحبة
بينهما قديمة وشقة المودة جديدة ؛ ولولا ذلك ما نقل على خدمته ، وتهجم على المولى
بمكاتبته ، وقد توجه إلى بابه العالى مهاجراً ، وناداه لسان جوده فلباه وأجابه مبادراً ،
وغرضه أن يكون كاتباً بين يديه ، ومملوكاً تقع عين العناية عليه ؛ وهو من الكرام

الكتابين، والراغبين في الانتظام في سلك خدَمِه والمؤثرين، وصفاته بالجميل موصوفه،
وفصاحته معروفة، وقلبه الذي يقيم ظفر المهام ويكف كَفَ الحَدَثان، ولسانه
الذي يُغني بِشَبَاتِه عن حَدِّ السَّنَان؛ ورأيه المقدم في الهيجاء على شجاعة الشجعان؛
فإذا أنعم المولى باستخدامه، وتحقيق مرامه، كان قد وضع الشيء في محله، وصنع
المعروف مع أهله؛ وببض وجه المملوك وشفاعته، وصدق الأمل في إحسانه
ومرؤته، ورأيه العالی؛ إن شاء الله تعالى.

وله شفاعاة في استخدام جُنْدِيّ :

لا زال بره مطلوباً، وجوده مخطوباً؛ وذِكْرُ إحسانه في الملا الأعلى مكتوباً؛ ولا
برحت رياض جوده أزهر وأنصر من روض الربا، ويده البيضاء ترقم له في سواد
القلوب سطور حمد أحسن من نور تفتحه الصبا. هذه الخدمة صدرت على يد فلان
تهدي إلى المولى سلام المملوك وتحيته، ودعائه الصالح الذي أخلص فيه نيته؛ وتشفع
إليه في تنزيله في الحلقة المنصورة واستخدامه، وترتيبه في سلك جيشه المؤيد
وأنظامه؛ فإنه من الأجناد الحيات، وذوي الجلد على الجلاذ؛ وهو الغشمشم الذي
لا يرد، والشهم الذي لا يصد؛ والباسل الذي لا تُحصَرُ بساتته بوصف ولا تُحد،
والنقيب الميمون الغرة والنقيب، الموصوف في الهيجاء بحزم الكهول وجهل ذوى
الشبيبه. والمولى وإن كان بحمد الله غير محتاج إلى مُساعد، ولا مفتقر إلى معاضد؛
فإن أسنته لا تحتجب عن رُوح محتجب، ونفسه الشريفة تقوم وحدها يوم الكفاح
مقام عسكرٍ لحب؛ وقلبه يغنيه عن الأطلاب والأبطال، وجيوش سطوته لا تكلفه
المقام في منازل التزال؛ فإن المملوك يعلم أن نفسه الشريفة تهوى تزيده عسكره وجنده،
وترعى حرمة قاصده وقصده، فلهذا توسل بسفع وتر الشفاعه؛ وتوصل إلى إزالة

ضَرَعَ حَالِهِ بِكَثْرَةِ الضَّرَاعِ ؛ فَإِذَا أَنْعَمَ الْمَوْلَى بِقَبُولِ شَفَاعَةِ الْمَمْلُوكِ فِيهِ ، وَحَقَّقَ لَهُ مِنَ الْعِنَايَةِ مَا يُؤَمِّلُهُ وَيَرْجِيهِ ؛ كَانَ قَدْ شَدَّ لِلشَّارِ إِلَيْهِ مَا أضعَفَتْهُ الْعُطْلَةُ مِنْ مُتَّهِ ، وَقَدَّ الْمَمْلُوكَ لِلْمَوْلَى جَمِيلَ مُتَّهِ .

شفاعة في ردِّ معزول إلى ولايته :

يَقْبَلُ الْيَدَ الْعَالِيَةَ لِأَزَالَتِ مَقْبَلِهِ ، وَإِسْدَاءِ الْخَيْرِ إِلَى أَهْلِهِ مُؤَهَّلِهِ ، وَبِأَيْدِيهَا عَلَى الْكَافَّةِ مُتَفَضَّلِهِ .

وَيَنْهَى مَلَازِمَتَهُ عَلَى شُكْرِ مَوَاهِبِهِ ، وَنَشْرِ فُضَائِلِهِ الْجَسِيمَةِ وَمَنَاقِبِهِ ؛ وَحَمْدِهِ كَرِيمِ شَيْمِهِ ، وَالْإِعْتِزَارِ مِنْ تَثْقِيلِهِ عَلَى خِدْمَةِ الْمَوْلَى بِخِدْمِهِ ، وَسُؤَالِ إِعْنَاعِهِ بِوَجْهِهِ مَكَاتِبَتِهِ وَلِسَانِ قَلَمِهِ ؛ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِمَا يَتَحَقَّقُهُ مِنْ كَرِيمِ نِجَارِهِ ، وَشِدَّةِ تَطَلُّبِهِ لِإِسْدَاءِ الْعَوَارِفِ وَإِثَارِهِ ؛ وَالْمَوْجِبُ لِهَذِهِ الْوَسِيلَةِ وَسُؤَالِ مَكَارِمِهِ ، وَأَسْتِمْتَارِ سَخَائِبِ مَرَاحِمِهِ ، مَا بَلَّغَهُ مِنْ عَزْلِ مَمْلُوكِ الْمَوْلَى وَعَبْدِهِ ، وَوَصِفِ جَمِيلِ أَوْصَافِهِ بِلِسَانِ شُكْرِهِ وَحَمْدِهِ ، فَلَانَ ؛ أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِحْسَانَ الْمَوْلَى وَإِعْنَاعَهُ ، وَخَلَّدَ لَنَا وَلَهُ دَوْلَتَهُ وَأَيَّامَهُ ؛ فَإِنَّهُ صَاحِبُ الْمَمْلُوكِ وَصَدِيقُهُ ، وَشَرِيكُهُ فِي الدُّعَاءِ لِمَوْلَانَا وَرَفِيقُهُ ؛ وَهُوَ مِنَ الْعُدُولِ الْأَمْنَاءِ ، وَالنِّقَاتِ الْأَتْقِيَاءِ ؛ وَهُوَ قَلِيلُ الْجِدَّةِ كَثِيرُ الْعِيَالِ ، لَا يَجِدُ حِيلَةً إِذَا بَطَلَ بِخِلَافِ مَا يُحْكِي عَنْ الْبَطَالِ ؛ وَقَدْ تَشَفَّعَ بِالْمَمْلُوكِ وَمَكَاتِبَتِهِ فِي مَلاحِظَةِ الْمَوْلَى لَهُ بَعِيْنِ عِنَايَتِهِ ، وَالتَّقَدُّمِ بِرَدِّهِ إِلَى جِهَةِ وِلَايَتِهِ ؛ فَلِهَذَا كَتَبَ إِلَيْهِ وَأَكَّدَ فِي مَعْنَاهِ السُّؤَالَ ، وَعَلَّقَ بِتَحْصِيلِ أَمَلِهِ الْآمَالَ ؛ يَعْلَمُ ذَلِكَ مَوْفَّقًا .

شفاعة في خلاص مسجون :

فَسَّحَ اللَّهُ فِي مُدَّتِهِ ، وَسَهَّلَ أَدَاءَ مَا يَجِبُ مِنْ شُكْرِ نِعْمَتِهِ ؛ وَأَلْزَمَ الْأَلْسِنَةَ بِمُجْدِهِ وَالْقُلُوبَ بِمُحَبَّتِهِ ؛ وَجَعَلَهُ مَفْرَجًا كُلِّ كَرْبٍ ، وَمَسْهَلًا مِنَ الْمَقَاصِدِ كُلِّ صَعْبٍ .

وبعد، فإن كافة الأمة قد تحققت رحمة قلب المولى ورأفته، وتيقنت إحسانه ومروءته، وأنه يؤثر إغاثة كل عان وإغاثة كل ملهوف، وأنه لا يمسك إلا بالإحسان ولا يسرح إلا بالمعروف، بحيث سارت بحسن سيرته الركب عوضاً عن الرُجبان، ودرأت مكارمه عن الأولياء نوب الزمان؛ وعلا على حاتم فلو تشبه بكرمه لقننا له : (مرعى ولا كالسعدان) . وللملوك من إحسانه أوفر نصيب، وهو يرقل من جوده في نوب قشيب؛ وقد أشتهر ما يعامل به من الإكرام، وأن قسمه من العناية أوفر الأقسام؛ وكان يعد من جملة العبيد فأصبح مضافاً إلى الأئام؛ وهذا مما يوجب على الملوك أن يتبهل إلى الله في تخليد دولته ويتضرع، وعلى حلم مولانا أنه إذا شفع إليه في مذنب أن يسفح؛ وهو يسفح إليه في مملوكه وعبيده، والملازم على رفع رايات مجده وتلاوة آيات حمده، فلان؛ رزقه الله رضا الخواطر الشريفة، وأسبل عليه حلة عفوه المنيقة على الحلل بظلالها الكثيفة؛ فإنه قد طالت مدة حبسه، وأعترف بأنه الجاني على نفسه؛ والمعترف بذنبه كمن لا أذنب، والمعترف من بحر جوده يروى دون أن يشرب؛ والطالب ليره ينال سؤله والمطلب؛ فإن حسن في رأيه العالى زاده الله علاء، وضاعف له سناء، المشى على منار جوده ومنهجه، وبروز أمره المطاع بإطلاقه وإخراجه، أغتم أجره، وجبر كسره، وريح في هذا الشهر المبارك دعاءه الصالح وشكره؛ وكان قد أنعم على الملوك بقبول شفاعته إليه، وفعل ما يوجب على كل مسلم الثناء عليه؛ والله الموفق .

شفاعة بسبب خلاص حق :

يخدم المجلس السامى لاقبى بالتحيات محذوما، وحبل سعه مبروما، ودر المدائح
لجيد جوده منظوما، وعدله بين الأخصام قاضيا فما يترك ظالما ولا مظلوما .

(١) فى الأصلين «ودارت مكارمه على الأولياء» ويظهر أنه تصحيف من النسخ .

ولا زالت الآمال متعلقة بهيمته ، منوطة بسعيد عزمته ؛ راجية خلاص كل حق من هو في جهته . وتوضح لعلمه أن فلانا أدام الله سعادته ، وخلد سيادته ، ذكر أن له ديناً في جهة غريم مُساطِلٍ مُدافع ، وخَصَمٌ مُمانع ؛ وقد جعل هذه الخدمة ذريعة إلى خلاص حقه ، وخالفاً إلى الوصول إلى عناية المولى أقرب طرقه ؛ وهو جدير بالتقدم بإحضار غريمه ومحاققته ، وأخذ المملوك في ذمته ، وأن لا يُسح له في تأخيره ؛ ولا يُسمح بقليل الصبر ولا كثيره ؛ فإنه يعلم أن المولى المشار إليه واجب الخدمة ، وإفرا الحرمة ؛ وقد تعلق أمله في خلاص حقه بالمولى ، ولا يُجوب عن هذه الخدمة بلو ولولا ، بل يبذل جهده ، ويُطلق في تحصيل الغرض لسان الاجتهاد ويده ؛ ويعتمد من الإهتمام ما يليق بأمثاله ، ويبيض وجه الشافع وسؤاله ، موقفاً . شعر :

ولو كان [لى] في حاجتي ألف شافع * لما كان فيهم مثل جودك شافع

شفاة فيمن اسمه سراج الدين إلى من اسمه جمال الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وينهى بعد ولاء يحكم على القلوب شافع جماله ، وثناء يجر على أكام الزهر فضل أذيله : أن العلوم الكريمة مُحيطَةٌ بإيجاب حق من هاجر إلى بابها ، وشكا غلة الفاقة إلى منهل منهل سخاها ؛ وأن المائل بهذه الخدمة ، فلان ؛ ذكر احتياجه إلى عاطفة من عواطف مولانا التي شملت ، وعارفة من عوارفه التي لو آسمتت من غررها اللبالي لما أظلمت ولا ظلمت ؛ وأن بيده وظيفة شهادة بيت لحم بتواقيع شريفة نظرت في حاله ، ونشرت حال عياله وأطفاله ، وأن ثم من ينارعه في جهته المعتاده ،

(١) وَيَقْصِدُ نَزْعَهُ وَالنَّزْعَ عَنْ تِلْكَ الشَّهَادَةِ الْمَسْطُورَةِ أَحْفَافًا مِنْ نَزْعِ الشَّهَادَةِ ، وَمَوْلَانَا أَوْلَى مِنْ رَحِمِ مَنْبِهِ ضَعْفًا ، وَأَشْتَمَلَ عَلَيْهِ عَطْفًا ؛ وَدَارَكَ بَكْرَهُ هَذَا السَّرَاجَ قَبْلَ أَنْ يُطْفِئَهُ ؛ وَرَعَى سِيرَةَ مَبَاشِرَتِهِ الْحَسَنَةَ الْآثَارَ ، وَأَعْتَمَّ أَدْعِيَتَهُ وَأَدْعِيَةَ أَوْلَادِهِ الَّذِينَ هُمْ كَقِطْعِ الشُّطْرَنْجِ صِغَارًا وَبِجَارٍ ؛ وَكَفَّ يَدَ التَّعْرُضِ إِلَيْهِ فِي أَيَّامِ عَدْلِهِ فَإِنَّمَا أَيَّامٌ لِأَضْرَرٍ فِيهَا وَلَا ضَرَارٍ ؛ وَعَلَى الْجَمَلَةِ فَقَدْ تَرَكْتَهُ الْإَيَّامُ قِطْعَةً لَحْمٍ ، فَبِأَشْرَةِ بَيْتِ لَحْمِ أَوْلَى بِهِ ، وَرِجَالُهُ فِرْجَانِيَّةٌ وَأَخْوَانُهَا أَحَقُّ أَنْ يَتَعَلَّقَ سَبَبُهَا بِأَسْبَابِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَنْبُرُ بِمَنْ مَوْلَانَا أَحْوَالِ الْمَضْرُورِينَ فَإِنَّمَا ظَلَامٌ ، وَيَنْصُرُهُمْ عَلَى حَرْبِ الْإَيَّامِ بِسُيُوفِهِ الَّتِي هِيَ أَقْلَامٌ ، وَيَمْتَعُ بِأَيَّامِ عَدْلِهِ وَإِحْسَانِهِ الَّتِي تُتَنَافَسُ فِيهَا أَعْمَارُ الرِّعَايَا فَإِنَّهُمْ يُتَّبِعُونَ أَيَّامًا بِأَعْوَامٍ .
وله إلى شخص اسمه شمس الدين :

وَيُنْهِى بَعْدَ قِيَامِ بُوْظَائِفٍ ثَنَاءٍ يَتَسَكَّبُ بِنَفَحَاتِهِ [التَّوَالِيهِ] ، وَوَلَاءٍ يَتَسَكَّبُ بِجَالِهِ الْمَتِينَةِ وَمَا كُلُّ شَمْسٍ حَبْلُهَا وَاهِيَةٌ : أَنَّهُ يَرْتَادُ الْأَوْقَاتَ لِحَطَابِ مَوْلَانَا بِالْأَقْلَامِ ، حَيْثُ حَبَسَ الْبَعْدُ خِطَابَ الْكَلَامِ ، وَيَتَخَيَّرُ حَمَلَةَ رِسَائِلِ الشُّوقِ ، وَإِنْ أَضْعَفَ عَطْفُ النَّسِيمِ رِسَائِلَ السَّلَامِ . وَلَمَّا حَضَرَ مِنْ مَكَانٍ كَذَا ، عَارِضٌ هَذِهِ الْخِدْمَةَ فَلَانَ ، وَذَكَرَ تَوَجُّهَهُ إِلَى حِمَى حِمَاةِ الْحُرُوسَةِ ، وَقَصِدَ كِتَابًا يَكُونُ فِي وَحْشَةِ الْإِغْتِرَابِ أُنَيْسِهِ ، فَوَافَقَ ذَلِكَ غَرَضَ الْمَمْلُوكِ ، وَسَلَكَ طَرِيقَ مُرَادِهِ وَلَا يُتَكَّرُ مِنْ جِهَةِ هَذَا الرَّجُلِ الصَّالِحِ السُّلُوكِ ، فَأَعْلَمْتَهُ أَنَّ الْمَكَارِمَ الْحَمَادِيَّةَ لِاتِّحْتَاجِ غَيْرِ الْحَمْدِ وَالْأَجْرِ شَافِعًا إِلَيْهَا ، وَالْمَنَازِلَ الشَّمْسِيَّةَ لِاتَّفَتُّقِرَ إِلَى دَلِيلٍ يَنْبَغِي عَلَيْهَا ، وَطَلَمَّا جَمَعْتُ لِقَاصِدِهَا الْفِعْلَ وَالْقَوْلَ السَّخِيَّ ، وَطَلَمَّا قَالَ يَوْسُفُ رَحِمَهُ اللَّهُ أَخُو مَوْلَانَا أَبَقَاهُ اللَّهُ لِلْقَاصِدِ :
أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أُنْحَى ، وَلَكِنَّ الْمَمْلُوكَ يَذْكُرُ الْخَاطِرَ الْكَرِيمَ بِهَذَا الْقَادِمِ فَإِنَّهُ مِنْ

أهله ، ويلقاه قبل ذلك بالبشر المنشد * أَضَاحِكُ ضَيْفِي قَبْلَ إِنْزَالِ رَحْلِهِ *
فإنه من أصحاب ولي الله طالما فاض ولي معروفه ، واستفاضت نسبته المرشدية
فكان ولياً مرشداً قامت صفته مقام موصوفه ؛ وإن آثار هذه البركات على هذا
القادم لأتمه ، وإن على يده تجارة ذكر وأجروهي في سوق هم مولانا تجارة رابحة ،
والله تعالى يجعل له في كلِّ شاءٍ وثواب نصيباً ، ويديم قلبه الكريم مقصد رفد وجاه
(فطوراً رشاءً وطوراً قليلاً) .

وله : عن نائب الشام إلى نائب حماة شفاعاً في شخص اسمه شهاب الدين ، وهو
بعد الألقاب :

لا زالت الأقدار تُسعدُه ، والملائكة تُبجده ، ومواطن النصر تجردُ حدَّ بأسه ومواطن
الحلم تُغمده ، والحناة تلوذُ بظله : فأى جاني ذنب ما يعفو عنه ، وأى جاني برٍّ ما يرقُّ
عليه ويرفده ، تقيلاً يترادف مدده ، ولا تنتهي في القرب والبعد مدده .

وينهى بعد ولاءٍ وثناء : هذا لا يبيلُ جديده وهذا لا تخفى جده ؛ وشوق
وأرياح كلاهما يروى عن ابن شهاب توقده ، ويجمل على يد شهاب سنده : أن
العلوم الكريمة محيطة بمقدار الحلم وفضله ، والعفو ومحلّه ، والتجاوز عن هفوات
المخطئين من القوم ، وطلب العفو من الله غداً بالعفو عن عباده اليوم ، قال الله تعالى :
﴿وَلِعَفْوًا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا يُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ . ولما سمع الصديق رضي الله
عنه هذه الآية ، قال : (بلى والله إنني لأحبُّ أن يغفر الله لي) ثم عفا عن من نزلت
بسببه ، ومملوك مولانا أعزَّ الله أنصاره فلان ، قد أترف بهفوة بدت منه ، وزلة
نقلت عنه ؛ ما يسعها إلا عفو مولانا ومرامحه ؛ وقدم على المملوك فكأنه ما خرج عن
ظلِّ مولانا ولا فارقتُه معالهُ ؛ وسأل سؤال مولانا أن يسلمه بالعفو ، ويتجاوز له

عن السهو؛ ويرحم كبر سنه وكبيرة جهله؛ ويرعى قديم هجرته لخدمة هذا الباب الذي نسا عمرًا طويلا في ظله، أهلا لأن تشمله عواطف أهله؛ وهو - كما عرف المملوك وأطلع عليه حيث كان في نيابة حماة - مشكور السيرة بالأعتراف، ناهض الخدمة بالأختبار؛ ملازم لثرى الباب بعزم ماعليه غبار؛ وله على المملوك بالأئس حق خدمة وباليوم حق سؤال يشفع بهما في القلوب وهي كجار؛ والمسئول من صدقات مولانا تجاوزه عن هفوته، وردّه إلى أمنه ووظيفته؛ وإجراؤه على عادة إقطاعه، وحاشاه في أيام مولانا أن يقطع، بل حاشى المذكور أن لا يستخبر وأن لا يقطع؛ وأستقرأه في مكان خدمته، وإجابته سؤال المملوك في كل ما يتعلق بنجاح هجرته وعزيمته؛ لأبرح مولانا مأمول المن الغائبة والحاضرة، والمقيمة والسائرة؛ مأهول الخواطر برقع ذكره وقدره في الدنيا والآخرة.

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالت المحامد يذكرها متوجهة، ومقدمات الفضل والفضائل من تلقاء شيمها منتهجة؛ ومطالع الكرم والإكرام هادية إلى حرمة من أئجه؛ تقبيل مواظب على الدعاء يرفعه، والولاء يجمعه؛ والشاء يقول بضاع أرجه لا مما نضيعه بل مما نضوعه؛ [وينهى] أن عارض هذه الخدمة على عارض كرم مولانا المظطر، وبابه الذى هو لكيد الحاسد وقم الوارد مظطر، فلان؛ لقضاء تعلقات له أولها التعلق بجبل رجائه المخصد، وأتمائه المرصد، والتجمل بقصد باب مولانا الذى هو المهم المقدم على كل مقصد؛ وهو من الفضلاء الذين يعرفهم آنتقاد مولانا معرفة الخبير، وله اتصال بالأكابر الذين سلم منهم زمام المفاخر كل كبير؛ وقصد من المملوك هذه الخدمة لمولانا تؤس اغترابه، وتنشد المقر الذى ماقرع سن الندامة من قرع بابه :

يَا غَرِيبَ الصِّفَاتِ حَقٌّ لِمَنْ كَا * نَ غَرِيبًا أَنْ يَرْحَمَ الْغَرِيبَاءُ!
 والمملوكُ يسأل من إحسان مولانا ملاحظة المذكور بعين عناية التي ما أغفّت
 عن القاصدين ولا غفلت ، وعواطفه التي طالما فتحت أبوابها فأنتت عليها الركايبُ
 التي قفلت ؛ والله تعالى يُديم تقليد الأعناق بكلمه وبِرّه ، ويمتّع الممالك الساحلية
 بما قذّف لها من دُرر بحره .

النوع الخامس

(التشوق)

قال في "مواد البيان" : وينبغي للكاتب أن يجمع لها فكره ، ويُظهر فيها صناعته ،
 ويأخذ في نظمها مأخذاً من اللطافة والرفقة يدل على تمازج الأرواح ، وأتلاف
 القلوب ، وما يجري هذا الجري ؛ وأن يستخدم لها أهدب لفظ وأطف معنى ؛
 ويذهب فيها مذهب الإيجاز والإختصار ، ويعدل عن سبل الإطناب والإكثار ؛
 لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيمِلُّ ويضجر ، وينتظم في سلك الملق والتكلف
 اللذين لا يعتادهما المتصافون من الأصدقاء .

وهذه نسخ من ذلك :

أبو الفرج البغاء :

شوقُ المملوكِ إلى مولانا بحسب مكانه من تفضله ، وحظّه من جميل نظره ،
 وأختصاصه بإنعامه ، وأعتباطه بشرف خدمته ، ومكانه من إيثاره ؛ والله يجمع للمملوك
 شمل السعادة بمشاهدة حضرته ، وبنائه من الدهر بالنظر إلى عُمرته ، على الحال
 السارة فيه وبه .

(١) كذا في الأصلين بإهمال القسط والمراد أنه يتمتع بالنظر الخ تأمل .

وله : شَوْقُ المَمْلُوكِ إِلَيْهِ شَوْقُ الظَّمآنِ إِلَى القَطْرِ، وَالسَّارِي إِلَى غُرَّةِ الفَجْرِ .

وله : شَوْقِي إِلَيْهِ شَوْقٌ مَنْ لَمْ يَجِدْ مَعِ بَعْدِهِ عَوْضًا مِنْهُ ، فَتَقَوَّدَهُ الزِّيَادَةُ إِلَى الأَنْصِرَافِ بِالرَّغْبَةِ عَنْهُ .

وله : شَوْقِي إِلَيْهِ شَوْقٌ مَنْ فَقَدَ بِالكَرْهِ سَكَنَهُ ، وَفَارَقَ بِالضَّرُورَةِ وَطَنَهُ .

وله : لَوْ كَانَ مَا يُصْدِرُهُ مِنْ خِطَابٍ ، وَيُنَاجِيهِ بِهِ مِنْ مَتَمِّمِنِ كِتَابٍ ؛ بِقَدْرِ مَا أَعَانِيهِ مِنْ أَلَمِ الشُّوقِ إِلَى غُرَّتِهِ ، وَمَضَّضِ الفَائِتِ مِنْ مَشَاهِدَتِهِ ، لَمَا أَحَاطَتْ بِذِكْرِهِ بَسْطَةُ لِسَانٍ ، وَلَا نَابَ فِي إِثْبَاتِهِ أَسْتِخْدَامُ بَنَانٍ .

وله : أَمَّا الدهرُ فَمَا يَسْتَحِقُّ مِنْ إِبْعَادِ المَمْلُوكِ عَنْهُ عَتْبًا ، وَلَا يُعَدُّ مَا جَنَاهُ مِنْ ذَلِكَ ذَنْبًا ؛ إِذْ كَانَ إِذَا تَقَلَّ مِنْ حِشْمَةِ المَخَاطِبَةِ ، إِلَى أَنْبِطِاطِ المُكَاتِبَةِ .

وله : وَقَدْرُهُ - أَبْقَاهُ اللهُ تَعَالَى - يَرْتَفِعُ عَنْ ذِكْرِ الشُّوقِ إِلَيْهِ ، فَالْمَمْلُوكُ يَعْبُرُ عَنْهُ بِذِكْرِ الشُّوقِ إِلَى مَا فَارَقَهُ مِنْ تَفَضُّلِهِ ؛ وَبَعْدَ عَنْهُ مِنْ أَوْطَانِ تَطَوُّلِهِ .

وله : وَلَوْلَا أَنَّ المَمْلُوكَ يُجْمَدُ نَارَ الأَشْتِيَاقِ ، وَيَبْرَدُ أَوَارِ الفِرَاقِ ، بِالتَّخْيِيلِ المِثْلِ لَمَنْ نَأَتْ مَحَلَّتُهُ ، وَالتَّفَكُّرِ المِصْوَرِ لَمَنْ بَعُدَتْ شُقَّتُهُ ، لِأَلْهَبَتْ أَنْفَاسَهُ ، وَأَسْعَرَتْ حَوَاسِيَهُ ، وَهَمَّتْ دُمُوعَهُ ، وَأَنْقَضَتْ ضُلُوعَهُ ؛ وَاللهُ المَحْمُودُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنْ تَمَازُجِ الأَرْوَاحِ ، عِنْدَ تَبَايُنِ الأَشْبَاحِ .

وله : وَلَا بُدَّ أَنْ يُكْفَّ بِالمَكَاتِبَاتِ ، مِنْ غَرْبِ الإِشْتِيَاقِ ، وَيَسْتَعِينَ بِأَنْسِ المُرَاسَلَاتِ ، عَلَى وَحْشَةِ الفِرَاقِ ؛ فَإِنَّمَا أَلْسُنُ نَاطِقِهِ ، وَعُيُونُ عَلَى البُعْدِ رَامِقِهِ .

وله : عِنْدَ المَمْلُوكِ لِمَوْلَانَا خَيَالٌ مُقِيمٌ ، لَا يَبْرَحُ وَلَا يَرِيمُ ؛ يَجْلُو عَلَيْهِ صُورَتَهُ ، وَيُطْلِعُ عَلَى عَيْنِ فِكْرَتِهِ طَلْعَتَهُ ، إِنْ سَهَرَ المَمْلُوكُ سَامِرًا مُعِينًا عَلَى السَّهَادِ ، أَوْ رَقَدَ

تصوّر مُعذِّباً طَعَمَ الرُّقَادَ، لَا يَمِطُّهُ زِيَارَتُهُ، وَلَا يُوحِشُهُ بَغِيْبَتُهُ، كَأَمَّا تَصَوَّرَ بِصُورَتِهِ فِي الْوَفَاءِ، وَتَحَلَّقَ بِحُلُقِهِ فِي الْمَحَافِظَةِ عَلَى الْإِخَاءِ .

وله : إِنْ تَزَايَلَتِ الْأَشْبَاحُ، فَقَدْ تَوَاصَلَتِ الْأَرْوَاحُ؛ وَإِنْ نَزَحَتِ الْأَشْخَاصُ وَبُعِدَتْ، فَقَدْ دَنَّتِ الْأَنْفُسُ وَتَقَارَبَتْ؛ فَلَا تُمِصُّ الْفُرْقَةُ وَتُوَلِّمُ، وَتُسْغِصُ النَّوَى وَتَكَلِّمُ؛ وَقَدْ يُنَالُ بِنَجَاحِ الضَّمَائِرِ، وَتَحَاوُرِ السَّرَائِرِ، مَا لَا تَصِلُ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ، وَلَا تَدُلُّ عَلَيْهِ الْعِبَارَةُ؛ إِذَا الْأَنْفُسُ الْبَسِيطَةُ أَرَقَتْ مَسْرَى، وَأَبْعَدُ مِنَ الْأَلْسِنَةِ مَرْمَى .

التشوق من كلام المتأخرين :

نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة؛ وهو بعد الصدر:

لَا زَالَ الدَّهْرُ يَقْضِي خِدْمَةَ، وَيُمِضِي رَأْيَهُ وَسَيْفَهُ وَقَلَمَهُ، وَيُرِضِي الدُّوَلِ الشَّاكِرَةَ تَقْدِيمَهُ فِيهَا وَقَدَمَهُ؛ وَلَا بَرِحَتْ الْأَقْدَارُ الْمُعْرَبَةُ تُجْزِمُ أَمْرَهُ وَتَكْسِرُ ضِدَّهُ وَتَرْفَعُ عِلْمَهُ؛ تَقْبِيلًا إِذَا لَمَّ التُّرْبَ التَّمَمَهُ، وَإِذَا أُودِعَ الْقَلْبُ فِي ذَلِكَ التُّرْبِ خَتَمَهُ .

وَيُنِيبِي مُوَاطَبَتَهُ عَلَى وِلَاءٍ لَا يَنْسَخُ الْبُعْدُ مُحْكَمَهُ، وَدُعَاءٍ يَقَابِلُ النُّجُومَ وَلَا تَقْطِعُ مِنَ الْقَبُولِ إِدْرَارَاتَهُ الْمُنْجَمَةَ .

وَيُنِيبِي أَنَّهُ سَطَّرَهَا عَنْ شَوْقٍ يَعْزُّ عَلَيْهِ أَنْ يُنُوبَ فِيهِ سَعَى الْقَلَمِ، عَنْ سَعَى الْقَدَمِ، وَأُرْتِيَاجِ إِلَى الْقُرْبِ الَّذِي بَأْسُهُ يُؤَسِّسُهُ أَنْوَارًا عَلَى أَعْلَى عِلْمٍ؛ وَتَطَّلِعُ لِمَعَاوَدَةِ الْأَخْبَارِ أَوْفَى مِنْ تَطَّلِعُ الْعَامِرَى إِلَى مُعَاوَدَةِ أَيَّامِ ذِي سَلَمٍ؛ وَتَعْلَلُ بِقَوْلِ الْقَائِلِ :

بَعَثْتُ لَكُمْ سَوَادًا فِي بَيَاضٍ * لِأَنْظُرَكُمْ بَشِيءٍ مِثْلِ عَيْنِي!

وهيأت! أين نظرات الحروف المرقومة من نظرات العيون الراقمة، وأين منال

السُّلُومِ مِنْ شَجْوِي قَوْلٍ : * أَعِيدُهَا نَظْرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٍ *

ما يحسبُ المملوكُ من النظرِ إلَّا ما يملأُ العينَ من ذلك الوجهِ الكريمِ ، ولا يلبسُ من خلعِ الأيامِ إلَّا ما تحيطُ الأهدابُ على شَبَابِ ذلك القُربِ الرِّقيمِ ؛ وعلى ذلك فقد جهَّزها المملوكُ على يدِ فلانٍ ، وحمله من رسائلِ الشُّوقِ ما يرجو أن ينهضَ فيه بأعباءِ الرِّساله ، ويسألُ الإصغَاءَ والمُلاحظةَ فيما توجهَ فيه وإن أدتِ الأمالي إلى الملاله ؛ واللهُ تعالى المسئولُ أن يبلغَ في أمثدادها مولانا الأُمْنِيَّةَ ، ويتمتعَ الدُّولُ منه بهذه البقيةِ النقيَّةِ ، إن شاء الله تعالى .

نسخة كتاب في المعنى عن نائب الشام ، إلى القاضي علاء الدين بن فضل الله ؛ كاتب السَّرِّ بالأبواب السلطانية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضا ؛ وهو بعد الألقاب .

لا زال قلبها مفتاح الرِّزقِ لطالبيهِ ، وإلجاءِ لكاسيهِ ، والظفرِ لمستنبيبِ كُتُبِها عن كُتُبِها ، والنُّججِ لرائدِ مُطالبيهِ الدَّهرِ بعد المطالِ به ، ولا برحِ البأسِ والكرَمِ يتحدنانِ عن بجرها ولا حرجَ عن مجائبيهِ ؛ تقيلاً تغيُّطُه في مرابعِها ، نُغورُ الأزاهرِ ، لابلِ تحسُّده في مطالعِها ، نُغورُ الزواهرِ .

وينهى بعد دعاء أحسنت في الألسنة وأخلصت الضمائر ؛ وولاءٍ وثناءٍ لهما مصاعدُ التَّجْمِينِ إلَّا أن هذا في القلوبِ واقعٌ وهذا في الآفاقِ طائرٌ - أنه جهز هذه الخِدْمَةَ مُرَبِّهً عن شوقٍ يتجدد ، وأرتياحٍ لا يتعدى ولا يتعمد ، ساعةً عنه بخطوات الأقدام ، أن منع الوقتِ خطواتِ الأقدام ، نائبةً في تقييلِ الأناملِ التي تُسَسِّقِي دِيمِها على القُربِ والبُعدِ ولا كيدَ ولا كرامةَ للغام ؛ وجهزها على يدِ فلانٍ بعد أن حمَّله من رسائلِ الشُّوقِ ما إن حمَّنا من إحسانه لينضي عقود الأبيحَمِ لو تعددت ، ومفاتيحِ أبوابه لتنوءُ بالهُصْبَةِ أُولَى القُوَّةِ لو تجسَّدت ؛ وهو بين يديه يقدمُ بجواها ، ويستشهد

بالخاطر الكريم قبل حضور دَعْوَاهَا ، والمسئول إصغاء السَّمع الكريم إليه ،
 والملاحظة فيما توجه فيه متكللاً على الله وعليه ؛ وإذا عاد مشمولاً بعناية مولانا
 المعهوده ، مكفولاً برعايته المقصورة على نجح الآمال الممدودة ، فليُنعم على المملوك من
 المشرفاتِ الكريمة بما يسكن على جور البعد خواطره الدهشه ، ويُعينه على الوحشة
 التي حركها نحوه البعاد فهي الوحشه ، والله تعالى يشكرهم مولانا غائباً وحاضراً ؛
 وشافِعاً لرسائل خدَمه وناظرًا ؛ ويخصُّ بابه العلوَّى بسلام كسلام سقيط الطل عن
 ورق الغصن ناضراً .

آخر من كلامه : كتب به إلى بعض رؤساء مصر .

ويُنهى أنه سَطَرها مُعْرِبَةً عن شوقٍ مُقيم ، وعهدٍ لا يُبرح على صراطه المستقيم ؛
 وأرتياح لجنايه ، أو لكتابه ، ليتلو لإنصات تنجوه : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ
 وَالرَّقِيمِ ﴾ . متطلِّعاً لما يرد من أخبار مولانا السارة البازة ، مرتقباً لأنبائه أرتقاب
 الزهيرة الفاغرة إلى ضرع الغمام الدآره ، ولو أن كل ما يمتنى المرء يدركه ، وكل ما يفترح
 على الدهر يملكه ، لغنى بقرب مخاطبه ، عن بُعد المكاتبه ، وأستجلى كوكب الجمال
 المُشرق وأقصر في ليلى الانتظار عن المراقبه . وقد جهَّزها على يد فلان ، وحمله من
 رسائل الشوق أوفى وأوفر من رسائل الصفا ، وسأل الإصغاء والملاحظة من مولى
 بكاره النيل معروف المنافع والوفاء ؛ وآمال المملوك بمشرفاته وأوامره جمال حين يريج
 وحين يسرح ، وحين يقتصر على مقترحات الأيام حين يشرح ؛ فينعم مولانا بمواصلتها
 على هذه المقدمه ، ويجعل ذلك من إدرارات صلاته المنجّمه ؛ والله تعالى لا يُعدم
 المملوك في حال كرمه : إما أن يُقيض في القرب بحره وإما أن يبعث على البعد ديمه .

وله إلى كاتب السر :

أعلى الله أمرَ قلمها على الأقلام، وأدام بفيض أنامله عليه بسط كلمة الإسلام،
وراع بكتائب كتبه العدا إذا آتبهوا، فإذا أغفوا «سَلَّتْ عليهم سيوفها الأحلام» .

ولا زالت تلك الأقلامُ العالية في تلك اليدِ الكريمة إن لم تكن من المنشآت
فإنها من المنشآت في البحر كالأعلام ؛ تقبيل مواظب على دعاء يطلع طلوع طرة
الصبح تحت ذلك الظلام ، وولاء إذا اعتبر الخاطر الكريم مسعاه وخدمته :
(قال يابشرى هذا غلام) .

وينهى أنه جهز هذه الخدمة مقصورة على وصف الأشواق الممدودة ، وجوانح
الشَّجو المعهودة ؛ وأنفاس التذكر التي لولا شرف مذكورها لم تكن عنده من
الأنفاس المعدودة ؛ فيالها مقصورة على شوق ما فيها غير طيور الجوانح خفاقة الجناح ،
سبابة الأرياح ؛ ويالها أنفاس ذكر أغنت منادمتها عن كئس كأس وأقتراح
وقت راح ؛ ويالها ورقة فازت بمشاهدة لثم اليد الشريفة فكرمت وصفا ، ونأت
عن نخار الروض عطفاً ؛ وأستطابت بشفاه السطور على تلك البنان رشفاً :

وسطرَّتها والجسمُ أنحل ما يرى * فياليتني أصبحت في طيها حرفاً

واصلة إلى الباب الكريم بسلام وصل عبقه قبل ماوصلت ، واردة على يد فلان
وقد حمل من رسائل الصفاء والود مثل ما حملت ، وحصلت على القرب ويا أسفى
على ما حصل وحصلت . والمملوك يسأل الإصغاء إليها وإليه بفضل النظر والسمع ،
والإنعام على الحبِّ المفارق بمشرفات تجلوعه أيام جمع ؛ وتعينه على أوقات وحشة
إذا وصفها المشتاقون وأقلامهم ولوا وأعينهم تفيض من الدمع ؛ لا يرح ذكر مولانا
علياً ، ويره بملء الآمال ملياً ، ووصفه بالتقى وسحاب الجود على الحالين ولياً :



يَأْمِينَةَ النَّفْسِ وَيَا مَالِكِي * مُدْغِبَتَ عَنِّي لَمْ تَنْمِ مَقْلِي!

إِنْ نَبْتَ عَنْ عَيْنِي بِرَعْمِي فَقَدْ * سَكَنْتَ فِي قَلْبِي وَفِي مُهَجَّتِي!

لَا أَوْحَشَ اللَّهُ مِنْ طَلْعَتِهِ ، وَلَا أَخْلَى مِنْ كَرِيمِ مَسَاعِدَتِهِ ، وَجَمَعَ شَمْلَ الْأَنْسِ

بِحُدْمَتِهِ .

المملوك يشكو من المولى فِرَاقًا أَوْجِبَ لَهُ عَلَى نَفْسِهِ فِرَاقًا ، وَجِيشَ صُدُودِ مَنْحِهِ

مِنَ الْعَزَائِمِ طَوَائِفَ وَفِرَاقًا ؛ وَدَاءَ صَبَابَةٍ كَلَّمَا تَرَجَّى الْإِفْرَاقَ مِنْهُ أَزْدَادَ تَلْهَبًا وَحِرَاقًا ،

وَوَجُوبَ قَلْبٍ تَحْتَمُّ لَغَيْبَتِهِ وَوَجَبَ ، وَدَمَعَ عَيْنٍ يَجْوِ مَهْمَا عَبَّرَ عَنْهُ لِسَانُ قَلْمِهِ

أَوْ كَتَبَ ، وَقَدْ أَطَالَ الْمَهْجُرُ تَأَلَّمَهُ وَعَتَبَهُ ، وَأَطَارَ سِتْنَتَهُ وَبَلَّهَ ؛ مُدَّ وَصَلَ الْمَوْلَى غَيْرَهُ

وَقَطَعَ عَنْهُ كُتْبَهُ ، وَالْمَوْلَى يَعْلَمُ أَنَّ الْمَمْلُوكَ لَفْظًا وَالْمَوْلَى مَعْنَاهُ ، وَسَعَدَهُ شَخْصٌ وَأَنْتَ

وَجْهَهُ الْمَيْمُونُ وَيُمْنَاهُ ؛ فَيُؤَاتِرُ إِسْرَالَ مَكَاتِبَاتِهِ ، وَيُخَيِّفُ بِمَا تُؤِيرُهُ وَبِلَبَانَاتِهِ ؛ وَيُعَطِّرُ

بِذِكْرِهِ الْجَمِيلِ الْأَمَّا كَنْ وَيُسَنِّفُ الْمَسَامِعَ ، كَمَا شَرَّفَ بِجُلُولِهِ فِيهَا الْأَضَالِعَ ؛ وَاللَّهُ

يُدِيهِ وَيُمِدُّهُ بِالْإِسْعَافِ وَالْإِسْعَادِ ، وَيَنْصُرُهُ عَلَى الْأَضْدَادِ وَالْحُسَّادِ :



أُقَاسِي مِنْ يَدَاكَ مَا أُقَاسِي * وَقَلْبُكَ رَاحِمٌ وَعَلَى قَاسِي!

وَأَحْمِلُ مِنْ نَوَاكٍ بَضْعِيفِ نَفْسِي * عَنَاءً يُعْجِزُ الشَّمَّ الرَّوَاسِي!

وَتُبْعُدُنِي وَأَمْرُكَ إِنْ أَتَانِي * جَعَلْتُ مَحَلَّهُ عَيْنِي وَرَاسِي!

(١) أى البره مصدر أفرق العليل إفرافا إذا برأ من علته . انظر اللسان ج ١٢ مادة ف رق .

قَرَّبَ اللهُ أُوْبَتَهُ، وَجَمَّلَ رُؤْيَتَهُ؛ وَحَرَسَ نَفْسَهُ مِنَ الْغَيْرِ وَالْحَادِثَاتِ، وَصَانَ حِجَابَهُ
الْمَنِيعَ عَنِ الْمَلَمَّاتِ الْمُؤَلِّمَاتِ؛ وَجَمَّلَ الْأَيَّامَ بِوُجُودِهِ، وَالْأَنْامَ بِوُجُودِهِ. وَلَا زَالَتِ
الدُّنْيَا بِهِ جَمَلَهُ، وَأَعْنَاقُ أُنْبَاءِهَا لِمَنْتَهُ مَتَحَمَّلَهُ .

صدرت هذه الخدمة إلى خدمته متضمنة إهداء سلامه، وشاكية لغيبته جور
أيامه؛ ومنهية شدة أسواقه التي أفنت بالصباية قلبه، وأذهبت حشاشته ولبه؛ وهي
في ذلك نائبة مناب سائر الخدم، ومعبرة عن ألسنة الأقاليم بلسان القلم؛ فإن الأعين
متطلعة إلى رؤيته، والقلوب متعطشة إلى قُضُولِهِ وَرَجْعَتِهِ؛ كما نتطلع إلى السماء عيون
الترجس، وتتعطش الرياض إلى الواابل القدق بعد اليوم المحر المشمس؛ فالمولى
يجعل مواصلته بأخباره فرضاً لازماً، ويمتنع من إغفاله كما يمتنع من لذة الطعام إذا
كان صائماً؛ فإن المولى هو صورة الجود ومعناه، وبيته الكريم فناء الخير ومعناه؛
والناس مالم يروك أشباه، حرسه الله وتولاه، وضاعف علاه، والسلام .



يَا أَجْمَلَ النَّاسِ سَنَاءً وَسَنًا * جَفَتْ جُفُونِي لِحَفَاكَ الْوَسَنًا!

ثَمَارَ آلَامِ الْإِلَامِ أَجْتَنِي؟ * يَا لَيْتَنِي أَعْلَمُ خَطِي مَا جَنَّا؟

وَأَنْتُمْ يَا أَهْلَ بَابِ لَعْلِعٍ * مُدُّ بِنْتُمْ لَمْ أَرِ شَيْئًا حَسَنًا!

أَقْمُوا بِمُنْحَنِ الْأَضَالِعِي * وَسِرْتُمْ يَا أَهْلَ وَادِي الْمُتَحَنَّا!

فِي بُعْدِكُمْ مَنِّي لَا تَتَّبِعُوا * وَقُرْبِكُمْ غَايَةُ سُؤْلِ وَالْمُنَا!

خَلَّدَ اللهُ سَعَادَتَهُ، وَبَلَّغَهُ مِنَ الْعِلْيَاءِ إِرَادَتَهُ؛ وَأَثَلَتْ مَجْدَهُ، وَأَدَامَ سَعْدَهُ؛ وَأَعَذَّبَ

مَنْهَلَهُ وَرَدَهُ .

المملوك يتشوق إلى لقاءه، ويتشوق إلى أنبائه، ويصف شديد اشواقه وصباته،
 وحينئذ إلى مشاهدة المولى ومشافهته، وما يجده لذلك من ألم في جوارحه الجريحه،
 وسقم في جوانحه الصحيحه؛ ويلتمس مواصلته بكتبه آناء الليل وأطراف النهار،
 وأخباره السارة ليتضاعف له مزيد الاستبشار؛ فإن القلب بنار الصباية قد وقد،
 وأما صبره على [بعده] فقد فقد؛ ومتى ورد كتاب المولى شفى الغليل، وأبل الغليل،
 ونجح طعم الحياة ونجح التأمل؛ فليصير وتر مكاتبته شفا، ولا يجعل لوصولهن قطعا،
 والله يمنح عيشه خفضا ومكانه رفعا، والسلام .



شعر في معنى التشوق :

قد كان لى شرف يصفو برؤيتكم * فكدرته يد الأيام حين صفا

غيره :

كتب^(١) للكتاب مجلد * على أنه قبلى بقياك يسعد

النوع السادس

(في الاستتارة)

(٢) قال في "مواد البيان" : رِقَاعُ الاستتارة إنما تستعمل على وصف حالات
 الأئس ومجالس اللذات، ومشاهد المسرات . قال : ويجب على الكاتب أن يودعها
 حلو الألفاظ، ومؤنق المعاني وبارع التشبيهات، ويبالغ في تشويق المسترار إلى
 الحضور، ويتلطف فيه أحسن تلطف .

(١) بياض في الاصل ولعله "وشوق للكتاب الخ" .

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى .

وهذه نسخ من ذلك :

على بن خلف :

رُفِعْتِي - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - وَمَجْلِسِي بِنَ حَلِّهِ مِنْ خَدَمِهِ ، وَنَزَلَهُ مِنْ صَنَائِعِ كَرَمِهِ ؛ فَلكَ مُزِينٌ بِأَنْجَمِهِ ، فَإِنْ رَأَى أَنْ يُطْلَعَ فِيهِ بَدْرًا بَطْلُوعِهِ وَيُنْقَلَ قَدَمُهُ إِلَيْهِمْ ، وَيُكَلَّلُ نَقْصَهُمْ بِتَأَمِّهِ ؛ وَيُضَيِّفُ ذَلِكَ إِلَى تَلِيدِ إِنْعَامِهِ ، فَعَلْ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .
وله في مثله :

قَدْ أَنْتَظَمَ لَنَا - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ سَيِّدِي - مَجْلِسٌ رَقَّتْ حَوَاشِيهِ ، وَتَبَسَّمتُ رَاحُهُ
عَنْ حَبَبٍ ، كَلَّالِيَّ عَلَى ذَهَبٍ ، وَقَامَتْ فِيهِ سَوْقُ السُّرُورِ ، لَا يُكْسِدُهَا إِلَّا تُخْلِفُهُ
عَنِ الْحُضُورِ ؛ فَإِنْ رَأَى أَنْ يُكَلَّلَ جَدَلْنَا بِإِطْلَاعِ طَلْعَتِهِ عَلَيْنَا ، وَيَصْدُقَ ظَنَّنَا بِنَقْلِ
قَدَمِهِ إِلَيْنَا ؛ سَرَّ وَأَبْهَجَ ، وَتَمَّ مِنَ الْإِحْسَانِ مَا أَخْدَجَ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

وله : هذا - أَطَالَ اللهُ بَقَاءَ مَوْلَانَا - يَوْمَ صَفِيحِ الظِّلِّ ، رَقِيقُ غِلَالَةِ الطَّلِّ ؛
قَدْ تَرَقَّعَتْ شَمْسُهُ بِرُجْ أُنْسِهِ ، وَأَقْتَرَّ جَدَلًا عَنْ مَضَاحِكِ بَرْقِهِ ، وَتَرَمَّ طَرَبًا بِزَجْمَرَةٍ
رُعْدَةٍ ؛ وَوَشَّتْ مَدَارِجُ نَسِيمِهِ ، بِأَرْجِ شَيْمِهِ ، وَقَامَ عَلَى مَنَابِرِ السُّرُورِ يُخْطَبُ ابْنَةَ
الْكَرْمِ لِأَبْنَاءِ الْكِرَامِ ، وَيُنَادِي بِأَعْلَى صَوْتِهِ : حَيَّ عَلَى الْمُدَامِ ؛ فَقَدْ وَجَبَ عَلَى كُلِّ
مَوْفِيٍّ لِاجْتِنَاءِ ثَمَارِ السُّرُورِ ، وَالْتِحَافِ عِطَافِ الْحُبُورِ ؛ أَنْ يَلْبِي دَعْوَتَهُ ، وَيَنْتَهِزَ
فُرْصَتَهُ ؛ وَيَعُوضَهُ مِنْ شَمْسِهِ الْآفِلَةِ ، بِرَاحِ لِإِظْهَارِ مَا أَخْفَى مِنْ شُعَاعِهَا كَافِلِهِ ؛
وَيَقِفَهُ عَلَى التَّمَلُّى بِالْكَاسِ وَالنُّدْمَانِ ، وَيَجْعَلَهُ سِلْكَا يَنْتَظِمُ فِيهِ الْإِخْوَانَ . وَرُفِعْتِي
هَذِهِ صَادِرَةٌ إِلَى مَوْلَايَ وَقَدْ تَهَيَّأْنَا لَنَا مَجْلِسٌ مِنْ مَجَالِسِ الْأُنْسِ ، يَسُوطُ تَجَعَّدَ النَّفْسِ

(١) فيه بغم ونغم ، ومزهر وزهر ، وحلان قد تراضعوا لبان العقار ، وتساهموا نقل الوقار ، وشجعوا في معارك الخمار ، وأدمنوا على المأساة والأبتكار ؛ إلا أن هذا المجلس مع تمامه مُحدج ، وعلى كماله محتجج ؛ لبعد مولاي الحال منه محل الوساطة من النظام ، والأرواح من الأجسام ؛ فإن رأى أن يُكَلِّ منه مانقص ، ويُميط عنه [مانقص] فليجملنا بالمصير الينا ، والطلوع علينا ؛ وإعفائنا من إبحار الانتظار ، معتداً بذلك في كريم الأيادي والمبار ؛ إن شاء الله تعالى .

وله في مثله :

هذا اليوم - أطل الله بقاء سيدي - يوم أعرس فيه انجؤ بالجارية البيضاء فقدرها ، وحجبها بسجف الغام وسترها ؛ واختال آختيال المعرس في معرسه ، بمصنله وممسكه ومورسه ؛ واتخذ من ذهب البوارق نثاراً ، وأستنطق من زنار الرواعد أوتاراً ؛ ودعا إلى حضور وليته ، والشور بمسرتة ؛ فإن رأى أن يلي طلب هذا اليوم الصفيق ، ويتمتع بعيشه الرافع الرفيق ؛ فليطلع علينا طلعتة التي تبهر القمر المزهر ، وتصدع الليل المعتكر : لينهض غرة الإصباح ، بغرة الراح ، ويقطف ثمار الأئس والمحاضر ، ويتملى بالسماع والمدأكره ؛ ويأخذ بحظ من لداذة الفيحة الشبية بشائله ، ويعد ذلك من مباره وفواضله ؛ [فعل] إن شاء الله تعالى .

وله في الأستارة في بُستان :

كتبت - أطل الله بقاء سيدي - وقد غدوت في هذا اليوم [إلى] بُستاني والطير في الأوكار ، والأنداء تهيط كالتيار ؛ والليل مشتمل على الصباح ، أشتمال الأدهم

(١) هو بالفتح وبالضم وبالتحريك ما يتناقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) في الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف النسخ .

على الأوضح؛ عازماً على مشاركته ومُشارفة ما استمددت من عمارته، لا للخلوة فيه
بمعاطة المدام، ومؤانسة الندام؛ فحين سرحت الطرف في ميادينه وجدأوله، وأقبلت
على تصفح حلاه وحلله؛ رأيت مناظره تتعلق القلوب أعتلاق الأشرار، وتعتاق
المستوفز عن الحرار؛ وتقيم قاعد المزاج والنشاط، وتوقظ هاجد الفرح والإنبساط:
فمن أشجار كالأوانس، في ريحاني الملابس؛ حالية من مؤشع الزهر والثمر، بأنصع
من الياقوت والجوهر؛ كأنما تحفلت لأجتلاء عروس، أو معاطة كئوس؛ ما بين
تحليل قد نشرت عذب السندس على ذراها، وأطلعت طلعا كأنها جرح غشيبا صدها؛
ونارنج يجمل أكبر العقيان، أو وجنات القيان؛ وأترج قد استعار ثمرة أشواق العشاق،
إذا صالت عليهم يد الفراق. ومن ريسان زاهية بنشرها، وقصبتها مختالة في ملابس
زهرها؛ ونرجسها كعين محب حدق إلى الحبيب؛ وثني جيده خوف الرقيب، إذا
عبث به النسيم جمع بين كل قضيب وإلفه، وسعى بالأعتناق من شوقه وكلفه؛
ووردتها كبداهن ياقوت فيها نضار، وشقيقها كمدامات عقيق فيها صوار؛ وبنفسجها
نقد تمضي فيه من القرص آثار؛ أو جام لجين عليه من الندى نثار. ومن أنهار قدت
حافاتها قد الأديم، وحدثت على صراط مستقيم؛ ببحرة مسجوره، كالسيوف المشهورة
أو المهارق المنشورة؛ إذا نحمشها الهوى خلع عليها متون المبارد، أو سلوخ الأسود؛
يتخرق ذلك كله نسيم رقيق الغلائل، حلو الشائل؛ يسعى بالنسيم، في المعاطس
والشميم؛ انصبت إلى مجلس فسيح البناء، ضيق الأثناء؛ مؤش الجدران والسماء،
في صدره شاذر وان ريبي بكسر البلور، وفي وسطه نهر نساب مأوه أنسياب

(١) الريضان والرياض جمع الروضة .

(٢) الصوار والصوار « أي بالضم والكسر » الرائحة الطيبة والقليل من المسك أترج ٦ - ص ١٤٧

الشُّجَاعُ الْمَدَّسُورُ ، وَتَوَسَّطَهُ بَرَكَةٌ مَمْنَمَةٌ يَنْصَبُ الْمَاءَ إِلَيْهَا بِالذَّوَالِي إِلَى أَرْبَعِ شَاذِرَوَانَاتٍ ، وَيُخْرَجُ عَنْهَا مِنْ أَرْبَعِ فَطِيمَاتٍ ؛ يَحْتَفُّهَا كُلُّ شَجَرٍ مُثْمَرٍ ، وَرَوْضٍ مُزْهِرٍ .
 فقلت : هَذَا الْمَرَادُ الَّذِي يُحِطُّ بِهِ الرَّائِدُ رَحْلَهُ ، وَيُوفِدُ إِلَيْهِ أَهْلَهُ ؛ وَيَدْعُو إِلَى
 اخْتِيَارِ مَنْ يَهْبُ إِلَى الشَّرُورِ ، وَيُسَاعِدُ عَلَى الْحُضُورِ ، لِلشَّرَاكَةِ فِي التَّمَلُّقِ بِبَهْجَتِهِ ،
 وَالتَّمَتُّعِ بِبَضْرَتِهِ ؛ فَكَانَ مَوْلَايَ أَوَّلَ مَنْ جَرَى إِلَيْهِ ذِكْرِي ، وَوَقَعَ عَلَيْهِ طَرْفُ فِكْرِي :
 لِأَنَّهُ السَّاكِنُ فِي فُؤَادِي ، الْحَالُ فِي مَحَلِّ رُقَادِي ؛ فَإِنْ رَأَى أَرَاهُ اللَّهُ مَا يُقِرُّ الْعَيْنَ أَنْ
 يُجَلِّ مَسْرَّتِي بِنَقْلِ قَدَمِهِ إِلَيَّ ، وَإِطْلَاعِ سَعْدِ طَلْعَتِهِ عَلَيَّ : لِيَتِمَّ مُحَاسِنَ مَا وَصَفْتَهُ ،
 وَيَكْمُلَ الْإِلْتِنَازَ بِمَا شَرَحْتَهُ ؛ فَعَلَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَجْوِبَةُ رِقَاعِ الْأَسْتِزَارَةِ

قال في "موادِّ البيان" : لا يخلو المسترار من الإجابة إلى الحضور أو التناقل عنه ،
 فإن حضر على الفور ، فلا جواب لما نفذ إليه ، وإن وعد الحضور وتوأم ليقضى
 شغلاً ويحضر ، فينبغي أن يبنى الجواب على سروره بما دُعي إليه ، وحسن موقعه
 منه ؛ وأن تلومه للعائق الذي قطعته عن أن يكون جواباً عما ورد عليه ، وأن حضوره
 يشفع رُفَعَتَهُ . وإن آيس من الحضور ، وجب أن يبنى الجواب على ما يمهد عُذْرَهُ ،
 ويقرر في نفس مستريره أنه لم يتأخر عن المساعدة على الأئس إلا لتواطع صدت
 عنه ، يعلم المعتذر إليه صحتها لينحرس ما بينهما من المودة ، فإن كثيراً ما تتفاسد الخلال
 من مثل هذه الأحوال .

النوع السابع

(في أختطاب المودّة وأفتتاح المكاتبّة)

قال في " موادّ البيان " : الرّفاع الدائرة بين الإخوان في أختطاب المعاشرة ، وآتناء المكاتره ، وطلب الخلطة والمؤانسة ، يجب أن يقدّر الخطاب فيها على أن يصل المرغوب في عشرته إلى الانخراط في سلك أجبائه ، والآنحياز إلى أهل ولآئه ، وبيعته على قصده ، في الالتحاق بؤده ، ويدلّ على المحاصه ، والصّفاء والمخالصه ، وما جرى هذا المجرى مما يتعامل به أخلاء الصّدق ، ويجعلونه مهراً لما يتمسّونه من الممازجه ، ويرومونه من الأختلاط والمواشجه .

قال : وينبغي أن يذهب الكاتب في هذه الرّفاع مذهبا لطيفا ، ويحسن التوصل إلى الإفصاح عن أغراضها : ليأخذ بمجامع القلوب ، ويعين على نيل المطلوب .

وهذه نسخ من ذلك :

رقعة : ويُنهى أنّ المملوك لم يزل مُدّ وقع طرفه على صورته ، ووجّ سمعه بعد شيمته ؛ يُناجى نفسه بافتتاح مكاتبته ومراسلته ؛ وأختطاب ممازجته ومواصلته ؛ رغبة في الاعتقاد بإخائه ، وإلاّ ارتشاف من مشارع صفائه ؛ والمقادير تطوى الطوية على ما فيها ، والعوائق تمطل النيّة بنجّاز ماثويه وتلويها ، إلى أن أذن الله تعالى بإعراض الأعراض ، وأتقباض أسباب الاتقباض ؛ فأظهر المملوك ما في القوه ، واثقا من مولانا بحسن المروه ؛ وأنه يوجب القبول بإجابته ، ويوجب إلى مساعدته ؛ ويرضى المملوك أهلا لأصطفائه ، ومحلا لإخائه ؛ علما بإيجابه للحق ، والمعرفة بالسبق ؛ وأن تلقى هذه الرغبة بالقبول ، ويسلم إليها مفتاح المأمول .

رقعة : لو كانت المودّة لا تحُصّل إلّا عن ألفة تالدة ، ومُواصلةٍ سالفة ؛ لم يستطِرِف المرءُ صفيّاً ، ولم يستحدِث وِليّاً . وما زال البُعداءُ يتقارَبون ، والمتناكُرون يتعارَفون ؛ ولما نُمّيَ إلى المملوك من أنباء مولانا ما تَصَوَّعَ عِطْرُه ، وظاب نَشْرُه ؛ سافرَ بالأَميلِ إليه ، وقَدِمَ بالرَّغبةِ عليه ؛ طالباً الانخراطَ في سلكِ أوليائه ، والاختلاطَ بخاصّته وخُصّائه ؛ ومثُلُ مولانا من أجاب السُّؤلَ ، وصَدَّقَ المأمولَ ؛ والمملوكُ يرجو أن تكشف الأيامُ لمولانا منه عن خُلةٍ صادقة ، ومودّةٍ صحيحة ، لا تَضِيعُ معها إجابته ، ولا تَحَسِرُ صَفْقَتُهُ .

رقعة : ويُنهى أن المملوكَ ما زال مُدُّ وقعِ طَرْفِهِ على صُورته البُدريّة ، وأحاطَ علماً بجلالَتِهِ المرصِيّة ، راغباً في مُواشَجَتِهِ ، باعثاً نَفْسَهُ على آخِطابِ مودّته ، وإِجْارُهُ يُعِدّه ، وإِعْظامُهُ يُبْعِدُه ؛ فَلَمّا تَطاولَ يراعُ هِمَّتِهِ ، شَجَعَتْ على إنفاذِ عَزْمَتِهِ ؛ فقدمَ مكاتِبَتَهُ أَمامَ مشافهَتِهِ ؛ فإن حَظِيَ بالإِجابةِ وتَويلِ الطَّلِبَةِ ؛ فقد فازَ قَدْحُهُ ، وتَبَلَّجَ صُبْحُهُ ؛ ونالَ مُناهَ ، وبلغَ رِضاهَ ، وصادَفَ هَناهَ ، وديداً موثوقاً بُوَدّهَ ، مسكوناً إلى عَقْدِهِ وَعَهْدِهِ ؛ يمجّدُهُ عندَ الإِخْتِبارِ ، ويعرِفُ به صِحَّةَ رأيه عندَ الإِخْتِيارِ ؛ والمملوكُ يرجو أن يَصِحَّ ما سألَهُ وَكَفَّلَهُ ؛ إن شاء اللهُ تَعَالَى .

رقعة : ويُنهى أن من عَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِنِئانِهِ الحَافِلِ ، وَعَطَّرَ بِأَنْبائِهِ الفَضائِلِ ؛ وأقامَ من مَساعِيهِ الكِرامِ خُطيباً يَخُطِبُ بَسوددِهِ وَفَضْلِهِ ، وَيُعَرِّبُ عن شرفِ مَحْتَدِهِ وَأَصْلِهِ ؛ تَطَلَّعَ الأَمالُ لِلانْتِظامِ في سِلْكِ أَجْبائِهِ ، وَتَشَوَّفَتِ الهِمَمُ إلى الأَمْتِراجِ بِجُلْخِصائِهِ وَأولِيائِهِ : لما يَصْفُو على المَعْتَصِمِ بِعُرَى مُصافاتِهِ من لِباسِ جَمالِهِ ، وَيَحِلِّيَ المَعْتَبِيَّ إلى وِلائِهِ من حِلْيِ جِلالِهِ ؛ وأحَقُّ مَنْ أَسعَفَهُ مولانا بالمودّةِ إذا خَطَبَها ،

وأجابه إلى المصافاة إذا طلبها ، من بدأ بالرغبة ، ومَتَّ إليه بالحبه ، لا لمُرْغَب ولا مُرْهَب ، وأختره لنفسه على علم بكاله ، ومعرفة بشرفِ خِلاله .

وما زال المملوكُ مُدُّ أطلعه الله على ماخَصَّ به مولانا من المحاسن المتعدِّرة إلا لَدَيْهِ ، والفضائل المتَّعة إلا عليه ؛ يُحومُ على مشاريع مَمارَجَتِهِ ولا يَرُدُّها ، ويرومُ مواقع مُوَشَّجَتِهِ ولا يعتمِدُها ، إكبارا لقدره ، وإعظاماً لخطره ، وخوفاً من تصفحه ونقده ، وإبقاءً على ماء وجهه من رَدِّه ؛ والمملوكُ وإن كان عالماً بأن كرم مولانا يرقع الخلل ، وفضله يصدق الأمل ؛ فإنه لا يَعدَمُ مذ رَغِبَ في قُرب مولانا مالعه يَجِدُه فيه ، مما يُخالفُ مذهبه ويُنافيه ؛ إذ كان لا يبلغُ تضاهيه في التَّمامِ وتوافيه ، إلى أن أذن الله تعالى بأن أبلغ نفسه الأُمْنِيَّة ، وأظهر ما طويت عليه الطَّويَّة ؛ فكتب هذه الرُّقعة وجعلها فيما رامه من الاعتلاقِ بجبل مودته سَفيراً ، وعلى ما آلتسه من الأنضمامِ إلى جملته ظهيراً ؛ وقَدِمَ بها عليه وظنَّه يترجَّحُ من الإعراضِ إلى القبول ، ثقةً بقُرب نيل المأمول ؛ فإن رأى أن يُجيبه إلى ما سأله ، ويسره بتحويل ما اقترحه ، فعل ؛ إن شاء الله تعالى .

اختطاب المودَّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وضاعف للمالك ببقائه الاتِّفاع ، وأرتقائه الإرتفاع ؛ وسرَّ محاسن نظره وخبره العيان والسَّماع .

ولا زال للجبين من وده عَطْفُ المتلطفِ وللأعداء من بأسه خَطْفُ الشُّجاع .
أصدرها المملوكُ منطويةً على ما عهد من صدقِ المحبه ، ووفاءِ العهودِ المستتبَّة ؛ ودُرر

الحامد التي لا تسوى لديها دُررُ العقود حبه ، مُبديَّةً لعلمه الكريم أنَّ المودَّات إذا صفت ، والقلوب إذا تجنَّدت وتعارفت ؛ حثَّ المحيِّين في العباد على المفاتحة بكتبهم ورسائلهم ، والمخاطبة في ظلال الأوراق بالسنة أقلامهم من لهوات أناملهم ؛ إثارة لتجديد الأُنس وإن صحَّ الميثاق ، وتدَّكارا لخواطر الودِّ ، وإن رسخت منه الأصول ونمت الأعراق ؛ ولذلك فاتح بها مخاطبا ، وأرتقب لمُناديتها بالأخبار السارة مجاوبا ؛ نائبةً عنه في مشاهدة الوجه الكريم ، ومصاحبة اليد في حديث رِّها القديم ؛ تستطلع أخباره ، وتستعرض أوطاره ؛ وتُحيي بالسلام وجهه وعهده ودياره ، على يد فلان ، وقد حمل من المودَّات والمشافهات ما يُعيدُه على السَّمع الكريم المنعم بإصغائه ، المُصنَّعي بنعائه ؛ المتحفِّ بالمهمات التي يحصل فوزُ القيام بها ، والمشرفات التي كلُّ أسباب الشُّرور متصلٌ بسببها ، والله تعالى يُبهِج من تلقائه سمعا ونظرا ، ويُبقِي عيش حاسده هَشِيما وعيش محبِّه نَضْرا ؛ ويُدِّيم رياض ذكره تاليةً على المسامع : ﴿ فَأُخْرِجْنَا مِنْهُ خَضْرًا ۝ ﴾ .

أجوبة أختطاب المودَّة

قال في " مواد البيان " : لا يخلو من يُرام ذلك منه من أن يُجيب أو يعتل ، فإن اجاب بنى الجواب على وقوع رغبة المختطِّب أحسن مواقعها ، وأتباع المختطِّب بها ، ومعرفته بقدر ما رآه أهلا له ومسارعتيه إليه ؛ وإن اعتل بنى الجواب على أنه قد عرَّض له ما يقصر عنه ، ولا ترضى نفسه به ، وأن العذر [ليس] بعادة له في المزيلة ، وطريقة في الانفراد والمجانبة .

(١) أى لانسوى يقال سوى درهما يسوى من باب تعب ومنعها أبو زيد . أنظر المصباح .

النوع الثامن (في خطبة النساء)

قال في "مواد البيان": الرقاع في التماس الصهر والمواصلّة يجب أن تكون مبنية على وصف المخطوب إليه بما يقتضى الرغبة، ويدل الخاطب عن نفسه بما يؤدى إلى الكفاية والإسعاف بالطلبة.

قال: وينبغي للكاتب أن يودعها من ألفاظ المعاني المنتظمة في هذا الباب أوقعها في النفوس، وأعودها بتقريب المرآم، وأدملها على صدق القول فيما تكفله من حسن معاشرته، ولين معاملته؛ وأن يذهب بها إلى الاختصار والإيجاز.

وهذه نسخ من ذلك:

ما أورده أبو الحسين بن سعد في ترسله.

وأفضل تلك المواهب موقعا وألطفها وأحمدها عاقبة، وأرهنها يدا، ما يؤلف الله به القربات، ويؤكد به الحرمات، ويوجب به الصلوات، ويحدد به المكرمات، ويحدث به الأنساب، ويقوى به الأسباب، ويكثر به من القلّة، ويجمع به من الفرقة، ويونس به من الوحشة، ويؤاد به في الحقوق وجوبا، وفي المودات ثبوتا، ثم لا مثل لما كان لله طاعة ورضاء، وبأمره أخذًا وأقتداء، وبكتابه قُدوة وأخذاء؛
(١)
فإنه نساء الخيرة في قضائه، والبركة فيما يقوم بناؤك عليه.

ومنه : تِصِلْ رَحِمًا ، وَتَعْقِدْ سَبِيًّا ، وَتُحَدِّثْ نَسَبًا ، وَتُجَدِّدْ وَصْلَةً ، وَتُؤَكِّدْ أُلْفَةً .

رقعة : مَنْ خَصَّهُ اللهُ تَعَالَى بِمَا خَصَّ بِهِ سَيِّدِي : مِنْ طَهَارَةِ الْأَعْرَاقِ
وَالْأَنْسَابِ ، وَشَرَفِ الْأَخْلَاقِ وَالْآدَابِ ؛ وَأَفْرَدَهُ بِاجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمُتَفَرِّقَةِ
فِي الْأَنَامِ ، وَعَطَّرَ بِنَائِهِ مَلَابِسَ الْأَيَّامِ ؛ رَغِبَ الْأَحْرَارُ فِي مُوَاصَلَتِهِ ، وَهَانَ عَلَيْهِمْ بَدْلُ
الْوَجْهِ فِي أَخْتِطَابِ مِمَّا رَجَحَتْهُ ، وَآلَمَسَ مُوَاسِجَتَهُ وَمُنَاسِبَتِهِ ؛ وَجَدِيرٌ مِنْ رُغْبٍ إِلَيْهِ ،
وَطَلَبِ مَالِدِيهِ ؛ وَأَخْتِيرَ لِلشَّابِكَةِ فِي الْوَلَدِ وَالْحُمَةِ ، وَالْمِشَارِكَةِ فِي الْمَالِ وَالنِّعْمَةِ - أَنْ
يَجِيبَ وَلَا يَمْنَعُ ، وَيَصِلَ وَلَا يَقْطَعُ ؛ مُصَدِّقًا لِأَمَلٍ مِنْ أَفْرَدِهِ بِأَرْتِيَادِهِ ، وَتَوْحُّدِهِ
بِاعْتِمَادِهِ ؛ عَارِفًا لَهُ حَقَّ آبْتِدَائِهِ بِالثَّقَّةِ الَّتِي لَا يَجُوزُ رَدُّ مِنْ أَعْتَقَدَهَا ، وَلَا صَدُّ مِنْ
حَسَنِ ظَنِّهَا ؛ وَقَدْ عَلَّمَ اللهُ تَعَالَى أَنْ [مَضَى] لِلْمَلُوكِ مَدَّةٌ طَوِيلَةٌ [وَهُوَ يَحْتُمُّ] مُتَطَلِّبًا
مَرَبَعًا لِلتَّأَهُلِ ، مُؤَثِّرًا لِعِمَارَةِ الْمَنْزِلِ ، رَاغِبًا فِي سَكَنِ تَطْمِئِنُّ النَّفْسُ إِلَيْهِ ، وَتَعْتَمِدُ
فِي الْفَوَاحِشِ وَالْمَصَابِرِ عَلَيْهِ ؛ وَكَلَّمَ عَرِضَ لِلْمَلُوكِ بَيْتَ أَبِيهِ ، أَوْ ذَكَرَ لَهُ جَنَابَ قَطْعِ
عَنْ رَجَاهِ : لِعَدَمِ بَعْضِ الشَّرُوطِ الَّتِي يُرِيدُهَا فِيهِ ، وَتَعَدُّرِهَا عَلَيْهِ ؛ فَلَمَّا قَرَعَ سَمْعَهُ
ذَكَرَ سَيِّدِي ، عَلِمَ أَنَّهُ الْغَايَةُ الَّتِي لَا مَرْقُفَ بَعْدَهَا ، وَالنَّهْيَةُ الَّتِي لَا مَطْمَحَ وَرَاءَهَا ، وَأَنَّهُ
قَدْ ظَفِرَ بِالثَّقَّةِ ، وَوَصَلَ إِلَى الْأَمْنِيَّةِ ، وَوَجَدَ مِنْ يَجْمَعُ الْخِلَالَ الْمُرِضِيَّةَ وَيَزِيدُ ؛
وَيُجُوزُ مِنَ الْفَضْلِ الشَّأَوِ الْبَعِيدِ ، وَكَتَبَ الْمَلُوكُ هَذِهِ الرَّقْعَةَ خَاطِبًا كَرِيمَةً فَلَانَةَ
[لِيَكُونَ لَهَا] كَالنِّعْمِ الضَّامِنِ لِلنَّهْدِ ، وَالْحِلْدِ الْحَافِظِ لِلجِلْدِ ؛ وَيَكُونُ لِمَوْلَانَا كَالْوَلَدِ
الْبَرِّ أَبِيهِ ، وَلَاخِيهَا كَالصَّنْوَ الشَّفِيقِ عَلَى أَخِيهِ ؛ فَإِنْ رَأَى سَيِّدِي أَنْ يَتَدَبَّرَ مَا كَتَبَهُ
الْمَلُوكُ وَيَسْمَعَنَّ مِنْ تَوْكِيدِ رُقْعَتِهِ مَا حَمَلَتْهُ ، وَيَجِيبَهُ إِلَى مَا سَأَلَهُ فَلَهُ عُلُوُّ الرَّأْيِ فِي ذَلِكَ ؛
إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

رُفْعَةٌ : وَيُنْبِئُ أَنَّ مَوْلَانَا بِمَا تَمَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مَحَاسِنِهِ وَمَنَاقِبِهِ ، جَدِيرٌ أَنْ يَلْقَى مَنْ خَطَبَ الْأَعْتَصَامَ بَعْرِيٍّ مِمَّا زَجَّتْهُ ، وَسَعَى فِي نَيْلِ عُلُقِهِ مِنْ مُوَاشِحَتِهِ ، بِالتَّبَوُّلِ ، الْقَاضِي بِنَيْلِ الْمَأْمُولِ ، وَدَرَكِ الرَّغْبِ وَالسُّوْلِ ؛ وَلَا سِيَّأَ إِذَا كَانَ عَارِقًا مِنْ سُمُوِّ خَطَرِهِ ، وَأَعْتَلَاءِ قَدْرِهِ ، مَا يَقْضِي عَلَيْهِ بِخَفْضِ الْجَنَاحِ فِي مَعَاشِرَتِهِ ، وَغَضِّ الطَّرْفِ فِي مَعَامَلَتِهِ ؛ وَالْوُقُوفِ دُونَ دَرَجَةِ الْمَسَاوَاةِ وَالْمِثَالَةِ ، وَالتَّرْخُوحِ عَنْ رُتْبَةِ الْمُبَارَاةِ وَالْمُطَاوَلَةِ ؛ وَالْإِنْتِظَامِ فِي سِلْكِ الْأَتْبَاعِ وَالْحَاشِيَةِ ، وَالْحُدَامِ وَالغَاشِيَةِ ؛ وَكَثِيرًا مَا وَجَدَ الْمَمْلُوكَ الْبَرَكَةَ فِي مِشَارَكَةِ مَنْ هَذِهِ صِفَتُهُ أَوْ فَرَمَهَا فِي مِشَارَكَةِ النَّظَرَاءِ ، وَكَانَتْ الْعَاقِبَةُ فِي مِشَابَكَةِ مَنْ هَذِهِ حَالُهُ أَجْمَلَ مِنْهَا فِي مِشَابَكَةِ الْأَكْفَاءِ ؛ الَّذِينَ يُصَادِفُونَ فِي الْحُقُوقِ شَطَطًا ، وَلَا يُغْضُونَ عَنْ يَسِيرِ الْوَأَجِبَاتِ تَبَسُّطًا : لِأَنَّهُمْ يَرُونَ أَنَّ الْوَصْلَةَ مِمَّنْ دَانَاهُمْ فِي الرُّتْبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ لَيْسَتْ عَائِدَةً عَلَيْهِمْ بِشَرَفٍ ، وَلَا مُظْهِرَةً لَهُمْ مِنْ حُمُولٍ .

وَلِأَنَّ يَسْتَخْلِصَ مِثْلَ سَيِّدِي مِنَ الرُّوْسَاءِ ، مِثْلَ الْمَمْلُوكِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ ، وَيَخْتَصِمَ بِأَثَرَةِ الْإِجْتِبَاءِ وَالْإِصْطِفَاءِ ؛ فَيَكُونُ مَفْخَرُهُ إِلَيْهِ مَنْسُوبًا ، وَمَا يَرْقِيهِ اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ بِبَرَكَتِهِ مِنْ دَرَجِ الْفَضْلِ فِي نَفْسِهِ مُحْسُوبًا ؛ أَوْلَى مِنْ طَلَبِ مُمَائِلِ يَنَاقِضُ بَقْدَرَهُ وَيُطَاوِلُ .

عَلَى أَنَّهُ لَوْ طَلَبَ ذَلِكَ لَطَلَبَ مُعْوِزًا ، وَرَامَ مُعْجِزًا : لِمَا أَوْفَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ مِنَ السِّيَادَةِ الَّتِي لَا يُتْرَمَى إِلَى مَنْزِلَتِهَا ، وَلَا يُتَسَامَى إِلَى مُطَاوَلَتِهَا ؛ وَإِذَا كَانَ النَّظِيرُ مَعْدُومًا ، وَالْكُفُوُّ مَفْقُودًا ؛ وَلَوْ وَجِدَ لِمَالٍ مَتَسَلِّطًا ، وَوَقَعَ سَوْمُهُ مَنبَسِطًا ؛ وَمَوْلَانَا يُطَلَّبُ إِلَيْهِ وَلَا يُطَلَّبُ ، وَيُرْغَبُ فِيمَا عِنْدَهُ وَلَا يَرْغَبُ ، فَقَدْ سَهَلَتِ السَّبِيلُ إِلَى مَا يُرِوْمُهُ الْمَمْلُوكُ مِنْ جِهَتِهِ ؛ وَيُؤْتَرُهُ مِنْ مُوَاصَلَتِهِ ؛ وَأَتَّسَعَ الْحَجَالُ فِيمَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّغْبَةِ فِي تَقْلِيدِهِ شَرَفِ مُصَاهَرَتِهِ ، وَإِضَافَتِهِ بِذَلِكَ إِلَى بِيْطَانَتِهِ وَأَهْلِ حَاصَّتِهِ ؛ وَيُخْرِجُهُ عَلَى مَا يُخْرِجُ عَلَيْهِ الْوَالِدُ وَلَدَهُ ، وَالسَيِّدُ عَبْدَهُ ؛ وَقَدْ حَمَلَ الْمَمْلُوكُ مَوْصَلَ

(١) لعله يشير إلى المثل العربي «عرض عليه سوم عالة» يضرب لمن يمرض عليك ما أنت عنه غنى تأمل .

مطالعتة هذه مالم تسع إيداعه المكاتبه، فإن رأى مولانا أن يصنعي إليه ويحبب عبده بما يعتمدُه المملوكُ في ذلك فله الفضل؛ إن شاء الله تعالى .

رقعة : ويُنهي أن لذوي المناجِبِ الطيبة الأنساب، والمناحِتِ الزكية الأحساب؛ والأخلاقِ الكريمة والآداب، بين الأنامِ لسانَ صدقٍ يخطب لهم بالمحاسن والمحامد، ويعطرُ بثنائهم الصادر والوارد؛ ويدعو القلوب إلى نيلِ علقه من مآزجهم، وأتمسك بطرف من مواصلتهم؛ وقد جمع الله لمولانا من كريم المتلد^(١) والمطرف، وقديم وحديث الفضل والشرف، ما تفرق في السيادات، وتوزع على أهل الرياسات؛ وجعله في طهارة المولد، وطيبة المحتد؛ وأستكمال المآثر، وأستتمام المفارح، عامًا ظاهرًا، ونجمًا زاهرًا؛ فما من رئيس سوى مولانا تُعجزه خلة من خلال الرياسة إلا وجدها لديه، ولا نفيس تُعوزه خصلة من خصال النفاسة إلا أستباحها من يديه؛ ولذلك أمتدت الأعناق إلى أتمسك بجبله، وتطلعت الهمم إلى مؤانجته في كريم أصله؛ وصار مرغوبًا إليه لارغبًا، ومطلوبًا لديه لاطالبًا؛ وهو جدير بما وهبه الله من هذا الفضل الذائع، والنبل الشائع، أن يجيب سائله، ويصدق أماله؛ ولا يتجهم في وجه قاصده، ولا يرده عن مقصده؛ ولا سميًا إذا كان قد أسلفه الظن الجميل، وبدأ بالثقة والتأميل؛ وتعدر عليه قدر العارف بقدره، العالم بمخطره؛ المرتضى بشرائطه، النازل على حكمه، المتدبر برأيه؛ وقد علم الله تعالى أن المملوك مُدْ نشأ وصالح للتأهل مرغوب فيه، مخطوب إليه؛ من عده جهات جليلة، وجنات رئيسة؛ والمملوك صائد عن الإجابة، صارف عن المطاوعة؛ لشذوذ بعض الشروط التي يروم أن تكون مجتمعة في النسب، الذي أعده شريكًا في الولد والنسب؛

(١) المتلد (أى ككرم) ما ولد عندك من مالك أو نتج وما لم يتلد قديم .

ومفاوضًا في الحال والسبب؛ مرتادٌ من يقنع بالموافقه، ويرتض، بالعشرة والمراققه؛ حتى أفضى في الانتقاد إلى مولانا فوجد المراد على اشتراط، وألقى المقصود على اشتطاط؛ فدعاه ذلك إلى التهجّم بعد الإجماع، وحمله على التجاسر والإقدام؛ والتوسّل إلى مولانا بما يتوسّل به الأحرار، إلى الأخيار، وأمّه بصادق الرغية وصميم الحبة والانبساط، في خطبة كريمته فلانة؛ على أن يعاشرها بغاية الأئس، ويصحّبها صحبة الجسد للنفس؛ ويعرف لها من قدر أوتها وأمومتها ماتستحق برياستها، وقد أصدر هذه الرقة نائبة عنه في ذلك؛ فإن رأى مولانا أن يخفّه بالقبول، ويجعله أهلا لإجابة السؤل، فله الفضل في ذلك؛ إن شاء الله تعالى.

ومن النادر الغريب ما ذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حسن التوسّل" في الكتابة إلى شخص في تزويج أمه، وهو:

هذه المكاتبه إلى فلان - جعله الله ممن يؤثريه على الهوى، وينوي بأفعاله الوقوف مع أحكام الله تعالى فإنما لكل أمرئ ما نوى؛ ويعلم أنّ الخير والخيرة فيما يسره الله من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم وأنّ الشرّ والمكروه فيما طوى؛ نعرض له بأمرٍ لا حرج عليه في الإجابة إليه؛ ولا خلل يلحقه به في المروءة وهل أخلّ بالمروءة من فعل ما حضّ الشرع المطهر عليه؟ وأظهر الناس مروءة من أبلغ النفس في مصالح حرمه عذرها، ووثق من حقوق أخصن بيه كلّ ما علم أنّ فيه ربا؛ وإذا كانت المرأة عورة، فإنّ كمال صوتها فيما جعل الله فيه سترها، وصالح حالها فيما أصلح الله به في الحياة أمرها، وإذا كانت النساء شقائق الرجال في باطن أمر البشريّة وظاهره، وكان الأولى تعجيل أسباب العصمة فلا فرق بين أوب [وقت] الاحتياج [إلى ذلك]

وآخره ؛ وما جَدَعَ الحلالُ أَنفَ الغيرةِ إِلَّا لِيُزَوَلَ شِمُّ الحِمِيَّةِ ، وَتَنَزَلَ عَلَى حِكْمِ اللَّهِ فِيما شَرَعَ لِعِبَادِهِ النَّفُوسَ الْأَيِّيةَ ؛ وَيُعَلِّمُ أَنَّ الفِضْلَ فِي الْأَنْقِيادِ لِأَمْرِ اللَّهِ لِأَنِّي أَتَّبَعُ المَوْئِيَّ بِعَضْلِ الوَلِيَّةِ ؛ وَإِذَا كَانَ رِ الوالدةِ أُمَّمَ ، وَحَقَّهَا أَعْمَ ؛ وَالنَّظْرُ فِي صَلَاحِ حَالِهَا أَهْمَ ؛ تَعَيَّنَتْ الإِجَابَةُ إِلَى ما يَصْلُحُ بِهِ حَالُهَا ، وَيَسْكُنُ إِلَيْهِ بِأَلْها ، وَيَتَوَفَّرُ بِهِ مَالُها ، وَيَعْمُرُ بِهِ فِئأُها ؛ وَيَحْصُلُ بِهِ عَن تَقَلُّدِ المِنَنِ اسْتِغْنَاؤها ، وَتُحْمَلُ بِهِ كُفْلَةُ خَدَمِها عِنها ، وَتُدْفَعُ بِهِ ضَرُورَاتُ لَأَبْدُ لَدَوَاتِ المِحْجَابِ وَالمِحْجَالِ مِنْها ، وَيَضْفُو بِهِ سِترَ الإِحْصَانِ وَالحِصَانَةِ عَلَيْها ، وَيُظْهَرُ بِهِ سُرْمًا أَوْجِبَهُ اللَّهُ لها مِنْ تَتَبُّعِ مَوَاقِعِ الإِحْسانِ إِلَيْها .

وقد تقدم من سادات السلف من تولى ذلك لوالدته بنفسه، وأعتده من أسباب ريوحه الذي قابل به ما أسلفته إليه في أمسه ؛ علمنا منهم أن استكمال البر مما يعلى قدر المرء ويعلى ؛ وقد أجاب زيد بن زين العابدين هشاماً لما سأله : لم زوجت أمك بعد أبيك ؟ فقال : لتبشر بأخرمثلى ، لاسيما والراغب [إلى المولى] في ذلك من يرغب في قربه ، ويعبظ على مالدیه من نعم ربه ؛ ويعظم لإجتاج دنياه ودينه ، ويكرم لئمن نقيبته وجود يمينه ؛ ويعلم أن العقيلة تحل منه في أمنع حرم ، وتستظل من ذراه بأضفى سطور الكرم ، مع ارتفاع حسبه ، وأشتهار نسبه ، وعلو قدره في منصبه وحاله وسببه ، وأنه ممن يحسن أن يحل من المولى محل والده ، وأن يتجمل من ذريته بمن يكون في الملمات بناتاً ليده وعصدا لساعده ؛ فإن المرء كثير بأخيه ، وإذا أطلق عليه بحكم المجاز لفظ العمومة ، فإن عم الرجل صنو أبيه ؛ وأنا أتوقع من المولى الجواب بما يجمع شمل التقى ، ويعلم به أنه تحير من البرأفضل ما يتفق ؛ ويتحقق بفعله أن مثله لا يهمل وإجباً ؛ ولأمر ما قال الأحنف وقد وُصف بالأناة : لكنني أتعجل أن لا أرد كُفؤاً خاطباً .

النوع التاسع

(في الاسترضاء والاستعطاف والاعتذار)

قال في "موادّ البيان" : المكاتبة في استعطاف الرؤساء ، وملاطفة الكبراء ، تحتاج إلى حُسن تأت : لما تشتمل عليه من إيجاب حقوق الخدمة ، وما أسلفوه من مرعى الخدم ، وما يتبع هذا من التنصل والاعتذار الذي يسأل السخائم من القلوب ، ويستنزّل الأوغار من الصدور ، ويُطلع الأتس وقد غرب ، ولها موقع في تأليف الكلام .

قال : وينبغي للكاتب أن يستعمل فيها فكره ، ويوفّيها حقها من جودة الترتيب ، وأستيفاء المعاني ، وأن يذهب إلى استعمال الألفاظ الجامعة لمعاني العذر ، الملوحة بالبراءة مما قُرف به ؛ ولا يُخرج لفظه مُحرج من يقيم الحجّة على براءة الساحة مما رُمي به ، فإنّ ذلك مما يكرهه الرؤساء : لأنّ عادتهم جارية بإيثار أعراف الخدام لهم بالتقصير والتفريط والإخلال بالفروض : ليكون لهم في العفو عند الإقرار عارفةً توجبُ شكرا مستأنفاً ، فأما إذا أقام التابع الحجّة على براءته وسلامته مما رُفع عنه ، فلا يُوضع الإحسان إلا إليه في إقراره على منزلته ، والرّضا عنه والاستعطاف ، بل ذلك واجبٌ له ، في منعه منه ظلم .

(١) في الاصلين «مما قرب منه» وهو تصحيف من النسخ .

(٢) المراد أن إقراره والرضا عنه ليس من الاحسان بل من الواجب تأمل .

وهذه نسخ من ذلك :

لأبي الحسين بن سعد :

فإن رأيت أن تنظر في أمرى نظراً يُشبه أخلاقك المرضية ويكون لحسن ظنى بك مصدقاً، ولعظيم أملى [فيك] محققاً، ولما لم تزل تعدنيه منجزاً، ولحق حرمى بك وقديم اتصالى بأسبابك قاضياً، فعلت ؛ إن شاء الله تعالى .

ومنه : لسليمان بن وهب .

من أنصرف في الاحتجاج إلى الإقرار بما يلزمه وإن لم يكن لازماً، فقد لطف الاستعفاف، وأستوجب المسامحة والإنصاف .

ومنه : وقد نالني من جفوة الأمير بعد الذي كنت أتعرف من به وألطفه أمرٌ أحلني محل المذنب في نفسى مع البراءة من الذنب ، وأزمنى الإساءة مع الخروج من التقصير، وزاده عندى عظاماً وشدة أنى حاولت الخروج منه بالأعتذار، فلم أجذلى إلى الأمير ذنباً أعتذر منه ، ولا على فيما أزمى من معتبته حجة أحاول دفعها والتخلص منها ؛ فأصبحت أعالج من ذلك داءً قد خفى دواؤه، وأحاول صلاح أمرى لم أجني فساده ؛ فإن رأيت أن تفعل كذا وكذا فتصل قديم ما أصبح عندى من معروفك بحديثه ، فليس عندى في مطالبة حجة أنجح من التوجه إلى الأمير بنفسه ، والثقة عنده بفضله ، فإن كنت مُذنباً عفاً، وإن كنت بريئاً راجع .

ومنه : لأبي علي البصير .

وأنا أحد من أسكته ظلك، وأعلقته حبلك ، وحبوته بلطف برك ، وخاص عياتك، وانتصف بك من الزمان، وأستغنى بإخائك عن الإخوان ؛ فهو لا يرغب

إِلَّا إِلَيْكَ ، وَلَا يَتَمَدُّ إِلَّا عَلَيْكَ ، وَلَا يَسْتَجِجُ طَلْبَهُ إِلَّا بِكَ ، وَقَدْ كَانَ فَرَطَ مَنْ
 قَوْلٌ : إِنْ تَأَوَّلْتَهُ لِي ، أَرَاكَ أَوْجَهَ عُذْرِي ، وَقَامَ عِنْدَكَ بِحُجَّتِي ، فَأَغْنَانِي عَنْ تَوْكِيدِ
 الْإِيمَانِ عَلَى حُسْنِ نَيْتِي ، وَإِنْ تَأَوَّلْتَهُ عَلَيَّ ، أَحَاقَ بِي لِأَمْتِكَ وَحَبْسِنِي عَلَى [أَسْوَأِ]
 حَالِ عِنْدِكَ ، وَقَدْ أَتَيْتُكَ مَعْتَرِفًا بِالزَّلَّةِ ، مُسْتَكِينًا لِلْوَجْدَةِ ، عَائِدًا بِالصَّفْحِ وَالْإِقَالَةِ ،
 فَإِنْ رَأَيْتَ أَنْ تُفَرِّعِنَا قَرَّتْ بِنِعْمَتِكَ عِنْدِي ، وَلَا تُسَلِّبِنِي مِنْهَا مَا أَلْبَسْتَنِي ، وَأَنْ تَقْتَصِرَ
 مِنْ عَقُوبَتِي عَلَى الْمَكْرُوهِ الَّذِي نَالَنِي بِسَبَبِ عَتَبِكَ عَلَيَّ ، وَتَأْمُرَ بِتَعْرِيفِي رَأْيِكَ بِمَا
 يُطَاقُ مِنْ هَلَعِي ، وَتَسْكُنَ إِلَيْهِ نَفْسِي ، وَيَأْمَنَ بِهِ رُوحِي ، فَعَلْتَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنه : لابي الحسين بن أبي البغل .

نُبُو الطَّرْفِ مِنَ الْوَزِيرِ دَلِيلٌ عَلَى تَغْيِيرِ الْحَالِ عِنْدَهُ ، وَالْجَفَاءُ مِنْ عَوْدِ اللَّهِ إِلَيْهِ مِنْهُ
 شَدِيدٌ ، وَقَدْ أَسْتَدَلَّتْ بِإِزَالَةِ الْوَزِيرِ إِيَّايَ النَّحْلَ الَّذِي كَانَ نَحْلَانِي بِتَطَوُّلِهِ ، عَلَى مَا
 سَوَّتَ لَهُ ظَنًّا بِنَفْسِي ؛ وَمَا أَخَافُ عَتَبًا : لِأَنِّي لَمْ أَجْنِ دَنْبًا ؛ فَإِنْ رَأَى الْوَزِيرُ أَنَّ
 يَقُومَنِي لِنَفْسِي ، وَيُدَلِّئِي عَلَى مَا يُرِيدُهُ مِنِّي ، فَعَلَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنه : لأبي الربيع .

أَصْدَقُ الْمَقَالِ ، مَا حَقَّقَهُ الْفَعَالُ ، وَأَفْضَلُ الْخَبَرِ ، مَا صَدَّقَهُ الْأَثَرُ .

ومنه : لمولانا سيرةً في الفضل والإحسان ما أملها أمل إلا جادت وسمحت
 ومنتحت ، وعوائد في العفو مارجاها راج إلا صفحت وسمحت ؛ وَأَحَقُّ مَنْ تَلَقَّاهُ
 عِنْدَ الْعِتَارِ ، بِالْإِقَالَةِ وَالْإِغْتِفَارِ ، وَوَقَّفَ بِهِ عِنْدَ حَدِّ التَّقْوِيمِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَلَمْ يُعْرِضْهُ

لنقيصة الإقضاء والأطراح، من شفع الهفوة بالاعتذار، وخطب التعمد بلسان الإقرار؛ ودلت التجارب منه على حسم الأضرار؛ وكان له من سالف الخدم وسائل وذرائع، ومن صحيح الإخلاص ممدد وشافع؛ فلا عجب أن المملوك يهفو فيعفو، ويظلم فيكظم، ويجهل فيعلم، ويخطئ فيصيب، ويدعو متنصلاً فيجيب؛ وقد جعل الله سهمه المعلى، ويده الطولى، وألهمه التفضل بالإنعام، والتغميص عن زلات الكرام؛ وقد حصل للملوك في هذه النبوة من إزارائه على عقله، وتقبيحه لفعله؛ أعظم تجرّبه، وأكبر مادّبه؛ والمملوك يسأل إحسان سيّدى أن يعيده إلى رضاه ولطفه، ويؤنس منه مستوحش إقباله وعطفه؛ ويصدق رجاءه فيه، ويجزل ثواب وفادته عليه؛ إن شاء الله تعالى .

رقعة : المملوك يُخطب صَفَحَ سيّده وإقالته بلسان الاعتذار، ويستعيد ما عرف من رضاه وعاطفته بوسائل الاعتذار: ليكون المتفضل في كلّ الحالات، والمنعم من كلّ الجهات؛ وقد عرف السهو والنسيان، المعترضين للإنسان؛ وأنهما يحولان بينه وبين قلبه، ويؤروران عليه خطاه في صورة صوابه؛ فيتورط في السقط غير عاقد، ويتهور في الغلط غير قاصد، وقد قال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ . وما أولى مولانا بأن يحفظ على المملوك جميل آرائه، ولا يسلبه ما شمله من ظلّ آلائه؛ ولا يسيمه بميسم العقوق فإنه يجد نفسه بخلاف ذلك في طاعته، ومرتبها بغير هذه الرتبة في خدمته .

فصل : وقد آوى سيّدى المملوك من ظله، وأعلقه من حبله، وأسنع عليه من فضله، ما أنصفه به من الزمان، وأغناه عن الإخوان، ووقف رغبته عليه، وصرف أماله إليه، ونزله منزلة من لا يشك في اعتقاده، ولا يستريب بوداده؛ وكان

المملوك أرسل لفظاً على سبيل الإففاق ذهب به الحاسد إلى غير معناه ، وخالف في تفسيره حقيقة مغزاه ، وأحاله عن نيته ، وعرضه عليه على غير صورته : ليوحش محل المملوك المانوس من رعايته ، وينقر سر به المطمئن بملاحظته وعنايته ، وقد أرسل المملوك هذه العبودية سائلاً في نحو إظلام موجدته ، وأن يعيد المملوك إلى مكانه من حضرته ؛ إن شاء الله تعالى .



لا أتوسل إليك إلا بك ، ولا آتيك إلا من بابك ؛ ولا أستشفعُ إليك بسواك ، ولا أكل رجعة هোক إلا إلى هোক ؛ ولا أنتظر إلا عطمتك التي لا تقودها زحارف الأموال ، ولا تُعيدُها شفاعات الرجال :

إذا أنت لم تعطفك إلاشفاة * فلا خير في ود يكون بشافع

شعر في معنى ذلك :

هبنى تحطيت إلى زلة * ولم أكن اذنبت فيما مضى !

أليس لي من قبلها خدمة * توجب لي منك سبيل الرضى !

غيره :

وحقك ما هجرتك من ملال * ولا أعرضت إلا خوف مقت !

لأن طبائع الإنسان ليست * على وفق الإرادة ككل وقت !

اعتذار عن التأخر ، من ترسل أبي الحسين بن سعد .

إن لم يكن في تأخرى عنك عذر تقبله ، فاجعله ذنباً تغفره .

علي بن خلف :

الأعداءُ - أطل الله بقاء سيدي - تنأى على الامتناع ، ونضيق على الاتساع ؛
وذلك بحسب ما تصادفُه من قبول ورد ، ومساحة ونقد ؛ وأنا أحمد الله على أن
جعل عذري إلى من يتمحل العذر للعذر ، ويصفح صفح المالك المقتدر ، كما
اتم بقول الشاعر :

إذا ما أتت من صاحبٍ لك زلةٌ * فكن أنت محتالاً لزيتِه عذرا

ولم يجعله إلى من يغلب هاجس الظنون ، على واضح الحجّة ، ومعتل الشكّ على
صحيح اليقين . ومي إلى أن غابط المكنى من حضرته ، حسدني على محلي من
مودته ، وزور ما ينكشف عن الإفك والبهتان ، ودلس الكذب في صورة البرهان ؛
فما جلّاه في معارض زخارفه أظهر لسيدى عواره ، وأبدى لطرفه شواره ؛ فسلّ
سمعه عن وعيه ، وطرف طرفه عن رعيه ؛ وأستمّ علاميم شيمته ، في حسن الظنّ
بأحبه ؛ فقدمت من الاعتذار ما يقدمه المذنب نزولاً على طاعته ، وتأدباً في خدمته ،
وشفقتة من الشكر بما يقتضيه إحسانه ويوجهه .

أبو الفرج البيهقي :

أحقّ المعاذير بالتقبل وأولها بسعة القلوب ما صدر عن استكانة الأقدار ، ودلّ
على حسم مواد الأضرار ، وصفاً من كدر الاحتجاجات ، وتنزه عن تمحل الشبهات ؛
ليخلص به ملك العفو ، وتكامل نعمة التجاوز . ولست أكره شرف تأديبه ، ونبل
تثقيفه وتهذيبه ؛ ما لم يتجاوز في العقوبة والتقويم إلى مؤلم الإعراض ، ومضيق

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ إليه .

التشكر والالتزام؛ ولا أخطبُ الإقالة من تفضله إلا بلسان الثقة وشايع الخدمة ،
 هارباً إلى سعة كرمه مما دفعني المحبة إليه، وأسفى بي عدم التوفيق عليه؛ فإن رأى أن
 يكون عند أحسن ظني به في الصّفح، كما هو عند أصدق أملى فيه بالإتمام، فعَل .
 وله في مثله :

ليس يخلو الإغراق في التنصّل والمبالغة في الاعتذار من إقامة الحجّة، أو تمسك
 باعتراف شبهة، وأنا أجل ما أخطبه من عظيم عفوه، وأكبر ما أحاوله من نعمة
 تجاوزه؛ عن المقابلة بعين الاعتراف بالزلل وبعداً لاستحقاق من الصّفح، ما لم يوجب
 لي بسعة تأوله، ويعدّ على فيه بعبادات تفضله: لتصفو منه الأعضاء، وتزمني
 واجبات الشكر والثناء، غير ممتنع مع ذلك من التبرّي إليه مما أنكره من تجاوز السهو
 إلى العمل، والتوجه إلى ما فرط بالاختيار والقصد اللذين يغفر بتجنّبهما مذموم
 الأفعال، ويتعمد سيّئ الأعمال؛ فإن رأى أن يجعل أمرى فيما قصدتني الأيام بتوجه
 الظنون فيه على غير النية لظاهر الفعل، إذ كانت صفات الإنسان بالأشهر من
 أخلاقه والأكثر من أفعاله، ولا صفة لي أعرف بها وأنسب إليها غير الاعتراف
 بإنعامه، والتطاول من اصطناعه، أخذاً من كلّ حال بالفضل، ومشغفاً بسطة
 الرياسة والتبّل .

وله في مثله :

لست أخلو في المدة التي تجاوز الدهر لي عنها في خدمته من توصل بفرط
 الاجتهاد، إلى ما وصل من رأيه إلى رتبة التقبل والإحماذ؛ وليس يحبط ما أتيت من
 مرضى الخدمة بالنية والعمد بما لعله فرط من غير مُراد؛ إذ كان - أيده الله بفائض

طَوَّلَهُ ، وَمَأْتُورٌ فَضْلُهُ - أَخْذًا مِنْ آدَابِ اللَّهِ بِمَا أَحَاكَمَهُ مِنْهُ : (١) « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُدْهِبْنَ
السَّيِّئَاتِ » . و [لو] لا يُبَارَى مَفْتَرَضُ الطَّاعَةِ وَأَسْتِكَانَةُ الْإِعْتِدَادِ ؛ وَأَنْ لَا أُخْطَبَ
رِضَاهُ بِلِسَانِ الْإِحْتِجَاجِ ، وَلَا أَلْتَمَسَ عَقْوَهُ بِوَجُوبِ الْإِسْتِحْقَاقِ : لَتَسَلَّمَ لَهُ صِفَاتُ
التَّفَضُّلِ ، وَلى مَوَاتٍ الْإِعْتِرَافِ بِسَالِفِ التَّطَوُّلِ ؛ لِبَرَهْنَتِهِ عَلَى سَلَامَتِي بِمَا قُصِرَ عَلَيَّ
بِتَوَجُّهِ الظُّنُونِ وَاعْتِرَاضِ الْأَوْهَامِ ؛ وَلَا أَقُولُ بِشَعَثِ النِّيْسَةِ وَفَسَادِ الرَّأْيِ ؛ فَإِنْ رَأَى
أَنْ يَحْفَظَ مَا آبَتْدَأَهُ مُخْتَارًا مِنْ أَصْطِنَاعِي بِمَا يَصُوبُهُ عَنِ التَّنَكُّرِ ، وَيَصُوبَ عَادَتِي
فِي شُكْرِ ذَلِكَ وَالْإِعْتِدَادِ بِهِ عَنِ الْفُتُورِ وَالتَّغْيِيرِ ، فَعَل .

أجوبة الأسترضاء والأستعطف

قال في "مواد البيان" : لا يخلو المعتذر إليه من أمرين : أحدهما أن يقبل
العذر، والآخر أن يستمر على الموجدة ويرفض ما يأتي به من حجة ؛ فإن كان قد قبل
العذر، وجب أن يبنى الجواب على وُصول الكتاب، والوقوف عليه، والتقبل لما
تضمنه ، وتبرئة المعتذر عن الحاجة إلى الاعتذار، والالتقياد إلى الاعتراف بالجرم
والإقرار، إكرامًا لخُلُقِهِ عَنِ التَّهْمَةِ ، وَلِوُدَّةِ عَنِ الظَّنِّ : فَإِنَّ الْأَمْرَ الَّذِي أَوْجِبَ
العذر لو صدر منه ، لاقتضى ودأده التأول له بأنه ما صدر إلا عن باطن سليم
ومصلحة أوجبته . قال : وليس هذا المعنى هو الذى يُجَابُ بِهِ مَنْ قَبِلَ عُدْرَهُ
فقط : لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قبل العذر، وصفح عن الجرم، على أن لا يعود
إلى مثله . وإن استمر على القصد ، بنى الجواب على إبطال العذر ومعارضته بما

(١) كذا في الاصل ولعله « إليه » .

(٢) في الأصول « ولا يبارى على مفترض ألا أخطب الخ » .

(٣) أى قصد الصدق ونفى على هجره ولم يقبل الاعتذار .

يقتضيه ؛ والدلالة على خطأ المعتدِر ، وأنه مما لا يسوغُ الصَّفْحُ عنه ، ولا يليق بالْحَزْمِ إِقَالَته .

قال : وهذان معنيان يَجْمَلان من العبارة مالا يكادُ يُحصِرُ في قول مشروح مبسوط ؛ فضلا عن قولٍ مجملٍ مُوجِزٍ ، إلَّا أن المتدرب بالصناعة إذا مرَّت به هذه الأصول أمكنه التفرُّعُ عليها .

النوع العاشر

(في الشكوى - أعاذنا الله تعالى منها)

قال في " موادّ البيان " : رِقَاعُ الشَّكْوَى - عَصَمَنَا اللهُ مِنْ مُوجِبَاتِهَا - يجبُ أن تكون مبنيةً من صِفَةِ الحَالِ المُشْكِيَةِ ، على ما يوجب المشاركة فيها ويقضى بالمساعدة إن استُديعتَ عليها ، من غير إغراقٍ يُفْضِي إلى تَطْلِيمِ الأقدار وإحباط الأجر ، وشكوى المبتلي بالخير والشرِّ سبحانه وتعالى ، ويدلُّ على التهلك بالجزع ، وضعف التماسك وقُوَّة الهلع ؛ بأستيلاء القنوط والإيأس ، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه ، والرِّضا بأحكامه ، وتوقُّع الفرج من عنده ، وتلقِّي آخِبارِهِ بالصبر ، كما تتلقَّى نعمه بالشكر ؛ ونحو هذا مما يليق به ويجرى مجراه . قال : وقد يكتبُ الأتباعُ للرؤساء رِقَاعاً بِشكَايةِ الأحوال ومساءلةِ النظر ؛ ثم ذكر أن سبيل هذه الرِّقَاعِ أن يُعدَّلَ بها عن التصريح بالشكوى إلى لَفْظِ الشُّكْرِ ومعناه ، وطلب الزيادة والإلحاق بالنظر في الإحسان : لما في إطلاق الشكَاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمه النظر فيه من أحوال خاصتهم وتعهد مرافقهم من الكفاية .

وهذه نسخٌ من ذلك :

رُقعة شكوى هُموم :

كتب المملوكُ هذا الكتابَ وهو رهينٌ فِكْرٍ وغمٍّ ، وقلبي وهمٍّ ، وحليفٌ جَوِيٌّ
قد سَكَنَ القلبَ ، وخوفٍ قد أطار اللبَّ ؛ وبالله العيادُ ، وهو المَلَاذِبُ ؛ ويديه نُحْلُ
العُقْدَةِ ، وبأمره تَزُولُ الشَّدَّةُ ؛ وقد أَلَمَ اللهُ سبحانه المملوكَ صَبْرًا يَسْرُ أمره ، وأَمَلًا
في الفَرَجِ خَفَّفَ ضُرَّهُ ؛ وليس بأئسٍ من عَطْفَتِهِ ، ولا قَانِطٍ من نِعْمَتِهِ .

رُقعة في معنى ذلك :

كتب المملوكُ وهو شاكٍ لتجاهلِ الأيامِ ، وَقِيدٌ من مواقعِ سَهَامِهَا الرَّغِيبةِ الكَلَامِ ؛
مَنهُومٌ بِمُهْمومٍ تُضَعِفُ الجَلِيدَ ، وتَسْوِءُ الوَدِيدَ ، وتَسْرُ الحُسُودَ ، لاقٍ من قَسْوَةِ الدهرِ
وَقَطَّاطَتِهِ ، ونبوةِ العَيْشِ ونُفْرَتِهِ ؛ ما يردُّ الجفونَ عن المُجُوعِ ، ويُغْرِقُ العيونَ
بِالدُّمُوعِ ، والله تعالى في عبادِهِ أَقْضِيَةٌ يَقْضِيهَا ، وأقدارٌ يُمِضِيهَا ؛ والله أسألُ حَسَنَ
العاقبةِ وَالْحَتَامِ ، وتمحيصِ الأوزارِ وَالْآثَامِ .

رُقعة : كتب المملوكُ وِجْسَمَهُ صَحيحًا ، وَقَلْبَهُ قَرِيبًا ، وَجَنَانَهُ سَلِيمًا ، وَجَنَابَهُ
سَقِيمًا : لما يَتَبَادَرُ إليه من نِكَايَاتِ تَفْدَحٍ وَتَقْرَحٍ ، وحادثاتِ تَكْلِمٍ وَتَجْرَحٍ ؛ وَنُوبٍ
تَهْضُ ، وَتَهْدِمُ وَتَرُضُّ ، وخطوبٍ تُحَاطِبُ شِفَاهَا ، وَتُوصِلُ مِنَ اليَدِ إِلَى اليَدِ أَذَاهَا ؛
إِلَّا أَنَّ اللهَ يُهَبُّ رِيحَ المِنَحِ ، وقد تَدَاكَتِ الحِنُّ فَيَنْشِفُهَا ، وَيَشُقُّ عَمُودَ الفَرَجِ ؛ وقد
أَدْهَمَّتْ فَيَكْشِفُهَا ؛ وَظَنَّ المملوكُ باللهِ تعالى جَمِيلًا ، وله في صُنْعِهِ وَلُطْفِهِ تَأْمِيلٌ .

رُقعة : وَيُنْهَى أَنَّهُ قد كتب هذه العَبُودِيَّةَ بِيَدِ قَدِ أَرعَشَتِهَا الآلامُ ، يُمَلِي عَلَيْهَا
قَلْبٌ قد قَلَبَتَهُ الأَسْقَامُ ؛ لِجِسْمِهِ نَاحِلٌ ، وَجَسَدِهِ بعد النُّصْرَةِ قَاحِلٌ ؛ وَقُوَاهُ قد

وَهَنَتْ ، وَجَلَادُتُهُ قَدْ وَهَتْ ؛ وَصَبْرُهُ قَدْ تَحَلَّى وَأَضْطَرَبَ ، وَتَحْمَلُهُ قَدْ نَأَى وَأَقْتَرَبَ ؛
وَعَادَ شَبَحًا مِنَ الْأَشْبَاحِ ، وَهَبَاءً تَذُرُّهُ الرِّيحُ ؛ فَلَوْ أَعْتَلَقَ بِشَعْرَةٍ لَمْ تَتَصَرِّمَ ، أَوْ وَجَلَ
نَحْرَتْ لِبَرَةِ حَيَاطٍ لَمْ تَتَفَصِّمَ ؛ وَلَوْلَا التَّقَةُ بِاللَّهِ وَأَنَّهُ يُتْبِعُ السُّقْمَ بِالصَّحَّةِ ، وَيَسْفَعُ الْحِمْنَ
بِالْمِنْحِ ؛ لَذَهَبَ مَا بَقِيَ مِنْ ذِمَائِهِ ، وَأَطْلَّ عَلَى شَفَا شِقَائِهِ ؛ وَالْمَمْلُوكُ يَسْتَشْرِفُ مِنْهُ
تَعَالَى لَطْفًا يُعِيدُ الْكَلِيلَ حَدِيدًا ، وَالْمُخَلَّقَ جَدِيدًا .

رقعة : وَيُنْهَى أَنَّهُ قَدْ كَتَبَ هَذِهِ الرَّقْعَةَ ، وَقَدْ سَاءَ أَمْرُ الْأَيَّامِ عَلَيْهِ ، وَقُبِحَ
صُنْعُهَا لَدَيْهِ ؛ وَأَبْتَلَتْهُ بِمَوْلِمِ الْبَلْوَى ، وَأَنْطَقَتْهُ بِلِسَانِ الشُّكْوَى ؛ فَهُوَ مَحْتَرِّقٌ بِنَارِ الْغَيْظِ ،
يَدْعُو عَلَى نَفْسِهِ بِالْفَيْظِ ؛ إِنْ لَمْ يَكُنْ فَرَجٌ يَفْرُجُ بَيْنَ الْأَضْدَادِ ، وَلُطْفٌ يُرِيحُ مِنْ هَذَا
الْجِهَادِ ؛ وَكُلَّمَا طَلَبَ الْمَزَايِلَةَ عَوَّقَ ، أَوْ طَلَبَ الْفِكَالَكَ أَعْتَلَقَ ؛ فَهُوَ قَاطِنٌ فِي صُورَةِ
الظَّاعِنِ ، وَحَالٌ فِي حَالِ الرَّاحِلِ ، وَاللَّهُ يَمُنُّ بِالْمُخْرَجِ ، وَيَأْتِي بِالْفَرَجِ .

رقعة : وَقَدْ سَطَّرَ الْمَمْلُوكُ هَذِهِ الْعُبُودِيَّةَ ، وَقَدْ أَنْجَلَتْ هَذِهِ النَّبُوَّةَ ، عَنِ الْبَلَاءِ
وَالشُّقْوَةِ ، وَنَفَادِ الْمَالِ ، وَأَسْتِحَالَةِ الْحَالِ ، وَأَسْتِيْلَاءِ الْعُدُوِّ ، وَأَسْتِعْلَاءِ السُّوءِ ، وَكَذَا
الدَّهْرِ خُدُوعِ غُرُورِ ، خُثُونِ غُدُورِ ؛ إِنْ وَهَبَ آرْتَجِعَ ، وَإِنْ أَلْبَسَ آتَرَعَ ؛ وَإِنْ
أَعْطَى أَعْطَى قَلِيلًا وَقَلَعَ ؛ وَإِنْ أَحْلَى أَمَرَ ، وَإِنْ تَفَعَّ ضَرَبَ ؛ وَإِنْ أَبْرَمَ نَقَضَ ، وَإِنْ
رَفَعَ خَفَضَ ؛ وَإِنْ أَقْبَلَ أَعْرَضَ ، وَإِنْ وَعَدَ أَمْرَضَ ؛ فَنِعْمَهُ مَقْرُونَةٌ بِالزَّوَالِ ،
وَمِنْهُ مَعْرُضَةٌ لِلإِنْتِقَالِ ؛ وَصِفْوُهُ مَشُوبٌ بِالْكَدْرِ ، وَعَيْشُهُ مَمْرُوجٌ بِالْغَيْرِ ؛ مَا أَجَنَّ
إِلَّا أَوْجَدَ خَلَلًا ، وَلَا أَمَّنَ إِلَّا أَتْبَعَ الْأَمْنَ جَلَلًا ؛ وَالْمَمْلُوكُ يُجْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنْ أَوْسَعَهُ
فِي حَالِ الْبَلَاءِ سُكْرًا ، وَفِي حَالِ الْإِبْتِلَاءِ صَبْرًا .

أجوبة رِقَاعِ الشُّكْوَى

قال في "موادّ البيان" : يجب أن تبنى أجوبة هذه الرِّقَاعِ على الأرتماض في الحال المُشْكِيَةِ ، والتوجُّع منها ، وبذَلِ الوُسْعِ في المُعَوْنَةِ عليها ، والمشاركة فيها ، وما يجري هذا التجري مما يليق به .

النوع الحادى عشر

(في أَسْتِمَاحَةِ الحَوَائِجِ)

قال في "موادّ البيان" : ورقاعُ الأَسْتِمَاحَةِ يُختارُ أن تكونَ مُودَعَةً من الألفاظ ما يُحرِّكُ قُوَى السَّماحِ ، ويبعثُ دَوَاعِيَ الأرتياحِ ؛ ويُوجبُ حُرْمَةَ الفضلِ المُسَهَّلَةِ بذَلِ المالِ الصَّعْبِ بذَلِهِ ، إلّا على من وَفَّرَ اللهُ مُرُوَّتَهُ ، وأرخصَ عليه أثمانَ المحامدِ وإن غلَّتْ .

قال : وينبغي للكاتب أن يتلطف فيها التلطف الذي يعود بنجاح المرّام ، ويؤمن من الحصول على إراقة [ماء] الوجه ، والخيبة بالردّ عن البغية ، ويعدل عن التثقل والإلحاف المضجرين ولا يضيق العُدْر على السّماح إلا أن يتمكن للثقة به ، ويعلم المشاركة في الحال .

وهذه نسخ من ذلك :

من كتاب [أبي] الحسين بن سعد .

أفضل القول أصدقه ، وأهني المعروف أعجبه ، وأبلغ الشكر أظهره .

ومنه : إن حضرتك نية في قضاء حاجة فعجلها ، فإن أهني المعروف ما عجل ،
وأنكده ماتازعته العليل ، وأعرضته كثرة الإقتضاء .

ومنه : أنت أعزك الله واجد السبيل إلى أصطناع المعروف واكتساب
الثواب ، وأنت أعرف بما في استنقاذ أسير من أسرى المسلمين ، من وارد الأسر ،
وعرصة الكفر ، وأنتياشه من الذلة والفاقة ، والبلاء والمشقة ، من جزيل ثواب الله
وكريم جزائه [وأجل] من أن تحاطب في ذلك مخاطبة من يحتاج إلى زيادة
في بصيرته ، وتقوية لنيته ، وبالله توفيقك وعونك .

على بن خلف :

قد تمسك أملي بضانك ، وتطلع رجائي إلى إحسانك ، وكفل لي النجاح مشهور
كريمك ، ورغبتي في رب نعيمك ، ولي من فضلك نسيب أعتري إليه ، ومن شكري
شفيع أعتمد عليه .

وله : المواعيد - أطال الله بقاء مولاى - غروس ، حلو ثمرها الإنجاز والتعجيل ،
ومره المطل والتطويل ؛ وقد شام أملى من سحائب فضله ، حقيقاً بأن ينهر
ويهمي ، وأرتاد من روض نبله ؛ جديراً بأن يزيد وينمي ، فإن كانت هذه الخيلة
صادقه ، فلتكن منه همة للرجاء محققه ، إن شاء الله تعالى .

وله : هممت أن أستصحب إلى مولاى ذريعة تحجب مطفى ، وتكون حجاباً
على وجهي في المطالعة بأربي ، فلاح لي من أساريه برق أوضع مقصدي ، ومن
أخلاقه أنبساط أمال تجعدي ، ولست مع معرفته بحق نعمة الله تعالى وحق مؤمله ،
محتاجاً عنده إلى ذريعة ولا مفتقراً إلى وسيلة .

(١) وله : ولا يَجْنِي مَوْلَايَ عَلَى ظَاهِرِ تَجْمَلِي ، وَجَمِيلِ تَوَكُّلِي ، عَلَى حَالٍ قَدْ أَحَالَتَهَا الْعُطْلَةُ ، وَتَحَلَّلَتْهَا الْخَلَّةُ ؛ وَإِنَّمَا أُنْبِي بِالتَّجْمَلِ عَلَى دِيبَاجَةِ هَمِّي ، وَأَصُونُ بِالتَّخْفِيفِ عَنِ الصَّدِيقِ مُرَوَّتِي ؛ وَلَوْلَا أَنَّ الشُّكُورَ تَحْفَفُ مَتَحَمَّلَ الْبَلْوَى ، لَأَضْرَبْتُ عَنْ مُسَاءَلَتِهِ ، وَأَمْسَكْتُ عَنْ تَذْكِيرِهِ ، وَلَكِنْ لَابَدُّ لِلْوَصِيبِ الشَّاكِي ، مِنْ ذِكْرِ حَالِهِ لِلطَّيِّبِ الشَّافِي ؛ وَقَدْ كَانَ بَرَقَ لِي مِنْ سَحَابِ وَعْدِهِ مَا هُوَ جَدِيرٌ بِالإِنْمَارِ ، وَأُورِقَ مِنْ نَمَاتِهِ مَا هُوَ حَقِيقٌ بِالإِنْمَارِ ؛ فَإِنِ رَأَى أَنْ يَسِمَ وَجْهَ التَّامِيلِ ، بَعْدَ الإِنجَازِ وَالتَّعْجِيلِ ، فَعَل .

وله : مَا حَامَتْ أَمَالِي - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - إِلَّا وَقَعْتُ بِحَضْرَتِهِ ، وَلَا صَعِبْتُ عَلَى جَوَانِبِ الرَّجَاءِ إِلا سَهَلْتُ مِنْ جِهَتِهِ ؛ وَلَا كَذَّبْتَنِي الظُّنُونُ إِلا صَدَقَهَا بَعْلُو هَمَّتِي ؛ فَلِذَلِكَ أَعْتَلِقُ فِي الْمُهَمِّ بِجَبَلِهِ ، وَأَعْتَصِمُ فِي الْمَلَمِّ بِظِلِّهِ ؛ وَقَدْ عَرَّضَ لِي كَذَا وَعَلَيْهِ فِيهِ الْمُعَوْلُ ، وَهُوَ الْمَرْجُوُّ وَالْمُؤْمَلُ ؛ وَمَا أَوْلَاهُ بِالْجَرِيِّ عَلَى عَادَتِهِ فِي رَيْشِ جَنَاحِي ، وَالْمَعُونَةَ عَلَى صَلَاحِي .

في طلب كسوة، من كلام المتأخرين :

أَلَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الَّذِي نَهَرُ جُودِهِ * يَزِيدُ وَعَاصِي أَمْرِهِ الدَّهْرَ يَنْقُصُ !
إِلَيْكَ أَشْتَكِي مِنْ دِمَشَقٍ وَبَرْدَا * وَمَا أَنَا فِيهِ مِنْ أُمُورٍ تُغْصُّ !
وَإِنِّي فِي عُرْسٍ مِنَ الْبَرْدِ دَائِمٍ * تُصَفِّقُ أَسْنَانِي وَقَلْبِي يَرْقُصُ !

الملك يُنْهِى بَعْدَ الإِبْتِهَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي إِدَامَةِ نِعْمَتِهِ ، وَإِدَالَةِ دَوْلَتِهِ ، أَنَّهُ مَا أَلْفَ مِنْ إِحْسَانِهِ إِلا أَنَّهُ يُضَاعِفُ رَسْمَ الإِنْعَامِ ، وَيُؤَاتِرُ إِرْسَالَهُ عَلَى مَمَرِّ الأَيَّامِ وَالْأَعْوَامِ ؛ وَلِلْمَلُوكِ فِي خِرَاتِنِ الشَّرِيفَةِ فِي كُلِّ عَامٍ تَشْرِيفٌ يُفِيضُهُ عَلَى جَسَدِهِ ،

(١) كذا في الأصول والظاهر "بل أنا على" الخ .

وَيَسِّرْ بِهِ قُلُوبَ أَوْلِيَانِهِ وَيُقِمْ أَكْبَادَ حُسْنِهِ، وَيَتَّقِ بِهِ سَوْرَةَ الشِّتَاءِ وَقَرِّهِ، وَيَجْعَلْهُ
قُرَّةً وَيَجْعَلْ بِهِ مِنَ الدَّعَةِ وَقَرِّهِ، وَقَدْ دَرَسَ رَسْمُهُ، وَقَدْ مِنْ الدِّيَوَانِ المَعْمُورِ أَسْمُهُ،
وهو يسألُ بِرُوزِ الأَمْرِ العَالِي بِإِجْرَائِهِ عَلَى عَادَتِهِ المَسْتَمَرَّةِ، وَقَاعِدَتِهِ السَّالِفَةِ المَسْتَقَرَّةِ؛
بِتَشْرِيفِهِ بِأَخْذِ التَّشْرِيفِ وَتُبْسِهِ : لِيُدْفَعَ بِذَلِكَ شِدَّةَ البَرْدِ وَأَلِيمَ مَسِّهِ؛ وَيَتَذَكَّرُ بِهَا
فِي يَوْمِهِ مَا يُوجِبُ حَمْدَ المَوْلَى وَذَمَّ أَمْسِهِ، وَرَأْيَهُ العَالِي .

وله في طلب ورق :

يَا أَسْمَحَ النَّاسِ وَيَأْمَنُ غَدًا * جَبِينُهُ يُجْحِلُ ضَوْءَ الشَّفَقِ!
جُودُكَ بِالوَرَقِ عَمِيمٌ ^(١) [فَلِم] * أَخْرَتَ يَامَوْلَايَ بَعَثَ الوَرَقَ؟

وله في طلب رَسْمٍ :

رَسْمِي يَامَوْلَايَ غَدًا * مُؤَخَّرًا وَلَوْ حَضَرَ!
وَأَسُو أَرَادَ سَيِّدِي * إِحْضَارَهُ، كَانَ أَمْرًا!
فَقَدْ مَضَى مُحَرَّمٌ * وَرَاحَتِي مِنْهُ صَفْرًا!

وكتب كاتبٌ إلى مُحَمَّدِومِهِ، وَقَدْ تَأَخَّرَ صَرْفُ مَعْلُومِهِ :

وَتَعَلَّمُ أَنِّي كَثِيرُ العِيَالِ * قَلِيلُ الحِرَايَةِ وَالوَاجِبِ!
فَلَسْتُ عَلَى ظَمِيمٍ قَانِعًا * يورِدُ مِنَ الوَشَلِ النَّاضِبِ!
وَلَا شَنَكٌ فِي أَنْبِي هَارِبٌ * [ف]قَدَّرَ لِنَفْسِكَ فِي كَاتِبِي!

(١) الورق مثله وككتف وجبل الدراهم المضروبة اه من القاموس .

قلت : وكتبتُ نظماً لأمر المؤمنين المستعِينِ بالله أبي الفضل العباس : خليفة
العصر؛ أَسْتَمِيحُه حاجةً في مجلسٍ كان فيه هو وولده يحيى وأخواه داودُ ويعقوبُ
ماصورته :

إِذَا رُمْتَ أَنْ تَحْطَى بَيْنَ مَارِبٍ * فبادِرْ لِي الْعَبَّاسِ مِنْ آلِ عِيَّاسِ !
إِمَامٌ بِهِ تَفَرُّ الْخِلافةَ بِاسْمٍ * وَعِزُّ نَيْبِهَا يَسْمُو عَلَى قِيَّةِ الرَّاسِ !
أَبِي الْفَضْلِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِأَهْلِهِ * [دواماً] وَأَنْ يُدْعَى أبا الْفَضْلِ فِي النَّاسِ !
فَالْمُسْتَعِينِ أَقْصِدْ تَجِدْ خَيْرَ مُنْجِدٍ * حَرِيصٌ عَلَى الْمَعْرُوفِ بَرٌّ بِلَيْئِنَاسِ !
فِيحْيَا لَهُ يَحْيَى وَدَاوُدُ صَنُوهُ * وَيَعْقُوبُ أَعْضَادًا وَحُصْنًا مِنَ الْبَاسِ !



وكتبت لقاضي القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن ابن شيخ الإسلام
عمر البلقيني أَسْتَمِيحُه حاجة أيضا :

أَيَا شَيْخِ إِسْلَامٍ وَقَاضِي قَضَايَتِهِ * وَمَنْ قَد سَمَّا فِي النَّاسِ عِلْمًا وَمَنْصِبًا !
لَقَدْ عَمَّ نَوَاءُ مِنْكَ كُلِّ مُؤْمِلٍ * وَحَاشَى لِبَرَقِ شِمْتِ يَظْهَرُ خَلْبًا !
أَأَحْرَمُ مَعْرُوفًا لَهُ كُنْتُ أَرْجِي * وَيَجِبُ دُوبُعِدُ مِنَ الْقَوْمِ أَقْرَبًا !
وَمَا زِلْتُ أَرْجُو فِي زَمَانِكَ رِفْعَةً * وَلَكِنْ جَوَادُ الْحِظِّ بِالْبُعْدِ قَدْ كَبَا !
وَلَنْ يَسْتَعِيضَ الْخَفِضَ بِالرَّفْعِ مَا جَدُّ * خُصُوصًا وَمَنْ أَخْرَتَ مَا نَالَ مَطْلَبًا !
وَلَسْتَ تَرَى مِنِّي إِلَيْكَ وَسِيلَةً * سِوَاكَ وَحَسْبِي بِأَعْيَالِكَ تَقَرُّبًا !



وكتبت لقاضي القضاة جمال الدين محمود القيسراني ^(١) ، وهو يومئذ قاضي قضاة الحنفية وناظر الجيوش المنصورة ؛ أذكرُ بطلاةً عرضت لي من وظيفة مباشرة كانت بيدي :

إلى الله أشكوا من زمانى بواره * فأمسيتُ في الحرمانِ بي يضربُ المثل !
 تماديتُ بطالا وأعوزتُ حيلةً * ولم يبرح البطلُ تُعرف له الحيل !
 فلا مُلتجى جاء ولا عزٌ صاحب * ولا مالكٌ يمنو فياقوم ما العمل ؟
 وليكن (محمود) العواقب أرتجى * ومن يمدد العقبى على القصد قد حصل !



وكتبت للقاضي شمس الدين العمري كاتب الدست الشريف في حاجة تجزها :
 إن لا أرى عمرا حتى أليم به * أليت من نسله من كان لي عمرا .
 لم يغف عن حاجتي حتى أنبهه * وكيف يغفو في المعروف كم سهر ؟
 جعلته مبتدا في رفته خبري * وعادة المبتدا أن يرفع الخبر !

أجوبة استماعة الحوائج

قال في "مواد البيان" : لا يخلو المستراح والمكلف حاجة من أن يسعف أو يمنع ، فإن أسعف فقد غني عن الجواب ، وربما أجب المسعف بجواب مبنئ على حسن موقع أنيساط المستريح ، والاعتذار عن التقصير في حقه وإن كان قد بلغ به فوق

(١) نسبة إلى قيسارية على غير قياس .

ما يوجب له - تكراً وتفضلاً ، وإن منع فربما أجب بعذر في الوقت الحاضر أو عذر في المستقبل ؛ وربما أخلّ بالجواب تغافلاً .



وهذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصود ، كتبت بها في جواب لكتاب السر عن نائب الشام ، في طلب إقطاع ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة إجابةً للطلب ، وهي :

لا زال قلمها يمدُّ على الإسلام ظلاً ظليلاً ، ويستجدُّ صنعا جميلاً ، ويأخذ بأمر الله أعداء دينه أخذاً وبيلاً ، ويقومُ باجتهاده في مصالح الملك النهاركَّه والليل الأقبلا ؛ تقييل مواظب على ولاء لا يحدُّ له تبديلاً ، وثناء لو سمعه المحب فشفاه الأجاب إذا لا تحذوه خليلاً .

وينهى ورود مشرفة مولانا القديم فضلها ، الكريم وصلها وأصلها ؛ فوقف المملوك عليها ، وأصغى بجلته إليها ؛ وعلم مارسم به مولانا ، وأشار إليه تيانا ؛ وكذلك بلغه مملوكه الولد فلان المشافهة الكريمة فحبدا من صاحب السر أسراراً وإعلاناً ؛ وشكر لها مشرفةً ومشافهةً أوردوا الإحسان منى منى ، وسراً سمعه المملوك لفظاً وأستهداه معنى ؛ فما مننهما في الإحسان إلا زائده ، ولا في الصلات إلا عائده ؛ لا جرم أن المملوك أقبل على قبيلهما بسمعته وناظره ، وقلبه وخطيره ، وجمته وسائرهِ ؛ وأمتثل الإشارة العالية التي من حقها أن تقدم على كلِّ مهمٍّ يردُّ عليه ، وأمرٍ يتوجه إليه ، ويدُّ الزمان مشكورةً يأخذها منه بكلتا يديه ؛ وعين المملوك لوقته الإقطاع المطلوب ، وتقدم بكتابة مرتبته حسب مارسم من تجرى السعادة من سطره تحت مكتوب ؛ وجهها قرين هذه الخدمة ومن ذا يقارن سبق ذلك الرامديد ، وكيف توازى

الرُبْعَةَ كِتَابًا هُوَ بِالْإِحْسَانِ لِلْعُنُقِ تَقْلِيدٌ؛ لَابْرِحَتْ مَرَامِمْ مَوْلَانَا مَعْدُودَةً مِنْ رُسُومِ نِعَمِهِ، وَمَشْرِفَاتِهِ مَحْسُوبَةٌ مِنْ تَشْرِيفَاتِهِ الَّتِي يَحْمِلُهَا عَلَى أبنَاءِ حَبِيْبِهِ وَخَدَمِهِ .

النوع الثاني عشر

(في الشكر)

قال في "مواد البيان" : رِقَاعُ الشُّكْرِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ مُودَعَةً مِنَ الْإِعْتِرَافِ بِأَقْدَارِ الْمَوَاهِبِ، وَكِفَايَةِ الْإِسْتِقْلَالِ بِمُحَقِّقِ النِّعَمِ، وَالْأَضْطِرَّاعِ بِجَمْلِ الْأَيْدِي، وَالنُّهُوضِ بِأَعْبَاءِ الصَّنَائِعِ، مَا يَشْحَذُ الْهَمَّ فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا، وَيُوَثِّقُ الْمِصْطَبِعَ بِإِفَاضَةِ الصُّنْعِ؛ وَيَعْرُبُ عَنِ كَرِيمِ سَجِيَّةِ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ .

قال : وَيَنْبَغِي لِلْكَاتِبِ أَنْ يَفْتَنَ فِيهَا، وَيَقْرَبَ مَعَانِيهَا، وَيَنْتَحِلَ لَهَا مِنْ أَلْفَاظِ الشُّكْرِ أَنْوَطَهَا بِالْقُلُوبِ: تَسْتَيْقِنَنَّ نَفْسُ الْمُنْفَضِّلِ أَنَّهُ قَدْ آجَتْنِي ثَمْرَةٌ تَفْضُلُهُ، وَحَصَلَ مِنَ الشُّكْرِ عَلَى أَعْضَائِهِ مَا بَدَّلَهُ مِنْ مَالِهِ أَوْ جَاهِهِ، إِلَّا أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنَّهَا إِذَا كَانَتْ صَادِرَةً مِنَ الْإِتِّبَاعِ إِلَى رُؤُسَائِهِمْ، وَمَنْ يَرْجِعُ إِلَى آخْتِصَائِهِ وَأَثَرِهِ، أَنْ لَا تَنْبَغِي عَلَى الْإِغْرَاقِ فِي الشُّكْرِ: لِأَنَّ الْإِغْرَاقَ فِي الشُّكْرِ يَجْمَلُ هَذِهِ الطَّبَقَةَ عَلَى التَّمَلُّقِ الَّذِي لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِالْأَبَاعِدِ الَّذِينَ يَقْصِدُونَ الدَّلَالََةَ عَلَى اسْتِقْلَالِهِمْ بِمُحَقِّقِ مَا أَسَدَى إِلَيْهِمْ؛ فَأَمَّا مَنْ صَفَا عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ مَا يَدْفَعُ الشُّكَّ فِي اعْتِرَافِهِ بِالذَّلِّ لَدَيْهِ، فَإِنَّهُ يَنْبَغِي عَنِ الْمَبَالِغَةِ فِي الشُّكْرِ وَالْإِعْتِدَادِ؛ ثُمَّ قَالَ: وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَذْهَبَ فِيهَا يَكْتُبُ عَنِ هَوْلَاءِ مِنْ هَذَا الْفَنِّ مَذْهَبَ الْإِخْتِصَارِ، وَالْإِتْيَانِ بِالْأَلْفَاظِ الْوَجِيزَةِ الْجَامِعَةِ لِمَعَانِي الشُّكْرِ، دُونَ مَذْهَبِ الْغُلُوِّ وَالْإِفْرَاطِ، وَذُو الطَّبَعِ السَّلِيمِ، وَالْفِكْرِ الْمُسْتَقِيمِ؛ يَكْتَفِي بِسِيرِ التَّمَثِيلِ .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفرج البيهقي، في شكر تابع لمتبوع :

أنا في سُكْرِه - أيده الله - مُبْرَهِنٌ عن مَوَاقِعِ إِحْسَانِهِ إِلَيَّ ، وَتَظَاهِرِ إِنْعَامِهِ عَلَيَّ ، لِمَقْدَرٍ أَتَى مَعَ الْمُبَالَغَةِ وَالْإِسْهَابِ ، وَالْإِطَالَةِ وَالْإِطْنَابِ ؛ أَجَازِي عَفْوَ تَفَضُّلِهِ ، وَلَا أَجَامِلُ أَيْسَرَ تَطَوُّلِهِ ؛ وَقَدْ وَسَمِنِي أَيَّدَهُ اللهُ مِنْ شَرَفِ أَصْطِنَاعِهِ ، بِمَا بَوَّأَنِي بِهِ أَرْفَعُ مَنَازِلَ خَدَمِهِ وَأَتْبَاعِهِ ؛ وَإِلَى اللهِ أَرْغَبُ فِي تَوْفِيقِي مِنْ مَقَابِلَةِ ذَلِكَ بِالْأَجْتِهَادِ فِي خِدْمَتِهِ ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي طَاعَتِهِ - لِمَا أَكُونُ بِهِ لِلزَّيْدِ مُسْتَوْجِبًا ، وَلِلْحُطْوَةِ مُسْتَحِقًّا .

وله في شكر قريب :

فَرُضُ الشُّكْرِ - أَعَزَّكَ اللهُ - لَا يَسْقُطُ بِقَرَبِ الْأَنْسَابِ ، وَلِذَلِكَ لَا أَسْتَحِيزُ إِغْفَالَ الْوَاجِبِ عَلَيَّ مِنْهُ ، وَلَا أَجِدُ عُدُولًا فِي التَّسَامُحِ فِيهِ وَالْإِضْرَابِ عَنْهُ ، وَإِنْ كُنْتُ غَنِيًّا عَنِ الْإِفَاضَةِ فِيمَا أَعْتَقِدُهُ مِنْ ذَلِكَ وَأَضْمِرُهُ ، وَأَبْدِيهِ وَأَطْهَرُهُ ؛ بِالْمُتَعَلَّمِ مِنْ خُلُوصِ النِّيَّةِ وَصِحَّةِ الْأَعْتَادِ ، فَلَا أَخْلَاكَ [اللهُ] مِنْ جَمِيلِ تُسْئِدِيهِ ، وَتَفَضُّلِ تُؤَلِيهِ ؛ يَمْتَرِي لَكَ الْمَزِيدَ مِنْ سِوَابِغِ النِّعَمِ وَفَوَائِدِ الشُّكْرِ .

وله : قَدْ أَسْتَفَدْتُ مَادَّةَ شُكْرِي ، وَوَسَّعَ أَعْتِدَادِي وَتَشَرُّي ؛ نَتَاجِعُ تَفَضُّلِكَ ، وَتَوَالِي تَطَوُّلِكَ ؛ وَلَسْتُ أَقْدِرُ عَلَى التَّهْوِضِ بِشُكْرٍ مِنْهُ حَتَّى تَطْرُقَنِي مِنْكَ مِنْهُ ، وَلَا أَحْوِلُ مَجَازَاةَ نِعْمَةٍ حَتَّى تَفِدَّ عَلَيَّ مِنْكَ نِعْمَةً ؛ فَبِأَيِّ عَوَارِفِكَ أَعْتَرِفُ ، أَمْ بِأَيِّ أَيَادِيكَ بِالْبِنَاءِ أَنْتَصِفُ ؛ فَقَدْ فَرِغْتُ إِلَى الْإِقْرَارِ بِالْعَجْزِ عَمَّا يَلِزِمُ مِنْ فُرُوضِكَ ، وَوَجِبَاتِ حُقُوقِكَ ؛ وَأَنْصَرَفْتُ إِلَى سُؤَالِ اللهِ جَلَّ أَسْمُهُ بِإِيزَاعِي شُكْرٍ مَا وَهَبَ مِنْكَ ، وَالتَّجَاوُزِ لِلْكَارِمِ وَالْفَضْلِ عَنْكَ .

وله : وقد شكرت بِرِّكَ الحليل موقِعَه ، اللطيف موضِعَه ، الخفيف حمله ، العذب منهه ، وشافهتكَ من ذلك بما اتسعت له القدرة لا ما تقتضيه حقوق المنية .

وله : أنا في الشكر بين نعمة تُتقنى ، وعجز عما يجب لك يُحسنى ؛ ولست أفرع إلى غير تجاوزك ، ولا أعتد على غير مساحتك ؛ ولا أتاول إلا بمكاني منك ، ولا أفاخر إلا بموقعي من إيثارك ؛ فالحمد لله الذي جعلني بولائك مشهوراً ، وفي شركك مقصوراً .

على بن خلف :

رقعة : وينبى أن الله تعالى لما ألهم مولانا البر ، ألهم المملوك الشكر ؛ فهو لا يزال يوسع في البر ويزيد ، والمملوك لا يزال يُبدي في الشكر ويُعيد ، ولكن شتان بين فاعل وقائل ، ومُعطي وقابل ، وواهب وسائل ، ورافد وحامد ، وشاكر وشاكذ ؛ وأملوك يحمد الله تعالى إذ جعل يده الطولى ، وحظه الأعلى .

رقعة : وصل بر مولانا وقد أحالت الخلة من المملوك حاله ، وأمالت آماله ؛ فلأمت ماصدعه الدهر من مروته ، وجددت ما أخلقه من فروته ، فكف المملوك يديه [عن] امتحان الخلان ، وقبض لسانه عن شكاية الزمان ؛ وأقر ماء وجهه في قرارته ، وحفظ على جاهه لباس وجاهته ؛ فيأله من بروق من الفقر ، موقِع القطر من الفقر ؛ ولم يتقدمه من قدامة الوعد ، ما يتقدم القطر من جهامة الرد ؛ وكل معروف وإن فاضت ينابيعه ، وطالت فروعها ، قاصر عن الأمل في كرمه ، واقع دون غايات هممه ؛ كما أن الشكر ولو واكب النجم ، وساكب السجم ؛ قاصر عن مكافاة تفضله ، ومجازاة تطوله ؛ والمملوك يسأل الله تعالى الذى جعله قُدوة

الكرام، وحسنة الأيام، وربّ الإنعام، وواحد الأنام؛ أن يُلهم المملوك من حمده، بقدر ما أسبغه عليه من رفده .

رقعة شكر : عند المملوك لسيدى أيدي وصلت سابقةً هَوادِيا ، وظلّت لاحقةً تَوَالِيا ؛ فصارتُ صُدورُها نسبا أعتري إليه ، وأعجازُها [سبباً أَعول في الملمات عليه] .

رقعة : لولا أن الله تعالى جعل الشكر ثمرة البرّ، والحمد جزاء الرّفد، وأراد إقرارهما على أهلِهما من الغابرين ، وأن يجعلَ لهم مِنّا لسانَ صدق في الآخِرين ؛ لكان الذي غمّر به مولانا من الإنعام ، يُتحدّثُ عنه تحدّثَ الرّياحِ بآثارِ الغَمِّ ؛ ويكفَى المملوكُ بالإشارة ، مَثونَةَ العبارة ؛ والمملوكُ وإن رام تَأديَةَ ما يلزمُه من شكره ، قاصرٌ عن غايةِ برّه ؛ ولو استَخدمَ ألسنةَ الأفلامِ ، واستغرقَ أمدَي النّثارِ والنّظامِ ؛ ومولانا جديرٌ بقبولِ السّيزِ ، الذي لا يُمكنُ الزّيادةُ عليه ؛ والصّفحُ عن التّقصيرِ ، الذي تُفوّدُ الضّرورةُ إليه ؛ إن شاء الله تعالى .

رقعة : لو أنّ هذه العارِفةَ بكَر عوارِفه ، وبأكورةٍ لطائفه ؛ لعجزتُ عن شكرها ، وقصّرتُ عن نشرها ؛ فكيف وقد سبقها قرائنٌ ونظائرٌ ، وتقدّمها أترابٌ وصرّائرٌ ؛ [مما] أنقلُ من المملوكِ كاهله ، وبسَطَ به يدِي أمله ؛ فما يَعدمُ شيئاً فيرجّيه ، ولا يفقدُه فيرغبُ فيه ؛ والذي تُربُّه من المملوكِ جوارِحه ، وتحوّيه جوائِحه ؛ علمُه بأنه لا يُجارِي أياديه ، ولا يُجازِي مَساعِيه ؛ واللهُ تعالى يَحْضُه من الفضائلِ ، بمثل ما تبرّع به من الفواضِلِ .

رقعة : ومثل مولانا من [ذوى الشرف] ^(١) والسودد من حسن محضره، وطاب
مُحِبُّرِه، وَكُرِّمَ غَيْبُهُ وَمَشْهَدُهُ، وَصَحَّ عَلَى تَغَايُرِ الْأَحْوَالِ عَقْدُهُ وَوُدُّهُ؛ وَقَدْ اتَّصَلَ بِالْمَمْلُوكِ
مَا عَارَهُ لَهُ مَوْلَانَا مِنْ أَوْصَافِهِ، وَجَرَى فِيهِ عَلَى عَادَةِ فَضْلِهِ وَإِنْصَافِهِ؛ فَطَفِقَ لِفَضْلِهِ
شَاكِرًا، وَلَطَوَّلَهُ نَاشِرًا؛ وَأَضَافَ ذَلِكَ إِلَى تَوَالِدِ إِحْسَانِهِ، وَنَظْمِهِ فِي عَقْدِ آمَنَاتِهِ .

رقعة : قد طَوَّقَ مَوْلَانَا [مَمْلُوكُهُ] مِنْ فَضْلِهِ طَوْقًا كَأَطْوَاقِ الْحَمَائِمِ لَا يُتَزَعُ ،
وَأَلْبَسَهُ بُرْدًا مِنْ رِيهِ لَا يُخْلَعُ ؛ وَأَوْلَاهُ مِنْ مَزِيدِهِ مَا قَصَّرَتِ الْهِمَّةُ عَنْ تَمَنِّيهِ ، وَلَمْ تَهْتِدِ
الْقَرِيحَةُ إِلَيْهِ فَتَسْتَدْعِيهِ ؛ وَلَوْ وَجَدَ الْمَمْلُوكُ جِزَاءً عَلَى عَارِفَتِهِ ، وَكِفَاءً لِمَثُوبَتِهِ ، غَيْرَ
الْمُوَالَاةِ الصَّرِيحَةِ ، وَعَقْدِ الضَّمَائِرِ عَلَى الْمُوَدَّةِ الصَّحِيحَةِ ؛ وَاللَّهَجَ بِالشُّكْرِ ، فِي السَّرِّ
وَالْجَهْرِ ، لَرَمَى مِنْ وَرَاءِ عِنَايَتِهِ ، وَلَا اسْتَبَعَدَ طُولَ شُقَّتِهِ ؛ وَلَكِنْ الْمَمْلُوكُ عَادِمٌ
لِمَا يَقَابِلُ بِهِ يَدَهُ الْغَزَاءُ ، عَاجِزٌ عَمَّا يَقْضِي بِهِ حَقَّ مَوْهَبَتِهِ الرَّهْرَاءِ ؛ مَا لَمْ يُحْسِنْ كَرَمَهُ
أَمْرَهُ ، وَيَقْبَلَ مِنْهُ عَلَى التَّقْصِيرِ شُكْرَهُ ؛ وَيُضِفُ ذَلِكَ إِلَى لَطَائِفِهِ ، وَيَنْظُمُهُ فِي سَلْكَ
عَوَارِفِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

رقعة : وَاجْتِهَادُ الْمَمْلُوكِ فِي نَشْرِ أَيَادِيهِ وَشُكْرِهَا ، كَأَجْتِهَادِ مَوْلَانَا فِي كِتْمَانِهَا
وَسَتْرِهَا ؛ فَكُلُّمَا أَبْدَيْتَهَا بِالنَّهْيِ أَخْفَاهَا ، أَوْ نَشَرْتَهَا بِالْإِشَادَةِ طَوَّاهَا ؛ وَهِيَ هَاتِ أَنْ يَخْفَى
عُرْفُ كَعْرِفِ الْمِسْكِ نَشْرًا ، وَمَنْ كَالرُّوضَةَ نُورًا وَالغَزَالََةَ نُورًا ؛ وَلَوْ كَانَ الْمَمْلُوكُ
وَالْعِيَادُ بِاللَّهِ سَتْرَهُذَا الْعُرْفَ بِكُفْرٍ ، وَأَغْتَمَصَهُ مَانِعًا لِشُكْرِ ؛ لَنْ عَلَيْهِ حَسَنُهُ بِمُومِ
الصَّبَاحِ ، وَتَوَقَّدَ تَوَقَّدَ الْمِصْبَاحِ ؛ فَكَيْفَ وَالْمَمْلُوكِ مَقُولَ لَا يُسَامَى ^(٢) [يُعْجِمُ سَوَادَ]
الليالى بالإحْمَادِ ، وَيَرْتَمُ صَفَحَاتِ النَّهَارِ بِالْإِعْتِدَادِ .

(١) بياض في الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) في الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا ما يقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

الأجوبة عن رقع الشكر

قال في "موادّ البيان": [ان كانت] هذه الرّقع من المرؤسين إلى الرؤساء فلا جواب لها . وإن كانت من النّظير فالواجب أن يُستعمل في أجوبتها مندوبُ التناصّف والتفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين :

من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خَلَدَ اللهُ عَلَى الْمَالِكِ نِعْمَهُ ، وَعَلَى الْمَالِكِ دِيْمَهُ ، وَحَرَّمَ بَقَائَهُ ذِمَّ الزَّمَانِ وَأَوْجَبَ ذِمَّهُ ؛ وَلَا بَرِحَ نَحْوُ الْحَمَامِدِ يُنَادِي يَوْمَ الْكَرَمِ مُفْرَدَهُ وَيَوْمَ الْهِجَابِ عَمَّهُ . تَقْبِيلًا يَسْحَبُ فِي الْفَخَّارِ بُرُودَهُ الْمُعْلَمَهُ ، وَيَتَذَكَّرُ بِالْقُرْبِ فَلَا يَزَالُ الشَّوْقُ يُنْتِجُهُ حَيْثُ كَلَّا التَّدْكَارَ وَالْعَهْدَ مُقَدِّمَهُ .

وينهى ورود المثال العالى بما ملاً القلب خيراً واليديراً ، والسمع إشارةً والوجه بشراً ، حتى تناقست الأعضاء على تقبيله ، والجوارح على تأميله ؛ فاليدُ تسابق إلى منته بالامتداد ، والقلب يسابق إلى كرم عهده بالاعتداد ؛ والوجه يقبّل ناظره في سماء مواقع القلم ، والسمع ينعم بما تقص عليه المسار من أخبار جيرة العلم ؛ حتى كاد المملوك يحو بالتقبيل أسطره ، ويستغل بذلك عن استجلاء ما ذكره المنعم لاعدم المملوك في مصر والشام تكررهِ ؛ وفهم ما أشار مولانا إليه من الفضل الذي مولانا أهله ، وكرم العهد الذي لا ينكر من مثله وأين مثله ؛ وقابل المملوك جميع ذلك بجهده من الأدعية الصالحة ، وبسماحة الحمد المتفاحه ؛ والاعتداد بنعمة مولانا التي لولا [موالئها] ^(١) كلّ وقتٍ لقليل فيها « ما أشبه الليلة بالبارحه » وتضاعف

(١) بياض في الأصل والتصحيح من المقام .

هُوَ الْمَمْلُوكُ عَلَى قَدَمِ الْمَوَالَاةِ الَّتِي [يَسْتَشْهِدُ] فِي دَعْوَاهَا بِشَهَادَةِ الْخَاطِرِ الشَّرِيفِ ، وَيَتَقَدَّمُ بِهَا تَقَدُّمًا تَحْتَ لَوَاءِ الْوَلَاءِ وَتَأْتِي بَقِيَّةَ الْأَوْلِيَاءِ فِي اللَّفِيفِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوزِعُ الْمَمْلُوكَ شُكْرَ هَذِهِ النِّعَمِ الْمُتَّصِلِ مَدَّدَهَا ، وَالْمِنَّنِ الَّتِي لَا يَعْدُمُهَا وَلَا يَعْذُّهَا ، وَيَطِيلُ بَقَاءَ مَوْلَانَا لِحَمْدِ يَحْتَمِلِيهِ وَيَحْتَنِيهِ ، وَشَرَفِ دُنْيَا وَأَجْرِي يَهْدُمُ وَفَرِهِ وَعُمُرِهِ وَيَبْنِيهِ .

النوع الثالث عشر (العتاب)

قال في "مواد البيان" : المكتبة بالمعابة على التحول عن المودة والاستخفاف بحق الخلة من المكاتب التي يجب أن تستوفي شروطها، وتكمل أقسامها : لأن ترخيص الصديق لصديقه في المقاطعة والمصارمة دال على ضعف الاعتقاد ، وأستحالة الوداد .

من كلام المتقدمين :

إِنِّي مَا أَحْدَثْتُ نَبْوهَ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَحْدَثْتَ جَفْوهَ؛ وَلَا أَبْدَيْتُ هَجْرًا، إِلَّا بَعْدَ أَنْ أَبْدَيْتَ غَدْرًا؛ وَلَا لَوَيْتُ وَجْهًا عَنِ الصَّلَاةِ، إِلَّا بَعْدَ أَنْ ثَبَيْتَ عِطْفًا إِلَى الْقَطِيعَةِ؛ وَالْأَوَّلُ مَنَّا جَانٌ، وَالثَّانِي حَانٌ؛ وَالْمَتَقَدِّمُ مُؤَثِّرٌ، وَالْمَتَأَخِّرُ مُضْطَّرٌّ؛ وَكَم بَيْنَ فِعْلِ الْمُخْتَارِ وَالْمُكْرَهِ، وَالْمَبْتَدِعِ وَالْمَتَّبِعِ .

آخِر : إِنْ أَمْسَكْتُ يَاسِيدِي عِنَابِكَ ، مُرْخِيَا مِنْ عِنَانِكَ ؛ كُنْتُ بَيْنَ قَطْعِ لِحْبِكَ ، وَرِضَا بِفِعْلِكَ ؛ أَوْ اقْتَصَرْتُ فِيهِ عَلَى التَّلَوُّجِ بِهِ لَمْ يَغْنِ ذَلِكَ مَعَ كَثْرَةِ جُوحِكَ ، وَشِدَّةِ جُنُوحِكَ ؛ وَمَا آرْتَكَبْتَهُ مِنْ رَائِكِ ؛ وَأَسْتَخْرِجْتَهُ مِنْ جَفَانِكَ .

رقعة عتاب : لمولانا لدى المملوك عوارف لا يتبدى إلى معرفتها فوفيتها كنه المراد، وأياد لا يبلغ ما تستحقه من الإحاد ؛ ولو عَصَدْتَهُ خُطْبَاءُ أَيَادٍ ، أَجْلُهَا فِي نَفْسِهِ خَطْرًا ، وَأَحْسَنُهَا عَلَيْهِ أَثْرًا ؛ مَا يَفْرِضُهُ لَهُ مِنْ بَرٍّ وَإِكْرَامِهِ ، وَتَعَاهِدِهِ وَأَهْتَامِهِ ؛ وَقَدْ غَيْرَ مَوْلَانَا عَادَتَهُ ، وَتَقَضَّ شِمْتَهُ ؛ وَبَدَّلَ الْمَمْلُوكُ مِنَ الْإِنْعَاطِ بِالْإِعْرَاضِ ، وَمِنَ الْإِنْسِاطِ بِالْإِنْقِبَاضِ ؛ وَحَمَلَهُ مِنْ ذَلِكَ مَا أَوْهَى قُوَى صَبْرِهِ ، وَأَظْلَمَ بَصَائِرَ فِكْرِهِ ؛ فَإِنْ يُكُنْ ذَلِكَ لَخَطًا وَقَعَهُ الْمَمْلُوكُ سَاهِيًا ، وَجُرْمَ أَجْرَمِهِ لَاهِيًا ؛ فَمَنْ لَمْ يَمْلِكْ مَوْلَانَا لَا يُطَالِبُ إِلَّا بِالْقَصْدِ ، وَلَا يُعَاقِبُ إِلَّا عَلَى الْعَمْدِ ؛ إِذْ كَانَ الْمَمْلُوكُ لَا يُعْصَمُ مِنْ زَلَلٍ ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ خَلَلٍ ؛ اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَوْلَانَا أَرَادَ مِنَ الْمَمْلُوكِ تَقْوِيمَهُ وَتَأْدِيبَهُ ، وَإِصْلَاحَهُ وَتَهْدِيَةَ : لِيُحْسِنَ أَثْرَهُ فِي خِدْمَتِهِ ، وَيَسُكِّتَ السَّبِيلَ الْوَاضِحَ فِي تَبَاعُثِهِ ، فَلَا أَعْدَمَ اللَّهُ الْمَمْلُوكَ تَثْقِيفَهُ ، وَلَا سَلَبَهُ تَبْصِيرَهُ وَتَعْرِيفَهُ ؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَشَكٍّ عَرَضَ مِنَ الْمَمْلُوكِ فِي وِدَادِهِ ، وَآرْتِيَابِ خَاصَرٍ فِي حُسْنِ اعْتِقَادِهِ ؛ فَأُعِيدُهُ بِاللَّهِ مِنَ الْقَطْعِ بِالشُّبُهَاتِ ، وَالْعَمَلِ بِمَنْغِلِ السَّعَايَاتِ ؛ وَمَوْلَانَا خَلِيقٌ بَانَ يُطْلَعُ مِنْ أُنْسِ الْمَمْلُوكِ مَا غَرَبَ ، وَيُنْبِطُ مِنْ سُورِهِ مَا نَضَبَ ؛ وَيُعِيدُهُ لِرِضَاهُ ، وَيُجْرِيهِ عَلَى مَا أَحَدَهُ مِنْهُ وَأَرْضَاهُ .

رقعة : ليس المملوك يرفع مولانا في إعراضه ، إِلَّا إِلَى فَضْلِهِ ، وَلَا يُجَاكِمُهُ عَلَى انْقِبَاضِهِ ، إِلَّا إِلَى عَدْلِهِ ؛ وَلَا يَسْتَعِينُ عَلَيْهِ إِلَّا بِمَا يَسْتَمْلِيهِ مِنْ آدَابِهِ ، وَلَا يَنْظُرُهُ إِلَّا بِمَا أَخَذَهُ عَنْهُ مِنْ مَحَافِظَتِهِ وَإِيحَايِهِ ؛ إِذْ كَانَ الْمَمْلُوكُ مُدْ وَصَلَتَهُ السَّعَادَةُ بِجِبَالِهِ ، نَاسِجًا عَلَى مَنَوَالِهِ ؛ مُتَقَبِّلًا شَرَائِفَ خِلَالِهِ . وَمَا عَهْدَتُهُ عَمَّرَ اللَّهُ مَعَاهِدَهُ ، وَكَبَّتْ

(١) لعله للولى .

(٢) يقال أنظلم حديثا سمعه نم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

حاسده ، يغضبُ تقليدًا قبل الاختبار ، ويُخوج البريء إلى موقف الاعتذار ، ولا سيمًا إذا كان المظنونُ به عالمًا بشروط الكرم ، عارفًا بمواقع النعم ، لا يتسَخ الشكر ، بالكُفر ، ولا يتعوّض عن الحمد ، بالجد ، وقد عرف مولانا ثناء المملوك على تفضاله ، ووقف على بلائه لأعماله ، وهو وفي بربِّ عوارفه وصنائعه ، وتيمر مارهن لديه من ودائع ، وتنزيه سمعه عن الإصغاء إلى ما يختلقه حاسد ، ويصوغه كائد ، وقد حكم المملوك على نفسه نقدَه الذى لا يهرج عليه ولا يدلس ، وكشفه الذى لا يعطى عليه ولا يلبس ، فليحك أفعال المملوك على محك بصيرته ، وليجل فى تأمل مقاصده طرف فكرته ، فإنه ممن لا تُحيله الأحوال ولا تُحوِّله ، ولا تُغيره الغير ولا تُبدله ، إن شاء الله تعالى .

رقعة : أفعال شكر المملوك فى الحلم والغضب ، والرضا والسخط ، إذا لم يقتض الحزم إيقاعها موقع الفضل ، واقعة موقع الإنصاف والعدل ، ولا يغلب هواه على رأيه ، ولا بادرتَه على أناته ، وقد جانب مع المملوك عادته ، وبأين فيه شيمته ، وناله من إعراضه ، وجفائه وأتقاضه ، وتغير رأيه ، ما وسم المملوك فيه بالذنب ولم يُذنبه ، وحمله على الجرم ولم يَحْتَقِبْه ، وأوقفه لديه موقف الاعتذار ، وأحوجه إلى الاستقالة والاستغفار ، وليس المملوك يُحاكمه إلا إليه ، ولا يُعول فى الانتصاف إلا عليه ، وما أولاه بأن يعيد المملوك إلى محله من رضاه ، فإنه لم يُواقع فى خدمته إلا ما يرضاه ، وحسبه شاهدًا بذلك ما يعلم من المملوك من سلامة غيبه ، وطهارة جيبه ، وفضل وده ، وصحة معتقده ، إن شاء الله تعالى .

(١)

: رقعة بمعاتبه على

كُلِّ مانِعٍ مَالِدِيهِ مَنْ رَغِبَهُ ، دَافِعٍ عَمَّا عِنْدَهُ مَنْ طَلَبَهُ ؛ فَسْتَغْنَى عَنْهُ إِلَّا اللَّهَ تَعَالَى
 الْمُبْتَدِئُ بِالنِّعَمِ ، الْعَوَادُ بِالكَرَمِ ؛ وَلَوْ عَرَفَ مَوْلَانَا بَطْعَمَ شَجَرَةِ الْمَعْرُوفِ ، لِأَسْرَعِ
 إِلَى آحْتِذَائِهَا ، وَلَوْ عَلِمَ مَالَهُ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْحُقُوقِ فِي مَالِهِ وَجَاهِهِ ، لَمْ يُقَصِّرْ عَنْ
 أَدَائِهَا ؛ غَيْرَ أَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ الْفَوْزَ بِالْوُجُودِ ، غَايَةُ الْمَجْدِ ، وَأَنَّهُ إِذَا أَحْمَدَ النَّسَبَ غَنَى عَنْ
 الْحَمْدِ ؛ وَأَنَّ النِّعْمَةَ تُرْتَبِطُ بِالرِّبْطِ عَلَيْهَا ، وَتَتَصَرَّفُ بِالتَّصَرُّفِ فِيهَا ؛ وَمَا سَاءَ الْمَمْلُوكُ
 أَنْ تَنَزَّهُ عَنْ تَقَلُّدِ مَنَّةِ لَيْمٍ ، وَحُرْمِ مَحْمَدَةَ مِنْ كَرِيمٍ ؛ وَهَذَا الْحِرْمَانُ أَحْسَنُ وَاللَّهُ
 فِي عَيْنِ الْمَمْلُوكِ مِنَ النَّوَالِ ، وَهَذَا الْإِكْدَاءُ أَوْلَدِيهِ مِنْ بُلُوغِ الْأَمَالِ ؛ وَسَيَنْشُرُ الْمَمْلُوكُ
 مَذْهَبَهُ فِي كُلِّ نَادٍ ، وَيَكْفُفُ عَنْهُ أَمَانِي الْقُصَادِ ؛ وَيَكْفِيهِ مَثُونَةُ الْأَعْتِدَارِ ، وَيَصُونُهُ
 عَنْ أَنْ تُبَدَّلَ إِلَيْهِ وَجُوهُ الْأَحْرَارِ : لِيَعْلَمَ أَنَّ الْمَمْلُوكَ عَلَى مَنْعِهِ لَمْ يُقَصِّرْ فِي بُلُوغِ
 أَوْطَارِهِ ، وَالسَّعْيُ فِي إِيْثَارِهِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

رقعة في المعنى : مارد المملوك بر مولانا مستنزرا لقليله ، ولا لايمًا لنفسه على
 تأميله ؛ لِكِنَّهُ آتَجَمَعَهُ أَنْتِجَاعَ مَنْ ظَنَّنَهُ عَارِفًا بِقُدْرِهِ ، رَاغِبًا فِي شُكْرِهِ ؛ فَلَوْ أَعْضَى
 الْمَمْلُوكُ مِنْهُ عَلَى الْأَطْرَاحِ لِأَمْرِهِ ، لِأَسْتَدَلَّ مِنْهُ عَلَى قِصْرِ الْهِمَّةِ ، وَظَنَّ أَنَّهُ قَوْمَهُ
 بَدُونِ الْقِيَمَةِ ؛ لِأَسْمِيًا وَهُوَ يُفْرَضُ لِمَنْ لَا يُجَارِي الْمَمْلُوكَ فِي مِضْهَارِ ، وَلَا يُسَاوِيهِ
 فِي مِقْدَارِ ؛ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ بِتَأْمِيلِ وَرَجَاءِ ، وَتَقْدِيمِ ذَرِيعَةٍ مِنْ تَقْرِيطِ وَشَاءِ ، مَا تَضَيَّقَ
 عَنْهُ الْهَمُّ الْفِسَاحُ ، وَلَا يَصِلُ إِلَيْهِ الْإِقْتِرَاحُ .

(١) بياض في الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « نرة المعروف ... الى اجتنانها » تأمل .

رقعة عتاب، على تقصير في خطاب :

حوشى مولاي أن يحرج الذليل على آثار فضله ، ويؤميت من غروس إحسانه
 ماهو جدير أن يتعهد بوبله ؛ ويعنى منى رسوم كرمه ، ويصدع بجانبه الإنصاف
 صفاة صفاته وصفائه ، وينطق الألسن بعبابه ؛ ويصلي سيف التأنيب من قرابه ؛
 بما استحسنة من مستقبح المصارمة في مخاطبه ، وأستوطاه من جاح التريث
 في المكاتبه ؛ ولا سيما وهو يعلم أن موقع الإكرام من الكرام ، أطف من موقع
 الإنعام ؛ وأن محلّ القول ، أفضل من محلّ النوال ، وأن تغير العادة في البر ، مقوض
 لمعاهد الشكر ؛ وسبيح (؟) السنة في الإنصاف ، قاض بالإنصراف بعد الإنعطاف ،
 وقد كان المملوك أزعج أن يتحمل تقصيره به ، وأن يقل من غربه ، غير مطاوع
 للحمية ، ولا منقاد لنفس العصبية ، ولا يقرع سمعه بعتاب ، ولا يورد عليه مضم
 خطاب ؛ ثم رأى المملوك أن يرشده إلى الأزين ، ويعتسه على اعتماد الأحسن ؛
 ويخصه على مراجعة الأفضل ، ومعاودة الأجمل : ليتحفظ مع سواه ، ولا يحجى
 بحجراه ؛ فليس كل أحد يتمله ، ويرضى رضا المملوك بما يفعله ؛ فولانا حبب الله
 إليه الرشد ، ووقفه إلى المنهج الأسد ؛ هل هو من شيء سوى بشر ؛ فما هذا التيه
 والبطر ؟ ولم هذا الأزل والأشهر ؟ وما فعل الرئيس إلى ما يصغر عنه قدر ؛
 ولا ييأس من نيئه عمر ؛ ولا مضت أقلامك في الأقاليم ، ولا أشير إليك بننان
 التعظيم ؛ ولا فوضت إليك الوزارة والردافه ، ولا تأمرت على الكافة ؛ ولا طاولت
 الأكفاء فطلت ، ولا ناضلت القرناء فنضلت ؛ وإنما سرق إليك الحظ من ميماده
 وسلا مضردا ، وأدر لك الدهر من أخلافه مجددا ، فافتتحت المعاملة بظلم
 الإخوان ، ونسخ شمائع الإحسان ؛ كذبتك نفسك ، وغرك حدسك ؛ كيف بك
 غدا إذا أسترد الزمن ماخوأك ، وأسترجع مانوأك ؛ وصحوت بالجزل من سكرة

(١) والوَالِيَّه، وتفرقت بعد طلب الغايه ؛ وُعدتَ إلى إخوانك فوجدتَ أوطانَ أَنسهم بك نايه ، ونفوسهم للإقبال عليك آييه ؛ ولو كان الزمنُ أمكنك من رقبتي ، وطرق لك الطريقَ إلى إيداع عُرفك في جهتي ؛ لنبُح بك أن تطول بطولك ، وتدعي الفضلَ بفضلك ، ولم يحسن أن تبدل الإنعام ، وتضمن بالالتزام ؛ فإن كنت تفخر بسلفك وأبوتك ، وتطاول بأوليتك وأسرتك ؛ فلو كان أبوك كسرى ، لما جبر منك كسرا ، ولو كان جدك بُحْت نصر ، لما أنتفعت به في مظاهرة ولا نصر ، فدع أكثر مافات ، ولا تعول على العظام الرفات ؛ فاستند إليها إلا عار من الفضل عايط من الحلي . على أنك لو فخرت بها لفخرناك ، وتقدمنا وأخرناك ؛ وإن كنت تستند إلى ديانتك ، وتعتمد على نسكك وأمانتك ؛ فهذه خالص حال لا تخلص مرتبتها ولا تتم فضيلتها إلا باستشعار التواضع ، والأخذ بمكارم الأخلاق لدى التنازع ؛ فارجع هديتك إلى الأجل^(٢) ، وأعمل بالأفضل ، وقف بحيث ربتك ؛ ولا تنشوف إلى غير درجتك ؛ وإن أبيت ذلك فأقطع المراسله ، وأعفها من المواصله ، والسلام .

رقعة عتاب على تأخر المكتبة :

من حُكم الوداد - أطل الله بقاء سيدي - الزيارة عند المقاربة ، والمكتبة عند المباعده ؛ وإن كانت المودة الصريحة لا يغيرها اجتناب ، إلا أن الكتب السن العباد ؛ والأعين التي تنظر حقائق الوداد ، ولها في القلوب تأثير ، وموقعها فيها أثير ؛ وحوشي مولانا أن أهنر أريحيته لما يؤكد الثقة بإخائه ؛ ويشهد بوفائه ؛ ولا سيما وهو يفرض ذلك لأحبتة ، وقوله واجب في شرع مودته .

رقعة في معناه :

إِنِ ابْتَدَأَ الْمَلُوكُ مَوْلَانَا لَمْ يُجِبْ ، وَإِنْ سَأَلَهُ الْإِبْتِدَاءَ لَمْ يُوجِبْ ؛ فَلَا حَقَّ
الْإِجَابَةَ تُؤَدِّيهِ ، وَلَا نَاجِرَ الْمَسْأَلَةِ تَقْضِيهِ ؛ فَإِنْ كَانَ إِذَا شَخَّصَ غَابَتْ عَنْ فِكْرِهِ
أَشْخَاصُ أَحَبَّتِهِ ، وَإِذَا بَعُدَ عَامِلُهُمْ بِتَجَافِيهِ وَجَفْوَتِهِ ؛ فَقَدْ كَانَ يَبْنِي أَنْ يَتَكَلَّفَ
وَيَتَجَمَّلَ ، وَيَتَصَنَّعَ وَيَتَعَمَّلَ : فَإِنَّهُ لَوْ عَلَّلَ مَشُوبًا بِالْإِنْتِظَارِ ، أَوْ اعْتَذَرَ مَرْمُضًا
بِالْاعْتِذَارِ ؛ لِأَقَمْتُ ذَلِكَ مَقَامَ الْمُكَاتِبَةِ ، وَصُنَّتَهُ عَنْ مَحْضِ الْمُعَاتَبَةِ ؛ لَكِنَّهُ مَالٌ مَعَ
الْمَلَالِ ، وَرِضَى الْأَطْرَاحِ وَالْإِهْمَالِ ؛ وَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ مُسْتَقْبَلٌ بِالْإِخْوَانِ ، مُتَنَقِّلٌ مَعَ
الزَّمَانِ ؛ وَأَرْجُو أَنْ تَصُدُقَ الْمَخِيلَةَ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْعَادَةِ الْجَمِيلَةِ .

رقعة معاتبية رجل كريم الأصل لثيم الفعل :

قَدْ عَرَفَ مَوْلَانَا وَفَقَهُ اللَّهُ وَوَقَفَهُ عَلَى مَنَهْجِ الرَّشَادِ ، أَنَّ جُنَايَةَ الْغَضَبِ الذَّمِيمِ ،
تَقْدَحُ فِي كَرَمِ الْحِنْتِ الْكَرِيمِ ؛ وَأَنَّ قَبِيحَ الصَّلَفِ ، يَنْسَخُ تَلِيدَ الشَّرَفِ ، وَخِيْبَتِ
الذَّرِيَةِ ، يُعْنَى عَلَى طِيبِ الْمَنَاحِتِ الرَّكِيهِ ، وَأَنَّهُ لَيْسَ لِمَنْ تَحَلَّى بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ ،
وَتَلَبَّسَ بِالنُّكْتِ وَالْعَدْرِ ، وَسَاحَ نَفْسَهُ بِأَطْرَاحِ الْحُقُوقِ ، وَأَسْدَيْطَاءِ الْعُقُوقِ ؛
إِلَّا إِضَاعَةُ الْحَرَمِ ، وَإِخْفَارُ الذَّمِّ .

المعاتبية من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

يُقْبَلُ الْأَرْضَ وَيُنْهَى أَنَّهُ قَدْ صَارَ يَرَى قُرْبَهُ أَرْوَارًا ، وَطَوِيلَ سَلَامِهِ أَحْتِصَارًا ؛
وَيُغَالِطُ فِي ذَلِكَ حَتَّى شَاهَدَهُ عِيَانًا مَرَارًا ؛ هَذَا وَيُكْرِ الْوَلَاءَ ، صَقِيلَةُ الْحِلَابِ ،

(١) جنت الانسان أصله . وقع في الأصل "الحديث" وهو تصحيف .

وعروسُ الثناء، جميلةُ البرّةِ حسنةُ الشباب، وهو لا يفتأ من الموالاة في صعدٍ وقدره في صَبَبٍ؛ فكلُّنا مَكْنٌ وتَدَّ الاستِعْطافُ يَرجو عدمَ تخلُّله فُجْبلُ بأيسرِ سَبَبٍ؛ بحيثُ أطفأ الإهمالُ نارَ المُسَاعَفَةِ والمُساعدَةِ، وانتقلَ تَوَهُمُ عدمِ العِنايةِ إلى تَيَقُّنِ وجودِهِ بالمُشاهدَةِ؛ وقد كانَ يُرْفَعُ قدرُهُ نُحْفُضُ، وعُوْضُ في الحَالِ عن الرُّفْعِ بالإبتداء، أنه مُفْرَدٌ ويُصَبُّ كالنِّكْرَةِ في النِّداءِ، وأهْمَلُ حَتَّى صارَ كالحُرُوفِ لا يُسَدُّ ولا يُسَدُّ إليها، وألغى حَتَّى شابهَ ظننُتُ إذا وقعتَ متأخِّرةً عن مفعوليها؛ ومتى يَقْتَلِقُ لأمرٍ، أُنسَدَ نفسه * ما في وُقُوفِكَ ساعةً من باسٍ *

وكان يَغْشَى مُجلِسَه الكَرِيمَ خِدْمَةً وأداءً للواجبِ، وطلباً لعادةٍ أَكَّدها إِحسانُهُ حَتَّى صارتُ ضربةً لازِبَةً؛ فلا يَخْلُو مُجلِسٌ من إظهارِ تَغْيِيرِ عَادَةٍ وَطَدِّ الجُودِ أساسها، وأنتفاضِ قاعِدَةٍ أبرَمَ الكَرَمِ أَمْرَاسِها؛ فينقَطِعُ سُلُوكًا للأدبِ وتخفِيفًا عن الخِوَاطِرِ، ويتلقَى ما يَصْدُرُ بقلْبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكِرٍ؛ فإن كان قد عَزَمَ مولاه على طَرْدِهِ، وعُوْضَهُ عن مَنحَةِ الثُّرْبِ المِحْنَةِ ببعْدِهِ؛ فإنه يأبى ذلكَ جُودُهُ ولُطْفُهُ، ومعرفةً يُشْكِرُ وَيَزِيدُ لا يَمِكنُ صَرْفُهُ؛ ولو جازَ الصَّرْفُ لمَجْتَرِدِ ^(١) بالعبوديةِ لَمَنَعَهُ العَدْلُ من سيِّدِهِ، والِحْلُمُ الذي عُرِفَ من كَرِيمٍ مَحْتَدِهِ؛ فكان المملوكُ يَسْتَحْسِنُ في حَبْرَةٍ وَسَبْرِهِ، ويعُوْضُ عن مِقابَلَتِهِ بِجَبْرِهِ؛ فقد صارَ سَمِينُهُ غَنًّا وشِمْعُهُ رَمًا، وحديثُهُ رَئًا وسهلُهُ عَلَمًا:

وعَيْنُ الرِّضَا عَن كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ * كما أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيَا

وما تَمَّ بِمُجِدِّ اللهِ ما يُوجِبُ ذلكَ ولا بَعْضَهُ، ولا يُحَدِّثُ ذَمَّ المملوكِ وَبُغْضَهُ؛ ولو بَدَأَ مِنْهُ زَلَلٌ، أو لَمَحَ مِنْهُ خَطَلٌ؛ فمُكْرَمٌ مولانا أَوْسَعُ من إبقاءِ ذلكَ في صُدُورِ الصُّدُورِ، و[أحرى بـ] مَحْجُوزَاتِ السِّيَّئَاتِ فإنه لِمَنْ عَزَمَ الأُمُورَ.

(١) بياض بالأصل ولعله «لمجرد الشك بالعبودية»:



وله : يُخْذَمُ بُدْعَائِهِ ، وَصَادِقٌ وَلَائِهِ ؛ وَيُنْهَى أَنَّهُ أَنْكَسَرَ خَاطِرُهُ ، وَأَرِقَ جَفْنُهُ
وَنَاطِرُهُ ؛ وَتَضَاعَفَ بَلَالُهُ ، وَتَزَايَدَتْ فِي النَّقْصِ أَحْوَالُهُ ؛ مِنْذُ تَأَخَّرَتْ الْأُمَثِلَةُ الْكِرَامُ ،
وَأَنْقَطَعَتْ عَنْهُ بَانِقَطَاعِهَا مِنَ الْحِسَامِ ؛ وَهُوَ يَسْأَلُ الْعَفْوَ عَنْ ذَنْبٍ وَقَعَ ، وَتَشْرِيفَهُ
بِمِثَالِ يَرْفَعُ مِنْ قَدْرِهِ مَا وَضَعَ ؛ وَاسْتِعْمَالَ الصَّفْحِ عَنْهُ كَسَائِرِ عَادَاتِهِ ، وَإِجْرَاءَهُ عَلَى
اللُّطْفِ الَّذِي أَلْفَهُ مِنْ تَفَضُّلَاتِهِ ؛ فَقَدْ ضَعُفَ صَبْرُ الْمَمْلُوكِ وَجَنَانُهُ ، وَتَفَرَّقَ لِلْفِرَاقِ
جَفْنُهُ وَإِنْسَانُهُ ؛ وَصَغُرُ قَدْرُهُ ، وَأَهْمِلَ جَانِبُهُ وَمَنْ أَمَرَ بِإِهَابَتِهِ نَحْرَهُ ، وَلِهَذَا ضَاقَتْ
عَلَيْهِ الْمَسَالِكُ ، وَكَانَ لِسَانُ حَالِهِ [يَنْشُدُ] فِي ذَلِكَ :

وَأَهْتَبَتِي فَأَهَنْتُ نَفْسِي عَامِدًا * مَا مِنْ يَهْوٍ عَلَيْكَ مِمَّنْ يَكْرُمُ !

والمملوك معترف بأنه مازال يجهل ما يجب عليه من الخدم، ومقر بتقصيره عن القيام
بجمل ما يواصل به من النعم؛ لكنه ألف من مولانا أن يقابل إساءته بالإحسان،
وجهله بصفح لا يقوم بشكره اللسان، بل جميع الجثمان؛ فإن كان ذنب من المملوك
هو الذي أوجب أطراحه، وأوجد أسفه وأذهب أفراحه؛ وكان أيسر مما تقدمه
من جهله وإساءته، فلهلك جدير أن يلحقه بإخوته؛ وإن كان قد تزايد مقداره،
فالمولى قد تضاعف على العفو اقتداره؛ وإذا كبرت الخطيئة كثر أجر عفرانها،
وعلت المجاوزة عنها على أقرانها؛ وعلى كلا الأمرين فقد استحق المملوك المغفرة بكل
طريق، وأن يقابل رجاؤه بالتحقيق، وأمله بالتصديق.



وله : وَيُنْهَى أَنَّهُ مَازَالَ يَشْلُو آيَاتِ مَحَاسِنِهِ وَحَمْدِهِ ، وَيَرْفَعُ رَايَاتِ إِحْسَانِهِ
وَجَمْدِهِ ؛ وَيَتَوَلَّاهُ وَلَا يَتَوَلَّى عَنْ مَحَبَّتِهِ ، وَيُكْثِرُ الثَّنَاءَ عَلَى الْمَعْنَى فِطْنَتَهُ وَجَزِيلَ

مُرُوتِهِ ؛ وَقَدْ صَارَ يُشَاهِدُ مِنَ الْمَوْلَى مَلَالًا وَصُدُودًا ، وَإِعْرَاضًا يَغِيظُ بِهِ صَدِيقًا
 وَيُسْرِبُهُ حَسُودًا ؛ وَأَطْرَاحًا أَوْهَمَهُ أَنَّهُ أَلْفٌ وَصَلَّ دُرُجَتٌ ، أَوْ لَفْظَةٌ هُجْرٌ لُقِظَتْ ؛
 وَلَا يَعْرِفُ لَهُ ذَنْبًا يُوجِبُ إِعْرَاضَهُ ، وَلَا جُرْمًا يَسْتَوْجِبُ بِهِ أَنْ يَنْقُضَ حَبْلَ وَصْلِهِ
 وَيَرْفُضَ وِدَادَهُ ؛ وَلَا يَعْلَمُ سَبَبًا يُوجِبُ سَبَّهُ ، وَلَا شَيْئًا يُحْدِثُ عَنَبَهُ ؛ مَعَ أَنَّ الْمَمْلُوكَ
 أَحَقُّ أَنْ يَبْدَأَ بِالْإِعْرَاضِ ، وَيَرْفَلَ مِنْ إِغْفَالِ مَوَدَّتِهِ فِي الثَّوْبِ الْقَضْمَاضِ ؛ فَإِنَّ
 الْمَوْلَى أَلَمَهُ بِالْقَوْلِ مِرَارًا ، وَجَعَلَ سَحَابَةً حَيْفَهُ تَهْمِي عَلَيْهِ مِدْرَارًا ؛ وَهُوَ يَحْتَمِلُ
 الْأَذَى ، وَيُعْضِي عَلَى الْقَذَى ؛ وَلَا يُظْهِرُ إِلَّا مَحَبَّةً ، وَلَا يُبَيِّنُ لَهُ إِلَّا مَوَدَّةً ؛ فَإِنْ
 شَاهَدَ الْمَوْلَى بَعْدَ إِعْرَاضِهِ إِعْرَاضًا فَلَيْلِمُ نَفْسَهُ ، أَوْ أَحْرَقَهُ لَهَبُ نَارِ الْحَفَاءِ فَلَا يَشْكُو
 مَسَّهُ ؛ يُحِيطُ بِذَلِكَ عُلَمَاءُ ، وَرَأْيُهُ الْعَالِي .

شعر في العتاب :

مَوْلَايَ قَدْ طَالَ التَّبَاعُدُ بَيْنَنَا * أَوْ مَا سَمِيتَ قَطِيعَتِي وَمَالِي !
 إِنْ لَمْ تَرَقَّ لِحَالَتِي يَا هَاجِرِي * مَوْلَايَ قُلْ لِي مَنْ يَرِيقُ لِحَالِي !

غيره :

يُبَاعِدُنِي عَنْ قُرْبِهِ وَلِقَائِهِ * فَلَمَّا أَذَابَ الْحِسْمَ مِنِّي تَعَطَّفْنَا

غيره :

إِنْ كَانَ هِجْرَانُنَا يَطِيبُ لَكُمْ * فَلَيْسَ لِلْوَصْلِ عِنْدَنَا تَمَمُّ

غيره :

سَمَّتْ بِي الْأَعْدَاءَ حِينَ هَجَرْتَنِي * وَالْمَوْتُ دُونَ شِمَاتِهِ الْأَعْدَاءِ !

غيره :

تَسَامُ عَيْنَاكَ وَتَشْكُو الْهَوَى * لَوْ كُنْتَ صَبًّا لَمْ تَكُنْ نَائِمًا !

(١) ول بعضهم : سيدى بادانى بلطف من غير خبره ، وأعقبنى جفأ من غير ذنب ؛ فاطمعتى أوقله فى إخائه ، وآيسنى آجره من وفائه ؛ فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح المبهم عن عزيمة الرأى فيه ؛ والمملوك يقول :

عَجِبْتُ لِقَلْبِكَ كَيْفَ أَنْقَلَبَ * وَصَفْوٍ وَدَادِكَ أَنْى ذَهَبُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا وَذَا أَنْبَى * أَرَاكَ بَعَيْنِ الرِّضَا فِي الغَضَبِ

أجوبة رفاع العتاب

قال فى "مواد البيان" : حكم أجوبة هذه الرفاع حكم رفاع أجوبة الاعتذار إلا أنها لا تخلو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار على العتاب . قال : ويجب أن يسلك فيها المذهب المحيب عن رفاع الاعتذار .

زهر الآداب :

فى جواب العتب على تأخر مكاتبة .

وعلم المملوك ما أشار به من العتب بسبب تأخر خدمه عن جنابه ، وما توهمه من اشتغال المملوك بأهله وأصحابه ؛ وحاشاه أن يتوهم فى المملوك غير الولاء ، والملازمة على الحمد والثناء ؛ فهو لا يعتمد ذلك إلا تخفيفاً عن خاطره ، ووئوقاً بما يتحققه المولى من خالص مودته فى باطنه وظاهره ؛ حرسه الله ووفقه ، وفتح له باب السعادة ولا أغلقه ، بمنه وكرمه .

(١) ضمنه جواب عبد الله بن معاوية فى العتاب .

زهر الربيع :

جواب عتاب :

زاد الله جنابه حنانا، وأسبح عليه إنعاماً وإحساناً، وخلد له على كلِّ عدوِّ سلطاناً.
ولا زالت همته سماءً لنا كيب الكواكب، وأياديه تُفيض على الأولياء غرائب
الغائب؛ ولا برحت سخائب إنعامه هاميه، وقطوف إحسانه دائمة دائيه؛ وشرائع
مياه جوده تُجفف جفونا من الفاقة داميه .

المملوك يحدد خدمته، ويواتر للولي أدعيته؛ ويعترف بمننه التي أقرت بها ألسنة
جوارحه فلا يستطيع أن ينكرها؛ ويعترف بيد تضرعه من بحار جوده التي تتعب
الولي من سخائها إلى كل ولي وتقدف له جواهرها .

وينهى ورود المكاتبه والعلم بمضمونها، والأختواء على سائر معاني فنونها؛
وما أشار إليه من العتب الذي يرجو به بقاء الوداد، وأستصحب حال التواصل
من غير نقاد؛ والمملوك فلا ينكر ذنبه، ولا يتنصل ولا يتوصل بل يعترف بجرمه وقلة
خدمته؛ ويستمسك بالعروة الوثقى من إحسانه وحلمه، ويسأل مكارمه إجراءه
على عادته بالصَّفح عنه ورسمه؛ وهو يرجو أن أم هذه الهفوة لا تلد لها أختاً، وأنه
لا يعتمد إلا ما يزيد إلى المولى مقةً ويزيل مقته؛ فإن معاتبته مولانا قد وعثها أدن
واعيه، ومراضيه لا تخفى على المملوك بعد ذلك منها خافيه؛ إن شاء الله تعالى .

آخر : أسعد الله المجلس وعطف للأولياء قلبه، ونصر آتية وأنفد كتبه؛
وأرَهَف في نُصرة الإسلام سنانهُ وعَضَبه؛ وألم حبة قلب الزمان حبه؛ وأقدره
على الحلم الزائد حتى يغفر به لكلِّ مُذنب ذنبه .

[وينهى] وُرودِ الكُتابِ الذي أَعَدَّته يَدُ مولانا فِصارِ كَرِيمَا ، وَكَسْتَهُ عِبَارَتُهُ تَوْبَ بَرَاعَتِهِ فَأَصْبَحَ مَنظَرُهُ وَسِيمَا ، وَأَسْتَنْشَقُ عَرَفَ نَسِيمِهِ الْمُبَارِكِ فَطَابَ شَمِيمَا ؛ وَعِلْمُ الْمَلُوكِ مِنْهُ شِدَّةٌ عَتْبُهُ ، وَمُرُّ التَّجَنِّيِّ الَّذِي ظَهَرَ مِنْ حُلُولِ لَفْظِهِ وَعَدْبُهُ ؛ وَلَمْ يَعْرِفْ لَعْتَبَهُ مُوجِبَا ، وَلَا تَغْيِيرَ مَوَدَّتِهِ سَبَبَا ؛ فَإِنَّهُ مَا حَادَ عَنْ طَرِيقِ وِلَايَتِهِ وَلَا حَالَ ، وَلَا زَلَّتْ قَدَمُهُ عَنْهُ وَلَا زَالَ ؛ وَلَا مَادَ عَنْ مَنَهِجِ الْمَوَدَّةِ وَلَا مَالَ ؛ وَمَا قَتَيْتَ لِمَحَاسِنِهِ نَاشِرَا ، وَلَا إِحْسَانَتِهِ شَاكِرَا ؛ فَإِنْ كَانَ قَدْ نُقِلَ عَنْهُ إِلَى مَوْلَانَا شَيْءٌ أَرْجَحَهُ ، وَأَخْرَجَهُ عَنْ عَادَةِ حِلْمِهِ وَأَخْرَجَهُ ؛ فَإِنَّ الْوُشَاةَ قَدْ أَخْتَلَقُوا قَوْلَهُمْ وَنَقَلَهُمْ ، وَقَصَدُوا تَشْتِيتَ الْمُصَاحِبَةِ شَتَّتَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ :

وقد نقلوا عني الذي لم أفه به * وما أفه الأخبار إلا رواها!

آخر: وردت المشرفة العالية أعلى الله نجم مرسلها؛ وأسبغ أيديه وشكر جسيم تفضيلها؛ فابتهجت الأنفس بحلوها وحلل جمالها، وعوملت بما يجب من إكرامها وإجلالها، وفُضِّ ختامها ففاح منها أرج العبير والعنبر، وتليت ألفاظها التي هي أهبى من الرياض وأحلى من السكر؛ فأغنت كئوس فصاحتها عن المدام، وأزال ماؤها الزلال البارد حر الأوام؛ وأعرب منشيها عمما في ضميره من العتب، والضيق الذي حصل في ذلك الصدر الرحب؛ وهو يُقَسِّمُ بِنِعْمَتِهِ ، وَبِصَادِقِ مَحَبَّتِهِ ؛ أَنَّهُ لَمْ يَبْدُ مِنْهُ مَا يُوجِبُ عَلَيْهِ عَتْبَا ، وَلَا أَنْتَى عَنِ النَّاءِ عَلَيَّ [مَحَاسِنُهُ] ^(١) الَّتِي شَغَفَتْهُ حُبَا ؛ فَإِنْ كَانَ الْمَوْلَى قَدْ تَوَهَّمَ شَيْئًا أَخْرَجَهُ وَأَقْلَقَهُ ، وَإِلَى أَلِيمِ الْعَتْبِ شَوْقَهُ ؛ فَلْيَزِلْ ذَلِكَ الْوَهْمَ مِنْ خَاطِرِهِ ، وَلْيَتَّقِ بِمَا تَحَقَّقَ مِنْ مُوَالَاتِهِ فِي بَاطِنِهِ وَظَاهِرِهِ ؛ وَرَأْيُهُ الْعَالِي .

(١) بياض في الأصل والتصحيح من المقام .

آخر: أعز الله عزَماته، وشكرَ جسيمَ نفضلاته .

ولا زالت نعمته باقيه، وقدمه إلى درج المعالي راقبه؛ وهمته إلى السمو على الكواكب ساميه، وسماءُ جوده على العفاة هاميه؛ وعزمته لتغور الإسلام حامية، عبد نعمه، وغرس كرمه، يعلمه بصدق وده، والمداومة على شكره وحمده؛ وأنه وقف على مشرفه وفهمه، وشاهد منه عتبه وعلمه؛ وهو لا يشكو من المولى جفاء ولا يعيب، و[عن] طريق المصافاة والمخالصة فلا يغيب؛ بل يقول:

أنت البريء من الإساءة كلها * ولك الرضا وأنا المسيء المذنب

والمرجو من لطافة أخلاقه، وطهارة أعراقه، أن يصفح عن زلته، ويعفو عن ذنبه وإساءته:

فأنت الذي تُرجى لتخفيف زلتي * وتحقيق آمالي ونيل ما ربي!

وقربك مقصودي وبابك كعبتي * وروياك ياسؤلي أعز مطالي!

قلت: وكتبتُ إلى المولى شهاب الدين الدنيسري وقد بلغني عنه مساعدة بعض

الجهال على في بعض الأمور:

عهدتُ شهاب الفضل يري بسهمه * شياطين جهل أن تُداني جنابه!

فأ بال مولانا على فرط فضله * يعرفُ شيطان الجهالة بابه؟

النوع الرابع عشر (العيادة والسؤال عن حال المريض)

رُقعة عيادة :

ويُنهى أنه أتصل بالملوك من ألم مولانا - أطال الله بقاءه ، وحرس حوابعه -
 ما أسمى مدايمه ، وأحصى أضالعه ؛ ومزق جلده ، وحرق خَلده ؛ وأطار الوسن عن
 عينه ، ونقر الهدوء عن مضجعه ؛ حتى تدارك الله تعالى بكنايه الناطق بإفلاق الملم ،
 المغرب عن دفاع المهيم ؛ فرقا من دموعى ما أرفض ، وجبر من ضلوع الملوك
 ما أرتض ؛ والتأم من جلده ما نططر ، وبرد من خَلده ما توقد ؛ وجثم ما طار من وسنه
 وآس من الهدوء ما نقر عنه ، والتأمت الآمال بعد أنثلامها ، وبرزت ثمار الأمانى
 من أكامها ؛ وطلع من الرجاء آفله ، وروى من السرور ماحله ؛ وتجدد من السؤدد
 طامسه ، وصحك من الزمان عاسه ؛ والله تعالى يغض طرف الحدان ، عن مهجته ،
 ويصرف صروف الزمان ، عن ساحته ؛ ويهنيه بما أعاده إليه من الإبلال ، ويمليه
 بما أفاضه عليه من الاستقلال ، بمنه وكرمه ؛ إن شاء الله تعالى .

رُقعة : ويُنهى أن ما خامرته من قلق وجرع ، وفرق وهلع ، بسبب ما بلغه من
 شكوى مولانا لا تحصره الأوهام ، ولا تُسطره الأفلام ؛ ولولا ثقة الملوك بالله تعالى
 لو هت عقد صبره ، ولا تلخ فؤاده من صدره ؛ وقد علم الله تعالى أن هذا الألم
 لو نُقل إلى الملوك لما ثقل عليه ، وكيف يستنقل ما يحفف عن مولانا وصبه
 ويحسمه ، ويعكف له سلك الشفاء وينظمه ؛ والله تعالى يجعله فى أمان من
 كفايته ، وضمائم من حياطته ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) فى الاصل "توفر" بالفاء والراء وهو لا يناسب المعنى .

أجوبة كُتِبَ الشَّفَاعَاتِ وَالْعِنَايَاتِ^(١)

قال في "موادّ البيان" : هذه الكُتُبُ إذا أُجِيبَ الملتَمِسُ إلى حاجته فينبغي أن تُبْنَى أجوبتها على شُكْرِ مقصد الشافع ، والإدلالِ والأسترسالِ وإنالَةِ المشفوع له وَطَرَهُ إيجابا لحقّ الشافع ؛ وإن وقع الأمتناعُ والتوقفُ عن الإجابة إلى الملتَمِسِ ؛ فالواجب أن تُبْنَى على إقامة العُدْرَ لا غيرُ .

زهر الريح :

جوابُ شفاعَةٍ في حقّ كاتب :

جَدَّدَ اللهُ [له] السعادةَ وخَلَّدَهَا ، وأصَارَهَا له شِعَارًا وأبَدَهَا ؛ ووطَّدَ به الممالكَ ومَهَّدَهَا ؛ وعَضَّدَ به طائفةَ الإسلامِ وأيَّدَهَا ؛ وشكَّرَ له صنائعَ يعدُّ منها وليُّ ولائِكُلِّ يستطيعُ أن يعدَّدها .

المملوكُ يقبَلُ اليدَ الشريفةَ أداءً للفرَضِ اللازمِ ، وشُكْرًا لما أولَّته من الأيادي والمكارمِ ؛ وحمداً لألطفِهِ التي أطمعته بالتمييزِ فأصبحَ برِّعِ قدره كالجازِمِ .

وينهى ورودَ المشرفِ الذي نَزَّهَ ناظِرَهُ ، وجبرَ قلبَهُ بِحُسْنِ ألفاظِهِ وخاطرِهِ ؛ والعلمُ بما أمرَ به ، وشَفَعَ إلى المملوكِ بسببِهِ ؛ وهو الكاتبُ الذي أشارَ إليه ، وقد رَكَّنَ إلى ما شكَّرَهُ به المولى وأثمَّنَى به عليه ؛ وأَعْتَقَدَ يَمِينَ^(٢) إغارةَ الشافعِ فَعَقَّدَ على المشفوعِ فيه خِصْرَهُ ، وتَقَدَّمَ بترتيبه في ديوانِ إنشائه ، وجعله من جُملةِ خَوَاصِّهِ وخُلَصَائِهِ ؛ وفعلَ ذلكَ كلَّهُ أتباعاً لإشارتِهِ ، وقبولاً لشفاعته ؛ فالمولى يواصلُ بمراسمِهِ وأمثلتهِ ، فإنَّها تَرِدُ على مُرْتَسِمٍ ممثِلِ .

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهي مؤخره من تقديم فتنبه .

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنه : جواب شفاعة في استخدام جُنْدِي :

ضاعفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَهُ ، وَأَرْهَفَ فِي نُصْرَةِ الْإِسْلَامِ سَيْفَهُ وَقَلَمَهُ ؛ وَلَا بَرَحَتْ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ نَاطِقَةً بَوْلَانِهِ ، وَأَيْدِي ذَوِي الرِّجَاءِ مَمْلُوءَةً مِنْ فَوَاضِلِ نِعْمَائِهِ .

المملوكُ يُوَأْصَلُ بِأَدْعِيَتِهِ الصَّالِحَةِ ، وَيَسْتَنْشِقُ رُوحَانِيَّ رِيحِكُمْ فَيَسْكُنُ مِنْهُ بَلَدِيذَ تِلْكَ الرَّائِحَةِ ؛ وَيَشْكُرُ لَهُ مَا مَنَحَهُ مِنَ الْمَكَارِمِ ، وَيَبَاهِي بِعِزَمَاتِهِ اللَّيُوثَ الضَّرَّاعِمَ ؛ فَلَا يَجِدُ مُضَاهِيًّا لِتِلْكَ الْعِزَامِ .

ويُنْهَى وَرُودَ الْمِثَالِ الَّذِي أَشْرَقَتْ الْوُجُوهُ بِنُورِهِ ، وَأَبْتَهَجَتْ الْأَنْفُسُ بِبِلَاغَةِ مُنْشِيهِ وَوَشْيِ سُطُورِهِ ، وَعَلِمَ إِشَارَةَ الْمَوْلَى فِي مَعْنَى فُلَانٍ : أَدَامَ اللهُ سَعْدَهُ ، وَأَعَدَّبَ مَنَّهُلَهُ وَوَرَدَهُ ، وَالتَّوَصِيَةَ بِأَمْرِهِ ؛ وَمَا أَبْدَاهُ مِنْ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ، وَأَنْ يُقَطِّعَ إِقْطَاعًا يَلِيْقُ بِأَمْتَالِهِ ، وَيَتَفَيَّأُ مِنْ نَحْرَاجِهَا ضَافِي ظِلَالِهِ ، وَغِنْدَ مَثُولِ مِثَالِهِ الْعَالِي أَمْتِثِلَ وَالنَّثِيمَ ، وَاسْتَعْدَمَ الْمَشَارَإِلِيهِ لِإِشَارَتِهِ وَخَدَمَ ، وَهَذَا بَعْضُ مَا يَجِبُ مِنْ قَبُولِ أَمْرِهِ ، وَتَعْظِيمِ كِتَابِهِ وَتَجْمِيلِ قَدْرِهِ ، فَيُوَأْصَلُ بِمَرَامِهِ فَإِنَّهَا تُقَابِلُ بِالْأَرْتِسَامِ ، وَمَشْرِفَاتِهِ فَإِنَّهَا تُعَامَلُ بِوَأْفِرِ الْإِكْرَامِ .

جوابُ شفاعة في الجملة :

قُلْ مَا تَنْشَأُ فَإِنِّي لَكَ طَائِعٌ * مَا أَنْتَ عِنْدِي شَافِعٌ بِلِ أَسْرٍ !

جعله اللهُ لِكُلِّ خَيْرٍ سَبَبًا ، وَحَقَّقَ بِهِ لِأَوْلِيَائِهِ ظُنُونًا وَحَصَلَ أَرْبَابًا ؛ وَوَفَّرَ لَهُ مِنْ أَلْبَرِ شَفَاعَتِهِ الْحَسَنَةِ نَصِييَا ، وَأَدَامَهُ عَنْ كُلِّ شَرِّ بَعِيدًا وَإِلَى كُلِّ خَيْرٍ قَرِيْبًا .

المملوكُ يَنْهَى تَأَلُّهُ لِفِرَاقِهِ ، وَمَا يَجِدُهُ مِنْ صَبَابَتِهِ وَشِدَّةِ أَشْوَاقِهِ ؛ وَيُعَانِيهِ مِنْ جَبِينِهِ وَأَتَوَاقِهِ ، وَأَنْهُ وَرَدَ عَلَيْهِ كِتَابُهُ فَاسْتَلَمَهُ وَنَمَّهُ ، وَبِجَلِّهِ وَعَظَمَتِهِ ؛ وَعَلِمَ مَا أَشَارَ

إليه ، وأخذ أمر المشفوع فيه بكننا يديه ، وجعل قضاء أربه أمراً لازماً ، وما قتي
على ساق الاجتهاد قائماً ، إلى أن حصل غرضه ، وأدى من حسن القيام بأمره
ما أوجبه مشرفه العالی وأقرضه ، والمولى أمر غير شفيح ، ومهما ورد من جهته
على المملوك فوارد على سميع مطيع ؛ فيواصل من مراسمه بما سنع ، ومن أخباره بما
تأرجح طيب عرفه وفتح ؛ ورأيه في ذلك العالی .

آخر : شكر الله عوارفها ، وتالد جودها وطارفها ، ووافر ظلالها ووارفها ؛
وينهى ثناءه على معاليه ، وملازمته ومداومته على بث محاسنه ونث آياديه ؛ وحمدي
عواقب إحسانه ومباديه ، وشدة أشواقه إلى جنابه ، ولذيد مشاهدته وخطابه ؛
وما يعانیه من غرام لازمه ملازمة الغريم ، وداء صباية يضاعف شوقه إلى رؤية
وجهه الوسيم ؛ ومداومته على التعوض بشكر محاسنه عن المدامة والنديم ؛ ونظم
جواهر مدحه لجيد جوده ، وحمد المولى على ذلك التنظيم ؛ وأنه ورد عليه مشرفه
العالی فقبله ، ودعا لمُرسله دعاء يرجو من الله تعالى أن يستجيبه ويتقبله ؛ وحصل له
بوصوله آتجاج عظيم ، وقال لمن حضر وروده ﴿يا أيها الملائة اني أُنثي إلى كتاب كريم﴾
وفيه مضمونه وحقواه ، وعلم معناه وما أظهره فيه وأبداه : من الوصية بفلان
وما يؤثر من تسهيل مطالبه ، وتيسير مآربه ؛ ووصل المشار إليه وحصل الأئس
برؤيته ، وتمتعت البواظر والمسامع بمشاهدته ومشافهته ؛ وقام المملوك في أمره قياماً
تاماً ، وجعل عين اجتهاده في مصلحته متيقظة لاتعرف مناماً ؛ وشمر عن ساق
الاجتهاد ، في تحصيل المرام والمراد ، إلى أن حصل له الفوز بنيل أمله ، وعاد راتعاً
من العيش في أخضره وأخضله ؛ رافلاً من السرور في أهبى حلاله ، فيحيط علمه
بذلك ، والله تعالى يعضد به الدول والمالك ؛ إن شاء الله تعالى .

آخر: جعله الله مفتاحاً لكلِّ بابٍ مُرْتَجٍّ، وَصَدَّقَ بِهِ [أَمَلٌ] كُلُّ أَمَلٍ وَحَقَّقَ رَجَاءَ كُلِّ مُرْتَجٍّ، وَلَا زَالَتْ سَحَابُ جُودِهِ هَامِيَةً بِالْوَسْمِيِّ وَالْوَلِيِّ، مَا طَرَّةٌ بَوْبُلَهَا وَطَلَّهَا عَلَى الْوَلِيِّ.

المملوكُ يُخْدَمُ بِحَيَّةِ أَرْقٍ مِنَ النَّسِيمِ، وَسَلَامٍ أُطِيبَ عَرَفًا مِنْ بَابِ النَّقَا إِذَا تَحَمَّلتْ عَرَفَهُ رِيحُ الصَّرِيمِ.

وينهى إلى عليه الكريم ورود مشرقته وأنه أحاط بمضمونها علماً، وشاهد منها في حال طيها مكارم أصارت تفضيله على حاتم الطائي حتماً؛ ووقف منها على در لفظ قدفه بحر خاطره نثراً ونظماً؛ وبراعة عبارة زادت قلب مواليه غراماً وأنف مناويه رعماً؛ وفصاحة عرفته قوله صلى الله عليه وسلم «إِنَّ مِنَ الْبَيَانَ لِسِحْرًا وَإِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحُكْمًا»^(٢) وفهم عنايته بفلان نفع الله بعلمه وعمله، وقرب له من الخير مالا يُطمعه به بعيد أملة؛ وإشارته بسبب التنبيه والإرشاد على جمل فضائله، ومفصل مناقبه المشهورة في البلاد، وإيضاح كفايته في وجيز تلك الفصول الصحاح الإسناد، فحال قدوم المذكور وحلوله، وورود مشرفه ووصوله؛ أنهى المملوك أمره إلى مخدومه، وطالع به شريف علومه؛ ولا زال يُحسن سعيه، ويعتمد على مشيئة الله ولا يترك حرصه ومشيئه؛ إلى أن حقق قصده بقضاء شغله، وقرب له أمد أملة، وكتب توقيعه ولم يرد الله تعويقه، ونجح طعم قصده وأنجح الله طريقه؛ وقد عاد مصحوباً بالسَّلامه، معروفاً بتحصيل هذا القصد بأنه (طَّلَاعُ الثَّنَائِيَا) من غير وضع العيامة، حسب إشارة المولى وأمره، والله تعالى يمدّه بصونه ونصره.

(١) الولي المطر الذي يأتي بعد الوسمي ووقع في الأصول "الوبلي" وهو تحريف واضح.

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقه أى إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه.....

آخر: في استخلاص حق .

شَكَرَ اللهُ إِحْسَانَهُ وَإِنْعَامَهُ ، وَحَصَّلَ بِهِ لِكُلِّ وَوَلِيٍّ مَرَامَهُ ، وَحَدَّ تَطَوُّلَهُ وَتَفَضُّلَهُ ، وَأَنَالَ بِهِ لِكُلِّ أَمِيلٍ أَمَلَهُ ، وَخَلَّدَ دَوْلَتَهُ ، وَأَدَامَ نِعْمَتَهُ ، وَأَنفَذَ كَلِمَتَهُ ؛ وَلَا زَالَ فَضْلُهُ كَامِلًا ، وَإِحْسَانُهُ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ وَإِصْلَافًا ؛ وَنَوَالُهُ لِبَنِي الْآمَالِ شَامِلًا .

المملوك يخدم بدعاء أحسن من نور الربا، وثناء أطف من ربح الصبا؛ وسلام أطيب بمروءة من تذكُّر أيام الصبا .

وينهى ورود الكتاب الذي طاب بالمولى محتده ونجاره، وزاد على كتاب الكُتُبِ نِجَارَهُ ، وَأَنَّهُ وَقَفَ عَلَيْهِ وَقُوفَ مُشْتَاقٍ إِلَى مُرْسِلِهِ ، شَاكِرٍ أَنْعَمَ فَضْلِهِ وَجَسِيمَ تَفَضُّلِهِ ؛ فَأَسْكُرْتَهُ تِلْكَ الْفَصَاحَةَ بَسَدَاها الْأَرَجُ ، وَتَزَهَتْ لِحْظَهُ فِي دُرِّ لَفْظِهَا الْبَهَجُ ؛ فَظَنَّا لَمَّا اسْتَنْشَقَ رَائِحَتَهَا رَاحًا قَرَفَقَا ، وَلَمَّا أَهْبَجَهُ لَفْظُهَا بِالْفَاظِ تُرْهِى عَلَى الرِّيَاضِ رَوْضَةً أَنْفَا ؛ وَعَلِمَ الْإِشَارَةَ الْكَرِيمَةَ فِي مَعْنَى 'فَلَانِ' وَالْوَصِيَّةَ بِخِدْمَتِهِ ، وَمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ مُسَاعَدَتِهِ وَمُسَاعَفَتِهِ ؛ وَعِنْدَ وُصُولِ مَشْرِفِ الْمَوْلَى وَقَبْلَ وَضْعِهِ مِنْ يَدِهِ ، نَوَى الْمَمْلُوكُ مُسَاعَدَةَ الْمَذْكُورِ عَلَى مَقْصَدِهِ ، فَتَقَدَّمَ بِإِحْضَارِ غَرِيمِهِ فَوَجَدَهُ عَنِ الْبَلَدِ غَائِبًا ، فَانْتَظَرَهُ إِلَى أَنْ عَادَ آتِبًا ؛ فَعِنْدَ وَصُولِهِ طَلَبَهُ وَأَحْضَرَهُ ، وَسَأَلَهُ عَمَّا يَدَّعِيهِ عَلَيْهِ خَصْمُهُ فَأَنْكَرَهُ ؛ وَطَلَبَ الْحُضُورَ إِلَى الْقَاضِي ، وَحَثَّ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى أَوْهَمَ أَنَّهُ الْمُتَقاضِي ؛ فَلَمَّا رَأَى الْمَمْلُوكُ أَنَّ حُجَّةَ الْمَشْفُوعِ فِيهِ لَا تَقُومُ بِصَدَقِ دَعْوَاهِ وَحُجُجِ ، وَلَا يَظْهَرُ بِهَا عَلَى غَرِيمِهِ إِلَّا مِنْ طَرِيقِ حَرَجٍ ؛ بَدَّلَ فِي مُصَالِحَتِهَا جُهْدَ الْإِجْتِهَادِ ، وَمَا زَالَ يُرْسِدُهَا إِلَى طَرِيقِ الرَّشَادِ ؛ وَيُدْهِمُهَا عَلَى سَبِيلِ السَّدَادِ ، وَيَعْرِفُهُمَا أَنَّ التَّضَارُّرَ ضَيْرٌ ، وَأَنَّ الصُّلْحَ خَيْرٌ ؛ فَكُلَّ مِنْهُمَا يَهِيمُ فِي وَادٍ ، وَيَسْتَلِقُ خَصْمَهُ بِالسَّنَةِ حَدَادٍ ؛ إِلَى أَنْ تَرَاضِيًا وَتَوَافَقًا ، وَسَلَكَا طَرِيقَ الرَّفْقِ وَتَرَافَقَا ؛ وَصَدَّقَ الْخَصْمُ

خَصَمَهُ فَصَادَقًا ، وَأَنْفَصَلًا وَكُلٌّ مِنْهُمَا قَدْ أَرْضَىٰ خِيَدَهُ ، وَعَنِ الْحَاكِمَةِ وَالْمَحَافِقَةِ
أَغْضَىٰ جَفْنَهُ .

آخر : أيد الله سعد المولى وأبده ، وأثل مجده ومجده ؛ وأعانه على إساءة
العوارف وعصده ؛ وأمدّه من المسرات بما يُزيل عن الأيام أبده ، وأناله سعدا لا تبلغ
الأنام أمده ؛ ولا زال بردُ جدّه من السعادة جديدا ، ونجمُ عدوه آفلا ونجمه سعيديا .

الذي يُحيط به علمه الكريم أنّ كتابه ورد فسرى همّ الأنفس وسرها ، وضاعف
بما ضاع من نشره بشرها ؛ وفاح منه شداً عند إقباله ، فقيل : قد هبت القبول ،
وربح الأولياء ، فقيل : قد هبت ريح الشمال وأديرت الريح الشمول ؛ وأنّ المملوك
وقف منه على ألفاظ سقته كئوس سرور لا كئوس مدام ، وروت له أخبار حلم
لو أسنبت إلى سواه لتوهّمت أضغاث أحلام ؛ وروت أكبداً أضرت بها لعينته حرّ
ظمأ وأوام ؛ وبيّنت سحر البيان ، وأعربت بلسان حسنها عمّا لمنشئها بل مؤشئها من
الإحسان ، وأغربت في الفصاحة نخلنا كلّ كلمة تتطق عن سبحان بلسان ؛ وزهت
ببائع ثمار فضلها فتزهت كلّ عين في بستان ؛ وعلم إشارة المولى في معنى فلان ،
وما أبداه من العناية في حقّه ، والإيثار لصلة رزقه ؛ وأنه من الأتزام ؛ والذين
تجب معاملتهم بالإكرام والأحترام التام ؛ وعند ما شاهد المملوك كتاب من شرفه ،
وسمع ألفاظه التي بلطفها أتحفه ؛ بل بردائها على البرد ألحفه ، تقدم بإجابة سؤاله ،
وترتيبه في جهة تليق بأمثاله ؛ وقصه من العناية قيصاً لا يبلى ، وجمع لخاطره والدعة
شتملاً ؛ وهذا حسب إشارة المولى التي لا تُخالف ، وأمره الذي يقف كل أحد عنده
ولا يستوقف ولا يوافق .^(٢)

(١) أى غضبه فهو مصدر أبد عليه كفرح إذا غضب .

(٢) هذا آخر ما حقه التقديم بعد النوع الرابع وقيل الخامس فتنبه .

كتاب إلى مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حاشي مَرَاجَكَ مِنْ أَدَى * وَكِرِيمَ جِسْمِكَ مِنْ وَصَبِ !
 يَا غَايَةَ الْمَأْمُولِ وَالْمَرْجُوًّا كُلَّ الطَّلَبِ !
 مُدْغِبَتَ عَنِّي لَمْ أَزَلْ * مِنْ بَعْدِ بَعْدِكَ فِي نَصَبِ !
 جَفْنِي غَرِيقٌ بِالْدُمُوعِ * عِجْ وَمَاءُ صَبْرِي قَدْ نَصَبِ !
 وَاللَّهِ مَالِي فِي الْبَقَا * ءِ وَأَنْتَ نَاءٍ مِنْ أَرْبِ !
 فَتْرِي ^(١) أَبْشُرُ سَيِّدِي * أَنْ الْلِقَاءَ قَدْ أَقْتَرَبِ !

حرس الله مزاج المولى! وأصار العافية له شعارا؛ والصحة له دنارا؛ ولا زالت ساكنة في جوانحه، مقيمة حشواً أعضائه المباركة وجوارحه .

أصدرها المملوك تُعْرِبُ عن شوقٍ يَكُلُّ عن وصفه اللسان، وتوقٍ لا يُحْسِنُ وصفه البنان؛ ولا عجز يعجز عن حمل بعضه الحنان، متمسكا المواصلة بأخباره، وواصفاً ما يجده القلب من ألم الشوق وناره؛ وشاكياً من جور أيام الفراق، وراجياً أن يُبَشِّرَ بالإبلاغ من مرضه والإفراق؛ وداعياً إلى الله بتعجيل أيام التلاق. ومع ذلك فلو رُمت أن أشرح كل ما أجده من الصبابة لأسأمتُ وأسهبْتُ، بل لو ذكرتُ ما أعانيه لألمه لثقلتُ على خاطره وشوشتُ، لكن خاطر المولى شاهدٌ بوجدى، وعارفٌ بما تحلته من الكآبة التي لم يجملها أحدٌ قبلي ولا تُحْمَلُ بعدي؛ فيواصلُ بأخباره، والله يحرسه آناء ليله وأطراف نهاره؛ إن شاء الله تعالى .

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هذا الفعل الفارابي وتبعه الجوهري وأستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الخذاق وقال الصواب هوشت .

في معناه :

يَأْمَنُ شَكَا فُشَا فُؤَادِي حُرْفَةً * لَا تَتَطَنِّي وَصَابَةٌ لَا تَبْرُحُ !
 وَغَدَا سَقِيمَ الْحَسَمِ يَوْمًا وَاحِدًا * فَتَرَحُّتُ دَمْعًا لِلدَّمَاعِ يَجْرُحُ !
 وَأَزْدَادَ شَوْقِي نَحْوَ طَلْعَتِهِ الَّتِي * أَبَدًا يُؤْمِنُ بِهَا مَنَّا أَسْتَجِجُ !
 لَا زِلَّتْ فِي عِزٍّ وَسَعْدٍ دَائِمٍ * أَيَّامُنَا بِيَقَانِهِ نَتَبَجَّحُ !
 وَبَقِيَتْ مَا بَقِيَ الزَّمَانُ مُؤَيَّدًا * نُؤْمِسِي قَرِيرَ الْعَيْنِ فِيهِ وَتُصْبِحُ !

كَلَّمَ اللَّهُ عَافِيَةَ الْمَوْلَى وَحَرَسَهُ ، وَلَا سَلَبَهُ ثَوْبَ الصِّحَّةِ بَلْ قَمَّصَهُ إِيَّاهُ وَالْبَسَهُ ؛
 وَأَخْدَمَهُ الْأَيَّامَ فَلَا تَسْتَطِيعُ مَخَالَفَةَ أَمْرِهِ وَلَا الْخُرُوجَ عَنْ حُكْمِهِ ، وَرَزَقَهُ أَنْ يَمْلِكَ
 الدُّنْيَا بِحَدِّهَا وَهَذَا يُحْصِلُ بَعَافِيَةَ جِسْمِهِ .

المملوك ينهى أنه أتصل به تألمه فشق ذلك عليه، ووصل من القلق إلى حد
 لم يصل المولى والحمد لله إليه؛ وأبتهل إلى الله في معافاة جسده، وأن يعضده ببقاء
 والده وولده؛ ويضاعف تسهيل مآربه ومقاصده، ويرفع كلمته وقدره على رغم
 معطس شائنيه الأبتير وحاسده؛ إن شاء الله تعالى .

جواب^(١) إلى من قنطره فرسه :

ثَبَّتَ اللَّهُ قَوَاعِدَ مَجْدِهِ ، وَبَلَّغَهُ سَعْدًا لَا تَبْلُغُهُ الْأَمَالُ لُبْعُدَهُ ؛ وَأَهْمَى عَلَيَّ مَحْيِيَهُ
 سَحَابَ جُودِهِ وَرِفْدَهُ .

(١) جارى في هذا الفعل اللغة العامية والصواب قنطره قال الشاعر :

قد علت سلى وجاراتها * ما قطر الفارس الا أنا

المملوك يُحْدَم بِتَحِيَّةِ أَرْقٍ مِنَ النَّسِيمِ ، وَيَشْكُرُ مَوَاهِبَهُ الَّتِي مَازَلَتْ تَحْنُو عَلَيْهِ حَنُوَ
الْمُرْضِعَاتِ عَلَى الْفَطِيمِ .

وَيُنْهَى رُودَ الْخَبْرِ بِأَنَّهُ كَبَّاهُ جَوَادُهُ عِنْدَ مَا زَلَّتْ قَوَائِمُهُ ، وَأَثَقَلَتْهُ فِضَائِلُ الْمَوْلَى
وَمَكَارِمُهُ ؛ فَاتَّزَعَجَ لِذَلِكَ وَتَأَلَّمَ ، وَكَادَ قَلْبُهُ لَوْلَا الْمُبَشِّرُ بِسَلَامَتِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ ؛ وَجَوَادُ
الْمَوْلَى لِاسْتَيْلِ إِلَى ذِمَّتِهِ ، فَإِنَّهُ أَسْمَحُ جَوَادٍ ، وَلَا أَتَمَّ سَامِهِ بِالْعَجْزِ ، فَإِنَّهُ عُرِفَ بِإِتِّهَامِ
وَإِنْجَادِ :

لَكِنَّهُ نَظَرَ الْأَفْلَاكَ سَاجِدَةً * إِلَى عِلَاكَ فَلَمْ تَتَّهَبَتْ قَوَائِمُهُ !

وَالْمَوْلَى أَوْلَى مَنْ قَابَلَ عُدْرَ طَرْفِهِ بِطَرْفِ الْقَبُولِ ، وَأَعْتَمَدَ عَلَيْهِ دُونَ سَائِرِ
الْخِيُولِ : فَإِنَّ الْمَوْلَى وَلِلَّهِ الْحَمْدُ فِي صِحَّةِ دَائِمِهِ ، وَسَلَامَةِ مَلَازِمِهِ ؛ وَهَذَا هُوَ الْقَصْدُ
وَالْمُرَادُ ، وَالْأَسْتِبْشَارُ الَّذِي تَفْتَرُّهُ نُغُورُ الثُّغُورِ وَتَعْمُرُ بِهِ الْبِلَادُ ؛ جَعَلَهُ اللَّهُ فِي سَعِيدِ مَالِهِ
فِرَاعًا وَلَا نَفَادَ ، وَرَزَقَهُ مَا دَعَا بِهِ الْعِبَادُ الْفَاضِلُ وَالْفَاضِلُ الْعِبَادَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَجْوِبَةُ كُتُبِ الْعِبَادَةِ

قَالَ فِي "مَوَادِّ الْبَيَانِ" : يَجِبُ أَنْ تَبْنِي هَذِهِ الْأَجْوِبَةَ عَلَى وُضُوعِ الرُّقْعَةِ ،
وَمَا صَادَفَتْ الْمَرِيضَ عَلَيْهِ مِنَ الْمَرَضِ ، وَأَنَّهَا أَهَدَتْ رَوْحَ الْهُدُوءِ ، وَأَرَكَدَتْ رِيَّاحَ
السُّوءِ ؛ وَأَقْبَلَتْ بِنَسِيمِ الْإِبْلَالِ ، وَتَضَوَّعَتْ بِأَرْجِ الْإِسْتِقْلَالِ ؛ وَبَشَّرَتْ بِالْعَافِيَةِ
وَالسَّلَامَةِ ، وَأَذَنْتْ بِالصَّلَاحِ وَالْإِسْتِقَامَةِ ؛ وَأَشْبَاهَ هَذَا .

ابن نباتة المصري :

شَكَرَ اللَّهُ أَفْتِقَادَهَا وَأَنْسَاهَا ، وَقَلَبَهَا وَطَرَسَهَا ؛ وَحَمَى مِنْ عَارِضِ الْخَطْبِ لِامِنْ
عَارِضِ الْخِصْبِ شَمْسَهَا ؛ وَلَا أَعْدَمَ الْأَوْلِيَاءَ قَصْدَهَا الْجَمِيلِ ، وَوَدَّهَا الْجَلِيلِ ، وَإِحْسَانَ

رسائلها التي كُرِّمَتْ فما صَوَّبُ العَمَامَ لها رَسِيلَ ؛ وأمتع الممالك يُيُنِّها التي صَحَّتْ بتديره فليس غيرَ النَّسِيمِ عَليْل .

وَيُنْهَى وُروْدَ المشرفِ الكريمِ فبتلقاه المملوكُ حَيِّباً وارِداً ، وطيبياً بإحسانِهِ وللجسدِ عائداً ؛ وفهَمَ المملوكُ ما أَنْطوى عليه من الصَّدَقَاتِ التي ما زَالَتْ في فهمِهِ ، والمحبةِ الصادقةِ التي ما عَزَبَتْ عنِ علمِهِ ؛ وما تَضَمَّنَ من فصولِ كَانَتْ أَنْفَعَ من فُصولِ أَقْرَاطِ لمعالجةِ جِسْمِهِ ؛ وأينَ أَقْرَاطُ من بركاتِ كِتابِ مولانا الذي طالَعَ منه كِتابَ الشِّفاءِ على الحَقِيقَةِ ، والنَّجاةِ من عُرْوَةِ البأسِ الوَثِيقَةِ ؛ وأذُنِي ورَقَّتْه الجمرَاءُ لرأسِهِ تبرُّكاً وإِكْرَاماً وقال : نِعْمَ الجَلَنارَةُ المَعوَّذَةُ من الشَّقِيقَةِ ، وأسْتَبَطَّ حُرُوفُها فإنها عن أَيْدِي الكَرِيمِ والكَرَاماتِ ، ولَمَّ العلامَةَ وتمسَّكَ بالسُّطورِ فإنها من أسبابِ الصَّحَّةِ والعَلَاماتِ ؛ ووافقتْ عيادةُ مولانا مبادئَ العافيةِ وأذنتْ بالزيادِهِ ، وصلَحَ خطُّهُ الكَرِيمِ عائداً وما كلُّ خطٍّ يصلُحُ للعِيادةِ ؛ وما تلكَ الجارحةُ المتألمةُ إلا يَدٌ أَثَقَلَتْها مِنُ مولانا فَأَعْيَتْ وتألَّمتْ ؛ ثم أعاتبها بركتُهُ هي والقدمُ بالحملِ العظيمِ وتقدَّمتْ ؛ وما بَقِيَّةُ الجوارِحِ إلا عيونٌ كَانَتْ تنتظرُ لُطْفَ الله تعالى وبركتِهِ وقد قَدِمَتْ ، فشكرا لها من بركاتِ تَنعَّمُ بها قَبْلَ الحُسُومِ أرواحُها ، وأدويةٌ قَلِيَّةٌ تُعالِجُ بها ذواتُ النُّفوسِ فكيفَ أشباحُها ؛ لا بَرِحَ جوهرُ كلماتِ مولانا يُؤدِّنُ بالشِّفاءِ من العَرَضِ ، وسِهامِ أَقلامِهِ إذا كَتَبَتْ عائِدَةً أو جائدَةً أصابت العَرَضَ وفوقَ العَرَضِ .

وله : تقبَّلَ اللهُ مِنْهُ وفيهِ صالحَ الأُدعيهِ ، وملاً بِجَحاسِنِ ذِكرِهِ وِرَّةَ الآفاقِ والأُنديهِ ، وشكرِ هَباتِهِ وبركاتِهِ التي تَنْزِلُ بعارِضِ الغَيْثِ قبلَ الإِسْتِطارِ وترْفَعُ عارِضَ الألمِ قَبْلَ الأُدويهِ ؛ تَقْيِيلَ معترفٍ بسابقِ النِّعمِ ، مَقْيِمٍ على صِحَّةِ العُبوديةِ والولاءِ في حَالَتِي الصَّحَّةِ والسَّقَمِ .

ويهنى وُرُودَ مشرّفِ مولانا الكريم على يدِ فلان عائداً من جهة العيادة ، وعائداً من جهة الصّلات المعتاده ، ومُفتقداً لأعدِم الأولياء في الشّدّة والرّخاء آفتقاده ، ما كان إلّا رَيْباً نَشِقَ العليلُ نَسَمَاتِهِ الصّحيحه ، وتناوَلَ كأسَ ألفاظه الصّريحه ؛ وإذا بقانون المِزاجِ قد همَّ باعتداله ، وكتابِ الشفاءِ والنّجاةِ قد تسنّت فوائدُ إقباله ؛ فتميّز حال الصّحة من المرَض ؛ وأستعمل جوهرَ الألفاظِ فعزم على زواله العَرَض ؛ وبلغ الولدُ فلان المشافهةَ وكلُّ مقاصدِ مولانا مبتدأةً مبتدعةً ، والمملوكُ جوابها وكلُّ أجوبته مُنَوَّلَةٌ مُنَوَّعةً ؛ شكر الله عوارِفَ مولانا المتّصله ، ورُسلَ آفتقاده التي منها العائِدُ ومنها الصّله .

وله : في جواب كتاب عيادة وارد في يوم عيدِ علي يد من أسمه جمال الدين محمود . شكر الله منّنها التي إذا أبدت أعادت ، وإذا جادت أجادت ؛ وإذا كُرت الأفتقَادَ حَلَاً وإذا تصدّت لمودّات القلوب صادت ؛ تفصيلَ مخلص في ولّائه وآبئاله ، مُقيم على صحّة العهدِ والحمد في صحّته واعتداله .

ويهنى وُرُودَ مشرّفةِ مولانا الكريمة على يدِ الولدِ جمال الدين محمود متفقداً على العاده ، مكرراً لعيادة الإحسابِ وإحسانِ العيادة ؛ فقابل المملوكُ بالحمد وإردها ، وبعوائد الاعتدالِ عائدها ؛ وفهم ما تضمّنته من تألم قلب المالك على ضعف المملوك ، وقلقِ خاطره على بدن كبيت العروض منهوك ؛ وأنه كان آبتداً ضعف المملوك فتألم ، ثم تلا خبر الصّحة فتلا : ولكنّ الله سلّم ؛ ثم بلغه أنّ الآما تراجعت ، وموادّ واصلت بعد ما قاطعت ؛ فحملته خواطرُ الإشفاقِ على عليّ تكرير العيادة ، وارتقابِ فعالات الشفاء المستجاده ؛ جارياً من إحسانه وآفتقاده على أجمل معهود ، باعنا مشرّفه

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) في الأصول "كثيب" وهو تصحيف من الناصح .

وحاملها وكلاهما حسنُ الحال مُجود ؛ فعند ما وصلَا أو صلا كمال العافية ، وحققتُ
أخيلاً البرء الشافيه ؛ وما كان المشكؤ إلا مادة يسيرة وزالت ، وبقية ضعف تولت
بحمد الله وبركة مولانا وما تولت ؛ وما عيّد المملوك إلا وشفاء الجسد في ازدياد ،
والنفس بالوقت وبالمرشفة في عيدين قائمين بأعياد ؛ لازالت من مولانا إزاء اللحظ
حيث دار ، وودّه وحمّاه جامعين فضل الجار والدار .

زهر الريح :

لا زال محروس الشيم ، هاطلة سحائبه بالديم ، مشكوراً بلساني الإنسان والقلم .
المملوك يقبل يده الشريفة مؤدياً للواجب ، ويواصل بدعاء صالح أصاره إنعامه
ضربة لازب .

وينهى إلى كريم علمه وروده مشرفه الذي أهبج الأنفس وضاعف الصبا به ؛
وأفنى الصبر عن حياّه وإن كان ما أفناه أيسر صبا به ؛ وأنه علم منه إنعامه وتشوفه
إلى المملوك وإلى سماع أخباره ، وما أبداه من شفقة ألفت من إحسانه وعرفت
من كريم نبحاره ؛ وتحققت من شيمه على من ينأى عن بابه العالى وداره ، فالله يحرس
هذه الأخلاق التي هي أرق من الماء الزلال ، والشائل التي تفعل بلطفها فعل
الجريال ؛ والمملوك فوالله لا يخصص شوقه إلى الخدمة العالية ولا يحصره ، ولا يقدر
على وصف ما يسره من الاتواق ويظهره ؛ إنما الاعتماد في ذلك على شاهدي عدل
من خاطره وقلبه ، وهما يغنيان المملوك عن شرح ولآئه بالسنة أعلامه ووجوه كُتبه ؛
وأما السؤال عن أخبار مزاج المملوك فإنه كان في ألم دائم ، وسقيم ملازم : لشدة
المرض ، الذي كاذ يحتوى على جوهر جسمه والعرض ؛ فذ ورد كتاب المولى
انتعشت قوته ، وأشدت متته ؛ وصدقت في طلب تناول الغذاء شهوته ؛ وترجى

الشفاء بعد أن كان على شفا التلّف ، وكان له كالطبيب الآسى فى إزالة مَرَضِ
الآسَا والآسَف . وقد حصلت للملوك مَسْرَتَانِ بكتّاب المولى وعافيته ، وفرحتان
بما أهداه إليه من عفو وإنعامه ومحو أثر الألم وتعفّيته ؛ وكلُّ ذلك بسعادته .

ومنه : ورد المَشْرَفُ العالى لا زال قَدْرُ مَرْسِلِهِ شريفا ، وشرفه الباذِخُ يجعل
كلَّ شريفٍ مشرُوفًا ؛ وسحابُ جوده تُهدى إلى الأولياء من مكارمه تليدا وطريفا ؛
وقواضيه تُردُّ [طرف] حوادثِ الأيام عنه مطرُوفًا ؛ وأيديه تبعثُ لمحبيه مُخْفًا ،
وهيبته تُهدى إلى الأعداء خَوْفًا ، والدهرُ بخدمة جنّابه العالى مشغوفًا ؛ فوقف عليه
وقوفٌ مشتاقٍ إلى مُسَطَّرِهِ ، متزّه فى ربيع ألفاظه وحسن أسطُرِهِ ؛ وعرف منه
إحسانًا ما قَتِيَّ يعرفه ، وتفَضُّلا ما زال المولى بمثله يُخْفُهُ ؛ وما أشار إليه من شدّة
إيثاره ، لرؤية المملوك وسماع أخباره ؛ والذى يُنبئه أنّ جسده كان قد تضاعف
صَبْعُهُ ، حتى أتعب الألسنة وصفه ؛ فلما وقف من مشرف المولى على خطّ هو
الوشى المنعم ، وألفاظُ هى الرّحيق المُختم بل الدر المنظم ؛ وسحر هو محلّ وكلّ سحر
مُحَرَّم ؛ أبل المملوك وبردت غلته ، وبرات علتّه ؛ وكان كمن استوفى نصيبه من
النَّصَب ، وأخذ قِسمه من السُّقم والوصب ؛ فسقاه مشرفه الصّحة فى كاس ،
وأفاض عليه من العافية أنغر لباس .

آخر :

ورد الكتاب فعمت الأفراح * وأضاء فى ليل الآسا الإصباح !
وأفترت نغز للزمان بفرحة * وللغظه طربت ربي وبطاح !
وتضوّعت أرواح طيب عرفها * تحيا به الأجسام والأرواح !
وسقى سلاف فصاحة وبلاغة * ما ألمسك عند شميمها ما ألاج !

شكر الله مننه ، وأخدمه زمته ، ومنحه من العيش أغضبه واحسنه ، وشرف بقائه
الدهر وسنف بمدحه أذنه .

المملوك ينهى إلى علمه ووصول مشرفه الذى تزهدت الأعين في حُسن منظره ،
ويانح ثمار لفظه البديع ووشى أسطره ، وأنه استنشق من ريحه أطيب نفعه ،
وتقمص منه ثوبى دعة وصحة ، فشفي داء شَف منه جسمه ، وزاد لوروده سروره
وزال همُّه ، وعلم إتمام المولى الذى لا يشك فيه ، وإحسانه الذى لا يحضره لسان
مادح ولا يحصيه ، وما ذكره من الألم الملم به وأشتغال خاطرهِ الكريم لما ألم
بجسمه ، والمرض بسعادة المولى قد بقي منه قلبه ، وتقلص بعد ما امتد ظله ، والعافية
نتجّل إن شاء الله تعالى برؤية محياه الكريم ومشاهدته ، والمثول بين يديه العاليتين
في خدمته .

النوع الخامس عشر (فى الذم)

ذم بجيل : لأحمد بن يوسف :

كأنَّ البُخل والشُّوم صارا معاً فى سهمه ، وكانا قبل ذلك فى قيسمه ، فجازهما
بالوراثه ، وأستحقّ ما أستملك منهما بالشفعة ، وأشهد على حيازتهما أهل الدين
والأمانة ، حتى خلاصه له من كل مانع ، وسأله من تبعه كل منازع ، فهو لا يُصيب
إلا مخطيا ، ولا يُحسن إلا ناسيا ، ولا يُنْفِق إلا كارها ، ولا يُنْصِف إلا صاغرا .

وفى مثله : وصل كتابك فرأيناك قد حلتته بزخارف أوصافك ، وأخلتته من
حقائق إنصافك ، وأكثرت فيه الدعوى على خصمك ، من غير برهان أتيت به
على دعواك وزعمك .

ومنه : ولو أراد غير ذلك من الأخلاق السنية ، الشريفة الهنيئة ؛ لاستوحش في سبيلها ، ووقع في مضرة منها ، ولن يجِد من سلفه ولا نفسه دليلاً عليها ، ولا هادياً إليها .

ومنه : لأبي العيناء :

أما بعد ، فلا أعلم للعرف طريقاً أحذر ولا أوعر من طريقه إليك ، ولا مستودعاً أقل زكاءً ولا أبعد ثمرة خير من مكانه عنده : لأنه يحصل منك في حسب دني ، ولسان بدى ، ونسب قصى ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمرء لديك ضائع ، والشكر عنده مهجور ؛ وإنما غايتك في المعروف [أن] تُحرزه ، وفي وليه أن تكفُره .

ومنه : لمحمد بن الليث :

بكم علن الظلم ، وظهرت البدع ، وأندفن الحق ، وعز الفاجر ، وظهر الكافر ، وفشت الآثام ، ونقضت الأحكام ، وأتخذ عبداً الله حولا ، وأمواله دولا ، ودينه دخلا .

ومنه : لأبي علي البصير :

عدوك من عزل عنك ، وصديقك على وجل منك ؛ إن شاهدته عاقك ، وإن غبت عنه حاقك ؛ تسأله فوق الطاقه ، وترهقه عند الفاقه ؛ وإن أعذر إليك لم تعذره ، وإن استنصرك لم تنصره ؛ وإن أنعم عليك لم تشكره ؛ ولا يزيدك السن إلا نقصا ، ولا يفيدك الغنى إلا حرصا ؛ تسمو إلى الكبير ، بقدر الصغير ؛ وتشف للتطفيف لالتخفيف ؛ تعترض الناس بالسؤال ، غير محتشم من الإملا ، ولا كاره لأن ينظر إليك بعين الاستقلال ؛ حتى لقد أخرجت الأضغان ، وقبحت الإحسان ؛ وزهدت

في أصطناع المعروف، وإغاثة المهووف، والناس منك بين أسرار تُفشى، وبوائق تُحشى، وشناعات وإرداه، ونوادير بارده، ودك تحلق، وشرك تملق .

ومنه : لسعيد بن حميد :

رجل يعنف بالنعم عنف من قد ساءته مجاورتها، ويستخف بحقها استخفاف من لا يخف عليه مجملها؛ ويقصر في شكرها تقصير من لا يعلم أن الشكر يرتبطها؛ ومن كانت هذه حاله في اختياره لنفسه، فكيف أرجو حسن اختياره لي؟ ومن كان في مدة من ابتلاء الله بعيدة ما بين الطرفين لأدرى أينفد بي الأجل إلى أقصاها؛ أم يقصر بي في أدناها؛ فكيف يتسع الصدر للصبر عليه، إن الله لا يخاف الفوت فهو يمهل، وإنه إن مات لم يخرج من سلطان الله جل وعز إلى سلطان غيره فيعاجله؛ وأنا على خوف من إعجال المدى عن بلوغ [منأى فأذهب] حرجاً صدرى، وعلى ثقة من الشغل في الآخرة بنفسى عن التشنى من أهل عداوتى وترى؛ وأحمد الله على المحنة، وأسأله تعجيل روح النعمة، وفسحة العافية .

النوع السادس عشر

(في الأخبار).

قال في "مواد البيان": كُتِبَ الأخبار وإن كانت من الكتب الكثيرة الدوران في الاستعمال فليست مما يمكن تمثيله، ولا حضر المعاني الوايقة فيه برسوم تشمل عليها، نعم ولا أن تقدم له مقدمة تكون توطئة لما بعدها، كما يجرى الأمر في سائر فنون المكاتبات الأخر التي لا تحلوا من مقدمات تحل منها محل الأساس من البنيان،

(١) هذه الزيادة يقتضها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

والرأس من الجثمان ؛ لكن المقدمات التي تُوضَعُ في الكتب من شرطها أن تكون مشتقةً من نفس معنى الكتاب ، ومنه الخبر لا يمكنه أن يستنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدمةً تكون بساطله ، وإنما يقول : كتبت من موضع كذا يوم كذا ، والذي أنهيه كذا ؛ بل الذي يلزمه أن يتحداه بِطاقته ، ويتجرأه بجهدِه ، أن يبين ما يطالعُ به من الأخبار ؛ ويكشفه ويوضحه ويُفصح عنه ، ولا يقف منه إلا عند الشفاء والإقناع لتتقرر صورته في نفس من ينهيه إليه ؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدبُ العدولَ عن لفظه الخاص به ، والإخبار عنه بالفاظٍ تؤدي معناه ، ولا يهجم على المُخبر بما يسوء سماعه ، كأن يكون خبراً يرفعه إلى سلطانٍ عن عبده له قد أطلق فيه ما يضع منه ويُسقط مهأبته ، أو نحو من ذلك مما يتثقل على السلطان المنفص منه ، فإنه ينبغي أن يعدل في هذا وأمثاله عن التصريح إلى التعريض ، ومن التصحيح إلى التمرّيص ، وعن المكاشفة إلى التورية ، وأن يأتي بالفاظٍ تدلُّ على معاني ما يُروم إبداءه ، ويحرص [على] صورة منزلة السلطان وتوقيره عن قرع سمعه بما يكرهه ولا تجوزُ مقابلته به ؛ وأن يقصد إلى استعمال الإيجاز والإطناب في المواضع التي تحتمل كلا منهما ، فهذا ما يمكن أن يُتعرّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نفذ فهمه وخطره في الصناعة وتدرّب فيها ، يكتفي بهذه اللُمة ولا يحتاج إلى زيادةٍ عليها .

في الإخبار بوقوع مطر وسيل

من ترسل أبي الحسين بن سعد :

فالماء منه يفيض على العُمران ، بعد أن ضاقت به المغايبُ والغُدران ؛ فأني على كثير من التلال والرؤابي ، فضلا عن الرساتيق والقُرى ؛ وصار الوادي على اتساع

عَرَضَهُ ، وَأَمْتَدَادِ طَوْلِهِ ، وَسَعَةِ مَصَبِّهِ ، وَفُسْحَةِ مَغِيْضِهِ ، لَا يَفِي بِهَضْمِهِ ، وَلَا يَقُومُ بِجَمَلِهِ ؛ فَبَاقِضٌ مِنْهُ مَا عَطَّلَ الْعُمْرَانَ وَنَسَفَ الدُّورَ وَمَحَقَ الزُّرُوعَ ، فَعَظُمَ بِهِ الْبَلَاءُ ، وَكَثُرَ لَهُ الْجَلَاءُ ، وَشِبِلَ النَّسَادُ ، وَعَظُمَ الْحَرَابُ .

صدر كتاب بإخبار عن الخليفة :

كُتِبَتْ ، وَمَوْلَانَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَطُّدٍ مِنْ خِلَافَتِهِ ، وَتَمَهُّدٍ مِنْ دَوْلَتِهِ ، وَعُلُوٍّ مِنْ رَأْيِهِ ، وَنَفَازٍ مِنْ كَلِمَتِهِ ، وَعِزٍّ مِنْ سُلْطَانَتِهِ ، وَارْتِفَاجٍ مِنْ شَانِهِ ؛ وَنِعْمَ سَابِغَةٌ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ طَاعَتِهِ ؛ فَالْصِّبَةُ عَنْ أَعْدَائِهِ وَأَهْلِ مَخَالَفَتِهِ ، وَاسْتِقَامَةٌ مِنْ أَطْرَافِهِ وَتُغُورِهِ ، وَاسْتِثْبَابٌ مِنْ أَحْوَالِهِ وَأُمُورِهِ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى إِحْسَانِهِ حَمْدًا لَا يَقِفُ دُونَ رِضَاهِ ، وَلَا يَحِيطُ بِمَقْدَارِهِ سِوَاهِ .

صدر بإخبار عن الوزير :

كُتِبَتْ ، وَحَضْرَةُ الْوِزَارَةِ السَّامِيَّةِ فِي نِعْمٍ مُخَصَّبَةٌ الْأَكْثَافَ ، بِعَيْدَةِ الْأَطْرَافِ ، سَادِرَةُ الْوَيْلِ ، سَاحِبَةُ الدَّلِيلِ ؛ وَمَا أَنْظَرُ فِيهِ مِنْ أَمْرِ دَوْلَتِهِ مَنْتَظِمٌ ، وَأَرَاغِيهِ مِنْ أَحْوَالِ رَعِيَّتِهِ مُلْتَمِمْ ؛ وَقَدْ وَطَأَ اللَّهُ لَهُ أَوْعَارَ السِّيَاسَةِ وَالتَّدْيِيرِ ، وَوَقَفَهُ عَلَى جَوَادِّ الْمَصْلُحَةِ فِي التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا يَسْتَقِلُّ بِحَقِّهِ فَيَقْضِيهِ ، وَبِوَاجِبِهِ فَيُؤَدِّيهِ ، وَيَنْتَهِي إِلَيْهِ عِزُّ سُلْطَانَتِهِ فَيُرْضِيهِ .

صدر بإخبار عن أمير :

كُتِبَتْ ، وَالْأَمِيرُ فِي عُلُوٍّ مِنْ سُلْطَانَتِهِ ، وَارْتِفَاجٍ مِنْ شَانِهِ ، وَظَفَرٍ يُوَاكِبُ أَلْوِيَّتَهُ ، وَنَضِيرٍ يُصَاحِبُ دَوْلَتَهُ ؛ وَوَاوِيٌّ عَلَى مَنْ ظَلَّهَ ، وَشِمْلَانِيٌّ مَنْ فَضَّلَهُ ، مَا سَبَّغَ لِبَاسُهُ ، وَطَابَتْ أَعْرَاسُهُ ؛ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ اعْتِرَافًا بِنِعْمَتِهِ ، حَمْدًا يُوجِبُ شُمُولَ مَتْنِهِ ؛ وَيَسْتَدْعِي الشُّكْرَ عَلَيْهَا ؛ وَيَقْضِي بِمَزِيدٍ مِنْهَا .

صدر باخبارٍ عن عافيةِ المكتوب عنه :

كُتِبَتْ ، وأنا صالحُ الحال ، وقد مَنَّ اللهُ تعالى بالعافيةِ والإنعاش ، والإفالة
والا^(١)ش ؛ وأعاد إلى الصحة بعد نبوِّها وذهاها ، والسلامة بعد تجعِّها وإغرابها ؛
وأَسْبَلَ النِّعْمَةَ بعد الإنذار ، والتحذير من الإغترار ؛ ممحِّصاً بما أَلَمَّ من الآلام
عَصَبَ الأيام ؛ والحمد لله أولى ما نلت به النعم ، وطُرِّز به المفتَح والمختَم ؛ حمداً
يؤمِّن من التغيير والتبديل ، ويُعيد من الانتقال والتَّحوِيل .

أَبْنُ أَبِي الْخِصَالِ ، فِي الْإِخْبَارِ عَنْ زَلْزَلَةِ عَظِيمَةٍ وَقَعَتْ بِمَدِينَةِ قُرْطُبَةَ مِنَ الْأَنْدَلُسِ .
الشيخُ الأَجَلُّ ، الولِيُّ الأَكْرَمُ الأَفْضَلُ ؛ أَبُو فُلانٍ ، الَّذِي أُطْرَفَهُ اللهُ تَعَالَى
بِعَجَائِبِ الْإِخْبَارِ ، وَأَذْهَبَ بِهِ فِي مَسَلِكِ الْإِتِّعَاطِ وَمَنْهَجِ الْإِدِّكَارِ ؛ أَبْقَاهُ اللهُ أَخِذًا
فِي سَنَنِ الْإِتْرَعِاجِ وَنَهْجِ الْإِزْدِجَارِ . الخَلِصُ لَهُ المَحْضُ النَّاصِعُ مِنَ الْوَلَاءِ ، وَمَعْرُفَةٌ
غَرِيبِ الْآثَارِ وَعَجِيبِ الْأَنْبَاءِ ؛ فُلانٌ .

سَلامٌ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ الَّذِي جَعَلَ عِبْرَةَ أَنْوَاعِ مَتَلَوْنَةٍ وَصُنُوفَا ، وَأَرْسَلَ الْآيَاتِ
(وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَحْذِيرًا) . وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ الْمُصْطَفَى صَلَاةً طَيِّبَةً
تَعْبِقُ تَأْرِيحًا وَتَضُوعُ تَعْرِيفًا ؛ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الطَّاهِرِينَ الَّذِينَ حَضَرُوا حُرُوبًا
وَشَهِدُوا زُحُوفًا ؛ وَالدِّعَاءِ لِسَيِّدِنَا الْإِمَامِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي نَصْرِ عَزِيزِ يُوسُفَ مَدْعُورًا
وَيُؤْمِنُ مَخُوفًا ، فَإِنِّي كَتَبْتُهُ - كَتَبَ اللهُ لَكُمْ دَعَاً حَافِظَةً وَأَمَانًا ، وَتَصَدِيقًا بِآيَاتِ اللهِ
الْبَيِّنَةِ وَبُرْهَانًا - مِنْ مَوْضِعِ كَذَا ، عِنْدَ مَا طَرَأَ عَلَيْنَا مَا حَلَّ الْعُيُونَ بِقَدَّاهَا ، وَمَنَعَهَا لَدَيْدًا
كَرَّاهَا ، وَأَخْفَقَ الضُّلُوعَ الْحَانِيَةَ وَأَقْلَقَ مَصَارِينَ حَشَاهَا : وَهُوَ أَنَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ

(١) بيض في الأصول لهذا الحرف .

ذَكَرَ عِبَادَهُ إِنَّ نَفْعَ الذِّكْرِ، وَتَبَهُمْ إِنْ تَنَبَّهُوا وَلَمْ يَأْمِنُوا مِنْهُ كَيْدًا مُبِيرًا وَلَا مَكْرًا؛
وَذَلِكَ بِنَزَالِ قَضِيٍّ بِهِ عَلَى قُرْطُبَةَ وَبَعْضِ أَعْمَالِهَا، وَمَلَأَ نَفُوسَ سَائِكِيهَا مِنْ رَوْعَاتِهَا
وَأَوْجَالِهَا؛ وَحَالَتْ لِذَلِكَ فِي الْخَوْفِ وَالْأَرْتِفَاعِ أَقْبَحَ حَالِهَا؛ حَتَّى نَحْوًا إِلَى الْإِسْتِكَانَةِ
وَالضَّرَاعَةِ، وَأَطَاعَ اللَّهُ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ قَبْلَ ذَلِكَ طَاعَةٌ؛ وَخَشُوا بَلْ كَانُوا يُوقِنُونَ
أَنَّهَا زَلْزَلَةٌ السَّاعَةِ. وَكَانَ مِنْ عَظِيمِ آثَارِهَا، وَكَرِيهٍ لِإِيرَادِهَا وَإِصْدَارِهَا، أَنْهَادُ الْقُبَّةِ
الْعُظْمَى فِي الْمَسْجِدِ الْجَامِعِ صَانَهُ اللَّهُ، وَكَانَتْ قُبَّةً أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى بِنَاؤُهَا، وَذَهَبَ
فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ذِكْرُهَا الْعَاطِرُ وَشَأُؤُهَا؛ وَتَهَدَّمَتْ بِسَبَبِ ذَلِكَ الْمَهْدَمِ دِيَارٌ
كَثِيرَةٌ، وَحَدَّثَ بِهِ خَوَادِثُ مُبِيرَةٍ. وَأَمَّا تَلُوكَةٌ مِنْ أَعْمَالِهَا، وَكَانَ فِيهَا مَبْنَى مِنْ مَبَانِي
الرُّومِ، فَإِنَّهُ غَادَرَهَا قَاعًا صَفْصَفًا، وَقَرَأَ نَفْنَفًا؛ وَأَضْطَرَّ ذَلِكَ الْخَطْبُ الْفَادِحُ، وَالرَّيْحُ
الْقَادِحُ؛ إِلَى أَنْ نَجَرَ السَّيِّدُ أَبُو إِسْحَاقَ وَكَافَّةَ أَهْلِ قُرْطُبَةَ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَفَرَّوْا مِنْ
الْمَوْتِ بِأَقْوَاتِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ؛ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَدَارَكَ بِالرَّحْمَى، وَكَشَفَ تِلْكَ
الْعُغْمَى، جَعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ صَفْلًا لِقُلُوبِنَا، وَتَوْبَةً عَمَّا سَبَقَ مِنْ ذُنُوبِنَا؛ وَعَصَمْنَا
مِنْ جُرْمِنَا الْمُؤَبِقِ وَحُوبِنَا، وَأَوْلَانَا وَإِيَّاكُمْ أَمْنًا مِنَ الْغَيْرِ، وَأَزْدَجَارًا بِمَا ظَهَرَ مِنْ
الْعَبْرِ؛ وَجَعَلَ كَلَانًا جَمِيلَ الْحَوَادِثِ طَيِّبَ الْخَبْرِ، بِمَنَّةٍ؛ وَالسَّلَامُ الطَّيِّبُ الْمُبَارَكُ
وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

من كلام المتأخرين في الإخبار بقدم نائبي إلى نياية .

من ذلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلى كافل الممالك الإسلامية مُخْبِرًا لَهُ بِوُصُولِهِ
إِلَى دِمَشْقَ، مِنْ إِثْنَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ . وَهُوَ بَعْدَ الْأَلْقَابِ :

(١) لعله في الخفض .

(٢) جرى الكاتب في كلا على لغة من يعربها اعراب المقصور على حد قوله :

نعم الفتى عمدت إليه مطيبي * في حين جد بنا المسير كلانا شرح الأشموني

لا زالت آفاق الممالك مضيةً بأنوار شمسه، هنيةً بأنس سعادته وسعادة أنسه؛
سنيةً المقاصد التي قام في كفالتها بنفاسة نفسه؛ ولا يرح يستنم من خير الدنيا
والآخرة ما قدم صنعه الجميل من غرسه . تقبيلًا يُشافه به القلم القِرطاس ، ويودّ
المملوك لو شافه به الخدم ساعيًا سعى القلم على الرأس . وينهى قيامه بوظائف دعاء
يُنير الحلك ، وولاءٍ يدورُ بكواكب الإخلاص إدارة الفلك ؛ وحمدٍ تذهب به
صفحات الصحف حيث ذهب وتسلُّك عُقود الأفلاك حيث سلك ، وأنه خدم
بهذه العبودية عند وروده إلى دمشق المحروسة لنيابة كانت عناية مولانا سفيرة
أمرها ، ومجزة برها ، يوم كذا ؛ وسعادة مولانا السلطان - خلد الله ملكه - تعلمه
وتعلمه ، والغيث بركات الدولة القاهرة يسيره ويقدمه ؛ وتغرُّ المطر يسابقُ تغرُّ
المملوك إلى مشافهة الثرى ويلثمه ؛ والرعية منه آمنة في سربها ، وادعة بظلال
الأبواب الشريفة مع بعدها دعة الصوامر في قُرُوبها ، وباكر المملوك يوم الاثنين
الذي بورك فيه : في الخميس من يوم وجيش ، وأنتصب لمهمات على مثلها
في الخدمة يطيب أن يرفع لئن العيش ؛ مجتهدا فيما هو بصدده ، مستمداً من ربه
عز وجل وسعادة سلطانه برشده ، معتدًا نعم مولانا فيما يأتي [في] ذلك من أوفى وأوفر
عده ومدده ، والله تعالى يُعين المملوك على شكر من مولانا الباطنة والظاهره ،
والغائبة والحاضرة ، والمقيمة والمسافره ، ويصل نفع المملوك بولائه في الدنيا والآخرة ؛
ويقيم الرعايا بالأمن في كفالته التي ما برحت بعيون الأعداء فإذا هم بالساهره .

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال في "مواد البيان" : الأخبار على أكثر الأحوال لأجوبة لها ، وإنما هي
مطالعاتُ بأمور يُنهى الخدم ، وأصحابُ البرد إلى السلاطين ، مما تتخرج أو أمرهم

إلى الولاية بما تَصَمَّتْه : مما يقتضيه كلُّ خبر ينهى من سياسة عامة ، أو مصلحة تامة . قال : فأما ما يستعمله الإخوان في المكاتبه بالأخبار التي يكُلُّ بعضهم إلى بعض الإخبار بها ، فمنها ما يقتضى الجواب ، ومنها ما لا يقتضيه . قال : وأجوبة ما يقتضى الجواب منها تُفْتَنُّ بحسبِ آفتان الأخبار والأغراض التي يجب الحُجُبُ بها ، وهو أيضا مما لا يعبر عنه بقوي جامع ولا برسم رسم كَلِّي ، وإنما يرجع فيه إلى الأمور التي يبتدأ بها ويُجاب عنها .

النوع السابع عشر (المداعبة)

قال في "مواد البيان" : ومعاني المداعبات التي يستعملها الإخوان غير متناهية ، والأغراض التي ينتظمها المزاح وتعدُّ من طلاقة النفس لا تقف عند قاصيه : لأنها مستملاة من أحوال متباينه ، وماخوذة من أمور غير معينه ، وحضرها في رسوم جامعة يستحيل ، وتمثيلها غير مفيد : لأنه لا تعلق لبعضها ببعض ، ولا نسبة بين الواحد والآخر ، ثم قال : والأحسنُ بأهل الوداد والصفاء ، والأليقُ بذوي المخالصة والوفاء ، أن يتزَّهوا في المداعبة الدائرة بينهم عن بدئ اللفظ ومفحشه ، ومؤلم الخطاب ومقذعه ، ويكفوا اللسان واليد عن الإطلاق بما يدل على خفة الأحلام ، والرضا بالرذل من الكلام اللائق بسفهاء العوام ، ويتخرجوا من إرسال قول يبقو وضمه على [مدى الأيام] إذ لا فرق بين جرح اللسان وجرح اليد ، وقد نطق بهذا المثل : لما في ذلك من الترفع عن دنايا الأمور التي لا يتنازل إليها الكرماء ، والتزُّه عن المساقط التي لا يستعملها الأدباء ، وصيانة المروءة عما يسيئها ويحدثها ، وتوقيرها

عما يَنْقُصُها ، والأَمْنِ من الجواب الذي رُبَّما قَدَحَ في النفس وأثر ، وأحمى الصدرَ وأوغرَ ، ونقلَ عن التَّوَادُّدِ إلى التَّضَادُّدِ ، وعن التَّدَانِي إلى التَّبَاعُدِ ؛ وقد أشارَ إلى ذلك أميرُ المؤمنين على كَرَمِ اللهُ وَجْهَهُ بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَرُبَّ كَلَامٍ يُمِصُّ الْحَشَا * وَفِيهِ مِنَ الصَّحْكِ مَا يُسْتَطَابُ

مع مُرَاعَاةِ السَّلَامَةِ من المُدَاخَلَةِ المُنطَوِيَةِ على الغِلِّ ، والمُرَاةِ المَبْنِيَةِ على المَكْرَبِ ؛ إذا لم يَكُنْ لِلتَّجَاوُزِ عَلَى الأَبْتِدَاءِ المِصُّ بالجواب المريض ، وغير ذلك مما لا تُؤَمِّنُ عاقِبَتُهُ ، ولا تُحَسِّنُ عائدَتُهُ . قال : ويكون المستعمل في هذا الفنَّ ما خَفَّ مَوْقِعُهُ ؛ ولَطْفُ مَوْضِعُهُ ، وهَشٌّ له سَامِعُهُ ؛ وتَلَقَّاهُ الواردُ عليه مستَحْلِيًا لِنِجَارِهِ ، مستَدْعِيًا لِأَنْظَارِهِ ، ولا يُعَدَّلُ به عن سَمْتِ الصِّدْقِ ، وطريقِ الحَقِّ ، ومَذْهَبِ التَّحَرُّزِ من المَدَّقِ ؛ ويُقْتَصِرُ فيه على النَادِرَةِ المُسْتَطَرَفَةِ ، والنَّكْتَةِ المُسْتَطَرَفَةِ ؛ واللُّعَّةِ المُسْتَحْسَنَةِ ، والفِقْرَةِ المُسْتَغْرَبَةِ ، دُونَ الإِطَالَةِ المُمَلَّةِ ، ولا يجعل المَرْحَ غالبًا على الكلام ، مُدَاخِلًا لِجَمِيعِ الأَقْسَامِ : فَإِنَّ ذَلِكَ يُفْسِدُ معَانِي المَكَاتِبِ ، وَيُجِلُّ نِظَامَ المَخاطَبِ ، وَيَضَعُ من مَعْنَاهَا وَإِنْ كَانَتْ شَرِيفًا ، وَيُوخِمُ لَفْظَهَا وَإِنْ كَانَتْ لَطِيفًا ؛ وَيَذْهَبُ بِجِدِّهَا فِي مَذْهَبِ الهَزْلِ وَيُمِيلُهُ عَنِ القَصْدِ ؛ وَإِلَى ذَلِكَ يُشِيرُ بَعْضُهُمْ بقوله :

أَفَدِ طَبَعَكَ المَكْدُودَ بِالْجِدِّ رَاحَةً * بَلْهُوٍ وَعَلَّةٍ بِشَيْءٍ مِنَ المَرْحِ !

وَلَكِنْ إِذَا أُعْطِيَتْهُ المَرْحَ فَلْيَكُنْ * بِمِقْدَارٍ مَا يُعْطَى الطَّعَامُ مِنَ المِلْحِ !

وَأَنْ يَقْتَصِدَ مع ذلك . ثم قال : وينبغي أن يَقْصِدَ إلى اسْتِعْمالِ الدَّعَابَةِ في المَوَاضِعِ اللاتِقَةِ بِهَا ، والأَحْوالِ المِشَابِهَةِ لَهَا ؛ ولا يُودِعَ بابًا من الأبواب ، مالا يَحْتَمِلُهُ مِنَ الخِطَابِ : فَإِنَّ القَصْدَ في هذا النَّوعِ من المَكاتِبِ إنما هو الإِعْرَابُ عَنِ الظَّرْفِ والبَرَاةِ ، والإِبَانَةُ عَنِ طَلَاقَةِ النَّفْسِ ؛ وَالإِنْسِلَاخُ من تَعْيِيسِ الفَدَامَةِ

والجَهامة؛ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : وَمَنْ وَقَفَ مِنْ ذَلِكَ عِنْدَ الْحَدِّ الْكَافِي، وَلَزِمَ فِيهِ الْأَدَبَ اللَّائِقَ بِأَهْلِ النَّصَافِي، دَلَّ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ، وَشَهِدَ لِمُسْتَعْمَلِهِ بِإِحْرَازٍ مَا وَصَفْنَاهُ؛ وَمَنْ تَعَدَّى ذَلِكَ عُدَّ مِنَ الْمُجُونِ وَالْمُلَاعِبَةِ، وَحُسِبَ مِنْ رَذَالَةِ الطَّبَعِ وَنَذَالَةِ الْحَلِيمِ وَسَفَهَةِ اللِّسَانِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِالكَاتِبِينَ الْكِرَامِ، الَّذِينَ هُمْ خِيَارُ الْأَنْامِ، وَوِلَاةُ النَّقِصِ وَالْإِبْرَامِ. وَخَسَمَ ذَلِكَ بِأَن قَالَ : وَالكَاتِبُ إِذَا كَانَ مَهِيًّا طَبِيعًا لِلانْطِبَاعِ بِرِسُومِ الصَّنَاعَةِ وَمُنَاسِبَةِ أَوْضَاعِهَا، أَغْنَاهُ الْوُقُوفُ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ الْمُجَمَّلِ فِي اسْتِعْمَالِ مَا يَقَعُ فِي هَذَا الْبَابِ عَنِ تَمَثِيلِ مَفْصَلٍ. وَلَمْ يَذْكُرْ لَهُ مِثَالًا.

ابن أبي الخصال :

سَيِّدِي وَوَاوَحِدِي الَّذِي أَبْجَلَّ ذِكْرَهُ، وَأَوْلَى شُكْرَهُ، لَا زَالَ مَعْنَاكَ رَحِيبًا، وَزَمَانُكَ خَصِيْبًا، وَلَا زِلْتَ تَأْخُذُ لِأَثْرَاكَ نَصِيْبًا، عَبْدُكَ فَلَانَ مُؤَدِّبًا يَنْتَجِعُ الْكِرَامَ، وَيُبَارِي فِي جَرِيْبِ الْأَيَّامِ : فَتَارَةَ يَجْمَعُ، وَأَنْحَرِي يَفْرُقُ، وَطَوْرًا يُغْرِبُ، وَطَوْرًا يُشْرِقُ، وَأُمَّ الْخِضْرَةَ - وَصَلَ اللَّهُ حِرَاسَتَهَا، وَأَدَامَ بَهْجَتَهَا وَتَفَاسَتَهَا - وَالْمُلُوكَ بِهَا غَضُّ الشَّبَابِ، أَخْضَرَ الْحِلْيَابِ، وَإِحْسَانُكَ إِحْسَانُكَ، وَمَكَانُكَ مِنَ الْمُرُوءَةِ مَكَانُكَ، فَأَوْسَعَهُ قَرِي، وَأَمْلَأَ عَيْنِيهِ عَلَى الشَّبَعِ كَرِي، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ، بَلْ أَعْجِدُهُ تَبْنَا وَعَلَفَا، وَأَرْكِبُهُ حَزْنَا مِنَ الْأَرْضِ ظَلَفَا، وَدُونَكَ لَمْ يَقْلَبْ أَرْضَهُ بَيْطَارًا، وَلَا لِحْنَانِيَّةً بِهِ جَبَّارًا، وَجَرَحَهُ جَبَّارًا، وَعِنْدَهُ كَمَا عَلِمْتَ دَعَاءُ مُبَاحٍ، وَتَشَاءُ فِي الشُّكْرِ مَسَاءً وَصَبَاحًا، وَالسَّلَامَ.

(١) الظلف بالتحريك ما غلظ من الارض فلم يؤد [أى لم يظهر] أثرًا . انظر اللسان ج ١١

من كلام المتأخرين :

كتب بعضهم إلى كمال الدين بن الأثير ، وقد جاء إليه في بستانه فلم يجده
ولا وجد من أنصفه .

حضر المملوك البستان ، مستديناً فطوف الإنعام والإحسان ، وأستطر سحاب
فضله ، وهز إليه بجدع نخله ؛ فلم تنساقط عليه رطباً جنيماً ، فعلم أنه قد جاء شيئاً
فرياً ؛ فنبت نفسه مع تصاعد الأنفاس ، والطمع ينشده :

* مافي وقوفك ساعة من بأس *

فانطلق حتى أتى القرية مستطعياً أهلها فأبوا أن يضيّفوه ، مستعطفاً حاشيته الرقيقة
فأبوا حاشيته أن يستعطفوه ؛ وقال كل منهم : تُطالب بالقرى كما تُطالب بدينك !
أرجع حيث شئت هذا فراق بيني وبينك ! وعلم أنه لو أقام بها جداراً لما أُعطي
عليه أجر ؛ ولو حاول قرى لسمع من التوبيخ ما لم يستطع عليه صبراً ؛ فرجع بخنى
حين ؛ بعد مشاق جرعت كاسات الحين ؛ فأين هذه المعاملة مما نشيعه عنه من
كريم الخلال ، وكيف نسكو نقص حظ وله كمال الإحسان وإحسان الكمال .

الأجوبة عن رقاع المداعبة

قال في "مواد البيان" : ينبغي للنجيب عن المداعبة أن يشتق من نفس الابتداء
جواباً مناسباً لها ، وأن يبيّن متى أحب الأخذ بالفضل على المسامحة ، وأطراح
المنافسة ، والإغضاء عما يمض إبقاء على المودة ، وتحسيناً لقبح الصديق ، وتعوداً
لعادة الحلم والإحتمال ؛ وأن يهّب في الجواب مذهب الاختصار ؛ وإيراد النكت
الرائعة كما في الابتداء ، على ما تقدم .

(١) كذا في النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

الفصل الثامن^(١)

(في إخفاء ما في الكُتُب من السَّرِّ)

وهو مما تَمَسُّ الحاجةُ إليه عند اعتراض معترضٍ من عدو ونحوه يُحوَّلُ بين المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه : من ملكين أو غيرهما حيث لم تُفد المَلَطَّفَات لضرر الرِّصْد وزيادة الفَحْص عن الكُتُب الواردة من الجانيَيْن، وهو على نوعين :

النوع الأول

(ما يتعلق بالكتابة، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما يتعلق بالمكتوب به)

وذلك بأن يُكْتَبَ بشيء لا يظهر في الحال، فإذا وصل إلى المكتوب إليه فعل فيه فعلا يكون مقررا بين المتكاتبين من إلقاء شيء على الكتابة، أو مسح به شيء، أو عرَّضه على النار ونحو ذلك .

وقد ذكروا لذلك طُرُقًا :

منها - أن يُكْتَبَ في الورق بلبنٍ حليبي قد خُلِطَ به نُوشَادِر فإنه لا تُرى فيه صورةُ الكتابة، فإذا قُرِّب من النار ظَهَرَتِ الكتابةُ .

ومنها - أن يُكْتَبَ في الورق أيضا بماءِ البَصَلِ المُعْتَصِر منه فلا تُرى الكتابةُ فإذا قُرِّب من النار أيضا ظَهَرَتِ الكتابةُ .

(١) أي من الباب الثاني من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهي ثمانية لاسنة وتقدم في ج ٦ ص ٣٦٥

أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

ومنها — انه يكتُب فيما أراد من وَرَق او غيره بماءٍ قد خُلِط فيه زاجٌ، فلا تظهر الكتابةُ، فإذا مَسَح بماءٍ قد خُلِط فيه العَفْص المدفوق، ظهرت الكتابةُ .

ومنها — أن يكتُب في الورق غير المنشئ بالشبِّ المحلول بماء المطر؛ ثم يلقيه في الماء أو يمسحه به، فإنه إذا جفَّ ظهرت فيه الكتابةُ .

ومنها — أن يكتُب بمرارة السُّلحفاة فإنَّ الكتابة بها تُرى في الليل ولا تُرى في النهار .

ومنها — أن تأخذ الليمونَ الأسودَ وعُروقَ الحنظلِ المقلَّوة بزيت الزيتونِ جزأين متساويين وتَسحقهما ناعماً، ثم تُضيف إليهما دهنَ صفار البيض وتكتُب به على جسد من شئت، فإنه يَبت الشعرُ مكانَ الكتابة، وهو من الأسرار العجيبية؛ فإذا أُريد إرسالُ شخصٍ بكتابٍ إلى مكانٍ بعيدٍ، فَعَل به ذلك، فإنه إذا نبتَ الشعرُ قُرئت الكتابةُ .

الضرب الثاني

(ما يتعلق بالخطِّ المكتوب)

بأن تكون الكتابةُ بقلمٍ أصطلح عليه المرسلُ والمرسل إليه لا يعرفه غيرهما ممن لعَلَّه يقف عليه، ويسمى التعمية، وأهل زماننا يعبرون عنه بجَلِّ المترجم، وفيه نظر: فإنَّ الترجمةَ عبارةً عن كَشْف المعنى، ومنه سُمي المعبرُ لغيره عن لغة لا يعرفها بلغة يعرفها بالتَّرجمان؛ وإليه يَنحَل لفظُ الحَلِّ أيضاً؛ إذ المرادُ من الحَلِّ إزالةُ العَقْد فيصيرُ المرادُ بجَلِّ المترجمِ ترجمةَ المترجمِ أو حَلَّ الحَلِّ، ولو عبَّر عنه بكَشْف المعنى لكان أوفقَ للغرض المطلوب .

ثم مبنى ذلك على قاعدتين :

القاعدة الأولى — كيفية التعمية .

اعلم أن التعمية بالنسبة إلى كل واحد من الناس باعتبار ما يبجهله من الخطوط ، فيعنى على العربى في اللغة العربية بالخطوط غير العربية ، كالرومية والعبرانية ونحوهما ، إذا كانت حروف تلك اللغة توافق لغة العرب ، أو بقليل مصطلح عليه على وفق حروف العربية ؛ وكذلك يعنى على غير العربى من الرومى ونحوه ممن يبهل الخط العربى بالقلم العربى ، وعلى ذلك .

ثم للناس في التعمية مذهبان :

المذهب الأول — أن يكتب بالأقلام القديمة التي ليست بمتداولة بين الناس مما لا يعرفه إلا الآحاد ، إذا وافق ذلك القلم اللغة التي تريد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابن الدريهم أن أقل اللغات المغل وهو سبعة عشر حرفاً ، وأطولها الأرمني ، وهو ستة وثلاثون حرفاً^(١) . ثم قال : والتركي عشرون حرفاً ، وكذلك الفارسي إلا أن في الفارسي ثلاثة أحرف ليست في التركي ، وهي الهاء والفاء والداأل . وفي التركي ثلاثة ليست في الفارسي : وهي الصاد والطاء المهملتان والقاف ، والعبراني والسرياني اثنتان وعشرون حرفاً [من أول أبيجد إلى آخر قرشت . واليوناني والرومي القديم أربعة وعشرون حرفاً]^(٢) ولهم قلم آخر ثلاثون حرفاً ، والقبطي اثنتان وثلاثون حرفاً ، وذكر أن جميع الأقلام مقطعة الحروف على اصطلاح أبيجد ، خلا العربي والمغلي

(١) في هذا الحصر مخالفة لما تقدم في ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وحرر .

(٢) قد تقدم أنه من أربعة وعشرين إلى ستة وعشرين حرفاً فتنبه .

(٣) زائد في بعض النسخ .

والسريانيّ فإنَّ حروفها تُوصَل وتُقطَع، وقطع السرياني كالعربي، وأقلامُ المتقدمين المقرّرة : كالروميّ والفَرنجيّ وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلى التمثيل بشيءٍ منها.

المذهب الثاني - أبن يَصطَلِح الإنسان مع نفسه على قلم يبتكره وحروف يُصوِّرها؛ وقد ذكر ابن الدريهم أنَّ الناس اختلفت مقاصدُهم في ذلك :

فمنهم - من يَصطَلِح على إبدال حرفٍ معيّن بحرفٍ آخر معيّن حيث وقع في القلم المعروف بالقمي، وهو أنهم جعلوا مكان كلِّ حرف من حروف العربية حرفاً آخر من حروفها؛ فجعلوا الكاف ميماً وبالعكس، والألف واواً وبالعكس، والدال المهملة راءً مهملةً وبالعكس، والسين المهملة عينا مهملةً وبالعكس، والفاء ياءً مثناةً تحتيةً وبالعكس، فيكتب محمد «كطكر» وعلى «سهب» ومسعود «كعسار» وعلى ذلك، وقد نظم بعضهم ذلك في بيتٍ واحد ذكر فيه كلَّ حرف تلو ما يُبدل به، وهو :

كَمْ أَوْ حِطِّ صَلَا لَهُ دَرَّ سَعٌ * فِي بَزْ خَيْشِ غَضِّ ثَجٍ تَدَفَّقِ

قال : ومنهم - مَنْ يعكس حروف الكلمة فيكتب محمد «دعمم» وعلى «يلع» .

ومنهم - من يُبدل الحرف الأول من الكلمة بثانيه مُطلقاً في سائر الكلام فيكتب محمد أخو على «حدم خا عويل» إلى غير ذلك من التميزات .

ومنهم - مَنْ يُبدل الحروف بأعدادها في الجمل ؛ فيكتب محمد أربعون، وثمانية، وأربعون، وأربعة، وتعمل التعميةُ صفةً محاسبة .

ومنهم - من يكتب عوض عدد الحرف حروفاً وهو البلغ في التعمية ؛ فيكتب محمد «لى بو لى اج» لأنَّ اللام والياء بأربعين وهى عدد مالمم الأولى، والباء

والواو بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما للميم الثانية، والألف والجم بأربعة وهى عدد ما للدال، فكأنه قال : م ح م د . وإن شاء أتى بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد .

ومنهم - من يجعل لكل حرف اسم رجل أو غيره .

ومنهم - من يضع الحروف على منازل القمر الثمانية والعشرين على ترتيبها على حروف أبجد : فيجعل الألف للشربين ، والباء للبطين ، والجم للثريا ، وهكذا إلى آخرها ، فيكون بطن الحوت للغن من ضغط . وربما أصطلح على الترتيب على أسماء البلدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذلك ، أو صور الطير وغيره من الحيوانات ، إلى غير ذلك من ضروب التعمى التي لا يأخذها حصر . وأكثر أهل هذا الفن على أن يرسم الحروف أشكالا يختارها قلبا له مقطعة على ترتيب حروف المعجم . والطريق في ذلك أن يثبت حروف المعجم ثم يرتب تحت كل واحد شكلا لا يماثل الآخر ، فكما جاء في اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لا يقع عليه غلط ، ثم يفصل بين كل كلمتين : إما بنقط أو بياض أو دائرة أو غير ذلك ، وأكثر المتقدمين يجعلون الحرف المشدد بجرفين ، والمتأخرون يجعلونه حرفا واحدا ، وهذه صور حروف مترجم كان قد وصل إلى الأبواب السلطانية من مناصحين في بغداد يقاس عليه

ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص
ه	ظ	لا	س	بم	عد	#	مه	كحام	/	طه	ع	حو	
ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	لاي
ك	ن	ه	٢	٤	٥	سجد	سى	لا	د	هـ	ل	لد	هضم

القاعدة الثانية — حلّ المعنى، وهو مقصودُ الباب ونتيجته .

ويحتاج المتصدى لذلك مع جودة الحدس وذكاء الفطرة أن يعرف اللغة التي يروم حلّ مترجمها مما وقع به التعمية فيها، ومقدار عدد حروفها؛ ولا خفاء في أن حروف العربية ثمانية وعشرون حرفاً، ويجب أن يعرف الحروف التي تدخل كل لغة والحروف المتنعة الوقوع فيها كما تقدم .

ثم المعول عليه، والمنصب القول إليه، فيما هو متعارف في هذه المملكة لغة العرب التي [هي] أشرف اللغات وأبدخها .

والناظر في حلّ مترجمها يحتاج إلى أصلين :

الأصل الأول — معرفة الأس الذي يترتب عليه الحلّ ؛ والذي تمس إليه الحاجة من ذلك سبعة أمور :

أحدها — أن يعرف مقادير الحروف التي تتركب منها الكلمة .

وأعلم أنّ كلام العرب منه ما يُبنى على حرف واحد مثل «ق» من الامر بالوقاية، و«ع» من الأمر بالوعي؛ ومنه ما يُبنى على حرفين من الأفعال مثل «قم» في الأمر بالقيام، و«كل» في الأمر بالأكل؛ ومن الحروف نحو : من في رب هل بل وما أشبه ذلك؛ ومن الأسماء المبنية نحو : ذى ذا من كم؛ ومن الضمير مع حروف الجر نحو : بك له؛ ومنه ما يُبنى على ثلاثة أحرف وأربعة وخمسة في الحروف والأفعال والأسماء، ثم تدخل فيه أحرف الزيادة العشرة، وهي «هويت السمان» وثلاثة أحرف آخر، وهي الفاء وباء الجر وكاف التشبيه

وكأف الخطاب إلى أن تبلغ الكلمة على اصطلاح الكتاب [أربعة] عشر حرفاً ،
كقولك مخاطباً لرجلين [أنشأ] جُنِينَةً : أَفَلَمْسْتَنْزَهَاتِكُمْ أَعَدْتُمَا .

قال ابن الدريهم : وليس في كلام العرب كلمة رُبَاعِيَّةُ الأصل أو نُحْمَاسِيَّةُ الأصل
ليس فيها حرف من الحُرُوفِ الذَّلَقِيَّةِ كاللام والنون والواو، والشَفَوِيَّةِ كالفاء والميم
والباء إلا ما شدَّ مثل «عَسَجَد» من أسماء الذهب .

قال : ونهاية الأسماء العربية قبل الزيادة خمسة ، وشدَّ (؟) مثل عَنَدَلِيْبٍ ، والأفعال
قبل الزيادة أربعة ؛ وليس في القراءان كلمة نُحْمَاسِيَّةُ الأصل سوى الأسماء الأعجمية
مثل إبراهيم ، ولا يمكن أن يتكرر حرف [في] كلمة واحدة أكثر من خمسة كقول القائل
مارأينا [كككاكككم^(١)] جمع كككة وهو المركب الكبير مثل عككة وعكك ،
وأربع كافات في قولك ^(٢) وكككمك .

الثاني - أن يعرف الحروف التي لا يقارب بعضها بعضاً بمعنى أنها لا تجتمع
في كلمة واحدة .

وأعلم أن في الأحرف ما لا يقارب بعضه بعضاً مطلقاً بتقديم ولا تأخير كالتاء
المثلثة ، فإنها لا تقارب الذال المعجمة والزاي المعجمة والسين والصاد المهملتين
والضاد المعجمة ، وكذلك الجيم لا تقارب الطاء المهملة ولا الظاء المعجمة ولا الغين

(١) بيض له في الاصول وقد صحناه من المقام ، ولكن لم نعر على هذا البناء في كتب اللغة ولعله

حامي تامل .

(٢) بياض في الاصل .

المعجمة ولا القاف ولا الكاف، وما وقع من ذلك في الكلام نحو : نُعْجَة وَبِرْجَقٍ
وَجُرْمُوقٍ وَجَوْلَقٍ وَجُلَاهِقٍ وَمَنْجَنِيْقٍ وَجَوْقَةٌ وَجَوْسَقٌ وَصَنْجَقٌ وَسَنْجَقٌ وَجَرْدَقٌ
ونحو ذلك فليست عربية : لأنه لا يجتمع في كلام العرب جيم وقاف في كلمة
واحدة ؛ وكذلك الدال المهملة لا تقارن الظاء المعجمة والذال المعجمة لا تقارن
الزاي المعجمة والصاد والصاد والطاء والطاء ، وما وقع في الكلام من ذلك فليس
عربي ، مثل طبرزد فارسي والزط نبطي ، ولا تقارن السين المهملة الصاد المهملة
والضاد المعجمة والطاء المعجمة ؛ ولا تقارن الضاد المهملة الضاد المعجمة ولا الظاء
المعجمة ؛ ولا تقارن الضاد المعجمة الشين والطاء المعجمتين ؛ ولا تقارن الطاء
المهملة الظاء المعجمة ؛ ولا تقارن القاف الغين المعجمة ولا الكاف في كلمة أصلية ،
(١)
وشد نغق الغراب وناقعة نغيق ؛ ولا تقارن الكاف الخاء المعجمة في كلمة أصلية ،
ولا تقارن الميم الباء الموحدة والفاء في كلمة أصلية إلا في فَمٍ وأصله فَوَهْ ، وأما جِّمٌّ
لأحد أوتار العود فليس عربي ؛ والحروف الخلقية لا يقارن بعضها بعضاً خلا الهاء
فإنها تعقبها زائدة ، كهاء الضمير وهاء التأنيث ، وتعقب العين أصلية كالعهد والعهر
وعهر ؛ وليس في كلمة أصلية حرفان حليان سوى ما تقدم من الهاء ، وقد تعقب
بواسطة كغيب وعبر ؛ أما حيل فركبة ، ولا يجتمع حرفان من هذه الخمسة :
وهي الهاء والطاء المهملة (٢) والعين والغين والحاء المعجمة في أول كلمة سوى ما ذكر ،
ولا في أثناء الكلمة إلا الهاء مع العين كهلع والهاء مع الغين كاهيغ ، والحاء مع الغين
(٢)
كأخيغ ، والهاء مع الخاء المعجمة في كلمة واحدة وهي هيخة ؛ ولا تجتمع الهاء

(١) في الأصول العين المهملة وهو غير مستقيم . وفي كتب اللغة ناقة نغيق « أي بإعجام الغين » إذا كانت

تبغ مرة بعد مرة .

(٢) لم توجد في كتب اللغة التي بأيدينا .

الأصلية مع الخاء المعجمة ، ولا الخاء المهملة والعين المهملة إلا أن تكون مرتبة مثل هر قضع (؟) والحيعة .

الثالث - أن يعرف الحروف التي لا تقارن بعض الحروف في الكلمات إلا قليلا ، كقارنة السين المهملة للسين المعجمة في شسع والسين مع الزاي كشرز والراء مع اللام كورل .

[وأعلم] أن الحرف الواحد يتكرر في الكلمة الواحدة كثيرا مثل دَهْدَه وتَهْتَه ونَهْنَه وَحَصْحَص وَجَبَجَب وَخَمَخَم وَجَلْجَل وَخَلْخَل وَشَعْشَعَة وَزَعَزَع وَدَغْدَغ وَبَغْبَغ وَنَعْنَع وَعَسْعَس وَزَعَزَع وَغَوْغَاء وَصَحْصَاح وَخَوْخ وما أشبه ذلك .

الرابع - أن يعرف ما يجوز تقديمه على غيره من الحروف وما يمتنع ، فالثاء لا تتقدم السين المعجمة ، والذال المهملة لا تتقدم على زاي ولا صاد مهملة (١) ولا طاء مهملة بدليل أنهم لما عرّبوا مُهَنْدِز ، أبدلوا الزاي سينا فقالوا مُهَنْدِس وَهَنْدَسَة ، والذال المعجمة لا تتقدم الجيم ولا السين المهملة ولا الشين المعجمة ولا العين المهملة ، ومن هنا لما عرّبوا الفالوذج من الفارسي قالوا فالوذق ؛ والشين المعجمة لا تتقدمها الزاي المعجمة ولا السين المهملة ولا الصاد المهملة ؛ والطاء المهملة لا تتقدم الكاف في كلمة أصلية ؛ والسين المهملة لا تتقدم على الدال المهملة إلا قليلا كسَدَاب ، والذال المعجمة لا تتقدم على الدال المهملة إلا قليلا كقولك في الأمر دُد الغم .

(١) في الأصل "على نون" وهو غير مستقيم كما لا يخفى .

(٢) أورده القاموس بالذال المعجمة وتكلم عليه شارحه ثم قال ويوجد في بعض كتب النبات بالذال المهملة .

الخامس - أن يَعْرِفَ ما لا يَقَعُ في أوّل الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التاء المثناة فوق ولا الصاد المهملة ولا الضاد المعجمة ولا الغين المعجمة؛ أما الحِصْنُ فمعرَّبٌ .

السادس - أن يَعْرِفَ أنه لا يَتَكَرَّرُ حرفٌ في أوّل كلمة إلا من هذه العشرة الأحرفِ وهي: الكاف واللام والميم والنون والتاء المثناة فوق والألف والباء الموحدة والواو والقاف والياء المثناة تحت ويجمعها قولك «كُلُّ مَنْ تَابَ وَوَقِيَ» وأقلُّها وقوعا كذلك الياء .

السابع - أن يَعْرِفَ أكثرَ الحروفِ دَوْرَانَا في اللُّغة، ثم الذي يليه من الحروفِ في الكثرة إلى أقلِّها دَوْرَانَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كَلَامَ الْعَرَبِ أَكْثَرُ مَا يَقَعُ فِيهِ عَلَى مَا دَلَّ عَلَيْهِ اسْتِقْرَاءُ الْقِرَاءَنِ الْكَرِيمِ الْأَلْفُ ثُمَّ اللَّامُ ثُمَّ الْمِيمُ ثُمَّ الْيَاءُ الْمُثْنَةُ تَحْتُ ثُمَّ الْوَائُ ثُمَّ النَّونُ ثُمَّ الْهَاءُ ثُمَّ الرَّاءُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْفَاءُ ثُمَّ الْقَافُ ثُمَّ الدَّالُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الذَّالُ الْمَعْجَمَةُ ثُمَّ اللَّامُ أَلْفُ ثُمَّ الْحَاءُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْجِيمُ ثُمَّ الصَّادُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْخَاءُ الْمَعْجَمَةُ ثُمَّ الشَّيْنُ الْمَعْجَمَةُ ثُمَّ الضَّادُ الْمَعْجَمَةُ ثُمَّ الزَّايُ الْمَعْجَمَةُ ثُمَّ النَّاءُ الْمُثَلَّثَةُ ثُمَّ الطَّاءُ الْمَهْمَلَةُ ثُمَّ الْغَيْنُ الْمَعْجَمَةُ ثُمَّ الظَّاءُ الْمَعْجَمَةُ؛ وَقَدْ جَمَعَ بَعْضُهُمْ أَحْرَفَ الْكَثْرَةِ فِي قَوْلِهِ (اليمونه) وبعضهم يجمعها في قوله (اليوم هن) وجمع الحروفِ المتوسطة في قوله (رعت بكس نخب)^(١) وجمع أحرفِ القلَّةِ في قوله (طظغ صخذز قش) .

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحرهما .

قال ابن الدريهم : وقد يقع في لفظ غير القرآن على خلاف ذلك كما يتعمدون
النظم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة، وقد يكون
الكلام ألفاظا قلائل لا تستوعب الحروف .

الأصل الثاني - كيفية التوصل بالحدس إلى حل المترجم :

قال ابن الدريهم : إذا أردت حل ما ترجم لك، فأبدأ أولاً بعدد الحروف،
وكم تكرر كل شكل منها مرة فأثبتته أولاً فأولا . قال : وأول ما تستخرج الفاصلة إن
كان الذي عمى قد بالغ في التعمية، يعني بإخفاء الفاصلة في ضمن الحروف؛ وذلك
أنك تأخذ حرفاً فتظن أن الفاصلة تكون الثاني فتجربه على ما تنظر من الكلمات
من المقادير على ما تقدم؛ فإن وافق وإلا أخذت الثالث، فإن وافق وإلا الرابع
وهكذا حتى يصح لك انفصال الكلمات، ثم تنظر أكثر الحروف دورانا في الكلام
فتقاربه من الترتيب المتقدم في أكثر الحروف دورانا على ما تقدم، فإذا رأيت حرفاً
قد وقع في الكلام أكثر من سائر الحروف فتظن أنه الألف؛ ثم الأكثر وقوعاً بعده
فتظن أنه اللام؛ ويؤيد صحة ظنك أن اللام يدار في أكثر استعماله تابعاً للألف؛
ثم تنظر إن كان في الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف؛ ثم أول ما تلقى
من الكلام الثنائية بتقريب حروفها حتى يصح معك شيء منها فتنظر أشكالها وترقم
عليها، وتجرى الكلام في الثلاثيات حتى يصح معك شيء منها فترقم نظائره؛ ثم تجرى
الكلام في الرباعيات والخماسيات على الوزن المتقدم؛ وكل ما أشبهه فاحتمل احتمالين
أو ثلاثة أو أكثر تثبته إلى حين يتعين من كلمة أخرى؛ فما انتظم لك من ذلك

قُتِبَتِ الْبَاقِي عَلَيْهِ ؛ وَإِذَا رَأَيْتَ حَرْفًا قَدْ تَقَدَّمَ الْأَلْفَ وَاللَّامَ فِي أَوَّلِ الْكَلِمَةِ فَتَنْظُنْ أَنَّهُ إِمَّا بَاءٌ وَاحِدَةٌ وَإِمَّا فَاءٌ وَإِمَّا كَافٌ غَالِبًا .

قال : وينبغي أن يكتب للبديء أولاً كلّ كلمة على حدها منفصلةً ، وأن يكتب له الشُّعْرُ دُونَ النَّثْرِ ؛ فَإِنَّ الْوِزْنَ يُسَاعِدُهُ عَلَى ظُهُورِ بَعْضِ الْحُرُوفِ ، كِهَاءِ التَّأْنِيثِ وَتَاءِ التَّأْنِيثِ السَّاكِنَةِ وَتَاءِ الْمُتَكَلِّمِ وَالسَّاكِنِ الَّذِي لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا أَحَدَ حُرُوفِ الْعِلَّةِ الدَّائِرَةِ فِي الْكَلَامِ وَأَمْشَالِ ذَلِكَ ؛ ثُمَّ ضَرَبَ لِدُكِّ مِثَلًا بِأَنَّكَ إِذَا رَأَيْتَ هَذِهِ الْأَسْطُرَ مَكْتُوبَةً بِهَذَا الْقَلَمِ

ح ا ب ء ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز
 ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز
 ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز
 ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز
 ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز
 ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز ح ا ب ح د ه و ز

قال : فينبغي قبل كلّ شيءٍ أن يبدأ فيرقم تحت كلّ شكلي من هذه الأشكال ثم يكرر مرةً أوْلاً فْأَوْلاً على هذا المثال

٦	١٨	٩	٢	١٤	١١	٨	٣	٣	٣
٤	٦	١	٢	٢	٨	٤	٤	٤	١٥

فيجد قد تكرر معه هذا الشكل ه أكثر من كل الأشكال بكثير، فيعلم أنه الألف
 فيرقم عليه في مواضعه، ثم المكرر بعده أكثر من باقي الأشكال هذا الشكل 3
 فيظن أنه اللام ويحقق ظنه كونه تابعا للألف في سبعة مواضع من الكلام؛ ثم ينظر
 فيجد فيه حرفا واحدا كلمة فيظن أنها اللام ألف؛ ثم يجد الكلمة الثالثة ثنائية
 ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدى هذه: بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا
 غلا فلا كلا هلا ولا؛ ثم يجد هذا الشكل د الذي مع اللام ألف قد ورد
 مكررا في أول كلمة أمتنع أن يكون جيا أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا
 أو هاء فلم يبق معنا سوى بلا تلا فلا كلا ولا؛ ثم يجد الكلمة الخامسة ثنائية
 ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدى هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا،
 ثم يتبرح أنها ما أو يا لأن هذا الشكل I قد تكرر أكثر من باقي الحروف
 فيكون إما الميم أو الياء وإن قاربهما النون لكن ما ويا أكثر وقعا في الكلام
 من نا فإنها غريبة الوقوع، ثم رأينا هذا الشكل المتقدم قد تلا الشكل الذي مع
 اللام ألف الذي ظننا أنه أحد هذه ه ب ت ف ك وفي الكلمة الثلاثية
 المكرر أولها ه ه ه I ه ه ه جربنا الحروف مع الميم فظهر منها لفظة
 «ففى» لاغير؛ ثم نظرنا هذا الحرف ه فوجدناه وقع في أربعة مواضع في الكلام
 لاغير، فقلنا إنه الفاء: لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثر من ذلك غالبا، فصح
 معنا أن الكلمة الثالثة «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرف المفرد «لا»
 والكلمة الخامسة منه هي رايد ذلك أننا وجدنا الكلمة الحادية عشرة قد تكرر
 [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يمكن أن يتكرر
 حرف في مثل هذا المكان سوى الميم إذا جربته على جميع الحروف، فقلنا: المئات

المَح المَآر المَآس المَآع؛ ورأينا هذا الشكل **ت** الذى هو آخر الكلمة قد تكرر أكثر من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء، فبقي أن تكون هذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنا ولم يكن النون فعلمنا على الميم فى مواضعه؛ ونظرنا فرأينا هذا الشكل **ت** أول الكلمة الرابعة الثلاثية وقد صح ثانياً اللام وثالثها الميم فخرَّبناها على هذه الحروف فسقطتِ الرَّاءُ وبقي أحد هذه: سلم تلم علم؛ ثم نظرنا الكلمة المجارية للمات الماع الماس، فرأينا قبل الألف واللام حرفاً يكون أحد هذه ب ل و: لأن الفاء علمناها؛ ونظرنا هذا الحرف **م** قد تبع الألف واللام قبل الياء، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدى هذه أبا إذا أسا أنا، فخرَّبنا الكلمة على الباء والدادال والسين والنون على أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط «سلم» ثم جربناها على أن تكون العين فحصل منه بعد الحرف الأول البياع؛ ثم على أن تكون تاء فحصل منه الثبات السيات فسقط وبقي أبا أسا أنا؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أولها اللام وثانيها هذا الحرف **م** الذى قبل الياء وثالثها هذا **ت** الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها «لست» وسقط الباء والنون، وإتمام لم يقم منه «كسع» لأنه لما سقطت الباء سقطت العين من البياع، فصح أن تلك «السيئات» ونظيرها «المات» والثلاثية «تلم» وسقط علم، فرقنا على التاء فى مواضعها وعلى السين فى مواضعها، فصارت الثلاثية «أسا» فقد صح معنا من الكلمات: «فلا تلم يا لستُ الماتِ لا أسا ففى» وبقي الحرف الذى قبل السيئات؛ ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثلاثية فيها ت ي فخرَّبناها على الحروف فظهر منها «حتى» لا يشارِكها شيء فعلمنا على الحاء فى مواضعها؛ ثم نظرنا كلمة نحاسية قد بقي منها الحرف

الوسط، بجرّبناها على الحروف فقام من ذلك : « حَسَرَات حَسَكَات حَسَنَات »
 فعلمنا أنه حسنات : لأن هذا الشكل **هـ** تكرر أكثر من باقى الحروف بعد
 الألف واللام والياء والتاء، وقد صحّ الميم فأثبتنا النون فى موضعها؛ ثم نظرنا هذا
 الشكل **هـ** فى أول كلمتين ثلاثيتين وقد صحّ من إحداهما ن ي ومن الأخرى
 ل ي، بجرّبنا الحرف فوجدناه إما عينا أو واوا، فيقوم منهما عنى على وبى ولى
 فتعين أن يكون عينا لقلّة الحرف عن مرتبة الواو؛ ثم نظرنا كلمة سباعية قد بقى
 منها حرف مجهول، بجرّبناها على الحروف فصحت «البيّان» لا يشاركها لفظةً أخرى،
 وللحرف هذا الشكل **هـ** الذى قبل السينّات فتعيّنت الباء فى مواضعها؛ ثم نظرنا
 كلمة سداسية نالّتها حرف مجهول، بجرّبناها فظهر منها «الكتاب»؛ ثم نظرنا كلمة
 نحاسية قبل التى قبل «هذه» قد بقى حرف الوسط [منها] مجهولا، بجرّبناها على الحروف
 فقام لمحيّف لمندف لمصنّف فتعيّنت «لمصنّف» بسبب سياق الكلام بلفظ
 «الكتاب» ورقمنا على الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقى منها رابعها مجهولا،
 بجرّبناها على الحروف فصحت «الموصل» وصحّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو»
 فرقمنا على الواو؛ ثم نظرنا الكلمة الأولى وهى ثنائية أولها ص بجرّبناها فصحت
 صدّ، وإنما كما أنحرّناها لقلّة وقع حروفها، ثم علمنا على الدال فوجدنا كلمة ثنائية آخرها
 «د» بجرّبناها على باقى الحروف التى لم تظهر، فقام منها جـ حد قد هد؛ ثم نظرنا
 كلمة ثلاثية فصحت أولّات وآخرها ل وسطها هذا الحرف **هـ** الذى قبل الدال
 فى الثنائية، بجرّبناها على الجيم والحاء والقاف والهاء، فسقطت الهاء وبقي تجل
 تقل تجل؛ ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل على أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية
 «تقل» فانتظم الكلام «لا تقل قد أسا» ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقى منها

ثانيها مجهولا ، بخرّبناها على باقي الحروف فصحت « عدّولى » ، فرقمنا على الذال في مواضعه ؛ ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التي بين « لمصنف » وبين « الكتاب » أولها هذا الشكل **د** وقد صح منها « ذا » فعلمنا أنّها « هذا » ورقمنا على الهاء ؛ ثم نظرنا الكلمة الخماسية التي بين « ففى » وبين « منه » قد بقي رابعها ، بخرّبناها على باقي الحروف فصحت « الوجه » ؛ ثم نظرنا الكلمة السباعية التي قبل الأخيرة وقد بقي منها رابعها مجهولا ، بخرّبناها فظهر منها الدرّيم ، فتكلّ الحلّ وظهر الكلام :

صَدَّ عَنِّي فَلَا تَلُمُ يَا عَدُّوْلِي * لَسْتُ أَسْلُو هَوَاهُ حَتَّى الْمَمَاتِ

لَا تَقُلْ قَدْ أَسَا فَنِي الْوَجْهِ مِنْهُ * حَسَنَاتٌ يَذْهَبْنَ بِالسَّيِّئَاتِ

هذا البيان لمصنّف هذا الكتاب ، على بن الدرّيم الموصلى .

وعلى مثل هذا المنوال يجرى الحلّ ؛ ثم أنظر إلى حروف هذا الكلام كيف جاءت أحداً وعشرين حرفاً ، ونقص منه ثمانية لم توجد فيه ، فإذا نظرت إلى ما قررت لك من ترتيب وقع الحروف كما جاءت في الكتاب العزيز ، رأيت الثمانية الناقصة هي آخر الترتيب سواء لم يختلط منها شيء بتقديم أو تأخير ، وهذا اتفاق : لأنه قد يقع الحرف قريبا من رُتبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء على الميم في هذا الكلام ، والفاء على الميم والنون ، وتقدّمت الهاء على الميم أيضا ؛ لكن الأصل معرفة وقع الحروف بالتقريب وتجربة الكلمات ، ومقارَبة ما دلّ عليه سياق الكلام .

ولنضرب مثالا آخر : لتتضح أنواع الحلّ .

وهذا مثال آخر أورده ابن الدَّرِيم، وهو :


:٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:
 :٠٠:

فتعدد المكررات من الأشكال كما مر وترقمها على هذه الصفة .

٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
٩٤	٧	٩٤	٧	٩	٦	٩	٩٤	١٧	٩٤	٣٢٢											
٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠	٠٠
١	١	١	٩٤	٢	١	٢	١	٢	١	٢	١	١	٢	١							

فننظر فإذا أكثرها وقعا ✂ ثم حُرُر ثم هـ ثم هذين ✂ ماله
 ثم هذين لـ ✂ ثم هذا ٨ ثم هذه رر ✂ فتظن أن
 هذا الشكل ✂ الألف ، وهذا في اللام : لكونهما أكثر وقعا

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقتر أن اللام تكون تابعة للألف في أكثر المواضع ولم نجد تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هذا **ج** هو الألف وهذا **ح** هو اللام ، ورقننا عليهما في مواضعهما فإذا الكلمة الثانية الثلاثية فيها لآمان ، بقى حرف آخرها مجهول ؛ فخرّبناها على الحروف فظهرت الهاء لا يمكن غيرها ، فعلمنا أنها « **لله** » ورقننا على الهاء في مواضعها ، ثم وجدنا الكلمة الخماسية قد بقى رابعها مجهولا ؛ فخرّبناها فظهر لها ألها ألها الهاء ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كل الحروف بعد الألف واللام ؛ فظننا أنه الميم ، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط الباء والجيم فوجدناه في الثنائيات في كلمتين قبل الألف ؛ فعلمنا أنها « **ما** » فرقنا على الميم في مواضعها ، ثم رأينا الميم قد تبعه في الثنائيات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مض مط مع من ، ورأينا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررت ثلاث لفظات ؛ فعلمنا أنها « **من** » ورقننا على النون في مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل **م** أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفي أوائل الكلمات فقلنا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمة قد بقى منها رابعها مجهولا ، فخرّبناها فظهر والبهيم والتهيم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهيم ؛ ثم وجدنا هذا الحرف **ن** الذى فيها قد جاء قبل حرف في الثنائيات وذلك أكثر ما وقع بعد الألف واللام والميم ، فيحتمل أن يكون الياء ، ووجدنا قد بقى من كلمة هذا الحرف فصّح أن يكون النهى وأخرى أولى ، فعلمنا أنها الياء ، فخرّبنا الحرف معها ؛ فظهر بي ني ، ووجدنا كلمة خماسية هذا الحرف **هـ** رابعها وبعد حرف آخر ؛ فخرّبناها على الياء والفاء فظهر اللبث اللبد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفح اللفق اللفق ؛ ثم وجدنا هذا الحرف الآخر **ذ** أول كلمة بعده لآمان وهاء ؛ فخرّبناها فظهر منها الحرف الثالث مجهولا ، فخرّبناها فظهر

التَّمَامِ الحَمَامِ الدَّمَامِ الشَّمَامِ الغَمَامِ الكَمَامِ ؛ فرأينا سياق الكلام يدلُّ على أنه «ظَلَّلَ الغَمَامَ» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفَهْمُ والثنايية، فرقنا على الفاء؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثلاثية ثانيا لآم وآخرها ياءٌ وبعدها «ما ألهمًا» فدل سياق الكلام على أنها «على» فرقنا على العين، فرأينا الرباعية التي بعد «وآله» قد بقي ثالثها مجهولا؛ فخرَّبناها فظهرت مَعِجَن مَعِدِن فتعين مَعِدِن والثنايية التي بعدها؛ وقيل «علم كل» فرقنا على الدال في مواضعه ورأينا الكلمة الأولى قد بقي وسطها مجهولا؛ فخرَّبناها وظهرت التمد الحمد الصمد، فدلَّ سياق الكلام أنها الحمد : لأن بعدها «لله على ما ألهمًا» فرقنا على الحاء في مواضعها، ورأينا الثالث من الرباعية التي بين على وظلَّه، فخرَّبناها فظهرت «الذي» ورأينا الكلمة الخماسية التي بعد «محمد» قد بقي رابعها [مجهولا] ، فخرَّبناها فظهرت «النبى» فرقنا على الياء في مواضعها ورأينا قد بقي ثالثُ السُداسية التي بعد «من» هذا الشكل  وهو ثالثُ رباعية أولها الألف وثانيتها فاء وآخرها حاء، وثاني خماسية أولها واو وثالثها حاء ورابعها باء وخامسها هاء؛ فتعينت الصاد، فالأولى «الصواب» والأخرى «أنصح» والأخرى «وصحبه» وتعينت الثنايية التي هي أول البيت الثاني بعد السطر الأوب «ثم» والتي تليها «صلاة» وتعين السين في السلام؛ فصار، «ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ» وكما تمزّن الإنسان في ذلك ظهر له أسرع بكثرة المباشرة، ثم تعين رابع السُداسية التي بعد أفصح من أنه الضاد، وتعين بسياق الكلام أن بعد بالضاد «في الألفظ نطق» فرقنا على القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المِصراع «خَلَقَ» فرقنا على الحاء، وتعينت الكلمة التي قبل «مَنْ خَلَقَ» أنها «خير» فتكلمت الآيات وظهر أنها :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا أَلْهَمَنَا * مِنَ الصَّوَابِ وَعَلَى مَا عَلَّمَنَا
 ثُمَّ صَلَاةُ اللَّهِ وَالسَّلَامُ * عَلَى الَّذِي ظَلَّمَهُ النَّعَامُ
 مَجْدِ النَّبِيِّ خَيْرٍ مِنْ خَلْقٍ * أَفْصَحَ مِنَ الْبُضَادِ فِي اللَّفْظِ نَطَقَ
 وَآلِهِ مَعْدِنِ كُلِّ عِلْمٍ * وَصَحْبِهِ أُولِي النَّهْيِ وَالْفَهْمِ

قلت : وما يلتحق بتعمية الخطِّ المتقدمة الذكرِ ما حكاه ابنُ شيثٍ في معالمِ
 الكتابة : أنَّ بعضَ الملوكِ أمرَ كاتبه أن يكتبَ عنه كتاباً إلى بعضِ أتباعه يُطمِّنه
 فيه ليقبضَ عليه عندَ انتهازِ فُرْصَةٍ له في ذلك ؛ وكان بينَ الكاتبِ والمكتوبِ إليه
 صداقةٌ فكتبَ الكاتبُ على ما أمرَ به من غيرِ خروجٍ عن شيءٍ من رسمه ، إلا أنه
 حينَ كتبَ في آخره « إن شاء الله تعالى » جعلَ على النونِ صورةَ شدَّةٍ ، فلما قرأه
 المكتوبُ إليه ، عرفَ أنَّ ذلكَ لم يكنِ سُدِّي من الكاتبِ فأخذَ في التأويلِ والحَدْسِ
 فوقعَ في ذهنه أنه يُشيرُ بذلكَ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ .
 فأخذَ حذره ، وأحترزَ على نفسه ، وبلغَ الملكَ أحترازه على نفسه فاتهمَ الكاتبَ في أنه
 ألحقَ في الكتابِ شيئاً نَبَّهَ به على قصدِ الملكِ ، فأحضره وسأله عن ذلكَ ، وأمره
 بأن يكتبَ الكتابَ على صورةِ ما كتبَ به من غيرِ خروجٍ عن شيءٍ منه ،
 فكتبه ولم يغير شيئاً من رسمه حتى إنه أثبتَ صورةَ الشدَّةِ على النونِ ؛ فلما قرأه
 الملكُ ونظرَ إلى صورةِ الشدَّةِ أنكرها عليه ، وقال : ما الذي أردتَ بذلكَ ؟ قال :
 أردتَ قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْمُرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ . فأعجبَ بذلكَ وعفا عنه
 لصدقه إياه .

النوع الثاني

(الرموز والإشارات التي لاتعاق لها بالخطِّ والكتابة)

وهي التي يعبر عنها أهل المعاني والبيان بالإستعارة بالكناية « بالنون بعد الكاف » وقد يعبر عنها بالوحي والإشارة .

ومن غريب ما وقع في ذلك ما حكاه العسكري في "الصناعتين" : أن رجلا من بني العنبر أسرف في بني حنظلة ، وفهم عنهم أنهم يقصدون الغارة على قومه بني العنبر ، فقال لبني حنظلة : إن لي حاجة عند أهلي وأريد رسولا من قومكم أرسله فيها ، فأجابوه إلى ذلك بشرط أن يخاطبه في حاجته بحضورهم ، فأحضروا له رجلا في الليل وقد أوقدت العرب نيرانها ، فأقبل على الذي أتوه به وقال له : أتقبل ؟ قال : إني لعاقل . فقال : أنظر إلى السماء ونجومها ، فنظر ، ثم قال : أنظر إلى نيران العرب ، فنظر ، فقال له : ما أكثر ؟ نجوم السماء أو نيران العرب ؟ فقال : إن كلاً منها لكثير ، قال : إنك إذا لعاقل ، ثم دفع إليه حنظلة وصرّة فيها رمل وصرّة فيها شوك ، وقال أذهب إلى قومي فادفع إليهم هذه الحنظلة وهاتين الصرتين ، وقل لهم يعروا ناقتي الحمراء ، ويحلوا جملي الأورق ، وسلوا أمي الأورع يُخبركم الخبر . فقال الحاضرون : ليس في هذا ما ينكر ، أذهب في حاجته ، فذهب إلى بني العنبر ودفع إليهم ذلك وقص عليهم القصّة ورجع ، فبعث القوم إلى أخيه الأورع فحضر ، فأخبروه الخبر . فقال إنه يقول : أتاكم بنو حنظلة في عدّ الشوك والرمل ، وإن نيران العرب تُعاد نجوم السماء ، ويأمركم أن ترحلوا عن الدهناء وانزلوا مكان كذا ، ففعلوا ورحلوا لوقتهم فصبّحهم بنو حنظلة فلم يدركوا منهم أحدا .

وفي معنى ذلك ما حكاه المَقَرَّ الشَّهَابِيُّ بنُ فضل الله في كتابه "التعريف" :
 في الكلام على المكتبة إلى الأدفونش ملك الفَرَنْج بَطْلَيْطَلَة من بلاد الأندلس ؛ كان
 خبيثَ النية ، سَيِّءَ المقاصد لأهل الإسلام ؛ وأنه أرسل مرَّة إلى الملك الناصر
 محمد بن قلاوون : صاحب الديارِ المِصْرِيَّة هديةً فيها سَيْفٌ وثوبٌ بِنْدَقٌ وطارقةٌ
 مستطيلةٌ تُشْبِه النَّعْشَ كأنه يقول : أقتلك بهذا السيف ، وأكفنتك في هذا الثوب ،
 وأحملك على هذا النَّعْش . قال : وكان الجوابُ أن أرسل إليه حبلاً أسودَ وحجراً ،
 أى إنه كلب يُرمى بهذا الحجر أو يُربط في هذا الحبل .

قلت : ومما وقع من ذلك في زماننا أنه في الدولةِ الظاهرِيَّة «برقوق» وتمرنك
 يومئذ ببلادِ العِراقِ يُعاوِرُ الممالكَ الشاميةَ لقصدِ الاستيلاءِ عليها وردَّ عليه كتابٌ من
 المملكةِ الحليَّةِ فيه : أنه وقع بتلك البلادِ سَيْلٌ عظيمٌ ساقَ جملةً من الأُسُدِ والنمُورِ
 والحَيَّاتِ ، وأنه دَفَعَ حِيَّةً عظيمةً سَعَةً رأسها بقَدْرِ قَوْسٍ ، وقرئ الكتابُ بحضرةِ
 السلطانِ ، وحملوا ذلك على ظاهره : من أن المراد حقيقةُ السيلِ ، وأنه لقوته ساقَ
 تلك الحيةَ والسباعَ وغيرها ، وشاع ذلك بين الكافةِ من الأمراءِ وأهل الدولةِ وسائرِ
 الرعيَّةِ ، ومضى الأمرُ على ذلك ؛ ثم ظهر أن المقصودَ بذلك السيلِ وما فيه
 هو تمرنك وعساكره ؛ وأنه كُنِيَ بالحيةِ العظيمةِ عنه نفسِه ، وبالسباعِ والحَيَّاتِ
 عن عساكره .

ومن لطيف ما وقع في ذلك أنه ورد على السلطانِ الملكِ الناصرِ «فَرَجِ بنِ بَرُوقِ»
 في أواخر دولته كتابٌ عن صاحبِ تُونُسٍ من بلادِ المِغْرِبِ في آخره خطاباً للسلطانِ
 (وعلى إحسانِك المَعُولِ ، وبيتِ الطُّغْرَائِيِّ في لاميَّة العجم لايتأول) فسألني بعضُ
 أعيانِ ديوانِ الإنشاءِ عن المراد من ذلك ولم يكن الكتابُ متضمناً لغير الوصيةِ

على يُجَاجِ المَغَارِبَةَ ، وكان رَكِبَ المَغَارِبَةَ قَبْلَ تِلْكَ المَجَّةِ قَدْ عَرَضَ لَهُمُ عَارِضٌ
مِنْ عَرَبِ دَرَبِ الحِجَازِ آجِنَا حُوهم فِيهِ ، وَقَتَلُوا مِنْهُمُ خَلْقًا كَثِيرًا ، وَنَهَبُوا مِنْهُمُ أَمْوَالًا
جَمَّةً ، فَعَرَضْتُ ذَلِكَ عَلَى أَيْبَاتِ اللّامِيَةِ ، فَلاح لِي أَنَّهُ يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ فِيهَا :

فَقُلْتُ أَرْجُوكَ لِلْجَلِيِّ لِتَنْصِرَنِي * وَأَنْتَ تَحَدِّثُنِي فِي الحَادِثِ الجَلَلِ

وَالجَلِيُّ بِضَمِّ الجِيمِ هِيَ الأَمْرُ الجَلِيلُ العَظِيمُ ، وَالجَلَلُ بِفَتْحِ الجِيمِ فِي اللُّغَةِ مِنْ أَسْمَاءِ
الأَضْدَادِ ، يَقَعُ عَلَى الشَّيْءِ الجَلِيلِ وَعَلَى الشَّيْءِ الحَفِيرِ ، كَأَنَّهُ يَقُولُ : أَنَا كُنْتُ
أَرْجُوكَ لِلأُمُورِ العِظَامِ لِتَنْصِرَنِي فِيهَا نَفَذْتَنِي فِي هَذَا الأَمْرِ الحَسِيسِ ، وَهُوَ الأَخْذُ
بِثَأْرِ حُجَّاجِ بِلَادِي مِمَّنْ أَعْتَدِي عَلَيْهِمْ مِنْ عَرَبِ بِلَادِكَ : نَحَابَ ظَنِّي فِيمَا كُنْتُ
أَرْجُوهُ فِيكَ ، وَأَوْمَلَهُ مِنْكَ ، وَأشارَ بِقَوْلِهِ لِأَيْتَأَوَّلُ إِلَى أَنَّهُ لا يَجْمَلُ الجَلَلُ فِي قَوْلِ
الطُّغْرَائِيِّ عَلَى الشَّيْءِ الجَلِيلِ كَمَا قالَ الصَّلَاحُ الصَّفَدِيُّ فِي شَرْحِ اللّامِيَةِ ، بَلْ عَلَى
الأَمْرِ الحَسِيسِ : لِأَنَّهُ هُوَ اللّائِقُ بِالمَقَامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الأُمُورِ تَحْتَاجُ إِلَى قُوَّةِ ذِكاءٍ وَأَحْتِدَامِ قَرِيبَةٍ مِنَ الَّذِي يَقَعُ
مِنْهُ الرَّمْزُ ، وَإِلَى قُوَّةِ حَدْسٍ مِنَ الَّذِي يَجَاوِلُ إِدْرَاكَ المَقْصِدِ مِنْ تِلْكَ [المَعَامِي]
كَما يَقَعُ فِي الأَلْغَازِ والأَحْاجِيِّ لِللِّغْزِ ، وَالمْتَصِدِي حَلِّ الأَلْغَازِ وَالجِوابِ عَنْهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
هُوَ المَهْدِي إِلَى سَبِيلِ الصَّوابِ .

المقالة الخامسة

(١)

في الولايات ، وفيها [أربعة] أبوابٍ

الباب الأول

في بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ، وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في بيان طبقات الولايات ، وهي على ثلاث طبقات

الطبقة الأولى — الخِلافة ؛ وليا يكتب في ولايتها طريقان : إما عهد من الخليفة الأول ، وإما بيعة من أهل الحل والعقد إن لم يوجد عهد من الخليفة قبله على ماسأى بيانه إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانية — السُّلطنة ؛ وليا يكتب في ولايتها طريقان : أحدهما العهد من الخليفة ، والثاني العهد من السلطان قبله . قال في " التعريف " : أما من قام من الملوك بغير عهد ، فلم تجر العادة أن تكتب له مبايعة .

الطبقة الثالثة — الولايات عن الخلفاء والملوك وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية في أقطار المملكة بمصر والشام والحجاز : مما يكتب من ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية .
وهي على خمسة أنواع :

(١) بياض في الأصل والتصحيح مما تقدم في ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

النوع الأول

(ولايات أرباب السيوف ؛ وهم على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول - التّوابع من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالب من يكتب له منهم بالبلاد الشامية ومضافاتها ؛ كتّوابع السلطنة بدمشق وحلب وطرابلس وحمّة وصفد والكرك ، ومقدمى العسكر بغزة وبيس ؛ وتوابع القلاع بالمدن العظام ذوات القلاع الرفيعة القدر : كالتّوابع بقلعة دمشق ، والتّوابع بقلعة حلب ، والتّوابع بقلعة صفد . أمّا طرابلس وحمّة ، فليس بهما قلعة ؛ وكذلك التّوابع الصغار المضافة إلى القواعد الكبار : كالقُدس الشريف وحصّ ومضيف من مضافات دمشق ، وقلعة المسلمين والرّجة والبيرة والرّها وشيزر وعيتاب وبيسني وملطية وآياس والألبستين وأذنة وطرسوس من مضافات حلب ، والأذقية وحصن عكار من مضافات طرابلس وما يجرى مجرى ذلك ، على ما سيأتى بيانه مفصلاً في مواضعه ؛ إن شاء الله تعالى .

أمّا مادونها من التّوابع فإنّ توابع السلطنة بالملكة يستقلون بالتولية فيها .

قلت : والضابط في ذلك أنّ كلّ نيابة كان نائبها تقدمة ألف فوليتها عن السلطان بمرسوم شريف من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ؛ وكلّ ولاية كان نائبها جندياً أو مقدّم حلقة فوليتها عن نائب السلطنة بالملكة التي هي مضافة إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بها ؛ وكلّ نيابة كان نائبها أميراً بطليخاناه أو عشرة ربّما وثى فيها السلطان وربّما وثى فيها نائب السلطنة ، إلا أنّ تولية السلطان لتوابع الطليخاناه أغلب ، وتولية توابع السلطنة لتوابع العشرة أغلب .

أما الديار المصرية فإنه كان يكتب فيها أولاً لولاة الوجهين : القبلي والبحري
بحرياً على ما كان الأمر عليه في زمن الخلفاء الفاطميين ، وكذلك والى الإسكندرية
قبل أن تستقر نيابة ، ووالياً لولاة الوجهين قبل أن يستقرتا نيابتين ، في جماعة
أخرى من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجيوش كاستادار وأمير أخور
ومقدم الممالك ووالي مصر والقاهرة ؛ ثم صارت الكتابة لذوي الوظائف من أرباب
السيف قاصرة على النائب الكافل إذا كان موجوداً والنواب المستجدين
بالإسكندرية والوجهين : القبلي والبحري ؛ وبطل ماعداً ذلك مما كان يكتب ،
وكان المعنى فيه القرب من مقرة السلطان ؛ والكتابة إنما تقع في الغالب مع البعد :
لتكون حجة للتولى على بعد المدى ، ولا ينتقص ذلك بما يكتب للخلفاء والملوك
في الحضرة ، فإن ذلك من الأمور العامة التي يخاف أنتقاضها أو مجودها ، إذ مثل
ذلك لا يجوز في الولايات عن السلطان : لأنه متى شاء عزل من ولاءه .

الصف الثاني — ولاية أمراء العربان ، وهؤلاء لاحظ لهم في الكتابة بالولاية
بالديار المصرية الآن ؛ وربما يكتب لأمرائهم بالملكة الشامية : كأمر آل فضل ،
وأمر آل مرا ، وأمر آل علي ، ومقدم بحر ، وكذلك أمير مكة المشرفة ،
وأمر المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ،
والنائب بالينبع من البلاد الحجازية . والمعنى في اختصاص من بعد منهم ماتقدم
في الكلام على أرباب السيف مع ضعف شأن عرب الديار المصرية وعدم
الاهتمام بأمرهم .

الصف الثالث — ولاية المقدمين على الطوائف : كمقدمي التركان ، والأكراد ،
والجبلية بالبلاد الشامية ، وأتابك طائفة الإسماعيلية بقلاع الدعوة ، وحاكم البندق

ونحوهم ؛ وهذه الطوائف ممن يكتب له إلى الآن ؛ أما حاكم البندق ، فإنه لم يعهد له كتابةً من ديوان الإنشاء بمصر والشام . على أن المقرّ الشهابي بن فضل الله قد ذكر وصيته في " التعريف " ولعله ممن كان يكتب [له] في زمانه أو قبله ثم ترك ، وإنما يكون ذلك بحسب اعتناء السلطان بشأن البندق وعدمه كما في لباس الفتوة ، وأنه ربما اعتنى به بعض الملوك فكتب له ثم ترك .

النوع الثاني

(ولاية أرباب الأقلام ، وهم صنفان)

الصنف الأول

(أربابُ الوظائف الدينيّة ، وهم على ثمانية أضرب)

الضرب الأول — أ كابرُ القضاة بأقطار المملكة : كقضاة القضاة بالحضرة السلطانية بالديار المصرية وثغر الإسكندرية ، وكذلك قضاة القضاة بدمشق وحلب وطرابلس وحمّة وصفد والكرك ، وقضاة العسكر بالديار المصرية ؛ أما القضاة بالنيابات الصغار المضافات إلى دمشق وحلب ونحوهما فولايتهن إلى قضاة القضاة بها ، وقضاة العسكر بدمشق وحلب وما في معناهما إلى التواب بتلك الممالك .

الضرب الثاني — المفتون بدار العدل بالديار المصرية ؛ أما المفتون بدار العدل بالممالك الشامية فولايتهن إلى نائبيها .

الضرب الثالث - أكابرُ المحتَسِبِينَ : كمتَسِبِيٍّ مصر والقاهرة ؛ أما الممالك الشاميةُّ فلا يُؤلَّى فيها إلا تُوأبها .

الضرب الرابع - أكابرُ المدرِّسين في عامَّةِ العُلوم بأما كنَّ مخصوصةً : كالزوايعة الخشائية بالجامع العتيق بمصر ، والمدرسة الصلاحية بتربة الإمام الشافعي بالترافة ، ونحو ذلك بأقطار المملكة من مدرِّسي الفقه والحديث والتفسير وغير ذلك من العلوم الدنيئة .

الضرب الخامس - أكابرُ الخطباء بجوامع مخصوصة بأقطار المملكة : بجامع الناصري بقلعة الجبل ، والجامع الأموي بالشام ونحوهما .

الضرب السادس - وكلاءُ بيت المال بالديار المصرية وغيرها .

الضرب السابع - المتحدثون على الوظائف المعترية : كتنابة الأشراف ، ومشيخة الشيوخ ، فما كان بالديار المصرية فولايته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الإنشاء ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلى تواب السلطنة بها .

الضرب الثامن - المتحدثون على جهات البرِّ العامة المصلحة : كمنظر الأعباس وأنظار البيارستانات ونحوها : فما كان منها بالديار المصرية : كمنظر الأعباس والبيارستان المنصوري وما أشبه ذلك فتوليته ^(١) إلى توابها ، مالم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذلك مختصاً به .

(١) لعله فتوليته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الإنشاء ، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليته الخ

الصنف الثاني

(أرباب الوظائف الديوانية)

ودواوينها على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول — دواوين المال؛ وأرباب الخدم بها ممن تكتب ولاياتهم من ديوان الإنشاء : إما ناظر، أو وزير، أو صاحب ديوان، أو شهادة، أو استيفاء؛ فأما الوزارة فلا يصرح بها إلا للوزير بالأبواب السلطانية، وربما صرح بها لوزير دمشق إذا وليها من أرتفعت مرتبته، وإلا عبر عنه بناظر المملكة .

وأما النظر، فكنظر الدواوين المعبر عنه بنظر الدولة، ونظر الخاص، ونظر الخزانة الكبرى، ونظر البيوت « الحاشية » ونظر بيت المال، ونظر الإصطبلات السلطانية، ونظر دار الضيافة والأسواق، ونظر خزائن السلاح، ونظر البهار والكارمي، ونظر الأهراء، ونظر الموارث الحشرية، ونظر ثغر الإسكندرية المحروس؛ وغير ذلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية . وكذلك نظر المملكة بدمشق إذا لم يصرح لمتوليه بالوزارة، ونظر المملكة بحلب، ونظر المملكة بطرابلس، ونظر المملكة بحماة، ونظر المملكة بصفد، ونظر المملكة بسيس، ونظر المملكة بغزة، ونظر المملكة بالكرك .

وأما صحابة الديوان، فكصحابة ديوان الجيش وصحابة ديوان الخاص، ونحو ذلك .

وأما الشهادة، فكشهادة الخزانة الكبرى، وشهادة خزانة الخاص ونحوهما .

وأما الإستيفاء ، فكاستيفاء الصُحبة ، وأستيفاء الدولة ، وأستيفاء الخاص ، ونحو ذلك . ولا حظّ لغير النظار من دواوين الأموال بالممالك الشامية : من صاحب ديوان ولا شاهد ولا مستوفٍ ، في الكتابة بالولاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ؛ بل ولايتها من تواب الممالك الشامية بتوقيع من دواوين الإنشاء بها .

الضرب الثاني — دواوين الجيوش بالديار المصرية وغيرها من الممالك الشامية . وأرباب الخدم بها لا يخرجون عن ناظرٍ ، وصاحب ديوانٍ ، وشاهدٍ ، ومستوفٍ .

والذين يولّون عن السلطان منهم [و] تكتب توقيعهم من ديوان الإنشاء الشريف ناظر الجيش بالأبواب السلطانية ، وناظر الجيش بدمشق ، وناظر الجيش بحلب ، وناظر الجيش بطرابلس ، وناظر الجيش بحماة ، وناظر الجيش بصفد ، وناظر الجيش بقرّة ، وناظر الجيش بسيس ، وناظر الجيش بالكرك ، وصاحب ديوان الجيش بالأبواب السلطانية ، والشهود ، والمستوفون بها ؛ أما من عدا هؤلاء : من نظار الجيش وأصحاب الدواوين والشهود بالممالك الشامية ، فولايتهم إلى تواب السلطنة بها .

الضرب الثالث — دواوين الإنشاء ؛ وأرباب الخدم بها لا يخرجون عن كاتبٍ سرٍّ ، وكاتب دسيتٍ ، وكاتب درج .

والذين يولّون عن السلطان من كتاب هذه الدواوين وتكتب توقيعهم من ديوان الإنشاء السلطاني صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ، وصاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، وصاحب ديوان المكاتب بحلب ، وصاحب ديوان المكاتب

بطرابلس ، وصاحب ديوان المكتبات بحمّة ، وصاحب ديوان المكتبات
بصفد ، وكاتب الدرّج بسيس ، وكاتب الدرّج بغزة ، وكاتب الدرّج بالكرك ،
وكاتب الدرّج بالإسكندرية ، وكاتب الدّست وكاتب الدرّج بالأبواب السلطانية ؛
أما مكّاب الدّست ومكّاب الدرّج بالممالك الشامية فإلى نوابها بتوقيع من دواوين
الإنشاء بها .

النوع الثالث

(ولاياتُ أربابِ الوظائفِ الصّناعيّةِ)

كالأطباء ، والكحّالين ، والجرائحيّة ، ومن جرى مجراهم من سائر أربابِ الوظائفِ
التي هي من تتمّة نظام الملك ، فما كان منها بالأبوابِ السلطانية فولايته عن السلطان
بتوقيع من ديوان الإنشاء السلطاني ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلى
نواب السلطنة بها .

النوع الرابع

(ولاياتُ زُعماءِ أهلِ الدّمة . وهي ضربان)

الضرب الأوّل — ولايةُ بطاركةِ النصارى من اليعاقبة والملكيّة^(١) .

الضرب الثاني — ولايةُ رئيسِ اليهود الحاكم على طوائفهم .

(١) لم ينص على من له توليتهما .

النوع الخامس

(ما لا يختص بطائفة ولا يندرج تحت نوع)

كصغار الأمور التي يكتب فيها لكل فرد فرد : إما ابتداءً ، وإما بالحمل على ما بيده من ولاية سابقة : من نائب أو قاضٍ أو ناظرٍ وقف أو غير ذلك ؛ مما لا ينحصر كثرةً .

قلت : وربما وثى السلطان في بعض الوظائف بالمالك الشامية مما تختص توليته بتواب السلطنة إذا كانت الوظيفة وضعية المنزلة وأدركت المولى عنايته ، وربما وثى بعض نواب السلطنة ما تختص توليته بالسلطان إذا عظمت رتبة النائب وارتفعت منزلته ؛ خصوصاً إذا كان نظام المملكة محلولا وأمرها مضطربا .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة الخامسة

(في بيان ماتجّب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات على سبيل الإجمال)

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله في "حُسن التوسل": يجب على

الكاتب أن يراعى في ذلك أموراً .

منها - براعة الاستهلال بذكر الرتبة، أو الحال، أو قدر النعمة، أو لقب صاحب الولاية، أو أسمه؛ بحيث لا يكون المطلع أجنبيًا من هذه الأحوال، ولا بعيدًا منها، ولا مبينًا لها؛ ثم يستصحّب ما يناسب الغرض ويوافق القصد من أول الخطبة إلى آخرها .

ومنها - أن يراعى المناسبة وما تقتضيه الحال : فلا يُعطى أحدًا فوق حقه، ولا يصفه بأكثر مما يراد من مثله؛ ويراعى أيضا مقدار النعمة والرتبة فيكون وصف المنّة بها على مقدار ذلك .

ومنها - أن لا يصف المتولّي بما [يكون ^(١)] فيه تعريض بدم المعزول [وتقيص له ^(١)]؛ فإن ذلك مما يُوغر الصدور، ويورث الضغائن في القلوب، ويدلّ على ضعف الآراء في اختيار الأول، مع إمكان وصف الثاني بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأول .

ومنها - أن يتخير الكلام والمعاني فإنه مما يشيع ويذيع، ولا يُعذر المقصر في ذلك بعجلة ولا ضيق وقت، فإن مجال الكلام متسع، والبلاغة تظهر في القليل والكثير .

قلت : ومنها أن يَحْرِصَ الكاتبُ على أن تكون نهاية السجعة الأولى في السَّطْرِ
الأول أو الثاني ولا يُؤخَّرُها عن ذلك . ومما كان يراعى في ذلك أن تكون الخطبةُ
من أولها إلى آخرها على رَوىٍّ واحدٍ في السَّجْعِ ، وكذلك الدعاءُ في أولِ صِغارِ التواقيعِ
والمراسيمِ المبتدأةِ بلفظِ « رُسم » بخلاف ما بعد ذلك إلى آخر ما يكتب ، فإنه يتَّفِقُ
فيه روىُّ السجعتين والثلاثِ فما حوَّلَها ، ثم يخالفُ رويها إلى غيره ؛ ولا يكفِّفُ
الكاتبُ الإتيانَ بجميعها على روىٍّ واحدٍ ؛ وعلى ذلك كانت طريقةُ فُحولِ الكُتَّابِ
بالدولةِ التركيةِ ، كالقاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، والشيخ شهابِ الدين محمود
الحلبي ، والمقرَّرُ الشهابيُّ بن فضل الله ، ومن عاصروهم إلَّا في القليلِ النادرِ ؛ فإنه رُبَّمَا
وقع لبعضهم مخالفةُ روىِّ الخطبةِ ؛ وإلى هذا قد جنَّحَ غالبُ كُتَّابِ ديوانِ الإنشاءِ
في زماننا ومألوا إليه : لما في اتِّرامِ الرَوىِّ الواحدِ في جميعِ الخطبةِ من التكلُّفِ
وعُسْرِ التلْفِيقِ على مَنْ يتعاناها .

ثمَّ الكلامُ فيما يُكْتَبُ في الولاية قد يكون جميعه بلفظِ الغيبةِ ؛ مثل أن يقال :
عَهِدَ إِلَيْهِ بِكَذَا ، أَوْ قَلَّدَهُ كَذَا ، أَوْ فَوَّضَ إِلَيْهِ كَذَا ، أَوْ أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي كَذَا ، وَنَحْوِ
ذَلِكَ ، ثُمَّ يَقَالُ : وَأَمَرَهُ بِكَذَا ، أَوْ وَنَحْنُ نُوصِيهِ بِكَذَا ، أَوْ فَعَلَيْهِ بِكَذَا ، وَمَا أَشْبَهَ
ذَلِكَ ؛ وَقَدْ يَكُونُ جَمِيعُهُ بَلْفِظِ الْخِطَابِ ، مِثْلُ أَنْ يَقَالُ : وَقَدْ عَهِدَ إِلَيْكَ بِكَذَا ،
أَوْ قَلَّدَكَ كَذَا ، أَوْ فَوَّضَ إِلَيْكَ كَذَا ثُمَّ يَقَالُ : وَنَحْنُ نُوصِيكَ بِكَذَا ، أَوْ فَعَلَيْكَ بِكَذَا ،
وَ نَحْوِهِ ؛ وَقَدْ يُصَدَّرُ بَلْفِظِ الْغَيْبَةِ ثُمَّ يُلْتَفَتُ مِنْهَا إِلَى الْخِطَابِ ؛ وَقَدْ يُصَدَّرُ بَلْفِظِ
الْخِطَابِ ثُمَّ يُلْتَفَتُ مِنْهُ إِلَى الْغَيْبَةِ بِحَسَبِ مَا يُؤَثِّرُهُ الْكَاتِبُ وَتُؤَدَّى إِلَيْهِ بِلَاغَتِهِ مِمَّا
سَتَقِفُ عَلَى تَنْوِينِهِ فِي خِلَالِ كَلَامِهِمْ فِي أَصْنَافِ الْوِلَايَاتِ الْآتِيَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة الخامسة

(في بيان ما يقع به التفاوت في رتب الولايات، وذلك من سبعة أوجه)

الوجه الأول

(الألقاب، وهي على ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(ألقاب الخلفاء)

وسبيلها الاختصار دون البسط، اكتفاء بما هو ظاهر من أبهة الخلافة، وعلو مقام الإمامة، إذ هي الرعامة العظمى، والرتبة التي هي أعلى الرتب وأسمى .
وهي صنفان :

الصنف الأول — ألقاب الخلفاء أنفسهم، وغاية ما ينعى به الإمام وأمير المؤمنين .

الصنف الثاني — ألقاب أولياء العهد بالخلافة، وألقابهم نحو السيد الجليل ودخيرة الدين، ونحو ذلك على ما سيأتي بيانه في عهود الخلفاء عن الخلفاء .

النوع الثاني

(ألقاب الملوك، وهي صنفان أيضا)

الصنف الأول — ألقاب السلطان نفسه، والكتاب تارة يتدثونها بالسلطان، وتارة يتدثونها بالمقام، ولكل منهما نعوت تخصه، وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى في الكلام على عهود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالى .

الصف الثاني - ألقاب أولياء العهد بالملك ، والملوك المنفردين بولاية صغار
البلدان عن السلطان الأعظم ، وهي لأتفتح إلا بالمقام ليس إلا ؛ ولها نعتٌ تخصها
يأتي الكلام عليها في الكلام على عهدهم أيضا .

النوع الثالث

(ألقاب ذوى الولايات الصادرات عن السلطان : من أرباب

الوظائف الواقعة في هذه المملكة)

وقد تقدم في الكلام على الألقاب في مقدمة الكتاب أن أصول الألقاب
المستعملة في ذلك خمسة ألقاب على الترتيب : وهي المقتر ، ثم الحناب ، ثم المجلس ،
ثم مجلس مضافا : كمجلس الأمير ، ومجلس القاضى ، ومجلس الشيخ ، ومجلس
الصدر ، ثم الأقتصار على المضاف إليه وحذف المضاف : كالأمير والقاضى والشيخ
والصدر ، ويلتحق بذلك لأهل الذمة الحضرة ، وحضرة الشيخ ، والشيخ مجزأ
عن حضرة ، وتقدم في الفصل الأول من هذا الباب أن أرباب الولايات خمسة
أنواع : أرباب السوف ، وأرباب الأعلام ، وأرباب الوظائف الصناعية ، وزعماء
أهل الذمة ، ومن لا يختص بطائفة لصغرهم . وجميع هذه الأنواع على اختلاف
أصنافهم لا يخرجون عن الألقاب المتقدمة ؛ وقد تقدم الكلام على هذه الألقاب
ونعوتها لمن يكاتب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفى
في المكاتبات ، إلا أنه قد يولى عن السلطان من لم يوهل للمكاتبة عنه ، كأكثر
أرباب الوظائف من حملة الأعلام وغيرهم ، فاحتجج إلى تعريف مراتب الألقاب
لكل نوع من أرباب الولايات .

فأما أربابُ السُّيوفِ، فأعلى ألقابهم المَقَرُّ، وأدناها مجلسُ الأميرِ، ثم الأميرُ مجرِّداً عن مجلس .

وأما أربابُ الوظائفِ الصَّنَاعِيَّةِ، فأعلى ألقابهم المجلسُ وأدناها مجلسُ الصَّدرِ، ثم الصَّدرُ مجرِّداً عن مجلس .

وأما من لا يختص بطائفة لصغره، فيقتصر فيه على لقب التعريف وهو فلانُ الدين إن عَظُم وإلا أقتصر على اسمه خاصَّة .

وأما زعماء أهل الذمَّة، فأعلى ألقابهم الحَضْرَةُ، ثم حَضْرَةُ الشَّيْخِ، ثم الشَّيْخُ مجرِّداً عن حَضْرَةٍ .

وأعلم أن كلَّ مَنْ كانت له مكاتبَةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوفِ والأقلام وغيرهم، فلَقَبُ وِلَايَتِهِ ونُعوته كما في مكاتبته، غير أنه يَزَادُ في آخر النُعوَتِ المركَّبة ذكر اسمه العلم، ونسبته إلى السلطان: كالناصريِّ، والظاهرِيِّ، ونحوهما إن كان ممن يَنْتَسِبُ إليه بِنِيبَةٍ ونحوها؛ ثم إن كانت مكاتبته تُفْتَحُ بالدعاء نُقِلَ ذلك الدعاء من أوَّلِ المكاتبَةِ إلى ما بعد اسمه والنسبة إلى السلطان في الولاية، كما إذا كانت مكاتبته: أَعَزَّ اللهُ تعالى أنصار المَقَرِّ الكريم، فإنه يُدْعَى له عَقِيبَ اسمه والنسبة إلى السلطان - إن كانت - بأعزَّ اللهُ تعالى أنصاره، وكذلك في البواقي .

وإن كانت مكاتبته تُفْتَحُ بغير الدعاء: كصدرت هذه المكاتبَةُ ونحو ذلك، فإنه يدعى له في الولاية عَقِيبَ الأسم والنسبة إلى السلطان - إن كانت - بما يدعى له في مكاتبته في آخر الأقباب، كما إذا كان من أرباب السُّيوفِ ومكاتبته صدرت هذه المكاتبَةُ إلى المجلس العالی أو المجلس السامیّ بالياء فإنه يُدْعَى له بمثل: أدام اللهُ سعادته، وأدام اللهُ رفعتَه، ونحو ذلك؛ وإن لم تكن له مكاتبَةٌ عن الأبواب السُّلْطَانِيَّةِ

كُتِبَ له في الولاية ما يُناسبُه من اللقب والنعوت، ثم يذكر أسمه والدعاء له إن كان مستحقاً للدعاء؛ وسيأتي لقب كل ذي ولاية من الأنواع الخمسة المتقدمة الذكر ونعوتُه عند ذكر ولايته فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

ثم للألقاب في الولايات محلان :

أحدهما — الطَّرة . ويُقتصر فيها على اللقب : من المقر أو الجنب أو المجلس أو مجلس مضافا وما بعده من النعوت إلى اللقب المميز للوظيفة كالأمرى والقضائي ونحوهما ، ثم يذكر لقبه الخاص به وهو الفلاني أو فلان الدين ، ثم يذكر أسمه وأنتسابه إلى السلطان إن كان، على ماسياتي بيانه مفصلاً، إن شاء الله تعالى .

الثاني — في أثناء الولاية . وهناك تستوفى النعوت ويؤتى بما في الطَّرة في ضمنه إلا أنه يُجعل لقب التعريف — وهو الفلاني أو فلان الدين — بين النعوت المفردة والمرتبة فاصلاً بينهما .

الوجه الثاني

(ألفاظ إسناد الولاية إلى صاحب الوظيفة؛ ولها ست مراتب)

الأولى — لفظ العهد، مثل أن يقال : أن يُعهد إليه، وهي خاصة بالخلفاء والملوك .

الثانية — لفظ التقليد، مثل أن يقال : أن يُقلد كذا، ويكون مع المقر الكريم والجناب الكريم .

الثالثة — لفظ التفويض، مثل أن يقال : أن يفوض إليه كذا، ويختص بالجناب لأرباب السيوف، وكذلك الجناب والمجلس العالی لأرباب الأقاليم .

قلت : وَكُتِّبَ زَمَانَنَا يَسْتَعْمَلُونَهَا مَعَ الْمُقَرَّرِ أَيْضًا ، وَلَا يَسْتَعْمَلُونَ لَفْظَ يُقَلَّدُ فِي التَّقَالِيدِ لِتَوْهْمِهِمُ الْإِكْتِفَاءَ بِلَفْظِ تَقْلِيدٍ عَنْهَا ، وَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ يُقَلَّدُ فَوْقَ يُفَوِّضُ كَمَا تَقَدَّمَ . عَلَى أَنَّ الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بِنَ فَضَّلَ اللَّهُ قَدْ صَرَّحَ بِذَلِكَ فِي "التعريف" كَمَا سَيَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الرابعة — لَفْظُ الْإِسْتِقْرَارِ وَالْإِسْتِمْرَارِ ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ أَنَّ يُسْتَقَرُّ فِي كَذَا ، أَوْ يُسْتَمَرُّ فِي كَذَا . وَلَفْظُ يُسْتَقَرُّ مَخْتَصٌّ بِالْمُسْتَجِدِّ ، وَلَفْظُ يُسْتَمَرُّ مَخْتَصٌّ بِالْمُسْتَقَرِّ ، وَيَكُونَانِ مَعَ الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ بِالْيَاءِ ، وَالْمَجْلِسِ السَّامِيِّ بِغَيْرِ يَاءٍ لِأَرْبَابِ السِّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ وَغَيْرِهِمْ ؛ أَمَّا الْمَجْلِسُ الْعَالِيُّ فَإِنْ كَانَتْ مَكَاتِبُهُ تُفْتَحُ بِالِدَّعَاءِ ، مِثْلُ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَةَ الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ كِتَابِ السُّلْطَنَةِ بِالْكَرَّكَ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِيهِ أَنْ يُفَوِّضَ إِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتْ مَكَاتِبُهُ تُفْتَحُ بِصَدْرَتِ هَذِهِ الْمَكْتَابَةِ كِتَابِ الْقُدْسِ وَنَحْوِهِ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ فِيهِ أَنْ يُسْتَقَرَّ .

الخامسة — لَفْظُ التَّرْتِيبِ ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ : أَنْ يُرْتَّبَ فِي كَذَا ، وَيَكُونُ مَعَ مَجْلِسِ مِضَافًا ، مِثْلُ مَجْلِسِ الْأَمِيرِ وَمَجْلِسِ الْقَاضِي وَنَحْوَهُمَا ، وَرَبَّمَا أَسْتَعْمَلْتَ مَعَ السَّامِيِّ بِغَيْرِ يَاءٍ .

السادسة — لَفْظُ التَّقَدُّمِ ، مِثْلُ أَنْ يُقَالَ أَنْ يُقَدَّمَ فَلَانٌ عَلَى الطَّائِفَةِ الْفُلَانِيَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ .

قلت : وَهَاتَانِ الْمَرْتَبَتَانِ أَعْنَى السَّادِسَةِ وَالْخَامِسَةِ قَدْ ذَكَرَهُمَا الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بِنَ فَضَّلَ اللَّهُ فِي "التعريف" فَقَالَ : وَقَدْ يُقَالُ أَنْ يُرْتَّبَ وَأَنْ يُقَدَّمَ . وَهِيَ مَوْجُودَانِ فِي كِتَابَةِ مُعَاَصِرِيهِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ ؛ أَمَّا كُتِّبَ زَمَانِنَا فَقَدْ رَفُضُوهُمَا جَمَلَةً وَأَضْرَبُوا عَنْ أَسْتَعْمَالِهِمَا بِكُلِّ حَالٍ ، وَأَكْتَفَوْا عَنْهُمَا بِالْمَرْتَبَةِ الرَّابِعَةِ وَهِيَ لَفْظُ الْإِسْتِقْرَارِ ،

والواجب إثباتهما لتفاوت ما بين المراتب . على أن استعمال لفظ يرتب موجود في كلامهم بكثرة ، ولفظ يُقدم لم يستعملوه إلا في التزير اليسير ، والله أعلم . وهذه الألفاظ تقع في الطرة وفي أثناء الكلام على حد واحد .

الوجه الثالث

(الإفتاحات ، وهي راجعة إلى أربع مراتب)

المرتبة الأولى — الأفتاح بلفظ : هذه بيعة ، أو هذا ماعهد ، ونحو ذلك في البيعات والعهود على المذهب القديم ؛ أو بالحمد لله . ويقع الأبتداء به في العهود والبيعات إذا ابتدئ العهد أو البيعة بخطبة على ما عليه استعمال أهل زماننا ؛ وكذلك في التقاليد لأرباب السيوف والأقلام ، والمراسيم المكبرة لأرباب السيوف ؛ والتواقيع الجكار لأرباب الأقلام .

المرتبة الثانية — الأفتاح بأما بعد حمد الله . ويقع الأبتداء به في المرتبة الثانية من أرباب المراسيم المكبرة من أصحاب السيوف ؛ والمرتبة الثانية من أرباب التواقيع من أصحاب الأقلام .

المرتبة الثالثة — الأفتاح برسم بالأمر الشريف ، ويقع الأفتاح به في المرتبة الثالثة لأرباب التواقيع والمراسيم من سائر أرباب الولايات .

المرتبة الرابعة — ما كان يستعمل من الأفتاح بأما بعد فإن كذا . أو من حسنت طرائقه ، وحمدت خلايقه ، فإنه أحق ، وما أشبه ذلك ؛ كما أشار إليه في "التعريف" إذ كان الآن قد رُفِض وتُرك على ما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى ؛ وقد كان ذلك يستعمل فيما تقدم لأرباب السيوف والأقلام جميعاً .

الوجه الرابع

(تعددُ التعميد في الخطبة أو في أثناء الكلام واتحاده)

فقد قال في " التعريف " في الكلام على عهود الملوك للملوك : وكما كثرت التعميدات في الخطب ، كان أكبر : لأنها تدل على عظم قدر النعمة ؛ وذكر في الكلام على عهود الخلفاء عن الخلفاء أنه ينتهي في التعميد إلى سبعة .

الوجه الخامس

(الدعاء . وله ثلاثة مواضع)

الموضع الأول - في طرة الولاية بعد ذكر ما يكتب في الطرة من ألقابه ، ولا يزداد فيه على دعوة واحدة تناسبه .

الموضع الثاني - في أثناء الولاية بعد استيفاء الألقاب وذكر الأسم ؛ وهو ما في الطرة من الدعوة المناسبة له بغير زائد على ذلك .

الموضع الثالث - [في] آخر الولاية بالإعانة ونحوها . قال في " التثقيف " : وأقلها دعوتان ، وأكثرها أربع . قال في " التعريف " : ومن استصغر من المؤمنين لا يدعى له في آخر ولايته .

ثم قد تقدم في المكاتبات أن الدعاء مع تنزيه الله تعالى : كأعز الله تعالى أنصار المقتر ، وضاعف الله [تعالى] نعمة الجنب ونحو ذلك أعلى من حذفه ^(١) ؛ كأدام الله سعده ، وأعزه الله ونحو ذلك ؛ ولا شك أنه في الولايات كذلك .

(١) أي حذف التنزيه وفي الأصل حذفها أي جملة التنزيه .

الوجه السادس

(طُولُ الكَلَامِ وَقِصْرُهُ ، فَكُنَّا عَظُمَتِ الوَظِيفَةُ وَأَرْتَفَعَ قَدْرُ صَاحِبِهَا

كَانَ الكَلَامُ فِيهَا أَبْسَطَ)

قال في "حسن التوسل" : ويحسن أن يكون الكلام في التقاليد منقسماً أربعة أقسام متقاربة المقادير؛ فالرُّبُعُ الأوَّلُ في الخُطْبَةِ؛ والرُّبُعُ الثَّانِي في ذِكرِ مَوْقِعِ الإِنْعَامِ في حقِّ المَقْلَدِ ، وذكِرَ الرِّتْبَةُ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا ؛ والرُّبُعُ الثَّالِثُ في أوصَافِ المَوْئِ^(١) ، وذكِرَ مَا يَنَاسِبُ تِلْكَ الرِّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلِ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيَّتِ وَسُمْعَةٍ وَشِجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا ؛ وَوَصِفِ الرَّأْيَ وَالْعَدْلَ وَحُسْنَ التَّدْبِيرِ وَالْمَعْرِفَةَ بِوُجُوهِ الأُمُوالِ ، وَعِمَارَةَ البِلَادِ ، وَصَلَاحِ الأَحْوالِ ، وَمَا يَنَاسِبُ ذَلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا ؛ وَكَذَلِكَ فِي كُلِّ رِتْبَةٍ بِحَسَبِهَا ؛ والرُّبُعُ الرَّابِعُ فِي الوَصَايَا .

قال في "التعريف" : والذي أختاره اختصاراً مقدار التحميدة [التي]^(٢) في الخُطْبَةِ وَالخُطْبِ مطلقاً وإطالة ما بعد ذلك ؛ والإطناب في الوصايا [اللهم]^(٢) إلا لمن جَلَّ قَدْرُهُ [وعَظُمَ أَمْرُهُ] فَإِنَّ الأَوَّلَى الأَقْتِصَارُ فِي الوَصَايَا عَلَيَّ أَهَمُّ الجُمْلِيَّاتِ ، وَيَعْتَدِرُ فِي الأَقْتِصَارِ بِمَا يُعْرَفُ مِنْ فَضْلِهِ ، وَيُعَلِّمُ مِنْ عِلْمِهِ ، وَيُوثِقُ بِهِ مَنْ تَجَرَّبَتْهُ وَمِنْ هَذَا وَمِثْلِهِ . قال : والكاتب في هذا [كَلِّهِ] بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ ، وَلِكُلِّ وَاقِعَةٍ مَقَالٌ يَلِيقُ بِهَا ، وَلِمَلْبَسِ كُلِّ رَجُلٍ قَدْرٌ مَعْرُوفٌ لَا يَلِيقُ بِهِ غَيْرُهُ ؛ وَفِي هَذَا غَيِّي لِمَنْ عَرَفَ ، وَكَفَايَةٌ لِمَنْ عِلِمَ ؛ عَلَيَّ أَنَّ المَقْتَرِ الشَّهَابِيَّ تَابِعٌ فِي ذَلِكَ القَاضِي « محي الدين ابن عبد الظاهر » رحمه الله ، فَإِنَّكَ إِذَا تَأَمَّلْتَ تَقَالِيدَهُ وَتَوَاقِعَهُ ، وَجَدْتَهَا كَلِّهَا

(١) في حسن التوسل ص ١١٠ « المقلد » وهي بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

كذلك ، ولكل وجه ظاهر ؛ فإنَّ المطول للخطبة لا يُجلبها من براعة الإِسْتِهلال ،
المناسبة للحال ؛ والمقصر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب في الوصف .

قلت : ولا يخفى أن ما ذكرناه في التقاليد يحىء مثله في العهود لجرئها على مُوجبها
من مؤلِّ ومؤلِّ .

• أما إذا كانت الولاية بيعةً فإنه يجعل موضع الوصايا ذكر التزام الخليفة البرِّ
والإحسان للخلق ، ووعد النظر في أمور الرعية ، وصلاح أحوالهم ؛ وذكر التحليف
للخليفة ، وأوله وللسلطان إن كان معه سلطان قام بعقد البيعة له على الوفاء بالعهد
والدخول تحت الطاعة . قال في "حسن التوسل" : والأمر الجارى في ذلك على
العادة معروف لكنه قد تقع أشياء خارجة عن العادة فيحتاج الكاتب فيها إلى حُسن
التصرف على ما يقتضيه الحال ؛ وذكر من ذلك تقليداً أنشأه لملك سبى ، وتقليداً
كتبه بالفتوة ؛ وسيأتى ذكر ذلك مع ما شاكاه في مواضعه إن شاء الله تعالى .

الوجه السابع

(قطع الورق)

وأعلم أنَّ الولايات من ديوان الإنشاءِ بالأبواب السلطانية بجلتها يتحصَّر قطعُ
الورق فيها في خمسة مقادير لا يتعداها :

أحدها — قطع البغدادىِّ الكامل ؛ وهو مختص بالبيعات والعهود مطلقاً على
أى الأفتاحات كان .

الثاني - قَطَعَ الثَّلَاثِينَ مِنَ الْمَنْصُورِيَّةِ ، وَهُوَ لِأَجْلِ الْوَلَايَاتِ السُّلْطَانِيَّاتِ لِأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَبَعْضِ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ ، وَلَا يَفْتَحُ فِيهَا إِلَّا بِالْحَمْدِ .

الثالث - قَطَعَ النَّصْفَ مِنْهُ ، وَهُوَ لَمَّا دُونَ ذَلِكَ ، وَلَا يَفْتَحُ فِيهِ إِلَّا بِالْحَمْدِ أَيْضًا :

الرابع - قَطَعَ الثَّلَاثَ مِنْهُ ، وَهُوَ لَمَّا دُونَ ذَلِكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا وُلِّيَ صَاحِبُ وَظِيْفَةٍ تَسْتَحِقُّ قَطَعَ النَّصْفَ وَظِيْفَةً أُخْرَى تَسْتَحِقُّ قَطَعَ الْعَادَةَ ، فَإِنَّهُ يُرَاعِي مَقْدَارَ صَاحِبِهَا وَيُزَادُ عَلَى مِقْدَارِ الْعَادَةِ ؛ إِلَّا أَنَّهُ لَا يَبْلُغُ مَبْلَغَ رَتْبَةِ وَظِيْفَتِهِ الْعُلْيَا ، بَلْ يَبْغِي أَنْ يَتَوَسَّطَ بَيْنَهُمَا ؛ فَيَكْتُبُ لَهُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ لَتَكُونَ رَتْبَةُ بَيْنَ رُتْبَتَيْنِ فَتَحْصُلُ مِرَاعَاةُ تَعْظِيمِهِ مِنْ حَيْثُ الزِّيَادَةُ عَلَى قَطْعِ الْعَادَةِ ، وَمِرَاعَاةُ قَدْرِ الْوِظِيْفَةِ مِنْ حَيْثُ إِنَّمَا لَمْ تَبْلُغْ شَأْوَ وَظِيْفَتِهِ الْعُلْيَا ؛ أَمَا إِذَا وُلِّيَ مَنْحَطًّا الْقَدْرَ وَظِيْفَةً تَسْتَحِقُّ الْقَطْعَ الْكَبِيرَ ، فَإِنَّهُ يَكْتُبُ لَهُ فِيهِ ، وَتَكُونُ تَوَلِيَّتُهُ لَهَا رَفْعًا إِلَى دَرَجَتِهَا .

الخامس - قَطَعَ الْعَادَةَ ، وَهُوَ أَصْغَرُهَا ؛ وَالْأَصْلُ أَنْ يَفْتَحَ فِيهِ بِلَفْظِ «رُسْمٍ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ» وَرَبَّمَا عَلَتْ رَتْبَةُ صَاحِبِ الْوَلَايَةِ وَلَمْ يُوَهَّلْ لِلْكَتَابَةِ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ فَيَكْتُبُ لَهُ فِيهِ : أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ قَلِيلُ الْأَسْتِعْمَالِ ، فَإِنْ أَسْتَعْمِلَ أَمَا بَعْدُ فَإِنَّ كَذَا ، أَوْ إِنَّ أَوْلَى ، أَوْ إِنْ أَحَقَّ وَنَحْوَ ذَلِكَ كُتِبَ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ أَيْضًا .

الباب الثاني

من المقالة الخامسة في البيعات، وفيه فصلان

الفصل الأول

(في معناها)

(١) البيعات جمع بيعة، وهي مصدر بايع فلان الخليفة يبايعه مبايعة، ومعناها المعاهدة والمعاهدة، وهي مشبهة بالبيع الحقيقي. قال أبو السعادات بن الأثير في نهايته في غريب الحديث: كأن كل واحد منهما باع ما عنده من صاحبه وأعطاه خالصه نفسه وطاعته ودخيلة أمره. ويقال: بايعه، وأعطاه صفقة يده، والأصل في ذلك أنه كان من عادة العرب أنه إذا تباع آثان صفق أحدهما بيده على يد صاحبه.

وقد عظم الله تعالى شأن البيعة وحذر من نكثها بقوله خطابا للنبي صلى الله عليه وسلم: ((إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدِ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُورِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا)). وأمر بمبايعة المؤمنين في قوله تعالى: ((يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُسْرِكَنَّ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِهَتَانِ يَفْتَرِيَنَّهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِبَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)). وبايع النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة رضوان الله عليهم ببعثتين.

(١) ليس مراده المصدر الصناعي كما لا يخفى والأوضح "وهي اسم مصدر لبايع" الخ تأمل.

الفصل الثاني

(في ذكر تنوع البيعات ، وهي نوعان)

النوع الأول

(بيعات الخلفاء ، وفيها سبعة مقاصد)

المقصد الأول

(في أصل مشروعيتها)

فالأصل في ذلك بعد الإجماع ما ثبت في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها " أنه لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، اجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادَةَ في سقيفة بني ساعدة ، فقالوا : منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ، فذهب إليهم أبو بكرٌ وعمرٌ وأبو عبيدة بن الجراح ، فذهب عمرٌ يتكلم فأسكته أبو بكرٌ ، وكان عمرٌ يقول : ما أردتُ بذلك إلا أني قد هيأتُ كلاماً أعجبتُ أن لا يبلغه أبو بكرٌ ، ثم تكلم أبو بكرٌ فتكلم أبلغ الناس . فقال في كلامه : نحنُ الأمراءُ وأنتمُ الوزراءُ . فقال الحبابُ بن المُنذر : لا والله لا نفعل ! منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ . فقال أبو بكرٌ : لا وليكنا الأمراءُ وأنتمُ الوزراءُ . فبايعوا عمرٌ أو أبا عبيدة . فقال عمرٌ : بل نبايعك فانتَ سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ عمرٌ بيده فبايعه وبايع الناسُ . "

وهذه أولُبيعةٍ بالخِلافةِ كانت في الإسلام ، ولكن لم يُنقل أنه رضي الله عنه كُتِبَ له مبايعةٌ بذلك ، وأعل ذلك لأن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا إذا بايعوا لا يبيحون البيعة بعد صدورها ، بخلاف ما بعد ذلك .

المقصود الثاني

(في بيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية)

وهي خمسة أسباب :

السبب الأول — موت الخليفة المنتصب من غير عهد بالخلافة لأحد بعده ، كما في قصة الصديق المتقدمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أو تركها شورى في جماعة معينة ، كما فعل عمر رضي الله عنه عند وفاته حيث تركها شورى في ستة : على بن أبي طالب ، والزبير بن العوام ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، وطلحة ، وسعد بن أبي وقاص ، رضي الله عنهم .

السبب الثاني — خلع الخليفة المنتصب لموجب يقتضى الخلع ، فتحجاج الأمة [إلى] مبايعة إمام يقوم بأمرها ، ويتحمل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوهم الخليفة خروج ناحية من النواحي عن الطاعة فوجه إليهم من يأخذ البيعة له عليهم : ليتقأدوا لأمره ، ويدخلوا تحت طاعته .

السبب الرابع — أن تؤخذ البيعة للخليفة الممهود إليه بعد وفاة العاهد ، كما كانت الخلفاء الفاطميون تفعل في خلافتهم بمصر ، وكانوا يسمون البيعة سجلاً كما كانوا يسمون غيرها بذلك .

السبب الخامس — أن يأخذ الخليفة المنتصب البيعة على الناس لولي عهد بالخلافة بأن يكون خليفة بعده إمضاء لعهده ، كما فعل معاوية رضي الله عنه في أخذه البيعة لولده يزيد .

المقصود الثالث

(في بيان ما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة البيعة)

وأعلم أنه يجب على الكاتب أن يرعى في كتابة البيعة أموراً :

منها - أن يأتي في براءة الاستهلال بما يتبها له من أسم الخليفة أو لقبه :
كفلان الدين، أو لقب الخلافة : كالتوكل أو المستكفي، أو مقتضى الحال الموجب
للبیعة من موتٍ أو حَلَعٍ ونحوهما، أو غير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

ومنها - أن يذبه على شرف رتبة الخلافة وعلو قدرها ورنة شأنها، وأنها الغاية
التي لأفوقها، والدرجة التي لا بعدها ؛ وأن كل رتبة دون ربتها، وكل منصب فرع
عن منصبها .

ومنها - أن ينبه على ميسر الحاجة إلى الإمام، وديانة الضرورة إليه، وأنه
لا يستقيم أمر الوجود وحال الرعية إلا به، ضرورة وجوب نصب الإمام بالإجماع،
وإن شذ عنه الأصم يخالف ذلك .

ومنها - أن يُشير إلى أن صاحب البيعة أستوعب شروط الإمامة واجتمعت
فيه، ويصفه منها بما يعز وجوده، ويمتدح بمصوله : كالعلم والشجاعة والرأي
والكفاية ؛ بخلاف ما لا يعز وجوده ولا يمتدح به وإن كان من الشروط : كالحرية
والذكورة والسمع والبصر ونحو ذلك ؛ فإن الوصف بذلك لا وجه له .

ومنها - أن ينبه على أفضلية صاحب البيعة وتقدمه في الفضل وأستيفاء الشروط
على غيره : ليخرج من الخلاف في جواز تولية المفضول مع وجود الفاضل .

ومنها — أن يَنْبَه على أَنَّ المختارين لصاحب البيعة ممن يُعْتَبَرُ أختيارُهُ من أهل الحَلِّ والعقد: من العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يتيسر حضورهم على الوجه المعتبر.

ومنها — أن يَنْبَه على تعيين المختارين للبيعة، إن كان الإمام الأول نص عليهم؛ إذ لا يصح الاختيار [من] غير من نص عليه، كما لا يصح إلا تقليد من عهد إليه.

ومنها — أن يَنْبَه على جريان عقد البيعة من المختارين، ضرورة أنه إن انفرد شخص بشروط الإمامة في وقته لم يصّر إماما بمجرد ذلك.

ومنها — أن يَنْبَه على سبب خلع الخليفة الأول إن كانت البيعة مترتبة على خلع، إذ لا يصح خلع الإمام القائم بلا سبب.

ومنها — أن يَنْبَه على قبول صاحب البيعة العقد وإجابته إليه إذ لا بد من قبوله.

ومنها — أن يَنْبَه على أن القبول وقع منه بالاختيار: لأنه لا يصح الإيجاب على قبولها؛ اللهم إلا إن كان بحيث لا يصلح للإمامة غيره فإنه يجبر عليها بلا خلاف.

ومنها — أن يَنْبَه على وقوع الشهادة على البيعة، خروجًا من الخلاف في أنه هل يُشترط الإشهاد على البيعة أم لا؟

ومنها — أن يَنْبَه على أنها لم تقترن ببيعة في الحال ولا مسبوقه بأخرى، إذ لا يجوز نصب إمامين في وقت واحد وإن تباعد إقليهما، خلافا للأستاذ أبي إسحاق الأسفراييني حيث جوز نصب إمامين في إقليمين.

ومنها — أن يَنْبَه على أنه بمجرد البيعة تجب الطاعة والانتقاد إليه، ويجب على كافة الأمة تفويض الأمور العامة إليه، وطاعته فيما وافق حكم الشرع وإن كان جائرا.

ومنها — أن يعزى في الخليفة الميت ويبنى بالمستقر إن كانت البيعة مبنية على موت خليفة ؛ وأن يبين سبب خلع الخليفة الأول إن كانت مرتبة على خلع .

أما التعزية والتمنئة بموت الأول ، فعليه جرى عامة الحُتَّاب ؛ إلا أنه يختص في عرفهم بما إذا كان الخليفة الأول شديد القرب من الثانى ؛ كأبيه وأخيه وأبن عمه .

وكان الأولون يتعاونون ذلك في خطاب الخلفاء بالتمنئة بالخلافة بعد أقاربهم ، وقد روى أن عطاء بن أبي سفيح دخل على يزيد بن معاوية فهنأه بالخلافة وعزاه في أبيه فقال :

رُزيتَ بأمر المؤمنين خليفة الله ، وأُعطيَتِ خلافةَ الله ؛ قضى معاويةُ تحبّه ، فغفرَ اللهُ ذنبه ؛ ووئيتَ الرِّياسه ، وكنتَ أحقُّ بالسياسة ؛ فأحتسب عند الله جليل الرِّزيه ، وأشكره على جزيل العطيّه ؛ وعظّم اللهُ في معاويةَ أجرك ، وأحسنَ على الخلافةَ دونك .

وتعرضت أعرابية للنصور في طريق مكة بعد وفاة أبي العباس السفاح ، فقالت :
يا أمير المؤمنين آحتسب الصبر ، وقدم الشكر ؛ فقد أجزل الله لك الثواب في الحالين ، وأعظم عليك المنّة في الحادئين ؛ سلبك خليفة الله ، وأفادك خلافة الله ؛ فسلم فيما سلبك ، وأشكر فيما منحك ؛ وتجاوز الله عن أمير المؤمنين ، وخار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين .

وأما التعريف بسبب الخلع ، فلائه لا يصح خلع الإمام بغير موجب للخلع .^(١)

ومنها — أن يشير إلى ذكر السلطان القائم بالبيعة إن كان القائم بها سلطاناً على ما استقرت عليه قاعدة الحُتَّاب في ذلك .

(١) سبق التنبيه على هذا في الصفحة قبل .

ومنها — أن يذبه على أن من أسخلف في البيعة من وجوه الدولة وأعيان المملكة إن جرى حلف، ويذكر صفة حلفهم وما أترموه من الأيمان المؤكدة، والمواثيق المغلظة .

المقصود الرابع

(في بيان مواضع الخلافة التي يستدعي الحال كتابة المبايعات فيها)

وهي أربعة أمور :

أحدها — موت الخليفة المتقدم عن غير عهد خليفة بعده ، وهو موضوعها الأصلي الذي عليه بُنيت .

الثاني — أن يعهد الخليفة إلى خليفة بعده ، ثم يموت العاهد ويستقر المعهود إليه بالخلافة بالعهد بعده ، فتؤخذ البيعة العامة على الرعية ، لإظهاراً لوقوع الإجماع على خلافته ، والاتفاق على إمامته .

الثالث — أن تؤخذ البيعة للخليفة بحضرة ولأيته ، ثم تُفقد الكتب إلى الأعمال لأخذ البيعة على أهلها ، فيأخذ كل صاحب عمل له البيعة على أهل عمله .

الرابع — أن يعرض للخليفة خلل في حال خلافته : من ظهور مخالف أو خروج خارجي ، فيحتاج إلى تجديد البيعة له حيث وقع الخلاف .

ولكل من هذه الأحوال صرّب من الكتابة يُحتاج فيه إلى بيان السبب الموجب لأخذ تلك البيعة .

المقصد الخامس

(في بيان صورة ما يُكْتَبُ في بَيْعَاتِ الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المذهب الأول

« أن تُفْتَحَ المِبايعةُ بلفظ « تُبَايِعُ فلانا أمير المؤمنين »

خطاباً لمن تُؤْخَذُ عليه البيعة)

ويذكر ما يقع عليه عقد المِبايعة، ويأتي بما سَنَحَ من أمر البيعة، ثم يذكر الخِلافَ عليها؛ وعلى ذلك جرى مصطلحُ كُتَابِ خلفاء بني أمية، ثم خلفاء بني العباس بعدهم ببغداد .

وأعلم أنه قد تقدّم في المقصد الأول من هذا الفصل أنه لم يُنْقَلْ أنه كُتِبَ للصديق رضى الله عنه ولا ابنِ وَلِي الخِلافة بعده من الصحابة من غير عهد بيعة . ولما كانت خلافة بني أمية، وآل الأمر إلى عبد الملك بن مروان، وأقام المَجَاجَ ابن يوسف على إمارة العراق، وأخذ في أخذ البيعة لعبد الملك بالعراق، رتب أيماناً مغلظةً تشتمل على الخِلافِ بالله تعالى والطلاق والعناق والأيمان المُحرَّجاتِ يُخَلَفُ بها على البيعة، وأشهرت بين الفقهاء بأيمان البيعة، وأطرد أمرها في الدولة العباسية بعد ذلك . وجرى مصطلحهم في ذلك على هذا الأسلوب .

وهذه نسخة مبايعة، ذكرها أبو الحسين بن إسحاق الصائفي في كتابه « غرر البلاغة » وهي :

تُبَايِعُ عبد الله أمير المؤمنين فلانا بيعة طوع وأختيار، وتبرع وإيثار، وإعلان وإسرار، وإظهار وإضمار، وصحة من نفل، وسلامة من غير دغل، وشبات من غير

تبدیل، ووقار من غیر تأویل؛ واعتراف بما فيها من اجتماع الشمل، واتصال
 الحبل؛ وانتظام الأمور، وصلاح الجمهور؛ وحقن الدماء، وسكون الدهماء؛
 وسعادة الخاصة والعامة، وحسن العائدة على أهل الملة والذمة - على أن عبد الله فلانا
 أمير المؤمنين عبد الله، الذي أصطفاه؛ وخليفته الذي جعل طاعته جارية بالحق،
 وموجبة على الخلق؛ وموردة لهم موارد الأمن، وعاقدة لهم معاقدة الثمن؛ وولايته
 مؤذنة لهم بحمیل الصنع، ومؤذنة بهم إلى جزيل النفع؛ وإمامته الإمامة التي اقترنت بها
 الخیر والبرکة، والمصلحة العامة المشتركة؛ وأمل فيها قمع الملحد الجاحد، ورد الجائر
 الحائد؛ ووقم العاصي الخالع، وعظمت الغازي المنازع - وعلى أنك ولي أوليائه،
 وعدو أعدائه: من كل داخل في الجملة، وخارج عن الملة، وحائد عن الدعوه.
 ومتمسك بما يديه، عن إخلاص من رأيك، وحقية من وفائك؛ لا تقص
 ولا تتكث ولا تخلف ولا توارى ولا تخادع، ولا تداحي ولا تخايل؛ علانيتك مثل
 نيتك، وقولك مثل طويتك - وعلى أن لا ترجع عن شيء من حقوق هذه البيعة
 وشرائطها على مسر الأيام وتطاؤها، وتغير الأحوال وتقلها، واختلاف الأزمان
 وتقلبها - على أنك في كل ذلك من أهل الملة الإسلامية ودعاتها، وأعان الدولة
 العباسية ورعاتها؛ لا يداخل قولك مواربة ولا مداهنه، ولا تعترضه مغالطة
 ولا تتعقبه مخالفة؛ ولا تخيس به أمانه، ولا تغله خيانه؛ حتى تلقى الله تعالى مقبياً
 على أمرك، وفيا بعدك؛ إذ كان مباعاً ولاة الأمور وخلفاء الله تعالى في الأرض
 ﴿إِنَّمَا يَبِيعُونَ اللَّهَ بِأَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى
 بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِثْقَلِ حَبِّ ظَنِينٍ﴾ .

عليك بهذه البيعة - التي أعطيت بها صنفقة يدك، وأضيفت فيها سريرة قلبك؛
 وآلتمت القيام بها ما طال عمرك، وأمتد أجلك - عهد الله إن عهد الله كان

مَسْئُولًا ؛ وَمَا أَخَذَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَحَمَلَةِ عَرْشِهِ مِنْ أَيْمَانٍ مَغْلَظَةٍ
وَعُهُودٍ مُؤَكَّدَةٍ ، وَمَوَاقِيقَ مَشَدَّدَةٍ ، عَلَى أَنْكَ تَسْمَعُ وَتُصْنَعِي ، وَتُطِيعُ وَلَا تَعْصِي ؛
وَتَعْتَدِلُ وَلَا تَمِيلُ ، وَتَسْتَقِيمُ وَلَا تَحِيدُ ، وَتَفِي وَلَا تَعْدِرُ ، وَتَثْبُتُ وَلَا تُتَغَيَّرُ ؛ فَتِي
زَلْتِ عَنْ هَذِهِ الْمَحْجَّةِ حَاقِرًا لِأَمَانَتِكَ ، وَرَافِعًا لِذِيَابَتِكَ ؛ فَحَدَّثَ اللَّهُ تَعَالَى رُبُوبِيَّتَهُ ،
وَأَنْكَرَتَهُ وَحَدَانِيَّتَهُ ؛ وَقَطَعْتَ عِصْمَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَدَدْتَهَا ، وَرَمَيْتَ
طَاعَتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِكَ وَنَبَذْتَهَا ؛ وَنَقَيْتَ اللَّهُ يَوْمَ الْحِشْرِ إِلَيْهِ ، وَالْعَرَضَ عَلَيْهِ ، مُخَالِفًا
لِأَمْرِهِ ، وَخَائِنًا لِعَهْدِهِ ؛ وَهَقِيمًا عَلَى الْإِنْكَارِ لَهُ ؛ وَمُصِرًّا عَلَى الْإِشْرَاقِ بِهِ ؛ وَكُلُّ مَا حَلَّلَهُ
اللَّهُ لَكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ ، وَكُلُّ مَا تَمَلَّكَ يَوْمَ رُجُوعِكَ عَنْ بَدِّكَ ، وَارْتِجَاعِكَ مَا أَعْطَيْتَهُ
فِي قَوْلِكَ : مِنْ مَالٍ مُوجُودٍ وَمَذْخُورٍ ، وَمَصْرُوعٍ وَمَضْرُوبٍ ، وَسَارِجٍ وَمَرْبُوطٍ ،
وَسَائِمٍ وَمَعْقُولٍ ؛ وَأَرْضٍ وَضَيْعَةٍ ، وَعَقَارٍ وَعُقُودَةٍ ، وَمَمْلُوكٍ وَأَمَةٍ ، صَدَقَةٌ عَلَى
الْمَسَاكِينِ ، حَرَمَةٌ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ لَكَ تَمَلَّكَ شَعْرَهَا وَبَشَرَهَا ، وَأُخْرَى
تَتَرَوُّجُهَا بَعْدَهَا ، طَالِقٌ ثَلَاثًا بَتَانًا ، طَلِاقَ الْحَرَجِ وَالسُّنَّةِ لَارْجَعَةَ فِيهِ وَلَا مَثْوِيَّةَ ؛
وَعَلَيْكَ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ دَفْعَةً حَاسِرًا حَافِيًا ، رَاجِلًا
مَاشِيًا ؛ نَذْرًا لِأَزْمَا ، وَعُودًا صَادِقًا ؛ لَا يَبْرُؤُكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَضَاءُ لَهَا ، وَالْوَفَاءُ بِهَا ؛
وَلَا قِبَلَ اللَّهُ مِنْكَ تَوْبَةً وَلَا رَجْعَةً ؛ وَخَذَلَكَ يَوْمَ الْإِسْتِنْصَارِ بِحَوْلِهِ ، وَأَسْلَمَكَ عِنْدَ
الْإِعْتِصَامِ بِجَبَلِهِ ؛ وَهَذِهِ أَيْمِينُ قَوْلِكَ قَلْتَهَا قَوْلًا فَصِيحًا ، وَسَرَدْتَهَا سَرْدًا صَحِيحًا ؛
وَأَخْلَصْتَ فِيهَا سِرَّكَ إِخْلَاصًا مُبِينًا ، وَصَدَقْتَ فِيهَا عَزْمَكَ صِدْقًا يَقِينًا ؛ وَالنِّيَّةُ فِيهَا
نِيَّةُ فُلَانٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ نِيَّتِكَ ، وَالطَّوْيَةُ [فِيهَا طَوْيَتُهُ] دُونَ طَوْيَتِكَ ؛ وَأَنْتُمْ هَدَيْتَ
اللَّهُ عَلَى نَفْسِكَ بِذَلِكَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ، يَوْمَ تَجِدُ كُلَّ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَافِظًا وَرَقِيبًا .



وهذه نسخة بيعة أخرى من هذا الأسلوب ، أوردها ابن حمدون في تذكرته ، وربما وافق فيها بعض ألفاظ البيعة السابقة ، وهي :

تُبَاعِ الإمامَ أميرَ المؤمنينَ فلانا بيعة طوع وإيثار ، واعتقاد وإضمار ، وإعلان وإسرار ، وإخلاص من طويتك ، وصدق من نيتك ، وأنشراح صدرك وصحة عزيمتك ؛ طائعا غير مكره ، ومُنقادا غير مُجبر ، مُقرا بفضلها ، مُدعنا بحجةها ؛ معترفا ببركتها ، ومعتادا بحسن عائدتها ؛ وعالمًا بما فيها وفي توكيدها من صلاح الكافة ، واجتماع الكلمة [من] الخاصة والعامة ؛ ولمّ الشعث ، وأمن العواقب ؛ وسكون الدهماء ، وعزّ الأولياء ، وفتح الأعداء - على أن فلانا عبدُ الله وخليفته ، المفترض طاعته ، والواجب على الأمة إقامته وولايته ؛ اللازم لهم القيام بحقه ، والوفاء بعهده ؛ لا تسك فيه ، ولا ترتاب به ، ولا تُدهن في أمره ولا تميل . وأنت وليّ وليّه ، وعدو عدوه : من خاصّ وعمّ ، وقريب وبعيد ، وحاضر وغائب ؛ متمسك في بيعته بوفاء العهد ، وذمة العقد ؛ سررتك مثل علانيتك ، وظاهرُك فيه وفق باطنك - على أن أعطيت الله هذه البيعة من نفسك ، وتوكيدك إياها في عنقك ، لفلان أمير المؤمنين عن سلامة من قلبك ، واستقامة من عزمك ؛ واستمرار من هواك ورأيك - على أن لا تتأول عليه فيها ، ولا تسمي في تضيئ منها ؛ ولا تقعد عن نصره في الرخاء والشدة ، ولا تدع النصر له في كل حال راهنة وحادثة ؛ حتى تلقى الله مؤذنا بها ، مؤذيا للأمانة فيها ؛ إذ كان الذين يُبايعون ولاة الأمر ، وخلفاء الله في الأرض ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتَ فِئْمًا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ .

عليك بهذه البيعة - التي طَوَّقْتَهَا عَنْكَ ، وَبَسَطْتَ لَهَا يَدَكَ ، وَأَعْطَيْتَ فِيهَا صَفْقَتَكَ ؛ وَمَا شَرِطَ عَلَيْكَ فِيهَا : مِنْ وِفَاءٍ وَمُؤَالَاتٍ ، وَنُصْحٍ وَمَشَايِعِهِ ، وَطَاعَةٍ وَمَوَاقِفَةٍ وَأَجْتِهَادٍ وَمَتَابَعَةٍ - عَهْدُ اللَّهِ إِنَّ عَهْدَ اللَّهِ كَانَ مَسْئُولًا . وَمَا أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَعَلَى مَنْ أَخَذَ مِنْ عِبَادِهِ ، وَكَيْدَاتِ مَوَائِقِهِ وَمُحْكَمَاتِ عُهُودِهِ ؛ وَعَلَى أَنْ تُمْسِكَ بِهَا وَلَا تُبَدِّلَ ، وَتَسْتَقِيمَ وَلَا تَمِيلَ ؛ وَإِنْ نَكثْتَ هَذِهِ الْبَيْعَةَ أَوْ بَدَلْتَ شَرْطًا مِنْ شُرُوطِهَا ، أَوْ عَفَيْتَ رُسْمًا مِنْ رُسُومِهَا ، أَوْ غَيَّرْتَ حُكْمًا مِنْ أَحْكَامِهَا ؛ مَعْلِنًا أَوْ مُسِرًّا أَوْ مُخْتَلًا أَوْ مُتَأَوَّلًا ؛ أَوْ زِغْتَ عَنِ السَّبِيلِ الَّتِي يُسَلِّكُهَا مِنْ لَا يُحَقِّرُ الْأَمَانَةَ ، وَلَا يَسْتَحِلُّ الْغَدْرَ وَالْحِيَانَةَ ؛ وَلَا يَسْتَجِيزُ حَلَّ الْعُقُودِ ، فَكُلِّ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ عَيْنٍ أَوْ وَرِقٍ أَوْ آتِيَةٍ ، أَوْ عَقَارٍ أَوْ سَائِمَةٍ ، أَوْ زَرْعٍ ، أَوْ ضَرْعٍ ؛ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صُنُوفِ الْأَمْلاكِ الْمَعْتَدَةِ ، وَالْأَمْوَالِ الْمُدْنَحَرَةِ ؛ صَدَقَةً عَلَى الْمَسَاكِينِ ، مُحَرَّمًا عَلَيْكَ أَنْ تَرْجِعَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْ مَالِكَ بِجِيلَةٍ مِنَ الْحَيْلِ ، عَلَى وَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ ، وَسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، أَوْ مَخْرَجٍ مِنْ مَخَارِجِ الْإِيمَانِ ؛ وَكُلِّ مَا تَعْتَدُهُ فِي بَقِيَّةِ عَمْرِكَ مِنْ مَالٍ يَقِلُّ خَطَرُهُ أَوْ يَجِلُّ فَتَلِكُ سَبِيلُهُ إِلَى أَنْ تَتَوَفَّاكَ مَيِّتًا أَوْ يَأْتِيكَ أَجْلُكَ ؛ وَكُلِّ أَمْرًا لَكَ الْيَوْمَ : وَأُخْرَى تَتَرَقَّجُهَا بَعْدَهَا مَدَّةَ بَقَايِكَ طَالَتْ ثَلَاثًا بَتَانًا ، طَلَّاقَ الْحَرَجِ وَالسُّنَّةَ لَامْتَنُوبِيَّةً فِيهِ وَلَا رَجْعَةَ ؛ وَعَلَيْكَ الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ثَلَاثِينَ حَافِيًا ، حَاسِرًا رَاجِلًا ؛ لَا يَرْضَى اللَّهُ مِنْكَ إِلَّا بِالْوَفَاءِ بِهَا ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْكَ صَرَفًا وَلَا عَدْلًا ؛ وَخَذَلِكَ يَوْمَ تَحْتَاجُ إِلَيْهِ ؛ وَبَرَآكَ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَجْلَاكَ إِلَى حَوْلِكَ وَقُوَّتِكَ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِذَلِكَ شَهِيدٌ ، وَكَفَى بِهِ شَهِيدًا .

(١) في الأصول "وكل ملوكك اليوم من ذكر وأُنثى مدة" الخ وهو غير مناسب كما لا يخفى .



وهذه نسخة أخرى من هذا الأسلوب ، أوردها أبو الحسين الصابي في "غرر البلاغة" وهي :

تَبَايَعُ أميرَ المؤمنين بِقُوَّةٍ من بَصِيرَتِكَ ، وَصِحَّةٍ من سِرِّرَتِكَ ، وَصَفَاءٍ من عَقِيدَتِكَ ، وَصِدْقٍ من عَزِيمَتِكَ ، عَلَى الرِّضَا [به] وَالْوَفَاءَ لَهُ ، وَالْإِخْلَاصِ فِي طَاعَتِهِ ، وَالْإِجْتِمَادِ فِي مُنَاصَحَتِهِ ، وَعَقْدَ النِّيَّةِ عَلَى مُوَالَاتِهِ ، وَبَدَلَ الْقُدْرَةِ فِي مَمَالَاتِهِ ، وَأَنْ تَكُونَ لِأَنْصَارِهِ عَوْنًا ، وَأَوْلِيَاءَهُ حَرْبًا ، وَأَعْدَاءَهُ حَرْبًا ، عَارِفِينَ بِمَا فِي ذَلِكَ من الْحِطِّ ، وَمَعْتَرِفِينَ بِمَا يَلْزِمُ فِيهِ من الْحَقِّ ، وَمَحَافِظِينَ عَلَى مَاحَسَنِ الْمِلَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَالِدَوْلَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، ثَبَّتَ اللهُ قَوَاعِدَهَا ، وَأَحْكَمَ مَعَاقِدَهَا ، وَزَادَهَا أَسْتِمْرَارًا عَلَى مَرِّ الدُّهُورِ ، وَأَسْتِمْرَارًا عَلَى كَرِّ الْعُصُورِ ، وَعِزًّا عَلَى تَقَلُّبِ الْأُمُورِ ، وَأَسْتِدَادًا عَلَى تَغَلُّبِ الْمَقْدُورِ ، فَإِنْ خَالَفَتْ ذَلِكَ مُسِرًّا أَوْ مُعَلِنًا ، وَحَلَّتْ عَنْهُ مَظْهَرًا أَوْ مُبْطِنًا ، وَحَلَّتْ عَقُودَهُ نَاقِضًا أَوْ نَاقِضًا ، وَتَأَوَّلَتْ فِيهِ مُحَاوِلًا لِلخُرُوجِ مِنْهُ ، وَأَسْتَنْثَيْتُ عَلَيْهِ طَالِبًا لِلرَّجُوعِ عَنْهُ ، فَبَرَأَنِي اللهُ مِنْ حَوْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَسَلَبَنِي مَاوَهَبَ مِنْ فَضْلِهِ وَنِعْمَتِهِ ، وَمَنْعَنِي مَاوَعَدَ مِنْ رَأْفَتِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَخَلَّانِي مِنْ يَدَيْهِ ، يَوْمَ الْفَرَزِ الْأَكْبَرِ لَدَيْهِ ، وَحَنَثَ كُلَّ يَمِينٍ حَلَفَهَا الْمُسْلِمُونَ عَلَى قَدِيمِ الْأَيَّامِ وَحَدِيثِهَا ، وَالنَّهَائِي فِي تَأْكِيدِهَا وَتَشْدِيدِهَا ، وَأَعْرَوْهَا مِنْ لِبَاسِ الشُّبْهِ ، وَأَخْلَوْهَا مِنْ دَوَاعِيِ الْخِنَاثَةِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ يَمِينِي : أوردتها علي صدق من نيتي ، وَصِحَّةٍ من عَزِيمَتِي ، وَأَتَّقَاكَ من سِرِّي وَعَلَانِيَتِي ، وَسَرَدْتُهَا سَرْدًا مُتَابِعًا مِنْ غَيْرِ فَصْلٍ ، وَتَلَفُظْتُ بِهَا تَلَفُظًا مِنْ غَيْرِ قِطْعٍ ، وَالنِّيَّةُ فِيهَا نِيَّةُ فُلَانٍ : عَلَى حُضُورِ مَنْهُ وَغَيْبٍ ، وَبَعْدٍ وَقُرْبٍ ، وَأَشْهَدُ اللهُ تَعَالَى بِمَا عَقَدْتُهُ عَلَى نَفْسِي مِنْهَا ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا عَلَى مَنْ أَشْهَدُهُ ، وَحَسْبِيَ عَلَى مَنْ أَجْتَرَأُ عَلَى إِخْفَارِ عَهْدِهِ ، وَتَقْضِ عَقْدَهُ .

قلت : فإن كان من تؤخذ عليه المبايعة اثنين ، أُتِيَ في المبايعة بصيغة التثنية ؛ أو ثلاثة فأكثر ، أُتِيَ بصيغة الجمع . ولم أَتَفِ على كيفية وضعهم لذلك في الكتابة ، والذي يظهر أن المبايعة كانت تكتب على الصورة المنقّمة ، ثم يكتب المبايعون خطوطهم بصدورها عنهم ؛ كما يفعل الآن في تحليف من يحلف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممالك الشامية ، أو يُشهد عليهم في آخر البيعة بمعاقدتهم عليها ورضاهم بها ونحو ذلك .

المذهب الثاني

(مما يكتب في بيعات الخلفاء)

أن تفتتح المبايعة بلفظ « من عبد الله وولَّيه فلان أبي فلان الإمام الفلاني » إلى أهل دولته ، ونحو ذلك بالسَّلام عليهم ، ويؤتى بما سَنَح من الكلام ؛ ثم يُقال : أمَّا بعدُ ، فالحمد لله ؛ ويؤتى على وصفه بشريف المناقب ، وأستحقاقه للخلافة ، وأستجاعه لشروطها ، وما يجرى هذا الجرى ؛ ثم يتخرط في سلك البيعة ، ويذكر القائم بأخذها على الناس من سلطانٍ أو وزيرٍ عظيمٍ أو نحو ذلك ؛ ويذكر من أمر ولاية الخليفة ما فيه أستجلاب قلوب الرعية والأخذ بنحواتهم وما يتخرط في هذا السلك .

وهذه نسخة بيعة من هذا الأسلوب ، لوليِّ عهد بعد موتِ العاهد ، كُتِبَ بها لبعض خلفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرض لذكر الوزير القائم بها ، وهي :

(١) لعله ونحو ذلك ويتبع ذلك الخ تأمل .

من عبد الله ووليه «أبي فلان فلان بن فلان» الإمام الفلاني، بأمر الله تعالى
 أمير المؤمنين، إلى من يضمه نطاق الدولة العلوية : من أمراءها وأعيانها، وكبرائها
 وأولائها؛ على اتساع شعوبهم، وعساكرها على اختلاف ضروبهم؛ وقبائل عمرها
 الفيسية وإيمانه، وكافة من تشمله أقطارها من أجناس الرعيه : الأمير منهم
 والمأمور، والمشهور منهم والمغمور؛ والأسود والأحمر، والأصغر والأكبر؛ وفقهم
 الله وبارك فيهم .

سلام عليكم، فإن أمير المؤمنين يحمّد إليكم الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله
 أن يصلي على محمد خاتم النبيين، وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين،
 الأئمة المهديين، وسلم تسليما .

أما بعد، فالحمّد لله مولى المنّ الجسيم، ومبدي الطول العميم، وما منح جزيل الأجر
 بالصبر العظيم، فيفيد النعم المتشعبة النون، ومدني المهج المتعالية لتناول المنون؛
 ومبيد الأعمار ومفنيها، وناشر الأوت ومحييها؛ والفتاح إذا استغلت الأبواب،
 والقائل : ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ الذي لا يغير ملكه مرور الغير، ولا يصرف سلطانه
 تصرف القدر؛ ولا يدرك قدمه وأزليته، ولا ينفد بقاؤه وسرمديته؛ مسلم الأنام
 للحمام، ومضمي الأنفس بسهام الإحترام؛ ومورد البشر من المية منهل ما برحوا
 في رنقه بكرعون، ولزّه المشرق يجزعون؛ ومعزز ذلك بقوله : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ
 الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُمُ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ .

والحمّد لله الذي نصب الأنبياء لمرآشده أعلاما، وحفظ بيعتهم من الحق والهدى
 نظاما؛ وجعل نبوة جدنا محمد صلى الله عليه وسلم لنبواتهم ختامًا، وعصده بوصيه أبينا

امير المؤمنين علي بن أبي طالب كَمَلاً للدين وإماماً ؛ واستخلص من دُرَيْتِهِمَا أُمَّةً هَادِيَةً إِيْتِقَانًا لَصْنَعْتِهِ وَإِحْكَامًا ، وَأَنَامَ الْجَمَّةَ عَلَى الْأُمَّةِ بِأَنَّ أَقَامَ لِكُلِّ زَمَانٍ مِنْهُمْ إِمَامًا ؛ وَعَاقَبَ بَيْنَ أَنْوَارِ الْإِمَامَةِ إِذَا أَنْقَبَضَ نُورُ أَنْبَسَطَ نُورٌ ، وَتَابَعَ ظُهُورَ بَدْوَرِهِ لِيُشْرِقَ طَالِعُ إِثْرِ غَارِبِ يُغُورُ ؛ رَحْمَةً شَامِلَةً لِلْعَالَمِينَ ، وَحِكْمَةً تَامَةً حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَهُوَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ؛ وَلَمْ يُجَلِّ نَبِيًّا مَعَ مَا شَرَّفَهُ [بِهِ] مِنْ تَنَاوُلِ وَحْيِهِ وَتَلْقَائِهِ ، وَلَا عَصَمَ إِمَامًا مَعَ اخْتِصَاصِهِ بِفُرُوعِ مَنَصِبِ الْإِمَامَةِ وَتَرْقِيهِ ، مِنْ لِقَاءِ الْمَنِيِّ ، وَوَدَاعِ الْأُمِّيَّةِ ؛ بَلْ أَجَلَ لِكُلِّ مِنْهُمْ أَجَلًا مَكْتُوبًا ، وَفَسَّحَ لَهُ أَمَدًا مَحْضُورًا مَحْسُوبًا ؛ لَا يَصْرِفُهُ عَنْ وُصُولِهِ فَضِيلُهُ ، وَلَا يَصِلُ إِلَى تَجَاوُزِهِ بِقُوَّةٍ وَلَا حِيلَةٍ ؛ قُدْرَةٌ مُحْكَمَةُ الْأَسْبَابِ ، وَعِبْرَةٌ وَاضِحَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ ؛ وَقَضِيَّةٌ أَوْصَحُّهَا فُرْقَانُهُ الَّذِي أَقَرَّ بِإِعْجَازِهِ الْجَاهِلُونَ ، إِذْ يَقُولُ مَخَاطِبًا لِنَبِيِّهِ : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَيْءٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ إِلاَّ أَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ .

والحمد لله الذي منَّحَ أمير المؤمنين من خصائص الإمامة وأنوارها ، وحازله من دَخَائِرِهَا وَأَوْدَعَهُ مِنْ أَسْرَارِهَا ، مَا خَوْلَهُ فَانْحَرُتْ رِثَائِهَا ، وَأَصَارَ لَهُ شَرَفَ مِيرَائِهَا ؛ وَجَعَلَهُ الْقَائِمَ بِحَقِّهِ ، وَالْمُرْشِدَ خَلْقِهِ ؛ وَالْمَاحِيَ بَهْدَاهُ لَيْلًا مِنَ الضَّلَالِ بَهِيمَا ، وَالْحَاوِيَّ بِخِلَافَتِهِ مَجْدًا لَا يَزَالُ ثَنَاؤُهُ عَظِيمًا : ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين علي أن أَوْصَحَ بِآبَائِهِ الْأُمَّةِ سُبُلَ الْحَقَائِقِ ، فَاصْبَحُوا خِلَفَاءَ الْخَالِقِ وَأُمَّةَ الْخَلَائِقِ ؛ وَخَوْلَهُ مَا اخْتَصَمَهُ بِهِ مِنَ الْإِمَامَةِ ، وَرَفَعَهُ بِهَا إِلَى أَشْمَخِ مَنَازِلِ الْعُلَا وَأَرْفَعِ مَوَاطِنِ الْكِرَامَةِ ؛ وَيَسْتَمِدُّهُ سُكْرًا يُوَارِزِي النِّعَمَ الَّتِي أَثْبَتَتْ [لَهُ] عَلَى سِرِيرِ الْخِلَافَةِ وَسِرِّهَا نَدْمًا ، وَصَبْرًا يُوَارِزُ الْفَجِيعَةَ الَّتِي قَلَّ لَهَا فَيْضُ الْمَدَامَعِ دَمًا .

ويسأله أن يصلي على جده محمد الذي فضَّ بجِهاده جُموعَ الإلحاد، وحصدَ
 باجتهاده من مال عن الهدى وحاد؛ وصدع بما أمر به حتى عمَّ التوحيد، ودانت
 لمُعجزاته الأئمة وقد دناها وهو المُفردُ الوحيد؛ ولم يزل مبالغاً في مَرْضاة ربه،
 حريصاً على إظهار دينه بيده ولسانه وقلبه؛ حتى استأثر به وقبضه، وبدله من الدنيا
 شرف جواره وعوضه؛ وأصاره إليه أفضل نبيٍّ بصَّر وبشَّر، وأحيا دينَ الله وأنشَر؛
 وعلى أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب إمام الأئمة، وأبي الأئمة؛ وقُدوة
 السعداء، وسيد الشهداء؛ وعاضد الدين بذي الفقار، ومن لم يزل الحق إلى
 دَبِّه شديد الإفِقار؛ صلى الله عليه وعلى آبائه والأئمة من ذرِّيتهما الذين
 أيقظوا العقول بإرشادهم من السنن، وأفاضوا من العدل والإحسان ما ألهج
 بتمجيدهم الألسنة .

وإنَّ الإمامَ الفلانيّ لدين الله أمير المؤمنين كان ولياً لله شرفه الله وأستخلصه ،
 وأفردَه بإمامة عَصْره وخصَّصه ؛ وفوضَ إليه أمرَ خلافتِه ، وأحلَّه محلّاً تتعَمَّطَارُحُ
 الهممُ دونَ علُوِّه وإنافة ؛ فقام بحقِّ الله ونهضَ ، وعمِلَ بأمره فيما سنَّ وفرضَ ؛ وقهرَ
 الأعداءَ بسطواتِه وعزائمِه ، وصرفَ الأمورَ بأزيمةِ التذيرِ وخرائمِه ؛ وبالغَ في الذبِّ
 عن أشياعِ الملَّةِ ، وأجتهدَ في جهادِ أعداءِ القبلة ؛ ووقفَ على مصلحةِ العبادِ والبلادِ
 أمله ، ووفَّرَ على ما يُحيطُ عندَ الله قولُه وعمَلُه ؛ ولم يتركْ في مَرْضاةِ خالقه مشقَّةً
 إلا احتمَلها ، ولا رويَّةً إلا صرفها في إرشادِ خلقه وأعمالها ؛ حتى بلغَ الغايةَ المَحْدُودَةَ ،
 وأستجَلَّ الأنفاسَ المَعْدُودَةَ ؛ وأحسنَ اللهُ له الإختيارَ ، وآثرله الثقلَةَ من هذه الدارِ
 والزُّنْفَى بسُكْنَى دارِ القَرَارِ ، والفوزَ بمصاحبةِ الأنبياءِ الأبرارِ ، والحُلُولَ في حظائرِ
 قُدْسِه مع آبائه الأئمةِ الأطهارِ ؛ فسارَ إليه طاهرَ السَّريهِ ، جميلَ المذهبِ والصُّورهِ ؛
 مستوجباً بسعْيهِ أفضلَ رضوانِه ، ممهداً بالتقوى لتذيرِهِ أكثافَ جناهُ .

وأمر المؤمنين [بِحَسَب] عند الله هذه الرزية التي عظم بها المصاب، وعظم عند
 تيجعها الصاب؛ وأضمرت القلوب نارا، وأجرت الأماق دما مُمَارا^(١)؛ وأطاشت
 بهولها الأبدان بالحرق، وحكمت الأجفان بالآرق؛ وكادت لهجومها الصدور تُقَدِّفُ
 أفئدتها، والدينا تنزع نضرتها وبهجتها؛ وقواعد الملة تضعف وتهدى، والخطوب
 الكارثة تُبْصِرُ ولا تتبى، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون!! تسلياً لأمره الذي لا يُدْفَعُ،
 وإذعاناً لقضائه الذي لا يُصَدَّ ولا يُمْنَعُ.

وكان الإمام الغلاني لدين الله أمير المؤمنين عند نقلته جعل لي عقد الخلافه،
 ونص على بارتقاء منصبها المخصوص بالإتافه؛ وأفضى إلى بسرّها المكنون،
 وأودعني غامض علمها المصون؛ وعهد إلى أن أشملكم بالعدل والإحسان، والعطف
 والحنان؛ والرحمة والغفران، والمن الرائق الذي لا يكدره أمتنان؛ وأن أكون لأعلام
 الهدى ناشرا، وبما أَرْضَى اللهُ مَجَاهِرًا، ولأحزاب القبلة مظافرا مُظَاهِرًا،
 ولأعداء الملة مُرْعِمًا قَاهِرًا؛ وللمنار التوحيد رافعا، وعن حوزة الإسلام بغاية
 الإمكان دافعا؛ مع علمه بما حُصِّصَتْ به من كرم الشيم، وفُطِرَتْ عليه من الخلال
 القاضية مصالح الأمم؛ وأوتيته من استحقاق الإمامة وأسئجابها، ومُنِحْتُهُ من
 الخصائص المبرمة لأسبابها.

فَتَعَزَّوْا جميع الأولياء، وكافة الأمراء؛ وجميع الأجناد، والحاضر من الرعايا والباد؛
 عن إمامكم المنقول إلى دار الكرامة، بإمامكم الحاضر الموجود الذي أورثه الله مقامه؛
 وأدخُلُوا في بيعته بصدور مشروحة نقيه، وقلوب على محض الطاعة مطويه؛ ونيات

(١) ما زاد من قاموس أسأله . انظر القاموس .

(٢) أى تدم من قولهم أصر على الأمر دأوم عليه .

فِي الْوَلَاءِ وَالْمَشَابِعَةِ مَرْضِيَّةً ، وَبَصَائِرَ لَا تَزَالُ بُنُورُ الْهُدَى وَالِاسْتِبْهَارُ مُضِيَّةً ،
وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يُسْأَلُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ إِمَامَتَهُ مَحْظُوظَةً بِالْإِقْبَالِ ، دَائِمَةً الْكَمَالَ ، ضَافِيَةً
مِنَ الْأَشْكَارِ ، مَعْضُودَةً بِمُؤَانَةِ الْأَقْدَارِ ، وَيُوَالِي حَمْدَهُ عَلَى مَامَنَحِهِ مِنَ الْأَصْطِفَاءِ
الَّذِي جَعَلَهُ لِأُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا قَوَامًا ، وَأَقَامَهُ لِلْبَرِيَّةِ سَيِّدًا وَإِمَامًا ، فَاعْمَلُوا هَذَا
وَأَعْمَلُوا بِهِ ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وكتب في يوم كذا من شهر كذا سنة كذا .



وهذه نسخة بيعة : كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمي بعد وفاة
أبن عمه الأمر بأحكام الله ، قام بعقدتها الوزير أبو الفتح يانس الحافظي ،
أقصر فيها على تجميد واحدة ، وعزى بالخليفة الميت ، ثم أنتقل إلى مقصود
البيعة ، وهي :

من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون ، الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ،
إلى كافة أهل الدولة شريفهم ومشروفهم ، وأميرهم ومأمورهم ، وكبيرهم
وصغيرهم ، وأحمرهم وأسودهم ، وفقهم الله وبارك فيهم .

سلام عليكم ، فإن أمير المؤمنين يحمده إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن
يصلى على جدته محمدي خاتم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ،
الأئمة المهديين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فالحمد لله اللطيف بعباده وبريئته ، الرؤوف في أقداره وأقضية ، المهين
فلا يخرج شيئاً عن إرادته ومشيئته ، ذى النعم الفائضة الغامرة ، والمن المتابعة

المتظاهره؛ والآلاء المتواليه المتاصره، القائل في محم كتابه : ﴿يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ . مدبر أرضه بخلقائه، الذين هم زينةً للدينا وبهجه، وهادى خلقه بأوليائه، لئلا يكون للناس على الله حجة؛ فسبحان الذى هو للنعم مسبح وبالكرم جدير، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين أن جعله خليفة دون أهل زمانه، وأوجب ثواب المستحيين له بكفالاته وخصامته، وجعلهم يوم الفزع الأكبر مكنوفين بحفظه مشمولين بأمانه؛ وأوزعه الشكر على ما أسترعه إياه من أمر هذه الأمة، ونقله إليه من ثراث آبائه الهداة الأئمة، وكشفه بإمامته من أجمع نائبة وأفظع ملبه .

وصلّى الله عليهم جدنا محمد رسوله الذى أخبر الأنبياء المرسلون بصفته ونعته، وتداولوا البشرى بما يستقبل من زمانه وبعثه؛ وذكروه فيما أتوا به من كل كتاب أوحاه الله وأنزله، وأعترفوا بأنه أفضل من كل من نبأه الله وأرسله؛ فيسر الله سبحانه ما كان مرتقباً من ظهوره، وأذن فى إشراق الأرض بما أنتشر فى آفاقها من نوره؛ وبعثه - جلت قدرته - إلى الأمة بأسرها قاطبه، وجعل السنة الأعماد مجادلة لمن خالف شرعه مخاطبه؛ فكان لآية الكفر ماحيا، وفى مصالح البرية ساعياً، وإلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة داعياً؛ إلى أن لمعت آيات الحق وسطعت، وأنحسمت مادة الباطل وأتقطعت؛ وظهر من آياته ما كبره المخبتون، وأشتهر من معجزاته ما خصم به المعتدون، وخاطبه الله فيما أنزل عليه بقوله : ﴿إِنَّكَ مِثٌّ وَإِنَّهُمْ مِثُونَ﴾ . فحينئذ نقله الله إلى ما أعد له من جناته، وخصه بشرف الشفاعة

في يوم مجازاته ، وصدقته وعده فيما بواه من النعيم المقيم : ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وعلى أئمتنا أمير المؤمنين على بن أبي طالب أولى الناس بالنبي ، وأول من أتبعه
من ذوى قرابة وأجنيب ؛ وابن عمه الذى آخضه بمواخاته ، وجعله خليفة على كافة
الناس بعد وفاته ؛ وتحمل بأمر الله ، فيما ولاه وأولاه ، وخطب الناس في حجة الوداع
فقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » ، وعلى ألها الكرام الأبرار ، وعترتهما المصطفين
الأخيار ؛ وهداة المسلمين وقُدوتهم ، وأمرء المؤمنين وأئمتهم ؛ الذين حكموا فأقسطوا
وما قسطوا ، وسلك الحِضرون منهم سنن أسلافهم الذين فرطوا ، وأقنوا آثارهم
في السياسة فما قصروا ولا فرطوا ؛ ولم يزل كل منهم تاملاً من ذلك بما حسن
أيامه ، فاعلاً في أمر الدين مارفع مناره ونشر أعلامه ، حتى آختر الله له ما عنده
فنص على من أقامه الاستحقاق مقامه ؛ وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا أقبضاء
لأئمه ، ولا أنقطاع لمدده ؛ فنيل المطالب بكرمه وملكوته كل شيء بيده .

وإن الحق إن خفي حيناً فلا بد لهلاله من الإبدار وأنيساط النور ، وإن الشمس
إن توارت بالحجاب فما أوشك عودتها إلى البروغ والظهور ؛ وإن حسن الصبر إلى أن
يلغ الكتاب أجله يؤمن من تدلية الشيطان بالنور ، قال الله عز وجل في كتابه ،
الذى هدانا به ، : ﴿ وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ .

وإن الله تعالى لرأفته بمن أبدعه من خلقه وأنشاه ، ولسابق علمه في عمارة هذه
الدار على ما أرادته عز وجل وشاه ؛ لا ينجلي الأرض من نور يستضيء به السارى
في الليل البهيم ، ولا يدع الأمة بلا إمام يهتدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ؛
فهو جل وعلا أعدل من أن يجعل جيد الإيمان من حلى الإمامة عاطلاً ، أو يترك

الخلق هملاً وقد قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِطْلَاقٍ .
بل يقطع أعدار العباد فيما خلقهم له ووقفهم ، ويهديهم بالأئمة إلى التوفيق على عمل
ما ألزمهم وكلفهم ؛ فالأمور محروسة الترتيب محفوظة النظام ، والأرض إذا أظلمت
لقد إمام ، أضاعت وأشرفت لقيام إمام . وقد علم الكافة أن حجة الله في أرضه ،
والمجتنب من الأعمال ما لم يرضه ، والمحسن إلى البرية ببعثه على المصالح وحضه ؛
الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين الذي آتاه الله الحكم صبيًا ، ورفعه من إرث
النبوة مكانًا عليًا ؛ وأستخلفه على خلقه فكان للفضل باسطًا ولراية العدل ناشرا ،
وجعله لسمل المحاسن جامعًا ولأئمة الخلفاء الراشدين عاشرًا ؛ لم يزل ناظرًا في البعيد
والقريب ، عاملاً في سياسة الأمة عمل المجتهد المصيب ؛ مستقصياً حرصه
في المحافظة على إعزاز الله ، مستنفذاً جهده في الجهاد فيمن خالف أهل القبلة ،
بإذلاً من جزيل العطاء وكثيره ما لا يعرف معه أحد من خاصته بالفقر ولا ينسب
معه إلى القلة ؛ حتى استوفى مدته الموهوبه ، وأستوعب غايته المكتوبه ؛ وناله
من القضاء ما أخرجه من الدنيا سعيداً ، وأقدمه على الله شهيداً ، وأصاره إلى ما أعد
له من نعيم لا يريد به بديلاً ولا يطلب عليه مزيداً ؛ وكان أنتقاله إلى جوار ربّه تبارك
وتعالى ، كأنقال أبيه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بغياً من الكافرين وأغتيالاً .
وقد كان يذكر ما علمه من حق أمير المؤمنين تارةً محمهاً وتارةً محافناً ، إلى أن صار
على بسط القول في ذلك وتبيينه مثاراً متهاقياً ؛ وأفصح بما كان مستبهماً مستعجباً ،
وصرح بما لم يزل في كشفه ممرضاً وعن إفصاحه محجياً ؛ وذلك لما ألقاه أشرف
فرع من سنخ النبوه ، وراه أكرم في فخارة الأبوه ؛ وعلمه من أباه الأمير أبا القاسم^(٢)

(١) المراد به الحافظ لدين الله صاحب هذه البيعة .

(٢) جرى الكاتب على لغة القصر .

عَمَّهُ سَلامُ اللَّهِ عَلَيْهِ الَّذِي هُوَ سَليْلُ الإِمامَةِ القَليْلِ المِثْلِ ، وَنَجِئُ الخِلافَةِ المَخصُوصُ
 مِنَ الفَخْرِ بأَجْزَلِ حَظٍّ وَأَوْفَرَ كَفْلِ ؛ كانَ المَسْتَنصِرُ بِاللَّهِ أَميرُ المُؤمِنينَ سَماهُ وَليَّ عَهدِ
 المُسَلِمينَ ، وَتَضَمَّنَ ذَلكَ ما نَرجَحُ بِهِ تَوقِعاتُهُ وَتَسوِغَاتُهُ إلى الدَواوِينِ ، وَبُنتِ
 فِي طُرُقِ الأَبْنِيَةِ ، وَكُتِبَ الأَبْتِياعاتُ والأَشْرِيَةِ ، وَعَلمَتَهُ الكَافَةُ عَلماءُ يَقيناً ظَلَّتْ فِيهِ
 غَيرُ مُرُتابِيَةٍ وَلا مِمْتَرِيَةٍ ، وَفِي ضَمَنِ ذَلكَ باطنٌ لا يَعبِقُهُ إلا العَالمُونَ ، وَلا يُنكِرُهُ إلا مِنَ
 قالَ فِيهِمَ : (وَمَا يَبيحُذُ بِأَيَّتِنَا إلا الظَّالمُونَ) . وَذَلكَ أَنَّ أَميرَ المُؤمِنينَ الفَرَضُ
 وَالْمَقْصَدُ ، وَالبُغْيَةُ وَالْمَطْلَبُ ؛ وَلَهُ عَهدٌ بِالتَّلوِيجِ والإِشارَةِ ، وَإِلَيْهِ أُوحيَ بِالنَّصِّ وَإِنْ
 لَمْ يُفْصَحَ فِيهِ بِالعِبارَةِ ؛ وَكانَ وَالِدُهُ الأَميرُ أَبُو القاسِمِ - قَدَّسَ اللَّهُ رُوحَهُ - بِعِزَّةِ
 الأَشجارِ الَّتِي يُتَأَنَّى بِها إلى أَنَّ يَظْهَرُ زَهْرُها ، وَالأَكْمامِ الَّتِي يُنْتَظَرُ بِها إلى أَنَّ يَخرجَ
 ثَمَرُها ؛ وَالزَّرَجُونَةُ الَّتِي نَقَلَتِ المَياءَ إلى العُتُقُودِ ، وَالسَّجَابِيَةُ الَّتِي حَمَلَتِ الغَياثَ فَعَمَّ
 نَفْعُهُ أَهْلَ السُّهُولِ وَالتَّجُودِ ؛ وَمما يَبينُ ذَلكَ وَيُوضِّحُهُ ، وَيَحَقِّقُهُ وَيَصَحِّحُهُ ؛ وَتَنالُجُ
 بِهِ لِلْمُؤمِنينَ صُدُورَ وَتَقوِي أَفئِدَهُ ؛ وَتَشهَدُ البِصائِرُ أَنَّ النِّعْمَةَ بِهِ عَلى الإِسلامِ مُتتابِعَةٌ
 مُتجَدِّدَةٌ ، أَنَّ الأَمْرينِ إِذا تَسابَها مِنَ كَُلِّ الجِهاَتِ ، وَكانَتْ بَينَهما مُدَدُ مُتتَاولاتٍ
 مُتتَابعاتٍ ؛ فَالسَّابِقُ مِنْهُما يُمهِّدُ لِلتَّالِيِ ، وَالأَوَّلُ أَبدًا رَمزٌ عَلى التَّالِيِ ؛ وَلا خِلافَ
 بَينَ كَافَّةِ المُسَلِمينَ فِي أَنَّ اللَّهَ تَعالَى أَمَرُ جَدِّنا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَقْدِ وِلايَةِ
 أَميرِ المُؤمِنينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طالِبٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ فَعَقَدَها لهُ يَومَ غَديرِخُمٍّ ، وَأَميرِ المُؤمِنينَ
 عَلِيِّ بْنِ عَمرِئِهِ وَكانَ لهُ حينئِذٍ عَمٌّ حاضِرٌ ، وَأَمضى ما أَمَرَ بِهِ وَالإِسلامُ يَومئِذٍ عَضُّ
 وَعودُهُ ناضِرٌ ؛ وَكَذلكَ أَنَّ أَميرَ المُؤمِنينَ ، هُوَ ابْنُ عَمِّ الإِمامِ الأَميرِ بِأَحكامِ اللَّهِ
 أَميرِ المُؤمِنينَ ؛ وَقَد نَصَّ مَعَ حَضُورِ عُمُومَتِهِ عَلَيْهِ ، وَفَعَلَ ما فَعَلَ جِدهُ رَسُولُ اللَّهِ
 أَقْتداءً بِهِ وَاتِّهاً إِلَيْهِ ؛ وَكانَ أَبُو عَلِيٍّ المَنْصُورُ الإِمامُ الحَماكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَميرَ المُؤمِنينَ
 صَلَواتُ اللَّهِ عَلَيْهِ ، جَعَلَ ابْنَهُ عَبْدِ الرَّحيمِ إِلياسَ وَلِيَّ عَهدِ المُسَلِمينَ ، وَمِيزَةً بِذَلكَ

على كافة الناس أجمعين؛ ونقش اسمه في السكك، وأمر بالدعاء له على المنابر وبمكته؛
والبسبه شدة الوقار المرصعة بالجوهر، وأستتابه عنه إمام الأعياد في الصلاة وفي رُقي
المنبر؛ وأقامه مُتَمِّمًا نَفْسَهُ في الأستغفار لمن يُتَوَقَّئُ من خواصِّ أوليائه، وفي الشفاعة
لهم بِمَتَقَبِلِ مُنَاجَاتِهِ وَمَسْمُوعِ دُعَائِهِ، مع علمه أنه لاينال رتبة الخلافه، ولا يبلغ
درجة الإمامه؛ وأن الإمام الظاهر لإعزاز دين الله - صلى الله عليه - هو الذي
خُلِقَ لما؛ وحين حُمِّلَ أعباءها أَقلَّها وما أَسْتَقَلَّها؛ وإنما تحت ذلك معنى لطيف
غامض، وسرٌّ عن جمهور الناس مستترٌ وبرقه لأولى البصائر وامض: وهو أن مكنون
الحكمة، ومكتوم علم الأمة؛ يدلان على أن الإمام المنصور أبا علي، سيفعل فيمن
يستخلفه بعده مثل فعل النبي؛ وقد علم الإمام الحاكم - عليه السلام - أن المراد
بذلك من يأتي بعده ممن أولده أو أنسله، لأن ولده حاضر والمقصود من لا ولد له؛
بجعل ولاية عبد الرحيم العهد تأسيسا لما سيكون، وتثقالا للنفوس من الإنزعاج إلى
أن تسلمها الطمانينة والسكون؛ فلما أفضى الله إلى الإمام المنصور أبي علي الإمام
الأمير بأحكام الله أمير المؤمنين بالخلافة التي جعلها واجبا له حقا، ووافق جدّه
- عليه السلام - وكان لقبه من لقبه مشتقا، ظهر المنكتم، ووضح المستتر؛ وعاد
التعريض تصريحًا، والتمريض تصحيحًا؛ والرْمُزُ إبانته، والنصُّ على أمير المؤمنين
أمانته؛ فاقتدى بجدّه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أستخلاف أمير المؤمنين
مع حضور عجموته، وقفل في ذلك فعلته وجرى على قضيتته؛ وكشف عما أهدمه
الإمام الحاكم بأمر الله قدس الله لطيفته فتساوى الخالص والعام في معرفته؛ ثم حلّه
أمير المؤمنين محل نفسه في الجلوس على الأسمطة، وعمل لأوليائه ورعيته في ذلك
بالقضايا المحيطه؛ ونصبه منصبه في الصلاة على من جرت عادته بالصلاة على مثله؛
وجمع في اعتماد ذلك بين إحسانه وفضله وبين امتنانه وعذله؛ وإذ قد تبيّن هذا

الأمر الواضح الجليّ ، وتساوى في علمه الشانئ والوليّ ؛ وعلم هو ماخصّ الله به أمير المؤمنين من الإمامه ، وأزاله عن العقول من ضباب متكاثف وعمّامه ؛ وشمله به من فضله ورافته ، ونصّب به فيه من منصّب خلافته ؛ التي أيدها بوليّه ووزيره ، وعصدها بصفية وظهيره ، السيد الأجل أبي الفتح يانس الحافظيّ الذي جعله الله على أعتائه بدولة أمير المؤمنين من أوضح الشواهد والدلائل ، وصرف به عن مملكته محذور الصروف والغوائل ؛ وأقام منه لمناسبة الخِلافة مُخلصا جمع فيه أسباب المناقب والفضائل ؛ وأيده بالتوفيق في قوله وفعله فأرْبى على الأواحر والأوائل ؛ ودلّت سيرته الفاضلة على أنه قد عمّر ما بين الله وبينه ؛ وحكمت سنّته العادلة أن كلّ مدح لا يبلغ ثنائه وكلّ وصف لا يقع إلاّ دونه ؛ والله يضاعف نعمه عنده ولديه ، ويفتح لأمر المؤمنين مشارق الأرض ومغاربها على يديه ؛ وهذا يحقّق أنّ الإسلام قد أحدث له قوّة وتمكينا ، وأنّ دوى الإيمان قد ازدادوا إيمانا واستبصارا و يقينا ؛ فيجب عليكم لأمر المؤمنين أن تدخلوا في بيعته مُنشرحة صدوركم ، طيبة نفوسكم ؛ مجتهدين له في خدمة تقابلون بها إحسانه ، متقرّبين إليه بمناجحة تُحظيكم عند الله سبحانه ؛ عاملين بشرائط البيعة المأخوذة على أمثالكم الذين يتبعون في فعلهم ، ويقع الإجماع بمثلهم ؛ ولكم على أمير المؤمنين أن يكون بكم رحيا ، وعن الصغائر متجاوزا كريما ، وبالكافة رؤونا رفيقا ؛ وعلى الرعايا عطوفا شفيقا ، وأن يصفح عن المسيء ما لم يأت كبيره ، ويبالغ في الإحسان إلى من أحسن السيرة ؛ ويؤبى من الإفضال ما يستخلص الضمائر ، ويُسيغ من الإنعام ما يقتضى لقاء السرائر ؛ وأمير المؤمنين يسأل الله أن يعرفكم بركة إمامته ، ويمنّ خلافته ؛ وأن يجعلها ضامنة بلوغ المطالب ، كافلة لكافئكم بسعادة المبدئ والعواقب ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المذهب الثالث

(أن تُفْتَحَ البيعةُ بعدَ البَسْمَلَةِ بِحُطْبَةِ مَفْتَحَةٍ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ ،

ثم يُؤْتَى بِالْبَعْدِيَّةِ وَيُتَخَلَّصُ إِلَى الْمَقْصُودِ ، وَقَدْ يُذَكَّرُ السُّلْطَانُ الْقَائِمُ بِهَا

وقد لا يُذَكَّرُ . وعلى ذلك كانت تكتبُ بيعاتُ خُلَفَاءِ بَنِي أُمَيَّةَ

بِالْأَنْدَلُسِ ، وَمِنْ أَدْعَى الْخِلاَفَةِ بِبِلَادِ الْمَغْرِبِ)

وهذه نسخةُ بيعةٍ كتبَ بها طاهرُ الأندلسيِّ ، في أخذ البيعة على أهل دانيةٍ من الأندلس ، للرشد بن المأمون الأمويِّ ، وهو متصِّبٌ في الخلافة : تخلَّفَ توهُّمُه من الرعية . اقتصر فيها على تجميدِ واحدةٍ ، وليس فيها تعرضُ لسلطانِ قائمٍ بعقدها ، وهي :

الحمدُ لله الذي أسبغَ إنعامَه باطنًا وظاهرًا ، وسوَّغَ إفضاله هاملاً وهامراً ، وأنجزَ عن وصفِ إحسانه ناظلاً وناثراً ، وقهرَ الخلقَ ناهياً وأمراً ، وتعالى جدُّه فلا ترى له مضاهياً ولا مظاهراً ، ولا موازياً ولا موازراً ، ونصرَ الحقَّ وكفى به ولياً وكفى به ناصراً ، وجعلَ جدَّ المطيعِ صاعداً وجدَّ العصى عاثراً ، وحَدَّرَ من الخِلافِ بادياً وحاضراً ، وماضياً وظاهراً .

نحمدُه سبحانه على نعمه حمدَ من أصبحَ لُغْلُقَ الحمدِ ذاخراً ، ونشكرُه على منتهى ولن يُعَدِمَ المزيدَ منه شاكرًا ، ونُضْرِعَ إليه أن يجعلَ حظَّنَا من بركةِ الاعتصامِ وإفرا ، ووجهَ نيتنا في الانتظامِ سافراً ، وأن يمنحَ أوليائه النصرَ ظاهراً والفتحَ باهراً ، وأعداءه الرعبَ شاجياً والرُخَّ شاجراً ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ شهادةً من أقزله بالوحدانيةِ صاغراً ، وأضحى لأوامره ممتثالاً ولنواهيهِ مُحاذراً ، ونسأله أن يجعلَ حُزْبَ الإيْمَانِ

ظافراً، ويمدّه بتصره طالباً للثأر بآثراً، وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله الذي آتخبه
 من صفوة الصفوة كبراً فكابراً، وجعله بالفضيلة أولاً وبالرسالة آخراً، فأيقظ بالدعاية
 ساهياً وناسياً وسكن بعد الإبانة منافياً ومنافراً، وأذهب بنوره ليلاً من الجهالة
 سائراً، وقام بجهاد الكفرة لئنا خادراً، وباشر بنفسه المكاره دارعاً وحاسراً، وشهد
 بداراً مبادراً، وحينئذ منيراً بالخبر نادراً، وظهر عليهم في كل المشاهد غالباً وما ظهرُوا
 نادراً، وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته، المعلومة رأفته، أبو بكر الذي
 أفتحهم لهول الردة مصابراً، وسل في قتال الروم أهل الجلد والشدة سيفاً باتراً، ومنهم
 القوي في ذات الله عمر الذي أصبح به ربيع الإسلام عامراً، ولم يحش في الله عاذلاً
 ولم يبرح غادراً، ومنهم الأصدق حياءً عثمان ملاقى البلوى صابراً، والخفير الذي لم ير
 للأدمة خافراً، ومنهم أفضاهم على الذي قاتل باغيها وكافراً، وبات لخوف الله
 ساهراً، ورضى الله عن الإمام المهدي الذي أطلعه نوراً باهراً، وبحراً للعلم زائراً،
 وأتى به والضلال يميز رسته سادراً، والباطل يثبث وينفي وإرداً وصادراً، فحدد
 رسم الحق وكان دائراً، وقام بإرائه علماً هادياً وقرماً هادراً، وعن الخلفاء الراشدين
 المرشدين من أصبح حائداً عن الحق جائراً، المجاهدين خانلاً بالعهد خاتراً.

أما بعد، فإن الله سبحانه جعل الإمامة للناس عظمة، ومنجاة من ريب
 الألباس ونعمة، بها تهمد همارة الأرض، ويتجدد صلاح الكل والبعض، ولولاها
 ظهر الظلم، واختلط المرعى والمسل، وأرتكبت المآثم، وأستبيحت المحارم،
 وأستحلّت المظالم، وأستقم من المظلوم الظالم، وفسد الائتلاف وأترق النظام،
 وتساوى الحلال والحرام، فأختار لأمرهم رعاة أمرهم بالعدل فعدلوا، وبالتواصل

والتواصل

(١) أي لم يخف وفي بعض النسخ «ولا يبرح غادراً» وهو غير مناسب.

في ذات الله والتَّطَاعُ قَطَعُوا فِي ذَاتِ اللَّهِ وَوَصَلُوا ؛ وَعَدَلُوا بَيْنَ أَهْلِيهِمْ وَأَقْرَبِيهِمْ
 فِيمَا وُكِّلُوا ، وَنَهَضُوا بِأَعْيَابِ الْكِفَايَةِ وَالْحِمَايَةِ وَأَسْتَقَلُّوا ؛ وَالرَّمْهَمُ الْإِتِّفَاقُ وَالْإِتِّقَادُ ،
 وَحَظَرَ عَلَيْهِمُ الْإِنْسِتَاقُ وَالْعِنَادُ ؛ فَمَلَكُوا بِأَزْمَةِ الْعَقْلِ قِيَادَ الْأُمُورِ ، وَأَشْرَقَتْ بِسِيرَتِهِمْ
 الْمُبَارَكَةِ أَقَاصِي الْمَعْمُورِ ؛ وَشَاهَدَ النَّاسُ فَوَاضِلَ إِمَامِهِمْ ، وَتَيَسَّنَّوْا مِنْ سِيرَتِهِمُ الْعَادِلَةَ
 عُلُوَّ مَحَلَّتِهِمْ فِي الْخِلَافَةِ وَمَقَامِهِمْ ؛ وَلَمْ يُطْرَقْ فِي مُدَّتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ جَنَابٌ ، وَلَا أُقْتَحِمَ
 لَهُ بَابٌ ؛ وَائِي وَسُيُوفُهُمْ تَقَطَّرَ مِنْ دِمَاءِ الْأَعْدَاءِ ، وَبِلَادُهُمْ سَاكِنَةُ الدَّهْمَاءِ ،
 وَالْكَفَرَةُ بِالرُّعْبِ الْمُخَامِرِ وَالِدَاءِ الْعِيَاءِ ؛ وَأَهْلُ الْإِيمَانِ ، يَجْرُونَ ذُبُولَ الْعَزَائِمِ ، وَعَبْدَةُ
 الصُّلْبَانِ ، يَعْتَرُونَ فِي ذَيْلِ الْهَوَانِ الدَّائِمِ ؛ إِلَى أَنْ عَدِمَتِ الْأَرْضُ مِنْهُمْ بِحَارَهَا الزَّوَانِحِرَ ،
 وَأَنْوَارَهَا الْبَوَاهِرَ ، وَرَأَتْ بَعْدَهُمُ الْعَيُونَ الْفَوَاقِيَّ وَالْمُنُونِ الْفَوَاقِرَ ؛ وَأَكْفَهَرَّ وَجْهُ
 اللَّأْوَاءِ ، وَتَفَرَّقَتِ الزَّرْقُ بِحَسَبِ الْأَهْوَاءِ ؛ وَسُفِكَتِ الدَّمَاءُ ، وَرُكِبَتِ الْمَضَلَّةُ الْعَمِيَاءُ ؛
 وَأَحْتَقِبَتِ الْجَوَائِرُ ، وَأَهْمِلَ الشَّرْعُ وَالشَّعَائِرَ ؛ ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَدَانَ فِي كَشْفِ
 الْكُرْبِ ، وَأَطْلَعَ بِالغَرْبِ نُورًا مَلَأَ الدُّنْيَا إِلَى عَقْدِ الْكُرْبِ ؛ وَهُوَ النُّورُ الَّذِي أَضَاءَ
 لِلْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ ، وَطَلَعَ عَلَى الْآفَاقِ طُلُوعَ النَّهَارِ ، وَذُنِحَتْ أَيَّامُهُ السَّعِيدَةُ لِدَرْكِ
 النَّارِ ؛ وَكَفَيْتُ بِهِ الْخِلَافَةَ وَطَالَ بِهَا كَلْفُهُ ، وَقَامَ بِالْإِمَامَةِ مِثْلَ مَا قَامَ بِهَا الْخُلَفَاءُ
 الرَّاشِدُونَ سَلْفُهُ ؛ وَذَلِكَ هُوَ الْخَلِيفَةُ الْإِمَامُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الرَّشِيدُ بِاللَّهِ ابْنُ الْخُلَفَاءِ
 الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ ، وَخَلَدَ فِي عَقِبِهِمُ الْإِمَامَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ وَهُوَ
 الْأَسَدُ الْمَهْصُورُ ، وَمَنْ أَبُوه الْمَأْمُونُ وَجَدَّهُ الْمَنْصُورُ ؛ الْعَرِيقُ فِي الْخِلَافَةِ ، وَالْحَقِيقُ
 بِالْإِمَامَةِ وَالْإِنَافَةِ ؛ جَمَعَ مَا فَتَرَقَ ، وَنَظَّمَ الْأُمُورَ وَتَسَّقَ ؛ وَمَنْعَ الْحَوَازَةَ أَنْ تُنْطَرَقَ
 وَالْمَلَّةَ أَنْ تُفْتَرَقَ أَوْ تُفَرَّقَ .



وهذه نسخة بيعية كتب بها أبو المطرف بن عُميرة الأندلسي بأخذ البيعة على أهل شاطبة من الأندلس لأبي جعفر المستنصر بالله العباسي ، قام بعقدها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود صاحب الأندلس ، ثم أخذ البيعة بعد ذلك عليهم لنفسه ، وأن يكون ابنه ولي عهده بعده ، وهي :

الحمد لله الذي جعل الأرض قرارا ، وأرسل السماء مذرارا ، وسخر ليلا ونهارا ، وقدر آجالا وأعمارا ، وخلق الخلق أطوارا ، وجعل لهم إرادة واختيارا ، وأوحى لهم تفكرا واعتبارا ، وتماهدهم برحمته صبغارا وكرارا .

نحمده حمد من يرجوه وقاره ، ونبرأ من عانده استنكارا ، وألحد في آياته سفاهة واعتزارا ، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجارا ، السامي نخارا ؛ فرفع الله من شريعته للأمة منارا ، وأطفأ برسالته للشرك نارا ؛ حتى علا الإسلام مقدارا ، وعز جارا ودارا ؛ وأذعن الكفر اضطرابا ، وأستسلم ذلة وصغارا ؛ ففضى وقد ملأ البسيطة أنوارا ، وعمها بدعوته أنجادا وأغوارا ؛ وأوجب لولاية العهد بعده طاعة وأتمارا ، فجراه الله أفضل ماجزى نبيا مختارا ، ورسولا اجتباه اختصاصا وإيثارا ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختيارا ، وعلى أصحابه الكرام مهاجرين وأنصارا ؛ صلاة نوايلها إعلانا وإسرارا ؛ وزجوها مغفرة ربنا إنه كان غفارا .

أما بعد ، فإن المستأثر بالدوام ، اللطيف بالآنام ، أنشأهم على التغاير والتباين ، وأضطرهم إلى التجاور والتعاون ؛ وجعل لهم مصلحة الإشتراك ، ومنفعة الالتحام

والإشتباك ؛ طريقاً إلى الأفضل في حياتهم ، والأسعد لغاياتهم ؛ وبعث النبيين
مرغبين ومحدّرين ، ومبشّرين ومُنذرين ؛ فأدوا عنه ما حَمَلَ ، وابتنوا ما حَرَّمَ وحَلَّل ؛
وكان أعمهم دَعْوُهُ ، وأوثقهم عُرْوُهُ ؛ وأعلامهم في المُنزلة عنده ذِرْوُهُ ، وأعطفهم
للقلوب وهي كالْحِجَارَةِ أو أشدُّ قسوة ؛ المخصوص بالمكان المحمود ، والحوض
المورود ؛ وشفاعة اليوم المشهود ، ولواء الحمد المعقود ؛ صلى الله عليه وعلى آله وسلم
أفضل صلاة تُقضى إلى الظلِّ المدود ، وتبلغنا من شفاعته أفضل موعود ؛ بعثه الله
للأحمر والأسود ، والأدنى والأبعد ؛ فصَدَعَ بأمره وظلام الليل غير مُنْجَاب ،
والداعي إلى الله غير مُجَاب ؛ وأهل الجاهلية كثير عددهم ، شديد جلدتهم ، بعيد
في الضلالة والغواية أمدهم ؛ فسلك من هدايتهم سيلاً ، وصبر لهم صبراً جميلاً ،
يُحِبُّ صلاحهم وهم العدو ، ويأين لهم إذا جدَّ بهم العدو ، ويجهد في إظهار دينه
ولدين الله الظهور والعلو ؛ حتى أنقادوا بين سابقٍ سبقت له السعادة ، ولاحق
تداركته المشيئة والإرادة ؛ ولما رُفِعَتْ راية الإسلام ، وشفعت حُجَّة الكتاب حُجَّة
الإسلام ، ودُعِيَ الناس إلى التزام الأحكام ، ونهوا عن الاستقسام بالأزلام ، أختبوا^(١)
إلى الربِّ المعبود ، وأشفقوا من تعدّي الحدود ، ووعظوا في الأيمان والعهود ؛ فآتمروا
للشرع حين أمره ، وخافوا وخامة من إذا عاهد غدر ؛ فكان الرجل يدع الحوض
فيما لا يعلمه ، ويترك حقه لأجل يمين تلتزمه ، وشرعت الأيمان في كلِّ فنٍّ بحسب
المحلو ف عليه ، وعلى قدر الحاجة إليه ؛ فواحدة في المال لحق الأداء ، وأربع محسنة
عند ملاءنة النساء ، وخمسون انتهى إليها في أحكام الدماء ، فتوثق للحدود على
مقاديرها ، وجرت أمور العبادات والمعاملات على أفضل تقديرها ؛ وقبض رسول
الله صلى الله عليه وسلم والعدل قائم ، والشرع على القوى والضعيف حاكم ، والربُّ

(١) لعل المراد بالأول الدين وبالثاني الاتقياء إن لم يكن مصحفاً عن الاستسلام .

جَلَّ جلالُهُ بِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ عَالَمٌ ؛ وَقَامَ بَعْدَهُ الْخَلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ أَرْكَانُ الدِّينِ ،
 وَأَعْضَادُ الْحَقِّ الْمِسِينِ ؛ يَجْمَلُونَ النَّاسَ عَلَى سَنَنِهِ الْوَاضِحِ ، وَيَنْقُدُونَ أُمُورَ الْمَصَالِحِ ،
 وَيَتَفَقَّهُونَ فِي الْأَحْكَامِ وَقُوقًا مَعَ الظَّاهِرِ وَتَرْجِيحًا لِلرَّاجِحِ ؛ وَكَانُوا يَتَوَقَّفُونَ فِي بَعْضِ
 الْأَحْيَانِ ، وَيَطْلُبُونَ لِلشُّبْهِ وَجَهَ الْبَيَّانِ ، وَيَسْتَظْهِرُونَ عَلَى تَحْقِيقِ كَثِيرٍ مِنَ الْوَقَائِعِ
 بِالْإِيمَانِ ؛ حَتَّى كَانَ عَلَى كَرَمِ اللَّهِ وَجْهَهُ يَسْتَنْبِئُ فِي الدَّرَايَةِ ، وَيَسْتَحْلِفُ الرَّائِيَ
 عَلَى الرَّوَايَةِ ؛ وَمَا أَنْكَرَ ذَلِكَ أَحَدٌ ، وَلَا أَعُوزُهُ مِنَ الشَّرْعِ مُسْتَنْدَبٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أُمَّةٌ
 بِالْعَدْلِ قَضَوْا ، وَعَلَى سَبِيلِهِ مَضَوْا ، وَالسَّيْرَةَ الْجَلِيلَةَ تَخَيَّرُوا وَأَبْرَتَصَوْا ؛ وَعَنْ سَيِّدِ
 الْأَنْبِيَاءِ ، وَمُسْتَنْزِلِ دَرِّ الْغَمَامِ ، عَمَّ نَبِيْنَا عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ؛ الْحَامِي الْحَدِيبِ ،
 وَالْمَعْقِلِ الْأَشْبِيِّ ؛ وَالغَيْثِ الْهَامِلِ الْمُنْسَكِبِ ، أَبِي الْفَضْلِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ ؛
 وَعَنْ الْفَائِزِينَ بِالرُّتْبَةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالصَّحْبَةَ الْقَدِيمَةِ ، وَالْمَنَاقِبَ الْعَظِيمَةَ ؛ بِدُورِ الظَّلَامِ
 وَبُحُورِ الْحِكْمِ ، وَصُدُورِ أُنْدِيَةِ الْفَضْلِ وَالكَرَمِ ؛ وَسَائِرِ صَحَابِهِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ الَّذِينَ
 أَسْلَمُوا عَلَى عُمْرِهِ ، وَأَسْلَفُوا جِدًّا فِي نَصْرِهِ ، وَأَدْرَكُوا مِنْ بَرَكَتِهِ عِيَانَهُ وَزَمَانَهُ مَا لَا مُمْدَرَكَ
 لِحَصْرِهِ ؛ كَرَّمَ اللَّهُ مَا بَهُمْ ، وَأَجْرَلَ ثَوَابَهُمْ ، وَشَكَرَهُمْ صَبْرَهُمْ وَأَحْسَانَهُمْ ؛ فَلَقَدْ عَقَدُوا
 نِيَّةَ الصَّدَقِ عِنْدَ قِيَامِهِمْ لِأَدَاءِ فَرِيضَةِ الْإِطَاقَةِ ، وَأَسْتَبَاحُوا صَلَاةَ الشُّكْرِ حِينَ رَفَعُوا
 حَدَثَ الرِّدَّةِ وَأَرَأَوْا سُورَ الشَّرْكِ وَقَدْ اسْتَحَقَّ بِنَجَاسَتِهِ الْإِرَاقَةَ ، وَأَثَرُوا كَسْرِي زَيْتَهُ
 فَأَبْرَزُواهَا عَلَى سُرَاقِهِ ؛ فَرَأَوْا عِيَانًا مَا أَخْبَرَهُ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ ، وَمَلَكُوا مَا رَوَى لَهُ مِنْهَا
 فَاطَّلَعَ عَلَيْهِ بِحَقِّهِ الْمِسِينِ ؛ وَذَهَبُوا فَاطْلَمَّتِ الْأَرْضُ مِنْ بَعْدِهِمْ ، وَتَكَرَّرَتِ الْمَعَارِفُ
 لِفَقْدِهِمْ ، وَأَخْتَلَطَ الْهَمَلُ وَالْمَرْمِي ، وَتَشَابَهَ الصَّرِيحُ وَالِدَّيْمِيُّ ؛ وَنَارَتِ الْفِتْنُ مِنْ كُلِّ
 جَانِبٍ ، وَصَارَتِ الْحَقُوقُ نُهْبَةً [كُلِّ] نَاهِبٍ ؛ وَلَمَّا بَرِحَتِ الْعُهُودُ ، وَتُعَدِّيَتْ

(١) مراده على عهد النبي وفي زمنه .

(٢) لعله ولما تركت اليهود . تأمل .

الحدود؛ بلغ الوقت المحدود، وطلعت بياض العدل الرايات السود؛ تحتماً سادات
الناس، وذادة موقف الباس؛ وشهب اليوم العماس، ومجيب البيت الكريم من
بني العباس؛ فأعادوا إلى الأمر رونقه، ونفوا عن الصفورنقه؛ وحموا حرم
المسلمين، وأحيوا سنة ابن عمهم سيد المرسلين؛ فأصبحت الأمور مضبوطة،
والثغور محوطة؛ والسبل آمنة، والرعية في ظل العدل والأمن ساكنة؛ وكان الناس
قبلهم قد ركبوا الصعب والدلول، وأمتطوا الحزن والشهول؛ فوثقوا منهم بطاعتهم،
وأستحلثوهم على بيعاتهم؛ ذلك بانهم ألزموهم منها واجباً على القطع، لازماً بإلزام
الشرع؛ ووجدوا لمصلحة الارتباط بالأيمان شواهد من الآثار المقولة، والأصول
المقبولة؛ ومن أعطى من نفسه كل ما عليها، وراعى جملة المصالح وكل ما تطرق
إليها، فكيف لا يكون في سعة من هذا التكليف المستند إلى الآثار الشرعية،
الداخل في أقسام المصالح المرعية؛ كما سلف من الأئمة المهتدين؛ آباء أمير المؤمنين
وخليفة رب العالمين، ابن عم سيدنا وسيد المرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين .

لما دعا الناس بالملكة الفلانية حماها الله إلى محبتهم القوية، وإميرتهم الهاشمية؛
مجاهد الدين، بسيف أمير المؤمنين، جمال الإسلام، مجد الأنام، تاج خواص
الإمام؛ نخر ملوكه، شرف أمرائه؛ المتوكل على الله تعالى أمير المسلمين أبو عبد الله
محمد بن يوسف بن هود، أسعد الله أيامه، ونصر أعلامه؛ وقام لذلك متوحداً
المقام الكريم، مشمراً عن ساعد التصميم؛ ماضياً على الهول مضاء الحسام
القاصب، غاضباً لأمر الله ورضاه على غاية هذا الغاضب؛ مالت إليه الأجياد،
وأنالت عليه البلاد؛ فانتظها مدينة مدينة، وجعل التوكل على الله سبحانه شريعة
مبينة وذريعة معينة؛ وتقدم - أيده الله - بأخذ البيعة على نفسه وعلى أهل الملة
قاطبة للقيام بأمر الله سيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أبي جعفر

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آله الخلفاء الراشدين؛ وكان له في ذلك المرام السعيد، والمقام الحميد، والقدم^(١) الذي رضى إبداءه وإعادته المبدئى المعيد؛ وخطب الديوان العزيز النبوى - خلد الله شرفه - متضرعاً لوسائل خدمته، متعرضاً لعواطف رحمته؛ وبعث رسوله على أصدق رجاء في القبول، وأثبت أمل في الإسعاف بالأمول؛ وأثناء هذه الإرادة القويمة، والسعادة الكريمة؛ تفاوض أهل البلاد في توثيق عقدهم للسلطان فلان المشار إليه الذي هو حاكم من أحكام الإجماع المتعقد، وأصل أفضى إليه نظر الناظر وأجتهاد المجتهد؛ إذ أجالوا الأمر فيما يزيد وثاقه، ويكسو وجهه على الأيام بشراً وطلاقة؛ ويجعل القلوب مطمئنة برسوخته في الأعقاب، وثبوته على الأحقاب؛ فلم يروا رأياً أسد، ولا عملاً أحصف وأشد؛ من أن يطلبوه بعقد البيعة لأبيه الواصل بالله المعتصم به أبى بكر محمد بن مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، على أن يكون ولي عهدهم مدة والده مد الله في حياته، وأميرهم عند الأجل الذي لأبد من موافاته؛ فأمضى لهم ذلك من اتفاقهم، وأثبتوا على ما شرطته بيعته في أعناقهم؛ وبعد ذلك أتى صولة الإسلام، وصلة دار السلام؛ وورد رسول مثابة الجلاله، ونيابة الرسالة؛ وملتزم الملائك، ومعتصم الممالك؛ ومعه الكتاب الذى هو نص أغنى عن القياس، بل هو نور يمشى به في الناس؛ وأدى إلى السلطان فلان المشار إليه من تشریف الديوان العزيز النبوى ماوسمه من الفخار بأجل وسمه، وقلده السيف الصارم وسماه باسمه؛ فلاقى السيفان المضروب والضارب، وأشتبه الوصفان الماضى والقاضب؛ وبرزت تلك الخلع فابيض وجه الإسلام من سوادها، ووضع الكتاب فكادت المنابر تسعى إليه شوقاً من أعوادها؛ وقرئت وصايا الإمام، على الأنام؛ فعلموا أنها من تراث الرسالة،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل .

وقالوا : كَانِ لِلْإِسْلَامِ جَدَدٌ لَهُ بِهَذَا الصَّقْعِ الْغَرَبِيِّ حُكْمُ الْكَفَالَةِ ؛ وَسَمِعُوا مِنْ
التَّقْدِيمِ بِإِنصَافِهِمْ ، وَالتَّهْمِ بِمَوَاسِطِهِمْ وَأَطْرَافِهِمْ ؛ جَمَلًا عَقَرُوا لَهَا الْحَبَاهُ جُودًا
بِالْجَهْدِ ، وَسَجَدُوا لِلشُّكْرِ وَالْحَمْدِ ؛ فَأَدْرَكُوا مِنْ بَرَكَةِ الْمَشَاهِدِ أَمْتٌ شَرِيفٌ وَأَبْقَاهُ ،
وَرَأَوْا حَقِيقَةَ مَا كَادَتْ الْأَوْهَامُ تُزُولُ عَنْ مَرْقَاهُ ؛ وَأَزْدَادُوا يَقِينًا بِفَضْلِ مَا صَارُوا
إِلَيْهِ ، وَرَأَوْا عَيَانًا يُمْنٌ مَا بَايَعُوا عَلَيْهِ ؛ فَتَوَافَتْ طَوَائِفُهُمْ الْمَتَّبِعَةُ ، وَجَمَاهِيرُهُمْ
الْمَجْمُوعَةُ ؛ بَدَارًا إِلَى الْمَرَاضِي السَّرِيفَةِ ، وَبِنَاءٍ عَلَى وَصَايَا عَهْدِ الْخَلِيفَةِ ، أَنْ يُجَدِّدُوا
الْبَيْعَةَ لِمَجَاهِدِ الدِّينِ ، سَيْفِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ تَوَلَّى اللَّهُ عَضُدَهُ ؛ وَلَأَبْنَهُ الْوَائِقَ بِاللَّهِ
الْمُعْتَصِمَ بِهِ أَنْهَضَهُ اللَّهُ بِأَمْرَتِهِ بَعْدَهُ ؛ وَلَمْ تَعُدْ أَنْ تَكُونَ الزِّيَادَةُ الطَّارِئَةُ شَرْطًا فِي تَقْرِيرِ
الْإِمْرَةِ الْمُؤَدَّةِ وَإِتْبَاتِهَا ، أَوْ جَارِيَةٍ بِجَرَى السَّنَنِ الَّتِي يُؤَمَّرُ الْمَصْلَى بِالْإِعَادَةِ عِنْدَ
فَوَاتِهَا ؛ فَأَعَادُوا بَيْعَتَهُ أَدَاءً لِلْفَرِيضَةِ وَرَجَاءً لِلْفَضِيلَةِ ؛ وَاسْتَدْبَدُوا إِلَى الْإِشَارَاتِ
الْجَلِيلَةِ ، بَعْدَ الْإِسْتِخْرَاتِ الطَّوِيلَةِ ؛ وَرَأَوْا أَنْ يَأْخُذُوا بِهَا عَادَةَ الْبَيْعَاتِ الْعَبَّاسِيَّةِ ،
وَإِتِّخَاذَ حُكْمِ الْأَصْلِ طَرِيقَ الْإِلْحَاقَاتِ الْقِيَاسِيَّةِ ؛ فَبَايَعُوا عَلَى تَذَكُّرِ بَيْعَةِ أَكْثَرِهَا
بِالْعُهُودِ الْمُسْتَحْفَظَةِ ، وَوَقْفِهَا بِالْإِيمَانِ الْمَغْلَظَةِ ؛ وَبَادَرُوا بِهَا نِدَاءً مُنَادِيهِمْ ، وَأَعْطَوْا
عَلَى الْإِصْفَاقِ بِهَا صَفْقَةً أَيْدِيهِمْ .

وَمَا أَتَيْتُمْ ذَلِكَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ أَهْلِ فَلَانَةَ وَجِهَاتِهَا ، رَأَوْا أَنْ يَحْلِفَ مِنْ سَبَقِ ،
وَيَصْدُقُوا النَّيَّةَ مَعَ مَنْ صَدَقَ ، وَيَعْقِدُوا مَا عَقَدُوهُ عَلَى مَا صَرَّحَ بِهِ الْعَهْدُ الشَّرِيفُ
وَنَطَقَ ؛ فَحَضَرَ مِنْهُمْ الْعُلَمَاءُ وَالصُّلَحَاءُ ، وَالْأَجْنَادُ وَالْوُزَرَاءُ وَالْفُقَهَاءُ ، وَالْكَافَّةُ عَلَى
تَبَايُنِهِمْ فِي الْمَرَاتِبِ ، وَتَفَاوُتِهِمْ فِي الْمَنَاصِبِ ، وَأَخْتِلَافِهِمْ فِي الْمَوَاطِنِ وَالْمَكَاسِبِ ؛
فَأَمَّضُوهَا بَيْعَةً كَرِيمَةً الْمَقَاصِدِ ، سَلِيمَةً الْمَعَاقِدِ ؛ عَهْدًا مُحْكَمًا ، وَعَقْدًا مُبْرَمًا ؛
وَمُوجِبًا طَاعَةً وَسَمْعًا ، وَالتَّقِيدَ بِهَا سُنَّةً وَشَرْعًا ؛ وَيَعْمُرُونَ بِهَا أَسْرَارَهُمْ ، وَيَقْنُونَ
عَلَيْهَا أَعْمَارَهُمْ ؛ وَيَدِينُونَ بِهَا فِي عُسْرٍ وَيُسْرٍ ، وَرَبْحٍ وَخُسْرٍ ؛ وَضَيْقٍ وَرَفَاهِيَةٍ ، وَحُبَّةٍ

وَكَرَاهِيَهُ ؛ تَبَرَّعُوا بِذَلِكَ كُلِّهِ طَوْعًا ، وَأَسْتَوْفُوهُ فَضْلًا فَضْلًا وَنَوْعًا وَنَوْعًا ، وَعَاهَدُوا عَلَيْهَا
الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ، وَأَضْمَرُوا مِنْهَا عَلَى مَا أْبْرَأَ عَلَى الظَّاهِرِ وَأَوْفَى ؛ وَتَقَبَّلُوا مِنْ
الْوَفَاءِ بِهِ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ خَلِيلَهُ إِذْ قَالَ : ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴾ ؛ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ الَّذِي
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ، وَبِمَا أَخَذَهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ الْكِرَامِ مِنَ
الْعُهُودِ الْمُؤَكَّدَةِ ، وَالْمَوَاقِفِ الْمَشْدَدَةِ ، عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ حَادُوا عَنْ هَذِهِ السَّبِيلِ ، وَأَتَقَادُوا
لِدَاعِي التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ ؛ فَهُمْ بُرَاءٌ مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِهِمْ وَقُوَّتِهِمْ ،
تَارِكُونَ ذِمَّتَهُ الْوَافِيَةَ لِدِمَّتِهِمْ ؛ وَالْأَيْمَانَ كُلَّهَا لِأَزْمَةِ لَهُمْ عَلَى مَذْهَبِ إِمَامِ دَارِ الْهَجْرَةِ ،
وَطَلَّاقِ كُلِّ امْرَأَةٍ فِي مِلْكِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِأَزْمِ لَهُمْ ثَلَاثًا ، وَأَيُّمَا امْرَأَةٍ تَرَوَّجَهَا
فِي الْبِلَادِ الْفُلَانِيَّةِ فَطَلَّقَهَا لِأَزْمِ لَهُ ، كَلَّمَا تَرَوَّجَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَاحِدَةً نَخَرَجَتْ طَالِقًا
ثَلَاثًا ؛ وَعَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ عَلَى قَدَمَيْهِ ، مُحْرِمًا مِنْ مَثَلِهِ
بِحِجَّةِ كَفَّارَةٍ لِأَنْجِزَى عَنْ حِجَّةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَعِيْدُهُمْ وَأَرْقَاؤُهُمْ عُتْقَاءُ لِحَقُونِ بَأْحَارِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَجَمِيعُ أَمْوَالِهِمْ عَيْنًا وَعَرْضًا ، حَيَوَانًا وَأَرْضًا ، وَسَائِرُ مَا يَحْوِيهِ الْمُتَمَلِّكُ
كُلًّا وَبَعْضًا ، صَدَقَةٌ لِبَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ ؛ حَاشَى عَشْرَةَ دِنَانِيرٍ . كُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَشَدِّ
مَذَاهِبِ الْفَتَوَى ، وَأَلْزَمَهَا لِكَلِمَةِ التَّقْوَى ؛ وَأَبْعَدَهَا مِنْ مَخَالَفَةِ الْهَوَى وَالظَّاهِرِ
وَالْفَحْشَى ؛ أَرَادُوا بِذَلِكَ رِضَا الْخِلَافَةِ الْفُلَانِيَّةِ وَالْفُلَانِيَّةِ (بَلَقِي السُّلْطَنَةَ) لِلسُّلْطَانِ
وَوَلَدِهِ الْمَأْخُودِ لَهَا الْبَيْعَةُ بَعْدَ بَيْعَتِهِ ، وَأَشْهَدُوا لِلَّهِ عَلَى أَنْفُسِهِمْ ، وَكَفَى بِذَلِكَ اعْتِرَامًا
وَأَنْتِزَامًا ، وَشَدًّا لِمَا أَمَرَ بِهِ وَإِحْكَامًا : ﴿ مَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾
﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ . وَهُمْ يَرْفَعُونَ دَعَاءَهُمْ إِلَى اللَّهِ تَضَرُّعًا وَأَسْتِسْلَامًا ،
وَيَسْأَلُونَهُ عِصْمَةً وَكِفَايَةً أَفْتِحَا وَأَخْتِنَا ؛ اللَّهُمَّ إِنَّا قَدْ أَنْفَدْنَا هَذَا الْعَقْدَ أَقْبَدَاءَ
وَأَهْتِمَامًا ، وَقَضَيْنَا حَقَّهُ إِكْمَالًا وَإِتْمَامًا ، وَأَسْلَمْنَا وَجْهَنَا إِلَيْكَ إِسْلَامًا ؛ فَعَرَّفْنَا
مِنْ خَيْرِهِ وَبَرَكَتِهِ نَمَاءً وَدَوَامًا ، وَأَكْلَانًا بَيْنَكَ حَرَكَةً وَسُكُونًا وَيَقْظَةً وَمَنَامًا :

﴿ هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلتَّقِيْنَ إِمَامًا ﴾ إِنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ
مَنْهَى الرِّغْبَاتِ ، وَجِبُّ الدَّعَوَاتِ ، وَإِلَهُ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ .



وهذه نسخة بيعة مرتبة على موت خليفة، أنشأها على هذه الطريقة لموافقتها
رأى كُتَّاب الزمان في افتتاح عهود الملوك عن الخلفاء بالحمد لله كما سيأتى بيانه
في موضعه إن شاء الله تعالى ؛ وتعرضت فيها إلى قيام سلطانٍ بعقدِها : لمطابقة
ذلك لحال الزَّمان ، وهى :

الحمد لله الذى جعل الأمة المحمدية أبلخ الأمم شرفا ، وأكرمها نجارا وأفضلها
سلفا ؛ وجعل رتبة الخلافة أعلى الرتب رتبة وأعزها كنفًا ، وخص الشجرة الطيبة
من قریش بأن جعل منهم الأئمة الخلفاء ؛ وآثر الأسرة العباسية منها بذلك ، دعوة
سبقت من ابن عمهم المصطفى ، وحفظ بهم نظامها على الدوام فجعل ممن سلف
منهم خلفا .

نحمده على أن هبَّنا من مقدمات الرشد ما طاب الزمان به وصفاً ، وجدد من رؤوس
الإمامة بخير إمامٍ مدرّسٍ منها وعفاً ؛ وأقام للسلمين إماماً تأرجح الجوبنشره فأصبح
الوجود بعرفه معترفاً .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مخلص تمسك بعهدنا فوقاً ،
وأعطاها صفة يده للبايع فلا يبغي عنها مصرفاً ؛ وأن محمداً عبده ورسوله الذى
تدارك الله به العالم بعد أن أشفى فشفى ؛ ونسخت آية دينه الأديان وجلا بشرعته
المنيرة من ظلمة الجهل سدفاً ؛ وجعل مبايعه مبايعاً لله يأخذه بالنكت ويوفيه أجره
على الوفا ، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار وعترته الشرفا ؛ ورضى الله عن أصحابه

الذين ليس منهم من عاهد الله فغدر ولا واد في الله بحفا، خصوصاً من جاء بالصدق
 وصدق به فكان له قرابة وصفوة الصفا، والمرجوع إليه في البيعة يوم السقيفة
 بعدما أشربت نحوها نفوس كادت تذوب عليها أسفا، والقائم في قتال أهل الردة
 من بني حنيفة حتى استقاموا على الحنيفة السمحة حنفا. ومن استحال دلو الخلافة
 في يده غربا فكان أفيده عبقرى قام بأمرها فكفى، وعمت فتوحه الأمصار وحملت
 إليه أموالها فلم يمسكها إقتاراً ولم يبدر فيها سرفاً. ومن كان فضله لسهم الإختيار
 من بين أصحاب الشورى هدفاً، وجمع الناس في القرءان على صحيفه واحدة وكانت
 قبل ذلك صحفاً. ومن سرى إليه سر: "أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون
 من موسى" فغدا يجر من ذيل الفخار سجفاً، وأستولى على المكارم من كل جانب
 فإز أطرافها طرفاً طرفاً، وعلى سائر الخلفاء الراشدين بعدهم ممن سلك سبيل الحق
 وطريق الهدى أقتفى؛ صلاة ورضواناً يذهبان الداء العضال من وخامة الغدر
 ويحلبان الشفا، ويرفعان قدر صاحبهما في الدنيا ويوثقان متحلهما من جنات
 النعيم عرفاً.

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بأمر الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوى
 دليل تقطع دون تقضيه الأطماع، وتنبؤ عن سماع ما يخالفه الأسماع؛ إذ العباد
 مجبولون على التبائن والتغاير، مطبوعون على التحالف والتناصر؛ [مضطرون
 إلى التعاون والتجاور، مفتقرون إلى التعاضد والتوازر^(١)]؛ فلا بد من زعيم يمنعهم
 من التظلم، ويحملهم على التناصف في التداعى والتحاكم؛ ويقيم الحدود فتصان
 المحارم عن الإتهاك، وتحفظ الأنساب عن الإختلاط والإشتراك؛ ويحجى بيضة

الإسلام فَيَمْنَعُ أَنْ تُطْرَقَ ، وَيُصَوِّنُ الثُّغُورَ أَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَيْهَا أَوْ يُطْرَقَ : لِيَعَزَّ
 الإسلامُ داراً ، وَيَطْمِئِنَّ الْمُسْتَخْفِي لَيْلًا وَيَأْمَنَ السَّارِبُ نَهَارًا ، وَيَذُبُّ عَنِ الْحَرَمِ
 فَحْتَرَمَ ، وَيَذُودُ عَنِ الْمُنْكَرَاتِ فَلَا تُغْشَى بِلِ تَصْطَلَمَ ، وَيُجَهِّزُ الْجِيُوشَ فَتَنْكُ الْعُدُو ،
 وَتُغَيِّرُ عَلَى بِلَادِ الْكُفْرِ فَتَمْنَعُهُمُ الْقَرَارَ وَالْهُدُو ؛ وَيُرْغِمُ أَنْفَ الْفِئَةِ الْبَاغِيَةَ وَيَقْمَعُهَا ،
 وَيُدْغِمُ الطَّائِفَةَ الْمُبْتَدِعَةَ وَيَرْدَعُهَا ؛ وَيَأْخُذُ أَمْوَالَ بَيْتِ الْمَالِ بِحَقِّهَا فَيُطَاوِعَ ،
 وَيَصْرِفُهَا إِلَى مُسْتَحَقِّهَا فَلَا يُنَارِعُ - لِأَجْرَمَ أَعْتَبَرَ لِلْقِيَامِ بِهَا أَكْلَ الشُّرُوطِ وَأَتَمَّ
 الصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمَ الشِّيمِ وَأَحْسَنَ السَّمَاتِ .

وكان السيد الأعظم الإمام النبوي ، سليل الخلفاء ، وولي الإمامه ؛ أبو فلان
 فلان العباسي المتوكل على الله « مثلا » أمير المؤمنين ، سلك الله تعالى به جدد آبائه
 الراشدين ؛ هو الذي جمع شروطها فوقها ، وأحاط منها بصفات الكمال وأستوفأها ؛
 ورأمت به أدنى مراتبها فبلغت إلى أعيانها ، ونسوز معاليها فرفق إلى أعلاها ، وأتحد
 بها فكان صورتها ومعناها - وكانت الإمامة قد تأيمت من يقوم بأعبائها ، وعزرت
 خطبها لقله أ كفايتها ؛ فلم تلف لها بعلا يكون لها قرينا ، ولا كفضا تحطبه يكون
 لديها مكيئا ، إلا الإمام الفلاني المشار إليه ، فدعته خطبتها وهي بيت عرسه :
 ﴿ وَرَأَدْتَهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فأجاب خطبتها ، ولبى دعوتها : لتحققه
 رغبته إليه ، وعلمه بوجوب إجابته عليه ؛ إذ هو شبلها الناشئ بغاها ، وغيتها
 المستمطر من سخاها ؛ بل هو أسدها المصور ، وقطب فلكها الذي عليه تدور ؛
 ومعقلها الأمتع الحصين ، وعقدتها الأنفس الثمين ، وفارسها الأروع وليتها الشهير ،
 وابن مجدها الساقطة منه على الخبير ؛ وتلاذها العليم بأحوالها ، والحدير بمعرفة أقوالها
 وأفعالها ؛ وتزجمانها المتكلم بلسانها ؛ وعالمها المتفنن في أفنانها ، وطبيبها العارف بطبها ،
 ومنجدها الكاشف لكرها .

وحين بلغت من القصد سُؤلها، ونالت بالإجابة منه مأمولها، وحرّم على غيره أن يسومها لذلك تلويحا، أو يعرّج على خطبتها تعريضا وتصريحا، أحتاجت إلى وليّ يوجب عقدها، وشهود تحفظ عهدها؛ فعندها قام السلطان الأعظم الملك الفلانيّ (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلد الله سلطانه، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه؛ فانتصب لها وليا، وأقام يفكر في أمرها مليا؛ فلم يجد أحقّ بها منه فتجنب عضلها، فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها؛ فجمع أهل الحلّ والعقد، المعترين للاعتبار والعارفين بالنقد: من القضاة والعلماء، وأهل الخير والصلحاء، وأرباب الرأي والنصحاء؛ فاستشارهم في ذلك فصوّبوه، ولم يروا العُدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه؛ فاستخار الله تعالى وبايعه، فبِيعه أهل الإختيار فبايعوا، وأتقأدوا لحكمه وطأوعوا؛ فقابل عقدها بالقبول بمحض من القضاة والشهود فزيمت، ومضى حُكْمها على الصحة وأبرمت. ولما تمّ عقدها، وطلع بصبح الثين سَعْدُها، ألتبس المقام الشريف السلطانيّ الملكيّ الفلانيّ المشار إليه أعلى الله شرف سلطانه ورفع محله، وقرن بالتوفيق في كل أمرٍ عقده وحله، أن يناله عهدها الوفيّ، ويرد منها مَوردها الصفيّ: ليرفع بذلك عن أهل الدين حُجبا، ويزداد من البيت النبويّ قربا؛ فتعرض لنفحاتها من مقرّاتها، وتطلب بركاتها من مظنّاتها؛ ورغب إلى أمير المؤمنين، وأبن عم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، أن يحدّد له بعهد السلطنة الشريفة عقدا، ويأخذ له على أهل البيعة بذلك عهدا؛ ويستحلفهم على الوفاء لها بما عاهدوا، والوقوف عند ما بايعوا عليه وعاقدا: ليقترن السعدان فيعمّ نوءهما، ويجمع الثيران فيبهر ضوءهما؛ فلبّاه تلبية راغب، وأجابه إجابة مطلوب وإن كان هو الطالب؛ وعهد إليه في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في الأمة عموماً وشيوعاً، وفوضّ له حكم الممالك الإسلاميّة جميعا؛ وجعل إليه أمر السلطنة المعظمة بكلّ

نَطَاقٍ ، وَأَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَهَا وَصَرَّفَهُ فِيهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَأَقَامَهُ فِي الْأُمَّةِ لِعَهْدِ الْخِلاَفَةِ وَصِيًّا ، وَجَعَلَهُ لِلْإِمَامَةِ بِتَفْوِضِ الْأَمْرِ إِلَيْهِ وَإِلْيَا ؛ وَنَشَرَ عَلَيْهِ لَوَاءَ الْمُلْكِ وَقَلَدَهُ سَيْفَهُ الْعَضْبَ ، وَالْبَسَّهِ الْخِلْعَةَ السَّوْدَاءَ فَابْيَضَّ مِنْ سَوَادِهَا وَجَهَ الشَّرْقَ وَالغَرْبَ ؛ وَكَتَبَ لَهُ بِذَلِكَ عَهْدًا كَبَتَ عُدُوَّهُ ، وَزَادَ شَرَفَهُ وَضَاعَفَ سُمُوَّهُ ؛ وَطُوِّبَ أَهْلُ الْبَيْعَةِ بِالتَّوَثِيقِ عَلَى الْبَيْعَتَيْنِ بِالْأَيْمَانِ فَادْعَعُوا ، وَاسْتَحْلَفُوا عَلَى الْوَفَاءِ فَبَالَغُوا فِي الْأَيْمَانِ وَأَمَعَتُوا ؛ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ، بَعْدَ أَنْ أَشْهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِمْ فِي إِسْرَارِهِمْ وَإِعْلَانِهِمْ ؛ وَأَعْطُوا الْمَوَاطِنَ الْمَغَالِظَةَ الْمَشْدَدَةَ ، وَحَلَفُوا بِالْأَيْمَانِ الْمُؤَكَّدَةِ الْمُعَقَّدَةِ ، عَلَى أَنَّهُمْ إِنْ أَعْرَضُوا عَنْ ذَلِكَ أَوْ أَدْبَرُوا ، وَبَدَّلُوا فِيهِ أَوْ غَيَّرُوا ؛ أَوْ عَرَّجُوا عَنْ سَبِيلِهِ أَوْ حَادُوا ، أَوْ نَقَصُوا مِنْهُ أَوْ زَادُوا ؛ فَكُلُّ مَنْهُمْ بَرِيءٌ مِنْ حَوْلِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ إِلَى حَوْلِ نَفْسِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَخَارَجَ مِنْ ذِمَّتِهِ الْحَصِينَةُ إِلَى ذِمَّتِهِ ، وَكُلُّ أَمْرٍ أَوَّاهٍ فِي نِكَاحِهِ أَوْ يَتَرَوَّجُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَهِيَ طَالِقٌ ثَلَاثًا بَتَاتًا ، وَكُلُّمَا رَاجِعَا فَهِيَ طَالِقٌ طَلَقًا لَا يَقْتَضِي إِقَامَةَ وَلَا ثَبَاتًا ؛ وَكُلُّ مَمْلُوكٍ فِي مِلْكِهِ أَوْ يَمْلِكُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ حُرٌّ لِاحِقٌ بِأَحْرَارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَكُلُّ مَا مَلَكَهُ أَوْ يَمْلِكُهُ مِنْ جَمَادٍ وَحَيَوَانٍ صَدَقَةٌ عَلَيْهِ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ؛ وَعَلِيهِ الْحَجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَالْوُقُوفُ بِعِرْقَةٍ وَسَائِرِ الْمَشَاعِرِ الْعِظَامِ ؛ مُحْرَمًا مِنْ دُورِيَةِ أَهْلِهِ مَاشِيًا ، حَاسِرًا عَنْ رَأْسِهِ وَإِنْ كَانَ بِهِ أَذَى حَافِيًا ؛ يَأْتِي بِذَلِكَ فِي ثَلَاثِينَ حَجَّةً مُتَابِعَةً عَلَى التَّمَامِ ، لِأَنْجِزْتَهُ وَاحِدَةً مِنْهَا عَنْ حَجَّةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَإِهْدَاءُ مِائَةِ بَدَنَةٍ لِلْبَيْتِ الْعَتِيقِ كُلِّ سَنَةٍ عَلَى الدَّوَامِ ، وَعَلَيْهِ صَوْمُ جَمِيعِ الدَّهْرِ إِلَّا الْمَنِيِّ عَنْهُ مِنَ الْأَيَّامِ ، وَأَنْ يُفَكَّ أَلْفَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ مِنْ أَسْرِ الْكُفْرِ فِي كُلِّ عَامٍ ؛ يَمِينُ كُلِّ مَنْهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى نِيَّةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَسُلْطَانِ الْمُسْلِمِينَ ، فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ، لِأَنِّيَّةَ الْحَالِفِ فِي ذَلِكَ فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ وَلَا فِي ظَاهِرِهِ ؛ لَا يُورِي فِي ذَلِكَ وَلَا يَسْتَنِي ، وَلَا يَتَأَوَّلُ وَلَا يَسْتَقِي ؛ وَلَا يَسْعَى فِي تَقْضِهَا ، وَلَا يَخَالِفُ فِيهَا

ولا في بعضها؛ متى جَنَحَ إلى شيءٍ من ذلك كان آثِمًا، وما تقدّم من تعقيد الأيمان له لازماً؛ لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، ولا يُجزئُه عن ذلك كفارةً أصلاً؛ كلُّ ذلك على أشدِّ المذاهبِ بالتخصيص، وأبعدها عن التساهل والترخيص؛ وأمضوها بيعةً مميّونة، باليمن مبتدأةً بالنجح مقرّونه؛ وأشهدوا عليهم بذلك من حضر مجلسَ العقد من الأئمةِ الأعلام، والشهود والحكام؛ وجعلوا الله تعالى على ما يقولون وكيلًا، فاستحقَّ عليهم الوفاء بقوله عزّت قدرته: ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يُضَاعَفَ لهم بِحَسْنِ نِيَّتِهِمِ الْأَجُورَ، ويلجئون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالى إليه بقوله: ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ أقمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بيعة مرتبة على خلع خليفة، أنشأتها على هذه الطريقة أيضاً، وتعرضت فيها لذكر السلطان القائم بها، على ما تقدّم في البيعة المرتبة على موت خليفة، وهي:

الحمد لله الذي جعل بيت الخلافة مثابة للناس وأمناً، وأقام سور الإمامة وقايةً للأنام وحصناً؛ وشدّها بالعصبة القرشية أزرًا وشاد منها بالعصبة العباسية ركنًا؛ وأغاث الخلق بإمام هدى حسن سيرةً وصفًا سريرةً فراق صورةً ورقّ معنىً، وجمع قلوبهم عليه فلم يستنكف عن الانقياد إليه أعلى ولا أدنى؛ ونزع جلبابها عن شغل غيرها فلم يعرّها نظراً ولم يضع لها أدناً، وصرف وجهها عن أساء فيها تصرفاً فلم يرفع بها رأساً ولم يعمر لها معنىً .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِ حَلَّتْ لِلنُّفُوسِ حِينَ حَلَّتْ ، وَمِنْ جَلَّتِ الْخُطُوبَ حِينَ جَلَّتْ ؛
وَمَسَارَّ سَرَتْ إِلَى الْقُلُوبِ فَسَرَتْ ، وَمَبَارَّ أَقْرَبَتِ الْعُيُونَ فَقَرَّتْ ؛ وَعَوَارِفَ أَمَّتْ
الْخَلِيقَةَ فَنَوَالَتْ وَمَا وَلَّتْ ، وَقَدِمَ صِدْقٍ ثَبَتَتْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فِي الْخِلَافَةِ فَمَا تَزَلَّتْ
وَلَا زَلَّتْ .

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَكُونُ لَنَا مِنْ دَرَكِ الشُّكُوكِ
كَالْيَسْرِ ، وَلِمَهَاوِي الشُّبْهِ دَارِيئَهُ ، وَلِلْقَاصِدِ الْجَمِيلَةِ حَاوِيَهُ ، وَلِشُقَّةِ الزَّيْفِ وَالْإِرْتِيَابِ
طَاوِيَهُ ؛ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي نَصَحَ الْأُمَّةَ إِذْ بَلَغَ نَفْسِي عَلَيْهَا ، وَأُورِدَهَا
مِنْ مَنَاهِلِ الرَّشْدِ مَا أَطْفَأَ وَهْجَهَا وَبَرَّدَ غَلِيلَهَا ؛ وَأَوْصَحَ لَهُمْ مَنَاهِجَ الْحَقِّ وَدَعَاهُمْ إِلَيْهَا ،
وَأَبَانَ لَهُمْ سُبُلَ الْهُدَايَةِ : ﴿ فَمِنْ آهْتَدَى فِيمَا يَهْتَدَى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فِيمَا
يَضِلُّ عَلَيْهَا ﴾ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ أُمَّةٍ الْخَيْرِ وَخَيْرِ الْأُمَّةِ ، وَرَضِيَ عَنْ أَصْحَابِهِ أَوْلِيَاءِ
الْعَدْلِ وَوُدُولِ الْأُمَّةِ ؛ صَلَاةً وَرِضْوَانًا يُعْمَانُ سَائِرِهِمْ ، وَيَشْمَلَانِ أَوْلَاهُمْ وَأَجْرَهُمْ ؛ سَيِّمًا
الصَّدِيقِ الْفَائِزِ بِأَعْلَى الرَّتَبَتَيْنِ صِدْقًا وَتَصَدِيقًا ، وَالْحَائِزِ قَصَبِ السَّبْقِ فِي الْفَضِيلَتَيْنِ
عِلْمًا وَتَحْقِيقًا ، وَمَنْ عَدَلَ الْأَنْصَارُ إِلَيْهِ عَنْ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ بَعْدَ مَا جَمَعُوا عَلَى تَقْدِيمِهِ ،
وَبَادَرَ الْمَهَاجِرُونَ إِلَى بَيْعَتِهِ اعْتِرَافًا بِتَفْضِيلِهِ وَتَكْرِيمِهِ . وَالْفَارُوقِ الشَّدِيدِ فِي اللَّهِ بِأَسَا
وَاللَّيْنِ فِي اللَّهِ جَانِبًا ، وَالْمُؤَفِّي لِلْخِلَافَةِ حَقًّا وَالْمُؤَذَى لِلْإِمَامَةِ وَاجِبًا ؛ وَالْقَائِمِ فِي نُصْرَةِ
الدِّينِ حَقَّ الْقِيَامِ حَتَّى عَمَّتْ فَتُوْحُهُ الْأَمْصَارَ مَشَارِقَ وَمَغَارِبًا ، وَأَطَاعَتَهُ الْعُنَاصِرَ
الْأَرْبَعَةَ : إِذْ كَانَ لِلَّهِ طَائِعًا وَمِنَ اللَّهِ خَائِفًا وَإِلَى اللَّهِ رَاغِبًا . وَذِي النُّورَيْنِ الْمَعْوَلِ
عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَصْحَابِ الشُّورَى تَنْوِيهَا بِقُدْرِهِ ، وَالْمَخْصُوصِ بِالْإِخْتِيَارِ تَفْخِيمًا
لَأَمْرِهِ ؛ مَنْ حُصِرَ فِي بَيْتِهِ فَلَمْ يَمْنَعَهُ ذَلِكَ عَنْ تِلَاوَةِ كِتَابِ اللَّهِ وَذِكْرِهِ ، وَشَاهِدَ
سُيُوفَ قَاتِلِيهِ عَيَانًا فَقَابَلَ فَكَاتِبَهَا بِجَمِيلِ صَبْرِهِ . وَأَبِي الْحَسَنِ الَّذِي أَعْرَضَ عَنْ
الْخِلَافَةِ حِينَ سُئِلَهَا ، وَأَسْتَعْفَى مِنْهَا بَعْدَ مَا أَضْطُرَّ إِلَيْهَا وَقِيلَ لَهَا ؛ وَكُشِفَ لَهُ عَنْ حَقِيقَةِ

الدنيا فأمَّ قِبَلَتَا بقلبه ولا ولىَّ وجهه قِبَلَهَا، وصرَّحَ بمقاطعتها بقوله : « يا صَفْرَاءُ غُرِّي غَيْرِي يَا بَيْضَاءُ غُرِّي غَيْرِي » لَمَّا وَصَلَهَا مِنْ وَصَلَتِهَا ؛ وَسَائِرِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ بَعْدَهُمْ ، النَّاهِجِينَ نَهَجَهُمْ وَالْوَارِدِينَ وَرَدَّهُمْ .

أما بعدُ، فإنَّ للإمامة سُروطينَ يَجِبُ اعتبارُها في الإمام، ولَوَازِمَ لا يُقْتَفَرُ فَوَائِهُهَا في الإبتداء ولا في الدَّوام، وأوصافاً يتعيَّنُ إعمالُها، وأدَاباً لا يَسَعُ إهمالُها ؛ من أهَمِّها العَدَالَةُ التي مَلَكَهَا التَّقْوَى ، وأساسُها مِرَاقِبَةُ اللَّهِ تَعَالَى في السِّرِّ والنَّجْوَى ؛ وبها تَقَعُ الهَيْبَةُ لِصاحبِها فيجَلُّ ، وتميلُ النُّفُوسُ إليها فلا تَمَلُّ ؛ فهي الْمَلَكَةُ الدَّاعِيَةُ إلى تَرْكِ الجَبَائِرِ وَأَجْتِنَابِهَا ، والزَّاحِرَةُ عن الإصرارِ على الصَّغَائِرِ وَأَرْتِكَابِهَا ؛ والباعِثَةُ على مُخَالَفَةِ النَفْسِ ونَهْيِها عن الشَّهَوَاتِ ، والصَّارِفَةُ عن أَنْتِهَاجِ حُرْمَاتِ اللَّهِ التي هي أَعْظَمُ الحُرْمَاتِ ؛ والموجِبَةُ للتَعَفُّفِ عن المَحَارِمِ ، والحَامِلَةُ على تَجَنُّبِ الظُّلُمَاتِ وَرَدِّ المَظَالِمِ . والشَّجَاعَةُ التي بها حِمَايَةُ البَيْضَةِ والدَّبِّ عنها، والأَسْتَظْهَارُ بِالغَزْوِ على نِكَايَةِ الطَّائِفَةِ الكافِرَةِ والغَضِّ منها ؛ والقُوَّةُ بالشُّوكَةِ على تَفْهِيمِ الأوامِرِ وإمضائها، وإِقامَةِ الحُدُودِ وَأَسْتِيفَائِها، ونَشْرِ كَلِمَةِ الحَقِّ وإِعْلَانِها، ودَحْضِ كَلِمَةِ الباطلِ وإِخْفَائِها ، وقَطْعِ مادَّةِ الفِسادِ وحُصْمِ أدوائِها ؛ والرَّأْيُ المؤدِّي إلى السِّياسَةِ وحُصْنِ التَّدْبِيرِ ، والمُعْنَى في كَثِيرٍ مِنَ الأُمَمِ كُنْ عن مَزِيدِ الحِدِّ والتَّشْمِيرِ ؛ والمعِينُ في خُدَعِ الحَرْبِ ومَكابِدِها، والمُسْعِفُ في مَصادرِ كُلِّ أمرٍ ومَوادِدِها .

هذا وقد جعلنا الله أمةً وسطاً ، ووعظنا بن سلف من الأمم ممن تمرّدو وعتا أو تجبرّو وسطاً ؛ وعصمَ أُمَّتَنَا أَنْ تَجْتَمِعَ على الضَّلالِ ، وصانَ جَمْعَنا عن الخَطَلِ في الفِعالِ والمَقالِ ؛ ونَدَبْنَا إلى الأَمْرِ بالمَعروفِ والنَّهْيِ عن المَنكَرِ ، وَسَوَّغَ لِأُمَّتِنَا الاجْتِهَادَ في التَّوَازِلِ والأَحْكامِ فَاجْتِهَادَهُمْ لا يُنكَرُ ؛ خصوصاً في شأنِ الإمامَةِ التي هي

أ كد أسباب المعالم الدينية وأقواها ، وأرفع المناصب الدنياوية وأعلاها ؛ وأعز
الرتب رتبة وأغلاها ، وأحقها بالنظر في أمرها وأولاها . وكان القائم بأمر المسلمين
الآن فلان بن فلان الفلاني ممن حاد عن الصراط المستقيم ، وسلك غير النهج القويم ؛
ومال عن سنن الخلفاء الراشدين فأدرکه الزلل ، وقارف المآثم فعاد بالخلل ؛ فعاث
في الأرض فسادا ، وخالف الرشد غنادا ؛ ومال إلى العي اعتمادا ، وأسلم إلى الهوى
قيادا ؛ قد أنتقل عن طور الخلافه ، وعزير الإنافه ؛ إلى طور العامة فأنصف
بصفتهم ، وأتسم بسماهم ؛ فُنكر كيجب عليه إنكاره قد باشره ، وصدیق سوء يتعين
عليه إبعاده قد وازره وظاهره ؛ إن سلك فسيل التهمة والإرتياب ، أوقصد أمرا
نحا فيه غير الصواب ؛ منهمك على شهواته ، منعكف على لذاته ، متشاغل عن أمر
الأمة بأمر بنيه وبناته ؛ الجبن رأس ماله ، وعدم الرأي قرينه في أفعاله وأقواله ؛
قد قنع من الخلافة بأسمها ، ورضى من الإمامة بوسمها ؛ وظن أن السؤدد في لبس
السواد فمال إلى الحيف ، وتوهم أن القاطع الغمد فقطع النظر عن السيف .

ولما أطلع الناس منه على هذه المنكرات ، وعرفوه بهذه السمات ، وتحققوا فيه
هذه الوصمات ؛ رغبوا في استبداله ، وأجمعوا على خلع زواله ؛ فلجئوا إلى السلطان
الأعظم الملك الفلاني (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) نصر الله جنوده ، وأسمى
جودته ، وأزهف على عداة الله حُدوده ؛ ففوضوا أمرهم في ذلك إليه ، وألقوا
كلهم عليه ؛ بجمع أهل الحل والعقد منهم ، ومن تصدر إليهم الأمور وترد عنهم ؛
فاستخاروا الله تعالى وخلعوه من ولايته ، وخرجوا عن بيعته ، وأنسأخوا عن طاعته ؛
وجردوه من خلافته ، تجريد السيف من القراب ، وطووا حكم إمامته ، كطى السجل
للكتاب . وعند ماتم هذا الخلع ، وأنطوى حكمه على البت والقطع ، آتمس الناس
إماما يقوم بأمر الإمامة فيوفياها ، ويجمع شروطها ويستوفياها ؛ فلم يجدوا لها أهلا ،

ولا يها أحق وأولى، وأوفى بها وأمل، من السيّد الأعظم الإمام النبوي سليل
الخلافة، ووليّ الإمامة أبي فلان فلان العباسي الطائع لله «مثلا» أمير المؤمنين .
لازال شرفه باذخا، وعزّينته الشريف شايخا، وعهد ولايته لعهد كل ولاية ناسخا،
فساموه ببعثها فلي، وشاموا برقه لولايتها فأجاب وما تأبى، علمّا منه بأنها تعينت
عليه، وأنحصرت فيه فلم تجد أعلى منه فتعدّل إليه؛ إذ هو ابن بجدتها، وفارس
نجدتها، ومزيل نعمتها، وكاشف كرتها؛ ومجلى غياها، ومحمد عواقبها، وموضح
مذاهبها، وحاكمها المكين، بل رشيدها الأمين؛ فهضّ المقام الشريف السلطانيّ
الملكيّ الفلانيّ المشار إليه : قرّن الله مقاصده الشريفة بالنجاح، وأعماله الصالحة
بالفلاح؛ وبدّر إلى بيعته فبايع، وأتمّ به من حضر من أهل الحلّ والعقد فتابع،
وقابل عقدها بالقبول فمضى، ولزم حكمها وأنقضى؛ وأتصل ذلك بسائر الرعيّة
فأتقأدوا، وعلموا صوابه فمشوا على سننه وما حادوا؛ وشاع خبر ذلك في الأمصار،
وطارت به مخلقات البشائر إلى سائر الأقطار؛ فتعرفوا منه اليمن فسارعوا إلى أمثاله،
وتحقّقوا صحته ونباته بعد اضطرابه واعتلاله؛ واستعادوا من نقص يصيبه بعد تمامه
لهذا الخليفة وكاله؛ فعندها أبانت الخلافة العباسية عن طيب عنصرها، وجميل
وفائها وكريم مظهرها؛ وجادت بجزيل الأمتنان، وتلا لسان كرمها الوفيّ على وليّها
الصادق : ((هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)) بخدد له بالسلطنة الشريفة عهدا،
وطوق جيده بتفويضها إليه عقدا؛ وجعله وصيه في الدين، ووليه في أمر
المسلمين؛ وقلده أمر الممالك الإسلامية وألقى إليه مقاليدها، وملكه أزميتها وحقق
له مواعيدها؛ وعقد له لواءها ونشر عليه أعلامها، وصرفه فيها على الإطلاق
وفوض إليه أحكامها؛ وألبسه الخلعة السوداء فكانت أسودده شعارا، وأسبغ عليه
رداءها فكان له دنارا؛ وكتب له العهد فسق المعاهد صوب العهاد، ولهج الأنام

بذكرة فاطمات العباد والبلاذ ، وعند ماتم هذا الفصل ، وتقرر هذا الأصل ،
وأمنت الرعايا بما آتاهم الله من فضله فرحين ، وبنعمته مستبشرين ، طولب
أهل البيعة بما يجملهم على الوفاء ، ويمنع بيعتهم من التكرار بعد الصفاء : من توثيق
عقدها بمؤكّد أيمانها ، والإقامة على الطاعة لخليفها وسُلطانها ؛ فبادروا إلى ذلك
مُسرعين ، وإلى داعيه مهطعين ؛ وبالغوا في الموائيق وأكدوها ، وشدّدوا
في الأيمان وعقدوها ؛ وأقسموا بالله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة ، عالم
خاتمة الأعين وما تُخفي الصدور في البدء والإعاده ، على الوفاء لها والموالاه ، والنصح
والمصافاه ؛ والمواقفة والمشايعه ، والطاعة والمتابعه ؛ يوالون من والاهما ، ويعادون
من عاداهما ؛ لا يقعدون عن مناصرتيها عند المام ملته ، ولا يرقبون في عدوها
إلا ولا ذقه ؛ جارين في ذلك على سنن الدوام والإستمرار ، والثبوت واللزوم
والإستقرار ؛ على أن من بدل منهم من ذلك شرطاً أو عفا له رسماً ، أو حاد عن
طريقه أو غير له حكماً ؛ أو سلك في ذلك غير سبيل الأمانه ، أو استحل الغدر
وأظهر الخيانه ، مُعلنا أو مُسراً في كله أو بعضه ، متاولاً أو مُحْتالاً لإبطاله أو نقضه ؛
فقد برى من حول الله المتين وقوته الواقيه ، وركنه الشديد وذمته الوافيه ، إلى
حول نفسه وقوته ، وركنه وذمته ؛ وكلُّ امرأة في عصمته الآن أو يترجها مدة
حياته طالق ثلاثاً بصریح لفظ لا يتوقف على نيّه ، ولا يُفرق فيه بين سنة ولا بدعة
ولا رجعة فيه ولا مشنويه ؛ وكلُّ مملوك في ملكه أو يملكه في بقية عمره من ذكر
أو أنثى حرٌّ من أحرار المسلمين ؛ وكلُّ ما هو على ملكه أو يملكه في بقية عمره إلى
آخر أيامه من عين أو عرض صدقة للفقراء والمساكين ؛ وعليه الحج إلى بيت الله
الحرام ثلاثين حجة ثلاثين عمره راجلاً حافياً حاسراً ، لا يقبل الله منه غير الوفاء بها
باطناً ولا ظاهراً ؛ وإهداء مائة بدنية في كل حجة منها في عشرته ويسرته ، لا تُجزئه

واحدة منها عن حجة الإسلام وعمرته ؛ وصوم الدهر خلا المنهي عنه من أيام
السنة ، وصلاة ألف ركعة في كل ليلة لا يباح له دون أدائها غمض ولا سِنَّه ؛
لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً ، ولا يُؤجر على شيء من ذلك قولاً ولا فعلاً ؛ متى
ورى في ذلك أو استثنى ، أو تأوّل أو استفتى ، كان الحنث عليه عائداً ، وله إلى دار
البوارقائد ، معتمداً في ذلك أشد المذاهب في سرّه وعلايته ، على نية المستخلف
له دون نيته ؛ وأمضوها ببيعة محكمة المباني ثابتة القواعد ، كريمة المساعي جميلة
المقاصد ؛ طيبة الحنّى جليسة العوائد ، فاطمة البراهين ظاهرة الشواهد ؛ وأشهدوا
على أنفسهم بذلك من حضر مجلس هذا العقد من قضاة الإسلام وعلمائه ، وأئمة
الدين وفقهائه ؛ بعد أن أشهدوا الله عليهم وكفى بالله شهيدا ، وكفى به للخائنين
خصيما : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَيَسُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . والله تعالى يجعل آتقائهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يسرى إلى يئسرى ؛
ويحقق لهم بمن استخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ
آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .
إن شاء الله تعالى .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

المذهب الرابع

(مما يُكْتَبُ فِي بَيْعَاتِ الْخُلَفَاءِ أَنْ يَفْتَحَ الْبَيْعَةَ بِلَفْظِ : هَذِهِ بَيْعَةٌ ، وَيَصِفُهَا وَيَذْكُرُ مَا يَنْبَغُ ، ثُمَّ يَعْرِى بِالْخَلِيفَةِ الْمَيَّتِ ، وَيَهْتِى بِالْخَلِيفَةِ الْمُسْتَقْرَ ، وَيَذْكُرُ فِي حَقِّ كُلِّ مِنْهُمَا مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْوَصْفِ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ)

وهذه نسخةُ بَيْعَةِ أَنْشَأَهَا الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ ، عَلَى مَارَأَيْتِهِ فِي " الْجَوَاهِرِ الْمَلْتَقَطَةِ " الْمَجْمُوعَةِ مِنْ كَلَامِهِ ، لِلْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ^(١) « أَبِي الْعَبَّاسِ » « أَحْمَدُ بْنُ أَبِي الرَّيِّعِ سُلَيْمَانَ » [الْمُسْتَكْفَى بِاللَّهِ] ابْنِ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ ، بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ . وَذَكَرَ الْقَاضِي تَقِيُّ الدِّينِ بْنُ نَازِرٍ الْجَيْشِيُّ فِي " دُسْتُورِهِ " أَنَّهُ إِنَّمَا عَمَلَهَا تَجْرِبَةً ^(٢) لِحَاطَرِهِ ، وَهِيَ مُرْتَبَةٌ عَلَى مَوْتِ خَلِيفَةٍ .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

هَذِهِ بَيْعَةُ رِضْوَانٍ وَبَيْعَةُ إِحْسَانٍ ، وَبَيْعَةُ رِضَا تَشْهَدُهَا الْجَمَاعَةُ وَيَشْهَدُ عَلَيْهَا الرَّحْمَنُ ؛ بَيْعَةُ يَلْزَمُ طَائِرُهَا الْعُنُقُ ، وَيُحْمَمُ بِسَائِرِهَا عَلَى الْأَفْقِ ، وَتَجْمَلُ أَنْبَاءُهَا الْبَرَارِيُّ وَالْبِحَارُ مَشْحُونَةٌ الطَّرِيقَ ؛ بَيْعَةُ تَصْلُحُ لِنَسَبِهَا الْأُمَّةَ ، وَتُنَمَّحُ بِسَبَبِهَا النِّعْمَةُ ، وَتُؤَلَّفُ بِهَا الْأَسْبَابُ وَتَجْمَلُ بَيْنَهُمْ مَوَدَّةٌ وَرَحْمَةٌ ؛ بَيْعَةُ تَجْرَى بِهَا الرِّفَاقُ ، وَتَتَرَاخَمُ زَمْرُ ^{بِهَا}

(١) كذا في تاريخ أبي الفداء، وابن أبي عمير، أيضا، ووقع في ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه

المستصم والصواب ما هنا .

(٢) أى امتعانا لفكره .

الكواكب على حوض الحجرة للوفاق ؛ بيعة سعيدة ميمونه ، بيعة شريفة بها السلامة
 في الدين والدنيا مضمونه ؛ بيعة صحيحة شرعية ، بيعة ملحوظة مرعية ؛ بيعة تسابق
 إليها كل نية وتطواع كل طوية ، وتجتمع عليها أشات البرية ؛ بيعة يستهل بها التمام ،
 ويتهلل البدر التمام ؛ بيعة متفق على الإجماع عليها ، والاجتماع لبسط الأيدي إليها ؛
 انعقد عليها الإجماع ، وانعقدت صحتها بمن سمع لله وأطاع ، وبذل في تمامها كل
 أمرى ما استطاع ، وحصل عليها اتفاق الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحق إلى
 مستحقه وأقر الخضم وأقطع النزاع ؛ وتضمنها كتاب كريم يشهده المقرَّبون ،
 ويتلقاه الأئمة الأقرَّبون .

(الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله) : (ذلك من
 فضل الله علينا وعلى الناس) . وإبنا والله الحمد وإلى بنى العباس . أجمع على هذه
 البيعة أرباب العقْد والحل ، وأصحاب الكلام فيما قلَّ وجَل ؛ وولادة الأمور
 والأحكام ، وأرباب المناصب والحكام ؛ وحملة العلم والأعلام ، وحملة السيوف
 والأقلام ، وأكابر بنى عبد مناف ، ومن أنخفص قدره وأناف ؛ وسروات قریش
 ووجوه بنى هاشم والبقية الطاهرة من بنى العباس ، وخاصة الأئمة وعامة الناس ؛
 بيعة ترسى بالحرمين^(١) خيامها ، وتحقق على المازمين أعلامها ، وتتعرف عرفات
 بركاتها وتعرف بمنى أيامها ؛ ويومن عليها يوم الحج الأكبر ، وتؤم ما بين الركن والمقام
 والمنبر ؛ ولا يتنغى بها إلا وجه الله الكريم ، وفضله العميم ؛ لم يبق صاحب سنجي
 ولا علم ، ولا ضارب بسيف ولا كاتب بقلم ؛ ولا رب حُكم ولا قضاء ، ولا من
 يرجع إليه فى اتفاق ولا إمضاء ؛ ولا إمام مسجِد ولا خطيب ، ولا ذوقياً يسأل

(١) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(٢) فى الأصل سيف وهى تصحيف .

فُجِيبَ ، وَلَا مَنْ بَيْنَ جَنَبَتِي الْمَسَاجِدِ وَلَا مَنْ تَضَمَّهُمْ اجْنِحَةُ الْمَحَارِبِ ، وَلَا مَنْ يَمْتَدُّ فِي رَأْيٍ فُيُحِطُّ أَوْ يُصِيبُ ؛ وَلَا مَتَحَدَّثٌ بِحَدِيثٍ ، وَلَا مَتَكَلِّمٌ بِقَدِيمٍ وَحَدِيثٍ ؛ وَلَا مَعْرُوفٌ بِدَيْنٍ وَصَلَاحٍ ، وَلَا فُوسَانُ حَرْبٍ وَكِفَاحٍ ؛ وَلَا رَاشِقٌ بِسَهَامٍ وَلَا طَاعِنٌ بِرِمَاحٍ ، وَلَا ضَارِبٌ بِصَفَاحٍ ، وَلَا سَاجِعٌ عَلَى قَدَمٍ وَلَا طَائِرٌ بِغَيْرِ جَنَاحٍ ؛ وَلَا مَخَالِطٌ لِلنَّاسِ وَلَا قَاعِدٌ فِي عُزْلِهِ ، وَلَا جَمْعُ كَثْرَةٍ وَلَا قَلَّةٍ ؛ وَلَا مَنْ يَسْتَقِيلُ بِالْحَوْزَاءِ لِوَأُوهُ ، وَلَا يَقِيلُ فَوْقَ الْفِرْقَدِ ثَوَاوُهُ ؛ وَلَا بَادٍ وَلَا حَاضِرٌ ، وَلَا مُقِيمٌ وَلَا سَائِرٌ ؛ وَلَا أَوَّلٌ وَلَا آخِرٌ ، وَلَا مُسِرٌّ فِي بَاطِنٍ وَلَا مُعَلَّنٌ فِي ظَاهِرٍ ؛ وَلَا عَرَبٌ وَلَا عَجِمٌ ، وَلَا رَاعِي إِبِلٍ وَلَا غَنَمٍ ؛ وَلَا صَاحِبُ أَنَاةٍ وَلَا إِبْدَارٍ ، وَلَا سَاكِنٌ فِي حَضَرٍ وَبَادِيَةٍ بِدَارٍ ؛ وَلَا صَاحِبُ عَمَدٍ وَلَا جِدَارٍ ، وَلَا مَلْجِجٌ فِي الْبِحَارِ الزَّاحِرَةِ وَالْبَرَارِيِّ الْقِفَارِ ؛ وَلَا مَنْ يَتَوَقَّلُ صَهَوَاتِ الْخَلِيلِ ، وَلَا مَنْ يُسِيلُ عَلَى الْعَجَاجَةِ الذَّيْلَ ، وَلَا مَنْ تَطَّلِعُ عَلَيْهِ شَمْسُ النَّهَارِ وَمُجُومُ اللَّيْلِ ؛ وَلَا مَنْ تُظَلُّهُ السَّمَاءُ وَتُقَلُّهُ الْأَرْضُ ، وَلَا مَنْ تُدَلُّ عَلَيْهِ الْأَسْمَاءُ عَلَى آخْتِلَافِهَا وَتَرْتَفِعُ دَرَجَاتُ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ ؛ حَتَّى آمَنَ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ وَأَمَنَ عَلَيْهَا ، وَمَنْ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهَدَاهُ إِلَيْهَا ؛ وَأَقْرَبَهَا وَصَدَّقَ ، وَغَضَّ لَهَا بَصَرَهُ خَاشِعًا وَأَطْرَقَ ؛ وَمَدَّ إِلَيْهَا يَدَهُ بِالْمُبَايَعَةِ ، وَمُعْتَقَدَهُ بِالْمُتَابَعَةِ ؛ رَضِيَ بِهَا وَأَرْضَنَاهَا ، وَأَجَازَ حُكْمَهَا عَلَى نَفْسِهِ وَأَمْضَاهَا ؛ وَدَخَلَ تَحْتَ طَاعَتِهَا وَعَمِلَ بِمُقْتَضَاهَا : ﴿ وَقَضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والحمد لله الذي نصب الحاكم ليحكم بين عباده وهو أحكم الحاكمين ، والحمد لله الذي أخذ حق آل بيت نبيه من أيدي الظالمين ؛ والحمد لله رب العالمين ، ثم الحمد لله رب العالمين ، ثم الحمد لله رب العالمين ، والحمد لله رب العالمين .

ولانه لما آستأثر الله بعبده سليمان أبي الربيع الإمام المستكفي بالله أم المؤمنين - كرم الله مثواه - وعوضه عن دار السلام بدار السلام ، ونقله فزكى بدنه عن

شهادة السّلام بشهادة الإسلام؛ حيث آثره ربه بقربه، ومهد لجنبه وأقدمه على ما أقدمه من يرجوه لعمله وكسبه، وخارله في جواره رفيقا، وجعل له على صالح سلفه طريقا؛ وأنزله ﴿ مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ . الله أكبر ليومه لولا خلفه كادت تضيق الأرض بما رحبت، وتجزى كل نفس بما كسبت؛ وثنى كل سريرة بما أدخرت وما خبت؛ لقد اضطرم سعيه، إلا أنه في الجوانح، لقد اضطرب منبر وسريه، لولا خلفه الصالح، لقد اضطرب مأمور وأمير، لولا الفكر بعده في عاقبة المصالح؛ لقد غاضت البحار، لقد غابت الأنوار، لقد غالب البُدر ما يلحق الأهلة من المحاق ويذكر البدر من السرار؛ سُفيت الجبال سُففا، وخبث مصابيح النجوم وكادت تطفى: ﴿ وجاء ربك والملك صفا صفا ﴾ . لقد جمعت الدنيا أطرافها وأزمنت على المسير، وجمعت الأمة هول المصير، وزاغت يوم موته الأبصار: ﴿ إن ربهم بهم يومئذ لخبير ﴾ . وبقيت الأبواب حيارى، ووقفت نارة تُصدّق وتارة تُنمّأ؛ لا تعرف قرارا، ولا على الأرض استقرارا: ﴿ إن زلزلة الساعة شيء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى ﴾ .

ولم يكن في النسب العباسي ولا في جميع من في الوجود، لافي البيت المسترشدي ولا في غيره من بيوت الخلفاء من بقايا آباء لهم وجُدود، ولا من تلده أحرى الليالي وهي عاقر غير ولود؛ من تسلّم إليه أمة محمد صلى الله عليه وسلم عقد نياتها، وسر طوياتها؛ إلا واحد وأين ذلك الواحد؟ هو والله من انحصر فيه استحقاق ميراث آباءه الأطهار، وتراث أجداده ولا شيء هو إلا ما أشتمل عليه رداء الليل والنهار؛ وهو ابن المتقل إلى ربه، وولد الإمام الذاهب لصلبه؛ المجمع على أنه في الأنام،

فَرُدُّ الْأَيَّامَ ، وَوَاحِدٌ وَهَكَذَا فِي الْوُجُودِ الْإِمَامِ ؛ وَأَنَّهُ الْحَاثِمُ لِمَا زُرَّتْ عَلَيْهِ جُيُوبُ
 الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ، وَالْفَائِزُ بِمَلِكِ مَا بَيْنَ الشَّارِقِ وَالْغَارِبِ ؛ الرَّاقِي فِي صَفِيحِ السَّمَاءِ
 هَذِهِ الذَّرْوَةُ الْمَنِيْفَةُ ، الْبَاقِي بَعْدَ الْأَئِمَّةِ الْمَاضِيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَنِعْمَ الْخَلِيفَةُ ؛ الْمَجْتَمِعُ
 فِيهِ شَرْوُطُ الْإِمَامَةِ ، الْمَتَّضِعُ لِلَّهِ وَهُوَ مِنْ بَيْتِ لَا يَزَالُ الْمَلِكُ فِيهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛
 الَّذِي تَصَفَّحَ السَّحَابَ نَائِلُهُ ، وَالَّذِي لَا يُغْرُهُ عَازِرُهُ وَلَا يُغَيِّرُهُ عَاذِلُهُ ؛ وَالَّذِي :

تَعَوَّدَ بَسْطَ الْكَفِّ حَتَّى لَوْ أَنَّهُ * شَاَهَا لَقَبِضَ لَمْ تُطْعَمْ أَنَامِلُهُ

وَالَّذِي :

لَا هُوَ فِي الدُّنْيَا مُضَيِّعٌ نَصِيْبَهُ * وَلَا وَرِقُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ شَاذِلُهُ

وَالَّذِي مَا أَرْتَقَى صَمُوءَةَ الْمِنْبَرِ بِحَضْرَةِ سُلْطَانِ زَمَانِهِ إِلَّا قَالَ نَاصِرُهُ وَقَامَ قَائِمُهُ ؛
 وَلَا قَعَدَ عَلَى سَرِيرِ الْخِلَافَةِ إِلَّا وَعُرِفَ بِأَنَّهُ مَا خَابَ مُسْتَكْفِيهِ وَلَا غَابَ حَاكِمُهُ ؛
 نَائِبُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَالْقَائِمُ بِمَقَامِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَخَلِيفَتُهُ وَأَبْنُ عَمِّهِ ،
 وَتَابِعُ عَمَلِهِ الصَّالِحِ وَوَارِثُ عِلْمِهِ ، سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا عَبْدُ اللَّهِ وَوَلِيُّهُ « أَحْمَدُ أَبُو الْعَبَّاسِ »
 الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، أَيْدِ اللَّهِ تَعَالَى بِبِقَائِهِ الدِّينَ ، وَطَوْقُ بَسِيْفِهِ [رِقَابِ]
 الْمُلْحِدِينَ ، وَكَبَتَتْ تَحْتَ لِيَاوَاهِ الْمُعْتَدِينَ ؛ وَكَتَبَ لَهُ النَّصْرَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ وَكَفَّ
 بِجِهَادِهِ طَوَائِفَ الْمُفْسِدِينَ ، وَأَعَادَ بِهِ الْأَرْضَ مَمَّنْ لَا يَدِينَ بِدِينِهِ ؛ وَأَعَادَ بَعْدَهُ أَيَّامَ
 آبَائِهِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَالْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ ؛ الَّذِينَ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ،
 وَعَلَيْهِ كَانُوا يَعْمَلُونَ ؛ وَنَصَرَ أَنْصَارَهُ ، وَقَدَّرَ أَقْتِدَارَهُ ؛ وَأَسْكَنَ فِي قُلُوبِ الرِّعْيَةِ سَكِينَتَهُ
 وَوَقَّارَهُ ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي الْوُجُودِ وَجَعَ لَهُ أَقْطَارَهُ .

وَمَا آتَقَلَّ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَ السَّيِّدُ وَلِحَقِّ بَدَارِ الْحَقِّ أُسْلَافَهُ ، وَنَقَلَ إِلَى سَرِيرِ الْجَنَّةِ

عَنْ سَرِيرِ الْخِلَافَةِ ؛ وَخَلَا الْعَصْرُ مِنْ إِمَامٍ يُمَسِّكُ مَا بَقِيَ مِنْ نَهَارِهِ ، وَخَلِيفَةَ يُغَالِبُ

مُرَبَّدٌ اللَّيْلُ بِأَنْوَارِهِ ، وَوَارِثٌ بَنِي بَيْتِهِ وَمِثْلُ أَبِيهِ أَسْتَعْنَى الْوُجُودَ بَعْدَ ابْنِ عَمِّهِ خَاتَمِ
الْأَنْبِيَاءِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ نَبِيِّ مَقْتَفٍ عَلَى آثَارِهِ ؛ وَنَسِيَ وَلَمْ يَعْتَهِدْ فَلَمْ يَبْقَ إِذْ لَمْ
يُوجَدِ النَّصُّ إِلَّا الْإِجْمَاعُ ، وَعَلَيْهِ كَانَتْ الْخِلَافَةُ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِلَا نِزَاعٍ ، أَقْتَضَتِ الْمَصْلَحَةُ الْجَامِعَةَ عَقْدَ مَجْلِسِ كُلِّ طَرْفٍ بِهِ مَعْقُودٌ ، وَعَقْدَ بَيْعَةٍ
عَلَيْهَا اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ شُهُودٌ ، وَجُمِعَ النَّاسُ لَهُ ﴿ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ
يَوْمٌ مَشْهُودٌ ﴾ . فَخَضَرَ مَنْ لَمْ يُعْبَأْ بَعْدَهُ بِنَ تَحَلَّفَ ، وَلَمْ يُرْبَأْ^(١) مَعَهُ وَقَدْ مَدَّ يَدَهُ طَائِعًا
بِنَ مَدَّهَا وَقَدْ تَكَلَّفَ ؛ وَاجْتَمَعُوا عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ وَاسْتَخَارُوا اللَّهَ تَعَالَى فِيهِ نَحَارًا ،
وَنَاهِيكَ بِذَلِكَ مِنْ مُخْتَارٍ ؛ وَأَخَذَتْ يَمِينُ^(٢) مُمَدُّ إِلَيْهَا الْإِيمَانَ ، وَيُسَدُّ بِهَا الْإِيمَانَ ؛
وَتَعْطَى عَلَيْهَا الْمَوَاطِيقُ ، وَتُعْرَضُ أَمَانَتُهَا عَلَى كُلِّ فَرِيقٍ ؛ حَتَّى تَقْلُدَ كُلُّ مَنْ حَضَرَ
فِي عُنُقِهِ هَذِهِ الْأَمَانَةَ ، وَحَطَّ يَدَهُ عَلَى الْمَصْحَفِ الْكَرِيمِ وَحَلَفَ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ وَأَتَمَّ
أَيْمَانَهُ ؛ وَلَمْ يَقْطَعْ وَلَمْ يَسْتَنْ وَلَمْ يَتَرَدَّدْ ، وَمَنْ قَطَعَ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ أَعَادَ وَجَدَّدَ ؛ وَقَدْ
نَوَى كُلُّ مَنْ حَلَفَ أَنَّ النِّيَّةَ فِي يَمِينِهِ نِيَّةٌ مِنْ عُقْدَتِ هَذِهِ الْبَيْعَةِ لَهُ وَنِيَّةٌ مِنْ حَلْفٍ لَهُ ،
وَتَذَمُّ بِالْوَفَاءِ فِي ذِمَّتِهِ وَتَكْفَلُهُ ؛ عَلَى عَادَةِ أَيْمَانَ الْبَيْعَةِ بِشُرُوطِهَا وَأَحْكَامِهَا الْمُرَدَّدَةِ ،
وَأَقْسَامِهَا الْمُؤَكَّدَةِ ؛ بَانَ يَبْدُلُ لِهَذَا الْإِمَامِ الْمَفْتَرِضَةَ طَاعَتَهُ الطَّاعَةَ ، وَلَا يُفَارِقَ الْجُمْهُورَ
وَلَا يُظْهِرَ عَنِ الْجَمَاعَةِ أَنْجَاعَهُ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا تَضَمَّنَتْهُ تُسَخُّ الْإِيمَانَ الْمَكْتُوبُ
فِيهَا أَسْمَاءٌ مِنْ حَلْفٍ عَلَيْهَا مِمَّا هُوَ مَكْتُوبٌ بِمُخْطُوطٍ مِنْ يَكْتُبُ مِنْهُمْ ، وَخُطُوطِ
الْعُدُولِ الثَّقَاتِ عَمَّنْ لَمْ يَكْتُبْ وَأَذْنُوا لِمَنْ يَكْتُبُ عَنْهُمْ ؛ حَسَبَ مَا يَشْهَدُ بِهِ بَعْضُهُمْ
عَلَى بَعْضٍ ، وَيَتَصَادَقُ عَلَيْهِ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؛ بَيْعَةٌ تَمَّ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَمَامُهَا ،
وَعَمَّ بِالصُّوْبِ الْعَدَقِ تَحْمَامُهَا ؛ ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ﴾ . وَوَهَبَ
لَنَا الْحَسَنَ ؛ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَافِي عَبْدَهُ ، الْوَاقِفِ وَعَدَّهُ ، الْمُوَافِقِ لِمَنْ يُضَاعَفُ عَلَى كُلِّ

(١) أى لم يربأ به ولم يكثر . انظر اللسان والقاموس .

مَوْهَبَةً حَمْدَهُ ؛ ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمٍ يَرْغَبُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَرْزِدِيادَهَا ، وَيَرْهَبُ إِلَّا أَنْ يِقَاتِلَ أَعْدَاءَ اللَّهِ بِأَمْدَادِهَا ؛ وَيَرَأْبُ بِهَا مَا آثَرَفِيَا أَثَرَمَالِيكَه (؟) مَا بَانَ مِنْ مُبَايَنَةِ أَوْسَادِهَا .

نَحْمَدُهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، ثُمَّ الْحَمْدُ لِلَّهِ كَلِمَةٌ لَا تَمَلُّ مِنْ تَرْدَادِهَا ، وَلَا تَبْخَلُ بِمَا يُفَوِّقُ السَّهَامَ مِنْ سَدَادِهَا ؛ وَلَا تَنْظُلُ إِلَّا عَلَى مَا يَوْجِبُ كَثْرَةَ أَعْدَادِهَا ، وَتَيْسِرُ إِقْرَارَ عَلَى أَوْرَادِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ يَتَقَايَسُ دَمُ الشَّهَادَةِ وَمَدُّ مِدَادِهَا ، وَتَنْتَافِسُ طُرُقُ الشَّيْبَابِ وَغُرُرُ السَّحَابِ عَلَى أَسْتِمْدَادِهَا ؛ وَتُجَانَسُ رُقُومُهَا الْمَدْيِجَةُ وَمَا تَلْبَسُهُ الدَّوْلَةُ الْعَبَّاسِيَّةُ مِنْ شِعَارِهَا ، وَاللَّيَالِي مِنْ دِتَارِهَا ، وَالْأَعْدَاءُ مِنْ حِدَادِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى جَمَاعَةِ آلِهِ مِنْ سَقَلٍ مِنْ أَبْنَائِهَا وَمَنْ سَلَفَ مِنْ أَجْدَادِهَا ؛ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا أَكْسَبَهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ مِيرَاثِ النُّبُوَّةِ مَا كَانَ لِحَدِّهِ ، وَوَهَبَهُ مِنَ الْمَلِكِ السُّلَيْمَانِيِّ عَنِ أَبِيهِ مَا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَعَلَّمَهُ مَنَظِقَ الطَّيْرِ بِمَا تَحْمَلُهُ حَمَائِمُ الْبَطَائِقِ مِنْ بَدَائِعِ الْبَيَانَ ، وَسَخَّرَ لَهُ مِنَ الْبَرِيدِ عَلَى مُتُونِ الْخَيْلِ مَا سَخَّرَ مِنَ الرَّيْحِ لِسُلَيْمَانَ ؛ وَأَتَاهُ مِنْ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ مَا مَدَّهُ بِهِ أَبُوهُ سُلَيْمَانُ وَتَصَرَّفَ ، وَأَعْطَاهُ مِنَ الْفَخَّارِ مَا اطَّاعَهُ بِهِ كُلُّ مَخْلُوقٍ وَلَمْ يَتَخَلَّفْ ؛ وَجَعَلَ لَهُ مِنْ لِبَاسِ بَنِي الْعَبَّاسِ مَا يَقْبِضِي لَهُ سِوَادَهُ بِسُودَدِ الْأَجْدَادِ ، وَيَنْفُضُ عَلَى كَعْلِ الْهَدْبِ مَا فَضَّلَ عَنْ سُودِيَاءِ الْقَلْبِ وَسِوَادِ الْبَصْرِ مِنَ السَّوَادِ ؛ وَيَمُدُّ ظِلَّهُ عَلَى الْأَرْضِ فَكُلُّ مَكَانٍ حَلَّهُ دَارُ مُلْكٍ وَكُلُّ مَدِينَةٍ بَعْدَادُ ؛ وَهُوَ فِي لَيْلِهِ السَّجَادُ ، وَفِي نَهَارِهِ الْعَسْكَرِيُّ وَفِي كَرَمِهِ جَعْفَرُ الْجَوَادِ يُدِيمُ الْإِبْتِهَالَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى فِي تَوْفِيقِهِ ، وَالْإِبْتِهَاجَ بِمَا يُغْنِي كُلَّ عَدُوٍّ بِرِيقِهِ ؛ وَيَبْدَأُ يَوْمَ هَذِهِ الْمُبَايَعَةِ بِمَا هُوَ الْأَهَمُّ مِنْ مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ ، وَصَالِحِ الْأَعْمَالِ مِمَّا يَتَحَلَّى

به الإمام، ويقدم التقوى أمامه، ويقرن عليها أحكامه، ويتبع الشرع الشريف ويقف عنده ويوقف الناس، ومن لا يجمل أمره طائعا على العين حمله بالسيف غضبا على الرأس؛ ويعجل أمير المؤمنين بما يشفي به النفوس، ويزيل به كيد الشيطان إنه يسوس، يأخذ بقلوب الرعايا وهو غنى عن هذا ولكن يسوس؛ وأمير المؤمنين يشهد الله وخليقته عليه أنه أقر كل أمرى من ولاة الأمور الإسلامية على حاله، وأستمر به في مقيله تحت كنف ظلاله؛ على اختلاف طبقات ولاة الأمور، وتفريقهم في الممالك والشعور؛ برا وبحرا، سهلا ووعرا، وشرقا وغربا، وبعدا وقربا؛ وكل جليل وحقير، وقليل وكثير؛ وصغير وكبير، ومملك ومملوك وأمير، وجندى يبرق له سيف شهير، وروح طير؛ ومن مع هؤلاء من وزراء وقضاة وكتاب، ومن له يد تقي في إنشاء وتحقيق حساب؛ ومن يتحدث في بريد وخارج، ومن يحتاج إليه ومن لا يحتاج؛ ومن في الدروس والمدارس والربط والزوايا والخوانق، ومن له أعظم التعلقات وأدنى العلائق؛ وسائر أرباب المراتب، وأصحاب الرواتب؛ ومن له في مال الله رزق مقسوم، وحق مجهول أو معلوم؛ وأستمر كل أمرى على ما هو عليه، حتى يستخير الله ويتبين له ما بين يديه؛ فما زاد تأهيله، زاد تفضيله؛ وإلا فأمر المؤمنين لا يريد سوى وجه الله، ولا يحابي أحدا في دين، ولا يحامى [عن] أحد في حق؛ فإن المحاماة في الحق مداجاة على المسامين؛ وكل ما هو مستمر إلى الآن، مستقر على حكم الله مما فهمه الله له وفهمه سليمان، لا يغير أمير المؤمنين في ذلك ولا في بعضه، معتبر مستمر بما شكر الله على نعمه وهكذا يجازئ من شكر، ولا يكدر على أحد مorda نزه الله به نعمة الصافية عن الكدر؛ ولا يتأول في ذلك متأول ولا من بحر النعمة أو كفر، ولا يتعلل متعلل فإن أمير المؤمنين يعود بالله ويعيد أيامه من الغير؛ وأمر أمير المؤمنين - أعلى الله أمره -

أَنْ يُعْلَنَ الْخُطْبَاءُ بِذِكْرِهِ وَذَكَرِ سُلْطَانَ زَمَانِهِ عَلَى الْمَنَابِرِ فِي الْآفَاقِ ، وَأَنْ تُضْرَبَ
 بِاسْمِهِمَا النُّقُودُ الْمُتَعَامَلُ بِهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَيُنْتَهَجَ بِالِدَعَاءِ لَهَا عَطْفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ،
 وَيُصْرَحَ مِنْهُ بِمَا يُشْرَقُ بِهِ وَجْهُ الدَّرْهِمِ وَالذَّنْبَارِ ؛ وَتُبَاهَى بِهِ الْمَنَابِرُ وَدَوْرُ الضَّرْبِ :
 هَاتِيكَ تَرْفَعُ اسْمَهُمَا عَلَى أَسْرَةٍ مُهَوَّدَهَا ، وَهَذِهِ عَلَى أَسَارِيرِ نُقُودَهَا ؛ وَهَذِهِ تَقَامُ بِسَبَبِهَا
 الصَّلَاةُ ، وَتَلْكَ تُدَامُ بِهَا الصَّلَاتُ ؛ وَكِلَاهُمَا تُسْتَأَلُ بِهِ الْقُلُوبُ ، وَلَا يُلَامُ عَلَى مَا تَعِيهِ
 الْآذَانُ وَتُوعِيهِ الْجُيُوبُ ؛ وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا مَنْ تَحْدَقُ بِجِوَارِهِ الْأَحْدَاقُ ، وَتَمِيلُ إِلَيْهِ
 الْأَعْنَاقُ ؛ وَتُبَلِّغُ بِهِ الْمَقَاصِدَ ، وَيَقْوَى بِهِنَّ الْمُعَاضِدُ ؛ وَكِلَاهُمَا أَمْرُهُ مَطَاعٌ ، مِنْ غَيْرِ
 نِزَاعٍ ، وَإِذَا لَمَعَتْ أَرْزِمَةُ الْخُطْبِ طَارَ لِلذَّهَبِ سُعَاعٌ ؛ وَلَوْلَاهُمَا مَا أَجْتَمَعَ جَمْعٌ
 وَلَا أَنْفَضَ ، وَلَا عَرَفَ الْأَنَامُ مِنْ تَأْتَمُّ ؛ فَالْخُطْبُ وَالذَّهَبُ مَعْنَاهُمَا وَاحِدٌ ، وَبِهِمَا
 يَذُكَّرُ اللَّهُ قِيَاءً^(١) الْمَسَاجِدِ ؛ وَلَوْلَا الْأَعْمَالُ ، مَا بُدِلَتْ الْأَمْوَالُ ، وَلَوْلَا الْأَمْوَالُ ، مَا وُلِّتْ
 الْأَعْمَالُ ؛ وَلِأَجْلِ مَا بَيْنَهُمَا مِنْ هَذِهِ النَّسْبَةِ ، قِيلَ إِنَّ الْمَلِكَ لَهُ السَّكَّةُ وَالْخُطْبَةُ ؛ وَقَدْ
 أَسْمَعَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي هَذَا الْجَمْعِ الْمُشْهُودِ مَا يَتَنَاقَلُهُ كُلُّ خَطِيبٍ ، وَيَتَدَاوَلُهُ كُلُّ بَعِيدٍ
 وَقَرِيبٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ بِأَوَامِرٍ وَنَهَى عَنْ نَوَاهٍ وَهُوَ رَقِيبٌ ؛ وَتَسْتَفْزَعُ الْأَوْلِيَاءُ لَهَا
 السَّجَايَا ، وَتُتَضَرَّعُ الْخُطْبَاءُ فِيهَا بِنُعُوتِ الْوَصَايَا ؛ وَتَكْتَلُ بِهَا الْمَزَايَا ، وَيَتَكَلَّمُ بِهَا الْوَاعِظُ
 وَيُخْرِجُ مِنَ الْمَشَائِخِ الْخَبَايَا مِنَ الزَّوَايَا ؛ وَتَسْمُرُ بِهَا السَّمَارُ وَيَتَرَنَّمُ الْحَادِي وَالْمَلَّاحُ ،
 وَيُرُوقُ شَجْوُهَا فِي اللَّيْلِ الْمُقْمِرِ وَيُرْقَمُ عَلَى جَنْبِ الصَّبَاحِ ؛ وَتُعَطَّرُ بِهَا مَكَّةُ بَطْحَاءَهَا
 وَتَحْيَا بِحَدِيثِهَا قُبَاهُ ، وَيَلْقَنَهَا كُلُّ أَبِي فَهْمٍ أَنَّهُ وَيَسْأَلُ كُلُّ ابْنٍ أَنْ يُجِيبَ أَبَاهُ ؛ وَهُوَ
 لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رُشْدٌ وَعَلَيْكُمْ بَيْنَهُ ، وَإِلَيْكُمْ مَا دَنَاكُمْ بِهِ إِلَى سَبِيلِ
 رَبِّهِ مِنَ الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْكُمْ الطَّاعَةَ وَلَوْلَا قِيَامُ الرَّعَايَا بِهَا
 مَا قَبِلَ اللَّهُ أَعْمَالَهَا ، وَلَا أَمَسَكَ بِهَا الْبَحْرُ وَدَحَا الْأَرْضُ وَأَرْسَى جِبَالَهَا ؛ وَلَا أَنْفَقَتْ

(١) كذا ضبط في بعض النسخ ونزل الصواب قِيَامٌ ، أَوْ قَوَامٌ . تأمل .

الآراء على من يستحق وجاءت إليه الخلافة تجر أذيالها ، وأخذها دون بني أبيه ولم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها ؛ وقد كفأكم أمير المؤمنين السؤال بما فتح لكم من أبواب الأرزاق ، وأسباب الإرتفاق ؛ وأحسن لكم على وفأفكم وعلمكم مكارم الأخلاق ، وأجركم على عوائدكم ولم يمسك خشية الإملاق ؛ ولم يبق على أمير المؤمنين إلا أن يسير فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل بما ينتفع به من يحيى - أطال الله بقاء أمير المؤمنين - من بعده ، ويزيد على كل من تقدم ، ويقم فروض الحج والجهاد ، ويقيم الرعايا بعذله الشامل في مهاد ؛ وأمير المؤمنين يقيم على عباده موسم الحج في كل عام ، ويشمل سكان الحرمين الشريفين وسدنة بيت الله الحرام ؛ ويجهز السبل على عاتقه ويرجو أن يعود إلى حاله الأول في سالف الأيام ، ويتدفق في هذين المسجدين بحره الزاهر ويرسل إلى نالهما البيت المقدس ساكب الغمام ؛ ويقوم بقومة قبور الأنبياء - صلوات الله عليهم - أين كانوا وأكثرهم في الشام ؛ والجمع والجماعات هي فيكم على قديم سنتها ، وقويم سنتها ؛ وستزيد في أيام أمير المؤمنين بمن أنضم إليه ، وبما يتسلمه من بلاد الكفار ويسلم على يديه .

وأما الجهاد ، فيكتفي بأجتهد القائم عن أمير المؤمنين بأمره ، المقلد عنه جميع ما وراء سريره ؛ وأمير المؤمنين قد وكل إليه - خلد الله سلطانه - عناء الأيام ، وقلده سيفه الرابع بوراقه ليسلّه واجده على الأعداء [وإلا سلّ خياله عليهم في الأحلام ؛ ويؤكد أمير المؤمنين في أرتجاع ماغلب عليه العدا ، وأنترج [مابا] يديهم من بلاد الإسلام فإنه حقه وإن طال عليه المدى ؛ وقد قدم الوصية بأن يوالى غزوا العدو الخذول براً وبحرا ، ولا يكف عن ينظر به منهم قتلا وأسرا ، ولا يفك أغلالاً ولا إصرا ؛ ولا ينفك يرسل عليهم في البحر غرباناً ، وفي البر من الخيل عقباناً ؛ يحمل

فيهما كلُّ فارسٍ صقرا، ويحیی الممالک ممن يحوزُ أطرافها بإقدام، ويتخولُ أسكافها الأقدام؛ وينظرُ في مصالح القلاع والحُصون والثغور، وما يحتاج إليه من آلات القتال، وما يُحتاج به الأعداء ويعجزُ عنه المحتال؛ وأمّهات الممالک التي هي مرابطُ البُدود، ومرابضُ الأسود، والجنّاح المددود؛ ويتفقدُ أحوالهم بالعرض، بما لهم من خيلٍ تعقدُ [بالعجاج] ما بين السماء والأرض؛ وما لهم من زرد مصون، وبيض مسها ذاتُ ذهبٍ فكانت كأنها بيضٌ مكنون؛ وسيوفٌ قواضب، ورماحٌ لكثرة طعنها من الدماء خواضب، وسهامٌ توأصل القسي وتفارقها فتحنُّ حين مفارِق وتزجرُ القوس زجرة مغاضب .

وهذه جملةُ أراد أمير المؤمنين بها تطيبَ قلوبكم، وإطالة ذيل التطويل على مطلوبكم؛ وماؤكم وأموالكم وأعراضكم في حماية إلا ما أباح الشرع المطهر، ومزيدُ الإحسان إليكم على مقدار ما يخفى منكم ويظهر .

وأما جريئات الأمور، فقد علمتم بأنَّ فيمن تقلد عن أمير المؤمنين غنى عن مثل هذه الذكري، وفتى حق لا يتسغل بطلب شيء فكرا؛ وفي ولاة الأمور، ورعاة الجمهور؛ ومن هو سداد عمله، ومدادُ أمسه، ومرادُ من هو منكم معشر الرعايا من قبله؛ وأنتم على تفاوتٍ مقاديركم وديعةُ أمير المؤمنين ومن خولكم وأنتم وهم فما منكم إلا من استعرف أمير المؤمنين وتمشى في مرضى الله على خلقه، وينظر ما هو عليه ويسير بسيرته المثلى في طاعة الله في خلقه؛ وكلكم سواء في الحق عند أمير المؤمنين وله عليكم أداءُ النصيحة، وإبداءُ الطاعة بسريرةٍ صحيحة؛ وقد دخل كل منكم في كنف أمير المؤمنين وتحت رأفته، ولزم حكمه بيعته؛ وألزم طائره في عنقه، ويستعمل كل منكم في الوفاء ما أصبح به عليا: ((ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما)) .

هذا قول أمير المؤمنين، وعلى هذا عهد إليه وبه يعهد، وماسوى هذا فهو جُور لا يُشهد به عليه ولا يُشهد؛ وهو يعمل في ذلك كله ما تُحمد عاقبته من الأعمال، ويحجل منه ما يصلح به الحال والمآل؛ وأمير المؤمنين يستغفر الله على كل حال، ويستعيد بالله من الإهمال؛ ويختتم أمير المؤمنين قوله بما أمر الله به من العدل والإحسان، ويحمد الله وهو من الخلق «أحمد» وقد آتاه الله مُلك سليمان؛ والله تعالى يمتع أمير المؤمنين بما وهبه، ويملكه أقطار الأرض ويورثه بعد العمر الطويل عقبه؛ ولا يزال على أسرة العلياء قعوده، ولباس الخلافة به أبهة الجلالة كأنه مامات منصوره ولا ردى مهديه ولا ذهب رشيدته^(١).

المقصد السادس

(فيما يكتب في آخر البيعة)

إذا آتته إلى آخر البيعة، شرع في كتابة الخواتم على ما تقدم، فيكتب: «إن شاء الله تعالى» ثم يكتب التاريخ. ثم الذى يقتضيه قياس العهود أنه يكتب المستند عن الخليفة فيكتب «بالإذن العالى المولوى الإمامى النبوى المتوكلى - مثلا - أعلاه الله تعالى» وكأن الخليفة الذى عقدت له البيعة هو الذى أذن فى كتابتها.

قلت: ولو أسقط المستند فى البيعات فلا حرج بخلاف العهود: لأنها صادرة عن مؤل وهو العاهد، فحسن إضافة المستند إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصدر عن أهل الحلل والعقد كما تقدم. ويكتفى فى المستند عنهم بكتابة خطوطهم فى آخر

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لاسبة حلال بلاغته ولا متسرلة جلايب فصاحته فهى

تجربة لم تنقح ومسودة لم تصحح كما أشار إليه ابن ناظر الجيوش فليتنبه.

البيعة كما سياتي ؛ ثم بعد كتابة المستند - إن كُتِبَ - تُكْتَبُ الحمدلةُ والصلاةُ على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبلةُ ، على ما تقدّم في الكلام على الفَوَاتِحِ والخَوَاتِمِ في مقدّمة الكتاب .

ثم يَكْتُبُ مَنْ بايع من أهل الحِلِّ والعقد والشهود على البيعة .

فأما من تَوَلَّى عقدَ البيعة من أهل الحِلِّ والعقد فيكتب : « بايعته على ذلك ، وكتب فلانُ بنُ فلانٍ » ويدعو في خلال ذلك قبل اسمه بما يناسب : مثل أن يقال « بايعته على ذلك قدس الله خلافتَه » أو « زاد الله في شرفه » أو « زاد الله في اعتلائه » وما أشبه ذلك .

وأما الشهود على البيعة فالواجب أن يكتب كلُّ منهم : « حضرتُ جريانَ عقد البيعة المذكورة ، وكتب فلانُ بنُ فلانٍ » كما يكتب الشاهد بجريان عقد النكاح ونحوه ؛ ولا بأس أن يدعو في رسم شهادته قبل كتابة اسمه بما يناسب : مثل « قرنها الله تعالى باليمن أو بالسداد » أو « عرّف الله المسلمين بركتها » وما أشبه ذلك .

المقصود السابع

(في قطع الورق الذي تُكْتَبُ فيه البيعةُ ، والقلم الذي تُكْتَبُ به ،

وكيفية كتابتها ، وصورة وضعها)

وأعلم أنّ البيعات لم تكن متداولة الاستعمال لقلّة وقوعها ، فلم يكن لها قطع ورق ، ولا تصوير متعارف فيتبع ؛ وليكنه يؤخذ فيها بالقياس وعموم الألفاظ .

فأما قطع ورقها ، فقد تقدّم في الكلام على مقادير قطع الورق تقلًا عن محمد بن عمر المدائني في كتاب « القلم والدواة » أنّ قطع البغدادى الكامل للخلفاء والملوك . ومقتضى

ذَلِكَ أَنَّ الْبَيْعَاتِ تُكْتَبُ فِيهِ ، وَهُوَ قِيَاسٌ مَا ذَكَرَهُ الْمُقَرَّرُ الشَّهَابِيُّ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التعريف" ، مِنْ أَنَّ لِلْعُهُودِ قَطْعَ الْبَغْدَادِيِّ الْكَامِلِ عَلَى مَاسِيَاتِي ذَكَرَهُ .

قلت : لَكِنْ سَيَأْتِي فِي الْكَلَامِ عَلَى عُهُودِ الْخُلَفَاءِ أَنهَا الْآنَ قَدْ صَارَتْ تُكْتَبُ فِي قَطْعِ الشَّامِيِّ الْكَامِلِ ، وَبَيْنَهُمَا فِي الْعَرْضِ وَالطُّولِ بَوْنٌ كَبِيرٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى قَطْعِ الْوَرَقِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَيَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ كِتَابَةُ الْبَيْعَاتِ فِي قَطْعِ الشَّامِيِّ مَنَاسِبَةً لِمَا تُكْتَبُ فِيهِ عُهُودُ الْخُلَفَاءِ الْآنَ .

وَأَمَّا الْقَلَمُ الَّذِي يُكْتَبُ بِهِ فَيَحَسَبُ الْوَرَقُ الَّذِي يُكْتَبُ فِيهِ : فَإِنْ كُتِبَتِ الْبَيْعَةُ فِي قَطْعِ الْبَغْدَادِيِّ ، كَانَتْ الْكِتَابَةُ بِقَلَمٍ مَخْتَصَرِ الطُّوَارِ إِذْ هُوَ الْمُنَاسِبُ لَهُ ؛ وَإِنْ كُتِبَتْ فِي قَطْعِ الشَّامِيِّ ، كَانَتْ الْكِتَابَةُ بِقَلَمِ الثَّلَاثِ الثَّقِيلِ إِذْ هُوَ الْمُنَاسِبُ لَهُ .

وَأَمَّا كَيْفِيَّةُ الْكِتَابَةِ وَصُورَةُ وَضْعِهَا ، فِقِيَاسٌ مَا هُوَ مُتَدَاوِلٌ فِي كِتَابَةِ الْعُهُودِ وَغَيْرِهَا ، أَنَّهُ يَبْتَدَأُ بِكِتَابَةِ الطَّرَةِ فِي أَوَّلِ الدَّرَجِ بِالْقَلَمِ الَّذِي تُكْتَبُ بِهِ الْبَيْعَةُ سَطُورًا مُتَلَاصِقَةً لَا خُلُوقَ بَيْنَهَا ، مَمْتَدَةً فِي عَرْضِ الدَّرَجِ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ مِنْ غَيْرِ هَامِشٍ . ثُمَّ إِنْ كَانَتْ الْكِتَابَةُ فِي قَطْعِ الْبَغْدَادِيِّ الْكَامِلِ ، جَرَى فِيهِ عَلَى الْقَاعِدَةِ الْمُتَدَاوِلَةِ فِي عُهُودِ الْمُلُوكِ عَنِ الْخُلَفَاءِ عَلَى مَاسِيَاتِي ذَكَرَهُ ؛ وَيُتْرَكُ بَعْدَ الْوَصْلِ الَّذِي فِيهِ الطَّرَةُ سِتَّةَ أَوْصَالٍ بِيَاضًا مِنْ غَيْرِ كِتَابَةِ : لِتَصِيرَ يَوْصِلُ الطَّرَةَ سَبْعَةَ أَوْصَالٍ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ الْبِسْمَلَةَ فِي أَوَّلِ الْوَصْلِ الثَّامِنِ بِحَيْثُ تَكُونُ أَعْلَى أَلِفَاتِهِ تَكَادُ تَلْحَقُ الْوَصْلَ الَّذِي قَوْفَهُ بِهَامِشٍ عَرِيضٍ عَنِ يَمِينِهِ قَدْرَ أَرْبَعَةِ أَصَابِعٍ أَوْ خَمْسَةِ مَطْبُوقَةٍ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ تَحْتَ الْبِسْمَلَةِ سَطْرًا مِنْ أَوَّلِ الْبَيْعَةِ مُتَلَاصِقًا لَهَا ؛ ثُمَّ يَخْلِي مَكَانَ بَيْتِ الْعِلَامَةِ قَدْرَ شِبْرٍ جَرِيًّا عَلَى قَاعِدَةِ الْعُهُودِ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ عِلَامَةً تُكْتَبُ ، كَمَا يَخْلِي بَيْتَ الْعِلَامَةِ فِي بَعْضِ الْمَكْتَابَاتِ وَلَا يَكْتُبُ فِيهِ شَيْءٌ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ السَّطْرَ الثَّانِي تَحْتَ بَيْتِ الْعِلَامَةِ عَلَى

سَمَّتِ السُّطْرَ الَّذِي تَحْتَ الْبِسْمَلَةِ فِي بَقِيَّةِ الْوَصْلِ الَّذِي فِيهِ الْبِسْمَلَةُ ؛ وَيُحْرَسُ أَنْ تَكُونَ نِهَائِيَّةَ السَّجْعَةِ الْأُولَى فِي أَثْنَاءِ السُّطْرِ الْأَوَّلِ أَوْ الثَّانِي ؛ ثُمَّ يَسْتَرْسَلُ فِي كِتَابَةِ بَقِيَّةِ الْبَيْعَةِ وَيَجْعَلُ بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ قَدْرَ رُبْعِ ذِرَاعٍ بِذِرَاعِ الْقَمَاشِ كَمَا سَيَأْتِي فِي الْعُهُودِ ؛ وَيَسْتَضْحِبُ ذَلِكَ إِلَى آخِرِ الْبَيْعَةِ ، فَإِذَا آتَيْتْهُ إِلَى آخِرِهَا كَتَبَ "إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى" ثُمَّ التَّارِيخَ ، ثُمَّ الْمُسْتَنْدَ ، ثُمَّ الْحَمْدَةَ وَالصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالْحَسْبَةَ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ بَيَانَهُ فِي الْفَوَاتِحِ وَالْحَوَاتِمِ فِي مَقْدَمَةِ الْكِتَابِ ؛ ثُمَّ يَكْتُبُ مِنْ بَايَعٍ مِنْ أَهْلِ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ خُطُوطَهُمْ ، ثُمَّ الشُّهُودَ عَلَى الْبَيْعَةِ بَعْدَهُمْ . وَإِنْ كَانَتْ الْكِتَابَةُ فِي الْقَطْعِ الشَّامِيِّ ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَنْقُصَ عَدْدُ أَوْصَالِ الْبِيَاضِ الَّذِي بَيْنَ الطَّرَةِ وَالْبِسْمَلَةِ وَصَلِينَ فَتَكُونُ نَحْسَةً ، وَيَنْقُصُ الْهَامِشَ فَيَكُونُ قَدْرَ ثَلَاثَةِ أَصَابِعٍ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ قَانُونُ الْكِتَابَةِ .

وهذه صورة وضعه في الورق ممثلاً لها بالطرّة التي أنشأها لذلك، والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتهما

بياض بأعلى الدرج بقدر أصبع

هذه بيعة ميمونه ، باليمن مبتدأة بالسعد مقرونه ؛ لمولانا السيد الجليل الإمام النبوي المتوكل على الله أبي عبد الله محمد أمير المؤمنين ، ابن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر العباسي : زاد الله تعالى شرفه علواً ، وفخاره سمواً . قام بعقدها السلطان السيد الأعظم ، والشاهنشاه المعظم ، الملك الظاهر أبو سعيد برقوق ، خلد الله تعالى سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه ؛ يجمع من أهل الحل والعقد ، والأعتبار والنقد : من القضاة والعلماء والأمراء ، ووجوه الناس والوزراء والصلحاء والنصحاء ؛ وإمضائها على السداد ، والتجج والرشاد . على ما شرح فيه

بياض ستة أوصال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هاشم الحمد لله الذي جعلَ بيتَ الخلافةِ مَثَابَةً للناسِ وأَمْنًا . وأقام

بيت العلامة

تقدير شبر

سُورَ الإمامةِ وَقَايَةً للأَنَامِ وَحِصْنًا ؛ وَشَدَّ مِنْهَا بِالْعَصَابَةِ

تقدير ربع ذراع

الْقُرْشِيَّةَ أَزْرًا وَشَادَ مِنْهَا بِالْعُصْبَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ رُكْنًا . وَأَغَاثَ

تقدير ربع ذراع

الخالقِ بِإِمَامٍ هُدًى حَسَنٍ سِيرَةً وَصَفَا سِرِيرَةً فَرَاقَ صُورَةً وَرَقًّا مَعْنَى .

ثم يأتي على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النمط إلى أن ينتهي إلى

قوله : والله تعالى يجعلُ أنتقالهم من أدنى إلى أعلى ومن يُسرئ إلى يميني ،

ويحقق لهم بمن أستخلفه عليهم وعده الصادق بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ

الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

هامش

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَيُمْكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًا .

إن شاء الله تعالى

كتب في الثاني من جمادى الأولى - مشلا

سنة إحدى وتسعين وسبعائة

بالإذن العالی المولوی الإمامی النبوی المتوکلی - مشلا

أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

بايعته على ذلك	بايعته على ذلك	بايعته على ذلك
زاد الله تعالى في آعتلائه	زاد الله تعالى في شرفه	قدس الله تعالى خلافته
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صورة خط المايجين
للخليفة من أهل الحل والمقد

حضرت	حضرت	حضرت
جرّيان عقد	جرّيان عقد	جرّيان عقد
البيعة المذكورة	البيعة المذكورة	البيعة المذكورة
عرّف الله المسلمين	قرنها الله تعالى	قرنها الله تعالى
بركتها	بالسداد	باليمن والبركة
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

ورد في البيعة

النوع الثاني

(من البيعات ، بيعات الملوک)

وأعلم أنّ المقرّ الشهابي بن فضل الله قد ذكر في "التعريف" : أنّ من قام من الملوک بغير عهد من قبله لم تجر العادة بأن تُكتب لهم مبايعة ، وكأنّه يريد اصطلاح بلاد المشرق والديار المصرية ؛ أما بلاد المغرب فقد جرت عادة مصطلحهم بكتابة البيعات للملوکهم ، وذلك أنه ليس عندهم خليفة يدينون له ، يتقلدون الملك بالعهده منه . بل جلّهم أو كلّهم يدعى الخليفة فهم يكتبون البيعات لهذا المعنى .

وهذه نسخة بيعة من هذا النوع ، كتبت بها للسلطان أبي عبد الله محمد بن السلطان أبي الحجاج بن نصر بن الأحمر الأنصاري ، صاحب حمراء غرناطة من الأندلس ، مفتحة بخطبة على قاعدتهم في بيعات الخلفاء على ما تقدّم ذكره ؛ وربما تكرّر الحمد فيها دلالة على عظم النعمة . من إنشاء الوزير أبي عبد الله محمد بن الخطيب صاحب ديوان إنشائه ، على ما رأيتّه في ديوان ترسله ، وهي :

الحمد لله الذي جلَّ شانَا، وعزَّ سلطانَا، وأقام على رُبُوبِيَّتِهِ الواجِبَةَ في كُلِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ بُرْهَانًا، الواجِبِ الوجودِ ضرورةً إذ كان وجودُ ماسِواه إمكانيًا؛ الحَيِّ الْقَيُّومِ حياةً أبديَّةً سَمَرِديَّةً منزَّهةً عن الابتداء والانتها [فلا تُعرِفُ وقتنا ولا تستدعي زمانًا؛ العليم الذي يعلم السرَّ وأخفى] ^(١) فلا يعزُبُ عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء إلَّا أحاط بها علمًا وأدركها عيانًا؛ القدير الذي ألقَتِ الموجوداتُ كلُّها إلى عَظَمَتِهِ يَدَ الخُضُوعِ استِسْلامًا له وإذعانًا. المرِيدِ الذي بمشيئته تصريفُ الأقدارِ، واختلافُ الليلِ والنَّهارِ، فإن منعَ عدلًا وإن منحَ مَنَحَ إحسانًا؛ شَهِيدِ تداوُلِ المُلُوكِ بدوامِ مُلكه ودلَّ حَدُوثِ ماسِواه على قِدَمه، وأنتِ أليسِنَّه الحَيِّ والجَمادِ على مواهبه وقِسَمه، وفاضَ على عوالمِ السماء والأرضِ بجرُّ جُوده العميمِ النَّوَالِ من قَبْلِ السُّؤالِ وكرِمه، وإن من شَيْءٍ إلَّا يُسَبِّحُ بحمده ويُنثِي على نِعَمه سرا وإعلانًا. فهو اللهُ الذي لا إلهَ إلَّا هو ليس في الوجودِ إلَّا فعلُهُ، إلَّا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ وإليه يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّهُ، وَسِعَ الأَكْوانَ على تباينها فَضْلُهُ، وَقَدَّرَ المَواهِبَ والمَقاسِمَ عدلُهُ، مَنعًا ومَنحًا وزيادَةً ونَقصانًا.

والحمد لله الذي بيده الإِخْتِراعُ والإِنْشاءُ، مالِكِ المُلْكِ يُؤْتِي المُلْكَ مَنْ يَشَاءُ وَيَنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ يَشَاءُ، سَبَقَ في مَكُنُونِ غيْبِهِ القَضَاءُ، وخَفِيَتْ عن خَلْقِهِ الأسبابُ وَعَمِيَتْ عليهم الأنبياءُ، وعَجَزَتْ عَقولُهُم أن تُدْرِكَ منها كُنْهًا أو تُكشِفَ منها بَيانًا.

والحمد لله الذي رَفَعَ قُبَّةَ السَّماءِ ما اتَّخَذَ لها عِمادًا، وجعل الأرضَ فِرَاشًا ومِهَادًا، وخلقَ الجِبَالَ الراسِيَةَ أوْتادًا؛ ورَتَّبَ أوضاعها أجناسًا متفاضلةً، وأنواعًا متباينةً مُتقابلةً: فحيوانًا ونباتًا وجمادًا؛ وأقام فيها على حكمة الإبداع دلائلَ باهرةَ الشُّعاعِ

(١) الزيادة من ربحانة الكتاب لابن الخطيب (ص ٤٨ ج ١)

وأشهادا ، وجعل الليل والنهار خلفةً والشمس والقمر حُسبانا . وقدر السياسة
سياجا لعالم الإنسان يضمُّ منه ما أنتشر ، ويَطْوِي من تعديهِ ما نشر ، ويمجِّله على
الآداب التي تُرشِّده إذا ضلَّ وتُقيمه إذا عثر ، وتجبره على أن يلتزم السنن ويتبع
الأثر ، لطفًا منه شمِّل البشر وحنانًا .

ولما عمَّر الأرض بهذا الجنس الذي فضله وشرَّفه ، وهبَّ له العقل الذي تفكَّر
به في حكمته حتى عرَّفه ، وبما يجبُ لرؤيائه الواجبةِ وصفه ، جعلهم درجاتٍ
بعضها فوق بعض فقرا وغنيًا وطاعةً وعصيانًا . وأختار منهم سفرة الوحي وحملة
الآيات ، وأرسل فيهم الرُّسل بالمعجزات ، وعرَّفهم بما كلفهم من الأعمال
المفترضة : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ .
يومَ اعتبار الأعمالِ وأعتبار الحسنات ، ونصب العدل والمجازاة في يوم العرْض عليه
قسطًا وميزانًا .

نحمده وله الحمد في الأولى والآخرة ، ونُثني على مواهبه الجمَّة وآلائه الوافرة ،
ونمد يد الضراعة ، في موقف الرجاء والطاعة ، إلى المزيد من منته الهامية الهامرة ،
ونسأله دوام لطفه الخافية وعصمه الظاهرة ، واتصال نعمه التي لا تزال تتعرفها
مثنىً ووحيدانًا . ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له . [شهادة
نجدها في المعاد عُدَّةً وافية ، ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقية ، وذخيرةً صالحةً
باقية ، ونورا يسعى بين أيدينا ويكونُ على الرضا والقبول فينا عنوانًا ^(١)] . ونشهد أن
سيدنا ومولانا محمدًا النبيَّ العربيَّ القرشيَّ الهاشميَّ عبده ورسوله الذي أصطفاه
وأختاره ، ورفع بين النبيين والمرسلين مقداره ، وطهر قلبه وقَدَّس أسراره ، وبلغه

من رِضاهُ أَخْيَارَهُ ، وأعطاه لِيَوَاءِ الشَّفَاعَةِ يَقْفُو آدَمَ وَمَنْ بَعْدَهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْكَرَامِ
 آثارَهُ ، وجعله أَقْرَبَ الرُّسُلِ مَكَانَةً وَأَرْفَعَهُمْ مَكَانًا . رسولُ الرَّحْمَةِ ، ونورُ الظُّلْمَةِ ،
 وإمامُ الرُّسُلِ الْأَيْمَّةِ ، الذي جمع له بين مَرْيَةِ السَّبْقِ ومَرْيَةِ التَّيَمِّهِ ؛ وجعل طاعته
 من العَذَابِ الْمُقِيمِ أَمَانًا . صاحبُ الشَّفَاعَةِ التي تَوَمَّلْ ، والوسيلةُ التي إلى الله بها
 يُتَوَسَّلُ ، والدرجةُ التي لم يُؤْتَهَا الْمَلِكُ الْمُقْرَبُ ولا النَّبِيُّ الْمُرْسَلُ ، والرتبةُ التي لم يُعْطِهَا
 اللهُ سِوَاهُ إِنْسَانًا . انتخبه من أشرفِ الْعَرَبِ أُمًّا وَأَبَا ، وأزكى الْبَرِيَّةِ طِينَةً وَأَرْفَعَهَا
 نَسَبًا ، وَابْتَعَثَهُ إِلَى كَافَّةِ الْخَلْقِ عَجْمًا وَعَرَبًا ، وَمَلَأَ بُنُورَ دَعْوَتِهِ الْبَسِيطَةَ جَنُوبًا وَشَمَالًا
 وَمَشْرِقًا وَمَغْرِبًا ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ كِتَابَهُ الَّذِي آمَنْتَ بِهِ الْحَقُّ لَمَّا سَمِعْتَهُ وَقَالُوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا
 قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ . تمامًا على الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَتَبَيَّنَا . فَصَدَعَ صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَمْرٍ مِنْ آخْتَارِ ذَاتِهِ الطَّاهِرَةَ وَأَصْطَفَاها ، وَأَدَّى أَمَانَةَ اللهِ وَوَقَّأها ،
 ورأى الْخَلَائِقَ عَلَى شَفَى الْمَتَأَلِّفِ فَتَلَفَّأها ، وَتَبَعَ أَدْوَاءَ الضَّلَالِ فَشَفَّأها ، وَمَحَا مَعَالِمَ
 الْجَهْلِ وَعَقَّأها ، وَشَادَ لِلْخَلْقِ فِي الْحَقِّ بُنْيَانًا . مؤيدًا بِالْمُعْجِزَاتِ التي حُجِّجُهَا تُقْبَلُ
 وَتُسَلِّمُ : فَمَنْ جَدَعَ لِفِرَاقِهِ يَتَأَلَّمُ ، وَجَمَادٍ بِصِدْقِ نُبُوَّتِهِ يَتَكَلَّمُ ، وَجَيْشٍ شَكَا الظَّمَّ
 فَفَجَّرَ لِيَدَيْهِ الْمَعِينِ مِنْهُ بَنَانًا . وَأَيُّ مُعْجِزَةٍ كَكِتَابِ اللهِ الَّذِي لَا تَقْضِي عَجَائِبُهُ ،
 فَهُوَ الْيَمُّ وَالْعُلُومُ النَّافِعَةُ كُلُّهَا مَذَانُهُ ، وَأَفْقُ الْحَقِّ الَّذِي تَهْدِي فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
 كَوَاكِبُهُ ، وَالْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ التي أَصْبَحَتْ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فُرْقَانًا . فَأَشْرَقَتْ الْأَرْضُ
 بِنُورِ رَبِّهَا وَأَيَاتِهِ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ اللهِ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ، وَبَلَغَ مُلْكُ أُمَّتِهِ
 مَا زَوَى لَهُ مِنْ أَقْطَارِ الْمَعْمُورِ وَجِهَاتِهِ ، حَتَّى عَمَرَ مِنْ أَكْوَافِ الْبَسِيطَةِ ، وَأَرِيفِ
 الْبِحَارِ الْمُحِيطَةِ ، وَهَادَا وَكُنَّابَنَا . وَنَقَلَتْ كُنُوزُ كَسْرَى بِعِزِّ دَعْوَتِهِ الْغَالِبَةِ ، وَظَفِرَتْ
 بِفَلَجِ الْخِصَامِ أَيُّدِي عِزَائِمِهَا الْمُطَالِبَةِ ، وَأَصْبَحَ إِيوَانُ فَارَسِ مَجْرِمَاتِ الْعَرَبِ
 الْعَارِبَةِ ، وَقَدَفَتْ جُنُودَ قَيْصَرَ مِنْ ذَوَائِلِهَا بِالشُّهْبِ الثَّاقِبِ ، حَتَّى فَرَّ عَنْ مَدْرَتِهِ الطَّيْبَةِ

أثبأ بالصَّفقة الخائبه ، وخلصت إلى فسْطاطِ مصر بكتائبها المتعاقبه ، فلا تسمعُ
الإذانب في إقامتهم إلا إقامةً وأذاناً . ولا دليل أظهر من هذا القَطْر الأندلسيِّ
الغريب الذي خلصت إليه سيوفها أثباج البحار ، على بُعد المراحل ونزوح الديار ،
وتكأف العمالات واختلاف الأمصار ، ومُنقَطع العِمارة بأفضى الشمال ومحط السفار ،
طلعت عليه كلمة الله طُلوعَ النهار ، وأستوطنته قبائل العرب الأحرار ، وأرغمت فيه
أنوف الكفار ، ضراباً في سبيل الله وطعانا .

ولمَّا استقام الدين ، وتمَّ معالم الإيمان الرسول الأمين ، وظهر الحقُّ الميسن ،
وراق من وجه المِلَّة الخنيفة السَّمحة الجيين ، وأخذ المسالك والمآخذ الإفصاح
والتبين ، وتفقرت المستندات المعتمدات سنةً وقرآناً ، أشعره الوحي بالرحلة
عن هذه الدار ، والانتقال إلى محلِّ الكرامة ودار القرار ، وخيره الملكُ فاختار الرفيقَ
الأعلى موفقاً إلى كرم الاختيار ، [و] وجد صحبه رضى الله عنهم في الاستخلاف بعده
والإيثار مجباً مشرقة الأنوار ، أطلقت بالحق يداً وأنطقت بالصدق لسانا .
صلَّى الله عليه وعلى آله وصحابه ، وأسرته الطاهرة وعصابته ، وأنصاره وأصحابه
وقرآته ، الذين كانوا في معاصدته إخوانا ، وعلى إعلاء إمرة الحقِّ أعوانا . نجوم
المِلَّة وأقمارها ، وغيوثها الهامية وبحارها ، وسيوفِ الله التي لا تثبو سفارها ، وأعلام
الهدى التي لا تبلى آثارها ، ودعائم الدين التي رفعت منه على البر والتقوى أركاناً .

وحياً لله وجوه حتى الأنصار بالنعيم والنضرة ، أولى البأس عند الحفيظة والعفو
عند القدره ، الراضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ويذهبوا برسولِ الله صلى الله
عليه وسلم فنعمت المتقبة والأثره ، الحائزون ببيعة الرضوان فضلاً من الله ورضوانا .
ووزرائه وظهراؤه في كل أمر ، وخالصته يوم أحد وبدر ، لم يزالوا صدرا في كلِّ

قَلْبٍ وَقَلْبًا فِي كُلِّ صَدْرٍ ، يَصَلُونَ دُونَهُ كُلِّ جَمْرٍ ، وَيَفِدُونَهُ بِنُفُوسِهِمْ فِي كُلِّ سِرٍّ
 وَجَهْرٍ ، وَيَعْمَلُونَ فِي إِعْلَاءِ دِينِهِ بِيَضَاءِ عِضَابًا وَسُمْرًا لِدَانَا . صَلَاةٌ لَا تَزَالُ سَحَابَهَا
 ثَرَّةٌ ، وَنَحِيَّةٌ دَائِمَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ ، مَا لَهَجَتْ الْأَلْسُنُ بِثَنَائِهِمْ ، وَوَقَفَتِ الْمَفَاحِرُ عَلَى عَلَيَانِهِمْ ،
 وَتَعَلَّمَتِ الْمَوَاهِبُ مِنْ آلَانِهِمْ ، وَقَصُرَتِ الْحَامِدُ عَلَى مُسَمِّيَاتِهِمْ وَأَسْمَائِهِمْ ، وَكَانَ
 حُبُّهُمْ عَلَى الْفُوزِ بِالْحِنَةِ صَمَانًا .

وَسَأَلْتُكَ اللَّهُمَّ لِهَذَا الْأَمْرِ النَّصْرِيَّ الَّذِي سَبَبَهُ بِسَبَبِهِمْ مُؤْصُولٌ ، وَهَمُّ لِفُرُوعِهِ
 السَّامِيَةِ أُصُولٌ ، فَيَالَهَا مِنْ نُصُولٍ خَلَقْتَهَا نُصُولٌ ، أَنْجَزْتَ وَعَدَّ النَّصْرَ وَهُوَ نَمَطُولٌ ،
 وَأَحْيَيْتَ رُبُوعَ الْإِيمَانِ وَهِيَ طُلُولٌ ، نَصْرًا عَزِيزًا وَقَتْحًا مَبِينًا ، وَتَأْيِيدًا عَلَى أَعْدَائِكَ
 وَتَمَكِينًا ، وَمُلْكًا بَاقِيًا فِي الْأَعْقَابِ وَأَعْقَابِ الْأَعْقَابِ وَسُلْطَانًا . وَأَعِنَّا اللَّهُمَّ عَلَى
 مَا أَوْجَبَتْ لَهُ مِنْ مَفْرُوضِ الطَّاعَةِ ، وَتَأْدِيَةِ الْحَقِّ بِجَهْدِ الْإِسْتِطَاعَةِ ، وَأَعِصِمْنَا
 بِبَيَابِنِهِ الْعَادِلَةِ مِنَ الْإِضَاعَةِ ، وَأَحْمِلْنَا مِنْ مَرْضَاتِهِ عَلَى سَنَنِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَاجْعَلْهَا
 كَلِمَةً بَاقِيَةً إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ﴿ وَأَعْفُ عَنَّا وَأَغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا ﴾ .

أَمَّا بَعْدَ مَا أَفْتَتِحُ بِهِ مِنْ تَحْمِيدِ اللَّهِ وَتَمْجِيدِهِ ، وَالشَّاءِ الَّذِي تَتَعَطَّرُ الْأَنْدِيَّةُ بِتَرْيْدِهِ ؛
 فَإِنَّ مِنَ الْمَشْهُورِ الَّذِي يَعْبُضُهُ الْوُجُودُ وَيُؤَيِّدُهُ ، وَالْمَعْلُومِ الَّذِي هُوَ كَالشَّمْسِ ضَلَّ
 مِنْ يُنْكِرُهُ أَوْ يُنْحَدُّهُ ، وَالذَّائِعِ بِكُلِّ قَطْرٍ تَرْوِيهِ رُؤَاةُ الْأَنْبِيَاءِ وَتُسْنِدُهُ ؛ مَا عَلَيْهِ هَذَا
 الْمَلِكُ النَّصْرِيُّ الْحَمِيُّ ، الْأَنْصَارِيُّ الْمُتَمَتِّعِيُّ ؛ الَّذِي يُصِيبُ شَاكِلَةَ الْحَقِّ إِذَا رَمَى ،
 وَيَعْمُ الْعِبَادَ وَالْبِلَادَ غَيْثُهُ مَهْمَا هَمَّى ؛ مِنْ أَصَالَةِ الْأَعْرَاقِ ، وَكَرَمِ الْأَخْلَاقِ ؛
 وَالْفَضْلِ الْبَاهِرِ الْإِشْرَاقِ ، وَالْجِهَادِ الَّذِي هُوَ سَمَرُ الرَّكْبِ وَحَدِيثُ الرَّفَاقِ ؛ وَأَنَّ قَوْمَهُ
 الْمُلُوكَ الْكِرَامَ إِنْ فُوجِرُوا بِنَسَبِ ذَكَرُوا سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ وَمَجْدَهُ ، أَوْ كُوثِرُوا بَعْدَ غَلْبُوا
 بِاللَّهِ وَحَدَّهُ ، أَوْ اسْتَنْصَرُوا فَزَجُّوا كُلَّ شَدَّةٍ ، وَاسْتَظْهَرُوا مِنْ [عِزِّهِمْ] ^(١) الْمَوْهُوبِ ،

وَصَبْرُهُمْ عَلَى الخُطُوبِ ، بِكُلِّ عَدَدٍ وَعُدَّةٍ ؛ دَارَهُمُ النَّغْرُ الْأَقْصَى وَنِعْمَتِ الدَّارِ ،
وَشِعَارُهُمْ « لَا غَالِبَ إِلَّا اللَّهُ » وَنِعْمَ الشَّعَارُ ؛ زُهَادٌ إِذَا ذُكِرَ الدِّينُ ، أَسْوَدٌ إِذَا حَمِيَتْ
الْمِيَادِينُ ؛ جِبَالٌ إِذَا زَحَفَتِ الصُّفُوفُ ، بُدُورٌ إِذَا أَظْلَمَتِ الرَّجُوفُ ؛ غِيُوثٌ إِذَا
مُنِعَ الْمَعْرُوفُ ، أَفْرَادٌ إِذَا ذُكِرَتِ الْأُلُوفُ ؛ إِنْ بُوِيَعُوا فَاَلْمَلَاكَةُ وَفُؤِدُ [وَحِمْلَةُ الْعِلْمِ] ^(١)
وَحِمْلَةُ السَّلَاحِ شُهُودٌ ؛ وَإِنْ وَلَدُوا فَالسُّيُوفُ تَمَاضٍ ، وَالسُّرُوحُ مُهُودٌ ، وَإِنْ أَحْمَرُوا
لِلْعُدُوِّ فَالظُّلَالُ بُنُودٌ ، وَجُنُودُ السَّبْعِ الطَّبَاقِ جُنُودٌ ، وَإِنْ أَظْلَمَ اللَّيْلُ أَسْهَرُوا جُفُونَهُمْ
فِي حِيَاطَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالْجُفُونُ رُقُودٌ .

وَإِنَّ هَذَا الْقَطْرَ الَّذِي آتَيْتُ سَيْلَ الْفَتْحِ الْأَوَّلِ إِلَى نَاحِيَتِهِ ، وَأُجِيلَتْ قِدَاحُ
الْفُوزِ بِالذُّعُوةِ الْحَقِيقِيَّةِ عَلَى الْأَقْطَارِ فَأَخَذَ الْإِسْلَامُ بِنَاصِيَتِهِ ؛ كَانَ مِنْ فَتْحِهِ الْأَوَّلِ
مَاقِدُ عِلْمٍ ، حَسَبَ مَاسْطَرٍّ وَرُسْمٍ ؛ وَإِنَّ مُوسَى بْنَ نَصِيرٍ وَفَتَاهُ ، حَلَّ مِنْ فُرْضَةٍ بِمَجَازِهِ
مَحَلَّ مُوسَى وَفَتَاهُ ؛ وَحَلَّ الْإِسْلَامُ مِنْهُ دَارَ قَرَارٍ ، وَخِطَّةَ خَلِيقَةٍ بَارْتِيَادٍ وَأَخْتِيَارٍ ؛
وَبَلَدًا لَا يُحْصَى خَيْرُهُ ، وَلَا يُفْضَلُهُ شَيْءٌ مِنَ الْمِزِيَّةِ مَاعِدَا الْحَرَمَيْنِ غَيْرُهُ ؛ وَأَمْتَدَّتْ
الْأَيَّامُ حَتَّى تَأْتِيَ الْعُدُورُ لِرُوعَتِهِ ، وَخَفَّ عَلَيْهِ مَا كَانَ مِنْ صَرَعَتِهِ ؛ وَقَدَحَ فَأَوْرَى ،
وَأَعْضَلَ دَاوَاهُ وَأَسْتَشْرَى ، وَصَارَتِ الصُّغْرَى الَّتِي كَانَتْ الْكُبْرَى ؛ فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَمَدَ
الدِّينِ مِنْهُمْ بِالْعُمْدَةِ الْوَثِيْقَةِ ، حُمَاةَ الْحَقِيقَةِ ، وَأُمَّةَ الْخَلِيقَةِ ، وَسُلَالَةَ مَفْتِيْحِي الْيَمَامَةِ
وَمَفْتِيْحِي الْحَدِيقَةِ ، لِأَجْهَازِ النَّصْلِ ، وَأَجْتَمَعَتْ مِنَ الدِّينِ الْفِرْعُ وَالْأَصْلُ ؛ لَكُنْهُمْ
أَتْتَدَبُوا إِلَى إِمْسَاكِ الدِّينِ بِهَا أَتْتَدَابَا ، وَوَصَلُوا لِلْإِسْلَامِ أَسْبَابَا ؛ وَتَنَاطَلَهَا مِنْهُمْ صَقْرُ
قَيْسِ الْخَزْرَجِ ، ذُو الْحُسَامِ الْمُضَرِّجِ ، وَالنَّاءِ الْمَوْرِجِ ؛ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْغَالِبُ بِاللَّهِ مُحَمَّدُ
أَبْنِ يُوسُفَ بْنِ نَصْرٍ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ ، الْمَتَدَبِّ لِإِقَامَةِ سُنَّةِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، قُدُوةُ الْمُلُوكِ
الْمُجَاهِدِينَ : نَصَّرَ اللَّهُ وَجْهَهُ وَتَقَبَّلَ جِهَادَهُ ، وَشَكَرَ دِفَاعَهُ عَنِ حَوْزَةِ الْإِسْلَامِ

[وَجَلَادَهُ ، فَأَقْشَعَتِ الظُّلْمَةَ ، وَتَمَاسَكَتِ الأُمَّةُ ؛ وَكَفَّ العَدُوُّ وَأَقْصَرَ ، وَرَأَى
الإسلامُ بِنِ اسْتَنْصَرَ ، وَاسْتَبْصَرَ فِي الطَّاعَةِ] ^(١) مِنْ اسْتَبْصَرَ ؛ وَهَبَّتْ بِنَصْرِ الله
العَزَائِمُ ، وَكَثُرَتْ عَلَى العَدُوِّ المَهْزَائِمُ ؛ وَتَوَارَتْ مُلْكُهَا وَلَدَا عَنْ أَب ، مَسْتَنْدِينَ
إِلَى عَدْلٍ وَبَدَلٍ وَبَسَالَةٍ وَجَلَالَةٍ وَحَسَبٍ ؛ تَتَّضِحُ فِي أَفْقِ الجَلَالِ نَجْمٌ سِيرِهِمُ هَادِيَةٌ
للسَّائِرِينَ ، وَتَفْرَقُ مِنْ سَطَوَاتِهِمْ فِي اللهِ أَسْوَدُ العَرِينِ ؛ إِلَى أَنْ قَامَ بِالأَمْرِ وَسَطِي
سِنِّكَهُمْ ، وَبِرُكَّةٍ مُلْكِهِمْ ؛ الخليفةُ الواجبُ الطَّاعَةَ بِالْحَقِّ عَلَى الخَلْقِ ، الشَّهِيرُ
الجَلَالَةُ وَالْبَسَالَةُ فِي الغَرْبِ وَالشَّرْقِ ، أَمِيرُ المُسْلِمِينَ بِوَجِبِ الحَقِّ ؛ سَاحِبُ أَذْيَالِ
العَقَافِ وَالطَّهَارَةِ ، السَّعِيدُ الإِيَالَةَ وَالإِمَارَةَ ، البَعِيدُ الغَارَةَ ؛ مَنْ دُعِيَ العَدُوُّ لِبَاسِ
حُسَامِهِ ، وَذُخِرَ الفَتْحُ الهِنِيُّ لِأَيَّامِهِ ؛ صَدْرُ المُلُوكِ المَجَاهِدِينَ ، وَكَبِيرُ الخُلَفَاءِ العَادِلِينَ ،
البَعِيدُ المَدَى فِي حِمَايَةِ الدِّينِ ؛ السَّعِيدُ الشَّهِيدُ ، أَبُو الوَلِيدِ ، ابْنُ المَوْلى الهَامِ الأَوْحَدِ ،
الرَّفِيعُ المَجْدُ ؛ الطَّاهِرُ الظَّاهِرُ الأَعْلَى ، الرَّئِيسُ الكَبِيرُ الجَلِيلُ المَقْدَسُ الأَرْضِي ؛
« أبا سَعِيدٍ » بِنِ أَبِي الوَلِيدِ ، بِنِ نَصْرٍ . فَأَحْيَا رَحِمَهُ اللهُ مَعَالِمَ الكِتَابِ وَالسَّنَةِ ،
وَجَلَّى بُنُورَ عَدْلِهِ غِيَابَ الدُّجْنَةِ ؛ وَأَعَزَّ الإِسْلَامَ وَحَمَاهُ ، وَرَمَى ثَغْرَةَ الكُفْرِ فَأَضْمَاهُ ؛
قَدَسَ اللهُ رُوحَهُ الطَّيِّبَ ، وَسَقَى لِحَدِّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ الغَمَامَ الصَّيِّبَ ؛ وَأَوْرَثَ المُلْكَ
الجِهَادِيَّ مِنْ وَلَدِهِ خَيْرِ مَلِكٍ قَبْلَتْ مِنْهُ كَفِّ ، وَاسْتَدَارَ بِهِ مَوْكِبُ الجِهَادِ مُلْتَفًّا ؛
وَشَمَخَ بِجَدْمَتِهِ أَنْفَ ، وَسَمَا إِلَى مَشَاهِدَتِهِ طَرْفَ ؛ وَتَأَرَّجَ مِنْ ذَكَرِهِ عَرَفَ ، وَجَرَى
إِلَى بَابِهِ حَرْفَ ؛ مَوْلَانَا المَلِكُ الهَامُ ، الخليفةُ الإِمَامُ ؛ مِنْ أَشْرَقَ بُنُورُ إِيَالَتِهِ الإِسْلَامِ ،
وَتَشَرَّفَتْ بِوَجُودِهِ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامُ ؛ بَدُرُ المُلْكِ وَشَمْسُهُ ، وَسِرُّ الزَّمَانِ الَّذِي قَصُرَ عَنْ
يَوْمِهِ أَمْسُهُ ؛ الَّذِي أَشْتَهَرَ عَدْلُهُ ، وَبَهَرَ فَضْلُهُ ، وَظَهَرَتْ عَلَيْهِ عِنَايَةُ رَبِّهِ ، وَكَانَ
الْخُضُوعَ لَهُ فِي سَلْمِهِ وَحَرْبِهِ ؛ مَوْلَانَا أَمِيرُ المُسْلِمِينَ ، وَقُدُوةُ المُلُوكِ المَجَاهِدِينَ وَالْأُمَّةِ

(١) الزيادة عن ريجانة الكتاب لأبن الخطيب وهي لازمة لاستقامة الكلام .

العارفين ؛ السعيد ، الشهيد ؛ الطاهر ، الظاهر ؛ الأوحى الهمام ، الخليفة الإمام (أبو المحجاج) رفع الله درجته في أوليائه ، وحشره مع الذين أنعم عليهم من أنبيائه وشهادته ؛ فوضعت المسالك وبانت ، وأشرق المعاهد وأزدانت ؛ وشمل الصنع الإلهي واللطف الخفي أقطار هذه الأمة حيث كانت . ولما اختار الله له ماعنده ، وبلغ الأمد الذي قدره سبحانه حياته وحده ؛ وقبضه إليه مستغفرا لذنبه ، مطمئنا في الحالة التي أقرب ما يكون العبد فيها من ربه ؛ كانما تأهب للشهادة [فاختار] مكانها وزمانها ، وطهر بالصوم نفسه التي كرم الله شأنها ، وطيب روحها وريحانها ؛ فوقعت آراء أرباب الشورى التي تصح الإمامة باتفاقها ، وتتعد بعقد ميثاقها : من أعلام العلم بقاعدة [ملكه] غرناطة حرمها الله تعالى التي غيرها لها تبع ، ومحاة الإسلام الذين في آرائهم للدين والدنيا منتفع ؛ وخصان الثقات ، ووجوه الطبقات ، على مبايعة وارث ملكه بحقه ، الحائز في ميدان الكمال وإحراز مال الإمامة من الشروط وإللال خصل سببه ؛ كبير ولده ، وسابق أمده ؛ ووارث ملكه ، ووسطى سلوكه ؛ وعماد قسطاطه ، وبدر الهالة من بساطه ؛ مولانا قمر العلياء ، ودرة الخلفاء ، وفرع الشجرة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ؛ الذي ظهرت عليه مخايل الملك ناشئا ووليدا ، وأستشعرت الأقطار به وهو في المهدي أمانا وتهيدا ؛ وأستشرف الدين الحنيف فأتلع جيدا ، وأستأنف شبابا جيدا ؛ ناصر الحق ، وغياث الخلق ؛ الذي تميز بالسكينة والوقار ، والحياء المنسدل الأستار ، والبسالة المرهوبة الشفار ؛ والجود المنسكب الأمطار ، والعدل المشرق الأنوار ؛ وجمع الله فيه شروط الملك والإختيار ، مولانا ، وعمدة ديننا ودنيانا ؛ السلطان الفاضل ، والإمام العادل ؛ والهمام الباسل ، الكريم الشامل ؛ شمس الملك وبدره ، وعين الزمان وصدره ؛ أمير المسلمين ، وقوة أعين المؤمنين ، أبو عبد الله : وصل الله أسباب سعده ، كما حل على أجياد

المنابر بالدعاء لمجده؛ وجعل جنود السماء من جنده، ونصره بنصره العزيز فما النصر إلا من عنده؛ ورأوا أن قد ظفرت بالعروة الوثقى أيديهم، وأمن في ظل الله رايحهم وغاديتهم، ودلت على حُسن الخواتم مباديتهم؛ فتبادروا وأثألوا، وتجتروا في ملايس الأمن وأختالوا؛ وهبوا إلى بيعته تطيرهم أجنحة السرور، ويعلن أنطلاق وجوههم بانسراح الصدور؛ واجتمع منهم طوائف الخاصة والجمهور:

ما بين الشريف والمشروف، والرؤساء أولى المنصب المعروف؛ وحملة العلم وحملة السيف، والأمناء ومن لديهم من الأئوف، وسائر الكافة أولى البدار لمثلها والخفوف؛ فعدوا له البيعة الوثيقة الأساس، السعيدة بفضل الله على الناس، البريء عهدتها من الارتباب والالتباس؛ الحائزة شروط الكمال، الماحية بنور البيان ظلم الإشكال؛ الضمينة حسن العقبي ونجح المال، على ما يوبع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن له من الصحابة والآل؛ وعلى السمع والطاعة، وملازمة السنة والجماعة؛ فأيديهم في السلم والحرب ردة ليد، وطاعتهم إليه خالصة في يومه وعدة؛ وأهواؤهم متفقة في حالي الشدة والرخاء، وعقودهم محفوظة على تدابير السراء والضراء؛ أشهدوا عليها الله وكفى بالله شهيدا، وأعطوا صفقات أيمانهم تثبيتا للوفاء بها وتأكيذا، وجعلوا منها في أعناقهم ميثاقا وثيقا وعهدا شديدا؛ والله عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. ومن أصدق من الله وعدا أو وعيدا. وهم قد بسطوا أيديهم يستزرون رحمة الله بالإخلاص والإنابه، وصرفوا وجوههم إلى من أمرهم بالدعاء ووعدهم بالإجابة؛ يسألونه خير ما يقضيه، والسير على ما يرضيه.

اللهم بآبك عند تقلب الأحوال عرفنا، ومن بحر نعمك العميمة آغترفنا، وعفوك ستر من عيوبنا كل ما آجرتحنا وآقترفنا؛ ومن فضلك أغيتتنا، وبعينك التي

لَاتتأَمُّ حُرْسَتَنَا وَحِمِيَّتَنَا [فَانصُرْ حِينَا وَأَرْحَمِ مِيَّتَنَا] ^(١) وَأَوْزِعْنَا شُكْرَ مَا أَوْلَيْتَنَا؛ وَأَجْعَلْ لَنَا الْخَيْرَ وَالْخَيْرَةَ فِيمَا إِلَيْهِ هَدَيْتَنَا .

اللَّهُمَّ إِنَّ قَطْرَنَا مِنْ مَادَّةِ الْإِسْلَامِ بَعِيدٌ ، وَقَدْ أَحْدَقَ بِنَا بِحَرْزِ زَاخِرٍ وَتَدْوِشٍ شَدِيدٍ ، وَفِينَا أَيْمٌ وَضَعِيفٌ وَهَرِمٌ وَوَيْدٌ [وَأَنْتَ مَوْلَانَا وَنَحْنُ عَيْبِدُ .

اللَّهُمَّ مَنْ بَايَعْنَا فِي هَذَا الْعَقْدِ ^(١) فَاسْعِدْنَا بِمُبَايَعَتِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَكُنْ لَهُ حَيْثُ لَا يَكُونُ لِنَفْسِهِ بَعْدَ اسْتِنْفَادِ جُهِدِهِ فِي التَّحْقِظِ وَاسْتِطَاعَتِهِ ؛ وَكُفِّ عَنْهُ كَفَّ عَدُوِّكَ وَعَدُوِّهِ كُلِّمَا هَبَّتْ بِهِ رِيَّاحُ طَاعَتِهِ ؛ يَا مَنْ يُفْرِدُهُ الْعَبْدُ بِضِرَاعَتِهِ ، وَيُعَوِّذُ بِحِفْظِهِ مِنْ إِضَاعَتِهِ .

اللَّهُمَّ أَدْعِنَا حَقَّهِ فَإِنَّا لَا نَقْوَى عَلَى إِدَائِهِ ، وَتَوَلَّ عَنَّا شُكْرَ مَا حَمِدْنَا مِنْ سِيرَتِهِ وَسِيرَةِ آبَائِهِ ، وَأَحْمِلْهُ مِنْ تَوْفِيقِكَ عَلَى سَوَائِهِ .

اللَّهُمَّ إِنَّا إِلَيْهِ نَاطِرُونَ ، وَعَنْ أَمْرِهِ صَادِرُونَ ، وَإِلْإِنْجَازِ وَعْدِكَ فِي نَصْرِ مَنْ يَنْصُرُكَ مَسْتَظِرُونَ ؛ فَاعِنَهُ عَلَى مَاقَلَدَتِهِ ، وَأَنْجِزْ لِدِينِنَا عَلَى يَدَيْهِ مَا وَعَدْتَهُ ؛ فَافْقَدْ شَيْئًا مِنْ وَجَدِكَ ، وَلَا خَابَ مِنْ قَصْدِكَ ، وَلَا ضَلَّ مِنْ اعْتِمَادِكَ ، آمِينَ آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ .

وكتب الملاء المذكورون أسماءهم بخطوط أيديهم في هذا الكتاب ، شاهدة عليهم بما ألتزموه دنيا وديننا ، وسلكوا [منه] سبيلاً ميبنا ؛ وذلك في الثاني والعشرين لشوال من عام خمس وخمسين وسبعمائة .

قلت : وقد أخبر آخر هذه البيعة بأن المبايعين للسلطان تؤخذ خطوط أيديهم في كتاب البيعة شاهدة عليهم بما بايعوا عليه . والظاهر أن كتابة البيعة عندهم كما في مكاتباتهم في طومار واحد كبير متضابق السطور ، وأنه ليس له طرة بأعلاه كما في كتابة المصريين .

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لأبن الخطيب .

الباب الثالث

من المقالة الخامسة في العهود، وفيه فصلان

الفصل الأول

(في معنى العهد)

العهد لفظ مشترك يقع في اللغة على ستة معانٍ :

أحدها - الأمان . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ .

الثاني - اليمين . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ .

الثالث - الحفظ . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : " حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ " .

الرابع - الذمة . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم " لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِي عَهْدِهِ " .

الخامس - الزمان . ومنه قولهم : " كَانَ ذَلِكَ عَلَىٰ عَهْدِ فُلَانٍ " .

السادس - الوصية . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسَىٰ ﴾ وهو المراد هنا .

قال الجوهري : ومنه اشتق العهد الذي يُكْتَبُ لِلْوَلَاةِ ^(١) .

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «ولم سابع» وهو قولهم في الدعاء لللك بعد موته : سقى الله عهده

برحمته أى مكانه المدفون فيه يسقى بالرحمة . فصح أن يطلق على الزمان والمكان .

الفصل الثاني

(في بيان أنواع العهود ، وهي ثلاثة أنواع)

النوع الأول

(عهود الخلفاء عن الخلفاء ، ويتعلق النظر به من ثمانية أوجه)

الوجه الأول

(في أصل مشروعيتها)

والأصل في ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر رضى الله عنهما ، أنه قيل لعمر عند موته "ألا تعهد؟" فقال: ألتجمل أمركم حيا وميتا؟ إن استخلف فقد استخلف من هو خير مني ، [يعني أبا بكر] ^(١) : وإن أترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله صلى الله عليه وسلم . فأثبت استخلاف أبي بكر رضى الله عنه بذلك ، مشيراً إلى ما روى : "أنه لما أشدَّ بأبي بكر الصديق رضى الله عنه الوجع ، أرسل إلى علي وعثمان ورجال من المهاجرين والأنصار ، فقال : قد حضر ما ترون ، ولا بد من قائم بأمركم ، فإن شئتم استخرتم لأنفسكم ، وإن شئتم استخرتكم لكم . قالوا : بن اختر لنا ، فأمر عثمان فكتب عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه (على ماسياتي ذكره) - فقال عمر : لا أطيق القيام بأمر الناس - فقال أبو بكر ها تواسيني ! وتهده فانقاد عمر ، ثم دخل عليه طلحة فعاتبه على استخلاف عمر . فقال : إن عمر والله خير لكم وأتم شره ، والله لو وليتكم لجلعت أنفك في فمك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها . أتيتني وقد وكفت عينك ، تريد أن تفتني عن ديني

(١) الزيادة من صحيح مسلم (ج ٢ ص ٨٠) .

وَتَرَدَّنِي عَنْ رَأْيِي ، قُمْ لِأَقَامَ اللَّهُ رِجْلَكَ ، وَاللَّهِ لَئِنْ بَلَغَنِي أَنَّكَ عَمَّصْتَهُ وَذَكَرْتَهُ بِسُوءٍ
لِلْأَلْحَقِّكَ بِمَحْضَاتٍ قُنَّةٍ حَيْثُ كُنْتُمْ تُسْتَعَوْنَ وَلَا تَرَوُونَ ، وَتَرَعُونَ وَلَا تَسْمَعُونَ ، وَأَنْتُمْ
بِذَلِكَ يَجْحُونَ رَاضُونَ ، فِقَامَ طَلْحَةَ نُفْرَجَ ” .

قال العسكري : المحمضات جمع تممضة ضرب من التبت ، والفنة أعلى الجبل .

قال الماوردي : وكان استخلاف أبي بكر رضي الله عنه عمر باتفاق من الصحابة
من غير تكبير فكان إجماعا .

وقد عهد عمر رضي الله عنه إلى ستة ، وهم عثمان ، وعلي ، وطلحة ، والزبير ،
وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وتركها شورى بينهم ، فدخلوا فيها
وهم أعيان العصر وأشرف الصحابة رضوان الله عليهم .

الوجه الثاني

(في معنى الاستخلاف)

قال البغوي رحمه الله في كتابه ” التهذيب ” في الفقه : الاستخلاف أن يجعله
خليفة في حياته ثم يحلّفه بعده . قال : ولو أوصى بالإمامة فوجهان : ^(١) لأنه يخرج
بالموت عن الولاية فلا يصح منه تولية الغير . وأستشكل الرافعي رحمه الله هذا
التوجيه بكل وصية ؛ وبأن ما ذكره من جعله خليفة بعده : إن أريد به استنابته
فلا يكون ذلك عهدا إليه بالإمامة . وإن أريد جعله إماما في الحال ، فهو :
إماما خلع نفس العاهد ، وإماما أجمع إمامين في وقت واحد . وإن أريد جعله خليفة
أو إماما بعد موته فهو الوصية من غير فرق .

(١) أي وأصحهما عنده عدم الجواز . بدليل التعليل .

قلت : وهذا جُنوحٌ من الرافعي رحمه الله إلى صحّة الخلافة بالوصية أيضا ،
 (١) كما تصح بالإستخلاف .

الوجه الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته)

وأعلم أنه يجب على الكاتب أن يرعى في كتابة العهد بالخلافة أمورا :

منها - براءة الإستهلال بذكر ما يتفق له : من معنى الخلافة والإمامة
 وأشتقاقيهما ، وحال الولاية ، ولقب العاهد والمعهود إليه ، ولقب الخلافة ، إلى غير
 ذلك مما سبق بيانه في الكلام على البيعات .

ومنها - أن يُنبّه على شرف رتبة الخلافة ، وعُلُو قدرها ، ورفعة شأنها ، ومسيس
 الحاجة إلى الإمام ، ودعاية الضرورة إليه ، ونحو ذلك مما سبق في البيعات أيضا .

ومنها - أن يُنبّه على اجتماع شروط الإمامة في المعهود إليه من حين صدور
 العهد بها من العاهد ، فقد قال الماوردي : إنه تُعتبر شروط الإمامة في المعهود
 إليه من وقت العهد ، حتى لو كان المعهود إليه صغيراً أو فاسقاً وقت العهد وبالغا
 [عدلاً] عند الموت ، لم تصح خلافته حتى يستأنف أهل الاختيار بيعته . قال
 الرافعي رحمه الله : وقد يتوقف في هذا . قال النووي رحمه الله في "الروضة" :
 لا يتوقف . والصواب ما قاله الماوردي .

ومنها - أن يُنبّه على اجتهاد العاهد وتروى نظره في حقبة المعهود إليه : فقد
 قال الماوردي : وإذا أراد الإمام أن يعهد بالإمامة ، فعليه أن يُجهد رأيه في الأحق
 بها ، والأقوم بشروطها ؛ فإذا تعين له الاجتهاد في أحد ، عهد إليه .

(١) في الأصول كما لا تصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من النسخ تأمل .

ومنها — أن يُسِير إلى تقدّم الاستخارة على العهد ، وأن استخارته أدته إلى المعهود إليه ؛ فإنّ الاستخارة أمرٌ مطلوب في كل أمر ، خصوصاً أمر المسلمين وعموم الولاية عليهم ، فإنّ اختيار الله للخلق خيرٌ من اختيارهم لأنفسهم ، والله يقول الحق وهو يهتدي السبيل .

ومنها — أن يَبَّه على أنّ عهده إليه بعد مشورة أهل الاختيار ومراجعتهم في ذلك ، وتصويهم له ، خروجاً من الخلاف . فقد حكى الرافعي رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهود إليه أجنبياً من العاهد ليس بولد ولا والد : هل يجوز أن ينفرد بعقد البيعة له وتفويض العهد إليه ولا يستشير فيه أحداً؟ أمّحهما الجواز : لأنّ العهد إلى عمر رضى الله عنه لم يُوقَف على رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنّ الإمام أحقُّ بها ، فكان اختياره فيها أمضى ، وقوله فيها أنفذ .

وحكى الماوردي في جواز أفراد العاهد بالبيعة فيما إذا كان المعهود إليه والداً أو ولداً ثلاثة مذاهب :

أحدها — ما اقتصر الرافعي رحمه الله على نسبته إلى الماوردي ، ومقتضى كلامه ترجيحه : أنه يجوز الأفراد بعقدها للولد والوالد جميعاً : لأنه أمير للأمة نافذ الأمر لهم وعليهم ؛ فغلب حكم المنصب على حكم النسب ؛ ولم يجعل للتهمة طريقاً على أمانته ، ولا سبيلاً إلى معارضته .

والثاني — أنه لا يجوز أفرادها بها لولد ولا والد حتى يُساور فيه أهل الاختيار فيرونه أهلاً لها ، فيصح منه حينئذ عقد البيعة : لأن ذلك [منه] تركية [له] تجرى مجرى الشهادة ، وتقليده على الأمة يجرى مجرى الحكم ؛ والشهادة والحكم ممنعان من الولد والوالد للتهمة ، لما جيل عليه من الميل إليهما .

والثالث — أنه يجوز أن ينفرد بعقد البيعة لوالده دون ولده : لأنَّ الطبع إلى الولد أميل ؛ فأما عقدها لأخيه وغيره من الأقارب والمناسيين فكتمدها للأجانب في جواز الأفرادِ بها .

ومنها — أن يئنه على العلم بحياة المعهود إليه ووجوده إن كان غائبا . فقد قال الماوردي : إنه لو عهد إلى غائب مجهول الحياة لم يصحَّ عهده ، وإن كان معلوم الحياة صح ، ويكون موقوفا على قُدومه .

ومنها — أن يئنه على أن المعهود إليه منصوص عليه بمفرده ، أو وقع العهد شورى في جماعة وأفضت الخلافة إلى واحدٍ منهم بإخراج الباقيين أنفسهم منها ، أو اختيار أهل الحل والعقد أحدهم : إذ يجوز للخليفة أن يعهد إلى اثنين فأكثر من غير تقديم البعض على البعض ؛ ويختار أهل الاختيار بعد موته واحداً من عهد إليه : فإنَّ عمر ابن الخطاب رضی الله عنه جعلها شورى في ستة ، فقال : الأمر إلى عليّ وبازائه الزبير بن العوام ؛ وإلى عثمان وبازائه عبد الرحمن بن عوف ؛ وإلى طلحة وبازائه سعد بن أبي وقاص . فلما توفى عمر رضی الله عنه ، جعل الزبير أمره إلى عليّ ، وجعل طلحة أمره إلى عثمان ، وجعل سعد أمره إلى عبد الرحمن بن عوف ؛ فخرج منها ثلاثة ، وبقیت شورى في عثمان وعليّ ؛ ثم بايع عليّ عثمان . والمعنى في الشورى انه لا يجوز أن يجعل الإمامة بعد العاهد في غير المعهود إليهم .

ومنها — أن يئنه على عدد المعهود إليهم وترتيبهم إن كان قد رتب الخلافة في أكثر من واحد ، إذ يجوز أن يعهد إلى اثنين فأكثر على الترتيب . فلورتب

(١) أي بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفي كتاب الأحكام السلطانية للواردی فصارت الشورى بعد الستة في هؤلاء الثلاثة وخرج منها أولئك الثلاثة ثم بعد الثلاثة في اثنين على عثمان .

الخِلافةَ في ثلاثةَ مثلاً - فقال : الخليفةُ بعدى فلان ، فإذا مات ، فالخليفةُ بعدهُ فلان ؛ [فإذا مات فالخليفةُ بعدهُ فلان] ^(١) كانت الخِلافةُ منتقلةً إليهم على ما رتَّبها . ففي صحيح البخارى من روايةِ ابنِ عمرَ رضى اللهُ عنهما ” أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم استخلفَ على حَيْشِ مُؤْتَةَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ - وقال : إِنْ أُصِيبَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَإِنْ أُصِيبَ فَعَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ ، فَإِنْ أُصِيبَ فَلِيْرْتِضِ الْمَسَامُونَ رُجُلًا ، فَتَقَدَّمَ زَيْدٌ فَقُتِلَ ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ جَعْفَرُ وَتَقَدَّمَ فَقُتِلَ ، فَأَخَذَ الرَّايَةَ عَبْدُ اللهِ بْنُ رَوَاحَةَ وَتَقَدَّمَ فَقُتِلَ ، فَأَخْتَارَ الْمَسَامُونَ بَعْدَهُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ ” . قال الماوردى : وإذا جاز ذلك في الإمارة جاز مثله في الخِلافةِ . قال : وقد عمِلَ بذلك في الدولتين من لم يُنكر عليه أحدٌ من علماء العصر :

فعهد سليمانُ بنُ عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز ؛ ثم بعده إلى يزيد بن عبد الملك ، وأقره عليه من عاصره من الناس ، ومن لا تأخذه في الله لومةُ لائم .
ورتَّبها الرشيدُ في ثلاثةٍ من بينه : الأمين ، ثم المأمون ، ثم المؤمن ، من غير مشورةٍ من عاصره من فضلاء العلماء .^(٢)

ولو قال العاهد : عهدتُ إلى فلان ، فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخِلافةِ إليه ، فالخليفةُ بعدهُ فلان ، لم تصحَّ خلافةُ الثانى ، ولم ينعقد عهدُهُ بها : لأنه لم يعهد إليه في الحال ، وإنما جعله ولىَّ عهده بعد إفضاء الخِلافةِ إلى الأول ، وقد يموت قبل إفضائها إليه فلا يكون عهدُ الثانى بها مُتبرِّما .

ومنها - أن يُنبه على أن صدور العهد في حال نفوذ أمر العاهد وجواز تصرفه ، فإنه لو أراد ولىَّ العهد قبل موت العاهد أن يُردَّ ما إليه من ولاية العهد إلى غيره

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٠ ويظهر أنها سقطت من قلم الناسخ .

(٢) في ” الأحكام السلطانية ” عن مشورة الخ حرر .

لم يُجْزَ : لأنَّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعد موت المستخلف . وكذا لو قال : جعلته ولىَّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إلىَّ لم يُجْزَ : لأنه ليس في الحال بخليفة ، فلم يصحَّ عهدُه بالخلافة .

ومنها — أن يُنبه على قبول المعهود إليه العهدَ ، فإنه إذا عهد الإمام بالخلافة إلى من يصحُّ العهدُ إليه على الشروط المعتبرة فيه ، كان العهدُ موقوفاً على قبول المعهودِ إليه : فإن قيل صحَّ العهدُ وإلا فلا ، حتى لو امتنع من القبول بوسع غيره . والعبرة في زمن القبول بما بين عهد العاهد وموته على الأصح ، لتنتقل عنه الإمامة إلى المعهود إليه مستقرّةً بالقبول المتقدم . وقيل : إنما يكون القبول بعد موت العاهد : لأنه الوقت الذي يصحُّ فيه نظرُ المعهودِ إليه .

ومنها — أن يُورد من وصايا العاهد للمعهود إليه ما يليق به . وقد ذكر الماوردي أن الذي يلزمه من أمور الأئمة عشرة أشياء :

أحدها — حفظُ الدين على أصوله المستقرّة ، وما أجمع عليه سلف الأئمة ، وأنه إن نجم مبتدع أو زاغ ذو شبهة عنه ، أوضح له الحجّة ، وبين له الصواب ، وأخذه بما يلزمه من الحقوق والحُدود : ليكون الدين محروساً من الخلل ، والأئمة ممنوعة من الزلل .

الثاني — تنفيذُ الأحكام ، بين المتشاجرين ، وقطعُ الخصام ، بين المتنازعين ، حتى تمَّ النصفَةُ فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم .

الثالث — حمايةُ البيضة ، والدبُّ عن الحرم : ليتصرّف الناس في المعاش ، وينتشرُوا في الأسفار آمنين من تغرير بنفس أو مال .

الرابع — إقامة الحدود لتصان محارم الله تعالى عن الإتيانك ، وتحفظ حقوق عباده من الإلتلاف والاستهلاك .

الخامس — تحصين الثغور بالعدة المانعة ، والقوة الدافعة ، حتى لا يظفر الأعداء بفرصة ينتهكون بها محرماً ، أو يسفكون فيها لمسلم أو معاهد دماً .

السادس — جهاد من عاند الإسلام بعد الدعوة حتى يُسلم أو يدخل في الذمة : ليقام بحق الله تعالى في إظهاره على الدين كله .

السابع — جباية الفئء والصدقات^(١) على ما أوجبه الشرع نصاً واجتهاداً من غير حيف ولا عسف .

الثامن — تقدير العطاء وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير ، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير .

التاسع — استكفاء الأمتناء ، وتقليد النصحاء ، فيما يفوضه [إليهم من الأعمال]^(٢) ويكله إليهم من الأموال : لتكون الأعمال بالكفاة مضبوطة ، والأموال بالأمتناء محفوظة .

العاشر — أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور وتصفح الأحوال : لينهض بسياسة الأمة ، وحراسة الملّة ؛ ولا يعول على التفويض تشاعلاً بلذّة أو عبادة ، فقد يخون الأمين ويغش الناصح . وقد قال تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ . فلم يقتصر الله

(١) يطلق الفئء على الغنيمة والخراج والمراد هنا الثاني .

(٢) الزيادة من "الأحكام" .

تعالى على الفويض دون المباشرة ، بل أمره بمباشرة الحكم بين الخلق بنفسه .
وقد قال صلى الله عليه وسلم : " كُتِبَ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " والله در
محمد بن يزيد وزير المأمون ، حيث قال مخاطباً له :

مَنْ كَانَ حَارِسَ دُنْيَا إِيَّاهُ قَنَّ * أَنْ لَا يَنَامَ وَكُلُّ النَّاسِ نَوْمٌ!

وَكَيفَ تَرُقُدُ عَيْنَا مَنْ تَضَيَّفَهُ * هَمَّانِ مِنْ أَمْرِهِ : حَلٌّ وَإِبْرَامُ!

وحيثذ فيجب على الكاتب أن يضمّن هذه الأمور العشرة في وصايا المعهود إليه . وقد ذكر المقرّ الشهابي بن فضل الله في " التعريف " في وصية وليّ العهد بالخلافة ومن في معناه من الملوك وولاة عهدهم هذه الأمور ممتزجةً بأمر أخرى من مهمات الملك وحسن تديره وسياسته .

قلت : إنما يحسن إيراد هذا كله في وصايا ولّاة العهد إذا كان الأمر على ما كانت الخلافة عليه أولاً من عموم التصرف ؛ أما الآن فالواجب أن يقتصر في وصاياهم على حسن التأتي في العهد بالسلطنة لمن يقوم بأعبائها ، وأن يكون ماتقدّم مختصاً بوصايا الملوك في العهود عن الخلفاء .

الوجه الرابع

(فيما يكتب في الطرة ، وهو تلخيص ما يتضمنه العهد)

وهذه نسخة طرة أنشأتها لينسج على منوالها ، وهي :

هذا عهد إمامي قد علّت جدوده ، وزاد في الارتقاء في العلياء صعوده ، وفصلت
بالجواهر قلائده ونظمت بنفيس الدرّ عهوده . من عبد الله ووليه الإمام المتوكل

على الله أبي عبد الله محمد بن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر، بالخلافة المقدسة، لولده السيد الجليل ذخيرة الدين، وولي عهد المسلمين، أبي الفضل العباس : بلغه الله فيه غاية الأمل ، وأقرب به عين الأمة كما أقرب به عين أمير المؤمنين وقد فعل على ما شرح فيه .

الوجه الخامس

(فيما يكتب لأولياء العهد من الألقاب)

[وهو] كما سيأتي في الطريقة الثانية من المذهب الأول مما يكتب في متن العهد من كلام المقر الشهابي بن فضل الله في " التعريف " أنه يقال فيه : الأمير السيد الجليل ، ذخيرة الدين ، وولي عهد المسلمين ، أبي فلان فلان . وفي المذهب الثالث فيما كتب به للمستوفى بن المستكفي ما يوافق ، وقد تقدم أنه لا يقع في ألقابهم إطناب ، ولا تعدد ألقاب ، فليقتصر على ذلك أو ما يشابهه .

الوجه السادس

(فيما يكتب في متن العهد ، وفيه ثلاثة مذاهب)

المذهب الأول

(أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ « هذا »)

مثل : « هذا ما عهد به فلان لفلان » أو « هذا عهد من فلان لفلان » أو « هذا كتاب آكتبه فلان لفلان » ونحو ذلك .

وللكتاب فيه طريقتان :

الطريقة الأولى

(طريقة المتقدمين)

وهي أن لا يأتي بحُطبة في أثناء العهد، ولا يتعرّض إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء عليه، أو يتعرّض لذلك باختصار؛ ثم يأتي بالوصايا؛ ثم يختتمه بالسلام أو بالدعاء أو بغير ذلك مما يناسب. وعلى ذلك كانت جهود السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم، أتباعاً للصديق رضي الله عنه فيما كتب به لعمر بن الخطاب، كما تقدمت الإشارة إليه في الاستشهاد.

ونسخته فيما رواه البيهقي في "السنن" وأقتصر عليه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حسن التوسل".

«هذا ما عهد أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة: إني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن برّ وعدل فلذلك ظني به، وإن بدل أو غير فلا علم لي بالغيب، والخير أردت بكم، ولكل أمري ما آتسب من الإثم: (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب يتقلبون)».

وذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" عن المدائني أنه حين دعا عثمان ابن عفان رضي الله عنه لكتابة العهد بالخلافة بعده قال: آتسب «هذا ما عهد أبو بكر بن أبي حنيفة في آخر عهده بالدنيا [نازحاً عنها] وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يتوب الفاجر، ويؤمن الكافر، ويصدق الكاذب؛ وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وقد استخلف» - ثم دهّمته غشية فكتب عثمان: «عمر بن الخطاب». فلما أفاق، قال: أكتبت شيئاً؟ قال نعم عمر.

(١) الزيادة من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة.

ابن الخطاب . قال : « رَحِمَكَ اللهُ ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ كَذَبْتَ نَفْسَكَ لَكُنْتَ أَهْلًا لَهَا ، أَكْتُبُ قَدْ اسْتَخْلَفَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَرَضِيَهُ لَكُمْ ، فَإِنْ عَدَلَ فَذَلِكَ ظَنِّي بِهِ وَرَأْيِي فِيهِ ، وَإِنْ بَدَلَ فَلِكُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ ، وَالْخَيْرُ أَرَدْتُ ، وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ : (وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ) » .

وعلى هذه الطريقة كُتِبَ عَهْدُ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بِالْخِلَافَةِ عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِهِ إِلَى أَخِيهِ يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ .
وهذه نسخته فيما ذكره أَبُو قَتَيْبَةَ فِي تَارِيخِ الْخُلَفَاءِ :

هَذَا مَا عَهَدَ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَخَلِيفَةُ الْمُسْلِمِينَ .
عَهَدْتُ أَنَّهُ يَشْهَدُ لِلَّهِ عِزَّ وَجَلَّ بِالرُّبُوبِيَّةِ وَالْوَحْدَانِيَّةِ ؛ وَأَنْ مَجِّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، بَعَثَهُ إِلَيَّ مُحْسِنِي عِبَادِهِ بِشِيرَا ، وَإِلَى مُدُنِيهِمْ نَذِيرًا . وَأَنَّ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ مَخْلُوقَتَانِ حَقًّا : خَلَقَ الْجَنَّةَ رَحْمَةً وَجَزَاءً لِمَنْ أَطَاعَهُ ، وَالنَّارَ نِقْمَةً وَجَزَاءً لِمَنْ عَصَاهُ ؛ وَأَوْجِبَ الْعَفْوَ جُودًا وَكَرَمًا لِمَنْ عَفَا عَنْهُ . وَأَنَّ سُلَيْمَانَ مُقَرَّرٌ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ مِنْ ذُنُوبِهِ ، وَبِمَا تَعَلَّمَهُ نَفْسُهُ مِنْ مَعْصِيَةِ رَبِّهِ ؛ مُوجِبًا عَلَى نَفْسِهِ اسْتِحْقَاقَ مَا خَلَقَ مِنَ النَّقْمَةِ ، رَاجِيًا لِنَفْسِهِ مَا خَلَقَ مِنَ الرَّحْمَةِ وَعَوْدًا مِنَ الْعَفْوِ وَالْمَغْفِرَةِ ، وَأَنَّ الْمَقَادِيرَ كُلَّهَا خَيْرٌهَا وَشَرُّهَا مَقْدُورَةٌ بِإِرَادَتِهِ ، مَكُونَةٌ بِتَكْوِينِهِ ؛ وَأَنَّهُ الْهَادِي فَلَا مُغْوِيٍّ وَلَا مُضِلٍّ لِمَنْ هَدَاهُ وَخَلَقَهُ لِرَحْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ يُفْتَنُ الْمَيِّتَ فِي قَبْرِهِ بِالسُّؤَالِ عَنْ دِينِهِ وَنَبِيِّهِ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَى أُمَّتِهِ ، لِأَمْتَجِيٍّ لِمَنْ خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا إِلَى الْآخِرَةِ مِنْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ إِلَّا لِمَنْ اسْتَنْثَاهُ عِزَّ وَجَلَّ فِي عِلْمِهِ . وَسُلَيْمَانُ يُسْأَلُ اللَّهُ الْكَرِيمَ بِوَسْعِ فَضْلِهِ ، وَعَظِيمِ مَنِّهِ ، الثَّبَاتَ عَلَى مَا سَرَّ وَأَعْلَنَ مِنْ مَعْرِفَةِ حَقِّهِ وَحَقِّ نَبِيِّهِ عِنْدَ

(١) كذا في الأصول بالنصب وكذلك وقع في كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

(٢) في كتاب الامام والسياسة لابن قتيبة «خيرها وشرها من الله وأنه هو الهادي الخ» .

مَسْأَلَةٌ رُسُلِهِ ؛ وَالنَّجَاةَ مِنْ هَوْلِ فِتْنَةِ قَتَائِيهِ . وَيَشْهَدُ أَنَّ الْمِيزَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَقٌّ
 يَقِينٌ ، يَزِنُ سَيِّئَاتِ الْمَسِيئِينَ ، وَحَسَنَاتِ الْمُحْسِنِينَ : لِيُرَى عِبَادَهُ مِنْ عَظِيمِ قُدْرَتِهِ ،
 مَا أَرَادَهُ مِنَ [الْخَيْرِ] لِعِبَادِهِ بِمَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ؛ وَأَنَّ مِنْ ثَقَلَتِ مَوَازِينُهُ
 فَأَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَئِذٍ فَأَوْلِيكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ . وَأَنَّ
 حَوْضَ مَجْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْحَشْرِ وَالْمَوْقِفِ لِلْعَرَضِ حَقٌّ ، وَأَنَّ
 عِدَدَ آيَاتِهِ كُنُجُومِ السَّمَاءِ ، مِنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ أَبَدًا ، وَسَلِيمَانَ يَسْأَلُ اللَّهُ بِوَسْطِهِ
 رَحْمَتَهُ أَنْ لَا يُرَدَّهُ عَنْ حَوْضِ نَبِيِّهِ عَطْشَانَ . وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ
 نَبِيِّنَا ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ بَعْدَهُمَا حَيْثُ الْخَيْرُ وَفِي مَنْ الْخَيْرُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ . وَأَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةُ كُلُّهَا
 الْمَذْكُورَةَ فِي عَهْدِهِ هَذَا يَعْلَمُهَا اللَّهُ مِنْ سِرِّهِ وَإِعْلَانِهِ وَعَقْدِ ضَمِيرِهِ ، وَأَنَّهُ بِهَا عَبْدٌ رَبِّهِ
 فِي سَالِفِ أَيَّامِهِ وَمَاضِي عُمْرِهِ ، وَعَلَيْهَا أَتَاهُ يَقِينٌ رَبُّهُ ، وَتَوَفَّاهُ أَجَلُهُ ، وَعَلَيْهَا يُبْعَثُ بَعْدَ
 مَوْتِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ . وَأَنَّ سَلِيمَانَ كَانَتْ لَهُ بَيْنَ هَذِهِ الشَّهَادَةِ بَلَايَا وَسَيِّئَاتٌ ^(١) لَمْ يَكُنْ لَهُ
 عَنْهَا تَحِييدٌ وَلَا بَدَأٌ ، جَرَى بِهَا الْمَقْدُورُ مِنَ الرَّبِّ النَّافِذُ إِلَى إِتْمَامِ مَا حَدَّثَ ؛ فَإِنْ يَعْفُ
 وَيَصْفَحُ فَذَلِكَ مَا عَرَفَ مِنْهُ قَدِيمًا وَنُسِبَ إِلَيْهِ حَدِيثًا ، وَتِلْكَ صِفَتُهُ الَّتِي وَصَفَ
 بِهَا نَفْسَهُ فِي كِتَابِهِ الصَّادِقِ ، وَكَلَامِهِ النَّاطِقِ ؛ وَإِنْ يُعَاقِبُ وَيَنْتَقِمُ فَبِمَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ،
 وَمَا اللَّهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ . وَأَنَّ سَلِيمَانَ يُخْرِجُ عَلَى مَنْ قَرَأَ عَهْدَهُ هَذَا وَسَمِعَ مَا فِيهِ مِنْ
 حِكْمَةٍ أَنْ يَنْتَهِيَ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ ، بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَبِمَجْدِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ ؛ وَأَنْ يَدْعَ
 الْإِحْنَ الْمُضْغَنَةَ ، وَيَأْخُذَ بِالْمَكَارِمِ الْمُدْجَنَةِ ؛ وَيَرْفَعُ يَدَيْهِ إِلَى اللَّهِ بِالضَّمِيرِ النَّصُوحِ
 وَالِدُّعَاءِ الصَّحِيحِ ، وَالصَّفْحِ الصَّرِيحِ ؛ يَسْأَلُهُ الْعَفْوَ عَنِّي ، وَالْمَغْفِرَةَ لِي ، وَالنَّجَاةَ مِنْ
 فَرَجِي وَالْمَسْأَلَةَ فِي قَبْرِي ، لَعَلَّ الْوُدُودَ ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْكُمْ مُجَابَ الدَّعْوَةِ بِمَا مِنْ اللَّهِ عَلَيَّ

(١) في كتاب الامامة والسياسة « لم يكن له عنها محيص ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ

في محكم الوحي فان يعف « الخ .

من صفحه يعود؛ إن شاء الله. وأنّ وليّ عهد سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين، وصاحب أمره بعد موته، في جنده ورعيته وخاصته وعامته؛ وكلّ من استخلفني الله عليه، واسترعاي النظر فيه، الرجل الصالح «عمر بن عبد العزيز» بن مروان ابن عمي، لما بلوت من باطن أمره وظاهره، ورجوت الله بذلك [وأردت] رضاه ورحمته إن شاء الله. ثم من بعده نُسِمَ إلى يزيد بن عبد الملك بن مروان إن بقي بعده، فإنّي مارأيت منه إلا خيرا ولا أطلعت له على مكروه. وصغار ولدي وكبارهم إلى عمر، إذ رجوت أن لا يألوهم رَشداً وصَلاحاً؛ والله خليفتي عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين؛ وأقرءوا عهدى عليكم السلام ورحمة الله. ومن أبي أمرى هذا أو خالف عهدى هذا - وأرجو أن لا يخالفه أحد من أمة محمد - فهو ضالٌّ مضلٌّ يُستعَب؛ فإنّ أعتَبَ وإلاّ فإنّي لمن صاحب^(١) (؟) عهدى فيهم بالسيف والقتل والقتل، فانهم مستوجبون لهم، وهم لهيئته ملقحون، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله القديم الإحسان.

تم ذلك والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله.



وعلى نحو من ذلك كتب المأمون العباسيُّ عهدَ عليّ بن موسى العلويّ (المعروف بالرّضى) بالخلافة بعده.

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العقدة :

هذا كتابُ كتبه عبد الله بن هارون الرشيد أمير المؤمنين بيده، لعلّي بن موسى بن

جعفر وليّ عهدِه .

(١) في كتاب الامامة والسياسة « والا فالسيف والله المستعان » وهي واضحة .

أما بعد، فإن الله عز وجل أصطفى الإسلام ديناً، وأصطفى له من عباده رُسلًا
 دالّين عليه، وهادين إليه، يبشّر أولهم بأحرهم، ويصدقّ عليهم ما ضيّمهم؛ حتى أتته
 نبوة الله إلى محمد صلى الله عليه وسلم على فترة من الرُّسل، ودروس من العلم، وأنقطاع
 من الوحي، وأقتراب من الساعة؛ فحتم الله به النبيين وجعله شاهدًا لهم، ومهيّئنا
 عليهم؛ وأنزل عليه كتابه العزيز الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
 تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. فأحلّ وحرم، ووعد وأوعد؛ وحذر وأندّر، وأمر به
 ونهى عنه: لتكون له المحجة البالغة على خلقه: ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنَتِهِ، وَيَحْيَا
 مَنْ حَيَّ عَن بَيْنَتِهِ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فبلغ عن الله رسالته، ودعا إلى سبيله بما
 أمره به من الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن، ثم بالجهاد والغلظة
 حتى قبضه الله إليه، وأختار له ما عنده صلى الله عليه؛ فلما أنقضت النبوة وختم
 الله بمحمد صلى الله عليه وسلم الوحي والرسالة، جعل قوام الدين، ونظام أمر
 المسلمين، بالخلافة وإتمامها وعزّها، والقيام بحق الله فيها بالطاعة التي تقام بها
 فرائض الله وحدوده، وشرائع الإسلام وسننه، ويُجاهد بها عدوه. فعلى خلفاء الله
 طاعته فيما استحفظهم وأسترعاهم من دينه وعباده، وعلى المساميين طاعة خلفائهم
 ومعاونتهم على إقامة حق الله وعدله، وأمن السبيل وحقن الدماء، وصلاح ذات
 البين، وجمع الألفة؛ وفي إخلال ذلك أضطراب حبل المسلمين واختلالهم،
 واختلاف ملتهم، وقهر دينهم، وأستعلاء عدوهم، وتفرق الكلمة، وخسران الدنيا
 والآخرة. فحق على من أستخلفه الله في أرضه، وأئمنه على خلقه [أن] يؤثّر ما فيه
 رضا الله وطاعته وبعد [ل] فيما الله واقفه عليه وسائله عنه، ويحكم بالحق ويعمل
 بالعدل فيما حمّله الله وقلّده؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام:

(يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ) . وقال عز وجل : (فَوَرَبِّكَ لَنَسْتَلْتَنَّهُمْ أَحْمِيْنَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .
وبلغنا أن عمر بن الخطَّاب قال : « لو ضاعت سَخْلَةٌ بِجَانِبِ الْفُرَاتِ لَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَسْأَلَنِي اللَّهُ عَنْهَا » . وآيمُ الله إنَّ المسئولَ عن خاصَّةِ نفسه ، الموقوفَ على عمله ، فيما بينَ الله وبينه ، لمُتعرِّضٌ لأمر كبير ، وعلى خَطَرٍ عَظِيمٍ ، فكيف بالمسئول عن رعاية الأُمَّة ؛ وبالله التَّكْفُؤُ ، وإليه المَفْزَعُ والرَّغْبَةُ في التوفيق مع العِصْمَةِ ، والتَّسَدِيدِ والهدايةِ إلى ما فيه ثُبُوتُ الحُجَّةِ ، والفوزُ من الله بِالرِّضْوَانِ والرَّحْمَةِ . وأنظُرُ الأُمَّةَ لنفسه ، وأنصَحْهُمْ في دينه وعبادته وخلافته في أرضه ، مَنْ عَمِلَ بِطَاعَةِ اللَّهِ وَكُتِبَ وَسَنَةٌ نَبِيهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَدَّةِ أَيَّامِهِ ؛ وَأَجْتَهَدَ وَأَجْهَدَ رَأْيَهُ وَنَظَرَهُ فِيمَنْ يُؤَلِّيه عَهْدَهُ ، وَيَخْتَارُهُ لِإِمَامَةِ الْمُسْلِمِينَ وَرِدَائِمِهِمْ بَعْدَهُ ؛ وَيُنْصِبُهُ عَلَمًا لَهُمْ ، وَمَفْرَعًا فِي جَمْعِ أُمَّتِهِمْ ، وَلَمْ شَعْنِهِمْ ، وَحَقَّنْ دِمَائِهِمْ ، وَالْأَمْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ مِنْ فُرْقَتِهِمْ ، وَفَسَادِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ ، وَرَفَعْ نَزْعَ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ عَنْهُمْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ الْعَهْدَ بِالْخِلَافَةِ مِنْ تَمَامِ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَكِبَالِهِ وَعِزِّهِ وَصَلَاحِ أَهْلِهِ ؛ وَأَهْمُ خَلْفَاءَهُ مِنْ تَوْسِيئِهِ لِمَنْ يَخْتَارُونَهُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِمْ مَا عَظُمَتْ بِهِ الْعَمَّةُ ، وَسَمَّيْتُ مِنْهُ الْعَافِيَةَ ، وَنَقَضَ اللَّهُ بِذَلِكَ مَرَّ أَهْلِ الشَّقَاقِ وَالْعَدَاوَةِ وَالسَّعْيِ فِي الْفُرْقَةِ وَالرَّفْضِ لِلْفِتْنَةِ ؛ وَلَمْ يَزَلْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْذُ أَقْضَتْ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ فَاخْتَبَرَ بِشَاعَةَ مَدَاقِئِهَا ، وَثَقَلَ بِحَمَلِهَا وَشَدَّةِ مَسْئُوتِهَا ؛ وَمَا يَجِبُ عَلَى مَنْ تَقَلَّدَهَا مِنْ أَرْتِبَاطِ طَاعَةِ اللَّهِ وَمِرَاقَبَتِهِ فِيمَا حَمَلَهُ مِنْهَا ؛ فَأَنْصَبَ

(١) في اللسان ج ٧ ص ١٥ « المرفطح الميم الحبل » .

(٢) أي تركها تسيير في الناس ، ففي اللسان الرفض أن يطرد الرجل عنه وابله إلى حيث هوى فإذا بلغت لها عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرًا فيها بما يقتضيه منصبها وما يجب الخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدنه، وأسهر عينه؛ وأطال فكره فيما فيه عن الدين، وقمع المشركين؛ وصلاح الأمة، ونشر العدل، وإقامة الكتاب والسنة؛ ومنعه ذلك من الخفض والدعة بهنئ العيش: علما بما الله سائله عنه، ومحبة أن يلقى الله مناجمته في دينه وعباده، ومختارا لولاية عهده، ورعاية الأمة من بعده، أفضل من يقدر عليه في دينه وورعه وعلمه، وأرجاهم للقيام بأمر الله وحقه؛ مناجيا لله بالاستخارة في ذلك، ويسأله إلهامه ما فيه رضاه وطاعته في ليله ونهاره، ومعملا في طلبه والتماسه من أدل بيته من ولد عبد الله ابن العباس وعلي بن أبي طالب فكره ونظره، ومقتصرا فيمن علم حاله ومذهبه منهم على علمه، وبالغا في المسألة عمن خفي عليه أمره جهده وطاقته، حتى استقصى أمورهم بمعرفته، وأبتلى أخبارهم مشاهدة، وكشف ما عندهم مسألة؛ فكانت خيرته بعد استخارته لله وإجهاده نفسه في قضاء حقه وبلاده، من البيتين جميعا «علي بن موسى بن جعفر» بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: لما رأى [من] فضله البارع، وعلمه الناصع؛ وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتحمده من الدنيا، وتسامه من الناس؛ وقد استبان له ما لم تزي الأخبار عليه متواطئه، والألسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعة؛ ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعا وناشئا، وحدئا ومكتهلا؛ فعقد له بالعقد والخلافة إيثارا لله والدين، ونظرا للمسلمين، وطلبًا للسلامة وثبات الحجّة والنجاة في اليوم الذي يقوم الناس فيه لرّب العالمين.

ودعا أمير المؤمنين ولده، وأهل بيته، وخاصته، وقواده، وخدمه، فبايعوه مسرعين مشرورين، عالمين بإيثار أمير المؤمنين طاعة الله على الهوى في ولده وغيرهم ممن هو أشبك به رحما وأقرب قرابة، وسماه «الرضي» إذ كان رضيًا عند أمير المؤمنين.

فبايعوا معشَرَيْتِ أمير المؤمنين وَمَنْ بالمدينة المحروسة من قُوَّاده وجُنَّده، وعامة المسلمين « الرضى » من بعده ، على اسم الله وبركته وحُسن قضائه لدينه وعباده ؛ بيعةً مبسوطةً إليها أيديكم ، منفرحةً لها صدوركم ، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها ، وآثر طاعة الله والنظر لنفسه ولكم فيها ، شاكرين لله على ما ألهم أمير المؤمنين من نصاحته في رعايتكم ، وحرصه على رُشدكم وصَلاحكم ، راجين عائده في ذلك في جمع ألفتكم ، وحقن دماءكم ، ولمَّ شعبتكم ، وسدَّ نُغوركم ، وقوَّة دينكم ، ورغم عدوكم ، وأستقامة أموركم . وسارعوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، فإنه الأمر إن سارعتم إليه ، وحِدثتم الله عليه ؛ عرفتم الحظَّ فيه . إن شاء الله تعالى .



وعلى هذه الطريقة كتب الوزير أبو حفص بن بُرد عهدَ الناصر لدين الله عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر العاصرى ، عن المؤيد بالله هشام بن الحكم الأموى ، الخليفة بالأندلس . وهذه نسخته :

هذا ما عهدَ هشامُ المؤيدُ بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامه ، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة وأعطى به صفةً يمينه بيعةً تامه ؛ بعد أن أنعم النظر وأطال الاستخارة وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة ؛ وعصَّب به من أمر المؤمنين ، وأتقَى حُلُولَ القدر بما لا يؤمن ، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرف ، وخبشى إن هم محتوم ذلك عليه ، ونزل مقدوره به ، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوى إليه ، وملجأً تنعطف عليه ، أن يكون يلتقى ربه تبارك وتعالى مفترطاً ساهياً عن أداء الحق إليها ؛ ويُغمَصَّ عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يُسندَ هذا الأمر إليه ، ويعول في القيام به عليه ؛ ويستوجبه بدينه وأمانته ، وهديه وصيانيته ؛

بعدَ أطراح الهوى والتحرى للحق ، والتزلف إلى الله جلّ جلاله بما يُرضيه .
 وبعد أن قطع الأواصر ، وأسخط الأقارب ؛ فلم يجد أحداً أُجدر أن يوليّه عهدَه ،
 ويفوض إليه الخلافة بعده : لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مرتبته ، وعلو
 منصبه ؛ مع ثقاه وعفافه ، ومعرفته وحزمه وتقواه ؛ من المأمون العيب ، الناصح
 الحيب «أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور» أبي عامر محمد بن أبي عامر وفقه
 الله ؛ إذ كان أمير المؤمنين - أيداه الله - أبتلاه وأختبره ، ونظر في شأنه وأعتبره ؛
 فراه مسارعاً في الخيرات ، سابقاً في الحلبات ؛ مستولياً على الغايات ، جامعاً للأثرات ؛
 ومن كان المنصور أباه ، والمظفر أخاه ؛ فلا غرو أن يبلغ من سبيل البر مداه ،
 ويحوى من خلال الخير ما حواه ؛ مع أن أمير المؤمنين - أيداه الله - بما طالعه من
 مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ؛ يرى أن يكون وليّ عهدِه القحطانيّ الذي
 حدث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة : «أن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال : " لا تقوم الساعة حتى يخرج رجلٌ من حيطان يسوق الناس بعصاه " فلما
 استوى له الاختيار ، وتقابلت عنده في الآثار ؛ [و] لم يجد عنه مذهباً ، ولا إلى غيره
 معدلاً ، صرح إليه في تدبير الأمور في حياته ، وفوض إليه الخلافة بعد وفاته ؛ طاعاً
 راضياً مجتهداً ، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازَه وأنفذه ، ولم يشترط فيه مشيئة
 ولا خياراً ؛ وأعطى على الوفاء به في سرّه وجهره وقوله وفعله عهد الله وميثاقه ،
 وذمة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وذمة الخلفاء الراشدين من آبائه ؛ وذمة نفسه :
 أن لا يبدل ، ولا يغير ، ولا يحول ، ولا يزول ؛ وأشهد الله على ذلك والملائكة
 ﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ . وأشهد من أوقع اسمه في هذا ، وهو جائز الأمر ، ماضي
 القول والفعل ، بمحض من وليّ عهدِه المأمون أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور
 وفقه الله ، وقبوله ما قلده ، وإلزامه نفسه ما ألزمه ؛ وذلك في شهر ربيع الأول

سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . وكتبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائر الناس شهاداتهم بخطوط أيديهم بذلك .

الطريقة الثانية

(طريقة المتأخرين من الكُتَّاب)

أن يأتي بالتحديد في أثناء العهد، ويأتي من ألقاب ولى العهد بما يناسب على الاختصار؛ وعليها أقصر المقتر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" قال : وأعلم أن عهود الخلفاء عن الخلفاءم تجر عادة من سلف من الكُتَّاب أن يستفتحها إلا بما يذكر، وهو :

«هذا ما عهد [به] عبد الله ووليه فلان أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين، عهد إلى ولده، أو [إلى] أخيه الأمير السيد الجليل، ذخيرة الدين، وولى عهد المسلمين أبي فلان فلان، أيده الله بالتمكين، وأمهه بالنصر الميين، وأقر به عين أمير المؤمنين» . ثم ينفق كل كاتب بعد هذا على قدر سعته، ثم يقول :

«أما بعد، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم» ويخطب في ذلك خطبة يكثر فيها التحميد وينتهي فيه إلى سبعة؛ ثم يأتي بعد ذلك بما يناسب من القول : يصف فكر الذى يعهد فيمن بعده؛ ويصف المعهود إليه بما يليق من الصفات الجليسة . ثم يقول : «عهد إليه وقلده بعده جميع ما هو مقلده، لما رآه من صلاح الأمة، أو صلاح الخلق، بعد أن استحار الله تعالى في ذلك، ومكث مدة يتدبر ذلك ويروى فيه فكره وخطره، ويستشير أهل الرأي والنظر، فلم ير أقوم منه بأمور الأمة ومصالح

الدنيا والدين» ومن هذا ومثله ؛ ثم يقال : «إنَّ المعهودَ إليه قَبْلَ ذلك منه» ويأتى في ذلك بما يليق من محاسن العبارة وأحاسين الكلام .

قلت : ولم أظفر بنسخة عهدِ عليّ هذا الأسلوب الذى ذكره المقرُّ الشهابيُّ ؛ وقد أنشأت عهداً على الطريقة التى أشار إليها، أمتحاناً للخاطر : لأنَّ يكونَ عن الإمام المتوكلِّ على الله أبى عبدِ الله محمد بن المعتضدِ أبى الفتح أبى بكر، خليفةِ العصر، لولده العباس : ليكونَ أُمُودَجا يُنَسَّجُ على منواله .

ومن غريبِ الاتِّفاقِ أُنْشِأتهُ فى شُهورِ سنةِ إحدى وثمانمئةِ أمتحاناً للخاطر كما تقدّم ، وضمّته هذا الكتابَ وتمادى الحالُ على ذلك إلى أن قبضَ اللهُ تعالى الإمامَ المتوكلَّ - قدس اللهُ تعالى رُوحَه - فى سنة ثمان وثمانمئة ؛ فأجمع أهلُ الحلِّ والعقدِ على مبايعته بالخلافة ؛ فبايعوه وحقق اللهُ تعالى ما أجراه على اللسان من إنشاءِ العهدِ باسمه فى الزَّمنِ السابق ؛ ثم دعَتْنى داعيةٌ إلى التمثلِ بين يديه الشريفتين فى مستهلِّ شهرِ ذى القعدةِ الحرامِ سنةِ تسع وثمانمئة ، فقرأته عليه من أوّله إلى آخره ، وهو مُضغٌ له مظهرُ الأتِّهاجِ به ؛ وأجاز عليه الجائزةَ السنوية . ثم أنشأت له رسالةً وضمّنته إياها وأوِّعتْ بِخِزانتِه العالِيةِ عمرها اللهُ بطُولِ بقائه .

وهذه نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالعِ ميمونُ الطائرِ ، مباركُ الأوّلِ جميلُ الأوسطِ حميدُ الآخرِ ؛ تشهدُ به حضراتُ الأملاكِ ، وترقُّه كَفُّ الثُّرَيَّا بأقلامِ القَبُولِ فى صحائفِ الأفلاكِ ؛ وتُبَاهى به مُلُوكُ الأرضِ ملائكةَ السما ، وتَسِرَى بِبَشْرِهِ القَبُولُ إلى الأقطارِ فتُنشُرُ له بكلِّ ناحِيةٍ علماً ، وتُطْلِعُ به سعادةُ الجَدِّ من مُلُوكِ العَدْلِ فى كلِّ أفقٍ نَجْمًا ، وترُقِّصُ من فرحها الأنهارُ فتَنقِطُها شمسُ النَّهارِ بذهبِ الأصيلِ على صَفْحَاتِ المِآءِ ؛ عهدٌ به

عبد الله ووليه أبو عبد الله محمد المتوكل على الله أمير المؤمنين إلى ولده السيد
الجليل عده الدين وذخيره ، وصفي أمير المؤمنين من ولده وخيره ، المستعين بالله
أبي الفضل العباس بلغ الله فيه أمير المؤمنين غاية الأمل ، وأقر به عين الخلافة
العباسية كما أقر به عين أبيه وقد فعل .

أما بعد ، فالحمد لله حافظ نظام الإسلام وواصل سببه ، ورافع بيت الخلافة
وماذ طنبه ، وناظم عقد الإمامة المعظمة في سلك بني العباس وجاعلها كلمة باقية
في عقبه .

والحمد لله الذي عدق أمر الأمة منهم بأعظمهم خطرا ، وأرفعهم قدرا ،
وأرجحهم عقلا وأوسعهم صدرا ، وأجزم رأيا وأسلمهم فكرا .

والحمد لله الذي أقر عين أمير المؤمنين بخير ولي وأفضل ولد ، وشد أزره بأكرم
سيد وأعز سند ، وصرف اختياره إلى من إذا قام بالأمر بعده قيل هذا الشبل
من ذاك الأسد .

والحمد لله الذي جمع الآراء على اختيار العاهد فما قلوه ولا رفضوه ، وجبل
القلوب على حب المعهود إليه فلم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه .

والحمد لله الذي جدد للرعية نعمة مع بقاء النعمة الأولى ، وأقام لأمر الأمة من
بني عم نبيه المصطفى الأولى بذلك فالأولى ، واختار لعهد المسلمين من سبقت إليه
في الأزل إرادته فأصبح في النفوس معظما وفي القلوب مقبولا .

والحمد لله الذي أضحك الخلافة العباسية بوجود عباسها ، وأطاب بذكره رياها
فتعطر الوجود بطيب أنفاسها ، ورفع قدره بالعهد إليه إلى أعلى رتبة منيفه ،

(١) وَخَصَّهُ بِمِشَارَكَةِ جَدِّهِ الْعَبَّاسِ فِي الْأَسْمِ وَالْكُنْيَةِ فَفَازَ بِمَا لَمْ يُفْزِ بِهِ قَبْلَهُ مِنْهُمْ سِتُّ وَأَرْبَعُونَ خَلِيفَةً .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَوْجَبَ عَلَى الْكَافَّةِ طَاعَةَ أَوْلِي الْأَمْرِ مِنَ الْأُمَّةِ ، وَأَرْزَمَهُمُ الدُّخُولَ فِي بَيْعَةِ الْإِمَامِ وَالْإِتْقَادَ إِلَيْهِ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا أَسْوَدَ فَكَيْفَ بِنِ اجْتِمَاعِ عَلَى سُودِّهِ الْأُمَّةِ ، وَأَوْصَحَ السَّبِيلَ فِي التَّعْرِيفِ بِمَقَامِ الْآلِ وَالْعِتْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ﴿فَلَا يُكُنُّ أَمْرًا عَلَيْكُمْ عَمَّهُ﴾ .

يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا مَنَحَهُ مِنْ طَيْبِ أُرُومَةٍ سَمَّتْ أَصْلًا وَزَكَتْ فَرْعًا ، وَحَبَاهُ مِنْ شَرَفٍ مَحْتَدٍ رَاقٍ نَظَرًا وَشَاقٍ سَمْعًا ، وَوَصَلَهُ بِهِ مِنْ نِعَمٍ آثَرَتْ نَفَاعًا وَأَثَرَتْ نَفْعًا ، وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَتَوَارَثُونَهَا كَالْخِلَافَةِ كَابْرًا عَنْ كَابِرٍ ، وَيُوصَى بِهَا أَبَدًا الْأَوَّلُ مِنْهُمْ الْآخِرُ ، وَيُؤَدِّنُ قِيَامَهُمْ بِنُصْرَتِهَا أَنَّهُمْ مَعْدَنُ جَوْهَرِهَا النَّفِيسِ وَنِظَامُ عَقْدِهَا الْفَاحِرُ ، وَيَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، الَّذِي خَصَّ عَمَّهُ الْعَبَّاسَ بِكَرِيمِ الْحَبَاءِ وَشَرِيفِ الْإِنَافَةِ ، وَنَبَّهَ عَلَى بَقَاءِ الْأَمْرِ فِي بَيْتِهِ بِقَوِيٍّ ضَلَّ مَنْ أَظْهَرَ عِنَادَهُ أَوْ أَضْمَرَ خِلَافَهُ ، حَيْثُ أَسْرَّ إِلَيْهِ : ” أَلَا أُبَشِّرُكَ يَا عَمُّ بِي خُتْمِ النَّبُوَّةِ وَبِوَلَدِكَ تُخْتَمُ الْخِلَافَةُ “ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَعْمُ بَرَكَتُهَا الْوَلَدَ وَالْوَالِدَ ، وَيَشْمَلُ مَعْرُوفَهَا الْمَعْهُودَ إِلَيْهِ وَيَعْرِفُ شَرَفَهَا الْعَاهِدَ ، وَيَعْتَرِفُ بِفَضْلِهَا الْمَقْرُوءَ وَلَا يَسْعُ إِنْكَارُهَا الْجَاهِدَ ، مَا نُوهَ بِذِكْرِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ عَلَى أَعْوَادِ الْمَنَارِ ، وَخَفَقَتِ الرَّايَاتُ السُّودُ عَلَى عَسَاكِرِ الْمَوَاكِبِ وَمَوَاكِبِ الْعَسَاكِرِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

(١) ذَكَرَ اسْمَ الْعَدَدِ عَلَى حَدِّ مَا أَنْشَدَهُ الْفَرَاءُ .

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتَهُ أُخْرَى * وَأَنْتَ خَلِيفَةُ ذَلِكَ الْكَمَالِ

هذا وكل راجع مسئول عن رعيته ، وكل أمرىء مجبول على نيته ، مخبر بظاهره عن جميل ما أكنه في صدره وما أسرّه في طويته ؛ والإمام منصوب للقيام بأمر الله تعالى في عبادته ، مأمور بالنصيحة لهم جهده طاقته وطاقته اجتهاده ، مطلوب بالنظر في مصالحهم في حاضر وقتهم ومستقبله وبدء أمرهم ومعاذته ؛ ومن ثم اختلفت آراء الخلفاء الراشدين في العهد بالخلافة وتباينت مقاصدهم ، وتوعدت اختياراتهم بحسب الاجتهاد واختلفت مواردهم ؛ فعهد الصديق إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه متبثنا ، وتركها عمر شورى في ستة وقال : « أتحمّل أمركم حيا وميتا ! » وأتى رضى الله عنه لكل من المذهبين بما أذعن له انلخص وسلم ، فقال : « إن أعهد فقد عهد من هو خير منى أبو بكر ، وإن أترك فقد ترك من هو خير منى رسول الله صلى الله عليه وسلم » فأخذ الخلفاء في ذلك بستهما ، ومشوا فيه على طريقتهما ؛ فن راعى عن العهد وراعى فيه ، وعاهد إلى بعيد منه وآخر إلى ابنه أو أخيه ؛ كل منهم بحسب ما يؤدى إليه اجتهاده ، وتقوى عليه عزيمته ويترجح لديه أعماده .

ولما كان أمير المؤمنين - أحسن الله مآبه - قد نور الله عين بصيرته ، وخصه بطهارة سيره وصفاء سيرته ؛ وآناه الله الملك والحكمه ، وأقامه لمصالح الرعية وصلاح أمر الأمة ؛ وعلمه مما يشاء فكان له من علم الفراسة أوفر قسم ، وأصطفاه على أهل عصره وزاده بسطة في العلم والحسب ؛ فلا يعزم أمرا إلا كان رشادا ، ولا يعتمد فعلا إلا ظهر سدادا ؛ ولا يترقى رأيا إلا ألغى صوابا ، ولا يشير بشيء إلا أحدث آثاره بدياه ونهاية واستصحبها ؛ ومع ذلك فقد بلا الناس وخبرهم ، وعلم بالتجربة حالهم وخبرهم ، وأطلع بحسن النظر على حقايا أمورهم ، وما به مصلحة خاصتهم وجمهورهم ؛ وترجح عنده جانب العهد على جانب الإهمال ، ورأى المبادرة إليه أولى من الإهمال ؛ ولم يزل يروى فكرته ، ويعمل رويته ؛ فيمن يصلح لهذا الأمر

بعده ، وينهض بأعبائه الثقيلة وحده ، ويتبع فيه سبله ويسلك طرائقه ، ويقفنى في السيرة الحسنه أثره ويشيم في العدل بوارقه ؛ ويقبل على الأمر بكتيته ويقطع النظر عما سواه ، ويتفرغ له من كل شاغلٍ فلا يحاطه بما عداه .

وقد علم أن الأحق أن يكون لها حليفاً من كان بها خليفاً ، والأولى أن يكون لها قريناً من كان بوصلها حقيقاً ، والأجدر أن يكون لديها مكيماً من آخذ معها يداً وإلى مرضاتها طريقاً ؛ والأليق بمنصبها الشريف من كان بمطلوبها ملياً ، والأحرى بمكانها الرفيع من كان بمقصودها وفيّاً ، والأوفق لمقامها العالى من كان خيراً مقاماً وأحسن ندياً ؛ وكان ولده السيد الأجل أبو الفضل المشار إليه هو الذى وجهت الخلافة وجهها إلى قبلته ، وبالغت في طلبه وألحت في خطبته ؛ على أنه قد أرضع بلبانها وربى في حجرها ، وأنسب إليها بالبنوة فضمته إلى صدرها ؛ وكيف لا تشبث بجباله ، وتتعلق بأذياله ؛ وتطمع في قربه ، وتتعالى في حبه ؛ وتميل إلى أنسه ، وتراوده عن نفسه ، وهو كفؤها المستجمع لشرائطها المتصف بصفاتهما ، ونسيبها السامى إلى أعاليها الراقى على شرفاتها ؛ إذ هو شبها الناشئ في آجامها ، بل أسدها الحامى لحماها ؛ ومجيرها الوافى بذمامها ؛ وفارسها المقدم في حلبة سباقها ووارثها الخائر لجميع سهامها ؛ وحاكمها الطائع لأمرها ، ورشيدها المأمون على سرها ؛ وناصرها القائم بواجبها ، ومهديها الهادى إلى أفضل مذاهبها ؟ قد ألحفت من الخلافة بردائها ، وسكن من القلوب في سويدائها ، وتوسمت الآفاق تفويض الأمر إليه بعد أبيه فظهر الخلق في أرجائها ؛ وأتبع سيرة أبيه في المعروف وأقتفى أثره في الكرم ، وتشبه به في المفارح (ومن يشابهه أبه فما ظلم) وتقبل الله دعاء أبيه فوهب له من لدنه ولياً ، وأجاب نداءه فيه فكان له في الأرض وآتاه الحكم صبيها ؛ فاستوجب أن يكون حينئذ للمسلمين ولياً عهدهم ، والياً على أمورهم في حلهم وعقدهم ؛ متكفلاً بالأمر في قربه وبعده ،

مُعِينًا لِأَيِّهِ فِي حَيَاتِهِ خَلِيفَةً لَهُ مِنْ بَعْدِهِ؛ وَأَنْ يَصْرِّحَ لَهُ بِالِاسْتِخْلَافِ وَيُوضِّحَ،
وَيَتَلَوَّ عَلَيْهِ بِلِسَانِ التَّفْوِيضِ ﴿أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ .

وَأَقْتَضَتْ شَفَقَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَرَأْفَتُهُ ، وَرِفْقُهُ بِالْأُمَّةِ وَرَحْمَتُهُ ؛ أَنْ يَنْصَبَ لَهُمْ
وَلِيَّ عَهْدٍ يَكُونُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ مُتَّصِفًا ، وَمِنْ بَحْرِهِ الْكَرِيمِ مُغْتَرِفًا ، وَمِنْ ثَمَارِ مَعْرُوفِهِ
الْمَعْرُوفِ مَقْتَطِفًا ؛ وَلَهْمَلِهِ الْعَدْبُ وَارِدًا ، وَعَلَى بَيْتِهِ الشَّرِيفِ وَسَائِرِ الْأُمَّةِ بِالْخَيْرِ
عَائِدًا ؛ فَلَمْ يَجِدْ مَنْ هُوَ مُسْتَكْمَلٌ لِجَمِيعِهَا ، مُسْتَوْعِبٌ لِأَصْوَاطِهَا وَفُرُوعِهَا ؛ وَهُوَ بِمَطْلُوبِهَا
أَمْلِيٌّ ، وَعَلَى قُلُوبِ الرِّعِيَّةِ أَحْلَى ؛ وَلِلْغَلِيلِ أَشْفَى ، وَبِالْعَهْدِ الْجَمِيلِ أَوْفَى ؛ مِنْ وَلَدِهِ
الْمُشَارِإِ إِلَيْهِ . فَاسْتَشَارَ فِي ذَلِكَ أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ قُضَاتِهِ وَعُلَمَائِهِ ، وَأَمْرَائِهِ
وَوُزَرَائِهِ ، وَخَاصَّتَهُ وَذَوِيهِ ، وَأَقَارِبَهُ وَبَنِيهِ ، وَأَعْيَانَ أَهْلِ الْعَصْرِ وَعَامَتَهُ ، وَجُمْهُورِهِ
وَكَافَّةً ؛ فَرَأَوْهُ صَوَابًا ، وَلَمْ يَعْرِهْمُ فِيهِ ظَنَّةٌ وَلَا مُسْتَرَابًا ، وَلَا وَجَدَ أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَى بَابِ
غَيْرِهِ طَرِيقًا وَلَا إِلَى طَرِيقِ غَيْرِهِ بَابًا ؛ فَاسْتَخَارَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ فَأَقْبَلَ خَاطِرَهُ الشَّرِيفُ
عَلَيْهِ ، وَكَرَّرَ الِاسْتِخَارَةَ فَلَمْ يَجِدْ عَنْهُ مَحِيدًا إِلَّا إِلَيْهِ .

فَلَمَّا رَأَى أَنَّ ذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ أَنْعَقَدَ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ قَوْلًا وَفِعْلًا ، وَعُدِمَ فِيهِ الْمَخَالَفُ
بَلْ لَمْ يَكُنْ أَصْلًا ؛ حَمَدَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَثْنَى عَلَيْهِ ، وَسَأَلَهُ التَّوْفِيقَ وَرَغِبَ إِلَيْهِ ؛ وَجَدَّ
الِاسْتِخَارَةَ وَعَهْدَ إِلَيْهِ بِأَمْرِ الْأُمَّةِ ، وَقَلَّدَهُ مَا هُوَ مُتَقَلِّدُهُ مِنَ الْخِلَافَةِ الْمُقَدَّسَةِ بَعْدَهُ
عَلَى عَادَةٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْخُلَفَاءِ الْمَاضِينَ ، وَقَاعِدَةٍ مَنْ سَلَفَ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُهْدِيِّينَ ؛
وَفَوْضَ إِلَيْهِ مَا هُوَ مِنْ أَحْكَامِهَا وَلَوَازِمِهَا ، وَأَصْوَاحِهَا وَمَعَالِمِهَا : مِنْ عَهْدٍ وَوَصَايَاهُ ،
وَعَزْلِ وَوَلَايَاهُ ؛ وَتَفْوِيضٍ وَتَقْلِيدٍ ، وَأَنْتِرَاجٍ وَتَحْلِيدٍ ؛ وَتَفْرِيقٍ وَجَمْعٍ ، وَإِعْطَاءٍ
وَمَنْعٍ ، وَوَصْلِ وَقَطْعٍ ؛ وَصِلَةَ وَإِدْرَارٍ ، وَتَقْلِيلٍ وَإِكْثَارٍ ؛ جُزْئِيًّا وَكُلِّيًّا ، وَخَفِيًّا

وجليها ؛ ودانها وقاصيها ، وطائعها وعاصيها ؛ تفويضا شرعيا ، تاما مرضيا ؛ جامعا
 لأحكام الولاية جمعا يعم كل نطاق ، ويسرى حكمه في جميع الآفاق ، ويدخل تحتها
 سائر الأقاليم والأمصار على الإطلاق ؛ لا يغير حكمه ، ولا يغيّر رسمه ؛ ولا يبطئ
 سهمه ، ولا يافلّ نجمه .

قبل المهوود إليه - أعلى الله مقامه - ذلك بمحض من القضاة والحكام ، والعلماء
 الأعلام ؛ ولزم حكمه وأثرهم ، وكتب في سبيلات الأفلاك وأرسم ، وحملت رسائله
 مع برد السحاب فطافت به على سائر الأمم ؛ وهو - أبقاء الله - مع ما طبع عليه
 طباعه السليمة ، وجلبت عليه سجاياه الشريفة وأخلاقه الكريمة ؛ قد تلقى عن
 أمير المؤمنين من شريف الآداب ما عُدّي به في مهده ، وتلقف منه من حُسن
 الأدوات ما يرويه بالسند عن أبيه وجده ؛ مما أظيح في صفاء ذهنه الصّقل
 وانتقش في فهمه ، واختلط من حال طفولته بدمه ولحمه وعظمه ؛ حتى صار طبعا
 ثانيا ، وخلقا على ممتز الزمان باقيا ؛ واجتمع لديه الغريزي فكان أصلا ثابتا ، وفرعا
 على ذلك الأصل القوي ثابتا ؛ لكن أمير المؤمنين يوصيه تبركا ، ويشرح له ما يكون
 به - إن شاء الله - متمسكا ؛ والمرء إلى الأمر بالخير مندوب ، ووصية الرجل لبنيه
 مطلوبه فقد قال تعالى : ﴿ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ .

فعليك بمراقبة الله تعالى فمن راقب الله نجح ، و [اجعل] التقوى رأس مالك :
 ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ والجماع إلى الحق فقد فاز من إلى الحق لجا ؛ وكتاب الله
 هو الجبل المتين ، والكتاب المبين ؛ والمتمج القويم ، والسبيل الواضح والصراط
 المستقيم ؛ فتمسك منه بالعروة الوثقى ، وأسلك طريقته المثلى وأهدت بهديه فلا تضل
 ولا تشقى ؛ وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالإقتداء بأفعالها الواضحة ،
 والإصغاء لآثار أقوالها الشارحة ؛ عالما بأن الكتاب والسنة أخوان لا يفترقان ،

ومُتَلَاذِمَانِ بِجَبَلِ التَّبَائِنِ لَا يَعْتَاقَانِ ؛ وَالْبِلَادَ وَالرَّعَايَا خُطُّهُمَا بِنَظَرِكَ مَا اسْتَطَعْتَ ،
 وَتَثَبَّتْ فِي كُلِّ قَطْعٍ وَوَصَلَتْ فَانْتَ مَسْئُولٌ عَنْ كُلِّ مَا وَصَلَتْ وَقَطَعْتَ ؛ وَالْأَلَّ
 وَالْعِتْرَةَ النَّبَوِيَّةَ فَفِيهِمَا حَقُّ الْقِرَابَةِ مِنْكَ وَمَنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي
 أَشْرَقَتْ بِهِ ؛ وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا أَكْرَمْتَ أَحَدًا مِنْهُمْ فَإِنَّمَا أَكْرَمْتَهُ بِسَبَبِهِ ؛ وَأَتَّبِعْ فِي السَّيْرَةِ
 سَيْرَةَ آبَائِكَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ لَا تَتَزَعَّغْ عَنْهَا ، وَلَا تَعْمَلْ إِلَّا بِهَا وَبِمَا هُوَ - إِنْ
 اسْتَطَعْتَ - خَيْرٌ مِنْهَا ؛ وَأَقِفْ فِي الْمَعْرُوفِ أَنَا رَهْمَ الْمُقَدَّسَةِ لِتَحْوِي مِنَ الْمَأْتَرِ مَا حَوَّوْا ،
 وَأَحْذِ حَذْوَهُمْ فِي طَرِيقِهِمْ الْمُبَارَكَةِ وَأَبْنِ الْمَجْدَ كَمَا بَنَوْا ؛ وَأَحْيِ مِنَ الْعَمَلِ سَنَةَ سَلَفِكَ
 الْمَصْطَفِيِّ الْأَخْيَارِ ، وَأَحْرِضْ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْأُمَّةِ الَّذِينَ يُظَاهِمُ اللَّهُ تَحْتَ عَرْشِهِ :
 ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ .
 وَأَسْلَفٌ خَيْرًا تُذَكِّرُهُ بِهِ عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي ، وَيَنْتَظِمُ ذِكْرُهُ فِي عُقُودِ الْأَيَّامِ كَمَا تَنْتَظِمُ فِي السَّلَكِ
 اللَّأَلِيِّ ؛ وَلِيَكُنْ قَصْدُكَ وَجْهَ اللَّهِ لِيَكُونَ فِي نُصْرَتِكَ فَإِنَّ مَنْ كَانَ اللَّهُ تَعَالَى فِي نُصْرَتِهِ
 لَا يُبَالِي ؛ وَتَعَلَّمْ حَقَّ الْيَقِينِ أَنَّ حَسَنَةَ الْإِمَامِ تُضَاعَفُ بِحَسَبِ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا مِنْ
 الْمَصَالِحِ أَوْ تَجِدُّدُ بِسَبَبِهَا ، وَسَيِّئَتُهُ كَذَلِكَ فَمَنْ سَنَّ سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ إِثْمُهَا وَإِثْمٌ مِنْ
 عَمَلِهَا ؛ وَدُرٌّ مَعَ الْحَقِّ كَيْفَ دَارَ وَمِلٌّ مَعَهُ حَيْثُ مَالٌ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ
 مَا بَقِيَ حَتَّى يَغَيِّرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ
 مِنْ وَالٍ ؛ وَلَا تُحْطِرُ بِبَالِكَ أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ أَنْتَهَى إِلَيْكَ بِقُوَّةٍ ، أَوْ يَغْرُكَ مَا قَدَّمْنَاهُ مِنْ
 النَّوَاءِ عَلَيْكَ فَالْتَأَمَّرْ بِالْمَدْحِ يُحْلِلُ بِالْمُرُوءِ ؛ وَلَا تَتَكَلَّمْ عَلَى نَسَبِكَ فَمَنْ أَطَاعَ اللَّهَ أَدْخَلَهُ
 الْجَنَّةَ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا ، وَمَنْ عَصَاهُ أَدْخَلَهُ النَّارَ وَلَوْ كَانَ هَاشِمِيًّا قُرَشِيًّا ، وَاسْتَنْصِرْ
 اللَّهَ يَنْصُرْكَ وَاسْتَعِينْ بِهِ يَكُنْ لَكَ عَوْنًا وَظَهِيرًا ، وَاسْتَهْدِهِ يَهْدِكَ ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًّا
 وَنَصِيرًا ﴾ وَكُنْ [مِنْ] اللَّهُ حَافِيًّا وَمِنْ مَكْرِهِ مِنَ الْمُشْفِقِينَ ، فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مِنْ
 يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيينِ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، ووصيتهُ مُملى عليك ؛ (وَذَكَرَ فَإِنَّ اللَّهَ كَرِيماً
تَتَفَعَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) والله تعالى يبلغُ منك أملاً ، ويحققُ فيك علماً ويزنِّي بك عملاً ؛
والاعتمادُ على الخطِّ المقدس الإمامي المتوكليّ - أعلاه الله تعالى - أعلاه ، حجةٌ فيه
إن شاء الله تعالى .

المذهب الثاني

(أن يفتتحَ العهدَ بعد البسملة بلفظ « من فلان إلى فلان » كما يكتبُ في المكاتبات
ثم يأتي بالبعدية ويأتي بما يناسبه مما يقتضيه الحال من ذكر الولاية ،
ووصف المتوليّ ، واختيار المولى له ونحو ذلك)
ثم قاعدةٌ كُتِبَ بهم أنهم يأتون بعد ذلك بالتحميد في أثناء العهد .

وهذه نسخةُ عهدٍ من ذلك ، كُتِبَ بها عن الحافظ لدين الله الفاطميّ ، لولده
حيدرَةَ بأن يكونَ وليَّ عهد الخِلافة بعده ؛ وليس فيها تعرُّضٌ لتحميد أصلاً ، وهو .
من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ،
إلى ولده ونجله ، وسُلَّاته الطاهرة وتسله ، وأجمع على شرفه والعامل بمرضاة
الله في قوله وفعله ، وعقده وحلّه ؛ الأمين أبي تراب حيدرَةَ ، ولي عهد
أمير المؤمنين ، عليه السلام .

سلامٌ عليك : فإنَّ أمير المؤمنين يحمّدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ، ويسألُه أن
يصلِّيَ على جدّه محمّد خاتم النبيين ، وسيد المرسلين ، صلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ،
الأئمة المهديّين ؛ وسلّم تسليماً .

أما بعدُ ، فإنَّ الله تعالى لبديعِ حكيمته ، ووسيعِ رحمته ، استودعَ خُلفاءه من خلقه
وبرأه ، وأستكفى أمانه من صورهِ وذراهه ؛ وربّهم مرتبةً النفوس من الأجساد ،

وَنَزَّهَمَ بِمَنْزِلَةِ الضَّيَاءِ مِنَ الْأَزْنَادِ ؛ وَجَعَلَهُمْ مُسْتَعْدِمِينَ لِأَفْكَارِهِمْ فِي مَصَالِحِ الْبَرِيَّةِ
الَّتِي غَدَّتْ فِي أَمَانِهِمْ ، وَحَصَلَتْ فِي ضَمَانِهِمْ ؛ فَظَلَّتْ فِي ذِمَامِهِمْ ، وَسَعِدَتْ فِي عِزِّ
مَقَامِهِمْ وَظَلَّ أَيَّامُهُمْ : لِأَنَّهُمْ نَصَبُوا لِلنَّظَرِ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ، وَتَعَبُوا لِرَاحَةِ الْكَافَّةِ تَعَبًا
صَعْبًا وَعَظْمًا وَشَقًّا ؛ وَكَانَ ذَلِكَ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الْحِكْمَةِ ، وَضَرْبًا مِنْ أَفْضَلِ تَدْبِيرِ
الْأُمَّةِ ؛ إِذْ لَوْ سَاوَى بَيْنَ الرَّئِيسِ وَالْمَرْءِوسِ ، وَالسَّائِسِ وَالْمُسَّوسِ ؛ لِأَخْتِلَاطِ
الْخُصُوصِ بِالْعُمُومِ ، وَلَمْ يَبْقَ فَرْقٌ بَيْنَ الْإِمَامِ وَالْمَأْمُومِ .

وَقَدْ اسْتَخْلَصَ اللَّهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَشْرَفِ أُسْرَةٍ وَأَكْرَمِ عِصَابَةٍ ، وَأَيَّدَهُ فِي جَمِيعِ
آرَائِهِ بِالْحَرَامَةِ وَالْجَزَالَةِ وَالْأَصَالَةِ وَالْإِصَابَةِ ؛ وَقَضَى لِأَغْرَاضِهِ أَنْ يَكُونَ السَّعْدُ لَهَا
خَادِمًا ، وَحَمَمَ لِمَقَاصِدِهِ أَنْ يُصَاحِبَهَا التَّوْفِيقُ وَلَا يَنْفَكَّ لَهَا مُلَازِمًا ؛ وَجَمَعَ لَهُ مَا تَفَرَّقَ
فِي الْخَلِيقَةِ مِنَ الْمَفَاحِرِ وَالْمَنَاقِبِ ، وَأَهْلَمَهُ النَّظَرَ فِي حُسْنِ الْخَوَاتِمِ وَحَمِيدِ الْعَوَاقِبِ .

وَمَا كَانَ وَلِيَّ عَهْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَرَ أَبْنَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْمُنْتَهَى لِأَشْرَفِ
الْمَرَاتِبِ مِنْ تَقَادُمِ السِّنِّينِ ؛ وَقَدْ اسْتَوْلَى عَلَى الْفَخْرِ بِاكتِسَابِهِ وَأَنْتِسَابِهِ ، وَتَصَدَّتْ لَهُ
مَخْطُوبَاتُ الرَّتَبِ لِيُحَوِّزَهَا بِاسْتِحْقَاقِهِ وَأَسْتِجَابِهِ ؛ وَهُوَ مِنْ فَضِيلَةِ ذَاتِهِ مَا يُدْبَلُ عَلَى
النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ، وَعَلَيْهِ مِنْ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ مَا يَهْتَدَى بِهِ السَّارِي فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ؛ وَحِينَ حَوَى
تَالِدَ الْفَخْرِ وَطَارِفَهُ وَلَمْ يَسْتَعْنِ بِالْقَدِيمِ عَنِ الْحَدِيثِ وَلَا بِالْحَدِيثِ عَنِ الْقَدِيمِ ؛
وَالصِّفَاتُ إِذَا اخْتَلَفَتْ أَرْبَابُهَا لَا تَقَعُ إِلَّا دُونَهُ ، وَالثَّوَابُ الْجَزِيلُ مِمَّا أَعَدَّهُ اللَّهُ
لِلَّذِينَ يُخْلِصُونَ فِيهِ وَيَتَوَلَّوْنَهُ ؛ وَيُفَخَّرُ بِأَنْ خُصَّ مِنَ الْعِنَايَةِ الْمَلَكُوتِيَّةِ بِالْحِظِّ الْأَجْرَلِ ،
وَلِيَتَسَمَّحَ عَلَى الْبَرَايَا لِيَكُونَ مَدْمُوحًا بِالْكَتَابِ الْمَنْزَلِ ؛ وَلِيَبْدُخَ فَإِنَّ وَصْفَهُ لَا تُبْلَغُ غَايَتُهُ
وَإِنْ اسْتُخْدِمَتْ فِيهِ الْفِكْرُ ، وَلِيَبْجَحَّ فَإِنَّ فَضْلَهُ لَا يُدْرِكُ حَقِيقَةً إِلَّا إِذَا تَبَلَّتِ السُّورُ ،
فَأَمْتَعَهُ اللَّهُ بِمَوَاهِبِهِ لَدَيْهِ وَأَمْتَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَأَجْرَى أُمُورَهُ عَاجِلًا وَأَجَلًا بِسَبَبِهِ .

(١) رأى أمير المؤمنين أن يختصه بولاية عهد أمير المؤمنين تمييزاً له بهذا النعت الشريف، وسموا به إلى ما يجب لجمده الشاخص ومحلّه المنيف؛ وأقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يشرفون به أبناءهم الأكرمين، وتخصيصاً له بما سبقوا نخره على متجدد الأزمان ومُتطاوِل السنين. وأمر أمير المؤمنين أن يُتخَّر من رجال دولته، ووجوه أجناده وشيعته؛ طائفةً يكونُ إليه انتماءؤها، وإلى شرف هذا النعت انتسابها واعتراؤها؛ فتوسم بالطائفة العهديه، وتخطي إذا أخلصت في الولاية بالسعادة الدائمة الأبدية؛ وتظل موقوفة على خدمته، متصرفة على أوامره وأملائه؛ منتبهة في طاعته إلى أغراضه ومآربه، ملازمة للأزم المتعين من ملازمة الخدمة في مواكبه؛ والله تعالى يجعل ما رآه أمير المؤمنين من ذلك كافلاً بالخيرات، ضامناً لشمول المنافع وعموم البركات؛ إن شاء الله تعالى: والسلام على ولي عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.



وهذه نسخة بولاية العهد من خليفة لولده بالخلافة على هذه الطريقة، من إنشاء القاضي الفاضل؛ أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاث مرات، وهي:

من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الفلاني إلى فلان الفلاني، والصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ما تقدم في العهد قبله.

(٢) أما بعد، فالحمد لله الذي استحق الحمد بفضله، وأجرى القضاء [على ما أراده] ووسع الجرائم بعفوه وعدله؛ وصرف المراحم بين قوله وفعله، وأعلى منار الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط في أول الفقرة قبل ويكون العامل في حين بعده محذوفاً دل هذا

عليه . تأمل .

(٢) بياض في الأصل والتصحيح من المقام .

وأرشد إلى أهله ؛ واختار الإسلام ديناً وعصم المعتقلين بحبله ، وأوضح سبل النجاة بما أوضح لسالكيه من سبله ؛ وتعالى علاه إلى الصفات ، فلم يُوصف بمثل قوله :
 ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ ﴾ وتزهر عن اشتراك التشبيهات ، في كلِّ جليل الوصف مستقَّله وغير مستقَّله ؛ علم ما أشتملت عليه خَطَرَاتُ الأسرار ، وأشارت إليه نَظَرَاتُ الأبصار ، وأنفَرَجَتْ عنه غَمَرَاتُ الأخطار ، وأخفَّتْه سَتَرَاتُ الظلماءِ وباحث به جَهَرَاتُ الأنوارِ : ﴿ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴾ .

والحمد لله الذي جعل الدين عنده الإسلام ، فمن أبتغى غيره صَلَّى المَنهَج ، وأبعد المَعْرَج ، وأستقَّح المُنْدَج ، وغَلَطَ المَخْرَج ، وفارق النُّورَ الأَبْلَج ، وركب الطريق الأَعْوَج ، وأتى يومَ القيامة باللسان المُلْجَلَج ؛ ومن أسلمَ وجهه إليه فاز بالسعي النَّجِيج ، وحاز المُنَجَّرَ الرِّيح ؛ وورد المورِدَ الأحمَد ، ويم القصد الأَقْصَد ، ووجد الجَدَّ الأَسْعَد ، وسلك المَنهَجَ الأَرشَد ؛ فهو العُرْوَةُ الوُثْقُ ، والطريقة المُنْتَلَى ، والدرجة العُلْيَا ؛ وأمر به خير المرساين ، المنعوت في سيرا الأولين ، المبعوث بالحق الميِّين ، والقائم رسولاً في الأميين ، والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ؛ والداعي الذي من أجابه وآمن به عُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه وأُجِرَ من عذابِ أليم ، والمستقل [بالعبء^(١)] العظيم ، بفضل مأمْنح من الخلق العظيم ، والممدوح بقوله :
 ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمد لله الذي وصل النبوة بالإمامة ، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم القيامة ، وخصها بالخصائص التي لا تنبغي إلا لتأم الكرامة ، وأجارها خلقه من متآلف

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام . تأمل .

الطامة وبوادي الندامة ، وهدى بشرف مقامه إلى دار المقامه ؛ وأستردَّ بأنوار تديره
من ظلام الباطل الظلامه ، وأحسنَ بما أجراه من نظره النظرَ للخاصة والعامه ،
(إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) .

يحمده أمير المؤمنين أن رفعه إلى ذلك المحلِّ المنيف ، وأستعمر به المقام الشريف ،
وأظهر كرامة الدين الحنيف ، ونفى عنه تعالي التعمق وتجديف التحريف ،
وبين بموافقة توفيق هديه طريق التكليف ، وأمدّه بمواد إلهية تستهر فتستغني عن
التعريف ، وتصل فقطع مواد التكليف .

ويسأله أن يصلِّ على جدِّه محمد الذي نسخ بشريعته الشرائع ، وهدب بهدياته
المشارع ، وأيده بالحجج القواطع ، والأنوار السواطع ، وجعل من ذريته جبال الله
القوارع ، ومن مشكاته نجوم الهدى الطوالع ، وعدت صنائعه بالله إذا أفتخرت
المنعمون بالصنائع ؛ وعلى أخيه وأبنا أمير المؤمنين على بن أبي طالب المخصوص
بأخوته ، وأبي الثقلين من عترته ، والسابق إلى الإسلام فهو بعده أبو عذريته ؛
وإلى تفرج الكرب عن وجهه في الحرب فهو ابنُ بجدته . وعلى الأئمة من ذريتهما
مصايح الظلمات ، ومفاتيح الشكوك المبهمات ، والمنوحين من شرف السمات ،
ماجل عن المسامات ، والمدوحين بفضل الجاه في الأرضين والسَّموات .

وإن الله بحكمته البديعه ، ورحمته الوسيعة ؛ أقام الخلفاء خلقه قواماً وبحقه
قواماً ، وجعل نار الحوادث بنورهم برداً وسلاماً ، وجعل لهم الهداية بأمره لزاماً ،
وأستصرف بهم عن الخلق عذاب جهنم (إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا) ؛ فهم أرواح
والخلائق أجسام ، وصباح والمسالك أظلام ، وثمرات والوجود أحكام ، وحكام
والحقائق أحكام ، يسهرون في منافع الأنام وهم نيام ، وينفردون بوصب النصب

وَيُقِرُّدُونَهُمْ بِلَذَاتِ الْجَمَامِ ، وَيَهْتَدُونَ بِهَدَايَاتِهِمْ إِلَى مَا تَدِقُّ عَنْهُ حَوَائِطُ الْأَفْهَامِ ، وَلَا يُدْرِكُ إِلَّا بوسائِلِ إلهام . وقد أصطفى الله الأميرَ من تلك الأُسرة ، ورفاه شرف تلك المنابرِ ومُلكِ تلك الأُسرة ، وأثار بمقامه نُجومَ السعادةِ المُستَسرَّةِ ؛ وأستخدَمَ العالمَ لأغراضه ، وسدَّدَ كلَّ سبيلٍ في رَمِيهِ إلى أغراضه ، وأقرضَ اللهُ قَرْضًا حَسَنًا فهو واثقٌ بِحُسْنِ عواقبِ إقراضه ، وأفترضَ طاعته في خَلْقِهِ فالسعيدُ من تلقى طاعة أميرِ المؤمنينِ بِأقراضه ، وأمضى أوامره على الأيامِ فما يقابلُها صَرْفٌ من صروفها بِأعتراضه ، وأدار الحقُّ معه حيثُ دار ، وكشَفَ له ما أَسْتَجَنَّ تحتِ أَسْتارِ الأقدارِ ، ووقَفَ الخيرةَ والنُّصرةَ على آرائِهِ وراياتِهِ فهو المُستَشَارُ والمُستَخَارُ ؛ وأهمله أن يحفظَ للأمةِ غَدَها كما حفظَ لها يومَها ، وأن يُجَرِّى لها مواردَ توفيقِ الإرتيادِ ولا يُطِيلَ حومَها ؛ وأن يجعلَ المؤمنَ على تلججٍ من الصدورِ ، وفلجٍ من الظهورِ ، ويودعَ عندها بردَ اليقينِ بالإشارةِ إلى مستودعِ النورِ ؛ ويجعلها على شريعةٍ من الأمرِ فتتبعها ، ويُجِلُّها بمنزلةِ الخُصْبِ فترتبعها ؛ ويُعلمُ ندىَ خيرِها ليكونَ غايتها ومفزعها ، ويعرفها من تنظُرِهِ فتتخذُه مآلها ومرجعها ؛ ويقتدى في ذلك بسيدِ المرسلينِ في يومِ الغديرِ ، ويُشيرُ إلى مَنْ يقومُ به المُشيرُ مقامَ البشيرِ .

ولما كنتَ حافظَ عهدِ أميرِ المؤمنينِ والسيدِ الذي لا بُدَّ أن يُتَّوَجَّ به السَّيرِ ، والنَّجْمِ الذي لا بُدَّ أن نستطيلَ إلى أنواره ونستطيرَ ، والذخيرةِ التي ادَّخرها اللهُ لِنَيْلِ كلِّ خَطَرٍ ودَفَعَ كلَّ خَطِيرٍ ، والسَّحابِ الذي فيه النَّجْمُ المَطِيرُ ، والنَّجْمُ المُنِيرُ ، والرَّجْمُ المُنِيرُ ، وقد تجلَّتْ لك أوجهُ الكراماتِ وتبدَّتْ ، وتبرجتْ لك مخطوباتِ المقاماتِ وتصدَّتْ ، وطلبتك كُفًّا لِنَيْلِ عَقِيلَتِها وسُكْنَى مَعْقِلِها فما تعدتْ ، وأدتْ إليك لطائفَ فهمِكَ من أسرارِ الحقائقِ ما أدتْ ؛ وعرفتْ من سِمَاكَ هدىَ النبوةِ ، وأجتمعتْ لك مزيةُ الشرفينِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ الأبوةِ والبُوةِ ، وأخذتْ كتابَ الحكمةِ

وَمَصُونِ الْعِصْمَةِ بِقُوَّةٍ ، وَأَجْرَتِ الْقُلُوبِ الَّتِي بَعَوَارِضِ الشَّكِّ مَمْنُونَهُ ، وَآثَرَتِ الْعِقَانِدَ
الَّتِي بِنَوَاقِصِ الْعَقْدِ مَمْلُونَهُ ، وَغَدَّتْ وَجُوهَ الْأَنَامِ بِأَيَّامِكَ مَجْلُوهَ ، وَتَوَافَقَتِ الْأَنْسُنُ عَلَى
مَدْحِكَ وَلَا مِثْلَ مَا مِدَحَتْ مِنَ الْآيَاتِ الْمَتْلُوهَ ، وَكُنْتَ بِحَيْثُ تَذْهَبُ بِالْأَهْوَالِ
الْمَسْلُوهَ ، وَتُقْبِلُ بِالْآمَالِ الْمَرْجُوهَ ؛ وَلَوْ أَنَّ رَجَبًا ضَلَّ هَدَاهُ نُورُكَ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ ،
وَلَوْ أَنَّ ذِكْرَكَ شَدَّ تَبَدَّى فِي الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ، وَلَوْ أَنَّكَ طَلَعْتَ عَلَى الْأَوَّلِينَ
لَمَا تَسَاءَلُوا وَلَا اخْتَلَفُوا فِي النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ قَدِيمًا عَلَا فَوْقَ كُلِّ حَدِيثٍ لَقَامَ لَكَ
الْحَدِيثُ مَقَامَ الْقَدِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ جَمِيعَ الْأَنَامِ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ لَصَعِدَتْ دُونَهُمُ الْمَقَامَ
الْكَرِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ يَدَكَ الْبِيضَاءُ تَجَسَّمَتْ لِلنَّاطِرِينَ لِأَعْدَتِ آيَةَ مُوسَى الْكَلِيمِ ، وَلَوْ أَنَّ
هِدَايَتِكَ الْغَرَاءُ تَسَمَّتْ لِلذَّاكِرِينَ لِأَحْيَيْتَ بِهَا الْعِظَامَ وَهِيَ رِيمٌ ، وَلَوْ أَنَّ عُلُومَكَ
أَنْتَشَرَتْ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ لَتَلَّوْا : (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ) وَلَوْ أَنَّ لَيْلَةَ وِلَادَتِكَ رَصَدَتْهَا
الْبَصَائِرُ ، رَأَتْ كَيْفَ يُفَرِّقُ فِيهَا كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ، وَالصِّفَاتُ إِذَا أَحْتَفَلُ أَرْبَابُهَا وَقَفَتْ
لَكَ عَيْدًا ، وَالْأَيَّامُ إِذَا كَانَتْ طُرُوقًا لِفَضَائِلِكَ كَانَتْ كُلُّ يَوْمٍ مِنْهَا لِلْعَيْدِ عَيْدًا ،
وَالْأَنْسَابُ إِذَا عَدَدَتْهَا كَانَتْ الْجُدُّ سَعِيدًا ، فَلْتَفَضَّرْ قَبْلَ السَّيْرِ بِأَنَّ أَمَلَيْتَ عَلَيْهَا السُّورَ ،
وَأَبَشِّرْ بِأَنَّ الْمُنْتَظَرَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ لَكَ فَوْقَ مَا تَعَجَّلَهُ النَّظَرُ ، وَأَسْتَبِخْ بِأَنَّ سَادَةَ الْقَبَائِلِ
مُضَرُّ وَأَنَّكَ بَعْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ سَيِّدٌ مُضَرٌّ ، وَأَبْدِخْ بِأَنَّكَ عِوَضٌ مِنْ كُلِّ مَنْ غَابَ
وَمَاعِنَكَ عِوَضٌ فِي كُلِّ مَنْ حَضَرَ ، وَأَبْجَحْ بِأَنَّكَ قَدْ أَهَلَّتْ لِأَمْرِ أَبِي اللَّهِ لَهُ إِلَّا أَوْلَى
الْعَزْمِ وَالْخَطَرِ ، وَأَشْكُرِ اللَّهَ عَلَى نِعْمَةِ خَلْقِكَ لَهَا بِقَدْرٍ ، وَمَزِيَّةٍ لِأَبِوَيْ حَقَّهَا مِنْ أَضْمَرِ
فَأَغْرَقَ أَوْ نَطَقَ فَشَكَرَ : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ
هَدَانَا اللَّهُ) : (وَقُلْ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ) .

فإليك هذا الأمرُ بصير، وأنت لهُ واللهُ لك نِعْمَ المولى ونِعْمَ النصير، وتأهب له في درجته التي لا ينالها باعٌ قصير، ولا يمتطيها إلا من آخثاره اللهُ على علمٍ من أهل الثقلين ولو أنَّ بعضهم لبعضٍ ظهير، ولا نرى لها أهلاً إلا من أراه اللهُ من آياته أنه هو السميع البصير، وفاوض أمير المؤمنين في مُشكلات الأمر ولا ينبتك مثل خبير، وأقَد منه بمن هو [في] أهل دهره وصي الوصي ونظير النذير، وأهد بنوره الذي هو بالنور البائن دون الخلق بشير، وسر إذا استعملك اللهُ فيهم بما رأيت أمير المؤمنين به فيهم يسير، وأدع اللهُ بأن يسر على يدك مناجحهم إنَّ ذلك على الله يسير، وأعرف ما آثرك اللهُ به من أنه لم يجعل ليدك كفوًا إلا إذا الفقار ولا لقدمك كفوًا إلا المنبر والسرير، وتحدث بنعمة الله وإجرائها فأمير المؤمنين اليوم عليك أميرٌ وأنت غداً على المؤمنين أمير: ﴿ هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ﴾ .

وأما العدل وإفاضة، والجور وإغاضته، والصعبُ ورياضته، والجذبُ وترويضه، والخطبُ وتقويضه؛ والجهدُ ورفع علمه، والذبُّ عن دينِ الله وحفظُ حرمه؛ والأمرُ بالمعروف ونشر دأئه، والنهي عن المنكر وطى اعتدائه؛ وإقامة الحدِّ بالصفح والحد، والمساواة في الحقِّ بين المولى والعبد؛ وبث دعوة الله في كلِّ غور من البلاد وتجد، وأمرُ عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد؛ فذلك عهدُ الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عهدٌ مؤكَّد العقد: وهو سنة فضل الخلفاء التي لا تجد لها تحويلاً، ومعنى العهد الذي أمر اللهُ بالوفاء به فقال: ﴿ إنَّ العهدَ كان مسئولاً ﴾ .

وهل يوصى البحرُ بتلاطم أمواجه؟ وتدافع أفواجه؟ وبتأخر عجاجه؟ وهل يخصُّ البدرُ المنيرُ على أن يُنير سراجَه، ويطلع ليتضح للسالك منهاجَه؟ أو ينبه على هدايته

إذا تهادته أبرأه ؟ عليك من سرائر أنوار الله ما يُغنيك أن تُوصى ، ولديك من ظواهر لطائف الله ما يميز به عن الخلق إذ أُخفيت به مخصوصا ، ومن شواهد اختيار الله ما تظاهرت عليك آياته نصوصا ، فيسلام الله يحييك المؤمنون ، وبالاعتلاق بعصمة ولائك في يوم الفزع الأكبر يأمنون ، والله مُنجرك وعده كما أنجزه لمن جعلهم أئمة لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ؛ والله سبحانه يهدي إليك تحية من عنده مباركة طيبة ، ويؤدي إلى مقام شرفك سخابة رحمة غدقة صبيبه ، ويجعل ما رآه أمير المؤمنين من ولايتك عهدته ، وكفالتك للأمة بعده ، للسرات ناظما ، وللساعات حاسما ؛ وللبركات جامعا ، وللباطل خافضا وللحق رافعا . وأمر أمير المؤمنين أن يعين على رجال من أولياء دولته ، ووجوه شيعته ؛ وأنصار سريته ، عده يكون إليك اعتراضها وبك اعتراضها ، وببائك العالی إقامتها وإلى جنابك أنجيازها ؛ فتكون موسومة بالعبودية ، ومتعرضة بالولاء للسعادة الأبدية ؛ فتمثل على ما مثله من المراسم ، وتتصرف على ما تصرفها عليه من الغزائم ؛ وتكون أبدا لما ينفذ عنك من أحكام الهبات والمكآرم ، وتقوم من ملازمة الخدمة في مواجبتك بما هو لكل خادم فرض لازم ؛ وتُسارع في مطالبك إلى ما يسارع إليه الخازم ، وتُجود باسماء الإنعام بالغدق الساجم . وتقدر لها من الواجبات والزيادات ما تقتضيه همم المكآرم ؛ تبدل في الخدمة الإجتهد ، وتنافس فيما تستمدد [به] الخطوة بحضرتة والإحماد ؛ وعرضها من الإحسان الجم للآزدياد ، وبلغها المراد بما تبلغ بها من المراد : لتتصرف بأن تكون تحت ركابه العالی متصرفه ، وتفتخر بأن تكون أنسابها باسمه العالی مشرفه ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) لعله فتشنى على .

المذهب الثالث

(أن يفتتح العهد بعد البسملة بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله» ثم يأتي بالبعديّة،
ويأتي بما يناسب الحال على نحو ما تقدم، وعليه عمل أهل زماننا
مع الأقتصار على تجميد واحدة، والأختصار في القول)

وهذه نسخة أوردتها على بن خلف من إنشائه في كتابه "مواد البيان" لترتيب
الكتابة في زمن الفاطميين، وهي :

الحمد لله معزّ دينه بخلقائه الراشدين، ومرتب حقه بأوليائه الهادين؛ الذي أختار
دين الإسلام لصفوته من بريته، وخص به من استخلصه من أهل طاعته؛ وجعله
حبّه المتين، ودينه الذي أظهره على كل دين؛ وسيله الأفسح، وطريقه الأوضح؛
وآبعت به نبيه محمداً صلى الله عليه فصدع بأمره، وأعلن بذكوره؛ والناس في فترة
الضلالة، وعمرة الجهالة؛ فلما أنجز في نصرته حقه، وتأيدته لسعداء خلقه [قبضه]^(١)
إليه محمود الأثر، طيب الخبر [وقام] بخلافته، من آتخبه من طهرة عترته؛ وأودعهم
حكمته، وكفلهم شريعته؛ فآقتفوا سبيله، وآتبعوا دليله؛ كَمَا قَبَضَ مِنْهُمْ سَلْفًا إِلَى
مَقَرِّ مَجْدِهِ، أَصْطَفَى خَلْفًا لِلْإِمَامَةِ مِنْ بَعْدِهِ .

يحمده أمير المؤمنين أن أفضى إليه براث الإمامة والرّسالة، وهدي به كما هدى
بجده من الزين والضلالة؛ وأختصه بميراث النبوة والخلافه، ونصبه رحمة للكافة؛ وأتم
نعمته [عليه] كما أتمها على آبائه، وأجزل حظه من حُسن بلائه؛ وأعانه على ما استرعاه،
ووفقه فيما ولّاه؛ وأنهضه بإعزاز الملّة، وإكرام الأُمّة؛ وإماتة البدع، وإبطال

(١) بياض بالأصل، والتصحيح ما يقتضيه المقام .

المذهب المختَرع؛ وإحياء السنن، والاستقامة على لأحب السنن؛ ووجهه من بينه
وذرئته، مؤازرين على ما حمَّله من أعباء خلافته، ومُظَاهِرِينَ على ما كلفه من إمعان
النظر في بريته .

ويسأله الصلاة على عهد خاتم أنبيائه، والخيرة من خُلصائه؛ الذي شرفه بختام
رُسله، وإقرار نيابته في أهله؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه وباب حكيمته،
على بن أبي طالب وصيه في أمته؛ وعلى الأئمة الطاهرة من ذريته، مناهج رحمته،
وسرر هدايته، وسلم تسليماً .

وإنَّ الله تعالى جعل الخلافة للكافة عِصمه، ولأهل الإيمان رحمه، تجمع
كلماتهم، وتحفظ ألفتهم؛ وتصلح عايتهم، وتقيم فرائضه وسننه فيهم، وتمدُّ رُواق
العدل والأئمة عليهم؛ وتحسم أسباب الكفر والنفاق، وتقمع أهل العناد
والشقاق؛ ولذلك وصل الله جبل الإمامه، وجعلها كلمة باقية في عقب أوليائه
إلى يوم القيامة .

ولما نظر أمير المؤمنين بعين اليقين، وأقتبس من الحقيقة قَبَس [الحق] المئين،
عرف ما بُنيت عليه الدنيا من سُرعة الزوال، وشك التحول والانتقال؛ وأنَّ
ما فوّض الله إليه من خلافته لا بد أن يتقل عنه إلى أبنائه الميامين، كما أنتقل إليه
عن آباءه الراشدين؛ فلم يفتّر بمواعيدها المحال، وأضرب عمّا تحدّث به من الأمانى
والآمال؛ وأشفق على من كلفه الله بسياسته، وحمَّله رعايته من أهل الإسلام
المعتصمين بحبل دعوته؛ المشتغلين بظُل بيغته، عند تقضى مدته ونزوعه إلى آخرته؛
في الوقت المعلوم، بالأجل المحتوم؛ من انتشار الكلمة، وأنبات العِصمه؛
وأنشاق العصا، وإراقة الدماء؛ وأستيلاء الفتن، وتعطيل الفروض والسنن؛ فنظر

لهم بما ينظّم شملهم ، ويصلّ حبّهم ، ويبرّج ظلمتهم ، ويجمع كلمتهم ، ويؤلف
أفئدتهم ، ورأى أن يعهد إلى فلان ولده : لأنه قريبه في علمه وفضله ، وعقيهه
في إنصافه وعدله ، والمأموح من بعده ، والمرجو ليومه وغده ، ولما جمع الله له
من شروط الإمامه ، وكمله له من أدوات الخلافه ، وجبله عليه من الرحمة والرأفة ،
وخصّه به من الرصانه والرحاحه ، والشجاعة والسماحه ، وآتاه من فضل الخطاب ،
وجوامع الصواب ومحاسن الآداب ، ووقاية الدين ، والغلظة على الظالمين ، واللطف
بالمؤمنين ، بعد أن قدّم أستخارة الله تعالى فيه ، وسأله توفيقه لما يرضيه ، ووقف
فكره على آخياره ، ولم يكن بأختياره مع إيتاره ، ويُلوح في شمائله ، ويستوضح
في مخايله ، أنه الوليُّ المحبّي ، والخليفة المصطفى ، الذي يحيى الله به ذمّار الحق ،
ويعلّي بسلطانه شعار الصدق ، وأنه - سبحانه - قد أفضى إليه بما أفضى به إلى
الخلفاء من قبله ، وأفاض عليه من الكامنات ما أفاضه على أهله ، وبعد أن عاقده
وعاهدّه على مثل ما عاهدّه عليه أبأؤه : من تقوى الله تعالى وطاعته ، وأستشعار
خيفته ومراقبته والعمل بكتابه وسنته ، وإقامة حدود الله التي حدّها ، بفروضه التي
وكّدها ، والاعتداء بسلفه الراشدين ، في المكافئة عن الدين ، والمسماحة عن أوزار
المسلمين ، وبسّط العدل على الرعيه ، والحكم بينهم بالسويّه ، وإنصاف المظلوم
من الظلوم ، وكفّ يد المعتصب الغشوم ، وصرف ولّاة الجور عن أهل الإسلام ،
وتخيّر من ينظر بينهم في المظالم والأحكام ، وأن لا يوليّ عليهم إلّا من يثق بعدالله ،
ويسكن إلى دينه وأمانته ، ولا يفسح لشريف في التعدي على مشرّف ، ولا يقوى
في التسلّط على مضعوف ، وأن يجمل الناس في الحقوق على التساوي ، ويخريهم
في دولته على التناصف والتكافى ، ويأمر محجابه وتوآبه بإيصال الخاصّة والعامّة إليه ،
وتمكينهم من عرض حوائجهم ومظالمهم عليه : ليعلموا : الولاة والعمال ، أن رعيته

على ذكر منه وبأل ؛ فیتحاموا التثقیل علیهم والإضرار بهم . وأشهد علیه بكل ماشرطه
 وحدده ، والعمل بما یحمد إلیه فیما تقلده . علی أنه غنی عن وصیة وتبصیر ، وتنبیه
 وتذكیر ؛ إلا أن مجداً سید المرسلین یقول لعلی صلی الله علیهما ” أرسل عاقلاً
 (١)
 الا فإوصه “ .

فبايعوا علی بركة الله تعالى طائعين غیر مكرهين ، برغبة لا برهبة ، وبإخلاص
 لا بمداهنه ، بیعة رضا وأختیار ، وأتقياد وإيثار ، بصحة من نیاتكم ، وسلامة
 من صدوركم ؛ وصفاء من عقائدكم ، ووفاء واستقامة فیما تضعون علیه أیمانكم :
 لیعرفکم الله [من] سبوغ النعمة ، وشمول الخبره ؛ وحسن العاقبه ، وأتفاق الكلمه ؛
 ما یقر نواظركم ، ویرد ضمائرکم ؛ ویذهب غل صدوركم ويعز جانبکم ، ویذل
 مجانبکم ؛ فاعلموا هذا وأعملوا به إن شاء الله .

وقد یعنی هذا الكتاب الذى ذكرناه معنى العهد ، فلا يحتاج إلى عهد :

وعلى ذلك كتبت عن الإمام المستكفى بالله أبى الربیع سليمان ، أبى الحاكم بأمر
 الله أحمد ، عهد ولده المستوثق بالله « بركة » بالخلافة بعده . وهذه نسخته :

الحمد لله الذى أيد الخلافة العباسية بأجل والد وأبر ولد ، وجعلها كلمة باقية
 فى عقبه والسند كالسند ، وآواهم من أمرهم إلى الكهف فالكهف وإن تنأهى
 العدد ؛ وزان عطفها بسود سواد شعارهم المسجلة أنوارهم ولا شك أن النور
 فى السواد ، وعدق بصولتهم النبوى معجزها كل مناد .
 (٢)

(١) كذا فى الأصول مضياً عليه وحرر .

(٢) لعله وقدع . أى كف . تأمل .

نحمدُه على ما منَّ به من تمام النعمة فيهم ، وزُور الرحمة بتوآفيهم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة محضة الإخلاص ، كافلة محضها بالتمكك من أسر الشرك والخلاص ، ونشهد أن مجدا عبده ورسوله المبعوث بما أوصح سبيل الرشد ، وقمع أهل العناد ، والشفيع المشفع يوم التناد ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا أنقضاء لها ولا نقاد ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد فإن أمير المؤمنين (ويذكر اسمه) يعتصم بالله في كل ما يأتي ويذر مما جعل الله [له] من التفويض ، ويشير إلى الصواب في كل تصریح منه وتعريض ؛ وإنه شد الله أزره ، وعظم قدره ؛ أستخار الله سبحانه وتعالى في الوصية بما جعله الله له من الخلافة المعظمة المنحمة الموروثة عن الآباء والجدود ، الملقاة إليه مقاليدها كما نص عليه ابن عمه صلى الله عليه وسلم في الوالد من قریش والمولود ؛ لولده السيد ، الأجل ، المعظم ، المكرم ، فلان ؛ سليل الخلافة وشبيل غايبها ، ونحبة أحسابها وأنسابها ؛ أجله الله وشرفه ، وحمل به عطف الأمانة وقوفه : لما تلمحه فيه من النجابة اللامحة على شمائله ، وظهر من مستوثق إبداء سره فيه بدلائل برهانه وبرهان دلائله ؛ وأشهد على نفسه الكريمة - صانها الله تعالى - مولانا أو سيدنا أمير المؤمنين ، من حضر من حكام المسامين : قضاة قضاتهم ، وعلمائهم ، وعدوهم ، يجلسه الشريف ؛ أنه رضى أن يكون الأمر في الخلافة المعظمة ، الذي جعله الله له الآن لولده السيد الأجل فلان بعد وفاته ، فسح الله في أجله ؛ وعهد بذلك إليه ، وعول في أمر الخلافة عليه ؛ وألقى إليه مقاليدها ، وجعل بيده زمام مبدئها ومعيدها ؛ وصى له بذلك جزئيه وكليته ، وغامضه وجليته ؛ وصية شرعية بشروطها اللازمة المعتبرة ، وقواعدها المحررة ؛ أشهد عليه بذلك في تاريخ كذا .

الوجه السابع

(فيما يكتب في مستند عهد ولى الخلافة عن الخليفة ، وما يكتبه
الخليفة في بيت العلامة ، وما يكتب في ذيل العهد بعد إتمام نسخته
من قبول المعهود إليه ، وشهادة الشهود على العهد)

أما ما يكتب في المستند ، فينبغي أن يكون كما يكتب في عهد الملوك عن الخلفاء ،
على نحو ما تقدم في البيعات ؛ وهو أن يكتب : « بالإذن العالى ، المولوى ، الإمامى ،
النبوى ، الفلانى » (بقلب الخلافة) أعلاه الله تعالى « أو نحو ذلك من الدعاء .

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة ، فينبغي أن يكتب : « عهدتُ إليه
بذلك » : لأنه اللفظ الذى ينعقد به العهد . ولو كتب : « فوضتُ إليه ذلك »
كما يكتب الخليفة في عهد السلطان الآن على ماسياتى ، كفى ذلك . والأليق بالمقام
الأول .

وأما ما يكتب في ذيل العهد بعد إتمام نسخته ، فالمقول فيه عن المتقدمين
ما كتب به « على الرضى » تحت عهد المأمون إليه بالخلافة ، وهو :

الحمد لله الفعال لما يشاء ، لأمعقِّ لحكمه ، ولا راد لقضائه ، يعلم خائنة
الأعين وما تخفى الصدور ؛ وصلواته على نبيه محمد خاتم النبیین ، وآله الطيبين
الطاهرين . أقول وأنا على بن موسى بن جعفر : إن أمير المؤمنين عَصَّده الله
بالسداد ، ووقفه للرشاد ؛ عَرَفَ من حقنا ما جهله غيره : فوصل أرحاما قُطعت ،
وأمن أنفساً فرعت ، بل أحيها وقد تلفت ، وأغناها إذ أفقرت ؛ مُتَبِعاً رِضاً ربِّ
العالمين ، لأيريد جزءاً من غيره وسيجزى الله الشاكرين ، ولا يضيع أجر المحسنين ؛

ولانه جعل إلى عهده، والإمرة الكبرى إن بقيت بعده؛ فمن حلَّ عُقْدَةَ أمر الله
بشدّها، أو قَصَمَ عُرْوَةَ أَحَبِّ الله إيثاقها، فقد أباح حريمه وأحلَّ محرّمه؛ إذ كان
بذلك زارياً على الإمام، منتهكاً حرمة الإسلام؛ بذلك جرى السالفُ فصبر منهم
على الفلتات، ولم يُعترض بعدها على العزّات؛ خوفاً على شتات الدين، وأضطراب
حبل المسلمين؛ ولقرب أمر الجاهلية ورصد فرصة تُتَهَرزُ، وباقية تُتَدَرَّبُ؛ وقد جعلتُ
لله تعالى على نفسي إن استرعاني على المسلمين، وقلدني خلافتَه، العملَ فيهم عامّة
وفي بنى العباس بن عبدالمطلب خاصّة بطاعته وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأن لا أسفك دماً حراماً، ولا أبيع فرجاً ولا مالا؛ إلا ماسفكته حدوده، وأباحته
فرائضه؛ وأن أتخير الكفّاة جهدى وطاقتي. جعلتُ بذلك على نفسي عهداً مؤكّداً
يسألني [الله] عنه، فإنه عزّ وجل يقول: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ .
فإن أحدثت أو غيرت أو بدلتُ، كنتُ للغير مستحقاً، وللنكال متعرّضاً؛ وأعوذُ بالله
من سخطه، وإليه أرغبُ في التوفيق لطاعته، والحول بيني وبين معصيته، (في عامّة
المسلمين؛ والخاصّة والحضريد لان على ضدّ ذلك) : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي
وَلَا بِيكُمْ ﴾ : ﴿ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضِ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ . لكنني آمنتُ
أمرَ أمير المؤمنين وآثرتُ رضاه، والله يعصمني وإياه؛ واشهدتُ الله على نفسي
بذلك وكفى بالله شهيداً . وكتبتُ بخطي بحضرة أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه -
والفضل بن سهل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكرم، وإشیر بن المعتز، وحمّاد
ابن الثعمان، في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين .

ثم كتب فيه من حضر من هؤلاء، وهذه صورة كتابهم .

فكتب الفضل بن سهل وزير المأمون ماصورته :

(١) ثبتت هذه العبارة في الاصل وعليها علامة التوقف . ولم نثر عليها في غير هذا الكتاب . تأمل .

”رسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه قراءة مضمون هذا المكتوب: ظهره وبطنه، بحرم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بين الروضة والمنبر على رؤوس الأشهاد، ومرأى ومسمع من وجوه بنى هاشم وسائر الأولياء والأجناد؛ وهو يسأل الله أن يعرف أمير المؤمنين وكافة المسلمين بركة هذا العهد والميثاق، بما أوجب أمير المؤمنين الحجة به على جميع المسلمين، وأبطل الشبهة التي كانت اعتراض آراء الجاهلين: (مَا كَانَ اللَّهُ لِيُدْرَأَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ) . وكتب ”الفضل بن سهل“ في التاريخ المعين فيه“ .

وكتب عبد الله بن طاهر ما صورته « أثبت شهادته فيه بتاريخه عبد الله بن طاهر بن الحسين » .

وكتب يحيى بن أكرم القاضي ما صورته: « شهد يحيى بن أكرم على مضمون هذه الصحيفة ظهرها وبطنها، وكتب بخطه بالتاريخ » .

وكتب حماد بن النعمان ما صورته: « شهد حماد بن النعمان بمضمون ظهره وبطنه، وكتب بيده بتاريخه » .

وكتب بشر بن المعتمر ما صورته: « شهد بمثل ذلك بشر بن المعتمر، وكتب بخطه بالتاريخ » .

قلت: وعلى نحو ما تقدم من كتابة المعهود إليه بالقبول وشهادة الشهود على العهد ينبغي أن يكون العمل أيضا في زماننا: ليجمع خط العاهد بالتفويض على ما تقدم، وشهادة الشهود. ولو اقتصر المعهود إليه في الكتابة على قوله: « قِلتُ ذلك » كان كافيا، وإن كان أميا أكتفى بشهادة الشهود .

الوجه الثامن

(في قطع الورق الذي تُكْتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلم الذي يُكْتَب به،
وكيفية كتابتها وصورة وضعها)

أما قطع الورق فمقتضى قول المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" "أن للعهود قطع البغدادى الكامل، وأن عهود الخلفاء تُكْتَب في البغدادى كما هو مستعمل في عهود الملوك عن الخلفاء، على ما سياتى في موضعه إن شاء الله تعالى. وهو مقتضى ما تقدم في الكلام على قطع الورق في مقدمة الكتاب نقلًا عن محمد بن عمر المدائنى في كتاب "القلم والدواة" "أن القطع الكامل للخلفاء .

قلت : وقد أخبرنى من يُوثقُ به أنه وقف على عهد المعتضد بالله أبى الفتح أبى بكر، وألِد المتوكل على الله : أبى عبد الله محمد خليفة العصر، وهو مكتوب في قطع الشامى الكامل ؛ وأنه كُتِب عهد المتوكل على ظهره بخط الشهود دون كاتب إنشاء . وكأنهم لما تفهقرت الخلافة وضعف شأنها، وصار الأمر إلى الملوك المتغلبين على الخلفاء، تنازلوا في كتابة عهودهم من قطع كامل البغدادى إلى قطع الشامى . وهذا هو المناسب للحال في زماننا .

وأما القلم الذى يُكْتَب به ، فالحكم فيه ما تقدم في البيعات ، وهو إن كُتِب العهدُ في قطع البغدادى ، كُتِب بقلم محتصر الطومار . وإن كُتِب في قطع الشامى ، كُتِب بقلم الثلثين الثقيل .

وأما كيفية الكتابة وصورة وضعها ، فعلى ما تقدم في كتابة البيعات ، وهو أن يبدأ بكتابة الطرة في أول الدرج بالقلم الذى يُكْتَب به العهدُ سطورا متلاصقة ممتدة

في عرض الدرّج من أوله إلى آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابة في قطع
 البغدادى الكامل ، جرى فيه على القاعدة المتداولة في عهود الملوك عن الخلفاء ؛ فيترك
 بعد الوصل الذى فيه الطرة ستة أوصال بياضاً من غير كتابة ، ثم يكتب البسملة
 في أول الوصل الثامن بحيث يلحق أعلى ألقائه بالوصل الذى فوقه ، بهامش قدر
 أربعة أصابع أو خمسة ؛ ثم يكتب تحت البسملة سطرًا من أول العهد ملاصقا لها ؛
 ثم يخلى مكان بيت العلامة قدر شبر كما في عهود الملوك ؛ ثم يكتب السطر الثانى
 تحت بيت العلامة على سمت السطر الذى تحت البسملة . ويحرص أن تكون نهاية
 السجعة الأولى في السطر الأول أو الثانى ؛ ثم يسترسل في كتابة بقية العهد إلى آخره ،
 ويجعل بين كل سطرين قدر ربع ذراع بذراع القماش . فإذا انتهى إلى آخر العهد ،
 كتب « إن شاء الله تعالى » ثم المستند ، ثم الحمدلة ، والصلاة على النبي صلى الله
 عليه وسلم والحسبة ، على ما تقدم في الفواتح والخواتم . ثم يكتب المعهود إليه
 والشهود بعد ذلك . وإن كتب في قطع الشامى ، فعلى ما تقدم في البيعات : من
 أنه ينبغي أن يقتصر في أوصال البياض على خمسة أوصال ، ويكون الهامش قدر
 ثلاثة أصابع .

وهذه صورة وضعه في الورق ، ممثلا فيها بالطرة التى أنشأتها ، على ما تقدم ذكره
 في العهد الذى أنشأته على لسان الإمام المتوكل على الله خليفة العصر لولده العباس .
 وهو العهد الأخير من المذهب الأول من عهود الخلفاء عن الخلفاء

هذا عهد إمامي قد علتْ جدوده ، وزاد في الارتقاء في العلياء صُعوده ، وفُصِّلَتْ
 بالجواهر قلائدُه ونُظِّمَتْ بنفيس الدرِّ عقوده ؛ من عبد الله ووليِّه الإمام المتوكِّل
 على الله أبي عبد الله محمد ابن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح أبي بكر ، بالخلافة
 المقدسة لولده السيد الجليل ؛ دَخِيرَةَ الدِّين ، ووليَّ عهد المسلمين ، أبي الفضل
 العباس ، بَلَّغَهُ اللهُ تعالى فيه غايةَ الأمل ، وأقرَّبَهُ عَيْنَ الأُمَّةِ كما أقرَّبَهُ عَيْنَ أَبِيهِ
 وقد فَعَلَ على ما شرح فيه

بياض ستة أوصال

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا عَهْدُ سَعِيدِ الطَّالِعِ مَيْمُونِ الطَّائِرِ مَبَارِكُ الْأَوَّلِ هَامِش

عهدت إليه بذلك

وكتب فلان بن فلان

بين العلامه
تقدير شهر

صورة خط الخليفة

جَمِيلُ الْأَوْسَطِ حَمِيدُ الْآخِرِ تَشْهَدُ بِهِ حَضْرَاتُ الْأَمْثَلِ

وَتَرْفُقُهُ كَفُّ الثُّرَيَّا بِأَقْلَامِ الْقَبُولِ فِي صَحَائِفِ الْأَفْلاكِ وَتُبَاهِي

بِهِ مَلَائِكَةُ الْأَرْضِ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ ، وَسَرَى بِنَشْرِهِ الْقَبُولُ إِلَى الْأَقْطَارِ

تقدير ربع ذراع

والباقي بالشرح

هاشم فننشره بكل ناحية علما، وتطلع به سعادة الجده من ملوك العدل

في كل أفق تجا .

ثم يأتي على الكلام إلى آخر العهد على هذا النمط إلى أن ينتهي إلى قوله فيه «والله تعالى يبلغه منك أملا، ويحقق فيك علما ويزكي بك عملا»

إن شاء الله تعالى

كتب في اليوم الأول من المحرم
سنة إحدى وثمانمائة

بالإذن العالي ، المولوي ، الإمامي ، النبوي ، التوكلية ،

أعلاه الله تعالى

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

شهد على العاهد والمعهود إليه
فيه زادهما الله شرفا
وكتب فلان بن فلان
وكذا بقية الشهود

صورة
خط شهود العهد

قبلت ذلك
وكتب فلان ولى
جهد أمير المؤمنين

صورة
خط المعهود

النوع الثاني

(عهودُ الخلفاء للوك ، ويتعلق النظر به من سبعة أوجه)

الوجه الأول

(في أصل مشروعيّتها)

والأصلُ فيها مارواه ابن إسحاق وغيره : أنه لما رجع وفدُ بني الحريث بن كعب إلى قومهم باليمن بعد وفود [هم] على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بأربعة أشهر ، بعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد أن ولى وفدهم عمرو بن حزم ، يُفقههم في الدين ، ويعلمهم السنّة ومعالم الإسلام ، ويأخذُ منهم صدقاتهم . وكتب له كتاباً عهد فيه عهده ، وأمره فيه أمره ، على ماسياتي ذكره في أول نسخ العهود الواردة في هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . فقد فوض النبي صلى الله عليه وسلم أمرَ اليمن في حياته إلى عمرو بن حزم رضي الله عنه . وذلك أصرح دليل وأقوم شاهد لما نحن فيه .

الوجه الثاني

(في بيان [معنى] الملك والسّلطنة اللتين يقعُ العهدُ بهما)

قد تقدّم في الكلام على الألقاب نقلاً عن " الفروق " في اللغة العسكريّة أن الملك أخص من السّلطنة : لأن الملك لا يطلق إلا على الولاية العامّة ، والسّلطنة تُطلق على أنواع الولايات ؛ حتى إنّ الفقهاء يعبرون عن القاضي ووالي البلد في أبواب الفقه بالسّلطان .

ثم تفويض الخليفة الأمور في البلاد والأقاليم إلى من يدبرها ويقوم بأعبائها
على ثلاثة أقسام :

القسم الأول — وهو أعلاها وزارة التفويض، وهو أن يستوزر الخليفة من
يقوض إليه تدبير الأمور برأيه وإمضاءها على آجتهاده، وينظر فيها على العموم .
وعلى ذلك كانت السلطنة في زمن الخلفاء الفاطميين بمصر على ماسياتى ذكره .
قال الماوردي في "الأحكام السلطانية" : ولا يمتنع جواز مثل ذلك : لأن
كل ما وكل إلى الإمام من تدبير [الأمة] لا يقدر على مباشرة جميعه إلا بالاستنابة^(١)،
ونياية الوزير المشارك له في التدبير أصح في تنفيذ الأمور، [من تفرده بها] ليستظهر^(١)
به على نفسه ولنفسه، فيكون أبعد من الزلل، وأمنع من الخلل . قال : وتعتبر^(٢)
في [تقليد] هذه الوزارة شروط الإمامة إلا النسب وحده . وقد تقدم بيان شروط
الإمامة في الكلام على البيعات . ثم قال : وكل ما صح من الإمام صح من وزير
التفويض إلا في ثلاثة أشياء :

أحدها — ولاية العهد . فإن للإمام أن يعهد إلى من يرى وليس ذلك للوزير .

الثاني — أن للإمام أن يستعفي الأمة من الإمامة وليس ذلك للوزير .

الثالث — أن للإمام أن يعزل من قلده الوزير وليس للوزير أن يعزل من
قلده الإمام .

وتفارق هذه الوزارة الخلافة في عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين :

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

أحدهما - مختص بالإمام وهو أن يتصفح أعمال الوزير وتدير الأمور : ليقتر منها ماوافق الصواب ، ويستدرك ماخالفه : لأن تدير الأمة إليه موكل ، وعلى أجهاده محمول .

والثاني - مختص بالوزير . وهو مطالعة الإمام بما أمضاه من تدير ، وأنفذه من ولاية وتقليد : لئلا يصير بالاستبداد كالإمام .

أما وزارة التنفيذ فسيأتي الكلام عليها في تقليد الوزارة إن شاء الله تعالى .

القسم الثاني - إمارة الاستكفاء .

وهي التي تتعد عن اختيار من الخليفة . وتشتمل على عمل محدود ونظر مهمود ، بأن يفوض الخليفة إليه إمارة بلد أو إقليم ولاية على جميع أهله ، ونظراً في المعهود من سائر أعماله ، فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل ، ومعهوداً من نظر . قال الماوردي : فينظر فيما إليه في تدير الجيش ، وترتيبه في النواحي ، وتقدير أرزاقهم إن لم يكن الإمام قد قدرها ، وإدارها عليهم إن كان الإمام قد رها ؛ وكذلك [النظر في] الأحكام ، وتقليد القضاة والحكام ، وجباية الخراج ، وقبض الصدقات والعمل فيهما ، وتفريق ما يستحق منهما ، وحماية الحرم ، والدب عن البيضة ، ومراعاة الدين من تغيير أو تبديل ، وإقامة الحدود في حقوق الله تعالى وحقوق الآدميين ، والإمامة في الجمع والجماعات بالقيام بها ، والاستخلاف عليها ؛ وتفسير الحجيج من عمله ومن يتر عليه من غير عمله ؛ وجهاد من يليه من العدو ، وقسم الغنائم في المقاتلة ، وأخذ خمسها لاهل الخمس . وله أن يتخذ وزير تنفيذ لا وزير تفويض .

وعلى هذا كانت الأُمراء والمُعالِم في الأقاليم والأُمصار من ابتداء الإسلام إلى أن تغلب المتغلبون على الأمر وأستضعف جانب الخلفاء .

قال الماوردي : ويعتبر في هذه الإمارة ما يُعتبر في وزارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عموم الولاية وخصوصها فرق في الشروط المعتبرة فيها .

القسم الثالث - إمارة الاستيلاء .

وهي أن يقلده الخليفة الإمارة على بلاد ويفوض إليه تديرها، فيستولى عليها بالقوة، فيكون [الأمير] باستيلائه مستبداً بالسياسة والتدبير، والخليفة بإذنه ينفذ أحكام الدين : لتخرج عن الفساد إلى الصحة، ومن الحظر إلى الإباحة؛ نافذ التصرف في حقوق الملة وأحكام الأمة . وهذا ما صار إليه الأمر بعد التغلب على الخلفاء، والاستبداد بالأمر بالعلبة والقوة .

قال الماوردي : وهذا وإن خرج عن عرف التقليد المطلق في شروطه وأحكامه، ففيه [من] حفظ قوانين الشرع وحراسة الأحكام الدينية مالا يجوز أن يترك مختلاً مدخولاً، ولا فاسداً معلولاً؛ فجاز فيه مع الاستيلاء والاضطرار، ما امتنع في تقليد الاستكفاء والإختيار : لوقوع الفرق بين شروط المكنة والعجز^(٢). قال : والذي يُحفظ بتقليد المستولي من قوانين الشريعة سبعة أشياء، يشترك في الترامها الخليفة المولى والأمير المستولى، ووجوبها في جهة المستولى أغلظ .

(١) عبارة "الأحكام السلطانية" وإمارة الاستيلاء التي تمقد عن اضطراب فهي أن يستولى بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه الخ وهي أوضح وأصرح .

(٢) في المصباح . وله مكنة أى قوة وشدة .

أحدها - حِفْظُ مَنْصِبِ الإِمَامَةِ فِي خِلافةِ النَبْوَةِ، وَتَدْيِيرِ أُمُورِ الأُمَّةِ : لِيَكُونَ ما أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ مِنْ إقامَتِها مَحْفُوظًا، وَما تَفَرَّعَ عَنها مِنَ الحَقُوقِ مَحْرُوسًا .

والثاني - ظُهُورُ الطاعَةِ الدِّينِيَّةِ الَّتِي يُزُولُ مَعها حُكْمُ العِنادِ فِي الدِّينِ ، وَيَتَنفَى بِها ما تُؤمُّ المُبائِنَةَ لَهُ .

والثالث - أَجْتِمَاعُ الكَلِمَةِ عَلَى الأُلْفَةِ وَالتَّنَاصُرِ : لِيَكُونَ المُسَلِمُونَ يَدًا عَلَى مَنْ سِوَاهِمُ .

والرابع - أَنْ تَكُونَ عُقُودُ الوِلايَاتِ الدِّينِيَّةِ جائِزةً، والأَحكامُ والأَقْضِيَةُ [فِيها] نَافِذةً؛ لا تَبْطُلُ بِفِسادِ عُقُودِها، وَلا تَسْقُطُ بِجَلَلِ عُهُودِها .

الخامس - أَنْ يَكُونَ اسْتِيفاءُ الأُمُوالِ الشَّرِيعِيَّةِ بِحَقِّ تَبَرُّأِ بِهِ ذِمَّةً مُؤدِّيها ، وَيَسْتَيِّبِها أَحَدُها وَمُعْطِيها .

السادس - أَنْ تَكُونَ الحُدُودُ مُستَوفاةً بِحَقِّ ، وَقائِمَةً عَلَى مُسْتَحَقِّ ؛ فَإِنَّ جَنْبَ المُؤمِنِ جَمِيٌّ إِلاَّ مِنَ حَقُوقِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُدُودِهِ .

السابع - أَنْ يَكُونَ للأُمَّةِ فِي حِفْظِ الدِّينِ وَازِعٌ عَنِ مَحارِمِ اللَّهِ تَعَالَى، بِأَمْرِ بِحَقِّهِ إِنْ أُطِيعَ، وَيَدْعُو إلى طاعَتِهِ إِنْ عُصِيَ . ثُمَّ قالَ : فَإِنْ كُنْتَ فِيهِ شُرُوطُ الأِختِيارِ المُتَقَدِّمةُ، كانَ تَقْلِيدُهُ حَتَّى اسْتِدْعاءُ لَطاعَتِهِ ، وَدَفْعًا لِمِشاقتِهِ وَمُخالَفَتِهِ ؛ وَجَرِيٌّ عَلَى مَنْ اسْتَوَزَرَهُ أَوْ اسْتَنابَهُ أَحكامُ مَنْ اسْتَوَزَرَهُ الخَلِيفَةُ أَوْ اسْتَنابَهُ . وَإِنْ لَمْ تَكُنْ [فِيهِ] شُرُوطُ الأِختِيارِ ، جازِلُهُ إِظْهَارُ تَقْلِيدِهِ اسْتِدْعاءُ لَطاعَتِهِ وَحَسْمًا لِمُخالَفَتِهِ وَمَعانَدَتِهِ ؛ وَكانَ نَفُوذُ تَصَرُّفاتِهِ فِي الحَقُوقِ والأَحكامِ مَوْقُوفًا عَلَى أَنْ يَسْتَيِّبَ الخَلِيفَةُ

له من تكاملت فيه الشروط . قال : وجاز مثل هذا وإن شدَّ عن الأصول : لأن
الضرورة تُسقط ما أعوز من شروط المكنة .

قلت : ومملكة الديار المصرية من حين الفتح الإسلامى وهلمَّ جرأ إلى زماننا
دائرة بين هذه الأقسام الثلاثة ، لا تكاد تُخْرَج عنها : فكانت في بداية الأمر « إمارة
أستكفاء » يولى عليها الخليفة في كلِّ زمن من يقوم بأعبائها ، ويتصرف في أمورها ،
قاصر الولاية عليها ، واقف عند حدِّ ما يرد عليه من الخليفة من الأوامر والنواهي ،
إلا ما كان في أيام بني طولون من الخروج عن طاعة الخلفاء في بعض الأحيان .
فلما استولى عليها الفاطميون واستوزروا أرباب السيف في أواخر دولتهم ،
وعظمت كلمتهم عندهم ، صارت سلطنتها « وزارة تفويض » . وكان الخليفة يُختب
والوزير هو المتصرف في المملكة كالمُلوِك الآن أوقريب منهم . وكانوا يُلقَّبون باللقاب
المُلوِك الآن : كالمُلوِك الأفضَل رِضوان وزير الحافظ ، وهو أوَّل من لُقِّب بالمُلوِك
منهم فيما ذكره المؤيِّد صاحب حماة في تاريخه . والمُلوِك الصالح طلائع بن رزك
وزير الفائز ثم العاضد . والمُلوِك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى وزير العاضد ،
وأبن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب وزير العاضد أيضا ، قبل أن يستقلَّ
بالمُلوِك ويخطب بالديار المصرية لبني العباس ببقداد . ولأنكر في تسمية الوزير مُلوِكا ،
فقد قيل في قوله تعالى في قصة يوسف عليه السلام : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْوِي بِهِ
أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي ﴾ إن المراد بالمُلوِك الوزير لا المُلوِك نفسه . ولما اتَّرعَت من
الفاطميين وصارت إلى بني أيوب ، وكانوا يُلونها عن خلفاء بني العباس ،
صارت « إمارة أستيلاء » لأستيلائهم عليها بالقوة ، وأستبداهم بالأمر والتدبير
مع أصل إذن الخليفة وتقليده . وكان الرشيد قد لُقِّب « جعفر بن يحيى البرمكي »

في زمن وزارته له بالسلطان ، ولم يأخذ الناس في التلقيب به . فلما تغلب
الملوك بالشرق على الخلفاء وأسبَدُوا عليهم ، صار لقبُ السلطان سِمَةً لهم ، مع
ما يختصُّهم به الخليفةُ من ألقاب التَّشريف : كَشَرَفِ الدَّوْلَةِ ، وَعَضُدِ الدَّوْلَةِ ،
وَرُكْنِ الدَّوْلَةِ ، وَمُعَزِّ الدَّوْلَةِ ، وَعِزِّ الدَّوْلَةِ ، ونحو ذلك . وشاركهم في لقبِ السلطنة
غيرهم من ملوك النواحي ، فلقَّبَ بذلك صلاحُ الدين يوسفُ بنُ أيُّوبَ ، وتلقَّبَ
بالمُلكِ النَّاصِرِ عندَ استبداده بالملك على العاضِدِ الفاطميِّ بعدَ وزارته له ، ونقل
ما كان من وِزَارَةِ التفويض والعهد بها إلى السلطنة ، وصارتِ الوِزَارَةُ عن السلطان
معدُوقَةً بقَدْرِ مَحْصُوصٍ من التَّصَرُّفِ . وبقى الأمرُ على ما هو عليه من الإِسْتِيلاءِ
والإِسْتِبْدَادِ بِالْمُلُكِ ، مع أصلِ إِذْنِ الخليفةِ وكتابةِ العَهْدِ بِالْمُلُكِ ، وهى على ذلك إلى
زماننا ؛ إلا ما كان في زمنِ تعطيلِ جَيِّدِ الخِلافةِ من الخُلفاءِ ، من حينِ قَتْلِ التَّتَارِ
« الْمُسْتَعَصِمِ » آخرَ خُلفاءِ بنى العباسِ ببغداد إلى حينِ إقامةِ الخليفةِ بمصر
في الدولةِ الظاهريَّةِ بِبِرْسِ . على أنَّ في السلطنة الآنَ شَبَهاً من وِزَارَةِ التفويضِ ،
فإن الخليفةَ يفوضُ إليه في تقليده تدييرَ جميعِ الممالكِ الإسلاميَّةِ بالتفويضِ العامِّ
لايسْتثنى منها شيئاً . وغيرُ هذهِ المملكةِ وإن كان خارجاً عن يده فهو داخل في عُمومِ
وِلايَتِهِ ، حتَّى لو غلبَ على شىء منها أو فتحه لم يَحْتَجَّ فيه إلى توليةِ جديدةٍ من
الخليفةِ . ولا مانعَ لذلك : فسيأتى في الكلامِ على المناشيرِ أنه يجوزُ للإمامِ أن يُقْطِعَ
أرضَ الكُفْرِ قبل أن تُفْتَحَ ، وإذا جاز ذلك في الإِقطاعِ ففي هذا أوَّلُ . وحينئذٍ
تكون سلطنةُ الديارِ المِصريَّةِ الآنَ مرَّكبةً من وِزَارَةِ التفويضِ وإمارةِ الإِسْتِيلاءِ .

الوجه الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فيه)

وأعلم أنه يجب على الكاتب مراعاة أمور :

منها — براعة الاستهلال بما يتبها له من اسم السلطان أو لقبه الخاص : مثل فلان الدين ، أو لقبه بالسلطنة : مثل الناصر ، والظاهر ، ونحوهما ؛ أو غير ذلك مما يدل على ما بعده قبل الإتيان به كما تقدم في البيعات وعهود الخلفاء .

ومنها — التنييه على شرف السلطنة وعزوتبتها ، ووجوب القيام بأمر الرعية ، وتحمل ذلك عن الخليفة .

ومنها — الإشارة إلى اجتهاد الخليفة وإعمال فكره فيمن يقوم بأمر الأمة ، وأنه لم يجد بذلك أحق من المعهود إليه ولا أولى به منه ، فيصفه بالصفات الجميلة ، ويثني عليه بما يليق بمقام الملك .

ومنها — الإشارة إلى جريان لفظ تنعقد به الولاية من عهد أو تقليد أو تفويض ، وقبول ذلك ، ووقوع الإشهاد على الخليفة بالعهد .

ومنها — إيراد ما يليق بالمقام من الوصية ، بحسب ما يقتضيه الحال : من عزوتبة الخلافة وانخفاضها ، مبينا لما يلزمه القيام به : من حفظ الدين على أصوله المستقرة ، وما أجمع عليه سلف الأمة ، وتنفيذ الأحكام ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، وحماية البيضة ، والذب عن الحرم ، وإقامة الحدود ، وتحصين الثغور ، وجهاد أعداء الله وغزوهم ، وجباية الفئء والصدقات على ما أوجبه الشرع من غير حيف ولا عسف ،

وتقدير العطاء، وصرف ما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، في وقت الحاجة إليه، وأستكفاء الأبناء، وتقليد النصحاء للأعمال والأموال، ومباشرة الأمور بنفسه وتصفح الأحوال؛ إلى غير ذلك من الأمور المتعلقة بالإمامة: من إقامة موسم الحج، وتأمين الحرم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيت المقدس، وتحرير مقادير المعاملات، وغير ذلك مما يقتضيه أمر المملكة.

الوجه الرابع

(فيما يكتب في الطرّة، وهو نمطان)

النمط الأول — ما كان يكتب في وزارة التفويض في دولة الفاطميين .

وكان الخليفة هو الذي يكتب بيده . وهذا أمر وإن كان قد ترك فالمعرفة به خير من الجهل ، خصوصاً وقد أثبت المقرّ السّماني بن فضل الله عهدى أسد الدين شيركوه وابن أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالوزارة عن العاضد، في جملة عهود الملوك على ما سيأتى ذكره . وسنوردُهما في جملة عهود الملوك عن الخلفاء فيما بعد إن شاء الله تعالى .

فمن ذلك ما كتب به العاضد في طرّة عهد أسد الدين شيركوه المتقدم ذكره، وهو :

«هذا عهد لا عهد لوزيرٍ بمثله ، وتقليد أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلاً لحمله ، والحجة عليك عند الله بما أوصحه لك من مرآشد سبله ، فخذ كتاب أمير المؤمنين

يُقُوهُ، وَأَسْجَبَ ذَيْلَ الْفَخَّارِ بَانَ أَعْتَرَتْ خِدْمَتُكَ إِلَى بُتُوَةِ النَّبِيِّ، وَاتَّخَذَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
لِلْفَوْزِ سَبِيلًا (وَلَا تَتَّقُوا الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) .



ومن ذلك ما كتب به العاضد أيضا في طرة العهد المكتتب عنه بالوزارة
للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قبل استقلاله بالسلطنة، وهو :

« هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وُحِّجْتَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ، فَأَوْفِ بِعَهْدِكَ
وَيَمِينِكَ، وَخُذْ كِتَابَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ يَمِينِكَ، وَلِمَنْ مَضَى بِحَدِّنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنُ أَسْوَاهُ، وَلِمَنْ بَقِيَ بَقْرُنَا أَعْظَمُ سَلْوَاهُ (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ
لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِينَ) » .

النمط الثاني - ما يكتتب في طرة عهود الملوك الآن .

وهو قريب مما كان يكتب أولا مما تقدم ذكره، إلا أنه يُبدل فيه لفظ الوزارة
بالمُلك والسلطنة، ويكون الذي يكتبه هو الذي يكتب العهد دون الخليفة . ثم هو
بحسب ما يؤثره الكاتب مما يدل على صدر العهد على ما يقتضيه الحال .

وهذه نسخة طرة عهد، كتب بها القاضي محي الدين بن عبد الظاهر،
في نسخة عهد أنشأه للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، في سنة سبع عشرة
وسبعمائة، وهو :

« هذا عهد شريف تجددت مسرات الإسلام بتجديده، وتأكدت أسباب
الإيمان بتأكيده، ووجد النصر العزيز والفتح المبين بوجوده، ووفد اليمن والإقبال

على الخليفة بوفوده، وورد الأنام مؤرد الأمان بوروده . من عبدا لله ووليه الإمام
المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين ، ابن الحاكم بأمر الله أبي العباس
أحمد . عهد به إلى السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمد ، خلد الله سلطانه ،
ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى قدس الله روحه » .

تم الجزء التاسع . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء العاشر

وأوله الوجه الخامس

(فيما يكتب فى ألقاب الملوك عن الخلفاء ، وهو نمطان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء التاسع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- القسم الثانى - من مقاصد المكاتب الإخوانيات ،
- وهى على سبعة عشر نوعا ٥
- النوع الأول - التهانى ، وهى على أحد عشر ضربا ٥
- الضرب الأول - التهنتة بالولايات ٦
- » الثانى - » بكرامة السلطان ، وأجوبته ٢٥
- » الثالث - » بالعود من الحج ٣١
- » الرابع - » بالقدوم من السفر ٣٣
- » الخامس - » بالشهور والمواسم والأعياد ٣٩
- » السادس - » بالزواج والتسرى ٥٤
- » السابع - » بالأولاد ٥٦
- » الثامن - » بالإبلال من المرض والعافية من السقم ٦٣
- » التاسع - » بقرب المزار ٧٠
- » العاشر - » بتزول المنازل المستجدة ٧١
- » الحادى عشر - نواذر التهانى ٧٣
- النوع الثانى - من مقاصد المكاتب التعازى ، وهى على أضراب ٨٠
- الضرب الأول - التعزية بالأبن ٨٠
- » الثانى - » بالبنت ٨٥
- » الثالث - » بالأب ٨٦
- » الرابع - » بالأم ٨٧
- » الخامس - » بالأخ ٨٨
- » السادس - » بالزوجة ٩٠
- » السابع - التعازى المطلقة ٩٢

صفحة

- النوع الثالث - من مقاصد المكاتبات التهادى والملاطفة ... ١٠٠
- » الرابع - الشفاعات والعنايات ... ١٢٤
- » الخامس - التشوق ... ١٤٢
- » السادس - فى الأستراحة ... ١٥٠
- » السابع - فى أخطاب المودّة وأفتتاح المكاتبه ... ١٥٥
- » الثامن - فى خطبة النساء ... ١٥٩
- » التاسع - فى الأسترضاء والأستعطاف والأعتذار ... ١٦٥
- » العاشر - فى الشكوى ... ١٧٣
- » الحادى عشر - فى آستراحة الحوائج ... ١٧٦
- » الثانى عشر - فى الشكر ... ١٨٣
- » الثالث عشر - فى العتاب ... ١٨٩
- » الرابع عشر - فى العيادة والسؤال عن حال المريض ... ٢٠٣
- » الخامس عشر - فى الظم ... ٢١٧
- » السادس عشر - فى الأخبار ... ٢١٩
- » السابع عشر - فى المداعبه ... ٢٢٥
- الفصل الثامن - فى إخفاء ما فى الكتب من السر، وهو على نوعين ٢٢٩
- النوع الأول - ما يتعلق بالكتابة ، وهو على ضربين ... ٢٢٩
- الضرب الأول - ما يتعلق بالمكتوب به ... ٢٢٩
- » الثانى - ما يتعلق بالخط المكتوب ... ٢٣٠
- النوع الثانى - الرموز والإشارات التى لاتعلق لها بالخط والكتابة ٢٤٩
- المقالة الخامسة - فى الولايات، وفيها أربعة أبواب ... ٢٥٢
- الباب الأول - فى بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت، وفيه
- ثلاثة فصول ... ٢٥٢

- صفحة
- ٢٥٢ الفصل الأول - في بيان طبقات الولايات
- ٢٥٢ الطبقة الأولى - الخلافة
- ٢٥٢ » الثانية - السلطنة
- » الثالثة - الولايات عن الخلفاء والملوك وما يكتب عن
السلطان بالديار المصرية في أقطار المملكة بمصر
والشام والحجاز، وهي على خمسة أنواع ٢٥٢
- ٢٥٣ النوع الأول - ولايات أرباب السيوف
- » الثاني - ولاية أرباب الأقلام ٢٥٥
- » الثالث - ولاية أرباب الوظائف الصناعية ٢٥٩
- » الرابع - ولايات زعماء أهل الذمة ٢٥٩
- » الخامس - ما لا يختص بطائفة ولا يندرج تحت نوع ... ٢٦٠
- الفصل الثاني - من الباب الأول من المقالة الخامسة في بيان
ما تجب على الكاتب مراعاته في كتابة الولايات
على سبيل الإجمال ٢٦١
- الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة الخامسة في بيان
ما يقع به التفاوت في رتب الولايات . وذلك
من سبعة أوجه ٢٦٣
- الوجه الأول - الألقاب ، وهي على ثلاثة أنواع ٢٦٣
- النوع الأول - ألقاب الخلفاء ٢٦٣
- » الثاني - « الملوك ٢٦٣
- » الثالث - ألقاب ذوى الولايات الصادرات عن السلطان ٢٦٤
- الوجه الثاني - ألقاب إسناد الولايات إلى صاحب الوظيفة ... ٢٦٦
- » الثالث - الأفتاحات ٢٦٨
- » الرابع - تعدد التعميد في الخطبة أو في أثناء الكلام
وآتماده ٢٦٩

صفحة

- الوجه الخامس - الدعاء ٢٦٩
- » السادس - طول الكلام وقصره ٢٧٠
- » السابع - قطع الورق ٢٧١
- الباب الثانى - من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان ٢٧٣
- الفصل الأول - فى معناها... .. ٢٧٣
- » الثانى - فى ذكر تنوع البيعات، وهى نوعان ٢٧٤
- النوع الأول - بيعات الخلفاء، وفيها سبعة مقاصد... .. ٢٧٤
- المقصد الأول - فى أصل مشروعيتها ٢٧٤
- » الثانى - فى بيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ٢٧٥
- » الثالث - فى بيان ما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة البيعة... .. ٢٧٦
- » الرابع - فى بيان مواضع الخلافة التى تستدعى الحال كتابة المبايعات فيها ٢٧٩
- » الخامس - فى بيان صورة ما يكتب فى بيعات الخلفاء، وفيه أربعة مذاهب ٢٨٠
- المذهب الأول - أن تفتح المبايعه بلفظ «تبايع فلانا أمير المؤمنين» خطابا لمن تؤخذ عليه البيعة ٢٨٠
- » الثانى - مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتح المبايعه بلفظ «من عبد الله ووليه فلان أبى فلان الامام الفلانى» إلى أهل دولته ٢٨٦
- » الثالث - أن تفتح البيعة بعد البسملة بخطبة مفتوحة بالحمد لله الخ ٢٩٨
- » الرابع - مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتح البيعة بلفظ «هذه بيعة الخ ٣٢٠

صنح الأربعة

الجزء العاشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأربعة

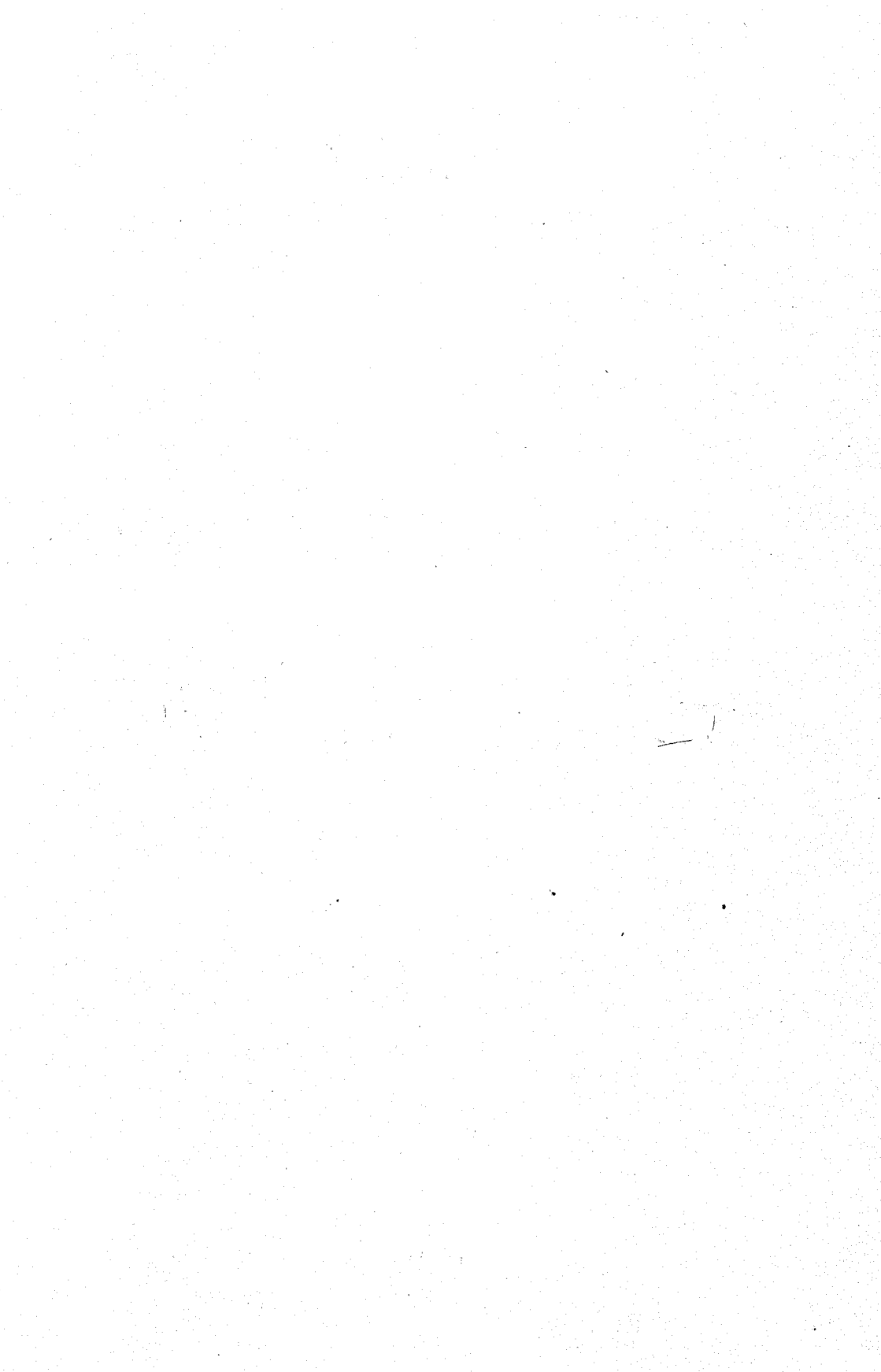
تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء العاشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
م ١٩١٦



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الوجه الخامس

(فَمَا يُكْتَبُ فِي أَلْقَابِ الْمُلُوكِ عَنِ الْخَلَفَاءِ ، وَهُوَ نَمَطَانِ)

النمط الأول

(ما كان يُكْتَبُ فِي قَدِيمِ الزَّمَنِ)

وهو أن يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يَلْقَبُ بِهِ الْمَلِكُ أَوْ يُكْتَبُ بِهِ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، ثُمَّ يُقَالُ :
« مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » وَلَا يُزَادُ عَلَى ذَلِكَ .

كما كتب أبو إسحاق الصابى فى عهد نجر الدولة بن بويه عن الطائع لله :
« هَذَا مَا عَاهَدَ عَبْدُ اللَّهِ عَبْدُ الْكَرِيمِ الطَّائِعُ لِلَّهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى نَجْرِ الدَّوْلَةِ
أَبَى عَلَى مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

وإلى هذا أشار فى " التعريف " بقوله : عَلَى أَنَّ لِهَذَا ضَابِطًا كَانَ فِي قَدِيمِ
الزَّمانِ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يُكْتَبُ لِلرَّجُلِ إِلَّا مَا كَانَ يَلْقَبُ بِهِ مِنْ دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ [بِالنَّصِّ]
من غير زيادة ولا تقصيص .

(١) فى " التعريف " ص ٨٧ ملك .

(٢) الزيادة من التعريف .

النمط الثاني (ما يُكْتَبُ بِهِ مُلُوكُ الزَّمَانِ)

وقد حكى في " التعريف " في ذلك مذهبيْن :

الأوّل — أن يُكْتَبَ فيها : السُّلْطَانُ، السَّيِّدُ، الأَجَلُ، المَلِكُ الفُلَانِيّ، مع بَقِيَّةِ مَا يَنْبَغُ مِنَ الأَلْقَابِ المُفْرَدَةِ والمُرَكَّبَةِ : كما كتَبَ القاضِي الفاضِلُ في عَهْدِ أسَدِ الدِّينِ شيركوه الآتِي ذِكْرَهُ عَنِ العاضِدِ الفاطِمِيّ :

« مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ أَبِي مُحَمَّدِ الإِمَامِ العاضِدِ لِدِينِ اللَّهِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى السَّيِّدِ، الأَجَلِّ، المَلِكِ، المَنْصُورِ؛ سُلْطَانِ الجُيُوشِ، وَوَلِيِّ الأُمَّةِ، نَخْرِ الدَّوْلَةِ، أسَدِ الدِّينِ، كَافِلِ قُضَاةِ المُسْلِمِينَ، وَهَادِي دُعَاةِ المُؤْمِنِينَ؛ أَبِي الحَرْثِ شيركوه العاضِدِيّ » .

وعلى هذه الطريفة بزيادة ألقاب كتَبَ أَبُو القَيْسِرَانِيّ فِي العَهْدِ لِلْمَلِكِ الناصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ : قَدَسَ اللهُ رُوحَهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ . قال في " التعريف " : وأنا إلى ذلك أَجْنَحُ، وعليه أَعْمَلُ .

الثاني — أن يُكْتَبَ : المَقَامُ الشَّرِيفُ، أَو الكَرِيمُ، أَو العَالِيُّ مَجْرَدًا عِنْمَا .
(١)
ويُقْتَصَرُ على المُفْرَدَةِ [دون المُرَكَّبَةِ] .

كما كتَبَ بِهِ الصَّاحِبُ نَخْرُ الدِّينِ بْنِ نُقْمَانَ، فِي عَهْدِ الظَّاهِرِ بَيْرُوسَ بَعْدَ ذِكْرِ أوصافِهِ وَمِثاقِهِ : وَلما كانَتْ هَذِهِ المِناقِبُ الشَّرِيفَةُ مُخْتَصَّةً بِالمَقَامِ العَالِيِّ المَوْلُويّ، السُّلْطَانِيّ، المَلِكِيّ، الظَّاهِرِيّ، الرُّكْنِيّ، شَرَّفَهُ اللهُ تَعَالَى وَأَعْلَاهُ .

(١) الزيادة من " التعريف " .

قلت : وربما أبدل المتقدمون « المقام » في هذه الحالة بـ « المَقَرَّ » وأتى بالألقاب من نحو ما تقدم .

وكما كتب به القاضي محي الدين بن عبد الظاهر في عهد المنصور قلاوون بعد استيفاء مناقبه وأوصافه ، وذكر أعمال الفكر والروية في اختياره : « وخرج أمر مولانا أمير المؤمنين شرفه الله أن يكون للقرّ العالی ، المولوی ، السلطانی ، الملکی ، المنصوری ، أجله الله ونصره ، وأظفره وأقدره ، وأيده وأبدّه ، كل ما فوضه الله لمولانا أمير المؤمنين » ونحو ذلك .

وبقي مذهب ثالث - وهو أن يأتي بنظير ألقاب المذهب الأول ، مقتصرًا على الألقاب المفردة دون المركبة . وعلى ذلك جرى الوزير ضياء الدين بن الأثير في العهد الذي كتب به معارضة لعهد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الآت ذكره - فقال بعد ذكر مناقبه : « وتلك مناقبك أيها الملك ، الناصر ، الأجل ، السيد ، الكبير ، العالم ، العادل ، صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب » . ولم يتعرض لحكايته في « التعريف » . على أن ابن الأثير إمام هذا الفن ، وحائز قصب السبق فيه ، ومقاتله مما يحتاج بها ويعول عليها .

فإن قيل : لعله في « التعريف » أراد مذاهب كُتِبَ زمانه ؛ فالجواب أن حكاية المذهب الثاني عن المتأخرين تؤذن بأن المراد متقدمو الكتاب ومتأخروهم .

الوجه السادس

(فيما يُكْتَبُ في مَن العُهُودِ، وفيه ثلاثةُ مَذهَبِ)

المذهبُ الأوَّلُ

(وعليه عامَّةُ الكُتَّابِ من المتقدِّمين وأكثَرُ المتأخِّرين)

أن يُفْتَحَ العَهْدُ بلفظ « هذا » مثل : « هذا ما عهِدَ به فلانُ لفلان » أو « هذا ما أَمَرَ به فلانُ فلانا » أو « هذا عهدٌ من فلان لفلان » أو « هذا كُتِبَ آكْتَبَهُ فلان لفلان » وما أشبه ذلك .

وللكُتَّابِ فيه طريقتان :

الطريقةُ الأوَّلِيَّةُ

(طريقةُ المتقدِّمين)

وهي أن لا يأتِيَ بِتحميدٍ في أثناءِ العَهْدِ في خُطْبَةٍ ولا غيرِها، ولا يتعرَّضُ إلى ذكرِ أوصافِ المعهودِ إليه والثناءِ عليه أصلاً، أو يتعرَّضُ إلى ذلك باختصارٍ ثم يقول : « فقلَّده كذا وكذا » ويذكر ما فوض إليه، ثم يقول : « وأمره بكذا » حتى يأتِيَ على آخر الوصايا، ثم يقول في آخره : « هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وحجَّتُه لك وعليك » ويأتِيَ بما يناسبُ ذلك، ويختُمُه بقوله : « والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته » أو « والسلامُ عليك » أو بغير ذلك من الألفاظِ المناسبةِ على اختلافِ طُرُقهم في ذلك، وتباينِ مقاصدِهم . وعلى هذا التَّهَجُّجِ وما قاربه كانت عهودُ السلفِ فَنَ بَعْدَهُم، تَأْسِيًّا بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما كَتَبَ به لعمرو بنِ حَرِّمٍ حينَ وَجَّهَهُ إلى اليمنِ، كما تقدَّمت الإشارةُ إليه في الإسْتِشْهادِ لأصلِ عُهُودِ المُلُوكِ عن الخلفاء .

وهذه نسخته بعد البسمة فيما ذكره ابن هشام وغيره :

« هَذَا بَيَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) »

« عَهْدٌ مِنْ [مُحَمَّدٍ] (١) النَّبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ لِعَمْرِو بْنِ حَزْمٍ [حِينَ بَعَثَهُ] »

« إِلَى الْيَمَنِ [أَمْرُهُ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي أَمْرِهِ كُلِّهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا] »

« وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . وَأَمْرُهُ أَنْ يَأْخُذَ بِالْحَقِّ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ ، وَأَنْ يُبَشِّرَ »

« النَّاسَ بِالْخَيْرِ وَيَأْمُرَهُمْ بِهِ ، وَيُعَلِّمَ النَّاسَ الْقُرْآنَ وَيُقَيِّمَهُمْ فِيهِ ، »

« وَيَنْهَى النَّاسَ فَلَا يَمَسُّ الْقُرْآنَ إِنْسَانٌ إِلَّا وَهُوَ طَاهِرٌ ، وَيُخْبِرُ »

« النَّاسَ بِالَّذِي لَهُمْ وَالَّذِي عَلَيْهِمْ ، وَيَلِينُ لِلنَّاسِ فِي الْحَقِّ وَيَسْتَدِّ عَلَيْهِمْ »

« فِي الظُّلْمِ ، فَإِنَّ اللَّهَ كَرِهَ الظُّلْمَ وَنَهَى عَنْهُ فَقَالَ : (أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى »

« الظَّالِمِينَ) وَيُبَشِّرُ النَّاسَ بِالْجَنَّةِ وَبِعَمَلِهَا ، وَيُنذِرُ النَّاسَ النَّارَ وَعَمَلِهَا ، »

« وَيَسْتَأْذِنُ النَّاسَ حَتَّى يَفْقَهُوا فِي الدِّينِ ، وَيُعَلِّمُ النَّاسَ مَعْلَمَ الْحَجِّ »

« وَسُنَّتَهُ وَفَرِيضَتَهُ وَمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ ، وَالْحَجَّ الْأَكْبَرَ الْحَجَّ الْأَكْبَرَ ، »

« وَالْحَجَّ الْأَصْغَرَ هُوَ الْعُمْرَةُ ، وَيَنْهَى النَّاسَ أَنْ يُصَلِّيَ أَحَدٌ فِي تَوْبٍ »

« وَاحِدٍ صَغِيرٍ إِلَّا أَنْ يَكُونَ تَوْبًا يَثْبُتُ طَرَفِيهِ عَلَى عَاتِقِيهِ ، وَيَنْهَى »

« [الناس^(١)] أَنْ يَجْتَبِيَ أَحَدٌ فِي تَوْبٍ وَاحِدٍ يُفِضِي بِفَرْجِهِ إِلَى السَّمَاءِ ، »
« وَيَنْهَى أَنْ لَا يَعْقِصَ أَحَدٌ شَعْرًا رَأْسَهُ فِي قَفَاهِ، وَيَنْهَى إِذَا كَانَ بَيْنَ »
« النَّاسِ هَيْجٌ عَنِ الدُّعَاءِ إِلَى الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ، وَلِيَكُنْ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ »
« [عز وجل^(١)] وَحَدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ [فَمَنْ لَمْ يَدْعُ إِلَى اللَّهِ وَدَعَا إِلَى] »
« الْقَبَائِلِ وَالْعَشَائِرِ فَلْيُقَطَّعُوا بِالسَّيْفِ حَتَّى تَكُونَ دَعْوَاهُمْ إِلَى اللَّهِ »
« وَحَدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ^(١)] وَيَأْمُرُ النَّاسَ بِإِسْبَاغِ الوُضُوءِ : وَجُوهِهِمْ ، »
« وَأَيْدِيهِمْ إِلَى الْمِرْفَاقِ ، وَأَرْجُلِهِمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ، وَيَمْسَحُونَ بِرُءُوسِهِمْ »
« كَمَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ ، وَأَمَرَ بِالصَّلَاةِ لَوَقْتِهَا ، وَإِتْمَامِ الرُّكُوعِ [وَالسُّجُودِ]^(١) »
« وَالخُشُوعِ ، وَيَغْلَسُ بِالصُّبْحِ ، وَيَهْجُرُ بِالظُّهْرِ حِينَ تَمِيلُ الشَّمْسُ ، »
« وَصَلَاةِ الْعَصْرِ وَالشَّمْسِ فِي الْأَرْضِ مُدْبِرَةً ، وَالْمَغْرِبِ حِينَ يَقْبَلُ »
« اللَّيْلُ ، لَا تُؤَخَّرُ حَتَّى تَبْدُو النُّجُومُ فِي السَّمَاءِ ، وَالْعِشَاءِ أَوَّلَ اللَّيْلِ . »
« وَأَمَرَ بِالسَّعْيِ إِلَى الْجُمُعَةِ إِذَا نُودِيَ لَهَا ، وَالغُسْلِ عِنْدَ الرُّوْحِ إِلَيْهَا . »
« وَأَمَرَهُ أَنْ يَأْخُذَ مِنَ الْمَغَانِمِ خُمْسَ اللَّهِ ، وَمَا كُتِبَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ »

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٢ .

(٢) الذي في السيرة « بالهجرة حين تميل » .

« فِي الصَّدَقَةِ مِنَ الْعَقَارِ عَشْرُ مَسْقَتِ الْعَيْنِ وَسَقَتِ السَّمَاءُ ، وَعَلَى »
 « مَسْقَى الْغَرْبِ نِصْفُ الْعُشْرِ . وَفِي كُلِّ عَشْرٍ مِنَ الْإِبِلِ شَاتَانِ ، »
 « وَفِي كُلِّ عِشْرِينَ أَرْبَعُ شِيَاهٍ . وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ مِنَ الْبَقَرِ بَقْرَةٌ ، »
 « وَفِي كُلِّ ثَلَاثِينَ مِنَ الْبَقَرِ تَبِيعٌ جَذَعٌ^(١) أَوْ جَذَعَةٌ ، وَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ »
 « مِنَ الْغَنَمِ سَائِمَةٌ وَحَدَا شَاةٌ ، فَإِنَّهَا فَرِيضَةُ اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي أَقْتَرَضَ »
 « عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَةِ ، فَمَنْ زَادَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ . وَأَنَّهُ مَنْ »
 « أَسْلَمَ مِنْ يَهُودِيٍّ أَوْ نَصْرَانِيٍّ إِسْلَامًا خَالِصًا مِنْ نَفْسِهِ وَدَانَ بِيَدَيْنِ »
 « الْإِسْلَامِ ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : لَهُ مِثْلُ مَا لَهُمْ وَعَلَيْهِ مِثْلُ مَا عَلَيْهِمْ ، »
 « وَمَنْ كَانَ عَلَى نَصْرَانِيَّةٍ أَوْ يَهُودِيَّةٍ ، فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ عَنْهَا وَعَلَى كُلِّ حَالِمٍ : »
 « ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى ، حُرٌّ أَوْ عَبْدٌ دِينَارٌ وَاقِفٌ ، أَوْ عِوَضُهُ ثِيَابًا ، فَمَنْ أَدَّى »
 « ذَلِكَ فَإِنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ ، وَمَنْ مَنَعَ ذَلِكَ فَإِنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ »
 « وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا » .

« صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى مُحَمَّدٍ وَالسَّلَامُ عَلَيْهِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ » .

(١) كذا في السيرة أيضا بالعين والفاء وفي كتب اللغة العقار [أى كغراب] [خيار الكلاب والعقار] أى
 كسلام [النخل] . تأمل .
 (٢) في اللسان ج ٩ ص ٣٩٣ "إذا طلع قرن العجل وقبض عليه فهو غضب ثم هو بعد ذلك جذع"

وعلى نحو ذلك كتب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عهد مالك بن الأشتر النخعي حين ولاء مضر . وهو من العهود البليغة جمع فيه بين معالم التقوى وسياسة الملك .

وهذه نسخته فيما ذكره ابن حمدون في تذكرته :

هذا ما أمر [به عبد الله ^(١)] علي أمير المؤمنين مالك بن الحريث الأشتر ، في عهده إليه ، حين ولاء مضر : جباية نراجها ، وجهاد عدوها ، وأستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله وإيثار طاعته ، وأتباع ما أمر به في كتابه من فرائضه ؛ وسننه التي لا يسعد أحد إلا باتباعها ، ولا يشقى إلا مع جحودها وإضاعتها ؛ وأن ينصر الله تعالى بيده وقلبه ولسانه ، فإنه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، وإعزاز من أعزّه . وأمره أن يكسر من نفسه عند السموات ، ويرعها عند الجمحات ؛ فإن النفس لأمارة بالسوء إلا مارحَم الله .

ثم أعلم يا مالك أتى قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دُول قبلك : من عدل وجور ، وأن الناس ينظرون من أمورك [في مثل ^(٢)] ما كنت تنظر فيه من أمر الولاية قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم . وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السنن عباده ، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح . فاملِك هَوَاكَ ، وشح بنفسك عما لا يحلُّ لك ؛ فإن الشح بالنفس الإلتصاف منها فيما أحببت وكرهت . وأشعر قلبك بالرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ؛ ولا تكون عليهم سبعا ضاريا ، تغتم أكلهم ؛ فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ،

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ١٠٥) .

(٢) الزيادة من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد .

وإمَّا نَظِيرُكَ فِي الْخَلْقِ : يَفْرَطُ مِنْهُمْ الزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ الْعِلَالُ ، وَيُؤْتِي عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي الْعَمْدِ وَالْخَطَا : فَأَعْطِيهِمْ مِنْ عَفْوِكَ وَصَفْحِكَ مِثْلَ الَّذِي تُحِبُّ أَنْ يُعْطِيَكَ اللَّهُ مِنْ عَفْوِهِ وَصَفْحِهِ : فَإِنَّكَ فَوْقَهُمْ وَوَالِي الْأَمْرِ عَلَيْكَ فَوْقَكَ ، وَاللَّهُ فَوْقَ مَنْ وَلَاكَ .
 وَقَدْ أَسْتَكْفَاكَ أَمْرَهُمْ ، وَأَبْتَلَاكَ بِهِمْ ؛ وَلَا تَنْصِبَنَّ نَفْسَكَ لِحَرْبِ اللَّهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدَىٰ لَكَ بِنِقْمَتِهِ ، وَلَا غِيَّ بِكَ عَنْ عَفْوِهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ وَلَا تَسْتَدِمَّنَّ عَلَىٰ عَفْوٍ ، وَلَا تَبْجَحَنَّ بِمَقْبُوبَةٍ ، وَلَا تُسْرِعَنَّ إِلَىٰ بَادِرَةٍ وَجَدْتَ عَنْهَا مَدُّوْحَةً ؛ وَلَا تَقُولَنَّ إِنِّي أَمْرٌ وَأَمْرٌ فَأُطَاعَ : فَإِنَّ ذَلِكَ إِدْغَالٌ فِي الْقَلْبِ ، وَمَهْلَكَةٌ فِي الدِّينِ ، وَتَقَرُّبٌ مِنَ الْغَيْرِ . وَإِذَا أَحْدَثَ لَكَ مَا أَنْتَ فِيهِ مِنْ سُلْطَانِكَ أُمَّةً أَوْ مَجْلِيَّةً ، فَانْظُرْ إِلَىٰ عِظَمِ مُلْكِ اللَّهِ تَعَالَىٰ فَوْقَكَ ، وَقُدْرَتِهِ مِنْكَ عَلَىٰ مَا لَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ نَفْسِكَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ يُطَاغِنُ إِلَيْكَ مِنْ طَاهِكِ وَيُكْفُّ عَنْكَ مِنْ غَيْرِكَ ، وَيَفِيءُ إِلَيْكَ بِمَا عَزَبَ عَنْكَ مِنْ عَقْلِكَ .
 وَإِيَّاكَ وَمُسَامَاةَ اللَّهِ تَعَالَىٰ فِي عَظَمَتِهِ ، وَالتَّشْبِهَ بِهِ فِي جَبْرُوتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُذِلُّ كُلَّ جَبَّارٍ ، وَيُهَيِّنُ كُلَّ مُخْتَالٍ .

أَنْصِفِ اللَّهَ وَأَنْصِفِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِكَ وَمِنْ خَاصَّةِ أَهْلِكَ وَمَنْ لَكَ فِيهِ هَوَىٰ مِنْ رَعِيَّتِكَ : فَإِنَّكَ إِنْ لَا تَفْعَلْ تَظْلِمُ ، وَمَنْ ظَلَمَ عِبَادَ اللَّهِ كَانَ اللَّهُ خَصْمَهُ دُونَ عِبَادِهِ ، وَمَنْ خَاصَمَهُ اللَّهُ ، أَدْحَضَ حُجَّتَهُ وَكَانَ لِلَّهِ حَرْبًا حَتَّىٰ يَنْزِعَ وَيَتُوبَ . وَلَيْسَ شَيْءٌ أَدْعَىٰ إِلَىٰ تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللَّهِ وَتَعْجِيلِ نِقْمَتِهِ مِنْ إِقَامَةِ عَلَىٰ ظُلْمٍ [فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ يُسْمِعُ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِينَ وَهُوَ لِلظَّالِمِينَ بِالْمِرْصَادِ] .

وَلَيْكُنْ أَحَبَّ الْأُمُورِ إِلَيْكَ أَوْسَطُهَا فِي الْحَقِّ ، وَأَعْمَمَهَا فِي الْعَدْلِ ، وَأَجْمَعَهَا لِرِضَا الرَّعِيَّةِ ؛ فَإِنَّ سُخْطَ الْعَامَّةِ يُصْحِفُ بِرِضَا الْخَاصَّةِ ، وَإِنَّ سُخْطَ الْخَاصَّةِ يُغْتَفَرُ مَعَ رِضَا

(١) في "مفتاح الافكار، وشرح نهج البلاغة" « مؤمر » .

(٢) الزيادة من "مفتاح الافكار" وشرح "نهج البلاغة" .

العامة ؛ وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالي مشونةً في الرِّخاء ، وأقلَّ معونةً له في البلاء ؛ وأكثره للإينصاف ، وأسأل بالإلخاف ؛ وأقلَّ شكرًا عند الإعطاء ، وأبطأُ عُذرا عند المنع ، وأضعفُ صبرا عند مُلهمات الدهر ، من أهل الخالصَة ؛ وإنما عمودُ الدين ، وجماعُ المسلمين ، والعُدَّةُ للأعداء العامة من الأمة . فليكنْ صغوك لهم ، وميلك معهم ؛ وليكنْ أبعدُ رعيتك منك ، وأشنؤهم عندك ؛ أطلبهم لمعاب الناس : فإنَّ في الناس عيوبًا والوالي أحقُّ بسترها ؛ فلا تُكشِفَنَّ عما غاب عنك منها ، فإنَّما عليك تطهيرُ ما ظهر [لك] ^(١) والله يحكم على ما غاب عنك منها . فاسترِ العورة ما استطعتَ يسترِ اللهُ ما تُحبُّ ستره من عيبك .

أطلق عن الناس عُقدة كلِّ حقد ، وأقطع عنهم سبب كلِّ وتر ، وتغاب عن كلِّ مالا يضح لك ؛ ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساع : فانَّ الساعي غاشٌّ وإن تشبه بالناصحين . ولا تدخلنَّ في مشورتك بجهلاً يعدلُ بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جبانًا يضعفك عن الأمور ، ولا حريصًا يزين لك الشرَّ بالخور : فإنَّ البخل والجهنَّ والحِرصَ غرائزُ شتى يجمعها سوء الظنِّ بالله .

إنَّ شرَّ وُزرائك من كان للأشرار قبلكَ وزيرا ومن شاركتهم في الآثام ، فلا يكوننَّ لك بطنانة ، فإنهم أعوانُ الأئمة ، وإخوانُ الظلمة ؛ وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخلف ممن له مثل آرائهم ونفادهم ، وليس عليه مثل أصرارهم وأوزارهم : ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ، ولا آتيا على إثمه ؛ أولئك أخف عليك مشونه ، وأحسنُ لك معونه ؛ وأخفى عليك عطفًا ، وأقلُّ لغيرك إلغا ؛ فاتخذ أولئك خاصةً خلواتك [وحفلاتك] ^(١) . ثم ليكنْ آثرهم عندك أقولهم [لك] ^(١) بمر الحق ، وأقلهم مساعدة فيما يكونُ منك مما

(١) الزيادة من "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة".

كَرِهَ اللهُ لِأَوْلِيَاءِهِ، واقِعًا ذَلِكَ من هَوَاكَ حَيْثُ وَقَعَ. وَأَلْصَقَ بِأَهْلِ الْوَرَعِ وَالصَّدَقِ،
ثُمَّ رَضَهُمْ عَلَى أَنْ لَا يُطْرُوكَ وَلَا يُبْجَحُوكَ ^(١) بِيَاطِلٍ لَمْ تَفْعَلَهُ : فَإِنَّ كَثْرَةَ الْإِطْرَاءِ تُحْدِثُ
الرُّهْوَ وَتُدْنِي مِنَ الْغِرَّةِ . وَلَا يَكُونَنَّ الْحَسَنُ وَالْمُسِيءُ عِنْدَكَ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ ، فَإِنَّ فِي ذَلِكَ
تَرْهِيدًا لِأَهْلِ الْإِحْسَانِ [فِي الْإِحْسَانِ] وَتَدْرِييًّا لِأَهْلِ الْإِسَاءَةِ [عَلَى الْإِسَاءَةِ] : ^(٢) ^(٣)

وإِنَّكَ لَا تَدْرِي إِذَا جَاءَ سَائِلٌ * أَنْتَ بِمَا تُعْطِيهِ أَمْ هُوَ أَسْعَدُ !

عَسَى سَائِلٌ ذُو حَاجَةٍ إِنْ مَنَعْتَهُ * مِنَ الْيَوْمِ سُؤْلًا أَنْ يَكُونَ لَهُ غَدٌ !

وَفِي كَثْرَةِ الْأَيْدِي عَنْ الْجَهْلِ زَاجِرٌ ، * وَلِلْجِلْمِ أُنْبَى لِلرِّجَالِ وَأَعْوَدُ !



وعلى ذلك كتب أبو إسحاق الصابى عن الخليفة « الطائع لله » إلى نخر الدولة بن
رُكن الدولة بن بويه ، في جمادى الأولى سنة ست وستين وثلاثمائة .

وهذه نسخة :

هذا ماعهد عبد الله عبد الكريم [الإمام] ^(٥) الطائع لله أمير المؤمنين [إلى نخر الدولة
أبي الحسن بن رُكن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين] حين عرف غناؤه وبلاءه ، ^(٥)

(١) أى لا يفرحوك يقال بجمته تبجيحا فتبجح أى فرحته ففرح أنظر اللسان ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة" .

(٣) اقتصر فى الأصل على هذا القدر وله بقية طويلة مذكورة فى "نهج البلاغة، ومفتاح الأفكار" فليرجع
إليهما من شاء .

(٤) أى كتب العهد عن الخ .

(٥) الزيادة من "رسائل الصابى" والمثل السائر .

وَأَسْتَصَحَّ دِينَهُ وَيَقِينَهُ ، وَرِعَى قَدِيمَهُ وَحَدِيثَهُ ، وَأَسْتَنْجَبَ عُودَهُ وَنِجَارَهُ . وَأَثْنَى
عَزَّ الدَّوْلَةَ أَبُو مَنْصُورُ بْنُ مُعِزِّ الدَّوْلَةِ أَبِي الْحُسَيْنِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ [أَيَّدَهُ اللَّهُ] عَلَيْهِ ،^(١)
وَأَشَارَ بِالْمَزِيدِ فِي الصَّنِيعَةِ إِلَيْهِ ؛ وَأَعْلَمَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَقْتِدَاءَهُ بِهِ فِي كُلِّ مَذْهَبٍ ذَهَبَ فِيهِ
مِنَ الْخِدْمَةِ ، وَغَرَضِي رِمَى إِلَيْهِ مِنَ النَّصِيحَةِ ؛ دُخُولًا فِي زُمْرَةِ الْأَوْلِيَاءِ [الْمَنْصُورِ ،
وَنُحُوجًا عَنِ جَمَاعَةِ الْأَعْدَاءِ الْمَذْهُورِ] ، وَتَصَرُّفًا عَلَى مُوجِبَاتِ الْبَيْعَةِ الَّتِي هِيَ بَعْدَ الدَّوْلَةِ^(٢)
أَبِي مَنْصُورِ مَنْوُطِهِ ، وَعَلَى سَائِرٍ مِنْ يَتْلُوهُ وَيَتَّبِعُهُ مَأْخُذَةً مُشْرُوطَةً ؛ فَقَلَّدَهُ الصَّلَاةَ
وَأَعْمَالَ الْحَرْبِ ، وَالْمَعَاوِينَ ، وَالْأَحْدَاثَ ، وَالنَّجْرَاجَ ، وَالْأَعْشَارَ ، وَالضِّيَاعَ ،
وَالجَهْبَذَةَ ، وَالصَّدَقَاتِ ، وَالْجَوَالِي ، وَسَائِرَ وَجُوهِ الْجَبَايَاتِ [وَالْعَرْضِ] وَالْعَطَاءِ ،^(٣)
وَالنَّفَقَةَ فِي الْأَوْلِيَاءِ [وَالْمَظَالِمِ وَأَسْوَاقِ الرِّقِيقِ] وَالْعِيَارَ فِي دُورِ الضَّرْبِ وَالطَّرْزِ وَالْحِسْبَةِ^(٤)
يَكُورُ هَمْدَانًا ، وَأَسْتَرَابَادًا ، وَالدَّيْنُورَ ، وَقَرْمِيسِينَ ، وَالْإِيغَارِينَ ، وَ[أَعْمَالَ]
أَذْرَ بِيْجَانَ ، وَأَرَانَ ، وَالسَّحَابِينَ ، وَمُوقَانَ . وَاتَّقَا مِنْهُ بِاسْتِيقَاءِ النِّعْمَةِ وَأَسْتِدَامَتِهَا ،
وَالِاسْتِزَادَةَ بِالشُّكْرِ مِنْهَا ، وَالتَّجَنُّبَ لِعَمَطِهَا وَجُحُودِهَا ، وَالتَّنَكُّبَ لِإِيحَاشِهَا وَتَغْيِيرِهَا ،
وَالتَّعَمُّدَ لِمَا مَكَّنَ لَهُ الحُظُوءَةَ وَالزُّلْفَى ، وَحَرَسَ عَلَيْهِ الْأَثْرَةَ وَالقُرْبَى ؛ بِمَا يُظْهِرُهُ
وَيُضْمِرُهُ مِنَ الْوَفَاءِ الصَّحِيحِ ، وَالْوَلَاءِ الصَّرِيحِ ، وَالغَيْبِ الْأَمِينِ ، وَالصَّبْرِ السَّلِيمِ ،
وَالْمُقَاطَعَةِ لِكُلِّ مَنْ قَاطَعَ الْعُصْبَةَ ، وَفَارَقَ الْجُمْلَةَ ، وَالْمُواصَلَةَ لِكُلِّ مَنْ حَمَى الْبَيْضَةَ
وَأَخْلَصَ النِّيَّةَ - وَالكَوْنَ تَحْتَ ظِلِّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَذِمَّتِهِ ، وَمَعَ عَزِّ الدَّوْلَةِ أَبِي مَنْصُورِ
وَفِي حَوْزَتِهِ ؛ وَاللَّهُ جَلَّ أَسْمُهُ يَعْرِفُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حُسْنَ الْعُقْبَى فِيمَا أْبْرَمَ وَتَقَضَّى ،
وَسَدَادَ الرَّأْيِ فِيمَا رَفَعَ وَخَفَضَ ؛ وَيَجْعَلُ عِزَّهُ مَقْرُونَةً بِالسَّلَامَةِ ، مَحْجُوبَةً عَنِ
مَوَارِدِ التَّنَادُمِ ؛ وَحَسْبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

(١) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

(٢) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

أمره بتقوى الله التي هي العِصمة المتينه، والجَنَّة الحَصِينه؛ والطَّوْد الأَرْفَع، والمعَاذ الأَمْنَع؛ والجانب الأَعَز، والملجأ الأَحْرَز؛ وأن يَسْتَشْعِرَهَا سِرًّا وجَهْرًا، ويستَعْمِلَهَا قَوْلًا وفِعْلًا، وَيَتَّخِذَهَا رِذَاءً دافعًا لنوائب القَدَر، وكَهْفًا حَامِيًا من حوادث الغَيْر؛ فإنها أَوْجِبُ الوسائل، وأَقْرَبُ الذَّرَائِع، وأَعُوذُهَا على العبد بِمَصَالِحِهَا، وأَدْعَاهَا إلى سُبُلِ مَنَاجِحِهَا؛ وأَوْلَاهَا بِالِاسْتِمْرَارِ على هِدَايَتِهِ، والنَّجَاة من غَوَايَتِهِ؛ والسَّلَامَةِ في دُنْيَاهِ حين تُوْبِقُ مَوْبِقَاتِهَا، وتُرْدِي مُرْدِيَاتِهَا؛ وفي آخِرَتِهِ حين تَرُوعُ رَائِعَاتِهَا وتُخَيِّفُ مُخَيِّفَاتِهَا. وأن يتأدب بِآدَابِ اللَّهِ في التَّوَاضُّع والإِخْبَات، والسَّكِينَةِ والوَقَارِ؛ وَصِدْقِ اللُّهْجَةِ إِذَا نَطَقَ، وَغَضِّ الطَّرْفِ إِذَا رَمَقَ؛ وَكَظْمِ الغَيْظِ إِذَا أَحْفَظَ، وَضَبْطِ اللِّسَانِ إِذَا أُغْضِبَ؛ وَكَفِّ الْيَدِ عَنِ الْمَأْتَمِ، وَصَوْنِ النَّفْسِ عَنِ الْمَحَارِمِ. وأن يَذْكُرَ المَوْتَ الَّذِي هُوَ نَازِلٌ بِهِ، والمَوْقِفَ الَّذِي هُوَ صَائِرٌ إِلَيْهِ؛ وَيَعْلَمَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَمَّا آكْتَسَبَ، مَجْزِيٌّ بِمَا تَرَمَّكَ^(١) وَأَحْتَقَبَ؛ وَيَتَرَوَّدُ مِنْ هَذَا المَقْتَرِ، لِذَلِكَ المَقْتَرِ؛ وَيَسْتَكْثِرُ مِنْ أَعْمَالِ الخَيْرِ لِتَنْفَعَهُ، وَمِنْ مَسَاعِي الرِّبِّ لِتُنْقِذَهُ؛ وَيَأْتِمِرُ بِالصَّالِحَاتِ قَبْلَ أَنْ يَأْمُرَ بِهَا، وَيَزْدَجِرُ عَنِ السَّيِّئَاتِ قَبْلَ أَنْ يَزُجِرَ عَنْهَا؛ وَيَبْتَدِئُ بِإِصْلَاحِ نَفْسِهِ قَبْلَ إِصْلَاحِ رِعِيَّتِهِ: فَلَا يَبْعَثُهُمْ عَلَى مَا يَأْتِي ضِدَّهُ، وَلَا يَنْهَاهُمْ عَمَّا يَقْتَرِفُ مِثْلَهُ؛ وَيَجْعَلُ رَبَّهُ رَقِيبًا عَلَيْهِ فِي خَلَوَاتِهِ، وَمُرُوءَتَهُ مَانِعَةً لَهُ مِنْ شَهَوَاتِهِ؛ فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ غَلَبَ سُلْطَانَ الشَّهْوَةِ، وَأَوْلَى مَنْ صَرَعَ أَعْدَاءَ الحِمِيَّةِ^(٢)؛ مَنْ مَلَكَ أَرْمَةَ الأُمُورِ، وَأَقْتَدَرَ عَلَى سِيَاسَةِ الجُّهُورِ؛ وَكَانَ مُطَاعًا فِيمَا يَرَى، مُتَّبَعًا فِيمَا يَشَاءُ؛ بَلَى عَلَى النَّاسِ وَلَا يَلُونُ عَلَيْهِ، وَيَقْتَصُّ مِنْهُمْ وَلَا يَقْتَصُّونَ مِنْهُ؛ فَإِذَا أَطْلَعَ اللَّهُ مِنْهُ عَلَى نَقَاءِ جَبِيهِ، وَطَهَارَةِ ذَبِيلِهِ؛ وَصِحَّةِ سَرِيرَتِهِ، وَأَسْتِقَامَةِ سِيرَتِهِ، أَعَانَهُ عَلَى حِفْظِ

(١) في "الرسائل"، والمثل السائر: «ترمل».

(٢) كذا في الرسائل أيضا. وفي المثل السائر ص ١٣٢ "من ضرع لغذاء الحمية".

مَا اسْتَحْفَظَهُ، وَأَنْهَضَهُ بِثِقَلِ مَا حَمَلَهُ؛ وَجَعَلَ لَهُ مَخْلَصًا مِنَ الشُّبْهَةِ وَمَخْرَجًا مِنَ الْحَيْرَةِ،
 فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .
 وَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴾ . وَقَالَ: ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إِلَى آتِي كَثِيرَةٍ حَضَّنَا بِهَا
 عَلَى أَكْرَمِ الْخُلُقِ، وَأَسْلَمَ الطَّرِيقَ؛ فَالسَّعِيدُ مِنْ نَصَبِهَا إِزَاءَ نَاطِرِهِ، وَالشَّقِيُّ مِنْ نَبْدِهَا
 وَرَاءَ ظَهْرِهِ؛ وَأَشْقَى مِنْهُ مَنْ بَعَثَ عَلَيْهَا وَهُوَ صَادِفٌ عَنْهَا، وَأَهَابَ إِلَيْهَا وَهُوَ بَعِيدٌ
 مِنْهَا؛ وَلَهُ وَلَا مِثَالَهُ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ
 وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ كِتَابَ اللَّهِ إِمَامًا مَتَّبَعًا، وَطَرِيقًا مَوْقِعًا؛ وَيُكْثِرُ مِنْ تِلَاوَتِهِ إِذَا
 خَلَا بِفِكْرِهِ، وَيَمْلَأُ بِتَأْمُلِهِ أَرْجَاءَ صَدْرِهِ؛ فَيَذْهَبُ مَعَهُ فِيمَا أَبَاحَ وَحَظَرَ، وَيَقْتَدِي
 بِهِ إِذَا نَهَى وَأَمَرَ؛ وَيَسْتَبِينُ بَيَانِهِ إِذَا اسْتَعْلَقَتْ دُونَهُ الْمَعْضَلَاتُ، وَيَسْتَضِيءُ
 بِمَصَابِيحِهِ إِذَا غَمَّ عَلَيْهِ فِي الْمَشْكَلَاتِ؛ فَإِنَّهُ عُرْوَةُ الْإِسْلَامِ الْوُثْقَى، وَحُجَّةُ الْوَسْطَى،
 وَدَلِيلُهُ الْمُقْنِعُ، وَبُرْهَانُهُ الْمُرْشِدُ؛ وَالْكَاشِفُ لظُلْمِ الْخُطُوبِ، وَالشَافِي مِنْ مَرَضِ
 الْقُلُوبِ، وَالْهَادِي لِمَنْ ضَلَّ، وَالْمُتَلَفِّي لِمَنْ زَلَّ؛ فَمَنْ لَحَجَّ بِهِ فَقَدْ فَازَ وَسَلِمَ، وَمَنْ لَهِيَ
 عَنْهُ فَقَدْ خَابَ وَنَدِمَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ
 يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يُحَافِظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ، وَيَدْخُلَ فِيهَا فِي حَقَائِقِ الْأَوْقَاتِ؛ قَائِمًا عَلَى
 حُدُودِهَا، مَتَّبِعًا لِرُسُومِهَا؛ جَامِعًا فِيهَا بَيْنَ نَيْتِهِ وَلَقْظِهِ، مَتَوَقِّيًا لِمَطَامِحِ سَهْوِهِ وَلِحَظِهِ؛

(١) فِي الْأَصُولِ وَالْمَثَلِ السَّائِرِ مَتَوَقِّعًا بِزِيَادَةِ النَّاءِ وَهُوَ تَحْرِيفٌ مِنَ النَّسَاجِ، فَفِي اللِّسَانِ ج ١٠ ص ٢٨٢

يُقَالُ طَرِيقٌ مَوْقِعٌ مِثْلُ ذَلِكَ .

(٢) فِي "الرِّسَالَةِ" الْأَسْفَلَ .

متقطعاً إليها عن كل قاطع لها، مشغولاً بها عن كل شاغلٍ عنها؛ متشبّثاً في ركوعها ومُججودها؛ مستوفياً عددَ مفروضها ومسنونها؛ موفّراً عليها ذمته، صارفاً إليها همه؛ عالماً بأنه واقفٌ بين يدي خالقه ورازقه، ومُحْييه ومُيْتِه، ومُثْبِتِه ومُعاقِبِه؛ لا تسترِ دُونَه خائنةُ الأعينِ وما تُخْفِي الصدور. ^(١) فإذا قضّاها على هذه السبيلِ منذُ تكبيرة الإحرام إلى خاتمةِ التسليم، أتبعها بدءاً يرتفعُ بارتفاعها، [ويُستمعُ بِاستماعها] ^(٢)، ولا يتعدى فيه مسائل الأبرار، ورفائب الأخيار: من استصفاج واستغفار، وأستقالة وأسترحام، وأستدعاء لمصالح الدين والدنيا، وعوائد الآخرة والأولى؛ فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾.

وأمره بالسُّعَى في أيام الجمع إلى المساجد الجامعه، وفي الأعياد إلى المصلّيات الضّاحية، بعد التقدّم في قرشها وكسوتها؛ وجمع القوام والمؤذنين والمكبرين فيها، وأستسعاء الناس إليها، وحضهم عليها؛ آخذين الأهبه، متظّفين في الزّه؛ مؤذّنين لفرائض الطّهارة، بالبنين في ذلك أقصى الاستطاعة؛ معتقدين خشية الله وخيفته، مدرّعين تقواه ومراقبته؛ مكثّرين من دعائه - عز وجل - وسؤاله، مصلّين على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله؛ بقلوبٍ على اليقين موقوفة، وهمم إلى الدين مضروفة؛ وألسن بالتسبيح والتقدّيس فصيحة، وآمال في المغفرة والرحمة فسيحة؛ فإنّ هذه المصلّيات والتعبّادات بيوت الله التي فضلها، ومناسكها التي شرفها؛ وفيها يتلى القرآن [ومنها ترتفع الأعمال؛ وبها يلوذ اللائحون] ^(٢) ويعودُ العائدون؛

(١) كذا في "المثل السائر" أيضاً. وفي "رسائل الصابي" «ومن لا يستسرّ دونه خائنة عينه وخافية

وَيَتَعَبَّدُ الْمُتَعَبِّدُونَ ، وَيَتَهَجَّدُ الْمُتَهَجِّدُونَ ، وَحَقِيقٌ عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ : مَنْ وَالٍ وَمَوْلَى عَلَيْهِ أَنْ يَصُونَهَا وَيَعْمُرُهَا ، وَيُوَصِّلُهَا وَلَا يَهْجُرُهَا . وَأَنْ يُقِيمَ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِهَا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لِنَفْسِهِ عَلَى الرَّسْمِ الْجَارِي فِيهَا ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الصَّلَاةِ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ . وَقَالَ فِي عِمَارَةِ الْمَسَاجِدِ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بَأَنْ يُرَاعَى أحوال مَنْ يَلِيهِ ، مِنْ طَبَقَاتِ جُنْدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَوَالِيهِ ؛ وَيُطَبَّقَ لَهُمُ الْأَرْزَاقُ ، فِي وَقْتِ الْوَجُوبِ وَالْأَسْتِحْقَاقِ ؛ وَأَنْ يُحَسِّنَ فِي مَعَامَلَتِهِمْ ، وَيُجِيلَ فِي اسْتِخْدَامِهِمْ ، وَيَتَصَرَّفَ فِي سِيَاسَتِهِمْ : بَيْنَ رِفْقٍ مِنْ غَيْرِ ضَعْفٍ ، وَخَشُونَةٍ مِنْ غَيْرِ عُنْفٍ ؛ مُثَبِّبًا لِحَسَنِهِمْ مَا زَادَ بِالْإِبَانَةِ فِي حُسْنِ الْأَثَرِ ، وَسَلِمَ مَعَهَا مِنْ دَوَاعِي الْأَشْرِ ؛ وَمَتَعَمِّدًا لِمُسِيئِهِمْ مَا كَانَ التَّغَمُّدُ لَهُ نَافِعًا ، وَفِيهِ نَاجِعًا ؛ فَإِنْ تَكَرَّرَتْ زَلَّاتُهُ ، وَتَنَابَعَتْ عَثَرَاتُهُ ؛ تَسَاوَلَهُ مِنْ عُقُوبَتِهِ بِمَا يَكُونُ لَهُ مُصْلِحًا ، وَلِغَيْرِهِ وَعِظًا . وَأَنْ يَخْتَصَّ أَكْبَرَهُمْ وَأَمَانَتَهُمْ وَأَهْلَ الرَّأْيِ وَالخَطَرِ مِنْهُمْ بِالْمُشَاوَرَةِ فِي الْمَلْمِ ، وَالْإِطْلَاعِ عَلَى بَعْضِ الْمُهْمِ ؛ مُسْتَخْلِصًا نَحَائِلَ قُلُوبِهِمْ بِالْبَسْطِ وَالْإِدْنَاءِ ، وَمُسْتَشْحِدًا بِصَائِرِهِمْ بِالْإِكْرَامِ وَالْأَحْتِفَاءِ : فَإِنَّ فِي مُشَاوَرَةِ هَذِهِ الطَّبَقَةِ اسْتِدْلَالًا عَلَى مَوَاقِعِ الصَّوَابِ ، وَتَحَرُّزًا مِنْ غَلَطِ الْإِسْتِبْدَادِ ، وَأَخْذًا بِمَجَامِعِ الْحَرَامِ ، وَأَمْنًا مِنْ مُفَارَقَةِ الْإِسْتِقَامَةِ ؛ وَقَدْ حَضَّ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الشُّورَى حَيْثُ قَالَ لِرَسُولِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : ﴿ وَسَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

(١) أى سائر ألقواته من قولهم تفعد فلانا ستره .

وأمره بأن يعمد لما يتصل بنواحيه من ثغور المسلمين، ورباطات المرابطين،
ويقسم لها قسماً وافراً من عنايته، ويصرف إليها طرفاً بل شطراً من رعايته؛
ويختار لها أهل الجلد والشدة، وذوى البأس والنجدة: ممن عجمته الخطوب،
وعرّكنه الحروب؛ وأكسب دربة بجدع المتناوين، وتجربة بمكائد المتقارعين؛
وأن يستظهر بتكثيف عددهم، واختيار عددهم؛ واختخاب خيلهم، وأستجادة
أسلحتهم؛ غير مجرّباً^(٢) إذا بعته، ولا مستكرّهه إذا وجهه؛ بل يناوب بين رجاله
مناوبة تريحهم ولا تملهم، وترفّهم ولا تؤدّمهم: فإنّ في ذلك من فائدة الإجماع،
والعدل في الاستخدام؛ وتنافس رجال الثوب فيما عاد عليهم بعزّ الظفر والنصر، وبعد
الصيت والذكر، وإحراز النفع والأجر؛ ما يحقّ على الولاة أن يكونوا به عاملين،
وللناس عليه حاملين. وأن يكرّر على أسماعهم، ويثبت في قلوبهم؛ مواعيد الله
لمن صابروا ربّط، وسمح بالنفس وجاهد؛ من حيث لا يقدمون على تورط غيره،
ولا يجمعون عن آتياز فرصه؛ ولا ينكصون عن تورّد معركه، ولا يلقون بأيديهم
إلى التهلكه؛ فقد أخذ الله تعالى ذلك على خلقه، والمرامين عن دينه؛ وأن يزيح
العلة فيما يحتاج إليه من راتب نفقات هذه الثغور وحادثها، وبناء حصونها ومعاقليها؛
وأستطراق طرقها ومسالكها، وإفاضة الأقوات والعلوفات للترتين فيها والمترددين
إليها والحامين لها. وأن يبذل أمانه لمن طلبه، ويعرضه على من لم يطلبه. ويفي
بالعهد إذا عاهد، وبالعقد إذا عاقد؛ غير مخفّر ذمّة، ولا جارج أمانة؛ فقد أمر

(١) في "رسائل الصابي" بأن يضم ما يتصل الخ.

(٢) في اللسان ج ٥ ص ٢١٧ «تجبر الجنند أن يجبهم في أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر» وهو

المراد هنا . تأمل .

- الله تعالى بالوفاء فقال جلّ من قائل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) .
 ونهى عن النكث فقال عزّ من قائل : (فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ) .

وأمره أن يعرض من في حُبوس عمله على جرّائهم [وإنعام النظر في جنائياتهم وجرّائهم] ^(١) فمن كان إقراره واجباً أقرّه ومن كان إطلاقه سائغاً أطلقه . وأن ينظر في الشرطة والأحداث نظر عدل وإنصاف ؛ ويختار [لها من الولاة] ^(١) من يخاف الله تعالى ويتقيه ، ولا يحابي ولا يراقب فيه ؛ ويتقدم إليهم بقمع الجهال ، وردع الضلال ؛ وتبشع الأشرار ، وطلب الدّعار ؛ مستدلين على أماكِنهم ، متوغلين إلى مكابِنهم ؛ متوجّلين عليهم في مظانهم ، متوثقين ممن يجدونه منهم ، منفذين أحكام الله تعالى فيهم بحسب الذي يتبين من أمرهم ، ويتضح من فعلهم ؛ في كبيرة ارتكبوها ، وعظيمة احتقبوها ؛ ومهجة أفاظوها وأستهلكوها ، وحرمة أباحوها واتتهكوها : فمن استحقّ حداً من حدود الله المعلومة أقاموه عليه غير مخففين منه ، وأحلّوه به غير مقصّرين عنه ، بعد أن لا يكون عليهم في الذي يأتون به حجة ، ولا يعترضهم في وجوبه شبهه : فإنّ الواجب في الحدود أن تُقام بالبينات ، وأن تُدرأ بالشبهات ؛ فأولى ما توخاه رعاة الرعايا فيها أن لا يُقدّموا عليها مع نقصان ، ولا يتوقفوا عنها مع قيام دليل وبرهان . ومن وجب عليه القتل احتاط عليه بما يُحتاط به على مثله : من الحبس الحصين ، والتوثق الشديد ؛ وكتب إلى أمير المؤمنين بخبره ، وشرح جنائيته ؛ وثبوتها بإقرار يكون منه ، أو شهادة تقع عليه ؛ وليتظر من جوابه ما يكون عمله بحسبه ، فإنّ أمير المؤمنين لا يطلق سفك دم مسلمٍ أو معاهدٍ إلا ما أحاط به علماً ، وأتقنه فهماً ، وكان ما يمضيه فيه عن بصيرة لا يحاط بها شك ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة .

ولا يُسَوِّبُهَا رَبِّبٌ . ومن أَلَمَّ بِصَغِيرَةٍ مِنَ الصَّغَائِرِ ، وَبِسِيرَةٍ مِنَ الْجَرَائِرِ ، مِنْ حَيْثُ لَمْ يُعْرِفْ لَهُ مِثْلَهَا ، وَلَمْ نَتَقَدَّمْ مِنْهُ أُخْتَهَا ، وَعَظَّهُ وَزَجَرَهُ ، وَنَهَاهُ وَحَدَرَهُ ، وَاسْتَبْتَابَهُ وَأَقَالَه ، مَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ خَصْمٌ فِي ذَلِكَ يَطَالِبُ بِقِصَاصٍ مِنْهُ ، وَجِزَاءٍ لَهُ ؛ فَإِنْ عَادَ تَنَاولَهُ [مِنْ] التَّقْوِيمِ وَالتَّهْدِيبِ ، وَالتَّعْزِيرِ وَالتَّأْدِيبِ ؛ بِمَا يَرَى أَنْ قَدْ كَفَى فِيهَا آجِرَتَهُ ، وَوَفَى بِمَا قَدَّمَ ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يعطل ما في أعماله من الحانات والمواخير ، ويطهرها من التبايح والمناكير ؛ ويمنع من تجمع أهل الخنا فيها وتألف شملهم بها ؛ فإنه شمل يصلحه التشتيت ، وجمع يحفظه التفريق ؛ وما زالت هذه المواطن الدمية والمطارح الذئبية ، داعية لمن يأوى إليها ، ويعكف عليها ؛ إلى ترك الصلوات ، [وإهمال المفترضات]^(١) وركوب المنكرات ، وأقتراف المخطورات ؛ وهي بيوت الشيطان التي في عمارتها لله تعالى مغضبة ، وفي إخراجها للخير مجلبة ؛ والله تعالى يقول لنا معشر المؤمنين :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

ويقول عز من قائل لغيرنا من المذمومين : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ .

وأمره أن يولي الحماية في هذه الأعمال ، أهل الكفاية والغناء من الرجال ؛ وأن يضم إليهم كل من خف ركابه ، وأسرع عند الصريح جوابه ؛ مرتباً لهم في المسالح ، وساداً بهم نعر المسالك ؛ وأن يوصيهم بالتيقظ ، ويأخذهم بالتحفظ ، ويزيح عنهم في علوفة خيلهم ؛ والمقرر من أزوادهم وميرهم ؛ حتى لا تثقل لهم على البلاد وطأه ، ولا تدعومهم إلى تحفيهم وتلمهم حاجه ؛ وأن يحوطوا السابلة بأدنه وعائده ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة و"المثل السائر" .

وَيَتَدَارَكُوا الْقَوَافِلَ صَادِرَةً وَوَارِدَةً ، وَيَحْرَسُوا الطَّرِيقَ لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَيَنْفُضُوهَا رَوَاحًا
وَابْكَارًا ، وَيَنْصُبُوا لِأَهْلِ الْعَيْثِ الْأَرْصَادَ ، وَيَتَكَنَّنُوا لَهُمْ بِكُلِّ وادٍ ، وَيَتَفَرَّقُوا عَلَيْهِمْ
حَيْثُ يَكُونُ التَّفَرُّقُ مَضِيًّا لِفَضَائِهِمْ ، وَمُؤَدِّيًّا إِلَى أَنْفِضَائِهِمْ ، وَيَجْتَمِعُوا حَيْثُ
يَكُونُ الْاجْتِمَاعُ مُطْفَأًا لِحَرَّتِهِمْ ، وَصَاعًا لِمُرُوتِهِمْ ؛ وَأَنْ لَا يُخْلُوا هَذِهِ السَّبِيلَ مِنْ حِمَاةٍ
لَهَا وَسِيَارَةٌ فِيهَا : يَتَرَدَّدُونَ فِي جَوَادِيهَا ، وَيَتَعَسَّفُونَ فِي عَوَادِيهَا ؛ حَتَّى تَكُونَ الدَّمَاءُ
مُحْقُونَةً ، وَالْأَمْوَالُ مَصُونَةً ؛ وَالْفِتَنُ مُحْسُومَةً وَالغَارَاتُ مَأْمُونَةً ؛ وَمَنْ حَصَلَ فِي أَيْدِيهِمْ
مِنْ لَيْسَ خَاتِلٍ ، وَصُعْلُوكٍ خَارِبٍ ؛ وَحَيْفٍ لَسْبِيلٍ ، وَمُتَهَكِّ لِحَرِيمٍ ؛ أَمْتِثَلْ فِيهِ أَمْرٌ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْمَوَافِقَ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ
أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِوَضْعِ الرَّصَدِ عَلَى مَنْ يَجْتَازُ فِي أَعْمَالِهِ مِنْ أَبَاقِ الْعَيْدِ ، وَالْإِحْتِيَاظِ عَلَيْهِمْ
وَعَلَى مَا يَكُونُ مَعَهُمْ ، وَبِالْحِثِّ عَنِ الْأَمَاكِنِ الَّتِي فَارَقُوهَا ، وَالطَّرِيقِ الَّتِي أَسْتَطَرَقُوهَا ؛
وَمَوَالِيهِمُ الَّذِينَ أَتَقُوا مِنْهُمْ ، وَنَشَرُوا عَنْهُمْ ؛ وَأَنْ يَرُدُّوهُمْ عَلَيْهِمْ قَهْرًا ، وَيُعِيدُوهُمْ إِلَيْهِمْ
صُغْرًا ؛ وَأَنْ يَنْشُدُوا الضَّلَاةَ بِمَا أَمَكَّنَ أَنْ تُنْشَدَ ، وَيَحْفَظُوهَا عَلَى رَبِّهَا بِمَا جَازَ أَنْ
تُحْفَظَ ؛ وَيَتَجَنَّبُوا الْإِمْتِطَاءَ لظُهُورِهَا وَالْإِتْنَفَاعَ بِأَوْبَارِهَا وَأَلْبَانِهَا مِمَّا يُجْزُ وَيُحَلَبُ ؛
وَأَنْ يُعَرِّفُوا اللَّقْطَةَ وَيَدْبِعُوا أَثَرَهَا ، وَيُسَيِّعُوا خَبَرَهَا ؛ فَإِذَا حَضَرَ صَاحِبُهَا وَعِلْمُ أَنَّهُ
مَسْتَوْجِبٌ سُلِّمَتْ إِلَيْهِ ، وَلَمْ يُعْتَرَضَ فِيهَا عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ
يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا ﴾ . وَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
« ضَلَالَةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّارِ » .

(١) في "الرسائل ، والمثل السائر" « ويذرقوا » والبدرة الخفارة .

(٢) في "الرسائل" « في جوادها ... في عوادها » .

وأمره أن يوصى عماله بالشد على أيدي الحكام ، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام ؛ وأن يحضروا مجالسهم حضور الموقرين لها ، الذائين عنها ، المقيمين لرؤس الهيأة وحدود الطاعة فيها ؛ ومن خرج عن ذلك من ذى عقل سخيف ، وحلم ضعيف ، نالوه بما يردعه ، وأحلوا به ما يزرعه ؛ ومتى تقاعس متقاعس عن حضور مع خصم يستدعيه ، وأمر يوجه الحاكم إليه فيه ؛ أو التوى ملتوي بحق يحصل عليه ، ودين يستقر في ذمته ، قأدوه إلى ذلك بأزمة الصغار ، ونزائم الإضطراب ؛ وأن يحبسوا ويطلقوا بأقوالهم ، ويثبتوا الأيدي في الأملاك والفروج ويترعوها بقضايهم ؛ فإنهم أمناء الله في فصل ما يفصلون وبت ما يتون ، وعن كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم يوردون [ويصدرون] وقد قال تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ . وأن يتوتحي بمثل هذه المعاملة عمال الخراج في استيفاء حقوق ما استعملوا عليه ، وأستنطاف بقاياهم فيه ، والرياضة لمن تسوء طاعته من معاملهم ، وإحضارهم طائعين أو كارهين بين أيديهم ؛ فمن آداب الله تعالى للعبد التي يحق عليه أن يتخذها [أدبا] ويجعلها إلى الرضا عنه سببا ، قوله تعالى : ﴿ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره أن يجلس للرعية جلوسا عاما ، وينظر في مطالبها نظرا تاما ، ويساوي في الحق بين خاصها وعامها ، ويوازي في المجالس بين عزيزها وذليلها ؛ وينصف المظلوم من ظالمه ، والمغضوب من غاصبه ؛ بعد الفحص والتأمل والبحث والتبين ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي المطبوعة ، والمثل السائر" وهي من سقط النسخ .

حتى لا يَحْكُمَ إِلَّا بِعَدْلِ ، وَلَا يَنْطِقَ إِلَّا بِفَضْلِ ؛ وَلَا يُثَبِّتَ يَدًا إِلَّا فِيمَا وَجِبَ [تَثْبِيثُهَا فِيهِ ، وَلَا يَقْبِضُهَا إِلَّا عَمَّا وَجِبَ] ^(١) قَبْضُهَا عَنْهُ ؛ وَأَنْ يُسَهِّلَ الْإِذْنَ لِجَمَاعَتِهِمْ ، وَيَرْفَعَ الْحِجَابَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ ؛ وَيُوَلِّمَهُمْ مِنْ حَصَانَةِ الْكَنْفِ ، وَلِيَنِ الْمُنْعَطَفَ ؛ وَالْأَشْتِمَالَ وَالْعِنَايَةَ ، وَالصَّوْنَ وَالرَّعَايَةَ ؛ مَا تَعَادَلُ فِيهِ أَقْسَامُهُمْ ، وَتَتَوَازَنُ مِنْهُ أَقْسَامُهُمْ ؛ وَلَا يَصِلُ الْمَكِينُ مِنْهُمْ إِلَى اسْتِضْمَامَةٍ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهُ ، وَلَا ذُو السُّلْطَانِ إِلَى هَضِيمَةٍ مَنْ حَلَّ دُونَهُ . وَأَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى أَحْسَنِ الْعَادَاتِ [وَالْخَلَاتِقِ] ^(١) وَيُحْضِمَهُمْ عَلَى أَجْمَلِ الْمَذَاهِبِ وَالطَّرَائِقِ ؛ وَيَجْعَلُ عَنْهُمْ كَلَّةً ، وَيَمُدُّ عَلَيْهِمْ ظِلَّهُ ؛ وَلَا يَسُومَهُمْ حَسْفًا ، وَلَا يُلْحِقُ بِهِمْ حَيْفًا ؛ وَلَا يَكْفِفُهُمْ شَطَطًا ، وَلَا يُجَشِّمُهُمْ مُضْلَعًا ؛ وَلَا يَثْلِمُ لَهُمْ مَعِيشَةَ ، وَلَا يُدَاخِلُهُمْ فِي جَرِيمَةٍ ؛ وَلَا يَأْخُذُ بَرِيئًا مِنْهُمْ بِسَقِيمٍ ، وَلَا حَاضِرًا بَعْدِيَمٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ نَهَى أَنْ تَرَرَ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَى ، وَجَعَلَ كُلَّ نَفْسٍ رَهِينَةً بِمَكْسِبِهَا بَرِيئَةً مِنْ مَكَاسِبِ غَيْرِهَا . وَيَرْفَعُ عَنْ هَذِهِ الرَّعِيَّةِ مَاعَسَى أَنْ يَكُونَ سُنَّ عَلَيْهَا مِنْ سُنَّةِ ظَالِمَةٍ ، وَسُئِلَ بِهَا مِنْ مَحَبَّةِ جَائِرِهِ ، وَيَسْتَقْرِىَ آثَارَ الْوَلَاةِ قَبْلَهُ عَلَيْهَا ، فِيمَا أَرْجُوهُ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ لِيَهَا : فَيُقْتَرُ مِنْ ذَلِكَ مَا طَابَ وَحَسُنَ ، وَيُزِيلُ مَا خَبُثَ وَقَبِحَ : فَإِنَّ مِنْ يَغْرِسُ الْخَيْرَ يَحْطِئُ بِمَعْسُولِ ثَمَرِهِ ، وَمَنْ يَزْرَعُ الشَّرَّ يَصِلِي بِمَمْرُورِ رَيْعِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾ .

وأمره أن يَصُونَ أَمْوَالَ الْخَرَاجِ وَأَثْمَانَ الْغَلَّاتِ ، وَوُجُوهُ الْجَبَايَاتِ ، مُوَفَّرًا ، وَيَزِيدَ ذَلِكَ مُثْمَرًا ، بِمَا يَسْتَعْمِلُهُ مِنَ الْإِنْصَافِ لِأَهْلِهَا ، وَإِجْرَائِهِمْ عَلَى صَحِيحِ الرُّسُومِ فِيهَا : فَإِنَّهُ مَالُ اللَّهِ الَّذِي بِهِ قُوَّةُ عِبَادِهِ ، وَحِمَايَةُ بِلَادِهِ ، وَدُرُورُ حَلْبِهِ ، وَأَتْصَالُ

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة و"المثل السائر" وهي من سقط النسخ .

(٢) كذا في "المثل السائر" أيضا وفي "الرسائل" « في حرفه » .

مدده؛ وبه يحاط الحريم، ويدفع العظیم؛ ويحى الدمار، وتداد الأشرار. وأن يجعل
 أفتاحه إياه بحسب [إدراك] أصنافه، وعند حضور مواقيته وأحيانه؛ غير
 مستسلف شيئاً قبلها، ولا مؤخر لها عنها؛ وأن يخص أهل الطاعة والسلامة بالترفيه
 لهم، وأهل الاستضعاب والامتناع بالتشدد عليهم: لئلا يقع إرهاق المدعن، أو إهمال
 لطامع. وعلى المتولى لذلك أن يضع كلاً من الأمرين موضعاً، ويوقعه موقعه؛
 متجنباً إحلال الغلظة بمن لا يستحقها، وإعطاء الفسحة لمن ليس من أهلها؛
 والله تعالى يقول: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْرَأُ
 الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ﴾.

وأمره بأن يتخير عماله على الأعشار، والخراج، والضبياع، والجهبذة،
 والصدقات، والجوالى، من أهل الظلف والنزاهة، والضبط والصيانة، والجزالة
 والشهامة؛ وأن يستظهر مع ذلك عليهم بوصية يوعيا أسماعهم، وعهود يقددها
 أعناقهم؛ بأن لا يضيعوا حقاً، ولا يأكلوا سُخْتاً؛ ولا يستعملوا ظُلماً، ولا يقارِفُوا
 عَشْماً. وأن يقيموا العارات، ويحتاطوا [على الغلات] ويتحزروا من ترك حق لازم
 أو تعطيل رسم عادل؛ مؤدبين في جميع ذلك الأمانه، مجتنبين للخيانة. وأن يأخذوا
 جهابذتهم باستيفاء وزن المال على تمامه، واستجادة نقده على عيابه؛ واستعمال الصحة
 في قبض ما يقبضون، وإطلاق ما يطلقون. وأن يوعزوا إلى سعاة الصدقات بأخذ
 الفرائض من سائمة مواشى المسلمين دون عاملتها، وكذلك الواجب فيها؛ وأن لا يجمعوا
 فيها متفرقاً ولا يفرقوا مجتمعاً، ولا يدخلوا فيها خارجاً عنها، ولا يضيفوا إليها ما ليس

(١) من "الرسائل، والمثل السائر".

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة.

منها : من قَلَّ لِبَلٍ أَوْ أَكُولَةٍ^(١) رَاع ، أَوْ عَقِيلَةٍ مَالٍ ؛ فَإِذَا آجَبْتَوْهَا عَلَى حَقِّهَا ، وَأَسْتَوْفَوْهَا عَلَى رِسْمِهَا ، أخرجوها في سبيلها ، وَقَسَمُوا عَلَيْهَا أَهْلَهَا الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ ، إِلَّا الْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمُ الَّذِينَ سَقَطَ سَهْمُهُمْ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةَ قُلُوبَهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْفَارِسِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . وَإِلَى جُبَاةِ [جَمَاجِمِ] أَهْلِ الذَّمَّةِ أَنْ يَأْخُذُوا مِنْهُمْ الْجَزِيَّةَ فِي الْحَرَمِ مِنْ كُلِّ سَنَةٍ [بِحَسَبِ] مَنَازِلِهِمْ فِي الْأَحْوَالِ ، وَذَاتِ أَيْدِيهِمْ فِي الْأَمْوَالِ ؛ وَعَلَى الطَّبَقَاتِ الْمُطَبَّقَةِ فِيهَا ، وَالْحُدُودِ [المحدودة] الْمُعْهُودَةِ لَهَا ؛ وَأَنْ لَا يَأْخُذُوهَا مِنَ النِّسَاءِ ، وَلَا مِنْ لَمْ يَبْلُغَ الْحُلْمَ مِنَ الرِّجَالِ ؛ وَلَا مِنْ ذِي سِنَّ عَالِيَةٍ ، وَلَا ذِي عِلَّةٍ بَادِيَةٍ ؛ وَلَا فَقِيرٍ مُعْذَمٍ ، وَلَا مَتْرَهَبٍ مُتَبَتَّلٍ ؛ وَأَنْ يُرَاعِيَ جَمَاعَةَ هَؤُلَاءِ الْعَمَالَ مِرَاعَاةً يُسْرِّهَا وَيُظْهِرُهَا ، وَيُلَاحِظُهُمْ مُلَاحِظَةً يُخْفِيهَا وَيُبْدِيهَا : لِثَلَاثِ زُؤُلُوا عَنْ الْحَقِّ الْوَاجِبِ ، أَوْ يَعْدِلُوا غِنَى السَّنَنِ الْأَلْحَبِ ؛ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَدَبَّرَ لِعَرَضِ الرِّجَالِ وَإِعْطَائِهِمْ ، وَحِفْظِ جَرَائِمِهِمْ وَأَوْقَاتِ إِطْعَامِهِمْ ، مَنْ يَعْرِفُهُ بِالثَّقَةِ فِي مَتَصَرَّفِهِ ، وَالْأَمَانَةَ فِيمَا يَجْرِي عَلَى يَدِهِ ، وَالْبُعْدَ عَنِ الْإِسْفَافِ إِلَى الدَّنِيَّةِ ، وَالِاتِّبَاعَ لِلدَّنَاءَةِ ؛ وَأَنْ يَبْعَثَهُ عَلَى ضَبْطِ [حَلِي] الرِّجَالِ وَشِيَاثِ الْخَيْلِ ، وَتَجْدِيدِ الْعَرَضِ بَعْدَ الْأَسْتِحْقَاقِ ، وَإِيقَاعِ الْإِحْتِيَاطِ فِي الْإِنْفَاقِ ؛ فَمَنْ صَحَّ عَرَضُهُ وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهِ شَيْءٌ مِنْهُ : مِنْ شَكٍّ يَعْزِضُ لَهُ ، أَوْ رِيَّةٍ يَتَوَهَّمُهَا ، أَطْلَقَ أَمْوَالَهُمْ مَوْفُورَةً ، وَجَعَلَهَا فِي أَيْدِيهِمْ غَيْرَ مَثْلُومَةٍ ؛ وَأَنْ يَرُدَّ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ أَرْزَاقَ مَنْ

(١) أكلة الراعي مايسنها للاكل .

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة .

(٣) الزيادة من "رسائل الصابي" .

سقط بالوفاة والإخلال ، ناسباً ذلك إلى جهته ، ومُورداً له على حقيقته . وأن يطالب الرجال بإحضار الخليل المختاره ، والآلاتِ المستكلمة المستعملة على ما توجه مبالغ أرزاقهم ، وحسب منازلهم ومراتبهم ؛ فإن أضر أحدهم شيئاً من ذلك قاصه به من رزقه ، وأغرمه مثل قيمته ؛ فإن المقصر فيه خائنٌ لأمر المؤمنين ، ومخالفٌ لرب العالمين ؛ إذ يقول الله سبحانه : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وأمره أن يعتمد في أسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة والطرز ، على من تجتمع فيه آلات هذه الولايات : من ثقة ودرايه ، وعلم وكفايه ، ومعرفة ودراية ؛ وتجربة وحُكْم ، وحصافة ومُسْك ، فإنها أحوال تُضارع الحكم وتُناسبه ، وتُدانیه وتقاربه . وأن يتقدم إلى ولاة أسواق الرقيق بالتحفظ فيمن يُطلقون بيعه ، ويمضون أمره ؛ والتحرز من وقوع تجوز فيه ، وإهمال له ؛ إذ كان ذلك عائداً بتحصين القروج ، وتطهير الأنساب . وأن يُبعدوا عنه أهل الرية ، ويقربوا أهل العفة ؛ ولا يُمضوا بيعاً على شبهه ، ولا عقداً على ثمنه . وإلى ولاة العيار ، بتخليص عين الدرهم والدينار : ليكونا مضروبين على البراءة من الغش ، والتزاهة من المش ؛ وبحسب الإمام ، المقر بمدينة السلام ؛ وحراسة السكك من أن تتداولها الأيدي المدغلة ، وتتناقلها الجهات الظنينة ؛ وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يضرب منها ذهباً وفضة ، وإجراء ذلك على الرسم والسنة . وإلى ولاة الطرز بأن يُمروا الاستعمال في جميع المناسج على أتم النيقه ، وأسلم الطريقه ؛ وأحكم الصنعه ، وأفضل الصحه ؛

(١) المش الخلط حتى يذوب . انظر القاموس

(٢) لعله معناه المعادية ففي اللسان ج ١٧ ص ١٤٥ الظنين المعادى لسوء ظنه وسوء الظن به .

وفي الأصل « المثبتة » وفي المثل السائر المنبئة والتصحيح من رسائل الصابي .

(٣) النيقه الاسم من تنوق في الأمر إذا تأق فيه .

وَأَنْ يُثَبِّتُوا أَسْمَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى طُرُزِ الْكُفَاةِ ، وَالْفُرْشِ وَالْأَعْلَامِ وَالْبُنُودِ .
 وَإِلَى وِلَاةِ الْحِسْبَةِ بِتَصَفُّحِ أَحْوَالِ الْعَوَامِّ فِي حَرْفِهِمْ وَمَتَاجِرِهِمْ ، وَمَجْتَمَعِ أَسْوَاقِهِمْ
 وَمَعَامِلَاتِهِمْ ؛ وَأَنْ يُعَايِرُوا الْمَوَازِينَ وَالْمَكَايِيلَ ، وَيَفْرِزُوهَا عَلَى التَّعْدِيلِ وَالتَّكْوِيلِ ؛
 وَمَنْ أَطْلَعُوا مِنْهُ عَلَى حِيلَةٍ أَوْ تَلْيِيسٍ ، أَوْ غِيْلَةٍ أَوْ تَدْلِيسٍ ؛ أَوْ بَحْسٍ فِيمَا يُؤْفِيهِ ،
 أَوْ اسْتِيفَالٍ فِيمَا يَسْتَوْفِيهِ ، نَالُوهُ بِعَلِيْظِ الْعُقُوبَةِ وَعَظِيمِهَا ، وَخَصَّوهُ بِوَجْهِهَا
 وَأَيْمِهَا ؛ وَاقْفِينِ بِهِ فِي ذَلِكَ عِنْدَ الْحَدِّ الَّذِي يَرُونَهُ لَدُنْهِ مُجَازِيَا ، وَفِي تَأْيِيدِهِ كَافِيَا
 فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَلِّ لِّلطَّافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ
 وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، ومُحَجَّتْ عَلَيْكَ ؛ وَقَدْ وَقَفْتُكَ بِهِ عَلَى سِوَاءِ السَّبِيلِ ،
 وَأَرْشَدَكَ فِيهِ إِلَى وَاضِحِ الدَّلِيلِ ؛ وَأَوْسَعَكَ تَعْلِيمًا وَتَحْكِيمًا ، وَأَقَمَّكَ تَعْرِيفًا [وَتَفْهِيمًا]
 وَلَمْ يَأَلِّكَ جُهْدًا فِيمَا عَصَمَكَ وَعَصَمَ عَلَى يَدِكَ ، وَلَمْ يَدْنَحْكَ مُمَكِّنًا فِيمَا أَصْلَحَ بِكَ
 وَأَصْلَحَكَ ؛ وَلَا تَرَكَ لَكَ عُذْرًا فِي غَلْطٍ تَغْلَطُهُ ، وَلَا طَرِيقًا إِلَى مُتَوَرِّطٍ تَتَوَرَّطُهُ ؛ بِالْفَاءِ
 بِكَ فِي الْأَوَامِرِ وَالزُّوَابِرِ إِلَى حَيْثُ يَلْزَمُ الْأُمَّةُ أَنْ يَنْدُبُوا النَّاسَ إِلَيْهِ ، وَيُحْشَوْهُمْ عَلَيْهِ ؛
 مَقِيمًا لَكَ عَلَى مُنْجِيَّاتِ الْمَسَالِكِ ، صَارِقًا بِكَ عَنِ مُرْدِيَّاتِ الْمَهَالِكِ ؛ مُرِيدًا فَيْكَ
 مَا يَسْلَمُكَ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ ، وَيَعُودُ بِالْحِظِّ عَلَيْكَ فِي آخِرَتِكَ وَأَوْلَاكَ ؛ فَإِنْ أَعْدَلْتَ
 وَعَدَلْتَ فَقَدْ فُزْتَ وَعَنْمْتَ ، وَإِنْ تَجَانَفْتَ وَأَعْوَجَجْتَ فَقَدْ خَسِرْتَ وَنَدِمْتَ ؛
 وَالْأَوْلَى بِكَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَعَ مَغْرِسِكَ الرَّأكِي ، وَمَنْبِتِكَ النَّامِي ، وَعُودِكَ الْأَنْجَبِ ،
 وَعُنْصُرِكَ الْأَطِيبِ ، أَنْ تَكُونَ لَظَنَّهُ بِكَ مُحَقِّقًا ، وَلِخَلِيقَتِهِ فَيْكَ مُصَدِّقًا ؛ وَأَنْ تَسْتَرِيدَ
 بِالْأَثَرِ الْجَمِيلِ قُرْبًا [مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ] وَثَوَابًا يَوْمَ الدِّينِ ؛ وَزُلْفَى عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،

وثناءً حسنًا من المسلمين ؛ فخذ ما نبد إليك أمير المؤمنين من معاذيره ، وأمسك بيدك على ما أعطى من موثيقه ؛ وأجعل عهده ^(١) [هذا] مثالاً تحتذيه ، وإماماً تقتفيه ؛ وأستعين بالله يعينك ، وأستهد به يدك ، وأخلص إليه في طاعته ، يُخلص لك الحظ من معونته ؛ ومهما أشكل عليك من خطب ، أو أعضل عليك من صعب ؛ أو بهرك من باهر ، أو بهظك من باهظ ؛ فاكتب إلى أمير المؤمنين به منياً ، وكن إلى ما يرد ^(١) [من جوابه] عليك منتهياً ؛ إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

[وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ست وستين وثلثائة] ^(١) .



وعلى هذا الأسلوب كتب أمين الدين أبو سعيد ، العلاء بن وهب بن موصلاً عن القائم بأمر الله عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، بسطنة الأندلس وبلاد المغرب ، بعد العشرين والأربعائة ، فيما رأيته في ترسل ابن موصلاً المذكور .

وهذه نسخته بعد البسملة الشريفة :

هذا ما عهد عبد الله ووليه ، عبد الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، إلى فلان حين انتهى إليه ما هو عليه من أذراع جلايب الرقاد ، في الإصدار والإيراد ؛ وأتباع سنن من أبدى وأعاد ، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد ؛ والتخصيص من حميد الأئحاء والمذاهب ، بما يستمد منه أصناف الآلاء والمواهب ؛ والتحلل من السداد

الكامل ، بما فاز فيه بامتطاء الغارب من الجمال والكاهل ؛ وأتضح ماهو متشبث به من صحة الدين واليقين ، والمواظبة من اكتساب رضا الله تعالى على ماهو أقوى الطهير والمعين ؛ في ضمن ما طوى عليه ضلوعه ، وأدام لهجه به وولوعه : من موالاته لأمير المؤمنين يدين الله تعالى بها ، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها ؛ ومشايعة لدولته ساوى فيها بين ما أظهر وأسر ، وأمل في آجتناء ثمرها كل ما أهبج وسر ؛ فولاه الصلاة بأعمال المغرب ، والمعاون ، والأحداث ، والخراج ، والضياح ، والأعشار ، والجهذة ، والصدقات ، والحوالي ، وسائر وجوه الحيات ، والعرض ، والعتاء ، والنفقة في الأولياء ، والمظالم ، وأسواق الرقيق ، والعيار في دور الضرب ، والطرز ، والحسبة ، ببلاد كذا وكذا : سكوناً إلى استقلاله بأعباء ما استكفاه إياه ، وأستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب ربه ؛ وثقة بكونه للصنعة أهلاً ، وبأفياء الطاعة الإمامية مستظلاً ؛ وتوفيرة على ما يزيد بحضرة أمير المؤمنين حذوة ترد باع الخطوب عنه قصيرا ، وتمتد مقاصده من التوفيق بما يضحى له في كل حالة نصيرا ؛ وعلمها بما في أصطناعه من مصلحة تستنير أهلها ، وتستنير من شبه النعى شواهدا وأدلتها ؛ والله تعالى يصل مرامي أمير المؤمنين بالإصابة ، ويعينه على ما يقرب كل أمرئ في حقه ويحله نصابه ؛ ويحسن له الخطرة في كل ما يغدو له مُمضيا ، ولطايا الاجتهاد في فعله منضيا ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكل وإليه يُنيب .

وأمره بأعتاد تقوى الله تعالى في الإعلان والإسرار ، وأعتقاد الواجب من الإذعان بفضلها والإقرار ؛ وأن يأوى منها إلى أمتع المعاقل وأحصنها ، ويلوى عنان

الهدى فيها إلى أجمل المقاصد وأحسنها ؛ ويجعلها عمدته يوم تُعَدَم الأنصار ،
وتُشَخَّص الأبصار : ليحتجني من تمرها ما يقبه مصارع التجل ، ويحتلي من مطالعها
ما يؤمنه من طوارق الوجل ؛ ويرد بها من رضا الله تعالى أصفى المشارب ، ويجد
فيها من ضوَالِ المنى أنفَس المَوَاهِب : فإنها أبقى الزاد ، وأدعى في كلِّ أمر إلى ورى
الزاد ؛ وقد خَصَّ الله بها المؤمنين من عباده ، وحضَّ منها على ما هو أفضل عدَّة المرء
وعتاده ؛ فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمره أن يَأْتَمَّ بكتاب الله تعالى مستضيئاً بمصباحه ، مستضيئاً لسُلطان الغيِّ
بالوقوف عند محظوره ومباحه ؛ ويقصد الاستبصار بمواعظه وحكمه ، والاستندار
لصوب التوفيق في الرجوع إلى مُتَقَنه ومُحَكِّمه ؛ ويجعله أميراً على هواه مطاعاً ، وسيراً
لا يرى أن يكشف عنه قناعاً ؛ ودليلاً إلى النجاة من كلِّ ما يخاف أنامه ، وسبيلاً
إلى الفوز في اليوم الذي يُسفر عن فصل الحساب لِنَامه ؛ ويتحقق موقع الحظِّ
في إدامة درسه ، وصلة يومه في التأمل بأمره ؛ فإنه يُبدي طريق الرشد لكل مُبديِّ
في العمل به مُعيد : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره أن يُحافظ على الصلوات قائماً بشروطها وحُدودها ، وشائماً بروق التوفيق
في أداء فروضها وحقوقها ؛ ومسارعاً إليها في أوقاتها بنية عافية مناهل الكدر والرقي ،
عارفة بما في إخلاصها من نُصرة الهدى وطاعة الحق ؛ وموفراً عليها من ذهنه ،
ما الحظِّ كامن في طيه وضمنه ؛ وموفياً لها من الركوع والسجود ، ما الرشد فيه صادق
الدلائل والشهود ؛ متجنباً أن يُلْهيه عنها من هواجس الأفكار ، ووساوس القلب

العون منها والأبكار؛ ما يقف فيه موقف المقصر الغالط، ويترل فيه منزلة الحاحد للنعمة الغامط؛ وقد أمر الله تعالى بها وفرضها على المؤمنين وأوجبها وحث من إقامتها، على ما يقضى إلى صلاح المقاصد واستقامتها، فقال عز من قائل: ﴿فَأَقِمْوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ .

وأمره بالسعى في أيام الجمع إلى المساجد الجامعه، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحيه؛ بعد أن يتقدم في عمارتها، وإعداد الكسوة لها؛ بما يؤدى إلى كمال حلاها، ويحظى من حسن الذكر بأعذب الموارد وأحلاها؛ ويوعز بالاستكثار من المكبرين فيها والقوام، وترتيب المصايح العائده على شمل جمالها بالأساق والأنظام : فإنها بيوت الله تعالى التي تئلى بها آياته، وتعلّى فيها أعلام الشرع وراياته . وأن يقم الدعوة على منابرها لأمر المؤمنين ، ولولّى عهد العدة للدين ؛ أبى القاسم عبد الله ابن محمد بن أمير المؤمنين ، أدام الله تعالى به الإمتاع ، وأحسن عن ساحته الدفاع ؛ ثم لنفسه جاريا في ذلك على ما ألف من مثله ، وسالكاً منه أقوم مسالك الأهداء وسبله ؛ وقد بين الله تعالى ما في عمارتها من دلائل الإيمان ، والفوز بما يعطى من سخط الله تعالى أوثق الأمان ، في قوله سبحانه : ﴿ إِمَّا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ أَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ . وقال في الحث على السعى إلى الجوامع التي يذكر فيها اسمه ، ويظهر عليها منار الإسلام ورسمه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ .

وأمره أن يعتمد في إخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به ، وهدى منه إلى أرشاد فعل وأصوبه ؛ ويقوم بذلك القيام الذى يُحظيه بجبل الذكر، وجزير الأجر،

ويشهدله بزكاء المغرس وطيب التجرب؛ ويقصد في أداء الواجب منه ما يصل أمسه
في التوفيق بيومه، ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه؛ متجنباً من إخلال
بما نص عليه في هذا الباب، أو إهمال فيه لما يليق بدوي الديانة وأولى الألباب؛
ومتوخياً في المسارعة إليه ما يتطهر به من الأذناس، ويتوفر به حسن الأحدثه عنه
بين الناس؛ فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لاسبيل إلى الحميد عنها،
ولا دليل في الفوز أوفى منها؛ وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم بأخذها من أمته،
وأبان عن كونها مما ينجني كل مرغوب فيه من ثمرته؛ ووصل الأمر له في ذلك
بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله: لما فيه من الحظ الكامل في استنارة غرره
ومجوله، في قوله سبحانه: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها وصل
عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ .

وأمره أن يهدب من الدنس خلاله، ويصل بأقواله في الخير أفعاله؛ ويمتنع
من تلبية داعي الهوى المضل، ويتبع سنن المتقي بالهدى المستظل؛ ويقبض يده
عن كل محرم ثوبت أشرأكه وتوبق غوائله، وتؤذن بسوء المنقلب شواهده
ودلائله؛ ويجعل له من نهاره رقيباً على نفسه يصونها عن مراتع النجى ومطارحه،
وأميناً يصد عن مسارب الإثم ومسارحه؛ فإنها لاتزال أمارة بالسوء إن لم تقد إلى
جدد الرشد، وتقم لها سوق من الوعظ يبلغ فيها أقصى الغاية والأمد؛ فالسعيد من
أضحى لها عند سورة الغضب وإزعا، وأضحى عليها بلوم يقدومه عن كل ما يسخط
الله تعالى نازعا، وأن يتزه عن النهى عما هوله مرتكب، والأمر بما هوله
مجتب؛ إذ كان ذلك بالهجنة حالياً، وبين المرء وبين مقاصد هديه حائلاً،
قال الله تعالى: ﴿ أأمرؤن الناس بالبر وتسنون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب
أفلا تعقلون ﴾ .

وأمره أن يُضْفِيَ عَلَى مَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَوْلِيَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودِهِ، أَصْنَافَ جَلَائِدِ
الإحسان وبروده ؛ وَيُحْصِمُهُمْ مِنْ جَزِيلِ حِبَائِهِ بِمَا يَصِلُونَ مِنْهُ إِلَى أْبَعْدِ الْمَدَى ،
وَيَمْلِكُونَ بِهِ نَوَاصِيَ الْأَمَالِ وَيُدْرِكُونَ قَوَاصِيَ الْمُنَى ؛ وَيُمَيِّزُ مَنْ أَدَّى وَاجِبَهُ فِي الطَّاعَةِ
وَقَرَضَهُ وَأَبْدَى صَفْحَتَهُ فِي الْعَنَاءِ بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِشْتِمَالِ يُرْهِفُ بِصِيرَةِ كُلِّ مِنْهُمْ
فِي التَّوْفُرِ عَلَى مَا وَاظَفَهُ ، وَوَصَلَ بَأَنفِهِ فِي التَّقَرُّبِ إِلَيْهِ سَابِقَهُ ، وَيَدْعُو الْمُقَصِّرَ إِلَى
الِاسْتِبْصَارِ فِي اعْتِمَادِ مَا يَلْحَقُ فِيهِ رُتْبَةٌ مِنْ فَازَتِ فِي الْحَطْوَةِ قِدَاحُهُ ، وَفَاتَتْ الوَصْفَ
عُرْرُهُ فِي الزُّلْفَةِ وَأَوْضَاحُهُ : لِيَمْرَحَ بِهِ فِي الْإِغْتِدَاءِ بِلَبَانِ النِّعْمَةِ ، كَمَا أَتَهَجَّ جَدَدَهُ
فِي إِحْسَانِ الخِدْمَةِ . وَأَنْ يَرْجِعَ إِلَى آرَاءِ ذَوِي الحُنْكَةِ مِنْهُمْ مُسْتَضِيئًا بِهَا مُسْتَرِشِدًا ،
وَطَالِبًا ضَوْالَ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ وَمُنْشِدًا ؛ وَقَدْ بَيَّنَّ اللهُ فَضْلَ الْمَشُورَةِ الَّتِي جَعَلَهَا لِلْأَبَابِ
لِقَاحًا ، وَفِي حَنَادِسِ الشُّكُوكِ مُضْبَاحًا ؛ حَيْثُ أَمَرَ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَا ،
وَبَعَثَهُ مِنْهَا عَلَى أَسَدِّ الْأَفْعَالِ وَأَصُوبِهَا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا
عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ .

وأمره أن يعدل في الرعايا قبله ، ويحلهم من الأمن هضابه وقلة ؛ ويمنحهم من
الإشتمال ، ما ينجي به أمورهم من الإخلال ، ويحوي به من طيب الذكر بحسب
ما اكتسب من رضى الأنحاء والخلال ؛ ويضفي على المسلم منهم والمعاهد من ظل
رعايته ما يساوى فيه بين القوى والضعيف ، ويلحق التليد منهم بالطريف : ليكون
الكل وادعين في كنف الصون ، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن
الطاعة والعون . وأن ينظر في مظالمهم نظرا ينصر الحق فيه ، وينشر علم العدل
في مظاويه ؛ ويُصَفَّ معَهُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، وَيُنْصَبُ بِهِ لَهُمْ مِنْ أَهْتَامِهِ أَسْنَى^(١)
قِسْمٍ وَحَظٍّ ؛ مُلِينًا لَهُمْ فِي ذَلِكَ جَانِبَهُ ، وَمُيَبِّنًا مَا يَظُنُّ بِهِ كَاسِبَ الْأَجْرِ وَجَالِبَهُ ؛

(١) يقال أنصبه جعل له نصيبا . انظر اللسان والقاموس .

ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمال، ويدل من تلك الحال باستثناء ما يوطئهم كواهل الآمال؛ جامعاً لهم بين العدل والإحسان، وجاعلاً أمر الله تعالى في ذلك متلقياً بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ .

وأمره بأن يكون بالمعروف أمراً، وعن المنكر زاجراً، والله تعالى في إحياء الحق وإمالة الباطل متاجراً. وأن يسد من الساعين في ذلك والداعين إليه، ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى يوم العرض عليه. ويتقدم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضها، وإزالة آثارها ومحوها؛ فإنها مواطن بالخازي أهله، ومن مشارب المعاصي ناهله؛ قد أسست على غير التقوى مبانيها؛ وأخليت من كل ما يرضى الله تعالى مغانيها؛ وقد أبان الله تعالى عن فضل الطائفة التي ظلت بالمعروف أمرة وعن المنكر ناهية، وضنت بما ترى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية، فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ .

وأمره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع إلى الصرامة والشهامه، سلوك محاجج الرشد والاستقامة؛ ويجعل التعفف عن ذمير المراتع شاهداً بتوفيق الله إياه، وعائداً عليه بما محمد مغبته وعقباه؛ ويأمر بحفظ السابله، واختصاصهم بالحراسة السابغة الشاملة؛ وحماية القوافل واردة وصادره، واعتادها بما تغدو به إلى السلامة مفضية صائرة؛ لتحرس الدماء مما يبيحها ويريقها، والأموال مما يقصد فيه سبيل الإضاعة وطريقها. وأن يخوفهم نتائج التقصير، ويعرفهم مناهج التبصير؛ وأن عليهم

رُقباءَ يلاحظون أمورهم ويوضحونها : ليكون ذلك داعياً إلى التحوط والتحرُّز،
واعتدائِ الميل إلى جانب الصَّحة والتحيز؛ ويوجب لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله،
ويكف أيديهم عن الامتداد إلى ما تُذمُّ سبله ؛ فإنَّ أخلَّ أحدُهم بما حدَّ له ،
أو مزج بالسوء عمله ؛ جرَّاه بحسب ذلك وموجبه . قال الله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ
سُوءًا يُجْزِهِ ﴾ .

وأمره أن يتقدم إلى توابه في الأعمال بوضع الرِّصد على من يمتاز بها من العبيد
الأباق ، والأستظهار عليهم بحسب العدل والأستحقاق ؛ وأستعلام أمانتهم التي
فصلوا عنها ، ومواطنهم التي بعدوا منها ؛ فإذا وضحت أحوالهم وبانت ، وأنحسمت
الشكوك في بايهم وزالت ، أعادوهم إلى مواليتهم أبوا أم شاءوا ، وأصفوا نياتهم
في الرجوع إليهم أم شابوا . وأن يقصدوا إنشاد الصَّوال ، ويجهدوا من إظهار أمرها
بما يغدو جمال الذكر به في الظلال ؛ ويتجنبوا أن يمتطوا ظهورها بحال ، أو يمدوا
أيديهم إلى منافعها في إسرار وإعلان ؛ حتى إذا حضر أربابها سلمت إليهم بالنعوت
والأوصاف ، وأجرى الأمر في ذلك على ما يضحى به علم العدل على المنار حالي
الأعطاف ؛ فقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها ، وهدى من ذلك إلى أوضح
محتاج الصَّحة وسبلها ، فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا
وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ .

وأمره أن يختار للنظر في المعاون والأجلاب من يرجع إلى دين يحميه من مهاوى
الزلل وصلف عن مدِّ اليد إلى أسباب المطامع ، وكلف بما يعود على ما كلف إياه
بصلاح مشرق المطالع ؛ ومعرفة بما وكل إليه كافية وإفيه ، ولما يوجب الاسترداد له

(١) لعله بالطاء المشالة بمعنى الكف . تأمل .

(٢) لعله الاستزاء أى الزراية عليه والتهاون به .

ماحية نافية؛ ويوعز إليهم بالتشمير في طلب الدعار، من جميع الأماكن والأقطار،
وحسب مواد العار في بابهم والمضار. وأن يمضوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم
في الضلال، وتجرى أمورهم على قانون الشرع المنير في حداس الظلام، ممتنعين
أن يراقبوا من لم يراقب الله تعالى في عمله، ويحانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن
شهدت آثاره بدميم سبيله؛ وإذا وقع الظفر بجانب قد كشف في النقي قناعه،
وأظهرت مساعيه إباءه من إجابة داعي الرشد وأمتناعه؛ أقيم حد الله تعالى فيه
من غير تعدد الواجب، ولا تعر من ملابس السالكين للجدد الألاجب، (ومن يتعد
حدود الله فأولئك هم الظالمون).

وأمره أن يوعز إلى أصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام، ويجدوا
في إجراء أمورهم على أوفى شروط الضبط والإقدام، ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ
أحكامهم وإمضاءها، والمسارعة إلى حث مطايا التشمير في ذلك وإنضائها؛
والتصرف على أمثلتهم في إحضار الخصوم إذا ما امتنعوا، وسوقهم إلى الواجب
إذا زاعوا عنه وانحرفوا. وأن يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي إلى قوة أيديهم
في استيفاء مال النىء وأجتباؤه، وأعتاد ما ينصر الحقوق في مطاويه وأثنائه؛ إذ كان
في ذلك من الصلاح الجامع، وكف المضار وحسب المطابع، ما المعونة عليه واجبه،
وللتوفيق مقارنته مصاحبة، قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا
على الإثم والعدوان وآتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾.

وأمره بعرض من تضمه الجبوس من أهل الجرائم والجرائر، وتأمل أحوالهم
في الموارد والمصادر؛ والرجوع إلى متولى الشرطة في ذكر صورة كل منهم والسبب
في حبسه، والتعيين من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه؛ فمن النىء منهم

للدُّنُوبِ آفِئًا، وَعَنْ سَنَنِ الصَّوَابِ مُنْحَرِفًا، تُرِكَ بِجَالِهِ، وَكُفِّ بِإِطَالَةِ أَعْتِقَالِهِ،
 عَنْ مَجَالِهِ فِي مَيَادِينِ ضَلَالِهِ؛ وَإِنْ وُجِدَ مِنْهُمْ مَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْحَدُّ، أُقِيمَ فِيهِ بِحَسَبِ
 مَا يَقْتَضِيهِ الْحَقُّ؛ وَمَنْ أَعْتَرَضَتْ فِي بَابِهِ شُبُهَةٌ تُجَوِّزُ إِسْقَاطَ الْحَدِّ عَنْهُ وَدَرَأَهُ، أَعْتَمَدَ
 إِحْلَاقَهُ فِي ذَلِكَ بِنِ اتِّصَالِهِ إِلَيْهِ صَوْبِ الْإِحْسَانِ وَدَرَّهُ؛ وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ جُرْمٌ وَتَظْهَرُ
 صِحَّةُ شَاهِدِهِ وَدَلِيلِهِ، قَدَّمَ الْأَمْرَ فِي إِطْلَاقِهِ وَتَحْلِيَةِ سَبِيلِهِ؛ وَإِنْ غَدَا لِأَحَدِهِمْ سَعْيٌ
 فِي الْفَسَادِ وَاجْتِاحٌ وَبَانُ، وَعَوَى بِهِ فِي مُحَارَبَةِ الْحَقِّ وَخَانَ، قُوْبِلَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ
 فِي كِتَابِهِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ
 فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ
 ذَلِكَ لِمَنْ حَزَى فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِاخْتِيَارِ الْمَرْتَبِ الْعَرَضِ وَالْعَطَاءِ، وَالنَّفَقَةِ فِي الْأَوْلِيَاءِ؛ مِنْ ذَوِي الْمَعْرِفَةِ
 وَالْبَصِيرَةِ، وَالْمَشْهُورِينَ فِي الْعِفَّةِ بِتَسَاوِي الْعِلَاقَةِ وَالسَّرِيرَةِ؛ وَمَنْ تَحَلَّى بِالْأَمَانَةِ
 جَيِّدُهُ، وَأَعْتَصَدَ بِطَرِيفِهِ فِي الرَّشَادِ تَلِيدُهُ؛ وَكَانَ بِمَا يُسْنَدُ إِلَيْهِ قِيَمًا، وَفِي مَقَرِّ
 الْكِفَايَةِ نَاوِيًا مُجِيَمًا. وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ بِضَبْطِ حِلِّي الرِّجَالِ وَشِيَابِ الْخِيُولِ، وَأَنْ يَقْصِدَ
 فِي كُلِّ وَقْتٍ مِنْ تَجْدِيدِ الْعَرَضِ مَا يَشْهَدُ بِالْإِحْتِيَاطِ السَّابِقِ الْأَهْدَابِ وَالذُّبُولِ؛ فَإِذَا
 وَضَعَ وَجْهَ الْإِطْلَاقِ، وَسَلِمَ مَالُ الْإِسْتِحْقَاقِ؛ كَانَتْ التَّفَرُّقَةُ عَلَى قَدْرِ الْمَنَازِلِ فِي التَّقْدِيمِ
 وَالتَّأخِيرِ، وَبِحَسَبِ الْحَرَائِدِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى الصَّغِيرِ مِنْ ذَلِكَ وَالْكَبِيرِ؛ وَمَتَى طَرَقَ
 أَحَدُهُمْ مَا هُوَ مَحْتُومٌ عَلَى خَلْفِهِ، أَعَادَ عَلَى بَيْتِ الْمَالِ مِنْ رِزْقِهِ بِقَدْرِ قِسْطِهِ وَحَقِّهِ.
 وَأَنْ يَلْزِمَهُمْ إِحْضَارَ جِيَادِ الْخِيُولِ وَخِيَارِ الشَّكِّ، وَيَأْخُذَهُمْ مِنْ ذَلِكَ بِأَوْضَحِ مَا نَهَجَ
 الْمَرْءُ الطَّرِيقَ فِيهِ وَسَلَّكَ؛ فَإِنْ أَخْلَى أَحَدُهُمْ بِمَا يَلْزِمُهُ الْبُرُوزُ فِيهِ يَوْمَ الْعَرَضِ،
 أَوْ قَصَرَ فِي التَّقِيَامِ بِالْوَاجِبِ عَلَيْهِ الْفَرَضِ؛ حَاسِبَهُ بِذَلِكَ مِنَ الثَّابِتِ بِاسْمِهِ، وَالْمُطْلَقِ

برسمه؛ تبيها له على تلافى الفارط، وتبصيراً لغيره في البعد عن مقام المخطئ الغالب؛ إذ كان في قوتهم وكمال عدتهم إرهاب للأعداء والأضداد، وإرهاف للبصائر فيما يؤدي إلى المصالح الوافية الأعداد والامداد؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ .

وأمره بإختيار عمال الخراج، والضّياح، والأعشار، والجهبذة، والصدقات، والجوالى؛ وأن يكونوا محتضنين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه، ومتقّصين من ملابس العفة والدراية ما تمجد العواقب في ضمنه، ومتميزين بما يُغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتّعاظ والأعتبار؛ ويُغريهم بالاستمرار على السنن المنجى لهم من مواقف التنصل والإعتذار. وأن يأمر عمال الخراج ببجاية الأموال، على أجهل الوجوه والأحوال؛ سالكين في ذلك جدداً وسطاً، ينجي من مقام من ضعف في الاستخراج أوسطاً. و [أن يتقدم] إلى الناظرين في الضّياح بتوفية العارة حقها والزراعة حدّها، والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتضى فيه أرشد المذاهب وأسدها؛ متحززين من أمرٍ ينسبون فيه إلى العجز والحيانة، فكل من الحالين مجز في وضوح أدلة الفساد ومُحز. وإلى الجهادة بقصد الصحة في القبض والتقيض، وحفظ النقد من التدليس والتليس؛ أداءً للأمانة في ذلك، وأهتداءً فيه إلى أقوم المسالك. وإلى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العاملة، والجرى في ذلك على السنة الكاسية للحمدة الوافية الكاملة؛ متجنّين من أخذ فقل الإبل وأكولة الراعي، وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي؛ فإذا استوفيت على المحدود من حقها، أخرجت في المنصوص عليه من وجوهها وسبلها. وإلى جبابة جماح أهل الدمة بأخذ الحزبية منهم في كل سنة، على قدر ذات أيديهم في الضيق والسعة، وبحسب العادة المألوفة المتبعة؛ ممتنعين من

مُطَالِبَةُ النَّسْوَانِ، وَمَنْ لَمْ يَبْلُغِ الْحُلْمَ مِنَ الرِّجَالِ وَمَنْ عَلَتْ سِنُهُ عَنِ الْإِكْتِسَابِ وَتَبَتَّلَ مِنَ الرَّهْبَانِ، وَمَنْ غَدَا فَقْرُهُ وَاصْحَحَ الدَّلِيلَ وَالْبُرْهَانَ؛ وَفَاءً بِالْعَهْدِ الْمَسْئُولِ، وَتَلْقِيًّا لِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى بِالْقَبُولِ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ .

وأمره أن يردَّ أمر المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة إلى من عَصَدَ بِالظَّالِفِ الْوَرَعِ، وَأَنْتَظِمَ لَهُ شَمْلُ الْهَدْيِ وَأَجْتَمَعَ: فَكَانَ ذَا مَعْرِفَةٍ بِمَا يَحْرُمُ وَيَحِلُّ، وَبَصِيرَةً يَتَفَيَّأُ بِهَا مِنْ عَوَارِضِ الشُّبْهِ وَيَسْتَظِلُّ؛ وَأَنْ يَكُونَ النَّظْرُ فِي ذَلِكَ مُضَاهِيًّا لِحُكْمِ مَلَائِمًا، وَلَنْ يَقُومَ بِهِ إِلَّا مَنْ لَا يَرَى عَادِلًا لَهُ فِي فِعْلِهِ لِأَيْمَانًا. وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى مَنْ يَلِي الْمَظَالِمَ بِتَسْهِيلِ الْإِذْنِ لِلْمُضْضَمِّ فِي الدُّخُولِ عَلَيْهِ، وَتَمَكِينِ كُلِّ مَنْهُمْ مِنْ أَسْتِيفَاءِ الْحُجَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالتَّوَصُّلِ إِلَى فَضْلِ مَا يَبْنِيهِمْ بِحَسَبِ مَا يَقُودُ إِلَى تَلْقَائِهِ؛ وَأَنْ يَقْصِدَ فِيمَا وَقَعَ الْخُلْفَ مَعَهُمْ فِيهِ، الْكَشْفَ الَّذِي يَقُومُ بِهِ وَيَسْتَوْفِيهِ؛ فَإِنْ وَضَّحَ لَهُ الْحَقُّ أَنْفَذَهُ وَقَطَعَ بِهِ، وَإِلَّا رَدَّهُمْ إِلَى مَجَالِسِ الْقَضَاءِ لِإِمْضَاءِ ذَلِكَ عَلَى مَقْتَضَى الشَّرْعِ وَمُوجِبِهِ. وَإِلَى الْمَرْتَبِينَ فِي أَسْوَاقِ الرِّقِيقِ بِالتَّحْقُظِ فِيمَا يُتَاعَ وَيُبَاعَ، وَأَنْ يَسْتَعْمَلَ فِي ذَلِكَ الْاِقْتِفَاءَ لِلسَّنَنِ الْجَمِيلِ وَالْاِتِّبَاعَ: لِيَوْمِنَ أَخْتِلَاطِ الْحُرِّ بِالْعَبْدِ، وَتَحْرَسَ الْأَنْسَابُ مِنَ التَّدْحِ وَالْفُرُوجِ مِنَ الْعَضْبِ؛ فِي ضَمْنِ حِفْظِ الْأَمْوَالِ، وَالْمَنْعِ مِنْ مَزْجِ الْحَرَامِ بِالْحَلَالِ. وَإِلَى وِلَاةِ الْعِيَارِ بِتَصْفِيَةِ عَيْنِ الدَّرْهِمِ وَالذَّنَّارِ مِنَ الْغِشِّ وَالْإِذْغَالِ؛ وَصَوْنِ السَّكِّكَ مِنْ تَدَاوُلِ الْأَيْدِي الْغَرِيبَةِ لَهَا بِمَجَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ؛ مُتَحَدِّثِينَ مِنَ الْاِعْتِرَازِ بِمَا رُبَّمَا وَضَّحَ الْفَسَادُ فِيهِ عِنْدَ الْاِعْتِبَارِ، وَمَا نَعِينَ التُّجَّارِ الْمَخْضُوعِينَ بِالْاِيرَادِ، مِنْ كُلِّ قَوْلٍ مُخَالِفٍ لِلْاِيشَارِ فِي الصَّحَّةِ وَالْمُرَادِ؛ وَمَعْتَمِدِينَ إِجْرَاءَ الْأَمْرِ فِيمَا يُطْبَعُ عَلَى الْقَانُونِ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ، مِنْ غَيْرِ خِلَافٍ لِمُسْتَقَرِّ الْقَاعِدَةِ فِي ذَلِكَ وَمَتَّسِقِ النِّظَامِ؛ وَأَنْ يَثْبُتَ ذِكْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَوَلِيِّ عَهْدِهِ فِي الْمَسْلَمِينَ؛

(١) فِي السَّلَامِ "فَاءُ الْفِيءِ فِيمَا تَحْوَلُ وَتَفِيءُ فِيهِ تَظَلُّلٌ".

على ما يُضرب من الصّنفين معا ، والمسارة في ذلك إلى أفضل ما بادَرَ إليه المرء وسعى . وإلى المستخدمين في الطُّرُز بملاحظة أحوال المناجيج والإشراف عليها ، وأخذ الصنّاع بالتجويد على العادة التي يجبُ الإتهاء إليها ؛ وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما يُنسج من الكُسا والفُروش والأعلام والبُود ، جريا في ذلك على السنن المرضي والمنهاج المحمود . وإلى من يُراعى الحسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق ، والإتهاء في ذلك إلى ما ينتهي به شملُ الصّلاح إلى الانتظام والاتساق ؛ وأن يتقدّم [اليهم] بما يجبُ من تعبير ما يختصّ بهم من المكاييل والموازين ، وحملها على قانون الصّحة الواضحة الدلائل والبراهين ؛ وأن يقصد تبصيرهم مواضع الحظّ في الاستقامة ، ويحذّرهم مواقع الانتقام الذي لا تُقيد فيه أسباب الاستصفاح والاستقالة ؛ فإن عرف من أحد منهم إقداما على إدغال فيما يزن أو يكيل ، قوبل من التأديب بما هو الطريق إلى ارتداعه والسبيل ، قال الله تعالى : ﴿ وَبَلِّغْ لِلنَّاسِ الذِّكْرَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ زَوَّاهُم مُحْسِرُونَ ﴾ .

وأمره أن يعرف قدر النعمة التي ضفت عليه برودها ، وحلت جيده عقودها ؛ وزفت منه إلى أوفى أكفائها ، وحفت بجزيل القسم من جميع أكنافها وأرجائها ؛ وأن يقابلها بإخلاص في الطاعة يساوي فيه بين ما يئدى ويسر ، وسعي في الخدمة يوفي على كل مجازٍ ومير ؛ ويبدأ أمام ما توحاه بأخذ البيعة لأمر المؤمنين وولى عهده على نفسه وولده ، وكافة الأجناد والرعايا في بلده ؛ عن نية صفت من الكدر والقذى ، ووفت للتوفيق بما صممت من خذلان البغي ونصرة الهدى ؛ ويتبع ذلك بالحقوق في كل خدمة تُرضى ، والوقوف عند الأوامر الإمامية في كل ما يؤدى إلى الوفاق ويُفضى ؛ وأن يحمل إلى حضرة أمير المؤمنين من الفى والغنائم ما أوجبه

الله تعالى وفرّضه ، من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولا تقصير منه فيما يقتضى التّلافي والإستدراك : ليأمر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار إليها ، ووجوه المنصوص عليها ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

ثم إن أمير المؤمنين آثر أن يضاعف له من الإحسان ، ما يقتضيه مقامه لديه من وجيه الرتبة والمكان ، وشرفه بما يرُفّل من حلاه في حُلّ الجَمال ، وتكفّل له علاه ببلوغ منتهى الآمال ؛ وبوّاه بما أولاه محلاً تقصّر عن الوصول إليه الأقدام ، وتُعجز عن حلّ عراه الأيام ؛ ولقّبه بكذا ، وأذنب له في تكذيبه عن حضرتة ، وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر أمنيته ؛ إنافة به على مَنْ هو في مساجلته من الأقران طالع ، وإضافة للنعمة في ذلك إلى ما أقرن بها فيما هو لشمل الفخر عنده جامع ؛ وأنشد لواء يلوى به إلى الطاعة أي الأعناق ، ويحوى به من العزّ ما أنواره وافية الإشراق .

فلقّ يافلانُ هذه الصّبيعة الغراء ، والمنحة التي أكسبت زنادك الإبراء ؛ بالإستبشار التّام ، والأعتراف فيها بسايغ الطول والإنعام ؛ وأشع ذكر ذلك عند كلّ أحد ، وأنته في الإبانة عنه إلى أبعد أمد ؛ واعتمد مكاتبة حضرة أمير المؤمنين متمسّياً ، ومنّ عداه متلقباً متكئياً ؛ وتوقّر على شكرٍ تستدّر به صوب المزيد ، وتستحقّ به إلحاق الطّريف من الإحسان بالتّليد ، والله تعالى يقول : ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، والجمّة لك وعليك ؛ قد أوضح لك [فيه] الصّواب ، وأدّل به الجوامح الصّعب ؛ وحبّاك منه بموهبة كفيلة بخيري البدء والمعاد ، وقيّة فيها

المنى بسابق الضمان والميعاد ؛ وضمنه من مواعظه ما هدى به إلى كل ما الحني ثمره ،
 وغدا محظياً بما تروق أوضاحه في المجد وغرره ؛ ولم يألك فيه تمجلاً يكسبك الفخر
 النامي ، ويجعل ذكرك زينة الحفل والنادي ؛ وتقديماً يني عمّا خصصت به من
 المنح المشرفة الآلى ، وإكراماً يبق صيته على تقضى الأيام والليالي ؛ وتبصيراً يني
 من فلتات القول والعمل ، ويرتقى المستضىء بأنواره إلى ذرى الأمن من دواعي
 العثار والزلل ؛ فأصغ إلى ما حواه ، إصغاء الفائز بأوفى الحظ ، وتدبر فخواه ، الناطق
 بفضل الحث على الهدى والحض ؛ وكن لأوامر أمير المؤمنين فيه محتذياً ، ومن
 تجاوز محدوده في مطاويه محتمياً ؛ وبمواعظه الصادقة معتبراً ، وفي العمل بما قارن
 الحق مستبصراً ، تفز بالغم الأكبر ، وبالسلامة في المورد والمصدر ؛ وإياك وأعتاد
 ما تدم فيه مكاسبك ، فإن لك بين يدي الله تعالى موقفاً يناقشك فيه ويحاسبك .
 وأعلم أن أمير المؤمنين قد قلّدك جسيماً ، وخوّلك جزياً عظيماً ؛ فلا تنس نصيبك
 من الله تعالى غداً ، ولا تجعل لسلطان الهوى المضلّ عليك يداً ؛ وإن خفي عليك
 الصواب في بعض ما أنت بصده ، أو اعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين
 طريق الرشاد وجدده ؛ فطالع حضرة أمير المؤمنين به ، وأستنجد الله في ذلك
 بأسد رأي وأصوبه ؛ بيدك من الشك يقينا ، ويدي لك ما يغدو لكل خير ضمينا ؛
 إن شاء الله تعالى .

الطريقة الثانية

(طريقةُ محقِّقِ المتأخِّرينَ ممَّن جرى على هذا المذهب : كالشيخ شهاب الدين

محمود الحلبي ، والمقرِّر الشهابي بن فضل الله ، ومَن والاهم)

وهي أن يأتي في أثناء العهدِ بخطبة أو تحميدٍ على عادة المكاتبات ، وأن يذكر بعد صدر العهد حميداً أو صاف المعهود إليه ، ويُنَبِّ فيها ويُنَبِّ عليه بما يليق بمقامه . قال في " التعريف " : على نحو ما تقدّم في عهود الخلفاء عن الخلفاء . قال في " التنقيف " : وصورته أن يُكُتَب :

« هذا ما عهد به عبدُ الله ووليه أمير المؤمنين المتوكِّل على الله (مثلاً) أبو فلان فلان بن فلان ، إلى السيِّد الأجلِّ الملكِ العالمِ العادلِ المؤيِّدِ المظفَّر المنصورِ المجاهدِ » ويذكر اللقب هنا ، مثل الناصر أو الكامل أو غيره « فلانِ الدنيا والدين ، فلان ، ابن السلطان السعيد الشهيد الملك الفلاني خلد الله تعالى ملكه .

أما بعدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمِّدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ، ويصلِّي على ابن عمِّه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم » ويكمل الخطبة بما أمكنه . ثم يقال : « عهد إليه وقلده جميع ما هو مُقلِّده من مصالح الأئمة وصالح الخلق ، بعد أن استخار الله تعالى في ذلك ، ومكث مدةً يتدبَّر هذا الأمرَ ويروي فكره فيه وخاطره ، ويستشير أهل الرأي والنظر ، فلم يرَ أوفقَ منه لأموال الأئمة ومصالح الدنيا والدين » . ومن هذا وشبهه . ثم يقال : « وإن المعهود له قبل ذلك منه » ويأتي فيه بما يليق من محاسن العبارة وأجناس الكلام .

قلت : وقد يُؤتَى بعد «أما بعد» بخطبة ، مثل أن يقال : «أما بعدُ فالحمد لله» ونحو ذلك ، ويكمل الخطبة بما يليق بالمقام . ثم قد يقتصر على تحميدة واحدة ،

وقد يكرره إلى ثلاث ، وإن شاء بلغ به سبعا . فقد قال في "التعريف" في الكلام على عهود الملوك للوك : إنه كُلم أكثر التحميد ، كان أدلّ على عظم النعمة . وقد يقال في آخره : « والاعتماد على الخط الفلاني (بلقب الخلافة) أعلاه حجة بمقتضاه أو « والخط الفلاني أعلاه حجة فيه » ونحو ذلك .

وعلى هذه الطريقة كتب الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي عهد الملك العادل « كتبغا » عن الخليفة الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد ، ^(١) ابن الإمام الذي استحضره الملك الظاهر بيبرس من بغداد وبايعه ، وهذه نسخته :

هذا عهد شريف في كتاب مرقوم يشهده المقرَّبون ، ويفوضه آل رسول الله صلى الله عليه وسلم الأئمة الأقربون . من عبد الله وولَّيه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين ، وسليل الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين ، رضوان الله عليهم أجمعين ، إلى السلطان الملك العادل زين الدنيا والدين « كتبغا المنصوري » أعز الله سلطانه .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يحدُّ إليك الله الذي جعل له منك سلطانا نصيرا ، وأقام له بملكك على ما وَّلاه من أمور خلقه عضدا وظهيرا ؛ وأتاك بما نهضت به من طاعته نِعما ومُلكا كبيرا ، وحوالك بإقامة ما وراء سريره من مصالح الإسلام بكلِّ أرضٍ منبرا وسريرا ، وجاء بك لإعانتته على ما استخلفه الله فيه من أمور عباده على قدرٍ وكان ربُّك قديرا ؛ وجمع بك الأئمة بعد أن كاد يزيغ قلوب فريقي منهم ،

(١) لم يذكر نسبه في الأصل . وفي ابن اياس هو أحمد بن علي بن أبي بكر بن الخليفة المسترشد آبن الخليفة المستظهر آبن الخليفة المقتدى آبن محمد الذخيرة العباسي . وكذلك هو في خطط المقرزي إلا أنه قال أحمد بن أبي علي الحسن بن الخ . وأقام في الخلافة نيفا وأربعين سنة وتوفي سنة احدى وسبعائة وهو أوَّل خلفاء بني العباس بمصر . وبمراجعة تاريخ كتبغا ولاجين يعلم أنهما كانا في زمنه وبالضرورة يكون هو العاهل بها فتيه .

وَعَضْدِكَ لِإِقَامَةِ إِمَامَتِهِ بِأَوْلِيَاءِ دَوْلَتِكَ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَخَصَّكَ بِأَنْصَارِ دِينِهِ الَّذِينَ نَهَضُوا بِمَا أَمَرُوا بِهِ مِنْ طَاعَتِكَ وَهُمْ نَازَهُونَ ، وَأَظْهَرَكَ عَلَى الَّذِينَ أَبْتَغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَبِلُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ، وَأَصْطَفَاكَ لِإِقَامَةِ الدِّينِ وَقَدْ اخْتَلَفَتِ الْأَهْوَاءُ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ ، وَلَمْ يَكْ شَعَتْ الْأُمَّةَ بَعْدَ الْإِضْطِرَابِ فَكَانَ مَوْقِفُكَ ثُمَّ مَوْقِفَ الصَّادِقِ يَوْمَ الرِّدَّةِ .

وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، شَهَادَةَ حَاكِمٍ بِأَمْرِهِ ، مُسْتَنْزِلٍ لَكَ بِالْإِخْلَاصِ مَلَائِكَةَ تَأْيِيدِهِ وَأَعْوَانَ نَصْرِهِ ، مُسْتَرْهِفٍ بِهَا سَيْفِ عَزْمِكَ عَلَى مَنْ جَاهَرَ بِشِرْكِهِ وَحَارَبَهُ بِكُفْرِهِ ، مُعْتَصِمٍ بِتَوْفِيقِهِ فِي تَفْوِيزِهِ إِلَيْكَ أَمْرَ سِرِّهِ الَّذِي أَسْتَوْدَعَهُ فِي الْأُمَّةِ وَجْهَهُ ، وَيَصِلُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ الَّذِي أَسْتَخْرَجَهُ اللَّهُ مِنْ عُنُقِهِ وَذَوِيهِ ، وَشَرَّفَ بِهِ قَدْرَ جَدِّهِ بِقَوْلِهِ فِيهِ : « عَمَّ الرَّجُلِ صِنُؤُ أَبِيهِ » وَأَسْرًا إِلَيْهِ بِأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ قُتِحَ بِهِ وَيُحْتَمُّ بَيْنَيْهِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصْحِيهِ وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِهِ ، الَّذِينَ قَضَوْا بِالْحَقِّ وَبِهِ كَانُوا يَعْدِلُونَ ، وَجَاهَدُوا أُمَّةَ الْكُفْرِ الَّذِينَ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا آتَاهُ اللَّهُ مِنْ سِرِّ النَّبَوَةِ ، وَأَسْتَوْدَعَهُ مِنْ أَحْكَامِ الْإِمَامَةِ الْمُرُوثَةِ عَنْ شَرَفِ الْأَبَوَةِ ، وَأَخْتَصَّهُ مِنَ الطَّاعَةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَى الْأُمَّةِ ، وَفَرَضَ عَلَيْهِ مِنَ النَّظَرِ فِي الْأَخْصِّ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ وَالْأَعْمِّ ، وَعَصَمَ آرَاءَهُ بِبِرْكَةِ آبَائِهِ مِنْ الْخَلَلِ ، وَجَعَلَ سَهْمَ أَجْتِهَادِهِ هُوَ الْمُصِيبَ أَبَدًا فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَكَانَ السَّلْطَانَ فَلَانَ هُوَ الَّذِي جَمَعَ اللَّهُ بِهِ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ وَقَدْ كَادَتْ ، وَوُثِّتَ بِهِ الْأَرْضُ وَقَدْ أَضْطَرَبَتْ بِالْأَهْوَاءِ وَمَادَتْ ، وَرَفَعَ بِهِ مَنَارَ الدِّينِ بَعْدَ أَنْ شَمَخَ الْكُفْرُ بَأَنْفِهِ ، وَأَلْفَ بِهِ شَمْلَ الْمُسْلِمِينَ وَقَدْ طَمَحَ الْعُدُوُّ إِلَى آفْتِرَاقِهِ وَطَمِعَ فِي خُلْفِهِ ، وَحَفِظَ بِهِ فِي الْجِهَادِ حُكْمَ

الكتاب الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ؛ وَحَمَىٰ بِهِ الْمَمْلُوكَ
 الْإِسْلَامِيَّةَ فَمَا شَامَ الْكُفْرُ مِنْهَا بَرَقَ نَغْرًا إِلَّا رُمِيَ مِنْ وَبَالِهِ بَوَابِلٌ ، وَلَا أُطْلِقَ عِنَانَ
 طَرْفِهِ إِلَى الْأَطْرَافِ إِلَّا وَقَعَ مِنْ سَطَوَاتِ جُنُودِهِ فِي كُفَّةِ حَابِلٍ ؛ وَلَا أَطْمَأَنَّنُوا
 فِي بِلَادِهِمْ إِلَّا أَنْتَهُمْ سَرَايَاهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَرْتَقِبُوا ، وَلَا ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَا نَعْتَهُمْ حُصُونُهُمْ
 مِنْ اللَّهِ إِلَّا وَأَتَاهُمْ بِجُنُودِهِ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا ؛ وَأَلْفَ جُيُوشِ الْإِسْلَامِ فَأَصْبَحَتْ
 عَلَى الْأَعْدَاءِ بِيَمِينِهِ يَدًا وَاحِدَةً ، وَقَامَ بِأُمُورِ الْأُمَّةِ فَأَمَسَتْ عُيُونُ الرَّعَايَا بِاسْتِيقَاطِ سُيُوفِهِ
 فِي مِهَادِ الْأَمْنِ رَاقِدَةً ؛ وَأَقَامَ مَنَارَ الشَّرِيعَةِ الْمَطْهُرَةِ فِيهَا حَاكِمَةٌ لَهُ وَعَلَيْهِ ، نَافِذٌ أَمْرُهَا
 عَلَى أَمْرِهِ فِيمَا وَضَعَ اللَّهُ مَقَالِيدَهُ فِي يَدَيْهِ ؛ وَنَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ، وَأَعَانَهُ عَلَى مَنْ
 أَضْرَلَهُ الشَّقَاقُ وَالصَّلَاةُ وَإِنَّمَا لِكَبِيرِهِ ؛ وَأَظْهَرَ بَمَنْ نَغَىٰ عَلَيْهِ فِي يَوْمِهِ بَعْدَ حِلْمِهِ
 عَنْهُ فِي أَمْسِهِ ، وَأَيْدَهُ عَلَى الَّذِينَ خَانُوا عَهْدَهُ وَيُدُّ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا
 يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ؛ وَتَعَيَّنَ لِمُلْكِ الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهُ ، وَآخْتَارَهُ اللَّهُ لِذَلِكَ
 فَبَلَغَ بِهِ الدِّينُ أَمَالَه ؛ وَوَضَعَعَ بِمُلْكِهِ عَمُودَ الشَّرْكِ وَأَمَالَه ، وَأَعَادَ بَسُلْطَانَهُ عَلَى الْمَمْلُوكِ
 بِهَجَّتْهَا وَعَلَى الْمُلْكِ رَوْتَهُ وَجَلَّالَهُ ؛ وَأَخْدَمَهُ النُّصْرَ فَا أَضْرَلَهُ أَحَدٌ سُوءًا إِلَّا وَزُرُلَ
 أَقْدَامَهُ وَحَجَّلَ وَبَالَه ، وَرَدَّهُ إِلَيْهِ وَقَدْ جَعَلَ مِنَ الرُّعْبِ قُبُودَهُ وَمِنَ الذُّعْرِ أَغْلَالَهُ ،
 وَأَوْطَأَ جَوَادَهُ هَامَ أَعْدَائِهِ وَإِنْ أَنْفَ أَنْ تَكُونَ نِعَالَهُ .

عهد إليه حينئذ مولانا الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين في كل ما وراء
 خلافته المقدسه ، وجميع ما اقتضته أحكام إمامته التي هي على التقوى مؤسسه :
 من إقامة شعار الملك الذي جمع الله الإسلام عليه ، وظهور أبهة السلطنة التي ألقى الله
 وأمير المؤمنين مقاليدها إليه ؛ ومن الحكم الخاص والعام ، في سائر ممالك الإسلام ،
 وفي كل ما تقتضيه أحكام شريعة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ وفي خرائن
 الأموال وإنفاقها ، وملك الرقاب وإعتاقها ، وأعتقال الجناة وإطلاقها ؛ وفي كل

ماهو في يَدِ المِلَّةِ الإسلامية أو يَفْتَحُه اللهُ بيده عليها ، وفي جميع ما هو من ضَوَالِّ الممالك الإسلامية التي سَرَّجَعُها اللهُ بِجِهَادِهِ إليها ؛ وفي تقليد الملوِكِ والوُزراءِ ، وتَقَدِّمة الجيُوشِ وتأمير الأَمراءِ ؛ وفي الأمصار يُقَرُّ بها مَنْ شاء من الجُنُودِ ، ويبيعتُ إليها ومنها ماشاء من البُعُوثِ والحُشودِ ؛ ويحْكُمُ في أمرِها بما أمر اللهُ من الذَّبِّ عن حريمِها ، ويتحكَّمُ بالعدُلِ الذي رَسَمَ اللهُ به لظاعِنِها ومُقيِمِها ؛ وفي تقديمِ حديثِها وأستِحْداثِ قَدِيمِها ، وتَشْيِيدِ تُغورها ، وإمضاء ماعرَّفَه اللهُ به وجِهَلَه سواه من أمورها ؛ وإقرارِ مَنْ شاء من حُكَّامِها ، وإمضاء ماشاء من إتقانِ القَواعدِ بالعدُلِ وإحكامِها ؛ وفي إقطاعِ خَواصِّها ، واقتلاعِ ما أقتضتُه المصلحةُ من عمائرِها وِعمارة ماشاء من قِلاعِها ؛ وفي إقامة الجهادِ بِنَفْسِه الشريفةِ وكَتَّابِه ، ولِقَاءِ الأعداءِ كيف شاء من [تسيير] سَرَايَاهِ وَبَعَثِ مَوَاكِهَ ؛ وفي مُضايقةِ العدوِّ وَحِصَارِه ، ومصابِرته وإنظاره ، وغزوه كيف أراه اللهُ في أطرافِ بِلادِه وفي عُقرِ دارِه ؛ وفي المَنِّ والفيءِ والإِرْفاقِ ، وضَرْبِ المُدَنِ التي تسألُ العِداً وهي خاضعةُ الأَعناقِ ؛ وأخذِ مُجاوِرِي العدوِّ المَخْدُولِ بما أراه اللهُ من النِّكايةِ إذا أمكنَ من نَوَاصِيهِمْ ، وحُكْمِ عَفْوِه في طائِعِهِمْ وبَأْسِه في عاصِيهِمْ ، وإنزالِ الذين ظاهروهم من أَهْلِ الكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ . وفي الجيُوشِ التي أَلِفَ الأعداءُ فَتَكَاتِ الوُفُها ، وعَرَفُوا أَنَّ أرواحَهُمْ ودَائِعُ سِيوفِها ؛ وَصَبَّحَتَهُمْ سَرَايَا رُعبِها المَبْثُوثَةُ إِلَيْهِمْ ، وَتَرَكَهُمُ خَوْفُها كَأَنَّهم حُشْبُ مُسَنَدَةٍ يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ ؛ وهم الذين ضاقتْ بِمواكبِهِمُ إلى العِدا سَعَةُ الفِجَاجِ ، وقاسمتْ رِماحَهُمُ الأعداءُ شَرِّ قِسْمَةٍ فَنِي أَيْدِيهِمْ كَعُوبِها وفي صُدُورِ أولئك الزَّجاجِ ، وأذْهَبَتْ عن الثُّغُورِ الإسلاميةِ رِجَسَ الكُفْرِ وطَهَّرَتْ من ذلك ما جاورَ العَدْبَ الفُراتِ والمِلْحَ الأَجَاجِ ؛ وَعُرِفُوا في الحروبِ بِتَسرُّعِ الإِقْدامِ ، وَثَبَاتِ الأقدامِ ، وأدْتَمَر اللهُ

لأيامه الشريفة أن تردّها بهم دار السّلام إلى ملك الإسلام : فُيدّر عليهم ماشاء من
 إناعمه الذى يؤكّد طاعتهم ، ويحدّد استِطاعتهم ؛ ويضاعف أعدادهم ، ويجعل
 بصّفاء النّيات ملائكة الله أمّدادهم ؛ ويحملهم على الثّبات إذا لقوا الذين كَفَرُوا
 زحفا ، ويجعلهم فى التعاضد على اللّقاء كالبنيان المرصوص فإنّ الله يحبّ الذين يقاثلون
 فى سبيله صفّا . وفى أمر الشرع وتولية قضاته وحكّامه ، وإمضاء ماقرض الله عليه
 وعلى الأمة من الوقوف عند حدوده وا^(٢) مع أحكامه ؛ فإنّه لواء الله الممدود
 فى أرضه ، وحبّله المئين الذى لا تقض لإبرامه ولا إبرام لتقضه ، وسنن نبيه الذى
 لاحظّ عند الله فى الإسلام لغير متمسك بسنّته وفرضه ؛ وهو - أعزّ الله سلطانه -
 سيفُ الله المشهور على الذين غدّوا وهم من أحكام الله مارقون ، ويده المبسوطة
 فى إمضاء الحكم بما أنزل الله : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .
 وفى مصالِح الحرمين الشريفين وثالثهما الذى تُشدّ أيضا إليه الرّحال . وإقامة سبيل
 الحجيج الذين يفدون على الله بما منحهم من برّه وعنايته فى الإقامة والأرتحال .
 وفى عمارة البيوت التى أذن الله أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغلو
 والأصالي رجال ؛ وفى إقامة الخطب على المنابر ، وأقتران اسمه الشريف مع اسمه بين
 كلّ باد وحاضر ، والأقتصار على هذه التثنية فى أقطار الأرض فإنّ القائل بالتثليث
 كافر ؛ وفى سائر ماتشمله الممالك الإسلامية ومن تشتمل عليه شرقا وغربا ، وبعدا
 وقربا ؛ وبرأ وبحرا ، وشاماً ومصرأ ؛ وحجازاً ويمنا ، ومن يستقرّ بذلك إقامة وطعنا .
 وفوق إليه ذلك جميعه وكلّ ماهو من لوازم خلافته لله فى أرضه ، ماذكر ومالم يُذكر

(١) التّب من معانيه العارة أى ترد غاراتهم دار الخ وفى الأصل يردّها بهم . تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعلها « والمشى » مع الخ .

(٣) فى الأصل أوضحهم . تأمل .

تفويضاً لازماً ، وإمضاءً جازماً ، وعهداً مُحْكَمًا ، وعقدًا في مصالح مُلْك الإسلام مُحْكَمًا ، وتقليدًا مؤبدًا ، وتقريرًا على كَرَّةِ الحديدِينِ مُجَدِّدًا ؛ وأثبت ذلك وهو الحاكم حقيقةً بما عليه من آسْتِحْقَاقِهِ والحَاكِمُ بِعِلْمِهِ ، وأشهدَ اللهُ وَمَلَائِكَتَهُ عَلَى نَفُوزِ حِكْمِهِ بِذَلِكَ : (وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعْتَبَرَ لِحُكْمِهِ) . وذلك لِمَا صَحَّ عِنْدَهُ مِنْ نُهُوضِ مُلْكِهِ بِأَعْبَاءِ مَا حَمَلَهُ اللهُ مِنَ الْخِلَافَةِ ، وأدَائِهِ الْأَمَانَةَ عَنْهُ فِيمَا كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ الْأَلْزَمَةِ وَالرَّافَةِ ؛ وَاسْتِقْلَالِهِ بِأُمُورِ الْجِهَادِ الَّذِي أَقَامَ اللهُ بِهِ الدِّينَ ، وَآخْتِصَابِهِ وَجُنُودِهِ بِعُمُومٍ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ الْأُمَّةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : (قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرَمُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيُشْفِئُ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) . وَأَنَّهُ فِي الْجِهَادِ سَهْمُهُ الْمُصِيبُ وَهُوَ بِهِ أَجْرُ الرَّامِي الْمَسْدَدُ ، وَسَيْفُهُ الَّذِي جَرَّدَهُ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ وَهُوَ مِنْ فَتَكَاتِهِ حَظُّ الْمُرْهَفِ الْمَجْرَدِ ؛ وَظِلُّ اللهِ فِي الْأَرْضِ الَّذِي مَدَّهُ يُبَيِّنُ بَيْنَهُ ، وَأَيَّةُ نَصْرِهِ الَّذِي آخْتَارَهُ اللهُ لِمَصَالِحِ دُنْيَاهُ وَصَلَاحِ دِينِهِ ؛ النَّاهِضُ بِفَرْضِ الْجِهَادِ وَهُوَ فِي مُسْتَقَرِّ خِلَافَتِهِ وَإِدْعِ ، وَالرَّاكِضُ عَنْهُ بِجَيْلِهِ وَخِيَالِهِ إِلَى الْعَدُوِّ الَّذِي لَيْسَ لِفَتَكَاتِ سَيْوْفِهِ رَادِعٌ ؛ وَالْمُؤَدِّي عَنْهُ فِرْضَ النَّفِيرِ فِي سَبِيلِ اللهِ كَلَّمَ تَعَيَّنَ ، وَالْمُنْتَقِمُ لَهُ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاقِ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ وَالْقَائِمُ بِأَمْرِ الْفُتُوحِ الَّتِي تَرْدُ بَيْعَ الْكُفْرِ مَسَاجِدَ يَذْكَرُ فِيهَا أَسْمُ اللهِ وَأَسْمُهُ ، وَيُرْفَعُ عَلَى مَنَابِرِهَا شِعَارُهُ الشَّرِيفُ وَرَسْمُهُ ؛ وَتُمَثَّلُ لَهُ بِإِقَامَةِ دَعْوَتِهِ صُورَةُ الْفَتْحِ كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهَا ، وَالنَّاطِرُ عَنْهُ فِي عُمُومِ مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَخُصُوصِهَا تَعْظِيمًا لِقُدْرَتِهِ ، وَتَرْفِيحًا لِسِرِّهِ ؛ وَتَفْخِيمًا لَشَرَفِهِ ، وَتَكْرِيمًا لِحِلَالَةِ بَيْتِهِ النَّبَوِيِّ وَسَلَفِهِ ؛ وَقِيَامًا لَهُ بِمَا عَهْدَ إِلَيْهِ ، وَوَفَاءً مِنْ أُمُورِ الدِّينِ وَالدُّنْيَا بِمَا وَضَعَ مَقَالِيدَهُ فِي يَدَيْهِ .

وَلِيُدَلَّ عَلَى عِظَمِ سِيرَتِهِ الْمُقَدَّسَةِ بِكَرَمِ سَيْرِهِ ، وَيُنْبَهَ عَلَى كَمَالِ سَعَادَتِهِ إِذْ قَدْ كُنِيَ بِهِ فِي أُمُورِ خَلْقِ اللهِ تَعَالَى وَالسَّعِيدُ مِنْ كُنْيَةِ بَغْيَرِهِ ، لَمْ يَجْعَلْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى يَدَيْهَا

في ذلك ، ولا فَسَّحَ لأحد غيره في أقطار الأرض أن يُدعى بِمَلِكٍ ولا مَالِكٍ ، بل بَسَطَ حُكْمَهُ وتَحَكَّمَهُ في شَرْقِ الأَرْضِ وغَرْبِهَا وما بينَ ذلك ؛ وقد فرض طاعته على سائر الأمم ، وحكَّمَ بوجوبها على الخاصِّ والعامِّ ومن ينقضُ حُكْمَ الحَاكِمِ إذا حَكَمَ ؛ وهو يعلمُ أنَّ الله تعالى قد أودع مولانا السلطانَ سِرًّا يُسْتَضَاءُ بأنواره ، ويهتدى في مصالح المُلْكِ والممالكِ بِمَنَارِهِ ، فجعل له أن يفعلَ في ذلك كلَّ ما هدى اللهُ قلبه إليه ، وبعثه بالتأييدِ الإلهيِّ عليه ؛ وآكفنى عن الوصايا بأنَّ الله تعالى تكفَّلَ له بالتأييدِ ، وخصَّه من كلِّ خير بالمزيد ؛ وجعل خُلُقَهُ التقوى وكلَّ خير فرع عليها ، ونور بصيرته بالهدى فما يدلُّ على حسنة من أمور الدنيا والآخرة إلا وهو السابق إليها ؛ والله تعالى يجعلُ أيامه مؤرَّخةً بالفتوح ، ويؤيده بالملائكةِ والرُّوحِ ، على مَنْ يدعى الأبَّ والأبْنَ والرُّوحِ ؛ ويجعلُ أسبابَ النصر معقودةً بسببه ، والمُلْكَ كلمةً باقيةً في عقبه .

ويشهد بهذا العهد الشريف مع من شهده من الملائكة المقرَّين ، كلُّ من حضر تلاوته من سائر الناس أجمعين : لتكونَ حجةً الله على خلقه أسبق ، وعهدُ أمير المؤمنين بثبوتِه أوثق ؛ وطاعةُ سلطان الأرض قد زادها اللهُ على خلقه بذلك توكيدا ، وشهد [الله] وملائكته على الخلق بذلك وكفى بالله شهيدا . والاعتمادُ على الخط الحاكِمِ أعلاه حجةٌ به ، إن شاء اللهُ تعالى .



وعلى نحو ذلك كتب الشيخُ شهاب الدين محمودُ الحلبيُّ عهدَ الملك المنصور « حُسام الدين لاجين » عن الخليفة الحَاكِمِ بأمر الله بن أبي الربيع سليمان المتقدم ذكره . وهذه نسخته :

(١) الذي في التواريخ أن الحَاكِمِ بأمر الله الذي بايع له الظاهر بيبرس طالت مدته الى أيام حُسام الدين لاجين وأما الحَاكِمِ بأمر الله بن أبي الربيع فهو ابن ابنته تأمل .

هذا عهد شريف تشهد به الأملاك لأشرف الملوك، وتسلك فيه من قواعد العهود المقدسة أحسن السلوك؛ من عبد الله ووليه الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، للسلطان الملك المنصور حسام الدنيا والدين؛ أبي الفتح لاجين المنصوري، أعز الله سلطانه .

أما بعد، فالحمد لله مؤتي الملك من يشاء من عباده، ومُعطي النصر من يُجاهد فيه حق جهاده؛ ومرهف حسام انتقامه على من جاهر بعباده، ومفوض أمر هذا الخلق إلى من أودعه سررأفته في محبته ومراد نغمته في مراده؛ وجامع كلمة الإيمان بمن آجبتاه لإقامة دينه وأرضاه لرفع عماده، ومقر الحق في يد من منع سيفه المجرد في سبيل الله أن يقر في أعماده؛ وناصر من لم تزل كلمة الفتح مستكنة في صدور سيوفه جارية على ألسنة صعاذه، وجاعل ملك الإسلام من حقوق من إذا عد أهل الأرض على اجتماعهم كان هو المتعين على انفراده؛ الذي شرف أسرة ملك الإسلام باستيلاء حسام دينه عليها، وزلزل ممالك أعدائه بما بعث من سرايا رعيه إليها؛ وثبت به أركان الأرض التي ستحتوى ملكه في طرفيها، وضعضع بسلطانه قواعد ملوك الكفر فودعت ما كان مودعا لأيامه من ممالك الإسلام في يديها؛ وأقامه وليه بأمره فلم يختلِف عليه آثنان من خلقه، وقلده أمر بريته لما أفدره عليه من النهوض بحقه وحقه؛ وأظهره على من نصب له الغوائل والله غالب على أمره، ونصره في مواطن كثيرة لما قدره في التدم من رفعة شأنه واعتلاء قدره؛ وجعل عدوه وإن أعرض عن طلبه بجيوش الرعب محصورا، وكفاه بنصره على الأعداء التوغل في سفك الدماء فلم يسرف في القتل إنه كان منصورا؛ ونقل إليه الملك بسيفه والدماء مصونه، وحكمه فيما كان بيد غيره من الأرض والبلاد آمنة والفتن مأمونه؛ فكان أمر من ذهب سحابة صيف، أو جلسة صيف؛ لم تحل له روعة في القلوب،

ولم يدعها - وقد ألبسه الله ما نزع عن سواه - سالب ولا مسلوب، إجراء لهذه الأمة على عوائد فضله العميم، واختصاصا بما آتاه من ملكه ﴿والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾ .

يحمده أمير المؤمنين على ما منح في أيامه الدين من اعتضاده بحسامه، والاعتقاد في ملك المسلمين على من يجعل جباه ملوك الشرك تحت أقدامه، والاعتداد بمساعي من حصونه في الجهاد ظهور جياده وقصوره أطراف حسامه .

ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة حاكم بما أراه، حامد له في ملك الإسلام على تيسر ما وطده ورفع ما عراه، معتمم به في كل ما أثبتته بالحق من قواعد الدين في جهاد أعداء الدين عن سيره في ذلك وسراه؛ وأن محمدا عبده ورسوله الذي جعله من عصيته الشريفة وعصيته، وشرفه بوراثته خلافة في أمته [ورفع] قدر رتبته، وقصره على إقامة من يرهب العدا بنشر دعوته في الآفاق مع مواقع رغبته؛ ويسأله أن يصلّي عليه صلاة تفتح له في الدنيا إلى العزيمة طريقا، وتجعله في الأخرى معه ومع الذين أنعم الله عليهم من آبائه الشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا؛ وسلم تسليما كثيرا .

وإن أمير المؤمنين لما اختصه الله به من البر المودع في قلبه، والنور الذي أصبح فيه على بينة من ربه؛ والتأييد المتقل إليه عمن شرف بقربه، والنص الذي أسره رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جدّه العباس من بقاء هذا الأمر في ورثته دون أقاربه وصحبه؛ لم يزل يرغب إلى الله سبحانه ويستخيره في إقامة من ينهض في ملك الإسلام حق النهوض، ويفوض إليه الأمانة^(٢) إلى من يرى أداء الأمانة فيهم من

(١) أي جعل الله الخليفة من عصبة النبي الخ فتنه .

(٢) لعله من يرى . تأمل

أَكَّدَ الفُرُوضَ ؛ وَمَنْ إِذَا قَالَ النِّفِيرُ يَا خَيْلَ اللَّهِ أَرَكِي سَابَقَتْ خَيْلَهُ خَيْالَهُ ، وَجَازَتْ عِزَائِمَهُ نِصَالَهُ ؛ وَأَخَذَ عَدُوَّ الدِّينِ مِنْ مَأْمَنِهِ ، وَغَالَبَ سَيْفُهُ الأَجَلَ عَلَى أَنْتِرَاعِ رُوحِهِ مِنْ بَدَنِهِ ؛ وَقَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ العُلْيَا ، وَجَاهَدَ لِإِقَامَةِ مَنَارِ الإِسْلَامِ لِلاَّتَعَرُّضِ إِلَى عَرَضِ الدُّنْيَا ؛ وَقَدِمَتْ لَهُ مُلُوكُ الدُّنْيَا حُصُونَهَا ، وَبَدَلَتْ لَهُ مَعَ الطَّاعَةِ مَصُونَهَا ؛ وَأَقِيمَ لَهُ بِكُلِّ قُطْرٍ مُنْشَبْرٌ وَسِرِيرٌ ، وَجَمَعَ مُلُوكَ العِدَا فِي رِقِّ طَاعَتِهِ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ؛ وَمَنْ يُقِيمُ العَدَلَ عَلَى مَا شَرَعَ ، وَالشَّرْعَ عَلَى مَا أَخَذَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَمِعَ ؛ وَيُمِيتُ البِدْعَ بِإِحْيَاءِ السُّنَنِ ، وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَخَلْقِهِ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَنًّا وَلَا يَعْدِلُ بِهِمْ عَنْ ذَلِكَ السُّنَنِ .

وَمَا كَانَ السُّلْطَانُ المُلْكُ المَنْصُورُ حُسَامُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ أَبُو الفَتْحِ « لِأَجَلِينِ المَنْصُورِي » - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - هُوَ الَّذِي جَعَلَ [اللَّهُ] صَلاَحَ الأُمَّةِ عَلَى يَدَيْهِ ، وَأَخْتَارَهُ لِإِقَامَةِ دِينِهِ فَسَاقَ مُلْكَ الإِسْلَامِ عَنُودًا إِلَيْهِ ؛ وَأَنْهَضَهُ بِذَلِكَ وَقَدِ أَمَدَهُ بِجُنُودِ نَصْرِهِ ، وَأَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَجَمَعَ قُلُوبَ أَهْلِ الإِسْلَامِ عَلَى حُبِّهِ ؛ وَفَرَّقَ أَعْدَاءَ الدِّينِ خَوْفَ حَرْبِهِ ، وَجَعَلَ النِّصْرَ حَيْثُ تَوَجَّهَ مِنْ أَشْيَاخِهِ وَحِزْبِهِ ؛ وَعَضَّدَهُ لِنِصْرَةِ الإِسْلَامِ بِمَلَائِكَةِ سَمَائِهِ ، وَأَقَامَ بِهِ عُمُودَ الدِّينِ الَّذِي بِالسَّيْفِ قَامَ وَلَا غَرَوَ فَإِنَّ الحُسَامَ مِنْ أَسْمَائِهِ ؛ وَأَقْبَلَتْ إِلَيْهِ طَوَائِفُ جُيُوشِ الإِسْلَامِ مُدْعِينِينَ ، وَأَدَّى فِي كِرَامَتِهِمْ حُقُوقَ طَاعَةِ اللَّهِ الَّذِي أَيْدَهُ بَنَصْرِهِ وَبِالمُؤْمِنِينَ ، وَتَلَقَّاهُمْ بِشِيرِ كِرَامَتِهِ وَنِعْمِهِ وَقَالَ : ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ؛ فَطَارَتْ مُخَلَّقَاتُ البِشَارِ بِمُلْكِهِ فِي الآفَاقِ ، وَأَغْصَصَ العِدَا سُلْطَانَهُ فَمَا تَوَهَّمُوا فِي أَمْرِ الإِسْلَامِ الأَخْتِلَافَ حَتَّى تَحَقَّقُوا بِحَمْدِ اللَّهِ وَبَيْنَ أَيَّامِهِ الوِفاقِ ؛ وَأَخْتَالَتِ المَنَابِرُ الإِسْلَامِيَّةُ بِذِكْرِ أميرِ المُؤْمِنِينَ وَذَكَرِهِ ، وَأَعْلَنَتِ الأُمَّةُ المَحْمَدِيَّةُ بِحَمْدِ اللَّهِ الَّذِي أَقْرَبَهُ الحَقِّ فِي مَرَكَزِهِ وَرَدَّهُ بِهِ شَارِدَ

المُلك إلى وكره؛ وتحقق أمير المؤمنين أنه المكنون في طويته والمستكن في صدره؛
والقائم في عمارة بيته النبوي وسلامته مقام سلمانة وعماره، فعهد إليه حينئذ في كل
ما تقتضيه أحكام إمامته في أمة نبيّه، وجعله في التصرف المطلق عنه قائماً مقام
وصيه في الملة ووليّه؛ وقده أمر ملك الإسلام تقليداً عاماً، وفوض إليه حكم
السلطنة الشريفة تفويضاً تاماً؛ وألبسه من ذلك ما خلعه عن سواه، ونشر عليه
لواء الملك الذي زوى ظله عن غيره وطواه؛ وحكمه في كل ما تقتضيه خلافته
المقدّسه، وتمضيه إمامته التي هي على التقوى مؤسسه: من إقامة منار الإسلام،
والحكم العام في أمة مجد عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وفي تقليد الملوك والوزراء،
وتقدمة الجيوش وتأمير الأمراء؛ وفي تجهيز العساكر والسرايا، وإرسال الطلائع
والرعايا، وتجريد الجنود الذين ما ندبهم إلى الأعداء إلا أبوا بالنهاب والسبايا؛
وفي غزو العدو كيف أراه الله إن شاء بنفسه أو جنده، وفي آسرتال النصر بالثبات
والصبر فإن الله يجزي الصابرين وما النصر إلا من عنده؛ وفي محاصرة العدو ومصابرته،
وإنظاره ومناظرته، وإنزاهم على ما شرع الله فيهم من الأحكام، والتوخي في ذلك
ما حكم به سعد بن معاذ في زمن الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام؛ وفي ضرب
الهدن وإمضائها، والوفاء بالعقود المشروعة إلى آتئها مدها وأتقضائها، وفي إرضاء
السيف من نكت ولم يتم عهده إلى مدته فإن إسقاط الكفر في إرضائها؛ وفي الأمصار
يقربها من شاء من الجنود، ويبعث إليها من شاء من البعث والحشود؛ وفي سداد
الثغور بالرجال الذين تقتر بهم عن شذب النصر، وتأمّن بهم أعدادها من غوائل
الحصر، وتوفير سهامها من سهام القوة التي ترمي بشرر كالقصر؛ وإمداد بجرها
بالشواني المحرّبة المجدده، والسفن التي كأنها القصور الممهدة على الصروح المردّه؛
فلا تزال تدب إليهم من ذوات الأرجل عقاربها، وتخطف غربانهم الطائرة بأجنحة

الْقُلُوعِ مَخَالِبَهَا، وَفِي تَقْدِيمَةِ وَتَنْفِيزِ السَّرَايَا الَّتِي لَا تَزَالُ أُسْنَتُهَا إِلَى نُحُورِ الْأَعْدَاءِ مَقْوَمَهُ، وَإِنْفَاقِ مَا يَرَاهُ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ مِنَ الْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالخَلِيلِ الْمُسَوَّمَةِ؛ وَفِي إِعْلَاءِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَالْإِتْقَادِ إِلَيْهِ، وَالْمَسَارَعَةِ إِلَى نَفُوزِ حُكْمِهِ فِيمَا لَهُ وَعَلَيْهِ، وَتَقْوِيَةِ يَدِ حُكَّامِهِ عَلَى كُلِّ أَمِيرٍ وَمَأْمُورٍ أَقَرَّ الشَّرْعُ فِي يَدِهِ شَيْئًا أَوْ آتَرَغَهُ مِنْ يَدَيْهِ، وَتَفْوِيزِ الْحُكْمِ إِلَى كُلِّ مَنْ يَتَعَيَّنُ لَذَلِكَ مِنْ أُمَّةِ الْأُمَّةِ، وَإِقَامَةِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ عَلَى قَوَاعِدِهِ الْأَرْبَعَةِ فَإِنَّ اتَّفَاقَ الْعُلَمَاءِ حُجَّةً وَأَخْتِلَافَهُمْ رَحْمَةً؛ وَفِي مَصَالِحِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ وَثَالِثِهِمَا الَّذِي تُشَدُّ الرَّحَالُ أَيْضًا إِلَيْهِ؛ وَفِي إِقَامَةِ سُبُلِ الْحَجَّاجِ الَّذِينَ دَعَاهُمْ اللَّهُ فَلَبَّوهُ وَأَسْتَدْعَاهُمْ قَدِمُوا عَلَيْهِ؛ وَفَوْضَ إِلَيْهِ كُلِّ مَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ خِلَافَتِهِ لِلَّهِ فِي أَرْضِهِ: مَا ذَكَرَ وَمَا لَمْ يُذَكَرْ، تَفْوِيزًا لِأَزْمَا، وَتَقْلِيدًا جَازِمًا، وَعَقْدًا مُحْكَمًا، وَعَهْدًا فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ مُحْكَمًا، وَأَكْتَفَى عَنِ الْوَصَايَا بِمَا جُبِلَ عَلَيْهِ خُلُقُهُ الشَّرِيفِ مِنَ التَّقْوَى، وَهَدَى نَفْسَهُ النَفِيسَةَ إِلَيْهِ مِنَ التَّمَسُّكِ بِالسَّنَدِ الْأَقْوَمِ وَالسَّبَبِ الْأَقْوَى؛ فَمَا يُنْبِئُهُ عَلَى حَسَنَةِ إِلَّا وَهُوَ أَسْبَقُ إِلَيْهَا، وَلَا يُدْبِلُ عَلَى خَلَّةٍ إِلَّا وَفِكْرُهُ الشَّرِيفُ أَسْرَعُ مِنْ فِكْرِ الدَّالِّ عَلَيْهَا؛ وَقَدْ وَثِقَ بِبِرَاءَةِ الذِّمَّةِ مِنْ حَقِّ قَوْمٍ أَصْحَحُوا لِفَضْلِ مِثْلِهِ رَاجِينَ، وَتَحَقَّقَ حُلُولَ النِّعْمَةِ عَلَى أُمَّةٍ أَمَسُوا إِلَى «لَا حِينَ» «لَا حِينَ»؛ وَقَدْ أَسْتَخَارَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ كَثِيرًا، وَجَلَأَ إِلَى اللَّهِ فِي تَوْفِيقِهِ وَتَوْفِيقِهِ عَلَى الصَّوَابِ مِمَّا يَجِدُهُ فِي الْحُكْمِ بِذَلِكَ هَادِيًا وَنُصِيرًا؛ وَسَارَعَ إِلَى التَّسْلِيمِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا فَوَّضَ إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ عِبَادِهِ إِنَّهُ كَانَ بَعْبَادَهُ خَيْرًا بَصِيرًا. وَأَشْهَدَ اللَّهُ وَمَلَائِكَتُهُ وَمَنْ حَضَرَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى نَفْسِهِ بِمَا تَضَمَّنَهُ هَذَا الْعَهْدُ الْكَرِيمُ، وَحَكَمَ عَلَى الْأُمَّةِ بِمَقْتَضَاهُ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّهُ إِثْمٌ عَلَى الَّذِينَ يَبْدُلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ. وَالخَطُّ الشَّرِيفُ الْإِمَامِيُّ الْحَاكِمِيُّ أَعْلَاهُ، حُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.



وعلى قريبٍ منه كتب القاضي شمس الدين إبراهيم بن القيسراني عهدَ الملكِ الناصر «محمد بن قلاوون» عن الحاكم بأمر الله أحمد بن أبي الربيع سليمان .
وهذه نسخته :

هذا عهدٌ يعمرُ بك للإسلامِ المعاهد ، وينصُرُ منك الاعترامَ فتغنى عن الموالى والمعاضد ؛ ويُلقي إليك مقاليدَ الأمور : لتجتهدَ في مراضى الله ومجاهد ، ويعتُك على العملِ بالكتابِ والسنة : ليكونا شاهدينِ لك عندَ الله في أعظمِ المشاهد ؛ نخذُ كتابَ أمير المؤمنين بقوةً تبرأُ بأخذِ يحيى عليه السلام للكتاب ، وحاسبُ نفسك محاسبةً تجدُ نفعها يومَ يقومُ الحساب ، وأعملُ صالحاً فالَّذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسنُ ما ب .

من عبد الله ووليّه الإمام الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد أمير المؤمنين : إلى السلطان الأجل ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، المظفر ، الملك ، الناصر ؛ ناصر الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، سيّد الملوك والسلاطين ؛ فاتح الأمصار ، مبيد الأرمين والفرنج والتتار ؛ وارث الملك ، سلطان العرب والعجم والترك ؛ خادم الحرمين ، صاحب القبلتين ؛ أبي الفتح محمد قسيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه ، ولد السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون ، قدس الله روحه .

أما بعد ، فالحمد لله الذى أقام ناصر الإسلام وأهله بخير ناصر ، وأحلّ فى السلطنة المعظمة من استحقها بذاته الشريفة وشرف العناصر ؛ ووضع الإصر بمن كثرت منه

(١) وَمِنْ سَلَفِهِ الْكَرِيمِ عَلَى الرَّعَايَا الْأَوَاصِرِ، وَعَقَدَ لَوَاءَ الْمُلْكِ لِمَنْ هُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعْدِ فِي حَالِهِ تُعَقَدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ؛ وَجَمَعَ كَلِمَةَ الْأُمَّةِ بِمُتَّفَرِّدٍ فِي الْمَعَالَى مُتَوَحِّدٌ فِي الْمَفَاحِرِ، مُتَّصِفٌ بِمَنَاقِبِ أَرْبِيْهَا عَلَى أَرْبَابِهَا مِنَ الْمُلُوكِ الْأَوَائِلِ وَالْأَوَاخِرِ، وَأَقْرَبُ النُّوَاطِرِ وَالْخَوَاطِرِ بِنِ اشْرَاقِ عَلَيْهِمَا نُورُهُ الْبَاهِرِ، وَظَهَرَتْ آثَارُ وُجُودِهِ وَجُودِهِ عَلَى الْبَوَاطِنِ وَالظُّوَاهِرِ؛ وَأَعَادَ شَيْبَةَ الْأَيَّامِ فِي آقْبَالِ سَرِّ السَّرَائِرِ، وَسَارَتْ بِشَائِرِ مَقْدَمِهِ فِي الْآفَاقِ سَيْرَ الْمَثَلِ وَمَاظَنِكَ بِالْمَثَلِ السَّائِرِ؛ وَفَعَلَتْ مَهَابَتَهُ فِي التَّمْهِيدِ وَالتَّشْيِيدِ فَعَلَّ الْقَنَا الْمَتَشَاحِرِ، وَشَفَّتِ الصُّدُورَ بِوُجُودِ الْإِتِّفَاقِ وَعَدَمِ الشَّقَاقِ بَعْدَ أَنْ بَلَغَتْ الْقُلُوبُ الْخَنَاجِرَ؛ وَأَوْرَثَ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ صَفْوَةَ ذُرِّيَّةِ وَرَثَتِهَا السِّيَادَةَ كَارِبًا عَنْ كَارِبِ، وَسَرَى سِرَّهُ إِذَا وُلِدَ الْمَوْلُودُ مِنْهُمْ تَهَلَّلَتْ لَهُ الْأَرْضُ وَاهْتَرَّتْ إِلَيْهِ الْمَنَابِرُ.

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحَجَبَنِي سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَشْرَفِ بَيْتٍ وَقَبِيلِهِ، وَمَنَحَ الْأُمَّةَ بَرَاسَاتِهِ مِنْ خَيْرِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ الْوَسِيلَةَ، وَأَوْجَبَ الشَّفَاعَةَ لِمَنْ سَأَلَ اللَّهَ لَهُ أَعْلَى دَرَجَةٍ لَا يَنَالُهَا إِلَّا رَجُلٌ وَاحِدٌ وَهِيَ الْوَسِيلَةُ؛ وَجَعَلَ شَمْلَهُمْ بِمَبَايِعَتِهِ وَمَتَابَعَتِهِ فِي الْهُدَايَةِ نَظْمًا، وَحَضَّ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. وَبَلَّغَهُمْ بِهِ مِنَ السَّعَادَةِ غَايَةَ مَطْلُوبِهِمْ، وَأَيْدَهُ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ؛ وَزَانَ شَرِيعَتَهُ الْمَطْهُرَةَ بِمَحَاسِنِ أَسْمَىٰ مَنظَرًا وَتَحَبَّرًا مِنَ الْعُقُودِ، وَفَرَضَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يُؤْفُوا بِالْعُهُودِ وَالْعُقُودِ؛ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى حَمْلِ الْأَمَانَةِ الَّتِي أَشْفَقَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مِنْ حَمْلِهَا، وَأَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾.

والحمد لله الذى آختر أمير المؤمنين من سُلالة عم نبيه العباس ، وأصطفى بيته المبارك من خير أمة أخرجت للناس ؛ وقوى به جأش المسلمين وجيوش الموحدين على الملحدين ، وآتاه بسيادة جده وسعادة جده ما لم يؤت أحداً من العالمين ؛ وحفظ به للمؤمنين ذمّاماً ، وجعله للثّقين إماماً ؛ وخصّه بمزيد الشرفين : نسبه ومنصبه ، وجعل مزية الرتبين كلمة باقية في عقبه ؛ وصان به حوزة الدين صيانة العرين بالأسود ، وصير الأيدي البيض مشكورة لحاملي راياته السود .

يحمده أمير المؤمنين حمد من آختره من السماء فاستخلفه فى الأرض ، وجعل إمرته على المؤمنين فرضاً لتقام به السنة والقرض ؛ ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى أسرى بعده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ؛ ويشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى كشف بمبعثه عن القلوب حجب النجى ، وأشرقت أنوار نبوته فأضاء لها يوم دخوله المدينة كل شئ ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من أقامه فى الإمامة مقامه وأشار إلى الاقتداء به من بعده ، ومنهم من أعز الله به الإسلام فى كل قطر مع قربه وبُعده ؛ ومنهم من كانت اليد الشريفة النبوية فى بيعة الرضوان خيراً له من يده ، ومنهم من أمر الله تعالى بالمباهلة بالأبناء والنفس فباهل خاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم به وبزوجه وولده ؛ وعلى بقية العشرة ، الذين غدت بهم دعوة الحق مشتهرة منتشرة ؛ وعلى عمه أسد الله وأسد رسوله عليه السلام ، وجد الأئمة المهديين أمراء المؤمنين وحلفاء الإسلام ، وسلم تسليماً كثيراً .

وإن الله تعالى جعل سجيّة الأيام الشريفة الإمامية الحاكمة أدام الله إشراقها ، وقسم بها بين الأولياء والأعداء آجالها وأرزاقها ؛ ردّ الحقوق إلى نصابها ، وإعادتها

(١) فى الاصول بالمباهلة ... فىهاى ، وهو تصحيف من النسخ .

إلى مستحقيها ولو تَمَدَّتْ الأيَّامُ على آغْتِصَابِهَا ، وإفْرَارِهَا عِنْدَ مَنْ هُوَ دُونَ الْوَرَى
أولى بها : ليحَقِّقَ أَنَّ نَسَبَهُ الشَّرِيفَ أَظْهَرَ على أَوَامِرِهِ دلائِلَ الإِنْجَازِ ، وَحَلَّى كَلِمَاتِهَا
بِالإِيْجَازِ وَهَبَاتِهَا بِالإِنْجَازِ ؛ وَإِنَّ اللهَ جَعَلَ الإِسْمَ الشَّرِيفَ الحَاكِمِيَّ فِي الحُكْمِ بِأَمْرِهِ
على خَيْرِ مَسْمَى ، وَقَوَى مِنْهُ فِي تَأْيِيدِ كَلِمَةِ الحَقِّ جَنَانًا وَعَزْمًا ، وَلَمْ يُخْرِجْ مِنْ
أَحْكَامِهِ عَنِ اتِّبَاعِ أَمْرِ اللهِ قَضِيَّةً وَلَا حُكْمًا ؛ وَكُنْتَ أَيُّهَا السَّيِّدُ ، العَالِمُ ، العَادِلُ ،
السُّلْطَانُ ، المَلِكُ ، النَّاصِرُ ؛ نَاصِرُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبُو الفَتْحِ مُحَمَّدُ ابْنُ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ
المَلِكِ المَنْصُورِ ، سَيِّفِ الدِّينِ قَلَاوُونَ - قَدَسَ اللهُ رُوحَهُ - أَوْلَى الأَوْلِيَاءِ بِالمَلِكِ
الشَّرِيفِ : لِمَا سَلَفَكَ مِنَ الحُقُوقِ ، وَمَا أَسْلَفُوهُ مِنْ فَضْلِ لا يَحْسُنُ لَهُ التَّنَاسِي
وَلَا العُقُوقُ ؛ وَلِمَا أَوْجَبَ لَكَ على العَسَاكِرِ الإِسْلامِيَّةِ سَابِقُ الإِيْمَانِ ، وَصَادِقُ
الإِيْمَانِ : وَلِأَنَّكَ جَمَعْتَ فِي المَجْدِ بَيْنَ طَارِفِ وَتَالِدِ ، وَفَقَّتَ بَرِيكِي نَفْسِ وَأَخِي وَوَالِدِي
وَجَلَّالَةَ ، مَا وَرِثْتَهَا عَنِ كَلَالَةَ ؛ وَخِلَالَ ، مَا لَهَا بِالسِّيَادَةِ إِخْلَالَ ؛ وَمَفَاجِرَ ، تُكَائِرُ البَحْرَ
الزَّائِحِ ؛ وَمَآثِرَ ، أَعْجَزَ وَصَفُهَا النَّاطِمَ وَالنَّائِرَ ؛ وَكَانَ رِكَابُكَ العَالِيَّ قَدْ سَارَ إِلَى الكَرَكِ
المَحْرُوسِ ، وَقَعَدَتْ عِنْدَكَ الأَجْسَامُ وَسَافَرَتْ مَعَكَ النُّفُوسُ ؛ وَوَنَيْتِ الخَوَاطِرُ بِأَنَّكَ
إِلَى السُّلْطَنَةِ تَعُودُ ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَجِدُّ لَكَ صُعُودًا إِلَى مَرَاتِبِ السُّعُودِ ؛ وَأَقَمْتَ بِهَا
وَدِيكُوكَ فِي الآفَاقِ سَائِرَ ، وَالأَمَالَ مَبَشِّرَةَ بِأَنَّكَ إِلَى كُرْسِيِّ مَمْلَكَتِكَ صَائِرَ . فَلَمَّا أَحْتَاكَ
المَلِكُ الشَّرِيفَ فِي هَذِهِ المَدَّةِ إِلَى مَلِكِ يُسْرَ سَرِيرِهِ ، وَسُلْطَانِ تَعَدُّو بِاسْتِقْرَارِهِ عِيونُ
الأَنَامِ وَالأَيَّامِ قَرِيرِهِ : لِمَا لِلْمَسَامِينِ فِي ذَلِكَ مِنْ تَيْسِيرِ أوطَارِ وَتَعْمِيرِ أوطَانِ ،
وَلِأَنَّهُمْ لا يَتَّقُدُونَ فِي المَصَالِحِ الإِسْلامِيَّةِ إِلا بِسُلْطَانِ ؛ لَمْ يَدْرُ فِي الأَذْهَانِ ، وَلَا خَطَرَ
لِقَاصِ وَلَا دَانَ ؛ إِلا أَنَّكَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالسُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَوْلَاهُمْ بِرُثْبَتِهَا المُشِيفَةُ ؛
وَلَا ذَكَرَ أَحَدٌ إِلا حُقُوقَ بَيْتِكَ وَفَضْلَهَا ، وَلَا قَالَ عِنْدَكَ إِلا بِقَوْلِ اللهِ : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ
بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ : لِأَنَّ البِلَادَ فُتُوْحَاتُ سِيوفِكُمْ ، وَرَعَايَاها فِيما هُمْ فِيهِ مِنَ الأَمْنِ وَالخَيْرِ

بمَنْزِلَةِ ضِيُوفِكُمْ ؛ وَلَأَنَّ الْعَسَاكِرَ الْإِسْلَامِيَّةَ أَسْتَرْقَهُمْ وَلَاؤُكَ ، وَوَالُوكَ لَانِهِمْ أَرْقَاؤُكَ ؛
فَلَمْ يَقُلْ أَحَدٌ : أُنَى لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ؟ بَلْ أَفْتَرَكُلُّ مِنْهُمْ لَكَ بِالْيَدِ وَقَتْرَ بَوْلَاتِكَ عَيْنَا ؛
وَأَخْلَصُوا فِي مَوَالِيكَ الْعَقَائِدَ ، وَاسْتَبَشَرُوا مِنْكَ بِبَارِكِ الْوَجْهِ مَا جَدَّ جَائِدٌ ؛ وَلَمْ يَغِبْ
غَائِبٌ خَلِيفَتُهُ جَيْشُ أَبِيهِ وَجَدَّهُ الصَّاعِدُ ؛ وَرَفَعَتِ الْمَمَالِكُ يَدَ الضَّرَاعَةِ سَائِلَةً وَرَاغِبَةً ،
وَخَطَبَتِكَ لِعَقَائِلِهَا وَمَعَاقِلِهَا وَالْخُطْبَاءُ عَلَى الْمَنَابِرِ لَكَ خَاطِبَةٌ وَبَدْعَائِكَ مُحَاطِبَةٌ ؛
وَقَصَدْتَ لَذَلِكَ أَبْوَابَكَ الَّتِي لَا تَزَالُ تُقْصَدُ ، وَدُعِيتَ لِلْعَوْدِ الْمُبَارَكِ وَعَوْدٌ مُجْمَدٌ لِلْأُمَّةِ
الْمُحَمَّدِيَّةِ أَحْمَدُ ؛ وَقَعَلْتَ الْجِيُوشَ الْمَنْصُورَةَ مِنْ طَاعَتِكَ كُلِّ مَاسِرٍّ ، وَأُرْبَتَ فِي صِدْقِ
النِّيَّاتِ وَرِيَّهَا عَلَى كُلِّ مَنْ بَرَّ :

وَلَوْ أَنَّ مُشْتَقًّا تَكَلَّفَ فَوْقَ مَا * فِي وَسْعِهِ لَسَعَى إِلَيْكَ الْمِنْبَرُ !

فَمَا ضَرَّ بِمَجْدِ اللَّهِ بَعْدَ الدَّارِ وَالْأَمَالِ بِسَاكِنِهَا مُطِيفُهُ ، بَلْ كَانَ لَكَ الذِّكْرُ فِي قَلْبِ
الْخَلِيفَةِ نِعْمَ الْخَلِيفَةِ ؛ وَكُنْتَ لَدَيْهِ - وَإِنْ غَيْبَ - حَاضِرًا بِجَمِيلِ الذِّكْرِ ، وَنَأَيْتَ دَارَا
فَقَرَّبَكَ إِلَيْهِ حُسْنَ التَّصْوِيرِ فِي الْفِكْرِ . وَكَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ شَاهَدَكَ يَافِعًا ، وَشَهِدَ
خَاطِرُهُ أَنْ سَتِصِيرُ لِلْمُسْلِمِينَ نَافِعًا ؛ وَتَأَمَّلْ مِنْكَ أَمَانًا أَصْحَى لَهَا لَتَرَيْكَ آمِلًا ، وَهَلَا لَأَ
دَلَّتْهُ كِرَامَتُهُ - وَلَا تُتَكَّرُ الْكِرَامَةُ - عَلَى أَنْ سَيَكُونُ بَدْرًا كَامِلًا ؛ وَبَلَغَهُ عَنْكَ مِنَ الْعَدْلِ
وَالْإِحْسَانِ ، مَا عَجَزَ وَصْفُهُ بِلَاغَتِي الْقَلَمِ وَاللِّسَانِ ؛ فَنَادَاكَ نِدَاءَهُ عَلَى بُعْدِ الْمَنَازِرِ ،
وَلَمْ يَجِدْ لَكَ نَظِيرًا فَأَطَالَ وَأَطَابَ لِمُقَدِّمِكَ السَّعِيدِ الْإِنْتِظَارَ ؛ إِلَى أَنْ أُقَدِّمَتَ
إِقْدَامَ اللَّيْلِ ، وَقَدِمْتَ إِلَى الْبِلَادِ الْمُتَعَطِّشَةِ إِلَى نَظَرِكَ الشَّرِيفِ قُدُومَ الْغَيْثِ ؛
فَلَاحَ بِكَ عَلَى الْوُجُودِ دَلِيلُ الْفَلَاحِ ، وَحَمِدَ الرَّعَايَا سُرَّكَ عِنْدَ الصَّبَاحِ وَالْأَسْتِصْبَاحِ ؛
وَشَاهَدُوا مِنْكَ أَسَدًا فَاقَ بُوَيْيَاتِهِ وَتَبَاتِهِ الْأَوَّلَ ، وَشَخْصًا لَا يَصْلُحُ إِلَّا لِإِدَالَةِ دَوْلٍ
وَلَا تَصْلُحُ إِلَّا لِمُثَلِّهِ الدَّوَلِ ؛ وَقَامَتْ بِاخْتِيَارِكَ عَلَى اخْتِيَارِكَ الدَّلَائِلُ ، وَعَمَرَكَ

سريُّ الملوك وعرف فيك من أبيك شمائل ؛ ورأى أمير المؤمنين من تجابتك فوق ما أخبرت به مسألة الرُّجَان ، ومن مهابتك مادلاً على خفض الشاني ورُفَع الشان ؛ ومن محامدك كل ما صغر الخبر عنها الخبر ، وأعلنت السنة الأقدار بأنه لم يبق عن تقليدك الممالك الإسلامية بحمد الله تعالى عُدْر ؛ فاختارك على علم على العالمين ، واجتباك للذَّب عن الإسلام والمسلمين ؛ واستخار الله تعالى في ذلك فخار ، وأفاض عليك من بيعته المباركة مع تفرك المشتبه حُلل الفخار ؛ وعهد إليك في كل ما آشمت عليه دعوة إمامته المعظمة ، وأحكام خلافته التي لم تزل بها عقود الممالك في الطاعة منظمه ؛ وفوض إليك سلطنة الممالك الإسلامية براً وبحرا ، شاماً ومِصراً ؛ قُرباً وبعداً ، غوراً وتجداً ؛ وما سيفتحه الله عليك من البلاد ، وتستنقذه من أيدي ذوى الإلحاد ؛ وتقليد الملوك والوزراء ، وقضاة الحكم العزيز وتأمير الأمراء ؛ وتجهيز العساكر والبُعوث للجهاد في سبيل الله ومحاربة من ترى محاربتة من الأعداء ، ومهادنة من ترى مهادنته منهم ؛ وجعل إليك في ذلك كله العقد والحل ، والإبرام والنقض والولاية والعزل ؛ وقلدك ذلك كله تقليدا يقوم في تسليم الممالك إليك مقام الإقليد ، ويقضى لقريبها وبعيدها بمشيئة الله تعالى بمزيد التمهيد والتشديد : لتعلم أن الله قد جعل الأيام الشريفة الحاكمة - أدامها الله تعالى - فلما أبدى سالفاً من البيت الشريف المنصوري أقماراً ، وأطلع منهم أنفاً بدرًا ملاً الخافقين أنواراً ؛ فكلما ظهرت لسلفه ما تُرِيدت ما تُرِخلفه أظهر ، ومن شاهدتهم وشاهد شمس سعادتته المنزهة عن الأقول قال هذا أكبر ؛ وكلما ذكر لأحدهم فضل علم أنه في أيامه مترّد ، وأنه إن مضى منهم سيّد في سيّله ، فقد قام بأطراف الأُسنة منهم سيّد ؛ وصير الدولة الشريفة الخليفة غاباً إن غاب منهم أسود ، حلفهم شبل بشرت محايّله أنه عليها يسود .

فَلْيَتَقَلَّدِ السُّلْطَانَ الْمَلِكَ النَّاصِرَ مَا قَلَّدَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلْيَكُنْ لِدَعْوَتِهِ الْهَادِيَةَ مِنَ الْمَلْبِيِّينَ وَعَلَيْهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَلْيَتَرَقَّ إِلَى هَذِهِ الرَّتَبَةِ الَّتِي آسَتْحَقَّهَا بِحَسَبِهِ ، وَأَسْتَرْقَهَا بِنَسَبِهِ ؛ وَلْيَبَاشِرْهَا مُسْتَبَشِرًا ، وَيُظْهِرْ مِنْ شُكْرِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهَا مَا يَغْدُو بِهِ مُسْتَظْهِرًا ؛ فَقَدْ أَرَادَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِيَامَ فِي نُصْرَةِ الدِّينِ الْحَنِيفِ فَأَقَامَكَ أَنْتَ مَقَامَهُ ، وَصَرَّفَ بَكَ بَيْنَ أَهْلِ الطَّاعَةِ وَالْعِصْيَانِ إِكْرَامَهُ وَأَنْتِقَامَهُ ؛ رَعِيًّا لِعَهْدِ سَلَفِكَ الْكَرِيمِ ، وَلَمَّا آسَتْجَبَّتْهُ نَفْسُكَ النَّفِيسَةُ مِنْ وَفُورِ التَّعْظِيمِ وَالتَّكْرِيمِ ؛ وَعِنَايَةً بِالْعَسَاكِرِ الْمُؤَيَّدَةِ الَّذِينَ وَجَّهُوا وَجُوهَ مَا لَمْ يَلْمُ إِلَيْكَ ، وَأَبَتْ كَلِمَتُهُمْ الَّتِي صَانَهَا اللَّهُ عَنِ التَّفَرُّقِ أَنْ تَجْتَمِعَ فِي الطَّاعَةِ وَالْخِدْمَةِ إِلَّا عَلَيْكَ وَلَدَيْكَ ؛ وَمِنَّةً عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ مَا بَرِحُوا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى يَطْلُبُونَهُ ، وَمَلِكٍ نَسَّوْا بِأَبْوَابِهِ الْعَالِيَةِ فَلِهَذَا يُجِبُّهُمْ وَيُجِيبُونَهُ .

فَا حَمِدَ اللَّهُ تَعَالَى الَّذِي جَعَلَ لَكَ فِي إِعَادَةِ الْمُلْكِ أَسْوَةَ بَسُلِيَّانٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَرَدَّهُ إِلَيْكَ رَدًّا لَا أَنْفِصَالَ لِعُرْوَتِهِ وَلَا أَنْفِصَامَ ؛ فَأَضْحَيْتَ لِأُمُورِ عِبَادِهِ سَدَادًا ، وَلِتُغَوَّرَ بِلَادِهِ سَدَادًا ؛ وَلِلخَلِيفَةِ عَضُدًا فِي الْخَلِيقَةِ ، وَفِي الدَّهْرِ سَامِي الْحَقِيقَةِ حَامِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَلِلْمُلْكِ وَارثًا ، وَرَقَّاقًا رُقِيًّا أَصْبَحَتْ بِهِ فِي السُّلْطَنَةِ وَاحِدًا ، وَلِلخَلِيفَةِ الْمَعْظَمَةِ ثَانِيًا ، وَلِلْقَمَرِينَ ثَالِثًا .

وَبُشْرَاكَ ! أَنَّ اللَّهَ أَبْرَمَ سَبَبَ تَأْيِيدِكَ إِبْرَامًا لَا تَصِلُ الْأَيْدِي إِلَى نَقْضِهِ ، وَأَنَّكَ سَأَلْتَ عَنْ أَمْرٍ طَالَمَا أَتَعَبَ غَيْرُكَ سُؤَالُهُ فِي بَعْضِهِ ؛ وَأَنَّ اللَّهَ يُحْسِنُ لَكَ الْعَوْنَ وَبِكَ الصَّوْنَ ، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سُمْرَةَ ! لَا تَسْأَلِ الْإِمَارَةَ فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وَكَلْتَ إِلَيْهَا ، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا “ .

وبشراك ! أن أمير المؤمنين خَصَّكَ بمزيد الاعتناء ، وأقامك مقامه في حُسن
 العناء ، وحقَّق أنَّ السعادة في أيامه موصولةٌ منكم بالآباء والأبناء ؛ وبلغك بهذا
 التقليد الشريف الأمانى ، وتَوَجَّهَ يمين قريبة عهد باستلام الركن اليماني ؛
 وأصطفاك بقلب أظهر له الكشوف إشراف تلك السُّتور ، وغداً مغموراً بالهداية
 ببركة البيت المعمور ، ونظير زادته مشاهدة الحرم الشريف النبوي نورا على نور ؛
 فقابل ذلك بالقيام في مِهَمَّات الإسلام ، وتدقيق النظر في مصالح الخالص والعام ؛
 واجتهد في صيانة الممالك اجتهداً يحرس منها الأوساط والأطراف ، وتنظِّم به
 أحوالها أجلَّ انتظام وتأنف أجلَّ أثلاف .

والوصايا كثيرةٌ وأولها تقوى الله : فليجعلها حليَّة لأوقاته ، ويُحافظ عليها
 محافظة من يتقيه حقُّ تقاته ؛ ويتَّخذها نجى فكره وأنيس قلبه ، ويعظّم حرّمات الله :
 ﴿ ومن يعظّم حرّمات الله فهو خير له عند ربه ﴾ .

والشرع الشريف فهو لعقد الإسلام نظام ، وللدين القيم قوام ؛ فتجتهد
 في اقتفاء سننه ، والعمل بمفروضه وسننه ؛ وتكريم أهله وقضاته ، والتوسل بذلك
 إلى الله في ابتغاء مرضاته .

وأمرأة دولتك فهم أنصار سلفك الصالح ، وذوو النصائح فيما آثروه من المصالح ؛
 وخُلصاء طاعتهم في السرِّ والنجوى ، وأعاونهم على البرِّ والتقوى ؛ وهم الذين أحلّهم
 والدك من العناية المحلّ الأسنى ، والذين سبقت لهم بحسن الطاعة من الله الحسنى ؛
 ولو لم يكن لهم إلا حُسن الوفاء ، لكفاهم عندك في مزيد الاعتماد والاستكفاء ؛ فإنهم
 جادلوا في إقامة دولتك وجالدوا ، وأوقوا بالعهد فهم الموفون بعهدهم إذا عاهدوا ؛
 وهم للوصايا بخدمتك وأعون ، وفيما أئتمتهم عليه لأماناتهم وعهدهم راعون ؛ قدأصفوا

لك النياتِ بظهر الغيب ، وأخلصوا الطويّاتِ إخلاصاً لاشكّ معه ولا ريب ؛
ونابوا عنك أحسنَ مناب ، وكفّوا كفّ العدوِّ فما طال له لأفتراس ولا آخِلاس
ظُفّر ولا ناب ؛ واتخذوا لهم بذلك عند الله وعندك يداً ، وأثلّوا لهم به مجداً يبيّ
حديثه الحسنُ الصحيحُ عنهم مُسنداً .

فاستوص بهم وبسائرِ عساكرِ المنصورةِ خيراً ، وأجمل لهم سريرةً وفيهم سيراً ؛
وأحمدهم عُقبى هذه الخِدمة ، وأوردهم منهل إحسانٍ يضاعف لهم التّعمة والتّعمه :
لتؤكّد طاعتك على كل إنسان ، ويثمّوا بحُسنِ المكافأة : و (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ
إِلَّا الْإِحْسَانُ) . ولتزداد أوامرك ونواهيك أمثالاً ، ولا يجذّوا عن محبة أيامك
الشريفة أنتقالاً ، وليقال في حُسنِ خِدمتهم وإحسانك : هكذا هكذا وإلا فلا .

وأما الغزو والجهادُ في سبيل الله تعالى ، وما أوجبه فيهما قوله : (أَنْفِرُوا خِفَافًا
وَثِقَالًا) ، فأقل ما يُجزئ فرض الكفاية منه مرّةً في كل عام ، وأما فرض العين
فوجوبه على ذوى الاستِطاعة من المسلمين عام ؛ وقد عرفت سنن السلطانين
الشهيدين : والدك وإخيك - قدس الله رُوحهما - في الإعتناء بجهاد الكُفّار ، وغزوهم
في عُقر الدار ؛ وموقف أحدهما في موطنٍ زلّت فيه الأقدام عن الإقدام ، واجتمع
فيه الكُفّر على الإسلام ؛ وشاب من هوله الوليد ، ومُصابرتَه نُجَاهَ سيف من سيوف
الله تعالى الإمام خالد بن الوليد ؛ وأستنفاذاً لآخر البلاد الساحلية التي ألقها الله
من أيدي المشركين على يد الصّلاحيين ، وفتح لها أبواب الجنة بركة الإفتاحين ؛
وأنّ والدك وأخاك سداً على المشركين الفِجاج ، وطهّرا من أرجاسهم العذب القرات
والملح الأجاج ؛ فالكتابُ المنصوريه ، أبادت التّار بالسُيوف المشرفية ؛ والممالكُ

الإسلامية، زَهَتْ نِظَامًا بِالْفُتُوحَاتِ الْأَشْرَفِيَّةِ؛ فَاجْتَهَدَ فِي إِعْلَاءِ كَلِمَةِ الدِّينِ أَتَمَّ
اجْتِهَادًا، وَعَزَّزَهُمَا بِثَلَاثٍ فِي الْغَزْوِ وَالْجِهَادِ .

وَأَمَّا الرَّعَايَا بِعِيدِهِمْ وَقَرِيبِهِمْ ، وَمَسْتَوِطِنِهِمْ وَغَيْرِهِمْ ، فَيُؤَفِّقُهُمْ مِنَ الرَّعَايَةِ
حَظَّهُمْ ، وَيُجْزِلُ صِيَابَتَهُمْ وَحِفْظَهُمْ ؛ وَكَمَا يَرَى الْحَقُّ لَهُ فَلْيَرَ الْحَقُّ عَلَيْهِ ، وَيُحْسِنِ إِلَى
رَعَايَاهُ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ .

وَأَمَّا الْعَدْلُ فَإِنَّهُ لِلْبِلَادِ عِمَارُهُ ، وَالسَّعَادَةُ أَمَارُهُ ، وَاللَّاحِرَةُ مَنَجَاتُهُ مِنَ النَّفْسِ
الْأَمَّارَةِ ؛ فَلْيَكُنْ لَهُ شِعَارًا وَدِتَارًا ، وَلْيُؤَكِّدْ مَرَّاسِمَهُ فِي الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ
عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَالْمَحَافِظَةِ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مَا يُذَكِّرُ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ وَيُشْكِرُ .

وَالْحُدُودَ الشَّرْعِيَّةَ فَلْيَحْلِلْ بِإِقَامَتِهَا لِسَانَهُ وَطِرْسَهُ ، وَلَا يَتَعَدَّهَا بِنَقْصٍ
وَلَا زِيَادَةٍ ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ . وَاللَّهُ يَخْلُدُ لَهُ رُتْبَةَ الْمُلْكِ
الَّتِي أَعْلَى بِهَا مَقَامُهُ ، وَيُدَيِّمُهُ نَاصِرًا لِلدِّينِ الْحَنِيفِ فَأَنْصَارُهُ لَا يَزَالُونَ ظَاهِرِينَ إِلَى
يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ وَيَجْعَلُ سَبَبَ هَذَا الْعَهْدِ الشَّرِيفِ مَدَى الْأَيَّامِ مَتِينًا ، وَيَجْعَدُّ لَهُ
فِي كُلِّ وَقْتٍ نَصْرًا قَرِيبًا وَفَتْحًا مُبِينًا . وَالخَطُّ الْحَاكِمِيُّ أَعْلَاهُ ، حِجَّةُ بَمَقْتَضَاهُ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وعلى نحو من ذلك كتب القاضي علاء الدين بن عبد الظاهر عن المستكفي بالله ،
أبي الربيع سليمان ، عهد الملك المظفر ركن الدين "بيبرس المنصورى" الجاشنكير .
وهذه نسخته :

هذا عهد شريف أنتظمت به عقود مصالح الملك والممالك، وأبتسمت ثغور الثغور ببعته التي شهدت بصحتها الكرام الملائك، وتمسكت النفوس بحكم عقده النضيد ومبرم عقده النظيم، ووثقت بميثاقه فتركت الألسن مستفتحة بقول الله الكريم: ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

الحمد لله الذي جعل الملة الإسلامية تأوى من سلطانها إلى ركن شديد، ونحوى من متابعة مظفرها كل ما كانت ترومه من تأييد التأييد، وتروى أحاديث النصر عن ملك لا يمل من نصرة الدين الحنيفي وإن مل الحديد من الحديد، وموتى ملكه من يشاء من عباده، ومأبى مقاليد اللوى الملى بجمع أهل عناده، وما نحوه من لم يزل بعزائم ومكارمه مرهوبا مرغوبا، وموليه وموليه من غدا محبوبا من الأنام بواجب الطاعة محبوبا، ومفوض أمره ونبيه إلى من طالما صرف خطيه عن حى الدين أخطارا وخطوبا .

والحمد لله مجرى الأقدار، ومظهر سر الملك فيمن أضحى عند الإمامة العباسية بحسن الاختيار من المصطفين الأخيار، جامع أشتات الفخار، ورافع لواء الاستظهار، ودافع لأواء الأضرار، بجميل الالتجاء إلى ركن أمسى بقوة الله تعالى على المنار، وافی المبار، بادى الآثار الجميلة والإيثار .

والحمد لله على أن قلد أمور السلطنة الشريفة لكافلها وكافياها، وأسند عقدها وحلها لمن يدرك بكريم فطنته وسليم فطرته عواقب الأمور من مبادئها، وأيد الكتاب الإيمانية بمن لم تزل عواليه تبلغها من ذرى الأمانى معاليها .

يحمده أمير المؤمنين على إعلاء كلمة الإيمان بأعيان أعوانها، وإعزاز نصرها بأركان تشييدها وتشييد أركانها، ويشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة

لا تبرح الألسنة ترويتها والقلوب تنويها، والمواهب تُجزل لقائلها تنويلا وتنويها؛
ويشهد أن محمدا عبده ورسوله أكل نبي وأفضل مبعوث، وأشرف مؤرت لأجل
موروث؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تنحى بركاتها وتم^(١)، وتخص حسانتها
وتعم؛ ورضى الله عن عمه العباس جد أمير المؤمنين، وعن آبائه الأئمة المهديين؛
الذين ورثوا الخلافة كابرا عن كابر، وسمت ووسمت بأسمائهم ونعوتهم ذرى المنابر.

أما بعد، فإن الله عز وجل لما عدى بمولانا أمير المؤمنين مصالح الجمهور، وعقد
له البيعة في أعناق أهل الإيمان فزادهم نورا على نور؛ وأورثه عن أسلافه الطاهرين
إمامة خير أمه، وكشف بمصابرة من بأس العدا ظلام كل عمه؛ وأنزل عليه
السكينة في مواطن النصر والفتح المدين، وثبتته عند ترزُل الأقدام وثبت به قلوب
المؤمنين؛ وأفاض عليه من مهابة الخلافة وموادبها ما هو من أهله، وأتم نعمته عليه
كما أتمها على أبويه من قبله - بايع الله تعالى على أن يختار للتملك على البرايا،
والتحكيم في الممالك والرعايا؛ من أسس بنيانه على التقوى، وتمسك من خشية الله
تعالى بالسبب الأقوى؛ ووقف عند أوامر الشرع الشريف في قضائه وحكمه،
ونهض لأداء فرض الجهاد بمعالى عزمه وحزمه؛ وكان المقام الأشرف العالى،
المولوى، السلطانى، الملكى، المظفرى، الركنى؛ سلطان الإسلام والمسلمين،
سيد الملوك والسلاطين؛ ناصر الملة المحمدية، محيى الدولة العباسية؛ أبو الفتح
«بيبرس» قسيم أمير المؤمنين: أعز الله تعالى ببقائه حيا الخلافة وقد فعل، وبلغ
في بقاء دولته الأمل - هو الملك الذى انعقد الإجماع على تفضيله، وشهدت مناقبه
الظاهرة باستحقاقه لتحويل الملك إليه وتحويله؛ وحكم التوفيق والاتفاق بترقيه

(١) نم الحديث ظهر . ونم الشيء . سلطت راحته .

إلى كُرى السلطنة وصُعوده ، وقضت الأقدارُ بأن يُلقيَ إليه أميرُ المؤمنين أزيمةً
 عهوده ؛ والذي كم خفقت قلوبُ الأعداء عند رؤية آياتِ نصره ، ونظمت السنةُ
 الأقدارُ بأن سيكونُ ملكَ عصره وعزيزَ مِصره ؛ وأهترتُ أعطافُ المنابرِ شوقاً بلافتخار
 باسمه ، وأعترتِ الممالكُ بمن زاده الله بسطةً في علمه وجِسمه ؛ وهو الذي ما برح
 مُدْناً نساءً يجاهد في الله حقَّ جهاده ، ويساعدُ في كلِّ معركةٍ بمُهفاتِ سيوفه ومتلفاتِ
 صِعادته ؛ ويُنسِى في الهَيْجاءِ صَفْحَتَهُ للصفاحِ فيقيه الله ويُقيه : ليجعله ظلَّهُ على
 عباده وبلاده ، فيردى الأعداءَ في مواقفِ تَأْييده فكم عفر من خدِّ الملوكِ الكُفر
 تحت سَنابكِ جِيادته ؛ وَيَسْفِي بِصُدُورِ سيوفه صُدُورَ قَوْمِ مؤمنين ، وَيَسْقِي ظِلَاءَ
 أَسْتِنه فيرويه من مَورِدِ وريدِ المشركين ؛ وَيُطْلِعُ في سماءِ الملكِ من غُررِ آرائِهِ
 نِيرَاتٍ لا تَأْفُلُ ولا تَغُورُ ، وَيُظْهِرُ من مواهبه ومهَابته ما تُحسِّنُ به الممالكُ وتُحصِّنُ
 الثغُورَ ؛ فما من حصنٍ أَسْتَلَقَهُ الكُفْرُ إلا وسيفُهُ مِفْتَاحُهُ ، ولا ليلٍ خَطَبَ دَجَا
 إلا وغرَّتْهُ الميمونةُ صباحُهُ ؛ ولا عزَّ أملٌ لأهلِ الإسلامِ إلا وكان في رأيه المسدِّدِ
 نجاحُهُ ، ولا حصلَ خللٌ في طرفٍ من الممالكِ إلا وكان بمشيئةِ الله تعالى وبسدادِ
 تدبيره صلاحُهُ ؛ ولا أتنَّقَ مشهدُ عدوٍ إلا والملائكةُ الكرامُ بمظافرتِهِ فيه أعدلُ
 شهوده ، ولا تجددَ فتوحٌ للإسلامِ إلا جادَ فيه بنفسه وأجاد ؛ (والجُودُ بالنفسِ
 أقصى غايةِ الجُودِ) .

كَمْ أَسْلَفَ في غَزْوِ أعداءِ الدِّينِ من يَوْمِ أَعْرَجِ حَجَّجَلٍ ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ أَبْتِغَاءَ مَرْضَاةِ
 الله سبحانه فحاز الفخرَ المعجَلُ والأجرَ المؤجَّلُ ؛ وأُحْيَا من مَعَالِمِ العُلُومِ ودَوَارِسِ
 المدارسِ كُلِّ دَائِرٍ ، وَحَثَّه إيمَانُهُ على عِمارةِ بيوتِ الله تعالى الجامعةِ لكلِّ تالٍ

وذاكر : ((إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) . وهو الذى مازالت الأولياءُ تَتَحَيَّلُ تَحَايِلَ السُّلْطَنَةِ فى إعطافه مَعْنَى وَصُورِهِ ، والأعداءُ يُرومونَ إطفاءَ ما أفاضه اللهُ عليه من أشعةِ أنواره : ((وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ) . طالما تطاولت إليه أعناقُ الممالكِ فأعرضَ عنها جانباً ، وتطقلتُ على قُربه فكان لها - رعايةٌ لِدِمَّةِ الوفاءِ - مُجَانِباً ؛ حتى أذن اللهُ سبحانه لكلمةِ سلطانهِ أن تُرْفَعَ ، وحكمَ له بالصُّعودِ فى دَرَجِ المُلْكِ إلى المَحَلِّ الأعلى والمكانِ الأرفعِ ، وأدنى له من المَوَاهِبِ ما هو على أسمِهِ فى ذخائرِ الغُيوبِ مستودِع .

فعند ذلك استخار الله تعالى سيدنا ومولانا الإمام المستكفي بالله أمير المؤمنين أبو الربيع سليمان ، ابنُ الإمام الحاكم (وذكروا نَسَبَهُ على العادة) جعل اللهُ الخِلافةَ كلمةً باقيةً فى عَقِبِهِ ، وأمتَعَ الإسلامَ والمسلمينَ بِشَرْقَى حَسَبِهِ وَنَسَبِهِ ؛ وَعَهْدَ إلى المقامِ العالى السلطانى بكلِّ ما وراءَ سريرِ خِلافَتِهِ ، وَقَلَدَهُ جَمِيعَ ما هو مقلِّده من أحكامِ إمامتِهِ ؛ وَبَسَطَ يَدَهُ فى السلطنةِ المعظِّمةِ ، وجعلَ أوامِرَهُ هى النافذةُ وأحكامُهُ هى المُحكِّمةُ ؛ وذلك بالديارِ المِصْرِيَّةِ ، والممالكِ الشاميةِ ، والفراتيةِ ، والجبليةِ ، والساحليةِ ، والقلاعِ والثغورِ المحروسةِ ، والبلادِ الحجازيةِ ، واليمانيةِ ، وكلِّ ما هو إلى خلافةِ أمير المؤمنين مَنسُوبِ ، وفى أقطارِ إمامتِهِ مَحْسُوبِ ؛ وألقى إلى أوامِرِهِ أزمَةَ البَسْطِ والقَبْضِ ، والإبرامِ والتَقْضِ ، والرَّفْعِ والخَفْضِ ؛ وما جعله اللهُ فى يده من حُكْمِ الأرضِ ، ومن إقامةِ سُنَّةِ وَقَرَضِ ؛ وفى كُلِّ هِبَةٍ وتمليكِ ، وتصرفِ فى ولايةِ أمورِ الإسلامِ من غيرِ شريكِ ؛ وفى توليةِ القضاةِ والحُكَّامِ ، وفصلِ القضايا والأحكامِ ؛ وفى سائرِ التحكُّمِ فى الوجودِ ، وعَقْدِ الأولويةِ والبُودِ ؛ وتجنيدِ الكُتَّابِ والجُنُودِ ،

وتجهز الجيوش الإسلامية من التأييد إلى كلِّ مقام محمود ؛ وفي قَهْر الأعداء الذين
 نرجو بقوة الله تعالى أنْ يَمَكِّنَهُ من نَوَاصِيهِمْ ، وَيُحَكِّمَ قَوَاضِيَهُ في أَسْتِزَالِهِمْ من
 صِيَاصِيهِمْ ، وَأَسْتِئْصَالَ شَافَةِ عَاصِيهِمْ ؛ حَتَّى يُجَوِّزَ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى بِمَصَابِيحِ سَيُوفِهِ
 سَوَادَ حُطُوبِ الشَّرْكِ المُدْهِمَةِ ، وَتَغْدُو سَرَايَاهُ في أَفْتِلَاحِ قِلَاعِ الكُفْرِ مُسْتَهْمَةً ؛
 وَتُرْهِبُهُمْ خَيْلُ بُعُوثِهِ وَخِيَالُهَا في اليَقْظَةِ وَالْمَنَامِ ، وَيَدْخُلُ في أَيَامِهِ أَهْلُ الإِسْلَامِ
 «مَدِينَةَ السَّلَامِ» بِسَلَامٍ - تَفْوِيضًا تَامًا عَامًّا ، مَنْضِدًا مُنْظَلًا مُحْكَمًا مُحْكَمًا ؛ أَقَامَهُ مَوْلَانَا
 أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ في ذَلِكَ مُقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَسْتَشْهَدُ الكِرَامَ الكَاتِبِينَ في ثُبُوتِ هَذِهِ
 البَيْعَةِ المُنِيْفَةِ .

فليقلِّدَ المُقَامَ الشَّرِيفَ العَالِي السُّلْطَانِي - أَعَزَّ اللهُ نَصْرَهُ - عِقْدَ هَذَا العَهْدِ الَّذِي
 لَا تَطْمَحُ لِمِثْلِهِ الأَمَالُ ، وَلَيْسَتْ مُسِيكٌ مِنْهُ بِالْعُرْوَةِ الوَثْقِيَّةِ الَّتِي لَا أَنْفِصَامَ لَهَا وَلَا أَنْفِصَالٌ ؛
 فَقَدْ عَوَّلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيَّ مِنْ آرَائِكَ الَّتِي مَا بَرِحَتْ الأُمَّةُ بِهَا في المُعْضَلَاتِ تَسْتَشْفِي ،
 وَأَسْتَكْفِي بِكِفَايَتِكَ وَكِفَالَتِكَ في حِيَاطَةِ المُلْكِ فَأَضْحِي ، وَهُوَ بِذَلِكَ المُسْتَكْفِي ؛
 وَهُوَ يَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أُنْبَاءِ الوَصَايَا أَحْسَنَ القَصَصِ ، وَيُنْصُ لَدَيْكَ مَا أَنْتَ آخِذٌ مِنْهُ
 بِالْعَزَائِمِ إِذَا أَخَذَ غَيْرُكَ فِيهِ بِالرَّخْصِ ؛ فَإِنْ نَبَّهْتَ عَلَيَّ التَّقْوَى فَطَلَمًا تَسَكَّتْ مِنْهَا
 بِأَوْثَقِ عُرْوَةٍ ، وَإِنْ هُدَيْتَ إِلَى سَبِيلِ الرِّشَادِ فَزِلْتَ تَرْتَقِي مِنْهُ أَشْرَفَ ذُرُوهِ ؛
 وَإِنْ أَسْتَرْهَفْنَا عَزَمَكَ المَاضِي العِرَارِ ، وَأَسْتَدْعِينَا حَزَمَكَ الَّذِي أَضَاءَ بِهِ دَهْرُكَ
 وَأَسْتَنَارَ ، في إِقَامَةِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، وَالوَقُوفِ عِنْدَ نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ في كُلِّ حَكْمٍ
 وَتَصْرِيْفٍ ، فَمَا زِلْتَ - خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَكَ - قَائِمًا بِسُنَّتِهِ وَفَرْضِهِ ، دَائِبًا بِرِضَا
 اللهُ تَعَالَى بِإِصْلَاحِ عَقَائِدِ عِبَادِهِ في أَرْضِهِ ؛ وَمَا بَرِحَ سَيْفُكَ المُنْظَرُ للأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ
 خَادِمًا ، وَلِمَوَادِّ البَاطِلِ حَاسِمًا ، وَلَا تُؤْفِ ذَوِي البِدَعِ رَاعِمًا ؛ فَكُلُّ مَا نُوصِيكَ بِهِ

من خير قد جُبات عليه طباعك ، ولم يزل مشتدًّا فيه ساعدك ممتدًّا إليه بأعك ؛ غير
 أنا نُورد لمعة اقتضاها أمرُ الله تعالى في الاقتداء بالتذكرة في كتابه المبين ، وأوجها
 نصُّ قوله تعالى : ﴿ وَذَكَرْنَا لِلذَّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ويندرج تحت أصولها
 فروعٌ يستغني بديقِ ذهنه الشريف عن نصِّها ، وبفكره الثاقب عن قصِّها ؛ فأعظمها
 للذة نفعاً ، وأكثرها للباطل دفعا ، الشرع الشريف : فيلكن - أعز الله نصره -
 عاملاً على تشييد قواعد إحكامه ، وتنفيذ أوامره أحكامه ؛ فالسعيد من قرن أمره
 بأمره ، ورضى فيه بمجملو الحق ومُره . والعدلُ فليُنشر لواءه حتى يأوي إليه الخائف ،
 وينكف برذعه حيف كل حائف ؛ ويتساوى في ظلِّه الغني والفقير ، والمأمور والأمر ؛
 ويمسى الظلم في أيامك وقد نحمدت ناره ، وعفت آثاره .

وأهم ما احتفلت به العزائم ، وأشملت عليه همَّ الملوك العظام ، وأشرعت له
 الأسنة وأرهفت من أجله الصوارم ؛ أمر الجهاد الذي جعله الله تعالى حصناً
 للإسلام وجنَّة ، وأشترى فيه أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنَّة ؛ فجدد له الجنود وأجمع
 له الكتاب ، وأفض في مواقفه على الأعداء من بأسك بالقواضي القواضب ؛
 وأغزهم في عُقر الدار ، وأرهف سيفك البتار : لتأخذ منهم للسلمين بالثار . والشعور
 والحصون ، فهي سرُّ الملك المصون ، وهي معاقل النفوس إذا دارت رحي الحرب
 الزبون ؛ فليقلد أمرها لكفاتها ، ويخص حمايتها بمجتماتها ، ويضاعف لمن بها أسباب
 قوتها ومادة أقاتها . وأمراء الإسلام وجنود الإيمان فهم أولياء نصرك ، وحفظة
 شامك ومصرك ؛ وحزبك الغالب ، وفريقك الذين تفرق منهم قلوب العدا في المشارق
 والمغرب ؛ فيلكن المقام العالی السلطاني - أعزه الله تعالى - لأحوالهم متفقدا ،
 وبسوط وجهه لهم متوددا ؛ حتى نتأكد لمقامه العالی طاعتهم ، وتجدد لسلطانه العزيز

ضَرَاعَتُهُمْ . وأما غير ذلك من المصالح ، فما برح تديره الجميل لها ينفذ ورأيه الأصيل بها يُشير ، فلا يحتاج مع علمه بغوامضها إلى إيضاحها (ولا ينبئك مثل خبير) . والله تعالى ينحّص دولته من العدل والإحسان بأوقر نصيب ، ويمنح سلطانه ما يرجوه من النصر المعجل والفتح القريب ؛ إن شاء الله تعالى .

المذهب الثاني

(أن يفتح العهد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة وكنيته ولقب الخلافة ، « إلى فلان » باسم السلطان وكنيته ولقب السلطنة كما في المكاتبات ، ثم يأتي بعد ذلك بلفظ « أما بعد »)

ثم تارة يأتي بعد البعدية بتحميد ، مثل أن يقول : « أما بعد فالحمد لله » ويتخلص إلى ذكر أمر الولاية وما يتخبط في سلكها ؛ وتارة يأتي بعد البعدية بخطاب المولى والدعاء له ، ويتخلص إلى مقاصد العهد : من الوصايا وغيرها ، على اختلاف مقاصد الكُتّاب ، وعلى ذلك كانت العهود في دولة الفاطميين بمصر .

قلت : وقد يستحسن هذا المذهب فيما إذا كان المعهود إليه غائباً عن حضرة الخليفة : لأن العهد يصير حينئذ كالرسالة الصريحة إليه ، بخلاف ما إذا كان بحضرة فإنه لا يكون في معنى الرسالة الصريحة .

وعلى هذا المذهب كتب أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله عهد شرف الدولة شيرزك بن عضد الدولة بن بويه ، وهذه نسخته :

من عبد الله « عبد الكريم الإمام الطائع لله » أمير المؤمنين ، إلى شيرزك بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع مولى أمير المؤمنين :

سلامٌ عليك ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمّدُ إليك الله الذي لا إلهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلىَّ علىَّ محمدٍ وعبدِهِ ورسوله صلى الله عليه وسلم .

أما بعد - أطالَ اللهُ بقاءَكَ ، وأدامَ عزَّكَ وتأييدَكَ ، وسعادَتَكَ ونعمتَكَ ، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالموهبةِ فيك وعندَكَ - فإنَّ أمير المؤمنين يرى أن يحفظَ على كلِّ وليٍّ وأحمدَ مَدَاهِبِهِ ، وأرضى أضرابِهِ ؛ وأنصرفَ عن الدنيا متمسكاً بطاعته ، متديناً بمشايعته ، حقوقه المتوحّده ، وحرُماتِهِ المتمهّده ؛ فيمن يخلّفه بعده من ولدٍ أمل أن يرث عنه محلّه ، ويقومَ فيه مقامه ؛ وفاءً لأهلِ الوِلايَةِ ، وتصرُّفاً على أحكام الرِّطايَةِ ؛ وسياقةً للصنِيعَةِ من سالفٍ إلى خالفٍ ، وإمضاءً من تالِدٍ إلى طارفٍ . هذا على الأمرِ الجامع ، والعمومِ الشامل ؛ فإذا اتَّفَقَ أنْ مُتَمَيَّئٌ وِراثةَ القُربِ إليه ، والمنازِلِ لَدَيْهِ ، إلى النُّجباءِ الأفاضِلِ ، والحُصفاةِ الأماثِلِ ؛ الذين يَسْتَجِبُونَ اسْتِثْنافَ الإِصْطِناعِ لهم ، وأسْتِقبالَ التَّفويضِ إليهم بالمناقبِ الموجودةِ فيهم ؛ لو أنفردتْ عما حازوه عن آبائِهِم وأولياءِهِم ، أجرى أمير المؤمنين ما يُفِيضُهُ عليهم من الأيادي ، ويُرَقِّبُهُم إليه من هَضابِ المعالي ، مُجرى الأمرِ الواجبِ الذي كثرتِ الدَّواعي إليه ، واتَّفَقَ الرأى والهوى عليه ؛ وتطابقَ الإيثارُ والإِختبارُ فيه ، وأقترنَ الصوابُ والسَّدادُ به ؛ وأشتركَ المسامُونُ في اسْتِثْمارِ فائِدَتِهِ وعائِدَتِهِ ، والإِنتفاعِ بِتأديتِهِ وعاقبَتِهِ ؛ والله يخيّرُ لأمرِ المؤمنين فيما يُمِضُهُ من العزائمِ ، ويبيِّنُهُ من الدِّعائمِ ؛ ويعتمده من المصالحِ ، ويتوخَّاه من المناسجِحِ ؛ إنه على ذلك قديرٌ ، وبه جديرٌ ؛ وهو حسبُ أمير المؤمنين ونعم الوكيل .

وقد علمت - أدامَ اللهُ عزَّكَ وأمتعَ أمير المؤمنين بك - أن شجرة بيتك [هى] التى تمكَّنتُ فى الخدمةِ أصولها ، والفضيلةُ منوطَةٌ بها ، وأسبابُ التَّمامِ والدوامِ مجتمعةٌ فيها ؛

فذلك سبغت النعمة عليكم، وأمتد ظلها إليكم؛ ونقلت فيها أقداحكم، وتوفرت منها
حُظوظكم؛ فتداولتموها بينكم كإبراً عن كابر بمساعيكم الصالحة، ومناهيكم الواضحة؛
وتعاضدكم على ما لم تشعث الدولة الجامعه، وطرف عنها الأعين الحاسده؛ وكان
شيخك عضد الدولة، وتاج الملة؛ أبو شجاع رضوان الله عليه، صاحب الرتبة الرعوى
عند أمير المؤمنين وهماهما، والمتطى غاربها وسنامها؛ فعاش ماعاش مشكورا محمودا؛
ثم أنقلب إلى لقاء ربه سعيدا رشيدا؛ وأوجب أمير المؤمنين لك وله منك الخلول
بمكانه، وحيارة خطره وشانه؛ إذ كنت أظفر ولده، وأول المستحقين لوراثته؛
وكانت فيك مع ذلك الأدوات المقتضيات لأن يفوض الأمور إليك، ويعتمد فيها
عليك: من كفاية وغناء، وأستقلال ووفاء؛ وسياسة وتدبير، وشهامة وتشمير؛
وتصرف على طاعة أمير المؤمنين، وإشبال^(١) على إخوتك أجمعين؛ وحسن أثر فيما
أنفذ أمرك فيه، وإفاضة أمن فيمن أمضيت ولايتك عليه؛ وإحاطة بدلائل
الحواله، وتحايل الأصاله؛ بمثلها ثمال الغايات الأفاصى، وتفترح الذوائب والنواصي؛
فتوكل أمير المؤمنين تلك المائثره، وخوكلت تلك المفخره، وجعل أخاك صمصام
الدوله، وشمس الملة؛ أبا كاليبجار - أمتع الله [بكا] أمير المؤمنين - بك تأييده،
والمقدم بعدك على ولد أبيك؛ وأجرا كما في التطبيق بينكما والتقرير لمنازلكما على مثل
ماجرى الأمر عليه بين ركن الدولة أبي علي ومعز الدولة أبي الحسين سالقا، ثم بين
عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع ومؤيد الدولة أبي منصور آفا؛ تولاهم الله بالرحمه،
ونفعهم بما قبضهم عليه من وثائق العصمه؛ وخصك أمير المؤمنين بعد ذلك
بما يخص به ذو القدر الشاخر والقدم السابقه، والمحللة الساميه؛ فذكرك بالتكنيه،
ورفعك عن التسميه؛ ولقبك لقبين: أحدهما «شرف الدولة» لتشريفه بك أولياءه

(١) الإشبال العطف على الرجل ومعونه . انظر اللسان ج ١٣ ص ٣٧٥ .

الذين أوطأهم عَقَبَكَ ، وأعلَقَهم حَبْلَكَ ، والآخِرُ «زَيْنُ المِلَّةِ» لَزِينَةُ أَيَّامِهِ بِمَعَالِيكَ ،
وتَضَاعَفَ بِجَاهِهَا بِمَسَاعِيكَ ؛ وَعَقَدَ لَكَ بِيَدِهِ لَوَائِينَ يَلُويَانِ إِلَيْكَ الأَعْنَاقَ بالطَّوْعِ
مِنَ سَرَاتِهِ وَأَبْهَجَاهُ ، وَالكَرَّهَ مِنْ رَاعَاهُ وَأَزْجَاهُ ؛ وَأَمْرٌ بِأَنْ تُقَامَ لَكَ الدَّعْوَةُ عَلَى مَنَابِرِ
مَدِينَةِ السَّلَامِ وَمَا يَجْرِي مَعَهَا مِنَ الأَعْمَالِ بَيْنَ الدَّعْوَةِ لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ وَبَيْنَ
الدَّعْوَةِ لِصَمُصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ المِلَّةِ ؛ أَمْتَعَ اللهُ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِكَ ، وَأَحْسَنَ الدَّفَاعَ
لَهُ عِنْدَكَ ؛ إِحْقَاقًا لَكَ وَلَهُ بِبَدَلِكَ بِأَبْيَكَمَا فِيمَا كَانَ شُرْفٌ بِهِ مِنْ هَذِهِ الحَالِ الَّتِي لَمْ يُلْغُهَا
غَيْرُهُ ، وَلَا أَهْلٌ لَهَا أَحَدٌ قَبْلَهُ ، وَأَنْ يُثَبَّتَ ذِكْرُكَ بِالقَلْبِ وَالكُنْيَةِ فِيمَا يُنْقَشُ مِنْ
سِجِّكِ العَيْنِ وَالوَرِقِ فِي دُورِ الضَّرْبِ بِأَدْيَا ، وَذِكْرُ صَمُصَامِ الدَّوْلَةِ - كَلَّا كَمَا اللهُ -
تَالِيًا . وَحَبَابَكَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ مَعَ ذَلِكَ يَجْلَعُ تَامَّةً تُفَاضُ عَلَيْكَ ، وَفَرَسَيْنِ مِنْ جِيَادِ حَيْلِهِ
يُقَادَانِ إِلَيْكَ ؛ بِمَرْكَبِي ذَهَبٍ مِنْ خَاصِّ مَرَاكِبِهِ ، وَسَيْفٍ مَاضٍ مِنْ خِيَارِ أَسْيَافِهِ ؛
يُعِزُّ اللهُ مَنَكِيكَ بِبِنَجَادِيهِ ، وَيُذِلُّ مَنَاكِبَ أَعْدَائِكَ بِغِرَارِيهِ ، وَطَووقَ وَسَوَارِيهِ .
وَأَنْ تُجْرِي فِي المَكَاتِبِ عَنْهُ إِلَى الغَايَةِ الَّتِي أُجْرَى أَبُوكَ رَحِمَهُ اللهُ إِلَيْهَا ، وَهَذَا الكِتَابُ
نَاطِقٌ بِهَا وَدَالٌّ عَلَيْهَا . وَنَدَبٌ لِإِيصَالِ الجَمِيعِ إِلَيْكَ عَلَى بَنِّ الحُسَيْنِ الهَاشِمِيِّ الزَّيْنِيِّ ،
وَأَحْمَدَ بَنِّ نَصْرِ العَبَّاسِيِّ حَاجِبِهِ وَوَحْيِ خَادِمِهِ ؛ فَتَلَقَّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ المِلَّةِ
وَأَبَا الفَوَارِسِ [ذَلِكَ] - أَدَامَ اللهُ عِزَّكَ - بِمَا يَحِقُّ عَلَيْكَ مِنْ تَقْوَى اللهِ فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ ،
وَمِرَاقَبَتِهِ فِي قَوْلِكَ وَعَمَلِكَ ، وَابْتِغَاءِ رِضَاهِ فِي مَخْتَلِجِ خَطَرَاتِكَ وَفِكَرِكَ ، وَاتِّبَاعِ
طَاعَتِهِ فِي مَخَارِجِ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ؛ وَقَابِلِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ ، وَأَحْسَنَ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ بِالشُّكْرِ
الَّذِي مَوْقِعُهُ مِنَ النِّعْمَةِ مَوْقِعُ القِرَى مِنَ الضَّيْفِ ، فَإِنْ وَجَدَهُ لَمْ يَذُمَّ ، وَإِنْ قَفَدَهُ
لَمْ يُقِمِّمْ ؛ وَأَمَدُّ عَلَى مَنْ وُلِّيتَ عَلَيْهِ مِنَ الخَاصَّةِ وَالعَامَّةِ ظِلِّكَ ، وَوَطْنُ لِهْمِ كَنَفِكَ
وَأَعْمُرُهُمْ بِطَوْلِكَ ؛ وَسُسْمُهُمْ سِيَاةً يَكُونُ بِهَا صِلَاحُهُمْ مَضْمُونًا ، وَحَرِيمُهُمْ مَضُونًا ؛
وَبِلَادِهِمْ مَعْمُورَةً ، وَمَنَافِعُهُمْ مَوْفُورَةً ؛ وَحَلْبُهُمْ دَاتَا ، وَعَيْشُهُمْ رَغَدًا ؛ وَتَفُورُهُمْ

مُسَدُّودَه ، وَأَعَادِيهِمْ مَدُّودَه ؛ وَمَسَالِكُهُمْ مَحِيَّةَه ، وَمَسَاكِنُهُمْ مَرَعِيَّةَه ؛ وَمُرَّهْمُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَأَنْهَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ؛ وَأَبْعَثَهُمْ عَلَى الْحَسَنَاتِ ، وَأَكْفَفَهُمْ عَنِ السَّيِّئَاتِ ؛ وَسَاوَى فِي الْحَقِّ بَيْنَ شَرِيْفِهِمْ وَمَشْرُوفِهِمْ ، وَقَوِيْمِهِمْ وَضَعِيْفِهِمْ ؛ وَقَرِيْبِهِمْ وَغَرِيْبِهِمْ ؛ وَمِلِيْمِهِمْ وَذَمِيْمِهِمْ ؛ وَقَوْمَ سَفْهَاءِهِمْ وَجَهَّالِهِمْ ، وَأَنْفِ دُعَاؤِهِمْ وَخُرَابِهِمْ ؛ وَأَكْرَمَ صَلَاحِهِمْ وَعُلَمَاءِهِمْ ، وَشَاوِرَ فُضَلَاءِهِمْ وَعُقَلَاءَهُمْ ؛ وَجَالَسَ أَدْنِيَاءَهُمْ وَأَعْلِيَاءَهُمْ ؛ وَأَنْلَهُمْ مَرَاتِبَهُمْ ، وَزَلَّظَهُمْ مَنَازِلَهُمْ ؛ وَأَرِيَّهُمْ تَمَسُّكَكَ بِالْدِيْنِ لِيَقْتَدُوا بِكَ فِيهِ ، وَرَغَبْتِكَ فِي الْخَيْرِ لِيَتَقَرَّبُوا إِلَيْكَ بِهِ ؛ وَخَذَ الْحَقَّ وَأَعْطَاهُ ، وَأَبْسَطَ الْعَدْلَ وَقُلَّ بِهِ ؛ وَأَدْرَأَ الْحُدُودَ بِالشُّبُهَاتِ ، وَأَفْهَمَهَا وَأَمْضَاهَا بِالْبَيِّنَاتِ : لَتَكُونَ الرَّغْبَةُ إِلَيْكَ فِي رَغَبٍ ، وَالرَّهْبَةُ مِنْكَ فِي رَهَبٍ ؛ وَبِالْجُمْلَةِ فَاحْمِلِ النَّاسَ عَلَى كِتَابِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَزَّ - وَأَدَايِهِ ، وَسُنَّةِ الرَّسُولِ وَمَا جَاءَ بِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ جَعَلَ كِتَابَهُ هَذَا عَهْدًا إِلَيْكَ ، وَحِجَّةً لَكَ وَعَلَيْكَ ؛ وَأَنَّ الْأَوَامِرَ وَالنَّوَاهِيَ فِي الْعَهْدِ تَكُونُ كَثِيرَةً : وَإِنَّمَا قَصَّرَ فِيهِ عَنِ اسْتِيفَائِهَا ، لِارْتِفَاعِ طَبَقَتِكَ عَنِ الْحَاجَةِ إِلَى اسْتِقْصَائِهَا ، وَلِلخُرُوجِ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْحَقِّ فِي تَضْمِينِهِ هَذِهِ الْجُمْلَةَ مِنْهَا ؛ فَإِذَا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيْكَ مَعَ كِرَامَاتِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُقَدَّمِ ذِكْرُهَا لَكَ ، فَالْبَسْ خِلْعَةَ ، وَتَقَلَّدْ سَيْفَهُ ؛ وَتَحَلَّ بِجِلْدِهِ ، وَأَبْرُزْ لِمَنْ يَلِيكَ عَلَى حُمْلَانِهِ ^(١) ، وَأَظْهِرْ لَهُمْ ضُرُوبَ إِحْسَانِهِ وَأَمْتِنَانِهِ ؛ وَأَنْصِبْ أَمَامَكَ اللَّوَاءَيْنِ ، وَتَكَنَّ وَتَلَقَّبْ بِاللَّقَبَيْنِ ؛ وَكَاتِبٍ مِنْ تَكَاتِبِ مَنْ طَبَقَاتِ النَّاسِ مُتَلَقِّبًا بِهِمَا مُتَكَنِّيًا ، إِلَّا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّ الْأَدَبَ أَنْ لَا تَكْتُبَهُ مُتَلَقِّبًا بِلِ مَسْمِيًّا ؛ وَلَيْسَ ذَلِكَ نَاقِصًا لَكَ فِيمَا أُعْطِيْتَهُ ، وَلَا مَرْتَجِمًا شَيْئًا مِمَّا حُيِّتَ بِهِ ؛ وَلَكِنَّهُ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالرَّسْمُ الْمَأْلُوفِ ؛ وَصِلْ مَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ أَخِيكَ

(١) في القاموس مانصه « والحملان بالضم ما يحمل عليه من الدواب في المهمة خاصة » .

صَمِّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ المِلَّةِ - أَدَامَ اللهُ الإِمْتَاعَ بِكَا - بِالمَوَدَّةِ ، كَمَا وَصَلَهُ اللهُ بِالأُخُوَّةِ ؛
 وَكُنَّا جَمِيعًا يَدًا فِي طَاعَةِ أميرِ المُؤْمِنِينَ ، وَاسْتَقِيًّا عَلَى كَلِمَةِ سِوَايَ فِي رِعَايَةِ المُسَالِمِينَ ؛
 وَأَتَّفَقْنَا عَلَى مَسَالِمَةِ المُسَالِمِينَ ، وَتَعَاضَدًا فِي مَحَارِبَةِ المُحَارِبِينَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ أَرَابُ
 لِلصُّدْعِ ، وَأَحْتَمُ لِلبِشْرِ ، وَأَنْظَمُ لِلشَّمْلِ ، وَأَلِيْقُ بِالأَهْلِ . وَأَقِمِ الدَّعْوَةَ لِنَفْسِكَ عَلَى
 مَنَابِرِ المَمَالِكِ بَعْدَ إِقَامَتِهَا لِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ؛ وَكَاتِبُ أميرِ المُؤْمِنِينَ بِأَخْبَارِكَ ، وَطَالِعُهُ
 بِأَتَارِكِ ؛ وَأَسْتَدْعِ أَمْرَهُ فِيمَا اسْتَعَجَمَ مِنَ التَّدْيِيرِ عَلَيْكَ ، وَرَأْيَهُ فِيمَا اسْتَبْهَمَ مِنَ الأُمُورِ
 دُونَكَ ؛ وَأَسْتَرْشِدْهُ إِلَى الحِظِّ يُرْشِدُكَ ، وَأَسْتَهْدِ فِي الخُطُوبِ يَهْدِيكَ ؛ وَأَسْتَمْتَهُ
 مِنَ المَعُونَةِ يُمِدُّكَ ، وَأَشْكُرُ آلاءَهُ يَزِدُّكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

أَطَالَ اللهُ بِقَآءِكَ وَأَدَامَ عِزَّكَ وَتَأْيِيدَكَ ، وَسَعَادَتَكَ وَنِعْمَتَكَ ؛ وَأَمَّتْ أميرِ المُؤْمِنِينَ
 بِكَ وَبِالرَّغْبَةِ فِيكَ وَعِنْدَكَ ؛ وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .



وَعَلَى هَذَا النِّمَطِ كَتَبَ القَاضِي الفَاضِلُ عَهْدَ أسَدِ الدِّينِ شِيرَكُوهُ بِالوِزَارَةِ
 عَنِ العَاضِدِ الفَاطِمِيِّ ، وَالوِزَارَةُ يَوْمَئِذٍ قَائِمَةٌ مَقَامَ السُّلْطَنَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ ،
 وَهَذِهِ نَسَخَتُهُ :

مِنَ عَبْدِ اللهِ وَوَلِيِّهِ ، عَبْدِ اللهِ أَبِي مُحَمَّدِ الإِمَامِ العَاضِدِ لِدِينِ اللهِ أميرِ المُؤْمِنِينَ ،
 إِلَى السَّيِّدِ ، الأَجَلِّ ، المَلِكِ ، المَنْصُورِ ، سُلْطَانِ الجيُوشِ ، وَلِيِّ الأُمَمِ ، نَجْرِ الدَّوْلَةِ ،
 أسَدِ الدِّينِ ، كَافِلِ قُضَاةِ المُسَالِمِينَ ، وَهَادِي دُعَاةِ المُؤْمِنِينَ ؛ أَبِي الحُرْثِ شِيرَكُوهُ
 العَاضِدِيِّ ، عَضَّدَ اللهُ بِهِ الدِّينَ ، وَأَمَّتْ بِطُولِ بَقَائِهِ أميرِ المُؤْمِنِينَ ؛ وَأَدَامَ قَدْرَتَهُ ،
 وَأَعْلَى كَلِمَتِهِ .

سلامٌ عليك : فإنَّ أمير المؤمنين يحمّدُ إليك الله الذى لا إلهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلىَّ على سيّدنا محمّدٍ خاتم النبیین ، وسيّد المرسلین ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهديين ، وسلّم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فالحمّد لله القاهر فوق عباده ، الظاهر على من جاهر بعباده ؛ القادر الذى يعجزُ الخلق عن دفع ما وُدع ضمائر الغيوب من مراده ، القوى على تقريب ما عزبت الهمم باستبعاده ؛ الملىّ بحسن الجزاء لمن جاهد فى الله حقّ جهاده ، مؤتى الميثاق من يشاء بما أسلفه من ذخائر رشاده ، ونازعه ممن يشاء بما أقرّفه من بكار فساده ؛ منجد أمير المؤمنين بمن أفضى فى نصرته العزائم ، وأستقبله الأعداء بوجوه التّدم وظهور الهزائم ؛ وفعلت له المهابة ما لا تصنع الهمم ، وخلعت آثاره على الدنيا ما تخلعه الأنوار على الظلم ؛ وعدست نظراؤه بما وجد من محاسنه التى فاق بها ملوك العرب والعجم ، وانتقم الله به ممن ظلم نفسه وإن ظنّ الناس أنه ظلم ؛ وذاد عن موارد أمير المؤمنين من هو [منه] أولى بها ويأبى الله سبحانه إلا إمضاء ما حتم ، ورام إخفاء فضائله وهل يشتهر طيب المسك إلا إذا أكتّم ؟ مؤيد أمير المؤمنين بإمام أقر الله به عينهم ، وقضى على يده من نصرته الدين دينهم : ﴿ لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم ﴾ .

والحمد لله الذى خصّ جدنا محمّداً بشرف الأصطفاء والاجتباء ، وأنهضه من الرسالة بأثقل الأعباء ، وذخر له من شرف المقام المحمود أشرف الأنصباء ؛ وأقام به القسطاس ، وطهر به من الأدناس ؛ وأيده بالصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ،

(١) كذا فى الأصول ولعله ما اعترفت : تأمل .

والبس شريعته من مكارم الأفعال والأقوال أحسن لباس؛ وجعل النور ساريًا منه في عقبه لا ينقصه كثرة الاقتباس : ﴿ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ ﴾ .

والحمد لله الذي اختار أمير المؤمنين لأن يقوم في أمته مقامه، وهدى بمرآته نوره إلى طرق دار المقامه، وأوضح به منار الحق وأعلامه؛ وجعله شهيد عصره، ومجته أمره؛ وباب رزقه، وسبيل حقه؛ وشفيع أوليائه، والمستجار من الخطوب بولائه، والمضمونة لذويه العقبى، والمسئول له الأجر في القربى؛ والمفترض الطاعة على كل مكلف، والغاية التي لا يقصر عنها بولائه إلا من تأخر في مضار التجارة وتخلف المشفوع الذكر بالصلاة والتسليم، والهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ لا يقبل عمل إلا بخفارة ولائه، ولا يضل من استضاء بأنجم هدايته الأمامية، ولا دين إلا به ولا دنيا إلا معه: ليتضح النهج القاصد، ولتقوم الحجة على الجاحد؛ وليكون لشيعته إلى الجنة نعم الشافع والرائد، وليأتى الله به ببيان الأعداء من القواعد، وليبين لهم الذي اختلفوا فيه وليعلموا أمّا هو الله واحد .

يمجده أمير المؤمنين على ما حباه من التأييد الذي ظهر فبه، وانتشر فعم نفعه البشر؛ والإظهار الذي أشرك فيه جنود السماء والأرض، والإظهار الذي عقد الله منه عقدا لا تدخل عليه أحكام النقض، والانتصار الذي أبان الله به معنى قوله : ﴿ وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ﴾ .

ويسأله أن يصلى على سيدنا محمد الأمين، المبعوث رسولاً في الأميين؛ الهادى إلى دار الخلود، المستقل^(١) بيانه استقلال عوثر الجدود، والمعدود أفضل نعمة على أهل الوجود؛ والصابية بشريعته مشارع النعمه، والواضحة به الحنيفية البيضاء

(١) المستقل . من استقل الشيء إذا ارتفع يريد أن بيانه مرتفع ارتفع عوثر الجدود .

لئلا يكون أمر الخلق عليهم عُمه ؛ وعلى أئمتنا أخيه وابن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ناصر شريعته وقسيمه في النسب والسبب ، ويد الحق التي حكم لها في كل طاب بالغلب ؛ وعلى الأئمة من ذريتهما وسائط الحكم ، ومصايح الظلم ومفاتيح النعم ؛ والمخفيين دعوى من باهأهم وفانر ، والباذلين جهدهم في جهاد من أخذ مع الله إلهاً آخر ؛ وسلم وردد ، ووالى وجدد .

وإن أمير المؤمنين لما فوضه الله تعالى إليه من إيلة الخليفة ، ومنحه من كرم السجية وكرم الخليفة ؛ وبسطه من يده على أهل الخلاف ، وأنجزه من موعوده الذي ليس له إخلال ولا إخلاف ؛ وأوضحه من براهين إمامته للبصائر ، وحفظ به على الإسلام من طليعة المبادئ وساقية المصائر ؛ وأورثه من المقام الذي لا يذبحي إلا له في عصره ، وأستخدم فيه السيوف والصروف من تادية فرائض نصره ؛ وأظهره من المعجزات ، التي لا يخلو منها زمن ، وظاهره من الكرامات ، التي زادت على أمانة كل مومن ، وأتمنه عليه من أسرار النبوة التي رآه الله تعالى لها أشرف مودع وعليها أكرم مؤتمن ؛ وأجرى عليه دولته من تذييل الصعاب وتسهيل الطلّاب ، وتفليل أحزاب الشرك إذا اجتمعوا كما اجتمع على جدّه صلى الله عليه وسلم أهل الأحزاب . يواصل شكر هذه النعم التوام ، ويعرف بهوارفها الفرادى والتوام ؛ ويقدم بين يدي كل عمل رغبة إليه في إيضاح المرآشد ، ونية لا تفضل عنها الهداية ولا سيما وهو الناشد ؛ ويستخيره عالماً أنه يقدم إليه أسباب الخير ، ويأجبه فيطلبه الإلهام على ما يحلى السير ويحلى الغير ؛ يأخذ بيد الله حقه إذا اغتصبت حقوقه ، ويستنجد بالله إذا استبيح خلافه وأسبجيز عقوقه ؛ ويفزع إلى الله تعالى إذا قرع الضائر ، ويثق بوعد الله تعالى إذا استهلك الشبه البصائر ؛ فما اعترض ليل كربة إلا أنصدع

له عن بَخْرٍ وَضَّاحٍ ، ولا أَنْتَقِضَ عَقْدُ غَادِرٍ إِلَّا عَاجِلَهُ اللهُ سَبْحَانَهُ بِأَمْرِ فَضَّاحٍ ؛
 وَلَا أَنْقَطَعَتْ سُبُلُ نُصْرَةٍ إِلَّا وَصَلَهَا اللهُ تَعَالَى بِمَنْ يُرْسِلُهُ وَلَا أَنْصَدَعَتْ عَصَا أُلْفَةٍ
 إِلَّا تَدَارَكَ اللهُ تَعَالَى بِمَنْ يَجْزُدُهُ تَجْرِيدَ الصَّفَاحِ ؛ وَإِذَا عَدَدَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ النَّعْمَ
 الْجَسِيمَةَ ، وَالْمِنَحَ الْكَرِيمَةَ ؛ وَاللِّطَائِفَ الْعَظِيمَةَ ، وَالْعَوَارِفَ الْعَمِيمَةَ ؛ وَالآيَاتِ
 الْمَعْلُومَةَ ، وَالْكَفَايَاتِ الْمُحْتَمَةَ وَالْعَادَاتِ الْمُنْظُومَةَ ؛ كُنْتَ أَيُّهَا السَّيِّدُ الْأَجَلُ -
 أَدَامَ اللهُ قُدْرَتَكَ ، وَأَعْلَى كَلِمَتِكَ - أَعْظَمَ نِعَمَ اللهِ تَعَالَى أُنْرًا ، وَأَعْلَاهَا حَظْرًا ،
 وَأَقْضَاهَا لِلْأُمَّةِ وَطْرًا ؛ وَأَحَقَّهَا بِأَنْ تَسْمَى نِعْمَةً ، وَأَجْدَرَهَا بِأَنْ تُعَدَّ رَحْمَةً ؛ وَأَسْمَاهَا
 أَنْ تَكْتَشِفَ عُجْمَهُ ، وَأَنْضَاهَا فِي سَبِيلِ اللهِ سَبْحَانَهُ عَزْمَةً ؛ وَأَمْضَاهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ
 حَذًّا ، وَأَبْدَاهَا فِي الْجِهَادِ جِدًّا ؛ وَأَعْدَاهَا عَلَى الْأَعْدَاءِ يَدًّا ، وَأَحْسَنَهَا فِعْلًا لِلْيَوْمِ
 وَأَرْجَاهَا غَدًا ؛ وَأَفْرَجَهَا لِلْأَزْمَةِ وَقَدْ كَادَتِ الْأُمَّةُ تَصِيرُ سُدَى ، وَأَحَقَّ الْأَوْلِيَاءِ
 بِأَنْ يَدْعَى لِلْأَوْلِيَاءِ سَيِّدًا ، وَأَبْقَاهُمْ فَعَلَةً لَا يَنْصَرِمُ فِعْلُهَا الَّذِي بَدَأَ أَبَدًا .

فَلْيَهَيْتِكَ^(١) أَنْتَ حِزْبُ اللهِ الْغَالِبِ ، وَشِهَابُ الدِّينِ الثَّاقِبِ ، وَسَيْفُ اللهِ الْقَاضِبِ ؛
 وَظُلُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُدُودِ ، وَمَمْرُدُ نِعْمَتِهِ الْمُرُودِ ، وَالْمَقْدَمُ فِي نَفْسِهِ وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا
 لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ؛ وَنَصْرَتَهُ حِينَ تَنْصَرُّ أَهْلُ الضَّلَالِ ، وَهَاجَرَتِ إِلَيْهِ هَاجِرًا بَرْدَ الزَّلَالِ
 وَبَرْدَ الظَّلَالِ ؛ وَخُضَّتْ بِحَارَ الْأَهْوَالِ ، وَفِي يَدِكَ أَمْوَاجُ الْبِصَالِ ؛ وَهِيَ فِي جِيدِكَ الْيَوْمِ
 عِقْدُ جَوَاهِرِ مَنْتَهَى نَظْمِ لَالٍ ، بَلْ قَدْ بَلَغَتْ السَّمَاءَ وَزَيَّنَتْ مِنْكَ بِنُجُومِ نَهَارِ الْأَنْجُومِ
 لَيْالٍ ؛ وَكَشَفَتْ الْغَمَّاءَ وَهِيَ مُطْبِقُهُ ، وَرَفَعَتْ نَوَاطِرَ أَهْلِ الْإِيمَانِ وَهِيَ مُطْرِقُهُ ؛
 وَعَقَصَتْ أَعْنَةَ الطُّغْيَانِ وَهِيَ مُطْلَقُهُ ، وَأَعَدَّتْ بِجُنُكِنِكَ عَلَى الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ بِهَجَّةٍ
 شَبَابَهَا الْمُؤَنِقَةَ ؛ وَأَنْقَذْتَ الْإِسْلَامَ وَهُوَ عَلَى شَفَى جُرْفِ هَارٍ ، وَنَفَذْتَ حِينَ لَا تَنْقُذُ

(١) فِي الْأَصْلِ فَلْيَهَيْتِكَ . وَفِي السَّنَانِ ج ١ ص ١٨٠ « وَالْعَرَبُ تَقُولُ لِيَهَيْتِكَ الْفَارِسُ بِجَزْمِ الْهَمْزَةِ

وَلْيَهَيْتِكَ الْفَارِسُ بِيَاءٍ سَاكِنَةٍ وَلَا يَجُوزُ لِيَهَيْتِكَ كَمَا تَقُولُ الْعَامَّةُ » . فَتَنْبَهُ .

السهم عن الأوتار؛ وسمعت دعوته على بُعد الدار، وأبصرت حق الله ببصيرتك وتم من أناس لا يرونه بأبصار؛ وأجليت طاغية الكفر وسواك أجذبته، وصدقت الله سبحانه حين دأهته من لا بصيرة له وكذبه؛ وأقدمت على الصليب وجرماته متوقده، وقاتلت أولياء الشيطان وعمراته متمرده؛ وما يومك في نصرة الدولة بواحد، ولا أمسك مجحود وإن رغم أنف الجاحد؛ بل أوجبت الحق بهجرة بعد هجره، وأجبت دعوة الدين قائماً بها في عمرة بعد عمره؛ وأفترعت صهوة هذا المحل الذي رفاك إليه أمير المؤمنين باستحقاقك، وأمات الله العاجزين بما في صدورهم من حشرات لحاقك؛ وكننت البعيد القريب نصحه، المحجوب النافذ بحجته المذعورة أعداء أمير المؤمنين [به] إن فوق سهمه أو أشرع رمح، وما ضرك أن يخبطك أعداء أمير المؤمنين وأمير المؤمنين قد ارتضاك، ولا أن منعك المعاند حقا وقد قضى لك وأقتضاك؛ وما كان في مُحاجرتك عن حظك من خدمة أمير المؤمنين الذي أنت به منه أولى، ومُدافعتك عن حقاك في قرب مقامه الذي لا يستطيع طولا؛ إلا مغالبة الله فيك والله غالب على أمره، ومباعدتك وقد قربك الله من سر أمير المؤمنين وإن بعدت من جهره؛ استشرقتك الصدور، وتطلعت إليك عيون الجمهور، وأستوجبت عقيلة النعم بما قدمت من المهور؛ ونصرت الإيمان بأهله، وأظهرت الدين بمظاهرتك على الدين كله؛ وناهضت الكفرة بالباع الأشد والرأى الأسد، ونادتهم سيوفك: - ولا قرار على زارٍ من الأسد - وأدال الله بك من قدم على ما قدم، وندم فما أغنى عنه الندم؛ حين لج في جهالته، وتمادى في ضلالته؛ وأستمر على أستطالته، وتوالت منه عثرات ما أتبعها باستقالته؛ فكم أجتاح للدولة رجالا، وضييق من أرزاقهم مجالا؛ وسلب من خزائنها ذخائر وأسلحة وأموالا، ونقلها من أيدي أوليائها إلى أعداء الله تبارك وتعالى؛ وأتسعت هفواته عن التعديد؛

وما العهدُ منها بعيدٌ ؛ وقد نسخَ اللهُ تعالى بكِ حوادثِها فوجبَ أنْ تُنسخَ أحاديثُها ،
وأتى الأئمةَ منكِ بمن هو وليها والأئمةَ بن هو مُغيثُها ؛ ودعاكِ إمامَ عَصْرِكَ بقُدَيْهِ
ولسانه وخطَه على بُعدِ الدارِ ، وتحققَ أنكَ تتصرفُ معه حيثُ تصرفُ وتُدورُ معه
حيثُ دارُ ، وأختاركِ على ثقةٍ من أنَّ اللهُ تعالى يُجِدُّه فيكَ عواقبَ الإختيارِ ؛ ورأى
لكِ إقدامَكَ ورقابُ الشريكِ صاغِرَه ، وقُدومَكَ وأفواهُ المخاوفِ فاعِرَه ، وكرَّتكِ
في طاعته وأبى اللهُ تعالى أنْ تكونَ خاسِرَه ؛ وسَطَّ بِكَ حينَ تمالَى بِكَ المشركُونَ ،
وتمثلَ لرسُلِهِم بقوله سبحانه : ﴿ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ وَأَنْفَتَ عِزَّتَهُ هُجْنَةَ
الهُدْنَه ، وقال لأوليائه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾ وَأَزْدَرَى بِجَنَازِيهِمْ أَنْتَظَارًا
لوصولِكَ بأَسودِ الإسلامِ ، وصَبَرَ على علمِ أنكَ تُلَبِّي نِدَاءَه بالسنةِ الأعلامِ قبلَ السنةِ
الأقلامِ ؛ فكنْتَ حيثُ رجَا وأفضَلَ ، ووَجِدْتَ بحيثُ رعى وأعجَلَ ؛ وقَدِمْتَ
فكتبَ اللهُ لكِ العُلُوَّ ، وكتبَ بِكَ العَدُوَّ ؛ وجمعَ على التوفيقِ لكِ طَرَفِي الرِّوَاحِ
وَالغُدُوِّ ؛ ولم يلبسِ الكافرُ لِسَهَامِكَ جُنَّةً إِلَّا الفِرَارَ ، وكان ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ آجَنْتُتْ
مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴾ فَاللهُ دَرَكُ حينَ فأنلتَ بِجَبْرِكَ ، قبلَ عَسْكَرِكَ ،
وَنَصِرْتَ بِأَنْبِيئِكَ ، قبلَ عَشِيرِكَ ؛ وَأَكْرَمَ بِكَ من قَادِمِ خَطَوَاتِهِ مَبْرُورَه ، وَسَطَوَاتِهِ
للأعداءِ مُبِيرَه ، وكُلُّ يومٍ من أيامه يُعَدُّ سِيرَه ؛ وإنكَ لمبعوثٌ إلى بلادِ أميرِ المؤمنينِ
بَعَثَ السَّحَابَ المُسَخَّرَ ، ومَقْدَمٌ في النَّبِيَّةِ وإن كنتَ في الزمانِ المَوْتَجِرِ ؛ وطالِعَ بِفِئْتِه
الإسلامِ ذَيرَ بعيدٍ أنْ يُفِيءَ اللهُ عليها بلادَ الكُفَّارِ ، ورجالِ جهادِ عَدَدَانَهُم عندنا من
المُصْطَفِيَّينَ الأَخْيَارِ ؛ وأبناءِ جِلَادِ يَشْتَرُونَ الجَنَّةَ بِعَزَائِمِ كالنَّارِ ، وَعُرَّيرِ نَصِيرِ سُكُونِ
العَدُوِّ بِمَدَاهَا غُرُورٌ وَنَوْمُهُ غِرَارٌ .

ولما جرى منْ جرى ذَكَرَهُ على عَادَتِهِ في إِيحَاشِكَ والإِيحَاشِ مِنْكَ بِكَوَادِبِ
الظُّنُونِ ، ورَامَ رَجْعَتَكَ عن الحضرةِ وقد قَرَّتْ بِكَ الدارِ وَقَرَّتْ بِكَ العُيُونُ ؛ وكان

كما قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ لَقَدْ ابْتَدِئُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُم كَارِهُونَ ﴾ (١) هناك عَصَبَتْ نفوس الإسلام ففتكت به أيديها ، وكشفت له عن غطاء العواقب التي كانت منه مباديها ؛ وأخذه من أخذه أليمٌ شديد ، وعدل فيه من قال ﴿ وما ربك بظلامٍ للعبيد ﴾ : ﴿ إن في ذلك لَدِ كُرًى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْبٌ السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ .

ولما نَشَرَتْ لِيَؤَاءَ الْإِسْلَامِ وَطَوَاهُ ، وَعَضَّدَتْ الْحَقَّ وَأَضْعَفَتْ قُوَاهُ ؛ وَجَنَّبَتْ عُنُقِي مَا نَوَيْتُ وَجَنَى عُنُقِي مَا نَوَاهُ ، وَأَبَيْتَ إِلَّا إِمْرَاءَ الْعِزْمِ فِي الشَّرْكِ وَمَا أَمْضَاهُ ؛ ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ ﴾ وَدَفَعَتْ الْخَطْبَ الْأَشَقَّ ، وَطَلَعَتْ أَنْوَارَ النَّصْرِ مُشْرِقَةً بِكَ وَهَلْ تَطْلُعُ الْأَنْوَارُ إِلَّا مِنَ الشَّرْقِ ؟ وَقَالَ لِسَانَ الْحَقِّ : ﴿ فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ ﴾ ، قَضَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُدَّةً قَدَمَهَا ثُمَّ قَضَاهَا ، وَوَلَّاهُ كَمَا وُلِيَ جَدَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبْلَةَ يَرْضَاهَا ؛ وَأَنْتَصَرَ لَهُ بِكَ أَنْتِصَارَهُ لِأَهْلِ الْبَيْتِ بِسَلْمَانِهِ وَعَمَّارِهِ ، وَأَنْطَقَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِاصْطِفَائِكَ الْيَوْمَ وَبِالْأَمْسِ كُنْتَ عَقْدَ إِضْمَارِهِ ؛ وَقَلَّدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرَ وَزَارَتِهِ ، وَتَدِيرَ مَمْلَكَتِهِ وَحِيَاطَةَ مَا وِرَاءَ سَرِيرِ خِلَافَتِهِ ، وَصِيَانَةَ مَا آسَمْتَلْتَ عَلَيْهِ دَعْوَةَ إِمَامَتِهِ ، وَكَفَالَةَ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهُدَايَةَ دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَتَدِيرَ مَا عَدَّقَهُ اللَّهُ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُمُورِ أَوْلِيَائِهِ أَجْمَعِينَ ، وَجُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ الْمُؤَيَّدِينَ ، الْمُقِيمِينَ مِنْهُمْ وَالْقَادِمِينَ ؛ وَكَافَّةَ رَايَا الْحَضْرَةِ بِعِيدِهَا وَدَانِيهَا ، وَسَائِرِ أَعْمَالِ الدُّوَلِ بِأَيْدِيهَا وَخَافِيهَا ؛ وَمَا يَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْكَ مِنَ الْبِلَادِ ، وَمَا تَسْتَعِيدُهُ مِنْ حُقُوقِهِ الَّتِي آغْتَصَبَهَا الْأَضْدَادُ ؛ وَأَلْبِيْ إِلَيْكَ الْمَقَالِيدَ بِهَذَا التَّقْلِيدِ ؛ وَقَرَّبَ عَلَيْكَ كُلَّ غَرَضٍ بِعِيدٍ ؛ وَنَاطَ بِكَ الْعَقْدَ وَالْحَلَّ ، وَالْوَالِيَةَ وَالْعَزْلَ ، وَالْمَنْعَ

(١) في اللسان "عصبت الابل وعصبت بالكسر اذا اجتمعت" . ولعل هذا مراده ان لم يكن أهمل

الوطاة ما أستطعت عنهم ؛ وبدلهم من بعد خوفهم أننا ، وكف من يعترضهم في عرض هذا الأذنى .

والجهاد فهو سلطانُ الله تعالى على أهل العناد؛ وسطوةُ الله تعالى التي يُمضيها في شرِّ العباد على يد خيرِ العباد؛ ولك من الغناء فيه مصرا وشاماً، وثباتِ الجأش كراً وإقداماً؛ والمصافِّ التي ضربت فكننت ضاربَ كُتبتها، والمواقِف التي أشدَّت فكننت فارحَ هبواتها؛ والتدريب الذي أطلق جدك، والتجريب الذي أورى زندق، [ما] يُغني عن تجديد الوصايا البسيطة، وتأكيد القضايا المحيطة؛ وما زلت تأخذ من الكفار باليمن، وتُعظم فتوحك في بلاد الشمال فكيف تكون في بلاد اليمن؛ فاطلب أعداء الله براً وبحراً، وأجلب عليهم سهلاً ووعراً؛ وقسم بينهم الفتكات قتلاً وأسراً، وغارةً وحصراً؛ قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

وتوفيقُ الله تعالى يفتح لك أبواب التدبير، وخبرتك تُدلك على مرشد الأمر : ﴿ وَلَا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴾ فانت تبندع من المحاسن ما لا يُحيط به الوصايا ، وتحترع من الميامن ما يتعترف بركاته الأولياء والرعايا؛ والله سبحانه وتعالى يحقق لأمر المؤمنين فيك أفضل الخايل، ويفتح على يدك مستغلق البلاد والمعاقل؛ ويصيبُ بسهامك من الأعداء التجور والمقاتل، ويأخذ للإسلام بك ماله عند الشرك من الثارات والطوائل؛ ولا يضيع لك عملك في خدمة أمير المؤمنين إنه لا يضيع عمل دامل، ويجرى الأرزاق والآجال بين سبيك الفاضل وحكك الفاضل؛ فأعلم هذا من أمر أمير المؤمنين ورسمه، وأعمل بموجبه وحكمه؛ إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .



وعلى نحو منه كتب القاضى الفاضل أيضا عهدَ الملكِ الناصر ، صلاح الدين يوسف بن أيوبَ بالوزارة عن العاضد أيضا ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى السيد الأجلّ (على نحو ما تقدم فى تقليد عمه أسد الدين شيركوه) .

أما بعد ، فالحمد لله مصرفِ الأقدارِ ومشرّفِ الأقدار ، ومُحْصِي الأعمالِ والأعمالِ ؛ ومبْتَلِي الأخيارِ والأبرار ، وعالمِ سرِّ الليلِ وجَهْرِ النهار ؛ وجاعِلِ دولةِ أمير المؤمنين فلِكَا تتعاقبُ فيه أحوالُ الأعمار : بين آتقضاءِ سرّارِ وآستقبالِ إبدار ؛ وروضًا إذا هوتَ فيه الدُّوحاتُ أينعتِ الفُروعُ سائِقَةَ النُّورِ بِاسِقَةِ النُّمَار ؛ ومُنْجِدِ دعوتهِ بالفُروعِ الشاهدةِ بفضلِ أوصولها ، والجواهرِ المستخرجةِ من أمضى نُصولها ، والقائمِ بِنُصرةِ دولتهِ فلا تزالُ حتى يرثَ اللهُ الأرضَ ومنَ عليها قائمَةً على أوصولها .

والحمد لله الذى آختارَ لأمير المؤمنين ودلّه على مكانِ الإختيار ، وأغناه باقتضابِ الإلهامِ عن رويةِ الإختبار ؛ وعَضَّدَ به الدينَ الذى آرتضاه وعَضَّدَه بمن آرتضاه ، وأنجَزَه من وَعَدِ السعدِ ما قَضاه قَبْلَ أن آقتضاه ، ورفعَ محمّله عن الخلقِ فكلّهم من مُضايِفِ إليه غير مُضاه ؛ وجعل مملكته عَرِينًا لاعتزازها بالأسدِ وشبّهه ، ونعمته ميرانًا أُولَى بها ذوى الأرحامِ من بنى الولاءِ وأهلِهِ ، وأظهر فى هذه القضيةِ ما أظهره فى كلِّ القضايا من فضلِ أمير المؤمنين وعَدْلِهِ ؛ فأولياؤه كالأياتِ التى تُتَسَّقِ دَرارىُّ أُنُقها المنيرِ ، وتُنَسَّقِ دُررِ عقدها النظيمِ النَّضيرِ : ﴿ ما نَسَخَ من آيةٍ أو نَسأها نأتِ بخيرِ منها أو مِثلها ألمَ تعلمَ أنَّ اللهَ على كُلِّ شىءٍ قديرٌ ﴾ .

والحمد لله الذي أتمَّ بأمر المؤمنين نعمة الإرشاد ، وجعله أولى من الخلق ساداً
ولحقَّ شاداً ، وآثره بالمقام الذي لا ينبغي إلا له في عصره ، وأظهر له من معجزات
نصره ما لا يستقبل العدد بحصره ، وجمع لمن والاه بين رفع قدره ووضع إصره ،
وجعل الإمامة محفوظة في عقبه والمعقبات تحفظه بأمره ، وأودعه الحكم التي رآه
لها أحوط من أودعه ، وأطلع من أنوار وجهه الفجر الذي جهل من ظنَّ غير نوره
مطلعه ، وآتاه ما لم يؤت أحداً ، وأمات به غياً وأحيا رَشداً ، وأقامه للدين عاضداً
فأصبح به معتضداً ، وحفظ به مقام جدّه وإن رَغِمَ المستكبرون ، وأنعم به على أمته
أماناً لولاه ما كانوا ينظرون ولا يبصرون ، ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ
وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين على ما آتاه من توفيقٍ يُدَلِّلُ له الصَّعبَ الجاحِمَ ، ويُدِنِي منه
البعيدَ النَّازِحَ ، ويُخْلِيفُ على الدين من صلاحه الخلف الصالح ، ويلزِمُ آراءه جدّد
السُّعُودِ الواضِحِ ، ويُريه آياتِ الإرشادِ فإنه نازح (؟) قَدَحِ القادِحِ ، ويسأله أن يصلِّيَ
على جدّه محمّدٍ الذي أنجى أهلَ الإيمانِ ببعثه ، وطهرَ بهديهِ من رجسِ الكُفْرِ
وخبثه ، وأجار باتِّباعه من عنتِ الشيطانِ وعَبَثِهِ ، وأوضَحَ جادّةَ التوحيدِ لكلِّ مشركِ
الاعتقادِ مثله ، وعلى أئمتنا أمير المؤمنين على بن أبي طالب الذي جادلت يده بلسان
ذي الفقار ، وقسم ولاؤه وعداوته بين الأتقياء والأشقياء الجنّة والنار ، وعلى الأئمة
من دُزِّيتهما الذين أذلَّ اللهُ بعزَّتِهِم أهلَ الإلحاد ، وأصفى بما سفكوه من دِمَائِهِم
موارِدَ الرِّشادِ ، وجرت أيديهم وألسنتهم بأقواتِ القلوبِ وأرزاقِ العبادِ ، وسلّمَ ومجّد ،
ووالى وجَدّد .

وإن الله سبحانه ما أخلى قط دولة أمير المؤمنين التي هي مهبط الهدى ومحط
النسب، ومورد الحياة للولى والردي للعدا، من لطف يتلافى الحادثة ويتسببها
ويرأبها، ونعمة تبلغ بها النفوس أربها، وموهبة تسد موضع الكرم، وتسد
موضع السلم، وتجلى غمائم الغم، وتخلل مغائم النعم، وتستوفي شرائط المناسج،
وتستدنى فوارط المصالح، ولم يكن ينسى الحادثة في السيد الأجل الملك المنصور
رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه، التي كادت لها أوانى الملك
تترزع، ومباني التدبير تتضعع؛ إلا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنور الله
من أصطفائك أيها السيد الأجل الملك الناصر: - أدام الله قدرتك - لأن تقوم
بخدمته بعده، وتسد في تقدمه جيوشه مسده، وتقفو في ولاته أثره، ولا تفقد منه
إلا أثره؛ فوازت الفادحة فيه النعمة فيك، حتى تستوفي حظّه من أمير المؤمنين بأجر
لا يضيع الله فيه عمله، فاستوجب مقعد صدق بما اعتقده من تأدية الأمانة له
وحمله، واستحق أن ينضر الله وجهه بما أخلقه الله من جسمه في مواقف الجهاد
وبدله؛ ومضى في ذمام رضا أمير المؤمنين: وهو الدمام الذي لا يقطع الله منه
ما أمره أن يصله؛ وأتبع من دعائه يتحف أول ما تلقاه بالروح والريحان، وذخرت
له من شفاعته ما عليه معول أهل الإيمان في الأمان؛ فرعى الله له قطعه البيداء
إلى أمير المؤمنين وتجشمه الأسفار، ووطأه المواطع التي تغيظ الكفار؛ وطلوعه
على أبواب أمير المؤمنين طلوع أنوار النهار، وهجرته التي جمعت له أجرين: أجر
المهاجرين وأجر الأنصار؛ وشكره ذلك المسعى الذي بلغ من الشرك النار، وبلغ

(١) الأوانى جمع أحيانة وهي عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه

الإسلام الإيثار . وما لقي ربه حتى تعرض للشهادة بين مختلف الصفاح ، ومشتجر
الرماح ، ومفترق الأجسام من الأرواح ؛ وكانت مشاهدته لأمر المؤمنين أجراً فوق
الشهادة ، ومِنَّة لله تعالى عليه له بها ما للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ؛ وحتى رآك
أيها السيد الأجل الملك الناصر - أدام الله قدرتك - قد أقررت ناظره ، وأرغمت
مناظره ؛ وشددت سلطانه ، وسددت مكانه ؛ ورعى بك فأصاب ، وسقى بك
فصاب ، وجمعت ما فيه من أبهة المشيب إلى ما فيك من مضاء الشباب ؛ ولقنت
مأفادته التجارب جملته ، وأعانتك المحاسن التي هي فيك جله ؛ وقلبت عليك إسناد
الفتكات فتقلبت ، وأوضح لك منهاج البركات فتقبلت ؛ وسددك سهما ، وجرّدك
شهما ؛ وانتضاك فارتضاك غربا ، وآثرك على آثر ولده إمامة في التدبير وحراب ؛
وكننت في السلم لسانه الآخذ بجامع القلوب ، وفي الحرب سنانة النافذ في مضايق
الخطوب ، وساقته إذا طلب ، وطليعته إذا طلب ، وقلب جيشه إذا ثبت
وجناحه إذا وثب ؛ ولا عُدل لشبل نشأ في حجر أسد ، ولا لهلال استنل النور من
شمس وأسمد :

هذا ولو لم يكن لك هذا الإسناد في هذا الحديث ، وهذا المسند الجامع من قديم
الفخر وحديث ؛ لأغنتك غريزة عزيزة وسجية سجيّة وشيئة وسيمة ، وخلاتق ، فيها
ما تحب الخلائق ، ونحازر ، لم يحز مثلها حازر ؛ ومحاسن ، ماؤها غير أسن ، وما أثر ، جد
غير عائر ؛ ومفانر ، غفل عنها الأهل : ليستأثر بها الآخر ؛ وبراعة لسان ، ينسجم
قطارها ، وشجاعة جنان ، تضطرم نارها ؛ وخلال جلال عليك شواهد أنوارها
تنوِّع ، ومساعي مساعد لديك كمائم نورها تتفتح ؛ فكيف وقد جمعت لك في المجد
بين نفس وأب وعم ، ووجب أن سألك من أصطفاء أمير المؤمنين ماذا حصل ثم
على الخلق عم ، فيومك واسطة في المجد بين غديك وأميك ، وكل نادٍ من أنديّة الفخار

لك أن تقول فيه وعلى غيرك ان يُمسك ، فبُشراك أن أنعم أمير المؤمنين موصولةً
منكم بوالدٍ وولد ، وأن شمس ملكه بكم كالشمس أقوى ما كانت في بيت الأسد .

ولما رأى الله تقلب وجه أمير المؤمنين في سمائه ولآه من اختيارك قبله ، وقامت
حجته عند الله باستكفائك وزيراً له ووزراً لله ، فناجته مرأشد الإلهام ، وأضاءت
له مقاصد لا تمقلها كل الأفهام ؛ وعزم له على أن قللك تدير مملكته الذي أعرقت
في إزته وأغرقت في كسبه ، ومهد لك أبعاد غاية في الفخر بما يسر لك من قربه ؛
ولقد سبق أمير المؤمنين إلى اختيارك قبل قول نسانه بضمير قلبه ، وذكر فيك قول
ربه : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ﴾ . وقللك لأنك سيف من سيوف الله
تعالى يحق به التقليد وله التقليد ، وأصطفاك على علم بأنك واحد متظم في معنى
العديد ؛ وأحيا في سلطان جوشه سنة جدّه الإمام المستنصر بالله في أمير جوشه
الأول ، وأقامك بعده كما أقام بعده ولده وإنه ليرجو أن تكون أفضل من الأفضل ؛
ونرح أمره إليك بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك بتقليدك
وزارته التي أحلك ربوتها ، وأحل لك صهوتها ؛ وحلاك نعمتها ، و ^(١) لك

نعمتها ؛ فتقلد وزارة أمير المؤمنين من رتبها التي تناهت في الإفاة ، إلى أن لارتبة
فوقها إلا ما جعله الله تعالى للخلافه ؛ وتوأم منها صدرا لانتطلع إليه عيون الصدور ،
وأعتقل منها في درجة على مثلها تدور البذور : ﴿ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ
عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .
وباشر مستبشرا ، وأستوطن متديرا ؛ وأبسط يدك فقد فوض إليك أمير المؤمنين
بسطا وقبضا ، وأرفع ناظرِكَ فقد أباح لك رفعا وخفضا ؛ وأثبت على درجات

(١) بياض بالأصول بقدر كلمة .

السعادة فقد جعل لحكمك تثبيتاً ودحضا ، وأعقد حجب العزّات للمصالح فقد أطلق
بأمرك عقداً وتفضاً ، وأنفذ فيما أهلك له فقد أدى بك نافله من السياسة وفرضاً ؛
وصرف أمور المملكة فإليك الصرف والتصرف ، وثقف أود الأيام فعليك أمانته
التهديب والتثقيف ؛ وأحب ذبول الفخار حيث لا تصل التيجان ، وأملأ لحظاً من
نور الله تعالى حيث تتقي الأبصار لحين الأجنان ؛ إن هذا هو الفضل المبين فارتبطه
بالتقوى التي هي عروة النجاة وذخيرة الحياة والممات ، وصفوة ما تلقى آدم من ربه
من الكلمات ؛ وخير ما قدمته النفوس لغداها في أمسيها ، وجادلت [به] يوم تجادل كل
نفس عن نفسها ؛ قال الله سبحانه ومن أصدق من الله قيلاً : ﴿ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ
آتَتْهُ وَلَا تُظْلَمُونَ فِيهَا ﴾ . وأستم بالعدل نعم الله تعالى عليك ، وأحسب كما أحسن
الله إليك ؛ وأمر بالمعروف فإنك من أهله ، وأنه عن المنكر كما كنت تزهت عن فعله .
وأولياء أمير المؤمنين ، وأنصاره الميامين ، ومن يحف بمقام ملكه من الأمراء
المطوقين ، والأعيان المعصيين ، والأمانيل والأجناد أجمعين ؛ فهم أولياؤه حقاً ،
ومالئكم رفاً ، والذين تبوءوا الدار والإيمان سبفاً ، وأنصاره غرباً كما أن عسكرك
أنصاره شرقاً ؛ فهم وهم يد في الطاعة على من ناوهم ، يسعى بذمتهم أدناهم ؛ وتحكم
فيهم وأنت عند أمير المؤمنين أعلاهم .

هذا وقد كان السيد الأجل الملك المنصور - رضى الله عنه - استمطر لهم [من]
إنعام أمير المؤمنين المسامحة بعلقهم ، وواسى^(١) في هذه المنقبة التي استحق بها حسن
الذكر بين طوائفهم وفرقهم ، فصنهم من جائحات الاعتراض ، وأبدل لهم صالحات
الأغراض ؛ وأرفع دُونهم الحجاب ، ويسر لهم الأسباب ، واستوف منهم عند

(١) لعله وسأوى كما لا يخفى .

الحُضُورِ إِلَيْكَ غَايَاتِ الْخِطَابِ ؛ وَصَرَّفَهُمْ فِي بِلَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَلَاةٍ وَحَمَاهُ ،
كَمَا تُصَرِّفُهُمْ فِي أَوْقَاتِ الْحَرْبِ لِمَاةٍ وَكَيْفَاهُ ؛ وَعَرَّفَهُمْ بَرَكَةَ سُلْطَانِكَ ، وَأَقْنَدَ قُلُوبَهُمْ
بِرِمَامِ إِحْسَانِكَ .

وَأَمَّا الْقُضَاةُ وَاللَّدَاةُ فَهَمَّ بَيْنَ كَفَالَتِكَ وَهَدْيِكَ ، وَالتَّصْرِيفِ عَلَى أَمْرِكَ
وَنَهْيِكَ ؛ فَاسْتَعْمِلْ مِنْهُمْ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ، فَأَمَّا بِالْعِنَايَاتِ فَلَا .

وَالْجِهَادِ فَانْتَ رَاضِعٌ دَرَهُ ، وَنَاشِئَةٌ حَجْرَهُ ؛ وَظُهُورُ الْخَيْلِ مَوَاطِنُكَ ، وَظِلَالُ
الْجِبَلِ مَسَايِكُكَ ؛ وَفِي ظُلُمَاتِ مَسَايِكِهِ ، تُجَلَّى مَحَاسِنُكَ ، وَفِي أَعْقَابِ نَوَازِلِهِ ، تُنْتَلَى
مَيَامِنُكَ ؛ فَشَمَّرْ لَهُ غَنَ سَاقٍ مِنَ الْقَنَاءِ ، وَخُضَّ فِيهِ بَحْرًا مِنَ الطُّبَا ؛ وَأَحْلَلْ فِيهِ عُقْدَةَ
كَلِمَاتِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ وَثِيْقَاتِ الْحُبِّ ؛ وَأَسْلِلِ الْوَهَادَ بَدْمَاءَ الْعِدَا وَأَرْفَعْ بِرُءُوسِهِمُ الرُّبَا ؛
حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِالْفَتْحِ الَّذِي يَرْجُو أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَكُونَ مَذْخُورًا لِأَيَّامِكَ ، وَمَشْهُودًا
بِهِ يَوْمَ مَقَامِكَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ لِسَانِ إِمَامِكَ .

وَالْأَمْوَالُ فَهِيَ زُبْدَةُ حَلَبِ اللَّطْفِ لَا الْعُنْفِ ، وَجُمَّةٌ يَمْتَرِيهَا الرَّفْقُ لَا الْعَسْفُ ،
وَمَا يَرِحَتْ أَجْدَ ذَخَائِرِ الدُّوَلِ لِلشُّفُوفِ ، وَأَحَدٌ أَسْلَحَتَهَا الَّتِي تَمِضِي وَقَدْ تَبَسُّو
السُّيُوفِ ؛ فَقَدِّمْ لِلْبِلَادِ الْإِسْتِعْمَارَ ، تُقَدِّمُ لَكَ الْإِسْتِثْمَارَ ، وَقَطْرَةٌ مِنْ عَدْلِ تَزْحَرُّ بِهَا
مِنْ مَالٍ بِحَارِ .

وَالرَّعَايَا فَهَمَّ وَدَائِعُ اللَّهِ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَدَائِعُهُ لَدَيْكَ ، فَاقْبِضْ عَنْهُمْ الْأَيْدِيَ
وَأَبْسِطْ بِالْعَدْلِ فِيهِمْ يَدَيْكَ ؛ وَكُنْ بِهِمْ رُءُوفًا ، وَعَلَيْهِمْ عَطُوفًا ؛ وَاجْعَلِ الضَّعِيفَ مِنْهُمْ
فِي الْحَقِّ قَوِيًّا وَاقْوِيًّا فِي الْبَاطِلِ ضَعِيفًا ؛ وَوَكِّلْ بِرِعَايَتِهِمْ نَاطِرَ اجْتِهَادِكَ ، وَاجْعَلْ
أَسْتَنْتَهُمُ بِالذُّعَاءِ مِنْ سِلَاحِكَ وَقُلُوبَهُمْ بِالْحُبَّةِ مِنْ أَجْنَادِكَ ؛ وَلَوْ جَازَ أَنْ يَسْتَعْنِيَ عَن

الوصية قائمٌ بأمر، أو جالسٌ في صدر، لاستغنىت عنها بفطنتك الزكية، وفطرتك
الذكية؛ ولكنها من أمير المؤمنين ذكرى لك وأنت من المؤمنين، وعراة بركة فتلق
رايتها باليمين؛ والله تعالى يؤيدك أيها السيد الأجل - أدام الله قدرتك - بالنصر
العزيز، ويقضى لدولة أمير المؤمنين على يدك بالفتح الوجيز؛ ولأهلها في نظرك
بالأمر الحريز، ويمتد دست الملك بحلي مجدك الإبريز؛ ويقر عيون الأعيان بما
يظهر لك في ميدان السعادة من السبق والتبريز، ويملك من نخلة أنعم أمير المؤمنين
بما ملكك إياه ملك التحويز؛ ويلحق بك في المجد أولك، ويمجد فيك العواقب
ولك؛ فأعلم ذلك من أمر أمير المؤمنين ورسمه، وأعمل بموجبه وحكمه؛
إن شاء الله تعالى .

المذهب الثالث

(أن يفتح العهد بمحطبة)

وهو ما حكاه في " التعريف " عن صاحب نحر الدين إبراهيم بن لقمان، فيما
كتب به للظاهر بيبرس، وذكر أن ابن لقمان ليس بمحطبة . ثم قال : على أن الفاضل
مُحي الدين بن عبد الظاهر قد تبعه فيما كتب به للنصور قلاوون .

قلت : ليس ابن لقمان هو المبتكر لهذا المذهب ، بل كان موجودا معمولا به .
استعمله كتاب الإنشاء بديوان الخلافة ببغداد قبل ذلك بزمن طويل ، وهو منبع
الكتابة الذي عنه يصدر الترتيب ، وقاعدتها التي يبنى عليها المصطلح . وعليه كتب
عهد العادل أبي بكر بن أيوب أنحى السلطان صلاح الدين يوسف « من بغداد » .
وإليه مال ابن الأثير في " المثل السائر " . وذكر أن الأفتاح بـ « هذا ماعهد » قد

(١) لعله للامير الكامل ابن الملك العادل الخ كما يفيد ما يأتي في صلب العهد . تأمل .

أُتِدِلَ بِكَثْرَةِ الْإِسْتِعْمَالِ ، وَأَبْنُ لِقْمَانَ تَابِعٌ لِمَتَّبِعٍ . عَلَى أَنْ إِنْشَاءَهُ يَدُلُّ عَلَى تَقَدُّمِهِ فِي الْكِتَابَةِ ، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ بِحُجَّةٍ فَابْنُ الْأَثِيرِ حُجَّةٌ فِي هَذَا الشَّانِ ، يُرْجَعُ إِلَيْهِ وَيَعْمَلُ بِقَوْلِهِ ، وَيُؤَيِّدُهُ حَدِيثٌ : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَأْسٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِالْحَمْدِ لِلَّهِ فَهُوَ أَجْدَمٌ » . وَلِذَلِكَ مَالَ أَهْلَ الْعَصْرِ إِلَى اخْتِيَارِهِ وَالْعَمَلِ عَلَيْهِ ؛ إِلَّا أَنَّ فِيهِ مَخَالَفَةً لِمَا وَقَعَ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَمْرٍو بْنِ حَزْمٍ وَغَيْرِهِ مِنْ عُهُودِ الصَّحَابَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرَهُ .

وَبِكُلِّ حَالٍ فَأَهْلُ هَذَا الْمَذْهَبِ لَا يَخْرُجُونَ فِيهِ عَنْ ضَرِيَيْنِ : ضَرِبَ يَعْبُرُونَ عَنْ الْأَوْامِرِ الْوَارِدَةِ فِي الْعَهْدِ عَنِ الْخَلِيفَةِ بِقَوْلِهِ : « أَمْرُهُ بِكَذَا وَأَمْرُهُ بِكَذَا » وَهِيَ طَرِيقَةُ الْمُتَقَدِّمِينَ مِنْهُمْ ، وَعَلَيْهَا كُتِبَ عَهْدُ الْعَادِلِ أَبِي بَكْرٍ الْمَشَارِئِيِّ . وَضَرِبَ يَعْبُرُونَ بِقَوْلِهِمْ « أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَكَذَا » وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، وَهِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ زَمَانِنَا .

وهذه نسخة العهد المكتوب به من ديوان الخلافة ببغداد على هذه الطريقة ، للعادل أبي بكر بن أيوب ^(١) أنحى السلطان صلاح الدين ^(٢) « يوسف بن أيوب » وهي : الحمد لله الذي أطمأنت القلوب بذكره ، ووجب على الخلائق جزيل حمده وشكره ؛ ووسعت كل شيء رحمته ، وظهرت في كل أمر حكمته ؛ ودل على وحدانيته بعجائب ما أحكمه صنعا وتديرا ، وخلق كل شيء فقدره تقديرا ؛ بمد الشاكرين بنعمه التي لا تحصى عددا ، وعالم الغيب الذي لا يظهر على غيبه أحدا ؛ لامعقب حكمه في الإبرام والتقص ، ولا يؤوده حفظ السموات والأرض ؛ تعالى أن يحيط

(١) تقدم قبلا التنبيه عليه . تأمل .

(٢) في الأصول عم السلطان وهو سبق قلم .

بُحْبُكِهِ الضَّمِيرُ ، وَجَلَّ أَنْ يَبْلُغَ وَصْفَهُ الْبَيَانُ وَالتَّفْسِيرُ : (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ؛ وَابْتَعَثَهُ هَادِيًا لِلخَلْقِ ، وَأَوْصَحَّ بِهِ مَنَاسِجَ الرِّشْدِ وَسُبُلَ الْحَقِّ ؛ وَأَصْطَفَاهُ مِنْ أَشْرَفِ الْأَنْسَابِ وَأَعَزِّ الْقَبَائِلِ ، وَأَجْتَبَاهُ لِإِيضَاحِ الْبَرَاهِينِ وَالذَّلَائِلِ ؛ وَجَعَلَهُ لَدَيْهِ أَعْظَمَ الشُّفَعَاءِ وَأَقْرَبَ الْوَسَائِلِ ، فَقَدَفَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ وَحَمَلَ النَّاسَ بِشَرِيعَتِهِ الْهَادِيَةِ عَلَى الْمَحَجَّةِ الْبَيْضَاءِ وَالسَّنَنِ الْعَادِلِ ، حَتَّى اسْتَقَامَ أَعْوَجَاجُ كُلِّ زَائِعٍ وَرَجَعَ إِلَى الْحَقِّ كُلُّ حَائِدٍ عَنْهُ وَمَائِلٌ ؛ وَسَجَدَ لِلَّهِ كُلُّ شَيْءٍ نَتَقِيًا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الْكِرَامِ الْأَفْضَلِ ، صَلَاةً مُسْتَمِرَّةً بِالْغُدُواتِ وَالْأَصْبَائِلِ ؛ خِصُوصًا عَلَى عَمِّهِ وَصِوْءِ أَبِيهِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الَّذِي أَشْتَهَرَتْ مَنَاقِبُهُ فِي الْمَجَامِعِ وَالْمَحَافِلِ ؛ وَدَرَّتْ بِرِكَاتِ الْإِسْتِسْقَاءِ بِهِ أَخْلَافُ السُّحُبِ الْهَوَاطِلِ ، وَفَازَ مِنْ تَنْصِيصِ الرَّسُولِ عَلَى عَقْبِهِ فِي الْخِلَافَةِ بِمَا لَمْ يَفُزْ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْأَوَائِلِ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَازَ مَوَارِيثَ النُّبُوَّةِ وَالْإِمَامَةِ ، وَوَفَّرَ جَزِيلَ الْأَقْسَامِ مِنَ الْفَضْلِ وَالْكَرَامَةِ ؛ لِعَبْدِهِ وَخَلِيفَتِهِ ، وَوَارِثِ نَبِيِّهِ وَمُجْتَبِي شَرِيعَتِهِ ؛ الَّذِي أَحَلَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ مَعَارِجِ الشَّرَفِ وَالْجَلَالِ فِي أَرْفَعِ ذُرُوهِ ، وَأَعْلَقَهُ مِنْ حُسْنِ التَّوْفِيقِ الْإِلَهِيِّ بِأَمْتِنِ عِصْمَةٍ وَأَوْثَقِ عُرُوهِ ؛ وَأَسْتَخْرَجَهُ مِنْ أَنْبَرِ نِجَارٍ وَعُنُصْرٍ ، وَأَخْتَصَّهُ بِأَرْكَانِ مَنِيحَةٍ وَأَعْظَمِ مَفْخَرٍ ؛ وَنَصَبَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ عَالِمًا ، وَأَخْتَارَهُ لِلْمُسْلِمِينَ إِمَامًا وَحَكِيمًا ؛ وَنَاطَ بِهِ أَمْرَ دِينِهِ الْخَلِيفِ ، وَجَعَلَهُ قَائِمًا بِالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ بَيْنَ الْقَوِيِّ وَالضَّعِيفِ ؛ إِمَامًا لِلْمُسْلِمِينَ ، وَخَلِيفَةَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ أَبِي جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ الْمُسْتَنْصِرِ بِاللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛

أبن الإمام السعيد التقيّ ، أبن نصر محمد الظاهر بأمر الله ، أبن الإمام السعيد الوفيّ
أبن العباس أحمد الناصر لدين الله ، أبن الإمام السعيد أبي محمد المستضيء بأمر الله
أمير المؤمنين ، صلوات الله عليهم أجمعين ^(١) ، وعلى آباءه الطاهرين ، الأئمة
المهديين ؛ الذين قَضَوْا بِالْحَقِّ وبه كانوا يَعْدِلُونَ ، وَلَقُوا اللَّهَ تَعَالَى وهو عنهم راضٍ
وهم عنه راضون .

وبعد ، فبحسب ما أفاضه الله على أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وسلامه - من
خلاقته في الأرض ، وفوضه إلى نظره المقدس في الأمور من الإبرام والنقض ،
وما استخلصه له من حياطة بلاده وعباده ، ووكّله إلى شريف نظره ومقدس
أجهاده ؛ لا يزال - صلوات الله عليه ^(١) - يكلأ العباد بعين الرّايه ، ويسلك بهم
في المصالح العامة والخاصة مذاهب الرّشد وسبل الهداية ؛ وينشر عليهم جناح
عدله وإحسانه ، ويُنعم لهم النظر في آرتياد الأمناء والصلحاء من خُصاء أكَفائه
وأعوانه ؛ متخيّرًا للإستعزاء من استحمد إليه بمشكور المساعي ، وتعرّف إليه
في سياسة الرّعايا بجميل الأسباب والدواعي ؛ وسلك في مفترض الطاعة الواجبة على
الخلائق قَصْدَ السبيل ، وعلم منه حُسْنُ الأَضْطِلاع في مصالح المسلمين بالعبء
التّيسيل ؛ والله عز وجلّ يؤيّد آراء أمير المؤمنين - صلوات الله عليه ^(١) - بالتأييد
والتّسديد ، ويمدّه أبدًا من أقسام التوفيق الإلهيّ بالموفور والمزِيد ؛ ويقرن عزائم
الشريفة باليمن والنّجاح ، ويسنّي له فيما يأتي ويذر أسباب الخير والصلاح ؛
وما توفّق أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

(١) لم تقف على استعمال هذه الصيغة في عهد غير الفاطميين إلا في هذا العهد .

ولما وفق الله تعالى نصير الدين محمد بن سيف الدين أبي بكر بن أيوب من الطاعة المشهورة ، وانلحم المشكوره ، والحظوة في جهاد أعداء الدين بالمساعي الصالحة ، والفوز من المراضى الشريفة الإمامية - أجلها الله تعالى - بالمغانم الجزيلة والصفقة الراجحة ؛ لما وصل فيه سالف شريف الاختصاص بأنفه ، وشفع تالده في تحصيل مأثور الاستخلاص بطاريفه ؛ وأستوجب بسلوكة في الطاعة المفروضة مزيد الإكرام والتفضيل ، وصرع في الإنعام عليه بمنشور شريف إمامي يسلك في أتباعه هُداة والعمل بمراشده سواء الصراط وقصد السبيل - أقتضت الآراء الشريفة المقدسة - زادها الله تعالى جلالاً متألّق الأنوار ، وقُدسا يتساوى في تعظيمه من هو مستخف بالليل وسارب بالنهار - الإيعاز بإجابته إلى ما وجه أمله إلى الإنافة فيه به إليه ، والجلب بصبغيه إلى ذروة الاجتباء الذي تظهر أشعة أنواره الباهرة عليه ؛ فقلده - على خيرة الله تعالى - الزعامة والغلات ، وأعمال الحرب والمعاون والأحداث والخراج والضياغ والصدقات ، والجوالي وسائر وجوه الجبايات ؛ والعرض والعتاء ، والنفقة في الأولياء ؛ والمظالم والحسبة في بلاده ، وما يفتححه ويستولى عليه من بلاد الفرنج الملاحين ، وبلاد من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده من الشاذين عن الإجماع المنعقد من المسلمين ؛ و[من] يتعدى حدود الله تعالى بخالفته من يصل(?) من الأعمال الصالحات بولائه المفروض على الخلائق مقبولة ، وطاعته ضاعف الله جلاله بطاعته و طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم موصولة ؛ حيث قال عز من قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . وأعمد - صلوات الله عليه وسلامه - في ذلك على حُسن نظره ومدد رعايته ، وألقى مقاليد التفويض إلى وفور آجهاده وكال سياسته ؛ وخصه من هذا الإنعام الجزيل بما

يَبْقَى له على تعاقب الدهر وأستمراره، ويَحْدُثُ له على مَمَرِ الزمان حَسَنَ ذِكره وجريلِ
 نَحَارِهِ؛ وحباه بتقليد يُوطِدُ له قواعِدَ الممالك، ويفتَحُ بإقليده رِجَالِ الأبوابِ والمَسَالِكِ؛
 ويفيد قاعدته في بلاده زيادةَ تَقْرِيرٍ وَتَمْهِيدِ، وَيَطِيرُ به صِيئته في كُلِّ قَرِيبِ
 وَبَعِيدِ؛ وَوَسَمَهُ بالملك الأَجَلِّ، السيد، الكامل، المجاهد، المرابط؛ نَصِيرَ الدين،
 ركن الإسلام، أثير الأنام، تاج الملوك والسلاطين، قامع الكفرة والمشركين، قاهر
 الخوارج والتمرددين، غازى بك محمد، بن أبي بكر، بن أيوب، معين أمير المؤمنين؛
 رعايته لسوابق خِدْمَةٍ وَخِدْمِ أسلافه وآبائه، عَن وَفُورِ أَجْتِبَائِهِ، وكِمالِ أزدلافه؛
 وإِنافَةٍ من ذِرْوَةِ القُربِ إلى محلِّ كَرِيمِ، وَأَخْتِصاصًا له بالإحسان الذي لا يُلقاه
 إِلَّا من هو كما قال تعالى: ﴿ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ . وَوُوقًا بِصِحَّةِ دِيانَتِهِ التي يَسْلُكُ فيها
 سِوَاءَ سَبِيلِهِ، وَأَسْتِنامَةً إلى أمانته في الخِدْمَةِ التي يَنْصَحُ فيها لله تعالى ولرسوله؛
 وَرُكُونًا إلى [كون] الإِنعامِ عليه مَوْضوعًا بِمَجْدِ الله تعالى في أَحْسَنِ مَوْضِعٍ، واقِعًا به
 لديه في خيرِ مَسْتَقَرٍّ وَمَسْتَوْدَعٍ .

وأمير المؤمنين - صلوات الله عليه (لا زالتِ الحِيرةُ موصولةً بآرائه، والتأييدُ
 الإلهيُّ مقرونًا بإنفاذه وإمضائه) يستمد من الله عز وجل حُسْنَ الإِعانَةِ في أَصْطِفائِهِ
 الذي آقتضاه نظره الشريف وأعتاده، وأدبى إليه آرتيادُه المقدسُ الإِماميُّ
 وَأَجْتِهَادُهُ؛ وَحَسْبُ أمير المؤمنين الله وَنِعْمَ الوكيلُ .

أمره بتقوى الله تعالى التي هي الجُنَّةُ الواقية، واللَّعْمَةُ الباقية؛ والمَلْجَأُ المَنِيعُ،
 والعِمَادُ الرَفيعُ؛ والذخيرةُ النافعةُ في السَّرِّ والنَّجْوَى، والجُدُوةُ المقتبسةُ من قوله
 سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ وأن يَدْرِعَ بِشِعَارِها، في جميع الأفعال
 والأفعال، ويَهْتَدِيَ بانوارها، في مشكلات الأمور والأحوال؛ وأن يعمل بها سرًّا

وجَهْرًا، وَيُشْرَحُ لِلْقِيَامِ بِمُحَدِّودِهَا الْوَاجِبَةَ صَدْرًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ .

وأمره بتلاوة آيات الله متدبراً غوامض عجائبه ، سالماً سبيل الرشاد والهداية في العمل به ؛ وأن يجعله مثلاً يتبعه ويقتفيه ، ودليلاً يهتدى برأشده الواضحة في أوامره ونواهيه ؛ فإنه الثقل الأعظم ، وسبب الله المحكم ، والنور الذي يهتدى به إلى التي هي أقوم ؛ ضرب الله تعالى فيه لعباده جوامع الأمثال ، وبين لهم بهداه الرشد والضلال ، وفرق بدلائله الواضحة بين الحرام والحلال ؛ فقال عز من قائل : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلتَّقِينَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ .

وأمره بالمحافظة على مقروض الصلوات ، والدخول فيها على أكل هيئة من قوانين الخشوع والإخبات ؛ وأن يكون نظره في موضع سجوده من الأرض ، وأن يمثل لنفسه في ذلك موقفه بين يدي الله تعالى يوم العرض ؛ قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ . وأن لا يشتغل بشاغل عن أداء فروضها الواجبه ، ولا يلهو بسبب عن إقامة سننها الراتبه ؛ فإنها عماد الدين الذي نمت أعاليه ، ومهاد الشرع الذي تمت قواعده ومبانيه ؛ قال الله تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَهْتَمُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ .

وأمره أن يسعى إلى صلوات الجمع والأعياد ، ويقوم في ذلك بما فرضه الله تعالى عليه وعلى العباد ؛ وأن يتوجه إلى الجوامع والمساجد متواضعاً ، ويبرز إلى المصليات الضاحية في الأعياد خاشعاً ؛ وأن يحافظ في تشييد قواعد الإسلام على الواجب

والمندوب ، ويعظم باعتماد ذلك شعائر الله التي هي من تقوى القلوب ؛ وأن يشمل بوافر اهتمامه وأعتنائه ، وكإل نظره وإرعائه ؛ بيوت الله التي هي محال البركات ، ومواطن العبادات ؛ والمساجد التي تأكد في تعظيمها وإجلالها حكمه ، والبيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه ؛ وأن يرتب لها من الخدم من يتبتل لإزالة أذناسها ، ويتصدى لإذكاء مصابيحها في الظلام وإيناسها ؛ ويقوم لها بما تحتاج إليه من أسباب الصلاح والعجارات ، ويحضر إليها ما يليق من الفرس والكسوات .

وأمره بالتباعد سنة النبي صلى الله عليه وسلم التي أوصح جددها ، وثقف - عليه السلام - أودها ؛ وأن يعتمد فيها على الأسانيد التي نقلها الثقات ، والأحاديث التي صححت بالطرق السليمة والروايات ؛ وأن يقتدى بما جاءت به من مكارم الأخلاق التي تدب صلى الله عليه وسلم إلى التمسك بسببها ، ورغب أمته في الأخذ بها والعمل بأدبها ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالى : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

وأمره بمجالسة أهل العلم والدين ، وأولى الإخلاص في طاعة الله تعالى واليقين ؛ واستشارتهم في عوارض الشك والالتباس ، والعمل بأرائهم في التمثيل والقياس ؛ فإن الاستشارة لهم عين الهداية ، وأمن من الضلالة والغواية ؛ وبها تلقح عقم الأفهام والألباب ، ويقتدح زناد الرشد والصواب ؛ قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها ، والأمر في التمسك بجلها : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ .

وأمره بمراعاة أحوال الجند والعسكر في ثغوره ، وأن يشملهم بحسن نظره وجميل تدبيره ؛ مستصاحبا نياتهم بإدامة اللطف والتعهد ، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التفحص والتفقد ؛ وأن يسوسهم سياسة تبعثهم على سلوك المنهج السليم ، ويهديهم

في أنتظامها وأساقها إلى الصراط المستقيم؛ ويَجْلِبُهُمْ عَلَى الْقِيَامِ بِشَرَايِطِ الْخِدْمِ ،
والتَّمَسُّكِ مِنْهَا بِأَقْوَى الْأَسْبَابِ وَأَمْتِنِ الْعِصْمِ ؛ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى مَصْلَحَةِ التَّوَاصُلِ
وَالْإِتِّلَافِ ، وَيُصَدِّمُهُمْ عَنْ مُوجِبَاتِ التَّخَاذُلِ وَالْإِخْتِلَافِ ؛ وَأَنْ يَعْتَمِدَ فِيهِمْ شَرَايِطُ
الْحَزْمِ فِي الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ، وَمَا تَقْتَضِيهِ مَصْلَحَةُ أَحْوَالِهِمْ مِنْ أَسْبَابِ الْخَفْضِ وَالرَّفْعِ ؛
وَأَنْ يُثَيِّبَ الْحَسْنَ عَلَى إِحْسَانِهِ ، وَيُسَيِّلَ عَلَى الْمُسِيءِ مَا وَسَّعَهُ الْعَفْوُ وَأَحْتَمَلَهُ الْأَمْرُ
ذَيْلَ صَفْحِهِ وَأَمْتِنَانِهِ ؛ وَأَنْ يَأْخُذَ بِرَأْيِ ذَوِي التَّجَارِبِ مِنْهُمْ وَالْحُنْكَهَ ، وَيَجْتَنِي
بِمَشَاوَرَتِهِمْ فِي الْأَمْرِ ثَمَرَ الشَّرْكَهَ ؛ إِذْ فِي ذَلِكَ أَمْنٌ مِنْ خَطَا الْأَنْفِرَادِ ، وَتَرْخُجٌ عَنْ
مَقَامِ الزُّبُغِ وَالْأَسْتِبْدَادِ .

وَأَمْرُهُ بِالْتَّبَتُّلِ لِمَا يَلِيهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَيَتَّصِلُ بِنَوَاحِيهِ مِنْ نُفُورِ أَوْلَى الشَّرْكَ
وَالْعِيَادِ ؛ وَأَنْ يَصْرِفَ بِجَمَاعِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا ، وَيُحْضِرُهَا بِوُفُورِ الْإِهْتِمَامِ بِهَا وَالتَّطَلُّعِ
عَلَيْهَا ؛ وَأَنْ يُشْمَلَ مَا يَبْلَدُهُ مِنَ الْحُصُونِ وَالْمَعَاوِلِ بِالْإِحْكَامِ وَالْإِتْقَانِ ، وَيُنْتَهِيَ
فِي أَسْبَابِ مَصَالِحِهَا إِلَى غَايَةِ الْوُسْعِ وَنَهَايَةِ الْإِمْكَانِ ؛ وَأَنْ يُشْحَنَهَا بِالْمِيرَةِ الْكَثِيرَةِ
وَالذَّخَائِرِ ، وَيُمِدَّهَا مِنَ الْأَسْلِحَةِ وَالْآلَاتِ بِالْعَدَدِ الْمُسْتَصْلِحِ الْوَافِرِ ، وَأَنْ يَتَخَيَّرَ
لِحِرَاسَتِهَا [مِنْ يَخْتَارُهُ] مِنَ الْأَمْنَاءِ الثَّقَاةِ ، وَلَسَدَّهَا مِنْ يَنْتَخِبُهَا مِنَ الشُّجْعَانِ الْكَمَّاهِ ؛
وَأَنْ يُؤَكِّدَ عَلَيْهِمْ فِي آسْتِعْمَالِ أَسْبَابِ الْحِفْظَةِ وَالْإِسْتِظْهَارِ ، وَيُوقِظَهُمْ لِلْإِحْتِرَاسِ مِنْ
غَوَائِلِ الْعَقْلَةِ وَالْإِغْتِرَارِ ؛ وَأَنْ يَكُونَ الْمَشَارُ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبَوَا فِي مِمَارَسَةِ الْحُرُوبِ عَلَى
مُكَافَأَةِ الشَّدَائِدِ ، وَتَدَرَّبُوا فِي نَصْبِ الْجَبَائِلِ لِلشَّرِكِينَ وَالْأَخْذِ عَلَيْهِمْ بِالْمَرَاصِدِ ؛
وَأَنْ يَعْتَمِدَ هَذَا الْقَبِيلَ بِمَوَاصِلَةِ الْمَدَدِ ، وَكَثْرَةِ الْعَدَدِ ؛ وَالتَّوَسُّعِ فِي النِّفْقَةِ وَالْعَطَاءِ ،
وَالْعَمَلِ مَعَهُمْ بِمَا يَقْتَضِيهِ حَالُهُمْ وَتَفَاوُتُهُمْ فِي التَّقْصِيرِ وَالْعَنَاءِ ؛ إِذْ فِي ذَلِكَ حَسْمٌ لِمَادَّةِ
الْأَطْعَامِ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَرَدٌّ لِكَيْدِ الْمَعَانِدِينَ مِنْ عَبَدَةِ الْأَصْنَامِ ؛ فَمَعْلُومٌ أَنَّ هَذَا
الْفَرْضَ أَوْلَى مَا وُجِّهَتْ إِلَيْهِ الْعَنَايَاتُ وَصُرِفَتْ ، وَأَحَقُّ مَا قُصِرَتْ عَلَيْهِ الْهِمَمُ

وَوُقِفَتْ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهُ مِنْ أَمِّ الْفُرُوضِ الَّتِي كَرَّمَ فِيهَا الْقِيَامَ بِحَقِّهِ ، وَأَكْبَرَ
الْوَاجِبَاتِ الَّتِي كَتَبَ الْعَمَلَ بِهَا عَلَى خَلْقِهِ ؛ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هَادِيًا فِي ذَلِكَ إِلَى
سَبِيلِ الرَّشَادِ ، وَمَحْرُضًا لِعِبَادِهِ عَلَى قِيَامِهِمْ بِفُرُوضِ الْجِهَادِ : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ
ظَمًا وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِنًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ
مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يَنْفِقُونَ
نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ . وَقَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ” مَنْ نَزَلَ مَنَزِلًا يُحْيِفُ فِيهِ الْمُشْرِكِينَ وَيُحْيِفُونَهُ ، كَانَ لَهُ كَأَجْرِ
سَاجِدٍ لَا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَجْرٍ قَائِمٍ لَا يَقْعُدُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَأَجْرٍ صَائِمٍ
لَا يُفِطِرُ “ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” غَدَاةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِمَّا طَلَعَتْ
عَلَيْهِ الشَّمْسُ “ . هَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَقِّ مَنْ سَمِعَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ فَوَقَفَ
لَدَيْهَا ، فَكَيْفَ بِنِ كَانِ قَالِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ” أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ النَّاسِ : مِمَّنْ كَانَتْ بَعْدَهُ
فَرَسَهُ كُلُّهَا سَمِعَ هَيْعَةً طَارَ إِلَيْهَا “ .

وَأَمْرُهُ بِاِقْتِفَاءِ أَوْامِرِ اللَّهِ تَعَالَى فِي رَعَايَاهُ ، وَالْأَهْتِدَاءِ إِلَى رَعَايَةِ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ
وَالْإِحْسَانِ بِمَرَّاشِدِهِ الْوَاضِحَةِ وَوَصَايَاهُ ؛ وَأَنْ يَسْتَلِكَ فِي السِّيَاسَةِ [بِهِمْ] سُبُلَ الصَّلَاحِ ،
وَيَسْمَلَهُمْ بِبَلِينِ الْكَنْفِ وَخَفْضِ الْجَنَاحِ ؛ وَيَمُدِّ ظِلَّ رِعَايَتِهِ عَلَى مُسْلِمِهِمْ وَمُعَاهِدِهِمْ ،
وَيُزْحِرِحَ الْأَقْدَاءَ وَالشُّوَابِبَ عَنْ مَنَآهَلِهِمْ فِي الْعَدْلِ وَمَوَارِدِهِمْ ؛ وَيَنْظُرَ فِي مَصَالِحِهِمْ
نَظْرًا يُسَاوِي فِيهِ بَيْنَ الضَّعِيفِ وَالْقَوِي ، وَيُقِيمُ بِأَوْدِهِمْ قِيَامًا يَهْتَدِي بِهِ وَيَهْدِيهِمْ
فِيهِ إِلَى الصِّرَاطِ السَّوِيِّ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وأمره باعتبار أسباب الإستظهار والأمانة، وأستقصاء الطاعة المستطاعة والقُدرة
الممكنة، في المساعدة على قضاء تَفَثِ حُجَّاجِ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَزُؤَارِ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ
الصلاة والسلام ؛ وأن يُمِدَّهُم بِالْإِعَانَةِ فِي ذَلِكَ عَلَى تَحْقِيقِ الرَّجَاءِ وَبُلُوغِ الْمَرَامِ ،
وَيَحْرُسُهُمْ مِنَ التَّخَطُّفِ وَالْأَذْيِ فِي حَالَتِي الظَّنِّ وَالْمَقَامِ ؛ فَإِنَّ الْحُجَّ أَحَدُ أَرْكَانِ
الدين المشيِّده ، وفروضه الواجبة المؤكَّده ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ
حَجُّ الْبَيْتِ ﴾ .

وأمره بتقوية أيدي العاملين بحكم الشرع في الرعايا، وتنفيذ ما يصدر عنهم من
الأحكام والقضايا، والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوي الأستحقاق، والشد على أيديهم
فيما يرونه من المنع والإطلاق ؛ وأنه متى تأخر أحد الخَصْمِينَ عن إجابة داعي
الحكم ، أو تقاعس في ذلك لما يلزم من الأداء والعُدْم ، جَذَبَهُ بَعْنَانِ الْقَسْرِ إِلَى
مجلس الشرع ، وأضطره بقوة الإنصاف إلى الأداء بعد المنع . وأن يتوخى عمال
الوقوف التي تقرب المتقربون بها ، وأستسكوا في ثواب الله بمتين جبلها . وأن
يُمِدَّهُم بِجَمِيلِ الْمَعَاوَنَةِ وَالْمُسَاعَدَةِ ، وَحُسْنِ الْمُوَازَرَةِ وَالْمُعَاذَةِ ، فِي الْأَسْبَابِ الَّتِي تُؤَدِّنُ
بِالْعَارَةِ وَالْأَسْتِثْمَاءِ ، وَتَعُوذُ عَلَيْهَا بِالمصلحة والإستخلاص والإستيفاء ؛ قال الله تعالى :
﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ .

وأمره أن يتغير من أولى الكفاءة والزاهة من يستخلصه للخدم والأعمال ،
والقيام بالواجب : من أداء الأمانة والحراسة والتمييز لبيت المال . وأن يكونوا من
ذوي الأضطلاع بشرائط الخدم المعينة وأمورها ، والمهتدين إلى مسالك صلاحها
وتدبيرها . وأن يتقدم إليهم بأخذ الحقوق من وجوهها المتيقنه ، وجبايتها في أوقاتها
المعينة ؛ إذ ذلك من لوازم مصالح الخند ووفور الإستظهار ، وموجبات قوة الشوكة

بكثير الأعوان والأَنْصار، وأسباب الحِفْظَةِ^(١) التي تُجْمَعُ بها البلادُ والأَمْصارُ؛ ويأمرهم بالجرى في الطُّسُوقِ^(٢) والشُّرُوطِ على التَّمَطِّ المعتاد؛ والقيام في مصالح الأعمال على أقدام الحِدِّ والإِجْتِهَادِ . وإلى العاملين على الصَّدَقَاتِ بأخذ الزَّكَّاتِ على مشرُوعِ السَّنَنِ المَهْيَعِ ، وقصد الصراطِ المَتَّبَعِ ؛ من غير عدول في ذلك عن المنهاج الشرعي ، أو تساهل في تبديل حُكْمِهَا المَفْرُوضِ وقانونِهَا المَرْعِيِّ ؛ فإذا أُخِذَتْ من أربابها ، الذين يُطَهَّرُونَ وَيُزَكَّوْنَ بها ، كان العمل في صَرَفِهَا إلى مستحقِّهَا بحكم الشريعة النبوية وموجبها . وإلى جُباةِ الحِزْبِيةِ من أهل الذِّمَّةِ بالمطالبة بأدائها في أول السنة ، وأستيفائها منهم على حَسَبِ أحوالهم بحكم العادة في الثروة والمسكنة ؛ إجراءً في ذلك على حكم الاستمرار والإِتِّظَامِ ، ومحافظةً على عظيم شعائر الإسلام .

وأمره أن يتطلع على أحوال كُلِّ من يستعمله في أمر من الأمور، ويُصَرِّفُهُ في مصلحةٍ من مصالح الجمهور ، تطلُّعاً يقتضى الوقوف على حقائق أماناتهم ، وموجب تهديهم في حركاتهم وسكَّاتهم ؛ ذهاباً مع النصيح لله تعالى في بريته ، وعملاً فيه بقول النبي صلى الله عليه وسلم : " كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ " .

وأمره أن يستصليح من ذوى الأَضْطِلَاعِ والغَنَاءِ ، من يرتب العَرَضَ والعطاء ، والنفقة في الأولياء ؛ وأن يكونوا من المشهورين بالحزم والبصيرة ، والموسومين في المناجحة بإخلاص الطوية وإصفاة السريه ؛ حالين من الأمانة والصون بما يزين ، ناكين عن مظان الشبه والطمع الذي يَصُمُّ وَيَشِينُ ؛ وأن يأمرهم باتباع عادات أمثالهم في ضبط أسماء الرجال ، وتحلية الأشخاص والأشكال ؛ وأعتبار شيات

(١) في القاموس « الحفظة بالكسر والحفيظة الحمية والغضب » .

(٢) الطسوق جمع طسق وهو شبه الخراج له مقدار معلوم وليس بعربي خالص . أنظر اللسان .

الخيول وإثبات أعدادها ، وتحريض الجند على تخييرها وأقتناء جيادها ؛ وبذل الجُهد في قيامهم من الكراع واليزك والسلاح بما يلزمهم ، والعمل بقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . فاذا نظقت جرائد الجند المذكورين بما أثبت لديهم ، وحقق الاعتبار والعيان قيامهم بما وجب عليهم ؛ أُطلقت لهم المعاش والأرزاق بحسب إقراراتهم ، وأوصلت إليهم بمقتضى واجباتهم وأستحقاقاتهم : فإن هذا الحال أصل حراسة البلاد والعباد ، وقيام الأمر بما أوجبه الله تعالى من الاستعداد بفرض الجهاد ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأمره بتفويض أمر الحسبة إلى من يكون بأمرها مضطلعا ، وللسنة النبوية في إقامة حدودها متبعا ؛ فيعتمد في الكشف عن أحوال العامة في تصرفاتها الواجب ، ويسلك في التطلع إلى معاملاتهم السبيل الواضح والسنان اللاجب ؛^(١) في الأسواق لأعتبار المكايل والموازين . ويقبمه [مقامه] في مؤاخذه المطففين وتأديبهم بما تقتضيه شريعة الدين ؛ ويحذرهم في تعدى حدود الإنصاف شدة نكاله ، ويقابل المستحق المؤاخذه بما يرتدع به الجمع الكثير من أمثاله ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ السَّيْقِيمِ وَلَا تَجَسَّسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وَيَلِ لِلطَّافِقِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ زَنَوْهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

(١) يلبس في الأصل ولعله « ويطوف في الأسواق » الخ .

فليتولَّ الملكُ السَّيِّدُ، الكَامِلُ، المِجَاهِدُ، المِرابِطُ؛ نصيرُ الدين، ركنُ الإسلام،
 أثيرُ الأنام، جلالُ الدوله، نِجْمُ المَلَّةِ، عِزُّ الأُمَّةِ، سِنْدُ الخِلافه، تاجُ المُلوكِ
 والسلاطين، قَامِعُ الكُفْرَةِ والمُشْرِكِينَ؛ قَاهِرُ الخَوَارِجِ والمُتَمَرِّدِينَ، أميرُ المِجَاهِدِينَ،
 غازی بك معین أمير المؤمنين - مآقله عبدُ الله وخليفته في أرضه، القائمُ له بحقه
 الواجبِ وفرضه؛ أبو جعفرِ المنصورِ المستنصرُ بالله أمير المؤمنين، تَقْلِيدَ مَطْمَئِنٍّ
 بالإيمان، وينصَحُ لله ولرسوله وخليفته - صلواتُ الله عليه - في السِّرِّ والإعلانِ؛
 ويُشْرِحُ بما فُوضَ إليه من هذه الأمورِ صَدْرًا، ولِيُقَمَّ بالواجبِ عليه من شُكْرِ هذا
 الإنعامِ الجَزِيلِ سِرًّا وجَهْرًا؛ ولِيَعْمَلَ بهذه الوصايا الشريفةِ الإِمامِيَّةِ، ولِيَقْفُ آثارَ
 مَرِاشِدِهَا المَقْدَسَةِ النَّبَوِيَّةِ؛ ولِيُظْهِرَ من أثرِ الخِدِّ في هذا الأمرِ والاجتهادِ، وتحقيقِ
 النظرِ الجميلِ لله والإرشادِ، ما يكونُ دليلًا على تأييدِ الرأى الأشرفِ المَقْدَسِ - أجله
 الله تعالى - في أَصْطِنَاعِهِ وَأَسْتِكْفَانِهِ، وإصابةِ مَوَاقِعِ النُّجْحِ والرَّشْدِ في التَفْوِيضِ
 إلى حُسْنِ قِيَامِهِ وَكِبَالِ أَعْتِنَانِهِ؛ فَلْيَقْدِرِ النِّعْمَةَ في هذه الحَالِ حَقَّ قَدْرِهَا، ولْيَمْتَرِ
 بِأداءِ الواجبِ بما غَلَبَ عليه من جَزِيلِ الشُّكْرِ غَيْرَ دَرَدِهَا؛ ولْيَطَالِعْ مع الأوقاتِ
 بما يُشْكَلُ عليه من الأمورِ الغَوَامِضِ، ولْيُنْهِ إلى العلومِ الشريفةِ المَقْدَسَةِ - أجلها الله
 تعالى - ما يَلْتَبِسُ عليه من الشُّكُوكِ والغَوَامِضِ (؟)؛ لِيَرِدَ عليه من الأمثلةِ ما يُوضِّحُ له
 وجهَ الصوابِ في الأمورِ، وَيَسْتَمِدُّ من المَرِاشِدِ الشريفةِ التي هي شفاءٌ لما
 في الصدورِ بما يَكُونُ ورُودَهُ عليه وتتابُعُهُ إليه نُورًا على نورٍ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة العهد الذي كتب به صاحبُ نَجْمِ الدين : إبراهيم بن لُقْمَانَ،
 للظاهر بيبرسَ، التي أنكر عليه القاضي شهابُ الدين بن فضل الله في "التعريف"
 ابتداءها بِحُطْبَةٍ، وهي :

الحمد لله الذي أضفى [على الإسلام] ^(١١) ملايس الشرف، وأظهر دُرره وكانت خافية بما استحکم عليها من الصدف؛ وشيد ما وهى من علائه حتى أنسى ذكر ما سلف، وقِيض لنصره ملوكًا اتفق على طاعتهم من أختلف .

أحمده على نعمه التي رعت الأعين منها في الروض الأنف، وألطافه التي وقفت الشكر عليها فليس له عنها منصرف؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب من المخاوف أمنًا، وتسهل من الأمور ما كان حزنًا؛ وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي جبر من الدين وهنا، وصفيه الذي أظهر من المكارم ففوتنا لافتنا؛ صلى الله عليه وعلى آله الذين أضحى مناقبهم باقية لا تنفى، وأصحابه الذين أحسنوا في الدين فاستحقوا الزيادة من الحسنى .

وبعد، فإن أولى الأولياء بتقديم ذكره، واحقهم أن يُصبح القلم ساجدًا وراكعًا في تسمير مناقبه ويره؛ من سعى فأضحى بسعيه الجميل متقدمًا، ودعا إلى طاعته فأجاب من كان منجداً ومُثمًا؛ وما بدت يد من المكرمات إلا كان لها زندا ومعضما، ولا استباح بسيفه حمى وعى إلا أضرمه نارًا وأجراه دما .

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مخصصة بالمقام العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الظاهرى، الركنى، شرفه الله تعالى وأعلاه، ذكره الديوان العزیز، النبوى، الإمامى، المستنصرى - أعز الله تعالى سلطانه - تتويها بشريف قدره، واعترافا بصنعه الذى تنفد العبارة المسهبة ولا تقوم بشكره؛ وكيف لا؟ وقد أقام الدولة العباسية بعد أن أقعدتها زمانه الزمان، وأذهبت ما كان لها من محاسن وإحسان، وأستعتب دهرها المسمى فأعتب، وأرضى عنها زمانها وقد كان صال

عليها صَوْلَةٌ مُغْضَبٌ ؛ فأعاده لها سَلَامًا بعد أن كان عليها حَرْبًا ، وَصَرَفَ أَهْتَامَهُ فَرَجَعَ كُلُّ مُتَضَائِقٍ مِنْ أُمُورِهَا وَإِسْعًا رَحْبًا ؛ وَمَنَحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ الْقُدُومِ عَلَيْهِ حُتُوًا وَعَطْفًا ، وَأَظْهَرَ لَهُ مِنَ الْوَلَاءِ رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ مَا لَا يُخْفَى ، وَأَبْدَى مِنَ الْإِهْتَامِ بِالْبَيْعَةِ أَمْرًا لَوِ رَامَهُ غَيْرُهُ لَا مَتَنَعَ عَلَيْهِ ، وَلَوْ تَمَسَّكَ بِجَبَلِهِ مِمَّسَّكَ لَا تَقَطَّعَ بِهِ قَبْلَ الْوُصُولِ إِلَيْهِ ؛ لَكِنَّ اللَّهَ أَذْخَرَ هَذِهِ الْحَسَنَةَ لِيَتَّقَلَ بِهَا فِي الْمِيزَانِ ثَوَابُهُ ، وَيُخَفَّفَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِسَابُهُ وَالسَّعِيدُ مِنْ خُفَّفَ حِسَابُهُ ؛ فَهَذِهِ مَتَقَبَّةٌ أَبِي اللَّهِ إِلَّا أَنْ يَخْلِدَهَا فِي صَحِيفَةٍ صُنِعَتْ ، وَتَكْرَمَةٌ قُضِيَتْ لِهَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ بِجَمْعِهِ بَعْدَ أَنْ حَصَلَ الْإِيَّاسُ مِنْ جَمْعِهِ ؛ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَشْكُرُكَ هَذِهِ الصَّنَائِعَ ، وَيَعْرِفُ أَنَّهُ لَوْلَا أَهْتَامُكَ لَا تَسْعَ الْحَرْقُ عَلَى الرَّاقِعِ ؛ وَقَدْ قَلَّدَكَ الْدِيَارَ الْمِصْرِيَّةَ وَالْبِلَادَ الشَّامِيَّةَ ، وَالْدِيَارَ الْبَكْرِيَّةَ وَالْحِجَازِيَّةَ وَالْيَمِينِيَّةَ وَالْقُرَاتِيَّةَ ؛ وَمَا يَتَجَدَّدُ مِنَ الْفُتُوحَاتِ غَوْرًا وَنَجْدًا ، وَفَوْضَ أَمْرٍ جُنْدَهَا وَرِعَايَاهَا إِلَيْكَ حِينَ أَصْبَحَتْ فِي الْمَكَارِمِ قَرْدًا ؛ وَلَمْ يَجْعَلْ مِنْهَا بَلَدًا مِنَ الْبِلَادِ وَلَا حِصْنًا مِنَ الْحِصُونِ مُسْتَنْثَى ، وَلَا جِهَةً مِنَ الْجِهَاتِ تُعَدُّ فِي الْأَعْلَى وَلَا الْأَدْنَى .

فَلَا حِظَّ أُمُورَ الْأُمَّةِ فَقَدْ أَصْبَحَتْ لَهَا حَامِلًا ، وَخَلَّصَ نَفْسَكَ مِنَ التَّبِعَاتِ الْيَوْمَ فَمَنْ غَدٍ تَكُونُ مَسْئُولًا لَا سَائِلًا ؛ وَدَعَّ الْأَغْتِرَارَ بِالدُّنْيَا فَمَا نَالَ أَحَدٌ مِنْهَا طَائِلًا ، وَمَا رَأَاهَا أَحَدٌ بَعِينَ الْحَقِّ إِلَّا رَأَاهَا خَيَالًا زَائِلًا ؛ فَالسَّعِيدُ مَنْ قَطَعَ أَمَالَهُ الْمَوْصُولَهُ ، وَقَدَّمَ لِنَفْسِهِ زَادَ التَّقْوَى فَتَقَدَّمَ غَيْرَ التَّقْوَى مُرَدُّدَةً لَا مَقْبُولَهُ ؛ وَأَبْسَطَ يَدَكَ بِالْإِحْسَانِ وَالْعَدْلِ فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ فِي مَوَاضِعَ مِنَ الْقُرْآنِ ؛ وَكَفَّرَ بِهِ عَنِ الْمَرْءِ دُنُوبًا وَأَنَامًا ، وَجَعَلَ يَوْمًا وَاحِدًا فِيهِ كِعِبَادَةِ الْعَايِدِ سِتِّينَ عَامًا ؛ وَمَا سَلَكَ أَحَدٌ سَبِيلَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ، إِلَّا وَاجْتَنِبَتْ ثَمَارُهُ مِنْ أَفْنَانِ ؛ وَتَرَاجَعَ الْأَمْرُ فِيهِ بَعْدَ تَدَاعِي أَرْكَانِهِ وَهُوَ مَشْبِيدُ الْأَرْكَانِ ، وَتَحَصَّنَ بِهِ مِنْ حَوَادِثِ الزَّمَانِ ؛ وَكَانَتْ

أَيَّامُهُ فِي الْأَيَّامِ أَجْبَى مِنْ الْأَعْيَادِ ، وَأَحْسَنَ فِي الْعْيُونِ مِنَ الْغُرْرِ فِي أَوْجِهٍ الْجِيَادِ ،
وَأَحْلَى مِنَ الْعُقُودِ إِذَا حَلَّى بِهَا عَطَلِ الْأَجْيَادِ .

وهذه الأقاليم المنوطة بك تحتاج إلى تَوَابٍ وَحُكَّامٍ ، وَأَصْحَابٍ رَأَى مِنْ أَصْحَابِ
السِّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ ؛ فَإِذَا آسْتَعْنَتَ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي أُمُورِكَ فَتَقَبَّ عَلَيْهِ تَنْقِيًا ، وَاجْعَلْ
عَلَيْهِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ رَقِيْبًا ؛ وَسَلِّ عَنْ أَحْوَالِهِ فَفِي الْقِيَامَةِ تَكُونُ عَنْهُ مَسْئُولًا وَبِمَا أَجْرَمَ
مَطْلُوبًا ، وَلَا تُؤَلِّ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ تَكُونُ مَسَاعِيهِ حَسَنَاتٍ لَكَ لَا ذُنُوبًا ؛ وَأَمْرُهُمْ
بِالْأَنَاءَةِ فِي الْأُمُورِ وَالرَّفْقِ ، وَمُخَالَفَةِ الْهَوَىٰ إِذَا ظَهَرَتْ أَدَلَّةُ الْحَقِّ ؛ وَأَنْ يَقَابِلُوا الضَّعْفَاءَ
فِي حَوَائِجِهِمْ بِالْفُتْرِ الْبَاسِمِ وَالْوَجْهَ الطَّلُقِ ، وَأَنْ لَا يُعَامِلُوا أَحَدًا عَلَى الْإِحْسَانِ وَالْإِسَاءَةِ
إِلَّا بِمَا يَسْتَحِقُّ ؛ وَأَنْ يَكُونُوا لِمَنْ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ مِنَ الرَّعِيَةِ إِخْوَانًا ، وَأَنْ يُوسِعُوهُمْ
رِيًّا وَإِحْسَانًا ؛ وَأَنْ لَا يَسْتَحِلُّوا حُرْمَاتِهِمْ إِذَا آسْتَحَلَّ الزَّمَانُ لَهُمْ حِرْمَانًا ، فَالْمُسْلِمُ أَخُو
الْمُسْلِمِ وَلَوْ كَانَ عَلَيْهِ أَمِيرًا وَسُلْطَانًا ؛ وَالسَّعِيدُ مَنْ تَسَّجَّ وَوَلَّيْتَهُ فِي الْخَيْرِ عَلَى مَنْوَالِهِ ،
وَأَسْتَسَنَّ بِسُنَّتِهِ فِي تَصَرُّفَاتِهِ وَأَحْوَالِهِ ، وَتَحَمَّلَ عَنْهُ مَا تَعَجَّزَ قَدْرَتُهُ عَنْ حَمْلِ أَنْقَالِهِ .

وَمَا يُؤْمَرُونَ بِهِ أَنْ يُحْيَى مَا أُحْدِثَ مِنْ سَيِّئِ السُّنَنِ ، وَجُدِّدَ مِنَ الْمَظَالِمِ الَّتِي هِيَ
مِنْ أَعْظَمِ الْمَحْنِ ، وَأَنْ يُسْتَرَى بِإِبْطَالِهَا الْحَامِدُ رَخِيصَةً بِأَعْلَى ثَمَنِ ؛ وَمَهْمَا جَبِيَ مِنْهَا
مِنَ الْأَمْوَالِ فَإِنَّمَا هِيَ بَاقِيَةٌ فِي الذَّمِّ حَاصِلَةٌ ، وَأَجْيَادُ الْخَزَائِنِ إِنْ أَصْحَحَتْ بِهَا حَالِيَّةٌ
فَإِنَّمَا هِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مِنْهَا عَاطِلَةٌ ؛ وَهَلْ أَشْقَى مِمَّنْ أَحْتَقَبُ إِثْمًا ، وَأَكْتَسَبَ
بِالْمَسَاعِيِ الذَّمِيَّةِ ذَمًّا ؛ وَجَعَلَ السَّوَادَ الْأَعْظَمَ [لَهُ] يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَصْمًا ، وَتَحَمَّلَ ظُلْمَ
النَّاسِ فِيمَا صَدَرَ عَنْهُ مِنْ أَعْمَالِهِ ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ .

وحقيق بالمقام الشريف المولوي، السلطاني، الملكي، الظاهري، الركني
أن تكون ظلمات الأنام مردودة بَعْدَهُ ، وَطَاعَتُهُ مُخَفَّفٌ نَفْلًا لِأَطَاقَةِ لَهُمْ بِحَمْلِهِ ؛

فقد أضحى على الإحسان قادرا ، وصنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم من الملوك وإن جاء آخرها ، فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمام هدى يوجب لك منزلة التقديم ، ويثبت الخلائق على ما خصك الله به من الفضل العظيم ؛ وهذه أمور يجب أن تلاحظ وترعى ، ويوالى عليها حمد الله فإن الحمد يجب عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين لك أنك صرت في الأمور أصلا وصار غيرك فرعاً .

ومما يجب أيضا تقديم ذكره أمر الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا ، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصهم بالجنة التى لا تغوف فيها ولا تأثيم ؛ وقد تقدمت لك فى الجهاد يد بيضاء أسرع فى سواد الحساد ، وعرفت منك عزيمة وهى أمضى مما تحبته ضمائر الأعماد ، وأشتهرت لك مواقف فى القتال وهى أشهر وأشهى إلى القلوب من الأعياد ؛ وبك صان الله حى الإسلام أن يتبدل ، وبِعزمك حفظ على المسلمين نظام هذه الدول ؛ وسيفك أثر فى قلوب الكافرين قروحا لا تسدمل ، وبك يرجع أن يرجع مقر الخلافة إلى ما كان عليه فى الأيام الأول ؛ فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا ، وكُن فى مجاهدة أعداء الله إماما متبوعا لا تابعا ، وأيد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا ؛ ولا تحل الثغور من اهتمام بأمرها تبسم له الثغور ، واحتفال بيدل مادجا من ظلماتها بالنور ؛ فهذه حصون بها يحصل الانتفاع ، وعلى العدو داعية أفتراق لا اجتماع ، وأولاها بالاهتمام ما كان البحر له مجاورا ، والعدو إليه ملتفتا ناظرا ؛ لاسيما ثغور الديار المصرية فإن العدو وصل إليها راجحا وراح خاسرا ، وأستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عابرا ؛ وكذلك الأسطول الذى ترى خيله كالأهله ، وركابته سابقة بغير سائق . مستغله ؛ وهو أخو الجيش السليمانى فإن ذاك غدت الريح له حامله ،

وهذا تكفّلت بحمله الرّيح السابله ؛ وإذا لحظها الطّرف جاريةً في البحر كانت كالأعلام، وإذا شَبَّها قال : هذه ليلٍ تُقلعُ بالأيام ؛ وقد سنى الله لك من السعادة كلّ مطلب، وآتاك من أصالة الرأى الذى يُريك المُعَيَّب ؛ وبسط بعد القبض منك الأمل، ونسِط بالسعادة ما كان من كسل ؛ وهداك إلى مناهج الحقِّ ومازلت مهتدياً إليها ، وأزملك المرآشدَ فلا تحتاجُ إلى تنبيه عليها ؛ والله تعالى يُمدُّك بأسباب نصره ، ويوزعك شكرِ نعمه فإنَّ النعمة تستمُّ بشكره ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة عهد كتب بها القاضى محي الدين بن عبد الظاهر ، للسلطان الملك المنصور قلاوون، عن الخليفة الإمام أبى العباس أحمد الحاكم بأمر الله المتقدم ذكره على هذه الطريقة، وهى :

الحمد لله الذى جعل آيةَ السيف ناسخةً لكثيرٍ من الآيات، وفاسخةً لعمُود أولي الشكِّ والشُّبُهات ؛ الذى رفع بعض الخلق على بعض درجات ، وأهل لأموال البلاد والعباد من جاءت خوارقُ تملكه بالذى إن لم يكن من المعجزات فمن الكرامات .

ثم الحمد لله الذى جعل الخلافةَ العباسيةَ بعد القُطُوبِ حسنةَ الإِتِّسام ، وبعد الشُّحوبِ جميلةَ الإِتِّسام ، وبعد التشريدِ كلَّ دارٍ لإسلام لها أعظمُ من دار السَّلام .

والحمد لله على أن أشهدَها مصارعَ أعدائها ، وأحمد لها عواقبَ إعادةِ نصرها وإبدائها ، وردَّ تشيبتها بعد أن ظنَّ كلُّ أحد أن شعارها الأسود ما بقي منه إلا ما صاتته العيونُ في جفونها والقلوبُ في سويدائها . ونشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده

لا شريك له شهادة يتلذذ بذكرها اللسان، وتتمطر بنفحاتها الأفواه والأردان،
وتتلقاها ملائكة القبول فترفعها إلى أعلى مكان. ونصلي على سيدنا محمد الذي أكرمنا
الله به وشرف لنا الأنساب، وأعزنا به حتى نزل فينا محكم الكتاب؛ صلى الله عليه
وعلى آله الذين أنجى الدين منهم عن أنجاب، ورضى الله عن صحابته الذين هم
خير صحاب؛ صلاة ورضوانا يوفي قائلها أجره يوم الحساب من الكثرة بغير
حساب (؟) يوم الحساب.

وبعد حمد الله على أن أحمد عواقب الأمور، وأظهر للإسلام سلطاناً أشدت
به للأمة الظهور وشفيت الصدور؛ وأقام الخلافة العباسية في هذا الزمن بالمنصور
كما أقامها فيما مضى بالمنصور، واختار لإعلان دعوتها من ينجي معاملها بعد العفاء
ورسومها بعد الدثور؛ وجمع لها الآن ما كان جمح عليها فيما قبل من خلاف كل
ناجم، ومنحها ما كانت تبشرها به ^(١) محف الملاحم؛ وأنفذ كلمتها في ممالك الدولة
العلوية بخير سيف مشحود ماضى الغزائم، ومازج بين طاعتها في القلوب وذكورها
في الألسنة وكيف لا والمنصور هو الحاكم؟؛ وأخرج لحياطة الأمة المحمدية ملكا
تقسم البركات عن يمينه، وتقسم السعادة بنور جبينه؛ وتقهّر الأعداء بفتكاته،
وتهمر عقائل المعائل بأصغر راياته؛ ذو السعد الذي مازال نوره يشف حتى ظهر،
ومعجزه يرف إلى أن بهر؛ وجوهه ينتقل من جيد إلى جيد حتى علا الجبين،
وسره يكمن في قلب بعد قلب حتى علم - والحمد لله - نبأ تمكينه في الأرض بعد
حين؛ فاختره الله على علم، وأصطفاه من بين عباده بما جبّله الله عليه من كرم
وشجاعة وحلم؛ وأتى به الأمة المحمدية في وقت الاحتياج عوناً وفي إبان الاستمطار

غَنِيًّا ، وَفِي حِينِ عَيْثِ الْأَشْبَالِ فِي غَيْرِ الْأَقْتِرَاسِ لَيْشَا ؛ فَوَجَبَ عَلَيَّ مَنْ لَهُ فِي أَعْنَاقِ الْأُمَّةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ مُبَايَعَةُ رِضْوَانِ ، وَعِنْدَ أَيْمَانِهِمْ مَصَاحِفَةُ أَيْمَانِ ؛ وَمَنْ وَجِبَتْ لَهُ الْبَيْعَةُ بِاسْتِحْقَاقِهِ لِمِيرَاثِ مَنْصِبِ النَّبَوَّةِ ، وَمَنْ تَصَحَّحَ بِهِ كُلُّ وِلَايَةٍ شَرْعِيَّةٍ يُؤَخِّدُ كِتَابَهَا مِنْهُ بِقُوَّةِ ؛ وَمَنْ هُوَ خَلِيفَةُ الزَّمَانِ وَالْعَصْرِ ، وَمَنْ بَدَعَوَاتِهِ تَنْزِلُ بِالنَّصْرِ عَلَيْكُمْ مَعَاشِرَ الْإِسْلَامِ مَلَائِكَةُ النَّصْرِ ، وَمَنْ نَسَبُهُ بِنَسَبِ نَبِيِّكُمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُتَشَجِّحٌ ، وَحَسَبُهُ بِحَسَبِهِ مَمْتَرِجٌ ، أَنْ يَفُوضَ مَا فُوضَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ مِنْ أَمْرِ الْخَلْقِ ، إِلَى مَنْ يَقُومُ عَنْهُ بِفَرْضِ الْجِهَادِ وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ ؛ وَأَنْ يُؤَلِّيه وِلَايَةً شَرْعِيَّةً تَصَحَّحَ بِهَا الْأَحْكَامَ وَتَنْضِيطَ أُمُورِ الْإِسْلَامِ ، وَتَأْتِي هَذِهِ الْعُصْبَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ أُمَّةٍ بِإِمَامِهِمْ مِنْ طَاعَةِ خَلِيفَتِهِمْ هَذَا بَخِيرِ إِمَامٍ ؛ وَنَحْرَجُ أَمْرَ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ - شَرَفَهُ اللَّهُ - أَنْ يَكُونَ لِلْقَرَّ الْعَالِي ، الْمَوْلُويِّ ، السَّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، الْمَنْصُورِيِّ ، أَجَلَهُ اللَّهُ وَنَصْرَهُ ، وَأُظْفَرَهُ وَأَقْدَرَهُ ، وَأَبَدَهُ وَأَبَدَهُ ، كُلِّ مَا فُوضَهُ اللَّهُ لِمَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُكْمٍ فِي الْوُجُودِ ، وَفِي التَّهَائِمِ وَالتَّجُودِ ؛ وَفِي الْمَدَائِنِ وَالخَزَائِنِ ، وَفِي الظَّوَاهِرِ وَالْبُؤَاطِنِ ؛ وَفِي مَا فَتَحَهُ اللَّهُ وَفِي مَا سَيَفْتَحُهُ ، وَفِي مَا كَانَ فَسَدَ بِالْكَفْرِ وَالرَّجَاءِ مِنْ اللَّهِ أَنَّهُ سَيُصْلِحُهُ ؛ وَفِي كُلِّ جُودٍ وَمَنْ ، وَفِي كُلِّ عَطَاءٍ وَمَنْ ؛ وَفِي كُلِّ هِبَةٍ وَتَمْلِكٍ ، وَفِي كُلِّ تَفَرُّدٍ بِالنَّظَرِ فِي أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بِغَيْرِ شَرِيكَ ؛ وَفِي كُلِّ تَعَاهُدٍ وَتَبَدُّدٍ ، وَفِي كُلِّ عَطَاءٍ وَأَخْذٍ ؛ وَفِي كُلِّ عَزْلِ وَتَوَلِّيٍّ ، وَفِي كُلِّ تَسْلِيمٍ وَتَخْلِيٍّ ؛ وَفِي كُلِّ إِرْفَاقٍ وَإِنْفَاقٍ ، وَفِي كُلِّ إِنْعَامٍ وَإِطْلَاقٍ ؛ وَفِي كُلِّ تَجْدِيدٍ وَتَعْوِيضٍ ، وَفِي كُلِّ حَمْدٍ وَتَقْرِيضٍ ؛ وَوِلَايَةً عَامَةً تَامَّةً مُحْكَمَةً ، مَنْضُدَةً مَنْظَّمَةً ، لَا يَتَعَقَّبُهَا نَسْخٌ مِنْ خَلْفِهَا وَلَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا ، وَلَا يَعْتَرِيهَا فَسْخٌ يَطْرَأُ عَلَيْهَا ؛ يَزِيدُهَا مَرَّ الْأَيَّامِ جَدَّةً يُعَاقِبُهَا حُسْنُ شَبَابٍ ، وَلَا يَنْتَهِي عَلَى الْأَعْوَامِ وَالْأَحْقَابِ ، نَعْمَ يَنْتَهِي إِلَى مَا نَصَبَهُ اللَّهُ لِلْإِرْشَادِ مِنْ سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ؛

وذلك من شَرِّعَ اللهُ أقامه للهداية علماً ، وجعله إلى احتياز التَّوَابِ سُلْماً .
 فالواجب أن يعمل بِجُزْئِيَّاتِ أمره وَكُلِّيَّاتِهِ ، وأن لا يَخْرُجَ أحدٌ عن مَقَدَّمَاتِهِ ،
 والعدل فهو الغرسُ المُشْمِرُ ، والسَّحَابُ المُطْرِبُ ، والروضُ المزهْرُ ؛ وبه تَنَزَّلُ
 البركات ، وتختلف الهِبَاتُ ، وتُرْبِي الصدَقَاتُ ؛ وبه عِمَارَةُ الأرضِ ، وبه تُؤَدَّى السَّنَةُ
 والفرسُ ؛ فمن زرع العدلَ آجَتْنِي الخَيْرُ ، ومن أحسنَ كُفْيَ الصَّررِ والصَّبْرِ ؛ والظلمُ
 فعاقِبته وَخِيمه ، وما يطولُ عُمُرُ المُلْكِ إلا بالمَعْدَلَةِ الرحيمه ؛ والرعية فهمُ الوديعه
 عند أُولَى الأمرِ ، فلا يَخْصُصُ بِحَسَنِ النظرِ منهم زيدٌ ولا عَمْرُو ؛ والأموالُ ، فهي
 ذخائرُ العاقِبَةِ والمآلُ ؛ والواجبُ أن تُؤَخَذَ بِحَقِّهَا ، وتُنْفَقَ في مَسْتَحِقَّهَا ، والجهادُ
 برّاً وبحراً فمن كَنَانَةِ الله تُفَوِّقُ سِهَامُهُ ، وتَوَرِّخُ أَيَامُهُ ؛ وَيُنْتَضِي حُسَامُهُ ، وتَجْرِي
 مُنْشَأَتُهُ في البحرِ كالأعلامِ وتُنْشُرُ أَعْلَامُهُ ؛ وفي عُقْرِ دارِ الحربِ يُحِطُّ رِكَابُهُ ، وَيُحِطُّ
 كِتَابُهُ ؛ وتُرْسَلُ أَرْسَانُهُ ، وتَجُوسُ خِلَالَهَا فُرْسَانُهُ ؛ فليَلْزِمَ مِنْهُ دَيْدَنَا ، ويستصحبُ
 مِنْهُ فِعْلاً حَسَنًا ؛ وَجِيُوشُ الإِسْلَامِ وَكِبَاتُهُ ، وَأَمْرَاؤُهُ وَحَمَاتُهُ ؛ فهمُ مَنْ قد علمتَ
 قِدَمَ هِجْرِهِ ، وَعِظَمَ نُصْرِهِ ؛ وَشِدَّةَ بَاسِ ، وَقُوَّةَ مِرَاسِ ؛ وما مِنْهُمُ إِلا مَنْ شَهِدَ
 الفُتُوحَاتِ والحُرُوبِ ، وَأَحْسَنَ في المُحَامَاةِ عَنِ الدِّينِ الدُّعُوبِ ؛ وَهَمُ بَقَايَا الدُّوَلِ ،
 وَتَحَايَا المُلُوكِ الأوَّلِ ؛ لِاسْمِيَّأِ أُولَى السَّعْيِ النَّاجِحِ ، وَمَنْ لَمْ نَسِبْهُ صَالِحِيَّةً إِذَا نَفَرُوا بِهَا
 قِيلَ لَمْ : نَعَمُ السَّلْفُ الصَّالِحُ ؛ فَأَوْسِعْهُمْ بَرًّا ، وَكُنْ بِهِمْ بَرًّا ، وَهَمُ بِمَا يَجِبُ مِنْ
 خِدْمَتِكَ أَعْلَمُ وَأَنْتَ بِمَا يَجِبُ مِنْ حُرْمَتِهِمْ أَدْرِي ؛ وَالثَّغُورُ وَالْحِصُونُ فَهَمُ ذَخَائِرُ
 الشَّدَّةِ ، وَخِزَانُ العَدِيدِ والعُدَّةِ ، وَمَقَاعِدُ اللِّقْتَالِ ، وَكائِنُ الرِّجَاءِ والرِّجَالِ ؛ فَأَحْسِنْ لَهَا
 التَّحْصِينَ ، وَفَوِّضْ أَمْرَهَا إِلَى كُلِّ قَوِيٍّ أَمِينٍ ؛ وَإِلَى كُلِّ [ذِي] دِينٍ مَتِينٍ ، وَعَقْلٍ
 رَصِينٍ ؛ وَتَوَابِ المَمَالِكِ وَتَوَابِ الأَمْصَارِ ، فَأَحْسِنْ لَمْ الإِخْتِيَارِ ؛ وَأَجِمْ لَمْ
 الإِخْتِيَارِ ، وَتَفَقَّدْ لَمْ الأَخْبَارِ .

وأما ماسوى ذلك فهو داخلٌ في حدود هذه الوصايا النافعة ، ولولا أن الله أمرنا بالتذكير ، لكانت تجايا المقرّ الأشرف السلطاني ، الملكيّ ، المنصوري ، مكتفيةً بأنوار المعية الساطعة ؛ وزمام كلِّ صلاح يجب أن يشغل به جميع أوقاته ، هو تقوى الله قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ .

فليكن ذلك نصب العين ، وشغل القلب والشفقتين ؛ وأعداء الدين من أرمن وفرنج وبتار ، فأذقهم وبال أمرهم في كلِّ إيراد للغزو وإصدار ؛ وتزلان تأخذ للخلفاء العباسيين ولجميع المسلمين منهم الثار ، وأعلم أن الله نصيرك على ظلمهم وما للظالمين من أنصار .

وأما غيرهم من مجاوريهم من المسلمين فأحسن باستنقاذك منهم العلاج ، وطبهم باستصلاحك فبالطّب الملكيّ والمنصوري ينصلح المزاج ؛ والله الموفق بمنه وكرمه .



وعلى هذه الطريقة مشى المقرّ الأشرف الناصري محمد بن البارزي الحموي صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية وسائر الممالك الإسلامية : بحل الله تعالى الوجود بوجوده ، وأناف بقدره على كيوان^(١) في آرتقائه وصعوده ، وجعله لسلطانه المؤيد رداءً مابداً سعد الملك صاعداً إلا كان له سعد سعوده .

فكتب على ذلك عهد السلطان الملك المؤيد أبي النصر « شيخ » خلد الله سلطانه ، عن الإمام المستعين بالله أبي الفضل العباس أمير المؤمنين خليفة العصر -

(١) أسم لكوكب زحل وهو ممنوع من الصرف للعلبية والعجمة لأنه ليس في كلام العرب أسم عنه ياء ولاه واو . انظر اللسان في مادة خ ون ج ١٦ .

أيد الله تعالى به الدين - في شعبان المكرم سنة خمس عشرة وثمانمائة، بعد خلع الناصر فرج؛ فأتى فيه بما أنجل الرّوض المنمنم والنجم الزاهر، وأوجب على العارف بنقد الأمرين أن يقول: كم ترك الأول للآخر؛ عدد فيه وقائعه المشهورة، وذكر مناقبه التي صارت على صفحات الأيام مرقومةً وعلى مرّ الليالي مذكورة، وفي بطون التواريخ على توالي الحديدين وتعاقب الدهور مسطوره؛ (فكتب على ذلك عهد السلطان الملك المؤيد أبي النصر شيخ خلد الله سلطانه)، ونصه: ^(١)

الحمد لله الذي جعل الدين بنصره مؤيداً، وأنتضاه لمصالح الملك والدين فأصبح ومن مرهفات عزمه باديةً بأئدة العدا، وفتح على فقر الزمان بشيخ ملك زويت له عوارف العدل ومعارف الفضل فاستغنى - ولله الحمد - بسعيد السعدا، وأصلح فساد الأحوال بأحكام رأيه وإحكام حكمه فأصبحت مأمونة الرءاء آمنة من الردى؛ وأمتن على أولياء الدولة الشريفة بمن لم يزل سهم تديره الشريف فيهم مُسدداً، ومياه الظفر جاريةً من قناة غوره الذي بذلك تعودا، وبجر إحسانه الكامل وإن قدم العهد المديد مجدداً .

والحمد لله الذي جعل وجوه هذه الأيام بالأمن مُسفرة، وليالى جودها بالعدل مُقمرة؛ وعدبات أوليائها بالأفراح مُزهره، وحدائق أخصائها بالنجاح مُثمره؛ ومنازل أعدائها مُقفرةً موحشه، ونوازيم مُدعرةً مُدهشه؛ وأجسادهم بأمراض قلوبهم مُشوشه، وأكبادهم بلواجج زفراتهم مُعطشه .

والحمد لله الذي جعل هذه الأيام الفاضلة الجلال جليلة الفضل، شاملة النظام ناظمة الشمل، هاميةً بالمكرّمات هائمةً بالعدل؛ دانيةً القُطوف، معروفةً بالمعروف، مُغنيّةً الملهوف، مُرهبةً للألوف، متصرفّةً في الآفاق صارفةً الصروف؛ حمداً يُبرج

(١) تقدمت، هذه الجملة بنصها قبل ستة أسطر فلعلها تكررت من قلم الناسخ أو سهو من المؤلف فتنبه .

النُفوس ، وَيُزِيلُ البُوسَ ، وَيُدِيمُ السُّرورَ ، وَيُدْهِبُ المَحْدُورَ ، وَ (الحمد لله الذي
أَذْهَبَ عَنَّا الحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شُكُورٌ) .

نحمده على هذه النعم التي تفيأت الأمم بظلالها ، وبلغت بها النفوس غاية آمالها ؛
ورويت بعد ظمأ الخوف من حياض أمن زلالها ، وأستسرت بعد الحزن بأفراح
قبولها وإقبالها ، وأرتفعت بعد انخفاضها رؤوس أبطالها وأقيالها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تديم النعماء ، وتُجْزِلُ العطاء ؛
وتكشف الغمائم ، وتقههر الأعداء ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي قرن
طاعة أولى الأمر بطاعته ، وأيد من أهدى منهم بهدأيته ؛ وأعانهم لما أستعان
بعنايته ، وأظله تحت ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله في دار كرامته ؛ صلى الله عليه
وعلى آله وصحبه الذين أنحازوا إلى حوزته وأحتموا بجمايته ، وأثمر لهم غرس دينه
فرعوه حق رعايته ، وشرف وكرم .

وبعد ، فلما كانت رحمة الله تعالى لغضبه سابقه ، ورأفته بعباده متلاحقه ،
وكانت الممالك الشريفة قد آختلت أمورها ، وصار إلى الدثور معمورها ، وأشرف
على البوار أميرها ومأمورها ؛ فالشرائع متغيرة شرائعها ، والعوائد مفقودة ماثرها ؛
والمظالم قوى سلطانها ، كثير أعوانها ؛ ضعيف مضادها ، قليل معاندها ؛ فلا نائب
سياسة إلا مشغول بالتوائب ، ولا حاكم شرع إلا وقد سادت عليه
المداهب ؛ ولا تاجر إلا وقد خسرت تجارته فماریحت ، ولا ذو قرأض إلا ورؤوس
أمواله قد أنقرضت ، ولا صاحب ثراث إلا وقد ميحت آية ميراثه ونُسِخت ؛
ولا ركن مملكة إلا وقد أنهدم أساسه ، ولا عضد دولة إلا وقد بطل إحساسه -
أقام سبحانه وتعالى لإزالة هذه النوازل الفادحة ، وإخماد نار هذه القبايح القادحة ؛

مَنْ تَوَقَّرَتِ الدَّوَاعِي عَلَى أَسْتِحْقَاقِهِ السُّلْطَنَةَ الشَّرِيفَةَ ، وَأَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى انْتِحْصَارِ ذَلِكَ فِي أَوْصَافِهِ الْمُنِيفَةِ ؛ وَدَلَّتْ أَمَّاؤُ السُّعُودِ عَلَى مَحَلَّةِ الْجَلِيلِ ، وَجَنَابِهِ الَّذِي إِذَا لَازَبَهُ مِنْ خَافِ الدَّهْرِ رَجَعُ وَطَرَفِ الدَّهْرِ عَنْهُ كَلِيلٌ ؛ طَالَمَا أَضْفَى مُوَارِدَ الْعَدْلِ ، وَأَضْفَى أَدْيَالَ الْفَضْلِ ؛ وَأَمَّنَ الْخَائِفَ ، وَرَوَّعَ الْخَائِفَ ؛ وَأَمْضَى فِي الْجِهَادِ عَزَمَهُ ، وَأَنْفَذَ فِي السَّرَايَا إِلَيْهِ حُكْمَهُ ، وَسَدَّدَ إِلَى مَعَاوِنِهِ فِي غَرَضِ الْكُفَّارِ سَهْمَهُ ؛ وَفَتَحَ الطَّرِيقَ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بَعْدَ الْإِنْسِدَادِ ، وَأَنْعَمَ عَلَى الْفَانِعِ وَالْمَعْتَرِّ بِالرَّاحِلَةِ وَالرَّادِ ؛ وَعَمَّرَ الْمَسَاجِدَ ، وَجَعَلَهَا آهَلَةً بِالرَّاكِعِ وَالسَّاجِدِ ؛ وَجَلَّا عُرُوسَ الْأُمُومَى فِي حُلَلِ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ ، وَأَعَادَ عُودَ مَبْرِهِ الذَّابِلِ وَهُوَ نَضِيرٌ . هَذَا مَعَ شَجَاعَةٍ شَاهَدَهَا وَشَهِدَ بِهَا أَبْطَالُ الْإِسْلَامِ ، وَسَطُوعَةٌ تَحْشَاهَا الْأُسُودُ فِي الْآجَامِ ، وَوَقَارٍ يُخَضِّعُ بِالْهَيْبَةِ رُعُوسَ الْأَعْلَامِ ؛ وَبِشْرِ يَطْلُعُ بَجْرَهُ مِنْ طَالِعِ جَبْهَتِهِ ، وَنُورٍ سَاطِعٍ مِنْ جِهَةِ جَبْهَتِهِ ؛ وَحِيَاءٍ مَتَطَّلِعُ مِنْ طَلْعَتِهِ ، وَحِبَاءٍ مَتَدَفَّقُ مِنْ أَمَلْتِهِ ؛ وَكُنْتُ أَيُّهَا الْمَلِكُ الْجَلِيلُ الْمُؤَيَّدُ - لَا زَالَ شَمْلُ الدِّينِ بِكَ مُجْمُوعًا ، وَعَلِمُ الْإِسْلَامِ مَرْفُوعًا ، وَقَلْبُ أَهْلِ الشَّرْكِ وَالنَّفَاقِ مَرُوعًا - أَنْتَ الْمُتَّصِفُ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْحَمِيدَةِ ، وَالكَاشِفُ لِنُكْ الشَّدَائِدِ الشَّدِيدَةِ ؛ فَلَمْ يَرَعْكَ خَطَرُ الْخَطَّارَةِ ، وَلَا أَنْحِلَالُ أَهْلِ صَرْخَدٍ حَيْثُ أَشْتَهَرَتْ عِزَاتُ صَوَارِمِكَ الْبِتَّارَةِ ؛ وَلَا خَطَرْتُكَ مِنَ الْقَيْسَارِيَّةِ إِلَى الرِّيدَانِيَّةِ فِي أَسْرَعِ مَنْ غَفَوَهُ ، وَالشَّيْخُ لَا تُتَكْرَهُ لَهَ الْخَطُوبِ ؛ وَلَا مَشَاهِدَةُ الْحِمَامِ فِي الْحَمَامِ ، وَلَا زَاغَ بَصْرِكَ بِاللُّجُونِ حِينَ أَظْلَمَ الْقَتَامُ ؛ حَتَّى زَالَ الْمَانِعُ ، وَهَجَعَ الْهَاجِعُ ؛ وَأُمِنْتَ الْخُطُوبَ ، وَفُرِّجْتَ الْكُرُوبَ ؛ وَخَلَّأَ دَسْتُ السُّلْطَنَةَ مِمَّنْ نَكَّتْ الْأَيْمَانَ ، وَأَصْرَّ عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ، وَأَقْرَرْتَ أَسْمَ الْخِلَافَةِ عَلَى الْإِنْفِرَادِ ، لَيْسْتَ خَيْرَ اللَّهِ فِي الْأَصْلَحِ لِلْعِبَادِ وَالْبِلَادِ .

هَذَا وَرَأَى أَهْلَ الْحَلِّ وَالْعَقْدِ مِنْ مُلُوكِ الْإِسْلَامِ وَأَمْرَائِهِ ، وَقُضَاتِهِ وَعُلَمَائِهِ ، وَمَشَائِخِهِ وَصُلَحَاتِهِ ؛ وَخَاصَّتَهُ وَعَامَّتِهِ ، وَرَأَى مَوْلَانَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ

الدين ، وجمع بين بركته شمل الإسلام والمسلمين ؛ مجمع على تفويض أمر المسلمين
 وولاية عهدهم وكفالة السلطنة الشريفة والإمامة العظمى إليك - خلد الله سلطانك ،
 وجعل الدهر خديك والملائكة أعوانك ؛ فقدّم أمير المؤمنين من الاستخارة أمام
 هذا التقليد ما يعترف في السنة الشريفة ويقدم ، وعلم أنّ المصلحة فيما خارّه الله له
 وللأمة من ولايتك أيها الملك المبجل والسلطان الأعظم ؛ وأنك أبرأ للذمة ، وأبر
 بالأمة ؛ وشاهد بإجماع الأمة على ساطنتك من التآلف والاتفاق ، مانع الخلاف
 والشقاق ؛ وما سرّ الجمهور الطائعين من غير دفاع ، والجحّم الغفير لبديع آرائك ورفيع
 راياتك مُذعنين لحسن الاتّباع ؛ وأهل الحلّ والعقد لأمرك ونبيك قد خضعت
 منهم الرقاب ، وسارعوا إلى إجابة دعوتك حين أتضحت لهم أدلة الصواب .
 والزمان بإفضاء الأمر إليك قد طاب واعتدل ، والأرض في مشارقتها ومغارها
 بمهاتك قد أمنت من الوجل ، والنفوس الأبية قد أذعنّت لمبايعتك من غير مهل ؛
 والفتنة وقد ردّ الله بالغيظ مثيرها ، والألفة وقد برقت من سرائر أهل التوحيد
 أساريها ؛ والعساكر المنصورة قد أحاطت به كما أحاطت بالبدور الهاله ، وقد أنزل
 الله عليك ناموس المهابة والحلاله ؛ وفوض إليك ما ولاه الله من أمور الإسلام
 والمسلمين ، وأسند إليك ما في يده من مصالح عباده المؤمنين : لتقيم على أساس
 أحكام دعائم الدين القويم ، وتسير الخلائق على منهاج طريقك المستقيم ؛
 وتحسّن - إن شاء الله - برعايتك عاقبة الرعيه ، كما أصبحت قلوبهم بك راضية
 مرضية .

وعهد إليك أمير المؤمنين في كلّ ما وراء سرير خلافته ، وفي كلّ ما يرتبط بأحكام
 إمامته ؛ وكذلك ذلك شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ، وبراً وبحراً ، وسهلاً ووعراً ؛
 وفي كلّ ماله من الملك والمالك ، وما يفتحّه [الله] على يدك بعد ذلك ؛ تفويضاً

شاملاً، وتقليداً كاملاً؛ وعهداً تاماً، وإسناداً عاتماً؛ ولايةً مكلّةً البنيان، مؤسّسةً على تقوى من الله ورضوان؛ وسلطنةً آخذةً بالذم، مشتملةً على جميع الأمم؛ يدخل في هذا العهد العامّ والتفويض التام، والرأى الذى شهد له إجماع الأئمة بالإحكام؛ [يدخل في ذلك] ^(١) مفضول الناس وفاضلهم، وعالمهم وجاهلهم؛ وخاصهم وعامهم، وناقصهم وتأمهم؛ وشريفهم ومشروفهم، وقويهم وضعيفهم؛ وأميرهم ومأمورهم، وقاهرهم ومقهورهم؛ والجمع والجماعات، وبيوت العباد والطاعات؛ والقضاة وأحكامها، والخطباء ومنابرها وأعلامها؛ والجيوش والعساكر والكاتب، ورب سيف وكتب إنشاء وقلم حاسب؛ وطوائف الرعايا على اختلاف أطوارهم، ونفائوت أرزاقهم وأقدارهم؛ والعربان والعشائر، وبيوت الأموال والذخائر؛ ودانى الأمم وقاصيها، وطائعها وعاصيها؛ والخراج وجباياته، والمصروف وجهاته؛ والصدقات ومستحقوها، والرزق ومرترقوها؛ والإقطاعات والأجناد، وما يستعد [به] لمواطن الجهاد؛ والمنع والعطاء، والقبض والإمضاء؛ والخمس والزكوات، والهدن والمعاهدات، والبيع والقامات؛ وما يظهر من أمور الملك وما يخفى، وما تستدعيه براعتك فى السر والخفا؛ وشعار السلطنة وأهبتها، ونواميس الملك وحرمتها .

فاجبت - رعاك الله - دعوة أمير المؤمنين ودعوتهم لقبول ذلك مسؤلاً، معتمداً على أن الله سينزل إليك من الملائك فعلاً وقولاً؛ فاجلس - أيدك الله - على تحت ملكٍ قد هياه الله لمواقفك المطهّره، وسرير سلطنة علقت سرير سعدك الأجدد فقاعست الهمم عنه مقصره .

فالحمد لله ثم الحمد لله عن الدهر وأبنائه، ولا مثل هذه النعمة بهذا الخبر وأبنائه؛ **﴿ ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾** وهذا ما كان من قضية الدين على رغم

(١) ما بين القوسين فى الأصل وهو من زيادة النسخ كما لا يخفى .

الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ؛ وهذا ما كانت الآمالُ تنتظرُ ورُودَهُ ، وجواری القِدَمِ ترتقبُ
سُعودَهُ :

والله ما زادوك مُلكاً إِمَّا * زادوا أُكُفَّ الطالِبِينَ نَوَالاً!

وأما الوصايا ، فانت بجد الله طالماً ملأت بها الأسماع ، وكشفت عاطفتك لمن
أردت ترتيبه عنها القناع ؛ ولكن عهد من تعبداتك السماع لشدوها ، والطرب
لحدوها ؛ فعليك بتقوى الله ، فيها تُورِقُ أغصانُ الأرب الذوابل ، ويُغرَّدُ طائرُ عرك
الميمونُ بالأنحسار والأصائل ؛ فاجعلها ربيعَ صدرك ، وأينع بها حدائقِ فكرِك ؛
وروح بعرفها الأريح أرجاء مُلكك ، وأجرِ الشرعَ الشريفَ على ما عودته من نصرك ،
والعلماء على ما ألقوه من برك وخيرِك ؛ فهم ورثة الأنبياء عليهم السلام ، والدالون على
الشريعة بأسنة أعلامهم ما يكُلُّ عنه حدُّ الحسام ؛ وطهرَ منصبَ الشرع الشريف
من الرذائل ، وضمن أيامَ مُلكك الشريف عن الجهال والآكلين أموال الناس
بالباطل ؛ والعدل - ونستغفر الله - فإنك مُتمرِّ لغراسه ، رافعٌ ما أنهدم من أساسه ؛
قد جهلته مجلس محاماتك ، وأنيسَ خلواتك ؛ والفضل - وبرك أنجمل الأعلام
فلومرّ بك راجيك على الصفا لأرتاح للعروف ، أو شاهد هباتك حاتم لرجع طرفه
عنها وهو مطروف ؛ ولا سرف في الخير ، ولا ضرر ولا ضير ؛ وأمر بالمعروف وأنه
عن المنكر فانت المسئول بين يدي الله عن ذلك ، وأنه نفسك عن الهوى بحيث
لا يراك الله هنالك ؛ وحدود الله فلا تتعداها ، والرايا فخطها بعين رعايتك وأرعاها ؛
وجند الجنود برأ وبجرا ، وأنل أعداءك قهراً وقسراً ؛ وراجع النظر في أمر تواب
السلطنة الشريفة مراجعة الناقد البصير ، وتيقظ لصيانة قلاع الممالك ومعاقبها
وحصونها ، وتخير لها من ليس بمشكوك المناصحة ولا مظنونها ؛ وحطها مع عمارتها

بالعِدَّة والعُدَد، والأقواتِ لِكَيْ تَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ بِمَدَدِهَا مِنْهَا إِذَا طَالَتْ الْمُدَدُ؛ وَتَفْقَدُ أَحْوَالَ مَنْ فِيهَا مِنَ الْمُسْتَعْدِمِ، وَأَرَعَ حُقُوقَ مَنْ لَهُ بِهَا خِدْمَةٌ مُتَقَدِّمَةً، وَاجْعَلِ الشُّعُورَ بِاسْمَةِ بِحَفَظَتِهَا، وَلا حِظِّ الْأُمُورِ بِحَسَنِ تَدْيِيرِكَ الْمَالُوفِ فِي سِيَاسَتِهَا. وَأَسْتَوْصِ خَيْرًا بِأَمْرَائِكَ الْخَالِصِينَ مِنَ الشُّكُوكِ، السَّالِكِينَ فِي طَاعَتِكَ أَحْسَنَ السُّلُوكِ؛ وَضَاعِفْ لَهُمُ الْحُرْمَةَ، وَأَرَعَ لَهُمُ الدِّمَّةَ؛ لِاسْمِهَا أَوْلَى الْفِكْرِ الثَّاقِبِ، وَالرَّأْيِ الصَّابِ؛ فَشَاوِرْهُمْ فِي مُهِمَّاتِ الْأُمُورِ، وَأَشْرَحْ بِإِحْسَانِكَ مِنْهُمْ الصُّدُورَ؛ وَأَرَعَ حُقُوقَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، الَّذِينَ سَلَكَتْ مَعَكَ مَطَايَاهُمُ الْبِطَاحَ وَالْقِفَارَ، وَهَجَرُوا مَحْبُوبَهُمْ مِنَ الْوَطَنِ وَالْدَارِ؛ وَجَالِدُوا وَجَادَلُوا، وَأَوُوا فِي سَبِيلِكَ وَقَاتَلُوا؛ وَأَنْبِلْ كَلًّا مِنْهُمْ مَا يَرِجُوهُ، وَأَشْرَحْ صُدُورَهُمْ بِإِدْرَاكِ مَا أَمْلَوْهُ؛ وَجِيُوشِ الْإِسْلَامِ فَاغْرِسْ مَحَبَّتَكَ فِي قُلُوبِهِمْ بِإِحْسَانِكَ، وَكَمَا سَبَقْتَهُمْ حَسَا فَتَحَبَّبْ إِلَيْهِمْ بِبِزِيلِ أَمْتِنَانِكَ؛ وَجِيُوشِ الْبَحْرِ فَكُنْ لَهَا مُحِيطًا، وَبِجَلِّيَّاتٍ مِثْلِهَا مُحِيطًا^(١)؛ فَإِنَّهَا تُوجِّهُ لِلْأَصْقَاعِ، سُؤْلِيَانِيَّةَ الْإِسْرَاعِ؛ تَقْدِيفَ بِالرُّعْبِ فِي قُلُوبِ أَعْدَاءِ الدِّينِ، وَتَقْلَعُ بِقُلُوعِهَا آثَارَ الْمُؤَلِّدِينَ؛ فَوَاصِلَ تَجْهِيزِ السَّرَايَا لِرُكُوبِ تَجْبِهِ، وَالغُوصِ إِلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ فِي عَمِيقِ بُحْبِهِ. وَأُجْمِلِ النَّظَرَ فِي بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، وَحَرِّمِ رِسُولِهِ عَلَيْهِ أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ: لَتَسْلُكَ عَيْنُ الْأَمْنِ الْأَبَاطِحَ، وَتَقَرَّ عِيُونُ حُمْرِهِ بِالْمَائِحِ وَالْمَاتِحِ؛ وَتَتَعَرَّفَ بِعِرْفَانِكَ عَرَافَاتِ، وَتُرَى نَحَاوِفَ الْخَلِيفِ مِنْ أَيْدِي مَهَابَتِكَ بِالْجَمْرَاتِ؛ وَصِلْ جِيرَانَهُمَا بِصَلَاتِكَ: لَتُسْهِرَ أَعْيُنَهُمْ بِالْإِدْعَاءِ لَكَ وَأَنْتَ فِي غَفْوَاتِكَ. وَالْقُدْسُ الشَّرِيفُ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْمَسَاجِدِ الَّتِي تُشَدُّ إِلَيْهَا الرِّجَالُ فِرْدُ تَقْدِيسِهِ، وَاجْعَلْ رُبُوعَ عِبَادَاتِهِ بِالصَّلَاةِ مَا نُوسَهُ. وَإِقَامَةَ مَوْسِمِ الْحَجِّ كُلِّ سَنَةٍ فَأَنْتَ بَعْدَ حَرَكَةِ تَيَمُّورِ فَاتِحِ سَبِيلِهِ، وَكَاسِي تَجْمَلِهِ حَلَّلِ تَوْقِيرِهِ وَتَجْمِيلِهِ.

(١) لعل محيطا الأول البحر والثانية من الإحاطة بمعنى العلم.

هذه الوصايا تذكّرة للخاطر الشريف وحاشاك من النسيان ، وهذا عهد أمير المؤمنين ومبايعة أُولي الحلّ والعقد قد تفاضياً إلى حَقِّك على الزمان ، وعندك كتاب الله وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ماضلّ من تمسك بهما ولامان ، فاتَّبِعْ أَحْكَامَ اللهِ يُوسِّعِ اللهُ لَكَ فِي مُلْكِكَ ، وَاجْعَلْ هَدْيَكَ بِهِمَا إِمَامَ نَبِيِّكَ وَأَمْرِكَ ؛ وَأَذْ مَا قَلَّدَكَ اللهُ مِنْ حَقُوقِ الْإِمَامَةِ وَالْأَمَانَةِ إِلَى خَلْقِهِ آدَاءً مَوْفُورًا : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

قلت : ولما كان هذا العهد قد آدرَعَجِلبابِ العجائبِ فأعجَب ، وأرتدى برداء الغرائب فأغرب ؛ وسقى غرسه ماء البلاغة فأعجب ، وشفّ الأسماع إذ أسمع فأرقص على السماع وأطرب ؛ وأمتطى صهوة جواد البيان فتنقلّ فيها من كُمت إلى أشقر ومن أحوى إلى أشهب - أحببتُ أن آتِي له بطُرة هي له في الحقيقة ذيل ، وُنغبة من بحر وقطرة من سيل ؛ لاجرم جعلتها في الوضع في الكتاب له للاحقه ، وإن جرت العادة أن تكون الطُرة للعهد سابقه ؛ وهو :

هذا عهدٌ شريفٌ ترقُّهُ أقلام أشعة الشمس بذهب الأصيل على صفحات الأيام ، وتُعجِّمه كُفُّ الثريا بنقطة النجوم الزواهر ، وإن كان لالعهد للعهود بالإعجام ، وتعتَرِفُ ملوك الأرض أنّ صاحبه شيخُ الملوك والسلاطين فتقدّمه في الرأى ونجته في الرتبة وتعامله بالإجلال والإعظام ؛ من عبد الله وولّيه ، وخليفته في أرضه وصفيه ، وسليل خلفائه الراشدين وأبن عم نبيه ؛ الإمام الفلاني (إلى السلطان الاعظم الملك الفلاني إلى آخر الألقاب) .



وهذه نسخة عهد علي هذا المذهب ، كُتِبَ به عن أمير المؤمنين المستعين بالله
أبي الفضل العباس خليفة العصر، للملك العادل شمس الدنيا والدين «مظفر شاه»
بالسلطنة بالملكة الهندية، في شوال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بدمشق المحروسة؛ من
إنشاء الشيخ الإمام علامة العصر، جامع أشتات الأدب ومالك زمامه، تقي الدين
محمد بن حجة، الشاعر الحموي، ومفتي دار العدل بجماة المحروسة، مما كُتِبَ بخط
المولى تاج الدين عبد الرحمن بن التاج ، أحد كُتَّاب الإنشاء الشريف بالأبواب
الشريفة ، في قطع البغدادى الكامل بخفيف الطومار، وكانت الطرة المكتتبة
في الوصل الأول خمسة أسطر بالقلم المذكور، وسطين بخفيف المحقق ، والطرة
اليضاء خمسة أوصال ، والياض بين كل سطين ثلث ذراع، وبيت العلامة
الشريفة ضِعْفُ ذلك ، والهامش رُبعُ الورق على العادة . وصورة الطرة :

عهد شريف عهد به عبد الله ووليه سيدنا ومولانا الإمام الأعظم العباس أبو الفضل
المستعين بالله أمير المؤمنين ، وآبى عم سيد المرسلين ؛ أعز الله به الدين ، وأمتع ببقائه
الإسلام والمسلمين ؛ إلى المقام الأشرف ، العالى ، السلطاني ، العادلي ، الشمسي ،
أبي المجاهد « مظفر شاه » أعز الله تعالى أنصاره . وقلده السلطنة المعظمة بحضرة
«دهلي» وأعمالها ومضافاتها على عادة من تقدمه في ذلك ؛ ولاية عامة شاملة كاملة
جامعه ، وازعة قاطعة ساطعه ؛ شريفة منيفة ؛ في سائر الممالك الهندية وأقاليمها ،
وتغورها وبلادها ؛ وعساكرها وأكابرها وأصاغرها ، ورعاياها ورعاتها ، وحكامها
وقضاتها ؛ وما آحتوت عليه شرقا وغربا ، بعدا وقربا على ما شرح فيه .

الصدر بعد البسملة الشريفة :

الحمد لله الذي وثق عهد النجاح للمستعين به ، وثبت أوتاده : ليفوز من تمسك من غير فاصلة بسببه ؛ وزين السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ، وأفرغ على أعطاف الأرض حُلَّ الخلافة الشريفه ، وعلم أن خلفها الشريف زهرة الحياة الدنيا فقال عز من قائل : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ . وأختارها من بيت براعة أستهلاله في أول بيت وضع للناس ، وسبقت إرادته - وله الحمد - أن تكون هذه النُهلة من سقاية العباس .

فالحمد لله على أن جعل هذه السقاية عينا يشرب بها المقربون ، ومن علم شرفها تميز وتمسك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمْلِكُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

والحمد لله الذي استخلف آله في الأرض وفضلهم ، فإن تحدث أحد في شرف بيت فالله سبحانه قد جعل البيت والحديث لهم ؛ فأكرم به بيتا من أقر بعبوديته كان له بحمد الله من النار عتقا ، وتمتع بنعيم بركته التي لا يجنبها إلا الأشقي ؛ وهو البيت الذي بعث الله منه شاهدا ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وصفي أهله من الأذناس وأنزل في حقهم : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . وصير علمهم الخليفة على وجنة الدهر شامة ، وخصمهم بالتقديم فالحمد لله والله أكبر لهذه الإمامة ؛ وإذا كان النسب مقدما في المدح وهو في النظم واسطة العقود ، فهذا هو النسب الذي كآن عليه من شمس الضحى نورا ومن فلق الصباح عمود ؛ وهذا هو الركن الذي من استند إليه قيل له : فزت بعلو سنذك ، فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعنه العباس : ” ياعم ألا أبشرك؟ قال : بلى يارسول الله - قال : إن الله فتح الأمر بي

وَيَحْتَمُهُ بَوْلِدِكَ“ . وهذا الحديث يُرشد إلى التمسك بِطِيبِ الْعُهُودِ الْعَبَاسِيَّةِ لِتُفِيضَ عَلَى التَّمَسُّكِ بِهَا نَيْلَ الْوَفَاءِ، وَتُعِينَ مِنْ أَسْتَعَانِ بِالْمُسْتَعِينِ وَعِلْمَ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ لِحَدِيثِهِ : ” أَنْتَ أَبُو الْخُلَفَاءِ “ . وَنَاهِيكَ أَنْهَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأُمَّ فَضْلٍ وَهِيَ شَاكَّةٌ فِي الْحَمْلِ : ” أَذْهَبِي بِأَبِي الْخُلَفَاءِ “ فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ الْمُتَنَزِّمُ بِهِ هَذَا الشَّمْلُ فَأَحْبَبَ بِهَا شَجَرَةَ زَكَرَّا غَرَسَهَا وَنَمَّا، وَتَسَامَتَ بِهَا الْأَرْضُ وَكَيْفَ لَا ؟ وَأَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرَعُهَا فِي السَّمَاءِ؛ فَسَلَامٌ عَلَى هَذَا الْخَلْفِ الَّذِي مِنْهُ الْمُسْتَعِينُ بِاللَّهِ وَالْمُتَوَكِّلُ عَلَيْهِ وَالْوَاتِقُ بِهِ وَالْمُعْتَمِدُ وَالرَّشِيدُ، وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مُجِيدٌ . نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ عِلْمٌ أَنَّ آلَ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ كَسْفِينَةِ نُوحٍ وَتَعَلَّقَ بِهِمْ فَجَاءَ ، وَنَشَكَرَهُ شُكْرَ مَنْ مَالَ إِلَى الدُّخُولِ تَحْتَ الْعِلْمِ الْعَبَّاسِيِّ وَتَتَّصَلَ مِنَ الْخَوَارِجِ فَوَجَدَ لَهُ مِنْ كُلِّ ضَيْقٍ مَخْرَجًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَزَّجُوا أَنْ تَكُونَ مَقْبُولَةً عِنْدَ الْحَاكِمِ وَقَتِ الْأَدَاءِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي حَرَضَنَا عَلَى التَّمَسُّكِ بِالْعُهُودِ وَأَرْشَدَنَا إِلَى طَرِيقِ الْهُدَى؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ وَقَّوْا بِالْعُهُودِ، وَكَانُوا فِي نِظَامِ هَذَا الدِّينِ وَجَمَعَهُ فَرَائِدُ الْعُقُودِ؛ صَلَاةً يَسْقِي عَهَادَ الرَّحْمَةِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - عَهْدَهَا، وَيَنْتَظِمُ فِي سِلْكِ الْقَبُولِ عَقْدَهَا؛ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا .

أما بعد حمد الله الذي ألهمنا الرشد وجعل منا الخلفاء الراشدين ، وهدانا بنبيّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحَصَّنَا مِنْ بَيْتِهِ الشَّرِيفِ بِالْأُمَّةِ الْمَهْدِيَّةِ ؛ وَأَصْطَفَى مِنْ هَذَا الْخَلْفِ خُلَافَةَ الْأَرْضِ ، وَسَنَّ مَوَاضِيَ الْعُقُولِ الَّتِي قَطَعَتْ أَنْ طَاعَتَنَا قَرَضَ ؛ فَإِنَّ لِعَهْدِنَا الْعَبَّاسِيِّ شَرَفًا لَا يُرْفَلُ فِي حُلَّةٍ إِلَّا مِنْ أَتَّخَذَ مَعَ اللَّهِ عَهْدًا وَأَتَاهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ، فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ أَعْوَدُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ : ﴿ إِنَّ الدِّينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ مِمَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ . وَلَا يَتَمَسَّكُ بِهَذَا الْعَهْدِ إِلَّا مَنْ صَحَّحَ إِلَى الْقِيَامِ

بواجب الطاعة وترك أهل الجهل في سكرتهم يعمهون، وانتظم في سلك من أنزل الله في حقهم : ﴿ وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ .

فمن نهض إلى المشي في منهاجه مشى بعين البصيرة في الطريق القويم، وتلا له لسان الحال : ﴿ أَفَنَنْ يَمْشِي مُكَبِّاً عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ . وهو قبضة من آثار البيعة النبوية ، وشعار يتشرف به من مشى تحت ألويته العباسية ؛ وما أرسل هذا العهد النبوي إلى أحد من ملوك الأرض إلا عمه الشرف من جميع جهاته ، و ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ وشانت أعواد منبره طربا ، وأزهرت رونقا وأمرت أدبا ؛ وأستطالت بيد الخلافة لإقامة الحد ، وكيف لا ويد الخلافة لا تطاؤها يد ؛ وكان المقام الأشرف (إلى آخر الألقاب المذكورة في التعريف وأسمه المكتب في الطرة) هو الذي رغب في التمسك بهذا العهد الشريف ليزيل عن ملكه الإلباس ، وأستند إليه ليروي بسنده العالی عن ابن عباس ؛ فإنه الملك الذي ظفره الله بأعداء هذا الدين وسماه مظفرا ، ولقبه بالشمسي وأختار له أن يقارن من الطلعة المستعينية قمرًا ؛ أبع زهر العدل من حضرة ”دهلي“ فعطر الآفاق ، وضاع نشره بالهند فعاد الشم إلى المزكوم بالعراق ؛ وصارت دمن ”صومنا“^(١) عامرة بقيام الدين ، وأيده الله فيها بعد القتال بالفتح المبين ؛ ولم يترك للعدو في بيت بيت ليله ، وأبطل مادهره أهل دهلي بحسن اليقظة وقوة الصولة ؛ وأباد الكفرة من أهل ديو ولم يقبل لهم ديه ، وفأوا إلى غير أمر الله فأبادهم بسيفه الهندي فلم تقم لهم فيه ؛ وفطر أجدان من ناوأه بها فلازموا عن رؤيتها الصوم ، ونادى منادى عدله

(١) تقدم في (ج ٥) من هذا المطبوع أنها ”صومنا“ بالصاد المهملة ويقال أيضا بالسين المهملة

بالبلاد الهندية : لا ظَمَّ اليَوْمَ؛ ودانت له تلك الممالك بَرًّا وبحرا، وسَهْلا ووعرا؛
ما نَظَمَ الأعداءُ على البحرِ المديدِ بيتا إلا أبانَ زِحافَه وأدارَ عليه دوائِرَه ، فكم نَظَمَ
شَمْلَ الرعايا بالعدْلِ ونَثَرَ رُعوسَ الطُّغاةِ بالسيفِ فلا عَدِمَ الإسلامُ ناظِمَه ونائِرَه؛
سُئِلَتِ الرُّجبانُ في البرِّ عن مَنابِه الجميلةِ وعمِّ يتساءلونَ وقد صار لها عَظِيمُ النبا ،
وصرَّحَ راكبُ البحرِ بعد التسميةِ بِاسْمِهِ (وَأَتَخَذَ سَبِيلَه في البحرِ حَجَبًا) فَظَلَّهُ في البرِّ
ظليل ، وعدلُّه في البحرِ بَسِيطٌ وطَوِيلٌ .

(١)

هذا ولم يبقَ في تلك الممالكِ الهنديةِ بقعةٌ إلا ولم يصغر اللهُ بِسَنابِكَ الخليلِ فيها
مَشاه، ولا نفَسٌ خارجةٌ عن الطاعةِ إلا وماتتْ في رُفْعَةِ الأرضِ بمظفَرِ شاه؛ فلذلك
رُسِمَ بالأمرِ الشريفِ العالی ، المولوی ، السیدي ، الإمامي ، الأعظمي ، النبوي ،
المستعيني ، سيدنا ومولانا أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس (ونسبه
إلى الحاكم بأمر الله ، والدعاء) بعد أن استخار الله تعالى سيدنا ومولانا أمير المؤمنين
كثيرا ، وأتخذَه هاديا ونصيرا ، وصلى على ابنِ عمه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم -
أن يفوضَ إلى المقامِ الأشرفِ المشارِ إليه ولايةَ العهدِ وكفالةَ السلطنةِ المعظمةِ ،
بمحضرةِ دهلي وأعمالها كما في الطرة كما هو المعهود : ليَهْطَلَ جُودُ الرحمةِ على تلكِ البقاعِ
المباركةِ إن شاء الله ويُجودُ : لما رآه من صلاحِ الأئمةِ ومصالحِ الخلقِ ، استخلافا
تَحَلَّى بذكره الأفواه ، وتَسْتَنِدُ إليه الرواه ، وتترنمُ به الحداه ، وتَسْتَبْشِرُ به كافةُ الأئمةِ ،
ويَقْطَعُ به ويَحْفَظُه ربُّ كلِّ سيفٍ وقلمٍ ، ويعتمدُ عليه كلُّ ذی عِلْمٍ وعِلْمٍ ؛ فلا زعيمَ
جيشِ بها إلا وهذا التفويضُ يَسْعُه ويشملُه ، ولا إقليمَ من أقاليمها إلا ومن به
يُقْبَلُه ويقبلُه ، ويمتثلُ به ويمتثلُه ، ولا منبرَ يجوامعها إلا وخطيبُه يتلو برهانَ هذا
التفويضِ ويرتله .

(١) لعله إلا وصغر الله أربعة لم يصغر الخ . تأمل .

وأما الوصايا فعنده - إن شاء الله - تَهَبُ نَسَاءتُ قَبُولِهَا ، وتُعْرَبُ عن نَصْبِ مفعولها ؛ وهو بحمد الله تعالى لوصايا هذا العهد المبارك نِعْمَ القَابِلُ ، ففي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم : ” سَبْعَةٌ يُظَلِّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ مِنْهُمْ الإِمَامُ العَادِلُ “ والوصية بالرعايا واجبة والعدل فيهم قد حرض النبي صلى الله عليه وسلم عليه ، وقال : ” يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ مَطَرٍ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا أَحْوَجَ مَا تَكُونُ الأَرْضُ إِلَيْهِ “ . وقال ابن عمنا علي رضي الله عنه « المُلْكُ والدِّينُ أخوانٍ لا غَنَى لأحدهما عن الآخر، ونَشْرَهُما في الرعيَّةِ ضائع ، فالدِّينُ أُسُّ والمُلْكُ حارس ، فما لم يكن له أُسٌّ فمُهْدُومٌ ، وما لم يكن له حارسٌ فضائع « - فليأمر بالمعروف وبيته عن المنكر غالباً أنه ليس يُسألُ غداً بين يدي الله عز وجل عن ذلك سوانا وسواه ، وبيته نفسه عن الهوى فلا يحسن لعودِ قده أن يميل مع هواه - وليترك الثغور بعدله باسمه ، وقواعد المُلْكِ بفضله قائمه - وليجاهد في الله حقَّ جهاده ، ويلطف بالرعايا ويعلم أن الله لطيفٌ بعباده - وليشرح لهم بالإحسان صدراً ، ويخبرهم إذا وقف على أحوالهم أحسنَ مجرئٍ ؛ وهو بحمد الله غير محتاج إلى التأكيد : لأنه لم يحل له من القيام في مصالح المساميين فكرٌ ، ولكنه تجديد ذكر على ذكر ؛ والله تعالى يمتنع بطول بقائه البلاد والعباد ، ولا برحت سيوفه الهندية تكلم أعداء هذا الدين بالسنة حداد ؛ وثبت ملكه بالعدل وشيّد أقواله وأفعاله ، وختم بالصالحات أعماله ؛ والاعتقاد على الخط الإمامي المستعيني أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : ولم يُعهد أنه كُتِبَ عن الخلفاء العباسيين القائمين بالديار المصرية عهدٌ ملك من غير ملوك الديار المصرية سوى هذا العهد .

المذهب الرابع

(١) [أن يفتح العهد بقوله « أما بعد » « فالحمد لله » أو « أما بعد
فإن أمير المؤمنين » أو « أما بعد فإن كذا » ونحو ذلك]

ويأتي بما يناسب من براعة الاستهلال وحال المتولى والمولى وما يجري مجرى ذلك مما يستح للكتاب ذكره مما يناسب الحال ، ويأتي من الوصايا بما يناسب المقام : إما بلفظ الغيبة أو بلفظ الخطاب كما في غيره من المذاهب السابقة ، وهي طريقة اقترحها الوزير ضياء الدين بن الأثير في « المثل السائر » أنشأ عليها عهدا في معارضة المكتوب للسلطان صلاح الدين « يوسف بن أيوب » من ديوان الخلافة ببغداد الآتى ذكره في المذهب الخامس ، وهذه نسخته :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يبدأ بحمد الله الذى يكون لكل خطبة قيادا ، ولكل أمر مهادا ، ويستريده من نعمه التى جعلت التقوى له زادا ، وحمته عبء الخلافة فلم يضعف عنه طوقا ولم يأل فيه اجتهادا ، وصغرت لديه أمر الدنيا فما تسورت له محرابا ولا عرّضت عليه جيادا ، وحققت فيه قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ . ثم يصلّى على من أنزلت الملائكة لنصره إمدادا ، وأسرى به إلى السماء حتى ارتقى سبعا شدادا ، وتجلّى له ربه فلم يزغ منه بصرا ولا أكذب فؤادا ، ثم من بعده على أسرته الطاهرة التى زكت أوراقا وأعوادا ، وورثت النور المبين تالادا ، ووصفت بأنها أحد الثقلين هداية وإرشادا ، وخصوصا عمه العباس المدعوله بأن يحفظ نفسه وأولادا ، وأن تبقى كلمة الخلافة فيهم خالدة لا تخاف دركا ولا تحشى نقادا .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح ما يقتضيه المقام .

وإذ استوفى القلم مداده من هذه الحمدله ، وأسند القول فيها عن فصاحته
المُرسله ؛ فإنه يأخذ في إنشاء هذا التقليد الذي جعله حليفاً لقرطاسه ، وأستدام
سُجوده على صفحته حتى لم يكذ يرفع من راسه ؛ وليس ذلك إلا لإفاضته في وصف
المناقب التي كثرت فحسن لها مقام الإثثار ، وأشتبه التطويل فيها بالإختصار ؛
وهي التي لا يفتقر واصفها إلى القول المعاد ، ولا يستوعر سُلوك أطواها ومن
العجب وجود السهل في سُلوك الأطواد ؛ وتلك مناقبك أيها الملك الناصر الأجل ،
السيد ، الكبير ، العالم ، العادل ، المجاهد ، المرابط ، صلاح الدين أبو المظفر يوسف
ابن أيوب ؛ والديوان العزيز يتلوها عليك تحذثاً بشكرك ، ويباهي بك أوليائه تنويها
بذكرك ؛ ويقول : أنت الذي تُستكفى فتكون للدولة سهمها الصائب ، وشهابها
الشاقب ؛ وكثرها الذي تذهب الكنوز وليس بذهب ، وما ضرها وقد حضرت
في نصرتها إذا كان غيرك هو الغائب ؛ فأشكر إذا مساعيك التي أهلكك لما أهلكك ،
وفضلتك على الأولياء بما فضلتك ؛ ولئن سُوركت في الولاء بعقيدة الإضمّار ،
فلم تُشارك في عزمك الذي أنتصر للدولة فكان له بسطة الإنتصار ؛ وفرق بين من
أمد بقلبه ومن أمد بيده في درجات الإمداد ، وما جعل الله القاعدين كالذين قالوا
” لو أمرتنا لضرربنا أجبأدها إلى برك العباد “ . وقد كفأك من المساعي أنك كفيت
الخلافة أمر منازعها ، فطمست على الدعوة الكاذبة التي كانت تدعها ؛ ولقد مضى
عليها زمن ومحراب حقا محفوف من الباطل مجرأين ، ورأت ماراه رسول الله صلى
الله عليه وسلم من السوارين اللذين أوطها كدابين ؛ فبمصر منهما واحد تاه بجري
أنهارها من تحتها ، ودعا الناس إلى عبادة طاغوته وجبته ، ولعب بالدين حتى لم يدر
يوم جمعته من [يوم أحده ولا] يوم سبته ؛ وأعانه على ذلك قوم رمى الله بصائرهم

بالعمى والصمم، وأتخذوه صنماً [بينهم] ^(١) ولم تكن الضلالة هناك إلا بعجل أو صنم؛ فقامت أنت في وجهه باطله حتى قعد، وجعلت في جيده حبلاً من مسد، وقلت ليدِه : تَبَّتْ فَأَصْبَحَ [وهو] ^(١) لَا يَسْعَى [بِقَدَم] وَلَا يَبْطِشُ بِيَدٍ ؛ وكذلك فعلت بالأخر الذي نَجَّمت باليمن نَاجِمتُه ، وسامت فيه سَائمتُه ؛ فوضع بيته موضع الكعبة الأيمانية ، وقال : هذا ذو الخَلصة الثانية ؛ فأى مقاميك يعترف الإسلام بسبقه ، أم أيهما يقوم بأداء حقِّه ؛ وهاهنا فليُصْبِحِ القلم للسيف من الحُساد ، ولتَقْصُرْ مكانتُه عن مكانتِه وقد كان له من الأنداد ؛ ولم يحظْ بهذه المزية إلا أنه أصبح لك صاحباً ، ونَفَرَ بك حتى طال نغرا كما عَزَّ جانباً ، وقضى بولايتك فكان بها قاضياً لما كان حُدّه قاضياً .

وقد قلَّدك أمير المؤمنين البلاد المصرية واليمينية غوراً ونجداً ، وما آسملت عليه رعيةً وجندا؛ وما آنتهت إليه أطرافها براً وبحراً ، وما يُسْتَمْتَدُّ من مجاورها مسالمةً وقهراً ؛ وأضاف إليها بلاد الشام وما تحوى عليه من المدين والمدنه ، والمراكز المحصنه ؛ مستثنياً منها ما [هو] بيد نور الدين إسماعيل بن نور الدين محمود رحمه الله ؛ وهو حلبٌ وأعمالها ، فقد مضى أبوه على آثار في الإسلام ترفع ذكره في الذاكرين ، وتخلفه في عقبه في الغابرين ؛ وولده هذا قد هدبته الفطرة في القول والعمل ، وليست هذه الربوة إلا من ذلك الجبل .

فليكن له منك جار يدنو منه وداداً كما دنا أرضاً ، ويصبح وهو [له] كالبنيان يشد بعضه بعضاً ؛ والذي قدمناه من الثناء عليك ربمَّا تجاوز بك درجة الإقتصاد ، وألفتك عن فضيلة الأزياد ؛ فإياك أن تنظر إلى سَمْعِكَ نظر الإعجاب ، وتقول : هذه بلادٌ أنا أفتتحها بعد أن أضرب عنها كثير من الأضراب ؛ ولكن أعلم أن

الأرض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ، ولا مئة للعبد بإسلامه بل المنة لله بهداية عبده ؛ وكم سلف قبلك ممن لورام مارمته لدنا شاسعه ، وأجاب مانعه ؛ لكن ذخره الله لك لتخطي في الآخرة بمفازه ، وفي الدنيا برقم طرازه ؛ فألق بيدك عند هذا القول لإلقاء التسليم ، وقل : ((لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ)) .

وقد قرن تقليدك هذا بخلعة تكون لك في الإسم شعارا ، وفي الرسم فخارا ، وتناسب محل قلبك وبصرك وخير ملابس الأولياء ما تناسب قلوبا وأبصارا ؛ ومن جملتها طوق يوضع في عنقك موضع العهد والميثاق ، ويشير إليك بأن الإنعام قد أطاف بك إطفاء الأطواق بالأعناق ؛ ثم إنك قد حوطبت بالملك وذلك خطاب يقضى لصدرك بالإنسراح ، ولأمك بالإنفساح ، وتؤمر معه بمد يدك إلى العلياء لا بضمها إلى الجناح ؛ وهذه الثلاثة المشار إليها هي التي تكمل بها أقسام السيادة ، وهي التي لا مزيد عليها في الإحسان فيقال : إنها الحسنى وزيادة ؛ فإذا صارت إليك فانصب لها يوما يكون في الأيام كريم الأنساب ، وأجعله لها عيدا وقل : هذا عيد التقليد والخلعة والخطاب ؛ هذا ولك عند أمير المؤمنين مكانة تجعلك لديه حاضرا وأنت ناء عن الحضور ، وتضمن أن تكون مشتركة بينك وبين غيرك والضمنة من شيم الغيور ؛ وهذه المكانة قد عرفتكم نفسها وما كنت تعرفها ، وما نقول إلا أنها لك صاحبة وأنت يوسفها ؛ فأحرسها عليك حراسة تقضى بتقديمها ، وأعمل لها فإن الأعمال بجوارئيمها ؛ وأعلم أنك قد تقلدت أمرا يفتن به تقي الحلوم ، ولا ينفك صاحبه عن عهدة الملوم ، وكثيرا ما ترى حسنة يوم القيامة وهي مقتسمة بأيدي الخصوم ؛ ولا يجو من ذلك إلا من أخذ أهبة الحدار ، وأشفق من شهادة الأسماع والأبصار ؛ وعلم أن الولاية ميزان إحدى كفتيه في الجنة والأخرى في النار . قال النبي صلى الله عليه وسلم : " يا أبا ذر إني أحب لك ما أحب لنفسى لا تأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم " .

فانظر إلى هذا القول النبويّ نَظَرَ من لم يُخَدِّعْ بِحَدِيثِ الحِرْصِ والآمالِ ، ومثَّلِ الدنيا وقد سَيِّقَتْ [اليك] بخذافيرها أليس مَصِيرُهَا إلى زوالِ ؟ . والسعيدُ من إذا جاءته قضي' بها أربّ الأرواح لأربّ الحُسومِ ، وأتخذَ منها وهى السُّمُّ دواءً وقد تُتخذُ الأدويةُ من السُّمومِ ؛ وما الإِغْتِبَاطُ بما يَخْتَلِفُ على تَلَاثِيهِ المَسَاءِ والصَّبَاحِ ؟ وهو ﴿ كَإِذَا نُزِّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيحُ ﴾ والله تعالى يَعِصُمُ أمير المؤمنين وولادة أمره من تَبِعَاتِهَا التى لا بَسْتَهُمْ ولا بَسُوها ، وأحصاها الله عليهم ونُسُوها ؛ ولك أنت من هذا الدعاء حَظٌّ على قدر محمَّك من العناية التى جَدَّبَتْ بِضَبْعِكَ [ومحمَّك من الوِلاية التى بسَطَتْ من دِرْعِكَ] .

نُفِذْ هذا الأمرَ الذى تَقَلَّدْتَهُ أَخَذَ من لم يَتَعَقَّبْهُ بالنسيانِ ، وكُنْ فى رعايته ممن إذا نَامَتْ عيناه كان قلبه يَقْطَانِ .

وملاكُ ذلك كلِّه فى إسباغِ العدلِ الذى جعله اللهُ ثالثَ الحديثِ والكتابِ ، وأغنى بشوابه وحده عن أعمالِ الثوابِ ، وقدَّرَ يومأمنه بعبادةِ ستين عاماً فى الحِسابِ ؛ ولم يأمرْ به أمرٌ إلا زِيدَ قُوَّةً فى أمره ، وتحصَّنَ به من عدوِّه ومن دَهره ؛ ثم يجاء به يومَ القيامةِ وفى يديه كتاباً أماناً ، ويجلس على منبرٍ من نُورٍ عن يمينِ الرحمنِ ؛ ومع هذا فإنَّ مَرَكِبَهُ صَعْبٌ لا يَسْتَوِي على ظهْرِهِ إلا مَنْ أَمْسَكَ عِنانَ نَفْسِهِ قبل إِمساكِ عِنانِهِ ، وغلبتْ لَمَّةٌ ملكه على لَمَّةِ شَيْطانِهِ ، ومن أوكدَ فُرُوضِهِ أن يَمْحَى السَّنَنَ السيئةَ التى طالَتْ مُدَدَ أيامها ، ويئسَ الرعايا من رفعِ ظَلاماتها فلم يَجْعَلُوا أمدًا لا نُحْيسارَ ظَلامها ؛ وتلك هى المُكْحُوسِ التى أنشأتها الهَمُّ الحَقِيره ، ولا غنى' للأيدى الغنِيَّةِ إذا كانت ذالِ [ت] نُفُوسِ فقيرهِ ؛ وكَلِّمنا زِيدتِ الأموالِ الحاصلةُ منها قَدْرًا زادها اللهُ مُحَقًّا ،

وقد استمرت عليها العوائد حتى ألحقها الظالمون بالحقوق الواجبة فسموها حقاً ؛ ولولا أن صاحبها أعظم الناس جرماً لما أغلظ في عقابه ، ومثلت توبه المرأة الغامدية بمتابه ؛ وهل أشقى من يكون السواد الأعظم له خصماً ، ويصبح وهو مطالب منهم بما يعلم وبما لم يحط به علماً . وأنت مأمور بأن تأتي هذه الظلمات فتنتحي على إبطالها ، وتلحق أسماءها في المحو بأفعالها ؛ حتى لا يبقى لها في العيان صور منظوره ، ولا في الألسنة أحاديث مذكوره ؛ فإذا فعلت ذلك كنت قد أزلت عن الماضي سنة سوء سنتها يدها ، وعن الآتي متابعة ظلم وجدّه طريقاً مسلوفاً بخرى على مدها .

فبادر إلى ما أمرت به بمبادرة من لم يرضق به ذراعاً ، ونظر إلى الحياة الدنيا بعينه فرآها في الآخرة متاعاً ، وأحمد الله على أن قيض لك إمام هدى يقف بك على هداك ، ويأخذُ بجزتك عن خطوات الشيطان الذي هو أعدى عداك ؛ وهذه البلاد المنوطة بنظرك تستعمل على أطراف متباعده ، وتفتقر في سياستها إلى أيدٍ مساعده ؛ وبهذا تكثر فيها قضاة الأحكام ، وأولو تديرات السيوف والأقلام ؛ وكل من هؤلاء ينبغي أن يفتن على نار الاختبار ، ويسلط عليه شاهداً عدل من أمانة الدرهم والدينار ؛ فإضل الناس شيء كذب المال الذي فورقت من أجله الأديان ، وهجرت بسببه الأولاد والإخوان ، وكثيراً ما يرى الرجل الصائم القائم وهو عابد له عبادة الأوثان ؛ فإذا استعنت بأحد منهم على شيء من أمرك فأضرب عليه بالأرصاد ، ولا ترض بما عرفته من مبدأ حاله فإن الأحوال تتنقل تتقل الأجساد ، وإياك أن تُخدع بصلاح الظاهر كما خدع عمر بن الخطّاب رضي الله عنه بالربيع ابن زياد ؛ وكذلك قائم هؤلاء على اختلاف طبقاتهم أن يأمرُوا بالمعروفِ مواظبين ، وينهوا عن المنكر محاسنين ، ويعلموا أن ذلك من دأب حزب الله الذين جعلهم

الغالبين؛ وليدعوها أولاً بأنفسهم فيعدلوا بها عن هواها، ويأمروها بما يأمرون به من سواها؛ ولا يكونوا من هدى إلى طريق البر وهو عنه حائد، وانتصب لطلب المرضى وهو محتاج إلى طيب وعائد؛ فما تنزل بركات السماء إلا على من خاف مقام ربه، وأزم التقوى أعمال يده ولسانه وقلبه؛ فإذا صلحت الولاية صلحت الرعية بصلاحهم، وهم لهم بمنزلة المصابيح ولا يستضيء كل قوم إلا بمصباحهم.

ومما يؤمرون به أن يكونوا لمن تحت أيديهم إخوانا في الأضطحاب، وأعوأنا في توزع الحمل الذي يتقل على الرقاب؛ فالمسلم أخو المسلم وإن كان عليه أميرا، وأولى الناس باستعمال الرفق من كان فضل الله عليه كبيرا؛ وليست الولاية لمن يستجد بها كثرة الليف، ويتولاها بالوطء العنيف؛ وليكنها لمن يمال على جوانبه، ويؤكل من أطايبه؛ ولن إذا غضب لم ير للغضب عنده أثر، وإذا ألحف في سؤاله لم يلحق الإلحاف بمخلق الضجر؛ وإذا حضر الخُصوم بين يديه عدل بينهم في قسمة القول والنظر؛ فذلك الذي يكون لصاحبه في أصحاب اليمين، والذي يدعى بالحفيظ العليم بالقوى الأمين؛ ومن سعادة المرء أن يكون ولأته متأدبين بأدابه، وجارين على نهج صوابه، وإذا تطايرت الكتب يوم القيامة كانت حسنة مؤبنة في كتابه.

وبعد هذه الوصية فإن هاهنا حسنة هي للحسنات كالأمم الوؤود، وأطالمأ أغنت عن صاحبها إغناء الجنود، وتيقظت لنصره والعيون رُقود؛ وهي التي تُسبغ لها الآلاء، ولا يتخطأها البلاء؛ ولأمير المؤمنين بها عناية تبغها الرحمة الموضوعة في قلبه، والرغبة في المغفرة لما تقدم وتأخر من ذنبه؛ وتلك هي الصدقة التي فضل الله بعض عباده بمنية إفضالها، وجعلها سببا إلى التعويض عنها بعشر أمثالها. وهو يأمرك

أَنْ تَتَفَقَّدَ أَحْوَالَ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ قُدِّرَتْ عَلَيْهِمْ مَادَّةُ الْأَرْزَاقِ ، وَالْبَسْمُ التَّعَفُّفُ ثَوْبٌ
الْغَنِيُّ وَهُمْ فِي ضَيْقٍ مِنَ الْإِمْلَاقِ ؛ فَأُولَئِكَ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ الَّذِينَ مَسَّتْهُمُ الضَّرَاءُ فَصَبَرُوا ،
وَكَثُرَتْ الدُّنْيَا فِي يَدِ غَيْرِهِمْ فَمَا نَظَرُوا إِلَيْهَا إِذْ نَظَرُوا ؛ وَيَنْبَغِي أَنْ يَهَيَّئَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ
مَرَقًا ، وَيَضْرِبَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفَقْرِ مَوْقًا .

وما أظننا لك القول في هذه الوصية إلا إعلاما بأنها من المهم الذي يُستقبل
ولا يُستدبر، ويستكثر منه ولا يستكثر؛ وهذا يُعد من جهاد النفس في بدل المال،
ويتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال؛ وأمير المؤمنين يعرفك من ثوابه
ما يجعل السيف في ملازمته أخصا، وتسحو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخيا؛
ومن صفاته أنه العمل المحبب بفضل الكرامة، الذي ينهي أجره بعد صاحبه إلى يوم
القيامة؛ وبه تمتحن طاعة الخالق على المخلوق، وكل الأعمال عاطلة لا خلوق لها
وهو مختص دونها بزينة الخلق؛ ولولا فضله لما كان محسوبا بشطر الإيمان، ولما
جعل الله الجنة له ثمنا وليست لغيره من الأثمان؛ وقد علمت أن العدو هو جارك
الأدنى، والذي يبلغك وتبلغه عينا وأدنا؛ ولا يكون للإسلام نعم الجار حتى تكون له
بئس الجار، ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك إذا قامت لغيرك الأعداء؛
وأمير المؤمنين لا يرضى منك بأن تلقاه مكافحا، أو تطرق أرضه ماسيا أو مصابحا؛
بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستنقذ لا قصد المغير، وأن تحكم فيها
بحكم الله الذي قضاه على لسان سعيد في نبي قريظة والنضير؛ وعلى الخصوص البيت
المقدس فإنه تلالد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم، والذي
توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم؛ وقد أصبح وهو يشكو طول المدة
في أسر رقبته، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه

وغربته؛ فانهض إليه نهضةً توغل في قرحه، وتبدل صعب قياده بسمحه، وإن كان له عامٌ حديبيةً فأتبعه بعامٍ فتحه؛ وهذه الاستزادة إنما تكون بعد سداد ما في اليد من تغيرٍ كان مهملاً فحمت مواردَه، أو مستهدماً فرفعت قواعده؛ ومن أهمها ما كان حاضر البحر فإنه عورة مكشوفة، وخطة مخوفة؛ والعدو قريب منه على بعده، وكثيراً ما يأتيه بقاءة حتى يسبق برقه برعه؛ فينبغي أن ترتب بهذه الثغور رابطة تكثر شجعانها، وتقل أقرانها، ويكون قتلها لأن تكون كلمة الله هي العليا لا لأن يرى مكانها؛ وحينئذ يصبح كلٌ منها وله من الرجال أسوار، ويعلم أهله أن بناء السيف أمتع من بناء الأحجار؛ ومع هذا لا بد من أصطول يكتر عدده، ويقوى مدده؛ فإنه العدة التي تستعين بها في كشف الغم، والاستكثار من سبأيا العبيد والإماء، وجيشه أخو الجيش السلبياني: فذاك يسير على متن الريح وهذا على متن الماء؛ ومن صفات خيله أنها جمعت بين العوم والمطار، وتساوت أقدار خلقها على اختلاف مدة الأعمار؛ وإذا أشرعت قيل جبال متلفعة بقطع من العيوم، وإذا نظرت إلى أشكالها قيل: إنها أهلة غير أنها تهدي في مسيرها بالنجوم؛ ومثل هذه الخيل يبغي أن يغالى في جيادها، ويستكثر من قيادها؛ وليؤمر عليها أمير يلقى البحر بمثله من سعة صدره، ويسلك طرقه سلوك من لم تقتله بجهلها ولكن قتلها بحبره؛ وكذلك فليكن ممن أفنت الأيام تجاربه، وزحمتها مناكبه، وممن يذل الصعب إذا هو ساسه وإن سيس لأن جانبه؛ وهذا هو الرجل الذي يرأس على القوم فلا يجد هزّة بالرياسة؛ وإن كان في الساقفة ففي الساقفة أو في الحراسة ففي الحراسة؛ ولقد أفلحت عصابة اعتصبت من ورائه، [وأيقنت بالنصر من رايته كما أيقنت بالنصر من رائه]^(١).

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ أُخِلَّ مِنَ الْجِهَادِ بَرْكُنٌ يُقَدِّحُ فِي عَمَلِهِ ، وَهُوَ تَامُهُ الَّذِي يَأْتِي فِي آخِرِهِ
 كَمَا أَنَّ صِدْقَ النِّيَّةِ يَأْتِي فِي أَوَّلِهِ ، وَذَلِكَ هُوَ قَسْمُ الْغَنَائِمِ فَإِنَّ الْأَيْدِيَ قَدْ تَدَاوَلَتْهُ
 بِالْإِحْجَافِ ، وَخَلَطَتْ جِهَادَهَا فِيهِ بَعُلوها فلم تَرَجِعْ بِالْكَفَافِ ؛ وَاللَّهُ قَدْ جَعَلَ الظُّلْمَ
 فِي تَعَدِّي حُدُودِهِ الْمَحْدُودَةِ ، وَجَعَلَ الْأَسْتِثْنَاءَ بِالْمَغْتَمِ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الْمَوْعُودَةِ ؛
 [وَنَحْنُ نَعُوذُ بِهِ ^(١) أَنْ يَكُونَ زَمَانُنَا هَذَا شَرَّ زَمَانٍ وَنَاسُهُ شَرَّ نَاسٍ ، وَلَمْ يَسْتَخْلِفْنَا عَلَى
 حِفْظِ أَرْكَانِ دِينِهِ ثُمَّ نُهْمَلَهُ إِهْمَالًا مُضَيِّعًا وَلَا [إِهْمَالًا] نَاسٍ ؛ وَالَّذِي نَأْمُرُكَ بِهِ أَنْ
 تُجْرِيَ [هَذَا] الْأَمْرَ عَلَى الْمَنْصُوصِ مِنْ حَكْمِهِ ، وَتُبْرِي ذِمَّتَكَ مِمَّا يَكُونُ غَيْرَكَ الْفَائِزَ
 بِفَوَائِدِهِ وَأَنْتَ الْمُطَالِبَ بِإِثْمِهِ ؛ وَفِي أَرْزَاقِ الْمُجَاهِدِينَ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالشَّامِيَّةِ مَا يُغْنِيهِمْ
 عَنْ هَذِهِ الْأَكْلَةِ الَّتِي تَكُونُ غَدًا أَنْكَالًا وَجَحِيحًا ، وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَدَابًا أَلِيمًا .

فَتَصَفِّحْ مَا سَطَّرْنَاهُ لَكَ فِي هَذِهِ الْأَسَاطِيرِ الَّتِي هِيَ عِزَائِمُ مُبْرَمَاتٍ ، بَلْ آيَاتٍ
 مُحْكَمَاتٍ ؛ وَتَحَبَّبْ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَقْتِفَاءِ كِتَابِهَا ، وَأَبْنِ لَكَ مِنْهَا مَجْدًا
 يَبْقَى فِي عَقَبِكَ إِذَا أُصِيبَتِ الْبُيُوتُ فِي أَعْقَابِهَا ؛ وَهَذَا التَّقْلِيدُ يَنْطِقُ عَلَيْكَ بِأَنَّهُ لَمْ يَأَلْ
 فِي الْوَصَايَا الَّتِي أَوْصَاها ، وَأَنَّهُ لَمْ يُعَادِرْ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاها ؛ ثُمَّ إِنَّهُ قَدْ خُتِمَ
 بِدَعْوَاتٍ دَعَاها أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ خَتَامِهِ ، وَسَأَلَ فِيهَا خَيْرَةَ اللَّهِ الَّتِي تَنْزَلُ مِنْ كُلِّ
 أَمْرٍ بِمَنْزِلَةِ نِظَامِهِ ؛ ثُمَّ قَالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُكَ عَلَى مَنْ قَلَدْتَهُ شَهَادَةً تَكُونُ عَلَيْهِ
 رَقِيْبِهِ ، وَوَلَهُ حَسِيْبِهِ ؛ فَإِنِّي لَمْ أَمُرْهُ إِلَّا بِأَوَامِرِ الْحَقِّ الَّتِي فِيهَا مَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ ، وَهِيَ
 لِمَنْ أَتَّبَعَهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ وَبُشْرَى ؛ فَإِذَا أَخَذَهَا فَلَجَّ بِحُجَّتِهِ يَوْمَ يُسْأَلُ عَنِ الْحُجَجِ ،
 وَلَمْ يُخْتَلَجْ دُونَ رَسُولِ اللَّهِ عَنِ الْحَوْضِ فِي جَمَلَةٍ مِنْ يُخْتَلَجُ ، وَقِيلَ لَهُ : لا حَرَجَ عَلَيْكَ
 وَلَا إِثْمٌ إِذْ نَجَوْتَ مِنْ وَرَطَاتِ الْإِثْمِ وَالْحَرَجِ ، وَالسَّلَامُ .

(١) الزيادة من كتاب "المثل السائر" ص ١٤٧ وهي لازمة لاستقامة الكلام .

المذهب الخامس

(أن يفتتح العهد بـ «إِنَّ أَوْلَىٰ مَا كَانَ كَذَا» ونحوه)

وهى طريقة غريبة، كُتِبَ عليها عهدُ السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» بالديار المصرية من ديوان الإنشاء ببغداد . وهو الذى عارضه الوزيرُ ضياءُ الدين بن الأثير فى العهد المتقدم ذكره فى المذهب [الرابع] ^(١) . وهذه نسخته :

إِنَّ أَوْلَىٰ مِنْ جَادَتْ رِبَاعَهُ مُحِبُّ الإِصْطِنَاعِ ، وَحُصَّ مِنَ الإِصْطِفَاءِ وَالِاجْتِنَاءِ بِالصَّفَايَا وَالْمِرْبَاعِ ؛ مَنْ تَرَسَّمَ أَنْتَهَاجَ الْجَدِّ الْقَوِيمِ ، وَالطَّرِيقِ الْوَاضِحِ الْمُسْتَقِيمِ ؛ وَأَعْتَلَقَ مِنَ الْوَلَاءِ بِأَوْثَقِ عِصْمِهِ وَحِبَالِهِ ، وَالْفِئَاءِ الَّذِى يَهْتَدِى بِأَنْوَارِهِ فِي مَتَصَرِّفَاتِهِ وَأَعْمَالِهِ ؛ وَالتَّحَلَّى بِجَمِيلِ الذِّكْرِ فِي سِيرَتِهِ ، وَخُلُوصِ الإِعْتِنَاءِ بِأُمُورِ رِعِيَّتِهِ ؛ وَكَانَ رَاغِبًا فِي أَقْنِيَاءِ حَمِيدِ الْخِلَالِ ، مُجْتَهِدًا فِي طَاعَةِ اللَّهِ بِمَا يُرِضِيهِ مِنَ الْعَدْلِ الْمُنْتَدِّ الظَّلَالِ ؛ عَامِلًا فِيمَا يُنَاطُ بِهِ بِمَا يَتَضَوَّعُ تَسْرُخَبَرُهُ ، وَيُجْتَنَى بِحُسْنِ صُنْعِهِ يَانِعُ ثَمَرُهُ ؛ بِإِذْلًا وَسَعَهُ فِي الصَّلَاحِ ، مُؤَدِّنَةً مَسَاعِيهِ بِقَوْزِ الْقِدَاحِ .

ولما كان الملكُ الأجلُّ ، السيدُ ؛ صلاحُ الدين ، ناصرُ الإسلام ، عمادُ الدولة ، جمالُ الملك ، نخرُ الملة ، صَفِيَّ الخِلافةِ ؛ تاجُ الملوك والسلاطين ، قَامِعُ الكَفَرَةِ والمُشْرِكِينَ ، قَاهِرُ الْخَوَارِجِ وَالْمُتَمَرِّدِينَ ، عِزُّ الْمُجَاهِدِينَ ؛ أَلْبُ غَازِي بَكِ ابْنِ يُوسُفِ ابْنِ أَيُّوبِ - أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ - عَلَى هَذِهِ السَّجَايَا مُقْبِلًا ، وَبِصِفَاتِهَا الْكَامِلَةَ مَشْتَمِلًا ؛ مُؤَثِّرًا تَضَاعَفَ الْمَثْرَاتِ ، مُتَابِرًا عَلَى مَا تَرَكُوهُ مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ ؛ مَتَحَلِّيًا بِالْحَمَامِدِ الرَّائِقَةِ ، مُسْتَبِدًّا بِالْمُنَاقِبِ الَّتِى هِيَ لِجَمِيلِ أَعْمَالِهِ مُوَافِقَةٌ مُطَابِقَةٌ ؛ مُحَصِّلًا مِنْ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى مَا يُؤَثِّرُهُ وَيُرِوِمُهُ ؛ [و] مِنْ طَاعَةِ الدَّارِ الْعَزِيزَةِ - لِأَزَالَتْ مُشِيدَةَ الْبِنَاءِ ، سَابِقَةً

(١) بياض بالأصل والصحيح ما تقدم .

النِّعْمَاءُ ؛ دَائِمَةً الْإِسْتِبْشَارِ ، عَزِيْزَةَ الْأَنْصَارِ - [و] من أَسْتَمِرَّ الرَّظْفَرُ مَا يَسْتَدِيهُ ، -
 أَقْنَصَتِ الْأَرْءَ الشَّرِيْفَةَ - لِأَزَالِ التَّوْفِيْقِ قَرِيْبَهَا ، وَالتَّأْيِيْدُ مُظَاْفِرَهَا وَمُعِيْنَهَا - إِمْضَاءُ
 تَصْرَفَهُ وَإِنْفَاذَ حُكْمِهِ فِي بِلَادِ مِصْرَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّعِيْدِ الْأَعْلَى ، وَالْإِسْكَانْدَرِيَّةُ ،
 وَمَا يَفْتَحُهُ مِنْ بِلَادِ الْغَرْبِ وَالسَّاحِلِ ، وَبِلَادِ الْيَمَنِ وَمَا أَفْتَحَهُ مِنْهَا وَيَسْتَخْلَصُهُ بَعْدَ
 مِنْ وِلَايَتِهَا ؛ وَالتَّعْوِيْلُ فِي هَذِهِ الْوِلَايَاتِ عَلَيْهِ ، وَأَسْتِنْقَاذَ مَا أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْكُفَّارُ
 مِنْ الْبِلَادِ ، وَإِعْزَازَ كُلِّ مَنْ أَدْلُوهُ وَأَضْطَهْدُوهُ مِنَ الْعِبَادِ : لِنَعُوْدِ النَّغُوْرُ بِمَنْ نَقِيْبَتَهُ
 ضَاحِكَةَ الْمَبَاسِمِ ، وَبِإِصَابَةِ رَأْيِهِ قَائِمَةَ الْمَوَاسِمِ .

أَمْرَهُ بَادِتًا بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْجُنَّةُ الْوَاقِيَةُ ، وَالذَّخِيْرَةُ الْبَاقِيَةُ ، وَالْعِصْمَةُ
 الْكَافِيَةُ ، وَالزَّادُ إِذَا أَنْفَضَ وَفَدَّ الْآخِرَةَ وَأَرْمَلُوا ، وَالْعَتَادُ النَّافِعُ إِذَا وَجَدُوا شَاهِدًا
 لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ مَا عَمِلُوا : فَإِنَّهَا الْعَلَمُ الْمَنْصُوبُ لِلرَّشْدِ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ .

وَأَمْرَهُ أَنْ يَتَّخِذَ كِتَابَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ الْعَلَمَ الَّذِي بِهِ يَقْتَدِي ، وَبِأَنْوَارِهِ إِلَى حُدُودِ
 الصَّوَابِ يَهْتَدِي ؛ وَيَسْتَمِيعُ لَزَوَاجِرِهِ وَمَوَاعِظِهِ ، وَيَعْتَبِرُ بِتَخْوِيفِهِ وَمَلَاْحِظِهِ ، وَيُصْنِغِي
 إِلَيْهِ بِسَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ، وَجَوَارِحِهِ وَلُبِّهِ ؛ وَيَعْمَلُ بِأَوَامِرِهِ الْمُحْكَمَةِ ، وَيَقِفُ عِنْدَ نَوَاهِيهِ
 الْمُبْرَمَةِ ؛ وَيَتَدَبَّرُ مَا حَوَتْهُ آيَاتُهُ مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَالزَّبْرِ وَالتَّهْدِيدِ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ : ﴿ وَإِنَّهُ لِكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ
 مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وَأَمْرَهُ أَنْ يَكُونَ عَلَى صَلَاتِهِ مَحَافِظًا ، وَلِنَفْسِهِ عَنِ الْإِخْلَالِ وَالتَّقْصِيرِ فِي أَدَاءِ
 فَرَضِهَا وَعِظًا ؛ فَيَغْتَنِمُ الْأَسْتِعْدَادَ أَمَامَ أَوْقَاتِهَا لِلْأَدَاءِ ، وَيَحْتَرِزُ مِنْ فَوَاتِهَا وَالْحَاجَةَ إِلَى
 الْقَضَاءِ ؛ مُوفِيًا حَقَّهَا مِنَ الرَّكُوعِ وَالسُّجُودِ ، عَلَى الْوَصْفِ الْوَاجِبِ الْمَحْدُودِ ؛ مُخْلِصًا
 سِرَّهُ عِنْدَ الدُّخُولِ فِيهَا ، وَنَاهِيًا نَفْسَهُ عَمَّا يُصْغَرُ بِهَا بِالْأَفْكَارِ وَيُلْهِمُهَا ؛ مُجْتَهِدًا فِي نَفْيِ

الفكر والوسواس عن قلبه، متصبياً في إخلاص العبادة لربه: ليغدو بوصف الأبرار منعوتاً، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره بقصد المساجد الجامعة في أيام الجمع، أمثالاً لأمر الله المتبع، بعزيمة في الخير صاقه، ونية للعبادة موافقه، وفي الأعياد إلى المصلبات المصحرة المجملة بالمنابر الحالية، التي هي عن الأدناس مطهرة نائية، فإنها من مواضع العبادة ومواطنها، ومظان تلاوة القرآن المأمور بحفظ آدابها وسنتها، فقد وصف الله تعالى من وفقه لتحصيل مؤنه بالعجاءه، بما أوضح فيه الإشارة، وشرفه بوضع سمة الإيمان عليه بالإكرام الفاجر، فقال: ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ : فيقيم الدعوة الهادية على المنابر على عادة من تقدمه، ومُنْتَهياً فيها إلى أحسن ما عهدته وعلمه .

وأمره بلزوم نزاهة الحرمات، واجتناب المحرمات، والتحلّي من العفاف والورع بأجل القلائد الراقية، والتقمص بملابس التقوى التي هي بأمثاله لائقه، وسلوك مناهج الصلاح الذي يجمل به فعله، ويصفوه له ونهله، وأن يمنع نفسه من الغضب، ويردها عما تأمر به من سوء المكتسب، ويأخذها بآداب الله سبحانه في نهيا عن الهوى، وحملها على التقوى، وردعها عن التورط في المهورى والشبهة، وكل أمر يلبس فيه الحق ويشتهيه، ويلزمها الأخذ بالعمو والصفح، والتأمل لمكان الأعمال فيه واللح، قال الله تعالى: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

وأمره بإحسان السيرة في الرعايا بتلك البلاد، وأختصاصهم بالصون الرائع الغاد، ونشر جناح الرعاية على البعيد منهم والقريب، وإحلال كل منهم محله على القاعدة

والترتيب ؛ وإشاعة المعدلة فيهم ، وإسهام دانيهم من وإفرا ملاحظته وقاصيمهم ؛ وأن ينحى سرحهم من كل داعر ، ويذود عنهم كل مؤارب بالفساد ومظاهره ؛ حتى تصفوا لهم من الأمن الشرائع ، وتصفوا عليهم من بركة ولايته المدارع ، وتستتير بضوء العدل منهم المطالع ؛ ويحترم أكارهم ، ويحنو على أصاغرهم ؛ ويشملهم بكنفه ودرعه ، وينتهي في مصالحهم إلى غاية وسعه ؛ ولا يألوهم في النصح جهداً ، ولا يخلف لهم في الخير وعدا ؛ ويشاورهم في أمره فإن المشورة داعية إلى الفلاح ، ومفتاح باب الصلاح ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَاشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأمره بإظهار العدل في الرعية التي تضمها جميع الأكاف والأطراف ، والتحلل من النصفة بأكل الأوصاف ؛ وحمل كآفتهم على أقوم جدد ، وعصيان الهوى في تقويم كل أود ؛ والمساواة بين الفاضل والمنفصول في الحق إذا ظهر صدق دليله ، والاشتغال عليهم بالأمن الذي يعذب لهم برد مقيله ؛ وكشف ظلامه من أنبسط إلى تحيفه الأيدي والأطعام ، وأعجزته النصرة لنفسه والدفاع ؛ وتصفح أحوالهم بعين لا تروى إلى هوى يميل بها عن الواجب ، وسمع لا يصغي إلى مقالة مائين ولا كاذب ؛ ولا يغفل عن مصلحة تعود إليهم ، ويرجع نفعها عليهم ؛ ولا عن كشف ظلمات بعضهم من بعض ، وردهم إلى الحق في كل رفع من أحوالهم وخفض ؛ فلا يرى إلا بالحق عاملا ، وللأمور على سنن الشريعة حاملا ؛ مجتنباً إغفال مصالحهم وإهمالها ، وحارساً نظامها على نتائج الأيام وأتصالها ؛ ليكون ذلك إلى وفور الأجر داعياً ، وبحسن الأحدثوة قاضياً ؛ مقتدياً بما نطق به القرءان : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ .

وأمره أن يأمر بالمعروف ويقيم مناره، وينهى عن المنكر ويحو آثاره ؛ فلا يترك
 ممكنا من إظهار الحق وإعلانه، ووقع الباطل وإنجاد نيرانه ؛ ويعتمد مساعدة كل
 مرشد إلى الطريق الأqvسد، وناه عن التظاهر بالمحظور في كل مشهد ؛ وكل من^(١)
 تضحى معونته مشاركة في إحراز المثوبة ومسايمه ، ومساومة في آقنناء الأجر
 ومقاسمه ؛ وأن يؤعز بإزالة مظان الريب والفساد في الدانى من الأعمال والقاصى ،
 فإنها مواطن الشيطان وأماكن المعاصى ؛ وأن يشد على أيدي الأمرين بالمعروف
 والناهين عن المنكر، ويعينهم على ذلك بما يطيب ذكره في كل مشهد ومحضر ؛
 ويحتد في إزالة كل محظور ومنكر، مقدم في الباطل ومؤخر؛ قال الله تعالى :
 ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

وأمره أن يقدم الاحتياط في حفظ الثغور ومجاوريتها من الكفار، ويستعمل
 غاية التيقظ في ذلك والاستظهار : ليأمن عليها غوائل المكائد ، ويفوز من التوفيق
 لذلك بأنواع المحامد ؛ ويتجود لجهاد أعداء الدين ، والانتقام من الكفرة المارقين ؛
 أخذا بقول رب العالمين : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
 فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ . وأن يعمل فيما يحصل من الغنائم
 عند قل مجموعهم ، وافتتاح بلادهم وربوعهم ، بقول الله وما أمر به في قسمتها ،
 وإيفاء كل صاحب حصته منها ؛ سالكا سبل من غدا لآثار الصلاح مقتنيا ،
 وللقرض في ذلك مؤديا ؛ ويهدى ذوى الرشد مهتديا . قال الله تعالى في محكم
 التنزيل : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمْسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى
 وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ ﴾ .

(١) في الأصل فانه من تضحى الخ تأمل .

وأمره أن يُجيبَ إلى الأمان من طلبه منه، ويكونُ وفاءً ومقترناً بما تضمَّنه ،
غير مُضمِرٍ خلافَ ما يُعطى به صَفَقَةَ أمانه، ويحتنِبَ العَدْرَ وما فيه من العار،
وإنخاط المَلِكِ الجَبَّارِ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَفْضُوا
الْإِيمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وأمره بأن يأمر أصحاب المعاون بمساعدة القضاة والحكام ، وموئتهم بما
يقضى [بلم] شمل الصلاح في تنفيذ القضايا والأنظمة ؛ وأخذ الخُصومَ بإجابة الداعي
إذا استُحضر [وا] إلى أبوابهم للإيناف ، والمُسرعةِ إلى الحقِّ الواجبِ عليهم من
غيرِ خلاف ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ .

وأمره بالتعويل في المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والحسبة على من يَأوئ
إلى عَفَافٍ ودين ، وعِلْمٍ بأحكام الشريعة وصِحَّةِ يَقِينٍ ؛ لا يخفى عليه ما حرَّمه الله تعالى
وأحلَّه ، ولا يلتبسُ على علمه ما أَوْضَحَ إلى الحقِّ الواضحِ سُبُلَه ؛ وإلى من يتوَلَّى المَظالمَ
بإيصال الخُصومِ إليه ، وإينافهم كما أوجبهُ اللهُ تعالى عليه ؛ وأستماعِ ظَلَمَاتِهِمْ ،
وإحسانِ النظرِ في مُشَاجَرَاتِهِمْ ؛ فإن أسفَرَ للحقِّ ضياءً تبعه ، أو أشتبه الأمرُ رده إلى
الحُكَّامِ ورَفَعَهُ . و[إلى] الناظرِ في أسواق الرقيق بالأحتراز والاستظهار ، وتغريةِ
الأحوال من الشبهة في امتِراج العبيد بالأحرار : لتضحى الأنسابُ مَصُونَةً مرعيةً ،
والأموالُ عن التَّمِّ محروسةً حميةً . وإلى من ينظرُ في الحسبة بتصفُّحِ أحوال العامة
في متآجرهم وأموالهم ، وتتبع آثارِ صحتهم في المعاملة وأعتلالهم ؛ وأعتبارِ الموازين
والمكاييل ، وإلزام أربابها الصِّحَّةَ والتعديلاً ؛ قال الله سبحانه وتعالى :
﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴾ .

وَأَنْ يُعْمَلَ الْجَفْنَ فِي تَطْهِيرِ الْبِلَادِ، مِنْ كُلِّ مَدْخُولِ الْأَعْتِقَادِ؛ مَعْرُوفٍ بِالشَّبْهِ فِي دِينِهِ وَالْإِلْحَادِ، وَمَنْ يَسْعَى مِنْهُمْ فِي الْفَسَادِ؛ وَيَأْمُرُ الْمُرْتَبِينَ فِي الْمَرَكَزِ وَالْأَطْرَافِ بِاقْتِنَاصِهِمْ، وَكَفِّ فِسَادِهِمْ وَإِجْلَاسِهِمْ عَنْ عِرَاصِهِمْ؛ وَأَنْ يُجْرَى عَلَيْهِمْ فِي السِّيَاسَةِ مَا يَجِبُ عَلَى أَمْثَالِهِمْ مِنَ الزَّنَادِقَةِ وَالَّذِينَ تَوْبَتُهُمْ لَا تُقْبَلُ، وَأَمْرُهُمْ عَلَى حُكْمِ الْمُخَاطَبِينَ لَا يَجَلُّ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾ .

وَأَمْرَهُ أَنْ يَتَلَقَّى النِّعْمَةَ الَّتِي أُفْرِغَتْ عَلَيْهِ، وَأَنْسَاقَتْ إِلَيْهِ؛ بِشُكْرِ يَنْطِقُ بِهِ لِسَانُهُ، وَيُتَرْجَمُ عَنْهُ بَيَانُهُ: لَيْسَتْ دِيمَ بِذَلِكَ الْإِكْرَامِ، وَيُقْتَرَنُ الْإِحْسَانُ عِنْدَهُ بِالْإِلْتِمَامِ؛ وَأَنْ يُوقِفَهَا حَقَّهَا مِنْ دَوَامِ الْحَمْدِ، وَالْقَصْدِ إِلَى شُكْرِهَا وَالْعَمْدِ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ .

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدِيمًا لَهُ مِنَ الصَّلَاحِ مَا أَنْتَضَحَتْ أَعْلَامُهُ، وَأُثْبِتَتْ فِي الْمَرَامِيِّ سِهَامُهُ؛ وَأُرْشِدَ إِلَى مَا أودَعَ هَذَا الْمُنْشُورُ مِنْ جَدِّ الْفَوْزِ بِمَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشُكْرِ عِبَادِهِ، عَامِلًا فِي ذَلِكَ بِمَقْتَضَى جِدِّهِ وَأَجْتِهَادِهِ: لِيُحْرِزَ السَّبْقَ فِي دُنْيَاهِ وَعُقْبَاهِ، وَيَتَوَقَّرَ عِنْدَهُ مَا مُنِحَ بِهِ مِمَّا أَرْهَفَ عِزْمَهُ وَجَبَّاهُ؛ وَغَدَا بِمَكَانِهِ رَافِلًا فِي مَلَابِسِ الْفَخْرِ وَالْبَهَاءِ، نَائِلًا مَنَى مَا طَالَ بِهِ مَنَاكِبَ الْقُرْآنِ؛ وَأَخْتَصَّ بِمَا أَعْلَى دَرَجَتَهُ فَتَقَاعَسَتْ عَنْهُ آمَالُ حَاسِدِيهِ، وَتَفَرَّدَ بِالْمَكَانَةِ عَنْ مَقَامِ مَنْ يُبَارِيهِ وَيُنَاوِيهِ؛ وَأَوْلَى مِنَ الْإِنْعَامِ مَا أَمَّنَ بِهِ سِرْبَ النِّعْمَةِ عِنْدَهُ، وَأَعْصَفَى مِنْ مَنَاهِلِ الْإِحْسَانِ وَرَدَهُ؛ وَأَهْدَى إِلَيْهِ مِنَ الْمَوَاعِظِ مَا يَجِبُ أَنْ يُودِعَهُ وَاعِيَةَ الْأَسْمَاعِ، وَيَأْخُذَ بِالْعَمَلِ بِهِ كُلِّ رَاعٍ؛ فَيَنْهَجُ - أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ - مَحَاجَّ الْوَلَاءِ، الَّتِي عَهَدَهُ مِنْ أَمْثَالِهِ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ؛

(١) فِي الْأَصْلِ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ وَهُوَ غَيْرُ مَوَاقِقَ لِبَاقِ الْكَلَامِ كَمَا لَا يَجْنِي .

متزَّهًا عن تقصيرٍ منه في عامَّة الأوقات ، ومراعياً أفعاله في جميع التصرفات ؛ ويعلم
أنَّه مسؤل عن كل ما تلقَّظ به لسانه ناطقاً ، ونظرَ طَرَفُه إليه رامقاً ؛ قبل أن يُجانب
هَواه ، ويَتَّقِ رَهيناً بما آكثبَت يداه ؛ ولا يغرَّ من الدنيا وزُخرفِها بغير أن ليس
الوفاء من طباعه ، ومُعيرٍ ما أقصر مدَّة آرتجاعه ؛ وسبيلُ كافَّة القضاة والأعيان
ومقدِّمي العساكر والأجناد ، ورؤساء البلاد ، متابعتُه وموافقته ، وطلبُ مصالحهم
من جنابِه ، والتصرفُ على استصوابه ؛ وقد أُكثرت وصانته في الفرق بهم والاشتمالِ
عليهم ، والإحسان إليهم ، وإجمال السيرة فيهم ؛ وكلُّما أشكل عليه أمرٌ من
المتجددات يطالع به الديوان العزيز - مجده الله تعالى - ليُنهِّج له السبيل إلى فتح
رِتاحه ، وسُلوكِ منهاجه ؛ والله وليُّ التوفيق والهداية ، وجمع الكلمة في كلِّ إعادةٍ
وبدايه ، والمعونة على العِصمة من الزَّلل ، والتأييد في القول والعمل ؛ إن شاء الله
تعالى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

الوجه السابع

(فيما يكتب في مستند عهد السلطان عن الخليفة ، وما يكتبه الخليفة في بيت
العلامة ، وما يكتب في نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها)

أما ما يكتب في المستند ، فقد جرت العادة أن يكتب فيه نحو ما تقدم في البيعات
وعهود ولاة العهد بالخلافة ؛ وهو : « بالإذن العالی ، المولوی ، الإمامی ، النبوی ،
القلانی » (بقلب الخلافة) أعلاه الله تعالى .

وأما ما يكتبه الخليفة في بيت العلامة ، فإنه يكتب علامته وتحتهما : « فوضت إليه
ذلك ، وكتب فلان بن فلان » . ورأيت في بعض الدساتير نقلاً عن الحاكم بأمر الله

أبي العباس [ابن الخليفة] المستكفي بالله أبي الربيع سليمان [أنه] كان يكتب :
« وكتب أحمد ابن عم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » .

وأما ما يكتب في نسخة العهد من الشهادة، فقد جرت العادة أن يكتب قاضيان
فأكثر من قبضة القضاة الأربعة في حاشية العهد أو في ذيله ماصورته : « أشهدني
مولانا أمير المؤمنين العاهد المشار إليه فيه - أدام الله تعالى أيامه - بما نسب إليه
فيه من العهد إلى فلان بن فلان » أو ما في معنى ذلك .

قلت : والواجب أن يضموا في رسم شهادته الشهادة على السلطان بقبول العهد؛
بأن يقال قبل على مانص وشرح فيه : « وعلى مولانا السلطان المشار إليه فيه بقبول
مأفوض إليه فيه » أو نحو ذلك : لأنه كما يعتبر العهد من العاهد يعتبر القبول من
المعهد إليه كما تقدم في موضعه .

الوجه الثامن

(في قطع الورق الذي تكتب فيه عهد الملوك عن الخلفاء، والقلم الذي
يكتب به، وكيفية كتابتها، وصورة وضعها في الورق)

أما قطع الورق فلا نزاع في أنه يكتب في قطع البغدادى الكامل، على ما هو
مستقر العادة إلى الآن . وقد تقدم في الكلام على مقادير قطع الورق في المقالة الأولى^(١)
من الكتاب أن عرضه ثلاثة أشرار وخمسة أصابع، وطول الوصل كذلك .

(١) كذا في الأصل مضببا عليه ولم يتقدم في الأولى وإنما تقدم في المقالة الثالثة الكلام على
المقادير وأن عرض البغدادى الكامل ذراع واحد بذراع القماش المصرى . انظر ج ٦ ص ١٩٠
من هذا المطوع .

وأما القلم الذي يكتب به، فمختصر قلم الطُومار لمناسبته له على ما تقدم فيما يناسب كل قطع من الورق من الأقلام .

وأما كيفية كتابة العهد وصورة وضعه في الورق، فعلى ما تقدم في البيعات وعهود أولياء العهد بالخلافة: وهو أن يبدأ بكتابة الطرة في أعلى الدرج من أول عرض الورق إلى آخره سطوراً متلاصقةً من غير هامش، وفي أعلاه قدرُ إصبعٍ بيضاءً، ثم يترك ستة أوصالٍ بيضاءً من غير كتابة غير الوصل الذي فيه الطرة؛ ثم تكتب البسملة في أول الوصل الثامن بحيث تكون أعلى ألفاتها تكاد تلتحق بالوصل الذي فوقه، بهامش عن يمين الدرج قدر أربعة أصابع مطبوقة أو خمسة؛ ثم يكتب سطرًا من أول العهد تحت البسملة ملاصقًا لها بحيث تكاد أعلى ألفاته تلتحق بالبسملة، ثم يخلى بيت العلامة قدر شبر، ثم يكتب السطر الثاني من العهد على سمت السطر الذي تحت البسملة، ويسترسل في كتابة بقية العهد .

ثم الذي رأيت في دستور معتمد ينسب للقر العلاءي بن فضل الله أنه يكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع . وأخبرني بعض فضلاء الكتاب أنه رأى في بعض الدساتير أن سطورَه تكون مُردوجةً على نظير البسملة والسطر الأول، وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقدير خمسة أصابع مطبوقه .

قلت : ولعل ذلك تفنن من الكاتب وتطريز للكتابة، لا على سبيل اللزوم .

فإن قيل : لم كان مقدار البياض بين سطور العهد مع كبر قطع الورق دُونَ بياض ما بين سطور التقاليد ونحوها مما يكتب عن السلطان على ما سيأتي ذكره ؟ فالجواب أن العهد كالمكاتبة من العاهد للعهد إليه، كما أن التقليد كالمكاتبة من المقلد للقلد، والأعلى في حق المكتوب إليه أن تكون السطور متضايقة على ما تقدم

في الكلام على المكتّبات؛ فناسب أن تكونَ سطورُ العهد أكثرَ تقارباً من سطور التقليد وما في معناه، تعظيماً لشأن السلطان في الحالتين .

فإن قيل : يُتَقَضُّ ذلكَ بعظمِ قلمِ العهد ، ضرورةً أنه كلما غلظَ القلمُ كان أنزلَ في رتبةِ المكتوبِ إليه على ما تقدمَ أيضاً ، فالجوابُ : أن غلظَ القلمِ في العهد تابعٌ للورق في كبرِ قَطْمِهِ ، وقاعدةُ ديوان الإنشاء أنه كلما كبرَ قَطْعُ الورق في المكتّبات ، كان تعظيماً للمكتوبِ إليه ، بدليل أن كلَّ من عَظُمَ مقداره من الملوك كان قَطْعُ الورق في مكاتبه أكبرَ ، ولو كَتِبَ العهدُ بقلمٍ دقيقٍ مع ضيقِ السُّطورِ وَسَعَةِ الورقِ لُجَاءَ في غايةِ الفِصْرِ . ثم قد جرتِ العادةُ أن تكونَ كتابةُ العهد من أوّله إلى آخره من غيرِ نَقْطٍ ولا سُكُلٍ ، وعليه عملُ الكُتّابِ إلى آخرِ وقتٍ .

قلت : هذا بناءً على المذهبِ الراجحِ في أن المكتّبةَ إلى الرئيس تكونُ من غيرِ إجماعٍ ولا ضَبْطٍ : لما في الإجماعِ والضَبْطِ من استجهالِ المكتوبِ إليه ونسبته للعبّارةِ وقِلّةِ الفهمِ ، بخلافِ ما ذهبَ إلى أن الكتابةَ إلى الرئيس تُقَيَّدُ بالإجماعِ والضَبْطِ كي لا يعترضه الشكُّ ، ولا يُكَلِّفَ إعمالَ الفكرِ ، على ما تقدمَ ذكره في أوائلِ المكتّباتِ ، فإنه يرى نَقْطَ العهدِ وشكّله .

وإذا آتتهى إلى آخرِ العهدِ كتب المشيئةُ ، ثم التاريخُ ، ثم المستندُ ، ثم الحمدلةُ والصلاةُ على النبيّ صلى الله عليه وسلم ثم الحسبلةُ ، على ما تقدمَ في الكلامِ على الفواتحِ والخواتمِ في أوائلِ المقالةِ الأولى من الكتابِ .

وهذه صورةُ وضعه في الورقِ ، ممثلاً له بالطرّةِ التي أنشأها القاضي علاءُ الدين ابن عبد الظاهر ، والعهد الذي أنشأه القاضي شمسُ الدين إبراهيمُ بنُ القيسراني للملكِ الناصر "محمد بن قلاوون" وهو العهد الأخير من المذهبِ الأوّلِ .

الطزوة

هذا عهد شريف تجددت مسرات الإسلام بتجديده، وتأكدت أسباب الإيمان بتأكيده، ووجد النصر العزيز والفتح المبين بوجوده، ووقد اليمن والإقبال على الخليفة بوفوده، وورد الأنام مورد الأمان بوروده . من عبدالله وليه الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين، ابن الحاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، عهد به إلى السلطان الملك الناصر أبي الفتح محمد خلد الله سلطانه، ابن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحى قدس الله روحه على ما شرح فيه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الهامش هذا عهد شريف يعمر بك للإسلام المعاهد، وينصر منك الاعتزام

بيت العلامة

فتغنى عن الموالى والمعاضد، ويلقى إليك مقاليد الأمور لتحمى فى مرضاة

تقدير ربع ذراع

الله ومجاهد، ويعتك على العمل بالكتاب والسنة : ليكونا شاهدين لك

تقدير ربع ذراع

عند الله فى أعظم المشاهد - إلى أن يأتى إلى قوله فى آخره : والله تعالى

المهام يخلده رتبة الملك التي أعلى بها مقامه ، ويُدِّمُهُ ناصراً للدين الحنيف

فأنصاره لا يزالون ظاهرين إلى يوم القيامة ؛ ويجعل سبب هذا العهد

مدى الأيام متيناً ، ويجدد له في كل وقت نصراً قريباً وفتحاً مبيناً ؛

والخط الحاكم أعلاه ، حجة بمقتضاه

إن شاء الله تعالى

كتب في من شهر كذا

سنة كذا

بالإذن العالى المولوى الإمامى النبوى الحامى

أعلاه الله تعالى

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النوع الثالث

(من العهود عهودُ الملوك لولاية العهد بالملك)

وهو أن يعهد الملك بالملك بعده لمن يختاره من أولاده أو إخوته أو غيرهم من الأقارب أو الأجانب .

ويتعلق النظرُ به من سبعة أوجه :

الوجه الأول

(في بيان صحّة ذلك)

لما صحّت إمارة الاستيلاء إجماداً للفتن، وتنفيذاً للأحكام الشرعية على ما تقدم من كلام الماوردي في النوع الثاني من العهود، اقتضت المصلحة تصحيح العهد بالملك لما فيه من المعنى المتقدم . وقد جرت عهود من الملوك لأبنائهم بالديار المصرية وغيرها بحضرة الجُمّ الغفير من العلماء وأهل الحلّ والعقد فأَمْضَوْا حكم ذلك ولم ينكروه، وذلك منهم دليل الجواز .

فإن قيل : قد تقدم في النوع الثاني من العهود من كلام الماوردي أن وزير التفويض لا يجوز له أن يعهد بالوزارة لغيره ، ووزارة التفويض في معنى السلطنة الآن أو قريبتها منها على ما تقدم هناك ، فالجواب : أنه قد تقدم أن السلطنة الآن مُركبة من وزارة التفويض وإمارة الاستيلاء ، بل السلطان الآن كالمستبد بالأمر ، والشوكة مصححة لأصل الولاية فلأن تكون مصححة لفرعها أولى .

الوجه الثاني

(فيما يكتب في الطرزة)

ينبغي أن يكون ما يكتب فيها على نحو ما يكتب في طرر عهود الملوك عن الخلفاء ، إلا أنه يُزاد فيها : « عهد إليه بالملك بعده » كما يقال في عهود الخلفاء عن الخلفاء : « عهد إليه بالأمر بعده » .

وهذه نسخة طرزة :

« هذا عهد شريف جليل قدره ، رفيع ذكره ، على نخره ، متبلج صبحه صويّ
بحره . من السلطان الأعظم الملك الفلاني فلان الدنيا والدين فلان ، خلد الله تعالى
سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه - بالسلطنة الشريفة لولده المقام العالي السلطاني
الملك الفلاني ، بلغه الله تعالى فيه غاية الآمال ، وحقق فيه للرعية ما يرجونه من مزيد
الإفضال ، على ما شرح فيه » .

الوجه الثالث

(في الألقاب التي تُكتب في أثناء العهد)

وقد ذكر في " التعريف " أنه يكتب له : المقام الشريف أو الكريم ، أو العالي
مجتزدا عن الشريف والكريم ، ويُقتصر فيها على الألقاب المفردة دون المركبة .

قلت : وعلى هذه الطريقة كتب القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ألقاب
الملك الصالح على بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده المذكور ،
فقال : « ولما كان المقام العالي الولدي السلطاني الملكي الصالح المهادي » .

وعلى نحو من ذلك كتب المشار إليه ألقاب الملك السعيد بركة بن الظاهر بيبرس في عهده بالسلطنة عن والده المذكور، فقال: « وخرج أمرنا بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد ناصر الدين بركة خاقان محمد » إلا أنه قد خالف ذلك فيما كتب به في ألقاب الملك الأشرف خليل بن المنصور قلاوون في عهده بالسلطنة عن والده فجمع بين الألقاب المفردة والمركبة، فقال: « هذا عهدنا للسيد الأجل الملك الأشرف صلاح الدنيا والدين، نفي الملوك والسلاطين، خليل أمير المؤمنين » ولم يتعرض في التعريف لحكاية هذا المذهب، مع كون كلام ابن عبد الظاهر حجة يرجع إليه في هذا الفن .

الوجه الرابع

(ما يكتب في المستند)

ويتعين أن يكتب فيه « حسب المرسوم الشريف » لصدوره عن السلطان كما يكتب في التقاليد .

الوجه الخامس

(ما يكتب في متن العهد)

وللكتاب فيه طريقتان :

الطريقة الأولى — أن يفتح العهد بعد البسملة بلفظ « هذا » ونحوه على ما تقدم في عهود الملوك عن الخلفاء .

وعلى هذه الطريقة كتب أبو بكر بن القصيرة المغربي الكاتب عن أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » سلطان المغرب بولاية عهده لابنه أبي الحسن على ما بيده من الغرب والأندلس، في ذي الحجة سنة ست وتسعين وأربعمائة، وهو :

كُتِبَ تَوَلِيَّةٌ عَظِيمٌ جَسِيمٌ ، وَتَوْصِيَّةٌ حَمِيمٌ كَرِيمٌ ، مُهَّدَتْ عَلَى الرِّضَا قَوَاعِدُهُ ،
 وَأُكِّدَتْ بِيَدِ التَّقْوَى مَعَاقِدُهُ ، وَأُبْعِدَتْ عَنِ الْغَوَايَةِ وَالْهَوَى مَصَادِرُهُ وَمَوَارِدُهُ ،
 أَنْفَذَهُ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ وَنَاصِرُ الدِّينِ ، أَبُو يَعْقُوبَ يَوْسُفُ بْنُ تَاشَفِينَ ؛ أَدَامَ اللَّهُ أَمْرَهُ ،
 وَأَعَزَّنَا نَصْرَهُ ، وَأَطَالَ فِيهَا يُرِضِيهِ وَيَرْضَى بِهِ عَنْهُ عُمُرَهُ ؛ غَيْرَ مُحَابٍ ، وَلَا تَارِكٍ
 فِي النَّصِيحَةِ لِلَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ وَلِرَسُولِهِ مَوْضِعَ آرْتِيَابٍ لِمُرْتَابٍ - لِلْأَمِيرِ الْأَجَلُّ أَبُو الْحَسَنِ
 عَلَى ابْنِهِ الْمُتَقَبَّلِ شَيْمِهِ وَهَمَمِهِ ، الْمُتَأَنِّلِ حِلْمِهِ وَتَحَلُّمِهِ ؛ النَّاشِئُ فِي حَجْرِ تَقْوِيمِهِ وَتَأْدِيبِهِ ،
 الْمُتَصَرِّفُ بَيْنَ يَدَيِّ مُتَحَدِيهِ وَتَهْدِيهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهُ وَتَوْفِيقَهُ ، وَأَنْهَجَ إِلَى كُلِّ صَالِحٍ
 مِنَ الْأَعْمَالِ طَرِيقَهُ ؛ وَقَدْ تَهَمَّ بَمَنْ تَحْتَ عَصَاهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَهَذَا فِيمَنْ يُخَلِّفُهُ
 فِيهِمْ هُدًى لِلتَّقِيْنَ ، وَلَمْ يَرَأَنَّ يَتْرَكُهُمْ سُدًى غَيْرَ مَدِينِينَ ؛ فَأَعْتَمَّ فِي النَّصَابِ الرَّفِيعِ
 وَأَخْتَارَ ، وَأَسْتَنْصَحَ أَوْلِيَ الرَّأْيِ مِنْهُمْ وَمَنْ غَيْرِهِمْ وَأَسْتَشَارَ ، وَأَسْتَضَاءَ بِشِهَابِ
 اسْتِخَارَةِ اللَّهِ عِزٍّ وَجَلٍّ وَأَسْتَنَارَ ؛ فَلَمْ يُوقِعْ اللَّهَ بَعْدَ طَوْلِ تَأَمُّلٍ ، وَتَرَاحِي مُدَّةٍ وَتَمَهُّلٍ ؛
 اخْتِيَارَهُ وَلَا اخْتِيَارَ مَنْ فَاوَضَهُ فِي ذَلِكَ مِنْ أَوْلِيَ التَّقْوَى وَالْحِكْمَةِ وَالتَّجْرِبَةِ
 وَأَسْتَشَارَهُ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَلَا صَارَ بِهِ وَبِهِمُ الْإِجْتِهَادُ إِلَّا إِلَيْهِ ، وَلَا التَّقْيُّ وَرَادَ التَّرَائِي
 وَالتَّشَاوُرُ إِلَّا بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ فَوَلَّاهُ عَلَى اسْتِحْكَامِ بَصِيرَةٍ وَبَعْدَ طَوْلِ مَشُورَةٍ عَهْدَهُ ،
 وَأَفْضَى إِلَيْهِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْبَسْطِ وَالْقَبْضِ بَعْدَهُ ؛ وَجَعَلَهُ خَلِيفَتَهُ فِي رِعَايَا مَسْنَدِهِ
 وَأَوْطَأَ عَقِبَهُ جَمَاهِيرَ الرِّجَالِ ، وَنَاطَهُ بِمُهَمَّاتِ الْأَمْوَالِ وَالْأَحْوَالِ ؛ وَعَهَّدَ إِلَيْهِ أَنْ
 يَتَّقِيَ اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ ، وَلَا يَعْدِلَ عَنْ سُنَّتِ الْعَدْلِ وَحُكْمِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي أَحَدٍ
 عَصَى أَوْ أَطَاعَ ، وَلَا يَنَامَ بِهِ عَنْ حِمَايَةٍ مِنْ أَسْهَرِ الْحَيْفِ وَالْخَوْفِ وَالْإِضْطِجَاعِ ؛
 وَلَا يَتَلَهَّى دُونَ مَعْلَنِ شَكْوَى ، وَلَا يَتَصَمَّمُ عَنْ مُسْتَصْرِخٍ لِدَفَاعِ بَلْوَى ؛ وَأَنْ يَنْتَظِمَ
 أَقْصَى بِلَادِهِ وَأَدْنَاهَا فِي سِلْكِ تَدْبِيرِهِ ، وَلَا يَكُونَ بَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ مِنْ رِعْيَتِهِ بُونَ

(١) كذا في الأصول ولعله تحريجه . تأمل .

في إحصائه وتقديره؛ ثم دعا - أدام الله تأييده - لمبايعته من دنا ونأى من المسلمين، فلبوا مسرعين وأتوا مهطعين، وأعطوا صفقة أيانهم متبرعين متطوعين؛ وبايعوه على السمع والطاعة، والالتزام سنن الجماعة؛ وبذل النصيحة، وإصفاء النيات الصحيحة؛ وموادة من صاحبه، ومحاربة من حاربه؛ ومكايمة من كأيده، ومعاونة من عانده؛ لا يتخرون في ذلك على حال المكره والمنشط مقدره، ولا يحتجون في وقتي السخط والرضا بمعذره؛ ثم أمر بخاطبة أهل البلاد لتبايعه كل طائفة في بلدها، وتعطيه كما أعطاه من حضر صفقة يدها؛ حتى يستوى في الالتزام ببيعته، التريب والبعيد، ويجمع على الاعتصام بحبل دعوته، الغائب والشهيد؛ وتطمئن من أعلام الناس وخيرهم قلوب كانت من ترانخي ما أنتجز قلبه، ولم ترل ببقية التأثر أرقه؛ ويشمل الناس السرور والاستبشار، ونتمكن لهم الدعوة ويتمهد القرار؛ وتتشأ في الصلاح لهم آمال، ويستقبلهم جد صاعد وإقبال؛ والله يبارك لهم فيها بيعة رضوان، وشفقة رُحمان، ودعوة إيمان؛ إنه على ما يشاء قدير، لا إله إلا هو نعم المولى ونعم النصير .

شهد على أمير المسلمين ناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين - أدام الله أمره، وأعز نصره - بكل ما ذكر عنه من الالتزام البيعة المنصوصة فوق هذا، وأعطى صفقة يمينه متبرعا بها، وبالله التوفيق . وذلك بحضرة قرطبة حماها الله تعالى .

الطريقة الثانية - أن يفتح العهد بعد البسملة بخطبة مفتحة بالحمد لله، وهي طريقة المصريين، وعليها اقتصر المقر الشهابي بن فضل الله في " التعريف " وعلى هذه الطريقة كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر عن الظاهر ببيرس عهد ولده الملك السعيد بركة، وهذه نسخته :

(١) في الأصول أمير المؤمنين وهو سمو عما تقدم فتنه .

الحمد لله مُمَيِّ الغُروس ، ومُبهِجِ النفوس ، ومزِينِ سماءِ المملكةِ بأحسنِ الأهلَةِ
وأضواءِ البدورِ وأشْرِقِ الشَّموسِ ؛ الذي شَدَّ أزرَ الإسلامِ ، بملوكِ يتعاقبونِ مصالِحَ
الأنامِ ، ويتناوَبونَ تدييرَهُم كَتَنَآؤِبِ العِينِ واليدينِ في مُهَمَّاتِ الأجسادِ ومُلمَّاتِ
الأجسامِ .

نحمدهُ على نِعَمِهِ التي أَبَقَطَتْ جَفْنَ الشُّكْرِ المُتَغَافِي ، وأوردتْ نَهْلَ الفضلِ الصَّافِي ،
وَحَوَّلَتِ الآلَاءَ حَتَّى تَمَسَّكَتِ الآمَالُ مِنْهَا بِالوَعْدِ الوَافِي وَأَخَدَتْ بِالوِزْنِ الوَافِي ؛
ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ كَثُرَ اللهُ عَدَدُهُ وَعُدَدُهُ ،
وأحمدُ أمسَهُ وَيَوْمَهُ وَيُحْمَدُ - إن شاء اللهُ تعالى - غَدَهُ ؛ ونُصَلِّيُّ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ
الذي أَطْلَعَ اللهُ بِهِ نَجْمَ الهُدَى ، وألبسَ المُشْرِكِينَ بِهِ أُرْدِيَةَ الرَّدَى ؛ وَأَوْصَحَ بِهِ
مَنَاهِجَ الدينِ وَكَانَتْ طَرَائِقَ قَدَدَا ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً دَائِمَةً
لا تَنْقُضِي أَبَدًا .

وبعدُ ، فإننا [بما] أَلْهَمَنَا اللهُ مِنْ مِصَالِحِ الأُمَمِ ، وَخَوَّلَنَا مِنْ الحِرْصِ على مُهَمَّاتِ
العِبَادِ الذي قَطَعَ بِهِ شَافَةَ الكُفْرِ وَحَتَمَ ، وَأَتَى بِهِ والشُّرْكَ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أَحَدٍ أَشْتَعَالَ
نَارَهُ فَكَانَ عَلَمًا بِنَارٍ مُضْرَمَةٍ لا نَارًا على عَلمٍ ؛ وَقَدَّرَهُ مِنْ رَفْعِ الكُفْرِ مِنْ جَمِيعِ
الجَوَانِبِ ، وَقَفَّوهُمُ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ حَتَّى رَمَاهُمْ بِالْحَتْفِ الوَاصِلِ والعَذَابِ الوَاصِلِ ؛
فَأَصْبَحَ الشُّرْكَ مِنَ الإِبَادَةِ فِي شَرِّكَ ، وَالإِسْلَامُ لا يَحْشِي مِنْ قَتْلِ ولا يَخَافُ مِنْ
دَرَكٍ ؛ وَتُغَوَّرُ الإِسْلَامُ عَالِيَةَ المَبْتَنِي ، جَانِيَةً ثَمَّارَ الإِدْخَارِ مِنْ هُنَا وَمِنْ هُنَا ؛ تُرَاحِمُ
بُرُوجُهَا فِي السَّمَاءِ البُرُوجِ ، وَتَشَاهِدُ الأَعْدَاءُ مِنْهَا سَمَاءً قَدْ بُنِيَتْ وَزِيَّنَتْ وَمَا لَهَا مِنْ
فُرُوجِ ؛ وَعَسَا كَرِ المَلَّةِ المَحْمَدِيَّةِ فِي كُلِّ طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ المَمَالِكِ تَجُولُ ، وَفِي كُلِّ
وَادِيَةٍ حَتَّى تَشْعُرُ بِالنَّصْرِ وَلَكِنَّا تَفْعَلُ مَا تَقُولُ ؛ قَدْ دَوَّخَتْ البِلَادَ قَتَلَتْ الأَعْدَاءَ

تارة بالإمام وتارة بالإدهام ، وسلتُ سُيوفها فراعتهم يقظةً بالقرع ونوما بالأحلام ؛ ترى أنا قد لذلنا هذا الأمر التذاذ المستطيب ، وحسن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد ولبيناه تلبية المستجيب ؛ وجعلنا فيه جميع الآلات والحواس ، وتقسمت مباشرة ومؤامرتة سائر الزمن حتى غدا أكثر ترددا إلى النفس من الأتفاس ؛ واستنفدنا الساعات في امتطاء المضمّر الشموس ، وأدراع محكم الدلاص التي كأنها مبيض برقي أو شعاع شموس ؛ وتجريد المرهفات التي جفت لحاظها الأجفان ، وجرت فكالمياه وأضمرت فكالتيران ؛ وتفويق السهام التي غدت قسيها مرابعا نبالها بان (؟) ، وأعتقال السمهرية التي تفرع الأعداء سنها ندما كلما قرعت هي السنان ، إلى غير ذلك من كل غارة شعواء نسيء للكفار الصباح ، وتصدم كالجبال وتسير كالرياح ؛ ومنازلات كم استلبت من موجود ، وم استنجزت من نصير موعود ، وم مدينة أصحت لها مدينة ولكن أخرها الله إلى أجل معدود .

وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرع تفرسنا فيه الزيادة والنمو ، وتوسمنا منه حسن الجنى المرجو ؛ ورأينا أنه الهلال الذي قد أخذ في ترقى منازل السعود إلى الإبدار ، وأنه سرننا الذي صادف مكان الاختبار له مكان الاختيار ؛ فأردنا أن ننصبه في منصب أحلنا الله فسيح عرفه ، ونشرفه بما خولنا الله من شرفه ؛ وأن تكون يدنا ويده تلتقطان من ثمره ، وجيدنا وجيده يتحليان بجوهره ؛ وأنا نكون للسلطنة الشريفة السمع والبصر ، وللملكة المعظمة في التناوب بالإضاءة الشمس والقمر ؛ وأن تصول الأمة منا ومنه بجدين ، وييطشوا من أمرنا وأمره بيدين ، وأن نرتبه على حسن سياسة تحمد الأمة - إن شاء الله تعالى - عاقبتها عند الكبر ، وتكون

الأخلاق الملوكة منتشة منه ومنتشة به من الصغر، ونجّل سعى الأمة حمداً، ونهب لهم منه سلطاناً نصيراً ومُلْكَاً سعيداً، وتقوى به عضد الدين وزيش جناح الملكة، وتفتح مطلب الأمة ببايائه وكيف لا يتفتح مطلب فيه بركه؟ .

ونخرج أمرنا لا برح مُسْعِداً ومُسْعِفاً، ولا عَدِمَتِ الأُمَّةُ منه خَلْفاً مُنِيلاً ونَوْءاً^(١) مُخْلِفاً؛ بأن يُكْتَبَ هذا التقليد لولدنا السعيد ناصر الدين « بركة خاقان محمد » جعل الله مَطْلَعَ سعده بالإشراق مُحْفُوفاً، وأرى الأُمَّةَ من مِيَامِنِهِ ما يَدْفَعُ للدهرِ صَرفاً وَيُحْسِنُ بالتدبيرِ تَصْرِيفاً - بولاية العهد الشريفِ على قُربِ البلادِ وبعُدها، وغورها وتَجْدِها، وقلاعِها وتُغُورها، وبرورها وِجُورها، وولاياتها وأقطارِها، ومُدُنِها وأمصارِها، وسهْلِها وجبَلِها، ومُعَطَّلِها ومُغْتَلِّها، وما تَحْوِي أقطاره الأَحلامَ، وما يُنْسَبُ للدولة القاهرة من يَمِينِ وِجْازٍ ومِصرٍ وغَرْبِ وسواحلِ وشامٍ بعدَ شامٍ، وما يتداخلُ ذلك من قِفارٍ ومن بِيَدٍ في سائر هذه الجهات، وما يتخلَّلُها من نِيَلٍ ومِنَعٍ وعَدْبٍ فُراتٍ، ومن يسْكُنُها من حَقِيرٍ وجَلِيلٍ، ومن يَحُلُّها من صاحبِ رُغَاءٍ وثُغَاءٍ وصَلِيلٍ وصَهِيلٍ، وجعلنا يده في ذلك كله المَبْسُوطِ، وطاعته المشروطة ونَوَامِيسِه المَبْسُوطِ؛ ولا تديرُ مُلْكٍ كُفَىَّ إلا بنا أو بولدنا يُعْمَلُ، ولا سَيْفٍ ولا رِزْقٍ إلا بأمرنا هذا يُسَلُّ وهذا يُسألُ؛ ولا دَسَّتْ سُلْطَنَةُ إلا بأحدنا يتَوَخَّعُ منه الإِشْراقُ، ولا غُصْنَ قَلَمٍ في روضِ أمرٍ ونَهْيٍ إلا ولدينا ولديه تمتدُّ له الأوراقُ؛ ولا منبرَ خُطيبٍ إلا باسمنا يَمِيسُ، ولا وَجَهَ دِرْهِمٍ ولا دِينَارٍ إلا بنا يُشْرَقُ ويكادُ تَبْرَجاً لا بَهْرَجاً يتَطَّلَعُ من خلال الكيس .

فليقلِّدْ الولدُ ما قلِّدناه من أمور العباد، وليشركنا فيما نبأ شره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد؛ وستعاهد هذا الولد من الوصايا بما سيحدثنا معه تَوْعَماً، ويتبرج

(١) يقال أنبلت الرجل ونبلته إذا ناولته النبل ليرى والمراد أنه نافع معين تأمل .

بِلِحْمِهِ وَدَمِهِ حَتَّى يَكَادَ يَكُونُ ذَلِكَ إلهَامًا لَا تَعْلَمُ ؛ وَفِي الْوَلَدِ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ نَفَادِ
الذَّهْنِ وَصِحَّةِ التَّصَوُّرِ مَا تُتَشَكَّلُ فِيهِ الْوَصَايَا أَحْسَنَ التَّشْكِيلِ ، وَتُظَهَّرُ صُورَةُ الْإِبَانَةِ
فِي صَفَائِهِ الصَّغِيرِ ؛ فَلِذَلِكَ آسْتَعِينَا عَنْ شَرْحِهَا هَاهُنَا مَسْرُودَةً ، وَفِيهِ - بِحَمْدِ اللَّهِ -
مِنْ حُسْنِ الْخَلِيقَةِ مَا يَحَقِّقُ أَنَّهَا بَشَرٌ الْإلهَامِ مَوْجُودَةٌ ؛ وَاللَّهُ لَا يُعِدُّنَا مِنْهُ إِسْفَاقًا
وَبِرًّا ، وَيَجْعَلُهُ أَبَدًا لِلْأُمَّةِ سِنْدًا وَدُنْحًا ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وعلى ذلك كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر أيضا عن المنصور « قلاوون »
عهد ولده الملك الأشرف صلاح الدين « خليل » وهذه نسخته :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ لَهُ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَمَرَ ، وَالرِّضَا وَالشُّكْرُ فِيمَا هَدَمَ مِنْ
الْأَعْمَارِ وَمَا عَمَّرَ ، وَالتَّقْوِيضُ فِي التَّعْوِيضِ إِنْ غَابَتِ الشَّمْسُ بِقِي الْقَمَرِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَ سُلْطَانَنَا ثَابِتَ الْأَرْكَانِ ، كُلِّ رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِهِ ذَاتُ أَفْنَانٍ ؛
لِاتِّعَازِهِ رِيحَ عَقِيمٍ ، وَلَا يُجْرِحُهُ رُزْءٌ عَظِيمٌ عَنِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ ؛ وَلَا يُعْتَبِطُ مِنْ جَمَلَتِهِ
كَرِيمٌ إِلَّا وَيُعْتَبِطُ مِنْ أَسْرَتِهِ بِكَرِيمٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
تَزِيدُ قَائِلَهَا تَقْوِيضًا وَتُجْزِلُ لَهُ تَعْوِيضًا ، وَتُحْسِنُ لَهُ عَلَى الصَّبْرِ الْجَمِيلِ فِي كُلِّ
خَطْبٍ جَلِيلٍ تَحْرِيزًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْهِ فِي التَّسْلِيمِ :
﴿ وَمَا مَجْدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ . وَالنَّبِيُّ الَّذِي أَوْصَحَ بِهِ الْمَنَاجِحَ
وَبَيَّنَ بِهِ السُّبُلَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ مَا تَجَاوَبَتِ الْمَحَارِبُ وَالْمَنَابِرُ فِي الْبِكْرِ
وَالْأَصْلِ ؛ وَمَا نَثَرَتْ عَقُودُ وَنُظِمَتْ ، وَوُسِّخَتْ آيَاتُ وَأُحْكِمَتْ ؛ وَنُقِضَتْ أُمُورٌ
وَأُبْرِمَتْ ، وَمَا عَزَمَتْ آرَاءٌ فَتَوَكَّلْتُ وَتَوَكَّلْتُ فَعَزَمْتُ ؛ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ

الذين منهم من كان للخليفة نِعْمَ الخليفة ، ومنهم من لم يُدْرِكْ أحدٌ في تَسْوِيدِ النفسِ الحَصِيْفَةِ ولا في تَبْيِضِ الصَّحِيْفَةِ مُدَّةً ولا نَصِيْفَهُ ؛ ومنهم من يَسَّرَهُ اللهُ لِتَجْهِيزِ جَيْشِ العُسْرَةِ فعَرَفَ اللهُ ورسوله معروفه ، ومنهم من عَمِلَ صالحاً أَرْضَى رَبَّهُ وأصْلَحَ في ذُرِّيَّتِهِ الشَّرِيفَةِ .

وبعد ، فإن من الطَّافِ اللهُ تعالى بعباده ، وآكْتَفَانِ عَوَاطِفِهِ ببلادِهِ ؛ أن جعلنا كُلمًا وهى لُلكِ ركنٌ شديدٌ شيدنا رُكناً عَوْضَهُ ، وكلما أَعْتَرَضَتْ لِلقَادِرِ جَمَلَةٌ بَدَلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَتَنَاسَيْنَا - تَجَلَّدَا - تلكَ الجَمَلَةَ المَعْتَرِضَةَ ؛ فلم يُجِجِ اليَوْمَ لَأَمْسِهِ ، وإن كان حَمِيدًا ، ولا الغَارِسَ لَغْرَسِهِ ، وإن كان ثَمْرُهُ يَابِغًا وَظَلُّهُ مَدِيدًا ؛ فَأَطَاعْنَا في أَفْقِ السُّلْطَنَةِ كوكبًا سَعِيدًا كان حُسْنُ الأَسْتِخْلَافِ مُعَدًّا ، وَمَنْ لَقِيْلَ المُسْلِمِينَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ؛ وَمَنْ يَبْشُرُ اللهُ بِهِ مِنَ الأَوْلِيَاءِ المُتَّقِينَ وَيُنذِرُ مِنَ الأَعْدَاءِ قَوْمًا لُدًّا ، ولم يَبْقَ [إلا] بِهِ أُنْسُنَا بَعْدَ ذَهَابِ الَّذِينَ تَحْسَبُهُمْ (كالسيفِ فَرْدًا) ؛ والذي مَأْمُضَى حَدَهُ ضَرِيْبَةٌ إلا (قَدَّ البَيْضَ والأَبْدَانَ قَدًّا) ؛ ولا جَهَّزَ رَايَةَ كِتَابِيَّةٍ إلا أَعْنَى غَنَاءَ الذَاهِبِينَ وَعَدَّ الأَعْدَاءَ عَدًّا ؛ ولا بَعَثَهُ جَزَعٌ فَقَالَ : (كَمْ مِنْ أُخٍ لِي صَالِحٍ) إِلَّا لِقِيَهُ وَرَعُ فَقَالَ : (وُخِلِقْتُ يَوْمَ خُلِقْتُ جَلْدًا) ؛ وهو الذي بقواعد السُّلْطَنَةِ أَدْرَى وَبِقَوَائِمِهَا الأَعْرَفُ ، وَعَلَى الرِّعَايَا الأَعْطَفُ وَبِالرِّعَايَا الأَرَأْفُ ؛ وهو الذي ما قِيلَ لِنِيبِائِةٍ مُلْكٌ هَذَا عَلَيَّهِ قَدْ وَهَى إلا وَقِيلَ هَذَا بِنَاءٌ مِثْلُهُ مِنْهُ أَسْمَى مُلْكٌ أَشْرَفُ . والذي مَابَرِحَ النُّصْرُ بِتَسْمٍ مِنْ مَهَابٍ تَأْمِيلِهِ الفَّلَاحُ ، وَبِتَسْمٍ نَعْرُهُ فَتَتَوَسَّمُ الثَّغُورُ مِنْ مَبْسَمِهِ النَّجَاحُ ؛ وَيُقَسَّمُ نُورُهُ عَلَى البَسيْطَةِ فلا مِضْرٌ مِنَ الأَمْصَارِ إلا وَهُوَ يَشْرِبُ إِلَى مُلَاحِظَةِ جَبِينِ عَهْدِهِ الوَضَّاحُ ، وَبِتَفْتَقُ أَشْتَقَاقُ النُّعُوتِ فيقولُ التَّسَلَّى لِلتَّعَلَّى : سَوَاءُ الصَّالِحِ وَالصَّلَاحِ ؛ وَالَّذِي مَابَرِحَ لِشِعَارِ السُّلْطَنَةِ إِلَى تَوَقُّلِهِ وَتَنَقُّلِهِ أُمَّ حَنِينٍ ، وَكأَمَّا كُوشِفَتِ الإِمَامَةُ العَبَاسِيَّةُ بِشَرَفِ مَسْمَاهُ فَمَا تَقَدَّمَ مِنْ زَمَنِ سَلَفٍ وَمِنْ حِينٍ ؛ فَسَمَّتْ وَوَسَمَّتْ بِأَسْمِهِ

أكابر الملوك وأخيار السلاطين، فحُوطِبَ كُلُّ مِنْهُمْ مَجَازًا لَاهْذِهِ الْحَقِيقَةُ «بِجَلِيلِ»
 أمير المؤمنين؛ والذي [كم] جَلَّابِيهِيَّ جَبِينَهُ مِنْ بِيهَمٍ، وَكَمْ غَدَا الْمُلْكُ بِحُسْنِ رُوَايَةِ
 وَيُمْنِ آرَائِهِ يَسِيمٍ، وَكَمْ أBRَأَ مَوْرُدَهُ الْعَذْبُ هِيمَ عَطَاشٍ وَلَا يُتَكَرَّ الْخَلِيلُ إِذَا قِيلَ عَنْهُ
 أَبْرَاهِيمُ؛ وَمَنْ تَشَخَّصَ الْأَبْصَارَ لِكَلَّهِ يَوْمَ رَكُوبِهِ حَسِيرِهِ، وَتُلْقَى الْبَنَانُ سِلَاحَهَا ذَهَلًا
 وَهِيَ لَا تُدْرِي لِكثْرَةِ الْإِيْمَاءِ إِلَى جَلَالِهِ إِذَا بَيَدُو مَسِيرِهِ؛ وَالَّذِي أَلْهَمَ اللَّهُ الْأُمَّةَ لِحُودِهِ
 وَوُجُودَهُ صَبْرًا جَمِيلًا، وَأَتَاهُمْ مِنْ نَفَاسَةِ كَرَمِهِ وَحِرَاسَةِ سَيْفِهِ وَقَلَمِهِ تَأْمِينًا وَتَأْمِيلًا؛
 وَعَظَّمَ فِي الْقُلُوبِ وَالْعُيُونِ بِمَا مِنْ بَرِّهِ سَيُكُونُ فَسَمَّتْهُ الْأَبُوتَةُ الشَّرِيفَةُ وَلَدَا وَسَمَّاهُ اللَّهُ
 «خَلِيلًا» .

وَمَا تَحْتَمُّ مِنْ تَفْوِيضِ أَمْرِ الْمُلْكِ إِلَيْهِ مَا كَانَ لَوْفَتِهِ الْمَعْلُومُ قَدْ تَأَنَّرَ، وَتَحَيَّنَ
 حِينَهُ فَكُلَّ زِيَادَةَ كَرِيَادَةِ الْهَلَالِ حَتَّى بَادَرَ تَمَامَهُ فَأَبْدَرَ؛ أَقْتَضَى حُسْنَ الْمُنَاسِبَةِ
 لِنَصَائِحِ الْجُمْهُورِ، وَالْمِرَاقِبَةِ لِمَصَالِحِ الْأُمُورِ؛ وَالْمُصَاقِبَةِ لِمَنَاجِحِ الْبِلَادِ وَالثُّغُورِ، وَالْمُقَارَبَةِ
 مِنْ قَوَاتِحِ كُلِّ أَمْرٍ مَيَسُورٍ؛ أَنْ نَفُوضَ إِلَيْهِ وَلايَةَ الْعَهْدِ الشَّرِيفِ بِالسُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ
 الْعَظْمَى، الْمَكْرَمَةَ الْمَفْضَحْمَةَ الْمُنْظَمَةَ؛ وَأَنْ يَسْطُرَ يَدَهُ الْمُنِيفَةَ لِمَصَاحِفِهَا بِالْعُهُودِ،
 وَتَحْكُمُهَا فِي الْعَسَاكِرِ وَالْجُنُودِ، وَفِي الْبُحُورِ وَالثُّغُورِ وَفِي التَّهَامِ وَالتَّجُودِ؛ وَأَنْ يُعَدِّقَ
 بِسَطْحِهَا وَقَلَمِهَا كُلَّ قَطْعٍ وَوَصْلٍ، وَكُلَّ فَرْعٍ وَأَصْلٍ، وَكُلَّ نَصْرٍ وَنَصْلٍ؛ وَكُلَّ مَا يَجِي
 سَرْحًا، وَيَهْمِي مَنَحًا، وَفِي الْمُنِيرَاتِ فِي الْإِعْدَاءِ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَقْعًا وَفِي الْمَغِيرَاتِ
 صُنْبًا؛ وَفِي الْمَنْعِ وَالْإِطْلَاقِ، وَفِي الْإِرْفَادِ وَالْإِرْفَاقِ؛ وَفِي الْخَلْمِيسِ إِذَا سَاقَ،
 وَفِي السُّيُوفِ إِذَا بَلَغَتْ التَّرَاقِي وَقِيلَ مَنْ رَاقَ، وَفِي الرِّمَاحِ إِذَا أَلْتَفَتِ السَّاقُ
 بِالسَّاقِ؛ وَفِي الْمُعَاهَدَاتِ وَالْمُحَدَّنِ، وَفِي الْفِدَاءِ بِمَا عَرَضَ مِنْ عَرَضٍ وَبِالْبُدْنِ
 بِالْبَدْنِ؛ وَفِي مَا ظَهَرَ مِنْ أُمُورِ الْمُلْكِ وَمَا بَطَّنَ، وَفِي جَمِيعِ مَا تَسْتَدْعِيهِ بَوَاعِثُهُ، فِي السَّرِّ
 وَالْعَلَنِ، وَتَسْتَرِيهِ نَوَافِثُهُ، مِنْ كَبْتٍ وَكُتْبٍ مُتَفَرِّقِينَ أَوْ فِي قَرْنٍ؛ عَهْدًا مَبَارَكًا عَوْدَهُ

وتماؤه ، وفوائحه وخواتمه ؛ ومناسمه ومياسمه ، وشروطه ولوازمه ؛ وعلى عاتق الملك الأعزّ نجاده وفي يد جبار السموات قائمه ؛ لا راد لحكمه ولا ناقص لبرمه ، ولا داحض لما أثبتته الأقاليم من مكنون علمه .

[و] زيده مرّ الليلي جدّة * وتقادم الأيام حسن شباب

وتلزم السنون والأحقاب ، آستيداعه للذرائع والأعقاب ؛ فلا سلطان ذو قدر وقدره ، ولا ذو أمر وإمره ؛ ولا نائب في مملكة قربت أو بعدت ، ولا مقدم جيوش أتممت أو أنجذت ، ولا راجع ولا رعيه ، ولا ذو حكم في الأمور الشرعيه ؛ ولا قلم إنشاء ولا قلم حساب ، ولا ذوو أنساب ولا ذوو أسباب ؛ إلا وكلّ داخل في قبول هذا العقد الميمون ، وتمسك بحكم كتابه المكنون ، والتسليم لنصه الذي شهد به من الملائكة الكرام الكاتبون ؛ وأمست بيعته بالرضوان محفوظه ، والأعداء يدعونها تضرعاً وخيفه ، ولشكروا الصنيع الذي بعد أن كانت الخلفاء تسلطن الملوك قد صار سلطانهم يقيم من ولاة العهد خليفة بعد خليفه .

وأما الوصايا فأنت يا ولدنا الملك الأشرف - أعزك الله - بها الدرب ، ولسماع شدوها وحدوها الطرب ، الذي للغو لا يضطرب ؛ فعليك بتقوى الله عز وجل فإنها ملاك سدادك ، وهلاك أضدادك ؛ وبها يراش جناح نجاحك ، ويحسن اقتداء اقتداحك ؛ فاجعلها دفين جوانج تأمليك ووعيك ، ونصب عيني أمرك ونهيك ؛ والشرع الشريف فهو قانون الحق المتبع ، ومأمون الأمر المستمع ؛ وعليه مدار إعاء كل إعاز ، وبه يتمسك من أشار وأمتاز ، وهو جنّة والباطل نار : ﴿ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ . فلا تخرج في كل حال عن لوازمه وشروطه ، ولا تتكبر عن معلقه ومنوطه . والعدل فهو متمرّغروس الأموال ، ومعمر بيوت

الرجاء والرجال، وبه تزكو الأعمار والأعمال؛ فاجعله جامع أطراف مراسمك، وأفضل أيام مواسمك؛ وسم به فعلك، وسم به فرضك ونفلك، ولا تُفرد به فلانا دون فلان، ولا مكانا دون مكان، وأقرنه بالفضل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾. وأحسن التخويل، وأجمل التئويل؛ وكثر لمن حولك التئوين والتئويل، وضاعف الحير في كل مضاف لقامك، ومُستضيف بإنعامك؛ حتى لاتعدم في كل مكان وكل زمان ضيافة الخليل؛ والشُّغور فهي للمالك مباسمها، وللسالك مناسمها؛ فاجعل نواجذها تفتُر عن حسن ثنابا الصون، ومراسفها شنبه الشفاه بحسن العون؛ ومنها، بما ينحى السرح منها، وأعنها، بما يدفع المكاره عنها؛ فإنها للنصر مقاعد، وبها حفظ البلاد من كل مار من الأعداء مار؛ وأمرأ الجيوش فهم السور الواقي بين يدى كل سور، وما منهم إلا كل بطل بالنصر مشهور، كما سيفه مشهور؛ وهم ذخائر الملوك، وجواهر السلوك، وأخير الأكار الذين خلصوا من الشكوك؛ وما منهم إلا من له خدمات سلقت، وحقوق عرفت، وموات على استنزام الرعاية للعهد وُفقت؛ فكن جنودهم متحبا، ولرباعهم محصبا، ولصالحهم مرتبا، ولآرائهم مستصوبا، ولاعتضادهم مستصحبا، وفي حمدهم مُطنبا، وفي شكرهم مُسببا؛ والأولياء المنصوريون الذين هم كالأولاد، ولهم سوابق أمت من سوابق الإيجاد؛ وهم من علمت استكانة من قربنا، ومكانة من قلبنا؛ وهم المساهمون فيما ناب، وما برحوا للدولة الظفر والناب؛ فأسهم لكل منهم من احترامك نصيبا، وأدم لهم آرتياحك، وألن جماحك، وقوهم بسلاحك، تجد منهم ضروبا؛ وترى كلاً منهم في أعدائك ضروبا.

وكأنا نوصيك بجيوش الإسلام، كذا نوصيك بالجيوش الذي له الجوار المنشآت في البحر كالاعلام؛ فهو جيش الأمواه والأمواج، المضاف إلى الأفواج من جيش

الْفَجَّاحُ ؛ وهو الجيشُ السَّلِيمَانِيُّ فِي إِسْرَاعِ السَّيْرِ ، وَوَمَا سُمِّيَتْ شَوَانِيهِ غِرْبَانَا
إِلَّا لِجَمْعِهَا بِهَا لَنَا مَا أَجْتَمَعَ لِسَلِيمَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ تَسْخِيرِ الرِّيحِ وَالطَّيْرِ ؛
وَهِيَ مِنَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ عَلَى شَجِّ الْبَحْرِ الْأَسْوَارِ ، فَإِنْ قُدِّتْ قَدِّتْ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ
الْأَعْدَاءِ وَإِنْ أَقْلِعَتْ قَلَعَتْ مِنْهُمْ الْآثَارَ ؛ فَلَا تُحْلَهُ مِنْ تَجْهِيْزِ جَيْشِهِ ، وَسَكَنَ طَيْشِ
الْبَحْرِ بَطَيْشِهِ ؛ فَيُصْبِحُ لَكَ جَيْشَانِ كُلُّ مِنْهُمَا ذَوْكْرٌ وَقَرْ ، : هَذَا فِي بَرِّهِ وَهَذَا يَجْرِي
بَرِّ ؛ وَبُيُوتُ الْعِبَادَاتِ فِيهَا الَّتِي إِلَى مَصَلَّى سَمِيَّكَ « خَلِيلِ » اللَّهُ تَنْتَهَى مَحَارِبُهَا ،
وَبِهَا لَنَا وَلِذَلِكَ لِلْمُسْلِمِينَ سُرَى الدَّعَوَاتِ وَتَأْوِيْبُهَا ؛ فَوْفَهَا نَصِيْبُهَا الْمَفْرُوضَ غَيْرَ مَقْضُوعِ ،
وَمُرَّ بَرْفِهَا وَذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى [فِيهَا] لِلْأَمْرِ الْمَنْصُوعِ ؛ وَأَخَوَاتُهَا مِنْ بُيُوتِ
الْأَمْوَالِ الْوَاجِبَاتِ الْوَاجِبَاتِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا كَلَّمَا بِيُوتُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : هَذِهِ
لِلصَّلَاةِ وَهَذِهِ لِلصَّلَاتِ ؛ وَهَذِهِ كَهَذِهِ فِي رَفْعِ الْمَنَارِ وَجَمْعِ الْمَبَارِ ، وَإِذَا كَانَتْ تَلَكَّ
مِمَّا أَدْنَى اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيَذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ فَهَذِهِ تُرْفَعُ وَيَذْكَرُ فِيهَا اسْمُهُ حَتَّى عَلَى الدَّرْهِمِ
وَالدِّيْنَارِ ؛ فَاصْرِفْ إِلَيْهَا أَجْتِهَادَكَ فِيهَا يَبْعُدُ بِالنَّشْمِيرِ ، كَمَا يَبْعُدُ عَلَى تَلَكَّ بِالنَّتْوِيرِ ؛ وَعَلَى
هَذِهِ بِاشْتِحَانِهَا بِأَنْوَاعِ الصَّرُوفِ ، كِإِشْحَانِ تَلَكَّ بِاسْتِوَاءِ الصُّفُوفِ ، فَإِنَّهَا إِذَا أَصْبَحَتْ
مَصُونَةٌ ، أَجْمَلَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ الْمَعُونَةِ ؛ وَكَفَلَتْ بِالْمَعُونَةِ وَبِالزِّيَادَةِ عَلَى الْمَعُونَةِ ، فَتُكَلَّلُ
هَذِهِ لِكُلِّ وَلِيٍّ دُنْيَاهُ كَمَا كَلَّتْ تَلَكَّ [لِكُلِّ] وَلِيٍّ دِينَهُ ؛ وَحُدُودُ اللَّهِ فَلَا يَتَعَدَّاهَا أَحَدٌ ،
وَلَا يَرَأْفُ فِيهَا وَلَدٌ بَوَالِدٍ وَلَا وَالِدٌ بَوْلَدٍ ؛ فَأَقِمَّهَا وَقُمْ فِي أَمْرِهَا حَتَّى تَنْضَبِطَ أَمَّ الضَّبِطِ ،
وَلَا تَجْعَلْ يَدَ الْفَتْنِ مَغْلُوبَةً إِلَى عُنُقِهَا وَلَا تَبْسُطْهَا كَلَّ الْبَسْطِ ؛ فَلِكُلِّ مِنَ الْجَنَائِزِ
وَالْقِصَاصِ شَرْطٌ شَرَطَهُ اللَّهُ وَحَدٌّ حَدَّهُ فَلَا يَتَجَاوَزُ أَحَدٌ ذَلِكَ الْحَدَّ وَلَا يَخْرُجُ عَنْ

(١) لعل الصواب بشحنها من شحن الثلاثي يقال شحنة يشحنه ملاءه ، وأما الرباعي فعناه الاغمد يقال

سيوف مشحنة أي مغمدة وأشحن الرجل اشحانا تهيأ للبكاء وهو غير مناسب هنا تأمل .

ذلك الشرط؛ والجهاد فهو الدِّين المألوف من حيث نشأ نشأ ونشأتك^(١) وفي ظهور الخيل، فإل على الأعداء كل الميل؛ وصبَّحهم من فتكاتك بالويل بعد الويل، وأرهمم بكلِّ شمري^(٢) قد شمّر من يده عن الساعد ومن رُحمة عن الساق ومن جواده الدليل؛ وأذهب لهم من كل ذلك مذهب، وأزربُجوم الحِرْصان كلَّ غيٍّ وغيب؛ وتكثُر في غزوهم من الليل بكلِّ أدهم ومن الشفق بكلِّ أحمَر وأشقر ومن الأصيل بكلِّ أصفر ومن الصبح بكلِّ أشهب، وأستنبأ أعمارهم وأجعلها آخر ما يُسلب وأول ما يُنهب؛ ونرجو أن يكون الله قد خبا لك من الفتوحات ما يستنجزها لك صادق وعده، وأن ينصرك جيوش الإسلام، في كلِّ إنجاد وإتمام، وما النَّصر إلا من عنده؛ وبيت الله المحجوج من كلِّ فج، المقصود من كلِّ نهج؛ فسير سيده، ووسع [له] الخير وأحسن تسيبه؛ وأوصل من ريك لكلِّ من الحرمين مأهولة، لتصبح ربوعه بذلك مأهولة؛ وآخه ممن يريد فيه بالحاد بظلم، وطهره من مكس وغرم: ليعود تفعلك على البادية والعاكف، ويصبح واديه وناديه مستغنيين ببذلك عن السحاب الواكف؛ والرعايا فهم للعندل زروع، وللإستثمار فروع، وللاستلزام العارة شروع؛ فمتى جادهم غيث أعجب الزراع نباتهم، وتمت بالصلاح أقاتهم، وصاحت بالثناء أوقاتهم؛ وكثرت لجنود مستغلاتهم، وتوفرت زكواتهم وتنورت مشكاتهم؛ والله يضاعف لمن يشاء.

هذا عهدنا للسيد الأجل، الملك، الأشرف، صلاح الدنيا والدين، نغري المملوك والسلطين، خليل أمير المؤمنين، أعز الله تعالى ببقائه الدين؛ فليكن بعروته متمسكا، وبفتحته متمسكا؛ وليتقلد سيف هذا التقليد، ويفتح مغلق كل فتح منه

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة صغيرة .

(٢) الشمري بفتح الشين وكسرها مع شد الميم فيما الماضي في الأمور المحرب انظر اللسان ج ٦ ص ٩٦ .

بخير إقليد؛ وها نحن قد كثرتنا لديه جواهره فدونه مايشاء تحلته من تتويج مفريقٍ
وتحتميم أناملٍ وتسوير زندٍ وتطويقي جيد، ففي كل ذلك تجميلٌ وتمجيد؛ والله تعالى
يجعل استخلافه هذا للثقلين إماما، وللدن قواما، وللجاهدين اعتصاما، وللمتدين
انفصاما؛ ويظفي بمياه سؤوفه نار كل خطب حتى يضح كما أصبحت نار سميته
صلى الله عليه وسلم بردا وسلاما؛ إن شاء الله تعالى .



وعلى ذلك كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر، عن المنصور «قلاوون»
المتقدم ذكره، عهد ولده الملك الصالح «علاء الدين علي» وهذه نسخته :

الحمد لله الذي شرف سرير الملك منه بعلية، وحاطه منه بوصية، وعضد منصوره
بولاية عهد صالحه وأسمى حاتم جوده بمكارم حازها بسبق عديه، وأبهج خير الآباء
من خير الأبناء بن سمو أبيه منه بشريف الخلق وأبيه، وغذى روضه بمتابعة وسميه
وبمسارعة وليه .

نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر، وداركت بالبحر وباركت في النهر؛
وأجملت المبتدأ وأحسنت الخبر، وجمعت في لذاعة الأوقات وطيبها بين رونق
الآصال وريقة البكر. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نليس الألسنة
منها في كل ساعة [ثوبا] جديدا، وتنقيا منها ظللا مديدا، ونستقرب من الآمال
ما يراه سوانا بعيدا. ونصلي على سيدنا محمد الذي طهر الله به هذه الأمة من الأذناس،
وجعلها بهدايته زاكية الغراس؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من فهم
حسن استخلافه بالأمر له بالصلاة بالناس، ومنهم من بنى الله به قواعد الدين
وجعلها موطدة الإساس، ومنهم من جهز جيش العسرة وواسى بماله حين الضراء

والباس ، ومنهم من قال عنه صلى الله عليه وسلم : "لَأَعْطِينَ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّهُ
اللهُ ورسولُهُ وَيُحِبُّ اللهُ ورسولَهُ" فحسن الإلتماس بذلك والإقتباس ، وزاد في شرفه
بأن طهر أهل بيته وأذهب عنهم الأرجاس ، صلاة لاتزال تتردد تردد الأنفاس ،
ولا تبجح في الآناء حسنة الإيناس .

وبعد ، فإن خير من شرفت مراتب السلطنة بجُلوله ، وفوقت ملبس التحكيم
بقبوله ، ومن تزهى مطالع الملك بإشراقه ، وتبادر الممالك مدعنة لاستحقاقه ؛ ومن
يزدهى ملك منصوره - نصره الله - بولده وولى عهده مكنة بانيه ، ومن يتشرف
إيوان عظمة : إن غاب والده في مصلحة الإسلام فهو صدره وإن حضر فهو
ثانيه ؛ ومن يتجمل غاب الإيالة منه بخير شبل كفل لينا ، ويتكفل غوث الأمة بخير
وايل خلف غيثا ؛ ومن أظم الأخلاق الملوكية وأوتى حكمها صيبا ، ومن خصصته
الأدعية الشريفة بصالحها ولم يكن بدعائها شقيا ، ومن رعت به هضبة الملك حتى
أسى مكانها عليا ؛ ومن هو أحق بأن يُحج الأمل ويُحج ، وأولى بأن يتألى له :
(أخلفني في قومي وأصليح) . ومن هو بكل خير ملي ، ومن إذا فوّضت إليه أمور
المسلمين كان أشرف من لأمرهم بلي ؛ ومن يتحقق من والده الماضي الغرار ، ومن
أسمه العالی المنار، أن لاسيف إلا ذو الفقار ولا قتي إلا علي .

ولما كان المقام العالی ، الولدي ، السلطاني ، الملكي ، الصالحی ، العالقی -
عَضِدَ اللهُ به الدين ، وجمع إذعان كل مؤمن على إيجاب طاعته لمباشرة أمور
المسلمين ، حتى يُصبح وهو صالح المؤمنین - هو المرجو لتدبير هذه الأمور ، والمأمول
لصلاح البلاد والثغور ، والمدخر في النصر لشفاء مافي الصدور ، والذي تشهد الفراسة
لأبيه وله بالتحكم : أو ليس الحاکم أبو علي هو المنصور؟ . فلذلك أقتضت الرحمة ،

والشفقة على الأمة ؛ أن يُنصب لهم ولي عهد يتمسكون من الفضل بعروة كرمه ،
ويسعون بعد الطواف بكعبة أبيه لحرمه ؛ ويقتطفون أزاهر العدل وثمار الجود
من كلمه وقلمه ، وتستسعد الأمة منه بالملك الصالح الذى تقسم الأنوار لجبينه وتقسم
المبار من كراماته وكرمه .

فذلك خرج الأمر العالى ، المولى ، السلطان ، الملك ، المنصورى ، السيفى -
أخذه الله القدر ، ولا زالت الممالك تنبأه منه ومن ولي عهده بالشمس والقمر -
أن يفوض إليه ولاية العهد وكفالة السلطنة المعظمة ، ولاية تامة عامة شاملة
كامله ؛ شريفة منيفه ، عطوفة رءوفه ؛ فى سائر أقاليم الممالك وعساكرها وجنودها ،
وعربها وتربكانها وأكرادها وتوابها وولاتها ، وأكبرها وأصغرها ورعاياها ورعاتها ،
وحكامها وقضاتها ، وسارحها وسانحها ؛ بالديار المصرية وتغورها وأقاليمها
وبلادها ؛ وما آتوت عليه . والمملكة الحجازية ، وما آتوت عليه . ومملكة الثوبة ،
وما آتوت عليه ، والفتوحات الصقديّة والفتوحات الإسلامية الساحلية وما آتوت
عليه . والممالك الشامية وحصونها ، وقلاعها ومدنها ؛ وأقاليمها وبلادها ، والمملكة
الحصية ، والمملكة الحصنية الأكرادية والحبيلية وفتوحاتها ، والمملكة الحلبية وتغورها
وبلادها ، وما آتوت عليه ، والمملكة الفراتية ، وما آتوت عليه ؛ وسائر القلاع
الإسلامية برا وبحرا ، وسهلا ووعرا ؛ شاما ومصر ، يمانا وحجازا ، شرقا وغربا ،
بعدا وقربا . وأن تلقى إليه مقاليد الأمور فى هذه الممالك الشريفة ، وأن تستخلفه
سلطنة والده - خلد الله دولته - لتشهد الأمة منه فى وقت واحد سلطانا وخليفه ؛
ولاية وأستخلاقا تُسندهما الرواه ، وتترجم بهما الحداة ، وتعيهما الأسماع وتنطق بهما
الأفواه ؛ تفويضا يُعلن لكافة الأمم ، ولكل رب سيف وقلم ، ولكل ذى علم وعلم ؛
بما قاله صلى الله عليه وسلم لسميه رضى الله عنه حين أولاه من الفخار ما أولاه :

”مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ“ . فلا مَلِكُ إقليمٍ إِلَّا وهذا الخطابُ يَصِلُهُ وَيُوصَلُهُ ، ولا زعيمُ جيشٍ إِلَّا وهذا التفويضُ يَسَعُهُ وَيَشْمَلُهُ ؛ ولا إقليمٌ إِلَّا وَكُلُّ مَنْ بِهِ يَقْبَلُهُ وَيَقْبَلُهُ ، ويمتثلُ بين يديه ويمثله ، ولا منبرٌ إِلَّا وَخَطِيئُهُ يتلُو فُرْقَانَ هذا التقديمَ ويرتله .

وأما الوصايا فقد لَقْنَا وَلَدَنَا وولىَّ عَهْدَنَا ما أَنْطَبِعَ فِي صَفَاءِ ذَهْنِهِ ، وَسَرَتْ تَغْذِيئَتَهُ فِي نَمَاءِ غَضَنِهِ ؛ ولا بُدَّ من لوامِعَ للتبرُّكِ بها في هذا التقليدِ الشريفِ تُبِيرُ ، وجوامِعَ بعد لِحْمِهَا (١) ؟) حيث يصير ، وودائعَ يُنَبِّئُكَ عنها وَلَدَنَا - أعزنا الله ببقائه - ولا يَنْبِئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ : فاتَّقِ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ ، وَأَنْصِرِ الشَّرْعَ فَإِنَّكَ إِذَا نَصَرْتَهُ يَنْصُرْكَ اللهُ عَلَى أَعْدَاءِ الدِّينِ وَعِدَاكَ ؛ وَأَقْضِ بِالْعَدْلِ مَخَاطِبًا وَمَكَاتِبًا حَتَّى يَسْتَبِقَ إِلَى الإِعْازِ بِه لِسَانَكَ وَيَمْنَاكَ ، وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ عَالِمًا أَنَّهُ لَيْسَ يُحَاطَبُ غَدًّا بَيْنَ يَدَيْ اللهِ عَنِ ذَلِكَ سِوَانَا وَسِوَاكَ ، وَأَنَّهُ نَفْسَكَ عَنِ الْهَوَى حَتَّى لَا يَرَاكَ اللهُ حَيْثُ نَهَاكَ ؛ وَحُطِّ الرِّعِيَّةَ ، وَمُرِ النَّوَابَ بِمَجْلِهِمْ عَلَى التَّقْضَايَا الشَّرْعِيَّةَ ؛ وَأَقِمِ الْحُدُودَ ، وَجَنِّدِ الْجُنُودَ ، وَأَبْعَثْهَا بَرًّا وَبِحْرًا مِنَ الْغَزْوِ إِلَى كُلِّ مَقَامٍ مُجْمُودٍ ؛ وَأَحْفَظِ الثُّغُورَ ، وَلَا حِظِّ الْأُمُورَ ، وَازْدَدْ بِالْإِسْتِرْشَادِ بَأْرَائِنَا نُورًا عَلَى نُورٍ ؛ وَأَمْرَاءَ الْإِسْلَامِ الْأَكْبَارِ وَزَعْمَاءُوهَ ، فَهَمَّ بِالْجِهَادِ وَالذَّبِّ عَنِ الْعِبَادِ أَصْفِيَاءُ اللهُ وَأَجْبَاءُوهَ ؛ فَضَاعَفْ لَهُمُ الْحُرْمَةَ وَالْإِحْسَانَ . وَاعْلَمْ أَنَّ اللهُ أَصْطَفَانَا عَلَى الْعَالَمِينَ وَإِلَّا فَالْقَوْمُ إِخْوَانٌ ؛ لِاسِيًّا أَوْلُو السَّعْيِ النَّاجِحِ ، وَالرَّأْيِ الرَّاجِحِ ، وَمَنْ إِذَا نَخَرُوا بِنِسْبَةِ صَالِحِيَّةٍ قِيلَ لَهُمْ : نِعَمَ السَّلْفُ الصَّالِحِ ؛ فَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، وَحَاوِرْهُمْ فِي مَهْمَاتِ الْأُمُورِ فِي كُلِّ سِرٍّ وَجَهْرٍ ؛ وَكَذَلِكَ غَيْرُهُمْ مِنْ أَكْبَرِ الْأَمْرَاءِ الَّذِينَ هُمْ مِنْ تَحَايَا

(١) كذا في الأصول ولعله تعتر بجيوشها حيث تسير . تأمل .

الدول، وذخائر الملوك الأول؛ أجرهم في هذا المجزئ، وأشرح لهم بالإحسان صدرا؛ وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان، فوال إليهم الأمتان؛ وأجعل محبتك في قلوبهم بإحسانك إليهم حسنة المرئى، وطاعتك في عقاندهم قد شغفها حباً: ليصبحوا بحسن نظرك إليهم طوعاً، وليحصل كل جيش منهم من التقرب إليك بالمناسحة نوعاً؛ والبلاد وأهلها فهم عندك الوديعه، فأجعل أوامرك [لهم] بصيرة وسميعه .

وأما غير ذلك من الوصايا، فسحقوك منها بما ينشأ معك توءما، ونلقنك من آياتها محكما فمحكما؛ والله تعالى يمتي هلاك حتى يوصله إلى درجة الإبدار، ويغدى غصنك حتى نراه قد أئنع بأحسن الأزهار وأئنع الثمار؛ ويرزقك سعادة سلطاننا الذى نعت بنعته تبركا، ويلهمك الاعتضاد بشيعته، والأستينان بسنته، حتى تُصبح كتمسكا بذلك متمسكا، ويجعل الرعية بك فى أمن وأمان حتى لا تحشى سوءا ولا تخاف دركا؛ والاعتاد على الخط الشريف - أعلاه الله تعالى - أعلاه إن شاء الله تعالى .

الوجه السادس

(فيما يكتب فى مستند عهد ولى العهد بالسلطنة ، وما يكتبه السلطان

فى بيت العلامة ، وما يكتب فى ذيل العهد)

أما ما يكتب فى مستند العهد وما يكتبه السلطان فى بيت العلامة ، فكغيره من سائر الولايات من التقاليد وغيرها : وهو أنه يكتب فى المستند «حسب المرسوم الشريف» كما يكتب فى المكاتبات التى هى بتلقى كاتب السرعة ما تقدم ذكره فى بابيه . ويكتب السلطان فى بيت العلامة اسمه وأسم أبيه .

وأما ما يكتب في ذيل العهد وشهادة الشهود على السلطان بالعهد ، فمثل أن يكتب : « شهدت على مولانا السلطان الملك الفلاني العاهد المشار إليه فيه خلد الله ملكه ، أو خلد الله سلطانه » وما أشبه ذلك من الدعاء « بما نُسب إليه فيه من العهد بالسلطنة الشريفة إلى ولده المقام الشريف العالی السلطاني ، الملکی ، الفلاني ، وعلى المعهود إليه - أعز الله أنصاره - بقبول العهد المذكور ، وكتب فلان بن فلان » .

الوجه السابع

(في قطع ورق هذا العهد وقلمه الذي يكتب به ، وكيفية كتابته ،

وصورة وضعه في الورق)

أما قطع ورقه فمقتضى إطلاق المقتر الشهابي بن فضل الله في « التعريف » أن للعهود قطع البغدادی الكامل أنه يكتب في البغدادی أيضا .

قلت : وهو المناسب لعظمة السلطنة ، وشماخة قدرها . إذ الملك إلى ولي العهد آئل ، وللدخول تحت أمره صائر ، خصوصا إذا كان المعهود إليه ولدا أو أخا .
وحيث يكتب مختصر قلم الطومار لمناسبته له ، على ما تقدم في غير موضع .

وأما كيفية كتابته وصورة وضعها في الورق ، فهو أن يخلى من أعلى الدرج قدر إصبع بيضا . ثم يكتب في وسطه بقلم دقيق ماصورته « الأسم الشريف » كما يكتب في التقاليد وغيرها على ماسياتي . ثم يتدئ بكتابة الطرة بالقلم الذي يكتب به العهد من أول عرض الورق من غير هامش سطورا متلاصقة إلى آخر الطرة . ثم يترك ستة أوصال بيضا من غير كتابة غير الوصل الذي فيه الطرة . ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بحيث تلحق أعلى ألفاته بالوصل الذي فوقه ، بهامش عن

(١) لعل الصواب وشيوخ قدرها فإن لم تقف على هذا المصدر فما بين يدينا من كتب اللغة فليحرق .

يمين الورق قدر أربعة أصابع أو خمسة مطبوعة . ثم يكتب تحت البسملة سطرا من أول العهد ملاصقا لها . ثم يخلى بيت العلامة قدر شبر كما في عهد الملوك عن الخلفاء . ثم يكتب السطر الثاني تحت بيت العلامة على سمت السطر الذى تحت البسملة ، ويسترسل فى كتابة بقية العهد إلى آخره ؛ ويجعل بين كل سطرين قدر رُبع ذراع بذراع القماش . فإذا انتهى إلى آخر العهد كتب « إن شاء الله تعالى » ثم المستند ، ثم الحمدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والحسبة ، على ماتقدم فى الفواتح والخواتم . ثم يكتب شهود العهد بعد ذلك .

وهذه صورة وضعه فى الورق ، ممثلا له بالطرزة التى أنشأها لذلك ، وبالعهد الذى أنشأه القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر عن المنصور « قلاوون » بالعهد بالسلطنة لولده الملك الصالح « علاء الدين على » وهى :

هذا عهد شريف جليل قدره ، رفيع ذكره ، على نجره ، متبلج صبحه صوى
بجره ؛ من السلطان الأعظم الملك الظاهر ، ركن الدنيا والدين « بيبرس » خلد الله
تعالى سلطانه ، ونصر جيوشه وأعوانه ، بالسلطنة الشريفة لولده المقام العالى
السلطاني ، الملكى ، السعيدى ، بلغه الله تعالى فيه غاية الآمال ، وحقق فيه للرعية
ما يرجونه من مزيد الإفضال .
على ما شرح فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

هاش الحمد لله الذى شرف سرير الملك منه بعليّه ، وحاطه

منه بوصيه ، وعضد منصوره بولاية عهد صالحه ، وأسمى حاتم جوده

بمكارم حازها بسبق عديّه ، وأبهج خيراآباء من خير الأبناء بمن سموأبيه هاشم

منه بشريف الخلق وأبيه ، وغذى روضه بمتابعة وشيميه ، وبمسارعة وليّه .

نحمده على نعمه التي جمعت إلى الزهر الثمر إلى أن يأتي إلى قوله : ولا يخاف

دركا والاعتماد على الخطّ الشريف - أعلاه الله تعالى - أعلاه

إن شاء الله تعالى

كتب في

سنة

حسب المرسوم الشريف

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النوع الرابع

(من العهود عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين بصغار البلدان)
ويتعلق النظر به من أربعة أوجه :

الوجه الأول

(في بيان أصل ذلك وأول حدوثه في هذه المملكة إلى حين زواله عنها)

قد تقدم في المكاتبات ، في الكلام على مكتبة صاحب حماة أن ذلك مما كان في الدولة الأيوبية ، ثم في الدولة التركيّة في الأيام المنصورية « قلاوون » والأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » ثم بطل ذلك . وذلك أن السلطان صلاح الدين « يوسف بن أيوب » حين استولى على البلاد الشامية مع الديار المصرية بعد موت السلطان نور الدين « محمود بن زنكي » صاحب الشام ، فزق أقاليمه في ولاية الممالك الشامية : كدمشق وحلب وحماة وحمص وغيرها وأستمرت .

وكان السلطان صلاح الدين قد وثى حماة لابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه ابن أيوب ، فبقيت بيده حتى توفى سنة سبع وثمانين وخمسمائة . فوليها بعده ابنه المنصور ناصر الدين محمد وبقي بها حتى توفى سنة سبع عشرة وستمائة . فوليها ابنه الناصر قليج أرسلان بقي بها إلى أن أتزعها منه أخوه المظفر في سنة ست وعشرين وستمائة ، وأقام بها إلى أن مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة . فوليها ابنه المنصور محمد ، فبقي بها إلى أن غلب هولاكوكو ملك التتار على الشام وقتل من به من بقايا الملوك الأيوبية ، فهرب المنصور إلى مصر وأقام بها إلى أن سار المظفر قطز صاحب مصر إلى الشام ، وأتزعها من يد التتار ، وصار الشام مضافاً إلى مملكة الديار المصرية ،

فَرَدَ الْمَنْصُورَ إِلَى حِمَاةَ ، فَبَقِيَ بِهَا حَتَّى تُوُفِيَ سَنَةَ ثَلَاثِ وَثَمَانِينَ وَسِمِّئَةً . فَوُلِيَ
 الْمَنْصُورُ قَلَاوُونَ ابْنَهُ الْمَظْفَرُ شَادِي مَكَانَهُ ، وَكَتَبَ لَهُ بِهَا عَهْدًا عَنْهُ ، فَبَقِيَ بِهَا حَتَّى
 تُوُفِيَ سَنَةَ ثَمَانَ وَتَسْعِينَ وَسِمِّئَةً ، فِي الْأَيَّامِ النَّاصِرِيَّةِ « مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ » فِي سُلْطَنَتِهِ
 الثَّانِيَةِ بَعْدَ « لِأَحْمَدِ » . فَوُلِيَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ قَرَأْسَنْقَرُ أَحَدَ أَمْرَائِهِ نَائِبًا ، فَلَمَّا أَسْتَوْلَى
 غَازَانُ مَلِكُ التَّتَارِ عَلَى الشَّامِ ، كَانَ الْعَادِلُ كُتْبَغَا بَعْدَ خَلْعِهِ مِنْ سُلْطَنَةِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ
 نَائِبًا بِصَرْخَدَ ، فَظَهَرَ فِي قِتَالِ التَّتَارِ قُوَّةٌ وَجَلَادَةٌ ، فَوَلَّاهُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ حِمَاةَ ، وَحَضَرَ
 هَزِيمَةَ التَّتَارِ مَعَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِمِائَةٍ وَرَجَعَ إِلَى حِمَاةَ فَاتَ بِهَا .
 فَوُلِيَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مَكَانَهُ سَيْفَ الدِّينِ قَبْجَقُ نَائِبًا ، ثُمَّ نَقَلَهُ إِلَى حَلَبَ ، وَوُلِيَ
 أَسْتَدْمَرَكْرَجِي نِيَابَةَ حِمَاةَ مَكَانَهُ . وَلَمَّا رَجَعَ السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ مِنَ الْكُرْكِ نَقَلَ
 أَسْتَدْمَرَكْرَجِي مِنْ حِمَاةَ إِلَى حَلَبَ ، وَوُلِيَ الْمُؤَيَّدُ عَمَادُ الدِّينِ إِسْمَاعِيلُ بْنُ الْأَفْضَلِ
 عَلِيُّ بْنُ الْمَظْفَرِ عَمْرًا ، مَكَانَهُ بِحِمَاةَ سَنَةَ سِتِّ عَشْرَةَ وَسَبْعِمِائَةٍ عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ مِنْ
 الْمُلُوكِ الْأَيُّوبِيَّةِ ، فَبَقِيَ بِهَا إِلَى أَنْ تُوُفِيَ سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ . فَوُلِيَ الْمَلِكُ
 النَّاصِرُ ابْنَهُ الْأَفْضَلَ مُحَمَّدًا مَكَانَهُ ، فَبَقِيَ بِهَا حَتَّى مَاتَ الْمَلِكُ النَّاصِرُ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ
 إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَأَسْتَقَرَّ فِي السُّلْطَنَةِ بَعْدَهُ ابْنُهُ الْمَنْصُورُ أَبُو بَكْرٍ ، وَقَامَ
 بِتَدْيِيرِ دَوْلَتِهِ الْأَمِيرُ قُوصُونَ . فَكَانَ أَوَّلُ مَا أَحْدَثَ عَزَلَ الْأَفْضَلَ بْنَ الْمُؤَيَّدِ عَنْ
 حِمَاةَ ، وَوُلِيَ مَكَانَهُ بِهَا الْأَمِيرُ قُطْزُ نَائِبًا . وَسَارَ الْأَفْضَلُ إِلَى دِمَشْقَ فَأَقَامَ بِهَا حَتَّى
 تُوُفِيَ بِهَا سَنَةَ ثَلَاثِينَ وَأَرْبَعِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، وَهُوَ آخِرُ مَنْ وَلِيَهَا مِنْ بَنِي أَيُّوبَ .

وقد ذكر المقرئ الشهابي بن فضل الله في "مسالك الأبصار" أن سلطانها كان
 يستقل باعطاء الإمرة والإقطاعات، وتولية القضاة والوزراء وكتاب السر وكل
 الوظائف؛ وتكتب المناشير والتواقيع من جهته . ولكنه لا يعضى أمراً كبيراً في مثل

إعطاء إمرة أو إعطاء وظيفة كبيرة حتى يُشاور صاحب مصر، وهو لا يُجيبه إلا أن
الرأى ما يراه . ومن هذا ومثله . قال : وإن كان سلطاناً حاكماً وملياً متصرفاً
فصاحب مصر هو المتصرف في تولية وعزل، من أراد ولّاه ومن أراد عزله .

قلت : وكان للملكة بذلك زيادة أبهة وجمال : لكون صاحبها تحت يد [ه] من هو
متصرف بأسم السلطنة، يتصرف فيه بالولاية والعزل . على أن هذا القسم لم يتعرض
له المقرّ التقوى بن ناظر الحيش في "التثقيف" نخلق الملكة الآن عن مثله ؛ وإنما
أشار إليه المقرّ الشهابي بن فضل الله رحمه الله في "التعريف" حيث قال :
وأما ما يكتب للوك عن الملوك، مثل ولاية العهود والمنفردين بصغار البلدان فإنه
لا تُستفتح عهودهم إلا بالخطب . وذلك أن حماة كانت في زمنه بأيدي بني أيوب
على ما تقدم ذكره، ولذلك قال في "مسالك الأبصار" : ومما في حدود هذه المملكة
من له أسم سلطان حاكم وملك متصرف صاحب حماة .

الوجه الثاني

(في بيان ما يكتب في العهد؛ وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب في الطرة، وهو تلخيص ما يشتمل عليه العهد)

وهذه نسخة عهد كتب بها المقرّ الشهابي بن فضل الله عن الملك الناصر
«محمد بن قلاوون» للملك الأفضّل «محمد ابن المؤيد عماد الدين إسماعيل» بسلطنة
حماة أيضاً، في رابع صفر سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة . وهو آخر من ملكها من بني
أيوب، وهي :

الحمد لله الذي أقربنا المُلْك في أهلة أهلِه ، وتدارك مُصَابِ مَلِكٍ لولا ولده
الأفضل لم يكن له شَيْبُهُ في فضله ، ووهب بنا بيتَ السلطنة من أبقى البقايَا ما يَلْحَقُ
به كلُّ فرع بأصلِه ، ويظهرُ به رونقُ السيفِ في نصله .

نحمدُه على ما أفاض بمواهبنا من النعم الغزار ، وأدخل في طاعتنا الشريفة من
ملوك الأقطار ، وزاد عطايانا فأضحت وهي ممالك وأقاليم وأمصار ، ونشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أفلح من مات من ملوك الإسلام عليها ،
وحترض بها في الجهاد على الشهادة حتى وصل إليها ، ومد يده لمبايعتنا على إعلانها
فسابقت الثريا بسط يديها ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي شرف من تسمى
باسمه أومت بالقرى إلى نسبه ، وصرف في الأرض من تمسك من رعاية الأمة
بسببه ، وأكرم به كريم كل قوم وجعل كلمة الفخار كلمة باقية في عقبه ، صلى الله
عليه وعلى آله وأصحابه مانح الحمام لحزنه ثم غنى من طربه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإننا - والله الحمد - ممن نحفظ بإحساننا كل وديعه ، ونتقبل لمن أقبل
من الملوك على سؤال صدقاتنا الشريفة كل ذريعه ، وتتكفل لمن مات وهو على
ولائنا بما لوراه في ولده لسره ماجرى ، وعلم أن هذا الذي كان يتمي أن يعيش
حتى يبصر هذا اليوم ويرى ، وكان السلطان الملك المؤيد عماد الدين - قدس الله
رُوحه - هو بقية بيته الشريف ، وأحر من حل من ملوكهم في ذروة عزه النيف ،
ولم يزل في طاعتنا الشريفة على ما كان من الحسنى عليه ، ومن المحاسن التي لقي الله
بها ونور إيمانه يسعى بين يديه ، فوهبنا له من المملكة الحموية المحروسة ما كان قد
طال عليه سالف الأمد ، ورسمنا له بها عطية باقية للوالد والولد ، فلما قارب انقضاء
أجله ، وأشرف على ما قدمه إلى الله وإلينا من صالح عمله ، لم يشغل مابه عن مطالعة

أبوينا الشريفة والتذكار بولده، وتقاضى صدقاتنا العقيمة بما كان ينتظره قره المذير
 لفرقه؛ وورد من جهة ولده المقام الشريف، العالى، الولدى، السلطانى،
 الملكى، الأفضلى، الناصرى - أعز الله أنصاره - ما أزعج القلوب بمصابه فى أبيه،
 وأجرى العيون على من لا تقع له على شبيهه؛ فوجدنا من الحزن عليه ما أبكى كل سيف
 دما، وأن كل رُح يقرع سنه ندما؛ وتأسفنا على ملك كاد يكون من الملائك، وأخ
 كريم أو أعز من ذلك، وسلطان عظيم طالما ظهر شنب بوارقه فى تغور الممالك؛
 وُقنا من الحزن فى مشاركة أهله بالمدنوب، ثم قلنا : لكم فى ولده العوض ولا ينكر
 لكم الصبر يا آل أيوب .

فاقتضت مراسمنا المطاعة أن نرقيه إلى مقامنا العالى، ونعقد له من أوية الملك
 ما تهرت به أطراف العوالى؛ ونركبه من شعار السلطنة بما تجمل به مواكبه، وتمتد به
 عصائبه، وتميس من العجب وتمتد رقابها بالرقبة السلطانية جنائبه؛ تنزيها لخواطركم
 الكريمة علينا عن قول ليت، وتنويها بقدر بيتكم الذى رفع لكم إسماعيل به قواعد
 البيت : لما نعمته من المقام العالى الملكى الأفضلى الناصرى - أمتع الله ببقائه -
 من المناقب التى استحق بها أن يكون له عليكم الملك، والعزائم التى قلدها من الممالك
 ما تجول به الحياض وتجرى به الفلك؛ مع ماله من الكرم الذى هو أوفى من العهد
 بعهده، والفضل الذى أتصل به ميراث الأفضلية عن جدته؛ والجود الذى جرى
 البحر معه فاحمرت من النخل صفة خده، والوصف الذى لم يرض بالجوزاء
 واسطة لعقده؛ والعدل الذى أشبه فيه أباه فما ظلم، والعلم الذى ما خلا به بابُه من
 طلب : إما هدى وإما لكرم؛ ولم يخرج من كفالة والده إلا إلى كفالتنا التى أظنته
 بسحبها، وحلت سماء مملكته بشهبا؛ وخاطبناه كما نكأ نخاطب والده - رحمه الله -
 بالمقام الشريف، وأجريناه فى ألقابه مجرى الولد زيادة له فى التشريف، وصرنا

أمره في كل ما كان لمُلوكِ أهله فيه تَصْرِيفٌ ، وسُتْرِشْدُهُ إلى أَوْضَحِ طَرِيقِهِ ، ويقوم مقام أبيه أو أَيْسٍ «الناصر» هو أبو الأفضَلِ حَقِيقُهُ ؛ ورَسَمْنَا بَطْلَبَهُ إلى [ما] بين أيدينا الشريفة لِنُجَدِّدَ له من نَظَرِنا الشَريفِ ما يَتَضَاعَفُ به سُعودُهُ ، ويزدادُ صُعودُهُ ، ويَتَمَأَنَلُ في هذا البيتِ الشاهِنِشاهِيّ أبناؤُهُ وآباؤُهُ وَجُدُودُهُ : لتعمل معه صَدَقَاتُنَا الشريفةُ ما هو به جَدِيرٌ ، وَتَرَفَعَهُ إلى أعزِّ مَكانٍ من صَهْوَةِ المَنَبَرِ والسَّرِيرِ ، وَتُكَابِرُهُ كَلِّ سُلْطَانٍ وما هو إِلَّا جَحْفَلٌ يَسِيرٌ ؛ لَتُشِيدَ به أركانُ هذا البيتِ الكَرِيمِ ، وَتُحْيَا عِظَامُهُ وهي في التُّحُودِ عَظَمَ رِيمٍ ، وَتَعْرِفَ النَّاسُ أن عِنَايَتَنَا الشريفةَ بهم تَزِيدُ على ما عَهَدُوهُ لجدِّهم القَدِيمِ من سَمِينَا المَلِكِ الناصرِ القَدِيمِ .

نُفِرْجَتِ المَراسِمُ الشريفةُ ، العالِيَةُ ، المُولَوِيَّةُ ، السُلْطَانِيَّةُ ، المَلِكِيَّةُ ، الناصِرِيَّةُ : لازلَتِ المُلُوكُ تَتَقَلَّدُ مِنْهَا في أعناقِها ، ولا بَرِحَتِ المَمالِكُ من بعضِ مَواهِبِها وإِطلاقِها ؛ أن يُقَلَّدَ هذا السُلْطَانُ المَلِكُ الأفضَلُ - أدام اللهُ نَصْرَهُ - من المَلِكَةِ الحَمَوِيَّةِ وبلادِها ، وأُمرائها وأجنادِها ، وَعَربِها وَتُرْكَمانِها وأُكرادِها ؛ وَقُضَاياها وَقُضائِها ، ورعاياها ورعاتِها ؛ وأهلِ حواضِرِها وبوادِها ، وعُمرانِها وبراريها - جميعَ ما كان والدُه - رَحِمَهُ اللهُ - يَتَقَلَّدُهُ ، وبسيفِهِ وَقَلَمِهِ يُجَرِّدُهُ ويَجْرُدُهُ : من كَلِّ قَلِيلٍ وكثيرٍ ، وجليلٍ وحَقِيرٍ ، وفي كَلِّ مأمورٍ به وأميرٍ ؛ يَتَصَرَّفُ في ذلكِ جميعِهِ ، وَيَقْطَعُ إقطاعاتِها بمناشيرِهِ وَيُؤَوِّ وَظائِفِها بِتَواقِيعِهِ ؛ وَيُنظَرُ فيها وفي أهلِها بما يَعْلَمُ أنَّهُ له ولهم فيه صَلاحًا ، وَيُقيمُ من هَيِّئَةِ سُلْطَانِهِ ما يُغْنِيهِ أن يُعْمَلَ أسنَةً وَيُجَرَّدَ صِفاحًا .

وَلِيَحْكُمَ فيها وفيمنَ هو فيها بَعْدَ له ، وَيَجْمَعُ قُلُوبَ أهلِها على وِلايَتِهِ كما كانوا عليه لأبيه من قَبْلِهِ ؛ وَلِيَكُنْ هو وَجُودُهُ وَعِساكِرُهُ أَقْرَبَ في التَّهْوِضِ إلى مِصْلاحِ الإِسلامِ من رَجَعِ نَفْسِهِ ، وَأَمْضَى في العَزائمِ ما يَشْتَبِهُ (?) بها من سيفِهِ وَقَبَسِهِ .

وأما بقیة ما یملئ من الوصایا، أو یدلُّ علیہ من کرم السجایا؛ فهو - بحمد الله تعالى -
 غریزة فی طباعه، ممتزج به من زمان رضاعه؛ وإنما نذکره ببعض ما به یتبرک،
 ونحضه علی اتباع أبیه فإنها الغایة التي لا تُدرک؛ والشرع الشریف أهم ما یشتغل
 به جمیع أوقاته، وتقوی الله فما ینتصرُ الملک إلا بتقائه؛ والفکره فی مصالح البلاد
 والرعايا فإنها مادة نفقائه، وأستکار الجنود فإنهم حصنه المنیع فی ملاقاته، ومبادرة
 کل مهم فی أول میقاته، وولایات الأعمال لا یعتد فیها إلا علی تقائه، وإقامة
 الحدود حتی لا یئصت فی ترکها إلى رفی رقاته؛ ورعاية من له علی سلفه خدمة
 سابقه، وأستجلاب الأدعية الصالحة لنا وله فإنها للسهم مسابقه؛ ویخص فی الأمور
 عزمه فإنه مدرب، ویسسط العدل والإحسان فإنه بهما إلینا یتقرب؛ ولیأخذ
 بقلوب الرعايا فإنها تنتقل، ویکرّم وفادة الوفود لیقف بهم - لنجاح مقاصدهم -
 علی باب صحیح مجرب؛ ولیجتهد فی الجهاد، ویتیقظ والسیف مکحل الحفن
 بالرقاد؛ ویتم فإن المهم العالیة تقوم بها عوالی الصعاد، ویقوم البرید فإن فی تقویمه
 بقاء الملک وعمارة البلاد؛ ولیقف عند مراسمنا الشریفة لتهدیه إلى سبیل الرشاد،
 ویحسن سلوکه لیطرب بذکره کل أحد ویترتم کل حاد؛ وغیر هذا من کل ما عهدنا
 والدّه - سقى الله عهدہ - له سالکا، ولأزمة أموره الجمیلة مالکا؛ مما لا یحتاج -
 مما تعرفه من سیرته المثلی - إلى شرحه، ولا یدلُّ نهاره الساطع علی صباحة صبحه؛
 ولیبشر بما جعل له من فضلنا الیمیم، ویتمسک بوعدنا الشریف أن هذه المملكة
 له ولأبنائه وأبناء أبنائه ما وجد کفء من نسبهم الصمیم؛ والله تعالى یمدک
 - أيها الملک الأفضل - بأفضل مزیده، ویحفظک ما أبقاءک أبوک «المؤید»
 من تأییده؛ والاعتماد علی الخط الشریف أعلاه، إن شاء الله تعالى .

الوجه الثالث

(فيما يُكْتَبُ في المَسْتَدَّ عن السلطان في هذا العهد، وما يكتبه

السلطانُ في بيت العَلَامَةِ)

والْحُكْمُ في ذلك على ما مرَّ في عهود أولياء العهد بالسلطنة : وهو أن يكتب في مستند العهد « حَسَبَ المرسوم الشريف » كما في غيره من الولايات ، ويكتب السلطان في بيت العلامة اسمه من غير زيادة .

قلت : ولا يُكْتَبُ فيه شهادةٌ على السلطان كما يُكْتَبُ في عُهُودِ أولياء العهد بالسلطنة : لأن العهد بالسلطنة العظمى شبيهٌ بالبيعة ، والشهادة فيها مطلوبةٌ للخروج من الخلاف ، على ما تقدم في موضعه . والعهد بولاية سلطنة بعض الأقاليم شبيهٌ بالتقليد ، والشهادة في التقاليد غير مطلوبة ، وذلك أن السلطنة لا تنتهي إلى ولي العهد إلا بعد موت العاهد، وربما بحمد بعض الناس العهد إليه ، وولاية بعض البلدان إنما تكون والسلطان المولى منتصبٌ فلا يؤثرُ الجحودُ فيها .

الوجه الرابع

(في قَطْعِ ورق هذا العهد وقلبه الذي يُكْتَبُ به ، وكيفيَّةِ

الكتابة ، وصورة وضعها في الورق)

أما قطع الورق فمقتضى عموم قول المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" :

إن للعهد قطع البغدادي الكامل أنه يُكْتَبُ في قطع البغدادي أيضا .

قلت : والذي يقتضيه القياس أن تكون كتابته في الورق البغدادي لمعنى السلطنة ، ولكن في قطع دون القطع الكامل : لئحصان رتبة هذه السلطنة عن السلطنة العظمى ؛ ألا ترى مكتبة صاحب مملكة إيران كانت في زمن القان «أبي سعيد» تكتب في قطع البغدادي الكامل كما ذكره في "التعريف" وغيره ؛ ومكتبة صاحب مملكة بيت بركة المعروفة بمملكة أذربك من مملكة توران تكتب له في قطع البغدادي بنقص أربعة أصابع مطبوقة كما ذكره في "التتيف" لا تحطاط رتبته عن رتبة القان أبي سعيد ، على ما تقدم ذكره في المكاتب .

وأما قلمه الذي يكتب به ، فينبغي إن كتب في قطع البغدادي الكامل أن يكون مختصر قلم الطومار كما في غيره من العهود التي تكتب في القطع الكامل . وإن كتب في دون الكامل ، فينبغي أن يكون القلم دون ذلك بقليل .

وأما صورة وضعه في الورق ، فعلى ما مر في عهد أولياء العهد بالسلطنة من غير فرق : وهو أن يكتب في رأس الدرج بقلم دقيق الأسم الشريف ، ثم يتدنى بكتابة الطزة في عرض الورق من غير هامش سطورا متلاصقة إلى آخر الطزة ، ثم يخلى ستة أوصال بيضاء ، ثم يكتب البسملة في أول الوصل الثامن بهامش قدر أربعة أصابع أو خمسة مطبوقة ، ثم يكتب سطرا من أول العهد ملاصقا للبسملة ، ثم يخلى بيت العلامة قدر شبر على ما تقدم ، ويكتب السطر الثاني على سمت السطر الذي تحت البسملة ، ثم يسترسل في كتابة بقية العهد إلى آخره ، ويكون بين كل سطرين قدر ربع ذراع على قاعدة العهود . فإذا انتهى إلى آخر العهد كتب «إن شاء الله تعالى» ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحمد لله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الحسبة . وتكون كتابته من غير نقط ولا شكل كسائر العهود .

قلت : ولو وُسع ما بين سَطوره ونُقِطت حروفه وشُكلت : لما فيه من معنى التقاليد ، لكان به أليق .

وهذه صورةٌ وضعه في الورق ، ممثلاً لها بالطرّة التي أنشأها في معنى ذلك ،
والعهد الذي أنشأه المقرّ الشهابيّ بن فضل الله للملك الأفضل «محمد» بن الملك المؤيد
«عماد الدين إسماعيل» آخر ملوك بني أيوب بها ، وهي :^(١)

هذا عهدٌ شريفٌ عُدبت موارده ، وحسنت بحسن النية فيه مقاصده ،
وعاد على البرية باليمن عانده . من السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين الملك الناصر
أبي الفتح محمد ابن السلطان الشهيد «قلاوون» خلد الله تعالى ملكه ، وجعل
الأرض بأسرها ملكه - للقام الشريف العالى السلطاني ، الملكيّ ، الأفضليّ ،
محمد ابن المقام العالى المؤيدى إسماعيل أعز الله تعالى أنصاره ، وأحمد آثاره ،
بالسلطنة الشريفة بحمّة المحروسة وأعمالها ، على أكمل العوائد وأتمّها ، وأجمل القواعد
وأعمّها ، على ما شرح فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أقرّبنا المُلْك فى أهلة أهله ، وتدارك مُصاب ملك لولا هاشم

ولده الأفضل لم يكن له شبيه فى فضله ، وهب بنا بيت السلطنة

(١) أى بحمّة ولم يتقدّم لها ذكر فتنبه .

هامش من أبقى البقايأ ما يلحق به كل فرع بأصله ، ويظهر به رونق السيف

في نصله . إلى أن يأتي إلى قوله في آخره : والله تعالى يمدك أيها الملك

الأفضل بأفضل مزیده ، ويحفظ بك ما أبقاه لك أبوك المؤيد من

تأييده ؛ والاعتماد على الخط الشريف - أعلاه الله تعالى - أعلاه

إن شاء الله تعالى

كتب في

سنة

حسب المرسوم الشريف

الحمد لله وحده ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

الباب الرابع

من المقالة الخامسة

(في الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب

السيف والأقلام، وفيه [ثلاثة^(١) فصول]

الفصل الأول

(فيما كان يُكتب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسة أطراف)

الطرف الأول

(فيما كان يُكتب عن الخلفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم)

وكان الرسم في ذلك أن يفتح العهد بلفظ: «هذا ما عهد» أو «هذا عهد من فلان لفلان» ويؤتى على المقصد إلى آخره. ويقال فيه: «أمره بكذا وأمره بكذا».

والأصل في ذلك ما كتب به أبو بكر الصديق رضي الله عنه، لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردة، وعليه بنى من بعده. وهذه نسخته:

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لفلان حين بعته [فيمن بعته] لقتال من رجع عن الإسلام. عهد إليه أن يتقى الله ما أستطاع في أمره: كله سره وجهه. وأمره بالجد في أمر الله، ومجاهدة من تولّى عنه ورجع عن الإسلام إلى أماني الشيطان، بعد أن يُعذر إليهم: فيدعوهم بدعاية الإسلام:

(١) بياض في الأصل والتصحيح من ج ١ ص ٢٥ من هذا المطبوع.

فإن أجابوه أمسك عنهم، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقرؤا له؛ ثم ينبتهم بالذى عليهم والذى لهم، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم؛ لا ينظرهم ولا يرده المسلمين عن قتال عدوهم؛ فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له، قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف، وإنما يقاتل من كفر بالله على الإقرار بما جاء من عند الله: فإذا أجاب الدعوة لم يكن له عليه سبيل، وكان الله حسبيته بعدد فيما استسره به. ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مرآغمه، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام؛ فمن أجابه وأقر به قبل منه وعلمه؛ ومن أبى قاتله: فإن أظهره الله عز وجل عليه، قتل فيهم كل قنلة بالسلاح والنيان، ثم قسم ما فاء الله عليه إلا الخمس فإنه مبلغانه. وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد، وأن لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم: لئلا يكونوا عيوناً، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم؛ وأن يقصد بالمسلمين ويرفق بهم فى السير والمنزل؛ ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض، ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول.



وهذه نسخة عهد كتب به أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ،
لأبى موسى الأشعري رضى الله عنه ، حين ولأه القضاء :

أما بعد، فإن القضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فانهم إذا أدلى إليك، وأنفذ إذا تبين لك: فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نقاد له. أس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا يئأس ضعيف من عونك. ^(١) البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر، والصالح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما

(١) فى العقد الفريد (ج ١، ص ٣٣) "ولا يخاف ضعيف من جورك".

أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا . لَا يَمْنَعُكَ قَضَاءُ قَضِيَّتِهِ بِالْأَمْسِ فَرَاجَعْتَ فِيهِ عَقْلَكَ وَهُدِيَّتَ فِيهِ لِرَشْدِكَ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى الْحَقِّ : فَإِنَّ الْحَقَّ قَدِيمٌ ، وَمُرَاجَعَةُ الْحَقِّ خَيْرٌ مِنَ التَّهَادِي فِي الْبَاطِلِ .

الْفَهْمُ الْفَهْمَ فِيمَا تَلَجَّجَ فِي صَدْرِكَ مِمَّا لَيْسَ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ ، ثُمَّ اعْرِفِ الْأَشْبَاهَ وَالْأَمْثَالَ ، وَقَسِ الْأُمُورَ عِنْدَ ذَلِكَ بِنَظَائِرِهَا ، وَأَعْمِدْ إِلَى أَقْرَبِهَا إِلَى اللَّهِ (١) وَأَشْبِهِهَا بِالْحَقِّ ، وَأَجْعَلْ لِمَنْ آدَعَى حَقًّا غَائِبًا أَوْ بَيِّنَةً أَمَدًا يَنْتَهِي إِلَيْهِ : فَإِنْ أَحْضَرَ بَيِّنَةً ، أَخَذْتَ لَهُ بِحَقِّهِ وَإِلَّا اسْتَحَلَّتِ الْقَضِيَّةَ عَلَيْهِ ؛ فَإِنَّهُ أَثْفَى لِلشَّكِّ ، وَأَجْلَى لِلْعَمَى . الْمَسْلُومُونَ عُدُولٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا مَجْلُودًا فِي حَدِّ ، أَوْ مَجْرَبًا عَلَيْهِ شَهَادَةٌ زُورٍ ، أَوْ ظَنِينًا فِي وِلَاءٍ أَوْ نَسَبٍ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَوَلَّى مِنْكُمْ السَّرَائِرَ وَدَرَأَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْإِيمَانَ . وَإِيَّاكَ وَالْقَاتِقَ وَالضَّجَرَ ، وَالتَّادِيَّ بِالْحُصُومِ ، وَالتَّنَكَّرَ عِنْدَ الْخُصُومَاتِ : فَإِنَّ الْحَقَّ فِي مَوَاطِنِ الْحَقِّ يَعِظُمُ اللَّهُ بِهِ الْأَجْرَ ، وَيُحْسِنُ عَلَيْهِ الذُّخْرَ وَالْجَزَاءَ . فَمَنْ صَحَّتْ نَيْتُهُ وَأَقْبَلَ عَلَى نَفْسِهِ ، كَفَاهُ اللَّهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ ، وَمَنْ تَخَلَّقَ لِلنَّاسِ بِمَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَفْسِهِ شَانَهُ اللَّهُ ؛ فَمَا ظَنُّكَ بِثَوَابِ اللَّهِ فِي عَاجِلِ رِزْقِهِ وَخِرَاتِنِ رَحْمَتِهِ ، وَالسَّلَامَ .

قُلْتُ : هَذَا مَا ذَكَرَهُ أَبُو عَبْدِ رَبِّهِ فِي « الْعِقْدِ » . وَيَقَعُ فِي بَعْضِ الْمَصْنُوفَاتِ ابْتِدَائُوهُ : مِنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ - سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَا بَعْدُ .

وَوَقَعَ فِي مُسْنَدِ الْبَزَّازِ أَنْ أَوَّلَهُ : أَعْلَمُ أَنَّ الْقَضَاءَ فَرِيضَةٌ مُحْكَمَةٌ ، مَعَ تَغْيِيرِ بَعْضِ الْأَلْفَاظِ وَتَقْدِيمِ بَعْضٍ وَتَأْخِيرِ بَعْضٍ .

(١) يَرُودُ إِلَى الصَّوَابِ .

الطرف الثاني

(فيما كان يكتب عن خلفاء بني أمية)

كتب عبد الحميد بن يحيى الكاتب، عن مروان بن محمد لبعض من ولده^(١).

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين - عند ما اعترم عليه من توجيهك إلى عدو الله الخلف الجافي الأعرابي ، المتسكع في حيرة الجهالة ، وظلم الفتنة ، ومهاوى الهلكة . ورعاعه الذين عاثوا في أرض الله فساداً ، وأتتهكوا حرمة الإسلام استخفافاً ، وبدلوا نعمة الله كفراً ، وأستحلوا [دماء أهل]^(٢) سنامه جهلاً - أحب أن يعهد إليك في لطائف أمورك ، وعوام شئونك ، ودخائل أحوالك ، ومضطرف تتقك عهدا يُحملك فيه أدبه ، ويشرع لك به عظته ، وإن كنت بحمد الله من دين الله وخلافته بحيث أصطنعك الله لولاية العهد مختصاً لك بذلك دون لمنك وبني أهلك . ولولا ما أمر الله تعالى به ، دالاً عليه ، وتقدمت فيه الحكماء أمرين به : من تقديم العظة ، والتذكير لأهل المعرفة وإن كانوا أولى سابقة في الفضل وخصيصة في العلم ، لاعتمد أمير المؤمنين على أصطناع الله إياك ، وتفضيله لك بما رآك أهله في محلك من أمير المؤمنين ، وسبقك إلى رغائب أخلاقه ، وأتزعاك محمود شيمه ، وأستيلائك على مشابه تديره . ولو كان المودبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، أو لقنوه إلهاماً من تلقائهم ولم نصبهم تعاموا شيئاً من غيرهم ، لنحلناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصر بها عنهم خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته وسابق لأهويته ، احتجاجاً منهم لتعقب في حكمه ، وتثبت في سلطانه وتنفيذ إرادته ،

(١) المولى هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ٢٣٠) وغيره وهي لازمة .

على سابق مشيئته . ولكن العالم الموفق للخير ، المخصوص بالفضل ، المحبوب بمزية العلم وصفوته ، أدركه معاناً عليه بلطف بجنه ، وإذلال كنفه ، وصحة فهمه ، وهجر سأمته .

وقد تقدم أمير المؤمنين إليك ، آخذاً بالحنة عليك ، مؤدياً حق الله الواجب عليه في إرشادك وقضاء حَقِّك ، وما ينظر به الوالد المعنى الشفيق لولده . وأمير المؤمنين يرجو أن يزهك الله عن كل قبيح يهش له طمع ، وأن يعصمك من كل مكروه حاقٍ بأحد ، وأن يحصنك من كل آفة استولت على أمرئ في دين أو خلق ، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعودده ويؤريه من آثار نعمة الله عليك ، ساميةً بك إلى ذروة الشرف ، متبججةً بك بسطة الكرم ، لائحةً بك في أزهر معالي الأدب ، مؤرثةً لك أنفس ذخائر العز ، والله يستخلف عليك أمير المؤمنين ويسأل جياطتك ، وأن يعصمك من زيغ الهوى ، ويحضرك داعي التوفيق ، معاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو .

اعلم أن للحكمة مسالك تفضي مضائق أوائلها بمن أمها سالكا ، وركب أخطارها قاصداً ، إلى سعة عاقبتها ، وأمن سرحها ، وشرف عزها ؛ وأنها لا تعار بسخف الخفة ، ولا تنشأ بتفريط الغفلة ، ولا يتعدى فيها بأمرئ حده ؛ وربما أظهرت بسطة التي مستور العيب . وقد تلقى أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في طلبها ، ولا متناول لمناولة ذروتها ؛ بل تأملت منها أكرم نبعاتها ، واستخلصت [منها]^(١) أعتق جواهرها ؛ ثم سموت إلى لباب مباحها ، وأحرزت منفس ذخائرها ، فأقتعد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت .

(١) الزيادة من رسائل البلاء .

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَحْتَوَاكَ عَلَى ذَلِكَ وَسَبَقْتُ إِلَيْهِ بِإِخْلَاصٍ تَقْوَى اللَّهِ فِي جَمِيعِ أُمُورِكَ
 مُؤْتِرًا لَهَا، وَإِضْمَارِ طَاعَتِهِ مُنْطَوِيًّا عَلَيْهَا، وَإِعْظَامِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِهِ عَلَيْكَ شَاكِرًا لَهُ،
 مَرْتَبِطًا فِيهِ لِلزَّيْدِ بِحُسْنِ الْحِيَاظَةِ لَهُ وَالذَّبِّ عَنْهُ مِنْ أَنْ تَدْخُلَكَ مِنْهُ سَامَةٌ مَلَالٍ،
 أَوْ غَفْلَةٌ ضَيَاعٍ، أَوْ سِنَّةٌ تَهَاوُنٍ، أَوْ جَهَالَةٌ مَعْرِفَةٍ: فَإِنَّ ذَلِكَ أَحَقُّ مَا يُدْئِي بِهِ وَنُظِرَ
 فِيهِ، مَعْتَمِدًا عَلَيْهِ بِالْقُوَّةِ وَالآلَةِ وَالْعُدَّةِ وَالْإِنْفِرَادِ بِهِ مِنَ الْأَصْحَابِ وَالْحَامَةِ .
 فَمَسَسْتُكَ بِهِ لِاجْتِنَاءِ إِلَيْهِ، وَأَعْتَمِدُ عَلَيْهِ مُؤْتِرًا لَهُ، وَالْتَجِيءُ إِلَى كَنَفِهِ مَتَحِيرًا إِلَيْهِ: فَإِنَّهُ
 أْبْلَغُ مَا طَلِبَ بِهِ رِضَا اللَّهِ، وَأَنْجَحُهُ مَسْأَلَةً، وَأَجْزَلُهُ ثَوَابًا، وَأَعُوذُهُ نَفْعًا، وَأَعْمَمُهُ
 صَلَاحًا؛ أُرشِدُكَ اللَّهُ لِحِظِّكَ، وَفَهِّمَكَ سَدَادَهُ، وَأَخَذَ بِقَلْبِكَ إِلَى مُجُودِهِ . ثُمَّ أَجْعَلْ
 اللَّهُ فِي كُلِّ صَبَاحٍ يُنْعِمُ عَلَيْكَ بِبُلُوغِهِ، وَيُظْهِرُ مِنْكَ السَّلَامَةَ فِي إِشْرَاقِهِ [مِنْ نَفْسِكَ]^(١)
 نَصِيبًا تَجَمُّلُهُ لَهُ شُكْرًا عَلَى إِبْلَاغِهِ إِيَّاكَ يَوْمَكَ ذَلِكَ بِصِحَّةِ جَوَارِحِ وَعَافِيَةِ بَدَنٍ، وَسُبُوغِ
 نِعَمٍ، وَظُهُورِ كَرَامَةٍ . وَأَنْ تَقْرَأَ فِيهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - جُزْءًا تُرَدِّدُ رَأْيَكَ
 فِي آيِهِ، وَتُرْتِّلُ لِفُطُكِ بَقْرَاءَتِهِ، وَتُحْضِرُهُ عَقْلَكَ نَاطِرًا فِي مُحْكَمِهِ، وَتُنْفَهِّمُهُ مَقَرًّا
 فِي مُتَشَابِهِهِ: فَإِنَّ فِي الْقِرَاءَنِ شِفَاءَ الصُّدُورِ مِنْ أَمْرَاضِهَا، وَجِلَاءَ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ
 وَصَعَاعِصِهِ، وَضِيَاءَ مَعَالِمِ النُّورِ، تَبَيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يَوْمِنُونَ .^(٢)
 ثُمَّ تَعَهَّدْ نَفْسَكَ بِجَاهِدَةِ هَوَاكَ: فَإِنَّهُ مِغْلَاقُ الْحَسَنَاتِ، وَمِفْتَاحُ السَّيِّئَاتِ،
 وَخَصْمُ الْعَقْلِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ أَهْوَاكَ لَكَ عَدُوٌّ يُحَاوِلُ هَلَكَتَكَ، وَبِعْتَرِضِ غَفْلَتِكَ: لِأَنَّهَا خُدَعُ
 إِبْلِيسَ، وَخَوَاتِلُ مَكْرِهِ، وَمَصَائِدُ مَكِيدَتِهِ؛ فَاحْذَرُهَا مُجَانِبًا لَهَا، وَتَوَقَّهَا مُحْتَرِسًا مِنْهَا؛

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره:

(٢) في مفتاح الأفكار (ص ٢٣٢) وغيره «وترين» وهي أنسب .

(٣) الصواعع جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب شبه وسوسة الشيطان به وفي بعض المؤلفات

وسواسفه .

(١) وَأَسْتَعِذُّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ شَرِّهَا، وَجَاهِدْهَا إِذَا تَنَاصَرْتَ عَلَيْكَ بِعَزْمٍ صَادِقٍ لَأَوْيَةِ
 فِيهِ، وَحَزْمٍ نَافِذٍ لَأَمْتُونِيَّةٍ لِرَأْيِكَ بَعْدَ إِصْدَارِهِ، وَصِدْقٍ غَالِبٍ لَأَمْطَمَعٍ فِي تَكْذِيبِهِ؛
 وَمَصَافِيءٍ صَارِمَةٍ لَأَأَنَاءَةٍ مَعَهَا، وَنِيَّةٍ صَحِيحَةٍ لَأَخَاجَةِ شَكِّ فِيهَا: فَإِنَّ ذَلِكَ ظَهْرِي
 صِدْقٍ لَكَ عَلَى رَدِّعِهَا عَنْكَ، وَمَقْعِهَا دُونَ مَا تَنْتَطَلِعُ إِلَيْهِ مِنْكَ؛ فَهِيَ وَاقِيَةٌ لَكَ سُخْطَةَ
 رَبِّكَ، دَاعِيَةٌ إِلَيْكَ رِضَا الْعَامَةِ عَنْكَ، سَاتِرَةٌ عَلَيْكَ عَيْبَ مَنْ دُونَكَ؛ فَازْدَنْ بِهَا
 مَتَحَلِّيًّا، وَأَصِبْ بِأَخْلَاقِكَ مَوَاضِعَهَا الْحَمِيدَةَ مِنْهَا، وَتَوَقَّ عَلَيْهَا الْآفَةَ الَّتِي تَقْتَطِعُكَ عَنْ
 بُلُوغِهَا، وَتُقْصِّرُكَ دُونَ شَأُوهَا: فَإِنَّ الْمُؤْتُونَةَ إِنَّمَا أَشْتَدَّتْ مُسْتَضْعِبَةً، وَفَدَحَتْ
 بَاهِظَةً أَهْلَ الطَّلَبِ لِأَخْلَاقِ أَهْلِ الْكَرَمِ الْمُتَحَلِّينِ سُمُو الْقَدْرِ، بِجَهَالَةِ مَوَاضِعِ ذَمِيمِ
 الْأَخْلَاقِ وَمُجُودِهَا، حَتَّى فَرَطَ أَهْلُ التَّقْصِيرِ فِي بَعْضِ أُمُورِهِمْ، فَدَخَلَتْ عَلَيْهِمْ
 الْآفَاتُ مِنْ جِهَاتٍ أَمْنُوهَا، فَنَسَبُوا إِلَى التَّفْرِيطِ، وَرَضُوا بِذُلِّ الْمَنْزِلِ، فَأَقَامُوا بِهِ
 جَاهِلِينَ بِمَوْضِعِ الْفَضْلِ، عَمِيهِينَ عَنِ دَرَجِ الشَّرْفِ، سَاقِطِينَ دُونَ مَنزِلَةِ أَهْلِ الْحِجَابِ.
 لِحَاوِلِ بُلُوغِ غَايَاتِهَا مُحَرِّزًا لَهَا بِسَبْقِ الطَّلَبِ إِلَى إِصَابَةِ الْمَوْضِعِ، مَحْصِنًا أَعْمَالَكَ مِنْ
 الْعُجْبِ: فَإِنَّهُ رَأْسُ الْمَهْوَى، وَأَوَّلُ الْغَوَايَةِ، وَمَقَادُّ الْهَلَاكَةِ؛ حَارِسًا أَخْلَاقَكَ مِنْ
 الْآفَاتِ الْمُتَّصِلَةِ بِمَسَاوِي الْأَلْقَابِ وَذَمِيمِ تَنَابُزِهَا، مِنْ حَيْثُ أَتَتْ الْغَفْلَةَ، وَأَنْتَشِرُ
 الضِّيَاعِ، وَدَخَلَ الْوَهْنُ. فَتَوَقَّ غُلُوبَ الْآفَاتِ عَلَى عَقْلِكَ، فَإِنَّ شَوَاهِدَ الْحَقِّ سَتُظْهِرُ
 بِأَمَارَاتِهَا تَصْدِيقَ آرَائِكَ عِنْدَ ذَوِي الْحِجَابِ، وَحَالَ الرَّأْيِ وَخِصِّ النَّظَرِ. فَاجْتَلِبْ
 لِنَفْسِكَ مَحْمُودَ الذِّكْرِ وَبَاقِيَ لِسَانِ الصَّدْقِ بِالْحَدَرِ لِمَا تَقَدَّمَ إِلَيْكَ فِيهِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،

(١) من قولهم افضل ذلك بلا ونية أى بلا توان .

(٢) هو من قولهم تأتى بالأمر ترقق وتنظر . أى لارقق معها .

(٣) فى بعض المؤلفات بمساوى العادات وذميم إيثارها .

(٤) أى غلبة الآفات ولم تقف على هذا المصدر فى بأيدينا من كتب اللغة .

متحرّزا من دُخُول الآفَاتِ عَلَيْكَ مِنْ حَيْثُ أَمْنُكَ وَقِلَّةُ نَفْتِكَ بِمُحْكَمِهَا : مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَمْلِكَ أُمُورَكَ بِالْقَصْدِ ، وَتُدَارِيَ جُنْدَكَ بِالْإِحْسَانِ ، وَتَصُونَ سِرَّكَ بِالْكِتْمَانِ ، وَتُدَاوِيَ حَقْدَكَ بِالْإِنْصَافِ ، وَتُدَلِّلَ نَفْسَكَ بِالْعَدْلِ ، وَتُحَصِّنَ عُيُوبَكَ بِتَقْوِيمِ أَوْدِكَ ، وَتَمْنَعَ عَقْلَكَ مِنْ دُخُولِ الآفَاتِ عَلَيْهِ بِالْعُجْبِ الْمُرْدِي . وَأَنَاتِكَ فَوْقَهَا الْمَلَالُ وَفُوتَ الْعَمَلِ ، وَمَضَاءَتِكَ فَدَرَعُهَا رَوِيَّةُ النَّظَرِ وَأَكْتَفُفَهَا بِأَنَاةِ الْحِلْمِ . وَخَلَوْتَكَ فَأَحْرَسَهَا مِنَ الْغَفْلَةِ وَأَعْتَادِ الرَّاحَةِ ، وَصَمَّتِكَ فَانْفِ عَنْهُ عِيَّ اللَّفْظِ ، وَخَفِ سُوءَ الْقَالَةِ ؛ وَاسْتَمَاعَكَ فَارْعِهِ حُسْنَ التَّفَهُّمِ ، وَقُوَّهُ بِإِشْهَادِ الْفِكْرِ ؛ وَعَطَاءَكَ فَامْهَدْ لَهُ بَيُوتَاتِ الشَّرْفِ وَدَوَى الْحَسَبِ ، وَتَحَرَّزْ فِيهِ مِنَ السَّرْفِ وَأَسْتَطَالَةِ الْبَدَخِ وَأَمْتِنَانِ الصَّبِيْعَةِ ؛ وَحَيَاءَكَ فَامْنَعِهِ مِنَ الْجَلِّ ، وَبِلَادَةِ الْحَصْرِ ؛ وَحِلْمَكَ فِرْزِعِهِ عَنِ التَّهَاؤُنِ وَأَحْضِرْهُ قُوَّةَ الشَّكِيمَةِ ؛ وَعُقُوبَتَكَ فَكَصِّرْهَا عَنِ الْإِفْرَاطِ ، وَتَعَمَّدْ بِهَا أَهْلَ الْإِسْتِحْقَاقِ ؛ وَعَفْوِكَ فَلَا تُدْخِلْهُ تَعْطِيلَ الْحَقُوقِ ، وَخُذْ بِهِ وَاجِبَ الْمَفْتَرَضِ ، وَأَقِمْ بِهِ أَوْدَ الدِّينِ ؛ وَاسْتِنْسَاسَكَ فَامْنَعْ مِنْهُ الْبَدَاءَ وَسُوءَ الْمُنَاقَاةِ ^(١) . وَتَمَهَّدْكَ أُمُورَكَ فَحُدَّهُ أَوْقَاتًا ، وَقَدْرَهُ سَاعَاتٍ ، لَا تَسْتَفْرِغُ قُوَّتَكَ ، وَلَا تَسْتَدْعِي سَأَمَتَكَ ؛ وَعَزَمَاتِكَ فَانْفِ عَنْهَا مَجَلَّةَ الرَّأْيِ ، وَبِلِحَاجَةِ الْإِقْدَامِ ؛ وَقَرَحَاتِكَ فَاشْكُفْهَا عَنِ الْبَطْرِ ، وَقَيِّدْهَا عَنِ الزُّهْمِ ؛ وَرَوَعَاتِكَ فَحُطِّهَا مِنْ دَهْشِ الرَّأْيِ ، وَاسْتَسْلِمِ الْخُضُوعِ ؛ وَحَدَرَاتِكَ فَامْنَعْهَا مِنَ الْجُبْنِ ، وَأَعْمِدْ بِهَا الْحَزْمَ ؛ وَرَجَاءَكَ فَاقْيِّدْهُ بِجَوْفِ الْفَائِتِ ، وَامْنَعْهُ مِنْ أَمْنِ الطَّلَبِ .

هذه جوامعٌ خلال دَخَالِ النِّقْصِ مِنْهَا وَاصِلٌ إِلَى الْعَقْلِ بِلَطَائِفِ أُنْبِهِ وَتَصَارِيفِ حَوِيلِهِ ، فَأَحْكُمُهَا عَارِفًا بِهَا ، وَتَقَدَّمْ فِي الْحِفْظِ لَهَا ، مَعْتَرِمًا عَلَى الْأَخْذِ بِمَرَاشِدِهَا وَالْإِتِّهَاءِ مِنْهَا إِلَى حَيْثُ بَلَغَتْ بِكَ عِظَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَأَدَبُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(١) يقال ناقت فلان فلانا بالكلام آذاه انظر القاموس مادة ن ق ث .

ثُمَّ لَتَكُنْ بِطَانَتِكَ وَجُلَسَاؤِكَ فِي خَلَوَاتِكَ ، وَدُخْلَاؤِكَ فِي سِرِّكَ ، أَهْلَ الْفِقْهِ وَالْوَرَعِ
 مِنْ خَاصَّةِ أَهْلِ بَيْتِكَ ، وَعَامَّةِ قُوَادِكَ مِنْ قَدْ حَنَكْتَهُ السَّنُّ بِتَصَارِيفِ الْأُمُورِ ،
 وَخَبَطْتَهُ فِصَالُهَا بَيْنَ فَرَاسِنِ الْبَزْلِ مِنْهَا ، وَقَلَّبْتَهُ الْأُمُورَ فِي فُنُونِهَا ؛ وَرَكِبَ أَطْوَارَهَا :
 عَارِفًا بِحَاسِنِ الْأُمُورِ وَمَوَاضِعِ الرَّأْيِ وَعَيْنِ الْمَشُورَةِ ؛ مَأْمُونًا النَّصِيحَةَ ، مُنْطَوِيًا
 الضَّمِيرَ عَلَى الطَّاعَةِ . ثُمَّ أَحْضَرَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ وَقَارًا يَسْتَدْعِي لَكَ مِنْهُمْ الْهَيْبَةَ ،
 وَأَسْتِنَاسًا يَعْطِفُ إِلَيْكَ مِنْهُمْ الْمَوَدَّةَ ، وَإِنْصَاتًا يَقُولُ إِفَاضَتَهُمْ لَكَ عِنْدَكَ بِمَا تَكْرَهُ أَنْ
 يُنْشَرَّعَكَ مِنْ سَخَافَةِ الرَّأْيِ وَضِيَاعِ الْحَزْمِ . وَلَا يَغْلِبَنَّ عَلَيْكَ هَوَاكَ فَيَصْرِفَكَ عَنِ
 الرَّأْيِ ، وَيَقْطِعَكَ دُونَ الْفِكْرِ . وَتَعَلَّمْ أَنَّكَ - وَإِنْ خَلَوْتَ بِسِرِّهَا لَقَيْتَ دُونَهُ سَتُورَكَ ،
 وَأَعْلَقْتَ عَلَيْهِ أَبْوَابَكَ - فَذَلِكَ لِأَحْمَالَةِ مَكْشُوفٍ لِلْعَامَّةِ ، ظَاهِرٌ عِنْدَكَ وَإِنْ أَسْتَرْتَهُ [^(١)]
 بَرُّبًا وَلَعَلَّ وَمَا أَرَى إِذَاعَةَ ذَلِكَ وَأَعْلَمُ ، بِمَا يَرُونَ مِنْ حَالَاتٍ مِنْ يَنْقَطِعُ بِهِ
 فِي تِلْكَ الْمَوَاطِنِ . فَتَقَدَّمَ فِي إِحْكَامِ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِكَ ، وَأَسَدَّدَ خَلْلَهُ عِنْدَكَ : فَإِنَّهُ
 لَيْسَ أَحَدٌ أَسْرَعُ إِلَيْهِ سُوءُ الْقَالَةِ وَلَفْظُ الْعَامَّةِ بِنَجْوَى أَوْ شَرٍّ مِنْ كَانَ فِي مِثْلِ حَالِكَ
 وَمَكَانِكَ الَّذِي أَصْبَحْتَ بِهِ مِنْ دِينِ اللَّهِ وَالْأَمَلِ الْمَرْجُوِّ الْمُنْتَظَرِ فِيكَ . وَإِيَّاكَ أَنْ
 يُغْمَزَ فِيكَ أَحَدٌ مِنْ حَامَتِكَ وَبِطَانَةِ خَدَمَتِكَ بِضَعْفَةٍ يَجِدُهَا مَسَاعًا إِلَى النُّطْقِ عِنْدَكَ
 بِمَا لَا يَعْتَرِلُكَ عَيْبُهُ ، وَلَا تَخْلُو مِنْ لَائِمَتِهِ ، وَلَا تَأْمَنُ سُوءَ الْأَحْدُوثِ فِيهِ ، وَلَا يَرْخُصُ
 سُوءُ الْقَالَةِ بِهِ إِنْ نَجِمَ ظَاهِرًا أَوْ عَلِنَ بَادِيًا ، وَلَنْ يَجْتَرِئُوا عَلَى تِلْكَ عِنْدَكَ إِلَّا أَنْ يَرَوْا
 مِنْكَ إِصْغَاءً إِلَيْهَا ، وَقَبُولًا لَهَا ، وَتَرْخِيصًا لَهُمْ فِي الْإِفَاضَةِ بِهَا . ثُمَّ إِيَّاكَ وَأَنْ يُفَاضَ
 عِنْدَكَ بِشَيْءٍ مِنَ الْفُكَاهَاتِ وَالْحِكَايَا ، وَالْمِزَاحِ وَالْمُضَاحِكِ الَّتِي يَسْتَخِفُّ بِهَا أَهْلُ
 الْبَطَالَةِ ، وَيَتَسَرَّعُ نَحْوَهَا ذَوُو الْجَهَالَةِ ؛ وَيَجِدُ فِيهَا أَهْلُ الْحَسَدِ مَقَالًا لِعَيْبِ يَذِيعُونَهُ ،

(١) كذا في الأصل ومفتاح الأفكار مع توقف والمراد أنه يجذر من نشره بهذه الألفاظ .

وَطَعْنَا فِي حَقِّ يَجْحَدُونَهُ ؛ مع مافي ذلك من نَقْصِ الرَّأْيِ ، وَدَرَنِ الْعَرِضِ ، وَهَذْمِ الشَّرْفِ ، وَتَأْيِيلِ الْغَفْلَةِ ، وَقُوَّةِ طِبَاعِ السُّوءِ الْكَامِنَةِ فِي بَنِي آدَمَ كَكُؤُنِ النَّارِ فِي الْحَجَرِ الصَّلْدِ ، فَإِذَا قُدِحَ لَاحِ شَرُّهُ ، وَتَلْهَبَ وَمِضُّهُ ، وَوَقَدَ تَصَرُّمُهُ . وَلَيْسَتْ فِي أَحَدٍ أَقْوَى سَطْوَةً ، وَأَظْهَرَ تَوْقُودًا ، وَأَعْلَى كُؤُونًا ، وَأَسْرَعَ إِلَيْهِ بِالْعَيْبِ وَتَطَّرَقَ الشَّيْنِ مِنْهَا لِمَنْ كَانَ فِي مِثْلِ سِنِّكَ : مِنْ أَغْفَالِ الرِّجَالِ وَذَوَى الْعَنْفُونِ فِي الْحَدَاثَةِ ، الَّذِينَ لَمْ يَقْعِ عَلَيْهِمْ سِمَاتُ الْأُمُورِ ، نَاطِقًا عَلَيْهِمْ لِأُحْجَاهَا ، ظَاهِرًا فِيهِمْ وَسَمُّهَا ، وَلَمْ تَمَحَّضْهُمْ شَهَامَتَهَا ، مَظْهَرَةً لِلْعَامَّةِ فَضْلَهُمْ ، مُدْبِعَةً حَسَنَ الذِّكْرِ عَنْهُمْ ؛ وَلَمْ يَبْلُغْ بِهِمُ الصَّيِّتُ فِي الْخُنْكَةِ مَسْتَمَعًا يَدْفَعُونَ بِهِ عَنْ أَنْفُسِهِمْ نَوَاطِقَ أُنْسِ أَهْلِ الْبَغْيِ ، وَمَوَادِّ أَبْصَارِ أَهْلِ الْحَسَدِ .

ثم تعهد من نفسك لطيف عيبٍ لازم لكثيرٍ من أهل السلطان والقُدرة : من أبطال الذرع ونحوه الشرف والتَّيِّهِ وَعَيْبِ الصَّلَفِ ؛ فَإِنَّمَا تُسْرِعُ بِهِمْ إِلَى فَسَادٍ وَتَهْجِينِ عَقُولِهِمْ فِي مَوَاطِنَ جَمَّةٍ ، وَأَنْحَاءِ مُضْطَرِّفَةٍ ، مِنْهَا قَلَّةٌ أَقْتَدَارُهُمْ عَلَى ضَبْطِ أَنْفُسِهِمْ فِي مَوَاقِبِهِمْ وَمَسَائِرَتِهِمْ الْعَامَّةِ : فَمَنْ مَقْلَقِلٌ شَخَّصَهُ بِكَثْرَةِ الْإِتْلِفَاتِ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ، تَزْدَهِيهِ الْخَلْفَةَ ، وَيُطِّطِرُهُ إِجْلَابُ الرِّجَالِ حَوْلَهُ . وَمَنْ مُقْبِلٌ فِي مَوْكِبِهِ عَلَى مُدَاعَبَةِ مُسَائِرِهِ بِالْمُقَاكَهَةِ لَهُ وَالتَّضَاحُكِ إِلَيْهِ ، وَالْإِيحَافِ فِي السَّيْرِ مَرَحًا ، وَتَحْرِيكِ الْجَوَارِحِ مَتَسَّرًا ، يَحَالُ أَنْ ذَلِكَ أَسْرَعُ لَهُ وَأَحْتُ لِمَطِيئَتِهِ ، فَلْتَحَسِّنْ فِي ذَلِكَ هَيْئَتَكَ ، وَتَجَمَّلْ فِيهِ دَعَتَكَ ؛ وَثِقِلْ عَلَى مُسَائِرِكَ إِقْبَالَكَ إِلَّا وَأَنْتَ مُطَّرِقُ النَّظَرِ ، غَيْرُ مُلْتَفِتٍ إِلَى مُحَدَّثِ ، وَلَا مُقْبِلِ عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ فِي مَوْكِبِكَ لِمُحَادَثَتِهِ ، وَلَا مُوَجِّفِ فِي السَّيْرِ مَقْلَقِلِ الْجَوَارِحِ بِالتَّحْرِيكِ وَالْإِسْتِنْهَاضِ ؛ فَإِنَّ حُسْنَ مَسَائِرَةِ الْوَالِيِ وَأَتْدَاعِهِ فِي تِلْكَ الْحَالَةِ دَلِيلٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ غُيُوبِ أَمْرِهِ وَمَسْتَتِرِ أحواله .

(١) في مفتاح الأفكار «من أبطال البدع» وفي غيره «من أقطار الذرع» وفي كليهما علامة التوقف تأمل .

وأعلم أنّ أقواما يتسرعون إليك بالسّعاية ، ويأتونك على وجه النّصيحة ، ويستميلونك بإظهار الشّفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشّبهة ، ويوطئونك عشوة الحيرة : ليجعلوك لهم ذريعة إلى استئصال العامّة بموضعهم منك في القبول [منهم] ^(١) والتصديق لهم على من قرفوه بثّمة ، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظّنة ؛ فلا يصلنّ إلى مشافهتك ساعٍ بشّبهة ، ولا معروفٍ بثّمة ، ولا منسوبٍ إلى بدعة [فيرضّك] ^(٢) لإيتاغ دينك ، ويملكك على رعيتك بما لا حقيقة له عندك ، ويُلحِمك أعراض قوم لا علم لك بدخلهم ، إلا بما أقدم [به] عليهم ساعيا وأظهر لك منهم متصّحا .
ويُكِنُّ صاحبُ شرطتك المتولّي لإنهاء ذلك هو المنصوب لأولئك ، والمستمع لأقاويلهم ، والفاحص عن نصائحهم ؛ ثمّ لئنّه ذلك إليك على ما يرفع إليه منه لتأمره بأمرك فيه ، وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامّة : فإن كان صوابا نالتك خيرته ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهلٌ أو فرطٌ سعى بها كاذبٌ فنالت الساعي منهما أو المظلوم عقوبةً ، أو بدر من وإليك إليه عقوبةً ونكال ، لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تُنسب إلى تفریط ، وخلوت من موضع الدّم فيه : محضرا إليه ذهناك وصواب رأيك . وتقدّم إلى من تولى ذلك الأمر وتعتمد عليه فيه أن لا يُقدم على شيءٍ ناظرا فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقاله ، ولا يعاقب

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره وهي لازمة . وفي القاموس في مادة (وت غ) وأوتغ دينة

بالتم أفسده .

(٣) دخل الرجل بالفتح والكسر نيته ومذهبه .

(٤) الذي في "مفتاح الأفكار" وغيره «ولیکن صاحب شرطتك ومن أحبيت أن يتولى ذلك من قوادك

إليه آتتهاء ذلك وهو المنصوب الخ» .

أحداً مُتَّكِلًا به، ولا يُحْتَلَى سَبِيلَ أَحَدٍ صَاحِبًا عَنْهُ : لِإِصْحَارِ بَرَاءَتِهِ ، وَصِحَّةِ طَرِيقَتِهِ ؛
 حَتَّى يَرْفَعَ إِلَيْكَ أَمْرَهُ ، وَيُنَبِّئَكَ بِإِلِيكَ قَضِيَّتَهُ عَلَى جِهَةِ الصَّدَقِ ، وَمَنْحَى الْحَقِّ ،
 وَيَقِينُ الْخَبَرَ ؛ فَإِنْ رَأَيْتَ عَلَيْهِ سَبِيلًا لِمَحْبَسٍ أَوْ مَجَازًا لِعُقُوبَةٍ ، أَمْرَتَهُ بِتَوَلَّى ذَلِكَ مِنْ
 غَيْرِ إِدْخَالِهِ عَلَيْكَ ، وَلَا مُشَافَهَةِ لَكَ مِنْهُ ؛ فَكَانَ الْمَتَوَلَّى لِذَلِكَ وَلَمْ يَجْرِ عَلَى يَدَيْكَ مَكْرُوهٌ
 رَأَى وَلَا غِلْظَةً عَقُوبَةٍ . وَإِنْ وَجَدْتَ إِلَى الْعَفْوِ [عَنْهُ] سَبِيلًا ، أَوْ كَانَ مِمَّا قُرِفَ بِهِ خَلِيًّا ؛
 كُنْتَ أَنْتَ الْمَتَوَلَّى لِلْإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِتَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ ، وَالصَّفْحِ عَنْهُ بِإِطْلَاقِ أَسْرِهِ ؛ فَتَوَلَّيْتَ
 أَجْرَ ذَلِكَ وَأَسْتَحَقَّقْتَ ذُنُوبَهُ ، وَأَنْطَقْتَ لِسَانَهُ بِشُكْرِكَ ، وَطَوَّقْتَ قَوْمَهُ حَمْدَكَ ،
 وَأَوْجِبْتَ عَلَيْهِمْ حَقَّكَ ؛ فَفَرَّقْتَ بَيْنَ خَصْلَتَيْنِ ، وَأَحْرَزْتَ حُطُوبَتَيْنِ : ثَوَابَ اللَّهِ
 فِي الْآخِرَةِ ، وَمُجُودَ الذِّكْرِ فِي الدُّنْيَا .

ثُمَّ وَإِيَّاكَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ جُنْدِكَ وَجُلَسَائِكَ وَخِصَّامِكَ وَبِطَانَتِكَ بِمَسْأَلَةٍ
 يَكْشِفُهَا لَكَ ، أَوْ حَاجَةً يَبْدُهَا بِطَلْبِهَا ، حَتَّى يَرْفَعَهَا قَبْلَ ذَلِكَ إِلَى كَاتِبِكَ الَّذِي
 أَهْدَفْتَهُ لِذَلِكَ وَنَصَبْتَهُ لَهُ ، فَيَعْرِضُهَا عَلَيْكَ مُنْبِئًا لَهَا عَلَى جِهَةِ الصَّدَقِ عَنْهَا ، وَتَكُونُ
 عَلَى مَعْرِفَةٍ مِنْ قَدْرِهَا : فَإِنْ أَرَدْتَ إِسْعَافَهُ بِهَا وَنَجَاحَ مَسْأَلِهَا مِنْهَا ، أَذِنْتَ لَهُ
 فِي طَلْبِهَا ، بِأَسْطَلِّهِ كَتَفَكَ ، مُقْبِلًا عَلَيْهِ بِوَجْهِكَ ؛ مَعَ ظُهُورِ سُرُورِكَ بِمَا سَأَلَكَ ، وَفَسْحَةٍ
 رَأَى وَبَسْطَةِ دَرْعٍ ، وَطِيبِ نَفْسٍ . وَإِنْ كَرِهْتَ قَضَاءَ حَاجَتِهِ ، وَأَحْبَبْتَ رَدَّهُ عَنْ
 طَلْبَتِهِ ؛ وَتَقَلَّ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ إِلَيْهَا ، وَإِسْعَافَهُ بِهَا ، أَمَرْتَ كَاتِبَكَ فَصَفَحَهُ عَنْهَا ،
 وَمَنْعَهُ مِنْ مُوَاجَهَتِكَ بِهَا ؛ نَخَفْتُ عَلَيْكَ فِي ذَلِكَ الْمُتُونَةَ ، وَحَسُنَ لَكَ الذِّكْرُ ،
 وَلَمْ يُنْشَرْ عَنْكَ تَجَهُّمُ الرَّدِّ ، وَيَنْلِكَ سُوءُ الْقَالَةِ فِي الْمَنْعِ ، وَحَمِلَ عَلَى كَاتِبِكَ فِي ذَلِكَ
 لِأُمَّةٍ أَنْتَ مِنْهَا بَرِيءٌ السَّاحَةِ .

(١) أى لوضوح براءته ففى حديث على فأصح لعدوك أى كن من أمره على أمر واضح انظر اللسان

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرسل ،
فلا يصلن إليك أحدٌ منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدم له عليك ؛ وجهته
ما هو مكنمك به ، وقدر ما هو سائلك إياه إذا هو وصل إليك ، فأصدرت رأيك
في حوائجه ، وأجلت فكرك في أمره ، وأخترت معترماً على إرادتك في جوابه ،
وأفقدت مضدور رويتك في مرجوع مسألته قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول
حاله إليك ؛ فرفعت عنك مؤونة البديهة ، وأرخت عن نفسك خناق الروية ،
وأقدمت على رد جوابه بعد النظر وإجالة الفكر فيه . فإن دخل إليك أحدٌ منهم
فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتيك وطوى عنه حاجته قبلك ، دفعته عنك دفعا
جميلا ، ومنعته جوابك منعا وديعا ؛ ثم أمرت حاجبك بإظهار الحقوة له ، والغلظة
عليه ، ومنعه من الوصول إليك ؛ فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ،
صارفاً عنك مؤونتها ، ومسهلاً عليك مستصعبها .

احذر تضييع رأيك وإهمالك أدبك في مسالك الرضا والغضب وأعتوارهما
إياك ، فلا يزدھينك إفراط عجب تستخفك روائعه ، ويستهويك منظره ،
ولا يبدرت منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حل بك ، أو حادث إن طرأ
عليك . وليكن لك من نفسك ظهري ملجأ تحجز به من آفات اللدئى ، وتستعضد
في موهم النازل ، وتتعقب به أمورك في التدبير . فإن أحتجت إلى مادة من عقلك ،
وروية من فكرك ، أو أنيساط من منطقتك ؛ كان أنحيازك إلى ظهرك مزودا مما
أحببت الإمتياح منه والإمتيار ؛ وإن استدبرت من أمورك بوادر جهل أو مضى
زلل أو معاندة حق أو خلل تدبير ، كان ما أحتجت إليه من رأيك عذرا لك عند

(١) في رسائل البلغاء وتستعده في مهم نازل .

(٢) كذا في المفتاح ورسائل البلغاء أيضا ولعله وإن أبدرت الخ . تأمل .

نفسك ، وظهرياً قوياً على رد ما كرهت ، وتخفيفاً لمؤونة الباغين عليك في القالة
وآنتشار الذكرك ؛ وحصنا من غُلوب الآفاتِ عليك ، وأستعلائها على أخلاقك .

وأمنع أهل بطانتك وخاصة خدامك من آستلحام أعراض الناس عندك بالغبية ،
والتقرب إليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ؛ أو التئمة إليك بشيء من
أحوالهم المستترة عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومدّهب
الشفقة : فإنّ ذلك أبلغ بك سُموًا إلى منالة الشرف ، وأعونُك لك على محمود الذكر ،
وأطلق لعنان الفضل في جرّالة الرأي وشرف الهمة وقوة التديير .

وأملك نفسك عن الإنبساط في الضحك والإنفهاق ، وعن القُطوب بإظهار
الغضب وتخلله : فإنّ ذلك ضعف عن ملك سورة الجهل ، ونحروج من آنتخان آسيم
الفضل . وليكن سخحك تبسماً أو كسراً في آحيان ذلك وأوقاته ، وعند كل رافع
مستخف مطرب ؛ وقطوبك إطراقاً في مواضع ذلك وأحواله ، بلا عجلة إلى
السطوة ، ولا إسراع إلى الطيرة ، دون أن يكتفها روية الحلم ؛ وتملك عليها بادرة
الجهل .

إذا كنت في مجلس ملتك ، وحيث حضور العامة مجلسك ، فإياك والرمي بنظرك
إلى خاص من قوادك ، أو ذى أثرة عندك من حشمتك . وليكن نظرك مقسوماً
في الجميع ، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور
فهم مجتمع ، وقلة تضجّر بالحدث . ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك
متوجّها بنظير ركين ، وتفقد محض . وإن وجه إليك أحد منهم نظره محذّقا ،
أو رماك ببصره ملحاً ، فاحفض عنه إطراقاً جميلاً باتداع وسكون . وإياك

والتسرع في الإطراق ، والحفة في تصريف النظر، والإلحاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقاً بنظره .

وَأَعْلَمُ أَنَّ تَصَفُّحَكَ وَجُوهَ جَلَسَاتِكَ وَتَفَقُّدَكَ مَجَالِسَ قُودَاكَ ، مِنْ قُوَّةِ التَّسْدِيرِ ، وَشَهَامَةِ الْقَلْبِ ، وَذَكَاءِ الْفِطْنَةِ ، وَآتِبَاءِ السَّنَةِ . فَتَفَقَّدَ ذَلِكَ عَارِقًا بِنَ حَضْرِكَ وَغَابَ عَنْكَ ، عَالِمًا بِمَوَاضِعِهِمْ مِنْ مَجْلِسِكَ ، ثُمَّ أَعْدَبَهُمْ عَنْ ذَلِكَ سَائِلًا لَهُمْ عَنْ أَشْغَالِهِمُ الَّتِي مَنَعَتْهُمْ مِنْ حَضُورِ مَجْلِسِكَ ، وَعَاقَبْتَهُمْ بِالتَّخْفِ عَنْكَ .

إِنْ كَانَ أَحَدٌ مِنْ حَشَمِكَ وَأَعْوَانِكَ تَبَقُّ مِنْهُ بَغِيْبٍ ضَمِيرٍ ، وَتَعْرِفُ مِنْهُ لِيْنَ طَاعَةَ ، وَتُسْرِفُ مِنْهُ عَلَى صِحَّةِ رَأْيٍ ، وَتَأْمَنُ عَلَى مَشُورَتِكَ ، فَإِيَّاكَ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ فِي كُلِّ حَادِثٍ يَرِدُ عَلَيْكَ ، وَالتَّوَجُّهَ نَحْوَهُ بِنَظْرِكَ عِنْدَ طَوَارِقِ ذَلِكَ ، وَأَنْ تُرِيَهُ أَوْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ مَجْلِسِكَ أَنَّ بَكَ حَاجَةً إِلَيْهِ مُوحِشَةً ، أَوْ أَنَّ لَيْسَ بِكَ عَنْهُ غَيٌّ فِي التَّسْدِيرِ ، أَوْ أَنَّكَ لَا تَقْضِي دُونَهُ رَأْيًا ، إِشْرَاقًا مِنْكَ لَهُ فِي رَوِيَّتِكَ ، وَإِدْخَالًا مِنْكَ لَهُ فِي مَشُورَتِكَ ، وَأَضْطْرَارًا مِنْكَ إِلَى رَأْيِهِ فِي الْأَمْرِ يَمْرُوكَ : فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ دَخَائِلِ الْعُيُوبِ الَّتِي يَنْتَشِرُ بِهَا سُوءُ الْقَالَةِ عَنْ نَظْرَاتِكَ فَانْفِئْهَا عَنْ نَفْسِكَ خَائِفًا لِاعْتِلَاقِهَا ذِكْرَكَ ، وَأَعْجِبْهَا عَنْ رَوِيَّتِكَ قَاطِعًا لِأَطْعَامِ أَوْلِيَائِكَ عَنْ مَثَلِهَا عِنْدَكَ ، أَوْ غُلُوبِهِمْ عَلَيْهَا مِنْكَ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ لِلْمَشُورَةِ مَوْضِعَ الْخَلْوَةِ وَأَنْفِرَادِ النَّظَرِ ، وَلِكُلِّ أَمْرٍ غَايَةٌ تُحِيطُ بِجُدُودِهِ ، وَتَجْمَعُ مَعَالِمَهُ . فَأَبْنِهَا مُحَرِّزًا لَهَا ، وَرُمِّهَا طَالِبًا لِنَيْلِهَا ، وَإِيَّاكَ وَالْقُصُورَ عَنْ غَايَتِهَا أَوْ الْعَجْزَ عَنْ دَرَكِهَا ، أَوْ التَّفْرِيطَ فِي طَلَبِهَا . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

إِيَّاكَ وَالْإِغْرَامَ عَنْ حَدِيثٍ مَا أَعْجَبَكَ ، أَوْ أَمْرٍ مَا أَزْدَهَاكَ بِكَثْرَةِ السُّؤَالِ ، أَوْ الْقَطْعَ لِحَدِيثٍ مَنْ أَرَادَكَ بِحَدِيثِهِ حَتَّى تَقْضِيَهُ عَلَيْهِ بِالْحَوْضِ فِي غَيْرِهِ أَوْ الْمَسْأَلَةَ

عَمَّا لَيْسَ مِنْهُ : فَإِنَّ ذَلِكَ عِنْدَ الْعَامَّةِ مَنْسُوبٌ إِلَى سُوءِ الْفَهْمِ وَقِصْرِ الْأَدَبِ عَنِ تَأْوِيلِ
نَحَاسِنِ الْأُمُورِ وَالْمَعْرِفَةِ بِمَسَاوِيهَا ، وَلَكِنْ أَنْصِتْ لِمُحَدِّثِكَ وَأَرْعِهِ سَمْعَكَ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ
قَدْ فَهِمْتَ حَدِيثَهُ ، وَأَحْطَتْ مَعْرِفَةٌ بِقَوْلِهِ : فَإِنْ أُرِدْتَ إِجَابَتَهُ فَعِن مَعْرِفَةٍ بِحَاجَتِهِ
وَبَعْدَ عِلْمِ بَطْلِيَّتِهِ ، وَإِلَّا كُنْتَ عِنْدَ أَنْقِضَاءِ كَلَامِهِ كَالْمَتَعَجِّبِ ^(١) مِنْ حَدِيثِهِ بِالتَّبَسُّمِ
وَالِإِغْضَاءِ ، فَأَجْزِيْ عِنكَ الْجَوَابَ ، وَقَطْعَ عِنكَ أَلْسُنَ الْعُتْبِ .

إِيَّاكَ وَأَنْ يَظْهَرَ مِنْكَ تَبَرُّمٌ بِطُولِ مَجْلِسِكَ ، أَوْ تَضَجُّرٌ مِنْ حَضْرِكَ ، وَعَلَيْكَ
بِالتَّبَيُّتِ عِنْدَ سَوْرَةِ الْغَضَبِ ، وَحِمِيَّةِ الْأَنْفِ ، وَمَلَالِ الصَّبْرِ فِي الْأَمْرِ تَسْتَعِجِلُ بِهِ
وَالْعَمَلِ تَأْمُرُ بِإِنْفَاذِهِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ سُخْفٌ شَائِنٌ ، وَخِيفَةٌ مُرْدِيَةٌ ، وَجَهَالَةٌ بَادِيَةٌ .
وَعَلَيْكَ بِدُبُوتِ الْمَنْطِقِ ، وَوَقَارِ الْمَجْلِسِ ، وَسُكُونِ الرِّيحِ ، وَالرَّفْضِ لِحَشْوِ الْكَلَامِ ،
وَالْتَّرْكِ لِفَضُولِهِ . ^(٢) وَالِإِغْرَامَ بِالزِّيَادَاتِ فِي مَنْطِقِكَ وَالتَّرِيدِ لِلْفُظُكِ : مِنْ نَحْوِ أَسْمِعْ ،
وَأَفْهَمْ عَنِّي ، وَيَاهَنَاهُ ، وَالْأَتْرَى ، أَوْ مَا يُهَاجِرُ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْفَضُولِ الْمُقْصَرَةِ بِأَهْلِ
الْعَقْلِ ، الشَّائِنَةَ لِدَوَى الْجِحَا فِي الْمَنْطِقِ ، الْمَنْسُوبَةَ إِلَيْهِمْ بِالْعِيِّ ، الْمُرِيَّةَ لَهُمْ بِالذِّكْرِ .
وَخِصَالٌ مِنْ مَعَايِبِ الْمُلُوكِ وَالسُّوْقَةِ عَنْهَا غِيَّةُ النَّظَرِ إِلَّا مَنْ عَرَفَهَا مِنْ أَهْلِ
الْأَدَبِ ، وَقَلَمًا حَامِلًا لَهَا ، مَضْطَلَعًا بِهَا ، صَابِرًا عَلَى ثِقَلِهَا ، آخِذًا لِنَفْسِهِ بِجِوَامِعِهَا .
فَانْفِهَا عَنِ نَفْسِكَ بِالتَّحْفُظِ مِنْهَا ، وَأَمَلِكْ عَلَيْهَا أَعْتِيَادَكَ إِيَّاهَا مَعْنِيَا بِهَا : مِنْهَا كَثْرَةُ
التَّنَحُّمِ ، وَالتَّبَصُّقِ ، وَالتَّنَخُّعِ ، وَالتُّؤَبَاءِ ، وَالتَّمَطِّيِّ ، وَالجُشَاءِ ، وَتَحْرِيكِ الْقَدَمِ ،
وَتَقْيِضِ الْأَصَابِعِ ، وَالعَبْثِ بِالْوَجْهِ وَالتَّلْحِيَةِ أَوْ الشَّارِبِ أَوْ المِنْخَصْرَةِ أَوْ ذُوَابَةِ السَّيْفِ ،
أَوْ الإِيْمَاضِ بِالنَّظَرِ ، أَوْ الإِشَارَةِ بِالطَّرْفِ إِلَى بَعْضِ خَدَمِكَ بِأَمْرٍ إِنْ أُرِدْتَهُ ، أَوْ السَّرَارِ
فِي مَجْلِسِكَ ، أَوْ الإِسْتِعْجَالِ فِي طَعْمِكَ أَوْ شُرْبِكَ . وَلِيَكُنْ طَعْمُكَ مَتَدَعَا ، وَشُرْبُكَ

(١) فِي الْمَفْتَاحِ وَغَيْرِهِ كَالْمَتَلَلِ وَهِيَ وَاضِحَةٌ .

(٢) مَرَادُهُ وَالتَّرْكَ لِلْإِغْرَامِ أَيْ الْوَلُوعَ بِالزِّيَادَاتِ الْخِ فَهُوَ مِنَ الْمُنْهَى عَنْهُ بِدَلِيلِ بَقِيَّةِ الْكَلَامِ فَتَبَهُ .

أنفاسا ، وجرعك مصا . وإياك والتسرع إلى الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور ،
والشئمة بقول يا ابن الهنأة ، أو الغمزة لأحد من خاصتك بتسويغهم مقارفة
الفسوق بحيث محضرك أو دأرك وفناؤك : فإن ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوء
موقع القول فيه ، وتحمل عليك معاييه ، وينالك شينه ، وينتشر عليك سوء النبا به .
فأعرف ذلك متوقيا له ، وأحذره مجانباً لسوء عاقبته .

استكثر من فوائد الخير : فإنها تنشر المحمدة ، وتقبل العثرة ، وأصبر على كظم
الغيظ : فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة ، وتعهد العامة بمعرفة دخالهم ، وتبطن
أحوالهم ، واستتارة دقاتهم ؛ حتى تكون منها على رأى عين ، ويقين خبرة ؛ فتعش
عديهم ، وتجبر كسيهم ؛ وتقيم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح فاسدهم : فإن
ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ، ويقدمك في الفضل ؛ ويبقى لك لسان الصدق
في العاقبة ، ويجرز لك ثواب الآخرة ، ويرد عليك عواطفهم المستفجرة منك ، وقلوبهم
المتنجحة عنك .

قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحج والرأى ، والعقل والتدبير ،
والصيت في العامة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ،
والخمول عند مباهاة النسب ؛ وأنظر بصحبة أيهم تتألم من مودته الجميل ، وتستجمع
لك أفاويل العامة على التفضيل ؛ وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المنصرف بك .
فاعتمد عليهم مديلا لهم في أمرك ، وآثرهم يجالستك لهم مستمعا منهم ؛ وإياك
وتضييعهم مفترطا ، وإهمالهم مضيعا .

هذه جوامع خصال قد تلخصها لك أمير المؤمنين مفسرا ، وجمع لك شواذها
مولفا ، وأهداها إليك مرشدا ؛ فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وثبت

في مجامعها؛ وخذُ بوثائقِ عَراها تَسَلِّمَ من مَعاطبِ الرَدَى ، وتَسَلِّ أَنْفَسَ الحُطُوطِ
وَرِغِيبَ الشَّرَفِ ؛ وأعلى دَرَجِ الذِّكْرِ ، وتَأْتِلُ سَطْرَ العِزِّ (؟) والله يَسْأَلُ لكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
حُسْنَ الإِرْشَادِ ، وتَتَأَبَّجُ المَزِيدَ وِبلوَعِ الأَمْلِ ، وأن يَجْعَلَ عاقِبَةَ ذَلكَ بِكَ إلى غِبطَةِ
يُسْوَعِكَ إِيَّاهَا ، وعافِيَةٍ يُحِلُّكَ أَكْفافِها ، ونِعْمَةٌ يُلْهِمُكَ شُكْرَها : فإنه المَوْفِقُ للخَيْرِ ،
والمَعِينُ على الإِرْشَادِ ؛ مِنْهُ تَمَامُ الصَّالِحَاتِ ، وهو مُؤْتَى الحَسَنَاتِ ، عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ
الخَيْرِ ، وَبِيَدِهِ المُلْكُ وهو على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

فإذا أَفْضَيْتَ نَحْوَ عُدُوكَ ، وَأَعْتَرَمْتَ على لِقَائِهِمْ ، وَأَخَذْتَ أَهْبَةَ قِتالِهِمْ ، فَاجْعَلْ
دِعَامَتَكَ التي تَلْجَأُ إِلَيْها ، وَثِقَتَكَ التي تَأْمَلُ النِجاةَ بِها ، وَرُكْنَكَ الذي تَرْتَجِي مَنالَةَ
الظَّفَرِ بِهِ ، وَتُكْتَمِفُ بِهِ لِمَعالِقِ الحِذْرِ تقوى اللهُ مُستشعراً لها بِمراقبته ، وَالإِعْتِصامِ
بِطاعته مُتبعاً لأمره ، مَجْتَنِباً لُسُخْطَهُ ، مُحْتَذِياً سُنَّتَهُ ، وَالتَّوَقِّيَ لِمَعاصِيهِ في تَعطِيلِ
حُدُودِهِ ، أَوْ تَعَدِّيَ شِرائِعِهِ ؛ مُتَوَكِّلاً عَلَيْهِ فيما صَمَدَتَ لَهُ ، وَاثِقاً بِنِصرِهِ فيما تَوَجَّهَتْ
نَحْوَهُ ، مُتَبَرِّئاً مِنَ الحَوْلِ وَالقُوَّةِ فيما نَالَكَ مِنَ ظَفَرِ ، وَتَلَقَّأَكَ مِنْ عِزِّ ؛ رَاغِباً فيما أَهَابَ^(١)
بِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ مِنْ فَضْلِ الجِهادِ وَرِعى بِكَ إِلَيْهِ ، مَحْمُودَ الصَّبْرِ فيهِ عِنْدَ اللهِ مِنْ
قِتالِ عَدُوِّ المُسالمِينَ ، أَكْلَبَهُمْ عَلَيْهِ وَأَظْهَرَ عِداوَةَ لَهُمْ ، وَأَفْذَحَهُ ثِقْلاً لِعامَّتِهِمْ ، وَأَخَذَهُ
بِرِيقِهِمْ ، وَأَعْلَاهُ عَلَيْهِمْ بِغِيَا ، وَأَظْهَرَ عَلَيْهِمْ فِسْقا وَجُحُورا ، وَأَشَدَّهُ على فَيْئِهِمُ الذي
أَصارَهُ اللهُ لَهُمْ وَفَتَحَهُ عَلَيْهِمْ مَثُونَةً وَكَلًّا . وَاللهِ المُسْتَعانُ عَلَيْهِمْ ، وَالْمُسْتَنْصِرُ على
جِماعَتِهِمْ ، عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِيَّاهُ يَسْتَصْرِخُ عَلَيْهِمْ ، وَإِلَيْهِ يَفِضُضُ أَمْرَهُ
وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَنَاصِراً وَمُعِيناً ، وَهُوَ القَوِيُّ العَزِيزُ .

(١) هو من قولهم أهاب بالابل إذا دعاها فتنه .

ثم خذ من معك من تَبَاعِكَ وَجُنْدِكَ بِكَفِّ مَعَرَّتِهِمْ ، وَرَدِّ مَشْتَعِلِ جِهْلِهِمْ ،
وَإِحْكَامِ ضِيَاعِ عَمَلِهِمْ ، وَضَمِّ مَنْتَشِرِ قَوَاصِيهِمْ ، وَلَمْ شَعَتْ أَطْرَافِهِمْ ، وَتَقْيِيدِهِمْ عَمَّنْ
مَرَّوَا بِهِ مِنْ أَهْلِ ذِمَّتِكَ وَمَلْتِكَ بِحُسْنِ السَّيْرَةِ ، وَعَفَافِ الطَّعْمَةِ ، وَدَعَةِ الْوَقَارِ ، وَهَدَى
الدَّعَةِ ، وَجَمَامِ الْمُسْتَحْجَمِ ، مُحْكَمَا ذَلِكَ مِنْهُمْ ، مُتَّفَقِدًا لَهُمْ تَفْقُدَكَ إِيَّاهُ مِنْ نَفْسِكَ .
ثم أَعْضِدْ لِعُدُوكَ الْمُنْتَسَمِي بِالْإِسْلَامِ ، الْخَارِجِ مِنْ جَمَاعَةِ أَهْلِهِ ، الْمُنْتَحِلِ لِوَالِيَةِ الدِّينِ
مُسْتَحْتَلًا لِدِمَائِهِمْ ، طَاعِنًا عَلَيْهِمْ ، رَاغِبًا عَنْ سُنَّتِهِمْ ، مَفَارِقًا لِشَرَائِعِهِمْ ؛ يَبْغِيهِمْ
الغَوَائِلُ ، وَيُنِصِبُ لَهُمُ الْمَكَائِدَ ؛ أَضْرَمُ حَقْدًا عَلَيْهِمْ ، وَأَرْصُدُ عِدَاوَةً لَهُمْ ، وَأَطْلُبُ
لِنِعْرَاتِ فُرْصِهِمْ مِنَ التُّرْكِ ، وَأُمِّ الشَّرْكِ ، وَطَوَاعِي الْمَلْلِ ؛ يَدْعُو إِلَى الْمَعْصِيَةِ وَالْفُرْقَةِ ،
وَالْمُرُوقِ مِنَ دِينِ اللَّهِ إِلَى الْفِتْنَةِ ، مُخْتَرَعًا بَهْوَاهُ لِلْأَدْيَانِ الْمُنْتَحَلَةِ وَالسِّدَعِ الْمُنْتَفِرَةِ
خَسَارًا وَتَخْسِيرًا ، وَضَلَالًا وَتَضَلِيلًا ، بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ وَلَا بَيَانٍ . سَاءَ مَا كَسَبَتْ
لَهُ يَدَاہُ [وَمَا اللَّهُ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ] ^(١) وَسَاءَ مَا سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةَ بِالسُّوءِ ، وَاللَّهُ مِنْ
وَرَائِهِ بِالْمِرْصَادِ : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصَّنْ جُنْدَكَ ، وَأَشْكَمْ نَفْسَكَ بِطَاعَةِ اللَّهِ فِي مَجَاهِدَةِ أَعْدَائِهِ ، وَأَرْجُ نَصْرَهُ ، وَنَجِّزْ
مَوْعُودَهُ ، مُتَقَدِّمًا فِي طَلَبِ ثَوَابِهِ عَلَى جِهَادِهِمْ ، مُعْتَرِّمًا فِي آبْتِغَاءِ الْوَسِيلَةِ إِلَيْهِ عَلَى
لِقَائِهِمْ : فَإِنَّ طَاعَتَكَ إِيَّاهُ فِيهِمْ ، وَمِرَاقِبَتَكَ لَهُ وَرَجَاءَكَ نَصْرَهُ مُسَهِّلٌ لَكَ وَعُورَةٌ ،
وِعَاصِمٌ مِنْ كُلِّ سُبَّةٍ ، وَمُنْجِيكَ مِنْ كُلِّ هُوَةٍ ، وَنَاعِشُكَ مِنْ كُلِّ صَرَعَةٍ ، وَمُقِيلُكَ
مِنْ كُلِّ كَبُورَةٍ ، وَدَارِيٌّ عَنْكَ كُلِّ شُبْهَةٍ ، وَمُذْهِبٌ عَنْكَ لَطْخَةَ كُلِّ شَكٍّ ، وَمُقَوِّبُكَ
بِكُلِّ أَيْدٍ وَمِكِيدَةٍ ، وَمُعَزِّكَ فِي كُلِّ مَعْتَرِكٍ قِتَالٍ ، وَمُؤَيِّدُكَ فِي كُلِّ مَجْمَعٍ لِقَاءٍ ، وَكَالِئِكَ

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٣ .

عند كل فتنة مغشيه ، وحائطك من كل شبهة مُرديه ، والله وليك وولى أمير المؤمنين
فيك ، والمستخلف على جُندك ومن معك .

اعلم أن الظفر ظفران : أحدهما وهو أعم منفعةً ، وأبلغ في حُسن الذكر قالةً ،
وأحوطه سلامة ، وأتمه عافيةً ، وأحسنه في الأمور وأعلاه في الفضل شرفاً ،
وأصحّه في الروية حرماً ، وأسلمه عند العامة مصدراً - مانيل بسلامة الجنود ،
وحُسن الجيلة ، ولطف المكيّدة [ويمن النقيبة ^(٢)] وأستزال طاعة ذوى الصدوف
بغير إخطار الجيوش في وقدة بجمرة الحرب ، ومبارزة الفرسان في معترك الموت ،
وإن ساعدتك طلوق الظفر ، ونالك مزيد السعادة في الشرف ، ففي مخاطرة التلّف
مكروه المصائب ، وعصاض السيوف وألم الجراح ، وقصاص الحروب وسببها
بمغاورة أبطالها . على أنك لا تدرى لأمى يكون الظفر في البديهة ، ومن المغلوب
بالدولة ، ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص . فحاول إصابة أبلغهما في سلامة
جُندك ورعيّتك ، وأشهرهما صيناً في بدو تدبيرك ورأيك ، وأجمعهما لألفة وليك
وعدوك ، وأعوّنهما على صلاح رعيّتك وأهل ملّتك ، وأقواهما شكيمة في خزّمك ،
وأبعدهما من وضم عزّمك ، وأعلّقهما بزمام النجاة في آخرتك ، وأجزّلها ثواباً
عند ربك .

وأبدأ بالإعذار إلى عدوك ، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة ، وأمر الجماعة ، وعزّ
الألفة ؛ أخذاً بالجمّة عليهم ، متقدّماً بالإنذار لهم ، باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم ،
داعياً [لهم إليه ^(٢)] بالين لفظك والطف حيلك ، متعظفاً برأفتك عليهم ، مترقفاً بهم

(١) أى مدلهمة سوداء من قولهم أغشى الليل إذا أظلم . تأمل .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٤ وغيره .

في دُعائك ، مُشْفِقًا عليهم من غَلَبَةِ الْغَوَايَةِ لَهُمْ ، وَإِحَاطَةً الْهَلَكَةِ بِهِمْ ، مُنْقِذًا رُسُلَكَ إِلَيْهِمْ بَعْدَ الْإِنْذَارِ ، تَعُدُّهُمْ إِعْطَاءَ كُلِّ رَغْبَةٍ يَهْشُ إِلَيْهَا طَمَعُهُمْ فِي مَوَاقِفِ الْحَقِّ ، وَبَسْطَ كُلِّ أَمَانٍ سَأَلُوهُ لِأَنْفُسِهِمْ وَمَنْ مَعَهُمْ وَمَنْ تَبِعَهُمْ ؛ مُوَثَّقًا نَفْسَكَ فِيمَا تَبَسَّطَ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْوَفَاءِ بِعَهْدِكَ ، وَالصَّبْرِ عَلَى مَا أُعْطِيَتْهُمْ مِنْ وَثَاقٍ عَقْدِكَ ؛ قَابِلًا تَوْبَةَ نَازِعِهِمْ عَنِ الضَّلَالَةِ ، وَمُرَاجَعَةَ مُسِيئِهِمْ إِلَى الطَّاعَةِ ؛ مُرْصِدًا لِلتُّحَازِ إِلَى فِتْنَةِ الْمَسَامِينِ وَجَمَاعَتِهِمْ إِبْجَابَةً إِلَى مَادِعُوْتِهِ إِلَيْهِ وَبَصْرَتَهُ إِيَّاهُ مِنْ حَقِّكَ وَطَاعَتِكَ ، بِفَضْلِ الْمُرْتَلَةِ ؛ وَإِكْرَامِ الْمَثْوَى ، وَتَشْرِيفِ الْجَاهِ . وَلِيُظْهَرَ مِنْ أَرْكَ عَلَىهِ ، وَإِحْسَانِكَ [إِلَيْهِ] مَا يَرِغَبُ فِي مِثْلِهِ الصَّادِقُ عَنْكَ ، الْمُصْرُّ عَلَى خِلَافِكَ وَمَعْصِيَتِكَ ؛ وَيَدْعُو إِلَى أَعْتِلَاقِ حَبْلِ النِّجَاتِ وَمَا هُوَ أَمْلَكُ بِهِ فِي الْإِعْتِصَامِ عَاجِلًا ، وَأُنْجِي لَهُ مِنَ الْعِقَابِ عَاجِلًا ، وَأُحِيطُ بِهِ عَلَى دِينِهِ وَمُهْجَتِهِ بَدَأَ وَعَاقِبَةَ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَدْعِي بِهِ مِنْ اللَّهِ نَصْرَهُ عَلَيْهِمْ ، وَيَعْتَضِدُّ بِهِ فِي تَقْدِيمِهِ الْحُجَّةَ إِلَيْهِمْ ، مُعْذِرًا أَوْ مُنْذِرًا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

ثم أذكَ عِيُونَكَ عَلَى عَدُوِّكَ مُتَطَلِّعًا لِعِلْمِ أَحْوَالِهِمُ الَّتِي يَتَقَلَّبُونَ فِيهَا ، وَمَنَازِلِهِمُ الَّتِي هُمْ بِهَا ، وَمَطَامِعِهِمُ الَّتِي قَدِمَتْهُوا أَعْنَاقَهُمْ نَحْوَهَا ؛ وَأَيُّ الْأُمُورِ أَدْعَى لَهُمْ إِلَى الصَّلْحِ ، وَأَقْوَدُهَا لِرِضَاهُمْ إِلَى الْعَافِيَةِ ، وَأَسْهَلُهَا لِاسْتِزَالِ طَاعَتِهِمْ ، وَمِنْ أَيِّ الْوُجُوهِ مَأْتَاهُمْ : أَمِنْ قَبْلِ الشَّدَةِ وَالْمُنَافَرَةِ وَالْمَكِيدَةِ وَالْمُبَاعَدَةِ وَالْإِرْهَابِ وَالْإِيْعَادِ ، أَوْ التَّرْغِيبِ وَالْإِطَاعِ ، مُتَبَيَّنًا فِي أَمْرِكَ ، مُتَخَيَّرًا فِي رُؤْيَيْكَ ، مُسْتَمَكًّا مِنْ رَأْيِكَ ، مُسْتَشِيرًا لَدَوِي النَّصِيحَةِ الَّذِينَ قَدِ حَنَّكَتْهُمْ السَّنُّ ، وَخَبَطَتْهُمْ التَّجْرِبَةُ ، وَنَجَّدَتْهُمْ الْحُرُوبُ ؛ مُتَشَرِّفًا (١) فِي حَرْبِكَ ، آخِذًا بِالْحَزْمِ فِي سُوءِ الظَّنِّ ، مُعِدًّا لِلْحَدَرِ ، مُحْتَرِسًا مِنَ الْغِرَّةِ ؛ كَأَنَّكَ فِي مَسِيرِكَ كُلَّهُ وَنُزُولِكَ أَجْمَعَ مُوَاقِفٌ لِعَدُوِّكَ رَأَى عَيْنٍ تَنْتَظِرُ حَمَلَاتِهِمْ ، وَتَخُوفٌ

(١) هُوَ مِنْ قَوْلِهِمْ تَشَرَّفْنَا لِلْمَرْتَابِ .

كِرَاتِهِمْ ، مُعِدًا أَقْوَى مَكَائِدِكَ ، وَأَرْهَبَ عَتَادِكَ ، وَأُنْكَأَ جُنْدَكَ ، وَأَجَدَّ تَشْمِيرِكَ ؛ مَعْظَمًا
 أَمْرَ عَدُوِّكَ لِأَعْظَمِّ مِمَّا بَلَغَكَ ، حَدْرًا يَكَادُ يُفْرِطُ : لِنَعْدَلِهِ مِنَ الْإِحْتِرَاسِ عَظِيمًا ، وَمِنْ
 الْمَكِيدَةِ قَوِيًّا ؛ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَفْتَأَكَ ذَلِكَ عَنْ إِحْكَامِ أُمُورِكَ ، وَتَدْبِيرِ رَأْيِكَ ، وَإِصْدَارِ
 رَوِيَّتِكَ ، وَالتَّأَهُبِ لِمَا يَحْزُبُكَ ؛ مَصْغَرًا لَهُ بَعْدَ اسْتِشْعَارِ الْحِذْرِ ، وَأَضْطِرَّارِ الْحَزْمِ ،
 وَإِعْمَالِ الرُّوِيَّةِ ، وَإِعْدَادِ الْأَهْبَةِ : فَإِنَّ أَلْفَيْتَ عَدُوِّكَ كَلِيلَ الْحَدِّ ، وَقَمَّ الْحَزْمِ ،
 نَضِيضُ الْوَفْرِ ، لَمْ يَضْرُكْ مَا أَعْتَدَدْتَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ ، وَأَخَذْتَ لَهُ مِنْ حَزْمٍ ؛ وَلَمْ يَزِدْكَ
 ذَلِكَ إِلَّا جُرْأَةً عَلَيْهِ ، وَتَسْرَعًا إِلَى لِقَائِهِ . وَإِنْ أَلْفَيْتَهُ مَتَوَقَّدَ الْحَرْبِ ، مُسْتَكْنِيفُ
 الْجَمْعِ ، قَوِيٌّ التَّبَعِ ، مُسْتَعْلَى سُورَةِ الْجَهْلِ ؛ مَعَهُ مِنْ أَعْوَانِ الْفِتْنَةِ وَتَبَعِ الْإِبْلِيسِ مِنْ
 يُوقِدُ لَهَبَ الْفِتْنَةِ مَسْعَرًا ، وَيَتَقَدَّمُ إِلَى لِقَاءِ أَبْطَالِهَا مَتَسْرَعًا ، كُنْتَ لِأَخْذِكَ بِالْحَزْمِ ،
 وَأَسْتِعْدَادِكَ بِالْقُوَّةِ ؛ غَيْرِ مُهْمِينَ الْجُنْدِ ، وَلَا مُفْرَطٍ فِي الرَّأْيِ ، وَلَا مُتْلَهِّفٍ عَلَى إِضَاعَةِ
 تَدْبِيرِهِ ، وَلَا مُحْتَاجٍ إِلَى الْإِعْدَادِ وَعَجَلَةِ التَّأَهُبِ مَبَادِرَةً تَدَهَّشُكَ ، وَخَوْفًا يُقْلِقُكَ .
 وَمَتَى تَفَتَّرَ بِتَرْبِيقِ الْمُرَقَّقِينَ ، وَبِأَخْذِ الْبُهْمُونِيِّ فِي أَمْرِ عَدُوِّكَ لِتَصْغِيرِ الْمَصْغَرِّينَ ، يَنْتَشِرُ
 عَلَيْكَ رَأْيُكَ ، وَيَكُونُ فِيهِ أَنْتِقَاضُ أَمْرِكَ وَوَهْنُ تَدْبِيرِكَ ، وَإِهْمَالُ الْحَزْمِ فِي جُنْدِكَ ،
 وَتَضْيِيعٌ لَهُ وَهُوَ مُمَكِّنُ الْإِصْحَارِ ، رَحْبُ الْمَطْلَبِ ، قَوِيٌّ الْعِصْمَةِ ، فَسِيحُ الْمَضْطَرَبِ ؛
 مَعَ مَا يَدْخُلُ رَعِيَّتِكَ مِنَ الْإِغْتِرَارِ وَالْعَفْلَةِ عَنْ إِحْكَامِ أَحْرَاسِهِمْ ، وَضَبْطِ مَرَاكِرِهِمْ ؛
 لِمَا يَرُونَ فِيهِ مِنْ أَسْتِنَامَتِكَ إِلَى الْعِزَّةِ ، وَرُكُونِكَ إِلَى الْأَمْنِ ، وَتَهَاوُنِكَ بِالتَّدْبِيرِ ؛ فَيَعُودُ
 ذَلِكَ عَلَيْكَ فِي أَنْتِشَارِ الْأَطْرَافِ ، وَضِيَاعِ الْأَحْكَامِ ، وَدُخُولِ الْوَهْنِ بِمَا لَا يُسْتَقَالُ
 مَحْذُورِهِ ، وَلَا يُدْفَعُ مَخُوفُهُ .

(١) بالفاء والثاء المثلثة أى يكسرک و يؤخرك عن الخ .

(٢) أى قليل الوفرة والمال من قولهم رجل فضيض اللحم قليله .

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من أخبار عدوك . وإياك ومعاقبة
أحد منهم على خبر إن أتاك به آتئمتة فيه أو سؤت به ظناً وأتاك غيره بخلافه ،
أو أن تكذبه فيه فترده عليه ولعله أن يكون قد محصك النصيحة وصدقك الخبر ،
وكذبك الأول ، أو خرج جاسوسك الأول متقدماً قبل وصول هذا من عند عدوك ،
وقد أبرموا لك أمراً ، وحاولوا لك مكيده ، وأرادوا منك غيرة ، فأزدلفوا إليك
في الأهبة ثم انتقض بهم رأيهم ، واختلف عنه جماعتهم ؛ فأرادوا رأياً ، وأحدثوا
مكيده ، وأظهروا قوة ، وضربوا موعداً ، وأموا مسلكاً لمدد أتاها ، أو قوة حدثت
لهم ، أو بصيرة في ضلالة شغلتم ؛ فالأحوال بهم متنقلة في الساعات ، وطوارق
الحدائث . ولكن ألبسهم جميعاً على الإلتصاح ، وأرضخ لهم بالمطامع ، فإنك لن
تستعدهم بمنها . وعدهم جزالة المناوب ، في غير ما استنامة منك إلى ترفيقهم أمر
عدوك ، والأغترار إلى ما يأتونك به دون أن تعمل رويتك في الأخذ بالحزم ،
والإستكار من العدة . وأجعلهم أوثق من تقدر عليه ، وآمن من تسكن إلى ناحيته :
ليكون ما يبرم عدوك في كل يوم وليلة عندك إن أستطعت ذلك ، فتقض عليهم
برأيك وتدبيرك ما أبرموا ، وتأتيهم من حيث آمنوا ، وتأخذ لهم أهبة ماعليه أقدموا ،
وتستعد لهم بمثل ما حذروا .

وَأَعْلَمُ أَنَّ جَوَاسِيسَكَ وَعُيُونَكَ رُبَّمَا صَدَقُواكَ ، وَرُبَّمَا غَشَوْكَ ، وَرُبَّمَا كَانُوا لَكَ
وَعَلَيْكَ فَنَصَحُوا لَكَ وَغَشَوْا عَدُوَّكَ وَغَشَوْكَ وَنَصَحُوا عَدُوَّكَ ، وَكَثِيرًا مَا يَصْدُقُونَكَ
وَيَصْدُقُونَهُ . فَلَا تَبْدُرَنَّ مِنْكَ فَرَطَةٌ عَقُوبَةٌ إِلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ، وَلَا تَعْجَلْ بِسُوءِ الظَّنِّ
إِلَى مَنْ آتَمَّتَهُ عَلَى ذَلِكَ ؛ وَأَسْتَنْزِلْ نَصَائِحَهُمْ بِالْمِيَاحَةِ وَالْمَنَالَةِ ، وَأَبْسُطْ مِنْ آمَالِهِمْ
فِيكَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنَّكَ أَخَذْتَ مِنْ قَوْلِهِ أَخَذَ الْعَامِلُ بِهِ وَالْمَتَّبِعُ لَهُ ،
أَوْ عَمِلْتَ عَلَى رَأْيِهِ عَمَلَ الصَّادِرِ عَنْهُ ، أَوْ رَدَدْتَهُ عَلَيْهِ رَدَّ الْمَكْذُوبِ بِهِ ، الْمَتَّبِعُ لَهُ ،

المستخف بما أتاك منه، فتفسد بذلك نصيحته، وتستدعي غشه، وتجتر عداوته .
 وأحذر أن يعرفوا في عسكرك أو يُشار إليهم بالأصابع، وليكن منزهم على كاتب رسائك
 وأمين سرك، ويكون هو الوجه لهم، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم .

وَأَعْلَمُ أَنْ لَعْدُوكَ فِي عَسْكَرِكَ عِيُونًا رَاصِدَةً، وَجَوَاسِيسَ مَتَجَسِّسَةً، وَأَنَّهُ لَنْ يَقَعَ
 رَأْيُهُ عَنِ مَكِيدَتِكَ بِمَثَلِ مَا تَكِيدُهُ بِهِ، وَسِيحْتَالُ لَكَ كَأَحْتِيَالِكَ لَهُ، وَيُعَدُّ لَكَ
 كَأَعْدَادِكَ فِيمَا تُزَاوِلُهُ مِنْهُ، وَيُحَاوِلُكَ كِمَحَاوِلَتِكَ إِيَّاهُ فِيمَا تُفَارِعُهُ عَنْهُ؛ فَاحْذَرُ أَنْ يُشَهِّرَ
 رَجُلًا مِنْ جَوَاسِيسِكَ فِي عَسْكَرِكَ فَيَبْلُغُ ذَلِكَ عَدُوَّكَ وَيَعْرِفُ مَوْضِعَهُ، فَيُعِدُّ لَهُ
 الْمَرَّاصِدَ، وَيَحْتَالُ لَهُ بِالْمَكَايِدِ . فَإِنْ ظَفِرَ بِهِ فَأَظْهَرَ عَقُوبَتَهُ، كَسَرَ ذَلِكَ تِقَاتِ عِيُونِكَ،
 وَخَدَلَهُمْ عَنِ تَطَلُّبِ الْأَخْبَارِ مِنْ مَعَادِنِهَا، وَأَسْتَقْصَاهُمَا مِنْ عِيُونِهَا، وَأَسْتَعْدَابِ
 أَجْتِنَانِهَا مِنْ بِنَايِعِهَا، حَتَّى يَصِيرُوا إِلَى أَخْذِهَا مِمَّا عَرَضَ مِنْ غَيْرِ الثَّقَةِ وَلَا الْمَعَايِنَةِ،
 لَقَطًا لَهَا بِالْأَخْبَارِ الْكَاذِبَةِ، وَالْأَحَادِيثِ الْمُرْجَفَةِ . وَأَحْذَرُ أَنْ يَعْرِفَ بَعْضُ عِيُونِكَ
 بَعْضًا: فَإِنَّكَ لَا تَأْمَنُ تَوَاطُؤَهُمْ عَلَيْكَ، وَمُمَالَاتِهِمْ عَدُوَّكَ، وَأَجْتِمَاعَهُمْ عَلَى غِشِّكَ،
 وَتَطَابُقِهِمْ عَلَى كَذْبِكَ، وَإِصْفَاقِهِمْ عَلَى خِيَانَتِكَ^(٣)، وَأَنْ يُورِطَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عِنْدَ
 عَدُوِّكَ . فَأَحْكِمِ أَمْرَهُمْ فَإِنَّهُمْ رَأْسُ مَكِيدَتِكَ، وَقِوَامُ تَدْيِيرِكَ؛ وَعَلَيْهِمْ مَدَارُ حَرْبِكَ،
 وَهُوَ أَوَّلُ ظَفَرِكَ . فَاعْمَلْ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ وَحَيْثُ رَجَاؤُكَ بِهِ، تَتَلَّ أَمْلَكَ مِنْ
 عَدُوِّكَ، وَقُوَّتَكَ عَلَى قِتَالِهِ، وَأَحْتِيَالِكَ لِإِصَابَةِ غِرَّاتِهِ وَأَتَهَازِ قُرْصِهِ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

فإذا أحكمت ذلك وتقدمت في إتقانه، وأستظهرت بالله وعونه، فول شرتك
 وأمر عسكرك أوتق قوادك عندك، وأظهرهم نصيحة لك، وأنفد بهم بصيرة

(١) في "مفتاح الأفكار" وغيره « كامة » .

(٢) كذا في الأصول . وفي "رسائل البلغاء" « وأن رأيه في مكيدتك مثل ماتكايده به » . تأمل .

(٣) أي اجتمعهم من قولهم اصفقوا على الأمر اجتمعوا عليه .

في طاعتك ، وأقواهم شكيمةً في أمرك ، وأمضاهم صريمةً ^(١) ، وأصدقهم عفاً ، وأجزأهم غناءً ، وأكفاهم أمانةً ، وأصحهم ضميراً ، وأرضاهم في العامة ديناً ، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقاً ، وأعطفهم على كآبتهم رأفةً ، وأحسنهم لهم نظراً ، وأشدهم في دين الله وحقه صلابةً . ثم فوض إليه مقوراً له ، وأبسط من أماله مُظهِراً عنه الرضا ، حامداً منه الأبتلاء . وليكن عالماً بمرآة الجُنود ، بصيراً بتقدم المنازل ، مجرباً ، ذا رأى وتجربةٍ وحزمٍ في المكيده ، له نباهةٌ في الذكر ، وصيتٌ في الولاية ، معروف البيت ، مشهور الحسب . وتقدم إليه في ضبط معسكره ، وإذكاء أحراسه في آناء ليله ونهاره ، ثم حذره أن يكون منه إذنٌ لجنوده في الإلتشار والأضطراب ، والتقدم لطلائعك ، فتصاب لهم غزوةٌ يجترئ بها عدوك عليك ، ويسرع إقداً إليك ، ويكسر من إباد جُندك ويوهن من قوتهم : فإن الصوت في إصابة عدوك الرجل الواحد من جُندك أو عبيدهم مُطعمٌ لهم فيك ، مُقوٌ لهم على شُحذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك ، وتوهينهم تدبيرك . فحذره ذلك وتقدم إليه فيه . ولا يكون منه إفراطٌ في التضييق عليهم ، والخصر لهم ، فيعمهم أنزله ، ويشملهم صنكته ؛ وتساء عليهم حاله ، وتشتد به المئونة عليهم ، وتخبث له طُنونهم . وليكن موضعُ إنزاله إياهم ضاماً لجماعتهم ، مستديراً بهم جامعاً لهم ، ولا يكون منبسطاً منتشراً متبدداً ، فيشق ذلك على أصحاب الأحراس ، وتكون فيه النهزة للعدو ، والبعد من المادّة إن طرّق طارق في بقات الليل وبغائاته . وأوعز إليه في أحراسه ، وتقدم إليه فيهم كأشدّ التقدّم وأبلغ الإيعاز . ومُرّه فليولّ عليهم رجلاً ركيناً مجرباً جرىء الإقدام ، ذاكى الصرامة ،

(١) الصريمة العزيمة .

(٢) في مفتاح الأفكار وغيره « أفنذة » وفي بعض الأصول من إباده بالباء الموحدة وهاء التانيث

وفي اللسان في مادة أي دلياذ «العسكر الميمنة والميسرة وكل ماتحزبه فهو اباد » . تأمل .

جَدَّ الجَوَارِحَ ، بصيراً بمَوَاضِعِ أَحْرَاسِهِ ، غيرَ مُصَانِعٍ ، ولا مُشَفِّعٍ للنَّاسِ في التَّنَجُّحِ إلى الرَّفَاهِيَةِ والسَّعَةِ ، وتَقَدُّمِ العِسْكَرِ والتَّأخُّرِ عِنْدَهُ ، فإنَّ ذَلِكَ مِمَّا يُضْعِفُ الوَالِيَّ وَيُوهِنُهُ لاسْتِنَامَتِهِ إلى مَنْ وِلاَهُ ذَلِكَ وَأَمَنَهُ بِهِ عَلَيَّ جَيْشِهِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَوَاضِعَ الأَحْرَاسِ مِنْ مُعَسِّكَكَ ، وَمَكَانَهَا مِنْ جُنْدِكَ ، بِحَيْثُ الغِنَاءُ عَنْهُمْ وَالرَّدُّ عَلَيْهِمْ ، وَالْحَفِظُ لَهُمْ ، وَالكَلاَةُ لِمَنْ بَغْتَهُمْ طَارِقًا ، أَوْ أَرَادَهُمْ خَاتِلًا ؛ وَمَرَاصِدُهَا الْمُنْسَلِّ مِنْهَا وَالآبِقُ مِنْ أَرْقَائِهِمْ وَأَعْبُدِهِمْ ؛ وَحِفْظُهَا مِنَ العِيُونَِ وَالجِوَابِيسِ مِنْ عَدُوِّهِمْ . وَأَحْذِرُ أَنْ تَضْرِبَ عَلَيَّ يَدِيهِ أَوْ تَشْكُكَهُ عَنِ الصَّرَامَةِ بِمُؤَامَرَتِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ حَادِثٍ وَطَارِئٍ إِلَّا فِي المُهَيِّمِ النَّازِلِ وَالْحَدِثِ العامِّ : فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ بِهِ ، دَعَوْتَهُ إِلَى نُصْحِكَ ، وَأَسْتَوْلَيْتَ عَلَيَّ مَحْضُولِ ضَمِيرِهِ فِي طَاعَتِكَ ؛ وَأَجْهَدَ نَفْسَهُ فِي تَرْتِيكِ ، وَأَعْمَلَ رَأْيَهُ فِي بُلُوغِ مَوَافَقَتِكَ وَإِعَانَتِكَ ؛ وَكَانَ نَفْتِكَ وَرِدَّاكَ وَقُوتَكَ وَدِعَامَتَكَ ، وَتَفَرَّغْتَ أَنْتَ لِمُكَايَدَةِ عَدُوِّكَ ، مُرِيحًا لِنَفْسِكَ مِنْ هَمِّ ذَلِكَ وَالعِنَايَةِ بِهِ ، مُلْقِيًا عَنكَ مَسُونَةً بَاهِظَةً وَكُلْفَةً فَادِحَةً .

وَأَعْلَمُ أَنَّ القِضَاءَ مِنَ اللَّهِ بِمَكَانٍ لَيْسَ بِهِ شَيْءٌ مِنَ الأَحْكَامِ ، وَلَا بِمَثَلٍ مَحَلَّهُ أَحَدٌ مِنَ الوَلَاةِ : لِمَا يَجْرِي عَلَيَّ يَدِيهِ مِنْ مَغَالِيطِ الأَحْكَامِ وَبِحَارِي الحُدُودِ . فليَكُنْ مِنْ تَوَلِيهِ القِضَاءَ فِي عِسْكَرِكَ [مِنْ ذَوِي] الخَيْرِ فِي القِنَاعَةِ وَالعَفَافِ وَالنَّزَاهَةِ وَالْفَهْمِ وَالوَقَارِ وَالعِصْمَةِ وَالوَرَعَ ، وَالْبَصَرَ بِوُجُوهِ القِضَايَا وَمَوَاقِعِهَا ، قَدْ حَنَكْتَهُ السِّنُّ وَأَيَّدْتَهُ التَّجْرِبَةُ وَأَحْكَمْتَهُ الأُمُورَ ، مِمَّنْ لَا يَتَصَنَّعُ لِلوَالِيَةِ وَيَسْتَعِدُّ لِلنَّهْزَةِ ، وَيَجْتَرِي عَلَى المَحَابَاةِ فِي الحُكْمِ ، وَالْمُدَاهَنَةِ فِي القِضَاءِ ، عَدْلَ الأَمَانَةِ ، عَفِيفَ الطَّعْمَةِ ، حَسَنَ الإِنصَافِ ، فَهَمَّ القَلْبِ ، وَرِعَ الضَّمِيرِ ، مَتَحَشَّعَ السَّمْتِ ، بَادِيَ الوَقَارِ ، مُحْتَسِبًا للخَيْرِ . ثُمَّ أَجْرُ

عليه ما يَكْفِيهِ وَيَسَعُهُ وَيُصْلِحُهُ ؛ وَفَرَّغَهُ لِمَا حَمَلْتَهُ ، وَأَعِنَهُ عَلَى مَا وَلَيْتَهُ : فَإِنَّكَ قَدْ عَرَضْتَهُ لَهْلَكَةِ الدُّنْيَا وَبَوَارِ الآخِرَةِ ، أَوْ شَرَفِ الدُّنْيَا وَحُضُوتِ الآجَلَةِ ، إِنْ حَسُنَتْ نِيَّتُهُ ، وَصَدَقَتْ رِوِيَّتُهُ ، وَصَحَّتْ سِرِّيَّتُهُ وَسَلَّطَ حَكَمَ اللَّهِ عَلَى رِعِيَّتِهِ ؛ مُطْلَقًا عَنَانَهُ ، مَنفَعًا قِضَاءَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ ، عَامِلًا بِسُنَّتِهِ فِي شَرَائِعِهِ ، آخِذًا بِمُجْدُودِهِ وَفَرَائِضِهِ .

(١)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ مِنْ جُنْدِكَ بِحَيْثُ وَلايَتِكَ ، الجاريةُ أَحْكَامُهُ عَلَيْهِمْ ، النافذةُ أَفْضِيَّتُهُ فِيهِمْ ؛ فَاعْرِفْ مَنْ تَوَلَّيْتَهُ ذَلِكَ وَتُسْنِدُهُ إِلَيْهِ . ثُمَّ تَقَدَّمْ فِي طَلَاعِكَ فَإِنَّهَا أَوَّلُ مَكِيدَتِكَ ، وَرَأْسُ حَرْبِكَ ، وَدِعَامَةُ أَمْرِكَ ، فَاتَّخِذْ لَهَا مِنْ كُلِّ قَادَةٍ وَصَحَابَةٍ رَجُلًا ذَوِي نَجْدَةٍ وَبَأْسٍ ، وَصَرَامَةٍ وَخُبْرَةٍ ، حُمَاةً كَفَاءَةً ، قَدْ صَلَّوْا بِالْحَرْبِ وَذَاقُوا سِجَالَهَا ، وَشَرِبُوا مِرَارَ كُثُوسِهَا ، وَتَجَرَّعُوا غُصَصَ دِرَّتِهَا ؛ وَزَبَنَتْهُمْ بِتَكَرُّرِ عَوَاطِفِهَا ، وَحَمَلَتْهُمْ عَلَى أَصْعَبِ مَرَاكِبِهَا ، وَذَلَّلَتْهُمْ بِثِقَافِ أَوْدِهَا . ثُمَّ أَنْتَقِهِمْ عَلَى عَيْنِكَ ، وَأَعْرِضْ كُرَاعَهُمْ بِنَفْسِكَ ؛ وَتَوَخَّ فِي آتِقَاتِكَ ظُهُورَ الجَلْدِ ، وَشَهَامَةَ الخُلُقِ ، وَكِبَالَ الآلَةِ . وَإِيَّاكَ أَنْ تَقْبَلَ مِنْ دَوَابِهِمْ إِلَّا الإِنَاثَ مِنَ الخَيْلِ المَهْلُوبَةِ ، فَإِنَّهُنَّ أَسْرَعُ طَلَبًا ، وَأَنْجَى مَهْرَبًا ، وَأَلْيَنَ مَعْطَفًا ، وَأَبْعَدُ فِي الخُوقِ غَايَةً ، وَأَصْبَرُ فِي مَعْرَكِ الأَبْطَالِ إِقْدَامًا . وَخُذْهُمْ مِنَ السَّلَاحِ بِأَبْدَانِ الدُّرُوعِ ، مَازِيَّةِ الحَدِيدِ ، شَاكَّةِ النَّسْجِ ، مُتَقَارِبَةِ الخَلْقِ ، مُتَلَاحِمَةِ المَسَامِيرِ وَأَسْوَاقِ الحَدِيدِ ، مُمَوَّهَةِ الرِّكْبِ ، مُحْكَمَةِ الطَّبْعِ ، خَفِيفَةِ الصَّوْغِ ؛ وَسَوَاعِدِ طَبْعِهَا هِنْدِيٍّ ، وَصَوُوعِهَا فَارِسِيٍّ ؛ رِقَاقِ المَعَاظِفِ بِأَكْفِ وَأَقِيَسَةِ وَعَمَلِ مُحْكَمِ . وَيَلْمُقُ البَيْضَ مُدْهَبَةً وَمُجْتَرَدَةً ، فَارِسِيَّةَ الصَّوْغِ ، خَالِصَةً الجَوْهَرِ ، سَابِغَةَ المَلْبَسِ ، وَاقِيَةَ الجَنْنِ ، مُسْتَدِيرَةَ الطَّبْعِ ، مُبْهَمَةَ السَّرْدِ ، وَاقِيَةَ الوِزْنِ كَثِيرِكَ النَّعَامِ فِي الصَّنْعَةِ وَأَسْتَدَارَةَ التَّقْيِيبِ ، وَأَسْتَوَاءِ الصَّوْغِ ، مُعْلَمَةَ بِأَصْنَافِ

(١) في "مفتاح الأفكار" وغيره بحيث ولايتك وفي الموضع الجارية الخ تأمل .

الحرير وألوان الصبغ؛ فإنها أهيبُ لعدوهم، وأفَتْ لأعضاء من لقيهم، والمعلمُ مخشىٌ محذور، له بديهةٌ رادعه، وهيبة هائلة؛ معهم السُّيوفُ الهنديه، وذُكُورُ البيضِ ايمانيه؛ رِقاقُ الشِّقرات، مسنونةُ الشُّحد، مُشطبةُ الضرائب، معتدلةُ الجواهر، صافيةُ الصفائح؛ لم يدخلها وهن الطبع، ولا عابها أمتُ الصَّوغ، ولا شائها خفةُ الوزن، ولا فدح حاملها بهورُ الثقل؛ قد أشرعوا لُدنَ التنا، طوالِ الهوادى، مقوماتِ الأود، زُرُقِ الأسننة، مستويةُ الثعالب؛ وميضها متوقِّد، وسنخها متلهب، معاقصٌ عقدها منحوتة، ووصومٌ أودها مقومة، وأجناسها مختلفة، وكعوبها جعدة، وعقدتها حبكة؛ شطبةُ الأسنان، مؤههُ الأطراف، مستحطةُ الجنبات، دِقاقُ الأطراف، ليس فيها آلتواءٌ أود، ولا أمتٌ وضم، ولا بها مسقط عيب، ولا عنها وقوعُ أمية؛ مستحقي كائنِ النَّبلِ وقسيِّ الشَّوْطِ والنَّبَعِ؛ أعراييةُ التعقيب، روميةُ النَّصُولِ، مسمومةُ الصَّوْغِ؛ ولتكن سِهامها على خمس قبضاتٍ سوى النَّصُولِ، فإنها أبلغُ في الغاية، وأنفذُ الدُّروعِ، وأشكُّ في الحديد؛ سامطين حقائقهم على مُتون خيولهم، مستخفين من الآلة والأمتعة والزاد [إلا مالا غناءً بهم عنه] .

وأحذر أن تكل مباشرة عرضهم وأنتخبهم إلى أحد من أعوانك وكُتَّابك : فإنك إن وكلته إليهم أضعت مواضع الخزم، وفزطت حيث الرأي، ووقفت دون عزم الروية، ودخل عملك ضياع الوهن، وخلص إليك عيبُ المحابة، وناله فسادُ

(١) الثعلب طرف الرمح الداخل في جبة السنان، وفي "مفتاح الأفكار" وغيره «وشحدها متلهب» .

(٢) في الأصول والمفتاح بالغين والفاء ولم تقف له على معنى مناسب .

(٣) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥١ .

المداهنة، وغلب عليه من لا يصلح أن يكون طليعة للمسلمين ولا عُدَّة ولا حصنا
يدريون به، ويكتفون بموضعه. والطلائع حصون المسلمين وعيونهم، وهم أول
مكيدتك، وعروة أمرك، وزمام حربك. فليكن آعتناؤك بهم، وانتقاؤك إياهم
بحيث هم من مهم عمالك، ومكيدة حربك؛ ثم آتخب للولاية عليهم رجلا بعيد
الصوت، مشهور الاسم، ظاهر الفضل، نبيه الذكرك؛ له في العُدَّة وقعات معروفة،
وأيام طوال وصولات متقدّمات؛ قد عرفت نكايته، وحذرت شوكته، وهيب
صوته، وتكّب لقاءه؛ أمين السريرة، ناصح الحبيب؛ قد بلوت منه ما يستك
إلى ناحيته: من لين الطاعة، وخالص المودة، وركانة الصرامه، وغلوب الشهامه،
وأستجاع القُوَّة، وحصافة التدبير. ثم تقدّم إليه في حُسن سياستهم، وأستيزال
طاعتهم، وأجتلاب موداتهم، وأستعذاب ضمائرهم؛ وأجر عليهم وعليه أرزاقاً تسعهم،
وتمدّ من أطاعهم سوى أرزاقهم في العامّة، فإن ذلك من القُوَّة لك عليهم،
والأستنامة إلى ما قبلهم.

وأعلم أنهم في أهمّ الأماكن لك، وأعظمها غناء عنك وعمّن معك؛ وأقمعها كتبنا
لمُحادّك، وأشجباها غيظاً لعدوك؛ ومن يكن في الثقة، والجلد، والبأس، والطاعة،
والقُوَّة، والنصيحة، والعُدَّة، والنجدة حيث وصف لك أمير المؤمنين وأمرك به،
يضع عنك مئونة الهمة، ويرخ من خناقك روع الخوف، وتلتجى إلى أمر منيع،
وظهر قوي، ورأي حازم، تأمن به بجات عدوك، وغرّات بغتاتهم، وطوارق
أحداثهم؛ ويصير إليك علم أحوالهم، ومتقدّمات خيولهم؛ فانتهجهم رأى عين،
وقوه بما يصلحهم من المنال والأطاع والأرزاق، وأجعلهم منك بالمزّل الذي
هم به من محارز علاقتك، وحصانة كهوفك، وقُوَّة سيّارة عسكريك. وإياك أن
تدخل فيهم أحداً بشفاعه، أو تحتمله على هواده، أو تقدّمه لأثرة؛ أو أن يكون

مع احدٍ منهم بغل نفل ، أو فضل من الظهر ، أو نفل فادح ، فتشتد عليهم مئونة أنفسهم ، ويدخلهم كلال السامة فيما يعالجون من أنقالمهم ، ويستعلون به عن عدوهم إن دهمهم منه راع ، أو فخاهم منه طليعة . فتفقد ذلك محملاً له ، وتقدم فيه أخذا بالحزم في إمضائه ؛ أرشدك الله لإصابة الحظ ، ووقفك ثمن التدبير ، وقصد بك لأسهل الرأي وأعوده نفعاً في العاجل والآجل ، وأكتبته لعدوك وأشجاء لهم ، وأردعه لعاديتهم .

ول دراجة عسكري وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكبهم رجلاً من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروفاً بالتجدة ، ذا سنٍّ وتجربة ، لين الطاعة ، قديم النصيحة ، مأمون السرية ، له بصيرة بالحق نافذة تقدمه ، ونية صادقة عن الإدهان تحجزه . وأضنم إليه عدة نفر من ثقات جنك وذوى أسنانهم يكونون شرطاً معه ؛ ثم تقدم إليه في إخراج المصاف ، وإقامة الأحراس ، وإذكاء العيون ، وحفظ الأطراف ، وشدة الحذر ؛ ومره فليضع القواد بأنفسهم مع أصحابهم في مصافهم ، كل قائد بإزاء مكانه ، وحيث منزله ، قد سد ما بينه وبين صاحبه بالرمح شارعة ، والترسة موضونة ، والرجال راصدة ، ذاكية الأحراس ، وجلة الروع ، خائفة طوارق العدو وبياته . ثم مره فليخرج كل ليلة قائداً في أصحابه أو عدة منهم إن كانوا كثيراً ، على غلوة أو اثنتين من عسكريك ، متنبداً عنك محيطاً بمنزلك ، ذاكية أحراسه ، قلقة التردد ، مفرطة الحذر ، معدة للزوع ، متأهبة للقتال ، آخذة على أطراف المعسكر ونواحيه ، متفرقين في اختلافهم كُردوساً كُردوساً ؛ يستقبل بعضهم بعضاً [في الاختلاف]^(١) ويكسع تال متقدماً في التردد ؛ وأجعل ذلك بين قوادك وأهل

عسرك نوباً معروفة ، وحِصصاً مفروضة ، لا تُعْرِمُهَا مُرْدَلِفًا مِنْكَ بِمَوَدَّةٍ ،
ولا تتعامل فيه على أحدٍ بموجِدةٍ ، إن شاء الله تعالى .

فَوْضُ إِلَى أَمْرَاءِ أَجْنَادِكَ وَقُودَ حَيْلِكَ أُمُورَ أَصْحَابِهِمْ ، وَالْأَخْذَ عَلَى قَافِيَةِ أَيْدِيهِمْ ،
رِيَاضَةً مِنْكَ لَهُمْ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَائِهِمْ ، وَالِاتِّبَاعِ لِأَمْرِهِمْ ، وَالْوُقُوفَ عِنْدَ
نَهْيِهِمْ ؛ وَتَقَدَّمَ إِلَى أَمْرَاءِ الْأَجْنَادِ فِي النُّوَابِ الَّتِي أَلْزَمْتَهُمْ بِهَا ، وَالْأَعْمَالَ الَّتِي
اسْتَجَدَّتْهُمْ لَهَا ، وَالْأَسْلِحَةَ وَالْكَرَاعَ الَّتِي كَتَبْتَهَا عَلَيْهِمْ ؛ وَاحْذَرِ ابْتِغَالَ أَحَدٍ مِنْ
قُودِكَ عَلَيْكَ بِمَا يُحْوِلُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ تَأْدِيبِ جُنْدِكَ ، وَتَقْوِيمِهِمْ لَطَاعَتِكَ ، وَقَعْمَهُمْ عَنِ
الْإِخْلَالِ بِمَرَاكِبِهِمْ لَشَيْءٍ مِمَّا وَكَلُوا بِهِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ لِلْجُنْدِ ، مَفْثَاةٌ
لِلْقُودِ عَنِ الْحَدِّ وَالِإِيثَارِ لِلنَّاصِحَةِ ، وَالتَّوَقُّدِ فِي الْأَحْكَامِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ فِي اسْتِخْفَافِهِمْ بِقُودِهِمْ وَتَضْيِيعِهِمْ أَمْرَ رُؤَسَائِهِمْ دُخُولًا لِلضِّيَاعِ عَلَى
أَعْمَالِكَ ، وَاسْتِخْفَافًا بِأَمْرِكَ الَّذِي يَأْتَمِرُونَ بِهِ وَرَأْيِكَ الَّذِي تَرْتَبِي . وَأَوْعِزْ إِلَى الْقُودِ
أَنْ لَا يُقَدِّمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى عِقُوبَةِ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ، إِلَّا عُقُوبَةَ تَأْدِيبٍ فِي تَقْوِيمِ مَيْلٍ ،
وَتَثْقِيفِ أَوْدٍ ؛ فَأَمَّا عِقُوبَةُ تَلْبُغِ تَلْفِ الْمُهْجَةِ وَإِقَامَةُ حَدٍّ فِي قَطْعِ ، أَوْ إِفْرَاطٍ فِي ضَرْبِ
أَوْ أَخْذِ مَالٍ ، أَوْ عِقُوبَةُ فِي شَعْرٍ فَلَا يَلِينُ ذَلِكَ مِنْ جُنْدِكَ أَحَدٌ غَيْرِكَ ، أَوْ صَاحِبُ
شُرْطَتِكَ بِأَمْرِكَ وَعَنْ رَأْيِكَ وَإِذْنِكَ ؛ وَمَتَى لَمْ تُدَلِّلِ الْجُنْدَ لِقُودِهِمْ ، وَتُضَرِّعَهُمْ
لِأَمْرَائِهِمْ ؛ تَوَجَّبَ لَهُمْ عَلَيْكَ الْحِجَّةَ بِتَضْيِيعِ - إِنْ كَانَ مِنْهُمْ - لِأَمْرِكَ ، أَوْ خَلَّ
- إِنْ تَهَاوَنُوا بِهِ - مِنْ عَمَلِكَ ، أَوْ عَجَزَ - إِنْ فَرَطَ مِنْهُمْ - فِي شَيْءٍ مِمَّا وَكَلْتَهُمْ بِهِ
أَوْ أَسْنَدْتَهُ إِلَيْهِمْ ؛ وَلَا تَجِدُ إِلَى الْإِقْدَامِ عَلَيْهِمْ بِاللُّومِ وَعَضِّ الْعُقُوبَةِ عَلَيْهِمْ مَجَازًا
تَصَلُّ بِهِ إِلَى تَعْنِيفِهِمْ ، بِتَفْرِيطِكَ فِي تَذَلِيلِ أَصْحَابِهِمْ لَهُمْ ، وَإِسْفَادِكَ لِإِيَّاهُمْ عَلَيْكَ
وَعَلَيْهِمْ . فَانظُرْ فِي ذَلِكَ نَظْرًا مُحْكَمًا ، وَتَقَدَّمْ فِيهِ بِرَفْقِكَ تَقَدُّمًا بَلِيغًا ؛ وَإِيَّاكَ أَنْ

يَدْخُلُ حَزْمَكَ وَهَنْ ، أَوْ يَشُوبَ عَزْمَكَ إِيْثَارًا ، أَوْ يَخْلِطَ رَأْيَكَ ضِيَاعًا ؛ وَاللَّهُ يَسْتَوِدِعُ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَفْسَكَ وَدِينَكَ .

إِذَا كُنْتَ مِنْ عَدُوِّكَ عَلَى مَسَافَةٍ دَانِيَةٍ وَسَنَّ لِقَاءَ مَخْتَصِرًا ، وَكَانَ مِنْ عَسْكَرِكَ
مُقْتَرِبًا قَدْ شَامَتْ طَلَائِعُكَ مُقَدِّمَاتِ ضَلَالَتِهِ ، وَحُمَاةَ فِتْنَتِهِ ؛ فَتَاهَبْ أَهْبَةَ الْمُنَاجِزِ ،
وَخُذِ اعْتِدَادَ الْحَذِرِ ، وَكُتِّبْ خِيُولَكَ ، وَعَبَّ جُنْدَكَ ؛ وَإِيَّاكَ وَالْمَسِيرَ إِلَّا فِي مُقَدِّمَةِ
وَمَيْمَنَةٍ وَمَيْسِرَةٍ وَسَاقِيَةٍ ؛ قَدْ شَهَرُوا الْأَسْلِحَةَ ، وَنَشَرُوا الْبُنُودَ وَالْأَعْلَامَ ؛ وَعَرَّفَ
جُنْدَكَ مَرَكَزَهُمْ سَائِرِينَ تَحْتَ أَلْوِيَّتِهِمْ ، قَدْ أَخَذُوا أَهْبَةَ الْقِتَالِ ، وَاسْتَعْمَدُوا لِلْقَاءِ ؛
مَلْتَجِئِينَ إِلَى مَوَاقِفِهِمْ ، عَارِفِينَ بِمَوَاضِعِهِمْ فِي مَسِيرِهِمْ وَمَعَسَكِهِمْ . وَلِيَكُنْ تَرْحُلُهُمْ
وَتَنْزُلُهُمْ عَلَى رَايَاتِهِمْ وَأَعْلَامِهِمْ وَفِي مَرَكَزِهِمْ ، قَدْ عَرَّفَ كُلَّ قَائِدٍ مِنْهُمْ أَصْحَابَهُ
مَوَاقِفَهُمْ : مِنَ الْمَيْمَنَةِ وَالْمَيْسِرَةِ وَالْقَلْبِ وَالسَّاقَةِ وَالطَّلِيْعَةِ ، لِأَزْمِنَ لَهَا ، غَيْرِ مُخْلِئِينَ
بِمَا اسْتَنْجَدُوا لَهُ ، وَلَا مُتَهَاوِنِينَ بِمَا أُهَيْبَ بِهِمْ إِلَيْهِ ؛ حَتَّى تَكُونَ عَسَاكِرُكَ فِي مَنْهِلٍ
تَصِلُ إِلَيْهِ وَمَسَافَةٍ تَخْتَارُهَا كَأَنَّهَا عَسْكَرٌ وَاحِدٌ فِي اجْتِمَاعِهَا عَلَى الْعَدُوِّ ، وَأَخَذَهَا بِالْحَزْمِ ،
وَمَسِيرِهَا عَلَى رَايَاتِهَا ، وَزُؤُولِهَا فِي مَرَكَزِهَا ، وَمَعْرِقَتِهَا بِمَوَاضِعِهَا : إِنْ ضَلَّتْ دَابَّةٌ مِنْ
مَوَاضِعِهَا ، عَرَفَ أَهْلُ الْعَسْكَرِ مِنْ أَىِّ الْمَرَكَزِ هِيَ ، وَمَنْ صَاحِبُهَا ، وَفِي أَىِّ
الْمَحَلِّ حُلُولُهُ مِنْهَا فُرِدَتْ إِلَيْهِ ، هِدَايَةً مَعْرُوفَةً بِسَمْتِ صَاحِبِ قِيَادَتِهَا ؛ فَإِنَّ تَقَدَّمَكَ
فِي ذَلِكَ وَإِحْكَامَكَ لَهُ طَارِحٌ عَنْ جُنْدِكَ مَثُونَةَ الطَّلَبِ ، وَعِنَايَةَ الْمَعْرِفَةِ ،
وَأَبْتِغَاءَ الضَّالَّةِ .

ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَى سَاقَتِكَ أَوْثَقَ أَهْلِ عَسْكَرِكَ فِي نَفْسِكَ صَرَامَةً وَنَفَازًا وَرِضًا فِي الْعَامَّةِ ،
وَإِنصَافًا مِنْ نَفْسِهِ لِلرَّعِيَّةِ ، وَأَخْذًا بِالْحَقِّ فِي الْمَعْدِلَةِ ، مُسْتَشْعِرًا تَقْوَى اللَّهِ وَطَاعَتَهُ ؛
أَخْذًا بِهَدْيِكَ وَأَدَبِكَ ، وَاقْفًا عِنْدَ أَمْرِكَ وَنَهْيِكَ ، مَعْتَرِمًا عَلَى مَنَاصِحِكَ وَتَرْبِيئِكَ ، نَظِيرًا

(١)

لك في الحال ، وشيئاً بك في الشرف ، وعديلاً في الموضع ، ومقارِبا في النسب ؛
ثم أكتيف معه الجمع ، وأيده بالقوة ، وقوه بالظهر ، وأعنه بالأموال ، وأعمده بالسلاح ،
ومره بالتعطف على ذوى الضعف من جنسك ومن أرحفت به دابته وأصابته
نكبة : من مرض أو رُجلة أو آفة ، من غير أن يأذن لأحدٍ منهم في التنجى عن
عسكره ، أو التخلف بعد ترحله ، إلا لمجهود سقما ، أو لمطروقٍ بأفةٍ جائحة . ثم تقدم
إليه محذرا ، ومره زاجرا ، وأنه مغلظا في الشدة على من مرَّ به منصرفا عن معسكر
من جنسك بغير جوازك ، شادا لهم أسرا ، وموقرهم حديدا ، ومعاقبهم موجعا ،
وموجههم إليك فنهكهم عقوبةً ، وتجعلهم لغيرهم من جنسك عظة .

وأعلم أنه إن لم يكن بذلك الموضع من تسكن إليه واثقا بنصيحته قد بلوت منه
أمانة تسكتك إليه ، وصرامة تؤمنك مهاتته ، ونقادا في أمرك يرئى عنك خناق
الخوف في إضاعته - لم يأمن أمير المؤمنين تسلل الجند عنك لوادا ، ورفضهم
مراكرهم ، وإخلائهم بمواضعهم ، وتخلفهم عن أعمالهم ، آمين تغيير ذلك عليهم ؛
والشدة على من آجترمه منهم ، فأوشك ذلك في وهنك ، وخذل من قوتك ، وقلل
من كثرتك .

اجعل خلف ساقك رجلا من وجوه قوادك ، جليدا ، ماضيا ، عفيفا ، صارما ،
شهم الرأي ، شديد الحذر ، شكيم القوة ، غير مدهين في عقوبة ، ولا مهين في قوة ،
في خمسين فارسا يحشرُ إليك جنسك ، ويلحق بك من تخلف عنك بعد الإبلاغ
في عقوبتهم ، والنهك لهم والتنكيل بهم . وليكن بعقوتك في المتزل الذي ترحل عنه ،
والمنهل الذي تتقوض منه ، منرطا في النفض له ، والتببع لمن تخلف عنك به ؛

(١) في مفتاح الأفكار وغيره « في الصيت » وهى أوضح .

مشتداً في أهل المنزل وساكنه بالتقدم، موعزا إليهم في إزعاج الجند عن منازلهم، وإخراجهم عن مكائهم؛ وإبعاد العقوبة الموجعة والنكال المبسل في الأشعار والأبشار، وأستصفاء الأموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحداً أو ستر موضعه، أو أخفى محله. وحذره عقوبتك إياه في الترخيص لأحد، والمحابة لذي قرابة، والأختصاص بذلك لذي أثره وهوادة. ولتكن فرسانه منتخين في القوة، معروفين بالنجدة؛ عليهم سوايغ الدروع دونها شعار الحشو وجب الاستجنان؛ متقدين سيوفهم، سامطين كائهم، مستعدين لهيج إن بدهم [أو كين إن يظهر لهم] (١). وإياك أن تقبل منهم في دوابهم إلا فرساً قوياً أو رذونا ويحيا: فإن ذلك من أقوى القوة لهم، وأعون الظهري على عدوهم، إن شاء الله.

ليكن رحيلك إيانا واحداً، ووقنا معلوماً: لتخف المئونة بذلك على جندك، ويعلموا وأن رحيلهم، فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم، وأعلاف دوابهم، وتسكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه، ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل، ومتى يكن رحيلك مختلفاً، تعظم المئونة عليك وعلى جندك ولا يزال ذوو السلفه [والترقى] (١) يترحلون بالإرجاف ويتزلون بالتوهم، حتى لا ينتفع ذوو رأي بنوم ولا طمأنينة.

إياك أن تظهر استقلالا، أو تئادي برحيل من منزل تكون فيه، حتى تأمر صاحب تعينك بالوقوف بأصحابه على معسكرك آخذاً بجنتي فوهته، بأسلحتهم عدة لأمر إن حضر، أو مفاجأة من طليعة للعدوان رأيت منكم نهزة، أو لمحت عندهم غرة. ثم مر الناس بالرحيل وخيلك واقفة، وأهبتك معدة، وجنتك

(١) الزيادة عن «مفتاح الأفكار» وغيره.

واقية، حتى إذا استقلتم من معسكركم، وتوجهتم من منزلكم، سرتم على تعبثكم بسكون ريح، وهُدُو حَمَلَة ، وحسن دَعَة . فإذا انتهيت إلى مهل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به ، فأياك ونزوله إلا بعد العلم بأهله ، والمعرفة بمرافقه ؛ ومُر صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستثيرك علم دفينه ، ويستبين علم أموره ثم يُنهيها إليك على ما صارت إليه : لتعلم كيف آحتاله لعسكرك ، وكيف ماؤه وأغلافه وموضع معسكرك منه ، وهل لك - إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك أو مكاليدته فيه - قوة نملك ومدد يأتيه : فإنك إن لم تفعل ذلك ، لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وأقطاع مواده ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو أحتجت من أمورهم إلى مطاولة . فإن آرتحلت منه كنت غرضاً لعدوك ، ولم تجد إلى المحاربة والاختار سبيلاً ، وإن أقت به أقت على مشقة وحصر وفي أزل وضيق ، فاعرف ذلك وتقدم فيه . فإن أردت نزولاً أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس فوقفت خيله متحية من معسكرك ، عدة لأمر إن غالك ، ومفرعاً لبديهة إن راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته بقاء عدوك ، وعرفت موقعها من حركك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الأثقال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودباباً محيطين بعسكرك ، وعدة إن أحتجت إليها . ولكن دبابات جنك أهل جلد وقوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، في كل ليلة ويوم نوباً بينهم ؛ فإذا غربت الشمس ووجب نورها ، أخرج إليهم صاحب تعبثك أبدأهم ، عسسا بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار ، يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباة لأحد فيه ولا إدهان .

إياك وأن يكون منزلك إلا في خندق وحصن تأمن به بيات عدوك وتستنيم فيه إلى الحزم من مكيدتك إذا وضعت الأثقال وحطت أبنية أهل العسكر ، لم يمدد

طُنْب ، ولم يُرْفَع خِيَاء ، ولم يُنْصَب بناءً حتى تَقَطَّعَ لِكُلِّ قَائِدٍ ذَرْعًا مَعْلُومًا مِنَ
الأَرْضِ بَقْدَرِ أَصْحَابِهِ ، فَيَحْفِرُوهُ عَلَيْهِمْ خَنْدَقًا يُطِيفُونَهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَنْدَاقِ الْحَسَكِ ،
طَارِحِينَ لَهَا دُونَ أَشْجَارِ الرِّمَاحِ ، وَنَصَبِ التَّرْسَةِ ، لَهَا بَابَانِ قَدْ وَكَلَّتَ بِحِفْظِ كُلِّ بَابٍ
مِنْهُمَا رَجُلَانِ مِنْ قُوَادِكِ فِي مِائَةِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ ؛ فَإِذَا فُرِغَ مِنَ الْخَنْدَقِ كَانَ ذَانِكَ
الرَّجُلَانِ الْقَائِدَانِ بَيْنَ مَعَهُمَا مِنْ أَصْحَابِهِمَا أَهْلَ ذَلِكَ الْمَرْكَزِ ، وَمَوْضِعَ تِلْكَ الْخَلِيلِ ،
وَكَانُوا هُمُ الْبَوَائِيْنِ وَالْأَحْرَاسَ لِذَيْنِكَ الْمَوْضِعَيْنِ ، قَدْ كَفَّوهُمَا وَضَبَطُوهُمَا وَأَعْفَوْا مِنْ
أَعْمَالِ الْعَسْكَرِ وَمَكْرُوهُ غَيْرَهُمَا .

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ إِذَا كُنْتَ فِي خَنْدَقٍ ، أَمِنْتَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقُوَّتِهِ طَوَارِقَ عَدُوِّكَ وَبَعَثَاتِهِمْ ،
فَإِنْ رَامُوا تِلْكَ مِنْكَ ، كُنْتَ قَدْ أَحْكَمْتَ ذَلِكَ وَأَخَذْتَ بِالْحَزْمِ فِيهِ ، وَتَقَدَّمْتَ
فِي الْإِعْدَادِ لَهُ ، وَرَتَقْتَ مَجُوفَ الْفَتَقِ مِنْهُ ؛ وَإِنْ تَكُنِ الْعَافِيَةُ أَسْتَحْقِيتَ حَمْدَ اللَّهِ
عَلَيْهَا ، وَارْتَبَطَتْ شُكْرُهَا بِهَا ، وَلَمْ يَضُرَّكَ أَخْذُكَ بِالْحَزْمِ : لِأَنَّ كُلَّ كُفْلَةٍ وَنَصَبٍ
وَمَسْئُورَةٍ إِنْفَاقٍ وَمَشَقَّةٍ عَمَلٍ مَعَ السَّلَامَةِ غُتْمٌ وَغَيْرُ خَطَرٍ بِالْعَاقِبَةِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
فَإِنْ أَبْتَلَيْتَ بِيَّاتِ عَدُوِّكَ أَوْ طَرَقَكَ رَائِعًا فِي لَيْلِكَ ، فَلْيُلْفِكَ حَدْرًا مُشْمِرًا عَنْ
سَاقِكَ ، حَاسِرًا عَنْ ذِرَاعِكَ ، مَتَشَرَّنَا لِحَرْبِكَ ؛ قَدْ تَقَدَّمْتَ دَرَجَاتِكَ إِلَى مَوَاضِعِهَا
عَلَى مَا وَصَفَهُ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدَبَّابَتِكَ فِي أَوْقَاتِهَا الَّتِي قَدَّرَكَ ، وَطَلَائِعِكَ حَيْثُ
أَمَرَكَ ، وَجُنْدِكَ عَلَى مَا عَبَأَ لَكَ قَدْ خَطَرَتْ عَلَيْهِمْ بِنَفْسِكَ ؛ وَتَقَدَّمْتَ إِلَى جُنْدِكَ
إِنْ طَرَقَهُمْ طَارِقٌ ، أَوْ فَاجَأَهُمْ عَدُوٌّ ، أَنْ لَا يَتَكَلَّمُ مِنْهُمْ أَحَدٌ رَافِعًا صَوْتَهُ بِالتَّكْبِيرِ مُغْرَقًا
فِي الْإِجْلَابِ ، مُعَلِّنًا بِالْإِرْهَابِ لِأَهْلِ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ بِهَا الْعَدُوُّ طَارِقًا ، وَلِيُشْرِعُوا رِمَاحَهُمْ
نَاشِيِينَ بِهَا فِي وُجُوهِهِمْ ، وَيُرَشِّقُونَهُمْ بِالنَّبْلِ مُكْتَنِينَ بِأَتْرَسَتِهِمْ ، لِأَزِمِينَ لِمَرًّا كَرَهُمْ ،

(١) فِي الْمِفْتَاحِ وَغَيْرِهِ « مَلْبَدِينَ تَرَسْتَهُمْ » وَفِي الْأَصْلِ أَرَسْتَهُمْ وَقَالَ ابْنُ السَّكَيْتِ لَا يُقَالُ أَرَسَةٌ أَوْ رَسَةٌ وَزَانَ
أَرْسَفَةٌ وَإِنَّمَا جُمِعَ التَّرْسُ تَرَسَةً وَتَرَسًا وَرَسًا وَرَبْمَا قِيلَ أَرَسًا فَتَنَبَهَ .

غير مُزِيلٍ قَدَمٍ عَنِ مَوْضِعِهَا ، وَلَا مُتَجَاوِزِينَ إِلَى غَيْرِ مَرَكَبِهِمْ . وَيَكْبُرُوا ثَلَاثَ تَكْبِيرَاتٍ مُتَوَالِيَاتٍ وَسَائِرُ الْجُنْدِ هَادُونَ ، لِتَعْرِفَ مَوْضِعَ عَدُوِّكَ مِنْ مَعَسِكَ ، فُتَمِدَّ أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ بِالرِّجَالِ مِنْ أَعْوَانِكَ وَشُرَطَتِكَ ، وَمَنْ آتَتْكَ قَبْلَ ذَلِكَ عُدَّةٌ لِلشَّدَائِدِ بِحَضْرَتِكَ ، وَتَدَسَّ إِلَيْهِمُ النَّشَابُ وَالرَّمَاحُ .

وَأَيَّاكَ وَأَنْ يَشْهَرُوا سَيْفًا يَتَجَالَدُونَ بِهِ . وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِمْ أَنْ لَا يَكُونَ قِتَالُهُمْ فِي تِلْكَ الْمَوَاضِعِ لَمَنْ طَرَقَهُمْ إِلَّا بِالرَّمَاحِ مُسْنِدِينَ لَهَا إِلَى صُدُورِهِمْ ، وَالنَّشَابِ رَاشِقِينَ بِهِ وَجُوهَهُمْ ؛ قَدْ أَلْبَدُوا بِالْأَتْرَسَةِ ، وَأَسْتَجَنُوا بِالْبَيْضِ ، وَأَلْقَوْا عَلَيْهِمْ سَوَابِغَ الدَّرُوعِ وَجِبَابِ الْحَشْوِ ؛ فَإِنْ صَدَّ الْعَدُوُّ عَنْهُمْ حَامِلِينَ عَلَى جِهَةٍ [أُخْرَى ، كَبْرًا] أَهْلُ تِلْكَ النَّاحِيَةِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا كِفْعَلُ النَّاحِيَةِ الْأُولَى ، وَبَقِيَّةُ الْعَسْكَرِ سَكُوتٌ وَالنَّاحِيَةُ الَّتِي صَدَّ عَنْهَا الْعَدُوُّ لِأَزْمَةِ مَرَاكِبِهِمْ مَتَطَقَّةٌ الْهَدُوسَا كُنَّةُ الرِّيحِ ، ثُمَّ عَمِلَتْ فِي تَقْوِيَتِهِمْ وَإِمْدَادِهِمْ بِمِثْلِ صَنِيعِكَ فِي إِخْوَانِهِمْ .

وَأَيَّاكَ أَنْ يُتَّخَذَ نَارُ رُوقِكَ [وَإِذَا وَقَعَ الْعَدُوُّ فِي مَعَسِكَ نَأْتِجُهَا سَاعِرًا لَهَا وَأَوْقَدُهَا حَطْبًا جَزَلًا يَعْرِفُ بِهِ أَهْلُ الْعَسْكَرِ مَكَانَكَ وَمَوْضِعَ رُوقِكَ] ^(١) فَيَسْكُنُ نَافِرُ قُلُوبِهِمْ ، وَيَقْوَى وَاهِي قُوَّتِهِمْ ، وَيَشْتَدُّ مَنَحْدِلُ ظُهُورِهِمْ ، وَلَا يَرْجُمُونَ بِكَ الظُّنُونَ ، وَيَجْعَلُونَ لَكَ آرَاءَ الشُّوءِ ، وَيُرْجِفُونَ بِكَ آثَاءَ الْخَوْفِ ، وَذَلِكَ مِنْ فِعْلِكَ رَادُّ عَدُوِّكَ بَغِيظَهُ لَمْ يَسْتَفْلِلْ مِنْكَ ظُفْرًا ، وَلَمْ يَبْلُغْ مِنْ نِكَائِكَ سُورًا . وَإِنْ أَنْصَرَفَ عَنْكَ عَدُوُّكَ وَنَكَلَ عَنِ الْإِصَابَةِ مِنْ جُنْدِكَ وَكَانَتْ بِجَيْسِكَ قُوَّةٌ عَلَى طَلَبِهِ أَوْ كَانَتْ لَكَ مِنْ فُرْسَانِكَ خَيْلٌ مُعَدَّةٌ وَكُتَيْبَةٌ مُنْتَخَبَةٌ ، [وَأَقْدَرْتَ عَلَى أَنْ تَرَكَّبَ بِهِمْ أَكْسَاءَهُمْ ، وَتَجَلَّهَمَ عَلَى سَنَنِهِمْ ؛ فَاتَّبِعَهُمْ بِرِيْدَةِ خَيْلِهَا الثَّقَاتِ مِنْ فُرْسَانِكَ ، وَأُولُو النَّجْدَةِ مِنْ حِمَاتِكَ ؛ فَإِنَّكَ تَرَهَّقُ عَدُوِّكَ وَقَدْ أَمِنَ مِنْ بَيَاتِكَ ، وَشَغِلَ بِكَلَالِهِ عَنِ التَّحَرُّزِ

(١) الزيادة من مفتاح الافكار وغيره وهي من سقطات النسخ كما لا يخفى .

منك والأخذِ بأبوابِ معسكره ، والضبطِ لمحارِسِه عليك ، موهنةٌ حماتهم لغبةً
أبطلهم : لما ألقوكم عليه من التشميرِ والحدِّ ، قد عقر الله فيهم ، وأصاب منهم ،
وجرح من مقاتلتهم ، وكسر من أمانى ضلَّاهم ، وردَّ من مستعلي جِماحهم .

وتقدّم إلى من توجَّهه في طلبهم ، وتنبَّهه أكساءهم : في سُكونِ الرِّيحِ ، وقلةِ الرِّفثِ ،
وكثرةِ التسيبِ والتهلِيلِ ، وأستنصارِ الله عزَّ وجلَّ بالسِّتيمِ وقلوبهم سرّاً وجهراً ،
بلا لَجِبِ صِحَّةٍ ، ولا آرتفاعِ ضوؤاء ؛ دُونَ أن يردوا على مطلبهم ، ويتنزّوا فرصتهم .
ثم ليُشهرُوا السِّلاحَ ، وينتصوا السُّيوفَ ، فإنَّ لها هَيْبَةً رائعةً ، وبديهةً محوِّفةً ،
لا يقومُ لها في هُمةِ الليلِ وحِنْدِسِه إلا البطلُ المُحاربُ ، ودُو البصيرةِ المُحامي ،
والمستميّةُ المُقاتلِ ، وقليلٌ ما هم عند تلك الحِمِيَّةِ وفي ذلك الموضع .

ليكنَّ أوَّلَ ما انتقدُّم به في التهيؤِ لعدوِّك ، والأستعدادِ للقائه ، أنتخابُك من فُرسانِ
عسركِ وحمّةِ جنْدِك ذَوِي البأسِ والحُنْكةِ والحدِّ والصَّرامةِ ، ممن قد اعتاد
طِرادِ الكُماةِ ، وكسَّر عن ناجذِه في الحَرْبِ ، وقام على ساقٍ في مُنازلةِ الأقرانِ ،
تَقِفُ الفُروسيةِ ، مجتَمِعِ القُوَّةِ ، مستحصِدِ المِريَّةِ ، صبوراً على هَوْلِ الليلِ ، عارفاً
بمُنازرةِ الفُرسِ ؛ لم تمهَّنِه الحُنْكةُ ضَعُفاً ، ولا بلغتْ به السنُّ كلالاً ، ولا أسكرته
غِرةُ الحدائِةِ جهلاً ، ولا أبطرتُه نَجْدَةُ الأغمارِ صلَفاً ، جريئاً على مخاطرةِ التلَفِ ،
مُقديماً على أدِّراعِ الموتِ ، مُكابرّاً لمهيبِ الهولِ ، متقحماً نحشي الحُتوفِ ، خائضاً
عَمراتِ المهالكِ ؛ برأى يويده الحزمِ ، ونيةً لا يخالجها الشكُّ ، وأهواءِ مجتمعةِ ،
وقلوبِ مؤتلفةِ ؛ عارفينَ بفضلِ الطاعةِ وعزِّها وشرِّها ، وحيثُ محلُّ أهلها من
التأييدِ والظَّفَرِ والتحكينِ ، ثم أعرضهم رأى عينِ على كراعهم وأسلحتهم . ولتكنَّ
دوآبهم إناثَ عتاقِ الخيلِ ، وأسلحتهم سوابغِ الدُّروعِ وكِمالِ آلةِ المُحاربِ ، متقلِّدين

سُوفَهُمِ الْمَسْتَخَلَصَةَ مِنْ جَيْدِ الْجَوْهَرِ وَصَافِي الْحَدِيدِ، الْمُنْخِيْرَةَ مِنْ مَعَادِنِ الْأَجْنَاسِ،
 هِنْدِيَّةِ الْحَدِيدِ يَمَانِيَةِ الطَّعِجِ، رِقَاقِ الْمَضَارِبِ، مَسْمُومَةِ الشَّحْدِ، مُشَطَّبَةِ الصَّرِيْبَةِ؛
 مُبْدِيْنَ بِالرَّسَةِ الْفَارْسِيَّةِ، صِيْنِيَّةِ التَّعْقِيْبِ، مُعَلِّمَةِ الْمَقَابِيْضِ بِحَلَقِ الْحَدِيدِ، أَتْحَاؤَهَا
 مَرْبَعَةً، وَخَارِزُهَا بِالْتَجْلِيْدِ مُضَاعَفَةً، مَحْمَلُهَا مُسْتَخَفٌ؛ وَكَأَنَّ النَّبْلَ وَجِعَابُ الْقِيْسِ
 قَدْ أَسْتَحْقَبُوهَا، وَقِيْسَى الشَّرِيَانِ وَالنَّبْعِ أَعْرَابِيَّةِ الصَّنْعَةِ، مُخْتَلِفَةُ الْأَجْنَاسِ، مُحْكَمَةُ
 الْعَمَلِ، مُقَوِّمَةُ التَّنْقِيْفِ؛ وَنُصُولُ النَّبْلِ مَسْمُومَةٌ، وَعَمَلُهَا مَصِيصِيٌّ، وَتَرْكِيْبُهَا
 عِرَاقِيٌّ، وَتَرْبِيْثُهَا بَدْوِيٌّ؛ مُخْتَلِفَةُ الصَّوْعِ فِي الطَّعِجِ، شَتَّى الْأَعْمَالِ فِي التَّشْطِيْبِ
 وَالتَّجْنِيْحِ وَالْإِسْتِدَارَةِ. وَلِتَكُنِ الْفَارْسِيَّةُ مَقْلُوبَةً الْمَقَابِيْضِ، مِنْبَسَطَةُ السِّيَّةِ،
 سَهْلَةُ الْإِنْعَاطِ، مُقَرَّبَةُ الْإِنْجِنَاءِ، مُمَكِّنَةُ الْمَرْمَى، وَاسِعَةُ الْأَسْهُمِ؛ فُرُضَهَا سَهْلَةُ
 الْوُرُودِ، وَمَعَاطِفُهَا غَيْرُ مَقْتَرِبَةِ الْمَوَاتَاةِ. ثُمَّ وَلَّ عَلَى كُلِّ مَائَةِ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ
 خَاصَّتِكَ وَثِقَاتِكَ وَنُصَحَائِكَ، لَهُ صِيْبٌ فِي الرِّيَاسَةِ، وَقَدَمٌ فِي السَّابِقَةِ، وَأَوْلِيَّةٌ
 فِي الْمَشَايِعَةِ. وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ فِي ضَبْطِهِمْ، وَكَفَّ مَعَرَّتِهِمْ، وَأَسْتَنْزَالَ نَصَائِحَهُمْ،
 وَأَسْتَعْدَادَ طَاعَتِهِمْ، وَأَسْتِخْلَاصَ ضَمَائِرِهِمْ، وَتَعَاهُدَ كِرَاعِهِمْ وَأَسْلِحَتِهِمْ: مُعْفِيَا لَهُمْ
 مِنَ النَّوَائِبِ الَّتِي تَلَزُمُ أَهْلَ عَسْكَرِكَ وَعَامَّةَ جُنْدِكَ؛ وَاجْعَلْهُمْ عُدَّةً لِأَمْرٍ إِنْ حَزَبَكَ
 أَوْ طَارِقٍ إِنْ أَتَاكَ؛ وَمُرَّهُمْ أَنْ يَكُونُوا عَلَى أَهْبَةِ مُعَدَّةٍ، وَحَدَرَ نَافٍ لِسَنَةِ الْغَفْلَةِ
 عَنْهُمْ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّ السَّاعَاتِ مِنْ لَيْلِكَ وَنَهَارِكَ تَكُونُ إِلَيْهِمْ حَاجَتُكَ. فَلْيَكُونُوا
 كَرَجُلٍ وَاحِدٍ فِي التَّشْمِيرِ وَالتَّرَادُفِ وَسُرْعَةِ الْإِجَابَةِ؛ فَإِنَّكَ عَسَيْتَ أَنْ لَا تَجِدَ عِنْدَ
 جَمَاعَةِ جُنْدِكَ فِي مِثْلِ تِلْكَ الرُّوعَةِ وَالْمُبَاغْتَةِ - إِنْ أَحْتَجَّتْ إِلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ - مَعُونَةً
 كَافِيَةً، وَلَا أَهْبَةَ مُعَدَّةٍ، بَلْ ذَلِكَ كَذَلِكَ. فَلْيَكُنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ الَّذِينَ تَتَخَبُّ عُدَّتَكَ
 وَقُوَّتَكَ، بَعُونًا قَدْ وَطَّفَقَتْهَا عَلَى الْفُؤَادِ الَّذِينَ وَلِيَتْهُمْ أُمُورَهُمْ، فَسَمِيَتْ أَوْلَا وَثَانِيَا وَثَالِثًا
 وَرَابِعًا وَخَامِسًا وَسَادِسًا؛ فَإِنْ أَكْتَفَيْتَ فِيمَا يَطْرُقُكَ وَيَبْدَهُكَ بَيْعَتْ وَاحِدًا، كَانَ

معدًا لم تخرج إلى آتخابهم في سابعتك تلك فقطع البعث عليهم عند ما يرهقك . وإن احتجت إلى آتئين أو ثلاثة ، وجهت منهم إرادتك أو ماترى قوتك ، إن شاء الله .

وكل بخزائنك ودواوينك رجلاً ناصحاً أميناً ، ذا ورع حاجز ، ودين فاصل ، وطاعة خالصة ، وأمانة صادقة ؛ وأجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزانتك وحولها . وتقدم إليه في حفظها ، والتوقى عليها ، وآتهم كل من تسند إليه شيئاً منها على إضاعته والتهاون به ، والشدة على من دنا منها في مسير ، أو ضاتها في منزل ، أو خالطها في مهل . وليكن عامة الجند والجيش - إلا من استخلصت للسير معها - منتخين عنها ، مجابين لها في المسير والمنزل ؛ فإنه ربما كانت الجولة وحدت الفرقة ، فإن لم يكن للخزائن من يوكل بها أهل حفظ لها وذبح عنها ، وحيطة دونها ، وقوة على من أراد آتياها ؛ أسرع الجند إليها وتداعوا نحوها حتى يكاد يتراعى ذلك بهم إلى آتيا العسكر ، وأضطراب الفتنة ؛ فإن أهل الفتن وسوء السيرة كثير ، وإنما همتم الشر ؛ فإياك أن يكون لأحد في خزانتك ودواوينك [وبيوت أموالك] مطمع ، أو يجد سبيلاً إلى اغتيالها ومرزأتها .

اعلم أن أحسن مكيديك أثراً في العامة ، وأبعدها صيتاً في حُسن القالة ، مانلت الظفر فيه بحزم الروية ، وحُسن السيرة ، ولطف الحيلة . فلتكن رويتك في ذلك وحرصك على إصابته بالحيل ، لا بالقتال وأخطار التلف ؛ وأدسس إلى عدوك ، وكتب رؤسائهم وقادتهم وعندهم المنال ، ومنهم الولايات ، وسوغهم التراث ، وضع عنهم الإحن ، وأقطع أعناقهم بالمطامع ، وأستدعهم بالمناوب ؛ وأملأ قلوبهم بالترهيب إن أمكنتك منهم الدوائر ، وأصابتهم إليك الرواجع ؛ وأدعهم إلى الوئوب بصاحبهم أو أعتزاله إن لم يكن لهم بالوئوب عليه طاقة ؛ ولا عليك أن تطرح إلى

بعضهم كُتِبَ كأنها جوابُ كُتِبَ لهم إليك ، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم ، وتجمل بها صاحبهم عليهم وتزلم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة ؛ فلعل مكيديك في ذلك أن يكون فيها آفاتك عليهم ، وتشتيت جماعتهم ، وإحن قلوبهم ، وسوء الظن من واليهم بهم ، فيوحشهم منه خوفهم إياه على أنفسهم إذا أيقنوا بآثامه إياهم ؛ فإن بسط يده فقتلهم ، وأولع سيفه في دمائهم ، وأسرع الوثوب بهم ، أشعرهم جميعاً الخوف ، وشلهم الرعب ، ودعاهم إليك الهرب فهاقتوا نحوك بالنصيحة وأموك بالطلب . وإن كان متائباً محملاً رجوت أن تستميل إليك بعضهم ، ويستدعي الطمع ذوى الشره منهم ، وتنال بذلك ما تحب من أخبارهم ، إن شاء الله .

إذا تدانى الصقان ، وتواقف الجمعان ، واحتضرت الحرب ، وعبأت أصحابك لقتال عدوهم ؛ فأكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، والتوكل على الله عز وجل والتفويض إليه ، ومسأله توفيقك وإرشادك ، وأن يعزم لك على الرشد المنجى ، والعصمة الكائنة ، والحياطة الشاملة . ومر جندك بالصمت وقلة التلقت عند المصاولة ، وكثرة التكبير في أنفسهم ، والتسبيح بضائهم ؛ ولا يظهرها تكبيراً إلا في الكترات والحملات ، وعند كل زلقة يذلقونها ؛ فأما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجبن ، وليذكروا الله في أنفسهم ويسأله نصرهم وإعزازهم ، وليكثر من قول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، اللهم أنصرنا على عدوك وعدونا الباغي ، وآكفنا شوكته المستحده ، وأيدنا بملائكتك الغاليين ، وأعصمنا بعونك من الفشل والعجز إنك أرحم الراحمين .

وليكن في معسكرك المكبرون في الليل والنهار قبل المواقفة ، وقوم موقوفون يحضونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ،

وَيَدُّ كُرُونَهُمُ الْجَنَّةَ وَدَرَجَاتِهَا وَيُنْعِمُ أَهْلِهَا وَسُكَّانَهَا، وَيَقُولُونَ : أَدَّ كُرُوا اللَّهَ يَدُّ كُرْمًا ،
وَأَسْتَنْصِرُوهُ يَنْصُرُكُمْ ، وَالتَّجِئُوا إِلَيْهِ يَمْنَعُكُمْ . وَإِنْ أَسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ أَنْتَ الْمُبَاشِرَ
لَتَعِيَّةِ جُنْدِكَ ، وَوَضَعِهِمْ مَوَاضِعَهُمْ مِنْ رَأْيِكَ ، وَمَعَكَ رِجَالٌ مِنْ ثِقَاتِ فُرْسَانِكَ ،
ذَوُوسِنٍّ وَتَجْرِبَةٍ وَنَجْدَةٍ عَلَى التَّعَبَةِ الَّتِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَاصَفُهَا لَكَ فِي آخِرِ كِتَابِكَ ،
فَأَفْعَلْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

أَيْدِكَ اللَّهُ بِالنَّصْرِ ، وَعَلَبَ لَكَ عَلَى الْقُوَّةِ ، وَأَعَانَكَ عَلَى الرَّشْدِ ، وَعَصَمَكَ مِنَ
الزَّيْغِ ، وَأَوْجَبَ لِمَنْ أَسْتَشْهَدَ مَعَكَ ثَوَابَ الشُّهَدَاءِ وَمَنَازِلَ الْأَصْفِيَاءِ ، وَالسَّلَامُ
عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

وكتب سنة تسع وعشرين ومائة .

الطرف الثالث

(فيما كان يكتب عن خلفاء بني العباس ببغداد إلى حين أنقراض)

(الخلافة العباسية من بغداد)

وهو على أربعة أنواع :

النوع الأول

(ما كان يكتب لوزراء الخلافة)

وكان رسمهم فيه أن يفتح بلفظ « أما بعدُ فالحمد لله » ويؤتى فيه بثلاث
تحميدات ، وربما اقتصر على تحميدة واحدة . وعلى ذلك كانت تقاليدُ وزراءهم من
أرباب السيف والأقلام .

وهذه نسخةٌ تقليدٍ من ذلك كتب بها العلاء بن موصلاً ، عن القائم بأمر الله ،
للوزير نجر الدولة بن جَهِير ، في شهور سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة ، وهو :

أما بعدُ ، فالحمدُ لله ذِي الآلَاءِ الصَّافِيَةِ المَوَارِدِ ، والنِّعْمَاءِ الصَّادِقَةِ الشُّوَاهِدِ ،
وَالطُّوْلِ الجَامِعِ شَمَلِ أسبابِ المِنَحِ الشُّوَارِدِ ؛ ذِي القُدْرَةِ المَصْرُفَةِ عَلى حُكْمِهَا مَجَارِي
القَدَرِ ، وَالمِشِيئَةِ الحَالِيَةِ بِالنَّفَازِ فِي حَالَتِي الوَرْدِ وَالصَّدَرِ ؛ المِذَلِّ بِمِجْمَلِ صُنْعِهِ أَعْنَاقَ
المَصَّاعِبِ ، المُدِيمِ بِكِرِيمِ لُطْفِهِ مِنْ أَمْتِدَادِ ذَوَائِبِ النَّوَائِبِ ؛ الذِي جَلَّ عَن إدْرَاكِ
صِفَاتِهِ بَعْدَ أَوْحَدٍ ، وَدَلَّ بِبَاهِرِ آيَاتِهِ عَلى كَوْنِهِ القَرْدِ الوَلِيِّ بِكُلِّ شُكْرٍ وَحَمْدٍ ؛ سَبْحَانَهُ
وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُون .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي أَخْتَصَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالرِّسَالَةِ وَاجْتَبَاهُ ، وَحَبَّاهُ
بِالْكَرَامَةِ بِمَا أَشْرَقَ لَهُ مَطْلَعُ الجَلَالِ ، وَأَخْتَارَهُ وَبَعَثَهُ لِإِظْهَارِ كَلِمَةِ الحَقِّ بَعْدَ أَنْ
مَدَّ الضَّلَالُ رُوقَهُ ؛ فَلَمْ يَزَلْ يَأْعِزُّ الشَّرْعَ قَائِمًا ، وَلسَاعَاتِ زَمَانِهِ فِي طَلَبِ رِضَا
اللهِ قَاسِمًا ؛ لَا يَنْحَرِفُ عَن مَقَاصِدِ الصَّوَابِ وَلَا يَمِيلُ ، وَلَا يُغْلِي مَطَايَا جِدِّهِ فِي تَقْوِيَةِ
الدِّينِ مِمَّا يُتَابِعُ فِيهِ الرِّسِيمَ وَالدَّمِيلَ ، إِلَى أَنْ أزالَ عَن القُلُوبِ صَدَأَ الشُّكُوكِ وَجَلَا ،
وَأَجْلَى مَسْعَاهُ عَن كَلِّ مَا أودَعَ نُفُوسَ أَحْلَافِ البَاطِلِ وَجَلَا ؛ وَمَضَى وَقَد أَضَاءَ
لِلإِيمَانِ هَلَالٌ أَمِنَ سِرَّارُهُ ، وَأَنْتَضَى لِإِبَادَةِ الشَّرِكِ حُسَامًا لَا يَبْنُو قَطُّ غِرَارُهُ ؛
فصَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلى آلِهِ الطَّاهِرِينَ ، وَأَصْحَابِهِ المُنْتَخَبِينَ ؛ صَلَاةً يَتَّصِلُ الأَصِيلُ فِيهَا
بِالقُدْوَةِ ، وَتَرَى قِيمَتَهَا فِي الأَجْرِ وَافِيَةِ العُلُوِّ وَالعُلُوِّ .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي أَصَارَ إِلَى أميرِ المُؤْمِنِينَ مِنْ إرْثِ النُّبُوَّةِ مَا هُوَ أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى ،
وَأَنَارَ لَهُ مِنْ مَطَالِعِ العِزِّ مَا أَسَدَى بِهِ كَلِّ نِعْمَةٍ وَأَوْلَى ؛ وَأَحَلَّهُ مِنْ شَرَفِ الإِمَامَةِ

(١) كذا في الأصول المديم بالميم ولعله المديل باللام تأمل .

بِحَيْثُ عَنَتْ لَطَاعَتَهُ أَعْنَأُقُ الرَّقَابِ الصَّعَابِ ، وَأذَعَنْتَ لَهُ الْقُلُوبُ بِالْأَنْطَوَاءِ عَلَى
الْوَلَاءِ الْفَسِيحِ الرَّحَابِ وَالشَّعَابِ ؛ وَجَعَلَ أَيَّامَهُ بِالنَّضَارَةِ أَهْلَةَ الْمَعَانِي ، مِتْقَابِلَةً
أَسْمَاؤُهَا فِي الْحُسْنِ بِالْمَعَانِي ؛ فَمَا يَجْرِي فِيهَا إِلَّا مَا الصَّوَابُ فِي فِعْلِهِ كَامِنٌ ، وَالْحَظُّ
يَأْتِيهَا سُبُلُهُ كَائِنٌ ؛ إِبَانَةٌ عَنِ اقْتِرَانِ الرَّشْدِ بَعِزَائِهِ فِي حَالَتِي الْعَقْدِ وَالْحَلِّ ، وَاقْتِرَابِ
مَرَامِ كُلِّ مَا يَحْتَلُّ مِنَ الصَّلَاحِ فِي الدَّهْرِ أَفْضَلُ الْحَلِّ .

ثم إنه يرى من إقرار الحقوق في نصابها، وإمرار جبال التوفيق في جانبها من
الأطباع الممتدة إلى اغتصابها ؛ ما يُعْرِبُ عَنِ الْإِهْتِدَاءِ إِلَى طُرُقِ الرَّشْدِ ، وَالْإِفْتِدَاءِ
بِمَنْ وَجَدَ ضَالَّةَ الْمَرَادِ حِينَ تَشَدُّ ؛ وَيَقْصِدُ مِنْ تَجْدِيدِ الْعَوَارِفِ ، عِنْدَ كُلِّ عَالَمٍ بِقَدْرِهَا
فِي الزَّمَانِ عَارِفٌ ؛ مَا يَحْلُوجُنِي تَمَرُّهُ فِي كُلِّ أَوَانٍ ، وَيَحْدُو أَنْتِشَارُ خَبْرِهِ عَلَى إِعَانَةِ كُلِّ
فِكْرٍ فِي وَصْفِهِ عُنْوَانٌ ، فَيَتَنَاوَلُ الرُّوَاةُ ذَكَرَ ذَلِكَ غَوْرًا وَتَجَدًّا ، وَتَلَقَى الْهِمَمُ الْعَلِيَّةُ
أَذْخَارَ الْجَمَالِ بِهِ أَنْفَعَ مِنْ كُلِّ قِنِيَّةٍ وَأَجْدَى ؛ اسْتِمْرَارًا عَلَى شَاكِلَةِ تَحَلَّتْ بِالكَرَمِ ، وَحَلَّتْ
مِنَ الْجَلَالِ فِي الْقَلَلِ وَالْقِسَمِ ، وَحَلَّتْ آثَارَهَا فِي إِبْلَاءِ نَفِيسِ الْمِنَحِ وَجَزِيلِ الْقِسَمِ .

ولما غدا منصب الوزارة موقوفا على الذين طالما جزوا بهمهم نواصي الخطوب،
وحازوا بذمهم المنال في مقاصد استشهدوا بها على إحراز كل فضيلة وأستدلوا؛
وكفوا بكفائتهم أكف الفساد وردوا، وحازوا الفعال في كل ماسعوا له وجدوا؛
وخلا الزمان ممن ينهض بعء هذا الأمر الجسيم، وتُصَيِّخُ أُنْبَاءُهُ فِيهِ ذَكِيَّةَ الْأَرْجِ
وَالنَّسِيمِ - لَمْ يَبْقَ غَيْرُكَ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ التَّخْيِيمَ فِي عِرَاصِهِ ، وَالتَّحْكِيمَ فِي آجِنَاءِ الْفَخْرِ
مِنْهُ وَأَسْتِخْلَاصِهِ ؛ وَكَانَ الْقَدْرُ سَبَقَ بِأَنْفِصَالِكَ عَنِ الْخِدْمَةِ لِالضَّعْفِ سِرِيرِهِ ،
وَلَا لِقُوَّةَ جَرِيرِهِ ، وَلَا لِكُدْرَ سِيرِهِ ؛ وَكَيْفَ وَأَنْتَ الْمَتَفَرِّدُ بِالْكَمَالِ ، وَالْمَتَجَرِّدُ فِي كُلِّ

(١) لعله في صياتها .

(٢) أى يبعث ويسوق أنتشار الخ .

مقام سلمٍ حَدِّتْ قَرْبِكَ فِيهِ مِنْ حَادِثِ الْكَلَالِ ؛ وَلَكَ فِي الدَّوْلَةِ الْحُقُوقُ الَّتِي أَعْتَدْتَ لَكَ مِنْ وَقَعِ الْإِسْتِرَادَةِ بِحَسَبِهَا ، وَالْمَوَاقِفُ الَّتِي أَعْتَدْتَ مِنْ دِرَّةِ الْإِحَادِ بِمَا أَيْنَ الظُّرُّ لَهَا وَأَنَا ، وَالْمَقَاصِدُ الَّتِي أَعْدَمْتَ مِنْكَ الْبَدَلُ ، وَلَا أَنْحَرَفَ لَكَ مِنْهَا مَسْعَى عَنْ مَنَاحِجِ الْإِصَابَةِ وَلَا عَدَلٍ ؛ وَتَمَكَّنْتَ فِيهَا مِنْ عِنَانِ التَّوْفِيقِ بِمَا لَا يُجَارِي سَيْفَكَ فِيهِ قَطُّ ، وَلَا يُحْسِنُ لَهُ حَالُ الْمَسْرَى إِلَيْهِ الْمَحَطُّ ؛ وَالْآثَارُ الَّتِي أَنْارْتَ مِنْ كَوَامِنِ الرِّضَا أَفْضَلَ مَا يُذَنَّرُ وَيُقْتَنَى ، وَأَنْارْتَ مِنْ دَلَائِلِ الزُّلْفَى مَا يُتَجَزَّبُ بِهِ وَعُدُّ الْمُنَى وَيُقْتَضَى ؛ لَكِنْ كَانَ ذَلِكَ مَسْطُورًا فِي الْكِتَابِ ، وَلِيَتَبَيَّنَ أَنَّهُ لَا عِوَضَ عِنْدَكَ فِي الْإِسْتِحْقَاقِ لِلْأَمْرِ وَالْإِسْتِجَابِ ؛ لَمْ يُوجَدْ لِهَذِهِ الرِّثْبَةِ كُفُوًا سِوَاكَ ، وَلَا يُزَيِّهَهَا عَنِ الْعَطَلِ غَيْرُ رَائِقِ حَلَاكٍ ؛ فَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ تَسْلِيمَ مَقَالِيدِهَا إِلَيْكَ إِذْ كُنْتَ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ، وَمَنْ يَجْمَعُ بَعْدَ الشَّتَاتِ شَمْلَهَا ؛ فَطَوَّقَكَ مِنْ قَلَائِدِهَا مَا هُوَ بِأَعْطَافِكَ الْأَصْقِ ، وَبِتَمَامِ أَوْصَافِكَ أَلْبَقِ : لَتَدْرِعَ مِنْ عِزِّ الْوِزَارَةِ جِلْبَابًا لَا تُنْحَتِقِ الْأَيَّامُ لَهُ جِدَّهُ ؛ وَلَا تَزَالُ السُّعُودُ بِمَا يَسْئُلُ إِلَى دَوَامِ مُدَّتِهِ مَمْتَدَّةً ؛ وَتَرْتَضِعُ مِنْ لِبَانِ خِلَافِهَا مَا يَقْضِي لَكَ بِأَنْ تَقِفَ نَفْسَهَا عَلَيْكَ ، وَتَقِفَ آمَالُ الْأَمْثَالِ دُونَ مَا أَنْتَهِتِ الْغَايَةُ فِيهِ إِلَيْكَ ؛ وَتَعْتَمِدَ فِيمَا عَدَقَهُ بِكَ مِنْهَا وَنَاطَهُ ، وَوَفَّكَ فِيهِ حَقُوقَ النَّظَرِ وَأَشْتِرَاطَهُ ؛ بِحِكْمِ تَوَحُّدَتِ فِي إِحْرَازِ أَدْوَاتِهَا الَّتِي لَا يَبْلُغُ أَحَدٌ لَكَ مِنْهَا مَدَى ، وَلَمْ يَمُدَّ طَامِعٌ إِلَى مَسَاجِلَتِكَ فِيهَا يَدًا - مَا يُرِضِي اللَّهُ تَعَالَى وَيُرْضِيهِ ، وَيُحْصَى ذِكْرُكَ بِالطَّيِّبِ وَيُحِيطُهُ فَتُفُوزَ فَوْزًا كَبِيرًا ، وَتُعِيدَ السَّاعِيَّ فِي إِدْرَاكِكَ شَاوِكَ ظَالِمًا حَسِيرًا .

ثم إنه شفع هذه المنحة التي قصصك مجاسد نقرها بالوجوب ، وعوضك فيها الدهر بجادث البشر عن سابق القطوب - بإيصالك إلى حضرة ، وإدنائك من سُدته ؛ ومناجاتك بما يُتَّبَعُ لَكَ أَمْتِطَاءَ غَارِبِ الْمَجْدِ وَصَهْوَتِهِ ، وَالْإِحْتَوَاءَ عَلَى خَالِصِ السَّعْدِ

(١) لعل الصواب أن يقال شرب الرجل حتى أون أي امتلا .

وَصَفْوَتِهِ ؛ وَجِبَائِكَ مِنْ صُنُوفِ التَّشْرِيفَاتِ الَّتِي تَرُوقُ حِلِيَّ خِلَالِهَا ، وَتُتَوَّقُ الْآمَالَ
إِلَى إِدْرَاكِهَا وَمَنَالِهَا ؛ وَصَفَتِ الْكِرَامَاتُ الَّتِي وَفَّتِ الْمُنَى بِهَا بَعْدَ مَطَالِهَا ، وَنَفَّتِ
الْقَدَى عَنْ مُقَلِّ مَغْضُوضَةٍ بِسُوءِ فِعَالِ الْأَيَّامِ وَمَقَالِهَا ؛ بِمَا يُوْطِئُ عَقَبَكَ الرَّجَالَ ،
وَيُضَيِّقُ عَلَيَّ مَنْ يُجَاوِلُ مُجَارَاتِكَ الْمَسْرَحَ وَالْمَجَالَ ؛ وَلَمْ يَقْتَسِعْ بِذَلِكَ فِي حَقِّ النَّعْمَى الَّتِي
أَعْدَاكَ فِيهَا عَلَى الْغَيْرِ ، وَأَعْدَاكَ مِنْهَا فِي ظِلِّ مِنَ الْأَمْنِ الْبَادِي الْأَوْضَاحِ وَالغُرْبِ ؛
حَتَّى أَلْحَقَ بِسِمَاتِكَ «تَاجَ الْوُزَرَاءِ» تَتَوِيهَا بِذِكْرِكَ فِي الزَّمَانِ ، وَتَتِيهَا عَلَى اخْتِصَاصِكَ
لَدَيْهِ بِوَجَاهَةِ الرَّبَّةِ وَالْمَكَانِ ؛ فَصَارَ مَكْرُوهَ الْأُمُورِ فِي مَحْبُوبِهَا سَبَابًا ، وَخَبَتَ نَارُ كُلِّ
مَنْ سَعَى فِي تَفْضِيلِ النِّزَامِ وَجِيْفًا وَخَبِيًّا ، حَتَّى الْآمِلُونَ أَنْ يَجْعَلُوا تَحْتَ الْخِلَافَةِ ^(١)
زِمَانًا ، وَتُصْبِحَ رِبَاعُهُ بَعْدَ النَّصْرَةِ دِمْنًا ؛ لِيُعْقِبَهُمْ ذَاكَ نَيْلَ مَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْإِمْضَاءُ (؟)
لِذَا الْعَزْمِ . وَبِالْجَمَلَةِ فَالسَّامَةُ وَاقِعَةٌ مِنْ تَتَابُعِ هَذِهِ الشُّكَاوَى ، وَقَدْ كَانَ الْأَحَبُّ أَنْ
لَا يُضْمَنَ الْكُتُبَ النَّافِذَةَ سِوَى تَعْهَدِ الْأَنْبَاءِ ، لِأَزَالِ عَرْفُهَا أَرْجَا مِنْ سَائِرِ الْأَرْجَاءِ
وَالنَّوَاحِي . لَكِنْ تَأْتِي مَجَارِي الْأَقْدَارِ ، وَدَوَاعِي الْأِضْطِرَارِ ، إِلَى مَا يَرْتَقِي مَاءَ الْإِرَادَةِ ^(٢)
وَالإِيثَارِ ؛ وَالْآنَ فَقَدْ بَلَغَ الْمَاءُ ، وَجَلَبَ مِنْ عِدَمِ الصَّبْرِ الْحِنَاءَ ؛ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرُ هِرَّةٍ
دِينِيَّةٍ مِنْكَ تَكْشِفُ بِهَا هَذِهِ الْمَعْرَةَ ، وَتُخْفِ مِنْهَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا يُتِمُّ لَدَيْهِ أَكْمَلَ
الْمَسْرَةِ ؛ فَقُمْ فِي ذَلِكَ مَقَامَ مَثَلِكِ - وَإِنْ كَانَ لَا نَظِيرَ لَكَ يُوجَدُ - تَحْتَظُّ بِمَا يُمَضَى
لَكَ فِيهِ آسْتَحْقَاقَ كُلِّ الْحَمْدِ وَيُوجِبُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد من ذلك، كتب بها عن المسترشد - فيما أظن - لبعض
وزرائه، وهي :

أما بعد، فالحمد لله المنفرد بكبريائه، المنتفضل على أوليائه؛ مجزئ النعماء،
وكاشف النعماء؛ ومُسْبِغِ العطاء، ومُسْبِلِ الغطاء؛ ومُسْنِي الحياء، ومُسْدِي الآلاء؛

(١) في الأصل الخفاة ولا معنى له . (٢) لعله بما يرتق .

الذي لا يؤوده الأعباء ، ولا يكيده الأعداء ؛ ولا تبلغه الأهوام ، ولا تُحيط به
الأفهام ؛ ولا تُدرِّكه الأبصار ، ولا تُخيِّله الأفكار ؛ ولا تُهرمه الأعوامُ بتواليها ،
ولا تُعجزه الخطوبُ إذا آذمت ليالِها ؛ عالمٌ هو أجس الفكر ، وخالق كل شيء
بقدر ؛ مصرِّف الأقدار على مشيئته ومُجربها ، ومانح مواهبه من أضحى بيد الشكر
يمتريها ؛ حمداً يصوب حياته ، ويعذب جناه ؛ وتهلل أسرة الإخلاص من مطاويه ،
ويستدعي المزيد من آلائه ويقتضيه .

والحمد لله الذي استخلص محمداً صلى الله عليه وسلم من زكي الأضلاب ، وانتخبه
من أشرف الأنساب ؛ وبعثه إلى الخليقة رسولا ، وجعله إلى منهج النجاة دليلا ؛
وفدو الشرك بورا لدل وقضاه (١) وشهر غضب العزِّ وانتصاه ؛ والأُمم عن طاعة
الرحمن عازفه ، وعلى عبادة الأوثان عاكفه ؛ فلم يزل بأمر ربّه صادعا ، وعن التمسك
بعرا الضلال الواهية وإزعا ؛ وإلى ركوب محجة الهدى داعيا ، وعلى قدم الاجتهاد
في إبادة الغواية ساعيا ؛ حتى أصبح وجه الحق منيرا مشرقا ، وعوده بعد الذبول
أخضر مورقا ؛ ومضى الباطل موليا أدباره ، ومستصجبا تثيره وبواره ؛ وقضى صلى
الله عليه وسلم بعد أن مهد من الإيمان قواعده ، وأحكم أساسه ووطائده ؛ وأوضح
سبل الفوز لمن اقتفاه ، ولحب طريقها بعد ما دثرت صواها ؛ فصلى الله عليه وعلى
آله الطاهرين ، وصحبه الأكرمين ؛ صلاة متصلا سح عمامها ، مسفرا صبح دوامها .
والحمد لله على أن حاز لأمر المؤمنين من إرث النبوة ما هو أجدر بجزارة مجده ،
وأولى بقيض عدّه ؛ ووطأ له من الخلافة المعظمة مهادا أحفرت نحوه حوافر
أرتياحه ، وجذبته إليه أزيمة راعه والتياحه ؛ إلى أن أدرك من ذلك مناه ، وألقى
الاستقرار الذي لا يريم عصاه ؛ وعضد دولته بالتأييد من سائر أنحاء ومراميه ،

(١) كذا في الأصول على هذه الصورة ولم نهند إلى تحقيقه .

وأعراضه ومغازيه ؛ حتى فاقت الدول المتقدمة إشراقا ، وأعطتها الحوادث من التغيير عهدا وفيأ وميثاقا ؛ وأضحت أيامه - أدامها الله - حالية بالعدل أجيادها ، جالية في ميادين النضارة جياؤها ؛ وراح الظلم دارسة أطلاله ، مقلصا سرباله ، قد أنجم سخابه ، وزمت للرحلة ركابه ؛ فما يستمر منها أمر إلا كان صنع الله سبحانه مؤيده ، والتوفيق مصاحبه أئى يم ومُسدده ؛ وهو يستوزعه - جلت عظمته - شكر هذه النعمة ، ويستريده بالتحدث بها من آلائه الجمه ؛ ويستمد منه المعونة في كل أرب قصده وأمه ، وشخذ لا تحائه عزمه ؛ وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه يتنب .

ولما كانت الوزارة قُطب الأمور الذى عليه مدارها ، وإليه إيرادها وعنه إصدارها ؛ وحلا منصبها من كاف يكون له أهلا ، وينظم من شماله شملا ، أجال أمير المؤمنين فيمن يختار [لذ] لك فكره ، وأنعم [النظر] لأهل الأصطفاء لهذه المترلة حتى صرح محض رأيه عن زبدة اختيارك ، وهداه صائب تديره إلى اقتراحك وإيثارك ؛ وألق إليك بالمقاليد ، وعول في دولته القاهرة على تديريك السديد ؛ وناط بك من أمر الوزارة مالم يلف له سواك مستحقا ، ولا لنسيم استيجابه مسترقا ؛ علما بما تبديه كفايتك المشهوره ، وإيالتك المنجوره ؛ من تقويم ما أعجز مياؤه ، وإصلاح ما استشرى فساده ؛ وأستقامة كل حال وهى عمادها ، وأصلت على كثرة الاقتداح زنادها ؛ وتثبتا لما تبسم عنه الأيام من آثار نظرك المعربة عن آحتوائك على دلائل الجزاله ، وأستيلائك على تحايل الأصاله ؛ اللذين تُنال بهما غايات المعالى ، وتُفرع الدرئ والأعلى .

ثم إن أمير المؤمنين بمقتضى هذه الدعاوى اللازمه ، وحرمت جتك وأبيك السالفة المتقاه ؛ التى أستحصدت فى الدار العزيزة قوى أمراسها ، وأدنت منك

الآن ثمرة غراسها؛ رأى أن يُشيد هذه العارفة التي تآرج لديك نسيما، وبدت على أعناق فخرك رؤومها؛ وجادت رباعك شأبيها، وضفت عليك جلابيها؛ بما يزيد أزرلك أشنيدادا، وباع أملك طولا وأمتدادا؛ فأذناك من شريف حضرته مناجيا، ومنحك من مزايا الأيام ما يُكسبك ذكرا في الأعقاب ساريا، وعلى الأحقاب باقيا، وأفاض عليك من الملابس الفاخرة ما حزت به أوصاف الجمال، وجمع لك أبايد الآمال؛ وقلدك وحصل (١) بداوه، وأمطاك صهوة ساج يساوي الرياح سبقا، ووسمك بكذا وكذا في ضمن التأهيل للتكنية، إبانته عن جميل معتقده فيك، ورعاية لوسائلك المحكمة المرائر وأواخيك .

وأمرك بتقوى الله التي هي أحسن المعامل، وأعدب المناهل؛ وأنفع الذخائر، يوم تُبلى السرائر؛ وأن تستشعرها فيما تُبديه وتُخفيه، وتذره وتأتيه؛ فإنها أفضل الأعمال وأوجبها، وأوضح المسالك إلى الفوز برضا الله وأحبها، وأجلب الأشياء للسعادة الباقية، وأجناها لقطوف الحنان الدانيه؛ عالما بما في ذلك من نفع تتكامل أقسامه، وتنتفع عن نور الصلاح الجامع أحكامه؛ قال الله جلّت آلاؤه، وتقدست أسمائه :
 ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .
 وقال تعالى حاضا على تقواه، وغيرها عما خص به متقيه وحباه؛ وكفى بذلك داعيا إليها، وباعثا عليها : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ .

وأمرك أن تتوحي المقاصد السليمة وتأتيها، وتتوخى الموارد الوخيمة وتجتوبها؛ وأن تُتبع بالحزم أفعالك، وتجعل كتاب الله تعالى إمامك الذي تهتدي به ومثالك؛ وأن تكف من نفسك عند جماعها وإبائها، وتصدها عن متابعة أهوائها؛ وتبني عند احتدام سورة الغضب عنانها، وتُسعرها من حديد الخلائق ما يوافق إسرارها فيه

(١) كذا في الأصل على هذه الصورة والمراد أنه انعم عليه بجملة وسيف وجواد . تأمل .

إعلانها : فإنها لم تزل إلى منزلة السوء المردية داعية ، وعن سلوك مناهج الخير المنجية ناهية ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَرَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

وأمرك أن تختير للخدمة بين يديك من بلوت أخباره ، وأستشفقت أسراره ؛ فعلمته جامعا أدوات الكفاية ، موسوما بالأمانة والدرابيه ؛ قد عركنته رجا التجارب عرك الثقال ، وحلب الدهر أشطره على تصاريف الأحوال : ليكون أمر ما يؤلاه على منهج الاستقامة جاريا ، وعن ملايس الخلل والارتياح عاريا ؛ فلا يضع في منزلة قداما ، ولا يأتي ما يقرع سنه لأجله ندما ؛ وأن تمتح رعايا أمير المؤمنين من بشرك ما يعقل شوارد الأهواء ، ويلوى إليك بأعناق نوافرها اللاتي اعتصمن بالجماح والإباء ؛ مازجا ذلك بشدة تستولى حيا رهبتها على القلوب ، وتفل مرهفات بأسها صرف الخطوب ، من غير إفراط في استدامة ذلك يضيق نظامها به ، ويغريها اتصاله باستشعار وعمر الخطأ واستيطاء مركبه .

وأمرك أن تغذب مورد الإحسان لمن أحمدت بلاهه ، وتحقق غناؤه ؛ وأستحسننت أثره ، وأرتضيت عيانه وخبره ؛ وتسدل أسمال الهوان على من بلوت فعله ذميا ، وألفيته بعراض الإساءة مقيا ، وإلى رباعها الموحشة مستائسا مستديما ؛ كيلا لكل أمرئ بصاعه ، وأتباعا لما أمر الله باتباعه ؛ وتجنبنا للإهمال الجاعل المحسن والمسيء سواء ، والمعيد هما في موقف الجزاء أكفأ ؛ فإن في ذلك ترهيدا لدوى الحسنى في الإحسان ، وتتأبأ لأهل الإساءة في العدوان ؛ ولولا ما فرضه الله على أمير المؤمنين من إيجاب الحجج ، والفكالك من ربة الاجتهاد ببلاغ المعذرة ، لثنى عنان الإطالة مقتصرا ، وأكتفى ببعض القول مختصرا ؛ ثقة بامتناع سدادك ونهاك ،

أَنْ يَرَاكَ صَوَابُ الْفِعْلِ حَيْثُ نَهَاكَ ؛ وَأَسْتِنَامَةً إِلَى مَا حَوَّلَكَ اللَّهُ مِنَ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ ،
 الْمُطَّلِعِ مِنْ خِصَائِصِ الْبَدِيهَةِ عَلَى مَحْتَجِبِ الْعَوَاقِبِ . فَأَرْتَبُ يَافِلَانَ هَذِهِ التَّعْمِي
 الَّتِي جَادَتْ دِيمَهَا مَغَانِيكَ ، وَحَقَّقَتِ الْأَيَّامُ بِمَكَاتِمِهَا أَمَانِيكَ ؛ بِشُكْرِي نَطِقُ بِهِ لِسَانُ
 الْإِعْتِرَافِ ، فَيُؤَمِّنُ وَحِشِي النَّعْمَ مِنَ النَّفَارِ وَالْإِنْخِرَافِ ؛ وَأَسْلُكَ فِي جَمَالِ السَّيْرِ ،
 وَالْإِقْتِدَاءِ بِهَذِهِ الْأَوَامِرِ الْمَبِينَةِ الْمَذْكُورَةِ ، جَدِّدًا يُغْرِي بِجَمْدِكَ الْأَلْسِنَةَ ، وَيُعْرِبُ عَنْ
 كَوْنِكَ مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ؛ وَاللَّهُ يَصَدِّقُ مَحِبَّةَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
 فِيكَ ، وَيُوزِعُكَ شُكْرًا مَا أَوْلَاكَ وَيُؤَلِّسُكَ ؛ وَيَجْعَلُ الصَّوَابَ غَرَضًا لِنَيْلِ عِزَّتِهِ ،
 وَيُدْوِدُ عَنْ دَوْلَتِهِ الْقَاهِرَةِ كِتَابَ الْخُطُوبِ بِصَوَارِمِ السَّعْدِ وَلَهَازِمِهِ ، وَيَصِلُ أَيَّامَهُ
 الزَّاهِرَةَ بِالْخُلُودِ ، وَيَسْطُرُ عَلَى أَقْصَى الْأَرْضِ ظِلَّهُ الْمُدْوَدُ ؛ مَا أَسْتَهْلُ جَفْنَ الْغَيْثِ
 الْمُدْرَارِ ، وَأَبْتَسَمْتُ تُغُورِ النَّوَّارِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(مما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يكتب
 لأرباب الوظائف من أصحاب السيف ، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(العهود ، وهي أعلاها رتبة)

وطريقتهم فيها أن تُفْتَحَ بلفظ : « هذا ما عهد عبد الله ووليّه فلان أبو فلان
 الإمام الفلاني إلى فلان الفلاني حين عرف منه » ويذكر بعض مناقبه ، وربما
 تعرض لثناء سلطان دولته عليه . ثم يقال : « فقلده كذا وكذا » ثم يقال : « وأمره
 بكذا » ويأتي بما يناسب من الوصايا . ثم يقال : « فقلده كذا وكذا » ثم يقال :

«هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكَ» أو نحو ذلك ؛ ولا يُؤْتَى فيه بتحميد في أول العهد ولا في أشائه كما تقدم في عهد الخلفاء للولك .

عهد أربابِ السيف

(وهي عدة ولايات)

منها — النظر في المظالم .

وهذه نسخة عهد كتب به أبو إسحاق الصابي ، عن المطيع لله ، إلى الحسين ابن موسى العلوّي ، بتقليد المظالم بمدينة السلام ، وهي :

هذا ما عهد عبد الله الفضل الإمام المطيع لله أمير المؤمنين ، إلى الحسين بن موسى العلوّي ، حين اجتمع فيه شرف الأعراف ، والأخلاق ؛ وتكامل فيه بين النقائب ، والضرائب ؛ وعرف أمير المؤمنين فيه فضل الكفاية والغناء ، ورشاد المقاصد والأئمة ؛ في سالف ما ولاه إياه من أعماله الثقيلة التي لم يزل فيها محمود المقام ، مستمرا على النظام ؛ مُصِيبَ النَّقْضِ والإبرام ، سديد الإساءة والإلحام ؛ زائداً على المرّادين ، راجحاً على الموازين ؛ فائتاً للحاذين ، مُبراً على المباين ؛ فقلده النظر في المظالم بمدينة السلام وسوادها وأعمالها ، وما يجري معها ؛ ثقةً بعلمه ودينه ، وأعتاداً على بصيرته وبقينه ؛ وسكوناً إلى أن الأيام قد زادتة تحليماً وتهدياً ، والسّن قد تاهت به تخنيكاً وتجرّيباً ؛ وأن صنيعاً أمير المؤمنين مستقرّةً منه عند أكرم أكفائها ، وأشرف أوليائها ؛ برحمه المتأدّ الدانيه ، وحرمة الشايحة العالیه ، ومغرفته الناقبة الداعية إلى التفويض إليه ، الباعثة على التعويل عليه ؛ وأمير المؤمنين يستمد

الله في ذلك أحسن ماعوده من هداية وتسييد، ومعونة وتأييد؛ وما توفيقه إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنِيب .

أمره بتقوى الله التي هي الجُنَّة الحَصِينة ، والعِصْمَةُ المَتِينة ؛ والسبب المتصل يوم انقطاع الأسباب ، والزيادة المبلغ إلى دار الثواب ؛ وأن يستشعرها فيما يسرّ ويعلن ، ويعتمدها فيما يُظْهِر ويُخْفِي ؛ ويعملها إمامه الذي يَخُوه ، ورائده الذي يَقْفُوهُ ؛ إذ هي شِمْة الأبرار والأخيار . وكان أولى من تعلق بعلائقها ، وتمسك بوثائقها ؛ لمفخره الكريم ، ومنصبه الصميم ؛ وأستظلاله مع أمير المؤمنين بدوحة رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله - التي يَكْتُمَانِ في فَنَائِهَا ، ويَأْوِيَانِ إلى أَمْنِهَا ؛ وحقيق على من كان منها مَنزَعُهُ ، وإليها مَرَجِعُهُ ؛ أن يكون طيباً زكياً ، طاهراً نقيّاً ، غنياً في قوله وفعله ، نظيفاً في سرّه وجهره ؛ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

وأمره بتلاوة القرآن ، وتأمل ما فيه من البرهان ، وأن يجعله نصباً لناظره ، ومألفاً لناظره ؛ فأخذ به ويعطى ، ويأمر له ويتبى ؛ فإنه الحجة الواضحة ، والمحجة اللائحة ؛ والمعجزة الباهرة ، والبينة العادلة ؛ والدليل الذي من أتبعه سلم ونجا ، ومن صدّف عنه هلك وهوى ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره أن يجلس للخصوم جلوساً عاماً ، ويُقْبِلَ عليهم إقبالاً تاماً ؛ ويتصفح ما يُرْفَعُ إليه من ظلاماتهم ، ويُنِيعَ النظر في أسباب محادثاتهم ؛ فما كان طريقه طريق المنازعة المتعلقة بنظر القضاة وشهادات العُدول رده إلى المتولى للحكم ، وما كان طريقه العُصوب المحتاج فيها إلى الكشف والفحص ، والاستشفاف والبحث ؛

نظر فيه نظرَ صاحبِ المظالم ، وأترع الحقّ من غصبِ عليه ، وأستخلصه ممن أمتدت له يدُ التعدي والتغرر إليه ؛ وأعادته إلى مستحقّه ، وأقرّه عند مستوجبهِ ؛ غيرَ مراقبٍ كبيراً لكبره ، ولا خاصاً لخصوصه ، ولا شريفاً لشرفه ، ولا متسلطناً لسُلطانه ؛ بل يقدمُ أمرَ الله جلّ ذكره في كل ما يأتى ويَدْر ، ويتوخى رضاه فيما يُورد ويُصدر ؛ ويكونُ على الضعيفِ المحقِّ حَداً رُؤفاً حتى يَتَصَرَّ ويتَصِف ، وعلى القويِّ المُبطلِ شديداً غليظاً حتى يتقادَ ويُدْعى ؛ قال الله جل وعز : ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ .

وأمره أن يَقَحَّ بابه ، وَيَسْهَلِ حِجَابَهُ ، وَيَسْطِ وَجْهَهُ ، وَيَلِينَ كَنَفَهُ ؛ وَيَصْبِرِ عَلَى الْخُصُومِ النَّاقِصِينَ فِي بَيَانِهِمْ حَتَّى تَطْهَرَ حُجَّتُهُمْ ؛ وَيُنِيمَ النَّظَرَ فِي أَقْوَالِ أَهْلِ اللِّسَنِ وَالْبَيَانَ مِنْهُمْ حَتَّى يَعْلَمَ مُصِيبَهُمْ ؛ فربَّما أَسْتَظْهَرَ الْعَرِيضُ الْمُبْطِلُ بِفَضْلِ بَيَانِهِ ، عَلَى الْعَاجِزِ الْمُحِقِّ لِعَمَى لِسَانِهِ ؛ وَهَنَالِكَ يَجِبُ أَنْ يَقَعَ التَّصَفُّحُ عَلَى التَّوَلِّينِ ، وَالْأَسْتَظْهَارُ لِلْأَمْرَيْنِ : لِيُؤْمِنَ أَنْ يُزُولَ الْحَقُّ عَنْ سَنِيهِ ، وَيُزَوَّرَ الْحُكْمُ عَنْ طَرِيقِهِ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بَنِيًّا فَبَيِّنُوا أَن تَصِيبُوا قَوْمًا بِيْهَالَةً فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ .

وأمره بأن لا يردَّ للقضاة حُكماً يَمْضُونَهُ ، ولا سِحْلاً يَنْفِدُونَهُ ، ولا يُعَقِّبُ ذَلِكَ بفسخ ، ولا يُطْرَقُ عَلَيْهِ التَّقْضُ ؛ بل يكونُ لهم موافقاً مُؤَاوِزاً ، ولأحكامهم عاضداً ناصراً ؛ إذ كان الحقُّ واحداً وإن اختلفت المذاهبُ إليه . فإذا وجدَ القِصَّةَ قد سِيقتْ ، والحكومةُ قد وقعتْ ؛ فليس هناك شكٌّ يوقِفُ عنده ، ولا ريبٌ يُتَاج

إلى الكَشْفِ عنه ؛ وإذا وجد الأمر مشتتاً ، والحق ملتبساً ؛ والتغرر مستعملاً ،
 والتغلب مستجازاً ، نظر فيه نظر الناصر لحق المحقين ، الداحض لباطل المبطلين ؛
 المقوى لأيدي المستضعفين ، الآخذ على أيدي المعتدين ؛ قال الله عز وجل :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ
 وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدُوا وَإِن تَلُوا
 أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ .

وأمره أن يستظهر على معرفته بمشاوره الفضاة والفقهاء ، ومباحثة الربانيين
 والعلماء ؛ فإن أشتبه عليه أمر استرشدهم ، وإن عزب عنه صواب استدل عليه
 بهم ؛ فإنهم أزيمة الأحكام ، وإليه مرجع الحكم ؛ وإذا اقتدى بهم في المشكلات ،
 وعمل بأقوالهم في المضلات ؛ أمن من زلة العائر ، وغلطة المستائر ؛ وكان خليقا
 بالأصالة في رأيه ، والإصابة في أبحاثه ؛ وقد أمر الله - تقديست أسماؤه - بالمشاورة
 فعترف الناس فضلها ، وأسلكهم سبيلها ؛ بقوله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعلى آله :
 ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ۝ .

وأمره أن يكتب لمن توجب له حق من الحقوق إلى صاحب الكوفة بالشّد
 على يده والتكّن له منه ، وقبض الأيدي عن منازعته ، وحسم الأطاع في معارضته ؛
 إذ هو مندوب لتنفيذ أحكامه ، ومأمور بإمضاء قضاياه ؛ ومتى أخذ أحد من
 الخصوم إلى مكاذبة في حق قد حكم عليه به ، أخذ على يده وكفه عن عدوانه ، وردّه
 إلى حكم الله الذي لا يعدل عنه ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ
 فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته عليك ؛ قد أرشدك وذكرك ، وهذاك
وبصرك ؛ فكن إليه منتبها ، وبه مقتديا ؛ وأستعين بالله يعنك ، وأستكف به يكفك .
وكتب الناصح أبو الطاهر في تاريخ كذا .



ومنها — نِقَابَةُ الطَّالِبِينَ : وهي المعبر عنها الآن بِنِقَابَةِ الْأَشْرَافِ .

وهذه نسخة عهد نِقَابَةِ الطَّالِبِينَ ، كتب به أبو إسحاق الصابى ، عن الطائع لله
إلى الشريف أبي الحسن محمد بن الحسين العلوى الموصى ، مضافا إليها النظر
في المساجد وعمارتها ، وأستخلافه لوالده الشريف أبي أحمد الحسين بن موسى على
النظر في المظالم والحج بالناس ، في سنة ثمانين وثلثائة ، وهي :

هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم ، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن
الحسين بن موسى العلوى ، حين وصلته به الأنساب ، وقرنت لديه الأسباب ؛
وظهرت دلائل عقله ولبابته ، ووضحت مخايل فضله ونجابته ؛ ومهد له بهاء الدولة
وضياء الملة أبو نصر بن عضد الدولة مامهد عند أمير المؤمنين من المحلل المكين ،
ووصفه به من الحلم الرزين ؛ وأشار به من رفع المنزلة ، وتقديم الرتبة ؛ والتأهيل
لولاية الأعمال ، وتحمل الأعباء والأثقال ؛ وحيث رغبه فيه ، سابقة الحسين أبيه ،
في الخدمة والنصيحة ، والمشايعة الصحيحة ؛ والمواقف المحموده ، والمقامات
المشهوده ؛ التي طابت بها أخباره ، وحسنت فيها آثاره ؛ وكان محمد متخلقا بخلائقه ،
وذاهبا على طرائقه : علما وديانا ، وورعا وصيانا ؛ وعفة وأمانة ، وشهامة وصرامه ؛

(١) في "المثل السائر" ص ١٢٢ « وتأكدت له الأسباب » .

وتفردًا بالخط الحزيب : من الفضل الجميل والأدب الجزل ، والتوجه في الأهل ؛ والإيفاء في المناقب على لذاته وأترابه ، والإبرار على قرآنه وأضرابه - فقلده ما كان داخلًا في أعمال أبيه من نقابة نقباء الطالبين بمدينة السلام وسائر الأعمال والأمصار ؛ شرقًا وغربًا ، وبعدا وقربًا ؛ وأختصه بذلك جذبًا بضعه ، وإنافة بقدره ، وقضاء لحق رحمة ؛ وترفيها لأبيه ، وإسعافًا له بإيثاره فيه ؛ إلى ما أمر أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر في المظالم ، وتسير الحجيج في أوان المواسم ؛ والله يعرف أمير المؤمنين الحيرة فيما أمر ودبر ، وحسن العاقبة فيما قضى وأمضى ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنب .

أمره بتقوى الله التي هي شعار المؤمنين ، وسيمًا للصالحين ، وعِصمة عباد الله أجمعين ؛ وأن يعتقدها سرًا وجهرًا ، ويعتمدها قولًا وفعلًا ؛ فيأخذ بها ويعطي ، ويريش ويرى ؛ ويأتي ويذر ، ويورد ويصدر ؛ فإنها السبب المتين ، والمعقل الحصين ؛ والزاد النافع يوم الحساب ، والمسلك المفضي إلى دار الثواب ؛ وقد حَصَّ الله أوليائه عليها ، وهداهم في مُحكم كتابه إليها ؛ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله سبحانه مواظبًا ، وتصفحه مداومًا ملازمًا ؛ والرُجوع إلى أحكامه فيما أحلَّ وحرم ، ونقض وأبرم ، وأتاب وعاقب [وبعاد وقارب] ؛ فقد صحَّح الله برهانه [وُحِّجته] ، وأوضح منهاجه ومحجته ؛ وجعله جفرًا في الظلمات طالعا ، ونورا في المشكلات ساطعا ؛ فمن أخذ به نجا وسلم ، ومن عدل عنه هلك وهوى

(١) في "المثل السائر" بدله «ويسروني» .

(٢) الزيادة من "المثل السائر" .

[وَنَدِمَ] ^(١) . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّ أَكْثَبَ عَزِيزٍ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره بتزيره نفسه عما تدعو إليه الشهوات ، وتتطلع إليه التزوات ؛ وأن يضبطها ضبط الحكيم ، ويكفها كف الحليم ؛ ويجعل عقله سلطاناً عليها ، وتميزه أمراً ناهياً لها ؛ فلا يجعل لها عُذراً إلى صَبُوة ولا هَفْوَه ، ولا يُطلق منها عناناً عند تَوْرَة ولا فَوْرَه ؛ فإنها أمارَة بالسوء ، مُنْصَبَة إلى النعي ؛ فالحازم يَتَمَهَمها عند تحرك وطره وأربه ، وأهتياج غيظه وغضبه ؛ ولا يدع أن يعضها بالشكيم ، ويعركها عرك الأديم ؛ ويقودها إلى مصالحها بالخرايم ، ويعتقلها عن مُقارَفة المحارم والمآثم ؛ كما يعزُّ بتذليلها وتأديبها ، ويجلُّ برياضتها وتقويمها ؛ والمفتَرطُ في أمره تطمَّح به إذا طمَّحت ، ويصحح معها أئى جمحت ؛ ولا يلبث أن تُورده حيث لا صدر ، وتُلججه إلى أن يعتذر ؛ وتُقيمه مقام النادم الواجم ، وتنتكب به سيدل الراشد السالم ؛ وأحق من تحلّى بالمحاسن ، وتصدقى لاكتساب الحماد ؛ من ضرب بمثل سهمه في نسب أمير المؤمنين الشريف ، ومنصبه المنيف ؛ وأجتمع معه في ذُؤابة العترة الطاهره ، وأستظل بأوراق الدوحة الفاسحه ؛ فذاك الذى نتضاعف له المآثر إن آثرها ، والمثالب إن أسف إليهما ؛ ولا سيما من كان مندوباً لسياسة غيره ، ومُرشحاً للتقليد على أهله ؛ إذ ليس ينفي بإصلاح من ولى عليه ، من لا ينفي بإصلاح ما بين جنبه ؛ وكان من أعظم الهجنة أن يأمر ولا يأتمر ، ويزجر ولا يزدجر ؛ قال الله عز وجل : ﴿ أَمْرُؤُنَ النَّاسِ بِالرِّئَاسَةِ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكُتُبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

(١) الزيادة من "المثل السائر" .

وأمره بتصفح أحوال من وُلِّي عليهم وأستقرأ مذاهيبهم ، والبحث عن بواطنهم ودخائلهم ؛ وأن يعرف لمن تقدمت قدمه منهم وتظاهر فضله فيهم منزله ، ويوقيه حقه وربته ؛ وينتهي في إكرام جماعتهم إلى الحدود التي توجبها أنسابهم وأقدارهم ، وتقتضيها مواقفهم وأخطارهم : فإن ذلك يلزمه لشئيين : أحدهما يخصه وهو النسب الذي بينه وبينهم ، والآخر يعمه والمسلمين جميعا ، وهو قول الله جل ثناؤه : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ فالموودة لهم والإعظام لأكارهم ، والإشبال على أصاغيرهم ؛ [واجب] متضاعف الوجوب عليه ، ومتأكد اللزوم له ؛ ومن كان منهم في دون تلك الطبقة من أحداث لم يحننوا ، أو جُدعان لم يقرحوا ؛ مجريرين إلى ما يزرى بأنسابهم ويعض من أحسابهم ، عدلهم ونهبهم ، ونهائم ووعظهم ؛ فإن زرعوا وأقلعوا فذاك المراد بهم ، والمقصود إليه فيهم ؛ وإن أصروا وثابعوا ، أنالهم من العقوبة بقدر ما يكف ويردع ؛ فإن نفع وإلا تجاوزه إلى ما يوجب ويلدع ؛ من غير تطرق لأعراضهم ، ولا آتتهك لأحسابهم ؛ فإن الغرض منه الصيانة ، لا الإهانة ؛ والإداله ، لا الإداله . وإذا وجبت عليهم الحقوق ، أو تعلقت بهم دواعي الخوصوم ، قادمهم إلى الإغفاء بما يصح منها ويوجب ، والخروج إلى سنن الحق فيما يشتهه ويلتيس . ومتى لزمهم الحدود أقامها عليهم بحسب ما أمر الله به فيها ، بعد أن تثبت الجرائم وتصح ، وتبين وتوضح ؛ وتجرد عن الشك والشبهه ، وتقبل من الظن والتمه ؛ فإن الذي يستحب في حدود الله أن تُدرا عن عباده مع نقصان اليقين والصحة ، وأن تُحضى عليهم مع قيام الدليل والبينة . قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ .

(١) الإشبال العطف وفي "المثل السائر" « والاشتغال » وهو بمعناه .

(٢) الزيادة عن "المثل السائر" .

وأمره بجياطة هذا النسب الأظهر، والشرف الأضخر، عن أن يدعيه الأدياء،
أو يدخل فيه الدخلاء؛ ومن آتى إليه كاذبا، وأنتحل به باطلا، ولم يوجد له بيت
في الشجره، ولا مضداق عند النسابين المهره، أوقع به من العقوبة ما يستحقه،
ووسمه بما يعلم به كذبه وفسقه؛ وشهره شهرة ينكشف بها غشه ولبسه، ويتزعم
بها غيره ممن تسؤل له مثل ذلك نفسه. وأن يخصص الفروج عن مناقحة من ليس لها
كفؤا، ولا مشاركتها في شرفها ونفورها؛ حتى لا يطمع في المرأة الحسية النسبية
إلا من كان مثلا لها مساويا، ونظيرا موازيا؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ
لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

وأمره بمراعاة متبلى أهله ومتهجدتهم، وصلحاتهم ومجاوريتهم، وأراملتهم
وأصاغيرهم؛ حتى يسد الخلة من أحوالهم، ويُدز الموائد عليهم، وتتعادل أقساطهم
فيما يصل إليه من وجوه أموالهم؛ وأن يزوج الأيما، ويربي اليتامى؛ ويلزمهم
المكاتب ليتلقنوا القرآن، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان؛ ويتأدبوا بالآداب،
اللائقة بذوى الأحساب؛ فإن شرف الأعراق، محتاج إلى شرف الأخلاق؛ ولا حمد
لمن شرف نسبه، وتخف أدبه؛ إذ كان لم يكسب الفخر الحاصل له بفضل سعى
ولا طلب، ولا آجتهد ولا دأب؛ بل بضع من الله عز وجل له، ومزيد في المنة
عليه؛ وبحسب ذلك لزوم ما يلزمه من شكره سبحانه على هذه العطيّة، والاعتداد
بما فيها من المنزىة، وإعمال النفس في حيازة الفضائل والمناقب، والترفع عن
الذائل والمثالب .

وأمره بإجمال النيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين
باستخلافه عليه من النظر في المظالم، والأخذ للظلم من الظالم؛ وأن يجلس للترافعين

إليه جُلوسًا عامًّا ، ويتأمل ظلماتهم تأملًا تامًّا ؛ فما كان منها متعلقًا بالحكيم رده إليه ، ليحمل الخُصومَ عليه ؛ وما كان طريقه طريق الغشم والظلم ، والتغلب والغصب ، قبضَ عنه اليدَ المبطلة ، وثبتَ فيه اليدَ المستحقة ؛ وتحرى في قضاياه أن تكونَ موافقةً للعدل ، ومجانبةً للعدل ؛ فإن غابتي الحاكم وصاحب المظالم واحدة : وهي إقامة الحق ونصرتُهُ ، وإبانتُهُ وإنارتُهُ ؛ وإنما يختلف سيلاهما في النظر : إذ الحاكم يعمل على ما ثبتَ وظهر ، وصاحب المظالم يفحص عما غمض وأستتر ؛ وليس له مع ذلك أن يرُدَّ لحاكم حُكومه ، ولا يُعلِّ له قضيته ؛ ولا يتعقَّب ما يُفئده ويُضِيه ، ولا يتتبع ما يحكم به ويقضيه ؛ والله يهديه ويُستدده ، ويُوقِّفه ويُرشده .

وأمره أن يسيرَ حجاجَ بيتِ الله إلى مقصدهم ، ويحيمهم في بداتهم وعودتهم ؛ ويرتّبهم في مسيرهم ومسلكهم ، ويرعاهم في ليلهم ونهارهم ؛ حتى لا تتألم شدته ، ولا تصل إليهم مضرّة ؛ وأن يُريحهم في المنازل ، ويوردهم المناهل ؛ ويُناوبَ بينهم في النهل والعلل ، ويُمكنهم من الارتواء والإكتفاء ؛ مجتهدًا في الصيانة لهم ، ومُعذرا في الذب عنهم ؛ ومُتولما على متأخرهم ومتخلفهم ، ومُنهضا لضعيفهم ومهينهم ؛ فإنهم حجاج بيتِ الله الحرام ، وزوّار قبر الرسول عليه السلام ؛ قد هجروا الأوطان ، وفارقوا الأهل والإخوان ؛ وتجشّموا المغارم الثقال ، وتَسَفُّوا السهول والحبال ؛ يلبون دعاء الله عز اسمه ، ويُطيعون أمره ويؤدون فرضه ويرجون ثوابه ؛ وحقيق على المسلم المؤمن أن يُجرسهم متبرعا ، ويحوطهم متطوعا ؛ فكيف من تولى ذلك وصنمه ، وتقلده وأعتقه ، قال الله : ﴿ ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ﴾ .

وأمره أن يُرَاعِيَ أمورَ المساجد بمدينة السلام وأطرافها ، وأقطارها وأكافها ؛
 وأن ينجيَ أموالَ وقوفها ، ويستقصيَ جميعَ حقوقها ؛ وأن يلمَّ شعنها ، ويسدَّ خللها ؛
 بما يتحصّل من هذه الوجوه قبله ، حتى لا يتعطلَ رسمُ جرى فيها ، ولا تنقضَ عادةً
 كانت لها ؛ وأن يثبتَ اسمَ أمير المؤمنين على ما يعمره منها ، ويذكرُ اسمه بعده
 بأنَّ عمرانها جرى على يديه ، وصلاحها أداه قولُ أمير المؤمنين إلى فعله ؛ فقد فسح له
 أمير المؤمنين بذلك تنويهاً باسمه ، وإشادةً بذكره ؛ وأن يولّيَ ذلك من قبله من حسنت
 أمانته ، وظهرت عفته وصيانتُه ؛ فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ
 مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ
 أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

وأمره أن يستخلف على ما يرى الاستخلاف عليه من هذه الأعمال : في الأمصارِ
 الدانية ، والبلاد القريبة والبعيدة ، من يثق به من صلحاء الرجال ، وذوى الوفاء
 والاستقلال ؛ وأن يعهد إليهم مثل الذى عهد إليه ، ويعتمد عليهم فى مثل ما اعتمد
 عليه ؛ ويستقرى مع ذلك آثارهم ، ويتعرف أخبارهم ؛ فمن وجده محموداً أقره
 ولم يزله ، ومن وجده مذموماً صرفه ولم يمهلّه ؛ وأعتاض منه من ترجى الأمانة
 عنده ، وتكون الثقة معهودةً منه ؛ وأن يختار لكتابته وحجّته والتصرف فيما قرب
 منه وبعد عنه ؛ من يزينه ولا يشينه ، وينصح له ولا يعشّه ، ويحمله ولا يهجنه ، من
 الطبقة المعروفة بالظلف ، المتصونة عن النطف ؛ ويجعل لهم من الأرزاق الكافية ،
 والأجرة الوافية ، ما يصدّهم عن المكاسب الذميمة ، والمآكل الوخيمة ؛ فليس تجب
 عليهم المحجة إلا مع إعطاء الحاجة ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ
 وَأَنْ سَعَاهُ سَوْفَ يَرَىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴾ .

وأمره بأن يكتب لمن يقوم بيئته عنده وتكشف حجه له ، إلى أصحاب
المران بالشدة على يديه ، وإيصال حقه إليه ؛ وحسم الطمع الكاذب فيه ،
وقبض اليد الظالمة عنه ؛ إذ هم مندوبون للتصرف بين أمره ونهيه ، والوقوف عند
رسمه وحده .

وهذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحجته لك وعليك ؛ قد أنار فيه سيديك ، وأوضح
دليلك ؛ وهداك وأرشدك ، وجعلك على بينة من أمرك ؛ فاعمل به ولا تخالفه ،
وآتته إليه ولا تتجاوزة ؛ وإن عرض لك أمر يعجزك الوفاء به ، ويستبه عليك وجه
الخروج منه ، أنهتته إلى أمير المؤمنين مبادرا ، وكنت إلى ما يأمرك به صائرا ؛
إن شاء الله تعالى . وكتب في مستهل شعبان سنة ثمانين وثلاثمائة .



ومنها - ولاية الصلاة .

وهذه نسخة عهد كتب بها أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله ، لأبي الحرث
محمد بن موسى العلوّى الموسوى ، بتقليده الصلاة في جميع النواحي والأمصار
والأطراف ، وتوقف عن إظهاره لرأى رآه في ذلك ، وهي :

هذا ما عهد عبد الله إلى محمد بن موسى العلوّى ، لما استكفاه النظر في نقابة
الطالبيين فكفاه ، وتمجّل ذلك العبد فأغناه ، وفات النظراء في الاستقلال والوفاء ؛
وبدّ الأمثال في الاضطلاع والغناء ؛ جامعا إلى شرف الأحساب والأعراق ، شرف
الآداب والأخلاق ؛ وإلى كرائم المفاخر والمناقب ، مكارم الطبائع والضرائب ؛
على الحدائث من سنّه ، والغضاضة من عوده ؛ مستوليا من البراعة والنجابة ؛ والفراهة
واللبابه ؛ على التي لا يبلغها الشيب المفاقر ، فضلا عن البالغ المراهق ؛ وغايات

تَقَطَّعَ دُونَهَا أَنْفَاسُ الْمَنَافِسِينَ ، وَتَضَرَّمَ عَلَيْهَا أَحْشَاءُ الْحَاسِدِينَ ؛ لِاسِيَّآ وَقَدْ أَطَّتْ^(١) بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ شَوَاجِنُ الْأَرْحَامِ ، وَعَطَفَتْهُ عَلَى أَصْطِنَاعِهِ عَوَاطِفُ الْآبَاءِ وَالْأَعْمَامِ ؛ وَأَقْتَضَتْ آثَارَهُ الْمَحْمُودَةَ ، وَطَرَأَتْهُ الرَّشِيدَةَ ؛ أَنْ يُنَاوِبَهُ عَلَى رُتْبَةٍ لَمْ يَبْلُغْهَا أَحَدٌ مِنْ وَلَدِ أَبِيهِ ، وَلَمْ يَقْتَرِعْ ذَوَاتِهَا رَجُلٌ دُونَهُ ؛ فَقَلَّدَهُ الصَّلَاةَ بِمَدِينَةِ السَّلَامِ فِي خَمْسَةِ جَوَامِعِهَا : فَأَوَّلُهَا الْجَامِعُ الدَّخَلُ فِي حَرِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَجَامِعُ الرِّصَافَةِ ، وَجَامِعُ الْمَنْصُورِ ، وَجَامِعُ بُرَائِي ، وَجَامِعُ الْكَفِّ الَّذِي تَوَلَّى أَبُوهُ إِشَادَتَهُ وَعِمَارَتَهُ ، وَحَسُنَتْ آثَارُهُ فِي إِنْشَائِهِ وَإِعْلَانِهِ ؛ وَحَيْثُ سَمَتْ هِمَّتُهُ إِلَيْهِ ، وَبَدَلَ الْمَجْهُودَ فِي إِتْفَاقِ الْأَمْوَالِ الدَّثْرَةَ عَلَيْهِ ؛ وَاسْتَنْزَلَ بِذَلِكَ مِنْ اللَّهِ أَجْرَ لِيَابَةِ الْمُتَشَابِهِينَ ، وَأَوْفَرَ أَجْرَ الْمَأْجُورِينَ ؛ وَجَمِيعَ الْمَنَابِرِ فِي شَرْقِ الْأَرْضِ وَغَرْبِهَا ، وَبَعِيدِ الْأَقْطَارِ وَقَرِيبِهَا ؛ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَسْأَلُ اللَّهَ حُسْنَ التَّسْهِيدِ فِي ذَلِكَ وَسَائِرِ مَرَامِيهِ ، وَجَمِيعَ مَطَالِبِهِ وَمَغَازِيهِ ؛ وَجَوَارِي هِمَمِهِ الَّتِي يُمَضِّيهَا ، وَسَرَايَا عَزَمَاتِهِ الَّتِي يَنْوِيهَا ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ النِّجَاحَ قَائِدَهَا وَسَائِقَهَا ، وَالصَّلَاحَ أَوْلَهَا وَآخِرَهَا ؛ وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ .

أَمْرَهُ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّتِي هِيَ أَحْرَزُ الْمَعَاقِلِ ، وَأَحْصَنُ الْجُنُنِ عِنْدَ النَّوَازِلِ ؛ وَأَعْظَمُ مَلْجَأٍ يُلْجَأُ إِلَيْهِ ، وَأَمْنٌ مَوْثَلٌ يُعَوَّلُ عَلَيْهِ ؛ وَأَنْ يَعْتَقِدَهَا فِي خَلْوَتِهِ وَحَفَلَتِهِ ، وَيَعْتَمِدَهَا فِي سِرِّهِ وَعِلَاقَتِهِ ؛ وَيَجْعَلَهَا سَبَبًا يَنْتَبِعُهُ ، وَلِبَاسًا يَدْرِعُهُ ؛ فَيُنَازِعُ بِهَا مَنْ نَازَعَهُ ، وَيُؤَادِعُ بِهَا مَنْ وَادَعَهُ : فَإِنَّهَا أَوْكَدُ الْأَسْبَابِ ، وَأَوْصَلُ الْقُرْبِ وَالْأَنْسَابِ . وَأَوْلَى النَّاسِ بِالْتِمَسْكِ بِجَبَلِهَا ، وَالْإِسْتِمَالِ بِظِلِّهَا ؛ مَنْ كَانَ بِأَجَلِّ الْمُنَاسِبِ تَمَلُّقُهُ ، وَبِأَشْرَفِ الْخَلَائِقِ

(١) في القاموس « أطت له رحي رقت وتحركت » فانظره .

(٢) في اللسان ج ٥ ص ٣٦٢ « الدر بالفتح المال الكثير لا يثنى ولا يجمع يقال مال دثر ومالان دثر

وأموال دثر » فلعل هاء التأنيث زائدة من قلم النسخ . تأمل .

تَحَقُّقُهُ ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ .

وَأَمْرَهُ بِتَلَاوَةِ الْقُرْآنِ ، وَالْمُواظَبَةِ عَلَيْهِ وَالْإِدْمَانَ ، وَالْإِثْمَارَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْأَوَامِرِ ، وَالْإِزْدَجَارِ عَمَّا تَضَمَّنَ مِنَ الزَّوَابِرِ ؛ وَأَنْ يَجْعَلَهُ الْإِمَامَ الْمَتَّبِعَ فَيَقْفُوهُ ، وَالطَّرِيقَ الْمَتَّبِعَ فَيَقْصِدَهُ وَيَتَّبِعْهُ : فَإِنَّهُ الْعِلْمُ الْمُنْجِي مِنَ الْغَوَايَةِ ، وَالذَّلِيلُ الْقَائِدُ إِلَى الْهَدَايَةِ ؛ وَالنُّورُ السَّاطِعُ لِلظَّلَامِ إِذَا أَشْكَلَ مُشْكَلًا ، وَالْحَاكِمُ الْقَاضِي بِالْحَقِّ إِذَا أُعْضِلَ مُعْضِلًا ؛ قَالَ اللَّهُ : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وَأَمْرَهُ بِتَهْذِيبِ لُبِّهِ ، مِنْ جَوَامِجِ الْوَسَاوِسِ ، وَتَطْهِيرِ قَلْبِهِ ، مِنْ مَطَايِحِ الْهَوَاجِسِ ؛ وَأَنْ يَتَوَقَّى اللَّحْظَةَ الْعَارِمَةَ ، وَيَتَجَنَّبَ اللَّفْظَةَ الْمُؤْلِمَةَ ؛ عَاصِيًا جَوَادِبَ الْخَلَاعَةِ ، وَمُطِيعًا أَوَامِرَ التَّرَاهَةِ ؛ حَتَّى يَسْتَوِيَ خَافِيَهُ وَعَالِيَتُهُ ، وَيَتَّفِقَ ظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ ؛ فِعَالٌ مِنْ جَعَلَهُ إِمَامًا الْمُسْلِمِينَ إِمَامًا ، وَقَدَمَتَهُ الرَّعِيَّةُ أَمَامًا ؛ وَكَانَ إِلَى اللَّهِ دَاعِيًا ، وَلَهُ عَنِ عِبَادِهِ مُنَاجِيًا ؛ وَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَ خَالِقِهِمْ وَسَيْطَانِهِ ، وَعَلَى مَا قَلَدَهُ مِنَ الصَّلَاةِ بِهِمْ أَمِينًا ؛ لِتَصِحَّ شُرُوطُ صَلَاتِهِ ، وَيُقْبَلَ مَرْفُوعَ دَعَوَاتِهِ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وَأَمْرَهُ بِالْحِفَاظَةِ عَلَى الصَّلَوَاتِ ، وَاتِّهَازِ فُرْصَتِهَا مِنَ الْأَوْقَاتِ ؛ وَالذَّخُولِ فِيهَا بِالرِّقَّةِ وَالْحُشُوعِ ، وَالتَّوَقُّرِ بِالْإِخْبَاتِ وَالْحُضُوعِ ؛ وَحَقِيقُ عَلَى كُلِّ مَسْتَشْعِرٍ شِعَارَ الْإِسْلَامِ ، وَمَتَجَلِّبٍ جِلْبَابَ الْإِيمَانِ ، أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ مُسْتَوْفِيًا شُرُوطَهُ ، وَمُسْتَقْصِيًا حُدُودَهُ وَرُسُومَهُ ، فَكَيْفَ بِنِ إِقَامِهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ [مَقَامِهِ] فِي أَمْتِطَاءِ غَوَارِبِ الْمَنَابِرِ

(١) لعله من قولهم رجل عارم أى خبيث شرير .

وذرأها ، ونصبه منصبه في أم الرعية أدناها وأقصاها . قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ . وقال : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تُمُونُوا إِلَّا بِأَنفُسِكُمْ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمره بالسعى في الجمع إلى المساجد الجامعة ، وفي الأعياد إلى المصليات الضاحية ؛ وأن يخص أحدها بصلاته فيه وقصده له ؛ ويأمر خلفاءه على الصلاة بالافتراق في سائر الجوامع وبقاى المنابر ؛ بعد الأمر بجمع المؤذنين والمكبرين ، وإحضار القوام والمرتبين ، في أتم أهبة وأجمل هيئة ، بقلوب مستشعرة للخشوع ، متصدية للدموع ؛ وأتسن بالتسبيح والتقدیس منطلقة ، وآمال في حُسن الجزاء وجريل الثواب منفسحة ، حتى تعبر ألسنتهم إذا أقرعوا الخطب وأفتتحوا الكلم عن مكنون ضمائرهم ، ومضمون سرائرهم ؛ فتجىء المواعظ بالغة ، والزواجر ناجعة ؛ قال الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وأمره بمراعاة المساجد ، وتعهد الجوامع ؛ وسد خللها ، ولم شعثها ؛ فإنها مقام عزه ونفخه ، ومحاضر صيته وذكره ؛ ومراكز أعلام الدين الخالقة ، ومطالع شمس الإسلام الشارقة ؛ ومواقف الحق المشهوده ، وقواعد الإيمان الموطوده ؛ مما لا يتضعض أحدها إلا تتضعض من أركان الإسلام له ركن ، ولا آلتات بعضها إلا آلتات من أعضاء الدين عضو ؛ قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ .

(١) جمع مقوم وفي اللسان « المقوم الخشبة التي يسكها الحراث » ولعله يريد أنها آلات عزه ونفخه .

وأمره في خُطْبته بكثرة التحفُّظ ، وعند آفتاحه وأختامه بطول التيقُّظ ؛
 فإن العيون به منوطة ، والأعناق إليه ممدودة ؛ والمسامع فارغة تنلقف ما يقوله ،
 والقلوب فارغة لحفظ ما يُسَدِّد وما يُعِيد ؛ فقليل الزَّلَل ، في ذلك الموقف كثير ،
 وصغير الخَطَل ، في ذلك المقام كبير ؛ والله تعالى يُسَدِّده إلى المحجَّة الوسطى ،
 ويقفُّ به على الطريقة المثلى ، بمنه .

وأمره بالسكينة في آتصابه للصلاة الجامعة ، وتقدمه لفضاء الفروض اللازمة ؛
 وأن يسكن [في كلِّ] حد من حدودها في الرُّكوع والسُّجود ، والقيام والقعود ؛
 فإنه عليها محاسب ، وبما يلحق من يَأْتُمُّ به في جميعها مُطالب ؛ وأن يفرغ قلبه
 لما يتلوه من البيان ، ويرفع صوته بما يتر به من قوارع القرآن ؛ مرتلاً لقراءته ،
 ومُسْتَرَسِلاً في تلاوته : ليشترك في سَماعها الأقرب والأقصى ، ويتنفع بمواعظها
 الأبعد والأدنى ، بعد إخلاص سره وانتراعه ، وتسويته في الطهور بين يديه
 وخافيه ، وغائبه وحاضره ؛ فليس بالطاهر عند الله تعالى من يُصيب بالماء أطرافه ،
 وأدرن بالخباثت شغافه ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ
 مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ . وقال : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ
 عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره أن يقيم الدعوة على منابر أعماله القاصية والدانية والغائبة والحاضرة
 لأمر المؤمنين ؛ ثم للنهوض عنه بالأعباء ، والقائم دونه في البأساء والضراء ؛ الذي
 غُدِّي يلبان الطاعة ، وأتقاد بزمام المتابعة : بهاء الدولة ؛ ولولاة الأعمال من بعده
 الذين يدعى لهم على المنابر ، ما يكون منها على العادة الجارية فيها ، فإنها دعوة تلزم
 إقامتها ، وكلمة تجب إسادتها ؛ إذ كانت متعلقة بطاعة الله عز وجل ، وقد أوجبه الله

تبارك وتعالى على كافة المسلمين وجميع المعاهدين، إذ يقول [وهو] اصدق القائلين :
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ؛ وعائذتها
 نعمهم، وفائدتها تشمئلهم؛ إذ كان صلاح الرعية مقرونا بصلاح راعيها، وفساد
 الأمة منوطا بفساد راعيها .

وأمره باستخلاف من يرى استخلافه على الصلاة في الأقطار والأطراف والنواحي
 والبلدان ، وأن يختار من الرجال كل حسن البيان ؛ مصقع اللسان ؛ بليغ الريق إذا
 خطب ، بليغ القول إذا وعظ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وحنجته لك وعليك ؛ قد أعذر فيه وأنذر ، وهدى
 من الضلالة وبصر ؛ وأعلقك زمام رشدك وغيك ، وقلدك عنان هلكك وفوزك ؛
 وخيرك في كلا الأمرين ، ووقفك إزاء الطريقين ؛ فإن سلكت أهداهما لم تلبث أن
 تعود غائبا ، وإن ولجت أضلها فغير بعيد أن تشوب نادما ؛ وأستعين بالله يعنك ،
 وأسترده من الكفاية يزدك ؛ وأستليسه الهداية يلبسك ، وأستدله على نجاح
 المطالب يذكلك ، إن شاء الله ، والحمد لله وحده .

ومنها — نظر الأوقاف .

وهذه نسخة عهد من ذلك ، كتب بها أبو إسحاق الصابي عن الطائع لله -
 للحسين بن موسى العلووى ، وهى :

هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى الحسين بن
 موسى العلووى ، حين طابت منه العنصر ، ووصلته بأمر المؤمنين الأواصر ؛ جمع
 إلى شرف الأعراق الذى ورثه ، شرف الخلق الذى اكتسبه ؛ ووضعت آثار دينه

وأمانته ، وبانت أدلة فضله وكفايته ، في جميع ما أسنده أمير المؤمنين إليه من الأعمال ، وحمله إياه من الأثقال ؛ فأضاف إلى ما كان ولآه من [ذلك] النظر في الوقوف التي كانت يد فلان فيها بالحضرة وسوادها ، ثقة بسداده ، وسكونا إلى رشاده ؛ وعلمنا بأنه يعرف حق الصنيعه ، ويرعى ما يستحفظه من الوديعه ؛ ويجرى في المنهل الذي أحده أمير المؤمنين منه ووكل إليه . والله يمد أمير المؤمنين بصواب الرأي فيما تحاه وتوحاه ، ويؤمنه في عاقبته الندم فيما قضاه وأمضاه ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنيب .

أمره بتقوى الله التي هي عماد الدين ، وشعار المؤمنين ، وأن يعتقدها في سره ونجواه ، ويعملها الذخيرة لأولاه وأخراه ؛ ويتجنب الموانع المونية ، ويتوقى الموارد المريه ؛ وينص طرفه عن المطامع المغويه ، ويذهب بنفسه عن المطارح المخزیه ؛ فإنه أحق من فعل ذلك وآثره ، وأولى من اعتمده وأستشعره ؛ بنسبه الشريف ، ومفخره المنيف ؛ وعادته المشهوره ، وشا كلته الماثوره ؛ وتلاوة كتاب الله الذي هو وعتره رسول الله الثقلان المخلفان في الأمة ، وقد جمعته ،^(١) وأخرهما الأنساب وجمعتهم والثاني عصمة أولى الألباب ، وتوجهت حجة الله بما يرجع من هذه الفضائل إليه ، وأنه غضن من دوحة أمير المؤمنين ، التي تحداها الله بالإندار قبل الخلائق أجمعين ؛ إذ يقول لرسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ . وقد حصّ تبارك وتعالى على التقوى ، ووعد عباده عليها الزلفى ؛ فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره بالإشتغال على ما أسنده إليه أمير المؤمنين من هذه الوقوف مستنفدا طوقه في عمارتها ، مستفرغا وسعته في مصلحتها ؛ دأباً في أستغلالها وتشميرها ، مجتهداً

(١) هذه الجمل هكذا في الأصول وهي غير مستقيمة .

في تدبيرها وتوفيرها ؛ وأن يصرف فاضل كل وقف منها بعد الذي يُخرج منه للنفقة على حفظ أصله ، وأستدرار حبله ؛ والمثونة الراتبية للقوام عليه ، والحفظة له ؛ إلى أربابه الذي يعود ذلك عليهم في وجوهها التي سبل لها ، ووقف عليها ؛ واضعاً جميع ذلك مواضعه ، موقعا له مواقعه ؛ خارجاً إلى الله من الحق فيه ، مؤدياً الأمانة إليه ؛ وأن يُشهد على القابضين بما يقبضونه من وقوفهم ، ويكتب البرات عليهم بما يستوفونه من أموالهم ؛ ويستظهر لنفسه بإعداد الشواهد والأدلة على ما ينفقه من أموال هذه الوقوف على مصالحه ، ويصرفه منها إلى أهلها ؛ ويُجرجه منها في حقوقها وأبواب ربها ، وسائر سُبلها ووجوهها ؛ سالكاً في ذلك مذهبه المعروف في أداء الأمانة ، وأستعمال الظلف والتزاه ؛ معقبا على من كان ناظراً فيها من الخونة الذين لم يرعوا عهداً ، ولم يتصونوا عن سحت المطاعم ، وظلم المآثم .

وأمره باستكتاب كاتب معروف بالسداد ، مشهور بالرشاد ؛ معلوم منه نصيحة الأصحاب ، والضبط للحساب ؛ وتفويض ديوان الوقوف وتدييره إليه ، وتوصيته بصيانة ما شتمل عليه من أصول الأعمال وفروعها ، وقليل الحجج وكثيرها ؛ وأن يحتاط لأربابها في حفظ رؤسومها ومعاملاتها ، وحراسة طسوقها ومقاسماتها ؛ حتى لا يستمر عليها حيف يبق أثره ، ولا يتغير فيها رسم يُحاف ضرره ؛ وأن ينصف الأكرة فيها والمزارعين ، وسائر المخالطين والمعاملين ؛ ولا يحشمهم حيفا ، ولا يسومهم خسفاً ؛ ولا يُغضي لهم عن حق ، ولا يسمع لهم بواجب ، خلا ما عادت الساحة به بزيادة عماراتهم ، وتأليف نياتهم ، واجتلاب الفائدة منهم والعائدة بهم ؛ فإنه مؤتمن في ذلك كله أمانة ، وعليه أن يؤديها ويخرج عن الحق فيها .

وأمره باختيار خازن حصيف ، قسوم أمين ؛ يخزن حجج هذه الوقوف وسجلاتنا ، وسائر دفاترها وحسباناتها ؛ فإنها ودائع أربابها عنده ، وواجب أن يحتاط عليها

جُهدَه؛ ففتى شَكَّ في شرط من الشروط، أو حَدَّ من الحدود؛ أو عَارَضَ مُعَارِضَ،
 أو شَاغَبَ مُشَاغِبَ، في أَيَّامِ نَظَرِهِ وَأَيَّامِ مَنْ عَسَى أَنْ تُنْقَلَ وَلايَهُ هَذِهِ الْوُقُوفِ إِلَيْهِ،
 وَيُنَاطَ تَدْيِيرُهَا بِهِ، دَفَعَ مَا يَمُحِّثُ مِنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْحُجَجِ الَّتِي هِيَ مَعَارِفِ الْبُرْهَانِ،
 وَقَوَاعِدِ الْبُنْيَانِ؛ وَإِلَيْهَا الْمَرْجِعُ فِي كُلِّ بِنْتَةٍ تُنْصَرُ وَتُقَامُ؛ وَشُبْهَةٌ تُدْحَضُ وَتُضَامُ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، ووثيقته الحاصلة في يديك ؛ فاتبع آثار أواصره ،
 وأزدجر عن نواهيهِ وزواجره ؛ وأستمسك به تتج وتسلم ، وأعمل عليه تفز وتغتم ؛
 وأسترشد الله يرشدك ، وأستهد بهدك ؛ وأستعين به ينصرك ، وفوض إليه يعصمك ؛
 إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(مما يكتب من ديوان الخلافة لأرباب السُّيوف التقاليد . وهي لمن دُونَ
 أرباب العهود في الرتبة ، وليس لأفتتاحها عندهم ضابطٌ)

وهذه نسخة تقليدٍ بحماية الكوفة ، لأبي طريف بن عليان العقيلي ، من إنشاء
 أبي إسحاق الصابي ، وهي :

قد رأينا تقليدك - أطل الله بقاءك - الحماية بالكوفة وأعمالها وما يجري معها
 ثقةً بشهامتك وغنائك ؛ وسكوناً إلى استقلالك ووفائك ، واعتقاداً لإصطناعك
 وأصطفائك ؛ وحسن ظن بك في شكر ما يسدي إليك ، ومقابلته بما يحق عليك ؛
 من الأثر الجميل فيما تُولاه ، والمقام الحميد فيما تُستكفاه ؛ فتول - أيدك الله - ذلك
 مقدماً تقوى الله ومراقبته ، ومستمداً توفيقه ومعاونته . وأحرس الرعية في مساكنها ،
 والسابلة في مسالكها . وأدفع عن عمالك ونواحيه أهل العيث جميعاً ، وأطلبهم طلباً

شديداً ، وأطرقهم في مكانهم ، وتَوَجَّحَ عليهم في مظانهم ؛ ونكَّلَ بمن تظفَّرَ به منهم
نكالا يُقيم به حُكْمَ الله عليهم ، وحدوده في أمثالهم ؛ وبالغ في ذلك مبالغةً تُحيف
الظَّئِنِ وتُوجِّسه ، وتؤمن السَّليم وتؤنِّسه . وراعى الأكرَّةَ والمزارعين حتى يَنبَسِطُوا
في معاشهم ، ويتصرفوا في مصالحهم ؛ وتيسر عوامِلهم في عماراتها ، ومواشيمهم
في مسارحها ؛ ومتى طُرِدَتْ لأحدٍ منهم طريدةٌ أو امتدَّتْ إليهم يدٌ عاتيةٌ ، أرتجعتْ
ما أخذَ له ، ورددته بعينه أوقمةً مثله . وحَفَّفَ عن وُلَّتِ عليه الوطأة ، وأرَفَعَ
عَنهم المِثْونَةَ والكُفَّةَ ؛ وحُدِّمَ بالتناصُفِ ، وأقْبَضَهم عن التظالم ، وأمنَعَ قوِيهم من
تَحْيِيفِ المضعُوفِ ، وشَرَّفَهم من استِضامَةِ المشرُوفِ ؛ وأولِّمَ من عدلِكَ وحُسنِ
سِيرتِكَ ، واستِقامَةِ طرِيقَتِكَ ، ما يتصل عليه شُكْرُكَ ، ويَطِيبُ به ذِكرُكَ ؛ ويقتضى
لك دوامَ الولاية ، وتضاعفَ العناية .

وأعلم بأنك فيما وُلِّيتَه من هذا الأمرِ متضمَّنٌ للمال والدم ، وماخوذٌ بكل
ما يهْمُكَ من ذمةٍ ومحرَمٍ ؛ فليكن اجتهادُكَ في الضَّبطِ والحِمايَةِ ، وأحتراسُكَ من
الإهمال والإضاعة ، بحسَبِ ذلك . وآكُتِبْ بأخبارِكَ على سِياقتِها ، وآثارِكَ لأوقاتها ؛
ليَتَّصِلَ لك الاحمادُ عليها ، والمجازاةُ عنها ؛ إن شاء الله تعالى .^(١)

النوع الثالث

(مما كان يُكْتَبُ لأربابِ الوظائفِ من ديوانِ الخلافةِ ببغدادَ ما كان يُكْتَبُ
لأربابِ الوظائفِ ببغدادَ من أصحابِ الأقالِمِ)

وهي على ضربين :

(١) من أحده استبان له أنه مستحق للحمد .

الضرب الأول

(العهود)

ورسّمها على نحو ما تقدم في عهود أرباب السيف ، تفتّح بـ «هَذَا مَا عَهْدٌ»
إلى آخر الترتيب المتقدم ذكره .

وهذه نسخة عهد بولاية قضاء حاضرة بغداد وسائر الأعمال ؛ كُتِبَ به المسترشدُ
بالله لقاضي القضاة أبي القاسم عليّ بن الحسين الزينبي ، وهي :

هذا ما عهد عبد الله أبو منصور الفضل ، الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين ،
إلى قاضي القضاة عليّ بن الحسين الزينبي : لَمَّا تَأَمَّلَ طَرِيقَتَهُ ، وَشَخَّذَ عَقِيدَتَهُ ؛
وَأَحْمَدَ مَذَاهِبَهُ ، وَأَرْتَضَى ضَرَائِبَهُ ؛ وَتَكَاثَرَتْ دَوَاعِيهِ ، وَحَسُنَتْ مَسَاعِيهِ ؛ وَوَجَدَهُ
عِنْدَ الْإِخْتِبَارِ ، وَفِي مِضْمَارِ الْإِعْتِبَارِ ، رَاجِعًا إِلَى عَقْلِ رَصِينٍ ، وَدِينٍ مَتِينٍ ؛ وَأَمَانَةٍ
مَشْكُورَةٍ ، وَنَزَاهَةٍ مَجْبُورَةٍ ؛ وَوَرَعَ ثَمَرَ الْمَشْرِعِ ، عَارٍ مِنْ دَسِّ الْمَطْمَعِ ؛ وَعِلْمٌ تَوَفَّرَ مِنْهُ
قِسْمُهُ ، وَأَصَابَ فِيهِ سَهْمُهُ . وَحِينَ رَاعَى فِيهِ مَوْرُوثَ شَرَفِ النَّسَبِ ، إِلَى شَرَفِ
الْعِلْمِ الْمَكْتَسَبِ ، مَعَ مَسَلَفِ لَبِيئَتِهِ مِنَ الْحُرْمَاتِ الْمُرْعِيَةِ الْمَتَأَكَّدَةِ ، وَالْقُرْبَاتِ الْمَرْضِيَّةِ
الْمَتَمَهَّدَةِ ؛ وَالسَّوَابِقِ الْمُحْكَمَةِ الْمَرَاتِرِ ، الْحَمِيدَةِ الْمَبَادِيِّ وَالْمَصَابِرِ ؛ فَقَلَّدَهُ قِضَاءَ الْقِضَاةِ
بِمَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْأَمْصَارِ ، فِي الْآفَاقِ وَالْأَفْطَارِ ؛ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَبُعْدًا وَقُرْبًا ؛
إِنَافَةً بِهِ إِلَى مَا أَصْبَحَ لَهُ مَسْتَحَقًّا ، وَأَسْتَمَّرَ اسْتِجَابُهُ مَسْتَرَقًّا ؛ وَجَدَّابًا بَضْبَعَهُ إِلَى
مَا يَتَحَقَّقُ نُهْوُضَهُ بِأَعْبَانِهِ ، وَحُسْنَ اسْتِقْلَالِهِ بِهِ وَغَنَائِهِ ؛ وَأَقْتَفَاءً لِأَنْوَارِ الْأُمَّةِ الرَّاشِدِينَ
فِي إِيدَاجِ الْوَدَائِعِ عِنْدَ مَسْتَحَقِّهَا ، وَتَفْوِيضِ الْأُمُورِ إِلَى أَكْفَائِهَا وَأَهْلِهَا ؛ لِاسِيًّا
أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِهِمْ ، وَأَعْدِيَاءِ نِعْمَتِهِمْ ؛ الَّذِينَ كَشَفَتْ عَنْ سَجْفِ خَبْرَتِهِمْ التَّجَارِبَ ، وَوَرَدُوا
مِنَ الْخِلَالِ الرَّشِيدَةِ أَعْدَبَ الْمَشَارِبِ ؛ وَاتَّهَجُّوا الْجَدِّدَ الْوَاضِعِ ، وَتَقَبَّلُوا الْخُلُقَ

الصالح ، والله سبحانه يَقْرُنُ عِزَّتَهُ بِأَمْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخَيْرِ فِي كُلِّ رَأْيٍ يَرْتَبِيهِ ، وَأَمْرُهُ يُؤْمَهُ وَيُنْتَجِيهِ ؛ وَيَصَدِّقُ مَخِيلَتَهُ فِي كُلِّ حَالٍ يَأْتِيهَا ، وَيُضِي عِزْمَهُ فِيهَا ؛ وَمَا تَوَفَّقُهُ إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ .

أمره بتقوى الله التي لا يسعد أحدٌ إلا بالتسك بسببها ، ولا يشق إلا مع إضاعته ؛ فإنها الجناب المريع ، والمعقل المنيع ؛ والنجاة يوم الفرع الأكبر ، والعدة النافعة في المعاد والمحشر ؛ والعصمة الحامية من نزغات الشيطان ومحايله ، المتقدمة من أسراكه وحباثله ؛ وبها تمحص الأوزار ، وتنال الأوطار ؛ وتُدرك المآرب ، وتنجح المطالب ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

وأمره باستشعار خشية الله سبحانه في قوله وفعله ، واختلاف أطواره وأحواله ؛ وتذكر ما هو قادم عليه ، ووافد إليه : يوم ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ الْوَالِدِ شَيْئًا ﴾ . فلا يقوده الهوى إلى أتباع شهوه ، أو إجابة داعي هفوة أو صبوه ، إلا كان الخوف قادعه ، والحذر مانعه ؛ وأن يجعل التواضع والوقار شيمته ، والحلم دأبه وخليقته ؛ فيكظم غيظه عند احتدام أواره ، وأضطراب ناره ؛ محتنباً عزرة الغضب الصائرة إلى ذلة الاعتذار ، ومتوخياً في كل حال للقاصد السليمة الإيراد والإصدار . وأن يتأمل أحوال غيره تأمل من جعلها لنفسه مثالا ، وأخذها لنفسه منوالا ؛ فما استحسنه منها فإتبه ، وما كرهه فاجتوبه ؛ غيرناه عما هو من أهله ، ولا أمر بما هو مجانب لفعله ؛ قال الله جلَّتْ عِظْمَتُهُ : ﴿ أَمَّا مَن ذُكِّرُوا بِاللَّيْلِ ﴾ .

وتسبون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴿

وأمره بتلاوة كتاب الله مواظباً، والإكثار من قراءته دائماً؛ وأن يجعله إماماً يقتفيه، ودليلاً يتبعه فيهديه؛ ونوراً يستضيء به في الظلمات، وهادياً يسترشده عند اعتراض الشبهات؛ وموثلاً يستند إليه في سائر أحكامه، وحضناً يلجأ به في نقضه وإبرامه؛ عاملاً بأوامره، ومزدهجاً بزواجره؛ ومنعياً نظره في محكم آياته، وصادعاً بيناته؛ ومعملاً فكره في خوض غماره، وأستخراج غوامض أسراره؛ فإنه الحق الذي لا يبور متبعه، والمتجر الذي لا يبور مبتضعه؛ والمنار الذي به يقتدى، والمنهج الذي بأعلامه يهتدى؛ والمصدر الذي تغرى به الأمور في ملئ الإشكال، وتشرع معه الأحوال المستبهمة في ورود الوضوح السلسال؛ وينبوع الحكمة الذي ضرب الله فيه الأمثال؛ وفرق فيه بين الحرام والحلال، والهداية والضلال؛ قال الله سبحانه: ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بدراسة السنن النبوية صلوات الله على أصحابها، والافتداء بما جاءت به من مكارم الأخلاق التي ندب إليها، وحض عليها؛ وتتبع ما يتداخلها من الأخبار الجريئة، والروايات غير الصحيحة؛ والفحص عن طرقها وإسنادها، وتمييز قويمها وميادها؛ والبحث عن رواياتها، منحوزها وثقاتها؛ فإلفاه بريئاً من الطعن، آمنة من القدح والوهن؛ عارياً من ملابس الشك والإرتياب، عاطلاً عن حل الشبهة والأغتياب، أتبعه وأقتفاه، وتمثله وأحتذاه؛ وكان به حاكماً، ولادواء الباطل باتباعه حاسماً؛ وما كان مترجماً بين كفتي الشك واليقين، ولم تبد فيه مخايل الحق المئين، جعل الوقف حكمة، وردع عن العمل به عزمه؛ إلى أن يوضح الحق فيه، فيعتمد ما يوجبُه ويقتضيه؛ فإنه - عليه السلام - الداعي إلى الهدى، والرحمة

(١) أي مترددا ومتذبذباً . انظر اللسان والقاموس .

التي عصم الله بها من عوادي الردى؛ والهادي الذي لم يفصل بين العمل بفرائض كتابه وسننه في قوله تقدست أسماؤه، وحلت آلاؤه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

وأمره بإقامة الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، والمبادرة إليها قبل فواتها؛ والإتيان بشرائطها المحدودة وأركانها .

وأمره بمجالسة العلماء، ومباحثة الفقهاء؛ ومناقشة ذوى البصيرة والفهم، والفطنة والحزم؛ ومشاورتهم في عوارض الأمور المشككة، وسوانح الأحكام المستتمة المعضلة؛ حتى يصرح محض رأيه وآرائهم عن زبدة الصواب، وتنتج أفكارهم باستجماعها نظراً شافياً بالجواب، رافعاً عنه منسداً الحجاب؛ وإن في ذلك تلجاً للصدور، واستظهاراً في الأمور؛ واحترافاً من دواعي الزلل، واستمرار الخلل؛ وأمناً من غوائل الأفراد، وحطاً للتعويل على الاستبداد؛ فلرب ثقة أدت إلى تجمل، وأمن أفضى إلى وجل؛ وما زالت الشورى مقرونة بالإصباح، محكمة عمرى الحق وأسبابه؛ حارسة من عواقب الندم، داعية إلى السلامة من زلة القدم؛ وقد أمر الله نبيه صلى الله وسلم عليه، وأزلف محله لديه، بالاستظهار بالمشاورة مع عظم خطره، وشرف قدره؛ فقال: ﴿وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ .

وأمره أن يختار للحكم الأماكن الفسيحة الأرجاء، الواسعة الفضاء؛ وينظر في أمور المسلمين نظراً تفتت ثغور العدل فيه، وتلوح خشية الله من مطاويه؛ فيوصل إليه كافة الخصوم، ويبرز لهم على العموم؛ غير مشدد حجاب، ولا مرتج دون المترايعين إليه بابه؛ وأن يولي كلاً من الإقبال عليه، وحسن الإصغاء إليه، ما يكون بينهم فيه

مُسَاوِيَا، وَلَهُمْ فِي تَجْمَعِ الْمُوَازَاةِ حَاوِيَا؛ وَلَا يُعْطَىٰ مِنْ أَلْفَاتِهِ [إِلَى] الشَّرِيفِ لَشَرْفِهِ،
 وَذِي الشَّارَةِ الْحَسَنَةِ مِنْ أَجْلِ تَوْبِهِ وَمِطْرَفِهِ، مَا يَمْنَعُهُ مِنْ تَقَحُّمِهِ الْعُيُونَ، وَتَرَجُّمِ
 فِي نَحْمُولِهِ الظُّنُونِ: فَإِنَّ ذَلِكَ مُطْمَعٌ لَدَى الرَّوَاءِ فِي دَفْعِ الْحَقِّ إِذَا وَجِبَ عَلَيْهِ،
 وَالتَّمْسِيسِ الْبَاطِلِ وَإِنْ ضَعُفَتِ الدَّوَاعِي إِلَيْهِ؛ مُؤَيِّسٌ لَدَى انْجُمُولِ مِنَ الْإِتْتِصَارِ
 لِحَقِّهِ، وَإِنْ أَسْفَرَ صَبِيحُ يَقِينِهِ وَنَطَقَتْ أُنْسُهُ أَدْلَتُهُ؛ فَالنَّاسُ وَإِنْ تَبَايَنُوا فِي الْأَقْدَارِ
 وَالْقِيَمَةِ، وَتَفَاوَتُوا فِي الْأَرْزَاقِ الْمَقْسُومَةِ، فَلِإِسْلَامِ لَهُمْ مَجْتَمَعٌ، وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ
 يَتَّبَعَ؛ وَهُمْ عِنْدَ خَالِقِهِمْ سَوَاءٌ إِلَّا مَنْ مِيزَتْهُ التَّقْوَى، وَتَمَسَّكَ بِسَبِيحِهَا الْأَقْوَى؛
 قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا
 أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ لَمْ تَلَوْا فَرَأَوْا أَنَّ اللَّهَ
 كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾.

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ الْمُتَرَاغِبِينَ إِلَيْهِ، وَالْخُصُومَ لَدَيْهِ؛ وَيَتَطَلَّبَ مَا وَقَعَ نِزَاعُهُمْ
 لِأَجْلِهِ فِي نَصِّ الْكِتَابِ، وَيَعْدِلُ إِلَى السُّنَّةِ عِنْدَ عَدَمِهِ مِنْ هَذَا الْبَابِ؛ فَإِنَّ قُنْدَ
 مِنْ هَذَيْنِ الْوُجْهِينَ، فَلْيَرْجِعْ إِلَى مَا أَخْتَارَهُ السَّلَفُ الْمُهْتَدُونَ، وَأَجْمَعْ عَلَيْهِ الْفُقَهَاءَ
 الْمُجْتَهِدُونَ؛ فَإِنْ لَمْ يُلْفِ فِيهِ قَوْلًا وَلَا إِجْمَاعًا، وَلَا وَجَدَ إِلَيْهِ طَرِيقًا مُسْتِطَاعًا، أَعْمَلْ
 رَأْيَهُ وَأَجْتَهَادَهُ، وَأَمْتِطِ رِكَابَ وَسْعِهِ وَجِيَادِهِ؛ مُسْتَظْهِرًا بِمَشُورَةِ الْفُقَهَاءِ فِي هَذِهِ
 الْحَالِ، وَمُسْتَخْلِصًا مِنْ آرَائِهِمْ مَا يَقَعُ عَلَيْهِ الْإِتِّفَاقُ الْآمِنُ الْإِعْتِلَالُ: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ
 الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾.

وَأَمْرُهُ بِاسْتِعْمَالِ الْأَنَاءَةِ عِنْدَ الْحُكُومَاتِ، وَاسْتِمَاعِ الدَّعَاوَى وَالْبَيِّنَاتِ؛ مِنْ غَيْرِ
 سُرْعَةٍ تُحْدِثُ خَطَلًا، وَلَا إِفْرَاطٍ فِي التَّأَنِّي يُورِثُ مَلَلًا؛ فَإِنَّ الْحَقَّ بَيْنَ ذَيْنِكَ عَلَى شَفَا
 خَطَرٍ، وَظَهَرَ غَرَرٌ؛ وَلَا سِيَّأًا إِذَا كَانَ أَحَدُ الْخَصْمَيْنِ مُنْطَبِقًا، يَتَّقِ كَلَامَهُ تَمْتِيقًا؛

فإنه يجلب ببلاغة نطقه مستمعه، ويغطي وجه الباطل بالفاظه الموشعة؛ فإذا اتفق لديه ما هذا سبيله، شخذه له غرب فطته، وأزهف غرار فكره وبصيرته؛ ومنع كلاً من الإنصات ما يجتلي وجه النصف منيرا، ويغدو لأشياخ الجور ميرا .
 وإن ذو اللسن روعه، وأوهمه أن الحق معه، بما يلقفه من كلام يقصر خصمه عن جوابه، ويحصر عن جداله وأستيفاء خطابه؛ مع عدم البينة المشهوده، وتعدر الحجة الموجوده، أستعاد كلامه وأستنطقه، وأستوضح مغزاه وتحققه؛ من غير إظهار إعجاب بما يذكره، ولا أعتار بما يطويه وينشره؛ ولا إصغاء بيدو أثر الرغائب من قواه، ولا أختصاص له بما يمنع صاحبه شرواه^(١) : لتلا يولد ذلك له أشطاطا، ويحدث له أنطلاقاً في الخسومة وأنساطا؛ حتى إذا أبتم الحق، وأنتصر الصدق؛ وفلج أحدهما بحجته، ولحن بيته، أقر الواجب في نصابه، وأداله من جنود الظلم وأحزابه؛ وأمضى الحكم فيه بأعترا م صادق، ورأي محصد الوثائق؛ غير ملتفت إلى مراجعة الخسوم وتشاجرهم، وشكواهم وتناقيرهم؛ أعتادا للواجب، وأتتهاجا لجدد العدل اللاحب . قال الله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

وأمره إذا أنتدب للقضاء أن يفرغ باله، ويقضى أمامه أوطاره وأشغاله؛ ويحلى من أحوال الدنيا سره، ويشرح لما هو بصدده صدره؛ فلا تترع نفسه إلى تحصيل مآرب، ولا تتطلع إلى درك مطلب؛ فإن القلب إذا أكتفتته شجونه، وأحاطت به شؤنه، كان عرضة لتشعب أفكاره، وحمله على مركب اضطارره الجارى بضد إيناره وأختياره؛ حرياً بالتقصير عن الفهم والإفهام، والضجر عند مشتجر الخصام .

(١) « شروى الشئ مثله » .

وأمره بالثبوت في الحدود، والإستظهار عند إقامتها بمن يسكن إلى قوله من
الشهود؛ والأحتياط من عجل يُحيل الحكم عن بيانه، أو ريث يرجيه عند وضوحه
وتبينه؛ وأن يتجافى عما لم يصرح له بذكره وشرحه، ولا يسرع إلى تصديق ساع
وإن تشبه بالناصحين في نصحهم؛ حتى يستين له الحق فيمضيه، عاملاً بما يوجهه
حكم الله فيه. وأن يدرأ من الحدود ما أترضت الشبهة دليله، وكانت شواهد
مدخوله؛ ويُقيم منها ما قامت شهوده، ولم يمكن إنكاره وجوده؛ قال الله تعالى:
مُكْرًا لِلتَّجَافِيهِ، وَمُعْظَمًا لِلتَّجَوُّزِ فِيهَا: ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

وأمره بتصفح أحوال الشهود المعدلين، المسموعة أقوالهم في أمور المسلمين
وأحوال الدين؛ ومواصلة البحث عن طرائقهم، وأستشفاف خلايقهم؛ مستخدماً
في ذلك سره وجهره، وواصلًا بعوان دأبه فيه بكره؛ فمن علمه سليماً في فعله،
غير ظنين في أصله؛ متحرراً في كسبه، مرضياً في مذهبه؛ حافظاً لكتاب الله سبحانه،
متمسكاً من علم الشريعة بما يلوي عن مهاوى الخطأ عنانته؛ حاليًا بالديانة المنيرة
المطالع، حامياً نفسه عن الإسفاف إلى دنايا المطامع، حاوياً من الظلف والأمانه،
والقدر والصيانة، والأحتراس والتحفُّظ، والتحرُّز واليقظ؛ ماتيِّز به على أشكاله
وأترابه، وطال مناكب أمثاله وأضرابه، فقد كملت صفاته، وأقتضت تقديمه
أدواته؛ ووجب أن يُمضى كونه عدلاً، ويجعله لقبول الشهادة أهلاً. ومن رآه عن
هذه الخلال مقصراً، وبيعضها مستظهِراً؛ وكان موسوماً بديانة مشكوره، ونزاهة
مأثوره، رضى بذلك منه قانعا، وحكم بقوله سامعا. ومن كان عن هذين الفريقين
نائياً، ولأحوالهم المبين ذكرها نائياً، ألغى قوله مطرِّحا، وردَّ شهادته مصرِّحا؛
فإن هؤلاء الشهود أعوان الحق على انتصاره، وحبُّ الباطل على تبثيره وبواره؛

وَمَجَّةَ الْحَاكِمِ إِلَى قَضَائِهِ ، وَوَزَّرَهُ الَّذِي يَسْتَعِدُّ إِلَيْهِ فِي سَائِرِ أُنْحَائِهِ ؛ فَإِذَا أُعْدِرَ فِي آرْتِيَادِهِمْ ، وَاسْتَفْرَغَ وَسْعَهُ فِي آتْتِقَادِهِمْ ، فَقَدْ حَرَجَ مِنْ عَهْدَةِ الْأَجْتِمَادِ ، وَاسْتَحَقَّ مِنَ اللَّهِ جَزَاءَ الْمُجْتَمِدِ يَوْمَ النَّادِ ؛ وَمَتَى غَرَّرَ فِي ذَلِكَ تَوَجُّهَاتِ اللَّائِمَةِ عَلَيْهِ ، وَكَانَ قِنًّا بِنِسْبَةِ التَّقْصِيرِ فِي الْإِحْتِيَاظِ إِلَيْهِ ؛ وَاللَّهُ يُتَوَلَّى السَّرَائِرَ ، وَيَبْلُوُ خَفِيَّاتِ الضَّائِرِ ، قَالَ سَبْحَانَهُ : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ . وَقَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ : ﴿ سَتَكْتُبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَكِلَ أُمُورَ الْيَتَامَى فِي أَمْلاكَهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، وَمِرَاعَاةَ شُؤْنِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ ؛ إِلَى الثَّقَاتِ الْأَعْقَاءِ ، وَالْكَفَاةِ الْأَثْقِيَاءِ ؛ الَّذِينَ لَا تَسْتَهْوِيهِمْ دَوَاعِي الطَّمَعِ ، وَلَا يُورِدُهُمُ الْإِسْفَافُ مَوَارِدِ الطَّبَعِ ؛ وَأَنْ يَتَّبِعَ أُمُورَهُمْ وَيَتَصَفَّحَهَا ، وَيُسَارِفَهَا بِنَفْسِهِ وَيَسْتَوْضِحَهَا ؛ عَلِمَا أَنَّهُ عَمَّا فِي أَيْدِيهِمْ مَسْئُولٌ ، فَإِنَّ عُدْرَةَ فِي إِهْمَالِ يَتَخَلُّهُ غَيْرُ مَقْبُولٍ ؛ وَهُوَ سَبْحَانَهُ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

وَأَنْ يُوعِزَ إِلَيْهِمْ بِالْإِنْفَاقِ عَلَى أَرْبَابِهَا بِالْمَعْرُوفِ : لِيَتَهَيَّجُوا فِيهَا جَدَدَ الْقَصْدِ الْمَأْلُوفِ ؛ حَتَّى إِذَا بَلَّغُوا الْحُلْمَ ، وَأَوْنِسَ مِنْهُمْ الرُّشْدَ وَعُلِمَ ؛ وَسَاغَ لَهُمُ التَّصَرُّفُ فِي نُفُوسِهِمْ ، وَوَثِقَ مِنْهُمْ بِاسْتِدْرَارِ مَعَانِيهِمْ ، دَفَعَ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ مَعْرُوسَةً ، وَوَقَّاهُمْ أَيَّهَا كَامِلَةٌ غَيْرُ مَقْصُوصَةٍ ؛ مُسْتَظْهِرًا بِالشَّهَادَةِ عَلَيْهِمْ ، وَالْبِرَاءَةِ مِنْهَا بِتَسْلِيمِهَا إِلَيْهِمْ ؛ اتِّبَاعًا لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَأَبْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ .

وأمره بترويج الأيامى اللواتي فقدن الأولياء ، واعتدى عليهن صرف الدهر
وأساء ؛ وأضربهن طول الإزمال ، وبدت عليهن آثار الخلة في الحال ؛ فينكحهن
أكفاهن من الرجال ، ويقيم عقد نكاحهن على مهور الأمثال .

وأمره بتفويض أمر الوُوقف الجارية في نظره إلى من يأمته ويختاره ، وتقرن
بإعلانه في ارتضائه أسراره : من أهل التجربة والحياة ، ذوي الاضطلاع والغناء ؛
فإنهم أقل إلى المطامع تشوفاً ، وأبعد في عواقب الأمور نظراً وتلطفاً ؛ وأن يوسع
عليهم في الأرزاق ، فيوصلها إليهم مهتأة عند الوجوب والاستحقاق ؛ فبذلك يملك
المرء نفسه ويستصلحها ؛ ويتجنب مواقف التهم ويطرحها ؛ وتجنب عليه الحجة
إن نلم أمانه ، أو قارف خيانه ؛ مستظهِراً بترتيب المشرفين الذين خبر أحوالهم ،
وسبر أفعالهم .

وأن يتقدم إلى المستنابين قبله بالإنفاق عليها حسب الحاجة من محضوها ؛
حافظاً بما تعمده من ذلك لأصولها ؛ وجباية ارتفاعها من مظانها ؛ والتماس حقوقها
في أوانها ؛ وصرفها في وجوهها التي شرطها واقفوها ، وعين عليها أربابها وأهلؤها ؛
غير محل مع ذلك بالإشراف والتطلع ، ولا مهمل للفحص والتبليغ ؛ فمن ألفاه حميد
الأثر ، ورضى العيان والخبر ، عول عليه ، وفوض مستنيا إليه ؛ ومن وجده قد مد
إلى خيانة يده أستبدل به وعزله ، جزاء بما فعله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ
خَوَانًا أَيْمًا ﴾ .

وأمره أن يستخلف على ما نأى عنه من البلاد من جمع [إلى الوقار] الحلم ،
وإلى الدراية الفهم ؛ وإلى التيقظ الاستبصار ، وإلى الورع الاستظهار ؛ من
لا يضيق بالأمر ذرعاً ، ولا يحدث له مراجعة الخوص صحراً ولا تبرماً ؛ ولا يتأدى

في أسباب الزلّة ، ولا يُفَصِّرُ عن الرجوع إلى الحقِّ إذا اتَّضح له ، ولا يكتفي بأدنى معدّلة عن بلوغ أقصاها ، ولا تتهاوت نفسه على طاعة هواها ، ولا يريحي الأخذ بالحجة عند انكشافها ، ولا يعجل بحكم مع اعتراض الشبهة وأكتنافها ، ولا يستميله إغراء ، ولا يزديه مدح وإطراء ، وأن يعهد بمنثل ما عهد أمير المؤمنين إليه ، ويعذر في الإجهاد بإيجاب الحجّة عليه : ليرأى من تبعه بادرة عساه يأتيها ، أو مزلفة تُناديه فيهب ملبياً لداعياها ، قال الله تعالى : ﴿ وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إنَّ الله شديد العقاب ﴾ .

وأمره أن يُمضيَ ما مضاه الحكم قبله ولا يتعقب أحكامهم بتأويل ، مجتنباً تتبع عثراتهم ، والبحث عن هفواتهم ؛ ومهما رُفع إليه من ذلك مما الإجماع عليه موافق ، ولسانُ الكتاب والسنة به ناطق ، أمضاه وحكم به ، وإن كان مبائناً لمذهبه : فإنَّ الحكومات كلّها ماضية على اختلاف جهاتها ، مستمرة على تنافى صفاتها ؛ محمية عن التأويل والتعليل ، محروسة من التغيير والتبديل ؛ ما كان لها مخرج في بعض الأقوال ، أو وُجد لها عند الفقهاء احتمال ؛ إلا أن يكون الإجماع منعقداً على ضدها ، أخذاً بالنساء وردّها ؛ فيستفرغ في إيضاحها جهده ، ويُنْفِق في تلافيها من الاستطاعة وُجده ، حتى يعيدها إلى مقرّها من الواجب ، ويمضيها على الحقِّ اللازب ؛ قال الله عز وجل : ﴿ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وأمره أن يتخذ كتاباً بالظلف مؤسوماً ، وبأدق ما ينط به قسوماً ؛ خبيراً بما يسطره ، عالماً بما يدكره ، عارفاً بالشروط والسجلات ، وما يتوجه نحوها من التأويلات ، ويتداخلها من الشبهة والتليسات ؛ مطلعاً على أسرارها وعلالها ، وتصاريف حيلها ؛ متحرراً في كل حال ، متترها عن مذموم الفعال ؛ متخذاً خشية

الله شعارا ، مُسْبِلًا دُونَ عَصِيَانِهِ مِنَ التَّقِيّ أَسْتَارَا : فإنها نظاماته التي يَرْجِعُ إليها ، وَيَدُّهُ التي يَبْطِشُ بها وَيَعُولُ عليها ؛ ومتى لم يكن له من نَفْسِهِ وازع ، ولا من عَقْلِهِ وَدِينِهِ رَادِع ؛ لم يُؤْمَنْ أن تَدَبَّ عَقَارُهُ لَيْلًا ، وَيَسْحَبَ عَلَى الغَوَائِلِ وَالْمُؤَبِّقَاتِ ذَيْلًا ؛ فَيَعِمُّ الضَّرْرُ بِمَكَانِهِ ، وَيُسْرِعُ أَذَاهُ إِلَى الْمُسْلِمِينَ حَدَّ سِنَانِهِ . وَأَنْ يَخْتِجِرَ حَاجِبًا طَاوِيًا كَشَحَهُ دُونَ الْأَشْرَارِ ، جَامِعًا لِأَدَبِ الْأَخْيَارِ ؛ مُدْرِعًا جِلْبَابَ الْحَيَاءِ ، طَلَّقَ الْوَجْهَ عِنْدَ اللَّقَاءِ ؛ سَهَّلَ الْجَانِبَ لِيَنَّهُ ، مَسْتَشْعِرِ الْخَيْرِ مَتَيْقَنَهُ ؛ غَيْرِ مُتَجَهِّمٍ لِلنَّاسِ ، وَلَا مَعَامِلِهِمْ بِغَيْرِ الْبَشَاشَةِ وَالْإِيْنِاسِ ؛ فَإِنَّهُ الْبَابُ إِلَيْهِ ، وَالْمَعْتَمَدُ فِي لِقَائِهِ عَلَيْهِ ؛ فَلْيَنْتَخِبْهُ آتِنَابَ مَنْ عِلْمٌ أَنَّ حُسْنَ الثَّنَاءِ خَيْرٌ زَادَ ، وَأَنْفُسُ ذُنُوعَتَادٍ ؛ وَرَأَى طَيْبَ الْمُحَمَّدَةِ أَجْمَلَ كَسْبٍ مُرَادَ ، وَحَظَّ مَجْسَدَ مُسْتَفَادَ . ومتى كان عن هذه الخلالِ مُتَخَلِّيًا ، وَبِخِلَافِهَا مُتَحَلِّيًا ، أَعْتَاضَ عَنْهُ بِنِ هُوَ أَسْلَمُ غِيَا ، وَأَمْنٌ رِيَا ، وَأَنْقِيَّ جِيَا ، وَأَقْلُ عِيَا ، قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ أَنْ يَتَسَلَّمَ دِيوَانَ الْقَضَاءِ وَمَا فِيهِ مِنَ الْحُجَجِ وَالسَّجَّلَاتِ ، وَالْوَنَائِقِ وَالْكَفَالَاتِ ، وَالْمَحَاضِرِ وَالْوَكَالَاتِ ؛ بِمُحَضَّرٍ مِنَ الْعُدُولِ لِيَكُونُوا لَهُ مَشَاهِدِينَ ، وَعَلَيْهِ شَاهِدِينَ ؛ وَأَنْ يَجْعَلَ خَزَانَهَا مِنْ يَرْتَضِيهِ ، بِاجْتِمَاعِ أَدْوَاتِ الْخَيْرِ فِيهِ ؛ عَامِلًا فِي حِفْظِهَا بِمَا تَقْتَضِيهِ الْأَمَانَةُ الَّتِي أَشْفَقَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ مِنْهَا ، وَأَقْرَرْنَ بِالْعِزِّ عَنْهَا ؛ مُتَحَرِّيًا مِنْ أَمْرِ يَبُوءُ مَعَهُ بِالْأَمْنَامِ ، فِي دَارِ الْمَقَامِ ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيِّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ .

وَأَمْرُهُ بِمِرَاعَاةِ أَمْرِ الْحِسْبَةِ فَإِنَّهَا أَكْبَرُ الْمَصَالِحِ وَأَهْمُهَا ، وَأَجْمَعُهَا لِنَفْعِ النَّاسِ وَأَعْمُهَا ؛ وَأَدْعَاهَا إِلَى تَحْصِينِ أَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْتِظَامِ أَحْوَالِهِمْ ؛ وَحَسْمِ مَوَادِّ الْفَسَادِ ،

وَكَفَّ يَدَهُ عَنِ الْأَمْتِدَادِ ، وَأَنْ يَتَقَدَّمَ إِلَى الْمُسْتَنَابِ فِيهَا بِمُدَاوِمَةِ الْأَطَّلَاعِ عَلَى كَمِيَّةِ الْأَسْعَارِ ، وَالْفَحْصِ عَنِ مَادَّةِ الْخُلُوقَاتِ فِي الْأَتْقَاعِ وَالْإِسْتِمْرَارِ ؛ وَمَوَاصِلَةِ الْجُلُوسِ فِي أَمَاكِنِ الْأَقْوَاتِ وَمَطَانِّهَا : لِيَكُونَ تَسْعِيرُهَا بِمَقْتَضَى زِيَادَتِهَا وَقُصَابِنِهَا ؛ غَيْرَ خَارِجٍ فِي ذَلِكَ عَنِ حُدِّ الْأَعْتِدَالِ ، وَلَا مَائِلٍ إِلَى مَا يُخَيِّفُ بِالْفَرِيقَيْنِ مِنْ إِكْثَارِ وَإِقْلَالِ ؛ وَأَنْ يُرَاعِيَ عِيَارَ الْمَكَايِلِ وَالْمَوَازِينِ ، لِيُمَيِّزَ ذَوِي الصَّحَّةِ مِنَ الْمَطْفُفِينَ ؛ فَيَقُولُ لِمَنْ حَسُنَ آخِتَابُهُ [مَرَّ] حَىٰ وَيُقَابِلَ مَنْ سَاءَ آخِتَابُهُ بِمَا يَجْعَلُهُ لِأَمثَالِهِ رَادِعًا ، حَتَّىٰ يَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَيَتَجَنَّبُوا التَّطْفِيفَ بِقَلْبٍ مِنْ إِضْمَارِ الْمَعَاوِدَةِ سَلِيمٍ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَلِّ لِلطَّافِّينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالَهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وَحُجَّتُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ ؛ وَفَقَّكَ [فِيهِ] عَلَىٰ مَنَهِجِ الصَّلَاحِ ، وَأَعَلَّقَكَ مِنْهُ إِنْ اتَّبَعْتَهُ بِأَسْبَابِ النَّجَاحِ ؛ وَأَدْرَبَهُ عَلَيْكَ خِلْفَ السَّعَادَةِ إِنْ أَمْرِيَّتَهُ بِيَدِ الْقَبُولِ ، وَجَمَعَ لَكَ مَعَ آخِتَابِهِ بَدَائِدَ الْمَأْمُولِ ، وَعَطَفَ لَدَيْكَ مَتَى تَمَثَّلَتْهُ شَوَارِدُ السُّوَالِ ؛ وَأَوْجَدَكَ ضَالَّةً مُتَاعِكَ إِنْ أَصْغَيْتَ إِلَيْهِ سَامِعًا مُطِيعًا ، وَأَعَادَ إِنْ أَتْمَرْتَ بِأَوَامِرِهِ شَمْلَ أَقْوَالِكَ جَمِيعًا ، وَأَرَادَكَ مَرَعَى النَّجَاةِ إِنْ نَهَضْتَ بِأَعْبَائِهِ مَرِيحًا ؛ لَمْ يَدْنَحْكَ فِيهِ شَفِيفًا ، وَلَا حَقَرَكَ إِرْشَادًا وَتَعْرِيفًا ؛ خَلَعَ بِهِ رِبْقَةَ الْأَمَانَةِ عَنِ عُنُقِ اجْتِهَادِهِ ، وَأَوْصَحَ لَكَ مَا يُسْأَلُ غَدًا عَنِ فَعْلِهِ وَأَعْتَادِهِ .

فَبَادِرْ إِلَى الْعَمَلِ بِهِ مُسْرِعًا ، وَتَمِّمْ بِالْمَحْدُودِ فِيهِ مُضْطَلِعًا ؛ وَأَعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَالِمٍ هَفْوَهُ ، وَلِكُلِّ جَوَادِ كَبْوَهُ ؛ فَاغْضُضْ عَنِ مَطَالِحِ الْهَوَىٰ طَرْفَكَ ، وَأَثْنِ عَنِ أَضَالِيلِ الدُّنْيَا

(١) مرعى كلمة تقال للراعى إذا أصاب تعجباً من رعيه .

(٢) مرى الدم وأمرأه أستخرجه .

(٣) لعله مع أختراله . تأمل

الغزارة عطفك ، وأخش موقفاً تشخص فيه الأبصار ، وتعدم الأعوان والأنصار ؛
يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ، وتتقطع الوسائل لإلّا ممن أطاع الله وأتقاه ؛ ينعم
عوفك^(١) ، ويأمن يوم القيامة خوفاً ؛ ومهما عرض لك من شبهة لم تُلّف محرّجا منها ،
ولا صدرا عنها ، ولا وجدت لسقمها هناء ، ولدائها شفاء ، فطالع حضرة أمير المؤمنين
بها ما مستعلما ، وأنها إليه مستفتحا باستدعاء الجواب عما أصبح لديك مستغلقا
مبهما ، يُمددك منه بما يُريك صبح الحق منبججا ، وضيق الشك مُنفرجا ؛ عن علم
عنده البحر كالقياس ، إلى أو شال الناس ؛ والله تعالى يعضد آراء أمير المؤمنين
بالصواب ، ويمدّه بالتوفيق في سائر الآراب ؛ ويقود لمراده أزيمة جوامحها الصعاب ،
ما أنجم سحاب ، وأنجم ربّاب ، بمنه وسعة فضله .



وهذه نسخة عهد بولاية القضاء بسرّ من رأى ، كتب بها أبو إسحاق الصابى ،
عن الطائع لله ، للقاضى أبى الحسين محمد بن قاضى القضاة أبى محمد عبيد الله ،
ابن أحمد بن معروف ، حين ولّاه القضاء بسرّ من رأى وغيرها ، وما أضيف إلى
ذلك من أعمال الجزيرة ، وهى :

هذا ما عهد عبد الله عبد الكريم ، الإمام الطائع لله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن
قاضى القضاة عبيد الله بن أحمد ، حين عرفت الفضيلة فيه ، وتقبل مذهب أبىه ؛
ونسأ من حصنه فى المنشئ الأمين ، وتبوا من سببه ونسبه المتبوا المصون ؛ ووجده
أمير المؤمنين مستحقا لأن يوسم بالصنيعه ، والمنزلة الرفيعه ؛ على الحدائة من سنه ،

(١) العوف من معانيه البال والحال ومنه يقال فى الدماء نعم عوفك .

(٢) يقال تقبيل فلان أباه [أى بالياء المثناة] تقبلا اذا نزع اليه فى الشبه .

والغضاضة من عوده ، سامياً به في ذلك إلى مراتب أعيان الرجال ، التي لا تُدرَك إلا مع الكمال والأكتمال : لما آتس من رُشده ونجابهته ، وأستَوْضَح من عقله ولبأبته ، وأستَرَجح من وقاره وحلمه ، وأستَغزَرَ من درايته وعلمه ، وللَّذى عليه شيخه قاضى الفضاة عبيد الله بن أحمد من حِصافة الدِّين ، وخُلوص اليقين ، والتقدُّم على المتحلِّين بحيلته ، والمتحلِّين لصناعتِهِ ؛ والأستبدادِ عليهم بالعلمِ الحِجْم ، والمعنى الفخْم ؛ والأفتنانِ فى المساعى الصالحةِ التي يُسودُّ أحدُهم بأحدِها ، ويستحقُّ التَّجاوزَ لهم من أَسْتَوْعَبَها بأسرها ؛ وبالتَّقى والأمانة ، والعِفَّة والتَّزَاهة ؛ التي صار بها علماً فرداً ، وواحداً فداً ؛ حتى تكلفها من أجله مَنْ لَيْسَتْ من طَبْعِهِ ولا سِنِّهِ ، فهو المحمود بأفعاله التي أخص بها وبأفعال غيره من حذاه فيها ، وبما نَفَقَ من بضائع الخير بعد كسادها ، وبالسابقة التي له في خدمة المطيع لله أولاً ثم خدمة أمير المؤمنين ثانياً ، فإنها [سابقة] شائع خبرها ؛ وحميلٌ أثرها ؛ قوِيَّةٌ دَوَاعِيها ، متمكِّنةٌ أوأخيها . وللمكانة التي خُصَّ بها من أمير المؤمنين [ومن عزَّ الدولة أبى منصور مولى أمير المؤمنين أيدته الله] ^(١) ومن نصير الدولة الناصح أبى طاهر رِعاة الله ؛ ومن عِظَماءِ أهلِ حوزتهم ، وأفاريقِ عوامِّهم ورعيِّتهم ؛ فلما صدَّق محمد فِراسةَ أمير المؤمنين ونحايته ، وأخذتْ سبجاً يا أبيه وشمائله ؛ وحصل له ما حصل من الحرُمات المتأثله ، والموات المتأصله ، أحرز من الأثرة على قُرب المدى ، ما لا يُحرزه غيره على بُعد المرعى ؛ وأستغنى أمير المؤمنين فيه عن طول التجربة والأختبار ، وتكرَّر الامتحان والاعتبار . فقلَّده الحكم بين أهلِ سُرِّ مَنْ رأى ، وتكرَّرت ، والطبرهان ، والسَّن ، والبوازيج ، ودقُّوقاً ، وخانيجار ، والبندِيعيين ، وبوحسابور ، والرَّاذانيين ، [ومسكن] ^(١) وقُطربُل ، ونهروبوق ، والدين ، وجميع الأعمال

(١) الزيادة من "رسائل الصائى" .

(٣) أفاريق جمع أفراف وأفراف جمع فرقة .

المُضَافَةُ إِلَى ذَلِكَ وَالْمُنَسُوبَةُ إِلَيْهِ ، وَشَرَّفَهُ بِالْخَلْعِ وَالْمُحْلَانِ ، وَضُرُوبِ الْإِنْعَامِ
وَالْإِحْسَانِ ؛ وَكَانَ فِيهَا أَعْطَاهُ مِنْ هَذَا الصَّيِّتِ وَالْمَجْدِ ، وَنَحَلَهُ مِنْ الْمَفْخَرِ الْعَدْبِ ؛
مَبْتَغِيًّا مَا كَسَبَهُ مِنْ اللَّهِ الرَّضَا وَالرِّزْقِي ، وَالسَّلَامَةَ فِي الْفَاتِحَةِ وَالْعُقْبَى ؛ وَرَاعِيًّا
لِمَا يُوجِبُهُ لِقَاضِي قُضَايَاهُ عِيْدِ اللَّهِ بْنِ أَحْمَدَ مِنَ الْحَقُوقِ الَّتِي أَخْفَى مِنْهَا أَكْثَرَ
مِمَّا أَبْدَى ، وَأَمْسَكَ عَنْ أَضْعَافِ مَا أَحْصَى ؛ وَذَاهِبًا عَلَى آثَارِ الْأَئِمَّةِ الْمَهْدِيِّينَ ،
وَالْوَلَاةِ الْمُجْتَهِدِينَ ، فِي إِقْرَارِ وَدَائِعِهِمْ عِنْدَ الْمُرْتَبِعِينَ لِحِفْظِهَا ، الْمُضْطَلَعِينَ بِجَمَلِهَا ، مِنْ
أَوْلَادِ أَوْلِيَائِهِمْ ، وَوَدْرِيَّةِ نُصَحَائِهِمْ : إِذْ كَانَ لَا بُدَّ لِلْأَسْلَافِ أَنْ تَمْضَى ، وَالْأَخْلَافِ
أَنْ تَتِمَّى ؛ كَالشَّجَرِ الَّذِي يُغْرَسُ لَدُنَّا فَيَصِيرُ عَظِيمًا ، وَالنَّبَاتِ الَّذِي يَنْجُمُ رَطْبًا فَيَصِيرُ
هَشِيمًا ؛ فَالْمُصِيبُ مِنَ تَحْيِيرِ الْغُرْسِ مِنْ حَيْثُ اسْتَنْجَبَ الشَّجَرُ ، وَاسْتَحْلَى الثَّمَرُ ،
وَتَعَمَّدَ بِالْعُرْفِ مَنْ طَابَ مِنْهُ الْخَبْرُ ، وَحَسُنَ مِنْهُ الْأَثَرُ ؛ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى
تَسْدِيدًا مُجْمَدًا عَائِدْتَهُ ، وَتَدْرِثًا عَلَيْهِ مَادَّتَهُ ؛ وَتَيَوَّلَاهُ فِي الْعَزَائِمِ الَّتِي يَعْرِضُهَا ، وَالْأُمُورِ الَّتِي
يُزِمُّهَا ، وَالْعُقُودِ الَّتِي يَعْقِدُهَا ، وَالْأَغْرَاضِ الَّتِي يَعْتَمِدُهَا ؛ وَمَا تَوْفِيقُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ وَإِلَيْهِ يُنِيبُ .

أَمْرُهُ بِاعْتِمَادِ التَّقْوَى ، فَإِنَّهَا شِعَارُ أَهْلِ الْهُدَى ؛ وَأَنْ يُرَاقِبَ اللَّهُ مِرَاقِبَةَ الْمُتَحَرِّزِ
مِنْ وَعِيدِهِ ، وَالْمُتَنَجِّزِ لِمَوَاعِيدِهِ ؛ وَيَطَهِّرَ قَلْبَهُ مِنْ مَوْبِقَاتِ الْوَسَاوِسِ ، وَيُهْدِبَهُ مِنْ
مُرْدِيَّاتِ الْهَوَاجِسِ ؛ وَيَأْخُذَ نَفْسَهُ بِمَا خَذَ أَهْلُ الدِّينِ ، وَيَكْلَفُهَا كَلْفَ الْأَبْرَارِ
الْمُؤْمِنِينَ ، وَيَمْنَعَهَا مِنْ أَبَاطِيلِ الْهَوَى ، وَأَضَالِيلِ الْمُنَى ؛ فَإِنَّهَا أَمَارَةٌ بِالسُّوءِ ، صَبَّةٌ إِلَى
الْفِتَى ؛ صَادَةٌ عَنِ الْخَيْرِ ، صَادِفَةٌ عَنِ الرَّشْدِ ؛ لَا تَرْجِعُ عَنْ مَضَارِهَا إِلَّا بِالشَّكَاكِمِ ،
وَلَا تَتَقَادُ إِلَى مَنَافِعِهَا إِلَّا بِالْحَزَائِمِ ؛ فَمَنْ كَبَحَهَا وَشَتَّأَهَا نَجَّأَهَا ، وَمَنْ أَطْلَقَهَا وَأَمْرَجَهَا

(١) أى مائلة الى الخ . (٢) فى الأصول والرسائل وأمرجها بالهاء ولعله تصحيف فى اللسان

”وأمرجها [أى الدابة] تركها تذهب حيث شاءت“ فتنبه .

أرداها . وأولى من جعل تقوى الله دأبه وديننه ، والحيفة منه منهاجه وسننه ؛ من
 ارتدى رداء الحكام ، وأمر ونهى في الأحكام ، وتصدى لكف الظالم ، ورد المظالم ؛
 وإيجاب الحدود ودرئها ، وتحليل الفروج وحظرها ؛ وأخذ الحقوق وإعطائها ،
 وتنفيذ القضايا وإمضاءها : إذ ليس له أن يأمر ولا يأمر ، ويؤجر ولا يزدجر ؛ ويأتي
 مثل ما ينهى عنه ، وينهى عما يأتي مثله ؛ بل هو محقوق بأن يصلح ما بين جنبيه ،
 قبل أن يصلح ما رده أمره إليه ؛ وأن يهدب من نيته ، ما يحاول أن يهدب من
 رعيته ؛ قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ
 مُسْلِمُونَ ﴾ : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

وأمره بالإكثار من تلاوة القرآن الواضح سبيله ، الراشد دليله ؛ الذى من استضاء
 بمصايحه أبصر ونجا ، ومن أعرض عنها زلّ وغوى ؛ وأن يتخذ إماماً يهتدى بأياته ،
 ويقتدى ببيئته ؛ ومثلاً يحذو عليه ، ويرد الأصول والفروع إليه ؛ فقد جعله الله
 حجته الثابتة الواجبه ، وحجته المستبينة اللاجبه ؛ ونوره الغالب الساطع ، وبرهانه
 الباهر الناصع ؛ وإذا ورد عليه معضل ، أو غم عليه مشكل ، اعتصم به عائداً ،
 وعطف عليه لا إذا ؛ فبه يكشف الخطب ، ويذل الصعب ؛ وينال الأرب ،
 ويدرك المطلب ؛ وهو أحد الثقلين اللذين خلقهما رسول الله صلى الله عليه وعلى آله
 وسلم فينا ، ونصبهما معلماً بعده لنا ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ
 بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْغَائِبِينَ خَصِيماً ﴾ . وقال تعالى :
 ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ
 حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره بالمحافظة على الصلوات ، وإقامتها في حقائق الأوقات ، وأن يدخل فيها
 أو أن خلوطها بإخلاص من قلبه ، وحضور من لبه ، وجمع بين لفظه ونيتته ،
 ومطابقة بين قوله وعمله ، مرتلاً للقراءة فيها ، مفصلاً بالإبانة لها ، مثبتاً في ركوعها
 وسجودها ، مستوفياً لحدودها وشروطها ، متجنباً فيها جرائر الخطأ والسهو ، وعوارض
 الخطل واللقو : فإنه واقف بين يدى جبار السماء والأرض ، ومالك البسط
 والقبض ، والمطلع على خائنة كل عين وخافية كل صدر ، الذى لا تحتجب دونه
 طويته ، ولا تستعجم عليه خبيته ، ولا يضيع أجر محسن ، ولا يصلح عمل مفسد ،
 وهو القائل عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ .

وأمره بالجلوس للخصوم ، وفتح بابهم على العموم ، وأن يوازى بين الفريقين
 إذا تقدما إليه ، ويحاذى بينهما فى الجلوس بين يديه ، ويقسم لهما أقساماً ممتثلة
 من نظره ، وأقساطاً متعادلة من كلمه : فإنه مقام توازن الأقدام ، وتكافؤ الخواص
 والعوام ، ولا يقبل على ذى هيئة لهيئته ، ولا يعرض عن دميم لدمايته ، ولا يزيد
 شريفاً على مشروف ، ولا قوياً على مضعوف ، ولا قريباً على أجنبي ، ولا مسلماً
 على ذمى ، ما جمعهما التخاصم ، وضمهما التحاكم . ومن أحسن منه بتقصان بيان ،
 أو عجيز عن برهان ، أو قصور فى علم ، أو تأخر فى فهم ، صبر عليه حتى يستنيط
 ماعنده ، ويستشف ضميره ، ويتق بالإنقاع غلته ، ويزيح بالإيضاح غلته . ومن
 أحسن منه بلسنٍ وعبارةٍ وفضل من بلاغه ، أعمل فيما يسمعه منه فكره ، وأحضره
 ذهنه ، وقابله بسد خلة خصمه ، والإبانة لكل منهما عن صاحبه ، ثم سأل على
 أقوالها ودعوايها تأمله ، وأوقع على بيناتهما ومججها تدبره ، وأنفذ حينئذ الحكومة
 إنفاذاً يعلمان به أن الحق مستقر مقره ، وأن الحكم موضوع موضعه ، فلا يبقى
 للمحكوم عليه استرابة ولا للمحكوم له استراحة ، وأن يأخذ نفسه مع ذلك بأظهر

الخلائق وأحمدها ، وأهدى السجايا وأرشدتها ؛ وأن يقصد في مشيه ، ويغض
من صوته ، ويحذف الفُضُول من [لفظه و] ^(١) لحظه ؛ ويحفف من حركاته ولفظاته ،
ويتوقر من سائر جنابه [وجهاته] ^(١) ، ويتجنب الخرق والحدة ، ويتوق الفُظَاظَةَ
والشدة ؛ ويلين كنفه من غير مهانة ، ويرب هيبته في غير غلظة ؛ ويتوحن في ذلك
وقوفا بين غايته ، وتوسطا بين طرفيه ؛ فإنه يخاطب أخلاطا من الناس مختلفين ،
وضروبا غير متفقين ؛ ولا يخلو فيهم من الجاهل الأهوج ، والمظلوم المخرج ؛ والشخ
الهم ، والناشئ العز ؛ والمرأة الركيكة ، والرجل الضعيف النحيزة ؛ وواجب عليه
أن يغمرهم بعقله ، ويشملهم بعذله ؛ ويقمهم على الاستقامة بسياسته ، ويعطف
عليهم بحلمه ورياسته . وأن يجلس وقد نال من المطعم والمشرب طرفا يقف به عند
أول الكفاية ، ولا يبلغ منه إلى آخر النهاية ؛ وأن يعرض نفسه على أسباب الحاجة
كلها ؛ وعوارض البشرية بأسرها : لئلا يلم به من ذلك ملم أو يطيف به طائف
فيحيلانه عن جلده ، ويحولان بينه وبين سده . وليكن همه إلى مايقول
ويقال له مصروفا ، وخاطره على مايرد عليه ويصدر عنه موقوفا ؛ قال الله تعالى :
﴿ يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا
يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ .

وأمره إذا ثبت عنده حق من الحقوق لأحد من الخصوم . أن يكتب له متى
آتمس ذلك إلى صاحب المعونة في عمله بأن يمكثه منه ، ويحسم المعارضات فيه
عنه ، ويقبض كل يد تمتد إلى منازعته ، أو تتعدى إلى مجادبته ؛ فقد ندب الله

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" .

الناس إلى معاونة المحق على المبطل، والمظلوم على الظالم؛ إذ يقول عز وجل:

﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّوَدُّانِ﴾ .

وأمره أن يستصحب كاتباً درّبا بالمحاضر والسجلات؛ ماهرا في القضايا والحكومات؛ عالماً بالشروط والحدود؛ عارفاً بما يجوز وما لا يجوز؛ غير مقتصّر عن القضاة المستورين، والشهود المقبولين، في طهارة ذنبه، ونقاء جيبه، وتصوّنه عن حُبِّ المالِ والطمع، ومُقارفة الرّيب والتّم، فإن الكاتب زمام الحاكم الذي إليه مرّجعه، وعليه معوّله؛ وبه يحترس من دواهي الحيل، وكوامن الغيل. وحاجباً سديداً رشيداً، أديباً لبيباً؛ لا يسف إلى ذنبة ولا يلم بمنكرة؛ ولا يقبل رشوه، ولا يلتبس جعالة؛ ولا يجلب عنه أحداً يحاول لقاءه في وقته، والوصول إليه في حينه. وخلفاء يرُدُّ إليهم مابعد من العمل عن مقرّه، وأعجزه أن يتولّى النظر فيه بنفسه؛ ينتخبهم من الأمانت، ويتخيّرهم من الأفاضل؛ ويعهد إليهم في كلّ ماعهد فيه إليه، ويأخذهم بمثل مأخذ به؛ ويجعل لكلّ من هذه الطوائف رزقاً يكفّه ويكفيه، وقوتاً يحجزه ويغنيه؛ فليس تلزمهم الحجّة إلا مع إعطائهم الحاجة، ولا تؤخذ عليهم الوثيقة إلا مع إزاحة العلة؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَسْعَىٰ وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَأُ الْجَزَاءَ الْاَوْفَىٰ﴾ .

وأمره بإقرار الشهود الموسومين بالعدالة على تعديدهم، وإمضاء القضاء بأقوالهم؛ وحملهم على ظاهر السّلامه، وشعار الاستقامه؛ وأن يعتمد مع هذا البحث عن أديانهم، والفحص عن أماناتهم، والإصغاء إلى الأحاديث عنهم؛ من ثناء يتكرر، أو قدح يتردد؛ فإذا تواتر عنده أحد الأمرين، ركن إلى المزكّي الأمين، وبنّا عن المتّم الظنّين؛ فإنه إذا فعل ذلك أغتبط أهل الأمانة بأماناتهم، ونزع أهل الخيانة

عن خياناتهم ؛ وتقرَّبوا إليه بما تَفَقَّ سُوْفُه ، وِيسْتَحَقُّ به التوجُّه عنده ، وأسَمَرَ شُهُودُه وأمناؤُه ، وأتباعُه وخلفاؤُه ، على المنهج الأوضح ، والمسلك الأنجح ؛ وتحصَّنت الأموال والحقوق ، وصيَّنت الحُرْمات والفُروج ؛ ومتى وَقَفَ لأحدٍ منهم على هَفْوَةٍ لا تُغْفَرُ ، وعَثْرَةٍ لا تُنْقَلُ ، أسقطه من عددهم ، وأخرجه عن جُمْلَتهم ؛ وأعتاضَ منه من يَحْمَدُ دينَه ، ويرضى أمانتَه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَحَافَنَ مِنْ قَوْمٍ حِيَانَةً فَاِنْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ ﴾ . وقال في الشهادة : ﴿ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ﴾ .

وأمره بالضبط لما يجري في عمله من الوقوف الثابتة في ديوان حُكْمِه ؛ والتعويل فيها على الأمانة الثقات ، والحُصْفَاء الكفّاء ، المعروفين بالظلف والورع ، المنتزَّهين عن النطْفِ والجشع ؛ والتقدُّم إليهم في حفظ أصولها ، وتوفير فروعها ؛ وتثمين غلاها وارتفاعها ؛ وصرفها إلى أهلها ومستحقِّها وفي وجوها وسبُلها ؛ ومطالبتهم بحساب ما يجري على أيديهم ، والاستبراء لآثارهم فيه وأفعالهم ؛ وأن يَحْمَدَ منهم من كَفَى وكَفَّ ، ويُدِّم من أضرَّع وأسَف ؛ ويُنزِلُ كلاً منهم منزلة التي استحقَّها بعمله ، وأستوجبها بأثره ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ .

وأمره بالاحتياط على أموال الأيتام ، وإسنادها إلى أعفِّ وأوثق القوَّام ؛ والتقدُّم إلى كل طائفة بأن يجريهم مجرى ولده ، ويقمهم مقام سلالته ، في الشفقة عليهم ، والإصلاح لشؤونهم ، والإشراف على تأديبهم ؛ وتلقينهم ما لا يَسَعُ المسلم جهله من الفرائض المفترضة ، والسُنن المؤكدة ؛ وتحرَّيجهم في أبواب معاشهم ،

وأَسبابِ مَصَالِحِهِمْ ؛ وَالْإِنْفَاقِ عَلَيْهِمْ مِنْ عَرَضِ أَمْوَالِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي لَاشْطَطَ فِيهِ وَلَا تَبْذِيرَ ، وَلَا تَضْيِيقَ وَلَا تَقْتِيرَ ؛ فَإِذَا بَلَغُوا مَبَالِغَ كَالِهِمْ ، وَأَوْنِسَ مِنْهُمْ الرُّشْدَ فِي مَتَصَرِّفَاتِهِمْ ، أَطْلَقَ لَهُمْ أَمْوَالَهُمْ ، وَأَشْهَدَ بِذَلِكَ عَلَيْهِمْ ؛ فَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ بِمَا تَقَلَّدَهُ مِنْ الْحُكْمِ ، خَلْفًا مِنَ الْآبَاءِ لِلذَّوِي الْيَتِيمِ ؛ وَصَارَ بِهَذِهِ الْوَلَايَةِ عَلَيْهِمْ مُسْئُولًا عَنْهُمْ ، وَجَزِيًّا عَمَّا سَارَ بِهِ فِيهِمْ ، وَأَوْصَلَهُ مِنْ خَيْرِ أَوْشُرِّ إِلَيْهِمْ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

﴿ وَلِيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا ﴾ .

وَأَمْرَهُ بِحِفْظِ مَا فِي دِيْوَانِهِ مِنَ الْوَنَائِقِ وَالسَّجَلَاتِ ، وَالْمُحَاجِّ وَالْبَيْتَاتِ ، وَالْوَصَايَا وَالْإِقْرَارَاتِ ؛ فَإِنَّهَا وَدَائِعُ الرِّعْيَةِ عِنْدَهُ ، وَوَاجِبٌ أَنْ يَحْرَسَهَا جُهْدَهُ ؛ وَأَنْ يَكْلِمَهَا إِلَى الْخُرَّانِ الْمَأْمُونِينَ ، وَالْحَفِظَةَ الْمُتَّقِظِينَ ؛ وَيُوعِزُّ إِلَيْهِمْ بِأَنْ لَا يُخْرَجُوا شَيْئًا مِنْهَا عَنْ مَوْضِعِهِ وَلَا يُضَيِّفُوا إِلَيْهَا مَا لَمْ يَكُنْ بَعْلَمِهِ ؛ وَأَنْ يَتَّخِذَ لَهَا بَيْتًا يَحْصُرُهَا بِهِ ؛ وَيَجْعَلُهُ بَحِثَ يَأْمُنَ عَلَيْهِ ؛ لِيَرْجِعَ مَتَى أَحْتَاَجَ الرُّجُوعَ إِلَيْهِ ؛ فَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ .

وَأَمْرَهُ إِنْ وَرَدَ عَلَيْهِ أَمْرٌ يُعِينُهُ فَصَلُّهُ ، وَيُسْتَبْتِهِ عَلَيْهِ وَجْهَ الْحُكْمِ فِيهِ ، أَنْ يَرُدَّهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ ، وَيَطْلُبَ بِهِ سَبِيلَ الْمُخْلِصِ مِنْهُ ، فَإِنْ وَجَدَهُ وَالْإِفْتَى الْأَثَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَإِنْ أَدْرَكَهُ وَإِلَّا أَسْتَفْتَى فِيهِ مَنْ يَلِيهِ مِنْ ذَوِي الْفِقْهِ وَالْفَهْمِ ، وَالْهُدَايَةِ وَالْعِلْمِ ؛ فَمَا زَالَتِ الْأُئِمَّةُ وَالْحُكَّامُ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ ، وَطُرُقِ السَّنَنِ الْوَاضِحِ ؛ يَسْتَفْتِي وَاحِدًا مِنْهُمْ وَاحِدًا ، وَيَسْتَرْشِدُ بَعْضُ بَعْضًا ؛ لَزُومًا لِلْاجْتِهَادِ ، وَطَلْبًا لِلصَّوَابِ ؛

وتحرزا من الغلط ، وتوقيا من العثار ؛ قال الله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ .

وأمره أن لا يتقضى حكما حكم به من كان قبله ولا يفسخه ، وأن يعمل عليه ولا يعدل عنه ، ما كان داخلا في إجماع المسلمين ، وسائغا في أوضاع الدين ؛ فإن خرج عن الإجماع ، أو صحَّ الحال فيه لمن بحضرة من الفقهاء والعلماء حتى يصيروا مثله في إنكاره ، ويجتمعوا معه على إيجاب رده ، ثم يتقضه حينئذ نقضا يشيع ويذيع ، ويعود به الأمر إلى واجبه ، ويستقر معه الحق في نصابه ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، ومجته عليك ؛ قد شرح به صدرك ، وأوضح به سبلك وأقام أعلام الهداية لك ، ولم يألُك تبصيرا وتذكيرا ، ولم يدرك تعريفا وتوقيفا ؛ ولم يجعلك في شيء من أمرك على شبهة تعترضك ، ولا حيرة تعتاقك ؛ والله شاهد له بجروجه من الحق فيما وصى وعهد ، وعليك بقبولك ما قبلت مما وثى وقلد ؛ فإن عدلت واعتدلت - وذلك خليق بك - فقد فاز وفزت معه ، وإن تجانفت وزللت - وذلك بعيد منك - فقد ربح وخسرت دونه ؛ فلتكن التقوى زادك ، والاحتراس شعارك ؛ وأستعن بالله يعينك ، وأستهده يهتك ؛ وأعتضد به يعضدك ، وأستمد من توفيقه يمددك ؛ إن شاء الله تعالى .

[وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يوم كذا من رجب سنة ست وستين
(١)
وثلاثمائة] .

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" .



وهذه نسخة عهد بقضاء القضاة شرقاً وغرباً ، كُتِبَ به عن الإمام الناصر لدين الله أحمد ، للقاضي محيي الدين أبي عبد الله محمد بن فضلان ، من إنشاء أستاذ الدار عضد الدين بن الضحَّاك ، وهي :

هذا ماعهدَ عبدُ الله وخليفته في العالمين ، المقترَضُ الطاعة على الخلق أجمعين ، أبو العباس أحمدُ الناصر لدين الله أمير المؤمنين ، إلى محمد بن يحيى بن فضلان : حين سَبَرَ خِلاله وأستقرَّها ، وأعتَبَرَ طرائقه وأستبرَّها ، فألفاه رشيداً في مَدَاهِبِه ، سديداً في أفعاله وصرائبه ، مؤسوماً بالرَّصانه ، حاليًا بالورع والديانه ، مبرزاً من العلوم في فنونها ، عالماً بمفروض الشريعة المطهرة ومسئونها ، مُدْرِعا ملبس العفاف ، قد أناف على أمثاله في بوارع الأوصاف ؛ فقلَّده قضاء القضاة في مدينة السلام وجميع البلاد والأعمال ، والنواحي والأمصار : شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ؛ سُكُونًا إلى ما علم من حاله ، وأضطلاله بالنهضة المنوطة به وأستقلاله ، وركُونًا إلى قيامه بالواجب فيما أُسند إليه ، ونهوضه بعبء ماعول في حفظ قوانينه عليه ؛ وأستنامةً إلى حلول الأصبغان عنده ، ومصادفته منه مكاناً تتبَّأه بالاستحقاق وحده ؛ والله تعالى يعضد آراء أمير المؤمنين بمزيد التوفيق في جميع الأمور ، ويحسن له الخيرة فيما يؤمُّه من منازم الدين وصلاح الجمهور ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنيب .

أمره بتقوى الله تعالى في إعلانه وإسراره ، وتقمُّص شعارها في إظهار أمره وإضماره ؛ فإنها العروة الوثقى ، والذخر الأبقى ، والسعادة التي مادونها فوز ولا فوقها مرقى ؛ وهي حلية الأبرار ، وسيا الأخيار ، والمنهج الواضح ، والمتجر الرابع ؛ والسبيل

المؤدى إلى النجاة والخلّاص ، يوم لا وزر ولا ت حِينَ مَنَاصٍ ؛ وأنفعُ العَدَدِ
والذخائر ، وخيرُ العتادِ يوم تُنشرُ الصُّحفُ وتبلى السُّرائرُ ؛ يومَ تُشخّصُ الأبصارُ ،
وتعدّمُ الأنصارُ : ﴿ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سُرَّابِلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ
وَتَعَسَّىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارِ ﴾ . ولا ينجو من عذاب الله يومئذٍ إلا من كان زاده التقوى ،
وتمسك منها بالسبب الأقوى ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ
وَأَتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ .

وأمره أن يجعل كتاب الله إماماً يهتدى بمناره ، ويستصبح بيواهر أنواره ؛
ويستضيء في ظلم المشكلات بمبیر مضباحه ، ويقف عند حدود محظوره ومباحه ؛
ويحذره مثلاً يحذره ، ودليلاً يتبع أثره فيهديه ؛ ويعمل به في قضاياه وأحكامه ،
ويقنّدى بأوامره في تقضيه وإبرامه : فإنه دليل الهدى ورائده ، وسائق التّجح
وقائده ؛ ومعدن العلم ومنبعه ، ومنجم الرّشاد ومطلعه ؛ وأحد الثقلين اللذين خلقهما
رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمّة ، والدّكر الذي جعله الله تعالى تبياناً لكل
شيءٍ وهدى ورحمة ، فقال عز من قائل : ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ
وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بأنتراع الآثار النبوية صلوات الله على صاحبها وسلامه ، والأهتداء^(١)
بُسموسها التي تتجلى بها دُجّة كلّ مشكل وظلامه ؛ والافتداء بسنة الشريعة المتبوعه ،
وتصفّح الأخبار المسموعه ؛ والعمل منها بما قامت أدلّة صحّته من جميع جهاته ،
وأستحكمت الثقة بقولته عنه - عليه السلام - وزواته ؛ وسامت أسانيده من قدح ،
ورجاله من ظنة وجرح ، فإنها التالئة للقراءان المجيد في وجوب العمل بأوامره ،

(١) في اللسان ج ١٠ ص ٢٢٩ « أتزع بالآية والشعر تمثل ويقال للرجل إذا استنبط معنى آية من

كتاب الله قد أتزع معنى جيداً » .

والإتهاء بروادعه وزواجره؛ وهو عليه الصلاة والسلام الصادق الأمين الذي ماضل وما غوى، وما ينطق عن الهوى؛ وقد قرن الله سبحانه طاعته بطاعته، والعمل بكتابه والأخذ بسنته؛ فقال عز من قائل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَاتَّقُوا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ .

وأمره بمجالسة العلماء، ومباحثة الفقهاء؛ ومشاركتهم في الأمور المشيكله، وعوارض الحكومات المعضله: لتستبين سبيل الصواب، ويعرى الحكم من ملبس الشبه والارتياب؛ ويخلص من خطئ الأفراد، وغوائل الاستبداد؛ فالمشورة باليمن مقرونة، والسلامة في مطاويها مضمونه؛ وقد أمر الله تعالى بها نبيه صلى الله عليه وسلم مع شرف منزلته وكمال عظمته، وتأبيده بوحيه وملائكته؛ فقال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ .

وأمره بفتح بابه، ورفع حجابيه؛ وأن يجلس للخصوم جلوساً عاقماً، وينظر في أمورهم نظراً حسناً تاماً؛ مساوياً بينهم في نظره ولحظه، وإصغائه ولقلبه؛ محترزاً من ذى اللسن وجرأة جنانه، وتأنياً بذى الحصر عند إقامة برهانه، فربما كان أحد الخصمين ألحن بحجته، والآخر ضعيفاً عن مقاومته؛ هذا مقام الفحص والاستفهام، والتثبت وإمضاء الأحكام: ليسلم من خديعة محتال، وكيد مغتال؛ مائلاً في جميع ذلك مع الواجب، سالكاً طريق العدل الألاحب؛ غير فارق في إمضاء الحكم بين القوي والضعيف، والمشروف والشريف؛ والمالك والمملوك، والغني والسبعولك، قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا﴾ . وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ .

وأمره أن يتصفح أحوال الشهود، المسموعة أقوالهم في الحقوق والحُدود؛ المرجوع إلى أمانتهم، المعمول بشهادتهم؛ الذين بهم تُقام الحجج وتُدحض، وتبرم الأحكام وتُنقض؛ وثبتت الدعاوى وتبطل، وتُمنى القضايا وتُسجل؛ مجتهداً في البحث عن طرائقهم وأحوالهم، وانتقاد تصاريقهم وأفعالهم، واستشفاف سجاياهم، وعرفان مزاياهم؛ مخصصاً بالتمييز من كان حميد الخلال، مرضى الفاعل؛ راجعاً إلى ورع ودين، متمسكاً من الأمانة والتزاهة بالسبب المتين، قال الله تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ .

وأمره بالنظر في أمور اليتامى وأموالهم، ومراعاة شئونهم وأحوالهم؛ وأن يرتب بسبب أساق مصالحيهم الثقات الأعفاء، والأمناء الأثقياء؛ ممن ظهرت ديانته، وحسنت سيرته؛ وأشهر بالظلف والعفاف، والتزهد عن الطمع والإسفاف؛ ويأمرهم بحفظها من خلل يتخللها، ويد خائفة تدخلها؛ وليكن عليهم حديبا، وفي قرط الختو أبا؛ وخالفاً من آباؤهم في الإشفاق عليهم، وحسن الكفالت إليهم؛ فإنه عنهم مسئول، والعدر عند الله تعالى في إهمالهم غير مقبول؛ وأن يأذن لهم في الإنفاق عليهم بالمعروف من غير إسراف ولا تقتير، ولا تضيق ولا تبذير؛ فإذا بلغ أحدكم النكاح، وآس منه أمارات الرشد والصلاح، دفع ماله إليه، وأشهد بقبضه عليه؛ على الوجه المنصوص، غير منقوص ولا منغوص؛ ممثلاً أمر الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ .

وأمره بترويح الأيامي اللواتي لأولياءهن من أكفائهن، بمهور أمثالهن؛ وأن يشمل ذوات الغنى والفقير منهن بعله، ويتحرى لهن المصلحة في عقده وحله .

وأمره ان يستنيب فيما بعد عنه من البلاد ودنأ، وقرب منه ونأى، كل ذى علم وأستبصار، وتيقظ في الحكم وأستظهار؛ ونزاهة شائعه، وأوصاف لأدوات الاستحقاق جامعته؛ ممن يتحقق هُوضه بذلك وأضطلاعه، ويأمن أستزلاله وأخذاعه؛ وأن يعهد إليهم في ذلك بمثل ما عهد إليه ولا يألؤهم تنبيها وتذكيرا، وإرشادا وتبصيرا؛ قال الله تعالى: ﴿وتعاونوا على البرِّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ .

وأمره بامضاء ما أمضاه قبله الحُكَّام، من القضايا والأحكام؛ غير متعقب أحكامهم بنقض ولا تبديل، ولا تغيير ولا تأويل؛ إذا كانت جائزة في بعض الأقوال، مُمضاة على وجه من وجوه الاحتمال؛ غير خارقة للإجماع، عارية من ملبس الابتداع؛ وإن كان ذلك منافيا لمذهبه، فقد سبق حكم الحاكم به؛ قال الله تعالى: ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون﴾ .

وأمره أن يتخذ كاتباً قيماً بشروط القضايا والسجلات، عارفاً بما يتطرق نحوها من الشبه والتأويلات، ويتداخلها من النقص والتلبسات؛ متحرراً في كلِّ حال، متزهاً عن دميم الأفعال . وأن يتخير حاجباً نقي الحيب، مأمون المشهد والغيب؛ مستشعراً للتقوى، في السر والنجوى، سالكاً للطريقة المثلى؛ غير متجهم للناس، ولا معتمد مائناً بسط الوجه لهم والإيناس؛ فإنه وُصِّلهم إليه، ووجهه المشهود قبل الدخول عليه؛ فلينخبه من بين أصحابه، ومن يرتضيه من أمثاله وأضرابه .

وأمره بتسلم ديوان القضاء والحكم، والاستظهار على ما في خزائنه بالإثبات والحثم؛ والاحتياط على ما به من المال والسجلات، والمُحجج والمحاضر والوكالات؛

وَالْقُبُوضِ وَالْوَنَائِقِ وَالْأَثْبَاتِ وَالْكَفَالَاتِ ، مَحْضَرٍ مِنَ الْعُدُولِ الْأَمْنَاءِ الثَّقَاتِ ؛
وَأَنْ يَرْتَبَ لَذَلِكَ خَازِنًا يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ فِيهِ ، وَيَتَوَخَّى مَا تُوجِبُهُ الدِّينَانَةُ وَتَقْتَضِيهِ .

وَأَمْرِهِ بِمِرَاعَاةِ أَمْرِ الْحِسْبَةِ : فَإِنَّهَا مِنْ أَكْبَرِ الْمَصَالِحِ وَأَهْمِّهَا ، وَأَجْمَعِهَا لِمَنْفَعِ
الْخَلْقِ وَأَعْمَمَهَا ؛ وَأَدْعَاهَا إِلَى تَحْصِينِ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتِّعْظَامِ أَحْوَالِهِمْ ؛ وَأَنْ يَأْمُرَ الْمُسْتَنْابَ
فِيهَا بِاعْتِبَارِ سَائِرِ الْمَبِيعَاتِ فِيهَا : مِنْ الْأَقْوَاتِ وَغَيْرِهَا فِي عَامَّةِ الْأَوْقَاتِ ؛ وَتَحْقِيقِ
أَسْبَابِ الزِّيَادَةِ وَالنَّقْصَانِ فِي الْأَسْعَارِ ، وَالنَّصْدَى لَذَلِكَ عَلَى الدَّوَامِ وَالِاسْتِمْرَارِ ؛ وَأَنْ
يُجْرِيَ الْأَمْرَ فِيهَا بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ الْحَالُ الْحَاضِرُ ، وَالْمَوْجِبَاتُ الشَّائِعَةُ الظَّاهِرَةُ ؛
وَأَعْتِبَارِ الْمَوَازِينِ وَالْمَكَايِلِ ، وَإِعَادَةِ الزَّائِدِ وَالنَّاقِصِ مِنْهَا إِلَى التَّسْوِيَةِ وَالتَّعْدِيلِ ؛
فَإِنْ أَطَّلَعَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُتَعَامِلِينَ عَلَى خِيَانَةٍ فِي ذَلِكَ وَفِعْلٍ دَمِيمٍ ، أَوْ تَطْفِيفٍ عَدَلٍ فِيهِ
عَنِ الْوِزْنِ بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، أَنَأَلَهُ مِنَ التَّأْدِيبِ ، وَأَسْبَابِ التَّهْذِيبِ ، مَا يَكُونُ
لَهُ رَادِعًا ، وَلِغَيْرِهِ زَاجِرًا وَازِعًا ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَيَلِّ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا
عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ
لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

وَهَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، وَحُجَّتُهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْكَ ؛ قَدْ أَوْلَاكَ مِنْ
صُنُوفِ النِّعَمِ وَالْأَلَاءِ ، وَجَزِيلِ الْكَرَمِ وَالْحَبَاءِ ؛ مَا يُوجِبُ عَلَيْكَ الْإِعْتِرَافَ بِقَدْرِهِ ،
وَأَسْتِيزَاعَ شُكْرِهِ ؛ وَوَقَّفَ بِكَ عَلَى مَحَجَّةِ الرَّشَادِ ، وَهَدَاكَ إِلَى مَنَهِجِ الْحَقِّ وَسَنَنِ
السَّدَادِ ؛ وَلَمْ يَأَلِكْ تَتَّقِيْفًا وَتَبْصِيرًا ، وَتَنْبِيْهًُا وَتَذْكِيرًا . فَتَأَمَّلْ ذَلِكَ مُتَدَبِّرًا ، وَاقِفٌ
عِنْدَ حُدُودِ أَوْامِرِهِ وَنَوَاهِيهِ مُسْتَبْصِرًا ؛ وَأَعْمَلْ بِهِ فِي كُلِّ مَا تَأْتِيهِ وَتَذَرُهُ ، وَتُورِدُهُ
وَتُصَدِّرُهُ ؛ وَكُنْ لِلْخِيَلَةِ فِي آرْتِيَادِكَ مُحَقِّقًا ، وَلِلْمَعْتَدِّ فِيكَ مُصَدِّقًا ؛ تَفُزْ مِنْ خَيْرِ
الْدَّارَيْنِ بِمَعْلَى الْقِدَاحِ ، وَإِحْمَادِ السَّرْيِ عِنْدَ الصَّبَاحِ ؛ وَحَسْبُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ اللَّهُ
وَبِعَمِّ الْوَكِيلِ .

الضرب الثاني

(مما كان يكتب يديوان الخلافة ببغداد لأرباب الوظائف
من أصحاب الأقلام التواقيع)

وطريقتهم فيها أن يفتح التوقيع بلفظ «أحق» أو «أولى» أو «أقمن من أبيضت
عليه النعم» أو «من فؤض إليه كذا» أو «من توه بذكره» ونحو ذلك «من كان
بصفة كذا وكذا» ثم يقال: «ولما كان فلان بصفة كذا وكذا، فؤض إليه كذا
وكذا» أو «أسند إليه كذا وكذا» ونحو ذلك.

وهذه نسخة توقيع بتدريس، كُتِبَ به عن الإمام الناصر لدين الله، للقاضي
محيي الدين «محمد بن فضلان» بتدريس المدرسة النظامية ببغداد، في سنة
أربع عشرة وسمائة، وهي:

أَحَقُّ مَنْ أَيْضَتْ عَلَيْهِ بِجَاسِدِ النَّعْمِ، وَجُنِبَ بِضَبْعِهِ إِلَى مَقَامِ التَّنْوِيهِ وَتَقَدَّمَ
الْقَدَمِ؛ مَنْ أَسْفَرَ فِي أَفْضِيَةِ الْفَضَائِلِ صَبَاحَهُ، وَأَنْتَشَرَ فِي الْعَالَمِ عِلْمُهُ وَأَزْهَرَ
مِضْبَاحَهُ.

ولما كان الأجل الأوحَدُ، العالم، محيي الدين، حجة الإسلام، رئيس
الأصحاب، مفتي الفريقين، مفيد العلوم، أبو عبد الله «محمد بن يحيى بن فضلان»
أدام الله رفعته، ممن نظم فرائد المحامد عقده النضيد، وأوى من العلم والعمل إلى
رُكن شديد، وثبتت قدمه من الديانة على مستنبت راسخ وقرار مهيد - روى التعويل
في تفويض التدريس بالمدرسة النظامية إليه: ثقة بأضطلاحه وأستقلاله، وتبريزه

(١) المجاسد جمع مجسد بالضم والكسر الثياب التي تلى الجسد وقد تكون مصبوغة بالجسد وهو الزعفران.

في حلّبات الإسْتِباقِ على نُظرائه وأمثاله ، وتراجُعِ المُساجِلين له عن قُوْتِ غايَتِه وبعْدِ
مَنالِه ، وأُسْنِدِ إليه - أدام الله رفعتَه - النَظْرُ في أوقافِ المَدْرَسَةِ المَذْكُورَةِ بأجمَعها ،
وأَعْتادِ ما شرطه الواقِفُ في مَصارِفِها وَسُبلِها ؛ سَكُونًا إلى كفايَتِه ، ورُكُونًا إلى
سَدادِه وأمانَتِه .

ورِسمِ له تَقْوى اللهِ تعالى التي ما زال مُنتَهجًا لَطرائِقِها ، مَمْتَسِكًا بِعَصِمِها
ووثائِقِها ؛ وأن يَشْرَحَ صَدْرَه لِلتَّعالِمين ، ولا تَأْخُذَه صُجْرَةٌ مِنَ المُسْتَفيدِين ، ولا تَعْدُو
عِناهُ عن جُهلاءِ الطالِبين ؛ ولا يَتَبَرَّمُ بِالمبالِغَةِ في تَفْهيمِ المبتدِى ، ولا يَغْفُلُ عن تذكيرِ
الْمُنْتَهى : فإنّه إذا أَحْتَمَلَ هذه المَشَقَّة ، وأعطى كُلَّ تلميذِ حَقَّه ، كان اللهُ تعالى كَفِيلاً
بِعُودتِه ، بِحَسَبِ ما يَعلَمُ من حِرْصِه عليهم وإِخْلاصِ نِيَّتِه . وليَكُنْ بِسائرِ المَتَّفِقِةِ
مَعْتَنياً رَفيقًا ، وعليهم حَدَبًا شَفيقًا ؛ يَفْرَعُ لَهُمُ مِنَ الفِيقِه ما وَصَحَ وتَسَهَّلَ ، وَيَبَيِّنُ لَهُمُ
ما التَبَسَ من غوامِضِه وأشْكَل ؛ حتّى تَسْتَدِيرَ قلوبُهُم بأضواءِ عُلُومِ الدين ، وتَنطِقَ
السِّتْمُ فيها بِاللِفظِ الفَصيحِ المِيبين ، وتَظْهَرُ آثارُ بَرَكَاتِه في مَراسِدِه وتَيِّين ؛ ولتَتَوَقَّرَ هَمَّتُه
في عِمارةِ الوُقُوفِ وأَسْتِنائِها ، والتَوَقُّرُ على كُلِّ ما عاد بِتَرايِدِها وزَكائِها ؛ بِحيثُ يَتَضَحَّ
مَكَانَ نَظَرِه فيها ، وَيَبْلُغُ الغايَةَ المُوَفِيَةَ على من تَقَدَّمَه وَيُوفِيها ؛ ولا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِمَنْ
يُؤدِي الأمانةَ وَيُوفِيها ، وَيَقومُ بِشَرائِطِ الأَسْتِحْفاظِ وَيَكْفِيها ؛ وهو - أدام اللهُ
رَفعتَه - يَجْرى من عِوائدِ المَدْرَسينِ والمُتولِّين قَبْلَه على أوفى مَعهود ، وَيُسامى بِهِ إلى
أَبَدِ مُرتَقى ومَقامِ مَجْهود ؛ وأذِنَ لَهُ في تَساؤُلِ إِيجابِ التَدريسِ ونَظَرِ الوُقُوفِ
المَذْكُورَةِ ، أُسوةً من تَقَدَّمَه في التَدريسِ والنَظَرِ في الوُقُوفِ ، على ما شرط الواقِفُ
في كُلِّ وِرْدِ وَصَدَر ، وأَعْتادِ كُلِّ ما حَدَّه في ذلك ومِثْلَه من غيرِ تَجاوزِ .

النوع الرابع

(بما كان يُكْتَب من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكْتَب لِرُجْمَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ)

وطريقهم فيه أن يُفْتَحَ بلفظ : « هذا كتابٌ أمرَ بكتبه فلانٌ أبو فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين لفلان » ثم يقال : « أما بعدُ فالحمدُ لله » ويؤتى فيه بتحميدة أو ثلاث تحميدات إن قُصِدَ المبالغة في قهر أهل الذمَّة بدخولهم تحت ذمَّة الإسلام وأتقيادهم إليه . ثم يذكر نظر الخليفة في مصالح الرعية حتى أهل الذمَّة ، وأنه أنهى إليه حال فلان وسُئِلَ في توليته على طائفته قولاه عليهم للميزة على غيره من أبناء طائفته ونحو ذلك ؛ ثم يُوصيه بما يناسبه من الوصايا .

وهذه نسخة من ذلك ، كُتِبَ بها عن القائم بأمر الله ، لعبد يسوع الجائلق ، من إنشاء العلاء بن موصلايا ، وهي :

هذا كتابٌ أمرَ بكتبه عبدُ الله أبو جعفر عبد الله الإمام القائم بأمر الله أمير المؤمنين ، لعبد يسوع الجائلق الفطرك .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله الواحدِ بغيرِ ثانٍ ، القديمِ لآعنِ ووجودِ زمانٍ ؛ الذي قَصُرَتْ صنيعه الأوهام ، عن إدراكه وحارت ؛ وَصَلَّتْ صنيعه الأفهام ، عن بلوغ مدى صفاته وحالت ؛ المتنزّه عن الولدِ والصاحبه ، العاجزة عن إحاطة العلم به . دلائلُ العُقُولِ الصافيةِ الصائبه ؛ ذى المشيئةِ الحالِيةِ بالمضاء ، والقُدرةِ الحارِيةِ عليها تصاريِفُ القَدَرِ والقضاء ؛ والعظمةِ الغنيّةِ عن العونِ والظهيرِ ، المتعالى بها عن الكُفِّ والنظير ؛ والعزةِ المكتفيةِ عن العَضُدِ والنصير ، (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ) .

والحمد لله الذى آختر الإسلام ديناً وأرنا نضاه، وشام به عَضَبَ الحقِّ على الباطل
 وانتضاه ؛ وأرسل محمداً - صلى الله عليه - مُتَقِداً من أشراك الضَّلَّةِ ، وكاشفاً عن
 الإيمان ماعممه من الإشراك وأظله ؛ وبعثه ماحياً أثر الكُفْر من القلوب والأسماع ،
 وناحياً فى أتباع أوامره ماجد فى البدار إليه والإسراع ؛ وأدى ما حمَّله أحسن الأداء ،^(٢)
 وداوى بمعجز النبوة من النفوس معضل الداء ؛ ولم يزل لأعلام الهدى مُبيناً ، ولجبابل
 النجى حاسماً مُبيناً ؛ إلى أن خَلَصَ الحقُّ وَصَفَا ، وغدا الدينُ من أضداده متصفاً ؛
 وأنتضح للحائرسنن الرشد ، وأنقاد الأئبي بالدين والأشد ؛ فصلَّى الله عليه وعلى آله
 الطاهرين ، وأصحابه المنتخبين ، وخلفائه الأئمة الراشدين ؛ وسلم تسليماً .

والحمد لله الذى استخلص أمير المؤمنين من أزكى الدوحة والأرومة ، وأحلّه من
 عزِّ الإمامة ذروةً للجد غير مرومه ؛ وأصار إليه من تراث النبوة ماحواً بالاستحقاق
 والوجوب ، وأصاب به من مرامي الصلاح ما حميت شموسه من الأفول والوجوب ؛
 وأولاه من شرف الخلافة ما استقدم به الفخر فلبى ، واستخدم معه الدهر فما تأبى ؛
 ومنح أيامه من ظهور العدل فيها وانتشاره ، ولقّاح حوامل الإنصاف فيها ووضع
 عِشاره ، ما فضل به العُصُور الخاليه ، وظلّت السير متضمنةً من ذكرها ما كانت
 من مثله عاريةً خاليه ؛ وهو يستدئمه - سبحانه - المعونة على ما يقرب لديه
 ويُزلف عنده ، ويستمدّه التوفيق الذى يقدو لعزائم الميمونة أوفى العُضد والعُدّه ؛
 وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

(١) شام السيف شيا سله .

(٢) فى الأصول وأدلى الادلاء . وهو تصحيف كما لا يخفى .

وأمر المؤمنين مع ما أوجب الله تعالى عليه من اختصاص رعاياه [بالمواهب]
التي يمد عليهم رواقها، ويرد بها إلى أغصان صلاحهم أوراقها؛ ويلقى على أجيادهم
عقودها، ويبقى رباح أثلاثهم ركودها، يرى أن يولي أولى الاستقامة من أهل
ذمته ضروب الرأفة وصنوفها، وأقسام العاطفة الدافعة عنهم حوادث الغير وصورها؛
بمقتضى عهدهم القوية القوى، وأذمتهم^(١) التي يلزم أن يحافظ عليها أهل العدل
والتقوى؛ ويعتمد من الضرر الفاسد، والإجماع المضاهي الآنف منه الغابر؛
بما يقبض يد الضيم وكفه، وأن يحبهم من الحياطة بما يحرس رسومهم المستمرة
من أسباب الاختلال، ويحريهم فيها على ماسنه السلف معهم من مألوف السجايا
والخلال .

ولما أنهى إلى حضرة أمير المؤمنين تمييزك عن نظرائك، وتحليك من السداد
بما يستوجب معه أمثالك المبالغة في وصفك وإطرائك؛ وتخصصك بالأئمة التي
فتت فيها شأو أقرانك، وأدنت بها ماقصر معه مساجلك من أبناء جنسك أن يعدلك
في ميزانك؛ وما عليه أهل نحلته من حاجتهم إلى جائلق كافل بأمرهم، كاف
في سياسة جمهورهم؛ مستقيل بما يلزمه القيام به، غير مقل بما يتعين مثله في أدوات
منصبه؛ وأن كلاً من يرجع إليه منهم لما تصفح أحوال متقدمي دينهم وأستشف،
وأعمل الفكر في اختيار الأرجح منهم والأشرف؛ وأتفقوا من بعد على إجماله الرأي
الذي أفاضوا بينهم قداحه، وراضوا به زند الاجتهاد إلى أن أوري حين راموا
أقنيداحه؛ فلم يصادفوا من هو بالرياسة عليهم أحق وأحرى، وللشروط الموجبة
التقديم فيهم أجمع وأحوى؛ وعن أموال وقوفهم أعف وأورع، ومن نفسه لداعي
التحزى فيها أطوع وأتبع، منك . اختاروك لهم راعياً، ولما شد نظامهم ملاحظا

(١) جمع ذمام بالذال المعجمة وفي اللسان الذمام والمذمة الحق والحزمة .

مُرَاعِيَا ؛ وَسَأَلُوا إِمْضَاءَ نَصِّهِمْ عَلَيْكَ وَالْإِذْنَ فِيهِ ، وَإِجْرَاءَ الْأَمْرِ فِيمَا يُحْصُّكَ أَسَدٌ
بِحَارِيهِ ؛ وَتَرْتِيْبِكَ فِيمَا أَهْلَتْ لَهُ وَحَمَلَتْ تِقْلَهُ ، وَأَخْتِصَاصَكَ عَلَيَّ مِنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ
الْأَضْرَابِ ، بِمَزِيدٍ مِنَ الْإِرْعَاءِ وَالْإِيْجَابِ ؛ وَحَمَلِكَ وَأَهْلَ نِحْمَاتِكَ عَلَى الشَّرْطِ الْمَعْتَادِ ،
وَالرَّسْمِ الَّتِي إِمْضَاءُ الشَّرِيْعَةِ لَهَا أَوْفَى الشَّهَادَةِ - رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الْإِجَابَةَ إِلَى
مَا وَجَّهَتْ إِلَيْهِ فِيهِ الرَّغْبَةَ ، وَأَسْتِخَارَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ عَزْمٍ يُطْلَقُ شَبَاهُ وَيُضَيَّ
عَرَبُهُ ؛ مَقْتَدِيَا فِيمَا أَسَدَاهُ إِلَيْكَ ، وَأَسْنَاهُ مِنْ أَنْعَمَ لَدَيْكَ ؛ بِأَفْعَالِ الْأُئِمَّةِ الْمَاضِيْنَ ،
وَالْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، مَعَ أَمْثَالِكَ مِنَ الْخِتَالِقَةِ الَّذِينَ سَبَقُوا ،
وَفِي مَقَامِكَ أَسْقُوا ؛ وَأَوْعَزَ بِتَرْتِيْبِكَ جَانِلِيْقًا لِنُسْطُورِ النَّصْرِيِّ بِمَدِيْنَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ
الْبِلَادِ وَالْأَصْقَاعِ ، وَزَعِيْبًا لَهُمْ وَلِرُومِ وَالْيَعَاقِبَةِ طَرًّا ، وَلِكُلِّ مَنْ تَحْوِيهِ دِيَارُ الْإِسْلَامِ
مِنْ هَاتَيْنِ الطَّائِفَتَيْنِ مَنَّنَ بِهَا يَسْتَقِرُّ وَإِلَيْهَا يَطْرَأُ ؛ وَجَعَلَ أَمْرَكَ فِيهِمْ مِمْتَثَلًا ، وَمَوْضِعًا
مِنَ الرَّيَاسَةِ عَلَيْهِمْ مَتَأْتَلًا ؛ وَأَنْ تَنْفَرِدَ بِالتَّقَدُّمِ عَلَى هَذِهِ الطَّوَائِفِ أَجْمَعِ : لِيَكُونَ قَوْلُكَ
فِيمَا يُجِيْزُهُ الشَّرْعُ فِيهِمْ يُقْبَلُ وَإِلَيْكَ فِي أَحْوَالِهِمْ يُرْجَعُ ؛ وَأَنْ تُتَمَيِّزَ بِأَهْبَةِ الرَّعَامَةِ ،
فِي مَجَامِعِ النَّصْرِيِّ وَمُصَلِّيَاتِهِمْ عَامَّةً ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَشْرَكَكَ فِيهَا أَوْ يَشَاكِكَ فِي النَّسْبَةِ
الدَّالَّةِ عَلَيْهَا مَطْرَانٌ أَوْ أَسْقُفٌ لِلرُّومِ أَوْ الْيَعَاقِبَةِ : لَتَنْغَدُوْا شَوَاهِدُ وَلا يَتَكَ بِالْأَوَامِرِ
الْإِمَامِيَّةِ بَادِيَةً لِلْسَامِعِ وَالنَّاظِرِ ، وَأَنْتَارُ قُصُورِهِمْ عَنْ هَذِهِ الرَّتْبَةِ الَّتِي لَمْ يَبْلُغُوهَا كَافَّةً
لِلْمُجَادِلِ مِنْهُمْ وَالْمُنَاطِرِ ؛ وَمُنِعُوا بِأَسْرِهِمْ عَنْ مَسَاوَاتِكَ فِي كُلِّ أَمْرٍ هُوَ مِنْ شُرُوطِ
الرَّعَامَةِ وَرُسُومِهَا ، وَالتَّزْيِيْنِ بِمَا هُوَ مِنْ عِلَامَاتِهَا وَوُسُومِهَا ؛ إِذْ لَسَبِيْلَ لِأَحَدِهِمْ أَنْ
يَمُدَّ فِي مُبَارَاتِكَ بَاعَهُ ، وَلا أَنْ يُخْرِجَ عَنِ الْمَوْجِبِ عَلَيْهِ مِنَ الطَّاعَةِ لَكَ وَالتَّبَاعَةِ ؛
وَحَمَلِكَ فِي ذَاكَ عَلَى مَا يُدْبَلُ عَلَيْهِ الْمَنْشُورُ الْمَنْشَأُ لِمَنْ تَقَدَّمَكَ ، الْمُضَيُّ لَكَ وَلِكُلِّ مَنْ
يَأْتِي بَعْدَكَ ؛ الْمَجْدُدُّ بِمَا حَوَاهُ ذِكْرُ مَا نَطَقَتْ بِهِ الْمُنَاشِيْرُ الْمُقْتَرَةُ فِي أَيَّامِ الْخُلَفَاءِ
الرَّاشِدِينَ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ ، لِمَنْ تَقَدَّمَكَ فِي مَقَامِكَ ، وَأَحْرَزَ سَبْقَ مَعْرَاكَ

ومرامِك : من كون المنصوب في الحثقة إليه الزعامة على ما تضمه ديار الإسلام من هذه الفرق جمعا ، والمنصوص عليه في التقدم الذي ليس لغيره من رياضه مرعى ؛ وتقدم أمير المؤمنين بجياطتك وأهل نحتك في نفوسكم وأموالكم وبيعكم ، ودياركم ومقار صلواتكم وحراسة أموالكم ، وأعتادكم بأقسام الكلاءة على أجمل الرسم معكم ؛ وأن تمحووا من نقض سنة رضية فزرت لكم ، ودحض وتيرة حميدة استعملت في فرضكم ؛ وأن تقبض الحزبية من رجالكم ذوي القدرة على أدائها بحسب ما جرت به عاداتكم دون النساء ومن لم يبلغ الحلم دفعة واحدة في السنة ، وتجرؤوا في ذلك على السجية التي تناقلها الرواة وتداولتها الألسنة ؛ من غير تئنية ولا تكرير ، ولا تزنيق لمنهل المعدلة عندكم ولا تكدير ؛ وأن تحي بالشد دائما وتقوية يدك على من نصبته في أمورهم ناظرا ولشملهم ناظرا ؛ ويفسح لك في فصل ما يشجر بينهم على سبيل الوساطة : لتقصد في ذلك ما يحسب دواعي الخلف ويطوى بساطه ؛ وأن تضي تثقيفك لهم وأمرك فيهم ، أسوة ماجرى عليه الأمر مع من كان قبلك يليهم ؛ لتحسن معه السيرة العادلة عليهم ^(١) بحفظ السوام ، المطابقة للشروط السائغة في دين الإسلام .

وأمر بإنشاء هذا الكتاب مشتملا على ما خصك به ، وأمضى أن تعامل بموجبه ؛ فقابل نعمة أمير المؤمنين عندك بما تستوجب من شكر تبلغ فيه المدى الأقصى ، وبشير لا يوجد التصفح له عندك قصورا ولا تقصا ؛ وواظب على الاعتراف بما أوليته من كل ما جملك ، وصدق ظنك وأملك ؛ وأسترد الإنعام بطاعة تطوى عليها الجوائح ، وأدعية لأيامه تتبع الغادي منها بالرائح ؛ وتجنب التصغير فيما بك عديق ، وإليك وكل وعليك علق ؛ واحتفظ بهذا الكتاب جنة تمنع عنك ريب الدهر وغيره ،

(١) لعله العائنه . تأمل .

وَحِجَّةٌ تَحْمَلُ فِيهَا عَلَى مَا يَمِجُّ مَأْمِنْتَهُ مِنْ كُلِّ مَاشِعْتِهِ (؟) وَغَيْرِهِ ، وَلَيَعْمَلُ بِهَذَا الْمَثَالِ كَأَفَّةِ الْمَطَارِنَةِ وَالْأَسَاقِفَةِ وَالْقِسِيِّينَ ، وَالنَّصَارَى أَجْمَعِينَ ؛ وَلَيَعْتَمِدُوا مِنَ التَّبَاعَةِ لَكَ مَا يَسْتَحِقُّهُ تَقْدِيمُكَ عَلَى الْجَمَاعَةِ ، وَلَيَثِقُوا بِمَا يَغْمُرُهُمْ مِنَ الْعَاطِفَةِ الْحَامِيَةِ سِرِّهِمْ مِنَ التَّفْرِيقِ وَالْإِضَاعَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وكتب في شهر ربيع الأول سنة سبع وستين وأربعمائة .

الطرف الرابع

(فيما كان يكتب عن مدعى الخلافة ببلاد المغرب والأندلس)

وَكَانُوا يَعْبُرُونَ عَمَّا يُكْتَبُ مِنْ ذَلِكَ بِالظَّهَائِرِ وَالصُّكُوكِ : فَالظَّهَائِرُ جَمْعُ ظَهِيرٍ ، وَهُوَ الْمُعِينُ ، سُمِّيَ مَرْسُومُ الْخَلِيفَةِ أَوْ السَّلْطَانِ ظَهِيرًا لِمَا يَقَعُ بِهِ مِنَ الْمُعَاوَنَةِ لِمَنْ كُتِبَ لَهُ . وَالصُّكُوكُ جَمْعُ صَكٍّ وَهُوَ الْكِتَابُ ، قَالَ الْجَوْهَرِيُّ : وَهُوَ فَارْسِيٌّ مَعْرَبٌ وَالْجَمْعُ أَصْكٌ وَصِكَكٌ وَصُّكُوكٌ ؛ ثُمَّ تَحَامَى الْمُتَأَخَّرُونَ مِنْهُمْ لَفْظَ الصَّكِّ ، لِمَا جَرَى بِهِ عُرْفُ الْعَامَّةِ مِنْ غَلْبَةِ اسْتِعْمَالِهِ فِي أَحَدِ مَعْنَى الْأَشْتِرَاكِ فِيهِ وَهُوَ الصَّفْعُ ؛ وَأَقْتَصَرُوا عَلَى اسْتِعْمَالِ لَفْظِ الظَّهِيرِ .

ولذلك حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه في الزمن القديم)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِهَمْ مِصْطَلَحٌ يَقِفُونَ عِنْدَ حُدِّهِ فِي الْإِبْتِدَاءَاتِ ، بَلْ بِحَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ قَرِيحَةُ الْكُتَّابِ ؛ فَتَارَةً يَبْتَدَأُ بِلَفْظِ : « مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ » أَوْ « مِنْ فُلَانٍ إِلَى أَهْلِ فُلَانَةٍ » أَوْ « إِلَى الْأَشْيَاخِ بِفُلَانَةٍ » أَوْ « يَصِلُكُمْ فُلَانٌ بِهَذَا الْكِتَابِ » .

وتارة يُبتدأ بـ «أما بعد حمد الله» . وتارةً يبتدأ بلفظ «تقدّم فلان بكذا» . وتارة يبتدأ بلفظ «مكتوبنا هذا» وغير ذلك مما لا يَنحصر .

فإن الظواهر المكتتبة لأرباب السيوف عندهم ، ما كتبت به بولاية ناحية ، وهي :
من فلان إلى أهل فلانة أدام الله لهم من الكرامة أتمها ومن الرعاية أوفأها ؛
وأسبغ عليهم برود نعمة الجزيلة وأضفاها .

أما بعد حمد الله ميسر أسباب النجاح ، ومُسني مرام الرّشاد والصّلاح ، والصلاة على سيدنا محمد رسوله نبي الرحمة والرّفق والإسّباح^(١) ، وعلى آله وصحبه المتّصّفين بالقوة في ذات الله تارة وتارةً بحفض الجناح ؛ والرّضا عن الخليفة أمير المؤمنين ذي الشرف الذي لم ينزل بالهدى النبوي متوقّد المصباح ، والدعاء للقام الإماري بالنصر الذي يُوقّي مقلد الأفتاح ، والتأييد الماضي حدّ رعيه حيث لا يمتضي غرار المهند وشبّ الرّماح - فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله لكم سُكون الأرجاء وهُدوها ، وأجرى لكم بالصّلاح رواح الأيام وغدوها «من فلانة» وللدولة العلية بركات تكاثر السحب في أنسكابها وأنسجامها ، وتقود الخيرات والمسرات في كل أوب بزمامها ، والحمد لله حمدا يقضى بوفور جزيلات النعم وجسامها .

وإنّ الأهتمام بكم لمستدقّ على كل غرض جميل ، ومقدم فيما يُخيطكم بكلّ بغيّة وتأميل ؛ وبحسب هذا لا يزال يختار لكم من الولاة كلّ مختار متّخَب ، ولا يُقدّم عليكم إلّا من ينتهي إلى أثيل حسبٍ وكريم مُنسَب ، ولا يزال يُداول موضعكم بين كل طريقة تتصل من حُسن السير وسداد النظر بآمتن سبب ؛ وعلى هذا الأصل استخرنا الله وهو المستخار ، والذي يقضى ما يشاء ويختار ، في أن قدّمنا عليكم ،

(١) الإسّباح حسن العفو .

وولينا للنظر فيما لديكم، من له التقدم في الإقدام، والأضطلاعُ الثابتُ الأقدام؛
 وذلك فلان . وآثرناكم به أعتناءً بجانبيكم وأهتبالاً،^(١) وخصصناكم منه بمن يُفسح
 في كل أثر حميد مجالاً؛ والمعتقدُ فيه أن يعمل على شاكلته بنبأه مكانه، وأن يبذل
 في الآتياض والآكتفاء غايةً وسعةً وإمكانه؛ وعليه أن يلازم تقوى الله العظيم
 في سره وعلنه، ويحري على سبيل العدل وسننه؛ ويُشمر عن ساعده في الدفاع عن
 أحوالكم ككل التشمير، ويأخذ على أيدي أهل التعدي أخذاً يقضي على الفساد وأهله
 بالنتير؛ ويقصد بكم سيد السعى ورشيد الرأي في الدقيق والخليل والصغير والكبير؛
 ويسوى في الحق بين الحافل والتافه والغني والفقير؛ وعليكم أن تسمعوا وتطيعوا،
 ولا تُهملوا حق الامتثال والاثمار ولا تُضيعوا؛ وأن تكونوا يده التي تبطش،
 وأعوأه فيما يُحاول من مستوفى المساعي المرضية ومستوعبها، وأن تتعاونوا على التقوى
 والبر، وتقفوا له عند النهي والأمر؛ وتجتهدوا معه في مصالحكم كل الاجتهاد،
 وتعمدوا على ما رسمناه لكم أتم الاعتماد؛ وستجدون من مواليكم - إن شاء الله -
 ما يوافق الظن به، ويلائم العمل بحسب حسبه؛ إن شاء الله تعالى والسلام .



ومنها ما كتب به في ولاية ناحية أيضا، وهي :

من فلان إلى أهل فلانة أدام الله تعالى كرامتهم بتقواه، وعرفهم أحق النظر
 بمصالحهم وأحراه .

وبعد، فإننا كتبنا لكم - كتب الله لكم أحوال متصلة الصلاح، حميدة الاختتام
 والافتتاح - من فلانة ونعم الله سبحانه موفورة الأقسام، صيبة الغام؛ وقد أقتضى

(١) أى اشتغالا بشأنكم من قولهم اهتبل هبلك أى اشتغل بشأنك انظر اللسان ج ١٤ ص ٢١٢ .

ما تَوَخَّاهُ مِنَ الْاِحْتِطَاطِ عَلَى جَوَانِبِكُمْ ، وَنَعْتَمِدُهُ مِنَ الْاِيشَارِ لَكُمْ وَالْاِعْتِنَاءِ بِكُمْ ،
أَنْ نَتَّخِيزَ لِلتَّقْدِيمِ عَلَيْكُمْ مَنْ نَعْلَمُ مِنْهُ الْاِحْوَالَ الْمَرْضِيَّةَ حَقِيقَةً ، وَنُحْمَدُ سِيْرَهُ فِيمَا يُجَاوِلُهُ
وَطَرِيقَهُ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ مِنْ حُدُثِ مَقَاصِدِهِ ، وَشُكْرَتِ فِي الْمُحَاوَلَاتِ الْاِجْتِهَادِيَّةِ عَوَائِدُهُ ؛
وَحُسْنَتِ فِيمَا نُصَرِّفُهُ فِيهِ مَصَادِرُهُ وَمَوَارِدُهُ ، رَأَيْنَا وَاللَّهُ الْقَاضِي فِيمَا نَذَرَهُ وَنَأْتِيهِ ،
بِالتَّوْفِيقِ الَّذِي يُكُونُ بِهِ اِتِّقَادُ النَّجْحِ وَتَأْتِيهِ ، أَنْ نَقَدِّمَهُ لِحِفْظِ جِهَاتِكُمْ ، وَتَأْمِينِ
أَرْجَائِكُمْ وَجَنَابَاتِكُمْ ؛ وَوَصَّيْنَاهُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيمَا قَلَّدْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّ الْاِجْتِهَادِ ، وَيَتَّبِعُ
فِي اِذْهَابِ الشَّرِّ وَارْهَابِ اَهْلِ الْفَسَادِ ؛ وَبِأَنْ يَسْلُكَ فِيمَا يَتَوَلَّاهُ مِنَ الْاِحْكَامِ سَبِيلَ
الْحَقِّ ، وَيَجْرِيَ عَلَى سَبِيلِ الْعَدْلِ وَالرَّفْقِ ؛ وَيُدْفَعُ اَسْبَابَ الْمِظَالِمِ ، وَيُصَيِّفُ الْمِظَالِمَ
مِنَ الظَّالِمِ ؛ فَاِذَا وَافَاكُمْ فَتَلَقَّوْهُ بِنُفُوسٍ مَبْسُطَةٍ ، وَعَقَائِدَ عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ مَرْتَبَةً ؛
وَكَوْنُوا مَعَهُ عَلَى تَمْشِيَةِ الْحَقِّ يَدًا وَاَحَدَةً ، وَفِئَةً فِي ذَاتِ اللَّهِ مُتَعَاوَنَةً مُتَعَاذَةً ؛ بِحَوْلِ
اللَّهِ سَبْحَانَهُ .



ومنها ما كُتِبَ به بإعادة وال إلى ناحية، وهي :

وَإِنَّا كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ - كَتَبَكُمْ اللَّهُ مِنَ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَأَعْلَقَكُمْ مِنْ طَاعَتِهِ
بِالْحَبْلِ الْأَمْتَنِ الْأَقْوَى - مِنْ فُلَانَةٍ : وَالَّذِي نُوصِيكُمْ بِهِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْعَمَلُ
بِطَاعَتِهِ ، وَالْاِسْتِعَانَةُ بِهِ وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ ؛ وَقَدْ صَرَّفْنَا إِلَيْكُمْ فُلَانًا بَعْدَ أَنْ أَقَامَ هُنَا شَاهِدًا
مَشَاهِدًا لِلتَّعَلُّمِ نَافِعَهُ ، مَبَاشِرًا مِنَ الْمَذَاكِرَةِ فِي الْكُتَابِ وَالسُّنَنِ مَجَالِسَ ضَامِنَةً خَيْرِ
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ جَامِعَهُ ؛ مُطَالِعًا لِاِحْوَالِ الْمُوَحِّدِينَ أُعَزَّهِمُ اللَّهُ فِي مَا خَذَمَ الدِّيْنِيَّةَ ،
وَمَقَاصِدِهِمُ الْمُحْيِيَّةَ لِمَا دَرَسَ مِنَ الْمِلَّةِ الْحَنِيفِيَّةِ ؛ فَنَالَ بِذَلِكَ كُلَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَأَحْرَزَ بِهِ

حظًا من السعادة كـبـيرا ، وظفر منه بما يكون له في كل ما ينظر فيه سراجا منيرا ؛
 وقد أعدناه إلى الشغل الذى كان يتولاه لجهتكم حرسها الله ، ووصيناها بتقوى الله
 تعالى الذى لا يطالع على السرائر سواه ؛ وأن يكون بما شاهدته مما تقدم ذكره
 مقتديا ، وبأنواره الساطعة التى لا يضل من أهتدى بها مهتديا ؛ ولا يستند فى شئ
 من أحكامه إلى من لا يقوم على عصمته دليل ، ولا جعل إليه تحريم ولا تحليل ؛
 فأعينوه - وفقكم الله - على تمشية هذه المقاصد الكريمة أكرم إمانه ، وأسلكوا
 من مظاهرتة على الحق وموازرتة على المسالك التى تستبين هنالك أتم استبانته ؛
 إن شاء الله تعالى .



ومن الظواهر المكتتة بالوظائف الدينية ما كتب به فى ولاية قاض ، وهو :

أما بعد حمد الله رافع علم الحق لمن أهتدى ، وواضع يزان القسط بالشريعة
 المحمدية الآخذة بالمحجز عن مهاوى الردى ؛ ومؤيد الدين الحنيفى بن ارتضى لتحديد
 حدوده وتجديد عهوده وهدى . والصلاة على سيدنا محمد نبيه الكريم الذى أرسله
 إلى الناس كافة غير مستثنى عليه من الخلق أحدا ؛ وعلى آله وصحبه الذين سلكوا
 فى نصره وإظهار أمره جدا . والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين العباسى الأطيب
 عنصرا ومختدا ، فإننا كتبناه إليكم - كتبكم الله ممن أعتز بطاعته وتقواه ، واعتصم من
 حبله المتين بأوثقه وأقواه - من فلاة وفضل الله سبحانه مديد الظلال ، وتوكلنا
 عليه - عز وجهه - ظهيرنا المعتمد به فى كل حال ، وعمادنا الذى تقدمه فيما ندره
 من الأعمال ؛ وإنكم من عنايتنا ، وموصول رعايتنا ، لبالحل الأدنى ؛ ومن خاص

نظرنا وآهتاما لمن نكف بشأنه كله ونعني، ونعتمد من ذلك بالأحسن فلا أحسن
بجزاء الذين أحسنوا الحسنى .

وقد علمتم - وصل الله كرامتكم - أن الأحكام الشرعية هي ملاك الأمور
ونظامها ، وعليها مدار الأعمال الدينية وبها تمامها ؛ وأنه لا يصلح لها إلا من تجرد
عن هواه ، وأثر الحق على ماسواه ؛ وأتبع حكم نبيه - عليه السلام - في كل ما عمله
ونواه ، وتجل بالدراية وحمل الرواية فكانتا أظهر حلاه ؛ وأتسم بالعدل والاعتدال
فيما وليه من ذلك أو تولاه ، وكان ممن أطلق الحق لسانه وقيد الورع يمينه ؛ وقد أمعنا
النظر فيمن له من هذه الأوصاف أو في نصيب ، ومن إن رمى عن قوس نظره
الموفق كان سهمه المسدد مصيب : لنخصمكم به قاضيا في هذه الأحكام ، ونقدمه
للفصل بينكم في القضايا الشرعية حكما من صالح الحكم ؛ فرأينا أهلا لذلك ومحللا
من أختبرت على [النهج] القويم أحواله ، وأرضيت فيما نيط به من ذلك أعماله
وأقواله ؛ وشهد له الاختبار بالانكشاف عن كل سابق وغائب ، وعن ارتكاب
التنبيات إلى السنن اللاحب ؛ وذلكم « فلان » أدام الله كرامته وتوفيقه ، ويسر إلى
مسالك النجاة مسلكه وطريقه ؛ فأنفذناه إليكم حكما مرضى السير ، وافر الحظ
من المعارف المصورة للحق في أجمل الصور ؛ مكتفيا بما لديه من استقامة الأحوال
عن الوصايا ما خلا التذكير والتنبية ، والوصية بتقوى الله فهي التي تعصم العامل بها
وتنجيه ؛ فقد وصى بها الله من اختاره من خلقه لإقامة حقه وأرضاه ، فقال تعالى :
(وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلَّا يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ لَهُمْ فَيَقُولُوا بِرَأْسِ الثَّغِيرِ) . فلتقوه
- أدام الله كرامتكم - بنفوس منبسطه ، وقلوب مبتهجة مغتبطه ، وأهواء على التظافر

والتناصر في الحق مجتمعة مرتبطة ؛ وتعاونوا في ذات الله على الطاعة ، وكونوا في سبيل
الله يدا واحدة فيد الله مع الجماعة ؛ وأستعينوه سبحانه على الخير بعنكم ، وأشكروا
الله يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ؛ وهو سبحانه يتولاكم بالحفظ الشامل ، ويستعملكم
من طاعته وسلوك سبيل مرضاته بأجج ما أستعمل به عامل ؛ والسلام .



ومنها ما كتب به أبو الحسن الرعني في ولاية قاض ، وهي :

من فلان إلى الأشياخ بفلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ، وأستعملهم فيما يحببه
ويرضاه .

أما بعد ، فإننا كتبنا إليكم - كتب الله لكم حسنا ، وأوزعكم شكر ما حولكم من
نعمه ورحمه ؛ ومن مقاصد هذا الأمر العزيز - أدامه الله - ما يعلي يد الحق
ويُسَمِّها ، ويسد سهام العدل إلى أغراضها ومرامياها ، ويتكفل بالجزاء لمن لاذ
بأكاف الطاعة وتواحيها ، والحمد لله على نعمه التي لا تحصرها ولا تحصىها .

وإلى ذلكم فإن فلانا لما تمكنت الثقة بجميل صفته ، وأستنامت البصيرة إلى
أستحكام سننه ومعرفته ؛ وقد كان تقدم له من خدمة الأمر وأوليائه ما تجده مع
الأيام وخرجه ؛ وخصصه من كريم الاستعمال بما أستدناه إلى مراقب الذكاء
وأستدرجه ؛ رأينا - والله المستعان - أن تقدمه للنظر في قضاياكم الدينيه ،
وأحكامكم الشرعيه ؛ بعد أن وصينا بتقوى الله فقدمها ، وعرضنا عليه ما يعلمه
ويلزمه من شروط الحكومة فالترمها . فلينهض إلى ما قدمناه على بركة الله تعالى

(١) في الأصل أنجده بالهمز وهو غير مناسب .

مشمرا عن ساعد الحزم، آخذاً في كافة أموره بما يأخذه أولو العزم؛ جارياً على السنن الواضح المعروف؛ مسوياً في الحق بين النبيه والخامل والشريف والمشروف؛ محتسباً على إقامة فروض الدين أكرم احتساب، مكتسباً من الأجر في ردع الظلم والباطل أفضل آكتساب، راجياً في تمشية العدل على رغم من أباه ما يرجو المؤمن المحقق من زلفى وحسن مآب؛ ولدنيا من عقده على ذلك ما يحسن مقصده، ويمكن في بسطة الحق مقعده؛ فإذا وافاكم فاستبشروا بموافاته، وقفوا عند ما يمضيه من لوازم الشرع وموجباته، وتعاونوا على الخير تعاوناً يجرل حظكم من فضل الله وبركاته؛ فهو المؤمل في ذلك لأرب سواه.



ومن الظواهر المكتتبه بالوظائف الديوانية ما كتب به أبو المطرف بن عميرة بولاية وزارة، وهو:

مكتوبنا هذا بيد فلان أدام الله علاءه، وحفظ عنايته وغناه؛ يجد به مكان العزة مكيئا، ومورد الكرامة عذبا معينا، وسبيل الحرمة المتأكدة واضحاً مستبيناً؛ ويتقلد وزارتنا تقلد تفويض وإطلاق، ويلبس ما خلع عليه منها لبسة تمكن وأستحقاق، وينزل من رتبها العليا منزلة شرفها ثابت وحماها باق؛ ويسوغ الدار المخزنية التي يسكنها بفلانة تسويغا يملكه إياها أصح تملك، ويفرد فيها من غير تشريك؛ إن شاء الله تعالى والسلام.



ومنها ما كتب به أبو عبد الله بن الأبار في مشاركة ناحية، وهو:

عن إذن فلان ، يتقدم فلان للنظر في الأشغال الخزنية بفلانة ، موفياً بما يجب عليه من الاجتهاد والتشمير ، والحد الذي أرثسم في الإنماء والتثمير ، مصدقاً ما قدر فيه من الانتهاض والاستقلال ، وقرّر عنه من الأمانة التي رشّخته وأهلته لانبه الأعمال ؛ جارياً في ضبط الأمور الخزنية والرفق بجانب الرعية على المقاصد الجليلة والمذاهب المرضية في عامة الشؤون والأحوال ، عاملاً بما تقدمت به الوصية إليه ، وتأكدت الإشارة [به] عليه ؛ من تقوى الله في السر والعلن ، علماً أن المرء بما قدمته يده مرتين .



ومنها ما كتب به المذكور بإعادة مشارف إلى ناحية ، وهو :

يُعاد بهذا المكتوب فلان إلى حُطّة الإشراف بفلانة : رافلاً من ملابس التكرمة والحُطوة في شُفوفها ، مُحلّي بينه وبين النظر في ضروب الأشغال الخزنية وصُنوفها ؛ فهو المعروف بالكفاية والاجتهاد ، الموصوف بحُسن الإصدار والإيراد ؛ وأولى الناس بالانتماء النصيحة ، والأزدياد من بضائع الأعمال الرّبيحة ، من كثرت النعم السلطانية لديه ، ودُفع إلى الحُطط ودُفعت إليه . فليتقلد هذه الحُطّة بحَقّها من الانتهاض والتشمير ، وتأدية الأمانة بالإنماء والتثمير ؛ وليترود تقوى الله تعالى ليوم يُسأل عن التقيّر والقِطْمير ؛ جارياً في أموره كلّها على الطريقة السّوية ، جامعاً بين الاحتياط ^(١) للخرن والرفق بالرعيّه ، غير عادلٍ في حالٍ من الأحوال وفنٍّ من فنون الأعمال عن مقتضى هذه الوصية ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) الخزن بفتح الزاى ما يخرن فيه الشئ .

الطرف الخامس

(فيما كان عليه الأمر في الدولة الفاطمية بالديار المصرية)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة أنه كان بها من وظائف أرباب السيوف
الوزارة إذا كان الوزير صاحب سيف، والنظر في المظالم، وزم الأقارب، وتقابة
العلويين، وزم الرجال والطوائف: كالأموية، والحافظية، والأفضلية، وغيرهم
من تقدّم ذكره في ترتيب دولتهم؛ وولاية الشرطة، وولاية المعاون والأحداث،
وولاية الحماية، وولاية حفظ الثغور، والإمارة على الحج، والإمارة على الجهاد،
وولاية الأعمال، وغير ذلك. ومن الوظائف قضاء القضاة، والدعوة إلى مذهبهم،
والنظر في الأوقاف والأحباس، والنظر في المساجد وأمر الصلاة، وغير ذلك.

وكانت كتابة ما يكتب لديهم لأرباب الولايات على نوعين :

النوع الأول

(ما كان يكتب به عن الخليفة نفسه)

وكان من شأنهم أنهم يتعرّضون في أثناء الولاية لإشارة الوزير بتولية المولى وشأنه
عليه، وربما أهملوا ذلك. وكانوا يسمون جميع ما يكتب من ديوان الإنشاء
سجلات، وربما سموه عهدودا؛ وعليه يدل ما كتبه العاضد آخر خلفائهم في طرة
سجل السلطان صلاح الدين بالوزارة: « هذا عهد لأعهد لوزير بمثله » على ما تقدّم
ذكره في الكلام على عهد الملوك.

ولهم فيها أربعة مذاهب :

(١) لعله « ومن وظائف أرباب الأقاليم قضاء » الخ فتنبه.

المذهب الأول

(أن يفتتح ما يكتب في الولاية بالتصدير)

هو « من عبد الله ووليه فلان أبي فلان الإمام الفلاني أمير المؤمنين ، إلى فلان ابن فلان » بالألقاب المنعوت بها من ديوان الخلافة ، ويُدعى له بدعوتين أو ثلاث ؛ ثم يقال : « سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يمدُّ إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلِّي على جدِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم وعلى أخيه وأبن عمِّه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب » ويؤتى من وصف الخليفة ومدحه بما يناسب المقام .
ثم هو بعد ذلك على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى

(أن يقال بعد التصدير المقدم «أما بعد فالحمد لله»)

ويؤتى من التحميد بما يناسب تلك الولاية ، ثم يؤتى بتحميدة ثانية وثالثة ، وتكون الثالثة متعلّقة بالنعم الشاملة لأمر المؤمنين ؛ ثم يقال : « وإن أمير المؤمنين لما أخصَّه الله به من كذا وكذا » ويذكر ما سَنَح من أوصاف الخليفة ، ويذكر أنه تصفَّح الناس وسبرهم فلم يجد من يصلح لتلك الولاية إلا هو ؛ ويذكر من صفته ما أتفق ذكره ، ثم يذكر تفويض الولاية إليه ، ويوصيه بما يناسب ، ويختتم بالدعاء ثم بالسلام مع التفضين في العبارة ، واختلاف المعاني والألفاظ ، والتقديم والتأخير بحسب ما تقتضيه حال المنشيء ، وتودى إليه قريحته .

وهي على ضربين :

الضرب الأول

(١)
(سِجَّاتُ أربابِ السِّوْفِ)

وعلى ذلك كَتَبُ سِجَّاتِ وُزَرَائِهِمُ أَصْحَابِ السِّوْفِ الْقَائِمِينَ مَقَامَ السُّلْطَانِينَ
الآنَ، مِنْ لَدُنْ وَزَارَةِ أَمِيرِ الْجِيُوشِ بَدْرِ الْجَمَالِيِّ وَزَيْرِ الْمُسْتَنْصِرِ : خَامِسِ خَلْفَائِهِمْ
وَإِلَى أَنْقِرَاضِ دَوْلَتِهِمْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ مِنْهَا ذِكْرُ عَهْدِي الْمَنْصُورِ : أَسَدِ الدِّينِ شِيرْكَوهِ
أَبْنِ شَادِي ، ثُمَّ أَبْنِ أَخِيهِ النَّاصِرِ صِلَاحِ الدِّينِ يَوْسُفَ بْنِ أَيُّوبَ بِالْوِزَارَةِ عَنْ
الْعَاضِدِ فِي جُمْلَةِ عُهُودِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ ، حَيْثُ أَشَارَ فِي "التَّعْرِيفِ" إِلَى عَدَمِهِمَا
مِنْ جُمْلَةِ عُهُودِ الْمُلُوكِ .

وَمِنْ أَحْسَنِهَا وَصْفًا ، وَأَبْجَحِهَا لَفْظًا ، وَأَدَقَّهَا مَعْنَى ، مَا كَتَبَ بِهِ الْمَوْفِقُ بْنُ الْخَلَّالِ
صَاحِبُ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ عَنِ الْعَاضِدِ الْمُنْتَقِمِ ذِكْرَهُ ، بِالْوِزَارَةِ لِشَاوَرِ السَّعْدِيِّ ، بَعْدَ أَنْ
غَلِبَهُ ضَرْغَامٌ عَلَيْهَا ثُمَّ كَانَتْ لَهُ الْكُرَّةُ عَلَيْهِ . وَهَذِهِ نَسَخَتُهُ :

مِنْ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ عَبْدِ اللَّهِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْعَاضِدِ لَدَيْنَ اللَّهِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، إِلَى السَّيِّدِ
الْأَجَلِّ ، سُلْطَانِ الْجِيُوشِ ، نَاصِرِ الْإِسْلَامِ ، سَيْفِ الْإِمَامِ ، شَرَفِ الْأَنْامِ ، مُحَمَّدِ
الدِّينِ ، أَبِي فُلَانِ فُلَانِ .

سَلَامٌ عَلَيْكَ : فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَجْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ
يَصَلِّيَ عَلَيَّ جَدِّهِ مُحَمَّدِ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَإِمَامِ الْمُرْسَلِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الطَّاهِرِينَ
الْأئِمَّةِ الْمُهَيْدِيِّينَ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَانِحِ الرِّغَائِبِ ، وَمُنْبِلِهَا ، وَكَاشِفِ الْمَصَاعِبِ ، وَمُزِيلِهَا ؛
وَمُذِلِّ كُلِّ عُصْبَةٍ كَافَتْ بِالْغَدْرِ وَالشَّقَاقِ وَمُذِيلِهَا . نَاصِرِ مَنْ بَغَى عَلَيْهِ ، وَعَاكِسِ

(١) لم يترجم فيما يأتي للضرب الثاني وهو سجلات أرباب الأقلام وإن كان قد ذكرها ضمن المراتب
الثلاث الآتية فتنبه .

كَيْدِ الكَائِدِ إِذَا فَوْقَ سَهْمِهِ إِلَيْهِ ؛ وَرَادَ الحَقُوقَ إِلَى أَرْبَابِهَا ، وَمَرْتَجِعَ المَرَاتِبَ إِلَى مَنْ هُوَ أَجْدَرُ بِرُقِيَّتِهَا وَأَوْلَى بِهَا ؛ وَمُسِّنَى الخَيْرِ بِتَيْسِيرِ أَسْبَابِهِ ، وَمَسْهَلِ الرِّبِّ ^(١) بِتَمْهِيدِ طُرُقِهِ وَفَتْحِ أَبْوَابِهِ ، وَمُدْنِي نَائِي الحِطِّ بَعْدَ نُفُورِهِ وَأَعْتْرَابِهِ ؛ وَمُطْلِعِ الشَّمْسِ بَعْدَ المَغِيبِ ، وَمُتْدَارِكِ الخَطْبِ إِذَا أَعْضَلَ بالفَرَجِ القَرِيبِ ؛ مُبْدِعِ مَا كَانَ وَيَكُونُ ، وَمُسَبِّبِ الحَرَكَةِ وَالسُّكُونِ ؛ مُحْسِنِ التَّسْدِيرِ ، وَمَسْهَلِ التَّعْسِيرِ : ﴿ قُلِ اللّٰهُمَّ مَا لَكَ المُلْكُ تُؤْتِي المُلْكََ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ المُلْكََ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝ .

والمحمد لله الذي آخَصَّ أوليَاءَ أمير المؤمنين الأبرار بالاستعلاء والظهور، وذَلَّلَ لهم جَوَائِحَ الخُطُوبِ وَمَصَابِعَ الأُمُورِ؛ وَأَتَاهُمُ مِنَ التَّأْيِيدِ كُلِّ بَدِيعٍ مُسْتَعْرَبٍ، وَأَنَالَهُمُ مِنْ كُلِّ غَرِيبٍ إِذَا أُورِدَ قَصَصُهُ أَطْرَبَ؛ وَمَكَّنَهُمْ مِنْ نَوَاصِي الأَعْدَاءِ، وَشَمَلَهُمْ بِعَنَائِيهِ فِي الإِعَادَةِ والإِبْدَاءِ؛ وَضَمَّنَ لَهُمُ أَحْمَدَ العَوَاقِبِ، وَأَرْشَدَهُمُ إِلَى الأَفْعَالِ الَّتِي ثَبَّتَتْ لَهُمْ فِي صَحَائِفِ الأَيَّامِ أَفْضَلَ المَنَاقِبِ؛ وَهَدَاهُمُ بِأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ إِلَى مَارَاقِ زُلَّالِهِ، وَتَمَّ غَايَةَ التَّمَامِ كَمَا أَنَّهُ كَانَ لِرِضَا اللهِ سَبْحَانَهُ وَحُسْنِ ثَوَابِهِ مَالَهُ؛ وَيُمِدَّهُمْ فِي المَجَاهِدَةِ عَنْ دَوْلَتِهِ بِالتَّأْيِيدِ وَالتَّحْكِيمِ، وَيُحْظِيهِمْ مِنْ أَنوَارِ اليَقِينِ، بِمَا يَجْلُو عَنْ أَفْتَدَتِهِمْ دُجَى الشُّكِّ البَهِيمِ؛ وَيُظْهِرُ لِأَفْهَامِهِمْ خِصَائِصَ الإِمَامَةِ فِي حُلَلِ التَّفْخِيمِ وَالتَّعْظِيمِ، وَيُرِيهِمْ أَنَّ خُلُوصَ الطَّاعَةِ مَنجَاةٌ فِي المَعَادِ بِتَقْدِيرِ العَزِيزِ العَلِيمِ .

والمحمد لله الذي أَسْتَثْمَرَ مِنْ دَوْحَةِ النُّبُوءَةِ الأُمَّةَ المَهَادِينَ، وَأَقَامَهُمْ أَعْلَامًا مُرْشِدَةً فِي مَحَبَّةِ الدِّينِ؛ وَبَيَّنَّ بِتَبْصِيرِهِمُ الحَقَائِقَ وَوَرَّثَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ شَرَفَ مَقَامَاتِهِمْ ،

(١) مراده الصعب . والرتب بالتحريك من معانيه الشدة والغلظة يقال ما في هذا الأمر رتب ولا عتب أى عناه وشدة .

(٢) لم يتقدم ما يعطف عليه وهو من متعلقات أمير المؤمنين كما لا يخفى .

وجعله مُحَرِّزَ غَايَاتِهِمْ ، وَجَامِعَ مُعْجَزَاتِهِمْ وَأَيَاتِهِمْ ؛ وَقَضَىٰ لِمَنْ أَلْتَحَفَ بِظُلِّ فَنَائِهِ ،
وَأَشْتَمَلَ بِسَابِغِ نَعِيمِهِ وَأَلَائِهِ ، وَتَمَسَّكَ بِطَاعَتِهِ وَأَعْتَصَمَ بِوَلَائِهِ ؛ بِالْخُلُودِ فِي النِّعَمِ
الْمُقِيمِ ، وَالْحُلُولِ فِي مَقَامِ رِضْوَانِ كَرِيمٍ : ﴿ ذَلِكُمْ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ
ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

يَحْمَدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيُّ نِعْمَةَ الَّتِي جَعَلَتْهُ لِلبَشَرِ إِمَامًا ، وَأَمَصَّتْ لَهُ فِي الْمَشَارِقِ
وَالْمَغَارِبِ أَوَامِرَ وَأَحْكَامًا ؛ وَجَرَّدَ مِنْ عَزْمِهِ فِي حَيَاةِ دِينِ اللَّهِ عَضْبًا مُرْهَفًا
حُسَامًا ، وَأَسْتَخْلَصَ لِإِنْجَادِ دَوْلَتِهِ مِنْ أَوْلِيَائِهَا أَكْلَهُمْ شَجَاعَةً وَإِقْدَامًا ؛ وَأَحْسَنَهُمْ
فِي تَدْيِيرِ أُمُورِهَا قَانُونًا وَنِظَامًا ؛ وَأَتَمَّهُمْ لِمَصَالِحِ أَجْنَادِهَا وَرِعَايَاهَا تَفَقُّدًا وَأَهْتِمَامًا ،
وَأَوْلَاهُمْ بِأَنْ لَا يُوجَّهَ عَلَيْهِ أَحَدٌ فِي حَقٍّ مِنْ حُقُوقِ اللَّهِ مَلَامًا ، وَأَجْدَرَهُمْ بِأَنْ يُحَلَّ
مِنْ جَمِيلِ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دَارَ سَلَامٍ يَلْقَىٰ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ؛ وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَصِلَّىٰ
عَلَىٰ جَدِّهِ مُحَمَّدٍ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ الَّذِي أَعْلَنَ بِالتَّوْحِيدِ وَجَهَرَ ، وَغَلَبَ بِالتَّائِيدِ وَقَهَرَ ؛ وَأَظْهَرَ
الْمُعْجِزِ الْبَدِيعِ وَأَسْتَطَالَ إِعْجَازَهُ وَبَهَرَ ، وَأَطْلَعَ نُورَ الْإِسْلَامِ وَأَشْتَهَرَ فِي الْمَشَارِقِ
وَالْمَغَارِبِ إِشْرَاقَهُ وَظَهَرَ ؛ وَعَلَىٰ أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَبِيْنَا عَلِيَّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ سَيْفِ اللَّهِ
الَّذِي شَهَرَهُ عَلَى الْكُفْرِ وَسَلَّهُ ، وَكَفَّلَهُ إِعْزَازَ الدِّينِ فَأَعْظَمَهُ بِجِهَادِهِ وَأَجَلَّهُ ؛ وَقَرَعَ
بِعِزِّهِ صَفَاةَ الْإِلْحَادِ فَأَعَانَهُ (؟) بِعِزِّهِ وَأَذَلَّهُ ، وَقَصَّدَ الْأَصْنَامَ وَأَرْغَمَ مِنْ أَسْتَعْوَاهِ
الشَّيْطَانَ بِاتِّبَاعِهَا وَأَضَلَّهُ ؛ وَعَلَى الْأُمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتَيْهَا أَعْلَامِ الدِّينِ ، وَهُدَاةِ الْمُتَّقِينَ ؛
وَمَوْصِيَّ سَبِيلِ الْحَقِّ لِأَهْلِ الْيَقِينِ ؛ وَمَوْصِلِي الْأَنْوَارِ الدِّينِيَّةِ إِلَى بَصَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛
صَلَاةً تُتَكَرَّرُ وَتَتَرَدَّدُ ، وَتُدُومُ مَدَى الْأَيَّامِ وَتُتَجَدَّدُ .

وَإِنْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا أَخْتَصَّهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَنْصِبِ الشَّرِيفِ ، وَسَمَّا بِهِ إِلَيْهِ مِنَ
الْحَلِّ الشَّائِخِ الْمُنِيفِ ؛ وَفَوَّضَهُ إِلَيْهِ مِنْ تَدْيِيرِ خَلْقِهِ ، وَأَفْرَدَهُ بِهِ مِنْ آتِّبَاعِ أَمْرِهِ وَالْقِيَامِ

بحقّه ؛ وناطه به من المحاماة عن المِلَّة الحنيفيَّة ، والأجتهادِ في أن يشمَل أهلها بالحالة
السنيَّة والعيشة الهنيئة ؛ وإعانتة في إظهار شعاعها ، وتأيدته في إظهار علوِّها على
المُلْك وأقنندارها - يبدُل جهده في الاستعانة بمن تقوم به حجَّته عند الله بالأعتماد عليه ،
ويتوثق لنفسه في اختيار من يقوم برضا الله في إسناد الأمور إليه ؛ ويحوِّص على
التفويض لمن يكفي في التدبير ، ويحيط غاية نظره بالصغير من رجال الدولة والكبير ؛
تقرباً إلى الله بالعمل فيما ولَّاه بما يُرضيه ، وأزديلاً بما يتباع أمره في كل ما يُنفذه
ويُرضيه . وقد كان أمير المؤمنين تصفح أولياء دولته ، وعظماة مملكته وأكابر شيعته
وأنصار دعوته ؛ فوجدك أيها السيد الأجلُّ أكلهم فضلاً ، وأقلهم مثلاً ؛ وأمهم
في التدبير والسياسة إنصافاً وعدلاً ، وأحقهم بأن تكون لكلِّ رياسة وسيادة أهلاً ؛
ففوض إليك في أمور وزارته ، وعوّل عليك في تدبير مملكته وجمع لك النظر فيما
وراء سرير خلافته ؛ فخرت الأمور بمقاصدك السعيدة على إيثار أمير المؤمنين
وإرادته ، واستمر أمر المملكة بمباشرتك على أحسن قانونه وعادته ، وشملت الميامن
والسعود أتمَّ استمالة على تفصيله وجملته ؛ وأنحسبت الأذواء ، وذلت بسطوتك
الأعداء ، وزالت في أيامك المظالم والأعتداء ؛ وحسنت بأفعالك الأمور ، وظهرت بك
الصِّلاح وكان قبل وزارتك قليل الظهور ؛ فانبسطت الآمال ، وأتسقت الأعمال ؛
وأفقع الضلال ، وأمنت الأهوال ؛ وخلصت من الرأي السقيم ، وحظيت بالملك
العقيم ، وغدا جُنْدُها ورعاياها بركة رأيك في النعم المقيم .

فلما رمقت عين الكمال ، وأهلب قلوب حسدتك مأوتيته من تمام الخلال ،
تكاثر من يحوك المكائد ، وتظافر عليك المنافس والمعاند ؛ ورنّت إليك إساءة من
عاملته بالإحسان ، وعدت عليك خيانه من أتمنته أتمَّ استماتان ؛ وتم له المراد بوقائك^(١)

(١) لعله "لك" بكاف الخطاب . تأمل .

وَعَدْرِهِ ، وَسَلَامَةِ صَدْرِكَ وَمَكْرِهِ ، وَأَتَّفَاقِ ظَاهِرِكَ وَبَاطِنِكَ وَمَبَايِنَةِ سِرِّهِ لَجْهَرِهِ ؛ فَكَانَ مَا هَوَّنَهُ فِي نَفْسِهِ سَلَامَةُ النَّفْسِ وَأَكْبَرُ الْوَلَدِ ، وَمَنْحٌ فِي اسْتِدَادِهِ نِعْمًا لَا تَحْتَصِرُ بَعْدَهُ ؛ وَأَفْطَحَ مَا كَانَ فِيهِ مَا أُصِيبَ بِهِ وَلَدُكَ الْأَكْبَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الَّذِي أُصِيبَ وَهُوَ مَظْلُومٌ ، وَلَوْ لَمْ يُصَبِّ لَمْ يَتَّبِعْ مِنَ الْأَجَلِ الْمُحْتَمُومِ ؛ فَرِحْتَ بِمَا نَالَكَ ثَوَابًا ، وَأَسْتَفْتَحَ لَكَ الْحِطُّ مِنَ النَّصْرِ عَلَى الْبَاغِي بَابًا ؛ وَأَغْتَصَبَ الْغَادِرُ مَا لَا يَسْتَحِقُّ ، وَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِصُورَةِ الْمُبْطَلِ وَرَأَى بِصُورَةِ الْمُحَقِّ ؛ وَهَدَّتْكَ السَّعَادَةُ إِلَى الْعَمَلِ بِسِيْرَةِ الْأَنْبِيَاءِ ، فِي الْأَنْحِيَاظِ عَنِ الْأَعْدَاءِ ، وَالتَّبَاعِدِ عَنِ أَهْلِ النِّغَى وَالْإِعْتِدَاءِ ؛ فَانْسَلَّتْ مِنَ الْغَوَاةِ أَنْسَالُ الصَّارِمِ مِنْ غَمْدِهِ ، وَتَوَارَيْتَ مِنَ الْعَتَاةِ تَوَارِي النَّارِ فِي زَنْدِهِ ؛ وَقَطَعْتَ الْمَفَاوِزَ مَصَاحِبًا لِلْعُقْرِ وَالْعَيْنِ ، حَتَّى حَلَلْتَ بَرَبَوِيَّةَ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ؛ وَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يُمِدُّكَ فِي ذَلِكَ بِدُعَائِهِ ، وَيُعِدُّكَ لِتُدْبِرَ دَوْلَتَهُ وَقَعَ أَعْدَائِهِ ؛ وَرَأَى وَإِنْ أْبَعَدَتْكَ الضَّرُورَاتُ عَنِ بَابِهِ ، وَأَنْتَأَنَّكَ الْحَادِثَاتُ عَنِ جَنَابِهِ ، أَنَّكَ وَزِيرُهُ الْمَكِينُ ، وَخَالِصَتُهُ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ؛ الَّذِي لَا يُتْرَعُ عَنْهُ شَمْسٌ وَزَارَتُهُ ، وَلَا يُؤْمِرُهُ غَيْرُ سُلْطَانِهِ وَمَمْلَكَتِهِ .

وَمَا وَجَّهْتَ إِلَى أَعْمَالِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِنِ اسْتَصْحَابَتِهِ رَاجِيًا مِنْ عُدُوكَ الْأَنْتِصَارَ ، قَاصِدًا إِدْرَاكَ النَّارِ ؛ وَحَلَلْتَ بِعَقْوَتِهِ ، وَخَيَّمْتَ فِي جِهَتِهِ ؛ فَاتَّصَلَتْ بَيْنَكُمْ الْحُرُوبُ ، وَعَزَّ عَلَى كُلِّ مَنْكَا نَيْلِ الْمَطْلُوبِ - أَمْجِدُكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عِنْدَ عِلْمِهِ بِبَلُوغِ الْكُتَابِ أَجَلَهُ ، وَأَسْتِيفَاءِ الْوَقْتِ الْمَحْدُودِ مَهْلَهُ ، بِإِظْهَارِ مَيْلِهِ إِلَيْكَ وَمَيْلِهِ عَنِ ضِدِّكَ ، وَأَنْ قَصْدَهُ مَبَايِنٌ لِقَصْدِ الْمَذْكَورِ مُوَافِقٌ لِقَصْدِكَ ؛ فَسَبَّبَ ذَا نَصْرِكَ وَخِذْلَانَهُ ، وَتَقْوِيَتَكَ وَإِيهَانَهُ ؛ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَالِهِ عِنَايَةً تُسْعِدُكَ ، وَرِعَايَةً تُؤَيِّدُكَ .

(١) أى بساحته يقال ما بعقوة هذه الدار مثل فلان .

فحين عُدت إلى بابه عودَ الشُّموس إلى مَشَارِقِهَا قَبْلِكَ أَحْسَنَ قَبُولٍ، وَتَلَقَّكَ
 بِتَبْلِيغِ السُّولِ؛ وَكشَفَ الغِطَاءَ عَمَّا كَانَ يُسِرُّهُ إِلَيْكَ وَيُضْمِرُهُ، وَيُرِيدُهُ بِكَ وَيُؤْتِرُهُ؛
 وَجَدَدَ لَكَ مَا كُنْتَ تَنْظُرُ فِيهِ مِنَ الوِزَارَةِ، وَمَبَاشِرَةَ مَا كَانَ مَرْدُودًا إِلَيْكَ مِنَ السَّفَارَةِ
 وَالظَّهَارَةِ: لِأَنَّكَ أَوْحَدُ مَلُوكِ العَصْرِ كَالْأَيَّامِ، وَأَوْسَعُهُمْ فِي حَسَنِ التَّدْيِيرِ مَجَالًا؛ وَأَشْرَفُهُمْ
 شِيمًا بَدِيعَةً وَخِلَالًا، وَأَصْلَحُهُمْ آثَارًا وَأَعْمَالًا؛ وَأَمْتُهُمْ سَعَادَةً وَإِقْبَالًا، وَأَكْثَرُهُمْ
 نَقِيَّةً لِلَّهِ تَعَالَى؛ وَمَا زِلْتَ لِأَفْأَحِرِ جَامِعًا، وَلرَايَةِ المَجْدِ رَافِعًا؛ وَلذُرَى العَلَاءِ وَالسَّنَاءِ
 فَارِعًا؛ تَرْدَاتُ العُصُورِ بَعْضُكَ، وَتَجَمَّلُ الدُّنْيَا بِبَقَاءِ هَيْبَتِكَ وَأَمْرِكَ؛ وَتَتَعَجَّبُ
 الأَفْلاكُ العَلِيَّةُ مِنْ سَعَةِ صَدْرِكَ، وَتَتَضَاعَلُ الأَقْدَارُ السَّامِيَّةُ لِعَظِيمِ قَدْرِكَ؛ وَكَمْ لَكَ
 مِنْ مَنَقِبَةٍ تَجِلُّ أَنْ يَكْفِيَهَا بَدِيعُ الأَقْوَالِ، وَتَعْظُمُ أَنْ يَتِمَّهَا بَدِيعُ الأَقْوَالِ؛ فَالدُّوَلَةُ
 العَالِيَّةُ بِتَدْيِيرِكَ مَخَالَةٌ زَاهِيَةٌ، وَأَرْكَانُ أَعْدَائِهَا وَأَضْدَادِهَا بِحَزْمِكَ وَعَزَمِكَ وَاهِيَةٌ،
 وَسَعَادَاتُ مَنْ تَضَمَّنَهُ وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مَتَضَاعِفَةٌ غَيْرُ مَنقُطَعَةٍ وَلَا مَتَنَاهِيَةٍ؛ وَلَمْ تَزَلْ
 لِلإِسْلَامِ سَيِّفًا قَاطِعًا مَاضِيًا، وَعَلَى الإِلْحَادِ سَيِّفًا مَرَهَفًا قَاضِيًا؛ تَدُودُ الشَّرْكَ عَنْ
 التَّوْحِيدِ، وَتَصُدُّ الكُفْرَ عَنِ الإِيمَانِ فِيحِيدٍ مُرْعَمًا وَيَبِيدُ. وَكَمْ لَكَ فِي خِدْمَةِ أُمَّةِ
 الهُدَى مِنْ مَأْتَمَةٍ تُؤَثِّرُ فِتْجَهَاجًا، وَيُورِدُ ذِكْرَهَا فِغْرَى بِنِشَاءِ عَلَيْكَ وَيُلْهِجُ؛ وَتَبْدُلُ
 فِي طَاعَتِهِمُ النَّفْسَ وَالوَلَدَ، وَتَنْتَهِي فِي مَنَاصِحَتِهِمْ إِلَى الأَمْدِ الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ أَمْدٌ؛
 فَلذَلِكَ فُزْتَ بِدَعْوَاتِهِمُ الَّتِي أَعْقَبَتْكَ حُسْنَ العَوَاقِبِ، وَأَحْلَتْكَ المَحَلَّ الَّذِي لَاتَسْمُو
 إِلَى رُقيَّةِ النُّجُومِ الثَّوَابِقِ؛ إِذَا رَفَعَكَ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ إِلَى مَنزَلَةٍ سَامِيَةٍ، وَجَدَ مَحَلَّكَ
 لَدَيْهِ عَنْهَا يَجِلُّ وَيُسْمُو، وَإِذَا خَصَّكَ بِفَضِيلَةٍ مَا، صَادَفَ أَسْتِحْقَاقَكَ عَنْهَا يَرْتَفِعُ
 وَيَعْلُو؛ وَإِذَا أَسْتَشَفَّ خِصَائِصَكَ، وَجَدَهَا بَدِيعَةَ الكَمَالِ، يَمْتَنِعُ أَنْ يُدْرِكَ مِثْلَهَا

(١) الأَقْوَالُ جَمْعُ قَوْلٍ (وَأَصْلُهُ مِنَ ذَوَاتِ الوَاوِ) وَهِيَ مَلُوكٌ حَيْرٌ وَيَجْمَعُ أَيْضًا عَلَى أَقْيَالٍ عَلَى

بِحِرْصٍ سَاجٍ أَوْ يُنَالُ ، وَقَدْ تَوَافَقَتِ الْخَوَاطِرُ عَلَى أَنَّكَ أَوْحَدُ وُزَرَءِ الدَّوْلَةِ الْعَلَوِيَّةِ
ظَفَرًا وَنَظَرًا ، وَأَحْسَنُهُمْ فِي طَاعَتِهَا وَمَخَالَصَتِهَا أَثَرًا ، وَأَفْضَلُهُمْ خُبْرًا وَأَطْيَبُهُمْ خَبْرًا ؛
وَقَدْ جَدَّدَ لَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَصْطَفَاءَكَ لُوزَارَتِهِ ، وَأَجْتَبَاءَكَ لِتُدِيرَ مَمْلَكَتَهُ ، وَجَعَلَكَ
الْفَرْدَ الْمَشَارَكَ فِي دَوْلَتِهِ .

فَتَقَلَّدَ مَا قَلَّدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْمَهْمَاتِ الْحَسَامِ ، وَتَسَمَّ مَا وَطَّده لَكَ مِنْ
هَذِهِ الرُّتَبِ الْعِظَامِ ؛ وَتَلَقَّ آلاءَهُ بِمَا يُثَبِّتُكَ فِي جِرَائِدِ الْأَبْرَارِ ، وَيَمْنَحُكَ مَصَاحِبَةَ التَّوْفِيقِ
فِي الْإِيرَادِ وَالْإِصْدَارِ ؛ وَبَاشَرَ مَا نَاطَ إِلَيْكَ مِنْ كَبِيرِ الْأُمُورِ وَصَغِيرِهَا ، وَجَلِيلِ الْأَحْوَالِ
وَحَقِيرِهَا ؛ وَأَبْسَطَ يَدَكَ فِي تَدِيرِ دَوْلَتِهِ ، وَأَنْفَذَ أَوْامِرَكَ فِي أَرْجَاءِ مَمْلَكَتِهِ ؛ وَأَعْنَبَ بِمَا
جَعَلَهُ لَكَ مِنْ تَدِيرِ جُيُوشِهِ الْمَيَامِينَ وَأَوْلِيَاءِهِ الْمُتَّقِينَ ، وَكَفَالَةِ قُضَاةِ الْمُسْلِمِينَ وَهَدَايَةِ
دُعَاةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَرَبَّ أَحْوَالِ جُنُودِهِ وَرِعَايَاهُ أَجْمَعِينَ ؛ وَأَعْمَلَ فِي ذَلِكَ بِتَقْوَى اللَّهِ
الَّذِي مَابَرِحْتَ لَكَ دَابًّا وَطَرِيقَهُ ، وَشِمِيَّةً وَخَلِيقَهُ ؛ وَبِهَا النِّجَاةُ مِنَ النَّارِ ، وَالسَّلَامَةُ
فِي دَارِ الْقَرَارِ ؛ وَالْفَوْزُ بِمَعْنَى الْخَلَاصِ ، فِي يَوْمِ الْمُنَاقَشَةِ وَالْقِصَاصِ . فَالْعَارِفُ مِنْ
مَهَّدَ بِهَا مَقَامَهُ فِي الْآخِرَةِ تَمْهِيدًا ، وَأَحْرَزَ بِهَا مِنَ الثَّوَابِ فِي الْآخِرَةِ مَزِيدًا ؛ بِقَوْلِ اللَّهِ
فِي الْكِتَابِ الَّذِي جَعَلَهُ فِي الْإِعْجَازِ فَرِيدًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا
قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ .

وَرَاقِبِ اللَّهَ فِيمَا أَلْفَاهُ إِلَيْكَ فَقَدْ فَوَّضَ إِلَيْكَ مَقَالِيدَ الْبَسْطِ وَالْقَبْضِ ، وَالرَّفْعِ
وَالْخَفْضِ ؛ وَالْوَالِيَةَ وَالْعِزَّ ، وَالْقَطْعَ وَالْوَصْلَ ؛ وَالتَّوْلِيَةَ وَالتَّصْرِيفَ وَالصَّرْفَ ،
وَالْإِمْضَاءَ وَالْوَقْفَ ؛ وَالغَضَّ وَالتَّيْبَةَ ، وَالْإِنْخَالَ وَالتَّنْوِيَةَ ؛ وَالْإِعْزَازَ وَالْإِذْلَالَ ،
وَالْإِسَاءَةَ وَالْإِنْجَالَ ؛ وَالْإِبْدَاءَ وَالْإِعَادَةَ ، وَالتَّنْقِصَ وَالتَّزْيِيدَ ؛ وَالْإِنْعَامَ وَالْإِرْغَامَ ،

وكل ما تُحَدِّثُهُ تصاريُفُ الأيامِ، وتقتضيه مطالبُ الأنامِ ؛ فهو إليك مُرْدُودٌ، وفيما عُدقَ بنظركَ معدودٌ .

وأما العدلُ ومدُّ رُواقِهِ، وإقامةُ مَوَاسِمِهِ وأسواقِهِ ؛ والإنصافُ وأتباعُ حُجَّتِهِ، والاعتمادُ على أحكامِهِ وأفضيَّتِهِ ؛ وكفُّ عوادي الجورِ والمظالمِ، وحملُ الأمرِ على قُصدِ التصاحبِ والتَّسالمِ ؛ وإظهارُ شعارِ الدِّينِ ، في إنصافِ المُتداعين إلى الشرعِ المتحامين ؛ والدعوةُ الهاديةُ وفتحُ أبوابِها للمستجيبين، وإعزازُ من يَتَمَسَّكُ بها من كافَّةِ المؤمنين ؛ والأموالُ والنظرُ فيها، والأعمالُ أفاضيها وأدانيها - فكلُّ ذلك محرَّرٌ في تقليدِ وزارَتِكَ الأولِ، وأنتَ أوَّلُ مَنْ حافَظَ على العملِ به وأكمل .

وأماُ أمراءِ الدولةِ الأكابرِ، وصدُورها الأمانيلِ ؛ وأمرؤها الأعيانِ، وأولياؤها الذين بسُيُوفِهِم تُقامُ دعائمُ الإيمانِ - فانت شفيعُهُم في كلِّ مكانٍ، ومُعِينُهُم الذي يُبدلُ جُهدَهُ بغايةِ الإمكانِ ؛ والجاهدُهُم في النَّفَعِ والصَّلاحِ ، والحريصُ على دَفْعِ مايلُهُم بكلِّ منهم من الضَّررِ والأجتياحِ ؛ ومازلتَ لهم في الأغراضِ بمحضرةِ أميرِ المؤمنين مساعداً، وعلى مايلتَهُم الآرابِ حريصاً جاهداً ؛ وتخصُّمُهُم دائماً بعنايتِكَ، وتُمجِّدُهُم بِرِعايتِكَ ، وتُعَمِّلُ لهم في الحاجاتِ صائبَ رأيِكَ ؛ فأجرُهُم على ما ألقوه من الاعتناء والإجمالِ، وبلغَهُم من محافظتِكَ نهاياتِ الآمالِ ؛ فهم أبناءُ الملاحِمِ، ومُصْطَلُو هَبِّ الجمرِ الجاحِمِ، ومصاحفُ الصِّفاحِ، المُرهفةِ الضُّروبِ، وملاعبُ الرِّماحِ، العاسلةِ ذاتِ الكعُوبِ ؛ ومُعَمِّلو العِناقِ الأعوجيَّةِ، ومُرْسِلو السَّهامِ المِريشةِ المَبْرِيَّةِ .

وأميرِ المؤمنين يعلمُ أنك بفضلِ فِطرتِكَ، وثاقِبِ فِطنتِكَ، وما مَيَّرَكَ اللهُ به من قديمِ حُكمتِكَ ونَجرتِكَ ؛ تغنى عن الوصايا، وتَنَزَّهَ عن توسيعِ الشَّرْحِ في القَضايَا ؛ وإنما أوردَ لك هذا التَّزَمُّنَ منها على جهةِ التَّيَمُّنِ بأوامرِ الأئمَّةِ، والتَّبَرُّكِ بِمَراسِمِ هُدَاةِ

الأمه ؛ والله يحقق لأمر المؤمنين فيك الأمل ، ويوفِّقك في خدمته للقول والعمل ؛
ويُعينك على إصلاح دولته ، وأغتنم فرص طاعته ؛ وبذل الجُهد والطاقة
في مناصحته ، والأجتهاد في رفع منار دعوته ؛ ويؤيدك على أعداء مملكته ، ويرشدك
إلى العمل بما يُسبغ عليك لباس نعمته ؛ فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه ،
وانته إلى موجب وحكمه ؛ إن شاء الله تعالى . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ،
والتحميد .



وعلى ذلك كتب الموفق بن الخلال أيضا عن العاضد بولاية ابن شاور السعدي
نيابة الوزارة عن أبيه ، وتفويض الأمور إليه ، وهذه نسخه :

من عبد الله ووليه (باللقاب الخلافة) إلى فلان (بالنعوت اللائقة به) .

سلام عليك (إلى آخر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم على نحو ما تقدم
في سبيل الوزارة لأبيه) .

أما بعد ، فالحمد لله مؤيد الحقائق بأفضل الأنصار ، ومُعز الممالك بأكمل ذوي
النفاذ والاستبصار ؛ وجاعل الولد الباز لوالده رُحماً وسنداً ، والنجل المختار لناجيه
تجدة ومددا ؛ مرتب الممالك على أفضل نظامها ، ومرقى الدول إلى المؤثر من إجلالها
وإعظامها : ليتضح للتأملين فضل تأكيد الأواصر ، ويستبين للناظرين فصل تباين
العناصر ؛ إبراماً منه - جل وعز - لأسباب الحكمة ، وتوسيعاً لسبيل الحنان
والرحمة ؛ وشمولاً لما يتتابع به إحسانه من المن الجسيم (فضلاً من الله ونعمة
وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ) .

والحمد لله معلى الدرجات ورافعها، ومفيد الأمم ونافعها؛ ومزيل البأساء ودافعها،
 ومجيب الدعوات وسامعها، ومضاعف المصالح وجامعها؛ الذى وقف على الدولة
 العلوية أحسن السير، وخصها فيمن تُوثر أصفاءه بمساعدة القدر، ويسر لها رائق
 التدبير بعد ملائسة الرنق والكدر؛ وأدخر لها من الأصفياء من تُشرق الدنيا بأنواره،
 وتزين الدهور بحاسن آثاره؛ وتسمو المفانح بمفانحه، ويتوالى الثناء على ما ابتكره
 من المكارم فى أول نشئه وآخره؛ ويتتابع الإحساد لمن يختاره ويحببته، وتتضاءل
 أقدار الملوك إذا ذكر فضله وفضل أبيه؛ وتسكنُ النفوس إلى تمام ورعه ودينه،
 ويتطق لسان الإجماع بصحة معتقده ويقينه .

والحمد لله الذى سَمِلَ البرايا فضله، وعم الخلائق عدله؛ وأقرت العقول بأن إليه
 يرجع الأمر كله .

يحمده أمير المؤمنين على نعمه الظاهرة التى أحظت دولته الظاهرة، بمؤازرة البيت
 الجليل الشاورى، وأيدت مملكته القاهرة، بحاماته عن حوزتها بالعصب المرهف
 والسّمهرى؛ ويشكره على مننه التى استخلصت له منه أنصارا يرهفون فى طاعته
 العزائم، ويحرقون فى إرادته العظام، فيدبّون عن حوزته ولا يخافون فى ذات الله
 لومة لائم؛ ويسأله أن يصلى على جدّه مجد الداعي إلى الهدى، والمبعوث إلى الخلائق
 وهم إذ ذاك سدى؛ والمناضل فى نصرة الإسلام بالأسرة والآل، والمطرح
 عاجل الدنيا الفانية لأجل المال؛ وعلى أبيه أمير المؤمنين على بن ابي طالب الذى
 اقام من دين الله منكر الأود، وقام لنبى الله مقام النجل المرتضى والوَلد؛ وقطّ من
 طواغيت الكفر شايخ الحام، وأوضح غامض التنزيل بما أفرده الله به من مزايا

الإلهام؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتَيْهِمَا أبناءِ الرِّسَالَةِ والإمامة، والمختصِّين بِإِثْرِ بَيْتِهِ الْحُبُوبِ
بِتَظْلِيلِ الْعَمَامَةِ، والقائمين بِنُصْرَةِ الدِّينِ، والمتفردين بِإِمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ .

وإنَّ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَا أَقَامَهُ اللهُ لَهُ مِنْ تَمَكِينِ قَوَاعِدِ الدِّينِ، وَأَخْتَارَهُ لِإِيضَاحِهِ
مِنْ إِرْشَادِ فِرْقِ الْمُسْلِمِينَ؛ وَأَفْضَى بِهِ إِلَيْهِ مِنْ سِرِّ الإِمَامَةِ الْمُكُونِ، وَأَلْقَاهُ إِلَيْهِ مِنْ
خَفَايَا الإِلْهَامِ الَّذِي تُسْتَبْطِ مِنْ أَنْوَارِهَا عَلَّةٌ مَا كَانَ وَيَكُونُ؛ وَأَمَدَهُ [بِهِ] مِنْ التَّيْأِيدِ
الَّذِي يَسْتَأْصِلُ طَوَاعِيتِ النَّفَاقِ بِقَوَارِعِ الْمَهَالِكِ، وَيَسْلُكُ بِمَرْدَةِ أَهْلِ الْعِنَادِ أَوْعَرَ
السُّبُلِ وَالْمَسَالِكِ؛ وَأُنْجِدَهُ فِي كُلِّ الْحَالَاتِ بِالْأَطْفَافِ الْخَفِيَّةِ الَّتِي تُتَكَفَّلُ بِإِعْلَافِ
كَلِمَتِهِ، وَتَنْتَضِمْنَ نَصْرَ أَعْلَامِهِ وَذُرَّ دَعْوَتِهِ؛ وَأَتَاهُ جَوَامِعَ الْمَعَارِفِ وَالْحِكْمِ، وَفَرْضَ
طَاعَتِهِ عَلَى مَنْ دَانَ بِالتَّوْحِيدِ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَمِ؛ وَأَلْزَمَ مَقَاصِدَهُ وَأَنْجَاءَهُ التَّوْفِيقِ،
وَأَوْجَبَ لَهَا السَّعَادَةَ فِي كُلِّ جَلِيلٍ وَدَقِيقٍ - يَفُوضُ أَمْرَهُ إِلَى الْخَالِقِ، وَيُفِيضُ
جُودَهُ وَرِيَّهُ فِي الْخَلَائِقِ؛ فَلَا يَزَالُ لِأَحْوَالِ دَوْلَتِهِ مُرَاقِبًا، وَلَا يَنْفَكُ يُفِيدُ كُلَّ
مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا نَظْرًا نَاقِبًا؛ فَإِذَا لَاحَظَ لَهُ لِأَمْحَةِ صَلاَحٍ، أَوْ بَدَتْ لِنَظَرِهِ مَحِيلَةٌ تُجَاحِ،
أَجْتَهَدَ فِي تَوْسِيعِ مَجَالِهَا، وَحَرَّضَ عَلَى حَمِّهَا وَقَصَدَ إِعْجَالِهَا؛ وَأَتَمَسَ لِلدَّوْلَةِ آجِتِلَابَهَا،
وَفَتَحَ إِلَى آسْتِدْعَاءِ النَّفْعِ بَابَهَا: لِيَنْمِيَ الْخَيْرُ الْعَمِيمُ، فِي دَوْلَتِهِ، وَيَتَضَاعَفَ النَّفْعُ
الْجَسِيمُ، لِرَعِيَّتِهِ؛ وَتَكُونَ كَافَّةً الْخَلْقِ فِيهَا بِالْأَمْنَةِ وَالسُّكُونِ مَغْمُورِينَ، وَبِحُسْنِ
صَنِيعِ اللهِ بِهِمْ فَرِحِينَ مُسْرُورِينَ .

وَمَا تَصَفَّحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحْوَالَ دَوْلَتِهِ، وَتَأَمَّلَهَا تَأَمَّلًا مِنْ يُؤْثِرُ أَنْ يَفْقَهُ النِّفْحَ
فِي كُلِّ مَهْمٍ عَلَى حَقِيقَتِهِ، رَأَى أَنَّ اللهُ جَلَّ وَعَلَا قَدْ مَنَحَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ خَالِصَتِهِ
وَصِفِيَّتِهِ، وَوَزِيرَهُ وَكَافِيَهُ وَوَلِيَّهُ؛ السَّيِّدَ الْأَجَلَّ (بِالنُّعُوتِ وَالِدَعَاءِ) الَّذِي قَامَ بِنُصْرَتِهِ،
وَكَفَّلَ أَهْوَالَ الْحُرُوبِ بِنَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأُسْرَتِهِ؛ وَحَالَفَ التَّغْرِبَ وَالْأَسْفَارَ،

واستبدل من لين العيش بملافة السهام واللاهزم والشفار؛ واتخذ ظهور الجياد عوضاً من الحشايا، ومنازلة الأبطال دأباً في الحنادس والبكر والعشايا؛ وآثر على لبس الغصص الموق الجديد، لباس اليب ولألمات الحديد؛ ولازم في ذات الله قرع أبواب الختوف، والتهمج على كل مخشي مخوف؛ حتى ذل الأعداء، وقمع الاعتداء، وحسم الأدواء، وأزم الدهر بعد خطئه الاستهواء؛ وأفاد دولة أمير المؤمنين باجتاده عزاً، وأذخر لها عند الله من الأجر والثوبة كنزاً؛ وسير عنها في الآفاق أحسن الأحاديث، وبين فضلها على غيرها في القديم من الدهر والحديث؛ وأخلص لأمر المؤمنين في الطاعة حتى استخدم الموالى الموافق، والمباین المنافق؛ وكل فضائله التي لا تحصى، ومحاسنه التي لا تحصى ولا تعد؛ بفضيلة ثبوت الفضائل، ومقابلة تفوق بفضائل المناقب الجلائل؛ وهي ما وجهه الله [له] من بقوة الأجل فلان الذي لم يزل للدولة عزاً حاضراً، وولياً ناصراً؛ وعوناً قاهراً، ومجداً ظاهراً؛ وجملاً باهراً. وما برح الله - جلّ وعلا - مراقباً، وليرضاه وغفرانه طالباً؛ قد جمع إلى كمال الدين وصحة اليقين، المخالصة في طاعة أمير المؤمنين؛ لا يفتر منذ مدة الطفولية [عن] درس القرآن، ولا يبارى بغير الأمور الدينية مجباء الأقران؛ إن تصفحت محاسنه الدنيوية عد ملكاً مهذباً، وإن تأملت مناقبه الدينية حسب ملكاً مقرباً؛ وكم له من منقبة تستنقص الغيوث، وشجاعة تستجيب اللبوث؛ ومهابة ترد أحاديثها الجيوش على الأعقاب، وتغريها بموالاة الحذر والأرتقاب؛ إذا أسهبت الخطوب أوجرت تدبيره، وإذا استطالت الحوادث قصر طولها فأعجب تقريره؛ فالدولة العلوية من ذبّه في الحرم الآمن، والخلافة العاضدية من ملاحظاته في تدبيره يجمع أشنات الميآمن؛ فأجتمع المآثر قد وحده، بشهادة الإجماع، وتوآلى المحامد قد أفردته، بما شاع منه في الممالك وذاع؛ تتحاسد عليه غر الأخلاق، وتنافس فيه المكارم منافسة

ذوات الإشراق؛ فلا تُوجد خَلَّةٌ فضليّ بارعٍ إلا وقد جمَّعها، ولا مِكنةٌ جبر قارعٍ إلا وهو الذي مهَّد مَحَجَّتْها ووسَّعها؛ ومقاماته في الجهاد والحلاد مقاماتٌ أوضحت الحقائق للأفهام، وثبتت الدقائق تثبتنا يبقوا على غير الأيام؛ وأعزّت دعوة الدولة العلوية وأيدتها، ونصرت أعلامها ونشرتها؛ وأكسفت بالفضل والإحسان رجالها، وأزلت بالحِدِّ والتشمير أوجالها؛ ومحت آثار عُداتها بالسُّيوف، وألقتهم عن النكايات المَحجفة بوزع المنايا والختوف.

والحروب قَرِباة في مَهودها، ومَنشاه بين أسودها، ورُعائها وقْفٌ على إضرارها وإخماد وقودها؛ فإذا تورَّدها تورَّدها باسمًا متهللاً، وإذا اقتحم مضائقها تصرف فيها متوقفاً متهللاً؛ لا يخفى بأهوالها، ولا يرى لقارعة من عظام قوارعها وإلها؛ وحسبك فتكاته في طُغاة الكُفَّار، وقصد أولياء الدولة بالإظهار: فإن الكُفَّار حين نهَّدوا للنفاق، واجتلبوا أشباههم من بعيد الآفاق؛ وتجمَّعوا على الأعمال بخاهم بعزمة من عزماته أقامت راية الدين، وجعلتهم حصيداً خامدين؛ وأفنت منهم الصناديد، وأصطلمتهم ببلايا تريد على التعديد؛ واجتحتهم بالقتل والأسر والتفريق، ورمتهم بدواه لا يقدر بشرى على دفاعها ولا يطيق؛ ولما ألتجأ طاغية الكُفَر إلى الحيرة وركد، ورام الاعتصام بعروتها واجتهد، واعتز بما معه من الجمع وكثرة العدد؛ نهَّد إليه في الأبطال الأتجاد، ونهض نحوه ثابتاً للقرع والحلاد؛ فأزاله عن مجتمه، ودعره دُعراً شرده عن معلمه؛ ورماه بالحراك بعد السكون، والتعب الذي قدر باعتباره أن مثله لا يكون؛ ولم له فتكة في أهل العمود ذللت جماعهم، وأستلبت أرواحهم، وأعادت ليلاً بالنقع صباحهم.

وعند تَمَادِي عَتَاةِ الكُفَّارِ فِي الإِصْرَارِ، وَجَوَسِهِمْ خِلَالَ الدِّيَارِ؛ وَفَقْهِهِمْ فِي وُجُوهِ الأَذَى وَالإِضْرَارِ، وَطَمَعِهِمْ فِي أَجْتِيَاكِ أَهْلِ الأَعْمَالِ وَالْأَقْطَارِ - عَوَّلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَسْتِنْصَالِهِمْ عَلَى عَزْمِهِ، وَأَعْتَصَدَ بِذَبِّهِ وَحَسْمِهِ؛ وَجَعَلَ إِلَيْهِ التَّدِيرَ بِالقَاهِرَةِ المَحْرُوسَةِ الَّتِي هِيَ عُمْدَةُ الإِيمَانِ وَالإِسْلَامِ، وَدَارُ هِجْرَةِ الإِمَامِ، وَمَعْقِلُ الخِلَافَةِ مُنْذُ غَابِرِ الأَيَّامِ؛ وَأَطْلَقَ يَدَهُ فِي رَبِّ جَمِيعِ الأَعْمَالِ، وَتَأَمَّنَ بِهَا مِنْ بَوَاقِي الأَوْجَالِ؛ وَفَبَتَّ بِالحِضْرَةِ وَبِالأَعْمَالِ مِنْ مَهَابَتِهِ مَاشَرَتِ الأَوْجَارِ، وَسَهَّلَ الأُمُصَارَ، وَمَحَقَّ الضُّلَّالَ، وَأَذَاقَهُمُ النِّكَالَ؛ فَعَمَّ السُّكُونُ وَالآمَنَةُ، وَأَسْتَوَلَتْ عَلَى الأَعْمَالِ السِّيَاسَةُ المُسْتَحْسَنَةُ؛ بِخِدَاتِ بَنْصُرَةِ الأَيَّامِ وَصَلَاحِ الوُجُودِ، وَأَعْتَبَطُوا مِنْ تَدْيِيرِهِ بَصُوعُودَ الجُدُودِ، وَرَتَّعُوا مِنْ عِنَابَتِهِ فِي عَيْشِ يُضَاهِي عَيْشَ جِنَانِ الخُلُودِ؛ فَالْبَلَاغَاتُ بِأَسْرَافِهَا لَانْقُومَ بِمَدْحِ مَا أُوتِيَ مِنَ الفَضَائِلِ، وَلَا يُوَازِي مَجْمُوعَهَا مَنَقِبَةٌ مِنَ مَنَاقِبِهِ الَّتِي أَرَبَى بِهَا عَلَى المُلُوكِ الأَوَاخِرِ وَالْأَوَائِلِ؛ وَالْخِصَائِصُ المُلُوكِيَّةُ بِجَمَلَتِهَا فِيهِ جِبِلَّةٌ وَفِطْرَةٌ، وَإِذَا قِيَسَتْ نَادِرَةٌ مِنْ نَوَادِرِ فَضْلِهِ بِمَا تَفَرَّقَ فِي جَمِيعِ المُلُوكِ كَانَتْ فَضَائِلُهُ بِمِثْرَةِ البَحْرِ وَمَجْمُوعُ فَضَائِلِ المُلُوكِ بِمِثْرَةِ القَطْرَةِ؛ وَقَدِ طَرَزَ فَضَائِلَهُ البَدِيعَةَ، وَخِلَالَ السَّامِيَةِ الرَّفِيعَةَ، مِنْ مُوَالَاةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنَاصِحَةِ دَوْلَتِهِ بِمَا تَكْفُلُ بِسَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَنِهَايَاتِ مَغَانِمِ الثَّوَابِ الشَّرِيفَةِ الفَاحِرَةِ؛ فَلَيْلَهُ وَنَهَارُهُ مَضْرُوفَانِ إِلَى المِجَاهِدَةِ عَنْ دَوْلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي هِيَ دَوْلَةُ التَّوْحِيدِ، وَالْمُخْلِصِ فِيهَا مُعْرَضٌ لِكُلِّ مَقَامٍ سَعِيدٍ؛ فَحَاسِنُهُ تَرْتِفِعُ عَنْ قَدْرِ التَّقْرِيطِ وَالْمَدِيحِ، وَلَا تُقَابِلُ إِلَّا بِمُوَالَاةِ التَّسْبِيحِ .

وَمَا أَحْمَدُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَثْرَهُمَا فِي خِدْمَتِهِ، وَشَكَرَ قَصْدَهُمَا فِي دَوْلَتِهِ؛ وَكَانَ السَّيِّدُ الأَجْلُّ قَدْ بَلَغَ إِزْبَهُ فِي الخِلَالِ، وَحَلَّ المَحَلَّ الَّذِي لَاتَتَعَاطَاهُ جَوَاحِجُ الأَمَالِ؛ وَقَدْرُهُ يَشْرَفُ عَنْ كُلِّ تَكْرِيمٍ، وَمَوْضِعُهُ يَمْتِيزُ عَنْ كُلِّ مَنْ جَسِيمٍ، وَمِثْرَتُهُ تَسْمُوعُ عَنْ كُلِّ تَعْظِيمٍ - فَأَوْصَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ السَّيِّدَ الأَجْلُّ أَنْ يُقَرَّرَ لَهُ جَمِيعُ خِدْمَتِهِ، وَيُسْبَغَ عَلَيْهِ

فِي الْمَسْتَأْنَفِ أَضْفَى نَعْمَهُ : فَإِنْ مَحَلَّهُ يَرْتَفِعُ عَنْ مَحَلِّ الْخِلْمِ الْجَلِيلِ ، وَيَسْمُو عَنْ كُلِّ
 تَصَرَّفٍ يَسْمُهُ فِي الدَّوْلَةِ بِسِمَةِ جَمِيلِهِ ؛ وَرَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّيِّدَ الْأَجَلَ أَنْ يُعْلَنَ
 بِإِسْنَادِ النِّيَابَةِ عَنِ وَالِدِهِ فِي أُمُورِ الْمَمْلَكَةِ إِلَيْهِ ، وَيُشْهَرَنَّ ذَلِكَ مَعُولٌ فِيهِ عَلَيْهِ :
 لِيُخَفَّفَ عَنِ السَّيِّدِ الْأَجَلَ أَمِيرَ الْجِيُوشِ أَمْرَ أَثْقَالِهَا ، وَيَتَحَمَّلَ عَنْهُ تَكْلِيفَهُ بَعْضَ
 أَحْوَالِهَا ؛ تَرْفِيهَاً لِلسَّيِّدِ الْأَجَلَ عَنِ التَّعَبِ ، وَتَخْفِيفًا مِنْ كَثْرَةِ النَّصَبِ ؛ عَلَى أَنْ عُلُوُّ
 قَدْرِهِ الْأَجَلَ لَمْ يُجْلِهِ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ مِنْ مِشَارَكَةٍ فِي التَّدِيرِ ، وَلَا صَدَّهُ عَنِ
 مِمَّا جَرَتْ فِيهِ مِهْمٌ كَبِيرٌ ؛ بَلْ مَا بَرِحَتْ يَدُهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِ الدَّوْلَةِ جَائِلًا ، وَجَلَالَةً مُنْصَبِهِ
 تَقْضَى بِأَنْ تَكُونَ تَصَرِّفَاتُهُ لِجَمِيعِ الْأُمُورِ شَامِلَةً ؛ وَتَوْقِيعَاتُهُ مَاضِيَةً فِي الْأُمُورِ
 وَالرِّجَالِ ، وَالْجِهَاتِ وَالْأَعْمَالِ ؛ وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَالسَّيِّدِ الْأَجَلَ يَسْتَسْعِدَانِ بِأَدَاتِهِ ،
 وَيَتَّبِعَانِ فِي كُلِّ السِّيَاسَاتِ مَا هُوَ مُوَافِقٌ لِإِرَادَاتِهِ : لَمَّا خَصَّهُ اللَّهُ [بِهِ] مِنَ الْمَرَامِيِّ
 الصَّائِبِ ، وَلِلْمَقَاصِدِ الَّتِي السَّعَادَةُ عَلَى مَا يَرِدُ مِنْهَا مُوَاطِبُهُ ، وَجَبَلَهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحَافِظَةِ
 عَلَى حُسْنِ الْمَرْجِعِ وَحَمِيدِ الْعَاقِبَةِ - نَخْرَجَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى السَّيِّدِ الْأَجَلَ بِالْإِعْازِ
 إِلَى دِيْوَانِ الْإِنشَاءِ بَكَّتَبَ هَذَا السَّجَلِ لَكَ : فَتَقَلَّدَ مَا قُلَّدْتَهُ مِنَ النِّيَابَةِ عَنِ وَالِدِكَ
 فِيمَا إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِ مَمْلَكَتِهِ ، وَأَحْوَالِ دَوْلَتِهِ ؛ مَعْتَمِدًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي بِهَا نَجَاةُ أَهْلِ
 الْيَقِينِ ، وَفَوْزُ سَعْدَاءِ الْمُتَّقِينَ ؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
 وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ . وَاحْتَمَلَ عَنِ السَّيِّدِ الْأَجَلَ وَالِدِكَ مَا يُؤَثِّرُ أَنْ تَحْمَلَهُ عَنْهُ مِنَ
 الْأَثْقَالِ ، وَتَكْفُلَ مَا يَكْفُلُكَ إِيَّاهُ مِنَ الْأَشْغَالِ ؛ وَتَقْذَ مَا يَخْتَارُ أَنْ تُنْفِذَهُ ، وَأَنْجِزَ مَا يُؤَثِّرُ
 أَنْ تُنْجِزَهُ ؛ وَأَمْضِ مَا يُسِيرُ إِلَيْكَ بِإِمضَائِهِ مِنْ أَسَالِبِ التَّوْقِيعَاتِ ، وَفُنُونِ
 الْمُهَيَّمَاتِ ؛ وَقُمْ فِي كُلِّ مِنْ أُمُورِ نِيَابَتِكَ الْمَقَامَ الَّذِي يُرِضِيهِ ، وَيُوجِبُهُ بَرُكٌ وَيَقْتَضِيهِ ؛

(١) فِي الْأَصْلِ «إِلَى إِمضَائِهِ» وَلَا يَخْفَى ضَعْفُهُ أَوْ بَطْلَانُهُ .

وقد جعلك الله ميمونَ القِيَّيْبِ ، مسعودَ الضَّرِيْبِ ، مُكَمَّلَ الأَدَوَاتِ ، مَوْهَلًا لترقى
الغَايَاتِ ؛ لا تُكَبِّرَ عن مَبَاشِرَتِكَ كَبِيرِهِ ، ولا تَسْتَفِ ^(١) عن رُتْبَتِكَ رَتْبَةً خَطِيرَهُ ؛ وَأَجْرُ
على عَادَةٍ والدك في حَسَنِ السِّيَاسَةِ والتدبيرِ ، والإجَالِ للأولياءِ لَكَمَا في كل صَغِيرٍ
من الأُمُورِ وكَبِيرٍ .

والوصاياَ مَسْتَعَةً الفنونِ ، كَثِيرَةً الشُّجُونِ ؛ ولك من مَرِيَّةِ الكَمَالِ ، وَفَضِيلَةِ
الْجَلَالِ ، ومُسَاعَدَةِ الإِقْبَالِ ، وَالخُبْرَةَ بِالْجِهَاتِ والأَعْمَالِ ، وَطَوَائِفِ الأولياءِ والرَّجَالِ ؛
مَأْيَعِيْنُكَ على أَسْتِنْبَاطِ دَقَائِقِهَا ، والعملِ بِمَحَاقِقِهَا ، وَسُلُوكِ أَحْسَنِ طَرَائِقِهَا .

هذا عهدُ أميرِ المؤمنينِ إليك ، وَحُجَّتُهُ عَلَيْكَ ؛ فَاعْمَلْ بِأَحْكَامِهِ ، وَأَجْرُ أُمُورِكَ على
نِظَامِهِ ؛ وَبِالْبَغْ أَيْهَا السَّيِّدُ الأَجَلُ أميرُ الجيوشِ في شُكْرِ نِعْمَةِ اللهِ الَّتِي أَهْمَمْتَ المُلُوكَ
إِشَاعَةَ فَضْلِكَ ، وَرَبَّتْ السُّعُودَ على أَكْتِنَافِ عَقْدِكَ وَحَلَّكَ ، وَمَنْحَتِكَ آيَةَ كَلِمِ اللهِ
بِجَعَلْتِ لَكَ وَزِيرًا مِنْ أَهْلِكَ ؛ فَاعْلَمْ هَذَا وَاعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ
وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .



وعلى ذلك كتب بعضُ كُتَّابِهِمْ عن العاضدِ ، لُرُزَيْكَ بنِ الصَّالِحِ طَلَانِعِ بنِ رُزَيْكَ ،
بِوَالِيَةِ المِظَالِمِ وَتَقْدِيمَةِ العَسْكَرِ في وَزَارَةِ أَيْبِهِ ، وَهَذِهِ نَسَخَتُهُ :

من عبد الله وولِيَهُ فُلَانٍ أْبِي فُلَانِ الإِمَامِ الفُلَانِي (بَلَقِبَ الخِلاَفَةَ) أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ،
إِلَى فُلَانٍ (بَلَقِبَهُ وَكُنِيَّتُهُ) .

سَلَامٌ عَلَيْكَ ، فَإِنَّ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ يَحْمَدُ إِلَيْكَ اللهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ
يُصَلِّيَ على جَدِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَسَيِّدِ المُرْسَلِينَ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وعلى آلِهِ الطَّاهِرِينَ ، الأئِمَّةِ المَهْدِيِّينَ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

(١) في القاموس "شف يشف شفا زاد ونقص" .

أما بعد، فالحمد لله الغامر بالطول والفضل، الأمر بالإحسان والعدل؛ مؤسع سبيل الصلاح لبريته، ومسبب أسباب النجاح لدينه الحنيف ومثله؛ وجاعل أبرار أوليائه ذخائر معدة لنفع الخلق، ومصطفى سعداء أحبائه لإعلاء منار الشرع وإقامة قسطاس الحق؛ وميسرهم للنهوض بالأعباء التي تتكفل بعصده الدولة العلوية وتقوم، ومحتبهم للفصل بمرضاته فيما يقضى بإغاثة الملهوف وإنصاف المظلوم؛ الذي تنقاد بمشيئته الأمور، وتتصرف بإرادته الدهور، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ ويعتدو فضله على عباده جسيما، و﴿ لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما ﴾ .

والحمد لله الذي أوضح بانيائه سبيل الهدى للأنام، وأتقد بإرشادهم من عبادة الأوثان والأصنام؛ وأقام باجتهدهم أحكام ما شرعه من الملل والأديان، وأذهب بأنوارهم ماعمر الأمم من غياهب الظلم والعدوان؛ وقفى على آثارهم بمن لانبوة بعد نبوته، ولا حجة أقطع من حجته؛ ولا وصلة أفضل من وصلة ذنرها لأمته، ولا ذرية أقوم بحق الله في حفظ نظام الإيمان من عثرته وذريته .

يحمده أمير المؤمنين على أن مكن له في الأرض، وذخر شفاعته لذوي الولاء في يوم النشور والعرض؛ وأورثه خصائص من مضى من أئمة الهدى آبائه، وأفرده بمعجز التأييد الذي أضاعت الآفاق بمشرق أنبائه؛ ويشكره على أن أئمة دولته بكفيل جدد جلبابها، وظهير أحكم أسبابها، ونصير بلغ بها في الولي والعدو مطالبها وآرابها؛ وأستنجب له من نجله خيلا يتلوه في الفضائل البارعة، وناصرًا يحاول في الذب عن حوزته عزمًا أمضى من السيوف القاطعة؛ وعصدا يقوم له بإرضاء الخالق والمخلوق، ومُسعدًا لا يألو جهدًا في إيصال المستحقين إلى ما جعله الله لهم

من الحُقوق . ويسأله أن يصليَّ على جدِّه مجدِّ سيد من بَلَغَ عن الله رسالةً وأمرًا ، وأفضَلَ من دَعَا إلى توحيدِ بارئِهِ سِرًّا وجَهْرًا ؛ وأكْبَلَ مَنْ جَاهَدَ عن دينِهِ حتَّى ظَهَرَتْ بعدَ الدُّروسِ جِدَّتُهُ ، وقَهَرَتْ إِثْرَ الخُضُوعِ عِزَّتُهُ ، وآنَتْشَرَتْ في المِشَارِقِ والمَغَارِبِ كَلِمَتُهُ ودَعْوَتُهُ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ أَبِينَا عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَسِيمِهِ فِي الشَّرَفِ وَالْأَبْوَةِ ، وَصِدِّيقِهِ الأَكْبَرِ فِيمَا جَاءَ بِهِ مِنَ التَّبَوُّهِ ؛ وَالمَكْمَلِ بالنِّصِّ عَلِيٍّ إِمَامَتِهِ الدِّينِ ، وَخَامِسِ الخَمْسَةِ الذِّينِ سَادِسُهُمُ الرُّوحِ الأَمِينِ ؛ وَأَبِي الأُئْمَةِ الأَبْرَارِ ، وَالهَازِمِ بِمُفْرَدِهِ كُلِّ جَيْشِ جَرَّارٍ ؛ وَعَلِيٍّ الأُئْمَةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا أَعْلَامِ مَحَجَّةِ الهُدَى ، وَأَنْوَارِ سُبُلِ الإِيمَانِ الَّتِي بَأَنْوَارِهَا يُسْتَبْصَرُ وَيُقْتَدَى ؛ وَأَدَلَّةِ مَنَاجِجِ النِّجَاهِ ، وَكَاشِفِي عُجْمِ الشُّكِّ إِذَا الظُّلْمُ دَجَا ؛ وَسَلِّمْ وَمَجِّدْ ، وَتَابِعْ وَرَدِّدْ .

وإنَّ أميرَ المُؤْمِنِينَ لِمَا أَصْطَفَاهُ اللهُ لَهُ مِنْ إِثْرِ سِرِّ الإِمَامَةِ المَصُونِ المَكُونِ ، وَحَقِّ بَيَانِهِ العَظِيمِ الذِّي بَالْخُشُوعِ لِحَالِهِ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ ؛ وَأَخْتَارَهُ [لَهُ] مِنْ نَشْرِ لَوَاءِ الحَقِّ وَنَضْرِهِ ، وَتَأْكِيدِ أَحْكَامِ الإِنصَافِ لِيَحْظِيَ بِعِبَادَتِهَا كَافَّةً أَهْلَ زَمَنِهِ وَعَصْرِهِ ؛ وَأَلْبَسَهُ إِيَّاهُ مِنْ تَاجِ خِلَافَتِهِ الذِّي أَشْرَقَ لِبِصَائِرِ العَارِفِينَ نُورُهُ السَّاطِعِ ، وَتَجَلَّى لِأَفْهَامِ المُوقِنِينَ بِرُهَانِهِ الصَّادِعِ وَدَلِيلِهِ القَاطِعِ ؛ وَأَوْدَعَهُ مِنْ خَفَايَا الحَكْمِ الَّتِي عُدَّ بِسَلْسِيلِهَا ، وَبَلَغَ إِلَى النِّعَمِ الخَالِدِ دَلِيلُهَا وَسَيْلُهَا ؛ وَكَلَّمَهُ لِأَيَّامِهِ مِنَ الإِقْبَالِ الذِّي جَعَلَهَا مَوَاسِمَ زَاهِيَةً بِهَجَّةِ النِّصْرِ المَبِينِ ، وَأَعْيَادَ ظَفَرِ تَرَوْقِ بَتَوَالِي إِبَادَةِ العَادِلِينَ عَنِ الطَّاعَةِ النَّآكِبِينَ ؛ وَأَوْقَاتًا سَعِيدَةً تُفِيدُ الدِّينَ وَأَوْلِيَآءَهُ عِزًّا وَأَعْتِلَاءً ، وَتُوجِبُ لِلإِيمَانِ وَأَنْصَارِهِ أَقْدَارًا وَأَسْتِيْلَاءً ، وَتُسَبِّغُ عَلَيْهِمْ كَيْفَمَا تَصَرَّفَتْ بِهِمُ الأَحْوَالُ مِنتًا ضَافِيَةً وَأَلَاءً ؛ وَيَسِّرُهُ لِعَالَمِهِ مِنَ الإِحَاطَةِ بِكُلِّ مُغَيَّبٍ مُسْتُورٍ ، وَأُوجِبُهُ لِأَعْرَاضِهِ فِي كُلِّ مَایرُومِهِ مِنْ مَظَاهِرَةِ المَقْدُورِ ؛ وَمَهْدَهُ لِحُلُولِهِ مِنْ أَشْمَخِ مَنَازِلِ التَّطْهِيرِ وَالتَّقْدِيسِ ، وَشَرَفَهُ بِهِ شَيْمِهِ مِنْ كُلِّ حُلُقِ نَبَوِيٍّ بَارِعٍ نَفِيسٍ ؛ وَفَضَّلَهُ بِهِ مِنَ الكَرَمِ الذِّي لِاتِّزَالِ

مَحْبَبُهُ تَجُودُ الْأُمَمِ سَرَفًا، وَلَا تَتَفَكَّرُ غِيُوثُهُ تُجِدُّ لِمَنْ مُطِرَ بِهِ عَلَاءٌ وَسَرَفًا؛ وَلَا بَرِحَ وَابِلُهُ
 يَمُحُّ بِالنَّعْمِ الْغَرِّ الْحَسَامِ، وَلَا تَكْفُفُ سَيُوبُهُ عَنِ إِفَاضَةِ الْمَنَنِ الَّتِي عَلَتْ وَعَلَتْ فَلَا
 تُسَامِحُ وَلَا تُسَامِ؛ وَخُصَّ بِهِ إِحْسَانُهُ مِنَ الْمُنَابَرَةِ عَلَى إِعْظَامِ الْمَنَاحِ لِلْمُسْتَوْجِبِينَ،
 وَالْحَفَظَةِ عَلَى إِجْزَالِ الْمَوَاهِبِ لِلزُّدَلِغِينَ إِلَيْهِ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ الْمُتَقَرِّبِينَ - يُجْهَدُ آرَاءَهُ
 فِي آرْتِيَادِ مَنْ تَضَاعَفُ لِلْبَرِيَّةِ بِالْأَسْتِعَانَةِ بِكَالِهِ أَسْبَابُ الْمَصَالِحِ، وَتَتَأَكَّدُ لِلْأُمَّةِ
 بِالْعَوِيلِ عَلَى بَارِعِ فَضْلِهِ أَحْكَامُ النَّجْحِ وَالْمَنَاجِحِ؛ وَتَقُومُ الْحِجَّةُ عِنْدَ اللَّهِ بِالْإِعْتِضَادِ
 بِهِ فِيمَا يَقْضَى بِنَفْعِ [العباد]، وَيَسْهَلُ الْإِعْتِدَادُ عَلَى دِيَانَتِهِ بِالنُّصْحِ لِمَنْ فِي الْحَاضِرِ مِنْ بَرِيَّتِهِ
 وَالْبَادِ؛ وَيَنْطِقُ شَرْفُ خَلِيقَتِهِ بِتَوْفَرِهِ عَلَى إِحْرَازِ مَغَانِمِ الْبِرِّ وَالتَّقْوَى، وَتُعْرَبُ طَرَائِقُهُ
 عَنِ السَّعْيِ الَّذِي لَا يَقِفُ فِي مَرْضَاةِ رَبِّهِ دُونَ بُلُوغِ الْغَايَةِ الْقُصْوَى؛ وَتَدُلُّ أَحْوَالُهُ
 عَلَى رِعَايَةِ حُقُوقِ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي كُلِّ مَا يَفْعَلُ وَيَقُولُ، وَتُوضِّحُ أَخْبَارُهُ حُسْنَ تَأْتِيهِ
 فِي مَصَالِحِ الْأُمَمِ لِمَا يَعْجِزُ عَنْ أَسْتِنْبَاطِهِ رَوَاجِحُ الْعُقُولِ؛ وَيَقْتَدِحُ نَظَرُهُ أَنْوَارًا يُسْتَضَاءُ
 بِهَا فِي طُرُقِ السِّيَاسَاتِ الْفَاضِلَةِ، وَيَفْتَتِحُ فِكْرُهُ أَبْوَابًا تَضْحِي بِهَا الْخَلِيقَةُ إِلَى الْخَيْرَاتِ
 الْكَامِلَةِ وَاصِلِهِ؛ وَيَبْعَثُهُ حُسْنُ جَبَلَتِهِ عَلَى أَنْ يَحْتَقِرَ فِي إِعَانَةِ الْبَرَايَا، عِظَائِمَ الْمَشَاقِّ،
 وَيَدْعُوهُ كَرَمُ سَجِيَّتِهِ إِلَى أَنْ يَحْنُوَ عَلَى الرِّعَايَا، حُنُوًّا مَنْ يَتَوَخَّاهُمْ بِالرَّحْمَةِ وَالْإِشْفَاقِ؛
 وَيَقْوَى بِإِعَانَتِهِ الْمُسْتَضْعَفُ قُوَّةً تُحَصِّنُهُ مِنَ عَدَوِي الْأَهْتِضَامِ، وَيَعِزُّ بِمَلَاخِظَتِهِ
 الْمُسْتَدِلُّ عِزَّةً تُخْرِجُهُ عَنْ صُورَةِ الْمَقْهُورِ الْمُسْتَضْمَّ؛ وَيَقْتَنِي الْآثَارَ الصَّالِحِيَّةَ فِي عَدَلِ
 الطَّبَاعِ وَحُسْنِ السَّمِّ، وَيَتَّبِعُ السُّنَنَ الْغِيَاثِيَّةَ فِي الْإِحْسَانِ إِلَى جَمِيعِ الْأُمَمِ، وَيَقْصِدُ
 فِي اللَّطْفِ بِالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ قَصْدَهَا، وَيَنْتَجِي نَوَاجِمَ الْبَاطِلِ فَيَعْتَمِدُ أَجْتِنَاتِهَا
 وَحَصْدَهَا؛ وَيَكُونُ تَفْوِيضُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ تَوْثِقًا عِنْدَ خَالِقِهِ وَبَارِيهِ، وَأَحْتِيَاطًا
 لِنَفْسِهِ فِي أَسْتِنَادِ الْمَهْمَاتِ مِنْهُ إِلَى مَنْ لَا يُدَانِيهِ مُدَانٍ وَلَا يُبَارِيهِ؛ وَنَتِيسَنَ الدَّوْلَةَ
 الْعَلْوِيَّةَ بِمَبَاشَرَتِهِ لِلْأَحْوَالِ تَيْمَنًا يُؤَدِّنُ لَهَا بِإِدْرَاكِ كُلِّ مَطْلَبٍ بَعِيدٍ، وَتَسْتَسْعِدُ بِحُسْنِ

سيرته أستسعادا يَفْضِي لِلنَّاحِجِ بِتَمَكِينٍ تُبْدَى فِيهِ وَتُعِيدُ ، وَتَحْتَالُ الْأَيَّامُ بِمَا آجَلْتَهُ
 مِنْ جَوَاهِرِ مَفَاحِرِهِ ، وَتَرْدَانِ الْأَزْمَانِ بِمَا تَوَشَّحْتَهُ مِنْ مَنَاقِبِهِ الَّتِي حَقَّرَتْ الْمُلُوكَ
 فِي أَوَّلِ الدَّهْرِ وَآخِرِهِ .

وقد آكتنفتك أيها الأجلُ عناياتُ الله سبحانه وأشتمتُ عليك ، وبتابعتُ
 موادَّ أصطفائه وأجبتائه إليك ؛ وأناثتُك من كلِّ فضلِ بَارِعٍ ، غَايْتَهُ ، وَأظْهَرْتَ
 فِيكَ لِكُلِّ كَيْلٍ رَائِعٍ ، آيَتَهُ ؛ وَجَمَعْتَ لَكَ مِنْ مُعْجَزَاتِ الْحَاسِنِ مَا لَوْلَا مُشَاهَدَتُكَ
 لَوَجِبَ اسْتِحَالَةُ جَمْعِهِ ، وَأَلَانُكَ كُلِّ مُتَدَبِّرٍ صَدَرَ حَدِيثُهُ عَنْ صَدْرِ صَدْرِهِ أَوْ وُرُودِ
 سَمْعِهِ ؛ وَيَسَّرْتَ لَكَ تَمَامَ السَّعْدِ وَالْإِقْبَالِ ، التَّرَقِّيَّ إِلَى ذِرْوَةِ الْعُلَى الَّتِي يَهَابُ النَّجْمُ أَنْ
 تَمُرَّ مَلَا حَظَّتْهَا مِنْهُ بِيَالٍ ؛ وَتَأَقَّتْ الْحُظُوظُ فِي إِعْظَامِ مَا خَوَّلَتْكَ مِنَ الْفَضَائِلِ الْبَاهِرَةِ
 فَبَالَفَتْ وَتَنَاهَتْ ، وَأَغْرَقَتْ فِيهَا أَتْحَفَتِكَ بِهِ مِنَ الْحَاسِنِ النَّادِرَةِ فَشَرَفَتْ بِكَ
 وَتَبَاهَتْ ؛ حَتَّى غَدَا جَسِيمٌ مَأْقَدَمٌ شَرَحَهُ مِنَ الشَّاءِ وَذِكْرُهُ ، وَعَظِيمٌ مَأَوْجِبٌ مِنْهُ نَشْرُهُ
 فَتَضَوَّعَ أَرْجُهُ وَنَشْرُهُ ، نَغْبَةٌ مِنْ بَحَارِهَا الزَّانِحَةُ ، وَشُدْرَةٌ مِنْ عُقُودِهَا الْفَاحِرَةُ ؛ وَقَلِيلًا
 مِنْ كَثِيرِهَا الْجَسِيمِ ، وَضَيْلًا مِنْ جَزِيلِهَا الَّذِي آسْتَكَلَّ خِصَائِصَ التَّعْظِيمِ .

واستثمر فأنت الجامع لمفترق الفضائل المُلْكِيَّةِ ، وَالْفَارِعُ ذُرَى الْجَلَالِ الَّذِي
 أَفْرَدَتْكَ بِهِ الْمَوَاهِبُ الْمُلُوكِيَّةِ ؛ وَالْمُنْمُوحُ أَعْلَى رُتَبِ السِّيَادَةِ السَّارِيَةِ إِلَيْكَ مِنْ أَكْرَمِ
 الْأَصُولِ ، وَالْمُلْمُوحُ بَارْتِقَاءِ هِضَابِ الْمَجْدِ الَّتِي عَجَزَ مُلُوكُ الْآفَاقِ عَنْ [الْإْتِهَاءِ] إِلَيْهَا
 وَالْوُصُولِ ؛ وَالْأَوْحُدُ الَّذِي بَدَّ الْعِظَاءَ فَعَظُمَ خَطَرًا وَقَدْرًا ، وَالْأَرْوَعُ الَّذِي آتَقَادَتْ لَهُ
 الصَّعَابُ فَرَحَّبُ بَاعًا وَصَدْرًا ، وَالْعَالَمُ بِالْأُمُورِ الَّذِي أَصْبَحَ أَعْلَمَ مُلُوكِ الْأَرْضِ بِأَحْسَنِ
 التَّدْبِيرِ وَأَدْرَى ؛ وَالْمُدْكِيُّ بِأَنْوَارِ ذِكَايَتِهِ فِي عَاتِمِ النُّوبِ سِرَاجًا وَهَاجًا ، وَالْمَشْمَرِيُّ فِي ذَاتِ
 اللَّهِ فَلَا يُوجَدُ لَهُ عَلَى غَيْرِ مَا أَرْضَاهُ مَعَاجَا ، وَالْمَبْتَكِرُ مِنْ غَرَائِبِ السِّيَاسَاتِ مَا لَا تَرَالُ
 حِمَاسُهُ عَلَى مَفْرَقِ الزَّمَنِ تَاجَا ؛ وَالْمَجْدُ اللَّهْجُ بِتَمَجِيدِهِ كُلِّ مَقُولٍ وَلسَانٍ ، وَالْمُعْجَزُ

كل متعاطٍ وإن كان بليغاً بديع الإحسان ؛ والممنوحُ المُعْرِقُ في السيادة والملَكة ،
 والمبتدعُ المكارم أبكاراً تجلُّ عن أن يُشابهه أحدٌ فيها أو يُشركه ؛ فآياتُ مجدك
 ظاهرةٌ باهره ، وغرُّ خلائِكَ في اختراعِ المآثرِ وأفتراعها ماهِرَه ؛ وإليك إيماءُ
 السعادة وإشاراتها ، والدُّسوتُ باعتلائك منابها تُسأى السماء أرجاؤها ، ويتحقَّق
 في البحر الأعظم بتصدُّرك فيها رجاؤها ؛ فلا كمالٌ إلَّا ما أصبح إليك يُنسب ، ولا جلالٌ
 إلَّا ما يُعدُّ من خصائصك ويُحسب ؛ ولم تزل لربِّك خاضعاً ، ولشرفك متواضعاً ؛
 وأنوارُ الأُلَمِيَّة تُوضِّح لك من طُرُق الأمانة ما يعجز عن إدراكه قوَى التجريب ،
 وتُحكِّم لك من أحكام السياسة ما تقصُر عن أقلِّه فطنُ الحكماء الشَّيب ؛ وتُبدى لك
 أسرار الأزمنة المتطاولة في إقبال سنِّك ، وتُليِّن بتلطفاتِ صلابة الخطوب مع نصارة
 غُصنك ؛ وما برح ذكر أخبارِ صَوْلِكَ ، وحدث ما أعظمه الله من فُرُوسِيَّتِكَ
 وشجاعتِكَ ، يُوفِّر حلوم الأبطال في الملاحم إذا أطارها الدُّعْرُ فطاشت ، ويُسكِّن
 نفوس الأتجاد في الملاحم إذا أطارها الدُّعْرُ بفاشت ؛ ويُحدث للجناء جرأةً وإقداماً ،
 ويجعل الكهَّام في الحروب مُدَلِّقاً حُساماً ؛ نُفِيلاء الأعوجِيَّة زهو مما تُرَبِّيه من شرف
 أمتائك ، وصليلُ المشرفِيَّة ترنمٌ بمُطربِ قَصَصِكَ وأنبائك ؛ وأهتزازُ السُمهرِيَّة جدلٌ
 بما كَفَّلتها من إشادةِ علائِكَ ، وضمَّتتها من إبادةِ أعدائِكَ ؛ وليس بغريب أن تفضِّل
 الأملاك ، وتطأَ أخامِصك السَّمَاك ؛ وتختالَ في وُشَى الوصفِ البديع ، وتُشْرِقَ أسرةُ
 محاسنك فتُخجِلَ ضوءَ الصُّبحِ الصِّديع ؛ وقد أكرمك الله مع فضلِ الخليفة والنُّطره ،
 وِكِالِ الخِصائصِ التي غدا كلُّ منها في يدِيعِ المُعجِزاتِ نَدْره ، ببُتوةِ مُغيثِ الأنامِ ،
 ومُصلِحِ الأيامِ ؛ وكفيلِ أمير المؤمنين وكافيه ، ومُبرئِ مُلكه من أسقامِ الحوادثِ
 وشافيه ؛ السَّيِّدِ الأجلِّ المَلِكِ (وثمَّةُ النعوتِ والدعاء) الذي أنتضاه اللهُ لكشَفِ
 الغَمِّ ، وأرتضاه لتدبيرِ الأُمَمِ ، وفَضَّلَه على ملوكِ العَرَبِ والعَجَمِ ؛ وشَمَّخَ علاؤُه فَنطامَنَ

له كلُّ على ودان، وسمت مواطئُ أقدامه فتمنت منالها مواطئُ التيجان؛ وحاز بالمساعي
الفضل الباهر أجمع، وأستولى على بواهر الحِكم بالنظر الناقب والقلب الأصم^(١)؛ وأفرد
بكالٍ عزَّ أن تُدرِكه الآمال، أو يُكونَ لأشنتِاطها فيه مَطْمَع أو مَجَال؛ وغدا النصرُ
المُين تابعا لعذبِ الويته، وحسنُ إقباله في كلِّ موطنٍ كفيلاً بإدبار العدو وتوليتِه؛
وأجاب داعي الله إذ استنصرَ لآل بيت النبوة واستصرخ، ولَّى دعاءه تلبيةً تُسَطِّر
أخبارها على ممر الزمان وتورِّخ؛ وأجلى شياطين الضلال وقد تبعت في زعيمها
الجاحد وثنا، وصدتها بالعزم المُرهِف عما أصرت عليه من منكر الإلحاد وثنا؛
وبدلت سطاء جبارة الطغاة من الأوطان بعدا وشحقا، وأمتعتهم فتكاته من الأعداء
الوافرة إفاءً وشحقا، وأذاقتهم حملاتُ جُيوشه وبأل أمرٍ من عاضد باطلا وعاند
حقا؛ وجعلتهم شيفار سيوفه الباترة في التنايف حصيدا، ورمت بالإرغام والإضرع
معاطسهم وحُدودهم بعد أن عمروا شتيا وصيدا؛ وقصد بمواضيا أشلاءهم ودماءهم
فألجم غروبها وسقى، وكشف بلوامعها عن الدولة الفاطمية من معزتهم جنحاً عاتماً
وغسقا؛ وكفل أمورهم فأحسن الإيالة والكفالة، وأعادها إلى أفضل ما تقدم لها
من القوة والنفخامة والجلالة؛ ونظر أحوالها فقوم كلَّ معوجٍّ وعدل كلَّ مائل،
وحباها ملبس جمالٍ تَبُح عند بهجته ملايس الخمايل.

ولما أباد عصب العناد، عطف على الإجتهد في الجهاد؛ فجابت بحافله متقاف
الأقطار، ونالت من الفتك بالكفرة في أقصى بلادها نهاية الأوطار، وأنتزعت منهم
الحُصون، وأستباحَت المُنْع المصون؛ حتى أصارت جلدَهم المشهورَ قشلا، وقِيض
إقدامهم المذكورِ وشلا؛ وشمل الأمة بسيرة عُرِفَت بالعدل والإحسان، وأحظت

(١) أى الذكى المتيقظ .

الخلائق بالأمن المديد الظلال؛ وأرضتهم بالعيش الرائق الزلال؛ وأنالتهم من المطالب ما أنست لإدراكه خطأ الآمال؛ وجاد ففضح الغائم، ومن على ذوى الذنوب حتى كاد يتقرب إليه بالجرائم؛ وأقال عثرات كبرت فلولا كرم سجيته لم يرم الإقالة من خطرها رائم؛ وأمدته الله من معجزات البلاغة والبيان، وغرائب الحكم البديعة الإفتنان، ما يستخف الأحلام بفرط الطرب والإفتان؛ ولم يزل منذ كان يجي سرح الدين، ويضم نسر المؤمنين، ويبدل نفسه الشريفة في نصرة الدولة العلوية بذل أكمل ناصر وأفضل معين؛ وتكبر عظام الخطوب فيكون عزمه أعظم وأكبر، وتزهى الأيام بغير محاسنه وهو لا يزهى ولا يتكبر؛ فقد عز جانب كماله، عن أن يناهضه جهد المديح، وارتفع محل جلاله، فلا ينال تكييفه بإشارة ولا تصريح، وعظم قدر مفاخره فلم يقابل إلا بموالاته التمجيد خالقه والتسبيح؛ ووجب على متصفح خصائصه الموالاتة في التعظيم، ولزوم منهج استيداع لا يبرح عنه ولا يريم؛ ومبالغة قوله تعالى:

﴿ ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

فبلغ الله أمير المؤمنين في إطالة مدته الآمال، وأبقى لمدته باستمرار نظره الخط والجمل؛ وفتح له المشارق والمغرب بهممه العالية وعزائم، وجعل نواجذ الإلحاد حصائد سفار صوارمه؛ فانخرأيتها الرجل بأصلك وفرعت كيف شيت، وأبجح بما منحت منه وأوتيت، ووال شكر خالقك على ما حولت وأوليت؛ فما نخر بمثل نخر ملك سديد، ولا تباهى الدهر لأحد بمثل ماتباهي في حقك ولا أبدع .

ولما تكامل لك أيها الأجل بلوغ هذا الفضل الجسيم، وتم ما منحت من المجد الحادث والقديم، جدد أمير المؤمنين لك شعار التعظيم، وكل لك المفاخر تكميل العقد العظيم؛ وجعل الخير في امرته لك عيانا، وأقامك للدولة الفائزة والمملكة

الصالحية برهاننا، وجعلك لكافة المسلمين في أقطار الأرض سلطانا؛ وطابق بين ماخصك به من السمات السنية، وبين مامكنه لك من المراتب العلية؛ فأتحذك لدولته ناصرا وعضدا، وأنتخبك للإسلام مجدا وسندا، وأحيا بمرافدتك أنصار الدين، وشفى بنظرك صدور المؤمنين؛ واستخلصك لنفسه النفيسة حيا وخيلا، وبلغ بك إلى الغاية القصوى إعلاء وتجيلا؛ وشرّفك بخلع بديعة من أخص ملايس الخلافة تروق محاسنها كل النواظر، وتفوق بدائعها ما يبيح زهر الروض الناصر؛ وقلّدك سيفاً يؤذن بالتقليد، ويشير بالنصر الدائم المزيّد؛ تتنافس في منته وفريده الجواهر، ويستولي ناصعها على الباطن منه والظاهر؛ وعززها بالتشريفات التي اكتسبتها البهجة والبهاء، وبلغتها في العلى إلى الغاية التي ليس بعدها انتهاء؛ وآثر أن تبسط يدك في التدبير، ويعدق بك ما هو عنده بالمحلّ الكبير؛ ويجمع لك من أشات دولته ما لم يعرف لجمع مثله في سالف الزمن نظير، ويسند إلى كمالك ما يعود النفع بصلاحه على المأمور من الأنام والأمير.

فقاوض أيها السيد الأجل الملك الصالح والدك أدام الله قدرته، وأعلى كلمته؛ في ذلك مفاوضة أفضت إلى وقوع الإجماع على أنك أكل ملوك دهركينا، وأصحهم يقينا؛ وأشرفهم نفسا وأخلاقا، وأكرمهم أصولا وأعرافا؛ وأمثلهم طريقة وأحسنهم سيره، وأتقاهم صدرا وأطهرهم سريره؛ وأشفهم جوهرًا وأزكاهم ضريبة وأتقاهم لله سرا وعلنا، وأولاهم بأن لا يصدّر عنه من الأفعال إلا جميلا حسنا؛ وأنت أفضل من عدق أمير المؤمنين بنظره أمر الدنيا والدين، وأسند إلى ملاحظته أحوال أمراء الدولة ورجالها أجمعين، وفوض مصالح المسلمين منه إلى النبي الأمين؛ وأن السيد الأجل الملك الصالح أدام الله قدرته لما أخلص محله عند أمير المؤمنين بتأيع الإشادة، وتفرد باستمرار المضاعفة بإذن الله تعالى والزيادة؛

وَأَسْتَوْلَى عَلَى الْأَمْدِ الْأَقْصَى فِي السَّمَوَاتِ وَالتَّعَالَى، وَأَنْخَفَضَتْ عَنْ تَرَاهِ ذُرَى أَشْمَخِ
 الْمَعَالِي، كَانَ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَوَّلِ فِي الْجَلَالِ وَأَنْتَ تَانِيهِ، وَالسَّابِقِ فِي الْفَخَارِ
 وَأَنْتَ تَالِيهِ؛ وَدَلَّ بِفَضْلِكَ عَلَى فَضْلِهِ دِلَالَةَ الصَّبْحِ عَلَى النَّهَارِ، وَالتَّمَاءِ عَلَى الْإِبْدَارِ،
 وَالتَّيْرِ الطَّيْبِ عَلَى فَضِيلَةِ الْأَصْلِ وَالتَّجَارِ؛ فَتَبَارَكَ مُوَلِيُّ الْمَنِّ لِأَوْلِيَائِهِ وَحَزْبِهِ، الْقَائِلِ
 فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ .

وَقَرَّرَ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَسْتِشْفَافَ أُمُورِ الْمَظَالِمِ، وَإِنْصَافَ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ؛
 وَالنَّظَرَ فِي أَسْفَهَسَلَارِيَةِ الْعَسَاكِرِ الْمُؤَيَّدَةِ الْمَنْصُورَةِ إِثَارًا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ لِأَنَّ يَجْعَلُ
 لَكَ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَيْسَرًا، وَيُثَبِّتَ لَكَ فِي كُلِّ مِنْ أُمُورِ الْعَاجِلَةِ وَالْآجَلَةِ حَدِيثًا
 حَسَنًا وَأَثَرًا؛ وَرَتَّبَ ذَلِكَ لَكَ تَرْتِيبًا يَضَعُجِبُهُ التَّوْفِيقَ وَيَلْزِمُهُ، وَيَكْمَلُهُ السُّعْدُ وَيَتِمُّمُهُ؛
 وَيُحِيطُ بِهِ الْيَمْنُ وَالتَّجَاحُ، وَيَشْتَمِلُ عَلَيْهِ الْحِظُّ وَالتَّلَاحُ . فَتَقَلَّدْ مَا قَلَّدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ، مَتَمَسِّكًا بِأَسْبَابِ وِلَايَتِهِ وَعِصْمِهِ؛ جَارِيًا عَلَى أَحْسَنِ عَادَاتِكَ فِي مِرَاقَبَةِ
 اللَّهِ وَخِيَفَتِهِ، مُسْتَمِرًّا عَلَى أَفْضَلِ حَالَاتِكَ فِي خَشْيَتِهِ؛ مَتَّبِعًا أَمْرَهُ فِي الْعَمَلِ بِتَقْوَاهُ،
 وَزَاجِرًا لِلنَّفْسِ عَمَّا تُؤْتِرُهُ وَتَهْوَاهُ؛ بِقَوْلِ اللَّهِ فِي كِتَابِهِ الْمَبِينِ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ
 فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمَظَالِمَ كَثْرًا مِنْ كُنُوزِ الرَّحْمَةِ، وَبَابٌ يُتَوَصَّلُ مِنْهُ إِلَى مُصْلَحَةِ الْأُمَّةِ،
 وَوَسِيلَةٌ يَتَوَسَّلُ بِهَا السُّعْدَاءُ إِلَى خَالِقِهِمْ فِي اسْتِبْقَاءِ مَا أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ مِنَ النِّعْمَةِ؛
 فَاجْلِسْ لَهَا جُلُوسًا عَامًّا تَرْفَعُ فِيهِ الْحِجَابَ، وَتَيْسِّرُ لِلْوُصُولِ إِلَيْكَ عِنْدَهُ الْأَسْبَابَ؛
 وَتَأْمُرْ بِتَقْرِيبِ الْمُتَظَلِّمِينَ، وَتَوْعِزْ بِإِدْنَانِهِمْ لِتَسْمَعَ كَلَامَ الشَّاكِينَ؛ وَتَوْفِّرْ عَلَى الْأَخْذِ
 بِيَدِ الْمُسْتَضْعَفِ الْقَرِيعِ، وَالْحُرْمَةِ الَّتِي لَا تَجِدُ سَبِيلًا لِلْإِنْصَافِ وَلَا تَسْتَطِيعُ؛ وَتَتَقَدَّمُ
 (١) (٢)

(١) يريد ولاية المظالم . (٢) من معاني القرع المغلوب وهو المناسب هنا .

بأن تُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْكَ النَّائِبَ فِي الْحُكْمِ الْعَزِيزِ الَّذِي عَلَى فُتْيَاهِ مَدَارُ أَحْكَامِ الدِّينِ ،
وَمَنْ تَحْتَاجُهُ مِنَ الْمَوْقِعِينَ وَالِدَّوَابِّينَ ؛ وَتَأْمُرُ بِإِحْضَارِ الْقِصَصِ وَعَرْضِهَا ، وَتَأْمَلُ
دَعَاوِيَ الْمُتَنظِّمِينَ فِي إِبْرَامِهَا وَتَقْضِيهَا ؛ وَتَتَوَقَّعُ عَلَى كُلِّ مِنْهَا بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ
وَأَحْكَامُهُ ، وَيُوجِبُهُ الْعَدْلُ وَنِزَامُهُ .

وَأَنْظُرْ فِي مُشْكِكِ الْقِصَصِ نِظْرًا يُزِيلُ إِشْكَالَهَا ، وَيَجْعَلُ إِلَى لَوَازِمِ الشَّرْعِ وَالْحَقِّ
مَالَهَا ؛ وَرَاعِ أَمْرَ الْمَنَازَعَاتِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى الْأَوَاحِرِ ، وَلَا يَبِيقُ فِيهَا تَأْمَلُ لِمَتَأْمَلُ
وَلَا نِظْرًا لِنَظْرٍ ؛ وَتُخْرِجُ أَمْرَكَ بِإِيصَالِ كُلِّ ذِي حَقٍّ إِلَى حَقِّهِ ، وَكَفِّ كُلِّ مُتَعَدٍّ
عَنْ سُلُوكِ سَبِيلِ الْعُدْوَانِ وَطَرَفِهِ . وَلَيْكُنِ الضَّعِيفُ أَقْوَى الْأَقْوِيَاءِ عِنْدَكَ إِلَى أَنْ يَصَلَ
إِلَى حَقِّهِ مَوْفَرًا ، وَالْقَوِيُّ أضعَفَ الضَّعْفَاءِ حَتَّى يُخْرِجَ مِمَّا عَلَيْهِ طَائِعًا أَوْ مُجْبَرًا ؛ وَالشَّرْعُ
وَالْعَدْلُ فَهَمَا قِسْطَاسَا اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ، وَمُعِينَا [نِ عَلَى] الْحَقِّ مِنْ أَرَادِ الْعَمَلِ بِوَاجِبِ
الْحَقِّ وَفَرْضِهِ ؛ نَحْدُ بِهِمَا وَأَعْطِ بَيْنَ الْعِبَادِ ، وَأَنْبِتْ أَحْكَامَهُمَا فِيمَا قَرُبَ وَبُعدَ مِنْ
الْبِلَادِ ؛ وَسَاوِ بِهِمَا فِي الْحُقُوقِ بَيْنَ الْأَنْامِ ، وَصَرِّفِ النِّصْفَةَ بِحُكْمِهِمَا بَيْنَ الْخَوَاصِّ
وَالْعَوَامِّ ، حَتَّى يَتَنَصَّفَ الْمَشْرُوفُ مِنَ الشَّرِيفِ ، وَالضَّعِيفُ مِنْ ذِي الْقُوَّةِ الْعَنِيفِ ؛
وَالْمَغْمُورُ مِنَ الشَّهِيرِ ، وَالْمَأْمُورُ مِنَ الْأَمِيرِ ، وَالصَّغِيرُ مِنَ الْكَبِيرِ ؛ وَأَسْتَكْثِرْ بِإِغَاثَةِ عِبَادِ
اللَّهِ ذَخَائِرَ الرِّضْوَانِ ، وَأَسْتَفْتَحْ بِقِيَامِكَ بِحُقُوقِ اللَّهِ فِيهِمْ أَبْوَابَ الْحِنَانِ ؛ وَأَعْمَمْ بِسَعِيدِ
نَظْرِكَ وَتَأَمَّ تَفَقُّدِكَ وَمَلَا حِظَاتِكَ جَمِيعَ صُدُورِ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ وَكِبَرَائِهَا ، وَمُقَدِّمِيهَا
الْمَطْوُوقِينَ وَأَمْرَائِهَا ؛ وَمِيَّزْهَا الْأَعْيَانَ ، وَرِجَالَهَا الظَّاهِرَةَ نَجْدَتْهُمْ لِلْعِيَانِ ؛ وَتَوَخَّ الْوَجُوهَ
مِنْهُمْ بِالْإِجْلَالِ وَالْإِنْبَارِ ، وَتَبْلِغِ الْأَغْرَاضِ وَالْأَوْطَارِ ؛ وَالتَّمْيِيزِ الَّذِي يَحْفَظُ نِظَامَ
رُتَبِهِمْ ، وَيُنِيلُهُمْ مِنْ حِرَاسَةِ الْمَنَازِلِ غَايَةَ أَرْبِهِمْ ؛ وَأَلْقُهُمْ مُسْتَبْشِرًا كَعَادَتِكَ الْحُسْنَى ،
وَأَجْرِ مَعَهُمْ فِي كَرَمِ الْأَخْلَاقِ عَلَى مَذْهَبِكَ الْأَسْنَى ؛ وَعَرِّفَهُمْ بِإِقْبَالِكَ عَلَى مِصَالِحِ
أُمُورِهِمْ ، وَأَتَّجَاهَكَ لِصَالِحِ شُؤْنِهِمْ ، بِرُكَّةِ أَشْتَمَالِهِمْ بِفَضْلِكَ ، وَأَلْتَحَافَهُمْ بِظَلْمِكَ ؛

وَأَقْصَدَ مَنْ يَلِيهِمْ بِمَا يَبْسُطُ آمَالَهُمْ ، وَيُوسِعُ فِي التَّكْرِمَةِ مَجَالَهُمْ ؛ وَيُكْسِبُهُمْ عِزَّةَ
 الْإِدْنَاءِ وَالتَّقَرُّبِ ، وَيُحْضِرُهُمْ مِنْ إِحْفَائِكَ بِأَوْفَرِ سَهْمٍ وَنِصِيبٍ ؛ وَكَافَّةَ الرِّجَالِ فَاحْفَظْ
 نِظَامَهُمْ بِحُسْنِ التَّدْيِيرِ ، وَأَثَرُ فِيهِمْ بِجَمِيلِ النَّظَرِ أَحْسَنَ التَّأْثِيرِ ؛ وَتَوَخَّهِمْ بِمَا يُشَدُّ
 بِاهْتِمَاكَ أَرْزَهُمْ ، وَيُصْلِحْ بِتَفَقُّدِكَ أَمْرَهُمْ ، وَيقِفْ عَلَى الطَّاعَةِ سِرَّهُمْ وَجَهْرَهُمْ ؛
 وَيُسِّرْ لَهُمْ أَسْبَابَ الْمَصَالِحِ وَيُسَهِّلْهَا ، وَيَتِمِّمْ لِمَطْلَبِهِمْ أَحْكَامَ الْمِيَامِنِ وَيُكَلِّمْهَا ؛
 وَأَصِفْ لِمَجْمُوعِ ذِكْرِهِمْ مِنْ سَابِقِ فِي التَّقْدِيمَةِ تَالِ ، وَمُخْلِصِ فِي الْمَشَايِعَةِ وَمُؤَالِ ، مَنَاهِلَ
 إِحْسَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّامِيَةِ الْجَمَامِ ، الْمَتَعَرِّضَةِ مَوَارِدُهَا الْعَذْبَةَ لِأَدْوَاءِ كَافَّةِ الْأَنْبَاءِ ؛
 فَهَمَّ أَنْصَارُ الدَّوْلَةِ وَأَعْوَانُهَا ، وَأَبْنَاءُ الدَّعْوَةِ وَخُلَصَاؤُهَا وَشُجْعَانُ الْمَمْلُوكَةِ وَقُرَسَانُهَا ؛
 وَتَوْجِدُ خِلَاصِهَا عِنْدَ اعْتِرَاضِ الْكُرُوبِ ، وَسَيُوفُهَا الْمَذْرَبَةُ الْقَاطِعَةُ الْغُرُوبِ ؛
 وَأَسْتَنْتَهَا الْمَتَوَغَّلَةُ مِنَ الْأَعْدَاءِ فِي سُودِيَاءِ الْقُلُوبِ ، وَخَزِبُهَا الَّذِي أُذِنَ اللَّهُ بِأَنَّهُ الْغَالِبُ
 غَيْرُ الْمَغْلُوبِ ؛ وَلِكُلِّ مِنْهُمْ مَنَزِلُهُ مِنَ التَّقْدِيمِ ، وَمَوْضِعُهُ مِنَ الْإِسْتِمَالِ بَظِلِّ الطَّوْلِ
 الْعَمِيمِ ، وَمَحَلُّهُ مِنَ الْغِنَاءِ وَمَكَانُهُ مِنَ الْكِفَايَةِ الَّذِي بَلَغَ إِلَيْهِ فَسَدَهُ . فَرَتَّبَ كَلًّا مِنْ
 الْمَقْدَمِينَ فِي الْمَوْضِعِ الْجَدِيدِ بِهِ اللَّاتِقِ ، وَأَوْضَحَ لِلْمُوقِّعِينَ أَنْوَارَ مَرَاشِدِكَ لِيَلْحَقَ
 بِتَهْذِيبِكَ السُّكَيْتُ مِنْهُمْ بِالسَّابِقِ .

وَالْوَصَايَا مَتَسِعَةُ النَّطَاقِ ، مَتَشَعِّبَةُ الْإِسْتِثْقَاقِ ؛ وَلَمْ يَسْتَوْعِبْ لَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ
 أَقْسَامَهَا ، وَلَا حَاوَلَ إِتْمَامَهَا : لِالِاسْتِغْنَاءِ بِمَا لَكَ مِنَ الْمَعْرِفَةِ الَّتِي غَدَتْ فِي اسْتِنْبَاطِ
 حِكْمِ السِّيَاسَاتِ أَكْبَرِ مَعِينٍ ، وَالْفِطْرَةِ النَّفْسِيَةِ الَّتِي تُمَدِّدُكَ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ بِأَغْزَرِ مَعِينٍ ؛
 وَلَا يَزَالُ يُضِيءُ لِبَصِيرَتِكَ مِنْ أَنْوَارِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْمَلِكِ الصَّالِحِ - أَدَامَ اللَّهُ قُدْرَتَهُ -

(١) لعله وأصف لجميع من ذكرتهم من سابق الخ . تأمل .

(٢) فِي الْأَصْلِ "أَخْتَلَفْنَا" . تَأْمَلِ .

التي لا تبرح للبصائر لامعته ، ولحاسن الأفعال وغررها جامعته ؛ ماتستعين بأضوائها^(١) على الغرض المطلوب من الإصابة وأكثر .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك ، وإنعامه عليك ؛ فنلقه من الشكر بما يكون للزيد سببا مؤكدا ، ويفدو الإحسان معه مرددا مجددا ؛ وأبدل جهدك فيما أرضى الله وأرضى إمام العصر ، وثابر على الأعمال التي تناسب فضائلك المتجاوزة حد الحصر ؛ والله يعضدك بالتوفيق ، ويمهد لك إلى السعادة أسهل طريق ؛ ويهف في الحرب عزائمك ، ويمضي في الأعداء صوارمك ؛ ويضاعف لك مواد النصر والتأييد ، ويخص ببناء مجدك بالإعلاء والتشديد ؛ إن شاء الله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قلت : والذي يظهر أن مما كان يكتب في دولتهم على هذه الطريقة سجلات كبار نبياتهم ، حال استفعال الدولة في مبادئ أمرها ، قبل خروج البلاد الشاسعة عنها واستفلاعها من أيديهم : كدمشق ومضافاتها من البلاد الشامية قبل خروجها عنهم لبنى أرتق في زمن المستنصر أحد خلفائهم ؛ وكأفريقية وما معها من بلاد الغرب قبل تغلب المعز بن باديس نائب المستنصر المتقدم ذكره بها وقطع الخطبة له ؛ وبجزيرة صقلية من جزائر البحر الرومي قبل تغلب رجار أحد ملوك الفرنج عليها وأنزاعها من أيديهم في زمن المستنصر المذكور أيضا ؛ فإن مشق وأفريقية وصقلية كانت من أعظم نبياتهم ، وأجل ولاياتهم ؛ فلا يبعد أن تكون في كتابه السجلات عندهم من هذه الطبقة .

(١) في الأصل "فاستد" . تأمل .

المرتبة الثانية

(من المذهب الأول من سِجِّلات ولايات الفاطميين أن يُفْتَح السِّجْل بالتصدير، فيقال : « من عبد الله وولَّيه » إلى آخر التصلية ، ثم يُؤْتَى بالتحميد مرة واحدة ويؤْتَى في الباقي بنسبة ماتقدم ، إلا أنه يكونُ أَخْصَرَ مما يُؤْتَى به مع التحميدات الثلاث)

ثم هي إما لأرباب السُّيُوف أو لأرباب الأَقْلَام من أرباب الوِظَائِف الدِّينِيَّة والوظائف الدِّيوانِيَّة .

فأما السِّجِّلات المكتتَبَة لأرباب السُّيُوف ، فمن ذلك نسخة سِجِّل بولاية القاهرة من هذه الرتبة : لِرَفْعَة قدر متولَّيها حينئذٍ ، وهي :

من عبد الله وولَّيه (إلى آخره) .

أما بعدُ ، فالحمد لله رافع الدَّرَجَات ومُعَلِّمها ، ومُوَلِّي الآلاء ومُوَالِيها ؛ ومُحَسِّن الجزاء لمن أحسن عَمَلًا ، ومُضَاعَف الحِجَاء للذين لا يَبِغُون عن طاعته حَوْلًا ؛ ومنيلِ أَفْضَلِ المَوَاهِب ومُحَوِّطها ، ومَتَمِّم النعمة على القائم بِشُكْرها ومُكَمِّلها ؛ مُتَّبِع المِنَّة السالفة بنظائرها وأشكالها ، والمُجَازِي على الحَسَنَة بعَشْر أمثالها ؛ وصَلَّى اللهُ على جدِّنا محمَّد رسولِه الذي أَقام عِمَادَ الدين الحَنِيفِ ورفَعَه ، وخَفَضَ بِجِهَادِه مَنَارَ الإلحاد ووضَعَه ؛ وأرغَمَ عِبْدَةَ الصَّليب والأوثان ، ونَشَرَ في أَقْطَارِ المملَكَةِ كَلِمَةَ الإسلام والإيمان ؛ وكَشَفَ غِيَابَ الضَّلالِ بأنوار الهدى الألامِعِ ، وهتَكَ حِجَابَ الكُفْرِ بِبراهين التوحيد الصادقة وسيوف النصر القاطعة ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى أخيه وأبن عمِّه أبنينا أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالب ، سيف الحقِّ الماضي المَضَارِبِ ، وبِحَجْرِ العِلْمِ الطامِي

البلج والعوارب ؛ ومعين الحكمة العذب المشارع ؛ والمخصوص بكل شرف باسق
وفضل بارع ؛ وعلى ألهما سادة الأنام ، وحماسة سرح الإسلام ؛ وموصحي حقائق
الدين ، وقاهري أحزاب الملحدين ؛ وسلم ومجد ، وضاعف وجدد .

وإن أمير المؤمنين لما آتاه الله من شرف المحتد والتجار ، وتوجه به من تيجان
الإمامة المشرقة الأنوار ، وألقاه إليه من مقاليد الإبرام والتقض ، وأناله إياه من
الخلافة في الأرض ، والشفاة في يوم العرض ؛ وعدقه به من إيضاح سبل الهدى
اللامعه ، وهتك حجاب الكفر براهين التوحيد الصادعة وسيوف النصر القاطعة ؛
إلى الأنام ، وأطلععه عليه من أسرار الحكمة بمنجاة الإلهام ؛ وأقامه له من إعلاء منار
الملة وتقويم عماد الحق ، وأمد به آراءه من العناية الربانية فيما جل ودق ؛ وأمضاه
له في الأفطار من الأوامر والنواهي ، وأفرده به من الخصاص الشريفة التي يقصر
عن تعديدها إسهاب الواصف المتناهي ؛ ويسره لإرادته من اقتياد كل أبي جامع ،
وحبه إليه من استعمال السيرة المستدنية من المصالح كل بعيد نازح - يضاعف بهاء
أبامه بأصطفاء ذوى الصفاء ، ويزيد في بهجة زمانه باستكفاء أولى الوفاء ؛ ورفع منازل
المعرفين في الولاء إلى غايات السناء ، ويئيل المخلصين من الحباء ، مايدل على مواضعهم
الخطيرة من الاجتباء ؛ ويُسند معالي الأمور ، إلى الأعيان الصدور ؛ ويعدق
الولايات الخطيره ، بمن حسنت منه الآثار والسيره ، وأظهر تغاير الأمور ما هو عليه
من خلوص النية وتقاء السيره ؛ وأستولى على جوامع الفضل وغاياته ، وقصرت همم
الأكفاء عن مماثلته في الغناء ومساواته ؛ وألقت إليه المناقب قياد المستسلم المسلم ،

(١) جمع عارب أو عاربة . يقال ماء عرب كثير ونهر عرب و برعربة كثيرة الماء والفعل من كل ذلك

عرب عربا فهو عارب وطاربة . انظر اللسان ج ٢ ص ٨١ .

(٢) متعلق بإيضاح سبل الهدى فتنبه .

وأعجز تعديد محاسنه البارعة كل ناطقٍ ومتكلمٍ ؛ وسمت همته إلى آكتساب الفخار ،
 وأستكمل فنون المحامد فحصلت لديه حصول الأقتناء والأدخار ؛ وفاز من كل مأثرة
 بالنصيب الوافر المثل ، وتشوّفت إليه الرتب السنية تشوّف [من] رأته لها دون
 الأكفاء أهلا ؛ وكفى المهمات بجنان ثابتٍ وصدرٍ واسع ، وقزبت عليه أفعاله
 المرضية من الميامن كل بعيدٍ شاسع ؛ ووسم جلائل التصرفات بما خلفه بها من
 مستحسن الآثار ، وخلصت مشايعته من الأكدار فحل في أميز محل من الإيثار ؛
 وجارى المبرزين من أرباب الرياسات فسبق وأبر ، وأحرز جميل رأيٍ ولي نعمته
 فيما ساء وسر .

ولما كنت أيها الأمير المعني بهذا الوصف الرفيع ، المخصوص من مفاخره بكل
 رائعٍ بديع ؛ الحال من الإصطفاء في أقرب محل وأدناه ، المرتقى من الرياسة أشمخ
 مكانٍ وأسناه ؛ الأوحد في كل فضيلةٍ ومنقبه ، الكامل الذي أوجب له الكمال
 صعود الحدّ وسمو المرتبة ؛ المصلح ما يرد إلى نظره بالتدبير الفائق ، الشامل ما يصدق به
 بحزمه الذي لا تخشى معه البوائق ؛ أجمع على شكر خصائصه وخلالله ، الفائق جهد
 الأعيان الأفاضل بعفو أستقلاله ؛ المعتم من المشايعة بالسبب المتين ، المتميز على
 الأكفاء بماثره الماثورة وفضله المبين ؛ وما زالت مساعيك في طاعة أمير المؤمنين
 تُوجب لك منه المزيد ، وتستدعي لمنزلتك من جميل رأيه مضاعفة التشييد ؛
 وتخصك من الإجتباء بالنصيب الوافر الجزيل ، وتبلغك من تتابع النعم ما يوفى على
 الرجاء والتأميل .

وقد باشرت جلائل الولايات ، وعدق بك أنعم المهمات ، فأستعملت السيرة
 العادلة ، وسُست السياسة الفاضله ؛ وجمعت على محبتك القلوب ، وبلغت الرعية

من إفاضة الإنصاف كل مؤثر ومطلوب؛ وإذا برقت بارقة نفاق، ونجم ناجم من مرادة المراق، كنت الولي الوفي، والمخلص الصفي، والمدافع عن الحوزة بجهاده، والمجاهي عنها بماضي عزمه وصادق جلاده، والباذل مهجته دون ولي نعمته، والجاهد فيما يُحظيه بنائل مواته وتأكد أذمته؛ ومجلى ظلام الخطب الدامس بحسامه، ومزيل الخطب الكارث برأيه وأعتزماه؛ ومواقفك في الحروب، تكشف الكروب، وتروى من دماء الأبطال ظامئات الغروب؛ وتورد سنان اللذن العاسل، ويريد الكمي الباسل، وتحمك طلبا المناصل، في الهامات والمفاصل؛ وتستبيح من مهج الأقران كل مصون، وترميم من قوارع الدمار بضروب متسعة الفنون؛ فأتارك في كل الحالات محموده، وشرائط الأصفاء فيك فاضلة موجوده. وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه وزيره، وكافل ملكه وظهيره؛ السيد الأجل الملك الذي

فأنتي عليك ثناء وسع فيه المجال، وخصك من شكره وإحماده بما أفاض عليك حلل الفخر والجبال؛ وقرر لك الخدمة في ولاية القاهرة المحروسة. فتقلد ماقلدك أمير المؤمنين من ذلك: عاملا بتقوى الله الذي تصير إليه الأمور، ويعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور؛ قال الله في كتابه المبين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ .

وأعلم أن هذه المدينة هي التي أسس على التقوى بُنائها، ولها الفضيلة التي ظهر دليلها ووضح برهانها: لأنها خصت بفخر لا يدرك شأوه ولا تدرك آماده، وذلك أن منارها لم يدكر عليها إلا أئمة الهدى آباء أمير المؤمنين وأجداده؛ ثم إننا الحرم الذي أضحي تقديسه أمرا حتما، وظل ساكنه لا يخاف طلبا ولا هضما؛ وغدت

النعمةُ به ممتمةٌ مكلِّه ، والأدعيةُ في بيوتِ العباداتِ به مرفوعةٌ متقبَّله : للقربِ من أمير المؤمنين بابِ الرحمةِ ومعدنِ الجلاله ، وثمرةِ النبوةِ وسُلالةِ الرسالة ؛ فاشتملُ كافةَ الرعايا بها بالصيانةِ والعناية ، وعمَّهم بتأمِّ الحفظِ والرعاية ؛ وأبسطُ عليهم ظلَّ العدلِ والأمنه ، وسرفهم بالسيرةِ العادلةِ الحسنه ؛ وساوَى الحقَّ بين الضعيفِ والقوى ، والرَّشيدِ والغوى ؛ والمِلِّيِّ والذَّميِّ ، والفَقيرِ والغنيِّ ؛ وأعتمدَ من فيها من الأُمراءِ والمميزين ، والأعيانِ المقدمين والشُّهودِ المعدلين ؛ والأمانيلِ من الأجنادِ ، وأربابِ الخدمِ من القوادِ بالإعزازِ والإكرامِ ، وبلغهم نهايةَ المرادِ والمرامِ ؛ وأقمَ حدودَ الله على من وجبتُ عليه بمقتضى الكتابِ الكريمِ ، وسنةِ محمَّدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ والتسليمِ ؛ وتفقدَ أمورَ المتعيشين ، وأمنعَ من البخسِ في المكايلِ والموازنِ ؛ وحذَّرَ من فسادٍ مُدخَلٍ على المطاعمِ والمشاربِ ، وأتَّهَجَ في ذلكِ سبيلَ الحقِ وطريقَ الواجبِ ؛ وأحظَرَ أنْ يخلُوَ رجلٌ بأمرأةٍ ليستَ له بحَرَمٍ ، وأفَعَلَ في تنظيفِ الجوامعِ والمساجدِ وتزْيِيفِها عن الإبتدالِ بما تُعزُّبه وتُكرِّمُ ؛ وأشدُّدَ من أعوانِ الحُكْمِ في قوَدِ أباةِ الخصومِ ، وأعتمدَ من نُصرةِ الحقِ ما تبقَى به النعمةُ عليكِ وتدومُ ؛ وأوعِزَ إلى المستخدَمين بحفظِ الشارعِ والحاراتِ ، وحراستها في جميعِ الأزمنةِ والأوقاتِ ؛ وواصلِ التَّطَوُّفِ في كلِّ ليلةٍ بنفسك في أوفى عِدِّه ، وأظهرِ عُدِّه ؛ وأنته في ذلكِ وفيما يُجارِيه إلى ما يشهدُ باجتهداك ، ويزيدُ في شكركِ وإحمادك ؛ والله تعالى يوفِّقك ويُرشدك ، ويسدِّدك في خدمةِ أمير المؤمنين ويُسعدك ؛ فاعلمَ ذلكِ وأعملْ به ، وطالعُ مجلسِ النظرِ الأجلِّ "الملكيِّ" بما تحتاج إلى علمه ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هذا النمطِ كان يُكتبُ سبيلُ ولايةِ الشرقية من أعمالِ الديارِ المصريةِ دونَ غيرها من سائرِ الولاياتِ ، إذ كانت هي خاصَّ الخليفةِ كالجيزيةِ والمنفلوطيةِ الآن ، وكان واليها هو أكبرُ الولايةِ عندهم لذلك .

وأما الوظائف الدينية .

فنها — ما كتب به القاضي الفاضل عن العاضد بولاية قاضي :

من عبد الله وولّيه عبد الله أبى محمد الإمام العاضد لدين الله أمير المؤمنين ، إلى القاضي المؤمن الأمين ، علم الدين ، خالصة أمير المؤمنين ؛ وفقه الله لما يرضيه ، وسدده فيما يدره ويأتيه ، وأعانه على ما عديق به وولّيه .

سلام عليك فإن أمير المؤمنين يحمّد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلّى على جدّه سيّد ولد آدم ، وعالم كل عالم ؛ ومبقي كلمة المتقين على اليقين ، ومعلي منار الموحدين على الملهدين ؛ صلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، وعلى أمراء المؤمنين ، صلاة تنصل في كل بكرة وأصيل ، ويعدها أهل الفضل وأهل التحصيل ؛ ووالى وجدد ، وعظم ومجدد ، وكرر ورّد .

وإن أمير المؤمنين لما آناه الله إياه من نفاذ حكمه ومضاء حكمه ، وفوضه إليه من إمامة أمته ؛ وأفاضه عليه من أنوار كسفت غمامة كل غمه ، وشردت بعذله من بسطة ظلم وسطوة ظلمه ؛ وأظهره له من حق نصب للنصر علمه وللهداية علمه ؛ وأيده به من كل عزيمة فتكت بكل أزمه ، ووكل به همه من إتمام نعمة وأبتداء نعمة ؛ وأطلق به يده من معروف روض الآمال صوب مدراره ، وبدت على الأحوال آثار إثارة ؛ وأخذ به الخصب من المحل ثاره وأستقال به الرخاء من وهادات عتاره ؛ وعضد به أفعاله من أمور التوفيق أتباعا وأقتضابا ، وألممه من موالاة الآلاء التي لاتذهب عهود عهادها أنقضاء ولا أنتضابا ؛ ويسر له عزيمته من الآراء التي لا تكسب إلا حمدا أو ثوبا - يختص بإحسانه من ينص الاختبار على أنه أهل للاختيار ؛ وتفيض الأحوال من حوالى أوصافه ما يديم المطار

في الأوطار؛ ويُنعم على النعمة بإهدائها إلى ذوى الاستنجاب، ويصطنع الصنعة بإقرارها في مغارس الاستطابة والاستنجاب؛ ويرشخ لخدمه من عرف ذكره بأنه فائح، وعرف عرفه ناصع ناصح؛ ويؤي جنان إنعامه من أحسن عملا، وأستحقت منزلته من الكفاية أن تكون له بدلا، ولم تنبغ تصرفاته في كل الأحوال عنها حولا؛ ودرجته خصائصه العلية فاقعد صهوات الدرجات العلى، وأستحق بفضل تفضيله أن يولى الجميل جملا؛ وعرضت خلاله على تعيين الانتقاد فاقضاها ولا يتضاها، وزويت مسالك الغناء بصدرة فضاها فضاها .

ولما كنت أيها القاضى المشتمل على هذه الخلال أشتمال الروض على الأزاهر، والأفق على النجوم الزواهر؛ والعقود على فاجر الجواهر، والخواطر على خطراتها الخواطر، والنواظر على ماتصافح من الأنوار وتباشير؛ المثرى من كل وصف حسن، المتبوع الأثرى بما فرض من المحاسن وسن؛ الكالى ماأستحفظ بعين كفاية لا يصاغ أجفانها وسن؛ الأمين الذى تربه أمانته متاع الدنيا قليلا، وتضجبه ناظرا عن نصارتها كليلا؛ المؤثر دينه على دنياه؛ المطيع الذى لا يسلو العصبه عن هواه، المخلص النية فى الولاء و"لكل أمرى مانواه" الناصح الذى يتره ما يلبسه عن لباس الريب، البعيد عن مظان الظنون فلا تتطلع الأوهام منه على عيب غيب؛ النقي الساحة أن يفرس بها وضمه، التقي الذى لا تخدع يده عن التمسك ما أستطاع بجبل عصمه؛ المحتوم الحقوق بأن يستودع دهر الوفاء، المتوسل بموات توجب له الإيفاء على الأكفاء؛ المستقيم على مثل الظهيرة كهلا ويافعا، الشافع بنفسه لنفسه وكفى بالاستحقاق شافعا؛ وحسبك أنك حملت الأمانة وهى حفظ الكتاب، وأطلق الله به لسانك فشفت القلوب من الأوصاب، ووصل به سببك إلى رحمته يوم

تقطع الأسباب ؛ وأصبح محلك في الدارين أهلاً أنيرا ؛ وكنت ممن قال الله فيه :
 ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ .

وقد خالطت في مَوَاقِب أمير المؤمنين المعقبات التي من بين يديه ومن خلفه ،
 وقربت من مجالسه المشتملة منه على عنوان عناية الله بالبرية وأطفه ، ونوره الذي
 كَلَّتِ العيون عن كشفه والحيل عن كسفه ؛ وتقدمت بخدمة الخلفاء الراشدين ،
 أمراء المؤمنين ، إلى سوابق سبقت بها في كل مضمار ، وجمعت في المخالصة فيها
 بين الإعلان والإضمار ؛ وسبر التجريب حالك بصحائف خبره ، وأستمرت بك
 الحال في القرب منهم وفي تقلب الأحوال عبره ؛ وتدرجت في حجب القصور ،
 وبدت لك الغايات فما كنت عنها ذا قُصور ؛ فكانت التقدمة لك مظنونة وبك
 مضمونه ، وسريتك على الأسرار المصونة مأمونه ؛ وما أعوجت معالم إلا وكان
 تقويمها بتقويمك ، ولا أستيقظت حيلة نخاف الحق سبيل غيها بتهويمك ؛ وإن كل
 قائل لا يملك من إصغاء أمير المؤمنين ما تملك بتلاوة الذكر الحكيم ، ولا يسلك من قلبه
 ما تسلك بمعجز جده العظيم ؛ فانت تخدم أمير المؤمنين بقلبك مواليا ، ولسانك
 ناليا ؛ وبنظرك مؤتمنا ، وبيدك محترنا ؛ لاجرم أنك حصدت ما زرعت طيبا ، وسقاك
 ما استمطرت صيبا ، وزقت لك الأيادي بكرا وثيبا ، وحللت يقاع المنازل مستأنسا
 إذا حل غيرك وهداتها متهبيا .

فأما حرمتك التي بؤأتك من الإختصاص حرما ، وجعلتلك بين الخواص علما ؛
 وتوالى يدك بلمس ما حظى من الملابس بصحبة جسده الطاهر ، وأشمَل على زهر
 النضار وزهر الجواهر ، فذلك جار مجرى السكة والدعوة في أنهما أمانة تم العباد
 والبلاد ، وهذه أمانة تحض النفوس والأجساد ؛ ولك مما في خزائنه وكالة التخخير

(١) التويم النوم الخفيف . يريد أنه لا ينام عن ابطال كل حيلة .

والتعير ، وعن أغراضه الشريفة سفارة الإفراج والتغير ؛ وهذه موات تجعل سماء
السّاح لك دائمة الدّيم ، وتُسكن آمالك في حرم الكرم ؛ وتعقد بينك وبين السعادة
أوكّد الذّم ، وتفاضي لك جدود الجّد يقدم الخدم .

وحضر محضرة أمير المؤمنين فتاه ، الذي رُهي الزمان به فتاه ؛ ووزيره ، الذي
عزّ به منبره وسريه ، السيد الأجل أفضل الملوك قدرا ، وأكثرهم قُدرة ، وأعظمهم
صبرا ؛ وأدرّبهم نُصرة ، وأفيضهم جودا غمرا ، وأكشّفهم لغمرة ، وأمضاهم على الهول
صدرا ، وأردّهم لكّره ، وأثبتهم جاشا وصليلُ السيوف يحطّب والمقاتل تسمع ، وأوضحهم
في استحقاق المجد حجة شرعتها الزّماح الشرع ؛ وأركبهم في طاعة أمير المؤمنين
لمشقه ، وأشدّهم وطاة على من بحمد نوزه وعقّ حقه ؛ فالدنيا مبتسمة به عن نُغور
السرور ، والمُلك بكفّالته بين ولي منصور وعدو محصور ؛ فأسفرت سفارته عن أنك
من أمثل ودائع الصّنائع وأكفاء الاستكفاء ، وأعيان من يحقق اختيارهم وفضلهم
العيان ، وأفاضل من هو أهل لإسداء الفواضل ؛ وأن الصنّعة ثوب عرك (؟) داره ،
وجار قد عقد بين شركك وبينه جواره ؛ وقتر لك تقدمة في الحضرة لأنك فارسهم
أسما وفعلا ، وأولم حين نتلو وحين تتلى ؛ والنظر على المؤذنين بالقصور الزاهرة ،
والمساجد الجامع ؛ وبالمشاهد الشريفة : لأن الأذان مقدّمة بين يدي القرءان ،
وأمانة على معالم الإيمان ؛ والنظر في تقويم ما يرد إلى الخزانة العالية الخاصة والعامة
من الملابس على اختلاف أصنافها ، والأمتعة على آتلاف أوصافها ؛ ومشاركة
خزانة الفُروش ليكمل لك النظر في الكسوات التي تصان لللبوس ، والكسوات التي
تبتدل للجلوس ؛ وتخزن بيت المال الخاص ليكمل لك النظر في الذهب مصوغا
ومرقوما ، وتخزنا وتقويم ؛ وأستصوب أمير المؤمنين ماراه ، وأمضى ما أمضاه ؛
ونرح أمره إلى ديوان الإنشاء أن يكتب هذا السجل لك بذلك .

فَاعْرِفْ قَدْرَ مَا عُدِقَ بِكَ مِنْ أُمُورِ دِينٍ وَدُنْيَا ، وَخِدِّمْ لِاتَّقْوَىٰ عَلَيْهَا إِلَّا بِلِبَاسِ
التَّقْوَىٰ ؛ وَأَنْتَ كَمَا أَصْبَحْتَ لِحَنَاتِ أَنْعَمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ رِضْوَانَا ، وَيُدْكَ لِلْفُظْ
إِحْسَانِهِ لِسَانَا ؛ وَبِاشْرُ ذَلِكَ مُسْتَشْعِرًا خَشِيَةَ اللَّهِ فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ ، مُحْتَقِقًا أَنَّهُ
غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِكَ ؛ مَدْنَحْرًا مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مَا يَبْقَىٰ عِنْدَ فَنَاءِ ذَنْحِكَ ، مُسْتَدِيمًا
لِلنِّعْمَةِ بِمَا يَقِيدهَا مِنْ شُكْرِكَ ، وَمَا يُصُونُهَا أَنْ تُبْتَدَلَ مِنْ بَشْرِكَ ؛ عَالِمًا أَنَّ التَّقِيَةَ حِلِيَةَ
الْإِيمَانِ ، وَضَمَانُ الْإِيمَانِ ، وَزَادَ أَهْلَ الْحِنَانِ إِلَىٰ الْحِنَانِ ، بِقَوْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ
الْعَزِيزِ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ﴾ .

وَأَخْلَصَ نِيَّتَكَ فِي خِدْمَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فَمَعَ الْإِحْلَاصَ الْخَلَاصَ ، وَأَدَّ لَهُ الْأَمَانَةَ
فَإِنَّ أَدَاءَهَا أَطْيَبُ الْقَصَصِ يَوْمَ الْقِصَاصِ ؛ وَقُمْ فِي خِدْمَتِهِ الْمَقَامَ الْمُحْمُودَ ، وَأَسْتَدِمُ
بِهَا صُغُودَ رِكَابِ السُّعُودِ ؛ فَقَدْ عَرَفَكَ اللَّهُ بِرُكَّةِ النَّصِيحَةِ وَعَوَائِدِهَا ، وَأَنْجَزَتْ لَكَ
الْأَمَالَ الْمُنْبَسِطَةَ مَوَاعِدِهَا ؛ وَأَسْتَشْرِفُ أَحْوَالَ الْقِرَاءِ فَهَمُّ أَحَقُّ قَوْمٍ بِالْتَهْدِيبِ ،
وَلَزُومِ أَسَالِيِبِ التَّادِيِبِ ؛ فَمَنْ كَانَ لِلآيَاتِ مَرَّتَلَا ، وَلِلدِّرَاسَةِ مَتَبَتَّلَا ؛ وَبِأَثْوَابِ
الصَّلَاحِ مُتَقَمَّمَا ، وَبِخِصَائِصِ الدِّينِ مُتَخَصِّصَا ؛ وَلِمَا فِي صَدْرِهِ بِقَلْبِهِ لِابِلِيسَانِهِ
حَافِظَا ، وَعَلَىٰ آدَابِ مَا حَفِظَ مُحَافِظَا ؛ فَذَلِكَ الَّذِي تُشَافُهُ تَلَاوُثُهُ الْقُلُوبِ ، وَتَرُوضُ
بِأَنْوَاءِ الْمَدَامِعِ جُدُوبَ الدُّنُوبِ ؛ وَمَنْ كَانَ دَائِمًا الْإِطَالَةَ فِي سَفَرِ الْبَطَالَةِ ، سَاتِرًا لِأَنْوَارِ
الْمَعْرِفَةِ بِظُلْمِ الْجِهَالَةِ ؛ فَحَقُّ عَلَيْكَ أَنْ تَصْرِفَهُ وَتُبْعِدَهُ ، وَتَجْعَلَ التَّوْبَةَ لِلْعُودِ مَوْعِدَهُ ؛
وَكَذَلِكَ الْمُؤَدِّونَ فَهَمُّ أَمْنَاءِ الْأَوْقَاتِ ، وَمُتَقَاضُونَ دِيُونَ الصَّلَوَاتِ ؛ وَلَا يَصْلُحُ
لِلتَّادِيِنِ إِلَّا مِنْ كَلِمَاتِ أَوْصَافِ عَدَالَتِهِ ، وَأُصَامُ جِهَالَتِهِ .

وَأَمَّا الْأَمَانَةُ فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي وَكَلْتَ إِلَىٰ حَزْنِكَ وَخَتَمْتَكَ ، وَالْأَمْتَعَةَ الَّتِي وَكَلْتَ
إِلَىٰ تَقْوِيَتِكَ وَحُكْمِكَ ؛ فَانْ تَوَدَّىٰ بِسُلُوكِ أَخْلَاقِكَ وَهِيَ الْأَمَانَةُ ، وَأَتَّبَعَ طِبَاعَكَ

وهي الإباء للخيانة، وأن تستمر على وتيرتك، ومشكور سيرتك، ومشهور سيرتك،
ومُنير بصيرتك، وأن لا تُؤتَى من هوى تُبَّعه، ولا حيف تبثده، ولا قوى تُخدع له،
ولا ضعيف تُخدعه، ولا من محابة وإن أحببت، ولا من مُداجة كيفما تقلبت،
وأذكر ما يُتلى من آيات الله في مثلها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾
والله يتولى توفيقك وتوفيقك، ويُديم [على] ما يُحِبُّ تصريفك، إن شاء الله تعالى .

ومنها - ما كتب به القاضى الفاضل أيضا، وهى :

من عبد الله وولَّيه (إلى آخره) .

أما بعد، فإن رتب الولايات متفاوتة الأقدار، متباينة الأخطار، وكل شيء منها
عند أمير المؤمنين بمقدار، ولها رجال مشرفو الأقدار، ومحاملاً بحضرة مقدرة تقدير
منازل الأقدار، ومحال الأولياء بمقامه محال الأهله تتنقل بين أول السماء إلى آتائها
الإبدار، ومن أميزها قدرا، وأحقها بأن يكون صدرا، وأن يشرح لمن حله صدرا،
وأن يسوق إليه الخاطب من استحقاقه مهرا، ولاية مدينة مصر: لأنها المجاورة لمحل
الخلافه، وكل مضر بالنسبة إليها معها بالإضافة، وهى خطة النيل، وفرضة النيل؛
وبها إذا هجمت الخطوب النيل، ومنها من عثرت الأيام المقييل، ومنها تؤس
أنوار الإمامة على أنها تتوصح بغير التأميل وبدء التأميل، ولا يؤهل لولايتها إلا كل
حامل لعينها الثقيل، ولا تسند الخدمة فيها إلا لكل مُثَرٍّ من ذخائر السياسة غير فقير
ولا مقل، ولا يتوكل رُتبتها إلا من تكون به الرتب مُنيرة ومحاسنه لا تمل مما يمل،
ولا يمتطى صهوتها إلا من لا يطأطئ للأطاع عزة زاهته ولا يدل، ولا يرتقى درجاتها
إلا من يهتدى بأعلام الديانة التى لا تُضلل، ولا يُقرأ سِجِّها إلا لمن يطوى مظالم
الرعية طى الكتاب للسجّل .

(١) النيل بفتح الميم الشيء المعطى .

ولما كنت أيها الأمير من توقدت هذه الأوصاف فيه توقد النار في ذرى علمها ،
وأوجد معاني معاليها وأقدها من إسار عدمها ؛ وأرتقى إلى هضبات الرياسة المنبئة
بما جعل خلاله المسلم فضلها مثل سلبها ، وناولته الدراية عناني سيفها وقلمها ؛
وشهدت الأيام بتقدم قدمه في مراتبها وقدمها ، وأمنت الصواب أن يتبع أفعاله
إذا أمضاها بعب (؟) بدمها ؛ وكتبت أقلام رماحه سطور الطعن في صدور العدا
مستمدة من دمها ؛ وتجم مشقات المعالي فأثرته تعفى راحة بجسمها ؛ واجتمعت
فيه صفات المحاسن المتفرقة ففضى عليها بتجسيمها ؛ وتصدر الدرجات المحصنة
من مطالع الحاضر لحظه من رقها ونسيمها ؛ وتعرضت ذخائر المحامد لما في طبعه
من اقتناصها وتعيمها ؛ وقزت عين المنازل فما زوت وجه إقبالها ولا بسطت راحة
تظلمها ، وأثنت إليه عقائلها المصونة فما ننت دون ديانتها عنان تلومها ؛ وأترك
في كل ولاية مشكور ، وسعيك في كل غاية غير مقصور ؛ وغناؤك في المهيمات
معد مذخور ، ومساجلك عن أسير ما وصلت إليه مدفوع مذخور ؛ ولسل شباك
بالكوكب الدرى من صولتك منحور ، وأفعالك أفعال من لا يجوز غير محرز كسب
الأجور ، وخلالك خلال من أنتظم في سلك الذين يرجون تجارة لن تبور .

وقد سلفت لك خدام تصرفت فيها وتدرجت ، وعرفت بطهر الذكر من رعيها
وتأرجت ؛ وتحوت من الأوزار على ما يوقع ذنبك وتحرجت ؛ وجريت على أجمل
عاده ، واقتضيت عند انقضاء شأ الإبداء استثناف شأ الإعادة . ومثل بحضرة
أمير المؤمنين لسان أمره ، وسيف زجره ، السيد الأجل الذى قام بما استكفاه
فأحسن وحسن ، وصان حمى الملك فأحصن وحصن ؛ وجاد بنفسه في سبيل الله
فما ضن ، وكان مكان ما أمل عند أصفائه وفوق ما ظن ؛ وسدد قصوده ، ففرقت
سهاؤها وما مرقت عن طاعته ، وأطلع سعوده ، فأنارت نجومها لأوليائه ورجومها لأهل

خلافِ خلافته ، وأطلقت أحكامَ عدلِ الله في خلقِ الله أحكامَ مراماته وسيفُ إخافته ؛ فالدنيا بين أياته عن ماخذ السراء ، وطلقاء الجُود بما عملته يده من قيود الإحسان في عِدَادِ الأَسْرَاءِ ؛ ورضا أمير المؤمنين عنه كافلٌ له بأن يُرضى الله في الأعداء، وملوك الأرض إن فدت السماء (؟) طيبةً أنفسها له بالفداء ؛ والدنيا متأرجحة بطيبِ خبره ، والعلواء متبرجة بحسنِ نظره ؛ وبحارِ التدبير لا تُتفارق زبدَ أمواجها إلا بفاجر جوهره ، وقوانينُ السياسة لا تُوجد مسندة إلا عن أتباع أثره ؛ ولا حظٌ لمحاربه إلا سلمه بعثاره وتثمه بعثيره ، فأثنى عليك بحضرتة وإصفا ، وثنى إليك عنانَ عنايته عاطفا ، ورأى تقليدك ولايتها مُعربا باستحقاقك عارفا - خرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يُوعزَ إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلِّ لك بتقليدك ولاية المعونة والحسبة بمدينة مصر والحيزة والقرافة ، إنافةً بك عن النظراء ، وإبانةً عمالك من جميل الآراء ؛ وتطريةً لحظك بما حصل به من الإطراء ، ورعايةً لما لك من الانتهاء إلى أقصى غايات الإحسان والإجراء ، وإيجاباً لما تتوسل به من العناء ، وذخائر الغناء والإثراء ، وإشادةً لقدرك الذي أشاده ما أنت عليه من الإيواء إلى ظلِّ الزاهة والأستيناء .

فتقلد ما قلده من هذه الخدمة ، وأرقل بما صفاً عليك من ملابس هذه النعمة وبما صفاً لديك من موارد هذه الجمه ؛ وقدم تقوى الله أمامك ، وأتبع وصيتها التي آستعمل الله بها إمامك ؛ فيها النجاة مضمونه ، والرحمة متيقنة لا مظنونه ؛ قال الله سبحانه في كتابه المكنون : ﴿ وَيَجِبِي اللَّهُ الَّذِينَ آتَقُوا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمْسَهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

وآعتمد المساواة بين الناس فيما هو حكم ، والنظر بالعدل في كل ما هو ظلم ؛ ولا تجعل بين الغنى والفقير في الحق فرقا ، وأسلك فيهم طريقاً واحداً فقد ضلَّ

مَنْ سَلَكَ فِيهِمْ طُرُقًا ، وَاشْتَمَلَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ بِطُمَأْنِينَةٍ تُنِيمُ الْأَخْيَارَ وَتُوقِظُ الْأَشْرَارَ ،
وَأَمْنِيَّةٍ تَسَاوَى فِيهَا بَيْنَ ظِلَامِ اللَّيْلِ وَنُورِ النَّهَارِ : لِتَكُونَ وَلَا يَتُكَّ لَهِمْ مَوْسِمًا ، وَمَوْرِدَهَا
لِثُقُورِ الْأَمْرِ مَيْسِمًا ؛ وَأَنْصِفِ الْمَظْلُومَ وَأَقْمَعَ الظَّالِمَ ، وَكُنْ لِنَفْسِكَ زَعِيمًا بِنَجَاتِهَا فَالزَّعِيمُ
لَهَا غَارِمٌ ؛ وَأَنَّهُ عَمَّا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ مِنَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ، وَأَمْرٍ بِالْمَعْرُوفِ وَحَسْبُكَ
أَنْ تُعْرِفَ بِهِ وَتُذَكَّرَ ؛ وَخُذْ فِي الْحُدُودِ بِالْإِعْتِرَافِ أَوْ الشَّهَادَةِ ، وَلَا تَتَعَدَّ حَدَّهَا بِنَقْصِ
وَلَا زِيَادَةٍ ؛ وَكَمَا تُقِيمُهَا بِالْبَيِّنَاتِ ، فَكَذَلِكَ تَدْرُؤُهَا بِالشُّبُهَاتِ . وَفِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ
مِنْ أَعْيَانِ الدَّوْلَةِ وَوُجُوهِهَا ، وَكُلِّ سَامِي الْأَقْدَارِ نَبِيٍّ ؛ وَأَرْبَابِ السُّيُوفِ وَالْأَقْلَامِ ،
وَالْمَعْدُودِينَ فِي الْعُلَمَاءِ وَالْأَعْلَامِ ، وَالْمَعْدَلِينَ الَّذِينَ هُمْ مَقَاطِعُ الْأَحْكَامِ ، وَالتَّجَارِ
الَّذِينَ هُمْ عَيْنُ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ، وَالرَّعِيَّةِ الَّذِينَ بِهِمْ قِوَامُ الْعَيْشِ فِي الْأَيَّامِ ؛ مَنْ يَلْزِمُكَ
أَنْ تَكُونَ لَهُمْ مُكْرِمًا ، وَلَا يَلْبِثُهُمْ مُحْكِمًا ، وَمَنْ ظَلَمَهُمْ مَتَحَرِّجًا مَتَأَمًّا ، وَلَسَانُهُمْ
فِي الشُّكْرِ عَنِ لِسَانِكَ مَتَكَلِّمًا ؛ وَإِلَى قُلُوبِهِمْ بِجَمِيلِ السَّيْرِ مَتَحَبِّبًا ، وَلِمَسَاطِئِهِمْ - مَا لَمْ
تُسْحِطْ اللَّهُ - مَتَجَنِّبًا . وَأَشَدُّدُ مِنَ الْمُسْتَعْدِمِينَ بِيَابِ الْحِكْمِ فِي إِشْخَاصِ مَنْ يَتَقَاعَدُ
عَنِ الْحُضُورِ مَعَ خَصْمِهِ ، وَيَتَّبِعُ حَكْمَ جَهْلِهِ فَيَخْرُجُ عَنِ قَضِيَّةِ الشَّرْعِ وَحُكْمِهِ ؛
وَأَوْعِزْ إِلَى أَصْحَابِ الْأَرْبَاعِ بِإِطْلَاعِكَ عَلَى الْخَفَايَا ، وَإِبَانَةِ كُلِّ مُسْتُورٍ مِنَ الْقَضَايَا ؛
وَأَنْ يَتَّقُوا لَسَكَاتِ اللَّيْلِ وَغَفَلَاتِ النَّهَارِ ، وَخُدُّهُمْ فِي اللَّيْلِ بِمَا أَلْتَرَمُوهُ مِنَ الْحَرَسِ
مِنْ مَكَائِدِ الْأَصُوصِ وَالذُّوَارِ ، وَأَيِّقِظْهُمْ لِأَنْ يَتَّقُوا فَرُبَّمَا آجَتْنِي ثَمَرُ الْأَمْنِ
مِنْ غَرَسِ الْحِذَارِ ؛ وَإِذَا ظَفِرَتْ بِجَانِ قَدِ أَوْبَقَهُ عَمَلُهُ ، وَطَمَحَ إِلَى الْفَسَادِ أَمَلُهُ ،
فَأَجْمَعْ لَهُ بَيْنَ التَّنْكِيلِ وَالتَّوَكُّلِ ، أَوْذَى رِييَّةٍ إِنْ زَادَ رِييَّةً بِالْحَبْسِ الطَّوِيلِ ،
وَإِلَّا فَطَالِعْ بِأَمْرِهِ إِنْ كَانَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْقَبِيلِ . وَوَاوِصِلِ التَّطَوَّافَ فِي الْعَدَدِ الْوَافِرِ ،
وَالسَّلَاحَ الظَّاهِرِ ، فِي أَرْجَاءِ الْمَدِينَةِ وَأَطْرَافِهَا ، وَعَمَّرْ بِسِرِّكَ سَائِرَ أَرْجَائِهَا وَأَكْفَاهَا .
وَأَنْظِرْ فِي الْحَسْبَةِ نَظْرًا مِنْ يَحْتَسِبُ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا وَأَبْقَى ؛ وَمَنْ يَرْغَبُ فِي الْأَجْرِ

ويعرض عن شعار لباس التوبه واللبس . وأمنع أن يخلو رجل بامرأة ليست بذات
محرم : لتكون قد سلمت وسلمت من شبهتي المطعم والمطعم . واستوضح آلات
المعاملات ، وغيرها فيها تحف الموازين أو ترجح ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ
وَالسَّمَاوَاتِ ﴾ . واعتمد في تهذيبها وتصويبها ما تحسن فيه للسيء والمحسن ، لأنك
تكف أحدهما عن عمل المتهافت وعن المهوب المعن .

وتقدم بنفض الأذى عن جادة الطريق ، وأنه أن تجمل دابة أكثر مما تطيق ؛
وتفقد الجوامع والمساجد بالتنظيف إبانة جمالها ، وصيانة من أبتدأها ؛ ولا تمكن
أحدًا أن يحضرها إلا مؤدياً للفرض أو منتظراً أو مطهوعاً ، أو عالماً أو متعلماً
أو مستمعاً ؛ فإنها أسواق الآخرة ، ومنازل التقوى العارمة ؛ وأجر الأمور على عاداتها ،
وأسترشد في طرائقها ومشكلاتها ؛ فأعلم هذا وأعمل به . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة سجل بولاية قاضي بنغر الإسكندرية ، من إنشاء القاضي الفاضل ،
من هذه الرتبة ، وهي :

من عبد الله ووليه (إلى آخره) .

أما بعد ، فالحمد لله الذي نشر راية التوحيد وأعر ملة الإسلام ، وهدى بكرمه
من أتبع رضوانه سبيل السلام ؛ رافع منار الشرع وحافظ نظامه ، ومجزل الثواب
لمن عمل بأمره في تحليل حلاله وتحريم حرامه ؛ وسبع كل شيء رحمة وعلماً ، وسأوى
بين الخليفة فيما كان حكماً ، وقال جل من قائل في كتابه العزيز : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ
الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ . سبحانه من خالق لم يزل رعوفا
ببريته ، عادلاً في أفضيته ، مضاعفاً أجر من خشيه وعمل بخيفته ، موفراً ذلك له
يوم يود الجرم لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه وصاحبته وأخيه وفصيلته .

يحمده أمير المؤمنين أن أفاض عليه أنواراً إلهية ، وتعبّد البرية بأن جعلها بطاعته مأمورة وعن مخالفته منيية ؛ وأستخلف منه على الخليفة القوى الأمين ، وآتاه مالم يؤت أحدًا من العالمين ؛ ويسأله أن يصلّي على جدّه الذى عمّ إرساله بالرحمة ، وكشف بمبعثه كلّ عُثمّه ، وجعل شرعه خيرَ شرع وأمتّه خيرَ أمة ؛ فأحيا من الإيمان ما كان رَميما ، وهدى بالإسلام صراطًا مستقيما ، وخاطبه الله فيما أنزل عليه بقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْغَائِبِينَ خَصِيماً ﴾ وعلى أبينا أمير المؤمنين على بن أبى طالب الذى وقر الله نصيبه من العلم والحكمة ، وجعل خلافة فى أرضه لاتخرج عن ذريته الهداة الأئمة ؛ وعلى أهلها الأقطار ، وعترتها السادة الأبرار ، الذين ولأوهم يحظى بالجنة ومحبتهم تنجى من النار؛ وسلّم عليهم أجمعين [سلاما] باقياً إلى يوم الدين .

وإن أمير المؤمنين لما أفرده الله به من المآثر، وتوحده به من المناقب والمفانح، وخصه بشرفه من الإحسان إلى أوليائه بالإنعام إليهم فى الدنيا والشفاعة لهم فى اليوم الآخر - يرتاد لجلال الخدم من يُسار إليه ويومى ، ويختار لتوليها من يكون بأفعالها ناهضاً وبأعبائها قئوما ؛ ويسند أمرها إلى من لا يئمرى فى سؤدده ولا يختلف فى فضله ، ويعدق شئونها بمن عدقت الرياسة به وبأسلافه من قبله ؛ فيكون إذا شرف بها عرف منزلتها ومحللها ، ووقع الاتفاق على التمثل بقوله : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ .

ولما كنت أيها القاضى المكين من البيت الذى آشتهر قدره ، وأرتفع ذكره ، وحلت رتبته ، بأوصاف كل من أهله فى قوله وفعله ؛ وترددت رياسته ، فى عدد كثير لاعهد للرياسة بالتردد فى مثله ؛ وكانت لك ولن مضى من أسلافك آثار فى الخدم خلدت لكم مجداً بيقى ، وأقرت من الحديث به مالا يسمو إليه النسيان ولا يرقى ؛

فكل ما تتولونه متجمل بكم ولا يُريد معكم زياده، وكل ما يُعتمد فيه عليكم قد نال مطلوبه وبلغ الغية والإرادة؛ والذي يخرج عن نظركم يتلطف عليكم حينئذ إليكم وأشتياقاً، وإن رد إليكم يأل تشبثاً بكم وتمسكاً وأعتلاقاً.

هذا إلى ما لم من الحُرَمَات المرعيه، والمَوَات التي ليست بمنسيه. والسيد الأجل الأفضل الذي حسبته من المناخر قيامه بحق الله لما غفل الملوک عنه وقعدوا، وأستيقاظه بمُفرده حين ناموا دون أستخلافه مما عراه ورقدوا؛ وإن أنتصابه آية أظهرها الله لله، وحسم بها في رفع منار الدين كلِّ علّه؛ فإذا أنفقت الأعمار في [بيان] أوصافه كانت جديره بذلك حريه، وإذا ذُكرت آثاره في الإسلام كان العلم بكرمها لاحقاً بالعلوم الضرورية؛ فما يُنسب المتوسّع في التقرّيب له إلى تغال، ولا تضييع وقت يقضى في أهتام بالثناء على مناقبه وأشتغال - يواصلُ الثناء عليك والشكر لك، ويتابع من ذلك ما إذا ذكر اليسير منه شرفك وجملك؛ ويصف ما كان لأخيك القاضي المكين - رحمه الله - من الاجتهاد في المناصحات، ومن الأفعال الحسنه والأعمال الصالحات، ومن الوجاهة التي أحلته مكاناً متجاوزاً غاية الآمال الطامحات، مارفعه عن طبقات كثير من سادات الناس، وجعل حاسديه في راحة لما شملهم من دعة اليباس. وإنك أيها القاضي المكين، الأشرف الأمين؛ قد بلغت مداه في الجلاله، وورثت مجده لا عن كلاله؛ وحويت فضله ونقره، وقفوت أثره وأحييت ذكره؛ وحزت خلاله الجميلة وأفعاله الرضيّه، وحصلت الفضيلتين الذاتيه والعرضيه؛ ولذلك تقررت نعوذك «القاضي المكين» لأستجاباك فيما تقضى به جزيل الثواب، ولتكن أفعالك في محل الصواب؛ و«الأشرف الأمين» لشرف نفسك، وكون أمانتك في حاضر يومك على ما كانت في ماضى أمسك؛ و«تاج الأحكام» لأن ما يصدر منها سامى المنهاج، وقد ارتفع محلّه كما

أرتفع محلُّ التاج؛ و «جمالُ الحُكَّام» لأنك لما وَايَلَيْتَ ماوُلُوا، جملتهم إذ فعلتَ من الواجب فوق ما فعلوا؛ و «عمدَةُ الدين» لأنَّ من كان مثلك ركنَ إليه الدينُ وأستند، وتوَكَّأ على جانبه وأَعتمدَ؛ و «عمدَةُ أمير المؤمنين» لأنك ذخيرةٌ لدولته، ونِعْمَ البقيةُ الصالحةُ لمملكته .

ومعلوم أن نثر الإسكندرية - حماه الله تعالى - النثر الرفيعُ المقدار، الذي هو فِرةُ العين للإسلام وقدَّى في عيون الكُفَّار؛ ومحلُّه مما تتطامن له معاقلُ التوحيد وحِصُونُه، وهو مشتملٌ من الفقهاء والصلحاء والمرابطين وأهلِ الدينِ على من لم يزل يحفظه ويصونه؛ وإليه تتنازلُ السُّفَّار^(١)، وتتردُّ التُّجَّار، وهو المقصود من الأقطار القصية النائية، ومن البلاد القريبة الدانية؛ وما زالت أحواله جاريةً بنظرك على أحسن الأوضاع وأفضلها، وأوفى القضايا وأكملها؛ وما كان استخدامُ غيرك فيه إلا ليظهر إشرافَ شمسك، وليزول الشكُّ في تبريزك على جنسك، ولتبين فضلُ مباشرتك وتوَلِّيك على أن ذلك لم يكن مكتماً، ولتحقق أن عقدَ صلاحه لا يكون بتولى غيرك متسقاً ولا منتظماً .

وقد رأى أمير المؤمنين إمضاءَ ما رآه السيدُ الأجلُّ الأفضل من إقرارك على الحكم والقضاء: لأطلاعك من ذلك على سرِّه، ونفاذك في جميع أمره؛ ونجبرتك به ودربتك، ولأستقلالك ومضائك ومعرفتك؛ وإنك إذا استمرت على عادتك، غيبتَ عن تجديد وصيتك؛ فتماد على سنتك، ولا تخرج عن سبيلك ومحجَّتك؛ وأنت تعلم أن الشهود بهم يُعطى الحُكَّام ويمنعون، وأقوالهم يفصلون ويقطعون؛ وبشهاداتهم تثبتُ الظلمات وتبطل، وعليها يعتمد في انتزاع الحقوق ممن يُدافع ويمطل؛ فواجبٌ أن يكونوا من أتقياء الورى، ومن لا يتبع الهوى؛ فأستشف

(١) أى تنصب وترد عليه كثيرا انظر اللسان والقاموس .

أحوالهم ، وأستوضح أمورهم وأفعالهم ؛ فمن كان بهذه الصفة فأجره على عادته في أستماع مقالته ، ومن كان بخلافه ففقد الأمر على عدالته ، وأحسب مادة الضرر في قبول شهادته ؛ وقد جعل لك ذلك من غير أستئذان عليه ، ولا اعتراض لك فيه ؛ ولا تقترب أحداً من رتبة العدالة ، وأرفعها بإزالة الأطلاع فيها عن الإهانة والإذالة ؛ وأغضض من أبصار المتطلعين إليها ، والمتوثبين عليها ، بالتطأرح على الجهات ، وألتماسها بالعنايات التي هي من أقوى الشبهات ؛ وإن ورد إليك توقيع وتركية من الباب فأصدره [في] مطالعتك ليحيط العلم به ، ويخرج إليك من الأمر ما تفعل على حسبه ؛ وأفعل في دار الضرب وأحوال المستخدمين والمتصرفين على ما أنت به العالم البصير ، والعارف الخبير .

وقد جعل لك إضافة إلى ذلك النظر في أمر جميع هذا الثغر المحروس وأسند إليك ووكل إلى صائب تديرك ، وإلى حسن تهديك ؛ وإلى بركة سياستك ، وإلى عملك فيه بمقتضى ديانتك ؛ وصار جميع المستخدمين به من قبلك متصرفين ، ولأوامرك متوكلين ، وعند ما تحته واقفين ، ولرأسهم متابعين غير مخالفين ؛ فمن أحمده منهم وعلمت نهضته فأجره على عادته ورسمه ، ومن كان بخلاف ذلك فاستبدل به وأخ من الخدمة ذكر اسمه ؛ فلا يد مع يدك ، ولا عدول عن مقصدك ؛ والاستخدام في هذا الأمر قد أسند إليك ورد ، وكونه من جهة غيرك أغلق بابه وسد ؛ فلا تصرف فيه إلا لمن صرفته ، ولا خدمة إلا لمن أستخدمته .

وتأكيد القول عليك لا يزيدك حرصاً ، والمعرفة بهمتك وخبرتك تغنيك عن أن توصي ؛ والذي تقدم ذكره في هذا السجل إرهاف لحدك ، وإعلاء لحدك ، وإطلاع لكوكب سعدك ؛ والله يتولى تأييدك وتوفيقك ، ويوضح إلى الخير سبيلك وطريقك ؛

فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجلس النظر بأمر خدمتك ، وما تحتاج إلى عمله في جهتك . إن شاء الله عز وجل .



وأما السجلات المكتتة بالوظائف الديوانية ، فكما كتب به بعض كتابهم بولاية ديوان المربح :

لسني الدولة وجلالها ، ذى الرياستين ، أبى المنجى سليمان بن سهل بن عمران .
أما بعد ، فإنه من حسنت آثاره في مناصحات الأئمة الخلفاء ، وأرتفع محله في طاعتهم عن الأنظار والأمثال والأكفاء ، وظهرت بركات أفعاله فيما يتولاه ظهور الشمس ليس بها من خفاء ؛ وبأهى بتديره كل ما يباشره من أمر خطير قدره ، وأستدعت من الثناء والإطراء ما يتأرجح نشره ويتضوع ذكوه ؛ وتساوى عنده القول والعمل ونافس فيه الخبر الخبر ، ورتبه مرتبه مقدما على من مضى من طبقته وغبر ؛ ووسم الأعمال بسما في العائر تضاف إليه وتنسب ، وغدت الخدم ترهى به وتعجب ، وهو لا يزهى ولا ينظر ولا يعجب . كان رد المهمات إليه حسن نظرها ، وإذا حطرت جلاله توليها على غيره أضحى نفاذه متمجها له محلها ؛ وكان التنويه به حقا من حقوقه وواجبا من واجباته ، والمبالغة في تكريمه وتفخيمه مما يتعين الانتهاء فيه إلى أقصى أماده وأبعد غاياته .

ولما كنت في متولى الدواوين ، مشهور الشأن والقدر ، وحالا من مراتب الكفاة المقدمين ، في حقيقة الصدر ؛ إن أنتظموا عقدا كنت فيه الواسطه ، وإن قسط غيرك على معامل لم تكن أفعالك قاسطه ؛ ولك السياسة التي ظلت ساحاتها رحابا ؛

والرياسة التي من وَصَفَكَ بها فما تَمَلَّقَ ولا داجى ولا حابى؛ والصَّنَاعَةُ البارعة التي تشهدُ بها الطُّروس واليراع؛ والأمانة الوافية التي آرتفع فيها الخلافُ ووقعَ عليها الإجماع؛ والتصرُّفُ في أنواعِ الكتابةِ على تباينِ صُروبها؛ والاستيلاءُ على ظاهرها ومستورها وواضحها ومكتومها، والأخذُ لها عن أهلِ بيتك الذين لم يزلوا فيها عَرَبِينَ، ولم ينفكوا في مداها سابقين غيرَ مَأْخُوقِينَ؛ وقد زِدْتَ عليهم بما حُرِّتَهُ بهِمَّتِكَ، ونِلْتَهُ بِقَرِيحَتِكَ؛ حتى بلغتَ منها ذِرْوَةَ شامخةٍ عليه، وحصلتَ فضيلتين فضيلةً ذاتيةً وفضيلةً عَرَضِيَّةً؛ وأمِنْتَ من يُباريك ويساجلك، وكُفِيتَ من يناوئك ويَطَاوئك؛ وكان الديوانُ المُرتَجِعُ عن بهرامٍ وغيره من أجلِّ الدواوين وأوفاهَا، وأحقَّها بالتقديمِ وأولاها: لأنه يَسْتَمِلُ على نواجٍ مختاره، ويحتوى على ضياعٍ مكثوفةٍ بالعاره؛ وقد زاده مِيزَةً على غيره كونك ناظرًا فيه، وأنت مدبِّرُ أمره ومستوفيه.

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره السيد الأجلُّ الأفضَلُ الذي عزَّ بحُسن سيرته الملكُ وتضاعفَ بهاؤه، وصنَّمتُ مصالحَ الأمور تديراته وآراؤه؛ وظلَّتْ شُؤونُ الدولة بما يقرره منتظمةً مستقيمةً، وغدَّتِ الميامنُ والسعودُ محيِّمةً في داره مُقيمه؛ وأتَّفقتُ على الثناء عليه مختلفاتُ الأقوال، وقضتُ مهابةً بحماية النفوس وصيانةِ الأموال. وفاوضه في أمر هذا الديوان فأفاضَ في وَصْفِكَ وشُكْرِكَ، وأطنبَ في تَقْرِيطِكَ وإجمالِ ذِكْرِكَ؛ ونبَّهَ على الحظِّ في توَلِّيكِ إِيَّاهُ، وواصلَ من مدحك بما يتضوَّعُ عَرَفُهُ وَيَطِيبُ رِيَّاهُ؛ وقررتُ لك من توَلِّيهِ ما يصلُ سببَ الخيرات بسببه، وميزك بما لم يطمع أحدٌ من كافة متولى الدواوين به؛ فلم يجعلَ فيه يدًا مع يدك، ولا نظرا لإلالك بمفردك؛ فلا يرفعُ [أحد] شيئًا إلى غير ديوانك من حساب ما يجرى في أعماله، ولا مُعاملةً لبيت المال إلا معك فيما يحلُّ من أمواله. فأمضى

أمير المؤمنين ذلك وأمر به ، وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الديوان المرتجع المذكور : ثقةً بأنك تأتي فيه على الإرادة ، وتنتأى لبُلوغ الغرض وزيادة .

فأستخِر الله تعالى وباشِرْ أمره بجِدِّك المعهود ، وشمر عن ساق عزمك المشهود وسعيك المحمود ؛ وأجرِ على رَسْمِكَ في العمل بما يحفظ أوضاعه ، ويُزجِي آرتفاعه ، ويُزيح عِلَّتَه ، ويُغزِر مادته ؛ فأعتد مواصلة الليل والنهار في مصالحه فرضاً إذا أعتقدها غيرك قُفلاً ، وأجعل اجتهادك لاستخراج أمواله وكُنْ عليها إلى أن تصل إلى بيت المال قُفلاً ؛ وأستنظف ما فيه من تقاوٍ وبقاٍ ؛ وأفعل في تديره ما يُجري أمره على الوفاق ؛ وأستخدم من الكُتَّاب من تحمده وترتضيه ، ونصهم إلى الأفعال التي تستدعي شكرك لهم وتقتضيه ؛ ولا تُسوغ لضا من ولا عاملٍ أن يقصر في العماره ، وأعتد من ذلك ما يكون على كفايتك أوضح دلالة وأصح أماره .

وقد أمر أمير المؤمنين أن تُجرى الحال على ما كانت عليه من دخول ذلك وبيعه بغير مكس في جميع الأعمال ؛ وأزاح مع ذلك عِلَّتَكَ ببسْط يدك وإنفاذ أمرك وإمضاء قولك ، وإفراذك بالنظر من غير أن يكون لأحد من متولّي الدواوين على اختلافهم نظرٌ معك ؛ فتماد في حُسن تديره على سُنَّتِكَ ، ولا تُخرج عن مذهبك وطريقتك ؛ والله يوفقك ويُسعِدك ، ويُعينك ويعضدك ؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله عز وجل .

المرتبة الثالثة

(من المذهب الأول من سبجات ولايات الفاطميين أن تفتتح

بالتصدير أيضا ، وهو « من عبد الله ووليه » إلى آخر التصلية على

النبي صلى الله عليه وسلم وأمير المؤمنين على رضى الله عنه ، ثم يُؤتى بالبعدية ،

لكن من غير تجميد ، بل يقال : « أما بعد فإن أولى » أو « إن أحق »

ونحو ذلك ؛ ويذكر مناقب المولى ثم يأتي بالوصايا)

وأعلم أنّ هذه المرتبة من السبجات يشترك فيها أرباب السيوف وأرباب الأقاليم

من أصحاب الوظائف الدينية والوظائف الدبوانية .

فأما سبجات أرباب السيوف فكأصحاب زُوم طوائف الرجال ، يعنى التقدمة

عليهم والولايات ونحو ذلك ، على ماسياتى ذكره إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخ ولايات لأرباب السيوف بالخصرة من هذه المرتبة .

نسخة سبج بز طائفة ، من إنشاء القاضى الفاضل ، وهى :

من عبد الله ووليه (إلى آخره) .

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين يسطع من يرتضيه لتأليف عبيده وصمهم ، ويستوقفه

للنظر فى تقديم رجال مملكته وزمهم ، ويختار من يجتبيه لإحراز مدحهم بالبعد

من موجبات ذمهم ؛ ولا يؤهل لذلك إلا من توصل بالنعاء وتقرب ، وأستقل بالأعباء

وتدرب ؛ وأطلق حدّه التوفيق فضلى وتدرب ، وأودع الإحسان فى زایل محله

ولا تقرب ، ولا بس الأمور ملابسة من فطن وجرب ؛ وقد أيد الله دولته بفتاه

وأمينه ، وعقده وثمينه ؛ السيد الأجل الذى غدت آراؤه للصالح كوافل ، وأذكى

للتدبير عيون حرم غير ملتفتات عنه ولا غوافل ؛ وأطلع من السعد نجوما غير غوارب

ولا أوائل ، وقام بفرائض النَّصائح قيامَ من لم يُحَوِّزَ فيها رُخْصَ النَّوافل ، وتحدَّثت بأفعاله رماحه في المحافل فما راعت الجحافل .

ولما مثل بحضرة أمير المؤمنين أجمل ذكرك واطابه ، وقصد بك غرض الإصطناع فأصابه ، واستمطر لك الإنعام الغدق السحاب فأجابه ؛ ووصف ما أنت عليه من شهامةٍ شهدت وشهرت ، وصرامةٍ تظاهرت وظهرت ؛ وكفاية برعت وفرعت ، ونزاهةٍ استودعت الأمانة فرعت ؛ ومناجحةٍ أنفردت بوصفها ، وتحلَّت واسطة عقد صفتها ؛ وجهادٍ لم يزل به القرآن مغرباً ، والصعبُ المقاد مدعنا وانحطب عابياً (؟) في قيادها مدعياً ، وقزرك الإستخدام في زم الطائفة فأمضى تقريره ، وأستصاب تديبه ؛ وخرج أمره إليه بأن يُوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل وإيداعه ماتهدى به ، وتعمل بتأديبه .

فتقلد ماقلدته من ذلك عاملاً بالتقية فإنها الحجة والمحجة ، والجنة والجنة ؛ والمدد السليم ، والمرج القويم ، والنعمة والنعيم ، بقول الله سبحانه في كتابه الحكيم :
﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

فانهض بشروط هذا الزم نهوضاً يؤدي عنك من النصح مفروضاً ، ويجعل لك كل يوم كتاب شكر مفوضاً ؛ وسس هذه الطائفة بما يوليها دواعي الوفاق ، ويحييها من عوادي الإقتراق ؛ وأجهد في منافعها مجتلباً ، ولأخلاف درها محتلباً ؛ وأنتصب لاستشفاف أحوالهم وتعهدوا ، وملاحظة أفعالهم وتفقدوا ؛ فن ألفتته إلى فرائض الخدمة مسرعا ، وبنوافلها متطوعا ، وبكرمه عما يشينه مترفعا ؛ شحذت بصيرته بالتكريمه ، ورشحت همته للتقدمه ؛ ومن وجدته لتلك الصفات الزائنة مخالفا ، وللصفات الشائنة مؤالفا ، ولنفسه عما يرفعها صارفا ؛ قومته أوده وثقفته ، وأشرفت به على منهج الصراط ووقفته ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة سيجل بولاية الفسطاط المعبر عنها بمصر على نحو ما تقدم في ولاية القاهرة، وهي :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين لما خصَّ الله به آراءه من التأييد الذي يستدّ سَهَامَهَا ، وَيُجْزِل من التوفيق سَهَامَهَا ؛ وَأُطْلِق به يَدَهُ من أَيَادٍ تَسِيْقُ آمَادَ الآمَالِ وَتُكَاثِرُ أَوْهَامَهَا ، وَأَلْبَسَ الدِّينَ ببقائه من مهابة تصير قلوب أعدائه مهامها ؛ وميز به عَصْرَهُ من خصائص نصر لأتطيل الأيام أستفهامها ولا تخشى استبهاها ، ويسره من نبيا دعوتيه التي طبقت أنجاد الأرض وتهاها ، ورقاه من محلل أمانة الإمامة التي لا يظهر أرباب الألباب على أسرار الله ولا آتهاها ؛ وناطه بتديره من إيالة البرية والاعتناء بمصالحها ، وأصابه من مرآشد اليقين التي تستضيء العقول بمصاحيها ؛ وأتى به الأنفس الصالحة من تقواها ، وصرف بما صرفه على لسانه من الحكم عنها مضار الشبه وطواها ، وألبسه من هدى النبوة التي قرب الله إسناده من رآها وفضل من رواها - يستغزر مواد التوفيق من خالقه بوضحه في الخلائق ، ويقدم الاستخارة بين يدي أفعاله فهي به أملك الخلال وأخص الخلائق ؛ ويعتام للقيام بتكاليف الاستنهاض ، ويختار لتقويم المياد من أشهر بالتدبير وجبر المنهاض ؛ ويقدم ليجار الولايات وعواليها ، وخصائص الرتب وغواليها ، من تكافأت في استيعاب المحاسن خلاله ، وخطب الخدم المتكثرة لأولى الحظوظ أستقلاله ، وعلم استبداده بطيب الذكر وأمن انفصاله ، وأوى إلى جنة مريعة وجنة منيعة من الولاء والحفته ظلاله ، وأستقام على محجة واضحة من المخالصة ولم يخف زيغه ولا ضلاله ، ومضت ضرائبه في المهمات مضاء الحسام الذي لا ينبو حده ولا يثبت أنفاله ، وصح بصيرة

في المناصحة فاسر الأعداء شكه ولا اعتلأه ، وأعطى الخدم حقوقها من إقامة القوانين ، ونهض بأعبائها المثقلة نهضة المشمرين غير الوانين ؛ وأشدت وطأة تبادره على المفسدين والجانين ، وتظاهرت شواهد ميزته بما يكثر له الحساد ويرغم الشائين ؛ وأقتنى من نفائس المحامد ما يعده أهل النظر قنية القانين ، وأستبقى من جميل الأحداث ما يبيح ذكره بعد فناء القانين ؛ ووفقت في الخدمة مصادره وموارده ، وانتظمت دُرر الذكركر بحسن ذكره فأتلقت فوارده ؛ ونشدت ضوأل العناء فالتقت عنده غرائب وشوارده ؛ وأختصت مساعيه بالإبرار على الأنظار ، وصحت خلاله على عيب النقد كما صحح النار نور الأبصار ؛ ونظر لمن أسند إليه أمره نظراً يعفيه من تطرق الأكدار والمضمار ؛ ورعى له ما هو متوسل به من آثار حقيقة بالإيثار ، وكفاية تأخذ للخدم من الفخر بالثار .

ولما كنت أيها الأمير المراد بهذا الإيراد ، المطرد إليه هذا الاستطراد ، المعنود في أمراء الدولة العلوية من الأعيان الأفراد ؛ المحلى سيفه بين المساعي الجميلة ينتقى منها ما أختار ويصطفى ما أراد ؛ المهادئ الصفات الحسنة فلا جاحد من عاداته ولا راد ؛ المضطلع بما يعني حمله الحازم المطيق ؛ المستنفد في أفعاله المشكورة أقوال الواصف المنطيق ؛ الواصل بمحمود مساعيه إلى غايات السابقين في مهل ؛ الجامع في تدبير المهمات بين رأيي أحتك وحزم أكتهل ؛ المنظور بعين الحزم بآيات دواعيه ، المترقى إلى أمانيته في درج مساعيه ؛ الحبيب دعوة العزم إذا قام فلم يسمع المقصرون داعيه ، المجتهد في تشييد أركان التدبير إذا ارتقب اضطرابه وخيف تداعيه ، الممثل وصايا الأدب الصالح فهو بقلبه راعيه وبسمعه واعيه ؛ الشهم الذي ينفذ في الأمور نفاذ الشهم ، الأملعي الذي علا أن يماثل بما أوتي من بسطة الفهم ؛ المتبوي من النعمة منزلة شكر لا يروم ضيقها أن يريمه ، ومرجع حمد لا يسوم نازها غير

أن يُسَيِّمه ؛ المباشِر من ماثور السياسة ما استفاض ذكره فلم تتطرق عليه أسباب
المحمد ، البالغ بسمو المساعي ما قصر الأكفاء عنه ولم يقصروا عن الجهد ؛ الحال
من التقدمة في هضابها إذا نزل الأكفاء منها في الوهد ، الحامل من أعباء المشايعة
ماغداً به من الموفين على الأنظار الموفين بالمعهد ؛ المحقوق من الوسائل بأن يجودها
النجاح بأعز رديمة وأسقى عهد ؛ المؤدى فيما يُسند إليه فروض التفويض ، الملى
بأن لا تتوب فرصة حزم إلا كان ملياً بالحق والتعويض ؛ المكتفى من وصايا الحزم
بما يقوم له مقام التصريح من التعريض ، المستوجب أن تُجدى إلى استحقاقه
وتهدى سحاب الطول الطويل العريض ؛ المستوعب شرائط الرياسة بالاستيلاء
على أدواتها ، المتبّع مظان الخطوب بمفاجأة الغرض في مداواتها ؛ المبرز على القرناء
بجلال لا تطمع الهمم في مساماتها ولا مساواتها ، الآخذ من كل شيء بأحسنه فأى
حسنة لم يؤتها ولم ياتها ، النافذ الآراء إذا المشكلات لم يتضح لأرباب الأبواب
مُصمت بيانيها ، المصيب شواكل الضرائب فسهاً آرائه مذلولة على شواتها ، المتبرج
المقاصد لعيان الحمد إذا تحفرت الأفعال ووارت سواتها ، المعروف بثبوت الجنان ،
حين يلتبس الشجاع بالجان ، المشكور في مواقف الحرب بأفواه الجراح ولسان
السنان ؛ المقدم حيث الأعضاء تتزيل والأقدام تتزلزل ، المقتحم غمرات الهيجاء
والأرواح عن ولايات الأجسام تعزل . وقد وليت الولايات فاستقلت بها أحسن
استقلال ، ورفع لك منار العدل فاستدلت منه بأوضح استدلال ؛ وجعلتها على من
تؤويه حرماً ، وعلى من يطرقها حمى ؛ وكنت لجمهور زمانك في المصالح والنصائح
مقسماً ، ولحكم التقوى ولو ضقت مشقاتها دون حكم الهوى محكماً .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين قتاه ووزيره السيد الأجل الذي حل المشكلات
من رأيه ورأياته بالشمس ومخاها ، وتعرضت له آية الليل من العدا بخلاها بسيوفه

ومحآها ، وثبت نصاب الملك الفاطمي حين أدارت الحرب على فتكاته رحاها ،
وأقتاد الأعداء إلى مصارعها بخزائم من العزائم وأعجلها وأوحاها ، وقام بنصر أئمة
الهدى حين قعد الناس ، وزعى الله عزيمته الصابرة في البأساء والضراء وحين
الباس ، وخاطر في حفظ الدين بنفس تجرى مجبها مع الأنفاس ، وحل من ملوك
الأرض محل العين من الراس بل الراس من الحوأس ، وأتعبت الأجسام هممه
الحسام ، وأعدى الزمان فنبسم جدلا بعدله البسام ، وقسمت المطامع أمواله فخمى
المجد الموقر عليه من الأقسام .

فطالع أمير المؤمنين بأخبارك بعد اختبارك ، وتوسلك إلى التقدمة بمرضى آثارك ،
وما أظهره الأمتحان من نقاء سريرتك وأسرارك ، وأستقامتك على مثلى الطريقة
وأستبصارك ، وأن ولاية مضر من أنفس الولايات محلا ، وأمتها على غيرها فضلا ،
مجاورتها للقام الكريم ، وحصولها من استقلال الركاب الشريف إليها على الشرف
العظيم ، وأختصاصها من مجال الخلافة بما جمع لها بين الفخرين الحادث والقديم ،
وأوجب لها على غيرها من البلاد مزية ظاهرة التكريم والتقديم ، وما يمت به أهلها
من شرف الحوار الذى لآمالهم به التخيير في الإحسان والتحكيم .

وما رأى من إسناد ولايتها إليك علما أنك ممن تركو ليه الصنيعه ، وتروق
في جيد كفايته فرائد المنن البضيعه ، وتتطامن لأستحقاقه ذروة كل مرتبة رفيعه -
خرج أمر أمير المؤمنين إليه ، بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل لك
بالولاية المذكورة . فتقأ ماقلدك منها مقدما تقوى الله على كل فعل وقول ، متبرئا
إليه من طول الحول ، معدا ذخيرتها النافعة ليوم الهول ، قال الله فى مُحكم الكتاب :
﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَآتَقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ .

وَأَنْظُرَ فِي هَذِهِ الْوَالِيَةِ حَاكِمًا بِالْقِسْطِ ، وَسَاوِيَ الْحَقِّ بَيْنَ طَبَقَاتِ النَّاسِ ؛
وَلَا تَمَيِّزْ فِيهِ رَفِيعًا عَلَى حَقِيرٍ ، وَلَا غَنِيًّا عَلَى فَقِيرٍ ؛ وَأَقِمِ الْحُدُودَ عَلَى مَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ
إِقَامَةٌ يَرْتَدِعُ بِهَا الْمَغْرُورُ ، وَتَسْتَقِيمُ بِهَا الشُّؤُنُ وَتَنْتَظِمُ الْأُمُورُ ؛ وَرَاعِ مَنْ بِهِذِهِ الْمَدِينَةُ
الْمَحْرُوسَةُ مِنْ شُهُودِهَا ، وَمَتَمِّزِي أَهْلِهَا ، فِيهَا الْفُقَهَاءُ وَالْأَتَقِيَاءُ ، وَالْقُرَّاءُ وَالْعُلَمَاءُ ؛
وَالْمَتَمَيِّزُونَ الْأَعْيَانُ الْوُجُوهَ ، وَأَهْلَ السَّلَامَةِ الَّذِينَ يَسْتَوْجِبُ كُلُّ مِنْهُمْ نَيْلَ مَايَأْمُلُهُ
وَبُلُوغَ مَا يَرْجُوهُ ؛ فَاعْتَمِدْ عِزَّزَهُمْ ، وَتَوَخَّ تَكْرِمَتَهُمْ ؛ وَوَقِّهْ مَا يَجِبُ لَهُمْ مِنَ الْحَقِّ ،
وَأَلْقَهُمْ بِالْوَجْهِ الْمُسْفِرِ الطَّلُقِ ؛ وَأَسْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَنَصَّ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَعَاقِبُ
عَلَيْهِ ؛ وَتَفَقَّدْ أَحْوَالَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ ، وَحَافِظْ عَلَى إِجْرَائِهَا عَلَى أَحْكَامِ الصَّوَابِ
وَقَضَايَا الْوَاجِبِ ؛ وَاحْظُرْ فِي الْمَكَائِلِ وَالْمُؤَاظِنِ الْبَخْسَ وَالتَّطْفِيفَ ، وَقَدِّمِ الْإِنذَارَ
فِي ذَلِكَ وَالتَّحْذِيرَ وَالتَّخْوِيفَ ؛ وَأَوْعِزْ بِتَنْظِيفِ الْمَسَالِكِ وَالسَّاحَاتِ ، وَأَمْنَعْ مِنْ
تَوَعِيرِ السُّبُلِ وَالطَّرِيقَاتِ ؛ وَاعْتَمِدْ كُلَّ لَيْلَةٍ مُوَاصِلَةَ التَّطَوُّفِ عَلَى أَرْجَاءِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ
وَأَكْثَافِهَا ، وَمُتَابَعَةَ الْإِطْلَالِ عَلَى نَوَاحِيهَا وَأَطْرَافِهَا ؛ وَاعْمَلْ فِيمَنْ تَظْفَرُ بِهِ مِنْ عَابِثِ
وَعَادٍ ، وَمُنْتَهَجِ طَرِيقِ الْفَسَادِ ، مَا يَرْتَدِعُ بِهِ سِوَاهُ ، وَيَجْعَلُهُ مَوْعِظَةً لِمَنْ يَعْدِلُ
عَنِ الصَّوَابِ وَيَتَّبِعُ هَوَاهُ ؛ وَأَشْدُدْ مِنَ الْمُتَصَرِّفِينَ عَلَى بَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ فِي قُودِ آبَاءِ
الْخُصُومِ ، لِيُنْظَرَ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَنْتَصِفُ بِهِ الْمَظْلُومُ مِنَ الظُّلْمِ ؛ وَتَقَدَّمْ بِتَوْقِيرِ الْجَوَامِعِ
وَصِيَّاتِهَا ، وَحَافِظْ عَلَى مَاعَادِ بِيَهْجَتِهَا وَنِظَاقَتِهَا ؛ وَخُذِ الْمُسْتَعْدِمِينَ فِي الْأَرْبَاعِ بِأَنْ
يَتَّقِظَ كُلُّ مِنْهُمْ لِمَا يَجْرِي فِي عَمَلِهِ ، وَأَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا يَحْدُثُ وَيُنْبِئُ إِلَيْكَ مِنْ قِبَلِهِ ؛
وَأَنْظُرْ فِي الصَّنَاعَةِ الْمَحْرُوسَةِ ، وَفِي عَمَائِرِ الْأَسَاطِيلِ الْمَظْفَرَةِ الْمَنْصُورِ ؛ وَتَوَقَّرْ عَلَى تَدْيِيرِ
أُمُورِهَا وَالْإِهْتِمَامِ بِشُؤْنِهَا ؛ وَحَفِظْ مَا فِيهَا مِنَ الْأَخْشَابِ ، وَالْحَدِيدِ وَالْعُدَدِ وَالْآلَاتِ
وَالْأَسْبَابِ ؛ وَأَبْعَثِ الْمُسْتَعْدِمِينَ عَلَى الْمَنَاصِحَةِ فِيهَا ، وَبَدِّلِ الْجُهْدَ فِي قَصْدِ مَصَالِحِهَا
وَتَوَخَّيْهَا ؛ وَأَجْرَأْ مَرَّ هَذِهِ الْوَالِيَةِ عَلَى مَا يَشْهَدُ بِحُسْنِ أَثْرِكَ ، وَجَمِيلِ ذِكْرِكَ وَطِيبِ

خبرك؛ فاعلم هذا وأعمل به، وطالع مجلس النظر السيدى الأجلّى بأمور خدمتك، وما يحتاج إليه من جهتك؛ إن شاء الله تعالى.



وهذه نسخة سجل بولاية الأعمال القوصية، وهى بعد التصدير:

أما بعد، فإن أمير المؤمنين لموضع من خلافة الله التى أعمره إياها، وأنار بنظره محياها؛ والإمامة التى أفرعه ذراها، وناط به عراها؛ وما وكله إليه من القيام، بحفظ الإسلام، الذى رضىه ديناً، وألبسه بعدله تحسیناً وبذبه عنه تحصيناً؛ وما استودعه إياه من جوامع الحكم، وعدقه بكفالاته من رعاية الأمم، وعضده برأيه من التأييد والتوفيق، وأوجه من فرض طاعته على كل مطبق - يصطفى لمعونه على النهوض بما حمّله الله من أعباء الأمانة، والشكر على ما أختصه به من الوجاهة عنده والمكانة؛ ويستكفى فيما أمر به من إحسان الإيالة فى بريته، وينتخب لتفويض أمورهم والسلوك بهم مسالك رأفته فى سيرته - من يكون أصطفاؤه لرضا الله عنه مطابقاً، وأجتنابؤه لشرائط المراد والأقتراح موافقاً؛ وانتصابه للهمم أفضل ما يدي به وقدم أعتماده، وإسناد الأمر الجسيم إليه أوفى ما عظم بتدبره شأنه ورفع بنظره عماده؛ وإن ولى ولاية، جعلها بمهابته حرماً آمناً على أهلها من المخاوف، وغداً حسن سيرته برهاناً على فضله يضطر إلى التصديق به المؤلف والمخالف؛ وأعاد حميد أثره محلها ربيعاً ممرعاً، وقرب حسن شأنه من المطالب ما كان بعيداً ممتنعاً؛ وإن نذب للخلجى، عاد مظفر المقاصد، محفوفاً باليأمن والمساعد؛ ساحباً ذيل الفخر، حائرًا لکنوز الأجر؛ مستعينًا بتوحيده على العدد الجم، والعسكر الدهم^(١).

وإن هذه الأوصاف قد أصبحت لك أيها الأمير أسامي لم تزدك معرفه، وخواص المهيمات إلى ملابستك إياها متطعة متشوفة، وأفعالك الحميدة قد بنت لك بكل ريع منارا، وجعلت لك في كل مكرمة سمات وآثارا، وجميل رأى أمير المؤمنين فيك، قد زاد توفيق مساعيك، وضاعف آرتقاء معاليك، وجعل الخيرة مقترنة بمقاصدك ومراميك، وسمّا بك إلى رتبة من الوجاهة تتذبذب دونها مطارح الهمم، وأحلّك من الثقة بك منزلة لا تفضى إليها خواطر الظن والتهم، وتحقق من يقينك ومضاء عزيمتك، وعدل سيرتك وصفاء سيررتك، ماجعل حظك عنده زائد الثماء، وذكرك بحضرتة مكنوفاً بالشكر والثناء، ووسائلك إليه متقبلة، وقد أدركت في ريق الشباب حزامه الكهول، وأستنجحت في مقاصدك بضمير من الولاء مأهول، ولك البيت الذي كثُر فيه الأجداد والأفاضل، وأحلّك في دعة الناس من يخافهم المباري والمناضل، وتساوت في اعتقاد تفضيلهم حالتا السر والجهر، وأصلح بعزائمهم مآظهم من الفساد في البر والبحر، وفَتَّ المطامع بفضيلة هذا النسب وفضيلة النفس، ودلت ما تُرك على ما ظهر من خصائصك دلالة الفجر على الشمس.

ولما رآك أمير المؤمنين أهلاً للعون على استيجابه لطفاً لله عنده، وألتماس عوائد صنعه الجميل فيمن فارق سعيه ونبد عهده - آتضى منك حُساماً حاكماً للأدواء، معيناً في الأواء، طبياً بتأليف الأهواء؛ لا ينبو غراره، ولا يخشى اغتراره؛ ولا يفلح حده، ولا يؤويه غمده؛ فأنحقت الدماء، وسكنت الدهماء؛ وعم الأمن، وعظم من الله تعالى الطول والمن؛ وأصبح مكان القول فيك ذا سعة فسيحا، ولسان الإجماع لأفعالك منطلقاً فصيحاً؛ وحصلت من الوجاهة عند أمير المؤمنين بحيث [لاناباك] رتبة خطيره، ولا تتأى عنك بجانها [منزلة] رفيعة أثيره؛ بل غدت خواصها فيك

(١) في الأصول بحيث قدرك رتبة الخ. تأمل.

لأستجزال حظها من الجمال بك راعبه، وممتعاتها لأستكرام الأكفاء طالبة للإفضال بل خاطبه؛ إذ كان ما يعدم التمه بك لا يعدم شعنا وأختلالا، وما حظي منها بمقاربتك يتيه زهوا بك وأختيالاً؛ فإذا أراد أمير المؤمنين أن ينظر إلى عمل من أعمال مملكته ويرفع من محلّه، ويفيض عليه من سحاب رأفته ما يكون ماحياً لآثار جذبته ومحلّه؛ ويعم بالبركات أقطاره، ويبلغ كلاً من أهله مآربه من العدل وأوطاره - أستند منك إلى القوى الأمين، والكامل الذي لا يُخدع الظن فيه ولا يمين؛ إذا أستكفي أمراً جى حماه بالماضين : حسامه وأعتزاه، وتمسك في حفظ نظامه بالحسنين : طاعة الله وطاعة إمامه .

ولما كانت مدينة قوص وأعمالها أمدى أعمال المملكة مسافه، وأبعدها من دار الخلافه؛ وتشمّل على كثير من أجناس الناس، وأخلاط يحتاج فيهم إلى إحسان السياسة والإيناس؛ وعليه معاج المسافرين من كل فج عميق، وإليه يقصد الحجاج إلى بيت الله العتيق - رأى أمير المؤمنين وبالله توفيقه أن يرد ولاية الحرب بها إليك، ويعول في تقويم مائدها وضّم نسرّها عليك؛ وأن يحسم بك داءها؛ ويحسن بنظرك رواءها؛ ويعم أهلها بك رافةً ومنا، ونخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل [لك] بالولاية المذكورة .

فتقلّد ماقلك أمير المؤمنين وأعتمد على تقوى الله التي جعلها شرطاً في الإيمان، وأمر باعتمادها في السر والإعلان؛ فقال في آبه المبين : ﴿ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وأمر بالمعروف وأنه عن المنكر، وأبسط عدل أمير المؤمنين على البابين والحضرة؛ وأقم الحدود على من وجبت عليه بمقتضى الكتاب والسنة، وقم بما أمر الله به

من ذلك بأنقذ عزمٍ وأقوى منه ؛ وسأوفى الحق بين الضعيف والقوى ، وآس بين العدو والولي [والذمي] والملي ؛ وأجعل من تضمه هذه الولاية ساكنين في كنف الوقايه ، مشمولين بالصون والحمايه ؛ وليكن أربهم في الصلاح من أربك ، فكل منهم شاكر لله على النعمة بك ؛ وبث في أقطارها ما يجزئ النفوس العاديّة عن الظلم ، ويبيد شمتهم بعد العدوان مُخلدة إلى التوابع والتسالم ؛ ومن أقدم على كباير الإجمام ، ولم يتخرج عن الدم الحرام ؛ فأمثل فيه ما أمر الله به في قوله : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَاتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ نَجْزِي فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

واعتمد المستخدمم في الحكم العزيز والدعوة الهاديّة - بثبهما الله - بما يقوى عزمه ، وينفذ حكمه ؛ وأجزل حظه من إعزاز الجانب ، وتيسير المطالب ؛ وأحسن إليه العون على صون المؤمنين ، واجتلاب المستخين . والمستخدمون في الأموال من مشارف وعامل وغيرهما فأندبهم في عمارة الأعمال ، وبلغهم في المرافدة كنه الآمال ؛ وأشدّد منهم في صون الأرتفاع ، وحفظه من الإفراط والضياع ؛ وضافهم على أستخراج الخراج ، وحذمهم بمجل المعاملين على عدل منهاج . والرجال العسكرية المركزية المستخدمون معك فاستخدمهم في الخدم السانحة ، وصرّفهم في المهمّات اتقريبية والنازحة ؛ فمن أستقام على طريق الصواب ، أجريت أموره على الانتظام والاستتباب ؛ ومن كان للإخلال آلفا ، وللواجب مخالفا ، قومت بالتأديب أوده ، وحلّته عن مورد الفساد الذي تورّده .

هذه درر من الوصايا فأبعث (؟) على إحصاره الثقة بهدايتك إلى كل صواب ،

وأعتلاقك من الديانة والأمانة بأوتى الأسباب؛ وإحاطة علم أمير المؤمنين بأستغنائك بذاتك، وكإل أدواتك، عن الإيقاظ والتنبيه، والإرشاد فيما تنظر فيه؛ والله يوفقك إلى ما يرضيه، ويجعل الخيرة مكتنفة لما ترويه وتُضيه؛ فأعلم هذا وأعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخةٌ بحجّل بولاية الأعمال الغريبة، وهى :

أما بعد، فإن أمير المؤمنين لما فضّله الله به من إمامة البشر وشرّفه، وأناله إياه من الخلافة التى نظّم بها عقّد الدين الحنيف وألّفه؛ وأمضاه الله له فى أقطار البسيطة من الأوامر، ونقله إليه من الخصائص النبوية التى تجلّت بذكرها فروق المنابر، ومكّنه له من السلطان الذى تخضع له الجابرة وتدّين، وعضّده به من التأييد الذى أرغم المشركين وحفّض منار المُلحدّين؛ وآثره به من مزايا التقديس والتمجيد، وألهمه إياه من أستكمال السيرة التى أصبح الزمنُ يجالها حالى الحيد؛ وأنجد به ملكه من موالاته النصر ومتابعة الإظفار، وحازره له من موارث النبوة المتقلّة إليه عن آبائه الأطهار؛ وأصطفاه له من إيضاح سُبُل الهدى المعتاد، وألهمه إياه من إسباغ ملابس الرحمة على الحاضر من الأمم والأباد؛ ووقّر عليه أجهتاده من أستدناء المصالح وأجتلابها، وصرف إليه هممه من تمهيد مسالك الأمانة وفتح أبوابها. يتصفّح أمور دولته تصفّح العانى بتهذيب أحوالها، ويتفقّد أعمال مملكته تفقّدا يزيل شعها ويؤمّن من أختلالها؛ ويعدّق المهمات الخطيرة بالصدور الأفاضل من أصفياه، ويزيّد فى رفع منازل أوليائه إلى الغاية التى تشهد بجلاله مواضعهم من جميل آرائه؛ ويفيض عليهم من أنوار سعادته ما يظهر سناه للأبصار، ويمتجهم من أصطفائه ما لا يزال دائم الثبات والاستقرار؛ ويعولّ فى صيانة الرعايا من المضار؛ وحراسة الأعمال المتميزة من عيّن المفسدين والدّعار، على من ترّوع مهابتّه ضواري

الآساد، وتكفل عزائمهم بقطع دابر الفساد؛ ويُدع في السياسة الفاضلة ويُغرب،
وتُعجب أنبأؤه في حسن التدبير وتُطرب؛ ويعمُّ الرعايا بضروب الدعة والسكون،
ويشملهم من الأمانة والطمأنينة بأنواع وفنون؛ وتقوم كفايته بسد الخلل وتقويم
الأود، ويبلغ في تيمنه في اكتساب المحامد إلى أقصى غاية وأبعد أمد؛ ويعنى
بمحافظة التواميس وإقامة القوانين، ويدأب في استعمال السيرة الشاهدة له باستكمال
الفضل المبين؛ ولا يألو جهداً في تقريب الصلاح وأستدثائه، ويقصد من الأفعال
الجميلة ما تلهج به الألسن بإطابة ثنائه .

ولما كنت أيتها الأمير تُنجما من نجوم الدين المضيئة المشرقة، وثمره من ثمرات
دوحة العلاء الركيّة المبروقه؛ وقدأ في الفضائل البديعه، وفردا في المحاسن التي لم تُفزع
بنظير ذكرها أذن سميعه؛ وسيقا يحسم داء الفساد حداه، وكافيا لا يتجاوزهُ الإقتراح
ولا يتعداه؛ وماجدًا حاز المفاخر عن أهل بيته كإبراهيم عن كابر، وعلمًا في المآثر يهتدى
به الأعيان الأكارب؛ وهمامًا تملأ مهابته القلوب، وماضيا تلوذ بمضائه الأعمال
الخطيرة وتثوب؛ وصدرا تقرله الرؤساء بارتفاع المنزله، ومهدبا أغرته شيمه الرضية
بنت الإنصاف وبسط المعدله؛ وحازمًا لا يُخشى أختداعه وأغتراره، وعازمًا لا يكتمهم
عزمه ولا يكفل غراره . وقد ألفت إليك المناقب قيادها مطيعه، وأحطتكم الرياسة
في أشمخ ذروة رفيفه؛ وتألفت عندك الفضائل تألفت الجواهر في العقود، وتكفلت
لك مساعيك المحموده بتضاعف الميامن وترادف السعود؛ وتكاملت فيك الخلال
المطابقه لكم أعرافك، وأستعملت الأفعال الشاهدة بمبالغتك في ولاء أتمتكم
وإغراقك؛ وحصل لك من الإنماء إلى البيت الصالحى الكريم ما كسبك فخرا
لا يبرح ولا يريم؛ وخصك في كل زمن بمضاعفة التفضيم والتقديم؛ وأنالك من الإقبال
غاية الرجاء، وجعل وجهتك فسيحة الفناء؛ وسيعه الأرجاء . ولك المهابة التي تُغني

غناء الجيوش المتكاثرة العَدَد ، والشجاعة التي تُسَلِّطُ قَوَارِعَ الدِّمَارِ عَلَى مَنْ كَفَرَ
وعند؛ والعزمُ الذي آسَمَتِ السُّيُوفُ الباترةُ من مَضَائِهِ ، وعزَّ جانبُ التوحيدِ
بِأَنْتِضَائِهِ لِجِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ وَأَرْضِيَّتَائِهِ ؛ وَالْإِقْدَامُ الَّذِي تَلُوذُ مِنْهُ أَسْوَدُ الْوَقَائِعِ بِالْفِرَارِ ،
والبأسُ الذي لا يَعْصِمُ مِنْهُ الْهَرَبُ وَلَا يُجَبِّي مِنْ بَوَادِرِهِ الْحِدَارُ .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيره ، وصائِنُ مُلْكِهِ وَظَهْرُهُ ؛ السَّيِّدُ الْأَجَلُ
الَّذِي فَأَخْبَى عَلَيْكَ شَاءَ طَالَ وَطَابُ ، وَحَرَّرَ فِي ذِكْرِ مَنَاقِبِكَ وَمَحَاسِنِكَ ^(١)
القولَ والخطابَ ؛ وَذَكَرَ مَالِكَ [مِنَ الْأَعْمَالِ] فِي الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ ، الَّتِي أَعَادَتِ
الْأَمْنَةَ عَلَى الرَّعِيَةِ ؛ وَمَا آسَمَعَمَلْتِ فِيهِمْ مِنَ السَّيْرِ الْعَادِلِ ، وَالسِّيَاسَاتِ الْفَاضِلَةِ ؛
وَقَرَّرَكَ الْخِدْمَةَ فِي وِلَايَةِ أَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ ؛ - نَفْرَجُ أَمْرَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْهِ بِأَنْ يُوعِزَ
إِلَى دِيْوَانِ الْإِنشَاءِ بِكُتُبِ هَذَا السَّجَلِّ لَكَ بِالْوِلَايَةِ الْمَذْكُورَةِ .

فَتَقَلَّدَ مَا قَلَّدْتَهُ عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ الَّذِي إِلَيْهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ، وَيَعْلَمُ حَائِثَةَ
الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورَ ؛ وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ فِي كِتَابِهِ الْمَكْنُونِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فَاعْتَمِمْ بِالْعَدْلِ مَنْ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ هَذِهِ الْوِلَايَةُ ، وَأَنْتَهُ
فِي حَيَاتِهِمْ وَكَلَاءَتِهِمْ إِلَى الْغَايَةِ ؛ وَصُنْهُمْ مِنْ كُلِّ أَدَى يُلْمُ بِسَاحَتِهِمْ ، وَتَوَفَّرَ عَلَى مَا عَادَ
بِاسْتِثْبَابِ مَصْلَحَتِهِمْ ؛ وَأَخْصِصْ أَهْلَ السِّرِّ وَالسَّلَامَةِ بِمَا يُصْلِحُ أَحْوَالَهُمْ ، وَيُشْرَحِ
صُدُورَهُمْ وَيُسِّطِ أَمَالَهُمْ ؛ وَقَابِلِ الْأَشْرَارَ مِنْهُمْ بِمَا يُدَقِّخُ شَرَّتَهُمْ ، وَيُكْفِ عَنْ ذُنُوبِ
الْخَيْرِ مَضَرَّتَهُمْ ؛ وَأَشْدُدْ وَطَأَتَكَ عَلَى الدُّعَارِ وَأَهْلِ الْعِنَادِ ، وَتَطَلَّبْهُمْ حَيْثُ كَانُوا
مِنَ الْبِلَادِ ؛ وَأَقْصِدْ حِمَايَةَ السُّبُلِ وَالطَّرِيقَاتِ ، وَصُنْهَا مِنْ غَوَائِلِ الْمُفْسِدِينَ عَلَى مِثْرِ
الْأَوْقَاتِ ؛ وَمَنْ ظَفِرَتْ بِهِ مِنَ الْمُجْرِمِينَ فَاجْعَلْهُ مُزْدَجْرًا لِأَمْثَالِهِ ، فَمَوْعِظَةً لِمَنْ
يَسْلُكُ مَسْلِكَ ضَلَالِهِ ؛ وَالْمُقَدِّمُونَ عَلَى سَفْكِ الدِّمِ الْحَرَامِ ، وَالْمُرْتَكِبُونَ لِكِبَائِرِ الذُّنُوبِ

والإجرام، فامتثل فيهم ما أمر الله تعالى به في كتابه الكريم، إذ يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ نَجْزِي فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ .

وأجزل حظَّ الثَّواب في الحُكم العزير من عِنايتك ، واجعل لهم نصيباً وافراً من أهتمامك ورعايتك ؛ وعاضدْهم على إقامة منار الشرع ، وأجرِ أحوالهم على أجل قضية وأحسن وضع . والمستخدمون في الأموال ، تُسدَّ منهم شداً يبلغهم الآمال ، ويقضى بترجية الارتفاع وتثمير الاستغلال ؛ وعاضدْهم على عمارة البلاد ، ووازرهم على ما تكون به أحوالها جاريةً على الأطراد . والرجال المركزية والمجردون فاستنمضهم في المهمات القريبة والبعيدة ، وخذهم بلزوم المناهج المستقيمة السديده ؛ وقابل الناهض منهم بما يستوجب له نصته ، وقوم المقصر بما يوزع من يسلك مسلكه ويقننى طريقته ؛ فاعلم هذا وأعمل به وطالع ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة سجيل بولاية نجر الإسكندرية ، كتبت به لأبن مصال ، من إنشاء القاضي الفاضل ، وهي :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين لما أكرمه الله به من شرف المنصب والنصاب ، وأجار العباد بأبائه الطاهرين من عبادة الأوثان والأنصاب ؛ وأوردهم من موارد حكمه التي كل صادرٍ عن ربي قلبه منها صاد ، وسنَّهه بأمره من رياح الصواب التي تجرى بأمره رخاءً حيث أصاب ؛ وأضحى بسهام عزائمهم ، من مقاتل الباطل ، وحلَّ بأنوار مكارمهم ، من أجياد الأمانى العواطل ، وأنجزه على يد أيديهم من وعود سعودٍ تظلُّ السحب المواطرُ بمثلها هَوَاطل ؛ وتوحدَه به من الإمامة التي أعزَّ بها

أحزاب التوحيد، وأجراه من بركاته التي لا تقول لها هل من مزيد، وأوراه من فتكاته التي لا تقول لها الآجال هل من محيد، وأجده من إرادته لأزمة الأيام فهي بين إنعامه وإسقامه تفيده وتبيد؛ وأحدثه له من معجزات التأييد التي تملك أحاديثها رِقَّ التأبید، وشرف به قدره في ملكوت السموات والأرض والملائكة له أنصارٌ والملوك له عبيد؛ وألمهه من إبداع جلي صنائعه حيث لا ينكر المقلد ولا يستغرب التقليد، وأنطق به لسان كرمه من بدائع إحسان تروق بين التردد والتوليد - ينظر بنور الله فيمن ينظر به للجمهور، ويحلو عقائل المكارم على من هو ماهرٌ في مقدمة المهور؛ ويرى الذين يرجون بولائه تجارةً لن تبور، ويقتدح الأنوار المودعة في سواد الشباب كما يودع في سواد العين بياض الثور؛ ويرفع رتب الأعيان حتى إذا تعاطاها سواهم ضرب بينه وبينها سور، وتعود أياديه إلى بيوت النعم فكل بيت تولاه كالبيت المعمور؛ ويهدي السرور بهم إلى صدور الثغور، والابتسام إلى ثغور الصدور؛ ويرى أنهم يستوجبون فواضله ميراثا، وإذا سلمت إليهم أئمة الولايات كانت لهم تراثا، وإذا تبوءوا الرتب العلية كانت الرياسة لهم دارا والسياسة أئانا؛ لا سيما الصدر الذي عرفته السعادة لدولة أمير المؤمنين واحدا يجمع فضل سلفه، وتدبا ما عرضت عليه جواهر الدنيا فضلا عن أعراضها إلا ولأها عطف نزاهته وظلته؛ وألمعيا تتناثر معاني المعالي من شمائله كما تنتثر من غصن القلم نمارأ حرفه، وكفا للصدور من أنهضه بها بنص تكلفه أنهضه بها فضل كلفه؛ وقواما بالأمور يمضي عليها مضاء النجم في بحر حنديه لا السهم في نحر هدفة، وملاكا للثغور إذا حلل منها في إسكندريتها فهو على الحقيقة نجم حلل برج شرفه؛ وطودا للوقار يعتري الحلم منه إلى أقومه لا إلى أحنفه، وشرطا للاختيار، يكتفى مصطفىه منة معرفه ومثونة معننه؛ ومعنى للفخار، لم ينتصف فيه من لسان

واصفه مَسْمُوعٌ مُسْتَوْصِفُهُ ، وَعَلِمَا لِلْأَنْظَارِ ، يَدُورُ لَهُمْ مَنَارٌ إِشْرَاقُهُ وَيُخْفَى عَلَيْهِمْ
مَنَآلٌ شَرْفُهُ .

وَمَا كُنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ وَاسِطَةً عَقْدَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ الْحُسْنَى ، وَمُنْجِدَ أَلْفَاظِهَا
مِنَ الْحَقِيقَةِ بِالْمَعْنَى الْأَسْنَى ؛ الْمُتَوَحَّدَ مِنَ الرِّيَاسَةِ بِاسْمٍ لَا يَجْمَعُ بَعْدَهُ وَلَا يَتَّبِعُ ،
الْجَارِيَ إِلَى غَايَةٍ مِنَ الْمَجْدِ لَا يُرَدُّ عَنْهَا عِنَانُهُ وَلَا يَتَّبِعُ ؛ الْجَدِيدَ إِذَا وُلِيَ أَنْ يُسْكِنَ
الرِّعْيَةَ الْيَوْمَ عَدْلًا لَا تَسْكُنُهُ فِي غَدٍ عَدْنَا ؛ وَيُخِزُّ فِيهِمْ وَعَدَّ اللَّهُ الصَّادِقَ فِي قَوْلِهِ :
﴿ وَلِيَدْلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ . الْمُسْتَبِدَّ بِالْمَجْدِ حَتَّى آسَقَتْهُ فِيمَا يَفْعَلُ وَآسَقَتْهُ
فِيمَا يُكْنَى ؛ الثَّبَتَ الَّذِي لَا تَقْرَعُ الْأَهْوَالَ صِفَاتِهِ ، النَّدْبَ الَّذِي لَا تَبْلُغُ الْأَقْوَالَ
صِفَاتِهِ ، الْوَلِيَّ الَّذِي لَا تَكْذُرُ الْأَحْوَالَ مُصَافَاتِهِ ؛ الْجَامِعَ بَيْنَ فَضْلِ السُّوَابِقِ وَفَضْلِ
الْوَاحِقِ ، الْمُتَجَلِّيَ فِي سَمَاءِ الرِّيَاسَةِ نِيرًا لَا تَهْتَضِمُهُ صُرُوفُ اللَّيَالِي الْمَوَاحِقِ ؛ الْمَشْكُورَ
الْفَعَالَ لَا بِالسِّنَةِ الْحَقَائِبِ بَلْ بِالسِّنَةِ الْحَقَائِقِ ، الْمُسْتَبِدَّ بِالْهَمِّ الْجَلَائِلِ الْمَدْلُولَةِ
عَلَى الْمَحَاسِنِ الدَّقَائِقِ ؛ الْمُسْتَمَدَّ صَوْبَ الصَّوَابِ مِنْ خَاطِرٍ غَيْرِ خَاطِلٍ ، الْمُسْتَجِدَّ
تَوْبَ الثَّوَابِ بِسَعْيٍ يَنْصُرُ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ ؛ الْمُسْتَعَدَّ لِعُقْبِ الْأَيَّامِ بِأَقْرَانٍ مِنَ الْحَزْمِ
تَثْبِيهَا عَلَى الْأَعْقَابِ ، الْمُسْتَرَدَّ بِمَسَاعِيهِ فَوَارِطَ مَحَاسِنِ كَانَتْ مَطْوِيَّةً فِي ضَمَائِرِ الْأَحْقَابِ ؛
السَّامِيَ بِهَيْمَتِهِ ، إِلَى حَيْثُ نَتَقَاصِرُ النُّوَاطِرُ السَّوَامِي ، الْمُقَرِّطِسَ بِعَزِيمَتِهِ ، حَيْثُ لَا تَبْلُغُ
الْأَيْدِي الرَّوَامِي ؛ الْمُسْتَقِيلَ بِقَطِّ نَوَاجِمِ الْخَطُوبِ وَحَسْمِهَا ، الْمُسْتَقَرَّ فِي النُّفُوسِ أَنَّهُ
يُقُومُ فِي ظُلْمِهَا مَقَامَ نَجْمِهَا ؛ الْمُطْلَقَ وَجْهًا فَلَا غَرَوَّ أَنْ تُجَلِّيَ بِهِ الْجُلِّيَّ ، الْمَطْلُوقَ وَصْفًا
حَسَنًا فَلَا يَعْزُضُ لَهُ لَوْلَا وَلَا إِلَّا ؛ الْمُؤَيَّدَ الْعَزَمَاتِ ، فِي صَوْنِ مَا يَفُوضُ إِلَيْهِ وَيَلِيهِ ،
الْمَتَّقِي الْوَثَبَاتِ ، مِمَّنْ يُجَاوِرُهُ مِنَ الْأَعْدَاءِ وَيَلِيهِ ؛ الْمُحْيِيَّ بِمَسَاعَاهِ مَا شَادَهُ أَوْلُوهُ ، وَالْمَتَوَصِّحَةَ
فِيهِ نَصُوصُ الْمَجْدِ الَّذِي كَانُوا تَأْوَلُوهُ ؛ وَالْأَوَى إِلَى بَيْتِ تَنَاسَقَتْ فِي عُقُودِهِ الرُّؤْسَاءُ
الْجِلَّةُ ، وَالطَّالِعَ مِنْهُ فِي سَمَاءِ إِذَا غَرَبَتْ مِنْهَا الْبُدُورُ أَسْرَقَتْ فِيهَا الْأَهْلَةُ .

ولقد زدت عليهم وما قصرُوا زيادةً أبيضَ الفجرِ على أزرَقِهِ ، وكنتَ شاهدَ من
يُروى مناقبهم البديعة ، ودليلَ من ادَّعى أن المكارمَ لكم ملكةٌ وعندِ سِوَاكم وديعه ؛
وقيلتَ وصاياهم في المعالي فكأتما كانتَ لديكم شريعته ، ونصرتَ الدولة العلوِيَّةَ فكنتم
لها أمثالَ أولياءَ وأخصَّ شيعه ؛ وتجلتَ أنسابُكم باصطناعها وكفأتم إن عُدتتم
لصنائعِ الله صنيعه ، وأباحتمُ من اصطفأها كلَّ درجةٍ على تعاطى الأَطَاعِ عَلِيَّةٍ مِنِيَعِه ؛
وقدمتمُ جيشَ برِّها وبحرِّها ، وكان منكم سيفُ جهادها ونجمُ ليها وفارسُ كَرِّها ؛
وصالتُ بكم على أعدائها كلِّ مَصَالٍ ، وأغربتُ من يلبها إلا إذا استقرتْ
في داركم إلى مَصَالٍ ؛ وحينَ خرجتَ منها خائفًا تترقبُ ، وأبقيتَ فيها حائفاً يتعقبُ ؛
كنتَ الذهبَ المشهورَ ، الذي ما بهرجه الرِّغَامُ ، والحَرْفَ المجهورَ ، الذي ما أدرجه
الإدغام ؛ وكنتَ وإن كنتَ بين الكُفَّارِ ، عنهم شديدَ النَّفَارِ ، وحللتَ فيهم
محلَّ مؤمنِ آلِ فِرْعَوْنَ يدعُوهم إلى النجاة وإن دعوه إلى النار ؛ وعُدتَ إلى بابِ
أمير المؤمنين عودَ الغائبِ إلى رحله ، والآئِبِ إلى أهله ؛ وآستقررتَ به آستقرارَ
الجوهرِ في فضله ، والفرعِ في أصله ؛ وأبانَ الاستشفافُ عن جوهرِكَ الشَّفَافِ ،
ونجرتَ من تلكَ الهفواتِ خروجَ الرياحِ لأخروجِ الكفِّافِ ؛ وأعربتِ السعادةُ
إذ حيتك بمشيبِ أسود ، وتبعَ الأماجدُ غبارَكَ الذي يُرْفَعُ من طريقِ السُوددِ ؛
واعتلقتَ بعروةِ الحدِّ ، فلستَ من ددٍ ولا منك ددُ ، وضربتَ قلبَ العيشِ الأصفى
بعدَ العيشِ الأتكد ؛ لاجرم أن أميرَ المؤمنين أنساك سيئةً أمسك بحسنةِ يومك ،
وسمَّا بك إلى أعلى رُتبِ الأولياءِ وأغناك عن تعرُّضِ سِوَمِك ، وأنعمَ بك على قومِ
ماعرُفوا إلا رياسةَ قومك .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين أمين مملكته ، ويمين فتكته ؛ السيد الأجل الذي أتى
الله به سَهْمًا إلى مَصْرٍ وهي كائنته ؛ وأفرده بمزيةِ السبقِ فلا حظَّ لمُساجله إلا أن

تَدْمِي بَنَاتِهِ ، ورعى الرعيّة منه ناظرٌ لا تُلمُّ بناظره مرادُ المهجود ، وقام بالملك منه قائمٌ لا يزالُ يورده مواردُ الجود ؛ وأغنته يدُ الغلاب عن لسانِ الجلاب ، ونال نادرة الأمل في نادرةِ الطلاب ؛ وجمت فتكاته من الهرمين إلى الحرمين ، وصرف الرُحَّ تصريفَ القلم وكأنه يصولُ ويصلُّ بقلمين ؛ وردَّ الله به العدوَّ منخذلاً ، وطالمًا لقيته فأقام مُنجدلاً ؛ وأضحى به ذيلُ النعمة منسحباً وسِترُ الأمانة منسدلاً ، ودبر الأمورَ فأمسكها حازماً وعقلها متوكِّلاً - فأنهى مالسلفك عند الأئمة الخلفاء من مزينة الأصطفاء ، وما لك في نفسك من الحسنات التي ما برحت بارحة الخفاء ؛ وما أطلع عليه من خلاك التي ما أخلتُ بمنقبه ، وأفعالك التي ما تغايرت في يومٍ ذى نعمة ولا يومٍ ذى مسغبة ؛ وما لك من وثائق العُقود ، وما فيك من الأوصاف المؤكدة لعلائق السُعود ؛ وقتر لك الخدمة في كذا وكذا - خرج أمرُ أمير المؤمنين إليه بأن يُوعزَ إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلِّ لك بالخدم المذكورة وهي التي فرقت لسلفك وجمعتُ لديك ، كما أن مجاسنهم المفرقة منتظمة العُقود عليك : ليُكمل لك ولايتي الثغر والسيادة في حال ، وليسدَّ بك ثغر الجهاد وثغر الإجمال ، ولتقوم [في هذا] مقامُ المُجفَّل الجرار وفي ذلك مقامَ الحيا المَطَّال . ولتكون فرائدُ الإنعام عندك تُوَاما ،^(١) وليجعل آبتداء تصرفك لغيرك تَمَاماً ، وليختصر لك طريقَ الكمال ، وليجري بك في ميدان الشكر طليق الآمال .

فتقلد ماقلدته منهما عاملاً بتقوى الله التي هي مصالح الأعمال ، وميدانُ الإتحاف والإجمال ، وسببُ النجاة في الإبتداء وعند المال ؛ قال الله سبحانه في كتابه الذي لم يجعل له عوجاً : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ .

(١) جمع توأم . قال الأزهرى ومنله غم رباب وأبل ظوار وهو من الجمع العزيز . انظر اللسان

وَأَبْسَطُ الْعَدَلِ عَلَىٰ مَنْ يَجُودُ بِهِ هَذَا الثَّغْرُ الَّذِي هُوَ ثَغْرُ الثُّغُورِ الْبَاسِمِ ، وَأَوْلَاهَا بَانَ
تَكُونُ أَيَّامُهُ بِأَوَامِرِ اللَّهِ وَأَمْرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَوَاسِمَ ؛ فِيهِ مِنْ صُدُورِ الْحَافِلِ ، وَقُلُوبِ
الْحَافِلِ ؛ وَعُيُونِ الْمَدَارِسِ ، وَأَعْيَانِ الْفَوَارِسِ ؛ وَتُجَارِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَأَخْيَارِ الْأُمَّةِ
الْمَقِيمَةِ وَالْمَسَافِرَةِ ؛ وَوُقُورِ مَكَارِمِ عَدْلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الَّتِي هِيَ بِالرَّجَاءِ وَارِدَةٌ وَبِالرِّضَا
صَادِرَةٌ ، مَنْ يُؤْثِرُ أَنْ يَكُونَ فَضْلُ السُّكُونِ لَهُمْ شَامِلًا ، وَرَدَاءُ الْأَمْنِ عَلَيْهِمْ سَائِلًا ؛
وَسَحَابُ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ هَاطِلًا ، وَحَالُهُمْ فِي الْأَتْسَاقِ لَا مَتَغَيِّرًا وَلَا حَائِلًا . وَسَاوِيِ الْحَقِّ
بَيْنَ أَعْدَائِهِمْ وَأَقْرَبِيهِمْ ، وَمَقِيمِهِمْ وَمَتَغَرِّبِهِمْ ؛ وَأَعْتَمِدُ مِنْهُمْ مَنْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ بِمَا يُرْفَعُ
فِي الطَّاعَةِ خَاطِرَهُ وَيُسْحِدُهُ ، وَيَصُونُهُ مِنْ تَحِيْفِ الْأَيْدِيِ الْجَائِرَةِ وَيُنْقِذُهُ ؛ وَأَخْصِيصُ
الْعُلَمَاءَ بِكَرَامَةِ تَعِينِهِمْ عَلَى التَّعْلِيمِ ، وَالْأَعْيَانَ بِمَزِيَّةِ تَوْضِيْحِ لِهْمِ مَا لِهْمُ مِنْ مَزِيَّةِ التَّقْدِيمِ ؛
وَأَكْفِفُ عَوَادِيِ أَهْلِ الشَّرِّ وَالشَّرِّ ، وَأَقْمَعَ غُلُوءًا مِنْ أَعْتَرَّ بِغَيْرِ اللَّهِ وَأَعْتَرَّ ؛ وَتَوَخَّاهُمْ
بِإِقَامَةِ الْمَهَابَةِ وَبَسْطِهَا ، وَكَفَّ الشُّوكَةَ وَقَطَّهَا ؛ وَأَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَأَقْمَ الْحُدُودَ إِقَامَةً مِنْ يُثَابُ عَلَيْهَا وَيُؤَجَّرُ ، وَتَفَقَّدُهَا عَلَى حُدِّهَا غَيْرَ دَاخِلٍ فِي الْأَقْلِّ
وَلَا خَارِجٍ إِلَى الْأَكْثَرِ ؛ وَأَذْكَ الْعِيُونَ عَلَى مَنْ يُلِمُّ بِسُوَا حِلِّ الثَّغْرِ مِنْ أَسْطُولِ الْعَدُوِّ
اللَّعِينِ وَمِرَاكِبِهِ ، وَأَحْجُزَ بِالْقِظَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ تَلْصِيصِ مَطَالِبِهِ ، وَأَمْرًا أَهْلَهُ بِاتِّخَاذِ
الْأَسْلِحَةِ الَّتِي يُعِزُّ اللَّهُ بِهَا جَانِبَهُ ، وَيُنْذِلُ جَانِبَهُ ؛ وَتُبَلِّغُ الْعَدُوَّ اللَّعِينَ مِنْ ذِكْرِهَا مَا يُعْمَلُهَا
وَهِيَ فِي أَيْدِيهِمْ مَوْفَرَةٌ ، وَيُنْذِلُهَا فِي مَقَاتِلِهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ بِهَا مَعْمَرَةٌ ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ
فِي آيَاتِهِ الْمَتْلُوهِ : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ .

وَأَعْتَمِدُ لِلْأَعْمَالِ الْبَحْرِيَّةِ مِثْلَ مَا تَقَدَّمَ شَرْحُهُ مِنْ تَأْمِينِ الْأَخْيَارِ وَتَرْوِيحِ الْأَشْرَارِ ،
وَتَتَبُّعِ كُلِّ مُرِيْبٍ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٍ بِالنَّهَارِ ؛ وَمَنْ ظَفِرَتْ بِهِ قَدْ حَارَبَ اللَّهُ
فِي أَرْضِهِ ، وَصَارَ قَتْلُهُ مِنْ قَرَضِهِ ، فَفَقِّدْ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِ فِي آيَةِ السِّيفِ وَأَمِضْهُ ؛ وَأَدْعُ
إِلَى عِمَارَةِ بِلَادِهَا وَتَحْفَرُهَا ، وَتَفَقِّدِ الْمَصَالِحَ بِهَا وَتَكْثُرْهَا ؛ وَإِطَابَةَ أَنْفُسِ الْمَزَارِعِينَ

بما تحفّفه عنهم من وطأة كانت ثقيله ، وتقلّله عنهم من مغارم لم تكن قليلة ، فما عمّرت البلاد بمثل النزاهة التي هي شيمتك المعتادة ، والمعدّلة التي هي من خلالك مستفاده ، وأعتدّ كلاً من النائب في الحكم العزيز والناظر في الدعوة الهاديّة والمُشارف بالثغر والعُمّال برعاية تحفظ مرّاتهم ، وتلحظ مطالبهم ، وتنفذ الأحكام ، وتبلغ بما ينظرون فيه من المصالح غايات التمام ، وتعرّطائفة الإيمان ، وتظهر عليهم أثر الإحسان ، وتستدرّحلب الأموال ، وتستديم عمارة الأعمال ، وتفضي بمواصله الجول وتحصيل الغلال ، وتعود بها عليك عوائد الأجر والجَمال ، ومثلك أشتهاراً أيها الأمير من ولى فلم تُطل له الوصايا التي يحتاج إلى إطالتها سواه ، ويوثق بما يذكّيه من عُيون حزم غير غوافل ولا سواه ، ويحقّق أن تقواه رقيب سرّه ونجواه ، وأن أمير ورعه يحكم على أسير هواه ، والله سبحانه يجعل نعمة أمير المؤمنين لديك مأمولة الدوام موصولة الحبل ، ويتمّها عليك كما أتمّها على أبويك من قبل ، إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هذا النمط كانت سجّلات سائر ولايات أعمال الديار المصرية ، فكانت تُكتب على نظير ذلك في الوجه القبلي ولاية الجيزية ، وولاية الإطفيحية ، وولاية البهنساوية ، وولاية البوصيرية ، وولاية الأشمونين والطحاوية ، وولاية الشبوية ، وولاية الإنجمية ، وولاية الفيوم ، وولاية واح البهنسا ، وولاية الواح الداخلة ، وولاية الواح الخارجة . ومن الوجه البحرى ولاية القليوبية ، وولاية منية تردى وهي منية عُمَر ، وولاية المرتاحية ، وولاية الدقهلية ، وولاية مدينة تيس - وبها كانت دار الطراز - وولاية المنوفية ، وولاية جزيرة بنى نصر وربما أضيفت إلى المنوفية وعبر عنهما بالمنوفيتين ، وولاية جزيرة قوسينياً ، وولاية البحيرة ، وولاية نغر رشيد المحروس ، وولاية نغر ستراره ، وولاية نغر دميّاط ، وولاية القرمّا ، بساحل الشامى فيما دون العريش .

وأما البلاد الشامية فقد تقدم أنها كانت خرجت عنهم وتملكت الفرنج غالب سواحل الشام ، ولم يبق معهم إلا ساحل عسقلان وماقاربه وكان مقرّ الولاية بها في عسقلان .

وهذه نسخة سجل بولايتها ، وهي :

أما بعد ، فإن أولى ما وفر أمير المؤمنين حظّه من العناية والاشتمال ، واعتقد العكوف على مصالحه من أشرف القربات وأفضل الأعمال ؛ وأسند أمره إلى من يستظهر على الأسباب المعية بحسن صبره ، وعدق النظر فيه بمن لا يشكّل عليه أمره لمضائه ونفاذه ومعرفته وخبره ، ما كان حرزا للرباطين ومعقلا ، وملتصدا للجاهدين وموثلا ، وموجبا لكل مجتهد أن يكون لدرجات الثواب مرتقيا متوقفا ، عملا بالحوطة للإسلام الذي جعله الله في كفالاته وضمّانه ، وتماديا على سياسته التي أقر بفضلها إقرار الضرورة كافة ملوك زمانه ؛ وحرصا على الأفعال التي لم يزل مقصودا فيها بأطاف الله تعالى وتوفيقه ، وتبتلا للأموال التي أرشده الله سبحانه في تديرها إلى منهج الصواب وطريقه ، ومضاعفة من الحسنات عند أوليائه أهل الحق وجزبه وفريقه .

ولما كانت مدينة عسقلان - حماها الله تعالى - غرّة في بهم الضلال والكفر ، وحرما يتناز عن البلاد التي كلفها الشرك بالناب والطفر ؛ وهو من أشرف الثغور والحصون ، وأهله أنصار الدين القيم المحفوظ المصون ؛ وكنت أيها الأمير من أعيان أمراء الدولة وكبرائهم ، ووجوه أفاضلهم ورؤسائهم ؛ ولك في الطاعة آسرتسال الأمان في مواطن المخاوف ، وفي الذب عنها وحمايتها مواقف كريمة لا توازي بالمواقف ؛ وقد وصلت في ولائها القديم بالحديث والتالد بالطريف ؛ وحين وليت مهمات

أَسْتُنِجِدُ فِيهَا بِعَزَمِكَ ، وَأَسْتَعِينُ عَلَيْهَا بِحَزْمِكَ ؛ تَهَيَّبُ الْأَعْدَاءَ فِيهَا ذِكْرَ اسْمِكَ ، وَكَانَ مِنْ آثَارِكَ فِيهَا مَا شَهَرَ غُفْلَهَا^(١) بِوَسْمِكَ ؛ فَلَا يُبَارِكُ مُبَارًا إِلَّا أُرِيَتْ عَلَيْهِ وَزِدَتْ ، وَلَا يُنَاوِيكَ مُنَاوٍ إِلَّا أَنْسَيْتَ ذِكْرَهُ أَوْ كِدْتَ ؛ فَكَمْ لَكَ مِنْ مَقَامٍ مَجْمُودٍ لَيْسِيرٍ شَأْوُهُ وَوَصْفُهُ ، وَكَمْ لَكَ مِنْ ذِكْرِ جَمِيلٍ يُفَوِّحُ أَرْجَهُ وَيَتَضَوِّعُ عَرْفَهُ ، وَكَمْ لَكَ مِنْ جَمَالٍ فِي الْمَشَايِعَةِ لَا يَقْصُرُ أَمْدُهُ وَلَا يَكْبُؤُ طَرْفُهُ ؛ وَالسَّيِّدُ الْأَجَلُّ الْأَفْضَلُ الَّذِي عَظَّمَ اللَّهُ قَدْرَهُ وَرَفَعَ مَجْدَهُ ، وَجَعَلَهُ فِي الْغَضَبِ لِتَوْحِيدِهِ دُونَ جَمِيعِ الْبَرِيَّةِ أُمَّةً وَحَدَهُ ؛ وَأَلْهَمَهُ التَّجَرُّدَ لِنُصْرَةِ الْإِيمَانِ فَحَقَّ اللَّهُ لِمَا غَفَلَ الْمُلُوكُ وَقَعَدُوا ، وَأَمَدَهُ بِمَوَادِّ السَّعْدِ فَاسْتَيْقِظَ بِمُفْرَدِهِ حِينَ نَامُوا عَنْ اسْتِخْلَاصِهِ مِمَّا عَرَاهُ وَرَقُدُوا ؛ وَأَضْحَى أَنْتِصَابُهُ آيَةً أَظْهَرَهَا اللَّهُ لِلَّهِ ، وَغَدَا أَنْتِصَارُهُ مُعْجِزَةً حَسَمَ بِهَا فِي رَفْعِ مَنَارِ الدِّينِ كُلِّ عِلَةٍ ؛ فَهَمَّتْهُ مَصْرُوفَةٌ عَلَى مَا يُعْزُ الشَّرِيعَةَ الْحَنِيفِيَّةَ ، وَعَزَمَتْهُ مَوْقُوفَةٌ عَلَى الدَّفْعِ عَنْهَا بِأَطْرَافِ الدُّوَابِلِ وَحَدِّ الْمَشْرِفِيَّةِ ؛ فَلَبَّغَهُ اللَّهُ فِي كُلِّ مَا يَجَاوِلُهُ مَا يُضَاعَفُ نَفْرَهُ ، وَأَعَانَهُ عَلَى مَا يَقْتَدِمُهُ لِمَعَادِهِ وَيَجْعَلُهُ فِي الْآخِرَةِ ذُنْحَرَهُ بِجَوْلِهِ وَمَنَّةٍ ، وَطَوْلِهِ وَفَضْلِهِ .

فَلَا يَزَالُ هَذَا السَّيِّدُ الْأَجَلُّ يُثْنِي عَلَيْكَ ثَنَاءً يَخْلُدُ لَكَ وَلِعَقَبِكَ مَجْدًا بَاقِيًا ، وَيَجْبُوكُ مِنَ الْوَصْفِ وَالْإِطْرَاءِ بِمَا يَجْعَلُكَ فِي مَرَاتِبِ الْوَجَاهَةِ وَالنَّبَاهَةِ سَامِيًا رَاقِيًا ؛ وَيُرْتَحِّكُ مِنْ الْخِدْمِ لِأَجْلِهَا قَدْرًا ، وَيُطْلِعُ مِنْكَ فِي آفَاقِ سَمَايَاهَا بَدْرًا ، وَيَجْعَلُ لَكَ بِمَا يُؤْهِلُكَ لَهُ صِيْتًا وَيُسَيِّرُ لَكَ ذِكْرًا ؛ وَحِينَ جَدَّدَ شُكْرَكَ ، وَأَوْصَلَ عَلَى عَادَتِهِ مَا يُسَيِّدُ أَمْرَكَ ؛ فَتَرَى لَكَ وَلايَةَ «تَغْرَعَسَقْلَان» - حَمَاهُ اللَّهُ تَعَالَى - الَّذِي هُوَ تَغْرُ الدِّينِ ، وَكَانَهُ الْمَوْحِدِينَ ؛ وَوَزَّرَ الْأَتْقِيَاءَ الْمَجَاهِدِينَ ، وَشَجَّى فِي صَدُورِ الْكُفْرَةِ الْمَعَانِدِينَ ؛ فَامْضِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا رَأَاهُ مِنْ هَذَا التَّقْرِيرِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْبَرَكَتَةَ مَضْمُونَةٌ فِيهَا يَتَكَلَّفُهُ مِنَ التَّنْذِيرِ ؛

(١) العُفْلُ بِالضَّمِّ مَا لَا عِلَامَةَ فِيهِ مِنَ الْقِدَاحِ وَالطَّرْقِ وَغَيْرِهَا وَمَا لَاسِمَةٌ عَلَيْهِ مِنَ الدُّوَابِ . انظر القاموس .

ونخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ولاية هذا الثغر المحروس وعمّله ، وما هو منتظم معه من سهله وجبله .

فأعريف قدر هذه النعمة التي رفعتك على جميع الأمراء ، وأغناك فيها حسن رأي أمير المؤمنين ووزيره السيد الأجل الأفضل عن الوسائط والسفراء ، وأحلتك أعلى مراتب الرفعة والسّموة ، وأحظتكم مع بعد الدار بمزية القرب من قلبيهما والدؤو .

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين من هذه الولاية الشاخرة المحلّ ، التي غدا محظورها على غيرك من المباح لك المحلّ ، وتلقّها من الشكر بما يجعلها إليك آويه ، ولديك مقيمة ناويه ، وأعمل فيها بتقوى الله التي إذا أظلمت الخطوب طلعت في ليها بجزا ، قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ .

وأشمل أهل هذه الولاية بالمئاته بينهم فيما كان حقّا ، ولا تجعل بين الشريف والمشروف في الواجب فرقا ، وأمر بالمعروف وأبعث عليه ، وأنه عن المنكر وأمنع من الإجراء إليه ، وأقم الحدود مستمرا في إقامتها على العاده ، ومتوقيا من نقص ما يؤمر به منها أوزياده ، وأصرف النصب الأجل ، الأوفر الأكل ، إلى الاستيقاظ للعدو المخدول المجاور لك والبحث عن أخباره وعمّله المكيد له ، ومواصلته بما يديم محافته ووجهه ، وأغزه في عُقداره ، وأقصده بما يقضى بحفض مناره ، ولا تهمل تسيير السرايا إليه ، وإطلاع الطلائع بالمكاره عليه ، وأعتمده بما يشترده عنه لذيذ منامه ، وأزرع في قلبه خوفا يهابك به في يقظته وفي أحلامه . وأفعل في أمر من يجرد إليك من عسكر البدل المنصور في تقرير نوب المناسر ، ولتتخير لها كلّ متوئّب على الإقدام منجاسر ، ما تقتضيه الحال مما أنت [أ] قوم لمعرفة ، وأهدى الناس في سبيله ومحجته . ووفر حظّ القاضى المكين متولى الحكم والمشاركة من

إعزازك وإكرامك ، وأشمالك وأهتمامك ، ورعايتك ومعاضدتك ، والعمل في ذلك بما هو معروف من سياستك ، ومشهور من رياستك ؛ وكذلك المستخدم في الدعوة الهاديّة بثبها الله تعالى ، فاعتمده بما يُعزُّ أمره ، ويسُطُّ أمله ويُشرح صدره . وضافر على أمر المال ، ووقور الاستغلال ؛ والعمل من ذلك بما فيه أكبر حظّ للديوان . وأجر على ما هو مشهور عنك في ولايتك من حُسن السياسة ، والعمل بقصايا المصلحة ، والتبثّل لما تستقيم به أمور الخدمة ، وحفظ أهل السلامة وأرباب الدين ، وإعمال السيف في مستوجبيه من المفسدين والمتمردين ، مما أنت أنفذ الولاية فيه ، وأعلمهم بما يوجبهُ الصواب ويقتضيه ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع مجلس النظر بما تجب المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله تعالى .^(١)

المذهب الثاني^(٢)

(أن يفتح ما يُكتب في الولاية بلفظ « هذا ماعهد عبد الله ووليه فلان أبو فلان ، الإمام الفلاني أمير المؤمنين ، لفلان الفلاني حين ولّاه كيت وكيت » من غير تعريض لتحميد في أول ما يُكتب ولا في أشائه ؛ ثم يقال : « أمره بكذا وأمره بكذا » على قاعدة ما كان يكتب في العهود بديوان الخلافة ببغداد ، وهو قليل الاستعمال عندهم للغاية القُصوى ، ولم أظفر منه بغير هذا العهد)

وهذه نسخة عهد على هذه الطريقة ، كُتِب به عن الحاكم بأمر الله الفاطمي ، للحسين بن علي بن النعمان ، بقضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب ، مضافاً إلى ذلك النظر في دور الضرب والعيار وأمر الجوامع والمساجد ، وهو :

(١) في بعض النسخ هنا زيادة نصها « وأما الوظائف الدينية فيها » ثم ترك يياضاً بقدر نصف صفحة .

(٢) وقع في الأصول الضرب الثاني وهو سهو من النسخ .

هذا ما عهد عبدالله ووليه المنصور أبو علي الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، للقاضي حسين بن علي بن النعمان حين ولّاه الحكم بالمعززية القاهرة ومصر، والإسكندرية وأعمالها، والحرمين حرسهما الله تعالى، وأجناد الشام، وأعمال المغرب، وإعلاء المنابر، وأئمة المساجد الجامعة، والقومة عليها والمؤذنين بها، وسائر المتصرفين فيها وفي غيرها من المساجد، والنظر في مصالحها جميعا، ومشاركة دار الضرب وعيار الذهب والفضة، مع ما اعتمده أمير المؤمنين وأتباعه، وقصده وتوخاه: من آفتهائه لآثاره، وأتهائه إلى إيثاره؛ في كلّ عليّة للدولة ينشرها ويحميها، وذنيّة من أهل القبلة يذثرها ويعفيها؛ وما التوفيق إلا بالله ولي أمير المؤمنين عليه توكله في الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه، من أمورهم وولّاه .

أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى، في السر والظهر والتجوى؛ ويعتصم بالثبات واليقين والنهي، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى: فإن تقوى الله تبارك وتعالى مؤثّل لمن وآل إليها حصين، ومعقل لمن آفتها أمين، ومعوّل لمن عوّل عليها مكين؛ ووصية الله التي أشاد بفضلها، وزاد في سناها بما عهد أنه من أهلها، فقال تبارك وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره أن لا ينزل ما ولّاه أمير المؤمنين [إياه] من الأحكام في الدماء والأشعار والأبشار، والفروج والأموال، [عن] منزلته العظمى من حقوق الله المحترمة، وحرّماته المعظمة، وبيّناته المبيّنة في آياته المحكّمة؛ وأن يجعل كتاب الله عز وجلّ وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء، والمأثور عن أئمتنا على سيد الأوصياء، وآبائنا الأئمة التجباء - صلّى الله على رسوله وعليهم - قبلة لوجهه إليها يتوجه، وعليها يكون المنجّه .^(١) فيحكم

(١) في الأصل «إلينا يتوجه وعليها لا يكون منجّه» وهو غير مستقيم . تأمل .

بالحق ويقضى بالقسط، ولا يحكم الهوى على العقل، ولا القسط على العدل، إشاراً
 لأمر الله عز وجل حيث يقول: ﴿فَأَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ
 فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا
 يَوْمَ الْحِسَابِ﴾: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَنْ لَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ
 لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ .

وأمره أن يُقابل مارسمه أمير المؤمنين وحده لفتاه برجوان، من إعزازه والشدة
 على يده، وتنفيذ أحكامه وأقضيته؛ والقصر من عنان كل متناول على الحكم،
 والقبض من شكائمه، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه: من ترك
 الجاملة فيه، والمحابة للذي رحم وقربى، وولي للدولة أو مولى؛ فالحكم لله وخليفته
 في أرضه، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين، والمتناول عليه، والمباين
 للإجابة إليه، حقيق بالإذالة والنهوض؛ فليتنق الله أن يستحجي من أحد في حق له:
 ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ .

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم في المواضع الضاحية للتحاكين ويرفع عنهم حجابَه،
 ويفتح لهم أبوابه، ويحسن لهم انتصابه؛ ويقسم بينهم لحظة ولفظه قسمة لا يجابي
 فيها قوياً لقوته، ولا يردى فيها ضعيفاً لضعفه؛ بل يميل مع الحق ويحجج إلى جهته،
 ولا يكون إلا مع الحق وفي كفته؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه
 ومحاباته بين يدي الحكم العدل الديان: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا
 وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ .

وأمره أن يُنعم النظر في الشهود الذين إليهم يرجع وبهم يقطع في منافع القضايا
 ومقاطع الأحكام، ويستشف أحوالهم آستشفافاً شافياً، ويتعرف دخالهم

تعرفاً كافيًا، ويسأل عن مذاهبهم وتقليداتهم في سرهم وجهرهم، والحلى والخفى من أمورهم، فمن وجده منهم في العدالة والأمانة، والزهادة والصيانة، وتحري الصدق، والشهادة بالحق، على الشيمة الحسنى، والطريقة المثلى، [أبقاه] وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى. وأن يطالع حضرة أمير المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يردُّ شهادته ولا يقبله: ليكون في الأمرين على ما يحد له ويمثله، ويأمن فيما هذه سبيله كلَّ خلل يدخله؛ إذ كانت الشهادة أسَّ الأحكام، وإليها يرجع الحكم، والنظر فيمن يؤهل لها أحقُّ شيء بالإحكام؛ قال الله تقدست أسماؤه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾.

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلي أموال الأيتام والوصايا وأولى الخلل في عقولهم، والعجز عن القيام بأموالهم؛ حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليُّه: من حياتها وصياتها من الأمانة عليها، وحفظهم لها، ولفظهم لما يجرم ولا يخلُّ أكله منها؛ فيتبوا عند الله بعدا ومقتا، كلَّ الحرام والموكل له سُخْتًا؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

وأمره أن يُشارف أئمة المساجد والقومة عليها، والخطباء بها والمؤذنين فيها، وسائر المتصرفين في مصالحها؛ مشاركة لا يدخل معها خللٌ في شيء يلزم مثله: من تطهير ساحتها وأفتيتها، والاستبدال بما تبدل من حصرها في أحيائها، وعمارتها بالمصايح

(١) الأولى " وإضاءتها " كما لا يخفى .

في أوقاتها، والإنذار بالصلوات في ساعاتها، وإقامتها لأوقاتها، وتوفيتها حق رُكوعها وسُجودها، مع المحافظة على رُسومها وحدودها، من غير اختراع ولا اختلاص لشيء منها: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ .

وأمره أن يرعى دار الضرب وعمار الذهب والفضة بثقات يختاطون عليهما من كل لبس، ولا يكتنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس؛ إذ كان بالعين والورق تُتناول الرباع، والضباع والمتاع؛ ويتناع الرقيق، وتتعد المناكح وتتقاضى الحقوق؛ فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحه للدين، وضرر على المسلمين؛ يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين .

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التي لا يمكنه أن يشاهدها بأفضل وأعلم وأرشد وأعمد من يمكنه الاستعانة به على ما طوّقه أمير المؤمنين في استعماله . قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ .

هذا ماعهد أمير المؤمنين فأوف بعهده، تهتد بهديه، وترشد برشده؛ وهذا أول إمرة أمرها لك فاعمل بها، وحاسب نفسك قبل حسابها؛ ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لما بها: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُجَادِلٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ .

وكتب في يوم الأحد لسبع ليال بقين من صفر سنة ٣٨٩ .

المذهب الثالث

من مذاهب كُتَاب الدولة الفاطميّة

(أن يُفْتَحَ ما يُكْتَبُ في الولايات بخطبةٍ مبتدأةٍ بالحمد لله كما يكتب في أعلى الولايات في زماننا، ويقال: « يحمده أمير المؤمنين علي كذا وكذا، ويسأله أن يصلّي عليّ محمد وآله، وعليّ جدّه عليّ بن أبي طالب» ثم يقال: «وإنّ أمير المؤمنين لم يزل ينظر فيمن يصلح لهذه الولاية، وإنه لم يجد من هو كفو لها غير الموثى، وإنه ولأه تلك الوظيفة» ثم يوضي بما يليق به من الوصية؛ ثم يقال: «هذا عهد أمير المؤمنين إليك، وحقته عليك، فاعمل به» أو نحو ذلك مما يعطى هذا المعنى)

وقد أورد عليّ بن خلف من إنشائه في كتابه "موادّ البيان" المؤلف في ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عدّة تقاليد لأرباب السيف .

منها — تقليد في رسم ما يكتب للوزير، [وهو] :

الحمد لله المنفرد بالملكوت والسلطان، المستغنى عن الوزراء والأعوان؛ خالق الخلق بلا ظهير، ومصورهم في أحسن تصوير؛ الذي دبر فأتقن التدبير، وعلّا عن المكلف والمشير؛ المانّ عليّ عباده بأن جعلهم بالتوازر لإخوانا، وبالتظافر أعوانا؛ وأقر بعضهم إلى بعض في انتظام أمورهم، وصلاح جمهورهم .

يحمده أمير المؤمنين أن استخلفه في الأرض، وناط به أسباب البرم والنقض؛ وأسترعاه عليّ بريته، وأستخلصه لخلافته؛ وقبضه لإعزاز الإسلام، وحياطة الأنام، وإقامة الحدود وتنفيذ الأحكام؛ ويسأله الصلاة على سيدنا محمد خاتم الأنبياء، وخيرة الأصفياء؛ المؤيد بأفضل الظهراء، وأكل الوزراء: عليّ بن أبي طالب المتكفل في حياته، بنصره وإظهار شريعته، والقائم بعد وفاته، مقامه في أمته؛

صلى الله عليهما، وعلى الأئمة من ذريتهما، مفاتيح الحقائق، ومصابيح الخلائق؛
وسلم، وشرف وكرم.

وإن الله تعالى نظر لخلقهم بعين رحمته، وخصّ كلّاً منهم بضرب من ضروب
نعمته، وأقدرهم بالتعاقد، على انتظام أمورهم الوجودية، وأوجدهم السبل بالتراقد،
إلى استقامة شؤونهم الدنيوية: لتنجس عيون المعاون بتوازرهم، وتدرّ أخلاف
المرافق بتظافرهم.

وأولى الناس باتخاذ الوزراء، وأستخلاص الظهراء، من جعله الله تعالى
إلى حقه داعياً، وخلقهم راعياً؛ ولدار الإسلام حامياً، وعن حماه مرامياً؛ وأستخلفه
على الدنيا وكلفه سياسة المسلمين والمعاهدين، ولذلك سأل موسى عليه السلام وهو
القوى الأمين، في استخلاص أخيه هارون لوزارته، وشدّ أزره بموازرتيه، فقال:
﴿وأجعل لي وزيراً من أهلي هارون أني أشدُّ به أزرى﴾. وأستوزر محمد صلى الله
عليه وسلم وهو المؤيد المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ابن عمه علياً سيد الأوصياء؛
بدليل قوله له: «أنت مني كهارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي» لأن الإمام
لو توّلى كل ما قرب وبعد بنفسه، وعول في حيطته على حواسه؛ لنص ذلك بتطرق
الخلل، ودخول الوهن والشال؛ وإنما تستعين الأئمة على ما كفلها الله بكفاة
الأعوان، وأهل النصرة في الأديان؛ وذوى الاستقلال والتشهير، والمعرفة بوجوه
السياسة والتدبير؛ والخبرة بجماري الأعمال، وأبواب الأموال، ومصالح الرجال.

وإن أمير المؤمنين لم يزل يرتاد لوزارته حقيقةً بها مستحقاً نعتها؛ جامعاً بين
الكفاية والغناء، والمناصحة والولاء، والأبوة والأختصاص، والطاعة والإخلاص؛
والنصرة والعزم، وأصالة الرأي والحزم؛ ونفاسة السياسة والتدبير، والنظر بالمصلحة
في الصغير والكبير؛ والأحتيال والتأديب، وملاسة الأيام والتجريب؛ والإلتناء

إلى كريم المناجب ، بضمير المناصب ؛ ويكرّر في الاختيار تقليده ، ^(١) ويحيل في الانتقاء تأمله وتدبره . وكلّما عرّضت له مخيلة قمن توافق إيثاره ، أخلف نوعها ، وكلما لاحت له بارقة تطابق اختياره ، خبا ضوعها ؛ حتى آتته رويته إليك ، وأوقفه آرتياده عليك ؛ فراك لها من بينهم أهلا ، وبتقمص سرّ بالها أولى ؛ وبالأستبداد بإمرتها أحقّ وأحرى : لأشتمالك على أعيان الخصائص التي كان زياد [لها] جامعا ، وحلوك في أعيان المناقب التي لم تزل ترومها متحلّيا بفرائدها ، وما شيرت به من إفاضة العدل والإقساط ، وإغاضة الجور والإشطاط ؛ وإنالة الحقّ والإنصاف ، وإزالة الظلم والإجحاف ؛ ومراعاة النصّح بانسانك شاهدا ، ومناجاته بحدارك جاهدا ؛ ولتُهوّضك بالخطب إذا ألمّ وأشكل ، والحادث إذا أتمّ وأعضل ؛ وتقرّدك بالمساعي الصالحة ، والآثار الواضحة ؛ والطرائق الحميدة ، والمذاهب السديده ؛ والتحلّي بالنزاهة والظلف ، والعطل من الطبع والتطف ؛ وفضل السيرة ، وصدق السريره ؛ ومحبة الخاصة والعامة ، والمعرفة بقدر الأمانة ؛ والأضطلاع بالصنيعه ، والحفظ للوديعه .

فراى أمير المؤمنين برأيه فيما يريه ، ويقضى له بالصلاح فيما يعزم عليه ويمضيه ويسدّد مراميه ومساعيه ؛ ويتعهده في جميع مقاصده بلطف تحلو ثمأره ، وتحسّن عليه وعلى الكافة آثاره ؛ أن قد ولّك النظر في مملكته ، وأعمال دولته : برّها وبحرّها ، وسهلها ووعرها ، وبدوها وحضرها ؛ وردّ إليك سياسة رجالها وأجنادها ، وكتابها وعرفائها ، ورعيّتها ودواوينها ، وأرتفاعها ووجوه جباياتها وأموالها ؛ وعدق بك البسط والقبض ، والبرم والتقص ؛ والحطّ والرفع ، والعطاء والمنع ، والإنعام والودع ، والتصريف والصرف ؛ ثقة بأن الصواب منوط بما تُسدى وتلحم ، وتقيض وتنظّم ، وتتفض وتبرم ؛ وتصدر وتورد ، وتقرّر وتأتي وتدرّ .

(١) لعله « تخيره » تأمل .

فَلْتَهِنَا هَذِهِ النِّعْمَةَ مِمَّا بَمَلَّسَهَا ، سَارِيًّا فِي قَبْسِهَا ، وَتَلَقَّهَا مِنَ الشُّكْرِ بِمَا يَسْتَرِهُنَّ
وَيُحَدِّدَهَا ، وَيُقَرِّهَا عَلَيْكَ وَيُؤَبِّدَهَا ، وَأَعْرِفْ مَا أَهْلَكَ لَهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذَا الْمَقَامِ
الْأَثِيرِ ، وَالْمَحَلِّ الْخَطِيرِ ؛ فَإِنَّمَا ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ .
وَأَنْتَ وَإِنْ كُنْتَ مَكْتَفِيًّا بِفَضْلِ حَصَافَتِكَ ، وَتَقَابَةِ فِطْنَتِكَ ، وَحُسْنِ دِيَانَتِكَ ،
وَوَثَاقَةِ تَجْرِبَتِكَ - عَنِ التَّبْصِيرِ ، مُسْتَغْنِيًّا عَنِ التَّنْبِيهِ وَالتَّذْكَيرِ ؛ فَإِنْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
لَا يَمْتَنِعُ أَنْ يَزِيدَكَ مِنْ مَرَّاشِدِهِ ، مَا يَقْفُكَ عَلَى سَنَنِ الصَّوَابِ وَمَقَاصِدِهِ ؛ وَهُوَ
يَأْمُرُكَ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي سِرِّكَ وَجَهْرِكَ ، وَأَسْتَشْعَارِ خَشْيَتِهِ وَمِرَاقَبَتِهِ ؛ وَاللَّهُ قَدْ
جَعَلَ لِمَنْ آتَقَاهُ مَخْرَجًا مِنْ ضِيقِ أَمْرِهِ وَحَرَجِهِ ، وَنَصَبَ لَهُ أَعْلَامًا عَلَى مَنَاجِحِ قَرَجِهِ .
وَأَنْ تَسْتَعْمَلَ الْإِنصَافَ وَالْعَدْلَ ، وَتُسَيِّغَ الْإِحْسَانَ وَالْفَضْلَ ؛ وَتُلِينَ كَنَفَكَ ، وَتُظْهِرَ
لَطْفَكَ ؛ وَتُحْسِنَ سَيْرَكَ ، وَتُفِيضَ بَرَكَ ، وَتُصَفِّحَ وَتَحْلُمَ ، وَتَعْفُوَ وَتُكْرِمَ ؛ وَتُبْصِرَ
مَنْ تَرْجُو صِلَاةَ وَتَقَهَّمَهُ ، وَتُنْصِفَ مَنْ أَفْرَطَ جِمَاحَهُ وَتُقَوِّمَهُ ؛ وَتَأْخُذَ بِوَثَائِقِ
الْحَزْمِ ، وَجَوَامِعِ الْعَزْمِ ؛ وَالغَلْظَةِ وَالشَّدَةِ عَلَى مَنْ طَغَى وَلَجَّ فِي غِيِّهِ وَعَتَا ؛ وَبَارَزَ اللَّهَ
وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِالْخِلَافِ وَالشَّقَاقِ ، وَالْإِنْحِرَافِ وَالتَّفْثَاقِ ؛ مُسْتَعْمَلًا فَاضِلًا التَّدْيِيرِ عِنْدَ
الْمُؤَادَعَةِ ، وَفَاصِلًا الْمُكَافَاةِ عِنْدَ الْمُقَارَعَةِ ؛ مُصَلِّحًا لِلْفَاسِدِ ، مُسْتَنًا لِلشَّارِدِ ؛ مَكْتَرًا
لِأَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ وَخُلَصَائِهَا ، وَحَاصِدًا لِبَغَائِهَا وَأَعْدَائِهَا ؛ وَاعْظَمًا مَدَّكْرًا لِلْغَافِلِ ، مُؤَمِّنًا
لِلظُلُومِ الْخَائِفِ ، مَخِيفًا لِلظَّالِمِ الْخَائِفِ ؛ مُسْتَصَلِحًا لِلسَّيِّئِينَ ، مَدَّكْرًا بِإِحْسَانِ الْحَسِينِينَ ؛
مُتَنَجِّزًا لَهُمْ الْجَزَاءَ عَلَى بِلَاقَتِهِمْ فِي الطَّاعَةِ وَأَنَارِهِمْ فِي الْخِدْمَةِ . وَأَنْ تَنْظُرَ فِي رِجَالِ الدَّوْلَةِ عَلَى
أَخْتِلَافِهِمْ نَظْرًا يَسْتَلِكُ بِهِمْ سَبِيلَ السَّدَادِ ، وَيُجْرِي أُمُورَهُمْ عَلَى أَفْضَلِ الْعُرْفِ الْمُعْتَادِ .
فَمَا الْأُمَانُ وَالْأَمْرَاءُ ، وَالْأَعْيَانُ وَالرُّؤَسَاءُ ، فَتَحْفَظْ عَلَى مَنْ أَحْمَدْتَ طَرِيقَتَهُ ،
وَعَرِّفْ إِخْلَاصَهُ وَطَاعَتَهُ ، شِعَارَ رِيَاسَتِهِ ، وَتَزِيدْ فِي تَكْرِمَتِهِ ، وَتَنْتَهِي بِهِ إِلَى مَا تَتَرَاءَى
إِلَيْهِ مَوَاضِي هَمَّتِهِ .

وأما طوائف الأجناد فُتقِرُّهم على مرَّاتهم في ديوان الجيش المنصور، وتُخصِّمهم من عِنايتِكَ بالنصيب الموفور، وتستخدمهم في سدِّ الثغور وتسيديد الأمور؛ وتراعى وُصولَ أطعِمهم إليهم، وأوقات الاستحقاقِ إليهم؛ وانفاقهم نصاب الوجوب منهم .

وأما الكُتَّاب المستخدَمون منهم في استخراج الأموال، وعمارة الأعمال، فتحُصَّ كُفَّاتهم بما تقتضيه كفايتهم، وأمناءهم بما تُوجِبُه أماناتهم؛ وتُستبدلُ بالعاجز الخبيث الطَّعمه، والطَّبع المستشعرِ شعارِ المذمَّة : ليحفظ التَّره المأمونُ بزاهته وأمانته، ويُقلع الدَّنِس الخثون عن دَنسه وخيانتته؛ وتأمُر من تختاره لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يسيروا بالسَّير الفاضله، ويعملوا على الرُّسوم العادله؛ فلا يضيِّعوا حقَّ لبيت مال المسامين، ولا يخيِّفوا أحداً من المعاملين .

وأما الرعيَّة، فيأمرك أن تحكُم بينها بالسَّويِّه، وتعتمدها بعدل القضييه؛ وترفع عنها نير الجور، وتحميها من ولاة الظلم؛ وتسوسها بالفضل والرافة متى استقامت على الطاعة، وتأديبت في التَّباعه؛ وتقومها متى أجزت إلى المنازح والأفئتان، وأصرت على مَغْضَبه السلطان .

وأما الأموال وهي العُدَّة التي تُرهِف عزائم الأولياء، وتغض من نواظر الأعداء؛ فتستخرجها من محققها، وتضعها في مستحقِّها؛ وتجتهد في وفورها، وتتوفر على ما عاد بدورها؛ وأن تطالع أمير المؤمنين بدَّره وجِلَّه، وعقد أمرك وحلَّه؛ وتُنهي إليه كل ماتعزُّم على إتهائه، وترجع فيه إلى رائه : ليُكرِّمك من موادِّ تبصيره وتعريفه، ويزيدك من هدايته وتوقيفه؛ بما يُفضي بك إلى جادة الخير وسبيله، ويوضح لك علم النَّجاح ودليله .

(١) المراد قيامهم بما يجب عليهم من استعادة الخيل والسلاح .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك : وقد أودعه من تلويح الإِشارة ، ما يكفي به عن
 تصريح العبارة ؛ ثقةً بأنك الأريبُ الأملئى ، والفطنُ اللوذعى ، الذى تنتهى به
 متونُ التذكير إلى أطرافه وحواشيه ، وتفضى به هوادى القول إلى أعجازه وتواليه .
 فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين ، وكُن عند حُسن ظنّه فى فضلك ، وصدّق مخيلته
 فى كمالك ، والله تعالى يعترف أمير المؤمنين وجه الخيرة فى تصيير أمره إليك ، وتعويله
 فى مهماته عليك ، ويوفّقك لشكر الموهبة فى استخلاصك ، والمنحة فى اجتياك ،
 ويُنمّضك بما حَمَلك من أعباءٍ مظهرته ، وجَسَمك من أنقالِ دولته ، ويُسدّدك
 إلى ما يدُرّ عليك أخلاف [نعمته] ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته .



ومنها - ما أورده فى رسم تقليد زَمّ الأقارب : وهو التقدمة على أقارب الخليفة ،
 وهذه نسخته :

الحمد لله الذى ابتداءً بنعمته ابتداءً وأقتضاباً ، وأعادها جزاءً وثواباً ؛ وميّز
 من اختصّه بهداية خلقه ، وأستخلصه لإظهار حقه ، بأضفاها عطاها ، وأضفاها
 نطافاً ؛ وأحسنها شعاراً ، وأجملها آثاراً ؛ وأستخرجهم من أطيب البرية أعراقاً ،
 وأطهرها شيماً وأخلاقاً ؛ وأقدمها سُودداً ومجدداً ، وأكرمها أباً وجدداً ؛ وتوحّد بأفضل
 ذلك وأعلاه ، وأكله وأسنانه ، مجدداً صفوته من خُلصائه ، وخيرته من أنبيائه ؛
 فأظهره من المنجَبِ الكريم ، والمنجَمِ الصّميم ، والدّوحة الطاهرِ عنصُرها ، الشريفِ
 جوهرها ، الحلوِ ثمرها ؛ ورشّح من آختره من عترته لسياسة بريته ، والدعاء إلى
 توحيده وطاعته .

يحمده أمير المؤمنين أن شرفه بميراث النبوة ، وفضله بأكرم الولادة والأبوة ؛ وأحلّه في الدروة العالية من الخلافه ، وناط به أمور الكافه ؛ ويسأله الصلاة على جدّه محمد وعلى أبيه ، صلى الله عليهما .

وإن أمير المؤمنين يرى أنّ من أشرف نعم الله عليه موقعا ، وألطف مواهبه لديه موضعا ؛ توفيقه للحافظة على من يواشيه في كريم نسبه ، ويمارجه في صميم حسبه ؛ ويُدانِيه في طاهر مولده ، ويُقارِبُه في طيب محتده ؛ وتزِيلُ كلّ ذى تميز منهم في دين وعلم ، ودراية وفهم ، وإحلاله بالمنزلة التي يستوجبها بفاضل نسبه ، وفضل مكتسبه ؛ ويبعثُ أنظاره على التحلّي بخصاله ، والترشّن بخلاله : ليحصل لهم من فضل الخلائق والآداب ، ما يضاعف الحاصل لهم من عرّاقة المناجب والأنساب ؛ ولذلك لا يزالُ ينوِّطُ أمورهم ، ويكلُّ تدبيرهم ، إلى أعيان دولته ، وأمانيل خاصته ؛ الذين يعتادون حضرته ويراوحونها ، ويطالعونه بمحائق أحوالهم ويُنهونها ، ويستخرجون أمره في مصالحهم بما يذلل لهم قُطوف إحسانه وطوله ، ويُعذب لهم مَشارِع برّه وفضله ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّل وإليه يُنيب .

فإن كان العهد إلى خادم ، قال :

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين معدودا في أولى النباهه ، المترشّحين للإستقلال بأعباء دولته وذوى الوجاهه ، المُستخلصين لأستكفاء جلائل مملكته : لما أجمع فيك من إباء النفس وعزّتها ، ووثاقه الديانة وحصاقتها ، وسداد السيرة وأستقامتها ، وتقاء السريرة وطهارتها ؛ وتقبيلك منهج أمير المؤمنين ومذهبّه ، وتمثلك بهديه وأديه ؛ ونشكك في قُصور خلافته ، وأرتضاعك دَرّ طاعته - رأى - والله تعالى يعزّم له على الخير في آرائه ، ويوفّقه لمصالح القول والعمل في أنحائه - أن قلّدك زَمّ بنى عمّه

الأشراف الإسماعيليين ثقةً بسياستك وحميد طريقتك ، وإنافةً لمزلتك وإعرايا
عن أمير مكاتك .

وإن كان العهد إلى شريف قيل بدلاً من هذا الفصل :

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين ممن زين شريف محته ، بمنيف سُودده ،
وطاهر مولده ، بظاهر محته ؛ وكريم تالده بنفيس طارفه ، وجليل سالفه ، بنبيل
آينه ؛ مقتفياً سنن أوليتك ، مفرعاً على أصول دوحتك ؛ ضارباً بالسهم المعلى في الدين
والعلم ، حائزاً خصل السبق في الرجاحة والفهم - رأى أمير المؤمنين أن قللك نقابه
بنى عمه الأشراف الفلانيين : ثقةً بأنك تعرف ما يجمعهم وإياك من الأرحام الواشجة ،
والأواصر المتمازجة ؛ وتحسن السيرة بهم ، والتعهد لهم والتوفر عليهم .

ثم يوصل الكلام بأى الخطابين قدم فيقال :

فتقلد ما قللك أمير المؤمنين مستشعراً تقوى الله وطاعته ، معتقداً خيفته
ومراقبته ؛ سائراً فيمن ولأك أمير المؤمنين بسيرته ، مستنناً بسنته ؛ متأدباً بأدابه ،
مقتفياً مناهج صوابه ؛ وإكرام هذه الأسرة [التي] خصها الله تعالى بكرامته ، وفرض
مودتها على أهل طاعته ؛ ونزهاها عن الأذناس ، وطهرها من الأرجاس ؛ فقال جل
قائلاً : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ .

وأعرف لهم حق مراتبهم الدانية من أمير المؤمنين ، ونزلهم بحيث نزلهم الله من
الدنيا والدين ؛ وأعتمد تعظيم مشايخهم وتوقيرهم ، وسياسة شباينهم وتدبيرهم ، وتقويم
أخلاقهم وتنقيفهم ؛ وحذهم بلزوم الطرائق الحميدة ، والمذاهب السديده ؛ التي تليق
بأصولهم الطاهرة ، وفروعهم المثمرة ؛ ومناحتهم الصميمة ، ومناجيبهم الكريمة ؛
وتفقد منشاهم ومرباهم ، وحلطاتهم وقرباهم ؛ فمن تآكرت أعرافه ، وأخلاقه ،

وأنسابه، وآدابه، بالغت في تشبيهه وتعريفه، فإن نَجَعَ ذلك فيه وإلا بسطت يدك إلى تهذيبه، وإصلاحه وتأديبه: لَيْسْتِ قِظَ من منامةٍ غرَّتَه، ويرجع إلى اللائق بشرف ولادته؛ وأنظر فيما أوقف عليهم من الأملاك والمستغلات، والضّياح والإقطاعات، والرُّسوم والصلّات؛ وأنذب لتولّى ذلك من تسكّن إلى ثقته وأمانته من الكُتاب؛ وراع سيرته في عمّارته، وطريقته في تثير ماله وزيادته؛ فإن ألفتها كافيًا أمينًا أقررتَه، وإن وجدته عاجزًا خثونا صرفته؛ وأسبدلت به من يُحسِن خَبَرَكَ، ويُطِيب أترك؛ وأجر الأمر في قسمته بين ذكورهم وإناثهم على الرسوم التي يشهد بها ديوانهم؛ وآكُتِب الرِّقاع عنهم إلى الحضرة في اقتضاء رُسومهم، وما يعرض من مهمّات أمورهم، وتتنجز كل ما يتعلق بهم وتتوبُّ عنهم فيه: لتستقيم شُؤونهم بسياستك، وتنظّم أحوالهم بحسُن سيرتك.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاعمل به وأنته إلى متضمّنه، إن شاء الله تعالى:



ومنها — مأورده في رسم تقليد بنقابة العلويين، وهو:

الحمد لله الذي أنجب من أسرار عباده قادة جعلهم لمصالحهم نظاما، وأنجب من أختيار خليقته سادة صيرهم لأموهم قواما؛ وعدق بهم هداية من ضلّ، وتقويم من دلّ؛ وتعليم من جهل، ونذكير من غفل؛ ونصّبهم أعلاما على طرق الرّشاد، وأدلة على سبل السّداد.

يحمده أمير المؤمنين أن أخصّصه بأثرة الخلافة والإمامه، وميزه بمزية الولاية على الأمة والزعامه؛ وأنهضه بما كلفه من سياسة بريته وتنزيلهم منازلهم من أختصاصه وإيثاره، وإحلالهم في محالهم من أستخلاصه وأختياره؛ ويسأله الصلاة على أشرف

الأُمم نَجَارًا وَأَطِيهِم عُنُصْرًا، وَأَعْظَمَهُمْ مَفْخَرًا؛ سِيدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ أُخِيهِ
وَأَبْنِ عَمِّهِ، وَبَابِ حِكْمَتِهِ وَعِلْمِهِ؛ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ الرَّاسِخِ فِي نَسَبِهِ،
الْمُدَانِي [لَهُ] فِي حَسَبِهِ؛ سَيْفِيهِ الْبَاتِرِ، وَمُعْجِزِهِ الْبَاهِرِ، وَمَكَانِفِهِ الْمُظَاهِرِ؛ وَعَلَىٰ
الْأُتَمَّةِ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا الْمَهْدِيِّينَ، وَسَلَمِ تَسْلِيمًا .

وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا خَصَّهُ اللهُ تَعَالَىٰ مِنْ شَرَفِ الْمَنَجَمِ وَالْمَوْلِدِ، وَكَرَمِ الْمُخْتَدِ؛
وَقَوْلِهِ مِنْ مَنَاصِبِ الْخُلَفَاءِ وَالْأُتَمَّةِ، وَنَاطِقِهِ مِنْ إِمَامَةِ الْأُمَّةِ - يَرَىٰ أَنَّ مِنْ نِعَمِ اللهِ
الَّتِي يَجِبُ التَّحَدُّثُ بِشُكْرِهَا، وَتَحَقُّقُ الْإِفَاضَةِ فِي نَشْرِهَا، تَوْفِيقَهُ لِلنَّظَرِ فِي أَحْوَالِ
ذَوِي لُحْمَتِهِ، وَأَوْلَىٰ مُنَاسِبَتِهِ؛ الْمُؤَاشِحِينَ لَهُ فِي أَرْوَمَتِهِ، الْمُعْتَرِينَ إِلَىٰ كَرَمِ وِلَادَتِهِ؛
وَتَوْخِيهِمْ بِمَا يُرْفَلُهُمْ فِي مَلَابِسِ الْجَمَالِ، وَيُوقَلُّهُمْ فِي هَضَبَاتِ الْجَلَالِ؛ وَيُرْتَبُّو
فِي الرُّتَبِ الَّتِي يَسْتَوْجِبُونَهَا [وَيَرَاهَا] أَوْلَىٰ بِمَغَارِسِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ، وَمَاسًّا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَدَابِهِمْ؛
وَلِذَلِكَ يَصْرِفُ أَهْتَامَهُ إِلَىٰ مَا يَجْمَعُ لَهُمْ بَيْنَ شَرَفِ الْأَعْرَاقِ، وَكَرَمِ الْأَخْلَاقِ؛ وَطَهَارَةِ
الْعُنَاصِرِ وَالْأَوَاصِرِ، وَحِيَازَةِ الْمُنَاقِبِ وَالْمَأَثَرِ .

وَمَا كُنْتُ بِمَحْضَرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جِلَّتِهِمُ الْعُلَمَاءِ، وَطَهَرَتِهِمُ الْأَزْكَيَاءِ؛
وَأَبْرَارِهِمُ الصُّلَحَاءِ، وَخِيَارِهِمُ الْفَضْلَاءِ، الَّذِينَ تَضَارَعَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَأَعْرَاقُهُمْ،
وَتَقَارَعَتْ أَنْسَابُهُمْ وَأَدَابُهُمْ؛ وَتَشَاكَهَتْ مَوَارِدُهُمْ وَمَصَادِرُهُمْ، وَتَشَابَهَتْ أَوْلِيَّتُهُمْ
وَأَوَانِحُهُمْ، وَأَنْفَقَتْ جُيُوبُهُمْ وَدَخَائِلُهُمْ، وَتَوَصَّحَتْ عَنِ الدِّينِ وَالخَيْرِ مَحَالِيْلُهُمْ .
هَذَا مَعَ مَا يَرَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ كَرِيمِ مَسَاعِيكِ فِي خِدْمَتِهِ، وَإِصَابَةِ مَرَامِيكِ
فِي طَاعَتِهِ؛ وَأَعْتَصَامِكِ بِجَبَلِ مِتَابَعَتِهِ؛ وَنُهُوضِكِ بِحَقُوقِ مَا أَسْبَغَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَتِهِ -
رَأَىٰ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ - وَاللهُ تَعَالَىٰ يَقْضِي لَهُ فِي آرَائِهِ بِحُسْنِ الْأَخْتِيَارِ، وَيُمِدُّهُ بِالْعَوْنِ
وَالتَّيْيِيدِ فِي مَجَارِي الْأَقْدَارِ - أَنْ قَلَّدَكَ النُّقَابَةَ عَلَىٰ الْأَشْرَافِ الطَّالِبِيِّينَ أَجْمَعِينَ، الْمُقِيمِينَ

بالضرة وسائر أعمال المملكة شرقاً وغرباً، وبعداً وقرباً، بثقة بأنك تصدق بحيلته
فيك واعتقاده، وتستدعي بكفاية ما استكفك شكره وإحماده، وتستدر بالاستقلال
والغناء أخلاف إحصانه وفضله، وتمتري بالأضطلاع بمضالع الأثقال فائض أمانته
وطوله .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين عاملاً بتقوى الله وطاعته، مستشعراً لحيفته
ومراقبته، وأحسِن رعاية من عدق بك رعايته، وسياسة من وكل إليك سياسته .

وأعلم أن أمير المؤمنين قد ميزك على كافة أهل نسبك، وجميع من يؤامجك
في حسبك، وجعلك عليهم رئيساً ولهم سائساً، فأعرف لهم حق القرابة والمشابكة،
وتشاجر الأنساب والمشاركة، فإن الله تعالى يقول: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا
إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ . وعمهم جميعاً بالتوقير والإكرام، والتفقد والإهتمام، واتخذ
شيخهم أبا، وكهلهم أخا، وطفلهم ولداً، وأفرض لهم من الحنان، والإشفاق
والفضل والإحسان، ما تقتضيه الرحم الدائيه، والأواصر المتقاربه، وكُن مع ذلك
متفقدا لأحوالهم، مطالعاً لسيرهم وأفعالهم، فمن ألقيته سالكاً لأقصد الطرائق، متخلقاً
بأجمل الخلائق، حارساً لشرفه، متمسكاً بسلفه، فزده في الأثرة زيادة تُرغب أمثاله
في اقتفاء مذهبه، وتبعته على التأدب بأدبه، ومن وجدته مستحسناً مالا يليق بصريح
عرقه، راجباً ما ليس من طُرقه، فأيقظه بنافع الوعظ، وذكَّره بنافع اللفظ، فإن
استقام على الطريقة المثلى، ورجع إلى الأجدد والأولى، عرفت ذلك من فعله،
وفرضت له ما تقرضه لصلحاء أهله: فإن الله تعالى قد فتح باب التوبه، ووعد بإقالة
أهل الإنابة، ومن انحرف عن التذكير، وأنصرف عن التبصير، وأصر وتمادى،
وآرتكب ما يوجب حداً، آمنتت أمر الله تعالى فيه، وأقت الحد عليه، غير مُصغ

إلى شَفَاعِهِ ، ولا مُوجِبَ لِحَقِّ ذَرِيَعِهِ : فإن أمير المؤمنين يصل من ذَوِي أَنْسَابِهِ ، من وَكَّدَهَا بِأَسْبَابِهِ ؛ ويقطَع من أوجب الحَقُّ قَطِيعَتَهُ ، ولا يراعى رِجْمَهُ وَقَرَابَتَهُ .
ووَكَّلَ بِهِمْ مِنْ يَرَوِي إِلَيْكَ أَخْبَارَهُمْ ، ويكشِفُ لَكَ آثَارَهُمْ : ليعلموا أنهم ببال من مطالعتك ، وبعين من أهتمامك ومشارفتك ؛ فيكبحُ ذلك جامعهم عن العثار والسَّقَطِ ، ويمنع طامعهم من الزَّلَلِ والغَلَطِ . وتوخَّهم في خطابك بالإكرام ، وميزهم عن محاورَةِ العوامِ ؛ ولا تقابل أحدا منهم ببداء ولا سب ، ولا قدح في أم ولا أب ؛ فإنهم فروعُ دوحَةِ أمير المؤمنين وعترته الذين طهرهم الله من الأرجاس ، وفرض قرأهم على الناس . ووفَّرَ أهتمامك على صيانةِ النَّسَبِ مِنَ الوَكْسِ ، وحياطته من اللَّبْسِ ؛ فإنه نَسَبُ الرسولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي يتصل يومَ انْقِطَاعِ الأَنْسَابِ ، وسببُهُ الذي يتشجُّ يومَ انْفِرَاطِ الأسبابِ ؛ وأُنِيتُ أسماءَ كَافَّةٍ مِنْ يَعتَرِي إلى هذا البيت منسوبةً إلى أصولها : لتأمن من دَخِيلٍ مُلصِقٍ يترور عليها ، ومُخْتَلِقٍ مُلحِقٍ ينضم إليها . وإن عرف مدَّعٍ نسباً لاحجة له فيه ، ولا بينة عنده عليه ؛ فغلظ له العقاب ، وأشهره شهرةً تمجُّزه عن معاودة الكذاب ؛ وأحتط في أمر المناكح وصنفا عن العوامِ ، ووفَّرَ كرائمِ أهل البيت عن مَلابسةِ اللثامِ ؛ وإن ادَّعى أحدٌ من الرعية حقاً على شريف فاحملها على السوية وعده بإنصاف خصمه ، وأمنعه من ظلمه ؛ وإن ثَبَّتَ أيضاً في مجلس الحُكْمِ حَقُّ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الأشرافِ فَاتَزَعَهُ مِنْهُ [وول] ^(١) على من في البلاد ، أهل السداد منهم والرِّشَادِ ؛ ومُرِّهم بتقيل مذهبك ، وتقل أدبك ؛ وأصريف أهتمامك إلى حِفْظِ أوقافهم وأملاكهم ومستغلاتهم في سائر الأعمال ، وحُطِّها مِنَ العَفَاءِ والأَضْحَالِ ؛ وتوفَّرَ على تثير ارتفاعها ، وترجسية مالها ؛

(١) الزيادة ليستقيم الكلام .

وَأَسْتخِدِمُ لَضَبَطِ حَاصِلِهَا ، وَجِهَاتِ مُنْفَقِهَا ، مِنْ تَسْكُنِ إِلَى ثِقَتِهِ ، وَتَتَّقِ بِنَهْضَتِهِ ؛
وَوَزْعَ مَا يَرْتَفِعُ مِنْ أَسْتِغْلَالِهَا بَيْنَهُمْ عَلَى رُتَبِهِمُ الَّتِي يَشْهَدُ بِهَا دِيْوَانُهُمْ .

هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ فَآتَيْتَهُ إِلَيْهِ مُنْتَهَجًا لِمِثْلِهِ ؛ مَعْتَمِدًا بِدَلِيلِهِ ؛ وَطَالِعَ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَلْتَبَسَ عَلَيْكَ وَأَبْهَمَ ، وَأَشْكَلَ وَأَسْتَعْجِمَ : لِيَقْفِكَ عَلَى وَاضِحِ السَّنَنِ ،
وَيُرْشِدَكَ إِلَى أَحْسَنِ السَّنَنِ ؛ وَأَسْتَعِينَ بِاللَّهِ يَهْدِكَ لِمَعُونَتِهِ ، وَأَسْتَمِدُّهُ يُؤَيِّدُكَ بِهَدَايَتِهِ ؛
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



ومنها — ما أورده في رسم تقليد بز طوائف الرجال .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْبَدِيعِ تَقْدِيرُهُ ، الْحَكِيمِ تَدْبِيرُهُ ؛ الَّذِي أَتَقَنَّ مَاصِنَعَ وَأَحْكَمَهُ ، وَكَلَّمَ مَا بَدَعَ
وَتَمَّمَهُ ؛ وَأَعْطَى كُلَّ مَصْلُحَةٍ مِنْ مَصَالِحِ عِبَادِهِ نِظَامًا ، وَكُلَّ مَرْفِقٍ مِنْ مَرَاغِقِ
خَلْقِهِ قِيَامًا ؛ فَلَا يُقَارَبُ فِيهَا خَلْقٌ وَصُورٌ ، وَلَا يُسَاكَلُ فِيهَا قَدْرٌ وَدَرَجَةٌ ؛ وَأَبَّ ثَلَمَ بَرِيَّتِهِ
بِمَنْ أَسْتَخْلَصَهُ مِنْ خَاصَّتِهَا ، لِسِيَاسَةِ عَامَّتِهَا ؛ وَأَتَخَبَّهَ مِنْ أَشْرَافِهَا ، لِتَسْيِدِ أَطْرَافِهَا ؛
وِإِقَامَةِ مَنْ سَادَهَا لِإِصْلَاحِ فَاسِدِهَا ، وَتَقْوِيمِ مَائِدِهَا ؛ وَتَوْقِيفِهَا عَلَى سَنَنِ الصَّوَابِ ،
وَتَعْرِيفِهَا بِحَاسَنِ الْآدَابِ .

يُجَمِّدُهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ أَحَلَّهُ فِي الْمُنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ : مِنْ أَصْطِفَائِهِ وَأَسْتَخْلَاصِهِ ، وَالذَّرْوَةِ
السَّنِيَّةِ : مِنْ أَجْتِبَائِهِ وَأَخْتِصَاصِهِ ؛ وَفَوْضَ إِلَيْهِ تَنْزِيلَ الرِّتَبِ وَتَحْوِيلِهَا ، وَإِقْرَارَ
الْمَنَازِلِ وَتَحْوِيلِهَا ؛ وَنَاطَ بِهِ الْبَرَمَ وَالتَّقْضَ ، وَالرَّفْعَ وَالتَّخْفِضَ ؛ وَالرِّيشَ وَالحِصْنَ ،
وَالزِّيَادَةَ وَالتَّقْصَ ؛ وَسَوْغَةَ الشُّكْرِ عَلَى مَوَاهِبِهِ السَّابِغِ عِطَافُهَا ، وَالْفَسِيحَةَ أَكْثَافُهَا ،
الْبَعِيدَةَ أَطْرَافُهَا ؛ وَ[يَسْأَلُهُ] أَنْ يَصِلَى عَلَى نَبِيِّ الرَّحْمَةِ ، وَمُفِيدِ الْحِكْمَةِ ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ

الرُّسُل ، ومَوْضِعِ السُّبُل ؛ صلى الله عليه وعلى أخيه وأبن عمه ، وخليفته على أمته وقومه : على بن أبى طالب أمير المؤمنين ، ومولى المسلمين ؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتِهِمَا الطاهرين .

وإنَّ أمير المؤمنين بما فَوَّضَهُ اللهُ تعالى إليه من حِمَايةِ الأَنَامِ ، والمُرَامَةِ عن دار الإسلام ؛ وكَفَلَهُ من غَضِّ نواظِرِ أهل العناد ، وتنكيسِ رُؤوسِ رؤساءِ الإلحاد ؛ لا يزال ينظُرُ في مصالح عبيده ، وتوفّرِ سياسةِ رجال دولته وجنوده ؛ الذين هم حُرْبُ الله الغالبون ، وجنُده المنصورون ؛ ويردُّ النظرَ في أمورهم ، والتقدّمَ عليهم ؛ وزمَّ طوائفهم ، إلى خواصِّ دولته ، وأعيان مملكته ، الذين بالأطرائقهم ، وحَدِّ خلائقهم : من الغناء والكفاية ، والسداد وحُسن السياسة ؛ وتقلُّمهم في الخدم فاستقلُّوا بأعبائها وأثقالها ، ونهضوا بناهض أعمالها ؛ ومضتْ عزائمهم في حياطة البيضة ، وأشتدتْ صرايمهم في تحصين الحوزة ، وصدقتْ نياتهم في المُرَامَةِ عن الله ، والمحاماة عن الدعوة والدَّولة .

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين مُعدًّا لمِهْمَاتِهِ ، معدودًا في أمثالِ كُفَاتِهِ ؛ مشهورًا بحسن السياسة لما تُورده وتُصدِّره ، معروفاً بفضل السيرة فيما تأتيه وتَدْرُهُ - رأى أمير المؤمنين - والله يُرشده لأَعْوَدِ الآراءِ بالصلاح والإصلاح ، وأدناها من الخير والنجاح - أن قَلَدَكَ زَمَامَ طائفة الرجال الفلانيين (ويوصفون بما تقتضيه مكاتبتهم من الدولة وحسن سيرهم في الخدمة) إنافةً بقَدْرِكَ ، وإبانةً عن خَطْرِكَ ، وتنويهًا بذُكْرِكَ ، وتفخيمًا لأَمْرِكَ .

وهو يأمرُك بتقوى الله تعالى وطاعته ، وأستشعارِ مراقبته ؛ ورياضةِ خلائقك على محبة العدل ، وإيثارِ الفضل ؛ وأتباعِ اللطف ، وأجتنبابِ العسْف ؛ وتوخي

الإنصاف، وبَسَطَ الهيبة من غير إجحاف؛ وأن تُحَصَّ هذه الطائفة من النظر في أمورها، وتعهد صغيرها وكبيرها، بما يُسَدِّد أحوالها، ويحقق آمالها؛ وتأخذها بأحسن الآداب اللائقة بأمثالها، وسلوك الطريقة المعهودة من أعيانها وأمانيها؛ وتُسْعِرُها من أمير المؤمنين بما يشرح صدرها في خدمته، ويُقَرِّعِ عنها في طاعته؛ والمسارعة إلى مكافئة أعدائه، والتمييز في نُصرة أوليائه؛ وتطالع بحال من يستحق الاحترام، ويستوجب إفاضة الإنعام؛ وتكتب الرقاع عنها (مستدعيًا للرباطات، في الأطماع والعاجزين شاملاً في التعويد والتأشير والتلقيب والولايات قاصداً في ذلك ما يفسح آمالها في الآجال، ويوثقها بדרور الأمثال^(١))؛ فإنهم أمراء الحروب، وكفاة الخطوب، الذين يجاهدون عن الحوزة، ويرامون عن الدولة؛ وأفرض لهم من الإكرام، وتأمم الإهتمام؛ ما تقتضيه مكاتبتهم في الدولة، وموضعهم من الخدمة؛ وتكفل أوساطهم بالرعاية، وأصرف إليهم شطراً موفوراً من العناية؛ وألحق من برز منهم وتقدم، ونهض وخدم، بنظرائه وأمثاله، وساو بينه وبين أشكاله؛ وتعهد أطرافهم بملاحظتك، وتفقدتهم بسياستك؛ وحُدِّم بلزوم السير الحميدة، والمذاهب السديده؛ والتوفر على ما يرهف عزائمهم، ويؤيد أيديهم؛ ولا تُفسح لأحد من هذه المذاهب في مخاطبة العوام ولا مشاركة التجار والإحتراف، ووكل بهم من التتبع من يتبلى سيرهم، وينهى إليك أخبارهم؛ فمن علمته قد أجتراً إلى نسخ المذهب، فتناوله باليم الأدب؛ وأحضضهم على الإدمان في نقل السلاح، والضرب بالسيف، والمطاعنة بالرمح، والإرماء عن القوس؛ وميز من مهر وأستقل، وقصر بمن صجج وأحل؛ فهم كالجوارح التي ينفعها التعليم والإجراء، ويضرها الإهمال والإبقاء؛ وفي صرفك الإهتمام إليهم ما يزيد في رغبة ذى الهمة العلية، ويبعث المعروف

(١) كذا في النسخ ولم نهند الى المراد منها .

في النفس الدنيَّة ؛ وأن تُطالبهم بالاستعداد، وأرتباط الخيول الجياد؛ والاستكثار من السلاح الشاك والجنن . وليكن ما تُطالبهم بإعداده من هذه الأصناف على حسب الفروض من العطاء، ولا تُرخص لأحد في الاقتناع بما لا يليق بمنزله ، والرضا بما يقع دون ما يعتده أمائل طبقة . ومن مات من هذه الطائفة وخلف ولدا يتيمًا فضمه إلى أمثاله ، وأنظر في حاله ؛ ووكل به من يفقهه في دينه ، ويعلمه ما لا غنى به عن تعليمه من كتاب الله وسنته ، ومن يهذبه في الخدمة ويعلمه العمل بالآتها، والتنقل في حالاتها؛ ويطلق له من إناعام أمير المؤمنين ما يقوم بكففتها ولو أزمها، وخذ كل من تقدمهم بخدماها والجرى على عادتها في النهوض بما يستنص به ، ولا يفسح لها في التناقل عنه ؛ وسو بينهم في الاستخدام ؛ ولا تُخص قوماً دون قوم بالترفيه والإجماع؛ فإن في ذلك إرهافاً لعزائمهم ، وتقويةً لمنهم ، وإفاضة العدل عليهم .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، قد وكد به الحجة عليك؛ فتأمله ناظراً، وراجعه متدبراً؛ وأنته إلى مصايرِه ومراشدِه ، وأعمل على رؤسومه وحدوده ، يوفق الله مقاصدك، ويُسعد مصالحك ويتولأك، إن شاء الله تعالى .

ورسوم هذه العهود يتفاضل الخطابُ فيها بحسب تفاضل الطوائف ومن يوثق عليها . وهذا الأئمة متوسطٌ تمكن الزيادةُ عليه والنقص منه .



ومنها — ما أورده في رسم تقليد بإمارة الحج، وهذه نسخته :

الحمد لله الذي طهر بيته من الأرجاس، وجعله مثابةً للناس؛ وآمن من حله ونزله، وأوجب أجر من هاجر إليه ووصله .

يحمده أمير المؤمنين أن خصه بجزية البيت الأعظم، والحجر المكرم، والحطيم
 وزمزم، وأفضى إليه ميراث النبوة والإمامة، وثرث الخليفة والزعامه، وجعله
 لقرضه موفياً، ولحقوقه مؤدياً، ولحدوده حافظاً، ولشرائعه ملاحظاً، ويسأله أن يصلّي
 على من أمره بالتأذين في الناس بالحج إلى بيته الحرام لشهادة منافعهم، وتأدية
 مناسكهم، وقضاء نفثهم، ووفاء نذرهم، وذكر خالفهم، والطواف بحرمه، والشكر
 على نعمه: سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى وصيه وخليفته، وباب مدينة
 علمه وحكمته: علي بن أبي طالب سيد الوصيين، وعلى الأئمة من ذريتهما
 الطاهرين.

وإن أولى ما صرف أمير المؤمنين إليه همته، ووفر عليه رعايته، مثابراً عليه،
 وناهضاً لحق الله تعالى فيه، النظر في أمر رفق الحجيج الشاحصة إلى بيت الله الحرام،
 وزيارة قبر نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام، وردّه إلى من حلّ محلّك من الدين،
 وتميز بما تميز به صلحاء المسلمين: من العلم، ورجاحة الحلم، ونفاذ البصيره، وحسن
 السريره، وعدل السيره؛ ولذلك رأى أمير المؤمنين أن قلّدك أمر رفق الحجيج
 المتوجهة من موضع كذا إلى الحرمين المحروسين، وولّاك الحرب والأحداث بها:
 واثقاً باستقلالك وغنائك، وسدادك وإصابة آرائك؛ فتقلّد ماقلّدك أمير المؤمنين
 بعزم ناقب؛ ورأي صائب؛ وهمة ماضيه، ونفس ساميه؛ وشمر فيه تسميراً يعرب
 عن محلّك من الإضطلاع، ويدلّ على استقلالك بحق الإضطناع؛ وحُصّ الحجاج
 بآتمّ الأحظ، وكُن من أمرهم على تيقظ؛ وأعتمد ترقبهم في المسير، وسو
 في رعايتهم بين الصغير والكبير؛ فإنهم جميعاً إلى الله متوجهون، وإلى بيته الحرام
 قاصدون، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم وافدون؛ قد استقربوا بعيد الشقه،

وَأَسْتَدْمَثُوا خَشِنَ الْمَشَقَّةِ ، رَغْبَةً فِي ثَوَابِ اللَّهِ وَعَفْوِهِ ، وَالنَّجَاةِ مِنْ عِقَابِهِ وَسَطْوِهِ ؛ وَتَقَرُّبًا إِلَيْهِ بِارْتِسَامِ أَمْرِهِ وَطَاعَتِهِ ، وَإِيجَابًا لِلحَرْمَةِ بِالْحُلُولِ فِي عِرَاصِ بَيْتِهِ وَأَفْنِيَّتِهِ ؛ فَمُرَافَدَتُهُمْ وَاجِبُهُ ، وَمَسَاعَدَتُهُمْ لِزَيْبِهِ ؛ حَتَّى يَصِلُوا إِلَى بُغْيَتِهِمْ وَقَدْ شَمِلَتْهُمْ السَّلَامَةُ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ، وَالْأَمْنَةُ فِي الْحَيْلِ وَالرِّجَالِ : مُتَوَجِّهِينَ وَقَارِّينَ وَقَافِلِينَ ، بَعْدَ أَنْ يَشْهَدُوا مِنْهَا فَعَمَّهُمْ ، وَيُؤَدُّوا مَنَاسِكَهُمْ ، وَيَعْمَلُوا بِمَا حُدَّ لَهُمْ . وَرُدَّ لَهُمْ فِي سَيْرِهِمْ عَنِ الْإِزْدِحَامِ ، وَرَتَّبَهُمْ عَلَى الْإِنْتِظَامِ ؛ وَرَاعَاهُمْ فِي وُرُودِ الْمَنَاهِلِ ، وَأَمْنَعَهُمْ مِنَ التَّحَادُثِ عَلَيْهَا وَالتَّكَاثُرِ فِيهَا ؛ حَتَّى لَا يَنْفَصِلُوا مِنْهَا إِلَّا بَعْدَ الْإِرْتَوَاءِ ، وَوُقُوعِ التَّسَاوِيِ وَالْإِكْتِفَاءِ ؛ وَقَدَّمَ أَمَامَهُمْ مَنْ يَمْنَعُهُمْ مِنَ التَّسْرُعِ ، وَأَخَّرَ وَرَاءَهُمْ مَنْ يَحْفَظُهُمْ مِنَ التَّقَطُّعِ ؛ وَرَتَّبَ سَاقَتَهُمْ ، وَلَا يُحَلُّ بِحَفْظِهِمْ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِمْ ؛ وَطَالَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي كُلِّ مَنَزِلٍ تَنْزِيلُهُ وَمَحَلِّ تَحُلُّهُ بِحَقِيقَةِ أَمْرِكَ لِقَيْفِ عَلَيْهَا ، وَيُمَدِّكَ بِمَا يُنْهَضُكَ فِيهَا .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فتدبره عاملاً عليه ؛ متبصراً بما فيه ، عاملاً بما يحسن موقعه لك ، ويزيدك من رضا الله وثوابه ، إن شاء الله تعالى .



ومنها — ما أوردته في رسم تقليد الإمارة على الجهاد ، وهذه نسخته :

الحمد لله الصادق وعده ، الغالب جُنْدُهُ ؛ ناصر الحق ومُدَيْلِهِ ، وخادِلِ الْبَاطِلِ ومُدَيْلِهِ ؛ مُحِلِّ التَّنَكُّبِ بِنِ انْصَرَفَ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَمُنْزِلِ الْعِقَابِ بِنِ تَحَرَّفَ عَنْ دَلِيلِهِ ؛ الَّذِي اخْتَارَ دِينَ الْإِسْلَامِ فَأَعْلَى مَنَارَهُ ، وَوَضَّحَ أَنْوَارَهُ ؛ وَأَسْتَخْلَصَ لَهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ أَعْضَادًا لَا تَأْخُذُهُمْ فِي الْحَقِّ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَلَا يُغْمِضُونَ عَنِ الْمَكَالِفَةِ دُونَهُ جَفَنَ حَالِمٌ ؛

وجزاهم على سعيهم في نصرته جزاءً فيه يتنافس المتنافسون ، وإلى غايته يرتقى بالهمم المحذون ؛ قصداً من الله تعالى في إعزاز دينه ، وإنجاز ما وعد به خلفاءه من إظهاره وتمكينه ؛ وقطاً لشوكة أهل العناد ، وتعفية لآثار ذوى الفساد ؛ وتوفيراً لأحاطى من بدل الاجتهاد ، من سعداء عبادته في الجهاد .

يحمده أمير المؤمنين أن اختصه بلطيف الصنع فيما استرعاه ، ووقفه للعمل بما يرضيه فيما ولّاه ؛ وأعانه على المرامة عن دار المسلمين ، والمحاماة عن ذمار الدين ؛ ومجاهدة [من] ندعنهما صادفاً ، ونكّب عن سبيلهما منصرفاً ؛ وإبادة من عند عن طاعته واتخذ معه إلهاً آخر لإله إلا هو سبحانه وتعالى عما يقول المشركون علواً كبيراً ؛ وأستترأهم من صياصيهم فهراً وأقتساراً ، وإخراجهم عن بيوتهم عزراً وأقديراً ؛ وإذا قتهم وبأل أمرهم [و] عاقبة كفرهم ، أتباعا لقول الله تعالى إذ يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

ويسأله أن يصلى على أشهر الخلق نورا وفضلا ، وأظهر البرية فرعاً وأصلاً ؛ وأرشد الأنبياء دليلاً ، وأقصد الرسل سبيلاً : مجد رسوله الذى آتبعته وقد توعر طريق الحق عافياً ، وتغور نور الهدى خافياً ؛ والناس يتسكعون فى حنادس الغمرات ، ويتورطون فى مهاوى الهلكات ؛ لا يعرفون أنهم ضلال فيستهدون ، ولا عظمى فيستبصرون ؛ فأيدّه وعصده ، ووقفه وسدده ؛ ونصره وأظهره ، وأعانه وأزره ؛ وأنتخب له من صفوة خلقه ، أولياء كاتفوه على ظهور حقه ، سمحوا بالأنفس العزیزه ، والأموال الحریزة ؛ وجاهدوا معه بأيدٍ باسطةٍ ماضیه ، وعزائمٍ متكافیه متوافیه ؛ وقلوبٍ على الكفار قسيّة قاسیه ؛ وعلى المؤمنين رءوفة حانية . فلما صدقوا ما عهدوا الله عليه ، وأرتموا أمره وأتتهوا إليه ، شركهم معه فى الوصف والثناء ،

وأضافهم إليه في المدح والإطراء؛ فقال جل قائلًا: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ . صلى الله عليه وعلى أخيه وآبن عمه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب سيف الله الفاصل، وسنانه العامل؛ ومُعْجَزُ رَسُولِهِ الباهر، ووزيره المظاهر؛ مُيَسِدُ الشُّجْعَانِ، ومُيَسِرُ الْأَقْرَانِ؛ ومَقَطَّرُ الْفُرْسَانِ، ومُكَسَّرُ الصَّلْبَانِ؛ ومنكس الأوثان، ومُعِزُّ الْإِيمَانِ، الذي سبق الناس إلى الإسلام، وتقدّمهم في الصلوة والصيام؛ وعلى الأئمة من ذريتهما الميامين، البررة الطاهرين، وسلم تسليما .

وإن أمير المؤمنين بما كلفه الله تعالى من [أمر] دينه، ووعده من إظهاره وتمكينه؛ يرى أن أفضل مارنا إليه ببصر بصيرته، ورمى نحوه بطاميح همته، ما شملت الدين والدنيا بركته، وعمت الإسلام والمسلمين عائدته؛ وحل محل الغيث إذا تدفق وهمع، والنهار إذا تالت ولمع. ولا شيء أعود على الأمة، وأدعى إلى سبوغ النعمة، من علو كلمتهم، وأرتفاع رأيهم؛ وتحصين حوزتهم، وإيمان منصتهم؛ وتأدية الفريضة في مجاهدة أعدائهم، وصرفهم عن غلوائهم؛ وأقتيادهم بالإذلال والصغار، وكبحهم بسكائم الإهوان والأقتسار؛ ومواصلتهم بغزو الديار، وتعفية الآثار؛ وإيداع الرعب في صدورهم، وتكذيب أمانى غرورهم؛ ووعظهم بالسنة القواضب، ومكاتبتهم على أيدي الكئاب: لما في ذلك من ذل الشرك وثبوره، وعز التوحيد وظهوره؛ ووضوح حجة أولياء الله تعالى على أعدائه بما يزيله عليهم من نصره ومعونته، ويؤيدهم به من تأييده وعنايته؛ لاجرم أن أمير المؤمنين مصروف العزيمة، موقوف الهمة، على تنفيذ البعث والسرايا، والمواصلة بالجيوش والعرايا؛ وتجهيز المرتقة من أولياء الدولة، وحض المطوعة من أهل الملل، على ما أمر الله تعالى به من غزو المشركين، وجهاد الملحدين؛ نافذاً في ذلك بنفسه، وبأذلا فيه

عزيرَ مُهَجَّتِه ، عند تسهل السبل إلى البعثة ، وجود الفسحة ؛ ومعولاً فيه عند التعذر على أهل الشجاعة والرّاحة من أعيان أهل الإسلام الذين أيقنت ضمايرهم ، وخلصت بصائرهم ؛ ورغبوا في عاجل الذكر الجميل ، وأجل الأجر الجزيل ؛ وأمير المؤمنين يسأل الله تعالى أن يُجْريه فيما يُصْدر ويورد ، على أفضل مالم يزل يُولى ويُعوذ : من التوفيق في رأيه وعزمه ، والتسديد في تديره وحزمه ؛ ويؤتية من ذلك أفضل ما آتاه ولياً استخلفه ، وأميناً كَفَلَه عباده وكَفَه ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكل وإليه يُنيب .

ولما كنت بحضرة أمير المؤمنين ممن يُعده لجلال مهّماته ، ويعده من أعيان كَفَاتِه ؛ وراه سداداً للخلل ، وعماداً في الحادثِ الجلل ، وسهماً في كَنَاتِه صائباً ، وشهاباً في سماء دولته ناقباً ؛ وسيفاً بيد الدين قاطعاً ، ومجناً عن الحوزة دافعاً - رأى - وبالله التوفيق - أن يُقدّمك على جيوش المساميين ، وبُعوثهم الشاخصة إلى جهاد المشركين ؛ فقلدك الحرب والأحداث بها ، وعقدك لواء بيده يلوى إليك الأعناق ، وينكس لك رؤوس أهل الشقاق ؛ وشرّك بفاخر مَلَايسِه وحملانه ، وضاعف لديك موادّ إحسانه ؛ وحبّاك بطوق من التبر ، مرصع بفاخر الدرّ ؛ عادقاً هذه الخدمة منك بالنصيح المأمون ، والنجيج الميمون ؛ الذي تتوصّح فيه أنوار اللبابة ، وتلوح عليه آثار النّجابه ؛ واثقاً بما تتطوى عليه من الإخلاص والولاية ، وتحتلّ به من الغناء والكفافية ؛ وتفترّضه من الاستمرار على سنن الطاعة ، والاستقامة على سمت الأتقياء والتّباع ؛ وتوجبّه من مناصحة المساميين ، والتشمير في نُصرة الدين .

فقلد ماقلدك أمير المؤمنين مستشعراً تقوى الله وطاعته في الإسرار والإعلان ، معتقداً خيفته ومراقبته في الإظهار والإبطان ؛ مخلص القلب ، رابط اللب ؛ واثقاً

بنصر الله الذي يُسبِغُه على حُلصائه ، ويُفْرِغُه على أوليائه ؛ أَخْذًا بَوَائِقِ الحَزْمِ ،
متمسكا بعلائق العَزْمِ ؛ ناظرًا من وراء العَوَاقِبِ ، متفرسًا في وُجُوهِ التجارِبِ ؛
مقلصًا سُجُوفِ الآراءِ بِإِضْفَاءِ غِيَارِ التَّدْيِيرِ ، مُمِرًّا مَرَاتِرَ التَّقْرِيرِ ؛ مُوْغِلًا فِي المَخَاتَلِ
والمكائد ، حارسًا لِلطَّالِعِ والمَرَّاصِدِ ؛ يَقْظَانِ النَّفْسِ والناظرِ ، متحرزًا فِي مَوْقِفِ الوانِي
والمُخَاطِرِ . وَأَنْ تَتَوَجَّهَ عَلَى بَرَكََةِ اللَّهِ وَعَوْنِهِ وَحَسَنِ تَوْفِيقِهِ ، وَبِمَنْ تَأْيِيدِهِ ؛ بَعْدَ أَنْ
تَتَسَلَّمَ مِنَ الجُيُوشِ المَنْصُورَةِ جَرَائِدَ بَعْدَةِ رِجَالِ أميرِ المُؤْمِنِينَ السَّائِرِينَ تَحْتَ رَايَتِكَ ،
المُنُوطِينَ بِسِيَاسَتِكَ ؛ وَتَعْرِضَهُمْ عَلَيْهَا ، فَتَخَيَّرُ مِنْ شَهْرَتِ بَسَائِلِهِ وَكِفَاحِهِ ، وَعَقَّتِ
جَوَادُهُ وَكُلَّ سِلَاحِهِ ؛ وَعُرِفَ بِصِدْقِ العَزِيمَةِ فِي مُقَارَعَةِ الأَعْدَاءِ ، وَحُسْنِ الطَّوِيَّةِ
فِي الإِخْلَاصِ وَالوَلَاءِ ؛ وَتَسْتَبْدِلُ بِالوَرَعِ الجَبَانَ ، وَالرَّعْدِيدَ الضَّعِيفَ الجَبَانَ ؛
النَّاقِصَ العُدَّةِ ، المَقْصِرَ النَّجْدَةَ ، المَدْحُولَ النَّيَّةَ ، ^(١) النَّغْلَ الطَّوِيَّةَ ؛ إِذَا كَلَّتِ العِدَّةُ
مِنْ أَهْلِ الجَلَدِ والشَّهَامَةِ ، وَأُولَى الحِمَاسَةِ وَالصَّرَامَةِ ؛ أَسْتَدْعَيْتَ مِنْ بَيْتِ
المَالِ مَا يُنْفَقُ فِيهِمْ مِنْ مَسْتَحَقِّ أَطْعَامِهِمْ ، وَمَعُونَةَ طَرِيقِهِمْ ؛ وَأَجْرَتِ النِّفْقَةِ فِيهِمْ
عَلَى أَيْدِي عَارِضِيهِمْ وَكُتَّابِهِمْ ؛ إِذَا أَرْحَتَ عَلَيْهِمُ فَاسْتَصْحَبَ مِنْ العُدَدِ وَالسِّلَاحِ
وَالحِمِّ وَالْأَزْوَادِ والأَمْوَالِ مَا يُرْهَبُ الأَعْدَاءُ ، وَيُنْهَضُ الأَوْلِيَاءُ ؛ وَأَدَّانَ فِي مُطَوَّعَةِ
المُسْلِمِينَ ، بِجِهَادِ المُشْرِكِينَ ؛ فِي [كُلِّ] بَلَدَةٍ تَنْزِلُهَا ، وَمَحَلَّةٍ تُحْلِيهَا ؛ وَأَبْدَلُ لِمِ الظُّهْرِ
والمِيرَةِ والمَعُونَةِ بالسِّلَاحِ وَمَا يَسْتَدْعُونَهُ ؛ وَأَرْهَفَ عَزَائِمَهُمْ فِي غَزْوِ الكُفَّارِ ،
وإِجْلَائِهِمْ عَنِ الأَوْطَانِ وَالدِّيَارِ ؛ وَأَسْلَكَ الطَّرِيقَ القَاصِدَ ، وَلَا تُفَارِقُ أَهْلَ المَنَاهِلِ
والمَوَارِدِ ؛ وَلَا تُعَدِّ السَّيْرَ إِغْدَاذَا تَقَطَّعَ لَهُ الرِّجَالُ وَتَتَأَخَّرُ بِهِ الأَزْوَادُ ، وَلَا تَتَلَوَّمُ
فِي المَنَازِلِ تَلَوَّمًا تَتَصَرَّمُ فِيهِ الأَمَادُ ؛ وَيُوجَدُ المُشْرِكِينَ مُهْمَلَةً لِلإِحْتِيَالِ وَالإِسْتِعْدَادِ ؛
وَرَاعَ جَيْشَكَ عِنْدَ الحَلِّ وَالتَّرْحَالِ ، وَلَا تُبَاعِدُ بَيْنَ مَضَارِبِهِمْ إِذَا نَزَلُوا ، وَلَا تَمَكَّنْهُمْ

(١) فِي الأَصُولِ المَهْرُوقِ الطَّوِيَّةِ وَلَمْ نَجِدْ هَذِهِ المَادَّةَ .

من التفرد إذا ارتحلوا ؛ وخُذهم بالاجتماع والالتئام ، والتألف والانتظام ؛ ولاسيما إذا حصلوا في أرض العدو فإنهم ربما أهتبلوا^(١) الفرصة في المسير المتسرع ، والمديت المتفرد ، ونالوا منه ما توسم به الهزيمة على أهل الإسلام ، والعياذ بالله .

وإذا دانيت القوم فأعط الحزامة حقها ، مستعملا تارة للدهاء والحداع ، وأخرى للقاء والقراع ؛ فربما أغنت ألسانه ، عن المكاشره ؛ ونابت مخايل التلطف ، عن مداخل التعسف ؛ وكفت غوائل الخادعه ، عن مواقف المماصعه ؛ وقد قال إمام الحرب ؛ وزعيم الطعن والضرب : ” الحرب خدعة ” .

وإذا عزمت على المصاع والمناخه ، والإيقاع والمكالفه ، فبت من سرعان الفرسان الذين لا تسك في محض نصحهم ، ولا ترتاب بصدق نيأتهم ، طلائع تطلعك على الأخبار ، وعيونا تكشف لك حقائق الآثار ، وتغض الطرف عن مجاورى الديار ؛ وممن تقدمه عليهم بأن لا يقتحم خطرا ، ولا يركب غررا ؛ وليكن من تنفذه في ذلك [من] أهل الخبرة بالطرق والساحات ، والدخلات والأودية والفجوات ؛ حتى لا يتم للعدو فيهم حيله ، ولا ينالهم منه غيله ؛ فإذا أتوك بالخبر اليقين ، وأقبسوك قبس النور المبين ؛ بدأت الحرب مستخيرا لله تعالى ، مقدما أمامك الاستنجاح به ؛ وأستزال النصر من عنده ، مرتبا للكائب ، معيبا للصفوف والمقائب ؛ زاحفا بالراجل محصنا بالفارس والرامي مجتئا بالنارس ؛ وأشحن القلب والجناحين بالشجعان المستبقيين ، والأبطال الحلاسين ؛ وأنزل إلى رضى الحرب من خف ركابه من الأنجاد الراغبين في علو الصيت والذكر ، الطالبين الفوز بالثواب والأجر ؛ وأجعل وراءهم رداء ، وأعد لهم مددا يوازونهم إن يحتمهم ما لا يطيقونه ويحين^(٢) ، ويطايرونهم على

(١) أى أغتبنوا الفرصة الخ .

ما خُصَّ إليهم وادعين؛ وقِف من التأخير والإقدام، والنَّفوذ والإجماع، موقفاً تُعطي الحزامة فيه حظَّها، والروية قسطها؛ مصمماً ما كان التصميم أدنى لآتهام الفرصه، وأهتبال الغرّه؛ متلوّماً ما كان التلوّم أحمداً للعاقبة، وأسلم للغبّة .

وأعلم أنّ ريح النصر قد تهبُّ للكافرين على المساميين، فلا يَكُن ذلك قادحاً منك في الدين . فإن الله تعالى يستدرج بسنة الباطل لابنة الإظفار، ويريهم الإقدار في مخايل الأقدار؛ حتى إذا فرحوا بما أُوتوا أوردتهم كواذب أمانيتهم موارد الهلكة، وأخذوا بغتة، ودالت دولة الحق لأوليائها مرفوعة الأعلام، أخذة بنواصي العداة والأقدام؛ وتحقق أنّ الأمور بخواتيمها؛ والأعمال بتمامها؛ وأنه وليّ [المؤمنين] .

ما جمع موقف ففتى شكّ ويقين، وكفر ودين؛ إلا كان الفلج والنصر لأهل التقى والدين، والخسارة والبوار على الشاكين الكافرين، تصديقاً لوعده تعالى إذ يقول :

﴿لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ .

وتحفظ بنفسك ولا تلقها في المهالك متهوراً، ولا ترم بها في المتالف مخاطراً؛ ولا تُساعد على مطاوعة الحمية والنخوة، وتحز قبل السقطة والهفوة؛ فإنك - وإن كنت واحداً من الجيش - أوحدهم الذين يتبادرون إليه، ويعتمدون في السياسة عليه؛ وما دمت محفوظاً ملحوظاً فاهيبة عاليه، والعين ساميه؛ وإن ألم بك - والله يعصمك - خطب، أو نالك - والله يكفيك - ريب، توجه الخلل، وأرهف حدّ الوهن والشلل . وإن دعيت نفسك إلى الجهاد، وحملك تصرفك على الكفاح والجلاد؛ فليكن ذلك عند الإجماع، وتزلزل الأقدام؛ فإن ذلك يشهد عزائم المسلمين، ويقوى شكائم المتأخرين؛ ذير مضيع للحدّر، في الورد والصدّر؛ وكذلك فاحرس أمثال القواد، ووجوه الأجناد، الذين تُسفى صدور الكفار بمصارغهم،

وَتُنْفَعُ غُلَّتِهِمْ بِمَضَائِمِهِمْ ؛ وَحَامٍ عَنْهُمْ حِمَايَةَ الْجُفُونِ عَنِ الْمُقَلِّ ، وَصُنْمِهِمْ صِيَانَةَ الصَّوَارِمِ
 مِنَ الْخَلَلِ ؛ وَدَافِعٌ عَنِ كَافَةِ [جند] الْمُسْلِمِينَ الْمُرْتَرِقِينَ وَالْمُنْتَطَوِّعِينَ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ
 كَفَى بَيْنَ دِمَائِهِمْ ، وَسَوَى بَيْنَ ضَعْفَائِهِمْ وَأَقْوِيَاءِهِمْ ؛ عَلَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ قَدْ وَعَدَّهُمْ عَنِ
 بَذْلِ الْأَنْفُسِ فِي مَجَاهِدَةِ الْمُؤَلِّحِينَ ، وَإِبَادَةِ الْمُشْرِكِينَ ، الْجِزَاءَ الْجَسِيمِ ، وَالنَّعِيمَ الْمُقِيمِ ؛
 وَالْبَقَاءَ الَّذِي لَا يَبْتَوَرُهُ فَنَاءً ، وَالْجَدَلَ الَّذِي لَا يَبْتَرُضُهُ أَنْقِضَاءً .

وَقَدَّمَ عَلَى الْأَسَاطِيلِ وَالْمَرَائِبِ الْحَرْبِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا وَرِجَالَ الْبَحْرِ مِنْ تَخْتَارِهِ لِنَدَاكَ
 مِنْ أَمَاثِلِ الْأَمْرَاءِ الْمَشْهُورِينَ بِالشَّجْدَةِ وَالنَّجْدَةِ ، وَالْبَصَارَةِ وَالْمَهَارَةِ وَالْحِبْرَةَ بِشَقَّةِ
 الْبَحْرِ وَالْقِتَالِ فِيهِ ؛ وَمُرَّهُ بِالتَّسْحِيلِ وَمِلَازِمَةِ السِّيفِ وَالْإِرْسَاءِ مِنَ الشُّطُوطِ بِحَيْثُ
 يَتَأَمَّلُ مَضَارِبَكَ ، لِيَكُونَ مَأْجِلٌ عَلَيْهَا مِنْ مِيرَةٍ وَعُدَّةٍ قَرِيبًا مِنْكَ ؛ فَإِنَّ نَازِلَتَ نَعْرَا
 مِنْ نَعُورِ السَّاحِلِ فَامْلَأْهُ بِالْحِلِيلِ مِنْ بَرِّهِ ، وَبِالسَّفَائِنِ مِنْ بَحْرِهِ ؛ وَاسْتَخْدِمْ لِحِفْظِ مَا فِيهَا
 مِنَ الْأَزْوَادِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْعُدَدِ وَالتَّنْفِطِ وَدُهْنِ الْبَلَّسَانِ وَالْحِلْبَالِ وَالْعَرَّادَاتِ وَغَيْرِهَا مِنْ
 الْأَلَاتِ مَنْ تَتَّقِي بِأَمَانَتِهِ وَمَعْرِفَتِهِ . وَتَقَدَّمْ إِلَيْهِمْ بِالْحَوَاطِةِ عَلَى مَا يَنْخَرِجُونَهُ مِنَ الْعَوَارِي
 وَاسْتَرْجَاعِهِ بَعْدَ الْغِنَى عَنْهُ ؛ وَاسْتَظْهِرْ بِذَلِكَ اسْتَظْهَارًا يُجْمَدُ مَوْقِعُهُ لَكَ ، وَيَعْرِفُ بِهِ
 رَصِينُ رَأْيِكَ ؛ وَسَدِيدُ مَذْهَبِكَ . وَاسْتَخْلِصْ لِمَجَالِسَتِكَ مِنْ أَهْلِ الْأَصَالَةِ وَالْحَزْمِ ،
 وَالرَّجَاحَةِ وَالْفَهْمِ ، وَالدَّرَايَةِ وَالْعِلْمِ ، وَالتَّجَارِبِ فِي مِمَارَسَةِ الْحُرُوبِ ، وَمَلَابِسَةِ
 الْخُطُوبِ ، مَنْ تَرْجِعُ إِلَى رَأْيِهِ فِيمَا أَشْكَلُ ، وَتَعْتَمِدُ عَلَى تَجْرِبَتِهِ فِيمَا أَعْضَلُ ؛
 وَلَا تَسْتَبِدَّ بِرَأْيِكَ فَإِنَّ الْأَسْتِبْدَادَ يَعْمَى الْمَرَّاشِدُ ، وَيُبْهِمُ الْمَقَاصِدُ .

وَلَمَّا كَانَتِ الشُّورَى لِقَاحِ الْأَفْهَامِ ، وَالكَاشِفَةَ لِعَوَاشِي الْإِبْهَامِ ، أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
 بِهَا نَبِيَّهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ
 اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

ولا تُساورُ جَبَانًا ولا مَبْطِطًا عن آتِهَازِ الفِرْصَةِ المِمكنَةِ، ولا مَهْوَرًا يَحْمِلُكَ عَلَى الغِرَّةِ المَهْلِكَةِ ؛ وتَأَنُّ في الآرَاءِ فَإِنَّ التَّائِيَّ يُجِئُ الأَلْبَابَ ، وَيَجْلُو وَجَهَ الصَّوَابِ ، وَيَقْلُصُ سُجُوفَ الأَرْتِيَابِ ؛ وَأَضْرِبُ بَعْضَ الآرَاءِ بِبَعْضٍ وَسَجِّهَا ، وَأَجِلُ فَكْرَكَ فِيهَا وَتَأَمَّلْهَا ؛ فَإِذَا صرَّحْتَ عن زُبْدَتِهَا ، وَأَنْشَقَّتْ أَكْثَمُهَا عن ثَمَرَتِهَا ، فَأَمِضْ صَحِيحَهَا ، وَأَعْتَمِدْ نَجِيحَهَا ؛ وَإِذَا أَسْتَوَى بِكَ وَبِالْعَدُوِّ مَرَحَى الحَرْبِ خَرَقَهُمُ بِنَارِ الطَّعْنِ ، وَأَذْفَقَهُمُ وَبَالَ أَمْرِهِمْ ، وَعَاقِبَةَ كُفْرِهِمْ ؛ وَلَا تَرَقِّ لَهُمْ ؛ وَأَتَّبِعْ مَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ فِي العِلْظَةِ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّهُ يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ . فَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ وَالمُؤَادَعَةِ مَصَانِعِينَ ، فَقَابِلْ بِالقَبُولِ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ .

وَأَبْدِلِ الأَمَانَ مَنْ طَلَبَهُ ، وَأَعْرِضْهُ عَلَى مَنْ لَمْ يَطْلُبْهُ ، وَفِي مَنْ تُعَاهِدُهُ بِعَهْدِهِ ، وَأَثْبُتْ مَنْ تُعَاقِدُهُ عَلَى عَقْدِهِ ؛ وَلَا تَجْعَلْ مَا تُفْرِطُهُ مِنْ ذَلِكَ دَرِيْعَةً ، إِلَى الخَلْدِيْعَةِ ، وَلَا وَسِيْلَةً ، إِلَى الغِيْلَةِ ؛ فَإِنَّ اللهَ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى يَقُولُ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ . وَرَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : " النَّاسُ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ " وَإِذَا أَعَانَكَ اللهُ عَلَى أَفْتِنَاحِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاقِلِ المُشْرِكِينَ ، وَأَسْتَضَافَتِهِ إِلَى مَا بَأْيَدِيِ المُسْلِمِينَ ، فَارْفَعْ السَّيْفَ عَنِ قَاطِنِيهِ ، وَأَعْتَمِدِ اللُّطْفَ بِالمُقِيمِينَ فِيهِ ؛ وَأَدْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ مَا وَعَدَ اللهُ بِهِ أَهْلَهُ مِنْ كَرِيمِ المَقَامِ ؛ فَخَيْرٌ أَجَابَكَ إِلَى آسْتِشْعَارِ ظِلِّهِ ، وَالإِعْتِصَامِ بِجَبَلِهِ ؛ فَافْرِضْ لَهُ مَا تُفْرِضُهُ لِإِخْوَانِكَ فِي الدِّينِ ، وَأَصْنَمْ إِلَيْهِمْ مِنْ عِلْمَاءِ المُسْلِمِينَ مَنْ يُبَصِّرُهُمْ وَيُرْشِدُهُمْ ، وَيُثَقِّفُهُمْ وَيَسُدِّدُهُمْ ؛ وَخَيْرٌ مِنْ آثَرِ المَقَامِ عَلَى دِينِهِ بَيْنَ تَأْدِيَةِ الجِزْيَةِ ، وَالإِسْتِعْبَادِ وَالمَمْلَكَةِ ؛ فَإِنْ أَدَّوْا الجِزْيَةَ فَأَجْرُهُمْ مُجْرَى أَهْلِ الذَّمَّةِ

(١) أى المكان الذى تدور عليه رحى الحرب .

المعاهدين، وخصهم من الرعاية بما أمر به في الدين؛ وإن أبوا ذلك فإن الله تعالى قد أباح دماء رجالهم، وأستعباد ذراريهم ونسائهم؛ وآبتن بالمعقل مسجداً جامعاً يجمع فيه بالمسلمين، ويخطب على منبره لأمر المؤمنين؛ وأرفع منارته حتى تعلو على كائس المشركين؛ وأنصب فيه إماماً يؤدي الصلاة في أوقاتها، وخطيباً مصقفاً يخطب الناس ويعظهم، ومكبرين يدعون إلى الصلوات، ويهتفون على حقائق الأوقات؛ وقواماً وحُدّاماً يتولون توير مصابيحهم، وتعهد تنظيفه وفرشه؛ وأطلق لهم من الأرزاق والجرایات ما يبعثهم على ملازمته ويعينهم على خدمته؛ وأحتط على من يحصل في يدك من أسرى المشركين، لتفدي بهم من في قبضتهم من أسراء المسلمين؛ وإذا عرضوا عليك الفداء فاحذر من خديعة تتم فيه، أو حيلة تتوجه في أفتكك معروف منهم بجهول من أهل الإسلام؛ وإن كان الله تعالى قد فضل أذنياء المسلمين على عطاء المُلحدین، ولم يسو بينهم في دنيا ولا آخرة ولا دين؛ إلا أن هذا مما يوجب الحزم الحوطة فيه. وإن ظفرت بنسيب لطاغيتهم المتملك عليهم أو خصيص به فاحمله إلى حضرة أمير المؤمنين، ليقرّبها رهينة على من قبلهم من المأسورين، وسبيلاً إلى أنتزاع ما يبدّلونه في فدايته من المعادل والحُصون. وقد أمضى لك أمير المؤمنين أن تعقد الهدنة معهم إذا رغبوا فيها على الشرائط التي تعود بعلو كلمة الله، وتجمع الخواطر والأستظهار للدولة؛ فعاقدهم محتاطاً، وأشترط عليهم مُشيطاً؛ وتجرز في العقد مما يوجب تأولاً، ويدخل وهناً، ويطرّق وهياً. وتحفظ بجوالى المعاهدين والأموال المقبوضة في إداء الغلات والغنائم وسبى المشركين حتى يُجمل ذلك إلى بيت مال المسلمين؛ فينظر أمير المؤمنين في تفريقه على مستحقه، وإيصاله

(١) اشتهر هذا البناء على الألسنة وفي رسائل الأفاضل ولكن لم نجد في كتب اللغة وإنما الذي فيها بهذا المعنى «فلان محص بفلان أى خاص به وله به خصية» فنامل.

إلى مستوجبِهِ، وَأَخْصَّ عن أحوال المُستأْمِنِينَ إِلَيْكَ تَفْحَصًا يَكْشِفُ ضَمَائِرَهُمْ ، وَيَلْوِ سِرَائِرَهُمْ ؛ وَتَحْتَزُّ مِنْهُمْ تَحْزُّنًا يُؤَمِّنُكَ مَكَائِدَهُمْ وَحِيلَهُمْ ، وَخَدَائِعَهُمْ وَغِيْلَهُمْ ؛ وَإِذَا نَازَلَتْ حِصْنًا مِنْ حُصُونِ الْكُفَّارِ ، فَكُنْ عَلَيَّ يَقِظَةً مِنْ مَخَاتِلِهِمْ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ؛ وَانصِبِ الْحَرَسَ وَالْأَرْصَادَ ، وَأَحْذَرِ الْغِيْرَةَ وَلَا تُهْمِلِ الْإِعْتِدَادَ : لَتَعْرِفَ أَعْدَاءَ اللَّهِ أَنْ طَرَفَكَ سَاهِدٌ ، وَجَنَانَكَ رَاصِدٌ ؛ وَتَفْقِدُ أَمْرَ الْجَيْشِ وَأَرْحَ عَلَّةٍ مِنْ تَرْبُهُ فِي الْأَطْمَاعِ وَالْمَوَاكِدَاتِ ، وَمُطَوِّعَتِهِ فِي الْمَعَاوِنِ وَالْجِرَايَاتِ ؛ وَلَا تَغْفُلْ عَنْهُمْ غَفْلَةً تَضْطَرُّهُمْ إِلَى الْإِنْفِلَالِ ، وَتَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِنْفِصَالِ ؛ وَأَحْسِنْ إِلَى مَنْ حَسُنَ فِي الْكِفَاحِ أَثْرُهُ ، وَطَابَ فِي الْإِبْلَاءِ خَبْرُهُ ؛ وَعِدَّهُ عَنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَبَاءِ الْجَزِيلِ ، وَالْعَطَاءِ وَالْتَوَيْلِ ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ قَادِحٌ لِعِزَائِمِ الْأَوْلِيَاءِ ، بَاعَثُ لَهُمْ عَلَى التَّصْمِيمِ فِي اللَّقَاءِ ؛ فَإِذَا أَنْتَ - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - شَفِيتَ الصُّدُورَ ، وَأَحْتَذِيتَ الْمَأْمُورَ ، وَأَعَزَّزْتَ الدِّينَ ، وَذَلَّلْتَ الْمُلْحِدِينَ ؛ وَدَوَّخْتَ الْبِلَادَ ، وَنَكَّسْتَ رُءُوسَ أَهْلِ الْعِنَادِ ، فَأَقْلَبْ بِعَسَاكِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُطَوِّعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، إِلَى حَضْرَتِهِ وَائْتَقًا بِجَبِيلِ جَرَائِهِ ، وَجَلِيلِ حَبَائِهِ ؛ وَطَالِعْ فِي مَوْرِدِكَ وَمَصْدَرِكَ ، بِمَا يَجِدُّهُ اللَّهُ لَكَ وَيَفْتَحُهُ عَلَيَّ يَدِكَ ؛ وَأَذْكُرْ مَا أَشْكَلُ عَلَيْكَ لِيُحْمَدَكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالتَّبْصِيرِ وَالتَّوْقِيفِ ، وَالتَّعْلِيمِ وَالتَّعْرِيفِ ؛ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ فَهُوَ خَيْرُ مُعِينٍ ، وَتَوَكَّلْ عَلَيَّ اللَّهُ فَإِنَّهُ نَعْمَ الْوَكِيلُ .

هَذَا عَهْدُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَيْكَ ، فَاعْمَلْ بِهِ وَأَنْتَ إِلَيْهِ يَسُدُّ اللَّهُ مَسَاعِيكَ ، وَيَصُوبُ مَرَامِيكَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

قلت : وَأُورِدُ فِي خِلَالِ ذَلِكَ مِنْ تَقَالِيدِ أَرْبَابِ السِّيُوفِ جَمَلَةً أَسْقَطَ مِنْ صَدْرِهَا التَّحْمِيدَاتُ .

مَا أُورِدَهُ فِي رِسْمِ تَقْلِيدِ الْإِمَارَةِ عَلَيَّ قِتَالِ أَهْلِ الْبَغْيِ أَنْ يُقَالَ بَعْدَ التَّحْمِيدِ مَا مِثَالُهُ :

وإنَّ اللهَ تعالى أوجبَ طاعةَ أولى الأمرِ على كافَّةِ المؤمنين ، وأكَّدَ فرضَها على جميعِ المسلمين ، فقال جل قائلًا : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . علمًا منه تعالى بأنَّ الطاعةَ مِلاكَ الأمرِ ونِظامه ، ومِساكَ الجُمهورِ وقِوامه ، وأنه لاتبَّعَ سياسةً مع الشَّقاقِ والإنحِرافِ . وأمرَ سبحانَه باستِتابَةِ من ألقى العِصمةَ من يَدِه ، ونبذَ الطاعةَ وراءَ ظَهْرِه ؛ بشاَفِ المِواعِظِ والتبصيرِ ، ونافعِ التنبِيهِ والتذكيرِ ؛ فإنَّ ألقَعَ وتاب ، ورجَعَ وأتاب ؛ وإلا جُوهِدَ وقُوتِلَ ، وقُوتِلَ بالرِّدَعِ حتَّى يُقبِلَ ويعتصمَ بالطاعةِ ، وينتِظِمَ في سِلكِ الجماعَةِ ؛ فقال تعالى : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ . وقال : ﴿ فَقَاتِلُوا آلِي بَنِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ . وإنَّ الغلاةَ فارقُوا آجتِماعَ المسلمين ، وأنسلخُوا من طاعةِ أميرِ المؤمنين ؛ نايذِينَ لبيعتَه ، شائِينَ بطلَ دعوته ؛ وشقُّوا عصا الإسلامِ ، وأستحقُّوا محملَ الحرامِ ، وأسوطَّشُوا مرَّكبَ السيئاتِ والآثامِ ؛ وعرَّجوا عن قِويمِ السَّنَنِ ، وسَمَّوا بأراذلِ البدعِ أفاضلَ السَّنَنِ ؛ وسعوا في الأرضِ بالفَسادِ ، وجاهروا بالعِصيانِ والعِنادِ ؛ وكاتبهم أميرُ المؤمنين مبصِّرا ، ومُعذِّرا مُنذِرا ونحوَفاً مُحذِّرا ؛ ودعاهم إلى التي هي أصلحُ في الأولى والأخرى ، وأرجحُ في البدءِ والعقبى ؛ وأعلمهم أنَّ اللهَ تعالى لا يقبلُ صلاتهم ولا صيامهم ، ولا حجَّهم ولا زكَّاتهم ، ولا يُمضى قضاياهم ولا حُكوماتهم ، ولا عقودهم ومُناتكاتهم ، ماداموا على معصيةِ إمامهم ، ومفارقةِ ولىِّ أمرهم ؛ الذي أوجبَ عليهم طاعته ، وفرضَ في أعناقهم تِباعته ؛ وتابعَ في ذلك مواصلا ، ووالاه مَكاتبيا ومُراسِلا ، فأصروا على العقُوقِ ، واستمرَّوا على أطراحِ الحُقُوقِ ؛ ودعوا إلى الأسوا لها من إقدامِ الجُوشِ عليهم ، ونقلِ العساكرِ إليهم ؛ ومقابلتِهم بما يقومُ أودهم ، ويصلحُ فاسدهم ، ويزعُ جاهلهم ، ويوقظُ غافلهم .

(١) في الأصل الغلاب وليس بواضح المعنى والمراد البغاة .

وإنَّ أمير المؤمنين تخيَّرَكَ للتقدّم على الجيش الهاتِفِ نحوهم : لما يعلمه من شهامتِكَ ، وصَرَامتِكَ ، وسَدَادِكَ وسياسَتِكَ ، وإخلاصِكَ ووفائِكَ ، وكِفايَتِكَ وغَنائِكَ ، (ويوصف بما تقتضيه منزلته ، والأمر الذي هو أهل له) .

وهو يأمُرُكَ أن تقدم النفوذ إليهم ، مستنَجِحاً دعاءَ أمير المؤمنين ، مستنزِلاً لُصُوفِ الغالبين ، مستشعِراً لبأسِ التقوى ، في الإعلان والتَّجْوِي ، فإذا نازلتهم في عُقْرِ دارهم ، فأذِقْهم بالمصايقة وبالِ أمرِهِمْ ؛ وأسَلِّكْ بهم سبيلَ أمير المؤمنين وأفتَحْهم بالإرشاد ، وحُضِّمْهم على ما يقضى بصلاحِ الدنيا والمَعَاد ؛ فإن استقاموا وتنصَّلُوا وراجعُوا ورجعُوا فأعطيهم الأمان ، وأفِضْ عليهم ظِلَّ الإحسان ؛ وإن أصرُّوا وتمردُّوا ، وجاهدُوا واعتدوا ، فشمِّرْ لمنازلتهم ، وصمِّمْ في مقاتلتهم ؛ وانقأ بأن الله تعالى قد قضى بالنصر لأولياء أمير المؤمنين وأهل طاعته ، وإخِذْ لئان أعدائه وأهل معصيته ؛ إبانتهً بذلك عن تأييده لمن اعتصم بحبله ، ودفعه لمن أنسلخ من ظلِّه ؛ ومُحِجَةً بالغِةً لمن تمسك بطاعته ، وموعظةً شافيةً لمن استخفَّ بحمل معصيته ؛ فإن ملكك الله تعالى البلاد ، وطهرها من أهل الفساد ؛ وشرِّد عنها الدُّعَارَ والأشْرارَ ، إلى أفاضِ الديار ؛ فأجِبْ نواعِقَ الفتنَةِ والضَّلالةِ ، وعَفِّ آثارَ ذَوِي النِّجَى والجَهالةِ ؛ وأسبِغِ الأمانَ على أهل السَّلامه ، وأفرِغِ العدلَ على مَنْ سلك سبيلَ الاستقامه ؛ وأجرِ الأَمْرَ في الخُطْبَةِ لأمير المؤمنين على الرِّسْمِ المحدودِ ، والمنهَجِ المعهودِ ؛ وطالعُه بما آتته إليه ، ليكاتِبَكَ بما تعتمدُ عليه .

ويضمِّنُ هذا العهد ما يقع فيه من شروطِ العهد المتقدِّم ، ويؤمِّرُ أن لا يستصحب من الجُنْدِ إلَّا من يثق بإخلاصه وصفائه ، ويسكن إلى أمانته ووفائته ؛ وأن يرفض المدخول النَّبيَّ ، النَّغْلَ الطويِّهَ ، فإنه لاشيءَ أضرُّ على المحاربة من لقاء عدوِّ بجيش

مُخَاهِرِينَ، وَجندٌ مُمَاكِرِينَ ؛ وقد يكون في العساكر من يُدَاهِن وَيُظْهِر الخِدْمَةَ وهو في مثل العَدُوِّ : إِمَالَتٌ بَيْنَهُمَا سَالِفٌ وَوَالِيَةٌ قَدْ تَأَصَّلَتْ بِإِطَاعٍ وَإِفْسَادٍ ، أَوْ يَكُونُ لِسُلْطَانِهِ قَلِيلَ الإِحْمَادِ . وهذا الذي أوردناه ليس بمثال جامع وإنما هو الذي يُمَيِّزُهُ هذا العهدُ عما تَقَدَّمَه ، والكَاتِبُ إِذَا أَحْتَجَّ إِلَى اسْتِعْمَالِهِ رَتَّبَهُ وَقَدَّمَ مَا يَجِبُ تَقْدِيمَهُ ، وَأَخَّرَ مَا يَجِبُ تَأْخِيرَهُ [أضاف إليه ماتجب] إضافته ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة سبجُل بولاية مصر، وهي :

الحمد لله، الموفق إلى دواعي رضاه، المحسن العون على ما أوجب المزيد من إفضاله وأقتضاه ؛ المشيب على ما هدئ إليه من طاعته ، القابل عمل من استنفد في الشكر أقصى طاقته ؛ المتكفل بمصالح عبادِهِ، المولى من مواهبه ما تعجز الخواطر والألسنة عن تعدادهِ ؛ وصلى الله على جدنا محمد الذي جعل أتباعه سبيلاً إلى سكن جنات الخلود ، وآلت بهداه نار الكفر إلى الهمود والخمود ؛ وأنقذ من مهاوى الضلال ، ووسم من حادّه وحادّ عن سبيله بالصغار والإذلال ؛ وخلف في أمته الثقلين كتاب الله وعترته ، وأبقى بهما فيهم آيته وهدايته ؛ وعلى أخيه وأبن عمّه أبينا أمير المؤمنين على بن أبي طالب مبّرِم أسباب الشريعة ومُحْكِمها ، ومُطَلِّق سيوفه في نفوس أعداء الملة ومُحْكِمها ؛ وباب مدينة علم النبوة التي لا يُدخَل إليها إلاّ منه ، وسيد من عَنَاهم الله بقوله : ﴿ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ وعلى أئمة الهداة قوام الإسلام ، وساسة الأنام ؛ وخلفاء الله في أرضه ، والموفين بعهدِهِ والأمينين بأداء سنته وفرضه ؛ وركن العصمة الذي من لجأ إليه نجأ ، والحصن الذي ماخاب من أمّه فرجاً منه فرجاً ؛ وسلم وعظم ، ووالى وكرم .

وإن أمير المؤمنين لما أودعه الله إياه من أسرار الحكمه، وأجابه له من إمامه الأئمه، وأختاره له من كلاءة الخليفة وإيالتها، وحفظ حوزتها من المخاوف ورعايتها؛ وما خصه به من بنوة النبوة والرسالة، وأفرد به رأيه من الجزالة والأصالة؛ وأكتف به أنحاه من التوفيق الذي لا يصدف عن غرض الإصابة ولا يجيد، وعصده به من التأييد القاضى لغزائه ببلوغ الغرض فى نصره التوحيد؛ وأستودعه إياه من الإقبال الذى يجعل المستحيل لمواده إمكانا، والتأييد الذى أوضح به لإمامته برهاناً، وتوحدته به من العظمة التى تُصيب بها مرآميه مواقع الرِّشاد، وتضمن الخيرة لما يعانیه من الأمور مما سَدَّ وساد - يُعمل خواطره فىما يكفل للنفوس برضاها، ويُجزل للدين والدنيا به حظاًها، وتتظاهر به ضروبُ الصلاح على الأئمه، وتحمي به سنن الخيرات وتتمُّ النعمه؛ وينظر لمن أستودعه الله إياهم من بريته نظر المؤدى الأمانة إلى مؤتمنه، المستودع فىما يتقرب به إليه من البرِّ شكر سوابغ منائح ومنته؛ ويُقرب على الأمة منال الخير بأصطفائه من يكون لأفاضل الشيم مستكلاً، وإلى ما أزلفه إلى الله سبحانه من طاعة أمير المؤمنين متوصلاً، ولشواذِّ الشاء بفاضل سيرته متحلياً، وللتسّمح فى قوانين السياسة مجتنباً؛ ولما علم [رغبة] الرعية فيه منتصباً، وفىما بلغهم أقصى الآمال منسباً؛ وبمراقبة الله فىما يأتى ويذر متديناً، وبجسُن الجزاء على العمل بمرضاته متيقناً: ليكون أمير المؤمنين قد قضى [ما أوجبه عليه] مستخلفه بأجتابه وأصطفائه، وأستحمد إليه بإسناد جلائل الخدم إليه وأستكفائه؛ وأتى ما تكون السلامة مضموناً فى مباديه وعواقبه، وأحظى بنيل المراد فى جميع جهاته وجوانبه؛ مستديماً نعم الله التى أسداها إليه وأولاهها، مواصلاً حمده على منته التى ظاهرها عليه وآلاها؛ ويستعينه على لوازِم عوارِفِه التى من أجلها خطراً، وأحمدها فى البرية أئراً، وأجمعها لمنافع الخاص والعام، وأعودها بحماية حوزة الإسلام؛ وأشهدُها

ببراهين الأئمة ، وأدلتها على عناية الله بهذه الأمة ، مأمّنه أمير المؤمنين من موازنة
 فتاه ووزيره ، ومعينه على المصالح وظهيره ؛ السيد الأجل العادل أمير الجيوش
 أبي الحسن على الظافري ، - والدعاء - الذي أظهر الله به لأمر المؤمنين آيات
 حقوقه ، وأستأصل بياسه شأفة من تتابع في مروقه وبالغ في عقوقه ؛ وكسا الدهر
 بلبائته ملابس الجمال ، وفسح بفاضل سيرته مجال الآمال ؛ وبذل من الجهاد غاية
 الاجتهاد ، ووالى من عمارة البلاد ما أنطق بحمده الجماد ؛ وأستخلص نخائل الصدور
 بلطف سياسته ووسع عدله ، ورغبت غرائب الآمال في الإيواء إلى سابغ فضله ؛
 وتبارت الليالى والأيام في خدمة أغراضه في أعاديه ، وأسترق قلوب الأولياء بما يؤاليه
 من بيض أياديه ؛ ووضع الأشياء في مواضعها غير محاب ولا مرخص ، ولم يحظ
 بأيامه النيرة غير الطائع المخلص ؛ ولم يتفق للباطل سوق ، وأنت سيرته بما يرضى
 الخالق والمخلوق ؛ فالله تعالى يجعل مدته غير متناهية إلى مدى ، والنصر والتوفيق
 لآرائه مددا ؛ ويخلد أبدا سعده ، ويخجز لأمر المؤمنين على يده وعده .

ولما كانت منزلته عند أمير المؤمنين المنزلة التي نتظامن دونها المنازل والرّتب ،
 وجلت أن ينالها أحد ممن بعد أو قرب ؛ وأفعاله قُدوة يهتدى بأفعالها في الشكوك ،
 وسيرته قد عظمت عن أن تتعاطى مماثلتها همّ الملوك ؛ ومحله عنده من الكمال بحيث
 تستحکم الثقة بأختياره ، ويرجع في عقد الأمور وحلّها إلى أتباع آثاره ومواقفة
 إيثاره ؛ وكانت مراتب الأولياء عند أمير المؤمنين بحسب مراتبهم من قرّبه ،
 وموضعهم من رضاه مضاهياً لموضعهم من قلبه ؛ ومكانهم من الخطوة لديه مناسبا
 لمكانهم من الرّفة عنده ، وأحفظهم بسناء الرّتب من أقبسه زنده وكساه مجده ؛ ولا سيما
 من لم يخرج منه عن حكم الولد ، وحلّ منه محلّ القلب من الكيد ؛ ونسأ في دوحته
 غصنا نصيرا ، وطلع في سماء جلاله قمر منيرا ؛ وأعتلى بجده ، وقطع بجده ، وتظاهرت

شواهدُ سَعْدِهِ فِي مَهْدِهِ ؛ وَكُنْتَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ الْحَاوِي لِهَذَا الْفَضْلِ الْمَبِينِ ، الْمَعْتَلِقَ مِنْ وِلَايَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْحَبْلِ الْمَتِينِ ، الَّذِي نَشَأَ مَتَوَقِّلاً فِي دَرَجِ الْمَعَالِي ، وَغَدَا مَتَقِيلاً فِي ظِلَالِ الصُّورِ وَالْعَوَالِي ؛ وَأَخَذْتَ بِمِرْآشِدِ السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْعَادِلِ فَرِدْتَ عَنِ الظُّنُونِ وَأَوْفَيْتَ ، وَوَعَدْتَ عَنْكَ فَصَدَّقْتَ صَمَاتَهَا وَوَقَّيْتَ ؛ وَمَا زِلْتَ بَعِينَ الْإِجْلَالِ وَالْتَعْظِيمِ مَمْهُوحًا ، وَبِأَفْضَلِ خِلَالِ الرُّؤَسَاءِ مُنْوَحًا ؛ وَجَلَّأْتَ الْمَرَاتِبَ مُؤَهَّلًا ، وَبِلِسَانِ الْإِجْمَاعِ مَفْضَلًا ؛ وَلِمَا أَعْيَا مِنْ أَدْوَاءِ النَّفَاقِ حَاسِمًا ، وَفِي مَوَاقِفِ الْخَوَافِ رَابِطَ الْجَاشِ حَازِمًا ؛ وَلِمَا يُعَدُّ الْأُمَاجِدُ لَهُ مَذْخُورَ الْمَضَاءِ ، وَفِيَا تُعَانِيهِ وَتَلَايَسُهُ مُوَفِّقَ الْآرَاءِ ؛ وَقَدْ أَكْتَفَيْتَ مِنْ أَتْبَاعِكَ هَدَى السَّيِّدِ الْأَجَلِّ الْعَادِلِ - أَدَامَ اللَّهُ قُدْرَتَهُ وَوِلَايَةَ - نَاصِرِ الدِّينِ ، الْأَجَلِّ الْمُظَفَّرِ الْمُقَدَّمِ الْأَمِينِ ؛ سَيْفِ الْإِمَامِ ، رَكْنِ الْإِسْلَامِ ، شَرِيفِ الْأَنْبَاءِ ؛ نَجْرِ الْمُلُوكِ ، مُقَدَّمِ الْجِيُوشِ ، ذِي الْفَضَائِلِ ، خَلِيلِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبِي الْفَضَائِلِ عَبَّاسِ الظَّافِرِيِّ الْعَادِلِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ بِهِ الْإِمْتَاعَ ، وَعَضَّدَهُ وَأَحْسَنَ عَنْهُ الدَّفَاعَ ، الَّذِي هُوَ نَجْرُ الْمُلُوكِ وَنَجْلُهُمْ ، وَأَثْرَاهُمْ مِنَ الْمَفَاحِرِ وَأَجْلُهُمْ ؛ وَأَقْدَمُهُمْ فِي الرِّيَاسَةِ قَدَمًا وَأَعْرَفُهُمْ ، وَأَطْيَبُهُمْ أَرْجَ نِشَاءٍ وَأَعْبَقُهُمْ - مَا جَعَلَكَ أَعْلَى الْأَعْيَانِ مَفْخَرًا ، وَأَكْرَمَ الْجَوَاهِرِ عُنْصُرًا ؛ وَأَوْلَاهُمْ بِالْأَلَاءِ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَعَطَايَهُ ، وَأَسْبَقَهُمْ فِي مِضْمَارِ اخْتِيَارِهِ وَأَجْتَبَائِهِ ؛ وَأَثْبَتَهُمْ عِنْدَهُ مَكَانَهُ ، وَأَحْرَاهُمْ فِي خِدْمِهِ بِتَأْدِيَةِ الْأَمَانَةِ ؛ وَقَدْ عَرَفَ مِنْ مَوَاقِفِكَ الْمَشْهُودَةَ ، وَمَقَامَاتِكَ الْمَحْمُودَةَ ؛ مَا كَانَ مِنْكَ فِي نَوْبَةِ ابْنِ مَصَّالٍ وَجُمُوعِ ضَمَالِهِ ، وَمَا اسْتَفَاضَ مِنْ كَوْنِكَ سَبَبَ أَنْهَزَامِهِ وَأَنْفِلَالِهِ ؛ وَأَنْتَ تَدِيرُهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَكَاسَهُ ، وَالتَّفْرِيقَ بَيْنَ جَسَدِهِ وَرَأْسِهِ ؛ وَحَصَلَ لَكَ بِذَلِكَ مِنْ إِحْسَادِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَا لَا يَبْلُغُ الْوَصْفُ مَدَاهُ ، إِذْ كَانَ قَدْ جَرَّدَ سَيْفَ نَصْرِ وَالدِّكَ الْأَجَلِّ الْمُظَفَّرِ وَأَنْتَ حَدَاهُ - رَأَى أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَبِاللَّهِ تَوْفِيقُهُ - أَنْ لَا يُضَيِّعَ مَا فِيكَ مِنْ جَوْهَرٍ مَكْنُونٍ ، وَلَا يَرْجِعَ فِي أَمْرِ نَبَاهَتِكَ إِلَى مَا تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّنُونُ ؛ إِذْ كُنْتَ لِلْكَجَالِ مَعَ فِتَاءِ السَّنِّ

حائرا ، وبزِيَّةِ أصطناع أمير المؤمنين وأختياره إياك فائزا ، وفاوض السيد الأجل العادل - أدام الله قدرته - في تشريفك بولاية يكشف بها شُفُوفَ جوهرك ، ويوضح لكافة البرية بمباشرتك إياها ما استقرت عنده من جميل مُحْتَبَرِكْ ؛ ووقع التعيين على تقليدك ولاية مصر وما مع ذلك من الصناعتين وغيرهما من حقوقهما . فأمضى أمير المؤمنين ذلك لما لهذه الولاية من الحُطُوة بالْقُرْبِ والدُّتُوْ، وليوقر على الإيثار على أن يبلغ نظرك إلى غايات العلو والسمو ؛ وخرج أمره إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك الخدمة المذكورة : علما بانتظام شئونها بإيالتك ، وحياطة حوزتها بسطاك ومهاتيك ؛ وتحققا أن بسياستك تعمها المصالح ، وتظاهرها عليها الميامن والمناسج ؛ وتظهر لها الحجمة في الأفتخار ، على سائر الأمصار ، وتستأنف بمقارنتك من الميزة ما لم تحظ به فيما سلف من الأعصار ؛ ويتضح بك البرهان لمن بالغ في تفضيلها ، وتآل من فائض العدل بسيرتك ما تكاد تغنى به عن نيلها .

فقلد ما قلدك أمير المؤمنين من ذلك : معتمدا على تقوى الله الذى إليه تصير الأمور ، ويعلم خائنة الآعين وما تخفى الصدور ؛ قال الله تعالى في محكم كتابه المبين : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ . وأجعل من تحويه هذه المدينة بالعدل مشمولين ، وعلى أجمل السيرة والرسوم محمولين ؛ وساو في الحكم بين الشريف والدنى ، وآس في المقدار بين الملى والدنى ؛ وأقم الحدود على من تجب عليه بمقتضى الكتاب وصحيح الآثار ، ولا تتعداها بإقلال ولا إكثار . وفي هذه المدينة من ذوى الأنساب ، وأعيان الأجناد ومتميزى الكُتَّاب ؛ وأماثل الشهود : فأعتمد تمييزهم والاحتفاء بهم ، ومعونتهم على مطالبهم ومحابهم ؛ وكذلك من تضمنت هذه الولاية من التجار والرعية . وتوخرهم بما يسكن جاشمهم ، ويزيل آسديحاشمهم ؛ ويفسح لهم في الرجاء والأمل ، ويعينهم على صالح العمل . وتقدم بحفظ الجامع العتيق وصورته

وتوفيره ، على ما يليق به وتوقيره ؛ وأمتع من آتذاله في غير ما جعل له ، ونصب له ، من الإعلان بذكره فيه وأهله ؛ ووفر تام العناية ، وشامل الرعاية ؛ على من به من الفقهاء والعلماء ، والمتصدّرين والقراء ؛ وحضهم بالترجمة على المبالغة في طلب العلوم ، والترقد من صالح الأعمال ليوم الوقت المعلوم ؛ وخذ جميع المستخدمين معك بلزوم الطرائق الحميدة ، والمقاصد المستوفقة السديده ؛ فن استمر على ماترضاه من آجهاده ، وتستوفقه من صواب أعماده ، أجزيتته على رسمه في الرعاية ، وتوحيته بالصون والحماية ؛ ومن كان بالخدم محلاً ، وسلوكه عما يلزمه ضالاً مضلاً ؛ فأوعز بتأديبه ، وما يقضى بتقويمه وتهذيبه ؛ والثقة بوفور حظك من الصواب ، وإجرائك على ما يئاط بك على الاستتباب ، أغنى عن الإطالة لك في الوصايا والإسهاب ؛ والله تعالى يقرب الخير بما تنظر فيه ، ويجعل التوفيق مضموناً فيما تدره وتأتيه ؛ ويؤيدك من رب السعادة ما أنت له أهل ، ويتم نعمته عليك كما أمها على أوبك من قبل ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .



ومن السجلات بالوظائف الدينية على هذه الطريقة ما كتب به القاضي الفاضل عن العاضد بولاية بعض القضاة ، وهو :

الحمد لله الواسعة عطاياه ، الوازعة قضاياه ؛ المشتملة على أقسام الخلق قسمه ، المبرور في سؤالهم يوم فصل القضاء قسمه ؛ المسطور في كتابه الذي ما قرط فيه من شيء محلل الشرع ومحرمه ؛ المتمثل فيه لمن مثله مطاع الأمر ومسلمه ؛ الكريم الذي لا يضيع ثواب العاملين ، ولا يقطع أسباب الآملين ، ولا يمنع طلاب السائلين ؛ العدل الذي قامت حجته على الناكبين والعادلين ، والحق الذي يقضى بالحق وهو خير

الفاصلين؛ مُصنّفٍ مَشَارِعِ الشَّرِيعَةِ مِنْ أَعْرَاضِ الْكَدَرِ ، وَحَاجِي مَعَاقِلِ الْمَلَّةِ
 مِنْ آتِنَاقِضِ الْمَدَرِ؛ وَمَتَرَهُ أَوْلِيَائِهِ مِنْ مَحَاسِنِهَا فِي رِيَاضِ الْفِكْرِ، وَمَعْرِفِهِمْ بِمَا عَرَضَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ إِنْأَقْتَهَا لِأَرْتِيَاضِ النَّظَرِ، وَأَرْتِنَكَاِضِ الْفِطَنِ وَالْفِطْرِ؛ جَاعِلِ الْحُكْمِ سُلْطَانَهُ
 الَّذِي يَأْوِي لِلْهَيْفِ إِلَى ظِلِّهِ ، وَحِمَاهِ الَّذِي يَلْجَأُ الضَّعِيفَ إِلَى عَدْلِهِ ؛ وَمَفْرَعِ
 الرَّائِعِ الَّذِي يَقِفُ الْمَشْرُوفُ وَالشَّرِيفُ عِنْدَ فَضْلِهِ ، وَشَفَاءِ الْعِلَلِ الَّذِي يَذْهَبُ
 بِكُلِّ [مَا فِي] صَدْرٍ مِنْ عِلَّةٍ ؛ وَمَشْرَعِ الْإِنْصَافِ الَّذِي يُفْضِي إِلَى الظَّمَا فَيُضِ سَجَلَهُ ،
 وَمَوْعِدِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ تُطْوَى السَّمَاءُ كَطَيِّ سَجَلِهِ ، وَمُظْهِرِهِ لِيُظْهِرَ بِهِ هَذَا الدِّينَ عَلَى
 الدِّينِ كُلِّهِ ؛ وَالْأَمْرِ فِيهَا أَشْكَلَ مِنْهُ بِالْتَعْرِيجِ إِلَى مَسْتَنْبِطِهِ مِنْ أَهْلِهِ ، وَجَاعِلِ الْأُمَّةِ
 الْهَادِيْنَ الْحُجَّجِ عَلَى مَنْ رَجَعَ إِلَى قِيَاسِ عَقْلِهِ أَوْ تَقْلِيدِ جَهْلِهِ ؛ وَأَحَدِ الثَّقَلَيْنِ الَّذِي
 يَخْفَفُ عَنْ كُلِّ غَارِبٍ كُلِّ ثِقَلِهِ ، وَأَخُوهُ الْكِتَابُ فَلَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يردَا الْحَوْضَ يَوْمَ
 نَهْلِهِ وَعَلَّهِ ؛ وَصِرَاطِهِ الْمُسْتَقِيمِ الَّذِي مِنْ أَتَى الْيَوْمَ فِيهَا بَرَّةً رَأَيْهِ أَتَى غَدَا بَرَّةً فِعْلُهُ ،
 وَمَنَارِ الْأَنْوَارِ الْمَضْرُوبِ عَلَى طُرُقِ السَّارَى فِي لَيْلِ الضَّلَالِ وَسُبُلِهِ ، وَسَبَبِ الْعِصْمَةِ
 الَّتِي أَشَارَ فِيهَا إِلَى الْأَعْتِصَامِ بِحَبْلِهِ ؛ وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى جَدِّنَا مُحَمَّدِ الَّذِي عَظُمَ بِهِ جَدِّنَا ،
 وَأَعْتَلَقَ بِسَبَبِهِ مَجْدُنَا ؛ وَوَجَبَ بِهِ عَلَى كُلِّ مَنْ وَاذَّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ وَدُنَا ، وَأُورْثَنَا مِنْ
 عِلْمِهِ مَا حَازَلْنَا شَرَفِي الدِّينِ وَالْدُّنَا ؛ وَحَلَمَ بِهِ نَجِيرٍ مِنْ ضَاقَتْ بِهِ الْمَذَاهِبُ فَرَجًا
 فَرَجًا ، وَحَكْمِهِ الْمَشْرُوكُونَ فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ فَلَمْ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ بِمَا قَضَى حَرَجًا ؛ وَعَلَى
 أَخِيهِ وَأَبْنِ عَمِّهِ ، الْقَائِمِ مَقَامِهِ بِفَضْلِ حِكْمِهِ وَفَضْلِ عِلْمِهِ ؛ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ
 أَبِي طَالِبِ الَّذِي حُرَزَلَهُ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ أَلْبَابُهَا ، وَطَابَتْ بِنُغَارِ حِلْمِهِ إِقَامَةُ الْأَلْبَابِ
 وَإِلْبَابُهَا ؛ وَمِيزَهُ عَلَى الْكِفَاةِ بِقَوْلِهِ : ” أَنَا مَدِينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بَابُهَا “ وَشَهِدَ طَوْرًا بِأَنَّهُ

أفتاهم ، فَعَلِمَ أَنَّهُ أَقْرَبُهُمْ بِهِ شَبَهَا فِي مَدَى الْفَضْلِ أَقْصَاهُمْ ؛ وَعَلَى الْأُمَّةِ مِنْ ذَرِيَّتِهِمَا
الَّذِينَ أَنْعَمُوا فَأَجْرَلُوا ، وَحَكَمُوا فَعَدَلُوا ؛ وَحَمَلُوا نِقْلَ الْأَمَانَةِ فَحَمَلُوا ، وَجَاهَدُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَعَلُوا بِمَا فَعَلُوا ؛ وَاسْتَوْجِبُوا الْحَمْدَ بِمَا أَوْلُوا وَالْأَجْرَ بِمَا وُلُّوا ؛ صَلَاةٌ
مَأْمُونَةٌ مِنَ الشُّبُهَاتِ ، مَتَوَصِّحَةٌ الشَّيَاطِينِ .

ولما كان حُكْمُ الصَّوَابِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يُجْتَارَ مَنْ بَانَ صَوَابُهُ وَأَتَّضَحَ ،
وَبَانَ عَنْهُ حُكْمُ الْهَوَى الَّذِي فَضَّحَ ؛ وَأَصْغَى ضَمِيرَهُ إِلَى لِسَانِ الْحَقِّ الَّذِي فَضَّحَ ،
وَعَرِضَ جَوْهَرُهُ عَلَى حَمَكِ النَّقْدِ فَضَّحَ ؛ وَمَيَّزَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرِّجَالِ فَتَقَلَّ وَزَنَا وَرَجَحَ ،
وَأَحْتَجَّ بِهِ الْإِسْلَامُ عَلَى مَنْ نَوَى مُنَاوَأَتَهُ فَتَجَحَّ ؛ وَوَلَّى الْأَحْكَامَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَأُصْلِحَ
وَصَلَحَ ، وَتَسَمَّحَ إِذَا كَانَ الْحَقُّ لَهُ وَإِذَا مَا كَانَ فِيهِ فَمَا أَسْمَحَ وَلَا تَسَمَّحَ ؛ وَجَدَّدَ
جِدَّهُ مِنْ مَعَالِمِ الْعُلُومِ مَا صَحَّ رَسْمُهُ وَأُحْمَ^(١) ، وَأَطْلَعْتَهُ عَلَى خَفَايَا الْمَشْكَلاتِ بِدِيهَةِ فِكْرِهِ
لَمَّا لَمَحَ ؛ وَمَلَكَ عِنَانَ هَوَاهُ رَأْيَهُ بَخْنَجَ إِلَى هَوَاهُ وَمَا جَمَحَ ، وَشَرَحَ صَدْرَ الْأَخْتِيَارِ
بِمَا مَلَأَ الْأَخْيَارَ مِنْ مَحَاسِنِهِ وَشَرَحَ ، وَتَعَالَى الْأَفْتِرَاحَ لِهَذِهِ الْمَرْتَبَةِ فَكَانَ وَفَّقَ مَا أَرَادَ
وَفَوْقَ مَا اقْتَرَحَ ؛ وَتَشَبَّثَ بِعَيْنِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ وَتَسَمَّكَ ، وَتَنَزَّهَ عَنْ دَاءِ يَلَازِمِهَا
وَأَعْرَاضِ تَشْبِيهِهَا وَتَسَمَّكَ ؛ وَكَثُرَ الْخَوْضُ فِي الْبَاطِلِ فِيمَا صَدَعَ بِالْحَقِّ وَإِمَامًا أَمْسَكَ ،
وَأَعْدَى فَضْلَهُ وَفَضْلَهُ عَلَى مَنْ شَكَا أَوْشَكَ ؛ وَغَضَّ عَيْنَيْهِ عَمَّا أُعْطِيَ سِوَاهُ وَمَتَّعَ بِهِ ،
وَأَشْتَرَى طُولَ رَاحَتِهِ بِنَصِيْبِهِ الْآنَ مِنْ نَصِيْبِهِ ، وَحَسَرَهُ (؟) النِّعْمَةَ مِنْ تَعْبِهِ ؛ وَأَيْسَ
الظَّالِمِ مِنْ مُمَالَاتِهِ وَمُبَالَاتِهِ ، وَطَمِعَ الْمَظْلُومُ بِقُرْبِ إِعَانَاتِهِ وَبَعْدَ إِعْنَاتِهِ ؛ وَمَرَّ مَرُّ
الدَّهْرِ وَحَلَا حُلُوهُ فَلَمْ يَشْهَدْ بِاسْتِمَالَاتِهِ عَنْ حَالَاتِهِ ، وَلَمْ يَرْضَ أَحَدُهُ حُكْمَ صَرَفِ
دَهْرِ يَجْرِي بِأَذَاتِهِ ؛ وَلَا كَشَفَتْ مِنْهُ التَّجَارِبُ إِلَّا عَنِ الْبَصَائِرِ الَّتِي تَرُوقُ السَّمَاعَ

(١) أى فإقتاد ولان ولا سمح أى جاد وسخا .

(٢) أى درس وعفا . انظر اللسان .

وَالنُّظَّارَ، وَالْحَسَنَاتِ الَّتِي قَضَتْ بَصَائِرُهَا بِقَضَاءِ مَنَاطِرَةِ الْأَنْظَارِ؛ وَالدِّيَانَةَ الَّتِي عَمَّرَتْ
الْمَحَارِيبَ فِي اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ، وَالْأَمَانَةَ الَّتِي آسَمْتَسَكَ عَقْدُهَا فَمَا خِيفَ عَلَيْهِ أَنْ
يَتَدَاعَى وَلَا أَنْ يَنَارَ، وَالصِّيَانَةَ الَّتِي آسَتَوَى فَوْقَ مَرْكَبِهَا فَخَلَّتْ بِجَنَاتِ عَدْنٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

وَمَا كُنْتُ أَيُّهَا الْقَاضِي مُلْتَمِئًا هَذِهِ الْأَوْصَافَ وَطَبِيعَهَا، وَمَشْرِقَ نَجْرِهَا وَمَطْلَعَهَا،
وَمُلْتَمِئًا عَصَا آرْتِيَادِهَا وَمَنْجَمَهَا ، وَمَوْرِدَ فَرِطِ تِلْكَ الْأَمْوَالِ وَمَشْرَعَهَا، وَمُرَادَ هَذِهِ
السَّمَاتِ الَّتِي تَقَعُ مِنْكَ مَوْقِعَهَا، وَتَأَلَّفَ عِنْدَكَ مَوْضِعَهَا، وَأَصَلَ هَذِهِ الْمَحَامِدِ الَّتِي إِنْ
أَسْتَعَلَّقْتَ بِسِوَاهِ فَهِنَّ فَرَعَهَا، وَقَارِعَ صَفَاةِ هَذِهِ الذَّرْوَةِ الَّتِي مَا كَانَ لغيره أَنْ يَقْرَعَهَا،
وَمَنْ تَعُدُّهُ الْخِنَاصِرُ اتَّقَى كُفَاةَ الرِّيبِ وَأَوْرَعَهَا، وَأَبْلَجَ أُبَاةَ الرِّيبِ وَأَرْدَعَهَا، وَأَشَدَّهَا
قِيَامًا وَمَقَامًا فِي ذَاتِ اللَّهِ وَإِنْ كَانَ لَهُ أَطْوَعَهَا؛ وَأَمْضَاهَا حَدًّا إِذَا كَفَّ الْبَاطِلَ
الْغُرُوبَ ، وَأَشْرَقَهَا شَمْسًا لِاتْتَوَارَى بِجِجَابِ الْغُرُوبِ؛ وَأَقْوَاهَا سَلَّةً فِي تَنْفِيذِ حَكِيمِ
حَقِّ إِذَا ضَعَفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، وَأَنْقَاهَا صَحِيفَةً بِمَا أَوَدَّعَهَا مِنْ نُورِ الْعَمَلِ
الْمَكْتُوبِ، وَأَبْدَاهَا زُهْدًا فِي دُنْيَاهُ إِذَا أُنْمَوًا بوعدها الكاذبِ أَمَلِ إِيْتَائِهَا الْمَكْتُوبِ،
وَأَدْوَمَهَا مِصْحَابَةً لِشُكْرِ لَا يَسْتَقِيلُ بِهِ رَفِيقُهَا الْمِصْحُوبِ، وَأَقْوَمَهَا طَرِيقَةً فِي الْحَسَنَاتِ
فَمَا طَرِيقُهُ إِلَى الْحُوبِ بِمَلْحُوبِ، وَأَقْوَاهَا طُمَأْنِينَةً قَلْبٍ إِلَى ذِكْرِ الَّذِي تَطْمَئِنُّ بِهِ
الْقُلُوبُ؛ وَأَنْهَضَهَا عَزْمًا بِمَا أَعْيَا الْهَمَمَ مِنْ تَكَالِيفِ الطَّاعَةِ وَأَادَ بِسَمْعٍ وَبَصَرٍ وَفؤَادِ،
وَأَقْدَرَهَا عَلَى مَجَاهِدَةِ الشُّهَوَاتِ أَشَدَّ الْجِهَادِ؛ وَأَنْظَرَهَا لِنَفْسِهِ فِي تَحْصِيلِ عَمَلٍ يَشْهَدُ
لَهُ يَوْمَ قِيَامِ الْأَشْهَادِ، وَأَمَهَّدَهَا لِحُبْنِهِ وَذَخَائِرِ التَّقْوَى نِعَمَ الْمِهَادِ .

(١)
وإلى اليقين الذي ظهرت شواهدُه، والعمل الذي جُمِعَتْ إِلَيْكَ شِوَارِدُهُ؛
وَالَّذِينَ صَفَّتْ إِلَيْكَ مَوَارِدُهُ، وَالْعِلْمُ الَّذِي هَبَّتْ بِمَذَاكَرَتِكَ رِوَاكِدُهُ، وَالْقَهْمُ

الذى تظاهرت بمناظرتك مرأشده؛ والنظر الذى ألقى فُرسانَ الحدال بالحدالة،
والأثر الذى يقضى به عليك بالعدالة؛ والمحاماة عن الحق بما يقضى لمخالفه بالإذالة
ولؤافه بالإدالة، والإرشاد الذى ما بدا لفهم الشاك إلا بداهة؛ والفتيا التى ضربت
نبيج الباطل بسيوفها، وحلت مسامع المستفيدين بسُنوفها؛ والجلالة التى لا يميل
مسموع أوصافها، والعدالة التى لا يميل (؟) مشروع إنصافها؛ وكم ليلة أعمدت ظلامها
فى نور التهجذ والناس هجود، وسكنت جفون مناقها بيقظات السجود، وأنشأت
الخشية غمامها فاطفات بماء الدمع النار ذات الوقود؛ وبلغت رياضة الجوارح
التي تريد ورياض القلب التى ترود؛ فأسفر الصبح منك عن سار واقف، وأستسر
لك القبول عن أنس خائف؛ وتأرجت أنفاس الأسمار باستغفارك، وتم عنوان
السجود بأسرارك، وأبيضت شية الليل بحلى آثارك؛ وأكتفتك الطهارة حتى كأنك
مصحف، وأرهقتك الديانة حتى كأنك مرهف؛ وحالفتك الركانة وكأنك مع
سلامة الخلق أحف، وتفتت السن فأبقت منك ما أبقت من سنان المثقف؛
وعرفتك الأحكام بأنك ماض على الحقائق عند الشبه تتوقف، وألفتك الزاهة
فشهد عدول أن نكرة المطامع عندك لا تتعرف؛ وصرفتك الزاهة عن دنيا إن كانت
عرائسها ترف فعدا مواردتها ترف، وأستشرفتك المنازل التى لا تزال بأعناق الأشراف
تستشرف؛ وما رأست، حتى درست؛ ولا تنهت، حتى تفقهت؛ ولا أقنيت
حتى أقنيت الحابر، ولا تصدرت حتى تصبرت على كلف تغلب الصابر؛ فما
حباك من حباك، ولا قدمك حتى علم أن سواك ماساواك؛ فرياستك لم تكن قلته،
وأستشرف وجه الرياسة لك لم يكن لفته؛ بل تنقلت متدرجا، وأخى عليك لسان
حقيقة ما كان متلججا؛ ولو أفعدك حسبك أو أباك، لقبلك المجد وما أباك؛

فكيف ولك نفس بنت لك الشرف الخالد ، وجمعت الطريف منه إلى التاليد ، ولم تقنع بما ورثت من تراث رياسة الوالد .

والسيد الأجل الذي أعاد إلى الدولة رونق نضارتها ، بعد رونق إضارتها ، وأفاضت عليه حيا إشارتها ، وأضافت إليه نص إشارتها ، وأعطته السعادة أفضل إمارتها ، بما أعطته من فضل وزارتها ، وأشملت معاني النجاح من صفحة بشره التي مجللتك الآمال بشارتها ، وأقرت حركاته الخلافة في دارها والأنوار في دارتها ، وقصرت مهابته أيدي الأعداء بعد استطالتها ، وأنحمت نارهم بعد آس تطارتها ، وذلت رياضته الأسود فلم ترع الأسماع بزأرها ولا العيون بزيارتها - يعذك للصدور صدرا ، ويعذك بما يرفع ذوى الأقدار قدرا ، ويذكرك بما تطيب به نشرا ، ويحسن ملبوسه بشرا ، ويراك أولى من أقام الحق لازما جواده ، وأقعد الباطل حاسما موآده ، ويصفك بالعدل الذى يتألم عليه الأضداد ، والسداد الذى لا يضرب بينك وبينه بالأسداد ، والنزاهة المنزهة عن التصنع بالرياء ، والسريرة الطيبة النشروالسيرة الحسنة الرواء .

ولما قتر لك النيابة عنه فى الصلاة والخطابة والقضاء والمظالم والإشراف على الجوامع والمساجد ودار ضرب العين والورق والسكة بالخصرة وسائر أعمال المملكة ، أمضى أمير المؤمنين ماقرر ، وتخير لهذه العطية من تخير ، سكونا إلى أمانتك التى حملت نوقها ، وركونا إلى ديانتك التى أوجبت تطلع هذه الرتبة إليك وسوقها ، وعلمنا أنك فارسها الذى أوسع ميدانه ، وواحدنا الذى رجع ميزانه ، وكفوها الذى تمكن مكانه .

فتقلد ما قلدت من ذلك عاملا بتقوى الله التى يفوز العامل بها فى مواقف الإسقاط ، ويحوز بها السالك متالف الصراط ، ويحوز بها الآمل معارف الاحتياط ،

قال الله في فرقانه الذى نزله على عبده ليكون للعالمين نذيرا : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا﴾ .

والحكم فهو عقد اللباس دُنْيَا وَدِينَا ، وسبيل الحق الذى يسلكه مَنْ جَرَى شِمَالًا وسلك يمينًا ، وبه كَفَّ الله الأيدي المتعديه ، وأنقَدَ من النار النفوس المترديه ؛ وأقام حدودَ كلِّ من استحقَّها ولم يتوقَّها ، وأوجب قِصاصَ الدماء على من أراقها وأستباح رِقَّها ؛ وبه يقف القوى والضعيف مَوْقفًا واحدًا ، وَيَظْهَرُ أولو عدلِ الله لمن كان بعين قلبه مُشَاهِدًا ؛ وبه نَتَبَّنُ مواقعَ التحليل والتحرير ، وفيه نَتَعَيَّنُ مقاطعَ الحُكْمِ بالتحكيم ؛ ولِمَجَالِسِهِ الوقارُ فهى جَنَّةٌ لا تَغْوُ فيها ولا تَأْتِمُّ ، والظالمُ فيه وإن ظَفِرَ فإنما ظَفِرَ بما يُقَطِّعُ له من نارِ الجحيمِ . ولا تجعل بين المتحاكمين إليك من فَرَقٍ ، وساوِ في الحكم بين كافة الخلق ؛ ولا تَحْكُمْ بِحُجَّةِ أَحَدِ الخصمين وإن كان لها السُّبْقُ : ﴿فَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ . ولا تقطع بعلمك وإن كنتَ عليماً ، ولا تُبَالِ في الله أن تُغْضِبَ ظالماً وتُرْضِيَ مظلوماً ؛ وأجعل لنفسك من نَظَرِكَ وإصغائك بين المترافعين إليك مقسوماً ، فلا تحقر خطأ الحكم وتجنب منه بينهما ما تجده [عند] الله عظيماً : وَأَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْغَائِبِينَ حَصِيماً . وَتَجَلَّبَبْ بِالْوَقَارِ الذى يَبَيِّنُ فضلَ المله ، ويشهد للكفر بالله ، وَيُلْبِسُكَ نَخْرَ السَّرَاةِ الحِلَّةَ ؛ ولا يمنعك مذمومُ التكبرُ ، عن محمودِ التدبُّرِ ؛ ولا جبرَ لكسرِ التجبرِ ، ولا خيرَ فيمن لا يمهِّلُ رويَّةَ التحيرِ فالعجلةُ تضيقُ ميدانَ التخيرِ ؛ وإذا أُضْحِخَ الملتبسُ لفهْمِكَ ، وعزَّ القِطْعُ بفضلِ حُكْمِكَ ؛ فأفهم الظالمَ ما توجَّهَ عليه نَحْصَمُهُ ، فَرِّبْهُمَ أوتى من سوء فهمه لامن طريقِ ظُلمه ؛ ولعله لا يجمعُ عليه بين فَوْتِ مرادِهِ وبقاءِ إثمِهِ ؛ وذاكرِ المُقَدِّمِينَ على اليمينِ ، بما على مَنْ يمينِ ؛ وأن كاذبها يدع الديارَ

بَلَّاقِع ، وَأَنْ خَرَقَ الْجُرْأَةَ عَلَى اللَّهِ مَالَهُ مِنْ رَاقِع ، وَصَرَعَةَ الْفَاجِرَ مَالَهَا مِنْ مَزِيلٍ
 وَلَا رَافِعٍ ، وَمَنْ قَطَعَهُ الْحَصَرَ عَنِ الْإِفْصَاحِ ، وَصَرَفَهُ الْعِيَّ عَنِ الْإِيضَاحِ ، فَاسْتَعْمَلَ
 مَعَهُ أَنَاةً تَوْضَعُ مَا يَخْتَلِجُ فِي صَدْرِهِ ، وَرِفْقًا يُفْصِحُ مَا يَخْتَلِجُ فِي فِكْرِهِ ؛ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ
 صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : ” إِنَّكُمْ لَتَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ أَحَدَكُمْ أَنْ يَكُونَ الْحَنْ
 بِحِجَّتِهِ مِنَ الْآخِرِ فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ “ وَلَدْخُولِ الْمَجَالِسِ دَهْشَةً تُورِثُ اللِّسَانَ
 عُقْلَهُ ، وَلِمَفْاجَأَةِ الْحَافِلِ حَيْرَةً تُعْقِبُ الْبَيَانَ مُهْلَهُ ؛ فَوَاجِبٌ عَلَيْكَ مِمَّنْ تَدَلَّهُ أَنْ تَدَلَّهُ ،
 وَمَنْ يُسُدَّهُ أَنْ تُسُدَّهُ : لَتَقْضَىَ بِمَا تَقْضَى ، وَتُقْضَىَ الْحَكْمَ بِحَقِيقَةِ تَمْضَى ؛ وَإِنْ
 تَجَبَّرْتَ قَضِيَّةً قَدْ فَرَطْتَ ، وَتَدَبَّرْتَ نَوْبَهُ قَدْ أَفْرَطْتَ ؛ فَبَادِرُ بَاسْتِدْرَاكِهَا ، قَبْلَ
 وَقُوعِكَ فِي أَدْرَاكِهَا ، وَتَعَذُّرِكَ عَنِ إِدْرَاكِهَا ؛ وَلَسْتَ مَعْصُومًا مِنَ الْمَغَالِطِ ، وَلَا مَوْصُومًا
 بِالْخَطِ الْفَارِطِ ، وَلَا مَلُومًا [إِلَّا] إِذَا أَقَمْتَ عَلَى مَا اللَّهُ مِنْهُ سَاخِطٌ ؛ فَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ مَنْ
 اتَّقَى الْخِلَاقَ وَلَمْ يَتَّقِ الْخَلْقَ ؛ فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
 مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ .

وَكَلَّبَ اللَّهُ وَسَنَّهُ رَسُولُهُ السَّرَاجَانَ اللَّذَانَ مَا ضَلَّ هُدَاهُمَا ، وَالْمِهَادَانَ اللَّذَانَ
 مَا أَوْضَحَهُمَا إِلَيْهِ وَأَبْدَاهُمَا ؛ وَقَدْ أَغْنَتْ نِصُوصُهُمَا عَنِ الْأَقْبِسَةِ ، وَأَوْضَحَ خُصُوصُهُمَا
 عَامَّةَ الْأُمُورِ الْمَلْتَبِسَةِ ؛ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ : ﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ . وَقَالَ
 تَعَالَى : ﴿ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ وَإِنْ أَشْكَلَتْ نَازِلَةٌ غَيْرُ
 مَسْطُورَةٍ ، وَأَعْضَلَتْ وَاقِعَةً غَيْرُ مَحْصُورَةٍ ؛ فَاسْتَرْشِدْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَمْرِهَا ، وَقِفْ
 عَلَى بَحَارِ عِلْمِهِ فَلَنْ تَعْدَمَ سَبِيحَ دَرِّهَا ؛ فَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ عِنْدَ التَّنَازُعِ بِأَنْ
 نَزِدَ [إِلَيْهِ] مَا أَعْضَلُ ، وَأَنْتُمْ أَحْذَكُ لِلْإِسْتِنْبَاطِ [إِلَازِمًا] ^(١) الَّذِينَ حَكَّمَ اللَّهُ أَنْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ
 مَا أَشْكَلُ .

(١) زدنا هاتين الكلمتين على ما في الاصل لأن الكلام بدون زيادتهما لا يفهم . تأمل .

والشهادة فلقد أمر الله بإقامتها وكفى بالله شهيدا ، وكفى بذلك جلاله وتمجيدا ،
ولا نَتَّخِذُ إِلَّا الْعُدُولَ الْمَقَانِعَ ، ولا تَسْمَعُ مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ لِأَمْرِ اللَّهِ سَامِعٌ ، فهم
الْأَعْوَانُ الَّتِي تُدْفَعُ بِهَا نَارُ جَهَنَّمَ ، وَالْجُنَّ الَّتِي يَتَّقِي بِهَا الْحَاكِمُ سَهَامَ الْإِثَامِ فِيمَا حَلَّلَ
وَحَرَّمَ ، وَإِلَىٰ عَلَيْهِمْ آتَتْهُمُ الْمُقَاتِلُ الَّتِي اللَّهُ بِهَا أَعْلَمُ ، وَمَا سَرَىٰ حَكْمٌ إِلَّا بَعْدَ
أَنْ تَجِدَ أَقْوَالَهِ دَلِيلًا ، وَلِكِ السَّمْعُ وَلَهُمُ الْبَصَرُ وَكُلُّ أَوْلَيْكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ،
وَأَسْتَشِفُّ أُمُورَهُمْ فَمِنْ أَلْفَيْهِ آلِفًا لِمَحَبَّةِ الصَّوَابِ ، عَائِفًا لِمَصْلَةِ الْإِرْتِيَابِ ، لَا يُخَافُ
بِالْإِعْضَابِ ، وَلَا يُخَافُ بِالْإِرْهَابِ ، وَلَا يَحْسِبُ حِسَابًا إِلَّا لِيَوْمِ الْحِسَابِ ، فَاسْمِعْ
مَقَالَتَهُ ، وَأَفِزْ عَدَالَتَهُ . وَمَنْ كَانَ عَنِ السَّبِيلِ نَاجِبًا ، وَلِلْهَوَىٰ رَاجِبًا ، فَأَرْجُلُهُ عَنِ
ظَهْرِ الْعَدَالَةِ ، وَنَتَبَعِ زَلَّهُ بِالْإِزَالَةِ ، وَوَصِلْ فِيهِمُ الْأَسِنَّةَ حَكْمًا ، وَأُوجِهْ عَلَيْكَ ،
فَلَا تَسْتَنْبِ إِلَّا مَنْ تَعْلَمُ أَنَّ خَطَاةَ عَلَيْكَ وَصَوَابَهُ لَكَ ، وَلَا تَعُولُ إِلَّا عَلَىٰ مَنْ لَا يُحْجِلُ
نَفْسَكَ وَلَا يَذُمَّ تَعْوِيلَكَ .

وَكَاتِبُكَ فَقَلْمُهُ لِسَانُكَ ، وَلِسَانُهُ تَرْجُمَانُكَ ، إِنْ وَقَعَ فِإِلَيْكَ تُنْسَبُ مَوَاقِعُ تَوْقِيعِهِ ،
وَإِنْ وَصَلَ حَكْمًا بِسَطُورِهِ فَمِقْدَارُكَ مَسْطُورٌ مِنْ مَسْمُوعِهِ ، فَلَا تَرْضَ بِالذُّونِ فَمَا
يَدُونَ ، وَلَا تَعُولُ إِلَّا عَلَىٰ كُلِّ مَنْ تَصَوَّرَ وَتَصَوَّرُونَ .

وَحَاجِبُكَ فَهُوَ عَيْنُكَ وَإِنْ سُمِّيَ حَاجِبًا ، وَوَجْهُكَ الَّذِي تَلْقَىٰ بِهِ إِذَا كُنْتَ غَائِبًا ،
فَاخْتَرْ مَنْ يَكُونُ مَتَخِيرًا فِي الْمَقَالِ ، مَتَحَلِّيًا بِحُسْنِ الْفِعَالِ ، مَجْرَبًا فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ ،
لَا يَلْتَفِتُ إِلَىٰ دُنْيَا دِينِهِ ، وَلَا يَخُونُكَ أَمَانَتَهُ وَلَا تَمْتَدُّ يَمِينُهُ ، وَلَا يَقُولُ عَنْكَ
وَلَا عَنِ نَفْسِهِ إِلَّا مَا يَزِينُكَ وَيَزِينُهُ ، وَلَا يَخِفُّ إِلَىٰ مَا تَخِفُّ بِهِ مَوَازِينُهُ .

وَالْخَطْبَاءُ قُرْسَانُ الْمَنَابِرِ ، وَالسُّنَّةُ الْمَخَاضِرُ ، وَتَرَاجُمُ الشَّعَائِرِ ، وَأَهْمَةُ الْمَجَامِعِ ، وَسُفْرَاءُ
الْقُلُوبِ بِوَسَايَةِ الْمَسَامِعِ لِمَقَامِهَا الرَّافِعِ ، وَمُيْرَاهَا الْفَارِعُ مِنَ الْقُلُوبِ عَلَىٰ دَائِمِهَا ، وَتَدَحْرُ

حرُّهُ شياطينَ الأُمِّ عندَ أَعْدائِها؛ ويُعربُ عن الهدايةِ ويبالغُ بلاغَتَهُ في إهدائها؛
ويَتقنُ مَخارجَ الحروفِ مُحسِنًا في أدائها وإبدائها، وتُحَلُّ موعظتُهُ عن العيونِ الجالمةِ
عُقَدَ وكائِها، وينادى القلوبَ الصِّديَّةَ فيكونُ صَداهُ صوبَ بكائِها، ويستشعرُ أُرديَّةَ
الوقارِ فتشهدُ المنابرَ له بارتدائها؛ وتغذى النفوسَ مواعظُهُ إذا قصدتُهُ بأستنصارها
على القلوبِ وأستعدادِها .

والأيتامُ فانتَ لهم والدٌ ، وأجرُ نَفَقَتِكَ عليهم في الصَّحيفةِ وارِدٌ ؛ وهم ودائعُ الله
لديكَ ، وذخائرُ الآباءِ [١] لآ أَنهم في يدِكَ ؛ فأحسِنَ بهم السياسةَ بالشَّفَقَةِ ، وأحسِنَ
لهم التدبيرَ بالنَّفَقَةِ ؛ ومن آنستَ رُشدَهُ ، فأدفعِ مالَهُ إليه ، ومن لم تسترشدْ قَصدهُ ،
فأنفقِ منه عليه ؛ قال الله تنبيهاً وتحذيراً : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ
حُوبًا كَبِيرًا ﴾ .

والمساجدُ بيوتُ الله التي يُسبِّحُ له فيها بالعدوِّ والآصالِ ، ومَظانُّ العبادةِ التي يعمرها
أهلُ الإعتلاقِ بمعروفِهِ والإفضالِ ؛ ومَصاعِدُ الكَلِمِ الطيبِ والعملِ الصالحِ ، وأسواقُ
الآخرةِ التي يُوجبُ فيها المُشترُونَ صَفقةَ البَيْعِ الرَّابِحِ ؛ فعبُدِ الطريقَ إلى زيارتِها ، وأشرحِ
قلوبَ المُتطهِّرينَ بطهارتها ، وآنيسِ القائمينَ بالليلِ والمستغفرينَ بالأشجارِ بِناراتِها .

والمضروبُ بدارِ الضربِ فهو عينٌ ما تجبُ عليه الزكواتُ ، ونفسُ ما تُحَارُ [به]
المستملكاتُ ؛ ومدارُ ما تستمِلُ عليه المُعاملاتُ ، وقِيمُ ما تُحَقِّنُ به الدماءُ في الدِّيَّاتِ ،
ومنتهى ما تُوفِّيُ به الصَّدقاتُ ؛ وتوصى به الصَّدقاتُ ؛ فتولُّ أخذَ عيَّارِهِ ،
ومباشرةَ تصفيةِ دِرْهمِهِ ودِينارِهِ ، وأخلِصَهُ لتنجو من النارِ بلفحاتِ نارِهِ ؛ وأحفظْ
شكله الذي ينقشُ خاتمَ جوازِهِ ؛ والأسماءُ المُسطَّرةُ عليه وسيلةٌ أمتيازِهِ على بقيةِ
الأشجارِ وإعزازِهِ .

والوكالة على باب الحكم فهي كِفاح المتناضلين ، وسِلاح المتناصلين ؛ ومن يتفجع بها لا يُعزل من الخطاب ، كما لا ينصب بها من يفتح له الباطل الأبواب ؛ فلا تُوعها إلا لمن حسنته الدُّر به ، في السرعة من القُربه ، وتدبر قول الله : ﴿ وَإِنْ كَانَ مِنْتَقَالَ حَبَّه ﴾ ممن يُؤمن على النساء والرجال ، ولا يُعجبه إرسال لسانه في الحلال ، ولا يُبطل الحق إذا أطلق لسانه في سعة المجال .

والمتصرفون الذين هم أيدي الشريعة التي تُشخص الخصوم ، ويُستعان بهم على قمع الظلوم ونفع المظلوم ؛ فخير أن يكون أكبرهم من أهل طبقتهم ، وأمدتهم تحسبنا لسمعته وتحصينا لأمانته .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فاهد بهديه ، وقم بفرض رعيه وحق وعيه ؛ وكريم سعى الآخرة أحسن سعيه ، وتصرف بين أمر الحق ونهيه ؛ والله سبحانه يبلغك من مناجح أمرك ، مالا تبأغه بمطامح فكرك ؛ ويسر لك من بديهة الإرشاد ، ما تعجز عنه روية الارتياذ ؛ فاعلم هذا من أمير المؤمنين ورسمه ، وأعمل بموجبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك ما أورده على بن خلف الكاتب في كتابه "مواد البيان" في سجل بالدعوة للدولة والمشايعه لها ، والموافقة على مذهبها ، وهو :

الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس ، والمتعالى عن أن تُدرِكه البصائر بالاستدلال والأبصار بالإيناس ؛ الذي آختر الإسلام فأظهره وعظمه ، وأستخلص الإيمان فأعزّه وأكرمّه ؛ وأوجب بهما الحجّة على الخلائق ، وهداهم بأنوارهما إلى أقصد الطرائق ، وحاطهما بأوليائه الراشدين شُموِس الحقائق ؛ الذين نصّبهم في أرضه

أعلاما، وجعلهم بين عباده حُكَمَا؛ فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا
وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَايِدِينَ﴾ .

يحمده أمير المؤمنين أن أصطفاه لخلافته ، وخصه بلطائف حكيمته ؛ وأقامه دليلاً
على مناهج هدايته ، وداعياً إلى سبيل رحمته ؛ ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه
الذي أبتغته رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للمسلمين ؛ وأودع
بواطنه لوصيه سيد الوصيين : علي بن أبي طالب أمير المؤمنين ؛ وفوض إليه هداية
المستجيبين ، والتأليف بين قلوب المؤمنين ؛ ففجر ينابيع الرشد ، وغور ضلالات
الإلحاد ؛ وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل ، حتى أثار وأوضح السبيل ؛ وحسّر
نقاب البيان ، وأطلع شمس البرهان ؛ صلى الله عليهما ، وعلى الأئمة من ذريتهما ؛
مصاييح الأديان ، وأعلام الإيمان ، وحلفاء الرحمن ؛ وسلم عليهم ماتعاقب الملوان ،
وترادف الجديدان .

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب
الإمامة والأئمة ؛ وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتم
بجبله من المؤمنين ، وتوير بصائر من آستمسك بعروته من المستجيبين - يعلن بإقامة
الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وحلصائه ؛ وتغذية أفهامهم
بليانها ، وإرهاق عقولهم ببيانها ؛ وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإتقادهم من حيرة
الشكوك بمعارفها ؛ وتوقيفهم من علومها على ما يلحظ لهم سبل الرضوان ، ويفضي
بهم إلى روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدي في جوار الجواد المنان -
ما يزال نظره مصروفاً إلى توطئها بناشي في حجرها ، مغتذ بدورها سار في نورها ؛ عالم
بسرائرها المدفونه ، وغوامضها المكنونه ؛ موثقاً على ذلك اختياره ، وقاصية أنتقاده
وأختياره ؛ حتى أذاه الاجتهاد إليك ، ووقفه الارتياض عليك ؛ فأستندها منك إلى

كفيتها وكافيتها ، ومدبرها المبرز فيها ؛ ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ، ودقائقها المطوية ؛ ثقة بوثاقة دينك ، وصحة يقينك ؛ وشهود هديك وهداك ، وفضل سيرتك في كل ما ولاك ؛ ومحض إخلاصك ، وقديم اختصاصك ؛ وأجراك على رسم هذه الخدمة في التشریف والمُحَلان ، والتنويه ومُضاعفة الإحسان .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعرا للتقوى ، عادلا عن الهوى ، سالكا سبيل الهدى ؛ فإنَّ التقوى أحصن الجن ، وأزين الزين ، و﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ . فإن الله تعالى يقول : ﴿ ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ . وحض على ذلك فقال سبحانه : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين ﴾ .

وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل مُتقادي ظاهر ، من يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفاؤه ودينه ؛ وحضهم على الوفاء بما تعاهدتهم عليه ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ وأوفوا بالعهد إنَّ العهد كان مسؤولا ﴾ . ويقول جل من قائل : ﴿ إنَّ الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ﴾ . و [كف] كافة أهل الخلاف والعناد ، وجادلهم باللطف والسداد ، وأقبل منهم من أقبل إليك بالطوع والإتياد ؛ ولا تُكره أحدا على متابعتك والدخول في بيعتك ، وإن حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة : فإنَّ الله تعالى يقول لمن بعثه داعيا إليه بإذنه : محمد صلى الله عليه وسلم : ﴿ وما أكره الناس ولو حرصت بمؤمنين ﴾ .

ولا تُلقِ الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تُلقِ الحب إلا في مِرْعة لا تُتكدى على الزارع ؛ وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ،

وَتَقَرَّبَهُمْ بِقُرْبَانِ الْخَالِصِينَ ؛ وَتَخْرِجُهُمْ مِنْ ظُلْمِ الشُّكُوكِ وَالشُّبُهَاتِ ، إِلَى نُورِ الْبِرَاهِينِ
وَالآيَاتِ ؛ وَاتَّلَ مَجَالِسَ الْحِكْمِ الَّتِي تَخْرُجُ إِلَيْكَ فِي الْحَضْرَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ؛
وَالْمُسْتَجِيبِينَ وَالْمُسْتَجِيبَاتِ ، فِي قُصُورِ الْخِلَافَةِ الزَّاهِرَةِ ، وَالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ بِالْمَعْرِضَةِ
الْقَاهِرَةِ ؛ وَصُنَّ أَسْرَارَ الْحِكْمِ إِلَّا عَنْ أَهْلِهَا ، وَلَا تَبَدُّلًا إِلَّا لِمُسْتَحِقِّهَا ؛ وَلَا تَكْشِفُ
لِلْمُسْتَضْعَفِينَ مَا يَعْجِزُونَ عَنْ تَحْمَلِهِ ، وَلَا تَسْتَقِلُّ أَفْهَامُهُمْ بِتَقْبَلِهِ ؛ وَآجَمَ مِنَ التَّبْصُرِ
بَيْنَ أَدَلَّةِ الشَّرَائِعِ وَالْعُقُولِ ، وَدَلَّ عَلَى اتِّصَالِ الْمَثَلِ بِالْمَثُونِ ؛ فَإِنَّ الظُّوَاهِرَ أَجْسَامٌ
وَالْبَوَاطِنَ أَشْبَاحُهَا ، وَالْبَوَاطِنَ أَنْفُسٌ وَالظُّوَاهِرَ أَرْوَاحُهَا ؛ وَإِنَّهُ لَا قِيَامَ لِلْأَشْبَاحِ
إِلَّا بِالْأَرْوَاحِ ، وَلَا قِيَامَ لِلْأَرْوَاحِ فِي هَذِهِ الدَّارِ إِلَّا بِالْأَشْبَاحِ ، وَلَوْ أَفْتَرَقَا لَفَسَدَ النَّظَامُ ،
وَأَنْتَسَخَ الْإِيحَادُ بِالْإِعْدَامِ . وَأَقْتَصَرَ مِنَ الْبَيَانِ ، عَلَى مَا يَحْرُسُ فِي النُّفُوسِ صُورَ الْإِيمَانِ ،
وَيَصُونُ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْإِفْتِنَانِ ؛ وَأَنْهَهُمْ عَنِ الْإِثْمِ ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ ، وَكَامِنِهِ
وَعَالِنِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ﴾ .

وَأَتَّخِذْ كِتَابَ اللَّهِ مِصْبَاحًا تَقْتَبِسُ أَنْوَارَهُ ، وَدَلِيلًا تَقْتَنِي آثَارَهُ ؛ وَأَتْلُهُ مُتَبَصِّرًا ،
وَرَدَّدَهُ مُتَذَكِّرًا ، وَتَأَمَّلَهُ مُتَفَكِّرًا ؛ وَتَدَبَّرْ غَوَامِضَ مَعَانِيهِ ، وَأَنْشُرْ مَا طَوَى مِنَ الْحِكْمِ
فِيهِ ؛ وَتَصَرَّفْ مَعَ مَا حَلَّلَهُ وَحَرَّمَهُ ، وَنَقَضَهُ وَأَبْرَمَهُ ، فَقَدْ فَصَّلَهُ اللَّهُ وَأَحْكَمَهُ ؛ وَاجْعَلْ
شُرْعَهُ الْقَوِيمَ الَّذِي خَصَّ بِهِ ذَوِي الْأَلْسَابِ ، وَأَوْدَعَهُ جَوَامِعَ الصَّلَوَاتِ وَمَحَاسِنَ
الْآدَابِ ، سَبَابًا تَتَّبِعُ جَادَّتَهُ ، وَتَبْلُغُ فِي الْاِحْتِجَاجِ مَحَجَّتَهُ ، وَتَمَسِّكُ بِظَاهِرِهِ وَتَأْوِيلِهِ
وَمُثْلِهِ ، وَلَا تَعْدِلُ عَنْ مَنَهْجِهِ وَسُبُلِهِ ؛ وَأَضْمُمْ نَسْرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَآجَمِ شَمْلَ الْمُسْتَجِيبِينَ ،
وَأرْشِدْهُمْ إِلَى طَاعَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَسَوِّ بَيْنَهُمْ فِي الْوَعْظِ وَالْإِرْشَادِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
يَقُولُ فِي بَيْتِهِ الْحَرَامِ : ﴿ سَوَاءٌ أَعَاكَفَ فِيهِ وَالْبَادُ ﴾ . وَزِدْهُمْ مِنَ الْفَوَائِدِ وَالْمَوَادِّ
عَلَى حَسَبِ قُوَاهِمَ مِنَ التَّقْبُولِ ، وَمَا يَظْهَرُ لَكَ مِنْ جُودَةِ الْمُحْصُولِ ؛ وَدَرِّجْهُمْ بِالْعِلْمِ
وَوَفِّ الْمُؤْمِنِ حَقَّهُ مِنَ الْأَحْتِرَامِ ، وَلَا تُعْذِمِ الْجَاهِلَ عِنْدَكَ قَوْلًا سَلَامًا كَمَا عَلَّمَ رَبُّ

السلام . وتوخَّ رعاية المؤمنين ، وحماية المعاهدين ، وميزهم من العاقبة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين ؛ وألن لهم جانبك وأحن عليهم وأطف ، وأبسط لهم وجهك وأقبل إليهم وأعطف ؛ فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين :

﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ . ولا تُفْسَحْ لأحد منهم في التطاول بالدين ، ولا الإضرار بأحد من المعاهدين والذميين ، وميزهم بالتواضع الذي هو حلية المؤمنين ؛ وإذا ألبس عليك أمرٌ وأشكل ، وصعب لديك مرأى وأعضل ، فأنه إلا حضرة الإمامة متبعا قول الله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ : ليخرج إليك من بصائر توقيفها ، ومرآشد تعريفها ؛ ما يفك على مناهج الحقيقة ، ويذهب [بك] في لاجب الطريقة ؛ وأقبض ما يحملهُ المؤمنون لك من الزكاة والحزب والأخماس والقربات وما يجري هذا المجرى ؛ وتتقدم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه ، وأحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتقليله له ووصوله إليه ، وتبرأ ذمهم عند الله منه . وأستنب عنك في أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تتق بديانته ، وتسكن فيه إلى وفور صناعته ؛ وأعهد إليهم كما عهد إليك ، وأخذ عليهم كما أخذ عليك ؛ وأستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته ؛ وأستخدم كاتباً دينياً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً ، حقيقاً بالإطلاع على أسرار الحكمة التي أمر الله بصيانتها وكتابتها عن غير أهلها ، نقياً حصيفاً لطيفاً ، يتر لهم في مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل .

(١) جمع جزية وهي خراج الارض وما يؤخذ من الدمى .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فندبره متبصراً، وراجعه متدبراً، وبه الوصايا تهدي
وئسدد، وتوفق وتُرشد؛ وأستعين بالله يمدك بمعونته، ويديم حظك من هدايته؛
إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى هذا سائر السجلات من هذا النوع . وقد أورد في "مواد البيان"
سجلات غير هذه حذف منها التعميد وأقتصر على مقاصدها، وفيما ذكر من ذلك مفتح .

المذهب الرابع

(مما كان يكتب لأرباب الولايات بالدولة الفاطمية

مرتبة الأصغر من أرباب السيوف والأقلام)

وليس لهذه الرتبة صبغ محصورة في الإفتاح، بل تُفتح بلفظ: «إنَّ أمير المؤمنين
لما آتاه الله [من] كذا يفعل كذا وكذا ولمَّا كنت بصفة كذا، وحضر بحضرة
أمير المؤمنين فأنه وزيره فلان وأشار بكذا، فترك أمير المؤمنين في كذا» أو يقال:
«إنَّ أولي» أو «إنَّ أحق» أو «إنَّ أجدر» أو «أقمن» أو «من حسنت طريقته»
أو «من كان متصفاً بكذا كان خليفاً بكذا» أو «ولمَّا كان كذا» أو «منشور تقدم
بكتبه فلان» ونحو ذلك .

فمن المكتتب عن الخليفة من هذه المرتبة لأرباب السيوف نسخة سجل بزم .

إنَّ أمير المؤمنين لما آتاه الله من المحل الأرفع، وجعله اليوم الأمر المطاع وغداً
الشفيع المشفع؛ يتعهد عبيده بعهد كرمه، ويخبر من هجر النوائب من يحاول ظلَّ

(١) الهجر والهجرة والهجر والهجرة نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر وقيل في كل ذلك انه

حرمه ، ويقبل وسيلة من كانت النجابة أقوى وسائله وذمه ، ويؤمته من إلخاف حوادث الدهر به ولمه ؛ فلا زال بأموهم عانيا ، وبمكارم شيمته عن رفع مسائلهم غانيا ؛ لاسيما من حسن في الخدمة أثرا وطاب خيرا ، ونشرت أوصافه في أیدی الثناء فكانت برودا وحبرا ؛ وتمن له الإحسان في كل زمان أن يأتي مستحيدا لامعتدرا ، وعُدقت به بحار الحمامة فما أخرجت منه إلا جوهرا ، وغرس مقدمات المخالصة وكان لسانح الإنعام مستثمرا ، وصقل التجريب صفيحة طبعه وكان لضريبة الحزم مستأمرا ، وأستبد بموجبات المحامد مؤثرا لها ومستأثرا ، وجعلت لديه أسباب الأستقلال التي قلت عند سواه فظل منها مهيدا (١) متكثرا .

ولما كنت أيها الأمير ممن قام له هذا الوصف مقام الاسم [من] المسمى ، وتوصحت محابله به فلم يكن من اللغز المعنى ؛ وقام يقرر من الخدمة مشتملا ، وأستقل بشرائط التعويل مستكملا ، وأدرك غايات المحاسن عجلا متمهلا (١) وضمنت له الشيبية أن يعلو كاهل الرياسة متكهلا ، وأشتهر بالتقدم فلم تعرف به أوضاع الصنائع غفلا ولا مجهلا ، وأستوجب أن لا يزال في أفق الإنعام منهلا عليه يغادر لديه غديرا ومنهلا ، وأستحق أن يملأ يديه من ناظره متأملا ، وأدى فريضة الهصيحة كافلا متكفلا ومعملا لامتعملا ، ونهض بتكاليف الخدمة متحملا فيها مالم يزل متحملا .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه الذي أفناه التوفيق باستناراه ، ووليه الذي جم به مورد السعد بعد أستناراه : السيد الأجل سيف نصره المهتد باسه ،

(١) التمهّل التقدّم وتمهّل في الأمر تقدّم فيه . انظر اللسان .

(٢) يياض بقدر كلة .

وليث حربه والسنان نأب ، وسحاب الرحمة إلى الإسلام بها حصل ربحي خضر
الجناب ، ومتعب الرائح في غيبه حتى عزب في سهوب الإسهاب بأطناب
الإطناب ، ومستحق المدائح التي يعطر بها الجناب ، ويعطل بها الركاب ؛ والملك
الذي خدمه الملوك لالرتبة الغناء عنه بل لرتبة المناب ؛ فذكرك بما جمك ، وأستمر
لك من الإحسان ماجم لك ، وأستوفى في مناصحة الدولة عمك ، وقربت عليك
بسفارتيه بحضرة أمير المؤمنين أملك ؛ وقزر لك الخدمة بالزم الفلاني لإخلاقاً إلى
ماتطوي عليه جملتك ، وأعتاداً على ماتعز به كلمتك ؛ فأجابه أمير المؤمنين إلى ما أجابك
إليه ، وتقدم أمره باستخدامك فيما عين عليه ؛ ونرج أمره إلى ديوان الإنشاء
بكتب هذا السجل بتقليدك ذلك .

فتقلد ماقلدته مستشعرا لباس التقوى ، ناهياً للنفس عن الهوى ؛ سالكا الطريقة
المثلى ، قال الله سبحانه : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ . وهذه الخدمة من أمراء قبائل
العرب ، وهي المنبع وسواها الغرب ، وما فيها من يدعى إلى خدمة إلا طبق المفصل
وأتى على الأرب ؛ نخدها بالمرسوم لما تئذب له من المهمات السانحة والعوارض ؛
والخفوف إليها بالأسلحة الروائع والخيول النواهض ؛ وأزيم رجالها أن تحفظ من
الطرقات ما يصاقبها ، وأن تسوق كل نفس بجنابتها إلى من يعفوها أو يعاقبها ؛
وقدم العرض الذي يستدل به على من كان بالوفاء ساقطاً ، وعن أعمال الملكة
ساختها ؛ ليسترجع الديوان ما كان بيده ، ويفتضح من كانت الحيانة سريرة
مقصده ؛ فاعلم هذا وأعمل به .



ومن ذلك نسخة سجل بولاية نغرا، وهي :

إِنَّ أَوْلَىٰ مِنْ رِقَاہِ إِنْعَامُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ إِلَىٰ الْمَحَلِّ الْيَفَاعِ ، وَشَفَعَتْ فِيهِ وَسَائِلُ
فَضَائِلِهِ فَعَنِي عَنِ الْإِسْتِشْفَاعِ ، وَعَظَّمْ لَهُ النِّفْعَ لِمَا بِهِ مِنْ عَظِيمِ الْإِنْتِفَاعِ ، وَجَزَدَتْهُ
يَدُ الْإِخْتِيَارِ سَيْفًا مِنْ سُيُوفِ الدَّبِّ عَنِ الْمَلَّةِ وَالذَّفَاعِ ، وَأَسْتَقَرَّ فِي الرُّتْبِ الَّتِي لَا تُنْقَلُ
إِلَّا إِلَىٰ الزِّيَادَةِ وَلَا تُغَيَّرُ إِلَّا إِلَىٰ الْأَرْتِفَاعِ ، وَجُلِّيَتْ عَلَيْهِ وَجُوهُ النِّعْمَاءِ وَاضِحَةً اللَّتَامِ
وَاضِعَةً الْفَقَاعِ ، وَنَيْطَتْ مِنْهُ وَصَايَا الْحَزْمِ بِحَافِظِ لَهَا وَاعٍ ، وَتَوَفَّرَتْ عَلَيْهِ بِوَاعِثِ
الصَّنَائِعِ وَدَعَتْ إِلَيْهِ دَوَاعٍ - مَنْ تَرَشَّعَ بِالْإِسْتِحْقَاقِ لِلرُّتْبِ السَّنِيَّةِ وَتَأَهَّلَ ، وَسَبَقَ
الْمَجَارِينَ فِي حَلْبَةِ الْإِحْلَاصِ عَلَىٰ أَنْهُمْ جَهَدُوا وَتَمَهَّلَ ، وَثَبَتَ جَاشُهُ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي يُرَاعُ
لَهَا كُلُّ رُوعٍ وَيَذْهَلُ ، وَمَنْعَتْ مَهَابَتُهُ الْعَدُوَّ أَنْ يَجْهَلَ عَلَيْهِ وَأَبَتْ لَهُ حَصَافَتُهُ أَنْ
يَجْهَلَ ، وَغَرِيثُ هِمَّتِهِ بِالْمَطْلَبِ الْأَصْعَبِ مِنَ الْعَلَاءِ وَأَنْفَتَ مِنَ الْمَطْلَبِ الْأَسْهَلِ ؛
وَوَلِيَ الْوِلَايَاتِ الْجَلِيلَةَ فَظَلَّتِ الرَّعَايَا تَعْلُ مِنْ مَوَارِدِ عَدْلِهِ وَتَنْهَلُ ، وَنَشَأَتْ لَهُمْ
سُحْبُ الرِّكَابِ الَّتِي بَرَقَهَا يَتَهَلَّلُ وَعَارَضَهَا يَنْهَلُ .

وَمَا كُنْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ النَّاهِضَ بِمَحْقُوقِ هَذِهِ السَّمَاتِ ، الْبَعِيدَ الْقَدْرَ مِنَ الْمُسَاوَاةِ
وَالْمُسَامَاتِ ؛ الْمُنْتَقَلِّ فِي دَرَجَاتِ التَّقْدِيمَةِ وَالكَرَامَاتِ ، الْمُنْفَرِجَةَ عَنْ أَنْوَارِ قَتَكَاتِهِ
ظُلُمَاتِ الْمَقَامَاتِ ؛ الْمَعْدَةَ النَّجْدَةَ لِمَوَاقِفِ الْبِأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَالرَّادِّ عَلَىٰ أَعْقَابِهَا الْأَبْطَالَ
الْمُعْلَمَةَ بِالْفَتَكَاتِ الْمُعْلَمَاتِ ، الدَّائِمَ الْغَرَامَ بِمَقَامَاتِ الرِّيَاسَةِ وَإِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً الْمُؤْنِ
جَسِيمَةً الْغَرَامَاتِ ، الْقَائِمَ بِمَا تُوجِبُهُ عَلَيْهِ صِنَائِعُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حُقُوقِ الْمُدَافَعَةِ
عَنِ الْحَوْرَةِ وَفُرُوضِ الْمُرَامَاتِ ، الْمُنْتَظَاهِرَةَ فِيهِ شَوَاهِدُ الْفَضَائِلِ بِأَصْدَقِ الْأَعْدَارِ

وأوضح العلامات؛ المشهور المقامات، إذا جرت من مُتُون الصَّفاح جداولٍ وأهترت من غُصُون الرِّمَّاح قَامَات؛ الآخَذ بالأرصاد على العِدا بسُيُوفٍ تَرْقُب الرِّقاب وتِهيم في الهامات؛ الكافي الذي تَنَقَّل في الخِدم فكان من الشُّكر مُثْرَى الأثر، وأنْتدب في المهِّمات فكان مَنَاب التَّوَاءِ مُسْفِر السَّفَر، المعروف في تصرُّفاته بانتهاز النَّجْح وقصر البجح، والمعول على أن تصفه أفعاله بشرح لصدْر الاختيار به شرح، المعدود يوم الرُّوع من كُفَاة الخُطْب وحماء السَّرْح، الماضي الخد إذا كان السيف لعدم الضارب مشتبه الخد بالصَّفْح، وقدم فعل الاستقلال، وأخر سؤال الاستغلال، وأسكنه من الخالصة إلى دار ببلوغ الآمال محلال، وأرتفعت كاهل المجد بسعى لمخطورها به استئجال؛ وسهلت إلى الطاعة كلُّ مُعتاص من المطالب، وغدا الاستحقاق بمُرادك نعم الكفيل وبأملك نعم الطالب، وأشهرت بحلالٍ أقتضت الرِّغبة فيما أقتضته إليك من الرغائب، وعظم النفع بك حتى لا نفع مع غيبتك بحاضر ولا ضرر مع حضورك بغائب. ومثل بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووليّه وأمينه السيد الأجل، الذي سارت أوصافه مسير الشمس وأنارت إنارتها، وسقت مكارمه سقى الغيوث وأمارت إمارتها؛ وسرت خيوله مسرى طيف الخيال وإن كره الأعداء زيارتها، وقامت مهابته مقامها في البلاد وأغارت على القلوب إغارتها، ونازع الأقمار بعلو القدر دارها وما حسبوا الدُّست له دارتها، وأشارت له السعادة العلوية وأمضى التلطف إشارتها وأحسن به شارتها؛ وطالع بما أنت عليه من طاعة تبذل فيها الطّاقة، وكفاية إذا تعاطاها الوصف المتسع ضيق عنها النطق نطقه؛ وعدك في سرعان الأولياء إذا رتب سواك في الساقه، وأحتسب بما لك من حسنات نظمها نظم السِّياقه. وبما قوره لك من الخِدمة إلى ولاية كذا - خرج أمر أمير المؤمنين بأن يُوعز إلى ديوان الانشاء بكتب هذا السجل لك بالخِدمة المذكورة، سكونا إلى

مُناصحتك التي سكنت ضميرك، وركونا إلى مواليتك التي حققت أملك وتقديرك، وإيراداً لك إلى الموارد التي توجب تقديمك وتصديرك .

فتقلد ما قلده منها بادئاً بتقوى الله التي إن جعلتها جنتك كانت جنتك ، وإن استشعرتها عمدتك أنجزت في الدارين من السعادتين عدتك ؛ قال الله تعالى في كتابه المكنون : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمِغْفَارِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ . وأبدأ في هذا الثغر الجليل قدره ، المصائب لما به محل السعد ومقره ، الميسر به لكل عامل ثوابه وأجره ، المحضوض على رباطه لمن توفر حظّه من ذخائر الآخرة فأحسن دُخره بعدل القضايا ، وصون الرعايا ؛ وبثّ السرايا ، وترويع العدو من جميع المطالع والنبايا ، وإهداء المنايا إليه في الغدوات والعشايا ، والتطلع على ما يجنّه من المكاييد والخفايا ، وكفاية أوساط الصّفاح مصافحة أطراف الرّماح تحايا ، ولا تخليه أن يُجهّز في كل يوم إليه رايةً أو تتقدّ فيه راية ، وأن تسترزق الله أمواله مغنم وحريمه سبأيا ، وتطلع عليهم في عُقر دارهم طوالع المنايا وقوارع الرّزايا ؛ حتى لا تلوح فُرجةٌ إلا اقتحمتها ، ولا تعن فُرصةٌ إلا اغتنمتها ، وأمدد على من بهذا الثغر جناح الرّعاية والذّب ، ومهد لهم جانب العدل ليتبوءوا فيه آمني السّرّ والسّرّب ؛ وضمنهم صيانةً ترفع عنهم عوادي المضار ، وتوطد لهم أكثاف السكون والاستقرار ؛ وأعتمد من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما يطلق فيك ألسنة المادحين ، وينظّمك في سلك من نحاه الله بقوله : ﴿ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصّٰلِحِينَ ﴾ .

وأقيم الحد على من وجب عليه إقامة لا تتعدى فيها الواجب ، ولا تفارق بها منتهج الحق اللاجب ، وتوَّخ متولَّى الحكم بإعزاز ينقذ حكمه ، وإكرام يشد في الحق عزمه ، ويردع الظالم ويمنع ظلمه ؛ وكذلك المستخدم في الدعوة الهاديَّة عامله بما يشد أزره ، ويشرح في دعاء المستجيبين صدره ؛ وبالغ في عضد المستخدمين مبالغه تدبر بها الأموال ، وتوجد بها السبيل إلى توفير عطيات الرجال ، وتوسع عليهم فيها المجال ؛ وأمنع من يتعرض لكسب الضرائب ، والإخلال بإلزام الواجب ؛ وشورر الاقلاب ، وقصد سرح المال بالتبأب ؛ وأقم للسور شطرا من آهتكم تعمُر أبراجه وأبدانه ، وتستخدم حراسه وأعوانه ؛ وترتب عليه الوقود في الليالي المظلمه ، وتعيجز [عن] مناله المطامع الميسورة والأيدى المتسنمه ؛ وواصل من عمائره مايتلافى الخلل قبل أنفراجة ، ويعيد مبدأ الغارة على أدراجة ؛ فالقليل بالغفلة يستدعي كثرة الأهتمام ، وربما لم تُصب فيه المرمى ولم ينجع المرام .

ومراكب الأسطول المنصورة فوَّها من ترتضى نهوضه ، ومن يقوم بشرائط الجهاد المفروضه ؛ وإذا آنس فرصة لم يعترضها التفويت ، وإذا نزل به القرن ناداه بعزم المستميت ، وإذا عمرا المجتمع عرض جمعه للتشتيت ؛ وأحط على حواصل هذه المراكب فيها قوة الإسلام على عدوه ، ومدد استظهاره وعلوه ؛ وأقم من الرؤساء من له حيلة في الأسفار ، وخبرة بمكايد الغارات والحصار ، ومثابرة يقتدر بها على فتح أبواب المنافع وسد أبواب المضار ؛ ولك من البصيرة الجامعه ، والألمعية اللامعه ، ما أنت به جدير أن تكون لك الذكرى نافعته ؛ فاعلم هذا وأعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .

النوع الثاني

(مما كان يكتب في الدولة الفاطمية بالديار المصرية

ما كان يكتب عن الوزير)

وقد علمت في الكلام على "المسالك والممالك" أن الوزير إذ ذاك كان في منزلة
 (١) السلطان الآن، وكان الشأن فيما يكتب فيه أن يفتح بما يفتح به المذهب الثالث
 مما كان يكتب عن الخليفة . وهو أن يفتح ما يكتب بلفظ : « إنَّ أُولَى »
 أو « إنَّ أَحَقَّ » أو « إنَّ أَجْدَرَ » أو « إنَّ أَقْمَنَ » أو « من حَسُنَتْ طَرِيقَتُهُ »
 أو « مَنْ كَانَ مَتَّصِفًا بِكَذَا كَانَ خَلِيفًا بِكَذَا » و « بَلَّمَ كَانَ فُلَانٌ » أو « لَمَّا كُنْتُ »
 على نحو ما تقدم .

ثم ما يكتب عن الوزير : تارة يكتب بأمر الخليفة ، وتارة يصدر عن الوزير
 استقلاً ، فيبينه الكاتب في كتابته . وهي : إما لصاحب سيف ، أو قلم .
 فن المکتب عن الوزير في الدولة الفاطمية لأصحاب السيف نسخة سجل
 بولاية الاسكندرية من إنشاء القاضي الفاضل رحمه الله ، وهي :

مَنْ عُدَّ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ الْأَمَانِلِ ، وَوُجِدَ عِنْدَ الْإِتْقَادِ قَلِيلَ الْأَمَانِلِ ؛ وَتَوَسَّلَ بِالْحَسَنَاتِ
 الَّتِي يُقْبَلُ عِنْدَهُ مِنْهَا تَشْفِيعَ الْوَسَائِلِ ، وَتُقْبَلُ السَّفَارَةُ لَهُ الشَّامِلَةُ الْإِسْتِحْقَاقِ الَّذِي
 يُغْنِي عَنِ الْمَسَائِلِ ؛ وَلَطْفَ فِكْرِهِ لِإِقْتِنَاءِ الشِّمِّ الْمَوْجِبَةِ لِارْتِقَاءِ الدَّرَجَاتِ الْجَلَائِلِ ،
 وَأَلَقَتِ الرَّتَبَ قِنَاعَهَا لَهُ عِنْدَ الْكُفِّ الَّذِي يُقَدِّمُ لَهَا أَفْضَلَ مُهُورِ الْجَلَائِلِ ،
 وَأَسْفَرَتْ مَوَاقِفُ الْغَنَاءِ مِنْهُ عَنِ الْمَزَبْرِ الشَّهْمِ وَاللُّوْذَعِيِّ الْحَلَّاحِ ، وَأَفْرَجَ لَهُ الْكُفَّاءَ

(١) لعل الصواب « المذهب الرابع » .

عن صدور المنازل الرفيعة فلم يكن بينه وبينها حائل ، وأستقلَّ بعظيم ما يقوِّض إليه فلم تحمل الأقدام ما هو حامل ، وأتسع مجال كفايته في كلِّ أمرٍ يضيق بالمباشر ضيق كفة الحابل ، وتتبع آثار الخليل بعزماته تتبع الغيث آثار الديار الموائل - كانت الولايات الجليات له من المعدِّ المدَّخر ، وقربت عليه منازل الآثار التي يُجمل بها ويفتخر .

ولما كان الأمير جامعاً لما أفيض فيه من هذه الصفة ، وموصوفاً بها من كلِّ لسانٍ صادقٍ ونيةٍ منصفه ، جاريةً على غيره مجرى النكرة ومستندةً إليه أستناد المعرفة ، مشتملاً على خلال كغرائب المكارم مستويةً متألِّبه ، كليفاً بالشيم الحميدة إذا أفصحت بها الشيم المتكلفه ، فمننا أن يوقَّ فيقرض سعيه إذا أقرضت المساعي المتسلفه ، نهاضاً بالمصاعب عند ما تختلف في إعطائها العزائم المتخلفه ، آوياً من رجاوته إلى المعقل الحريز والحصن الحصين ، حاوياً لفضائل حسنة منها الفتك الجري والرأي الرصين ، مقدماً على الأحوال إذا تغلقت وجوهاً غيرها ، مُصرّاً على الخطرات حتى يظنه العمر عُمرًا ، مصاحفاً للرماح ، إذا بدت أنامل الأسنه ، مباشراً للصفاح ، إذا دُعرت لها النفس المطمئنه ، جديراً أن يردَّ الخيل المغيرة تدمي نحرها ، وتمدحك وتدمها الجراح التي أشتملت عليها ظهورها ، وسمّاً للأعداء سيوفك فعندك عُمودها وفيهم صدورها - رأينا بما آتاه الله من رأى لا يستأخر أن يستخير ، ونظيرٍ يستمر أن يمتاح من موارد الرِّشاد ويستنير ، ما خرج به أمرنا من ولايتك لثغر الإسكندرية بعد أن طالعتنا مولانا صلوات الله عليه بما رأينا ، وأسترشدنا بيمان إمضائه ما أمضينا ، وفأوضناه فيما فوضناه إليك وأفضينا ، وقضينا حق الخدمة فيما استمطرنا من صوب وأقتضينا ، إذ كان الله قد خصَّ خلاله بمواتاة الأقدار ، ووقف الميامن على ما يمضيه ويوقفه من أعنة الإيراد والإصدار ، وجعل الخيرة فيما

يختار، والحق دأراً حيث دار، وأخلص للأولياء المستشعرين بولائه بخالصة ذكركم
الدار، وجعل رأيه قطبا في سماء الخلافة عليه في مصالح خلق الله المدار؛
فصح ما عرضناه على مقام خلافته وصوبه، وناجته بديهة الإلهام بما أعتته
عما صعّد فيه المستشير وصوبه؛ وخرج الينا بأن يمضى لك هذا الأمر، ويفوض
إليك هذا النغر .

فإنقابل هذه النعمة بشكرٍ يوجب استيفاء باقيها، وأعدادٍ يمهّد درجاتٍ
مراقبها؛ متنجزا وعد الله لمستوفيه بإيلاء المزيد، الجدير بحالته من حالة التقليد إلى
حالة التخليد؛ جاعلا تقوى الله حجتة فيما يقطعُه ويصله، وعمدته فيما يمنعه ويبدله .
قال الله سبحانه في كتابه الذى فضله على كل كتاب : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى
وَأَتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ . ولا تجعل في حُكْمك بين الخُصماء فرقا وإن عدل
أحدهما ؛ وليكن على الحق الذى لا مفاضلة فيه مقعدهما عندك وموردُهما ؛
وأنتصف للظلم من الظالم ، وأعمل في ذلك عمل من لا تأخذه في الله لومة لأيم ؛
وأقيم الحدود متحرّيا ، وأمضها إمضاء من لا يزال بعين طاعة الله متحلّيا ؛ ونفّذها
غير مكثّر ولا مقلّ ، فإن المكثّر متعدّد والمقلّ محلّ .

وقد علمت ما للقاضي من التّقدمة الشهيرة ، والرّتبة الأثيرة ؛ والمساعي التى هى
بالسنة الحمد مأثوره ، والأقوال التى هى فى صحائف حُسن الذكر مسطوره ؛ والحُرّمات
التى شهدت بها الأيام والليالى ، والمواتّ التى أنتظمت فى سلوك التصرفات أنتظام
الآلى ؛ والصّفات التى زهت بها أجياد المحامد الحوالى ؛ وله الخبرة بقوانين هذا
النغر وأحكامه ، والعادة التى لا خلاف أنها لمصالح ما يباشره وإحكامه ، وأنت
مقدّم أرباب السيوف فى النّغر وهو مقدّم أرباب أقلامه ؛ فأعرّف له منزلة

فِي الْحَدَمِ الْمَنُوطَةِ بِكَفَالَتِهِ ، وَالْأُمُورِ الْمَحُوطَةِ بِإِيَالَتِهِ ؛ وَوَقَّهَ مِنْ أَثَرِ الْإِجَارِ حَقَّهُ ،
وَيَسِّرْ فِيمَا آسْتَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مَعُونَتِكَ طُرُقَهُ ؛ وَأَعِنِ الدَّاعِيَ عَلَى مَا هُوَ بِسَبِيلِهِ مِنَ الْإِرْشَادِ ،
وَقُمْ فِي إِعْلَاءِ مَنَارِهِ قِيَامَ الْمَغْرَمِ الشَّادِ .

وَالْأَمْوَالُ أَوْلَى مَا صَرَفْتَ إِلَيْهَا هَمَّكَ ، وَوَقَّعْتَ عَلَيْهَا عَزَمَكَ ؛ فَاسْتَنْهْضِ
الْمُسْتَعْدِمِينَ فِيهَا يُسْتَادِي ، وَلَا تَمَكَّنْهُمْ أَنْ يُحْدِثُوا رِشْمًا وَلَا يُسِقِّطُوا مُعْتَادًا ؛ وَلَا بَدَّ
مِنَ الْمَقَامِ بظَاهِرِ الْبَحْرِ مَدَّةَ أَنْفِتَاحِهِ ، وَتَفَقَّدَ الْأَسْطُولَ الْمُقِيمَ بِالْمِينَاءِ تَفَقُّدًا يَسْتَوْعِبُ
أَسْبَابَ إِصْلَاحِهِ ؛ وَأَذْكَ الْعُيُونِ عَلَى سِوَا حِلِّهِ فَلَمْ يَجُلْ أَمْرَ الْعَدُوِّ مِنْ طَارِقِ لَيْلٍ
وَخَاطِفِ نَهَارٍ ، وَذُدَّهُمْ عَنِ بَغَاتِ هُجُومِهِمْ بِمَا يَبْلُغُهُمْ عَنْكَ مِنْ دَوَامِ التِّيَقُّظِ
وَالْإِسْتِظْهَارِ ؛ وَاسْتَنْهْضِ الرِّجَالَ فِي نَوَائِبِ الْحَدَمِ وَحَوَادِثِهَا ، وَصَرِّفْهُمْ عَلَى مَوْجِبَاتِ
الْمُتَجَدِّدَاتِ وَبِوَاعِثِهَا .

وَهَذَا الشَّرْفُ فِيهِ مِنْ أَرْبَابِ الزُّوَايَا الْعَاكِفِينَ عَلَى الْعِبَادَاتِ ، وَالْعَالِمِيَّةِ الدَّاعِينَ
النَّاسَ إِلَى الْإِفَادَاتِ ، مِنْ لَا يُدْنَحِرُ الْإِكْرَامَ إِلَّا لِأَنْ يُؤَدِّيَ إِلَى آسْتِحْقَاقِهِمْ ، وَلَا يُضَانُ
الْمَالُ إِلَّا لِأَنْ يُبَدِّلَ لَاسْتِحْقَاقِهِمْ ؛ فَأَوْصِلْ إِلَيْهِمْ مَا هُوَ مُقَرَّرٌ لَهُمْ لِإِصْلَاحِ هِنِيئِهِمْ ،
وَأَعْفِهِمْ مِنْ مَسْئُونَةِ الْهَزِّ وَسَاقِطِ عَلَيْهِمْ رُطْبًا جَنِيئًا ؛ وَاسْتَنْهْضِ لَنَا دَعْوَاتِهِمْ فَإِنَّهَا أَسْمُهُمْ
الْأَسْبَحَارُ ، وَاسْتَخْلَصْ لَنَا نِيَّاتِهِمْ فَهَمَّ لَنَا جُنْدُ اللَّيْلِ وَغَيْرُهُمْ لَنَا جُنْدُ النَّهَارِ ؛ وَالسَّلَامُ .



وَمِنْ ذَلِكَ نَسْخَةٌ سَجِلٌّ بِحِمَايَةِ الرَّبَّاعِ ، وَهِيَ :

مَنْ كَانَ فِيهَا يَتَوَلَّاهُ مَشْكُورَ السَّعْيِ مَجْمُودَ الْأَثْرِ ؛ مُسْتَعْمِلًا مِنَ النَّصِيحِ وَبَدِّلَ الْجُهْدِ
مَا يَزِيدُ الْخُبْرَ فِيهِ عَلَى طَيْبِ الْخُبْرِ ؛ مُعْتَمِدًا مَا يَدُلُّ عَلَى دَرَايَةِ وَخُبْرَةٍ وَدُرْبَةٍ ، مُتَوَخِّيًا

(١) لعله لاستيحايمهم .

ما يجعل الحدم إذا ما ردت إليه لم تحل في دار غربه - أستحق أن يورى زنده،
ويُرهف حده، وتقوى منته، وتُسحذ قريحته .

ولما كنت أيها الأمير ممن عُرف نفاذه وأُنحِت خِلاله ، وشُكِر طرائقه
وآرْتُضيت أفعاله ؛ وظهر فيما يبشره غناؤه وأستقلاله ؛ وجمع إلى الكفاية نزاهه ،
وإلى الأمانة نباهه ؛ وإلى اليقظة عفاً وسداداً ، وإلى النهضة حزاماً لا يجد الطالب
عليها مستراداً - تقدم قتي مولانا وسيدنا باستخدامك في حماية الرباع السلطانية بالمعزية
القاهرة المحروسة : سکونا إلى جِدك وتشميرك ، وتعويلاً على تأتیک وتديريك ؛
فاستخِر الله وباشر ما ردت إليك من هذه الحماية بعزم لا يمازجه فتور ، وحزم لا يصاحبه
قصور ؛ وأكشِف أحوال هذه الرباع كشفاً يُعرف به حالها ، ويُعلم منه استقامتها
وآختلاؤها ؛ وأنصب لأستخراج مالها من السكّان ، وأستعمل في أسيديته غاية
الإستطاعة والإمكان .

وملاك الأمر فيها أن نتعهدا بالطواف فيها ، وأن تحافظ على حراسة غيرها ،
وتناول أجرها ؛ ورم مالعه يسترم منها ويتشعث ، والعكوف على ذلك بحيث لا يتوقف
فيه أمر ولا يترتب ؛ وحمل مال ارتفاعها إلى بيت المال المعمور بعد ما يُصرف
في مصالحها ، ويُطلق فيما يثبت به عليها ؛ ولك من الأمير من يُعينك ويُجِدك ،
ويُلبّي دعوتك ويعضدك ؛ ويظا فرك على أنتظام شؤونك ومقصدك : من الأشتمال
بما يزيد على تأمليك ؛ فأجعل عليه اعتمادك ، وبه في الحلل والعقد أسترشادك ؛ فاعلم
هذا وأعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن الوظائف المكتتبة عن الوزير لأرباب الوظائف الدينية نسخة سبيل
بالحكم بقوص ومشاركة أعمال الصعيد، وهي :

من تقدمت لأسلافه خدام ومناصحات، وكانوا مشهورين بأن طرائقهم في السداد
مستقيماً واضحاً، وعُرف جميعهم بالصيانة والديانة، والثقة والأمانة، والمحافظه
على ما يُحفظهم عند ولي نعمتهم، والعمل بما يقضى بطيب ذكركم وحسن سماعهم،
كان ذلك ذريعة له ووسيله، ومائة ينال بها المواهب الجزيله .

ولما كنت أيها القاضي على القضية المرضية من ولاء الدولة وطاعتها، والحرص
على الإخلاص لها ومشايقتها، والتحلّي بالعلم والتميز في أربابه، والتعلق بفعل الخير
والتمسك بأسبابه، والعمل بما ينفعك في عاجلتك وآجلك، والاجتهاد فيما يبعث على
وفور حظك من الإنعام وزيادتك، وكانت لك دربة فيما تُعانيه ودرابه، وصولة
في حُسن التأتى إلى أمد بعيد وغايه، وقد تقدمت لأخيك القاضي الرشيد - رحمه الله -
خدمةً أبانت عن حرصه ومناصحته، وأعربت عن وفور نصيبه من النهى ورجاحته؛
فأدى ذلك إلى بلوغه من رتب أمثاله أقصاها، وإلى أن أستقرت خدمه عليه
وألقت عنده عصاها، وهذه نصيبك إذا أقتفيتا فقد عرفت مفضاها، وإذا
عكفت عليها نالك من الإحسان على حسنها ومقتضاها - تقدم قى مولانا وسيدنا
باستخدامك في النيابة في الحكم بمدينة قوص والمشاركة بأعمال الصعيد الأعلى :
تويهاً بك وتكريماً لك، وتمهيداً لمكان الإصطناع الذى رتبك فيه وأحلّك؛
فاعرف قدر هذه النعمه، وقابلها ببذل الطاقة في النصح في الخدمة، وبالغ
في الشكر الذى يُثبتها عندك ويديمها لك، وأحرص على القيام بحققها حرصاً تبدبه

نظراءك وأمثالك ؛ وأعمل في ذلك بما تضمنته التقليد المكتتب لك من مجلس
القاضي الأعز الماجد أدام الله تمكينه ، وما أودعه من وصايا مُرشده ، وهدايات
إلى الصواب مُقرّبةً وعن الخطأ مُبَعْدَه ؛ وأفعل في أمر المشاركة ما أشتملت
عليه التذكرة المعمولة من الديوان فإنه يُوضِّح لك منهج الصّلاح ، ويأتيك منه
بما يزيد على البغية والاقتراح ؛ وانتصب للعمارة والاستثمار من الزراعة بالمعدلة
على المعاملين ، والاستخراج لحقوق بيت المال على أحسن القوانين ؛ وواصل
من الجُمل ، ما يكون محققاً للظنون فيك والمأمول ؛ فأعلم هذا وأعمل به ،
إن شاء الله عز وجل .



ومن ذلك نسخة يسجل بالنيابة في الحكم والأجاس والحوالى بتغرديمياط ، وهي :
أحق من كانت المواهب عنده مُحلّده ، والمنائح إليه متواصلةً متجدّده ؛
والعوارف تَفدُّ عليه فُتخيم في مَنهاته وتُقيم ، والفواضل تأتي نحوه فتستقر في مَثواه
ولا تريم ؛ والنعم الشتى لا تشكو في مواطنه آستيحاشا ولا اغترابا ، والمِنَّن إذا حُبِ
بها كان نيلُه لها آستحقاقاً منه لها وآستيجابا - من كُرمت أعرافه ومحاتده ، وشُهرت
أوصافه ومحامده ؛ وصنفت في المُخالصة مصادره وموارده ، وكثرت في تقرّيطه
غرائبُ النّناء وشوارده ؛ وشيّد منار أسلافه بالتخلُّق بخلائقهم ، وأبقى الحديث عنهم
باتهاج سبلهم وطرائقهم ؛ وأحسن برهم ، في الاقتفاء لأثرهم والاقتداء بهديهم ،
وإحياء ذكّرمهم ، بالعمل بما كانوا عليه في عودهم وبدّتهم .

ولما كنت أيها القاضي لهذه الخلال جامعا ، وإلى المرآشد مُصغيا سامعا ،
ولبُلوغ ماناله أسلافك بالناصحات راجيا طامعا ؛ ولك فيما يُسند إليك نظر يُدل

على صواب آرائك ؛ وفيما يردُّ إلى توكُّيك كفاية تميِّزك على نظرائك ؛ ولمَّا نُدبت للأحكام الشرعية ، أُنبتَ عن الديانة والألمعية ؛ وحينَ باشرتَ الأعمالَ الديوانيةَ ، نصَّحتَ وأجهدتَ وأخلصتَ النَّيةَ ؛ والذي بيديك يتمسك بك ، ويتعلق بسبيك ؛ لأنك لما استكفيتَه نهضتَ وأحسنتَ ، فلذلك يأبى أن يكلفه غيرك وأن لا يتكفله إلا أنت - تقدّم فتى مولانا وسيدنا بكتب هذا المنشور بتجديد نظرِكَ فيما هو بيدك من النيابة في الحكم العزيز بشغردمياط - حماه الله تعالى - والمشاركة على الأعباس به ، وعلى مستخرج الجوالى فيه ، تقوية لعزْمك ، وإمضاءً لحُكْمك ، وشدًّا لأزْرِك ، وتأكيِّدًا لأمرِك ، وإنفاذًا لقولك ، وبسْطًا ليدك ، وإيضاحًا لميزتِكَ ، وإظهارًا لتكريمتِكَ ، وإبانةً عن حسن النية وإعرا بًا عن جميل الرأى فيك ؛ فاجر على رَسْمك وعادتِكَ ، وأستغني بما أودعته تقاليدك من الوصايا ، وأستمرَّ على نهجك الذى أفضى بك إلى أحد الأفعال وأجمل القضايا ؛ وأرتبط النعمة عندك بتأديك على عادتِكَ ، وتوسَّل بمشكور السعى إلى نمو حظِّك ووُفُور زيادتِكَ ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله عز وجل .



ومن ذلك نسخة سجل بالحكم بالأعمال الغربية ، وهى :

من كان بالعلوم الدينية قنوما ، وفى الأمور الشرعية ممن يشار إليه ويومى ، وظلَّ من يُجاريه من طبقته قليلا إذا لم يكن معدوما ؛ وعلم نفاذه الذى سلم من المناقضة فيه والإختلاف ، وعرف آعماده الواجب من غير ميل عنه ولا أنحراف ؛ وكان لشمل الديانة والأمانة مؤلفا جامعا ، وغدا الوصف بجمل الحلال وحميد الأفعال عنه مسموعا ذائعا ؛ وآثاره فى كل ما يتولاه مُدأحه وحُطْبأؤه ، وسفراؤه فى الرتب

الجليلة نراهته وظلّف نفسه وإباؤه - صارت الأحكام بنظره مرّهوه، وأضحت الخدم الخطيرة تتوقّع بإسنادها إليه أستظهاراً وقوه؛ فهي تشوّف إلى أن يوليها حظاً من محاسنه يَكسبها نضرة وبهاء، وتتصدى من نظره فيها لما يضمن لها إدراكاً للإرادة وبلوغاً إليها وأنتهاء.

ولما كنت أيها القاضي حائزاً لهذه الصفات، محيطاً بما أشتمت عليه من الأدوات؛ سالكاً أعدل طريق في الأمور إذا أشكلت، عاملاً بقضايا الواجب إذا اعتمدت الإقبال عليك وأتكتلت؛ ولك الخدمة السنيه، التي لا تطمح إليها كل أمنيه، والرتب الرفيعة التي لا ينالها إلا من كان عمله موافقاً لصديق النيه؛ وكل ما تباشره يغتبط بك ويأسى على فراقك، وكل ما حوّل على غيرك مباح لك لا يستجيبك له وأستحقاقك؛ فمن العدل أن تكون كفايتك على الأعمال مقسّمه، وأن تكون آثارك في كل ماتعانيه من أمور المملكة علامة لك عليها وسمه؛ وكانت الخدمة في الحكم بالغبية من التصرفات الوافيه المقدار، السامية الأخطار؛ التي لا يسمو كل أمل إليها، ولا يحدث كل أحد نفسه بتوليها؛ وقد أشتهرت خبرتك بالأحكام، وحفظك فيها للنظام؛ وبتك للقصاص المشكّه، ورفعك للنوب المعضله - فرأينا أستخدامك نائباً عن القاضي الأعزّ الماجد في الصلاة والخطابة والقضاء بالأعمال الغريبة المقدم ذكرها: إذ كنت تعدل في أحكامك، ولا تخرج عن قضايا الصواب في نقضك وإبرامك؛ ولا تمحاي في الحق ذا منزله، ولا تنفك معتمداً ما يقضى لك بالميزة المتأكدة والرتبة المتأمله؛ وأمرنا بكتب هذا المسطور شداً لأزرك، وتشييداً لأمرك؛ وإبراءً لزندك وتقويةً لعزمك؛ وضمناه ما تقدم ذكره من وصفك وشكرك، وتقريظك وإجمال ذكرك؛ والشناء على علمك، والإبانه عن قضيتك في قضائك وحكك.

فاعمل بما اشتمل عليه التقليد المكتتب لك من مجلس الحكم العزيز وأنته إلى ما أودع من فصوله ، وكن عاملاً بمضمونه متبعا لدليله ؛ والله يوفقك ويرشدك ، ويعينك ويسدّدك ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله عز وجل .



ومن ذلك نسخة سجل بالحكم والمشاركة بفرع عقلاّن من سواحل الشام ، وهي :

الذى منحنا الله من المفاز الدالّة على محلّنا عنده ، والمآثر التي أوصلنا بها من الشرف إلى أمد لا غاية بعده ؛ والقضايا العادلة التي أبانت عما أجراءه الله لنا من اللطائف ، والسياسة الفاضلة التي تشهد لنا بياض الصحائف ، قد ضاعف حظنا من التأييد فيما نراه وتمضيه ، وضمن لنا الهداية في حق الله تعالى إلى ما يرّضيه ؛ وأجزل قسطنا من التوفيق في اجتناب من تجتبه ، وحبب لنا إسئاء المواهب لمن كان قليل النظير والشبيه ؛ ووقف آهتاما على التنبيه (؟) على كل مشكور المساعي ، وصرف آعتامنا إلى التفقّد للقاصد التي هي على الإصطفاء من أقوى الدواعي ؛ ووفّر آلتفانتنا إلى تأمل الإخلاص الذي صفت موارده ، وصحّت سرائره ، وأحكمت معاقده ، وأحصدت مرائره ؛ وتوكل لصاحبه في بلوغ المطالب البعيدة المطّارح ، وتبتّل لمن وفق له في سُبوغ العوارف المُخصّبة المسارح ؛ وجعلنا لا نفعل عنم بذل في الطاعة مُهجته ، وأظهر بدعوه وانتصابه دليله على الولاء المحض ومجته ؛ وأبان عن تقواه وحسن إيمانه ، وتقرب باستفراغ وسعه إلى الله تعالى وإلى سلطانه ؛ وعمل فيما أوثمن عليه ما استوجب به جزيل الأجر ، وكان له من رأيه في أعداء المِلّة ما يقوم مقام العسكر الجرّ ؛ وعلم أنّ تجارته في المخالصة نافقة مُربحه ، وأن مراميه في المناصحة صائبة مُنجمه ؛ وتيقن أنابحمد الله لأُحبيب أملا ، ولأنضيق أجر من أحسن عملا .

ولما كنت أيها القاضي المكين المرتضى نقية الإمام جلال الملك وعماده
 ذو المعالي صفى أمير المؤمنين، مستولياً على هذه الخلال، التي تكفلت لك بإعلاء
 القدر، ومحتوياً على هذه الخصال، التي رتبتك على نظرائك في الصدر؛ ولك من
 الحرمات سوايق لأيطمع فيها بلحافك، ومن الموات شوافع تجعل جسامم النعم وفقاً
 لأستحقاقك؛ وقد عرفت بالحد والتشمير، وأشتهرت بصادق العزم وصائب
 التدبير؛ وجعلت مؤهلاً لكل أمر خطير ومهم كبير، واستقرت أنك إذا استكفيت
 جسيماً فقد وكلت منك إلى الأمين الخبير: لأن لك الرياسة التي لا تجارى فيها
 ولا تُبارى، والكفاية التي لا يُختلف فيها ولا يُتمارى، والفضائل التي تشهد بها
 أعداؤك وحسادك اضطراباً، وما زالت أفعالك في كل مانتولاه من الخدم الحليمة
 دالة على كرم طباعك، وأثارك معربة عن سعة ذرعك في الخير وامتداد باعك،
 وأخبارك ناطقة بإثابك عن الباطل وأفتنائك للحق وأتباعك؛ ولما نظرت في القضاء
 تهلل بنظرِكَ وجه الشرع، وأبنت عن اضطلاعك من علمه بالأصل والفرع؛
 وعدلت في أحكامك، ولم تعدل عن الواجب في تقضك وإبرامك؛ وفعلت ما أقر
 عين الله، وأربيت على من تقدمك من القضاة الحلة، وأعتمدت من الإنصاف
 ما بردت به الغلة وأزحت به كل عله؛ ووقيت هذه الخدمة جميع شروطها،
 وفسحت في توليك أمانى المظلومين بعد ضيقها وقنوطها؛ وقتت في ذلك المقام الذى
 يقضى بنبوت النعمة عندك وخلودها، وبالغت في ارتباطها بالشكر لعلك أن شرودها
 بكونودها. فأما الإشراف فإنك أتيت فيه مادلاً على حسن المعرفة، وأستقبلت
 في وجهه كل صفة؛ وأوضح أن كل من باشره لم يبلغ مداك، ولا جرى مجراك؛
 ولا وصل إلى غايتك، بل ما طمع بمداناتك ولا مقاربتك؛ وكل ما عديق بكفايتك فقد
 أتيت بحمد الله فيه على الأغراض، لاجرم أنه مستدع لزيادتك ومطالب ومتقاض؛

فحينَ اجتمعتْ لك هذه الأسبابُ استوجبتَ من إنعامنا ما يتزّه كرمنا عن تعويقه ،
ومن جزيل إحساننا ما يكون تعجيله حقاً من حقوقه ؛ فشرّفناك بتجديد ما هو بيدك
من الحكم العزیز والمشاركة بثغر عسقلان حماه الله تعالى ، وجعلنا النيابة في الحكم عنا
تتويهاً بك ورفعاً لشانك ، وتبييناً لموضعك عندنا ومكين مكانك .

فأعمل بتقوى الله التي أمر بها في كتابه الذي به يهتدى المؤمنون فقال عزّ من
قائل : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ
خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ . وأجر على عادتك فيما حسن أترك ، وأطاب خبرك ؛ معتمدا
على ماتضمنته عهدك ، وأشملت عليه تقاليدك : من المساواة بين القوى والضعيف
في الحق ، وإجراء الشريف والمشروف في المحاكمة مجرى واحدا من غير فرق ؛
والنظر فيمن قبلك من الشعوب ، وحملهم على القانون المألوف المعهود : من إقرار
من ترتضيه ، والمطالعة بحال من تاباه لما توجه طريقته وتقضيه ؛ والمحافظة
على أن لا يتعلّق بشيء من أمور الحكم إلا من أحمده فعله ، وحصل له من التركية
ما يزشكي به مثله ؛ إلى غير ذلك مما أودع فيها ، وأحاطت بها الوصايا التي لم يزل
يستوعبها ويستوفيها .

وأستقيم على سبيلك في ضبط المال وحفظه وصونه ، وأستعين على بلوغ المراد
في ذلك بتأييد الله وتوفيقه وعونه ؛ وتماد على سنتك في النظر في أحوال الثغر
المحروس والإتصاف لمصلحه ، والتوفر على منافعه ، والاجتهاد في الجهاد بأرائك ،
والاستمرار في ذلك على سيد أئمتك ، والله ولي عونك وإرشادك ، والمأن بتبليغك
فيما أنت فيه أقصى مرادك ؛ فاعلم هذا وأعمل به ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة سجل بتدريس ، وهي :

أمير المؤمنين لما منحه الله من الخصاص التي جعلته لدينه حافظا ، ولصالح أمور المسلمين ملاحظا ؛ ولما عاد بسُمول المنافع لهم مواترا ، وبما أحظاهم عنده تبارك وتعالى معينا وعليه مثابرا ؛ لا يزال يؤليهم إحسانا وفضلا ومنا ، ويُسبغ عليهم إنعاما لم يزل تسم (؟) همهم إلى أن نتمنى ؛ وقد يسر الله تعالى لخلافته ودولته ، ووهب لإمامته ومملكته ؛ من السيد الأجل الأفضل ، أكرم ولي ضاعف تقواه وإيمانه ، وأكمل صفى وقف أهتامه واعتزاه على ما يرضيه سبحانه ؛ وأعدل وزير لم يرص في تدبير الكافة بدون الرتبة العليا ، وأفضل ظهير آتبعي فيما آتاه الله الدار الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا ؛ فهو يظافر أمير المؤمنين على ما عم صلاحه عموم الهواء ، ويفاوض حضرته فيما يستخلص الضائر بما يرفع فيه من صالح الدعاء .

ولما انتهى إلى أمير المؤمنين ميزة نعر الإسكندرية - حماه الله تعالى - على غيره من الثغور ، فإنه خليق بعناية تامة لاتزال تُنجد عنده وتغور: لأنه من أوقى الحصون والمعقل ، والحديث عن فضله وخطير محله لاتهمة فيه للراوى والناقل ؛ وهو يشتمل على القراء والفقهاء ، والمرابطين والصالحاء ؛ وأن طالبي العلم من أهله ومن الواردين إليه ، والطائرين عليه ، متشتتو السمل ، متفرقو الجمع - أبو أمير المؤمنين أن يكونوا حائرين متلذذين ، ولم يرص لهم أن يبقوا مذبذبين متبذذين ؛ وخرجت أوامره بإنشاء المدرسة الحافظية بهذا الثغر المحروس بشارع المحجة منا عليهم وإنعاما ؛ ومستقرأ لهم ومقاما ؛ ومثوى لجمعهم ووطننا ، ومحلا لكافتهم وسكنا ؛ فجدد السيد الأجل الأفضل أدام الله قدرته الرغبة إلى أمير المؤمنين في أن يكون ما يتصرف إلى مؤونة

كل منهم والقيام بأوده، وإعانتِه على ما هو بسبيله وبصدده: من عين و غلة، مطلقاً من ديوانه، وأستفدَ أمير المؤمنين المثوبةَ في ذلك فأجابه جرحياً على عادة إحسانه؛ وأستقرتْ التقدِّمةُ في هذه المدرسةِ لك أيها الفقيهُ الرشيدُ جمالُ الفقهاء أبوالطاهر: لنفذك وأطلاعك، وقوتك في الفقه وأستضلاعك؛ ولأنك الصدرُ في علوم الشريعة، والحالُ منها في المنزلة الرفيعة؛ والمشتغلُ الذي أجمع له الأصولُ والقروع، ومن إذا أختلِفَ في المسائل والنوازل كان إليه فيها الرجوع؛ هذا مع ما أنت عليه من الورع والتقى، وأن مجاريك لا يكون إلا ناكصاً على عقبه مُحققاً وأمر أمير المؤمنين أن تدرِّس علوم الشريعة للراغبين، وتعلم ما علمك الله إياه لمن يُريد ذلك من المؤثرين والطالبين؛ ونرح أمره بكتب هذا المنشور بذلك شداً لأزرك، وتقويةً لأمرك ورفعاً لذكرك.

فأخلص في طاعة الله سراً وجهراً، فإنه تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . وأعتدُّ توزيع المطلق عليهم، وتقسيمه فيهم على حسب ما يؤدِّي أجتهاذك إليه، ويوقفك نظرك عليه؛ وقرب من آرْتضيتَ طريقته، وأبعد من أنكرتَ قضيتته؛ فقد وكل ذلك إليك، وعدق بك من غير اعتراض فيه عليك؛ فمن قرأه أو قرئ عليه من الأمير المظفر والقاضي المكين - أدام الله تأييدهما - وكافةِ الحماة والمتصرفين، والعُمَّال والمستخدمين؛ فليعتدُّ رعاية المدرسة المذكورة ومن آحتوت عليه من الطلبة وإعزازهم، والأشتمال عليهم، والأهتمام بمصالحهم، والتوخي على منافعهم؛ وليتل هذا المنشور على الكافة بالمسجد الجامع، وليخلد بهذه المدرسة حجةً بما تضمَّنه، إن شاء الله عز وجل .



ومن ذلك سجل بولاية الحسبة من إنشاء القاضي الفاضل ، وهي :

من شُكرت خلائقُه ، وتهدَّت طرائقُه ، وأمنت فيما يتولاه بوائقُه ؛ ونيطت
بِعُرَى الصواب علائقُه ، وفُرِجت بسداده مسالك الإشكال ومضايقُه ؛ وأستحوى
من الأمانة قريناً في التصرفات يرأفقه ولا يفارقه ، ونهض إلى الأستحقاق ولم تَعُقه
دونه عوائقُه ، وأثنى عليه لسان الأختبار وهو صحيح القول صادقُه - استوجب أن
يُحصَّ من كل قول بأجمله ، وأن يُعان على نيل رجائه وبلوغ أمليه ؛ وأن يُقتدح
زند نيتَه ليرى نُور عمله ، ويُيسر إلى النجاح متوعرات طُرُقَه ومشكلات سُبُلَه ؛
وأن يقابل جريانه في الولاية قبَلَه فيظهر عليه أثر الإحسان فيكون الشكر من قبل
الإحسان لا من قبله ؛ ويُورد من موارد النجاح ما يتكفل له بالرى من غلله ، ويُوسم
من ميايم الأصبغان ما يكون حلية أوصاله ويُشفع سداد خِلاله في سدّ خَلَلَه .

ولما كنت أيها الشيخ المشتمل على ما تقدم ذكره ، المستكمل من الوصف
ما يجبُ شكرُه ؛ الآوى إلى حرز من الصيانة حريز ، المستغنى بَعَثائه عن الأستظهار
بعزوة العزيز^(١) ، المستوجب إلى أن يُعد من أهل التمييز لأنه من أهل التمييز ، المستوعب
من الخلال الجميلة ما لا يقتضيه القول الوجيز ؛ المخرج من قضايا الدنايا فما يستبيح
محرمها ولا يستحيز ، المدح في خديم كلها أخلصته خلاص الذهب الإبريز ، وكانت له
مضاراً تشهد له أفعاله [فيها] بالسبق والتبريز ، المتوسل بأمانة عزبها جنابُه عن
الشبهة ووجدانها في الناس عزيز - تقدم فتى مولانا السيد الأجل باستخدامك على

(١) العزوة بالكسر الاعتزاء . أى انه غنى بِنفعه عن الاستظهار بالاعتزاء الى أحد . وفي الأصل بعزوة

الحسبة بمدينة كذا : فباشر أمرها مباشرة من يئذل في التقوى جهداً ، فلا يرى غيرها على ظملي ورداء ؛ ولا يراه الله حيث نهاه ، ولا يأمره أبداً وينهاه إلا نهاه ، ولا يرى ما كسفته إلا وهو عالم أن الله يراه ؛ وأنته فيها إلى ما ينتهي إليه من بدل غاية وسعه ، ومن لا يرتد عن جرركيه من عموم نفعه ؛ ومن يئذل بتهديب طباع الناس على طهارة طبعه ، ومن يستجزل حسن صنيع الله لديه بحسن صنعه ، ومن يستدعي منه بذل فضله بحظر ما أمر بحظره ومنعه . وأسلك فيما تستعمله من أمرها المذهب القصد والمنهج الأقوم ، واجتهد فيها آجتهد معتصم بحبل التقوى المتين وسببها المبرم . وأمنع أن يخلو رجل بامرأة ليست بذات محرم . وأستوضح أحوال المطاعم والمشارب ، وقوم كل من يخرج في شيء منها عن السنن الواجب . وعير المكاييل والموازين فهي آلات معاملات الناس ، واجتهد في سلامتك من الآثام بسلامتها من الإلباس والأدناس ؛ وحدّر أن تجمل دابة ما لا تطيق حملها ، وأدّب من يجرى إلى ذلك يتوئحى فعله ؛ وأوعز بتنظيف الجوامع والمساجد لتتبر بالنظافة مسالكها ، كما تتبر بالإضاءة حوالكها ؛ ففي ذلك إظهار لهجتها وجمالها ، وإيثار لصياتها عن إخالق نصرتها وأبتذالها ؛ ولا تمكن أحداً أن يحضرها إلا لصلاة أو ذكر ، قاطعا لسان الخصام وموقظا لعين الفكر ؛ فأما من يجعلها سوقاً للتجارة ، فقد حصل بهذه الحسارة على الخسارة ؛ فهي ميادين الضمر ، وموازين الرّجح في الظاهر من أعمالهم والمضمر ؛ وما أحق لياليها أن تقوم بها الهجد لا السمر ، وهل أذن الله أن ترفع لغير اسمه أو تُعمر ؛ وأحظر أن يحضر الطرقات ما يمنع السلوك أو يوعره ، وأفعل في هذا الأمر ما يردع العابت ويؤجره . وخذ النصارى واليهود والخالفين بلبس الغيار وشد الزنار ، ففي ذلك إظهار لما في الإسلام من العزة وفي المخالفة من الصغار ؛ وإبانة بالشدة للتأهب للسير إلى النار ، وتفريق بين المؤمنين والكفار ؛ وأدّب من يكمل

مطففاً، أو يزن متحيفاً، أدباً يكون لمعاملته مزيفاً، وله من معاودة على فعله زاجراً
ومخوفاً؛ فاعلم هذا وأعمل به، إن شاء الله تعالى .



ومن المكتتب عن الوزير لأرباب الوظائف الديوانية سجلٌ بمشارفة الجوالى
بالصعيد الأدنى والأشْمونين، وهى :

مَنْ حُسِنَتْ آثارُهُ فيما يتولاه، وأستعمل من الإِجتهاد مايدلُّ على معرفته بقدر
ماتولاه؛ كان آتِماؤه بما يؤكِّد سببه ويُنجح قصده ويسطُّ يده؛ ويُرهِفُ حدّه
فيا يضمن مصالح خدمته، وينظِّم أمرها في سلك إيثاره وبُغيته .

ولما كنت ^(١) لما نُدبت إلى مشارفة الجوالى بالصعيد الأدنى
والأشْمونين قد أبنت عن الخبرة والدراية، والأمانة والكفاية، والانتصاب
للاستخراج والحيايه؛ والاجتهاد فى الوفاء بما كتبت به خطك، والحرص على
ما يُجزل نصيبك من جميل الرأى وقسطك - تقدم فتى مولانا وسيدنا بكتب هذا
المنشور مضمناً شكرك وإحمادك، ومودعا مايلغفك فى الخدمة بغيرك ومرادك؛
وتجديد نظرك وتقوية يدك، وإعزاز جانبك؛ وتوخيك بما يشرح صدرك،
ويشدُّ أزرَكَ، ويرفع موضعك ويُرِّيح علك؛ ويقم هيبتك ويُفسح مجالك،
ويبلغك آمالك .

فاجر على رسمك فى هذه المشارفة وأستمر على عادة دؤوبك، وأجعل التقرب
بالنصيحة غاية مطلوبك؛ وواصل الانتصاب لأستخراج مال هذه الجوالى

(١) بياض بالأصل . ومراده "أيها الأمير" أو نحوه .

وأسْتِنِضاضه وأسْتِيفائه وأسْتِنظافه، وتماد في ذلك على سُنَّتِكَ الحميدة، وطريقَتِكَ السَّديده؛ وتيق بأن ذلك يُسْفِرُكَ عن بلوغ أراجيك، ويضاعف سَهْمَكَ من حسن الرأى فيك؛ فليعتمد الأَميران معاضدة المذْكَور ومؤازرته، وإعانتته ومظافرتَه؛ وإجابة نِدائِهِ، وتلبية دعائِهِ؛ والشَّد منه في استخراج البواقي مع المال الحاضر: ليجد السبيل إلى الوفاء بما شَرَطه على نفسه، وكتب خَطَه به؛ والمبالغة في ذلك مبالغةٌ يعودُ نفعها على الديوان، ويشهد لها ببذل الطاقة والإمكان؛ فليعلم ذلك وليعمل به، إن شاء الله عز وجل.



ومن ذلك سجلٌ باستيفاء الأعمال القبلية، وهو:

من كَرَم أصله ومَحْنده، وحسُن في الولاء ظاهره ومعتقده؛ ولقن المخالصة عن الماضين من أسلافه، ولزِم في المناصحة مَنهجاً لم يعدل عنه إلى خلافه، وتقل في جلائل الخدم بكثرة الثناء عليه والتعديد لأوصافه؛ وكان في كل ما يباشره على قضية تشهد بفضله، وتدل من محاسن الخلال على ما لا يجتمع إلا في مثله؛ على أنه قليل النظراء والأكفاء، كلَّف بالافتداء بمكارم الأفعال والإتياع لها والافتناء - أستوجب أن يُرفع مكانه ومحله، وأستحق أن يجمل من أعباء المهمات ما لا ينهض به [إلا] مثله؛ وصلح أن يجعل لما يراعى أمره سهماً من نظره فيه، وأن يبرز من توليته إياه في ملبس جمال يُسبغُه حسنُ التدبير عليه ويُضفيهِ.

ولما كنت أيها الشريف، تأج الخلافة، عضدُ الملك، صنيعةُ أمير المؤمنين، من جلة آل أبي طالب، والموقورى الحظ من المآثر والمناقب؛ ولك مع تسببك الشريف ميزة بيتك في الدولة العلوية - خلد الله ملكها - وتقدمه، وأستقر أرك

بِحُجوةٍ من السناء لا يضايقه أحدٌ من طبقتك فيها ولا يزحمه ؛ وقد توليت أموراً جليلاً
فكنتَ عليها القوى الأمين ، وأهلتَ لمنازل سنية فأوضحتَ لك الأثر الحسن وأظهرت
منك الجوهر الثمين ؛ ولم تتنقل قط من شيء تتولاه ، إلى غيره مما تستحفظه
وتستكفاه ، إلا كان الأول عليك يتلهف ، والثاني إليك يتطلع ونحوك يتشوف ؛
وما برحتَ ملتصقا من الرتب الخطيرة مخطوباً : لأن الأسباب التي غدت في غيرك
متشعبة متفرقة ، قد أقيت عندك مجتمعة متألقة متسقة ؛ فلك النزاهة السابقة بك
كل من يجاريك ، والوجاهة الرافعة قدرتك على من يناويك ؛ والأمانة التي يشهد لك
بها من لا يجاريك ، والديانة التي حُرِّتَها عن الشريف عضد الدولة أبيك - تقدم فتى
مولانا وسيدنا بالتعويل عليك في تولي ديوان الاستيفاء على الأعمال القبلية وما جمع
إليه ، الذي هو من أجلِّ الدواوين قدراً ، وأنبهها ذكراً ، وأرفعها شاناً ، وأشمخها
مكاناً ؛ ونخرج أمره بكتب هذا التقليد لك ؛ فباشر ذلك متقياً لله تعالى فيه ،
جارياً على مراقبة عادتك التي تُرْتَفِعُ فاعلها وتُحْطِئُ به ؛ فإله تعالى يقول إرشاداً لعباده
وتفهيماً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ .

وتبتل إلى عمارة الأعمال ، وتزجج الأرتفاع وأستخراج الأموال ؛ وأتعمد
مواصلة الحد والتشمير ، وأعكف على الاجتهاد الذي يشهد لك بقلَّة الشبه وعدم
النظير ؛ وأستنظف البواق من كل الجهات والأماكن ، وكُنْ على ضبط ما أستخرج
وصونه أحفظ له من الخزائن ؛ وأنظر في أمر الكُتَّاب نظر من يكشف عن جميع
أسبابهم ، ويعلم أنه المخاطب على خطيئهم وصوابهم ؛ وحُدِّمهم بلازمة الأشغال ،
والمواظبة على التنفيذ وعلى استيفاء الأعمال ؛ ولا تُسَوِّغ لضامن ولا عامل أن
يُضَجَّع في العمارة ، ولا أن يماطل بها من ساعة إلى ساعة فإن فاءت ذلك لا يلحق ،

وفارطه لا يدرك؛ وقد أزيحت علتك بسط يدك وإنفاذ قولك وإمضاء حكك؛
فماد على سنتك وأستمر على رسمك؛ وأعلم هذا وأعمل به، وطالع بما تحتاج إلى
المطالعة بمثله؛ إن شاء الله تعالى .



سجل بمباشرة الأغنام والمطابخ .

لما كانت الأمانة كافلةً بالنويه لأربابها ، والكفاية سافرةً في التمييز لمن يتعلق
بأسبابها ، والخبرة خلة لا يلبق التصرف ولا يحسن إلا بها ؛ وكنت أيها القاضي
مشهور النفاذ والمعرفة ، خليقاً إذا ذكر المرشئون للهمات بأجل صفه ؛ وقد علمت
نباهتك ، وأستقرت نزاهتك ؛ وحسن فيما نتولاه أترك ، وطاب فيما تباشره خبرك .
و حين عُدت بك الخدم فيما يستدعى ويُبتاع من الأغنام برسم المطابخ السعيدة
وما يُنفق ويُطلق منها ، متصرفاً في ذلك بين يدي المخلص السديد صفى الملك
مأمون الدولة أبي الحسن : فرج الحافظي أدام الله تأييده ؛ فشكر سعيك ، وأحمد
قصدك ، ورضى آجتهادك ، وأستوفى أعتادك - تقدمتقى مولانا وسيدنا فلان
بكتب هذا المنشور لك ، مضمناً ما يقضى بشد أزرك ، وشرح صدرك ، وتقوية
مُتتك ، وإرهاق عزمك في خدمتك ؛ وأعتادك بما يؤدي إلى استقامة الأمر
فيما عُدق بك ، ومساعدتك ومعاضدتك ومعونتك في أسبابك ؛ وتبلغك أقصى
طِلابك ، والأميران يعتمدان رعايتك ، والشدد منك وإعانتك ، والمحافظة على مصالح
أمرك والتلبية لدعوتك ، وتوفير حظك من الملاحظة لشؤونك . فلتعلم هذا
ولتعمل به ، إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة منشور بمشارفة المواريث الحشرية ، والفروض الحُكيمة ،

وهي :

منشورٌ تقدم بكتبه قتي مولانا وسيدنا السيد الأجل الأفاضل لك أيها القاضي
الرشيد ، سيد الدولة ، أبو الفتوح محمد بن القاضي السعيد عين الدولة أبي محمد
عبد الله بن أبي عقيل - أدام الله عزك - لما أشتهرت كفايتك آشتهار الشمس ،
وأمنت أمانتكم دخول الشبهة واللبس ، وسلكت مذهب أسلافك في العفاف
والتزاهة وظلف النفس ؛ وظلت آثارك فيما تتولاه شاهدة بديانتك ، وأفعالك فيما
تُستكفاه معربة عن نباهتك ؛ وسيرتك فيما تتكلفه منتهية بك إلى أقصى أمد
الاحتياط مُفضية ، وقد أضحي سبيل تقديمك مُعبداً منذلاً ، وغدوت لما يُناسب
كريم بيتك مرشحا مؤهلاً ؛ وإنما إبقاؤك على ما بيدك لتكمل إصلاحه وتهذيبه ،
وثم تثقيفه وترتيبه ؛ ولذلك كتب هذا المنشور مقصوداً على إقرارك على ما أنت
متوليه من الخدمة في مشارفة المواريث الحشرية ، وتقرير الفروض الحُكيمة .

فاجر على رسمك وعاداتك ، وأستمّر على منهجك في بذل أستطاعتك ؛ وألزم المعهود
منك فإنه مُغني عن الأستراة ، وتماد على ما أتيت فيه على البُغية والإرادة ؛ وأكتف
بما تضمّنته التذكرة الديوانية المعمولة لهذه الخدمة ، وحافظ من الاجتهاد على
ما يجتدّد لك كلّ وقت ملبس نعمه ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، وليُنسخ هذا المنشور
بمحيث يُنسخ مثله ؛ إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة منشور بعمالة، وهي :

عند ما وصفت به من أجهادٍ ومناصحه ، وأمانةٍ ليس فيها مساهلةٌ ولا مسامحة ؛
ومخالصةٍ آسرتت فيها القضية المستقيمة الواضحة ، وكفايةٍ تمسكت منها بالسبب
الوثيق وحصلت على الصفة الراجعة ؛ ومعاملةٍ تحريت فيها نهج من حُبب إليه
الأعمال الصالحة ، وكفايةٍ إذا باشرت الدهمة الكالحة أبدلتها بالعترة الواضحة ، وسُمتةٍ
ما برحت الألسن لذخائر ثنائها مبيحةً ولسرائر أسبابها بأئحة ؛ وإنك إذا أهلت لخدمة
جعلتها لشكرك لسانا ، وليكتاب كفايتك عنوانا ؛ ومن كان بها ملما (؟) إذا رأته
دواءه كان مستعارا بك أحيانا .

فأعتمد في هذه الخدمة ما يحقق بك ظنا ، ويقيم لك وزنا ، ويُسدّ بك رُكنا
ويضاعفُ لديك منّا ، ويُنيك من الإحسان ما نمتي ، ويُسني لك من الزيادة
والحسنى ، ويتوكل في اقتضاء الحظ الجزيل الأسنى ؛ وأسترفع (؟) الحسابات التي
ما يلزم رفعها ، ويُحفظ به شرط الكفاية ووضعها ؛ وأكشِف ولا تُبق ممكنا حتى
تكشِفَه ثم أستنطقه ، وحاصل به أصله ثم تجله ؛ وحاقق الجهاد على ما نرجت به
البرآت ، ورُفعت به الخلمات ؛ ولا تُخلِ وصولا ، من أن تكون بخطك موصولا ؛
وأستخرج حقوق الديوان على ما مضت به مواضى سُننه ، وخذ من كل شيء
في خدمتك بأحسنه ، وأزل نفسك من شعور السنة بأمنع ظل وأحصنه ؛
وأحمل التّجار والسّفار على عوائد العدل وشرائطه ، وقضايا الصوب وحوائطه ؛
وشواهد الديوان وضرائبه ، ولا تتعدّ فيهم مألوف مطالبه ؛ وأنظر في الأملاك

السلطانية نظراً يُصلح معتلها، ويصحح محتاتها؛ ويوفر أجرها، ويُرِجِي غيرها؛
وكذلك الأحياس والأحكار والمواريث : حافظ على حفظ أَسْتغْلَها، وكَفَّ
كَفَّ من يُرى باستباحة أمر الحرمة وأستحلالها؛ وقد وردت لك من الديوان
تذكرة فاهتد بمنظومها، وأقند بمرسومها؛ ولك من الآراء ما يشهد عزمك، وينقذ
حكك؛ ويُسنى موردك، ويعلى يدك؛ ويمثل الرعاية فيك، ويقم على أن تكفى
الديوان بما يكفيك؛ والسلام .

تم الجزء العاشر . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الحادي عشر

وأوله الفصل الثالث

(من الباب الرابع من المقالة الخامسة)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء العاشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الوجه الخامس — فيما يكتب في ألقاب الملوك عن الخلفاء ،
 وهو ناطان ٥
- النمط الأول — ما كان يكتب في قديم الزمن ٥
- » الثاني — ما يكتب به لملوك الزمان ٦
- الوجه السادس — فيما يكتب في متن العهود، وفيه ثلاثة (خمسة)
 مذاهب ٨
- المذهب الأول — أن يفتح العهد بلفظ « هذا » ، وللكتاب فيه طريقتان
 الطريقة الأولى — أن لا يأتي بتحميد في أثناء العهد في خطبة ولا غيرها الخ ٨
- » الثانية — أن يأتي في أثناء العهد بخطبة أو تحميد ٤٦
- المذهب الثاني — أن يفتح العهد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة
 وكنيته ولقب الخلافة « إلى فلان » بأسم السلطان
 وكنيته ولقب السلطنة ٧٥
- » الثالث — أن يفتح العهد بخطبة ٩٨
- » الرابع — « » « بقوله « أما بعد فالحمد لله » أو
 « أما بعد فإن أمير المؤمنين » أو « أما بعد فإن كذا » ١٣٥
- » الخامس — أن يفتح العهد بـ « إن أولى ما كان كذا » ونحوه ... ١٤٥
- الوجه السابع — فيما يكتب في مستند عهد السلطان عن الخليفة،
 وما يكتبه الخليفة في بيت العلامة، وما يكتب
 في نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها ... ١٥٢
- » الثامن — في قطع الورق الذي تكتب فيه عهود الملوك عن
 الخلفاء، والقلم الذي يكتب به ، وكيفية كتابتها ،
 وصورة وضعها في الورق ١٥٣

صفحة

النوع الثالث - من العهود - عهود الملوك لولاية العهد بالملك، وفيه

سبعة أوجه ١٥٨

الوجه الأول - في بيان صحة ذلك ١٥٨

» الثاني - فيما يكتب في الطرة ١٥٩

» الثالث - في الألقاب التي تكتب في أثناء العهد ١٥٩

» الرابع - ما يكتب في المستند ١٦٠

» الخامس - ما يكتب في متن العهد ١٦٠

» السادس - فيما يكتب في مستند عهد ولي العهد بالسلطنة،

وما يكتبه السلطان في بيت العلامة، وما يكتب

في ذيل العهد ١٧٧

» السابع - في قطع ورق هذا العهد، وقلمه الذي يكتب به،

وكيفية كتابته، وصورة وضعه في الورق، ١٧٨

النوع الرابع - من العهود - عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين

بصغار البلدان؛ وفيه أربعة أوجه ١٨١

الوجه الأول - في بيان أصل ذلك وأول حدوثه في هذه المملكة

إلى حين زواله عنها ١٨١

» الثاني - في بيان ما يكتب في العهد، وهو على ضربين ١٨٣

الضرب الأول - ما يكتب في الطرة، وهو تلخيص ما يشتمل عليه

العهد (ولم يذكر الضرب الثاني) ١٨٣

الوجه الثالث - فيما يكتب في المستند عن السلطان في هذا العهد،

وما يكتبه السلطان في بيت العلامة ١٨٨

صفحة

الوجه الرابع - في قطع ورق هذا العهد، وقلمه الذي يكتب به،
وكيفية الكتابة، وصورة وضعها في الورق ١٨٨

الباب الرابع - من المقالة الخامسة في الولايات الصادرة عن الخلفاء
لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام،
وفيه ثلاثة فصول... .. ١٩٢

الفصل الأول - فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسة
أطراف ١٩٢

الطرف الأول - فيما كان يكتب عن الخلفاء الراشدين ١٩٢

» الثاني - » » عن خلفاء بني أمية ١٩٥

» الثالث - » » » بنى العباس ببغداد إلى

حين انقرض الخلافة العباسية من بغداد،

وهو على أربعة أنواع... .. ٢٣٣

النوع الأول - ما كان يكتب لوزراء الخلافة... .. ٢٣٣

» الثاني - مما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان

الخلافة ببغداد - ما كان يكتب لأرباب الوظائف

من أصحاب السيوف، وهو على ضربين ٢٤٢

الضرب الأول - اليهود ٢٤٢

» الثاني - مما يكتب من ديوان الخلافة لأرباب

السيوف - التقاليد... .. ٢٦٢

النوع الثالث - مما كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان

الخلافة ببغداد - ما كان يكتب لأرباب الوظائف

ببغداد من أصحاب الأقلام، وهي على ضربين ٢٦٣

صفحة

٢٦٤ العهود - الضرب الأزل

» الثاني - مما كان يكتب بديوان الخلافة ببغداد لأرباب

٢٩٢ الوظائف من أصحاب الأقلام - التواقيع

النوع الرابع - مما كان يكتب من ديوان الخلافة ببغداد -

٢٩٤ ما كان يكتب لرعماء أهل الذمة

الطرف الرابع - فيما كان يكتب عن مدعى الخلافة ببلاد المغرب

٢٩٩ والأندلس، ولذلك حالتان

الحالة الأولى - ما كان الأمر عليه في الزمن القديم (ولم يذكر

٢٩٩ الحالة الثانية)

الطرف الخامس - فيما كان عليه الأمر في الدولة الفاطمية بالديار

٣٠٨ المصرية، وهو على نوعين

النوع الأول - ما كان يكتب به عن الخليفة نفسه، ولهم فيها

٣٠٨ أربعة مذاهب

المذهب الأول - أن يفتح ما يكتب في الولاية بالتصدير، وهو على

٣٠٩ ثلاث مراتب

المرتبة الأولى - أن يقال بعد التصدير المقدم « أما بعد فالحمد لله »

٣٠٩ وهي على ضربين

الضرب الأول - سجلات أرباب السيوف (ولم يترجم للضرب

٣١٠ الثاني)

المرتبة الثانية - أن يفتح السجل بالتصدير إلى آخر التصليية ثم يؤتى

٣٣١ بالتحميد مرة واحدة

- المرتبة الثالثة — أن يفتح بالتصدير أيضا إلى آخر التصلية ثم يؤتى
 بالبعدية من غير تحميد ٣٦٠
- المذهب الثاني — أن يفتح ما يكتب في الولاية بلفظ «هذا ما عهد
 عبد الله ووليه الخ» ٣٨٤
- « الثالث — أن يفتح ما يكتب في الولايات بخطبة مبتدأة
 بـ«الحمد لله» ٣٨٩
- « الرابع — مرتبة الأصاغر من أرباب السيوف والأفلام ... ٤٣٩
- النوع الثاني — ما كان يكتب عن الوزير ٤٤٦

(تم فهرس الجزء العاشر من كتاب صبح الأعشى)

صنعة الأندلس

الجزء الحادي عشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

نالت

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الحادي عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

س ١٣٣٥ هـ
م ١٩١٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثاني^(١)

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يُكْتَبُ مِنَ الْوِلَايَاتِ عَنِ الْمُلُوكِ ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطَّرْفُ الْأَوَّلُ

(في مصطلح كُتِّبَ الشَّرْقُ)

قد تقدّم في الكلام على ما كان يُكْتَبُ عَنِ الْخُلَفَاءِ أَنَّ الْوِلَايَاتِ فِي الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ بَبْغَدَادَ كَانَتْ تَصُدَّرُ عَنِ الْخُلَفَاءِ دُونَ الْمُلُوكِ الْمُسَاهِمِينَ لَهُمْ فِي الْأَمْرِ ، لَا يُشَارِكُونَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنَ الْوِلَايَاتِ أَصْلًا . وقد تقدّم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الولايات هناك .

والمقصود هنا ما كان يُكْتَبُ عَنِ مُلُوكِ بَنِي جَنْدَرِخَانَ مِنَ الْبَيْتِ الْهُوَلَاكُوهِ فَمَنْ بَعْدَهُمْ . ولم أَقِفْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ مِصْطَلَحِهِمْ فِي ذَلِكَ فَأُورِدَهُ هُنَا .

(١) وقع سهواً في آخر الجزء العاشر أن أول الجزء الحادي عشر "الفصل الثالث" وصوابه "الثاني"

الطرف الثانى

(فى مصطلح كُتَابِ الْغَرْبِ وَالْأَنْدَلُسِ فِيمَا يُكْتَبُ مِنَ الْوَالِيَّاتِ عَنِ الْمُلُوكِ)

وَأَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَعْبَرُونَ عَمَّا يُكْتَبُ فِي جَمِيعِ وِلَايَاتِهِمْ بِالظُّهَائِرِ: جَمْعُ ظُهَيْرٍ ، يَفْتَتِحُونَهُ بِلَفْظِ «هَذَا ظَهِيرٌ» كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى مَا كَانَ يُكْتَبُ عَنِ خُلَفَاءِ الْمَغْرِبِ .
ثُمَّ هِيَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَضْرِبٍ :

الضرب الأول

(مَا يُكْتَبُ لِأَرْبَابِ الْوِظَائِفِ مِنْ أَصْحَابِ السُّيُوفِ)

وهذه نسخة ظُهَيْرٍ بِنِيَابَةِ السُّلْطَنَةِ بِالْحَضْرَةِ مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْخَطِيبِ ، وَهِيَ :

هَذَا ظَهِيرٌ كَرِيمٌ ، مَنَزَلُهُ فِي الظُّهَائِرِ مَنَزَلَةُ الْمُعْتَمِدِ بِهِ مِنَ الظُّهَرَاءِ ، وَمَحَلُّهُ مِنَ الصُّكُوكِ ، الصَّادِرَةِ عَنِ أَعْظَمِ الْمُلُوكِ ، مَحَلُّ أَوْلَى الرِّيَاطِ ، الْخَافِقَةِ الْعَدَبَاتِ ، وَالْآرَاءِ . فَتَحَّ عَلَى الْإِسْلَامِ ، مِنْ بَعْدِ الْإِبْهَامِ ، أَبْوَابَ السَّرَّاءِ ، وَرَاقَ طِرَازًا مُدْهَبًا عَلَى عَاتِقِ الدَّوْلَةِ الْغُرَّاءِ ، وَأَعْمَلَ عَوَامِلَ الْجِهَادِ فِي طَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادِ ، شَارِعَةً لِأَهْلِ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ ، مِنْ بَابِ الْإِعْمَالِ وَالْإِعْرَاءِ .

أَمْرٌ بِهِ فَلَانَ لَصَدْرٍ صُدُورِ أَوْدَانِهِ ، وَحُسَامِهِ الْمَشْهُورِ عَلَى أَعْدَائِهِ ؛ وَوَلِيَّهُ الَّذِي خَبَرَ صِدْقَ وَفَاءِهِ ، وَجَلَّى فِي مِضْمَارِ الْخُلُوصِ لَهُ مُغْبَرًّا فِي وَجُودِ أَكْفَانِهِ . شَيْخُ شَيْوُخِ الْمُجَاهِدِينَ ، وَقَائِدِ كِتَابَةِ الْمَنْصُورَةِ لِنُفُوزِ الْكَافِرِينَ وَالْمُعْتَدِينَ ؛ وَعُدَّتِيهِ الَّتِي يُدَافِعُ بِهَا عَنِ الدِّينِ ، وَسَائِقِي وَرِدِهِ الْمُبَرِّزِ فِي الْمِيَادِينِ ؛ الشَّيْخُ الْأَجَلُّ الْأَعَزُّ الْأَسْنَى ؛ الْأَمِجِدُ ،

(١) فى اللسان وغيره "الظهير العون يستوى فيه الواحد والجمع". وقد جمعه القراء على ظهراء . وفى شرح الأشتونى عن بعض النحويين أنه يشترط فى جمع فعيل على فاعل أن يكون علما لمؤنث . تأمل .

الأُسْعِدِ ، الأَصْعَدِ ، الأَعْنَى ، الأَحْمَى ، الأَحَبِ ، الأَوْصَلِ ، الأَفْضَلِ ، المَجَاهِدِ ، الأَفْضَى ، الأَرْضَى ، الأَمْضَى ، الشَّهِيدِ ، المَقْدَسِ ، المَرْحُومِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بَدْرِ الدِّينِ ، أبنِ شَيْخِ الشُّيُوخِ وَعَلَمِ الأَعْلَامِ ، المَدَافِعِ عَنِ حَوْزَةِ الإِسْلَامِ ، البَعِيدِ الغَارَةِ فِي نُحُومِ عِبَادَةِ الأَصْنَامِ ، الشَّيْخِ الكَبِيرِ ، الجَلِيلِ الخَطِيرِ ، الرَفِيعِ ، الصَّدرِ ، المَعْظَمِ ، المَوْقِرِ ، صَاحِبِ الجِهَادِ الأَرْضَى ، وَالْعَزْمِ الأَمْضَى ، المَقْدَسِ ، المَرْحُومِ أَبِي عِمْرَانَ (موسى) ، أبنِ أَبِي زَيْدِ رَحُونَ مَحْيُوبِ بَنِ عَبْدِ الحَقِّ بَنِ مَحْيُوبِ ، وَصَلَّ اللهُ سَعْدَهُ ، وَحَرَسَ مَجْدَهُ ، وَبَلَغَهُ مِنْ مَظَاهِرَةِ دَوْلَتِهِ وَمُؤَاوَزَةِ خِلاَفَتِهِ قَصدَهُ . رَفَعَ قِبْصَةَ العَنَايَةِ وَالإِخْتِيَارِ عَلَى عِمَادِ ، وَأَشَادَ بِدَعْوَةِ التَّعْظِيمِ [مُسْمِعًا ^(١)] كُلَّ حَىٍّ وَجَمَادٍ ، وَقَابَلَ السَّعَى الكَرِيمَ بِإِحْمَادِ ، وَأُورِدَ مِنَ البِرِّ غَيْرِ ثِمَادِ ، وَاسْتَنْظَهَرَ بِالوَفَاءِ الَّذِي لَمْ تَسْتَتِرْ نَارُهُ بِرَمَادِ ، وَلَا قَصَّرَتْ جِيَادُهُ عَنِ بُلُوغِ آمَادِ ؛ وَقَلَّدَ سَيْفَ الجِهَادِ عَاتِقَ الحَسَبِ اللَّبَابِ ، وَأَعْلَقَ يَدَى الأَسْتِظْهَارِ بِأوثُقِ الأَسْبَابِ ، وَاسْتَعْلَظَ عَلَى الأَعْدَاءِ بِأَحَبِّ الأَحْبَابِ . لَمَّا قَامَتْ لَهُ البَرَاهِينُ الصَّادِقَةُ عَلَى كَرَمِ شَيْمِهِ ، وَرُسُوخَ قَدَمِهِ ، وَجَنَى مِنْهُ عِنْدَ الشَّدَةِ وَالتَّحْيِصِ ثَمَرَةً مَأُولَاهُ مِنْ نِعْمِهِ ، قَابَلَ بِالرَّغَى كِرَامَتَ ذِمَّتِهِ ، وَعَظَائِمَ خِدْمَتِهِ ؛ وَشَدَّ اليَدَ عَلَى عَهْدِهِ الَّذِي عَرَفَهُ حِينَ أَنْتَكَمَتِ العُقْدُ وَأَخْلَقَ المَعْتَقِدَ ؛ وَاسْتَأْسَدَ النَّقْدَ ، وَتَنَكَّرَ الصَّدِيقَ ، وَفَرَّقَ الفَرِيقَ ، وَسُدَّتْ عَلَى النَّظَرَةِ الطَّرِيقَ ، وَتَمَيَّزَ المَغْرَقَ وَالعَرِيقَ ؛ فَاتَّقَلَ لَهُ مِيزَانَ المَكَاثِفَاتِ ، وَسَجَّلَ لَهُ رَسَمَ المُصَافَاتِ ؛ وَجَعَلَهُ يَمِينَ المُلْكَ الَّذِي بِهِ يُنَاضِلُ ، وَيُقَاطِعُ وَيُوَاصِلُ ؛ وَسَيْفَ الجِهَادِ ، الَّذِي يَجْحَى بِمَضَائِهِ حَوْزَةَ البِلَادِ ، وَمِرَاةَ النُّصْحِ الَّتِي تَنْجَلِي بِهَا وَجُوهَ الرِّشَادِ . فَقَدَّمَهُ - أَعْلَى اللهُ قَدَمَهُ ، وَشَكَرَ

(١) الزيادة عن "ريحانة الكتاب" لابن الخطيب .

(٢) النقد بالتحريك السفلى من الناس ، وضرب من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه يقال هو أذل من

النقد . أنظر اللسان .

نِعْمَهُ ، وَأَسْعَدَهُ فِيمَا يَمْنَهُ ، وَنَشَرَ بِالنَّصْرِ عَلَمَهُ - شَيْخَ الْفِرَازَةِ بِحَضْرَتِهِ الْعَلِيَّةِ ، وَسَائِرِ
بِلَادِهِ النَّصْرِيَّةِ : تَرَجُّعُ الْقِبَائِلِ وَالْأَشْيَاحِ إِلَى نَظَرِهِ فِي السَّكَنَاتِ ، وَتَسْتَدْرَجُ عَلَى يَدِهِ
مِنْ مَقَامِهِ الْكَرِيمِ غَيُومَ الْبَرَكَاتِ ، وَتُقَرَّرُ وَسَائِلُهَا بِوَسَاطَةِ حُضُوتِهِ ، وَتَقْصُرُ خُطَاهَا
أَعْتِرَافًا بِحَقِّهِ الْوَاجِبِ عَنْ خُطُوتِهِ . فَعَلَيْهِ تَدْوِرُ أَفْلاكُ جَمَاعَاتِهِمْ كَمَا اجْتَمَعُوا
وَأُتْلِفُوا ، وَبِحِجَّةِ فَضْلِهِ يَزُولُ إِشْكَالُهُمْ مَهْمَا آخْتَلَفُوا ، وَبِلِسَانِهِ الْمُبِينِ يَقَرَّرُ لَهُمْ
مَا سَلَفُوا ، وَفِي كَنْفِ رَعِيَّتِهِ يَنْشَأُ مِنْ أَعْقَبُوا مِنَ النَّشْأَةِ وَخَلَفُوا ، وَبِإِقْدَامِهِ تَهَضُّ
أَقْدَامُهُمْ مَهْمَا تَوَقَّعُوا . فَهُوَ يَعْسُوبُ كِتَابَهُمُ الْمُتَلَفَّةَ ، وَفِرْزَانُ قِطْعَتِهِمُ الْمُصْطَفَّةَ ،
وَشَهْمُ جَوَارِحِهِمُ الْفَارِهَةَ ، وَعَيْنُ عِيُونِهِمُ النَّابِيَةَ ، وَتَأْوِيلُ أُمُورِهِمُ الْمُتَشَابِهَةَ ، عَنْ
نَظَرِهِ يَرْدُونَ وَيَصْدُرُونَ ، وَبِإِشَارَتِهِ يَرِيشُونَ وَيِيرُونَ وَأَنَارُهُ يَقْتَفُونَ ، وَبِتَلْعَةِ
دِقَارِهِ الْمَرِيئِيِّ فِي خِدْمَةِ مَقَامِهِ النَّصْرِيِّ يَقْفُونَ . فَهُوَ الَّذِي لَا تَأْتَفُ أَشْرَافُ الْقِبَائِلِ
مِنْ أَقْتِنَاءِ آثَارِهِ ، وَلَا تَجْهَلُ رِفْعَةَ مِقْدَارِهِ ، فَلَيْتَهُ الْمَرِيئِيُّ بِالْحَقِّ ، الْمُسْتَوْجِبَةُ لِلتَّفَخْرِ
بِسَابِقَةِ السَّعَادَةِ لِعَبْدِ الْحَقِّ ، وَلِذَاتِهِ قَصَبُ السَّبْقِ ، وَلَوْفَاتِهِ الشُّهْرَةُ فِي الْغَرْبِ
وَالشَّرْقِ .

فَلْيَتَوَلَّ ذَلِكَ - تَوْلَادَ اللَّهِ - مَشْرِحًا بِالْعِزِّ صَدْرَهُ ، مُسْتَمِدًّا مِنْ شَمْسِ سَعَادَتِهِ بِدُرِّهِ ،
مَعْرُوفًا حَقُّهُ مَعْظَمًا قَدْرَهُ ، فَهِيَ خُطَّةُ قَوْمِهِ ، وَفَرِيْسَةُ حَوْمِهِ ، وَطِيَّةُ أَمْسِهِ وَيَوْمِهِ ،
وَكَفُّ خُطْبَتِهِ ، وَهَرْمِي رُبَّتْبِهِ ، وَحَلِي جَمِيدِهِ ، وَمُظْهَرُ تَوْفِيْقِهِ وَتَسْدِيدِهِ . مُطْلَقًا مِنْ
عِيَانِ الثَّنَاءِ ، عَلَى أَهْلِ الْغِنَاءِ ، مَعَامِلًا بِصَادِقِ الْإِطْرَاءِ ، لِدَوَى الْآرَاءِ ، مَتَغَمِّدًا بِالْإِغْضَاءِ ،
هَفْوَاتِ أَهْلِ الْمَضَاءِ ، مَعْرِفًا بِالْقِبَائِلِ ، وَالْعَشَائِرِ وَالْفِصَائِلِ ، كَلِمًا وَفِدْوًا مِنَ الْإِفَاقِ
لِلْإِسْتِحْقَاقِ ، مِنْهَا عَلَى مَطَّانِ الْإِسْتِحْقَاقِ ، مُطَبِّقًا لِلطَّبَاقِ ، مِمَّا لَجِيَادُهَا يَوْمَ السَّبَاقِ ،
حَرِيصًا عَلَى إِمْنَاءِ الْأَعْدَادِ ، مُطَبِّقًا مَقَاصِلَ الشَّرَادِ ، مُحْتَاطًا عَلَى الْأَمْوَالِ الَّتِي تَمْتَرِي

بها أكَفَّ الجباية ضُروعَ العباد، واضعاً مالَ الله حيثُ وضعه ألحق من الورع والأستداد، [لا] سِيماً في هذه البلاد؛ حتى تعظم المزايا والمزاين، وتتوفر الكُتائب والخزائن ويتهيج السامعُ ويُسرُّ المعين؛ ويظهر الفضلُ على من تقدم، وأنَّ الظهراءَ كمَّ غادرت من متردِّم، ويتحسَّر من قَصْر ويتندَّم، وعند الله يَجِدُ كُلَّ ماقدَّم . فهي قِلادةُ الله التي يُضَيِّعُ مَنْ أضعاعها، وَيَرْضَى^(١) عمن أعمل فيها أوامرَه وأطاعها . وهو، - وصلَّ الله سعادته! وحرس مجادته! - أولى من لاحظ ضرائرها، وأستطلع من شأيا التوكل على الله بشأرها : نسباً وحسباً ، وجداً وأباً ، وحداً وشباً ، ونجدةً وصحَّتْ مذهبها .

وعلى الغزاة - وفرَّ الله جموعهم! وأنجد تابعهم ومتبوعهم! - أن يعرفوا قدرَ هذا التعظيم الذي خفقت أعلامه، ووضحت أحكامه؛ والأختصاص الذي لطف محله، والاعتناء الكريم الذي ضفا ظله؛ فيكونوا من إيجاب حقه حيث حدَّ ورسم، وميز ووسم؛ لا يتخلف أحد منهم [في خدمته]^(٢) أيده الله عن إشارته الموقفة، ولا يسدُّ عن رياسته المطلقة؛ بحول الله تعالى وقوته .



وهذه نسخة ظهير بناية السلطنة ببعض الأعمال، وهي :

هذا ظهير كريم، مضمَّنه استجلاءً لأُمور الرعايا وأسئطلاع، ورعاية كرمت منها أجناس وأنواع؛ وعدلٌ بهر منه شعاع، ووصاياً يجب لها إهطاع .

أصدرناه للفقير أبي فلان . لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله رأينا أنه أحقُّ من نُقلده المهِّم الأَكيد، ونزى [به]^(٢) من أغراض البرِّ الغرض البعيد؛ ونستكشف به

(١) في "ريحانة الكتاب" التي لا يضيع من أضعاعها، ويوفى صاعها .

(٢) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

أحوال الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها، ولا يتطرق إليها طارق من إهمالها،
ويُنهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها لإنهاء تكفل بحياطة أبنائها وأموالها .
وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا - حاطها الله - فيجمع الناس في مساجدهم، ويندبهم
من مشاهدتهم . ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم، وإحساب آمالهم،
ومكابدتنا المشقة في مُدارة عدوهم الذي يعلم من أحوالهم ما غاب عنهم - دفعه الله
بقدرته، ووفى نفوسهم وحریمهم من معزته - وبما رأينا من آئيات الأسباب التي
فيك تؤمل، وعجز الحيل التي كانت تُعمل . ويستدعي إنجادهم بالدعاء، وإخلاصهم
فيه إلى رب السماء . ويسأل عن سيرة القواد، وولاة الأحكام بالبلاد : فن نالته
مظلمة فليرفعها إليه، ويقصها عليه : ليلغها إلينا، ويوفدها مقزرة الموجبات علينا .
ويختبر ما أفترض صدقة للجبل، وما فضل عن كريم ذلك العمل : ليعين لبناء
الحصن بجبل قارة يسر الله لهم في إتمامه، وجعل صدقتهم تلك مسك ختامه،
وغيره مما أفترض إعانة للسافرين، وإنجاداً للجهاد الكافرين؛ فيعلم مقدارَه،
ويتولى اختبارَه؛ حتى لا يُعمل منه شيء على ضعيف، ولا يُعدل به لمشروف
عن شريف، ولا تقع فيه مضايقة ذى الجاه، ولا مخادعة غير المراقب لله . ومتى
تحقق أن غنياً قُصر به فيه عن حقه، أو ضعيفاً كُلف منه فوق طوقه، فيجبر الفقير
من الغنى، ويحجى من العدل على السنن السوى - ويعلم الناس أن هذه المعونة
وإن كانت بالنسبة إلى محل ضرورتها يسيره، وأن الله يضاعفها لهم أضعافاً كثيرة؛
ليست مما يلزم، ولا من المعاون التي بتكريرها يُجزم - وينظر في عهود المتوفين
فيصرفها في مصارفها المتعينة، وطرقها الواضحة البيّنة - ويتفقد المساجد تفقدًا يكسو

عاريها ، ويتمم منها المأرب [نتميا] يرضى باريها - ويندبُ الناس إلى تعليم
القرءان لصبيانهم ، فذلك أصل أديانهم . ويحذّرهم المغيب عن كل شيء من
أعشارهم فالزكاة أخت الصلاة وهما من قواعد الإسلام ، وقد آخترنا لهم بأقصى الحد
والإعترام ، ورفعنا عنهم رسم التعريف نظراً إليهم بعين الأهتمام ؛ وقدما الثقات
لهذه الأحكام ، وجعلنا الحرص شرعياً في هذا العام ، وفيما بعده إن شاء الله
من الأعوام .

ومن أهم ما أسندناه إليه ، وعولنا فيه عليه ، البحث بتلك الأحوال عن أهل
البدع والأهواء ، والسائرين من السبيل على غير السواء ؛ ومن ينبز بفساد العقْد ،
وتحريف القصد ؛ والتلبس بالصوفيّة وهو في الباطن من أهل الفساد ، والذاهبين
إلى الإباحة وتأويل المعاد ؛ والمؤلفين بين النساء والرجال ، والمتبّعين لمذاهب
الضلال . فهما عثر على مطوق بالتهمة ، منبذ بشيء من ذلك من هذه الأمة ؛ فليشد
وثاقه شداً ؛ وليشد عليه سبيل الخلاص سداً ؛ ويسترع في شأنه الموجبات ،
ويستوعب الشهادات ، حتى ننظر في حسم دائه ، ونعالج المرص بدوائه ؛

فليتولّ ما ذكرنا نائباً بأحسن المناب ، ويقصد وجه الله راجياً منه جزيل الثواب ،
ويعمل عمل مَنْ لا يخاف في الله لومة لائم ليجد ذلك في مواقف الحساب ؛

وعلى من يقف عليه من القواد والأشياخ والحكام أن يكونوا معه يداً واحدة على
ماقرناه في هذه الفصول : من العمل المقبول والعدل المبذول . ومن قصر عن غاية
من غاياته ، أو خالف مقتضى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصى أمر الله
وأمرنا فلا يلو من إلا نفسه التي غرتّه ، وإلى مضرع النكير جرّته ، والله المستعان .



وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد ، وهى :

هذا ظهير كريم بلغ فيه الاختيار، الذى عضده الاختبار، الى أقصى الغايه؛^(١) وجمع له الوفاق، الذى خدّمه البختُ والاتفاق، والأهليّة التى شهدت بها الآفاق، بين نُجح الرأى ونصر الرايه؛ وأنتجتُ به مقدماتُ الولاء نتيجة هذه الرتبة السامية العلاء والولاية. وأستظهر من المعتمد به، على قصده الكريم فى سبيل الله ومذهبه، بليث من ليوث أوليائه شديد الوطأة على أعدائه والنكايه، وفرع من فروع الملك الأصيل معروف الأبوّة والإبايه؛ لتتضح حجة النصر العزيز والفتح المبين ذى القوة المتين محكمة الآيه، وتدل بداية هذه الدولة الرافعة لمعالم الدين، المؤيدة فى الأقوال والأفعال بمدد الروح الأمين، على شرف النهايه .

أصدر حكمته وأبرز حكمه، وقتر حدّه الماضى ورسمه، عبد الله، الغنى بالله [محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر]^(٢) - عضد الله كتابه وشد عضده، ويسر فى الظهور على أعداء الله قصده - لوليّه المستولى على ميادين خطوته وإيثاره، الفائق بالقدح المعلى من إجلاله وإجباره؛ ظهير استنصاره، وسيف جهاده المعد لصدق ضربته ويوم افتخاره، ويعسوب قبائل الغزاة بأصقاعه الجهادية وأقطاره؛ الأمير أبى عبد الرحمن، ابن الأمير أبى على، ابن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد، ابن أمير المسلمين أبى يوسف يعقوب بن عبدالحق - وصل الله له أسباب سعده، وأنجز للمسلمين بمظاهرة إياه على الكافرين سابق وعده، لمّا وفد على بابه الكريم

(١) فى ريحانة الكتاب « بلغ فيه الاختيار النهايه والاختبار الى » الخ .

(٢) الزيادة "من الريحانة" .

(١) مؤثراً على ما كان بسبيله عن جواره، ملقياً بحملة الجهاد عصاً تسياره، مفضلاً ما عند الله على رُحْبِ أوطانه وأقطاره؛ شيةً من أسرع إلى خير الآخرة ببداره، قبل آكتمال هلاله وإبداره، وعلى أنبغات أمله وترامى هممه وأستقامة مداره - قابل أيدى الله وقادته بالقبول المدوح، والصدر المشروح، والعناية العالية المظاهر والصرُوح؛ وجعل له الشرب المهني في مناهل الصنائع التي صنع الله الملكة والفتوح؛ ولم يدخر عنه تقريباً يقف الأولياء دون مداه، وترفعاً تشهد به محافل الملك وامتداه؛ إلى أن ظفرت بحقيقة الموالاتة الكريمة يدها، ثم أستظهر به على أعداء الله وعدها، فوق النصح لله وأداه، وأضمره وأبداه، وتحلى بالبسالة والحلالة والطهارة، اللاتفة بمنصب الإمارة، في رواجه ومغدها؛ حتى آتفت الأهواء على فضله وعفافه، وكال أوصافه وظهرت عليه تحايل أسلافه. ثم رأى الآن - سدد الله رأيه، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه - أن يوفد ركائب الاعتقاد الجميل على جنابه، ويفسح ميدان الاستظهار بحسن منابه، ويصل أسبابه بأسبابه؛ ويضعف بولائه الصادق أهتامه، ويقيمه في قود عساكره لجهاد البرمقامه؛ فأضفى ملابس وده عليه، وجعله فاتح أبواب الجنة بفضل الله بين يديه؛ وأجراه مجرى عضده الذي تصدق عنه الضريبة في المجال، وسيفه الذي يفرج به مضايق الأهوال؛ ونصبه للقبائل الجهادية قبلة في مناصحة الله ومناصحة مشروعه، ورأيه سعيدة في مظاهرة متبوعه؛ وعقد له الولاية الجهادية التي لا تعدل بولايه، ولا توازن عناية المعتمد بها بعنايه؛ يشهد بصراحة نسبها الدين، وتحلى بجلى غرَّتْها الميادين. فالجهاد في سبيل الله نحلة نبي الأمه، ومن بعده من الأمه؛ لاسمياً في هذا القطر المتأكد فيه ذلك لأولى الدين والهمة.

(١) لعله "مؤثراً له على ما كان يشغله عن جواره"، تأمل.

فليتولَّ ذلك تولى مثله وإن قلَّ وجودُ مثله ، جارياً على سَنِّ مَجْدِهِ وفضله ، سائراً من رضا الله على أَوْصَحِّ سَبِيلِهِ ، معتمداً عليه فى الأمر كُلِّهِ .

وَلْيَعْلَمْ أن الذى يخلق ما يشاء ويختار قد هَيَّأَ له من أمره رَشْداً ، وسَلَكَ به طَرِيقاً سَدِّداً ، واستعمله اليومَ فيما يُحِيطُ به غداً ، وجعل حَظَّهُ الذى عَوَّضَهُ نُوراً وهُدًى ، وأبعد له فى الصالحات مَدًى - ولينظر فيما لديه من القبائل الموقورة ، والجموع المؤيَّدة المنصورة ؛ نظراً يُزِيحُ العِللَ ، ويبلِّغُ الأملَ ، ويرعى الهَمَلَ ، ويُحَسِّنُ القولَ ويُنَجِّحُ العملَ ؛ منبهاً على أهل الغنَاءِ والأستحقاقِ ، مستندراً للعوائد والأرزاقِ ، معرفاً بالغرباء الواردين من الآفاقِ ، مُطَبِّقاً منهم للطباقِ ، متعمِّداً للهَفَواتِ بحسن الأخلاقِ ؛ مستجيذاً للأسلحة والكراعِ ، مبادراً هيئاتِ الصَّرِيحِ بالإسراعِ ؛ مسترعياً للشُّورةِ التى يَقَعُ الحُكْمُ فيها عن حصول الإجماعِ ، رفيقاً بمن صَعُفَ عن طولِ الباعِ ؛ محتاطاً على الإسلامِ فى مواقف الدِّفاعِ ، مُقَدِّماً عند اتِّجَاهِ الأَطَاعِ ؛ صابراً فى المضايقِ على القِرَاعِ ، متقدِّماً للأبطالِ بالأصطناعِ ، مقابلاً نصائحِ أُولَى الخِبرةِ بِحُسْنِ الاستماعِ ، مستعمِلاً فى الحروبِ ما أجازهُ الشرعُ من وُجوهِ الحِذَاعِ ؛ حتَّى يكونَ عملُهُ وَفَقَ شُهْرَتُهُ البعيدةِ المَطَّارِ ، وسيرتُهُ فيما أُسْنِدَ إليه مثلاً فى الأقطارِ ، واستقامةُ التدبيرِ على يديه ذريعةً إلى إرغامِ أنوفِ الكُفَّارِ ؛ بقوةِ الله وحوله ، وعزَّةِ وطولِهِ .

وعلى الغزاة بالحضرة العلية ، وسائر البلاد النَّصْرِيَّةِ ؛ من بنى مَرِيئِ ، وسائر القبائلِ المجاهدينِ ، أن يعرفوا قدرَهُ ، ويمثِّلُوا فى مرضاتنا أمرَهُ ؛ ويكونوا معه رُوحاً ويدا

(١) السدد القصد والاستقامة والسدد أيضا مقصور من السداد . انظر اللسان .

(٢) الهمل اسم جمع هامل لأن فاعلا لا يكسر على فعل ونظيره راح وروح . انظر اللسان .

(٣) الكراع كغراب جماعة الخيل . والهبة الصوت تفرع منه وتخافه من عدو . انظر القاموس .

وجسداً، وساعداً وعضداً؛ فبذلك يشمله من الله ومن مقامنا الرضا والقبول، والعزُّ الموصول؛ ويمضى في عدو الله النصول، ويتأثى على خير الدنيا والآخرة الحُصول، إن شاء الله . ومن وقف عليه، فليعرف مآلديه؛ بحول الله تعالى .



وهذه نسخة ظهير بالتقدمة على الطبقة الأولى من المجاهدين، لولد السلطان،

وهى :

هذا ظهيرٌ كريمٌ، فاتحٌ بنشر الألوية والبُود، وقود العساكر والجنود؛ وأجال في ميدان الوجود، جِيادَ البأس والجُود؛ وأضفى سِتْرَ الحِمَايةِ والوقاية بالتهائم والتُّجود، على الطائفين والعاكفين والرَّكع السُّجود - عقد للعتمده به عقد التشريف والقدر المُنيف زاكِي الشُّهود؛ وأوجب المناقسة بين مجالس السُّروج ومَصَاجِع المهُود، وبشَّر السُّيوف في العُمود، وأنشأ رِيحَ النصر آمنةً من الخُجود - أمضى أحكامه، وأنهد العِزَّ أمامه، وفتح عن زهر السُّرور والحبور أكامه، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج يوسف ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد فرج بن نصر - أيد الله أمره، وخلَّد ذكره - لكبير ولده، وسابق أمده، ورِيحانة خَلده، وياقوتة الملك على يده؛ الأمير الكبير، الطاهر الظاهر، الأعلى، واسطة السلك، وهلال سماء الملك، ومِصباح الظلم الخلك، ومِظنة العناية الإلهية من مدبر الفلك ومُجربى الفلك؛ عُنوان سَعديه، وحُسام نصره وعَضده؛ وسمي جدّه، وسلالة فضله ومجده؛ السعيد، المظفر، المُمام، الأعلى، الأمضى، العالم، العادل، العامل، الأرضي، المجاهد، المؤمل، المعظم، أبي الحجاج يوسف - ألبسه الله من رضاه عنه حللاً لا تُخلق جدتها الأيام، ولا تبلغ كُنْهها الأفهام؛ وبلغه في خدَمه المبالغ التي يُسرُّها الإسلام، وتسبح في بحار صنائعها الأقلام، وحرس

معاليه الباهرة بعينه التي لا تنام ، وكنفه برُكْنه الذى لا يُضام - فهو الفرع الذى جرى بخصمه على أصله ، وأرتسم نصره فى نصره ، واشتغل جده على فضله ، وشهدت ألسن خلاله ، برفعة جلاله ؛ وظهرت دلائل سعادته ، فى بدء كل أمر وإعادته .

ولمّا صرف وجهه إلى ترشيحه لأفتراح هضاب المجد البعيد المدى ، وتوشيح به بالصبر والحلم والبأس والندى ، وأرهف منه سيفاً من سيوف الله لضرب هام العدا ، وأطلعه فى سماء الملك بدر هدى ، لمن راح وغدا ؛ وأخذ بالآداب التى تُقيم من النفوس أودا ، وتُبدّر فى اليوم فتُجنى غدا ، ورقاه فى ربّ المعالى طورا فطورا ، ترقى النبات ورقاً ونورا ؛ ليجده بحول الله يداً باطشة على أعدائه ، ولسانا مجيباً عند ندائه ، وطراراً على حلة عليائه ، وعماماً من غمام آلائه ، وكوكبا وهاجاً بسائه . وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده ، قبل أن ينتقل من مهده ؛ وظلّه بجناح رايته ، وهو على كند دايته ^(١) ، واستركب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتوثيقاً بمجادته ، وأثبت فى غرض الإمارة النصرية سهم سعادته - رأى أن يزيد من عنايته ضروبا واجناسا ، ويتبع أثره ناسا فناسا ؛ قد اختلفوا لسانا ولباسا ، وآتفقوا آبتغاء لمرضاة الله والتماسا ؛ ممن كرم أنماؤه ، وأزيت بالحسب الغرسماؤه ^(٢) ، وعرف غناؤه ، وتأسس على المجادة بناؤه ؛ حتى لا يدع من العناية فناً إلا جلبه إليه ، ولا مقادة فخر إلا جعلها فى يديه ، ولا حلة عن إلا أضفى ملابسها عليه .

وكان جيش الإسلام فى هذه البلاد الأندلسية - آمن الله خلالها ، وسكن زلزالها ، وصدق فى رحمة الله التى وسعت كل شىء آمالها - كلف همته ، ومرعى

(١) الكند بفتح الناء وكسرهما أعلى الكنف والداية الظئر ، أنظر اللسان .

(٢) لعله الاغر وفى ريجانة الكتاب « الخالص » .

أذمته ، وميسدان جواده ، ومتعلق أمد جهاده ، ومِعْرَاج إرادته ، إلى تحصيل
سعادته ، وسبيل خلاله ، إلى بلوغ كماله ، فلم يدع له علة إلا أراحها ، ولا طابئة
إلا أجل قداحها ، ولا عزيمة إلا أورى أفتداحها ، ولا رغبة إلا فسح ساحها ،
أخذاً مروءته بالتهذيب ، ومصافه بالترتيب ، وآماله بالتقريب ، وتأيس المرئيب ،
مستعجزاً له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ، ورفع عنه لهذا العهد نظر من
حكم الأغراض في حماته ، وأستشعر عروق الحسائف لشريف كحاته ، واشتغل
عن حُسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجب جباته ، وتمير ماله وتوفير أقواته ،
ذاهباً أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته ، فأنفجر الضيق ، وخلص إلى حسن نظره
الطريق ، وساغ الرقيق ، ورضى الفريق .

رأى - والله الكفيل بنبج رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه - أن يُحمد
لهم اختياره ، ويُحسن لديهم آثاره ، ويستنب فيما بينه وبين سيوف جهاده ، وأبطال
جلاده ، وحماة أحواره ، وآلات أعتزازه ، من يجرى مجرى نفسه النفيسة في كل
معنى ، ومن يكون له لفظ الولاية وله - أيده الله - المعنى ، فقدمه على الجماعة الأولى
كبرى الكئاب ، ومقاد الحنائب ، وأجمة الأبطال ، ومزنة الودق الهطال ، المشتملة
من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نساء الملوك الكرام ، وأعلام الإسلام ، وسائر
قبائل بني مرين ، أيوث العرين ، وغيرهم من أصناف القبائل ، وأولى الوسائل ،
ليحوط جماعتهم ، ويرفع بتفقدده إضاعتهم ، ويستخلص لله ولأبيه - أيده الله -
طاعتهم ، ويُشرف بإمارته مواكبهم ، ويزين بهلاله الناهض إلى الإبرار ، على فلك
سعادة الأقدار ، كواكبهم ، تقديماً أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل ، وأحس
باقتراب ما أمل ، فله خيل آختيال ومرّاح ، وللأسل السمر أهترار وارتياح ، وللصدور
النشراح ، وللأمل مغدى في فضل الله ومرّاح .

فليتول ذلك - أسعده الله - تولى مثله من أسرة الملك أسرته ، وأسرة النبي صلى الله عليه وسلم أسرته ، والمَلِكُ الكَرِيمُ أصلُ لفرعه ، والنسبُ العربى مَفْخَرٌ لِطَيْبِ طَبْعِهِ ، أَخْذًا أَشْرَافَهُمْ بِتَرْفِيعِ الْمَجَالِسِ بِنَسْبَةِ أَقْدَارِهِمْ ، مَقْرَبًا حُسْنَ الْإِقْدَاءِ بِإِثَارِهِمْ ، شَاكِرًا غَنَاءَهُمْ ، مُسْتَدِيمًا شَاءَهُمْ ، مُسْتَدْرَأًا لِأَرْزَاقِهِمْ ، مُوجِبًا لِلزِّيَةِ بِحَسَبِ اسْتِحْقَاقِهِمْ ، شَافِعًا لَدَيْهِ فِي رَغَبَاتِهِمُ الْمُؤَمَّلَةَ ، وَوَسَائِلِهِمُ الْمُتَحَمَّلَةَ ، مُسَهِّلًا الْإِذْنَ لَوْفُودِهِمُ الْمُتَلَحِّقَةَ ، مُنْفِقًا لِبِضَائِعِهِمُ النَّافِقَةَ ، مُؤَنِّسًا لِعُرْبَائِهِمْ ، مُسْتَجَلِيًا أَحْوَالَ أَهْلِيهِمْ وَأَبَائِهِمْ ، مُمِيزًا بَيْنَ أَغْفَالِهِمْ وَنُبَاهِهِمْ .

وعلى جماعتهم - رعى الله جهادهم ، ووفّر أعدادهم - أن يطيعوه فى طاعة الله وطاعة أبيه ، ويكونوا يداً واحدةً على دِفَاعِ أَعَادِي اللَّهِ وَأَعَادِيهِ ، وَيُشَدُّوا فِي الْمَوَاقِفِ الْكَرْهِيَةِ أَرْزَهُ ، وَيُمْتَلُوا نَهْيَهُ وَأَمْرَهُ ، حَتَّى يَعْظُمَ الْإِنْتِفَاعُ ، وَيُثْمِرَ الدُّفَاعُ ، وَيُنْخَلَصَ الْقَصْدُ لِلَّهِ وَالْمُطَاعُ ، فَلَوْ وَجَدَ - أَيْدِ اللَّهِ - غَايَةَ فِي تَشْرِيفِهِمْ لَبَغَّهَا ، أَوْ مَوْهَبَةً لَسَوَّغَهَا ، لَكِنْ مَا بَعْدَ وَلَدِهِ الْعَزِيزِ عَلَيْهِ مَذْهَبُ ، وَلَا وِرَاءَ مُبَاشَرَتِهِمْ بِنَفْسِهِ مَرْغَبُ ، وَاللَّهُ مُنْجِحُ الْأَعْمَالِ ، وَمُبَلِّغُ الْأَمَالِ ، وَالْكَفِيلُ بِسَعَادَةِ الْمَالِ .

فَمَنْ وَقَفَ عَلَى هَذَا الظَّهِيرِ الْكَرِيمِ فَلْيَعْلَمْ مَقْدَارَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنْ أَمْرِ مُطَاعٍ ، وَنَفْرٍ مُسْتَدِ إِلَى إِجْمَاعٍ ، وَوَجُوبِ اتِّبَاعٍ ، وَلِيَكُنْ خَيْرَ مَرْعَى لِخَيْرِ رَاعٍ ، بِحَوْلِ اللَّهِ .

وَأَقْطَعَهُ - أَيْدِ اللَّهِ - لِيَكُونَ بَعْضُ الْمَدَدِ لِأَزْوَادِ سَفْرِهِ ، وَسِمَاطَ قَفْرِهِ ، فِي جَمَلَةٍ مَا أَوْلَاهُ مِنْ نَعْمَةٍ ، وَسَوَّغَهُ مِنْ مَوَادِّ كَرَمِهِ - جَمِيعَ الْقَرْيَةِ الْمُنْسُوبَةِ إِلَى عَرَبِ عَسَّانَ : وَهِيَ الْحَمَلَةُ الْأَثِيرَةُ ، وَالْمَنْزَلَةُ الشَّهِيرَةُ ، تَنْطَلِقُ عَلَيْهَا أَيْدَى خُدَّامِهِ وَرِجَالِهِ ،

جارية مجرى صالح ماله ، محتررة من كل وظيف لأستغلاله ، إن شاء الله فهو المستعان سبحانه ، وكتب في كذا .



وهذه نسخة ظهير لمشيخة الغزاة بمدينة مالتة ، وهو :

هذا ظهير كريم أطلع الرضا والقبول صباحا ، وأنشأ للعناية في جَوِّ الوجود ، من بعد الرُّكود ، رِيَاحا ، وأوسع العيون قُرَّةً [وإبصارا] ^(١) والصُّدورَ آنشراحا ، وهياً للعتمد به مَعْدَى في السعادة ومَراحا ، وهزَّ منه سيفاً عتيقاً يفوق اختيارا و يروقُ ألتِّحاحا ، وولاه رياسة الجهاد في القطر الذي تقدمت الولاية فيه لسلفه فنال عزاً شهيراً وأزداد نفراً صَراحا ، وكان [له] ^(١) ذلك إلى أبواب السعادة مفتحاً .

أمر به وأمضاه ، وأوجب العمل بحسبه ومقتضاه ، الأميرُ عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين ، والمجاهد في سبيل رب العالمين ؛ أبي الحجاج [يوسف] ^(١) ابن مولانا أمير المسلمين ، أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر - أيد الله أمره وأعز نصره ، وأسعد زمانه وعصره - لوليه في الله الذي كساه مولاة من جميل أعتقاده حُلاً ، وأورده من عذب رضاه منهلًا ، وعرفه عوارف قبوله مفضلاً خطأها ومجلاً ، الشيخ أبي العلا ، إدريس ، ابن الشيخ أبي سعيد عثمان ، بن أبي العلا وصل الله أسباب سعادته ، وحرس علي مجادته ، وأجراه من ترفيع المكانة لديه علي [أحمد] ^(٢) عادة سلفه [وعادته] .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

(٢) في ریحانة الكتاب «أخاف» .

ولمّا كان له القدر الجليل ، والمجد الأثيل ، والذكر الجميل ، والفضائل التي كرم منها الإجمال والتفصيل ، وأحرز قصب السبق بذاته وسلفه إذا ذكر المجد العريض الطويل ، وكان قد عمل الرحلة إليه يحدوه إلى خدمته التأميل ، ويهوى به الحب الذي وضح منه السبيل ، وعاق عنه الواقع الذي تبيّن فيه عُدْرهُ الجميل ، ثم خلاصه الله من ملكة الكفر الخلاص الذي قام به على عنايته الدليل - قابله بالقبول والإقبال ، وفسّح له ميدان الرضا رَحَبَ المجال ، وصرف إليه وجه الاعتداد بمضائه رائق الجمال ، سافراً عن بلوغ الآمال ، وآواه من خدمته إلى ربوة متسعة الأرجاء وارفة الظلال ، وقطع عنه الأطلاع بمقتضى همته البعيدة المنال . ثم رأى - والله يُنحج رأيه ، ويشكر في سبيل الله عن الجهاد سعيه - أن يستظهر بمضائه ، ويرسل عليه عوارف آلائه ، ويعمر به رُتب آبائه . فقدمه - أعلى الله قدمه ، وشكر [الآءه]^(١) ونعمه - شيخ الغزاة والمجاهدين ، وكبير أولى الدفاع عن الدين ، بمدينة (مالقة) حرسها الله أخت حضرة [دار] ملكه ، وثانية الدرّة الثمينة من سلّكه ، ودار سلفه وقرارة مجده ، والأفق الذي تألق منه نور سعده ، راجعاً إليه نظر القواعد الغربية رنّدة وركوان (؟) وما إليه رجوع الاستغلال والاستيراد ، والعزّ الفسيح المجال البعيد الآماد ، يقود جميعها إلى الجهاد ، عاملاً على شاكلة مجده في الإصدار والإيراد ، حتى يظهر على تلك الجهات المباركة آثار الحماية والبسالة ، ويعود لها عهد المجادة والجلاله ، وتترين ملابس الإياله . وهو يعمل في ذلك الأعمال التي تليق بالمجد الكريم ، والحسب الصميم ، حتى ينمو عدد الجُاه ، ويكفّ البأس أكفّ الغزاة ويعظم أثر الأبطال النكاه ، وتظهر ثمرة الاختيار ، ويشمل الأمن جميع الأقطار ، وتحسّم عنه أطلع الكفار .

(١) الزيادة من "الريحانة" .

وعلى من يقف عليه من الفرسان - وفر الله أعدادهم ، وأعزَّ جهادهم - أن يكونوا ممثلين في الجهاد لأمره ، عارفين بقدره ؛ ممضين فيما ذكر لحكمه ، واقفين عند حدّه ورسمه . وعلى من سواهم من الرعايا والخُدّام ، والوَلَاة والحُكّام ، أن يعرفوا قدرَ هذا الاعتناء الواضح الأحكام ، والسير المشريق القسّام ، فيعاملوه بمقتضى الإجلال والإكرام ، والترفيح والإعظام . على هذا يُعتمد ، وبحسبه يعمل ؛ بحول الله وقوته .

الضرب الثاني

(من ظهائر بلاد المغرب ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية
من أصحاب الأقلام)

وهذه نسخةٌ ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة ، وهو :

هذا ظهير كريم أنتج مطلوب الاختيار قياسه ، ودلّ على ما يُرضى الله عز وجل التماسه ، وأطلع نور العناية يجلو الظلام نبراسه ، وأعتمد بمثابة العدل من عُرف بافتراح هضبتها بأسه ، وألقى بيد المعتمد به زمام الاعتقاد الجميل تروق أنواعه وأجناسه ، وشيّد مبنّى العز الرفيع في فنة الحسب المنيع وكيف لا والله بانيه والمجد أساسه .

أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ؛ أمير المسلمين أبو الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر - أيد الله أمره ، وخلد فخره - لقاضى حضرته العلية ، وخطيب حمرائه السنية ؛ المخصوص لديه بترفيح المزية ، المصروف إليه خطاب القضاة بياالته النصريه ؛ قاضى الجماعه ، ومصرف الأحكام الشرعية المطاعه ؛
الشيخ أبي الحسن ابن الشيخ أبي محمد بن الحسن وصل الله سعادتة ،

وَحَرَسَ مَجَادَتَهُ ، وَسَتَّى مِنْ فَضْلِهِ إِرَادَتَهُ . عَصَبَ مِنْهُ جَبِينَ الْمَجْدِ بَتَاجِ الْوِلَايَةِ ، وَأَجَالَ قِدَاحَ الْأَخْتِيَارِ حَتَّى بَلَغَ الْغَايَةَ وَتَجَاوَزَ النِّهَايَةَ ، فَأَلْقَى مِنْهُ بِيَمِينِ عَرَابَةِ الرَّايَةِ ، وَأَحْلَهُ مِنْهُ مَحَلَّ اللَّفْظِ مِنَ الْمَعْنَى وَالْإِعْجَازِ مِنَ الْآيَةِ ، وَحَشَرَ إِلَى مِرَاعَاةِ تَرْفِيعِهِ وَجُوهَ الرِّوَايَاتِ الْعَنِيَّةِ ، وَأَنْطَقَ بِتَجْلِيلِهِ ، أَلْسُنَ أَهْلِ جِيلِهِ ، بَيْنَ الْإِنْصَاحِ وَالنِّكَايَةِ .

ولما كان له الحسب الذى شهدته به ورقات الدواوين ، والأصالة التى قامت عليها صحاح البراهين ، والآباء الذين أعتز بمضاء قضاتهم الدين ، وطبق^(١) مفاصل الحكم بسيوفهم الحق المبين ، وأزدان بمجالسة وزراءهم السلاطين : فمن فارس حكم أوحكيم تدير ، أوقاض فى الأمور الشرعية ووزير ، أوجامع بينهما جمع سلامة لاجمع تكسير ؛ تعدد ذلك وأطرد ، ووجد مشرع المجد عذبا فورد ، وقصرت النظراء عن مداه فأنفرد ، وفروى الفرى فى يد الشرع فأشبهه السيف الفيرند ؛ وجاء فى أعقابهم محييا لما درس ، بما حقق ودرس ، جانيا لما بذر السلف المبارك وأغترس ؛ طاهر النشأة وقورها ، محمود السجية مشكورها ، متحليا بالسكينة ، حالاً من التزاهة بالمكانة المكيهية ؛ ساحباً أذيال الصون ، بعيداً عن الاتصاف بالفساد من لدن الكون ، فخطبته الخطط العلية ، وأغبتت به المجادة الأولية ؛ وأستعملته دولته التى ترتاد أهل الفضائل للرتب ، وتستظهر على المناصب بأبناء التقى والحسب ، والفضل والمجد والأدب ، ممن يجمع بين الطارف والتالد والإرث والمكتسب ؛ فكان معدوداً من عدول قضاتها وصدور نهبائها ، وأعيان وزراءها ، وأولى آرائها .

فلما زان الله خلافته بالتمحيص ، المتجلى عن التخصيص ، وخلص ملكه الأصيل كالذهب الإبريز من بعد التخليص ، كان ممن صحب ركابه الطالب للحق

(١) يقال طبق السيف اذا اصاب المفصل فأبان العضو . انظر اللسان .

بَسَيْفِ الْحَقِّ ، وَسَلَكَ فِي مَظَاهِرَتِهِ أَوْضَحَ الطَّرِيقِ ، وَجَادَلَ مَنْ حَادَّهُ بِأَمْضَى مِنْ
 الْحِدَادِ الدُّنْقِ ، وَأَشْتَهَرَ خَيْرُ وَقَائِهِ بِالْغَرْبِ وَالشَّرْقِ ، وَصَلَّى بِهِ صَلَاةَ السَّفَرِ وَالْحَضَرِ ،
 وَالْأَمْنِ وَالْحَذَرِ ، وَخَطَبَ بِهِ فِي الْأَمَاكِنِ الَّتِي بَعُدَ بِذِكْرِ اللَّهِ عَهْدُهَا ، وَخَاطَبَ
 عَنْهُ - أَيْدِي اللَّهِ - الْمَخَاطَبَاتِ الَّتِي حُمِدَ قَصْدُهَا ، حَتَّى اسْتَقَلَّ مُلْكُهُ فَوْقَ سَرِيرِهِ ،
 وَأَبْتَهَجَ مِنْهُ الْإِسْلَامَ بِأَمِيرِهِ وَابْنِ أَمِيرِهِ ، وَنَزَلَ السُّتْرَ عَلَى الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ بِبِرْكَةِ إِيَالَتِهِ
 وَيُمْنِ تَدْبِيرِهِ ، وَكَانَ الْجَلِيسَ الْمُقَرَّبَ الْمُحْسَلِ ، وَالْحَظِيَّ الْمَشَاوِرَ فِي الْعَقْدِ وَالْحَلِّ ،
 وَالرَّسُولَ الْمُؤْتَمَنَ عَلَى الْأَسْرَارِ ، وَالْأَمِينَ عَلَى الْوُظَائِفِ الْجِبَارِ ، مَزِينِ الْمَجْلِسِ
 السُّلْطَانِيِّ بِالْوَقَارِ ، وَمَتَحِفَ الْمَلِكِ بِغَرِيبِ الْأَخْبَارِ ، وَخَطِيبَ مَنبَرِهِ الْعَالِي فِي الْجُمُعَاتِ ،
 وَقَارِيَّ الْحَدِيثِ لَدَيْهِ فِي الْمَجْتَمَعَاتِ .

ثُمَّ رَأَى - أَيْدِي اللَّهِ - أَنْ يُشْرِكَ رَعِيَّتَهُ فِي نَفْعِهِ ، وَيَصْرِفَ عَوَامِلَ الْحُظُوتِ
 إِلَى مَزِيدِ رَفْعِهِ ، وَيُجْلِسَهُ مَجْلِسَ الشَّارِعِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ لِإِيضَاحِ شَرْعِهِ ،
 وَأَصْلِهِ الْوَشِيقِ وَفِرْعِهِ ، وَقَدَّمَهُ - أَعْلَى اللَّهِ قَدَمَهُ ، وَشَكَرَ آلاءَهُ وَنِعْمَهُ - قَاضِيًا فِي الْأُمُورِ
 الشَّرْعِيَّةِ ، وَفَاصِلًا فِي الْقَضَايَا الدِّيْنِيَّةِ ، بِحَضْرَةِ غَرْنَاطَةَ [الْعَلِيَّةِ] حَرَمِهَا اللَّهُ تَقْدِيمَ
 الْأَخْتِيَارِ وَالْإِتْقَاءِ ، وَأَبْقَى لَهُ نَخْرَ السَّلَفِ عَلَى الْخَلْفِ وَاللَّهُ يَمْتَنِعُهُ بِطَوْلِ الْبَقَاءِ .

فَلْيَتَوَلَّ ذَلِكَ عَادِلًا فِي الْحُكْمِ ، مُهْتَدِيًا بِنُورِ الْعِلْمِ ، مُسَوِّيًا بَيْنَ الْخُصُومِ حَتَّى
 فِي لَحْظِهِ وَالْتِفَاتِهِ ، مُتَصَفًّا مِنَ الْحِلْمِ بِأَفْضَلِ صِفَاتِهِ ، مُهَيَّبًا بِالذِّينِ ، رُءُوفًا بِالْمُؤْمِنِينَ ،
 مَسْجَلًا لِلْحَقُوقِ ، غَيْرَ مُبَالٍ فِي رِضَا الْخَالِقِ بِسُخْطِ الْمَخْلُوقِ ، جَزَلًا فِي الْأَحْكَامِ ،
 مُجْتَهِدًا فِي الْفُضْلِ بِأَمْضَى حُسَامٍ ، مُرَاقِبًا لِلَّهِ عِزًّا وَجَلًّا فِي النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ ، بَارًّا
 بِمَشِيخَةِ أَهْلِ التَّوْثِيقِ ، عَادِلًا إِلَى سَعَةِ الْأَقْوَالِ عِنْدَ الْمَضْيِيقِ ، سَائِرًا مِنْ مَشْهُورِ
 الْمَذْهَبِ عَلَى أَهْدَى طَرِيقٍ - وَأَوْصَاهُ بِالْمَشُورَةِ الَّتِي تَقْدَحُ زِنَادَ التَّوْفِيقِ ، وَالتَّثْبِتِ

حتى يَنْبَلِجَ قِياسُ التَّحْقِيقِ ؛ وَصِيَّةٌ أَصْدَرَهَا لَهُ مَصْدَرُ الذِّكْرِىُّ الَّتِي تَنْفَعُ ، وَيُعَلِّي اللَّهُ بِهَا الدَّرَجَاتِ وَيَرْفَعُ ، وَإِلَّا فَهُوَ عَنِ الوَصَاةِ غَنِيٌّ ، وَقَصْدُهُ قَصْدُ سَنِيِّ ؛ وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلِيُّ إِعَانَتِهِ ، وَالْكَفَيْلُ بِحِفْظِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ وَصِيَّانَتِهِ .

[وَأَمْرُهُ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - أَنْ يَنْظُرَ فِي الْأَحْبَاسِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، وَالْأَوْقَافِ عَلَى شَتَّى أَصْنَافِهَا] ^(١) وَالتَّامِحِيُّ الَّتِي آتَسَدَلَتْ كِفَالَةَ الْقُضَاةِ عَلَى ضِعْفِهَا . فَيَذُودُ عَنْهَا طَوَارِقَ الْخَلَلِ ، وَيُجْرِي أُمُورَهَا بِمَا يَتَكَفَّلُ لَهَا بِالْأَمَلِ .

وَلْيَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَرَاهُ ، وَأَنْ فَلَتَاتِ الْحُكْمِ تُعَاوِذُهُ الْمَرَاجِعَةَ فِي أَنْحَرَاهُ ، فَيَدْرِعُ جُبَّةً تَقْوَاهُ ، فَسُبْحَانَ مَنْ يَقُولُ : ﴿ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ ﴾ .

فَعَلَىٰ مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْرِفَ حَقَّ هَذَا الْإِجْلَالِ ، صَائِتًا مَنْصِبَهُ عَنِ الْإِخْلَالِ ، مُبَادِرًا أَمْرَهُ الْوَاجِبَ بِالْأَمْتِثَالِ ؛ بِحَوْلِ اللَّهِ .

وَكُتِبَ فِي الثَّلَاثِ مِنْ شَهْرِ اللَّهِ الْحَرَمِ فَاتِحِ عَامِ أَرْبَعَةٍ وَسِتِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، عَرَّفَ اللَّهُ فِيهِ هَذَا الْمَقَامَ الْعَلِيِّ عَوَارِفَ النُّصْرِ الْمُبِينِ وَالْفَتْحِ الْقَرِيبِ ، بِمَنَّةٍ وَكِرْمِهِ ، فَهُوَ الْمُسْتَعَانَ لِأَرْبِ غَيْرِهِ .



وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضا، وهو :

هَذَا ظَهِيرٌ كَرِيمٌ أَعْلَى رَتْبَةِ الْأَحْتِفَاءِ [وَالْأَحْتِفَالِ] ^(١) اخْتِيَارًا وَاخْتِبَارًا ، وَأُظْهِرَ مَعَانِي الْكِرَامَةِ وَالتَّخْصِيصِ انْتِقَاءً وَأَصْطَفَاءً وَإِيثَارًا ، وَرَفَعَ لَوَاءَ الْجَلَالَةِ عَلَى مَنْ أَشْتَمَلَ عَلَيْهَا حَقِيقَةً وَاعْتِبَارًا ، وَرَفَعَهَا فِي دَرَجَاتِ الْعِزِّ مِنْ طَاوَلَهَا عِلَاءً بِهَرِّ أَنْوَارِ ، وَدِينًا كَرِيمًا فِي الصَّالِحَاتِ آثَارًا وَزَكَا فِي الْأَصَالَةِ نِجَارًا ، وَخُلُوصًا إِلَى هَذَا الْمَقَامِ الْعَلِيِّ السَّعِيدِ

(١) الزيادة عن ربحانة الكتاب ، ونفع الطيب ص ٧٣ ج ٣ .

راق إظهاراً وإظهاراً. أمر به وأمضاه، وأنفذ العمل بحكمه ومقتضاه، فلان للشيخ القاضى، العدل، الأَرْضَى، قاضى الجماعة وخطيب الحضرة عليه، المخصوص لدى المقام العلىّ بالحُظوة السنيّة والمكانة الحَفِيَّة؛ الفاضل، الحافل، الكامل، الموقر، المبرور أبى الحسن أبى الشيخ الفقيه، الوزير، الأجل، الأعزّ، الماجد، الأسنى، المرفّع، الأحفل، الأصحح، المبارك، الأكل، الموقر، المبرور، المرحوم أبى محمد بن الحسن - وصلّى الله عزّته، ووالى رفعتّه ومبرّته، ووهب له من صلة العناية الربّانية أملّه وبُغِيته - لمّا أصبح فى صدور القضاة العلماء مُشاراً إلى جلاله، مستنّداً إلى معارفه المخصوصة بكلمه، مطرّزا على الإفادة العلمية والأدبية بحجاسنه البديعة وخِصاله، محفوقاً مقعداً الحكم النبوىّ ببركة عدالتّه وفضلِ جلاله، وحلّ فى هذه الحضرة العلية المحلّ الذى لا يرقاه إلاّ عينُ الأعيان، ولا يتبوء مهاده إلاّ مثله من أبناء المجد الثابت الأركان، وموالى العلم الواضح البرهان، والمبرزين بالمآثر العلية فى الحُسْن والإحسان. وتصدّر لقضاء الجماعة فصدّرت عنه الأحكام الراجحة الميزان، والأنظار الحسنة الأثر والعيان، والمقاصد التى وفّت بالغاية التى لا تُستطاع فى هذا الميدان، فكم من قضية جلا بمعارفه مشكّلتها، ونازلة مبهمّة فتح بإدراكه مُقفلها، ومسألة مُهمّلة عرف نكرتّها وقرّر مهمّلتها، حتى قرّرت بعدالته وجزّالته العيون، وصدّقت فيه الآمال الناجحة والظنون، وكان فى تصديره لهذه الولاية العظمى من الحسیر والخيرة ماعسى أن يكون - كان أحقّ بالتشفيح لولاياته وأولى، وأجدر بمضاعفة النعم التى لا تزال تترادّف على قدره الأعلى.

فلذلك أصدر له - أيدى الله - هذا الظهير الكريم مشيراً بالترفيح والتنويه، ومؤكّدا للاحتفاء الوجيه، وقدمه - أعلى الله قدمه، وشكر نعمه - خطيباً بالجامع الأعظم

[من حضرته] ^(١) - عمره الله بذكره - من عليّة الخطباء، و كبار العلماء، و خيار الفقهاء الصلحاء؛ فليتولّ ذلك في جمعاته، مظهرًا في الخطبة أثر بركته و حسناته، عاملاً على ما يقتر به عند الله من مرضاته، و يُظفره بجزيل مَثوباته؛ بحول الله و قوته .

الضرب الثالث

(ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية)

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلى المعبر عنه في بلادنا بكتابة السر؛ وهى :

هذا ظهير كريم نصب للتعتمد به الإنافة الكبرى ببابه فرّعه، وأفرد له متلّو العز ^(٢) جمعه ووتره وشفعه، وقرّبه في بساط الملك تقريباً [أرغم به أنف عداه ووضعه] ^(٣) وفتح له باب السعادة وشرعه، وأعطاه لواء القلم الأعلى فوجب على من دون رتبته، من أولى صنغته، أن يتبعه؛ ورعى له وسيلته السابقة عند استخلاص الملك لما أبتّره الله من يد الغاصب وأنزعه، وحسبك من ذمام لا يحتاج إلى شيء معه .

أمر به الأمير فلان لفلان - وصل الله سعادتة، وحرّس مجادته - أطلع له وجه العناية أجهى من الصبح الوسيم، وأقطعه جناب الإنعام الجميم، وأنشقه أرح الخُطوة عاطر النسيم، ونقله من كُرسى التدريس والتعليم، إلى مرقى التنويه والتكريم، والرتبة التي لا يُلقاها إلا ذو حظّ عظيم؛ وجعل أعلامه جياداً لإجلالة أمره العلى، وخطابه السنّى، في ميادين الأقاليم؛ ووضع في يده أمانة القلم الأعلى، جارياً من

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

(٢) في الريحانة «نصب المعتمد به للأمانة» الخ وهو أنسب بالمقام .

(٣) من "ريحانة الكتاب".

الطريقة المثلى، على التهج القويم، وأختصه بمزية الشفوف على كتاب بابه الكريم .
 لما كان ناهض الوكر في طلبة حضرته من البدايه ، ولم يزل تظهر عليه لأولى التميز
 تحايل هذه العنايه : فإن حضر حائق العلم جلى في حلبة الحفظ إلى الغايه ؛ وإن نظم
 أو نثر أتى بالمصائد المصقوله ، والمخاطبات المنقوله ؛ فاشتهر في بلده وغير بلده ،
 وصارت أزمه العنايه طوع يده ، بما أوجب له المزيه في يومه وغده .

وحين رد الله عليه ملكه الذى جبره جناح الإسلام ، وزين وجوه الليالى
 والأيام ، وأدال الضياء من الظلام ؛ وكان ممن وسمه الوفاء وشهره ، وعجم الملك
 عود خلوصه وخبره ؛ فحمد أثره ، وشكر ظاهره ومضمرة ؛ وأستصحب على ركابه
 الذى صحب اليمن سقره ، وأخلصت الحقيقة نقره ، وكفّل الله وردّه وصدره ؛
 ميمون النقيب ، حسن الضريبه ؛ خالصاً فى الأحوال المرئيه ، ناطقاً عن مقامه
 بالمخاطبات العجيبه ؛ واصلاً إلى المعانى البعيده بالعبارات القريبه ، مبرزاً بالخدم
 الغريبه ، حتى أستقام العباد ، ونطق بصديق الطاعة الحى والجماد ، ودخلت
 فى دين الله أفواجا العباد والبلاد ، لله الحمد على نعمه الثرة العهاد ، وآلائه المتواليه
 الترداد - رعى له - أيده الله - هذه الوسائل وهو أحق من يرعاها ، وشكره الخدم
 المشكور مسعاهها ؛ فقصر عليه الرتبة الشماء التى خطبها بوفائه ، وألبسه أثواب
 أعتنائه ، وفسح له مجال آلائه ؛ وقدمه - أعلى الله قدّه ، وشكر نعمه - كاتب السر ،
 وأمير النهى والأمر ؛ تقديم الاختبار ، والأعتباط بخدمته الحسنه الآثار ، والتمين
 باستخدامه قبل الحلول بدار الملك والأستقرار ، وغير ذلك من موجبات الإيثار .

فليتول ذلك عارفاً بمقداره ، مقتفياً لآثاره ، مستعيناً بالكم لأسراره ، والأضطلاع
 بعظام أموره وبقاره ، متصفاً بما يجمل من أمانته وعفاهه ووفاره ؛ معطياً هذا الرسم

حقه من الرئاسة ، عارفاً بأنه أكبر أركان السياسة ؛ حتى يتأكد الاعتباط بتقريبه وإدناؤه ، وتوقف أسباب الزيادة فى إعلائه ؛ وهو - إن شاء الله - غنى عن الوصاة فهماً ثاقباً ، وأدباً لعيون الكمال مُراقباً ؛ فهو يعمل فى ذلك أقصى العمل ، المتكفل ببلوغ الأمل .

وعلى من يقف عليه : من حملة الأعلام ، والكتّاب الأعلام ، وغيرهم من الكفاة والخُدّام ، أن يعرفوا قدر هذه العناية الواضحة الأحكام ؛ والتقديم الراضخ الأقدام ، ويوجبوا ما أوجب من البر والإكرام ، والإجلال والإعظام ؛ بحول الله وقوته ، وكتب فى كذا .

الطـرف الثالث

(فى مصطلح كُتاب الديار المصرية فيما قبل الخلفاء الفاطميين

وفى بعدهم إلى زماننا)

وفيه أربع حالات :

الحالة الأولى - ما كان عليه أمر تُواب الخلفاء بهذه المملكة إلى ابتداء الدولة الطولونية .

ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المدة صرف عناية ، تقاصراً عن التشبه بديوان الخلافة ، إذ كانت الخلافة يومئذ فى غاية العزِّ ورفعة السلطان ؛ ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة فى جانبها ، والولايات الصادرة عن التواب فى نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعى على نقله ولا تصرف الهمم لتدوينه مع تطاول الأيام وتوالي الليالى .

الحالة الثانية — ما كان عليه أمر الدولة الطولونية من حين قيام دولتهم إلى انقراض الدولة الأخشيدية .

وقد تقدم أن أحمد بن طولون أول من أخذ في ترتيب الملك وإقامة شعاع السلطنة بالديار المصرية . ولما شَمَخَ سلطانه ، وأرتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه في المكاتب والولايات ، فاستكتب ابن عبد كان ، فأقام منار ديوان الإنشاء ورفع مقداره ؛ وكان يفتتح ما يكتبه عنه في الولايات بلفظ « إن أولى كذا » أو « إن أحق كذا » وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة عهد كتب به ابن عبد كان عن أحمد بن طولون بقضاء بركة ترشد إلى ما عداها من ذلك وهي :

إنَّ أَحَقَّ مَنْ آثَرَ الْحَقَّ وَعَمِلَ بِهِ ، وَرَاقَبَ اللَّهَ فِي سِرِّ أَمْرِهِ وَجَهْرَهُ ، وَأَحْتَرَسَ مِنَ الزَّيْغِ وَالزَّلَلِ فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَعَمِلَ لِمَعَادِهِ وَرَجَعْتِهِ ، إِلَى دَارِ فَاقَتِهِ وَفَقْرِهِ وَمَسْكَنَتِهِ ، مَنْ جُعِلَ بَيْنَ الْمَسْلَمِينَ حَاكِمًا ، وَفِي أُمُورِهِمْ نَازِرًا : [فَأَرَأَى] الدَّمَاءَ وَحَقَّهَا ، وَأَحَلَّ الْفُرُوجَ وَحَرَمَهَا ، وَأَعْطَى الْحُقُوقَ وَأَخَذَهَا ؛ وَمَنْ عَلِمَ أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى سَائِلُهُ عَنِ مِثْقَالِ الذَّرَّةِ مِنْ عَمَلِهِ ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يَتَقَلَّبُ فِي قَبْضَتِهِ ، أَيَّامَ مُدَّتِهِ ، ثُمَّ يُخْرَجُ مِنْ دُنْيَاهُ نَكْرُوجَهُ مِنْ بَطْنِ أُمَّه ، إِمَّا سَعِيدًا بِعَمَلِهِ وَإِمَّا شَقِيمًا بِسَعْيِهِ .

وإِنَّمَا وَقَفْنَا عَلَيْهِ مِنْ سَدِيدِ مَذْهَبِكَ وَقَوِيمِ طَرِيقَتِكَ ؛ وَجَمِيلِ هَدْيِكَ وَحُسْنِ سِيرَتِكَ ؛ وَرَجَوْنَاهُ فِيكَ ، وَقَوَّرْنَاهُ عِنْدَكَ : مِنْ سُلُوكِ الطَّرِيقَةِ الْمِثْلِيَّةِ ، وَأَقْتِنَاءِ آثَارِ أُمَّةِ الْهُدَى ، وَالْعَمَلِ بِالْحَقِّ لِبَالْهَوَى — رَأَيْنَا تَقْلِيدَكَ الْقَضَاءِ بَيْنَ أَهْلِ نَعْرِ بَرَقَةٍ ، وَأَمْرِنَاكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ مِنْ طَلَبٍ ، وَلَا يُفَوِّتُهُ مِنْ هَرَبٍ — وَبَطَاعَتِهِ الَّتِي مَنْ آثَرَهَا

سعد، ومن عمل بها حُمد، ومن لزمها نجا، ومن فارقتها هوى - وأن توأصل
الجلوس لمن بحضرتك من الخُصوم : صابرا بنفسك على تنازعهم في الحقوق ،
وتدافعهم في الأمور؛ غير برِّم بالمراجعات ، ولا صَّخِر بالمحاكمات : فإنَّ من حاول
إصابة فصل القضاء ، وموافقة حقيقة الحكم بغير مادة من حلم ، ولا معونة من
صبر ، ولا سُهمة من كظم ، لم يكن خليقا بالظفر بهما ، ولا حقيقا بالدرك لهما -
وأن تقسم بين الخصمين إذا تقدما إليك ، وجلسا بين يديك ، في لحظك ولفظك ،
وتوفى كل واحد منهما قسمة من إنصافك وعدلك ؛ حتى يئأس القوي من ميئك ،
ويأمن الضعيف من حيفك : فإنَّ في إقبالك بنظرك وإصغافك بسمعك إلى أحد
الخصمين دون صاحبه ما أضلَّ الآخر عن حجته ، وأدخل الحيرة على فكره ورويته -
وأن تُحضر مجلس قضائك من يُستظهر برأيه ، ومن يرجع إلى دينٍ وحجٍّ وتقى :
فإن أصبت أيديك ، وإن نسيت دكرك - وأن تقتدى في كل ما تعمل فيه
رويته ، وتُضى عليه حكمك وقضيتك ، بكتاب الله الذى جعله صراطا مستقيما ،
ونورا مستبيناً ؛ فشرع فيه أحكامه ، وبين حلاله وحرامه ، وأوضح به مشكلات
الأمر ، فهو شفاء لما فى الصدور . وما لم يكن فى كتاب الله جل وعز نصه
فإنَّ فيما يؤثر عن النبي صلى الله عليه وسلم حكمه ؛ وما لم يكن فى حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم آقتفت فيه سبيل السلف الصالح من أئمة الهدى رضى الله
عنهم الذين لم يألوا الناس اختبارا ، ولا أدخروهم نصيحةً وأجتهدا ؛ عالما أنك
أسعد بالعدل ممن تعدل عليه ، وأحظى بإصابة الحق ممن تُصيبه فيه : لما تتعجله
من جميل أحوثه وذكرك ، ويُدخرك من عظيم نوابه وأجره ، ويُصرف عنك من
حُوب ما تنقلده ووزره - وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم [من] أهل الثقة فى أديانهم ،
والمعروفين بالأمانة فى معاملاتهم ، والموسومين بالصدق فى مقالاتهم ، والمشهورين

بالتقدم في عدالاتهم : فإنك جاعلهم بين الله وبينك في [كل] كلام تصديره ، وحكم
تبرمه ؛ وحقيق بأن لا ترضى لنفسك منهم إلا بما يرضى منك ، وتعلم أن ذلك هو
الصدق ، وأنت قد أبلت عُذرك في تخييرهم ، فإنه بعلم أن ذلك هو الصدق من نيتك ،
والصحة من يقينك ، تحسن عليه معونتك ، ويحضرك التوفيق في جميع أقضيتك -
وأن يكون من تستعين به على المسألة عن أحوال هؤلاء الشهود ومذاهبهم ،
وما يعرفون به وينسبون إليه في رحالهم ومساكنهم أهل الورع والأمانة ، والصدق
والصيانة - وأن تجدد المسألة عنهم في كل مرة ، وتفحص عن خبرهم في كل قضية ؛
ثم لا يمتنعك وقوفك على سقوط عدالة من تقدمت بتعديله من استقبال الواجب
في مثله ، وأستعمال الحق في أمره - وأن تُشرف على أعوانك وأصحابك ، ومن تجرى
أمرؤك على يديه من خلفائك وأسبابك ؛ إشرافا يمنعهم من الظلم للرعية ، ويقبض
أيديهم عن المآكل الرديئة ؛ ويدعوهم إلى تقويم أودهم ، وإصلاح فاسدهم ، ويزيد
في بصيرة ذوى الثقة والأمانة منهم ؛ فمن وقفت منه على أمثالٍ لمذهبك ، وقبول
لأدبك ؛ واقتصار فيما يتقلده لك ، أقررتَه وأحسنَت مكافأته ومثوبته ، ومن شمت
منه حيفا في حكمه ، وتعديا في سيرته ، وبسطا ليدِه إلى ما لا يجب له ، تقدمت
في صرفه ، وألزمته في ذلك ما يلزمه - وأن تختار لكاتبك من تعرف سداد مذهبه ،
وأستقلاله بما يتقلده ، وإشارا لرس (١) من صحته ، ومن تقدّر عنده تقدما
في نصيحتك فيما يجرى على يديه ، وتوخيا لصدقك فيما يحضره وتغييب عن مشاهدته ؛
فإنك تأمنه من أمر حكمك على ما لا يؤتمن على مثله إلا الأمين ، وتفوض إليه
من حجاج الخصوم المرفوعين إليك ما لا يفوض إلا لذي العفاف والدين - وأن نتفقد

(١) لعله « وإشارته للتأكد من صحته » . تأمل .

(٢) لعله « تحريا » تأمل .

مع ذلك أمره ، وبتصفح عمله ؛ وتُشرف على ماتحت يديه بما يؤدّيك إلى إحكامه
وضبطه ، ويؤمّنك من وقوع خلل فيه - وأن تختار لِحجابتك من لا يتجهم الخُصوم ،
ولا يختصّ بعضها دون بعض بالوصول ؛ وتُوَعز إليه في بسط الوجه ، ولين
الكف ، وحسن اللفظ ، ورفع المؤونة ، وكف الأذى .

فقلّد ماقلّدناك من ذلك عاملاً بما يحقّ عليك لله جلّ وعزّ ذكره ، ومستعيناً به
في أمرك كلّه : فإنّا قلّدناك جسيماً ، وحملناك عظيماً ، وتبرّأنا إليك من وزره
وإضره ، واعتمدنا عليك في توخّي الحقّ وإصابته ، وبسط العدل وإفاضته ؛
وأقبض لأرزاقك وأرزاق كُتّابك وأعوانك ومن يحجّبك ولثمن قراطيسك وسائر
مؤنك في كل شهرٍ أربعين ديناراً ؛ فقد كتبنا إلى عامل الخراج بازاحة ذلك ، أوقات
استحقاقك إياه ووجوبه لك ، وإلى عامل المدينة بالشّد على يدك ، والتقوية
لأمرك ؛ وضمّ العِدّة التي كانت تُضمّ إلى القضاة من الأولياء إليك ، وهما فاعلان
ذلك إن شاء الله تعالى .

الحالة الثالثة - ما كان عليه الأمر في زمن بنى أيوب .

وكانوا يسمّون ما يكتب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام
«تقاليد» و«تواقيع» و«مراسيم» وربّما عبّروا عن بعضها بـ«لمنّاشير»

وهي في الافتتاحات على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولى - أن تفتح الولاية بخطبةٍ مبتدأةٍ بالحمد لله تعالى ثم يؤتى
بالبعديّة ، ويذكرُ ما سبّح من حال الولاية والمولى ، ويوصى المولى بما يليق
بولايته ، ثم يقال : «وسبيل كلّ واقفٍ عليه من الثواب العملُ به» أو نحو ذلك .

وهي على ثلاثة أصناف :

الصف الأول — أرباب السيوف من هذه المرتبة

وهذه نسخة توقيع بولاية ناحية وإقطاع بلادها لمتوليها ، وهي :

الحمد لله على عوائده الجميلة وعواطفه ، وفوائده الجزيلة وعوارفه ، ناصب الحق وناصره ، وقاصم الباطل وقاصره ، ومخير الدين ومديله ، ومبير الكفر ومديله ، وشاد أزرو أوليائه وساد ثغره ، وناصر معزهم ومعز نصرهم ، الذي أضفى علينا مدارع نعمة ، وأصفى لدينا مشارع كرمه ، وأعلق أيدينا من العدل بأوكيد الأسباب والأمراس ، وصرف بنا صرف العسف وكف بكفايتنا كف البؤس عن الرعية والباس ، وجلب إلى استجلاب الشكر من الناس همتنا ، وطوى على حب البر وإبرار المحب طويتنا ، وحسم بما أولانا من أيد مادة كل يد تمتد إلى محذور ، ويسرنا بساط العدل المطوى لما طوى بعدلنا بساط الظلم المنشور ، وأبى لنا أن نكفر نعمة أو نهبها لكافر ، أو ندع شكر منة أو نودعها عند غير شاكر .

ولما كان الأمير فلان ممن سبقت لخدمته ولأبيه - تعاهد الله بالعهد مثواهما ، وخص بثرار الرحمة ثراهما - الحرم الأكيده ، والخدم الطريفة والتليده ، ولم يزالا مجتهدين في تعمير هذا البيت وتشيد أسسه ، ملازمي الإداب في إنمائه وتشديد غرسه ، مفضيين بالموالاة إلى مواليه ، مفضحين بالمعاداة لمعاديه ، رأينا - لا زال الإقبال لآرائنا مقابلا ومرافقا ، والسعد مساعدا والتوفيق موافقا - أن نلحقه بدرجة أوليه ، ونورده من كرمنا مورد جدّه وأبيه ، ونثني إليه عنان عنايتنا ، ونرعاه بعين رعايتنا ، ونلحقه جناح لطفنا ، ونبوئه مقعد شرف تحت ظلنا ، ونحرس حده من الفلول ، وجدّه من الخمول ، وعوده من الخور ، وورده من الكدر ، وأن نقره

على ما بوأنا فيه والدّه من الهبات والإنعام والإفضال والإحسان، وجميع ما دخل تحت أسمه من المعاقل والبُدان، وسيُوضَّح ذلك بقلم الديوان .

فليقابل هذا الإنعام من الشكر بمثله ، ويوازِ هذا الإفضال من حُسن القبول بعِده ؛ وليرتبطَ نعمَ الله عنده بالشكر الوافى الوافر، فالسعيدُ من أطرحَ حلّة الشاكي وأدرعَ حلّة الشاكر، وليُدمنِ التحدّثَ بها فالتحدّثُ بالنعم من الشكر، ويستجذب موادّها بإيضاح سُبُل البر؛ ويجعلُ التقوى شِعاره وديناره، ويُخصِّص الطاعة لله إيرادَه وإصدارَه .

وليكن العدل ربيئته ورائده ، والأمرُ بالمعروف دليله وقائده ؛ وليتَم فيما نيظ به حقّ القيام، ويسمّر في حفظ ما استرعيناه عن ساق الإهتمام، ويعلم أن منزلته عندنا أسنى المنازل وأعلاها، ومرتبته لدينا أهبجُ المراتبِ وأبهاها؛ ومحلّه عندنا السامى الذى لأيضاهيه سامى، ومكانه المكانُ الذى ليس له فى الممكن أن يفترعَ علمه سامى؛ فسبيله علمُ ذلك وتحقيقه، وتيقنه وتصديقه، وسبيل كلِّ واقفٍ على هذا المثال، [أن] يقابله بالأمثال، من سائر العَمال، وأرباب الولايات والأعمال . والاعتمادُ على العَلامة الشريفة فى أعلاه، إن شاء الله تعالى .

الصنف الثانى — أرباب الوظائف الدينية

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسة والنظرِ عليها، والتحدّثِ على أوقافها وسائر تعلّقاتها، وهى :

الحمد لله الظاهرِ إحسانه، الباهرُ برهانه، القاهرُ سلطانه، المتظاهرِ أمّتناه، نحمده على إنعامه حمداً يدوم به من حلب غزارة وحلى نضارته ازدياده وازديانه،

ونسأله أن يصلّي على سيّدنا مجدّ نبّه الشارع الشارح ببيّانه ، وعلى آله وصحبه الذين هم أعضاء شرّعه وأركانُه .

أما بعد ، فإنّنا لما نراه من تشييد بيوت ذوى البيوتات ، وإمضاء حكم المروءة في أهل المروءات ، وإرعاء مواتّ ذوى الحقوق الحقيقة بالمراعاة وإحياء الموات ، وموالات النعم الشامل عمومها لأولى الخُصوص والخُلوص في الموالات ، ما نزال نُحِقّ درجاتِ الأخلاف منهم في الاختصاص بالاستخلاص بالأسلاف ، فنوردهم من مشارع دولتنا ومشارب نعمتنا في الأصطفاء والأصطناع أعذب النّطاف ، ونُجنّهم من مغارس الرجاء ، ومجارى النّماء ، في الإدناء والاجتباء ، ثمرات النّعم الدانية القطاف ؛ ونُفيض عليهم من مدارع البهجة والبهاء ، وحلّ الشّاء والسّناء ، في الاكرام ، بالأحترام ، ما يصفو على الأعطاف .

ولما كان الشيخُ فلان متوحّدا بالنسب الأثير الأثيل ، والحسب الجليّ الجليل ، والمحتد الأكيّد الأصيل ؛ والفضل الموروث والمكتسب ، والزرّك في المتتمى والمتسب ؛ والدّكاء الذى أنارت في أفق التوفيق دُكاؤه ؛ والولاء الذى بان في شرّعة الإخلاص صفاءؤه ؛ والدين الذى علا سناسنّته ، فى منار التّحميد ، والخُلوص الذى حلا جنىّ جنته ، فى مذاق التوحيد ؛ والرياسة التى تَصوّع رياء رياضها الموقّنه ، والسّاحة التى تتوّح حيا حياتها المُغدّقه ؛ والأمانة التى نهضت بها فضائله ، والموالات التى تجحّت بها عندنا وسائله - رأينا إجراءه على عادة والده فى تولّى المدرسة المعمورة التى أنشأها جدّه للشافعية بحلب ، وأوقافها ، وأسبابها ، وتدريسها ، وإعادتها ، وأستنابة من يراه وينخاره فى ذلك كله ، والنظر فى جميع ما يتعلّق بها كثره وقّله ؛ وترتيب الفقهاء فيها ، وتقرير مشاهراتهم على ما يراه من تفضيل وتقديم ، وتفصيل

وتقسيم ، وتخصيص وتعميم ، ونقص وتكميل وتتميم ؛ وحفظ الوقوف بالأحتياط
 فى مصارفها ، والعمل فيها ، بشروط محبستها وإطلاقها بقيود واقفيها ، بالأبتداء
 بالعمارات ، التى تؤذن بتوفير الأرتفاعات ، وتكثير المغلات ، وتنمية الثمرات ؛
 مستشعرا تقوى الله التى هى حلية الأعمال الصالحات ، والعصمة الباقية والحنة
 الواقية عند النائبات . وفوضنا ذلك إلى أمانته ، وبعده إلى من يقوم مقامه من
 إخوته ، تشييدا لبيتهم الكريم ، وتجديدا لمجدهم القديم ؛ ورعنا لمكاتهم المكيهه ،
 وحفظا لمرتبتهم المصونه . وأمرنا بإعفاء جميع أوقاف المدرسة وسائر أوقافهم ،
 وأملاكه وأملاك إخوته وحمايتهم من جميع المظالم والمطالب ، والنواب والشوائب ،
 والعوارض والعراض واللوازم والكلف ، والمؤن والسخر ، والتبن والخطب ،
 والأطباق والأنزال ، وسائر التوزيعات والتقسيمات والأنفال ؛ وإعفاء فلاحيها
 ومزارعيها من جميع ذلك ؛ وإطلاق كل ما يصل من مغللات الأوقاف والأملاك
 المذكورة إلى مدينة حلب من جميع المؤن على الإطلاق ، وكذلك جميع ما لهم من
 البضاعات والبياعات والتجارات مفضة مطلقه لا اعتراض عليها لأحد ، ولا تمتد إلى
 شىء منها يد يد . وليتول ذلك على عادته المشكوره ، وأمانته المشهوره ؛ بنظر
 كاف شاف ، وكرم وافر وإف ؛ وورع من الشوائب صاف ، وعزوف عن الدنيات
 بالدنيات متجاف ؛ وسداد لركن المصالح شائد ، وتذكر لترقى مواد المناجح رائد ؛
 ورأى فى ذمة الصواب راجح ، وسعى بربة الرشاد ناجح ؛ وهمة عالية فى نشر العلم
 بالمدرسة وإعلاء مناره ، وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحفظه وتكراره ؛
 ومروعة تامة فى الأشمال على إخوته ومخلفى أبيه بما يصل به الرحم ، ويظهر به
 الكرم ، ويحيى من مفاخر آباءه الرمم ، ويقوى لهم من معاقده مكارمه العصم . وسبيل
 الولاة والنواب وكل واقف على هذا المثال إمضاء ذلك كله على سبيل الأستمرار ،

وتصرم الأعمار ، وتصرف الأعصار ، وتقلب الأحوال والأدوار ؛ وحفظه فيهم
وفي أعقابهم على العصور والأحقاب ، ووصل أسبابه عند انقطاع الأسباب ،
من فسح ينقض مبرم معاقده ، أو نسخ يقوض محكم مقاعده ؛ أو تبديل يكدر صفى
موارده ومشارعه ، أو تحويل يقلص ضايف ملبسه ومدارعه . وليبدل لهم المساعدة
في كل ما يعود له ولجماعته بصلاح الحال ، وفراغ البال ونجاح الآمال ، وإقامة الجاه
في جميع الأحوال . والعمل بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتماد على التوقيع الأشرف
به إن شاء الله تعالى .

الصفحة الثالث - أرباب الوظائف الديوانية

وهذه نسخة توقيع بوزارة ، من إنشاء بعض بني الأثير ، وهى :

الحمد لله الذى فضّلنا على كثير من عباده ، وأغنانا بمنزلة عطائه عن أزياده ،
وجعلنا ممن استخلفه فى الأرض فشكر عواقب إصداره ومبادئ إيراده .

نحمده ولسان أنعمه أفصح مقالاً وأفسح مجالاً ، وإذا اختلفت خواطر الحامدين
رؤية كآثرها أرتجالاً ، ونسأله أن يوفقنا لتلقى أوامره ونواهيته بالاتباع ، وأن يصغى
بقلوبنا إلى إجابة داعى العدل الذى هو خير داع ، وينقذنا من تبعات ما استرعانا
يوم يسأل عن رعيته كل راع .

أما بعد ، فإن الله قرّن استخارته برشده ، وجعلها نورا يهتدى به فى سلوك جمده ،
ويستمد من يمن صوابه ما يعنى عن رأى ومدده . ومن شأننا أن نتأدب بأداب الله
فى جليل الأمر ودقيقه ، وإذا دلّ التوفيق أمراً على عمله دلّ عملنا على توفيقه ؛
فمن عنوان ذلك أنا أصحابنا لوزارتنا من تحمّسنا الأيام من أجله ، وتحسّسنا الملوك
على مثله ، ويعلم من أتى فى عصره أنه فات السابقين من قبله ، وهو الوزير الأجل

السيدُ الصدرُ الكبيرُ؛ جلالُ الدين، شرفُ الإسلام، مجتبيُ الإمامِ نحرُ الأنام؛
ولست هذه النعوت مما تزيد مكانه عُرفاً، ولا تستوفى من أوصافه وَصفاً؛
وإن عدها قومٌ جُلٌّ ما يدنحرونه من الأحساب، ومعظم ما يخلفونه من التراث
للأعقاب؛ ولا يفخر بذلك إلا من أعدم من ثروة شرفه، ورضى من الجوهر
بصدفه؛ وأنت فغير فاجرٍ به ولا بما ورثته من مجد أبيك الذى أضحيت الأيام به
شهوداً، والجُدود له جُدوداً، وغداً وكانَّ عليه من شمس الضحى نوراً ومن الصباح
عموداً؛ وقد علمت أنه كان إليه نَسَبُ المكارم وسيمها، وكان ما بلغه منها أعظم
ما بلغه من دنياه على عظيمها؛ إنك خلقت لنفسك مجداً منك ميلادُه، وعنك
إيجادُه؛ وإذا أقترن سعى الفتى بسعى أبيه فذلك هو الحسب الذى تقابل شرفاه،
وتلاقى طرفاه، وغض الزمان عنه طرفه كما فتح بمدحه فاه؛ وإذا استطرفت سادة
قوم بنيت بالسؤدد الطريف التليد، ولقد صدق الله لهجة المثنى عليك إذ يقول:
إنك الرجل الذى تُضرب به الأمثال، والمهدب الذى لا يقال معه: أى الرجال؛
وإذا وازرت مملكةً فقد حظيت منك بشد أزرها، وسد نغرها، وأصبحت وأنت
صدر قلبها وقلب لصدرها؛ فهى مزدانةً منك بالفضل الميسين، معانةً بالقوى
الأمين؛ فلا تبيت إلا مستخدماً ضميرك فى ولائها، ولا تغدو إلا مستجدياً كفاتك
فى تمهيدها وإعلائها.

ومن صفاتك أنك الواحدُ فى عدم النظر، والمعدود بألف فى صواب التدبير،
والمؤازرُ عند ذكر الخير على الإعانة وعند نسيانه على التذكير؛ ولم ترق إلى هذه
الدرجة حتى نكحت عقبات المعالى فقضيت أجلها، وآنست من طور السعادة نارا
فهديت لها؛ ولم تبلغ من العمر أشده، ولا نزع عنك الشباب برده؛ بل أنت
فى ريعان عمرك المتجمل ريعان سُودده، المتقمص من سيم الخلال ما أبرز وقار

المشيب في أسوده . وهذا المنصب الذي أهلت له وإن كان ثاني الملك محلاً ، وتلوه عقداً وحلاً ، فقد علا بك قدره ، وتأبل بك أمره ؛ وأصبح وشخصك في أرجائه مناراً ، ورأيك وفضلك من حوله سور وسوار ؛ وله من قلمك خطيب يجادل عن أحساب الدولة فيفتحها فخراً ، وسيف يجالده عن حوزتها فيمنحها نصراً ؛ ولقد كان من قبلك وقبل أيك مكرها على إجابة خاطبه ، والتزوي إليه عن مراتبه ؛ فلما جئته استقرت في مكانه ، ورضي بعلو شأنك لعلو شأنه ؛ وقد علم الآن بأنك نزلت نزل الليث في أجمه ، وأستقلت به أستقلال الرمح بأحدمه (؟) ؛ وما زالت المعالي تسفر بينك وبينه وأنت مشتغل بالسعي للسيادة وآدابها ، عن السعي للسعادة وطلابها . نخذ ما وصلت إليه باستحقاق فضلك ومناقبه ، لا باتفاق طالعك وكواكبه .

وأعلم أن هذه النعمة وإن جاءتك في حفلة ، وأناخت بك بصاحبها وأهلها ؛ فلا يؤنسها بك إلا الشكر الذي يجعل دارها لك داراً ، وودها مستملاً لك لا معاراً ؛ وقد قيل : إن الشكر والنعمة توءمان ، وإنه لا يتم إلا باجتماع سر القلب وحديث اللسان ؛ فاجعله معروفها الذي تمسكها بإحسانه ، وتقيدها بأشطانه .

وقد أفردنا لك من بيت المال ما تستعين به على فرائض خدمك ونوافله ، وترد فضله على آبناء مجديك وفضائله ؛ وذلك شيء عائد على الدولة طيب سمعته ، فلها محمود ذكره ومنك موارد شرعته ؛ وإذا حمت مناهل الغدر كان الفضل للسحاب الذي أغدرها . والمفرد باسمك من بيت المال كذا وكذا .

وكل ما تضمنته تقليد غيرك من الوصايا التي قرعت له عصاها ، ونسدت له حصاها ، فأنت مستغن عن استماعها ، مكتفٍ بأطلاع فكرك عن اطلاعها ؛ غير أنا نسألك كما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً ، ونسأل الله أن يجعل لك

من أمرِك يُسرًا ومن عزَمِك نَفَاذًا ، وقد أجبنا لسانَ حالك بأنك تأخذ بتقوى الله
التي ضمنَ لها العاقبة ، وجعل شيعتَها الغالبة ؛ وأنتك تجعلُها بيدك وبينه سببًا ممدودًا ،
وبينك وبين الناس خُلُقًا معهودًا ؛ حتى تُصبح وقد أمنتَ من دهرِك عِثَارًا ، ومن
أبنائه أَسْمَاعًا وأبصارًا — ومن شرائطها أن يكونَ الرجلُ المسلم الذي سلم الناسُ
من يده ولسانه ، وفي هذين كفاية عن غيرهما من الشَّيم ، التي تُحفظُ بها سياساتُ
الأمم : فإنَّ العدل هو الميزان الذي جعله الله ثانيَ الكتاب ، والإحسان الذي هو
الطينة التي شاركتها القلوبُ في جيلاتها مشاركةَ الأحباب .

وأما ماسوى ذلك من سياسة الملك في تقرير أصوله ، وتدير محصولة ؛ كالبلاد
وأستعمارها ، والأموال وأستثمارها ؛ وولاية الأعمال وأختبارها ، وتجنيد الجنود
وأختيارها ؛ فكل ذلك لا يصدر تديره إلا عن نظرك ، ولا يُمشى فيه إلا على
أثرك ؛ وأنت فيه الفقيهُ ابنُ الفقيه الذي سرى إليك علمه نفسه ودرسا ، وثمره
وغرسا ؛ فهذا كتاب عهدنا إليك : نخذ به بقوة الأمانة التي أبت السموات والأرض
حملها ، وما أطاقَتْ ثقلها ؛ والله يسلك بك سَدًا ، ويتخوى بك رَشَدًا ، ويلزمك
التوفيق قلبًا ولسانًا ويدا ، إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة توقيع باعادة النظر بئغر الإسكندرية لابن بصاصة في شهر
سنة ثمان وسبعين وستائة ، وهي :

الحمد لله الذي أضحك الثغور بعد عبوسها ، ورد لها جمالها وأثار أفاقها بطُوع
شموسها ، وأحيا معالم الخير فيها وقد كادت أن تُسرف على دروسها ؛ وأقام
لمصالح الأمة من يُشرق وجهه الحق ببياض آرائه ، وتلذذ الأسماع بتلاوة أوصافه

الجميلة وأنبائه ؛ حمد من أُسبغت عليه النعماء ، وتهادت إليه الآلاء ، وخطبته لنفسها العلياء .

وبعد ، فأحق من ماس في أندية الرياسة عطفاً ، وأستجلى وجوه السعادة من حجب عزها فأبدت له جمالاً ولطفاً ، وأصطفته الدولة القاهرة لمهمات ما رأته خير كافل ، وتنقل في مراتبها السنية تنقل النيرات في المنازل ^(١) .

ولما كان المجلس السامى القاضى ، الأجل ، الصدر ، الكبير ، الرئيس ، الأوحد ، الكامل ، المحتجب ، المرتضى ، الفاضل ، الرشيد ، جمال الدين ، نخر الأنام ، شرف الأكابر ، جمال الصدور ، قدوة الأمناء ، ذخر الدولة ، رضى الملوك والسلاطين ، الحسين ابن القاضى زكى الدين أبى القاسم - أدام الله رفعتة - ممن أشارت إليه المناقب الجليله ، وصارت له إلى كل سؤال نعم الوسيله - ريس بالأمر العالى ، الموالى ، السلطانى ، الملكى ، العادلى ، البدرى ، - ضاعف الله علاه ونقاده - أن يقوض إليه نظر نعر الإسكندرية المحروس ونظر متاجره ، ونظر زكواته ونظر صادرة ؛ ونظر قوة والمزاحمتين ، فيقدم خيرة الله تعالى ويناشر هذا المنصب المبارك ، بعزmate الماضيه ، وهممه العالیه ؛ برأى لا يساهم فيه ولا يشارك ، ليصبح هذا الثغر بمباشرة باسمه حالياً ، وتعود بهجتة له بجميل نظره ثانيا . وينتصب لتدبير أحواله على عادته ، ويقترق قواعد بعالى همته ؛ ويجهد في تحصيل أمواله وتحصين ذخائره ، وأستخراج زكاته وتمية متاجره ؛ ومعامله التجار الواردين إليه بالعدل الذى كانوا ألقوه منه ، والرفق الذى نقلوا أخباره السارة عنه ؛ فإنهم هدأيا البحور ، ودوالة

(١) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم النسخ وأصله « من اشتهر بحاسن الخلال ، ومحمد الخصال ،

وساس الأمور برأيه الراجح ، ودبرها بسعيه الناجح ، ولما « الخ أو نحو ذلك فتنبه .

الثغور، ومن ألسنتهم يطَّلَعُ على ما تُخِجُّهُ الصدور، وإذا بَدَّرَ لهم حَبَّ الإحسان
نَشَرُوا له أجنحةَ مراكِبِهِم وحاءوا عليه كالطُيُور . وليعتمد معهم ما تضمته المراسيمُ
الكريمةُ المستقرَّةُ الحُكْمُ إلى آخرِ وقت، ولا يسئلكُ بهم حالةٌ تُوجب لهم القاتق والتظلمُ
والمقت؛ وليواصل بالحمول إلى بيتِ المال المعمور، ويُملأ الخزانَ السلطانيةَ
من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل ما يُستغنى به عن الواصل في البرور
والبحور؛ وليصرف همته العالمة إلى تدير أحوال المتأجر بهذا الثغر بحيث ترتفع
رؤوس أموالها وتتمى، وتجدد سحاب فوائدها وتهيم؛ وليراع أحوال المستخدمين
في مباشراتهم، ويكشف عن باطن سيرهم في جهاتهم؛ ليتحققوا أنه مهيمٌ عليهم،
وناظرٌ بعين الرأفة إليهم؛ فتسكف يد الخائن منهم عن الخيانة، وتتحلى أنامل الأمين
بمخاسن الصيانة؛ وليتفق فيما يأتيه ويذره، ويقدمه من المهمات ويؤخره، مع المجلس
السامى، الأمير، الأجل، الكبير، المجاهد، المقدم، الأوحيد، النصير، شمس الدين،
متولى الثغر المحروس - أدام الله نعمته - فإنه نعم المعين على تدير المهمات، ونعمت
الشمسُ المشرقة في ظلم المشكلات . وليطالع بالمتجددات في الثغر المحروس، ليرد
الجواب عليه عنها بما يشرح الصدور ويُطيب النفوس؛ وليتناول من الجامكية
والجراية عن ذلك في غرة كل شهر من استقبال مباشرته ما يشهد به الديوان المعمور
لمن تقدمه من النظائر بهذه الجهات، وهى نظر الثغر وما أضيف إليه على ما شرح
أعلاه .

المرتبة الثانية

(أن تفتح الولاية بلفظ « أما بعد حمد الله » أو « أما بعد فإن كذا »

ويؤتى بما يناسب من ذكر الولاية والمولى ، ثم يذكر ما سنع

من الوصايا ، ثم يقال « وسبيل كل واقف عليه »)

فمن المكتتب لأرباب السيوف من هذه المرتبة ما كان يكتب لبعض الولاة .

وهذه نسخة بولاية الشرقية ، وهي :

أما بعد ، فإننا لما منحنا الله إياه من معجزات النصر المستنطق الألسنة بالتسبيح ،
وآتانا من نظر حى ناصر عيش الأئمة من التصويح ، وألبسناه من ثياب العظمة
المخصوصة بأحسن التوشيع والتوشيح ، ووقفنا له من أصطفاء من تقبل عليه بوجه
التأهيل للهمات والترشيح ، وقواه من عزائنا التي ترج بها أرض الكفر وتدوخ ،
ووسعه لنا من الفتوح التي أنباؤها خير ما تصدر به السير وتؤرخ - لانزال نبالغ فيما
صان الحوزة وحاطها ، ومد رواق الأمانة ومهد بساطها ، وقرب نوازح المصالح
وجمع أشتاتها ، وأوجب أنصرام حبال اختلال الأمور واقتضى أنبتاتها .

ولما كانت الأعمال الشرقية جديرة بمتابعة الاعتناء وموالاته ، وإعراق كرم التعهد
فيما يحفظ نظامها بمغالاته ، وأحقها بأن تصرف إلى صونها وجوه المهيم الطوامح ،
ويوقف عليها حسن الاحتفال الجامع دواعى تذليل الجاه ؛ إذ كانت أجدر الأعمال
بكلالة الفروع من أوضاعها والأصول ، والباب الذى لا يجب أن يدخله إلا من
أذن له فى القدوم إليها والوصول ؛ ويتعين التحرز على الطرقات التى منها إليها
الإفضاء ، ويوكل بما دونها من المياه عيون حفظة لا يلزمها النوم والإغضاء ،

— وكنت أيها الأمير أشدَّ الأمرءِ باسا، وأوفاهم لحسن الذكر الجميل لباسا؛
وأكثرهم لمهيج الأعداء اختلاسا، وأجمعهم للحاسن المختلفة ضروبا وأجناسا؛ وقد
تناصرت على قُصودك الحسنة وإسحات الدلائل، وتحت أجيادِ خلاك من جواهر
المفآخر بقلائد غير قلائل؛ وأستطار لك أجهلُ سمعه، وفطمتُ سيوفك أبناء الكُفر
عن ارتضاعها من الملة الإسلامية ندى طمعه؛ ولا أستهمت طُرق السياسة
إلا هديت إلى مجاهلها، ولا حلاَّ التقصير سواك عن شرائع النعم إلا غدوت بكفآيتك
وارد مناهلها؛ وكَم شهدت مقام جلاله، وموقف جهاده؛ ففرقت ثوبَ مارقه نسجا،
وأدلت في ليل قسطله عوادي صوارمك شرجا، وقُمت فيا وكل إليك من أمور
الفاؤوسية وقلعتى صدرٍ وأيلة حرسهما الله تعالى قياما أحظاك بالثناء والثواب،
وأستنبت في كل منها من أجرى أمورها على الصواب — خرج أمر الملك الناصر بكتب
هذا السجل بتقليدك ولاية الأعمال الشرقية المقدم ذكرها .

فاعتمد مباشرتها عاملا بتقوى الله التي مَغْنَمها خير ما آقتاده مستشعروها لأنفسهم
وَأَسْتَأْفُوهُ . قال الله تعالى : ﴿ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَائِقُهُ ﴾
وَأَبْسَطَ الْعَدْلَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْوِلَايَةِ ، وَأَخْصَصَ أَهْلَ السَّلَامَةِ بِمَا يُسْبِلُ عَلَيْهِمْ
سِتْرَ الْحَيَاةِ وَالْحِمَايَةِ ؛ وَتَطَلَّبَ الْمَفْسِدِينَ أَمْ تَطَلَّبَ ، وَأَحْظَرَ عَلَيْهِمُ التَّنَقُّلَ فِي هَذِهِ
الْبِلَادِ وَالتَّقَلُّبَ ؛ وَمَنْ ظَنِرْت بِهِ مِنْهُمْ فَقَابِلُهُ بِمَا يُوجِبُهُ حَكْمُ جَرِيرَتِهِ ، وَبِقِتْضِيهِ
مَوْقِعُ جَرِيمَتِهِ ، وَيَجْعَلُهُ مُزْدَجْرًا لِسَالِكِي طَرِيقَتِهِ . وَشَدَّ مِنَ الْمَسْتَخْلَفِ عَلَى الْحَكْمِ
الْعَزِيزِ شَدًّا يَنْصُرُ جَانِبَ الشَّرْعِ وَيُعِزُّهُ ، وَيَكْتُرُ بِهِ عَلَى الْبَاطِلِ تَرْوِيعَ الْحَقِّ وَازْهَبَ ؛
وَأَعَانَ الْمُسْتَخْدَمِينَ فِي الْمَالِ عَلَى اسْتِيفَائِهِ مِنْ وُجُوهِهِ عِنْدَ وُجُوبِهِ ، وَبَلَّغَ كَلًّا مِنْهُمْ
مِنَ الْإِعَانَةِ عَلَى تَحْصِيلِهِ أَفْصَى مَطْلُوبِهِ ؛ وَقَوَّى أَيْدِيَهُمْ فِي تَخْضِيرِ الْبِلَادِ وَتَعْمِيرِهَا ،

وَأَبْعَثِ الْمُزَارِعِينَ عَلَى مَبَاشَرَةِ أَحْوَالِ الزَّرَاعَةِ وَتَقْرِيرِ أُمُورِهَا ؛ وَفِيهَا يُسْتَرْعَوْنَ مِنْ مَصَالِحِ الْأَعْمَالِ ، وَيُعُودُ عَلَيْهِمْ فِي مَوْجِبَاتِ الرَّجَاءِ بِمَنَاجِحِ الْأَمَالِ . وَرَاعِ أَمْرَ السُّبُلِ وَالطَّرِيقَاتِ ، وَاجْعَلِ احْتِرَاسَكَ عَلَيْهَا الْآنَ مُوفِيًا عَلَى الْمُتَقَدِّمِ مِنْ سَالِفِ الْأَوْقَاتِ ؛ وَلَا تَنْ فِي إِنْفَازِ الْمُتَخَبِّرِينَ إِلَى بِلَادِ الْعَدُوِّ ، وَتَحْدِيثِهِمْ فِي الرُّوَاكِ وَالغُدُوقِ ، بِمَا يَمْنَعُهُمْ مِنْ الْهَدُوقِ ؛ وَكَشْفِ أَخْبَارِهِمْ ، وَتَتَبُّعِ آثَارِهِمْ ، وَتَسْيِيرِ الْجَوَاسِيسِ إِلَى دِيَارِهِمْ ؛ حَتَّى لَا تَخْفَى عَنْكَ مِنْ شُؤْنِهِمْ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَجِدُوا سَبِيلَ غُرَّةٍ يَهْتَبِلُونَهَا . وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - بِالْجُمْلَةِ الْكَافِيَةِ . وَطَالِعْ بِمَا يَتَجَدَّدُ لَكَ وَمَا يَرِدُ مِنَ الْأَنْبَاءِ عَلَيْكَ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُحْتَاجُ إِلَى عِلْمِهِ مِنْ جِهَتِكَ ، وَمَا تَجْرَى عَلَيْهِ أَحْكَامُ خِدْمَتِكَ ، فَاعْلَمْ هَذَا وَأَعْمَلْ بِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة بولاية الغربية من هذه المرتبة ، وهي :

أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّا لِمَا آتَانَا اللَّهُ مِنْ سَعَادَةٍ لَطِيقِ الْإِرَادَاتِ فِيهَا تَعْيِيدُ ، وَأَسْبَغَهُ بِنَا مِنْ نِعَمٍ لَا يَعُدُّهَا التَّحْدِيدُ ، وَلَا يَحُدُّهَا التَّعْيِيدُ ؛ وَأَبْهَجْنَا بِهِ مِنْ أَكْتِنَافِ الْمَطَالِبِ بِنِجَاحٍ لَا يَعْقِبُهُ تَعْسِيرٌ وَلَا يَعْسِرُهُ تَعْقِيدٌ ؛ وَأَمْضَاهُ مِنْ عِزِّ أَمْنِنَا الَّتِي مَا فَتَكَتْ قَطُّ بِالْأَعْدَاءِ فَقَيْدَ مِنْهُمْ فَقَيْدٌ ؛ وَلَقَّاهُ الْأَمْنَةَ بِنَظَرِنَا مِنْ نَضْرَةِ عَيْشِ جَانِبِ الْحَقَافِ دَوْحِهِ الْمُخْضَلِّ ، وَأَهْدَاهُ بِتَبْصِيرِنَا مِنْ أَنْوَارِ الْهَدَى الْمُتَقَدِّمَةِ كُلِّ ذِي جَهْلٍ ظَلَّ مِنْ صَلٍّ - لِأَنْزَالِ نَسْتَوْضِحُ أُمُورَ أَمْرَاءِ دَوْلَتِنَا مُتَصَفِّحِينَ ، وَنَبْلُو أَخْبَارَ الْمُؤَهَّلِينَ مِنْهُمْ لِسِيَاسَةِ الرَّعِيَّةِ الْمُرْتَشِّحِينَ ، وَنَكْشِفُ شُؤْنَهُمْ غَيْرَ مُتَجَوِّزِينَ وَلَا مُتَسَمِّحِينَ ؛ وَنُظْهِرُ فِي أَحْوَالِهِمْ آثَارَ الْإِيثَارِ لِرَفْعِ دَرَجَاتِهِمْ ، وَأَمَارَاتِ الرَّفْعِ مِنْهُمْ مُقَابِلَةً عَلَى حَيَاظَةِ أَمْوَالٍ مَنْ نَكُونُ عَلَيْهِ وَصُونَ مِنْحَاتِهِمْ ، وَنُبَوِّئُهُمْ مَبُوءًا صَدَقَ مِنْ تَصَدِيقِ أَمَالِهِمْ وَتَحْقِيقِهَا ؛ وَنُزِفُ إِلَيْهِمْ

عقائل المَحِّ المَانِعِ شُكْرَهُمْ من تَسْيِبِ سَيِّئِهَا وَتَطْرُقِ تَطْلِيْقِهَا ؛ وَنَحْمِلُ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَا يُؤْمَلُهُ مِنْ أَجْتِهَادِهِ وَيُؤْتِرُهُ ؛ وَلَا نُلْغِي الْأَهْتَامَ بِمَا يُوْطَى لَهُمْ مِهَادَ الطُّولِ الْجَزِيلِ وَيُؤْتِرُهُ ؛ عَمَلًا بِآدَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي إِجْزَالِ حُطُوظِ الْحَسِنِينَ مِنْ إِحْسَانِ الْمَجَازَاهِ ، وَإِبْلَاهِهِمُ الْمَزِيدَ الْحَاكِمَ بِنَقْصِ أَعْتِدَادِهِمْ عَنِ الْمُوَازَنَةِ لَهُ وَالْمُوَازَاهِ ، كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ وَقَوْلُهُ هَدَى وَنُورٌ وَشَفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

وَمَا كَانَ الْأَمِيرُ (وَالنُّعُوتُ وَالِدَعَاءُ) مِنْ أَنْجِحِهِمْ فَلَا ، وَأُرَجِّحُهُمْ مَصَالًا ، وَأَصْلِحُهُمْ أَعْمَالًا ، وَأَوْصِحُهُمْ كَيْلًا ؛ وَمَا زَالَتْ أَغْصَانُ مَهَاهُ مُتَتَابِعَةً فِي بُسُوقِهَا ، وَضُرَائِبُهُ نَافِقَةٌ أَعْلَاقُ الْحَامِدِ يُسُوقِهَا ؛ وَعِزَائِمُهُ فِي إِذْلالِ الْفِرْقِ الْمَبَالِغَةِ فِي فُسُوقِهَا ، مَشْمَرَةٌ عَنِ سُوقِهَا ؛ وَمَا بَرِحَ فِي شَوْطِ الْفَخْرِ رَاكِضًا ، وَلُتْقُودِ مَكْرِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تُزِيغُ الْأَمَانَةَ رَافِضًا ، وَبِأَعْبَاءِ الْقِيَامِ بِفِرَائِضِ الْآلَاءِ نَاهِضًا ؛ وَمَا أَنْفَكْتَ مَنَاقِبُهُ تُعَيِّ بِبَيَانِ الْوَاصِفِ وَبَنَانِ الْعَادِّ ، وَمَسَاعِيهِ مُدْرِكَةٌ وَهِيَ وَادِعَةٌ مَا يَعِجْزُ عَنْ أَقْلِهِ جِدُّ الْجَادِّ ؛ وَرَأْيُهُ [يَرْتَقِ] كُلِّ مُتَفَقِّقٍ وَمُنْبَثِقٍ مِنَ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ بِسَدَادِ الرَّاتِقِ السَّادِّ ، وَجَمِيلُ ذِكْرِهِ يَفُوحُ بِمَا يَفُوقُ الْمِسْكَ فَيُثُوبُ إِلَيْهِ مِنَ الثَّوَابِ بِالنَّائِي النَّادِّ ؛ وَمَا قَتَيْ دَابُّ شَيْمَتِهِ الْإِعْرَاضِ ، عَنِ الْمُؤَبِّقِ مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ وَاخْتِيَارِ الرَّفِّقِ ، وَالْإِعْرَاقِ فِيمَا يُدِيمُهُ إِلَى فَكِّ أَعْنَاقِ أُسْرَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ سَرَى الْعَتِقِ - نَخْرَجُ أَمْرَ الْمَلِكِ النَّاصِرِ بِكُتُبِ هَذَا السِّجْلِ لَهُ بِتَقْلِيدِهِ وَلايَةِ الْأَعْمَالِ الْغَرِيبَةِ .

فَلْيَتَقَلَّدْ مَا قَلَّدَهُ مَعْتَمِدًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي صَرَفَ عَنْ مَعْتَمِدِهَا شِرْبَ التَّكْدِيرِ ، وَمَنْحَهُ مِنَ الْمَكَارِمِ عِنْدَهُ مَا يُؤَبِّقُ عَلَى التَّقْدِيرِ ؛ وَلْيَجْرُ عَلَى عَادَتِهِ فِي بَسْطِ ظِلِّ الْمَعْدِلَةِ وَمَدِّ رُواقِهَا ، وَصُونَ مَسَاحِي الرِّعَايَا عَنِ إِمْلَاقِهَا مِنْهَا وَإِخْفَاقِهَا ؛ وَالْمَسَاوَاةَ بَيْنَ

الأقوى والأضعف، والأدنى والأشرف؛ والبادي والحضار، والمناوين والأنصار؛
والخاص والعام، والأجنبي وربّ الحرمة والدمام: لينام المستورون على مهاد الأمن،
ويسلم جانب سلامة أموالهم وأرواحهم من الوهن. ويعامل المستخلف على الحكم
العزيم بما يستوجبه مثله من نصرة الأحكام «وكل إليه أمر الأمراء لمن آثرها^(١)
والإحكام» والإكرام الشامل لقدره، والأهتمام الشارح لصدّره. وليتوخّ المستخدمين
في الأموال بما يكون لعلّهم منيحا، ليصل إليهم ما يرومونه نجيحا. ويلزِم من
جرت عادته بلزوم الحدود وأجتناب تعديها، والتوقُّر على حفظ مسالكها والمترددين
فيها؛ وليطالع بما يتجدد قلبه من الأحوال الطارئة، وما لم تزل الرسوم بإنهاء مثاليها
جاريه؛ إن شاء الله تعالى.

المرتبة الثالثة

(أن تفتّح الولاية بلفظ «رُسم» ثم يذكر أمر الولاية والمولى ويوضح،

ثم يقال «وسبيل كل واقف عليه»)

فمن المكتتب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشدّ ناحية، وهي:
رُسم - أعلى الله المراسيم وأدام نفاذها - بالإنعام على الأمير فلان بما يُفيض عليه
ملابس الأصطفاء ويُضفيها، ويُسمى لقدمه في الثبات مدارج الارتقاء ويُسنيها؛
ويُعرب عن اختصاصه بالمرتبة التي يُفضّل بها على مُباريه، وأستخلصه للمرتبة التي
يفوت بها شأؤمُ مجاريه؛ ويؤهله لثغر حريم المحروس وشده، وتوليه أمورَه بكفايته
ونَهضته وحزّامته وجده؛ وقد أمرنا بتسليم قلعة حريم وأعمالها وسائر ما يختص
بها ويُضاف إليها من ضياعها ومواضعها إليه، والتعويل في ولايتها وتعميرها وتثريها

(١) كذا في غير نسخة ولا معنى له وقد تقدّم لهذا المقام أمثال ونظائر يفهم منها المقصود.

عليه ؛ بموجب ما يُفَصَّل من الديوان على ما كان جارياً فى الإقطاع المحروس للحال ،
وسبيل أهل الديوان - أيدهم الله - العمل بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتماد على
التوقيع الأشرف به ، إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك نسخة مرسوم بشد وقف ، وهى :

رُسم - أعلى الله المراسيم وأدام نفاذها - بالتعويل على الأمير فلان فى تولى
الوقوف بالجامع المعمور بجلب المحروسة ، والبيمارستان ، والمساجد ، والمشاهد
بالأماكن والمواضع ، وظاهرها وباطنها وأعمالها ، وتفويضها إليه ، والاعتماد
فى جميعها عليه ، سكوتاً إلى نهضته وكفايته ، ووثوقاً بخبرته ومعرفته وعلمها بنزاهته ،
وسداده وأمانته ، وذلك لاستقبال سنة سبع وثمانين وخمسة .

فليتول ذلك بكفاية كفيه ، ونهضة وافية ، وهمّة لأدواء الأحوال شافية ، ونظر
تام ، لشمل المصالح ضام ، وتدبير جميل فى كل خاص من أسباب عمله وعام ؛
وتقوى لله عز وجل تقوى بها يده ، ويضح بالاستقامة على سننها جدده ، ناظراً
فى الوقوف ومصاريفها ، وتتبع شروط واقفها ؛ بكل ما يعود بتعمير أعمالها ، وتمير
أموالها ، وتدبير أحوالها ؛ مطالباً بحساب من تقدمه وتحقيق مبالغه تكليلاً وإضافة ،
واحتساباً وسياقه ؛ وليطلب شواهد ، وليبين على الصحة قواعده ، وليتمس ما يصح
من بواقه من جهاتها ، وليكشف بما يوصحه من سبل الأمانة وجوه شبهاتها ؛ وقد أذن
له فى استخدام من يراه من التواب والمتصرفين والمشارفين ، والوكلاء والمستخدمين ؛
على ما جرت به العادة ، من غير زياده . وسبيل التواب - أيدهم الله - العمل بالأمر
العالى وبمقتضاه ؛ والاعتماد على العلامة الشريفة ، إن شاء الله تعالى .

المرتبة الرابعة

(أن يفتح بلفظ : «إن أحق» أو «إن أولى» أو «من كانت
صفته كذا» وما أشبه ذلك)

فإن ذلك نسخة منشور بتقابة الأشراف، وهي :

مَنْ كَانَتْ أَوْصَافُهُ شَائِعَةً بَيْنَ الْأَنْامِ ، وَصُحُفَ فُضَائِلِهِ مَشْهُورَةً لَدَى الْخَاصِّ
وَالْعَامِّ ، مَعَ شَرَفِ نَسَبِ شَاخِخِ الْأَعْلَامِ ، وَتَقَيَّ فِخْرَهُ بِعَلَى الْأَنْامِ ، وَعَلِمَ يُجْلَى بِهِ صَدَأُ
الْأَفْهَامِ ، وَعِقَّةِ سِرَائِرِهَا مُحْكَمَةُ الْإِبْرَامِ - كَانَ جَدِيرًا بِإِفَاضَةِ سَبْجَالِ النِّعَمِ عَلَيْهِ ، وَقَمِينَا
بِإِرْسَالِ سَيْلِ الْمَوَاقِبِ إِلَيْهِ .

ولما كان الشيخ فلان متصفاً بهذه الصفات الجميلة ، ومتخصّصاً بمزاياها الجليلة ؛
وضارِباً فيها بالسهم المَعْلَى ، ونازلاً منها في الشرف الأعلى ، ومتقمّصاً ثوب الإخلاص
والصفاء ، ومتشّحاً بوشاح العفة والولاء - أختصصناه بزيادة التقديم والاجتباء ،
وحبّونه بوفور الكرامة والأصطفاء ؛ وأجريناه على مستمتر رسمه بالرعاية على ذرّية أهل
العباء ، حسب عادته المستقرّة إلى آخر عهد من كانت الإيالة إليه وإلى رحمة الله
مضى : ليسيرَ فيهم بكتاب الله العظيم وسنة رسوله ، ويسلك جدد الحق الذي يوصله
من الزلْفَى إلى أقصى مناه وسُوله ؛ ويحضّمهم على تلاوة القرآن ، ومعرفة ما يوضح
للأديان . وليسوّى الحكم بين الضعيف فيهم والقوى ، ويعمّ بالإنصاف الفقير
والغنى . وليُحسِن إلى مُحسِنهم ، وليَجْرِ على فضله لمُسيئهم ؛ بعد أن يقدم إليه زجراً
ووعيداً ، ويوسعّه إنذاراً وتهديداً ؛ فإن وعى وأرعوى وإلا سلط عليه أسباب
الأذى ، وتولّاه بما يستحقّه من الحرّاء ؛ ويعيده إلى حالة الاستقامة والأستواء ،
ويكفّه عن دواعي الهوى . ومن وجب عليه حدّ أقامه فيه ، وبأدرّ إلى أعماده
وتوخّيه ، حسب ما يوجبّه حكم الشرع ويقتضيه .

وليكن رُؤوفاً بهم ما استقاموا، ومنتقياً منهم ما أعوجوا ومالوا؛ وإن وجب على أحدهم حقٌ لملىّ أو دنىّ، استخلصه منه ولم يمنعه تعلقه بنسبٍ شريفٍ علىّ؛ وإن أفتري منهم مفترٍ علىّ أحد من الملل، قابله عليه بما يزجره عن قبيح العمل: فإنّ الناس في دار الإسلام ومن هو تحت الدمام سواسية وأقربهم إلى الله تعالى من كانت سيرته في الإسلام رضيّه، وطويته في الإيمان خالصة نقيه؛ ومن حكم عليه حاكمٌ من الحكام، بحقّ ثبت عنده بالبينّة العادلة أو الإعلام، أترعه منه أو سجنه عليه، إلى أن يرضى خصمه أو يردّ أمره إلى الحاكم ويفوضه إليه .

ويحرس أنسابهم بإثبات أصولها، وتحقيق فروعها؛ ومن رام دخولاً فيه بدعوى يُبطل فيها نقب عن كشف حاله، وإظهار محاله؛ وجازاه بما يستحقّه أمثاله، ويرتدع فيما بعد مثاله: ليخلص هذا النسب الكريم، من دعوى المجهول، وأندماجه في أسرة الرسول؛ عليه أفضل الصلاة والتسليم . ويمنع من اتصال أيم من الأسرة إلى عامي، ولا يفسح أن يعقد عليها عقد إلا لكفء ملىّ: ليرأ هذا المجد الشريف من التكدير، ولا تُزيّفه شوائب التغيير .

ولينظر في الوقوف على المشاهد والدّريّه، نظراً يحمده عليه من يعلمه من البرية، ويحظيه بالثواب عند مالك المشيه . ويتدى بعمارة أصولها وأستكال فروعها، وقسمة مغلّها على ما تضمنه شرط الواقفين لها . ويحفظ على النذور، وينفقها على عاداتها في المصالح والجمهور؛ عالماً أنّ الله تعالى سائله عمّا توخّاه في جميع الأمور، وأنه لا يخفى عليه كلّ خفيّ مستور . قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ .

وَأَذِنَّا لَهُ أَنْ يَسْتَنْبِيبَ عَنْهُ فِي حَالِ حَيَاتِهِ ، وَبَعْدَ وَفَاتِهِ - فَسَّحَ اللَّهُ لَهُ فِي الْمُهَلِّ ، وَخَوَّلَهُ صَالِحَ الْعَمَلِ - الْأَرْشَدَ مِنْ بَيْنِهِ ، وَمَنْ يَخْتَارُهُ لِهَذَا الْأَمْرِ وَلَهُ يَرْتَضِيهِ . وَقَدْ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ بِإِحْرَاءِ مَا كَانَ بِاسْمِهِ مُسْتَمِرًّا إِلَى الْآنَ ، وَأَضْفْنَا إِلَيْهِ مَا يُعِينُهُ عَلَى النَّظَرِ فِي مَصَالِحِ الْأُسْرَةِ أَدَامَ اللَّهُ لَهُ عُلُوَّ الشَّانِ ؛ مِنْ تَمْلِيكِ وَإِدْرَارٍ وَتَيْسِيرٍ ، وَجَعَلْنَاهُ لَهُ مُسْتَمِرًّا ، وَعَلَيْهِ مُسْتَقَرًّا ؛ وَلَنْ بَعْدَهُ مِنْ نَسَلِهِ وَالْأَعْقَابِ ، عَلَى تَوَالِي الْأَزْمَانِ وَالْأَحْقَابِ ؛ وَحَظَرْنَا تَغْيِيرَهُ وَفَسْخَهُ ، وَتَبْدِيلَهُ وَنَسْخَهُ : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وَهُوَ مَعِينٌ مِنْ دِيْوَانِ الْأَسْتِيفَاءِ الْمَعْمُورِ ، بِهَذَا الْمُنْشُورِ الْمُسْطُورِ ، بِالْأَمْرِ الْعَالِيِ أَعْلَاهُ اللَّهُ وَأَمْضَاهُ ، عَمَّا كَانَ قَدِيمًا ، وَمَا أَنْعِمَ عَلَيْهِ بِهِ آخِرًا ، وَهُوَ الْقَدِيمُ الَّذِي كَانَ لَهُ وَشَهِدَ بِهِ الدِّيْوَانُ الْمَعْمُورُ ، وَهُوَ الْإِقْطَاعُ مِنْ نَاحِيَةِ كَذَا ، وَيُجْرَى عَلَى عَادَتِهِ فِي إِطْلَاقِ مَا قُرِّرَ لَهُ مِنْ نَاحِيَةِ كَذَا بِشَهَادَةِ الدِّيْوَانِ الْفُلَانِيِ ، وَالْمَجْدُّدِ الَّذِي أَنْعِمَ بِهِ عَلَيْهِ لِأَسْتِقْبَالِ سَنَةِ سَبْعٍ وَسَبْعِينَ وَمَا بَعْدَهَا . وَسَبِيلُ كَافَّةِ الْأُسْرَةِ الطَّالِبِيِّينَ بِمَدِينَةِ كَذَا الْإِنْقِيَادُ إِلَى تَبَاعُثِهِ ، وَالْأَمْتِثَالُ لِإِشَارَتِهِ ، وَالتَّوْفُرُّ عَلَى إِجْلَالِهِ وَكَرَامَتِهِ ؛ فَإِنَّهُ زَعِيمُهُمْ ، وَمَقْدُمُهُمْ وَرَأْسُهُمْ ؛ وَمَنْ خَالَفَهُ مِنْهُمْ قَابِلْنَاهُ ، وَبِالْيَمِّ الْعِقَابِ جَازِينَاهُ ، وَالْأَعْتَادُ فِي ذَلِكَ أَجْمَعَ عَلَى التَّوْقِيعِ الْأَشْرَفِ الْعَالِيِ أَعْلَاهُ اللَّهُ ، وَالْعَلَائِمُ الدِّيْوَانِيَّةِ فِيهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة بولاية الشرقية ، وهي :

مَا كَانَتْ الْأَعْمَالُ الشَّرْقِيَّةُ أُجْدَرَ الْبِلَادِ بِأَكِيدِ الْأَهْتَامِ وَأَخْلَقَ ، وَأَوْلَاهَا بِإِضْفَاءِ سِرِّبَالِ الْأَهْتِبَالِ الَّذِي لَا يُخْلَقُ إِذَا رَثَ سِوَاهُ وَأَخْلَقَ ؛ وَأَقْمَنَهَا بِجُسْنِ نَظَرٍ يُرْسَلُ لِرَسُولٍ عَلَى الرَّسْمِ الْأَعْنَةِ فِي إِدَامَةِ نَضْرَةِ الْعِمَارَةِ عَلَيْهَا وَيُطْلَقُ ، وَأَحَقَّهَا بِأَنْ يُرَمَّ لَهَا

سَبَبُ تَفْقُدِ لَا يَلْتَصِقُ بِهِ رَهْنٌ وَلَا يَغْلَقُ ؛ وَأَحْرَاهَا بِاعْتِنَاءِ يَقْضَى لِأَمْرِهَا بِالْأَطْرَادِ ،
وَأَوْلَاهَا بِتَعَهُّدِ يَجْمَعُ مَصَالِحَ الشُّؤْنِ آلْفَةً لِلنَّوَاءِ بِهَا وَالْمُقَامَ عَائِفَةً لِلنَّشُورِ عَنْهَا
وَالشَّرَادَ ؛ لِأَنَّهَا بَابُ الشَّامِ ، وَإِلَيْهَا تَرْدُ الْقَوَائِلُ الْمُرْتَدَّةُ مِنْهُ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ ؛ وَمِنْهَا
يَسْتَكْشِفُ الْأَخْبَارَ وَيَسْتَنْهَضُ الطَّوَالِعَ وَالْمُنْتَخَبِينَ ، وَبِمَوَاصِلَةِ التَّفْقُدِ تَعْلَمُ الْأَحْوَالَ
الطَّارِئَةَ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينَ ؛ فَتَجِبُ الْمَبَالِغَةُ فِي حِفْظِ طُرُقَاتِهَا وَمِيَاهِهَا ، وَأَنْ تَصْرِفَ
الهِمْمُ إِلَى ضَبْطِ أَحْوَالِهَا ، وَعَامَّةِ أَنْقَابِهَا وَأَتَّجَاهِهَا ، وَيُوضَعُ بِنَاءُ الْحَزْمِ فِي صَوْنِ
أَطْرَافِهَا عَلَى أَثْبَتِ قَاعِدَةٍ وَيُؤَسَّسُ ، وَيَسَالَعُ فِي إِذْكَاءِ الْعِيُونِ عَلَى كُلِّ طَارِقٍ يَتَخَبَّرُ
لِلْعُدُوِّ الْمَلْعُونِ وَيَتَجَسَّسُ ؛ وَكُنْتُ أَيُّهَا الْأَمِيرُ مِنَ الْمَشْهُورِينَ بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ ،
وَدَوَى الْكِنَايَةِ الْمُؤَفِّي ثَرَاؤَهُمْ فِيهَا [عَلَى] عَارِضِ الْإِعْدَامِ ، وَمَا زِلْتُ مَعْدُودًا مِنْ خَاصِ
الْأَتْرَاكِ الْأَعْيَانِ لِسَمِّهِ (؟) ، الْمَقْصَرُ مَجَارُوهُمْ إِلَى غَايَةِ الْبَسَالَةِ عَنِ التَّلَاقِ بِهِمْ وَالْإِدْرَاكِ
وَقَدْ تَقَدَّمْتُ وَلَا يَتَكُّ هَذِهِ الْأَعْمَالَ فَقَصَدْتُ مِنْهَا قَصْدًا سَدِيدًا ، وَأَلْحَفْتُ الرِّعَايَا
ظِلًّا مِنَ الْأَمْنَةِ مَدِيدًا - خَرَجَ الْأَمْرُ بِإِيدَاعِ هَذَا الْمُنْشُورِ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْكَ مِنْ إِعَادَتِكَ
إِلَى وَلَايَتِهَا ، فَبَالِغَ فِي اسْتِضْحَاحِ الْأَنْبَاءِ وَكَشْفِهَا ، وَرَفْعِ الْوَيْتَةِ فِي ذَلِكَ وَصَرَفِهَا ؛
وَوَكَّلَ بِهِ عَزْمَةً لَا تُلْمُ سَنَةً بِطَرَفِهَا ، وَأَنْتَ فِيهِ إِلَى غَايَةِ تَضْيِيقِ سَعَةِ الْقَوْلِ بَوْصَفِهَا ؛
وَتَابِعَ فِي تَسْيِيرِ الطَّلَائِعِ وَنَدْبِهَا ، وَعَوَّلَ مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ مِنَ الْعُرَبَانِ الْمُسْتَمْتَهِّضِينَ عَلَى
شَهْمِهَا وَنَدْبِهَا ؛ وَأَجْتَهَدَ فِي حِفْظِ الطُّرُقَاتِ وَالْمَسَاهِلِ ، وَأَسْتَنْهَضَ لِلتَّحْرُزِ عَلَيْهَا
مَنْ هُوَ عَالِمٌ بِهَا غَيْرُ جَاهِلٍ ؛ وَتَحَفَّظَ مِنْ جَلَلٍ يَتَطَرَّقُ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - عَلَى الْبِلَادِ
وَخَلَّلَ يَتَخَلَّلُهَا ، وَأَنْتَضَ لِهَذِهِ الْمَهْمَاتِ بَصَارِمٍ حَدًّا تَسْلَمُ مَضَارِبُهُ مِنْ عَجْزٍ يَفْلُلُهَا ؛
وَلَا تُبْقِي مَمَكًا فِي إِنْفَازِ الْمُنْتَخَبِينَ ، وَإِرْسَالِ مَنْ يُغَيِّرُ عَلَى بِلَادِ الْعُدُوِّ مِنَ الْخَلْبِيرِينَ ،
بِمَا [أَنْ] هَذِهِ سَبِيلُ التَّدْرِيبِ ، وَأَلْزِمَ أَرْبَابَ الْحُدُودِ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْطَارِ حِرَاسَةَ
حُدُودِهِمْ ، وَخُذَهُمْ بِاسْتِنْفَادِ وَسْمِهِمْ فِي الْأَحْتِيَاظِ وَأَسْتِفْرَاحِ مَجْهُودِهِمْ ؛ وَطَالِعَ

بما يُورد قبلك ، وأنه ما يزيد بسُرعة إجابتك عنه في الخدمة عليك ، فاعلم هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية المُرَاحية ، وهي :

خرج الأمر بكتب هذا المنشور وتضمينه : إن من أظهر خلاصة جوهره السُّبك ، وأرتفع في إشكائه بالإنصاف عن كل شك الشك ، وحصل عنده [من] الخلال الزكية نظم لا يحل وعقد لا ينفك ، وأوفى على التقدير والظن في التدبير المفرح به عن الرعية الضنك - أستوجب أن تُسند إليه حمايتهم ، وتجعل إليه كلاءهم .

ولما كنت أيها الأمير من أحمد عند تحز عزمه ، وتجريب نصل حزمه ، واعتبار فصل مقالته ، واختيار أصل أصالته ، وشكر استراره على الاتصاف بمحض الولاء ، واستدراؤه أخلاف غرر الآلاء ، واستئماره أصناف جنى الشاء ، واستقراره أكاف وهبي الاعتناء ، ولم تزل في رفعتك وحيها ، وما برح جميل الرأي يديم بعنا لتحف الإحسان نحوك وتوجيهها ، وما أنككت مجاهدتك مجاهدة في مهام إقدام تويها ، وشجاعتك مائة على الكفار كل كفاح يلقون منه كلاً ثقيلًا ويوماً كريهاً - أودع هذا المنشور ما رسم من استخدامك في ولاية الأعمال المُرَاحية .

فباشرها معتمدا على تقوى الله سبحانه التي تقوى بها أسباب توفيقك وتناله ، وتسلم أمور مباشرتك من خلل يكدر استبشارك وينكد . وأعتمد العدل على من تشتمل عليه هذه الولاية وتحويه ، وبالغ فيما يزيل عنهم الحيف ويؤويه ، وأقصد ما يقضى لسرهم بالتأمين ، ويبلغهم من تحصيل أوطانهم غاية التأميل . وأجعل أيدي المفسدين مكفوفة عن كفتهم ، ووجوه المعتدين مصروفة عن إخافتهم ؛

وتطلب الأشرار ، وتبَّع الدُّعَار ، ومن ظفرت به منهم فلا تكن عن التنكيل به ناكلاً ، ولا تُقصر في الحوطة عليه والمطالعة به عاجلاً . وعامل النائب في الحكم العزيز بإنهاضه ، وصونٍ مديدٍ باعه في تنفيذ الأحكام عن انقباضه ؛ وأعضده في إنفاذ قضاياه ، واختصاصه بإكرامٍ يقبل عليه مطلقٌ محياه . وشد من الضامن في استيداء حقوق الديوان وأستنطافها على أحسن حال من غير خروج عن الضرائب المستقره ، وعوائد العدل المستميره . وتحرز أن يكون لناهضة العدو طروقاً إلى ناحيتك أو أيتياب ، وشمرٌ لتتحفظ من مكايدهم تسميراً يزول عن حقيقته عارضُ الأرتياب ؛ ولا تُبقي شيئاً يمكن لأهل ولايتك قواعد الأمانة منهم ، وتبتل لوقايتهم أذاهم تبتل من لا ينام عنهم . وطالع بما يحتاج إلى علمه من جهتك إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية السمنودية ، وهى :

إن أولى من ولي الأعمال ، وتعلقت بكفائته الآمال ، وعُدقت به المهمات ، وأُسدت إليه الولايات ، من نطقت بمعدته الألسنه ، وأنتفت عن عين خبرته السنه ؛ وكان حسن السياسة لرعيته ، كثير العارة مددة توليته ؛ شهماً فى أستخراج الحقوق من جهاتها ، صارماً فى ردع المجرمين عن زلات النفس وهفواتها ؛ حسنة سيرته ، خالصة مناصحته وسريته .

ولما كنت أيها الأمير فلان - أدام الله تأييدك وتسديدك ، وحراستك وتمهيدك - أنت المتوشح بهذه الصفات الحسان ، المتصف بما تقدم من الشرح والبيان ، الذى نطقت شمائلك بشهامتك ، وشهدت محابلك بنبأتهك - خرج الأمر الفلانى بأن نتولى مدينة سمنود وضواحيها ، وما هو معروف بها ومنسوب إليها ؛ بشرط بسط

العدل ونشره، وإعباق عرف الحق ونشره؛ وأن تُخفف الوطأة عنهم وتفعل ما هو أولى، وتعلم أنك تُسأل من الله تعالى في الأخرى ومِنَّا في الأولى؛ وأن تصون الرعايا وتجتلب لنا أدعيتهم، وتعاملهم بما يُطيب نفوسهم ويبلغهم بغيتهم؛ حتى يتساوى في الحق ضعيفهم وقويهم، ورشيدهم وغويهم، ومليهم ودنيهم؛ وأن لا تقيم الحدود على من وجبت عليه إلا بمقتضى الشرع الشريف، والعدل المنيّف؛ وأن تُسَدَّ من ثواب الحكم العزيز، وتفعل في ذلك فعل المهذب ذى التمييز؛ وأن تحسّر عن ساعد الاجتهاد فى الجمع بين استخراج جميع الحقوق الديوانية والعمارة، وتجعل تقوى الله هى البطانة لك والظهاره؛ وأن تبدل النهضة فى استخراج الأموال، وتحصيل الغلال على التمام والكمال؛ بحيث لا يتأثر منها الدرهم الفرد ولا القدح الواحد، وتفعل فى ذلك فعل المُشفق المشمر الجاهد؛ وأن تُديم مباشرتك للأقصاب فى حال برشها وزراعتها وتربيتها وحماها، واعتصارها وطبخها، وتزكية أثمارها؛ بحيث لا تكل الأمر فى شىء من ذلك إلى غير ذى ذمّة بمفرده، ولا إلى من ليس بذى خبرة لا يعلم مُشقى التصرف من مُسعدِهِ. وقد جعلنا لك النظر على جميع النواحي الجارية فى ديواننا بالوجه البحرى خاصة لتنظر فى أمرها، وتزجر أهل الخنايات بها؛ وتفعل فيها كل ما يحدُّ به الأثر، ويطيب بسَماعه الخبر.

فتقلد ما قلدت، وقم حق القيام بما إليه نُدبت؛ وأعمل فيه بتقوى الله فى سرك وجَهرك، وقدم الخوف من الله على جميع ما تأتيه أو تذرهُ من أمرك؛ وتَسأله شاكرًا لما أسديناه إليك، متمسكًا بما أوجبناه عليك؛ فإن الشكر يُوجب مزيدك، ويكثر عديدك.



وهذه نسخة بولاية النستراوية، وهى :

من عادتنا فى التدبير وشيئتنا، وسنتنا فى السياسة وسيرتنا؛ إسباغ المواهب والنعم، وتنقيل عبيدنا فى مراتب الخدم؛ أسترشادا بأسلافنا الملوك وأقدياء، وأستضاءةً بأنوارهم المشرفة وأهتداء .

ولما كنت أيها الأمير من عرفت بسالته ، وأشتهرت شجاعته وصرامته ؛ وأستحق أن يُحظ بعين الرعايه ، وأن يشرف بالأرتضاء للتعويل عليه فى ولاية ، - رأينا - وبالله توفيقنا - أستخدامك فى ولاية الأعمال النستراوية ، وخرج أمرنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجل بتقليدك ذلك ، وتضمينه ماتعتمد عليه ، وتنتهى إلى المثل لك فيه .

فتقلد ماقلدته حاملا بتقوى الله فيما تُسرّه وتُعَلِنُه ، معتمداً فيها غاية مايسطيعه المكلف ونهاية ما يمكنه ؛ فالله تعالى يقول إرشاداً للمؤمنين وتمهيماً : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصَدِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ . وساو بين القوى من هذه الولاية والضعيف ، ولا تجعل فى الحق فرقاً بين المشروف والشريف ؛ وأمدد على كافتهم رواق السكون والأمنه ، وأجرهم فى المعدلة على العادة الجميلة الحسنه ؛ وأعمل فى إقامة الحدود على من تجب عليه ما يُوجبُه كتابُ الله الكريم ، وتقضى به سنة نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ؛ وأدأب فى حفظ السبل والمسالك ، وأجهد فى ذلك الاجتهاد الذى يجب على أنظارك وأمثالك ؛ ومتى ظفرت بمن يؤذى مسافراً، أو يخيف وارداً أو صادراً ؛ فطالع بحاله يُمثل لك فى التمثيل بما تعتمده ، وتؤمر فى شأنه بما تنتهى

إليه وتقصده . وراع المستخدمين على الحكم والدعوة فهما يتوليان ما بإعزازه يقوم
منار الإسلام ، وتجري أمور الشريعة على أجمل وضع وأحسن نظام . وخذ
المستخدمين في الأموال الديوانية بالأجتهاد في العماره ، وحمل المعاملين على ما توجبه
المعدلة والحرص على ما وقر الأرتفاع ، وحماه من أسباب التفريط والضياع ،
واستمض الرجال المستخدمين معك فيما ترى ندهم إليه ، واستنهاضهم فيه ، فاعلم
هذا وأعمل به ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية الإسكندرية ، وهي :

أهتامنا بما حاط ثغر الإسكندرية - حماه الله تعالى وحصنه ، ومنحه أتم حظ
التفقد وأكله وأجمل وضع التعهد وأحسنه ، وقوى سبب استقامة شؤنه وأتساق
أموره ومكثه ، ومد ظل الدعة والسكون على كافة من تديره وسكته ، وحفظ
عليه نظام النضاره ، وأماط عنه مكروه الأحوال الضاره ، وأنام أهله على مضجع
الأمن ومهاده ، وحكم بإحلالهم تجود الأتحاد على المصالح وإجلالهم عن وهاده ،
وحى سوام أموالهم من مشروب ورد أجاج ومرعى نبت وخيم ، وحباهم من
رسوم الإحسان وعوائده مالا ينطق لسأ على زوائده بترخيم ، وملا آمال الأعداء
عن التطرق إليه إخفاقاً ، ورد نصول سهام مكابدهم عنه على ما عهد من فضل الله
سبحانه أفاقاً - إذ كان من أجل الثغور الإسلامية أوزاراً ، وأسبقها إلى غاية
التفضيل آتداراً ، وأكثرها بمن حواه من صدور الدين وأئمة المسلمين أفتخاراً ،
وأفضلها محلاً ولم يزل مفرع السفار من كل جهة رسلاً وتجاراً - أوجب أن نُسند
ولايته ، ونرد كلاءته ، إلى من يجرى في التدبير على حكم سياسته المعلوم بالحسن

الأخذ بيدِ المظلوم ، ويُقومُ بحسن التفويض والإيثمان ، ويعطى بدلَ السَّلامة من حقوق انتقامه عهدَةَ الأمان ؛ ويسلكُ فيما يُعَدَّق به طريقَ السَّداد ويلزم نَهجه ، ولا يمكنُ أن يكونَ له على غير الصواب معارجٌ ولا عرَجُه ؛ ويأخذُ في كلِّ أحواله بوثائقِ الحزم ، وتُحلُّ له أعمالُه الصالحةُ من مَثوى المنازل الرفيعة ما هو على غيره من الحرامِ الجزم .

ولما كان الأميرُ المعنىُّ بهذا الوصفِ الواضحِ البيانِ ، المتكافئةَ في ذِكر مناقبه شهادةُ السَّماعِ والعِيانِ ؛ الكائى ما يُناطُ به بقلْبِ المعىِّ وطَرْفِ يَقْظانِ ، الحالُّ من الورعِ فى أسمى مكانٍ وأعلى مَظانِ ؛ الجامعِ فى إقامةِ شرعِ الإخلاصِ بينَ الفرائضِ والسُّننِ ، الموفيةَ عزائمُه على مضاربِ المهتدةِ التى لا تبقى منها ما نعاتُ الجُننِ ؛ الفائحِ من نبيِّه ما تُؤثرُ صحاحُ الأنباءِ عن عَيسلِ نَسيمه ، الجديرِ بما يُرْفُ إليه من عقائلِ جزيلِ الإنعامِ وجَسيمه ؛ وقد أبان فى ولايتهِ بمطابقتِه بينَ شدِّته ولينِه ، وإقامةِ منارِ الإنصافِ المُعربِ عن أمتدادِ باعه فى الحربِ وأنقباضِ يمينِه ؛ وإروائه كافَّةَ أهلها من تَميرِ العونِ على استتبابِ الأمورِ ومَعينِه - خرج أصرُّ الملكِ العادلِ بتقليده ولايةَ نَغرِ الإسكندريةِ حماه اللهُ تعالى والبحيرةِ .

فليتقلدْ ماقلده إياه ، ويباشره منشرحاً صدره متهللاً محياه ؛ وليعتمدْ على تقوى الله التى هى خير عتاد ، وأفضل ما أعتد عليه فى الحياةِ الدُّنيا ويومَ يقومُ الأشهاد ؛ وهى نِجاةُ أهلِ اليقينِ ، وفوزُ المتقينِ ، قال اللهُ تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وليبالغْ فى نَشْرِايةِ العدلِ ومدِّ جناحه ، وتعفِيةِ أذى الجورِ وأجتياحه ؛ وليشملِ الصغيرِ والكبيرِ من أهلِ هذه الولايةِ برداءِ النصفه ، ويعاملهم بالجميلِ الموفى على

الصفه ؛ ويقم الحدود على مستوجبها ، وينته إلى الغاية في تجنب إضاعتها وتوقفها ؛
 وليدل على المفسد عين من يتبع وقوعهم في قبضته ويتطلب ، ويقابل كلاً منهم
 بما يرى متعقبا بإيماض برق المعاقبة غير خلب ؛ ولا يبقى ممكنا في التنقيب على
 مرتكبي الآثام ، والمرتكبين على سفك الدم الحرام ؛ ومن ظفر به منهم فليحكم فيه
 شبا ظفر الانتقام ونابه ، ويقال له من الردع بما يؤمن من معاودة عادات التعدي
 على كل حقير ونابه . وليجر على عادته فيما يسير عنه أحسن السمع ، ويشهد له بالنتزه
 عن خبيث الطعمة وقبيح الطمعه . ويشد من القاضي متولى الحكم فيما يصدده
 ويورده ، ويحلّه ويعقده ، ويمضيه من الأحكام الشرعية ، ويعتمده في القضايا بما
 لديه من الألية . ويعاضد المستخدمين في الأموال معاودة ثمره ، وتمى الارتفاع
 وتوفره ، وتعود على الديوان بالحظ الوافي ، وتغرب عن كونه بمثل هذه الولاية نعم
 الكف الكافي . ويعامل التجار على تباين بلدانهم ، واختلاف ألسنتهم وألوانهم ،
 معاملة يجمل أثرها ويحسن ؛ ويتلقهم ببشر وطلاقة تنطق بشكر استبشارهم بها
 الألسن ؛ ويحفظهم في أنفسهم وبضائعهم ، ويستنفد الوسع في دفع مضارهم
 وروائعهم . ويعتمد بعث رجاله على الاستعداد للجهاد ، والتأهب لقرع الأضداد .
 وينته إلى الغاية فيما يزيل منهم اعتذارا ويزيح اعتسلا ، ويوجب لهم الاقتدار على
 مكافحة عدو إن طرق الثغر والعياد بالله تعالى .



وهذه نسخة بولاية برقة ، وهي :

من حق الأطراف المتناهية في بعد أقطارها ، والبلاد الشاسعة عن نواء المملكت
 ومحل استقرارها ، التي انتظمت في سلك أعمال المملكة الناصرية وانخرطت ،

وَأَسْتَدْرَكْتُ مَعْدَاتِهَا لِمَنْ حَوَتْهُ فَوَائِدُ الْفَوَائِدِ الَّتِي سَلَفَتْ وَفَرَطْتُ - أَنْ يُدِيمَ أَكِيدُ
الْأَهْتَامَ لَهَا التَّحْصِينَ وَالتَّحْسِينَ ، وَلَا يُغِيبُ أَهْلَهَا مَا يَغْشَاهُمْ مِنَ الْمَلَاخِظَاتِ مُصْبِحِينَ
وَمُسِينَ ؛ وَتُرْجَى لَهَا سِحَابُ كَرَمِ التَّعَهُدِ عَهَادَهُ غَدَقًا ، وَيُعْمَلُ الْأَوْلِيَاءُ فِي حَيَاطَتِهَا
مِنَ الْعُمُودِ أَلْسِنَةً وَيُدْكَوْنَ دُونَهَا مِنَ الْقَنَاقِدِ ؛ وَيَفُوضُ أُمُورَهُمْ إِلَى مَنْ تَخَفُ
عَلَى يَدِهِ كَلْفَتَهُمْ ، وَتَجْتَمِعُ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ أَلْفَتَهُمْ ؛ وَيَشْتَمِلُ مِنْ عِنَايَتِهِ عَلَيْهِمْ آسْتِمَالُ
الصَّدْفَةِ عَلَى الْقُلُوبِ ، وَتَنْبَلُهُمْ مَهَابَتُهُ مِنْ كَفِّ عَدْوَى الْعِدَا كُلِّ مُؤَثِّرٍ مُطْلُوبِ .

ولما كنت أيها الأمير من أُمير سَالِكِي هَذِهِ الطَّرَائِقِ ، وَأَمْتَلِ فُرْسَانَ الْحُرُوبِ
وَحِمَاةَ الْحَقَائِقِ ؛ وَأَشْجِعِ الْمَجَاهِدِينَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ، وَأَجْسِرِهِمْ عَلَى إِصْلَاءِ الشَّرِكِ
ضِرَامِ فَتِكِ لَا يُخْشِي إِصْلَادَ زِنَادِهِ ؛ وَلِكِ السِّيَاسَةِ الَّتِي تُرْتَّبُ بَيْنَ الْأَسْوَدِ وَالظُّبَاءِ
أَصْطِحَابًا ، وَالْمُخَالَصَةِ الَّتِي لَا تُنَاجِي إِذَا وُصِفَتْ بِالْتَعَالَى فِيهَا وَلَا تُنَاجِي - خَرَجَ أَمْرُ
الْمَلِكِ الْعَادِلِ بِكُتُبِ هَذَا الْمَنْشُورِ لِكَ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْكَ بِوِلَايَتِهِ وَإِقْطَاعِهِ : وَهُوَ بَرَقَةٌ
بِجَمِيعِ أَعْمَالِهَا وَحُقُوقِهَا : مِنَ الْعَقَبَةِ الصُّغْرَى وَإِلَى آخِرِ حُدُودِهَا ، وَبِمَا أَمَرَ بِهِ كَأَفَّةِ
الْعُرَبَانَ الْمُقِيمِينَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ ، وَجَمِيعِ أَهْلِهَا مِنْ حَاضِرٍ وَبَادٍ : مِنَ الْإِعْلَانِ لِكَ بِشِعَارِ
الطَّاعَةِ ، وَصَوْنِ مَا يَلْزِمُهُمْ أَدَاؤُهُ إِلَيْكَ مِنْ فُرُوضِ النَّصْحِ عَنِ الْإِضَاعَةِ ؛ وَأَنْ يَبْدُلُوا
فِي مَوَافِقَتِكَ غَايَةَ الْأَجْتِهَادِ ، وَيَعْتَمِدُوا مِنْ أَمْتَالِ مَرَا سِمِكَ أَحْسَنَ اعْتِمَادٍ ؛ وَيَحْذَرُوا
مِنَ الْعَدُولِ عَنِ أَمْرِكَ ، وَيَحْتَنِبُوا مُخَالَفَةَ نَهْيِكَ وَزَجْرِكَ .

فَاسْتَمْسِكْ بِجِبِلِّ التَّقْوَى الْفَائِزِ مِنْ يَعْتَصِمُ بِهِ وَيَتَعَلَّقُ ، وَاسْتَشْعِرْ مِنْ خَيْفَةِ اللَّهِ
مَا يُشْرِقُ لِأَجَلِهِ عَلَيْكَ نُورُ الرِّضْوَانِ وَيَتَأَلَّقُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْمَكْنُونِ :
(إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ) . وَعَامِلْ أَهْلَ هَذِهِ الْوِلَايَةِ بِالْإِنصَافِ ،
وَأِيَّاكَ وَمَكْرُوهَ الْعَدُولِ عَنِ حَجَّةِ الْعَدْلِ وَالْإِنْخِرَافِ ؛ وَتَوَقَّ الْعَسْفَ بِهِمْ وَالْحَيْفَ

عليهم ، وأجتنب الترخيص لأصحابك في مد يد أحد منهم بعدوان إليهم ؛ وسرفيهم
سيرة ترؤف بهم وترؤف ، وجانب سبيل من تقوم عنده أسواق اختلاف المتخترصين
وتنفق ؛ ولا تخرج في تدبير الأمور عن قانون الشريعة ، ولا تجعل لك إلى فوز الآخرة
عن تقديم العمل الصالح من ذريعه . وغل عنهم أيدي حاضري المفسدين وبأديهم ،
وأبنيهم بالمهابة عن إصرارهم على المنكرات وتماديهم ؛ وكل بهم عزما رادعا لهم
وازياء ، ونكل بمن ظفرت به منهم تنجيلا يزجر من يظلل بجر الضلال نازعا . وشد
من خلفاء الحكم العزيز في تنفيذ قضاياه ، وخصهم من الكرامة بما تقتضيه إقامة
مناره وإنارة مزاياه . وأعتد ما يعيد الحقائق بوجوه ناضره ، ويرد الأباطيل
بصفتة خاسره . وراع أمور التجار والحجاج مراعاة شملهم في السفر والإقامة ،
وتحيمهم من تطرق استهانة إلى أحد منهم واستنصامه ؛ وطالع بما يتجدد من أحوال
خدمتك ، وما يحتاج إلى علمه من جهتك ؛ إن شاء الله عز وجل .



وهذه نسخة بولاية الفرما ، وهي :

نحن لما ضاعفه الله لدينا من إحسانه وأجزله ، وعدقه بنا من تدبير أمور الخلق
وأسنده إلينا ووكله ، نعتمد عبيدنا بتوفير الرعاية لهم والإكرام ، ونحافظ على ما يغمرهم
من شامل الإفضال وسابغ الإنعام ؛ فتقدم للخدم من خطبها بخلوص طاعته ، ونؤهل
للرتب من أبانت شيمه عن خبرته ومناصحته .

ولما كنت أيها الأمير ممن ظهرت مشايعته ومولاته ، وحسنت في مكافئة
الأعداء مشاهدته ومقاماته ، ووضحت في أفعاله دلائل النصح وبانت عليه سماته ؛
ولك مساع مشكوره ، ومواقف مشهوره ، ومقاصد هي من ما شريك معدودة

(١) وفي فضائلك مذكوره، رأينا - وبالله توفيقنا - أستخدمك في ولاية القرما والجفار :
سكوناً إلى رضا مذهبك ، وثقةً بانتظام الحال فيما يردُّ إليك ويناط بك ؛ وخرج
أمرنا إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلِّ بتقليدك الولاية المذكورة وتضمينه
مانأمر به ونزيمه ، مما يهديك إلى الصواب فتتمسك به وتعكف عليه وتلزمه .

فتقلد ما قلده شاكراً على هذه النعمى ، عاملاً بطاعة الله تعالى ومراقبته في السر
والنجوى ؛ وأعددها زادا إلى الآخرة تطمئن به القلوب وتقوى ، قال الله عز من
قائل في كتابه : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ﴾ . وأعتمد في أهل هذه الولاية
نصفه تعمهم ومعدله ، وسنهم سياسة تكون لسنة الخير مؤكدة لسنة الجور
مبدله . ومائل في الحق بين قويهم وضعيفهم ، ولا تجعل مزية في الواجب
لشريفهم على مشروفهم ؛ وأنصف للظالم من المعتدى الظالم ، وأعمل بالكتاب
والسنة في الحدود التي تقيهما على ذوى الجرائر والجرائم ؛ وأنصب لحفظ
الطرق ، وصون الصادرين والواردين في جميع الأوقات ؛ ونكل بمن تظفر به من
المفسدين ، وأجعله عظةً لأمثاله من الظالمين والمعتدين ؛ وعاضد الناب في الحكم
العزير معاضدة تقضى بإعزاز الجانب ، وساعده مساعدة تنفذ بها أحكامه على قضية
الواجب ؛ وكذلك متولى الدعوة الهادية فهى مصباح الزمان ، وبإشادة ذكره تقوى
دعائم الإيمان ؛ فاجتهد في تمييز متوليا وإكرامه ، وبلغه في ذلك غاية مطلوبه
ومرامه . وتوقر على الشد من المستخدمين في الأموال ، وراع [ما يحسن] لدينا فيما
تنظر فيه من الأعمال ؛ وأحرص على ما عاد بوفور ارتفاعها ، وأجر أحوالها على أفضل
رؤومها وأوضاعها ؛ بحيث يكون العدل منبسطاً منبثاً ، والحيف منحسماً مستأصلاً
مجتثاً ؛ وأجل صحبة الرجال المستخدمين معك ، وأحسن معاشرتهم مع مطالبتهم بملازمة

(١) كانت عدة قرى ومن مدنها العريش والورادة ورغ وقطية وقس والزعقا . انظر معجم البلدان .

الخدمه ، وأستنهاضهم فى الأمور الشاقّة المهيّمه ؛ فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع بما
تحتاج إلى المطالعة به ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة بولاية عسقلان ، وهى :

من شيمنا التى غدّت للصالح ضوا من ، وعلت فكلّ متناول عندها متطامن ؛
وهممنا الكافلة [للرعيّة] بما يُقرّ عيوننا ، والقاضية للخاصّة والعامة بما يوجب طمأنينتها
وسكونها ؛ أنعمنا النظر فيما نرعاها به ونسوسها ، وأعملنا الفكر فيما يستقيم به أمرها
ويزول معه بوسها ؛ فيقف [بنا] الاجتهاد فى ذلك على محجة الصواب التى لا ضلال
فى سلوكها ، ويُفضى منا الحرص إلى غاية لم يبلغها أحد من مدبرى الدول وملوكها ؛
فنتخب لخطر الخدم من كان قسوما بها مستقلا بأصارها ، ونتجب لجليل الربّ
الأعيان من أمراء دولتنا وأنصارها ؛ حفظا لما استحفظناه من أمور العباد والبلاد ،
ورفعا لعماد الصلاح وحبنا لمواد الفساد .

ولما كنت أيها الأمير من الأولياء الذين صفت فى المخالصة ضمائرهم ، وحسنت
فى الطاعة عقائدهم وسرائرهم ؛ ونالوا من نبيه الحظّ ما أطنب الواصف فيما يذكره منه
ويرويه ، وأحمدوا المناصحة فيما رقاوا فيه من درج التنويه ؛ وقد استكفيت مهمات
من الخدم فكفيت همها وخففت ثقلها ؛ وأهلت لولايات سنية فحملت كآها ،
وكنت مستحقا لها وأهلها ؛ فلك موات حميدة من حسن المقاصد ومشكور المساعى ،
وحرّمت أكيدة ظلت على أصطفائك من أوفى البواعث وأقوى الدواعى ؛ وكانت
مدينة عسقلان - حماها الله تعالى - ثغر الإسلام الذى لا تفرله فى الشام سواه ،
والرباط الذى من كان به فقد نال الثواب الجزيل وأحرزه وحواه ؛ وهو فى عيون
الكفار - خذلهم الله - نكته ، وأسباب طمعهم فيه منة طعة بحاماته منبته ؛ ونحن

(١) نُوفِرَ أَهْتَامَنَا عَلَيْهِ رَعَايَةً لِمَكَانِهِ الْمَسْكِينِ ، وَنَتَصَى الْكُفَاةَ لِتَوَلَّيْهِ تَوْصِيلاً إِلَى النَّكَايَةِ فِي الْمَشْرُوكِينَ ؛ وَهُوَ مَعْقِلٌ لِلْسَّامِينَ الْمُجَاهِدِينَ وَرِدِّ ، وَجُاورِ وَهُ قَوْمُ لُدِّ ، وَأَمْرُهُمْ أَمْرٌ إِدِّ ، فَيَجِبُ أَنْ يُرْتَادَ لَضَبْطِهِ النَّدْبُ الَّذِي لَا تُهْتَبَلُ غِرَّتُهُ ، وَيُسَامَ لِحَفْظِهِ الْعَضْبُ الَّذِي لَا تُسْقَى ضَرْبَتُهُ ؛ وَيُخْتَارُ لِمَوْنِهِ الشَّهْمُ الَّذِي تَقِفُ عَلَى الْمَصَالِحِ هَمَّتُهُ ، وَتُنْفَذُ فِيهَا عَزْمَتُهُ ؛

وَحِينَ كَانَتْ هَذِهِ الصِّفَاتُ فِيكَ مَوْجُودَةً ، وَظَلَّتْ مَحْسُوبَةً مِنْ خَالَكَ مَعْدُودَةً ؛ رَأَيْنَا - وَبِاللَّهِ تَوْفِيقَنَا - مَا نَحْرَجُ بِهِ أَمْرُنَا إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْسَاءِ مِنْ كَتَبِ هَذَا السَّجَلِّ بِتَقْلِيدِكَ وَلايَةِ هَذَا الثَّغْرِ وَضَوَائِحِهِ ، وَعَمَلِهِ وَنَوَاحِيهِ ؛ ثِقَةً بِمَشْهُورِ مَضَائِكَ ، وَعِلْمًا بِإِبْرَارِكَ عَلَى نَظَائِكَ .

فَتَقَلَّدْ هَذِهِ الْخِدْمَةَ عَارِفًا قَدْرَ مَا حَوَّلَتْ مِنْهَا ، وَعَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ وَخِيفَتِهِ فِي جَمِيعِ مَا تَأْمُرُ بِهِ وَتَنْهَى ؛ فَإِنْ تَقَوَاهِ الْجُنْسَةَ الْوَاقِيَةَ ، وَإِنْ خِيفَتَهُ الذَّخِيرَةَ الْبَاقِيَةَ ؛ وَقَدْ وَعَدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ بِتَسْيِيرِ الْأُمُورِ ، وَتَكْفِيرِ السَّيِّئَاتِ وَإِعْظَامِ الْأُجُورِ ؛ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ . ثُمَّ قَالَ : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَكْفُرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا ﴾ . وَاسْتَعْمِلِ الْعَدْلَ فِي جَمِيعِ مَنْ يَشْتَمَلُ عَلَيْهِ عَمَلُكَ ، وَيَجْرِى عَلَيْهِ تَوَلُّيكَ وَنَظْرُكَ ؛ وَسَاوِ فِي الْحَقِّ بَيْنَ الضَّعِيفِ وَالْقَوِيِّ ، وَمَائِلِ فِي الْحُكْمِ بَيْنَ الْقَرِيبِ وَالْقَصِيِّ ؛ وَإِذَا ثَبَتَ عَلَى شَرِيفِ حَقِّ فَلَا تُجَاهِيهِ لُرُبَّتْنَاهُ ، وَإِذَا ثَبَتَ لَوْضِعِ نَفْذِهِ مَنْ لَزِمَهُ وَأَسْتَقَرَّ فِي جِهَتِهِ .

وَأَعْتَمِدْ مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ مَا يَسْتَنْطِقُ بِالثَّنَاءِ عَلَيْكَ أَلْسِنَةُ الْمَادِحِينَ ، وَيَنْظُمُكَ فِيمَنْ عَنَاهُمْ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ

(١) فِي الْقَامُوسِ وَغَيْرِهِ « أَنْصَيْتَ » أَيْ بِالضَّادِ الْمُهْمَلَةِ « الرَّجُلُ آخِرَتَهُ » فَذَبْهَ .

وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾

وأقيم الحدود على من لزمته بما أمر الله به إقامة [تجربى بها] مجرأها ، وتوقّ
الزيادة فيها والتقصّ توقّي من يتمثل المجازاة كأنه يراها . وهذا النفر لمحله وسمو
مقداره ، وقرب العدو منه ودنو داره ، لا يُقنع له بمركزيته ، ولا يُكتفى في حقه
بمرايئته وقراريته ، فنحن نسير إليه العساكر المظفّرة دفعتين في كل سنة على حكم
البدل : فيرده عسكر جديد مزاح العلة ، كسيف العده ، وافر العده ، يؤثر أن يظهر
أثره ، ويحافظ على ما يطيب به ذكره وخبره ، فبث السرايا وشن الغارات ، وضيق
على العدو فسيح النواحي والجهات ، وجّهز إليه من يُخيفه في مآمنه ، وأبعث عليه
من يطرقه في أحرز أما كنهه ، وأندب من يطالعك بخفي أخباره ، ويظهر لك باطن
أموره ومستور أسرارها : لتتمز فيه الفرصة إذا لاحت محالها ، وتبادر الغفلة منه
إذا ظهرت دلائلها . وأجعل للتطوعين من الكنانيين نصيبا من ثواب الجهاد ،
وأجملهم على أستفراغ الوسع بغاية الحرص والاجتهاد ، وأفعل في هذا الباب
ما تتضاعف به مواد الأجر ، وتتسخ به الأوزار كما ينتسخ الظلام بضياء الفجر ،
وأعضد متولّي الحكم العزيز عضدا يعلى أمره ، ويسد أزره ، ويجرس نظامه ،
وينفذ قضاياه وأحكامه ، وكذلك متولّي الدعوة الهادية - ثبها الله تعالى - فاعتمده
بما يشرح صدره فيما يوصحه للؤمنين ، ويهدى به المستجيبين والمتدينين ، ووقر موقر
أهتمامك على مرافدة من يتولّى أمر المال وما يجرى في الخصاص لتبدر أخلاقه ،
ويزكو ارتفاعه ، وتغزر مادته ، ويتوفر مستخرجه ، ويحتمى من خيانة وتحيف ،
ويسلم استيداؤه من تريت وتوقف . وأستنهض الرجال المستخدمين في الأمور
السوايح ، وصرفهم فيما ترى تصرفهم عليه من أسباب المنافع والمصالح ، وأستمطر

الإحسان لمن أحدثت طريقته ، وقوم بالتأديب من ذمت فعله وكرهت سيرته ؛
فاعلم هذا وأعمل به ، وطالع بما يحتاج إلى المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله عز وجل .



ومن المكتتب بالوظائف الديوانية من هذه المرتبة نسخة توقيع بنظر
الدواوين ، وهى :

أحق الأعمال بأن يُعَمَّ فيها النظرُ الشافى ، ويُندَبَ لحملِ عبئها الأمين الكافى ،
ويُجَالُ النظرُ فى تقليدها للقيمِّ بأمرها ، ويعمَلُ الرأى لأرتيادِ القويِّ على ضبطها
وحصرها ، ما كان منها جامعاً لمصالح الدولة ، حائزاً لمهام الملكة : وهى أعمال
الديوان ، والنظرُ فى حفظ وجوه الأموال وما يُعين على استئنائها ، ويعودُ بالزيادة
فى أصول أبوابها ؛ إذ كان ذلك ملاك الأمور ، وزمام التدبير فى حفظ الجمهور ،
والمعونة العظمى على الاستكثار من الرجال الذين بهم يتمُّ حفظ البلاد وحماية الثغور .
ولمَّا سَطَّنَا البحثَ على استصلاح من نوهه لهذه المنزلة ، واستخلاص من نُحِلُّه
بهذه المرتبة ، أذانا الاختبارُ والانتقاد ، وأنتهى بنا الاعتناءُ والأرتياد ؛ إلى اختيار
الشيخ فلان : حين سَفَرَتْ له النَّباهَةُ فى الكفاية ، والوجاهَةُ فى الخبرة والدراية ؛
وجب ... (١) ... على اختصاصه بالفضل الذى تحلَّى بأدبه ، والعفاف الذى أشتهر من
مذهبه ؛ من الحِصَالِ الحميدة ، والخلالِ الرشيده ؛ والفضائل الموروثة والمكتسبة ،
والخلائق المتشقة المهدَّبة ؛ ورأيناه أهلاً لإحلال هذه المكانة ، وعدلاً قيماً باحتمال
هذه الأمانة ؛ وعلمنا أن الصنعة عنده زاكية المغارس ، والنعمة المفاضة عليه
ضافية الملبس ؛ فقلدناه أمر الديوان بحلب وما معها من البلاد المضافة إليها

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

والداخلة في حكمها : قاصي ذلك ودانيه ، وأواسطه وحواشيه ، مقدمين الاستشارة فيما نُبئده من قول ، ونعزم عليه من فعل .
وأمرناه أن يستشعر تقوى الله سبحانه فإنها الحُسنه الواقيه ، والذخيره النافعه الباقيه ، ويعتلق أسبابها فإنها المنجيه من المهالك ، الهاديئه إلى السُّبل الواضحه إذا اشتبهت المسالك ، محققا ما توهمناه فيه من تحايل الأصاله ، ودلائل الجزاله ، مصدقا ما استمحنناه من كفايته وغناؤه ، وأستوصحنناه من أستقلاله وأستقصائه .
وأن يبدأ فيرتب في كل مُعاملة أمينا من الثقات الكفاه ، مشهودا له بالنهضة والأمانة المستوفاه . وأن يزم الأعمال القاصيه والدانيه ، والبلاد القريبه والنائيه ، بالضبط المستقصى ، والحفظ المستوفي ، وبمن يرتبه عليها من الكُتاب الأُمناه ، ويستصلحه لها من الحفظه النصحاء . ويتتبع حال من بها من الثواب : فمن شهدت له التجربة بالكفايه ، ودلّ الاختبار منه على العفة والأمانة ، أستدامه في خدمه المنوطه به ، وطالع من حاله بما يقضى له حُسن النظر بحسبه ، ومن ألفاه متنكبا سبيل الأمانة ، مقارفا طريق العجز وإحليانه ، بادر إلى الأستبدال به ، وعجل قطع ما بينه من الخدمة وبين سببه . وأن يسترفع البواقي من الأموال ، في سائر الجهات والأعمال ، إلى آخر التاريخ الذي تليه مباشرته ، ويتصل بأخره مبدأ نظره وفاتحته ، موثقة أوراق ذلك بخطوط الأُمناه ، مفصلة جهاته بأسماء المعاملين والضُمناه ، حتى إذا حُلت إليه ، وصارت حجة على رافعها في يديه ، طالبه بمواقفه من هو في ذمته ، وتقدم بعد تصديقه على ذلك بمضايقتيه بعد المطالعة بجلى الحال وحقيقته . ثم يسترفع من مستوفي الديوان وعُماله شروط الضمان ورسومهم ، وقواعدهم في الضمان وعوائدهم : ليكون علم ذلك عنده مينا ، ووقت مَساس الحاجة إليه حاضرا . ويطلب بجرائد الضياع خاصها ومقطعيها المشتملة على ذكر رسومها وحقوقها ، وعدد فُدها

ومقاسها . وجرائد الخراج اللزيم لأرباب الأملاك على أملاكهم ، وتحقيق المصفوح عنه والمسامح به والباقي على الأداء فى جهته . وجرائد الجزية مفصلة فى نواحيها ، وأسماء أربابها إلى حين رفعها - وأن يطالب نواب الجزية فى كل شهر بختمة تتضمن ذكر مصارف ما يحول إليهم ، وإقامة وجوه المال الذى جمع عليهم ؛ مفصلة مميّزة الإبتاعات عن الإطلاقات ، والضّيفات عن السفّرات والإصطبلات ؛ وكذلك نواب الأهراء يسترفع منهم مايدل على مثل ذلك ، وسائر المتولين فى سائر الخدم يطالبهم بهذه المطالبه ، ويضيق عليهم فى مثل ذلك سبيل المغالطة والمواربه ؛ ويجعل مؤاخذتهم بذلك من الأمور الراتبه ، والوظائف اللزيمه الواجبه ؛ حتى يتبين له الكافى من العاجز ، والأمين من الخائن .

وليتأمل وجوه الإخراجات ، ومبلغ الإطلاقات والإدراجات ؛ ويسترفعه من مظانه مفصلاً بجهاته ، منسوباً إلى أربابه ؛ ويتقدم بكتب مؤامرة جامعة لذلك التفصيل ، دالة على المقدار المطلق فى كل سنة محكم النظر الدقيق دون الجليل ؛ وليعتمد فى إطلاق ما يطاق منها على سبيل ما يوقع به عند ذلك ، وليكن هذا من الأمور الجارية على العادة والرسم ، ويلزمه كل من نواب الديوان .



ومن المكتب منها بالوظائف الدينية نسخة تقليد بولاية الحسبة ، من إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير ، وهى :

﴿وَلَسْكَنَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ .

هذا أمرٌ يشتملُ على معنى الخُصوصِ دونَ العمومِ ، ولا يختصُّ به إلا ذُو الأوامرِ المُطاعةِ أو ذُو العُلومِ ؛ وقد منحنا اللهُ هذين الوصفينِ كليهما ، وجعلنا من المستخلفينِ عليهما .

فلنبداً أولاً بحمده الذى هو سببُ اللزيمِ ، ثم لناخذُ فى القيامِ بأمره الذى هو على كلِّ نفسٍ منه رقيبٌ عتيدٌ ؛ ولا ريبُ أن إصلاحَ العبادِ يسرى إلى الأرضِ حتى تزكو بطونها ، وتتمو عيونها ، ويشتركُ فى بركاتِ السماءِ ساكنها ومسكونها ؛ والأمرُ بذلكِ حملٌ إن لم تتوزعه الأَكُفُّ ثقلٌ على الرقابِ ، وإذا انتشرتْ أطرافُ البلادِ فإنها تفتقرُ إلى مساعدةٍ من مستنيبٍ ومستنابٍ ؛ وقد اخترنا لمدينةِ كذا رجلاً لم نألِ فى اختياره جهداً ، وقدمنّا فيه خيرةَ الله التى إذا صدقتْ يَبِّتها صادفتْ رُشداً ؛ وهو أنت أيها الشيخُ فلان .

فابسطُ يدَكَ [بقوة^(١)] إلى أخذِ هذا الكتابِ ، وكُنْ حسنةً من حسناتنا التى ثمَّ يربحُ بها ميزانُ الثوابِ ، وحقِّقْ نظرنا فيك فإنه من نورِ الله الذى ليس دونه من حجاب .

وأعلمُ أنَّ أمرَ الشريعةِ مبنىٌّ على التيسيرِ لا على التعسيرِ ؛ ولا يضعُ اللسانُ موضعَ السوطِ إلا من أوتى زيادةً فى التفسيرِ ؛ وفى سنةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم مندوحةٌ لمن لزمها ، وهى هدىٌ لمن عملَ بها ونورٌ لمن علمها ؛ ويكفى من ذلكِ قصةُ الأعرابيِّ الذى أتى حاجته فى المسجدِ فسارعَ الناسُ إليه ، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إِنَّمَا بُعِثْتُ ميسِّرينَ ولم تبعثوا معسِّرينَ ، ثم دعا بذنوبِ من ماءٍ فصبه عليه وقال : يا أبا العَرَبِ إِنَّ المساجِدَ لم تُوضعَ لشيءٍ من هذا وإنما وُضِعَتْ للصلاةِ وقراءةِ القرآنِ » .

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ٤١٦ .

فانظر إلى هذا الرفق النبوى الذى سَفَى وَكَفَى ، وَعَنَى عَلَى أثر المعصية لَمَّا عَفَا ؛
ولو عاد ذلك الأعرابى لَمَثَلَهَا لُنْقَل عن لين التهذيب ، إلى شدة التأديب ؛ وكذلك
فكن أنت فى الرفق الذى حُدِّثْت عنه ، وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمَ اللهُ مِنْهُ .

ونحن نأمرُك أن تحتسب أولاً بِلين القول لا بالألف [و] النسكير ، وأن تترفق
فى الموعظة التى هى طريق إلى الخشية والتذكير ؛ وأن لا تكون باحتسابك مُدلاً
بأنك على الصراط المستقيم ، وأن الناس بين يديك على سَنَنِ التثقيف والتقويم ؛
فإن من أكبر الذنوب ذنب الإعجاب ، والأولى لك حينئذ أن تعودَ على نفسك
بالاحتساب ؛ ومن أدبك وأدب أمثالك أن يقف فى أمره بالمعروف مع التقوى^(١)
لامع هَوَاه ، وأن لا يُفَرَّق فى إزالة المعصية أن تكون بيده أو بيد أحدٍ سواه ؛
وإذا كنت كذلك قرئك الله بمن أنزل السكينة على لسانه ويده ، وقوم له أود الناس
لتقويم أوده ، والله ينظر إلى قلب ابن آدم لا إلى عمله ولا إلى جسده . وعليك
بالمجاهدين الذين سلب عنهم ثوب العافية ، ومن آخفى منك بالاستتار فلا تكشف
عن حاله الخافية . وأما ذُور الهيئات فإن عثراتهم تُقال ، وأعراضهم لا تُدال ، ولربما
كان التجاوز عنهم داعياً إلى الانتقال ؛ وفى قصة أبى مُحَجَّجٍ وسعد ما ينبئك أن الحياء
أغنى فى الأزديجار ، وفى الناس أذنان لا قدر لها تدب عنه ورءوس تدب عما لها
من الأقدار . وهاهنا من ضروريات الوصايا ما يؤتى فى مثله بتوكيد الأقوال ، وأكثر
ذلك يدور فى المعاملات التى ألقها قومٌ دون قوم ، وأستمروا عليها يوماً دون يوم ؛
وقد أتى منها ما اتفق على العمل به كل فريق ، وأيسر ذلك إزالة النخامة من المسجد
وإمطة الأذى عن الطريق .

(١) فى القاموس آحتسب عليه أنكرومه المحتسب .

وهذه الوصايا كلها لا تفتقر فيها إلى التوقيف ، وأنت عالمٌ بوضع كلِّهما في موضعه
وغيرك الذي يتعدى إلى التحريف ؛ فامض على السنن ، وأت بالحسن ؛ وسويين
حالتيك في السرِّ والعلان ، وكن من خوف الله ورجائه بين رحلة سفرٍ وقرارة وطن .
وهذا عهدنا إليك تتقمص اليوم منه رداء جميلاً ، وستحمل غداً منه عبأً ثقيلاً ؛
وقد فرضنا لك عن حقِّ سعيك فريضةً تجدُّ بها كفافاً ، وتمنعك أن تمدَّ عينك إلى
غيرها استشرافاً ، فإنَّ العملَ الذي توليته يستغرق أوقاتك أن تكون للدنيا كاسبه ،
وتشغل نفسك بالعمل والنصب لا أن تكون عاملةً ناصبه . وإذا نظرت إلى ما نيط
بك وجدته قد استحصى الزَّمن أو كاد ، وأنت فيه بمنزلة الباني وقواعده :
« وكلُّ بناءٍ على قدر بانيه وما شاد » . ونحن نأمرُ ولأنتا على اختلاف مراتبهم
أن يرفعوا من قدرك ، ويسدِّدوا من أمرك ، وإذا استوعرَ عليك أمرٌ من
الجوانب سهَّلوا من وعرك ؛ والله قد أمر أهل طاعته بأن يكون بعضهم لبعض
من الأعوان ، فقال جل وتعالى : ﴿ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى
الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

الحالة الرابعة

(مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ما عليه مصطلح كُتَاب الزمان

بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف

والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتفويض والتواقيع ،

على ما سيأتى بيانه ، وفيه [ثلاثة^(١)] مقاصد

المقصد الأول

(فى مقدمات هذه الولايات ، وفيه مهيعان)

المهيع الأول

(فى بيان رجوع هذه الولايات إلى الطريق الشرعى)

قد تقدم فى أول الكلام على العهود أن السلطنة فى زماننا دائرة بين إمارة الاستيلاء : وهى أن يقلده الخليفة الإمارة على بلاد ويقوض إليه تديرها فيستولى عليها بالقوة ، وبين وزارة التفويض : وهى أن يستوزر الخليفة من يقوض إليه تدير الأمور برأيه وفضلها على أجهاده ، وأنها بإمارة الاستيلاء أشبه ، على ماتقدم بيانه هناك . وقد صرح الماوردى فى "الأحكام السلطانية" أنه إذا كمل فى المستولى على الأمر بالقوة بعد تولية الخليفة له مع آشماله على الصفات المعبرة فى المولى فى الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة الإسلام ، والحرية ، والأمانة ، وصدق اللهجة ، وقلة الطمع ، والسلامة من الميل مع الهوى ، والبراءة من الشحناء ، والدكاء ، والفطنة - جازله ما يجوز للخليفة من تولية وزارة التفويض وغيرها من سائر النيابات ، وجرى على من أستوزره أو أستنابه أحكام من أستوزره الخليفة

(١) بياض بالأصل والنصح من الآتى .

أو أستنابه ؛ وإن لم يستكمل الصفاتِ المعتبرة في الولاية الصادرة عن اختيار الخليفة ،
أستتاب له الخليفة لكل ولاية من تتكامل فيه شروطها .

قلت : وقد كانت ملوك بني بويه وبني ساجوق مع غلبتهم على أمر الخلفاء
ببغداد وأستيلائهم يقتصرون في تصرفهم على متعلقات الملك في الجهاد والتصرف
في الأموال ، ويكون أمر الولايات إلى الخليفة يباشرها بنفسه ، وتكتب عنه
العهود والتقاليد على ما تشهد به نسخها الموجودة من إنشاء الصابى وغيره . وكذلك
الخلفاء الفاطميون بمصر عند غلبة وزراءهم على الأمر من لدن خلافة المستنصر
وإلى أنقراض خلافتهم من الديار المصرية ، كالصالح طلائع بن رزيك في وزارته^(١)
للفائز والعاقد ، ونحو ذلك : فإن الخليفة هو الذى كانت الولايات تصدر عنه
تارة بإشارة الوزير ، وتارة بغير إشارته ، على ما تشهد به نسخ السجلات المكتتبة
في دولتهم ، على ما تقدم بيانه في الفصل الأول من هذا الباب . على أن أصحابنا
الشافعية وغيرهم من أئمة الفقهاء - رحمهم الله - قد صححوا الإمامة بغلبة الشوكة
والأستيلاء على الأمر بالفهر دون استكمال شروط الإمامة ، تصحيحاً للأحكام
الشرعية الصادرة عن المستولى بالشوكة : من العقود والفسوخ وإقامة الحدود
وغيرها ، على ما هو مذکور في باب الإمامة . وحينئذ فتكون جميع الولايات الصادرة
عن السلطان صحيحة شرعاً وإن لم يستنبه عنه الخليفة ؛ وكذلك ما يترتب عليها ،
على ما الأمر جارٍ عليه الآن .

(١) ضبطه المجد في قاموسه فقال « كقبيط » . ونقل عن الحافظ ابن حجر ضبطه بكسر الزاى وصوبه
شارح القاموس وبه ضبطه ابن خلكان في تاريخه .

المهَيِّعُ الشَّانِي

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات)

وأعلم أنه يجب على الكاتب فى ذلك مراعاة أمور .

الأمر الأول — براعة الاستهلال بذكر أسم المولى أو نعتيه أو لقبه أو الوظيفة ، أحوال الولاية ، مع استصحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخطبة ونحوها من الأفتاحات ، كما أشار إليه الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله فى كتابه "حُسن التوسل" كما تقدم ذكره فى الكلام على البيعات والعهود .

الأمر الثانى — مراعاة قطع الورق فى الجملة لكل ما يُكْتَب من ديوان الإنشاء من المكاتب والولايات وغيرها . والذى يختص بهذا المكان ذكر مقادير قطع الورق فيما يتعلق بهذه الولايات خاصة ، وهى خمسة مقادير : — أحدها قطع الثلثين ، ويختص فى الولايات بكبار التقاليد دون غيرها — وثانيها قطع النصف ، وفيه تُكْتَب صغار التقاليد ، والمراسيم المُكَبَّرَة ، والتفاويض ، وكبار التواقيع — وثالثها قطع الثلث ، وفيه تُكْتَب صغار المراسيم المُكَبَّرَة ، والتواقيع المتوسطة — ورابعها قطع العادة المنصوري ، وفيه تُكْتَب صغار التواقيع والمراسيم التى لأصحابها بعض مِيزَة لا تنهى بهم إلى رتبة قطع الثلث — وخامسها قطع العادة الصغير ، وفيه تُكْتَب صغار التواقيع والمراسيم التى هى فى الرتبة الأخيرة .

الأمر الثالث — معرفة ما يناسب كل قطع من هذه المقادير من الأقلام . وقد تقدم فى المقالة الثالثة نقلاً عن "التعريف" ما لكل مقدار من الأقلام . والمتعلق بهذا الموضوع من ذلك أن لقطع الثلثين قلم الثلث الثقيل ، ولقطع النصف قلم الثلث الخفيف ، ولقطع الثلث قلم التوقيعات ، ولقطع العادة مُطلقاً قلم الرقاع .

الأمر الرابع - معرفة اللَّقَبِ المطابقِ لرتبة كلِّ ولايةٍ وصاحبها من الألقابِ الأصولِ المتقدمِ ذكرها في الكلام على الألقاب من المقالة الثالثة . وهي المَقَرُّ، والجناب، والمجلس، ومجلس كذا على الإضافة؛ وما يُناسب كلَّ لقب من هذه الألقاب من الفروع المرتبة عليها، كوصف المَقَرِّ بالكريم العالى، ووصف الجناب تارةً بالكريم العالى، وتارةً بالعالى مجرداً عن الكريم، ووصف المجلس تارةً بالعالى، وتارةً بالسامى، وإضافة مجلس في حق أرباب السيوف إلى الأمير فيقال : مجلس الأمير، وفي حق أرباب الأقلام من العلماء وأصحاب الدواوين إلى القاضى فيقال : مجلس القاضى ، وفي حق الصُّلحاء إلى الشيخ فيقال مجلس الشيخ؛ وإنَّ لِمَنْ دُونَ هؤلاء الصِّدْرَ ويوصف بالأجل فيقال الصِّدْرُ الأجلُّ ؛ وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعا شتى ترتب عليه . وتقدم أيضا في المقالة الرابعة في الكلام على المكاتبِ الصادرةِ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية في زماننا إلى أهل المملكة مكتبة كل واحدٍ ممَّن جرت العادةُ بالمكتبة إليه، وما يختصُّ به من الألقابِ الأصولِ والفروع .

وأعلم أنَّ الولاياتِ أعمُّ من المكاتبات : فقد يكون للشخص ولايةٌ من الأبواب السلطانية وليس له مكتبة، إذ المكاتبات إنما تكون لقوم مخصوصين من أرباب الولايات . إذا علم ذلك فكلُّ من له مكتبة عن الأبواب السلطانية من أرباب السيوف والأقلام ممن تقدم ذكره في الكلام على المكاتبات إذا كتبت له ولايةٌ نُعت بالقباه ونُعوته التي بها يُكتب عن الأبواب السلطانية، إلا أنَّ الدعاء المصدَّرَ به المكتبةُ يجعل في الآخر دون الأول : فإذا كانت المكتبةُ إلى أحدٍ «أعزَّ الله تعالى انصارَ المَقَرِّ الكريم» قيل في ألقابه في الولاية «المَقَرِّ الكريم» إلى آخر ما يقتضيه الحال، ثم يقال : فلان أعزَّ الله تعالى أنصاره؛ وكذلك في البواقي . أمَّا من لم يتجر

العادة بمكاتبة إليه عن الأبواب السلطانية من يولى عنها فإن لكل طبقة ألقاباً تخصهم . ونحن نذكر الألقاب الأصول وما يتفرع عليها لكل طبقة من كل طائفة على الوضع الذى تقتضيه الولايات دون المكاتب ، ليُجرى كل من أرباب الولايات على ما يناسبه من الألقاب .

وقد علمت فيما تقدم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أن الألقاب على خمسة أنواع ^(١) :

النوع الأول - ألقاب أرباب السيوف

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تسع مراتب :

المرتبة الأولى - المقر الكريم مع الدعاء بعز الأنصار، وهى : المقر الكريم، العالى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغيائى، المناغرى، المرابطى، المهيدى، المشيدى، الظهيرى، العايدى، الناسكى، الأتابكى، الكفلى، الفلانى، معز الإسلام والمسلمين، سيد أمراء العالمين، ناصر الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحدين، ممد الدول، مشيد الممالك، عماد الملة، عون الأمة، ظهير الملوك والسلاطين، عضد أمير المؤمنين، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعز الله تعالى أنصاره .

المرتبة الثانية - الجناب الكريم مع الدعاء بعز النصرة، وهى : الجناب الكريم، العالى، الأميرى الكبيرى العالمى، العادلى، المؤيدى، الزعيمى، العونى، الغيائى، المناغرى، المرابطى، المهيدى، المشيدى، الظهيرى، الكافلى، الفلانى، عز الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نصره الغزاة والمجاهدين، زعيم جيوش

(١) المحدود ستة فتنه .

الموحدين ، مقدّم العساكر ، مَهْدُ الدُّوَل ، مَشِيدُ المَمَالِك ، عَمَادُ المِلَّة ، عَوْنُ الأُمَّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سَيْفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلاني (بلقب) الإضافة إلى لقب السلطان) أعزَّ اللهُ تعالى نُصْرَتَهُ .

المرتبة الثالثة — الجنبُ العالی مع الدعاء بمُضاعفة النعمة ، وهی : الجنبُ العالی ، الأمیریُّ ، الكبیریُّ ، العالیُّ ، العادیُّ ، المؤیدیُّ ، العونیُّ ، الزعیمیُّ ، المهدیُّ ، المشیدیُّ ، الظهیریُّ ، الکافیُّ ، الفلانیُّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمین ، سیدُ الأمراء فی العالمین ، نُصرةُ الغزاة والمجاهدین ، زعیمُ جیوش الموحدين ، مَهْدُ الدُّوَل ، مَشِيدُ المَمَالِك ، عَمَادُ المِلَّة ، عَوْنُ الأُمَّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سَيْفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلاني (بلقب الإضافة إلى السلطان) ضاعَفَ اللهُ تعالى نِعْمَتَهُ .

المرتبة الرابعة — الجنبُ العالی مع الدعاء بدَوَامِ النعمة ، وهی : الجنبُ العالی الأمیریُّ ، الكبیریُّ ، العالیُّ ، المؤیدیُّ ، الأوحديُّ ، النَّصیریُّ ، العونیُّ ، الهُمَامیُّ ، المقدمیُّ ، الظهیریُّ ، الفلانیُّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمین ، سیدُ الأمراء فی العالمین ، نُصرةُ الغزاة والمجاهدین ، مقدّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلَّة ، ذُخْرُ الدَّوَلَة ، عَمَادُ المَمْلَكَة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين ، فلان الفلاني ، أدام اللهُ تعالى نِعْمَتَهُ .

المرتبة الخامسة — المجلسُ العالی والدعاء بدَوَامِ النعمة ، وهی : المجلسُ العالی الأمیریُّ ، الكبیریُّ ، العالیُّ ، المجاهدیُّ ، المؤیدیُّ ، العونیُّ ، الأوحديُّ ، النَّصیریُّ ، الهُمَامیُّ ، المقدمیُّ ، الظهیریُّ ، الفلانیُّ ، عِزُّ الإسلام والمسلمین ، شَرَفُ الأمراء فی العالمین ، نُصرةُ الغزاة والمجاهدین ، مقدّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلَّة ، ذُخْرُ الدَّوَلَة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين ، فلان الفلاني ، أدام اللهُ تعالى نِعْمَتَهُ .

المرتبة السادسة — المجلس السامى بالياء، والدعاءُ بدوام التأييد ونحوه، وهى :
المجلس السامى، الأميرى، الكبيرى، الذخرى، النصيرى، الأوحدي،
المؤيدى، الفلانى، مجد الإسلام، بهاء الأنام، شرف الأمراء، ذنر المجاهدين،
عضد الملوك والسلاطين، فلان الفلانى، أدام الله تأييده .

المرتبة السابعة — السامى بغير ياء، والدعاءُ أدام الله رفعتَه ونحو ذلك، وهى :
المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المؤيد، الأوحده،
المرتضى، فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، نحر الأمراء، زين المجاهدين،
عمدة الملوك والسلاطين، أدام الله رفعتَه .

المرتبة الثامنة — مجلس الأمير، والدعاءُ أدام الله سعدَه ونحوه، وهى : مجلس
الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المؤيد، الأوحده، المرتضى، فلان
الدين، مجد الأمراء، زين المجاهدين، عمدة الملوك والسلاطين، فلان الفلانى،
أدام الله سعدَه .

المرتبة التاسعة — الأمير مجزدا عن المضاف إليه، وهى : الأمير، الأجل،
وربما زيد فيه فقيل الكبير، المحترم، ونحو ذلك .

النوع الثانى

(ألقابُ أرباب الوظائف الديوانية، وهى على ست مراتب)

المرتبة الأولى — الجنب العالى مع الدعاء بمضاعفة النعمة . وفيها أسلوبان :
الأسلوب الأول — ألقاب الوزراء وهى : الجنب العالى، الصحبى،
الكبرى، العالمى، العادلى، الأوحدي، الأكلى، القوامى، النظامى، الأميرى،

البليغيّ، المنفذي، المسديّ، المتصرفيّ، المهديّ، العونيّ، المدبريّ، المشيريّ،
الوزيريّ، الفلانيّ، صلاح الإسلام والمسلمين، سيّد الوزراء في العالمين، رئيس
الكبراء، كبير الرؤساء، أوحد الأصحاب، ملاذّ الكُتّاب، قوام الدُّول، نظام الملك،
مُفيد المناجح، معتمد المصالح، مُرتب الجيوش، عماد الملة، عون الأمة، مُشير
الملوك والسلاطين، وليّ أمير المؤمنين، فلان الفلاني، ضاعف الله تعالى نعمته .

الأسلوب الثاني — ألقاب كاتب السرّ، عند ما استقرّ ما يكتب له تقليدا
في قطع الثنتين، وهي: الجنابّ العالی، القاصويّ، الكبيريّ، العالیّ، العادليّ،
العلاّمیّ، الأفضليّ، الأكلبيّ، البليغيّ، المسديّ، المنفذيّ، المشيّدیّ، العونيّ،
المشيريّ، اليمينيّ، السفيريّ، الأصيليّ، العريقيّ، الفلانيّ، صلاح الإسلام
والمسلمين، سيّد الرؤساء في العالمين، قدوة العلماء العالمين، جمال البلغاء، أوحد
الفضلاء، جلال الأصحاب، كهف الكُتّاب، يمين المملكة، لسان السلطنة، سفير
الأمة، سليل الأكارب، مُشير الملوك والسلاطين، وليّ أمير المؤمنين، فلان الفلاني،
ضاعف الله تعالى نعمته .

قلت: وقد كان رتبته: المجلس العالی عند ما كان يكتب له توقيع في قطع
النصف .

المرتبة الثانية — المجلس العالی مع الدعاء بدوام النعمة؛ وفيها أربعة أساليب .

الأسلوب الأوّل — ألقاب كاتب السرّ على ما كان الأمر عليه في كتابة توقيع
في قطع النصف، ويدعى له: أدام الله نعمته، وهي: المجلس، العالی، بالألقاب
المتقدّمة له مع الجنابّ العالی، على ما استقرّ عليه الحال .

الأسلوب الثانى - ألقاب ناظر الخاص ، وهى : المجلس العالى القاضوى ،
الكبيرى ، العالمى ، الفاضلى ، الأوحدى ، الأكلى ، الرئيسى ، البليغى ، البارعى ،
القوامى ، النظامى ، الماجدى ، الأثيرى ، المنفذى ، المسددى ، المتصرفى ،
الفلانى ، جمال الإسلام والمسلمين ، سيد الرؤساء فى العالمين ، قوام المصالح ، نظام
المناحج ، جلال الأكارم ، قدوة الكُتاب ، رئيس الأصحاب ، عماد الملة ، صفوة
الدولة ، خالصة الملوك والسلاطين ، ولى أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله
تعالى نعمته .

الأسلوب الثالث - ألقاب وزير دمشق إذا صرح له بالوزارة ، وهى :
المجلس العالى ، الصاحبى ، الوزيرى ، الأجلّى ، الكبيرى ، العالمى ، العادلى ،
المؤيدى ، الأوحدى ، القوامى ، النظامى ، الماجدى ، الأثيرى ، المشيرى ،
الفلانى ، صلاح الإسلام والمسلمين ، سيد الوزراء فى العالمين ، رئيس الكبراء ، كبير
الرؤساء ، بقية الأصحاب ، ملاذ الكُتاب ، عماد الملة ، خالصة الدولة ، مشير الملوك
والسلاطين ، خالصة أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالى نعمته .

الأسلوب الرابع - ألقاب ناظر النظار بالشام ، إذا لم يكن وزيراً ، وهى :
المجلس العالى ، القضاى ، الكبيرى ، العالمى ، العالمى ، الأوحدى ، الرئيسى ،
الأثيرى ، القوامى ، النظامى ، المنفذى ، المتصرفى ، الفلانى : مجد الإسلام
والمسلمين ، شرف الرؤساء فى العالمين ، أوجد الفضلاء ، جلال الكبراء ، حجة
الكُتاب ، صفوة الملوك والسلاطين ، خالصة أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله
تعالى نعمته .

المرتبة الثالثة — المجلس السامى بالياء مع الدعاء بدوام الرفعة وما فى معناها ،
وهى : المجلس السامى ، القَضَائى ، الأَجَلِّ ، الكَبِيرى ، العَالِمى ، الفاضلى ،
الكاملى ، الرئيسى ، الأَوْحَدى ، الأَصِيلى ، الأَثِيرى ، البَلِغى ، الفلانى ؛ مجد
الإسلام ، شرفُ الرؤساء فى الأَنام ؛ زَيْنُ البُلغاء ، جمالُ الفُضلاء ؛ أَوْحَدُ الكُتَّاب ،
نخْرُ الحُساب ؛ صفوةُ الملوك والسلطين ، أدام الله تعالى رِفعتَه .

فإن كان من كتاب الإنشاء، أسقط منه « نخْرُ الحُساب » .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء ، مع الدعاء بدوام الرفعة ونحوه أيضا ، وهى :
المجلس السامى ، القاضى ، الأَجَلُّ ، الكَبِيرُ ، الصَّدرُ ، الرئِيسُ ، الأَوْحَدُ ، البارِعُ ،
الكاملُ ، الأَصِيلُ ، الفاضلُ ، فلان الدين ؛ جمالُ الإسلام ، بهاءُ الأَنام ؛ شرفُ
الأَكابر ، زَيْنُ الرؤساء ، أَوْحَدُ الفُضلاء ؛ زَيْنُ الكُتَّاب ، صفوةُ الملوك والسلطين ،
أدام الله تعالى رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مجلسُ القاضى ، وهى : مجلسُ القاضى ، الأَجَلُّ ، الكَبِيرُ ،
الفاضلُ ، الأَوْحَدُ ، الأَثِيرُ ، الرئِيسُ ، البَلِغُ ، العَرِيقُ ، الأَصِيلُ ، فلان الدين ؛ مجد
الإسلام ، بهاءُ الأَنام ؛ شرفُ الرؤساء ، زَيْنُ الكُتَّاب ، مُرتضىُ الملوك والسلطين ،
أدام الله رِفعتَه .

المرتبة السادسة — القاضى ، وهى : القاضى الأَجَلُّ . ورُبما زيد فى التعظيم
الصَّدرُ ، الرئِيسُ ، الكَبِيرُ ، ونحو ذلك .

النوع الثالث

(ألقابُ أربابِ الوظائفِ الدِّينيةِ - وهى أيضا على ستِّ مراتبِ)

المرتبة الأولى - الجنبُ العالى - وهى لمن استقر له كتابةٌ تقليدياً فى قطعِ
الثلاثين من قضاةِ القضاةِ بالديارِ المصريةِ وهو الشافعى؛ وهى : الجنبُ العالى ،
القاضوى ، الشَّيخى ، الكبيرى ، العالمى ، العاملى ، الأفضلى ، الأكلى ، الأوحدى ،
البليغى ، الفريدى ، المفيدى ، النجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحققى ، الورعى ،
الخاصى ، الناسكى ، الإمامى ، العلامى ، الأصلى ، العريقى ، الحاكى ، الفلانى ؛
جمالُ الإسلامِ والمسلمين ، شرفُ العلماءِ العاملين ، أوحدُ الفضلاءِ المفيدين ؛ قدوةُ
البلغاءِ ، حجةُ الأمةِ ؛ عمدةُ المحققين ، نخرُ المدرسين ، مفتىُ المسلمين ؛ جلالُ الحُكَّامِ
بركةُ الدولة ، صدرُ مصرَ والشامِ ؛ معزُّ السنةِ ، مؤيدُ الملةِ ؛ شمسُ الشريعةِ ، رئيسُ
الأصحابِ ، لسانُ المتكلمين ، حَكَمُ الملوكِ والسلاطينِ ، ولىُّ أميرِ المؤمنين ؛ فلان
(بنسبه) أعزُّ الله تعالى أحكامه .

وكذلك قاضى القضاةِ الحنفى بالديارِ المصريةِ عند ما استقر المكتوبُ له تقليداً .
المرتبة الثانية - المجلس العالى ؛ وبها كان يكتب لقاضى القضاةِ الشافعى
قبل أن يستقر ما يكتب له تقليداً ، بالألقابِ والنُّعوتِ السابقة له مع الجنب ؛
وكذلك الثلاثةُ الباقون باختصارٍ فى الألقابِ والنُّعوتِ ؛ وهى : المجلس العالى ،
القاضوى ، الكبيرى ، العالمى ، العاملى ، الأفضلى ، الأكلى ، الأوحدى ، البليغى ،
الفريدى ، المفيدى ، النجيدى ، القدوى ، الحجى ، المحققى ، الإمامى ، الأصلى ،
العريقى ، الحاكى ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلامِ والمسلمين ، سيِّدُ العلماءِ العاملين ،
أوحدُ الفضلاءِ المفيدين ؛ قدوةُ البُلغاءِ ، حجةُ الأمةِ ، عمدةُ المحدثين ، نخرُ المدرسين ،

مفتي المسلمين؛ جلال الحُكَّام، حَكَمَ الملوك والسلاطين، فلان الفلاني (بَنَسَبه) أعزَّ الله تعالى أحكامه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامى بالياء، وهى : المجلس السامى، القضاى، الكبيرى، العالمى، الفاضل، الأوحدى، الرئيسى، المفيدى، البليغى، القدوى، الأثيرى؛ مجد الإسلام والمسلمين، جمال العلماء العاملين، أوحد الفضلاء، صدر المدرسين، عمدة المفتين، خالصة الملوك والسلاطين، فلان الفلاني : أدام الله تعالى تابيده .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء، وهى : المجلس السامى، القاضى، الأجل، الكبير، الصدر، الرئيس، العالم، الفاضل، الكامل، فلان الدين، مجد الصدور، زين الأعيان، مرتضى الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رفيعته .

المرتبة الخامسة — مرتبة مجلس القاضى؛ وهى : مجلس القاضى، الأجل، الكبير، العالم، الفاضل، الأوحد، الصدر، الرئيس؛ مجد الإسلام، بهاء الأنام، زين الأعيان، فخر الصدور، مرتضى الملوك والسلاطين، فلان : أعزه الله تعالى .

المرتبة السادسة — مرتبة القاضى؛ وهى : القاضى، الأجل . وربما زيد فى التعظيم نحو الكبير، الصدر، الرئيس، ونحو ذلك .

النوع الرابع

(ألقاب مشايخ الصوفية — وهى على خمس مراتب)

المرتبة الأولى — المجلس العالى . وبها يكتب لشيخ الشيوخ بالديار المصرية، وهى : المجلس العالى، الشيخى، الكبرى العالمى، العالمى، السالكى، الأوحدى،

الزاهدى، العابدى، الخاشعى، الناسكى، المفيدى، القدوى، الإمامى، النظامى،
الملاذى، جلال الإسلام والمسلمين، شرف الصلحاء فى العالمين، شيخ شيوخ
الإسلام، أوجد العلماء فى الأنام، قدوة السالكين، بركة الملوك والسلاطين، فلان،
أعاد الله تعالى من بركاته .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بالياء، وهى : المجلس السامى، الشيخى،
الكبرى، الأوحدى، الأكمل، العابدى، الخاشعى، الناسكى، جمال الإسلام،
زين الأنام، صفوة الصلحاء، نحر العباد، بركة الملوك والسلاطين : أعاد الله تعالى
من بركاته .

المرتبة الثالثة — المجلس السامى بغيرياء، وهى : المجلس السامى، الشيخ،
الصالح، الزاهد، العابد، الورع، الخاشع، الناسك، السالك، فلان الدين،
مجد الصلحاء، زين المشايخ، قدوة السالكين، بركة الملوك والسلاطين : نفع الله
تعالى ببركته .

المرتبة الرابعة — مجلس الشيخ، وهى : مجلس الشيخ، الصالح، الزاهد،
العابد، الناسك، السالك، فلان الدين، مجد الصلحاء، زين المشايخ، بركة الملوك
والسلاطين : أدام الله تعالى بركاته .

المرتبة الخامسة — مرتبة الشيخ، وهى : الشيخ، الصالح، الورع، الزاهد،
ونحو ذلك : نفع الله تعالى به .

النوع الخامس

(ألقاب من قد يكتب له بولاية من رؤساء العامة من التجار وغيرهم)

وفيهما أربع مراتب :

المرتبة الأولى — المجلس السامى بالياء ، وهى : المجلس السامى ، الصدرى ، الأجلى ، الكبيرى ، الرئيسى ، الفلافى .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بغيرياء ، وهى : المجلس السامى ، الصدر ، الأجل ، الكبير ، الرئيس ، المحترم .

المرتبة الثالثة — مجلس الصدر ، وهى : مجلس الصدر ، الأجل ، الكبير ، المحترم ، المؤمن ، فلان الدين . ويقال فى ألقاب المهتارية ونحوهم : الحاج فلان .

المرتبة الرابعة — مرتبة الصدر ، وهى : الصدر ، الأجل . فإن زيد فى تكريمه قيل بعد ذلك : الكبير ، المحترم .

النوع السادس

(ألقاب زعماء أهل الذمة ، وهم ثلاثة)

الأول — بطرك النصارى اليعاقبة ، وهى : الحضرة السامية ، الشيخ ، الرئيس ، المبجل ، المكرم ، الكافى ، المعزز ، المفخر ، القديس ، شمس الرياسة ، عماد بنى المعمودية ، كنز الطائفة الصليبية .

الثانى — بطرك الملكانية ، وتختصر ألقابه عما يكتب به لبطرك اليعاقبة بعض الاختصار .

الثالث - رئيس اليهود، وهى : الرئيس الأوحُد، الأجل، الأعز، الأخص، الكبير، شرف الداوديين، فلان أبو فلان : سَدَّه الله فى أقواله ، وثبته فى أفعاله .

قلت : ومما يجبُ التنبه له أن ما تقدّم من الألقاب والتعوت المفرعة على الألقاب الأصول ليست مما يُوقَف عند حدّ، بل محتملةٌ للزيادة والنقص بحسب ما تقتضيه الحال ، ويحتمله المقال . بل ربّما ولى بعض المناصب من فيه صفات تستحق ألقابا ونعوتا خاصّةً، فيكتب له بذلك مراعاة لما يقتضيه حاله ، ويستوجبُه مقامه ، ثم يلى ذلك المنصب بعده من لا يستحق الوصف بالألقاب والتعوت التى تُخصّ المتقدّم ، فيؤتى بها للثانى : كما اتفق فيما كتبت به فى نيابة الشام حين وليها الأمير بيدمر الحوارزمي رحمه الله، وكان من الديانة على ما لا يوجد فى غيره . فكتب فى ألقابه حينئذ : العايدى، الناسكى، الخاشعى . فليزمت فيمن بعده وصارت مما يكتب به إلى الآن ، سواء أنصف نائبا يدين أم لا - وكما اتفق فى الصحاح علم الدين بن زُبور حين اجتمع له الوزارة ونظر الخصاص والجيش ، فكتب له بالقباب ونعوت جامعة لألقاب تلك الوظائف ونعوتها، فاستمر ذلك فيما يكتب به لكل من ولى الوزارة بعده إلى الآن ، حتى إنه يكتب فى ألقاب الوزير الآن « مرتب الجيوش » وهو من الألقاب الخاصة بناظر الجيش استطرادا لما كتب به لابن زُبور : لأنضمام نظر الجيش إليه على ما تقدّم - وكما اتفق فيما كتبت به للشيخ تقي الدين السبكي من الألقاب الجليلة المقدار، الرفيعة المكانة ، فى قضاء الشام لرفعة مقامه ، وأنساع باعه فى العلم ، وعلو مكانته فى الخاصة والعامة فلزم كتابة ذلك لقاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية ، من حيث إنه لا يلىق بالحال

أن يكون قاضي الشام أعلى رتبةً من قاضي الديار المصرية . ثم سرى ذلك في كل من ولي المنصب بعد ذلك ، وهلمَّ جرًّا إلى زماننا .

ومما يلحق بذلك أنه قد جرت العادة في الزمن المتقدم وهلمَّ جرًّا إلى زماننا أنه كان يكتب في الطرة لأرباب السيوف بعد الأُميرى « الكبيرى الفلانى » بلقب الإضافة إلى لقب السلطان كالناصرى ونحوه ، بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تجر العادة بأن يكتب لهم ذلك في شيء من طرة تقاليدهم ولا تواقيعهم ، إلى أن ليس القاضي سعد الدين بن عُراب الكَلوتة ، وأستقر إستادارا في الدولة الناصرية فرج ابن برقوق ، ثم أستقر مشيرا وكتب له تقليد بالإشارة كتب له في طرة تقليده بعد الكبيرى « الناصرى » لجمعه بين السيف والقلم . ثم جرى بعض الكُتَّاب على مثل ذلك في غيره من أرباب الأقلام الأكارب : كالوزير ، وكاتب السر ، وناظر الخاص ، وناظر الجيش ، ومن في معناتهم من أرباب الوظائف الديوانية . والحجة فيه ظاهرة من حيث إن كلاً من المذكورين إذا كُتِب عنه كتاب ، كُتِب في أعلاه تحت البسملة « الملكى الناصرى » وإذا كتب عنه قصّة ، كتب فيها تحت البسملة « الملكى الفلانى » . ومقتضى ذلك أن يكتب لقب الإضافة إلى لقب الساطنة في تقليده أو توقيعه على ما تقدمت الإشارة إليه من فعل بعض الكُتَّاب .

الأمر الخامس — مما يجب على الكاتب مراعاته معرفة الوصف اللائق بصاحب الوظيفة .

فيجب عليه مراعاة مايناسبه من الأوصاف التى يقع بها تقریظه ومدحه :

فإن كان نائب سلطنة وصفه بالشجاعة، والنَّجْدَة، وقُوَّة العزم، والشَّهامة، وشِدَّة الشَّكِيمة، ونُصْرَة الدِّين، وكَفِّ [الأيدي] العاديَّة، وإرهاب العدو، وقَمْع المفسدين، وإرغام أهل العُدوان، وحِمايَة الثُّغور - إن كان في نغر - ووُفُور الهَيِّبَة، وبعْد الصَّيت، وطيرانِ السُّمعة، مع بَسْط المَعْدلة والرَّفق بالرعيَّة، والرَّافة بخلق الله تعالى، والشَّفقة عليهم، والإحسان إلى الكافَّة، والأخذ بقلوبهم، والوقوف مع أحكام الشريعة، وبذل الطاعة، والمناصحة، والمخالصة، وقدم هجرته في الدولة - إن كان قديم هجرة - ومُرور الدَّول عليه - إن كان قد مرَّت عليه دول - ، وأنه نَشَأ الدولة - إن كان ابتداء أمره فيها - ، ونحو ذلك .

وإن كان نائب قلعة وصفه بالحِدْق، واليقظة، وقُوَّة الحزم، وشِدَّة التحرز، والمعرفة بأحوال الحِصار وضروب القتال وطُرُق التحصين والمدافعة، ونحو ذلك .

وإن كان وزيرا وصفه بحُسن التدبير، وجرالة الرأى، والإحتياط في الأمور، والقيام بمصالح الإسلام، وعمارة البلاد، والنهوض في المهمَّات، وكَفِّ الأيدي العاديَّة، والأخذ على يد المتعدِّى، وتتمية الأموال وتثريها، وتسهيل مايجرى من الأرزاق على يده، وبذل المجهود في معاضدة الشريعة، وشبه ذلك مما يجرى هذا المجرى .

وإن كان كاتب سرَّ وصفه بالفصاحة والبلاغة، وقيام أقلامه في التأثير في العدو مقام السيف والرَّماح، وكُتَيْبِه في تفريق الكُتَّاب مقام الجيوش والعساكر، وسداد الرأى، وكتم الأسرار، وحماية الممالك بنتائج أفكاره، وما شاكل ذلك .

وإن كان ناظر جيش وصفه بالمعرفة بأموار الجيوش وترتيبها ، وأصناف
الأمرء ، والجند ، والمستخدمين ، وترتيب مقاماتهم ، وما ينخرط في هذا السلك .

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأموار الحسب ، والنهضة في المهمات ،
والمعرفة بأحوال ديوان الخاص وجهاته ، والقدرة على تحصيل الأموال وزيادتها ،
ومعرفة ما يحتاج إليه من أصناف الأقمشة والطرز وغيرها ، مع الأمانة والعفة ،
وما يجري مجرى ذلك .

وإن كان مستوفى الصحبة وصفه بالمعرفة بفنون الكتابة ، ونظم الحسابات ،
والاحتياط في استرفاعها ، مع الضبط والاحتراز والأمانة والعفة وما هو من هذا
القييل .

وإن كان ناظر خزانة الخاص وصفه بالأمانة ، والعفة ، والمعرفة بأصناف
الخزانة : من الأقمشة ، والتشارييف ، والطرز ، ومعرفة مراتب أربابها ، وما يناسب
كل واحد منهم من أنواع التشارييف من عاليها وهابطها ، وما يطابق ذلك .

وإن كان قاضيا وصفه بغزارة العلم ، وسعة الفضل ، ونصرة السنة ، وقمع
البدعة ، والعدل في الأحكام ، وإنصاف المظلوم من الظالم ، والأخذ للضعيف من
القوى ، والنزاهة عن المطاعم الوخيمة ، والمطامع الرديئة ، والبعد عن الأهواء
في الحكم ، وما ينخرط في هذا السلك .

وإن كان محتسبا وصفه بعد وصفه بالفضل بالعفة ، والأمانة ، وعلو الهمة ،
وقوة العزم ، والصرامة ، ووفور الهيبة ، والنهوض بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ،
والنظر في مصالح المسلمين ، وعدم محاباة أهل الدنيا وأرباب الجاه ، وأنه لا يفرق
في الحق بين الجليل والحقير ، وما في معنى ذلك .

وإن كان وكيل بيت المال وصفه بعد العلم والديانة بالوقوف مع الحق ،
 والتثبت فيه ، ومراعاته المصلحة العامة في كل ما يتعلق به ، والمعرفة بشروط الاعذار
 ومواقع ابداء الدافع ونفيه ، وأنه يقدم مصالح المسلمين على مصالح نفسه ،
 وما يقارب ذلك .

وإن كان مدرسا وصفه بسعة العلم ، والتضلع بالفنون ، والأخذ من كل منها
 بحظ وافر ، وطول الباع في البحث والمناظرة ، والوقوف مع الحق فيها ، وعدم
 الجدال في الباطل ، وترية الطلبة ، وتأديبهم ، والتقريب على من عسر على فهمه
 شىء من المسائل ، وعدم الترفع عليهم ، وتنزيلهم منازلهم في الفضل ، وتقديم من
 برع منهم .

وإن كان خطيبا وصفه بالفصاحة ، والبلاغة ، وقوة اللسن ، وشدة الشكيمة
 في الكلام ، وتأثير وعظه في القلوب ، وأنسكاب الدموع من وقع عظامه ، وما
 أشبه ذلك .

وإن كان شيخ خانقاه وصفه بالورع ، والزهد ، والنسك ، وقطع العلائق من
 الدنيا ، وترية المريدين وتسليكهم ، والوقوف مع طريق السلف الصالح .

وإن كان رئيس الأطباء وصفه بالحدق في الطب ، والمهارة فيه ، وتقديمه على
 غيره في الفن ، والمعرفة بالعقاقير وما فيها من نفع وضرر ، والمعرفة بالأمراض والعلا
 وطرق العلاج ، وما يجرى مجرى ذلك .

وإن كان رئيس الكحّالين وصفه بالمعرفة في صنعة الكحل ، والتقدم على أبناء
 صنعته فيه ، والمعرفة بحال العين وأمراضها ، وأصناف الأحكام ، وما يوافق كل
 علة من ذلك ، وما ينخرط في هذا السلك .

وإن كان رئيس اليهود أو بطريركاً من بطاركة النصارى، وصفه بالمعرفة بأمور ملته، والوقوف مع قوانين شرعته، ومعاونة العدل في جماعته، والتزام شروط الذمة، والوقوف عند حدها، والدخول تحت الطاعة، والوقوف عند ما حُد له، ونحو ذلك .

الأمر السادس — مما يجب على الكاتب مراعاته وصية رب كل ولاية من الولايات المعتبرة بما يناسبها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا حَسُنَ وَصِيَّةُ الْمَوْلَى بِهِ ، حَسُنَ وَصْفُهُ بِهِ . وَالْوَصَايَا مُخْتَلِفَةٌ بِاخْتِلَافِ مَوْضُوعَاتِهَا ، إِلَّا أَنَّ الْجَمِيعَ يَشْتَرِكُ فِي الْوَصِيَّةِ بِتَقْوَى اللَّهِ ، فَهِيَ الْأُسُّ الَّذِي يَبْنَى عَلَيْهِ ، وَالرُّكْنُ الَّذِي يُسْتَنْدُ إِلَيْهِ . وَهَذَا الْبَابُ هُوَ الَّذِي يَطُولُ فِيهِ سَبْحُ الْكَاتِبِ ، وَيَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى سَعَةِ الْبَاعِ ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يَكُنِ الْكَاتِبُ حَازِقًا بِمَا يَلْزَمُ رَبَّ كُلِّ وِلَايَةٍ لِيُوفِّيَهَا فِي الْوَصِيَّةِ حَقَّهَا ، وَإِلَّا ضَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَحَادَ عَنِ جَادَةِ الصَّنْعَةِ . وَلِذَلِكَ يُقَالُ لِلْكَاتِبِ : « الْقَلَمُ الْأَكْبَرُ » : لِأَنَّهُ بِصَدَدِ أَنْ يُعَلِّمَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَرْبَابِ الْوِلَايَاتِ مَا يَلْزَمُهُ فِي وِلَايَتِهِ .

وحيث إن كان المتولى « نائب سلطنة » وصى بتفقد العساكر، وعرض الجيوش، وإنهاضها للخدمة للوظائف من يليق بها، وتنفيذ الأحكام الشرعية، ومعاونة حكام الشرع الشريف، وإجراء الأوقاف على شروط واقفيها، وملاحظة البلاد وعمارتها، وإطابة قلوب أهلها، والشّد من مباشرى الأموال، وتقوية أيديهم، وملازمة العدل، وعدم الانفكالك عنه، وتحصين ما لديه من القلاع، وأستطلاع الأخبار والمطالعة بها، والعمل بما يرد عليه من المراسيم

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله « وأنتقاه » للوظائف الخ .

السلطانية، وأنَّ ما أشكل عليه يستضىء فيه بالآراء الشريفة، والإحسان إلى الجند،
وتعيين إقطاع من مات منهم لولده إن كان صالحا، ونحو ذلك .

وإن كان « نائب قلعة » وُصِّى بحفظ تلك القلعة، وعمارة ما دعت الحاجةُ
إلى عمارة منها، والأخذ بقلوب من فيها، وجمعهم على الطاعة، وأخذ قلوبهم
بالإحسان إليهم، وتحصينها بالآلات الحصار، وأدخال آلات الحرب : من المجانيق
والقسيِّ وسائر الآلات : من السهام، واللبوس، والستائر، وغير ذلك . وكذلك
آلات أرباب الصنائع، كالآلات الحدادين، وصنَّاع القسيِّ ومن في معناهم مما
يُحتاج إلى عمله في آلات القلعة، والاعتناء بغلق أبواب القلعة وفتحها، وتفقد
متجددات أحوالها في كل مساء وصباح، وإقامة الحرس، وإدامة العسس،
وتعريف أخبار المجاورين لها من الأعداء، وإقامة نوب الحمام بها، والمطالعة بكل
ما يتجدد لديه من الأخبار .

وإن كان «وزيرا» وُصِّى بالعدل وزيادة الأموال وتمييزها، والإقبال على تحصيلها
من جهات الخلل، واختيار الكفاة الأمانة، وتجنب الخونة، وتطهير بايه، وتسهيل
حجابه، والنظر في المصالح، وأنه لا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو خيائته،
والنظر في أمر الرواتب وإجرائها على أربابها .

وإن كان «كاتب سر» وُصِّى بالأهتمام بتلقى أخبار الممالك وعرضها على المواقف
الشريفة، والإجابة عنها بما تبرز به المراسيم الشريفة، وتعريف التواب في الوصايا
التي تُكتب في تقاليدهم عن المواقف الشريفة ما أهدم عليهم، وبين لهم ما يقفون

(١) جرى على اللغة القليلة والكثير الشائع إغلاق فتنه .

عند حدّه ، والنظر في تجهيز البريد والنجابة ^(١) ، وما يُبعث فيه من المصالح وينفّذ فيه من المهمّات والقُصّاد ، ومعرفة حقوق ذوى الخدمة والنصيحة ، وإجرائهم في رسوم الرواتب وعوائد البر والإحسان على أتمّ العوائد ، وتأليف قلوبهم ، والأخذ بنحو أطيرهم ؛ والنظر في أمر الكشافة والديّاب والنظارة والمنّاور والمحرقات وأبراج الحمام ؛ وصرف نظره إلى رسل الملوك الواردة ، ومعاملتهم بالإكرام ، والأخذ في صون سرّ الملك وكتابه حتى عن نفسه ، وضبط ألواح البريد ، والأحتراز فيما تؤخذ عليه العلامة الشريفة ، ومراعاة كتاب ديوان الإنشاء ، والإحسان إليهم ، وأن لا يستكتب في ديوانه إلا من علم صلاحه لذلك وكفايته ، ووثق منه بكنان السرّ كما يثق به من نفسه .

وإن كان « ناظر جيش » وصّى بالأحتراط في أمر ديوانه ، والوقوف على معالم هذه المباشرة ، وجرائد الجند ، والإقطاعات ، وتحرير الكُشوف والمحاسبات ، وأستيضاح أمر من يموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقدمين والنقباء ، والأحتراز في أمر المربعات وجهات الإقطاعات وما يترتب عليها من المناشير ، والنظر في أمر المقطعين : من الجند ، والعرب ، والتركان ، والأكراد ، ومن عليه تقدمة أو درك بلاد أو غير ذلك .

وإن كان « ناظر خاص » وصّى بالأحتراط لِدِيوانه ، والأخذ في تحصيل أموال جهاته وتتميتها وتميرها ، وزيادتها وتوفيرها ، والتحرز فيما يرفع من حسباناتها ، والأهتمام بأمر التشاريف والخلع ، وما يختص بكل ولاية وغيرها من التشاريف ،

(١) جرى العامة في هذا الاستعمال .

وما جرت به العادة من الهدايا المحضرة إلى ملوك الأقطار، والأخذ في ذلك كله بالخط الأوفى للديوان السلطاني، وما يجري مجرى ذلك .

وإن كان «مستوفى صحبة» وصى بإلزام الكتاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها، وعمل المكلفات وتقدير المساحات، وتمييز ما بين تسجيل القدن في كل بلد بحسب ما يصلح لها من الزراعة، وتمييز قيم بعضها على بعض، ومستجد الجرائد، وما يقابل عليه من ديوان الإقطاعات والأحباس وغير ذلك .

وإن كان «ناظرًا لخزانة الخاص» وصى بتحصيل ما يحتاج إليه لتفصيل الخاص وتشاريف أرباب السيوف والأقلام : العرب، والتركان، والأكراد، وغيرهم؛ وهدايا الملوك وما يجري مجرى ذلك : من العتابي والأطلس، والمشر بش، والمقنّس والمتمّر، والطرازات على اختلافها : من الزركش، والباهي، وأنواع المستعملات، وما يحمل من دار الطراز، وما يتباع للخزانة العالية، وما هو مُرصد لها من الجهات التي يحمل إليها متحصّلها : لينفق في أثمان المبيعات ومصروف المستعملات، والاحتراز فيما يُنفق من الأثمان وقيمة المبتاع، وشهادات الرسائل المكتتبه إليه بالحمول وما يكتب بها من الرجعات، وأن يحصل كل شيء هو بصدد الحاجة إليه قبل الاحتياج .

وإن كان «قاضيا» وصى بالتروى في أحكامه قبل إمضاءها، وأن يراجع الأمر مرّة بعد أخرى، واستشارة أهل العلم، والرّجوع إليهم فيما أشكل عليه، واستخارة الله تعالى قبل الإقدام على الحكم، والقضاء بحق الخصم بعد وضوحه، والتسجيل له به، والإشهاد على نفسه بذلك، والتسوية بين الخصوم حتى في تقسيم النظر إلى الخصمين، والتحرى في استيداء الشهادات، وأن لا يقبل من الشهود الا من عرف

بالعدالة : من ربّ قلم أو سيف ، والتنقيب عما يصدر من العقود ، ولا يعول من شهود القيمة إلا على كل عارف بالقيم خبير بها ، والنظر في أمر الرسل والوكلاء ، والنظر في أمور أهل مذهبه ، والأعتناء بشأنهم .

ويُزاد « الشافعي » التوصية بالنظر في دعاوى بيت المال ومحاكماته ، والأحترار في قضاياها ولا يقبل فيها بيعة لو كمل بيت المال فيها مدفّع ، ولا يعمل فيها بمسألة ضعيفة ، والنظر في أمر أموال الأيتام وأمر المتحدثين فيها بالإحسان إليهم ، وكذلك أموال الصدقات الجارية تحت نظره ، والتيقظ لإجرائها على السداد في صرفها في وجوه استحقاقها ، وأن لا يعمل في مسألة تفرد بها مذهبه إلا بما نصّ عليه إمامه أو كان عليه أكثر أصحابه ، ولا يعتمد في ذلك مرجوحاً ولا ما تفرد به قائله ، وأن لا يولى في البرئائب إلا من عرف استحقاقه وأهليته لما يتولاه .

ويُزاد « الحنفي » الوصية بالعمل بما اقتضاه مذهبه من الأمور التي فيها صلاح لكثير من الناس : كترويح المعصرات ، وشفعة الحوار ، ونفقة المعتدة البائن ، وعدم سماع بيعة الإعسار إلا بعد مضيّ المدة المعتبرة في مذهبه ، والإحسان إلى من ضمّه نطاق ولايته ممن نزع إليه من أهل الشرق وأقصى الشمال .

ويُزاد « المالكي » الوصية بالتحري في بينات الدماء ، والإعذار إلى الخصم ليدي مالديه من دافع ، والعمل بما تفرد به مذهبه مما فيه فسحة للناس : كالثبوت بالشهادة على الخط ، وولاية الأوصياء ، وإسقاط الرّيع في الوقف المستردّ بعد البيع ، والإحسان إلى من لديه من غرباء أهل مذهبه ، لاسيّما من أتاه من بلاد المغرب .

ويُزاد « الحنبلي » الوصية بالاحتياط في بيع مادّثر من الأوقاف والاستبدال بها ، ورعاية المصلحة في ذلك لأهل الوقف بما أمكن ، والفسخ على من غاب عن زوجته

الغيبية المستوجبة للفسخ عندهم ، ووقف الإنسان على نفسه ، وأمر الجوائح التي يحصل بها التخفيف عن ضعفاء الناس ، والمعامل على الزرع بالحرث ونحوه ، وغير ذلك مما يجرى هذا الجرى ، والوصية بأهل مذهبه الذين هم أقل المذاهب عدّة وأنزرتهم وظائف وأوقافا ، ومعاملتهم بالإحسان .

وإن كان « قاضى عسكر » وصى بنحو ما يوصى به [القاضى] وأن يتخذ معه كاتباً يكتب للناس ، وأن يقبل من الجند من كان ظاهره العدالة ، فإنّ الشهود المعدّين لتحمل الشهادة يعزّ وجودهم فى العسكر ، وأن يكون له منزل معروف يقصد فيه إذا نصبت الخيام ، وأحسن ما يكون ذلك عن يمين الأعلام السلطانية ؛ وأن يكون مستعداً للأحكام التي يكثر فضلها فى العسكر : كالغنائم ، والشركة ، والقسمة ، والمبيعات ، والردّ بالعيب ؛ وأن يسرع فى فصل القضاء بين الخصوم : لئلا يكون فى ذلك تشاغل عن مواقع الحرب ومقدماته ، وغير ذلك مما يجرى هذا الجرى .

وإن كان « محتسبا » وصى بالنظر فى أمر المكاييل والموازين وسائر المقادير؛ والتحذير من الغش فى الطعام والشراب ؛ وأن يتعرّف الأسعار ، ويستعلم الأخبار فى كل سوق من غير علم أهله ؛ وأن يقيم على الأسواق وأرباب المعاييس من ينوب عنه فى النظر فى أمورهم من الأمناء المأمونين ؛ وأن لا يمكن أحداً من العطارين من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يستراب به بخط مططب لمريض ؛ وأن يمنع المتحيلين على أكل أموال الناس بالباطل : من الطرّفة وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى بنى ساسان من تعاطى ما يتعاطونه من ذلك ، ويقمعهم ويحسّم مادّتهم ، والتصدي للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمنع من الغش

(١) أى المنجمين الذين يدعون معرفة المغيبات بمقتضى النظر فى النجوم .

وإخبار المشتري بأزيد مما اشترى به ، والنظر في أمر فقهاء المكاتب والعالمات من النساء ، ولا يمكن منهم أحدا [أن] يتعاطى ذلك إلا من عرفت أمانته ، وأثرت صيانتته ، وأن لا يستنيب إلا أهل العفة والأمانة والنزاهة ممن بعد عن الطمع ، ونأى عن مطاعم السوء .

وإن كان «وكيل بيت المال» وصى بالعمل بالشرع الشريف في جميع أحكامه ، وأن من مات وله ورثة تستوعب ميراثه لا يكفهم ثبوتاً فيه تعنت ومدافعة عن حقهم ؛ والتشديد في أمر من كانت قصته منكراً ، والتحرز من شهود الزور في مثل ذلك ، وأن يرجع في كل ما يساع ويؤجر إلى العوائد ، وأن يتحرز في شهادة شهود القيمة ، ولا يرجع فيها إلا لمن يوثق به ممن يكون عنده معرفة بقيم الأشياء ، وينبّه على أن له أن يدعى بحق المسلمين حيث شاء عند من يشاء من أصحاب المذاهب ، وأن الدعوى عليه لا تكون إلا في مجلس الحكم العزيز الشافعي ، على ما جرت به العادة القديمة ، والأحتياط في حق بيت المال ، وليختار للأستنابة في الأعمال من يصلح لذلك .

وإن كان «مدرسا» وصى بأن يقبل على جماعة درسه بطلاقة وجه ، وأن يستميلهم إليه جهداً استطاعته ، ويربيهم كما يربي الوالد ولده ، ويستحسن نتائج أفكارهم التي أتون بها في درسه ، ويقدم منهم من يجب تقديمه ، وينزل كل واحد منهم منزلته ، ليهزم ذلك إلى الإيجاب على الأشتغال والأزدياد في التحصيل . ثم يأتي [في] كل مدرس بما يناسبه من أمور العلم الذي يدرس فيه إن كان يدرس في علم خاص .

وإن كان «خطيباً» وصى برعاية حق رتبة الخطابة والقيام بحق ازدواجها ، وأن يأتي من المواعظ بما يقرع الأسماع بالوعد والوعيد ، ويأين القلوب القاسية ،

وأن يُعَدَّ لكلِّ مقامٍ يقومه مقالاً يقوله ، وأن يخفِّف الخطبة ، ويأتى بها بليغةً مفهومة ، إلى غير ذلك من متعلقات الخطابة .

وإن كان «شيخ خاتمه» وُصِيَ بالأجتهاد فى العبادة، والمشي على طريق السلف : من الزهد، والورع، والعفاف ؛ وأن يأخذ جماعته بما أخذه فى الأمور؛ وأن يعرف لجماعة مكانه حقوقهم الواجبة لهم ويُزِلِّهم منازلهم خصوصاً أولى السابقة منهم ، ويأخذ فى الرفق بهم ومداراتهم ، مع ترتيب من استجد منهم ، وإجرائهم على طرائق الصوفية ، وتعريفهم الطريق إلى الله تعالى ، وتدرىج المریدين على قدر ما تحتمله أفهامهم ، دون أن يهجم عليهم من أحوال الطريق بما لا تحتمله عقولهم . و [اتباع] سبيل الكتاب والسنة اللذين من حاد عنهما ضلَّ ، ومن خرج عن جادتهما زلَّ ، وكفَّهم عن ارتكاب البدع والجرى على منهاجها ؛ ومن أتى ذنبا خفَّه بالتوبة والاستغفار ؛ والإنكار على من أخذ فى الشطحات ، والخروج عن قانون ظاهر الشريعة ، ومنع من نحا هذا النحو أو جرى على هذه الجادة ، والإحسان إلى من يقدِّم عليه من الآفاق ، وحسن التلقى له ، وإكرام نزله بعد أن يعجل له بالإذن ، والأمر بأخذ عكازة ، وفرش سجادة ، وما ينخرط فى سلك ذلك .

وإن كان «رئيس الأطباء» وُصِيَ بالنظر فى أمر طائفتيه ، ومعرفة أحوالهم ، ويأمر المعالج أن يعرف أولاً حقيقة المرض وأسبابه وعلاواته ، ثم ينظر إلى السن والفصل والبلد ، وحينئذ يشرع فى تخفيف الحاصل ، وقطع الواصل ، مع حفظ القوة ؛ وأن لا يهاجم الداء ، ولا يستغرب الدواء ، ولا يُقدِّم على الأبدان إلا ما يلائمها ، ولا يخرج عن عادة الأطباء ولو غلب على ظنه الإصابة حتى يتبصر فيه برأى أمثاله ؛ ويتجنب الدواء ، ما أمكنته المعالجة بالغذاء ، والمركب ما أمكنته المعالجة بالمفرد ؛

ويتجنب القياس إلا ما صحَّ بتجريب غيره في مثل من أخذ في علاجه، وما عرض له،
وسنّه، وفصله، وبلده، ودرجة الدواء؛ وأن يحذر التجربة فإنها خطر، مع الاحتراز
في المقادير والكيفيات، وفي الاستعمال والأوقات، وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر
عنه؛ ولا يأمر باستعمال دواء ولا ما يستغرب من غذاء حتى يحقق حقيقته، ويعرف
جديده من عتيقه، ليعرف مقدار قوته في الفعل .

وإن كان «رئيس الكحالين» وصى بالنظر في حال جماعته أيضا، ومعرفة
أحوالهم، وأن لا يصرف منهم إلا من عرف بحسن المداراة والملازمة في العلاج،
ويأمر كلاً منهم أن لا يقدم على مداواة عين حتى يعرف حقيقة المرض، وأن
يلاطفها بما يناسبها من الغذاء، وأن يتخير من الكحل ما فيه شفاء العين وجلاء
البصر، وأن يستشير الأطباء الطبائعية فيما أهم، مما لا يستغنى عن رأى مثلهم فيه،
من تخفيف المادة بالاستفراغ أو نقص دم أو غير ذلك .

وإن كان «رئيس اليهود» وصى بضم جماعته، ولمّ شملهم، والحكم فيهم بقواعد
ملائته، والنظر في أمور الأنكحة عندهم، وما يعتبر عندهم فيها على الإطلاق، وما يفتقر
إلى الرضا من الحائنين في العقد والطلاق، والنظر فيمن أوجب حكم دينه عليه
التحريم، والتوجه في صلاتهم تلقاء بيت المقدس إلى جهة قبلتهم، وإقامة حدود
التوراة على ما أنزل الله تعالى من غير تحريف ولا تبديل للكلمة بتأويل ولا غيره،
وآتباع ما أعطوا عليه العهد مع إزامه لهم [ما التزموه] من حكم أمثالهم من أهل الذمة
الذين أقرّوا في دار الإسلام على الصغار والإذعان لأهل الإسلام، وعدم مضايقتهم
للمسلمين في الطرق، وتميزهم بشعارهم في الحمام، كي لا يحصل اللبس بالمسلمين، وحمل
شعار الذمة على رؤوسهم: وهى العائم الصفّر؛ ويأخذهم بتجديد صبغه في كل حين،
وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة: من ذكر الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم

بسوء، أو إظهار الخمر أو معتقدتهم في العزير عليه السلام . وله أن يرتب طبقاتهم على ما تقتضيه مراتبهم عنده، وكذلك له التحدث في كنائس اليهود المستمرة إلى الآن بأيديهم، من حين عقد الذمة، من غير تجديد متخرب، ولا فعل ما لم تُعقد عليه الذمة ويقرهم عليه السلف الأول .

وإن كان « بطرك النصارى المليكانيّة » وصّى بما عليه بناءً شرعته من المساحة والاحتمال والصبر على الأذى، وعدم الأكرات به، وأخذ نفسه بهذه الآداب، وأنه يُقدّم المصالحة بين المتحاكين إليه قبل فصلها على البت فإنه قاعدة دينه المسيحي، ولم تُخالف فيه الملة الإسلامية، وأنه ينقى صدور إخوانه من الغل، ويتخلّق بكل خلق جميل، ولا يستكثر من الدنيا، ويتنزّه عن أموال جماعته والتوسّل إلى أخذها، وأنّ إليه أمر الكنائس والبيع، وعليه أن يتفقدها في كل وقت، ويرفع ما فيها من الشبهات، ويحدّر رهبان الديارات من جعلها مصيداً للال، وأن يتجنّبوا فيها الخلوة بالنساء، ولا يؤوى إليه أحداً من الغرباء القادمين عليه يكون فيه ريبة، ولا يكتم ما أطلع عليه من ذلك عن المسمع الشريفة السلطانية، ولا يخفى كتاباً يرد عليه من أحد من الملوك، أو يكتب له جواباً، ويتجنّب البحر وما يرد منه من مظان الرّيب .

وإن كان « بطرك البعاقبة » قيل في وصيته نحو ما تقدّم في وصية بطرك المليكانيين، إلا أنه لا يقال : وأعلم أنك في المدخل إلى شريعتك طريق الباب، بل يقال : وأعلم أنك في المدخل إلى شريعتك قسيم الباب، ومساو له في الأمر والنهى والتحليل والتحريم . ويقال بدل قوله « وليتجنّب البحر » : « وليتوق ما يأتيه سرا من تلقاء الحبشة » .

قلت : وهذه الوصايا مدخل إلى ما يرضى به أصحاب الولايات ممن تقدم ذكره والأمر في الزيادة والنقص في ذلك بحسب المناسبة راجع إلى نظر الكاتب . على أن المقر الشمهاني ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر في "التعريف" عدة وصايا ليست مما يكتب الآن ، فأضربنا عن ذكر مقاصدها هنا : لتورد برمتها في الكلام على ما يكتب في متن التقاليد والتواقيع ونحوها ، مع النسخ التي تورد هناك على صورة ما أوردها ، لينسخ على منوالها إن أمر بكتابة شيء منها .

المقصد الثاني

(في بيان مقاصد ما يكتب في الولايات ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(في بيان الرسوم في ذلك ، ومقادير قطع الورق لكل صنف منها)

على سبيل الإجمال

وهي على أربعة أنواع :

النوع الأول

(التقاليد)

جمع تقليد . يقال : قلّدته أمر كذا إذا وليته إياه . قال الجوهري : وهو مأخوذ من القلادة في العنق ، يقال قلّدت المرأة فنقلدت ، قال : ومنه التقليد في الدين أيضا .

ثم التقاليد تشتمل على طرة ومتن ، فأما الطرة فقد أشار إليها في "التعريف" بقوله : وعنوانها «تقليد شريف لفلان بكذا» . وأوضح ذلك في "التثقيف" فقال :

وصورته : ان يكتب : تقليد شريف بان يفوض الى المقتز الكريم ، او الى الجناب الكريم ، او الى الجناب العالى الاميرى الكبيرى ، الكافلى ، الفلانى ، اعز الله تعالى انصاره ، او نصرته ، او ضاعف الله تعالى نعمته ، نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ، او بحاب المحروسة ، او بطرابؤس المحروسة ، او نحوها ، على اجمال العوائد فى ذلك و اكل القواعد على ما شرح فيه .

قلت : وتفصيل هذا الإجمال : إن كان المكتوب له التقليد هو النائب الكافل ، كتب فى طرة تقليده : تقليد شريف بان يفوض الى المقتز الكريم العالى ، الاميرى ، الكبيرى ، الكفيل ، الفلانى ، فلان الفلانى ، بلقب الإضافة الى لقب السلطان ، كالناصرى مثلا ، كقالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية ، أعلاها الله تعالى على اجمال العوائد فى ذلك و اكل القواعد ، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بكفالة السلطنة بالشام ، كتب : تقليد شريف بان يفوض الى المقتز الكريم العالى ، الاميرى ، الكبيرى ، الكفيل ، فلان الناصرى ، مثلا كقالة السلطنة بالشام المحروس على اتم العوائد فى ذلك و اجمال القواعد ، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بناية السلطنة بحاب ، كتب : تقليد شريف بان يفوض الى الجناب الكريم العالى ، الاميرى ، الكبيرى ، الكافلى ، الفلانى ، فلان الناصرى ، اعز الله تعالى نصرته ، نيابة السلطنة الشريفة بحاب المحروسة ، على اجمال العوائد فى ذلك و اكل القواعد ، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بناية طرابؤس ، كتب : تقليد شريف بان يفوض الى الجناب العالى ، الاميرى ، الكبيرى ، الكافلى ، الفلانى ، فلان الناصرى : ضاعف الله

تعالى نعمته، نيابة السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة، على أجمل العوائد في ذلك
وأكل القواعد، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحمّة، أُبدل لفظ طرابلس بحمّة .

وإن كان بنيابة السلطنة بصفد، أُبدل لفظ طرابلس وحمّة بصفد، والباقي على
ما ذكر في طرابلس .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بغزة - حيث جعلت نيابة - كتب : تقليد
شريف بأن يفوض إلى الجناب العالي، الأميري، الكبيرى، الكافى، الفلانى،
فلان الناصرى : أدام الله تعالى نعمته، نيابة السلطنة الشريفة بغزة المحروسة، على
أجمل العوائد، وأكل القواعد، على ما شرح فيه .

فإن كان مُقدم العسكر كما هو الآن، أُبدل لفظ نيابة السلطنة الشريفة بلفظ
«تقديم العسكر المنصور» والباقي على ما ذكر .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بالكرك، كتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى
المجلس العالي، الأميرى، الكبيرى، الفلانى، فلان الناصرى : أدام الله تعالى
نعمته، نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس، على أجمل العوائد، وأكل القواعد،
على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بالوزارة، كتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى الجناب العالي
الصاحي، الفلانى، فلان الناصرى : ضاعف الله تعالى نعمته، الوزارة الشريفة
بالمالك الإسلامية أعلاها الله تعالى، على أجمل العوائد، وأكل القواعد، بالمعلوم
الشاهد به الديوان المعمور، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بكتابة السر، كُتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى الجنب
العالى، القاضوى، الكبيرى، اليمينى، الفلانى، فلان الناصرى : ضاعف الله
تعالى نعمته، صحابة دواوين الإنشاء الشريفة بالممالك الإسلامية، أعلاها الله
تعالى، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور،
على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية، كُتب : تقليد شريف
بأن يفوض إلى الجنب العالى، القاضوى، الكبيرى، الفلانى، فلان : أعز الله
تعالى أحكامه، قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية، على أجمل العوائد، وأكمل
القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور، على ما شرح فيه .

وإن كان التقليد بقضاء قضاة الحنفية، كتب كذلك، إلا أنه يُبدل لفظ الشافعية
بلفظ الحنفية .

وإن كان التقليد لأمر مكة، كتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى المجلس
العالى، الأميرى، الكبيرى، الشريفى، فلان الفلانى : أدام الله تعالى نعمته
إمرة مكة المشرفة، على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، على ما شرح فيه .

وإن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام،
كتب كذلك إلا أنه يُبدل لفظ مكة المشرفة بلفظ المدينة الشريفة .

وإن كان بإمرة آل فضل، كتب : تقليد شريف بأن يفوض إلى المجلس
العالى، الأميرى، الكبيرى، الفلانى : أدام الله تعالى نعمته إمرة آل فضل،
على أجمل العوائد، وأكمل القواعد، على ما شرح فيه .

هذه جملة ما عهدت كتابته من التقاليد المكتتبة من ديوان الانشاء بالأبواب الشريفة، فإن حدث كتابه ما يستحق أن يكتب له تقليدًا، كالأتابكية ونحوها، كتب بالألقاب اللائقة بصاحبه .

ثم وراء ذلك أمران : أحدهما - أنه قد تقدم نقلا عن "التعريف" أنه يكتب في العنوان الذي هو الطرة : «تقليد شريف لفلان بكذا» فإن كتب تقليدًا بكفالة السلطنة مثلا، كتب : «تقليد شريف للقر الكريم، العلى، الأميرى، الكبيرى»، الفلانى، بكفالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية، على أجمال العوائد، وأكمل القواعد، على ما شرح فيه» .

الثانى - أنه اقتصر فى "التثقيف" على قوله فى آخر الطرة، على أجمال العوائد فى ذلك وأكمل القواعد، وليس الأمر منحصرًا فى ذلك، بل لو عكس بأن قيل : تقليد شريف بأن يفوض إلى فلان كذا، أو تقليد شريف لفلان بكذا على أكمل القواعد واجمل العوائد على ما شرح فيه، لكان سائغًا .

فإن كان صاحب التقليد على الرتبة : كالنائب الكافل، ونائب الشام، ونائب حلب، والوزير، وكاتب السر، ونحوهم، كتب على أجمال العوائد وأتمها، وأكمل القواعد وأعمها، أو بالعكس : بأن يكتب على أجمال العوائد وأعمها، وأكمل القواعد وأتمها، على ما شرح فيه .

وأما متن التقليد، فقد قال فى "التعريف" : إن التقاليد كلها لا تفتح إلا بالحمد لله وليس إلا، ثم يقال بعدها : أما بعد، ثم يذكر ما سنح من حال الولاية وحال المولى، وحسن الفكر فيمن يصلح، وأنه لم يراحق من ذلك المولى ويسمى، ثم يقال ما يفهم أنه

هو المقدم الوصف أو المتقدم إليه بالإشارة؛ ثم يقال: رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الفلانى (ويدعى له) أن يقلد كذا، أو أن يفوض إليه كذا، والأول أجل؛ ثم يوصى بما يناسب تلك الولاية مما لا بد منه تارةً جُملياً وتارةً تفصيلاً، وينبّه فيه على تقوى الله تعالى؛ ثم يختم بالدعاء للمولى، ثم يقال: وسبيل كل واقف عليه العمل به بعد الخطّ الشريف أعلاه.

قال: ولفضلاء الكتاب فى هذا أساليب، وتفنن كثير الأعاجيب، وكلّ مألوف غريب، ومن طالع كلامهم فى هذا وجد ما قلناه، وتجلّى له ما أهمناه.

وذكره فى "التتيف" بأوضح معنى وأبين، فقال: ويكتب بعد الصدر بحُطبة مناسبة أولها الحمد لله إلى آخرها، ثم أما بعد، ويذكر ما يرى ذكره من حال الولاية والمولى، ويذكر اسمه، وهو أن يقال: ولما كان المقر، أو الجنب، وألقابه ونعوته إلى آخرها، ويدعى له: أعزّ الله أنصاره أو نصرته، أو نحوه، على ما جرت به عادته، ولا يزداد على دعوة واحدة؛ ثم يقال ما يفهم أنه المراد بهذه الأوصاف، أو المعنى بهذه الإشارة أو نحو ذلك؛ ثم يقال: آقتضى حُسن رأينا الشريف، ويذكر ما يقتضى تكريمه وتعظيمه؛ ثم يقال: فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الفلانى (ويدعى له) بما يناسب الحال ثلاث دعوات أو أربعا) أن يفوض إلى المشار إليه كذا؛ ثم يقال: فليقلد ذلك، أو فليتلّق هذا التفويض، أو نحو هذا؛ ثم يوصى بما يناسب تلك الولاية مما لا بد منه، ويحرص أن ينبّه فيه على العمل بالتقوى؛ ثم يختم بالدعاء للمولى بالإعانة والتأييد ونحو ذلك ثلاث دعوات، وأكثرها أربع، وأقلها اثنتان؛ ثم يقال: بعد الخطّ الشريف شرفه الله تعالى وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالى؛ ثم التاريخ

والمستند، والحمدلة، والحسبة على العادة . ولم يقل فيه : وسبيل كل واقف عليه ، كما قال في "التعريف" .

وأعلم أن التقاليد على اختلافها لا تخرج في مقادير قطع الورق عن مقدارين :
الأول - قطع الثلثين بقلم الثلث الثقيل . وفيه يكتب لِنُواب السلطنة بمصر والشام مطلقا، وكذلك الوزير، والمشير، وكاتب السر، وقاضي قضاة الشافعية والحنفية بالديار المصرية .

الثاني - قطع النصف بقلم الثلث الخفيف . وفيه يكتب لذوى التقاليد من أمراء العرب : وهم أمير مكة المشرفة ، وأمير المدينة الشريفة ، وأمير آل فضل من عرب الشام على ما تقدم ذكره . ولا يكتب من التقاليد شيء فيما دون هذا المقدار من قطع الورق بحال . وسيأتي الكلام على نسخ التقاليد فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

النوع الثاني

(مما يكتب في الولايات السلطانية المراسيم)

جمع مرسوم، أخذًا من قولهم : رسمت له كذا فارتسمه إذا آمنتله ، أو من قولهم : رسم على كذا إذا كتب ، ويحتمل أن يكون منهما جميعا .

وهي على ضربين :

الضرب الأول

(المراسيم المكبرة)

ولم يتعرض لها المقتر الشهابي ابن فضل الله في "التعريف" لأنها لم تكن مستعملة

في زمنه وإنما حدثت بعده .

قال فى "التثقيف" : وهى على نمط التقاليد ليس بينهما اختلافٌ إلا فى أمرين : أحدهما - أنه لا يكتب شىءٌ من المراسيم فى قطع الثلثين بل فى قطع النصف أو الثالث . الثانى - أنه لا يقال فيها «تقليدٌ شريفٌ» بل «مرسومٌ شريفٌ» .

قلت : ويفترقان من أربعة وجوه . أحدها - أنه يقتصر فى طرّة المرسوم على «الأميرى» دون «الكبرى» بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها «الأميرى الكبرى» . الثانى - أنه يقال فى المرسوم : «أن يستقر» ولا يقال : «أن يفوض» ولا : «أن يُقلد» . الثالث - أنه لا يقال : «على أجل العوائد وأتم القواعد» بل يقال : «على عادة من تقدمه وقاعدته» . الرابع - أنه لا يقال فى الصّدر : «أما بعد» بل «وبعد» .

قال : وهى تختص بتّواب القلاع المنصورة بالممالك الإسلامية، وأمراء العربان^(١) أو من بالشام وحلب، وشادى مراكز البريد وغيرهم .

ثم هى على طبقتين :

الطبقة الأولى - ما يكتب فى قطع النصف بقلم خفيف الثلث . وذلك للتّواب بالقلاع : من مقدّمى الألوّف والطّبليخانات : كئائب حمص، والرحبة، والبيرة، وقلعة المسامين، ومطية، وطرسوس، وأذنة، وبهسنى، والفتوحات الجاهانية وغيرها من يكتب له المجلس العالى والسامى بالياء أو بغيرياء على ما تقدم بيانه فى المكاتبات إليهم . وكذلك بعض أمراء العربان وهم أمير آل على، وأمير آل مرا، وأمير بنى عقيبة . قال فى "التثقيف" : وصورة ما يكتب فى الطرّة أن يكتب :

(١) لعله من بالشام الخ . تأمل .

« مرسوم شريف بأن يستقر المجلس العالى أو السامى الأميرى ، الفلانى ، فلان (ويدعى له بما يناسبه) فى النيابة فى الجهة الفلانية على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته على ما شرح فيه » .

فإن كانت النيابة مقدمة ألف : كنيابة الرحبة ونحوها ، كُتب فى طرة مرسوم نائبا : « مرسوم شريف بأن يستقر المجلس العالى الأميرى الفلانى فلان ، أدام الله تعالى نعمته ، فى المكان الفلانى على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كانت النيابة طبخاناها كتب : « مرسوم شريف بأن يستقر المجلس السامى الأمير فلان ، أدام الله تعالى تأييده فى النيابة بمكان كذا ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته » ، أو كتب : « مرسوم شريف أن يستقر المجلس السامى الأمير فلان الدين فلان ، أدام الله تعالى تأييده فى النيابة بمكان كذا ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كانت نيابة قلعة دمشق ، كتب : « مرسوم شريف بأن يستقر المجلس العالى ، الأميرى ، فلان ، أدام الله تعالى نعمته فى النيابة بالقاعة المنصورة بدمشق المحروسة ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته ، على ما شرح فيه » . وكذلك كل قلعة بحسب ألقاب نائبا التى يكتب بها .

ثم يكتب فى الصدر بعد البسملة خطبة مفتحة بالحمد لله ، ثم يقول : وبعد ، ويأتى بنحو ما تقدم ذكره فى التقاليد ، ثم يقال : ولما كان المجلس العالى أو السامى إلى آخر ألقابه ، ثم يقال : فلان ، ويدعى له بما جرت به عادته ، ويقال ما يفهم منه أنه المقصود بما تقدم ذكره من المدح والأوصاف السابقة ؛ ثم يقال : فلذلك رسم

بالأمر الشريف إلى آخره أن يستقر المشار إليه في كذا على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته، فليتلق ذلك ونحوه . ثم يوصى بما يناسب وظيفته التي تولّاها ، ويختم بنظير ما تقدم ذكره في ختم التقاليد .

الطبقة الثانية — من المراسيم المكبرة ما يكتب في قطع الثلث بقلم التوقيعات . قال في "التتيف" : وصورته في الطرة والصدور على ما تقدم في الطبقة الأولى، إلا أن خطبته تفتتح بأما بعد حمد الله، وتختتم بما تقدم ذكره . قال : وقد تكتب لنواب القلاع من أمراء العشرات : مثل نائب بغراس ، ونائب الدر بساك ، ونائب كركر، ونائب الكختا، ونحوها . قال : وكذلك أرباب الوظائف غير النيابات، مثل شادّ الدواوين بالشام وحلب ، وشادّ مراكز البريد بهما، ونحو ذلك ؛ وبعض أمراء العرب : كأمر بنى مهدي ، ومقدم عرب جرم ، ومقدم عرب زبيد على ندره فيه . فإن كان المرسوم بناية من النيابات المذكورة وغيرها، كتب : «مرسوم كريم بأن يستقر المجلس السامى، الأمير فلان الدين أعزه الله تعالى، فى النيابة ببغراس ، أو بالدر بساك ، أو بكركر، وما أشبه ذلك على عادة من تقدمه وقاعدته» . وإن كان بشدّ بالشام أو بحلب ، كتب : «مرسوم كريم أن يستقر المجلس السامى، الأمير، فلان الدين : أعزه الله تعالى فى شدّ الدواوين بالمكان الفلانى ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته على ما شرح فيه» . وإن كان بشدّ مراكز البريد، أبدل لفظ «شدّ الدواوين» بلفظ «شدّ مراكز البريد بالمكان الفلانى» . وإن كان بإمرة بنى مهدي ، كتب : «فى إمرة بنى مهدي ، على عادة من تقدمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب جرم، كتب : «فى تقدمه عرب جرم، على عادة من تقدمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب زبيد، أبدل لفظ جرم بزبيد، وعلى ذلك .

الضرب الثاني

(من المراسيم التي تكتب بالولايات المراسيم المصغرة)

وهي ما يكتب في قطع العادة، وبها يكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظير الأوقاف ونحوه . وهي صنفان :

الصنف الأول — ما يُترك فيه أوصالٌ بياض بين الطرة والبسمة، وهي أعلاها، ويكتب بالسامى بغير ياء أو مجلس الأمير :

وصورتها أن يكتب في الطرة : « مرسوم شريف أن يستقر المجلس السامى الأمير فلان الدين ، أو مجلس الأمير فلان في كذا وكذا بما لذلك من المعلوم الشاهد به ديوان الوقف ، أو نحو ذلك ، على ما شرح فيه » ثم يكتب في الصدر بعد البسمة ماصورته : « رسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطاني ، الملكى ، الفلاني » (باللقب الخاص ولقب السلطنة) ويدعى له بما فيه براعة الاستهلال بذكر الوظيفة أو اسم صاحبها أو لقبه ونحو ذلك ، وأقلها ثلاث فقرات فما زاد « أن يستقر المجلس السامى ، الأمير ، الأجل » (إلى آخر ألقابه) ، أو أن يستقر مجلس الأمير ، الأجل (إلى آخر الألقاب) لما له من كذا وكذا (ويأتى من صفات المدح بما يناسب المقام) ثم يقال : فليباشر ذلك ، أو فليتلق ذلك ، أو فليقابل صدقاتنا الشريفة بكذا ونحو ذلك . ثم يوصى بما يليق به ، ويدعى له بدعوتين فقط ؛ ثم يقال : بعد الخط الشريف العالى أعلاه الله تعالى .

قلت : وهذا الصنف إن روى صاحبه ، كتب في قطع العادة المنصوري ، وإلا ففي قطع العادة الصغير . قال في "التتيف" : ومما ينبه عليه أنه لا يكتب

مرسوم شريف في قطع العادة إلا بمثل نيابة الشقيف بصنف وصرخد ومجلون^(١) والصبيبة ، فإنه لا يؤلى فيها إلا مقدم حلقه او جندي ، ومثل هذا لا يكتب عن المواقف الشريفة إلا نادرا ، فإن كفال الممالك يستبدون بالتولية في ذلك .

الصنف الثاني — ما يكتب في هيئة ورقة الطريق ، ويكون في ثلاثة أوصال ، وصورته أن يكتب في الطرة ماصورته : «مرسوم شريف أن يستقر فلان ، أو أن يرتب فلان في كذا وكذا ، على ما شرح فيه» ويكون ذلك في سطرين ، ولا يكتب في أعلاه الأسم الشريف كما يكتب في غيره : لأن من المعلوم أنه لا يكتب في هذا إلا الأسم الشريف فيستغنى عن ذكره ، ثم يكتب في آخر ذلك الوصل : «رسم بالأمر الشريف» على نحو ما تقدم ، إلا أنه لا يحتاج في الدعاء إلى ما يكون فيه براعة استهلال ، بل يكفي «أعلاه الله وشرفه ، وأنفذه في الآفاق وصرفه» ونحو ذلك «أن يستقر فلان في كذا أو يرتب في كذا ، فليعتمد ذلك ويعمل بحسبه ومقتضاه ، بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ، إن شاء الله تعالى» .

النوع الثالث

(ما يكتب في الولايات السلطانية التفاويض)

جمع تفويض ، وهو مصدر فوض الأمر إلى زيد إذا رده إليه ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى أردده إليه . قال في "التعريف" : وبه يكتب لعامة القضاة ، يعنى ممن دون أرباب التقاليد ، وهى من نمط التقاليد ، غير أنها يقال في تعريفها « تفويض شريف لفلان بكذا » . ومقتضى ما ذكره أنه إذا

(١) لعله وصفد بواو العطف . تأمل !

كتب « تفويض شريف بقضاء قضاة الديار المصرية مثلاً » يكتب في الطرة :
« تفويض شريف للجلّاس العالى ، القاضوى ، الكبيرى » ، بقضاء قضاة المالكية
بالديار المصرية ، على أجمال العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الديوان
المعمور على ما شرح فيه » ثم يأتى بنحو ما تقدّم ترتيبه فى التقاليد ، إلا أنه
يكون أخصر .

قلت : ولم أقف على نسخة تفويض غير نسخة واحدة من إنشاء المقرّ الشهابى
أبن فضل الله لبعض قضاة دمشق . وقد أنشأت أنا تفويضاً بقضاء قضاة المالكية
بالديار المصرية لقاضى القضاة جمال الدين يوسف الإساطى ، حين ولى على أثر
ولاية قاضى القضاة جلال الدين البلقينى^(١) قضاء قضاة الشافعية ، أفتتحته بلفظ :
« الحمد لله الذى شفع جلال الإسلام بجماله » وكتبت له به ، وكتبت فى طرته :
« تفويض شريف للجلّاس العالى ، القاضوى ، الجمالى » ، يوسف الإساطى المالكى ،
أعز الله تعالى أحكامه بقضاء قضاة المالكية بالديار المصرية ، على أجمال العوائد ،
وأكمل القواعد ، على ما شرح فيه » . وقرأته بالمجلس العام بالمدرسة المنصورية .
وسياتى ذكر نسخته فى الكلام على النسخ فى المقصد الثانى من هذا الطرف ،
إن شاء الله تعالى .

(١) بلقينة بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف كما فى المعجم والقاموس .

النوع الرابع

(التواقيع ، جمع توقيع)

قد تقدّم في مقدّمة الكتاب عن ابن حاجب الثّمان في ذخيرة الكُتاب : أنّ التوقيع معناه في اللغة التأثير الخفيف ، ومنه قولهم : ناقةٌ موقّعةٌ الجنبه إذا أثر فيها الرّحل تأثيراً خفيفاً ، وأنه يحتمل غير ذلك . وفي اصطلاح الأقدمين من الكُتاب أنه اسم لما يُكتب في حواشى القصص نخطّ الخليفة أو الوزير في الزمن المتقدّم ، وخط كاتب السّر الآن ؛ ثم غاب حتّى صار علماً على نوع خاصّ مما يُكتب في الولايات وغيرها . قال في "التعريف" : وهى على أنموذج التفاوض . قال : وقد يقال : أن يرتّب ، وأن يقَدّم ، ثم قال : وعنوانها « توقيع شريف لفلان بكذا » ولا يقال فيها على اختلافها : « وسبيل كل واقف عليه » كما في التقاليد ، بل يقال : « فليعتدّ ما رسم به فيه بعد الخطّ الشريف أعلاه » . وقد ذكر في "التعريف" أنها تكون لعامة أرباب الوظائف جليلها وحقييرها ، وكبيرها وصغيرها ، حتّى الطبليخانات اللاحقين بساؤ الكبار فمن دونهم . وقال في "التتقيف" : إنها مختصة بالمتعّممين من أرباب الوظائف الدينيّة والديوانية ، ولا يُكتب لأرباب السيوف منها إلا القليل : مثل نظر السيارستان ، ونظر الجامع الجديد ، ونظر الحرمين الشريفين ، يعنى حرم القدّس وحرم الخليل عليه السلام .

قلت : والجامع بين كلاميهما أنه في زمن صاحب "التعريف" كانت التواقيع تُكتب بالوظائف لأرباب السيوف من الثيابات وغيرها قبل أن تُحدّث المراسيم الكبرى المقدّمة الذكر ؛ ثم خصّت التواقيع بعد ذلك بالمتعّممين دون أرباب

(١) الجنب والجنب والجنبه محرّكة شق الانسان . قاموس .

السيوف . ومضى الأمرُ على ذلك في زمن صاحب "التثقيف" بخرى على حكمه ولم يبقَ ممن يكتب له توقيعٌ من أرباب السيوف سوى نُظَّار الجهات الثلاث المتقدمة الذِّكر : من البيارستان المنصوري ، والجامع الجديد الناصريِّ بمصر، ونظر الحرمين : حرم القدس الشريف ، وحرم الخليل عليه السلام . والحكمُ باق على ذلك إلى الآن .

ثم التواقيع على اختلافها لا تخرج عن أربع طبقات :

الطبقة الأولى

(ما يفتتح بخطبة مفتحة بالحمد لله ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى — ما يكتب في قطع النصف بقلم خفيف الثلث . قال في "التثقيف" : وصورته يعني ما يكتب به لأرباب الأقلام أن يكتب في الطرة : « توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالي ، القاضوي ، الكبيرى ، الفلانى » (ويدعى له دعوة واحدة) بما جرت به عادته ، على أجل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت على ما شرح فيه .

قال : فإن كان حاكماً ، كتب له بعد الكبيرى ، الحاكمى . وإن كان كاتب السر ، كتب له بعد الكبيرى ، اليمينى ، لا غير . ثم يكتب في الصدر خطبة مفتحة بالحمد لله ثم يقال : أما بعد ، والتمة على نظير ما ذكر في التقاليد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولى لها مما يناسب الحال . وقد ذكر في "التثقيف" أنه كان يكتب بذلك للقضاة الأربعة بالديار المصرية ، والقضاة الأربعة بالشام ، وكاتب السر بمصر

(١) لم يذكر المفوض به إليه للعلم به من نظائره والأصل أن يفوض الى المجلس نظر الجامع

الجديد الناصرى مثلا بما جرت به الخفتنه .

والشام ، وناظر الجيش بهما ، وناظر الدواوين المعمورة والصَّحْبَةُ الشريفة ، وهو ناظرُ الدولة .

وحينئذ فإن كتب بذلك لقاضى القضاة الشافعية بالديار المصرية على ما كان الأمر عليه أولاً ، كتب فى الطرزة « توقيع شريف بأن يستقر المجلس العالى ، القاضى ، الكبيرى ، الفلانى ، فلان : أعز الله تعالى أحكامه ، فى قضاء قضاة الشافعية بالديار المصرية ، على أجمل العوائد وأتمها ، وأكمل القواعد وأعمها ، بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور ، على ما شرح فيه » .

وإن كتب به لقاضى القضاة الحنفية ، على ما كان الأمر عليه أولاً أيضاً ، كتب له نظير قاضى القضاة الشافعية إلا أنه يُبدل لفظ الشافعية بـ «الحنفية» .

وإن كتب لقاضى القضاة المالكية ، على ما الأمر مستقر عليه الآن ، كتب له كذلك ، وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بـ «المالكية» .

وإن كتب لقاضى القضاة الحنابلة فكذلك ، ويقال فيه «الحنابلة» .

وإن كتب به لأحد من القضاة الأربعة بالشام ، فكذلك ، إلا أنه يقال قضاء قضاة الشافعية أو الحنفية أو المالكية أو الحنابلة بالشام المحروس .

وإن كتب به لكاتب السر على ما كان الأمر عليه أولاً ، كتب : « توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالى ، القاضى ، الكبيرى ، اليمينى فلان ، ضاعف الله تعالى نعمته ، صحابة دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالى ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور ، على ما شرح فيه » .

وإن كُتِبَ به لكتابِ السمرِّ بالشام، أُبدِلَ لفظُ الممالكِ الإسلامية: «الشام المحروس» .

وإن كُتِبَ به لناظر الجيش بالديارِ المصريَّة، كتب: «توقيعُ شريفٍ بأن يفوض إلى المجلسِ العالی، القاضويِّ، الكبيرِ، الفلانيِّ، ضاعفَ الله تعالى نعمته، نظرُ الجيوش المنصورةِ بالممالكِ الإسلاميَّة، أعلاها الله تعالى على ما شرح فيه» .

وإن كُتِبَ به لناظرِ الجيشِ بالشام، أُبدِلَ لفظُ الممالكِ الإسلاميَّة: «الشام المحروس» .

وإن كُتِبَ به لناظرِ الدولة، كُتِبَ: «توقيعُ شريفٍ بأن يفوض إلى المجلسِ العالی، القاضويِّ، الكبيرِ، الفلانيِّ، فلان، ضاعفَ الله تعالى نعمته، نظرُ الدواوين المعمورةِ والصَّحبةُ الشريفةُ، على أجملِ العوائد، وأكملِ القواعد، بالمعلومِ الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ على ما شرح فيه» .

وإن كُتِبَ به لناظرِ البيمارستانِ لصاحبِ سيفٍ، كتب: «توقيعُ شريفٍ أن يفوض إلى المقرِّ الكريم، أو الجنابِ الكريم، أو العالی (على قدر رُتبته) الأميرِ، الكبيرِ، الفلانيِّ، فلانِ الناصريِّ مثلاً: أعزَّ الله أنصاره، أو نُصرته، أو ضاعفَ الله تعالى نعمته (بحسب ما يليق به) نظرُ البيمارستانِ المعمورِ المنصوريِّ، على أجملِ العوائد، وأكملِ القواعد، بما لذلك من المعلومِ الشاهدِ به الديوانِ المعمورِ على ما شرح فيه» . وكذلك نظرُ الجامعِ الحديدِ ونظرُ الحرمِ الشريفين كلُّ بما يناسب الألقاب . وعلى ذلك .

المرتبة الثانية من التواقيع — ما يكتب في قطع الثلث بقلم التوقيعات ، وهو لمن مرتبته السامى بالياء . قال في "التثقيف" : صورته في الطرة والصدر على ما تقدم شرحه لكن بأخصر مما تقدم . قال : وبذلك يكتب لتقيب الأشراف ولقضاة القضاة بحلب وطرابلس وحماة وصفد والكرک ، وكذلك لقضاة العسكر بالممالك المذكورة والمفتين بدار العدل بها ، ووكلاء بيت المال بها ، والمحتسين ، ونظار الجيش بها ، وكتاب الدشت بمصر والشام ، وناظر البيوت بالديار المصرية . وكذلك ناظر خزان السلاح ، ومستوفى الصحبة ، وناظر بيت المال ، وناظر الخزانة الكبرى وخزانة الخصاص ، وناظر الأحباس ، ومشايخ الخواص الجبار : كسعيد السعداء ، وبيبرس بالقاهرة ، والشميمصاتيية بدمشق . وكذلك مقدمة التركان بالشام ، وتقديم الأكراد به ، ومشیخة العائد .

فإن كتب بذلك لتقيب الأشراف ، كتب «توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الأميرى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى علوه ، في نقابة الأشراف بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه وقاعدته ، على ما شرح فيه» .

وإن كتب لقضاة الشافعية بحلب ، كتب «توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، الفلانى ، فلان : أيد الله تعالى أحكامه ، في قضاء قضاة الشافعية بحلب المحروسة ، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته على ما شرح فيه» .

وإن كتب للحنفى بها كتب كذلك ، وأبدل لفظ الشافعية بـ«الحنفية» وكذا فى المالكية والحنابلة .

وإن كتب لأحد قضاة القضاة غيرها : كطرابلس ، وحماة ، وصفد ، والكرک ، أبدل لفظ حلب بلفظ تلك المدينة ، والباقي على حكمه .

وإن كتب لأحدٍ من قضاة العسكر بالممالك المذكورة ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، فلان الشافعى ، مثلا أونحو ذلك : أيد الله تعالى أحكامه ، فى قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلانى ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بإفتاء دار العدل بشىء من هذه الممالك ، أبدل لفظ « قضاء العسكر » بلفظ « إفتاء دار العدل » والباقى على حكمه .

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، فى وكالة بيت المال المعمور بالمكان الفلانى ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من المحتسبين بهذه الممالك ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، فى نظر الحسبة الشريفة بالمكان الفلانى على عادة من تقدمه وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، فى وكالة بيت المال المعمور بالمكان الفلانى ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من نظار الجيش بها ، كتب « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، فى نظر الجيوش المنصورة بالمملكة الفلانية ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب لأحدٍ من كُتَّاب الدَّست بالديار المصرية، كتب «توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى، القضاءى، الفلانى، فلان: أدام الله تعالى رفعتَه، فى كتابة الدَّست الشريف بالأبواب الشريفة». ثم إن كان عن وفاة عينه أو نزول عينه . وإن كان بالشام، أُبدل لفظ «بالأبواب الشريفة» بلفظ «بالشام المحروس» .

وإن كتب بذلك فى نظر البيوت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى، القضاءى، الفلانى: أدام الله رفعتَه، فى نظر البيوت المعمورة» .

وإن كُتب لأحدٍ بنظر خزانة السلاح بالديار المصرية، كتب «توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى، القضاءى، الفلانى: أدام الله رفعتَه، فى خزانة السلاح المنصورة، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب باستيفاء الصُّحبة، كتب «توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى، القضاءى، الفلانى: أدام الله رفعتَه، فى آستيفاء الصُّحبة الشريفة، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر بيت المال، كتب «توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى، القضاءى، الفلانى: أدام الله رفعتَه، فى نظر بيت المال المعمور، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر الخزانة الكُبرى، كتب «توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى، القضاءى، الفلانى: أدام الله رفعتَه، فى نظر الخزانة العالية الكُبرى، على عادة من تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظر خزانة الخاص ، أبدل لفظ الخزانة العالية الكبرى بلفظ خزانة الخاص الشريف ، والباقي على ما تقدم .

وإن كتب بنظر الأحباس ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، القضائى ، الفلانى ، فلان : أدام الله تعالى رفعتَه ، في نظر الأحباس المبرورة ، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بمشيخة الخانقاه الصلاحية (سعيد السعداء) كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الشيخى ، الفلانى : أعاد الله تعالى من بركاته ، في مشيخة الخانقاه الصلاحية ، على عادة من تقدمه وقاعدته » .

وإن كتب بمشيخة خانقاه بيبرس ، أبدل لفظ « الخانقاه الصلاحية » بلفظ « الخانقاه الركنية بيبرس » والباقي على ما تقدم .

وإن كتب بمشيخة الشميصاتية بدمشق ، أبدل ذلك بلفظ « الخانقاه الشميصاتية بالشام المحروس » .

وإن كتب بتقدمة التركان بالشام ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى ، الفلانى : أعزّه الله تعالى ، في تقدمه التركان بالشام المحروس ، على عادة من تقدمه وقاعدته » .

وإن كتب بتقدمة الأكراد ، أبدل لفظ « التركان » بلفظ « الأكراد » .

وإن كتب بمشيخة العائد ، كتب « توقيع شريف أن يستقر المجلس السامى الفلانى : أعزّه الله تعالى ، في مشيخة العائد ، على عادة من تقدمه وقاعدته » .
وعلى ذلك .

الطبقة الثانية

(من التواقيع ما يُفْتَح بلفظ « أما بعد حمد الله » وهو لمن رُتِبته

السامى بغير ياء ، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولى - ما يُكْتَب فى قَطْع الثلث ، وهو الاصل فيما يُكْتَب فى الثلث ثم تَرُقُّ عنه إلى رُتْبَةِ الاَفْتِتاح بالحمد . ألا ترى أن المناشِيرَ التى تُكْتَب فى قَطْع الثلث بقلم التوقيعات تَفْتَح كلُّها بلفظ « أما بعد » على ما سيأتى بيانه فى المقالة السادسة ، فى الكلام على المناشير ، إن شاء الله تعالى .

وصورته أن يكتب فى الطزرة « توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى ، القضاى ، فلان الدين أو الشيخ فلان الدين فى كذا ، على عادة من تقدمه فى ذلك وقاعدته ، على ما شرح فيه » ثم يكتب فى الصدر « أما بعد حمد الله » ويصل على النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول : « فإن أولى الأمور بكذا من هو بصفة كذا » أو « إن أولى الناس بالتقديم من هو متصف بكذا » ونحو ذلك ، ثم يقال : « ولما كان المجلس » ويؤتى بنحو ما تقدم فى المفتح بالحمد لله .

قلت : وقد قلَّ استعمال هذا الضرب بديوان الإنشاء الشريف وإن كان هو الأصل فيما يكتب فى هذا القطع ، حتى لا يكاد يكتب به إلا فى النادر ، تعالياً فى رفعة المكتوب لهم ، مع المسامحة لهم فى مثل ذلك .

المرتبة الثانية - ما يُكْتَب فى قَطْع العادة المنصورى .

والأمر فيه على ما تقدم فيما يكتب من هذه الطبقة فى قطع الثلث . قال فى « التثيف » : وهو قليل جداً لا يكون إلا فى تدريس كبير ، أو نظري وقفي

كبير، أو مشيخة الحرم الشريف بالقدس الشريف، إن لم يكن في قطع الثلث؛
أو لرجلٍ كبيرٍ قديمٍ المهجرة في الخدمة الشريفة، إلا أن الوظيفة صغيرة لا تقتضى أن
تكون في قطع الثلث .

الطبقة الثالثة

(من التواقيع ما يفتتح بلفظ «رُسم بالأمر الشريف» وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى — ما يكتب في قطع العادة المنصوري بقلم الرقاع، وهو لمن
رتبته السامى بغيرياء ممن لم تبلغ رتبته قطع الثلث . قال في «التثقيف»: وصورته
أن يكتب في الطرة «توقيع شريف بأن يستقر المجلس السامى القاضى فلان الدين؛
أعزه الله تعالى في كذا، أو أن يُرتب، أو أن يُقدم» ويذكر ما تضمّنه الشاهد
من قصة أو قائمة من ديوان الوزارة أو الخاص أو غير ذلك «على ما شرح فيه». قال:
ثم يكتب في الصدر بعد البسملة «رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوى،
السلطانى، الملكى، الفلانى، الفلانى، باللقب الخاص، ولقب السلطنة»:
مثل الناصرى، الزينى، ونحو ذلك (ويدعى للسلطان بأدعية تناسب الوظيفة
والمولى لها، وأقلها ثلاث فقرات فما زاد) «أن يستقر المجلس السامى، القاضى،
فلان الدين فلان، أو مجلس القاضى فلان الدين فلان: أعزه الله تعالى في كذا،
لما له من صفات هي كذا وكذا (ويأتى من صفات المدح بما يناسب المقام)
ثم يقال: فليباشر ذلك، أو فليتناق هذا الإحسان، أو فليقابل صدقاتنا الشريفة»
ونحو ذلك؛ ثم يوصى بما يليق بتلك الرتبة، ويدعى له بسجعتين فقط . ثم يقال:
«بعد الخط الشريف أعلاه». ثم قال: وبذلك يكتب لكتاب الدرّج، ومستوفى

الدولة ، وناظر الأَهْرَاء ، وناظر المَطَابِخ ، ومشايع الخَوَانِق الصَّغَار ، والتَّدْرِيس الصَّغَار ، وأنظارِ الأَوْقَافِ الصَّغَار ، ونحو ذلك مما لا يأخذه حَضْر .

وحيثُذ فإن كُتِبَ بِذَلِكَ لِكَاتِبِ دَرَج ، كُتِبَ فِي الطَّرَةِ « تَوْقِيعِ شَرِيفُ »
 أَن يَسْتَقَرَّ مَجْلِسُ الْقَاضِي فَلَانَ الدِّينِ فَلَانَ : أَعَزَّهُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابَةِ الدَّرَجِ
 الشَّرِيفِ » .

وإن كُتِبَ بِهِ لِمُسْتَوِفٍّ مِنْ مَسْتَوِفِّ الدَّوْلَةِ ، كُتِبَ « أَن يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ السَّامِي ،
 الْقَاضِي ، فَلَانَ الدِّينِ فَلَانَ : أَدَامَ اللهُ نِعْمَتَهُ ، فِي آسْتِيَاءِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ عَلَى عَادَةِ
 مِنْ تَقَدَّمَهُ » .

وإن كُتِبَ لِنَازِرِ الأَهْرَاءِ ، كُتِبَ « أَن يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ السَّامِي ، الْقَاضِي ،
 فَلَانَ الدِّينِ فَلَانَ : أَدَامَ اللهُ رَفَعَتَهُ ، فِي نَظَرِ الأَهْرَاءِ السَّعِيدَةِ » .

وإن كُتِبَ بِنَظَرِ مَطَابِخِ السُّكَّرِ ، كُتِبَ « أَن يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ السَّامِي ، الْقَاضِي ،
 فَلَانَ الدِّينِ فَلَانَ : أَدَامَ اللهُ تَعَالَى رَفَعَتَهُ ، فِي نَظَرِ المَطَابِخِ السَّعِيدَةِ » .

وإن كُتِبَ بِمَشِيخَةِ خَانِقَاهِ صَغِيرَةٍ ، كُتِبَ « أَن يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ السَّامِي ، الشَّيْخِي ،
 فَلَانَ الدِّينِ فَلَانَ ، أَوْ مَجْلِسُ الشَّيْخِ فَلَانَ الدِّينِ فَلَانَ : نَفَعَ اللهُ تَعَالَى بَرَكَتَهُ ، فِي مَشِيخَةِ
 الْخَانِقَاهِ الْفَلَانِيَةِ ، عَلَى عَادَةِ مِنْ تَقَدَّمَهُ فِي ذَلِكَ وَقَاعِدَتِهِ » .

وإن كُتِبَ بِتَدْرِيسِ صَغِيرٍ ، كُتِبَ « أَن يَسْتَقَرَّ فِي تَدْرِيسِ الْمَدْرَسَةِ الْفَلَانِيَةِ ،
 عَلَى عَادَةِ مِنْ تَقَدَّمَهُ وَقَاعِدَتِهِ » .

وإن كُتِبَ بِنَظَرِ وَقْفٍ ، كُتِبَ « أَن يَسْتَقَرَّ فِي نَظَرِ الْوَقْفِ الْفَلَانِيِّ »
 وَنَحْوِ ذَلِكَ .

ثم إن كان شيء من ذلك معلوم يشهد به الديوان السلطاني ككتابة الدرج وأستيفاء الدولة ، كُتِبَ بعد قوله وقاعدته : « بما لذلك من المعلوم الشاهد به الديوان المعمور » .

وإن كان الشاهد بالمعلوم كتاب وقف ، كتب « بما لذلك من المعلوم الشاهد به كتاب الوقف المبرور » . ويقول في آخر طرّة كل ولاية من التقاليد ، والتفاويض ، والمراسيم ، والتواقيع على اختلافها : « على ما سُرح فيه » .

الطبقة الرابعة

(التواقيع الصّغار ؛ وهي لأصغر ما يكون من الولايات :

من نظروقف صغير ونحو ذلك ، وتكون في ثلاثة أوصال ونحوها)

وهي على ضربين

الضرب الأول — ما يكتب على مثال أوراق الطّريق .

وصورتها أن يكتب في أعلى الدرج : « توقيع شريف بأن يستقر فلان في كذا ، على ما سُرح فيه » . ويكون ذلك في سطرين ؛ ثم يكتب في آخر ذلك الوصل : « رُسم بالأمر الشريف العالي المولوي السلطاني » إلى آخر ما تقدم في الطبقة الثالثة . ويقال في الدعاء : « أعلاه الله وشرفه ، وأنفذه وصرّفه » ونحو ذلك . ثم يقال : « أن يستقر فلان في كذا » ويشرح ما تضمنه الجواب في هامش القصة . ثم يقال : « فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ، ويعمل بحسبه ومقتضاه ، من غير عدول عنه ولا خروج عن معناه ، بعد الخط الشريف أعلاه » .

الضرب الثانى - ما يكتب على ظهور القصاص .

وكيفيته أن تلصق القصة التي شملها جواب كاتب السر أو غيره على واصلين من ورق العادة الصغير . قال في "التثقيف" : وصورتها أن يكتب في ظاهر القصة بغير بسملة قبل الوصل الذي وصله بنحو أربعة أصابع ماصورته : « رُسم بالأمر الشريف العالى المولوى السلطانى » على نحو ما تقدم . ويدعى له : « أعلاه الله وشرّفه ، وأنفذه وصرّفه » على ما تقدم في الضرب الأول . ثم يقال : « أن يتأمل ما أنهاه رافعها باطنا ، وليتقدم بكذا وكذا » ويشرح ماتضمنه الجواب في هامش القصة . ثم يقال : « فليعتمد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ، ويعمل بحسبه ومقتضاه ، بعد الخطّ الشريف أعلاه » . قال : وإن كان رافع القصة ممن هو متميز بعض التمييز قيل : « مترجمها » بدل « رافعها » . فإن زيد في قدره ، قيل : « ما ذكره مجلس القاضى أو المجلس السامى القاضى » إن كان من هذه الرتبة ، وتذكر بعض ألقابه . ثم يقال : « أدام الله علوه » أو « أعزه الله ، فليتقدم » ويكمل إلى آخره .

وأعلم أن المقرّ الشهابى ابن فضل الله رحمه الله قد ذكر في "التعريف" افتتاحات أخرى للتواقيع بين رتبة «أما بعد حمد الله» ورتبة «رُسم بالأمر الشريف» فقال : بعد الافتتاح بأما بعد حمد الله : وقد تستفتح بقول : «أما بعد فإن أولى ما كان كذا» أو ما هذا معناه ، وقد تستفتح بقول : «من حسنت طرائقه ، وحمدت خلائقه» أو ما هذا معناه ، وجعلها رتبة بعد رتبة .

قلت : وهذه الافتتاحات كانت مستعملة في الدولة العباسية ببغداد ، وفي الدولة الفاطمية بالديار المصرية والبلاد الشامية ، ثم في الدولة التركية إلى زمن المقرّ الشهابى

المشار إليه في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون؛ ثم رُفِضَتْ بعد ذلك، وتُرك استعمالها بالديار المصرية البتّة، فلم يكن أحدٌ من كُتّاب ديوان الإنشاء يستعمل شيئاً منها .

المقصد الثالث

(في بيان كيفية وضع ما يكتب في هذه الولايات في الورق ،
ويتعلّق به عشرة أمور)

الأمر الأول — الطّرة، وهي في اصطلاحهم عبارة عن طَرَف الدَّرَج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يكتب في رأس الدَّرَج مجازاً، تسميةً للشيء باسم محلّه .

قلت : وليس صحيحاً من حيث اللغة، فإنّه في الأصل مأخوذ من طُرة الثوب . وقد ذكر الجوهريّ وغيره أن طُرة الثوب هي طَرَفه الذي لا هُدب فيه، والذي لا هُدب فيه من الثوب هو حاشيته، بخلاف أعلاه وأسفله . نعم يجوز أن تكون مأخوذة من الطَّر بمعنى القطع ، لأن الطّرة مقتطعة عن كتابة المتن ، يفصل بينهما بياض ، ومنه سُمي الشَّعر المرسل على الصُّدغ طُرة . وقد جرت العادة في كل ما يكتب له طُرة أن يكتب في أعلى الدَّرَج في الوَسَط بقلم الرِّقاع بكل حالٍ ماصورته « الأسم الشريف » ثم تكتب الطّرة تلو ذلك من أول عَرْض الدَّرَج إلى آخره ، دون هامش عن يمينٍ ولا شمال : بحيث تكون أطراف المنتصبات من أول السطر الأول ملاصقةً لأسفل ما كُتب في أعلى الدَّرَج مما تقدّم ذكره . ويأتي بالطّرة المناسبة : من تقليد ، أو رسوم ، أو تفويض ، أو توقيع ، بالقلم المناسب لمقدار قطع ذلك الورق على ما تقدّم بيانه ، ويأتي على ما يكتب في الطّرة على ما تقتضيه

الحال ، على ما سبق ذكره إلى أن ينتهى إلى آخره . فإن أنتهى فى أثناء سطرٍ ، تركَ باقىه بياضا ، وكتب فى آخره «على ماشرح فيه» بحيث يوافق آخر ذلك آخر السطر . وإن أنتهى ما يكتب فى الطرة فى آخر السطر ، كتب تحت ذلك السطر على حياىل آخره «على ماشرح فيه» كما تقدم ، لا يختلف الحال فى ذلك فى مكتوب ولاية ، إلا فيما يكتب على ظهور القمص : فإن العادة جرت فيه أن لا يكون له طرة ، ولا يكتب فى أعلاه الأسم الشريف : لأنه قد علم أنه لا يكتب فيه إلا الأسم الشريف ، فلم يحتج إلى تنبيه على ذلك .

الأمر الثانى — البسمة الشريفة . ومن شأنها أن تكتب فى أول كل ولاية لها شأن ، عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم : « كل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجدم » يعنى ناقص البركة . ومحله من كتب الولايات فى أول الوصل الرابع بعد أوصال البياض . أما ما لا بال له من كتب الولايات : كالتواقيع التى على ظهور القمص وما هو منها على صورة أوراق الطريق ، فقد جرى الاصطلاح على أنه لا يكتب فى أولها بسمة أصلا ، بل تفتح بـ «رسم بالأمر الشريف» .

قلت : وقد كان القاضى علاء الدين على الكركى حين ولى كتابة السر الشريف بالديار المصرية فى أول سلطنة الظاهر برقوق الثانية أمر أن تكتب فى أول هذه التواقيع بسمة لطيفة المقدار ، طلباً للتبرك ، ثم ترك ذلك بعد موته وانتقال الوظيفة إلى غيره . ولا يخفى أن ما عليه الاصطلاح هو الوجه : فإن النبى صلى الله عليه وسلم قد قيد ما يبدأ بالبسمة بما يكون له بال من الأمور ، ومقتضاه أن ما لا بال له لا يبدأ فيه بسمة . على أنه قد كان أمر أن تجعل البسمة قبل قوله «رسم بالأمر

الشريف» ومقتضى ذلك أن تقع العلامة فوق البسمة، وفيه ما لا يخفى. بخلاف غيره من الولايات الكبار فإن العلامة تكون فيها تحت السطر الثاني من البسمة، على ما سيأتي بيانه.

الأمر الثالث — الأفتاح الذي يلي البسمة. وقد علمت مما تقدم أن الذي استقر عليه أفتاح كتب الولايات على اختلافها من أعلى وأدنى لا يخرج عن ثلاثة أصناف:

أحدها — الأفتاح بالحمد لله، وهو أعلاها. ثم تختلف رتبته بعد ذلك باختلاف ما يكتب فيه من مقادير قطع الورق: إذ هو تارة تفتتح به التقاليد، وتارة تفتتح به المراسيم المكبرة، وتارة تفتتح به التفاويض، وتارة تفتتح به أرتواقيع.

الثاني — الأفتاح بأما بعد حمد الله. وهو المرتبة الثانية من المراسيم المكبرة، والتواقيع الكبار. وتكون في قطع الثلث تارة، وفي قطع العادة المنصوري أخرى.

الثالث — الأفتاح برسم بالأمر الشريف. وهو المرتبة الثالثة من المراسيم والتواقيع، وهي أدنى رتبها. وتكون في قطع العادة الصغير، وربما كتبت بها في قطع العادة المنصوري.

الأمر الرابع — البعدية فيما يفتتح فيه بالحمد لله، وهو على ضربين.

الأول — أن يقال بعد التحميد والتشهد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم: أما بعد، وهو الأعلى. وتكون في التقاليد خاصة.

الثاني — وبعد، وهي دون أما بعد. وتكون في التفاويض وكتب المراسيم والتواقيع. وقد مر القول على ذلك مستوفى في الكلام على القوائم في المقالة الثالثة.

الأمر الخامس — وصفُ المتولّى بما يُناسب مقامه ومقام الولاية من المدح والتقريض . وقد مرّ القولُ على ذلك فى المقصد الأوّل من هذا الطّرف، فى الكلام على مقدّمات الولايات .

الأمر السادس — الألقابُ المختصّة بصاحب الولاية . قد تقدّم أنه يذكر فى الطّرة بعض الألقاب التابعة للقب الأصيل : من المقرّ والجناب وغيرهما، مع التصريح باسم المتولّى والدعاء له بما يُناسبه، على ما تقدّم بيّنه هناك . أما فى أثناء الولاية، فإنه يُستوعب جميع ألقابه ويعاد ذكر الأسم والدعاء المذكور فى الطّرة . وقد تقدّم ذكر الألقاب مستوفى فى المقصد الأوّل من هذا الفصل فى الكلام على مقدّمات الولايات .

الأمر السابع — وصيّة صاحب الولاية بما يُناسب ولايته . وقد تقدّم التنبيه على ذلك فى الكلام على مقدّمات الولايات أيضا .

الأمر الثامن — الدعاء لصاحب الولاية بما يُناسبه إذا كان مستحقاً لذلك . وقد ذكر فى " التعريف " أن من استصغر من المولّين لا يدعى له فى أوّل ولاية ولا آخرها، وربما قيل بدل الدعاء أو بعده : « والخيرُ يكون » .

الأمر التاسع — الخواتم : من كتابة « إن شاء الله تعالى » والتاريخ، والمستند، والحمدلة، والتصلية، على نحو ما تقدّم فى المكاتبات .

فأما المشيئة، فإنه يكتب فى آخر مكتوب كل ولاية : « إن شاء الله تعالى » فى سطرٍ منفرد .

وأما التاريخ، فإنه يكتب فى سطرين كما تقدّم فى المكاتبات، فيكتب « كُتب فى يوم كذا من شهر كذا » فى سطر، ويكتب « سنة كذا وكذا » فى سطر تحته .

وأما المستند، فإنه يكتب تحت التاريخ، كما تقدم في المكاتبات . فإن كان بتلق كاتب السرّ، كُتب في سطرٍ واحد « حسب المرسوم الشريف » . وإن كان برسالة الدوّادار، كتب « حسب المرسوم الشريف » في سطر، ثم كتب في سطر تحته « برسالة الجناب العالى الأميرى، الكبيرى، الفلانى الدوّادار، الناصرى » مثلا . وإن كان بخط السلطان، كتب « حسب الخط الشريف » . وإن كان بإشارة النائب الكافل، كتب « بالإشارة العالیه الأميریه الكبيریه الفلانية » في سطر، وكتب « كافل الممالك الشريفه الإسلامیه أعلاها الله تعالى » في سطر تحته . وإن كان بإشارة الوزير، كتب « بالإشارة العالیه الصحابیه الوزيریه الفلانية » في سطر، ثم كتب في السطر الثانى « مدبر الممالك الشريفه الإسلامیه أعلاها الله تعالى » . وإن كان الوزير صاحب سيف، أسقط منها « الصحابیه » . اللهم إلا أن يكون مرسوماً صغيراً أو توقيعاً صغيراً مما كُتب في هيئة ورقة الطريق أو على ظهر القصّة، فإنه إن كان بتلق كاتب السرّ، كُتب المستند على حاشية التوقيع على سمت ما بين السطر الأوّل والثانى . وإن كان بإشارة النائب الكافل كُتب هناك « بالإشارة العالیه » سطرين، على نحو ما تقدم فيما يُكتب تحت التاريخ . وإن كان بإشارة الوزير، فالأمر كذلك . وإن كان برسالة الدوّادار، كتب على الحاشية هناك « حسب المرسوم الشريف » ، ثم كُتب تحت التاريخ « برسالة الجناب العالى » إلى آخر المستند .

وأما الحمدلة والصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم، ففي سطر تحت المستند، كما فى المكاتبات، يكتب فيها « الحمد لله وحده » ثم يخلّى بياضاً، ثم يكتب « وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه » .

وأما الحسبة ، ففي سطر تحت ذلك يكتب فيه « حسبنا الله ونعم الوكيل » على ما تقدم في المكاتبات .

الأمر العاشر — البياض الواقع في كُتب الولايات، وله ستة مواضع :
الأول — فيما بين الطرة والبسمة ، وهي ثلاثة أوصال بالوصل الذى فيه الطرة ، لا يتجاوز ذلك في مقدار قطع كبير ولا صغير . إلا أنه ربما اقتصر على وصلين فيما استصغر شأنه من الرتبة الثالثة من التواقع .

الثانى — الحاشية فيما على يمين البسمة وما بعدها . وأهل زماننا يعبرون عن ذلك بالهامش ، ولم أجد له أصلا في اللغة . وقد تقدم القول عليها في المقالة الثالثة ، في الكلام على متعلقات قطع الورق وما ينخرط في سلكه . أما آخر الأسطر فإنه لا بياض فيه ؛ على أن ملوك الروم يجعلون لكتبهم حاشية من أول الأسطر وحاشية من آخرها ، على ما تقدم القول عليها في الكتب الواردة عن صاحب القسطنطينية .

الثالث — بيت العلامة ؛ وهو فيما بين السطر الأول : وهو الذى يلي البسمة ، وبين السطر الثانى : وهو الذى يكون فى آخر وصل البسمة . وقد تقدم فى الكلام على مقادير الورق فى المقالة الثالثة أن مقداره فى الزمن القديم كان قدر شبر ، وقد شاهدناه دون ذلك بقليل فيما كتب به فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" على ما يشهد به الموجود من تواقعهم ؛ ثم تناقص قليلا . فلما غلا الورق وقصرت الأوصال نقص مقداره حتى صار نحو شبر^(١) ، وهو على ذلك إلى الآن . ويزيد ذلك وينقص باعتبار قطع الورق فإنه فى القطع الكبير يكون الوصل أطول منه فى القطع الصغير .

(١) لعله نحو "نصف شبر" كما لا يخفى .

الرابع — ما بين الأسطر في متن الولاية . وهو على مقدار النصف من بيت العلامة في القطع الكبير والقطع الصغير ، لا يكاد ذلك يختلف إلا في التواقيع والمراسيم التي هي على هيئة أوراق الطريق ، والتي على ظهور القصص فإن ما بين السطرين منها يكون متضابقاً حتى يكون بقدر ثلاثة أصابع مطبوقية .

الخامس — ما بين أسطر اللواحق فيما بعد «إن شاء الله تعالى» فإنه يكون ما بين كل سطرين من ذلك قدر نصف ما بين السطرين في متن الولاية ، إلا في المستند إذا كان سطرين ، مثل أن يكون برسالة الدوادار ونحوها ، فإن السطرين يكونان متلاصقين .

السادس — ما بعد اللواحق في آخر الكتاب ، وهو قدر يسير يكون قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثة أصابع مطبوقات وما قارب ذلك .

المهيع الثاني

(في ذكر نسخ مما يكتب في متن الولايات من التقاليد والمراسيم المكبرة والتفاويض والتواقيع)

قلت : وقد كنت هممت أن أجعل آت التقاليد ، والتفاويض ، والمراسيم ، والتواقيع : من الافتتاح «الحمد لله» أو «رأما بعد حمد الله» أو «رسم بالأمر الشريف» في فصل مستقل ، ومقاصدها المتعلقة بالوظيفة ... (١) ... الكاتب الذي لا يحسن الإنشاء ما أحب من الأبتدآت المناسبة للاسم أو اللقب ونحوهما ثم يبين القصد المتعلق بالوصف . ثم أضربت عن ذلك وأتيت بالنسخ على صورتها لأمر : منها — أن في تضييع النسخة إفساداً لصورتها وضياع فضيلة المنشئين (١) بياض بالأصل في غير نسخة ولعله «في فصل على حدة ليخار الكاتب الذي لا يحسن الإنشاء ما أحب الخ» .

وإشاعة ذكركم . ومنها - أن يعرف أن الصورة التي تُورد مما كُتِب به في الزمن السابق ، وأنها مصطلح قد أصطلح عليه أهل ذلك الزمان . ومنها - أن يعرف المنشئ ترتيب من تقدم لينسج على منواله . وإذا أراد من لأدربة له بالإنشاء أخذ تجميدة من تقليد أو توقيع وغيرهما ونقلها إلى مقصد من مقاصد الولاية لم يعجزه ذلك .

ثم قسمته على ثلاثة أقسام .

القسم الأول

(ولايات وظائف الديار المصرية ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(الولايات بالحضرة ، وهي على ستة أضرب)

الأضرب الأول

(ولايات ارباب السيوف ، وهي على طبقتين)

الطبقة الأولى

(ذوات التقاليد ، وهي ثلاث وظائف)

الوظيفة الأولى

(الكفالة ، وهي نيابة السلطنة بالحضرة)

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف المملكة في المقالة الثانية أن الكفالة هي أعلى رتب نيابة السلطنة ، وأن النائب الكافل يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان ، ويعلم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك ؛ بخلاف غيره من النواب فإن كل نائب لا يعلم إلا على ما يختص بمخاصه نيابته . وقد تقدم في مقدمة الولايات أن لقبه «المقرّ الكريم» على ما استقر عليه الحال .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة ، كُتِبَ بها من إنشاء الشهاب محمود الحلبي
رحمه الله ، وهي :

الحمد لله الذي جعل رُكنَ الدولة في دولتنا القاهرة ثابت القواعد ، على فَرَقَدِ
الفرَاقِدِ ، راقياً في رُتَبِ العُلُوِّ الآخذة من أُنْفُقِ التأييد بالمطالع ومن نُطْقِ العزِّ بالمعاقِدِ ؛
حالياً بعُقُودِ المَهَابَةِ التي لا تزال لُرُعيها على الأعداء طلائع خيل في المراقب وورائع
خيال في المراقِدِ ، حاوياً من أنواع المفانح ما لو كآثرته الدراري غدت وهي
لمجموعه فرَاقِدِ ، أو فآثرته الدرر ثَقَبَتِها الأفكار النواقِدِ ، مقلداً من سُيوفِ الظفر
ملا تَبُو في نصرَة الإسلام مَضارِبُه وكيف تَبُو وأوامرنا لعقود حمائِها على عَوَاقِ
مَجْدِه عَوَاقِدِ .

نحمده على نِعَمِه التي عدقتْ أمورَ دولتنا بمن يرفعُ بأُسِه مَنَارَها ، وعقدتْ قَوَاعِدَ
مملكِتنا بمن يُوالِي فضلُه أنوارَها ، وعضدتْ هِمَمَ أوليائِنا بمن إذا تخيلتْ أعداءَ الدين
مواقِعَ صَوَارِمِه كان أَمْنُ صُونِها إيسارَها وأنفعُ سلاحِها فرارَها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُشرقُ الهِمَمُ ، بلوأمِها ، وتُسرفُ
الكَلِمُ ، بجوامِعِها ، وتركو الأُممُ ، بما تنقلُ الألسنةُ منها عن القلوب إلى مَسَامِعِها ؛
ونشهد أنَّ مَهدا عبُدُه ورسولُه الذي أقامنا اللهُ لنُصردِينِه ، وألهمنا نفوِضَ مصالحِ
أمتِه إلى كلِّ وليٍّ ما رُفِعَت رايُه نصرَها إلا تلقاها عرابُه مَجْدِه بيمينِه ؛ وعضدنا
في جهادِ أعدائِه بأعزِّ صَفِيٍّ يُنوبُ بأُسِه للجيش عن طليعِته ويقوم رأيه في الحرب
مَقَامَ كَمِينِه ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين آخترهم لصُحْبَتِه وأرتضاهم ،
وأرَهفَهُم لإقامةِ مَلَّتِه وأنتضاهم ، فمنهم من فازَ بمزِيَّتِي سَبِقِه وتصديقِه ، ومنهم من
كان الشيطانُ يَنكِبُ عن طريقِه ، ومنهم من آختر الشهادة على الانتصارِ بِقَريقِه

ورَفِيقه، ومنهم مَنْ أقامه بِشَرَفِ الأُخُوَّةِ معه مُقامَ شَقِيقه، صلاةً يَبْلُغُه إِخْلَاصُ مَقِيمِها، وَيُعْرَضُ عليه إِيمانُ مَدِيمِها، وسلم .

أما بعدُ، فإننا من حينِ أَوْرَثنا اللهُ مُلْكَ الإسلامِ لَاعنِ كَلالِه، وألبَسنا في مَواقِفِ الذَّبِّ عن دينِه حُللَ العِزِّ المُعَلِّمةَ بِالْحَلالَةِ، ومَكَّنَ لنا في أرضِه، وأنهَضنا بِمَسْئُونِ الجِهادِ وفَرَضِه، ونَشَرَ دعوةَ مُلْكنا في طُولِ الوجودِ وعَرَضِه - لم نَزَلْ نرتادُ لِكفالةِ الممالكِ الإسلاميَّةِ من تَأوى مِنْهُ إلى رُكْنِ شَدِيدٍ، ورَأى سَدِيدٍ؛ وَحَزَمَ يَقَرِّبَ من مَواهِبِ النَصْرِ كُلِّ بَعِيدٍ، وَعَزَمَ إذا أَرهَفَ صَوارِمَه من أَدنى الصَّعِيدِ، وَجَفَّ هَولُ مَواقِعِها بِأَبِ الحَديدِ؛ فَهو المَطوِيُّ في أَثناءِ ضَمائِرِنا وَإِنْ تَقَلدنا قَبْلَه سِواه، وَالْمَنوِيُّ في أَحْياءِ سَرائِرِنا وَإِنَّمَا لِأَمْرِيَّ ما نَواه؛ قَد حَلَبَ قَدَمَ هِجْرَتِه، الدَّهْرَ أَشْطَرَه، وَكَتَبَ حُسْنَ خِبرَتِه، من عُنْوانِ السَّيرِ أَشْطَرَه، وَتَمَثَّلَتْ صَراةُ الزِمانِ لِفِكرِه فَاجتَلَى صُورَ الوَاقِعِ في صَفائِها، وَتَرَدَّدَتْ تِجارِبُ الأُممِ على سَمْعِه فَسَلِمَ ما يَأْتى وما يَدْرُ في تَركِها وَأَقْتَفائِها؛ وَأَسْتَقْبَل دَولَةَ أسلافِنا الشَريفةَ من فِواجِحِها: فَكان لسانَ حَاسِنِها، وَبَنانَ مِيا مِناها؛ وَخِزانَةَ سَراها، وَكِانَةَ نَهْيا وأَمْرِها؛ وَطَليعَةَ تَأْيِيدِها، وَذَريعَةَ أولِياها إلى عِوارِفِها وَجُودِها؛ وَعُنوانَ أَخبارِها، وَعِنانَ سِوابِقِها التي لا تُدْرِكُ ما تُرُ من سَلَفِ شَقِّ غُبارِها؛ وَيَمينَ قَبْضَتِها المَصْرَفَةَ بينَ البَاسِ والنَّدى، وَأَمينَ آرائِها المُؤَيِّدَةَ بِالتَوفيقِ اللِّدْنِيِّ على العِدا؛ وَرُكْنَها المُشَيِّدَ بِالأسَلِ وَهو ما تُبْنى عليه المَمالِكُ، وَحِصْنَها المَصْفَحَ بِالصَّفاحِ فلا تَسْتَطِيعُ الأَهْواءُ أَنْ تَتَوَقَّلَ إليه تَلْكَ المَسالِكُ؛ وَزَعيمَ جِوشِها التي أَجْتَنَّتْ من قَصبِ قَواضِبِه ثَمَرَ النَصْرِ غَيرَ صَرِّه، وَمَقَدِّمَ عِسا كِرها التي أَجْتَلَّتْ بِه وَجُوهَ الظَّفَرِ الحُلُوةِ في أَيامِ الكَريهةِ المُترة .

ولما كان المقتر الكريم (الفلاني) هو معنى هذه الصفات المبهمة ، ومبنى هذه القواعد المحكمه ، وطراز حُلل هذه الأحوال المعلمه ؛ وسر المقاصد الظاهره ، وسلك هذه [النجوم] الزاهية بل فلک هذه الدراري الزاهره ؛ تُحلق صَوادِحُ البراعة ، فتقع دون أوصافه بمراحل ، وتغوص سواجح البراعة ، فيلقيها العجز عن أستخراج دُرر نُعوتِه بالسواحل ، فأوصافه تُدكر على وجه الإجمال لضيق نطاق الفصاحة عن تفصيلها ، ومناقبه تُشكر بلسان الإجماع لعجز ألسنة الأقلام عن بلوغها إلى غايتها ووصولها ؛ فلذلك اقتضت آراؤنا الشريفة أن نفسح مجال الهدى ، بتفويض إيالة الممالك إليه ، وأن نقطع آمال العدا ، بالأعتماد في زعامة الجيوش الإسلامية عليه ، وأن نُقر عيون الرعايا بإلقاء مقاليد العدل والإحسان إلى يديه ؛ وأن نصون عقائل الممالك من مهابة بما يغدو سورا لعواصمها ، وسواراً لمعاصمها ؛ وشنباً تفتُر ثغورها عن بروقه ، أو لها يقطع طريق أمل العدا عن تخيل خيالها في طروقه ؛ ليعتضد الدين منه بركنه ، ويتغلب [على] الشرك في حالي حربيه ووهنه ، ويتقلب كل من رعايانا بين وهاد يمينه ومهاد آمنه - رُسم بالأمر الشريف - لا زال ملكه على الأركان ، راقياً من أفق النصر إلى أعلى مكانة وأرفع مكان - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالديار المصرية ، والممالك الإسلامية ؛ على أكمل العوائد ، وأجمل القواعد ؛ تفويضاً تمضي أحكامه في الممالك الإسلامية شرقاً وغرباً ، وبعداً وقرباً ؛ فلا يخرج منها شيء عن أوامره وأحكامه ، ولا يعدل في سلمها وحربها عن حكمي سيوفه وأقلامه .

فليستقر في هذه الرتبة العالية أستقرار الأركان الموائم ، والأطواد اللوات ؛ والأصول النوات ، والنجوم الثواب ؛ مؤثلاً قواعدها بأية السديد ورايته ، معوذاً كالمها بسيف النصر وآيته ، مبتدئاً في إعلاء منارها من العدل بأقصاه

ومن الإحسان بغايته ، مكثراً أعداد الجيوش الإسلامية برأيه السعيد ، مقرباً من مطامح النصر النائية كلَّ بعيد ، موكلاً بحركات العدو وسكاته جفنًا لا يالف الغرار ، وسيفًا لا يعرف الفرار ، وعزماً لا يرضى من عدوه دون أصطلامه الفرار ؛ فلا تزال جيوش الإسلام بجميل تعاهده منراحة العوائق ، منزاله العلائق ؛ لامانع لها عن الركوب ، ولا قاطع عن الوثوب ؛ قد أعدتها عزائمها ، فكلُّ زمانها بالتأهب للقاء وقت إمكانه ، وأمدت بأسها صوارمه ، فهي لا تسأل عن عدد عدوها بل عن مكانه ؛ مقيماً منار العدل الذى هو أساس الملك ودعامته ، ورأس الحكم بأمر الله فى خلقه وهامته ، ونور الحُصْب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامته ، ناشراً له [فى] أقطار الممالك ، ماحياً بنور إقامته آية ليل الظلم الحالك ؛ معاضداً أحكام الشريعة المطهرة بالانقياد إليها ، والأعتماد فى الحُلِّ والعقد عليها ، والاحتفال برفع منارها : فإن ذلك من أفضل ما قدمته الدول الصالحة بين يديها ، مقدماً عمارة البلاد على كلِّ مهمٍّ : فإنها الأصل الذى تنفوع عنه المصالح على أفتراقها ، والمادة التى تستطيل الجيوش الإسلامية على العدا بتوسعها فى إنقادها وإنفاقها ، والأسباب التى تُعين الغيوث على نماء ما بسط الله لعباده من أرزاقها ؛ وأكثر مصالحها الرفق الذى ما كان فى شئ إلا زانه ، والعدل الذى ما أتصف به ملك إلا حفظه وصانه ، فقد جعلنا أمره فى ذلك جميعه من أمرنا المطاع ، وأقتصرنا عن ذكر الوصايا بما فى خصائصه الكريمة من حُسن الإصطلاع وجميل الأطلاع ، وأكثرنا بما فى خلائقه الجميلة من محاسن لو تخير نفسه لم يردّها على ما فيه من كرم الطباع ؛ والله تعالى يؤيده وقد فعل ، ويجعل ركنه من أثبت قواعد الدين وقد جعل ؛ إن شاء الله تعالى .

(١) الغرار النوم القليل أو القليل من كل شئ . انظر اللسان ج ٦ .

(٢) العامة قبض الحصد إذا اجتمعت بعد حصدها وجمعها عام . كذا يؤخذ من اللسان .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة أيضا، وهي :

الحمد لله الذى زانَ دولتنا القاهرةَ من حُسامِها بتقليده ، وصانَ حِمى ممالكنا
الشريفةِ من أوليائنا بمن تَعُدُّو مواقعَ سيوفه من كلِّ عُدُو قلائدِ جيده ، وزادَ جلالَةَ
الملكِ بمن إذا ركبَ فى مواكبِ نيابتهِ أوردَ جِدادَ رُعبه من كلِّ مُتَوَجِّجٍ من ملوكِ
العِدا مناهلَ وريده ، وفوضَ تَقْدِمةَ جُيوشنا المنصورةِ إلى مَنْ تُضاعِفُ مهابتَه
فى عيونِ العِدا عددَ جنوده ، وتغزوه سرايا خيله فى يقظتِه وتطلُّعِ عليه طلائعِ خياله
فى هُجُوده ، وإذا صلَّتْ سيوفُه فى موقِفٍ وعى أغرتْ رأسَ كلِّ مستكبرٍ لم يعرفِ اللهَ
قبلَ ركوعه بسجُوده ؛ مشرَّفِ أقدارِ أوليائنا من المراتبِ بما تشرفُ به أقدارُ المراتبِ
فى نفسها ، ومفضِّلِ أيامِ دولتنا على الدُّولِ بما ألفتَه من جلالَةِ مُلكها فى أمسيها ،
ومجِّلِ سيرِ أصفِيائنا من المعدلةِ بما إذا غرستَه فى قلوبِ الرعايا كان الدعاءُ الصالحُ
ثمرةَ غرسها ، ومقلِّدِ خواصنا من إيالةِ المُلكِ ما إذا خطبتْ به الأفلامُ على منابرِ
الأناملِ نقلتِ البلاغةَ فى تلكِ الأوصافِ عن قسِّها ، ومُفِيضِ حُلِّ الأبناءِ المرقومةِ
بأسنى الرتبِ على مَنْ إذا زانتْ حبرها اللابسُ زانها بلبسها ، وإذا أشرقتْ به هالةُ
المواكبِ لوغى سقطتْ فوارسُ ملوكِ العِدا عن مراكبها وأضطربتْ الأيسرةُ بملوكِ
فُرسها ، وإذا كتمته الأعداءُ أنباءها نطقتْ ألسنةُ رباحه بأسرارِ أهلِ الشركِ ولا يرى
أسمعُ من صمِّها ولا أفصحُ من حُرِّسها ، وإذا تطاولتْ أبطالُ الوقائعِ للقاءه أقرتْ
ثغورُ سيوفه عن شنبِ النصرِ لإلفها بمعانقةِ الأعناقِ وأنسها .

نحمده على نعمه التى أعادتْ شرفَ أسمائنا إلى أسماعِ المنابرِ ، وأنظقتْ بمضاعفةِ
الأبناءِ لأوليائنا ألسنةَ الأفلامِ فى أفواهِ المحابرِ ، وأعادتْ بسيفِ النصرِ حقوقَ مُلكنا
الذى تلقيناه مع الأُوليةِ والأولويةِ من أسلافنا الكرامِ كابرًا عن كابرٍ .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال سيوفنا بإعلاء منارها
 ناهضة ، وجياد جهادنا لنشر دعوتها فى الآفاق راكضة ، ومواد نعمنا ونقمنا لآمال
 حاملها باسطة ولأرواح جادها قابضة ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى
 ايدته الله تعالى بنصره ، وآتاه من معجزاته ما يحول البصر دون حصره ، وجعله أمام
 الأنبياء وإمامهم مع تأخر عصره ، ونصره بالرعب الذى زحزح كل ملك عن سريره
 وأنزل كل متوج من قصره ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هجروا فى نصرته ،
 مأوف الأوطان والأوطار ، وركبوا فى إقامة ملته ، مخوف الأهوال والأخطار ،
 وفتحوا بمن دعوته ، ما أشتمت عليه المشارق والمغارب من الأرجاء الممتدة والأقطار ؛
 صلاة لا يزال سيف جهادنا لدوامها مقيما ، وحكم جلا دنا لإقامتها مديما ؛ وسلم
 تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من سميت التقاليد بأوصافه ، وصرفت أمور الممالك بين بأسه
 وإنصافه ؛ وحلت مواقف الخدمة الشريفة من جواهر مهابته ، بما هو جدير بحلى
 السيف ، وزيت مجالس العدل من إباته ، بما هو مبرأ من الميل والهوى منزّه عن
 الظلم والحيف ؛ ومليت القلوب من مخافته ، بما يمنع ذا القوة فى الباطل من توهم
 البطش وذا الصبوة فى الهوى من استزاره (؟) ويحسن لها الفرار ، ويهون عليها
 فى جنب ما تتوقمه من مواقع سيوفه السبى والإسار ، وعُدق به من مصالح الأقاليم
 ما يصرفه بيمين دأبها إيمان ويسار شأنها اليسار ؛ وفوضت زعامة الجيوش منه إلى همام
 يقوم بأمرها على ما يجب ، وليت لو لم ينهض بألوفها المؤلفة فى الوقائع لكان من
 نفسه وحدها فى بحفل لحب ؛ ومقدام آلاف العدا فى شجاعته آحاد ، وضربام
 قسور أهل الكفر بين يدي وثباته وثباته وأسودهم تقاد ؛ من لم نزل نعهده فى أركان
 البيت الشريف المنصورى بالخصاص ، ونعده للمواقف التى ليس للدين فيها غير تأييد

اللهِ وَحَدَّ السَّيْفِ نَاصِرًا ، وَتَدَحَّرَهُ مِنْ مَعَادِنِ أَوْلِيَانَا الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنَ الْإِنْتِمَاءِ إِلَيْنَا بِأَمَكْنِ الْأَسْبَابِ وَأَقْوَى الْأَوَاصِرِ ، وَنَقَلَدَ أَعْطَافَ الْأَوَاصِرِ مِنْهُ سَيْفًا يُرْمَى مِنْهُ بَيْتُ الْعِدَا وَمَعَا قُلُوبَهُمْ بِأَفْتِكِ حَاصِدٍ وَأَفْلَلِ حَاصِرٍ ؛ فَكَمْ مِنْ مَوَاقِفَ شَفَعَتْ فِيهَا الشَّجَاعَةُ بِالْخُضُوعِ لِرَبِّهِ ، وَمَوَاطِنَ لَيْسَ فِيهَا قَلْبَةٌ عَلَى الدَّرْعِ إِذَا لَيْسَ غَيْرُهُ الدَّرْعَ عَلَى قَلْبِهِ ؛ وَمَسَالِكَ سَلَكَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِنَا وَالسُّيُوفِ تَنْفِرُ مِنْ قُرْبِهَا ، وَمَشَاهِدَ شَهِدَهَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِنَا وَالتَّلُوبِ تَفِرُّ مِنْ حُجْبِهَا ، وَلَيْكَالِ قَطْعِهَا فِي خِدْمَتِنَا لَمْ يَصْحَبْ غَيْرَ أَلْسِنَةِ أَسْنَتِهِ وَأَعْيُنِ شُهُبِهَا ، وَمَقَاصِدِ الدِّينِ بَلَّغَهَا وَالسَّهَامِ لِاتِّجَالِهَا مِنَ الْفَرَقِ قَوَادِمُ النُّسُورِ ، وَسَرَائِيَا وَقَفَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْعِدَا فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ مِنْ شَجَاعَتِهِ بِسُورٍ ، وَبِحَارِ حَرْبٍ لَمْ تَجْبَسِرِ السُّوَابِحُ عَلَى قَطْعِهَا حَتَّى مَدَّ عَلَيْهَا مِنْ مُعَوَّجَاتِ سَيْوِفِهِ قَنَاطِرَ وَمِنْ مُقَوِّمَاتِ ذَوَابِلِهِ جُسُورَ ؛ وَكَمْ أَنَامَ الرِّعَايَا فِي مِهَادِ عَدْلِهِ فَلَمْ يَطْرُقْهُمْ طَيْفُ ظَالِمٍ فِي الْكِرَا ، وَلَا رَوَعَ سِرْبَهُمْ خِيَالُ مُغِيرٍ أَوْ هَمَّهُمُ الشَّرِيُّ ؛ بَلْ كَانُوا مَحْفُوظِينَ بِمَهَابَتِهِ مُحْفُوفِينَ بِمَوَاهِبِهِ ، وَادْعِينَ فِي ظِلِّهِ الَّذِي مَادَجَا عَلَيْهِمْ لَيْلُ حَطْبٍ إِلَّا أَطْلَعَ لَهُمْ بَدُورَ الْأَمْنِ فِي غِيَابِهِ .

ولما كان (فلان) هو الذي سار بذكر مهابته المثل ، وصار له في قلوب الأعداء من الرعب ما تشابه فيه القاتلان الوجل والنجل ، وجمع محاسن الصفات فما أخذ عنه أو نطق به أو نظر إليه إلا وجد (ملء المسامع والأفواه والمقل) ؛ ولا جرد على العدا سيفًا إلا وودعت أرواحهم الأجساد ، ولا أرهف في مجالس العدل والإحسان قلما إلا وضمت له الآجام التي نساها (كرم السيول وسطوة الآساد) ؛ ولا طلع في أفق مواكب إلا وهالت العدا هالة بدره ، ودلت على عظم سلطانتنا رفعة قدره ، وشهدت له بحسن طاعتنا طاعة أمرائنا لأمره ؛ وأسلف من خدمة والدنا السلطان الشهيد ما لم تر له به عندنا حقوق مرعيه ، وسوابق مرضيه ،

ورتبةُ تقديمِ سيِّئه ، ومزِيَّةُ تقريبِ جعلته مُشاهداً بالعيانِ مقدِّماً في النيَّة - أقتضتْ
 آراءُنا الشريفةُ أنْ نُروِّعَ العِدا بسيفه ، ونُزيِّهم من تقدِّمته على الجيوشِ يقظةً
 ما كانوا يروُّنه حُلماً من طَيْفه ؛ وليعلمَ الأعداءُ معاجلةَ أخذهم بالعُنْفِ والحَيْفِ ،
 وأننا لا تأخُذُنا في الله لومةٌ لائمٍ فليس بيننا وبين أعداءِ الله ورَسُوله (صلى الله عليه
 وسلم) إلا السَّيْفُ .

فلذلك رُسمَ بالأمرِ الشريفِ - لازلَّتْ ممالكُ الإسلامِ به مُقترةُ المَباسِمِ ، عالية
 مدى المَهابةِ إذا طرقتْها عواصفُ رياحِ العِدا وقفتْ دُونَ بُلُوغها داميةً المناسِمِ -
 أنْ تُفَوِّضَ إليه نيابةُ السلطنةِ الشريفةِ بالممالكِ الإسلاميةِ على العادةِ في ذلك
 والقاعدةِ تفويضاً يُفِيضُ على الممالكِ حلالِ المَهابةِ ، وَيَسْلُبُ أعداءَ الدينِ رداءَ
 الأَمْنِ فلا يَنْفَعُهُم الخُضُوعُ ولا الإِنابةُ ، وَيُضاعِفُ لنا أدعيةَ الرعايا الصالحةِ بإجرائهم
 على ما أَلْفُوهُ من العدلِ والإِحسانِ فمنهم الدعاءُ الصالحُ ومن كَرَّمَ اللهُ الإِجابةَ .

فليثقلدْ هذه الرُّتبةُ الدالَّةُ على ارتفاعِ قدره لدينا ، الشاهدةُ له باحتفالنا بما أوجبه
 إخلاصُه من حقوقِ الطاعةِ والولاءِ عَلَيْنَا ؛ المنبِّهَةُ على أنه سيفُنا الذى نَصُونُ الممالكَ
 بحُدِّه ، ونَصُولُ على العِدا بِمَصانئِهِ الذى تَهَلَّلُ وُجوهُ النصرِ كُلِّها أسْفَرَ من غمِّه ؛
 وليستقرَّ في ذلك نافذاً فى المصالحِ الإسلاميةِ أمرُه ، مُغيِراً على جيوشِ الأعداءِ
 ذِكْرُه ، معمَّلةً فى حمايةِ الدينِ بِيضُه المرهفةُ وسُمرُه ، جُمَّلةً بإشراقِ طلعتِه مطالعُ
 المَواكبِ ، مسيرةً نُجومِ أسنَّتِه إلى قلوبِ أعداءِ الدينِ مَسِيرِ الكَواكبِ ، مُحْفِقَةً
 بِحُفُوقِ رايتهِ مَساعِيَ الكُفرِ الصادرةِ عن آمالهم الكَواذبِ ؛ ليعلمَ عدوُّ الله أنه أشدُّ
 طلباً له من أجله ، وألزمُ لعنقه من عمَلِه ؛ وأسبقُ إليه من رَجَعِ صوتِه ، وأنزلَ عليه
 من مُفاجأةِ موته . وليجْمَلِ النظرَ فى مصالحِ الجيوشِ الإسلاميةِ بما يُضاعِفُ عدتها ،

ويبقى على توالى الأحقاب حدثها وحدثها؛ ويأخذهم بإدامة التمرن في الحروب، وإطالة عنان التأهب للركوب؛ ويُعين كلاً منهم بملاحظة حاله على أستدائه قوته وإمكانه؛ ويجعلهم بالآقتباس من شجاعته من القوم الذين لا يسألون عن عدد عدوهم بل عن مكانه. وليكن لكلمة الشريعة الشريفة رافعا، ولشبهه من يمتنع عن الانقياد إلى الأحكام دافعا؛ وعلى يد من يتطرق إلى الخروج عن أحكامه آخذا، ولن لم يسلك الأدب بين يدي حكمه بما يقتضيه تعظيم الحكيم العزيز مؤاخذا. وليأمر النواب بإقامة منار العدل الذى يوم منه خير للأرض من أن تُمطر أربعين يوما، ويصرف إلى مصالح الثغور الإسلامية وحمايتها فكرا لم يتختر دعة ونظرا يأنف أن يألف نوما؛ وملاك الوصايا تقوى الله وهى من خصائص نفسه الكريمة، وراحة روجه التى هى للفكر فى مصالح الإسلام مُدِية؛ فليجتهد فى المحافظة عليها ما أستطاع، ويؤمض بها فى مصالح الإسلام أمره الذى جعلناه من أمرنا مطاع.



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة أيضا، كُتِبَ به عن السلطان الملك أبي بكر ابن الناصر محمد بن قلاوون للأمير طُغْزُدُمُر أمير مجلس، فى سنة اثنتين وأربعين وسبعائة، بعد أن بطلت النيابة فى دولة أبيه الملك الناصر عدّة سنين، وهى:

الحمد لله الذى أصطفى لسلطاننا المنصور من ينوب عنا فى رعاية الجمهور أحسن مناب، وأضفى على ملكنا المعمور من رياسته أسرّ سربال ومن حراسته أجلّ جلباب، وكفى دولتنا الشريفة بسياسته مهمات الأمور فلتأيدّها بقيامه دوام ولتشيدها باهتمامه أستصحاب، وشفى الصدور بصدور إشارته المباركة التى لها بأوامرنا العالية اقتران ومن ضمائرنا الصافية اقتراب، وأوفى له من ربنا العميم بحقه

الذى [له] بعهدہ استحقاقاً للتقديم وإيجاب ، وسبقه القديم الذى له من سعيد المصاهرة أكرم أشاج ومن حميد المظاهرة ألزم أنتساب .

نجدہ على أن بصر آراءنا بطرق الوفاق وسبل الصواب ، ونشكره على أن نضر راياتنا فى الآفاق : فلقلوب العدا من خوفها إرهاب وإرهاب .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منزّهة عن الشك والارتياب ، موجهة إلى قبلتها التى ترضاها الألباب ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى أظفر عزّمه بالثبات وقهر خصمه بالتباب ، ووفر قسمه من الإنجاد ويسر حربه للإنجاب ، وأظهر اسمه بعد اسمه فخلاً فى الأفواه ذكره وطاب . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين سلكوا من بعده فى رعاية عهده أحسن الآداب ، صلاة متصلة الأسباب ، موصلة إلى خير مآل متكفلة بنعم باب (؟) لا يزال لسحب جودها فى الوجود أنصباب ، ولما قرب وفودها ورود إلى مظان الرضوان من غير إغباب ، ما جرد انتقامنا على الأعداء سيفاً سطاً يقدر الرقاب ، وأورد إنعامنا الأولياء بجر ندى زاخر العباب ، وجدد قيامنا بعلم هدى مرت عليه الأعوام وما لمح له أثر ولا فتح له باب ، وأعتمد مقامنا الشريف ، فى الجمع للقلوب والتأليف ، على أعلى ولى وأعلى جناب ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد ، فإن أولى من أعتمدنا فى الإنجاب والإنجاح على ديانتِهِ ، وأنتجدنا فيما أردنا من الاستصحاب للصالح بإعانتِهِ ، وأعتصدنا فى تقطين الممالك وتأمين المسالك بصياليته وصيانتِهِ ، ورعينا عند الدنا الشهيد - سقى الله عهده صوب الرضوان - على علو مكانه ودنو مكانته ، فاكتفينا فى كفالة الأمة وإيالة النعمة بنحشيتِهِ من ربه واستكانتِهِ - من حُدت سبحاياه ، وتعددت مزاياه ، واستندت

إلى ما أمر الله تعالى به من العدل والإحسان في الأحكام قضاياه ، ووجدت منه الزهد والرفق رعاة الإسلام ورعاياه ، فهو الممدوح فعله ، من جميع الألسنة ، الممنوح فضله ، في سائر الأزمنة ، الملموح عليه آثار القبول الظاهر من عناية الله لما نواه من الخير لخلق الله وأبطنه ، فهو عاضد السلطنة الذي حل من العلياء موطنه ، وكافل المملكة ، الذي سبق إلى كل مجد فأدرکه ، وسيف الدولة ، الحامي الحوزة البادية الصولة ، ومن له أشتمال على العلياء ، ومن يقارن التحقيق له رأيا ، ولا يباين التوفيق له سعيًا ، ويعاين الهدى والنهى على طول المدى له أمرا ونهيا ، ويعاين الورى لسلطاننا المنصور منه مهديًا يجمل لدولتنا حفظًا ويحسن لملكنا رعيًا .

وكان فلان هو الذي لم يرل متعبن المحاسن ، متبين الميامن ، متمكن الرياسة في كل الأماكن ، فحلمه إذا اضطربت الجبال الرواسي ثابت ساكن ، وعلمه الزائد بأوضاع السياسة وأنواع النفاسة للوجود من بهجته زائن ، ورأيه الصائب للبلاد والعباد صائنا ، ورعيه للخلق بالحق : القوي منه خائف والضعيف إليه راكن ، ونشره هاد للرائي وباد للعاين ، وذكره الجميل سائر في الآفاق والأقطار والمدائن ، حتى أظهر الله تعالى بإمداد نيرنا الأعظم من إشراق بدره الكامل ما هو في سر الغيب كامن ، وشهر سيفه الذي يغدو الإيمان من مهايته في كنف منيع وحرم آمن .

ولما مضت على منصب النيابة الشريفة في أيام والدنا الشهيد بضع سنين ، وأنقضت الأيام والليالي والدهر بموهبتها ضنين ، ولا وطيت لها ربوه ، ولا أمطيت لها صهوه ، وكانت في سلك ملكه مندرجه ، وبصفو سلطنته ممتزجه ، إلى أن قضى عليه الرضوان النخب ، وأفضى من الجنان إلى الخلل الرعب ، رأينا بعده بمن كان يتحقق وده أن نستأيس ، وأمضينا وصيته المباركة في اختيار ثمرة الإخلاص بمن

كان له الأختصاص يَغرس ، وأفضينا إليه بالمتاب عتاً لما كان من أنوار والدنا الشهيد فى كل تسديد يقتبس ، ومن الاستثنائات بحالسته يفوز فيحوز حكم الحكم لأنه كان أمير ذلك المجلس ، وقضينا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف : لأنه الخبير الذى لا يَنبهم عليه شىء من خفايا القضايا ولا يلتبس - أقتضى حُسنُ الرأى الشريف إلقاء ما فى أيدينا من مقاليد الممالك إلى يده ، وإبقاءً وديعةً هذا الأمر العظيم إلى صونه وعونه وتشدده ، وإيفاء جنابه إلى حميد هذه الغاية التى هى للنسبة مناسبة لسؤدده .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازل يجمع شمل الإسلام بتعيينه وتفترده ، ويرجع أمر الأنام منه إلى مأمون الرأى رشيد سَفاح السيف مهتده ، منصور العزم مؤيده ، ويوسع الخليفة إذا وليهم بالرفقة والرحمة ومن أولى من أبى بكر بأن يخص أصحاب محمد عند الخلافة بإعذاب منهل الجود ومورده - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية - أعلاها الله تعالى - نيابة شاملةً محيطه ، كاملةً بسيطه ، تعنى كل أمير ومأمور ، وتدنى أمرها الذى يعامل بالإجلال ويقابل بالسرور ، برأً وبحراً ، وسهلاً ووعراً ، غوراً ونجداً ، بُعداً وقرباً ، شرقاً وغرباً ، وما منحه الله تعالى لوالدنا الناصر من الممالك ويدخر لسلطاننا المنصور ويحجى : تستوعب أمر ما نأى من هذه الأقاليم ودنا ، وتجب طاعته فيها على كل من كان مؤمناً ، ويمتثل فى ذلك كله أمره ، وتعمل فيه الروية فيجمل فكره ، ويؤمل فيه فتحه ونصره ، وينقل به مدحه وشكره ، ولا ينفصل منحه وبره ، ناظراً فى هذه النيابة الشريفة بفكره التام ، سائراً فيها السير الجميل من الدربة والإلهام ، ناشراً ظلال المعدلة على من سار أو أقام ، مظاهراً بجنابه منا أجل مقام . ونحن وإن كنا نتحقق من خلاله الحُسنى ، كل وصف يُسنى ، ويتق منه بذى الصدر السليم الذى هو على

المقاصد يُعان وبالحماد يُعنى ، فلسنا نُحِلُّ بالوصية التي نَعلم أنَّ له عنها آسْتِغْنَا ؛
ولكننا لا نترك بها التبرُّك ولا ندع ماسنَّ الله تعالى منها وشرع ، ولا نُفْعِلُ ، ما يجب به
أن يَحْتَقِلُ ؛ فقد وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمضى أمره
المسموعَ كلَّ ذى رجوع إلى الله تعالى منهم وإنا به ؛ فقد أولاه الله تعالى كلَّ جميل
قبل أن ولَّاه ، وحلَّاه بالسَّيات والمكْرُمات قبل أن رَفَعَ علاه ؛ وأعطاه ما أُرْهب
العدا من سَطَاه ، وهداه إلى كلِّ رُشدٍ تَأتمُّ به الهداه .

فأهمُّ ذلك تقوى الله تعالى وهو عليها مُجْبُول ، وأمرها عنده متلقِّ بالقبول .
والعدلُّ فهو منه مأمول ، والاتصافُ بالإنصاف فهو دأبه فيما يفْعَلُ ويُقُولُ ؛
والجهادُ : فعزائمُه في ميدانه تجول ، وصورامُه بها من قِرَاعِ فُرسانه فُلُول . والزعماءُ
والأكابرُ فلهم من محافظته اعتناءً وبملاحظته شُمُول . والعساكرُ الإسلامية فتباييده
تَبْطِشُ أيديهم بالعدا وتَصُول . وزعماءُ البلادِ فلهم إلى ظِلِّ رحمة إيواءٍ وبكَنْفِ
نعمته ظُلُول . وممالكُ الإسلامِ فما منها إلا معمورٌ بما أوتته كِفالته مأهول ؛ ونُغُورُه
فكَلَّها بَسَامُ بفتكاته التي ألقى رُعبها في البحر فهو بين كلِّ فاجر وبين البحر يَجُول ،
وما هو بذلك من حميد المسالك مَوْصُول ، ومحلُّه المقدم لأنه أهمُّ الأصول : من إكرام
الحُكَّام ، وإبرامِ الأحكام ؛ وأستيفاءِ الحُدُود ، وأقتفاءِ السننِ المعهود : من إنجاز
الوَعُود ، وإحرازِ السُّعود ؛ والإجهازِ على كلِّ كُفُورٍ وِجْحُود ، والأحترازِ من فِظاظِ
الناسِ بإفاضةِ الجُود ؛ فكلُّ ذلك على خاطرِه مَسْرُود ، ولما آثره مَوْرُود ؛ وفي ذخائره
مَوْجُود ، ومن خِبرته معلومٌ معهود ، وعن فكرته مشهورٌ ومن فِطْرته مَشْهُود ، فليَسَّعْ
أمرنا هذا جميعَ الأصراءِ والجُنُود ، وليرجعْ إليه كلُّ من هو من جملةِ المِلَّةِ معدود ؛
وليُقَابِلْ مرسُومنا بالسمع والطاعة ، أهلُ السنة والجماعة ؛ ساعةَ الوقوفِ عليه وحالةِ
الوُرُود ؛ والله تعالى يُصلحُ ببقائه الوُجُود ، ويمنحُ باهتمامه المقصُود ، ويفتحُ المعاقِلَ

باعترامه الذى ليس بمردود عن مراده ولا مَصْدود ، بل يُصَبِحُ الكُفْرُ من خوفه محصورا ويُمسَى وهو بسيفه محصود ؛ والعلامة الشريفة أعلاه ، حجة بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية لنائب سلطنة ، أوردها فى "التعريف" قال :

يُوصَى بتقوى الله تعالى وتنفيذ الأحكام الشرعية ، ومعاودة حكامها ، واستخدام السيف لمساعدة أقلامها ؛ وتفقد العساكر المنصورة وعرضها ، وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها ؛ والتخير للوظائف ، وإجراء الأوقاف على شرط كل واقف ؛ والملاحظة الحسنى للبلاد وعمارة أوطانها ، وإطابة قلوب سكانها ، ومعاودة مباشرى الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها ؛ وتحسين مآلديه ، وتحسين كل ما أمره إليه ؛ وأستطلاع الأخبار والمطالعة بها ، والعمل بما يرد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسببها ؛ وأنه مهما أشكل عليه يستضىء فيه ، بنور آرائنا العالية فهو يكفيه ، ومن قُتِل من الجند أو مات وخلف ولدا يصلح لإقطاعه يعين له ليقوم بخلفيه ، ويقال من هذا ما يقوم بتمام الغرض ويوفيه .

الوظيفة الثانية

(الوزارة لصاحب سيف)

وأعلم أن أول من أطلق عليه لقب الوزارة فى الإسلام "أبو حفص الخلال" وزير أبى العباس السفاح أول خلفائهم كما ذكره القضاعى^(١) فى "عيون المعارف فى أخبار الخلائف" ثم صارت الوزارة بعد ذلك للخلفاء والملوك دائرة بين أرباب السيف

(١) أى خلفاء العباسيين .

والأقلام ، تارةً يليها صاحبُ سيف وتارةً يليها صاحبُ قلم ، إلا أنها في أرباب
الأقلام أكثر. وعلى ذلك جرى عُرف الديار المصرية من ابتداء الأمر وإلى الآن.
ومما يذنبه عليه أن الوزير إذا كان صاحبَ سيف ، كان في مجلس السلطان قائماً
في جملة الأمراء القائمين . وإذا كان صاحبَ قلم ، كان جالساً كما يجلس أرباب
الأقلام : من كاتب السرّ وغيره .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كتب به للأمير سيف الدين بكتمر . وهي :

الحمد لله الذي شدّ أزر دولتنا القاهرة ، من أوليائنا بأمضى سيف ، وعضد أيامنا
الزاهرة ، من أصفيننا بأعدل ولي لا يوجد في حكمه حيف ، وعدق تدير أمور
ممالكنا الشريفة بمن تحجب مهابته ذوى الأطباع الطامحة عما لا يحب فلا يلم بهم فيها
خاطر [ولا] يطرفهم بها طيف ، جاعل التأييد لآرائنا مصاحباً ، والتوفيق موافقاً
لأوامرنا التي لا تهمل من مصالح الإسلام مندوباً ولا تدع من مهمات الملك واجباً ،
والإقبال تالياً لمراسميننا في ارتياد من يقدو قلب الحق من حيفه ساكناً وقلب المبطل
من خوفه واجباً ، واليمن تابعا لاستخارتنا في انتخاب من لم يزل في خدمتنا الشريفة
للأدعية الصالحة جالبا ، ولمنافع الإسلام والمملك طالبا ، ولمضارهما حاجبا .

نحمده على نعمه التي عضدت أيامنا بمن جمعت أدواته ، رتبتى السيف والقلم ،
وعدقت تدير ممالكنا بمن أحرزت [صفاته] ، مزيتى العلم والعلم ، وشدّ أزر دولتنا
بمن يبيض بمعدلته من صحائف أيامنا ما هو أحب إليها من حمر النعم .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نُعدّها للقائه ، ونتيمن بها
في افتقاد من نعتضد به في مصالح أهلها وانتقائه ، ونقدمها أمام كل أمر ندخره
لأعتلاء ولينا بالتقى وارتقائه ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أرسله إلى الأمم

طُرًا، وخصه بالأمة التي جعل أماره سبها إلى الخيرات أن غدت محجة غرًا ،
وأيدته بنصره وبالمؤمنين الذين ما منهم إلا من أعرض عن زُحرف الدنيا وإن كان
حُلوا وقال الحق وإن كان مرًا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ولوا أمته
فعدلوا، والذين تمسكوا بسنن سنته فما حادوا عنها ولا عدلوا؛ صلاة لا تزال الألسن
لإقامتها مديمه، والقلوب لإدامتها مقيمه ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من أبرزت الضمائر، في الاعتضاد به مكنون طويتها، وأعمدت
الخواطر، في تصريح علانيتها بأولويته لمصالح الإسلام على نيتها، وتشوفت البلاغة
لرقم مفآخره، وتنافست المعاني في تخليد ما أثره ؛ وهنأت المعدلة نفسها، برافع لوايها،
وأبدت الدولة أنسها، بناشر برها في الأقطار والآيها؛ وأقترت ثغور الأقاليم المحروسة
بمن تلهج بمصالحها السنة أفلامه ، وأخضرت ربي آمال الأولياء بما يسفر عنه من
تهلل بهاء غرر أيامه ؛ من هز زنا منه لمصالح الإسلام سيفًا يصل ما أمر الله به أن
يوصل، ويفصل من مهمات الممالك ما يقتضى الحق أن يفصل ؛ ويبرز من معادن
العدل والإحسان ما هو في سر خلائقه كامن، وينزل من استقامت سيرته في الحمى
الخُصب والحريم الآمن ؛ ويصون الأموال بمهابة فلا تمتد إليها هواجس الأطاع ،
ولا تنجس أبصار غير الأمانة أن تقص نبروتها على الأسماع ؛ ويضاعفها بخبرته
التي تهديها الأمانة إلى معادنها ، وتدلمها النزاهة على مواظمها ، وتبدي لها ظواهر
الأعمال أسرار بواطنها، ويعمر بيوت الأموال بعارة البلاد، ويثمر فروع الطوارف
من مصالحها بحفظ أصول التلاد؛ ويكف أ كف الظلم عن الرعايا فلا يخشى محق
على حقه ، ولا يخاف مستقيم على ما قسم له من رزقه ؛ ولا يطمح قوى إلى من
يستضعف جانبه، ولا يطمع باع في الحيف على أحد مخالطه في نسب كان أو مجانبه .

ولما كان الجناب العالى (الفلانى) هو الذى أشير إلى مناقبه ، وأعتضد منه بمطيع لله فى السرِّ والعلن ومراقبه ؛ وفوض تدير الممالك منه إلى من لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، وأعتمدت أيامنا الزاهرة منه على من طامأ سرى فى مصالحها على جيات العزائم ؛ وشهد أزر الملك من موازرتة بمن يكسو دست الوزارة أبهةً وجلالا ، ويلبس منصبها سنا لو ملكته الشمس مارامت عن بروج شرفها أنتقلا ؛ ويمد على الرعايا لواء عدل لا يقلص له هجير الظلم كما تنقلص الظلال ظلالا ؛ وتطلع به شمس الأرزاق على أولياء دولتنا لكن لا ترهب كالشموس غروبا ولا زوالا ؛ مع مهابة تُخيف الأسد فى أجماتها ، ومعدلة تُعين الفيوث على رفع محول البلاد ودفع أزماتها ؛ وديانة زانها التقي ، وخبرة صانها الورع وهما أفضل مابه يرتقى .

وكانت الوزارة الشريفة نظام المملكة وقوامها ، وذروة الدولة وسنامها ؛ وتاج المراتب وإكليلها ، وعتاد الخزائن الجامع دقيق المصالح الإسلامية وجليلها - أقتضت آراؤنا الشريفة أن تُرتب هذه الرتبة بجوهر فرنده ، وأن يصدر منصبها عن مناقب لا تصدر إلا عن جهته ومفانح لا ترد إلا من عنده ؛ وأن يطلق فى مصالحها قلمه ، ويمضى فى قواعدها إشارته وكلمه ؛ ويطلع فى أفقها شمس تديره ، ويُعدق به ما يراه فى أمورها من صغير الأمر وكبيره ؛ وأن نجعل مسامع الأقاليم على سعتها إلى أوامره ونواهيه مُصغية ، وأن نصد بسمعته عن بعد عوارض الإهمال الملهية ومواقع الإهمال المُطغية .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازالت سحائب بره مستهله ، وركائب المحامد إلى حرم نعمة مهله - أن تفوض إليه الوزارة الشريفة بالممالك الإسلامية على أكمل القواعد ، وأجمل العوائد ؛ تفويضا يعلى مراده ، ويمضى مضاء السنة الأسنة أقلامه ،

ويُسْطُ في مصالِح الأقاليم المحروسة يَدَه ولسانَه ، ويلقى إليه من مهمّات كلِّ قُطْرٍ
أزَمته ليصَرِّف على ما يراه من المصالح عِناهُ .

فليستقر في هذه الرتبة الندية استقرار الدرر في أسلاكها ، والدراى في أفلاكها ؛
نافذ الأمر في مصالِح شرفها وغربها ، مُطاع القول في بُعد أماكنها منه وقربها ؛
ناشراً كلمة العدل في أرجائها ، محققاً بالإحسان آمال أممٍ قصرت على كرمنا ممدود
رجائها ؛ معلماً منار الشرع الشريف بمعاذة حُكّامه ، والوقوف عند أوامره المُطاعة
وأحكامه ؛ حافظاً أقدار الرتب بأكتفائها ، معتمداً على ذوى البيوت المحافظين على
اتباع سير أسلافهم وأقتنائها ؛ معولاً على ذوى الخبرة التامة مع الديانة ، مُراعياً
مع ظهور المعرفة جانب العفة والزّاهة والصّيانة ؛ مُوكِّلاً بمصالح بيوت الأموال
والخزائن المعمورة موادّ الأموال ومعينها ، صارفاً إلى عمارة البلاد جميل تدير تعضد
البحار والسحب منه بمساعدتها على رى الأرض ومعينها ؛ ميسراً موادّ أرزاق خدام
دولتنا القاهرة وأولياؤها بحمّل بشره وحسن روائه ، مسهلاً مطالب أرباب الرواتب
والصدقات بطلاقة وجه لو تأمله أمرؤ صايدى الجوانح لأرتوى من مائه ؛ ليتوفّر
أهل الوظائف على خدمتهم بقلوب منبسطة الآمال ، ويُنْاضِل عنها الفقراء بسهام^(١)
الليل التي لا تطيش إذا طاشت النبال ؛ فقد جعلنا أمره في ذلك جميعه من أمرنا
فليكتب يمتثل ، وليقل في مصالحننا بما يراه يسر كلامه سرى الرياح ويسر قوله
سير المثل ؛ ولا يُمض عقد ولا حل ، ولا ولاية ولا عزل ؛ ولا رفع ولا خفض ،
ولا إبرام ولا نقض ؛ إلا عن رأيه وإشارته ، وبنص خطّه وعبارته .

وفي سيرته السريّة ، وديانته التي هي من أسباب الهوى عريّه ، ما يُغني عن وصايا
تُملى على فكره ، وقواعد تُجلى على ذكركه ؛ وملاكها تقوى الله : وهي من أخصّ

(١) المراد دعوات السحر كما لا يخفى .

اوصافه ، ونشر العدل والإحسان وهما من نتائج إنصاته لأُمور الرعايا وإنصافه ؛
 لكن على سبيل الذكرى التي تنفع المؤمنين ، وترفع درجات المتقين ؛ فليجعلها نجى
 خاطره ، وقبلة ناظره ؛ والله تعالى يعلى قدره وقد فعل ، ويجعله من عباده المتقين
 وقد جعل ؛ بمنه وكرمه . والأعتماد [على الخط الشريف أعلاه] إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة

(الإشارة) ، وهى وظيفة قد حدثت كتابتها ولم يُعهد بها كتابةً فى الزمن القديم)
 وهذه نسخةٌ تقليد أُنشأتها بالإشارة للأمير جمال الدين يوسف البشاسى إستاندار
 فى الدولة الناصرية فرج ، حين فوّضت إليه الإشارة مضافةً إلى الإستدارية ،
 وكتب له به المقرّ الشمسى العُمريّ كاتب الدست الشريف ، فى شعبان سنة تسع
 وثمانمئة ، وهى :

الحمد لله الذى جدّد للديار المصرية بالمحاسن اليوسفية رونق جمالها ، وأعزّ جانبها
 بأجل عزيز ملأت هيئته الوافرة فسيح مجالها ، وأسعد جدّها بأسعد مشيرٍ أدارت
 أراؤه الصائبة متقاعس الأمور ما بين يمينها وشمالها ، وأكرم مآبها بأمثل كاف عاد
 حسن تدبيره بضروب من المصالح أنام الخلق فى ظلّها ، وأجاب سُؤلها بأكل
 لم تعدل عن خطبتها له وإن أطال فى مطالها .

نحمده على أن أغاث الدولة القاهرة بمن أخصب به بعد الإحمال ربّعها ، وطال
 بطوله بعد القصور فرّعها ، وحسن فى المناظر بحسن تأتبه لذى التأمل ينفعها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى شرع المشورة وحثّ عليها ،
 وعدق أمور السيف والقلم بها فردّهما عند اختلاف الرأى إليها ؛ شهادة ترفع قائلها إلى
 أسنى المراتب وتعليه ، وتقرب المخلص فى آتتالها من مقام الاستخلاص وتُدنيه .

ونشهد أنّ محمدا عبده ورسوله الذى وردَ وارِدُ الأُمة من منهلِ شرعته المطهرة
 ماعذبَ مشرعه وردا وصَدرا ، وألقتبتِ السَّيَّارةُ أحاديثَ فضله فصيرتْها للرفاقِ
 سَمرا ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه الذين تقيلوا مساحِبَ أذياله فى العدلِ فعدلوا ،
 ولزِموا منهجِ سُننه الواضِحِ فما حادُوا عن سِواءِ السَّبيلِ ولا عدلوا ؛ صلاةٌ تفوقُ العَدَّ
 حَضرا ، وترفعُ بركاتها عن الأُمة حَضرا وتبَدلُ العُسْرُيسرا ، فبُعِيدَ عِجافُ الزمانِ
 سِمانا وسُنبلاتِ الوقتِ بعد اليُسِّ حَضرا ؛ وسَلَّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ للمملكةِ قواعدَ تُبنى عليها ، وأركاناً تستندُ إليها ، ودعائمٌ يُشَدُّ
 بالأعتضادِ بها بُنائُها ، وعمدًا يعتمدُ عليها فى المهمَّاتِ سلطانُها ؛ وهذه المَباني وإنَّ
 أَسعَ نطاقها ، وأمتدَّ بامتدادِ المملكةِ رُواقها ؛ فإنَّ بالسيفِ والقلمِ قوامها ، وبالتعلُّقِ
 بجبالها بقاءها ودوامها ؛ إذ كانا قُطبينِ عليهما مدارُ فلَكها ، ونقطتينِ عنهما ينشأ
 الخطُّ المستقيمُ فى تدبيرِ مُلكها ؛ وزعيمينِ يترافَعُ إليهما عند التخاصُّمِ ، وحَكَمينِ يرجَعُ
 إلى حُكُهما عند التَّحَاكُمِ ؛ إلا أنهما لا يَسْتَقِلَّانِ بأنفسهما عند التَّحالُفِ ، ولا يقوم
 أحدهما برأسه لدى التَّخالُفِ ؛ بل لهما إمامٌ يرجعانُ إليه ، ويعولانِ عند اضطرابِ
 الأمورِ عليه ؛ وهو الرأى الذى لا يُقَطَعُ أمرٌ دونِ حِكْمِهِ ، ولا يهتدى سارٍ فى مَهامِهِ
 المِهْمَّاتِ إلا بنَجْمِهِ ؛ إذ كان على الشجاعةِ مُقَدِّما ، ودليله من المعقولِ والمنقولِ
 مسلما ، والمتَّسِمُ به لا يزالُ عند المُلوكِ مَبجَلًا معظَّمًا ؛ لا يقدِّمونُ عليه ولدا ولا والدا ،
 ولا يُؤثرونُ على مُعاصِدته عَضدا ولا ساعدا ؛ إن أشار برأى تمسكِ المَلِكِ منه بالحبلِ
 المتينِ ، أو محَضَه كلامَ نصحِ قال : (إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) .

ولما كانَ الجَنابُ العالى ، الاميرى ، الكبيرى (إلى آخر ألقابه) يُوسُفُ
 الناصرى : ضاعف اللهُ تعالى نعمته ، هو الذى حَنَّكَته التَّجارِبُ و«حَلَبَ الدَّهْرَ

أشطره»، وعرف بتقليب الأمور على ممر الزمان محبّره؛ مع ما أشتمل عليه من الرأي الصائب، والفكر الذى اذا أبدت قريحته فى الارتباء عجباً أتت فطرته السليمة بالعجائب.

هذا وقد علا فى الدولة القاهرة مقامه، ورشقت أغراض مقاصدها بانقضاء الآجال فى الوقائع سهامه؛ وساس العساكر فأحسن فى سياستها التدبير، وبذل فى نفقاتها الأموال فال فيها إلى الإسراف دون التقدير؛ وأستجلب الخواطر فأخذ منها بجامع القلوب، وأقتاد النفوس الأبيّة قهراً فأطاعه من بين الشمال والجنوب؛ وقام من المهمات الشريفة بما لم يسبقه إليه سابق، وأتى من خوارق العادات فى التنفيذ بما لم يلحقه فيه لاحق، وبادر إلى ترتيب المصالح فرتبها ولم يعقّه فى آتهاز الفرصة عن دفع المفاسد عائق؛ وأخذ فى حطّ الأسعار فورد منها من المعروف صافياً، وأمر بإبطال المعاملين فكان له عملاً على توالى الأزمان باقياً؛ ولازم بعد رضا الله تعالى رضا مملكه ففاز بأشرف المآثر فى الحديث والقديم، وتأسى فى تعريفه بنفسه بيوسف عليه السلام فقال: ﴿أَجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ - اقتضى حُسن الرأي الشريف تنويعها بذكره، وتقديمه على غيره ممن رام هذه الرتبة فحُجِبَ دونها ﴿والله غالب على أمره﴾.

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الناصرى، الزينى - لا زال يجمع لأوليائه شمل العالى، ويرقى أصفياه فى درجات العز على ممر الأيام والليالى - أن تُفوض إلى المشار إليه الإشارة الشريفة التى هى أسنى المقامات وأعلاها، وأقصى المرامات لدينا وأغياها؛ مع ما أنضمّ إلى ذلك من النظر فى الوزارة الشريفة التى جلّ قدرها، وعلا فى المناصب ذكرها؛ والخاص الذى أختص بمهمّاتنا

الشريفة، والديوان المفرد الذى عمّر من ممالك السعيدة ذا الوظيفة وغير ذى الوظيفة، وتعلقات المملكة شرقاً وغرباً، ولوازمها المنفرقة بعداً وقرباً .

فليتأتى مأفوض إليه بيمينه التى طالبا رَحت فى الطاعة صَفَقْتُهَا، ويقابلهُ بالقبول الذى محلّه من القلوب مُهَجَّتْهَا؛ مقدّماً تقوى الله تعالى فيما خَفِيَ من مقاصده وظهّر، مؤثراً رضاه فى كل ما يأتى ويذّر؛ معتمداً فى المصالح اعتماد ذى اليقظة الساهر، آتياً من غرائب الرغائب بما يحقّق قول القائل: «كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ» .

والوصايا كثيرة ومن بحره تُستخرج دُررها، ومن سوابق آرائه تُستوضح أوضاعها وغررُها؛ والله تعالى يُديم عليه نعم إقبالنا الباطنة والظاهرة، ويتولاه من العناية بما يحقّق له دائم قوله: ﴿أَنْتَ وَلِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ . والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه، إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثانية

(من يكتب له من أرباب السيوف ذوات التواقيع، وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(نظر البيارستان لصاحب سيف)

(١)

الحمد لله رافع قدر من كان فى خِدْمَتِنَا الشريفة كَرِيمِ الْخِلالِ ، ومُعَلِّيِ درجَةِ من أضفى عليه الإخلاص فى طاعتنا العلية مديد الظلال ، ومجددِ نعم من لم يُحصِّه اعتناؤنا بغاية الإلا رقتَه هممه فيها إلى أسنى رتب الكمال ، ومفوضِ النظرِ فى قُرب

(١) فى بعض نسخ الأصل بياض ولعله كان متروكا لنسبة القول الى منشئه كما يأتى فى نظيره بعد .

الملوك السالفة إلا من لم يلاحظ من خواصنا أمرا إلا سرنا ما نشاهد فيه من الأحوال الحوال .

نحمد على نعمه التي لا تزال تسرى إلى الأولياء عوارفها ، ومنهاه التي لا تبرح تستمل على الأصفياء عواطفها ، وآلائه التي تسد آراءنا في تفويض القرب إلى من إذا باشرها سر بسيرته السرية مستحقها وواقفها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة رفع الإخلاص لواءها ، وأفاض الإيمان على وجوه حملتها إشراقها وضياءها ، ووالى الايقان إعادة أداها بمواقف الحق وإبداءها .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بعموم الشفاعة العظمى ، المخصوص في السنة ذكر حوضه الذي من شرب منه شربة فإنه بعدها لا يظما ، المنصوص على نبوته في الصحف المنزلة وبشرت به الهواتف نورا ونظما ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من طاعته ، بالرتب الفاخرة ، وحازوا بالإخلاص في محبته ، سعادة الدنيا والآخرة ، وأقبلوا على حظوظهم من رضا الله ورضاه فلم يلبوا على خدع الدنيا الساحرة ؛ صلاة دائمة الاتصال ، آمنة شمس دولتها من الغروب والزوال ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى الأمور بالنظر في مصالحها ، وأحقها بتوفير الفكر على اعتبار مناهجها وأعتاد مناججها ، أمر جهات البر التي تقرب بها السلطان الشهيد الملك المنصور (قدس الله روحه) إلى من أفاض نعمه عليه ، وتوقع في إنشائها فأحسن فيها كما أحسن الله إليه ، ورغب بها فيما عند الله : لعلمه أن ذلك من أنفس الذخائر التي أعدها بين يديه ، وحل منها في أكرم بقعة نقله الله بها عن سيره إلى مقعد صدق عند ربه ،

وعمرها مواطن العبادَة في يومِ سلّمه بعد أن عَفَى بها معاقِل الكفر في يومِ حربِه ؛ وأقام بها منارَ العلوم فعلا منالها ، وأعدّ للضعفاء بها من موادّ البر والإلطف مالو تعاطته الأغنياء قَصُرَت عن التطاولِ إليه أموالها ؛ وأن نرتاد لها من إذا فوّضنا إليه أمرا تحقّقنا صلاحه ، وتيقّنا نجاحه ، واعتقدنا تنمية أمواله ، واعتمدنا في مضاعفة ارتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله ، وعلمنا من ذلك ما لا نحتاج فيه إلى اختبار ولا اعتبار ، ولا يُحتاج في بيان الخيرة فيه إلى دليلٍ إلا إذا احتاج إليه النهار ، لنكون في ذلك بمثابة من ضاعف لهذه القرب أسباب ثوابها ، أو جدّد لها وقفاً : لكونه أتى بيوت الإحسان في ارتياد أكنفاء النظر لها من أبوابها .

ولما كان فلان هو الذى نهت أوصافه على أنه ماوئى أمر إلا وكان فوق ذلك قدرا ، ولا اعتمد عليه فيما تضيق عنه همم الأولياء إلا رحب به صدرا ، ولا طلع في أفق رتبة هلالا إلا وتأملت العيون لأجل رب الكمال بدرا ؛ يدرك مانأى من مصالح ما يليه بأذنى نظر ، ويسبق في سداد ما يباشره على ما يجب سداد الآراء ومواقع الفكر . ونحن نزداد غبطة بتدييره ، ونتحقق أن كل ما عدقنا به إليه من أمرٍ جليل فقد أسدناه إلى عارفه وفوضناه إلى خبيره - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعدق بحميل نظره هذا المهّم المقدم لدينا ، وأن نفوض إليه نظر هذه الأوقاف التى النظر فى مصالحها من أكّد الأمور المتعينة علينا .

فوسم بالأمر الشريف - لا زال فضله عميما ، وبره يقدم فى الرتب من كان من خواص الأولياء كريما - أن يفوض إليه كيت وكيت .

فليل هذه الرتبة التى أريد بها وجه الله وما كان لله فهو أهم ، وقصد بها النفع المتعدى إلى العلماء والفقراء والضعفاء ومراعاة ذلك من أخصّ المصالح وأعم .

ولينظر في عموم مصالحتها وخصوصها نظراً يسدّ خلالها ، ويزيح علالها ، ويعمر أصولها ، ويثمر محصولها ، ويحفظ في أمانها أموالها ، ويقم بها معالم العلوم في أرجائها ، ويستزل بها مواد الرحمة لساكنها باللسنة قرائها ، ويستعيد صحة من بها من الضعفاء بإعداد الذخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها ، ويحافظ على شروط الواقف في إقامة وظائفها ، وأعتبر مصارفها ، وتقديم ما قدمه مع ملاءة تديره باستكمال ذلك على أكل ما يجب ، وتميز حواصلها بما يستدعي إليها من الأصناف التي يعز وجودها ويحتب ، وضبط تلك الحواصل التي لا خرائن لها أوثق ، من أيدي أمنائه وثقاته ، ولا مودع لها أوفق ، من أمانة من يتقى الله حق ثقاته ، فذلك وكناه في الوصايا إلى حسن معرفته وأطلاعه ، ويؤمن نهوضه بمصالحنا وأضطلاعه ، إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية

(نظرالجامع الطولوني)

من إنشاء المقرّ البدريّ ابن المقرّ العلاءي بن فضل الله صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، في الدولة الظاهرية برقوق ، كتب به المقرّ الشمسي العمريّ كاتب الدست الشريف لأبي يزيد الدوّادار ، وهي :

الحمد لله الذي أقام من أوليائنا خير ناظر ، يقتر به كل ناظر ، وأدام بنا بناء المعروف الزاهر وحسنه الباهر ، وأنام الأنام في مهاد الأمن بانتقاء ولي لسان الكون حامد له ومدح وشاكر ، وفتح أبواب السعادة باصطفاء صفيّ طاب بسفارته كل خاطر من مقيم وخاطر ، ومنح أسباب السيادة بأوفى وفيّ عمر بوجوده

الوجودَ وعَمَّرَ بِجُودِهِ كُلَّ بَادٍ وَحَاضِرٍ ، وَأَبْصَرَ بِالدِّينِ الْمُتَيْنِ وَالْفَضْلِ الْمُبِينِ فَأَقْنَسَاهُ
لِلنَّظَرِ عَلَى بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَوْلَوِيَّتِهِ بِذَلِكَ : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ الَّتِي ظَهَرَتْ بِالْمَزِيدِ فَسَرَّتِ السَّرَائِرَ ، وَظَهَرَتْ بِنُورِ الرُّشْدِ الْمَدِيدِ
فَأَشْرَقَ بِهَا الْبَاطِنُ وَالظَّاهِرُ . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الْعَزِيزُ
الْقَادِرُ ، شَهَادَةً صَدَقَتْ فِي الْإِخْلَاصِ بِهَا الْأَلْسِنَةُ وَالضَّمَائِرُ . وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ مَعْدِنُ الْأَسْرَارِ ، وَبِحَجْرِ الْجُودِ الزَّاحِرِ ، وَمَنْبَعِ الْأَنْوَارِ ، صَاحِبِ الْآيَاتِ
الظَّاهِرَةِ وَالْمُعْجِزَاتِ الْبَاهِرَةِ وَالْمَفَاحِرِ ، الَّذِي يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَجْمُودًا بِحَمْدِهِ الْأَوَائِلُ
وَالْأَوَاخِرُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النُّجُومِ الزَّوَاهِرِ ، الَّذِينَ جَاهَدُوا فِي اللَّهِ
حَقَّ جِهَادِهِ فَكَانَ كُلُّ مِنْهُمْ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ أَعْظَمَ مَجْتَهِدٍ وَمُؤَيِّدٍ وَنَاصِرٍ ، وَسَلَّمَ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدَ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ أَلْقَيْتُ إِلَيْهِ مَقَالِدُ الْأُمُورِ ، وَصَرَّفَنَاهُ فِي جَمِيعِ مَصَالِحِ
الْجُمْهُورِ ، وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ النَّظَرَ فِي بُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى لِيَعْمُرَهَا بِنَظَرِهِ السَّعِيدِ وَتَضَاعَفَ لَهُ
الْأَجُورُ ، وَمَكَانًا لَهُ فِي دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ حَتَّى صَارَ قُطْبَ فَلَكِهَا عَلَيْهِ تَدْوِيرٌ ، وَبَسَطْنَا
يَدَهُ وَلِسَانَهُ فَهُوَ يَنْطِقُ عَنَّا وَيَأْمُرُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَسْدَرِ فِي الْوُرُودِ وَالصُّدُورِ ، وَقَيَّدْنَا
الْأَرْزَاقَ بِقَلَمِهِ ، وَالْمِهْمَاتِ بِكَلِمِهِ ، فَلَا فَضْلَ إِلَّا مَنْ فَيَضُهُ الْمُنْشُورُ - مِنْ أَمْتَازِ
عَلَى غَيْرِهِ بِفَضِيلَتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، وَتَقَدَّمَ فِي الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ بِأَثْبَتِ قَدَمٍ ، كَانَ بِهَا
مِنَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ مِنَ الْقَدَمِ ، وَأَتَّصَفَ بِالشَّجَاعَةِ وَالشَّهَامَةِ وَالْمَعْرِفَةِ النَّاقَةِ وَالْحِلْمِ
وَالْعَدْلِ وَالْحِكْمِ ، فَهُوَ التَّرْجُمَانُ عَنَّا النَّاطِقُ بِفَصْلِ الْخَطَابِ فِي السَّرِّ لِلتُّرْكِ وَالْعَرَبِ
وَالْعَجَمِ ، وَعُرِفَ بِالرَّأْيِ السَّعِيدِ ، وَالنَّظَرِ السَّعِيدِ ، وَالتَّوْبِ الْخَمِيدِ ، وَالْقَوْلِ الْمُنْفِيدِ ،

(١) ظَهَرَتْ بِالْمَزِيدِ قَوِيَّتُهَا وَظَهَرَتْ بِنُورِ الرُّشْدِ وَضَحَّتْ وَبَانَتْ .

والجُود والكَرم ، وطِيع على الخير الجَزِيل ، والدين الجميل ، عُمره في الحق قائم ،
لا تأخذه في الحق لومة لائم ، طالما أحيأ بحسن السفارة من العدم .

هو واحد في الفضل والنظر السعيد لأبي سعيد .

فمن الذي يحكيه في الشرف العتيد بطل الوغى أبو يزيد .

قد تفرّد في العفة والديانة ، والثقة والأمانه ، وألتحف بالصفاء ، وتردئ بالوفا ،
وشفى بالخير والخير من كان بالفقر على شفا فحصل له الشفا ؛ ووفى بالعهود والمواثيق
وذلك أمر ماخفى ، ولحق في الجود والدين بسميه أبن يزيد البسطامي الولي :
(١)

قالوا : الولي أبو يزيد قد مضى * وهو الفريد بفضله والصادق !

قلت : الأمير أبو يزيد مثله * هناك سابقه وهذا اللاحق !

ولما كان فلان هو المشار إليه بهذه الصفات الحسنه ، والمناقب التي تتوعت
في مدائحها الألسنه ، وعُرف بالجود فلما حبه الأفتدة فارتفعت الأصوات بالدعاء
له معلنه ؛ طالما أنال النعم ، وأزال النقم ؛ وجبر القلوب ، وكشف الكروب ، وجلا
ظلام الخطوب ؛ ونشر المعروف ، وأغاث الملهوف ؛ وأنقذ من المهالك ، وعمر
بتدبيره الممالك ؛ ووصل الأرزاق ، وأجرى الأطلاق على الإطلاق - أقتضت
أراؤنا الشريفة أن نعتمد في جميع الأشياء عليه ، ونلقى مقاليد الأمور إليه ، وننوط
به المهّمات وغيرها : ليكون العلم بالكليات والجزئيات لديه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازال يتحف بالمزيد من كرمه ، ويسبغ جلاييب
نعمه ؛ ويجرى بحر فضله الواسع ، ويعم بنظره المقربين من أوليائه كل جامع للخير
(٢)
جامع ، أن يستقر

(١) جرى على لغة طي ، نظر السجع فتنبه .

(٢) بياض بالأصل والمراد "في نظر الجامع الطولوني" الخ وكثيرا ما يفعل ذلك في مثل هذه المواضع .

فَلْيَتَلَقَّ هَذَا التَّفْوِيضَ الْجَلِيلَ بِقَبُولِهِ ، وَيَبْلُغَ الْجَامِعَ الْمَذْكُورَ مَا يَرْتَقِبُهُ مِنْ عِمَارَتِهِ
الَّتِي هِيَ غَايَةُ مَأْمُولِهِ . وَمِنْهُ تَوْخَذَ الْوَصَايَا لِأَنَّهُ لِسَانُنَا النَّاطِقُ ، وَسَفِيرُ مَمْلَكَتِنَا الْعَالَمِ
بِالْحَقَائِقِ وَالذَّقَائِقِ ، فَلَا يَحْتَاجُ أَنْ يُوصَى وَلَا أَنْ نَفْتَحَ مَعَهُ فِي الْوَصِيَّةِ أَبَا ، وَمَا يَصْلُحُ
أَنْ يُقَالَ لِغَيْرِهِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ لَهُ خِطَابًا :

وَمِثْلُكَ لَا يُدَلُّ عَلَى صَوَابٍ * وَأَنْتَ تَعَلَّمِ النَّاسَ الصَّوَابَا!

وَاللَّهُ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيُعِمُّ بِوُجُودِهِ وَجُودَهُ الْوُجُودَ وَقَدْ فَعَلَ ؛
وَيُبْقِيهِ مَدَى الدَّهْرِ ، وَيَسْتَعِدُّ لِسُعُودِهِ السَّاعَةَ وَالْيَوْمَ وَالْجُمُعَةَ وَالشَّهْرَ ، وَيَجْعَلُ
بَابَهُ الطَّاهِرَ مَفْتُوحًا لِلْقَاصِدِينَ عَلَى الدَّوَامِ ، وَيُقِيمُهُ وَاسِطَةً عِنْدَ الْمَلِكِ فَإِنَّهُ مُبَارَكٌ
أَيَّمَا كَانَ وَرَحْمَةً لِلْأَنَامِ ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ حِجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الثالثة

(تَقَابَةُ الْأَشْرَافِ)

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ وَظَائِفِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ أَنَّ
مَوْضُوعَهَا التَّحَدُّثُ عَلَى الْأَشْرَافِ ، وَهُمْ أَوْلَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ ، مِنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قُلْتُ : وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنَّ الَّذِي يَتَوَلَّى هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ يَكُونُ مِنْ رُءُوسِ
الْأَشْرَافِ ، وَأَنْ يَكُونَ مِنْ أَرْبَابِ الْأَقْلَامِ ، وَإِنَّمَا أوردتهُ مَعَ أَرْبَابِ السُّيُوفِ
لِأَنَّ الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بْنَ فَضْلِ اللَّهِ قَدْ ذَكَرَ فِي بَعْضِ دَسَاتِيرِهِ الشَّامِيَّةِ أَنَّهُ يُكْتَبُ
لِنَقِيبِ الْأَشْرَافِ « الْأَمِيرِيَّ » وَلَا يَكْتَبُ لَهُ « الْقَضَائِيَّ » وَلَوْ كَانَ صَاحِبَ قَلَمٍ .

وقد رأيت له عدّة تواقع على ذلك مكتتبه من الأبواب السلطانية وعن نائبي الشام وحلب وغيرهما، معبراً عنه فيها «الأميرى» وتوقيع في قطع الثلث مفتتح بحُطبة مفتحة بـ«الحمد لله» .

(١)

وهذه نسخة [توقيع] بتقابة الأشراف، وهي :

الحمد لله مشرف الأنساب، ومو في الأحساب، حقوق ملاحظتهم بغير حساب،
وجاعل أيماننا الشريفة تحمد الأكتساب .

نحمده بحامد حسنة الإيجاد والإيجاب . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شك في مقالها ولا أرتياب . ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبية الذي أنزل عليه الكتاب، وشرف به الدراري من شجرته المباركة الأعقاب، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تتوارى شمسها بحجاب .

وبعد، فإن خير ما صرفت الهمم إلى تشييد مبانيه، وتقويد مهمل رواعيه وملاحظة قاصيه ودانيه، المحافظة على كل ما يرفع قدر الآل ويعليه، ويرد إليهم عنان الاعتناء ويثنيه .

ولما كانت العترة الطاهرة النبوية وراث الوحي الذين آل إليهم ميراثه، وأهل البيت الذين حصل لهم من السؤدد آياته، وقد سأل الله وهو المسؤل لهم القربى، وخصهم بمزايا حقيق بمثل متصرفهم أنه بها يُجبي وأنها لهم تُجبي : لما في ذلك من بركات تُرضى سيد المرسلين وتُعجبه، ويُسطر الله [الأجر] لفاعله ويكتبه، وكان لا بد لهم من رئيس يُضد سلكهم وينظمه، ويعظم نخرهم ويفخمه، ويحفظ أنسابهم،

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ويصقل بمكارمه أحسابهم ، ويمى بتدييره ريعهم ، ويتابع تحت ظل هذه الشجرة الزكية ما زكى ينعمهم ، ويحفظهم في ودائع النسل ، ويصد عن شرف أرومتهم من الأذعياء المدعين بكل نسل^(١) ، ويحرس نظامهم ، ويوالي إكرامهم ، ويأخذهم بمكارم الأخلاق ، ويمددهم بأنواع الإرفاد والإرفاق ، ويتولى ردع جانبيهم إذا لم يسمع ، ويتدبر فيه قوله : « أنفك منك وإن كان أجدع » .

ولما كان فلان هو المشار إليه من بنى هذه السلالة ، وله من بينهم ميزة باطنة وظاهرة وإن كانوا كلهم شيئاً واحداً في الإجلال والإعظام ، فقد تميزت من بين الأنامل السبابة على الخنصر والنصر والوسطى والإبهام ، ولم تخرجني فضل بعضه على بعض في الأكل وهو يسقى بماء واحد ، وقد أمتاز على بنى هاشم سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام - أقتضى حسن الرأي المنيب ، أن رسم بالأمر الشريف - لا برح يختار وينتقى ، ويحتجى من يخشى الله ويتقى - أن تفوض إليه نقابة الأشراف الطالبيين على عادة من تقدمه من الثقباء السادة .

فليجمع لهم من الخير ما يهيج الزهراء البتول فعله ، ويفعل مع أهله وقرباته منهم ما هو أهله ، وليحفظ مواليدهم ، ويحرر أسانيدهم ، ويضبط أوقافهم ، ويعتمد إنصافهم ، ويثمر متحصلاتهم ، ويكثر بالتدبير غلاتهم ، ويأخذ نفسه بمساواتهم ، في جميع حالاتهم ، وليأخذهم بالتجمع عن كل ما يشين ، والعمل بما يزين ، حتى يضيفوا إلى السؤدد حسن الشيم ، وإلى المفاخر فخر القيم ، وكل ما يفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ، ومنه وإليه ، والله يحفظه من خلفه ومن بين يديه ، بمنه وكرمه ! .

(١) البسل الشدة كما في اللسان . وقع في الاصل « نسك » بالنون والكاف وهو تصحيف .



وهذه نسخة وصية لنتيب الأشراف أوردها في "التعريف" فقال :

ونحن نُجِلكَ عن الوصايا إلا ما تَتَبَرَّكَ بِذِكْرِهِ ، وَيُسْرِكُ إِذَا أَشْمَلْتَ عَلَى سِرِّهِ ؛
فَأَهْلَكَ [أَهْلَكَ ؛ رَاقِبٌ] ^(١) اللهُ وَرَسُولُهُ جَدَّكَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا أَنْتَ عَنْهُ مِنْ
أُمُورِهِمْ مَسْئُولٌ ، وَأَرْفُقُ بِهِمْ فَهَمُّ أَوْلَادِ أُمَّكَ وَأَيْبُكَ حَيْدَرَةَ وَالتَّبُولُ ؛ وَكُفَّ يَدَ مَنْ
عَلِمْتَ أَنَّهُ [قَدْ] ^(١)أَسْتَطَالَ بِشَرْفِهِ فَتَدَّ إِلَى الْعِنَادِ يَدًا ، وَأَعْلَمَ أَنَّ الشَّرِيفَ وَالْمَشْرُوفَ
سِوَاءٌ فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا مَنْ أَعْتَدَى ؛ وَأَنَّ الْأَعْمَالَ مَحْفُوظَةٌ ثُمَّ مَعْرُوضَةٌ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ
فَقَدِمَ فِي الْيَوْمِ مَا تَفَرَّحَ بِهِ غَدًا ؛ وَأَزَلَّ الْبِدْعَ الَّتِي يُنْسَبُ إِلَيْهَا أَهْلُ الْعُلُوِّ فِي وَلَائِهِمْ ،
وَالْعُلُوِّ فِيمَا يُوجِبُ الطَّعْنَ عَلَى آبَائِهِمْ ؛ : لِأَنَّهُ يُعْلَمُ أَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ
كَانُوا مَنَزَّهِينَ عَمَّا يَدَّعِيهِ خَلْفُ السَّوِّءِ مِنْ أَفْتِرَاقِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ، وَيَتَعَرَّضُ مِنْهُمْ أَقْوَامٌ
إِلَى مَا يُجْزَهُمْ إِلَى مَصَارِعِ حَيْنِهِمْ ؛ فَلِلشَّيْخَةِ عَثْرَاتٌ لَا تُقَالُ ، مِنْ أَقْوَالٍ تُقَالُ ؛ فَسُدَّ
هَذَا الْبَابَ سَدًّا لَيْبِ ، وَأَعْمَلْ فِي حَسْمِ مَوَادِّهِمْ عَمَلَ أَرِيْبٍ ؛ وَقُمْ فِي نَهْيِهِمْ وَالسَّيْفِ
فِي يَدِكَ قِيَامَ خَطِيبٍ ، وَخَوْفِهِمْ مِنْ قَوَارِعِكَ [مَوَاقِعٌ] ^(١)كُلِّ سَهْمٍ مُصِيبٍ ؛ فَادْعِ
« بِحَيٍّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ » إِلَى خَيْرٍ مِنَ الْكُتَابِ وَالسَّنَةِ وَالْإِجْمَاعِ [فَانظِمَّ فِي نَادَى
قَوْمِكَ عَلَيْهَا عَقُودَ الْأَجْتِمَاعِ] ^(١) . وَمِنْ أَعْتَرَى إِلَى أَعْتَرَلَ ، أَوْ مَالَ إِلَى الزَّيْدِيَّةِ فِي زِيَادَةَ
مَقَالَ ؛ أَوْ أَدْعَى فِي الْأئِمَّةِ الْمَاضِينَ مَا لَمْ يَدَّعُوهُ ، أَوْ أَقْنَفَى فِي طُرُقِ الْإِمَامِيَّةِ بَعْضَ
مَا أَبْتَدَعُوهُ ؛ أَوْ كَذَبَ فِي قَوْلِ عَلَى صَادِقِيهِمْ ، أَوْ تَكَلَّمَ بِمَا أَرَادَ عَلَى لِسَانِ نَاطِقِهِمْ ؛
أَوْ قَالَ : إِنَّهُ تَلَقَّى عَنْهُمْ سِرًّا ضَمَّنُوا عَلَى الْأئِمَّةِ بِلَاغَهُ ، وَذَادُوهُمْ عَنْ لَذَّةِ [مَسَاغِهِ] ^(١٧) ،
أَوْ رَوَى عَنْ يَوْمِ السَّقِيفَةِ وَالْجَمَلِ غَيْرَ مَا وَرَدَ أَخْبَارًا ، [أَوْ تَمَثَّلَ بِقَوْلِ مَنْ يَقُولُ :
عَبْدَ شَمْسٍ قَدْ أَوْقَدْتُ لِبَنِي هَاشِمٍ نَارًا] ^(١) أَوْ تَمَسَّكَ مِنْ عَمَائِدِ الْبَاطِنِ بِظَاهِرٍ ، أَوْ قَالَ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٠ وهي لازمة لاستقامة الكلام .

إِنَّ الذَّاتَ الْقَائِمَةَ بِالْمَعْنَى تَخْتَلِفُ فِي مَظَاهِرٍ ، أَوْ تَعَلَّقَ لَهُ بِأُتَمَّةِ السَّرْجَاءِ ، أَوْ أَنْتَظِرَ مُقِيمًا بَرَضُوى عِنْدَهُ عَسَلٌ وَمَاءٌ ، أَوْ رَبَطَ عَلَى السَّرْدَابِ فَرَسَهُ لِمَنْ يَقُودُ الْخَيْلَ يَقْدِمُهَا اللَّوَاءَ ، أَوْ تَلَفَّتْ بِوَجْهِهِ يُظَنُّ عَلَيْهِ كَرَمَ اللَّهِ وَجْهَهُ فِي الْغَمَامِ ، أَوْ تَلَفَّتْ مِنْ عِقَالِ الْعَقْلِ فِي أَشْرَاطِ الْعِصْمَةِ فِي الْإِمَامِ . فَعَرَفَهُمْ أَجْمَعِينَ أَنَّ هَذَا مِنْ فِسَادِ أَذْهَانِهِمْ ، وَسُوءِ عَقَائِدِ أَدْيَانِهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ عَدَلُوا فِي التَّقَرُّبِ بِأَهْلِ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ عَنْ مَطْلُوبِهِمْ ، وَإِنْ قَالَ قَائِلٌ إِنَّهُمْ طَلَبُوا فَقُلْ لَهُ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ .

وَأَنْظُرْ فِي أُمُورِ أَنْسَابِهِمْ نَظْرًا لَا يَدَعُ مَجَالًا لِلرَّيْبِ ، وَلَا يَسْتَطِيعُ مَعَهُ أَحَدٌ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِمْ بِغَيْرِ نَسَبٍ ، وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُمْ بِغَيْرِ سَبَبٍ ، وَسَاوِقِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي أُمُورِهِمْ فِي كُلِّ حِسَابٍ وَأَحْفَظْ لَهُمْ كُلَّ حَسَبٍ . وَأَنْتَ أَوْلَى مِنْ أَحْسَنَ لِمَنْ طَعَنَ فِي أَسَانِيدِ هَذَا الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ أَوْ تَأَوَّلَ فِيهِ عَلَى غَيْرِ مُرَادِ قَائِلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَأْدِيبًا ، وَأَرَاهُمْ مِمَّا يُوَصِّلُهُمْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِلَى رَسُولِهِ طَرِيقًا قَرِيبًا . وَنَكَّلَ بَيْنَ عِلْمَتِ أَنَّهُ قَدْ مَالَ عَلَى الْحَقِّ أَوْ مَالَ إِلَى فَرِيقِ الْبَاطِلِ فَرَقًا ، وَطَوَى صَدْرَهُ عَلَى الْغِلِّ وَغَلَبَ مِنْ أَجْلِهِ عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ تَقْدِيمِ مَنْ تَقَدَّمَ حَقًّا ؛ [وَجَارَ وَقَدْ]^(١) أَوْصَحَّتْ لَهُمُ الطَّرِيقَةُ الْمُثَلَّى طَرَقًا ؛ وَأَرَدَعَهُمْ إِنْ تَعَرَّضُوا فِي الْقَدْحِ إِلَى نِضَالِ نِضَالٍ ، وَأَمْنَعَهُمْ إِنْ فَرَقَهُمْ كَلَّمَا وَإِنْ كَثُرَتْ خَابِطَةٌ فِي ظِلَامٍ ضَلَالٍ ؛ وَقَدَّمَ تَقْوَى اللَّهِ فِي كُلِّ عَقْدٍ وَحَلٍّ ، وَأَعْمَلَ بِالشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ فَإِنَّهَا النَّسَبُ الْمَوْصُولُ الْحَبْلُ .

وَأَعْلَمُ أَنَّ الْمُقَرَّرَ الشَّهَابِيَّ بْنَ فَضْلِ اللَّهِ قَدْ ذَكَرَ فِي "التعريف" عِدَّةَ وَصَايَا لِمَجْمَاعَةِ مِنْ أَرَبَابِ السُّيُوفِ ، لَمْ يُكْتَبْ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ فِي زَمَانِنَا ، بَلْ رُفِضَ اسْتِعْمَالُهَا وَأُهْمِلَ . وَنَحْنُ نَذَكِّرُهَا حِفْظًا لِدِكْرِهَا ، وَأَحْتِيَاطًا أَنْ يَقْتَضِيَ الْحَالُ فِي زَمَنِ كِتَابَةِ شَيْءٍ مِنْهَا .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف ص ١٣٢ .

إحداها — وصية أتابك المجاهدين

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن أصله أطابك بالطاء^(١) المهملة ومعناه الأب الأمير ، وأن أول من لقب بذلك زنكي أطابك صاحب الموصل ، ثم غلبت فيه التاء المثناة بدل الطاء ، وهي :

وأنت ابن ذلك الأب حقيقه ، وولد ذلك الوالد الذي لم تعمل له إلا من دماء الأعداء عقيقه ؛ وقد عرفت مثله بثبات الجنان ، وصلت بيدك ووصلت إلى مالم يصل إليه رُح ولا قدر عليه سنان ؛ ولم يزاحك عدو إلا قال له : أيها البادى المقاتل كيف تزاحم الحديد ، ولا تسمى أسمك لجبار إلا قال له : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ . وأنت أولى من قام بهذه الوظيفة ، وألف قلوب هذه الطائفة التي ما حلم بها حالم إلا وبات يردد خيفه ؛ فلما أخذ هذا الأمر بزمامه ، وليعمل لله وإمامه ؛ وليرم في حب البقاء الدائم بنفسه على المنية ، ولينادى على معاقره الدماء زهور سكاكينه الحنية ؛ وأطبع منهم زورا تطاول السيوف بسكاكينها ، وتأخذ بها الأسود في عرينها ؛ وتمتد كأنها آمال ، لما تريد ، وترسل كأنها آجال ، ولهذا هي إلى كل عدو أقرب من جبل الوريد ؛ وأذك منهم شعلا إذا دعيت بأحسابها لا تجد إلا متحاميا ، وأرم منهم سهاما إذا دعيت (؟) بأنسائها الاسماعيلية فقد جاء أن إسماعيل كان راميا ؛ وفرج بهم عن الإسلام كل مضيق ، وأقلع عن المسلمين من العوانية كل حجر في الطريق ؛ وصرف رجالك الميامين ، وتصيّد بهم فإنهم صقور ومناسرهم السكاكين ؛ وأخطف بهم الأبصار فأيمانهم كل سكينه كأنها البرق الخاطف ، وأقطف الرؤوس فإنها ثمرات أينعت لقاطف ؛ وأعرف لهم حقهم وضاعف لهم

(١) هو بفتح الباء الموحدة كما ضبطه ابن بطوطة في رحلته ص ٢٥٨ ج ٢ .

تكريماً، وأدم لهم بناً برّاً عميماً، وقدم أهل النفع منهم فقد قدمهم الله ﴿وقض الله
المجاهدين على القاعدین أجراً عظيماً﴾ .

وأعلم أنهم مثل الوحوش فزد في تأنيبهم ، وأشكر إقدامهم فطالما اقتحموا على
الملوك وما هابوا يقظة حرسهم ، وأرفع بعضهم على بعض درجات في نفقات تسافرهم
وتعود مجلسهم ، ولا تسو بينهم فاهم سواءً و﴿لا يستوى القاعدون من المؤمنين
غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم﴾ . وأصل هذه الدعوة
ما زالت تتنقل بالمواريث حتى انتهت إلينا حرقها ، وأومضت بنا حيث خلعت
هياكلها بجرعاء الحمى بروقها ، والله تعالى يوفقه ويرشده ، ويطول باعه لما قصرت
عنه سواعد الرماح ووصلت إليه يده .



الثانية — وصية أستاذ الدار .

وليتفق أحوال الحاشية على اختلاف طوائفها ، وأنواع وظائفها ، وليرتبها
في الخدمة على ما يجب ، وينظر في أمورهم نظراً لا ينجى معه شيء مما هم عليه
ولا يحتجب ، وليبدأ بهم السباط المقدم الذي يقدم ، وما يتنوع فيه من كل مطعم ،
وما يمتد منه في كل يوم بكرة والعصر ، وما يستدعى معه من الطوارئ التي لا يجدها
الحد ولا يحصرها الحصر ، وأحوال المطبخ الكريم الذي منسه ظهور تلك الخافى ،
ووفاء ذلك الكريم الوافى ، والتقدم إلى الأمانة والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق ، وصيانة
المالك كل مما يعاب على الإطلاق . ثم أمر المشروب وما تغلق عليه أبواب الشراب خاناه
السعيدة من لطائف مأكول ومشروب ، وشيء عزيز لا يوجد إلا فيها إذا

عزَّ المطلوب ؛ ومراجعة الأطباء فيما تجرى عليه قوانينها ، وتُسبُّ لطبخه من حُرِّ
اليواقيت كواينها ؛ وإفراز ما هو للخاص الشريف منها وما هو للتفرقة ، وما لا يصرف
إلا بخط الطيب ولا يسلم إلا إلى ثقه . ثم الطشت خاناه السعيدة التي هي خزانة
اللباس ، وموضع ما يبرز به من الزينة للناس ؛ وما يحتاج إليه من آلات التطيب ،
وما يعين لها من الصابون وماء الورد والطيب ، وغير ذلك من بقية ما هي مستقره ،
ويؤخذ منها مستدره ؛ ومن يُستخدم بها ممن برئ من الريب ، وعرف بالعفاف
والأدب ؛ وعلم أنه من أهل الصيانة ، وعلى ما سلم إليه ومن خالطه الأمانة .
ثم الفراش خاناه وما ينصب فيها من الخيام ، وما يكون فيها من فرش سفر ومقام ،
وشمع يفضض كأفور كآفوريته آبنوس الظلام . ثم غلمان الإصطبل السعيد والتجاجة
وإن كان إلى سواه استخدامهم ، ولدى غيره مستقرهم ومقامهم ، لكنهم ما خرجوا
من عديده ، ولا يروفهم ويروعهم إلا حسن وعده وخشن وعيده . ثم المناجات
السلطانية وما بها من جمال ، وما يسرح فيها من مال وجمال ؛ ومن يُستخدم فيها
من سيروان ومهمرد ، وما فيها من قطار مزدوج وفرد ؛ فيوفر لهذه الجهة نصيباً
من النظر يشاهد أمورها وقد غابت في الأقطار ، وتفرقت كالسحب يلزمها القطار
القطار ؛ وليكونوا على بالله فإنهم يسرقون الذرة من العين ومعهم الذهب العين مجلاً
بالقطار ؛ فليحسن منهم الإرتياد ، وليتخير أرقهم أفئدة فإنهم بكثرة ملازمتهم للإبل
مثلها حتى في غاظ الأجداد . وطوائف المعاملين ، والأبقار ومن عليها من العاملين ،
وزرائب الغنم وخولها ورعاها ، وأصناف البيوت الكريمة وما تطلبه في استدعائها ؛
ونفقات الأمراء الممالك السلطانية في إهلال كل هلال ، وما يُصرف في كساهم

على جارى عادتيم أو إذا دعت إليه ضرورة الحال ؛ وما يؤخذ عليه خطه من
 وصولات تكتب ، وأستدعات تُحسب من لوازمه وهى للكثرة لا تُحسب ؛ فليكن
 لهذا كله مراعىا ، ولأموره وإعيا ، وما يجب فيه دون ما لا يجب مستدعياً وإليه
 داعياً ؛ وهو كبير البيت وإليه يرجع أمر كل مملوك ومستخدم ، وبأمره يؤخر
 من يؤخر ويقدم من يقدم ، ومثله يتعلم منه ولا يعلم ؛ وعصاه على الكل محمولة
 على الرقاب ، مبسوطة فى العنق والعقاب ، ومكانه بين يدينا حيث نراه ويرانا ولدينا
 قاب قوسين أو أدنى من قاب .

وعليه بتقوى الله فيها تمام الوصايا وكال الشروط ، والأمر بها فعصاه محمكة
 وأمره مبسوط ، وكل ما يناط بنا : من خاصة أمورنا فى بيتنا - عمره الله ببقائنا وزاد
 تعميره - بتديره منوط .

الثالثة - وصية أمير اخور .

وقد تقدم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أنه مرَّكب من لفظين :
 عربى وهو أمير ومعناه معروف ، وأخور فارسى ومعناه العلف ، والمعنى أمير العلف .
 وكأنه فى الأصل كان هو المتولى لعلوفة الخيل ، ثم ارتفعت وظيفته حتى صار صاحبها
 من أكابر الأمراء المقدمين ، وهو يتحدث فى الإصطبلات السلطانية وما حوته
 من خيل وبغال ودواب وجمال وأثاث ، وغير ذلك .

وهذه نسخة وصيته :

وليكن على أكل ما يكون من إزاحة الأعذار ، والتأهب لحركاتنا الشريفة فى ليل
 كان أونهار ، مقدماً الأهم فالأهم من الأمور ، والأبدأ فالأبدأ من [تقديم] ^(١) مرَّا كبتنا

(١) الزيادة عن "التعريف" وهى لازمة كما لا يخفى .

السعيدة وتهيئة موكبنا المنصور؛ وترتيب ذلك كله على ما جرت به العوائد، وتحصيل ما تدعو الحاجة إليه على قدر الكفاية والزوائد؛ والنظر في جميع إصطبلاتنا الشريفة، والجشرات السعيدة، وخيل البريد، والركائب المعدة لقطع كل مدى بعيد؛ وما يجتمع في ذلك وينقسم، وما يركب منها ويجنب مما يسيم الأرض بالبدور والأهلة من كل حافر ومنم، وما هو برسم الإطلاق، وما يعد للمالك الطباقي، وخيل التلاد، وما يجلب من قود كل قبيلة من القبائل ويحيى من كل بلد من البلاد؛ والمشتري مما يباع من الموارث ويستعرض من الأسواق، وما يعد للواكب والسباق؛ وليجل رأيه في ترتيب ذلك كله في مراتبه على ما تقتضيه المهمات، والاحتراز في التلاد مما لعله يبدل ويقال هو هذا أو يؤخذ بحجة أنه مات؛ وليجتهد في تحقيق ما نفق، [وليحرره على حكم ما يتحقق عنده لا على ما أتفق^(٢)] وكذلك فليكن فضبه ممن يستخدم عنده من الغلمان، ولا يهمل أمورهم مع معاملتهم بالإحسان؛ ولا يستخدم إلا من شكر سيرته في أحواله، وتعرف خبرته فيما يراد من أمثاله؛ وكذلك الركابة الذين تملك أيديهم أئنة هذه الكرائم، والتحرز في أمرهم ممن لعله يأوى إليهم من أرباب الجرائم؛ والأوشاقية الذين هم مثل ممالكهم وهم في الحقيقة إخوانه، وجماعة المباشرين الذين هم في مباشرة الإصطبلات السعيدة ديوانه؛ وكل هؤلاء يلزمهم بما يلزم أمثالهم من السلوك، ويعلمهم بما يجب عليهم أن يتعلموه من خدمة الملوك؛ ولا يسمح لأحد منهم في أمر يفضى إلى إخلال، ولا يقتضى قرط إذلال، وليقيم أودهم بالأدب فإن الأدب مافيه إذلال؛ وكل هؤلاء الطوائف ممن يتجنب العامة مخالطتهم لما طار في أيام من تقدم عن أمثالهم من سوء السمع،

(١) في اللسان من معاني "القوق الخيل" وهو المناسب هنا .

(٢) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٠٠) وهي لازمة كما لا يخفى .

وَيَتَخَوَّفُ مِنْهُمْ السُّرْعَةَ ؛ فليكن لهم منك أعظم زاجر ، ومن شكي إليك منهم فسارع إلى التنكيل به وبادر ؛ وأشهر من فعلك بهم ما يوجب منهم الطمأنينه ، ولا يعود أحد بعده يكذب يقينه ؛ وأمراء أخوريه الذين هم أتباعك ، وبهم يمتد باعك ، هم بحسب ما تجعلهم بصدده ، وما منهم إلا من يقدر [أن] يتعدى حدّه في مقام قدمه وبسط يده ؛ فاجعل لكلّ منهم مقاما معلوما ، وشيئا تجعل له فيه تحكيا .

وتمين الخيول المشتراة والتقاديم قومها بأهل الخبرة تقويم عدل ، وقيل الحق ولا يأخذك فيه لوم ولا عدل ؛ وما يُصرف من العليق برسم الخيول السلطانية ومن له من صدقاتنا الشريفة عايق ، مرّ بصرفه عند الاستحقاق وأضبطه بالتعليق ؛ وتصرف في ذلك كله ولا تتصرف إلا تصرف شفيق ، وصنّه بأقلام جماعة الديوان ولا تقنع في غير أوقات الضرورة برفيق عن رفيق ؛ وكذلك البراسيم السلطانية أصلا وزياته ، ولا تصرف إلا مانأمر به وإلا فلا تخرج فيه عن العاده ؛ ونزلاؤك من أمراء العربان عاملهم بالجميل ، وزد في أخذ خواطرهم ولو بسط بساط الأوس لهم فما هو قليل ، : لتضاعف رغبتهم في كل عام ، وليستدلوا ببشاشة وجهك لهم على ما بعده من الإنعام ؛ وبغال الكؤوسات السعيدة والأعلام المنصورة ، وأنقال الخزانة العالية المعمورة ؛ أجعلها من المهمات المقدمه ، والمقدمات لتأخر أيام النصر المعلمه ؛ ورتبها في مواقينها ، وأتمها أتم ما يكون من وظائفها ؛ فيها تثبت مواقف العسكر المنصور ، وإليها يأوى كل مستظل ورحى الحرب تدور ؛ وغير ذلك من فئاش الإضطرابات السعيدة من الذهب والفضة والحريه ، وكل قليل وكثير ؛ باشره مباشرة من لا يتحلى ، وأحصيه خرجا ودخلا ؛ وإياك والأخذ بالرخص ، أو إهمال الفرس ، أو طلب فائت جرم أهملته حتى نكص .

الرابعة — وصية مُقدّم المالك .

وقد تقدّم في الكلام على أرباب الوظائف أنه يتحدّث في أمر الممالك السلطانية والحكم بينهم، ويركب خلفهم إذا ركب السلطان كأنه يحفظهم . والوصية هي :

وليُحسِن إليهم ، وليُعلم أنه واحد منهم ولكنه مقدّم عليهم ، وليأخذ بقلوبهم مع إقامة المهابة التي يُخيّل إليهم بها أنه معهم وخلفهم وبين يديهم ، وليُزِم مقدّم كل طبقة بما يلزمه عند تقسيم صدقاتنا الجارية عليهم : من ترتيب الطّباق ، وإجراء ساقية جارية من إحساننا إليهم ولا ينس السّواق ؛ وليُكن لأحوالهم متعهّدا ، ولأموالهم متفقّدا ؛ وليستعلم أخبارهم حتى لا يزال منها على بصيره ، وليُعرف ما هم عليه مما لا يخفى عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلاً فإنهم جيره ؛ وليأمر كلّاً منهم ومن مقدّميهم والسّواقين لهم بما يلزمهم من الخدمه ، وليرتبهم على حكم مكاتبتهم منّا فإن تساوا فليقدّم من له قُدمه ؛ وليُعدل في كل تفرقه ، وليُحسن في كل عرض ونفقه ، وليفرّق فيهم ما لهم من الكساوى ويُسبّل عليهم رداء الشّفقه ؛ وليُعدّ منهم لغنايا الحمى سبّاعا تفترس العاديه ، وليُجمّل النظر في أمر الصّغار منهم والجار أصحاب الطّبقات العاليه ؛ وليأخذهم بالركوب في الأيام المعتاده ، والدّخول إلى مكان الخدمه الشريفة والخروج على العاده ، وليُدّرهم في أوقات البيا كير والأسفار نطاقاً دائر الدّهليز المنصور ، وليأمرهم أمراً عاماً بأن لا يركب أحدٌ منهم إلا بدسّور ولا ينزل إلا بدسّور ؛ وليحترز عليهم من طوائف الغلمان ، ولا يستخدم منهم إلا معروفاً بالخير ويقيم عليهم الضّمان ؛ وليحرّر على من دخل عليهم وخرج ، ولا يفتح لأحدٍ منهم إلا من علم أنه ليس في مثله حرج ؛ ولا يدع للريبة بينهم مجالاً للأضطراب ، وليؤص مقدّميهم بتفقّد ما يدخل إليهم فإن الغش أكثره من الدّعام والشّراب ؛ وليدّم مراجعتنا في أمرهم فإنّ بها يعرف الصواب ، وليعمل بما نأمره به ولا يجدّ جوى في جواب .

الضرب الثانى

(ممن يكتب له بالولايات بالديار المصرية أربابُ الوظائف الدينية،

وهو على طبقتين)

الطبقة الأولى

(أصحابُ التقاليد ممن يكتب له بالجناب العالى)

وتشتمل على عدة وظائف

الوظيفة الأولى

(القضاء)

قد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على ترتيب الوظائف أن الديار المصرية كان يليها قاض واحد، إلى أن كانت الدولة الظاهرية «بيرس» فى أوائل الدولة التركية، وقاضى القضاة يومئذ القاضى تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعزّ الشافعى، فاضطرب الأمر لاختلاف المذاهب، فاقتضى رأى السلطان تقرير أربعة قضاة من كل مذهب قاض، وقرّر القاضى تاج الدين ابن بنت الأعزّ فى قضاء قضاة الشافعية على حاله، وكتب لكلّ منهم تقليدًا بذلك؛ ثم خصّ قاضى القضاة الشافعية بالتولية فى بلاد الريف دون غيره من القضاة الثلاثة، واستمرّ الأمر على ذلك إلى الآن. إلا أنه لما حدث بديوان الإنشاء تنويع ما يكتب لأرباب الأقاليم إلى تقاليد، فى قطع الثلثين، وتفاويض، وتواقيع، فى قطع النصف، تقرّر الحال على أن يكتب للقضاة الأربعة تواقيع فى قطع النصف بـ«المجلس العالى»، ولم يز، الأمر على ذلك إلى أن ولي القاضى عماد الدين أحمد الكركى الأزرقى قضاء قضاة

الشافعية في أول سلطنة الظاهر « برقوق » الثانية ، وأخوه القاضي علاء الدين عليّ كتب السرّ ، فعني بأخيه عماد الدين المذكور ، فكتب له تقليدا في قطع الثلثين «الجناب العالی» . وبقي الثلاثة على ما كانوا عليه من كتابة التواقيع إلى أن ولي القاضي جمال الدين محمود ألبليّ القيسريّ المعروف بالعجميّ رحمه الله قضاء قضاء الحنفية في الدولة الظاهرية أيضا ، مضافا إلى نظر الجيش ، فكتب له تقليد في قطع الثلثين بالجناب العالی أيضا ، وبقي المالكيّ والحنبليّ على ما كانا عليه من كتابة التواقيع في قطع النصف . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن ولي قاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطيّ قضاء قضاة المالكية في الدولة الناصرية «فرج بن الظاهر برقوق» فأنشأت له تفويضا وكتبت له به ، ولم يكن أحد ممن عاصرناه كتب له تفويض غيره . ثم لما ولي الشيخ جمال الدين عبد الله الأفهسيّ قضاء المالكية ، كتب له توقيع في قطع النصف ، إلا أنه كتب له «الجناب العالی» كما يكتب لأصحاب التقاليد ، وجرى الأمر فيمن بعده على ذلك . ولم يبق من هو على التّط الأوّل سوى قاضي القضاة الحنابلة ، ويوشك أن يكتب لكل من المالكيّ والحنبليّ أيضا تقليد : لمساواتهم بغيرهم من الأربعة . وقد ذكرت ما يكتب لهم من تقاليد وتواقيع هنا جمعا للفتق وتقريرا للأخذ .

وهأنا أذكر ما يكتب للأربعة على الترتيب .

الأول (قضاء القضاة الشافعية)

وهذه نسخة تقليد قضاء القضاة الشافعية ، كتب به لقاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعزّ رحمه الله ، حين استقرّ أحد القضاة الأربعة بعد انفراده بالوظيفة على ما تقدّم ، وهي من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله تعالى ، وهي :

الحمد لله مجرد سيف الحق على من اعتدى، وموسع مجاله لمن راح إليه وأعتدى،
وموضح طريقه لمن اقتاد وأقتدى، ومزين سمائه بنجوم تستمد الأنوار من شمس
الهدى، الذى أعذب لشرعة الشريعة المحمدية يتبوعا، وأقامها أصلا مديتار
الرشد فروعا .

نحمده على نعمه التى ألزمتنا لتشديد مبانيها شروعا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة نَعْمَرُهَا من القلوب والأفواه ربوعا . ونصلى على سيدنا محمد الذى
أرسله الله إلى الخلائق جميعا، وقام بعبد الأمر يصنع حسنا ويحسن صديعا ،
صلى الله عليه وعلى آله صلاة لا يبرح برقها ملموعا، ولا ينفك وترها بالتسليم مشقوعا .

وبعد، فإن أحق من جدد له شرف التقرىض، وخلد له إرضاء الأحكام وإمضاء
التفويض، وریش جناحه وإن لم يكن المهيض، وفسح مجاله وإن كان الطويل
العريض، ورفع قدره على الأقدار، وتسمت من سحابه الأنواء ومن أشعته
الأنوار، من غزير مده فجرت منه فى رياض الحق الأنهار، وغدا تخشع لتقواه القلوب
وتنصت لقوله الأسماع وترنو لمحياه الأبصار؛ قد أوفد من إرشاده للأمة لطفًا فطفا،
وأوقد من علمه جذوة لالتجوب وقبسا بالهوى لا يطفى، وفات النظراء والنظار فلا يرسل
أحد معه طرفا ولا يمد إليه من حياته طرفا، وأحتوى من علوم الشريعة على ماتفرق
فى غيره، وغدا خير دليل إلى الحق فلا يقتدى فى المشكلات إلا برأى أجهاده
ولا يهتدى فى المذاهب إلا بسيره، وكان لفلک الشريعة المحمدية قُطبا، وجُئانها
قُلبا ولسوارها قُلبا، ولدليلها برهانها، ولإنسانها عينا ولعينها إنسانا، فكم أرضى بنى
الأنام عن الأيام، وكم أغضى حياء مع قدرته على الانتقام، وكم أمضى لله حكما
لا انفصال لعروته ولا انفصام، وكم قضى بالجور فى ماله وبالعدل فى الأيتام؛

فلو استعداهُ الليلُ على النهار لأنصفه من تعديهِ ، ولم يُداجه لما ستره عليه من تعديهِ في دياجيه ؛ فهو الصادعُ بما أمر الله به ولو على نفسه ، والمستردُّ الحقوقَ الذاهبةَ من غير محاباةٍ حتى لئده من يومه وليومه من أمسه .

ولما كان قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب ممن هو في أحسن هذه السمات قد تصوّر ، وكادت نجوم السماء بأنواره تتكثّر ، وتجوهر بالعلوم فأصبح حقيقةً هو التاج الجوّهر ؛ وله مزايا السؤدد التي لا يُسك فيها ولا يُرتاب ؛ وسجايا الفضل التي إذا دخل [إليه] غيره من باب واحد دخل هو إليه من عدة أبواب ؛ وهو شجرة الأحكام ، ومصعد كلِّ الحكم ؛ ومطلع أنجم شرائع الإسلام ، ومهبط وحى المقدّات والإرتسام ، ومجتمع رفاق القضايا في الحلال والحرام - خرج الأمر الشريف بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القضاة بالديار المصرية : فليستصحب من الحق ما هو مليّ باستصحابه ، وليستمر على إقامة منار الحق الذي هو موثقُ عراه ومؤكّد أسبابه ، وليحتلب من أخلاف الإنصاف ما حفّله آجتهاده ليد احتلابه ؛ عالمًا بأن كل إضاءة إنارتها من قبسه ، وإن استضاء بها في دياحي المنى ، وكل ثمرة من معتزسه ، وإن مد إليها يد الاجتينا ؛ وكل جدوى هو من بجره وإن بسط إليه راحة الاعتراف ، وكل منجج هو من جادته وإن ثنى إلى سلوكه عنان الإنصاف لا الإيخلاف ؛ وهو بحمد الله المجتهد المصيب ، والمأدّة للعناصر وإن كان نصيبه منها أوفر نصيب ؛ وسجاياه يتعلم منها ، كيف يوصى ويعلم ، ومزاياه تقوم الأود ، كيف يقوم ، والله الموفق بمنه وكرمه ! .

الثاني - قاضي قضاة الحنفية على ما استقر عليه الحال من لدن القاضي جمال الدين محمود القيسري وإلى آخر وقت . وموضوعها النظر في الأحكام

الشرعية على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، ويخصّ نظره بمصر والقاهرة خاصة .

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضية الحنفية كتب به لمن لقبه شمس الدين ، وهى :

الحمد لله الذى أطلع فى أفق الدين الحنيف شمساً منيرةً ، ورفع درجة من جعله من العلم على شريعة ومن الحكم على بصيره ؛ وقد أمور الأمة لمن يعلم أن بين يديه كتاباً لا يُعادِر صغيرةً ولا كبيرةً ، ووفق لمنصل القضاء من مثلى على قدم أقدم الأئمة فسار فى مذهبه المذهب أحسن سيره ؛ الذى أدخر للحكم فى أيامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضل ذخيره ، وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاءٍ خير ، وأيقظ عنايتنا لمن رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريره .

نحمده حمد من توافقت إليه النعم الغزيرة ، وتوالت عليه المنن الكثيرة فى المدد اليسير ، وأخصبت فى أيامه رياض الفضائل فهى بكل عالم عدم النضير نصيره ؛ وأفتتح دولته برفع منار العدل فأمال أهل الظلم عن تعاطيه قاصرةً وأيدى أهل الباطل عن الأمتداد إليه قصيره ، وخص المناصب فى ممالكه بالأكفاء فإذا تلبست بها همم غيرهم عادت خاسئةً أو امتدت إليها أبصار من دونهم رجعت حسيره .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُصاحح العنان والسريه ، وتُصيح بها القلوب موقنةً والألسن ناطقةً والأصابع مشيرةً ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى بعث الله به الرسل محبرةً وأنزل الكتب بمبعثه بشيره ؛ وأجتاباه فى خير أمة من أكرم أرومة وأشرف عشيره ، وأظهر أنوار ملته إلا لمن أعمى النى بصيرته وهل ينفع العمى شمس الظهير ؛ وخصه بالأئمة الذين وفقهم للاستعانة بالصبر

والصلاة وإنما لكبيره، وجعل علماءهم ورثة الأنبياء فلو أذعيت لأحكامهم العصمة لكانت بذلك جديره؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً نتقربُ بدوامها إلى الله فيضاعفها لنا أضعافاً كثيرة، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن أولى الأمور بأن تُشاد قواعده، وتُعهد معاهدته؛ ويُعلَى مناره، وتفاضَ بطلوع شمسه أنواره؛ ويُجلى به بعد العطل جيده، ويُنظَم في سلك عقود الأمة فريده؛ وتكَلَّ به قوى الدين تكلمة الأجساد بقوى الطباع الأربع، وتُعمَّر به ربوعُ الملة التي ليس بعدها من مصيف لمة ولا مَرَبَع، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التي ما للباطل في إمالة بعضها من مطمع؛ وتُجلى به عمن ضاق عليه المجال في بعض المذاهب الغمَّة، ويستقرَّ به عددُ الحُكَّام على عددِ الأئمة المستقرِّ على عددِ الخلفاء الراشدين من خلفاء الأمة؛ ويمدَّ به على الخلق جناح الرحمة وافِر القوائد وإرف الظلال، ويجمع به عليهم ما جمع الله في أقوال أئمَّتهم من الحق وما ذابعد الحق إلا الصلال، - أمر القضاء على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت رضى الله عنه الذى أشقَّ الله له من الملة الحنيفة نسبة سرت في الآفاق، وأفاض عليه من مواد القياس الجلى كنوزاً نمت على الإنفاق، وعصَّد أيامه بوليَّ عهدٍ قولهما حجة فيما تفردا به من الخلاف أو آجتمعا عليه من الوفاق؛ وعدَّ من التابعين لقدم عهده، وسمى «سراج الأمة» لإضاءة نوره بهما من بعده .

ولما خلا بانتقال مباشره إلى الله تعالى، توقَّف مدَّة على آرتياد الأكَفاء، وآرتياد من هو أهل الأصطفاء؛ وأختيار من تكلم به رفعة قدره، ويعيد لدسته بتصدُّره على لِساط سليمانِه بهجة صدره؛ ويغدو لِسراً إمامه بعد إماتة هذه الفترة باعثاً، ويُصيح وإن كان واحدَ عصره لأبى يوسف ثانياً ولمحمد بن الحسن ثالثاً؛

وَيُسَبَّهُ بِهِ الْبَلِيحِيُّ زُهْدًا وَعِلْمًا ، وَالطَّحَاوِيُّ تَمَسُّكًا بِالسُّنَّةِ وَوَهْمًا ؛ وَيُنْتَرَفُ الْقُدُورِيُّ
 مِنْ بَجْرِهِ ، وَيُعْتَرَفُ الْحُصْرِيُّ بِالْحَصْرِ عَنْ إِحْصَاءِ فَضْلِهِ وَحَصْرِهِ ؛ وَيَقِفُ مِنْ
 مَذْهَبِ ابْنِ ثَابِتٍ ، عَلَى أَنْبَتِ قَدَمٍ وَيَنْتَمِي مِنْ فِقْهِ الشَّعْبَانِ إِلَى فَرْعِ زَاكٍ وَأَصْلٍ
 ثَابِتٍ ، وَيُنَشِّرُ مِنْ أَحْكَامِهِ مَا إِنْ وَافَقَ الْأَئِمَّةَ فَهُوَ حِجَّةٌ قَاطِعَةٌ وَحِجَّةٌ سَاطِعَةٌ ؛
 أَوْ خَالَفَهُمْ بِمَذْهَبِهِ فَهُوَ رَحْمَةٌ وَاسِعَةٌ ، وَنِعْمَةٌ [و] إِنْ كَانَتْ بَيْنَ الطَّرِيقِ فَارِقَةٌ فَإِنَّهَا عَلَى
 الْحَقِّ جَامِعَةٌ .

وَمَا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الْمُنْتَظَرُ لِهَذِهِ الرَّتَبَةِ أَنْتَظَرَ الشَّمْسُ بَعْدَ الْعَسَقِ ، وَالْمُرْتَقَبُ
 لِبُلُوغِ هَذِهِ الْمُنْزَلَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا بُوَادِرُ اسْتِحْقَاقِهِ فِي السَّبْقِ ، وَالْمَعْطُوفَ عَلَى مَنْ
 وَصِفَ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَإِنْ تَأَخَّرَ عَنْ زَمَانِهِ عَطَفَ النَّسَقُ ؛ وَهُوَ الَّذِي مَادَامَ يَعْدِلُ دَمَ
 الشَّهْدَاءِ مَدَادُ أَقْلَامِهِ ، وَتَضَعُ الْمَلَائِكَةُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ مِنْ نَقْلِ خَطَوَاتِهِ
 فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَسَعَى أَقْدَامِهِ ؛ وَدَخَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي زُمْرَةِ مَنْ حُصِرَ بِإِيمَانِهِ^(١) ،
 وَهَجَرَ الْمُضَاجِعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَلَوْ عُدَّتْ هَجْعَاتُهُ لَقَامَا ؛ وَهَجَرَ فِي إِحْرَازِ
 الْفَضَائِلِ فَقِيْدَ أَوَابِدِهَا ، وَأَحْرَزَ شَوَارِدَهَا ؛ وَلَجَّحَ فِي بِيحَارِ الْمَعَانِي فَغَاصَ عَلَى
 جَوَاهِرِهَا ؛ وَنَظَرَ نَظْرَةً فِي نُجُومِ الْعُلُومِ فَاحْتَوَى عَلَى زُهْرِهَا وَرَادَ نَخَائِلَ الْفَضَائِلِ
 فَاسْتَوَى عَلَى أَزَاهِرِهَا ؛ وَأَنْتَهَى إِلَيْهِ عِلْمٌ مُذْهِمٌ فَبَرَزَ عَلَى مَنْ سَلَفَ ، وَجَارَى عِلْمَاءَ
 عَصْرِهِ فَوْقَ أَبْصَارِهِمْ عَنْ رُؤْيَا غُيُوبِهِ وَمَا وَقَّفَ ، وَنَحَا نَحْوَ إِمَامِهِ فَلَوْ قَابَلَهُ
 يَعْقُوبُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ فِي بَحْثٍ لَأَنْصَرَفَ ؛ وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ الْقَضَاءُ وَإِنْ كَانَ فَرَضَ كِفَايَةَ
 لَا فَرَضَ نَعْيٍ ، وَقَدَّمَ التَّرْجِيحُ الَّذِي جَعَلَ رُتْبَتَهُ هَمْزَةً اسْتِفْهَامٍ وَرُتْبَةَ غَيْرِهِ بَيْنَ
 بَيْنٍ - آقْتَضَى رَأْيًا الشَّرِيفُ اخْتِصَاصَهُ بِهَذَا التَّمْيِيزِ ، وَالتَّنْبِيْهِ عَلَى فَضْلِهِ الْبَسِيطِ بِهَذَا
 الْفِطْرِ الْوَجِيزِ .

(١) يريد الإشارة إلى قوله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

فلذلك رُسم أن يفوض إليه كيت وكيت . فليتول هذه الرتبة التي أصبح فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم نائباً وبشرعه قائماً، ويتقلدها تقلد من يعلم أنه قد أصبح على حكم الله مُقدماً وعلى الله قادماً، ويتثبت تثبت من يعتصم بالله في حكمه فإن أحد الخصمين قد يكون ألحن بحجته وإن كان ظالمًا ، ويلبس لهذا المنصب حلة تمنع المبطّل من الإقدام عليه، وتدفع الظالم عن التطاول إلى أمرٍ تزعه الشرع من يديه ، وتؤمن الحق من امتداد يدي الجور والحيف إليه ؛ وليسويين الخصمين في مجلسه ولحظه ، ويعديل بينهما في إنصاته ولفظه ؛ ليعلم ذو الجاه أنه مساوٍ في الحق لخصمه ، مكفوف باستماع حجته عن الطمع في ظلمه ؛ ولا ينقض حكماً لم يخالف نصاً ولا سنةً ولا إجماعاً، وليشارك فيما لا يجهله من القضايا غيره من العلماء ليريد بذلك مع اطلاعه أطلاعا، وليغتنم في ذلك الاستعانة بأرائهم فإن الله تعالى لا يترع هذا العلم انتزاعاً، وليسد مسالك الهوى عن فكره، ويصرف دواعي الغضب لغير الله عن المرور بذكره؛ وليجعل العمل لوجه الله نتيجة علمه، وليحكم بما أراه الله (والله يحكم لا معقب لحكمه) ؛ إن شاء الله تعالى .

الثالث - قاضي قضاة المالكية :

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة المالكية ، لقاضي القضاة جمال الدين يوسف البساطي المُقدم ذكره ، في العشر الأخير من رجب الفرد سنة أربع وثمانمائة ، وهو :

الحمد لله الذي شفع جلال الإسلام بجماله ، وناط أحكامه الشرعية بمن أقرن بحميد مقاله جميل فعّاله ، وخصّ مذهب عالم المدينة بنجر حاكم ما جرى حديثه

الحسن يوماً إلا وكان معدوداً من رجاله ، وعدق النظر في أحكامه بأجل عالم لو طلب له في الفضل مثل لعجز الزمان أن يأتي بمثاله .

نجده على أن أخلف من النبعة الزكية صنواً زاكياً ، وأدال من الأخ الصالح أخاً للعلوم شافياً ، ولمنصبه العليّ والله الحمد وإفياً . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مجرد سيف الحق على كل مبطل معاند ، ومرهف حده القاضى لكل ملحد عن سواء السبيل حائد ، وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبي فاق الأنام بفضله وعم البرية بعدله ، وسد باب التوبة على متنقصه فلم تكن لتقبل توبه مثله ، وكان إلى مالك مصيره فلا جرم قضى بإهدار دمه وتحتم قتله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ذبوا عن حمى الدين وذادوا ، وسلكوا سبيل المعدلة إذ حكموا فما ضلوا عن سنن الطريق ولا حادوا ؛ صلاة تبقى بقاء الدهور ، ولا تزول بهجة جاملها بتوالى الأعوام والشهور ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن أولى ما قصر عليه النظر ، وأستغرقت فيه الفكر وعرا العيون فيه السهر ؛ وصرفت إليه الهمم ، ورغبت في البراءة من تخلفه الذمم - النظر في أمر منصب الشرع الشريف الذى يأوى الملهوف إلى ظله ، ويأجأ المستجير إلى عدله ، ويتعلق العنفة بوثيق عروته وميتين حبله ؛ وبرهته يكف الظالم عن ظلمه ، وينتصف اللحم من خصمه ، ويذعن العاصى إلى طاعته وينقاد الأيى إلى حكمه ، ويأتم به الخائر فى دجى الجهل فيستضيء بنوره ويهتدى بنجمه ؛ لاسيما مذهب مالك الذى لم يزل للدين من أهل الإلحاد مثيراً ، وللقصاص من أهل العناد مبتدراً ، وبسل سيف الحق على الطغاة المتمردين مشتتراً ؛ ففاز من سطوات الإرهاب بأرفع المراتب ، وعلا رقاب الملحدين بأرهم القواضب ، وخص من

سَفَكَ دِمَاءَ الْمُبْطِلِينَ عَلَى الْبَتِّ بِمَا لَمْ يَشَارِكْهُ فِيهِ غَيْرُهُ مِنَ الْمَذَاهِبِ ؛ فَوَجَبَ أَنْ يُخْتَارَ لَهُ مِنْ يَنْصُ الْأَخْتِبَارِ عَلَى أَنَّهُ أَهْلٌ لِلْإِخْتِيَارِ ، وَيَقْطَعُ الْمُنَافِسُ أَنَّهُ الرَّاجِحُ وَزَنَا عِنْدَ الْأَعْتِبَارِ ، وَتَأْخُذُ مَنَاقِبُهُ الْبَسِيطَةَ فِي الْبَسْطِ فَلَا تَنْفَدُ إِذَا نَفَدَتْ مَنَاقِبُ غَيْرِهِ الْمُرَكَّبَةُ عِنْدَ الْأَخْتِصَارِ ؛ وَيَشْهَدُ لَهُ ضِدُّهُ بِالتَّقَدُّمِ فِي الْفَضْلِ وَإِنْ لَمْ تَتَقَدَّمْ مِنْهُ دَعْوَى ، وَيَعْتَرِفُ لَهُ بِالْأَسْتِحْقَاقِ خَصْمُهُ فَيَتَمَسَّكَ مِنْ عَدَمِ الدَّافِعِ فِيهِ بِالسَّبَبِ الْأَفْوَى ، وَيُحَكِّمُ لَهُ بَعْلُو الرُّتْبَةِ مُنَاوِنُهُ فَيَرْتَفِعُ الْخِلَافُ وَتَقْطَعُ النَّجْوَى ، وَيَسَجَّلُ لَهُ حَاسِدُهُ بَثْوَتِ الْمَفَاحِرِ الْمَحْكُومِ بِصِحَّتِهَا فَلَا يَنْقُضُهَا حَاكِمٌ وَإِنْ بَلَغَ مِنْ تَدْقِيقِ النَّظْرِ الْغَايَةَ الْقُصْوَى ؛ وَتَنْفِذِ أَحْكَامِهِ فِي الْبَرِيَّةِ فَلَا يُوجَدُ لَهَا مُخَالَفٌ ، وَتَحَذَرُ شَيْعَةُ الْبَاطِلِ سَطْوَتَهُ فَلَا يَرَى لِبَاطِلِ مُخَالَفٍ ، وَيَشْتَهَرُ عَنْهُ مِنْ نُصْرَةِ الْحَقِّ مَا يَأْمَنُ مَعَهُ الْمُسْتَضْعَفُ الْخَائِفُ ، وَيَتَحَقَّقُ فِيهِ مِنْ قِيَامِ الْعَدْلِ مَا يَرْتَدِعُ بِهِ الظَّالِمُ الْخَائِفُ ؛ وَيَسْتَوِي عِنْدَهُ فِي لُزُومِ الْحَقِّ الْقَوِيُّ وَالضَّعِيفُ ؛ وَلَا يُفَرِّقُ فِي لَازِمِهِ بَيْنَ الْمَشْرُوفِ وَالشَّرِيفِ ؛ وَلَا يُمَيِّزُ فِي حَمْلِ الْأَعْبَاءِ الشَّرْعِيَّةِ بَيْنَ الشَّاقِّ وَغَيْرِهِ وَلَا بَيْنَ الثَّقِيلِ وَالْخَفِيفِ ؛ وَلَا يُجَاهِي قَرِيبًا لِقَرَابَتِهِ ، وَلَا جَلِيلًا لْجَلَالَتِهِ ، وَلَا ظَالِمًا خَوْفَ ظَاهِمِهِ وَلَا إِذَا اسْتَطَالَتْ لَاسْتِطَالَتِهِ ، وَلَا يَسْتَرِلُهُ دَوْلَسَنَ لِّلْسِنَةِ وَلَا بَلِغًا لِّبَلَاغَتِهِ ، وَلَا يُخَالَفُ بَيْنَ الصِّدِّيقِ الْمَلَاظِفِ وَغَيْرِهِ إِلَّا فِي مَنَعِ قَبُولِ شَهَادَتِهِ .

ولما كان المجلس العالی القاضوی ، الکبیری ، الإمامی ، العالی ، الصّدری ، الرئیسی ، الأوحیدی ، العلامی ، الکاملی ، الفاضلی ، المفیدی ، الفریدی ، الحنجی ، القدوی ، الخاشعی الناسکی ، الحاکمی ، الجمالی ، جمال الإسلام ، شرف الأنام ، حاکم الحکام ، أوجد الأئمة ، مفید الأئمة ، مؤید الملله ، معز السنه ، شمس الشریعه . سیف المناظرین ، لسان المتکلمین ، حکم الملوك والسلاطین ، خالصه أمير المؤمنین ،

أبو المحاسن «يوسف البساطي» المالكى - أدام الله تعالى نعمته - هو المراد من هذه الصفات ، التى وقعت من محله الكريم موقعها ، والمقصود من هذه السمات ، التى ألفت من سيرته الفاضلة موضعها ، وقارع صفة هذه الدرورة التى ما كان ينبغى لغيره أن يقرعها ، وشمس الفضل الحقيقى بمثلها أن لا يتوارى جملها بحجاب الغروب ، وفاصل مشكلات القضاء إذا اشتد إشكالها وعظمت فى فصلها الخطوب ، ومتعين الولاية التى إذا كانت فى حق غيره على الإباحة كانت فى حقه على الوجوب ، وقد درب الأحكام وخبرها ، وعرف على التحقيق حالها وخبرها ، وورد من مشاربها الرائقة أصفى المناهل فأحسن ورددتها وصدرها ، ونفست جواهر فوائده ففافت جواهر المعادن ، وغطت محاسن فضله فضائل غيره ولا تنكر المحاسن «يوسف» وهو «أبو المحاسن» ، فعلموه المدونة بالبيان والتحصيل كإفله ، ومقدمات تنبيهاته بنتائج النوار الحسنة متواصله ، وتهذيب ألفاظه المنقحة تؤذن بالتحريير ، وعيون مسائله المتواردة لا تدخل تحت حصر ولا تقدير ، فلوراه «مالك» لقال : ما أعظم هذه الهمة ، أو أدركه «أبن القاسم» لوفر من الشاء عليه قسمه ، أو عاصره «أبن عبدالحكم» لحكم له بأن سهمه قد أصاب الغرض وغيره أطاش الريح سهمه ، أو عاينه «أشهب» لقال قد ركب هذا الشهباء أتى يلحق ، أو سمع «أبن وهب» كلامه لقطع بأنه هبة ربانية وبمثله لم يسبق ، أو بلغ «أبن حبيب» خبره لأحب لقاءه ، أو بصر به «سحنون» لتحقق أنه عالم المذهب ما وراءه ، أو استشعر بقدمه «أبن سيرين» لبشره ، أو جاوره «أبن عوف» لعاف مجاورة غيره أو مجاوزة طنبه ، أو جالسه «أبن يونس» لتأنس بجالسته ، أو حاضره «أبو الحسن بن القصار» لأشجى قلبه بحسن محاضرتة ، أو جاراها «القاضى عبد الوهاب» لقضى بعلو مكانته ، أو اتصل ذكره «بالمازرى» لزرى على «مازر» لبئدها عن دار إقامته ، أو أطلع

«القاضي عياض» على تحقيقاته لأستحسن تلك المدارك، أوناظره «أبن عبد السلام» لَسَلَّمَ أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي الْمُنَاطَرَةِ نَظِيرٌ وَلَا فِي تَدْقِيقِ الْبَحْثِ مُشَارِكٌ ، أَوْ مَرَّ بِهِ «أبن الجلاب» لَجَلَبَ فَوَائِدَهُ إِلَى بِلَادِهِ ، أَوْ حَضَرَهُ «أبن الحاجب» لِتَحَقُّقِ أَنَّهُ جَامِعُ الْأُمَمَاتِ عَلَى آتِفَرَادِهِ .

هَذَا وَقَدْ حُفَّ بِجَلَالِ لَا عَهْدَ لِأَحَدٍ بِمِثْلِهِ ، وَلَا طَاقَةَ لِفَاعِلٍ بِمُقَاوَمَةِ فَضْلِهِ ، وَلَا يَسْمَحُ الزَّمَانُ بِنَظِيرِهِ مِنْ بَعْدِهِ كَمَا لَمْ يَسْمَحْ بِهِ مِنْ قَبْلِهِ ، فَاجْتَمَعَ مِنْ جَمَالِ الْجَلَالِ ، وَجَلَالِ الْجَمَالِ ، مَا لَمْ يَكُنْ لِيَدْخُلَ تَحْتَ الْإِمْكَانِ ، وَعُزِّزَ عَدُّهُمَا مِنْ أَعْلَامِ الْأُمَّةِ بِثَالِثٍ وَرَابِعٍ فِقَامَ بِنَاءِ الدِّينِ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ ، وَلَا عِبْرَةَ بِمَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الذَاهِبُونَ مِنْ كِرَاهَةِ التَّرْبِيعِ تَبَعًا لِلنَّجْمِينَ فِي آعْتِقَادِهِمُ الْفَاسِدِ ، فَقَدْ وَرَدَ أَنَّ زَوَايَا الْحَوْضِ عَلَى التَّرْبِيعِ وَذَلِكَ فِيهِ أَعْظَمُ دَلِيلٌ وَأَقْوَمُ شَاهِدٌ .

وَكَانَ مَذْهَبُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ هُوَ الْمُرَادُ مِنْ هَذِهِ الْوِلَايَةِ بِالتَّخْصِيسِ ، وَالْمَجْلِيسُ الْجَمَالِيُّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ هُوَ الْمَقْصُودُ بِهَذَا التَّنْوِيزِ بِالتَّنْصِيسِ - آقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نُؤَيِّ مَرْتَبَتَهُ السَّنِيَّةَ حَقَّقَهَا ، وَنُبَوِّئَ النِّعَمَ مُسْتَحِقَّهَا ، وَنَمَلِّكَ رِقَابَ الْمَعَالِي مُسْتَرِقَّهَا ، وَنَقَدِّمُ عَلَى طَائِفَةِ الْمَالِكِيَّةِ مِنْ أَضْحَى لَهُمْ جَمَالًا ، وَنُخَفِّهِمْ بِمَنْ أَمْسَى لِعِزِّهِمْ كَمَالًا ، وَنَفْوِضَ قَضَاءَ مَذْهَبِهِمْ إِلَى مَنْ إِذَا جَرَى فِي مِيدَانِ حُكْمِهِ قَالَتْ مُحَاسِنُ قَضَايَاهُ : (هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا) . وَنُسْنِدَ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةَ إِلَى مَنْ هُوَ بِهَا أَعْرَفُ ، وَتَقَفَّهَا عَلَى مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ عَلَى الْحَقَائِقِ مَاضٍ وَعِنْدَ السُّنَّةِ يَتَوَقَّفُ ، وَنُعَدِّقَ أَمْرَهَا بِمَنْ أَلَفَ التَّرَاهَةَ فَنِكْرَةُ الْمَطَامِعِ عِنْدَهُ لَا تَتَعَرَّفُ ، وَنِكَلُ النَّظَرِ فِيهَا إِلَى مَنْ أَمْسَى لَشُرُوطِ الْأَسْتِجَابِ جَامِعًا ، وَنُقَدِّمُ فِي وِلَايَةِ هَذَا الْمُنْصَبِ مَنْ شَفَعَ لَهُ آسْتَحْقَاقُهُ وَكَفَى بِالْآسْتَحْقَاقِ شَافِعًا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازل يَسْطُ لأوليائه من بساط الأُنس ما كان مَطْوِيًّا ، وَيُنِيلُهُمْ مِنْ رَغَائِبِ الآمَالِ مَا كَانَ عَنْهُمْ فِي سَالِفِ الأَزْمَانِ مَزْوِيًّا - أن يُفَوِّضَ إِلَيْهِ قُضَاءَ قُضَاءِ مَذْهَبِ عَالَمِ المَدِينَةِ ، وَإِمَامِ دَارِ المِجْرَةَ ، مَالِكِ بنِ أَنَسِ الأَصْبَحِيِّ : قَدَّسَ اللهُ تَعَالَى رُوحَهُ . فليَتَلَقَّ مَا فُوِّضَ إِلَيْهِ بِأَفْضَلِ تَلَقُّ يَلِيقُ بِمِثْلِهِ ، وَيَتَقَبَّلَهُ تَقْبَلًا يَنَاسِبُ رِفْعَةَ مَحَلِّهِ ، وَيَتَهَيَّجُ بِأَجَلِّ تَفْوِيضٍ لَمْ يُسْمَحْ بِتَمَنِّيهِ لِآخِرِ مَنْ قَبْلِهِ .

ومن أهمِّ مَانُوصِيهِ بِهِ ، وَنَوَجَّهُ القَوْلَ إِلَيْهِ بِسَبَبِهِ ؛ تَقْوَى اللهُ تَعَالَى التَّى هِيَ مِلَاكُ الأَمْرِ كُلِّهِ ، وَقِيَامُ الدِّينِ مِنْ أَصْلِهِ ؛ وَالأَشْتِمَالُ عَلَيْهَا فِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ وَالعَمَلُ بِهَا فِي قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، ثُمَّ بَرُّ الخَلْقِ وَالإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ ، وَالتَّجَاوُزُ عَنْهُمْ إِلا فِيمَا أَوْجَبَهُ الشَّرْعُ مِنَ الحَقُوقِ عَلَيْهِمْ ؛ فَفِي التَّقْوَى رِضَا اللهُ وَفِي البَرِّ رِضَا الخَلْقِ وَنَاهِيكَ بِجَمْعِهِمَا مِنْ رُتْبَةِ فَاحِرِهِ ، إِذْ لا شَكَّ أَنَّ مَنْ حَصَلَ رِضَا اللهُ وَرِضَا الخَلْقِ فَقَدْ حَصَلَ عَلَى خَيْرِ الدُّنْيَا وَالأَآخِرَةِ ؛ وَوَرَاءَ ذَلِكَ قَاعِدَةٌ فِي الوَصَايَا جَامِعَةٌ ، وَتَذَكُّرَةٌ لَدَوَى الذِّكْرِ نَافِعَةٌ ؛ وَهِيَ أَنْ يَتَأَمَّلَ أَحْوَالَ غَيْرِهِ تَأَمُّلًا مِنْ جَعَلَهَا لِنَفْسِهِ مِثَالًا ، وَلِنَسَجِهِ مِثْوَالًا ؛ فإِذَا اسْتَحْسَنَهُ مِنْهَا أَتَى مِثْلَهُ ، وَمَا اسْتَقْبَحَهُ تَجَنَّبَ فِعْلَهُ ؛ وَاقْفًا فِي ذَلِكَ عِنْدَ مَا وَرَدَتْ بِهِ الشَّرِيعَةُ المَطْهُرَةَ بِنَصِّ صَرِيحٍ أَوْ تَأْوِيلِ صَحِيحٍ ، مُعْرِضًا عَنِ العَقْلِيَّاتِ المَحْضَةِ فَلَا مَجَالَ للعَقْلِ فِي تَحْسِينٍ وَلَا تَقْيِيحٍ .

وَأَمَّا أَدَبُ القُضَاءِ الجَارِي ذِكْرُ مِثْلِهِ فِي العُهُودِ ، وَالنَّظَرُ فِي أَمْرِ التُّوَابِ وَكُتَابِ الحُكْمِ وَالشُّهُودِ ؛ فَهُوَ بِهِ أَدْرَبُ وَأَدْرَى ، وَبِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ لَهُمْ وَعَلَيْهِمْ أَجْقُ وَأَحْرَى ؛ غَيْرَ أَنَّا نُوصِيهِ بِالتَّثَبُّتِ فِي أَمْرِ الدِّمَاءِ وَعَلَاقِبَتِهَا ، وَتَحَقُّقِ حُكْمِهَا قَبْلَ الحُكْمِ بِإِرَاتَتِهَا ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لِمَادَّةِ القَلْقِ فِيهَا أَحْسَمٌ ، وَمِنْ تَبِعَاتِهَا فِي الدَّارَيْنِ أَسْلَمٌ ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ

ولكنها منه تُستفاد، وعنه تؤخذُ وإليه تُعاد؛ والله تعالى يتولاه، ويحُوطه فيما
ولاه، ويُديم عليه هذه النعمةَ فما فوق مَنْصِبِهِ مَنْصِبٌ يَتَمَنَّاهُ ؛ والاعْتِمَادُ ... (١) ...
إن شاء الله تعالى .

وَكُتِبَ لِسْتٍ إِنْ بَقِيَ مِنْ شَهْرِ رَجَبِ الْفَرْدِ عَامٍ أَرْبَعٍ وَثَمَانِمِائَةٍ ، حَسَبَ
المرسوم الشريف ، بمقتضى الخط الشريف .



وهذه نسخة توقيع بقضاء القضاة الحنفية بدمشق ، من إنشاء القاضي ناصر الدين
أبن النشائي ، وهي :

الحمد لله الذى جعل منارَ الشرع الشريف مستمرا على الدوام ، وشملَ منصب
الحكم العزيز للعالم بعد العالم على ممرِّ الأيام ؛ وأجملَ انتخاب من يقوم بأعباء القضايا ،
ومن تدوم به مزايا السجايا ، فيتخير لذلك الإمام بعد الإمام ؛ وأقبل بوجه أجتبايه
على ولىِّ نتأكد بإنصاته وإنصافه إحكام الأحكام ، وعدل بأعتنائه إلى تعيين من
ترتفع به فى العلوم أعلامُ الإعلام ، ومن يتأيّد به الحق فى كل تقضى وإبرام .

نحمده على نعمه الوافرة الأقسام ، السافرة [اللثام] عن وجوه الزيادة الوسام ،
ونشكره على مننه الحسام ، ومواهيه التى لا تَبْرُحُ تُغورُ إحسانها لذوى الاستحقاق
واضحّة الأبتسام .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة كفيلاً بالمرام ، مُنيلة للإكرام ،
جميلة التلفظ والإلتئام ، جزيلة الكنف والأعتصام ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله
الذى أقام الله به شعائر الإسلام ، وأظهر شرائع الدين الحنيف بحسام نصره الحسام ،

(١) أى إلى آخر ما يكتب فى مثله ، وحذفه من باب الاختصار .

وأورث مَنْ أهله من أمته كنوز العلوم التي لا تنفد فونئها مع كثرة الإنفاق مدى السنين والأعوام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هدوا المؤمنين بإلهام الكلام، وعدوا على المشركين بيمام الكلام، وأبدوا من إرشادهم إلى خفايا القضايا ما يظهر بتهديبهم ظهور بدر النمام، صلاة دائمة باقية تُجزل لقائلها الأجر التام، وترسل إليه سحاب المواهب هاطلة الغمام، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من تذهب به مذهبه، وتحلّ به محلّ الشرع الشريف ومنصبه، وأثار بنور إرشاده ليل الشك وغيبه، ومهل بتقريره على فهم الطالب مطّبه، وهمي به وإبل العلم وضيئه، وأتيح به الاستفيد كثر الفوائد التي يدنو بها أربه، وشيم من برق شيمه باشام ما وجد في الجود صادق وقصد خله - من علا في العلوم نسبه، وتأكد في الدين سبه، وشيد مبنى المعالي معربه، وصقل مرآيا الأنهام مهديه، وزاحم منكب الجوزاء في ارتفاع القدر منكبه، وجمل مواكب المباحث في الأصول والتروع موكبه، وسخت بدقائق الحقائق سحبه، وأشتاق إلى قربه موطن الحكم العزيز فما زال يرتقبه، وأرتاح الزمان إلى عفافه وإنصافه فأرشد حيث نختاره لذلك وننتخبه .

(١)

ولما كان المجلس العالى أيد الله أحكامه هو الذى أرشد الطالبين
 (٢) فى الهدايه ، وأفاد المنتهين درجات النهايه ، وأفهم المستفدين صواب الهدايه ،
 وذا سابقا [فى] حلبة العلماء إلى أقصى غايه . كم قرب إلى الأذهان ذامض المشكل
 وأوضح مفهومه ، وكم أشاع فرائد فوائده التي طبقت الأرض بها علومه ، وكم أباح لقط
 ألفاظه المشحونه بالحكم فتحلّى الناس بدررها المنثرة والمنظومه ، مع ماله من دين

(١) يياض بالأصل متروك لتلكه الألتاب المعلومة كالأميرى الكبرى الخ .

(٢) فى المصباح مانصه : "وبداية بالياء مكان الهمز غامى نص عليه ابن برى وجماعة" .

متين ، وأستحقاق للتقدم ميين ، وصلاحي بلغ به درجات المتقين المرتقين ، وأتباع
لسنن الحق في الحكم بين الخلق عن يقين - أقتضى حُسن الرأي الشريف أن يُقرن
منصب القضاء بحاله ، وأن يعوّض عن إمامه المنقود بإمامه الموجود ليستمر
الأمر على حاله .

فلذلك رُسم ... - لا زالت أئمة العلم الشريف في أيامه يخلف بعضهم بعضاً ،
وأقدارهم تدوم رفعتها مدى المدد فلا تجد نقصاً ولا نقصاً - أن يفوض ... (١)

فليأشُر ذلك بعلمه المأثور، وحُكمه المشهور؛ وإنصافه الذي يعدل فيه ، وأصافه
بالحق الذي ما برح يوفيه ، قاضياً بين الخصوم بما أمر الله عز وجل ، مراقباً
لخشية الله على عادته ، مديعاً لليلة الحنيفة أنواع إفادته ، قاطعاً بنصل نصه مُشكِل
الإلباس ، جامعاً في أحكامه المسددة بمقتضى مذهبه بين الكتاب والسنة والقياس .
والوصايا كثيرة وملا كلها التقوى وهي مادته ، وطريقه المستقيم وجانته ؛ وما زالت
عُمدته التي يعتمد عليها ، وعدته التي يستند في إسناد أمره إليها ؛ والله تعالى يجمل
الأيام بأحكامه ، ويبلغه من خير الدنيا والآخرة غاية مُرادِه ومَرامِه ؛ إن شاء الله
تعالى .



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية أيضاً، أنشأته لقاضي القضاة جمال الدين
البساطي المذكور عند عودِه إلى الوظيفة ، لأربع بقين من ذى القعدة سنة
سبع وثمانمائة . وقد وافق عودُه عودَ شيخ الإسلام جلال الدين عبدالرحمن البلقيني
إلى قضاء قضاة الشافعية أيضاً ، وهي :

(١) بياض في الاصل والمراد واضح مما تقدم .

الحمد لله الذى أعاد لرتبة القضاء رونق « جمالها » وأسعد جدّها بأسعد قرآنٍ
 ظهرت آثارُ يمينه بما آثرته من ظهور « جلالها » ، وأجاب سُؤلها بأجل حاكمٍ
 لم تعدل عنه يوماً فى سُؤالها ، وأسعدَ طليتها بأكلٍ كُفٍ لم تنفك عن خطبته وإن
 أطال فى مطالها ، وأكرم ما بها بأكرم كافٍ ما فاتها منسأل ماضٍ إلا أدركته به
 فى ما لها .

نحمده على أن أعطيت القوس باريتها ، وأعيدت مياه الاستحقاق إلى مجاريها ،
 ورُدَّت الشاردة إلى مالكٍ ألفت منه بالآخرة ما ألفت من خيره فى مباديها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً يحقّق بالإخلاص منأطها ،
 ويزداد مع طول الأمد نساؤها ، ولا ينطوى على ممرّ الأيام - إن شاء الله تعالى -
 بساؤها . ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل نبيّ رفع قواعد الدين وشاد ،
 وقام فى الله حقّ القيام فحسم بسيف الشرع مادة الفساد ، وأحكم بسدّ الذرائع
 سدّاد الأمور فجرت أحكام شريعته المطهرة على السداد ؛ صلى الله عليه وعلى آله
 وصحبه الذين استنشق من معدلتهم أطيب عرف ، وخصّوا من صفات الكمال بأحسن
 حلية وأكل وصف ؛ صلاةً توهى عمرا الإلحاد ، وتفصمها ، وتبك أعناق أهل
 العناد ، وتفصمها ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فلاخفاء فى أنّ الأبصار تتشوف لرؤية الهلال مع قرب الغيبة للأخذ منه
 بنصيبها ، والشمس يتربّب طلوعها فى كلّ يومٍ وإن قرب زمان مغيبها ، والمسافر
 يسرّ بإيابه وإن تكرر قدومه من بعيد المسافة وقربها ، والسهران يتطلع من ليلته
 الطويلة إلى طلوع فجرها ، والمناصب السنينة تارز إلى مستحقها كما تارز الحية
 إلى جحرها .

ولما كان المجلس العالى، القاضوى، (إلى آخر ألقابه) أعز الله تعالى أحكامه هو الذى حُمدت فى القضاء آثاره، وسارت بحسن السيرة فى الآفاق أخباره، وحسن بحسن تأتية فى الورد والصدور إرادته وإصداره، وتنافس فى جميل وصفه الطرس والقلم، وظهرت فضائله (ظهور نار القرى ليلاً على علم)؛ ونشرت الأيام من علومه ما تطوى إليه المراحل، وجادت مواطر فكره بما يُحصب به جناب المربع الساحل؛ وعمرت من منصب القضاء بولايته معاهدته، وجرت بقضايا الخير فى البدء والعود عوائده؛ ونفذت بنفاد أوامره فى الوجود أحكامه، ورُقم فى صحائف الأيام على توالى الدهور نقضه وإبرامه؛ وسُجل بثبوت أحقيته فانقطعت دُونَ بلوغ شأوه الأَطاع، وحُكِم بموجب فضله فانعقد على صحّة تقدمه الإجماع؛ ففرائد فوائده المدونة تؤذن بالبيان والتحصيل، ومقدمات تنبيهاته المحققة، تكفى نتائج إفضالها عن الإجمال والتفصيل؛ وجواهر ألفاظه الرائقة، نعم الذخيرة التى تُقنى، ومدارك معانيه الفائقة، حسبك من ثمرة فكر تُجتنى؛ وتهذيب إراداته الواضحة تُعنى فى إدراكها عن الوسائل، وتحقيق مسائله الدقيقة يُحقق فيها أنها عيون المسائل - وكانت وظيفة قضاء قضاة المالكية بالديار المصرية فى رفيع رتبته، ووافر حرمتها، قد ألفت إليه مقاليدها، ورفعت بالانتماء إلى مجلسه العالى أسانيدها، وعمرت محله الرفيع فتعلقت منه بأعز منال، وحظيت بجماله اليوسفى المرة بعد الأخرى فقالت: لا براح لى عن هذا الجمال؛ وعجمت بتكرار العود عوده فأعرضت عن السوى، وقرت بالإياب إليه عينا «فألفت عصاها وأستقر بها النوى» - أقتضى حسن الرأى الشريف أن نعيد الوظيفة المذكورة إليه، ونعول فى استكشاف مشكلات الأحكام على ما لديه، إقراراً للأمر فى نصابه، ورداً له بعد الشراء إلى مثابه، وإسعافاً للنصب بطلبته وإن أعب غيره نفسه فى طلايه .

فلذلك رُسِمَ بالأمر الشريف - لا زال يُبدى المعروف ويُعيدُه ، ويوفّر نصيبَ الأولياءِ وَيَزِيدُهُ - أن يفوّضَ إلى المجلسِ العالى المشارِ إليه قضاءَ القضاةِ بمذهبِ عالمِ المدينة وإمامِ دارِ الهجرة «مَالِكِ بْنِ أَنَسِ الْأَصْبَحِيِّ» رضى الله عنه ، على جارىِ عادتهِ المتقدّمةِ فى ذلك . وأن يُضَافَ إليه تدرِيسُ قُبَّةِ الصالحِ والأَنْظَارِ الشاهدِ بها توقِيعُه الشريف ، وأن لا يقرّرَ أحدٌ فى دروسِ المالكيةِ من مدرّسٍ ومُعِيدٍ إلا بتعيينه ، على أتمِّ العوائدِ وأجملها ، وأعمِّ القواعدِ وأكملها .

فليُمدَّ إلى رُتبتِه السنيّةِ برفيعِ قدره وعلى هِمَّتِه ، ويقابلُ إحساننا بالشكرِ تُخفِّفه بمزيدِ الإقبالِ إذ لا زيادةَ فى العلوِّ على رُتبتِه . ثم أوّل ما نُوصِيه به ، ونؤكِّد القولَ عليه بسببِه ، تقوى الله التى هى ملاكُ الأمورِ كلّها ، وأوّلُ المفترَضاتِ فى عقْدِ الأمورِ وحلِّها ، فهى العِصمةُ التى من لجأ إليها نجا ، والوقايةُ التى ليس لمن حاد عنها من لحاقِ قَوَارِعِ الله مُلتجا . ونُتبعُ ذلكَ بالتلويحِ إلى الأختِياطِ فى المسائلِ التى تفرّد بها مذهبُه الشريفِ ضيقا وسعَه ، وأختَصَّ بها إمامُه الأصبَحِيُّ دون غيره من الأئمةِ الأربعةِ ، وهى مسائلٌ قليلةٌ ، آثَرها فى الورى كثيرةٌ جليله ، منها سَفْكَ دَمِ المُتَقِصِّ والسابِّ ، وتَحْتَمُّ قتلَه على البتِّ وإن تابَ ، فعليه أن يأخذ فى ذلكَ بالأهْتامِ ، ولا يُعطى رُخْصَةً فى حقِّ أحدٍ من الأنبياءِ والملائكةِ عليهم السّلامُ ، ليكون ذلكَ وسيلةً إلى الخُلوصِ عن القَدنى ، وذريعةً إلى سلامةِ الشَّرَفِ الرفيعِ من الأذنى ؛ إلا أنا نُوصِيه بالثبُتِ فى الثبوتِ ، وأن لا يعجَلَ بالحكمِ بإرِاقةِ الدمِ فإنه لا يَمِكنُ تداركُه بعد أن يثبوت . ومنها : الشهادةُ على الخَطِّ وإحياءُ ماماتٍ من كُتُبِ الأوقافِ والأملاكِ ، وتقريبُ ماشِطٍ فلا يقبَلُ فيه إلا اليقِظُ الواقِفُ مع تحقُّقه دونَ حدسه ، ولا يطلِقَ عنانَ الشُّهودِ فإنَّ الكاتبَ ربما أشتبَه عليه خَطُّ

نفسه - ومنها : ثبوت الولاية للأوصياء ، فيجربها على اعتقاده ، ولكن إذا ظهرت المصلحة في ذلك على وفق مراده - ومنها : إسقاط غلة الوقف إذا استرد بعد بيعه مدة بقائه في يد المشتري ، تحذيرا من الإقدام على بيع الوقف وعقوبة رادعة لبائعه المجترى . إلى غير ذلك من مسائل الأفراد ، وما شاركه فيه غيره من المذاهب لموافقة الاعتقاد ، فيمضي الحكم فيه بأقوى العزائم ، ويُلزِم فيها بما استبان له من الحق ولا تأخذه في الله لومة لائم .

وأما غير ذلك من الوصايا الراجعة إلى أدب القضاء فلديه منها الخبر والخبر ، ومنه تستملى فوصيته بها كنقل التمر إلى حجر ، والله تعالى يعامله بلطفه الجميل ، ويحفه بالعباية الشاملة في المقام والرحيل ؛ إن شاء الله تعالى ؛ والاعتماد



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنابلة ، وهي :

الحمد لله الذي أطلع في أفق الدين القيم^(١) شمساً منيره ، ورفع درجة من جعله من العلم على شريعة ومن الحكم على بصيره ، وقلد أمور الأمة بمن يعلم أن بين يديه كتابا لا يُغادر صغيرة ولا كبيرة ، ووفق لفصل القضاء من مشي على قدم إمامه الذي أدخر منه للحكم في أيامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضل ذخيره ، وقضى بإرجاء أمره لنختار له من تحلى به بعد العطل وكل قضاء خيره ، وأيقظنا من رقد الدهر عن فضله فباتت عين الاستحقاق باستقرار رتبته قريره .

نحمده حمد من توافقت إليه النعم الغزيرة ، وتوالت عليه المنن الكثيرة في المدد اليسيره ، وأخصبت في أيامه رياض الفضائل فهي بكل عالم عدم النظير نصيره ،

(١) تقدمت في تقليد حنفى بأطول من هذا ويبيح تغيير .

وَأَفْتَحَ دَوْلَتَهُ بِرَفْعِ مَنَارِ الْعَدْلِ فَأَمَالَ أَهْلَ الظُّلْمِ عَنْ تَعَاطِيهِ قَاصِرَةً وَأَيْدِي أَهْلِ الْبَاطِلِ
عَنِ الْإِمْتِدَادِ إِلَيْهِ قَصِيرَةً ، وَخَصَّ الْمَنَاصِبَ فِي مَمَالِكِهِ بِالْأَكْفَاءِ فَإِذَا تَلَبَّسَتْ بِهَا
هِمْمٌ غَيْرُهُمْ عَادَتْ خَاسِئَةً أَوْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهَا أَبْصَارٌ مِّنْ دُونِهِمْ رَجَعَتْ حَسِيرَةً .

وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُصْلِحُ الْعَلَنَ وَالسَّرِيرَةَ ،
وَتُصْلِحُ بِهَا الْقُلُوبُ مُوقِنَةً وَالْأَلْسُنَ نَاطِقَةً وَالْأَصْوَاعُ مُشِيرَةً . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ الرِّسَالَ مَخْبِرَةً وَأَنْزَلَ الْكُتُبَ بِمَبْعَثِهِ بَشِيرَةً ، وَأَجْتَبَاهُ فِي خَيْرِ
أُمَّةٍ مِنْ أَكْرَمِ أَرْوَمَةٍ وَأَشْرَفِ عَشِيرَةٍ ، وَأَظْهَرَ أَنْوَارَ مِلَّتِهِ إِلَّا مَنْ أَعْمَى الْغَيُّ بِصِيرَتِهِ
وَهَلْ تَنْفَعُ الْعُمَى شَمْسُ الظُّهَيْرِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً نَتَقَرَّبُ
بِدَوَامِهَا إِلَى اللَّهِ فَيَضَاعِفُهَا لَنَا أضعافًا كَثِيرَةً ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى الْأُمُورِ بِأَنْ تُشَادَ قَوَاعِدُهُ ، وَتُعْتَهَدَ مَعَاهِدُهُ ، وَيُعْلَى مَنَارُهُ ،
وَتُفَاضَ بَطْلُوعُ شَمْسِهِ أَنْوَارُهُ ، وَتُكَمَّلَ بِهِ قُوى الدِّينِ تَكْمَلَةَ الْأَجْسَادِ بِقُوى الطَّبَائِعِ
الْأَرْبَعِ ، وَتُعَمَّرَ بِهِ رُبُوعُ الْمِلَّةِ الَّتِي لَيْسَ بَعْدَهَا مِنْ مَصِيفِ الْمِلَّةِ وَلَا مَرَبَعِ ، وَتُنَبِّتَ
بِهِ قِوَامُ الشَّرْعِ الَّتِي مَا لِلْبَاطِلِ فِي إِمَالَةِ بَعْضِهَا مِنْ مَطْمَعٍ ، أَمْرُ الْقَضَاءِ عَلَى مَذْهَبِ
الْإِمَامِ الرَّبَّانِيِّ « أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَكَانَ قَدْ خَلَا بِانْتِقَالِ مَبَاشِرِهِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَوَقَّفَ مَدَّةً عَلَى آرْتِيَادِ الْأَكْفَاءِ ، وَالْإِرْشَادِ إِلَى مَنْ هُوَ أَهْلُ
الْأَصْطِفَاءِ ، وَأَخْتِيَارِ مَنْ تَكَمَّلَ بِهِ رِفْعَةُ قَدْرِهِ ، وَيُعِيدُ لِدَسْتِهِ عَلَى لِسَانِ سُلَيْمَانِهِ
بِهَجَّةٍ صَدْرُهُ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الْمُنْتَظَرُ لِهَذِهِ الرَّثْمَةِ أَنْتَظَرَ الشَّمْسَ بَعْدَ الْغَسَقِ ، وَالْمُرْتَقِبَ
لِبُلُوغِ هَذِهِ الْمُنْزِلَةِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ إِلَيْهَا بَوَادِرُ اسْتِحْقَاقِهِ فِي السَّبْقِ ، وَالْمَعْطُوفَ عَلَى
الْأُمَّةِ مِنْ أَصْحَابِ إِمَامِهِ - وَإِنْ تَأَخَّرَ زَمَانُهُ - عَطْفَ النَّسَقِ ، وَهُوَ الَّذِي مَا زَالَ

يَعْدِلُ دَمَ الشَّهَدَاءِ مِدَادُ أَقْلَامِهِ ، وَتَضَعُ الْمَلَائِكَةُ أُجْنِحَتَهَا رِضًا بِمَا يَصْنَعُ مِنْ تَقَلُّ
 خُطُواتِهِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَسَعَى أَقْدَامِهِ ، وَدَخَلَ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي زُمرَةٍ مِنْ
 حُصْرِ بَائِمًا ، وَهَجَرَ الْمُضَاجِعَ فِي طَاعَةِ اللَّهِ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَلَوْ عُدَّتْ هَجَعَاتُهُ لَقَلَّمَا ؛
 وَهَجَّرَ فِي إِحْرَازِ الْفَضَائِلِ فَفَيَّدَ أَوَائِدَهَا ، وَأَحْرَزَ شَوَارِدَهَا ؛ وَبَلَغَ فِي بَحَارِ الْمَعَانِي
 فِغَاصِ عِلْمِ جَوَاهِرِهَا ، وَنَظَرَ نَظْرَةً فِي نُجُومِ الْعُلُومِ فَاحْتَوَى عَلَى زُهرِهَا وَزَارَ نَحَائِلَ
 الْفَضَائِلِ [فَاسْتَوَى] عَلَى أَزْهَرِهَا ؛ وَأَتَهَى إِلَيْهِ عِلْمَ مَذْهَبِهِ فَبَرَزَ عَلَى مَنْ سَلَفَ ،
 وَجَارَى عِلْمَاءَ عَصْرِهِ فَوَقَّتْ أَبْصَارَهُمْ عَنْ رُؤْيَةِ غُبَارِهِ وَمَا وَقَفَ ؛ وَتَعَيَّنَ عَلَيْهِ
 الْقَضَاءُ وَإِنْ كَانَ فَرَضَ كِفَايَةً لِأَفْرَاضِ عَيْنٍ ، وَقَدَّمَهُ التَّرْجِيحُ الَّذِي جَعَلَ رُتْبَتَهُ هَمزَةً
 أَسْتَفْهَامَ وَرُتْبَةَ غَيْرِهِ بَيْنَ بَيْنٍ - أَقْتَضَى رَأْيُنَا الشَّرِيفَ اخْتِصَاصَهُ بِهَذَا التَّمْيِيزِ ،
 وَالتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِهِ الْبَسِيطِ بِهَذَا اللَّفْظِ الْوَجِيزِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَيْتٌ وَكَيْتٌ . فَلِيَتَوَلَّى هَذِهِ الرُّتْبَةَ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا
 عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - نَائِبًا وَبَشْرَةً قَائِمًا ، وَيَتَقَلَّدُهَا تَقَلُّدًا مَنْ يَعْلَمُ
 أَنَّهُ قَدْ أَصْبَحَ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى مُقَدِّمًا وَعَلَى اللَّهِ قَادِمًا ، وَيَتَثَبَّتْ تَثَبُّتٌ مِنْ يَعْنِصُمِ
 بِجِبَالِ اللَّهِ فِي حُكْمِهِ فَإِنَّ أَحَدَ الْخُصْمَيْنِ قَدْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا ،
 وَيَلْبَسُ لِهَذَا الْمَنْصِبِ حُلَّةً تَمْنَعُ الْمِبْطِلَ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ ، وَتَدْفَعُ الظَّالِمَ عَنِ التَّطَاوُلِ
 إِلَى أَمْرِ نَزَعَهُ الشَّرِيفُ مِنْ يَدَيْهِ ، وَيُؤَمِّنُ الْحَقَّ مِنْ أَمْتِدَادِ يَدِ الْجَوْرِ وَالْحَيْفِ
 إِلَيْهِ ؛ وَلْيَسَوِّبِ الْخُصْمَيْنِ فِي مَجْلِسِهِ وَلِحِظِهِ ، وَيَعْدِلْ بَيْنَهُمَا فِي إِنْصَاتِهِ وَلَفِظِهِ :
 لِيَعْلَمَ ذُو الْجَاهِ أَنَّهُ مَسَاوٍ فِي الْحَقِّ لَخُصْمِهِ ، مَكْفُوفٌ بِاسْتِمَاعِ حُجَّتِهِ عَنِ الطَّمَعِ
 فِي ظُلْمِهِ ؛ وَلَا يَنْقُضُ حُكْمًا لَمْ يَخْلَفْ نَصًّا وَلَا سُنَّةً وَلَا إِجْمَاعًا ، وَلِيَشَارِكَ فِيهَا لَا يَجْهَلُهُ
 مِنَ الْقَضَايَا غَيْرَهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ لِيَتَرَيَّدَ بِذَلِكَ مَعَ أَطْلَاعِهِ أَطْلَاعًا ، وَلِيَتَغَنَّمِ فِي ذَلِكَ الْإِسْتِعَانَةَ

بآرائهم : فإن الله تعالى لا يتترع هذا العلم انتزاعاً؛ وليسد مسالك الهوى عن فكره،
ويصرف دواعى الغضب لغير الله عن المرور بذكره؛ وليجعل العمل لوجه الله
نتيجة علمه، وليحكم بما أراه الله (والله يحكم لا معقب لحكمه) .



وهذه نسخة وصية أوردتها في "التعريف" تشمل القضاة الأربعة ، قال :
وصية جامعة [لقاض] من أى مذهب كان ، وهى :

وهذه الرتبة التى جعل الله إليها منتهى القضايا ، وإنهاء الشكايا ؛ ولا يكون
صاحبها إلا من العلماء ، الذين هم ورثة الأنبياء ؛ ومتولى الأحكام الشرعية بها
كما ورث عن نبي الله صلى الله عليه وسلم علمه ، كذلك ورث حكمه ؛ وقد أصبح بيده
زمام الأحكام ، وفصل القضاء الذى يعرض [بعضه] ^(١) بعده على غيره من الحكماء ؛
وما منهم إلا من ينقد نقد الصيرفي ، وينفذ حكمه نفاذ المشرفي ؛ فليتروا فى أحكامه
[قبل إمضاءها ، وفى المحاكمات إليه] ^(١) قبل فصل قضائها ؛ وليراجع الأمر مرة بعد
مرة حتى يزول عنه الإلتباس ، ويعاود فيه بعد التأمل كتاب الله وسنة رسوله
صلى الله عليه وسلم والإجماع والقياس ؛ وما أشكل عليه بعد ذلك فليجئ ظلمه
بالاستخاره ، وليجئ شككه بالاستشارة ، ولا يرتقضا عليه إذا استشار فقد أمر الله
رسوله صلى الله عليه وسلم بالشورى ، ومر من أقوال السلف من جعلها بينه وبين
خطأ الاجتهاد سورا ؛ فقد يسنح للراء ما أعيأ غيره وقد أكثر فيه الدأب ، ويتفطن
الصغير لما لم يفطن إليه الكبير كما فطن ابن عمر رضى الله عنهما للنخلة [و] مامنعه
أن يتكلم إلا صغر سنه ولزوما مع من هو أكبر منه للأدب ؛ ثم إذا وضح له الحق

(١) الزائد من "التعريف" ص ١١٦ .

قضى به لمستحقته ، وسجل له به وأشهد على نفسه بثبوت حقه ؛ وحكم له به حكماً يسره يوم القيامة أن يراه ، وإذا كتب له به ، ذكر بخير إذا بلى وبقى الدهر ما كتبت يده . وليسوا بين الخصوم حتى في تقسيم النظر ، ويجعل كل عمله على الحق فيما أباح وما حظر ؛ ويجيد النظر في أمر الشهود حتى لا يدخل عليه زيف ، ولتحرر في استيلاء الشهادات فرب قاض ذبح بغير سكين وشاهد قتل بغير سيف ؛ ولا يقبل منهم إلا من عرف بالعدالة ، وألف منه أن يرى أوامر النفس أشدَّ العدالة - وغير هؤلاء ممن لم تجر له بالشهادة عاده ، ولا تصدق للأرتاق بسختها ومات وهو حى على الشهادة ، فليقبل منهم من لا يكون في قبول مثله ملامه ، فرب عدل بين منطقتي وسيف وفاسق في فرجة وعمامة - ولينقب على ما يصدر من العقود التي يؤسس أكثرها على شفا جرف هار ، ويوقع في مثل السفاح إلا أن الحدود تدرأ بالشبهات ويبقى العار - وشهود القيمة الذين يقطع بقولهم في حق كل مستحق ومال كل يتيم ، ويقلد شهادتهم على كل أمر عظيم ؛ فلا يعول منهم إلا على كل رب مال عارف لا تخفى عليه القيم ، ولا يخاف معه خطأ الحدس وقد صقل التجريب مرة فهمه على طول القدم . ولينان في ذلك كله أناة لا تقضى بإضاعة الحق ، ولا إلى المطاولة التي تقضى إلى ملل من استحق . ولينهذ لرمسه ، ولا يتعلل بأن القاضى أسير الشهود وهو كذلك وإنما يسعى للخلاص نفسه - والوكلاء هم البلاء المبرم ، والشياطين المسؤلون لمن توكأوا له الباطل ليقتضى لهم به وإنما تقطع لهم قطعة من جهنم ، فليكف بمهابة وساوس أفكارهم ، ومساوى جفاهم ؛ ولا يدع لجنى أحد منهم ثمرة إلا ممنوعه ، ولا يدأعتداء تمتد إلا مغلولة إلى عنقه أو مقطوعة . وليطهر بابه من دنس الرسل الذين يمشون على غير الطريق ، وإذا رأى واحد منهم درهما ودّ لو حصل في يده ووقع في نار الحريق ؛ وغير هذا مما لا يحتاج به مثله أن يوصى ،

ولا أن يُحصى عليه منه أفراد عمله وهو لا يُحصى ، ومنها النظر في أمور أوقاف أهل مذهبه نظر العموم ، فليعمرها بحمىل نظره فربّ نظرة أنفع من مواقع الغيوم ؛ وليأخذ بقلوب طائفته الذين خُص من بينهم بالتقديم ، وتفاوت بُعد ما بينه وبينهم حتى صار يُزيل عارض الرجل منهم النظرة [منه] ويأسو حراحه منه التكليم . وهذه الوصايا إنما ذكرت على سبيل الذكرى ، وفيه - بحمد الله - أضعافها ولهذا وليناه والحمد لله شكراً ؛ وقد جعلنا له أن يستنوب من يكون بمثل أوصافه أو قريباً من هذه المتأبه ، ومن يرضى له أن يحمل عنه الكّل ويتاسمه ثوابه ؛ وتقوى الله تعالى هى جماع الخير ولا سبياً لصاحب هذه الوظيفة ، ولمن وليها أصلاً وفرعاً لا يستغنى عنها ربّ حكم مطلق التصرف ولا خليفه .

ويُزاد الشافعى :

وليعلم أنه صدر المجلس ، وأنه أدنى القوم وإن كانوا أشباهه منا حيثُ نجلس ، وأنه ذو الطيلسان الذى يخضع له ربّ كل سيف ويُبلس ؛ وليتحقق أنه إنما رفعه علمه وتقاؤه ، وأن سبب دينه لأدنياه هو الذى رقاؤه ؛ فليقدر حق هذه النعم ، وليقف عند حدّ منصبه الذى يودّ لو اشترى سواد مداده بجزء النعم .

ويقال فى وصيته : وأمر دعاوى بيت المال المعمور ، ومحاكماته التى فيها حق كل فرد فرد من الجمهور ؛ فليحترز فى قضاياها غاية الاحتراز ، وليعمل بما يقتضيه لها الحق من الصيانة والإحراز ؛ ولا يقبل فيها كّل بينة للوكيل عن المسلمين فيها مدفع ، ولا يعمل فيها بمسألة ضعيفة يظن أنها ما تضر عند الله فإنها ما تنفع ؛ وله حقوق فلا يجحد من يسعى فى تملك شىء منها بالباطل منه إلا الياس ، ولا يلتفت إلى من رخص لنفسه وقال : (هو مال السلطان) فإنه مالنا فيه إلا ما لواحد من الناس .

(١) ذكر فى "القاموس" أن لام الطيلسان مثناة .

وأموال الأيتام الذين حذر الله من أكل مالهم إلا بالمعروف لا بالشبهات ، وقد مات
 أبائهم ومنهم صغار لا يتدنون إلى غير الثدي للرضاع ومنهم حمل في بطون الأمهات ؛
 فليأمر المتحدثين لهم بالإحسان إليهم ، وليعرفهم بأنهم سيجزون في بينهم بمثل
 ما يعملون معهم إذا ماتوا وتركوا ما في أيديهم ، وليحذر منهم من لا ولد له :
 ﴿ وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم ﴾ . وليقتص عليهم
 في مثل ذلك أبناء من سلف تدكيرا ، وليتل عليهم القرآن ويذكرهم بقوله تعالى :
 ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .
 والصدقات الموكولة إلى تصريف قلمه ، المأكولة بعدم أمانة المباشرين وهي
 في ذمه ، يتقظ لإجرائها على السداد في صرفها في وجوه استحقاقها ، والعمل بما
 لا يجب سواه في أخذها وإنفاقها . والمسائل التي تفرد بها مذهبه وترجح عنده بها
 العمل ، وأعد عنها الجواب لله إذا سأل ، لا يعمل فيها بمرجوح إلا إذا كان نص
 مذهب إمامه أو عليه أكثر الأصحاب ، وراه قد حكم به أهل العلم ممن تقدمه لرُجحانه
 عنده وللاستصحاب . وتواب البر لا يقلد منهم إلا من تحقق استحقاقه ، فإنه إنما
 يوليه على مسلمين لا علم لأكثرهم فهم إلى ذى العلم أشد فاقه ؛ هذا إلى ما يتعرف
 من ديانتهم ومن عقافتهم الذى يتجزع المرء منهم به مرارة الصبر من الفاقة وهو به
 يتحلى ، ثم لا يزال له عين عليهم فإن الرجال كالصناديق المقلدة لا يعرف الرجل ما هو
 حتى يتولى .

ويزاد الحنفى :

وليعلم أن إمامه أول من دون الفقه وجمعه ، وتقدم وأسبق العلماء من تبعه ؛
 وفي مذهبه ومذاهب أصحابه أقوال في المذهب ، ومسائل مالحة فيها مالك وهو أول

مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ وَمَنْ يُعَدُّ مِنْ سَوَابِقِهِ أَشْهَبُ ؛ وَمِنْ أَهْمِهَا تَرْوِجُ الصَّغَائِرَ ، وَتُحْصِنُهُنَّ
بِالْأَكْفَاءِ مِنَ الْأَزْوَاجِ خَوْفًا عَلَيْهِنَ مِنَ الْكِبَائِرِ ؛ وَشُفْعَةُ الْحَوَارِ الثِّبَانِ لَوْ لَمْ تَكُنْ مِنْ
رَأْيِهِمْ لَمَا أُمِنَ جَارُ السُّوءِ عَلَى رَغْمِ الْأَنْوْفِ ، وَلَا أَقَامَ الرَّجُلُ الدَّهْرَ سَاكِنًا فِي دَارِهِ
بَيْنَ أَهْلِهِ وَهُوَ يَتَوَقَّعُ الْخَوْفَ ؛ وَكَذَلِكَ نَفَقَةُ الْمُعْتَدَةِ الَّتِي هِيَ فِي أَسْرِ مَنْ طَلَّقَهَا وَإِنْ
بَتَّتْ مِنْ حِبَالِهِ ، وَبَقِيَتْ لَا هُوَ بِالَّذِي يُنْفِقُ عَلَيْهَا وَلَا هِيَ بِالَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَزَوَّجَ
مِنْ رَجُلٍ يُنْفِقُ عَلَيْهَا مِنْ مَالِهِ ؛ وَمَنْ أَسْتَدَانَ مَالًا فَأَكَلَهُ وَأَدْعَى الْإِعْسَارَ ، وَلَفَّقَ لَهُ
بَيْنَةً أَرَادَ أَنْ تُسْمَعَ لَهُ وَلَمْ يَدْخُلِ الْحَبْسَ وَلَا أَرْهَقَ مِنْ أَمْرِهِ الْأَعْسَارَ ، وَأَهْلُ
مَذْهَبِهِ عَلَى أَنَّهُ يُسَجَنُ وَيَمُكُّ مَدَّةً ، ثُمَّ إِذَا أَدْعَى أَنْ لَهُ بَيْنَةً أَحْضَرَتْ ثُمَّ هَلْ تُقْبَلُ
أَوْ لَا . فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِمَّا فِيهِ عَمُومٌ صَالِحٌ ، وَعَظِيمٌ نَفْعٌ مِمَّا فِيهِ جُنَاحٌ ؛ فَلْيَقْضَ فِي هَذَا
كَلَّهُ إِذَا رَأَى بِمَقْتَضَى مَذْهَبِهِ ، وَلِيَهْتَدِ فِي هَذِهِ الْأَرَاءِ وَسِوَاهَا بِقَمَرِ إِمَامِهِ الطَّالِعِ أَبِي حَنِيفَةَ
وَشُبُهَيْهِ ؛ وَلِيُحْسِنَ إِلَى فَتَاهِ أَهْلِ مَذْهَبِهِ الَّذِينَ أُذِنَ لَهُمْ أَكْثَرُهُمُ الْإِعْتِرَابُ ، وَحَاقَّ
بِهِمْ إِلَيْهِ طَائِرُ النَّهَارِ حَيْثُ لَا يَحْتَقُّ الْبَازِيُّ وَجَنَاحُ اللَّيْلِ حَيْثُ لَا يَطِيرُ الْغُرَابُ ؛ وَقَدْ
تَرَكَوْا وَرَاءَهُمْ مِنَ الْبِلَادِ الشَّامِ ، وَالْأَمْدَادِ الْوَاسِعَةِ ؛ مَا يُرَاعَى لَهُمْ حَقُّهُ إِذَا عُدَّتْ
الْحَقُوقُ ، وَيَجْمَعُهُ وَإِيَّاهُمْ بِهِ أَبُوهُ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَا مِثْلُهُ مِنْ يُنْسَبُ إِلَى الْعُقُوقِ .

ويزاد المالكي :

ومذهبه له السيف المصلت على من كفر، والمذهب بدم من طل دمه وحصل
به الظفر؛ ومن عدا قدره الوضيع ، وتعرض إلى أنبياء الله صلوات الله عليهم بالقول
الشنيع ؛ فإنه إنما يقتل بسيفه المجرد ، ويراق دمه تعزيرا بقوله الذي به تفرّد ؛ ولم
يزل سيف مذهبهم بارز الصفحه ، مسلما لهم إلى مالك خازن النار من مذهب
مالك الذي مافيه فسحه ؛ وفي هذا ما يصرح غدر الدين من القذى ، وما لم تطل دماء

هؤلاء (لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى)؛ وإنما نوصيه بالتحري في الثبوت ،
 [والبينة التي لا يستدرك بها ما يفوت،] ^(١) وإنما هو رجل يحيا أو يموت ، فليتمهل
 قبل بتّ القضاء ، وليعذر إليهم لأحتمال ثبوت تفسيق الشهود أو بغضاء ؛ حتى
 لا يعجل تلافيا ، ولا يعجل بما لا يتلافى ، فكما أننا نوصيه أن لا ينقض في شدّ الوثاق
 عليهم أبراما ، فهكذا نوصيه أن لا يصيب بغير حقه دما حراما ؛ وكذلك قبول الشهادة
 على الخط ، وإحياء مامات من الكُتُب وإدناء ما سَطَّ ؛ فهذا مما فيه فسحة للناس ،
 وراحة ما فيها باس ؛ إلا أنه يكون الثبوت بهذه البينة للاتصال ، لا للترغ يد ولا إلزام
 بمجردا بمال ؛ وهكذا يراه من ولاية الأوصياء وهو مما تفرّد به هو دون البقية ، وفيه
 مصالحة وإلزام معنى الوصية ؛ وهو زيادة احتراز ما تضر مراعاة مثلها في الأمور
 الشرعية ؛ وسوى هذا مثل إسقاط الرّيع في وقف آسُرِدَ وقد بيع ، وعُطل المشتري
 من التكبُّ بذلك المال مدة لا يشتري ولا يبيع ؛ وهذا مما يبتّ قضاءه في مثله ،
 ويجعل عقاب من أقدم على بيع الوقف إحرامه مدة البيع من مغلّه ؛ وسوى ذلك
 مما عليه العمل ، ومما إذا قال فيه قال بحقّ وإذا حكم عدل . وفقهاء مذهبه في هذه
 البلاد قليل ما هم ، وهم غرباء فليحسن ما وأهم ، وليكرم بكرمه مثوهم ؛ وليستقر بهم
 النوى في كنفه فقد ملأوا طول الدرب ، ومعاناة السفر الذي هو أشدّ الحرب ،
 وليُنسهم أوطانهم برّه ولا يدع في مآقيهم دَمعا يفيض على الغرب .
 ويزاد الحنبلي :

والمهّم المقدم - وهو يعلم ما حدث على أهل مذهبه من الشّاعة ، وما رُموا به
 من الأقوال التي نتركها لما فيها من البشاعة ؛ ونكتفي به في تغطية آثارها ، وإماطة

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٢١ .

أذآها عن طريق مذهبها لتأمن السالكة عليه من عثارها ؛ فتعالى الله أن يعرف
بكيف ، أو يجاوب السائل عنه بهذا إلا بالسيف ؛ والأنضمام إلى الجماعة والحدّ من
الأفراد ، وإقرار آيات الصفات على ما جاءت عليه من الاعتقاد ، وأن الظاهر غير
المراد ، والخروج بهم إلى النور من الظلماء ، وتأويل مالا بد من تأويله مثل حديث
الأمّة التي سئلت عن ربّها : أين هو فقالت فى السماء ؛ وإلا ففى البليّة بإثبات الجهة
ما فيها من الكوارث ، ويلزم منها الحدوث والله سبحانه وتعالى قديم ليس بحادث
ولا محلاً للحوادث ؛ وكذلك القول فى القرآن ونحن نُحدّث من تكلم فيه بصوت
أو حرف ، فما جزء من قال بالصوت إلا سوط وبالطرف إلا حتف ؛ ثم بعد هذا
الذى يزعم به الجهال ، ويردّ دون غايته الفكر الجوال ، ينظر فى أمور مذهبها ويعمل
بكل ما صحّ نقله عن إمامه وأصحابه : من كان منهم فى زمانه ومن تخلف عن أيامه ؛
فقد كان رحمه الله إمام حقّ نهض وقد قعد الناس تلك المده ، وقام نوبة المحنة مقام
سيد تيم - رضى الله عنه - نوبة الردّه ؛ ولم تهبّ به زعازع المريسي وقد هبت
مريسا ، ولا ابن أبى دؤاد وقد جمع له كلّ دؤد وساق إليه من كلّ فطر عيسا ؛
ولا نكتّ عهدة ما قدم له المأمون فى وصية أخيه من المواتق . [ولا روعه سوط
المعتصم وقد صبّ عليه عذابه ولا سيف الواثق] .^(١)

فليقف على أثره ، وليقف بمسنده [على مذهبه] كله أو أكثره ، وليقض بمفرداته
وما اختاره أصحابه الأخيار ، وليقلّدهم إذا لم تخنّف عليه الأخبار ؛ وليحترز لدينه
فى بيع ما دثر من الأوقاف وصرف ثمنه فى مثله ، والاستبدال بما فيه المصلحة
لأهله ؛ والفسخ على من غاب مدة يسوغ فى مثلها الفسخ ، وترك زوجة لم يترك لها

(١) الزيادة من «التعريف» (ص ١٢٢) .

نفقة وخلّاهما وهي مع بقائها في زوجيته كالمعلّقه ؛ وإطلاق سراحها لتتزوج بعد ثبوت الفسخ بشروطه التي يبقى حكمها به حكم المطلقه ؛ وفيما يمنع مضارة الجار ، وما يتفرّع على قوله صلى الله عليه وسلم : « لا ضرر ولا ضرار » ، وأمر وقف الإنسان على نفسه وإن رآه سوى أهل مذهبه ، وطلعت به أهلة علماء لولاهم لما جلا الزمان جُنح غيبه ؛ وكذلك الجوائح التي يخفف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرى بها الإلزام ، ولا تجرى لديه إلا مجرى المصالحة بدليل الالتزام ؛ وكذلك المعاملة التي لولا الرخصة عندهم فيها لما أكل أكثر الناس إلا الحرام المحض ، ولا أخذ قسم الغلال والمعامل هو الذي يزرع البذور ويحرث الأرض ؛ وغير ذلك مما هو من مفرداته التي هي للرفق جامعته ، وللرعايا في أكثر معاشهم وأسبابهم نافعته ؛ فإذا استقرت الفروع كانت الأصول لها جامعته . وفقهاء مذهبه هم الفقراء لقلة الحصول وضعف الأوقاف ، وهم على الرقة كالرماح المعدة للثقاف ؛ فخذ بنحو أطيرهم ، ومدّ آمالهم في غائب وقتهم وحاضرهم ؛ وأشملهم بالإحسان الذي يرغبهم ، ويقبل به طلبهم لوجوه الغنى ويكثر طلبهم .

(١) عبارة "التعريف" « وإذا استقرت الأصول كانت الفروع لها تابعه » .

الطبقة الثانية

(من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع ، وتشتمل على مراتب)

المرتبة الأولى

(ما كان يكتب في النصف بـ «المجلس العالى» كما كان يكتب للقضاة الأربعة أولاً ، وقد تقدم)

المرتبة الثانية

(ما يكتب في قطع الثلث بـ «السامى» بالياء)

وأعلم أن الأصل فيما يكتب من التواقيع أن يفتح بـ «أما بعد» إلا أن الكُتاب تسامحوا فيه فافتتحوا لمن علت رتبته حيث اقتضى الحال الكتابة له في الثلث بـ الحمد لله ، وأبقوا من انحطت رتبته عن ذلك على ما كان عليه من الأفتاح بـ «أما بعد» وهأنا أورد ماسح من ذلك مما أنشأه الكُتاب في ذلك من الأفتاحين جميعاً . ويشتمل على وظائف .

الوظيفة الأولى

(قضاء العسكر)

وقد تقدم في المقالة الثانية أن موضوعها التحدث في الأحكام في الأسفار السلطانية وأن له مجلساً يحضره بدار العدل في الحضر . وقد جرت العادة أن يكون قضاء العسكر أربعة : من كل مذهب قاض .

وهذه نسخة توقيع شريف بقضاء العسكر المنصور بالحضرة السلطانية ، وهى :

الحمد الذي رفع للعالم الشريف في أيامنا الزاهرة منارا ، وزاد بإعلاء رتب أهله
دولتنا القاهرة رفعةً ونخارا، وزان أحكامه الشريفة بحكامه الذين دلعوا في غياهب
مشكلاته بدورا وتدققوا في إفاضته في الأحكام الشرعية بحارا .

نحمده على نعمة التي حلت فحلت ، ومنته التي أهلت الجود فاستهلت .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون لقائلها ذخرا ، وتعلي
لتمسك بها في الملائ الأعلى ذكرا ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هو أسبق
الأنبياء رتبة وإن كان آخرهم عصرا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أضحوا
للمقتدين بهم شموسا منيرة وللمهتدين بعلمهم نجوما زهرا ، صلاة لا تزال الألسن
تقيمها ، والأسماع تستديمها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من نوهنا بذكره ، ونبهنا على رفعة قدره ، وأطلعنا ألسنة الأفلام
في وصف مفاخره وشكره ، وأثلنا قواعد مجده التي لو رام بنان البيان استقصاءها حال
الحصر دون حصره ، ونقدنا كلام حكمه ورفعنا في أندية الفضائل أوية فنونه وأعلام
نصره ؛ من لم يزل دم الشهداء يعدل مداد أفلامه ، وتقيم منار الهدى أدلة فضائله
وشواهد أحكامه ، وتوضح الحق حتى يكاد المتأمل يلحظ الحكم لوضوحه ويصره ،
وينصر الشرع بأمداد علمه وينصرون الله من ينصره ؛ وشيّد مذهب إمامه الإمام
الفلاني فأصبح فسيح الأرجاء وإن لم يكن فيه فسحة ، وجدّد قواعد العدل في قضايا
عسا كرنا المنصورة فهو مشاهد من كلمه ومن نظره في لجه ملحه .

ولما كان فلان هو الذي نعنتنا بما تقدم من الخطاب خلافة الحسنى ، وأثنينا
على ما هو عليه من الإقبال على جوهر العلم دون التعرض إلى العرض الأذنى ؛ مع
ما حواه من مواد فضائل تركو على كثرة الإنفاق ، وفرائد فوائد تجلب على أيدي

الطَّلَبَةُ إِلَى الْآفَاقِ ، وَقُوَّةٌ فِي الْحَقِّ ، الَّذِي لَا تَأْخُذُهُ فِيهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، وَعَدْلٌ أَحْكَامٌ فِي الْخَلْقِ ، أَلَدَّ مِنْ سِنَةِ الْكَرْبِيِّ فِي جَفْنِ نَائِمٍ - أَقْتَضَى حُسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نُوَطَّدَ فِي عَسَاكِرِنَا الْمَنْصُورَةِ قَوَاعِدَ أَحْكَامِهِ ، وَنُوَطَّنَ كَلًّا مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُ تَحْتَ مَا يُمِضِيهِ فِي أَقْضِيَتِهِ النَّافِذَةِ مِنْ نَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ قِضَاءُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ الشَّرِيفَةِ : عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ ، وَأَكْمَلِ الْقَوَاعِدِ ؛ وَأَنْ تُبَسِّطَ كَلِمَتُهُ فِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ . فَلِيُحْكَمْ فِي ذَلِكَ كَلَّهُ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ مِنْ عِلْمِهِ ، وَأَتَاهُ مِنْ حِكْمِهِ وَحُكْمِهِ ، وَيَبِينُ لَهُ مِنْ سُبُلِ الْهُدَى ، وَعَيْنَهُ لِبَصِيرَتِهِ مِنْ سُنَنِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّتِي مِنْ حَادٍ عَنْهَا فَقَدْ جَارَ وَأَعْتَدَى ؛ وَلِيُقِفَّ مِنَ الْأَحْكَامِ عِنْدَ مَاقَرَّرْتَهُ الشَّرِيعَةُ الْمَطْهُرَةُ مِنْ أَحْكَامِ اللَّهِ الَّتِي لَا يَعْطَلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ، وَيَأْمُرُ كَلًّا مِنْ الْمُتَقَاضِينَ بِالْوُقُوفِ عِنْدَ مَا حُدِّدَ لَهُ : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ . وَالْوَصَايَا وَإِنْ كَثُرَتْ فَمِنْ مِثْلِهِ تَفَادًا ، وَإِنْ جَلَّتْ فَسَمِعُهُ فِي غَنَى عَمَّا يُبْدَأُ لَهُ مِنْهَا وَيُعَادُ ؛ وَمِلَاكُهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ شِعَارُ أَنْبِيَاءِهِ ، وَحِلْيَةُ يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَسُدُّهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيُوقِّعُهُ لِمَا يَرْضَاهُ وَيُصَوِّئُهُ مِنَ الْخَطِيئَاتِ وَالْخَطَلِ .



وهذه وصية لقاضى العسكر، أوردتها في "التعريف" وهي أن يقال :

وهو الحاكم حيث لا تتقذ إلا أقضية السيوف، ولا تزدحم الغرماء الا في مواقف الصنوف، والماضى قلبه وكل خطي يمد بالدماء، والماضى سبيله وقد طوى العجاج كالكتاب سجيل السماء، وأكثر ما يتحاكم إليه في الغنائم التي لم تحل لأحد قبل هذه الأمة، وفي الشركة وما تطلب فيه القسمة، وفي المبيعات وما يرد منها بعيب،

وفي الديون المؤجلة وما يُحكّم فيها بغيّب ، وكلُّ هذا مما لا يَحتمل طول الأناة في القضاء ، وأشتغال الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردد إليه بالإمضاء ، فليكن مستحضراً لهذه المسائل ليبتّ الحكم في وقته ، ويُسارع السيف المُصلت في ذلك الموقف بتهّ ، وليعلم أن العسكر المنصور هم في ذلك الموطن أهل الشهادة ، وفيهم من يكون جرحه تعديلاً له وزيادة ، فليقبل منهم من لا تخفى عليه سيما القبول ، ولا يردّ منهم من لا يضره أن يردّه هو وهو عند الله مقبول ، وليجعل له مستقراً معروفاً في المعسكر يُقصد فيه إذا نُصبت الخيام ، وموضعاً يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان على يمين الأعلام ، وليلزم ذلك طول سفره وفي مدد المقام ، ولا يخالفه ليُبهم على ذوى الخوائج فما هو بالصالحية بمضّر ولا بالعادلية بالشام ، وليتخذ معه كتاباً تكتب للناس وإلا فن أين يوجد مركز الشهود ، وليسجل لذي الحق بحقه وإلا فما آتسد باب الجود ، وتقوى الله هي التي بها تُنصر الجنود ، وما لم تكن أعلى ما يكون على أعلام الحرب وإلا فما الحاجة إلى نشر البنود .

الوظيفة الثانية

(إفتاء دار العدل)

وموضوعها الجلوس بدار العدل حيث يجلس السلطان لفصل الحكومات ، والإفتاء فيما لعله يطرأ من الأحكام بدار العدل . وهي وظيفة جليّة ، لصاحبها مجلس بدار العدل يجلسه مع القضاة الأربعة ومن في معناهم .

وهذه نسخة توقيع لمن لقبه «جمال الدين» ينسخ على منوالها ، وهي :

الحمد لله جعل العلم للدين جمالاً ، وللدنيا عصمةً وثملاً ، ولأسباب النجاة والنجاح شارةً إذا تحلّى بها ذو التمييز كان أحسن ذوى المراتب حلالاً ، وأجلهم

فى الدارين مَبْدَأً وَمَا لَا ، وَأَحَقَّهُمْ بِرَبَّةِ التَّفْضِيلِ الَّتِي ضَرَبَتْ لَهَا السَّنَةَ الْمُطَهَّرَةَ
فَضَلَ الْبَدْرَ عَلَى الْكَوَاكِبِ مِثَالًا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي خَصَّتْ دَارَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِأَكْفَائِهَا ، وَأَصْطَفَتْ
لَنَا قُرْبَ مِنْ مَجْلِسِنَا الْمَعْظَمِ مَنْ دَلَّ عَلَى أَنَّ التَّيْمِيدَ قَرِينُ أَصْطَفَائِهَا .

وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَفْتَرُّ عَنْ شَنْبِ الصَّوَابِ ،
تَعْرِفُهَا ، وَيَتَفَتَّحُ عَنْ فَصْلِ الْخَطَابِ ، زَهْرَهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ
الْمَخْصُوصُ بِحُكْمِ التَّنْزِيلِ ، الْمَنْصُوصُ فِي الصَّحُفِ الْمُنَزَّلَةِ عَلَى ذِكْرِ أُمَّتِهِ الَّذِينَ
عَلِمُوا هُمْ كَأَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هُمْ كَالنُّجُومِ
الْمُشْرِقَةِ ، مِنْ اقْتَدَى بِهِمْ آهْتَدَى ، وَكَالرُّجُومِ الْحَرِيقَةِ ، مِنْ أَعْتَدَى وَجَدَ مِنْهَا شَهَابًا
رَصَدًا ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَرْتَدُّنَا لَهُ مِنْ رِيَاضِ الْعِلْمِ مَنْ سَمَّا فِيهِ فِرْعُهُ ، وَرَحَّبَ بِتَلَقَّى أَنْوَاعِ
الْعُلُومِ ذَرْعُهُ ؛ وَبَسَقَتْ فِي فُنُونِ الْفَضَائِلِ أَفْنَانُهُ ، وَنَسَقَتْ فَرَائِدَ الْفَوَائِدِ فِي سَلْكِ
الطَّرِيقِ بِنَانُهُ - فُتِيَا دَارَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ الَّتِي أَحْكَمْنَا لَهَا تَابِعَهُ ، وَأَغْصَانُ الْعَدْلِ
بِثَارِ فِتَاوِيهَا مُورِقَةٌ بِإِنْعَامِهِ ، وَأَعْيُنُنَا إِلَى أَفْوَاهِ مُفْتِيهَا رَامِقَةٌ وَأَذَانُنَا لِمَقَالَاتِهِمْ سَامِعَةٌ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ ثَمَرَةٌ هَذَا الْإِرْتِيَادِ ، وَنُجْبَةٌ هَذَا الْإِنْتِقَادِ ؛ الْمَعْقُودُ عَلَيْهِ فِي اخْتِيَارِ
الْعُلَمَاءِ بِالْخُنَاصِرِ ، وَالْعَرِيقُ فِي أَصَالَةِ الْعُلُومِ بِأَصَالَةٍ ثَابِتَةِ الْأَوَاصِرِ ؛ وَالَّذِي إِذَا أَجَابَ
تَدَفَّقَتْ أَنْوَاءُ الْفَوَائِدِ ، وَتَأَلَّقَتْ أَضْوَاءُ الْفَرَائِدِ ، وَأَتُّخِذَتْ مَسَائِلُ فَفَهْمِهِ قَوَاعِدَ
تَرْتَّبَ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَيْهَا وَمَصَادِرُ وَحْيِهِ مَوَارِدَ - اقْتَضَتْ آرَائُنَا الشَّرِيفَةَ
أَنْ نُزَيِّنَ بِهِجَةَ هَذِهِ الْوُضُفَةِ بِجَمَالِهِ ، وَنُنَزِّهَ إِشْرَاقَهَا بِنُورِ فَضَائِلِهِ الَّتِي لَوْ قَابَلَهَا بِدُرِّ الْإِفْقِ
نَازَعَتْهُ حُلَّةَ كَمَالِهِ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زالت أحكامه مع أوامر الشرع الشريف واقفه ، ومعدته الشريفة باقتفاء آثار الحق لمشتكيات الظلم كاشفه - أن يفوض إليه كذا : فليباشر هذه الوظيفة السنوية مفعراً ينابيع العلوم في أرجائها ، محققاً للفتاوى بتسهيل مواردها وتقريب أوحائها ، موضحاً طرقها بإقامة براهينه وأدلتها ، مبدياً دقائقها التي يُشرق بها أفق الفكر إشراق السماء بنجومها والأفق بأهنته ؛ مظهرها من غوامضها ما يُقرب على الأفهام مناله ، ويفسح لحياد القرائح مجاله ، وينقح لكل ذي ترو ورويته ولكل مرتجل بديته وأرتجاله ؛ فإنه الكامل الذي قطع إلى بلوغ الغاية مسالك اللبالي ، والإمام الذي غاص فكره من كل بحر لجج المعاني فاستخرج منها مكنون الآلى ؛ مع أن علمه المهذب غنى عن تنبيه الوصايا ، ملي بما يلزم هذه الوظيفة من الخصائص والمزايا ؛ فإن البحر يأبى إلا تدفقاً ، والبدر إلا تألقاً ؛ والله تعالى يزيد من فضله ، ويزين به أفق العلم ويزيد من أدنوا قرب محله .

الوظيفة الثالثة

(الحسبة)

وقد تقدم أن موضوعها التحدث على أرباب المعاش والصنائع ، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته . وحاضرة الديار المصرية تشمل على حسبتين :

(١) الأولى - حسبة القاهرة : وهي أعلاهما قدراً ، وأخفهما رتبة ؛ ولصاحبها مجلس بدار العدل مع القضاة الأربعة وقضاة العسكر ومفتي دار العدل وغيرهم . وهو يتحدث في الوجه البحري من الديار المصرية في ولاية الثواب وعزهم .

(١) أى والثانية حسبة الفسطاط التي سيأتى لها توقيع بعد صفحات

قلت : ولم تزل الحِسْبَةُ تُؤَلَّى للتعممين وأرباب الأقاليم إلى الدولة المؤيَّدية شيخ ،
فولَّاهَا للأمير سيف الدين منكلى بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلى الجُوبِيَّة . على
أنَّ في سِجِّلاتِ الفاطميين ما يشهد لها في الزمن المتقدم . وربما أُسْنِدَتْ حِسْبَةُ
القاهرة إلى والى القاهرة ، وحِسْبَةُ مصر إلى والى مصر .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهى :

الحمد لله مجدِّد عوائد الإحسان ، ومُجْرِى أولياء دولتنا القاهرة ، فى أيامنا الزاهرة ،
على ما أَلْفُوهُ من الرُّبِّ الحِسان ، ومضاعِفِ نِعْمنا على من آجنتى لنا بِحُسْنِ سِيرته
الدعاء الصالح من كل لسان .

نحمده على نِعْمه التى لا تُحصى بِعَدها ، ولا تُحصر بِجَدِّها ؛ ولا تُستردُّ بِغيرِ شُكْرِ آلِ
المنعم وَحَمْدِها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُقِيمها فى كُلِّ حُكْم ، وتُحاولُ
سيوفنا جاحديها فنَهَضْ فتنَطَّقُ بِالْحِجَّةِ عليهم وهم بكم ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله
أشرف من أتمم بالعدل والإحسان ، وأعدل أمرٍ أُمَّته بالوزن بالقسط وأن لا يُخسروا
الميزان ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين آحتسبوا فى سبيل الله جُلَّ عَناَدِهِمْ ،
وَآحتسبوا أنفُسَهُمْ فى مقاطعة أهل الكُفْر وَجِهَادِهِمْ ؛ فلا تُتَهَبَ جَنائِبُها فى الوجود ،
وتَسرى نَجائِبُها فى التَّهائم والنُّجود ؛ وسَلِّمَ تسلِما كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أولىَّ مَنْ دعاه إِحساننا لرفعِ قَدْرِهِ ، وإِنارةِ بَدْرِهِ ؛ وإِعلاءِ رُتْبَتِهِ ،
وإِدناءِ منزلتِهِ ؛ وإِعلامِ مُحْلِصِ الأُولياءِ بِمضاعِفَةِ الإحسانِ إليه أنَّ الله لا يُضِيعُ أَجرَ
مَنْ أَحسَنَ عَمَلًا ، وأنَّ كَرَمنا لا يُحِبُّ لِمَنْ أسلف سَوابِقَ طاعته فى أيامنا الشريفة
أَمَلًا ؛ مَنْ لم تزلْ خِدْمَتُهُ السابِقةُ إلى الله مَقَرَّبَهُ ، وعن طُرُقِ الهوى مُنكِبَهُ ، وبالله

مُدَّكَرُهُ ، وَعَلَى الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ مِنَ الْأَعْمَالِ مَوْقَرُهُ ؛ مَعَ مَا أَضَافَهُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ أَمْرٍ
بِمَعْرُوفٍ ، وَإِغَاثَةِ مَلْهُوفٍ ؛ وَنَهْيٍ عَنِ مَنَكِرٍ ، وَأَحْتِسَابٍ فِي الْحَقِّ أَتَى فِيهِ بِكُلِّ مَا تُجَمِّدُ
خَلَائِقُهُ وَتُشْكِرُهُ ، وَأَجْتِنَابٍ لِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا الدُّنْيَةِ ، وَأَجْتِهَادٍ لِمَا يُرِضِي اللَّهَ وَيَرْضِينَا
مِنْ أَتْبَاعِ سَيِّرَتِنَا السَّرِيَّةِ ؛ وَشِدَّةٍ فِي الْحَقِّ حَتَّى يُقَالَ بِهِ وَيُقَامَ ، وَرِفْقٍ بِالْحَلِيقِ
إِلَّا فِي بَدْعٍ تُنْتَهَكُ بِهَا حَرَمَةُ الْإِسْلَامِ ، أَوْ غِشٍّ إِنْ لَمْ يُحْصَ ضَرَرُهُ الْخَاصُّ فَإِنَّ ذَلِكَ
يَعْمُ الْعَامُ .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي أَخْتَصَّ مِنْ خِدْمَتِنَا ، بِمَا رَفَعَهُ لَدَيْنَا ، وَأَسْلَفَ مِنْ
طَاعَتِنَا ، مَا أَقْتَضَى تَقْرِيْبَهُ مِنَّا وَأَسْتِدْعَاءَهُ إِلَيْنَا ، وَنَهَضَ فِيهَا عَدَقَاهُ بِهِ مِنْ مَصَالِحِ
الرَّعَايَا وَكَانَ مَشْكُورًا الْمَسَاعِي فِي كُلِّ مَاعْرِضٍ مِنْ أَعْمَالِهِ فِي ذَلِكَ عَلَيْنَا - أَقْتَضَى رَأْيِنَا
الشَّرِيفِ أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَذَا ، فَلَيْسَتْ قَرَّةٌ فِي ذَلِكَ مَجْتَهِدًا فِي كُلِّ مَا يَعْمُ الْبَرَايَا نَفْعُهُ ،
وَيَجْمَلُ لَدَيْهِمْ وَقَعُهُ ؛ وَيَمْنَعُ مِنْ يَتَعَرَّضُ بِالْيَسَارِ ، إِلَى مَا لَهُمْ بِغَيْرِ حَقٍّ ، أَوْ يَضِيقُ
بِالْأَحْتِكَارِ ، عَلَى ضَعْفَائِهِمْ مَا بَسَطَ اللَّهُ لَهُمْ مِنْ رِزْقٍ ؛ وَيَذُبُّ عَنْهُمْ بِإِقَامَةِ الْحُدُودِ شُبُهَةً
تُعْطِيْلَهَا ، وَيَعْرِفُهُمْ بِالْحَفَظَةِ عَلَى الْحَقِّ فِي الْمَعَامَلَاتِ قَوَاعِدَ تَحْرِيْمِهَا وَتَحْلِيلِهَا ؛ وَيُرِيهِمْ
بِالْإِنْصَافِ مَنْ أَرَقَسَطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ لَعَلَّهُمْ يُبْصِرُونَ ، وَيُؤَدِّبُ مِنْ يَجِدُ فِيهِمْ مِنْ
الْمُطَفِّفِينَ : ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾
وَيَأْمُرُ أَهْلَ الْأَسْوَاقِ بِإِقَامَةِ الْجَمَاعَاتِ وَالْجَمْعِ ، وَيَقَابِلُ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْ ذَلِكَ بِالنَّادِيَةِ
الَّذِي يَرْدَعُ مِنْ أَصْرَفِهِ عَلَى الْمَخَالِفَةِ وَيَزَعُ ؛ وَيُلْزِمُ ذَوِي الْهَيْئَاتِ بِالصِّيَانَةِ الَّتِي تُنَاسِبُ
مَنَاصِبَهُمْ ، وَتُؤَافِقُ مَرَاتِبَهُمْ ، وَتَنْزَهُ عَنِ الْأَدْنَسِ مَكَاسِبَهُمْ ، وَتُصَوِّنُ عَنِ الشَّوَابِ
شَاهِدَهُمْ وَغَائِبَهُمْ ؛ وَلَا يَمَكِّنُ ذَوِي الْبُيُوعِ أَنْ يَغْنُوا ضَعْفَاءَ الرَّعَايَا وَأَغْيَاءَهُمْ ،
وَلَا يُفْسِحَ لَهُمْ أَنْ يَرْفَعُوا عَلَى الْحَقِّ أَسْعَارَهُمْ وَيَخْسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ .

وليجمل كلاً منهم على المعاملات الصحيحة ، والعقود التي غدت لها الشريعةُ الشريفةُ مبيحةً ، ويحنبهم العقودُ الفاسدهُ ، والحيل التي تُعزبتد ليس السَّلَع الكاسدهُ ؛ وهو أخبر بالبيع المنصوص على فسادها في الشرع الشريف ، وأدرى بما في عدم تحريم المكاييل والموازين من الإخسار والتطفيف ؛ فليعمل ذلك في كل ما يجب ، ويحتسب فيه ما يدخره عند الله ويحتسب ؛ ولتكن كلمته في ذلك مبسوطه ، ويد تصرفه في جميع ذلك مُحيطه وبما يستند إليه من أوامره مُحوطه ؛ ولْيُوص نُوابه بمثل ذلك ، ويوضح لهم بإشارة طريقته كل حالٍ حالِك ؛ ويقدم تقوى الله على كل أمر ، ويتبع فيه رضا الله تعالى لارضا زيد وعمرو ، والخطُ الشريفُ أعلاه .



وهذه نسخة توقيع من ذلك بحسبة القسطاط المعبر عنه الآن بمصر عوداً إليها ، وهى :

الحمد لله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الشاهد بالعدل الذي تقوى به كلمة الإيمان وتنصر ؛ والغامر بالجوود الذي لا يوصى والفضل الذي لا يحصر ، العاصر ربوع ذوى البيوت بتقديم من أعتقدت الخناصر على فضله الذي لا يحدد ولا ينكر .

نحمده على نعمه التي لا تزال السنة الأقسام ترقم لها في صحف الإنعام ذكراً ، وتجدد لها بإصابة مواقع الإحسان العام شكراً .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تصدع بنورها ليل الشرك فيقول جفراً ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي قمع الله به من أغتر بالمعاصى وغرر ، وأقام بشريعته لواء الحق الأطهر ومنازل العدل الأظهر ، وعلى آله وصحبه

الذين سلكوا من الهداية بإرشاده مَنَهِجَ الحَقِّ الأَنُورِ ، وَأَحْتَبَسُوا نفوسَهُم في نُصرتِهِ ففازوا من رضاه بالحظ الأَوْفَى والنصيب الأَوْفَرِ .

وبعد ، فإن الله تعالى لما جعل كلمتنا المبسوطة على العدل والإحسان مقصوره ، وأوامرنا الشريفة بإقامة منار المعروف مؤيدة منصوره ، وأحكامنا المشهورة بالإنصاف في صحائف الدهر بالمحاسن مسطوره ، وألهمنا من أتباع الشرع الشريف ما غدت به قلوب الرعايا آمنة مسروره - قصدنا أن نختار لمراتب الديانة والعفاف من لم يزل بيته بالصدارة علياً ، ووصفه بأنواع المحامد والمآدح مالياً .

ولما كان فلان هو الذي ورث السيادة ، عن سلف طاهر ، وتلقى السعادة ، عن بيت فروعه التقوى فأزرت بالروض الزاهي الزاهر ، وسرت سرائره بحسن سيرته وسيره ، وأبطن من الديانة ما أظهرته أدلة خيره ، وناقض في المراتب الدينية فأرنبى في حسن السلوك على غيره ؛ وسلك من الأمانة الطريق المثلى ، وأعتد ما عديم به مضاهياً ومثلاً ؛ وجنى ما نطق بإنصافه فضل الكيل والميزان ، ورجاه من أهل الخير كل ذي إحسان وخشية أهل الزيغ والبهتان ؛ وكانت الحسبة المباركة بمصر المحروسة قد ألفت قضاياها وأحكامه ، وعرفت بالخبر معروفه وشكرت نقضه وإبرامه ؛ وفارقها على رغمها منه اختياراً ، وعادت له خاطبة عقيمة نزاغته التي لا تجارى .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى أن يفوض إليه كذا . فليقدم خيرة الله في مباشرة هذه الوظيفة ، وليقيم منارها بإقامة حدودها الشريفه ؛ ولينظر في الكيل والميزان اللذين هما لسان الحق الناطق ، ولينشر لواء العدل الذى طالما خفقت بنوده في أيامنا حتى غدا قلب المجرم وهو خائف ؛ وليحسن النظر في المطاعم

والمشارب ، وليردع أهل البدع من هو مستخف بالليل وسارب ، وفيه - بحمد الله تعالى - من حسن الأئمة ما يغني عن الإسهاب في الوصايا ، ويعين على السداد في نفاذ الأحكام وفصل القضايا ، وكيف لا وهو الحسير بما أتى ويذر ، والصدر الذى لا يعدو الصواب إن ورد أو صدر ، والله تعالى يعمر به للعدل معلما ، ويكسوه بالإقبال فى أيامنا الشريفة ثوبا بالتواب معلما ، والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه .



وهذه وصية محتسب أوردها فى "التعريف" وهى :

وقد ولى أمر هذه الرتبة ، ووكل بعينه النظر فى مصالح المسلمين لله حسبه ، فلينظر فى الدقيق والحليل ، والكثير والقليل ، وما يحصر بالمقادير وما لا يحصر ، وما يؤمر فيه بمعروف أو ينهى عن منكر ، وما يشتري ويبيع ، وما يقرب بتحريره إلى الجنة ويبعد من النار ولم يكن قد بقي بينه وبينها إلا قدر باع أو ذراع ، وكل ما يعمل من المعاش فى نهار أوليل ، وما لا يعرف قدره إلا إذا نطق لسان الميزان أو تكلم فم الكيل . ويعمل لديه معدلا لكل عمل ، وعيارا إذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل ، ولينفق أكثر هذه الأسباب ، ويحذر من الغش فإن الداء أكثره من الطعام أو الشراب ، ولتعرف الأسعار ويستعلم الأخبار ، فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليقيم عليهم من الأمانة من ينوب عنه فى النظر ، ويطمئن به وإن غاب إذا حضر ، ويأمره بإعلامه بما أعضل ، ومراجعتيه مهما أمكن فإن رأى مشله أفضل . ودار الضرب والنقود التى منها تنبت ، وقد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر إلا بعد طول اللبث ، فليصدها لمهماتا بصدوره الذى لا يخرج ،

وليعرض منها على المحك من رأيه مالا يجوز عليه بهرج ؛ وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضة ويخرج ، وما أكلت النار كل لحامه أو بعضه فليقيم عليه من جهته الرقباء ، وليقيم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء ؛ وليقيم الضمان على العطارين والطرقية من بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يستراب فيه وهو معروف ، وبخط متطبب ماهر لمريض معين في دواء موصوف .

والطرقية وأهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة إلى ساسان ، ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان ، وكل إنسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا إنسان ؛ امنعهم كل المنع ، وأصدعهم مثل الزجاج حتى لا يجبر لهم صدع ، وصب عليهم النكال وإلا فما يئدي في تأديبهم ذات التأديب والصفع ؛ وأحسم كل هذه المواد الخبيثة ، وأقطع ما يجدد ضعفاء الناس من هذه الأسباب الرثيثة ؛ ومن وجدته قد غش مساماً ، أو أكل بباطل درهما ؛ أو أخبر مشترياً بزائد ، أو خرج عن معهود العوائد ؛ أشهره في البلد ، وأركب تلك الآلة قفاه حتى يضعف منه الجسد ؛ وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما من الأنواع ممن يخاف من ذنبه العائث في سرب الأطباء والجاذر ، ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر ، أرسقهم بسهامك ، وزلزل أقدامهم بإقدامك ؛ ولا تدع منهم إلا من آخترت أمانته ، وآخترت صيانتته . والنوآب لا ترص منهم إلا من يحسن نفاذاً ، ويحسب لك أجر استنابته إذا قيل لك من استنبت فقلت هذا ؛ وتقوى الله هي نعم المسالك ، وما لك في كل ما ذكرناه بل أكثره إلا إذا عملت فيه بمذهب مالك .

الوظيفة الرابعة

(وَكَالَةُ بَيْتِ الْمَالِ)

وهى وظيفة عظيمة الشأن رفيعة المقدار ، وقد تقدم أن موضوعها التحدث فيما يتعلّق بمبيعات بيت المال ومشترواته ^(١) : من أرض وأدر وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى ، وأن متولّيها لا يكون إلا من أهل العلم والديانة ، وأن له مجلساً بدار العدل : تارة يكون دون مجلس المحتسب ، وتارة فوق مجلسه ، بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه . وقد أضيف إليها فى المباشرة نظراً كسوة الكعبة الشريفة وصاروا كالوظيفة الواحدة .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال :

الحمد لله جامع المناصب الدينية ، لمن خطبته لها رتبتان : العلم والعمل ، ومكّله الرتب السنية ، لمن وجدت فيه أهبتان : الورع والتقوى وعُدت منه خلتان : الحرص والأمل ، جاعل اختصاص الرتب بكفائها حلية الدول ، والنظر فى مصالحها الخاصة والعامة زينة أيامنا التى نتلفت إلى محاسنها أجياد الأيام الأولى .

نحمده على نعمه التى عصمت آراءنا من اعتراض الخلل ، وأمضت أوامرنا من مصالح الأمة بما تسرى به المحامد سرى النجوم ويسير به الشكر سير المثل .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لم نزل نستنطق بها فى الجهاد ، السنة الأسل ، ونوقظ لإقامتها عيون جلاذ ، لها الغمود جفون والسهام أهداب ، والسيوف مقل ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أظهر الله دينه على الأديان وشرف ملته على الملل ، وأسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى سدره

(١) جرى على اللغة العامية والافصواب العربية مشترياته بالياء .

المتنبى وعاد ولم يكمل الليل بين السير والقفل ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هجروا في المهاجر إليه الأحياء والحلل ، وشفوا بأسنة سنته العلل والغلل ، وتفردوا بكال المفاحر فإذا خلعت الأقلام على أوصافهم حلا غدت منها في أبهى من الحلل ، صلاة تتوالى بالعشى والإبكار وتتواتر في الإشراق والظفل ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى الرتب بإنعام النظر في آرتياد أكفائها ، وانتقاد فرائد الأعيان لها وانتقائها ، واستخارة الله تعالى في اختيار من يكون أمر دينه هو الميم المقدم لديه ، واستنارة التوفيق في اصطفاء من يكون مهم آخرته هو المرئى المصور بين عينيه ؛ مع ما أتصف به من محاسن سجايا جيلت عليها طباعه ، وخُصَّ به من سوابق مزايا رُحِبَ بها في تلقى المصالح الدينية صدره وباعه ، رتبتان يعم نفعهما ويخص ، ويحسن ويُعْهَمَا بما يُبْديهِ من أوصافه ويُقْصِّصُ ؛ ويتعلق كلُّ منهما بجماعة الأمة فردا فردا ، ويشتملان على منافعهم على اختلافها بدءاً وإعادةً وعكسا وطردا ؛ ويكون المتصدى لها مناقشا على حقوقهم وهم ساهون ، ومفتشا عن مصالحهم وهم عنها لاهون ؛ ومناضلا عنهم وهم غافلون ، ومشمرا للسعى في مصالحهم وهم في حبر الدعة رافلون ، ومتكلفا لاستماع الدعوى عنهم جوب فلوات الجواب ، ومتكفلا بالتحري في المحاوره عنهم وإصابة شاكلة الصواب ، ومؤديا في نصيحهم جهده تقربا إلى مراضينا وله عندنا الرضا وابتغاء ثواب الله : ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الثَّوَابِ ﴾ وهما وكالة بيت المال المعمور والحسبة الشريفة بالقاهرة المحروسة : فإن منافع وكالة بيت مال المسلمين عائدة عليهم ، آتلة بأحكام الشريعة المطهرة إليهم ؛ راجعة إلى ما يعمهم مساره ، معدة لما تدفع به عنهم من حيث لا يشعرون مضاره ؛ صائفة حقوقهم من تعدي الأيدي الغاصبه ، حافظة بيوت أموالهم من اعتراض الآمال

العاملية الناصبه ؛ وكذلك نظر الحسبة : فإنه من أخص مصالح الخلق وأعمها ،
 وأكد الوظائف العامة وأكملها استقصائية لمصالح الدينية والدنيوية وأتمها ، يحفظ
 على ذوى الهيئات أقدارهم ؛ ويبين بتجنب الهنات فى الصدر مقدارهم ، ويصون
 بتوقى الشبهات إيرادهم وإصدارهم ؛ وينزه معاملاتهم عن فساد يعارضها ، أو شبه
 تنافى كمال الصحة وتناقضها ؛ ويحفظ أوقاتهم من غش متلف ، أو غلو مجحف ؛
 إلى غير ذلك من أدوية لا بد من الوقوف على صحة ترتيبها وتركيبتها ، وتتبع الأقوال
 التى تجرى بها الثقة إلى غاية تجريبها ؛ ولذلك لا تجمعان إلا لمن أوقفه علمه على جادة
 العمل ، وأقتصر به ورعه على مادة الحق فليس له فى التعرض إلى غيره أمل ؛
 وسمت به أوصافه إلى معالم الأمور فوجد التقي أفضل ما يرتقى ، وعرضت عليه
 أدواته جوهر الذخائر فوجد العمل الصالح أكل ما ينتقد منها وما ينتقى ؛ وتحلى
 بالأمانة ، فصارت له خلقا وسجية ، وأنس بالنزاهة ، فكانت له فى سائر الأحوال للنجاة
 نجيته ؛ وأرته فضائله الحق حيث هو فتمسك بأسبابه ، وتشبث بأهدائه ، وأنصف
 به فى سائر أحواله فإن أخذ أخذ بحكمه وإن أعطى أعطى به ؛ وأحترز لدينه
 فهو به ضنين ، وأستوثق لأمانته وإن لم يكن فيها بحمد الله متهمًا ولا عليها بظنين ،
 وأجتنى ثمار المحامد الحلوة من كيام الأمانة المره ، وعلم أن رضا الله تعالى فى الوقوف
 مع الحق فوقف معه فى كل ماساءه للخلق وسره .

ولما كان فلان هو الذى أمسكت الفضائل بما كملها من آداب نفسه ونفاسه
 آدابه ، وتجاذبته الرتب للتحلى بمكانته فلم تكن هذه الرتبة بأحق به من مجالس العلم
 ولا أولى به ؛ وشهدت له فضائله معنى بما شهدت له به الأئمة الأعلام لفظا ،
 ونوهت بذكره العلوم الدينية التى أتقنها بحثا وأكملها دراية وأثبتها حفظا ؛ فأوصافه
 كالأعلام المشتقة من طباعه ، الدالة بدوامها على انحصار سبب الاستحقاق فيه

وَأَجْتَمَاعِهِ ؛ الْمُنْبَهَةِ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِهَذِهِ الْإِشَارَاتِ الَّتِي وَرَاءَهَا كُلُّ مَا يَجْمَدُ مِنْ
أَضْطِلَاعِهِ بِقَوَاعِدِ هَذِهِ الرُّتَبِ وَأَطْلَاعِهِ ؛ فَهُوَ سِرٌّ مَا ذَكَرَ مِنْ نَعَوْتٍ وَأَوْصَافٍ ،
وَمَعْنَى مَا شَهَرَ مِنْ مَعْدَلَةٍ وَإِنْصَافٍ ، وَرُقُومٍ مَاحِبٍّ مِنْ حُلَلٍ أَفِيضَتْ مِنْهُ عَلَى أَجْمَلِ
أَعْطَافٍ - رُسِمَ ^(١) أَنْ يَفُوضَ ^(١) تَفْوِيضًا يَقَعُ بِهِ الْأَمْرُ فِي أَحْسَنِ
مَوَاقِعِهِ ، وَنَضَعَ بِهِ الْحُكْمَ فِي أَحْمَدِ مَوَاضِعِهِ ؛ وَيُحِلُّ مِنْ أَجْيَادِ هَذِهِ الْمَنَاصِبِ مَحَلَّ
الْفَرَائِدِ مِنَ الْقَلَائِدِ ، وَيَقَعُ مِنْ رِيَاضِ هَذِهِ الْمَرَاتِبِ وَقُوعَ الْحَيَا الَّذِي سَعِدَ بِهِ
رَأَى الرَّائِدَ .

فَلْيَبَاشِرْهُاتَيْنِ الْوُضُفِيَّتَيْنِ مُرْهَفًا فِي مَصَالِحِهِمَا هَمَّةً غَيْرَ هَمَّةٍ ، مُجْتَهِدًا مِنْ قَوَاعِدِهِمَا ^(٢)
فِيمَا تَبَرَّأَ بِهِ عِنْدَ اللَّهِ مِنَّا وَمِنْهُ الذَّمُّ ، مُحَاقِقًا عَلَى حَقُوقِ بَيْتِ الْمَالِ حَيْثُ كَانَتْ
مُحَاقِقَةً مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَطْلُوبٌ بِذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ الْأُمَّةِ ؛ مُتَحَرِّيًا لِلْحَقِّ فَلَا يَغْدُو لِمَا يَجِبُ
لَهُ مُهْمَلًا ، وَلَا لِمَا يَجِبُ عَلَيْهِ مُمَاطِلًا ، وَاقِفًا مَعَ حُكْمِ اللَّهِ تَعَالَى الْجَلِيلِيِّ فِي الْأَخْذِ
وَالْعَطَاءِ فَإِنَّهُ سَيَّانٍ مَنْ تَرَكَ حَقًّا أَوْ أَخَذَ بَاطِلًا ؛ مُجْرِيًا عَوَائِدَ الْحِسْبَةِ عَلَى مَا أَلْفَ مِنْ
تَدْيِيرِهِ ، وَعُرْفٍ مِنْ إِتْقَانِهِ وَتَحْرِيرِهِ ، وَشُهْرٍ مِنْ أَعْتِمَادِهِ لِلوَاجِبِ فِي سَائِرِ أُمُورِهِ ؛
مُكْتَفِيًا بِمَا أُطْلِعَ عَلَيْهِ قَدِيمًا مِنْ مَصَالِحِهَا ، مُنْتَهِيًا إِلَى مَا سَبَقَتْ مَعْرِفَتُهُ بِهِ مِنْ
أَسْبَابِهَا وَمُنَاجِحِهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوقِّعُهُ فِي أَجْتِهَادِهِ ، وَيُعِينُهُ عَلَى مَا يَدِّخِرُهُ لِمَعَادِهِ ،
إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه وصيةٌ ويكل بيت المال أوردتها في "التعريف" :

وهو الوكيل في جميع حقوق المساميين وماله معهم إلا حق رجل واحد، والمكلف
بالمخاصمة عنهم حتى يُقرَّ الجاحد ؛ وهو القائمُ للدَّعْوَى لهم وعليهم ، والمطلوب من الله

(١) بياض في الموضوعين والغرض منه الاختصار والمبيض له مفهوم مما تقدم مرارا . (٢) أي غير ضعيفه .

ومتأ بما يُؤخذ لهم أو يُؤخذ من يديهم ؛ والمعد لتصحيح العقود ، وترجيح جهة بيت المال فى العقار المبيع والتمن المنقود ؛ والمتكلم بكتاب الوكالة الشرعية الثابتة ، والثابت القدم والأقدام غير ثابتة ؛ والمفسوح المجال فى مجالس الحكام ، والمجادل بلسان الحق فى الأحكام ؛ والموقوفة كل دعوى لم تُسمع فى وجهه أو فى وجه من أذن له فى سماعها ، والمرجوع إليه فى إماتة كل مخاصمة حصل الضجر من طول نزاعها ؛ وإبداء الدوافع ، ما لم يحدّ بدأ من الإشهاد عليه بعدم الدافع ، والانتهاى إلى الحق كان له أو عليه ولا يقف عند تثقيل مثقل ولا شفاعاة شافع ، وبوقوفه تُحدّد الحدود [وتمتحن الشهود] ويمشى على الطرق المستقيمة ، وتُحفظ لأصحابها الحقوق القديمة ؛ وبه يتم عقد كل بيع وإيجار إذا كانت المصلحة فيها لعامة المسلمين ظاهره ، ولهم فيما يوكل عنهم فيه الحظ والغبطة بحسب الأوقات الحاضره .

ونحن نوصيه فى ذلك كله بالعمل بما علم ، والانتهاى فى مقتضى قولنا إلى ما فهم ؛ وتقديم تقوى الله فإنه متى قدمها بين يديه سلم ، والوقوف مع رضا الله تعالى فإنه متى وقف معه غنم ؛ والعمل بالشرع الشريف كيفما توجهت به أحكامه ، والحدّر من الوقوف فى طريقه إذا نفذت سهامه ؛ ومن مات وله ورثة معروفة تستكمل بحقها ميراثه ، وتحوز بحظها تراثه ؛ لا يكلفهم ثبوتاً يكون من باب العنت ، والمدافعة بحق لا يحتاج [مستحقه]^(١) إلى زيادة ثبت ؛ وإنما أنت ومن كانت قضيتته منكروه ، والمعروف من مستحق ميراثه نكره ؛ فأولئك شدّد فى أمرهم ، وأوط شهداءهم فى الاستفسار منهم على جهرهم ؛ وتنبّع باطن الحال لعله عنك لا يتسّر ، ولا يمشى عليك فيه الباطل ويمشى شاهد الزور بكّيه ويتبحر ؛ فإن تحققت صحة شهاداتهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٢ .

والأفْشهرهم في الدنيا ودَعهم في الآخرة لا يُخفف عنهم العذاب ولا يفتر؛ وكل ما يُباع أو يُؤجر أَرجع فيه إلى العوائد، وتقلد أمر الصغير، وجدد لك أمراً منّا في الكبير، وذلك بعد مراعاة ما تجب مراعاته، والثاني كلّ الثاني حتى يثبت ما ينبغي إثباته؛ وشهود القيمة عليهم المدار، وبشهادتهم يُقدر المقدار؛ وما لم يكونوا من ذوى الأقدار، ومن أهل الخبرة بالبر والجدار، ومن أشتري العقار وأستغله وبني الدار؛ وإلا فاعلم أنّ مثله لا يرجع إليه، ولا يعول ولا سميّا في حق بيت المال عليه؛ فاتفق^(١) مع ولاة الأمور من أهل الأحكام، على تعيين من تعين لتقليد مثل هذه الشهادة، وتعرف منهم من له كلّ الخبرة حتى تعرف أنه من أهل الزهاده؛ ولك أن تدعى بحق المسلمين حيث شئت ممن ترى أن حقه عنده يترجح، وأن بيتهم تكون عنده أوضح؛ فأما الدعوى عليك فمن عاداتها أن لا تُسمع إلا في مجلس الحكم العزيز الشافعي - أجله الله تعالى - ونحن لا نغير العوائد، ولا ننقض ما بنت الدول السالفة عليه القواعد؛ فليكن في ذلك المجلس سماعها إذا تعينت، وإقامة البيئات عليها إذا تيسرت؛ والله الله في حق بيت المال، ثم الله الله في الوقت الحاضر والمآل؛ ومن تستنّبهم عنك بالأعمال لا تقرّ منهم إلا من تقرّ به عينك، ويوفى به عند الله لا بما تحصّله من الدنيا دينك؛ ومن كان لعمله مصلحاً، ولأمله منجحاً، لا تغبرّ عليه فيما هو فيه، ودعه حتى يتبين لك خافيه؛ ولتستقص في كلّ وقت عنهم الأخبار، ولتستعلم حقائق ما هم عليه بمن تستصحبه من الأخيار، ولا تزال منهم على يقين، وعمل بما فيه خلاص دنيا ودين.

(١) كذا في التعريف أيضاً والمراد أن المقومين يشترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات والا فلا يؤخذ

بتقويمهم ولا يعول على كلامهم.

الوظيفة الخامسة

(الخطابة)

وهى من أجلّ الوظائف وأعلاها رتبةً فى نفس الأمر . وموضوعها معروف .
وتختص هذه الطبقة من التواقيع بخطابة الجوامع .

وهذه نسخة توقيع بخطابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة ، حيث مصّلّى السلطان ،
من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ :

الحمد لله الذى أنار بالذّكر قلوب أوليائه ، وكشّف بالذّكرى بصائر أصفِيائه ،
وأنال أهل العلم بالإبلاغ عنه إلى خلقه وراثته أنبيائه ، وأختار لإدكارنا بألاء الله
من فُرسان المنابر من يُجاهد الأعداء بدُعائه ، ويُجاهر الأوداء من مواعظه بما يعلم
كلّ منهم أنّ فى مؤلّم صَوادِعه دواء دائه ، فإذا أفتتح بحمد الله أنبى عليه بهوادة علمه
حقّ ثنائه ، ونزّهه بما ينبغى لسُبُحات وجهه وجلالِ قُدسه وتقدّس أسمائه ، وأنبى
كما يجبُ على نبيّه صلّى الله عليه وسلم الذى آدمُ ومن بعده من الرسلِ تحت لوائه ،
وإذا تليّت على خيلِ الله خُطْبته تشوّقت بقاء أعداء الله إلى لقاءه ، وخطبتِ الحنان
من بذل نفوسها ونفائسها بما أفتنته فى سبيلِ الله لانتقائه .

نحمده على أن جعلنا لذكره مستمعين ، ولأمره ونهيه متبعين ، وعلى حمده فى كل
ملا من الأولياء مجتمعين .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال تختال بذكرها أعطاف
المنابر ، وتتعطر السنة الأعلام بما تنقله منها عن أفواه المحابر ؛ ونشهد أن محمداً
عبده ورسوله الذى هدى الله من تقدّم من الأمة بحُبره ومن تأخر بحُبره ، وجعل
روضة من رياض الجنة بين قبره ومِنبره ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين هم

أول من عُقدت بهم من الجُمع صلواتها، وأكرم من زُهيت به من الجهاد والمنابر صَوَّاتها؛ صلاةً لا نزال نُقيمها عند كلِّ مسجد، ونُدِيمها في كلِّ مُتَمِّم في الآفاقِ ومنجِد، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإنَّ أولى المنابر أن يُرتادَ له من أئمة العلماء علامةُ عصره، ورحلةُ مِصره؛ وإمامُ وقته الذي يصدع بالحق وإن صدع، وعالمُ زمانه الذي يقوم في كلِّ مقام بما يُناسبه مما يأخذ في الموعظةِ الحسنة وما يدع، منبرٌ نذَرُ بالاءِ الله على أعواده وإن لم نزل لها من الذَّاكرين، ونُنبه فيه على شكر الله بالرافة على خلقه وإن لم نبرح لها بذلك وغيره من الشَّاكرين، ونُسوقُ عليه إلى الجهاد في سبيل الله بما أعدَّ الله لنا على ذلك من النصر والأجر وإن كُنَّا على الأبدِ إليه مُبادرين، وإلى إقامةِ دعوة الحق به مُباكرين .

ولما كان فلان هو الذي تعين لرُقِّي هذه الرتبة فخطبَ لخطابتها، وتبين أنه كُفُوها الذي تتشوقُّ النفوس إلى مواعظه فترغبُ في إطاعتها لإطابتها - آقتضت آراؤنا الشريفة أن نحلِّي بفضائله أعطافَ هذا المنبر الكريم، وأن نختصَّ نحن وأولياؤنا بسماعِ مواعظه التي تُرغب فيما عند الله بجهادِ أعداء الله ﴿والله عنده أجرٌ عظيم﴾ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يُطالعُ في أفقِ المنابر من الأولياء شمساً مُنيره، ويُقيم شعائر الدين من الأئمة الأعلام بكلِّ مُشرقِ العلانية طاهر السريه - أن يفوضَ إليه كذا: فيحلَّ هذه الرتبة التي لم تُقرب لغيره جِادها، ويحلَّ هذه العقيلة التي لا تُزَن بسوى العلم والعمل أجِادها، ويرقَّ هذه الهَضبة التي يطول إلا على مثله صُعودها، ويلتق تلك العصبه التي تجتمع للأولياء به (؟) حشودها. وهو يعلم أنه في موقف الإِبلاغ عن الله لعباده، والإِعلام بما أعدَّ الله في دار كرامته لمن

جاهد في الله حق جهاده ، والإنذار لمن قصر في إعداد الأهبة ليوم معاده ، وهو
 محض من حمأة الإسلام ، ومشهد من قلدناه أمر أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة
 والسلام ؛ فليقصر خطبه على طاعة الله يحض عليها ، وعزيمة في سبيل الله يسوق
 إليها ، ومعدلة يصف ما أعد الله لولاة أمر قدمتها بين يديها ؛ وتوبة بيعت الهمم ، على
 تعجيلها ، وأوقات مكرمة ينبه الأمم ، على احترامها بتقوى الله وتبجيلها ؛ ودنيا ينذر من
 خداعها ، وبين للفتن بها ما عرف من خلائقها المذمومة وألف من طباعها ؛ وأخرى
 يوضح للعرض عنها وشك قُدومها ، ويحذر المقصر في طلابها من عذابها ويبشر المشمر
 لها بنعيمها . وليعلم أن الموعظة إذا خرجت من الألسنة لم تعد الأسماع ، ولم
 يحصل منها على غير تعقل القرائن والأشجاع ؛ وإذا خرجت من القلوب وقعت
 في مثلها ، وأثرت في الحال بالمحافظة على فرض الطاعة ونفيلها ؛ وسكنت في السرائر
 طباع طاعة تأبى على مُحاولِ نفلها ، وقدحت في البصائر من أنواع المعرفة ما لم يُعهد
 من قبلها . وليجعل خطبه في كل وقت مناسبة لأحوال مستمعها ، متناسبة
 في وضوح المقاصد بين إدراك من يعي غوامض الكلام ومن لا يعيها ؛ فخير الكلام
 ما قل ودل ، وإذا كان قصر خطبة الرجل وطول صلاته منبئين عن فقهه فما قصر
 من حافظ على ذلك ولا أخل ؛ وليوشح خطبه من الدعاء لنا وللمسلمين بما يرجو
 أن يوافق ساعة الإجابة ، وإذا تونحى الغرض بدعائه لعموم الأمة فقد تعينت
 - إن شاء الله - الإصابه ؛ وهذه الوصايا على سبيل الذكري التي تنفع المؤمنين ،
 وترفعُ المحسنين ، والله تعالى يجعله - وقد فعل - من أوليائه المتقين ؛ بمنه وكرمه ! ،
 إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية خطيب أوردتها في "التعريف" :

وَلْيُرَقَّ هَذِهِ الرَّتْبَةُ الَّتِي رُفِعَتْ لَهَا دُرَاهِمُ أَعْوَادِهَا ، وَقُدِّمَتْ لَهَا مِنَ الْمُنَابِرِ مُقَرَّبَاتٌ جَيَادِهَا ، وَلْيَصْعَدْ مِنْهَا عَلَى أَعْلَى دَرَجَةٍ ، وَلْيَسْعَدْ مِنْهَا بِصَهْوَةٍ كَأَنَّمَا كَانَتْ لَهَا مِنْ بَكْرَةِ يَوْمِهِ الْمَشْرِقِ مُسْرَجَةً ، وَلْيَرْعَ حَقَّ هَذِهِ الرَّتْبَةِ الشَّرِيفَةِ ، وَالذَّرْوَةَ الَّتِي مَا أَعَدَّتْ إِلَّا لِلْإِمَامِ فَرْدٍ مِثْلِهِ أَوْ حَلِيفِهِ ، وَلْيَقِفْ حَيْثُ تَحَقَّقُ عَلَى رَأْسِهِ الْأَعْلَامُ ، وَيَتَكَلَّمَ فَتَخْرَسَ الْأَلْسِنَةُ وَتَجْفُفَ فِي فَمِ الذَّرَا الْأَقْلَامِ ، وَلْيَقْرَعْ الْمَسَامِعَ بِالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ ، وَيَذْكُرْ بِأَيَّامِ اللَّهِ مَنْ (كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) .

وَيُلَيِّنِ الْقُلُوبَ الْقَاسِيَةَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مَا هُوَ أَشَدُّ قَسْوَةً مِنَ الْمِجَارَةِ وَالْحَدِيدِ ، وَلْيَكُنْ قَدْ قَدَّمَ لِنَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَقَدَّمَ ، وَلْيُسَيِّلِ عَلَيْهِ دِرْعَ التَّوْبَةِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمَ ، وَلْيَجْعَلْ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا يُقُومُ بِهِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ ، وَيَفُوقُ مِنْهُ سَهْمًا لَا يَحْطِئُ مَوْقِعَهُ كَلَّ فَوَادٍ ، وَلْيَقُمْ فِي الْحَرَابِ مَقَامَ مَنْ يَخْشَى رَبَّهُ ، وَيَخَافُ أَنْ يَحْطَفَ الْوَجَلَ قَلْبَهُ ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّ صَدْفَةَ ذَلِكَ الْحَرَابِ مَا أَنْفَلَقَتْ عَنْ مِثْلِ دُرَّتِهِ الْمَكْنُونَةِ ، وَصِنَادِيقِ الصُّدُورِ مَا أَطْبَقَتْ عَلَى مِثْلِ جَوْهَرَتِهِ الْمَخْزُونَةِ ، وَلْيُؤَمِّمْ بِذَلِكَ الْجَمِّ الْغَفِيرِ ، وَلْيَتَقَدَّمَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّهُ السَّفِيرُ ، وَلْيُؤَدِّ هَذِهِ الْفَرِيضَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَرْكَانِ ، وَأَوَّلِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ ، وَأَقْرَبِ الْقُرْبِ الَّتِي يَجْمَعُ إِلَيْهَا دَاعِيَ كُلِّ أَذَانٍ ، وَلْيَقُمْ بِالصَّلَاةِ فِي أَوْقَاتِهَا ، وَلْيُرِخْ بِهَا النَّاسَ فِي أَوَّلِ مِيقَاتِهَا ، وَلْيَخَفِّفْ مَعَ الْإِتْمَامِ ، وَلْيَتَحَمَّلْ عَمَّنْ وَرَاءَهُ فَإِنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ ، وَعَلَيْهِ بِالتَّقْوَى فِي عَقْدِ كُلِّ نِيَّةٍ ، وَأَمَامَ كُلِّ قَضِيَّةٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ مَنْ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ وَهُوَ مُسْرُورٌ ، وَيُنْصَبُ لَهُ مَعَ الْأَئِمَّةِ الْمُقْسَطِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ مَنَابِرٌ مِنْ نُورٍ ، بِمَنَّةٍ وَكْرَمَةٍ .

الوظيفة السادسة

(الإمامة بالجموع، والمساجد، والمدارس الجكار التي تصدر التولية
عن السلطان في مثلها)

وهذه نسخة توقيع بالإمامة :

أما بعد حمد الله على نعمه التي جعلت أيماننا الشريفة تزيد أهل الفضائل إكراماً،
وتخص بالسيادة والتقديم من أنشأه الله تعالى قوة أعين وجعله للبتقين إماماً، وقدمه
على أهل الطاعة الذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً .

والشهادة له بالوحدانية التي تكسو محاصها جلالاً وساماً، والصلاة والسلام على
سيدنا محمد الذي أم الناس وعلمهم الصلاة وأظهر في إقامة الدين مقالا محموداً
ومقاماً، وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بسنته وثقوا واعتصموا - فإن خير الرتب
في هذا العصر وفيما تقدم، رتبة الإمامة حيث تقدم سيد البشر في محرابها على الأمة
وأم، فاخترها من أتبع الطريق المحمدية وشرعها، وعلم سناءها ورفعها، فزاد بذلك
سُموا إلى سموه، وحصل على تضاعف الأجر ومؤد، وهو فلان .

رسم - لآ زالت أيامه الشريفة تشمل ذوى الأصلة والصدارة بجزيل فضلها،
وعوائد إنعامه تجرى بإتمام المعروف فتبقى الرتب الدينية بيد مستحقها وتسارع
إلى تخليد النعم عند أهلها - أن يستمر فلان في كذا جارياً فيه على أجمال العادات،
إعانة له على اكتساب الأجور بما يعتمده من تأهيل معهد العبادات، ورعاية
لتكثير المآثر، وترجيحاً لما أشتمل عليه من حسن النظر في كل إيراد وإصدار،
وتوفيراً للمناجح التي عرفت من بيته الذي كم ألف منه فعل جميل وعمل بار، ووثقاً

بأنه يعتَمِد في عمارة مساجد الله سبحانه وتعالى أنه تشهد به الملائكة المتعاقبون بالليل والنهار، والله تعالى يجعل النعم عنده مؤبدة الأستقرار؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة السابعة

(التدريس، وموضوعه إلقاء المسائل العلمية للطلبة)

وهذه نسخة توقيع بتدريس كُتِب به للقاضي عز الدين ابن قاضي القضاة بدر الدين بن جماعة، عوضاً عن والده، في جمادى الآخرة سنة ثلاثين وسبعائة، وهي :

الحمد لله متم فضله على كل أحد، ومقرّ النعمة على كل والد وولد، الذي خص أوليائنا ببلوغ الغايات في أقرب المدد، وأستصحاب المعروف فما ينزع منهم خاتم من يد إلا ليد .

نحمده بأفضل ما يحمده به من حمد، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة باقية على الأبد، ونصلي على سيدنا محمد نبيه الذي جعل شريعته واضحة الجدد، قائمة بأعلام العلماء قيام الأمد، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين شبههم في الهدى بالنجوم وهم مثلها في كثرة العدد، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن نعمنا الشريفة لا تتحول، ومواهبنا الجزيلة تتحول،^(١) وكرمنا يمهد منازل السعود لكل بدر يتنقل، وشيمنا الشريفة ترعى الذم لكل من أنفق عمره في ولائها، وتحفظ ماها من المآثر القديمة بإبقائها في نجباء أبنائها، مع ما نلاحظه في أستحقاق التقديم، وأنتخاب من ترقى منهم بين العلم والتعليم، وحصل

(١) بياض بالأصل ولعله لا تزال لأوليائنا تتحول . وفي اللسان "التحول التعهد وحسن الرعاية" .

فى الزمن القليل العلم الكبير ، واستمد من نور والده وهو البدر المنير ، وعلم بأنه فى الفضائل سر أبيه الذى شاع ، وخليفته الذى لو لم ينص عليه لما انعقد [إلا] عليه الإجماع ، والواحد الذى ساد فى رتبة ابيه وما خلت من مثله - لا أخلى الله منه اليقاع ! .

وكان المجلس السامى ، القضاى ، الفلانى ، هو المراد بما قدمنا من صفاته الجميله ، وتوسمنا أنه لمعة البدر وهى لا تخفى لأنها لا ترد العيون كليله ، ورأى والده المشار إليه من استحقاقه ما اقتضى أن ينوه بذكره ، وينبه على المعرفة بحق قدره ، فآثر التزول له عما باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصر المحروسة ليقيم مقامه ، ويقرر فوائده وينشر أعلامه ، ويعلم أنه قد حلق فى العلياء حتى لحق البدر وبلغ تمامه ، فعلمنا أن البركة فيما اشار ، وأن الأيمن بحمد الله فيما رجحه من الاختيار .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - زاد الله فى شرفه ، وجعل أقطار الأرض فى تصرفه - أن يرتب فى هذا التدريس عوضاً عن والده ، أطال الله بقاءه على عادته وقاعدته إلى آخر وقتٍ لأنه أحق من استحق قدره الرفيع التميز ، وأولى بمصر من سواه لما عرفت به مصر من العزيز ثم من عبد العزيز .

ونحن نوصيك أيها العالم - وفقك الله - بالمداومة على ما أنت بصدده ، والمذاكرة للعلم فإنك لا تكاثر العلماء إلا بمدده ، والعمل بتقوى الله تعالى فى كل قصد وتصدير ، وتقريب وتقريب ، وتأثيل وتأثير ، وتقليل وتكثير ، ونص وتأويل ، وترتيب وترتيب ، وفى كل ما تزداد به رفعتك ، وتطير به سمعتك ، ويحسن به الثناء على دينك المتين ، ويقوم به الدليل على ما وضع من فضلك المبين .

وأعلم بأنك قد أدركت بحمد الله تعالى وبكرمنا وبأيك وباستحقاقك ما آرتد به كثير عن مقامك ، ووصلت في البداية إلى المشيخة في زاوية إمامك ؛ فاعمل في إفادة الطلبة بما يرفع الرافعي لك به الراية ، ويأتم بك إمام الحرمين في النهاية ؛ فقد أمسيت جار البحر فاستخرج جمانه ، وأجتهد لتصيب في فتاويك فإن أوليك سهام رميها من كانه ؛ وسبيل كل واقف عليه العمل بمقتضاه والاعتد^(١) .



وهذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعي بالجامع العتيق أيضا ، من إنشاء المولى زين الدين بن الخضر موقع الدست ، كتب به لتاج الدين محمد الإخنائي شاهد خزانة النخلص ، بالنيابة عن عمه قاضي القضاة تقي الدين المالكي في أيام حياته ، مستقلا بعد وفاته ، وهي :

أما بعد حمد الله على أن زان مجالس المدارس في أيامنا الشريفة بتاجها ، وأقرها من ذوى الإنابة من يستحق النيابة عن تقي قوى الأحكام بإحكامها وإتاجها ، ورفع قدر بيت مبارك طالما أشتهر علم علمه وصدر عن صدره فكان مادة مسرة النفس وأبتهاجها ، وجعل عوارفنا ترعى الدريرة الصالحة في عقبها وتولى كل رتبة من أضحى لأهلها بوجاهته مواجها ؛ والشهادة له بالوحدانية التي تنفى شرك الطائفة الكافرة ومعلول احتجاجها ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي استقامت به أمور هذه الأمة بعد أعوجاجها ، وتشرفت به علمؤها حتى صارت كأنبياء بنى إسرائيل بحسن استنباطها للجمل وجميل استخراجها ؛ وعلى آله وصحبه الذين علموا وعملوا وأوضحوا لهذه الملة قويم منهاجها - فإن أولى الأولياء ببلوغ الأمل ، وتعاهد

(١) أى الى آخر ما يقال في مثله .

مدارس العلم بصالح العمل ؛ وإظهار سرِّ الفوائد للطالبيين ، وحلَّ عقود مُشكِها
بجميل الأطلاع وحسن اليقين ، من حوى معرفة الفروع والأصول ، وحاز من
مذهبه المذهب خيرَ محصول ؛ ونشأ في حجر الفضائل ، وأقتدى بحكَّام بيته الذين لهم
في العلوم بمصر والشام أوضح البراهين وأقوى الدلائل ؛ وله في الآباء والأبوة ،
الديانةُ التي بلغ بها من الإقبال مرَّجوه ؛ طالما سارت أحكامُ عمه - أجله الله -
في الأقطار ، وحكم فأبدى الحكم بين أيدينا أوفى الأمصار ، وله العفاف والتقى والمآثر
الجميلة وجميل الآثار ؛ والفتاوى التي أوضح بها مُشكِلا ، وفتح مقفلا ، والفصل بين
الخصوم بالحقُّ المُجْتَلَى ؛ والبركة التي لدولتنا الشريفة منها نصيبٌ وافر ، والتصميمُ
الذي أقترن بغزارة العلم والوقار الظاهر ؛ فهو - أعز الله أحكامه - من العلماء
العاملين ، وله البُشرى بما قاله أصدق القائلين ؛ في النبيا الذي تتمُّ به الزيادة والنماء :
﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ .

ولما كان المجلس السامى هو الذى أستوجب التصدير لإلقاء الدروس ، وأضحى
مالِكًا مالكا أزمّة الفضائل حائراً من أنوابها أنخر ملبوس ؛ وله بجزارة خاصنا
الشريف وإصطبلاته السعيدة الشهادة البيّنه ، والكتابة التي هي العزُّ الحاضر
فلا يحتاج معها إلى إقامة بيّنه ، والكفالة التي نطقت بها الأفواه مُسرة ومُعَلِّنه ،
والأمانة التي حدّا فيها حدو أبيه وأتبع سننه .

فلذلك رُسم - لا زال يُديم النعم لأهلها ، ويُبقي المراتب الدينية لمن أضحى محلّه
مناسبا لمحلّها ، أن يستقر ... (١) ... فلينب عن عمه في هذا التدريس ،
وليَقْف ما يسر النفوس من أثره النفيس ؛ وليُقَد الطلبة على عادته ، وليُبد لهم من

(١) بياض بالأصل ومراده في تدريس زاوية الشافعى الخ .

التقول ما يُظهِر غزير مادته ، وليستنبط المسائل ، وليُجِبْ بالأدلة المسائل ، وليرَبِّحِ
المباحث ، وليكن لوالده - رحمه الله - أحق وارث ، وليستقلَّ بهذه الوظيفة المباركة
بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالى ، وليتزيّد من العلوم ليلبغ من صدقاتنا الشريفة آمالاً ،
والله تعالى يسدّد له بالتقوى أقوالاً وأفعالاً ، بمنه وكرمه .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية المجاورة لثربة الإمام الشافعي
رضى الله عنه ، كتب به لقاضي القضاة تقي الدين ، ابن قاضي القضاة تاج الدين
ابن بنت الأعز . من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهي :

الحمد لله شافعي عيّ البعث بخير إمام شافعي ، والآتي منه في الزمن الأخير بمن
لو كان في الصدر الأول لأثنى على ورعه ودينه كل صحابي وتابعي ، ومفيد الأسماع
من وجيز قوله المحرر ما لولا السبق ما عدل إلى شرح وجيز سواء الرافعي .

نحمده على نعم ألهمت وضع الأشياء في محلها ، وأستيداعها عند أهلها ، وتأتيها
بما يزيل الإشكال بانجذاب من شكله مناسب لشكلها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يتزيّن بها المقال ، ويتبين بها
الحق من الضلال ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله ونبيّه موصح الطرق إلى الحق
المبين ، وناهجها إلى حيث مجتمع الهدى ومرتبّع الدين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
صلاة تهدي إلى صراط الذين ، ورضى الله عن أصحابه الذين منهم من جاء بالصدق
وصدق به فقوى سبب الدين المتين ، ومنهم من فرق بين الحق والباطل وكان إمام
المتقين وسُمّي أمير المؤمنين ، ومنهم من جهّز جيش العسرة فنبت جأش المسلمين ،

ومنهم من أعطاه صلى الله عليه وسلم الراية فأخذها منه باليمين ، ورضى الله عن بقية الصحابة أجمعين .

وبعد ، فلما كان مذهب الإمام الشافعى «محمد بن إدريس» رضى الله عنه هو شهدة المتلفظ ، وكفاية المتحفظ ، وبهجة المتأخض ، وطراز ملبس الهدى ، وميدان الأجهاد الذى لا تقف أعنة جواده عن إدراك المدى ، وقد تجملت ديار مصر من بركة صاحبه بمن تُشد إليه الرحال ، وتفخر جبانة هو فيها حال ، وجيد هو بجواهر علومه حال ، ومن يحسن إلى ضريحه المنيف الأسناد ، وإذا قرئت كتبه لديه قيل ما أبعد هذا المرعى الأسنى ! وما أقرب هذا الإسناد ! ، وما أسعد حلقة تجمع بين يدي جدته يتصدر فيها أجل خبر ، ويتصدى لنشر العلوم بها من عرف بحسن السيرة عند السبر ، ومن لولا خرق العوائد لأجاب بالشكر والثناء عليه صاحب ذلك القبر كما قال : «قال صاحب هذا القبر» - حسن بهذه المناسبة أن لا ينصب في هذا المنصب إلا من يحمد هذا السيد الإمام جواره ، ومن يرضيه منه - رضى الله عنه - حسن العبارة ، ومن يستحق أن يتصدر بين نجوم العلماء بدارة تلك الخطة فيقال قد حمل الله به دارة هذا البدر وعمر به من هذا المدرس داره ، الذى يفتقر إلى تويل نعمه ، وتويله قلمه ، من الأئمة كل غنى ، ويعجب ببلاغة خطبه ، وصياغة كتبه ، من يحتلى ومن يحتنى ، ومن يهنا المستفيدون من عدوية ألفاظه وصفاء معانيه بالموارد الهني ، ومن إذا سمع سخابه الهطال أعترف له بالهمم والهمول المزنى ، والذى لسعد جدته من أبيه ليث أكرم به من ليث وأكرم بينه من أشبال ! ، وأعزز به من فاتح أبواب إشكالات عجز عن فتحها القفال ! ، ومن إذا قال سكت الناس ، ومن إذا قام قعد كل ذى شماس ، وإذا أخذ بالنص ذهب الأقياس ، وإذا قاس قيل هذا بحر المذهب المشار إليه بالأصابع فى مضره جلالة ولا ينكر لبحر المصر الإشارة

بالأصابع ولا القياس؛ ومن يزهو بتقى قلبه ورتقى جوابه لسان التعويل ولسان التعويد، كما يُميس بإحاطته وحياطته قلم الفتوى وقلم التنفيد، ومن يفخر [به] كل عالم مفيد إذا قال: أنا بين يديه طالب وأنا له تلميذ؛ ومن حينما ألقت وجدت له سُودداً جماً، وكيفما نظرت رأيت له من هنا وزارة، ومن هنا خطابة، ومن هنا مشيخة، ومن هنا تدريسا، ومن هنا حُكماً!!!؛ فهو الأصل ومن سواه فروع، وهم الأئمة وهو الينبوع؛ وهو مجموع السيادة، المختار منه الإفاده، فما أحسنه من اختيار وما أتمه من مجموع، وكان قاضي القضاة، سيد العلماء، رئيس الأصحاب، مقتدى الفرق، قدوة الطوائف، الصاحب تقي الدين «عبد الرحمن» ولد الصاحب قاضي القضاة تاج الدين بن [بنت] الأعز أدام الله شرفه، ورحم سلفه، هو منتهى رغبة الراغب، ومُستهى منية الطالب؛ ومن إذا أضاءت ليالي القوس بأقمار فتاويه قيل (بياض العطايا في سواد المطالب)، ومن نتفق الآراء على أنه ليس الكهولة شيخ المذاهب؛ ومن عليه يحسن الاتفاق، وبه يجمل الوفاق، وإذا ولي هذا المنصب أتهج بولايته إياه مالك في المدينة وأبو حنيفة وأحمد رضي الله عنهم في العراق؛ وأهترت به ومجاورة فوائده من ضريح إمامه جوانب ذلك القبر طرباً، وقالت «الأم» لقد أبهجت - رحم الله سلفك - بجذك وإبائك جدًا وأبا، ولقد استحققت أن يقول لك منصب سلفك رضي الله عنهم: أهلاً وسهلاً ومرحباً، وهذه نسمات صبا، كانت الإفادة هنالك تعرفها منك من الصبا.

فالحمد لله على أن أعطى قوس ذلك الخراب بارياً، وخص بشق سهامها من لا يزال سعده مبارياً، وجمل مطلع تلك السماء بيدركم باتت [عليه] الدرر تحسد دَرَارياً؛ وأطم حسن الاختيار أن يجري القلم بما يحسن بالتوقيع الشريف موقعه، ويجل في أثناء الطروس وضعه وموضعهُ.

فُرِسِم بالأمر الشريف العالى المولوى ، السلطانى : - أجزاه الله بالصواب ،
وكشف بارتبائه كل أرتياب ، ولا زال يختار وينتقى للنصاب الدينية كل عالم
بأحكام السنة والكتاب - أن يفوض إليه تدریس المدرسة الصلاحية الناصرية
المجاورة لضريح الإمام الشافعى بالقرافة رضى الله عنه . فليخول ولينول كل
ذى استفاده ، وليجمل منه بذلك العقيد الثمين من علماء الدين بأفهم واسطة تفخر بها
تلك القلادة ؛ وليذكر من الدروس ما يبرج الأسماع ، ويرضى الانتجاع ، ويجاد به
الانتفاع ، ويحتلبه من أخلاف الفوائد ارتضاء الارتضاع ، ويتناقل الرواة
فوائده إلى علماء كل أفق من البقاع ؛ وليقل فإن الأسماع لفوائده منصته ،
والأصوات لمباحته خاشعة والقلوب لمهابته محمته ؛ ولينهض قوى المسائل بما
يحصل لها أعظم اتعاش ، وليمت ما أماته إمامه من البدع فيقال به له : هذا محمد
ابن إدريس مدقمت أنت عاش ؛ وليسمع بعلمه من به من الجهل صم ، وليستنطق
من به من الفهاهة بكم ، وليحقق عند الناس بتعصبه هذا الإمام أنه قد قام بالتنويه
به الآن الحاكم ابن الحاكم أخو الحاكم كما قام به فيما سلف بنوع عبد الحكم .

وأما غير ذلك من الوصايا فهو بحمد الله صاحب إلهامها ، وجالب أقسامها ؛
وجهينة أخبارها ، ومطلع أنوارها ؛ فلا يعاد ، عليه ما منه يستفاد ، ولا يثر عليه دثر
هو منظمه في الأجياد ؛ والله تعالى يعمر بسيادته معالم الدين وأكافه ، ويزين بفضله
المتين أوساط كل مصر وأطرافه ، ويضيف إليه من المستفيدين من بإرفاقه
وإشفاقه يكون عيشه خفضا بتلك الإضافة ، ويعمله لا يخصص حنوه بمعهد دون
معهد ولا بمسافة دون مسافة ، ويقيه ومنفعته إلى سارية سارية الإطافة واللطافة ،
وألطافة بهذه الولاية تقول لكل طالب في القرافة القى رافه .

قلت : ولما توفى قاضي القضاة بدر الدين بن أبي البقاء - تغمده الله تعالى برحمته - وكان من جملة وظائفه تدريس هذه المدرسة ، كان السلطان قد سافر إلى الشام في بعض الحركات ، فسافر أبْنُه أفضى القضاة جلال الدين حتى أدرك السلطان بالطريق ، على القرب من غزّة ، فولاه الوظيفة المذكورة مكان أبيه ، وكان القاضي نور الدين بن هلال الدولة الدمشقيّ حاضراً هناك ، فأشار إليه القاضي فتح الدين فتح الله كاتب السر الشريف - عامله الله بلطفه الخفيّ - بإنشاء صدر لتوقيعه ، يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية ، فأنشأ له سجعيتين ، هما :

الحمد لله الذي أظهر جلال العلماء الشافعية بحضرة إمامهم ، وأقام سادات الأبناء مقام آباءهم في بث علومهم وصلاتهم وصيامهم . ولم يجاوز ذلك إلى غيره ، فسُطر التوقيع بهاتين السجعتين ، وعُلم عليه العلامة السلطانية .

وكان من قول نور الدين بن هلال الدولة للقاضي جلال الدين المذكور : إنَّ هذا التوقيع يبقُ أبيض : فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكلمته على هذا الأسلوب . فسمع القاضي كاتب السر كلامه ، فكتب لي بتكلمته على ظهره ، وعاد به القاضي جلال الدين فأعطانيه ، وأخبرني بكلام ابن هلال الدولة وما كان من قوله ، فتدكأت عن ذلك ، ثم لم أجِدُ بداً من إكالمه وإن لم أكن من فرسان هذا الميدان ، فأنشأت له على تينك السجعتين ما أكلته به ، بخاء منه تلو السجعتين السابقتين اللتين أنشأهما ابن هلال الدولة :

وخصّ برياسة العلم أهل بيتٍ رأَتْ كهُولهم في اليمظة ما يمتنى شيوخ العلماء أن لوراؤوه في منامهم .

وجاء من وسطه :

أقتضى حُسنُ الرأى الشريف أن نُتَوَّهَ بذكره، وتقدّمه على غيره ممّن رام هذا المقام فحُجِبَ دُونَهُ (واللهُ غَالِبٌ على أمرِهِ) .

وجاء فى آخره :

والله تعالى يرقّيه إلى أرفع الذرّاء، وهذه الرتبة وإن كانت بدايةً فهى نهايةٌ غيره (وإنّا لنرجو فوق ذلك مظهرًا) .

وقد أعوزنى وجدانُ النسخة عند إرادة إثباتها فى هذا التأليف لضَياعُ مُسوّدّتها ولم يحضرنى منها غيرُ ما ذكرته . وفيما تقدّم من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر من توقيع القاضى تقيّ الدين ابن بنت الأعز ما لا ينظر مع وجوده إلى غيره .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية بمصر، المختصة بالمالكية، المعروفة بالقمحية، بمصر المحروسة، أنشأته لقاضى القضاة جمال الدين الأقفهسى، وهى :

الحمد لله الذى زين معالم المدارس من أعلام العلماء بجّالها، وميز مراتب الحكمة بإجراء سوابق الأفكار فى ميادين الدروس وفسيح مجالها، وعمّر معاهد العلم بأجلّ عالم إذا ذكرت وقائع المناظرة كان رأس فُرسانها ورئس رجالها، وناطق مقاصد صلاح الدين بأكل حبر إذا أوردت مناقبه الماثورة تمسك أهل الديانة منها بوثيق جبالها .

نحمده على اختيار الجوهر والإعراض عن العَرَض ، والتوفيق لإدراك المرامى وإصابة الغرض .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى خصَّ أهل العلم بكريمِ حَبَائِهِ ،
 وشرفَ مقامهم فى الخليفة جَعَلَهُمْ فى حَمْلِ الشريعة ورثةَ أنبيائه ؛ شهادةً تُعَذِّبُ
 لقائلها بحسن الإيرادِ وِرْدًا ، وتُجَدِّدُ لمتحليها بمواطنِ الذِّكْرِ عهدًا فيتخذُ بها عند
 الرحمنِ عهدًا ؛ ونشهدُ أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله أفضلُ نبيِّ علمٍ وعلمٍ ، وأكرمُ
 رسولٍ فصلَّ الأحكامَ إذ شرعَ ونَدَّبَ وأوجبَ وحلَّلَ وحرمَ ؛ صلى الله عليه وعلى
 آله وصحبه الذين عنوا بتفسيرِ كتابِ الله تعالى فأدرُّكوا دقيقَ معانيه ، وأهتمُّوا
 بالحديثِ روايةً ودرايةً ففازوا بتأسيسِ فقهِ الدين وإقامةِ مبانيه ؛ صلاةً تُحيطُ من
 بحارِ العلمِ بزائريها ، وتأخذُ من الدروسِ بطرفيها فتقارنُ الحمدَ فى أولها وتصحَبُ
 الدعاءَ فى آخرها ؛ ما تُتَّبَعُ بالمتقولِ مواقعَ الأثرِ ، وعُوقِلَ فى المعقولِ على إجمالةِ الفكرِ
 وإجادةِ النظرِ ، وسلِّمَ تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ أولى ما صرفت النفوسُ إليه همَمَها ، وأخلصتْ فيه نيَّتَها وخلصتْ
 من تبعاتِهِ ذمَمَها ؛ وتبعتْ فيه آثارَ من سلفَ من الملوكِ الكرامِ ، وأعارتهِ كلِّ نظريها
 وقامتْ بواجبه حقَّ القيامِ - أمرُ المدارسِ التى هى مسقطُ حجرِ الأشتغالِ بالعلمِ
 ومستقرُّ قاعدتهِ ، وقُطِبَ فَلَكَ تطلُّبه ومُحيطُ دائرتهِ ؛ وميدانُ فرسانِ المشايخِ ومدارِ
 رجالِها ، وموردُ ظمَاءِ الطَّلَبَةِ ومُحطُّ رحالِها ؛ لا سيمَّا المدارسُ الأيوبيةِ التى أُسِّسَ
 على الخيرِ بناؤها ، وكانَ عن صلاحِ الدين منشؤها فتألَّقَ برِقَمِها وأستطارَ ضياؤها .

ومن أثبتَها وشيَّقَهُ ، وأمثلها فى الترتيبِ طَريقَهُ ؛ المدرسةُ القمحيةُ بالقُسْطاطِ
 الآخذةُ من وجوهِ الخيرِ بنطاقِها ، والمخصوصُ بالسادةِ المالكيةِ أمتدادُ رواقِها ؛
 إنَّ أَعْتَبِرَتْ رعايةُ المذاهبِ قالتْ : مالِكٌ وما مالِكُ ، وإنَّ عُمِلَتْ حِسبةُ المدارسِ
 فى البرِّ ، كانتْ لها فدَالِكُ ؛ وقد رتَّبَ بها أربعةَ دُروسٍ فكانتْ لها كالأركانِ الأربعةِ ،
 وجُعِلتْ صدقَتُها الجاريةُ بُرًّا فكانتْ أعظمَ بُرًّا وأعمَ منفعه .

ولما كان المجلس العالى، القاضوى، الشيخى، الكبرى، العالى، العالمى، الأفضلى، الاكلى، الأوحدى، البلىغى، الفرىدى، المفىدى، النجىدى، القدوى، الحجى، المحققى، الإمامى، الجمالى: جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العاملين، أوحد الفضلاء المفيدىين، قدوة البلغاء زين الأمة، أوحد الأئمة، رُحلة الطالبين، نحر المدرسين، مفتى الفرق لسان المتكلمين، حجة المناظرين، خالصة الملوك والسلطين، ولي أمير المؤمنين، أبو محمد «عبد الله الأقفهسى» المالكى - ضاعف الله تعالى نعمته - هو عين أعيان الزمان، والمحدث بفضله فى الآفاق وليس الخبر كالعيان، ماولى منصباً من المناصب إلا كان له أهلاً، ولا أراد الانصراف من مجلس علم إلا قال له مهلاً، ولا رمى إلى غاية إلا أدركها، ولا أحاط به منطقتة طلبية إلا هزها بدقيق نظره للبحث وحركها، إن أطل فى مجلسه أطاب، وإن أوجز قصر محاوره عن الإطالة وأتاب، وإن أورد سؤالاً تجز مناوئته عن جوابه، أو فتح باباً فى المناظرة أحجم مناظره عن سدّ بابيه، وإن ألم ببحث أربى فيه وأناف، وإن أفتى بحكم آندفع عنه المعارض وأرتفع فيه الخلاف، فنوادره المدونة فيها البيان والتحصيل، ومقدماته المبسوطة لإجمالها يغنى عن التفصيل، ومشاركه النيرة لا يافل طالعها، ومداركة الحسنه لا يسأم سامعها، وتهذيبه المهذب جامع الأمهات، وجواهره الثمينه لا تقاوم فى القيمة ولا تضاهى فى الصفات - أقتضى حسن الرأى الشريف أن نتوه بذكره، ونقدمه على غيره، ممن حاول ذلك فامتنع عليه ﴿والله غالب على أمره﴾ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى، المولى، السلطانى، الملكى، الناصرى، الزينى - لا زالت مقاصده الشريفه فى مذاهب السداد ذاهبه، ولا غراض الحق والاستحقاق صائبه - أن يستقر المجلس العالى المشار إليه فى تدريس المدرسه

الصَّلاحِيَّة بِمِصْرِ المَحْرُوسَةِ المَعْرُوفَةِ بِالقَمَحِيَّةِ عِوَضًا عَنِ فِلانِ الفِلانِي ، عَلَيَّ عَادَةٌ مَن تَقَدَّمَهُ .

فَلِيَتَلَقَّ ذَلكَ بِالقَبُولِ ، وَيَسُطِّ في مِجالِسِ العِلْمِ لسانَهُ فَمَن كانَ بِمِثابَتِهِ في الفِضْلِ حَقٌّ لَهُ أَن يَقُولَ وَيَطُولَ ؛ وَمِلاكُ الأَمْرِ تَقوُّى اللهُ تَعالَى فِهِيَ خَيْرُ زادٍ ، وَالوِصايا كَثيرةٌ وَعَنهُ تُؤخَذُ وَمَنهُ تُسْتَفادُ ؛ وَاللهُ تَعالَى يَبلِّغُهُ مَن مِقاوِدُهُ الجَميلَةَ غايَةَ الأَمَلِ ، وَيَرقيُّهُ مَن هِضابِ المَعالىِ إلى أَعلىِ مَراتِبِ الكِمالِ وَقَد فَعَلَ ؛ وَالإِعْتِدادُ عَلَيَّ الخِطِّ الشَريفِ أَعلاهَ اللهُ تَعالَى أَعلاهَ ، حِجَّةٌ بِمِقتِضاهُ ؛ إِنْ شاءَ اللهُ تَعالَى .



وهذه نسخة توقيع أيضا بتدريس المدرسة الصلاحية المذكورة، أنشأته للقاضي شمس الدين محمد ابن المرحوم شهاب الدين أحمد الدفري المالكي، في شعبان سنة خمس وثمانمائة، وهو :

الحمدُ اللهُ مُطَمِّعِ شَمِيسِ الفِضائِلِ في سَماءِ مَعالِيها ، وَمَبَلِّغِ دَرارِيِ الدَّرارِيِ النَبِيمةِ الذِّكْرِ بِسَعادَةِ الجَدِّ غايَةَ غَيرِها في مَبادِيها ؛ وَجاعِلِ صِلاحِ الدِّينِ أَفضَلَ قَصيدٍ فَووقَ العِنايةِ سِهامِها بِإِصابةِ غَرَضِهِ في مَرامِيها ، وَمَجَدِّ مَعالِمِ المِدارِسِ الدارِسةِ بِخَيْرِ نَظَرٍ يَقضِي بِتَشْييدِ قِواعِدِها وإِحكامِ مَبانِيها .

نَحْمَدُهُ عَلَيَّ أَن صَرَفَ إلى القِيامِ بِنَشْرِ العِلْمِ الشَريفِ أَهتامَنا ، وَجَعَلَ بِخِيارِهِ العائِدَةَ إلى التَوفيقِ في حُسنِ الإِختِيارِ اِعْتِصامَنا .

وَنشَهدُ أَن لا إِلهَ إِلا اللهُ وَحَدَهُ لا شَريكَ لَهُ مُفَيضُ نِتايجِ الأَفكارِ مِنَ وافرِ إِمدادِهِ ، وَمُخَصَّصُ أَهْلِ التَحقيقِ بِدَقِيقِ النَّظَرِ تَخِصِصِ العِمامِ بِقَصرِهِ عَلَيَّ بَعْضِ أُنرادِهِ ؛ وَنشَهدُ أَنَّ سَيدَنا مُحَمَّدًا عَبدَهُ وَرِسالَهُ أَوْفَرَ البَريَّةِ في الفِضْلِ سَمَما ، وَالقائِلُ

تنويهاً بفضيلة العلم : « لا بُورِكَ لِي فِي صَبِيحَةِ يَوْمٍ لَا أَزْدَادُ فِيهِ عَلَمَا » صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ حُلُّوا مِنَ الْفَضْلِ جَوَاهِرَهُ الثَّمِينَةَ ، وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِي التَّابِعِينَ الَّذِينَ ضُرِبَتْ أَبَاطُ الْإِبِلِ مِنْهُمْ إِلَى عَالِمِ الْمَدِينَةِ .

وبعد ، فإنَّ أَوْلَى مَا صُرِفَتْ إِلَيْهِ الْهِمَمُ ، وَبَرَّتْ بِتَأْدِيَةِ حَقِّهِ الدَّمَمُ ، وَغَدَّتْ النُّفُوسُ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِ مُشْتَغَلَةً ، وَالْفِكَرُ لَشَرَفِ مَحَلِّهِ مِنْهُ إِلَى غَيْرِهِ مُنْتَقِلَةً ، النَّظَرُ فِي أَمْرِ الْمَدَارِسِ الَّتِي جُعِلَتْ لِلْإِسْتِغَالِ بِالْعِلْمِ سَبَبًا مَوْصُولًا ، وَلَطَبَّتْهُ رَبْعًا لَا يَزَالُ يَجَالِسُ الذِّكْرَ مَأْهُولًا ؛ لِاسْمِ الْمَدَارِسِ الَّتِي قَدْ قَدَّمَ فِي الْإِسْلَامِ عَهْدُهَا ، وَعَدَّبَ بِاسْتِمْرَارِ الْمَعْرُوفِ عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ وَرُدُّهَا .

ولما كانت المدرسة الصَّلاحية بفسطاطِ مصر المحروسة قد أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى بُنْيَانِهَا ، وَمُهَّدَتْ عَلَى الْخَيْرِ قَوَاعِدُهَا وَأَرْكَانُهَا ، وَأَخْتَصَّتْ طَائِفَةُ الْمَالِكِيَّةِ مِنْهَا بِالْخِصِيصَةِ الَّتِي أَغْنَى عَنْ بَاطِنِ الْأَمْرِ عُنْوَانُهَا ؛ وَكَانَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ هُوَ الَّذِي خَطَبَتْهُ الرَّتَبُ الْجَلِيلَةُ لِنَفْسِهَا ، وَعَيْتَتْهُ لِهَذِهِ الْوُضُفِيَّةِ فِضَائِلُهَا الَّتِي قَدْ آتَى اللَّهُ الْحَمْدُ بِزُرُوعِ شَمْسِهَا ، وَعَهَّدَتْ مِنْهَا الْمَعَاهِدُ الْجَلِيلَةُ حَسْنَ النَّظَرِ فَتَأَقَّتْ فِي يَوْمِهَا إِلَى مَا أَلْفَتْ مِنْهُ فِي أَمْسِهَا - أَقْتَضَى حُسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ تُفْرَدَ بِهِذِهِ الْوُضُفِيَّةِ الَّتِي يَقُومُ إِفْرَادُهَا فِيهَا مَقَامَ الْجَمْعِ ، وَنَجَّحَ لَهُ مِنْ طَرَفَيْهَا مَا يَتَّفِقُ عَلَى حُسْنِهِ الْبَصَرُ وَيَقْضِي بِطَيْبِ خَبَرِهِ السَّمْعُ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلُويِّ ، السَّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، النَّاصِرِيِّ ، الزَّيْنِيِّ : - لَا زَالَ يُقِيمُ لِلدِّينِ شِعَارًا ، وَيَرْفَعُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ مِقْدَارًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي الْوُضُفِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ لِمَا أَشْتَهَرَ مِنْ عِلْمِهِ وَدِيَانَتِهِ ، وَبَانَ مِنْ عَقَّتِهِ الْمَشْهُورَةِ وَزَاهَتِهِ ؛ وَاتَّصَفَ بِهِ مِنَ الْإِفَادَةِ ، وَعُرِفَ [عَنْهُ] مِنْ نَشْرِ الْعُلُومِ فِي الْإِبْدَاءِ

والإعاده ؛ وشاع من طريقته المعروفة في إيضاحه وبيانه ، وذاع من فوائده التي قدمته على أبناء زمانه ، ورفعتَه إلى هذه المرتبة باستحقاقه على أقرانه .

فليُباشِرْ تدريسها مُظهِراً من فوائده الجليلة ما هو في طيّ ضميره ، مضمراً من حُسن بيانه ما يُستغنى بقليله عن كثيره ؛ مقرباً إلى أذهان الطلبة بتهديب ألفاظه الرائقة ما يُفِيد ، مُورداً من علومه المدونة ما يجمع له بين نَوادرِ المقدمات ومدارك التمهيد ؛ مُوقِّفاً نظرها بحسن التدبير حقَّ النظر ، موفِّراً رزقها بما يُصدِّقُ الخُبرَ فيه الخُبرَ ؛ قاصداً بذلك وجهَ الله الذي لا يُخَيِّبُ لراجٍ أملاً ، معاملاً فيه الله معاملةً من يعلم أنه لا يُضِيعُ أجرَ مَنْ أحسنَ عملاً . ومِلاكُ الوصايا تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ، ويتخيّلها في كل الأحوال أمامه ؛ والله تعالى يستدده في قوله وعمله ، ويبلغه من رضاه نهايةَ سؤاله وغايةَ أمله ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بالتدريس بقبة الصالح ، أنشأته لقاضي القضاة جمال الدين «يوسف البساطي» بعد أن كُتِبَ له بها مع قضاء القضاة المالكية ، في العشر الأخير من شعبان سنة أربع وثمانمائة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل للعلم جمالاً تهافتُ على دركه محاسن الفضائل ، وتواردُ على ثبوت محامده المتواردة قواطع الدلائل ، وتُحَقِّقُ شواهد الحال من فضله ما يتأمع فيه من لوائح الخبايل .

نحمدُه على نِعْمه التي ما استهلت على وليّ فأقلع عنه عمامها ، ولا استقرت بيد صفيّ فأنزعت من يده حيث تصرف زمامها ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُرهِرُ بمعالم الدين غروسها ، وتنبع بثمار الفوائد المتتابعة دُروسها ؛

وأن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدراً ، وأولهم فى دلو المرتبة مكاناً وإن كان آخرهم فى الوجود عصراً ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الخائزين بقربه أنخر المناقب ، والفائزين من درجة الفضل بأرفع المراتب ؛ صلاة تكون لحلق الذكر نظاماً ، ولأولها أفتاحاً ولآخرها ختاماً ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن من شيمنا الشريفه ، وسجايانا الزاكية المنيفه ؛ أنا إذا منحنا منحا لا نستعيد ، وإذا أعطينا عطاءً لا ننتقصه بل نزيده ؛ وإذا قربنا ولياً لا نقصيه ، وإذا أنعمنا على صفيّ إنعاماً لا نعدّه عليه ولا نحصيه .

ولما كان تدريس المدرسة المالكية بقبة الصالح من أعلى دروسهم قدراً ، وأرفعها لدى التحقيق ذكراً ، وأعظمها إذا ذكرت الدروس فخراً ؛ إذ مجال جداله تنفطر المرائر ، وبميدان مباحثه تشتهر البلق من مضمرات الضمائر ؛ ويسوق مناظرته يميز النضار عن الشبه ، ومحك مطارحته تبيين الحقائق من الشبه ؛ وبمطآن مجلسه يعرف العالى والسافل ، وبمعرفة فُرسانه يُعرف من المفضول والفاضل ؛ ومن ثم لا يليه من علمائهم إلا الفحول ، ولا يتصدى لتدريسه إلا من أمسى بحسام لسانه على الأقران يصول ؛ ولم يزل فى جملة الوظائف المضافة لقضاء القضاة فى الأول والآخر ، تابعاً لمنصب الحكم فى الولاية كل زمن إلا فى القليل النادر ؛ وكان المجلس العالى ، القاضوى ، الكبيرى (إلى آخر القابه) أدام الله تعالى نعمته قد آسمت ولايته عليه لأبتداء الأمر استحقاقاً ، وحفظه كرمنا عليه فلم يجد الغير إليه استطرأقا - اقتضى حسن رأى الشريف أن تتبع ذلك بولاية ثانية تؤكد حكم الولاية الأولى ، ونُذِفَه بتوقيع يجمع له شرف القدمة والجمع ولو بوجه أولى .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى ، الزينى - لا زال يعتمد فى مشاهد الملوك أتم المصالح ، ويخص الصالح منهم بمزيد النظر حتى يقال ما أحسن نظر الناصر فى مصالح الصالح ! - أن يستمر المجلس العالى المشار إليه على ما بيده من الولاية الشريفة بالتدريس بقبة الصالح المذكورة ، ومنع المعارض وإبطال ما كُتب به وما سيُكتب مادام ذلك فى يده ، على أتم العوائد وأكملها ، وأحسن القواعد وأجملها .

فلتلق ما فُوض إليه بكثنا يديه ، ويشكر إحساننا الشريف على هذه المنحة فإنها نعمة جديدة توجب مزيد الشكر عليه ؛ ولتصدر بهذا الدرس الذى لم تزل القلوب نتقطع على إدراكه حشرات ، ويتصدد لإلقاء فوائده التى إذا سمعها السامع قال : هنا تُسكب العبرات ، ويبرز لفرسان الطلبة من ... (١) ... صدره من كمينه ، ويفض على جد أولهم الحفاة ماسح به فكره من يتابع معينه ، مستخرجاً لهم من قاموس قريحته دُرر ذلك البحر الزاخر ، مظهرها من مكنون علمه مالا يعلم لمدته أول ولا يدرك لمداه آخر ، ويفيق من ذخائر فضله ما هو بإنفاقه ملى ، متفقدا بفضل غناؤه من هو عن فرائده المُرحة غير غنى ؛ مقررراً للبحث تقريراً يزول معه الإلتباس ، مسنداً فروعه النامية إلى أثبت الأصول من الكتاب والسنة والإجماع والقياس ؛ معتمدا لما عليه جادة مذهبه فى الترجيح ، جارياً على ما ذهب إليه جهابذة محققيه من التصحيح ؛ مقبلاً بطلاقة وجهه فى درسه على جماعته ، باذلاً فى آسمااتهم طاقة جهده محسناً إليهم جهد طاقته ؛ مربياً لهم كما يربى الوالد الولد ، موفياً من حقوقهم [فى] التعليم ما يبق له ذكروه على الأبد ؛ ممياً ناشئتهم بالتدريب الحسن تنمية الغروس ، جاهداً فى ترفيعهم بالتدريج حتى يؤهل من لم يكن تظن فيه أهلية الطالب لأن يتصدى

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

للفقائى وإلقاء الدروس ، سالكا من مناهج التقوى أحسن المسالك ، مُوردا من تحقيقات مذهبه ما إذا لمحّ اللاحح لم يُشكَّ أنه لِزِمَامِ المذهب مالِك ؛ والله تعالى يُجزيه على ما ألقه من موارد إنعامه ، ويمتّع [هذه الرتبة] السنّية : تارةً يجالس دروسه وتارةً يجالس أحكامه ؛ والاعتماد * * *

وهذه نسخة توقيع بتدريس الحديث بالجامع الحاكى ، من إنشاء الشهاب «محمود الحلبى» للشيخ قطب الدين «عبد الكريم» وهى :

الحمد لله الذى أطلع فى أفق السنّة الشريفة من أعلام علمائها قُطبا ، وأظهر فى مطالعها من أعيان أئمتها نُجوما أضاء بهم الوجودُ شرقا وغربا ؛ وأقام لحفظها من أئمة أعلامها أعلاما أحسنوا عن سندها دفاعا وأجملوا عن متونها ذبا ، وشرف بها أهلها فكما بعدت راحلتهم فى طلبها أزدادوا من الله قربا ؛ وأختار لحملا أمانة شغفت محاسنهم قلوب أهل الفرق على اختلافها حبا ، وسلّكوا باتباعها سنن السنن فأمنوا أن تُروّع لهم الشبه سربا ؛ وألهمنا من تعظيم هذه الطائفة ما مهد لهم فى ظل تقربنا إليه مقاما كريما ومنزلا رحبا ، وعصم آراءنا فى الارتداد له من الخلل فلا نختار له إلا من نُسّر باختياره طلبه وتغبط بتعيينه أئمة ورضى بآرتياده ربا .

نحمده على نعمه التى صانت هذه الرتبة السنّية بأكفائها ، وزانت هذه المرتبة الشريفة بمن لم تمل عينه فى تأثيل قواعدها إلى إغفائها ، وجعلت هذه الدرجة العلية فلكا تُشرق فيه لأئمة الحديث أنوار علوم تفتى الدهور دون إطفائها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مُجادل عن سنّته الشريفة بالسنة أسنّته ، مجالِدٍ عن كلمتها العلية بقبض معاقد سيوفه وإطلاق أعنته ، باعث

بالجهاد دعوتها إلى كل قلب كان عن قبورها في حجب أكتته . ونشهد أن محمدا عبده
ورسوله الذي أوتي جوامع الكلم ، ولوامع السنة التي من اعتصم بها عصم ومن سلم
بها سلم ؛ فهي مع كتاب الله أصل شرعه القويم ، وحبل حكمه الذي لا يتمكن يد
الباطل من [حل] عقده النظيم ، وكنوز دينه التي لا يلقاها إلا ذو حظ عظيم ؛ صلى
الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عَضُوا على سنته بالنواجذ ، وذَبُّوا عن شريعته بسيوف
الجِلال القواطع وسهام الجِدال النوافذ ؛ صلاة لا يزال يُقام فرضها ، ويملاء بها طول
البسيطة وعرضها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى ما توجهت إليه إلى آرياد أمته ، وتوفرت الدواعي على
التقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض مناصبه إلى البررة الكرام من
أمته - علم الحديث النبوي صلوات الله وسلامه على قائله ، وحفظه بدروسه التي
جعلت أواخر زمنه في صحبة نقله ومعرفة أسرارهِ كأوائله ؛ وأن نختار لذلك من نشأ
في طلبه حتى آكتل ، وسرى في تحصيله سرى الأهلّة حتى آكتمل ؛ وغدّى بلبان
التبحر فيه حتى أمترج بأديمه ، وجدّد في تحصيله وآجهد حتى ساوى [في] الطلب بين
حديث عمره وقديمه ؛ وحفظ من متونه ، ما بمثله يستحق أن يدعى حافظا ، وغلب
على فنونه ، حتى قل أن يرى [بغير] علومه والنظر في أحكامه لا يظا ؛ فإنه بعد كتاب
الله العزيز مادة هذا الدين الذي يُحكّم بنصومه ، وتفاوت رتب العلماء في حسن
العمل بمطلقه ومقيّده وعمومه وخصوصه ؛ وعنهما تفرعت أحكام الملة فمألت
علومها جميع الآفاق ، وزكت أحكامها الشرعية على كثرة الإنفاق ؛ وسرى الناس منها
على المحجة التي آستوى في الإشراق ليئها ونهارها ، وعلا على الملل بالبراهين القاطعة
نورها ومناورها ؛ وكفى أهلها شرفا أنهم يدبّون عن سنة نبيهم ذبّ اللئث ، ويؤدون

(١) لم يتقدم ما يعطف عليه ولعل الأصل «فوجب أن نهم به أجل اهتمام ، وأن نختار الخ» .

على الأسماع بما ينفع الناس في أمر دينهم ودنياهم منها جود الغيوث ، ويحافظون على ألفاظها محافظة من سمعها منه صلى الله وسلم عليه ، ويعظمون مجالس إيرادها ونقلها حتى كأنهم لحسن الأدب جلوس بين يديه ، ويُغالبون في العلو طلبا للقرب منه وذلك من أسنى المطالب ، ويرحلون لضم شوارده من الآفاق فيأقرب المشارق عندهم من المغارب ! .

ولما كان المجلس السامى الفلانى : هو الذى عنى بكل ما ذكر من وصف كريم ، وحديث ورع قديم ، وقدم هجرة في علم الحديث آقتضت له حُسن أولوية ووجوب تقديم ، وتلقى هذا العلم كما وُصف عن أئمتته حتى صار من أعيانهم ، ولقي منهم علماء أضحى باقتنائهم كما كانوا رُحلة زمانهم ؛ ونظر في علومه فأتقنها فكانه ينطقُ فيها بلسان ابن الصلاح ، وأحرز غايات الكمال ، في أسماء الرجال ، فإلى أطلاعه يُرجع في تجريح المجرّح وتعديل الصحاح ؛ وكان منصبُ تدريس الحديث الشريف النبوى الذى أنشأناه بالجامع الحاكى تكثيراً لنشر أحاديث من لا ينطق عن الهوى ، ونويناه لأرتواء الرواة من بحر هذا العلم الشريف بالإعانة على ذلك وإتمام لكل أمرى ما نوى ، قد استغرقت أوقات مباشرة بتفويضنا الحكم العزيز على مذهبه إليه ، وتوفير زمانه على (١)

قلت : وتختلف أحوال التواقيع التى تُكتَب بالنداريس باختلاف موضوعاتها : من تدريس التفسير ، والحديث ، والفقه ، واللغة ، والنحو ، وغير ذلك ، فى براعة الاستهلال والوصايا ، وهو فى الوصايا أكد .

(١) ترك هنا بيضا للبقية ولمه لم يكلمه اتكالا على ما هو معروف ومشهور فى مثله .

وهذه نُسَخٌ وصايااً أوردتها في التعريف :

وصية مدرّس - وَيَطْلُعُ فِي مِحْرَابِهِ كَالْبَدْرِ وَحَوْلَهُ هَالَةٌ تَمُوتُ الْحَلَقَةَ،^(١)
وقد وَتَّ أَهْدَابُ ذَلِكَ السَّوَادِ مِنْهُ أَعْظَمَ أَسْوَدَادًا مِنَ الْحَدَقَةِ ؛ وَلِيَرَقَ سِبْجَاتِهِ الَّتِي
هِيَ لِبَيْدَةِ جَوَادِهِ إِذَا أَسْتَنَّ الْحِدَالَ فِي الْمِضْمَارِ، وَيُخْفِ [أَضْوَاءَ] أَوْلِيكَ الْعُلَمَاءِ الَّذِينَ
هَمُّ كَالنُّجُومِ كَمَا تَنْضَائِلُ الْكَوَاكِبِ فِي مَطَالِعِ الْأَقْمَارِ؛ وَلِيُرِزْ لَهُمْ مِنْ وَرَاءِ الْمِحْرَابِ
كَمِينَهُ ، وَلِيُفِضْ عَلَى جَدَاوِلِهِمُ الْجَافَّةَ مَعِينَهُ ؛ وَلِيَقْدِفْ لَهُمْ مِنْ جَنَابَاتِ مَا بَيْنَ جَنْبَيْهِ
دُرَّرَ ذَلِكَ الْبَحْرَ الْعَجَّاجَ ، وَلِيُرْهِمْ مِنْ غُرْرِ جِيَادِهِ مَا يُعَلِّمُ بِهِ أَنَّ سَوَابِقَهُ لَا يَهْوُلُهَا قَطْعُ
الْفِجَاجِ ؛ وَلِيُظْهِرْ لَهُمْ مِنْ مَكُونِ عِلْمِهِ مَا كَانَ يُخْفِيهِ الْوَقَارُ ، وَلِيَهَبَ مِنْ مَمْنُونِ فَضْلِهِ
مَا يَهَبُ مِنْهُ عَنْ ظَهْرِ غَفَى أَهْلِ الْإِفْتِقَارِ ؛ وَلِيَقَرَّرْ تَمَكُّنَ الْبُحُوثِ وَيَبَيِّنْ مَا يَرُدُّ عَلَيْهَا ،
وَمَا يَرُدُّ بِهِ مِنْ مَنَعِهَا وَتَطَرَّقَ بِالنَّقْضِ إِلَيْهَا ؛ حَتَّى لَا تَنْفَصِلَ الْجَمَاعَةُ إِلَّا بَعْدَ ظُهُورِ
الترجيح ، وَالْإِجْمَاعِ عَلَى كَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ عَلَى الصَّحِيحِ ؛ وَلِيُقْبِلْ فِي الدَّرُوسِ طَلَقَ
الْوَجْهِ عَلَى جَمَاعَتِهِ ، وَلِيَسْتَمْلِمْهُمْ إِلَيْهِ بِجُهدِ اسْتِطَاعَتِهِ ؛ وَلِيُرَبِّهِمْ كَمَا يُرَبِّي الْوَالِدُ الْوَلَدَ ،
وَلِيَسْتَحْسِنَ مَا تَجِبُ بِهِ أَفْكَارُهُمْ وَإِلَّا فَكَمْ رَجُلٌ بِالْجَبْهِ لَبِنَتْ فِكْرًا وَآدَبَ هَذَا
إِلَى أَخْذِهِمُ بِالِاسْتِغْثَالِ ، وَقَدَحَ أَذْهَانِهِمْ لِلِاسْتِغْتَالِ ؛ وَلِيُنَشِّئِ الطَّلِبَةَ حَتَّى يَمَيَّنَ مِنْهُمْ
الْغُرُوسَ ، وَيُؤَهِّلَ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ لَا يُظَنُّ مِنْهُ أَنَّهُ يَتَعَلَّمُ لِأَنَّهُ يُعَلِّمُ وَيُلْقِي الدَّرُوسَ .

وصية مقرئ :

وَلِيَدِّمْ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنْ تَلَاوَةِ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ مُصْبِحُ قَلْبِهِ ، وَصَلَاحُ قُرْبِهِ ، وَصَبَاحُ
الْقَبُولِ الْمُؤَدِّنِ لَهُ بِرِضَا رَبِّهِ ؛ وَلِيَجْعَلَ سُورَةَ لَهُ أَسْوَارًا ، وَأَيَاتِهِ تُظْهِرُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ

(١) جرى في تحريك لام الحلقة على ما رواه يونس عن أبي عمرو بن العلاء من كونه لغة في السكون

أنظر "المصباح" .

أنواراً ، ولتئلُ القُرآنَ بحُرُوفِهِ وإِذَا قَرَأَ اسْتَعَاذَ ، وَيَجْمَعُ طُرُقَهُ وَهِيَ الَّتِي عَلَيْهَا
الْجُمْهُورُ وَيَتْرُكُ الشَّوَادِبَ ، وَلَا يَرْتَدُّ دُونَ غَايَةِ لِإِقْصَارِهِ ، وَلَا يَقِفُ فَبَعْدَ أَنْ أَتَمَّ لَمْ يَبْقَ
بِحَمْدِ اللَّهِ إِحْصَارٌ ، وَلِيَتَوَسَّعَ فِي مَذَاهِبِهِ وَلَا يَخْرُجَ عَنِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ السَّبْعَةَ أُمَّةَ
الْأَمْصَارِ ، وَلِيَبْدُلَ لِلطَّلَبَةِ الرَّغَابَ ، وَلِيُشْبِعَ فَإِنَّ ذَوِي النِّهْمَةِ سَغَابَ ، وَلِيُرِ النَّاسَ
مَا وَهَبَهُ اللَّهُ مِنَ الْإِقْتِدَارِ فَإِنَّهُ أَحْتَضِرُ السَّبْعَ وَدَخَلَ الْغَابَ ؛ وَلِيَتِمَّ مَبَانِي مَا أَتَمَّ
«أَبْنُ عَامِرٍ» وَ«أَبُو عَمْرٍو» لَهُ التَّعْمِيرُ ، وَلَفَّهَ «الْكِسَائِيُّ» فِي كِسَائِهِ وَلَمْ يَقُلْ جَدِّي
«أَبْنُ كَثِيرٍ» ؛ وَحُمَّ بِهِ «لِحْمَزَةَ» أَنْ يَعودَ ذَاهِبُ الزَّمَانِ ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا «عَاصِمَ»
مَنْ أَمَرَ اللَّهُ يُلْجَأُ مَعَهُ إِلَيْهِ وَهُوَ الطُّوفَانُ ؛ وَطَفِقَ يَتَفَجَّرُ عِلْمًا وَقَدِ وَقَفَتِ السُّيُولُ
الدَّوَافِعَ ، وَضُرَّأَ كَثْرَ قِرَاءَةِ الزَّمَانِ لِعَدَمِ تَفْهِيمِهِمْ وَهُوَ «نَافِعٌ» ؛ وَلِيَقْبَلَ عَلَى ذَوِي
الْإِقْبَالِ عَلَى الطَّلَبِ ، وَلِيَأْخُذَهُمُ بِالرَّبِيبَةِ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ إِلَيْهِ قَدْ أَنْتَسَبَ ؛
وَهُوَ يَعْلَمُ مَا مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِحِفْظِ كِتَابِهِ الْعَزِيزِ مِنَ النَّعْمَاءِ ، وَوَصَلَ سَبَبَهُ مِنْهُ بِحَبْلِ اللَّهِ
الْمُتَدِّدِ مِنَ الْأَرْضِ إِلَى السَّمَاءِ ؛ فَلْيَقْدُرْ حَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةِ بِحَسَنِ إِقْبَالِهِ عَلَى التَّعْلِيمِ ،
وَالْإِنْصَافِ إِذَا سُئِلَ فَعَلِمَ اللَّهُ مَا يَتَنَاهَى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَالِمٌ﴾ .

وصية محدث :

وقد أصبح بالسنة النبوية مضطرباً ، وعلى ما جمعت طرُق أهل الحديث مُطَّلِعاً ؛
وَصَحَّ [فِي] الصَّحِيحِ أَنَّ حَدِيثَهُ الْحَسَنَ ، وَأَنَّ الْمُرْسَلَ مِنْهُ فِي الطَّلَبِ مَقْطُوعٌ عَنْهُ
كُلُّ ذِي لَسَانٍ ؛ وَأَنَّ سَنَدَهُ هُوَ الْمَأْخُودُ عَنِ الْعَوَالِي ، وَسَمَاعُهُ هُوَ الْمَرْقُوصُ مِنْهُ طُولَ
الليالي ؛ وَأَنَّ مِثْلَهُ لَا يُوجَدُ فِي نَسَبِهِ الْمُعْرِقِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِثْلُهُ لِلْحَافِظِينَ «أَبْنِ عَبْدِ الْبَرِّ»
بِالْمَغْرِبِ وَ «خَطِيبِ بَغْدَادَ» بِالْمَشْرِقِ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ مِقْدَارَ طَلَبِ الطَّالِبِ فَإِنَّهُ طَالَمَا
شَدَّ لَهُ النَّطَاقَ ، وَسَعَى لَهُ سَعْيُهُ وَتَجَشَّمَ الْمَشَاقَّ ؛ وَارْتَحَلَ لَهُ يَشْتَدُّ بِهِ حِرْصُهُ وَالْمَطَايَا

مُرِّمِه ، وَيَنْبِهُه لِه طَلْبِه وَالْجُفُونُ مُقْفَلَةٌ وَالْعَيْنُ مَهْمَمَةٌ ، وَوَقَفَ عَلَى الْأَبْوَابِ لَا يُضَجِرُه طَوْلُ الْوَقُوفِ حَتَّى يُؤَدِّنَ لِه فِي وُلُوجِهَا ، وَقَعَدَ الْقُرْفُصَاءَ فِي الْمَجَالِسِ لَا تَضِيقُ بِهِ عَلَى قِصَرِ فُرُوجِهَا .

فَلْيُعَامِلِ الطَّلِبَةَ إِذَا آتَوْهُ لِلْفَائِدَةِ مَعَامِلَةً مِنْ جَرِّبَ ، وَلْيُنَشِّطِ الْأَقْرَبَاءَ مِنْهُمْ وَيُؤَنِّسِ الْغُرَبَاءَ فَمَا هُوَ إِلَّا مَنْ طَلَبَ آوِنَةً مِنْ قَرِيبٍ وَأَوِنَةً تَغْرَبُ ؛ وَلْيُسْفِرْ لَهُمْ صَبَاحُ قِصْدِهِ عَنِ النَّجَاحِ ، وَلْيُنْتَقِ لَهُمْ مِنْ عُقُودِهِ الصَّحَاحَ ؛ وَلْيُوضِّحْ لَهُمُ الْحَدِيثَ ، وَلْيُرِّحْ خَوَاطِرَهُمْ بِتَقْرِيبِهِ مَا كَانَ يُسَارِ إِلَيْهِ السَّيْرَ الْحَثِيثَ ؛ وَلْيُؤْتِهِمْ مِمَّا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِيهِ الْمَجَالَ ، وَيُعَلِّمَهُمْ مَا يَجِبُ تَعْلِيمُهُ مِنَ الْمُتُونِ وَالرِّجَالِ ؛ وَيُبَيِّنْهُمْ بِمَوَاقِعِ الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ ، وَالتَّوْجِيهِ وَالتَّعْلِيلِ ، وَالصَّحِيحِ وَالْمَعْتَلِّ الَّذِي تُتَنَاطَرُ أَعْضَاؤُهُ سُقْمًا كَالْعَلِيلِ ؛ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا لِرِجَالِ هَذَا الشَّانِ بِهِ عِنَايَه ، وَمَا يُنْقَبُ فِيهِ عَنِ دَرَايَةِ أَوْ يُقْنَعُ فِيهِ بِمِجْرَدِ رِوَايَه ؛ وَمِثْلَه مَا يُزَادُ حَلْمًا ، وَلَا يُعْرَفُ بِمَنْ رَخَّصَ فِي حَدِيثٍ مَوْضُوعٍ أَوْ كَتَمَ عِلْمًا .

وصية نحوي :

وهو زيد الزمان، الذي يضرب به المثل، وعمرو الأوان، وقد كثر من سيبويه المثل، وما زنى الوقت ولكنه الذي لم تستبح منه الإبل؛ وكسائي الدهر الذي لو تقدم لما أختار غيره الرشيد للأمن، وذو السؤدد، لا أبو الأسود، مع أنه ذو السابقة والأجر المنون؛ وهو ذو البر المأثور، والقدر المرفوع ولو أوه المنصوب وذيل فخاره المجرور؛ والمعروف بما لا ينكر لمثله من الحزم، والذاهب عمله الصالح بكل العوامل التي لم يبق منها لحسوده إلا الحزم؛ وهو ذو الأبيّة التي لا يفصح عن مثلها الإعراب، ولا يعرف أفصح منها فيما أخذ عن الأعراب؛

والذى أصبحت أهدأه فوق عمائم الغائم ثلاث ، ولم يزل طول الدهر يُشكر منه
أُسه ويومه وعدّه وإنما الكلمات ثلاث . فليتصد للإفاده ، وليعلمهم مثل
ما ذكر فيه من علم النحو نحو هذا وزيادة ؛ وليكن للطلبة تجمّاه به يهتدى ، ويرفع
بتعليمه قدّر كل حبر يكون خبّاله وهو المبتدأ ؛ وليقدّم منهم كلّ من صلح
للتبريز ، وأستحقّ أن يُنصب إماماً بالتميز ؛ وليرد من موارد أهدب النّاطف ،
وليجرّ إليه كلّ مضاف إليه ومُضاف ؛ وليوقّفهم على حقائق الأسماء ، ويعرّفهم
دقائق البحوث حتى اشتقاق الأسم هل هو من السّم أو من السماء ؛ وليبين لهم
الأسماء الأعجميّة المنقولة والعربيّة الخالصة ، وليدّلم على أحسن الأفعال لا ما يُشبهه
فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصة ؛ وليحفّظهم المثل وكلمات
الشّعراء ، ولينصب نفسه لحدّ أذهان بعضهم ببعض نصب الإغراء ؛ وليعامل
جماعة المستفيدين منه بالعطف ، ومع هذا كلّه فليرفق بهم فما بلغ أحدُ علما بقوة
ولا غايةً بعسْف .



وهذه وصية لغوى أوردها في التعريف .^(١)

(١) بياض بأصله ، ولم تذكر هذه الوصية في نسخة "التعريف" التي بيدنا .

الوظيفة الثامنة

(التصدير)

وموضوعه الجلوس بصدر المجلس بجامع أو نحوه . ويجلس متكلم أمامه على كُرسى كأنه يقرأ عليه ، يفتح بالتفسير ثم بالرفائق والوعظيات ، فإذا انتهى كلامه وسكت ، أخذ المتصدر في الكلام على ما هو في معنى تفسير الآية التي يقع الكلام عليها ، ويستدرج من ذلك إلى ما سنع له من الكلام . وربما أفرد التصدير عن المتكلم على الكُرسى .

وهذه نسخة توقيع بتصدير أنشأته للشيخ شهاب الدين « أحمد الأنصاري » الشهير بـ « الشاب التائب » بالجامع الأزهر ، وهي :

رسم ... لا زالت صدقائه الشريفة تُحْصُ المجالس بمن إذا جلس صدر مجلس (١)
كان لرتبته أجمل صدر يجتبي من علماء التفسير، ومن إذا دقق لم يفهم ... عنه (٢)
وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامه في الحقيقة تفسير تفسير، وتصطفي من سرارة
الأماثل من دار نعمته بين « الشاب التائب » و « الشيخ الصالح » فكان له أكرم
نعت على كل تقدير - أن يستمر المجلس السامي أدام - الله تعالى رفعته - في كذا
وكذا ، لأنه الإمام الذي لأسامي علومه ولا تُسام، والعلامة الذي لأتدرك مداركه
ولا تُرام ، والخبر الذي تتعقد على فضله الخناصر، وفارس الحلبه الذي يعترف
بالقصور عن مجارة جباهه المناظر، وآية التفسير التي لا تُنسخ، وعقد حقيقته الذي
لا يُفسخ، والماهر الذي أستحق بمهارته التصدير، والجامع لفنونه المتنوعة

(١) أي بالامر الشريف الخ .

(٢) بياض بالأصل ولعله « لم يفهم شرحه إلا عنه » أو نحو ذلك .

جمع سلامةٍ لاجمع تكسيرٍ ، وترجمانٌ معانيه الآتى من غرائب تأويله بالعجب العجائب ، والعارف بهدى طريقه الذى إذا قال قال الذى عنده علمٌ من الكتاب ، وزاهدٌ الوقت الذى زين بالعلم العمل ، وناسكٌ الدهر الذى قصر عن مبالغ مداه الأمل .

فليتلق ما ألقى إليه بالقبول ، وليستند إلى صدرٍ مجلس يقول فيه ويطول ؛ وليبين من معانى كتاب الله ما أجمل ، ويوضح من خفى مقاصده ما أشكل ، وليسلك فى تفسيره أقوم سنان ، ويعان بأسراره الخفية فسر كتاب الله أجدر أن يكون عن عان ، وليجر فيه على ما ألف من تحقيقاته فإنه إذا لم يحقق المناظرة فمن ؟ ، وليأخذ مشايخ أهل مجلسه بالإحسان ، كما أحسن الله إليه فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، ويخص شباهم على التوبة ليحبهم الله فيتصل فى المحبة سندهم فإن « الشاب التائب » حبيب الرحمن ؛ والله تعالى يرقبه إلى أرفع الذرا ، ويرفع مجلسه السامى على محل الثريا (وإنا لرجو فوق ذلك مظهرا) . إن شاء الله تعالى .

الوظيفة التاسعة

(النظر)

وموضوعه التحدث فى أمورٍ خاصة بإباحة ضروراتها ، وعمَل مصالحها ، وأستخراج متحصّل جهاتها ، وصرفه على الوجه المعتبر ، وما يجرى مجرى ذلك .

وتشتمل على عدّة أنظار :

منها - نظر الأحباس : جمع حبس وهو الوقف ^(١) : فقد تقدّم فى المقالة الثانية أنه كان أصل وضعه أراضى آستراها (الإمام الليث بن سعد رضى الله عنه)

(١) فى المختار « والحبس كالقفل ماوقف » وهو المراد هنا .

ووقفها على جهاتٍ ربِّ، ثم تبعه الناسُ في إضافة الأوقاف إلى ذلك ، إلى أن كانت وزارة الصاحب بهاء الدين ابن حنا في سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى ، فأورد للجوامع والمساجد والرُّبَط والزوايا ونحو ذلك رزقا، وقصر تحدّث ناظر الأعباس ومباشره عليها ، وأفردت الأوقاف بناظر ومباشرين كما سيأتى :

(١)
وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبيمارستان المنصورى ، كُتِب بها «لمهذب الدين» وهى :

الحمد لله الذى دبر بحكمته الوجود ، وعمّ برحمته كلّ موجود، وحال ينفع الدواء بين ضرّ الداء كما حالت عطاياه دونّ الوعود ، نحمده ونشكره وهو المشكور المحمود ، ونثنى عليه خير الشفاء قياما وقعودا وعلى الجنوب وفى السجود، ونستريده من فضله فإنه أهل الفضل والحدود .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الله بها والملائكة وأولو العلم شهود ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبشّر لأمته بالجنّات والخلود، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة إلى يوم الوعود .

وبعد، فإننا لما أقام الله بنا شعائر الإيمان ، وأصبح دينه بحمد الله منصورا بنا على سائر الأديان، وجاهدنا فى الله حقّ الجهاد باليد واللسان ، وشيّدنا لعلومه وشرائعه كلّ بديع الإتقان ، وربّنا فيه من العلماء الأعيان كلّ رفيع الشأن ، وأخترنا له الأخيار من أهل العلم بالطب والفقهِ والحديث والقرآن ، ورأينا كل من تقدّمنا من الملوك، وإن سلك فى سياسة الرعية أحسن سلوك ، قد آهتّم بعلم الأديان وأهمل

(١) حق هذا التوقيع أن يذكر فى تواريخ الوظيفة السابعة الخاصة بالتدريس .

علم الأبدان؛ وأنشأ كل منهم مدرسة ولم يُجفل ببيمارستان، وغفل عن قوله صلى الله عليه وسلم: «العلم علمان»؛ ولم يأخذ أحدا من رعيته بالاشتغال بعلم الطب المضطر إليه، ولا وقف وقفا على طلبة هذا العلم المنصوص عليه، ولا أعد له مكاناً يحضر من يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصب له شخصاً يمثل هذا المشتغل لديه - علمنا نحن بحمد الله تعالى من ذلك ما جهلوه، وذكرنا من هذه القرية ما أهملوه، ووصلنا من هذه الأسباب الدينية والدنيوية ما فصلوه؛ وأنشأنا بيمارستاننا يبهر العيون بهجه، ويفوق الأبنية بالدليل والحجة، ويحفظ الصحة والعافية على كل مهجه؛ لوجهه من أشفى العوجل بالشفا، أو جاءه من أكمده السقم لاشتفى، أو أشرف عليه العمر بلا شفاء لعاد عنه بشفا؛ ووقفنا عليه من الأوقاف المبرورة ما يملأ العينين، ويطرف سماع جملته الأذنين، ويعيد عنه من أمه مملوء اليدين؛ وأبجنا التداوى فيه لكل شريف ومشروف ومأمور وأمير، وساويننا فى الانتفاع به بين كل صغير وكبير، وعلمنا أن لانظير لنا فى ملكنا ولانظير له فى إبقائه فلم نجعل لوقفه وشرطه من نظير؛ وجعلنا فيه مكاناً للاشتغال بعلم الطب الذى كاد أن يُجهل، وشرعنا للناس إلى ورد بحره أعدب منهل، وسهلنا عليهم من أمره ما كان الحلم به من اليقظة أسهل؛ وأرتدنا له من علماء الطب من يصلح لإلقاء الدروس، وينتفع به الرئيس من أهل الصناعة والمرءوس، ويؤمن على صحة الأبدان وحفظ النفوس؛ فلم نجد غير رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبة، ولم نرض لها من لم تكن له هذه المنقبه، وعلمنا أنه متى وليها أمسى بها معجبا وأصحت به معجبه .

ولما كان المجلس السامى «مهذب الدين» هو الرئيس المشار إليه، والوحيد الذى تُعقد الخناصر عليه؛ وكان هو الحكيم «بقراط»، بل الجليل «سقراط»؛ بل الفاضل «جالينوس»، بل الأفضل «ديسقوريدوس» - أقتضت الآراء

الشريفة أن تزداد جلالته بتولية هذا المنصب الجليل جلاله ، وأن تُزَفَّ إليه تجرُّ أذْيَالَهُ ، وأن يقال : (لم يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا هَا ولم تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ) .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال للدين ناصرا ، ولأعلام العلوم ناشرا - أن يفوض إليه تدريس الطب بالبيارستان المبارك المنصوري ، المستجد الإنشاء بالقاهرة المحروسة ، علما بأنه المتمهر في هذا الفن ، وأنه عند الفِرَاسَة فيه والظن ، وأنه سقراط الإقليم إذا كان غيره سقراط الدن ؛ وثقةً بأنا للجوهر قد ألتقنا ، وبالخير قد آغتنبنا ، وعلى الخير قد سقطنا .

فلتلق هذه النعمة بالشكر الجليل ، والحمد الجزيل ، والثناء الذي هو بالثناء والزيادة كفيلا ؛ ولينتصب لهذا العلم المبارك أنتصاب من يقوم بالفرض منه والسنة ، ويعرف له فيه الفضل ويتقلد له فيه المنه ، ويثني على آثاره الجميلة فيه ويثني إليه الأعنة ؛ وليبطل بتقويمه الصحة ما ألقه ابن «بطلان» ، وليرنا بتدبيره جملة البر فإنه «جالينوس» الزمان ، وليبدل النجاة من الأمراض والشفاء من الأسقام فإنه «ابن سينا» الأوان ؛ وليجمع عنده شمل الطلبة ، وليعط كل طالب منهم ماطلبه ، وليبلغ كل متمر من الأشغال أربه ؛ وليشرح لهم صدره ، وليبدل لهم من عمره شطره ، وليكشف لهم من هذا العلم المكنون سره ، وليرهم ماخفي عنهم منه جهره ؛ وليجعل منهم جماعة طبائعيه ، وطائفة حكّامين وجراحية ؛ وقوما مجبرين ، وبالحديد عاملين ، وأخرى بأسماء الحشائش وقوى الأدوية وأوصافها عالمين ؛ وليأمر كلاً منهم بحفظ مايجب حفظه ، ومعرفة مايزيد به حفظه ؛ وليأخذ بما يصلح به لسانه ولفظه ، ولا يفتّر عنهم في الأشغال لحظه ؛ وليفرد لكل علم من العلوم طائفة ، ولكل فن من فنونه جماعة مجاسنه عارفة ؛ وليصرف إليهم من وجوه فضائله كل عارفة ،

وليكشِف لهم ما أشكل عليهم من غوامضه فليس لها من دُون إيضاحه كاشفَه ؛
لِيُنشَر في هذا المكان المبارك من أرباب هذه العلوم قومٌ بعد قوم ، ويظهر منهم
في الغد - إن شاء الله - أضعاف ما هو ظاهرٌ منهم اليوم ؛ وليقال لكل من طلبته
إذا شَرع في إجازته وتزكيتِه : لقد أحسنَ شيخُه الذى عليه تأدب ، وإنَّ من نَحج
هذا «المهدَّب» ؛ عاملاً في ذلك بشروط الواقف أعزَّ الله نصرَه ، وافقاً عند أمره
أمضى اللهُ أمرَه ؛ والخيرُ يكون . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بنظر الأعباس مفتحة بـ «أما بعد» وهى :

أما بعد حمد الله الذى أذن أن تُرفع بيوته ويذكر فيها أسمه ، ويكثر فيها قسم
ثوابه ويُنزل قسمه ، والصلاة على سيدنا محمد الذى عظم به قطع دابر الكفر وكثر
حسمه - فإنَّ خير من عول عليه فى تأسيس بيوت الله وعمارة ربوعها ، ولمَّ شعَبها
وشعب صدوعها ؛ والقيام بوظائفها ، وتسهيل لطائفها ؛ وتأهيل نواحيها ، هُبوب
الملائكة لتلقى المصلين فيها ، من كان ذا عزم لا تأخذه فى الله لومة لائم ، وحزم لا يلمُّ
بأفعاله لمَّم المآثم ؛ ونظير ثاقب ، ورغبة فى اختيار جميل المآثر والمناقب ، ومباشرة
ترعى قوانين الأمور وتكتنفها آكتناف مُراقب .

ولما كان فلانٌ ممن هذه الأوصاف شعَّاره ، وإلى هذه الأمور يدَّاره ؛ وكَم كتب
الله به للدولة أجرًا راع وساجد ، وكَم شكرته وذكرته ألسنة أعلام الجوامع وأفواه
محاريب المساجد - أقتضى مُنيف الملاحظة والمحافظه على كل قريب من بيوت
الله وشاهد ، أن نخرج الأمر الشريف - لا يرح يكشِف الأوجال ، ويدعوله
فى الغدو والآصال رجال - أن يفوض لفلان نظر ديوان الأعباس والجوامع
والمساجد المعمورة بذكر الله تعالى .

فليباشرها مباشرة من يُراقب الله [إن] وقع أو توقع ، وإن أطاع أو تطوع ، وإن عزل أو ولى ، وإن أدب من نهى عبدا إذا صلى ، وليجتهد كلاً الاجتهاد في [صرف] ريع المساجد والجوامع في مصارفها الشرعية ، وجهاتها المرعية ، وليأخذ أهلها بالملازمة في أحيانها وأوقاتها ، وعمارتها بمصايبها وآلاتها ، وحفظ ما يحفظون به لأجلها ، ومعاملتهم بالكرامة التي ينبغي أن يعامل مثلهم بمثلها ، وليحترز في إخراج الحالات إذا خرجت وأخرجت ، وفي مستحقات الأجائر إذا استحققت وإذا عُجِّلَتْ ، وفي التواقيع إذا أنزلت وإذا نُزِلَتْ ، وفي الاستئذارات التي أُهْمِلَتْ وكان ينبغي لو أُهِّلَتْ ، وإذا باشر [و] ظهر له بالمباشرة خفايا هذا الديوان ، وفهم ما تحتويه جرائد الإحسان ، فليكن إلى مصالحة أول مبادر ، ويكفيه تدبر قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنِ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ .

قلت : وقد كنت أنشأت توقيعا بنظر الأعباس ، للقاضي « بدر الدين حسن » الشهير بابن الداية ، مفتتحا بالحمد لله ، جاء فردا في بابه . إلا أن مسودته غيبت عني ، فلم أجدها لأثبتها هاهنا كما أثبتت غيرها مما أنشأته : من البيعات والعهود والتواقيع والرسائل وغير ذلك .

ومنها - نظر الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستين ، ويدخل فيه أوقاف الحرمين وغيرهما .

وهذه نسخة توقيع بنظرها ، وهي :

الحمد لله الذى حفظ معالم البر من الدثور ، وأحيا آثار المعروف والأجور ، وصان الأوقاف المحبسة من تبديل الشروط على توالى الأيام والشهور .

نحمده على فضله الموفور ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لها فى القلوب نور على نور ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المؤيد المنصور ، الطالع البدور ، المبعوث بالفرقان والنور ، المنعوت فى التوراة والإنجيل والزبور ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما كرت الدهور ، وطلعت كواكب ثم تغور .

وبعد ، فإن أهل الخير من المؤمنين تقربوا إلى الله سبحانه وتعالى من طيبات أموالهم بأوقاف وقفوها على وجوه البر وعرفوها ، وجعلوا لها شروطا ووصفوها ، فتقبل الله لهم ذلك ، ثم ماتوا فما أنقطع عملهم بها وهم فى برزخ المهالك ، ووليها بعدهم الأبناء من النظار ، فقاموا بحقوقها وحفظ الآثار ، وأجروا برها الدار فى كل دار ، وصانوا معالمها من الأغيار ، وشاركوا واقفها فى الصدقة لأنهم خزان أمناء أخيار .

ولما كان فلان هو الذى لا يتدسس عرضه بشائبه ، ولا تسمى المصالح وهى عن فكره غائبه ، ولا تبرح نجوم السعود طالعة عليه غير ذائبه ، وهو أهل أن يتأبط به التحدث فى جهات البر الموقوفة ، وأموال الخير المصروفة ، لأنه نزه نفسه عما ليس له فلو كانت أموال غيره غنما ما اختص منها بصوفة ، فلذلك رسم ... (١)

فلباشر هذه الوظيفة مباشرة حسنة التأثير ، جميلة التثمير ، مأمونة التغيير ، مخصوصة بالتعبير ، ولينظر فى هذه الأوقاف على اختلافها من ربوع ومباني ، ومساكن ومعاني ، وخانات مسبله ، وحوانيت مكلمه ، ومستقفات معموره ، وساحات مأجورة غير مهجوره . وليبدأ بالعمارة فإنها تحفظ العين وتكفى البناء دثوره ، وليتبع شروط الواقفين ولا يعدل عنها فإن فى ذلك سروره ، ويندرج فى هذه

(١) بيض له فى الأصل لعله من أمثاله السابقة .

الأوقاف ما هو على المساجد ومواطن الذكر : فليقيم شعارها، وليحفظ آثارها، ويرفع منارها، والوصايا كثيرة والتقوى ظلها المخطوب، ومراقبة الله أصلها المطلوب ووصلها المحبوب، والله تعالى يجمع على محبته القلوب؛ بمنه وكرمه ! .

ومنها - نظر البيارستان المنصوري بين القصرين لأرباب الأقلام، وهو من أجل الأنظار وأرفعها قدرا، ما زال يتولاه الوزراء وكاتب السر ومن في معناهم .
[وهذه نسخة توقيع] من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :
(١)

الحمد لله رافع قدر من كان في خدمتنا الشريفة كريم الخلال، ومعلمي درجة من أصفى عليه الإخلاص في طاعتنا العلية مديد الظلال، ومجدد نعم من لم يخصه اعتناؤنا بغاية إلا ورقته همته فيها إلى أسنى رتب الكمال، ومفوض النظر في قرب سلفنا الطاهر إلى من لم يلاحظ من خواصنا امرا إلا سرنا ما نُسأله فيه من الأحوال الحوال .

نحمده على نعمه التي لا تزال تسرى إلى الأولياء عوارفها، ومننه التي لا تبرح تشمل الأصفياء عواطفها، وآلائه التي تُسدد آراءنا في تفويض قربنا إلى من إذا باشرها [سر] بسيرته السرية مستحقها وواقفها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة رفع الإخلاص لواءها، وأفاض الإيمان على وجوه حملتها إشراقها وضيائها، ووالى الإيقان إعادة أدائها بمواقف الحق وإبداءها؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بعموم الشفاعة العظمى، المقصود في السنة ذكرك حوضه الذي من شرب منه شربة فإنه بعدها لا يظما، المنصوص على نبوته في الصحف المنزلة وبشرت به الهوائف نثرا ونظما؛ صلى الله

(١) تقدمت في وظائف الطبقة الثانية من ذوات التواقيع بعض تغيير واختصار .

عليه وعلى آله وصحبه الذين فازوا من طاعته ، بالرُّتب الفاعره ، وحازوا بالإخلاص في محبته ، سعادة الدنيا والآخرة ، وأقبلوا على حظهم من رضا الله ورضاه فلم يُلوا على خدع الدنيا الساحره ؛ صلاةً دائمةً الاتصال ، آمنةً شمس دولتها من الغروب والزوال ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى الأمور بإنعام النظر في مصالحتها ، وأحقها بتوفير الفكر على اعتبار مناهجها وأعتاد مناجحتها - أمر جهات البر التي تقرب والدنا السلطان الشهيد - قدس الله روحه - بها إلى من أفاض نعمه عليه ، وتنوع في إنشائها فأحسن فيها كما أحسن الله إليه ، ورغب بها فيما عند الله لعلمه أن ذلك من أنفس الذخائر التي أعدّها بين يديه ؛ وحلّ منها في أكرم بقعة نقله الله بها عن سريره إلى مقعد صدق عند ربّه ، وعمر بها مواطن العبادة في يوم سلّمه بعد أن عفى على معاقل الكفر في يوم حرّيه ؛ وأقام بها منار العلوم فعلا مناهمها ، وأعدّ للضعفاء بها من مواد البر والإلطف مالو تعاطته الأغنياء قُصرت عن التطاول إليه أموالها ؛ وأن نرّاد لها من إذا فوضنا إليه أمرا تحقّقنا صلاحه ، وتيقّننا نجاحه ؛ واعتقدنا تميّة أمواله ، وأعمدنا في مضاعفة آرتفاعه وانتفاعه على أقواله وأفعاله ؛ وعلمنا من ذلك مالا يحتاج فيه إلى إخبار ولا اختيار ، ولا يحتاج في بيان الخيرة فيه إلى دليل إلا إذا احتاج إليه النهار ؛ لتكون في هذا بمثابة من ضاعف لهذه القرب أسباب ثوابها ، أو جدّد لها وقفا لكونه أتى بيوت الإحسان في آرتياد الأكتفاء لها من أبوابها .

ولذلك لما كان فلان هو الذى صان أموال خواصنا ، وأبان عن يمين الآراء في استئثارنا به لمصالحنا الخاصّة واختصاصنا ؛ واعتدّدنا بجميل نظره في أسباب التدبير التي تملأ الخزائن ، وتدلل على أن من الأولياء من هو أوقع على المقاصد من سهام

الكَائِن ، وَتُحَقِّقُ أَنَّهُ كَمَا فِي الْعَنَاصِرِ الأَرْبَعَةِ مَعَادِنُ فَكَذَلِكَ فِي الرِّجَالِ مَعَادِنُ ؛ وَنَبَّهَتْ أَوْصَافُهُ عَلَى أَنَّهُ مَا وَلى أَمْرًا إِلا وَكَانَ فَوْقَ ذَلِكَ قَدْرًا ، وَلا أَعْتَمِدُ عَلَيْهِ فِيمَا تَضَيِّقُ عَنْهُ هِمُّ الأَوْلِيَاءِ إِلا رَحِبَ بِهِ صَدْرًا ، وَلا طَلَعَ فِي أَفْقِ رَتْبَةٍ هَلَالًا إِلا وَتَأَمَّلْتَهُ الْعِيُونَ فِي أَجَلِّ دَرَجِ الكَمَالِ بَدْرًا ؛ يُدْرِكُ مَا نَأَى مِنْ مَصَالِحِ مَا يَلِيهِ بِأَدْنَى نَظَرٍ ، وَيَسْبِقُ فِي سَدَادِ مَا يَبَاشِرُهُ عَلَى مَا يَجِبُ سَدَادُ الآرَاءِ وَمَوَاقِعَ الفِكْرِ ؛ فَنَحْنُ نَزْدَادُ كُلِّ يَوْمٍ غِبْطَةً بِتَدْيِيرِهِ ، وَتُحَقِّقُ أَنَّ كُلَّ مَا عَدَقْنَا بِهِ إِلَيْهِ : مِنْ أَمْرٍ جَلِيلٍ فَقَدْ أَسَدَنَاهُ إِلَى عَارِفِهِ وَفَوْضَنَاهُ إِلَى خَبِيرِهِ - أَقْنَضْتُ آرَأُونَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَعْدِقَ بِجَمِيلِ نَظَرِهِ أَمْرَ هَذَا المُهَيَّبِ المَقْدَمِ لَدَيْنَا ، وَأَنْ نَفُوضَ إِلَيْهِ نَظَرَ هَذِهِ الأَوْقَافِ الَّتِي النَظَرُ فِي مَصَالِحِهَا مِنْ أَكْثَرِ الأُمُورِ المَتَعِينَةِ عَلَيْنَا .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال فضله عميما ، وبره يقدم في الرتب من كان من الأولياء كريما - أن يفوض إليه كَيْتُ وَكَيْتُ .

فَلَيْلِ هَذِهِ الرتبة التي أريد بها وجه الله وما كان لله فهو أهم ، وقصد بها النفع المتعدى إلى العلماء ، والفقراء ، والضعفاء ومراعاة ذلك من أخص المصالح وأعم ؛ ولينظر في عموم مصالحها وخصوصها نظرا يسد خلاها ، ويزيح عللها ، ويعمر أصولها ؛ ويثمر محصولها ، ويحفظ في أماكنها أموالها ؛ ويقوم معالم العلوم في أرجائها ، ويستنزل بها مواد الرحمة لساكنيها بالسنة قراءتها ؛ ويستعيد صحة من بها من الضعفاء بإعداد الذخائر لملاطفة أسقامها ومعالجة أدوائها ؛ ويحافظ على شروط الواقف - قدس الله روحه - في إقامة وظائفها ، وأعتبر مصارفها ؛ وتقديم ما قدمه مع ملاءة تديره باستكمال ذلك على أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلها بما يستدعي إليها من الأصناف التي يعز وجودها ويحتاج ؛ وضبط تلك الحواصل التي لا خزائن لها أو ثق من أيدي

أمنائه وثقائه، ولا مودع لها أوفق من أمانة من يتقى الله حق ثقائه؛ ليفعل في ذلك جميعه ما عرفناه من تديره الجميل خبراً وخبراً، وحمدناه في كل ما يليه ورداً في المصالح وصدرًا؛ فإنه - بحمد الله - الميمونُ نظرًا وتصرفًا، المأمونُ نزاهةً وتعففًا، الكريمُ سجيّةً وطباعًا، الرحيبُ في تلقى المهمات الجليّة صدرًا وباعًا؛ فلذلك وكلناه في الوصايا إلى حسن معرفته وأطلاعه، ويؤمن نهوضه بمصالحنا وأضطلّاعه؛ والله تعالى يسدده في قوله وعمله، ويحقق بالوقوف مع مرضى الله تعالى ومرضىنا غاية أمله؛ إن شاء الله تعالى.



ومنها - نظر الجامع الناصرى بقاعة الجبل .

وهذه نسخة توقيع بنظره، كتب به للقاضى جلال الدين القزوينى وهو يومئذ قاضى قضاة الشافعية بالديار المصرية، وهى :

الحمد لله الذى زادنا الدين رفعةً وجلالا، وجعل لنا على إعلاء منار الإسلام إقبالا، وأحسن لنظرنا الشريف فى كل اختيار مالا، ووفق مرامى مرآتنا لمن أخلصنا عليه أتكالا .

نحمده حمدا يتواتر ويتوالى، ويقرب من المنى مالا، وتثير به معاهد نعمه عندنا وتتلا، ونؤديه إدامة لا نبغى عنها حولا ولا انتقالا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نصدقها نية ومقالا، ونرجو بالتغالى فيها القبول منه تعالى، ويتراسل عليها القلب واللسان فلا يعتري ذلك سهو ولا يخاف هذا كلالا؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى كرم صحابة وآلا، ودلهم على الرشد فورثوه من علماء الأمة رجالا، صلى الله عليه وعليهم صلاة تسترعى عليها

من الحَفَظَةِ أَكْفَاءً أَكْفَالًا ، وَنَسْتَمَدُّ لِرُقْمِهَا الْمُدْهَبَاتُ بَكْرًا وَأَصَالًا ، وَتَسْمُو إِلَيْهِ الْأَنْفَاسُ سُمُوَّ حَبَابِ الْمَاءِ حَالًا فَحَالًا ، مَا مَدَّتِ اللَّيَالِي عَلَى أَيَّامِهَا ظِلَالًا ، وَمَا بَلَغَ سَوَادُ شَبَابِهَا مِنْ بِيَاضِ صُبْحِ اكْتِهَالَا ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ مِنْ بَنَى حَقَّ عَلَيْهِ أَنْ يُشِيدَ ، وَمَنْ أَرَادَ [أَنْ] سَنَّتهُ الْحُسْنَى تَبْقَى فليَتَّخِذْ مَعِينًا عَلَى مَا يُرِيدُ ، وَمَنْ أَنْشَأَ بِرَأْفَلَا بَدًّا مِنْ مَبَاشِرٍ عَنْهُ يَضْمَنُ لَهُ التَّجْدِيدَ ، وَيُظَنُّ بِهِ مَعَ تَأْثِيرِهِ التَّخْلِيدَ ، وَمَنْ تَاجَرَ لِلَّهِ بِمَعْرُوفٍ فَمَا يَسْخُوحُ بِالمُشَارَكَةِ فِيهِ إِلَّا مَنْ يَقُومُ مَقَامَ نَفْسِهِ أَوْ يَزِيدُ ، وَمَنْ بَدَأَ جَمِيلًا فَشَرَطَ صِلَاحَهُ أَنْ يُسْنِدَهُ إِلَى مَنْ لَهُ بِالمُرَاقَبَةِ تَقْيِيدٌ ، فِيمَا يُبْدَى وَيُعِيدُ ، وَأَيُّ إِشَادَةٍ أَقْوَى ، مِنَ التَّاسِيسِ عَلَى التَّقْوَى ؛ أَوْ مَعِينِ أَجَلٍّ مِنْ حَاكِمِ اسْتِخْلَاصِنَاهُ لَنَا وَإِخْوَانِنَا الْمُسْلِمِينَ ، أَوْ مَبَاشِرِ أَنْفَعُ ، مِنْ سَيِّدِ آرْتَدَى بِالمَجْدِ وَتَلَفَّعَ ، وَتَرَوَّى بِالمَعْلُومِ وَتَضَلَّعَ ؛ أَوْ مَشَارِكٍ فِي الْخَيْرِ أَوْلَى مِنْ وَلِيٍّ قَلَدَنَاهُ دِينَنَا قَبْلَ الدُّنْيَا ، وَأَعْلَيْنَاهُ بِالمُنْصِبِينَ : الْحُكْمِ وَالْخَطَابَةِ فَتَصَرَّفَ مِنْهُمَا بَيْنَ الكَلِمَةِ الْعَالِيَةِ وَالدَّرَجَةِ الْعُلْيَا ؛ أَوْ أَحْسَنُ مِرَاقَبَةٍ مِنْ حَبْرٍ يَعْبُدُ اللَّهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ ، وَإِمَامٍ يَدْعُو إِلَيْهِ دُعَاءَ أَوَابٍ أَوْاهَ ؛ قَدْ أَنْفَرَدَ بِمَجْمُوعِ المَحَاسِنِ يَقِينًا ، وَأَصْبَحَ قَدْرُهُ الْجَلِيَّ الْجَلِيلَ يَعْنِينَا وَعَنْ المَسَدِّحِ يُعْنِينَا ؛ فَحَسْبُنَا الوَصْفُ إِضَاحًا وَتَبْيِينًا ، وَلَكِنْ نَصَّرَحُ بِاسْمِهِ تَنْوِيهَا وَتَعْيِينًا ، وَتَحْسِينًا لِسِيرَةِ أَيَّامِنَا الشَّرِيفَةِ بِعَالِمِ زَمَانِهَا وَتَزْيِينًا ، لِأَعْدَرِ لِفِكْرٍ لَمْ يُنْضِدْ مَنَاقِبَهُ وَقَدِ تَمَثَّلَتْ مَعَالِيهِ جَوَاهِرُ ، وَقَلِمٌ لَمْ يُوشَّ الطُّرُوسَ بِمَعَانِيهِ بَعْدَ مَا زَانَ مِنْ فُنُونِهَا أَنْوَاعَ الْأَزَاهِرِ ، هُوَ المَجْلِسُ الْعَالِي الْقَضَائِيَّ ، الإِمَامِيَّ ، الْعَالِمِيَّ ، الْعَامِلِيَّ ، الْعَلَامِيَّ ، الكَامِلِيَّ ، الفَاضِلِيَّ ، القُدُويَّ ، المُفِيدِيَّ ، الخَاشِعِيَّ ، النَّاسِكِيَّ ، الوَرَعِيَّ ، الخَاكِمِيَّ ، الْجَلَالِيَّ : حِجَّةُ الإِسْلَامِ وَالمُسْلِمِينَ ، قُدُوةُ العُلَمَاءِ الْعَامِلِينَ فِي الْعَالَمِينَ ؛ بِرِكَتِهِ الْأَمَّةِ ،

(١) مأخوذ من أشاد بنيانه اذا طوله . أنظر اللسان في مادة ش ود — ج — ٤ .

عَلَّامَةُ الْأَيْمَةِ ، عِزُّ السَّنَةِ ، مُؤَيِّدُ الدَّوْلَةِ ، سَيْفُ الشَّرِيعَةِ ، شَمْسُ النُّظَرِ ، مُفْتَى
 الْغُرَرِ ، خَطِيبُ الْخُطَبَاءِ ، إِمَامُ الْبُلْغَاءِ ، لِسَانُ الْمُتَكَلِّمِينَ ، حَكَمُ الْمُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ،
 وَلِيُّ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، أَبُو الْمَعَالَى مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ سَعِيدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ
 عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَزْوِينِي قَاضِي الْقَضَاةِ الشَّافِعِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ عِزَّةَ الشَّرْعِ
 الشَّرِيفِ بِأَحْكَامِهِ ، وَتَرْفِيهِ سَيْوْفِ الْجِلَادِ وَأَسْلِهِ بِلِسَانِ جِدَالِهِ وَأَقْلَامِهِ ؛ قَاضٍ
 يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُهْتَرِجِينَ بِرَأْيٍ لَا يَطِيشُ حَالَهُمْ وَلَا يَزِيلُ حُكْمَهُ ، وَيَتَّقِي الشُّبُهَاتِ بِوَرَعٍ
 يَتَّبِعُهُ عَمَلُهُ وَيَهْدِيهِ عِلْمُهُ ؛ مَا لَحَظَ جِهَةً إِلَّا حَظَّتْ بِرُكَّةٍ دَائِرَةٌ مُزْنُهَا ، سَارِيَةٌ
 مَنَاجِحُهَا سَارٌّ يَمُنُّهَا ؛ وَلَا أَقْبَلَ عَلَى بَيْتٍ مِنْ بِيوتِ اللَّهِ إِلَّا حَقَّ مِنْهُ إِلَى سُبُحَاتِ
 الْجَلَالِ ، وَلَا تَكَلَّمَ فِي وَقْفٍ إِلَّا أَجْرَاهُ فِي صَالِحِ الْأَعْمَالِ عَلَى أَقْوَمِ مِثَالٍ ؛ وَنَحْنُ لِهَذِهِ
 الْمَزَايَا نَرُدُّ إِلَى نَظَرِهِ الْكَرِيمِ مَا أَهَمَّنَا مِنْ عِمَارَةِ مَسْجِدٍ وَجَامِعٍ ، وَتُقَلِّدُهُ مِنْ أَوْقَافِنَا
 مَا يَخْتَلِفُنَا فِيهِ خَيْرًا فَإِنَّ الْأَوْقَافَ وَدَائِعَ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي الْمَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، النَّاصِرِيِّ -
 لِأَزَالِ يُصِيبُ الصَّوَابَ ، وَلَا يَعْدُو أَوْلِي الْأَبْأَابِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ نَظْرُ الْجَامِعِ
 النَّاصِرِيِّ الْمَعْمُورِ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، بِقَلْعَةِ الْجَبَلِ الْمَحْرُوسَةِ ، وَأَوْقَافِهِ ، وَالنَّظْرُ عَلَى التَّرْبَةِ
 وَالْمَدْرَسَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ وَأَوْقَافِهِمَا .



ومنها - نظر مشهد الإمام الحسين رضي الله عنه بالقاهرة المحروسة .

وقد تقدم في الكلام على خطط القاهرة في المقالة الثانية أن الصالح طلائع
 ابن رزيك حين قصد نقل رأس الإمام الحسين إلى القاهرة ، بنى لذلك جامعاً

(١) يريد المتخاصمين ولكنا لم نعر على هذا البناء فيما بأيدينا من كتب اللغة .

خارج بابي زويلة^(١)، فبلغ ذلك الخليفة فأفرد لها هذه القاعة من قاعات القصر وأمر بنقلها إليها .

وهذه نسخة توقيع بنظره ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهي :
الحمد لله الذي جعل مواطن الشرف في أيامنا الزاهرة ، محصورة في أكفائها ،
ومشاهد السيادة في دولتنا القاهرة ، مقصورة على من حبته أو امرنا باعتنائها ،
وخصته آلاؤنا باصطفائها ، الذي أجرى حسن النظر في مظان الآباء الطاهرة على يد
من طلع في أفق العلياء من أبناءها ، وعمر معاهد القربات بتدبير من بدأ بقواعد دينه
وأجاد إحكام تشييدها وإتقان بنائها .

نحمده على ما خصت به أيامنا من رفع أقدار ذوى السيادة والشرف ، وأتصف به
إنعامنا من مزيد بر علم بحسن ظهوره على الأولياء أن الخير في السرف .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يعرف بها من اعترف ،
ويشرف قدر من له بالمحافظة عليها شغف ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي طهر
الله بضعته الزهراء وبنينا ، وخصهم بمزية القربى التي نزهه أن يسأل على الهداية
أجرا إلا المودة فيها ، صلى الله عليه وعلى آله الذين هم أجدر بالكرم ، وأحق بمحاسن
الشيم ، ومامنهم إلا من (تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم) ،
وعلى آله وأصحابه الذين أنعم الله به عليهم ، وأتبعوه في ساعة العسرة فمنهم الذين
أخرجوا من ديارهم والذين يحبون من هاجر إليهم ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من زينت به مواطن الشرف ، وعُدقت به العناية بخدمة من درج
من بيت النبوة وسلف ، ومحرت به مشاهد آثارهم التي هي في الحقيقة لهم عُرف ،

(١) بكهينة وسفينة . انظر شرح القاموس في مادة زول .

[ونالت الدولة] من تديره الجميل بعض حظها ، وخصت بقعته المباركة من نظره بما ينوب في خدمة محله الشريف عن مواقع لحظها ؛ وجعلت به لابن رسول الله من خدمة أبيه معها نصيبا ، وفعلت ذلك إذ خبرت خدمته أجنبيًا علمًا أنها تتضاعف له إذا كان نسيبًا ، وحكمت بما قام عندها مقام الثبوت ، وأمرته أن يبدأ بخدمة أهل البيت [فإن] لازمها لسيها مقدم على البيوت - من طلع شهاب فضله من الشرف السنّي في أكرم أفق ، وأحاطت به أسباب السؤدد من سائر الوجوه إحاطة الطوق بالعنق ؛ وزان الشرف بالسؤدد والعلم بالعمل ، والرياسة باللطف فاخترته المناصب وأخالته به الدول ، وتقدم بنفسه ونفاسه أصله فكان شوط من تقدمه وراء خطوه وهو يمشي على مهل ؛ وأصطفته الدولة القاهرة لنفسها فتمسك من الموالاة بأوثق أسبابها ؛ وأعمدت عليه في بث نعمها ، وبعث كرمها ، فعرف في ذلك الأمور من وجهها وأتى البيوت من أبوابها ؛ وحددت وفود أبوينا العالية لحسن سيرته في إكرامهم السرى ، وأكتفت [حتى] مع ترك الكرامة إليهم ببشاشة وجهه التي هي خير من القرى ؛ وصان البيوت عن الإقواء بتديره الذي هو من مواد الأرزاق ، وزاد الحواصل بتتميره مع كثرة الكلف التي لو حاكمتها الغائم لأمسكت خشية الإنفاق .

ولما كان فلان هو الذي تليت مناقب بيته الطاهر ، وجليت منفاخر أصله الزاهر ، وتجلت بشرف خلاله خلال الشرف التي تركها الأول للآخر ؛ وكان مشهد الإمام السيد الحسين ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بقعة هي متجع الرحمة ، ومظنة إجابة الأمة ، وروضة من شرفت بانتقاله إليها ، وتربه شهيد الزهراء صلوات الله على أبيها وعليها ؛ وبه الآن [من] رواتب القربات ووظائف العلوم وجهات الخير ما يحتاج إلى اختيار من يجمل النظر فيه ،

وليسلك نهج سلفه في الإعراض عن عرض الدنيا ويقتفيه - رأينا أن نختار لذلك من اخترناه لأنفسنا فكان الكُفء الكريم ، وأختبرناه لمصالحنا فخبّرنا منه الحفيظ العليم ، وأن نُقدم مُهمّ ذلك البيت على مُهمّ بيوتنا فإنّ حقوق آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أحقّ بالتعظيم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازلّت مكارمه بتقريب ذوى القربى جديره ، ومراسميه على إقدار ذوى الرتب على مايجب قديره ، - أن يفوض إليه النظر على مشهد الإمام الحسين ابن أمير المؤمنين على بن أبي طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة ، على قاعدة من تقدّمه في ذلك ، بالمعلوم الشاهد به ديوان الوقف : لما قدّمناه من أسباب رجّحته لذلك ، وبيناه من أمور أوضحت في اختيارنا له المسالك ، ومن أولى منه بهذه الرتبة التي شهّدت له باستحقاقها مناصبه ومناسبه ، أو أقدّر منه على أمثال هذه الوظيفة وقد أقرت بكاله وكرم خلاله مراتب الباب الشريف ورواتبه .

فليُمنع النظر في مباشرة أوقاف هذه البقعة المباركة مظهرًا ثمرة تفويضها إليه ، مبيّنًا نتيجة تعرّضها له وعرضها عليه ، منبها على سرّ التوفيق فيما وضع أمرنا من مقاليد أمرها في يديه ، مجتهدًا في تمييز أموال الوقف من كل كاتب [حديث] ، موضحًا من شفقة الولد [على] ماُنسب إلى الوالد ما شهّدت به في حقها الأحاديث ، سالكا من خدمة ذلك الشهيد ما يشهد له به غدا عند جدّه ، ناشرا من لواء فضل رفّعه في الحقيقة رفع مجده ، وليلاحظ تلك المصالح بنظره الذي يزيد أموالها تمييرا ، ورباعها تعميرا ، وحوصلها تمييرا وتوفيرا ، وأرج أيها السيد الشريف

(١) بياض بالأصل ولعله "من عنايته به لواء الخ" .

عند الله تعالى بذلك عن كل حسنةٍ عشرًا إن ذلك [كان] على الله يسيرا . وصن ما بيدك عن شوائب الأدناس : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ . وقد خبرنا من سيرتك وسريرتك ما لا نحتاج أن نزداد به خبرًا ، ولا أن نبلوه بعد ماسلف مرةٍ أخرى ؛ ولكن نذكرك بتقوى الله التى أنت بها متّصف ، وبوجودها فىك معروف وبوجودها عليك تعترف ؛ فقدّمها بين يديك ، وأجعلها العمدة فيما اعتمدنا فيه عليك ؛ إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة

(من الوظائف الدينية ما يكتب فى قطع العادة الصغير ، مفتتحا

بـ«رسم بالأمر الشريف»)

وهو لمن كانت رتبته مجلس القاضى ، ورُبما كُتب فيه بالسامى بغيرياء لمن قُصد تعظيمه وهو قليل ، وبه يكتب لأرباب الوظائف الصغار من الخطباء ، والمدرسين ، ونظار الأوقاف ، وغيرهم من لا ينحصر كثرة .

وهذه نسخة توقيع بنظر البيارستان العتيق الذى رتبته السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» فى بعض قاعات قصر القاطمين ، وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت أيامه تُفيد علاء ، وتستخدم أكفاء ، وتُضفى ملابس النعماء على كلِّ على فنكسوه بهجةً وبهاء - أن يستقر فلان فى نظر البيارستان الصلاحيّ بالقاهرة المحروسة ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت ، لكفاءته التى أشهر ذكرها ، وأمانته التى صدق خبرها خبرها ؛ ونزاهته التى أضحى بها

على النفس فغدا بكل ثناء ملياً ، ورياسته التي أحلت قدره أسمى رتبة فلا غرو أن يكون «علياً» .

فليباشر نظر البيارستان المذكور مباشرة يظهر بها انتفاعه ، وتميزها أوضاعه ؛ ويضحى عامر الأرجاء والنواحي ، ويقول لسان حاله عند حسن نظره وجميل تصرفه : الآن كما بدأ صلاحى ؛ وليجعل همته مصروفة إلى ضبط مقبوضه ومصروفه ، ويظهر نهضته المعروفة بشمير ريعه حتى تتضاعف مواد معرفه ؛ ويلاحظ أحوال من فيه ملاحظة تذهب عنهم الباس ، ويراع مصالح حاله في تنميته وتزكيتة حتى لا يزال منه شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ؛ وليتناول المعلوم الشاهد به الديوان المعمور من استقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه .

وَأَعْلَمُ أَنَّ مِنْ تَوَاقِعِ أَرْبَابِ الْوُظَائِفِ الدِّينِيَةِ مَا يَكْتُبُ فِي هَيْئَةِ أَوْرَاقِ الطَّرِيقِ ، أَوْ عَلَى ظُهُورِ الْقِصَصِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ .

وهذه نسخة توقيع بالتحدث في وقف :

رَسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي الْمَوْلَوِيِّ السَّلْطَانِيِّ الْمَلِكِيِّ الْفُلَانِيِّ - أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَشَرَفَهُ ، وَأَنْفَذَهُ وَصَرَفَهُ - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْقَاضِيُ فُلَانُ الدِّينِ فُلَانُ فِي التَّحَدُّثِ فِي الْوَقْفِ الْفُلَانِيِّ ، بِمَا لَدُنْكَ مِنَ الْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ كِتَابُ الْوَقْفِ . فَلْيَعْتَمِدْ هَذَا الْمَرْسُومَ الشَّرِيفَ كُلَّهُ وَقِفْ عَلَيْهِ ، وَيَعْمَلْ بِحَسْبِهِ وَبِمَقْتَضَاهُ ، بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الضرب الثالث

(من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية - الوظائف الديوانية)

وهى على طبقتين :

الطبقة الأولى

(أربابُ التقاليد، فى قطع الثلثين ممن يكتب له «الجنابُ العالى»

وفىها وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(الوزارة، إذا كان متولياً من أرباب الأقاليم، كما هو الغالب)

وقد تقدم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية نقلاً عن «مسالك الأَبصار» أن ربها ثانى السلطان لو أنصف وعُرف حقه، إلا أنها لما حدثت عليها النيابة، تأخرت وقعد بها مكانها حتى صار المتحدث فيها كخاطر المال، لا يتعدى الحديث فيه ولا يتسع له فى التصرف مجال، ولا تمتد يده فى الولاية والعزل لتطلع السلطان إلى الإحاطة بجرى الأحوال فى الولاية والعزل. وقد تقدم ذكر ألقابه مستوفاةً فى الكلام على مقدمة الولايات فى الطرف الأول من هذا الفصل، والكلام على طرة تقليده فى الكلام على التقاليد.

وهذه نسخة تقليدٍ بالوزارة، كُتب بها للصاحب «بهاء الدين بن حنا» . من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمد لله الذى وهب لهذه الدولة القاهرة من لدنه ولياً، وجعل مكان سرها
وشد أزرها علياً، ورضى لها من لم يزل عند ربه مرضياً .

نَحْمَدُهُ عَلَى لُطْفِهِ الَّذِي أَمْسَى بِنَا حَفِيًّا ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَ دَوْلَتَنَا جَنَّةً أَوْرَثَ تَدْبِيرِهَا مِنْ عِبَادِهِ مَنْ كَانَ تَقِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نُسَبِّحُ بِهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ، وَنُصَلِّيُّ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي آتَاهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً نَتَّبِعُ بِهَا صِرَاطًا سَوِيًّا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا تَتَعَمَّتُ أَلْسِنَةُ الْأَقْلَامِ بِتِلَاوَةِ سُورِهِ ، وَتَتَعَمَّتُ أَفْوَاهُ الْمَحَابِرِ بِالِاسْتِمْدَادِ لِتَسْطِيرِ سِيرِهِ ، وَتَنَاجَتِ الْكِرَامُ الْكَاتِبُونَ بِشُكْرِ مَجْمَلِهِ وَمَفْصَلِهِ ، وَتَنَاشَدَتِ الرَّوَاةُ بِحُسْنِ لَسَانِهِ وَتَرْتَمَتِ الْحُدَاةُ بِطَيْبِ غَزَلِهِ ، وَتَهَادَتِ الْأَقَالِمُ نُحْفَ مَعْجَلِهِ وَمَوْجَلِهِ ، وَعَنَتِ وَجُوهُ الْمَهَارِقِ لِعُصُودِ كَلِمَةِ الطَّيِّبِ وَرَفَعُ صَالِحِ عَمَلِهِ - مَا كَانَ فِيهِ شُكْرٌ لِنِعْمَةٍ يَمُنُّهَا عَلَى الدَّوْلَةِ سَعَادَةٌ جُدُودِهَا وَحُظُوظِهَا ، وَإِفَادَةٌ مَصُونِهَا وَمَحْفُوظِهَا ، وَإِرَادَةٌ مَرْمُوقِهَا بِحُسْنِ الْأَسْتِدَاعِ وَمَلْحُوظِهَا ، وَحَمْدٌ لِمُنْحَةِ أَفَائِئِهَا بِرَكَاتٍ أَحْسَنَتْ لِلْمَمْلُوكَةِ الشَّرِيفَةِ مَالًا ، وَقَرَّبَتْ لَهَا مَنَالًا ، وَأَصْلَحَتْ لَهَا أَحْوَالًا ، وَكَارَتْ مَدَدَ الْبَحْرِ فَكَلَّمَا أَجْرَى ذَاكَ مَاءٌ أَجْرَتْ هِيَ مَالًا ، وَإِنْ صَنَّتِ السُّحُبُ أَنْشَأَتْ هِيَ سُحُبًا ، وَإِنْ قِيلَ - بُشِّحَ سَيْحَانَا - : رَوْنَقُ الْأَرْضِ ذَهَبٌ ، عَوَضَتْ عَنْهُ ذَهَبًا ، كَمْ لَهَا فِي الْوُجُودِ مِنْ كَرَمٍ وَكَرَامَةٍ ، وَفِي الْوُجُوهِ مِنْ وَسُومٍ وَوَسَامَةٍ ، كَمْ أَحْيَتْ مُهَجًا ، وَكَمْ جَعَلَتْ لِلدَّوْلَةِ مِنْ أَمْرِهَا مَخْرَجًا ، وَكَمْ وَسَّعَتْ أَمْلًا ، وَكَمْ تَرَكَتْ صَدْرَ الْحَزْنِ سَهْلًا ، وَكَمْ تَرَكَتْ صَدْرَ الْخِزَائِنِ ضَمِيْقًا حَرَجًا ، كَمْ اسْتُخْدِمَتْ جَيْشٌ تَهَجَّدُ فِي بَطْنِ اللَّيْلِ ، وَجَيْشٌ جِهَادٍ عَلَى ظُهُورِ الْخَيْلِ ، وَكَمْ أَنْفَقَتْ فِي وَاقِفٍ فِي قَلْبٍ بَيْنَ صُفُوفِ الْحُرُوبِ ، وَفِي وَاقِفٍ فِي صُفُوفِ الْمَسَاجِدِ مِنْ أَصْحَابِ الْقُلُوبِ ، كَمْ سَيَّلَ يَسَّرَتْ ، وَسُعُودٍ كَثُرَتْ ، وَكَمْ مَخَاوِفَ أَدْبَرَتْ حِينَ دَرَّتْ ، وَكَمْ أَنْارٍ فِي الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ آثَرَتْ وَأَثَرَتْ ، وَكَمْ وَافَتْ وَوَقَّتْ ، وَكَمْ كَفَّتْ وَكَفَّتْ ، وَكَمْ أَعْفَتْ وَعَفَّتْ ، وَكَمْ وَأَثَرَتْ ، وَكَمْ مَوَازِينُ لِلْأَوْلِيَاءِ ثَقُلَتْ وَمَوَازِينُ لِلْأَعْدَاءِ خَفَّتْ ، كَمْ أَجْرَتْ مِنْ وَقُوفٍ ،

وكم عُرِفَتْ بِمَعْرُوفٍ ، كَمْ بِيُوتِ عِبَادَةٍ صَاحِبُ هَذِهِ الْبَرَكَاتِ هُوَ مَحْرَابُهَا ، وَسَمَاءُ جُودِهَا
 هُوَ سَحَابُهَا وَمَدِينَةُ عِلْمِهَا هُوَ بَابُهَا ، تُثْنَى اللَّيَالَى عَلَى تَغْلِيصِهِ إِلَى الْمَسَاجِدِ فِي الْحَنَادِسِ ،
 وَالْأَيَّامُ عَلَى تَهْجِيرِهِ لِعِبَادَةِ الْفُقَرَاءِ وَحُضُورِ الْجَنَائِزِ وَزِيَارَةِ الْقُبُورِ وَالِدَّوَارِسِ ، يَكْتَنُّ
 تَحْتَ جَنَاحِ عُدْلِهِ الظَّاعِنُ وَالْمُقِيمُ ، وَتَشْكُرُ مَبَارَهُ يَثْرُبُ وَزَمَنُ مَكَّةَ وَالْحَطِيمِ ، كَمْ
 عَمَّتْ سُنَنَ تَفْقُدَاتِهِ وَنَوَافِلِهِ ، وَكَمْ مَرَّتْ صَدَقَاتُهُ بِالْوَادِي - فَسَّحَ اللَّهُ فِي مُدَّتِهِ -
 فَأَثْنَتْ عَلَيْهِ رِمَالُهُ وَبِالنَّادَى فَأَثْنَتْ عَلَيْهِ أَرَامِلُهُ ، مَا زَارَ الشَّامَ إِلَّا أَغْنَاهُ عَنْ مَنَّةِ
 الْمَطْرِ ، وَلَا صَحْبِ سُلْطَانِهِ فِي سَفَرٍ إِلَّا قَالَ : نِعْمَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ .

وَمَا كَانَ الْمُنْفَرِدُ بِهَذِهِ الْبَرَكَاتِ هُوَ وَاحِدُ الْوُجُودِ ، وَمَنْ لَا يُشَارِكُهُ فِي الْمَزَايَا
 شَرِيكَهُ وَإِنَّ اللَّيَالَى بِإِيْجَادِ مِثْلِهِ غَيْرُ وُلُودٍ ، وَهُوَ الَّذِي لَوْلَمْ تُسَمِّهِ قَالَ سَامِعُ هَذِهِ
 الْمَنَاقِبِ : هَذَا الْمَوْصُوفُ ، عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ مَعْرُوفٌ ، وَهَذَا الْمَمْدُوحُ ، بِأَكْثَرِ مَنْ
 هَذِهِ الْمَادِحُ وَالْمَحَامِدُ مِنْ رَبِّهِ مَمْدُوحٌ وَمَمْنُوحٌ ، وَهَذَا الْمَنْعُوتُ بِذَلِكَ ، قَدْ نَعْتَهُ بِأَكْثَرِ
 مِنْ هَذِهِ النُّعُوتِ الْمَلَائِكِ ، وَإِنَّمَا نَذَكُرُ نَعْوَتَهُ الْبَدَائِدَ ، فَلَا يَعْتَقِدُ خَاطِبٌ وَلَا كَاتِبٌ
 أَنَّهُ وَفَى جَلَالَتِهِ بَعْضَ حَقِّهَا فَإِنَّهُ أَشْرَفُ مِنْ هَذَا ، وَإِذَا كَانَ وَلَا يَبْدُ لِلْمَادِحِ أَنْ تَجُولَ ،
 وَلِلْقَلَمِ أَنْ يَقُولَ ، فَتَمَّكَ بَرَكَاتُ الْمَجْلِسِ الْعَالِي ، الصَّاحِبِي ، السَّيِّدِي ، الْوَرَعِي ،
 الزَّاهِدِي ، الْعَابِدِي ، الْوَالِدِي ، الذُّخْرِي ، الْكَفِيلِي ، الْمُهَيَّبِي ، الْمَشِيدِي ،
 الْعَوْنِي ، الْقَوَامِي ، النَّظَامِي ، الْأَفْضَلِي ، الْأَشْرَفِي ، الْعَالِمِي ، الْعَادِلِي ، الْبَهَائِي ، سَيِّدِ
 الْوُزَرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، كَهْفِ الْعَابِدِينَ ، مَا جَاءَ الصَّالِحِينَ ، شَرَفِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ ، مَدَبَّرِ
 الدُّوَلِ ، سَدَادِ الثُّغُورِ ، صِلَاحِ الْمَمَالِكِ ، قُدُوةِ الْمَمْلُوكِ وَالسُّلْطَانِ ، يَمِينِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ : أَدَامَ اللَّهُ جَلَالَهُ . مَنْ تَشَرَّفَ الْأَقْلَامُ بِحِطَاةِ قَلَمِهِ الْمُبَارَكِ ، وَالتَّقَالِيدُ
 بِتَجْدِيدِ تَنْفِيذِهِ الَّذِي لَا يُسَاهِمُ فِيهِ وَلَا يُشَارِكُ ، فَمَا جُدُّ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ بِمَثَابَةِ آيَاتِ

فتردد، أو بمنزلة سجلات في كل حين بها يُحكّم وفيها يُشهد ، حتى نتناقل ثبوته الأيام والليالي ، ولا يخلو جيد دولة من أنه يكون الحالى بماله من فاخر اللآلى .

فلذلك نخرج الأمر العالى - لا برح يُكسب بهاء الدين المحمدى أتم الأنوار ، ولا برحت مراسمه تزهو من قلم منقذه بنى الفقر وذى الفقار - أن يضمّن هذا التقليد الشريف بالوزارة التامة ، العامة ، الشاملة ، الكاملة : من المآثر الشريفة الصحابية ، البهائية ، أحسن التضمين ، وأن يُنشر منها ما يتلقى رايته كل رب سيف وقلم باليمن ، وأن يعلم كافة الناس ومن تضمه طاعة هذه الدولة ومملكها وسلطانها من ملك وأمير ، وكل مدينة ذات منبر وسرير ، وكل من جمعته الأقاليم من نواب سلاطنه ، وذى طاعة مدعنه ، وأصحاب عقد وحل ، وظعن وحل ، وذى جنود وحشود ، ورافعى أعلام وبنود ، وكل راع ورعيه ، وكل من ينظر في الأمور الشرعية ، وكل صاحب علم وتدريس ، وتهليل وتقديس ، وكل من يدخل في حكم هذه الدولة الغالبة من شمسها المضيئة ، وبدورها المنيرة وشهبها الثاقبة ، فى الممالك المصرية ، والنوبية ، والساحلية ، والكركية ، والشوبكية ، والشامية ، والحلبية ، وما يتداخل بين ذلك ، من ثغور وحصون وممالك - أن القلم المبارك الصحابى البهائى فى جميع هذه الممالك مبسوط ، وأمر تدبيرها به منوط ، ورعاية شفقته لها تحوط ، وله النظر فى أحوالها ، وأموالها ، وإليه أمر قوانينها ، ودواوينها ، وكتابها ، وحسابها ، ومراتبها ، ورواتبها ، وتصريفها ، ومصرفها ، وإليه التولية والصرف ، وإلى تقدمه البدل والنعن والتوكيد والعطف ، فهو صاحب الرتبة التى لا يحلها سواه وسوى من هو مرتضىيه ، من السادة الوزراء بنيه ، وما سمينا غيره وغيرهم

(١) بالصُّحُوبِيَّةِ فليحذر من يُحَاطِبُ غَيْرَهُ [و] غيرهم بها أو يُسَمِّيهِ ؛ فكما كان والدنا الشهيد رحمه الله يخاطبه بالوالد قد خاطبناه بذلك وخطبناه ، وما عدلنا عن ذلك بل عدلنا لأنه ما ظلم من أشبه أباه ؛ فميزته لأسمائى ولا تُسام ، ومكاتبته لا تُراعى ولا تُرام ؛ فمن قدح فى سيادته من حُسادِه زنادَ قَدْحٍ أُحْرِقَ بِشَرِّ شَرِّهِ ، ومن ركب إلى جلالته ، تَبَجَّ سُوءُ أُغْرِقَ فى بَحْرِهِ ، ومن قتل لسعادته ، حبَل كيدٍ فإنما قتله مُبْرِمُهُ لِنَجْرِهِ ؛ فلتنزم الألسنة والأفلام والأقدام فى خدمته أحسن الآداب ، وإيقل المترددون : حِطَّةً إذا دخلوا الباب ؛ ولا يغترهم فرط تواضعه لدينه وتقواه ، فمن تأدب معه تأدب معناه ومن تأدب معناه تأدب مع الله . وليتل هذا التقليد على رؤوس الأشهاد ، وتُنسخ نُسخته حتى تتناقلها الأمصار والبلاد ؛ فهو حجتنا على من سميناه خصوصاً ومن يدخل فى ذلك بطريق العموم ، فليعملوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم ؛ والله يزيد المجلس الصاحي الوزيرى البهائي سيد الوزراء من فضله ، ويبيقيه لغاب هذه الدولة يصونه لشبله كما صانه لأسده من قبله ، ويمتغ بنته الصالحة التي يحسن بها - إن شاء الله - نماء الفرع كما حسن نماء أصله ، بمنه وكرمه ! .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كتبت به للصاحب تاج الدين محمد بن نحر الدين ابن الصاحب بهاء الدين على بن حنا ، فى ربيع الأول سنة ثلاث وتسعين وسمائة ، من إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبي ، تغمده الله برحمته ، وهى :

(١) فى التعبير بالصحوبية تسامح فى العربية .

الحمد لله مكلّ شرف الوزارة بطلعة تاجها ، ومشرف قدرها بمن شُرق عليها
 أشعة سعده إشراق الكواكب على أبراجها ، ورافع لواء مجدها بمن تلقته بعد الحفاء
 في حلل سرورها وحليّ آياتها ؛ وتحلّت بعد العطل من جواهر مفاخره بما تتزيّن
 عقود السعود بأزديواجها ، وترقل من أنتسابها إلى أئمة بهائه بما يودّ ذهب الأصيل
 لو أمترج بسلوك أنتساجها ؛ الذي شيد قواعد هذه المرتبة السنينة في أيامنا وجددها ،
 وبعث لها على فترة من الأكفاء من حسم الأدواء فكان مسيحها وشرع المعدلة
 فكان محمدًا ؛ وردّها بحكم الاستحقاق إلى من لا يخلّف في أنه صاحبها ، ورجعها
 إلى من خطبته لنفسها بعد أن أحجم لشرف قدرها خاطبها .

نحمده على أن شدّ أزر ملكنا بأكرم وزير ، وأمين مشير ؛ وأجلّ من يتهمى إلى
 بيت كريم ، وحسب صميم ، ومن إذا قال لسان ملكنا : ﴿ أَتُونِي بِهِ اسْتَخْلِصْهُ
 لِنَفْسِي ﴾ قالت كفايته : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نُقرّ بها سراّ وعلنا ، ونقرّ بها
 هذه العقيلة الجليلة عند من يكسوها مجده رفعة وسنا ، ويأيس جفن الدهر عنها
 وسنا ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المخصوص بكل صاحب شهد الكتاب والسنة
 بفضله ، وقام بعضهم بحسن مؤازرته مقام من شدّ الله [به] عضد من سألّه وزيرا من
 أهله ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا تغرب شمسها ، ولا يعزب أنسها ،
 ولا يتفاوت في المحافظة عليها غدّها وأمّسها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن أولى من خطبت بحمده الأعلام ، وأنتتحت به الدولة التي ابتسمت
 بنسيمها تغور الأيام ؛ وودت مسكة الليل لو ما زجت أنفاسه ، وأمل بياض النهار
 لو أخذ من غير سمة عوض ورق الورق قرطاسه ؛ وتحاشدت النجوم لتنتسق في سلك

معانيه وطارت بذكره فى الآفاق أنباء السُّعود، وحكمت الجُدود بأنه فى آقبال
إقباله نهاية الآباء وغاية الجُدود؛ وأفترت به تُغور الممالك عن أحسن الدرّ النّضيد،
وسرت بذكره رفاق الآفاق فى كلِّ نادٍ مُنادٍ وفى كلِّ برِّ برِّيد، وأختالت به أعطاف
الدولة القاهرة فأوت من الرأى السّديد إلى كلِّ ركنٍ شديد، ونطق به العدل والحقُّ
نخرس الظلم وما يُبدئ الباطل وما يُعيد، وجرت به أقدار ذوى الرتب على أجمال
مناهجها فأما أهل العدل فيُقرّبون نجياً وأما أهل الظلم فأولئك ينادون من مكانٍ
بعيد، وبدت به وجوه المصالح سافرة بعد الحجاب، بارزة بعد طول الأنتقال إلى
الانتقاب، داخلّة بوفود المحامد من كلِّ باب، إلا الظلم فإنه بجد الله قد سدّ ذلك
الباب. وأقرّ منصب الوزارة الشريفة أنا أعدنا به الحقّ إلى نصابه، وردّدناه إلى من
هو أولى به بعد اعتصامه، وألبسناه من بهجة أيامنا تاجاً ردّ عليه عزّاً لا تطمع
يد الذهب فى انتزاعه عنه ولا استلابه؛ وتقلّده لمن يودّ الفرقد لو عُقد به إكليله،
ويتمنى الطّرف لو أدرك غاية مجده وإن رجع وهو حسير البصر كليله؛ وتفويض
ذلك إلى من كان له وهو فى يد غيره، ومن به وببئته تمهدت قواعده فما كان فيه
من خير فهو من سيرتهم وما كان من شرٍّ فن قبل المقصّر من عثارهم فى سيره؛
وما أحدث فيه من ظلم فهو منه براء إذ إنم ذلك على من أجتراً عليه، وما أجرى
به من معروف فىلى طريقهم منسوب وإن تلبس منه بما لم يعط من نُسب إليه؛
وما خلا منهم هذا الدّست الكريم إلا وهم بالأولوية فى صدره الجلوس، ولا تصدّى
غيرهم لتعاطيه إلا وأقبلت عليه فى أيامه الجسوم وعلية النفوس.

ولذلك لما كانت هذه الدولة القاهرة مفتحة بالبركات أيامها، ماضية بكف
الظلم ونشر العدل سيوفها وأقلامها، مستهلة بالأرزاق سحّب فضلها التى لا يُقلع

غمأمها - أقتضت الآراء الشريفة اختيار خير صاحب يعين على الحق بآرائه، ويجمل
 الدست بهجته ورؤاه، ويجرى الأرزاق بوجه لو تأمله أمرؤ ظمى الجوانح
 لأرتوى من مائه، وكان المجلس العالى، الصاحي، الوزيري، التاجي: أدام الله
 تعالى نعمته، ورحم سلفه، هو المخطوب لفضله، والمطلوب لهذا الدست الذي
 تعين له دون الأكفاء وإن لم يكن غير أهله من أهله، وما زال يتشوف إليه تشوف
 البروج إلى نجوم السعود، ويتطلع إلى محياه الذي هو كنور الشمس في الدنو وكحلها
 في الصعود، وما زالت الأدعية الصالحة ترتفع في أيامه لمالك عصره، والآراء تُقام
 منها جنود لتأبيده وحشود لنصره، والأموال تُجمل منها إلى خزائنه بأشبهه بموج البحر
 في الحضر دون حضره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - ضاعف الله مواهبه العميمة، وكمل جلال دولته
 بتفويض أمورها إلى ذوى الأصول العريقة والبيوت القديمة - أن نُجلى منه هذه
 الرتبة العلية بما حلّ به الدين، وتُعقد له رايه فضلها المتين، ليتلقاها شرقاً وغرباً،
 وبعداً وقرباً، وبراً وبعداً، وشاماً ومضراً، ويحلى حلاه علم وعلم، وسيف وقلم،
 ومنبر وسرير، ومأمور وأمير .

فليتأق أمره بالطاعة كل مؤتمر بأمرنا الشريف، جارٍ في طاعتنا المفروضة بين
 بيان التقليد وعنان التصريف، وليبادر إلى تدير أمور الأقاليم بأقلامه المباركة،
 ويمض القواعد على ما تراه آراؤه المنزهة عن المنازعة في الأمر والمشاركة، ولينشر كلمة
 العدل التي أمر الله بإضافة الإحسان إليها، ويمتد يدع الظلم فإن الله يشكره على تلك
 الإمامة ويحمده عليها، ويسهل رزق الصدقات، ووظائف القربان، فإن ذلك من
 أجل ما قدمته [الطائفة] الصالحة بين يديها، وليكثر بذلك جنود الليل فإنها لا تطيش
 سهامها، ويتوق من محاربتها بظلم فإنه لا يداوى بالرقى سمائها، وليعود بتائم التيسير

مواهبنا فإنَّ تمام النعمة تَمَّامُها ، وليطلق قلمه فى البسط والتقبض وليُعد بتدبيره على هذا المنصب الشريف بهجته ، ويتدارك بآرائه ذمَّاه وبدوائه مُهيجته ؛ ويصنُّ عن شوائب الظلم حرمتَه ، ويخلص ذمَّتنا من المآثم وذمَّتَه ؛ وليعلم أنَّ أمور المملكة الشريفة منوطةٌ بآرائه وأحكامه ، مضبوطةٌ بأقواله وأقلامه ؛ فليجعل فكره مرآةً تجلُّو عليه صورها ، ويقيم آراءه صحفاً تتلو لديه سُورها ؛ ويأمرِ التَّوَّاب بما يراه من مصالحتنا ليلبوه سامعين ، ويسهر جفنه فى مصالح البلاد والعباد لترقد الرعايا فى مهاد الأمن وا عين ؛ ويعضد الشريعة المطهرة بتنفيذ أحكامها ، وإعلاء أعلامها ؛ وإظهار أنوارها ، وإقامة مرفعه الله من منارها ؛ ولا يعدل فى أمور مباشرتها بالممالك الشريفة عن آرائه ، ولا يمضى فيها عزلاً ولا ولايةً إلا بعد تتبُّعه الواجب فى ذلك وأستقرائه ، وهو أعلم بما يجب لهذه الرتبة من قواعدٍ إليه يرجع فى أوضاعها ، وعليه يُعول فى اصطلاحها لِانفرادها فيه واجتماعها ؛ فليفعل فى ذلك ما هو عليه بحسن الشناء جدير ، وليعتصم بالله فى أموره فإنه نعم المولى ونعم النصير ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كُتب به للصاحب ضياء الدين بالاستمرار على الوزارة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

الحمد لله الذى شدَّ أزر ملكنا الشريف ، بمن أضاء فى أفق الدين علمه ، وشيد قواعد عدلنا المنيف ، بمن أعلت منار الحق آياته فى أحكام الممالك وحلمه ، ووطد أركان دولتنا القاهرة بمن يفعل فى نكاية أعداء الله فعل الحرب العوان سائمه ،

وأجرى الأرزاق في أيامنا الزاهرة على يد من كفت أعلامه كفت الحوادث
فلا عدوان تغشى ظلمه ولا عاد يحشى ظلمه ، وصان ممالكا المحروسة بآراء من إن
صرف إلى نكايه أعداء الله حد يراعه لم ينب موقعه ولم يعف كفه ، وإن صرفه
في حماية نعر لم يشتم برقه ولم يدق بالوهم ظلمه ، وإن حنى جانب إقليم عن على
الأيام ثل عروش ما حماه وشمه ، وإن أرهقه لذب عن دين الله راعت عدو الدين
منه بقطته وسله عليه حمله .

نحمده على نعمه التي زانت أسنى مناصب الدنيا في أيامنا الزاهرة بضياء الدين ،
وأعلت أقدار الرتب العليا بتصرفها بآراء من أصبح علمه علما للتقنين وعمله سنا
للمقتدين ، وبخرت ينابيع الأرزاق في دولتنا القاهرة بيد من أغنى بيدنا المعتفين
وقمع بمهابتنا المعتدين .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعاد يمينها على سمع المنابر من
نعوتنا ما فقد ، وأطفا إعلانها عن حمايتها لب العناد وقد وقد ، وفوض أعتناؤنا
بمصالح أهلها أمورهم إلى أكل من آتقى لنا التأييد من ذخائر العلماء وأفضل
من انتقد ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أقامنا الله للدب عن أمته ، وجلا
بنور جهادنا لأعدائه عن قلب كل مؤمن ما أظله من غمه وران عليه من غمته ،
وعضدنا من أئمة ملته بمن أردنا مصالح العباد والبلاد في إلقاء كل أمر إليه
بأزمته ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من فاز بسبقه ، وحاز بتصديقه
قدم صدقه ، واختصه الله بمؤازرة نبيه دون من آجته من خلقه ، ومنهم من
كان الشيطان يئكب عن طرقة ، ونطق من الصواب بما نزل الذك الحكيم على
وقفه ، وسمى الفاروق لتمييزه بين الحق والباطل وفرقه ، ومنهم من قابل المعتدين

بريقه وقُتِلَ شهيداً على حَقِّه ، وكانت ملائكةُ الرحمن تستحي من خلقه الكريم
 وكرم خُلقه ، ومنهم من طلع [لا] مع نور الإيمان من أفقه ، وكان سيفه من كل مُلحد
 فى دين الله بمثابة قِلادة عنقه ، وطلق الدنيا تورعاً عنها ويديه مفاتيح ما بسط
 الله للأمة من رزقه ، صلاة يقيم الإيمان ، فرضها ، ويملاها الإيقان ، طول البسيطة
 وعرضها ، وتزين كواكب ذكراها ومواكب نصرها سماء الدنيا وأرضها ، وسلم
 تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن أولى من رُقمت لأعطاف فضله حلل الكلام ، ونُظمت لأجساد
 ذكره فرائد المعانى المستخرجة من بحار الفكر على ألسنة الأعلام ، ووُشحت التقليد
 من مناقبه بما هو أحسن من أنساق الدرارى على هالات البدور ، وجلى على المسامع
 مفاخره بما هو أبهى من النور فى العيون ! وأحلى من الأمن فى القلوب ! وأوقع من
 الشفاء فى الصدور ، وأطلع فى أفق الطروس من أوصافه شمس أسفر بأنواع العلوم
 ضيائوها ، وأنشئت فى أثناء السطور من نعت ما أثره شجب إذا قابلتها وجوه الحيا
 سترها بجمرة البرق حياؤها ، وأودعت المهارق من ذكر خلاله لطفاً يودُّ ذهب الأصيل
 لو ناب عن أنفاسها ، ومنحت صدور المعانى من معاليه طرقات نمتى الرياض العواطر
 لو تَلَقَّتْ عن أنفاسها - من سمّت الوزارة بأستقرارها منه فى معدن الفضائل ،
 وأنسمت منه بالصاحب الذى أعادت أيامه ما فقد من محاسن السير الأوائل ؛
 وأبتسمت من علومه بالعلامة الذى نتفزع من أحكامه أحكام الفروع ونتفجر من
 تواقيعه عيون المسائل ، وأنصفت من معدلته بالمنصف الذى هجر فى أيامه هجر
 الحيف والظلم فالأوقات فى أيامه المباركة كلها أسحار وأصائل ؛ وأبتهجت من إنصافه
 بالعدل الذى سهّل على ذوى المطالب حجاب بابه فلا يحتاج أن يُطرق بالشفاعات
 ولا أن يُستفتح بالوسائل ، وأشرق من مفاخره بالكامل الذى حسنت به حلل

الثناء فكأنها آبتسامُ تُغور النور في أثناء الجمائل ، فالعدل في أيامه كالإحسان شامل ، والمعروف بأقلامه كالشجوب المتكفلة برى الأرض الهامل ، والظلم والإنصاف مفترقان منه بين العدم والوجود فلا يرى بهذا أمرا ولا يردُّ عن هذا أمل ؛ قد أعطى دستَ الوزارة الشريفة حقه : فالأقدار بآياته مرفوعة ، والمضارُّ بمعادته مدفوعة ، وكلمة المظلوم بإنصاف إنصاته مسموعة ، وأسباب الخيرات بحسن نيته لينته الحسنه مجموعه ؛ والأقاليم بكلاءة أقلامه محوطة ، وأحوال المملكة بأرائه المشتملة على مصالحها منوطة ؛ والثغور بحسن تفقده مفترة المباسم ، مضمونة بإزاحة الأعدار عن سرِّ الرياح النواسم ، أهلة النواحي بموالاته الحمول التي لا تزال عيسها بإدامة السرى دامية المناسم ؛ والبلاد بما نشرت أقلامه من العدل معموره ، والرعايا بما بسطت [يد] إحسانه من الإحسان معموره ، وأرباب التصرف بما تقتضيه أقلامه عن الحيف منيئة وبالرفق مأموره ، والأيدى بالأدعية الصالحة لأيامنا الزاهرة مرتفعه ، والرعية لتقلبها في مهاد الأمن والدعة بالعيش متفعه ؛ وبيوت الأموال أهلة ، على كثرة الإنفاق ، والغلال متواصلة ، مع التوفر على عمارة البلاد ، والحول متواليه مع أمن من صدرت عنهم على ما في أيديهم من الطوارف والتلاد ؛ والأمور بالتيقظ لها على سعة الممالك مضبوطة ، والثغور بالأمن على ما هي عليه من التملى بالنعم مضبوطة ؛ والمناصب مضمونة بأكفائها ، والمراتب أهلة بالأعيان الذين تنبته لهم في أيامه عيون الحظ بعد إغفائها ؛ ومجالس المعدلة حالية ، بأحكام سيرته المنصفه ، ومواطن العلم عالية ، بما يملئ فيها من فوائده التي أتعب السنة الأقالام ما فيها من صفه .

ولما كان الجنبُ العالى ، الصاحبى ، الوزيرى ، الضيائى ، وزير الممالك الشريفة ، هو الذى كرمت به مناسبها ، وعظمت بالانتماء إليه مناصبها ، وتحملت

بِعَلْمِهِ مِعَاطِفُهَا ، وَنَزَلَتْ عَلَى حُكْمِ حِلْمِهِ عَوَارِيفُ رِبَّهَا الْعَمِيمَةِ وَعَوَاطِفُهَا ؛ وَزَهَتْ
بِجَوَاهِرِ فِضَائِلِهِ أَجْيَادُهَا ، وَأَسْتَوَتْ فِي مَلَابِسِ حُلِّ الْمَسْرَةِ بِهِ أَيَامُهَا الزَاهِيَةَ
وَأَعْيَادُهَا ؛ وَأَنَارَتْ بِمَعْدَلْتِهِ لِيَالِيهَا ، وَأَشْرَقَتْ بِالْإِتِّظَامِ فِي سِيخَابِ^(١) إِيَالْتِهِ لِأَلِيهَا ؛
فَكَمَّ مِنْ أَقَالِيمِ صَانِ قَلَمِهِ أَمْوَالَهَا ، وَمِمَّا لَكَ حَلَى عَدْلِهِ أَحْوَالَهَا ، وَبِلَادِ أَعَانَ تَدْيِيرَهُ
السُّحْبِ عَلَى رِيَّيَا ، وَأَعْمَالِ أَبَانَ عَنْ أَسْتِغْنَائِهَا بِتَأْيِيرِهِ عَنْ مِنَّةِ الْحَيَا حَسَنُ مَسْمُوعِهَا
وَمَرْئِيَّيَا ؛ وَأَرْزَاقِ أَدْرَهَا ، وَرِزْقِ أَجْرَاهَا عَلَى قَوَاعِدِ الْإِحْسَانِ وَأَقْرَبَهَا ؛ وَجِهَاتِ يَرْ
أَعَانَ وَأَفِيهَا عَلَيْهَا ، وَأَسْبَابِ خَيْرٍ جَعَلَ أَيَّامَنَا بِإِدَامَةِ فَتَحِهَا السَّابِقَةَ إِلَيْهَا ؛ وَقَدَّمَ
سِعَايَةَ أَزَالِهَا وَأَرْطَا ، وَكَلِمَةَ حَادِثَةِ أَذَالِهَا وَأَذَلَّهَا ؛ وَوُجُوهَ مَضْرَّةٍ رَدَّهَا بِيَدِ الْمَعْدَلَةِ
وَصَدَّهَا ، وَأَبْوَابِ ظَلَمٍ لَا طَاقَةَ لِلرَّعِيَّةِ بِسُلُوكِهَا أَغْلَقَهَا بِمَعْنَى يَمْنِهِ وَسَدَّهَا ؛ فَدَأَّبَهُ أَنْ
يُسَدِّدَ إِلَى مَقَاتِلِ الْعِدَا بِاتِّخَاذِ الْبَيْدِ عِنْدَ الْفُقَرَاءِ سِهَامَ اللَّيْلِ الَّتِي لَا تَصُدُّهَا الدُّرُوعُ ،
وَأَنْ يَجِدَّدَ لِأَوْلِيَانَا مِنْ عَوَارِيفِ آلائِنَا أَخْلَافَ يَرْ تَرَوَى الْآمَالَ وَهِيَ حَافِلَةُ الضَّرُوعِ -
أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نُزَيِّنَ بِجِدِّهِ غُرَّرَ التَّقَالِيدِ ، وَنَجِدِّدَ إِلَيْهِ فِي أُمُورِ وَزَارَتِنَا
الشَّرِيفَةَ إِقْلَاءَ الْمَقَالِيدِ ؛ وَأَنْ نُوشِيَ الطَّرُوسَ مِنْ أَوْصَافِهِ بِمَا يَجِدَّدُ عَلَى أَعْطَافِهَا
الْحَبْرَ ، وَنَزِدِّدَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْأَقَالِيمِ مِنْ نُعُوتِهِ مَا لَا تَمَلُّ الْمَسَامِعُ إِيرَادَ الْخَبْرَ مِنْهُ بَعْدَ الْخَبْرِ .
فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلُويِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، الْمَلِكِيِّ ، الْفَلَانِيِّ -
لِأَزَالِ الدِّينِ فِي أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ مُشْرِقًا ضِيَاؤَهُ ، آهَلَةً بِاعْتِلَانِهِ هُرَابِعُ الْوُجُودِ وَأَحْيَاؤُهُ ،
مَمْدُودَةً عَلَى الْأُمَّةِ ظِلَالُهُ الْوَارِفَةُ وَأَفْيَاؤُهُ - أَنْ يُجِدِّدَ هَذَا التَّقْلِيدَ بِاسْتِقْرَارِهِ تَجْدِيدًا
لَا يُبِيلِي الدَّهْرُ حِلَّةً ، وَلَا تَقْوُضُ الْأَيَّامُ حِلَّةً^(٢) ؛ بَلْ يُشْرِقُ فِي أَفْقِ الْمَمَالِكِ إِشْرَاقَ

(١) السخاب بكسر السين المهملة وبالحاء المعجمة قلادة من مسك وقرنفل ومخيط بلا جوهر

جمعه ككتب .

(٢) جمع حلة بالكسر بمعنى البيوت وهي مائة فما فوقها انظر المصباح .

النجوم الثواب ، ويتفرع في مصالح الملك تفرع الأفتان الناشئة في الأصول الثواب ،
وتختال به مناصب الدولة القاهرة في أسنى ملاسها ، وتضىء به مواطن العلوم إضاءة
صباحة المصباح في يد قابسها ، وتسترع لنا به الأدعية الصالحة من كل لسان ،
وتجتلي به لأيماننا الزاهرة من كل أفق وجوه الشكر الحسان .

فلتجر أفلامه في مصالح دولتنا الشريفة على أفضل عادتيا ، ويرسلها في نشر العدل
على سجيته وفي إجراء الجود على جادتها ، ويكف بها أكتف الحوادث فإنما تزال
أسباب الظلم بحسب مادتها ، ولينطقها في مصالح الأموال بما تظلل له مسامح الحمول
مضعيه ، ويطلقها في عمارة البلاد بما تغدوله ألسنة الخصب حافظه ولما عداه
مئنيه ، وكذلك الخزان التي هي معاقل الإسلام وحصونه ، وحماء الذي لا يتبدل
بغير أمرنا الشريف في مصالح الملك والملة مضمونه ، فليجعلها بتدييره كالبحار
التي لا تنقص بكثرة الورد جماتها ، ولا تنزحها السحب لكثرة ما تحمى الى الأفق
عماها ، ولتكن كلمة العدل من أهم ما تفتح به مجالسه ، وآكد ما يؤمر به محاضره
من الأولياء ومجالسه ، وأزكى ما يستجيد [به] لاستثمار الدعاء الصالح مغارسه ،
وأوثق ما يحوط به حمى الملك الذي إذ اغفا جفن عينه كان حارسه . وأول ما ينبغى
أن ينافس عليه حاضر دسسته وغائبه ، وأولى ما يعد على إهماله نكاله ويعدد على
إقامته رغائبه .

وليلاحظ من مصالح كل إقليم ما كأنه ينظر إليه بعين قلبه ، ويمثل صورته
في مرآة لبيه ، فيقر كل أمر على ما يراه من سداده ، ويقرر حال كل ثغر على
ما يحصل به المراد في سداده ، فيغدو لأعداره بموالاتة الحمول إليه مزيجا ، ويمسى
بسند خلله لخواطر أهل الكفر متعباً ولخواطرنا الشريفة مزيجا ، وينظر في أحوال

من به من الجُند والرجال بما يؤكّد الطاعة عليهم ، ويجدّد الاستطاعة لديهم ؛
ويُزيل أعدّارهم وأعدّارهم [بوصول حقوقهم اليهم ، ويوفّرهم على إعداد الأهبة
للأعداء] ^(١) إذا أتوهم من فورهم ، ويكفّهم بإدراك الأرزاق عليهم عن اعتدائهم
على الرعايا وجورهم ؛ ويتفقّد من أحوال مباحريها وولاية الحكم والتحكّم فيها
ما يعلمون به أنه مناقشهم على الأمور اليسيره ، والطفوات التي يرونها قليلة وهى
بالنسبة إلى كثرة الرعايا كثيره ؛ ويتعاهد أمور الرتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها
بالمُناسب ، ولا تغدو أوقافها المَعْدّة لآكتساب العلوم فى المكاسب ؛ بل يتعين أن
يرتاد لها العلماء الأعيان حيث حلّوا ، ويُقرّر فى رتبها الأئمة الأَكفاء وإلا آتخذ
الناس رؤوساً جهّالاً فضّلوا وأضلّوا . ولكن أقلامه على كلّ ما جرت به العوائد
فى ذلك محتويه ، وأيامه على أكمل القواعد فى ذلك وغيره منظويه ، فما ثمّ شىء من
قواعد الوزارة الشريفة خارج عن حكمه فليكتب يمثّل ، وليقل فى مصالح دولتنا
القاهرة يكن قوله أمضى من الظبّا وأسرى من الصبّا وأسير من المثل ؛ فلا تُمضى
فى ذلك ولايةٌ ولا عزل ، ولا منع ولا بدل ، ولا عقد [ولا] حل ؛ إلا وهو معدوق
بآرائه ، متوقّف على تنفيذ وإمضائه ؛ متلقّ ما يقتر فيه من تلقائه ، وفى الأكتفاء
يسيرته ما يغنى عن إطرائه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة :

الحمد لله الذى شدّ لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أزرًا ، وخصّ أيامنا
الزاهرة باجتماع من حماها عدله أن تَضَع أو تحل وزرا ، وأفاض إنامنا على من طلع

(١) الزيادة من التقليد الآتى بعد .

في أُنق خدمتنا هلالاً وأستقلّ بحسن السَّير والسَّيرة بَدْرًا ، وضاعف إحساننا لمن [لا]
 نرفعه إلى رتبة شرف إلا وكان أجلّ الأَكفاء على ذلك قُدرةً وقَدْرًا ، وجمل مُلكنا
 بمن إذا افتخرت الدول ببعض مناقبه كفاها ذلك جلالاً ونُفْرًا ، وإذا أدخرت تديره
 وبذلت ما عداه فحسبها ما أبقته وقايةً للملك وذُنْرا ، وبسط عدلنا في الأقاليم بيد
 من حين أمرنا القلم بتقليده ذلك سجد في الطرس شكرًا ، وأفتتح بحمد الله يذكّر النعمة
 به على آلائه إنَّ في ذلك لَدِكْرِي ، وأخذ في وصف دُررٍ مفاخره التي تمتت له
 فنضدها دون أن يستدعي رويةً أو يُعمل فكرًا .

نحمده حمد من والى إلى أوليائه ، موادَّ النعم ، وأضفى على أصفياه ، ملايس
 الكرم ، وحفظ لمن أخلص في طاعته معارف معروفه التي هي في أهل النهى ذم ،
 ونبه لمصالح رعاياه من عمّ عدله وإن لم يغف عن ملاحظة أمورهم ولم ينم .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نُعلِنها ونُعلِيها ، ونُرخص أرواح
 جاحديها ونُغليها ، ونُوالى النعم على المتمسك بها ونُوولِيها ، ونقرّب بِمِنها رُتب الأولياء
 من إحساننا ونُدنيها ، ونجدد لهم بتأييدها ملايس المِنَّن نُظهِر عليهم آثار النعم السنية
 فيها ، ونرفعهم بحسن عنايتنا إلى أشرف غاية كانوا يُسرُّون أهليتهم لها والله بيديها ،
 ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أقامنا لنصر دينه فقمنا به كما أمر ، وأبق على
 أيامنا حكم أيامه فاستمر الحال على ما سبقت به دعوته من تأييد الدين بعمر ، وخصنا
 من ينتمى إلى أصحابه بأجل صاحب ينوب عن شمس عدلنا في محور ظلمة الظلم مناب
 القمر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الزهر الغر ، وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد ، فإن أولى من أختيرت جواهر الكلام لرصف مفاخره ، وأختبت غرر
 المعاني لوصف آثاره في مصالح الإسلام وما أثره ، وقامت خطباء الأقاليم على مناو

الأندال بشيرةٌ بَيْنَ أَيَّامِهِ ، وَتَطَلَّعَتْ مُقَلَّ الكَوَاكِبِ مُشِيرَةً إِلَى مَا أَقْبَلَ عَلَى الأَقَالِيمِ
 مِنْ إِقْبَالِهِ وَسَخَّتْ سَحْبُ أَفْلَامِهِ ؛ وَتَبَرَّجَتْ زُهْرُ النُّجُومِ لِيَتَّظِمَ فِي عُقُودِ مَنْاقِبِهِ
 سَعُودُهَا ، وَتَارَّجَتْ أَرْجَاءُ المَهَارِقِ إِذْ تَبَاجَّجَ مِنْ لَيْلٍ عَنِ بَحْرِ عَمُودِهَا ؛ وَسَارَتْ بِهِ
 أَنْبَاءُ السُّعُودِ وَالتَّيْمِ النَّاطِقِ بِذُرِّهِ وَهُوَ المَخْلَقُ المِيعُونُ طَائِرِهِ ، وَالتَّطَرِّسُ المَوْشَعُ بِسُكْرِهِ
 وَهُوَ المَخْلَقُ الذِّى تَمَلَّأَ الدُّنْيَا بِبَشَائِرِهِ - مِنْ اسْتِخْلَاصَتِهِ الدُّوْلَةَ القَاهِرَةَ لِنَفْسِهَا فَتَمَلَّأَهَا
 عَيْنَا وَسُرِّيَا قَلْبَا ، وَأَخْتَصَّتْهُ بِخَوَاصِمِهَا الشَّرِيفَةَ فَرَحِبَ بِهَا صَدْرًا وَبَلَّهَا لُبًّا ، وَكَافَ
 بِمُؤَازَرَتِهَا - إِنَّمَا حَقَّى قِيلَ : هَذِهِ ﴿ تَرَاوَدُ فِتْنَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَفَفَهَا حُبًّا ﴾ ؛ وَأَحْلَتَهُ
 مِنْ وَزَارَتِهَا الشَّرِيفَةَ بِالمَكَانِ الأَسْنَى وَالحَرَمِ الحَرِيزِ ، وَأَثْنَتْ عَلَى فَضْلِهِ الأَسْمَى بِلِسَانِ
 الكَرَمِ البَسِيطِ الوَجِيزِ ، وَاعْتَمَدَتْ فِي أُمُورِ رَعَايَاهَا عَلَى مَا فِيهِ مِنْ عَدْلٍ وَوَرَعٍ لا يُنْكَرُ
 وَجُودُهُمَا مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ فِي الحَقِيقَةِ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ العَزِيزِ ؛ وَأَدْنَتْهُ عَيْنَانَا مَنَّا لَمَّا فِيهِ
 مِنْ فَضْلِ عَمِيمٍ ، وَحَسَبِ صَمِيمٍ ، وَنَسَبِ حَدِيثٍ مَجْدِهِ قَدِيمٍ ، وَأَصَالَةِ إِذَا أَنْتَخَرَتْ
 يَوْمًا تَمِيمٌ بِقَوْمِهَا قَالَتْ أَيْنَ تَمِيمُكَ مِنْ جَدِّهِ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
 تَمِيمٍ ؛ وَغَرَسَتْهُ لِنَفْسِهَا وَطَالَ ذَلِكَ العَرَسُ وَطَابَ الثَّمَرُ ، وَاعْتَضَدَتْ بِتَدْيِيرِهِ
 فَكَانَ لَهُ عِنْدَ أَطْرَافِ العَوَالِي فِي مَكَانِهِ الأَعَزِّ أَظْرَفَ سَمَرٍ ، وَوَثِقَتْ بِمَا فِيهِ مِنْ
 عَدْلٍ وَمَعْرِفَةٍ لا يُنْكَرُ مِنْ نَحْوِ الصَّوَابِ أَجْتَمَعَتَهُمَا فِي عُمَرُ ؛ وَأَشْتَقَّتْ لَهُ بِإِحْسَانِنَا مِنْ
 نَسَبَتِهِ وَصَفَا جَمِيلًا وَنَعْتَا جَلِيلًا ، وَخَصَّتْهُ لِمَزِيَّةِ ذَلِكَ الأَشْتِقَاقِ بِمَزِيدِ قُرْبَانَا فَأَمْسَى
 فِي خِدْمَتِنَا جَلِيلًا وَأَصْبَحَ خَلِيلًا ؛ وَرَعَتْ لَهُ مَا قَدَّمَ مِنْ تَدْيِيرَاتِي عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ ،
 وَسَدَادٍ ظَهَرَتْ مَزِيَّةُ كُلِّ يَوْمٍ مِنْهُ عَلَى أَمْسِيهِ ؛ وَسَعَى جَمِيلٌ مَآبِرِحٍ فِي مَصَالِحِ
 الإِسْلَامِ رَأْمًا وَغَادِيَا ، وَاجْتِمَادٍ فِي أُمُورِ أَدْلِ الجِهَادِ مَآبِرِحٍ يَدَّابُ فِيهِ عَلَمًا بِمَا أَعَدَّ
 اللهُ لِمَنْ جَهَّزَ غَازِيَا ؛ وَدَانَ لَهُ مِنْ حُسْنِ مَلاحِظَتِهِ الأُمُورَ مَا لَيْسَ لِلوَصْفِ بِهِ مِنْ

قَبَلْ ، وتَأَمَّلْتْ مَا يُكشَفُ لَهُ عَلَى البُعْدِ مِنَ المَصَالِحِ التِي يَأْمُرُ بِالصَّوَابِ فِيهَا وَكَيْفِ
لَا وَعُمُرُ الذِي شَاهَدَ السَّرِيَّةَ عَلَى البُعْدِ مِنْ سَارِيَةِ الجَبَلِ ؛ وَأَيَقِنْتُ بِبَسْطِ العَدْلِ
فِي الرِّعَايَا إِذْ هُوَ مُؤْتَمِرٌ وَالعَادِلُ أَمْرٌ ، وَتَحَقَّقْتُ عِمَارَةَ البِلَادِ عَلَى يَدَيْهِ لِأَنَّ عُمَرَ بِحُكْمِ
العَدْلِ عِنْدَ الحَقِيقَةِ عَامِرٌ .

ولذلك لما كان المجلس العالى الفخرى - ضاعف الله نعمته - هو الذى قرَّبته
طاعتنا نجيًّا ، ورفَعته ولائنا مكانًا عليًّا ، وحقَّق له آجتهادُه فى مصالح الإسلام الأمل
من رِضانا وكان عند ربه مَرْضِيًّا ، وأخلص فى خدمة دولتنا الشريفة فأَخَذته
لخاصِّ الأمور وعامتها صفيًّا ، وأظهر ما بطن من جميل اجتهاده فجعلته لمصالح الملك
وزيرا وصاحبًا ووليًّا ؛ وأنجزت منه لتدبير أمور الممالك بما كان الزمنُّ به ما طِلا ،
وأجرت على يده التى هى مليَّة بتصرف الأرزاق ما لا يَبْرَحُ غمامه ها طِلا ، وقَدَّته
رعاية الأمور وأمور الرعايا علمًا أنه لا يترك لله حقًّا ولا يأخذ باطلا ، وقَدَّتْ جِيدَه
بأسنى حلي هذه الرتبة الجليلة وإن لم يكن منها بحُكْمِ قُربِه منا عا طِلا ، ورفَعَتْ له
لواء عدل ما زال له بالمئى فى أيامنا الشريفة حاملا ، وكَمَلَتْ له ببلوغ الغاية من أفاق
العلو رفعة قدره وما زال المؤهل للكمال باعتبار ما يؤول إليه كاملا ، ونوّهتْ بِذِكْرِه
وما كان لظهور تحاييل هذا المنصب الجليل عليه فى وقتٍ خاملا ، ونظرت الرعايا
فما عدتْ بهم عن برِّ رفيق ، وصاحب شفيق ، ووزيرٍ عُمريِّ السيرة ماسلك طريقا
إلا وعدل شيطانُ الظلم عن ذلك الطريق ؛ وكان هذا المنصب الجليل غاية مدار
الممالك عليها ، وقبلة توجّه وجوه أهل الطاعة فيما يُفاض عليهم من نعمنا إليها ؛
وهو الذى يتدرّع صاحبه من أنواع الطاعات لبوسا ، ويعالج من أدواء المهام ما بغير
عزايه لأبوسى ، ويتردد فى المخالصة والمناصحة من مالك أمره بمنزلة هارون
من موسى - اقتضت آراؤنا الشريفة ان نفوض ذلك إلى من نهض فى طاعتنا

الشريفة بما يوجب ، وعلمنا تحرزه لدينه ولنا فيما يأتى ويحتب ؛ ومن تزداد به مع نغره أيا من الشريفة نغرا ، ويصبح له مع ماله من الجلالة فى نفسه رتب جلاله أخرى .

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالى المولى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى : -
لا زال يصرف الأقدار بيمين أيامه ، ويشرف الأقدار بيره وإنعامه ، ويدر على الأولياء وإبل جوده الذى تحجل الديم من دوامه - أن تفوض إليه الوزارة الشريفة الكاملة على جميع الممالك الإسلامية : شرقا وغربا ، وبعدا وقربا ، وبرأ وبحرا ، وشاما ومصر ، على أجمال القواعد فى ذلك وأكملها ، وأسنى الفوائد وأفضلها ، وأتم الأحوال التى يستغنى بجمالها عن مفصلها .

فيعط هذه الرتبة من جلالته حظا كانت من إبطائه على وجل ، ويحار الغائم بوابل إنعامنا الذى يعلم به أن حمرة البرق فى أثنائه نجمل ؛ ويطلق قلمه فى مصالح الدولة القاهرة بسطا وقبضا ، وإراما ونقضا ، وتديرا يعين النيل والغمام على تتبع المحل ما وجد كل منهما أرضا ، ويعمل آراءه المباركة تديرا للمناجح وتديرا ، وتقريرا للقواعد وتقريبا ، ونظرا يجعل لكل عمل من ملاحظته نصيبا ، وفكرا يحاسب به على حقوق الله وحقوق خلقه فإن الله هو المناقش على ذلك (وكفى بالله حسيبا) .

ويبدأ بالعدل الذى رسم الله به وبالإحسان فى ملكنا الشريف ، ويخفف - مع الجمع بين المصالح - عن خلق الله الوطأة فإن الإنسان ضعيف ، وينجز لأولياء دولتنا مواد الرزاق فإن سيف المنع الذى نحاشى أيا منّا عن تجريده أقل نكايه من التسوية ، ويمنع الولاة من ظلم الرعايا باعتبار أحوالهم دون أحوالهم فإن منهم من يدعى العدل ويجوز ويظهر الرفق ويحيف ؛ وليتبع أدواء المحل تتبع طبيب خبير .

وَيُصَرِّفُ الْأُمُورَ بِجَمِيلِ تَدْبِيرِهِ فَإِنَّ الْبَرَكَةَ مَعْدُوقَةٌ بِحُسْنِ التَّدْبِيرِ ؛ وَيَسْتَقْبِلُ رَى الْبِلَادِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - بِسَدَادِ حَزْمٍ يُعْتَفَرُ بِهِ هَذَا الْقَلِيلُ لِذَلِكَ الْكَثِيرِ ، وَيَسْتَخْلِفُ بِالرَّفْقِ وَالْعَدْلِ أَوْعَافَ مَافَاتٍ فِي أَمْسِهِ فَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . وَلِيَتِمَّ بَيُوتُ الْأَمْوَالِ فَيُؤَالِي إِتْيَانَ الْحُمُولِ إِلَيْهَا مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَيَضَاعِفُ بِهَا الْحَوَاصِلَ الَّتِي لَا يُطَّلَعُ بِغَيْرِ حُسْنِ التَّدْبِيرِ عَلَى أَسْبَابِهَا ، فَإِنَّهَا مَعَادِنُ الذَّخَائِرِ وَمَوَارِدُ الرِّجَالِ ، وَإِذَا أَعَدَّ مِنْهَا جِبَالًا شَوَاحِجَ تَلَا إِفْتِاقِنَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ﴾ .

وَكذَلِكَ الْخِزَانُ الَّتِي هِيَ مَعَاوِلُ الْإِسْلَامِ وَحُصُونُهُ ، وَحِمَاهُ الَّذِي لَا يُبْتَدَلُ بِغَيْرِ أَمْرِنَا الشَّرِيفِ فِي مَصَالِحِ الْمَلِكِ وَالْمِلَّةِ مَصُونُهُ ، فَيَجْعَلُهَا بِتَدْبِيرِهِ الْجَمِيلِ كَالْبِحَارِ الَّتِي لَا تَنْقُصُ بِكَثْرَةِ الْوَرَادِ جَمَامُهَا ، وَلَا تَنْزَحُهَا السُّحْبُ عَلَى كَثْرَةِ مَا تَحْمِلُ إِلَى الْآفَاقِ غَمَامُهَا ، وَيُصَلِّحُ كُلَّ مَصَالِحِ كُلِّ إِقْلِيمٍ بِمَا تُثْمَلُهُ لَهُ عَلَى الْبُعْدِ أَفْكَارُهُ ، وَيَأْمُرُ فِي أَحْوَالٍ مِنْ بَهْ مِنْ الْجِنْدِ بِمَا يُؤَكِّدُ الطَّاعَةَ عَلَيْهِمْ ، وَيَجِدُّدُ الْأَسْتَطَاعَةَ لَدَيْهِمْ ، وَيُزِيحُ أَعْدَاءَهُمْ وَأَعْتِدَارَهُمْ بِوُضُوحِ حُقُوقِهِمْ إِلَيْهِمْ ؛ وَيُوفِّرُهُمْ عَلَى إِعْدَادِ الْأَهْبَةِ لِلْأَعْدَاءِ إِذَا أَتَوْهُمْ مِنْ فُورِهِمْ ، وَيُكْفُهُمْ بِإِدْرَارِ الْأَرْزَاقِ عَلَيْهِمْ عَنْ أَعْتِدَائِهِمْ عَلَى الرِّعَايَا وَجُورِهِمْ ؛ وَيَجْعَلُ ثَغُورَ كُلِّ جَانِبٍ - بِتَيْسِيرِ مُحْصُولِهَا ، وَتَثْمِيرِ ذَخَائِرِهَا الَّتِي هِيَ مِنْ مَوَارِدِ رِجَالِهَا - مُصَفَّحَةً بِالصَّفَاحِ ، مُشْرِقَةً بِأَسِنَّةِ الرَّمَّاحِ ، مَسْدُودَةً مِنْ جِهَةِ الْعَدُوِّ عَنْهَا مَسَالِكُ الرِّيَاحِ ؛ وَيَنْفَقُّدُ مِنْ أَحْوَالِ مَبَاشِرِيهِ ، وَوَلَاةِ الْحُكْمِ وَالتَّحَكُّمِ فِيهِ ؛ مَا يَعْلَمُونَ بِهِ أَنَّهُ مَنَاقِشُهُمْ عَلَى الْأُمُورِ الْيَسِيرَةِ ، وَالْهَفُوتِ الَّتِي يَرُونَهَا قَلِيلَةً وَهِيَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَثْرَةِ الرِّعَايَا كَثِيرَةٌ ، وَالْأَحْوَالِ الَّتِي إِذَا عَدَّهَا الْكِتَابُ عَلَيْهِمْ قَالُوا : ﴿ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً ﴾ ، وَيَتَعَاهَدُ أُمُورَ الرُّتْبِ الدِّينِيَّةِ فَلَا تُؤَخِّدُ مَنَاصِبَهَا بِالْمُنَاسِبِ ، وَلَا تُعَدُّ رِزْقُهَا الْمَعْدَّةَ لِأَكْتِسَابِ الْعِلْمِ فِي الْمَكَّاسِبِ ؛ بَلْ يَتَعَيَّنُ أَنْ يَرْتَادَ

لذلك العلماء الأعلام حيث حلوا ، ويقرر في مراتبها الأكفاء وإلا آتخذ الناس رؤوساً جهلاً فضلاً وأضلوا ؛ وقد جعلنا [أمره] في ذلك جميعه من أمرنا ، فليقل يمتثل ، وينشر كلمة عدلنا التي يسير بطريقتها المثلى المثل ؛ ولا تمضى ولاية ولا عزل ، ولا منع ولا بدل ، ولا عقد ولا حل ؛ الا وهو معدوق بأرائه ، متلقى من تلقائه ، متوقف على تنفيذهِ وإمضائه ؛ وقد اختصرنا الوصايا ، آكتفاء بما فيه من حسن الشيم ، واقتصرنا على ذكر بعض المنزاي ، إذ مثله لا يدل على صواب ولا يزداد مافيه من كرم ؛ لكن تقوى الله أولى ما ذكر به من لم يزل لربه ذاكراً ، وأحق ما شكر على التوفيق من لم يبرح له به شاكراً ؛ والله يزيد قدره اعتلاء ، ويضاعف للدولة الشريفة احتفالاً بشكره واعتناء .



وهذه نسخة تقليد بالوزارة .

الحمد لله الذى شد أزر الملك من الوزراء بالمكين الأمين ، وأشرك فى أمر ملكه من هو على صلاح الجمهور خير معين ؛ وألقى مقاليد حسن تديره لمن دلت عليه بركة الإستخاره ، وصوب أمر دقيقه وجليله لمن هو لجليل الثناء المعنى وإليه بينان الأجتباء الإشاره ، وناول كتابها لمن هو أحق بحمل أعبائه ، ورقى منصبها لمن لأشبهه بأنه الحقيق باستعلائه ؛ وناول قلم إعطائها ومنعها لواضع الإشاره فى محلها ، وعدق تثير أموالها بمن لا يأخذها بمقتضى يديه إلا من حلها .

نحمده على حسن إلهامه ، وشريف إفهامه ؛ ونشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له شهادة عبد مخلص فى أديانها ، محق فى إعادتها وإبدائها ؛ ونشهد أن محمداً

عبده ورسوله خير من هو بالحق مبعوث وبالصدق منعت ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لاتزال مستمرة في كل وقت موقوت ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن يد الوزارة هي اليد الباسطة فيما قل وجل ، والمتحكمة فيما عُدق بالملك من كل عقد وحل ، والموقوف عند إشارة بنائها وإليها التحكم في كل إعطاء ومنع ، وتفريق وجمع ، وعزل وإليه ، ونهاية كل نهى وأمر وما لها من غايه ، وربها من الملك كالروح الباصرة من العين ، واللسان المعبر عن كل زين وشين ، وحسبه أنه في المحل من ذات اليمين ، ومن مكانة التمكن في الحرز الحصين ، ولهذا لا يؤهل لها إلا من أتعقد على سؤدده الإجماع ، وأنقطعت دون لحاق شرفه الأطماع ، وتأصل في فخارها وتفترع ، وقام بفروض كفاية كفالتها وتطوع ، وسار حديث مناقبه في الآفاق ، وجاء بالاختيار والاختبار بالوفاق ، وحسن صورة ومعنى ، وتعددت مناقبه فدلّت على أنه الفرد إذا ألتسقت عقوده مثنى مثنى . وكان المجلس العالى الفلانى رب حوزتها وسريها ، وروح بصر مرتقى هذه المحامد وإليه [أمر] مصيرها ، والذي حكمت له السيادة بمنالها وحكمته ، وأوضحت بأصالتها وجه الصواب في اختيارها وأحكمتها ، وقد حاز من متفرق لوازمها ما تفرق فيمن سواه ، وحوى من أدواتها [مادل] على أن الله خلقه فسواه ، إن قال فالصواب موكل بمنطقه ، أو صمت فعظم مهابته قائم مقامه بجميل الخلق لا تخلقه ، قد جمع إلى التواضع فرط المهابه ، وإلى الأبتداء بالمعروف حسن الإجابة ، إن ذكرت الصدارة فهو مالك زمامها ، أو الرئاسة فهو غرّة لثامها ، أو الكفالة فهو مصرف عيناها ، أو الوزارة فهو عين أعيانها ، لم تزل رتبها متشوقة لحلولة ، مهيّدة لشريف تأهيله .

ولما تحلّى منها بهذه الحلي ، وسار حديث ملاءته بتخويلها فى الملاء ، وتلا لسان القلم سور هذه المحاسن وتلا الثانى بالأول منها إذا تلا ، رسم بالأمر العالى - أمتعته الله بما وهبه من حُسن مؤازرته ، وشدَّ عضد مملكته بالإمتاع برنج حُسن معاملته لله وله ولتأجرته - أن تُفوض الوزارة المفخّمة ، المكرّمة المبجلة المعظّمة ؛ للشار إليه : تفويضاً عاماً للقريب من مصالحها والبعيد ، والطارف والتليد ؛ والمقيم والنازح ، والغادى والرائح ، والسائح والبارح ، والباغيم والصادح .

فليباشر ما فُوض إليه منها مباشرة مثله لمثلها ، وليعطها من نيئه مناسب نيئها ؛ وليأخذ أمرها بكتنا يديه ، وليعرها جانباً من احتفاله ليظهر عليها آثار سُودده كما ظهر شريف تخويلها عليه ؛ وليطلق فيها لسان نهيه وأمره ، وليعمل فى مصالحها صالح فكره ؛ فقد عدت به مهمماً : جليلها وحقيرها ، وقليلها وكثيرها ؛ وأميرها ومأمورها ، وخليئها وضيئها ؛ وناعقها وناعبها ، وكاسيها وكاسبها ؛ ودانيتها وقاصيتها ، وطائعها وعاصيتها ، ومستقبلها وحالها وماضيها ، وواليها وقاصيتها ؛ ثقةً بتمام تدييره ، وحميد تأثيره ، وأنه إن حكم فصل ، وإن قطع أو وصل كان الخزم فيما قطع ووصل ؛ إذ هو الوزير الذى قد صُرف عن عمل الأوزار وسار ، إلا أنه فى كل منبج سار ؛ تقطر السيادة من معاطفه ، وتجنّى ثمر المنى من أغصان قلمه يد قاطفه ؛ لاشئء يخرج عن حكمه ، ولا مصلحة تعزب عن علمه ؛ فولاية الحكام معدوقة بإشارته ، موقوفة على ما يثبت به ببلغ عبارته . ومع جلاله قدره لا يحتاج إلى التأكيد فى الأموال وأستندار أخلافها ، والرعايا والأستدامة بالإحسان ودّ أحلافها ؛ وبيوت الأموال وأستيداء حقوقها ، ومراعاة جانبها إذ هى الأمّ الحنونة بتجنّب عقوقها . والخزائن فهو أدرى بما يجب من تضيق صدرها بالمناقيص عن الأشرار ، والأهتمام بجواصل تشريفها المستجيلة إفاضة ملابسها قلب من غدا وراح ؛ وثم دقائق ، هو أدرى بما لها من

طرائق ؛ وحقائق ، هو أعرف إذ كان فيها الفائق الرائق ؛ فهو - أجله الله - غنى عن تفصيلها ، وذهنه أشرف عن الوصايا المنذوبة لتوصيلها ؛ والله تعالى يقدر له وبه الخير ، ويمتّع بحسن تديره المقرون بجميل السريرة والسير ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية وزير أوردها في " التعريف " وهي :

يُوصى بتقوى الله فإنه عليه رقيب ، وإليه أقرب من كل قريب ؛ فليجعل له أمامه ، وليطلب منه لكل ما شرع فيه تمامه ؛ وليجل رأيه في كل ما تشد به الدولة أزرها ، وتُسند إليه ظهرها ؛ وليجعل العدل أصلاً يبني على أسسه ، والعمل في أموره كلها لسلطانه لا لنفسه ؛ وليدع منه الغرض جانباً ، وحظ النفس الذي لا يبدو إلا من العدو ليصدق من دعاه صاحباً ؛ وليبصر كيف يُنثر الأموال من جهاتها ، وكيف يخلص بيوت الأموال بالاعتصار على الدرهم الحلال من شبهاتها ؛ ولينزّه مطامع العساكر المنصورة عن أكل الحرام فإنه لا يُسمن ولا يُغني من جوع ، ولا يرى به من العين إلا ما يحرم الهجوع ؛ وليحذر من هذا فإن المُفاجئ به كالخاتل ، وليتجنب إطعام الجند منه فإن [أكل] الدرهم الحرام ما يُقاتل ؛ وليحسن كيف يُولّى ويعزل ، ويُسمن ويهزل ؛ وعليه بالكفاة الأمانة ، وتجنب الخونة وإن كانوا ذوي غناء ؛ وإياه والعاجز ، ومن لورأى المصلحة بين عينيه ألفى بينه وبينها ألف حاجز ؛ وليطهر بابه ، ويسهل حجابيه ؛ ويفكر فيما بعد أكثر مما قرب : مقدماً للأهم فالأهم من المصالح ، وينظر إلى ما غاب عنه وحضر نظر الماسي والمصالح ؛ ولا يستبدل إلا بمن ظهر لديه عجزه أو ثبتت عنده خيائته ، ولا يدع من جميل نظره من صحّت لديه كفايته ،

أوتَحَقَّقَتْ عنده أمانته ؛ وليسلكُ أَقْصَدَ الطَّرُقِ فى أمرِ الرواتبِ التى هى من صدقاتنا الشريفةِ وَصَدَقَاتٍ مَنْ تَقَدَّمَ مِنَ الملوِكِ ، وهى إِمَّا مَنْ وَجِبَ لَهُ حَقٌّ وَإِنْ كَانَ غَنِيًّا أَوْ عَرِفَ صِلَاحَهُ وَهُوَ صُغُولُوكٌ ؛ وَكَذَلِكَ مَا هُوَ لِأَيِّتَامِ الجُنْدِ الَّذِينَ مَاتُوا عَلَى الطَّاعَةِ ، وَأَمْثَالِهِمْ مِمَّنْ خَدَمَ دَوْلَتَنَا القَاهِرَةَ بِمَا اسْتَطَاعَهُ ؛ فَإِنْ غَالِبَ مَنْ مَاتَ مِنْهُمْ لَمْ يُخَلِّفْ لَهُمْ إِلَّا مَا نَسَمَحَ لَهُمْ بِهِ مِنَ مَعْرُوفٍ ، وَنَجْرِيهِ لَهُمْ مِنْ جَارِهِ هُوَ أَنْفَعُ مِنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَخَلِّفُهُ الْآبَاءُ لِلْأَبْنَاءِ مِنَ الْمَالِ الْمَتَمَلِّكِ وَالْوَقْفِ الْمَوْقُوفِ ؛ وَليَصْرِفَ أَهْتَامَهُ إِلَى اسْتِخْلَاصِ مَالِ اللَّهِ الَّذِي نَحْنُ أَمْنَاؤُهُ ، وَبِهِ يَسْغَلُ أَوْقَاتَهُ وَتَمْتَلِي كَالْإِنَاءِ آنَاؤُهُ ؛ فَلَا يَدْعُ شَيْئًا يَجِبُ لِبَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ مِنْ مَسْتَحَقِّهِ ، وَلَا يَتَسَمَّحُ فِي تَخْلِيَةِ شَيْءٍ مِنْهُ كَمَا أَنَا نُوصِيهِ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ شَيْئًا إِلَّا بِحَقِّهِ ؛ وَلِيَبْقَ لِأَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ بِتَوَاقِعِهِ ذِكْرًا لَا يَفْنَى ، وَبِرًّا لَا يَزَالُ ثَمَرُهُ الطَّيِّبُ مِنْ قَلَمِهِ يُحْنِي ؛ لِيَكُونَ مِنْ رِيَاحِ دَوْلَتِنَا الَّتِي تَعْتَنِمُ مَا يُثِيرُهُ مِنْ سَحَابِهَا الْمَطِيرِ ، وَحَسَنَاتِ أَيَّامِنَا الَّتِي مَازُكْرْنَا وَذُكْرَ مَعْنَا إِلَّا وَقِيلَ : نَعِمَ الْمَلِكُ وَنَعِمَ الْوَزِيرُ .

الوظيفة الثانية

(كِتَابَةُ السَّرِّ ، وَيُقَالُ لِصَاحِبِهَا "صَاحِبُ دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ")

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْوِظَائِفِ أَنَّ مَوْضُوعَهَا قِرَاءَةُ الْكُتُبِ الْوَارِدَةِ عَلَى السُّلْطَانِ ، وَكِتَابَةُ أَجْوَبَاتِهَا ، وَأَخْذُ خَطِّ السُّلْطَانِ عَلَيْهَا وَتَسْفِيرُهَا ، وَتَصْرِيفُ الْمَرَاسِيمِ وَرُودِهَا وَصُدُورِهَا ، وَالْجُلُوسُ لِقِرَاءَةِ الْقِصَصِ بَدَارِ الْعَدْلِ ، وَأَنَّهُ صَارَ يُوقَعُ فِيهَا كَمَا كَانَ يُوقَعُ فِيهِ بِقَلَمِ الْوِزَارَةِ .

قلت : وقد كان فيما تقدم يُكتب له توقيعٌ في قطع النصف بلقب « المجلس العالى » ثم استقرَّ أن يُكتب له تقليدٌ في قطع الثنتين بلقب « الجناب العالى » .
وقد تقدم الكلام على تقليده في الكلام على التقاليد .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرِّ ، كُتِبَ بها للمقرِّ المحيوى « محيي الدين بن فضل الله » عند عودته إلى كتابة السَّرِّ بالديار المصرية ، في جمادى الأولى سنة ثلاث ...
من إنشاء السيد الشريف شهاب الدين ، أحد كتَّاب الدرِّج الشريف ، وهى :

الحمد لله المانِّ بفضله ، المستعان به في الأمر كله ، الذى رفع أول الأولياء من العلياء إلى محله ، ووضع النعم عند من ينصُّ الاستحقاق على تقديمه بمنصبه ويحلُّ ما قوض إليه من أجله ، وأبدع نظام السُّودد بأجمل حالٍ ما دام يحيى جامع شمله ، وأودع سرِّ ملكنا الشريف عند الحفيظين منه ومن تجلته ، وأرجع الرياسة إلى من سمأ ثباتاً ، ونما نباتاً ، وعلا عزماً ، ووفى حزماً ، فيؤمن آثاره تُضرب الأمثال ولا تجد في يمن سجايه كمثلته .

نحمده على أن أعاد بنا الحق إلى أهله ، ونشكره على أن جاد روض الآمال بوا كيف سحاب كرمنا ووبله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من وفق للصواب في قوله وفعله ، وتُحقق منه جميل الإخلاص في جميع مذاهبه وسبله ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المؤوى يوم الجزاء إلى سايغ ظلّه ، والمروى يوم العطش الأكبر بسائغ نهله ، والنبيُّ الذى بعثه خاتم رُسله ، وآتاه من الكرامة ما لم يؤت أحدًا من الأنبياء من قبله ، والمجتبى من علماء صحابته من أهله لإيداع سرِّه وصونه وإبلاغ أمره وحمله ، صلى الله عليه وعلى آله الذين سبقوا إلى غايات الفخار

وُخْصُوا بِخُصْلِهِ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ الْمُجَاهِدِينَ فِي حُبِّهِ الْمُعْتَصِمِينَ بِحُبِّهِ ،
 خُصُوصًا الصِّدِّيقَ الَّذِي أَحْسَنَ الْخِلَافَةَ مِنْ بَعْدِهِ وَقَاتَلَ مِنْ أَرْتَدَّ بَقْتَلِهِ ، وَمَنْ فَرَّقَ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِحُسْنِ سِيرَتِهِ وَمَحَضَ عَدْلَهُ ، وَمَنْ تَلَقَّى عَنْهُ آيَاتِ الْكِتَابِ فَا ... (١) ...
 فِي تَرْتِيهِ وَجَمْعِهِ وَأَدَائِهِ وَتَقْلِهِ ، وَمَنْ كَانَ فَارِسَ حَرْبِهِ ، وَحَارِسَ سِرِّهِ ، وَكَاتَبَ
 وَحِيَهُ وَخَاطَبَ كِفْلَهُ ، وَعَنْ بَقِيَّةِ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ أَنْفَرُوا بِأَكْلِ الْفَضْلِ
 وَأَجَلَّهُ ، صَلَاةً وَرِضْوَانًا وَضَمَّ بِهِمَا نُورَ الْهُدَى لِمُسْتَدَلِّهِ ، مَا شَفَى كَرْمَنَا الصُّدُورَ بِصُدُورِ
 إِقْبَالِهِ إِلَى مَنْ قَامَ بِفِرْضِ وَلَائِهِ وَتَمَلَّهُ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَا بَعْدُ ، فَنِعْمَنَا لَا تَزَالُ لِلْعُهُودِ حَافِظُهُ ، وَبِالْجُودِ مُتَحَفَةً وَبِالسُّعُودِ مَلَاحِظَهُ ،
 وَعَلَى الْمَعُودِ مِنْ كَرَمِ شَيْمِهَا مَحَافِظَهُ ، وَلِلْخِدْمِ مَكَافِيهِ ، وَلِلْقَسَمِ مُوفِيَةً وَبِالنِّعَمِ مُؤَافِيَةً ،
 وَبِالْوَفِّ الْكَرَمِ مُلَافِيَةً ، آتْبَاعًا لِسَبِيلِ الصَّوَابِ ، وَإِيدَاعًا لِلنِّحَّةِ عِنْدَ مَنْ لِحَقَّهُ
 فِي أَسْتِحْقَاقِهَا إِيحَابَ ، فَلَمَحَلَّهُ أَقْتِرَانًا بِالْأَقْتِرَابِ ، وَلِفِعْلِهِ إِنْجَازًا لَوْعُودِ الصُّعُودِ
 وَإِنْجَابَ ، وَلِفَيْضِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ مِنَ الْقَبُولِ أَبْهَى جِلْبَابَ ، وَلِهَ سَبَقَ وِلَاءِ الْمُلْكِنَا
 بَعْدَ جَفَاءِ فِيهِ السِّنِينَ وَالْأَحْقَابِ ، وَصَدَّقُ وُدَّ مَا ضَاعَ لَدَيْنَا وَلَا خَابَ ، وَقَدَّمَ هِجْرَةَ
 كَمَّ لَهَا فِي تَأْيِيدِ الدِّينِ أَنْتِصَارًا وَأَنْتِصَابَ ، وَتَعَدَّدُ مَنَاقِبَ هِيَ فِي الْإِشْرَاقِ وَالرَّفْعَةِ
 كَالنُّجُومِ وَفِي الْكَثْرَةِ عَدَدَ الرَّمْلِ وَالْحَصَى وَالتُّرَابِ ، فَمَا دَعَاهُ سُلْطَانُنَا إِلَّا أَسْتَجَابَ ،
 وَلَا أَسْتَوْعَاهُ سِرَّهُ إِلَّا غَدَا بِهِ يُصَانُ وَلَا يُصَابُ ، وَلَا أَسْتَنْطَقْنَا قَلَمَهُ إِلَّا كَفَى الْخَطْبَ
 بِأَمْلَحِ خِطَابِ ، وَلَا أَسْتَثَرْنَا رَأْيَهُ إِلَّا حَضَرَ الرُّشْدَ وَمَا غَابَ ، فَكَمْ فَرَّقَ لِلْأَعْدَاءِ مِنْ
 كِتَابَةِ بَكْتَابِ ، وَقَرَّبَ مِنْ ظَفَرِ وَالسَّيْفِ فِي الْقِرَابِ ، فَبِدَعَوَاتِهِ يُسْتَنْزَلُ مِنَ النَّعْمَاءِ
 أَهْمُرُ سَحَابَ ، وَبِرَكَاتِهِ جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَكَانَ كَيْدُ الْكَافِرِينَ فِي تَبَابِ ، وَبِأَقْلَامِهِ
 إِنْعَامُنَا يَهَبُ وَأَنْتِقَامُنَا يُهَابُ ، فَهِيَ عَلَى الْمَمَالِكِ أَمْنَعُ سِيَاحَ ، وَلَهَا فِي مَسَالِكِ الْخَيْرِ

(١) بياض بالأصل ولعله فأحسن في ترتيبه الخ .

أبدع منهاج، وللدولة به وبولده استغناء وإليهما احتياج، فكم ضمنا دُرر كلاميهما الأدرج، وأطلعا زهر أفلاميهما من المهارج في أبراج، وكم واصلت في ليل النفس السرى والإدلاج، حتى أبدت صباح النجاح ذا ابتلاج، فلا عجب أن كان للنعم إليهما معاد ومعاج، ولضيق الخطب عند باعها الرحب فسحة وأنفراج .

ولما كان المجلس العالى المحيوى هو أسرى من تلقى إليه الأسرار، وتبقى منه عند أحرى الأحرار، فكم لها صان أين صار، وكم لخواطرنا الشريفة من أفعاله سار حيث سار، وكم له من كرمنا دار في كل دار، فمنا لقربه إيثار، ولأثنتنا عليه إجمار، ولنا بفضائله إقرار، يوجب للنعم عنده الإقرار - أقتضى حسن رأى الشريف أن نعيد إليه منصبه، ونزيد لديه الموهبه، ونجعل وجود تفضيله لدولتنا أعظم مزية ومنقبه، وتراه أجل كفاء لاستجلاء عقائل الأسرار المحجبه، وإن كان لنزاهته لا يخطبها فهي لوجهته ترغب أن تخطبه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السلطانى، الملكى الفلانى - لا يرح بفضل الله يحيى الدين، وبتأييده يبين أنه الحق المبين، وبتسديده يُصيب عين الصواب فى التعيين - أن نفوض للشار إليه صحابة ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة شرفها الله وعظمتها : على أجمال عوائده، وأكمل قواعده، وأحسن حالاته فى حسن مقاصده، ونفوذ ما يُبلّغه من رسائل عدلنا فى مصادر كل أمر وموارده؛ وليستقر باسمه من المعلوم كذا وكذا .

فلتلق منصبه المبارك بأمل فى كرمنا مبسوط، ورتبته التى يحيى حماها ويحوط؛ مُضياً للمهمات والمراسم، مبقياً من يمن آثاره ما تضحى به ثغور الثغور بؤاسم، ميدا لمن عنده من مكاننا أوقات الأئس فأيامهم [به] كلها مواسم، وبها لهم من الخيرات

أَجْرُ الْمَقَاسِمِ ، وَقَدْ وَفَّرُوا دَوَاعِيَهُمْ إِلَى الْخِدْمَةِ إِذْ وَفَّرَ عَلَى نَفَقَتِهِمْ دَوَاعِيَهُ ، وَهُوَ لِسَانُ
الدَّوْلَةِ وَهُمْ أَذُنٌ صَوْنٍ لِمَا يُلْقِيهِ إِلَيْهِمْ وَاعِيَهُ ، فَحَقَّ لَهُمْ إِلَى وِدَادِهِ أَنْ يَجْتَحُوا ،
وَبِإِسْعَادِهِ أَنْ يَجْتَحُوا ، وَعَنْ وِلَائِهِ لَنْ يَبْرَحُوا : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا ﴾ ، فَلَيْسَ يَرَى الْمَلِكُ بِهِ سُورًا ، وَلِلدَّوْلَةِ مِنْ أَشْعَةِ إِيَابِهِ وَطَلْعَةِ شَهَابِهِ نُورٌ عَلَى
نُورٍ ، وَبِهِمَا عِمَادُ الشَّرَفِ الْأَعْلَى مَرْفُوعٌ وَبَيْتُ الْفَضْلِ الْأَوْفَى مَعْمُورٌ ، وَهُوَ وَبَلْ
هَذَا الْغَيْثِ الْغَمْرِ وَشَبْلِ هَذَا اللَّيْلِ الْهَضُورِ ، طَالَمَا هَزَمَ الصُّفُوفَ مِنْ كُتُبِنَا
بِالسُّطُورِ ، وَجَهَّزَ بَرْدًا سَرَّهَا بِالصُّونِ مَكْتُومٌ وَعَامَهَا بِالنَّصْرِ مَشْهُورٌ ، وَهُوَ كَثْرَ
الْفَضَائِلِ وَكُتَابِهِ الذَّهَبِ شُدُورٌ ، وَمِنْ هَذِهِ الْأُسْرَةِ الْعَمْرِيَّةِ بِأَفْقِ الْعِلْيَاءِ نَجُومٌ وَأَهْلَةٌ
وَبُدُورٌ ، وَلِلنَّسِيرِ الْأَكْبَرِ إِشْرَاقٌ وَأَتِاقٌ وَسُقُورٌ ، وَغَيْرُهُ بِالْوَصَايَا الْمَأْمُورِ ، وَسِوَاهُ
نُبِينٌ لَهُ قَصْدَ السَّبِيلِ حَتَّى لَا يَضِلَّ وَلَا يَجُورُ ، وَلَا نَحْتَاجُ أَنْ نَذَكِّرَهُ بِمَا هُوَ مِنْ عِلْمِهِ
مَذْكُورٌ ، وَفِي صَحَائِفِهِ مَسْطُورٌ ، وَلَا نَعْلَمُهُ سَدَادًا إِذْ هُوَ عَلَيْهِ مَجْبُولٌ وَمَقْطُورٌ ،
بَلِ الْهُدَى مِنْهُ مَلْتَمَسٌ ، وَمَقْتَنَى وَمَقْتَبَسٌ ، وَمَأْتُورٌ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ مَا فِي حَزْمِهِ قُصُورٌ ،
وَلَا فِي عَزْمِهِ قُتُورٌ ، وَهُوَ بَحْرُ الْعِلْمِ الْمَحِيْطُ وَثَبِيرُ الْحِلْمِ الْمَوْفُورُ ، وَلَيْسَ التَّقْدِيمُ لَهُ
بِمَسْتَعْرَبٍ بَلْ فَضْلُهُ الْمَعْرُوفُ الْمَشْهُورُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَرَعَى لَهُ فِي خِدْمَتِنَا عَهْدًا قَدِيمًا ،
وَيُقِيهِ لِلدَّعَاءِ مُوَاصِلًا وَمُدِيمًا ، وَيُوزِعُهُ شُكْرَ فَضْلِ اللَّهِ عَلَى ذَلِكَ ﴿ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ
عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخةٌ تقليدٌ بكتابة السِّرِّ، كُتِبَ بِهَا لِلْقَاضِي شَهَابِ الدِّينِ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى عَنَاءِي حَفِظْتَ مُلْكَنَا الشَّرِيفَ بِمَعْقَبَاتِهَا ، وَصَانَتْهُ بِصَاحِبِ تَصْرِيفِ
تَقْوَمُ كُتُبُهُ وَأَرَاؤُهُ مَقَامَ الْكُتَائِبِ وَرَأْيَاتِهَا ، وَسَنَتْ لَنَا الْخَيْرَةَ لِمَنْ نَجْتَنِي بِقَلَمِهِ النَّصْرَ

من ثمراتها ، وبينت الحُسنى في طريقته المثلث حتى انقسم الصبح من قسماتها ،
واقْتَسَم النُّجُج من عاداتها ، وَاَتَمَّ فِكْرُهُ بالنُّصْح وقد ضَلَّتْ الأفكارُ عن إصَابَاتِهَا
فَظَلَّتْ في غَفَلَاتِهَا .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَهَبُ مع الأنفاس في هَبَاتِهَا ، وَيَهَبُ من اللطائف الحِسانِ أَفْضَلَ
هَبَاتِهَا ، وَيُذَبِّهُ القلوبَ لتقييدِ شِوَارِدِ النِّعَمِ بِصِدْقِ نِيَّاتِهَا ، وَيُنَافِسُ الكرامَ الكاتِبينَ
على نِفاثِ السَّناءِ في تَسْبِيحِ لُغَاتِهَا بِصَفِيحِ سَمَوَاتِهَا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تملأ الصحف بحسناتها ،
وتملأ الوجوه بالأنوار في توجُّهاتها ، وتلوح من سماتها سيمياء لا تشقُّ على الأبصار
في توشُّماتها ، وتفخر برقمها الأقلامُ بأنه لا طعن في اعتدال حركاتها ، على الرِّماح
في اعتدال قاماتها ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذي أدى الرسالة بما
تحمله من أماناتها ، ورعى اليهود لمن أخلص في مِرَاعَاتِهَا ، ودعا الأُمَّةَ بِإِذْنِ الله
إلى سبيلِ نَجَاتِهَا ، وأستأمن على الوحي كُتَابًا سَبَقُوا في السَّعادةِ إلى غَايَاتِهَا ، وبلغوا عنه
السُّنَّةَ بِبَيَانَاتِهَا وَالسُّورَ وَآيَاتِهَا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه فرسانِ البلاغةِ
ورِوَاتِهَا ، وحفظةِ الأسرارِ وَثِقَاتِهَا ، وصاغَةِ المعاني في الألفاظِ الغرِّبِنَفَاتِهَا ، وأو
الأحلامِ التي لا تُطيشُها وقائعُ الدهرِ برِوَعَاتِهَا ، ولا تُذهلُها عن الأورادِ في أوقَاتِهَا ،
وتلقَى الوفودَ بأقواتِهَا ، والأخلاقِ التي أُنسِحَ نطاقُها في تصرفاتها ، وأمتنع حجابُها
أن تُنخِّطَها الخدعُ بهفواتِهَا ، صلاةً تزيد الأعمارَ بزكاتها ، وتزيِّن الأعمالَ ببركاتِهَا ؛ وسلمَّ
تسلياً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ المُلْكَ عمودُ بناؤِه بِسِرِّهِ ، وأرتفاعُه بالتأسيسِ لمستقرِّهِ ، وأمتناعُه
بعد العساكرِ المنصورةِ بكتابِ يُحَاتِلُ العَدُوَّ في مَكْرِهِ قبل مَكْرِهِ ، ويقاومُ في الحَرْبِ

والسَّلم بنفَّاذ رأيه ونفَّاثِ سِخْرِهِ ، ويقابل كلَّ حال بما يحسن موقعه من صَدْمِهِ
بصَدْرِهِ أو صَدَّه بصَبْرِهِ ، وينظر في العواقب نظر البصير بأمرِهِ ، الواعى لأختياله
عُدْرِهِ قبل أختياله الباعى في غَدْرِهِ ؛ إذا جادلَ فبالْحجَّةِ البالِغَةِ ، وإذا جاوبَ أبطل
الأهوالَ الزائِغَةَ ، وإذا أمرنا بالعدل والإحسان سيرهُما عنَّا كالشمس البازِغَةَ ،
وملأَ بهما حبًّا لنا القلوبَ الفارِغَةَ ؛ وقد جربنا على طول المدى كُتَّابًا ، وأنَّخبنا منهم
كثيراً ارتضيناهاهم أصحابًا ، ومارسنا جماعةً آزدَدنا بهم إعجابًا ، ورأينا طوائفَ فيهم
منَ إنَّ أجادَ اجتناءَ زَهْرَاتِ القولِ حادَ عن الجادَّةِ اجتنابًا ، وإن كلفَ نفسه
مذاهبَ الكُتَّابِ أخلَّ بمقاصد الملوك إن كتبَ عنهم كُتَّابًا .

ولم نظفرَ بمن تمَّتَ فيه الشروطُ المشروطةُ ، ومَتَّ بالدائرة المحيطةِ إلى الفضائلِ
المبسوطةِ ، وأمتازَ بفهم لا يقبلُ على الفسادِ ولا يقبلُ الأغلوطةَ ؛ إن أمليناها إملاءً
ذَكَرَهُ ، وإن حُمنَّا حولَ معنى لا تُؤدِّي إليه العبارةُ فسره ، وإن سردنا عليه فضلاً
مُطوَّلاً خبره ، وربما رأى المصلحةَ في اختصاره فأختصره ، وإن أودعناه سرّاً ستره ،
وصاناه بحجوى غيبِ أثره ، وكتمه إماماً بخطه عن قلبه فلم يدركه أو بقلبه عن لحظه فلم
يرَهُ ، وإن خَلينا بينه وبين غرض من أغراضنا الشريفةِ استخرجَه كما في خواطرنَا
وأظهره - كالمجلسِ العالى ، القضايى ، الأجلى ، الكبرى ، العالمى ، العادى ،
العونى ، العلامى ، القوامى ، النِّظامى ، المدبِّرى ، المشيرى ، الفاضلى ، الكاملى ،
الأوحدى ، المفوهى ، الخاشعى ، السفيرى ، الشهابى : صلاح الإسلام
والمسامين ، سيِّدِ الرؤساءِ فى العالمين ، قُدوةِ العلماءِ العاملين ، إمامِ الفضلاءِ
والمتكلمين ، رئيسِ الأصحابِ ، ملاذِ الكُتَّابِ ؛ سفيرِ الأُمَّةِ ، عمادِ المَلَّةِ ، لسانِ
السلطنةِ ، مدبِّرِ الدَّولِ ، مشيِّدِ الممالكِ ، مُشيرِ الملوكِ والسلاطينِ ، وليِّ أميرِ المؤمنينِ

(١) فى المصباح فسره من باب ضرب أوضحه وبينه والتثقيل مبالغة .

«أحمد بن فضل الله» ضاعف الله نعمته . فإننا خطبناه لهذه الوظيفة ، وأستخلصناه على كثرة المتعينين لأنفسنا الشريفه ، وأمتحنناه في الأمور الجليلة واللطيفة ، وحمّلناه الأعباء الثقيلة والخفيفه ، وأوقفناه مرّة وأخرى أطلقنا تصرّيفه ، وأنعمنا النظر في حاله حتى تحقّقنا تثقيفه ؛ وكتب وأستكتب عنا سرّاً وجهراً فملاً قلباً وسمّعا ، وباشراً مراسمنا العالية مصرّاً وشاملاً وصلاً وقطعا فعزّ رفعة وعمّ نفعاً ؛ وأنشأ التقاليد وقلّدها ، ونفّذ المهّمات وسدّدها ، ووقّع التواقيع وأطلق بها وقد قيدها ، ومشّى المصالح باحتراز ما بدّدها وأحتراس ما عقدها ، وجهّز البرد بهمة ما قيدها طلب الراحة ولا أفعدها . وهو كاتبٌ ملوك ، وصانعٌ سلوك ، وشارعٌ سلوك ، وصانعٌ ذهبٍ مسبوك ، وناسجٌ وثى محوك ، وجامعٌ صفاتٍ ماسواها هو المتروك ؛ لا يعدو بالكلمة محلّها ، ولا يؤاخى بالقرينة إلا شكّها ، ولا يسمع بخطابة إلا لمن تعين لها ، ولا يعامل بالغلظة إلا من أستوجبها ولا يخصّ بالحسنى إلا أهلها ؛ نامره بالتهويل فيزول قواعد العدو ، ونشير إليه بالتهوين فيفيد مع بقاء المهابة الهدوء ؛ وقد رضينااه حقّ الرضا ، وأضربنا به عمّن بقي من أكابر الكُتاب ونسبنا من مضى ، وتعين علينا أن نحكم له بهذا الاعتبار ونحمّله على هذا المقتضى ، وأن نُطلعه في سماء دسّتنا الشريف شهاباً أضاً ؛ وأن نقلده مهمّاً مازال هو القائم بتنفيذ أشغاله ، والساعى بين أيدينا الشريفة في تدبير مقاصده وجملة أحواله ؛ إلى ماله من بيتٍ أثلوا مجده ، وأثروا سعده ، وأرثوا عندنا وده ؛ وبني كما بنوا ، واجتنبى من السؤدد ما آجتنوا ، ورحى في خدمة الدول إلى مارموا ، إلا أنّ مذهبه في البيان أحلى ، وأسلوبه أجلى ، وقيمة كلامه أغلى ، وقده في الكمال هو المعلى ، وأدبه بجمد الله قد لحظته سعادة أيامنا الزاهرة فما فيه لؤ ولا لؤلؤ ؛ سوى أنه اتفق معارضٍ أعترض بين السهم والهدف ، وسفه نفسه فوقف في مواقف التلّف ، ودقّ عنه شأن كاتب السر فسقط من حيث

طَمَعَ فِي السُّقُوطِ وَمَا عَرَفَ ؛ وَرَامَ الدُّخُولَ بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَ يَدِهِ ، وَبَيْنَ اللِّسَانِ وَمَا يُحَدِّثُهُ بِهِ الضَّمِيرُ مِنْ حَقِيقَةِ مَعْتَقِدِهِ ، وَالْإِطْلَاعَ عَلَى مَا لَوْ لَمْ يَكُنْ لِلْإِنْسَانِ لِمَا أَدَارُهُ فِي خَلَدِهِ ؛ وَالتَّعَدَّى بِمَا لَيْسَ لَهُ مِنْ لَفْظِهِ مَتَوَقَّعٌ ، وَسَرَى فِي مَسَرَّى لَوْ طَمَحَ إِلَيْهِ طَرْفُ السَّمَا لَتَقَطَّعَ ؛ وَمَا عَلِمَ أَنَّ كَاتِبَ السَّرِّ هُوَ مَسْتَوْدَعُ الْخَبَايَا ، وَمَسْتَطَلَعُ الْخَفَايَا ، وَقَلَمُهُ (أَبْنُ جَلَّ وَطَّلَاعُ الثَّنَائِيَا) ، وَفِي اسْتِئْذَانِهِ يُعْرَفُ بِالْمُنَى وَيُرَعَفُ بِالْمَنَايَا ؛ وَهُوَ السَّكَّابَةُ وَالتَّوْقِيعُ ، وَالتَّصَرُّفُ فِيمَا لِلتَّنْفِيزِ مِنَ التَّحْسِينِ وَالتَّنْوِيعِ ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ التَّفْرِيقِ وَالتَّجْمِيعِ ، وَالتَّأْصِيلِ وَالتَّفْرِيعِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ وَالتَّمْيِينِ وَالتَّرْوِيعِ .

وَمَا دَلَّ ذَلِكَ الْمَعْتَرِضَ بِإِتْجَارِهِ ، وَأَطَالَ الْمَطَّارَ فِي غَيْرِ مَطَّارِهِ ، وَقَالَ النَّاسُ إِنَّ أَبْوَابَنَا الْعَالِيَةَ جَنَّةَ حُقَّتْ مِنْ سُوءِ أَخْلَاقِهِ بِالْمَكَارِهِ ، رَمَيْنَا بِهِ مِنْ شَاهِقٍ ، وَأَبْعَدْنَاهُ لِآخِرَتِهِ أَزْهَدَ مَا هَدَرَ مِنْ تِلْكَ الشَّقَاشِقِ ؛ وَتَقَدَّمْنَا بِإِنْشَاءِ هَذَا التَّوْقِيعِ الشَّرِيفِ تَقْوِيَةً لِكَاتِبِ سِرِّنَا الشَّرِيفِ فِي تَصْرِيْفِهِ ، وَبَيْنَا أَنَّهُ لَا يُقَاسُ بِهِ أَحَدٌ فَإِنَّهُ لِسَانَ السُّلْطَانِ وَيَدُهُ وَكَفِيُّ بِذَلِكَ دَلَالَةً عَلَى تَشْرِيفِهِ .

فُرِسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِي ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، النَّاصِرِي - لِأَزَالِ إِذَا عَزَمَ صَمَّمَ ، وَإِذَا بَدَأَ الْمَعْرُوفَ تَمَّمَ ، وَإِذَا اسْتَخَارَ اللَّهَ فِي شَيْءٍ رَضِيَ بِخَيْرَتِهِ وَسَلَّمَ - أَنْ يَسْتَقِلَّ الْمَجْلِسَ الْعَالِي ، الْقَضَائِي ، الشَّهَابِي « أَحْمَدُ بْنُ فَضْلِ اللَّهِ » الْمَشَارُ إِلَيْهِ بِصَحَابَةِ دَوَاوِينَ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ : رَفِيقًا لِأَبِيهِ الْمَجْلِسِ الْعَالِي ، الْقَضَائِي ، الْمُحْيَوِي : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ وَبَرَكَتَهُ فِي الْمُبَاشَرَةِ ، وَشَرِيكَهَا بِلِ مَنَفْرِدًا لِيَقُومَ مَعَهُ وَدُونَهُ بِمَا قَامَ بِهِ مِنْ كِتَابِيَّةٍ بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَةٍ ؛ اسْتَقِلَّ كُلُّ مَنْهَا بِهَا فِيمَا بَعْدَ وَقَرَّبَ مِمَّا يَضُمُّهُ نِطَاقُ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ؛ مَعَ مَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ فِيهِ مِنْ كِتَابِيَّةٍ

السر الشريف ، والتصريف في المهمات الشريفة والتصريف ؛ وهو المنفرد بتقديم البريد وعرضه ، ومباشرة ختمه وفضّه ، وقراءته بين أيدينا ؛ وأستخراج مراسمنا الشريفة في كل مناب ، ومشافهة وخطاب ، وأبتداء وجواب ، وملطف ومكبر ، ومقدم ومؤخر ، ومكمل ومشطر ؛ وإليه أمر البريد والقصد والنجابه ، ومن أشمل من الدجى جلبابه ، أو ألقته إلى ملاءة الصباح المنشورة يد ليلة منجابه ؛ وتعيين من يرى تعيينه منهم في المهمات الشريفة السلطانية ، والمصالح المقدسة الإسلامية ؛ وإليه الحمم الرسائل وترجيته ، وزجالته ومدرجته ؛ ومن يصل من رسل الملوك إلى أبواننا العالمة ، وجميع من يكتب الدولة الشريفة من كل منسب وغريب ، وبعيد وقريب ؛ وقراءة القصص لدينا ، والكتابة على ما يسوغ كتابة مثله ، وأخذ العلامة الشريفة من يده .

وأما من تستكتبهم عنا في ممالكنا الشريفة فهو المقلد لأعبائهم ، والخلل بينه وبين ما يراه في آجبتائهم ؛ يستكتب كل أحد فيما يراه ، ويرفع بعضهم فوق بعض درجات منهم مستيقظ ومنهم نائم في غمرات كراه ؛ كل هذا من غير معارضة له فيه ، ولا اعتراض عليه في شيء منه ؛ يبلغنا مهماتنا الشريفة ويتلقى عنا ، ومنه إلينا وإليه منا .

وأما ما يرد عليه من الرسائل عنا بما يكتب به فيمشی منه ما لا يمكن وقوفه ، ويراجعنا فيما لا يكون إلا بعد مراجعتنا تصريحه ؛ فليمش على هذه القاعده ، وليستقل بهذه الوظيفة استقلالا هو كالمخبر محل الفائدة ، ولينشر من إقبالنا الشريف عليه بالصلوات العائده ؛ ونحن نختصر [له] الوصايا لأنه الذي يملها ، ونقتصر منها على التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يعانها ، والباقية الصالحة خير لمن يقتفيها ؛

والله تعالى يقوى أسبابه ، وينير شهابه ، ويزيد من المعالى آكتسابه ، ويغنينا بقلمه عن سنان يتقدم عامله ، ولسانه عن سيف يفارق قرابه ، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .



وهذه نسخة تقليد بعود القاضى شهاب الدين بن فضل الله إلى كتابة السر .
من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف ، وهى :

الحمد لله الذى أحمد العقبى بفضله ، وأكّد النعمى بوضله ، وأودع سرّ مدّنا الشريف عند أهله ، وأطلع شهاب الدين من أفق العياء فى محلّ شرفه وشرف محلّه ، ورفع قدره فى سيره إلى بروج السعود وحلّوله بدرجات الصعود ونقله ، وأرجع الموهبة منه إلى من يشكرها بقوله وفعله ، وأبغى الفرع الزاكى الذى يحيا أصله بواكف سحاب كرمنا ووبله ، وأتمّ النعمة عليه كما أتمها على أبويه من قبله ، وضمّ له أطراف الرياسة وجمع شملها بشمله ، وعمّ بفضله وفضلنا أهل هذا البيت الذين فطروا على السؤدد وبصروا من رضانا باتّباع سبله .

نحمده على إضفاء ظلّه ، ونشكره على إضفاء نهله ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أشرق نور هداها ، بمستدلّه ، وأغدق نوء نداها ، بمستهلّه ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أرسله خاتم رسله ، وجعل له الفضل على الخلق كلّهم ، وأهمّ به سبيل هديه وسنن عدله ، وأرشدّه إلى فرض دينه ونقله ، وأودعه السرّ الذى لم يودعه سواه وحمله من أعباء الرسالة ما لم ينهض غيره بحمله ؛ صلى الله عليه وعلى آله أغصان الشجرة الزهراء التى هى بضعة منه ونبعة من أصله ، ورضى الله

عن أصحابه الذين أجلّهم من أجله ، خصوصاً من بادر إلى الإيمان فخص من سبق
بخصه ، ومن أيد به الدين وفرّ الشيطان من ظلّه ، ومن جهّز جيش العسرة حتّى
غزا العدا بجياله ورجله ، ومن كان باب مدينة العلم وما نج جزله وفتح قفله ، وعن
بقية المهاجرين والأنصار الذين ما منهم إلا من جاهد حتّى قام الدين بنصره ونصله ،
صلاة دائمة يجعلها اللسان أهمّ شغله ، ويتلقّى قادمها في موطن القبول بأكرم نزله ،
ما رمى قوس العزم بصائب نبّله ، وحمى حمى الملك بليثه وشبّله ، وفوض أجلّ
المناصب إلى فاضل العصر وأجلّه .

أما بعد ، فإن آراءنا لا تزال للإصلاح مُراعِيه ، ولا تبرح بالإسعاد إلى الأولياء
ساعِيه ، فتدعو إلى مقامها من وفرّ على الإخلاص دواعِيه ، وتُدني من ملكها من له
بانخفايا أعظم بصيرة وفي جميل القضايا أجمل طواعِيه ، وتلقى أسرارها إلى من له
لسان حق ناطق وأذن خير وإعِيه ، وتقدّم من له قدم صدق ثابتة ويد بيضاء طولى
في المهمّات عاليه ، لتغدو سهام أعلامه إلى الأغراض رامِيه ، وصوائب أفكاره
عن حمى الملك محاميّه ، وتكون عبارته للقاصد موفِيه وإشارته لموعد الثمن موافيه ،
وتضحى ديم نعمنا الواكفة لسوابق خدمه مكافيه ، لما يتصل بذلك من المصالح ،
وتناجى خواطرننا الشريفة به المناجح ، ويقبل عليه وجه الإقبال ، في كل حال ، ويغدو
إليه طرف الإجلال ، وهو طامح ، فتجمل به ممالكنا مصرا وشاما ، وتسدّد به مرعى
ونصيب مرّاما ، ونحفظ له ولأبيه في خدمتنا حقاً وذيماً ، ونكون له في الحالتين
براً وإكراماً ، ونعلی محله إعلاناً بعلو مكانه وإعلاماً ، فيؤلّف للرياسة نظاماً ،
ويضاعف للرتبة إعظاماً ، ويعمل يراعاً بل حساماً ، ويجلو وجه المنى طلقاً ويبدو
بعد البشر بساماً ، ويحسن بأعباء المهمّات قياماً ، وحيث نقلته أوطانه هضاب
المجد وقتلته ، وأين وجهته أعلت قدره وتوهته ، وكلما أوفدته أفاضت عليه ملبس

العزّ وجددته ، وأخصّصته بالتصرف وأفردته ، وانتصت ماضى اجتهاده وجرّدته ، وأجرته من إجراء فضلها على ما عودته ، واستتقت له منائحها من كثير المواهب ماخولته ، ومن كبير المناصب ماقلدته .

ولما كان فلان هو الذى أودع الأسرار فحفظها ، وأطلع على الدقائق فرعاها ببصيرته ولحظها ، وباشر مهماتنا فأمضاها ، وسرّ خواطرننا وأرضاها ، وظهرت منه بين أيدينا كفاية لا تضاهى ، وقد أجياد أوليائنا من تقاليد عهودنا ، وأدنى من المقاصد بلطف عبارته بعيدا ، وأغنى الدولة أن تجهز جيشا وجهاز بريدا ، وأبان بمقاله عما فى أنفسنا فلم يبق من يدا ، وصان الأسرار فجعل لها فى خلدته خلودا ، وجمع أشتات المحاسن فأضحى فريدا ، كم لعمه فى خدمتنا من هجرة قديمه ، ولأبيه من موالاته هى للمخالصة مواصلة ومديمه ، وكم لها أسباب فى الرياسة قوية وطرائق فى الهداية قويمه ، وكم كاتب يسر الله بهداهما تعليمه وتفهمه ، وقدر على يديهما وصوله إلى رتب العلياء وتقديمه ، فمففعتهما عميمه ، وتبعتهما صميمه ، ولهما فى الشام ومصر أجمال شيمه ، وكم له هو أيضا من تقدمات اقتضت تكريمه ، وكفاية عند علومنا الشريفة معلومه ، وكتابة حلال المهارق بوشيا مرقومه ، فلو قابله الفاضل «عبد الرحيم» لبادر إلى فضله إقراره وتسليمه ، أو «عبد الحميد» لكانت مناهجه الحميدة بالنسبة إلى مذاهبه ذميمه ، أو سمع «عبد الرحمن» مقاله لضمّن ألفاظه معانيه العقيمه ، أو أدركه «قدامة» لعرف تقديمه ، وأقتدى بسبله المستقيمه ، أو حوى «الجوهري» فرائد ألفاظه لعرف أن صحاحه إذا قرنت بها سقيمه ، أو رأى «ابن العديم» خطه لاستغنت منه بسلاسل الذهب نفسه العديمه ، أو «الولى» لاستجدى من صوب إجادته أغزر رديمه ، أو نظره «ابن مقلة» لوجدت مقتله نضرة خطه ونعيمه ،

أو «أَبْنُ البَوَابِ» لكان خَدِينِ بابه وخَدِيمَهُ ؛ فهم صُدُورٌ صُدُورَهُمْ سَلِيمُهُ ، وَأَمَانِلُ
مَعْدُودَةٌ وَأَمَانِلُهُمْ مَعْدُومَةٌ .

أَقْتَضَى حَسَنُ رَأْيِنَا الشَّرِيفُ أَنْ نُنْقِلَ إِلَيْهِ مَنَصِبًا هُوَ أَوْلَى بِهِ ، وَنُقِرَّ عَيْنَهُ بِدُنُوهِ مِنَّا
وَأَقْتَرَاهُ ؛ وَنَمْتَعَ البَصَرَ وَالسَّمْعَ بِخَطِّهِ وَخِطَابِهِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفُ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، السَّلْطَانِيُّ ، الْمَلِكِيُّ ، الْفُلَانِيُّ -
لَا بَرَحَ يُعِيدُ نِعْمَهُ كَمَا بَدَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَيَسُرُّ الْقُلُوبَ بِكَافٍ أَوْدَعَهُ سِرَّهُ ؛ وَيُجَمِّدُ
لِأَحْمَدِ الْأَوْلِيَاءِ عَوْدَهُ وَمَسْتَقَرَّهُ ^(١) .

فَلْيَتَلَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِشُكْرِهَا وَلِيَتَرَقَّ مَنَصِبًا رَفِيعًا يَنَاسِبُ رِفْعَةَ قَدْرِهِ ، وَلِيَسُطِّ قَلَمَهُ
فِي تَنْفِيزِ مُهِمِّ الْمَالِكِ مِنْ نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ ، وَلِيَحْفَظَ مَا أَوْدَعَهُ مِنْ خَفِيِّ سِرِّهِ ، وَلِيُلَاحِظَ
الْمَهْمَمَاتِ بِفِكْرِهِ ، وَلِيَحَافِظَ عَلَى مَا يَعْرِفُهُ مِنْ رِضَانَا طَوَّلَ دَهْرِهِ ؛ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ
صَوَابِ أَعْمَالِهِ وَتَسَدِيدِهَا ، مَا لَا نَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى تَكْثِيرِ الْوَصَايَا وَتَعْدِيدِهَا ، وَلَا إِلَى
تَكَرُّرِهَا وَتَرْدِيدِهَا ؛ لِأَسِيًّا وَقَدْ سَلَفَتْ لَهَا بِهَا خِبْرَةٌ لَا نَفْتَقِرُ إِلَى اسْتِعَابِ ذِكْرِهَا
وَلَا إِلَى تَجْدِيدِهَا ، وَتَقَدَّمَتْ لَهَا مَبَاشَرَةٌ اسْتَبَشَرْنَا بِمِيمُونِهَا وَأَثِينَا عَلَى حَمِيدِهَا ،
وَأَسْتَدْنِينَا سَنَاهَا وَأَسْتَعِينِنَا عَنْ سِوَاهَا بِوَجُودِهَا ؛ وَلَهُ بِحَمْدِ اللَّهِ تَوْفَرُ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْحَقِيقُ بِمَا فَوَّضْنَا إِلَيْهِ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَفَضَّلَهُ مِنَ الشَّوَائِنِ عَرِيٌّ وَفِي الْمَجَانِبِ
عَرِيقٌ ، وَقَدْرُهُ بِتَجْدِيدِ النِّعَمِ جَدِيرٌ وَبِخِلَالِ الْكَرَمِ خَلِيقٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوَضِّحُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ
أَبْيَنَ طَرِيقٍ ، وَيُسِّرُّ بِمَقْدَمِهِ الْوَلِيَّ وَالصَّدِيقَ ، وَيَقْرُقُ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ بِفِئْدَةِ
الْفَارُوقِ وَهُوَ مِنْ أَكْرَمِ فَرِيقٍ ؛ بِحَمْدِ وَآلِهِ ! .

(١) حذف المرسوم به اختصاراً في النكاهية وانكالا على فهمه من نظائره المتقدمة فهو ملحوظ



وهذه نسخة تقليد بكتابة السرى :

الحمد لله الذى أظهر لتديرولتنا شهابا يعلو على فرقد الفراقد، وكمل به عقود
الممالك فسمت جواهر فرائدها على الدرارى إذ كان واسطة تلك الفرائد؛ ومعيد
إحساننا إلى خيرولى أغنى تديره عمّن سواه فكان بالألف ذلك الواحد، ومحول
مواد كرمنا لمن هو صدر أسرارنا ويمين مملكتنا فى كل صادرٍ عنها ووارد؛ ومنقل
الأكفاء إلى مراتب سعودهم فتصبح ألوية محامدهم فى معاقل العز أنخر معاقد،
ومحلى ملكا الشريف بأكل كاف ما أم مصر إلا تلقته بالهناء ولا فارق شاما إلا أسفت
عليه تلك الربوع والمعاهد .

نحمده على نعم أقرت عيون الأولياء لما أقرتهم من مواد جودنا على أكل القواعد،
ونشكره على ما بلغنا من جميل المآرب وبلوغ المقاصد؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة تُنجى قائلها من جميع الشدائد، ونشهد أن سيدنا محمدا سيد البشر
عبده ورسوله الذى جاد بهديته فكان أكرم جائد؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحابة
خصوصا على أول الخلفاء أبى بكر الصديق الذى لا نخر كفتخاره، وعلى أمير المؤمنين
عمر بن الخطاب حامل أسرارهِ وفتح أمصارهِ، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان
مبدل عسره بيساره، وعلى ابن عمه على بن أبى طالب أعز نسبائه وأخص أصهاره،
وعلى بقية مهاجرية وأنصاره، صلاة سهلة المشارع عذبة الموارد .

وبعد فإن من سيجتينا إذا تيمنا بولى لا نزال نلحظه ، ونرعى حقوق خدمه
فى القرب والبعد ونحفظه؛ ونقابل ما أسلفه لدينا بنفائس النعم، ونفيض عليه ملبس
الجود والكرم، لا سيما من لم يزل يُظهر لنا كل يوم تعبدا جديدا، ومن أصبح

في الفصاحة والبلاغة وحيدا ، ومن جمع أطراف السؤدد والرياسة فلم يبرح بهما فريدا ؛ ومن تحسن النعم بإفاضتها عليه ، وتكلم المنن بإضافة محاسنها إليه ؛ وترهو فرأى البلاغة بانتظامها في سلك مجده ، وتشرق كواكب البراعة في آساقها في فلك سعده ؛ وكان للباينة في الاختصاص بنا اليد الطولى ، وتلا عليه لسان أعتنائنا في الحالين : ﴿ وَلَا نَحْرَةَ خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ .

ولما كنت أيها الصدر «شهاب الدين» أحق الناس بهذا المنصب لما لوالدك - أبقاه الله تعالى - ولعمرك - رحمه الله تعالى - من الحقوق ، ولما أسلفناه من الخدم التي لا يحسن التناسي لها ولا العقوق ؛ ولأنك جمعت في المجد بين طارف وتالد ، ووفقت بأزكى نقر وعم وإخوة ووالد ؛ وجلاله ، ما ورثتها عن كلاله ؛ وخلال ، ما لها في السيادة من إخلال ؛ ومفانح ، تكاثر البحر الزانح ؛ وماثر ، يعجز عن وصفها الناظم والناثر ؛ ولما نعلمه من فضائلك التي لا تُجحد ، وعينك في عودك لوظيفتك وعود « أحمد » أحمد .

(١) ولما كان فلان هو الذي تفتخر الفصاحة من أعطاف قلمه ، وتخطير البلاغة في أثواب حكمه ؛ وتنزل المعاني الممتنعة من معاقل القرائح على حكمه ، وتقف جياذ البداة المتسرعة حيرى قبل التوسط في علمه ؛ إن وشى الطرس فرياض ، أو أجرى النفس فياض ؛ أو نظم فقلائد ، أو نثر ففرائد . لا يتجاسر المعنى المطروق أن يلم بفكره ، ولا يقدم المعنى المتخيل المسبوق للرور بذكره ؛ ولا يجوز زيف الكلام على ذهنه المتقصد ، ولا يثبت غشاء الكلام لدى خاطره المنتقد ؛ «عبد الحميد»

(١) هذه عبارة أخرى تكتب بدل الأولى ولا يجمع بينهما أي فالكاتب مخير في تصدير مقاله باحداهما

كـ«عبد الرحيم» فى العجز عن لحاق علومه التى يجد «الراغب» على نورها هدى ،
والأصمعى لو أدركه لتسلا عليه : «هَلْ أَتَيْتُكَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا»
«والطُّغْرَائِيَّ» لو عاصره لزاد نظمه وازداد على نوره هدى ، و«الحريرى» لو رافقه
لأمن فى «مقاماته» من التجريح والردى ؛ قد قصرت عن غاية كماله جياذ القرائح ،
وعجزت عن وصف صفاته جميع المدائح ؛ وشرف منصبه بانتسابه إليه ، ورفع
قدره بمثوله لديه ؛ مع ما تميز به من نزاهة صرف بها عن الدنيا طرفه ، وزهادة زانت
بالسعد صدره وملاءة ملأت بالعفة كفه ؛ فهو واحد زمانه ، وأوحد أوانه ؛ والبحر
الذى يحدث عن فضله ولا حرج ، والروض الذى ينقل عن فضله إلى الأشماع
أطيب الأرج ؛ وكان قد مال عن منصبه وهو يذكره ؛ وفارقه وهو يشكره ، ونادى
غيره وبقوله يلبى ، وشغل بغيره وهو يقول حسبي «شهاب الدين» حسبي :
«فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي» . فلما حصل له الاستئناس ،
وزال عنه القلق والالتباس ، قال : «ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ» -
أقتضى حسن الرأى الشريف أن نخصه باستقرار رتبته لديه ، وأن نستمر به على
وظيفته السنية استقرار السعود المقبل عليه .

فُرِسِمَ بالأمر الشريف - لا زال شهاب سعيده لامعا ، وسحاب كرمه هامعا ،
ومطاع أمره لمصالح الدين والدنيا جامعا ؛ - لمناقبه^(١) التى وفرت ميامنها ، وأسفرت
بوصف آثاره الحسنة كوامنها ؛ وأن يعاد إليها كما يعاد السوار إلى الزند ، أو كما يعود
نسيم الصبا إلى الرند . فليؤنس منصباً كان إليه مشتاقاً ، ومجلساً كان متظراً أن يزر
من ملابس جلاله على عنقه أطواقاً ؛ وليجمل هالة كانت تشوقه إلى عقود دُرره .
فأحمد الله على ما خصصناك به من مزيد الاعتناء ، وأن السعادة فى أيامنا الشريفة

(١) المراد أن يستقر فى كذا المناقبه ... وأن يعاد .

متصلة فتشمل الآباء والأبناء ؛ ويكفيك بهذا التوقيع الشريف إذ بلغت به جميع
الأماني ، وتوجناه بيميننا الشريفة لقرب عهدنا بمصافحة الركن اليماني ؛ وأصطفيناك
بقلم عظيم شأنًا بتلك السُّتور ، وغدا معمورًا بالهداية ببركة البيت المعمور ، وأزداد
بمشافهة الحرم الشريف نوراً على نور . فليحسن نظره المبارك في ذلك كله ،
وليؤد ما يحسن في هذه الوظيفة من مثله ؛ وفي تقدم مباشرته في هذه الوظيفة
وعلمه ما يغني عن كثرة الوصايا ، وملاكها تقوى الله تعالى وهي أكل المزايا ؛
وليحمد أفعاله ويوصل أسباب اعتمادِه بسببها ؛ والله تعالى يُجمل له مواهب
تحويله ، ويجعل له الخير في تنقله وتحويله ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ،
إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بكتابة السر :

الحمد لله الذي جعل خواطر أوليائنا بإقرار نعمنا مستقره ، ومواطر آلئنا على
ذوى الإخلاص في ولائنا دائمة الدائم مستمره ، وبشائر رضانا تجدد لكل من ذوى
الاختصاص آتباجه ونشره ، وسوافر أوجه إقبالنا لأولى الأصطفاء والوفاء مشرقة
الأوضاع مهللة الأسره ، مودع أسرار ملكنا الشريف من آل «فضل الله» عند
أكرم أسره ، ومتمتع دولتنا بنجير كافٍ دقق في مصالحنا فكره ، وأنفق في مناخنا عمره ،
ومجمع آرائنا على أعلى على حل من بهر بيته بمعرفه وبهر خيره ، ومطلع أنجهم
بأفقي تقرربنا مرة بعد مرة ، فنحجي نيرهم الأكبر وقد شيدنا بإارتقائهم بيته وشدنا
بعلائهم أزره .

نحمده على أن جبل سبحاننا ، على الإحسان والمبره ، ونشكره على أن أجرل عطايانا ،
لمن لم يزل يعرف حقه ويألف خيره ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له

شهادة تشرح لمؤمنها صدره ، وتُصلح لموقننا أمره ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده
ورسوله الذى أسمى على الخلائق قدره ، وتولى فى المضائق نصره ، وأعلى فى المشارق
والمغارب ذكره ؛ صلى الله عليه وعلى آله أعرى عثره ، ورضى الله عن أصحابه الذين
أسدوا المنة وسدوا الثغرة ، صلاة ورضوانا متواصلين فى كل أصيل ومكررين فى كل
بكرة ، ما وهب فضل الله مستحتماً فسراً بالعواطف والعوارف سره ، وعقب فى سماء
الإسعاد كوكباً فحل محله وقر مقتره ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد فشيئنا ترعى لأوليائها حقوقاً ، ونعمنا الغامرة تُسنى صدقاتها لمن لم يزل
فى ولائها صدوقاً ، وتزويد هباتها توفيراً لمن عاهدت منه لمراضيا توفيقاً ، وتجدد
بتعاهدنا معاهد الفضل فلا يمسى خليلاً بل يضحى بيا كرامها خليتماً ، وتشد بإحسانها
بيتنا أسس على تقوى الله وطاعة سلطانها فعدداً بالحفظ حقيقاً ، وتحمى بأعتنائها جوانبه
من الغير فلا يرهب حماه لها طروقاً ، ولا تجد بفضل الله لها عليه طريقاً ، وتطلع
فى بروج سعودها زهراً تروق شروقاً ، وتجمع على مهماتها من عظموا فضلاً وكرموا
فريقاً ، وتودع أسرارها عند سرايتهم ركوناً إليهم وسكوناً ورضا بهم وثوقاً ، وتشفع
مناخها بمنايح تزيد آمالهم نجاحاً وتفيد أمانتهم تحقيقاً ، وترفع مكاناً علياً إلى حيث
أسع السرار من ملكها من كان بالميامن ملياً وفى المحاسن عريقاً ، ويخلف فى خدمتها
شقيق منهم شقيقاً ، ويصرف أوامرها ونواهيها من أعيانهم من تأمن المصالح مع
اجتهاده ، تفويتاً وتخاف الأعداء لسداده ، تعويها ، طالما أئتمناهم على إيداع أسرارنا
فلت من سرائرهم مستودعا وثيقاً ، وعينوا للمعالى فصادفت طويتنا من يقظتهم
ونهضتهم تصديقا ، فهم أولى أن نجعل لأجسادهم بعقود جودنا تطويقاً ، وأحق أن
نرفع بنعمنا محلهم ، ونجمع فى خدمتنا شملهم ، فلا يخشون نقضا ولا تفريقاً .

ولما كان المجلس العالى الفلانى هو الذى لحظته عنايتنا ، فعلا فعلا ، وأيقظته إشارتنا ، فغدا فى الحكم كهلا ، وحفظته رعائنا ، فعمرت بيته العمرى الذى مازال بالعوارف ملموحا وللقبول أهلا ، وأحظته سعادتنا ، فى إقامته مقام أبيه فى حفظ أسرارنا التى هو أحق بإيداعها وأولى - أقتضى حسن رأى الشريف أن نُجرى بمراسمنا أقلامه ، ونوفر من إنعامنا أقسامه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا برحت سبحانه عاقه ، ومواهبه لها مزيد وإدامه ، ورعايته إذا أبتدأت فضلا رأت إتمامه ، وكواكبه تسير فى منازل عزها ولتيرها الأ كبر الإرشاد والإمامه - أن يفوض إليه كذا وكذا ، على أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، نظير ما كان مستقرا لأخيه .

فليباشر هذه الوظيفة التى لها به وبأهله أعظم نخار ، وليحل هذه الرتبة التى ما منهم إلا من لها يجتبي ويستخار ، وليجمل هذا المنصب الذى إليهم مصيره فى جميع الأمصار ، وليحل المهارق بانشا آتته التى شان مطاوعها عن شأوها الإقصار ، وليتوقل هذه الهضبة التى لها على عليائهم أقنصار ، وفى آباءهم وأبنائهم لها تعيين وأنحصار ، وليدبج الطروس من خطه بالوشى الرقيم ، وليبج النفوس من خطابه بالدرّ النظيم ، وليسرج الشُّموس من أوضاع كتابته التى تبرز من إبريز كُنوزها «أبن العديم» ، وليجهز البرد التى تقدمها مهابتنا فلم يكتبها من كتاب الأعداء هزيم ، وليزيّن مقاصدها التى قُرن بها الفتح القريب والنصر العزيز والفضل العظيم ، وهو بحمد الله غنى عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم ، على القدر لا يحتاج مع المعية إلى تنبيه ولا إلى تعليم ، وهم أئمة هذه الصناعة وهم الفضل القديم ، وسبيلهم السوى وصرأطهم القويم ، والله تعالى يوفّر لهم فضلنا العميم ، ويظفر أقدارهم من لدنا

بتكرير التكريم ، ويسنى أمرهم فى آفاق العلياء يسعد ويقعد ويقيم ، ويديم لكل منهم فى ظل نعمنا المزيده والتأكد والتقديم ؛ والعلامة الشريفة أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية لكاتب السر ، أوردتها فى "التعريف" وهى :

وليأمر عنا بما يُقابل بالأمثال ، ويقال به : السيوف لأقلامه مثال ؛ ويبلغ [من] ملوك العدا ما لا تبلغه الأسنه ، ولا تصل إليه المراكب المشرعة القلوع والخيول المطلقة الأعنة ؛ وليوقع عنا بما تذهب الأيام ويبقى ، ويخلد من الحسنات ما يلقى آخره ويلقى ؛ ويمل من لدنه من غرر الإنشاء ما يطرز كل تقليد ، وتلقى إليه المقاليد ؛ ولينفذ من المهيمات ما تحجب دونه الرماح ، وتخرج عن مجارة خيل البريد به الرياح ؛ وليتلق ما يرد إلينا من أخبار الممالك على اتساع أطرافها ، وما تضمه ملاءة النهار ملء أطرافها ؛ وليحسن لدينا عرضها ، وليؤد بأدائها واجب الخدمة وليتم فرضاها ؛ وليجب عنا بما استخرج فيه مراسمنا المطاعة ، وبما وكل إلى رأيه فسمع له الصواب وأطاعة ؛ وليمض ما يصدر عنا مما يحوب الآفاق ، ويزكو على الإنفاق ، ويحول ما بين مصر والعراق ، ويطير به الحمام الرسائل وتجرى الخيل العتاق ؛ ولير التواب ما أبهم عليهم بما يريهم من ضوء آرائنا ، وليؤكد عندهم أسباب الولاء بما يوالى إليهم من عميم آلائنا ؛ وليأمر الولاة بما يقف به كل منهم عند حده ولا يتجاوزه فى عمله ، ولا يقف بعده على سواه بأمله ؛ وليتول تجهيز البريد ، وأستطلاع كل خبر قريب وبعيد ؛ والتجابة وما تسير فيه من المصالح ، وتأخذ منه بأطراف الأحاديث إذا سالت منه بأعناق المطى الأباطح ؛ وأمور النصحاء والقصد ،

ومن يَظُلُّ سِرَّهُم عنده إلى صخرة أعيان الرجال أنصداعها وهم شتى في البلاد؛ ويعرف
 حقوق ذوى الخدمة منهم، وأهل النصيحة الذين رضى الله عنهم، ولا ينس
 عواندهم من رسوم إحساننا الموظف، وكرمنا الذى يستميل به القلوب ويتألف؛
 وليصن السرىجهده وهيئات أن يختنى، وليحجبه حتى عن مسمعيه فسر الثلاثة غير
 الخفي؛ والكشافة الذين هم ربيثة النظر، وجلافة كل خبر؛ ومن هم أسرع طروفا
 من الطيف، وأدخل في محور الأعداء من ذباب السيف؛ وهم أهل الرباط للخيال،
 وما منهم إلا من هو مقبل ومدرك كالليل؛ والدياب والنظاره، ومن يعلم به العلم
 اليقين إذا رفع دخانه أو ناره؛ وهم في جنبات حيث لا يخفى لأحد منهم منار،
 ولا يزال كل نبيا بتنويرهم كأنه جبل في رأسه نار؛ والحمام الرسائل وما يحمل من
 بطائق، ويتحمل من الأنباء ما ليس سواه [له] بطائق؛ وينحوض من قطع الأنهار،
 ويقطع إلينا ما بعد مسافة شهر وأكثر منه في ساعة من نهار؛ ويعزم السرى لا يلوى
 على الرباع، ويعلم أنها من ملائكة النصر لأنها رُسل ولها أجنحة مثنى وثلاث
 ورباع؛ وغير هذا مما هو به معدوق، وإليه يُخدئ به التوق؛ من رُسل الملوك
 الوارده، وطوائف المستأمنين الوافده؛ وكل هؤلاء [هو لآ] ما هم المترجم، والمصرح
 عن حالهم المحمّم، فليعلمهم بالكرامه؛ وليوسع لهم من راتب المضيف ما يجب
 إليهم في أبوابنا العالية الإقامة؛ وليعلم أنه هو لدينا المستشار المؤمن، والسفير الذى
 كل أحد بسفارته مرتين؛ وهو إذا كتب بنائنا، وإذا نطق لساننا؛ وإذا خاطب
 ملكا بعيد المدى عنواننا، وإذا سدّد رأيه في محور الأعداء سهمنا المرسل وسناننا؛
 فليُنزل نفسه مكانها، ولينظر لدينا رتبته العلية إذا رأى مثل النجوم عينها .

فليراقب الله في هذه الرتبة، وليتوقّ لدينه فإن الله لا يضيع عنده مثقال حبه،
 وليخفّ سوء الحساب وليتق الله ربه؛ وجماعة الكُتاب بديوان الإنشاء بالممالك

الإسلامية هم على الحقيقة رعيتُه ، وهداهم بما شئتمهم به من الآلاء والمعيتُه ؛
فلا تستكتب إلا من لا تجد عليه عاتبا ، ولا يجد إلا إذا قعد بين يديه كاتباً ، والوصايا
منه تُستملَى .

الطبقة الثانية

(من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحاب
التواقيع ، وهم على ثلاث درجات)

الدرجة الأولى

(ما يكتب في قطع النصف بـ «المجلس العالى» وكلها مفتحة بـ «الحمد لله»)
وتشتمل على ثلاث وظائف سوى ما تقدم أنه نقل إلى رتبة النقايد ، وهو كتابة السر

الوظيفة الأولى

(نظر الخاص)

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنها وظيفة محدثة ،
أحدثها السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » حين أبطل الوزارة ؛ وأن أصل
موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان ؛ وأن صاحبها صار كالوزير لقربه
من السلطان وتصرفه في تدبير جملة الأمور ، وتعيين المباشرين ، إلا أنه لا يقدر على
الاستقلال بأمر ، بل لا بد له من مراجعة السلطان . وقد تقدم ذكر ألقابه في الكلام
على مقدمة الولايات من هذا الفصل ، وعلى طوة توقيعه في الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص ، كتبت به للقاضى شمس الدين موسى بن
عبد الوهاب في الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » وهى :

الحمد لله الذى جعل كل جرح بنا موسى ، وعجل كل نعمة تبدل بوسا ، وتغير بالسرور من المساءة لبوسا .

نحمده حمدا يشرح صدورنا ويسر نفوسنا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترفع لقائلها رؤوسا ، وتطلع في آفاق ممالكنا الشريفة شمسوسا ، وتنشئ في أيماننا الزاهرة غروبوسا ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى بشر به موسى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاة تملأ طروبوسا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن العمل بالسنة أولى ما يتمسك به المتمسك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «أبدأ بنفسك» ، وكانت الخواص الشريفة هى المصلحة الخاصة بنا ، المتعلقة دون كل شىء بأنفسنا ، لأن من خزائنها العالية نتفرق مواهبنا الشريفة فى الوجود ، ونتحلى معاطف الأمراء والجنود ، وكان فيها من لم يزل هو وبنوه قائمين بها أحسن قيام ، [و] فيها من ممالكنا الشريفة ما يضاهاى بمدده الغمام ، من حضر منهم لا يتفقد معه من غاب ، ومن كتب منهم فى شىء من مصالحها قال الذى عنده علم من الكتاب ، كم أجزت صدقاتنا الشريفة بأقلامهم من إنعام ، وتقسموا فى مصالحنا الشريفة هذا فى الخاص وهذا فى العام ، طالما أنقطع والدُّهم رحمة الله تعالى بعدر فمشوا الأمور على أكل سداد ، وأجل اعتماد ، وأتم مالو حضر أبوهم وكان هو المتولى لما زاد ، فما خلت فى وقت منه ، أو من أحد منهم لما غاب من بقى يسد عنه ، فلم يزل منهم ربُّها مأنوسا ، ولا سئل فيها عن قصة إلا وأنبأت بها صحف إبراهيم وموسى .

وكان المجلس العالى فلان هو الذى تفرَّد آخرًا بهذه الوظيفة ، وأستقلَّ فيها بين أيدينا الشريفة ، وسافر فيها إلى نغر الإسكندرية - حرمها الله تعالى - فأقتر بيمين تصرفه ، وحسن تعفُّفه ، وعدم فيها المضاهى لأنه لاشىء يضاهاى الشمس إذا حلَّ

سرها في منازل شرفه ، كم كفت له كفايه ، وبدت بدايه ، وكم بلغ من غايه ،
 كم له من همم ، وكم تقدمت له قدم ، وكم اعترف السيف بيز القلم ، كم له في خدمه
 المقامات العاليه اولادنا اثر جميل ، وفعل جلي جليل ، وسلوك فلا يحتاج في الشمس
 إلى دليل ، كم احسن في مره ، كم رددناه إلى الكرك كره ، كم غلب على السحاب
 فرقنا إليها ، وبلغ النجوم وله قدوم عليها ، فلما انتقل والده القاضى تاج الدين
 عبد الوهاب إلى رحمة الله تعالى ، احتاج إلى توقييع شريف بالاستقلال في وظيفة
 نظر الخاص الشريف التي خلت عن ابيه ، ليعلم كل متطاول إليها أنه لا يصل
 إليها مع وجود بنيه ، فما عاد إلا وعاد بعين العنايه محروسا ، ولا أقبل على كرمنا
 إلا قال ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴾ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - زاد الله شرفه ، ومكن في الأرض تصرفه - أن
 يفوض إليه نظر الخاص الشريف بالممالك الإسلاميه المحروسة ، على عادة والده
 رحمه الله في هذه الوظيفه ، وقاعدته في رتبته المنيفه ؛ ليقضى ما كان في خاطر ابيه
 من الوطر ، ولأنه في أمثاله عين الأيمان والعين أولى بالنظر .

فليأشر ما نعمت به صدقاتنا العميمه عليه على ما عهد [منه] بالأمس ، وعرف به
 من حسن السلوك كمن يمشى في ضوء الشمس ؛ وليقدم تقوى الله والأمانه فهما
 أفضل ما يقدم ، وأجمل ما يعمل به من تقدم ، والنهضة فإنها هي التي تقوم بها
 المصالح ، والتصدي لما هو بصدده فإن به يتم كل عمل صالح ؛ وليحتفظ على
 الخزائن العاليه ، وليكن فيها كواحد من رفقته عملا بالعادة [فيها] ، وإلا فينحن نعم من
 كفايته [أنه] يكفيها ، ويشمر الجهات التي إليه مرجعها ، والأموال التي يدوم إليه من
 العين تطلعها ؛ وليستجلب خواطر التجار بإيصال حقوقهم إليهم ، والقائمين في خدمه

أبوأبنا الشريفة بتعجيل ما تُنعم به صدقاتنا الشريفة عليهم ؛ وليكن إلى ما تبرز به
 مراسمنا الشريفة مسارعا ، ولها في كل ما أشكل عليه من الأمور مُراجعا ؛ وبقية
 هذا من كل ما يحتاج أن نُوصيه بتعلمه فقد علم مما جرت به عادتنا الشريفة بأن
 نقوله في مثله ، ولهذا نختصر في الوصايا التي تُشرح آكتفاء بما آناه الله بنا من
 فضله ؛ والله تعالى يأخذ به إلى النجاح ، ويفتح له بنا أحسن الأفتاح ؛ والاعتماد
 على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص :

الحمد لله الذي جعل خواص النعم لملكنا الشريف لأجلها ، ونفائس الذخائر من
 دولتنا القاهرة بجملها ، وأخير المفاتيح مبسوطة في أيامنا ظلها .

نحمدُه بحمده التي لا تملها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
 أشرق مستهلها ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي ختمت به أنبيأؤها ورسلها ،
 وبعثه الله للأرحام بيئها ، وللأولياء يجلها ، وللأعداء يذنبها ، وللسيوف النصر من
 العمود يسئها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما شء على مطية رحلها ، وولى المراتب
 أهلها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن خزائن ملكنا الشريف مستودع كل ثمين ، وممالكنا المعظمة لا تُدق
 إلا بالثقة الأمين ؛ ومتاجر خواصنا الشريفة لا يُجرها إلا من رأيه يعضد قلمه في اليمن ،
 والمتجر المحروس لا يقوم بماء محصوله إلا من له حزم سيدد وعزم متين ، ونظر
 الخواص هو الدررة العالية فمرقيها على كل ما يعترضه معين .

ولما كان فلان هو المختار على يقين ، والمخطوب لهذا المنصب ليزيده فى التحسين والتحصين ، والذي إن نظر فى القليل عاد كثيرا بالألوف والمئين ، فإن دبر تدبيرا حفظ وحرس وصين ، وضبط فى حسن الاعتماد بأغ إلى الصين ؛ وإن توجه إلى الثغر المحروس تفجر له عن أمواله الجمه ، وأخرج له من فاجر الحلل ما حسن راقمه رقمه ؛ وصدر عنه إلى أبوابنا الشريفة بالتحف المشمنه ، والحمول التى أوقرت السفن فى النيل ، والإبل فى السيل ، فأزال الغمه ، وأثار الأمور المدهمه ، ونشر ما طواه لدينا فشكرنا له ما تقدم به مما أتمه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ... فليأشر هذا المنصب الكريم بتدبير يصلح الفاسد ، وينفق الكاسد ، ويكبت الحاسد ؛ ويكثر الأموال ، ويسعد الأحوال ؛ ويمر الذخائر ، ويسر السرائر ؛ ويوفر حاصل الجواهر ، ويكثر التحف من كل صنّف فاجر ؛ ويوفى المهمات الشريفة حقها فى الأول والآخر ، وينشر التشاريف كالآزاهر . وليختار الأمناء الثقات ، وليحرر كل منهم الميقات ، وليبع لنا صنا الشريف ويشتر بالأرباح فى سائر الأوقات ؛ وليتلق تجار الكارم الواردين من عدن ، باستجلاب الخواطر وبسط المنن ، ونشر المعسلة عليهم ليجدوا من اليمن ما لم يجدوه فى اليمن ؛ وكذلك تجار الجهة الغربية الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرنج : فليحسن لهم الوفاده ، وليعامهم بالمعسلة المستفاده ، فإن مكاسب الثغر منهم ومن الله الحسنى وزياده . والوصايا كثيرة وهو غنى عن الإعاده ، و [ملاكها] تقوى الله فليقتف رشاده ، وليصلح مآبه ومعاده ، ولا يتدنس بأقدار هذه الدنيا فإنها جمره وقاده ، والله تعالى يحرس إرفاقه وإرفاده ، بمنه وكرمه ! : بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية

(نظر الجيش)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنّ موضوعها التحدّث في الإقطاعات بمصر والشام، والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها، وأخذ خطّه . وقد تقدّم ذكر ألقابه في جملة الألقاب في الكلام على مقدّمات الولايات من هذا الفصل ، وتقدّم ذكر ما يُكتب في طرّة تقليده في الكلام على التوقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمد لله الذي عدّق بالأكفاء مصالِح الجنود ، وصرف أقالِمهم فيا نُقطعه من الجُود، وأجّتي لمراتب السيادة من تحمّده الأقالِم في العطايا البيض والسيوف في الخُطوب السود .

نحمّده وهو المحمود، ونشكره شكراً مُشرق الميَّان والسُعود؛ ونشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً عدّبة الورود ، يجمّد الخِلاص بركتها يوم العرّض ﴿ذَلِكَ يَوْمَ مَجْمُوعٍ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمَ مَشْهُودٍ﴾ ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله الذي أصحّت به جيوش الإسلام منشورة الألوية والبُود ، منصورّة السرايا في التّهايم والنُجود؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ما أورد عود، وأولج نهار السيف في ليل الغمود؛ وسلّم تسليماً .

وبعد ، فإنّ أجلّ رُتب هذه الدولة الشريفة مُرتقى ، وأجلّها متقى ، وأكرمها هادياً حلّى بعقد السيادة مفرّقا ، رتبةً حَكَمنا مرتقيها في أرزاق الجيوش الذين هم حُماة الدين وأنصاره ، ولهم رَواح الطّفَر وأبتكاره ؛ ولهذا لا يحظى بتسنيها إلا من علا مقدارا ، وشكرت الدولة الشريفة له آثاراً ، وجيبت عليه السعادة أئوابها ،

(١) (عدق) جمع .

وأوكفت عليه سخابها، وأنزلته ساحاتها ورحابها، وغدت لأحاديث علبائه تروى،
وحمد الميسور والمنشور والمطوى .

ولما كان فلان هو الذى نمت مأثره، وكُرمت مفاخره، وأستوت على العلباء
مظاهره؛ وشكر أستبصاره وحياطته، وكل سلوكه منهج الفخار وجادته؛ وأحصى
الجنود عددا، وإن كثروا النجوم مددا؛ وأحاط بالأرض المقطعه، فلم تكن نواحيها
عنه ممتعه؛ ولم يغادر منها شيئا إلا أحصاه، وأتبع سبب مرأضينا حتى بلغ أقصاه؛
فالعلم يثنى عليه والعلم، والحرب والسلم يشكرانه لمناسبة نظره القرطاس والقلم -
أقتضى حسن رأى الشريف أن نقيه هزيمة سامية العلى، فاحرة الحلى؛ ومنبع
أرزاق أمة الفضل وأبطالها، ورتبة شهيد منالها بعدم مثالها .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه

فليأشر هذه الوظيفة المباركة، ويحل ذراها الأسمى، وليجمل أطلاعه على
الحيوش المنصورة حتى لا يغادر منها أسما؛ لتغدو مصالحتها وريقة الغراس بأسقه،
وعقودها نفيسة الفرائد متناسقه؛ وليجر نظره المبارك فيما صرفناه فيه، آخذاً بمن
السداد من فعله وحسن التنفيذ من فيه؛ ملزماً من تحت نظره بإتقان ما هم بصدد
من العروض والأمثلة، حتى تغدو لديه ممسلة؛ محرراً للإقطاعات وعلم خفاياها فيما
نهبه ونقطعه، ونصله ونقطعه؛ والمقايضات وإن اختلفت، والإفراجات وإن
أكتنفت، والمغلات الآتية والأخرى التى سلفت؛ وما يخص المتصل، من فعل
المنفصل؛ والمتحصل والعبره، والخاص والعدة لذوى الإمرة؛ ومنها مصرى لاغنى
عن تحريره، وشامى يفتقر إلى الإتيان فى قليله وكثيره؛ ولينظر فيمن له جامكية
أو إقطاع مجزل، وكلاهما فى دولتنا سماك : هذا رايح وهذا أعزل .

هذه وصايا بجمه ، وأنت غني عن أن يستقصي القلم ذكرها أو يمجّه ، والله تعالى
يجلّ به رتبته ، ويبلغه أربه ، ويرفع عليه لواء المجد وعذبه ، بعد العلامة الشريفة
أعلاها الله تعالى أعلاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمد لله الذي أعزّ الجيوش المنصوره ، وجرّ أعناق العدا بالسيوف المشهوره ،
وهزّ ألية التأييد المنشوره ، وجعل الجحافل مشرفةً وأجنحتها خافقةً وساقها محذقةً
وقلوبها مسروره .

نحمده بحمده المذكوره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
مأثوره ، موصولةً غير مهجوره ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أبطل
من الشيطان غروره ، وصان للإسلام حوزته ونغوره ، وسنّ لأئمة الاستخارة
والمشوره ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تورت من الليل ديجوره ، وكثرت
لقائلها أجوره ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنّ أحوال جيوشنا يتعين حسن النظر في أمرها ، والقيام بمواد نصرها ،
وإسعافها بناظر يجزر جهات أرزاقها ، ويضبطها مخافة افتراقها ، ويأمر بنظم جرائد
أسمائهم وأنفاقها ، ويتقن الحلي ، ويبين يوم العرض محله في آرتقاء العلي ، ويصون
الحسابات لكل منفصل ومتصل من الحلل ، ويسرع في الدخول والخروج ما يصل به
لكل حقه عند استحقاق الأجل .

ولما كان فلان هو الممدوح بالسنة الأعلام ، والرئيس بين الأنام ، والمشكور بين
أرباب السيوف وذوى الأعلام ، والمأمون فيما يعدق به من مهام ، والعزيز المثل ،

والسائر بمجده الأمثال ، والمنشور فضله في كل منشور ، والظاهر أثره تجريده في الديوان المعمور ، والذي شكرته المملكة الشريفة فهو من صدورها في الصدور .

(٢) فلينظر هذا المنصب السعيد بأمانة تحفظ أرواق العساكر ، وتجلو الظلام العاكر ، وليحترر جرائد التجريد ، وليصن العدة الكاملة من التبديد ، ولتكن أوراق البياكر نصب عينيه حتى إذا طلبت منه أحضرها محرره ، وإذا وقع فيهم حركة كانت أفلامه غير مقصره ، ويرغب في اقتناء الشاء حتى يصبح عنده منه جملة من الألو ، وليكن للأمانة والنصح نعم الألو ، وليتق الله مع أصحاب السيف ، وليستجلب خواطر أرباب الصوف ، وليجعل له برأ في كل أرض يطوف ، وتقوى الله فهي السبيل المعروف ، فلينعم بجناتها الدانية القطوف ، وليلبس بردها الضافية السجوف ، والله تعالى ينجيه من الخوف ، بمنه وكرمه ! .



وهذه وصية ناظر جيش أوردتها في "التعريف" قال :

ولياخذ أمر هذا الديوان بكليته ، ويستحضر كل مسمى فيه إذا دعي باسمه وقوبل عليه بجليته ، وليقم [فيه] قياما بغيره لم يرص ، وليقدم من يجب تقديمه في العرض ، وليقف على معالم هذه المباشرة ، وجرائد جنودنا وما تضحى له من الأعلام ناشره ، وليقتصد في كل محاسبه ، ويحترها على ما يجب أو ما قاربه وناسبه ، وليستصح أمر كل ميت تأتي إليه من ديوان الموارث الحشرية ورقة وفاته ، أو يخبره به مقدمه أو نقيه إذا مات معه في اليكار عند موافاته ، وليحتر ما تضمنته الكشوف ،

(١) لعله والظاهر أثره وتحريه الخ .

(٢) بياض بالاصل ومراه بالأمر الشريف الخ .

ويحقق ما يقابل به من إخراج كلِّ حال على ما هو معروف، حتى إذا سُئِلَ عن أمر كان عنه لم يخف، وإذا كُشِفَ على كُشِفَ أظهر ما هو عليه ولا يُنكر هذا لأهل الكُشف؛ وليحترز في أمر كلِّ مَرَبَعِه، وما فيها من الجهات المُقطَّعة؛ وكلُّ منشور يكتب، ومثال عليه جميعُ الأمرِ يترتب؛ وما يثبت عنده وينزل في تعليقه، ويرجع فيه إلى تحقيقه؛ ولعلم أن وراءه من ديوان الاستيفاء من يساوقه في تحرير كلِّ إقطاع، وفي كلِّ زيادة وإقطاع، وفي كلِّ ما يُنسب إليه وإن كان إنما فعله بأمرنا المطاع؛ فليتبصر بمن وراءه، وليتوقَّ أختلاق كلِّ مبطل وأقترابه؛ وليتحقق أنه هو المشار إليه دون رُفقتِه والموكل به النظر، والمحقق به جملةُ جندنا المنصور من البدو والحضر. وإليه مدارج الأمرء فيما تنزل، وأمر كلِّ جندي له ممن فارق أو نُزِّل؛ وكذلك مُساوقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشور أو على السَّياقه، ومن هو في العساكر المنصورة في الطليعة أو في السَّاقه. وطوائف العرب والتُرُكَّان والأكراد، ومن عليهم تقدمةً أو يلزمهم روك بلاد، أو غير ذلك مما لا يفوت إحصاؤه القلم، وأقصاه أو أدناه تحت كلِّ لواءٍ يُنشر أو علم؛ فلا يزال لهذا كله مستحضرا، وعلى خاطره مُحضرا؛ لتكون لَفَنَاتِ نظرنا إليه دون رُفقتِه في السؤال راجعه، وحافظته الحاضرة غنيةً عن التَّدْكار والمراجعة.

الوظيفة الثالثة

(نظرُ الدواوين المعبر عنها بنظر الدولة)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها التحدُّث في كلِّ ما يتحدُّث فيه الوزير، وأن كلَّ ما كتب فيه الوزير «يُكشَف» مثلا، كتب فيه «يُكشَفُ عَمَّا رُسم به» ونحو ذلك. وتقدّم ذكر ألقابه في الكلام

على مقدمات الولايات من هذا الفصل ، وتقدم ذكر ما يكتب في طرة توقيعه
في الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين ، كُتِبَ به لتاج الدين بن سعيد الدولة ، وهي :
الحمد لله الذى خصَّ من أخلص في الطاعة من الأئمة بحسن النظر ، وأجنى
من غرس في قلبه أصل الإيمان من عوارف أيامنا الزاهرة يانع الثمر ، ورفع من
استضاء في دولتنا القاهرة بأنوار الهدى من محجول الرتب إلى مكان الغرر ، وأظهر
لوامع السعادة من نعمنا على من أضاء له الرشد فراه بعين البصيرة قبل البصر .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة هي أرفع ما يقتنى وأنفع
ما يدخر ، وأفضل ما نجت به الفرقة الموحدة وهلكت به الفرق الأخر ، ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله أشرف البشر ، وأرف البدو والحضر ، والمبعوث إلى الأمم
كافة لما قضاه الله تعالى من سعادة من آمن وشقاوة من كفر ، صلى الله عليه وعلى
آله وصحبه الميامين الغرر ، صلاة دائمة الورد والصدر ، باقية العين والأثر ، وسلم
تسلياً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من خصه برنا بالنظر الحسن ، وشمله كرمنا من الرتب بما بهجر
في بلوغ مثله الوسن ، وأشتمل عليه معروفنا بما يجعل يرآعه في مصالح الدولة القاهرة
جميل العبارة حسن اللسن ، من سمت به نفسه إلى سعادة الآخرة فأنته سعادة الدنيا
تابعه ، وسلك في مراضى الدولة القاهرة طريق الإخلاص فغدت لكل خير
حاوية ولكل يمن جامع ، مع كفاءة جاءت المناصب على قدر ، ومعرفة ما لحظت
المصالح بأقرب نظر ، إلا تمت الأموال وبدرت البدر ، وخبرة ما أعتبرت فيها
محاسن سيرته في كل ما ياشره إلا صغر خبرها الخبر ، ونزاهة سلكت به في كل

ما يليه أحسن المسالك ، وعِفَّةٍ رَفَعَتْهُ من الرتب الديوانية إلى مَفَارِقِهَا ولا رُبَّةَ لِلتَّاجِ إلا ذلك .

ولمَّا كان فلان هو الذى آجَنَى من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجنى ، وفاز من عوارفها العميمة بجميل المُخَالَصَةِ مازاد على المني ، وأننى من أدوات نفسه إلى كمال المعرفة والعِفَّةِ وهما أنخر ما يدنر للرتب الجليلة وأنفس ما يُقْتَنَى ، وعنى من أسباب استحقاقه المناصب بما أقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يُحتفل بتقديمه وأن يُعْتَنَى .

فذلك رُسم أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة : فليُباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل ، ومجلياً في هذه الحلابة بسبق معرفته الذى لا يحتاج إلى دليل ، ومبيناً من نتائج قلمه ما يبرهن على أنه موضع الاختيار ، ومن كوامن أطلاعه ما لا يحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج إليه النهار ، فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مُثْمِراً ، وليل نفسه في ليل الأعمال مُقْمِراً ، وحسن نظره إلى ما قرب ونأى من المصالح مُحْدِقاً ، ولسان قلمه لما دق من أمور الأقاليم محققاً ، ورسم خطه لما يستقر في الدواوين المعمورة مُثْبِتاً ، ووسم تحريره لما يجتنى من غروس المصالح مُنْبِتاً ، ولدَّر أخلاف الأعمال ، بِحُسْنِ الأَطْلَاعِ محتلياً ، ولوجوه الأموال ، بِإِنْفَاقِ التوجه إلى ثميرها إن أقبلت محتلياً وإن أعرضت محتلياً ، فإنَّ الأمور معادنٌ يستثيرها التصرفُ الجميل ، ومنابتٌ يُنمِّيها النظرُ الحلي والإتقانُ الجليل ، وملاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ، ويتخيَّأها في كلِّ حالٍ أمامه ، والله تعالى يوفِّقه بمنه وكرمه ! .

قلت : ورُبَّمَا أُضِيفَ إلى نظر الدواوين المعمورة نظرُ الصَّحْبَةِ الشريفة الآتى ذكُّهَا ، وكتِّبَ بهما جميعاً لشخص واحد .

(١)
وهذه نسخة توقيع بهما جميعاً، كُتِبَ بها لتاج الدين بن سعيد الدولة على أثر
إسلامه، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهى :

الحمد لله الذى خصَّ من أخلصَّ فى الطاعة من الأئمة بحسن النظر، وأجنى من
غرس فى قلبه أصل الإيمان من عوارف أيامنا الزاهرة يانع الثمر، ورفق من استضاء
فى دولتنا القاهرة بأنوار الهدى من محجول الرتب إلى مكان الغرر، وأظهر لوامع
السعادة من نعمنا على من أضاء له الرشد فراه بعين البصيرة قبل البصر .

نحمده على إحسانه الذى عمّر، وأمتنانه الذى بهر، وفضله الذى عمَّ كلَّ من ظهر
له الهدى فلم يعارض الحقَّ إذا ظهر .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً هى أرفع ما يقتنى وأنفع
ما يدنر، وأوضح ما نجت به الفرقة الموحدة وهلكت به الفرق الأخرى، ونشهد أن
مجداً عبده ورسوله أشرف البشر، وأرفأ البدو والحضر، والمبعوث إلى الأمم كافة
لما قضاه الله من سعادة من آمن وشقاوة من كفر؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
الميامين الغرر، صلاةً دائمة الورد والصدر، باقية العين والأثر؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإنَّ أولى من خصَّه ربنا بالنظر الحسن، وشمله كرمنا من الرتب بما يهجر
فى بلوغ مثله الوسن، وأشتمل عليه معروفنا بما يجعل يراعه فى مصالح الدولة
القاهرة جميل العبارة حسن اللسن؛ من سمَّته به نفسه إلى سعادة الآخرة فأنته
[سعادة] الدنيا تابعه، وسلك فى مراضى الدولة القاهرة طريق الإخلاص فغدث
لكل خير حاويةً ولكل يمن جامعته؛ مع كفاءة جاءت المناصب على قدر، ومعرفة
ما لحظت المصالح بأقرب نظرٍ لإلآمت الأموال وبدرت البدر، وخبرة ما اعتبرت فيها

(١) هى عين سابقها خلا أن فيها ضم الصجبة مع تغيير يسير، فتنبه .

محاسن سيرته في مباشرة الإصغر خبرها الخبر؛ ونزاهة سلكت به في كل ما يليه أحسن المسالك، وعفة رفعته من الرتب الديوانية إلى غررها ولا رتبة للتاج إلا ذلك .

ولما كان فلان هو الذي أجتني من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجنى، وفاز من عوارفها العميمة بجميل المخالصة ما زاد على المتى، وأنتمى من أدوات نفسه إلى كمال المعرفة والعفة وهما أنخر ما يدخر للرتب الجليلة وأنفس ما يقتنى، وعني من أسباب استحقاقه المناصب والرتب بما اقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يحتفل بتقديمه وأن يعتنى - فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة ونظر الصحبة الشريفة .

فليباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل، ومجلياً في هذه الحلبة بسبق معرفته التي لا تحتاج إلى دليل؛ ومبيناً من نتائج قلمه ما يبرهن على أنه موضع الاختيار، ومن كوامن اطلاعه ما لا يحتاج إلى برهان إلا إذا احتاج إليه النهار؛ فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مُمراً، وليل نفسه في ليل الأعمال مُممراً؛ وحسن نظره إلى ما قرب ونأى من المصالح محققاً، ولسان قلمه لما دق وجل من أمور الأقاليم محققاً؛ ورسم خطه لما يستقر في الدواوين المعمورة مُميتاً، ووسم تحريره لما يجتنى من غروس المصالح مُميتاً؛ ولدّر أخلاف الأعمال، بحسن الاطلاع محتلباً؛ ولوجوه الأموال، بإنفاق التوجه إلى ثمرها إن أقبلت محتلباً وإن أعرضت محتلباً؛ فإن الأمور معادن يستثيرها التصرف الجميل، ومنابت ينمىها النظر الحلي والإتقان الجليل؛ وملاك كل أمر تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه، ويتخيّلها في كل وقت أمامه؛ والله تعالى يوفقه بمنه وكرمه! . وانخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه .

الوظيفة الرابعة

(١)
(نظر الصحبة)

[وهذه نسخة توقيع بنظر الصحبة] كُتِبَ به للشريف شهاب الدين ناظر الصحبة ، من إنشاء الشهاب محمود الحلبي ، وهو :

الحمد لله الذى جعل الشرف حيث حلّ ركابنا مُصاحبا ، وأطعم للفضل فى أفق خدمتنا من أولياء دولتنا شهابا ثاقبا ، وعدق النظر فى مُحبتنا بمن لم يزل لمصالحنا ملاحظا ولأوامرنا مُراقبا ، وفوض أمور مباشرة حال من آجتهد أو قصر فى خدمتنا إلى من لم يزل بنفسه فى واجب الطاعة مُنافسا وعلى فرض الموالاة مُحاسبا .

نحمده حمد من أجل فى أولئنا نظرا ، وخصّ بالنظر فى مُحبتنا من أختبرت خدمته فتساوت فى الطاعة والمناجحة سَفرا وحضرا ، وأعتمد فى ملاحظة مباشرى ما يتر عليه من ممالكه على من لا يهمل له حقًا ولا يُحدث له ضرا .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال جيوشنا لإعلاء منارها مُجهزة ، وسرايانا إلى مقاتل جاحديها البارزة مبرزه ، وعود النصر على من ألد فيها لنا معجلةً وعلى أيدينا منجزه ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أمهضنا الله من جهاد أعداء دينه بما قرّض ، وأيقظنا لرفع أقدار أهل بيته فلم يقصر بأحد منهم فى أيامنا أمل ولا بعد عليه غرض ، وخصنا منهم بمن تمسك بجوهره الأعلى فلم

(١) يظهر قياسا على ماسبق فى نظائره أن هنا سقطا ، هو « وموضوعها أن صاحبها يُحدث مع الوزير فى كل ما يُحدث ويشاركه فى الكتابة فى كل ما يكتب فيه ويوقع فى كل ما يكتب فيه الوزير تبعاله » . انظر صفحة ٢٩ ج ٤ من هذا المطبوع .

يتعرض من هذا الأذى إلى عرض ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من (يكاد يمسه عرفان راحته) ، وإلا المؤثر طاعة الله ورسوله وأولى الأمر على راحته ؛ صلاة دائمة الاتصال ، آمنة شمس خلودها من الغروب والزوال ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من اخترناه لصحبتنا الشريفة على علم ، وأعدناه لمهماتنا الكريمة لما فيه من تسرع إدراك وتثبت في حكم ؛ وبسطنا له فيما عدقناه به من ذلك لسانا ويدا ، وحفظنا به الأحوال من [وصول] مسترق السمع إليها (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا) وأدخنا أقلامه لمصالح كل إقليم يمر ركابنا الشريف عليه ، وفوضنا مناقشة مباشره على ما أهملوه من حقوق الله تعالى وحقوق الرعايا إليه ؛ وأقنناه لتصفح ذلك بنفسه ، وتلمح زيادة كل يوم على أمسه ؛ وأتراج الحق من مديده إلى ظلم بكف كفه عنه ورفع يده ، وأرتجاع الواجب ممن أقدم عليه بالباطل في يومه وأطرح المؤاخذه به في غده ؛ وغير ذلك مما أحصاه الله ونسوه ، وأعتمدوا فيه على المصلحة فأجتنوا ثمرة ما غرسوه - من كان له في المناصحة قدم صدق عند ربه ، وفي خدمة الدولة القاهرة قدم هجرة تفتضى مزيد قربه ؛ فكان أبدا بمرأى من عنايتنا ومسمع ، ومن إحساننا بالمكان الذى ليس لأحد من الأكفاء فى بلوغ غايته أمل ولا مطمع ، وتفرد بأجتماع الدين والمنصب والأصالة والعلم والكرم وهذه خلال الشرف أجمع .

ولما كان فلان هو الذى آجتنى من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضل الجنى ، وفاز من عوارفها العميمة بجميل المخالصة ما زاد على المنى ؛ وأنتمى من أدوات نفسه ونسبه إلى كمال المعرفة والعفة وهما أغزر ما يندخر للرتب الجليلة وأنفس

ما يُقْتنى ، وُعنى من أسباب استحقاقه المناصبَ والرتب بما أقتضى إحسان الدولة القاهرة أن يُحتفل بتقديمه وأن يُعتنى . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه نظر الدواوين المعمورة .^(١)

فليباشر ذلك محلياً هذه الرتبة بعقود تصرفه الجميل ، ومجلياً في هذه الحلبة بسبق معرفته التي لا تحتاج إلى دليل ، ومبيناً من نتائج قلمه ما يبرهن على أنه موضع الاختيار ، ومن كوامن أطلاعه ما لا يحتاج إلى برهان إلا إذا أحتاج إليه النهار ؛ فلا يزال فرع يراعه في روض المصالح مُثمراً ، وليس نفسه في ليل الأعمال مُقمراً ؛ وحسن نظره إلى ما قُرب ونأى من المصالح مُحققاً ، ولسان قلمه لما دقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم مُحققاً ؛ ورسم خطه لما يستقر في الدواوين المعمورة مثبناً ، ووسم تحريره لما يحتاج من غروس المصالح مُثبناً ؛ ولدّر أخلاف الأعمال بحسن الأطلاع محتلياً ، ولوجوه الأموال بإنفاق التوجه إلى نثيرها إن أقبلت مجتلياً وإن أعرضت محتلباً ؛ فإن الأمور معادن يستثيرها التصرف الجميل ، ومنابت يثمها النظر الجلي والأتقان الجميل ؛ وملاك كل أمر تقوى الله تعالى فليجعلها إمامه ، ويختارها في كل حال أمامه ؛ والله تعالى يسدده ويوفقه بمنه وكرمه ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وربما أضيف إلى نظر الصحبة نظر الدواوين الشريفة ، وحينئذ فيحتاج الكاتب أن يأتي في براعة الاستلال بما يقتضى الجمع بينهما ، ويورد من الوصايا ما يختص بكل منهما . والكاتب البليغ يتصرف في ذلك على وفق ما يحدث له من المعاني ويستح له من الألفاظ .

(١) الصواب نظر الصحبة .

الدرجة الثانية

(من توابع أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة بالديار المصرية ما يكتب في قطع الثالث بـ «المجلس السامى» بالياء ، مفتتحاً بـ «الحمد لله» إن قصد تعظيم المكتوب له على ما هو الأكثر، أو بـ «أما بعد حمد الله» جرياً على الأصل لما يكتب في قطع الثالث، على ما تنق عليه في النسخ)
وتشتمل على وظائف :

الوظيفة الأولى

(كتابة الدست)

والمراد دست السلطنة . وقد تقدم الكلام عليها في مقدمة الكتاب في الكلام على ديوان الإنشاء ، وتقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن موضوعها أن يجلس أصحابها بدار العدل أيام المواكب حلف كاتب السر ، ويقرؤون القصص على السلطان بعد قراءة كاتب السر ، ويكتبون عليها بما تقتضيه الحال ، بعد إشارة السلطان بالكتابة ، ثم يحمل ما يكتبون عليه من القصص إلى كاتب السر فيعينها . وأن هذه الوظيفة كانت من أجل الوظائف وأرفعها قدراً ، منحصرة في عدد قليل نحو الثلاثة فما حولها ، ثم وقع التساهل في أمرها ، ودخل فيها العدد الكثير حتى جاوز عددهم العشرين ، وبقيت الرئاسة فيهم لعدد مخصوص منهم ، وقنع الباقون بالأسم . وقد تقدم ذكر طرقة توقيعه في الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بكتابة الدست ، وهى :

الحمد لله الذى فضل الكرام الكاتبين ، وأحيا بفضائل الآخريين الأولين الداهيين ،
وأنزل فى القصص : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ .

نَحْمَدُهُ وَهُوَ الْمَحْمُودُ الْمُعِينُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً قَوِيمٌ مُخْلِصِينَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَرَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَالشَّافِعُ فِي الْمُدْنِيِّينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً بَاقِيَةً إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْعَدْلَ الشَّرِيفَ دَارَ جُدْرَانِهَا الْأَمْرُ الْمُطَاعُ ، وَأَبْوَابُهَا الْخَيْرُ الَّذِي لَا يُضَاعُ ، وَسَقْفُهَا الرَّحْمَةُ وَالْإِتِّضَاعُ ، وَصَدْرُهَا الْإِحْسَانُ الْمِيدُ الْبَاعُ ، وَصَحْفُهَا الْأَمْنُ وَالسُّرُورُ فَلَا يُخَافُ أَحَدٌ فِيهِ وَلَا يُرَاعُ ، وَجِلْسَاؤُهَا الْكَاتِبُونَ عَارِضُو الرَّقَاعِ ؛ هُمْ مَعْدِنُ الصَّدَارَةِ ، وَمَوْطِنُ الْكِتَابَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْإِشَارَةِ ، وَأَقْلَامُهُمْ تَأْتِي بِجُسْنِ التَّشْبِيهِ وَالْإِسْتِعَارَةِ ، وَتُطَرِّزُ حَوَاشِيَ الرَّقَاعِ بَوْشَى بَادِي الْإِنَارَةِ ، مَا أَخْتِيرَ أَحَدُهُمْ لِلْجُلُوسِ فِي دَسْتِهِ إِلَّا وَقَدْ أَرْضَى مِنْ آخْتَارِهِ ، وَتَمَيَّزَ بِجُسْنِ السَّمْتِ وَالْوَفَاءِ وَالْوَقَارِ وَالشَّارَةِ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي لَهُ فِي السُّوَدِّدِ أَصْلٌ عَرِيقٌ ، وَفِي الْفَضَائِلِ لَهُ قَلَمٌ مَطِيقٌ ، وَفِي الْبَلَاغَةِ لَهُ لِسَانٌ مَنطِيقٌ ، وَإِذَا دَبَّحَ قَرطَاسَهُ فَهُوَ لِلرُّوضِ شَقِيقٌ ، وَنَبَاتُهُ الْجَوْهَرُ لَا الْآسُ وَالشَّقِيقُ ، وَأَصْبَحَ لِلْجُلُوسِ فِي الدَّسْتِ الشَّرِيفِ أَهْلًا عَلَى التَّحْقِيقِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ أَنْ يَسْتَقَرَّ فَيُحَلُّ هَذَا الدَّسْتُ الشَّرِيفُ مُبْهِجًا بَيَانِهِ ، مَثَلًا لِلصُّدُورِ بِعُرْفَانِهِ ، مَثَلًا بِبُورِ يَدِهِ وَلِسَانِهِ ، قَارِئًا مِنْ قِصَصِ النَّاسِ وَظَلَامَاتِهِمْ فِي إِيوَانِهِ كُلِّ شَيْءٍ فِي أَوَانِهِ ، لَا يَكْتُمُ ظُلَامَةً مَكْتُوبَةً فِي رُقْعَةٍ ، بَلْ يَعْرِفُ مَلِكَةَ بَهَا وَيَبْلَغُهَا سَمْعَهُ ، فَإِنَّهُ فِي هَذَا الْمَحَلِّ أَمِينٌ وَالْأَمِينُ مَحَلُّ النَّصِيحِ وَالْخَيْرِ وَالرُّقْعَةِ ؛ وَإِذَا وَقَعَ فَهُوَ مَأْمُورٌ ، فُلْيَاتٌ بِمَا يُبْهِجُ الصُّدُورَ ؛ وَيَشْفَى غَلِيلَ الشَّاكِي ، بَلْفِظِهِ الزَّاكِي ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ لَكِنِ السَّلِيمُ لِبَعْضِهَا الْحَاكِي ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ فَهِيَ تَأْجِبُهَا الْجَوْهَرَ ،

(١) لعله لكن سئل ببعضها الحاكي ، وهو تقوى الخ . تأمل .

وبدرها المنور، وكوكبها الأزهر، والله تعالى يمتعه بالفضل الذي لا يحول ولا يتغير،
بمنه وكرمه! إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع من ذلك أيضا، وهي :

الحمد لله الذي أفاض على الأولياء من فضله، وأهمى عليهم من مواهبه ما يقصر
عنه الغمام في وبله وطله، ومنح دست الملك الشريف من الألفاظ المحيية،
والفضائل المفيدة .

نحمده على نعمة التي أجزلت إحسانها، وأجملت أمتنانها، وزغت مزهره
فقدمت من الدولة أعيانها، ونشكره على عوارفه التي ألقى لأهل الشاء عنانها،
ورحب لذوى البيوت صدرها وفص عنوانها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تشهد القلوب إيمانها ويدحر
القائل لها ليوم الخاف أمانها، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي أظهر الله
به الشريعة المطهرة وأبانها، وشرف [به] هذه الأمة ورفع على جميع الأمم شأنها، وبعثه
رحمة إلى كافة الخلق فأقام بمعجزاته دليل الهداية وبرهانها، وأطفأ بنور إرشاده
شرر الضلالة ويرانها، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من نزه
نفسه النفيسة وصانها، وسلك في خدمته وصحبته الطريقة المثلى فأحسن إسرار
أموره وإعلانها، صلاة دائمة باقية تجمّل بالأجور أقرانها، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فانه لما كانت وظيفة توقيع الدست الشريف من أجل الوظائف
وأسنائها، وأنفسها وأعلاها، وأجملها وأبهاها، القائم بها سفير الرعية إلى الملك

فى حاجتهم ، وترجحان معرب عن شكائهم ، وكاشف أحسن ناشر عن ظلامتهم ؛
جالس على بساط الأوس بقرب الحضرة ، منقذ نهي مليكه وأمره ، مبلغ ذا الحاجة
من إنعامه جوده وبره - تعين أن يندب رئيس وأبن رئيس ، وجوهر بحر نفيس ؛
ذو أصل فى السؤدد عريق ، ولسان فى الفضائل طليق ، وقلم حلى الطروس بما يفوق
زهر الرياض وهو لها شقيق ، وفاضل لا يقاس بغيره لأنه الفاضل على التحقيق ؛
وكان المقر العالى الفلانى هو المشار إليه بهذه الأولوية ، والمراد من سطور هذه
الحامد اللؤلؤية . فلذلك رسم بالأمر العالى أن يستقر المشار إليه فى وظيفة توقيع
الدست الشريف عوضاً عن فلان بحكم وفاته .

فليباشر ذلك مباشرة تُشكر مدى الزمان ، وتُحمد فى كل وقت وأوان ؛ وليدبج
المهاريق بوشى يفوق قلائد العقيان ، ويمتلاً بالأجور لنا صخفا بما يوحيه عنا من
خيرات حسان . ونحن فلا نطيل له الوصايا ، ولا نُحمله بها فهى له سجايا ؛ مع ما أدبه
به علمه الحزم ، وعمله الذى ما أنصرف إلى شىء إلا تم ؛ ويجمعها تقوى الله تعالى
وهى عقد ضميره ، وملاك أموره ؛ وما برح هو وبيته الكريم مصابيح أفتحها ومفاتيح
مُغلقتها ، ولهم جدد ملابسها وللناس فواضل مُخلقتها ؛ والله تعالى يزيد من إحسانه
الجزيل ، ونعمه التى يرتدى منها كل رداء جميل ، ويمتعه بإمارته التى ما شكرها إلا
قال أدباً : حسبنا الله ونعم الوكيل ؛ والاعتماد فى مسعاه ، على الخط الكريم أعلاه .

الوظيفة الثانية

(نظر الخزانة الكبرى)

وقد تقدم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أن هذه الوظيفة كانت
كبيرة الموضع من حيث إنها مستودع أموال المملكة ، إلى أن حدثت عليها خزانة

الخاصّ فأنحطت رتبها حينئذ، وسميت الخزانة الكبرى باسم هو أعلى منها ، وأنه لم يبق فيها سوى خلع تُخلع وتُصرف أولاً فأولاً . وقد تقدم ما يكتب في طرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخزانة :

الحمد لله الذي جعل الخزانين لذكائرنا كهوفا ، وملايس إقبالنا شنوقا ، ومواهبنا يُجزل عطاءً ومعروفا ، وإقبالنا على محسن التدبير ومجمل التأثير عطوفا ، وأيادينا في إسكان جنتها قُطوفا .

نحمده حمداً مالوفا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً أوضحت معروفاً ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أزال مخوفاً ، وأقام الصلاة والجهاد صفوفاً ، وشهر على العدا عند تأبيد الهدى سؤوفاً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما سدل الليل سجوفاً ، وسلم تسليماً .

وبعد، فإن الملك الشريف له يُخف مضمونه ، وذخائر مكنونه ، وأصناف حسان في خزائنا مخزونه ، وجواهر عالية القيمة ثمينه [لا يقوم عليها إلا من] لا يمد عين عفاقه إلى المال وإن كثرت آلاؤه ، ووجج جنة هذه الذخائر ولم تلم بالبلل أطرافه ، وهو فلان : العريق في آنتسابه ، الوثيق آنتأؤه إلى فضل الله وجنايه ، النبي ثوب عرضه ، النبي بتمسكه بسنته وفرضه ، الوفي نظره بغضه ، المستمسك بجميع الخير دون بعضه ، من بيت السيادة ومن هو من بيت السيادة فالسؤدد نجم سمائه وطود أرضه . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر

فليباشر هذه الوظيفة بعملٍ ونية ، متمسكاً بذخائر هذه الخزانة العلية ، وأمورها وأحوالها ، وتفصيلاتها وإجمالها ، وحولها وأحمالها ، وحللها المرقومه ، وذخائرها

المعلومة ، وجواهرها المنظومة ، وأجاسها المختومة ، وصناديقها المركومة ، ما عن علمه فيها شيء خاف ، وصونه لها كاف ، وأمر الله بين النون والكاف .

وليعلم أن خزائننا تُصبُّ فيها سحائبُ التحف والأموال والأصناف ، من سائر الممالك والمدن والتغور والأطراف ، ومنها يُخرج بجهاز مواهبنا وإنعامنا للأولياء الأشراف ، وإنما هي لمصالح المسلمين في الجمع والإئتلاف ، وتقوية أهل الطاعة على أهل الاختلاف ، فليضبط ما تطلقه وإن كانت الأقلام لا تستطيع ذلك لكثرة الإسعاف ، ولتكن التشاريف المثمرة الكاملة ، حاصلةً بمناطيقها المجوهرة الهائلة ، وطُرزها الطائفة ، وتعايبها الفاضلة ، حتى إذا أنعمنا منها على أحد بشيء يأتي بحموله وقد حمد فاعله . والوصايا كثيرة وتقوى الله نظام عقدها ، وعمام ريفدها ، وزمام مجدها ، وتأم سعددها ؛ فليكن متلفعا ببرددها ، متضوعا بنددها ، وهو غنى عن الوصايا ومددها ، والله تعالى يؤيد حركاته في قصدها ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية لناظر الخزانة ، أوردتها في "التعريف" :

ويتملاً بنظره صدور الخزان ، وليجمع فيها أشات المحاسن ؛ وليعد فيها كل ما يدخر للإنفاق ، ويحتفظ به للإطلاق ؛ ويحصل ما يضاهاى البحر بالتفريع والتأصيل ، والجمل والتفصيل ؛ وما لا يوزن إلا بالقناطير ، ولا يُحصى منه ملء الأساطير ؛ وما يهيا من التشاريف الشريفة التي تُباهى أشعة الشمس بأعماها ، وتُحاسن وشائع الروض بخلعها ؛ وما فيها من محلقات ألوان لا تماثل بتصوير ، ولا يظنها الأولياء إلا الجنة وليأثمهم فيها حرير ؛ وما تحتوى عليه من عتاني وأطلس ، ومشرش ومقنسد ؛ وكل طراز مذهب وباهى ، وما هو من ذهب أوله يضاهاى ؛ وكل

ما يتشرف به صاحبُ سيفٍ وقلمٍ ، ويُعطى إنعاماً أو عند أولِ استِخدامٍ في خِدمٍ ؛ وما هو مع هذا من أنواعِ المستعمَلاتِ ، والنواقِصِ والمُكَمَّلاتِ ؛ وما يُحمَلُ من دارِ الطَّرازِ ، ويمجد مما يأتي من المُبتاعِ من بزٍّ وبرزابِ ، وما هو مُرصدٌ للخزانةِ العاليةِ من الجِهاتِ ؛ التي يحمَلُ إليها متحصِّلها : لينفق في أثمانِ المبيعاتِ ، وما يُستعملُ ، وما يُعلمُ منه بالطَّرزِ ويُعملُ ، وبقية ما يدخر في حواصلها من مالِ بيتِ المالِ الذي يُحمَلُ ؛ وذلك كلُّه فهو الناظرُ عليه ، والمناظرُ عنه مما خرج من عنده ووصل إليه ، والمُحاجِّجُ عنه بالمراسيمِ التي تُنكَلُ لِلحِفظِ وتُنزَلُ لديه ؛ فليبراع ذلك جميعه حقَّ المراعاةِ ، وليحترزُ قدر ما ينفق من الأثمانِ وقيمةِ المبيعاتِ ، وليحترز فيما يُزكِّي بعضُه بعضاً من شهادةِ الرسائلِ المكتتبهِ إليه بالحمولِ وما يكتبُ بها من الرجعاتِ ؛ وليُعرِّ المعاملين من نظره ما لا يجيئون معه سيلاً ، ولا يقدرُون معه على أن يأخذوا فوق قدرِ استحقاقِهِم كثيراً ولا قليلاً ؛ وليقدِّم تحصيلَ كلِّ شيءٍ قبل الاحتياجِ إليه ويدعه لوقته ، ولا يمثَلُ لديه إلا سرعةَ الطلبِ الذي متى تأخر أخر لوقته (؟) ؛ والأمانةُ الأمانةُ ، والعفافُ العفافُ فما كان منهما واحداً رداءً أمريئاً إلا زانه ، ولولاهما لما قال له الملكُ إنك اليومَ لدَيْنا مكيين أمينين وسلَّمُ إليه الخزانةُ .

الوظيفة الثالثة

(نظرِ خزانةِ الخِصاصِ)

وهي الخزانة التي استُحدثت في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» عند استحداثِ وظيفةِ «نظرِ الخِصاصِ» وقد أنتقل ما كان يحمَلُ إلى الخزانةِ الكُبرى ويُصرف منها إلى هذه الخزانةِ ، سوى الخِلاجِ ، كما تقدَّمت الإشارةُ إليه في الكلامِ على توقيعِ ناظرِ الخزانةِ الكُبرى .

وهذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص ، كُتِبَ به للقاضى شرف الدين محمد
ابن علاء الدين الجَوْجَرِيّ^(١) ، فى مستَهَلَّ شهر رجب الفرد ، سنة تسع وثلاثين
وسبعمائة ، وهى :

الحمد لله الذى زاد بنظرنا الشريف شرف من لمحّه من أوليائنا [و] لحظّه ، وأفاد
المستأنف من برّنا من عهدنا له الفطرة السليمة وتيقننا منه الفكرة واليقظه . وأعاد
للخلف الكريم ، من المشايخ ما كان للسلف القديم الصالح من التقديم ، الذى شملهم
بالتكريم ، وجعلهم على نرائن جودنا العميم : لأنهم العلماء الحفظه . وجاد بالطرف
من خاصّ إنعامنا العام لمن لقلمه عند الإذناء من سرير الملك إنجاز عدة ولسانه
عند ارتقاء منبر النُسك إبراز عظه .

نحمده على أن أجزل لمن عوّل على شامل كرمنا جزاءه وعوضه ، ونشكره على أن
تطول بنوافل نعمنا لمن قام بعد أبيه بلوازم خدمتنا المقترضة ، وعكف أعمالنا على بيت
مبارك مامنهم إلا من شمل من إحساننا بالمنح لما بذل لسلطاننا من النصح ومحضه .
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يودع مصونها فى الأرائك
المتعلية ويقطع يقينها الشكوك المعترضة ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى
عظمت عطايا بذله ، فالبجار المرتفعة عنها منخفضة ، وكرمت سجايا فضله ، فليست
بمتقلة وأبرمت قضايا عدله ، فليست بمتقضة ، وعمت البرايا يده البيضاء التى هى
بالأرزاق فى الآفاق منبسطة وليست عن الإنفاق خشية الإملاق منقضة ، صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه الذين ما منهم إلا من أقرض الله قرضا حسنا فضاغف له
ما أقرضه ، صلاة تدنى لقائلها فى الأولى من النعمة والأمان أمله وتؤتية فى الأخرى
من الرحمة والرضوان غرضه ، وسلم تسليما كثيرا .

(١) نسبة الى «جوجر» بفتح الجيمين وراء بليدة بالقرب من ديباط انظر ياقوت ج ٢

وبعد ، فإن أولى مَنْ رُفِعَ بإكرامنا إلى رُتبةِ علائِه ، وأنتفع من مقامنا الشريف باختصاصِ خدمته وإخلاصِ ولاءه - مَنْ شَفَعَ من أياه بجمع أشتات العلوم في أبحاره وآنائه ، وأستودع ذخائر ملكنا المصونة فكان حفيظاً عليماً عند اقترابه منا وإدناؤه ، وصدع القلوب بإبداع وعظه وإبدائه ؛ وأتبع سبيل والده القويم ، في الشدة في الحق والتصميم ؛ وسلك طريقته التي هداه الله إليها بتوفيقه فأدرك غايته في ابتدائه ، وقنع بما آتاه الله تعالى فأثرت مكارمنا رفعة محلّه وتوسعة حباته ؛ وبرع في إتقان الفضائل التي آذنت بأصطفائه واجتباته ، ووقع عليه اختيارنا الذي نستخير الله تعالى له في إبرام كل أمرٍ وإمضائه ؛ وأجمع عليه رأينا الذي كم أصاب الصواب في تعيين العلماء الأنجاب فنص عليه الاستحقاق بإيجاب الترجيح واقتضائه .

وكان المجلس السامي الشرفي هو الذي قدمناه بعد أبيه لشهادة خزاننا الشريفة فشاهدنا من حسن سيره ما أبهج ، ونظمناه في سلك أولياء الملك فسلك من الخير أقوم منهج ، ثم أردنا الآن أن هلاله ينتقل إلى رتبة الكمال لما تدرّب وتدرّج ؛ وأعدنا له تام الإقبال حيث شرف دولتنا الأعلى - زاد الله تعالى تأييده - بذكره لدينا وبشكره عندنا يلهج - فاقضى حسن الرأي الشريف أن هذا النظر الجميل عنه لا يخرج ، وهذا الوقور الجليل لا يعدل به عن فرع منجب لأصل طيب أثمر الولاء والدعاء لآيأنا الشريفة وأنجع .

فلذلك رسم ... لا زالت الصدور بصدور أحكامه تتلج ، والأمر بمرور إنعامه تفضل على الحق الأبلج - أن يستقر ... فليطلق لسان كلمه بالإخلاص في حمد الخاص والعام من هذا الإكرام الذي بمطارفه تسربل وبعوارفه نتوج ، وليطلق سنان قلبه في تببيض المصاحف بذكر إنعام المقام الذي هو كالبحر ويفصح

عن حمده فهو بحمد الله لا يتلجج ، وليُحَقِّق ببيان حُكْمه ضَبْطَ الأَصْلِ وَالْحَصْمِ
وَالوَاصِلِ وَالْحَاصِلِ وَالْمُخَضَّرِ وَالْمُخْرَجِ ، وَلِيُنْفِقْ فِي أَوْلِيَانَا مِنْ عَوَائِدِ صِلَاتِ نِعْمَاتِنَا
الَّتِي تَقْبِضُهَا أَيْدَى مَلُوكِ الْمَدَائِنِ بِبَسْطِ وَمِنْ بَعْضِهَا صُدُورَ الْخَزَائِنِ تَخْرُجُ ؛ وَلِيَسْلُكُ
سُنَنَ أَبِيهِ الَّتِي بِهَا يَسْتَظْهِرُ وَيَفْتَخِرُ وَيَسْتَدِلُّ وَيَحْتَجُّ ، وَيَسْتَمْسِكُ بِسَبَبِهِ الْأَقْوَى
مِنَ الدِّيَانَةِ الَّتِي بَابُهَا مِنَ النِّجَاةِ فِي الدَّارَيْنِ غَيْرِ مُرْتَجٍّ ؛ وَتَرَكَ لَهُ تَفْصِيلَ الوَصَايَا لِأَنَّهُ
قَرِينٌ كَفِيلٌ مُلْكًا الْقَوَى الْأَمِينِ ذِي الْإِرْشَادِ وَالسَّدَادِ فَمَعَ مِرَاقِبَتِهِ فِي الْإِصْدَارِ
وَالْإِيرَادِ وَالتَّكْرَارِ وَالتَّعْدَادِ لَمْ يَحْتَجِّ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُجْعَلُ الطُّرُوسَ بِذِكْرِ تَقْدِيمِهِ تَحَبُّرًا
وَتُدْبِجُ ، وَالدَّرُوسَ تَنْشُرُ وَعُلُومَهُ تَعَطَّرُ وَنَتَائِجُ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الرابعة

(نظر البيوت والحاشية)

وقد تقدم أن موضوعها التحدث في كل ما يتحدث فيه أستاذ الدار، وتقدم
الكلام على ما يكتب في طرزة تقليد ناظرها .
وهذه نسخة توقيع بنظر البيوت والحاشية :

الحمد لله الذي عمّر البيوت بنوآله ، وكثّر فيها أصناف النعم بإفضاله ، وجعل فيها
الخير يتضاعف مع كل يوم بتجدده ومع كل شهر بإقباله .

نحمده على مديد ظلاله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
عبد صادق في مقالته ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي رحم الله العالمين بإرساله ،
وسقى الجيش من كفه بنبع زلاله ؛ وأوى إلى المدينة دار هجرته وانتقاله ، صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه الناصرين لهذا الدين في كل حاله ؛ وسلم تسليمًا .

وبعد ، فإن طراز الملك الشريف السيوت الكريمة : فمنها يتفجر ينبوع الرزق الجارى ، ومنها يضيء سقطة الزند الوارى ، ومنها تبسط الحيوانات ، وتمتد الأسمطة فى المهجات ، ومنها يقوم للسعد نصبات^(١) وأى نصبات ، ومنها تقسم ألوان الطيبات على مقترح الشروات ، وعماد أمرها على ناظر يقوم بتأصيلها وتفرعها ، وتخصبها وتنويعها ، وتكثير حاصلها ، وأستدعاء وإصلها ، وجمع كل ما فيه مرغوب ، وأدخار كل ما هو محبوب ، وتأليف القلوب على شكره وجل ما فيها عمل القلوب .

ولما كان فلان هو الرشيد فى فعله ، المأمون فى فضله ، الأمين فى عقده وحله ، المسدد فى الحال كله ، المعطى المباشرة حقها على ما ينبغى فى الشهر من مستمته .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر قليبا شرهذه الوظيفة الكريمة مستجلبا المنافع ، مشفقا بحسن سيرته المسامح ، طالعا من العفاف فى أبهى المطالع ، مستدعيا ما جرت العادة بأستدعائه من أصناف المتجر السعيد من أصناف متعدده ، وأنواع متصده . وليرح أقدار المصالح السعيدة من كل صنف على حده ، وليستجلب خواطر المعاملين بوفائهم وإجازهم كل عده ، والرواتب اليومية ليصرفها لمستحقها ، والبيوتات فليستد خلاها حتى لا يظهر نقص فيها ، ومرتببات الأدر الشريفة فلتكن نصب عينيه على ما يرضيها ، وما آخترناه لهذه الوظيفة إلا أنه أنسب من يليها ، والوصايا كثيرة وتقوى الله فلتكن أطيب ثمرات يحتنيها ، وأحسن منحات يحتليها ، وأزين زينة يحتليها ، وهو غنى عما تُشأفُفه [به] الأفلام من فيها ، والله تعالى يصون هممه ويعليها ، بتمه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

(١) فى القاموس النصبة بالضم السارية ولعله المراد .

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناصح . (٣) جمع دار على القلب .



وهذه نسخة توقيع بنظر البيوت :

الحمد لله الذى جدد لأولائنا ملابس السُعود، وشيّد لهم مباني العزّ وضاعف
 لِقَدْرهم الترقّي والسُعود، ووالى إلى أوليائهم سحابّ الفضل المستملة بالكرم والجود.
 نحمده على نِعْمه الضافية البرود، ومِنَّه الصافية الورود؛ ونشهد أن لا إله إلا الله
 وحده لا شريك له شهادة تُرغم بها أنف الجود، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله
 صاحب الحوض المورود واللواء المعمود؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين
 جاد كل منهم بماله ونفسه فى رضاه والجود بالنفيسين أقصى غاية الجود؛ صلاة
 دائمة الإقامة فى التهايم والتجود، مستمرة الإدامة ماتعاقب السحاب روضا بجود؛
 وسلم تسليما كثيرا

وبعد، فإن أولى من غدّ البيوت أهلة بوفود نظره، عامرة بسداده وجميل
 فكره، مشيدة بما يئديه من أوضاح التقرير وغرره - من سما همة وحسن سمتا،
 وسلك فى الأمانة طريقا لا عوج فيها ولا أمّتا؛ وحلّ فى الرتب خلاها، وتنقل فيها
 فما قالت له إيه إلا وقال الذى فارقتها آها؛ وكان فلان هو الذى استحقّ بكفائته
 حسن التنقل، واستوجب الصلة والعائد لما فيه من جميل التانى والتوصل - أقتضى
 حسن الرأى الشريف أن ننقله إلى رتب السعادة، وأن نخصّه كلّ حين من نعمنا
 بالحسنى وزياده. فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر...

فليضبط أصولها وفروعها، ومُفردّها ومجموعها، وليؤنس بجياطة أجهاده ربوعها؛
 وليكفلها بأمانة تضم أطرافها؛ ونزاهة تحلّى أعطافها؛ وكتابة تحضّر جليلها ودقيقها،

وَنَبَاهَةٌ تُؤَقِّ شُرُوطَهَا وَحُقُوقَهَا ؛ وَلِيَحْرُرَ وَارِدَهَا وَمَضْرُوفَهَا ، لِيُغْدُوَ مَشْكُورًا اِهْتَمَّ
مَوْضُوفَهَا ؛ وَلِيَلْحِظَ جَرَائِدَ حِسَابِهَا ، وَيَحْفَظَ مِنَ الزَّبِيعِ قَلَمَ كِتَابِهَا ؛ حَتَّى يَمِيَّ تَصْرُفَهُ
فِيهَا عَلَى الْأَوَائِلِ ، وَيُسْكِرَ تَعْرِفَهُ وَتَعْطُفَهُ عَلَى كُلِّ عَامِلٍ وَمُعَامِلٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَبْلُغُهُ
مِنَ الْخَيْرِ مَا هُوَ آمِلٌ ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الخامسة

(نظر خزائن السلاح)

وقد تقدم أن موضوعها التحدث فيما يستعمل ويتناع من أنواع السلاح الذي
يحمل للزردخاناه السلطانية . وقد جرت العادة أن يحمل ما يتحصل من ذلك في كل
سنة إلى الزردخاناه مرة واحدة . وقد تقدم ما يكتب في طرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخة توقيع بنظر خزائن السلاح من إنشاء المولى « شمس الدين بن
القيصري » كتب به « لفخر الدين » أخي جمال الدين ناظر الخاص ، وهي :

أما بعد حمد الله تعالى الذي ضاعف نحر المناصب ، بمتوليها ، ورفع قدر المراتب ،
بمن يكبرها بقدره العلي ويعلوها ، وأمد المقاب^(١) ، بنظر ذي المناقب الذي يزين برهف
حزمه أساحتهم ويحليها ، ويمضي بماضي عزمه كل فرند فريد ليسعر نار صليله
بنظره السعيد ويحليها ، جاعل أيا منا الشريفة تقدم لخدمها كل سرى تسرى به هممه
إلى العلياء ، وتنتخب لحسن نظرها من يعلو بكرم الذات وجمال الإخاء ، وتولى من
الأولياء من يعد للأعداء خزائن سلاح تبيدهم بها جيوشنا المؤيدة في فيافي البيداء ،
إذا دارت رحى الحرب الزبون وثارت وغى الغارة الشعواء . والشهادة له بالوحدانية

(١) جمع مقنب "كبير" وهم جماعة الخليل والفرسان .

التي أتسق بذكرها، في سماء الإخلاص، وأشرق بجرها، بضياء القرب والأختصاص،
وسما نجرها، بجلال الجمال فأصبح بحمد الله أخذًا في المزيد آمنًا من الانتقاص،
وعلا ذكرها، بما درعنا به من دروع التوحيد وأسبغ علينا منه كل سابقة دلاص.
والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي خصه الله بالتكريم والتعظيم، وختم به الرسل
الكرام بما منحه من الأصفاء والتقديم، وأوحى إليه في الكتاب الحكيم :
﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وعلى آله وصحبه الذين هم أشداء على الكفار رحماء بينهم،
وقرب قلوبهم لديه صلى الله عليه وأذهب بينهم - فإن من شيم أيامنا الشريفة أن
تبلغ أولياءها مراما، وترعى لأصفيائها ذماما، وتصطفى لولاية الرب من أضحى نغز
ولائه بساما، وتجرد لحسن النظر من يجرد بهمه حساما حساما، لا سيما من أقتنى
سنن أخيه - أجله الله - فيما يأتي ويذر، وأهتدى بهديه في كل ورد وصدر، وحذا
حدوه السيد الأثر، السعيد النظر، وأتبع رشده الساطع البليغ اللامع الغرر، وسار
سيره الذي نتارج به أرجاء الممالك حيث سار سر، إذ هو جمال الجود، جلال
الوجود، مقبل عثار الملهوف والمجهود، موئل التهايم والنجود، مستجلب الدعاء لنا
من الطائفين والعاكفين والركع السجود، ذو المآثر التي ذكرها أطر من الروض
المجود الموجد، والمناقب التي يساوى فيها الكواكب ويسامتها في السعود والصعود.

ولما كان المجلس العالى الفخرى قد أصبح نغره بأخوته ناميا، وقدره بأبوتة
ساميا، وأصبحت مفاخره به خالده، وجمع مزايا وسجايا جمعت له طارف السعد
وتالده - أقتضى رأينا الشريف أن نشد له بأخيه أزا، ونجد له في إصلاح السلاح
نظرا، ليكون لأخيه - أعزه الله تعالى - النظر على الخاص والعام، وبيده مقاليد
خزانتنا التي يشمل منها البرايا بصفوف الإنعام، وتدير خواصنا الشريفة وجيوشنا

(١) لعله «أن نشدد به لأخيه» .

المؤيَّده، وله النظرُ على أعمال لبوس، تقي من الجيوش البوس : البيض [ذات]
القوانيس ، واليَّلب المدار والسَّمير المداعيس ، والبيض المهنَّده .

فلذلك رُسم ... لا زال يجمع لأوليائه على آلائه شَملاً، ويرفع أقدار أهل الكرم
باستقرار النعم إذ كانوا لها أهلاً وبها أولى - أن يستقرَّ فلان في نظر خزائن السلاح
المنصورة على عادة من تقدمه وقاعدته ، وبمعلومه الشاهد به الديوان المعمور لهذه
المآثر التي بثها القلم ، والمفاخر التي آشهرت كالنار على العلم ، فليكشف ما بهذه الخزائن
من عُدَّة الحرب ، والآلات المَعَدَّة في الهيجاء للطعن والضرب ، ويشمر في تكثيرها
عن ساعد اجتهداه ، ويعزز مواد الإمداد بها بحسن نظره ويؤمن أعتاده ، ويستعمل
برسم جهاد الأعداء كلَّ نصيلٍ صقيل ، وصمصامٍ له في الهام صليل ، وفضيحة بيضاء
تبيض بها بين أيدينا الصَّحيفه ، ولبوس ترهبُ عدو الله وتضاعف تخويفه ، وزاعية
يرعب ، وسمهري يزق بلسان سينانه النفوس ويذهب ، وخرصان تكلم الأبطال بأسل
ألسنتها في الحروب ، وقواصل لها في سماء العجاج شروق وفي تحلي الكفار^(١)
غروب ، وبدن يقُد الأبدان ، ولأمة لم تُبار في تحصينها وتخييرها ولم تُدان ، وفضفاضة
على جنود الإسلام تفاض ، وسابغة تُسبغ على كل راجلٍ من أهل الإيمان ليَقضي
من أهل الشرك ما هو قاض .

وليحفظ ما يُنفق على هذا العدد من الضياع ، ويأت بما تأتي به الضياع على
أحسن الوجوه وأجمل الأوضاع ، وليضبط ما يُصرف عليها من الأموال ، ويعتمد
في نظرها ما يُحمد عاقبة أمره في سائر الأحوال ، ويتيمن في سائر أفعاله بما من كماله ،
ويسترشد بمرشده في أموره باليمن والرشد من خلال جماله ، ويسلك بحسن نظره
لهذه الخزائن ما يُنتظر به أن يفوق أنظار الأنظار ويرتقب ، ويعلم أن هذا أول

(١) التحلي الشعر أو سواده .

إقبالنا عليه (وأول الغيثِ قَطْرٌ ثم يَنْسِكُ) ؛ والله تعالى يجعل خزائنَ الإسلامِ بجمالِ
نخره آهله ، ويوردها مواردَ العزِّ الدائمِ ويصنِّفني من أقدار الأقدار لها مناهله ؛
والعلامةُ الشريفةُ أعلاه ، حجةً بمقتضاه .

الوظيفة السادسة

(استيفاء الصُّحبة)

وصاحبها يتحدَّثُ في كل ما يتحدَّثُ فيه ناظرُ الصُّحبةِ المقدمِ ذكره .

وهذه نسخةٌ توقيع من ذلك ، من إنشاء القاضى «ناصر الدين بن النشائى» وهى :

الحمد لله الذى زاد فخار أوليائنا رفعة المقدار ، وأفاد الصُّحبةَ الشريفةَ خير كافي
استوجب منّا بحملى خدمته جزيل الإيثار ، وجاد بالجود وأبتدأ السعود لمن حسن
فيه الاختيار وحمد الاختيار ، وأرتاد للنائب العلية كل "مستوف" للحاسن له حقوق
وفاء لا تضاع وقدم ولاء أجمل فيه الإيراد والإصدار .

نحمده على نعم أجزلت الآثار ، ونشكره على من أجملت المسار ، ونشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له شهادةً مُخلص يترشف ساح ثوابها الدار فى تلك الدار ؛
ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أيد الله به المؤمنين وأحمد نار الكفار ،
وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناء الإسلام بعد ما كاد ينهار ، وأسرى به إلى السبع
الطباق فطبق نبأ معجزاته الأرض وملاً الأقطار ، صلاةً باقيةً لا تزال أغصان
أجورها دانية القطوف زاكية الثمار ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ أجلَّ النعم ما علت ملائسها ، وأجمل المِنَّ ما غلت نفائسها ، وأكمل
المنح ما زكت فى رياض الإقبال غرائسها ، وأجزل العطايا ما جليت فى حلال الفخار

عرائسها ، وأولى الأولياء بتحويل ذلك لديه ، وتحويل هذه المواهب إليه ، وإسباغ أثواب الأمتان عليه ، وأجتنابه لرتب علت محلاً ، واختياره لمنصب يضح به جيده من عقود العناية محلياً - من شكرت أوصافه ، وأشهر عفاؤه ، وحسن مناً إسعاده وإسعافه ، وحمدت خلاله وماثره ، وحاز نخر نعتيه ونخر ذاته فلا غرو أن تعددت مفاخره ، وأسلفنا من خدمته ما أستوجب أن ينجي به نمار الإحسان ، وقدم بين أيدينا الشريفة من يمين تصرفه ما أنتج له مضاعفة الآلاء الحسان .

ولما كان فلان هو الذي تحلى من هذه الأوصاف بعقودها ، وتحلى في مطارف برودها ، وأثنت على خصاله ألسنة الأقلام ، وأثبتت جميل خلاله في صحف أوراقها وصحائف الأيام ، وحاز من الأمانة والزهادة كل ما يشكر به على الدوام ، وأمتاز بحسن الكتابة التي تفر النواظر وتسر الخواطر وتزرى بالروض البسام . ما باشر رتبة إلا وفق بها ، وحفظ أموالها وغلاها وضبط أمورها وكفى بها - أقتضى رأينا الشريف أن ننقله إلى درجات السعادة ، ونمنحه من إقبالنا الشريف زيادة الحسنى وحسن الزيادة ، ونخصه بوظيفة تُدنيه مناً قرباً لنكون قد أجملنا له الابتداء والإعاده .

ولذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال نخر أوليائه بمزيد آلائه سامياً ، وقدر أصفياه بمديد عطائه نامياً - أن يستقر في كذا .

فلينلق هذا الإحسان ، بيد الاستحقاق ، ولينقلد عقود الأمتان ، الذي طالما قد جوده الأعناق ، وليباشر ذلك مباشرة يسر خبرها ، ويسير خبرها ، ويشنف الأسماع تأثيرها وأثرها ، وليسلك فيها من السداد ، ما يؤكده حمده ، ومن حسن الاعتماد ، ما يؤيد سعده ، وليعتمد فيها من الأمانة ما هو المشهور من اعتماد ، ومن العفاف ما صح عنه نقل إسناده ، وليدبج المراسيم الشريفة بقلمه السعيد ، وليوشها بكتابه التي بها الحسن

مبدئى ومُعِيد، ويُضَبِّطُ جميعَ أموالِ الديوانِ المعمورِ وغِلالِهِ ، وسائرَ أموره وأحواله ،
 وليستوفِ بقامه على مُباشِرِيه وعُمَّاله ، وليُحِطَ عامًا بِخِراجِ بلادِهِ وأعمالِهِ ،
 وليسترفِ الحسابَ شامًا ومصرًا ، وليتصفَّحَ الرَّقاعَ بالممالكِ الشريفةِ المحروسةِ ليَحْوِيَ
 بِجميعِها خُبْرًا ، وليتعيَّنَ جُمْلها وتفصيلها ليكونَ بِمُخرَجِها أدربَ وبمردودِها أدرى ؛
 وليحصُرَ متحصّلها ومضروفها ، ومعجّلها وموقوفها ؛ حتى لا يخرجَ شَيْءٌ عن علمه ،
 ولتكنَ جُملةُ هذا الأمرِ محرّرةً في ذهنه ليجيبَ عنها عندَ السؤالِ بِتَحَقُّقِ فهمه ؛
 والوصايا كثيرةٌ وهو بها خبيرٌ عليمٌ ، حائرٌ منها أوفى وأوفرُ تقسيمٍ ، وملاكها تقوى
 الله تعالى فليجعلها عمُدته ، وليتخذها في كلِّ الأمورِ ذخيرته ؛ والله تعالى يُضاعفُ
 له من لَدُنّا إِحسانًا ، ويرفعُ له قدرًا وشانًا ، والأعمادُ على الخطِّ أعلاه .



وهذه وصية لمستوفى الصحبة أوردتها في "التعريف" وهي :

فهو المهيمن على الأقاليم ، والمؤمن على مصر والشام ، والمؤمل لما يكتب بخطه
 من كل ترتيب وإنعام ، والملازم لصُحبةِ سلطانه في كل سفر ومقام ؛ وهو مستوفى
 الصُحبة ، والمستوفى بالهمم على كل رتبة ؛ والمعول على تحريره ، والمعمول بتقريره ،
 والمرجوع في كل الأمور إلى تقديره ؛ به يتحرر كل كشف ، ويكف كل كف ،
 وبتزيله وإلا ما يكلل استخدام ولا صرف ؛ وهو المتصفّح عنّا لكل حساب ،
 والمتطلع لكل ما حضر وغاب ؛ والمناقش لأفلام الكُتاب ، والمحقق الذى إذا قال
 قال الذى عنده علم من الكتاب ؛ والمُظهِر للخبائيا ، والمُطِيع للنفايا ؛ والمتفق
 على صحّة ما عنده إذا حصل الخلاف ، ووصل الأمرُ فيه إلى التلاف ؛ وليُزِم
 الكُتاب بما يلزمهم من الأعمال ، ويحررها بمستنقر إطلاقه وضرائب رؤوس

المال ؛ وعمَلِ المكفّات وأن يكفّفوا عمَلَهَا ، وتقديرِ المسَاخات وليستَبِحَ خَلَهَا ؛
وليُزِمَهُمْ بتمييزِ قِيمِهَا بعض عن بعض ، وتفاوتِ ما بين [تسجيل] ^(١) الفُدن في كل بلد
بحسب ما تصلح له زراعةُ كلِّ أرض ؛ وبمستجدِّ الجرائد وما يقابل عليه ديوانُ
الإقطاع والأحباس ، وغير ذلك مما لا يحصل فيه التباس .

ومثلُك لا يُزود بالتعليم ، ولا يُنازع فكلُّ شيء يؤخذُ منه بالتسليم ؛ وما ثمَّ ما يُوصى
به ربُّ وظيفةٍ إلا وعنده ينزل علمه ، وفيه ينزه فهمه ؛ وملاك الكل تقوى الله
والأمانة فهما الجُنتان الواقيتان ، والجُنتان الباقيتان ؛ وقد عُرِفَ منهما بما يُفاد
منه عليه أسبغُ جَلاباب ، وأسبَلُ سِتْرِ يُصان به هو ومن يتخذهم من مُعينين ونُواب ؛
والله تعالى يبلغه من الرتب أقصاها ، ويُجرى قلبه الذي لا يدع في مالٍ مما لِكَا
الشريفة صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها .

الدرجة الثالثة

(من توابع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية)

ما يُكتب في قطع العادة : إما في المنصوري ، مفتتحاً بـ «أما بعد حمد الله»

أو على قَدْرِ المكتوب له في القطع الصغير ، مفتتحاً بـ «رسم بالأمر الشريف»

إن انحط قدره عن ذلك)

وفيها وظائف :

منها - كتابةُ الدرَج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة .

وهذه نسخة توقيع بكتابة الدرَج الشريف ، كُتِبَ به للقاضي تاج الدين ،

عبد الرحيم بن الصاحب نخر الدين بن أبي شاكر ، وهي :

رِسْم - لا زالت صدقائه الشريفة تُشَمَلُ نُجَبَاءَ الأبناء، ومبراتهُ الحسيمة تُجَزَلُ للولد البارِّ حُسْنُ الزيادة وزيادة الحُسْنِ، وهباتهُ الكريمة تُقْبَلُ بوجه الإحسان على فَرَعِ الأصل الأسمى وتُرْصَعُ تاجه بجوهر نخره الأسمى، وسمائه الوسيمة، تجلَّ شَدُّ أزر الوزارة الفخيمة، بأَكْفَأِ نجلِ ثنى الزمانُ عنانَ الرياسة إليه وعليه أثنى - أن يستقر فلان في كذا وكذا : لأنه رُبِّيَ في حَجْرِ الرياسة، وأجتنى من الروضِ المجدِّ الذى أعلى السعدُ غراسه، ونشأ من محلِّ السُودِّ والفَخار، وبزغ من بيتِ حَقَّتْ له رفعة الأقدار، وبسقُ غُصْنِ فرعه من أصلٍ ثابت، وسمما بدوحِ عِزِّ في مواطن المعالى نابت، وهى ندى قلمه بانتسابه إلى سرآة الكُتَّابِ فناهيك من كاتبٍ لأبى الخلل كاتِبٌ، تعترفُ الدولةُ لسلفه بسالفِ العهود، وتعترف من منهلِ تديريهم المورود، وتتحلَّى من تاجهم بأسمى العقود، وتسمو من نخر وزارتهم ووزارة نخرهم بما يملأ الوجود بالجود، وتختال من تصريف أفلامهم وأقلام تصريفهم فى روض التنفيذ المجدِّ فإن دُكرت ما تُرْجِدُه قَصَّرتُ عن إدراكها الجُدود، وإن سُكرت مناقبُ والده - أجله الله - ففَجَّرْها الباذخُ مشهود، وهو بلسانِ العامِّ والخاصِّ ممدوح مجود، وإلى معانى خطه تنهى درجاتُ الصعود والسعود، فلا غرَ ولهذا الفرعِ الناجب أن يتبع أصله، وأن يسلك فضائله وفضله، وأن يقفوا منهجه، ويجدو فى الكتابة طريقته المبهجة، ويأتى من البراعة بسننها القويم، ويبرز من البراعة وشى خطه الرقيم، وأن يحلَّى أجياد المهارق بجوهر تاجه النضيد النظيم، وأن تحلوا ألفاظه فى الإنشاء حين تتر على الأسماع مرور النسيم، [لا] سيمًا وقد ظهرت عليه من تحايل الراسة دلائل، وشُرعت له مناهل الأدب والفضائل، وحاز من حُسن النشأة ما سار بُشكره المثل، وحصل من الأشتغال على كثر المعرفة وأشتمل، وغدا جديرًا بكل مرتبةٍ سيئه، وكل رفعة هي بأعدادها مبنية .

فليأشِرْ ذلك مباشرةً يجعلها لباب المعالي مفتحة ، وللازيادة من كل خير سببا كلما
أبدى الدهر مساءً وصحى ؛ ولينقل في اتباع مهيع المجد عن والده وجدّه أبقاهما الله
تعالى ، وليدأب للتحلّي بأخلاقهما الحسنة أقوالاً وأفعالا ؛ وليبهِج الطُروسَ بوشى
قلمه ، ولينمق المكتاتِبَ ببلاغة كلمه ؛ وليتخذ الصّونَ شعاره ، والعفافَ دِناره ؛
والأمانةَ معتمده ، والنزاهةَ مستنده ؛ وضبطَ القولِ مادته ، وحفظَ اليدِ واللسانِ
جادته ؛ والوصاياَ كثيرة وملاكها التقوى وهى حليته الحقيقية ، وعقيدته العقلية
والمنطقية ؛ فليجعلها دأبه ، وليرض في إعلانه لها ربّه ؛ والله تعالى يعلي قدره وجدّه ،
ويحفظه وأباه وجدّه .



وهذه نسخة توقيع شريف بكتابة درج تجديداً ، وهى :

رِسْم ... - لا زال يمتحُ الأولياء ، بتجديد النعم إحساناً ، ويولى البغاء ، فضلاً
يعلى لهم رتبةً وشاناً ، ويبدى لهم فى ديوان إنشائه الشريف فضائل جمةً وبيانا -
أن يجدد هذا التوقيع الشريف باسم فلان تجديداً لأنوار الإحسان إليه ، وتأكيذاً
لمزاي الأمتنان لديه ، وتسديداً لمستنده الذى ألقاه وجه الإقبال إليه ؛ لما حازه من
فضيلة تامة ، وبلاغة ملأت بديع المعاني ومعاني البديع ألفاظه وكلامه ، وكتابة
أجرت فى حواشى الطروس بحقق التوقيعات أعلامه ، وأمانة بنت على الصّدق
والعفاف أقسامه ؛ ورياسة تأثل مجدها ، فبلغ مرآمه ، وأتصل سعدُها ، فلا يحشى
أنفصامه ، وبعد شأوها فهى السامية إلى رفع المنازل من غير سآمه . قد أنصف من
البراعة بجميل الأوصاف ، وظهر استحقاقه فهو بادٍ غير خاف ؛ وتروى من بحر البلاغة

حيثُ وردَ منهلها الصَّافُ ، وسلكَ طُرُقَ الخيرِ فتضاعفَ له الإسعادُ والإسعافُ ،
وأمتازَ بمزايَا التَّجَمُّلِ في أمورِهِ والعَفَافِ ، وأستحقَّ بذلكَ أنْ تُجَدِّدَ له فضلَ الألفه ،
وَنُوَكِّدَ له بكرمنا نِيلاً أعتاده وعرفه .

فليستَمِرَّ في ذلكَ استِمْراراً به أسبابُ الخيرِ مؤتلفه ، ووجوهُ الفضائلِ عن صنوفِ
الكتابَةِ غيرِ منصرفه ؛ وليُبدِ من البِلاغَةِ بيانها البديع ، ويُجَمِّلَ منزلَ العلياءِ الرفيع ؛
ويَسَلِّكُ مسالكه في الأمانه ، ويتَّقَى الله تعالى بملازمةِ المُراقبَةِ والذِّيانه ؛ والله تعالى
يُعَلِّي مكانه ، ويزيدُ في أقتناءِ الفضائلِ إمكانه ؛ والأعتادُ على العلامةِ الشريفةِ أعلاه ،
إن شاء الله تعالى .

قلت وربِّما كُتِبَ التوقيعُ لكاتبِ الدرِّجِ بزيادةِ معلوم ، فيحتاجُ الكاتبُ إلى أن
يأتى بعبارةٍ تجمعُ إلى ما تقدّمَ من براعةِ الاستملالِ ما يليها من موجبِ الاستحقاقِ ،
وسببِ الزيادةِ وترادفِ الإحسانِ .



وهذه نسخة توقيع بشهادة الخزانة ، كُتِبَ به لابن عبادة ، وهى :

أما بعد حمد الله الذى أفاضَ على الأولياءِ من خزائنِ فضله ، وأفاءَ لهم أوفرَ نصيبِ
من إحسانه المشكورِ فيه عدلُ قسَمِهِ وقسَمَ عدلِهِ ، وأهمى عليهم من سُحْبِ مواهبِهِ
ما يقصُرُ عنه الغمامُ فى وبله وطله ، وأسبغَ عليهم من جوده العميمِ ما يصفو لديهم المرحُ
فى وإرفِ ظلّه ؛ والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ نبيه ورسوله أشرفِ رُسُلِهِ ، وخاتمِ
من جاء من الأنبياءِ من قبله ، والهادى ببعثته الشريفةِ إلى طُرُقِ الحقِّ وسبيله ؛
وعلى آله وصحبه الذين تابَعُوهُ فى قوله وفعله ، وبايعُوهُ على المظاهرةِ فى نُصرةِ الدينِ

الْحَنِيفِ وَأَهْلِهِ ، وَجَمَعُوا هَمَمَهُمْ عَلَى الْإِتِّئَامِ كَلِمَةِ الْإِيمَانِ وَجَمَعَ شَمْلَهُ ، وَأَرْهَفَ كُلَّ
 مِنْهُمْ فِي نَصْرِهِ مَاضِي عَزْمِهِ وَنَصَلِهِ - فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ رُعِيَتْ لَهُ حَقُوقُ ذِمَامِهِ ، وَمُنِحَ
 أَجْرُ الْعَطَاءِ الَّذِي تَقْضَى الْأَقْدَارُ بِدَوَامِهِ ، وَلَوْحِظَ بَعِينَ الْإِقْبَالَ مَا أَسْلَفَهُ مِنْ حُسْنِ
 الطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَإِلِمَامِهِ - مَنْ جَدَّ فِي الْخِدْمَةِ فَأُضْحِيَ الْجَدُّ لَهُ خَادِمًا ، وَدَاوَمَ عَلَى
 الْمُنَاصِحَةِ فَعَدَا سَعْدُهُ دَائِمًا ؛ وَأَخَذَ مِنْ كُلِّ فَضِيلٍ بِزِمَامِهِ ، وَمَتَّ بِمَالِهِ عَلَى الدَّوْلَةِ
 الشَّرِيفَةِ مِنْ حُرْمَتِهِ وَذِمَامِهِ ؛ وَسَلَكَ فِي أَدَاءِ الْأَمَانَةِ السَّنَنَ الْقَوِيمَ ، وَجَعَلَ عَلَى خَزَائِنِ
 الْأَرْضِ بِمَا تَلَا لِسَانُ فَضْلِهِ : ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ ؛ وَتَمَسَّكَ مِنَ الْإِخْلَاصِ بِأَقْوَى
 الْأَسْبَابِ ، وَجَعَلَتْ لَهُ التَّقْوَى مَحَلًّا يُدْخِلُ عَلَيْهِ مَلَائِكَةَ الْقَبُولِ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، وَزَيَّنَ
 سَمَاءَ الْمَعَالِي بِكَوَاكِبِ مَجْدِهِ فَمَا تَشَوَّفُ إِلَيْهَا طَرْفٌ مُتَطَاوِلٍ إِلَّا وَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ .

ولما كان فلان هو الذي غدا حسن مناقبه إلى شكره مُرَشِدًا ، وإلى ذكره
 بالجميل مُسْعِدًا ، وألهج لسان القلم في وصفه مُنْشِدًا ؛ وَأَخْتَصَّ مِنْ هَذِهِ الْحَمَامِدِ بِأَوْفَرِهَا
 قِسْمًا ، وَطَلَعَ فِي أَفْقِ هَذَا الشِّئَاءِ الْجَمِيلِ نَجْمًا ، فَلِذَلِكَ رَسَمَ

ومنها - استيفاء الدولة .

وموضوعها التحدُّثُ فِي كُلِّ مَا تَحَدَّثُ فِيهِ الْوَزِيرُ وَنَاطِرُ الدَّوْلَةِ ، وَضَبْطُ الْأَمْوَالِ
 الدِّيوانِيَّةِ ، وَكِتَابَةُ الْحُسْبَانَاتِ ، وَكُلُّ مَا يَجْرِي مَجْرَى ذَلِكَ . وَقَدْ جَرَتْ الْعَادَةُ أَنْ
 يَكُونَ فِيهَا مَسْتَوْفِيَانُ .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة :

أما بعد حمد الله الذي صانَ الْأَمْوَالِ بِالْأَفْلامِ الْحَرَّرَهُ ، وَالدَّفَاتِرِ الْمُسْطَرَّهُ ،
 وَالْحُسْبَانَاتِ الْمَصْدَرَهُ ، وَالْجَوَامِعِ الْمَسِيرَهُ ، وَالتَّقِيظَ الَّذِي أَسْتَخْرِجَ الْبَوَاقِي الْمُنْكَسِرَهُ ،

والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أزال ظلام الظلم وتورّه، ومحا الجور وغيره،
وأيد الحق وأظهره، وعلى آله البرّره، وصحبه خصوصا العشرة المبشرة - فإنّ للدولة
الشريفة من الأقالام ضابطا، ولها من الحساب نظاما أصبح عليها سياجا وحائطا،
يصون الأموال أن تكون بأيدى الخائنين نهبي، ويحرز المطلقات بعدا وقربا،
وقلم الاستيفاء هو الذى إذا طاشت أقلام الكُتاب كان فى رأسها لحاما، وإذا
خصم المباشرون بالمصروف قبل السائع الصحيح وردّ ما كان سقيا وخرّج ما لم
يكن تماما .

ولما كان فلان هو الذى فى الراسة كبير معروف، وفى السعادة حميد موصوف،
وفى قلمه تصحيح كل مصروف، وله فى الدولة آثار مرضية تشكرها الأقالام
والسيوف، ما نظر فى حساب، إلا أزال عنه ما به يعاب، ولا رأى فدالك،
إلا وأصح فيها المسالك، ولا عرض باقى، إلا أستخرج ما يتعين أستخراجه بقلمه
الراقى، وفهمه الواقى، فلذلك رسم أن يستقر

فلباشر هذه الوظيفة بتحريره وتحريره، وتميزه وتثمينه، وتوفيره وتكثيره، وإيراده
وتصديره، وتسهيله وتيسيره، وإزالة تعسيره، وإذا أمسك دفاتره، أظهر ما ثره،
وإذا نسيت الجمل أبدى تذاكره، والعمدة على شطبه فى الحسابات الحاضره،
فلا يخرج من عنده شىء بغير ثبوت فإنّ التواقيع الشريفة والمراسيم الشريفة هى
كالأمثال سائره، ولا يتخذ المعين، إلا الأمين، ولا يستعين، إلا بمن هو مأمون
اليمين، والوصايا كثيرة وهو غنى عن التبيين، فليتق الله رب العالمين، وليستجلب
لنا الأدعية من الفقراء الصالحين، فإن صدقاتنا الشريفة تنعم عليهم بمرتبات
وأرزاق، ونعم وأطلاق، فليسهل عليهم الصعب فى كل باب وإطلاق، والله تعالى
يُمده بالإرفاق، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

قلت : وقد يكتب لوظيفة استيفاء الدولة مفتتحا بـ «رسم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك باستيفاء الدولة ، كُتِبَ به لعَلَم الدين بن ريشة ،

وهي :

رُسِمَ بالأمر الشريف - لا بَرِحَتْ أَيامه الشريفة تُرْفَعُ لَدَوِي الكفاءة مِنْ إحصانها
عَلَمًا ، وَتُرْجَعُ مصالِحَ الدولة إِلَى مَنْ أَحْسَنَ فِيهَا خِطَابًا وَأَعْمَلَ فِي مُهِمَّاتِهَا قَلَمًا ،
وَتَخْتَارُ مَنْ دَابَّ فِي تَكْمِيلِ أَدْوَاتِهِ حَتَّى صَارَ عَلَى أَنْظَارِهِ مُتَقَدِّمًا - أَنْ يَرْتَبَّ فُلَانِ عِلْمًا
بِكِفَايَتِهِ الَّتِي وَصَحَّتْ ، وَدِرَايَتِهِ الَّتِي فَاقَتْ مُنَاطِرَهَا وَرَبَّحَتْ ، وَأَمَانَتِهِ الَّتِي حَصَلَتْ
النَّمَاءَ وَأَرْبَحَتْ ، وَهَمَّتِهِ الَّتِي مَيَّزَتْ الْأَمْوَالَ بِإِحْرَازِهَا فَعَلَى السَّدَادِ خُتِمَتْ وَبِالتَّحَرِّيِّ
أَفْتِتِحَتْ .

فليُشارَ هذه الوظيفة التي تحتاج إليه باحتراز مثله ، والرُّتبة التي يتعين على مُباشِرِها
إِيصَالُ كُلِّ حَقٍّ إِلَى أَهْلِهِ ، فَقَدْ أَرْجَعْنَا ضَبْطَهَا وَتَحْرِيرَهَا إِلَيْهِ ، وَأَعْتَمَدْنَا فِي تَيْسِيرِ
أَمْوَالِهَا وَسَدِّ أَحْوَالِهَا عَلَيْهِ ، فَهُوَ جَدِيرٌ بِبُلُوغِ الْقَصْدِ فِيمَا قَرَّرْنَاهُ لَدَيْهِ ، وَحَرَرْنَاهُ
بِقَلَمِهِ وَيَدَيْهِ .

فليُبَسِّطْ فِي مِصَالِحِ الدِّيوانِ المَعْمُورِ وَأَمْوَالِهِ قَلَمَهُ ، وَلِيَعْمَلْ بِمَا هُوَ عَالِمٌ مِنْ تَبْيِينِ
حَقَائِقِ أَحْوَالِ وَظِيفَتِهِ وَيُجْلِصُ فِيهِ قَوْلَهُ وَكَلِمَهُ ، وَلِيُصِنِ الْأَمْوَالَ ، وَيَتَفَقَّدَ مَا يَلِزَمُ
الْعُمَّالَ ، وَيُحِثَّ عَلَى حَمُولِ بَيْتِ الْمَالِ ؛ وَلِيَسْتَرْفِعَ الحُسْبَانَاتِ مِنْ جِهَاتِهَا عَلَى الْعَادَةِ ،
وَلِيَسْتَوْدِعَ دِفَاتِرَهَا وَجَرَائِدَهَا مِنْ يَتَحَقَّقُ تَحَرُّزَهُ وَسَدَادَهُ ، وَلِيَتَّخِذَ مُعِينِيهِ مِنْ أَرْبَابِ
الحِذْقِ والدَّرَايَةِ وَالإِطْلَاعِ عَلَى كُلِّ نَقْصٍ وَزِيَادَةٍ ، وَإِبْدَاءٍ وَإِعَادَةٍ ؛ وَلَهُ مِنْ نَفْسِهِ
مَا لَا يَحْتَاجُ مَعَهُ إِلَى زِيَادَةِ الوصايا وَتَكْثِيرِهَا ، وَمِنْ أَلْمَعِيَّتِهِ مَا يُدْرِكُ بِهِ الْفِصْلَ
فِي جَلِيلِ الْأُمُورِ وَحَقِيرِهَا ؛ فَإِنَّهُ قَدْ تَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِ أَهْلِ الْأَدَبِ ، وَشَارَكَ فِي جَلِيلِ

الخطب وسد ما إليه عزمه أنتدب ، والله تعالى يبلغه من الجود غاية الأرب ،
ويعينه على صالح العمل وأتهاز القرب ، والأعتماد ...

ومنها - أستيفاء الخاص . وصاحبها فى الخاص كمتوفى الدولة فى ديوان الوزارة .

وهذه نسخة توقيع بأستيفاء الخاص لمن لقبه «أمين الدين» وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت أيامه الشريفة تُقدم بمهماتنا أمينا ، وتقدم
فى خدمتها من أضحى أعلى شمالا ويمينا ، وتولى الرتب السنية من جعل التحرز لقلمه
مصاحبا ولكلمه معيننا - أن يستقر فلان فى كذا : لما عرف من رأسته التى
ميزته ، وأمانته التى جمعت الرفع فأحرزته ، وضبطه الذى ترقى به فى المراتب وتقل ،
وإدراكه الذى يصون به غوامض المصالح ويعقل ، ولما سلف له من خدمة ملك
فيها السداد ، ومباشرة علم بها ما هو متصف به من حسن الاعتماد .

فلباشر هذه الوظيفة التى وليها ، وليشهر من همته فيها ما يرفع مكانته ويعلمها ،
وليدم المراقبة لمصالح ديوان الخاص الشريف فى كل قول وعمل ، وليسارع إلى
ما يفيد المباح ويبلغ من الضبط والتحرز غاية الأمل ، وليصن الأموال من ضياعها ،
ويحافظ على سلوك طرائق الحق وأتباعها ، وليسترفح الحسابات من أربابها ،
ويتفقد محرراتها التى هو أعلم وأدرى بها ، ويتخذ من معينيه من أضحى معرفته
للدقائق جامعها ، ويحتفل بمتحصلات أموال الخاص بعزمته التى أضحى لمكانته
رافعه ، لا سيما نعر الإسكندرية التى قد أصبحت جهاتها لطلب أرقامه متابعة
طائعه ، وليلزم كل عامل بتحرير ما يجب عليه وما تنبى فيه المراجعة ، فإنما قد أقمناه
لذلك مستوفيا ، وليتصفح أموره الحليسة والحقيرة مستوفيا مستقيا ، وليتقى الله

الذى يبلغه من زيادة منحنى الأمل ، ويعينه على صالح العمل ، والله تعالى يمنحه من الخير ما يُجِّح مسعاه ويزهه عن الزبغ والزلل ؛ والاعتماد



وهذه نسخة توقيع فى المعنى لمن لقبه «بدر الدين» وهى :

رسم بالامر الشريف - لازل يطالع لذوى الكفاية من إحسانه فى سماء الإقبال بدرا ، ويرفع لمن أم الأبواب لأوليائه من ذوى الرأسة قدرا ، ويشفع لمن شكرت معرفته بفتح القصد فأنشرح له باليمن الجمّة صدرا - أن يستقر فلان فى كذا : لكفايته التى خطب بسببها إلى مقره ، ودرايته التى أستوجب بها أن نطق لسان القلم بذكره ، ونزاهته التى أجمعت بها أمثاله على شكره ، وأمانته التى تستدعى الحق فى حلو الأمر ومره ، وديانته التى هى أصل فى كل أمره ، وصيانته التى يعتمدها فى سره وجهره ، ومشارفته المصالح بعين يقظته التى يلوح لها وجه الصواب فيقف عند حده وقدره .

فليباشر هذه الوظيفة التى أسلفها حسن الاعتاد ، وليوفها من معهود يقظته من الاجتهاد ، وليحقق حسن ظنّ المباشرين فى رغبتهم فيه فى الإنصاف فى الإرفاق والإرفاد ، وليعمر جهات الأموال بجميل الإقتصاد ، ويُنجز الأحوال على سبيل السداد ، وليتبع منهاج الخير فى كل ما يأتى من إصدار وإيراد ، فقد رجع ضبط هذه الجهة إليه ، وأعتد فى تحريرها عليه ؛ فليصن الأموال ، ويتفقد ما تحسن به العقبى والمآل ؛ وليتجرّ فى جميع ما هو لازم له أن يكون على الحق الواضح ، والسّن القويم فإنه المتجرّ الرابح والمآب الناجح ؛ وتقوى الله تعالى فهى عمدة كل عبد صالح ،

(١) لعله من أوليائه ذوى الخ .

(٢) لعله «ورغبتهم فيه من الانصاف» الخ تأمل .

والوصايا كثيرة مبيّنة تُعنى عن إفصاح الشارح؛ والله تعالى يُلهمه الطريقَ السديدةَ
ويُرشده، ويعينه بالتوفيق ويُنجّده، إن شاء الله تعالى .

ومنها - استيفاء البيوت والحاشية .

وهذه نسخة توقيع بذلك ، كُتِبَ بها لعَلَمَ الدين «شاكر» عوضًا عن تاج الدين
ابن الغزولى فى الأيام الأشرفية «شعبان بن حسين» وهى :

رِسْمٌ بالأمر الشريف - لازلّت صدقاته الشريفة تُمنح الأُكفَاءَ من إحسانها
نِعْمًا، ونُضَاعِفَ لهم من عَطَائِهَا كَرَمًا ، وأَيَّامُهُ الشريفة تُعمُّ البيوتَ الكريمةَ بكافٍ
قد نَشَرَتْ له الأمانةَ فى دولته الأشرفيةَ علمًا، ومَوَاهِبُهُ تُقدِّمُ للوظائفِ مَنْ أُضْحَى
شَاكِرًا لله تعالى وتَبَسُّطُ له فى دواوين أعزّ الأنصار قَلَمًا - أن يستقرّ المجلسُ السامى
القاضى ، فلأنّ الدين فى كذا وكذا : لأمانته الموفوره ، ومعرفته المشهوره ، ومحاسنه
المذكوره ، وسيرته المشكوره ، وكتابه التى أضحت فى صفحات الحُسابات
مُسْطُورَه ، وديانته التى جدّدت بهجته وسروره ، وخبرته بمنازل البيوت المعموره ؛
وقدِمَ هجرته فى الوظائف التى أوجبت نُقلته إلى أجلها ، وصدارته التى رفعتَه إلى
أرفع محلّها ؛ كمّ له فى دواوين أعزّ الأنصار من أقلام منقّده ، وآراءٍ مُسدّده ؛ ونظيرٍ
أصلح به كلّ فاسد ، وكتبَ به كلّ حاسد ؛ وضبط لأصول الأموال ، وتنبّع للصالح
فى البكر والآصال .

فليباشر هذه الوظيفةَ المباركةَ التى هو أخبرُ بمباشرتها ، وأعلمُ بأحوال البيوت
الكريمة وعمارتها ؛ وليُظهِرْ فى الحاشية السعيدة ما أثره الحسنه ، ونزاهته التى نطقَت
بشكرها الألسنه ، وليُبيدْ فى مباشرته من كل شىءٍ أحسنه ؛ وليسلُك طرائق الأمانه ،
وليُقف آثار ذوى العفاف والصيانه ؛ وليلازم مباشرة أعزّ ولّى فى المساء والصباح ،

ولا يشغله شاغلٌ عن مصالح مُمهدِّ الدول من [هو] لسلطاننا الأشرف أميرِ سلاح ،
واللهُ تعالى يفتح له من الخير أبوابَ النجاح . والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ،
إن شاء الله تعالى .

قلت : ومما يخطر في سلك توابع أرباب الوظائف السلطانية وظائفُ
دواوين الأسماء الخاصية ، فإنه ربما كُتِبَ عن السلطان التوقيعُ لبعض أرباب
وظائف دواوينهم كما يكتَب في الوظائف السلطانية .



وهذه نسخة توقيع كريم بنظر دواوين بعض الأسماء ، وهى :

أمَّا بعد حمد الله الذى هدى إلى الملة المحمدية من أسرار الإيمان فى قلبه ونواه، وضمَّ
إلى الأمة [الاسلامية] من أضمير الإخلاص فأظهره الله فى متقلبه ومثواه، وجمع لولى
الدولة ومخلصها الفرج والفرح لأنه من توكل عليه كفاه ، والشهادة بالوحدانية التى
تبلغ قائلها من رضاه مناه، وتجعل جناته لمن أسرها جناته مستقره ومأواه، والصلاة
والسلام على سيدنا محمد الذى قصم عداه ، وقصم عُرا من عاداه من أهل الشرك
وعداه . وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهداه، وأستجدوا جداه ، ولبوا نداءه ، وأموا
نداه ، صلاة تجزى لمصلحتها ثوابه ، وتُجلب ما به ، وتُحمد عقباه - فإن أولى من رفع له
الكرم محلاً ، وقلدته النعم عقداً محلاً ، وأعيد إلى رتبة الأصطفاء ، وفوض إليه ديوان
أعز الأخصاء ، وصرف قلمه فى مهامه ، وحصلت هممه على جميع أقسامه ، وعدقت
مصالحه بتدبيره ، ومناجحه بتأيسله وتأثيره ، ومتحصلاته بتمييزه وتثمينه ، وأحواله
وأمواله : هذه بحسن تصرفه وهذه بحسن تقريره - من دخل فى دين الله الفؤيم ،
وأجتهاه وهده إلى الصراط المستقيم ، وكساه الإسلام حلة شرفه ، وبوَّاه الإيمان

مَبَانِي غُرْفِهِ ، وَنَوَى الْأَسْتِقَامَةَ فِي إِقَامَتِهِ وَمُنْصَرَفِهِ ؛ وَالتَّحَفَ بِبِلَابِ الْإِسْلَامِ
وَأَرْتَدَى ، وَتَلَبَّسَ بِالْإِيمَانِ فَصَدَّ عَنْهُ الْأَذَى وَرَدَّ الرَّدَى ، وَغَدَا مِنْ أَصْحَابِ الصَّرَاطِ
السَّوِيِّ وَمِنْ أَهْتَدَى ؛ مَعَ كِفَايَةٍ أُوجِبَتْ لَهُ التَّقْرِيْبَ وَالتَّقْدِيمَ ، وَجَدَّدَتْ لَهُ مَلَاسَ
التَّكْبِيرِ وَالتَّكْرِيمِ ؛ وَكِتَابَةٌ فَاقَتْ بِهَا أَمْثَالَهُ ، وَعَلَامَاتُهُ ، وَبَلَّغَتْهُ مِنَ الْعَلِيَاءِ مَرَامَهُ وَمَنَالَهُ ؛
وَمَعْرِفَةٌ بِفَنُونِ الْحِسَابِ ، وَخِبْرَةٌ أَعْتَرَفَ لَهَا بِهَا الْكُتَّابُ وَالْحُسَّابُ ، وَأُوجِبَتْ لَهُ مِنَ
الْإِقْبَالِ مَا لَمْ يَكُنْ فِي حِسَابِ .

ولما كان مجلس القاضي فلان : هو الذى أخذ القلم فى مدحه ، والكرم فى منحه ؛
أقتضى رأينا الشريف أن نُقبِلَ على إقباله على الدين بوجه الإقبال ، وأن نبُلِّغه
فى أيماننا الشريفة ما كان يرجوه من الآمال . فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازل
يرفع من كان للدولة وليا ، ويضع الشيء محله بتقديم من أضحى عرفانه جليا^(١) .

فليأشِرْ ذلك مباشرةً ببلِّغه أملا من الاعتلاء ، وتؤلِّه مراما من الاعتناء ، وتؤمِّنه
من طوارق الزمن وحوادث الاعتداء ، عالما بأن دولتنا الفلانية المنصورة تُجَازِي
عن الحسناتِ بأمثالها ، وأن أيماننا الفلانية المشهورة المشكورة تبلغ أوليائها غاية
آمالها ؛ وأننا أجزلنا برّه ، وأجملنا ذكركه ، وأجرينا على لسان القلم حمده وشكركه ؛
فليعتَمِدْ فى مباشرته الأمانة المبرّه ، والنزاهة التى رفعت ماساءه ووضعت ماسره ؛
وليستمر فى مصالح هذا الديوان السعيد عن ساعد اجتهاده ، ويعتَمِدْ فى أموره ما أُلِفَ
من سداده ، ويتحرر من السعادة ما كان قبل القول من سعادته ؛ وليتق الله حق تقاته ،
ويجعل التقوى حلية لأوقاته ، وحلة على سائر تصرفاته ؛ وليسر بتقواه سيرا خبرا
وخبرا ، ويذر جورا وجبرا ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴾ .

(١) أن يستقر فى ديوان كذا الخ وحذفه اختصارا للكثابة وكثيرا ما يفعل مثل ذلك .

قلت : وغالب ما يعتنى به في تواقع أرباب الأقسام المفتحة : «رسم» الدعاء
المصدّر به التواقع [و] أشتماله على براعة الاستهلال .
وهذه جملة أدعية من ذلك يُنسخ على منوالها :

أثير الدين — لازال فلك فضله أثيرا ، وطالع سعده مئيرا ، وهبوب
ريج مبراته للخيرات مئيرا .

أمين الدين — لازال يتنحى للخدم الشريفة خير أمين ، ويصطفى للقيام
بالمصالح أنهض معين ، ويحتجى لأهم المهمات من هو غير متهم في المناجحة وغير ظنين .

بدر الدين — لازال يولى المناصب الدينية من سلك في النزاهة مسلكا
جميلا ، ويولى الفضل الجزيل من أضحى لإشراق بده على آثار حفظه دليلا .

برهان الدين — لازالت أوامره الشريفة ترفع للعلماء شانا ، وتقيم على
استحقاقهم دليلا واضحا وبرهانا .

تاج الدين — لازالت صدقاته الشريفة ترفع تاج الفضائل على الرؤوس ،
وبره الشامل يذكي النفوس ويزكي الفروس ، وتوارد إفضاله يوشى المهاريق ويدبج
الطروس .

تقي الدين — لازالت صدقاته الشريفة تقدم كل تسقى ، وترجح
ميزان من هو بالفضائل أملى ملي ، وترفع قدر من إذا سئل عن محله في الرياسة
قيل علي .

جمال الدين — لازال جمال جميله للنفوس رائقا ، وإفضاله المتوافر لكل
إفضال سابقا .

جلال الدين - لازالت صدقاته الشريفة تزيد جلال ذوى الفضل
جلالا، وإحسانه المتواتر يوسع في البر لأولى الاستحقاق مجالا، وبره المتتابع تقصر
عنه خطأ كل بر فينادى: هكذا هكذا وإلا فلا لا .

رضى الدين - لازال رضى السجايا، ظاهر المزايا، مسترسل ديم
العطايا .

زين الدين - لازال نواله الشريف زينا لنائه، وسؤاله المحقق إجابته
شرفا لسائله، وقاصد بابيه الشريف يوم بالخير في عاجل الأمر وأجله .

سراج الدين - لازالت عنايته الشريفة تخص أولياءها بجزيل المواب،
وتبلغهم من صدقاتها العامة غاية الآمال وأقصى المطالب، وتوقد لهم من أنوار
سعادتها سراجا يغلب على نور الكواكب .

سرى الدين - لازالت صدقاته الشريفة تصطنى من أرباب الحكاية
من يجيد المعانى فلا يضيع لفظا إلا جعل تحته معنى سرييا، وترضى من فؤسان
البراعة فى ميدان البراعة من يرتقى ببلاغته مكانا عليا، وتجتبي من أهل الإجادة من
تميز بالإفادة فلا يزال كلامه لأجساد الطروس حليا .

شرف الدين - لازالت صدقاته الشريفة تضع الشىء فى محله، وترجع
الفضل إلى مستحقه وأهله، وتختار للناصب من ظهر شرفه بين قوله وفعله .

شمس الدين - لازالت صدقاته الشريفة تطلع فى سماء المعالى من ذوى
الرياسة شمسا، ونعمه الجسيمة تثبت فى روض الإحسان غرسا، ومراسمه العالية
تنقل إلى رتب الرياسة من شدت كفه على عدد الأمانى خمسا .

شهاب الدين — لا زالت صدقاته الشريفة تُطَلَع في أفقها شهابا، وتُحْمَل من جزيل المواهب للأمانى سحابا، وتضع الشيء في محله وتزيد الأمور انتظاما والدعاء استجابا .

صدر الدين — لا زالت آراؤه الشريفة تستجيد من ذوى الفضائل من جاوز الجوزاء نظما وفاق النثرة نثرا، وتستفيد^(١) به المناصب من الأمانى من تقصر عن مجده الكواكب رفعة وقدرا، وتستزيد منه المراتب من فاق سبحان وائل وساد الأوائل فأضحى في مجالس العلماء صدرا .

صلاح الدين — لا زال أمره الشريف يقدم من يفيد ويحيد، فيكون لكل أمر صلاحا، وكرمه الطويل المديد، يشمل من ذوى الفضائل من فاق «سبحان» وائل فصاحة وفاق «حاتم» الأوائل سماحا، ورأيه الرشيد السديد، يختار من إذا أنتضى البراعة غلب رأيه سيوفا وطال قامه رماحا .

ضياء الدين — لا زالت آراؤه الجميلة، تختار من ذوى الفضائل الجميلة من تزداد به المناصب ضياء، ونعمه الجزيلة، تعم كل بارع إذا أدلهمت الخطوب كان فوه لها جلاء، وعوارفه المستطيلة، تشمل كل فاضل بذل في الخدمة جهده وتكسوه هبة وبهاء .

علم الدين — لا زال جزيل إحسانه، أوضح من نار على علم، ومزيد أمتنانه، يشمل أرباب السيف والقلم، وسحب بنانه تسح فلا تسح بجزيل الكرم .

علاء الدين — لا زال علاء دولته يصطفى ذوى الفضائل، ويختار من الفصحاء من يفوت الأوان كما أضحى يفوت الأوائل، ويقدم من هو في تدبير البراعة كعلي بن هلال وفي حسن البراعة كسبحان وائل .

(١) لعله « وتستفيد للناسب ... وتستزيد في المراتب الخ » . تأمل .

عز الدين — لا زالت صدقاته الشريفة تزيد ذوى الأقالام، من جزيل الإنعام، فنيلهم عزًا، وتستجيد من كتابها الأعلام، من خص بجواهر الكلام، فكل حُسن إلى كلامه يعزى، وتستفيد من نجباء الأيام، كل بارع كأن كلامه زهر الكيام، فلو خاطب سبحان لأورثه قُصورا وعجزا .

عماد الدين — لا زالت آراؤه الشريفة تُنخذ من نجباء الكتاب، عمادا، وتختار من ذوى الفضائل فى الخطاب، من تجد لكلامه حسنا وسدادا، وتقدم من أهل الفضل فى السؤال والجواب، من لا تعدم فى كل مقاصده رشادا .

عضد الدين — لا زالت صدقاته الشريفة تجعل من إنعامها، لخدماتها، عضدا، وتلحظ بعين إكرامها، وحسن احترامها، من طال فى الفضل مدى، وتزين مطالع أيامها، بشموس أعلامها، فلا ترى مثلهم أحدا .

غرس الدين — لا زالت صدقاته الشريفة تُثبت فى روض الإحسان، من أرباب البيان، غرسا، وتجتني من كيام اللسان، أزهرة النكت الحسان، وتزين بها طرسا، ونفيض من مواهب البنان، ما يشهد لها بجزيل الامتنان، فيطيب كل أمل نفسا .

غياث الدين — لا زالت صدقاته الشريفة تُبدي لكل أمل غياثا، وتُضفي ظلها على من أستجار بها وأستغاثا، وتنطق ألسن أقالامها، بمواهب إنعامها، فتبدل طريقها وتراثها .

فتح الدين — لا زالت صدقاته الشريفة تُتخير من ذوى الأقالام، من يفتح أبواب الكلام، فتحا، وتهب جزيل الإنعام، لمن يستحقه من الكتاب الأعلام،

فِينَالُ بَدَلِكْ شَاءَ وَرِيحًا؛ وَتَقَرَّبَ بِيَدِ الْعِنَايَةِ وَالْإِكْرَامِ، مِنْ ذَوِي الرِّيَاسَةِ وَالْإِحْتِرَامِ،
مَنْ هُنَّ عَلَى الْبَلْغَاءِ قَدْحًا .

نُحْرُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ أَرَاؤُهُ الشَّرِيفَةُ تُنَصَّبُ فِي الْمَنَاصِبِ، مِنْ يَزِيدِ
بِحُسْنِ مَبَاشَرَتِهِ نُحْرُهَا، وَتُمَطَّى ظُهُورَ الْمَرَاتِبِ، مِنْ إِذَا أَظْلَمَتِ الْأَيَّامُ لِعَدَمِ فَاضِلِ
ظُهُورِ بَفْضِيلَتِهِ بِحُرِّهَا .

قُطْبُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الشَّرِيفَةُ تُدِيرُ عَلَى قُطْبِ الْبَلَاغَةِ مِنْ
أَرْبَابِ الرِّيَاحَةِ نُجُومًا، وَتُشِيرُ بِعِنَايَتِهَا إِلَى مَنْ حَازَ مِنَ الْفَضْلِ فُنُونًا وَأَحْيَا مِنَ الْآدَابِ
رُسُومًا، وَتُنِيرُ بِدُورِ سَعْدِهَا لِمَنْ لَمْ يَزَلْ قَلَمُهُ لِأَسْرَارِ الْمُلْكِ كَتُومًا .

كَرِيمُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الشَّرِيفَةُ تَشْمَلُ مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ
مَنْ عُدَّ فِي فَضْلِهِ وَأَصْلِهِ كَرِيمًا، فَتُقَدِّمُ مَنْ لَالَهُ فِي الْبَلَاغَةِ مِمَّا نِلَّ فَلَا يَزَالُ بِكُلِّ
فَنٍّ عَلِيمًا، وَتُنَصَّبُ فِي الْمَنَاصِبِ مَنْ فَاتَ قَيْسَ الْأَوَائِلِ رَأْيًا وَفَاقَ قُوسًا بِحَدِيثِ
بَلَاغَتِهِ قَدِيمًا .

كَمَالُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ سَعَادَتُهُ الْبَاهِرَةُ، تُطْلِعُ فِي سَمَاءِ الْعُلْيَاءِ مَنْ فَاقَ
الْبُدُورَ كَمَالًا، وَأَوَامِرُهُ الْقَاهِرَةُ، تُقَدِّمُ أَسْنَى الْبَلْغَاءِ جَلَالًا؛ وَأَسْمَى صَدَقَاتِهِ الْوَافِيَةَ،
تَعْمُ مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ مَنْ زَادَ الْمَنَاصِبَ بِحُسْنِ مَبَاشَرَتِهِ مَهَابَةً وَجَمَالًا .

مَجْدُ الدِّينِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الشَّرِيفَةُ تَمْلِكُ أَعْنََةَ الْأَقْلَامِ، مِنْ تَرَاهَا
مَجْدًا، وَتُودِعُ بِجِيدِ الْأَيَّامِ، مِنْ جَوَاهِرِ الْفَضْلَاءِ عَقْدًا، وَتَشْمَلُ بِأَيْدِيهَا الْكِرَامَ،
مَنْ إِذَا جُمِعَ الْبَلْغَاءُ كَانَ بَيْنَهُمْ فَرْدًا .

محي الدين - لازالت أوامره الشريفه تشمل من البلغاء من شهر بفضل الخطاب، وإذا ماتت الفضائل يحياها، وغيث جوده الهامى يفيض فيض السحاب،^(١) فيبادر العقاة ويحيها، وعنايته نعم ذوى الألباب، فتمهد رتب العز وتهيها .

موفق الدين - لازالت صدقاته الشريفه تطلع كل هلال من أهتدى به كان موفقا، وتملك اليراع من يزرى بابل هلال أنى كتب: رقاعا ومحققا، وتفيض لراجها أفضل نوال من شبهه بالغيث كان محققا .

ناصر الدين - لزال يقرب من أضحى لأهل الكلام، بمهرفات الأرقام، ناصرًا، ويهب طويل الإنعام، لمن باعه مديد في النثر والنظام، فما برح فضله وإفرا، وينتخب من غدا شريعا لعادات الكرام، مضارعا لصفات الكتاب الأعلام، وأصبح في البيان نادرا .

نجم الدين - لازالت أوامره الشريفه تطلع في أفق السعاده، من ذوى السيادة، نجما، وتعم بجزيل الإفاده، من عرف بالفضل والإجاده، وفاق أقرانه نثرا ونظما، وتسمح من عنايتها بالإراده، لمن هو أهل الحسنى وزياده، فتجزل له من كرمها قسما .

نور الدين - لازالت صدقاته الشريفه نعم بالنوال، من هو في البراعة متسع المجال، فيزيد الكلام نورا، وحسناته تشمل ذوى الآمال، بما يجمد في البدء والمآل، فتملا القلوب سرورا، ومبراته تصل أولى الكمال، وتنتخب أخير العمال، فلا برح أنفذ الملوك أمورا .

(١) فى الاصل «الوهام» ويظهر أنه تحريف .

نظام الدين - لازل يتخير من كان في الناس مجيدا، وفي البيان مجيدا،
 فحسن لفظه نظاما، ويهب من بره مزيدا، لمن كان في الخدمة مزيدا، فلا ينقض
 للنصيحة ذمما، ويبدل كرم مفيدا، لمن يراه في الفضل مبدئا ومعيدا، فجاز فخارا
 وطاب كلاما .

همام الدين - لازل يرتضى من هو في فؤسان اليراعة أنهض همام،
 ويقتضى وعد كرمه لمن نهض في الرياسة نهوض أهتام،^(١) وينتضى عضد ذهنه
 فيصيب مفصل كل كلام .

ولي الدين - لازل يجلي أجياد المناصب من ذوى البلاغه، بمن يحسن
 في الكلام الصياغة، فينظمه حليا، ويجلي كرب المراتب من فؤسان اليراعة، بمن
 راح فضله ولفظه جليا، ويولى المناصب من غدا في البيان وافر البضاعة، فاتخذته
 الأقلام وليا .

(١) لعل الصواب معضد كمنبر : تأمل .

الضرب الرابع

(من الوظائف التي يُكتب فيها بالديار المصرية مَشِيخَةُ الخَوَانِقِ ،
وكلُّها يُكتب بها تَوَاقِيعُ)

وهي على طبقات :

الطبقة الأولى

(ما يكتب في قطع النصف بـ «المجلس العالى» مفتتحاً بـ «الحمد لله»)

وهو مَشِيخَةُ الشُّيُوخِ خَاصَّةً)

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَشِيخَةَ الشُّيُوخِ كَانَتْ فِيمَا تَقَدَّمَ تُطَلَّقُ عَلَى مَشِيخَةِ الْخَانِقَاهِ الصَّلَاحِيَّةِ ،
«سعيد السعداء» فيكتب فيها بذلك . ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن بنى السلطان
الملك الناصر «محمد بن قلاوون» الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، استقرت مشيخة
الشيوخ على من يكون شيخاً بها ، والأمر على ذلك إلى الآن .

وهذه نسخة توقيع بمشيخة الشُّيُوخِ بالخانقاه الصَّلَاحِيَّةِ «سعيد السعداء»
بالقاهرة المحروسة بابم الشيخ شمس الدين بن النَّخْجَوَانِيّ ، من إنشاء المقرّ الشهابيّ
آبن فضل الله العمرى ، وهي :

الحمد لله مُرَقِّ أَوْلِيَاءِهِ ، وَمُوَفِّ أَصْفِيَاءِهِ ، وَمُلَقِّ كَلِمَةِ الْإِخْلَاصِ لِمَنْ تَلَقَّى سِرَّهَا
المصون عن أنبيائه .

نحمده على مُصَافَاةِ أَهْلِ صَفَائِهِ ، وَمُوَافَاةِ نَعْمَانَا لِمَنْ تَمَسَّكَ بِعُهُودِ وَفَائِهِ ، وَتَسَلَّكَ
فَأَصْبَحَتْ رِجَالٌ كَالْجَوَاهِرِ لَا تَنْتَظِمُ فِي سِلْكِهِ وَلَا تُعَدُّ مِنْ أَكْفَائِهِ ، وَطَاعَ لِلدِّينِ شِمْسًا
بِيَاهِي الشَّمْسِ بَضِيَاءَهُ ، وَيَبَاهِلُ الْبَدْرَ التَّمَامَ فَيَتَغَيَّرُ تَارَةً مِنْ نَجْمِهِ وَتَارَةً مِنْ حَيَاتِهِ .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نَعُدُّهَا ذُنْحًا لِلِقَائِهِ ، ونفرا
بَاقِيًا بِبِقَائِهِ ، رَاقِيًا فِي الدَّرَجَاتِ الْعُلَى بِارْتِقَائِهِ .

ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله مبلغ أنبائه ، ومسوخ الزلفى لأحبابه ؛
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان من أهل ولآئه ، ومن عرف به الله
لمَّا تفكَّر في آلائه ، صلاة يؤمل دوامها من نعمائه ، ويؤمن عليها سُكَّانُ أرضه
وسمائه ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى ما استقام به [الشخص على] الطريقة ، وأستدام به الرجوع
إلى الحقيقة ، وأستام به يطمن إلى خالقه لا إلى الخلية ؛ وحفظ أفضه بنير تستضيء به
النيرات ، ونوءٍ نتقسم به الغائم المطرات - طائفة أهل الصلاح ، ومن معهم من
إخوان أهل الصفاء الصوفية داعي الفلاح ؛ ومن تضمهم من الواردين إليهم إلى
جنّاح ، والصادرين عنهم بنجاح ؛ ومن تفتح له فيهم أبواب السماء ، وتمنح بنفسهم
عامة الخلق ملايس النعماء ؛ ومن يكشف بتجددهم جنح كل ظلام ، ويكشف
بتوجههم عارضة كل بدر تمام ؛ ويستشفى ببركاتهم من داء كل سقام ، ويستسقى
بدعائهم إذا قصر النيل وقص جناحه الغمام . وهم أولياء الله وأحباؤه ، وبهم يتعلل
كل لبيب هم سقامه وهم أطباؤه ؛ أنحلهم الحب حتى عادوا كالأرواح ، وأشغلهم
الحب بصوت كل حمام شجاءهم لما غنى وبرز بهم لما ناح ؛ وأطربهم كل سمع
فوجدوا بكل شيء شجنا ، وعدبهم الهوى فاستعدبوا أن لا يلائموا وسنا ؛ ومثل فرط
الكلف لهم الأحباب فما رأوا لهم حالا إلا حسنا ، وأثقل تكرار الذكري قلوبهم
فما عدوا غربة غربة ولا وطنا وطنا ؛ قربت المحبة لهم في ذات الله كل متباعد ،
وألقت أشتاتهم فاختلفت الأسماء والمعنى واحد .

والخاتناه الصلاحية بالقاهرة المحروسة المعروفة بـ «سعيد السعداء» - قدس الله روح واقفها - هي قُطْبُ نُجُومِهِم السائر، ومرا كُرُ أُنْلا كِهِم الدائر، وإليها نخطُ رِحَالَ سَفَارِهِم، وعليها تُحَطُّ رِحَالَ أَسْفَارِهِم؛ تَضْطَرِبُ فِرْقُهُم فِي الْبِلَادِ وَإِلَيْهَا مَرَجُهُمْ، وعليها مجتمعتهم، وفيها مواضع خلواتهم، ومطالع جلاوتهم، ومكان صلاتهم، وإمكان صلواتهم؛ ومشرق شمسهم، ومؤنق غروبهم؛ ومنهاج طريقتهم، ومِعْرَاجُ حَقِيقَتِهِمْ؛ مأوى هذه الطائفة الطائفة في شرق البلاد وغربها، وبعدها وقربها، وعجمها وعربها، ومن رفح سُجُوفِهَا أَوْ هُوَ مَحْجُوبٌ بِحُجُبِهَا؛ والمؤهلة والعراب، وأهل الإغتراب؛ هي قَسِيحُهُم الرِّحِبُ، وَصَفِيحُهُم القَرِيبُ؛ ومثالهم إذا اجتمعوا في الملا الأعلى زمرا، وأخترقوا المهامة وما جازوا بيداء ولا جابوا مقفرا؛ وبلغوا الغاية وما أزعج ركبهم حاد في ليل سري، ووصلوا وما فارقوا فرشهم الممهدة إلى ما وراء الورى؛ شرط كل خاتناه أن لا تغلق في وجه من ينزل فيها بابا، ولا تطيل جهاتها الممنعة له حجبا، ولا تعجل مقاماتها المرفعة له قبل (١)



وهذه نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ، وهي مشيخة الخاتناه الناصرية بسرياقوس، مما كتب بذلك للشيخ نظام الدين الأصفهاني، من إنشاء السيد الشريف شمس الدين:

الطيرة

توقيع شريف بأن يفوض إلى المجلس العالى، الشيخى، النظامى، إسحق ابن الشيخ المرحوم جلال الدين عاصم، ابن الشيخ المرحوم سعد الدين محمد الأصفهاني

(١) بياض في الأصل وبه علامة التوقف .

القُرشيُّ الشافعيّ - أدام الله النفع ببركته - مشيخةُ الخانقاهِ السعيدةِ الناصريةِ
بِسيرِ ياقُوسٍ - قدس الله رُوحَ واقِفها - ومشيخةُ الشيوخِ بالديارِ المصريةِ والبِلادِ
الشاميةِ والحليّةِ ، والفُتوحاتِ الساحليّةِ ، وسائرِ الممالكِ الإسلاميّةِ المحروسةِ ، على
عادتهِ في ذلكِ وقاعدتهِ ومعلُومِهِ ؛ وأن يكونَ ما يخصُّ بيتَ المالِ من ميراثِ كلِّ
من يتوفّى من الصوفيّةِ بالخانقاهِ بِسيرِ ياقُوسٍ للشيخِ نظامِ الدينِ المشارِ إليه ، بحيثِ
لا يكونُ لأمينِ الحكمِ ولا لِدِيوانِ الموارِيثِ معه في ذلكِ حديثٌ ، وتكونُ أمورُ
الخانقاهِ المذكورةِ فيما يتعلّقُ بالمشيخةِ وأحوالِ الصوفيّةِ راجعةً للشيخِ نظامِ الدينِ
المشارِ إليه ، ولا يكونُ لأحدٍ من الحُكّامِ ولا من جهةِ الحِسبةِ ولا القضاةِ في ذلكِ
حديثٌ معه ، ولا يشهدُ أحدٌ من الصوفيّةِ ولا ينتسبُ إلا بإذنه ، على جاريِ عادتهِ
في ذلكِ على ما شُرحَ فيه ، وأوله :

الحمدُ لله على نِعَمِهِ التي أَلقَتْ للصالحينِ من عبادِهِ نِظامًا ، وأسْتأنَفَتْ للصّالحينِ
إلى مُرادِهِ إحراما ، وصَرَفَتْ أوامِرنا بالعدْلِ والإِحسانِ لمن فَوَّضَ أمُورَهُ إلى رَبِّهِ
فأنجَحَ له من مَزِيدِ التأييدِ مُرادًا ومَرامًا ، وعَطَقَتْ بأوْجِهِ إقباليها الحِسانِ على من
هو ممتزّه عن دُنياه ، متوجّهٌ إلى أحراره ، يُمضي نهارَهُ صيامًا وليلَهُ قيامًا .

نحمده على أن جعلنا نزعنا للأولياءِ ذمّامًا ، ونسعى بالنعماءِ إليهم ابتداءً وإتمامًا ؛
ونشهد أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً ترفعُ للخالصينِ في عِلِّيِّينَ مَقامًا ،
وتدفعُ بأعمالِ الصّدقِ عن المتوكّلينِ عليه بأسًا وأسقامًا ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبدهُ
ورسولُهُ الذي جعله للتّقينِ إمامًا ، وفضّله على النبيّينِ إجلالًا وإعظامًا ، وكلّهُ
بالسّماتِ المُكرّماتِ ، والصفّاتِ المشرفاتِ ، مما لا يُضاهى ولا يُسامى ؛ صَلَّى اللهُ عليه
وعلى آله الذين شَرُفُوا إضافةً إلى نسبهِ الشريفِ وأنضمامًا ؛ ورضى اللهُ عن أصحابِهِ

الذين عرفوا الحق فبدأوا فى إقامته أجهاداً وأهتماً ، صلاةً تُجملُ أفتتاحاً واختتاماً ،
وُجُزلاً إرباحاً وإنعاماً ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فشيئاً بعد شيئاً ، لمن له يُجِن الأعراف اتصالاً وبُجْسُن
الأخلاقِ أُنصافاً ، ومن كرمنا الفضلُ والإسعاف ، لمن لاخفاءً فى تعينه لتصدير
التقديم وتكرير التكريم ولا خلاف ، ومن سبجايانا الجميلة أن لا تُضاع حقوق من
هو فى الزهادة والعبودية إمام ، لألسنة الأيام ، بحلله الحسنة إقراراً وأعتراف ، ولمزايانا
جميلُ المحافظة ، وجميلُ الملاحظة ، لمن توكل على الله حق التوكل فله أنتصار بالله
تعالى وأنتصاف : لأنه العريقُ الأسلاف ، الرفيقُ بالضعاف ، الحقيقُ بتوفير التوفيق
الذى له بركاته المباركة أكتنفاً ، المطبقُ النهوض بأعباء الرياسة : لأن للقلوب
على محبته أئتلاف ، السبوقُ إلى غايات الفسوات الذى تحف به فى بلوغ آمام
الإسعاد من الله تعالى أظاف ، والصدوقُ النية مع الله تعالى فكلم والى لنعائه الزيادة
والإستئناف .

وكان المجلس العالى الشيخى ، الإمامى ، الكبيرى ، العالمى ، العاملى ، الأوحدي ،
القدوى ، الورعى ، الزاهدى ، الناسكى ، الخاشعى ، السالكى ، الأصيلى ، العريق ،
القوامى ، العالمى ، النظامى : جمال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء فى العالمين ،
أوحد الفضلاء ، قدوة المشايخ ، مربى السالكين ، كثر الطالبين ، موضح الطريقه ،
مبين الحقيقه ، شيخُ شيوخ العارفين ، بركة الملوك والسلاطين ، ولى أمير المؤمنين ،
إسحق ابن الشيخ المرحوم فلان - أدام الله النفع ببركاته - هو المفوضُ أموره إلى
ربه ، المعرض عن الدنيا بباطنه وقلبه ، المتعوض بما عند الله من فضله فما زال
الإيثار من شأنه ودأبه ، إلى إخوانه وصحبه ، فهو من الذين يُطعمون الطعام على

حبه ، ويلهمون من العمل المبرور إلى أقربه من الله وأحبه ، ويقومون الظلام مع أولياء الله المخلصين وحزبه ، ويستديمون الإنعام من الله تعالى بالإحسان إلى عباده ففرعهم لأصلهم في صنعهم مثليه ، ويستسلمون لأحكام الله تعالى وكلهم شاكر لربه ، على حلّ القضاء ومرة صابر على سهل الأمر وصعبه ، سائر بالصدق في شرق الوجود وعربه ، مثابر على الحق في عجم الخلق وعربه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لزال يوصل الحقوق إلى مستحقيها ، ويحمل الوثوق بمن تتجمل المراتب الدينية منه بترقيها - أن يفوض إلى المشار إليه مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس - قدس الله روح واقفيها - ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية ، والبلاد الشامية والحلبية ، والفُتوحات الساحلية ، وسائر الممالك الإسلامية المحروسة ، على عادته في ذلك وقاعدته ومعلومه ، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية بالخانقاه المذكورة للمشار إليه ، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولا لديوان المواريث معه في ذلك حديث ، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه ، ولا يكون لأحد من الحكام ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه ، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا بإذنه على العادة في ذلك ، ويكون ذلك معدوقاً بنظره .

فليعد إليها عودة حميدا ، وليفد من الإصلاح ما لم يزل مفيدا ، وليعتصم بالله تعالى مولاه فيما تولاه وقد آتاه الله تثنيتا وتسديدا ، وليشهد بها من القوم المباركين من [كان] عوده قبل الصوم عيدا ، وهو أعزه الله تعالى المسعود المباشره ، المحمود

المُعاشِرَة، المشهودُ منه أَعْتَادُ الأَجْتِهَادِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؛ المَعْهُودُ مِنْهُ النِّفْعُ التَّامُّ، فِي قُرَّاءِ مَضْرُوعِ الشَّامِ، فَكَمْ أَثْرُ الخَيْرِ وَأَثْرُهُ، وَكَثْرَةُ البرِّ وَوَاتَرُهُ، وَيَسَّرُ السَّيْرَ الحَسَنَ الَّذِي لَمْ يَبْرَحْ لِسَانُ الإِجْمَاعِ شَاكِرَهُ .

وَنَحْنُ نُوصِيهِ عَمَلًا بِمَا أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِهِ رَسُولُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كِتَابِهِ المُبِينِ، بِقَوْلِهِ وَهُوَ أَصْدَقُ القَائِلِينَ : ﴿ وَذَكَرْنَا فِي الدِّكْرِ التَّنْفِيعَ المُؤْمِنِينَ ﴾ وَإِنْ كُنَّا نَتَحَقَّقُ مَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ العِلْمِ وَالدِّينِ، وَالحُكْمِ الرِّصِينِ، وَالزُّهْدِ وَالعُورَعِ الَّذِينَ نَحْنُ مِنْهُمَا عَلِيٌّ بَيِّنَةٌ وَيَقِينٌ، بِاتِّبَاعِ شُرُوطِ الوَاقِفِينَ، وَالإِمْتِنَاعِ بِالعَوَارِفِ أَوْلِيَاءِ اللهِ العَارِفِينَ : فَإِنَّهُ مَا زَالَ حَيْثُ حُلٌّ فِي جَمِيعِ الآفَاقِ، وَاصِلًا لِلأَرْزَاقِ، مُوَاصِلًا بِالأَشْوَاقِ، شَامِلًا بِالإِرْفَاقِ، عَامِلًا بِالحَقِّ فِي إِيْصَالِ الحُقُوقِ لِدَوَى الأَسْتَحْقَاقِ . وَنَأْمُرُهُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَلِيٌّ تَسْكِيمَةً أَتَّفَاقِ، وَفِي مُتَابَعَتِهِ أَجْتِمَاعِ وَأَتَّسَاقِ؛ فَإِنَّهُ شَيْخُ الطَّوَائِفِ، وَإِمَامٌ تُقْتَبَسُ مِنْهُ الطَّائِفُ، وَتُلْتَمَسُ مِنْهُ الهُدَايَةُ فِي المَوَاطِنِ وَالمَوَاقِفِ؛ وَاللهُ تَعَالَى يَمْتَنِعُ بِبِرْكَاتِهِ الأُمَّةَ، وَيَسْمَعُ مِنْهُ فِي الخَلَوَاتِ لَنَا الدَّعَوَاتِ الَّتِي تَكُونُ لِأَوْرَادِهِ المَقْبُولَةِ مَفْتِيحَةً وَمُتَمِّمَةً، وَيَصِلُهُ بِعِنَايَتِهِ الَّتِي تَقِيدُ الهَمَّ وَتُوَيْدُ الهِمَّةَ، وَيَجْعَلُهُ حَيْثُ كَانَ لِلْفُقَرَاءِ نِعْمَةً وَيَبِينُ النَّاسَ رَحِمَهُ؛ وَالعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ أَعْلَاهُ، حُجَّةٌ بِمُقْتَضَاهُ .

الضربُ الخامس

(من أرباب الوظائف بالديار المصرية بالحضرة - أربابُ الوظائف
العادية، وكلها توافقُ)

وهي على طبقات :

الطبقة الأولى

(مَنْ يُكْتَبُ لَهُ فِي قَطْعِ النِّصْفِ بِالْمَجْلِسِ الْعَالِي ، وَهُوَ رِئِيسُ الْأَطْبَاءِ
الْمُتَحَدِّثُ عَلَيْهِمْ فِي الْإِذْنِ فِي التَّطَبُّبِ وَالْعِلَاجِ وَالْمَنْعِ مِنْ ذَلِكَ
وَمَا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى)

وهذه نسخة توقيع برياسة الطبِّ ، وهي :

الحمدُ لله مُؤْتِي الْحِكْمَةِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَمُعْطِي أَمَانَةِ الْأَرْوَاحِ مَنْ تَرَقَّى
فِي حِفْظِهَا إِلَى رُتْبَةِ اجْتِهَادِهِ ؛ وَجَاعِلِ عِلْمِ الْأَبْدَانِ أَحَدَ قِسْمِي الْعِلْمِ الْمَطْلُوقِ فِي حَالِي
اجْتِمَاعِهِ وَأَنْفِرَادِهِ ، وَمَوْفِّقِ مَنْ جَعَلَ نُصْحَ خَلْقِ اللَّهِ فِيهِ سَبَبًا لِسَعَادَةِ دُنْيَاهُ وَذَخِيرَةً
صَالِحَةً لِيَوْمِ مَعَادِهِ ، وَمُبَلِّغِ مَنْ كَانَ [دَائِبًا] فِي إِعَانَةِ الْبَرِيَّةِ عَلَى طَاعَةِ رَبِّهَا بِدَوَامِ الصَّحَّةِ
غَايَةَ مَرَامِهِ وَأَقْصَى مُرَادِهِ ، وَرَافِعِ رُتْبَةِ مَنْ دَلَّ اخْتِيَارُهُ وَاخْتِبَارُهُ عَلَى وَفُورِ عِلْمِهِ
وُنُجْحِ عِلَاجِهِ وَإِصَابَةِ رَأْيِهِ وَسَدَادِهِ .

نمَّحده عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي خَصَّتْ بِنِعْمِنَا مِنْ كُلِّ فِي نَوْعِهِ وَفَضْلِهِ وَحَسْنِ فِي عِلْمِهِ
وَعَمَلِهِ قَوْلُهُ وَفِعْلُهُ ، وَجَمَعَ مِنْ أَمَانَةِ وَظِيْفَتِهِ وَمَعْرِفَتِهَا مَا إِذَا جَلَسَ فِي أَسْنَى مَنَاصِبِهَا
قِيلَ : هَذَا أَهْلُهُ .

(١) في الأصل "ومقلب يداوم الصحة" الخ تأمل .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُسْرَقُ البصائر، بأضوائها،
 وتُفْرَقُ الضمائر، ^(١) باخلاصها من أدوائها، وتُعَدِّقُ بيمينها أنواع التوفيق فتتأرجح
 رياض الإيمان بين رواها وإروائها. ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنارت
 ملتته، فلم تخف على ذى نظرها، وعلت أدلته، فلم ينلها من فى باع رويته قصر،
 وبهرت معجزاته فلو حاولت الأنفاس حصرها أفناها العي والحصر؛ صلى الله عليه
 وعلى آله وصحبه الذين كانوا لأدواء القلوب علاجا، ولسلسيل الإيمان مزاجا،
 وللبصائر السائرة فى دجى الشبهات سراجا؛ صلاة دائمة الإقامة، متصلة الدوام إلى
 يوم القيامة؛ وسلم تسليما كثيرا.

وبعد: فإن صناعة الطب علم موضوعها حفظ الأبدان النفسه، ومقصودها
 إعانة الطبيعة على حماية الأعضاء الرئيسه؛ ومدارها الأعم، على معرفة العوارض
 وأسبابها، ومدركها الأتم، الوقوع على الصواب فى معرفة الجسوم وأوصائها؛ وحينئذ
 تتفاوت رتب أهلها عند تشعب مداركها، واختلاف مسالكها؛ وتشابه عيالها،
 والتباس صوابها بجلالها؛ إذ لا يميز ذلك حق تمييزه إلا من طال فى العلم بتجره،
 وحسن فى رتب هذا الفن تصدده؛ وطابق بين ثقله وعلاجه، وعرف حقيقة كل
 مركب من الأدوية ومفرد بعينه وأسمه وصفته ومزاجه؛ وتكررت عليه الوقائع
 فعرفها دربة وأحكمها تقلا، ولقب بشرعة التقوى إذ كان الإقدام على النفوس
 قبل تحقق الداء والدواء مذموما شرعا وعقلا؛ ولذلك تحتاج إلى رئيس ينعم
 فى مصالحتها نظره، ويجهل فى منافعها وردده وصدره؛ ويعتبر أحوال أهلها بمعيار
 فضله، ويلزم الداخل فيها بلوغ الحد الذى لا بد منه بين أرباب هذا الشأن

(١) من أفرق المريض والمحموم برأ.

وأهله ؛ ويعرف لأكابر هذا الفن قدر ما منحهم الله من علم وعمل ، وينسط رجاء المبتدئ إذا كمل نفسه حتى لا يكون له فيها بغير كمال الاستحقاق طمع ولا أمل .

ولما كان المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الحكيم ، فلان الدين : هو الذى بلغ من العلم غاية مراده ، وأحتوى من هذا الشأن على ما جمع به رتب الفضلين فيه على أفرادها ؛ فلو عاصره «الرئيس» لأعتمد عليه فى كليات قانونه ، أو «الراى» لعلم أن «حاويه» من بعض فنونه ؛ قد حلب هذا العلم أشطره ، وأكمل قراءة هذا الفن رموزه وأسطره ؛ وحل أسراره الغامضة ، وأرتوى من شخب رموزه بأنواء لم يشم غير فكره بروقها الوامضة ؛ وأسلف من خدمة أبوابنا العالية سفرا وحضرا ما أقتضى له من ربه شكره ، وتقاضى له من زيد التنبيه على قدره والتنويه بذكره ؛ وحمد فيه الفريدان : صحة نقله وإصابته فكره ، وعلم أنه جامع علوم هذه الصناعة فلا يشد منها شىء عن خاطره ولا يغيب منها نقل عن ذكره .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لزال شهاب فضله لامعا ، وسحاب بره هامعا - أن يكون فلان متولى رياسة الأطباء بالديار المصرية على عادة من تقدمه .

فليباشر هذه الرياسة نظرا فى مصالحها ، ومطاعا من شهاب فضله ما يزين أفقها زينة السماء بمصابيحها ، متفقدًا أحوال مباشريها ، متممًا أحوال المستقل بأعبائها والداخل فيها ؛ سالكا فى ذلك سبيل من تقدمه من رؤسائها ، حاكما فى أمورها بما جرت به العادة المستقرّة بين أكابرها وعلمائها ؛ مطارحا من قدمت هجرته فيها بما يقتضى له مراجعة أصوله ، ملزما من ظهر قصوره فيها بالتدرب إلى حد لا يقع منه بدون حصوله ؛ مجيبا فى الإذن لمن أظهر الاستحقاق صدق ما آدعاه ، قابلا فى الثبوت من مشايخ هذه الصناعة من لا يشهد إلا بما علمه ولا يخبر من التدرب

إلا بما رآه ووعاه ، متحرّياً في الثبوت لدينه ، آذناً بعد ذلك في التصرف إن ترقى علمه باستحقاقه إلى رتبة تعيينه ؛ وليعط هذه الوظيفة حقها من تقديم المبرزين في علمها ، وتكريم من منحه الله درجتى نفاها وفهمها ، وتعليم من ليس عليه من أدواتها المعتبرة غير وسمها وأسمها ، ومنع من يتطرق من الطرقية إلى معالجه وهو عارٍ من رداها ، وكف يد من يتمجج على النفوس فيما عمّض من أدواتها قبل تحقق دوائها ، واعتبار التقوى فيمن يتصدى لهذه الرظيفة فإنها أحد أركانها ، واختيار الأمانة فيمن يصلح للإطلاع على الأعضاء التي لولا الضرورة المبيحة حرم الوقوف على مكانها ؛ وليكن في ذلك جميعه مجانباً للهوى ، ناوياً نفع الناس فإنما لأمرى مانوى ؛ والله تعالى يحقق له الأمل ، ويسدده في القول والعمل ؛ بمنه وكرمه ! .

قلت : وربما أفتتح توقيعها بـ «أما بعد حمد الله» .

وهذه نسخة توقيع برياسة الطب ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، كتبت بها لـ «شهاب الدين الحكيم» في المحرم سنة تسع وسبعائة ، وهي :

أما بعد حمد الله حاسم أدواء القلوب بطائف حكمته ، وقاسم أنواع العلوم بين من كل استعدادهم لقبول ما اقتضته حكمة قسّمته ؛ وجاعل لباس العافية من نعمه التي هي بعد الإيمان أفضل ما أفاض على العبد من برّه وأسبغ عليه من نعمته ، والمنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين قل بفضل الله وبرحمته ؛ ومقرب مانأى من الفضائل على من أسرى إليها على مَطاء عزمه وسرى لتحصيلها على جواد همته ، ومأنهم آرائنا بتفويض أمانة الأرواح إلى من أنفق في خدمة الطبيعة أيام عمره فكان بلوغ الغاية في علمها نتيجة خدمته ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي شرح الله بالهدى صدور أمته ، وخصه منهم بأعلام كل علم وأئمة ، وجلا

بيقين مآلته عن كل قلب ماران عليه من الشك وعمته، وعلى آله وصحبه الذين حمّاهم من الزئج والزلل ما بخر الهدى لهم من جوامع الكلم وأفاض التقي عليهم من أنوار عصمته - فإن أولى الأمور أن يعتمد فيها على طيبها الخبير، ويصان جوهرها عن عرض العرض على غير ناقدتها البصير، ونجى مواردها عن من لم يعرف كيف يجتنب مواقع التكدير، وترفع كواكبها عن من لم تدرك أفكاره دقائق الحوادث وحقائق التأثير - أمر صناعة الطب التي موضوعها الأبدان القائمة بالعبادة، والأجسام القائمة بما يتعاقب عليها من الحوادث والزيادة، والنفوس التي ما عنها إن حصل فيها التفريط بدل ولا عوض، والأرواح التي إن عرض الفناء لجوهرها فلا بقاء بعده للعرض، والطبيعة التي إن خدمت على ما يجب نهضت على ما يجب بالصحة حق النهوض، والأمرجة التي إن نفرت لعدم التأني في سياستها أعجزت من يروض.

ولذلك تفتقر على كثرة أربابها، وتحتاج مع غزارة المتمسكين بأسبابها، وتضطر وإن أندفعت الضرورات بكثرة متقنيها، وتشتوف وإن وجد الجهم الغفير من المتلبسين بأدواتها والمتبحرين فيها - إلى رئيس يُنعم في اعتبار أكتافها النظر، ويدفع عن رتبها بتطرق غير أهلها الغير، ويعرف من أحوال مباشريها ما لا يمكن في خبرها الخبر، فلا يقبل إلا من علم مقدار علمه، ووثق مع الحفظ بصحة فهمه، ورضى عن خبره في الطب واجتهاده، وأعتبر منه كل نوع تحت أجناسه المتعددة على حدته وأفراده، وجاراه في كليات الفن فرآه في كل حلبة راكضا، وطارحه في فصول العلم فوجده بجمل أعباء ما تفرع منها ناهضا، واختبر دربه فوجدها موافقة لتحصيله، مطابقة لما حواه من إجمال كل فن وتفصيله، وتبع مواقع دينه فوجدها متينة، ومواقع أمانته فألفاها مكيته، وأسباب شفقتة ونصحه فعرف أنها على ما جمع من الأدوات الكاملة معينه، ويتعين أن يكون هذا «الرئيس» في أوامره،

و«الرازى» فى زمانه ، و«الفارابى» فى كونه أصلاً تَنَفَّرَ فنونَ الحِكم من أفنائه ؛
علاجُه شفاءً حاضراً ، وكلامه نِجاةً من كلِّ خَطَرٍ مُحَامِرٍ ؛ وتُدِيرُهُ للصِّحَّةِ تَقْوِيمٌ ،
وتَصَفِّحُهُ تَتَقِيْفٌ لِعِلماءِ الصِّناعةِ وتَسْلِيمٌ ، ودُرُوسُهُ ذَخَائِرٌ يُنْفِقُ من جواهرِ حِكْمِها
كُلُّ حَكِيمٍ .

ولما كان المجلس العالى الصِّدرى ، الشَّهابى : هو المراد بالتعيين لهذه الوظيفة ،
والمقصود بما أُشيرَ إليه فى استحقاق هذه الرتبة من عبارة صريحة أو كناية لطيفة ؛
وأَنَّهُ جمع من أدوات هذا الفن ما أَفْتَرَقَ ، وأَحْتَوَى على أَصُولِهِ وفُرُوعِهِ فاجتمعت
على أولويته الطوائفُ وأتَّفقتْ على تفضيله الفِرَقَ ؛ فلو عاصره «أبقراط» لقضى له
فى شرح فُصوله بالتَّقديمه ، ولو أدرك «جالينوس» لأقتدى فى العلاج بما علمه ؛ مع
مباشرة ألفت بين الصِّحَّةِ والنُّفوسِ ، وملاطفة أشرفت مواقع البرء بها فى الأجساد
إشراق الشُّموسِ ؛ وأطّاع يعرف به مبلغ ما عند كلِّ متصدِّ لهذه الصناعة من
العِلمِ ، وتبحَّرَ فى الفنون لا يُسَلِّمُ به لأحدٍ دَعْوَى الأهلية إلا بعد حرب جدالٍ هو
فى الحقيقة عين السِّلمِ - فرسِمَ بالأمر العالى أن يستقرَّ فلانٌ فى رياسة الأطباء
الطبايعية بالديار المصرية والشام المحروس ، على عادته وعادة من تقدّمه فى ذلك ،
ويكون مستقلاً فيها بمفرده .

فليُنظَرُ فى أمر هذه الطائفة نظراً تبرأ به الذمّة ، ويحصل به على رضا الله تعالى
ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فى الشَّفَقَةِ على الأُمَّة ؛ ويعطى به الصناعة حقّها ،
ويُطْلَقُ من يد من تطاولَ إليها بغير أهلية رِقَّها ؛ ويصون النفوس من إقدام من
تقدّم بغير خبرة كاملة عليها ، ويُدبُّ عن الأرواح تطرُق من يتطرَّق بغير معرفة
وافرة إليها ؛ فإنَّ فارطَ التفريط فى النفوس قلَّ أن يُستدرك ، ومن لم تجتمع فيه

أدوات المعرفة التامة والدين فما ينبغي له أن يدخل في المعالجة قبل الكمال وإن دخل فلا يُترك ؛ فإن من لازم صلاح الأرواح صلاح الأجساد ، وإن الداء الذي لا دواء له أن تكون العلة في وادٍ والمعالجة في وادٍ ؛ فلا يقبل في التركيبة إلا من يثق بدينه كوثوقه بعلمه ، ولا يُصرف أحدًا في هذه الصناعة إلا الذين زكت أعمالهم قبل التركيبة ؛ وليشققها بالامتحانات التي تُسفر وجوه الوثوق بالأهلية عن ألم دقائقها المُتكيه ، فإن العيان شاهد لنفسه ، ومن لم تنفعه شهادة فعله في يومه لم ينفعه غيره في أمسه ؛ ولا يُمض فيها حكمًا قبل استكمال نصاب الشهادة ، وقبل التثبت بعد كمالها : فإن المعالجة محاربة للداء والموت بجهالة المحارب له شهادته ؛ وليأمر من أُلحى إلى معالجة مرض لا يعرفه بمتابعة من هو أوفق منه بالتقديم ، ومراجعة من هو أعلم منه به : فإن الحوادث قد تختلف (وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) . وملاك الأمور تقوى الله فليجعلها حجة فيما بين الله وبينه ، والأفتقار إلى توفيقه فليصرف إلى ذلك قلبه وعينه ؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية متطبب طبائعي ، أوردتها في "التعريف" قال :

وليتعرف أولاً حقيقة المرض بأسبابه وعلاماته ، ويستقص أعراض المريض قبل مداواته ، ثم ينظر إلى السنّ والفصل والبلد ؛ ثم إذا عرف حقيقة المرض ، وقدر ما يحتمله المزاج من الدواء لما عرض ؛ يشرع في تخفيف الحاصل ، وقطع الواصل ، مع حفظ القوى . ولا يهاجم الداء ، ولا يستغرب الدواء ؛ ولا يقدم على الأبدان إلا بما يلائمها ، ولا يبعد الشبه ، ولا يخرج عن جادة الأطباء ولو ظن

(١) لعله تسفر عن وجوه الوثوق بالأهلية لتمام دقائقها الخ . تأمل .

الإصابة حتى يقوى لديه الظن ويتبصر فيه برأى أمثاله . وليتجنب الدواء ، ما أمكنه المعالجة بالغذاء ، والمركب ، ما أمكنه المعالجة بالمفرد ، وإياه والقياس إلا ما صحَّ بتجريب غيره في مثل مزاج من أخذ في علاجه ، وما عرض له ، وسنه ، وفصله ، وبلده ، ودرجة الدواء . وليحذر من التجربة ، فقد قال أبقراط وهو رأس القوم : إنها خطر . ثم إذا اضطرَّ إلى وصف دواءٍ صالحٍ للعلة نظر إلى ما فيه من المنفعة وإن قلت ، وتحيل لإصلاحه بوصف يصلح معه ، مع الاحتراز في وصف المقادير والكميات والكيفيات ، في الاستعمال والأوقات ، وما يتقدم ذلك الدواء أو يتأخر عنه . ولا يأمر باستعمال دواء ، ولا ما يستغرب من غذاء ، حتى يحقق حقيقته ، ويعرف جديده من عتيقه : ليعرف مقدار قوته في الفعل . ولعلم أن الانسان هو نية الله وملعون من هدمها ، وأن الطبيعة مكافية وبؤسى لمن ظلمها ، وقد سلم الأرواح وهى وديعة الله فى هذه الأجسام ، [فليحفظها وليتق الله فى ذلك جميع الأقسام] وإياه ثم إياه أن يصف دواءً ثم [يكون هو الذى] يأتي به ، أو يكون هو الذى يدل عليه ، أو المتولى لمنأولته للمريض ليستعمله بين يديه ، وفى هذا كله لله المنة ولنا إذ هديناه له وأرشدناه إليه .



(٢) وهذه نسخة توقيع برياسة الكحالين .

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٣٩ .

(٢) بياض بالأصل .

الضرب السادس
(من أرباب الوظائف بالديار المصرية)

زعماء أهل الذمة

ويكتب لجميعهم توابع في قطع الثلث بألقابهم السابقة مفتحة بـ «أما بعد حمد الله» .

ويشتمل هذا الضرب على ثلاث وظائف :

الوظيفة الأولى
(رأسه اليهود)

وموضوعها التحدث على جماعة اليهود والحكم عليهم ، والقضاء بينهم على مقتضى دينهم وغير ذلك .

وقد تقدم في الكلام على النحل والملل أن الموجودين من اليهود ثلاث طوائف : وهم الربانيون ، والقراءون ، والسامرة . وقد جرت العادة أن يكون الرئيس من طائفة الربانيين دون غيرهم ، وهو يحكم على الطوائف الثلاث .

وهذه نسخة توقيع برأسه اليهود ، من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ،

وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل أطاف هذه الدولة القاهرة تصطنني لذمتها من اليهود رئيساً فرئيساً ، وتختار لقومها كما اختار من قومه موسى ، وتبهج لهم نفوساً كلما قدمت عليهم نفيساً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي ، والرسول الذي أجمل الوصية بالملئ والذمي ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما هطل ويلى ،

وما نزل وسمى - فإن معدلة هذه الدولة تكثيف المال والنجل بالأحباط ، وتعمهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصاء وأوفى الأقساط ، وتأمهم من حادث الزمن إذا أشتط ومن صرفه إذا شاط ، وتضمهم كما صمت البتوة إلى جناح البتوة الأسباب ؛ لا تزال ترقب الإل والذمه ، فى المسلمين وأهل الذمه ، وتقضى لهم بحسن الخيرة ورعاية الحرمه ؛ وتبيحهم من أمر دينهم ما عليه عوهدوا ، وتمتجهم من ذلك ما عليه عوقدوا ؛ وتحفظ نواميسهم بأخبار تتمد موادهم إذا شوفوها وتحسن مرآهم إذا شوهدوا : من كل إسرائلى أجمل للتوراة الدراسه ، وأحسن لأسفار أنبيائه آقنباسه وأجمل آتماسه ، ومن تبهته نباهته للتقدمه فاطعم آجهاده يوماً حتى صار وجهه الوجاهه فى قومه ورأس الرأسه ؛ فأصبح معدوم النظير ، معدوداً منهم بكثير ، وموصوفاً بأنه فى شرح أسفار عبرانية حسن التفسير ؛ وأستحق من بين شيعته أن يكون رأس الكهنه ، وأن تصبى القلوب فى مجامعهم بحسن منطقه مرتبه ، وبان للجهالة بتثيفه لشيخته تحجب عقائدهم عن أن تغدو ممتهنه .

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بهجه ، ولجسد هذا التفويض مهجه ، ولمآدح هذا الثناء العريض لهجه ؛ ولعين هذا التعيين غمضها ، وليد هذه الأيدى بسطها وقبضها ؛ ولأبكار أفكار هذه الأوصاف متقاضيا ومقتضيا ، ومن أدت قطاف النعماء أيد تقدمته «على غيظ من غص منها» وأجتنى غضها - أقتضى حسن رأى الشريف أن يميز على أبناء جنسه حق التمييز ، وأن يجازله من التنويه والتنويل أجل ما جيز .

ورسم بالأمر الشريف - لازل يختار فيجمل الاختيار ، ويفدو كالقيث الذى يعم بنفعه الربا والوهاد والأثمار والأشجار - أن تفوض إليه رأسه اليهود على

أختلافهم : من الربانيين ، والقرائين ، والسامرة بالديار المصرية حماها الله وكلاهما .
فليجعل أسبابهم بالتقوى تقوى ، وغرسهم بالتدبير لا تدوى ؛ ومقاصدهم لا يمازجها
شك ولا شكوى ، وليُنزل عليهم منّا منّا يسليهم صنعا حتى لا يفارقوا المن والسلى ؛
وليتق الله فيما يذره ويأتيه ، ويحسن في اجتلاب القلوب واختلاطها تأتيه ؛ وإياه
والتيه حتى لا يقال : كأنه بعد لم يخرج من التيه .

وجاعة الربانيين فهم الشعب الأكبر ، والحزب الأكثر ، فعاملهم بالرفق
الأجدي والسرا الأجدري ، ولكونك منهم لا تمل معهم على غيرهم فيما به من النفس
الأمارة تؤمر .

وجاعة القرائين فهم المعروفون في هذه الملة ، بملازمة الأدلة ، والأحترار في أمر
الأهله ، فانصب لأمرهم من لم يتولّه حين يتولّه ؛ ومن كان منهم له معتقد فلا يخرج
عن ذلك ولا يخرج ، ولا يلجم منهم بإجام من نار إنكار من في ليلة سبته [بيته]
عليه لا يسرج .

والسامرة فهم الشعب الذين آذن التنظيف أهله بجروبه ، ولم يك أحدهم
لمطعم لكم ولا مشرب بأكوله ولا شروبه ؛ فمن قدرت على رده بدليل من
مذهيك في شروق كل بحت وغروب ، فاردده من مهبج تحيده عن ذلك وهروبه ،
وإلا فقل له : ياسامري بصرت بما لم تبصروا به . ولكن تستكلم فيهم بالبت ،
وأرفق بهم فإن "المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى" ، فإياك أن تكون ذلك
المنبت ، وضرهم بملازمة قوانينهم كيلا يعدوا أحد منهم في السبت ؛ وأجعل أمور
عقودهم مستتبه ، وأحسن التحري والتحرير لهم في إتقان كل كتبه ؛ ولا تخترا إلا
الأعيان ، من كل نحران وديان ؛ ومن كان له من داود عليه السلام حمة نسب ،

وله به حُرْمَةُ نِسَبٍ ، فَأَرَعَ لَهُ حَقَّهُ ، وَأُحْبِبَهُ مِنَ الرَّفْقِ أَوْ كَرَمِ رُفْقِهِ . وَالْحَزْبِيَّةُ فِيهِ
لِدِمَائِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عِصْمَةٌ ، وَعَلَى دِفَاعِهَا لَا دِفَاعِيهَا وَصَمَهُ ، وَلَا أَجْلَهَا وَرَدَ : « مَنْ آذَى
ذِمِّيًّا كُنْتُ خَصْمَهُ » ، وَهِيَ أَلْمٌ مِنَ السَّيْفِ إِجَارَهُ ، وَهِيَ أَجْرَةٌ سَكَنِي دَارِ الْإِسْلَامِ
كَمَا هِيَ لِاسْتِحْقَاقِ الْمَنْفَعَةِ بِهَا إِجَارَهُ ، فَأَذُوها ، وَبِهَا نَفُوسِكُمْ فَأَذُوها ، ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ ، فَعُدُّوا الْطَّافَ اللَّهُ بِهَا وَلَا تَعُدُّوها ، وَدَاوِمٌ عَلَى مَهْ ، زَجْرًا
لِتَارِكِ عِلَامِهِ ، وَمَنْ قَصَدَ مِنْهَا خَلَاصَهُ ، فَقُلْ لَهُ فِي الْمَلَأِ : مَاذَا خَلَاصَهُ ، وَمَنْ رَكَنَ
فِي أَمْرِهَا إِلَى الْإِخْلَادِ وَالْإِخْلَالِ ، وَسَكَنَ إِلَى الْإِهْمَالِ ، وَلَمْ يَرْضَ بِأَنَّ رَايَةَ الدَّلَّةِ
الضَّفْرَاءَ عَلَى رَأْسِهِ تُسَالُ ، فَأَوْسَعَهُ إِنْكَارًا ، وَأَلْزَمَهُ مِنْهَا شِعَارًا ، وَإِنْ قَامَ بِنَصْرِهِ مِنْهُمْ
مَعَشْرٌ خَشِنَ فَارِهِمْ بَعْدَ الْعَلَامَةِ خُشْكَارًا ، وَخَذَهُمْ بِتَجْنِبِ الْغَيْشِ الَّذِي هُوَ لِلْعَهْدِ
مَغْيَرٌ وَمَغْيَبٌ ، وَأَكْفَفٌ مِنْهُ هُوَ بِمَا يُنَافِيهِ مَعْيَرٌ وَمَعْيَبٌ ، وَأَمَّا مَنْ هُوَ مُجِيبٌ لِذَلِكَ
فَهُوَ لِقَصْدِهِ مُحِبٌّ ، وَانْقَلَبَ طِبَاعَهُمْ عَنْ ذَلِكَ وَإِنْ أَبَتْ عَنِ التَّنَاقُلِ فَأَنْتَ مَا نَتَلُو :
﴿ قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ . وَقَدْ عَلِمَ أَنَّ الَّذِي تَتَعَاطَوْنَهُ مِنْ نَفْخِ فِي الْبُوقِ
إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَلَمَ لِلتَّدْكَارِ ، فَاجْتَهِدُوا أَنْ لَا يَكُونَ لَتَدْكَارِ الْعِجْلِ الْحَنِيدِ الَّذِي لَهُ
خُورًا ، هَذِهِ وَصَايَا نَاكَ وَلَهُمْ فَقُلْ لَهُمْ : هَذِهِ مَوْهَبَةُ الدَّوْلَةِ وَإِحْسَانُهَا إِلَيْكُمْ ، وَطُفْئُهَا
بِكُمْ وَعَاطِفُهَا عَلَيْكُمْ ، وَبَصَّرْهُمْ بِذَلِكَ كَمَا تَلَا إِحْسَانُنَا إِلَيْهِمْ : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أذْكُرُوا
نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ .



وهذه نسخة توقيع برآسة اليهود أيضا :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى أَنْ جَعَلَ مُلَاحِظَةَ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ لِجَمِيعِ الْمَلَلِ نَاطِرَةً ،
وَإِحْسَانَهَا لَا يُغْفَلُ مَصْلَحَةً لِأَوْلِي الْأَدْيَانِ غَائِبَةً وَلَا حَاضِرَةً ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا
مُجَدِّدِ الَّذِي جَعَلَ ذِمَّتَهُ وَعَهْدَهُ وَفِيَّيْنِ لِكُلِّ نَسَمَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَكَافِرَةٍ - فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِمَا مَدَّ

رُواقِ عدلِ هذه الأيامِ الشريفةِ على كلِّ مُعاهدٍ: من متقربٍ ومُتباعِدٍ، وساوئٍ بينهم في النظر الذي صدقَ الرأيَ وصدقَ الرائدَ - أقتضى 'جميلها أن يُسَمَّهم لكلِّ من أهلِ الذمة أوفرُ نصيبٍ، وأن لا يُقالَ لأحدٍ منهم من الإجحافِ ما يُريبُ، وأن لا تكونَ أمورُهُم مُضاعَفةً، ولا تَعَبُّداتُهُم مُراعَفةً؛ ولا شرائعُهُم غيرَ مَصُونَةٍ، ولا أحكامُهُم عارية [عن] حُسنِ معُونَةٍ؛ وكانت جماعةُ اليهودِ وإن كانوا أولي عُتَى، وصدقَ النصرانيُّ فيهم وصدقُوا في النصرانيِّ من أنهم ليسوا على شَيْءٍ؛ لا بدَّ لهم من مباشرٍ يأخذُهُم بالأمرِ الأَحْوَطِ، والناموسِ الأَضْبَطِ، والمراسيمِ التي عليهم تُشَرِّطُ؛ وكان الذي يُختارُ لذلك ينبغي أن لا يكونَ إلا من أكبرِ الكَهَنَةِ وأعلمِ الأَحبارِ، ومن عَرَفَ من دينِهِم ما لأَجَلِهِ يُصطَفَى وَلِثَلْثِهِ يُختارُ؛ ومَن فيه سياسةٌ تحجُّزه عن المضارِّ، وتحجُّبه عن الاستِنْفارِ؛ وكان فلانُ الرَّئيسِ هو المتميِّزُ بهذه الأوصافِ على أبناءِ جنسِهِ، وله وازِعٌ من نفسه، وراذِعٌ من حُسنِ حدِّسِهِ، وخدمَةٌ في مهمَّاتِ الدولةِ يستحقُّ بها الزيادةَ في أُنسِهِ؛ وهو من بينِ جماعَتِهِ مشهورٌ بالوجاهَةِ، موصوفٌ بالنِّباهَةِ؛ ذو عِبْرانيَّةٍ حسنةِ التعبيرِ، ودراسةٍ لكُتُبِ أهلِ ملَّتِهِ على ما فيها من التغيُّرِ - أقتضى 'جميلُ الأختصاصِ المُنيهِفِ، أن يرسمَ بالأمرِ الشريفِ - لا بَرِحَ يرقُبُ الإلَّ والذِّمَّةَ، ويرعى للمُعاهدينِ الحُرْمَةَ - أن تُفَوِّضَ إليه رَأْسَةَ اليهودِ الرَّبَّانِيِّينَ والقَرَّائِينَ والسامِرَةَ، على عادةٍ من تقدَّمه .

فليباشِرْ ذلكَ مستوعِباً أمورَهُم كُلَّها، مستودعاً دِقَّها وجِلَّها، مباشِراً من أحوالِهِم ما جرتَ عادةٌ مثله من الرؤساءِ أن يباشِرَ مِثْلَها؛ غيرَ مَقْرَظٍ في ضَبْطِ ناموسِ من نوااميسِ المملَكَةِ، ولا مُغْفَلِ الإنكارِ على من يتجاوزُ ذلكَ إلى مَواردِ الهلكَةِ؛ ومن فعل ما يقضي بنقضِ عَهْدِهِ، فعليه وعلى مستَحْسِنِهِ له من المقاتلةِ ما يتعظُّ به كلُّ من يفعلُ

ذَلكَ من بعدِهِ ؛ بحيثُ لا يخرجُ أحدٌ منهم في كنيستِهِ ولا في يهوديَّتِهِ ولا في منع جزيَّتِهِ عن واجبٍ مَعهودٍ ، ومن خالفَ فوراءَ ذلكَ من الأدبِ ما تَقشَّعُ منه الجلودُ ؛ وما جعلَهُم اللهُ ذَمَّةً للسامينِ إلا حَقنًا لدمائِهِم ، فلا يُجِئُها أحدٌ منهم فتجتمعُ له شِماتُهُ أهلُ الأديانِ من أَعْدائِهِم بأَعْدائِهِم - والوصايا كثيرةٌ وإنما هذه تُجَبِّها المَلَحَّصه ، وفيها من حسابِ الإحسانِ إليهِم ما تُعَدُّو به أيامَ الإمهالِ لهم مَحَصَّه ؛ واللهُ يوفِّقه في كلِّ تصرُّفٍ مرغوبٍ ، وتأنفُ من مثله مطلوبٍ ؛ بمنه وكرمه ! .



وهذه وصية لرئيس اليهود أوردها في "التعريف" وهي :

وعليه بضمِّ جماعته ، ولمَّ شملهم باستطاعته ؛ والحكم فيهم على قواعد ملته ، وعوائد أمته ، في الحكم إذا وصَّح له بأدلتِهِ ؛ وعقود الأُنكحة وخواص ما يعتبر عندهم فيها على الإطلاق ، وما يُفْتَقَرُ فيها إلى الرضا من الحائنين في العَقْد والطلاق ؛ وفيمن أوجبَ عنده حكم دينه عليه التَّحْرِيمُ ، وأوجبَ عليه الاتقيادَ إلى التحكيم ؛ وما ادَّعوا فيه التواتر من الأخبار ، والنظائر على العمل به مما لم يُوجد فيه نصٌّ وأجمعت عليه الأخبار ؛ والتوجه لِقَاءَ بيت المقدس إلى جهة قبلتهم ، ومكان تعبد أهل ملتهم ؛ والعمل في هذا جميعه [بما شرَّبه موسى الكليم ، والوقوف معه] إذا ثبت أنه فعل ذلك النبي الكريم ؛ وإقامة حدود التوراة على ما أنزل الله من غير تحريف ، ولا تبديل كلمة بتأويل ولا تصريف ؛ وأتباع ما أعطوا عليه العهد ، وشدوا عليه العَقْد ؛ وأبقوا فيه ذمَّاهم ، ووقوا به دماءهم ؛ وما كانت تحكم به الأنبياء والرَّبَّانيون ، ويسلم إليه الإسلاميون منهم ويعبر عنه العبرانيون ؛ كلُّ هذا مع إلزامه لهم بما يلزمهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٣ وهي لازمة لاستقامة الكلام .

من حُكْم أمثالهم أهلِ الذمّة الذين أُقْتَرُوا في هذه الدّيار، ووقاية أنفسهم بالخضوع والصّغار، ومدّ رؤوسهم بالإذعان لأهل ملة الإسلام، وعدم مضايقتهم في الطُّرُق وحيثُ يحصل الألباس بهم في الحَمَّام، وحمل شعار الذمّة الذي جعل لهم حليّة العمام، وعقد على رؤوسهم لحِمْظَهم عقد التَّمائم، وليعلم أنّ شعارهم الأصفر، موجب لثلاث أرقاب دمههم الأحمر، وأنهم تحت علم علامته آمنون، وفي دعة أصانله ساكنون، وليأخذهم بتجديد صبغته في كلّ حين، وليأمرهم بملازمته ملازمة لا تزال علامتها على رؤوسهم تبيّن، وعدم التّظاهر بما يقتضى المناقضة، أو يفهم منه المعارضة، أو يدع فيه غير السّيف وهو إذا كَلِم شديد العارضة، وله ترتيب طبقات أهل ملته من الأخبار فمن دونهم على قدر استحقاقهم، وعلى ما لا تخرج عنه كلمة اتّفاقهم، وكذلك له الحديث في جميع كئاس اليهود المستمرة إلى الآن، المستقرة بأيديهم من حين عقد عهد الذمّة ثم ما تأكّد بعده لطول الزمان، من غير تجديد متجدد، ولا إحداث قدر متريّد، ولا فعل شيء مما لم تُعقد عليه الذمّة، ويُقرّ عليهم سلفهم الأوّل سلف هذه الأمة، وفي هذا كفاية وتقوى الله وخوف بأسنا رأس هذه الأمور المهمّة.



[وصية رئيس السامرة^(١)]:

ولا يعجز عن لمّ شعث طائفته مع قلتهم، وتأمين سربهم الذي لو لم يؤمنوا فيه لأكلهم الذئب لذنتهم، وليصن بحسن السلوك دماءهم التي كأنما صبغت عمائمهم الحمر منها بما طلّ، وأوقد لهم منها النار الحمراء فلم يتقوها إلا بالدلّ، وليعلم أنّهم شعبة من اليهود لا يخالفونهم في أصل المعتقد، ولا في شيء يخرج عن قواعد دينهم لمن

(١) لم يعنون في الأصل وزدناه من "التعريف" ص ١٤٤.

أنتقد؛ ولولا هذا لما عدوا في أهل الكتاب، ولا فُتِحَ منهم إلا بالإسلام أو ضرب
الرقاب؛ فليبن على هذا الأساس، [وليبنى قومه أنهم منهم وإنما الناس أجناس] ^(١)
وليلتزم من فروع دينه ما لا يخالف فيه إلا بأن يقول لا مساس؛ وإذا كان كما يقول:
إنه كهرون عليه السلام فليلتزم الجدد، وليقم من شرط الذمة بما يُقيم به طول المدد؛
وليتمسك بالموسوية من غير تبديل، ولا تحريف في كلم ولا تأويل؛ وليحص عمله
فإنه عليه مسطور، وليقف عند حدّه ولا يتعدّ طوره في الطور؛ وليحكم في طائفته
وفى أنكحتهم ومواريثهم وكأئدهم القديمة المعقود عليها بما هو في عقد دينه،
وسبب لتوطيد قواعده في هذه الرتبة التي بلغها وتوطينه .

الوظيفة الثانية

(بَطْرِكِيَّةُ النَّصَارَى الْمَلِكِيَّةِ، وَهُمْ أَقْدَمُ مِنَ الْيَعاقِبَةِ)

وقد تقدّم في الكلام على النحل والملل أنهم أتباع ملكا الذي ظهر قديماً ببلاد
الروم، وأن الروم والفرنج كلهم أتباعه، وبالديار المصرية منهم التّزر اليسير، ولهم
بَطْرِكٌ يَخْصُهُمْ .

وهذه نسخة توقيع لبطرك الملكية :

أما بعد حمد الله مُنَوِّعِ الإحسان، لأولى الأديان، وموصّله ومفرّعه لكل طائفةٍ
ولكل إنسان، والصلاة على سيدنا محمد الذي أباد الله به من أباد وأبان من عهده
وذمته من أبان - فإن الطائفة الملكية من النصارى لما كانت لهم السابقة في دينهم،
ولهم أصل الرأسة والنّفاسة في تعيينهم؛ وما برحت لهم في الكلاعة والحفظ قدم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٤ .

السابقه ، ورتبة بملوكهم الرومانية سامقه ، وما زالت لهم خدم الدول إلى أغراضها
 متساوية ومتساقيه ؛ ولهم جوار مشكور ، وتبلى مشهور ، وعليهم وصايا من الملوك
 في كل ورود وصدور ؛ ولهم من نفوسهم من أيا تستوجب احترامهم ، وتستدعى
 إكرامهم ؛ وكان لا بد لهم من بطريك يلاحظ أحوالهم أتم الملاحظه ، ويستدعى
 لهم من الدولة أعظم محافظه ؛ ويحفظ نواميس قبيلهم ، ويحسن دراسة أناجيلهم ؛
 ويعرفهم قواعد معتقداتهم ، ويأخذهم بالدعاء لهذه الدولة القاهره في جميع صلواتهم ؛
 ويجمعهم على سداد ، ويفرقهم على مراد . وكان البطريرك فلان هو المتفق بين
 طائفته على تعيينه ، والمجمع على إظهار استحقاقه وتعيينه ؛ والذي له من أيا لو كان
 فيه واحدة منها لكفته في التأهيل ، ولرفعه إلى منصبه الجليل . فلذلك رسم ... -
 لابرح يعطى كل أحد قسطه ، ويدخل كل لأبوابه ساجدا وقائلا حظه - أن يباشر
 بطريركية النصارى الملكية على عادة من تقدمه من البطاركة السالفه بهذه الدولة .

فليحط أمورها الجزئية والكلية ، والظاهره والخفيه ؛ وليأخذهم بما يلزمهم من
 قوانين شرعهم ، وكل ما يريدون من حسن سمعتهم ؛ وأما الديرة والبيع والكائس
 التي للملكية فمرجعها إلى صونه ، وأمرها مردود إلى جميل إعانتة وعونه ؛ والأساقفة
 والرهبان فهم سواد عين معتقده ؛ وخلاصة منتقده ؛ فلا يخلهم من تجليل ، وحسن
 تأهيل ؛ وتتقدم إلى من بالثغور من جماعتك بأن لا يدخل أحد منهم في أمر موبق ،
 ولا في مشكل موثق ؛ ولا يميلون كل الميل إلى غريب من جنسهم ، وليكن الحد
 لغدهم من يومهم وليومهم من أمسهم ؛ ولا يشاكلون رسولا يرد ، ولا قاصدا يفد ؛
 وطريق السلامة أولى ماسلك ، ومن ترك الدخول فيما لا يعنيه ترك ؛ هذه جملة من
 الوصية لامعة أفلح وأهتدى من بها استنار ، ورشد من لها استشار ؛ والله يوفقك
 في كل مقصد تروم ، ويجعلك بهذه الوصايا تقول وتقوم .



وهذه وصية لبَطْرِكِ الْمَلَكِيَّةِ أوردتها في "التعريف" وهى :

وهو كبير أهل ملته، والحائِمُ عليهم ما أمتدَّ في مُدَّتِهِ؛ وإليه مَرَجِعُهُمْ فى التَّحْرِيمِ والتَّحْلِيلِ، وفى الحُكْمِ بَيْنَهُمْ بما أنزَلَ فى التَّوْرَةِ ولم يُنسخ فى الإنجيل؛ وشريعته مبنية على المُسَامَحَةِ والإِحْتِمَالِ، والصَّبْرِ على الأذى وعدم الإِكْتِرَافِ به والأَحْتِفَالِ؛ نَحَدُّ نَفْسِكَ فى الأَوَّلِ بهذه الآداب، وأَعْلَمُ بأنك فى المَدْخَلِ إلى شريعَتِكَ طريقٌ إلى الباب؛ فَتَخَلِّقُ من الأخلاقِ بَكلِّ جَمِيلٍ، ولا تَسْتَكْثِرُ من مَتَاعِ الدُّنْيَا فَإِنَّهُ قَلِيلٌ؛ ولِيقْدَمِ المِصَالِحَةَ بَيْنَ المَتَحَاكِمِينَ إليه قَبْلَ الفِصْلِ البَتِّ فَإِنَّ الصِّلحَ كما يقال سيِّدَ الأحكام، وهو قاعِدةُ دينِهِ المِسيحِيِّ ولم تَخَالَفِ فيه المَحْمَدِيَّةُ الغُراءُ دينَ الإسلام، ولينظِّفَ صُدُورَ إِخْوَانِهِ من الغِلِّ ولا يَقْنَعُ بما يَنْظِّفُهُ ماءُ المَعْمُودِيَّةِ من الأَجْسَامِ؛ وإليه أمرُ الكائِسِ والبِيعِ، وهو رأسُ جَماعَتِهِ والكَفْلُ له تَبِعٌ؛ فَإِياهُ أَنْ يَتَّخِذَها لِه تجارةً مُرَبِّحَةً، أو يَقْتطِعَ بها مالَ نِصرانِيٍّ يَقْرَبُهُ فَإِنَّهُ ما يَكُونُ قَدِ قَرَبَهُ إلى المَذْبَحِ وإِنما ذَبَحَهُ؛ وكذلك الدِّياراتُ وكلُّ عَمْرٍ ^(١)، والقَلالِيُّ فَيَتَعَيَّنُ عليه أَنْ يَتَفَقَّدَ فيها كَلَّ أَمْرٍ؛ وليجتهِدُ فى إِجْراءِ أُمُورِها على ما فيه رَفَعُ الشُّبُهاتِ، وليَعْلَمُ أَنَّهُمْ إِنما اِعْتَرَلُوا فيها لِلتَّعَبُّدِ فلا يَدْعُها تُتَّخَذُ مَتَرَهاتٍ؛ فَهُمْ إِنما أَحَدَثُوا هذه الرِّهْبانيَّةَ لِلتَّقَلُّلِ فى هذه الدُّنْيَا والتَّعَقُّفِ عن الفُروجِ، وَحَبَسُوا فيها أَنْفُسَهُمْ حَتَّى إِذا أَكثَرَهُمْ إِذا دَخَلَ فيها ما يَعودُ بَيقِيٍّ لِه نُحُوجٍ؛ فليَحَدِّرْهُمُ من عَمَلِها مُضَيِّدَةً لِلِمالِ، أو خَلوَةً لِه وَلَكِنِ بالنِّساءِ حَرامًا وَيَكُونُ إِنما تَنَزَّهُ عن الحَلالِ؛ وإِياهُ ثُمَّ إِياهُ أَنْ يُوَوِّىَ إِلَيْها من الغُرباءِ القادِمِينَ عليه من يُرِيبُ، أو يَكْتُمُ عن الإِنهاءِ إِلَيْنا مُشْكِلَ أَمْرٍ وَرَدَّ عليه من

(١) هو بالضم المسجد والبيعة "قاموس".

(١) بعيد أو قريب ، [ثم الحذر الحذر من إخفاء كتاب يرد عليه من أحد من الملوك] ،
ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشي على مثل هذا السلوك ، وليتجنب البحر
وإياه من اقتحامه فإنه يغرق ، أو تلقى ما يلقيه إليه جناح غراب منه فإنه بالبين
ينعق ، والتقوى مأمور بها أهل كل مله ، وكل موافق ومخالف في القبلة ، فليكن
عمله بها وفي الكفاية ما يغني عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المسيح .

الوظيفة الثالثة

(بطريركية اليعاقبة)

وقد تقدم في الكلام على النحل والملل الخلف في نسبتهم : فليل إنهم أتباع
ديسقوس ، وانه كان اسمه في الغلمانية يعقوب ، وقيل أتباع يعقوب البرذعاني ،
وقيل غير ذلك ، والأصح عند المؤرخين الأول . وبتركهم يحكم على طائفة اليعاقبة ،
وجميع نصارى الحبشة أتباعه ، وفي طاعته ملك الحبشة الأكبر ، وعنه تصدر
ولايته .

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى اليعاقبة :

أما بعد حمد الله الذي أظهر دين الإسلام على الدين كله ، وأصدر أمور الشرائع
عن عقد شرعه وحله ، وصير حكم كل مله راجعاً إلى حكم عدله ، والشهادة له
بالوحدانية التي تدل على أنه الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد وليس شيء كمثلته ،
والصلاة والسلام على سيدنا محمد أعظم أنبيائه وأكرم رسله ، وأشرف ولد آدم
ونسله ، المصطفى في علم الله من قبله ، ووسياته في التوراة من غرور الشيطان وخذله ،
والذي أطقاً الله بركته ناراً مروّدة عن إبراهيم وجعلها برداً وسلاماً وأجله من أجله ،

وبشربه عيسى بن مريم عبد الله وابن أمته وأقر موسى بن عمران كلم الله بفضله ؛ وعلى آله الطيبين الطاهرين من فروع أصله ، وأصحابه سامعى قوله ، وتابى سبله - فإن الله تعالى لما ارتضى الإسلام ديناً ، وأفضى بالملك إلينا وقضى لنا فى البسيطة بسطةً وتمكيناً ، وأمضى أوامرنا المطاعة بشمول اليمن شمالاً ويمينا - لم نزل نولى رعايانا الإحسان رعايةً وتوطيناً ، ونديم لأهل الذمة منّا ذمّةً وتأميناً ؛ وكانت طائفة النصارى اليعاقبة بالديار المصرية لهم من حين الفتح عهدٌ وذمامٌ ، ووصيةٌ سابقةٌ من سيدنا رسول الله عليه أفضل الصلاة والسلام ؛ ولا بد من بطريك يرجعون إليه فى الأحكام ، ويحتمعون عليه فى كل نقض وإبرام .

ولما كانت الحضرة السامية الشيخ الرئيس ، المبعجل ، المكرم ، الكافى ، المعزز ، المفخر ، القديس ، شمس الرأسة ، عماد بنى المعمودية ، كثر الطائفة الصليبية ، اختيار الملوك والسلاطين ، فلان : وفقه الله ، هو الذى تجرد وترهب ، وأجهد روحه وأتعب ، وصام عن المأكّل والمشرب ؛ وساح فأبعد ، ومنع جفنه لذيذ المرقد ، ونهض فى خدمة طائفته وجدّ ، وخفض لهم الجناح وبسط الخد ، وكف عنهم اليد ، وأستحقّ فيهم التبجيل لما تميّز به عليهم من معرفة أحكام الإنجيل وتفرد - أقتضى حسن الرأى الشريف أن نلقى إليه أمر هذه الفرقة ونفوض ، ونبدلهم عن بطريكتهم المتوقى ونعوض .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لابرحت مراسمه مطاعه ، ومرامحه لإنزال أهل كرمها بيعتها مرعيةً غير مراعه^(١) - أن يقدم الشيخ شمس الرأسة المذكور على الملة النصرانية اليعقوبية ، ويكون بطريكاً عليها ، على عادة من تقدمه وقاعدته بالديار المصرية ، والنغور المحروسة ، والجهات التى عادت بها إلى آخر وقت .

(١) أى غير مفزعة ولم يذكر القاموس ولا اللسان أراعه وإنما الفعل راعه ورّعه أى أفرجه .

فليسلك سبيل السوا ، ولا يملك نفسه الهوى ، وليتمسك بخوف الله تعالى
 إن فعل أو نوى ، أو أخبر عن الحوارين أو روى ؛ فالعليم مراقب ، والعظيم
 معاقب ؛ والحكيم أمر أولي العقول بالفكرة في العواقب ، والحاكم غداً بحقوق الخلق
 غداً يُطالب ؛ والظلم في كل ملة حرامٌ والعدل واجب ، فليستوف الإنصاف بين القويّ
 والضعيف والحاضر والغائب ؛ وليقصّد مصلحتهم وليعتمد نصيحتهم ، وليمض على
 ما يدينون به بيوعهم وفسوخهم ومواريتهم وأنكحتهم ؛ وليتمع غاويهم ، وليسمع
 دعاويهم ؛ وليزيمهم من دينهم بما وجدوه ، فظنوه واعتقدوه ؛ وليتبع سبيل المعدلة
 فلا يعدو [ها] عائدةً إليه أمور القسيسين والرهبان ، في جميع الديرة والكائس بسائر
 البلدان ، ولا يعترض عليه فيما هو راجع إليه من هذا الشأن . ولا يقدم منهم
 إلى رتبة إلا من استصلحه ، ولا يرحح إلى منزلة إلا من رتبه إليها ورتبه ، متبعاً
 في ذلك ما بينه له العدل وأوضحه ، مرتجع الرتبة ممن لم تكن الصدور لتقدمته
 منشرحه ، مجمعا لغيره في الإيراد والإصدار على اعتماد المصلحة ؛ وقد أوضحناله ولهم
 سبيل النجاة فليقتفوه ، وعرفناهم بالصواب والخيرة لهم إن عرفوه ، وليسأل الله ربه
 السلامة فيما له يفعل وبه يفوه ؛ والعلامة الشريفة أعلاه .



وهذه نسخة توقيح لبطرك النصارى اليعاقبة ، كتبت به للشيخ المؤمن ، في شهر
 سنة أربع وستين وسبعائة ، وهي :

أما بعد حمد الله على نعمه التي نشت لواء دولتنا في الآفاق ، فأوى كل أحد
 إلى ظلّه ، وبسطت معدلتنا في البلاد على الإطلاق ، فمحت الخاص والعام من برنا
 بوابله وظلّه ، وأصطنعت بدمامها ملوك الملل وحكام الطوائف فنطقوا عن أمرنا

فى عَقْدِ كُلِّ امرٍ وَحَلَّةٍ ، والشهادةِ بوحْدانِيَّتِهِ التى تُنْحِجُ أَمَلَ المَخْلِصِ فى قولِهِ وَفِعْلِهِ ،
وتَفْتَحُ لمن تَمَسَّكَ بِعُرْوَتِهَا أَبْوابَ النِجاةِ فَيُصْبِحُ فى أَمَانٍ فى شَأْنِهِ كُلِّهِ ، والصلاةِ
والسلامِ على سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ أَشْرَفِ الأنبياءِ قَدْرًا فى مُحْكَمِ الذِّكْرِ وَتَقْلِهِ ،
المبعوثِ رَحْمَةً للعالمينَ زِيادَةً فى رِفْعَةِ مقامِهِ وتَقْرِيرًا لِفَضْلِهِ ، المنعوتِ بالرأفةِ والرَّحمةِ
فى مُحْكَمِ كِتَابِهِ الذى لا يَأْتِيهِ الباطلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ ولم يَسْتَطِعْ أَحَدٌ
أَنْ يَأْتِيَ بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ، وعلى آلهِ وَصَحْبِهِ الذينَ اتَّبَعُوا طَرِيقَتَهُ المِثْلِيًّا وسَلَكُوا مَناهِجَ
سُبُلِهِ ، وَعَقَدُوا الدَّمَّ لِأهلِ المِلَلِ وَأَسْتَوْصَوْا بِهِمْ خَيْرًا لما عَرَفُوهُ مِنْ سَعَةِ حِلْمِهِ
وبَدَلِهِ - فَإِنَّهُ لما كانتِ الطائِفَةُ المِسيحيَّةُ ، والفِرقةُ اليَهودِيَّةُ ، مَنْ أوتَتْ تَحْتَ ظِلِّنا
الذى عَمَّ الوُجُودَ ، وَسَكَنْتِ فى حَرَمِ ذِمَّاتِنَا الذى سارَ نَبؤُهُ فى التَّهائمِ والنُّجُودِ ،
وَتَمَسَّكَتْ مِنْ طاعتِنَا وَاتَّباعِنا أَوْامِرِنَا بما سَلَفَ لها مِنْ المِثْلِ والعُهودِ ، وكانتِ
أحكامُهُمُ ما يَحْتَاجُ إلى مَنْ يَدُورُ عَلَيْهِ أَمْرُها فى كُلِّ حالٍ ، وتَنْتَظِمُ بِهِ مِصالحَ شَمَلِها
لِيَبْلُغُوا بِها الأَمالَ ، وَيَأْمِنُوا فى مَعْتَقِدِهِمُ فيها مِنَ الإِخْلالِ ، وَأَنَّهُ إِذا ماتَ بَطْرِيكُ
لَهُمْ لا بُدَّ أَنْ نَرِيسَ لَهُمُ بغيرِهِ ، لِيَعْتَمِدُوا فى ذَلِكَ ما يَتَقَدَّمُ بِهِ إِلَيْهِمْ فى نَهْيِهِ وَأَمْرِهِ ،
وَيَسَلِّكَ بِهِمْ فى أَحْكامِهِمُ ما يَحِبُّ ، وَيَعْرِفُ كَلَّامَهُمْ ما يَأْتِي وَيَذَرُ وَيَفْعَلُ وَيَحْتَنِبُ ،
وَيَفْصِلُ بَيْنَهُمْ بِمَقْتَضَى ما يَعتَقِدُونَهُ فى إنْجِيلِهِمْ ، وَيُمسِّئُ أحوالَهُمْ على مُوجِبِهِ فى تَحْريمِهِمْ
وتَحْلِيلِهِمْ ، وَيُزَجِّرُ مِنْ نَواحٍ عَنِ طَرِيقِهِ ، لِيَرْجِعَ إلى ما يَحِبُّ عَلَيْهِ أَسْوَةَ رَفِيقِهِ ،
وَيَقْضَى بَيْنَهُمْ بما يَعتَقِدُونَهُ مِنَ الأحْكامِ ، وَيَبَيِّنُ لَهُمْ قِواعدَ دِينِهِمْ فى كُلِّ نَقْضٍ
وَإِبْرَامٍ ، فَلِما هَلَكَ الآنَ بَطْرِيكُهُمْ مَعَ مَنْ هَلَكَ ، رَسَمْنَا لَهُمْ أَنْ يَنْتَخبُوا لَهُمْ مَنْ
يَكُونُ لَطَرِيقَتِهِ قَدْ سَلَكَ ، وَأَنْ يَخْتارُوا لَهُمْ مَنْ يَسُوسُ أُمُورَهُمْ على أَكْلِ الوُجُودِ ،
لنَرِيسَ بِتَقْدِيمِهِ عَلَيْهِمْ [فيقوم] بما يُؤمِّلُونَهُ مِنْهُ وَيَرْجُوهُ .^(١)

(١) - حذف نون الرفع رداية للسجع .

وكان الحضرة السامية، القديس، المبعجل، الجليل، المكرم، الموقر، الكبير،
الديان، الرئيس، الروحاني، الفاضل، الكافي، المؤمن، جرجس بن القسّ مفضل
اليعقوبي، عماد بن المعمودية، كنز الأئمة المسيحية، منتخب الملة الصليبية، ركن
الطائفة النصرانية؛ اختيار الملوك والسلاطين: أطال الله تعالى بهجته، وأعلى على
أهل طائفته درجته، قد حاز من فضائل ملته أسماءها، وصعد من درجات الترقى
على أبناء جنسه أعلاها؛ فزّه نفسه عن مشاركة الناس، وتكشف بين أهله
في المأكل واللباس، وترك الزواج والنكاح، وأشتغل بعبادته التي لازم عليها في المساء
والصباح؛ وألقى نفسه إلى الغاية في الأطراح، وساح بخاطره في الفكرة وإن لم يكن
يحسده قد ساح؛ وأرتاض بترك الشهوات مدة زمانه، وأطرح الملاذ لتعلو درجته
بين أهله برفعة مكانه؛ وأشتمل من علوم طائفته على الجانب الوافر، وعرف من
أوامرهم ونواهيهم ما تقر به منهم العين والناظر؛ وطلب من الربّ الوفيّ الرحيم
القوة على أعماله، وسأل الإله أن يزيّن لأهل ملته ما يأتي به من أقواله وأفعاله؛
فوقع اختيارهم عليه، وسألوا صدقاتنا الشريفة إلقاء أمرهم إليه.

فرسّم بالأمر الشريف - لازل إحسانه إلى سائر العالم وإصلا، وجوده لكل
طائفة بارتداد أكفائها شاملا - أن يقدم حضرة القديس المؤمن جرجس المشار
إليه على الطائفة اليعقوبية، من الملة النصرانية، بالديار المحروسة والجهات الجارى
بها العادة؛ ويكون بطريركا عليهم على عادة من تقدم في ذلك ومستقر قاعدته إلى
آخر وقت، قائما بما يجب عليه من أمور هذه الملة، باذلا جهده في سلوك ما ينبغي
مما ينظم عليه أمره كله؛ فاصلا بينهم بما يعتقدونه من الأحكام، متصرفا على كل
أسقف وقس ومطران في كل نقض وإبرام، مالكا من أمور القسيسين والرهبان
والشمامسة الزمام؛ مانعا من يروم أمرا لا يسوغه وضع ولا تقرير، جاعلا نظره عليه

متقدماً بالتحرز في التخيير، زاجراً من يخرج منهم عن اتباع طريق الشريعة المطهرة التي يصح بها عقد الذمة، ملزماً بسلووكها في كل ملة فإن ذلك من الأمور المهمة، أمراً من في الديرة من الرهبان بمعاملة المارين بهم والنازلين عليهم بمزيد الإحسان ومديد الإكرام، والقيام بالضيافة المشروطة من الشراب والطعام .

وليتحدث في قسمة مواريتهم إذا ترفعوا إليه، وليجعل فصل أمور أهل طائفته من المهمات لديه، وليشفق على الكبير والصغير، وليتنزه عن قليل متاع الدنيا والكثير، وليزهد في الجليل قبل الحقير. وفي أطلاعه على أحكام دينه ما يكفيه في الوصية، وما يرفعه بين أبناء جنسه في الحياة الدنيوية، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله أعلاه .



وهذه نسخة توقيع لبطرك اليعاقبة، وهي :

أما بعد حمد الله على أن جعل من إحسان هذه الدولة لكل مليّ وذمّي نصيباً، وفوق إلى أهداف الرعاية سهما فسهما مامنهما إلا ماشهد مصيباً، والصلاة على سيدنا محمد الذي أحمد الله له سرى في صلاح الخلائق وتأويها - فإنه لما كان من سجايا الدولة القاهرة النظر في الجزئيات والكليات من أمور الأمة، وتجاوز ذلك إلى رعاية [أهل] الذمة؛ لاسيما من سبقت وصية سيد المرسلين عليهم من القبط الذين شرفهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بوصلته منهم بأمر إبراهيم ولده عليه السلام، وقبول هديتهم التي أبت لهم مزية على متمر الأيام؛ وكانوا لأبد لهم من بطريك يحفظ سوامهم، ويضبط خواصهم وعوامهم؛ ويجمع شمل رهبانهم، ويراعى مصالح أديانهم؛ ويحزر أمور أعيادهم ومواسمهم في كل كنيس، ويدعو للدولة القاهرة في كل تقديس؛ وتجعل [له] الخيرة في ضبط أمور البيع والديرة واختيار الأساقفة

والكُهان ، وحفظ النواميس المسيحية في كل قرآن ، ولا يصلح لذلك إلا من هو بتول ، وكل خاشع عاملٍ ناصبٍ يستحقُّ بذلك أن هذا الأمر إليه يؤل .

ولما كان البطريرك فلان هو المجمع على صلاحيته للبتركية على شعبه ، والتقدمه على أبناء المعمودية من شيعته وصحبه ، لما له من علم في دينه ، ومعرفة بقوانينه ، وضبط لأفانينه ، وعقل يمنعه عن التظاهر بما ينافي اليهود ، ويلافي الأمر المعهود - اقتضى جميل الاختيار أنه رُسم بالأمر الشريف - لأبرح يضع كل شيء في موضعه من الاستحقاق ، ويبلغ في الإرفاد لأهل المال والإرفاق - أن يباشر بتركية جماعة اليعاقبة بالديار المصرية ، على عادة من تقدمه في هذه الرتبة ، ومن ارتقى قبله إلى هذه الهضبة .

فليباشر أمر هذه الطائفة ، وليجعل معونته بهم طائفة ، وليضبط أمورهم أحسن ضبط وأجمله ، وأمه وأكله ، وليأخذهم بما يلزمهم من القيام بالوظائف المعروفة ، والعهود المألوفة ، وليلزمهم بما يلزمهم شرعا من كف عن تظاهر ممنوع ، أو تعطى محذور منكور الشرور والشروع ، أو تنكب عن طريق الاستقامة ، وكما أنهم عدلوا عن الإسلام لا يعدلون عن السلامه .

وأما أمور الديرة والخائس فأمرها إليك مردود ، فأجر فيها على المعهود ، وأقم فيها عنك من يحسن النيايه ، ومن يُجمل الإنابه ، ومن يستجلب الدعاء لهذه الدولة القاهرة في كل قداس ، ويعتد التقديس والأنفاس ، وعلى رهبان الأديرة للمساجد والجوامع وظائف لا تمنع ولا تؤخر ، ولا تُحوج أحدا منهم أنه بها يدكر ، وليشترط على أهلها أنهم لا يآوون طليعة الكفار ، ولا من يحصل منه إلا خيرا ولا يحصل الإضرار ، وليأمرهم بحسن الجوار ، والقيام بما هو موظف عليهم للمسلمين السنفار

وغير السُّفَّار؛ هذه نبذة من الوصايا مُقنَّعة، ولو وسَّع القول لكان ذا سَمَعَه؛
 وفي البَطْرِيْرِك من النَّبَاهة ما يُباهمه الصَّواب، والله يجعل حسنَ الظَّنِّ به لا آرتيَاءَ فيه
 ولا آرتياب؛ بمَنَّة وكرمه!، والاعتماد



وهذه نسخةٌ توقيع لبَطْرِك اليعاقيَّة، وهى :

أما بعد حمد الله الذى خصَّ كلَّ مَلَّةٍ مِنَّا بِمِنَّةٍ، وأقام بأوامرنا على كلِّ طائفةٍ من
 نرضاه فَنُحَقِّق بِإِحساننا ظَنَّهُ، وجعل من سِيَمِنَا الشَّرِيفَةِ الوصِيَّةَ بأهل الكُتَابِ عملاً
 بالسُّنَّةِ . والشَّهادةِ بوحدانيَّةِ التى نَتَّخِذُ بينها وبين الشُّكِّ والشُّركِ من قُوَّةِ الإيْمَانِ
 جُنَّةً، ونَدْحِرُ أَجُورَهَا فنَسْمُو بِهَا يَوْمَ العَرْضِ إلى أعلى عُرْفِ الجَنَّةِ . والصلاةِ والسلامِ
 على نبيِّه محمَّدٍ أكرم من أرسَلَه إلى الأُممِ فأنال كَلَّاماً من البرايا يُمنِّه، وأعظم من بعثه فشرَّع
 الدينَ الحنيفَ وسنَّه؛ وعلى آله وأصحابه الذين لم تزل قلوبُ المؤمنين بهم مطمئنةً -
 فإنَّ لدولتنا القاهرة العوارِفَ الحِسانَ، والشِّيمَ الكريمةَ والعطاياَ والإحسانَ؛
 والفواضِلَ التى للآمالِ [منها] ما يُرَبِّي عليها وَيَزِيدُ، والمآثرَ التى بَجُرِّ رِثَّها الوافرِ
 المديدِ؛ ولكلِّ مَلَّةٍ من نِعَمِها نوالٌ جَزِيلٌ، ولكلِّ فِرْقَةٍ من مَواهِبِها جانبٌ يقتضى
 التَّخْوِيلَ ولا يَقْضَى بالتَّحْوِيلِ، ولكلِّ طائفةٍ من يُمنِّها ومَمَّا مَنَّحُ طائفةً بِمزيدِ
 التَّنْوِيلِ؛ ولكلِّ أناسٍ من معدلتها نصيبٌ يشمَلُ المَلَلِ، وعادةٌ معروفٍ تواترت مع
 أنها خالصةٌ من السَّامةِ والمَلَلِ، سَجِيَّةٌ سَخِيَّةٌ بنا شَرُفَتْ، ومَزيَّةٌ مَروِيَّةٌ مِنَّا أَلْفَتْ؛
 وإنَّ من أهل الكُتَابِ لَطائفةٌ كَثُرَتْ بأبوابنا الشَّرِيفَةِ عَدَدًا، وأستصَفَّتْ من مَناهلِ
 جُودِنا مَورِدًا، وانتظمتْ فى سِلْكِ رعايانا فأضحى سَبَبُ فضلنا لها مَؤكِّدًا؛ وكانت
 المِلَّةُ المَسِيحِيَّةُ، والفِرْقَةُ اليَعْقُوبِيَّةُ؛ لا بُدَّ لها بعد موتِ بَطْرِكِها من إقامةٍ غيره،

وتقديم من يرتضى بفعله وقوله وسيره؛ لتقتدى به في عقد أمورها وحلها، وتحريمها وتحليلها ووصلها وفصلها، وتهتدى به في معتقدها، وتركن إلى ما يذكركه من مجموع أحكام الإنجيل ومفرداتها؛ وينتصب للفصل بين خصومها بما يقتضيه عرفانه، ويظهر لأهل ملته بيانه؛ حتى لا تجدد في أمر دينها إلا ما تريده، وبما نديمه لها من استمرار الهدنة تبتدى دعاءها وتعيده؛ فإن سيدنا محمدا - صلى الله عليه وسلم - أمرنا أن نستوصى بأهل الكتاب خيرا، ونحن نسلك من أتباع شريعته المطهرة ما أحسن فيه - إن شاء الله - سيرة يسيرة وسيرا .

ولما كانت الحضرة السامية، الشيخ، الرئيس، المبجل، المكرم، الفاضل، الكافي، الثقة، عماد بني المعمودية، كنز الطائفة الصليبية؛ اختيار الملوك والسلاطين، فلان - أطال الله بقاءه، وأدام على أهل طائفته ارتقاءه - ممن أنفق على شكره أبناء جنسه، وأستوجب أن يرقى إلى هذه الرتبة بنفسه؛ وأشهر بمعرفة أحوال فرقه، وهجر الأهل والوطن في تهذيب خلقه؛ وحرّم في مدة عمره النكاح، وسار في المهامه والقفار وساح؛ وأضحى تخميص البطن خاوي الوفاض، قد ترك الطيبات وهجر التعم وآرتاض؛ وأعتمد في قوله على الإله، وسأل الرب أن يبلغه في أهل ملته ما تمنّاه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يجمع الفرق على الدعاء لأيامه الشريفه، ويديم للأقربين مواد مواهبه المألوفه - أن يقدم الشيخ فلان على الملة النصرانية اليقوبية، ويكون بطريركا عليها على عادة من تقدمه، ومستقر قاعدته، بالديار المصرية والثغور المحروسة، والجهات التي عادته بها، إلى آخر وقت، [فليتول ذلك] سالكا من طرق النزاهة ما يجب، فاصلا بين النصارى بأحكام دينه التي لا تخفى عنه

ولا تَحْتَجِبُ ؛ مالِكًا أزمَةً كلُّ أُسْقِفٍ وقَصٍّ ومِطْرَانٍ ، مَرَّحًا بينَ القَدِيسِ والقِيسِ والشَّاسِ والرُّهبانِ ؛ لتُصْبِحَ أَحْكامُ كَبيرِهِم وصَغيرِهِم بِهِ مَنُوطَةٌ ، ومواريئُهُم مَقسُومَةٌ بِشِرعَتِهِ الَّتِي هِيَ لَدَيْهِم مَبسُوطَةٌ ؛ وَيَقِفَ كُلُّ مَنَّهُم عِنْدَ تَحْرِيمِهِ وَتَحْلِيلِهِ ، ولا يَخْرُجُ فِي شِرعَتِهِم عَن فِعْلِهِ وَقَوْلِهِ ولا يَقْدِمُ مَنَّهُم إِلا مَن رَضِيَ بِتَأْهِيلِهِ ؛ وليَأْمُرُ كُلُّ قاصٍ مَنَّهُم ودانٍ ، ومن يَتَعَبَّدُ بِالدَّيرَةِ والصَّوامِعِ مِنَ الرِّجالِ والنِّسوانِ ، بَرَفَعِ الأَدْعِيَةَ بِدوامِ دَوْلَتِنَا القاهِرَةِ الَّتِي أُسِّدَتْ لَهِم هَذا الإِحْسانُ ؛ وَيُلْزِمُ كَلا مَنَّهُم بِأَن لا يَحْدِثُ حَدِيثًا ، وَيُكْرِمُ نَزْلَ مَن قَدِمَ عَلَيهِ راحِلًا أو لائِشًا ؛ فَإِنَّ هَذا الوِلايَةَ قَدْ آلتْ إِليهِ ، وَهُوَ أَدْرَبُ بِما تَطوَى شِروطُها عَلَيهِ ، وَاللَّهُ تَعالَى يَجْعَلُ البَهْجَةَ [لَدَيْهِ] مُقِيمَةً [وَالنِّعْمَةَ عَلَيهِ مُسْتَدِيمَةً] ؛ وَالخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ ، حِجَّةٌ بِمُوجِبَةٍ وَبِمَقْتَضَاهُ ، إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعالَى .



وهذه وصية لبطرك اليعاقبة أوردتها في "التعريف" قال :

ويقال في وصية بطرك اليعاقبة مثل ما في وصية بطرك الملكية ، إلا فيما ينبه عليه .
ويسقط منه قولنا : « وأعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك طريق إلى الباب » إذ كان لا يدين بطاعة الباب الذي هو رأس الملكانيين ، وإنما هو رأس اليعاقبة نظيره للملكانيين ، ويقال مكان هذه الكلمة « وأعلم بأنك في المدخل إلى شريعتك قسيم الباب وأنتما سواء في الأتباع ، ومتساويان فإنه لا يزداد مضراع على مضراع » .
ويسقط منه قولنا : « وليتجنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يغرق » وثانية هذه الكلمة إذا كان ملك اليعاقبة مغفلا [في الجنوب] ^(١) ولا بحر ، ويبدل بقولنا : « وليتجنب ما لعله ينوب ، وليتوق ما يأتيه سرا من تلقاء الحبشة حتى إذا قدر فلا

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٦ .

يَسْمُ أَنْفَاسَ الْجَنُوبِ ؛ وَلِيَعْلَمَ أَنَّ تِلْكَ الْمَادَّةَ وَإِنْ كَثُرَتْ مَقْصَرُهُ ، وَلَا يَحْفَلُ بِسُودَدِ
السُّودَانِ فَإِنَّ اللَّهَ جَعَلَ آيَةَ الدَّلِيلِ مُظْلَمَةً آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً ، ثُمَّ يُخْتَمُ بِالْوَصِيَّةِ بِالتَّقْوَى
كَمَا تَقَدَّمَ ، وَنَحْوَ هَذَا وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

النوع الثاني

(ما هو خارج عن حاضرتي مصر والقاهرة : من وظائف الديار المصرية
مما يُكْتَبُ لأربابها . وهي ثلاث جهات)

الجهة الأولى

(ثغر الإسكندرية ، والوظائف فيها على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(وظائف أرباب السيف وبها وظيفة واحدة وهي النيابة)

وقد تقدم في الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنها كانت أولاً ولايةً ،
إلى أن طرقها الفرنج في سنة سبع وستين وسبعائة ، فاستقرت من حينئذ نيابةً ،
يُكْتَبُ لنائبها تقليد في قطع الثنتين «الجناب العالي» مع الدعاء بمضاعفة النعمة .

وهذه نسخة تقليد نيابة ثغر الإسكندرية :

الحمد لله على نعم باسمه الثغر ، مُسْفِرَةَ الفجر ، رافعة القدر .

نحمده حمداً يشرح الصدر ، ويطلع طلوع البدر ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة تُخالف من يُخالفها ، وتُخالف من يُخالفها ؛ ونشهد أن محمداً عبده

ورسوله أفضل نبي رابط في سبيل الله وجاهد، وكابد في الجهاد أمداء الدين وكايد،
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين خاضوا في عمرات الدجى كل عمر، وندبوا
لحماية الدين كريمة وسداد نغر .^(١)

أما بعد، فإن الأهتمام بالثغور هو أولى ما إليه حُمد، وعلى مصالحها أعتمد؛ وكان
نغر الإسكندرية المحروس هو المقتر عن أحسن الثنايا، والمخصوص من الحياة
بأتم المزايا؛ والذي كم شفت شفاؤه من سقم عند ارتشاف، والذي المشاغرة به
والمرابط كم له بالحسنات من أئلاف؛ وكانت المصلحة تقتضى أن لا يختار له
الإكل كامل الأوصاف، كالفيل بما تستدعيه مصلحة أهله من إنصاف؛ ذو عزم
يمضى والسهم مستودعة في الكائن، ويقضى بالعدل المزيل للشوائب والشوائن،
ومن له حزم يسد نغر المعايير دون كل ملاحظ ومعين؛ وله سياسة تحفظ بمثلها
الثغور، وتضان الأمور، وله بشاشة تستجلب الثفور، وتوفق ما بين الألسنة
من أولى الود والصدور؛ وله حيطة بينا يقال: هذا جانبه دمت إذ يقال: هذا
جانبه صعب ممتنع، وبينما يقال ليقظته للصحة: هذا سحاب يتجهم^(٢) إذ يقال هذا
سيل مندفع .

ولما كان فلان هو مستوعب هذه الصفات، ومستودع هذه الأسماء والسمات؛
وإليه بهذه المناقب يُشار، وهو ساحب أذيل هذا الفخار - أقتضى حسن الرأي

(١) بياض بالأصل ولعله فكانوا ليوم انخ .

(٢) في الأصل « كفت » وهو تصحيف من الناسخ .

(٣) لعله سحاب جهام . أى لا ماء فيه . تأمل .

الشريف أن تُفَوِّضَ إليه نيابة السلطنة الشريفة بتغر الإسكندرية المحروس ،
تفويضا يمضى فى مصالحه لسانه وقلمه ، ويُصَرِّفُ بين الأوامر والنواهي إشاراته
وكلمه ؛ ويزين مواكبهُ بطلعته ، ويزيد مهابته ببعد صيته وأشتهار سمعته .

فلبيا شرهذه الوظيفة مجتلا مواكبها ، مكلا مراتبها ، موثلا بقواعد الأمن أرجاءها
وجوانبها ؛ ناشرا لواء العدل على عوالمها ، قابضا بالإنصاف لمظلوم رعيتها على يد
ظالمها ؛ معليا منار الشرع الشريف بمعاضدة حكمه والانتقاد إلى أحكامه ، والوقوف
فى كل أمر مع تقضه وإبرامه ؛ وليتحرس جوانب هذا الثغر ويحميها ، وليصن عوارضه
وما فيها ومن فيها ؛ وليكلاه برا وبحرا ، وليرخ عليه من ذبه سترًا فسترًا ؛ ولينجح
لسافرتيه طلبًا ، وليبلغهم من العدل والإحسان أربابًا ؛ ويحل معاملته من وجد منهم^(٢)
فى سفره نصبا ، وأخذ سبيله فى البحر عجبًا . والرعية فهم طراز الممالك ، وعنوان
العمارة الذى من شاهده فى هذا الثغر علم ما وراء ذلك ؛ وأحسِن إليهم وأرف بهم ،
وبلغهم من عدل هذه الدولة غاية أربهم ؛ وأمور الخمس والديوان فلها قواعد
مستقره ، وقوانين مستمّره ؛ فاسلك منها جددا واضحا ، وأبتغ لها علما لأحبا ؛
وغير ذلك فلا يكاد على فهّمك يخفى ، من تقوى الله التى بها تكف عين المضار
وتكفى ؛ والله تعالى يلهمك صوابا ، ولا يجعل بين حجاجك وبين المصالح حجبا ،
بمنه وكرمه ! .

(١) موثلا ممكنا . من وثل الشئ أصله ومكنه .

(٢) (لسافرتيه) هم المسافرون .

الصنف الثانى

(من الوظائف التى يكتب بها بشعر الإسكندرية - الوظائف الدينية،
وكلها تواقع، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى^(١)

(ما يكتب منها فى قطع الثلث بـ «السامى» بالياء، وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(القضاء)

وهو الآن مختص بالمالكية، وقاضيا يتحدث فى نفس المدينة وظاهريها،
ليس له ولاية فيما هو خارج عنها .

وهذه نسخة توقيع بقضاء نفر الإسكندرية للملكى، كتب به للشيخ «وجيه الدين
محمد بن عبد المعطى الإسكندرى المالكى» وهى :

الحمد لله رافع قدر من نوه العلم بذكره، ونور التقي مواقع فكره، وتبه الورع على
رفعة قدره، وأشرق به منصب الحكم العزيز إشراق الأفق بطلوع بدره، وأضاءت
بنور أحكامه غوامض القضايا الشرعية إضاءة الدجى بغرة فجره، وقضى له دوام
الإصابة فى الاجتهاد بإحراز أجره إذا كان أحد قسمى الاجتهاد مقتضياً لأجره،
وملئ صدره بأنواع العلوم الدينية فوسع له الشرع الشريف صدر مجلسه وأعد له
مجلس صدره، وزخر من خاطره بحر العلم فأرتوت رياض الخواطر بأنوار فرائد دُرّه،

(١) لم يذكر الثانية فما يأتى .

وأسفر وجه الدين بنور علمه وعمله : فقام هذا مقام السرور في أسارىه وناب هذا
مناب الشنب في ثغره .

نحمده حمداً يزيد قدر النعم تنويها ، ويسوغ في المحامد تعظيماً لمسدى المنة وتزيها ،
وينهض بشكر التوفيق في اختصاص منصب الحكم بمن كان عند الله وجيها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفتّر ثغور الإسلام بإدامتها ،
وتبني قواعد الإيمان على إقامتها ، وتسيم بوارق النصر على جاحدها من أثناء
غماتها ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنارت الآفاق بلمته ، ودارت أداة
التشبيه بين أنبياء بنى إسرائيل وعلماء أمته ، وضاهى شرعه شمس الظهيرة في وضوح
أحكامه وظهور أدلته ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عملوا بما علموا ،
وجاهدوا أعداء الله فما ضعفوا لذلك ولا ألموا ، وقضوا بالحق بين أمته فلا المقضى
لهم أمموا ولا المقضى عليهم ظلموا ؛ صلاة لا تزال لها الأرض مسجداً ، ولا يبرح
ذِكْرُهَا مُتَمِّمًا فِي الْآفَاقِ وَمُنْجِدًا ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من قلد الحكم وإن نأى به الورع عن توقعه ، وخُطب للقضاء
وإن أعرض به الزهد عن طلابه وتبّعهُ ، ودعى إليه إذ الإجابة عليه متعينة ،
ووضعت مقاليد الحكم الاستحقاق [في يديه] إذ أولويته البيئة لا تحتاج إلى بيته -
من عقدت على تعينه لهذا المنصب الجليل الخناصر ، ودعت إلى استدعائه
إليه فضائله الثابتة القواعد وزهادته الزاكية الأواصر ؛ ودلت عليه علومه دلالة
الأضواء ، على لوايح الشهب ، ونهت عليه فنونه تنبيه الأنواء ، على مواقع السحب ؛
وشهد بورعه المتين ، تفقّهه وأعتاله ، وأنبأ عن نهوضه بنصرة الدين ، قوة جداله
الذي هو جلاّد مثله ونزاله ؛ وتجرّ في أنواع العلوم حتى جاور البحر بمثله ولكنه

العذب الزلال ، وشغل نفسه بالتنوع فى الفنون فكان التحلى بعبادة الله ثمرة ذلك
الاشتغال ، ومشى على قدم الأئمة العلماء من أسلافه فلم يشق فى ذلك المضمار غباره ،
ونشأ على طريقة العلم والعمل : فماره بالانقطاع إليه ليله وليله بالاشتغال بهما نهاره .

ولما كان فلان هو الذى خطبته هذه الرتبة السنية لنفسها ، وتشوقت إلى الإضاءة
بطلوعه فى أفقها تشوق المطالع إلى الإضاءة بطلوع شمسه ، وأثنى لسان القلم على
فضائله وهو يعتذر من الاختصار ، واقتصرت البلاغة على اليسير من التعريض
بوصفه وطالب ما لا يحصر معذور فى الاقتصاد والاقتصار ، وعين لما تعين عليه من
مصالح الأمة وذلك يقضى لمثله من أهل الورع أن يجيب ، وطالب لعموم مصالح
الإسلام التى ما ينبغى لمثله من أنصار السنة أن يتأخر عن مثلها أو يغيب ، وكان
ثغر الإسكندرية المحروس من المعاقل التى يفتقر عن شنب النصر ثغرها ، ومن أركان
الدين التى يغص بأبطالها بجرها ، وهى مأوى صلحاء الجهاد الذين سبهم ليهم
أسبق إلى العدا من سهامهم ، وموطن العلماء من أهل الاجتهاد الذين يعدل دم
الشهداء مداد أقلامهم ، وهى داره التى تزهى به نواحيها ، وموطن رباطه الذى يوم
وليلة منه فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نحص
منصب حكيمها بعالم أفقها المنير ، وزاهد ثغرها الذى ماشام برقه بصر عدو إلا وأنقلب
إليه خاسئا وهو حسير ، أن نفوض إليه منصب القضاء والحكم العزيز بثغر
الإسكندرية المحروس ، على قاعدة من تقدمه فيه ، نظرا فى عموم ذلك الثغر
المحروس به (؟) إلى من انعقد إجماع أئمة عصره ومصره على سعة علمه ووفور ورعه
وكمال فضله .

(١) مراده أنها مأوى صلحاء المتعبدين الذين الخ .

(٢) يظهر أن فى هذه العبارة سقطا وحرر .

فليأشِر هذا المنصبَ الذى مَلَكَ أمره العلمُ والتقى ، ونظامُ حكمه العدلُ والورعُ وهما أَكْبَلُ ما به يُرتقى ؛ وليُحْكَمْ بما أراه الله من قواعد مذهبه المحكَّمة ، وأحكام إمامه التى هى بمصالح الدين والدنيا محكَّمة ؛ وليُقَضَّ بأقوال إمام دار الهجرة التى منها صدرت السنَّة إلى الآفاق ، وعنْها أُخذتْ ذخائرُ العلم التى تركوها على كثرة الإنفاق ؛ وبها حَمِيَ الأحكام الدينية موطأً الأكتاف ، وفيها استقام عمودُ الملة ممدود الطَّرف على سائر الأطراف ؛ فليس من ذلك وغيره جميع ما كان يليه من تقدِّمه ، وتفتيضه قواعد ولايته التى أمضينا فيه لسانه وقلمه .

فأما ما يدخل تحت هذا الإجمال من آداب القضاء وقواعده ، وأدواته وعوائده : من تخصيص الحكم بأوقاته ، ومساواته بين الخصمين فى إنصافه وإنصاته ؛ واجتناب الحكم فى الأوقات المقتضية لتركه ، وتوقُّى نقض الأحكام التى نظمها عدم مخالفة النص والإجماع فى سلكه ؛ فإنه مكْتَفٍ بالإجمال عن تفصيلها ، مكتفٍ عن ذكر كثيرها بالإيماء إلى قليلها ؛ إذ هو أدري بأوضاعها شرعاً وعرفاً ، وأدرب بما قد يشدُّ منها عن المعية أو يخفى ؛ وملاك الوصايا تقوى الله تعالى وهى من خصائص نفسه ، وفواتح ما ابتدأ الورع بإتقان درسه ؛ والله تعالى يؤيد حكمه ، ويعلى علمه ؛ بمنه وكرمه ! والأعتماد إن شاء الله تعالى .



وأعلم أنه كان فيما تقدّم قد وليها قاضٍ شافعى .

وهذه نسخة توقيع بقضائها ، كُتِبَ به للقاضى «عَلَمُ الدين الإخنائى» الشافعى ،

فى ثامن شعبان سنة ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمد لله الذى رَفَع لنا فى كل نَغْرَعَا، وأَجْرَى لنا فى جِوَارِ كُلِّ بَحْرٍ مَا يَضَاهِيهِ
كِرْمًا؛ وجعل من حُكَامِ دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةِ من يُعْرِفُ بِنَسْبِهِ الْإِنْسَانِيَّ بِلِ السَّنَائِي أَنَّهُ
يُحُو من العُلْمِ ظَلَمًا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَن زَادَنَا نِعْمًا، وَوَفَّرَ لِلْأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ بِنَاقِسَمَا، وَأَعْلَى قِيَمًا، [فَأَضَحَّتْ]
تُشَافِسُ الدَّرَّ الثَّمِينِ قِيَمًا؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُجْرَدُ
لِإِقَامَتِهَا سَيْفًا وَقَلَمًا، وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي جَعَلَ اللَّهُ لَهُ شَرِيعَةً مَازِيَةً
وَدِينًا قِيَمًا، وَنَضَبَ مِنْ أُمَّةٍ أَتْبَاعَهُ كُلِّ عِلْمٍ يَهْدِي أُمَّمًا، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
صَلَاةً بَاقِيَةً مَا بَقِيَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ؛ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوْلَى الثُّغُورِ بَأَن لَا يَزَالَ بِهِ عِلْمٌ مَرْفُوعٌ ، وَعِلْمٌ مَصُونٌ حِجَابُهُ الْمُنْعُوعُ ،
وَعَمَلٌ يَمِشِي بِهِ أُمَّةٌ الْأُمَّةِ عَلَى طَرِيقِهِ الْمَشْرُوعِ ، نَغْرُ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ - حَمَاهَا اللَّهُ
تَعَالَى - فَإِنَّهَا مِنْ دَارِ الْمَلِكِ فِي أَعَزِّ مَقَامٍ ، وَمِنْ مُجَاوِرَةِ الْبَحْرِ فِي مَوْطِنِ جِهَادٍ تَحْقِيقِ
بِهِ الْأَعْلَامِ ؛ وَغَالِبٌ مِنْ فِيهَا إِمَامٌ فَقِيهٌ يَتَمَسَّكُ بِالشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ فِي عُلُوِّ عُلُومِهِ ،
أَوْ رَبُّ مَالٍ لَهُ وَقُوفٌ بِمَجْلِسِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ يَنْتَصِفُ مِنْ خِصَامِ خُصُومِهِ ؛ وَلَمْ تَزَلْ
وِظِيفَةُ الْقَضَاءِ بِهَا أَهْلَةُ الصَّدُورِ ، كَامِلَةُ الْبُدُورِ ، مَتَهَلِّلَةٌ بِمَا لَا يَفُوتُ الشَّنْبُ بِكَارِقِ
الْجَزَعِ إِذَا حَكَى إِيمَاضَ الثُّغُورِ ؛ وَكَانَ لَهَا مَدَّةٌ قَدْ خَلَّتْ وَنَحْنُ نَفَكَّرُ فِيمَنْ يَكُونُ
سَدَادًا لِنَغْرِهَا ، وَكَافِيًا فِيمَا يُبْهَمُ فِي الْأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ مِنْ أَمْرِهَا ؛ وَكَافِلًا مِنَ الْحَقِّ الَّذِي
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ بِمَا يَبْقَى النُّفُوسُ ، وَقَائِمًا فِي مَدَارِسِهَا بِمَا يَزِيدُ مَعَالِمَهَا إِشَادَةً فِي الدَّرُوسِ ؛
حَتَّى أَجْمَعَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ عَلَى مَنْ يُحْسِنُ عَلَيْهِ الْإِجْمَاعُ ، وَتُحْسَمُ بِهِ دَوَاعِي النَّزَاعِ ،
وَيَحْسُدُ عَلَيْهِ عِلْمُ الشَّمْسِ لِمَا عَلَا عَنْهَا مِنْ كُرَّةِ الْأَرْتِفَاعِ ؛ وَمَنْ يَتَضَوَّعُ بِشَرِّ الْعَدْلِ

في يَمْنَى كفه القلم ، وإذا وقفت به الركائب قالت : ياسارى القصد هذا البانُ
والعلم ؛ وكان المجلس السامى القضاى العامى الإسنانى الشافعى ، أدام الله علوه هو
العلم المنشور ، والعلم المشهور ، والمراد بما تقدم من وصف مشكور ؛ فافتضت
مراستنا المطاعة أن تُناط به من الأحكام الشرعية القضايا ، وأن يسلم هذا الثغر
بحكمه عن واضح الثنايا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ، العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الناصرى :
زاده الله شرفا ، وضاعف له تصرفا - أن يفوض إليه القضاء بمدينة إسكندرية -
حماها الله تعالى - على عادة من تقدمه وقاعدته المستقرة إلى آخر وقت ، على أنه
يستنبط عنه فى تحمله وفيما شاء منه من هو موصوف بصفته ، موثوق بدينه وعلمه
ومعرفته ؛ ولينتصب فى مجلس الحكم العزيز لمن ينتصف ، ويعمل بما يرضينا من
مراضى الله تعالى فإن للعيون أن تنظر وللألسنة أن تصف ؛ ولينظر فى أمر الشهود
فإن الأحكام الشرعية على شهادتهم تُبنى ، وليحترز من الوكلاء فإن منهم من يجعل
الظن يقينا واليقين ظنا ، ولينظر فى أمور الأيتام ويتصرف فى أموالهم بالحسنى ؛
وليقيم الحدود ، على مقتضى مذهبيه ، ويعول فى العقود ، على من لا يخاف معه أمرؤ
على إلحاق فى نسبه ؛ وغير هذا مما إليه مرجعه ، وإليه ينتهى مفرقه ومجتمعه
وبحكمه يفصل أمره أجمعه ؛ وليتخذ الله تعالى عليه رقبيا ، ويعلم أنه سيرى كل
ما يعملهُ عند الله قريبا ، وتقوى الله هى التى تتخذ معه عليها عهدا مسئولا ، ورجاء
مأمولا ؛ وقولا عند الله وملائكته وأنبيائه مقبولا ، وتقلده منها على كل مخالف سيقا
مسئولا ؛ ونحن نرغب إلى الله أن يوقفه فى حكمه ، ويعينه على كل ما يملئ من الوصايا
بما هو ملى به من عمله وعلمه ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجة فيه .

قلت : وكان قد استُحدث بالإسكندرية قاضٍ حنفى فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » يُولى من الأبواب السلطانية رقيقاً للقاضى المالكى بها ، يتحدث فى الأحكام فى القضايا المتعلقة بمذهبه خاصّة ، وأمر مُودع الأيتام ونظر الأوقاف ، وغير ذلك من متعلّقات قضاء القضاة مختصّ بالمالكي ؛ ثم صارت بعد ذلك تارة يُولى بها حنفى كذلك ، وتارة تُشغّر منه . فإن وليها حنفى ، كتب له فى قطع الثُّك كما يكتب للقاضى المالكى ، وليس بها الآن شافعى إلا نائباً عن المالكى ، ولا حنبليّ بها أصلاً .

الوظيفة الثانية

(الحِسبة بئغر الإسكندرية)

ومحتسبها يُمضى تحدّثه فيما يختص به قاضيا ، وليس له تُوَاب فيما هو خارج عن ذلك من البلاد .

وهذه نسخة توقيع بالحِسبة بئغر الإسكندرية .

الحمد لله الذى جعل المناصب فى أيماننا الزاهرة محفوظةً فى أكفائها ، مضمونة لمن تقاضت [له] من الإقبال ر [د] جفائها ، معدوقةً فى مالها إلى من زانها بمعرفته الحسنة بحسن ... (١) ... بمن دلت كفاءته وكفايته على أنه أولى بتقرّبها وأحقّ باصطفاها .

أحمدُه على نعيمه التى لم تُحِبّ فى إحساننا أملاً ، ولم تُضَيّع سعى من أحسن [العمل] فى مصالح دولتنا إن الله لا يُضَيّع أجر من أحسن عملاً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً هى أشرف ما فاه به اللسان ، وأفضل ما تُعبّد به

(١) بياض بالأصل . ولعله " بمعرفته الحسنة وحسن بهاها ، مخصوصة بمن الخ "

الإنسان ، وأرفع ما ملكت به في الدنيا والآخرة عظام الرتب الحسان ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أحل الطيبات وأباحها ، وأزال الشبهات وأزاحها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تمسكوا بأحكامه ، ووقفوا مع ما شرع لهم من حلال دينه وحرامه ، وحافظوا على العمل بسنته بعده محافظتهم عليها في أيامه ، صلاة يتوقد سراجها ، ويتأكد بها انتساق السنة وانتساجها ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من رجع فيه حق منصبه إلى نصابه ، ورد به واجب رتبته إلى من جعلته سوابق سيرته أولى به ، وتفاضت له سيرته عواطف كرمنا ، ونهضت زاهته باستطلاع ما غاب عنه من عوارفنا ونعمنا ، وأغنته أوصافه عن تجديد ثناء يستعاد به رثنا القديم ، ويستدام له به فضلنا العميم ، وتستدر به أخلاف كرمنا الذي تساوى في عمومه الطاعن والمقيم - من زان التقى أوصافه ، وكلت العفة معرفته وإنصافه ، وتولت الديانة نظره فيما عدق [به] من مصالح الرعايا خصوصاً وعموماً ، وتكفلت الخبرة من اعتباره لأمر الأوقات بأن جعل لكل منها في الجودة حداً معلوماً ، وبأشرف ما فوض إليه بجمع بين رضا الله تعالى ورضا خلقه ، وعول عليه في حِسبة أعز الثغور لدينا فتصبح الرعايا فيما بسط لهم من رزقه .

ولما كان فلان هو الذي أضاعت أوصافه وهل تُنكر الإضاءة للسراج ، وتُسوّف إليه رتبته فلم يكن لها إلا إليه ملاذ وإلا عليه معاج ، فسلك من السير أرضها لربه ، ومن الأحوال أجمعها لأمن عاقبته وسلامة غيبه ، ومن الاجتهاد في مصالح الرعايا ما يُضاعف شكره على احتسابه ، ومن الخيرة ما يُعرف كلاً منهم كيف يكون اكتساء البرية في اكتسابه - رُسم أن يستقر (١)

(١) بياض بالأصل وهو معلوم مما تقدم وحذفه اختصاراً في الكتابة .

فليستمر في ذلك على عادته التي ناضت عنه فأصابت ، وقاعدته التي دعت له
عواطف نعمنا فأجابت ، ويزد في التحذير والتحقيق ما استطاع ، ويُناقش حتى
يستقر على الصحة فيما يُباع أو يُبتاع ، ويقابل على الغش بما يردع متعاطيه ، ويزجر
صانع الأعمال الفاسدة عن استدامتها ومن يُوافقه على ذلك ويؤاظيه ، ويختر أموال
الأحباس بملاحظة أصولها ، والمحافظ على ريعها ومحصولها ، وإمضاء مصارفها
على شروط واقفها إن علمت ومزنية (؟) ما قدم من شكره والثناء عليه ، وملاك
ذلك جميعه تقوى الله تعالى وهي أخص ما قدم من أوصافه ، والرفق بالرعايا وإنه
من أحسن حلي معرفته وإنصافه ، والخير يكون إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثالثة

(نظر الصادر)

وموضوعها التحدث في قدر مقرر يؤخذ من تجار الفرنج الواردين إلى الإسكندرية ،
وعليه مرتبات لناس مخصوصين من أهل العلم والصلاح ، يُنفق عليهم بمقادير معلومة
من متحصل هذه الجهة .

وهذه نسخة توقيع بنظر الصادر والوارد ، أنشأته عن السلطان الملك الناصر
«فرج بن الظاهر برقوق» للقاضي ناصر الدين «محمد الطنّاحي» إمام المقام الشريف
السلطاني ، في منتصف شهر صفر سنة أربع وثمانمائة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل من سلطاننا الناصر لأخص ولي أعز ناصر ، وخصه من
فائض كرمنا المتتابع ومننا المترادف بأكرم وارد وأبر صادر ، وبوأه من فضلنا المنيف
أفضل مبراً : فتارة تأتم به الملوك وتارة يخطب الكافة على رؤوس المنابر .

نحمدُه على أن جعلنا نَتَّبِعَ في الْوِلايَاتِ نَهْجَ الصَّوَابِ وَنَقْتَفِيهِ ، وَأَثَرَنَا مِنْ أَثَرَةِ
الْأَبُوَةِ بِأَعْلَى مَوَاقِعِ الْأَجْتِبَاءِ وَالْوَلَدِ سِرَّأَيْبِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي أَدَّلَ طُغَاةَ الْكُفْرِ بِقَمْعِ أَنْفِ كِبَرَاءَتِهِمْ ، وَأَلْزَمَهُمُ الصَّغَارَ بِمَالٍ
يُؤْخَذُ مِنْ أَقْوِيَاءِ أَغْنِيَاءِهِمْ فَيَفْرَقُ فِي ضِعْفَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَفُقَرَاءَتِهِمْ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدًا عَبْدَهُ
وَرَسُولَهُ الَّذِي نَدَّبَ إِلَى مَبْرَةِ أَهْلِ الْفَضْلِ وَذَوِيهِ ، وَرَغَّبَ فِي رِعَايَةِ الْمُوَدَّةِ لِلآبَاءِ
بِقَوْلِهِ : «إِنَّ مِنْ أَبْرَارِ الرَّجُلِ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ عُدَّتْ بِهِمْ مَهَمَاتٌ ، فِقَامُوا بِحَقِّهَا ، وَوَسَّكَتْ إِلَيْهِمْ جَلَائِلُ الْوِلايَاتِ ، فَأَحْرَزُوا
بِحَيْلِ التَّأْمِيرِ قَصَبَ سَبْقِهَا ؛ صَلَاةً يَبْقَى عَلَى مَدَى الْأَيَّامِ حُكْمُهَا ، وَلَا يَتَغَيَّرُ عَلَى مَرَّةِ
الزَّمَانِ رَسْمُهَا ؛ وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فإن من كريم سجايانا التي جُبلنا عليها، وشريف شيمنا التي يجذبنا طيب
العنصر إليها، أن نُخَصَّصَ الْأَوْلِيَاءَ بِأَسْنَى الْوِلايَاتِ ، وَنُخَفَّ أَصْنَى الْأَصْفِيَاءِ
بِنَهَايَةِ غَيْرِهِ فِي الْبِدَايَاتِ ؛ وَنَرْفَعَ قَدْرَ مَنْ لَمْ يَزَلْ ظَهْرُهُ لِلْمُلُوكِ مَحْرَابًا ، وَنُتَوِّدَ بِذِكْرٍ مِنْ
رَغِبَتْ فِيهِ الْوِظَانُفُ فَعَدَلَتْ إِلَيْهِ عَنِ سِوَاهِ إِضْرَابًا .

وكان المجلس السامى ، القاضوى ، العالمى ، العاملى ، الفاضلى ، الكاملى ،
البارعى ، البليغى ، الماجدى ، الأوحدى ، الأثيرى ، الأثبلى ، العريقى ، الأصبلى ،
الخطيبى ، الناصرى ، مجدى الإسلام ، بهاء الأنام ، شرف الرؤساء ، أوجد الكبراء ،
صدر الأعيان ، جمال الخطباء ، جلال النظار ، صفوة الملوك والسلاطين ، أبو عبد الله
محمد ، ابن المجلس السامى ، الجمالى ، المرحوم عبد الله الطنحى ، إمام المقام الشريف :
أدام الله تعالى رفعة - قد طالت في المخالصة قُدمته ، ووفرت من صدق الموالاتة
قسمة ؛ فرفع على الأبتداء خبره ، ونصب على^(١) تقدمه فحمد في الاختيار

(١) يباض بالأصل ، ولعله "المدح أو التعظيم" .

أثره؛ وكانت وظيفتنا نظير الصادر وخطابه الجامع الغربى بشعر الإسكندرية المحروس - حرسه الله تعالى وحماه، وصان من طروق العدو المخدول حماه - من أرفع الوظائف قدرا، وأميزها رتبة وأعلاها ذكرا - أقتضى حسنُ الرأى الشريف أن تُسند ولايتهما إليه، وتعمد في القيام بمصالحهما عليه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زالت آراؤه مسدده، ونعمه على الأولياء في كل حين مجتده - أن يستقر المشار إليه في الوظيفتين المذكورتين عوضا عن كائنا بيده، بما لها من المعلوم، ويُفسح له في الاستنابة على عادة من تقدمه في ذلك : استنادا إلى أمانته التي بلغت به من العفة ممتهاها، وكفايته التي تجز المتكفون عن الوصول إلى مداها؛ وفصاحته التي أعجزت ببراعتها الخطباء الأماثل، وبلاغته التي قضت بالعى على قس إياي وحكمت بالفهامة على سبحان وائل .

فليتلق ما أسند إليه بيده الطولى وباعه المديد، وليقابل هذه النعمة الخفيلة بالشكر فإن الشكر مستلزم للزيد؛ عالما أن نظر الصادر يقدمه أهل الثغر على عامة الوظائف مادي منها وما جل، ويتبرك المرتبون عليه بما يأخذونه من راتبه وإن قل؛ فليحسب النظر فيه وردا وصدرا، ويميز ريعه بحسن النظر فيه حتى يقول المعاند : ما أحسن هذا نظرا ! .

والجامع الغربى فهو أجل جوامع الثغر الإسكندرى قدرا، وأعظمها في الأقطار صيتا وأسيرها في الآفاق ذكرا؛ يحضر الجمعة فيه أهل الشرق والغرب، ويلىم بخطبته سكان الوهاد والهضب؛ فليرق منبره رقى من خطبه المبر خطبته، وعلم علوم مقامه فقابله بعلو رتبته؛ ويشف الأسماع بوعظه، ويشج القلوب بلفظه؛ ويحي العقول بتدكيره، وييك العيون بتخديره؛ وليعد للجامع ما تعودته من الإسعاد،

ويجدد مدرّس من معالم خطّابته حتّى يقال : هذا ابن المنير قد عاد ؛ وعماد الوصايا تقوى الله فهى ملاك الأمور كلّها ، وعليها مدار أحوال الدنيا والآخرة فى عقدها وحلّها ؛ وهاتان مُقدّمتا خيرٍ فليكن لنتيجتهما يرتقب ، ولا يقطع بالوقوف معهما رجاءه « فأول الغيث قَطُرٌ ثم يَسْكَب » ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه ، حجة فيه بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الثالث

(من الوظائف التى يكتب بها بنجر الإسكندرية المحروس ،
الوظائف الديوانية ، وهى على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ «المجلس السامى» بالياء
وهو ناظر المباشرة بها ، وعنه يعبر بناظر الإسكندرية ، دون ناظر الأصل^(١)
المقدم ذكره فى جملة الوظائف الديوانية بالحضرة)

وموضوع هذه الوظيفة التحدّث فى الأموال السلطانية بالإسكندرية مما يتحصّل من المأخوذ من تجار القرنج ، وسائر المتاجر الواصلة براً وبحراً بالقبض والصرف والحمل إلى الأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بنظر نجر الإسكندرية ، كُتِبَ به للقاضى «جمال الدين
أبن بصاصة» وهى :

(١) وهو ناظر الخالص المتحدّث فى الأموال السلطانية كما تقدّم .

(١) الحمد لله الذى أضحك الثُّغور بعد عبوسها ، وردَّ إليها جمالها وأنار أفقها بطلوع شمسها ، وأحيا معالم الخير فيها وقد كادت أن تُسرف على دروسها ، وأقام لمصالح الأئمة من يشرق وجه الحق ببياض آرائه ، وتلتد الأسماع بتلاوة أوصافه الجميلة وأنبيائه .

نحمده حمد من أسبغت عليه النعائم ، وتهادت إليه الآلاء ، وخطبته لنفسها العلياء ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترفع قدر قائليها وتعليه ، وتعز جانب متحليها وتُدنيه ؛ وأن محمدا عبده ورسوله أفضل نبي رابط وجاهد ، وأكرم رسول جنح للسلام بأمر ربه فهادت وعاهد ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ، وأشياعه وحزبه .

وبعد ، فأحق من ماس فى أردية الرياسة عطفا ، وأستجلى وجوه السعادة من حجب عزها فأبدت له جمالا ولطفا ؛ وأصطفته الدولة القاهرة لمهمات ما رأته خير كافل ، وتتقل فى مراتبها السنية تنقل النيرين فى المنازل .^(٢)

ولما كان فلان أدام الله رفعته ممن أشارت إليه هذه المناقب الجليلة ، وصارت له إلى كل سؤال نعم الوسيله ، رسم بالأمر الشريف - لا زال ... أن يستقر فى نظر ثغر الإسكندرية المحروس ويباشر هذا المنصب المبارك بعزماته الماضيه ، وهممه العاليه ؛ برأى لا يساهم فيه ولا يشارك : ليصبح هذا الثغر بمباشرة باسمه حاليا ، وتعود بهجته له بجميل نظره ثانيا ؛ وينتصب لتدبير أحواله على عادته ، ويقرر قواعده بعالي همته ؛ ويجهد فى تحصيل أمواله وتحصين ذخائره ، وأستخراج زكاته

(١) تقدمت فى صفحة ٤٠ و ٤١ من هذا الجزء بعض زيادة وتغيير واختصار .

(٢) لم يذكر خير المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل أحق من ماس ... من كان لخلل العفاف لاسبا ، ومن نور الايقان قابسا ، الى غير ذلك من الأوصاف .

وتمية متآجره ؛ ومعاملة التجار الواردين إليه بالعدل الذي كانوا ألفوه منه ، والرَّفَق الذي نقلوا أخباره السارة عنه ؛ فإنهم هدايا البحور ، ودوابة الثغور ؛ ومن أَسْتَمِهم يُطَلَعُ على ما تُخِنُّهُ الصدور ، وإذا بَدَّرَ لهم حَبَّ الإحسان نَسَرُوا له أجنحةً مَرَاكِبِهِم كَالطُّيُورِ ؛ وليَعْتَمِدْ معهم ما تَضَمَّنَتْه المراسيمُ الشريفةُ المُستَمَرَّةُ الحُكْمَ إلى آخر وقت ، ولا يَسْلُكْ معهم حالةً تُوجِبُ لهم القلقَ والتَّظَلُّمَ والمَقْتَ ؛ وليواصلْ بالحمول إلى بيت المال المعمور ، وليملأ الخزائن السلطانية من مستعملات الثغر وأمتعته وأصنافه بكل ما تستغنى به عن الواصل في البرور والبحور ؛ وليصرف همته العالية إلى تدبير أحوال [المتآجر بهذا الثغر بحيث ترتفع رؤس أموالها وتتمى ، وتوجد سخائب فوائدها وتهمى ، ويراع أحوال] ^(١) المُستخدَمين في مباشراتهم ، ويكشف عن باطن سريهم في جهاتهم ؛ ليتحققوا أنه مهين عليهم ، وناظر بعين الرأفة إليهم ؛ فتتكف يد الخائن منهم عن الخيانة ؛ وتتحلى أنامل الأمين بحاسن الصيانة ؛ وليطالع بالمتجددات في الثغر المحروس ، ليرد الجواب عليه بما يشرح الصدور [ويطيب النفوس] ^(١) وليتناول من المعلوم على ذلك في غرة كل شهر ما يشهد به الديوان المعمور ؛ والله تعالى يتولاه ويُعْضِده ، ويؤيده ويسدده ؛ بمنه وكرمه ! .

قلت : وربما كتبت لناظرها توقيع مفتوح : «أما بعد حمد الله» في قطع الثلث .



وهذه نسخة توقيع بنظر نعر الإسكندرية ، وهي :

أما بعد حمد الله مفوض حلال إنعامنا على من أخلص في طاعتنا الشريفة قلبه
ولسانه ، ومولى فضل آلائنا العميمة على من أرهف في مصالحنا عزمه وبنانه ؛

(١) الزيادة مما تقدم في صفحة ٤١ من هذا الجزء .

وَحُلِّيَ رَتبَ عَلِيَّائِنَا الشَّرِيفَةِ بِنِ اسْمِ اسْمَاءِ الْمَعَالَى بَدْرُهُ وَإِنْسَانُهُ ، وَأُيْنَعَتْ
فِي غُصُونِ الْأَمَانِيِّ قَطْوُفُهُ وَأَفْنَانُهُ ، وَمُبْلَغُ أَقْصَى غَايَةِ الْمَجْدِ فِي أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ بِنِ
تَبَسُّمِ بِيْحَمِيلِ نَظَرِهِ الثُّغُورِ ، وَتَعْتَصِمُ بِحَمِيدِ خَبْرِهِ وَخِبْرَتِهِ الْأُمُورِ ، وَتُشْرِقُ مِنْ جَمِيلِ
تَدْيِيرِهِ الْبُدُورِ ، وَتَعْتَمِدُ عَلَى هِمَمِهِ الْأَيَّامُ وَالذُّهُورُ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
الْمَهَادَى إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مَسْتَقِيمِ ، وَالنَّاسِِرُ لَوَاءِ الْعَدْلِ بِسَنَنِهِ الْوَاضِحِ وَشَرَعِهِ
الْقَوِيمِ ، وَالْمُنْجِزِ لِمَنْ آقَفْتَى سُبُلَهُ أَوْفَى تَكْرِيمِ ، وَأَوْفَرُ حَظِّ عَظِيمِ ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ
مَا أَهْتَدَى بِهِدْيِهِمْ ذُورُ الْبَصَائِرِ وَالْأَبْصَارِ ، وَأَرْتَدَى بِأَرْدِيَّتِهِمُ الْمُعْلَمَةَ مُقْتَنِي الْآثَارِ -
فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ أَسْتَدْنَا إِلَى نَظَرِهِ الْجَمِيلِ رُتْبَةً عَزَّ مَا زَالَتْ طَيُورُ الْأَمَالِ عَلَيْهَا تُحُومُ ،
وَعَدَقْنَا بِتَدْيِيرِهِ الْجَلِيلِ مَنِصَّبَ سِيَادَةِ مَا بَرِحَتْ الْأَمَانِيُّ لَهُ تَرُومُ ، وَأَعْتَمَدْنَا عَلَى هِمَّتِهِ
الْعَالِيَةِ فَصَدَّقَ الْخُبْرُ الْخَبْرَ ، وَرَكَّأَ إِلَى حَمِيدِ رَأْيِهِ فَشَهِدَ السَّمْعُ وَأَدَّى النَّظْرُ .^(١)

ولما كان فلان هو الذى أتسق فى ذروة هذه المعالى ، وانتظم به عقد هذه
الآلى ، وحوى بفضيلة اللسان والبيان ما لم تُدرِكهُ المُرَهَفَاتُ وَالْعَوَالِي ، فَمَا حَلَّ
ذِرْوَةَ عَزِّ إِلَّا وَحَلَّاهَا بِنَظَرِهِ الْجَلِيلِ ، وَلَا رَقِيَ رُتْبَةَ سِيَادَةٍ إِلَّا وَأَسْفَرَ فِي ذِرْوَتِهَا وَجْهٌ
صَبَّحَهُ الْجَمِيلِ ، وَلَا عُدِقَ بِنَظَرِهِ كِفَايَةُ رُتْبَةٍ إِلَّا وَكَانَ لَهَا خَيْرٌ كَفِيلِ .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ يَنْتَصِي لِلرُّتْبِ الْعَالِيَةِ خَيْرٌ مُنْجِدٌ وَمُؤْمِرٌ ،
وَيَمْتَطِي لِلنَّاصِبِ السَّنِيَّةِ نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ فَإِنَّهُ الْقَوِيُّ
الْأَمِينُ ، وَالْمَتَمَسِّكُ مِنْ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَمِرَاقِبَتِهِ بِالسَّبَبِ الْمَتِينِ ، وَالْمُسْتَنْدُ الْجَمِيلِ
كِفَايَتِهِ ، وَحَمِيدِ دِيَانَتِهِ ، إِلَى حِصْنِ حَصِينٍ ، وَالْمُسْتَدْرِى بِأَصَالَتِهِ وَإِصَابَتِهِ إِلَى
الْجُنَّةِ الْوَاقِيَةِ وَالْحَرَمِ الْأَمِينِ ، فَلْيَقْدَمْ خَيْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَبَاشَرَةِ الْوُضُفِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ بِعِزِّ

(١) لم يذكر خبرا لأن وهو معلوم من نظائره السابقة أى من كانت صفته كذا وكذا الخ .

(٢) بالصاد المهملة أى يختار وينتقى .

لا يَنْبُو، وهمّة لا تَنْجُو، وتدبير يتضاعف على ممر الأيام ويربو، ونظر لا يعزب عن
مباشرته فيه مثقال ذرة إلا وهى من خاطره فى قرار مكين، وضبط لا تمتد معه يد لأمس^(١)
[إيها] إلا ويجد من مرهفه ما يكف كفها عن الحيانة بالحق المبين، وليضاعف
همته فى مصالح هذه الجهة التى عدقناها بنظره السعيد، وليوقر عزمته فإن الحازم
من ألقى السمع وهو شهيد، والوصايا كثيرة ومثله لا يدل عليها، والتنبيهات واضحة
وهو - وفقه الله - أهدى أن يرشد إليها، والله تعالى يوفقه فى القول والعمل،
ويصلح بحجيل تديره وحميد تأتبه كل خلل، بمنه وكرمه ! .

الطبقة الثانية

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«المجلس السامى» بغيرياء
أو «مجلس القاضى» وفيها وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(كتابة الدرج)

وصاحبها هو الذى يقوم بالإسكندرية مقام كاتب السرّ بالأبواب السلطانية
فى قراءة المكاتب على النائب، وكتابة الأجوبة وما يجرى مجرى ذلك .
وهذه نسخة توقيع من ذلك :

رسم بالأمر الشريف - لا زال شاملاً فضله، كاملاً عدله، هاملاً بالإحسان
وبله، متصلاً بالجميل حبه، ملاحظاً بعين العناية للبيت الزاوى فرعه الطيب أصله،
معلماً نجه إلى أسنى المراتب التى لا ينبغى أن يكون محلها إلا محله - أن يستقر فلان

(١) فى الأصل ملتصق بالتح .

فى كتابه الدرّج بشعر الإسكندرية المحروس على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته ،
بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأصاليته المعرّفة ، وغُصون نسبه
المورّقة ، وآدابه الجمّه ، وفضيلته التى أبدى بها علمه ، وكتابته التى حلّت المهارق ،
وأبدت من الجواهر ما نمتى لمسّه المفايق ، وتدرى لفضارته أزهى الروض النضير ،
وتنفرد فى الحسن فلا نجد [لها] من نظير ، وتبرز كالعقود فى أجياد التراب ، وتُنشئ
كُتبا تغنى عن الكتّاب ، مع ماله من راسة أثبتت معاليه ، ونفاسة أضحت بجواهرها
الأوصاف حاليه ، وصدارة توالى منه فاستوجب بها مزيد الحسن المتواليه ،
قد حوّل فى كرم الأصل فلا غرو أن أمسى نجيبا ، ودعا بديع اللفظ ولطيف المعنى
فغدا كل منهما لأمره طائعا وبالإذعان نجيبا ، وعلا كوكبه فأضحى فى الرفعة بعيدا
وإن كان فى مرأى العين قريبا ، وزكا من أكابره إلى كل فريد فى سُؤده ، واحد
فى علاه يفوق الجمع فى عدده ، فهو إنسان عين زمانه ، ومالك زمام الإنشاء ومصرف
عنان بنائه ، ومبرز الحسانت بسيفارته المقبولة وإطلاق بيانه ، فلا غرو أن استوجب
منا ما يقضى له بالمزيد ، وأستحقّ باتباع أصله العالم التيق إدراك ما يريد ، وتحلّى
بمناقبه ومآثره ، ونقل عن عفاقه ومفاخره .

فليستمرّ فى ذلك على أجمل عوائده ، وأجزل فوائده ، سالكا فى ذلك طرائقه
الحميدة ، ومناججه ومناجج أسلافه السديده ، مبرزاً من خطّه ما يججل به الطروس ،
ويسرّ بمزايه النفوس ، وينظم كالعقود ، ويلوح للأبصار حسن رونقه [المشهود] ،
والله تعالى يجعل إحساننا لدى بيته الكريم مستمرا ، وأمتناننا العميم عنده مستقرا ،
وثغر العناية به مفترا ، بمنه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية

(نظرُ دار الطراز بغير الإسكندرية)

وهذه نسخة توقيع بذلك ، كُتِبَ بها لصالح الذين بن علاء الدين علي بن
البرهان ، سنة إحدى وأربعين وسبعمائة ، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب
الإنشاء ، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زال إثاره ، يُكْرَمُ من غدا صلاحه حلّة العلي طرازا ،
وأختياره ، يقدم للناصب الجليلة من ورث من أبيه نهضة وأحترازا - أن يستقر
فلان في كذا : لكفايته المعروفة المحققة ، ودرايته المألوفة بركاتها الموفرة وحركاتها
الموفقة ، وديانته التي منها الأ كابرُ علي ثقه ، وأمانته التي تعتمد الحق مستدعية
ومنتقة ، وصيائته التي هي للواصل حافظّة وعلى الحاصل مشققة .

فليباشِر هذه الوظيفة التي كانت في سالف الزمان إلى الحُكَّام تُصَاف ، وللعلماء
الأعلام عليها نظر وإشراف ؛ ومنها يُسدل على أوليائنا لباس الإنعام وترسل أجناس
الإتحاف ، وتُسر بل الكعبة البيت الحرام في كل عام يجلبها المحكم النسخ المعلم
الأطراف ؛ وليصن ذهبها عند صرفه وقبضه ، وليزِن خزها بتقريب مشوبه وتحرير
مخضه ، وليين عن حسن التدبير في إبرام حريها ونقضه ؛ وليستجلب رجالها
وصناعاتها ، وليجنب أحوالها ضياعها ، وليستجد أصنافها وأنواعها ، وليتفقد أكافها
ويقاعها ؛ حتى يُظهر في أعمالها آثار الصلاح ، وتُشكر مباشرته التي هي محمودّة الآتباء
مسعودّة الأفتتاح ؛ والله يقرن رجاءه بالإرباح ، ويؤذن له حيث سلك بإصابة
الصواب والفلاح ، بمنه وكرمه ! .

قلت : ودارُ الطَّرَازِ هذه هي التي تُعْمَلُ فيها المستعمالاتُ السلطانية : مما يُجَلُّ إلى خزانة الخاَصِّ الشريف من الأقمِشنة المختلفةِ الصِّفَاتِ : من الحرير والمقترح المَخَوَّص بالذهب ، والتفاصيل المنقوشة بضروب النقوش المختلفة ، وغير ذلك من رقيق الكَنِّان وغيره مما لا يوجد مثله في قُطْر من أقطار الأرض ؛ ومنه تُتَّخَذُ الأقمِشَةُ^(١) التي يلبسها السلطان وأهل دُورِهِ ؛ ومنه تَعْمَلُ الخِلاَع والتشاريِف التي يلبسها أكابر الأمراء وأعيانُ الدولة وسائرُ أهل المملكة ؛ ومنه تُبَعَثُ الهدايا والتَّحْف إلى ملوك الأقطار . وقد كان يُكْتَب لناظر هذه الدار توقيعٌ عن الأبواب السلطانية خارج عن توقيع ناظر الإسكندرية على ما تقدّم ذكره . أما الآن فقد صار ذلك تحت نظر ناظر الإسكندرية يتحدّث فيه كما يتحدّث في سائر أمورِها ، ومرجع الكلِّ إلى ناظر الخاَصِّ بالأبواب السلطانية .

الجهة الثانية

(مما هو خارج عن حاضرتي مصر والقاهرة بالديار المصرية - بلاد الرِّيف)
والمراد بالرِّيف في أصل اللغة موضعُ المِياه والزَّرْع .
وقد تقدّم أنّ رِيفَ الديارِ المصريّة وجهان :

الوجه الأوّل

(الوجه القِبلى ، وهو المعبر عنه بالصَّعيد)

وقد تقدّم في المقالة الثانية في الكلام على المسالك والممالك أنه يتقسّم إلى صعيدٍ أعلى ، وصعيدٍ أسفل . وقد كانت ولايته العامّة في الزمن المتقدّم يعبر عن صاحبها

(١) الضمير عائد على ما تقدم من الحرير والكَنِّان .

بـ«والى الولاية بالوجه القبلى» ثم استقرت نيابة سلطنة على حدّ تقدمة العسكر بغزة
فى رتبة المكتبة، فى الأيام الظاهرية « برقوق » وهى على ذلك إلى الآن . ونائبها
يكتب له تقليد نيابة السلطنة بها فى قطع النصف .

وهذه نسخة تقليد شريف من ذلك ، من إنشاء الشريف « شهاب الدين »
كاتب الإنشاء ، وهى :

الحمد لله الذى رَحِمَ بتعاهدِ نظيرنا البلاد والعباد ، وحَسَمَ بمواردِ زواجرنا موادَّ
الفساد ، وأحمد فى هذا الوجهِ لنا الآثارَ ووطأ بنا المهاد ، وأفرد آراءنا بجمع المصالح
على الجمع والإفراد ، وأولى بنا الرعية الخيرة فى استرعاء من يبذل فى صيانتهم الاجتهاد ،
وأعلى بنا كلمة العدل فهى تُنشر وتُداع وأوهى بنا كلمة الظلم فهى تُقهر وتُدَاد ،
وأجلى بانتقامنا فتنة الضلال فلها عن مُلكنا الشريف أندفاع وأنطراد .^(١)

نحمده على أن قرن بآرائنا السداد ، ونشكره على أن ضمن أصطفاءنا حسن الارتداد ؛
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تقوم حجتها ، يوم يقوم الأشهاد ،
وتدوم بهجتها ، علماً للإرشاد ؛ ونشهد أن سيد البشر محمداً عبده ورسوله الذى فضل
العالم وساد ، وأجزل المكارم وجاد ، وهدى بشرعه من حاد ، وأردى برده من حاد ،
وأجرى بجرده النفع حيث كان وأبدى بياسه القمع لمن كاد ، وأحمد بأسيافه الباطل
فباد ، وجعل لأنف مخالفه الإرغام ولجيش مجانفه الإرعاد ؛ صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه الأنجاب الأتجاد ، صلاة لها تضاعف وتعداد ، وبفتكاتهم (؟) للنواب
إنجاد ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

(١) دعت مراعاة السجع الى استعمال الانفعال من طرد ونص أهل اللغة على أنها لغة رديئة . فتنه .

وبعد فإنَّ الله تعالى لما أعلَى هَمَمْنَا وأصعدَهَا ، ووفى عزائمنا من النصر موعدها ،
 وأسعف بملكنا الرعية وأسعدَهَا ، وضاعف بنا لديهم النعمة وجددها ، وأوضح
 بنا سبل المعدلة وجددها ، وأنجح بسطاننا آمال الخليفة وأنجدَهَا - لم نُخل من
 ملاحظتنا أدنى الأقطار ولا أبعدَهَا ، ولم نُغفل من ممالكنا ناحية إلا نحأها فضلنا
 وقصدَهَا فأقررَهَا الصالحات وخذَهَا ، وأثررَهَا المسامحات وأبدَهَا ، ونصر الشريعة
 وأيدَهَا ، وسدَّ الذريعة بأفعال حزم سددها ، ووطن أهلها ووطدَهَا ، وأورد من بها
 موارد الأمن لما وردَهَا .

ولما واجه إقبالنا فى هذه الأيام الوجه القبلى ، وصعد إلى الصعيد الأعلى ركبنا
 العلى ، لمخنا بلادَه وتعددها ، وتعين ملاحظته وتأكدَهَا ، وكثرة السلاك لسبله ،
 والملاك نحوه ، والوراد لنهله ، والوفاد من قبله ، وهو مهج التجار فى التوجه
 من أبوابنا الشريفة والجواز ، وباب اليمن والحجاز ، وفى الحقيقة هذا الحجاز يتعين له
 الحفظ وفيه الاحتراز ، وبه كراسى منها السيارة تمارو على سواها من البلاد تمتاز ،
 وبه مرا كرولاة ينفرد كل منها عن الآخر ويحاز ، وهى : إطفيح ، والبهنسى ،
 والأشمونين ، ومنفلوط ، وسيوط ، وإنجم ، وقوص . وهذه الأقاليم مجتمعة متفرقة ،
 وحدود بعضها ببعض متعلقة ، وبها إقطاعات مقدسى الأوف والطبخاناه والممالك
 والحلقه ، وإليها تردد الركضة والمرترقه ، وربما أخاف المفسدون من بعضها سبله
 وقطع طرقه ، فاتهم البرى ، وسلم الحرى ، ولبس على من هو عن الخيانة عرى ،
 فرأينا أن ننصب بهذه الأقاليم والى ولاية يجوس بنفسه خلالها ، ويدوس بخيله
 سهلها وجبالها ، ويقجا مفسدها ، ويبعث بعثه بها ، ويحمد نفاقها ، ويحمد وفاقها ،
 وينصف ضعافها ، ويذهب خلافها ، ويزيل شكواها ، ويكف عدواها ، ويصلح

(١) فيه تصحيف ولعله « ويقجا مفسديها ، ويبعث معتديها » .

فسادها ، ويوضح سدادها ، ويوصل حقوقها ، ويستأصل عقوقها ، ويواصل طرقها ، ويقابل بالعقاب فسوقها ، ويمنع باهتمامه ، أهواءها ، ويشفي بحسامه ، أدواءها .

ولما كان المجلس السامى ، الأميرى ، الحسامى هو الذى عرف أحوالها وخبرها ، وولى من أقاليمها ما علم به مصالحها وأعتبرها ، وعهدت منه الأمانة والكفاية ، وتحققت نهضته فى كل عمل ويقظته فى كل ولاية - أقتضى حسن رأى الشريف أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بهذه الأعمال المذكورة والأقاليم كلها ، وأن ينتضى فيها حسامه الذى ينبغى أن يرتضى ويتضى لمثلها ، وأن يحل محله إذ اخترناه لأعلى رتب الولاية واجلها ، وأن نصل أسباب النعمة لديه بهذه النعم التى كل ولاية فرع لأصلها .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت أيامه الشريفة تحض الرتب العلية بأهلها ، وتشمل دوى الأهتمام بإحسانها وفضلها - أن يفوض إلى المشار إليه ولاية الولاية بالوجه القبلى . فليباشر ذلك بهمة تمضى فى البلاد عزائمها ، ونهضة تسير إلى دانيها وقاصيها صوارمها ، وشهامة يدهش المتمردين قادمها ، ويفقد مواد الفساد من حسامها حاسمها .

ونحن نرسم له بأمور يلازمها ، ونوصيه بوصايا يداومها ؛ أن يكون بتقوى الله تعالى عاملا ، وللتضح باذلا ، وللشريعة معظما ، وللمراقبة الله تعالى مقدما ، ولالحق متبعا ، وإلى الخير مسرعا ، وللمؤمنين مؤمنا ، وللمناقين مؤهنا ، وللرعايا موطنا ، وللتزاهة مظهرها ومبطنها ، وعن الأبرياء كافا ، وعن الأتقياء عافا ؛ وعن الأموال منزها ، وإلى ما يصلح الأعمال من صالح الأعمال موجهها .^(١) وليغد فى الأمور مثبتنا ، ولدوى

(١) فيه شبه استخدام فالأول بمعنى الجهات والثانى بمعنى الفعل . فتنبه .

الفجور مشتبهاً ، ولسماع حُججِ الخُصومِ منصتاً ، ولا يجعلُ لِحلولهِ الأقاليمِ حيناً مؤقتاً ؛
 بل يدخُلُ المدينةَ على حينِ غفلةٍ من أهلها ، وليبغتَ بحلولهِ هذه النواحيَ ليعلمَ ما هم
 عليه من تركِ الفواحشِ أو فعلها ؛ وليقيمَ بكلِ جهةٍ من يعلمه بما يحتاجُ إلى علمه ،
 ويكرهه بما يفتقرُ أهلُ البلادِ إلى السترِ عنه وكتمه ؛ وليدحضِ المحارسَ والأدراكَ ،
 وليجعلَ لكلِ شاردٍ من بطشه أسرعَ إدراكٍ - وقد رسمنا لولاةِ الأعمالِ المذكورةِ
 ومن فيها من توابِ الأمراءِ والمشايخِ بهذه الصورةِ وأن لا يُجبروا مفسداً ولا يثووه ،
 ولا يُنزِلوا خائئاً ولا يثووه ، ولا يستروا مختمياً ولا يجبوه ، ولا يُجَلُّوا نازحاً ولا يُوطئوه ؛
 بل يحضروه ولا يؤثروه ، ويمسكوه ولا يتركوه ، ويسلموه ولا يثووه ؛ ومن خالف
 هذا المرسومَ ، أو اعتمدَ غيرَ هذه الرسومِ ، فهو لنفسه ظالمٌ ، وقد برئت منه الذمة ،
 وزالت عنه الحرمة ، وزلت قدمه ، وذهب ماله ودمه ؛ وقُرئت مراسيمنا بذلك
 هنالك على منابر الجوامع ، وسمِعها كلُّ سامعٍ ، وهم لك على آمتثالٍ أو امرٍنا مساعِدون ،
 وعلى اجتنابِ نواهينا معاضدون ، وللإصلاحِ ما استطاعوا مريدون وقاصدون ؛
 فلا تمكَّن أحدنا من العُربانِ ولا من الفلاحين أن يركبَ فرساً ، فإنما يُعدها للخيانةِ
 مختلساً ، ولا يكونُ لها مرتبطاً ولا محتسباً ؛ وكُن لهم ملاقياً مُراقباً ، فمن فعل ذلك
 فانتقمِ منه بما رسمنا معاقباً ، ولا تمكَّنهم من حملِ السلاحِ ولا أبتياعه ، ولا استعارتهِ
 ولا استيداعه ، وتفقد من الأقاليمِ من تجاره وصنّاعه ؛ نخدُ بالقيمة ما عند التجارِ ،
 وأقعُ بذلك نفسَ الفجارِ ، وأضرمَ نارَ العذابِ على من أضرمَ لعملِ ذلك النارَ ؛
 وأمر كلَّ فئتين متعاديتين بالمصالحةِ ، وأكفَّف بذلك يدَ المسكافه ، وحلَّف بعضهم
 لبعضٍ بعد تحليفِ أكابرهم لنا على السيرةِ الحميدةِ والنيةِ الصالحةِ ، وخدَّهم في الخنایاتِ
 بالعدلِ والمشاحه ، وفي المطالباتِ بالرفقِ إن لم تكن مسامحةً ، وأحلَّهم على محجةِ
 الحقِ الأبلجِ والشريعةِ الواضحةِ . وإذا رُفعت إليك شكوى فازلها ، أو سُئلت إقالة

عثرة لدى هيئة فأقفلها ، أو وجب حد فأنه لحينه ، أو آرتبت في أمر فترو حتى تهتدى
 ليقينه ، ولا تعتقل إلا من أجرم جرماً يوجب الاعتقال والحبس ، ولا تسرع
 إلى ما تخشى فيه اللبس ، وأعمل على براءة الذمه ، واجهد أن لا يكون أمرك عليك
 عمه ، ولا ترجح للهوى على خصم خصمه ، ولا تظلمه فإن الظلم ظلماته ، وخف نقمة
 الله فهي أعظم نقمه ، ولا تأخذك على البريء غلظة ولا فسوة كما لا ينبغي أن تأخذك
 في الجريء رافة ولا رحمه ، والله تعالى يرفع لك بالطاعة رتباً ، ويمنح لك بالخدمة
 طلباً ، ويبلغ بك في الإصلاح أرباباً ، ويرد بك أمر كل مفسد محبباً ، ويوضح لك
 من الهداية معيياً ، ويُنزل بك من الخيرات صيباً ، والخط الشريف أعلاه ، حجة
 بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بنبابة السلطنة بالوجه القبلي أيضاً ، من إنشاء الشريف
 شهاب الدين ، كتبه به «لعلاء الدين المرادي» وهي :

الحمد لله الذي جعل إقبالنا مسفر الوجوه ، ونوالنا مبلغاً كلاً من الأولياء ما يؤمله
 من القرب من أبوابنا الشريفة ويرجوه ، وإفضالنا يوفر أقسام النعم لمن وفر دواعيه
 على طاعتنا فلا يزال استحقاقه يعينه ويدعوه ، وإجمالنا يُجز وعود التقديم لمن تعددت
 خدمه فلا يتجاوز التكريم ولا يعدوه .

نحمده على أن جعل إنعامنا يهب الجزيل ويحبوه ، ونشكره على أن أقامنا نحق
 الحق فزفعه فيدمغ الباطل ويعلوه .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة هي خير ما ينطق به الإنسان
 ويؤوه ، لا يبرح اللسان يكرر إخلاصها ويتلوه ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله

الذى رفع الله بِعِثَّتِهِ عن هذه الأمة كلَّ مكروه، وحيّ بِشِرْعَتِهِ الدينَ الحنيفَ فلا يُلمُّ به التبديلُ ولا يَعْرُوهُ ، وأفاضَ بَرَكَاتِهِ فى كلِّ وجهٍ ما يُوسِعُ الخيرَ ويُدْرَهُ ويمنع الشرَّ ويُدْرُوهُ ؛ صلى الله عليه وعلى آله الذين هم عِترته وأقربوه ، وصحبه الذين آستمعوا قوله وأتبعوه ، صلاةً لا يزالُ وافئذها يتبعُ سبيلَ الإجابةِ وَيَقْفُوهُ ، ويصلُّ إلى محلِّ القبولِ ولا يَحْفُوهُ ؛ وسلمَ تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإنَّ الله تعالى لما قرَّنا آراءنا بالسداد ، وأحسن بنا النظرَ فى صلاح البلادِ ومصالح العباد ؛ لم نزلْ نرفع أقدار المخلصين بمزية الاختيار والإرتداد ، ونجمعهم فى صعيد الإحسانِ ونُحِلُّهم رُتب الإصعاد ، ونُدنِّي منهم من له تامُّ أهتام وشادُّ اجتهاد ، ونميز منهم من حَسَنَ حالاً بالجمع والإفراد .

والولاية على الولاية بالوجه القبلى من أهم ما يلمح ، وأعم ما يختار له من لخلق ينصر وللخلق ينصح ؛ إذ بهذا الوجه عيون البلدان ، ووجوه العربان ، وكراسى الأقاليم الحسان ، ومراكز الولايات التى تُحِلُّ دائرة السوء بأهل العُدوان ؛ وإقطاعات الجند والأمراء ، وانحواض الشريفة التى على عمارتها إجماع الآراء ؛ وعليه تردُّ التجار ، وإليه بالميزة يُنمار ، ومنه تتعدَّدُ المنافع فيتعين أن ندفع عنه المضار ، ونُلقيَ أموره لمن يُنتقى حزمه وعزمه ويُختار .

ولما كان فلان هو الذى له ولايات أقتضت تقديمه ، وسبقت منه سوابقُ خدمٍ أجزلتُ تكريمه ، وما زال فى الشام على المهمة حسن الشيمه ؛ وطهر البر من كل فاجر ، ورأى أن التقوى أربحُ المتاجر ؛ وأعذب للرعية من المعدلة الموارد فصدر من أبوابنا إلى أحمد المصادر - أقتضى حسنُ الرأى الشريف أن نجعل له من إقبالنا النصيب الوافر . فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا بريح يزيد الأقدار علاء ويظهرها

من تكريمه في أحسن المظاهر - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالوجه القبلي
وجميع نواحيه ، على عادة من تقدمه في ذلك ومستقر قاعدته إلى آخر وقت .

فليتلق هذه الولاية المباركة بقبول حسن ، وليوقظ جفن سيفه الذي لم يعرف
الوسن ، وليثق الله ربه في السر والعلن ، وليحكم بما شرع الله وسن ، وليجتهد
في إحماد العواقب وإحماد الفتن ، ليسكن من تردد إليها أو سكن . وليلاحظ هذه
الأقاليم بعزائم السياره ، وليحافظ على سلوك سيرته الساره ، وليستطلع من كل بلد
أخباره ، ويتبع من كل وإل آثاره ، وإن رأى منكراً أزاله ، أو وجد مُبطلاً أذاله
أو حقاً أذاله ، وليعظم أحكام الشرع وحكامه ، وليجعل إمامه ليسعى نوره أمامه ،
وليطالعنا بما نتعین فيه المطالعه ، ويراجع أوامرنا فيما تجب فيه المراجعة ،
وليستجلب لأيماننا الأدعية النافعه ، وليباشر بنفسه الأمور التي هي له راجعه ، وليراع
في القضايا المصلحة الجامعه ، ولتكن حايته للأومنين واقية وفكته بالمجرمين واقعه ،
وليسع الرعايا بالمعدلة الواسعه ، ويمنع المجترئين بالأخذة الرابيه والهيبه الرادعه ،
ولا يمكن أحداً من العُربان بجميع الوجه القبلي أن يركب فرساً ولا يهتنيه ، ويكف
بذلك الأيدي المعتديه فإن المصلحة لمنهم من ركوبها مقتضيه ، وليقيم الحرمة
والمهابه ، وليدوم قيامه في الخدمة وانتصابه ، وليرهف حد عزمه ويضميه ، ويجرد
سيف الانتقام على المُفسدين ويتضيه ، ومن وجده من العُربان خالف المرسوم
الشريف من منعه من ركوب الخيل كائناً من كان ضرب عنقه ، وأرهقه من
البطش بما أرهقه : ليرتدع به أمثاله ، ولا يتسع لأحد في الشرّ بحاله .

وقد كتبنا إلى سائر ولاة الأقاليم بمساعدته ، وأمرناهم بمعاونته ومعاوضته ،
وأكدنا عليهم في المبادرة إلى ما يراه من جميع الأمور ، من غير تهاون ولا تقصير

ولا تُنور؛ حتى لا تفوت مصالحةً عن وقتها، ولا تزال جموع المعتدين معاملةً بكتبها، وقد حذرنا العربان من مخالفة مارثنا بالتعرض لما يوجب هلاك نفوسهم، وقطع رؤوسهم .

وليقرأ هذا المرسوم الشريف على المنابر بجميع نواحي الوجه القبلى لتمثل مراسمته، ويتلقى بالقبول قادمه، وليقفوا عنده، ويقفوا رُشده، ويرهبوا من الشر وعيده ويستنجزوا من الخير وعده، وهو - بحمد الله - ما برح مهدياً، وبأكل الآداب مؤدياً، وبما يفعله إلى رضا الله تعالى ورضانا مقرباً، والله تعالى يجعله مختاراً محبباً، ويوزعه شكر منحننا الذى أجزل له الحبا، وخص به هذا العمل الجليل فضاعف خصبه وأهتر ورَباً، ويُطِعه مباركاً ميوناً حيث حلَّ قيل له : مرحباً، ويصعد به هذه الرتبة ويهبه توفيقاً مستصحباً، ويمهد به الطرق للسالكين حتى يتلوه عليه لسان التامين : ﴿ فَيَمُومُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ ، والخط الشريف أعلاه، حجةً بمقتضاه، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد شريف بنيابته أيضاً ، من إنشاء المقر الشمهاني بن فضل الله، وهى :

الحمد لله مطلق التصرف فيما كان ممنوعاً، ومنطق المتصرف ليكون قوله الصواب مسموعاً، وموسع نطاق المتصرف فى جميع ما تعين أن يكون له مجموعاً .

نحمده حمداً يعدب ينبوعاً، وينبت بمزيد الشكر زروعاً، ويدرُ ضروعاً، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتفرعُ فروعاً، وتسكنُ جموعاً وتسكتُ جموعاً، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى أقوى لأهل الطغيان رُوعاً، وأجرى

لعيون الزرد عليهم دموعاً ، وأغرى القسي بالحين إليهم ورُوعاً ، وأسقط على
لباتهم طيور السهام وقوعاً ، ومهد البلاد بقتلهم فآمن من خوف وأطمع من تسكى
جوعاً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً تعم درع الفجر بشفقها الخالق صدوعاً ،
وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد، فإنه لا يستقيم نجاح الأمور، ويستدام صلاح الجمهور؛ إلا بتفقد أحوال
وآلاتهم، وتعهد سلوك الرعايا مع رعاتهم؛ ورد مجموع كل عمل إلى من لا يبيت طرفه
في مصالحهم مملوءاً من الوسن، ولا يقتر له في التنقل في مهماتهم جواد في رسن؛
ولا تهدأ سيوفه في الأعماد ما برقت بارقة فتن، ولا يشرب الماء إلا ممزوجاً بدم
ولا يبيت [إلا] على دمن؛ وكانت الديار المصرية المحروسة أحوج شيء إلى هذا
الموصوف، وأكثر اضطراباً إلى ما تُشامُ له في صلاح رعاياها الوامع سيوف؛ والوجه
القبلي بها هو الجامع ما يزيد على السبعة الأقاليم، الحائز من أهل الحضر والبادية
لكل ظاعن ومقيم؛ قد امتد حتى كاد لا ينتهي إلى آخر، ولا يلتهي بما يكنفه من بر
مقفر وبحر زاخر؛ قد جاور بالأودية العميقة الحوت في الماء وجاوره في السماء برفعة
الجال، وتناول حتى اتصل طرفاه الجنوبي بالجنوب والشمال بالشمال؛ وحوث
بحاريه من النيل المبارك [ما] مد الرزق المتد، وأمد المد المبيض على عنبره تراها
المسود؛ وهو الوجه الذي تعرف في كوثر نيله نصره النسيم، ويهر حسنا من أول
قطرة تقع من مرآه الجميل على وسيم؛ قد حال فيه الماء مجراً كما يشرب تدي ورد
الحدود، وحالاً كما ضرب الضرب في لى ريقه المورود؛ وكان لا ينهض بأعبائه،
ويرد بالغيط متقرحة عيون رقبائه، ويمنع كل منسر منسرٍ يُحدر أن يتهب وذيل^(١)
خبائه؛ إلا من تقدمت له درب يتعلم في جليل الخطوب من مضائها السيف

(١) في الأصل «أن يته ودبل» .

المُدْرَب، وَيُقْتَدَى فِي دَقِيقِ التَّلَطُّفِ بِسِيَاسَتِهَا الْقَلَمُ الْمَجْرَبُ ؛ وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي تَهَادَى كِفَايَتُهُ الْأَعْمَالُ ، وَيَتَعَادَى نَفْعُهُ وَالسُّحْبُ فَلَا يُدْرَى لِمَنْ مِنْهُمَا التَّرْوَى وَلِمَنْ الْإِرْتِمَالُ ؛ وَقَدْ وَلى الْأَعْمَالُ الْبَهْسَاوِيَّةَ وَهِيَ فِي هَذَا الْوَجْهِ الْجَمِيلِ أَهْبَجُ صُورِهِ ، وَأَهْبَى فِيهَا تَكَثُرُ مَنَافِعُهُ الْمَشْهُورَةِ ؛ فَأَضْحَى الْمَعْلُ فِي بِيَادِرِهِ يَتَبَادَرُ ، وَالْإِقْبَالُ يَتَكَثَّرُ إِقْبَالُهُ وَالْمَحَلُّ يَتَنَازَرُ ، وَمُزْدَرَعَاتُهَا تُعْرَفُ سَيَاهَا فِي وُجُوهِهَا مِنْ أَثْرِ سِجُونِ اللَّيْلِ كَرَّعٍ أَخْرَجَ شَطَاهُ فَاسْتَاذَرَهُ ؛ فَاقْتَضَى حَسَنُ رَأْيِنَا الشَّرِيفُ أَنْ نُطَلِّقَ تَصْرُفَهُ فِيمَا جَاوَرَهُ مِنَ الْأَعْمَالِ ، وَأَنْ تَشْعَلَ لَهُ يَمِينًا بِالْيَمِينِ وَشِمَالًا بِالشَّمَالِ .

نُخْرِجُ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ الْعَالِيَّ - لَا زَالَ يُؤَيِّدُ عِزَّ الدِّينِ ظُهُورًا ، وَيُتِمُّ لَهُ فِي أَعْمَالِهِ نُورًا - أَنْ يَكُونَ فُلَانٌ كَاشِفًا وَوَالِي الْوَلَاةِ بِالْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ بِأَجْمَعِهِ : مَعْطَلُهُ وَمُزْدَرَعُهُ ؛ وَبِرِّهِ وَبِحِرِّهِ ، وَعَامِرِهِ وَقَفْرِهِ ؛ وَأَهْلِي حَضْرِهِ وَبَادِيَتِهِ ، وَأَصْحَابَ زَرْعِهِ وَمَاشِيَتِهِ ؛ عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ فِي ذَلِكَ ، لِأَمْنِ الْمَقِيمِ وَالسَّالِكِ ؛ وَيَجْعَعُ عَلَى الطَّاعَةِ مِنْ قِبَلِهِ هُنَالِكَ ، وَيَنْتَظِمُ عَقْدَ عَقَائِدِهِمْ الْمُتَهَالِكِ ؛ وَيَقْوَى اللَّهُ أَجْرَهُ ، وَالشَّرْعُ الشَّرِيفُ يَكُونُ نَهْيَهُ وَأَمْرَهُ ؛ وَالْحُكْمُ وَالْأَحْكَامُ هُمَا مَا هُمَا فَلْيَحْفَظْ زِمَامَهُمَا ، وَلْيَنْفِذْ إِلَى الْأَغْرَاضِ سِهَامَهُمَا ، وَلْيُؤَصِّلِ الْحَقُوقَ إِلَى أَرْبَابِهَا ، وَيَسْهَلِ الْمَطَالِبَ عَلَى طُلَّابِهَا ؛ وَلْيُنِصِفْ إِنْصَافًا لَا يُسْتَكْنَى مَعَهُ حَيْفٌ ، وَلْيُقِمِ الْمَهَابَةَ حَتَّى لَا يَقْدِرَ عَلَى التَّعَدَّى طَارِقُ طَيْفٍ ؛ وَلْيَجْرِدْ عِزَائِمَهُ فَإِنَّ مِنَ الْعِزَائِمِ مَا هُوَ أَمْضَى مِنَ السَّيْفِ ، وَلْيُحْسِنِ قِرَى النَّيْلِ الْقَادِمِ فِي كُلِّ قَرْيَةٍ فَإِنَّهُ ضَيْفٌ .

فَعَلَيْكَ بِمَا نَأْمُرُكَ بِهِ مِنْ تَعْبِثَةِ صُفُوفِ الْجُسُورِ لِأَمْدَادِهِ ، وَالْإِسْتِعْدَادِ لِجَبَرِ عَوَالِي صَوَارِيهِ وَجَبْرِ حِيَادِهِ ؛ وَتَنْفَقْدَ قَبْلَ قُدُومِهِ طَرِيقَهُ ، وَأَتْرَكَ عَنْ رِيِّ الْبِلَادِ تَعْوِيْقَهُ ؛ وَأَقِمِ الْجُسُورَ ، فَهِيَ قِيَامُ الْجُسُورِ ؛ وَأَحْفِرِ التَّرَاعَ فَإِنَّهَا تُرَاعَى ، وَأَسْفِرْ لَهُ

(١) لم نعر على هذا الجمع في كتب اللغة وإنما التبعة كغرفة لإفراداً وجمعاً .

عن عرائس قُراها المجلوة وجوها كَمَا قَسَنَ له إصْبَعَا يقيس ذرَاعَا؛ وأَقَطَعَ بإيصال
 حَقِّ كُلِّ نَاحِيَةٍ إليها من الماء مُنَازَعَةَ الخُصُومِ، وَتَبَّهَمُ أَنَّ الماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ لِكُلِّ مِنْهُم
 شَرِبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ؛ وَلَا تَدْعُ [به أحدا] من أهل المَنَاسِدِ، وَمَنْ جَرَتْ لَهُمْ بِسِوَابِقِ الفِتَنِ
 عَوَائِدُ؛ وَمَنْ يَتَعَزَّزُ بِرَبِّ جَاهٍ، وَمَنْ لَا يَكُونُ له ^(١) إِلَى حِمَايَةِ أَتْبَاجِهِ؛ وَمَنْ نَخَرَ بِوَجْهِهِ
 لِلشَّرِّ مُصْرَحًا، أَوْ لِبَابِ عَقَابٍ مُسْتَفْتِحًا؛ أَوْ وَقَفَ عَلَى دَرْبٍ أَوْ قَطَعَ طَرِيقًا،
 أَوْ تَوَعَّدَ أَهْلَ رِفَاقٍ أَوْ أَهْلَ فَرِيقٍ؛ أَوْ أَقْدَمَ عَلَى ضَرَرِ أَحَدٍ فِي نَفْسٍ أَوْ مَالٍ،
 أَوْ خَشِيتَ له عَاقِبَةٌ فِي بَدَايَةِ أَوْ مَالٍ؛ أَوْ نَزَلَ فِي بَلَدٍ أَمِيرٌ لِيَتَغَطَّى بِجَنَاحِهِ، أَوْ تَرَامَى
 إِلَى عُصْبَةِ يَجِلُّ مِنْهُمُ حَدَّ سِلَاحِهِ؛ فَسَلَّ عَلَيْهِمُ سَيْفَكَ المَاضِي، وَأَحْسِنُ إِلَى النَاسِ
 إِذَا خَشِيتَ أَنْ تُسَىءَ إِلَيْهِمُ التَّقَاضَى؛ وَمَنْ أَمْسَكَتَهُ مِنْهُمُ فَأَمِضْ حَكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ،
 وَأَقِمِ الحُدُودَ عَلَى مَتَعَدِّيهِمْ؛ وَطَهَّرِ الأَرْضَ بِمَاءِ السُّيُوفِ مِنْ أَجْزَائِهِمْ، وَعَلَّقْ مِنْهُمُ
 أَنَسًا بِجَبَلِ الوَرِيدِ إِلَى مَدَارِجِ أَنفُسِهِمْ؛ وَأَصْلَبْ مِنْهُمُ عَلَى الجُدُوعِ مِنْ تَنَاطُوحِ الرِّيحِ
 بِسَعْفِهِمْ، وَأَوْتِقْ مِنْهُمُ بِالسَّلَاسِلِ والأَعْلَالِ مِنْ لَانْتِقِضِي جِرَائِمِهِمْ إِصْطَالِمًا فِي المَقَابِلَةِ
 إِلَى حَدِّ تَلْفِهِمْ. وَأَكْرَمُ قُدُومٍ مَنْ يَرِدُ عَلَيْكَ مِنَ الكَارِمِ، وَقَرَّرْ بِحُسْنِ تَلْقِيكَ أَنَّكَ
 أَوْلُ مَا قَدَّمَاهُ لَهُمُ مِنَ المَكَارِمِ؛ فَهَمُّ سُمَّارِ كُلِّ نَادِي، وَرِفَاقُ كُلِّ مَلَّاحٍ وَحَادِي؛
 وَلَا بُدَّ أَنْ يَتَحَدَّثَ السُّمَّارُ، وَتُسَدَّ أَوَّلُ بَيْنَهُمُ الأَسْمَارُ؛ فَاجْعَلْ شُكْرَنَا دَابَّ السِّنْتِمْهِمْ،
 وَمِنَنَّا حَلِيَّةَ أَعْنَاقِهِمْ، وَمِنَعْنَا سَبَبًا لِأَسْتِجْلَابِ رِفَاقِهِمْ؛ فَهَمُّ مِنْ مَوَادِّ الإِرْفَاقِ،
 وَجَوَادِّ مَا يُجَمَلُ مِنْ طُرْفِ الآفَاقِ؛ وَقَدْ بَقِيَ مِنْ بَقَايَا أَهْلِ العَقَائِدِ الفَاسِدَةِ، وَالمَعَاقِدِ
 البَائِدَةِ؛ مَنْ يَتَعَيَّنُ إِعْقَادُ قَائِمِهِمْ، وَالتِّيَقُّظُ لِمَتَّقِظِهِمْ وَالنُّومُ عَنْ نَائِمِهِمْ. وَنَحْنُ نُذَبِّكُ
 عَلَى هَذِهِ الدَّقَائِقِ، وَنُوقِفُكَ عَلَى أَطْرَافِهَا وَلِئِكَ إِذَا حَقَّتْ الحَقَائِقُ؛ وَطَالَعَ
 أَبْوَابَنَا العَالِيَةَ بِمَا أَشْكَلُ عَلَيْكَ، نَتَنَزَّلُ أَنْوَارُ هُدَانَا أَقْرَبَ مِنْ رَجَعِ نَفْسِكَ إِلَيْكَ؛

(١) لعل حرف النفي زيادة من قلم الناسخ.

وأقدر حقَّ هذه النعمة فإننا أوليناك منها ما لا يُضاهى، وليناك من بلادنا قبلةً
 ترضاها، وتوليناك حيث وجهت وجهك شطر المسجد الحرام، ونوعت لك أرواح
 الحجاز وأنت في مصر وريفها العام، والله تعالى يديم منك سيفاً يروع مهزده، ويؤيد
 بك الدين فإنه بك يقوم جاهه ويُدومُ عزه، والاعتماد على الخط الشريف أعلاه.
 إن شاء الله تعالى .

الوجه الثانى

(من وجهى الديار المصرية البحرى، وهو الشمالى)

وكانوا في الزمن القديم يخصونه باسم الريف، مثل اختصاص الوجه القبلى بالصعيد.
 وأرباب الولايات فيه على ضربين :^(١)

الضرب الأول

(أرباب السوف)

وتختص الكتابة منهم الآن عن الأبواب السلطانية بنائب السلطنة بالوجه
 البحرى، ومقره مدينة دمنهور من البحيرة . وكان في الزمن المتقدم يكتب في البحيرة
 بوالىها، وكذلك في كل من سائر الأعمال بالوجه البحرى، وفوق الكل ولاية عامة،
 يعبر عن صاحبها بوالى الولاية، وربما [زيد] بالوجه البحرى، وربما عبر عنه
 بالكاشف . ثم استقرت نيابة في رتبة تقدمية العسكر بغزة في أيام الظاهر برقوق،
 على ما تقدم ذكره في المسالك والممالك في المقالة الثانية .

وهذه نسخة تقليد تصلح لنايب الوجه البحرى، مما كان كتب به المقر الشمبانى
 ابن فضل الله لوالى الولاية بها، وهى :

(١) لم يذكر الثانى . فتنه .

الحمد لله الذي أقام بنا كاشفاً لكل شكوى ، كاسقاً بال كل عدوى ، عارقاً بنهاية كل دعوى ، عاطفاً بعدلنا إلى إزاحة كل لأوى ، وإزالة كل بلوى .

نحمده وهو أهل الحمد والتقوى ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نؤمن بها الدانية والقصوى ، ونؤمن بها على السر والتجوى ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف من مهد له جنّة المأوى ، وأشرف به على شرف المئوى ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين فطم بشريعته نفوسهم عما تهوى ، وفطر فطهم عليها حتى لا تضل ولا تغوى ، صلاة ترتوى بفائضها السحب ما تروى ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد فإن من سجايا أيامنا أن نكشف كل كرب ، ونحسن إلى رعايا بلادنا إحساناً ينوع في كل ضرب ، ونديم الأمن حتى لا ندع سوى النيل قاطع طريق أو خارجاً على درب ، ونجرد من المهابة سيقاً يخشى من قربه ، وطيفاً يبئس به طير الكرامتهم على جنبه ، وخوقاً لبأه من الخصائص المحمدية أنه يتقدم إلى قلوب الأعداء مسيرة شهر [جيش] رعيه ، وكانت الديار المصرية المحروسة هي التي لا يحمده سواها ذو وجهين ، ولا يوجد لها في جانبيها مماثل في شيئين ، والوجه البحري أوسعهما عرضاً ، وأقربهما من الرى أرضاً ، وأصدقهما للبارق المحمر ومضاً ، وأجمعهما للذهب مذهب وللفضة إفضاً ، وأثبتهما وطأة لجرى النيل إذا أقبل في تياره يتدافع وأشتدت خيله ركضاً ، وهو الوجه المتهلل بشراً ، المتضوع بطيب رياحه نشراً ، المترين بمدائه أكثر مما زينه في مقاصيره قيصر وفي مدائه كسرى ، المنتنى بعروس كل قرية زف بها النيل في مسرى ، وبه الثغور التي لا تُشام لها بروق ، والمحارس التي ما لعادية إليها طروق ، وله من البحرين حازان ، ومن الجانبين بر مقفر وريف مقمر متبارزان ، وفيه من الشعوب والقبائل في الحضر والبادية من

(١) لا يُؤْمَنُ مِنْهُ بِأَثَرِهِ، وَلَا يُحْسَدُ بِغَيْرِ مَا يُرَاقُ مِنْ دَمٍ مُفْسِدِيهِمْ نَائِرُهُ . وكان لا يُقَوْمُ بِهَا كُلَّ الْقِيَامِ، وَيَجْمَعُ فَرَائِدَهَا الْمَشْدَرَةَ فِي أَكْلِ نِظَامٍ؛ إِلَّا مِنْ تَقَلُّبِ الْأُمُورِ بِقَلْبِهِ كُلَّ التَّقْلِيْبِ، وَجَرَدَتْ النَّوْبُ عَزَمَهُ فِي النَّوَابِ بِجَرَدَتْ سَيْفًا يُجَدُّ فِي التَّجْرِيْبِ؛ وَلَمْ يَزَلْ مِنْدُ بَلِغِ الْحُلْمِ أَمِيرًا مُطَاعًا، وَمَنْدُوبًا لَا يَفْرَقُ فِي الْمِهْمَاتِ إِذَا طَارَتْ نُفُوسُ الْأَنْظَارِ شِعَاعًا، وَأَوْقَدَتْ الْأَسْتَةَ سُوعًا، وَهَمَامًا لَوْ أَوْمَضَ الْبَرْقُ سَاعَةَ بُؤْسِهِ لَا تَرْتَعَدَتْ فَرَائِصُهُ زَمْعًا لَا إِزْمَاعًا، أَوْ قَابَلَهُ الرِّيحُ الْمُعْتَدِلُ عِنْدَ أَحْكَامِهِ لِأَطْبَقَتْ الْأُمْمُ عَلَى أَنَّهُ لَا يُبَائِئُهُ فِي الْعَدْلِ قَطْعًا وَأَجْمَعَتْ عَلَى تَقَرُّدِهِ إِجْمَاعًا .

وكان فلان هو العليل ههما، الجزل مداومة الجزيل ديمًا، الملى بما لا يقدر على مثل دفعه البحر متدققا وهمى الغمام منسججا؛ وقد حمدنا له في كل ما باشره أثارًا، وأحمدنا بجميل ملاحظته كل برضاً؛ فباشر الوجه القبلى فملاً عين الناظر المتوسم، وعم سروره حتى غامزه جاره الوجه البحرى ببنانه المخضب وضاحكه بغيره المتبسم؛ فلما تنقل فيهما استقرار (؟) الوجهين وما وآلهما، وعرف في وجهه نضرة النعيم بما أولاهما، وأخصب جانباهما، وجد بهذا كله ثم جد بهذا فطاب الواديان كلاهما؛ فأقتضى حسن الرأى الشريف أن لا يخلو الوجهان معاً من نظره الجلى الجميل، وأن يخلو عليه محاسنهما الكاملة ليُفارق على وجه جميل ويواصل على وجه جميل .

نخرج الأمر الشريف - لازل يختار علينا، ويختار كل غمام يرتضى له ولياً - أن يكون والى الولاية بالوجه البحرى جميعه، متفرداً بأفراده ومجموعه، ومحكاً في قبائله ومجموعه؛ وبعيده وقريبه، وبديعه وغريبه؛ وكل ما هو داخل فيه، عائد إلى أعماله وراجع إلى متوليه، على عادة من تقدم وقاعدته فيما يليه؛ وهى ما يُدكر من الأعمال:

(١) لم يتقدم ما يعود اليه الضمير وان كان الغرض واضحاً .

(٢) خوفاً ودهشاً .

الغريسة ، الشرقية ، البحيرة ، المنوفية ، إبيار ، أشمون ، قليوب . ولا أمر
ولا نهى إلا إليه راجع ، وله في متجددات الأمور مراجع ؛ ولا أرباب تصريف
إلا وله عليهم تصرف ، ولا صاحب جد ولا حد إلا فيه يمضى ويتوقف ؛ وتقوى
الله تعالى أول ما نصيه بسببها ، ونوصله إلى ربها ؛ وإقامة الشرع الشريف وإدامة
مبارزه وإعلاء مناره ، ومعاضدة حكمه وحكامه وأعوانه وأنصاره ؛ والوقوف معه
في إيراده وإصداره ، وإعلانه وإسراره ، والعمل به فإنه ما يضل من مشى في ضوء
نهاره ؛ وعمارة البلاد ، بإدامة العدل وتكميل الرى وتوطين السكّان وقمع الفساد ؛
واعتقاد حكم التذاكر الشريفة لأمر الحراريين التي تعمل ، والترع التي تراعى والجسور
التي لا يقدم جسور على أنها تهمل ؛ فهما قانون الرى الكامل ، والضامن لحصب البر
السائل ؛ وإذا أجرى الله النيل على عاداته الجميلة لا يدع للحل عيناً حتى يوارى
بالرى سوءته ، ويخفف بتيسر وصبوح حق كل مكان إليه وطأته ؛ ولا يدع عالياً
إلا مستفلاً ، ولا معطلاً إلا معتملاً ؛ ولا طوق بحر إلا تمتد يد النيل إلى زر جيوبه ،
ولا طائف رمل إلا يطوف طائف شرب على جرعائه وكثيبه ، حتى يعم الجميع ،
ويعمر ربوعها بما ينسجه لها من ملابس حُلل الربيع . وعليه بالإنصاف بين
المساكين ، والإنصات إلى الباكين منهم والمتباكين ؛ ووصل أمورهم على الحق
الذى نشر الله في أيامنا الزاهرة عالمه ، ومقتضى الشرع الشريف فإنه ما خاب من
أدام عليه حكمه وأدار إليه عمله . وأما أهل الفساد والأشتباه ، ومن يحتجى
بصاحب شوكة أو يتمسك برب جاه ؛ أو ينزل بلد أمير كبير مستظلاً بذراه ، أو ملتجئاً
من خوف أو مستطعياً من قرى قرآه ؛ بغميغ هؤلاء نتبع فرقتهم ورفاقهم ، وطهر
الأرض منهم وأمسخ بالسيوف أعناقهم ؛ وأسجج في قتلاهم ، وأثقل بالقيود أسراهم ،

(١) في الأصل شريب . (٢) لعله وأنحن .

وشدّد وثاقهم وكذلك من حمّاهم ووالاهم ، أو استحسن أو من عليهم أو مانع عنهم ، أو قال ما هو منهم وهو منهم ، وكلّ أجرهم في الحكم مجراهم ، وأطل تحت أطباق الثرى نواهم ، ونبه منهم أناسا على رءوس الجدوع وأنهم آخرون نومة لا ينتبهون بها من كراهم ؛ حتى يتأدّب بهم كل من أعرض ، ويتداوى بمداواته كل من في قلبه مريض . وما أشكل عليك فاسترشد فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة : لتجد هدى واضحا ، وحقا لائحا ؛ والله تعالى يجعلك من المهّدين لأرضه ، القائمين في أنواع الجهاد بفرّضه ؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

الجهة الثالثة

(درب الحجاز الشريف)

وقد تقدّم أنه كان في الزمن المتقدم يكتب عن السلطان تقليدًا لأمر الرّكب في الدولة الفاطمية وما تلاها . أما الآن فقد ترك ذلك ورُفِض كما رُفِض غيره من الكتابة لأرباب السُّيوف بالحضرة السلطانية ، ولم يبق الآن من يكتب له من ديوان الإنشاء شيء سوى قاضي الرّكب . وقد جرت العادة أن يكتب له توقيع في قطع العادة مفتتحًا بـ «رسم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، كتب به للشيخ «تقي الدين السبكي» رحمه الله في مبدأ أمره ، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لا زال يُعين على البرّ والتقوى ، ويرتاد لو فؤد الله من يتمسك في نشر الأحكام الشرعية بينهم بالسبيل الأقوم والسبب الأقوى - أن يستقر فلان في كذا : لما اختص به من غزارة علومه ، وإفاضة فضائله المتوقعة إلى قوته

في الحق وتصميمه ، فإنَّ مثله من يُختار لهذه الوظيفةِ الجاريةِ بينَ وفدِ الله الذين هم أحقُّ ببراءةِ الذمِّ ، وأولى بمعرفةِ حكمِ الله تعالى فيما يجبُ على المتلبِّس بالإحرام والداخلِ إلى الحَرَمِ ، وأحوجُ إلى الأطلاعِ على جزاءِ الصيدِ فيما جزاءُ المتعرِّضِ إليه مثلُ ماقتلِ من النعمِ ؛ إلى غير ذلك من ثبوتِ الأهلةِ التي ترتبُ أحكامُ الحجِّ عليها ، والحكمُ في محظوراتِ الإحرامِ وما يجبُ على المتعرِّضِ إليها ؛ فليباشر هذه الوظيفةَ في الوقتِ المشارِ إليه على عادةٍ من تقدَّمه فيها ، مجتهداً في قواعدها التي هو أولى من نهضَ بها وأحقُّ من يُوفِّيها .

قلت : أما شهودُ السبيلِ المعبرِّ عنهم بشهودِ الحِمَلِ ، فإنما تكتب لهم مربيَّاتٍ شريفةً من ديوانِ الوزارة .

تم الجزء الحادى عشر . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى عشر

وأوله القسم الثانى

(مما يُكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية - أربابُ

الوظائف بالممالك الشامية)

والحمد لله ربِّ العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الأميرية ٥٠٧٠/١٩١٧/٣٠٠٠)

فهرس

الجزء الحادى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

- الفصل الثانى — من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من
الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أطراف ٥
- الطرف الأول — فى مصطلح كتاب الشرق ٥
- الطرف الثانى — فى مصطلح كتاب الغرب والأندلس فيما يكتب من
الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أضرب ٦
- الضرب الأول — ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف ... ٦
- الضرب الثانى — ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام ٢١
- الضرب الثالث — ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية ٢٦
- الطرف الثالث — فى مصطلح كتاب الديار المصرية فيما قبل الخلفاء
الفاطميين وفيما بعدهم ، وفيه أربع حالات ... ٢٨
- الحالة الأولى — ما كان عليه أمر نواب الخلفاء بهذه المملكة إلى ابتداء
الدولة الطولونية ٢٨
- الحالة الثانية — ما كان عليه أمر الدولة الطولونية من حين قيام دولتهم
إلى أتقراض الدولة الأخشيدية ٢٩
- الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيوب ٣٢
- الحالة الرابعة — مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات
ما عليه مصطلح كتاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار
المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف
والأقلام وغيرهم : من التقاليد والمراسيم، والتفاويض،
والتواقيع ، وفيه ثلاثة مقاصد ٧٢

- صفحة
- المقصد الأول — فى مقدمات هذه الولايات ، وفيه مهيان ٧٢
- المهيح الأول — فى بيان رجوع هذه الولايات الى الطريق الشرعى ٧٢
- المهيح الثانى — فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات ٧٤
- المقصد الثانى — فى بيان مقاصد ما يكتب فى الولايات ، وفيه جملتان ١٠١
- الجملة الأولى — فى بيان الرسوم فى ذلك [ولم يذكر فى الأصل غيرها] ،
وهى على أربعة أنواع..... ١٠١
- النوع الأول — التقاليد..... ١٠١
- النوع الثانى — المراسيم ، وفيه ضربان ١٠٧
- الضرب الأول — المراسيم المكبرة ١٠٧
- الضرب الثانى — المراسيم المصغرة ١١١
- النوع الثالث — التفاويض ١١٢
- النوع الرابع — التواقيع ، وهى على أربع طبقات ١١٤
- المقصد الثالث — فى بيان كيفية وضع ما يكتب فى هذه الولايات فى الورق ١٢٧
- فى ذكر نسخ مما يكتب فى متن الولايات من التقاليد والمراسيم المكبرة
والتفاويض والتواقيع ، وهى على ثلاثة أقسام ١٣٣
- القسم الأول — ولايات وظائف الديار المصرية ، وهى على نوعين..... ١٣٤
- النوع الأول — الولايات بالحضرة ، وهى على ستة أضرب ١٣٤
- الضرب الأول — ولايات أرباب السيوف ، وهى على طبقتين..... ١٣٤
- الطبقة الأولى — ذوات التقاليد ، وهى ثلاث وظائف ١٣٤

الوظيفة الأولى — الكفالة، وهي نيابة السلطنة بالحضرة	١٣٤
الوظيفة الثانية — الوزارة لصاحب سيف	١٤٨
الوظيفة الثالثة — الإشارة، وهي وظيفة قد حدثت كتابتها ولم يعهد بها	
كتابة في الزمن القديم	١٥٣
الطبقة الثانية — ممن يكتب له من أرباب السيوف ذوات التواقيع،	
وفيها وظائف	١٥٦
الوظيفة الأولى — نظر البيمارستان لصاحب سيف	١٥٦
الوظيفة الثانية — نظر الجامع الطولوني	١٥٩
الوظيفة الثالثة — نقابة الأشراف	١٦٢
الضرب الثاني — ممن يكتب له بالولايات بالديار المصرية أرباب	
الوظائف الدينية، وهو على طبقتين	١٧٤
الطبقة الأولى — أصحاب التقاليد ممن يكتب له بالجناب العالى	١٧٤
الطبقة الثانية — من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع،	
وتشتمل على مراتب	٢٠٤
المرتبة الأولى — ما كان يكتب في النصف	٢٠٤
المرتبة الثانية — ما يكتب في قطع الثلث، وتشتمل على وظائف	٢٠٤
المرتبة الثالثة — من الوظائف الدينية ما يكتب في قطع العادة الصغير	
مفتتحاً برسم بالأمر الشريف	٢٦٨

صفحة

- الضرب الثالث — من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية
- ٢٧٠ الوظيف الديوانية ، وهى على طبقتين
- الطبقة الأولى — أرباب التقاليد ممن يكتب له الجتاب العالى ،
- ٢٧٠ وفيها وظيفتان
- الطبقة الثانية — من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية
- ٣١٦ أصحاب التوقيع ، وهم على ثلاث درجات
- الدرجة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف ، وتشمل على ثلاث وظائف
- ٣١٦
- الدرجة الثانية — ما يكتب فى قطع الثالث ، وتشمل على وظائف
- ٣٣٣
- الدرجة الثالثة — ما يكتب فى قطع العادة ، وفيها وظائف
- ٣٥١
- الضرب الرابع — من الوظائف التى يكتب فيها بالديار المصرية مشيخة
- ٣٧٠ الخواثق ، وكلها يكتب بها توقيع
- الضرب الخامس — من أرباب الوظائف بالديار المصرية بالحضرة
- ٣٧٧ أرباب الوظائف العادية ، وكلها توقيع
- الضرب السادس — من أرباب الوظائف بالديار المصرية زعماء أهل
- ٣٨٥ الذمة
- النوع الثانى — ماهو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة من وظائف
- الديار المصرية مما يكتب لأربابها ، وهى ثلاث
- ٤٠٥ جهات

صفحة

- الجهة الأولى — ثغر الإسكندرية ، والوظائف فيها على ثلاثة أصناف ... ٤٠٥
- الصف الأول — وظائف أرباب السيوف ... ٤٠٥
- الصف الثاني — الوظائف الدينية ... ٤٠٨
- الصف الثالث — الوظائف الديوانية ، وهي على طبقتين ... ٤١٩
- الطبقة الأولى — من يكتب له في قطع الثلث بالمجلس السامى بالياء ٤١٩
- الطبقة الثانية — من يكتب له في قطع الثلث بالمجلس السامى بغيرياء
- أو مجلس القاضى ... ٤٢٣
- الجهة الثانية — مما هو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة بالديار
- المصرية بلاد الريف ، وهي وجهان ... ٤٢٦
- الوجه الأول — الوجه القبلى ، وهو المعبر عنه بالصعيد ... ٤٢٦
- الوجه الثانى — من وجهى الديار المصرية البحرى ، وهو الشمالى ... ٤٣٨
- الجهة الثالثة — درب الحجاز الشريف ... ٤٤٢

(تم فهرس الجزء الحادى عشر من كتاب صبح الأعشى)

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الأئمة

نالتف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

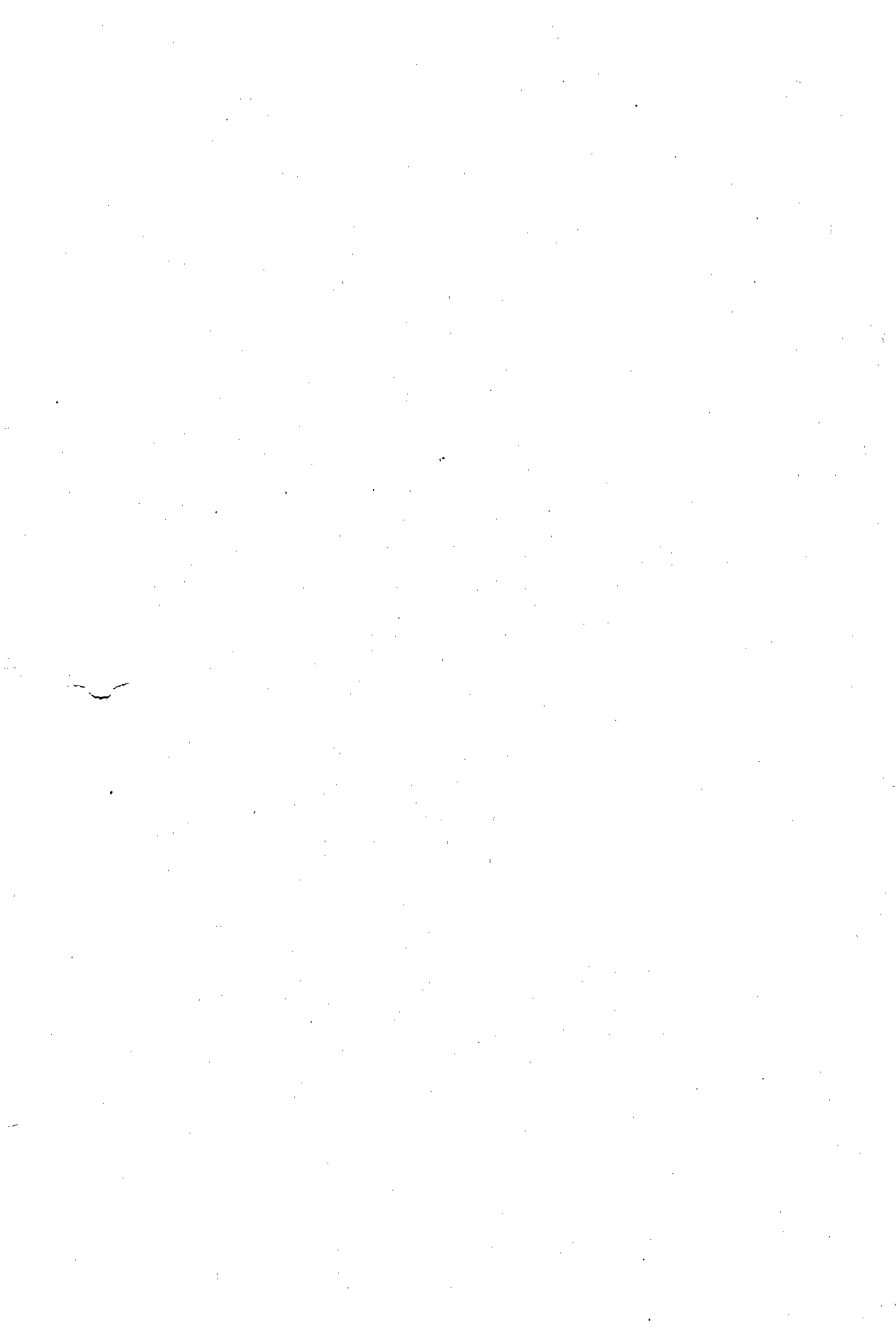
الجزء الثاني عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٦ هـ
م ١٩١٨



صنعة الأندلس

الجزء الثاني عشر



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثاني

(مما يُكْتَبُ من الولايات عن الأبواب السلطانية - [ما يكتب لأ] رباب

الوظائف بالممالك الشامية)

وأعلم أنَّ نواب السلطنة في التولية على ضربين :

الضربُ الأولُ

(من لا تصدُر عنه منهم توليةٌ في عمل نيابته)

وهم نواب الديار المصرية : من النائب الكافل ، ونائب الإسكندرية ، ونائب الوجه البحري ، ونائب الوجه القبلي ، فليس لأحد منهم تصدُر في ولاية ولا عزل لنائب ، ولا كاشف ، ولا والي حرب . إنما النائب الكافل يكتب في بعض الأمور على القصاص ، والسلطان هو الذي يباشر الكتابة على الولايات بنفسه ، والنائب الكافل يكتب بالاعتماد على ما يكتب عليه السلطان ، كما تقدمت الإشارة إليه في موضعه .

الضرب الثاني

(من تصدر عنه التولية والعزل في عمل نيابته)

وهم نواب السلطنة بالممالك الشامية السبعة المقدم ذكرها : من النيابات الصغار، والوظائف الديوانية، والوظائف الدينية، ووظائف مشايخ التصوف، والوظائف العادية : كرياسة الطب ونحوها، ووظائف زعماء أهل الذمة : من رياسة اليهود، وبطريكة النصارى، وغير ذلك .

فأما النيابات الصغار التي في أعمال النيابات العظام : فما كانت نيابته إمرة عشرة فأكثر يولي في التواب، وربما ولى فيه السلطان . وما كانت نيابته إمرة طبلخاناه فأكثر : يولي فيه السلطان، وربما ولى فيه التواب . وما كانت نيابته مقدمة ألف، فولايته مختصة بالسلطان دون التواب .

وأما الوظائف الديوانية، فما كان منها صغيرا ككتابة الدرّج وما في معناها، فأكثر ما يوليها التواب . وما كان منها جليلاً : ككتابة السرّ وما في معناها، ونظر الجيش، ونظر المال، فتوليته مختصة بالسلطان . وما كان منها متوسطاً بين الطرفين : ككتابة الدست ونحوها : ففي دمشق تارة يولي فيها السلطان، وتارة يولي فيها النائب . وفيما دونها من النيابات غالب من يولي فيها التواب، وقد يولي فيها السلطان .

وأما الوظائف الدينية، فما كان منها صغيراً : كالندريس الصغار، والخطّابات بالجموع الصغار، وأنظار المدارس والجموع الصغار، ونحو ذلك، فإنه يولي فيها

النواب ولا يولّى فيها السلطانُ إلا نادراً . وما كان منها جليلاً : كقضاء القضاة ، فإنّ توليته مختصة بالسلطان . وما كان منها متوسطاً بين الرتبين : كقضاء العسكرة ، وإفتاء دار العدل ، والحسبة ، ووكالة بيت المال ، ومشيخة الشيوخ ، ونحو ذلك : فتارةً يولّى فيها السلطانُ ، وتارةً يولّى فيها النّواب . إلا أنّ تولية السلطان فيها في النيابات الجار كالشام أكثر ، وتولية النّواب فيها فيما دون ذلك أكثر .

وأما مشيخة الخوانق فقد يولّى فيها السلطانُ ، وقد يولّى فيها النّواب : إلا أن تولية السلطان في مشيخة الشيوخ بالشام أكثر ، وتولية النّواب في غير مشيخة الشيوخ بدمشق وفي غيرها من وظائف الصّوفية في غير دمشق أكثر .

وأما الوظائف العادية : كرياسة الطب ونحوها ، ففي جميع النيابات توليتها من النّواب أكثر ، وربما ولى فيها السلطان .

وأما وظائف زعماء أهل الذمة : كرياسة اليهود ، وبطركية النصارى ، فيستبد بها النّواب دون السلطان : لزيادة حقارتها في الوظيفة والبعد عن حضرة السلطان .

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظام استقرت سبع نيابات :

النيابة الأولى

(نيابة دمشق ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام)

وظائفها على نوعين :

النوع الأول

(ما هو بحاضرة دمشق ، ويشتمل ما يكتب به من وظائفها
عن الأبواب السلطانية على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد في قطع الثلثين بـ«المقرّ العالی» مع الدعاء
بـ«عزّ الأنصار» : وهو نائب السلطنة بها)

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام ، كتبت به عن السلطان الملك العادل
«كُتِبَا» للأمير «سيف الدين غرلو العادلي» من إنشاء الشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي ، وهو :

الحمد لله الذي جعل لسيف دولتنا على عاتق الملك الأعزّ نجاحاً ، وأدّخر لكفالة
مملكيتنا من الأولياء من تناسب وصفاه آجتهداً في مصالح الإسلام وجهاداً ، وعدق
أمور رعايانا بمن أيقظ لها سيفه وجفنه فامتلات عيونهم بما وهب وسلب من نومه
ونوم العدا رقّادا ، ورفع ألوية إحساننا على من زاد برفعها ظلّ عدله أنيساطا على
الرعية وامتدادا ، ووطّد قواعد ممالكنا بمن أجلنا الفكر في حُسن اختياره أنتقاء
لمصالح الإسلام وآنقادا ، وأدى لشكر نعم الله التي لا يؤدي شكر بعضها ولو أنّ
ما في الأرض من شجرة أقلام أو كان البحر مدادا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ عِزًّا مِمَّا عَلَى الْأَبْدِ مَنْصُورَهُ، وَمَقَاصِدَنَا عَلَى مِصَالِحِ
المُسْلِمِينَ مَنْصُورَهُ، وَأَرَاءَنَا تَفْوُضَ زَعَامَةَ الْحَيَوشِ إِلَى مَنْ تُصْبِحُ فِرْقُ الْأَعْدَاءِ
بِفِرْقِهِ مَغزُورَةً وَمِمَالِكِهِمْ مَهَابَتَهُ مَحْضُورَهُ .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال تنشر دعوتها في الآفاق،
وزُهِبَ لإِقَامَتِهَا فِي مَمَالِكِنَا سَيْفًا يَصِلُ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِقَطْعِهِ وَيَقْطَعُ إِلَّا الْأَرْزَاقَ ،
وزُهِبَ مِنْ أَلْحَدِ فِيهَا بِكُلِّ وَلى لِرُغْبِهِ فِي الْقُلُوبِ رَكْضٍ وَلِرَايَتِهِ فِي الْجِوَانِحِ حَقْقٍ
وَلَأَسْتَنَّةٍ فِي الصُّدُورِ إِشْرَاقٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفُ مَنْ فَوَّضَ حُكْمًا
فِي أَيَّامِهِ إِلَى مَنْ أَعْتَمَدَ عَلَيْهِ ، وَأَرَأَيْتَ مَنْ اسْتَحْلَفَ عَلِيَّ مِنْ بَعْدِ عَنَسِهِ مِنْ أُمَّتِهِ مَنْ
يَعْلَمُ أَنَّ صَلَاحَهُمْ فِي يَدَيْهِ ، وَأَلْطَفَ مِنْ عَدَقِ شَيْئًا مِنْ أُمُورِ أَهْلِ مِلَّتِهِ بَيْنَ أَعَانَةِ اللَّهِ
وَسَدَدِهِ فِي دَفْعِ عَدُوِّهِمْ وَصَلَاحِ مَا يَرْفَعُ مِنْ أَحْوَالِهِمْ إِلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ الَّذِينَ وُلُوا عَلَى الْأُمَّةِ فَعَدَلُوا ، وَأَمَرُوا بِمَا جَبَلَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّأْفَةِ وَالنِّعْمَةِ
وَالرَّحْمَةِ فَاثْتَمَلُوا ، وَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ فِيمَا نَهَجَ لَهُمْ مِنْ طَرِيقِ طَرِيقَتِهِ الْمُثَلَّى فَمَا مَالُوا عَنْ
ذَلِكَ وَلَا عَدَلُوا ؛ صَلَاةً لَا تَغْرُبُ شَمْسُهَا ، وَلَا يَعْزُبُ أُنْسُهَا ، وَلَا تُعْتَبَرُ أَوْقَاتُ إِقَامَتِهَا
إِلَّا وَيُقَصَّرُ عَنْ يَوْمِهَا فِي الْكَثْرَةِ أَمْسُهَا ؛ وَسَلِمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإن أولى ما عملنا إليه ركائب الآراء المؤيدة ، وصرفنا إليه أزمة
نجائب الأفكار المسددة ؛ وأجلنا فيه طرف النظر الذي لا يشق في بلوغ الغاية غباره
ولا يدرك ، وأحلنا الأمر فيه على التأييد الذي هو عمدتنا فيما يؤخذ من تواقب
الآراء وما يترك ؛ وقدمنا فيه مهم الاستخارة الذي يتلوه التوفيق ، وعلمنا أن اللد
أسباب الهداء إليه سلوك النصح لله ولرسوله وللإسلام فسلوكنا إليه من ذلك

الطريق ؛ وقصّرنا النية فيه على مصالح الأمة التي هي فرض العين بل عين الفرض ، وأطلقنا الارتداد فيه لتعين من نرجو له ممن عناهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . وتدبنا له سيفا لم يزل في صدور الأعداء صدره وفي يد جبار السموات قائمه ، وأردنا لتقدمة الجيوش فيه زعيما طالما مل ضوء الصبح مما يغيره ومل سواد الليل مما يزاحمه ؛ وقدمنا له من نسا في حجر ولائنا ، وغدّى بلبان برنا وآلائنا ؛ وشهد الوقائع بين يدينا ، وخبرنا من سيرته التهوؤ في الرعايا بما كتب الله لهم من الرأفة والرحمة علينا - أمر نيابة ساطنتنا الشريفة بالملك الشامية التي نابت فيها مهابتنا ، عن الإقامة فيها ، وجعلتها عنايتنا ، من أشرف ممالكنا التي نخصها على البعد بدوام الملاحظة ونُصِفِها ؛ وهي واسطة عقد ممالكنا ، ومحط رحال طرُقنا إلى جهاد الأعداء ومسالكنا ، وهالة أهلة سرى القصد إلى لحظها في أديم الأرض مواقع سنابكنا ؛ ومواطن القربات التي نصت الأثار الصحيحة عليها ، ومضان العبادات التي طالما نصت ركائب العباد العباد إليها ؛ ومقام الأبدال الذين هم أهل دار المقامة ، ومستقر طائفة الدين الذين لا يزالون ظاهرين على أعدائهم لا يضرهم من خذلهم إلى يوم القيامة ؛ وفلك الثغور الذي تُشرق منه كواكب سعودها ، وتتصرف من نوبته إلى من جاورها من العدا خاطفات بروقها وقاصفات رعودها ؛ فكم ذى جنود أمها فهلك وما ملك ، وسلك إليها بجيوشه فزلت وتزلت قدمه حيث سلك ؛ ولجيشها البأس الذي وجود الأعداء به عدم ، والحُد الذي يعرفه أهل السياق و[ان] أنكرته أعناقهم «فما بالعهد من قدم» .

وأن نفوض [أمرها] إلى من ينشرها على الأمة لواء عدلنا ، ويُسْطَفِها بالرأفة والرحمة رداء فضلنا ، ويُنحِي بها سُنَن الإحسان التي مبدأ أيامها غايه من سلف من قبلنا ؛

ويقيم منار الملك من بأسه على أرفع عماد ، وينيم الرعايا من عدله في أوطأ مهاد ؛
ويكف أكف الظلم إلى ما يتجاسر إلى إعادة يده إليها عادٍ ومن عاد ، ويجرد إلى
العدا من خياله وخبيله سرايا تطرد عن موارد جفونهم بقوائمها الرقاد ؛ وتستعيد
عوارى أرواحهم من مستودعات أجسادهم فهي بحكم العارية غير مستقرّة
في الأجساد ، ويصون الرتب عن تطرق من يفسد أحوالها لعدم أهليته : فإنه ماسلك
أحد في أيامنا طرّق الفساد فساد ؛ ويعلم به أنا جردنا على العدا سيفًا يسبق إليهم
العدل ، ويزاحم على قبض نفوسهم الأجل ، وتخلّى بتقليده الدول ، ويتحقق بفتكه
أنه لا حاكم بيننا وبينهم إلا السيف الذي إن جار فيهم فقد عدل .

ولذلك لما كان المجلس العلى الفلانى : هو الذى اخترناه لذلك على علم ، وقلدناه
أمور الممالك : لما فيه من حدة بأس وآية حلم ؛ وعجمنّا عوده فكان لنا على الأولياء
فظًا على العدا ، وبلونا أوصافه فعامنا منه السداد الذى لا يضع به الندى في موضع
السيف ولا السيف في موضع الندى ، وعرضنا سداده على حسن اعتبارنا للاكفاء
فكان سميرنا (وحمل ، فزين معروضًا وراع مسددا) ؛ وهزناه فكان سيفًا ينصل
حده الخطب إذ أعضل ، وأعطينا أمر الجيوش فلم يختلف أحد في أنه أفضل
من الأفضل .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازل يصطفى من الأولياء كل كفاء كريم -
أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الشامية : تفويضًا يعلى قدره ، ويسط
في مصالح الملك والممالك أمره ؛ ويطلق في مصالح الدولة القاهرة سيفه وكلمه ،
ويدر على الأولياء إحساننا الذى إذا جرى الغيث أحجل دوائمه ديمه ؛ ويرفع بالعدل

مَنَارَ دَوَامِ مُلْكِكَ الَّذِي قَرَنَهُ اللَّهُ لِلْأُمَّةِ بِجُودِنَا ، وَيُضِيفُ بِاسْتِرْفَاعِ الْأُدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ
لِدَوْلَتِنَا مِنْ كُلِّ لِسَانٍ جُودَ اللَّيْلِ إِلَى جُنُودِنَا ، وَيَنْظُرُ فِي أُمُورِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ نَظْرًا
عَامًا ، وَيُعْمَلُ فِي سِدَادِ نَفُورِهَا وَسِدَادِ أُمُورِهَا رَأْيًا ثَاقِبًا وَفِكْرًا تَامًا ، وَيَأْمُرُ النَّوَابِ
مِنْ سِدِّ خَلِّهَا بِمَا كَفَّايَتْهُ أُدْرَى بِهِ مِنْهُمْ ، وَيَنْبَهُهُمْ مِنْ مَصَالِحِهَا عَلَى مَا ظَهَرَ لِفِكْرِهِ
الْمُصِيبِ وَخَفِيَ عَنْهُمْ ، وَيَلَاحِظُ أُمُورًا مَا بَعُدَ مِنَ الْبِلَادِ كَمَا لَحِظْتَهُ أُمُورًا مَا دَانَ ،
وَيَنْظُرُ فِي تَفَاصِيلِ أُمُورِهَا : فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ عَلَى السِّدَادِ فَلَيْسَ بِهَا عَنْ حُسْنِ نَظَرِهِ
غِنَى ، وَيَسْلُكُ بِالرَّعَايَا سُنَنَ إِنْصَافِهِ الَّتِي وَكَلَّتْهُ مَعْرِفَتُنَا بِهِ إِلَيْهَا ، وَيُجَرِّبُهُمْ عَلَى عَوَائِدِ
الْإِحْسَانِ الَّتِي كَانَتْ مِنْ خَلْقِهِ سَجِيَّةً وَزِدَانًا تُحَرِّضُهُ عَلَيْهَا .

وهو يعلم أن الله تعالى قد أقامنا من الجهاد في أعدائه بسنته وفرضه ، ومكَّن
لنا في الأرض : لإقامة دعوته وإعلاء كلمته وتطهير أرضه ؛ وعَضَدَنَا بِتَأْيِيدِهِ لِنُصْرَةِ
الْإِسْلَامِ ، وَأَمَدَّنَا مِنْ عُدَدِ نَصْرِهِ بِكُلِّ سَيْفٍ تَرَوَّعَ الْأَعْدَاءُ بِهِ الْيَقِظَةُ وَتَسْلُهُ
عَلَيْهِمُ الْأَحْلَامُ ، وَبَثَّ سَرَايَا جِيُوشِنَا بَرًّا وَبَحْرًا : فِيهِ إِمَّا سَوَارٍ فِي الْبَرِّ تَمْتَرُ
السَّحَابُ أَوْ جَوَارٍ مُنْشَأَتٌ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ، وَيَتَعَاهَدُ أَحْوَالَ الْجِيُوشِ الشَّامِيَةِ
كُلَّ يَوْمٍ بِنَفْسِهِ ، وَيُعِدُّهُمْ فِي غَدِهِ بِاعَادَةِ مَا أَعْتَبَرَهُ مِنْ عَرَضِهِمْ فِي أَمْسِهِ ؛ وَيُرْتَبِ
أَمْرَ كُلِّ إِقَامٍ وَحَالِهِ ، وَيَتَفَقَّدُ مَنْ يَبَاشِرُ بِالنَّقْدَةِ تَقَدُّمَهُ إِلَى الْأَطْرَافِ وَأَرْتِحَالِهِ ؛
وَيَأْمُرُهُمْ كُلَّ يَوْمٍ بِالنَّاهِبِ لِلْعَرَضِ الَّذِي يَبَاشِرُهُ غَدًا بَيْنَ يَدَيْنَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام ، كتب به للأمر « جمال الدين أفوش
الأشرفي » في جمادى الأولى ، سنة إحدى عشرة وسبعائة ، من إنشاء الشيخ شهاب
الدين محمود الحلبي رحمه الله تعالى ، وهي :

الحمد لله الذى جعل الدين فى أيماننا الزاهرة زاهياً بجماله ، سامياً بتقديم من
إذا أرهف فى الدب عنه بسيف عزمه غدت الجنة تحت ظلاله ، حالياً بتفويض
زعامة جيوشه إلى من لو فآخر به البدور تعجبت من نقصانها وكاله ، عالياً بياالة
من تتولد معانى النصر والظفر بين الكاملين : من روية رأيه وآرتجاله ، راقياً على هام
الكفر بعزائم من لا يزال تُصيح مهايته العدا بطلائع خيله وتبيتهم بطوارق خياله ،
نامياً بإسناد الحكم فيه إلى من يقطع إنصافه بين المبطل ورجائه ويصل العدل [منه]
بين الحق وبين آماله .

نحمده على نعيمه التى أنامت الرعايا من معدلتنا فى أوطأ مهاد ، وأدامت الدعاء
الصالح لأيماننا بإعلاء كلمته العدل والجهاد ، وأقامت الإيالة فى أسنى ممالكنا بن هو
أجرى من الغيوب ، وأجرأ من اللبوث ، فى مصالح البلاد والعباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال الألسن لإقامتها مديمه ،
والضائر على إدامتها مقيممه ، والقلوب تعقد من كلمة إخلاصها وإخلاص كلمتها فى جيد
الإيمان تميممه ، والتوحيد يظهر أنوارها فى الوجوه الوسيمه ، بأمن مطالع
القلوب السليمه .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى جبله على خلق عظيم ، وجعله وإن تأخر عصره
من مقام النبوة فى أعلى رتب التقديم ، ومن على الأمة بإرساله إليهم من أنفسهم
وأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين دُعوا إلى طاعته
وأجابوا ، وحكموا بسنته وأصابوا ، وجاهدوا المعرضين عن ملته حتى رجعوا إلى الهدى
وأنابوا ، صلاة لا تغيب أنوارها ، ولا يفارق وجوه أهلها وقلوبهم رؤؤها
وإروؤها ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإنه - لما أجزانا الله عليه من عوائد نصره، وأغرانا به من حصد الشرك وحصره، ومنتحنا من بسطة ملك زينت بها أسارى البسيطة وأسرتها، ووهبتنا من فوائح فتوح علت على وجوه الكفر مساءتها وبدت على وجوه الإسلام مسرتها - لم نزل نُؤدّي شكر نعم الله بالإحسان إلى عباده، ونستريد منها بتفويض أمورهم إلى من يقوم في الذب عنهم مقام الجيش على أنفراده؛ فلا تقدم على الرأفة بجأق الله أمرا، ولا نحابي في بسط المعدلة عليهم زيادا ولا عمرا؛ ولا نعدل بهم عن إذا ركب في موكب نيابتنا زانه وجمله، وإذا جلس على بساط عدلنا زاده وجمه؛ وإذا رسم بأمرنا أصغت السيوف إلى مراسمه، وإذا نظر بعين عنايتنا نغرا أهدى الشنب إلى مباسمه؛ وإذا رام في مصالح الإسلام أمرا قرب على رأيه بعيده، وإذا رمى في حماية الممالك عدوا سبق إلى مقاتله قبل السيوف وعيده؛ وإذا جرد جيشا إلى أعداء الإسلام جرت قبل اللقاء ذبول هزائمها، ورأت الفرار أمتع لها من صوارمها، وثلت ما في كنائنها من سهام ضعفت عن الطيران قوى قوادمها .

ولما كان الجناب العالی الغلاني هو معنى هذه الفرائد، وسر هذه الأوصاف التي للشرك منها مصائب هي عند الإسلام فوائد، وفارس هذه الخلبة، التي أحرز [قصب] سبقها، وكف هذه الرتبة، التي أخذها دون الأكفاء بحقها؛ لاناخذة في الحق لومة لائم، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجده «وما ليل المحد بنائم» يسرى إلى قلوب الأعداء رعبه وهو في مكانه، وتؤدى مهابته في نكاية الكفر فرض الجهاد قبل إمكانه؛ ويشفع العدل في الرعايا بالإحسان إليهم، ويجمع بين إرهاب المعتدين وشدة الوطأة عليهم؛ ويقف في أحكامه مع الشريعة التي أعلى الله تعالى منارها، ويستضيء بأحكامها التي هي لا بصر النظار تغير انوارها .

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القوة في ايمين ،
والواسطة في العُقْد الثمين ؛ والإدراك في الصدور ، والإشراق في البُدور ؛ وبها الأرض
المقدسة ، والحُصُون التي هي على نكاية الأعداء مؤسسَه ؛ ولها الجيوش التي أَلَّت
في الجهاد السرى ، وأِنْفَت لسيوفها في الجُفُون الكرى ؛ ومَرَّت على مَقَاتِلِ العِدا
أَسْتَبْها ، وصُرِّفَت في مَسَالِكِ الحَرْبِ أَعْتَبْها ؛ ورَاعَت مَلُوكِ أَهْلِ الكُفْرِ سُمْعَةَ
أمرائها ، وحاطَظَتْها أمدادُ النَّصْرِ في حروبها من بين يديها ومن وراءها ؛ وفيها من الأئمة
العلماء الأعيان من يعِدُّ دَمَ الشَّهْداءِ مِدَادَ أَقْلَامِهِمْ ، ومن الأتقياء الصُّلَحاءِ مَنْ
لا تَطِيشُ دُونَ مَقَاتِلِ أَهْلِ الكُفْرِ مَوَاقِعَ سَهَامِهِمْ - أَقْتَضَتْ آراؤنا الشريفة أن تُمْتَعَ
هذه الرتبة السنية بجمالها ، وأن نُبَلِّغَ هذه الدرجة السرية بمن حوى هذه الأوصاف
الفاحرة غاية آمالها ؛ ليُصْبِحَ بها لِيَواءِ عَدْلِنَا ، مَرْفُوعَ الذَّوَابِ ، وَمَنْهَلِ فَضْلِنَا ، مَدْفُوعَ
الشَّوَابِ ؛ وكلمة جهادنا ، نافذة في المشارق والمغارب ، وقبضة بأسنا ، آخذة من أعداء
الدين بالذرا والغوارب ، وطليعة كائبنا مؤتممة بمن تُوقِنُ الطير أن فريقيه إذا ما أتقى
الجمعان أول غالب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت صوارمه للشرك قامعه ، ومراسمه لمصالح
الدين والدنيا جامع - أن تفوض إليه تفويضا يرفع علمه ، ويمضي في مصالح
الإسلام سيفه وقلمه ؛ وينشر في آفاق الممالك الشامية عدله ، ويسط على رعايا
تلك الأقاليم المحروسة فضله وظله ؛ فيطلع في أفق المواكب هالة أهلته ، وطراز
حلتها ؛ وطاعة لوائها ، وواسطة عقود مقدمها وآرائها ؛ وزينة تسييرها ووقوفها ،
وحلية طلائعها وصُفوفها ؛ ويجلس في مواطن الجلوس صادعا بالحق في حكمه ،
أمرا بإدامة التأييد للعدو في أيام سلمه ؛ معطيا منصب النيابة الشريفة حقه من
الجلاله ، موفيا رتبته المنيفة بما يجب لها من أهبة المهابة وكفاءة الكفاله ؛ ولا يزال

لمصالح الجيوش المنصورة ملاحظًا، وعلى إزاحة أعضادهم مُحَافِظًا؛ وإلى حركات عُدُو
الإسلام وسكَّاتِهِ مُتَطَلِّعًا، وإلى مايتعين من إبطال مكايده متسرِّعًا؛ وليوَاطِن أحوالهم
بحسن الأطلاع مُحَقِّقًا، وجموعهم بين الاجتماع للقاءهم مُفَرِّقًا؛ فلا يُضْمِرُونَ مَكِيدَةَ
إِلَّا وَعَلِمُهَا عنده قبل ظهورها لديهم، ولا يُسْرُونَ غارة إلا ورأيتنا خَيْلِهِ الْمُغِيرَةَ
أَسْبَقُ منها إليهم .

وليكن لِمَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ مُعَايَا، ولأقْدَارِ أربابه مُغَلِيَا؛ ولرُتَبِ العلماءِ رافعا،
ولأقْوَالِهِمْ فِي الأحكامِ الشَّرْعِيَّةِ سَامِعَا؛ وَلِدَوِي البيوتِ القَدِيمَةِ مُكْرِمَا، ولأهلِ الوَرَعِ
وَالصَّلَاحِ مُعْظَمًا؛ وعلى يَدِ الظَّالِمِ ضَارِبَا، وفي آقْنَاءِ الأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ لدولتنا القَاهِرَةِ
رَاغِبَا؛ ولجَمِيلِ النَّظَرِ فِي عِمَارَةِ البِلَادِ مُدِيمَا، وَبِحُسْنِ الفِكْرِ فِي أُمُورِ الأَمْوَالِ مُعْمَلَا
رَأْيَا بِمَصَالِحِهَا عَلِيَا؛ ولجَهَاتِ البِرِّ بِجَمِيلِ العَنَايَةِ والإِعَانَةِ عَامِرَا، وَعَنْ كُلِّ مَا لا يُجِبُّ
أَعْتَادُهُ نَاهِيَا وبكل مايتعين فعله أَمْرَا . وفي كَمَالِ خِلَالِهِ، وَأَدَوَاتِ جَمَالِهِ، مَا يُغْنِي عَنْ
الْوَصَايَا إِلَّا عَلَى سَبِيلِ الذِّكْرِ الَّتِي تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْفَعُ الْمُتَّقِينَ؛ وَمِلَاكُهَا تَقْوَى
اللَّهِ تَعَالَى وَهِيَ مِنْ خِصَائِصِ نَفْسِهِ الكَرِيمَةِ، وَعَوَائِدِ سِيرَتِهِ الحَدِيثَةِ والقَدِيمَةِ؛ وَاللَّهُ
تَعَالَى يُسَدِّدُهُ فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ، وَيُؤَيِّدُهُ وَقَدْ فَعَلَ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب بها للأمر «سيف الدين تنكر
الناصرى» في ربيع الأول سنة أثنى عشرة وسبعائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي، وهي :

الحمد لله مَفْوِضِ أَسْنَى المَمَالِكِ فِي أَيَامِنَا الزَاهِرَةِ إِلَى مَنْ تَزَهُو بِتَقْلِيدِهِ، وَمُسَيِّدِ
قَوَاعِدِ أَسْمَى الإِقَالِمِ فِي دَوْلَتِنَا القَاهِرَةِ بِمَنْ يعلو بِبَيَاتِهِ مَا يَلْقَى إِلَيْهِ مَعَاقِدُ مَقَالِيدِهِ؛

وَمُسَدِّدِ الآرَاءِ فِي تَصْرِيفِ أَعْتَةِ جِيوشِنَا الْمَنْصُورَةِ بِتَقْدِيمِ مَنْ تَعَدُّو سَيُوفَهُ مِنْ
عُنُقِ كُلِّ مُتَوَجِّعٍ مِنَ الْعِدَا قِلَادَةَ جَبِيدِهِ ، وَنَاشِرِ لَوَاءِ الْعَدْلِ فِي رَعَايَانَا وَإِنْ بَعُدُوا
بِمَنْ تُنِيمُ كَلًّا مِنْهُمْ فِي مَهْدِ الْأَمْنِ وَالِدَّعَةِ يَدِ مَهَابَتِهِ وَتَمْهِيدِهِ ، وَمُعَلِّي مَنَارِ الْجِهَادِ
فِي سَبِيلِهِ بَمَنْ إِذَا جَرَّدَ سَيْفَهُ فِي وَغَى تَهَلَّلَتْ نَوَاجِدُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الضَّوَّاحِكِ بَيْنَ تَجْرِيهِ
وَتَجْرِيدِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي أَيَّدَتْ آرَاءَنَا بِوَضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فِي مُسْتَحِقَّتِهِ ، وَقَدَّتْ سَيْفَ
النَّصْرِ مِنْ أَوْلِيَانِنَا مَنْ يَأْخُذُهُ فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ بِحَقِّهِ ، وَجَدَّدَتْ آلَاءَنَا لِمَنْ إِذَا جَارَتْ
الْحُتُوفُ سَيُوفَهُ إِلَى مَقَاتِلِ الْعِدَا فَاتَهَا وَفَاقَهَا بِمَزِيَّتِي كَمَا تَبَتْهُ وَسَبَقَهُ .

وَنُشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً لَا تَرَالُ أَلَسْتُنَا تَرَفَعُ مَنَارَهَا ،
وَسَيُوفُنَا تَصَلِّي مِنْ جَحْدِهَا قَبْلُ نَارَهَا ، وَأَرَاؤُنَا تَفُوضُ مَصَالِحَ جَمَلَتِهَا إِلَى مَنْ إِذَا رَجَعَتْهُ
لِنُصْرَةٍ أَنَالَهَا وَإِذَا أَسْدَى مَعْدِلَةً أَنَارَهَا .

وَنُشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَيَّدَهُ اللَّهُ بِنُصْرِهِ ، وَجَعَلَهُ سَابِقَ مَنْ تَقَدَّمَ
مِنَ الرُّسُلِ عَلَى عَصْرِهِ ، وَآتَاهُ مِنَ الْفَضَائِلِ مَا يَضِيقُ اللَّطْفُ عَنْ إِحْصَائِهِ وَمِنْ
الْمُعْجَزَاتِ مَا يَحْوُلُ الْحَصْرُ دُونَ حَصْرِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا
بِهُدَاهُ ، وَهَجَرُوا فِي طَاعَتِهِ مِنْ عَادَاهُ ، وَنَهَضُوا فِي رِضَا اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَاهِ إِلَى مَظَانِّ
الْجِهَادِ وَإِنْ بَعُدَ مَدَاهُ ؛ صَلَاةٌ يُشْفَعُهَا التَّسْلِيمُ ، وَنَبْتَنِي إِقَامَتَهَا عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ
أَجْرٌ عَظِيمٌ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَا بَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَعْمَلْنَا فِي مَصَالِحِ الْفِكْرِ ، وَتَدَبَّرْنَا أَحْوَالَهُ بِكُلِّ رَأْيٍ يُسَدِّدُهُ
الْحَزْمُ الْمُرُوءِيُّ وَيُؤَيِّدُهُ الْإِلْهَامُ الْمُبْتَكِرُ ؛ وَقَدَّمْنَا فِيهِ الْأَسْتِخَارَةَ عَلَى مَا جَزَمَ الْيَقِينُ بِأَنَّ
الْخَيْرَةَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ فِي أَعْتَادِهِ ، وَتَمَسَّكْنَا فِيهِ بِجَبَلِ التَّوْفِيقِ الَّذِي مَازَالَ تَنْتَكِفُلُ

لنا في كُلِّ أمرٍ بِسَدَادِهِ وفي كُلِّ ثَغْرِ بِسَدَادِهِ - أمرُ الممالك الشامية التي هي واسِطَةُ عَقْدِ الممالك، ومُجْتَمَعُ ما يُفَضَى إلى مواطنِ النَّصْر من المسالك؛ ومركزُ فَلَكَ الأقاليمِ الذي تَنْتَظِمُ عليه بروجُ ثَغُورِها، ونُقْطَةُ دائِرَةِ الحُصُونِ التي منها مادَّتُها وعلِيها مَدَارُ أُمُورِها؛ وغِيْلُ لُيُوثِ الحربِ التي كمِ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَ أَسِنَّتِها في طُورَةِ ظَفَرِ، ومَواطِنُ فُرْسَانَ الوَعَى التي كمِ أَسْفَرَ عن إِطلاقِ أَعْنَتِها إلى غاياتِ النَّصْرِ وَجْهَ سَفَرِ؛ وأن نَزادَ لِكَفَالَةِ أُمُورِها، وكِفايَةِ جُمهُورِها، وحِمايَةِ مَعاقِلِها المِصُونَةِ وِثغُورِها؛ وزَعامَةِ جِوِشِها، وإِرْغامِ طارِقِ أطرافِها من أعداءِ الدينِ وَثَلَّ عُرُوشِها، مَنْ جَرَدَ الدينُ فَكانَ سَيفًا على أعدائِهِ، وأَنْتَقاهُ حُسْنُ نَظَرِنا لِلْمُساوِمِينَ فَكانَ التَّوْفِيقُ الإِلهِيُّ مُتَوَلَّى جَمِيلِ أَنْتَقادِهِ وَأَنْتَقائِهِ؛ وَعَجْمًا عُودَ أوصافِهِ فوجدناه قَويًّا في دِينِهِ، مُمَكِّنًا في طاعته بِإِخْلاصِ تَقْوَاهُ وَصِحَّةِ يَقِينِهِ؛ مَتَيْقِظًا لِمِصالِحِ الإِسْلامِ والمُساوِمِينَ في حَالتِ حَرَكَتِهِ وَسُكُونِهِ، أَحْداً عِناَنِ الحَزْمِ يُسْرُ يُسْرَهِ وَسِناَنِ العَزْمِ يَمِينُ يَمِينِهِ؛ وَأَقْفًا معَ الحَقِّ لِدائِهِ، مَقْدَمًا مِشاقِّ الجِهادِ على سائرِ ما ربه وَلَدائِهِ؛ ما ضِيًّا كَسِيفِهِ إِلاَّ أَنَّهُ [لا] يَأْلَفُ كالسيفِ الجُفُونِ، راضِيًّا في رَاحَةِ الآخِرَةِ بِمِناعِبِ الدُّنيا ومِصاعِبِها فلا يَرعى في مَواطِنِ الجِهادِ إِذا حَلَّها أَكْثافُ الهُويِّنا ولا رَوْضِ المُهدُونِ؛ ما نَعًا حَمَى الإِسْلامَ لا "حَمَى الوَقْبِي" بِضَرْبٍ، يُفَرِّقُ بَينَ أسبابِ الحِياةِ و"يُؤَلِّفُ بَينَ أَشْئانِ المُنُونِ" .

ولما كان فلان هو الذي تشوّفت هذه الرتبة إلى أن تتجمل به مواكبها، وتتكلم به مراتبها، وتتنظم على دسسته هالة أمرائها كما تنتظم على هالة بدر السماء كواكبها؛ فإذا طلع في أفق موكب أعشت الأعداء جلالته، وأعدت الأولياء بسالته؛ وسرى إلى قلوب أهل الكفر رعبه، وفعل فيهم سامه ما يفعل من غيره حربيه؛ وإذا جلس على بساط عدل خرس الباطل، وأنجز ما في ذمته الماطل؛ وتكلم الحق بميل فيه، وتبرأ الباطل حتى ممن يسره ويخفيه؛ وإن نظر في مصالح البلاد أعان الغيث على

رَبِّهَا بِرَفْقِهِ ، وَأَعَادَ رَوْنَقَ عِمَارَتِهَا بِكَفِّ أَكُفِّ الظُّلْمِ وَوَصُولِ كُلِّ ذِي حَقٍّ إِلَى حَقِّهِ - أَقْتَضَتْ آرَائِنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَجْعَلَ فُنُونَ أَفْنَانِهِ بِمَنْ إِيَابَتِهِ دَانِيَةَ الْقُطُوفِ ، وَأَنْ نُصَيِّرَ جَنَّتَهَا تَحْتَ ظِلَالِ سَيْفِهِ : فَإِنْ «الْجَنَّةُ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» .

فَلذَلِكَ رَسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ زَمَنُ عَصْرِهِ ، مُؤَرِّخًا بِالْفَتْوحِ ، وَسَيْفُ نَصْرِهِ ، عَلَى مَنْ كَفَرَ دَعْوَةَ نُوحٍ - أَنْ تَقْوُضَ إِلَيْهِ نِيَابَةُ السُّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ بِالشَّمَامِ الْحُرُوسِ : تَقْوِيضًا يُحْسِنُ بِهِ الْمَنَابَ فِي تِلْكَ الْمَمَالِكِ عَنَّا ، وَيَنْشُرُ فِيهَا مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ مَا يَلْقَاهُ مِنَّا ؛ وَيُلْبِسُهَا مِنْ حُلَلِ الْمَهَابَةِ مَا يُضَاعِفُ بِهِ أَمْنَ سِرِّيهَا ، وَتُصْبِحُ بِهِ السُّيُوفُ الْحَجْرَدَةُ أَحْفَظَ لَهَا مِنْ قُرْبِهَا ؛ وَيَطْلُعُ فِي أَفْقِ مَوَاقِبِ الْجَلِيلَةِ طُلُوعَ الشَّمْسِ الَّتِي يَعْمُ نَفْعُهَا ، وَيُعْشَى النُّوَاطِرَ لَمَعُهَا ؛ وَيَجْلِسُ فِي دَسْتِ نِيَابَتِنَا حَاكِمًا فِيهَا بِأَمْرِنَا ، جَازِمًا بِحُكْمِ الشَّرِيفِ الَّذِي قَدْ عَلِمَ أَنَّهُ حَلِيَّةُ سِرِّنَا وَجَهْرِنَا ؛ نَاشِرًا مِنَ مَهَابَةِ الْمَلِكِ مَا تَرْجِفُ لَهُ الْقُلُوبُ مِنَ الْعِدَا ، وَتُصْبِحُهُمْ بِهِ سَرَايَا رُغْبِهِ عَلَى بَعْدِ الْمَدَى ؛ مُنْزِمًا مَنْ قَبْلَهُ مِنَ الْجِيُوشِ الْمَنْصُورَةِ بِمُضَاعَفَةِ إِعْدَادِ الْقُوَّةِ ، وَإِدَامَةِ النَّاهِبِ الَّذِي لَا تَبْرَحُ بِسَمْعَتِهِ بِلَادُ أَهْلِ الْكُفْرِ مَغْرُورَةً ؛ مُطَّلِعًا عَلَى أَحْوَالِ الْعِدَا بِلُطْفِ مَقَاصِدِهِ ، وَنِكَايَةِ مَكَايِدِهِ ، وَحُسْنِ مَصَادِرِهِ فِي التَّنْدِيرِ وَمَوَارِدِهِ ؛ فَلَا يَبْرُمُونَ أَمْرًا إِلَّا وَقَدْ سَبَقَهُمُ إِلَى نَقْضِ مَبْرَمِهِ ، وَلَا يَقْدَمُونَ رِجْلًا إِلَّا وَقَدْ أَخْرَجَهَا بَوْتَبَاتِ إِقْدَامِهِ وَثَبَاتِ قَدَمِهِ . وَيُعْظَمُ مَنَارَ الشَّرِيفِ بِتَكْرِيمِ حُكْمِهِ ، وَالْوُقُوفِ مَعَ أَحْكَامِهِ ؛ وَيَرْفَعُ أَقْدَارَ حَمَلَةِ الْعِلْمِ بِتَرْفِيهِ أَسْرَارِهِمْ ، وَتَسْهِيلِ مَآرِجِهِمْ وَأَوْطَارِهِمْ ؛ وَلِيُعَمِّمَ الرِّعَايَا بَعْدْلِهِ وَإِنْصَافِهِ ، وَيَسْتَرْفِعَ لَنَا أَدْعِيَةَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصُّلَحَاءِ بِإِسْعَادِهِ وَإِسْعَافِهِ . وَفِي خُصَائِصِ أَوْصَافِهِ الْكَرِيمَةِ ، وَتَجَايَاهُ الَّتِي هِيَ لِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ مُسْتَدِيمَةٍ ؛ مَا يُغْنِي عَنِ تَسَدُّدِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَاللَّهِ تَعَالَى يُؤَيِّدُهُ وَقَدْ فَعَلَ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَقَدْ جَعَلَ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب به للأ مير «يلبغا الكامل» بعد نيابته بحبّ وحمّاة، من إنشاء المقرّ الشهابيّ بن فضل الله، وهي :

الحمد لله مُجْرِي الأقدار، برفعة الأقدار، ومُثْرِي آمالٍ مَنْ حَسَنَتْ له في خدمتنا الآثار، بمواهب العطايا والإيثار، ومُثْرِي عُروسِ نِعَمِ أوليائنا التي رَعَى عَهْدَهَا عِهَادُ سُحْبِ جُودِنَا الغزار؛ جَاعِلِ أَصْفِيَاءِ مَمْلَكَتِنَا الشريفة كُلِّ حِينٍ في آزدياد، ومَانِحِ المخلصين في خدمتنا مَزِيدَ الإسعاف والإسعاد، وِفَاتِحِ أبوابِ التأييد بسيفِ أنصارنا التي لا تَهْجَعُ في الأعمّاد .

نحمده على مواهب نَصْرِهِ، ونشكُرُه على إدراكِ المآربِ من جُوده الذي يَعِجْزُ لِسَانُ القَلَمِ عن حَصْرِهِ؛ ونشهد أن لا إلهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤيد قائلها في موآقفِهِ، وتَجْمَعُ له من خَيْرِ الدُّنْيَا بين تَالِدِهِ وطَارِفِهِ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي هَدَى اللهُ به هذه الأُمَّةَ مِنَ الضَّلَالِ، وَفَضَّلَ به المجاهدين حيثُ جعل الجنةَ تحت ما لِسُيُوفِهِم من ظلال . صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لا أنفصامَ لِعُرْوَتِهَا ولا انفصال، ولا أنقضاءَ لأسبابها ولا زوال؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإن أَوْلَى مَنْ أُنْتَدِبَ لِحِفْظِ ممالك الإسلام، وَأَثْمِنَ على صَوْنِهَا بعزْمِهِ الذي لا يُسَامَى ولا يُسَام؛ وَأُسْنَدَ إليه من أمور الرعايا بأجلّ الممالك ما يَقْضِي بمزيدِ التكريم، وَأَعْتَمِدَ على صِيَانَتِهِ وَدِيَانَتِهِ لِمَا شَهِدَ الأختبارُ بأنه أَهْلٌ للتقديم؛ وَجَرَبَتِ الدولُ مَخَالَصَتَهُ، وَتَحَقَّقَ أَهْتَامُهُ الذي بَلَغَهُ من العزْغَايَةِ؛ وَأَثْنَتْ على حُسْنِ سِيرَتِهِ وَسِرِّيَّتِهِ سِوَابِقُ خِدْمِهِ، وَشُكِرَ أَهْتَامُهُ في المخالصة التي أَعْرَبَتْ عن عزمه؛ ففارق أشباهًا وأنظارا، وَكَفَلَ الممالك الشريفة الحليّة والحموية فأيدها أعوانا وأنصارا؛

وبسط فيها من العدل والإنصاف ما أعلی له شأنًا ورفع له مقدارًا ، وسلك فيها
مسلكًا شرف أسماء وشرف أبصارا .

ولما كان المقر الكريم (إلى آخره) هو صاحب هذه المناقب ، وفارس هذه
المقائب ، ونير هذه الكواكب ، كم أهبج النفوس بماله من عزيم مشكور ، وكرم
مأنور ، ووصف بالجميل موقور .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازال لسيف أوليائه مرهفًا ، ولا برح لأخصائه
مسعدًا ومسعفًا - أن تفوض إلى المشار إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس ،
على أجمل عوائد من تقدمه في ذلك وأكل قواعده . فليتناول هذا التقليد الشريف
بيد لم يزل لها في الولاء الباع المديد الطويل ، ويتلق هذا الإحسان بالشكر الذي هو
بدوام النعمة خير كفيلا ، ويضاعف ما هو عليه من اهتمام لم يزل منه مألوفًا ، وأعتام
إذا لاقى غيره مهمًا واحدًا لاقى هو ألوفًا ، ويمعن النظر في مصالح هذه المملكة
الشامية المحروسة ، ويعتمد من حسن تديره ما تغدور ربوعها بحسن ملاحظته
عامرة مانوسة . وهو يعلم أن العدل من شيم دولتنا الشريفة ، وسجية أيامنا التي هي على
هام الجوزاء منيفه ، فليسلك سننه ، ويتبع فرضه وسننه ، ويعلم أن عدل سنة خير
من عبادة ستين سنه ، ولينشر على الرعايا ملائسه الحسنه ، ويعظم الشرع الشريف
وحكامه ، ويعين الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجب الاستحقاق
إكرامه ، والله تعالى يجعل السعد خلفه وأمامه ، ويؤيده تأييدًا يبلغه مراده من
النصر ومرامه ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام :

الحمد لله الذي طَهَرَ الشَّامَ وَقَدَّسَهُ ، وَصَانَهُ وَحَرَسَهُ ، وجعل لسلطاننا فيه قواعدَ
بالنَّصْرِ مُؤَسَّسَهُ ، وَأَنْوَاراً لِلهُدَى مُقْتَبَسَهُ ، وَكَفَلَهُ بِنِ إِذَا صَفَّ لَهُ الْعُدُوَّ أَفْتَرَسَهُ ،
وَأَذَلَّهُ وَأَرْكَسَهُ ، وَأَرْغَمَ مَعْطَسَهُ ، وَقَطَفَ بِسَيْفِهِ أَرْؤُسَهُ ، وَمَنْ يُعْطَى النَّصْرَ إِذَا أَمْتَطَى
فَرَسَهُ ، وَمَنْ كَرَّمَ اللهُ نَفْسَهُ ، وَكَثَّرَ أُنْسَهُ ، وَعَطَّرَ نَفْسَهُ ، وَمَنْ يُنْصَفُ الْمَظْلُومَ مِنْ ظَالِمِهِ
وَيَبْتَغِي السَّائِلَ مُلْتَمَسَهُ ، وَمَنْ لَيْسَ ثَوْبَ الْعِفَافِ وَالتَّقَى فَكَانَ خَيْرَ ثَوْبٍ لَيْسَهُ .

نجمه على أَصْلِ جُودٍ غَرَسَهُ ، وَعَارِضِ سَوْءٍ حَبَسَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَزَالَتِ الشَّرْكَ وَحَمَّتْ نَجْسَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ
الَّذِي أَنْبَعَ اللهُ مِنْ أَصَابِعِهِ عَيْنًا مُنْبَجِسَهُ ، وَأَخْضَرَ الْعُودَ الْيَابِسَ لِمَا لَمَسَهُ ، وَأَضْعَفَ
الْوَسَاوِسَ الْمُخْتَلَسَهُ ، وَأَنْتَرَعَ الْحَقَّ مِنْ بَحْسِهِ ، وَحَمَاهُ اللهُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِمَا وُلِدَ
فِي نَحْسِهِ ، وَنَوَّرَ الْقَلْبَ الَّذِي خِيَمَ عَلَيْهِ الضَّلَالُ وَطَمَسَهُ ، وَكَانَ الشَّرْكَ قَدْ أَنْبَتَ
فِي الْأَرْضِ فِطْوَاهُ دِينَهُ وَكَبَسَهُ ، وَحَمَاهُ وَدَرَسَهُ ، وَجَاءَ بِالْقُرْآنِ فُطُوبِي لِمَنْ تَلَاهُ
وَدَرَسَهُ ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ : ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ صلى الله
عليه وعلى آله وصحبه ما أَوْجَحَ اللهُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَغَمَّسَهُ ، وَمَيَّزَ بِنِصْفِ الْعَدَدِ مِنْ
الثَّلْثِ سُدُسَهُ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فَإِنَّ الشَّامَ هُوَ عِقْدُ النَّظَامِ ، وَأَجَلُ مَمَالِكِ الْإِسْلَامِ ، وَمَعْدِنُ النَّصْرِ
الَّذِي بَرُوقُهُ شَمَامٌ ، وَمُسْتَقَرُّ الْبَرَكَاتِ الْوَسَامِ ، وَعَسْكَرُهُ أَفْضَلُ عَسْكَرٍ فِي حَسَنِ
الْإِعْتِرَاءِ وَالْإِعْتِرَامِ ، لَا يَرْهَبُونَ الْحِمَامَ ، وَيَخُوضُونَ لِحَجِّ الْمُنُونِ بِالْحُسَامِ ؛ وَنِيَابَةُ
السلطنة الشريفة به من أَجَلِّ النِّيَابَاتِ مَقْدَارًا ، وَأَكْرَمِهَا آثَارًا ، وَأَعَزَّهَا أَنْصَارًا ؛

إذ هو تلقاء أو امرنا الشريفة المنطوية عليها أسرار البريد، ومن عنده نتفرع المهمات
 للقريب والبعيد، وعنه يصدر البريد، وإليه يرد بكل ثناء جديد، ومنه يأتي
 إلى مسامعنا الشريفة بما نريد، فلا يحل دار سعادتها إلا من هو منصور سعيد،
 وذو رأي سديد، وحزم حديد، وقد اخترنا لها بحمد الله كفاها المعيد.

ولما كان فلان هو الضاربي على العدا، وألغيت المتوالي الندى، والهمام الذي
 جرد سيف عزمه أبدا فلا يرى مغمدا، وأتصف بحسن الصفات فما ساد سدى؛
 قد تجلت الممالك بأرائه ورآياته، وثباته وثباته، وروض تديره وطيب نباته،
 وحسن آتماده في خدمة ملكنا الشريف ومهامته؛ إن ذكرت الموالاتة الصادقة
 كان راوي مسندها، وحاوي جيدها، والآوي إلى ظلها المديد وطيب موردها؛
 وإن ذكرت الشجاعة كان زعيم كتابها، ومظهر عجائبها، وليث مضاربيها، ومجرد
 قواضيهما، وفارس جنائبيها، ومطلب أطلابها ومنجح مطالبها، ومجلى غياهمها -
 أقتضى حسن الرأي الشريف أن يعقد عليه لواء الاحتشام، في الشام؛ وأن يخص
 بالبركات، المخصصة من الدركات.

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام
 المحروس، على عادة من تقدمه وقاعدته، وأن يكون داخلا في نيابته الشريفة ما هو
 مضاف إلى الشام المحروس: من ممالك وقلاع، ومدن وضياح، وتغور ومواني،
 وسواحل في أقاص وأداني؛ تفويضا أسقت درره، وأشرقت غره، وتليت
 آياته وسوره.

فليهد بالعدل أكناف البلاد، ولينظر بعين الرعاية والسداد؛ وليتشر لواء
 الإنصاف، لتكون الأمة تحت ظله الصافي وإليه الحق مضاف. وليد الأرزاق

من الأخلاق ، وليأمر بإقامة الحدود على شارب السُّلَاف ، وعلى السارقين بالقطع من خِلاف ، وليستترهف عزائم العساكر المنصورة في القتال والجهاد ، وليأخذهم بحسن الاستعداد ، وليعرف للأمراء منازلهم : فإنهم أركان وأعضاء ، وأنصار وأجناد ، وأولياء دولتنا الشريفة المأحون للفساد ، ومن نتجمل بهم المواقب وتفتقر بهم للعدا الأجداد ، والله الله في الشَّرْع الشريف وإقامة مناره ، وتنفيذ كلمة أحكامه وإزالة أعداره ، والتقوى فهي أفضل شعاره ، وقرة أبصاره ، والوصايا فمنه يُشْرِقُ هلالها إلى أن يتم في إبداره ، ويتكلم بأنواره ، وهو غني عن إكثاره .
نخذ تقليدنا هذا باليمين ، وألبس من هذا التفويض الملبس الأسنى الثمين ، وأخبار البريد المنصور فلا تقطعها عنا ، فمنه إلينا ترد أخبار البريد وإليه ترد المهمات منا ، والله تعالى يخوله كل يوم من إحساننا في الزيادة والحسن ، وانلخط الشريف أعلاه .

الطبقة الثانية

(من يكتب له تقليد شريف في قطع النصف بـ «المجلس العالى»

وهو الوزير من أرباب السيوف ، وهو بالملكة الشامية

على حد الوزير بالديار المصرية)

وهذه نسخة مرسوم من ذلك :

الحمد لله مُسَدِّ سَهامِ الأختيار ، ومُسَيِّرِ الأولياء إلى منازل العُلَفاء مَسِيرِ الأهلَّة إلى منازل الإبدار ، الذى جَدَدَ نِعْمًا ، وعدَدَ كَرَمًا ، وعَلِمَ مَوَاقِعَ الأضرار ، إلى مَوَاقِعِ الأوزار ، فأرسل إليها من تستهل آراؤه ديمًا .

نحمده حمدا كثيرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتخذ صاحبًا ولا وزيرًا ، ونصلى على سيدنا محمد الذى عمر الله به البلاد تعميرا ، وأحسن بالعدل

تقريرا ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين ظاهروه بالسيوف والأقلام كاتباً
وأميراً ، صلاةً لا ينقطع توالياً ، ولا تزال الآفاق نَتْنَا قَلْهَا وتَسْتَهْدِيهَا .

وبعد ، فإنَّ أولى من عَظُم شأنه ، وكرَم مكانه ، وثبت إماكنه ، وأُنبت في منابت
الرماح قلمه الذى هو ترجمانه ، وبُسِطَتْ في تشييد الممالك يده وأُطلق لِسَانُه - من
كان علامة العلم ، وغداً بالنشاط في كِبَرِهِ قِيَّ السَّن كَهَلِ الحِلْم ؛ الذى فاق جلالته
ونسباً ، وأسْتَعْلَى هِمَّةً وأدباً ، وعُرِفَ بالديانة التى طار صيتها فى الآفاق شرقاً
ومغرباً ، والهيممة التى سواء عليها أحملت قلماً أم أنتضت قُضْباً .

ولما كنت أيتها المجلس الفلانى - أدام الله تأييدك ، وتسديدك وتمهيدك ؛
وكبت حَسُودَكَ ، وضاعف صُعُودَكَ - أنت المعنى بهذه المآثر ، المنضدة عليك
هذه الجواهر ، الداللة على مناقبك هذه المفانح ؛ الذى وجدناك على الانتقاد تزيد
أستخلاصاً ، وتعدو على السبك خلاصاً .

فلذلك نخرج الأمر الشريف أن تُوزَّر ، ونُجْمَى موارد آرائك لتُسْتَغزَّر ؛ ويكون
لك الحكم فى المملكة الشامية عموماً ، وتُتَصَرَّف فى معاملاتها مجهولاً ومعلومياً ؛ على
أكل قواعد الوزراء وأئمتها ، وأجملها وأعمتها ؛ متصراً فى الكثير والقليل ، والحقير
والجليل ؛ تعزل وتوتل من شيت ، وتكنى وتستنكى من أرتضيت . ونحن نوصيك
بالرفق الذى هو أخلق ، والعدل الذى تُسْتَدِرُّ به سُحْبُ الأموال وتُسْتَعْدَق ؛ والحق
فإن كل القضايا به تتعلق ، ويمن السياسة فإن الرياسة بها تكمل وتُعدَّق ؛ وإياك
والغرض الذى هو يهوى بصاحبه ، ويرديه فى عواقبه ؛ وأتق الله الذى لا تتم
الصلحات إلا بتقواه ، وأحذر أن تكون مع من ضلَّ سبيله وأتبع هواه ؛ والله تعالى
يُجِجُ رجاءك ويوضح منهجك ، ويعلى درجك ، ويلقنك إذا خاصت وأختصمت
مُحْجَبَك ؛ إن شاء الله تعالى .

الطبقة الثالثة

(من يُكْتَبُ له مرسومٌ شريفٌ ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يُكْتَبُ له في قطع النصف وهو نائب قلعة دمشق)

إن كان مقدّم ألف كما كان أولاً ، كتب له بـ «المجلس العالی» . أو طبلخاناه كما هو الآن ، كتب له بـ «السامی» بغير ياء . وبالجملة فإنه يكتب له مفتحا بـ «الحمد لله» .

وهذه نسخة مرسوم شريف بناية قلعة دمشق المحروسة ، من إنشاء المقر الشهابي ابن فضل الله رحمه الله ، وهي :

الحمد لله مشرف القلاع ، ومصرف رجالها في الأمتناع ، ومعرف من جادها أن الشمس عالية الأرتفاع .

نحمده حمداً يُسَنَّفُ الأسماع ، ويُشرف الإجماع ، وتُحَلَّقُ في صعوده الملائكة أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرجوها لما بقي من قلاع الكفر الأفتلاع ، وأستعادة ما قرّم معهم من قرى وضاع من ضياع ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي حمى به درة الإسلام من الأرتضاع ، وصان به حوزة الحق أن تضاع ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائماً ما أسبل للليل ذيل وأمتد للشمس شعاع ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن للخصون حواضركم للبلاد ، وحواضن تضم بقاياها ضم الأمهات للأولاد ؛ ومعاقل يرجع إليها إذا نابت النوب الشداد ، ومعاقد يعتصم من منعها بجبال ويمسك بأطواد ؛ وقلعة دمشق المحروسة هي التي تفتخر بقايا القلاع بالاتصال

بَسْبِهَا ، وَالتَّمَسُّكُ فِي الشَّدَائِدِ بِذَيْلِ حَسْبِهَا ، لَا يَهْتَدِي فِي السَّلْمِ وَالْحَرْبِ إِلَّا بِمَنَارِهَا ،
وَلَا يَقْتَدِي فِي التَّسْلِيمِ وَالْإِمْتِنَاعِ إِلَّا بِأَنَارِهَا ، وَلَا يُسْتَقَى إِلَّا بِمَا يَفِيضُ عَلَى السُّحْبِ
مِنْ فَيْضِ أَمْطَارِهَا ، قَدْ تَرَجَّلَتْ لِتَبَارِزِ ، وَتَقَدَّمَتْ لِتَنَاهِزِ ، وَدَلَّتْ بِقَوَاهِهَا فَمَا
أَحْتَجَبَتْ مِنْ سُجُوفِ الْجَبَلِ بِجِجَابٍ وَلَا أَحْتَجَزَتْ مِنَ الْغَمَامِ بِحَاجِزٍ ؛ بَلْ أَلْقَتْ إِلَى
قَرَارِ الْمَاءِ حَمْلَهَا ، وَأَثَبَتْ فِي مَسْتَنْقَعِ الْمَوْتِ رَجْلَهَا ؛ وَكَشَفَتْ لِلْحَرْبِ الْعَوَانَ
قِنَاعَهَا ، وَأَشَعَلَتْ أُنْيُنَهَا مِنَ الذَّهَبِ شُعَاعَهَا ، وَأَشْغَلَتْ أُنْيُنَهَا الْبُرُوقَ أَنْ تَطَاوَلَ
بَاعَهَا ، أَوْ تَحَاوَلَ أَرْتِفَاعَهَا ؛ قَدْ جَاوَرَتْ قَبْتَهَا الزَّرْفَاءُ أَخْتَهَا السَّمَاءَ ، وَجَاوَزَتْ بُرُوجَهَا
مِنْطَقَةَ الْبُرُوجِ اعْتِلَاءً ؛ وَهِيَ مَعْقِلُ الْإِسْلَامِ يَوْمَ فَرَعِهِمْ ، وَأَمْنٌ قُلُوبِهِمْ أَعَاذَهَا
اللَّهُ مِنْ جَزَعِهِمْ ؛ وَقَدْ نَزَلَ الْعُدُوقُ عَلَيْهَا وَنَازَلَهَا زَمَانًا يَجْمُوعُهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ،
وَأَقْدَمُوا وَتَقَدَّمُوا وَهُمْ مُتَأَخَّرُونَ ؛ وَطَاوَلُوهَا فَكَانَتْ حَسْرَةً عَلَيْهِمْ ، وَنَكَالًا لِمَا
خَلَقَهُمْ وَمَا بَيْنَ يَدَيْهِمْ ؛ وَثَبَّتَ اللَّهُ بِهَا أَفْدَامَ بَقِيَّةِ الْقَلَاعِ ، وَقَوَّى بِعَزَائِمِهَا إِنْدَامَ مَنْ فِيهَا
عَلَى الْإِمْتِنَاعِ ؛ وَقَلْعَةَ الْجَبَلِ الْحَرُوسَةَ وَإِيَّاهَا كَالْأَخْتَيْنِ ، وَهِيَ لَهَا ثَانِيَةٌ أَثْنَيْنِ ؛
وَكَانَتْهُمَا لِكُرْسَى مُلْكَا الشَّرِيفِ مَنْزِلٌ سَعِيدٌ ، وَمَتَنَزَّهُ يَوْمُ صَفِيحِ الْأَفْلَاكِ لَوْ تَرَاعَى
إِلَيْهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

فَلَمَّا رَسَمْنَا بِتَقْلِ مِنْ كَانَ فِي النِّيَابَةِ الشَّرِيفَةِ بِهَا فِي مَنَازِلِهَا مِنْ مَكَانٍ إِلَى مَكَانٍ ،
وَقَدَّمَاهُ أَمَامَهَا كَمَا يَهْتَرِي قَادِمَةَ الرِّيحِ السَّنَانِ ؛ وَأَتَّخَذْنَا مِنْ بُرُوقِ عَزَائِمِهِ لِبَعْضِ
تُعُورِهَا الضَّاحِكَةِ شَدْبَا ، وَمِنْ هَمِيمَةِ الْمُتَّصِلَةِ الْمَدِيدِ بِهَا مَا تَمُدُّ مِنْهَا إِلَى سَمَائِهَا سَبَابًا -
أَقْتَضَى رَأْيُنَا الشَّرِيفُ أَنْ نُوَلِّ فِي أَمْرِهَا الْمُهْمِمْ ، وَبَرَّهَا الَّذِي بِهِ مَصَالِحُ كَثِيرٍ مِنْ
مَمَالِكَا الشَّرِيفَةِ تَمِّمْ ؛ وَوَحَلَّى مَشَارِفَهَا بِمَنْ تَضَاحِكُ الْبُرُوقِ سَيُوفُهُ فِي لَيْلٍ كُلِّ نَقْعٍ
مُدْلَمِّمْ ، وَنَجَّى حَمَاهَا بِرَجْلِ تَمْنَعٍ مَهَابَتِهِ حَتَّى عَنْ تَقْلِ الْأَسْنَةِ (؟) طَارِقِ الطَّيْفِ
أَنْ يُلِمَّ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَا تَرْتَعِزُ لَهُ دُرَا ، وَلَا يُنَاخُ لِإِدَارَةِ سَيْلِهِ فِي دُرَا ، وَلَا يَقْدِرُ مَعَهُ

الأسدُ أن يبيتَ حولَ غايِهِ مُصِحِرًا ، ولا الطيرُ أن يُحلقَ إليه إلا مَحملاً بِجناحِهِ على الثرى ، ولا أدبَلتْ إليه زُمُرُ الكواكبِ إلا تَقَاعستْ فلا تَسْتَطِيعُ السرى .

وكان فلانٌ هو حامِي هذا الحِمى ، ومَانِع ما يَحُلُو في الثغورِ من مَواردِ اللَّي ، وغَيُورَ الحِمى فلا تَبْرُزُ له إلا من عَقَائِلِ المَعاقِلِ قاصراتُ الطَّرْفِ كَالدَّمى ، وحَافِظَ ما اسْتُوْدِعَ من مَصُونٍ ، وأسْتَجِيعَ من حُصُونٍ ، وأسْتَجِهرَ من مَواردِ تَرِدُها من زَرَدِ الدروعِ عيونٍ ، ويفرِّقُ منها المِجانيقَ سَحَابٍ مُمِطِرَةٌ بالمُنُونِ ؛ فصَمَّ رأينا الشَريفَ على آخِيارِهِ لِيوقِلَ صَهوةَ هذا الجوادِ ، ويوفِّي ما يَجبُ لهذِهِ العَقيلةَ من مَرْتَمِقِ لِحظٍ ومَرْتَمِي فؤادٍ ، ويبحثُ من الشِغفِ بها عن أملٍ أملٍ أو مرادٍ مرادٍ ، ويُعَجِبُ من عَقيلتها المصنونة أن أبراجها تَتَبَرَّجُ وما لِنُعَمَها إِنْعامٌ ولا لِسَعَادِها إسعادٌ .

فرسم بالأمر الشَريفَ العالِي المَوَلَوِيَّ ، السُلْطانيَّ ، المَلْكيَّ ، الفلانيَّ - أعلاه اللهُ وشرفه ، وأدام في الأرضِ ومنَ عليها تَصَرُّفه - أن تَفُوضَ إليه النِيايَةَ بقلعةِ دِمَشقِ المحروسة : على عادةٍ من تَقَدِّمه وَقَاعِدَتِهِ ، ومُقَارَبَتِهِ ومُبَاعَدَتِهِ ، وتَحْيِيهِ ومُساعدَتِهِ ؛ وكل ما جرت به العوائِدُ في رجائِها ورجالِها ، وما لها وما لها ؛ وهذه نِيايَةُ شَريفِهِ ، وسَحَابَةُ مُطِيفِهِ ؛ ونعمةٌ تُقَابِلُ بَرعايَتِها ، وتُكْتَمُ نَوَاجِيزُها بِإِذَاعَتِها ؛ وتَقوى اللهُ حَلِيَّةَ عَنقِها ، وحِلَّةَ أَفْقِها ، ومَجْرَى المِجْرَةِ لِجَلالِها في طُرُقِها .

فعليك بحفظها لَيْلاً ونهاراً ، وتَفَقُّدِ أحوالِ مَنْ فيها سِراً وجِهارةً ؛ وَفَتْحِ بابِها وغَلْقِها مع الشمسِ ، وتَصَفِّحِ ما بها من لِبْسٍ ، وتَتَّبِعِ أسبابَها كما في النفسِ ؛ والتَّصَدَّى لملازمةِ الخِدمةِ الشَريفةِ في أبوابنا العالِيَةِ بِبابِها ، والأخْذِ في أدواتِ حِفْظِها بِجامعِ أطرافِها دون التمسكِ بأهدابِها ، والتَّجَسُّسِ على مَنْ يَلُمُّ فيها جَفَنَهُ بَكَرَى وما أثقله مناماً ،

والإزام كُلِّ واحدٍ بما يلزمه من الوظائف في ليله ونهاره ، وإدلاجه وابتكاره ،
ومن عليه في هذا المعقل إشراف من شرفاته أو تسور على أسواره ، وإظهار الرَّجْحِ
والصَّيْتِ والسَّمْعَةِ بِالْأَهْتَامِ في كُلِّ لَيْلَةٍ بِزَفَافِ عُرُوسِهَا ، وَضَرْبِ الْحَرَسِ لِنَوَاقِيسِهَا ،
وَالْإِعْلَانِ لَصَبَاحِ الْخَيْرِ لَنَا فِي صُبْحَاتِهَا وَالدَّعَاءِ الصَّالِحِ فِي تَغْلِيصِهَا ، وَصِيَانَةِ مَا فِيهَا مِنْ
حَوَاصِلِ ، أَوْ يَصِلُ إِلَيْهَا مِنْ وَاصِلٍ ، وَمَا فِيهَا مِنْ ذَخَائِرٍ ، وَمَا فِي خَزَائِنِهَا الْعَالِيَةِ مِنْ
مَدَدِ الْبَحْرِ الرَّائِحِ ، وَمَا تَشْتَمَلُ عَلَيْهِ دَارُ الضَّرْبِ مِنْ أَمْوَالٍ تُضْرَبُ لِلْهَبَاتِ بِرَسْمِنَا ،
وَأَمْوَالِ النَّاسِ [التي] حُمِلَتْ إِلَيْهَا لِنُشْرِفَ تَقْوِدُهَا بِاسْمِنَا ، وَخَزَائِنِ السِّلَاحِ الْمَنْصُورَةِ
وَمَا يُسْتَكْتَفَرُ فِيهَا مِنْ عَدَدٍ ، وَمَا يُسْتَغْزَرُ مِنْ مَدَدٍ ، وَالْمَجَانِيقِ الَّتِي تَحْطَرُّ مِنْهَا كُلُّ
خَطَّارَةٍ كَالْفَنِيْقِ ، وَتَصْعَدُ وَمَرْمَاهَا إِلَى السَّمَاءِ كَأَنَّهَا تَحْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ
فِي مَكَانٍ سَحِيْقٍ ، سَائِلَةً عَقَارِبُهَا ، آفِلَةً بِالْأَعْمَارِ كَوَاكِبُهَا ، وَالْحُدُوجِ وَالْقِسِيِّ
وَالرَّايَاتِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سِلَاحٍ ، أَوْ دُرُوعٍ تَرُدُّ السَّهْمَ عَلَى أَعْقَابِهَا وَتَحْنِي قَامَاتِ
الْعَوَالِيِ وَتُضَيِّقُ صُدُورَ الصَّفَاحِ . وَالْبَحْرِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ رِجَالِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ الْمَحْرُوسَةِ
مِنْ نَجْمِ آفَاقِهَا ، وَغَيْوِمِ إِرْعَادِهَا وَإِبْرَاقِهَا ، وَدَيْمِهَا إِذَا أُسْبِلَتِ الْمَسَالِمَةُ ذُبُوبَهَا وَأَعْوَانِهَا
إِذَا شَمَرَتِ الْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا . وَبَقِيَّةُ الْمُسْتَعْدِمِينَ وَأَرْبَابِ الصَّنَائِعِ الَّذِينَ هُمْ عِمَارَةُ
أَوْطَانِهَا ، وَأَمَارَةُ الْعِنَايَةِ بِهَا مِنْ سُلْطَانِهَا ، فَكُلُّ ذَلِكَ مَذْخُورٌ لِمَنْفَعِ الْإِسْلَامِ ،
وَمَا رِيَسَ السَّهْمُ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يُرْمَى وَلَا طَبِيعَ السَّيْفِ لِأَنَّهُ فِي كُلِّ بَارِقَةٍ يُسَامُ ،
فَاحْفَظْ لِأَوْقَاتِهَا تِلْكَ الْمَوَادِّ الْمَذْخُورَةَ ، وَالْحِظْ هَؤُلَاءِ الرِّجَالَ فَإِنَّهُمْ ظَهَرُ الْعَسَاكِرِ
الْمَنْصُورَةِ ، وَخُذْ بَقُلُوبِهِمْ وَأَوْصِلْ إِلَيْهِمْ حُقُوقَهُمْ ، وَاجْمَعْ عَلَى طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ
مُتَّفَرِّقَهُمْ وَأَكْرِمْ فَرِيْقَهُمْ ، وَمَنْهُمْ الْمَالِيكُ السُّلْطَانِيَّةُ وَهُمْ إِخْوَانُكَ فِي وَلائِنَا ، وَالَّذِينَ
تَشْرِكُهُمْ فِي الْآلِئَانِ ، وَبِالْبَعْغِ فِي حِفْظِ الْمُعْتَقَلِينَ فِي سُجُونِهَا ، وَلَفْظِ الْمُعْتَقِدِينَ خِلَافًا
فِي مَكْنُونِهَا ، وَنَحْنُ نُعِيدُهَا بِاللَّهِ أَنْ نَقُولَ : تَفَقَّدَهَا بِالرَّمِيمِ وَالْإِصْلَاحِ ، وَلِكِنَّا نَأْمُرُكَ

أن نتعهد بها نتعهد من الزين الملاح؛ ولك من معاودة من في ذلك الإقليم،
من لك برأيه طريق مستقيم؛ ومن تراجع في أشكل عليك من الأمور، وتجد به
في طاعتنا الشريفة نوراً على نور، وأتبع مرآتنا المطاعة فهي شفاء لك في الصدور؛
والوصايا كثيرة، والله تعالى يجعلك على بصيره، ويتولاك بما فيه حسن السير،
وصلاح السيرة؛ والاعتماد



وهذه نسخة مرسوم شريف بناية قلعة دمشق المحروسة، كتبت بها الحسام
الدين «لاجين الإبراهيمي» من إنشاء الشريف شهاب الدين، رحمه الله، وهي:
الحمد لله الذي صان الحصون بانتضاء الحسام، وزان الملك بارتضاء ذوى
اليقظة من الأولياء والأهتام، وأبان سبيل السعادة لمن أحسن بفروض الطاعة
وأجمل القيام.

نحمده على أن جعل نعمنا لأصفيائنا وأفرة الأقسام، ونشكره على أن أقبل عليهم
بأوجه إقبالنا الوسام، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لعقود
إخلاصها آتتظام، ولسعود آختصاصها آلتنام، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله
الذي منحه الإجلال والإعظام، ومدحه بالإفضال والإكرام، ورجحه بمزايا الفضل
على جميع الأنام، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه بدور التمام، ورضى عن أصحابه
الذين لهم صدق الاعترام، صلاة ورضواناً لها تجديد ومزيد وتأييد ودوام؛ وسلم
تسليماً كثيراً.

وبعد: فإن آلاءنا لا تزال تختار الأكفاء، وآراءنا لا تبرح تمنح ذوى المناصحة
الإصفاء، ونعماءنا نديم للملايس إجلالها على أولى الخدم الإفاضة والإضفاء، وتقى
بوعود جودها لمن أدام لمناهج المخالصة الأفتاء.

ولما كان فلان هو الذى عُرفَ له في مهماتنا خِدمَ سالفه ، وألقت منه همّةٌ عليهٌ خصّته بكلِّ عارفه ، وخولناه نِعْمنا الواكفه ، وأهلناه لاستحفاظ الحصون فساعدته توفّرُ التوفيق وساعفه ، ونقلناه في الممالك فسار سيرة حميدة أقتضت لمواهبنا لديه المضاعفه - أقتضى حسنُ الرأى الشريف أن نرفع محله بأعزّ القلاع ، ونطّلعَه بأفنى سعدها أيمن إطلاع ، ونندبه لضبطها فيحسن له فيها الاستقرار ويحمد منها له الاستيداع .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زالت صدقاته تُحقق الأطماع ، وهباته تُفيعض ملايسها التي ليس لها أتزاع - أن يستقر في نيابة قلعة دمشق

فليأشر النيابة بالقلعة المذكورة بأذلا الاجتهاد ، مؤاصلا للعزم والسداد ، عاملا بالجزم في كل إصدار وإيراد ، كافلا منها بحسن الاعتماد ؛ حافظا حواصلها من الضياع ، مقررا أحوالها على أجهل الأوضاع ؛ وليأخذ رجالها بالالتفاف على الخدمة والاجتماع ، وليحرضهم على المبادرة إلى المراسيم والإسراع ؛ وليطالع من أمورها بما يتعين عليه لأبوابنا العالية فيه المطالعة ويحب لعلومنا الشريفة عليه الأطلاع ، ويراجع كافل الممالك الشامية بما جعلنا لآرائه فيه الإرجاع ؛ وليكن له إلى إشارته إصغاء واستماع ، وإلى سبيل هديه أفتناء وأتباع ؛ وليقف عند ما يتقدم به إليه فبذلك يحصل له الرشد والانتفاع ، والله تعالى يحدّد عليه سوايغ نعيمنا التي جادت بأجناس وأنواع ؛ ويجزّد في نصرتنا حسامه الذى من بأسه الأعداء ترهب وترتاع ، ويديم له ولجميع الأولياء من صدقات دولتنا الشريفة الإمتاع ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالى .



وهذه وصية نائب قلعة أوردها في "التعريف" :

وعليه بحفظ هذه القلعة التي رُفَّت إليه عقيلتها المُنمَّعة ، وجايت عليه سافرة ودوتها
 السماء بالسحب مُنمَّعة ؛ وسُئمت إليه مَقَاتِيحُهَا ، وخواتيم الثريا أفعال ، وأوقدت له
 مَصَايِحُهَا ، وفتائل البروق لا تُسبُّ لِقَفَال . فليبدأ بجماعة ما دعت الحاجة إليه من
 تجسيد أبنيتها ، وتشديد أقيبتها ؛ وشد عقودها ، وعد ما لا يحصى [في الذخائر] من
 نقودها ؛ [وتنبه أعين رجالها والكواكب قد همت برقودها] ، والأخذ بقلوب من
 فيها ، وتدارك بقية ذماتهم وتلافيها ؛ وجمعهم على الطاعة ، وبذر الإحسان فيهم
 إذا عرف أرضاً تركوا فيها الزراعة ، والتأدي لهم : فرب رجال تجزى عن عدة سنين
 في ساعه ؛ وتخصين هذا الحصن المنيع بما يدخر في حواصله ، ويستمد بجماعة البلاد
 المختصة به من وأصله ؛ وما يكون به من الجانيق التي لا ترقى عقاربها ، ولا توقي
 منها أقاربها ؛ ولا ترد لها مضارب ، ولا يكف من زباني زبانياتها كل ضارب ؛
 ولا يخطئ سهمها ، ولا يخفى بين النجوم نجمها ؛ ولا يعرف ما في صندوقها [المقل] ،
 من البلاء المرسل ، ولا ما في نخبها المشمر الساق من النشاط الذي لا يكسل ؛
 وغيرها من الرايات التي في غيرها لا تسد ، ولسوى خيرها لا تعقد ، وما يرمى فيها
 من السهام التي تشق قلب الصخر ، وتبكي حنساء كل فاقدة على صخر ؛ وكذلك قسي
 اليد التي لا يدبها ولا قبل ، وكنايب السهام التي كم أصبح رجل وبه منها مثل
 الجبل ؛ وما يُصان من اللبوس ، ويعد للنعيم والبوس ؛ وما يمد من الستائر التي

(١) الذي في "التعريف" «وقناديل» .

(٢) الزيادة من "التعريف" (ص ٩٥) .

(٣) في "التعريف" «من العدد والعدد واللبوس» .

هي أسوار الأسوار ، ولعاصم عقائل المعاقل منها حلى سوى كل سوار ؛ وهي التي ثلاث لثمتها على مباسم الشرفات ، وتضرب حججها على أعلى الغرفات ؛ وسوى هذا مما تعتصم به شواخ القلال ، ويتبوأ به مقاعد للقتال ؛ فكل هذا حصله وحصنه ، وأحسبه وحسنه ؛ وأعد منه في الأمن لأوقات الشدائد ، وأجر فيه على شأو من تقدم وزد في العوائد ؛ وهكذا ما يدتحر من عدد أرباب الصنائع ، ومدد التحصين المعروف بكثرة التجارب في الوقائع ، والأزواد والأقوات ، وما لا يزال يفكر في تحصيله لأجل بعض الأوقات ؛ وكُن من هذا مستكثرا ، وله على ما سواه مؤثرا ؛ حتى لا تزال رجالك مطمئنة الخواطر ، طيبة القلوب ما عليها إلا السحب المواتر ؛ وأعمل بعادة القلاع في غلق أبواب هذه القلعة وفتحها ، وتفقد متجددات أحوالها في مساء كل ليلة وصبحها ؛ وإقامة الحرس ، وإدامة العسس ، والحذار ممن لعله يكون قد تسور أو اختلس ؛ وتعرف أخبار من جاورك من الأعداء حتى لا تزال على بصيره ، ولا تبرح تعد لكل أمر مصيره ؛ وأقم نوب الحمام التي قد لا تجد في بعض الأوقات سواه رسولا ، ولا تجد غيره مخبرا ولا سواه مسئولا ؛ وطالع أبوابنا العالية بالأخبار ، وسارع إلى ما يرد عليك منها من ابتداء وجواب ؛ وصب فكرك كله إليها وإلى ما تتضمنه من الصواب .

المرتبة الثانية

(من المراسيم التي تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف -

ما يكتب في قطع الثلث ، وفيها وظيفتان)

الأولى - شد الدواوين بدمشق . وصاحبها يتحدث فيما يتحدث فيه شاد

الدواوين بالديار المصرية ، وقد تقدم .

وهذه نسخة مرسوم شريف بشتد الدواوين بدمشق :

الحمد لله الذي أرهف لمصالح دولتنا القاهرة من الأولياء ، سيفا ماضيا ، وجرّد
لمهمات خدمتنا الشريفة من الأصفياء ، عضبا يغدو الملك عن تصرفه الجميل راضيا ،
وجدد السعود في أيامنا الزاهرة لمن لا تحتاج هممه في عمارة البلاد المحروسة
مقاضيا .

نحمده على نعمه التي تستغرق المحامد ، وتستوجب الشكر المستأنف على الحامد ؛
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مجاهد لأعدائها ، مجاهر لإعلائها ؛
ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف الأنبياء قدرا ، وأولهم في الرتبة مكانة وإن كان
آخرهم عصرا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بما أمروا ، وعمرؤا الذين
قبل الدنيا فلم تتمكن الأيام من [نقض] ما عمرؤا ؛ صلاة يتأرجح شرها ، ويتبلّج
شورها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من عُدق به من مهماتنا الشريفة أعمها نفعا ، وأحسنها في عمارة
البلاد وقعا ، وأكثرها لخزائن الأموال تحصيلًا وجمعا ، وأجمعها لمصالح الأعمال ،
وأضبطها لحواصل الممالك التي إذا أعد منها جبالا تلا عليها لسان الإنفاق :
(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ) من زانت عزمه نزاهته ، وكَلَّت قُوته في الحق خبرته
ونباهته ؛ وكان من أولياء دولتنا المعدنين لشد أركانها ، وإشادة بُنيانها ؛ والنهوض
بمصالحتها المتنوعة ، ونشر كلمة عدلها التي تغدو بالأدعية الصالحة مبسوطه وبالأنثية
العاطرة ممتزوعة .

ولما كان فلان هو الذي أشير إلى محاسنه ، ونبه على إبريز فضله المظهر من
معادنه ؛ مع صرامة تحيف اللبوث ، ونزاهة تبين على عمارة البلاد الغيوث ؛ وخبرة
يأظهار المصالح الخفية وفيه ، وبإبراز معادن الأموال من وجوهها الجلية مليه ؛

وَمَعْرِفَةِ تَعْمُ الْبِلَادَ بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ، وَتَجْعَلُ مَثَلًا مَا يُودَعُ فِيهَا بِالْبُرْكَاتِ وَالنِّسَاءِ مَثَلًا
حَبَّةً أَتَتْ سَبْعَ سَنَائِلٍ فِي كُلِّ سُدْبَلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةً - أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيذَةَ أَنْ نُنْبِئَهُ
عَلَى حَسَنِ اعْتِنَانَا بِأَمْرِهِ ، وَاعْتِمَادِنَا بِمَا قَدَّمَهُ مِنْ أَسْبَابِ إِسْنَاءِ رُبَّتِهِ وَرَفْعَةِ قَدْرِهِ ؛
فَلذَلِكَ رَسْمٌ - زَادَ اللَّهُ فِي عِلَالِهِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ

فَلْيَبْشُرْ ذَلِكَ مُظْهِرًا مِنْ مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مَا كَانَ فِي صَمِيرِ كِفَايَتِهِ مَكُونًا ،
مُبْرَزًا مِنْ تَثْمِيرِ الْأَمْوَالِ وَتَعْمِيرِ الْأَعْمَالِ مَا يَحْقُقُ بِهِ : مِنْ خِصْبِ الْبِلَادِ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ
تَعَالَى مَا كَانَ مَظْنُونًا ؛ مُوَالِيًا إِلَى الْخِزَانِ الْمَعْمُورَةِ مِنْ حُمُولِ تَدْبِيرِهِ مَا يُنْسِي بِهِ طَائِرُ
تَصْرِفِهِ مِيونًا ، وَسَبَبُ تَوْقِفِهِ مَا مَوْنَا . وَلِيَكُنِ النَّظَرُ فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ هُوَ الْمِهْمُ الْمَقْدَمُ
لَدَيْهِ ، وَالْأَمْرَ الَّذِي يَتَعَيَّنُ تَوْفُرُ أَهْتَامِهِ عَلَيْهِ ، فَلْيَجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ أَجْمَادًا يَظْهَرُ أَثَرُهُ ،
وَيُجْتَنَى أَسْمُهُ ، وَيُجَمَدُ وَرْدُهُ وَصَدْرُهُ ؛ وَتَتَفَرَّعُ عَنْهُ أَنْوَاعُ الْمَصَالِحِ ، وَتَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ
أَسْبَابُ الْمَنَاجِحِ ؛ وَمِلَاكُ ذَلِكَ بَسْطُ الْمَعْدِلَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرٌ لِلْبِلَادِ مِنْ أَنْ تُمَطَّرَ أَرْبَعِينَ
يَوْمًا ، وَاعْتِمَادُ الرِّفْقِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَهُ الْبَأْسُ قَوْمًا ، وَلَا يُجِيبُ عَلَى فَاعَلِهِ مَعَ الْحَزْمِ
لَوْمًا ، وَلَا يَطْرُدُ عَمَّنْ أَنَا مَهَادِ الْعَدْلِ فِي مِهَادِ الدَّعَةِ نَوْمًا ؛ وَلْيَصْرِفْ إِلَى اسْتِجْلَابِ
الْأَمْوَالِ وَمُوَالَاةِ حَمَلِهَا هِمَّةً نَاهِضَةً ، وَعِزْمَةً إِلَى مَاقْرَبٍ وَنَائِيٍّ مِنَ الْمَصَالِحِ رَاكِضَةً ،
وَقُوَّةً بِأَسْبَابِ الْحَزْمِ آخِذَةً وَعَلَى أَعْتِنَةِ التَّدْبِيرِ قَابِضَةً ؛ وَفِيَا خَبْرَانَهُ مِنْ عِزَائِمِهِ
الْمَشْكُورَةِ ، وَسِيرَتِهِ الَّتِي مَا بَرَحَتْ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ مَشْهُورَةٍ ؛ مَا يُكْتَفَى بِهِ
عَنِ الْوَصَايَا الْمُوَكَّدَةِ ، وَيُوثَقُ بِهِ فِيمَا عُدِقَ بِهِ مِنَ الْأُمُورِ الْمُسَدَّدَةِ ؛ لَكِنَّ تَقْوَى اللَّهِ
تَعَالَى أَوْلَى الْوَصَايَا وَأَوْلَهَا ، وَأَحَقُّ مَا تَأْتَتْ عَلَيْهِ تَفَاصِيلُهَا وَجَمَلُهَا ؛ فَلْيَقْدَمْ تَقْوَى اللَّهِ
بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَيَجْعَلْهَا الْعُمْدَةَ فِيمَا اعْتَمَدَ فِيهِ عَلَيْهِ ؛ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ
تَعَالَى أَعْلَاهُ .

الوظيفة الثانية - شد المهّمات . وصاحبها يتحدّث فيما يُطلب للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها . وقد ذكر في "التثقيف" أنّ عادته أن يكون مقدّم ألف .

وهذه نسخة توقيع بشد المهّمات بدمشق ، وهي :

الحمد لله الذي شدّ عمراً المصالح من الأولياء بكل ذي أيدٍ، وكلّ من هو في المهّمات أبطش بعمرٍ من زيد ، ومن له تدبيرٌ كم أغنى باقتناصه لشوارد الأمور عن حباله صيد .

(١) [وبعد] فإن أحق من استخلص لاستخلاص الأموال ، واختير لصونها من الاختلال وحفظها من الاختلال ، وأهل قلمه وكلمه : هذا للتمثيل وهذا للامثال ؛ وفوض إليه التصرف في الترغيب والترهيب ، والاجتهاد في التمييز والتحرير والتوفير إذ كل مجتهد مُصيب - من أشهر بأنه ذو حزم لا يني ، وعزمٍ عن المصالح لا يئني ، واحتفال بالأحوال التي منها نكر لمن يئني وشكر لمن يئني ؛ وله نباهة يدرك بها كل إبهام وكل إبهام ، ويطلع [بها] على فلتات السنة الأفلام ، ويفهم بها مقاصد كل من هو من الحنة في كل وإديهم ، ولا يخفى عليه جرائر الجرائد ولا مخازي المخازيم ؛ وفيه رحمة كم أصبح بها وهو الأني ، ولم يأت قساوة يكون بها هو المُنبت الذي لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبق ؛ وكم ساس الأمور ودبرها فأحسن فيها السياسة وأجمل التدبير ، واستخرج [الشيء الكثير] بالتخويف اليسير ؛ حتى جمع حسن تدبير وأسترعا ، وصنع حسناً وأحسن صنعا .

(١) زدنا هذه اللفظة للزومها واستقامة الكلام بها . فتنبه .

ولما كان فلان هو لهذا الأمر الحليل المُستَرعى، وأسمه في أول مدارج التنويه والتنويل خير مُستدعى؛ وفيه من جميل الأوصاف ما يرضى حسن الاقتراح وقد خبر أمور الكتبة، وقد علم من أحوالهم ما هو أحرى لهم بالتجربه؛ وعرف خفايا المعاملات معرفة تامه، وأحاط بجزئيات الجهات وكلياتها إحاطة خاصة وعمه - أقتضى حسن الرأي المنيف، أن رسم بالأمر الشريف - لا يرح يسد عضد كل مهم من الأولياء بأنى كل عزم، ويجعل له سلطاناً لا يكل مصلحة إلى حزم ذى حزم - أن يفوض إليه شد المهام بالشام المحروس .

فليضبط الأمور ضبطاً مستوعباً، وليتصب لذلك انتصاباً مترتباً؛ وليحترز منفذاً ومصرفاً، ومسرعا ومستوقفاً؛ ومتى ظهر حق يتمسك به تمسك الغريم، ولا يُحاب فيه ذابأس قوى ولا ذامنهج إلى المنع والدفع غير قويم؛ وما من جهة إلا ولها شروط صوب الصواب، ولا يعتمد على غير الحق منجبا عن ترويح الكتاب؛ وتكن الجمول مسيره، والمتخزجات متوفره؛ وجهات الخصاص مقرره؛ إذ الضمان لا ينتظر لهم نظرة إلى ميسره؛ فإنهم سوس المعاملات، وكواسر الجهات؛ ومنهم يحفظ أو يضاع، وبهم يترقى أو ينحط الأرتفاع؛ وجهات المقطعين الواجب له أن يجعل عليها واقية باقيه، وتحم لهم حتى لا يتناول إلى ذروتها امتداد الأيدي المختزلة ولا خطا العُدوان الراقية؛ وليصرف وجهه بحفظه إلى مراقبة من في باب الشد من مقدمين ومن رسل يأكلون أموال الناس بالباطل، ويبيعون الآجل بالعاجل؛ ويخيفون العام والخاص، وكل منهم يروم الغناء وهو رقاص .

هذه زبدة من الوصايا مقنعه، وعزومات غنية عن تكثير في القول أو توسعه؛ والله تعالى يكون له ويعينه، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالى .

الصف الثاني

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية ، وجميع ما يكتب
فيها توافيع ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع النصف بـ «المجلس العالی بالياء» مفتتحا بـ «الحمد لله»)

وبذلك يكتب للقضاة الأربعة بحاضرة دمشق .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية بدمشق المحروسة ، كُتِبَ به لفاضل
القضاة «بهاء الدين أبي البقاء السبكي» وهي :

الحمد لله الذي أقر أحكام الشرع الشريف ، في أيامنا الزاهرة على أكمل القواعد ،
وأمر مدار الحكم المنيّف ، في دولتنا القاهرة على أجمل العوائد ؛ وأمضى فضّل
القضاء في ممالك الشامية بيد إمام غيّت فضائله عن الشواهد ، وأتمته الأئمة
لاقتباس الفوائد ؛ وعدت أحكام الملة منه مجاهر في الحق مجاهد ، مسدد في الدين
سهم آجتهاد رمي به شاكلة الصواب عن أثبت يد وأشد ساعد .

نحمده على نعمه التي حلت مناصب الدين في ممالك الشريفة بأكفائها ، وعلت
رتب العلم في دولتنا القاهرة باستقرار من جعلته فضائله غاية اختيارها ونهاية
أصطفائها ، ودلت على اعتنائنا بتنفيذ أحكام من أتعبت سيرته الجميلة من سهد
في اتباعها وجهد في اقتنائها ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
لا تزال أعلامنا بها تنصر ، وأيامنا على الجهاد لتكون كرامتها هي العليا تقتصر ،
وأقلامنا لنشر دعوتها في الآفاق تسهب ولا توجز وتطنب ولا تختصر ؛ ونشهد أن
مجد عبده ورسوله أشرف من قضت أمته بالحق فعدلت ، وتلقّت عنه أحكام ملته

فَفَاقَتْ بِذَلِكَ الْأُمَّمَ وَفَضَلَتْ ، وَحَكَمَتْ بِمَا أَرَاهَا اللَّهُ مِنْ شِرْعَتِهِ فَمَا مَالَتْ عَنْ سُنَنِهِ الْقَوِيمِ وَلَا عَدَلَتْ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّهِ فَسَلِمُوا ، وَعَمَلُوا فِي دِينِ اللَّهِ بِمَا عَلِمُوا ، وَبَدَّلُوا النُّفُوسَ فِي طَاعَتِهِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا أَلْمُوا ؛ صَلَاةٌ تُؤَدِّي بِهَا مِنْ أَمْرِ اللَّهِ الْمُفْتَرَضِ ، وَنُزْغَمُ بِإِقَامَتِهَا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ؛ وَسَلَّمٌ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإن أولى من تتقل في رتبته السنية ، ووطدت له بمصر والشام قواعد سيرته السريه ؛ وأطلقت جيد البراعة في إمضاء حكمه في الملكتين مثاني أعنتها ، وأنطقت صعاد البراعة في إعلاء بهائه فيما [السنه] أسنتها ؛ وأردنا أن نرده إلى أعز الممالك علينا لنقر عينا ، وقصدنا أن نعيده إلى رتبته بها لنوفي باستعادته دينها ؛ وأخترنا أن نجدد لهذه الوظيفة سالف عهده ، وأن نريه اعتناء بأمر منصبه الذي لم يله مثله من الأئمة من بعده ؛ وعلمنا أن الديار المصرية قد آخضت بفضائله زمتا طويلا ، وأن البلاد الشاميه قد ألفت من أحكامه ما لم ترد به بدلا - من ظهرت فضائله ظهور نعتيه ، وتبادت فوائده رنائق الآفاق : من علماء زمانه وأئمة وقته ، وعلمت أوصاف الصدور الأوي من علمه وورعه وسمته ؛ ونشرت الأيام من علومه ما لم يطوبل تطوى إليه المراحل ، ونقلت الأقاليم من فنونه ما يروى فيروى به السمع الطامى ويخصب به الفكر الماحل ؛ وألفت الأقاليم من حكمه ما غدت به بين مسرور بإشراقه ، ومروع بفراقه ، فمن أفضيه مسدده ، وأحكام مؤيده ؛ وأقوال منزهه عن الهوى ، وأحوال صادرة عن زهاده محكمة القواعد ونزاهة مجتمعة القوى ؛ وإصابيه دالة على ما وراءها من علم وورع ، وإجابة في الحق تحيا بها السنن وتموت البدع ، وشدة في الدين تصدع في كل حكم بالحق وإن صدع ؛ وعذلي لا يستلان

جَانِبِهِ، وَحَزْمٌ لَا يُسْتَرَلُّ صَاحِبُهُ، وَلَا يُسْتَنْزَلُ رَأْيُهُ؛ وَقُوَّةٌ فِي الْحَقِّ تَمْنَعُ الْمُبْطِلَ مِنَ
 الْإِقْدَامِ عَلَيْهِ، وَلَيْنٌ فِي اللَّهِ يُفْسِحُ لِلْحَقِّ مَجَالَ الْقَوْلِ بَيْنَ يَدَيْهِ؛ وَمَجَالِسٌ غَدَّتْ بِالْعِلْمِ
 طَيِّبَةَ الْأَرْجِ، وَفَضَائِلٌ يُحَدِّثُ فِيهَا عَنْ مَوَادِّ فِكْرِهِ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ؛ وَبَدَائِعَ
 تُضْرِبُ إِلَى أَسْتِمَاعِهَا أُجَادُ الْإِبِلِ، وَبَدَائِعَ تَهْرَمُ الْأَيَّامُ وَعُمُرُ شَبَابِهَا مُقْتَبِلٌ .

ولما كان المجلس العاشر - أدام الله نعمته - هو الذي ورد على أبوابنا العالية ونور
 ولأته يسعى بين يديه، وصدر الآن عنها وحل الآئنا تضافو عليه؛ وأقام في خدمتنا
 الشريفة معدوداً في أكرم من بها قطن، وعاد إلى الشام مجموعاً له بين مضاعفة النعم
 والعود إلى الوطن . وهو الذي تحتال به المناقب، وتختار فضله العواقب؛ ويشرق
 قلبه بالفتاوى إشراق النهار، وتغدق منافعُه إغداق الشحب بالأمطار، وتحدث
 الطلبة به إحداق الكمامة بالتمر والهالات بالأقمار؛ وهو شافى عي كل شافى،
 ودواء ألم كل ألمعي؛ طالما جانب جنبه المضاجع سهاداً، وقطع الليل ثم استمده
 لمدد فتاويه مدادا؛ وجمع بين المذهبين نظراً وتقليداً، والمذهبين من القولين قديماً
 وجديداً؛ وسلك جميع الطرق إلى مذهب إمامه، وملاك حسنها فأسفر له كل وجه
 تغطي من أوراق الكتب بلثامه؛ وانفتحت بفهمه للتصانيف أبواب شغلت
 «القفال» أفعالها، ونفحت [له] نفحات ما «للمأوردى» مثالها، ومنحت حلالاً يفخر
 «الغزالي» إذا نسج على منواله سر بالها؛ فلو أدركه «الرافعي» لشرح «الوجيز» من
 لفظه، وأملأ أحكام المذاهب من حفظه؛ وصدر المسائل بأقواله، وأعد لكل
 سؤال وأرد حجة من بحثه وبرهاناً من جداله؛ فله في العلم المرتقى الذي لا يدرك،
 والمنتهى الذي لا يتأزغ في تفرد ولا يشرك، والغاية التي أحرزها دون غيره فلولا
 المشقة لم تترك؛ وهو الذي ما زال بهذه الرتبة ملياً، وبما عُدق بذمته من أحكامها

وَفِيَا، وَبِكُلِّ مَا يُرِضِي الْخَلِيقَةَ عَنْهُ مِنْ أَحْوَالِهَا فَأَمَّا وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، وَأَبْعَابَهَا مُسْتَقِلًّا مِنْ حِينَ مَنَحَهُ اللَّهُ الْعِلْمَ نَاشِئًا وَأَتَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وَمَا بَرِحَ تَدْعُوهُ التَّقْوَى فَيُجِيبُهَا، وَيَتْرَكُ مَا لَا يُرِيبُ نَفْسَهُ تَنْزِيهَا عَمَّا يُرِيبُهَا، فَكَمْ بَحْرَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ مِنْ عَلَيْهِ عَيُونًا، وَعَرَسَ بِهَا مِنْ أَفْنَانِ فَضْلِهِ فَنُونًا، وَكَانَ لَهَا خَيْرٌ جَارٍ تَرَكَ لَهَا مَسَاوَاهَا، وَأَكْرَمَ نَزِيلٍ نَوَى بِالْوَصُولِ إِلَيْهَا مَصْلَحَةَ دِينِهِ فَلَمْ يُضَعِّعِ اللَّهُ لَهُ نَيْتَهُ الَّتِي نَوَّاهَا، وَأَلْفَ قَوَاعِدَ أَهْلِهَا وَعَوَائِدَهُمْ، وَعَرَفَ بِحُسْنِ أَطْلَاعِهِ مَا جَبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ غَائِبَهُمْ وَشَاهِدَهُمْ، وَعَدُوَّهُ مِنَ النِّعَمِ الْمَقْبَلَةِ عَلَيْهِمْ، وَأَقْتَدَوْا فِي مَحَبَّتِهِ بِالَّذِينَ تَبَعُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُجِبُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ؛ ثُمَّ تَدَمَّ إِلَى الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَمَا كَانَ قُدُومُهُ إِلَّا عَلَيْنَا، وَوَفَدَ إِلَيْهَا بِحُسْنِ مَوَدَّتِهِ وَمَحَبَّتِهِ اللَّتَيْنِ مَا وَفَدَ بِهِمَا إِلَّا إِلَيْنَا؛ فَوَإِنَّا مِنْهُ إِمَامًا لَا يُحْكَمُ فِي تَوَلِيَّتِهِ الْحُكْمَ بِالْهُوَى، وَلَا يُنَوَى فِي تَقْلِيدِهِ الْقَضَاءَ غَيْرَ مَصْلَحَةِ الْمَسَالِمِينَ « وَلِكُلِّ أَمْرٍ مَا نَوَى »؛ وَهُوَ - بِمَجْدِ اللَّهِ - لَمْ يَزَلْ بِقَوَاعِدِ هَذَا الْمَنْصِبِ خَيْرِيًّا، وَبِعَوَائِدِ هَذِهِ الرِّتْبَةِ بَصِيرًا، وَبِإِجْرَائِهَا عَلَى أَكْمَلِ السَّنَنِ وَأَوْضَحِ السَّنَنِ جَدِيرًا، وَبِإِمَاءِ حُكْمِ اللَّهِ الَّذِي يُحَقِّقُ إِيجَادَ الْحَقِّ فِيهِ لِلْأُمَّةِ أَنَّهُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾؛ مَعَ مَا تَكَلَّمْتَ بِهِ فَضَائِلُهُ مِنَ الْوُقُوفِ مَعَ الْحَقِّ الْمُبِينِ، وَالتَّحَلَّى بِالْوَرَعِ الْمَتِينِ، وَالتَّخَلَّى لِلْعِبَادَةِ الَّتِي أَصْبَحَ مِنْ أَنْصَفِهَا مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْأَشْرَفِيِّ النَّاصِرِيِّ - لِأَزَالِ عِلْمِ الْعِلْمِ فِي أَيَّامِهِ مَرْفُوعًا، وَأَلْمُ الْجَهْلِ بِمَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ دَوْلَتَهُ مِنَ الْأُمَّةِ الْأَعْلَامِ مَدْفُوعًا - أَنْ يَفُوضَ إِلَى الْمَشَارِ إِلَيْهِ قَضَاءَ الْقَضَاءِ الشَّافِعِيَّةِ، وَنَظَرَ الْأَوْقَافِ بِدِمَشْقِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا بِالْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ، وَمَا هُوَ مُضَافٌ إِلَى ذَلِكَ مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالتَّدَارِيسِ وَالتَّصَدِيرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، عَلَى عَادَةِ مَنْ تَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ وَقَاعِدَتِهِ وَمَعْلُومِهِ .

فَلْيَقَابِلْ هَذَا التَّقْلِيدَ السَّعِيدَ بِيَدِ زَيْدٍ فِي الْحَقِّ تَمَكُّنًا، وَعَلَى الْخَيْرِ تَمَرُّنًا، وَفِي الْعَدْلِ
 أَنْبَسَاطُهَا، وَفِي أَحْكَامِ اللَّهِ تَعَالَى بِحَسَنِ الْمَعَاظِدَةِ عَلَى الْحَقِّ قُوَّتًا وَأَحْتِيَاطُهَا، وَيَمِضُ
 عَلَى مَا أَلْفَ مِنْ سِيرَتِهِ الَّتِي زَانَ الْعِلْمُ أَوْصَافَهَا، وَزَانَ الْوَرَعُ أَتَّصَافَهَا، وَحَلَّى الْعَدْلُ
 مَفَاحِرَهَا، وَأَحْيَا التَّقَى مَا ثَرَهَا، وَتَنَاقَلَتْ رِفَاقُ الْآفَاقِ أَحْكَامَهَا، وَأَسْتَصَحَبَتْ مِنْ
 هُدَايَا هُدَايَا مَا تُنْحِفُ بِهِ حُكْمَهَا، وَفِيمَا نُعِتَ مِنْ مَحَاسِنِهِ مَا يُبْنِي عَنِ الْوَصَايَا الْمَجْدَدَةَ،
 وَالْإِشَارَاتِ الْمُرَدَّدَةَ؛ لَكِنِ الذِّكْرَى بِتَقْوَى اللَّهِ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ، وَتَرْفَعُ الْمُتَّقِينَ، وَتَجْمَعُ
 مَصَالِحَ الدُّنْيَا وَالْدِينِ؛ فَلْيَجْعَلْهَا خُلُقَهُ مَا اسْتَطَاعَ، وَلْيَرَحُكْهَا هُوَ الْحُكْمُ الْمَتَّبِعَ
 وَأَمْرَهَا هُوَ الْأَمْرُ الْمَطَاعَ؛ وَالْإِعْتَادَ رَابِعَ عَشَرَ الْمَحْرَمِ سَنَةَ
 خَمْسَ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةَ .

قُلْتُ : وَلَمْ أَتَّفِ عَلَى تَفْوِيضِ لِقَاضٍ مِنْ كِتَابَةِ مَنْ تَقَدَّمَ سِوَى تَفْوِيضِ وَاحِدٍ،
 مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ، كَتَبَهُ لِقَاضِي الْقَضَاةِ «شَهَابِ الدِّينِ بْنِ الْمَجْدِ
 عَبْدِ اللَّهِ» بِالشَّامِ الْمَحْرُوسِ، عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ . وَهَذِهِ نَسِخَتُهُ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى التَّمَسُّكِ بِشَرَائِعِهِ، وَالتَّنَسُّكِ بِذَرَائِعِهِ، وَالتَّوَسُّلِ إِلَى اللَّهِ بِتَأْيِيدِ أَحْكَامِ
 شَارِعِهِ، وَالتَّوَصُّلِ بِهِ إِلَى دِينٍ يُقَطَّعُ بِهِ مِنَ الْبَاطِلِ أَعْنَاقُ مَطَامِعِهِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَأْخُذُ مِنَ الْخَيْرِ بِجَمَاعِهِ، وَيُضَاهِي الْغَامَ فِي عَمُومِ مَنَافِعِهِ، وَيُيَاهِي
 السِّيفَ بِقَلَمِ الشَّرْعِ فِي قَهْرِ دَاصِيهِ وَحِمَايَةِ طَائِعِهِ . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُوَدِّي لِلْإِيمَانِ أَمَانَةً وَدَائِعِهِ، وَتَهْدِي إِلَى صِيَانَةِ مَشَارِعِهِ، وَتَقِيمُ
 مِنَ الْعُلَمَاءِ كُلِّ شَهَابٍ تُقْسِمُ الْأَنْوَارُ بِلُؤَامِعِهِ، وَتُقْسِمُ الْأَبْصَارُ بِبَدَائِعِهِ، وَتَجُولُ
 الْفِتَاوَى فِي صَدْرِهِ الْفَسِيحِ وَتَجُولُ فِي سُورَاتِهِ، وَتُرْهِفُ مِنْهُمْ لِلْحُكْمِ الْعَزِيزِ كُلِّ قَلَمٍ
 يَدُلُّ السَّمَمَ عَلَى مَوَاقِعِهِ، وَيُنْبِئُهُ الرِّيحُ مِنْ مَقَاتِلِ الْأَعْدَاءِ عَلَى مَوَاضِعِهِ، وَيَسْتَرِي

نعمته إلى الأعداء بصواعقه وإلى الأولياء بهوامعه ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده
ورسوله الذى أسعد الأمة بطاعته ، وأصعد الأئمة فى مطالعه ، وأسعف الملة بما
أبقى الله فيها من حسن صنائعه ويمن طلائعه ، ومن شريعته التى آمن حبلمها الممدود
من جذب قاطعه ، وكفى شر قاطعه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة [تتوالى
إليه توالى] العذب إلى منابعه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن الله لما أقامنا لحماية شرعه الشريف أن يستباح حماه ، أو يباح لأحد
من حكامه أن يركب هواه ، أو يتعدى حدوده فى سخطه أو رضاه ، أو يحدث فى أمره
ما ليس منه إلا أن يكون ردا على سواه - [جعلنا] نُجدا على إقامة مناره أن يطمس ،
وإدامة مباره أن يقلع منارها أو يخس ، استدامة لتأديس حكامه ، وتأيد أحكامه ؛
لأنه سخائب أنواء يعم الربيع ربوعها ، ومشكاة أنوار يكائر الصباح لموعها ، وأفوابق
وفاق تقيم به الأمة ضروعها ، وشجرة مباركة إسلامية زكت أصولها وتمت فروعها ؛
شكرا لله على ما خصنا به : من تحصين ممالك الإسلام ، و تحسين مسالك دار السلام ؛
لنمنع الحن أن تسام ، وبروق الفن أن تسام ، ووجوه الفتوى أن تترين إلا بشامة
الشام ؛ غبطة بأن الله جعل للإسلام منها ما هو خير وأبقى ، وأشرف وأبقى ، وأعظم
بلدٍ نشعب بالمذاهب طرقا ، وتود الحجر لو وقمت بها على الشريعة نسقا . تتراحم
فى مركزها الأعلام ، وتتصافر دلى الجهاد فى الله بالجلاد والجدال تارة بالسيوف
وتارة بالأفلام . ودمشق حرمها الله هى أم ذلك الإقليم ، ومدده الذى يخنو على
مشارعها حنو الوالدة على القظيم ، وتنتب بها فوائد لا تأمن معها الغوانى حتى
تلمس «جانب العقْد العظيم» ، وهى دار العلم ، ومدار الحكم ، وموطن علماء تتعاقب

فيها كواكبهم ، وتتناوب سحائبهم ؛ وتتناهى إلى حكمها العزيز الشكوى ، وتفصل بحكم حاكمها الدعوى ، ويمتد جناح طيلسانه على رضوى ، ويحلق البرق وراء فهمه ولا يبلغ غايته القصوى ؛ ويطول قلمه على السيف المشهر ، ويرفرف سبيله على الشرع المطهر ؛ كم حلت في صدوره صدور ، وكم طلعت منهم شمس ودور ، وكم حمدت منهم أمور عاقبة والله عاقبة الأمور ؛ كم أداء دريس بهم ذكر ، وكم أدب نفيس شكر ؛ كم بهم مجد ربح ، وجد ملته مملأة نسخ ؛ كم أفضية لهم بالحق وصلت ، وقضية للحق فصلت ، ومهنة من غلبهم اللاحق حصلت ؛ كم سبيل صاحب هذا المنصب حامل علمه المنشور ، ومصباح ديمه الحافلة على ممر الدهور ؛ بشرف مدرّس علم يطلع من محرابه ، ونسآك حلم يبدو بذره التمام خلف سحابه ؛ ومجلس إفادة ، انعقد عليه فيه الإجماع ، ومحفل سادة ، كان فيهم واسطة عقد الاجتماع .

[ولما] تزلزلت قدم مناره ، وأنتهك حجاب ضمائره ؛ وأسترله الشيطان بكيدة المتين ، وأضله على علمه المبين ؛ وسبق القلم الشرعى ، بما هو كائن ، ومضى الحكم القطعى ، بما هو من تصرفه بائن - تردد الاختيار الشريف فيمن تحلى جيده بتقليدها ، ونوهل يرآعه لتسليم مقاليدها ؛ وصوبنا صواب النظر فيها مصراً وشاماً ، وأستشرفنا أعلاماً ، وتيقنا لأقوى ما يكون [لها] قواماً ، وأبتكرنا أنه لا يصلح إلا من كان حللة المجد طرازاً ، ويزيد العمل إليه اعتراء والعلم به اعتزازاً ؛ إلى أن أجمع رأياً العالى على من لا ينكر ذو قدم ولا قدم ولا قلم ، أنه السابق ؛ ولا يجحد رب علم ولا عمل ولا علم ، أنه الباسق . ولا يسك أن من فوائده يستمد المطر ومن توقد ذهنه يقدح زناد البارق ، ولا يرتاب البحر أن فوائده ما يطوق العنق ويشنف الأذن ويتوج المقارق ؛ ولا يمارى فى فضله الذى لو طلب له مثيل لم يصب ، ولو ادعى الكوكب السارى أنه له شبيه لمسه النصب ، أو تلفتت أعناق القنا إلى قلمه لا يقنت أنها كل على القصب ؛

وهو الذى أفتى عُمره فى تحصيل العلم اشتغالا ، وجدّ فى الطلّب لصالح العمل وإن
تعالى ؛ وبقي فقيه قوم ما جدّ منهم مثله ما جد ، ولا جادت يد كريم منهم تمتد بما
هو جائد ؛ ودرج أقرانه إلى الله وخلى دونهم شرعا لا يردّ واردا ، وخافّ بعدهم
سهماً فى الكفاة وإحدا .

وكان المجلس العالى - أدام الله تأييده - هو الذى تحتلّ به المناقب ، وتختار
فضائله العواقب ؛ وشرف بقلمه الفتاوى إشراف النهار ، وتغدق منافعها إغداق
السحب بالأمطار ، وتحدّق به الطلبة إحداق الحكمة بالثمر والهالات بالأقمار ؛
وهو شافى عي كل شافى ، ودواء ألم كل المعى ؛ طالما جانب جنبه المضاجع
سهادا ، وقطع الليل ثم استمده لمدد فتاويه مدادا ؛ وجمع بين المذهبين نظرا وتقليدا ،
والمذهبين من القولين قديما وجديدا ؛ وسلك جميع الطرق إلى مذهب إمامه ،
وملك حسانها فأسفرله [كل] وجه تغطى من أوراق الكتب بلثامه ؛ وانفتحت
[بفهمه] للتصانيف أبواب شغلت « القفال » أفعالها ، ونفحت له نفحات
ما « لكوردى » مثلها ، وسفحت ديم غزار يسقى « المزنى » سجالها ، ومنحت حلا
يفخر « الغزالي » إذا نسج على منواله سر بالها .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال يجتدّد ملايس فضله ، ويقلد كل عمل لصالح
أهله - أن يفوض إليه قضاء الشافعية بدمشق المحروسة وأعمالها وجنودها
وضواحيها ، وسائر الممالك الشامية المضافة إليها والمنسوبة لها والمحسوبة فيها ؛ يولى
ذلك ولاية صحيحة شرعية ؛ على عادة من تقدمه وقاعدته المرعية ؛ مع ما هو مضاف
إلى من كان قبله من تدريس المدارس ، تقويضا لا ينافسه فيه منافس ، ولا يجالسه
فى درسه إلا من ارتضى من النجوم ان يجالس ؛ وأذنا له أن يستنيب عنه من

لا يَجْبُلُ عند الله ولا عِنْدَنَا بِاسْتِنَابَتِهِ ، ولا يُدَاخِلُهُ ظَنٌّ في خَلَاصِ ذِمَّتِهِ بِإِنَابَتِهِ إِلَى الله في نِيَابَتِهِ ؛ عَلَى أَنَّهُ يَتَفَقَدُ أَعْمَالَهُمْ ، وَيَتَصَفَّحُ أَحْوَالَهُمْ : فَمَنْ تَقَلَّ إِلَيْهِ نِقَاتُهُ أَنَّهُ عَلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ أَقْرَبَهُ ، وَإِلَّا صَرَفَهُ ثُمَّ لَا يَكُونُ لَهُ إِلَى عَمَلِهِ كَرَهُ ؛ وَهُوَ الْقَائِمُ بِحُجَّةِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَحُجَّةِ الله عَلَيْهِ قَائِمُهُ ، وَعَلَيْهِ إِنْ قَصَرَ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ - فِي أُمُورِهِ تَعُودُ الْأَلِيَمَةُ ؛ وَأَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّا مَا كُنَّا نَعْرِفُكَ عِيَانًا ، وَإِنَّمَا وَصِفْتَ لَنَا حَتَّى كَأَنَّكَ نَزَاكَ وَسَمِعْتَ بِمَا نَحْنُ عَلَيْهِ حَتَّى كَأَنَّكَ تَرَانَا ؛ فَشَيْدٌ لِمَنْ شَيْدَ لَكَ شُكْرُهُمْ أَرْكَانًا ، وَأَعْلَى ذِكْرُهُمْ لِمَجْدِكَ بِنِيَانَا ، وَجَعَلَ لَكَ قَدْرَهُمُ الْجَمِيلُ مِنَّا سُلْطَانًا ؛ وَأَقِيمْ بِحُسْنِ سُلُوكِكَ عَلَى مَا قَالُوا فِيكَ بُرْهَانًا ؛ وَأَعْرِفْ لَهُمْ حَقَّ مَعْرُوفِهِمْ وَجَازِهِمْ عَنِ حُسْنِ ظَنِّهِمْ بِالْحَسَنَاتِ إِحْسَانًا .

وَنَحْنُ نُوصِيكَ بِوَصَايَا تَشْهَدُ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْكَ بِبَلَاغِهَا ، وَيَعْتَرِضُ مِنْهَا فِي الْخُلُوقِ شَيْخًا : فَأَيُّ الرِّجَالِ يَقْدِرُ عَلَى مَسَاغِهَا ؛ فَإِنْ قُمْتَ بِهَا كَأَنَّ لَنَا وَلَكَ فِي الْأَجْرِ أَشْتَرَاكُ ، وَإِنْ أَضَعْتَ حَقُوقَهَا فَاللهُ يَعْلَمُ أَنَّنَا أَخْرَجْنَا هَذِهِ الْأَمَانَةَ مِنْ عُنُقِنَا وَقَلَدْنَاكَ ، وَاللهُ وَمَلَائِكَتُهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ شُهُودٌ عَلَى مَا أَوْلَيْنَاكَ وَمَا وَلَّيْنَاكَ ؛ فَعَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ فِي السِّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالْعَمَلِ بِمَا تَعَلَّمَهُ سِوَاءَ رِضَى فُلَانٍ أَوْ سَخِطِ فُلَانٍ ؛ وَالْإِنْتِهَاءِ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ عُمُومُ الْمَصَالِحِ ، وَإِمْضَاءِ كُلِّ أَمْرٍ عَلَى مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ عَلَيْهِ السَّلْفُ الصَّالِحُ ؛ وَإِقَامَةِ حُدُودِ اللهِ وَلَا تَتَعَدَّ حُدُودَهُ ، وَقَمْعِ الْبِدْعِ لِإِظْهَارِ الْحَقِّ لَا لِإِنَارَةِ فِتْنَةٍ مَقْصُودَةٍ ؛ فَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْكَرْتَهُ أَنْتَ وَأَمْثَالُكَ مِنْ الْأُئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ عَلَى مَنْ تَقَدَّمَكَ مِنْ تَسْرَعِهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ ، وَتَطَلُّعِهِ إِلَى مَطَالِبِ سَقَطِ دُونِهَا فِي مَهَاوِي الْمَهَالِكِ ؛ فَإِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ نَتَّبِعَ فِي هَذَا النَّحْوِ سُبُلَهُ ، أَوْ «تَنَّهُ» عَنِ خُلُقِي وَتَنَاتِي مِثْلَهُ» .

والصدقات الحكيمة على مادة المساكين ، وجادة الشاكرين ؛ ففرقها على أهلها ،
وأجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها ؛ ولا تبقى منها بقية تبقى معرضة لأكلها ،
فلو أراد واقفوها - رحمهم الله - أنها تبقى مخزونة ، لما سمحوا ببذلها ؛ وبقية الأوقاف
شارف في أمورها ، وشارك الواقفين - رحمهم الله - في أجورها ؛ وخص الأسارى -
أحسن الله خلاصهم - بما يصل به إحسانك إليهم ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال
التي كانت عليهم .

والأيتام - جبرهم الله - : منهم الطفل والمميز والمراهق ومن لم يملك رشدَه ، أو من
يحتاج أن يبلغ في جواز التصرف أشده ؛ وكل هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضره من
ينفعه ، ولكن الله يعزفه وفي أعماله يرفعه ؛ فاجتهد أن تكون فيهم أبا براء ، وأن
تتخذ فيهم عند الله أجرا ، وأن تعامل في نيك بمثل ما عاملتهم إذا آتيت إلى الدار
الأخرى ، وأحفظ أموالهم أن تلتهبها أجرة العيال ، وترجع في قراضها إلى ما يحجف
برءوس الأموال ؛ ومثل أعمالك [المعروضة] على الله في صفائفها المعروضة ، وأحذر
من المعاملة لهم إلا بفائدة ظاهرة وردن مقبوضة .

والجهات الدينية هي بضاعة حفظك ، ووداعة لحظك ، فلا تول كل جهة إلا من
هو جامع لشرطها ، قائم بموازن قسطها .

والشهود هم شهداء الحق ، وأمناء الخلق ؛ وعلى شهاداتهم تبقى الأحكام ، فإياك
والبناء على غير أساس ثابت فإنه سريع الانهدام ؛ ومنهم من يشهد في قيمة المثل
ويتعين أن يكون من أهل البلد الأمثل ، لأنه لا يعرف القيمة إلا من هو ذو وسعة
ممول ؛ ومنهم من أذن له في العقود فامنع منهم من تسهل بسبب من الأسباب ، وما
تمهل إشفاقا لأختلاط الأنسال والأنساب ؛ يقبل بالتعريف ما يخلو من الموانع

الشرعية من كان، ولا يُحسِن في تزويجه يُمسك إمساكاً بمَعْرُوفٍ ولا يَسْرَحُ تَسْرِيحاً
 بإحسان؛ وهؤلاء مَفَاسِدُهُمْ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، والبلاء بهم أكبر من أن يُسْتَقْصَرَ
 أو يُسْتَمْتَصَى؛ فاعتبر أحوالهم اعتباراً جليلاً، وفكر في استدراك فآرطِهم فِكْراً ملياً؛
 ومن لم يكن له من العلم والدين ما يوضح له المشتبهات، فإياك وتركة فُربٍ معتقدٍ^(١) أنه
 يظاً وطاً حلالاً وقد أوقعه هَذَا ومثله في وطءِ الشُّبُهَاتِ؛ ومنهم من يعمدُ إلى
 التحليل، ويرتكبُ منه مَحْدُوراً غير قليل؛ وهو بعينه نِكَاحُ الْمُتَعَةِ الذي كان آخرَ
 الأمرين من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّهْيُ عنه، وقام أمير المؤمنين عُمَرُ
 ابن الخطاب رضى الله عنه مُحَدِّراً منه؛ فاحسب هذه المادَّةَ الرِّدِيَّةَ التي تُؤَلِّمُ عضواً
 فيسرى إلى سائر الأعضاء أُمَّهًا، وَيُنْقِي في كثير من الذَّرَارِيِّ المولودة من هذه الأنكحة
 الفاسدة ثَمَمًا.

والرُّسُلُ والوكلاءُ يجلس الحكم العزیز ومن يَلْمِزُكَ في الصَّدَقَاتِ، وما نزل في أُمُورٍ
 ما يريدون بها تَقْلِيدَ حَكْمِكَ بل ما يقضون به الأوقات؛ فلا تَدْعُ مَنْ تريد منهم
 إِلَّا كَلَّ مَشْكَورِ الطَّرِيقِ، مشهورِ القصة بين الخصوم بطلب التوفيق.

والمَكَاتِبُ هي سهامك النَّافِذَةُ، وأحكامك المُواخِذَةُ؛ فَسَدِّدْ مَرَامِيهَا، ولا
 تُرَدِّفها ماعرض عليك من الأحكام حتى لا يسرع الدخول فيها؛ والمَحَاضِرُ هي محل
 التَّقْوَى، فاجتهد فيها أَجْتِهَادًا لا تَدْرُعُ معه ولا تُتْبِعُ.

وأما قضايا المتحاكين إليك في شكاويهم، والمُحَاكِمِينَ في دَعَاوِيهم، فانت بهم
 خَيْرٌ، ولهم نَافِذٌ بصير؛ فإذا أَوَّكَ لَتَكْشِفَ بِحَكْمِهِمْ لَأَوَاءَهُمْ، فاحكم بينهم بما أَرَاكَ اللهُ
 ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ؛ وقد فَتَّهَكَ اللهُ في دينه، وأوردَكَ من مَوَارِدِ يَقِينِهِ، ماجمله لك

(١) في الاصل: منقعة وهو خطأ.

أُورًا، وَجَلَّاهَ لَكَ سُهُورًا ؛ وَأَقَامَهُ عَلَيْكَ سُورًا ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ مِنْهُ أُمُورًا ،
فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْكَ أَمْرٌ فَرُدَّهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِجْمَاعِ
أَصْحَابِهِ فَإِنْ لَمْ تَجِدْ فَعِنْدَكَ مِنَ الْعُلَمَاءِ مَنْ تَجْعَلُ الْأَمْرَ بَيْنَهُمْ سُورَى ؛ وَلِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كِتَابٌ كَتَبَهُ إِلَى بَعْضِ الْقُضَاةِ ، فَأَعْمَلَ بِمَقْتَضَاهُ ،
وَأَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ آرْتَضَاكَ لَخَلْقِهِ فَاَعْمَلْ عَلَى رِضَاهُ .

والأئمة العلماء هم إخوانك في الدين ، وأعاونك على ردع المبتدعين ، ولسانك
في الحفيل وجناحك إذا جلسوا ذات الشمال وذات اليمين ؛ فترتطم منازلهم التي أحلهم
الله في شرفاتها ، وبوأهم رفيع غرقاتها ، وتآلف خواطرهم فإنك تنظر إلى كثير
من الأمور في صفاء مصافاتها .

ومن نُسب إلى خِرقة الفقر وأهل الصلاح هم أولياء الله المقربون ، وأحبَّاءُ
الأقربون ، فعظم حياتهم ، وجانب محاباتهم ، فما منهم وإن اختلفت أحوالهم إلا من
هو على هدى مبين ، وأحرص أن تكون لهم حبا يملأ قلوبهم فإن الله ينظر إلى قوم
من قلوب قوم آخرين .

وَأَنْتَصِبْ لِلدُّرُوسِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ بِهَا عَلَى وَافِدِ الطَّلِبَةِ فَإِنَّ الْكِرْمَ لَا يَمْحَقُهُ الْإِهْتِمَاسُ ،
وَالْمِصْبَاحَ لَا يَفْنِي مُقْلَهُ كَثْرَةُ الْإِقْتِبَاسِ ، وَالغَامَ لَا يَنْقُصُهُ تَوَالِي الْمَطَرِ وَلَا يَزِيدُهُ طُولُ
الْأَحْتِبَاسِ ، وَالْبَحْرَ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْ حَالِهِ وَهُوَ لَا يَخْلُوعُنِ الْوُرَادِ فِي عَدَدِ الْأَنْفَاسِ .

وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَإِنَّمَا هَذِهِ نُبْدَةٌ جَامِعَةٌ ، وَبَارِقَةٌ لَامِعَةٌ ؛ وَمَنْكَ يُسْتَفَادُ بَسَاطِ
الْقَوْلِ ، وَأَنْبَسَاطِ الطَّوْلِ ؛ وَلِهَذَا يُكْتَفَى بِمَا فِيكَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْفِيكَ ، وَيُحْصِي
حِسَابَ أَعْمَالِكَ الصَّالِحَةِ لِيُوفِيَكَ ؛ حَتَّى تَجِدَّ فَلَا يَتَخَلَّفُ بِكَ السَّيْرُ ، وَتُسْتَعَدَّ لِيُحْتَمَّ لَكَ
بِحَاثِمَةِ الْخَيْرِ ، وَالْإِعْتِمَادِ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ .

(١) في الأصل « حلا يملأ في قلوبهم » فأمل .



قلت : وهذه نسخة توقيع بقضاء، أنشأته بدمشق للقاضي «شرف الدين مسعود»

وهي :

الحمد لله الذي شيد أحكام الشريعة الشريف وزاد حكمته في أيامنا شرفا، ورفع منار العلم على كل منار وبوأ أهله من جنات إحساننا عرفا، وأباح دم من ألد فيه عنادا أو وجه إليه طعنا، وأوجب الانقياد إليه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ ؛ وألهم الصواب في اختيار من لم يزل لهذه الرتبة معدا. ومن رجالها معدودا ، وصرف وجه إقبالنا إلى من آرتضيناه للسامين حاكما فأصبح بنظرنا مسعودا .

نحمده حمد من أعتنى بالقيام بشرائع الإسلام وتعظيم شعائره ، ونصح للرعية فيمن ولآه عليهم وأعطى منصب الشرع حقه بتقديم أكابره . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يقضى لصاحبها بالنجاة من النار ، ويسجل لقاتلها بالثبوت في ديوان الأبرار ؛ وأن محمدا عبده ورسوله الذي شرط الإيمان بالرضا بحكمه وأوجب طاعته أمرا ونهيا واستجابة وتحكما ، فقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نحن بسيرهم مهتدون ، وبآثارهم مقتدون ، وعلى آله وصحبه الغر الكرام الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ؛ صلاة لا يختلف في فضلها آثنان ، ولا يتنازع في قبولها خصمان ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هي أعلى المراتب ، ومنصب حكمته في الورى أرفع المناصب ؛ إليه تنتهى المخاصمات في فصلها ثم لاتعدوه ، ويحكم فيه على

الخصم فيدعن لِحِكْمِهِ ثم لا يَسْنُوهُ ؛ بل يتفرق الخَصْمَانِ وكُلُّ منهما بما قُضِيَ له
وعَلَيْهِ رَاضٍ ، ويقولُ المْتَمَرِدُّ الجَائِرُ لِحَاكِمِهِ : قد رَضِيتُ بِحُكْمِكَ فَاقْضِ فِي مَا أَنْتَ
قَاضٍ ؛ وَنَاهِيكَ بِرُتْبَةٍ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو المتصدى للقيام بواجبها ،
والخلفاء الراشدون - رِضْوَانُ اللهُ عَلَيْهِم - محافظين على أَدَاءِ رَوَاتِبِهَا ؛ ثم أَخْتَصَّ
بها العلماء الذين هم وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ من الخليفة ، وَأَسْتَأْثَرُوا بها دون غيرهم من سائر
الناس فهم أهلها على الحقيقة ؛ إذ لا يُؤَهَّلُ لهذه الرتبة إلا من أَرْتَقَى إلى درجات
الكَمَالِ ، وَأَتَصَفَّ بِأَحْسَنِ الْأَوْصَافِ وَأَحْتَوَى عَلَى أَنْمَسِ الْخِصَالِ ؛ وَتَضَلَّعَ مِنَ الْعِلْمِ
الشريف بما يُرْوِيهِ ، وفاق في العقل والنقل بما يبحته ويرويه .

ولما كان المجلس الفلاني : هو عين هذه القِلَادَةِ وَوَأَسِطَةَ عِقْدِهَا ؛ وَقُطْبَ
دَائِرَتِهَا وَمَلَكَ حَلَّتِهَا وَعَقْدِهَا ؛ إذ هو «شَرِيحُ» الزمان ذكرا ، و«أَبُو حَامِدٍ» سِيرَةٌ
و«أَبُو الطَّيِّبِ» نَشْرًا ؛ لِأَجْرَمِ الْأَبْسْتَةِ أَيَّامِنَا الزَاهِرَةِ مِنَ الْحُكْمِ ثَوْبًا جَدِيدًا ، وَأَفَاضَ
عَلَيْهِ إِنْعَامِنَا نِحْلَةً نَعَقِبُهَا - إن شاء الله تعالى - مزيدا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت الشريعة المَطْهَّرَةُ بمناصرتة في أعزِّ صَوَانٍ ،
وَحُكْمُهَا بِمَعَاذَتِهِ فِي أَعْلَى دَرَجَةٍ وَأَرْفَعِ مَكَانٍ - أن يفوض إليه

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مثله لمثلها ، وليعمل بما يعلمه من أحكامها فهو ابن
بجْدَتِهَا والخبيرُ بمسالكِ وَعَرِيَّهَا وَسَهْلِيَّهَا ؛ فهو الحَاكِمُ الَّذِي لَا يُسَاوَى ، والإمامُ الَّذِي
يقتدى به في الأحكام والفتاوى ؛ فعليه بالتأني في الأحكام ، والتثبت فيما يصدر عنه
من التقيُّض والإبرام ؛ وليستظر في الأمر قبل الحكم المرّة ثم الأخرى ، ويكرّر النظر
في ذلك ولو أقام شهرًا ؛ ويراجع أهل العلم فيما وقف عليه ويشاورهم فما ندم من
استشاره ، ويقدم استشارة الله تعالى في سائر أموره فما خاب من استخار ؛ وليدُر

مع الحق كيف دار، ويتبع الصواب أتي توجهه ويقتني أثره حيث سار؛ وإذا ظهر له الحق قضى به ولو على آئنه وأبيه، وأعزَّ أصدقائه وأخصَّ ذويه؛ غير مُفترق في فصل القضاء بين القوى والضعيف، والوضيع والشريف؛ ولا مُميز في تنفيذ الحكم بين الغني والفقير، والشوقه والأمير؛ وليسو بين الخصوم حتى في تقسيم النظر إليهم، كما في موقف الحكم وسماع الدعوى وردَّ الأجوبة فيما لهم وعليهم؛ وليس تخلف من الثواب من حسنت لديه سيرته، ومحمدت عنده طريقته؛ ويوص كلاً منهم بما نوصيه به ويبلغ في تأكيد وصيته، ويستحضر السر في قوله صلى الله عليه وسلم: «الأكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته». وليؤمن النظر في أمر الشهود الذين تترتب على شهادتهم أمور الدنيا والفروج والأموال، ويتفقد أمرهم في كل وقت ولا يغفل عنهم في حال من الأحوال؛ ويحملهم من الطرائق على أحسن وجهها، وأحقتهم بإمعان النظر شهود القيمة والعائز، الذين يقطع بقولهم في أملاك الأيتام والأوقاف مما تنفر عنه القلوب وتنبو عنه الضمائر.

والوكلاء والمتصرفون فهم قوم فصل عنهم الشر فباعوه، وأستحفظوا الود فلم يرعوا حقه وأضاعوه؛ فهم آفة أبواب القضاة بلا نزاع، كيف وهم الضباع الضارية والذئاب الجياع. وما تحت نظره من أوقاف المدارس والأسرى والصدقات، وغيرها مما يقصد به واقفوه وجه البر وسبيل القربات؛ يحسن النظر في وجوه مصارفها، مع حفظ أجوالها الذي هو أغياً مراد واقفها.

وأهل العلم أبناء جنسه الذين فيهم نساء ومنهم نجم، وجنده الذين يقصدونه بالتأوى فيما قضى وحكم؛ فليوفر لهم الإحسان، ويصنع معهم من المعروف ما يبقى ذكره على ممر الأزمان؛ ومثله لا يحتاج إلى كثرة الوصايا، وثوقاً بما عنده من العلم

بِالأحكامِ والمَعْرِفَةِ بالقضايا ؛ لِكِنَّ عَلِيهِ بِتَقْوَى اللَّهِ ومِراقبته يَكُن لَهُ مِمَّا يَتَّبِعُهُ
ظهيراً ، وَيَسْتَرُشِدُهُ فِي سائرِ أمورِهِ يَجْعَلُ لَهُ مِنْ لَدُنْهُ هادِياً وَنَصيراً ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يَبْلُغُ وَائِثِقَ أَمَلِهِ مِنْ كَرَمِنَا مَرَاماً ، وَيُوَطِّئُ لَهُ المِهَادَ بِنَيْلِهِ حَسَنَتٍ مُسْتَقَرّاً وَمُقَاماً .
إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة المالكية بالشام ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين
محمود الحلبي تغمده الله برحمته ، وهي :

الحمد لله جاعل المذاهب الشرعية في أيماننا الشريفة زاهية بأركانها الأربعة ،
مستقرة على النظام الذي غدت به قواعد الحجّة محكمة ومواقع الرحمة متسعة ، فإذا خلا
رُكْنٌ مِنْ مُباشرةِ أَقْسَانَا مِنْ تَكُونِ القلوبِ على أولوياته مجتمعه ، وانتقينا له من الأتقياء
من تغدو به الأمة حيث كانت مُتَفِعَةً ، وأستدعينا إليه من تغدو الأدعية الصالحة
لنا بتفويض الحكم إليه مُرْتَفِعَةً ؛ الَّذِي خَصَّ مَذْهَبَ « إمام دار الهجرة »
بكل إمام هجر في التبخر فيه دواعي السكون وبواعث الدعة ، وجعل منصب حُكْمِهِ
بِمن كَلَّ بِعلومِ الدين نَفْرَهُ فإذا حَكَمَ غَدَتِ الأفضية لحكمه مُنْفَذَةً وَإِذَا قَضَى أَصْحَبَتِ
الأحكام لأفضيته متبعة .

نحمده على نعمه التي جعلت مهمّ الشرع الشريف لدينا كالأستفهام الذي له
صدر الكلام ، وبمناجاة النية المقدمة حتى [على] تكبيرة الإحرام ؛ ونشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له شهادة أثبت الإخلاص حُكْمَهَا ، وأحكم الإيمان علمها ،
وأبقى اليقين على صفحات الوجوه والوجود وسمها المُشْرِقَ وأسمها ؛ ونشهد أن محمداً
عبيده ورسوله الذي أخذ الله ميثاق النبيين في الإقرار بفضله ، وأرسله (بالهدى

وَيَنِ الْحَقَّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ)؛ وَخَصَّهُ بِالْكَتَابِ الَّذِي أَنْحَسَ الْأُمَّمَ عَنْ مُجَارَاتِهِ
 فَلَوْ (اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ)؛ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا بِسُنَّتِهِ وَسُنَّتِهِ، وَأَوْصَحُوا شَرْعَهُ الشَّرِيفَ لِمَنْ تَلَقَّاهُ
 بَعْدَهُمْ مِنْ أُمَّةٍ أُمَّتِهِ؛ صَلَاةٌ لَا تَزَالُ بِقَاعِ الْإِيمَانِ لِأَحْكَامِهَا مِنْبَتُهُ، وَأَنْوَاءُ الْإِيْقَانِ
 لِأَوْامِهَا مُقَلَّتِهِ^(١)؛ وَسَلِمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنه لما كانت الأحكام الشرعية نتوقف على ملاحظة قضاء قضائياتها
 في غالب الأمور، وتستند إلى مراجعة أصول حكامها في أكثر مصالح الجمهور،
 لم يكن بد من مراعاة أصولها التي إنما تنوب الفروع عنها، وتدبر أحوال أحكام
 حكامها التي تنشأ أفضية النواب منها؛ ولذلك لما أصبح منصب قضاء القضاة على
 مذهب الإمام «مالك بن أنس» رضى الله عنه بالشام المحروس لضعف مباشره
 المتمد، في حكم الحالى، وتعطل بعجزه المشتد، مما أُلِفَ به قديما حال حكمه
 الحالى؛ وتمادى ذلك إلى أن ترقى الناس منه إلى درجة اليقين؛ وتناهى الحكم فيه
 إلى أن يعين أن يرتاد من يتعين لثله من الأئمة المتقين؛ لئلا يخلو هذا المذهب من
 قاضى قضاء يقيم مناره، ويديم أنواره، ويرفع شعاره، ويحيى ماثر إمامه وأناره،
 ويؤمن كمال أفته أن يعاود سراره؛ وكان المجلس السامى، القاضوى، الفخرى،
 هو الذى لا يعدوه الأرتياد، ولا يقف دونه الانتقاء والانتقاد، ولا تتجاوزهُ الإصابة
 فى الاجتهاد: لما عليه من علم جعله مخطوبا للناس، وعميل تركه مظلوما للراتب
 التى لا تدعن لكل طالب؛ وتوق أعاده مرتقيا لكل أفتى لا يصلح له كل شارق،
 وورع فتح له أبواب التلق بالأسندعاء وإن لم تفتح لكل طارق؛ وقد هجر الكرا
 فى تحصيل مذهب «إمام دار الهجرة» إلى أن وصل إلى ما وصل، وأنفق مدة

(١) الأوام شدة العطش ومقلته مهلكة .

عُمره في آقتناء فوائده إلى أن حصل من الثروة بها على ما حصل ؛ فسارت فتاويه في الآفاق ، وممت بركات فوائده التي أنفقها على الطلبة فزكت على الإنفاق - أقتضت آراؤنا الشريفة أن تُبقي نغز هذا المنصب الجليل بفخره ، وأن نُخص هذا المذهب النبيل بذخره ؛ وأن نُحلي جيده بمن نقلنا إلى وشام الوسام ما كان من حُسن شنب العلم مختصاً بتغره .

فرسم بالأمر الشريف - لا زال لأحكام الشرع مقيماً ، وللنظر الشريف في عموم مصالح الإسلام وخصوصها مديماً ؛ أن يفوض إليه لما تقدم من تعيينه لذلك ، وتبين من أنه لحكم الأولوية بهذه الرتبة في مذهب الإمام مالك مالك .

فليل هذه الوظيفة حاججاً بما أراه الله من مذهبه ، مراعيًا في مباشرتها حق الله في الحكم بين عباده وحق منصبه ؛ مجتهداً فيما تبرأ به الذمة من الوقوف مع حكم الله في حالتي رضاه وغضبه ، وأقفاً في صفة القضاء على ما نص فيه من شروطه وأوضاع من قواعده وشرح من آدبه ؛ مُمضياً حقوق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يقتضيه رأي إمامه ، متوجاً الحكم بنصوصه المجمع دليماً من أئمة مذهبه في نقض كل أمر وإبرامه ؛ جارياً في ذلك على قواعد أحكام هذا المذهب الذي كان مشرقاً في ذلك الأفق بجماله وزينه ، وأقفاً في ذلك جميعه مع رضا الله تعالى فإنه في كل ما يأتي ويدر بعينه ؛ والله تعالى يسدده في قوله وعمله ، ويبلغه من رضا نهاية سوله وغاية أماله ؛ بمنه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنابلة ، كُتب بها للقاضي علاء الدين «منجى التنوخي» وهي :

الحمد لله الذي رفع بلاء الدين قضاء قضائه، وأوضح الهدى في القيام في توليتهم بمفترضاته، وأعلى منار الشرع بما أوقفهم عليه من أحكامه ووقفهم له من مرضاته .

نحمده حمدا نستعيد من بركاته، ونستعيد به أن نضل في ضوء مشكاته، ونستعين عليه رب كل حكم يمدنا قلبه بسكونه وقلمه بحركاته، ويثبت من جميل محضره لدينا ما يرفع مس شكاته؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يستودع إخلاصها في قلوب تقاته، وتفوض أحكامها إلى تقاته، ويحج سرحها من أبطال الحلال والحلال بكل مستتاق إلى ملاقاته؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل من حكم بما أنزل الله من آياته، وجاهد في الله برأيه ورآياته، وشرع من الدين ما يجي المتمسك به من غواياته؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أقام شرعه منهم بركاته، وجعل حكمهم دائم النفوذ أبدا بأقلام علمائه وسيوف حماته؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فنصب الحكم الذي به تفصل الأمور، وتفرج له الصدور؛ وتتسدد أقلام حكمائه ساهما، ونفيض غمما؛ وتعلم منه الأسود زئيرا، ويطول السيف صليلا والرمح صريرا؛ وتنصب بين يدي حكمائه الأقدام، وتتنصف على أحكامه الخصام^(١)؛ وتتكس الرؤوس لهيبته إطرافا، وتغض المقل فتأثير جفونا ولا تقلب أحدافا؛ ويجري بتصرفه قلم القضاء، ويجاري مرهفه البروق فقرله بالمضاء؛ وقد سيد الله مبانيه في مالكا الشريفة مضرا وشاما على أربعة أركان، وجمع في قضائه الأئمة الأربعة لتكمل بهم فصول الزمان؛ ومذهب الإمام أبي عبد الله «أحمد بن حنبل» رضى الله عنه هو بالسنة النبوية الطراز المذهب، وطريقة

(١) الخصام جمع خصم كجرو وجار. انظر المصباح .

السلف الصالح في كُلِّ مَذْهَبٍ ، وقد تَجَنَّبَ من سَلَفٍ من علمائه التَّأْوِيلَ في كَثِيرٍ ،
وَوَقَّفَ مع الكِتَابِ والسُّنَّةِ وكُلِّ منهما هو المصباح المنير .

وكانت دِمَشْقُ المحروسَةُ هي مَدَارَ قُطْبِهِمْ ، وَمَطْلَعُ شُمُوسِهِمْ وَنُجُومِهِمْ وَشُهُبِهِمْ ؛
وأهلها كثيراً ما يحتاجون إلى حاكم هذا المذهب في غالب عقد كل بيع وإيجار ،
ومزارعة في غلالٍ ومُسَاقَاةٍ في ثَمَارٍ ، ومُصَالِحَةٍ في جوائِحِ سَمَاوِيَّةٍ لا ضَرَرَ فيها
ولا ضَرَارٍ ، وتُرْوِيجُ كُلِّ مَمْلُوكٍ أذِنَ له سَيِّدُهُ بَحْرَةَ كَرِيمِهِ ، وأَشْرَاطِ في عَقْدٍ بأن
تكون الأَمْرَأَةُ في بلدِها مُقِيمَةً ؛ وفَسْخُ إنْ غاب زوجها ولم يترك لها نفقةً ولا
أَطَقَ سَرَاحَهَا ، وَيَبِيعُ أَوْقَافٍ دَائِرَةٌ لا يَجِدُ أَرَبَابَ الوَقْفِ نَفْعًا بها ولا يستطيعون
إِصْلَاحَهَا .

فلما أَسْتَأْثَرَ اللهُ بِمَنْ كان قد تَجَلَّى هذا المَنْصِبُ الشَّرِيفُ بِشَرَفِهِ ، وَتَجَلَّى مِنْهُ
بَبَقِيَّةِ سَلَفِهِ ؛ حَصَلَ الفِكرُ الشَّرِيفُ فيمَنْ نَقَلَهُ هذه الأَمَانَةُ في عُنُقِهِ ، وَنَهَى هَذَا
الْمَنْصِبُ بِطُلُوعِ هلالِهِ في أَفُقِهِ ؛ إلى أن تَرَجَّحَ في آرائنا العالِيَةِ المُرَجِّحِ المُرْجِي ، وتَعَيَّنَ
واحدًا لِمَا أَتَبَلَّى النَّاسُ بالقضاء كان المُنَجِّى أَبْنِ المُنَجِّى ؛ طالما تَطَرَّزَتْ له الفَتَاوَى
بالأقلامِ ، وَأَلْتَفَّتْ به حَلَقَةُ إِمَامٍ ، وخاف في ظَلَبِ العِلْمِ من مُضَايِقَةِ اللَّيَالِي فما نام
- أقتضى حُسْنَ الرأى الشَّرِيفُ أن يَفُوضَ إليه قِضَاءَ القِضَاةِ بالشامِ المحروسَةِ على
مذهب الإمام الرباني «أحمد بن حنبل» الشيباني ، رضى الله عنه .

فليَحْكَمْ في ذلك بما أَرَادَ اللهُ من عِلْمِهِ ، وآتاه من حُكْمِهِ ؛ وَبَيَّنَّه له من سُبُلِ
الهُدَى ، وَعَيَّنَّه لبصيرته من سُنَنِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التي مَنْ حَادَ عنها فقد جار
وَاعْتَدَى ؛ وَلِيَنْظُرَ في أمورِ مَذْهَبِهِ وَيَعْمَلَ بِكُلِّ ما صَحَّ نَقْلُهُ عن إمامه ، وَأَصْحَابِهِ
من كان منهم في زَمَانِهِ ومن تَخَلَّفَ عن أَيَّامِهِ ؛ وقد كان - رحمه الله - إِمَامَ حَقِّ

(١)
 نَهَضَ وَقَدْ قَعَدَ النَّاسُ تِلْكَ الْمُدَّةَ ، وَقَامَ نَوْبَةَ الْحِنَةِ وَقَامَ «سَيِّدُ تَيْمٍ» رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
 نَوْبَةَ الرَّدِّ ، وَلَمْ تَهَبَّ بِهِ زُعَايُ «الْمَرِّيَّيْنِ» وَقَدِ هَبَّتْ مَرِيَسَا ، وَلَا «أَبْنُ أَبِي دُوَادٍ»
 وَقَدْ جَمَعَ كُلُّ دَوْدٍ وَسَاقَ لَهُ مِنْ كُلِّ قُطْرٍ عَيْسَا ؛ وَلَا نَكَتْ عَهْدَ مَا قَدَّمَ إِلَيْهِ «الْمَامُونُ»
 فِي وَصِيَّةِ أَخِيهِ مِنَ الْمَوَاتِقِ ، وَلَا رَوَعَهُ صَوْتُ «الْمَعْتَصِمِ» وَقَدْ صَبَّ عَلَيْهِ عَذَابُهُ
 وَلَا سَيْفُ «الْوَاتِقِ» ؛ فَلْيَقِفْ عَلَى أَثَرِهِ ، وَلْيَقِفْ بِمُسْنَدِهِ عَلَى مَذْهَبِهِ كُلِّهِ أَوْ أَكْثَرِهِ ؛
 وَلْيَقْضِ بِمُقَرَّدَاتِهِ وَمَا آخْتَارَهُ أَصْحَابُهُ الْأَخْيَارَ ، وَلْيَقْلُدْهُمْ إِذَا لَمْ تَخْتَلَفْ عَلَيْهِ الْأَخْبَارُ ؛
 وَلْيَحْتَرِزْ لِدِينِهِ فِي بَيْعِ مَا دَثَرَ مِنَ الْأَوْقَافِ وَصَرَفِ تَمَنِّهِ فِي مِثْلِهِ ، وَالْأَسْتِبْدَالَ بِمَا فِيهِ
 الْمَصْلَحَةُ لِأَهْلِيهِ ؛ وَالْفَسِيخَ عَلَى مَنْ غَابَ مَسَدَةً يَسُوغُ فِي مِثْلِهَا الْفَسِيخُ وَتَرَكَ زَوْجَةً
 لَمْ يَتْرِكْ لَهَا نَفَقَةَ ، وَخَلَّاهَا وَهِيَ مَعَ بَقَائِهَا فِي زَوْجِيَّتِهِ كَالْمُعَلَّقَةِ ، وَإِطْلَاقِ سَرَاحِهَا
 لَتَتَرَوَّجَ بَعْدَ ثُبُوتِ الْفَسِيخِ بِشُرُوطِهِ الَّتِي يَبْقَى حُكْمُهَا بِحُكْمِ الْمَطْلُوقَةِ ؛ وَفِيمَا يَمْنَعُ مُضَارَّةَ
 الْحَارِ ، وَمَا تَفَرَّعَ عَلَى قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «لَا ضَرَرَ وَلَا ضِرَارَ» . وَأَمْرٍ وَقِفِ
 الْإِنْسَانَ عَلَى نَفْسِهِ وَإِنْ رَأَى سِوَى أَهْلِ مَذْهَبِهِ ، وَطَلَعَتْ بِهِ أَهْلَةً عُلَمَاءَ لَوْلَاهُمْ
 لَمَّا جَلَّ الزَّمَانُ جُنْحَ غَيْبِهِ . وَكَذَلِكَ الْجَوَامِحُ الَّتِي يَخْفَفُ بِهَا عَنِ الضُّعْفَاءِ وَإِنْ كَانَ
 لَا يَرَى بِهَا الْإِلْزَامَ ، وَلَا تَجْرِي إِلَّا جَرَى الْمَصَالِحَةِ دَلِيلَ الْإِلْتِمَامِ . وَكَذَلِكَ الْمَعَامَلَةُ الَّتِي
 لَوْلَا الرُّخْصَةُ عِنْدَهُمْ فِيهَا لَمَّا أَكَلَ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا الْحَرَامَ الْمُحْضَ ، وَلَا أَخَذَ قِسْمَ
 الْغَلَالِ وَالْمُعَامَلُ هُوَ الَّذِي يَزْرَعُ الْبَذْرَ وَيَحْرُثُ الْأَرْضَ ؛ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ [مَحِيطُ]
 بِمُقَرَّدَاتِهِ الَّتِي هِيَ لِلرَّفِيقِ جَامِعَةٌ ، وَلِلرَّعَايَا فِي أَكْثَرِ مَعَالِيهِمْ وَأَسْبَابِهِمْ نَافِعَةٌ ، وَإِذَا
 أَسْتَقَرَّتْ الْأَصُولُ كَانَتْ الْفُرُوعُ لَهَا تَابِعَةً ؛ وَالخَطَّ الشَّرِيفَ أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ
 اللَّهُ تَعَالَى .

(١) سيد تيم هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

المرتبة الثانية^(١)

(من توابع الوظائف الدينية بدمشق ، ما يكتب في قطع الثلث مفتحا
بـ«الحمد لله» إن علت رتبة المتولى أو بـ«أما بعد حمد الله»
إن انحطت رتبته عن ذلك بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى — قضاء العسكر . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ،
كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثانية — إفتاء دار العدل بدمشق . وبها أربعة : من كل مذهب
واحد ، كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثالثة — الحسبة .

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة :

الحمد لله مجدد النعم في دولتنا الشريفة لمن ضفت عليه ملائمتها ، ومضاعف
الدين في أيامنا الزاهرة لمن سمته به نقائمتها ، ومولى الآلاء لمن بسق غرسها لديه
فزهت بجمله ثمراتها وزكت مغارسها .

نحمده على نعمه التي تؤنس بالشكر أو أنيسها ، وتؤسس على التقوى بحجالسها ؛
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة آستضاء بنور الإيمان قلبسها ،
وأجتنى ثمر الهدى غارسها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من أنشركت به
معالم التوحيد فعمردارسها ، وأشرق دأمسها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين
قلوبهم مشاهد الذكر والسنتهم مدارسها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

(١) في الأصل الطبقة الثانية .

وبعد ، فإنَّ أَوْلَى من أَمْضَى له ما كان به أَمْرَ ورُسْم ، وجُدِّد له من المَنَاصِبِ
الدِّينية ما عُرِف به من قَبْلُ ووُسْم ، وأُثبتَ لترقيهِ ما حتم له به من المراتب السنية
بمقتضى الاستحقاق وحكم - من رَقَّتْ أو أَمْرنا له حُلَّةٌ مَنصِبٍ يَجِدُّدها الإحسان ،
وأَمَرَتْ له مَراسِمنا بوظيفة تُؤكِّد عَوَارِفنا الحِسان ، وَأَتَمَّتْ [له] نِعْمنا مَنصِباً أَعَدَّ له
من كِمالِ الأَهليةِ أَكْمَل ما يُعدهُ لذلك الإنسانُ .

ولما كان فلان هو الذى تحلَّى من إِحساننا بما يأمن [معه] سعيد رتبته [من] العَطل ،
وَأَسَمَ من بَرِّنا وَاَمْتِناننا بما هو فى حكم المستقر له وإن أَلوى به الذَّهرُ ومَطَل -
أَفَضَى إِحساننا أَنْ يُجَدِّدَ له مَوَاقِعَ النِّعم ، ونُسَيْدَ من رِجائِهِ مَوَاضِعَ ما شَمِلَهُ من البرِّ
والكَرم ، ونُرَى من عَدَقَ بنا رِجاءَ أَمَلِهِ أَنَّنا نَتَعَاهَدُ سُقيا أَمالِ الأَوْلِياءِ والخدم .

فلذلك رسم ... - لا زال بِهِ شامِلاً ، وبَدَرَهُ فى أَفْقِ الإحسانِ كامِلاً - أن يُفَوِّضَ إِليه
نظر الحِسبةِ وَيَسْتَمِرَّ فى ذلك على حكم التوقيع الشريف الذى بيده : لِمَا سَبَقَ من
أختياره لذلك وَأَصْطَفائِهِ ، وأَدخارِهِ لهذا المَنصِبِ من كُفاةِ أَعْيانِهِ وَأَعْيانِ أَكفائِهِ ؛
ولِمَا نَحَلَّ [به] من رِياسَةِ زانته عُقودُها ، وتَكَلَّلَ له من أَصالةِ صَفَّتْ عليه حَبِرها
وسَمَّتْ به بَرودُها ؛ وتَجَمَّلَ به من نِزاهَةِ أَشْرقتْ فى أَفْقِ صُعُودِها إِلى الرتبةِ الجَليلةِ
سُعُودُها ، وَأَتَصَفَّ به من كِمالِ مَعْرِفَةٍ مُجَزَّتْ له به من مَطالِبِ المَناصِبِ وَعُودُها .

فَلْيُباشِرْ ذلك مُعْطِياً هَذِهِ الوظيفَةَ من حُسْنِ النَظَرِ حَقَّها ، مُحَقِّقاً بِجَميلِ تَصَرُّفه
تَقَدُّمَ أَوْلِيائِهِ وَسَبْقُها ؛ وَليَكُنْ لَأَمْرِ الأَقْواتِ مَلاحِظاً ، وَعَلَى مَنعِ ذَوِي الغَدْرِ
من الأَحْتِكارِ المُضَيِّقِ على الضَّعْفاءِ مُحافِظاً ؛ وَعَلَى الغِشِّ فى الأَقْواتِ مُؤدِّباً ؛ وإِجراءِ
المُوازِينِ على حُكْمِ القِسْطِ مُرتَّباً ؛ وَلن يَرَفِعَ الأَسعارَ لِغَيْرِ سَبَبٍ رادِعاً ، وَلن لا يَزَعُه
الكلامُ من المُطَفِّينَ بِالتَّأديبِ وَأَزاعاً ؛ وَليقِمَ الأَشياءَ مُحَرِّراً ، وَلقانونِ الجُودَةِ

فِي الْمَزْرُوعِ وَالْمَوْزُونِ مُقَرَّرًا؛ وَلِدَوِي الْهَيْثَاتِ بِلِزُومِ شَرَائِطِ الْمَرْوَةِ أَخِذَا، وَعَلَى تَرْكِ الْجَمْعِ وَالْجَمَاعَاتِ لِعَامَةِ النَّاسِ مُؤَاخِذَا؛ وَلِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي كُلِّ أَمْرٍ مُقَدِّمًا، وَبِمَا يُخَلِّصُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكُلِّ مَا تَقَعُ بِهِ الْمَعَامَلَاتُ بَيْنَ النَّاسِ مُقَوِّمًا؛ وَفِي خَصَائِصِ نَفْسِهِ مَا يُغْنِيهِ عَنِ تَأْكِيدِ الْوَصَايَا، وَتَكَرُّرِ الْحَثِّ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي هِيَ أَشْرَفُ الْمَزَايَا؛ فَلِيَجْعَلَهَا شِعَارَ نَفْسِهِ، وَنَجَى أَنْسِهِ، وَمُسَدَّدَ أَحْوَالِهِ الَّتِي تَطْهَرُ بِهَا مِنْ يَوْمِهِ عَلَى أَمْسِهِ؛ وَالخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ، حُجَّةً بِمَقْتَضَاهُ .



وهذه نسخة توقيع بنظر الحسبة الشريفة، من إنشاء المقرّ الشهابي بن فضل الله، مضافا إلى نظر أوقاف الملوك، وهي :

الحمد لله مُبْتَدِئٍ مِنْ أَحْتَسَبَ، وَمُجِيبِ الْمُنِيبِ فِيمَا آكْتَسَبَ .

نحمده حمدا رسب الأدب صرب الطرب^(١)، (؟) ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ظاهرة الحسب، طاهرة النسب؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفضل من أتتدى وأنتدب، وأدب أئمة فأحسن الأدب، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة يكتتم أجراها فيكتب، ويستتم بها كل صلاح [ويغتم بها كل فلاح]؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن الحسبة الشريفة هي قانون جواد الأوضاع، ومضمون مواد الإجماع، تجمع إلى الشريعة الشريفة سياسة يهبط جدها، ويرهف حدها، وتخشي الرعايا سطوات مباشرها، وتتخشي عما تصببه سيول بوادرها؛ وأصحابها الآلة التي هي أخت السيف في التأثير، ولكل منهما سطوة تخاف لافرق بينهما إلا ما بين

(١) كذا في غير نسخة بالاهمال ولم تهتد الى تثقيفه .

التَّائِبِثِ والتَّذَكِيرِ؛ وله التَّصَرُّفُ المُلْتَقِ، والتَّعَرُّفُ الَّذِي يَفْتَحُ مِنَ الحَوَائِثِ عَلَيَّ
أَرْبَابِهَا كُلَّ بَابٍ مُعْتَقٍ؛ ولِرُكُوبِهِ فِي المَدِينَةِ زِينَةً يَحْشَرُهَا النَّاسُ صُحْبًا، وَرَهْبَةً
يَغْدُو بِهَا كُلَّ أَمِينٍ لَشَأْنِهِ مُصْلِحًا؛ وإليه الرُّجُوعُ فِي كُلِّ تَقْوِيمٍ، وهو المَرْجُوعُ فِي كُلِّ
أَمْرٍ عَظِيمٍ؛ وهى بدمشق - حَرَسَهَا اللهُ تَعَالَى - مِنْ أَجْلِ المَنَاصِبِ الَّتِي تَتَعَلَّقُ [عَو] لِيهَا
بِيَدِ مُتَوَلِّيِّهَا وَتُؤَمَّلُ مَنَازِلُ البُدُورِ، وَإِنَّ رَبَّهَا تَرْجِعُ إِلَى تَصْرِيفِهِ أَزِمَةَ الأُمُورِ،
وَيَنْتَجِعُ سَحَابَهُ المَهْطَلَّ عَمَامَةَ الجُمْهُورِ؛ وَتَحْيَا بِهِ سُنَّةَ عُمَرِيَّةٍ لَوْلَاهَا لَصَافَتْ رِحَابُ
المَعَامِلَاتِ، وَضَاعَتْ بِالعِشِّ المَعَايِشُ المَتَدَاخِلَاتِ؛ وَظَهَرَ العَبْنُ فِي غَالِبِ مَا يُشْرَى
وَيُبَاعُ، وَانْتَشَرَ التَّطْفِيفُ [الَّذِي] يُزِيلُ رَابِحَةَ المِيزَانِ وَتَوَازُرَاعَ؛ وَلَكَمْ نَابَ بِحُسْنِ
تَدْيِيرِهِ عَنِ العَمَامِ، وَنَظَرَ فِي الدَّقِيقِ وَالجَلِيلِ لِلخَاصِّ وَالعَامِ؛ طَالَمَا أَنْحَطَّ بِهِ سِعْرٌ
غَلَا أَنْ يَقُومَ، وَوُجِدَ مِنَ الأَقْوَاتِ صِنْفٌ لَا يُوجَدُ لَوْ بُدِّلَ مِنَ الشَّمْسِ دِينَارٌ
والبَدْرِ دِرْهَمٌ .

وَكَانَ المَجْلِسُ السَّامِيَّ، القَضَائِيَّ، الأَجَلِّيَّ، الكَبِيرِيَّ، الصَّدْرِيَّ، الرَّئِيسِيَّ،
العَالِمِيَّ، الكَافِيَّ، الفَاضِلِيَّ، الأَوْحَدِيَّ، الأَمِيرِيَّ، المَاجِدِيَّ، الأَصِيلِيَّ،
العِمَادِيَّ؛ مَجْدُ الإِسْلَامِ، شَرَفُ الرُّؤَسَاءِ، بَهَاءُ الأَنَامِ، جَمَالُ الصُّدُورِ، نَجْمُ الأَعْيَانِ،
خَالِصَةُ الدَّوْلَةِ، صَفْوَةُ المُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ : أَدَامَ اللهُ عُلُوهُ، هُوَ الَّذِي رَبَّنَهُ السِّيَادَةَ
عَلَى وَسَادِهَا، وَوَلَّيْتَهُ السَّعَادَةَ إِلَى مُرَادِهَا؛ وَبَنَتِ العَلِيَاءُ قَوَاعِدَهَا عَلَى عِمَادِهِ،
وَبَنَتِ المَرَاتِبُ أَعْنَاقَهَا مُتَشَوِّفَةً إِلَى حُسْنِ اعْتِمَادِهِ؛ وَبَاشَرَ الجَامِعُ المَعْمُورُ خِصُوصًا
وَالأَوْقَافَ الشَّامِيَّةَ عَمُومًا فَعَمَرَهَا، وَكَثُرَ أَعْدَادُهَا وَأَمَى مِنْ بَرَكَاتِ نَظَرِهِ مَتَحَصَلَاتِهَا
وَمَثَرَهَا؛ وَشِيدَ فِي كُلِّ مِنْهَا مَوَاطِنَ عِبَادَتِهِ، وَمُتَمَّتْ حَلَقَةُ وَمَدَارُ سُبْحَةٍ وَمَقَرَّشِ سَجَادَتِهِ،
وَأَبَى اللهُ أَنْ يُقَاسَ بِهِ أَحَدٌ وَالجَامِعُ الفَارُوقُ وَاللَّذِينَ أَحْسَنُوا الحُسْنَ وَزِيَادَتَهُ؛
فَأَوْجِبَ لَهُ جَمِيلٌ نَظَرْنَا أَنْ نُضَاعَفَ لَهُ الأَجْرُ فِي كُلِّ عَمَلٍ إِلَيْهِ يَنْتَسِبُ، وَنَزِيدَهُ

فِي رِزْقِهِ سَعَةً : مِنْ حَيْثُ يُحْتَسَبُ وَمِنْ حَيْثُ لَا يُحْتَسَبُ ؛ فَرَأَيْنَا أَنَّهُ أَحَقُّ أَنْ يُقْلَدَ مِنْ أُمُورِ الْحِسْبَةِ الشَّرِيفَةِ حُكْمُهَا الْمُنْصَرَفُ ، وَحُكْمُهَا الْمَعْرُوفُ ؛ وَيُقَامُ فِيهَا بِهَدْيٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ فِي تَقْرِيرِ أُمُورِهَا عَلَى أَثْبَتِ الْقَوَاعِدِ ، وَتَقْدِيرِ مَصَالِحِهَا عَلَى أَجْمَلِ مَا جَرَتْ بِهِ الْعَوَائِدُ ؛ وَيُطَهَّرُ أَقْوَاتُهَا مِنَ الدَّنَسِ فِيمَا يَحْضُرُ عَلَى الْمَوَائِدِ ، وَإِخَافَةَ الْأَعْنَاقِ مِنْ مَضَارِبِهِ الَّتِي تَقْطَعُ مَا غَفَا السَّيْفُ عَنْهُ مِنْ مَنَاطِ الْفَلَائِدِ .

فُرِسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ الْعَالِي - لَا زَالَتْ بِمَرَّاسِيهِ تُتَلَقَى كُلُّ رَبِّهِ ، وَتُتَوَقَّ الدُّنْيَا مِنْ يَوْمِ بِالْحِسْبَةِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ النَّظْرُ عَلَى الْحِسْبَةِ الشَّرِيفَةِ بِدِمَشْقَ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْمَعْلُومِ الْمُسْتَقَرِّ ، الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ : مُضَافًا إِلَى مَا هُوَ بِيَدِهِ : مِنْ نَظَرِ الْأَوْقَافِ الْمَبْرُورَةِ بِالشَّامِ ، وَأَوْقَافِ الْمُلُوكِ . خَلَا نَظَرَ الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ بِحُكْمِ إِفْرَادِهِ لِمَنْ عَيْنُ لَهُ ، تَفْوِيضًا يَضُمُّهُ إِلَى رَبَائِبِ كَنْفِهِ ، وَيَعْمَهُ بِمَوَاهِبِ شَرَفِهِ ، وَيُجِلُّهُ فِي أَعْلَى غُرْفِهِ ، وَيُجْلِيهِ بِمَا يَحْسُدُ الدُّرَّ مَارِمِيٍّ مِنْ صَدَفِهِ .

فَاتَّقِ اللَّهَ فِي أَحْوَالِكَ ، وَأَتَّقِ مَنْ يُجْمَعُ عَلَيْهِ مِنَ النَّوَابِ فِي أَعْمَالِكَ ، وَأَمْرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ ، فَمِنْكَ الْمُنْكَرُ لَا يُعْرَفُ وَالْمَعْرُوفُ مِنْكَ لَا يُنْكَرُ ؛ وَأَعْتَبِرْ أَحْوَالَ أَرْبَابِ الْمَعَاشِ أَعْتِبَارًا يُصْلِحُ لِلنَّاسِ أَقْوَاتَهُمْ ، وَيُرْعِدُ أَوْقَاتَهُمْ ؛ وَلَا تَدْعُ صَاحِبَ سَاعَةٍ يَتَعَدَّى إِلَى غَيْرِ مَا أَحَلَّهُ اللَّهُ لَهُ مِنَ الْمَكَاسِبِ ، وَلَا صَاحِبَ مَعِيشَةٍ [يَقْدَمُ] عَلَى تَحُلُّلِ خَلِيلٍ فِي الْمَائِكِلِ وَالْمَشَارِبِ ؛ وَأَقْصِدِ التَّسْوِيَةَ بِالْحَقِّ فَإِنَّهُ سِوَاهُ فِيهِ الْبَائِعُ وَالْمَشْتَرِي ، وَلَا فَرْقَ بَيْنَ الرَّخِيسِ وَالثَّمِينِ ؛ وَأَقِمِ الْمَوَازِينَ بِالْقِسْطِ حَتَّى لَا تَنْتَمِكَنَّ كِفَاتُهَا أَنْ تَنْحَامِلَ وَلَا تَنْحَمَلَ ، وَلَا يَسْتَطِيعَ قَلْبُهَا أَنْ يَمِيلَ مَعَ مَنْ يَتَمَوَّلُ ، وَلَا يَقْدِرُ لِسَانُهَا أَنْ يَكْتُمَ الشَّهَادَةَ بِالْحَقِّ وَإِنْ كَانَ مُنْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ؛ وَأَجْعَلْ لَكَ عَلَى

أَهْلُ الْمَبَايِعَاتِ حَفِظَةٌ لِتَطَّلَ أَعْمَالُهُمْ لَكَ تُنْسَخَ . وَتَفَقَّدَ الْأَسْوَاقَ مِمَّا يَتَوَلَّدُ فِيهَا
 مِنَ الْمَفَاسِدِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ رَبُّمَا بَاصٌ فِي الْأَسْوَاقِ وَقَرَّخٌ . وَأَرَبَابُ الصَّنَائِعِ فِيهِمْ مِنْ
 يَدْلَسُ ، وَقَهَاءُ الْمَكَاتِبِ مِنْهُمْ مَنْ لِعَرِضِهِ يُدَنِّسُ ؛ وَالْقُصَاصُ غَالِبُهُمْ يَتَعَمَّدُ الْكَذِبَ
 فِي قِصَصِهِ ، وَأَهْلُ النَّجَامَةِ كَمَنْ مِنْهُمْ مَنْ لِعِبِّ مَرَّةٍ بَعْقَلُ امْرَأَةٍ وَأَمَاتَ رَجُلًا
 بِغُصَصِهِ ؛ وَآخَرُونَ مِمَّنْ تَضَلُّ بِهِمُ الْعُقُولُ ، وَتَطَّلُ حَايِرَةٌ فِيهِمْ النُّقُولُ ؛ وَكثِيرٌ مِمَّنْ
 سَوَى هَؤُلَاءِ يَدُكُ مَبْسُوطَةٌ عَلَيْهِمْ ، وَأَحْكَامُكَ مُحِيطَةٌ بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ ؛
 فَقَوْمٌ مِنْهُمْ مَنْ مَالٌ ، وَقَلْدٌ مَالِكًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا رَأَاهُ مِنَ الْمَعَاقِبَةِ تَارَةً بَيْنَهُكَ الْجَسَدُ
 وَتَارَةً بِإِفْسَادِ الْمَالِ ؛ فَرُبَّمَا أَطْنَى الْغِنَى وَالْمَصْبَاحُ فَرُبَّمَا قَطَّبَ (١)

وَمَنْ مِنْ لَا يَسْتَقِيمُ حَتَّى يُؤَدَّبَ ، وَمَنْ لَا يَلْمُ عَلَى شَعَثٍ وَأَيُّ الرِّجَالِ الْمُهْدَبِ ؛ وَفِيكَ
 مِنَ الْأَلْمَعِيَةِ نُورٌ بَاهِرٌ ، وَكَوْكَبٌ زَاهِرٌ ؛ فَلَا حَاجَةَ إِلَى أَنْ تُلْقِيَ الْوَصَايَا أَقْلَامَهَا أَيُّهَا
 يَكْفُلُكَ ، وَلَا تَنْبَهَكَ عَلَى زِينَةِ الْعَفَافِ فِيهَا وَهُوَ حُلُّكَ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوفِّقُ أَعْمَالَكَ ،
 وَيُوفِّرُ مِنَ التَّقْوَى زَادَكَ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حِجَّةٌ
 بِمَقْتَضَاهُ . إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الرابعة — وكالة بيت المال المعمور .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المال ، من إنشاء القاضي تاج الدين الباربنباري ،
 للقاضي نجم الدين أبي الطيب .

الحمد لله الذي جعل الطيبات للطيبين ، وهدى بالنجم المنير السبيل المؤمنين ، وعدق
 بأئمة الدين مصالح المسلمين ، وآتانا بتقويضنا إليه ، وتوكلنا عليه ، شرفاً في الشأن وقوة
 في اليقين .

نحمده على أن أعان بحيره وهو خير معين ، ونشكره على أن بصرنا في الإرادات ،
بالملائكة المقترين ، ونصّرنا في الولايات ، بالقوى الأمين ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة أنوارها في القلب مشرقة على الصفحات والحيين ،
وأذكارها على اللسان جعلت الإنسان من صالح المؤمنين ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً
عبدُه ورسولُه هادي المهتدين ، وموضح شرعة الإحسان للحسين ، و« أبو الطيب »
و« أبو القاسم » كنى بأولاده المُطهرين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم
من كان من السابقين الأولين ، ومنهم من كان مهيباً للكافرين ، ومنهم من تزوج
بأبنتي الرسول ولم يتفق ذلك لغيره في سالف السنين ، ومنهم من كان الخير ملء
يديه : فشمول البركة بشماله وذو الفقار في اليمين ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فأكرم النفويض ما صادف محلاً ، وأبرك الولايات ما وجد قدراً معلّى ،
وأحسن الإحسان ما أصبح به الحال محلى ، وأسنى الأنجم ما أشرق في مطلعها وتجلّى ،
وأحق [الولاية] بإعلاء منصبه من أقبلت عليه وجوه الإقبال حين تولى ؛ وأولى
[الولايات] بإجمال النظر وإمعانه ، في تشييد شأنه ، وتمكين مكانته ومكانه ، وحفظ
حوزته من سائر أركانها - وكالة بيت المال المعمور التي بها تُصان الأرض المقدسة ،
ومنها تُستبصر الآراء الرئيسة ؛ وبها يؤمن الاستيلاء على المحال والأبنية من كل جائر ،
وبها تُزاد قيم المبيعات مما هو لبنت المال ما بين عامر ودائر ؛ وإلى متوليها تأتي
الرغبات ممن يتناع أرضاً ، وبه تُمضى المصالح وتُقضى ، وبه يظهر التمييز في الثمن
الأرضي ؛ وهي في الشام نخيمة المقدار ، كريمة الآثار ؛ مرضية الربح في كل أرض
بينت المصالح في كل بناء دائرة بالنجح في كل دار ؛ فلا يشيم برقها ، ويتوج فرقها ،
ويوقها حقها ، إلا من له علم وتبصره ، وعرفان أوضح الطريق وأظهره ، وحسن
رأى فيما آثره وآثره ، وصدارة ورد بها مهمل الكرام البرره .

وكان فلان هو ذو السؤدد العريق ، والباسق في الدّوح الوريق ، والمنْتَسِبُ إلى
 أعزّ فريق ، والطّيبُ أصلاً وفرعاً على التّحقيق ، والإمامُ في علومه التي أصلت
 التّفريعَ ووصلتِ التّفريقَ ، والموفقُ فيما يأتي ويذرُ واللهُ وليُّ التّوفيقِ ؛ قد أشرق
 بدمشق نجمه نُورا ، وأبتسم البرقُ الشّاميُّ به سُوراً ؛ وتصدّر بحافليها فشرح صدورا ،
 وأبنتى له سُوددا وجعل مكارم الأخلاق عليه سُوراً ؛ تلقى بمخصّره المسائل فتلقى منه
 ولياً مرشداً ، وتذكر لديه المباحث فتجد على ذهنه التّوقد هدىً ، وإذا اضطرب
 قولٌ مُشكّلٌ سكن بإباتته وهداً ؛ إن تأول أصاب في تأويله ، وإن نظر في مصلحة
 كان رأيه في السّداد موافقاً لقلبه ، وقد استخرنا الله تعالى - وهو نعم الوكيل -
 في توكيله .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه

فليات هذا المنصب المنصب وبلى بركته من بابه ، وليخيم في فسيح رحابه ، ولينعم
 بجناته في جنابه ؛ وليحرر ما يباع من أملاك بيت المال بشروطه ولوازمه المسطورة
 في كتابه ، وليردع من استولى على أرض باغتصابه ، فليس لعرق ظالم حق ؛ وهو
 إما بناءً بإنشائه وإما غراساً بإنشائه ؛ وما يرتجع إلى بيت المال المعمور من أرض
 وعقار ، وروضات ذات غراس وأنهار ، وقرى وما يضاف إلى ذلك من آثار ؛ فليحرر
 مجموعَه ، وليسلك في ذلك الطريقة المشروعة . وليشفق إشفاق المتقين الماهدين
 لما هم ، ولينصح لنا وللساميين فهو وكيل بيت ما لهم . ومن مات ولا وارث له من
 عصبية أو كلاله ، فإن لبيت المال أرضه وداره وماله .

وقد وكلنا إليك هذا التقليد وقدّناك هذه الوكالة ، ووالدك - رحمه الله - كانت
 مقوضةً إليه قديماً فلذلك أحيينا بك تلك الأصالة .

وَأَعْلَمَ - أَعَزَّكَ اللهُ - أَنَّ الْوَصَايَا إِنْ طَالَتْ فَقَدْ طَابَ سَبْحُهَا ، وَإِنْ أَوْحِزَتْ
فَقَدْ كَفَى لَمَعُهَا وَلَمَحُّهَا ، وَعَلَى الْأَمْرَيْنِ فَقَدْ أَنَارَهَا هُنَا بِالتَّوْفِيقِ صَبْحُهَا ، وَحَسَنَ
بِالتَّصْدِيقِ شَرْحُهَا ، وَأَطْرَبَ مِنْ حَمَامٍ أَقْلَامُهَا صَدْحُهَا ، وَالتَّقْوَى فِيهِ أَوْلَى
وَأَخْرَهَا وَخْتَمَهَا وَفَتَحَهَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَسْقِي بِكَ كُلَّ قَضِيَّةٍ [ذَوَى] صَبْحُهَا ؛ وَالْخَيْرُ
يَكُونُ إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع شريف بوكالة بيت المال بالشام أيضا :

الحمد لله كافي من توكل عليه ، ومحسن مال من فوض أمره إليه ، ومجمل مآب من
قدم رجاءنا عند الهجرة إلى أبوابنا بين يديه ، ومقرعين من أسهر في آسطار عوارفنا
بكال الأدوات ناظره .

نحمده على نعمه التي جعلت سعي من أم كرمنا ، مشكوراً ، وسعد من قصد حرمنا ،
مشهوراً ، وإقبال من أقبل إلى أبوابنا العالية محققاً يتقلب في نعمنا محبوباً ، ويتقلب
إلى أهله مسروراً ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نعتضد فيها
بالإخلاص ونعتصم ، ونتمسك في الدنيا والآخرة بعروتها ، التي لا تنفصم ، ونوكل في إقامة
دعوتها ، سيوفنا التي لا تزال هي وأعناق جاحديها تختصم ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله
الذي أضاءت شريعته ، فلم تحف على ذي نظر ، وأنارت ملته ، فأبصرها القلب قبل
البصر ، وعمت دعوته ، فاستوى في وجوب إجابتها البشر ، وأختصت أمته ، بعلماء
يبصرون من في طرفه عمى ويظهرون حق من في باعه قصر ؛ صلى الله عليه وعلى
آله الذين عملوا بما علموا ، وعدلوا فيما حكموا ، وحفظوا بالحق بيوت أموال الأمة

(١) القضة الرطبة من النبات وذوى يس والصبح في الأصل خروج العقود من كمامه .

فَأَشْرَكَ أَهْلَ الْمِلَّةِ فِيمَا غَنَمُوا؛ صَلَاةً تَوَكَّلَ الْإِحْلَاصُ بِإِقَامَتِهَا ، وَتَكْفُلُ الْإِيمَانَ بِإِدَامَتِهَا ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد : فإنَّ أَهْمَ مَا صُرِفَتْ إِلَيْهِ الْهِمَمُ ، وَأَعَمَّ مَا نُوْجِبُ فِي آخْتِيَارِ الْأَكْفَاءِ لَهُ بَرَاءَةُ الدِّمِّ ؛ وَأَخْصَّ مَا آتَّخَذْنَا الْأَسْتِخَارَةَ فِيهِ دَلِيلًا ، وَأَحَقَّ مَا أَقْنَأْنَا عِنَّا فِيهِ مِنْ أَعْيَانِ الْأُمَّةِ وَكَيْلَا ، لَا يَدْعُ حَقًّا لِلْأُمَّةِ مَا وَجَدَ إِلَيْهِ سَبِيلًا - أَمْرُ بَيْتِ مَالِ الْمُسْلِمِينَ الَّذِي هُوَ مَادَّةُ جِهَادِهِمْ ، وَجَادَةُ جِلَادِهِمْ ؛ وَسَبَبُ اسْتِطَاعَتِهِمْ ، وَطَرِيقُ إِخْلَاصِهِمْ فِي طَاعَتِهِمْ ؛ وَسِدَادُ نُفُوسِهِمْ ، وَصَلَاحُ جُمْهُورِهِمْ ؛ وَجَمَاعُ مَا فِيهِ إِتْقَانُ أَحْوَالِهِمْ وَأَسْتِثْقَارُ أُمُورِهِمْ ؛ وَمَنْ آكَدَ مَصَالِحَهُ وَأَهْمَهَا ، وَأَخْصَّ قَوَاعِيدَهُ وَأَعْمَهَا ، وَأَكَلَ سَبَابَ وَقُورِهِ وَأَتَمَّهَا ؛ الْوَكَاةُ الَّتِي تَصُونُ حَقُوقَهُ أَنْ تُضَاعَ ، وَتَمْنَعُ خَوَاصَّهُ أَنْ تُسَاعَ ؛ وَتُحْسِنُ عَنِ الْأُمَّةِ فِي حِفْظِ أَمْوَالِهَا الْمَنَابِ ، وَتَتَوَلَّى لِكُلِّ مَنِ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُمُ الدَّعْوَى وَالْجَوَابَ ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تَنْزَلْ تَخْيِيرَهَا مِنْ ذَخَائِرِ الْعُلَمَاءِ مِنْ زَانَ الْوَرَعِ سَبْحَايَاهُ ، وَكَلَّ الْعِلْمُ مَزَايَاهُ ؛ وَأَنْعَقَدُ الْإِجْمَاعُ عَلَى كَمَالِهِ ، وَقَصُرَتْ الْأَطْلَاعُ عَنِ التَّحَلِّيِّ بِجَمَالِ عِلْمِهِ : وَهَلْ يُبَارَى مِنْ كَانَ عِلْمُهُ مِنْ جَمَالِهِ .

ولما كان المجلس السامى ، الشىخى ، الفلافى ، هو الذى ظهرت فضائله وعلومه ، ودل على بلوغ الغاية منطوق تعته ومفهومه ؛ وحل على علمه بالورع الذى هو كمال الدين على الحقيقة ، وسلك طريقة أبيه فى التفرّد بالفضائل فكان بحكم الإرث من غير خلاف صاحب تلك الطريقة ؛ مع نسب لنسب مامرّ حلاله ، وتوقى ما ورثه من أبيه عن كلاله ؛ وثبات فى ثبوت الحق لا تستغزاه الأغراض ، وأناة فى قبول الحكم لا تحيل جواهره الأعراض ؛ ووقوف مع الحق لا يبعده إلى ما [لا] يجب ، وبسطة فى العلم بها يقبل ما يقبل ويحتب ما يحتب ؛ وتحقّق تجرى الدعاوى الشرعية على محجته ، وإنصاف لا يضر خصمه معه كونه ألحن منه بحجته ؛ مع وفادة إلى

أبوأبنا العالفة تقاضت له كرمنا الجلم ، وفصلنا الذى حصص وعم - أقتضت آراؤنا الشرففة أن يرجع إلى وطنه مشمولا بالنعم ، محصوفا من هذه الرتبة بالغاية التى يكبو دونها جواد الهمم ؛ منصوفا على رفعة قدره التى جاءت هذه الوظيفة على قدر ، مداوما [لشكر أبوأبنا] ^(١) على اختياره لها بعد إمعان الاختيار وإنعام النظر .

فريم بالأمر الشريف أن تقوض إليه وكالة بيت المال المعمور بالشام المحروس .

فليرق هذه الرتبة التى هى من أجل مايرتقى ، ويتلق هذه الوكالة التى مدار أمرها على التقى وهو خير مايتقى ، ويباشر هذه الوظيفة التى مناط حكمها فى الورى الذى لا تستخف صاحبه الأهواء ولا تستفره الرقى ؛ ولينهض بأعبائها مستقلا بمصالحها ؛ متصديا لمجالس حكمها العزيز لتحرير حقوق بيت المال وتحقيقها ، متلقيا مايرد من أمر الدعاوى الشرعية التى يبت مثلها فى وجهه بطريقها ؛ منقبا عن دوافع ما يثبت له وعليه ، محسنا عن بيت المال الوكالة فيما جره الإرث الشرعى إليه ؛ مستظها فى المعاقدة بما جرت به العادة من وجوه الاحتراز ، مجانبا جانب الخيف فى الأخذ والعطاء بأبواب الرخص وأسباب الجواز ؛ منجبا فى تشدده عن طريق الظلم الذى من تحلى به كان عاطلا ، سالكا فى أموره جادة العدل فإنه سيان من ترك حقه وأخذ باطلا ؛ مجتهدا فى تحقيق ما وصح من الحقوق الشرعية وكمن ، متتبعا ما عالت الأيام فى إخفائه فإن الحق لا يضيع بقدم العهد ولا يبطل بطول الزمن .

وفى أوصافه الحسنه ، وسجاياه التى غدت بها أقلام أيامنا لسنه ، وعلومه التى أسرت إليها أفكاره والعيون وسنه ، ما يعنى عن وصايا يطلق عنان البراعة فى تحديدها ، أو قضايا ينطق لسان البراعة فى توكيدها ؛ ملاكها تقوى الله وهى سجية نفسه ،

(١) فى الأصل « مداوما لها على الخ » .

وَنَجِيَّةٌ أَنْسِهِ، وَحِلْيَةٌ خِلَالِهِ الْمَعْرُوفَةُ فِي يَوْمِهِ وَأَمْسِهِ؛ فَلْيَقْدِّمَهَا فِي كُلِّ أَمْرٍ، وَيَقِفْ عِنْدَ رِضَا اللَّهِ فِيهَا لِأَرْضَا زَيْدٍ وَلَا عَمْرُوبٍ؛ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ :

[الوظيفة الخامسة - الخطابه (١) .

وهذه نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأمويّ، كُتِبَ بها لزيّن الدّين الفارقيّ، من إنشاء الشيخ شهاب الدّين محمود الحلبيّ :

الحمد لله رافع الدّين أوتوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ، وَجَاعِلِ أَرْجَاءِ الْمَنَارِ بِفَضَائِلِ أُمَّةِ الْأُمَّةِ أَرْجَاتٍ، وَشَارِحِ الصُّدُورِ بِذِكْرِهِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ مِنْ قَبْلِ الْمَوَاعِظِ حَرَجَاتٍ؛ الَّذِي زَانَ الدّينَ مِنَ الْعُلَمَاءِ بِمَنْ سَلَّمَتْ لَهُ فِيهِ الْإِمَامَةُ، وَصَانَ الْعِلْمَ مِنَ الْأُمَّةِ الْمُتَقِينَ بِمَنْ أَحْصَبَ لَهُ جَامِحُ الْفَضْلِ يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ زِمَامَهُ؛ وَوَطَّدَ ذِرْوَةَ الْمُنْتَبِهِ الْكَرِيمِ لِمَنْ يَحْفَظُ فِي هِدَايَةِ الْأُمَّةِ حَقَّهَ وَيَرَعَى فِي الْبِدَايَةِ بِنَفْسِهِ زِمَامَهُ، وَوَطَّأَ صَدْرَ الْحَرَابِ الْمُنِيرِ لِمَنْ إِذَا أَمَّ الْأُمَّةَ أَرَتْهُ خَشْيَةَ اللَّهِ أَنْ وَجَهَ اللَّهُ الْكَرِيمِ أَمَامَهُ .

تحمده على ما منحننا من صونِ صهواتِ المنارِ إلا عن فُرسانِها، وَحَفِظَ دَرَجَاتِ الْعِلْمِ إِلَّا عَمَّنْ يَنْظُرُ بِأَنْسَانِ السُّنَّةِ وَيَنْطِقُ بِإِسَانِهَا . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لِأَشْرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ لَا تَزَالُ أَفْوَاهُ الْحَخَّارِ، تُثَبِّتُ طُرُوسَهَا، وَأَنْوَاءُ الْمَنَارِ، تُثَبِّتُ غُرُوسَهَا، وَالسُّنَّةُ الْإِخْلَاصُ تُلْقَى عَلَى الْمَسَامِيحِ مِنْ صُحُفِ الصَّمَاثِرِ دُرُوسَهَا . وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَرَّفَتِ الْمَنَارِ أَوْلًا بِرُفِيهِ إِلَيْهَا، وَأَحْرًا بِذِكْرِ أَسْمِهِ الْكَرِيمِ عَلَيْهَا؛ فَهِيَ الرُّبَّةُ الَّتِي يَزِيدُ تَبَصُّرَةً عَلَى مَمَرِ الدُّهُورِ بِقَاوُهَا، وَالدَّرَجَةُ الَّتِي يَطُولُ إِلَّا عَلَى وَرَثَةِ عَلَيْهِمْ آرْتِقَاوُهَا؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ ذَكَرَهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ فَذَكَرُوها،

(١) أضفنا هذه الزيادة لأقتضاء الكلام لها .

(٢) أى ذلّ واققاد بعد صعوبة .

وَبَصَّرَهُمْ بِالْآءِ اللَّهِ فَشَكَرُوهَا ؛ وَعَرَّفَهُمْ بِمَوَاقِعِ وَحْدَانِيَّتِهِ بِجَادِلُوا بَسُنَّتَهُ وَأَسْنَتَهُ الَّذِينَ
 أَنْكَرُوهَا ، صَلَاةً لَا تَبْرُحُ لَهَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا ، وَلَا يَزَالُ ذِكْرُهَا مُغَيِّرًا فِي الْأَفَاقِ
 وَمُنْجِدًا ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإنه لما كانت الخطابة من أشهر شعائر الإسلام ، وأظهر شعار ملة سيدنا
 محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، شرعها الله تعالى لإذكار خلقه بنعمه ، وتحذير عباده
 من تقمه ، وإعلام بريته بما أعد لمن أطاعه في دار كرامته من أنواع كرمه ؛ وجعلها
 من وظائف الأمة العاتمة ، ومن قواعد وراثته النبوة التامة ؛ يقف المتلبس بها موقف
 الإبلاغ عن الله لعباده ، ويقوم الناھض بقرضها مقام المؤدى عن رسول الله -
 صلى الله عليه وسلم - إلى أمته عن مراد الله ورسوله دون مراده ، ويقيمها
 في فروض الكفايات على سنن سبيله ^(١) ، ويستنزل بها مواد الرحمة إذا ضن الغيث
 على الأرض بوبله ؛ وكان المسجد الجامع بدمشق المحروسة هو الذى سارت بذكره
 الأمثال ، وقيل هذا من أفراد الدهر التى وضعت على غير مثال ؛ قد تعين أن نرتاد
 له بحكم خلوه من الأئمة من هو مثله فرد الأفاق ، وواحد العصر عند الإطلاق ؛
 وإمام علماء زمانه غير مدافع عن ذلك ، وعلامه أئمة أوانه الذى يضىء بنور
 فتاويه ليل الشك الحالك ؛ وناصر السنة الذى تدب علومه عنها ، وحاوى ذخائر
 الفضائل التى تنمى على كثرة إنفاقه على الطلبة منها ؛ وشيخ الدنيا الذى يعقد على
 فضله بالختاصر ، ورحلة الأقطار الذى غدت نسبته إلى أنواع العلوم زاكية
 الأحساب طاهرة الأوصار ؛ وزاهد الوقت الذى زان العلم بالعمل ، وناسك الدهر
 الذى صان الورع بامتداد الفضائل وقصر الأمل ؛ والعايد الذى أصبح محجة

(١) فى الأصل "نبية" .

العَارِفِ وَقُدُورَةَ السَّالِكِ ، وَالصَّادِعُ بِالْحَقِّ الَّذِي لَا يُبَالِي مِنْ أَعْصَبَ إِذَا رَضِيَ اللَّهُ
وَرَسُولُهُ بِذَلِكَ .

ولما كان فلانٌ هو الذي خَطَبْتَهُ لِهَذِهِ الْخَطَابَةِ لِعُلُومِهِ الَّتِي لَا تُسَامَى وَلَا تُسَامَ ،
وَعَيْنَتَهُ لِهَذِهِ الْإِمَامَةِ فَضَائِلُهُ الَّتِي حَسَنَتْ بِهَا وَجُوهُ الْعِلْمِ الْوَسَامِ ، حَتَّى كَانَتْهَا فِي فِيمَ
الزَّمَنِ أَبْتِسَامَ ؛ وَأَلْقَى إِلَيْهِ مَقَالِيدَهَا كَالَّذِي صَدَّ عَنْهَا الْخُطَابَ ، وَسَدَّ دُونَهَا أَبْوَابَ
الْخُطَابِ ، وَقِيلَ : هَذَا الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ أَوْلَى بِهَذَا الْمِنْبَرِ وَأَحْرَى بِهَذَا الْمِحْرَابِ -
أَقْبَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنَّ نُحَلِّيَ أَعْطَافَ هَذَا الْمِنْبَرِ بِفَضْلِهِ الَّذِي يُعِيدُ عَوْدَةَ رَطِييَا ،
وَيُضَمِّخُ طَيْبًا مِنْهُ مَا ضَمَّ خَطِييَا ؛ وَأَنَّ نَصَدَّرَ بِهَذَا الْمِحْرَابِ مِنْ نَعْلِمَ أَنَّهُ لَدَى الْأُمَّةِ
مُنَاجِجَ رَبِّهِ ، وَاقِفَ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ .

فلذلك رُسِمَ - لا زال يُوَلَّى الرَّتَبَ الْحَسَانَ ، وَيَجْرِي بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ
الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ - أَنْ تَفُوضَ إِلَيْهِ الْخُطَابَةَ وَالْإِمَامَةَ بِجَمَاعِ دِمَشْقِ الْمَحْرُوسِ عَلَى
عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمَهُ .

فَلْيَرَقَ هَذِهِ الرَّتَبَةَ الَّتِي أَمَّطَاهُ اللَّهُ ذِرْوَتَهَا ، وَأَعْطَاهُ الْفَضْلَ صَهْوَتَهَا ؛ وَعَيْنَتَهُ تَفَرَّدَهُ
بِالْفَضَائِلِ لِإِذْكَارِ الْأُمَّةِ عَلَيْهَا ، وَرَجَّحَهُ لَهَا أَنْعَادُ الْإِجْمَاعِ عَلَى فَضْلِهِ حَتَّى كَادَتْ
لِلشُّوقِ أَنْ تَسْعَى إِلَيْهِ لَوْ لَمْ يَسْعَ إِلَيْهَا ؛ حَتَّى تَحْتَالَ مِنْهُ بِإِمَامٍ لَا تَعْدُو مَوَاعِظَهُ حَبَاتِ
الْقُلُوبِ ، لِأَنَّهَا تَخْرُجُ مِنْ مِثْلِهَا ، وَلَا تَدْعُ خُطْبَهُ أَثَرًا لِلذُّنُوبِ ، لِأَنَّهَا تُوَكِّلُ مَاءَ الْعُيُونِ
بَغْسَلِهَا ؛ وَلَا تُتَبَقِّي نَصَائِحَهُ لِلدُّنْيَا عِنْدَ الْمُغْتَرِّبِهَا قَدْرًا ؛ لِأَنَّهَا تَبْصُرُهُ بِخِدَاعِهَا ، وَلَا تَتْرَكَ
بَلَاغَتَهُ لِلْقَصْرِ عَنِ التَّوْبَةِ عُدْرًا ؛ فَإِنَّهَا تُحَدِّدُهُ مِنْ سُرْعَةِ زَوَالِ الْحَيَاةِ وَأَنْقِطَاعِهَا ؛ وَلَا
تَجْعَلُ فَوَائِدَهُ لَدَوِي النَّجْدَةِ وَالْبَأْسِ التَّفَاتَا إِلَى أَهْلِ وَلَا وَدَّ لِأَنَّهَا تُبَشِّرُهُ بِمَا أَعَدَّ اللَّهُ

لمن نخرج في سبيله، ولا تُمكن زواجه من نشر الظلم أن يمد إليه يداً لأنها تُخبره بما في الإقدام على ذلك من إغصاب الله ورسوله .

فَلْيُطَلِّ - مع قصر الخطبة - للظالم مجال زجره ، وليُطبِّ قلب العالم العامل بوصف ما أعد الله له من أجره ؛ وليجعل خطبه كل وقت مقصورةً على حكمة ، مقصودةً في وضوح المقاصد بين من ينهض بسرعة إدراكه أو يقعد به ببطء فهمه ؛ وغير الكلام مادلاً ببلاغته وإن قل ، وإذا كان قصر خطبة الرجل وطول صلاته مئةً من فقهه فما قصر من حافظ على حكم السنة فيهما ولا آخل .



[وهذه] نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأموي ، كتبت به للقاضي «تقي الدين السبكي» .

الحمد لله الذي جعل درجات العلماء آخذةً في مزيد الرقي، وخص برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كل تقي ، وألقى مقاليد الإمامة لمن يصون نفسه النفيسة بالورع وبيق ، وأعاد إلى معارج الجلال ، من لم يزل يختار حميد الجلال ، وينتقي ، وأسدل جلباب السؤدد على من أعد للصلاة والصلوات من قلبه وتوابعه كل طاهر تقي .

نحمده على أن أعلى علم الشرع الشريف وأقامه ، وجعل كلمة التقوى باقيةً في أهل العلم إلى يوم القيامة ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عدل قيد^(١) الفضل بالشكر وأدامه ، وأيد النعمة بمزيد الحمد فلا غم وأن جمع بين الإمامة

(١) في الأصل «شهادة عدل فيها قيد الخ» وضبط على لفظة «فيها» .

وَالرَّعَامَةَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَعْلَى اللَّهُ بِهِ عَقِيْرَةَ مُرْتَلِّ الْأَذَانِ
وَمُسْدِرِجِ الْإِقَامَةِ ، وَأَعْلَى بِبِرْكَتِهِ قِيَمَةَ مَنْ تَمَسَّكَ بِسَبِيْلِ الْمُهْدَى وَلَا زَمَّ طَرِيْقَ
الْإِسْتِقَامَةِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ عَقَدُوا عُھُودَ هَذَا الدِّينِ وَحَفِظُوا نِظَامَهُ ،
وَعَلَى أَصْحَابِهِ الَّذِينَ مَامَنَهُمْ إِلَّا مَنْ أَقْتَدَى بِطَرِيْقِهِ فَاهْتَدَى إِلَى طَرِيقِ الْكِرَامَةِ ، صَلَاةٌ
لَا تَزَالُ بَرَكَاتُهَا تُؤَيِّدُ عَقْدَ الْيَقِيْنِ وَتُدِيْمُ ذِمَامَهُ ؛ وَسَلَامٌ تَسْلِيْمًا كَثِيْرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ مِنْ شِيْمِ دَوْلَتِنَا الشَّرِيْفَةِ أَنْ تَرْفَعَ كُلَّ عَالِي الْمِقْدَارِ مَكَانًا عَلِيًّا ،
وَتَجْعَلَ لَهُ مِنْ أَسْمِهِ وَصِفَتِهِ قَوْلًا مَسْمُوعًا وَفِعْلًا مَرْضِيًّا ، وَتُوَطِّدَ لَهُ رُتَبَ الْمَعَالِي
وَتَزِيْدَ قَدْرَهُ فِيهَا رُقِيًّا ، وَتَكْسُوهُمْ مِنْ جِلْبَابِ السُّؤْدُدِ مِطْرَفًا مَبَارِكًا وَطِيًّا ، وَتُطَلِّقَ
لِسَانَ إِمَامِهِ بِالْمَوَاعِظِ الَّتِي إِذَا تَعَقَّلَهَا أُولُو الْأَلْبَابِ خَرُّوا لِبَطَاعَةِ رَبِّهِمْ سُجَّدًا وَبُكْيًا .

وَمَا كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِيُّ هُوَ الَّذِي أَعَزَّ أَحْكَامَ الشَّرِيْعَةِ الشَّرِيْفَةِ وَشَادَهَا ،
وَأَبْدَى مِنْ أَلْفَاظِهِ الْمَبَارَكَةِ الْمَوَاعِظَ الرَّبَّانِيَّةَ وَأَعَادَهَا ؛ وَأَذَاعَ فِيهَا أَسْرَارَ الْيَقِيْنِ
وَزَادَهَا ، وَأَصْلَحَ فِسَادَهَا ، وَقَوِّمَ مُنَادَهَا ؛ وَكَيْفَ لَا وَقَدْ جَمَعَ مِنَ الْعُلُومِ أَشْتَاتَانَا ،
وَأَحْيَا مِنْ مَعَالِمِ التَّقِيِّ رُفَاتَانَا ، وَأَوْصَحَ مِنْ صِفَاتِ الْعُلَمَاءِ الْعَامِلِيْنَ بِهَدْيِهِ وَسَمِيْتِهِ هَدْيًا
وَسِمَاتَانَا ، فَلِذَلِكَ خَرَجَ الْأَمْرُ الشَّرِيْفَ الصَّالِحِيَّ الْعَامَدِيَّ



قُلْتُ : وَهَذِهِ نَسْخَةٌ تَوْقِيْعٌ بِخَطَابَتِهِ أَيْضًا ، أَنْشَأْتُهُ لِلشَّيْخِ « شِهَابِ الدِّينِ
أَبْنِ حَاجِي » :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطْلَعَ شِهَابَ الْفَضَائِلِ فِي سَمَاءِ مَعَالِيهَا ، وَزَيَّنَ صَوَاتِ الْمَنَابِرِ بَيْنَ
قَرَّتْ عِيُونُهَا مِنْ وِلَايَتِهِ الْمَبَارَكَةِ بِتَوَالِيهَا ، وَجَمَّلَ أَعْوَادَهَا بِأَجَلِّ حَبْرٍ لَوْ كَسَتْ طَبِيعَ فَوْقِ

قدرتها لَسَعَتْ إِلَيْهِ وَفَارَقَتْ - نَحْرًا لِلْعَادَةِ - مَبَانِيهَا، وَشَرَفَ دَرَجَهَا بِأَكْمَلِ عَالِمِ
مَآوِضَ بَأْسَافِهَا قَدَمًا إِلَّا وَحَسَدَتْهَا عَلَى السَّبْقِ إِلَى مَسِّ قَدَمِهِ أَعَالِيهَا .

نحمده على أنْ خَصَّ مَصَاقِعَ الْخُطْبَاءِ مِنْ فَضْلِ اللِّسَنِ بِالْبَآجِ الْمَدِيدِ، وَقَصَرَ الْجَامِعَ
الْأُمُوِيَّ عَلَى أَبْلَغِ خَطِيبٍ يَسِيبُ فِي تَطَلُّبِ مِثْلِهِ الْوَلِيدِ، وَأَفْرَدَ فَرِيدَ الدَّهْرِ بِاعْتِبَارِ
الْإِسْتِحْقَاقِ بُرِّيِّ دَرَجٍ مِثْرِهِ السَّعِيدِ . وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تَحْقِيقُ عَلَى مَوَآكِبِ الصُّفُوفِ أَعْلَامُهَا ، وَتَوَقَّرَ مِنْ تَذْكَيرِ آلاءِ اللَّهِ تَعَالَى
أَقْسَامُهَا ، وَلَا تُقْصِرُ عَنْ تَبْلِغِ الْمَوَاعِظِ حَبَاتِ الْقُلُوبِ أَفْهَامُهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ نَبَةِ الْقُلُوبِ الْغَافِلَةِ مِنْ سِنَانِهَا، وَأَيَّقُظُ الْخَوَاطِرَ النَّائِمَةَ
مِنْ سُبَاتِهَا ، وَأَحْيَا رَمِيمَ الْأَفْنِدَةِ بِقَوَارِعِ الْمَوَاعِظِ بَعْدَ مَمَاتِهَا ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ الَّذِينَ عَلَا مَقَامُهُمْ ، فَفَاتَتْ أَعْقَابَهُمُ الرَّؤُوسُ ، وَرُفِعَتْ فِي الْمَجَامِعِ رُءُوسُهُمْ ،
فَكَانَتْ مَنْزِلَتُهُمْ مَنْزِلَةَ الرَّئِيسِ مِنَ الْمَرْؤُوسِ ؛ صَلَاةً لَا تَزَالُ الْأَرْضُ لَهَا مَسْجِدًا ،
وَلَا يَبْرَحُ مُفْتَرِقُ الْمَنَابِرِ بِاخْتِرَاقِ الْآفَاقِ لِاجْتِمَاعِهَا مَوْرِدًا .

وبعد، فَإِنَّ أَوْلَى مَا صُرِفَتْ الْعِنَايَةُ إِلَيْهِ ، وَوَقَعَ الْاِقْتِنَارُ مِنْ أَمِّ الْمُهَمَّاتِ عَلَيْهِ -
أَمْرُ الْمَسَاجِدِ الَّتِي أُقِيمَ بِهَا لِلدِّينِ الْحَنِيفِ رَسْمُهُ ، وَبُيُوتِ الْعِبَادَاتِ الَّتِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى
أَنْ تُرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ ؛ لِاسْمِ الْجَوَامِعِ الَّتِي هِيَ مِنْهَا بِمَنْزِلَةِ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعِيَّةِ ،
وَأَمَائِلِ الْأَعْيَانِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْبَرِيَّةِ ؛ وَمَنْ أَعْظَمَهَا خَطَرًا، وَأَبْيَنَهَا فِي الْحَاسِنِ أَثَرًا،
وَأَسِيرَهَا فِي الْآفَاقِ النَّائِيَةِ خَبَرًا ؛ بَعْدَ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ الَّتِي تُسَدُّ الرِّجَالَ إِلَيْهَا ، وَيُعْوَلُ
فِي قَصْدِ الزِّيَارَةِ عَلَيْهَا - جَامِعُ دِمَشْقَ الَّذِي رَسَتْ فِي الْفَخْرِ قَوَاعِدُهُ، وَقَامَتْ عَلَى مَمَرِ
الْأَيَّامِ شَوَاهِدُهُ ؛ وَقَاوِمِ الْجَمِّ الْغَنِيِّ مِنَ الْجَوَامِعِ وَاحِدُهُ ؛ وَلَمْ تَزَلِ الْمُلُوكُ تَصْرِفُ الْعِنَايَةَ
إِلَى إِقَامَةِ شِعَائِرِ وَطَائِفِهِ ، وَتَقْتَصِرُ مِنْ أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ عَلَى رِئِيسِ ذَلِكَ الْفَنِّ وَعَارِفِهِ ؛

فما شغرت به وظيفته إلا آخاروا لها الأعلى والأرفع، ولا وقع التردد فيها بين اثنين إلا تقيّلوا منهما الأعلم والأورع؛ خصوصاً وظيفة الخطابة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم للقيام بها متصدياً، وعلم الخلفاء مقام شرفها بعد فباشرها بأنفسهم تأسياً.

ولما كان المجلس العالى، القاضوى، الشيخى، الكبيرى، العالى، الفاضلى، الأوحدى، الأشجلى، الرئيسى، المفوهى، البليغى، الفريدى، المقيدى، النجيدى، القدوى، الحجى، المحققى، الورعى، الخاشعى، الناسكى، الإمامى، العلامى، الأئبلى، العريقى، الأصيلى، الحاكى، الخطيبى، الشهابى: جمال الإسلام والمسلمين، شرف العلماء العاملين، أوجد الفضلاء المفيدين، قدوة البلغاء المجتهدين، حجة الأمة، عمدة محدثين، نخر المدرسين، مفتى المسلمين، معز السنة، قاصع البدعة، مؤيد الملة، شمس الشريعة، حجة المتكلمين، لسان المناظرين، بركة الدولة، خطيب الخطباء، مذكر القلوب، منبه الخواطر، قدوة الملوك والسلاطين، ولى أمير المؤمنين «أبو العباس أحمد» أدام الله تعالى نعمته: هو الذى خطبته هذه الخطابة لنفسها، وعلمت أنه الكفاء الكامل فنسيت به فى يومها ما كان من مصابيح الخطباء فى أمسها؛ إذ هو الإمام، الذى لا تسمى علومه ولا تسمى، والعلامة الذى لا تدرك مداركه ولا ترام؛ والحبر الذى تعقد على فضله الخناصر، والعالم الذى يعترف بالقصور عن مجاراة جواده المناظر؛ والحافظ الذى قاوم علماء زمانه بلا منازع، وعلامة أئمة أوانه من غير مدافع؛ وناصر السنة الذى يذب بعلمه عنها، وجامع أشتات الفنون التى يقتبس أمائل العلماء منها، وزاهد الوقت الذى زان العلم بالعمل، وناسك الدهر الذى قصر عن مبلغ مداه الأمل؛ ورحلة الأفطار الذى تُشد إليه الرحال، وعالم الآفاق الذى لم يسمح الدهر له بمثال - أقتضى

حسن الرأى الشريف أن ترفعَه من المنابر على أعلى درجتها ، وتقطع ببراہينه من دلائل الإلباس المُلبَّسة داحص حجبها ؛ وتقدمه على غيره ممن رام إبرام الباطل فنقض ، وحاول رفع نفسه بغير أداة الرفع خفض .

فلذلك رسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، المنصورى ، المعزى - لا زال يرفع لأهل العلم راسا ، ويحقق لذوى الجهل من بلوغ المراتب السنية ياسا - أن يفوض إلى المجلس العالى المشار إليه خطابة الجامع المذكور بانفراده ، على أتم القواعد وأكملها ، وأحسن العوائد وأجملها .

فليرق منهبه الذى عاقب فيه رايحه الطالع أعزل غير الغارب ، ولتبتوا ذروة سنامه الأرفع من غير شريك له ولا حاجب ؛ وليقصد بمواعظه حبات القلوب ، ويرشق شهاب قراطيسها المانعة فإنها الغرض المطلوب ؛ وليأت من زواجر وعظه بما يذهب مذهب الأمثال السائره ، ويريسلها من صميم قلبه العامر فإن الوعظ لا يظهر أثره إلا من القلوب العامره ؛ ويقابل كل قوم من التذكير بما يناسب أحوالهم على أكل سنن ، ويخص كلاً من أزمان السنة بما يوافق ذلك الزمن ؛ والوصايا كثيرة وإما تهذيب العلم يُعنى عنها ، وتأديب الشريعة يُكفى مع القدر اليسير منها ؛ وتقوى الله تعالى ملاك الأمور وعندة منها القدر الكافى ، والحاصل الوافى ؛ والله تعالى يرقيه إلى أرفع الدرى ، ويرفع على الجوزاء مجلسه العالى : « وإنا لَنرجو فوق ذلك مظهرا » .



الوظيفة السادسة — التداريس الجبار بدمشق المحروسة .

وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الريحانية ، كُتِبَ به لقاضي القضاة «عماد الدين الطرسوسي» الحنفي ، عوضا عن جلال الدين الرازي . كُتِبَ بسؤال بعض كُتَّاب الإنشاء ، وهي :

الحمد لله الذي جعل عماد الدين عليا ، وأحكم مباني من حكم فلم يدع عصيا ،
وقضى في سابق قضائه لإمضاء قضائه أن لا يبقى عتيا .

نحمده على ما وهب به من أوقات الذكر بكرة وعشيا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُنبه بالعلم بوحدانيته من كان غيبا ، وتكثرت لمقاتل سيوف العلماء من كان غويا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي كان عند ربه رضىا ، وعلى ذبه عما شرع من الدين مرضيا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال فضل قديمها مثل حديثها مرويا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فلما كانت رتب العلم هي التي يتنافس عليها ، ويتطاول إلى التنقل إليها ، ويختار منها ما كسب مباشرة المتقدم ملابس الجلال ، وأن له أن ينتقل إليه البدر بعد الهلال ، وكانت المدرسة الريحانية بمحروسة دمشق هي ريحانة المجالس ، وروضة العلم الزاكية المغارس ، وبحر الفوائد الذي يخرج الفرائد ، ومسرح العلماء الذي قد آن أن يظفر به منهم من الألف زائد .

ولما توفى من آلت إليه ، وعالت مسألتها إلا عليه ، وكان ممن قد ولي الأحكام استقلالا ، وكان لبصر الدنيا جلاء وللدين جلالا ؛ لم تكن إلا لمن ينسى به ذلك

الذاهب ، وينسب إليه علمٌ مذهبه كله وإن كان لا يقتصر به على بعض المذاهب ؛ ويعرف من هو وإن لم يصرح باسمه ، ويعرف من هو وإن لم يذكر بعلاء قدره العليّ وعلمه ؛ ولا يمتري أنه خلف «أبا حنيفة» فيمن خلف ، وحصل على مثل ما حصل عليه القاضي «أبو يوسف» وذهب ذلك في السلف الأول مع من سلف ؛ وأعلم بجذاله أن «محمد بن الحسن» ليس من أقران أبي الحسن ، وأن «زفر» لم يرزق طيب أنفاسه في براعة اللسن ؛ وأن «الطحاوي» ما طحا به «قلب إلى الحسان طروب» و «القاضي خان» لديه منه الأثوب ؛ وتلقب «شمس الأئمة» لما طلع علم أنه قد حان من شمس النهار غروب ، و «الرازي» لما جاء تيقن أنه يروزه عن علم الجيوب ، و «المرغيناني» مس ولم يرغ له في مطلوب ؛ و «الثلجي» ما برد لطالب غله ، و «الخبازي» لم يوجد عنده لطعام فضله ، و «الهندواني» ما أجدى في جلاذ الجدال ولا هنر نصله ؛ ولم يزل يُشار إليه والتقليد الشريف له بالحكم المطابق بما تضمنه من محاسن أوصافه شاهد ، ودست الحكم على علي كيوان شائد ؛ ومدارس العلم تُسر من حبه ، ما حنيت عليه من محاريبها الأضالع ، ومجالس القضاء تُظهر بقره ، ما لم يكن تداني إليه المواضع .

وكان الجناح الكريم ، العلي ، القضاي ، الأجلي ، الإمامي ، الصدرى ، العالمى ، العالمى ، العالمى ، الكاملى ، الفاضلى ، الأوحدي ، المفيدى ، الورعى ، الحاكى ، العمادى ؛ ضياء الإسلام ، شرف الأنام ، صدر الشام ، أمير الإمام ، سيد العلماء والحكام ؛ رئيس الأصحاب ، معز السنة ، مؤيد الملة ، جلال الأئمة ؛ حكم الملوك والسلاطين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبو الحسن على بن الطرسوسى الحنفى ، قاضى

(١) كذا في الأصل ولعله من زيادة قلم النسخ .
 (٢) بروزه يسأله ويختبره . يريد يسأله عن علم الجيوب الفلكية .
 (٣) من أرغ له في كذا . أطاعه فيه .

القُضَاةَ بِالنَّامِ - نشر ملاءة مذهبه ، وحلّى بجلوسه للحكم طرْفِي النَّهَارِ إِضَاعَةً مُفَضِّضَةً
وتوسيع مذهبه ؛ طَالَمَا سَاسَ الرَّعِيَّةَ بِحُكْمِهِ ، وَسَادَ نَظْرَاهُ فِي مَعْرِفَةِ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ
بِعِلْمِهِ وَحِكْمِهِ ؛ وَسَارَ مِثْلُ فَضْلِهِ فِي الْأَفْطَارِ وَضَوْءِ الشَّمْسِ مَرْدُ شُعَاعِهِ ، فَطَالَ إِلَى
السَّمَاءِ وَقَصُرَ الْأَفْقُ الْمُنْتَدَى عَلَى طَوْلِ بَاعِهِ ، وَفَاضَ فَيْضُ الْغِيَامِ وَمَا آكَلَ الْبَحْرُ بِكَيْلِهِ
وَلَا صَارَ مِثْلَ صَاعِهِ ؛ وَعَرِضَتْ عَلَيْهِ هَذِهِ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لغيره أَنْ يُجِبِيَ
رِيحَانَتَهَا ، وَلَا أَنْ تُوَدَى إِلَى يَدِ سِوَاهُ فَيُودِعَ أَمَاتَهَا ؛ فَأَثَرَهَا عَلَى أَنَّهُ تَرَكَ الْمَدْرَسَةَ
الْمُقَدِّمِيَّةَ الْمُتَقَدِّمَ لَهُ دَرْسُهَا ، الْمُعْظَمَ بِهِ فِي كُلِّ حِينٍ غَرَسَهَا ؛ لِيُوسِّعَ بِهَا عَلَى الطَّالِبِ
مَذْهَبَهُ ، وَيَفْرُغَ لَهَا سَاعَةً مِنْ أَوْقَاتِهِ الْمُتَنَبِّهَةِ ، وَيَهَبَ [لَهَا] مِنْ حَقِّهِ الَّذِي هُوَ
فِي يَدِهِ مَالُو شَاءَ مَا وَهَبَهُ .

فَرَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ يُقَرِّبُ الْآمَادَ ، وَيَرْضَى الْقَوْمَ وَأَقْضَاهُمْ عَلَى
وَأَثْبَتَهُمْ طَوْدًا الْعِمَادَ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ تَدْرِيسُ الْمَدْرَسَةِ الرَّيْحَانِيَّةِ الْمَعِينَةَ أَعْلَاهُ ، عَلَى
عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمَهُ وَقَاعِدَتِهِ إِلَى آخِرِ وَقْتِ ؛ بِحُكْمِ تَرْكِهِ لِلْمُقَدِّمَةِ لِيَهَبَ عَلَيْهِ رَوْحَهَا
وَتَهَبَ لَهُ السَّعَادَةَ رِيحَهَا ؛ وَلَهَا مِنَ الْبُشْرَى بَعْلَمِهِ مَا تَمِيسُ بِهِ رِيحَانَةُ رِيحِهَا سُورًا ،
وَتَمِيدُ وَقَدْ أَكْنَتُ جَبَلًا مِنَ الْعِلْمِ وَقُورًا ؛ وَتَمْتَدُّ وَقَدْ نَاحَتْ فِي مِسْكَةِ اللَّيْلِ عَيْرًا ،
وَفِي أُخْوَانَةِ الصَّبَاحِ كَافُورًا ؛ وَمَا نُوصِي مِثْلَهُ - أَجَلَ اللَّهُ قَدْرَهُ - بِوَصِيَّةٍ إِلَّا وَهُوَ
يَعْلَمُهَا ، وَيُلْقِنُهَا مِنْ حِفْظِهِ وَيَعَامُّهَا ؛ وَمَنْ فَضَّلَ قَضَائِهِ تَوَخُّدُ الْأَدَابِ ، وَتَنْفِذُ سِهَامِ
الْآرَاءِ وَالْآرَابِ . وَتَقْوَى اللَّهِ بِهَا بَاطِنُهُ مَعْمُورٌ ، وَكُلُّ أَحَدٍ بِهَا مَأْمُورٌ ؛ وَمَا نُذَكِّرُهُ
بِهَا إِلَّا عَلَى سَبِيلِ التَّبَرُّكِ بِذِكْرِهَا ، وَالتَّمَسُّكِ بِأَمْرِهَا . وَالْفَقَهَاءُ وَالْمُتَفَقِّهَةُ هُمْ جُنْدُهُ ،
وَبِهِمْ يَجِدُّ جِدَّهُ ، [فليجعلهم له في المشكلات عدَّة ، وليصرف في] الإحسان إليهم
جُهِدَهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُهُ عَلَى مَا وُلِيَ ، وَيُعِينُهُ لِكُلِّ عِلْيَاءٍ لَا يَصْلِحُ أَنْ يُحْلَهَا إِلَّا عَلَى .
وسبيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِهِ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ .



الوظيفة السابعة — التصدير بدمشق المحروسة .

وهذه نسخة توقيع أنشأته لقاضى القضاة «بدر الدين محمد» ابن قاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء، وولده جلال الدين محمد، بإعادة تصديرين كانا باسمهما، بالجامع الأموى بدمشق : أحدهما أنتقل إليهما عن سلفيهما، والثانى بزول، ونرح عنهما عند استيلاء «تم» نائب الشام على الشام فى سنة اثنتين وثمانائة، ثم أعيد إليهما فى شوال من السنة المذكورة، فى قطع الثلث، وهى :

الحمد لله الذى جعل بدر الدين فى أيامنا الزاهرة متواصل رتب الكمال، مترددا فى فلك المعالى بأكرم مساع بين بهاء وجمال، منزها عن شوائب النقص فى جميع حالاته : فإما مرتقب الظهور فى سريره، أو متمم بالتمام فى إبداره، أو أخذ فى الأزدباد وهو هلال .

نحمده على أن أفر الحقوق فى أهلها، وأنترع من الأيدى الغاصبة ما اقتطعته الأيام الجائرة بجهلها، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تسمى قائمها من شوائب التكدير، وتصور منتحلها من عوارض الإصدار إذا ورد أصفى مناهل التصدير، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أفضل نبي أقتفت أمته آثاره وأتبعته سننه، وأكرم رسول دعا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الحق وأعلام الهدى، وحماة الدين وكفاة الردى؛ صلاة يبقى على مدى الأيام حكمها، ولا يتدرس على ممر الليالى رسمها، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من رعى له الحقوق القديمه، وحفظت له مساعيه الكريمة، وحللت عليه النعم التى حق لها أن تكون بأهلها مقبمه، من كرم أصلا وطاب

فَرَعَا ، وَزَكَا مَنبَعًا وَعَدُّبَ تَبَعًا ، وَوَقَعَ الإِجْمَاعُ عَلَى فَضْلِهِ المَتَوَاتِرِ فَأَعْدَقَ الحُكْمَ بِتَفْضِيلِهِ قَطْعًا ، وَمِنْ إِذَا تَكَلَّمَ فَاقَ بِفَضْلِهِ نَثْرَ اللَّالِي ، وَإِذَا قُدِرَ قَدْرَهُ أَمَحَطَّتْ عَنْ بُلُوغِ غَايَتِهِ المَعَالِي ، وَإِذَا طَلَعَ بَدْرُهُ المِضْيُءُ مِنْ أَفْقِ مَجْلِسِهِ المَوْرُوثِ عَنْ أَبِيهِ وَأَعْمَامِهِ قَالَ : لَيْتَ أَشْيَاخِي شَهَدُوا هَذَا المَجْلِسَ العَالِي ؛ وَمَنْ إِذَا جَلَسَ بِمَحَلَّتِهِ البَيْتَةَ غَشِيَتْهُ مِنَ الهَيْبَةِ جَلَالُهُ ، وَإِذَا أَطَافَتْ بِهِ هَالَةُ الطَّلَبَةِ وَالمُسْتَفِيدِينَ قِيلَ : مَا أَحْسَنَ هَذَا البَدْرَ فِي هَذِهِ الهَالَةِ ! ، وَمَنْ تَنَبَّهَ طَلَبْتَهُ عَلَى أَكْبَرِ العُلَمَاءِ بِالإِتْمَاءِ إِلَيْهِ ، وَتَشَمَّخُ نُفُوسِ تَلَامِذْتِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ المْتَصَدِّرِينَ بِالجُلُوسِ بَيْنَ يَدَيْهِ ؛ وَمَنْ إِذَا أَقَامَ بِمِصْرَ طَلَعَ بِالشَّامِ بَدْرُهُ ، وَلَوْ أَقَامَ بِالشَّامِ بَقِيَ بِمِصْرَ عَلَى الدَّوَامِ ذِكْرُهُ .

وكان المجلس العالی ، القاضوی ، الکبیری ، العالی ، العالی ، الأفضلی ، الأکملی ، الأوحدی ، البلیغی ، الفریدی ، المفیدی ، النجیدی ، القدوی ، الحجی ، المحققی ، الإمامی ، الأصیلی ، البدری ، جمال الإسلام والمسلمین ، شرف العلماء العالمین ، أَوحدُ الفضلاء المفیدین ، قُدوةُ البُلغَاءِ ، حُجَّةُ الأَدَبِ ، عُمَدَةُ المَحَدِّثِينَ ، نَفْرُ المَدْرَسِينَ ، مُفْتِي الفِرَقِ ، أَوحدُ الأُمَّةِ ، زَيْنُ الأُمَّةِ ، خَالِصَةُ المُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، وِلِيُّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ ، أَبُو عبد الله ، محمد بن المجلس العالی ، القاضوی ، الکبیری ، المرحومی ، البهائی ، أَبِي البَقَاءِ الشَّافِعِي ، السُّبُكِي ، ضَاعَفَ اللهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ : هُوَ عَيْنُ أَعْيَانِ الزَّمَانِ ، وَالمَحَدِّثُ بِفَضْلِهِ عَلَى مَرَمَرِ اللَّيَالِي وَلَيْسَ الخَبْرُ كَالعِيَانِ ؛ مَاوِي مَنْصِبًا مِنَ المَنَاصِبِ الدِّيْنِيَّةِ إِلاَّ كَانَ لَهُ أَهْلًا ، وَلَا أَرَادَ الأَنْصِرَافَ مِنْ مَجْلِسِ عِلْمٍ إِلاَّ قَالَ لَهُ مَهْلًا ؛ وَلَا أَسْتَبْدِلَ بِهِ فِي وَظِيفَةٍ إِلاَّ نُسِبَ مُسْتَبَدُّهُ إِلَى الحِيفِ ، وَلَا صُرِفَ عَنْ وِلَايَةِ إِلاَّ قَالَ أَسْتَحْقَاقُهُ : كَيْفَ سَاعَ ذَلِكَ لِمُتَعَاظِيهِ فَكَيْفَ وَكَيْفَ .

وكان ولده المجلس السامى، القضاى، الكبيرى، العالمى، الفاضلى، الكاملى،
 البارعى، الأصيلى، العريقى، الجلالى، ضياء الإسلام، نحر الأنام، زين الصدور،
 جمال الأعيان، نجلى الأفاضل، سليل العلماء، صفوة الملوك والسلاطين، خالصة
 أمير المؤمنين، أبو محمد بلغ الله تعالى فيه [عارفيه] غاية الأمل، وأقر به
 عين الزمان كما أقر به عين أبيه وقد فعل؛ قد أرضع لبان العلم وربى فى حجره، ونشأ
 فى بئته ودرج من وكره؛ وكل له سؤدد الطرفين: أباً وأماً، وحصل على شرف
 الحتدين: خالاً وعمماً؛ لم يقع عليه بصر متبصر إلا قال: نعم الولد، ولا تأمله صحيح
 النظر إلا قال: هذا الشبل من ذاك الأسد؛ ولا رمى والده إلى غاية إلا أدرکها،
 ولا أحاط به منطقة طلبسة إلا هنزها للبحث وحرکها؛ ولا أقتفى أثر أبيه وجده
 فى مهيج فضيل إلا قال قائله: أكرم بها من ذرية ما أبرکها ! .

وأنفق أن خرج عنهما ما كان باسمهما من وظيفتى التصدير بالجامع الأموى
 المعمور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة: المتقلة إحداهما إليهما عن سلفيهما
 الصالح قداما، والضايرة الأخرى إليهما بطريق شرعى معتبر وضعا وثابت حكما -
 اقتضى حسن الرأى الشريف أن يحفظ لهما سالف الخدمه، ويرعى لهما قديم الولاء
 فالعبرة فى التقديم عند الملوك بالقدمه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال لذوى البيوت حافظا، وعلى الإحسان
 لأهل العلم الشريف على ممر الزمان محافظا - أن يعاد ذلك إليهما، ويوالى مزيد
 الإحسان عليهما؛ فليتلقياً ذلك بالقبول، ويدسطا بالقول الستهما فمن شمله إنعامنا
 الشريف حق له أن يقول ويكول؛ وملاك أمرهما التقوى فهى خير زاد، والوصايا

وإن كَثُرَتْ فعنهما تؤخذ ومنهما تُستفاد؛ والله تعالى يُقرُّ لها بهذا الأستقرار عينا،
ويُنْجِجُ خَوَاطِرَهُمَا بهذه الولاية إِبْهَاجٍ من وَجَدَ ضَمَّته فقال : (هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رَدَّتْ
إِلَيْنَا) . والاعتماد في ذلك على الخَطِّ الشَّرِيفِ أعلاه الله تعالى أعلاه، مُجَّةً بِمُقْتَضَاهُ؛
إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثامنة — النَّظَرُ .

وهذه نسخة توقيع بنظر البيمارستان النورى، كُتِبَ بها لمن لَقَبَهُ «شِهَابُ الدِّينِ»

وهى :

رِسْمٌ ... - لا زَالَ يُطَلِّعُ في سماءِ المناصبِ السَّنيَّةِ من ذَوِي الأَصَالَةِ وَالْكَفَايَةِ
شِهَابًا، وَيُوَزِّعُ المُسْتَحْتَجِّينَ بِجِهَاتِ الرَّشْكَه إِذِ اخْتَارَ لَهُم من أَهْلِ النُّهْضَةِ من ارتدى
العَفَافِ جِلْبَابًا، وَيُودِعُ صَحَائِفَ الأَيَّامِ ذِكْرَهُ الجَمِيلِ حينَ أَحْيَا قُرْبَاتِ المُلُوكِ
السَّالِفِينَ بِاتِّخَابِ من يُحَدِّدُ لَهُم بِحُسْنِ المَبَاشَرَةِ ثَوَابًا - أَنْ يُجَمَّلَ «مَجْلِسُ الأَمِيرِ»
فُلَانٌ : أَعَزَّهُ اللهُ تَعَالَى فيمَا هُوَ بِيَدِهِ من نَظَرِ البِيمَارِستانِ النُّورِيِّ بِدِمَشْقِ المَحْرُوسَةِ،
عَلَى حُكْمِ التَّوَقِيعِ الكَرِيمِ وَالوَالِيَةِ الشَّرْعِيَّةِ اللَّذِينَ بِيَدِهِ، وَأَسْتَقْرَارِهِ في ذَلِكَ بِمُقْتَضَاهُمَا
أَسْتَقْرَارًا يَسْطُو في هَذَا المَنْصِبِ يَدَهُ وَلِسَانَهُ، وَيُظْهِرُ شِهَابَ عَدْلِهِ الَّذِي يُجْرِقُ من
الجُورِ شَيْطَانَهُ؛ وَيَبْرِزُ من مَبَاشَرَتِهِ ما عُرِفَ جَوْهَرُهُ بِحُسْنِ الأَنْتِقَاءِ وَإِبْرِيزُهُ بِحُسْنِ
الانْتِقَادِ، ومن تَأثيرِهِ ما تَبَلَّغَ بِهِ الأَنْفُسُ المُرَادُ بِأَوْسَعِ مَرَادٍ؛ وَيَسْدِي من تَدْيِيرِهِ،
ما يُنْتِجُ تَمييزَ الوَقْفِ وتَمييزَهُ .

فَلْيَسِّرْ ذلكَ على عَادَةِ مَبَاشَرَتِهِ الحَسَنَةِ، وَاسْلُكْ فيمَا مَاعْهَدَ من طَرِيقَتِهِ
المُسْتَحْسَنَةِ؛ مُحْصَلًا من المَقْرَدَاتِ ما يَصْرِفُهَا مُسْتَحَقَّهَا وَقْتِ الحَاجَةِ إِلَيْهَا، مُثَابِرًا

على حُسن مُعالجة المَضْرُور الذى لا تَقْدِرُ يَدُهُ من العِجْزِ عليها ؛ مُواصِلًا فِعْلَ الخَيْرِ
بِاستمرارِ صدقاتِ الواقِفِ لِئِشَارِكِهِ فى الأَجْرِ والثَّوَابِ ، مُسْتَجِيبًا لَهُ من الدُّعَاءِ ولنا
بِمُشَارَكَتِهِ فى الأَمْرِ بِالْعَمَلِ بُسْتَنَهُ إلى يَوْمِ المَاتِ ، ضَائِعًا أَمْوَالُ هَذِهِ الجِهَةِ بِتَحْرِيرِ
الأَصُولِ والمَطْلُوقِ والحِسابِ والحُسَابِ ؛ متقدِّمًا إلى الخُدَامِ والقَوَمَةِ بِحَسَنِ الخِدْمَةِ
لِلْعَاجِزِ وَالضَّعِيفِ ، مُؤَكِّدًا عَلَيْهِم فى أَخْذِهِم بِالْقَوْلِ اللَّيِّنِ دُونَ الكَلَامِ العَنِيفِ ؛
مُتَزَمِّيًا لَهُم بِجُودَةِ الخِدْمَةِ لَيْلًا وَنَهَارًا ، مُؤَاخِذًا لَهُم بِمَا يُجِلُّونَ بِهِ من ذلِكَ إِهْمَالًا
وإِفْصَارًا ؛ مُتَقَدِّمًا إلى أَرْبابِ وِظَائِفِ المِعالِجَةِ بِبَدْلِ النِّصِيحَةِ ، وَاسْتِدْرَاكِ الأَدْوَاءِ
المُسْقِمَةِ بِإِتْقَانِ الأَدْوِيَةِ الصَّحِيحَةِ ؛ وَلِيَتَفَقَّدَ الأَحْوَالَ بِنَفْسِهِ : لِيَعْلَمَ أَهْلُ المِكانِ
أَنَّ وِرَاءَهُم من يَقابِلُهُم على التَّقْصِيرِ ، وَلِيَبْذُلَ فى ذلِكَ جُهْدَهُ فَإِنَّ الأَجْتِمَادَ القَائِلَ
يُؤَثِّرُ الخَيْرَ الكَثِيرَ . وَالوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَعِنْدَهُ مِنَ التَّأدُّبِ العِلْمُ وَحُسْنُ المُبَاشَرَةِ ما فِيهِ
كِفَايَةٌ ، وَفى أَخلاقِهِ من جَمِيلِ المَآثِرِ وما حَازَهُ فى البِدَايَةِ ما يَنْفَعُهُ فى النِّهَايَةِ ؛ وَلِكنْ
تَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ هِىَ السَّبَبُ الأَقْوَى ، وَالْمَنْهَلُ الذِى من وَرَدِهِ يَرَوَى ؛ فليَجْعَلْها
لَهُ ذَخِيرَةً لِيَوْمِ المَعَادِ ، وَمَعْقِلًا عِنْدَ الخُطُوبِ الشَّدَادِ ، وَاللهُ تَعَالَى يُبَلِّغُهُ مِنَ التَّوْفِيقِ
الأَمَلِ والمُرَادِ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! ، وَالاعْتِمَادَ إن شاء اللهُ تَعَالَى .

الصنف الثالث

(من تواقع أرباب الوظائف بحاضرة دمشق - تواقع أرباب
الوظائف الديوانية ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع النصف بـ «المجلس العالى» وهى على ضريين)

الضرب الأول^(١)

(تواقع الوزارة بالمملكة الشامية على ما استقر عليه الحال)

فقد ذكر فى " التعريف " أنه يكتب بالشام للصاحب [عز] الدين أبى يعلى
« حمزة بن القلانسى » رحمه الله بـ «الجناح العالى» لحلالة قدره ، وساقية خدمه ،
وعناية من كتب له بذلك . لكنه لم يبين مقدار قطع الورق لذلك . ولا يخفى أنه
كتب به فى قطع الثلثين ، على القاعدة فى أنه يكتب للجناح فى قطع الثلثين . وقد ذكر
بعد ذلك أن الذى استقر عليه الحال أنه يكتب للوزير بالشام « المجلس العالى »
بالدعاء ، كما كتب للصاحب أمين الدين أمين الملك .

[وفيه وظائف :

الوظيفة الأولى - ولاية تدبير الممالك الشامية]^(٢)

وهذه نسخة توقيع للصاحب « أمين الملك » المذكور بتدبير الممالك الشامية
والخوائص الشريفة والأوقاف المبرورة ، من إنشاء الصلاح الصفدى ، وهى :

(١) لم يذكر الثانى .

(٢) بياض بالأصل والتصحيح من " التعريف " (ص ٧٥) .

(٣) زدنا ما بين القوسين لأقتضاء المقام وتتم الكلام .

الحمد لله الذى جعل وَلِيَّ أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةَ، أَمِينًا، وَأَحَلَّهُ مِنْ ضَمَائِرِنَا الطَّاهِرَةَ، مَكَانًا
أَيُّمَا تَوَجَّهَ وَجَدَهُ مَكِينًا، وَخَصَّهُ بِالْإِخْلَاصِ لِدَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةَ، فَهُوَ يَقِينًا يَقِينًا، وَعَضُدٌ
بِتَدْيِيرِهِ مَمَالِكِنَا الشَّرِيفَةَ فَكَانَ عَلَى نَيْلِ الْأَمَلِ الَّذِي لَا يَمِينُ يَمِينًا، وَزَيْنٌ بِهِ آفَاقُ
الْمَعَالِي فَمَا دَجَا أَمْرُهُ إِلَّا كَانَ فِكْرُهُ فِيهِ صَحِيحًا مُبِينًا، وَجَمَلٌ بِهِ الرُّتَبَ الْفَائِزَةَ فَكَمْ قَلْدٌ
جِيدَهَا عِقْدًا نَفِيسًا وَرَضَعَتْ تَاجَهَا دُرًّا ثَمِينًا، وَأَعَانَهُ عَلَى مَا يَتَوَلَّاهُ فَهُوَ الْأَسَدُ الْأَسَدُ
الَّذِي آتَخَذَ الْأَقْلَامَ عَرِينًا .

تَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ الَّتِي حَصَّنَتْنَا بِوَلِيِّ تَجَمَّلَ بِهِ الدُّوَلُ، وَتَعْنَى الْمَمَالِكُ بِتَدْيِيرِهِ عَنِ
الْأَنْصَارِ وَالْحَوَلِ، وَتَحْسُدُ أَيَّامِنَا الشَّرِيفَةَ [عَلَيْهِ] أَيَّامٌ مِنْ مَضَى الدُّوَلِ الْأُولِ .
وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ نَسْتَمَطِّرُ بِهَا صَوْبَ الصَّوَابِ،
وَنَزْفُلُ مِنْهَا فِي تَوْبِ التَّوَابِ، وَنَعْتَدُ بِرَبِّهَا وَاصِلًا لِيَوْمِ الْفَصْلِ وَالْمَأْبِ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ الصَّادِقُ الْأَمِينُ، وَرَسُولُهُ الَّذِي لَمْ يَكُنْ عَلَى الْغَيْبِ بَصِينًا، وَحَبِيبُهُ الَّذِي فَضَّلَ
الْمَلَائِكَةَ الْمُقَرَّبِينَ، وَنَجِيَّهُ الَّذِي أَسْرَى بِهِ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى
حُجَّةً عَلَى الْمُلْحِدِينَ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ صَحَّبُوا وَوَزَرُوا، وَأَيَّدُوا
حِزْبَهُ وَنَصَرُوا، وَعَدَلُوا فِيمَا نَهَوْا وَأَمَرُوا، صَلَاةً تَكُونُ لَهُمْ هُدًى إِذَا حَشَرُوا،
وَتَضْوَعُ لَهُمْ عَرَفَهُمْ فِي الْعُرْفِ وَتُطِيبُ نَشْرَهُمْ إِذَا نُشِرُوا؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا
إِلَى يَوْمِ الدِّينِ .

وبعد، فَإِنَّ أَشْرَفَ الْكَوَاكِبِ أَبْعَدُهَا دَارًا، وَأَجْلَهَا سُرًى وَأَقْلَهَا سِرَارًا،
وَأَعْلَاهَا مَنَارًا؛ وَأَطْيَبَ الْجَنَّاتِ جَنَابًا مَا طَابَ أَرْجَا وَمَنَارًا، وَبُخْرٍ خَلَّاهُ كُلُّ نَهْرٍ
«يَرُوعُ حَصَاهُ حَالِيَةَ الْعَدَارِي»، وَرَمَحَتْ مَعَاطِفَ غُصُونِهِ سُلَافَ النَّسِيمِ قَرَأَهَا
سُكَارَى، وَمَدَّتْ ظِلَالَ الْغُصُونِ فَتَخَالَ أَنَّهُمَا عَلَى وَجَنَاتِ الْأَنْهَارِ تَدْبُ عِدَارًا .

وكانت دِمَشْقُ المحروسَةُ لها هَذِهِ الصِّفَاتُ ، وعلى صَفَاهَا تَهَبُ سَمَاتٌ دَهْدَه
السَّمَاتُ ، لم يَتَّصِفْ غَيْرُهَا بِهَذِهِ الصِّفَةِ ، ولا اتَّفَقَ أَوْلُوا الأَبَابِ إِلاَّ على مَحَاسِنِهَا
أُخْتَلِفَ ، فهى البُقْعَةُ التى يَطْرَبُ لأَوْصَافِ جَمَاهِا الجَمَادِ ، والبَلَدُ الذى ذَهَبَ بَعْضُ
المُفَسِّرِينَ إلى أَنَّهَا إِرْمُ ذَاتِ العِمَادِ ، وهى فى الدُّنْيَا أُمُودُجُ الجِنَّةِ التى وَعَدَ المُتَّقُونَ ،
ومِثَالُ النِّعَمِ لِلَّذِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ ، وهى زَهْرَةٌ مُلْكَمَا ، وَدُرَّةٌ سِلْكِيَا ، وقد خَلَّتْ
هَذِهِ المِدَّةُ مَن يُرَاعَى تَدْبِيرُهَا وَيَجِى حَوَزَتَهَا وَيُحَاشِيهَا مِنَ التَّدْمِيرِ وَمِثْلًا خَرَائِمَهَا
خَيْرًا يُجِى ، إِذَا مَلَأْنَا سَاحَتَهَا خَيْلًا وَرَجَالًا - تَمِينُ أَنْ نَتَدَبَّ لَهَا مِنْ جَرَبِنَاهُ بَعْدًا
وَقُرْبًا ، وهَزْرَانُهُ مَثَقَفًا وَسَلْدَانُهُ عَضْبًا ، وَخَبَانَاهُ فى خَرَائِنِ فِكْرِنَا فَكَانَ أَشْرَفُ . أَيَدْرُسُ
وَأَعَزُّ مَا يُجِى ، كَمْ نَهَى فى الأَيَّامِ وَأَمْرٌ ، وَكَمْ شَدَّ أَرْرًا لَمَّا وَزَرَ ، وَكَمْ غَنَيْتَ بِهِ أَيَّامُنَا
عَنِ الشَّمْسِ وَآيَالِنَا عَنِ القَمَرِ ، وَكَمْ رَفَعْنَا رَايَةَ مُجِدِّ تَلْقَاهَا عَرَابُهُ فَضْلُهُ بِيَمِينِ الظَّفَرِ ،
وَكَمْ عَلَا دُرًّا رُتِبَ تَعَزُّ على الكَوَاكِبِ الثَّابِتَةِ فَضْلًا عَمَّن يَتَنَقَّلُ فى المَبَاشِرَاتِ مِنَ
البَشَرِ ، وَكَمْ كَانَتِ الأَمْوَالُ جُمَادَى وَأَعَادَهَا رَبِيعًا غَرَدَ بِهِ طَائِرُ الإِقْبَالِ وَصَفَرَ .

(١) و [لما] كان [الصاحب أمين الملك] هو معنى هذه الإشارة، وشمس هذه الهالة
وبدر هذه الدار، نزل من العلياء فى الصميم، ونخرنا بأقلامه التى هى سُمُرُ الرِّوَّاحِ كما
نَخَرَتْ بِقَوْسِهَا تَمِيمٌ ، وَحَفِظَتْ الأَمْوَالِ فى دَفَاتِرِهِ التى يُوشِّسُهَا فَأَوَتْ إلى الكَهْفِ
وَالرَّقِيمِ ، وَقَالَ لِسَانُ قَلْبِهِ : (اجْعَلْنِي على خَرَائِنِ الأَرْضِ إلى حَفِيطُ عَالِمِ) وَعَقِمِ
الزَّمَانُ أَنْ يَجِىَ بِمِثْلِهِ « إِنَّ الزَّمَانَ بِمِثْلِهِ لَعَقِيمٌ » وَتَشَبَّهَ بِهِ أَقْوَامٌ فَبَانُوا وَبَادُوا ، وَقَامَ
مِنْهُمْ عِبَادُ العِبَادِ فَلَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ كَادُوا - أَرَدْنَا أَنْ تَنَالَ الشَّامُ فَضْلَهُ كَمَا نَالَتهُ مَصْرُ
فَمَا تَسَاهَمَ فِيهِ سِوَاهُمَا ، وَلا يَقُولُ لِسَانُ المُلْكِ لغيره :

حَلَلَتْ بِهَذَا حَلَّةٌ ثُمَّ حَلَّةٌ * بِهَذَا فَطَابَ الوَادِيَانِ كِلَاهُمَا

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة، ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه في ذلك .

فليتق هذه الولاية بالجزم الذي نعهد، والجزم الذي شاهدناه وشهدته، والتدبير الذي يعترف الصواب له ولا يجهده؛ حتى يثمر الأموال في أوراق الحساب، وتزيد أموالاً وسماً وتفوق الأمواج في البحار وتفوت القطر من السحاب؛ مع رفق يكون في شدته، ولين يزيد مضاء حدته، وعدل يصون مهلة مدته؛ والسدل يعمر، والغدر يدمر، ولا يثمر؛ بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها، والمعالم تطلع بدور بدورها كاملة كل هلال على أصحابها؛ والرؤوم لا تزداد على الطافة في بابها، والرعايا يجنون ثمر العدل في أيامه متساهاً؛ وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنجل فلا يكدر وردها بأن تؤخر، وإذا استدعينا لأبوابنا بهم فليكن الإسراع إليه يجلب البرق المتالق في السحاب المسخر؛ فما أردناك إلا لأنك سهم خرج من كمانه، وشهم لا ينهى إلى الباطل عيانه وعيانه؛ فاشكر هذه النعمة على ما منحها، وشف الاستماع بمدائحها؛ متحققاً أن في الثقل، بلوغ العز والامل، وأنه لو كان في شرف الماوى بلوغ منى «لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل»؛ فاستصحب الفرح والجدل، بدل الفكر والجدل .

الوظيفة الثانية — كتابة السر بالشام .

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق . وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام، كتبت بها لفتح الدين بن الشهيد، من إنشاء القاضي ناصر الدين بن النشائي، في مستهل ذي القعدة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهي :

الحمد لله مجزِلِ المَنِّ والمَنِّحِ ، ومُرْسِلِ سَحَابِ العَطَاءِ السَّمْحِ ، ومُعْمِلِ فِكْرِنَا الشَّرِيفِ
 فِي آتِحَابِ مَنْ أَوْرَى زَنْدَ الحَايِرِ بِالقَدْحِ ، ومُدْتَلِ السَّرِيِّينَ الأَفْضَلَ مِنْ صَدْرِ إِلَى
 صَدْرِ بِحِمَى يَصُونَ لَهُ السَّرْحَ ، وَيُعْنِي مَشْهُورَ الأَفَاطِهِ عَنِ الشَّرْحِ ؛ وَمَجْمَلِ بِنَاءِ الدِّينِ ،
 بِمَا سَكَنَ بِهِ مِنْ صَمِيمِ الفَضْلِ المِيِّينَ ، وَمَا أَقْتَرْنَ بِأَبْوَابِهِ مِنْ حَرَكَةِ الفَتْحِ .

نحمده على نِعَمِ عَاطِرَةِ النِّعَمِ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَنَنِ عَالِيَةِ السَّفْحِ . وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ
 إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُجَبِّي قَائِلُهَا مِنْ حَرِّ الجَحِيمِ وَتَقِيهِ شَرَّ شَرِّ ذَلِكَ
 اللِّغَمِ ، وَتَحْطُبُ بِهَا أَلْسِنَةُ الأَقْلَامِ عَلَى مَنَارِ الأَنَامِلِ فُتُنِشِي عِنْدَهَا مِنْ مُطْرَبَاتِ
 الوُرْقِ عَلَى غُضُونِ الأَوْرَاقِ هَدِيدِ الصَّدْحِ . وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بَلَغَ
 الرِّسَالَةَ وَادَى الأَمَانَةَ وَعَامَلَ الأُمَّةَ بِالنُّصْحِ ، وَأَزَالَ عَنْهُمْ التَّرْحَ وَأَمِنَهُ اللهُ عَلَى أَسْرَارِ
 وَحْيِهِ فَكَانَ أَشْرَفَ أَمِينٍ خَصَّه اللهُ فِي مُحْكَمِ آيَاتِهِ بِالمَدْحِ ، وَجَعَلَهُ أَعْظَمَ مِنْ أَمْرٍ
 بِالمَعْرُوفِ وَنَهَى عَنِ المُنْكَرِ فَلَمْ تَأْخُذْهُ فِي اللهِ لَوْمَةٌ لَأِيْمٍ مِّنْ حَا وَمَنْ لَمْ يَلْحَقْ بِصَلَّى اللهِ
 عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ أَهْلِ الوَفَاءِ وَالصَّفَاءِ وَالصَّفْحِ وَالذِّينَ جَاهَدُوا فِي اللهِ
 حَقَّ جِهَادِهِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ وَالكَدِّ وَالكَدْحِ ؛ وَرَفَعُوا أَعْلَامَهُم المُظَلَّلَةَ ، وَنَصَبُوا
 أَقْلَامَهُم المَعْدَلَةَ ، فَكَمْ لَهِمْ فِي المُشْرِكِينَ مِنْ جِرَاحٍ لَا تَعْرِفُ الجِرْحُ ؛ وَذَادُوا عَنِ حَوْزَةِ
 الدِّينِ ، بِإِرَاقَةِ دَمِ الكُفَّارِ المُتَمَرِّدِينَ ، فَحُسْنُ مِنْهُمُ الذَّبُّ وَالدَّبْحُ ؛ وَكَانُوا فُرْسَانَ
 الكَلَامِ ، وَأُسُودَ الإِقْدَامِ ، الَّذِينَ طَالَمَا خَسَّاتُ بِهِمُ كِلَابُ الشَّرِكِ فَلَمْ تُطِيقِ التَّبَجُّ ؛
 صَلَاةً دَائِمَةً بِقَايَةِ الصَّرْحِ ، مَا أَقْتَرْنَ النِّظْرُ بِاللَّحْ ، وَمَا هَطَلَ السَّحَابُ بِالسَّحْ ؛ وَسَلَّمْ
 تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَوَّلِيَّ مَنْ خَطَبَتِ المَنَاصِبُ العَلِيَّةَ ، مُحَاسِنَةَ الجَلِيلَةِ الجَلِيلَةِ ، وَرَغِبَتِ
 المَرَاتِبُ الَّتِي هِيَ بِاخْتِيَارِ حَرِيَّةِ ، فِي جَمِيلِ حَالَتِهِ الَّتِي هِيَ بِعُقُودِ المَفَاخِرِ حَالِيَّةِ ، وَسَجَّتِ

سَحَابُ الإِقْبَالِ الوَائِلِيَّةُ ، ذُبُولُ فَضَائِلِهِ الفَاضِيَّةُ ، وَكَتَسَبَ العُلُومَ الفَرَعِيَّةَ وَالْأَصْلِيَّةَ ،
 مِنْ مَجَامِيحِ فُنُونِهِ الَّتِي تُعْرَبُ عَنْ أَنْوَاعِ الفَوَائِدِ الجُمْلِيَّةِ وَالتَّفْصِيلِيَّةِ - مِنْ شَهَدَتِ المَفَاحِرُ
 بَأَنَّهُ لَمْ يَزَلِ الشَّهِيدَ لَهَا وَابْنَ الشَّهِيدِ ، وَحَمِدَتِ المَآثِرَ الَّتِي هُوَ الشَّهِيرُ بِهَا فَمَا عَلَيْهَا
 فِي جَمِيلِ الأَدْوَاتِ مِنْ مَزِيدٍ ، وَتَشَيَّدَتِ مَبَانِي مَعَالِيهِ الَّتِي أَقْرَنَ بِأَبِ خَيْرِهَا مِنْهُ
 بِالْفَتْحِ المُبِينِ ، وَتَمَهَّدَتِ مَعَانِي أَمَالِيهِ بِالتَّخِيلِ اللَّطِيفِ وَاللَّفْظِ المَتِينِ ؛ وَتَعَدَّدَتِ
 أَوْصَافَ شَيْمِهِ فَهِيَ لِمَحَاسِنِ الدَّهْرِ تَزِيدُ وَتَزِينُ ، وَغَدَا مِنْ الكَاتِبِينَ الكِرَامِ وَالكِرَامِ
 الكَاتِبِينَ ؛ الَّذِينَ تَضَحُّ بِأَطْلَاعِهِمْ مَرَايِدَ المَقَاصِدِ وَتَبِينُ . طَالَمَا آتَسَّقَ عَقْدُ نَظْمِهِ
 المَتِينِ ، وَبَسَقَ غُصْنُ قَلَمِهِ المُشْمِرَ بِالدِّينِ ، وَأَضَافَ إِلَى أَدَبِ الكُتَابِ حِلْيَةَ العُلَمَاءِ
 المُتَقِينِ ، وَارْتَقَبَ أَفْعَالَ الجَمِيلِ الَّتِي آسْتَوْجِبُ بِهَا حُسْنَ التَّرَقُّيِّ إِلَى أَعْلَى دَرَجَاتِ
 المُتَقِينِ ، وَقَدَّ أَجَادَ الطُّرُوسِ جَوَاهِرَ الفَاطِظَةِ الَّتِي تَفُوقُ الجَوْهَرَ عَنْ يَقِينِ ؛ فَهِيَ
 بِنُضَارِ خَطِّهِ مَصُوعَةٌ أَهْبَجَ صِيَاغَهُ ، وَفِي طَرِيقِ الإِنْشَاءِ سَالِكَةٌ نَهْجَ البَلَاغَةِ ، وَكَذَا
 يَحَارُ الفَضَائِلُ وَارِدَةٌ مَنَاهِلَهَا المُسَاغَةَ ؛ كَمْ أَعْرَبَ كَلِمَةُ الطَّيِّبِ ، عَنْ سَخِّ سَحَابِ الصَّوَابِ
 الصَّيِّبِ ؛ وَكَمْ أَعْنَى فِي المِهْمَاتِ بِكُتُبِهِ ، عَنْ جَبِشِ الكِتَابِ وَقُضْبِهِ ؛ وَكَمْ هَزَّأَتْ
 صَحَائِفُهُ بِالصَّفَاحِ ، وَكَمْ أَعْنَتْ رَاشِقَاتِ فِكْرِهِ الثَّابِتَةَ العِلْمَ عَنْ سَهْوِ السَّهْمِ الرَّايْحِ ؛ وَكَمْ
 تَسَاجَرَتْ أَقْلَامُهُ البِيضُ الفِعَالِ هِيَ وَسُمُرُ الرَّمَاحِ فَكَانَ نَصْرُهَا الأَلَايْحِ ، وَكَمْ تَعَارَضَ نَشْرُ
 وَصْفِهِ وَشَدَا الطَّيِّبِ فَالْفَى الزَّمَانُ تَنَاءَهُ هُوَ الفَاحِجُ ، وَكَمْ أَشْتَمَلَ عَلَى أَنْوَاعِ مِنَ النَّفَاسَةِ
 فَاسْتَوْجَبَ مِمَّا مَنَّا يَقْضَى لَهُ بِأَجْرِلِ المُنَى وَالمَنَائِحِ .

ولما كان المجلس العالی ، القاضوی ، الأجلی ، الكیبری ، العالی ، الفاضلی ،
 الکاملی ، الأوحدی ، الأیبری ، الرئیسی ، البیغی ، المفیدی ، المجدی ، الأصیلی ،
 العریقی ، العایدی ، الزاهدی ، المؤمنی ، الفتیحی ؛ بحال الملوك والسلاطين ، ولی

أمير المؤمنين ، محمد بن الشهيد؛ أدام الله نعمته : هو الذي أعرب القلم عن صفاته ، وأطرب المسامع ما آداه اليراع عن أدواته ؛ ورام البنان أن يستوعب بيان شكره فلم يدرك شأوغاياته ، وتسارعت بدائع البدائه من أفكاره فسأقت جريان يراعه في أبياته ؛ وراقت أماليه ، لناقلي أفاظه ومعانيه ، فشكر السمع والفهم بها هبات هباته ؛ فأدابه مشهوره ، وعلومه مذكوره ؛ وتخليه بمذاهب الصوفية أرتاضت به نفسه الخيرة الخيره ، وإخلاصه في عبادة الله تعالى حسنت به منه السيرة والسريه ؛ وصيانتة للأسرار الشريفة أستحق بها إسناد أمرها إليه ، وإيداع غوامضها لديه ، والتعويل في حفظها وفي لفظه للفظها عليه - آقتضى حسن الرأي الشريف أن نجتية لما تحقنا منه من ذلك ، ونخصه بصحابة ديوان الإنشاء الشريف في أجل الممالك ، ونجعل قدمه ثابتة الرسوخ ، والصعود في مشيخة الشيوخ ، ليسلك فيها أحسن المسالك .

فذلك رسم بالأمر الشريف ^(١) الأشرفي ، الناصري - لازال لأبوابه الشريفة فتح في الخير يقدمه النصر ، ولسعابه منح ما يعرف مدد أمداده القصر - أن تفوض إليه صحابة ديوان الإنشاء الشريف ، ومشيخة الشيوخ بالشام المحروس ، على عادة من تقدمه وقاعدته ومعلومه الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت .

فليأشر ذلك بوافر عفافه ، ووافي إنصافه ؛ ومشهور أمانته ، ومشكور صيانتته ؛ كما للأسرار ، كتاباً للبار ، ليكون من الأبرار ؛ عالماً مصالِح الأنام بإرشاد رأيه وصوابه ضابطاً أحوال ديوانه ، متحرراً في كثير الأمور وقليلها : فإن الكتاب يظهر من عنوانه ؛ محرراً لما يمني معتبراً لما يكتب ، مجملاً للطالعات الكريمة بفكره المتسرع

(١) بياض بالأصل ولعله "العالي" .

وتصوره الأرتب ، حافظاً أزيمة ما يصدر من مثال وما يرد في المهمات الشريفة
فهو أدرى وأدرب بما على ذلك يترتب ، محافظاً كعادته على دينه ، لازماً لصدق
يقينه ، حافظاً لأهل الخير جناحه ، مانحاً لهم نجاحه ، معاملاً للفقراء بكرم نفس بالله
غنيه ، ملاحظاً لأحوالهم بالقول والفعل والعمل والنية ، محترماً لكبيرهم ، حانياً على
صغيرهم ، مفكراً فيما يعود نفعه عليهم ، راجحاً في الباطن والظاهر إليهم ، معنياً لهم
بالاشتغال بالعبادة ، مسلطاً لهم الطريق إلى الله فإنها الطريق الحادّة ، مستجلباً
لدعواتهم الصالحة ، مستفيداً من متاجر بركاتهم الرابحة . والوصايا كثيرة ومن نور
إفادته تقتبس ، ومن مشهور مادته تلمس ، وملاكها التقوى وهي أول كل أمر
وآخره ، وبملازماتها تتم له مفاعله ، والله تعالى يحرسه في السر والنجوى ، ويظهر
بارشاده للعاني والبيان لكل نجوى ، بمنه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بكتابة السر بالشام ، كتبت به للقاضي « شرف الدين
عبد الوهاب » بن فضل الله ، عند ما رسم بنقله من القاهرة إلى دمشق ،
في ذي الحجة سنة إحدى عشرة وسبعائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين « محمود
الحلبي » وهي :

الحمد لله الذي خصّ دولتنا الشريفة برعاية الدم ، وحفظ ما أسلف الأولياء
من الطاعات والخدم ، وإدامة ما أسدته إلى خدم آيائنا الزاهرة من الآلاء والنعم ،
وإفاضة حلل أعينها ، التي هي أحب إلى من شرف بولائها ، من حمر النعم ، وأبقى
عوارفها على من لم يزل معروفاً في صون أسرارها بسعة الصدر وفي تدمير مصالحها
بصحة الرأي وفي تنفيذ مراسمها بطاعة اللسان والقلم .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ الَّتِي مَا اسْتَهَلَّتْ عَلَىٰ وَلِيِّي فَاقْلَعْ عَنْهُ غَمَامُهَا ، وَلَا اسْتَقَرَّتْ بِيَدِ صَنِيعِي
فَانْتُرِعَ مِنْ يَدِهِ حَيْثُ تَصَرَّفَ زِمَامُهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً لَا تَزَالُ نَعْتَمُّ بِجِبَالِهَا الْمَتِينِ ، وَيَتَلَقَّى عَرَابَهُ إِخْلَاصِنَا رَايَةَ فَضْلِهَا بِالْيَمِينِ ؛
وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَكْرَمُ مَبْعُوثٍ إِلَى الْأُمَّمِ ، بِالْإِحْسَانِ وَالْكَرَمِ ؛ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ كَرَّمْتَ أَنْسَابَهُمْ ، وَأَضَاعْتَ لَهُمْ وُجُوهَهُمْ وَأَحْسَابَهُمْ ؛
فَرَفَلُوا فِي حُلَلٍ مَا أَكْتَسَبُوهُ مِنْ سُنَّتِهِ ، وَأَكْتَسَبُوهُ مِنْ سُنَّتِهِ ، فَحُسْنٌ مِنْهَا أَكْتَسَبُواهُمْ
وَأَكْتَسَبَهُمْ ؛ صَلَاةٌ لَا تَزَالُ لَهَا الْأَرْضُ مَسْجِدًا ، وَلَا يَبْرَحُ ذِكْرُهَا مُغَيَّرًا فِي الْأَفَاقِ
وَمُنْجِدًا ، وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فَإِنَّ أَوْلَىٰ مِنْ حَوَلْتِهِ مَكَارِمُنَا الْإِقَامَةَ حَيْثُ يَهْوَىٰ مِنْ وَطَنِهِ ، وَبَوَّاتِهِ نِعْمَنَا
الْجَمْعَ بَيْنَ ذِمَامِ رَبِّنَا وَبَيْنَ مَا فَارَقَهُ مِنْ سَكْنِهِ ؛ وَمَلَكَتْهُ عَوَاطِفُنَا ، زِمَامَ التَّصَرُّفِ
حَيْثُمَا أَمَكُنْ مِنْ خِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ ، وَعَرَفْتَهُ عَوَارِفُنَا ، أَنَّ مَكَانَتَهُ عِنْدَنَا عَلَىٰ حَالِهَا حَيْثُ
أَدَّى مَا عَدَّقَ بِهِ مِنْ وَظِيفَتِهِ - مَنْ لَمْ يَزَلْ قَلَمُهُ لِسَانَ مَرَّاسِمِنَا ، وَعِنَانٌ مَا تُجْرِيهِ
فِي الْأَفَاقِ مِنْ سَوَابِقِ مَكَارِمِنَا ، وَتَرْجُمَانِ أَوَامِرِنَا ، وَخَطِيبِ الْآئِنَا الَّتِي غَدَّتْ بِهَا
أَعْطَافُ التَّقَالِيدِ مِنْ جُمْلَةِ مَنَابِرِنَا .

ولمَّا كَانَ الْمَجْلِسُ الْعَالِي : هُوَ الَّذِي لَمْ يَبْرَحْ صَدْرُهُ خِزَانَةَ أَسْرَارِنَا ، وَفِكَرُهُ كَنَانَةً
إِعْلَانِنَا فِي الْمَصَالِحِ وَإِسْرَارِنَا ، وَخَاطِرُهُ مِرَاةَ آرَائِنَا ، وَيَرَاعُهُ مِشْكَاتَةَ مَا يُشْرِقُ : مِنْ أَنْوَارِ
تَدْيِيرِنَا ، أَوْ يَبْرِقُ : مِنْ أَنْوَاءِ الْآئِنَا ؛ يَنْطِقُ قَلَمُهُ فِي الْأَقَالِيمِ عَنِ الْإِسْنَةِ أَوَامِرِنَا الْمُطَاعَةِ ،
وَيَنْفُذُ كَلِمَتَهُ عَنِ مَرَّاسِمِنَا فِي دِيْوَانِ الْإِنْسَاءِ بِمَا تُقَابِلُهُ أَقْلَامُ الْجَمَاعَةِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ ؛
وَكَانَتْ سِنَّتُهُ قَدْ عَلَتْ فِي خِدْمَتِنَا إِلَىٰ أَنْ رَأَيْنَا تَوْفِيرَ خَاطِرِهِ عَلَىٰ الْبَرَكَاتِ ، عَنْ كَثِيرٍ
مِمَّا يَتَّبِعُ رِكَابَنَا الشَّرِيفَ مِنْ لَوَازِمِ الْحَرَكَاتِ ؛ وَأَنَّ نَعْفِيَهُ مِمَّا يُلْزِمُ الْإِقَامَةَ بِأَبْوَابِنَا

الشريفة من كثرة المثل بين يدينا، وأن تقتصر به على أخف الوظيفتين إذ لا فرق في رتبة السريين ما يصدر عنا أو ما يرد إلينا .

فوسم بالأمر الشريف، العالى، المولوى، السلطانى، الملكى، الفلانى، الفلانى، أن يكون فلان صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس، بمعلومه الشاهد له به الديوان المعمور بالأبواب العلية، عوضاً عن أخيه المجلس السامى، القضائى، المحيوى « يحيى بن فضل الله » ويستمر أخوه القاضى « محيى الدين » المذكور مع جملة الكُتاب بديوان الإنشاء الشريف بالشام المحروس، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور .

فليأشُر هذه الرتبة التى تأثرت به قواعدها وعن تقريره وتحريه أخذ كل من كان بأنواعها وأوضاعها علياً، فإنه لم يخرج عن أخيه شياً وصل إليه، ولا فوض له إلا ما هو بحكم عموم الأولوية والأولية فى يديه، وأما ما يتعلق بذلك من وصايا تبسط، وقواعد تُشترط، فإنها منه استفادها من رفقها، وعنه ارتوى بها ورواها من تعلمها، ونحن نعلم من ذلك ما لا يحتاج إلى أن يزداد فيه يقيناً، ولا أن يزيد به ذكره معرفةً وتمكيناً، والاعتماد

قلت : ومن غريب ما وقع : أنه كتب للقر الشهابى بن فضل الله بكتابة السر بالشام، حين وليها بعد انفصاله من الديار المصرية توقيع مفتوح بـ «أما بعد حمد الله» من إنشاء المولى « تاج الدين بن الباربارى » وكأنه إنما كتب بذلك عند تغير الساطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » عليه، على ما هو مذكور فى الكلام على كُتاب السر فى مقدمة الكتاب .

وهذه نسخة توقيع بكتابة السرباشام المحروس :

أما بعد حمد الله منقل الشهب في أحب مطالعها ، ومعلي الأقدار بتصرف
الأقدار ورافعها ، ومبهج النفوس بمعادها إلى أوطانها ومواضعها ، ومضى مشيئته
في خليقته بالخيرة فيما يشاء لطالعها ، والشهادة له بالوحدانية الآخذة من القلوب
بجامعها ، والصلاة على سيدنا محمد الذي بصر الأمة بهديها ومنافعها ، وصان شرعته
الشريفة تلو الملل بنسخ شرائعها ، وعلى آله وصحبه الذين استودعوا أسرار الملة
خفظوا نفيس ودائعها - فإن ممالحنا الشريفة هي سواء لدينا في التعظيم ، وأولياء
دولنا الشريفة يتنقلون فيها في منازل التكريم ، وعندنا من « فضل الله » رعاية للعهد
القديم ، وتأكيده لأسباب التديم ، فلا غضاضة لمن نزلناه من أبوانا إليها ، ولا وهن
يطراً على علو المراتب ويعتريها ، حيث صدقاتنا دائمه ، ونفور إقبالنا باسمه ،
ومراسمتنا لمساعدة الأقدار في الأيام حاكمه ، و« الشهاب » لو لم يسرفي سمائه ، لما
أهتدي الناظرون بضياته ، والذرة لو مكثت في صدفيها ، لما حظيت في العقود
بشرفها .

وكان المجلس العالي ، القضاي ، الشهابي ، قد أقام في خدمتنا الشريفة بالأبواب
العالية حافظاً للأسرار ، قائماً بما يحب ونختار ، ثم لما أخذ حظله من القرب من
أيدينا الشريفة : رأينا أن عوده إلى أوطانه ، وأدليه من تمام إيمانه ؛ وأن مرجعه
إلى محله ، من نعم الله عليه وفضله ؛ وما سار إلا والإقبال يزوده ، والاستقبال به
وأهل بيته يسعده ويضعده .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن ينقل إلى كتابة الإنشاء الشريف بدمشق
المحروسة ، وأن يكون متحدتاً عن والده ، على ما كان عليه بالديار المصرية ، وليقرر له
من المعلوم كذا وكذا .

فَلَيْسَ إِلَى دَارِ كَرَامَتِهِ ، وَلَيْسَتْ قَرَى فِي مَوْطِنِ إِقَامَتِهِ ، قَرِيرَ الْعَيْنِ ، مَمْلُوءَ الْيَدَيْنِ ،
 مَسْرُورًا بِرَفْعِ الْحَلِّ فِي الْمَمْلَكَتَيْنِ ؛ وَلَيْكُنْ لَوْلَادِهِ - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - عَضُدًا ،
 وَلِيُصْبِحَ لَهُ فِي مَهْمَاتِنَا الشَّرِيفَةِ سَاعِدًا وَيَدًا ، وَلِيُضِجَ بِهِ الْيَوْمَ بَرًّا لِيَجِدَ رِضَا اللَّهِ
 غَدًا ؛ فَإِنَّ وَالِدَهُ بَرَكَةُ الْمَالِكِ ، وَلَهُ قَدِيمُ هِجْرَةٍ ، وَسَالِفُ خِدْمَةٍ ، وَحَسَنُ طَوِيَّةٍ ،
 فَحَنُّ نِعْمَتِهِ لَدُنْكَ ، وَالْمُهْمَاتُ الشَّرِيفَةُ يُتَلَقَّاهَا بِنَفْسِهِ ، وَلِيُصْدِرَ فُصُولَ الْمَطَالَعَةِ
 مُدْبِجَةً عَلَى عَادَتِهِ فِي تَدْبِيحِ طَرِيسِهِ ؛ وَلَيْسَتَ عِنْدَ اللَّهِ فَهْوَى الْإِعَانَةِ ، وَلِيَعْتَمِدَ
 عَلَى الرَّفْقِ فِي أَمْرِهِ فَمَا كَانَ الرَّفْقُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ؛ وَمَا بَعْدَ عَنَا ، مَنْ كَانَ بَعِيدًا
 بِالصُّورَةِ قَرِيبًا بِالْمَعْنَى ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُهُ مَنًّا مَنًّا ؛ وَالخَطَّ الشَّرِيفَ أَعْلَاهُ حُجَّةً فِيهِ ؛
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الوظيفة الثالثة - نَظَرُ الْجِيُوشِ بِالشَّامِ .

وَشَأْنُ صَاحِبِهَا كِتَابَةُ الْمُرَبَّعَاتِ الَّتِي تُنْشَأُ مِنَ الشَّامِ ، وَتَنْزِيلُ الْمُنَاشِيرِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي
 تَصْدُرُ إِلَيْهِ .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك ، كُتِبَ بِهِ «لِمُوسَى بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ» مِنْ
 إِتْسَاءِ السَّيِّدِ الشَّرِيفِ شَهَابِ الدِّينِ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ إِحْسَانَنَا عَائِدًا بِصَلَاتِهِ ، وَفَضَّلَنَا بِجَمْعِ شَمْلِ الْإِسْعَادِ بَعْدَ
 شَتَاتِهِ ، وَعَوَاطِفْنَا تُنَبِّهُ جَفْنَ الْإِقْبَالِ مِنْ إِغْفَائِهِ وَسِنَاتِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ نَصَرَ بِنَا جَيْشَ الْإِسْلَامِ فِي أَرْجَاءِ مُلْكِنَا الشَّرِيفِ وَجِهَاتِهِ ، وَجَعَلَ
 الْبَرَكَةَ وَالْيَمْنَ بِأَمْرِنَا فِي حَالَتِي مَحْوِهِ وَإِثْبَاتِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
 شَهَادَةً زَادَتْ فِي جَزَاءِ الْمُخْلِصِ وَحَسَنَاتِهِ ، وَأَضْحَتْ نُورًا يَسْعَى بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ
 وَإِلَى جَنَّتِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي أَظْهَرَ اللَّهُ بِهِ وَاضِحَ آيَاتِهِ ،

وَأَصْبَحَ النَّشْرَ عَاقِبًا مِنْ نَشْرِ رَايَاتِهِ ؛ وَمَحَا الْفِتْرَةَ بِهَيْدِيهِ وَسَرَّ سَرَّاءَ أَوْلِيَايَاهُ وَأَسْمَدَ قُلُوبَ عُدَايَاهُ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا تَأْرَجُ النَّسِيمُ فِي هَبَّاتِهِ ، وَأَبْهَجَ الْعَطَاءَ بِجَزِيلِ هَبَّاتِهِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ مِنَ النَّعِيمِ مَا إِذَا عَادَتْ أَقْرَبَتِ الْعُيُونُ ، وَحَقَّقَتِ الْآمَالَ وَالطُّنُونَ ؛ وَرَفَعَتِ الْأَقْدَارَ وَإِنْ لَمْ يَزَلْ رَفِيعًا مَحَلُّهَا ، وَجَمَعَتِ الْمَسَارَّ الْمَتَدَّ عَلَى الْأَفْنِدَةِ ظَلْمًا ؛ وَعَمَرَتِ رُبُوعَ الْإِحْسَانِ ، وَعَمَّرَتِ بِمَنَائِحِهَا الْحِسَانَ ؛ كَهَيْدَةِ النَّعْمَةِ الَّتِي تَلَقَّتِ الْإِقْبَالَ مِنْ حَافِلِ عَمَامِهِ ، وَجَمَعَتِ شَمْلَ التَّقْدِيمِ مَشْفُوعًا بِإِكْرَامِهِ ؛ وَأَعَادَتْ سَمَاءَ التَّكْرِيمِ هَادِيَةً بِقَطْمِهَا ، مُشْرِقَةً الْأَرْجَاءَ بِنُورِ رَبِّهَا ؛ وَسَفَرَّتْ بُدُورُهَا بِنِهَايَةِ هُوِ أَوْلَى بِاجْتِلَائِهَا ، وَتَهَيَّأَتْ رَبُّهَا لِمَنْ هُوَ جَدِيرٌ بِاعْتِلَائِهَا ؛ وَحَقِيقٌ أَنْ تَعُودَ الْمَوَاهِبُ بَعْدَ فِتْرَتِهَا ، وَأَنْ تُقْبَلَ عَلَيْهِ وَجُوهُ الْمَنَائِحِ بَعْدَ لَفْتِهَا ؛ لِتُصْبِحَ كَوَاكِبُ الْإِسْعَادِ كَأَنَّهَا مَا أَفَلَتْ ، وَعَطَايَا التَّخْوِيلِ كَأَنَّهَا مَا أَتَقَلَّتْ ؛ وَيُعُودَ عَلَيْهِ الْيَوْمُ كَأَمْسِهِ ، وَيَرْجِعُ أَفْقُ الْعَوَارِفِ الْحِسَامِ مُشْرِقًا بِبَدْرِ الْاجْتِبَاءِ وَشَمْسِهِ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي حَسَنَتْ فِي الْخِدْمِ الشَّرِيفَةِ آثَارُهُ ، وَحَمِدَ إِيرَادَهُ فِي الْمُهَيَّمَاتِ الشَّرِيفَةِ وَإِصْدَارَهُ ؛ وَشَكَرَهُ شَامُهُ وَمِصْرُهُ ، وَسَمَا فِي كُلِّ جِهَةٍ حَلَّهَا مَحَلُّهُ وَقَدْرُهُ ؛ وَتَحَقَّقَتْ مِنْهُ رَأْسَةُ قَضَتْ لَهُ بِإِبْدَاءِ النَّعْمِ وَإِعَادَتِهَا ، وَأَنْ تَجْرِيَ لَهُ الدَّوْلَةُ مِنَ الْإِكْرَامِ عَلَى أَجْمَلِ عَادَتِهَا ؛ وَأَنْ تُرْعَى لَهُ حُقُوقُ أَلْفِهَا حَدِيثًا وَقَدِيمًا ، وَتُنَشَرَ عَلَيْهِ ظِلَالُ الْفَضْلِ حَتَّى لَا يَفْقِدَ مِنْهَا عَلَى طُولِ الْمَدَى تَكْرِيمًا .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ ... لا زال ... أن يستقر ... تجديداً لملايس سَعْدُهُ ، وَتَأَكِيدُ الْقَوَاعِدَ بِمَجْدِهِ ، وَتُرْدِدُهُ لِلْفَضْلِ الَّذِي حَلَا مِنْهُلُ وَرِدِهِ ؛ وَرِعَايَةَ يَخْدَمُهُ الَّتِي أَكْبَتْ عَلَيْهَا السِّيُوفُ وَالْأَقْلَامُ ، وَشَكَرَتْ تَأْيِيرَهَا جُنُودُنَا - نَصَرَهَا اللَّهُ

تعالى - بِمِصْرَ وَالشَّامِ ، وَلَمَّا لَهُ مِنْ حُسْنِ سَمِيَّةٍ زَادَهُ وَقَارُهُ ، وَأَصْلِي صَالِحٍ طَابَتْ مِنْهُ ثِمَارُهُ .

فَلَيْسَتْ قَرَّتْ فِي هَذِهِ الْوُضُفَةِ الْمُبَارَكَةِ : عَالِمًا أَنْ لِسَانَ الْقَلَمِ أَمْسَكَ عَنِ الْوَصَايَا لِأَنَّ حَبْرَ هَذِهِ الْوُضُفَةِ فَرَعًا وَأَصْلًا ، وَأَلْفَتْ مِنْهُ نَظْرًا عَلَا قَدْرًا وَكُرْمًا مَحْدًا وَفَصْلًا ، وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ أَدْرَى بِسُلُوكِ مَنْهَا جِهَاتِ الْقَوِيمِ ، وَأَدْرَبُ بِاقْتِنَاءِ سَنَنِهَا الْمُسْتَقِيمِ ، وَالْخَيْرُ يَكُونُ ، وَالْإِعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ .

المرتبة الثانية

(من مراتب أرباب التواقيع الديوانية يدمشق - من يكتب له في قطع الثلث بـ «المجلس السامى» بالياء مفتتحا بـ «الحمد لله» إن علت رتبته وإلا بـ «أما بعد» ، وتشتمل على وظائف)

منها - نظَر الخزانة العالِيَّة ، وشأنها هناك نظير الخزانة الكبرى بالديار المصرية في القديم ، ونظير خزانة الخِصَّص الآن .
وهذه نسخة توقيع بنظر الخزانة العالِيَّة :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعْمِهِ الَّتِي خَصَّتْ الْمَنَاصِبَ السَّنِيَّةَ فِي أَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ بِكُلِّ كُفٍّ كَرِيمٍ ، وَجَعَلَتْ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ مِنْ أَوْلِيَاءِ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ كُلَّ حَفِيظٍ عَلِيمٍ ، وَأَفَاضَتْ ظِلَّ إِعْنَامِنَا عَلَى مَنْ إِذَا أَنْعِمَ النَّظْرَ فِي حَقِّ ذَوِي الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ كَانَ أَحَقَّ بِالْقَدِيمِ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ حَبَاهُ بِفَضْلِهِ الْعَمِيمِ ، وَأَجْتَبَاهُ لِهِدَايَةِ خَلْقِهِ إِلَى السَّنَنِ الْقَوِيمِ ، وَجَعَلَ سَلَامَةَ الصَّلَاةِ الْمَقْبُولَةِ مِنَ التَّقْصِصِ مَقْرُونَةً بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ وَالتَّسْلِيمِ - فَإِنَّ أَوْلَى مِنْ رَجْحِهِ نِلْدَمَتِنَا الْإِخْتِيَارَ ، وَقَدَّمَهُ فِي دَوْلَتِنَا الْإِخْتِبَارَ ،

وَأَخْلَصَهُ حَسَنُ نَظَرِنَا الشَّرِيفِ رُتَبَةَ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِ ، وَأَعْدَقَ لَهُ سَحَابُ بَرْنَا صَوَّبَ إِحْسَانٍ فَلَمْ يُصِبْهُ طَلُّ بَلِّ وَبَلِّ - مِنْ حَمْدِ سَيْرِهِ وَسِيرِهِ ، وَشُكْرِ فِي طَاعَتِنَا وَرَدُّهُ وَصَدْرُهُ ؛ وَزَانَ الْأَصَالََةَ بِالنَّبَاهَةِ ، وَالرَّاسَةَ بِالْوَجَاهَةِ ، وَالْمَعْرِفَةَ بِالزَّاهَةِ ؛ وَجَمَعَ بَيْنَ الصَّلْفِ وَالْأَطْلَاعِ ، وَالتَّضَلُّعِ مِنَ الْعِفَّةِ وَالْأَضْطِلَاعِ ، وَالصِّفَاتِ الَّتِي لَوْ تَحَيَّرَهَا لِنَفْسِهِ لَمْ يَزِدْهَا عَلَى مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ الطَّبَاعِ .

ولما كان نَظْرُ الْخِزَانَةِ الْعَالِيَةِ بِدِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ رُتَبَةً لَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا مِنَ الْأَكْفَاءِ إِلَّا مَنْ وَمَنْ ، وَلَا يُقَدِّمُ لَهَا مِنَ الْأَوْلِيَاءِ إِلَّا مَنْ تَعَيَّنَ مِنْ رُؤَسَاءِ الْعَصْرِ وَفَضْلَاءِ الزَّمَنِ ؛ وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي عَيْنَهُ لَهَا أَرْتِيَادُ الْأَكْفَاءِ ، وَأَصْطُفِي هُوَ مِنْ أَهْلِ الصِّفَاءِ ، وَتَقَدَّمَ مِنْ وَصْفِ مَحَاسِنِهِ مَا لَا يَرْوَعُ تَمَامُ بَدْرِهِ وَظُهُورُهُ بِالنَّقْصِ وَالْأَخْفَاءِ .

فَلذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ نَظْرَ الْخِزَانَةِ الْمَذْكُورَةِ .

فَلْيَبِأْ شَرِّ ذَلِكَ مَبَاشِرَةً مِنْ يَحْقُقُ فِي كِفَايَتِهِ وَفَضِيلَتِهِ التَّامِيلَ ، وَيُظْهِرُ حَسَنَ نَظَرِهِ الَّذِي هُوَ كَالنَّهَارِ لَا يَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ؛ وَلِيَجْرِيَ عَلَى جَمِيلِ عَادَتِهِ فِي النَّهْوِ فِي خِدْمَتِنَا بِالسُّنَّةِ وَالْفَرَضِ ، وَيُضَاعِفِ اجْتِهَادَهُ الَّذِي بَمَثَلِهِ جُعِلَ مِنْ اخْتِيَارِ عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ هَذِهِ الرُّتَبَةَ مَالُ الْأَمْوَالِ ، وَذَخَائِرُ الْإِسْلَامِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْحَيُوشِ وَمَوَارِدُ الْإِفْضَالِ ؛ فَلْيُعْمَلْ فِي مَصَالِحِهَا فَكْرَهُ وَدَأْبَهُ ، وَإِذَا كَانَ حَسَنُ نَظَرِنَا الشَّرِيفِ قَدْ جَعَلَهُ الْمُؤْتَمِنَ عَلَيْهَا : ﴿ فَلَئُوْدُ الَّذِي أَوْثَمِنَ أَمَانَتَهُ وَلِيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ﴾ . وَفِي سِيرَتِهِ الَّتِي عُرِّفَتْ ، وَصِفَاتِهِ الَّتِي إِنْ وَصِفَتْ فَمَا أَنْصَفَتْ ؛ مَا يُعْنَى عَنْ تَفَاصِيلِ الْوَصَايَا وَجَمَلِهَا ، وَإِعَادَةَ مَزَايَا التَّأَكِيدِ : قَوْلُهَا وَعَمَلِهَا ؛ لَكِنْ مَلَكَهَا الصِّبَاةُ الَّتِي هُوَ بِهَا مَوْصُوفٌ ، وَالتَّقْوَى الَّتِي هُوَ بِهَا مَعْرُوفٌ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ .

ومنها - صحابة ديوان النظر، و صحابة ديوان الجيش ونحو ذلك من الوظائف
الديوانية بدمشق .

قلت : هذا إن كتب من الابواب الثمريفة السلطانية ، وإلا فالغالب كتابة
ذلك عن نائب السلطنة بدمشق .

الصنف الرابع

(من الوظائف بدمشق وظائف المتصوفة ومشايخ الخواتق ،
وفيهما مرتبتان)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع الثلث بـ «المجلس السامى» بالياء ، مفتتحا بـ «الحمد لله» .
وبذلك يكتب لشيخ الشيوخ بالشام ، وهو شيخ الخانقاه
الصلاحية ، المسماة بالشميصاتية)

وهذه نسخة توقيع بذلك ، وهى :

الحمد لله الذى اختار لعامة بيوته اولياء يحبونه ويحبهم ، وأصفياء حَفَّهُم بِرَحْمَتِهِ
فاجتهدوا فى طاعته فازداد قُرْبَهُمْ ، وأتقياء زهدوا فى الدنيا وأبدلوا الفانى بالباقى
وطاب فى مورد الصفاء شربهم .

نحمده حمد من جعل حبَّ الله دثاره ، وملأ لى التقوى شعاره ، ونشكره والشكر
لمزيد النعم أماره ، وللقلوب الدائرة عماره ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة مخلص فى التوحيد ، ينبؤ بها جنان الخلد ويخلص من سماع قول جهنم :

هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَسْرَى بِهِ إِلَى حَضْرَةِ
 أَنَسِهِ ، وَحَظِيْرَةِ قُدْسِهِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ سَبَقَ الْأُمَّةَ
 بِشَيْءٍ وَقَرَفَى صَدْرَهُ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَلَّتْ وَاقِعُهُ سَارِيَةَ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِ وَرِفْعَةِ قَدْرِهِ ؛
 صَلَاةً لَا تَرَالُ الْأَرْضُ لَهَا مَسْجِدًا ، وَلَا يَبْرَحُ ذِكْرُهَا مُغَيَّرًا فِي الْآفَاقِ وَمُنْجِدًا ؛ وَسَلَّمَ
 تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ عُوْمِلَ بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَجْدَرَ مَنْ يُحْصَى بِالتَّكْرِيمِ ؛ مَنْ كَانَ
 قَدْرُهُ فِي الْأَوْلِيَاءِ عَظِيمًا ، وَذِكْرُهُ فِي الْآفَاقِ بَيْنَ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ قَدِيمًا ؛ وَتَجْرِيدُهُ عَنِ
 الدُّنْيَا مَشْهُورًا ، وَسَعِيُّهُ عَلَى قَدَمِ الطَّاعَةِ مَشْكُورًا ؛ وَشُهُودُهُ لِمَقَامِ الْكَمَالِ مُسْتَجَلِبًا ،
 وَاسْتِجْلَاؤُهُ لِمَوَادِّ الْأَنْسِ مُسْتَمْلِيًا ؛ فَهُوَ فِي هَذِهِ الطَّائِفَةِ الْجَلِيلَةِ سَرِيُّ الْمِقْدَارِ ، مَعْرُوفُ
 الصِّفَةِ فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ وَمَنَاقِبِ الْأَبْرَارِ ، وَالمُتَقَدِّمُ مِنَ الْإِمَامَةِ فِي مَجْمَعِ الْأَخْيَارِ .

ولما كَانَ المَجْلِسُ السَّامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْأَوْحَدِيُّ ،
 الرَّاهِدِيُّ ، الْوَرَعِيُّ ، الْأَصْبَلِيُّ ، الْفَلَانِيُّ ؛ جَلَالَ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، وَشَرَفِ الصُّلَحَاءِ
 فِي الْعَالَمِينَ ، شَيْخُ الشُّيُوخِ ، قُدْوَةُ السَّالِكِينَ ، مُعْتَقَدُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينَ ، أَعَادَ اللهُ
 تَعَالَى مِنْ بَرَكَاتِهِ : هُوَ الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ ، وَالْمَحْضُوظُ بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ - أَفْتَضَى
 حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ يُحْصَى فِي الدُّنْيَا بِالتَّعْظِيمِ ، وَيُمَيَّزَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالتَّكْرِيمِ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ لَهُ مِنْ جُنُودِ اللَّيْلِ جَيْشٌ لَا تَطِيشُ
 سِيَّمَاهُ ، وَمِنْ فُرْسَانِ الْحَارِيبِ مَدَدٌ لَا تَزُلُّ فِي مُلَاقَاةِ الرَّجَالِ أَقْدَامُهُ - أَنْ يَسْتَقَرَّ
 فِي كَذَا .

فَلْيَقَابِلْ هَذِهِ النِّعْمَةَ بِالشُّرُورِ ، وَلِيَتَأْتَلْ هَذِهِ الْفَضِيلَةَ بِحَمْدِ اللهِ الشُّكُورِ ؛ وَلِيُؤَاطِبْ
 عَلَى وَظِيْفَةِ الدُّعَاءِ بِدَوَامِ أَيْمَانِ الزَّاهِرِهِ ، وَلِيَسْتَمِطِرَ جَزِيلَ الْفَضْلِ مِنْ سَحَابِ جُودِنَا

المَاطَرَه؛ وَبِئْسَ يَدَه فِي عَمَلِ الْمَصَالِحِ، وَبِئْسَ تَمَرٌّ عَلَى السَّعْيِ الْحَسَنِ وَالْعَمَلِ الصَّالِحِ؛
فَإِنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ مَأْوَى الْقَادِمِ وَالْقَاطِنِ، وَتَسْمُو عَلَى أَمْثَالِهَا مِنَ الْمَوَاطِنِ؛ وَبِئْسَ
لِأَسْرَارِهِمْ مَوْقَرًا، وَلِأَقْوَاتِهِمْ الْمَعِينَةَ عَلَى الطَّاعَةِ مُيسِّرًا؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ خَلْوَاتِهِ
مَعْمُورَةً، وَأَفْعَالَهُ مَبْرُورَةً؛ وَالْإِعْتِمَادُ فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ .

قُلْتُ : هَذَا إِنْ وَلِيَهَا شَيْخٌ مِنْ مَشَائِخِ الصُّوفِيَّةِ، عَلَى عَادَةِ الْخَوَاطِقِ . وَقَدْ بَلِيهَا
كَاتِبُ السَّرِّ بِالشَّامِ، فَيُكْتَبُ تَقْلِيدُهُ بِكِتَابَةِ السَّرِّ فِي قَطْعِ النِّصْفِ «بِالْمَجْلِسِ الْعَالِي» عَلَى
عَادَةِ كُتَّابِ السَّرِّ، وَيُشَارُ فِي تَقْلِيدِهِ إِلَى بَعْضِ الْأَلْفَاظِ الْجَامِعَةِ بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ، وَيُضَافُ
إِلَى أَلْقَابِ كِتَابَةِ السَّرِّ بَعْضُ أَلْقَابِ الصُّوفِيَّةِ الْمُنَاسِبَةِ لِهَذَا الْمَقَامِ . عَلَى أَنَّهُ رُبَّمَا
كُتِبَ بِوَلَايَتِهَا عَنْ نَائِبِ السُّلْطَنَةِ بِالشَّامِ لِكَاتِبِ السَّرِّ أَوْ غَيْرِهِ .

المرتبة الثانية

(من يكتب له في قطع العادة مفتتحاً بـ«رسم»)

وهذه نسخة تُوَقِّعُ مِنْ ذَلِكَ، وَهِيَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ أَوْامِرُهُ تُجِلُّ الْقُرْبَاتِ مَحَلَّهَا، وَمَرَّ اسْمُهُ تُسْنِدِ
الرُّتَبِ الدِّينِيَّةِ لَمَنْ إِذَا خُصُّوا بِمَوَاقِعِهَا كَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا - أَنْ يُرْتَّبَ فُلَانٌ
فِي كَذَا : إِذْ هُوَ أَوْلَى مِنْ خُصِّ بِمَوَاطِنِ الْعِبَادَةِ، وَنَصَّ بِتَرْفِيهِ الْأَسْرَارَ عَلَى التَّحَلِّيِ
بِإِفَاضَةِ الْإِفَادَةِ؛ وَوَقَّرَ كَدَّهُ عَلَى اجْتِنَاءِ وَجْهِهِ الْمَعَارِفِ مِنْ أَفْقِ الْمَرَاقِبَةِ، وَجَمَعَ
خَاطِرَهُ لِاجْتِنَاءِ ثَمَرَةِ الْأُنْسِ مِنْ أَفْئَانِ الطَّاعَاتِ النَّابِتَةِ فِي رِيَاضِ الْمَحَاسَبَةِ؛ مَعَ تَمَسُّكِهِ
بِعُلُومِ الشَّرِيعَةِ الَّتِي [خَلَصَ] مَعْرِفَتَهُ مِنَ الشَّوَابِ، وَأَحْيَا الدُّجَى مِنْ أَقْبَاتِلِ شَيْبَةِ

ظلامه إلى أن تَسِيَّبَ منه الدَّوَابُّ ؛ وَنَفَعٍ مَتَعَدًّا إِلَى كُلِّ طَالِبٍ فَضْلٍ وَمَلْتَمَسٍ ،
وَدِينٍ بَاهِرٍ مِنْ مَصْبَاحِ مَشْكَاتِ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ لِكُلِّ بَاغِي نُورٍ وَمُقْتَنِسٍ .

فَلَيْسَتْ قَرَّ شَيْخًا بِالْمَكَانِ الْفُلَانِيَّ : لِتَعَمَّرَ أَرْجَاؤُهُ بِتَهْجِدِهِ ، وَتُسْرِقَ خَلَوَاتُهُ بِتَعْبِيدِهِ ؛
وَتَعُدُّبَ مَوَارِدِهِ بِأَوْرَادِهِ ، وَتُطَلِّعَ مَجَالِسَهُ بِمُجُومِ مَعْرِفَتِهِ الْبَازِغَةِ مِنْ أَفْقِ إِيرَادِهِ ؛ [وَالْتَعَدُّوْ
هَذِهِ الْبُقْعَةَ رَوْضَةَ أَفْكَارٍ ، وَقِبْلَةَ أَذْكَارٍ ؛ وَمَرَاقِي دَعَاوَاتٍ ، وَمَرَافِعِ بَرَكَاتٍ ،
تُسْتَنْزِلُ بَيْنَ صَلَوَاتٍ مَقْبُولَةٍ وَخَلَوَاتٍ ؛ وَلِتَتَدَاوَى الْمَعْلُومَ الْمُسْتَقْرَّ لَهُ تَرْفِيهًا لِسِرِّهِ ،
وَتَنْزِيهًا لِفِكْرِهِ ؛ وَإِعَانَةً عَلَى الْإِنْقِطَاعِ بِهَذِهِ الْبُقْعَةِ الَّتِي تَتَّصِلُ بِهِ أَسْبَابُ السَّعَادَةِ
فِي أَرْجَائِهَا ، وَتُخَصِّصُهَا لَهَا مِنْهُ بِإِمَامٍ تُقِيُّ لَوْ كَانَ لِبُقْعَةٍ أَنْ تُجَنَّبِي بَرَكَتَهُ لَكَانَ مُنْتَهَى
رَجَائِهَا ؛ وَلِيُرْفَعَ مِنَ الْأَدْعِيَةِ الصَّالِحَةِ لِأَيَّامِنَا الْمُبَارَكَةِ مَا لَا تَرَالُ مَوَاطِنُ الْقَبُولِ لِنَفْحَاتِهِ
الْمُتَرَقِّبَةِ مُتَلَقِّيهِ ، وَمَا لَا تَبْرَحُ النُّفُوسُ لِحَشِيَّتِهِ الْمَانِعَةِ مُتَوَقِّبِهِ ، وَالْإِعْتِدَادَ عَلَى الْخَطِّ
الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ ، حِجَّةً بِمَقْتَضَاهُ .

قُلْتُ : هَذَا إِنْ كُتِبَ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ . وَإِلَّا فَالْغَالِبُ كِتَابَةُ ذَلِكَ عَنِ
نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بِالشَّامِ .

النوع الثاني

(من وظائف دِمَشْقَ مَاهُو خَارِجَ عَنِ حَاضِرَتِهَا)

وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ : أَنَّ لِدِمَشْقَ أَرْبَعَ صَفَقَاتٍ ، وَهِيَ : الْغَرْبِيَّةُ ،
وَالشَّرْقِيَّةُ ، وَالْقِبْلِيَّةُ ، وَالشَّمَالِيَّةُ .

فَأَمَّا الصَّفَقَةُ الْغَرْبِيَّةُ : وَهِيَ الْمَعْبَرُ عَنْهَا بِالسَّاحِلِيَّةِ وَالْجَبَلِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِيهَا ، فَفِيهَا
مِنْ وُظَائِفِ أَرْبَابِ السُّيُوفِ عَدَّةٌ وَوُظَائِفُ ، وَتَوَلَّى فِيهَا الْأَبْوَابُ السُّلْطَانِيَّةِ .

منها - نيابة القدس . وقد تقدم أنها كانت في الزمن المتقدم ولاية صغيرة يليها جندي ، ثم استقرت نيابة طبخانا ، في سنة سبع وسبعين وسبعائة ، وأن العادة جرت أن يُضاف إليها نظر الحرمين : حرم الخليل عليه السلام ، وحرم القدس . والذي يكتب له مرسوم في قطع الثلث بـ «السامى» بالياء .

ومنها - نيابة قلعة الصبيبة . وقد تقدم أنها من أجل الفلاح وأمنعها ، وأنه كان يليها نائب مفرد من أجناد الحلقة أو مقدميها عن نائب دمشق ، ثم أضيفت إلى وإلى بانياس . ثم استقرت في سنة أربع عشرة وثمانمائة في الدولة الناصرية « فرج » نيابة .

ومنها - نيابة قلعة عجلون . وقد تقدم أنها على صغرها حصن حصين ، مبنية على جبل عوف ، بناها أسامة بن منقذ ، أحد أمراء السلطان صلاح الدين « يوسف ابن أيوب » في سلطنة العادل أبي بكر ، وأنه كان مكانها رهب اسمه عجلون ، فسميت به . ثم استقرت في الدولة الناصرية « فرج » في سنة أربع عشرة وثمانمائة إمرة طبخانا .

وقد تقدم أول هذا القسم ما يكتب للمتقدمين ، وما يكتب للطبخانا ، وما يكتب للعشرات .

أما أرباب الوظائف الدينية .

فمنها - مشيخة الخاقية الصلاحية بالقدس . وتوقيعها يكتب في قطع الثلث مفتتحا بـ «الحمد لله» .

(١) في تقويم البلدان ص ٢٢٨ . أن جبل عوف كان أهله عصاة فبنى عليهم أسامة حصن عجلون وهو معقل حصين مشرف على النور .

ومنها - خطابة القدس ، وتوقيعها كذلك .

ومنها - مشيخة حرم الخليل ، وتوقيعها في العادة يكتب مفتتحا بـ «رسم» .

وأما الصَّفقة القليلية ، فالتي يولّى بها من الأبواب السلطانية نيابة صرّخد . وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة الشامية أنه قد يجعل فيها من يقرب من رتب السلطنة ، وحينئذ : فإن وليها مقدّم ألف ، كان مرسومه في قطع النصف بـ «المجلس العالى» . وإن وليها أمير طبخاناه ، كان مرسومه في قطع النصف أيضا ، بـ «السامى» بالياء .

وأما الصَّفقة الشرقية فالنيابات بها على طبقتين :

الطبقة الأولى

(ما يكتب به مرسوم شريف في قطع النصف ، وهو ما يليه مقدّم ألف
أو طبخاناه ، وفيها نيابات)

النيابة الأولى - نيابة حمص .

وقد تقدّم أنها كانت نيابة جليلة ، كان يليها في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» مقدّم ألف ، وأنه ذكر في «التتيف» أنها صارت الآن طبخاناه . وحينئذ : فإن كان بها مقدّم ألف ، كان مرسومه في قطع النصف بـ «المجلس العالى» . وإن كان طبخاناه ، كان مرسومه في قطع الثلث بـ «المجلس السامى» بالياء .

وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة السلطنة بمحمص :

الحمد لله مقدر كل أجل إلى حين ، ومقرر أمور الممالك في عباده الصالحين ؛ الذى جعل بنا أوليائنا من الرابحين ، وحفظ ما أسترعانا من أمور عباده بولاية الناصحين .

نعمده على اختيار لا يصل إليه قدح القادحين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكون بها في غمرات الحروب على السوابح ساجدين ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أكرم المائحين ، وأعظم الفائحين ، وأشرف من ولى الأعمال الكفاة الوفاة المكاخين ؛ صلى الله عليه وعلى آله وأحبابه صلاة لا تزال فيها الحفظه على أعمالنا مماسين ومصابحين ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن مراسمنا الشريفة وإن تأخر وقتها إلى أجل معدود ، وأمد ممدود ؛ ومضت أيام وليال ولها باب مسدود ، وعمل سببه غير مشدود - فإننا كالسيف يتلاهي ثم إذا صمم لا يرجع ، وكالغمام تمتدئ مدد مدته ثم يجود فلا يقبلع ؛ ولم نزل منذ فوض الله أمور بلادنا إلينا ، وصرف أمور جمهور عباده بيدينا ؛ نرى أن نحمي غاباتها بأشد الأوسود ، ونرمي غاياتها بمن هو لأمر قاتل يسود ؛ ونحوظ جنباتها بمن لا يستريح حرمه إلا الوفود ، ونحط ركائب رعاياها منه على من هو المقصود ؛ وننيب إلى ما يترجح من مصالحهم لدينا ، ونستنيب لمن يترجى الحسنى إذا عرضت متجددات أمورهم علينا ؛ وإذا انفرد بحكم لا يظن إلا أنه بسمع من أذنيننا ، ومرأى من عينينا ؛ لأن ثواب الممالك الشريفة فروع عدلنا الشريف ونحن أصلها ، وأسباب إحسان بأوامرنا المطاعة قطعها ووصلها .

وكانت حمص المحروسة من أكبر الممالك القديمة ، والمسدن العظيمه ؛ تغرق الأقاليم في مدها ، وتمتد عساكرها فتعد حماة حماة من جندها ؛ وهى من الشام المحروس فى مانتى مواكبه ، ومجر عواليه ومجرى سواقيه وجمع كتابيه ؛ طالما كان بها الحرب سجالا ، وطالما سابت بها الرجال أجالا ؛ وكان لنا بها فى الحرب يومان عوضنا الله أدناهما بما حفظت المعارك ، وضاعت الأرض بدماء القتلى ففاض إلوا

السَّمَاءَ مَا أَلْتَقَىٰ بِالشَّفَقِ مِنْ [تلك المسالك] ^(١)، وَأَتَّصَلَتْ بِالْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِنْ جَانِبَيْهَا ؛
وَأَتَّصَفَتْ بِأَنَّهَا مَهَبُ الرِّيحِ ، وَمَرْكَزُ الرَّمَّاحِ ؛ لِمَا يَهْبُ لَنَا مِنْ بُشْرَى النَّصْرِ وَيَخْفِقُ
مِنْ عَصَائِبِنَا الْمَنْصُورَةِ عَلَيْهَا .

فَلَمَّا تَطَاوَلَ الْأَمَدُ عَلَى حُلُوهَا مِّنْ يَنْوِبِ عَنِ السَّلْطَنَةِ الشَّرِيفَةِ فِي أَحْكَامِهَا ،
وَيُثَوِّبُ إِلَى تَسْهِيدِ مَرَامِي سِهَامِهَا ؛ لَمْ تَزَلْ أَرَاؤُنَا الْعَالِيَةَ تُجُولُ فِيمَنْ يَصْلُحُ أَنْ
يُقَدِّمَ قَدَمَهُ إِلَى رُتْبَتِهَا الْعَالِيَةِ ، وَيُجَرِّدَ مِنْهَا عِزَّائِمَةَ الْمَشْرِفِيَّةِ ؛ وَيَجْمَعُ بِهَا عَلَى طَاعَتِنَا
الشَّرِيفَةِ مَنْ فِيهَا مِنَ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ ، وَالْقَبَائِلِ الْمَشْهُورَةِ ، وَالطَّوَائِفِ الْمَذْكُورَةِ ،
وَيَسْطِطُ بِسَاطِ الْعَدْلِ فِي كَافَّةِ جُنُودِهَا وَرِعَايَاهَا فَإِنَّهَا بِهَيْؤَلَاءِ مَحْرُوسَةٌ وَبِهَيْؤَلَاءِ
مَعْمُورَةٍ - فَرَأَيْنَا أَنَّ أَوْلَىٰ مِنْ حَكْمٍ فِي عَاصِيهَا وَالْمُطِيعِ ، وَأَتَّخَذَ لِسُورِيَا السُّورَ الْمُنِيعِ ؛
مَنْ هُوَ الْمَوْثُوقُ بِمَا أَمْضَتْ السِّيُوفُ مِنْ هِمَمِهِ ، وَأَرْضَتِ التَّجَارِبُ مِنْ سَوَائِقِ
خِدْمَتِهِ ؛ وَطَارَتِ سُمْعَةٌ شُكْرِهِ فِي الْآفَاقِ ، وَطَابَتْ أَثْنَيْتُهُ بِغَفَاتٍ بِمَا يُعْرِفُ مِنْ
الطَّرِبِ لِإِسْحَاقِ ؛ وَكَانَ قَدْ تَقَدَّمَ لَهُ فِي عَيْنَتَابِ ، نِيَابَةٌ كَمْ أَصَابَهُ فِيهَا رَجُلٌ بِالْعَيْنِ
ثُمَّ إِنَّهُ مِنَ الْعَيْنِ تَابَ ؛ وَقَامَ بَيْنَ أَيْدِي كِفْلَاءِ مَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ حَاجِبًا ، وَفَهَمَ مِنْ
أَحْكَامِهِمُ الَّتِي تَلَفَّوْهَا مِنَّا مَا أَصْبَحَ لَهَا صَاحِبًا ؛ فَمَا لِلنِّيَابَةِ إِحْكَامُ أَحْكَامِ إِلَّا وَهُوَ
بِهِ عَالِمٌ ، وَلَا تَوَلِيَّةُ حُكْمٍ إِلَّا وَقَدْ اسْتَحَقَّهَا لِقُرْبِ مَا يَبِينُ الْحَاجِبَ وَالْحَالِمَ .

وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الْمُرْتَضَىٰ لِلْبَيْسِ هَذِهِ الْمَقَاحِرِ ، وَالْمُنْتَظَرُ الَّذِي كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ فِيهِ
لِلْآخِرِ - فَاقْتَضَتْ مَرَّاسِمِنَا الْمُطَاعَةَ أَنْ يَرَانَ جِيدُهُ بِهَذَا التَّقْلِيدِ ، وَتُلْقَىٰ إِلَيْهِ الْمَقَالِيدُ ؛
وَيُمَدِّدُ هَذِهِ الرُّتْبَةَ لِنَلْقِيهِ ، وَتَخَضَعُ عُنُقُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ لِتَرْقِيهِ ؛ وَتَحْوَلُ إِلَيْهِ هَذِهِ النِّعْمَةُ

(١) بياض بالأصل .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلی مَعْنَى الخلفاء المشهور .

التي ألحقت قدره بالأكفاء، وأهلت هممه للاكتفاء؛ وشرفت مكانه بما أجمعت
عليه آراؤنا الشريفة له من الأصطفاء، وأحسنت به الظن لما رأت نيته الجميلة
ممثلة من خاطره في مرآة الصفاء.

فُرِسِمَ بالأمر الشريف - لا زال مرفوعاً به كل علم، ممنوعاً به حتى كل حرم -
أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة لمحض المحروسة وأعمالها؛ وجنودها وعمالها،
وعساكرها وعشائرها؛ وعامرها وغامرها، وأولها وآخرها؛ ودانيتها، وقاصيتها؛ وكل
ما في حدودها الأربعة، وداخل في جهاتها المنعّه؛ على أكل ماجرت به عوائد من
تقدمه، واستقرت عليه القواعد المتقدمة.

فاتق الله في أمورك، وأجعل الشرع الشريف مشكاة نورك، وعظم حكمته،
وتقد أحكامه، فهم أمنع سورك. وأعدل فهو قرار خواطير جمهورك، وتيقظ
لسداد سداد تغورك، وأرفق لتطابق به نطق نطاق شكورك. وأقيم الحدود فإنها
زيادة في أجورك. وأما العساكر المنصورة، فشمّل بهم في خدمتنا الشريفة موابك،
وكل بعزائمهم مزاربك؛ ولا تستخدم منهم إلا من يسرك أن تراه في يوم العرض،
وتعقد هودى جياته السماء بالأرض؛ وأحيم أطراف بلادك من عادية الرجال،
وأحفظ جانبيها من تحطيف الغارات فسر قيامها [لا يدفعه] غير احتيال؛ وأهتم بالجهاد
تحت صنابقتنا المنصورة لأعداء الله متى أجمعوا، وضررهم بأنياب أسنتك فأنت
صاحب العصا وهي تتلقف ما صنعوا؛ وعمر بلادها بملاحظتك الجميلة، ونم أمورها
فهى قوام الجنود وهم إلى الثقة في النصير الوسيله؛ وسارع إلى ما ترد به مراسمتنا
الشريفة عليك لتهديك إلى صراط مستقيم؛ وعجل البريد فإنك تعلم به ما لست بعلم؛

وَبَقِيَّةُ الْوَصَايَا لِأَحَاجَةِ إِلَيْهَا مَا تَعْرِفُهُ مِنْ قَدِيمٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُتَمَتِّعُ بِكُلِّ خَلْقٍ كَرِيمٍ ؛
وَالخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ

النِّيَابَةُ الثَّانِيَّةُ — نِيَابَةُ الرَّحْبَةِ .

وهذه نسخةٌ بِنْيَابَتِهَا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَمَدَّنَا بِنَصْرِهِ ، وَشَمِلَ بِجُودِ سُلْطَانِنَا أَهْلَ عَصْرِهِ ؛ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودِ أَوْطَانِهِ
مَتَّصِلٌ بِأَوَّلِ عِرَاقِهِ ، وَآخِرِهَا بِأَحْرِمِ مِصْرِهِ ، وَفَرَّقَ بِنِيَاهِهِ الْأَعْدَاءَ فِي حَوَاصِلِ الطَّيْرِ بَيْنَ
حِصْنِهِ وَخَصْرِهِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَقُومُ بِشُكْرِهِ ، وَيَحَافِظُ عَلَيَّ حُسْنَ ذِكْرِهِ ، وَيُسْتَعَاذُ بِهِ إِلَّا مَا يَدْمُرُ
عَلَى الْعِدَا مِنْ عَوَاقِبِ مَكْرِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَرْغَمُ
مَنْ جَادَلَهُ بِكُفْرِهِ ، وَتَمَرِّقُهُ بَيْنَ كُلِّ نَابِ سَيْفٍ وَظُفْرِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ
وَرَسُولَهُ أَرْسَلَهُ مُقِيمًا لِأَمْرِهِ ، وَمُدِيمًا فِي الْجِهَادِ لِأَعْمَالِ بَيْضِهِ وَسُمْرِهِ ، صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ حَمَلَةَ سِرِّهِ ، وَثَقَلَةَ هَدْيِهِ بِأَسْرِهِ ؛ صَلَاةً بَاقِيَةً فِي الْوُجُودِ بَقَاءَ
دَهْرِهِ ، رَاقِيَةً أَرْتَقَاءَ زُهْرِهِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الثُّغُورَ بِسَيِّدَاتِهَا ، وَالْبُحُورَ بِأَمْدَادِهَا ، وَالنُّجُورَ لَا تَحْتَلِي بِأَحْسَنَ مِنْ
حَايَةِ نِجَادِهَا ؛ وَالْمَمَالِكَ الْحُرُوسَةَ لَا تُحْرَسُ إِلَّا بِشُهْبِ نُحْرَصَانِهَا ، وَلَا تُسْقَى بِأَنْقَعِ
مَا تُطْلَعُ مِنَ الدَّمَاءِ سَحْبِ فُرْسَانِهَا ؛ وَالْفُرَاتَ لَا تُنْحَى مَوَارِدُهَا إِلَّا بِأَمْشَالِ سَيُوفِهَا
الْقَوَاضِبِ ، وَلَا تَمْتَعُ مَخَاوِضُهَا إِلَّا بِدِيمِ خَاضِبِهَا ، وَالْحِصُونُ لَا يَرْضَى بِهَا كُلُّ مَنْجَنِيْقِ
غَضْبَانٍ إِلَّا بِوَصَالِ مُغَاضِبِهَا ، وَالْقَلَاعَ لَا تَتَطَّلَعُ عِيُونُ دِيَادِبِهَا إِلَّا مِنَ مَاءِ الْكَرَى

في جفونه نأضب ، والمعاقل لا تسمع بعقائلها إلا لمن هو على خطبتها مؤاظب ؛
وكانت الرحبة - حرمها الله تعالى - هي أوسع مكان رحابا ، وأدنى إلى مطر سحابا ؛
وأوثق ما علق على البلاد بابا ، وأقرب ما سمع حراسها في السماء دعاء مجابا ؛
قد ملئت سماؤها حرسا شديدا وشهبا ، ومدت كواكب الدلو واستقت من الغمام
قلبا ؛ وعدت ما وراء الحجر فعميت دونها المسالك ، وحسبت لملك ونسبت إلى
مالك ؛ ومالك - لا أعني إلا ابن طوق - خازنها ، ومزّل أمين وفي غاب الأسد
مسكنها ؛ وقد وقفت لبغداد في فيم المضيق ، وهمت بلاد العدا أن تحوض الفرات
إليها فقالت : مالك إلى طريق ؛ قد أفتّر في وجه العساكر المنصورة نعرها الصّاحك ،
ورّد قرن الشمس فرعها المتأسك .

فلما أعمد حسامها المسلول ، وأقلع غمامها وكل هذب بالبكاء عليه مبلول -
أقتضى رأينا الشريف أن نجدد لعروسها زفانا ، وليوتها أفوافا ؛ ولسيوفها جلاء ،
ولسقوفها إعلاء ؛ ونولها لمن تكون همته فيها جديدة الشباب ، أكيدة الأسباب ؛
ليكون أدعى لمصالحها ، وأزعى لمنأحجها ؛ وأوعى لما يجعه سمعه من مصالحها ،
وأسعى في حماية مآسيها ومصالحها ؛ وكان فلان هو أصلب من كائننا الشريفة
عودا ، وأنجز وعودا ؛ وأصدق رعودا ، وأيمن إذا طلع نجمه في أفق سعودا .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه نيابة الرحبة المحروسة ، على عادة من تقدّمه
وقاعدته ؛ [فليتول ذلك] مقدّما تقوى الله والعمل بما شرع ، وأتباع مراسمنا الشريفة
فمثله من أتبع ؛ وحماية أطرافها ، من كل طارق إلا طارفا يطرق بغير ، وصيانة أكنافها ،
من كل عصابة مخلّقة إلى جوها كالطير ؛ وحفظها من عادية كل أفاك وسفالك ، وبادية
أعراب وأتراب ؛ وكلّ فارس فرس وراكب بغير ، وكلّ وقفة محاصر وحقطة مغير ؛

وَجَانِبِيَّ بَرُّو بِجَحْرِ: فِي أَحَدِهِمَا الْمَسَالِكُ تَعَمَّى وَالْآخَرَ لَا يُعَامُ ، وَصَاحِبِيَّ سَرٌّ وَجَهْرٌ :
هَذَا تَخْشَى لَهُ عَاقِبَةَ كَلَامٍ وَهَذَا مُعَاقِبَةُ كَلَامٍ .

وَلِيَتَخَطَّفَ مِنَ الْأَخْبَارِ مَا تَلَمَّعَ لَدَيْنَا بِوَارِقِهِ ، وَيَتَقَطَّفَ مِنَ الْأَقْوَالِ ثَمَرَاتِهَا
وَلَا يَدْعُ كُلَّ مَا تَجَمَّعَ حَدَائِقُهُ ، وَلِيَجْعَلَ لَهُ مِنَ الْمُنَاصِحِينَ طَلَائِعَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ هُوَ
فِي آتِهِابِ الْأَخْبَارِ أَبُو الْغَارَاتِ ، وَمَنْ إِذَا أُلْجِمَهُ الْخَوْفُ كَانَ لَهُ فِي لَمَعِ الْبُرُوقِ
إِشَارَاتٌ ؛ وَلِيَتَّخِذَ مِنَ الْكَشَافَةِ مَنْ يَسْبِقُ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْهِ طَرْفُهُ ، وَمَنْ الْخِيَالَةَ مِنْ
لَا يَرْتَدُّ عَنْ وَقْدِ الرَّمَاحِ طَرْفُهُ ؛ وَمَنْ الْقُصَادَ مَنْ لَا يَطْوِي عَنْهُ خَبْرًا ، وَمَنْ الدِّيَادِبَ
مَنْ يُعِيرُهُ وَقَلَّ أَنْ تُعَارَ الْعَيُونُ نَظْرًا ؛ وَلِيَحْفَظَ التُّجَّارَ فِي مَذَاهِبِهِمْ غُدُوًّا وَرَوَاحًا ،
وَمَسَاءً وَصَبَاحًا ؛ وَلِيَسْتَوْصِ بِهِمْ خَيْرًا فَإِنَّهُمْ طَالَمَا أَرْدَانَتْ بِهِمْ صُدُورُ الْخَزَائِنِ عَلَى
أَمْتِلَائِهَا أَنْشِرَاحًا ، وَلِيَأْخُذَ مِنْهُمْ مَا لِبَيْتِ الْمَالِ فَكَمْ وَجَدُوا بَعْطَانَهُ أَرْبَاحًا ؛ وَلِيُوصَلَ
إِلَى أَرْبَابِ الْقَرَارَاتِ مَا لَهُمْ مِنْ مُقَرَّرٍ مَعْلُومٍ ، وَلِيُعْطِيَهُمْ مَا تَصَدَّقْنَا بِهِ عَلَيْهِمْ وَهُوَ
مَشْكُورٌ وَإِلَّا أَعْطَاهُمْ وَهُوَ مَذْمُومٌ ؛ وَلِيُعَمِّرَ الْبِلَادَ بِتَوَطُّيْنِ أَهْلِ الْقُرَى ، وَإِنَامَتِهَا
بِالْعَدْلِ مَلَائِنَةَ الْجُفُونِ مِنَ الْكُرَى ؛ وَلِيَكُنَّ لِلْفُرَاتِ مِتَّقِظًا لثَلَا يَطْفِي بِهَا التِّيَّارُ ،
وَيَغْلَبَ بِمَدِّهَا الْمُخَمَّرُ عَلَى سَكْرِهَا مِنَ السُّكْرِ الْخَمَّارِ ؛ وَيَقْوَى عَلَى سَدِّهَا قَبْلَ أَنْ لَا يَقْدَرَ
عَلَى مُقَاوَاةِ الْبِحَارِ ؛ وَيَتَفَقَّدَ مَبَانِيهَا فَإِنَّهَا مِنْ أَسْنَى مَا تَنْتَفِقُدُهُ الْأَبْصَارُ ، وَلِيغْلِقَ
زُرُوعَهَا لِتَكُونَ : (كَمَثَلِ زَرْعٍ أَنْخَرَجَ شَطَاهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ
يُعِجِبُ الزَّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ) وَلِيَعْفَ فَإِنَّ الْعَفَافَ هُوَ الْغِنَى ، وَلِيُؤْمِنَ مَنْ يَلِيهِ
فَإِنَّ الْأَمَانَ هُوَ الْمُنَى ؛ وَلِيُقِرَّ مَا اسْتَقَرَّ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ مِنْ صُلْحٍ أُكِّدَتْ أَوْأَخِيهِ ،
وَأُصْبِحَ كُلُّ مَنْ أَهْلُ الْجَانِيَيْنِ لَا يَفِرُّ مِنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَرْخِصُ لِأَحَدٍ فِيمَا يَنْقُضُهُ
لَا فِي عَاجِلِ أَمْرٍ وَلَا فِي تَرَاخِيهِ ؛ حَتَّى إِذَا كَشَفَتِ الْحَرْبُ عَنْ سَاقِهَا ، وَشَدَّتْ عَقْدَ
نِطَاقِهَا ؛ فَلْيَكُنْ بِحَسْبِ مَرَّاسِمِنَا الشَّرِيفَةِ اعْتِمَادُهُ فِي شَنْ كُلِّ غَارِهِ ، وَسَنْ كُلِّ مَاضٍ

مُرْهَفًا غَرَارَهُ ، وَجَوِسَ خِلَالَ دِيَارِ الْعِدَا وَأَخْتِطَفَ كُلَّ قَمِيرٍ مِنْ دَارِهِ ؛ وَالْمُحْرِقَاتِ
الَّتِي لَا تُحْرِقُ نَبَاتًا حَتَّى تَشْبَّ فِي ضُلُوعِهِمْ ، وَالْعِيَارَةَ فِيهِ الرِّزَالِزِلُ الَّتِي تَتَسَاقَطُ مِنْهَا
مَبَانِي رُبُوعِهِمْ ، وَمُؤَالَاةُ الْبُعُوثِ : فَإِنَّ كُلَّ بَعِثٍ يَتَكَفَّلُ بِشَتَاتِ جُمُوعِهِمْ ؛ وَالْعَمَلُ
بِكُلِّ مَا تَرِدُ بِهِ مَرَامِنَا الْعَالِيَةَ ، وَالْمُؤَاصَلَةَ بِكُتْبِهِ الَّتِي نَرْفُضُ مَا سَوَىٰ أَخْبَارِهَا
الْمُتَوَالِيَةِ ، وَإِرْسَالِ كُلِّ بَرِيدٍ وَحَامٍ مُخَلَّقٍ بِهِمَا : إِمَّا رِيحٌ ظَاهِرَةٌ وَإِمَّا رِيحٌ عَادِيَةٌ ،
وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يَقْرُبُ لَهُ الْغَايَاتِ الْمُنَادِيَةَ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .

النيابة الثالثة — نيابة مضياف .

وهذه نسخة مرسوم نياباتها :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَرَّفَ مَمَالِكَنَا الشَّرِيفَةَ فِي الْمَمَالِكِ ، وَشَرَّفَ بِنَا كُلَّ حَضَنٍ
لَا تَعْرِضُ لَهُ الْحَجَرَةُ فِي الْمَسَالِكِ ، وَعَرَّفَ بِالْتَرْتِيبَةِ فِي خِدْمَةِ أُنُوبَانَا الْعَالِيَةِ إِلَىٰ أَيْنَ
يُنْتَهَى السَّلَاكُ .

نُحَمِّدُهُ عَلَىٰ نِعْمِهِ الَّتِي نَعْتَدُّ بِهَا الْحَمْدَ مِنْ ذَلِكَ ، وَنَرْغَبُ أَنْ نَلْقَىٰ اللَّهَ عَلَىٰ آدَاءِ الْأَمَانَةِ
فِيهَا كَذَلِكَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي مَا هُوَ مَالِكٌ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ
مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَضَاءَ بِهِ كُلَّ حَالٍ حَالِكٍ ، وَأُنْجَىٰ بِهِ مِنْ مَهَاوِي الْمَهَالِكِ ،
وَجَمَعَ بِهِ مِنْ الْأُمَّةِ مَا وَهَىٰ وَهَىٰ كَالْعَقْدِ الْمُتَمَالِكِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ
صَلَاةً يَجِدُ بِهَا قَائِلُهَا فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ كُلَّ هَنَاءٍ هُنَالِكَ ؛ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ النِّظَرَ فِي أُمُورِ الْمَمَالِكِ هُوَ أَوَّلُ مَا يَقْدَمُهُ الْمَلِكُ ، وَأَوْلَىٰ مَا يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ
مَنْ سَلَكَ ؛ وَمَمْلَكَةُ بَيْتِ الدَّعْوَةِ هِيَ مِنْ أَجَلِّ مَا تَفَرَّدَتْ بِهِ مَمَالِكُنَا الشَّرِيفَةِ ،
وَامْتَدَّتْ بِهِ فِي الْأَمَاكِنِ الْمُخَيِّفَةِ ؛ وَأُرْسَلَتْ مِنْ قِلَاعِهَا مَنْ يَقْتَلِعُ الْعِدَا بُرُوثِيَهُ ،
وَيُسَابِقُ السُّنْمَ إِلَىٰ مَطْلُوبِهِ ؛ وَيَتَعَبَّدُ بِمُؤَالَاتِنَا الَّتِي وَرَثَهَا عَنْ سَلْفِهِ فِي طَاعَةِ أُمَّتِهِمْ ،

وَعَلِمُوا بِهَا أَنَّ الدَّوْلَةَ الْعُلُويَّةَ مَا انْقَضَتْ حَتَّى انْتَقَلَتْ إِلَيْنَا الْوِلَايَةَ عَلَى شِيعَتِهِمْ ؛
وَأَنَّ الْمُلْكَ الْإِسْمَاعِيلِيَّ فِينَا قَدْ انْحَصَرَ مِيرَاثُهُ ، وَأَنَّ كُلَّ مَنْ مَاتَ مِنَ الْخُلَفَاءِ الْفَاطِمِيِّينَ
- رَحِمَهُمُ اللَّهُ - نَحْنُ وَرَثَاتُهُ ؛ فَهَمُ بِهَذَا يَبْدُلُونَ نَفُوسَهُمْ فِي الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ الَّتِي يَرَوْنَهَا
فَرَضًا عَلَيْهِمْ ، وَيَبْلُغُونَ بِنَا أَعْلَى مَرَاتِبِ الْإِيمَانِ : لِأَنَّهُمْ إِذَا رَأَوْا مُنْكَرًا أَزَالُوهُ
بِيَدَيْهِمْ ؛ كَمَا هَجَمُوا عَلَى عَدُوٍّ مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ هَجْمَةَ طَيْفٍ ! ، وَكَمَا اسْتَطَالُوا بِسِكِّينٍ
لَا يَتَطَاوَلُ إِلَى مُبَارَاتِهَا سَيْفٌ ! ، وَكَمَا أَوْقَدُوا لَهُمْ بَارِقَةَ عَزْمٍ قَئِيمٍ : هَذِهِ سَجَابَةُ
صَيْفٍ ! ، وَكَمَا وَرَدُوا بِالذَّمِّ خَدًّا غَدًا يَبَادِي : يَا كِرَامَ الْوَرْدِ ضَيْفٌ ! . وَكَانَتْ
مُضِيَّافٌ - حَرَسَهَا اللَّهُ تَعَالَى - هِيَ كُرْسِيٌّ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةُ ، وَقَلْعَتُهَا هِيَ الَّتِي بَدَوَاتِبُ
الْجُوزَاءِ مُتَمَسِّكَةٌ ؛ وَانْقَضَتْ مَرَّاسِمُنَا الْمُطَاعَةُ نُقِلَ النَّائِبُ بِهَا إِلَى مَا رَسَمْنَا بِهِ الْآنَ ،
نَخَلَتْ مِمَّنْ يَتَرَقَّى فِيهَا إِلَى أَعَزِّ مَكَانٍ ، وَاحْتَاجَتْ إِلَى مَنْ تَعْنَى بِهِ عَمَّا يُقَالُ : مَنْ
أَعْتَقَالَ رُخَّ وَتَجَرِيدَ سِنَانٍ .

فَخَصَلَ الْفِكْرُ الشَّرِيفُ فِيمَنْ نُقِلَتْ هَذِهِ النِّيَابَةُ ، وَيَتَقَلَّدُ أَمْرَ هَذِهِ الْعِصَابَةِ ؛
وَيَتَصَرَّفُ فِي أُمُورِهَا بِمُقْتَضَى مَا تَرِدُ بِهِ مَرَّاسِمُنَا الْمُطَاعَةَ ، وَيُعَلِّمُ أَنَّهُ مِنْ شِيعَتِنَا :
لِأَنَّهُ دَاعِيْنَا فِي هَذِهِ الْجَمَاعَةِ ؛ فَرَأَيْنَا أَنَّ أَحَقَّ [النَّاسِ بِهَا] مَنْ قَدَّمَهُ وَلَاؤُهُ ، وَعَظَّمَهُ
أَثْمًاؤُهُ ؛ وَنَبَّهَ عَلَيْهِ أَهْتَامُ هِمَمِهِ الَّتِي لَا تُشَابِهُهَا الْكَوَاكِبُ فِي سَيْرِهَا ، وَعَزَائِمُهُ الَّتِي
طَالَمَا كَانَ بِهَا فِي خِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ «يَبْطُلُ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا» ؛ وَلَمْ تَزَلْ بِهِ مَسَاعِيهِ
حَتَّى وَصَلَ إِلَى الْمَزِيدِ ، وَأَسْرَعَ لَهُ الشَّيْبُ فِي طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ : لِأَنَّهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ
[كَانَ] يَسْمَعُ قَعْقَعَةَ لِحَامِ الْبَرِيدِ ؛ وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي أَشَارَ إِلَيْهِ الْقَوْلُ بِوَصْفِهِ ،
وَدَلَّ عَلَيْهِ شَأْوُهُ بِمَرْفِهِ .

فَرَسَمَ أَنْ تَقَوَّضَ إِلَيْهِ النِّيَابَةُ بِمِصْيَافٍ وَأَعْمَالِهَا ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ .
فَلِيقْدَمَ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا وُئِيهِ ، وَلِيُنَشِّرَ جَنَاحَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ عَلَى مَنْ يَلِيهِ ، وَلِيَعْمَلَ

بِالأحكامِ الشَّرعيةِ في كلِّ ما يَقْضيه ، وَلَيْسُكَ في أهلها أَوْصَحُ المَرِاشِدِ ، وَلِيُبَيِّنْ لَهُمْ أَنَّهُ يَدْعُوهم إلى سبيلِ الرِّشادِ إلا ما آدعاه رَاشِدٌ ؛ وَلِيُوصِلْ إلى المَجاهِدينِ أرزاقَهُم التي هي أَثْمَانُ نَفوسِهِمْ ، وَتِمَارِ مادِنِي القِطَافِ من رُءُوسِهِمْ . وَأَهْلُ مَنْ مات أَوْ يموتُ مِنْهُم على طاعتنا الشَّريفةِ فَكُنْ عَلَيْهِم مَتَعَطِّفاً ، وَمَنْ طابَ مِنْكَ الإِنْصَافَ فَكُنْ لَهُ مُنْصِفاً ؛ وَأَفْعَلْ مَعَهُم أَحْسَنَ الأَسْوَءِ ، وَقُلْ لَهُمْ عَنَّا : إِنَّ الصَّدَاقَاتِ الشَّريفةِ قد اسْتَجابَتْ لَكُمْ يا أَهْلَ الدَّعْوَةِ ؛ وَخُذْ بِقُلُوبِهِمْ ، لِتَزادَ مِنْ حُبِّهِمْ ، وَقُلْ لِلْمَجاهِدينِ : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ . وَالْأَمْوالِ فَضْئُها مِنَ الضَّياعِ ؛ وَعِمارةِ البِلادِ عَلَيْكَ بها فَإِنَّ القَلْعَةَ لا تَكُونُ إلا بِالْمَدِينَةِ وَالْمَدِينَةَ لا تَكُونُ إلا بِالضَّياعِ ؛ وَأَمثالِ مَراسِمنا الشَّريفةِ وَكُلِّ ما يَرسَمُ بِهِ سارِعٌ إلى اعْتِقادِهِ ، وَطائِفَةُ المَجاهِدينِ لا تَدْعُ مِنْهُم إلا مَنْ هُوَ مَعْتَدٌ لِحِجْهِهِ ؛ وَالكِتائِ الْكِتائِ ! فِيهِ تُسألُ المَطالِبُ ، وَتُدْرِكُ المَآرِبُ ؛ وَعَلَيْكَ بِقَمْعِ المُفْسِدِينَ ، وَرَدْعِ المُعْتَدِينَ ، وَإِقامةِ الحُدُودِ : فَإِنَّها أَقامَ اللَّهُ هَذا الدِّينَ ؛ وَنَحْنُ نَغْتَنِي بِما فِيكَ مِنَ المَعْرِفَةِ ، وَبِما أَنْتَ عَلَيْهِ - بِحَمْدِ اللَّهِ تَعالَى - مِنْ كِلالِ كُلِّ صَفَةٍ ، عَنِ اسْتِيعابِ الوِصايا التي لَمْ تَبْرُحْ سِجائِكَ بِها مَتَّصِفَهُ ، وَاللَّهُ تَعالَى يَزِيدُكَ مِنْ كُلِّ نَوْعِ أَشْرَفِهِ ؛ وَالخَطِ الشَّريفِ أَعْلاهُ

* * *

وَأما الصَّفَقَةُ الشَّمالِيَّةُ ، فالذِي يُولِي بِهَذِهِ الصَّفَقَةَ عَنِ الأبْوابِ السُلْطانيَّةِ ، نِيايَةٌ بِعَلْبِكَ فَقَطْ . وَقَدْ تَقَدَّمَ في الكِلامِ على تَرْتيبِ المَمْلَكَةِ الشَّامِيَّةِ أَنَّها كانَتْ أَوَّلًا إِمْرَةً عَشْرَةَ ، ثُمَّ صارت طَبْلِخاناهُ ، وَأَنَّ نائِبَ الشَّامِ يُولِي بِها ، وَربما وُلِّيتُ مِنَ الأبْوابِ الشَّريفةِ السُّلْطانيَّةِ . وَحينئِذٍ فيكونُ مَرَسُومُ نائِبِها في قِطْعِ الثُلْثِ بِ«المَجْلِسِ السَّامِيِّ» بِالْبِلاءِ .

وهذه نسخة مرسوم نبياة بعلبك :

أما بعد حمد الله على أَمَلٍ حَقَّقَ مَنَاهُ ، وَصَدَّقَ غَنَاهُ ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ سُحْبَ أَعْتِنَاهُ
 أَوْرَقَ بِهِ عُودَهُ وَطَابَ جَنَاهُ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي كَلَّمَ بِنَاهُ ،
 وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ مَا شِيدَ مَعْقِلِ نَخَارِ مَبْنَاهُ - فَإِنَّ مِنْ أَعْظَمِ مُدُنِ الشَّامِ الْقَدِيمَةِ ، وَدُورِ
 الْمُلْكِ الَّتِي ذَهَبَ مِنْ يَحُلُّهَا مِنَ الْمُلُوكِ وَبَقِيَتْ آثَارُهُ مُقِيمَةً ، مَدِينَةُ بَعْلَبَكِّ وَهِيَ الَّتِي
 تَحْصُنُ الْإِسْلَامَ بِقَلْعَتِهَا ، وَتَحْصِلُ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ [بِمَنْعَتِهَا] ⁽¹⁾ بَنِيَتْ عَلَى عَهْدِ
 سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَأَتَقَنَ بِنَاؤُهَا ، وَهَالَتْ أَسْوَارُهَا حَتَّى نُسِبَ إِلَى صَنْعَةِ
 الْحِجْنِ بِنَاؤُهَا ؛ وَدَعَمَتِ السَّمَاءَ عَمْدُهَا ، فَطَالَتْ شَرْفُهَا حَتَّى كَادَتْ تُخْضِخُضُ فِي سَبْجِ
 السَّحَابِ يَدُهَا ؛ وَجَمَعَتْ مَحَاسِنَ فِي سِوَاهَا لَا تُوجَدُ ، وَتَقَرَّرُ بِمَلِكِهَا مِنَ الْمُلُوكِ :
 تَارَةَ سَعِيدَا وَتَارَةَ أَمْجَدَ ؛ وَمَا خَلَّتْ مِنْ عُلَمَاءَ عَظِيمِي الشَّامِ ، وَصِلْحَاءِ يَأْمُهُمْ
 الْجَبَلَانَ : سَيْسُ وَلُبْنَانَ ؛ وَهِيَ بَابُ دِمَشْقِ الْمَفْتُوحِ ، وَسَحَابُ الْأَنْوَاءِ الْمَسْفُوحِ
 بِالْمَسْفُوحِ ؛ وَبَابُ الْبُرُوقِ الَّتِي آلَتْ أَنَّهَا بِأَسْرَارِهَا لَا تَبُوحُ ، وَمَابُ السَّفَارَةِ الَّتِي تَعْدُو
 مُحْمَلَةً أَوْقَارَ رِكَابِهَا وَتُرُوحُ ؛ وَلَهَا الْعَيْنُ الْمُسْبَلَةُ الرَّوَاتِبُ ، وَالْجِبَالُ الرَّاسِيَةُ الْوَقَارِ
 لِمَفْرِقِهَا الشَّائِبِ ، الْعَالِيَةِ الذَّرَى ⁽²⁾ مِنْ قِطْعِ السَّحَابِ ؛ وَ[لَمَّا] كَانَ مِنْ فِيهَا الْآنَ
 مِمَّنْ لَا تَسْتَعْنِي الدَّوْلَةُ الْقَاهِرَةُ عَنْ قُرْبِهِ ، وَلَا تَسْتَنْبِي أَحَدًا مَعَهُ فِي تَجْرِيدِهِ سَيْفَهُ
 الْمَشْهُورَ مِنْ قُرْبِهِ ، أَجَلْنَا الرَّأْيَ فِي كُفِّ لَعْرُوسِهَا ، وَمِمَّا نَلَّ لِمَرْكَزِ تَأْوُدِ غُرُوسِهَا ،
 فَلَمْ يَجِدْ أَدْرَى بِأَحْوَالِهَا ، وَأَدْرَبَ بِمَا يُؤَلَّفُ عَلَى الطَّاعَةِ قُلُوبَ رِجَالِهَا ، كَمَنْ اسْتَقْرَبَهُ
 فِيهَا مَعَ أَبِيهِ الْمَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْوَطَنِ [وَنَالَا مِنْهُ الْوَطْرَ] ، وَمَرَّتْ [عَلَيْهِمْ فِيهِ]

(1) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

(2) » » ولعله : التي كأنها منلقة من الخ .

سنون وأيام هتف بها داعي قصر؛ ولا غنى [عنه] مع ماله من ولايات صحب فيها الناس وفارقهم على وجه جميل، ورأفهم ثم أنصرف وأنصرفوا عنه وما ذمه في النازلين تزييل؛ وكان فلان هو المتوقد الشهاب، المتوقل في تلك الهضاب؛ المشكور قولاً وديناً، المشهور بوضع كل شيء في موضعه شدةً ولينا .

فلذلك رسم ... لا زال إحسانه أحمد وأختياره مقمداً - أن يرتب في نيابة بعلبك على عادة من تقدمه وقاعدته، مبتدئاً حسن النظر في الأمور العامة، لا يدع ظلامه، ولا يدع سالك طريق إلى سلامه، ولا يعد سمعاً إلا لسمع شكر لا ملامه؛ ولينظر في المظالم نظراً ينجلي به سدفاها، وليشكر العشير توطياً يوطأ به هدفها؛ وليلاحظ الأمور الديوانية بما يسمي به أموالها، ويندى بسحابه المتدفق أحوالها. والأوقاف فليشارك وإفقيها في إحسانهم، وليجر حسنتها على ما كانت عليه في زمانهم؛ وليكن لها نعم الكفيل في دوام المحافظة ولينفق ما فيها من الحواصل والزردخاناها مما يذخر لوقتته، ويؤخر لفرط الشغف به لالمقته. ومن أهم ما يحتفظ به قلوب الرجال، وعمارة الأسوار فإنها للفرسان المقاتلة مجال، وعليها تنصب المجانيق وتختطف الأجال. وأما الشريعة المطهرة : فإن من تعدى غرق أو أوشك أن يغرق، وأتباع أوامرها : وإلا فقيم يعدب من يعدب ويحرق من يحرق؛ وتقوى الله تعالى هي الوصية الجامعة، والتذكرة التي ترتد بها الأبصار خاشعه؛ وليفهم هذه الوصايا ولا يخرج شيئاً منها من قلبه، وليتبين معانيها ليكون بها على بينة من ربه؛ والله تعالى يكشف عنه غطاء حجبته، ويزعه عما يأخذه ويأخذه من بينه؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني^(١)

(ممن [هم] خارج دِمَشق : ممن يُؤثَى عن الأبواب السلطانية -
 أمراء العربان ، وهم على طبقتين :)

الطبقة الأولى

(من يُكْتَبُ له منهم تقليدٌ في قَطْع النِّصْف بـ«المجلس العالى» وهو أمير آل
 فَضْل خَاصَّةً : سواءً كان مستقلاً بالإمارة أو شريكاً لغيره فيها)

وقد تقدّم في الكلام على ترتيب المملكة الشامية نقلاً عن "مسالك الأبصار"
 أن ديارهم من حِمَص ، إلى قلعة جَعْبَر ، إلى الرَّحْبَة ، آخذين على شِقِّ القُرَات وأطراف
 العِراق .



وهذه نسخة تقليدٍ بإمرة آل فَضْل : كُتِبَ به للا مير شجاع الدين «فضل بن
 عيسى» عوضاً عن أخيه مُهَنَّأ ، عند ما خرج أخوه المذكور مع قراً سنقر الأفرم
 ومن معهما من المتسحجين ، وأقام [هو] بأطراف البلاد ولم يُفارق الخِدمة ، في شهر
 سنة آتت عشرة وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهو :

الحمد لله الذي منح آل فَضْل في أيامنا الزاهرة بحسن الطاعة فَضْلاً ، وقَدّم عليهم
 بقديم الإخلاص في الولاء من أنفسهم شجاعاً يجمع لهم على الخِدمة ألفَةً وَيَنْظِم لهم
 على المحالصة شَملاً ؛ وَحَفِظ عليهم من إعزازِ مكان بيتهم لَدِينَا مكانةً لا تَنْقُصُ
 لها الأيامُ حُكماً ولا تَنْقُصُ لها الحوادثُ ظِلًّا .

(١) لم يتقدم تقسيمه الى أصناف ولعل مراده أن ما تقدم من التولية في الصفقات صنف أول وهذا
 صنف ثان . فليتبّه .

نحمده على نعمه التي شملت بئربنا، الحضرة والبدو، وألهجت بشكرنا، ألسنة العجم
 في الشدو والعرب في الحدو، وأعمت في الجهاد بين ديننا من اليعملات ما يبارى
 بالنص والعنق الصافات في الحبيب والعدو، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له شهادة ندرأبها الأمور العظام، ونقلد بينها ما هم من مصالح الإسلام لمن
 يجرى بتدبيره على أحسن نظام، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث من أعلى
 ذوائب العرب وأشرفها، المرجو الشفاعة العظمى يوم طول عرض الأمم وهول
 موقفها، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كرمت بالوفاء أنسابهم، وأضاءت
 بتقوى الله وجوههم وأحسابهم؛ صلاة لا تزال الألسن تقيم نداءها، والأقلام ترقم
 رداءها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من أجتته الطاعة ثمرة إخلاصه، ورفعته المخالصة إلى أسنى
 رتب تقريبه وأختصاصه؛ وألف بمبادرته إلى الخدمة الشريفة قلوب القبائل وجمع
 شملها، وقلده حسن الوفاء من أمر قومه وإمرتهم ما يستشهد فيه بقول الله تعالى :
 ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ - من ارتقى إلى أسنى رتب دنياه بحفظ دينه، ودل
 تمسكه بإيمانه على صحة إيمانه وقوة يقينه؛ ولا حظته عيون السعادة فكان في حزب
 الله الغالب وهو حزبنا، وقابلته وجوه الإقبال فأرتته أن المغبون من فاته تقريبتنا
 وقربنا؛ ورأى إحساننا إليه بعين لم يطرفها الجحود، ولم يطرفها إعراض السعود؛
 فسلك جادة الوفاء وهي من أيمن الطرق طريقا، وأقتدى في الطاعة والولاء بن قال
 فيهم بمثل قوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

ولما كان المجلس العالى ... هو الذى حاز من سعادة الدنيا والآخرة بحسن الطاعة
 ما حاز، وفاز من ربنا وشكرنا بحملى المبادرة إلى الخدمة بما فاز؛ وعلم مواقع إحساننا

إليه فَعَمِلَ على آستدامة وِئَلها ، وآسْتَرَادَة فَضْلِها ؛ والآرْتِواءَ من مَعْرُوفِها الذي بآءَ بالْحِرْمانِ [منه] من نَحْرَجَ عن ظَلْمِها ؛ مع ما أضاف إلى ذلك : من شِجَاعَة تَبَيَّتْ منها أعداءُ الدِّينِ على وَجَل ، ومَهَابَة تَسْرِي إلى قلوب من بَعَدَ من أَهْلِ الكُفْرِ سُرَى ما قَرُبَ من الأَجَل - آقْتَضَتْ آراؤنا الشريفة أن نَمَدَّ على أَطْرافِ الممالِكِ المحروسة منه سُورًا مَصَفَّحًا بِصَفَاحِه ، مَشْرَفًا بِأَسِنَّةِ رِمَاحِه .

فُرِسمَ بالأمرِ الشريفِ العالى - لا زال يَقلدُ وِئَلِهَ فَضْلاً ، ويمَلَأُ ممالِكَه إِحساناً وَعَدلاً - أن يَفُوضَ إليه كَيْتَ وَكَيْتَ : لِمَا تَقَدَّمَ من أسبابِ تَقْدِيمِه ، وأُوجِبَ إلىه من عِنائَتِنَا بهذا البيتِ الذى هو سِرُّ حَديثِه وَقَدِيمِه ؛ وَلِعِلْمِنَا بأولَوِيَّتِه التى قُطِبَها الشِجَاعَة ، وَقَلَمُها الطَّاعَة ؛ ومادَتُها الدِّيانَةُ والتَّقوى ، وَجادَتُها الأمانةُ التى لا تَسْتَرِها الأهواءُ ولا تَسْتَفْرِها الرِّقى .

ولِيَكُنْ لآخبارِ العَدُوِّ مَطالِعاً ، وَلنَجوى حَرَكاتِهِم وَسَكائِهِم على البُعْدِ سَامِعاً ، ولديارِهِم كَلَّ وَقتَ مُصَبِّحاً حَتَّى يَظنوه من كلِّ نَيْبَةٍ عليهم طالِعاً ؛ ولِيُدِمَ النَّاهِبَ حَتَّى لا تَقُوتهُ من العَدُوِّ غارةٌ ولا غِرَّةٌ ، وَيُلزِمَ أصحابَه بالتَيْقِظِ لإدَامَةِ الجِهادِ الذى جَرَّبَ الأعداءُ [منه] مَواقِعَ سِوفِهِم غيرَ مرَّه ؛ وقد خَبَرنا من شِجَاعَتِه وإقْدامِه ، وسياسَتِه فى تَقْضِ كُلِّ أمرٍ وإبرامِه ؛ ما يُغْنِي عن الوصايا التى مَلَكَها تقوى الله تعالى وهى من سِجَاياهِ التى وُصِفَتْ ، وَخَصائِصِه التى أُلْفَتْ وَعُرِفَتْ ؛ فليَجْعَلْها مِرْآةً ذِكرَه ، وَفاتِحَةً فِكرَه ، والله تعالى يُؤيِّدُه فى سِرِّهِ وَجَهْرِهِ ؛ بِنِعمَةِ وَكرَمِهِ ! : إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة مرسوم شريف بإمرة آل فضل ، كُتِبَ بها للأَميرِ حُسامِ الدين «مُهَنَّأ بن عيسى» من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهى :

الحمد لله الذى أرهف حسام الدين فى طاعتنا بيد من يمضى مضاربه بيديه ،
وأعاد أمر القبائل وإمرتهم إلى من لا يصأح أمر العرب إلا عليه ؛ وحفظ رتبة
آل عيسى باستقرارها لمن لا يزال الوفاء والشجاعة والطاعة فى سائر الأحوال منسوبات
إليه ، وجعل حسن العقبي بعنايتنا لمن لم يتطرق العدو إلى أطراف البلاد المحروسة
إلا ورده الله تعالى بنصرنا وشجاعته على عقبيه .

نحمده على نعمه التى ما زالت مستحقة لمن لم يزل المقدم فى ضميرنا ، المعول عليه
فى أمور الإسلام وأمورنا ، المعين فيما تنطوى عليه أثناء سرائرنا ومطاوى صدورنا ؛
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توجب على قائلها حسن التمسك
بأسبابها ، وتقتضى للمخلص فيها بذل النفوس والنفائس فى المحافظة على مصالح أربابها ،
وتكون للحافظ عليها ذخيرة يوم نتقدم النفوس بطاعتها وإيمانها وأنسابها ؛ ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله المبعوث من أشرف ذوائب العرب أصلا وفرعا ، المفروضة
طاعته على سائر الأمم دينًا وشرعا ، المخصوص بالأئمة الذين بشوا دعوته فى الآفاق
على سعتها ولم يضيقوا لجهاد أعداء الله وأعدائه ذرعا ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
الذين حازوا بصحبته الرتب الفاعره ، وحصلوا بطاعة الله وطاعته على سعادة الدنيا
والآخرة ، وعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف فلم يرحزهم عن ظاهها الركون إلى
الدنيا الساعره ؛ صلاة تقطع الفلوات ركائبها ، وتسرى بساكنى طرق النجاة نجائبها ،
وتنصر بإقامتها كتاب الإسلام ومواكبها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن أولى من تلقته رتبته ، التى توهم إعراضها بأيمن وجه الرضا ،
وأستقبلته مكانته ، التى تحيل صدودها بأحسن مواقع القبول التى تضمنت الاعتداد
من الحسنات بكل ما سلف والإغضاء من الهفوات عما مضى ، وآلت إليه إمرته

التي خَافَتِ الْعَطَلَّ مِنْهُ وَهِيَ بِهِ حَالِيهِ ، وَعَادَتْ مُزِيلَتَهُ إِلَى مَا أَلْفَتَهُ لَدِينَا : مِنْ مَكَانَةٍ مَكِينَةٍ وَعَرَفْتَهُ عِنْدَنَا : مِنْ رُتْبَةٍ عَالِيَةٍ - مِنْ أَمْنَتِ شَمْسِ سَعَادَتِهِ فِي أَيَّامِنَا مِنَ الْغُرُوبِ وَالزُّوَالِ ، وَوَقَّعَتْ أَسْبَابُ نِعَمِهِ بَأَنْ لَا يُرَوِّعَ مَرِيرُهَا فِي دَوْلَتِنَا بِالْإِنْتِقَاضِ وَلَا ظَلَالُهَا بِالْإِنْتِقَالِ ؛ وَأَغْتَتَهُ سِوَابِقُ طَاعَتِهِ الْمَحْفُوظَةُ لَدِينَا عَنْ تَوْسُطِ الْوَسَائِلِ ، وَأَحْتَجَّتْ لَهُ مَوَاقِعَ خِدْمَتِهِ الَّتِي لَا تُجْحَدُ مَوَاقِفُهَا فِي نِكَايَةِ الْأَعْدَاءِ وَلَا تُشْكِرُ شُهُرُهَا فِي الْقَبَائِلِ ؛ وَكَفَّلَ لَهُ حُسْنَ رَأْيِنَا فِيهِ بِمَا حَقَّقَ مَطَالِبَهُ ، وَأَحْمَدَ عَوَاقِبَهُ ، وَحَفِظَ لَهُ وَعَلَيْهِ مَكَانَتَهُ وَمَرَاتِبَهُ ؛ فَمَا تَوَهَّمُوا الْأَعْدَاءُ أَنَّ بَرَقَهُ ، خَبَا حَتَّى لَمَعَ ، وَلَا ظَنُّوا أَنَّ وَدَقَهُ ، أَقْلَعَ حَتَّى هَمَى وَهَمَعَ ، وَلَا تَخَيَّلُوا أَنَّ حُسَامَهُ نَبَأَ ، حَتَّى أَرْهَفْتَهُ عِنَايَتُنَا فَيَحْتَمِلُ حَلًّا مِنْ أَوْصَالِهِمْ قَطَعَ ؛ وَكَيْفَ يُضَاعُ مِثْلُهُ ؟ وَهُوَ مِنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الَّتِي لَا تَنْزِلُ الْأَهْوَاءُ وَلَا تَرْتَقِي الْأَطْعَامُ مُتُونَهَا ، وَلَا تَسْتَقِرُّ (١) ؟ الْأَعْدَاءُ عِنْدَ جِهَادِهَا وَاجْتِهَادِهَا فِي مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ حَسْبَهَا وَدِينَهَا .

ولما كان المجلس العالی ... هو الذى لا یحوّل اعتقادنا فى ولایته ، ولا یزول اعتمادنا على نفاذه فى مصالحنا ومضائه ؛ ولا یتغیر وئوقنا به عمّا فى حواطرنّا من کمال دینیه وصحّة یقینیه ، وأنه مارفعت بین یدینا رایة جهادٍ إلا تلقّاها عرابه عزیمه بیمینیه ؛ فهو الولیّ الذی حسنت علیه آثار نعیمنّا ، والصفیّ الذی نسأ فی خدّمه أسلافنا ونسأ بنوه فى خدّمنا ، والتّقیّ الذی یأبى دینیه إلا حفظ جانب الله فى الجهاد بین یدی عزیمتنا وأمام هممنا - أقتضت آراؤنا الشریفة أن نصّرح له من الإحسان بما هو فى مکنون سرائرنا ، ومضمون ضمائرنا ؛ ونعلن بأنّ رتبته عندنا بمکان لا تتطاولُ إليه ید الحوادث ، وتبین أن أعظم أسباب التقدّم ما كان علیه من عنايتنا وأمتناننا أکرم بواعث .

(١) لعله "ولا تستقل".

فلذلك رُسم أن يعاد إلى الإمرة على أمراء آل فضل ، ومشايخهم ومقدمهم ،
وسائر عربانهم ، ومن هو مضاف لهم ومنسوب إليهم ، على عادته وقاعدته .

فليجرب في ذلك على عادته التي لا مزيد على كمالها ، ولا محيد عن مبدئها في مصالح
الإسلام ومآلها ، أخذًا للجهاد أهبتَه من جمع الكلمة واتحادها ، واتخاذ القوة
وإعدادها ، وتضافر الهمم التي ما زال الظفر من مآذها والنصر من أمدادها ،
وإلزام أمراء العربان بتكميل أصحابهم ، وحفظ مراكزهم التي لا تُستد أبوابها إلا بهم ؛
والتيقظ لمكاييد عدوهم ، والتنبه لكشف أحوالهم في رواحهم وغدوهم ؛ وحفظ
الأطراف التي هم سُورها من أن تسورها مكاييد العدا ، وتخطف من يتطرق إلى
النفور من قبل أن يرفع إلى أفقها طرفًا أو يمدد على البعد إلى جهتها المصونة يدا ،
وليبت في الأعداء من مكاييد مهايتبه ما يمنعهم الفرار ، ويحسن لهم الفرار ، ويحول
بينهم وبين الكرى لأشترك أسم النوم وحد سيفه في مسمى الفرار .

وأما ما يتعلق بهذه الرتبة من وصايا قد ألفت من خلاله ، وعرفت من كماله ،
فهو ابن بجدتها ، وفارس بجدتها ، وجهينة أخبارها ، وحلبة غايتها ومضمارها ، فيفعل
في ذلك كله ما شكر من سيرته ، وحمد من إعلانه وسيرته ؛ وقد جعلنا في ذلك وغيره
من مصالح إمرته أمره من أمرنا : فيعتمد فيه ما يرضى الله تعالى ورسوله ، ويبلغ
به من جهاد الأعداء أمله وسؤله ؛ والله الموفق بمنه وكرمه ! والاعتقاد

الطبقة الثانية

(من عرب الشام - من يكتب له مرسوم شريف)

وهم على مرتبتين :

المرتبة الأولى - من يكتب له في قطع النصف ، وهم ثلاثة :

الأول - أمير آل علي ، ورتبته « السامي » بالياء . وقد تقدم أن منازلهم مرج دمشق و غوطتها ، بين إخوانهم آل فضل و بني عمهم آل مرء ، ومنتاهم إلى الحوف و الجلبانة ، إلى السكة ، إلى تيماء ، إلى البرادع . وأنه ذكر في « التعريف » : أنهم لما نزلوا غوطة دمشق حيث صارت الإمرة إلى مهنا بن عيسى .

وهذه نسخة مرسوم شريف بإمرة آل علي ، كتبت به للأمر عز الدين « جمار » بعد وفاة والده محمد بن أبي بكر ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله الذي أنجح بنا كل وسيله ، وأحسن بنا الخلف عن قضي في طاعتنا الشريفة سبيله ، ومضى و خلى ولده رسيله ، وأمسك به دمة السيوف في خدودها الأسيله ، وأمضى به كل سيف لا يرد مضاء مضار به بحيله ، وأرضى بتقليده كل عني و جمل كل جميله .

نحمده على كل نعمة جزيله ، وموهبة جميله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ترشد من اتخذ فيها نجوم الأسته دليله ، وتجعل أعداء الله بعز الدين ذليله ، وأن محمدا عبده ورسوله الذي أكرم قبيله ، وشرف به كل قبيله ، وأظهر به العرب على العجم وأحمد من نارهم كل قبيله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة بكل خير كقبيله ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ دولتنا الشريفة لما خَفَقَ على المَشْرِقِ والمَغْرِبِ جَنَاحُهَا، وشَمِلَ
الْبَدُوَ والحَضْرَ سَمَاحُهَا؛ ودخَلَ في طَاعَتِهَا الشَّرِيفَةَ كُلَّ رَاحِلٍ ومُقيمٍ في الأَقْطَارِ،
وكلُّ سَاكِنِ خِيْمَةٍ وجِدَارٍ - تَرَعَى النِّعَمَ بإبْقَائِهَا في أَهْلِهَا، وإِلْقَائِهَا في مَحَلِّهَا؛ مع
ما تَقَدَّمَ من رِعايَةٍ تُوجِبُ التَّقْدِيمَ، وتُودِعُ بِهَا الصَّنَائِعُ في بَيْتِ قَدِيمٍ؛ وتُزَيِّنُ بِهَا
المَوَاكِبُ إذا تَعَارَضَتْ بِجَاحِهَا، وتَعَارَفَتْ شُعُوبُهَا وَقَبَائِلُهَا؛ وَأَسْتَوَلَتْ جِيَادُهَا على
الْأَمَدِ وقد سَبَقَتْ أَصَابِلُهَا، وتَدَاعَتْ فُرْسَانُهَا وقد أَشْتَبَهَتْ مَنَاصِبُهَا وَمَنَاصِبُهَا
وَمَنَاصِلُهَا؛ وَكَانَتْ قَبَائِلُ العُرَبِ إِنْ مَنَّ تَعْمَهُمْ دَعْوَتُنَا الشَّرِيفَةَ، وَتَضَمُّهُمْ طَاعَتُنَا
الَّتِي هِيَ لَهُمْ أَكْمَلُ وَظِيفَةٍ؛ وَلَهُمُ النِّجْدَةُ في كُلِّ بَادِيَةٍ وَحَضْرَ، وإِقَامَةُ وَسْفَرٍ؛ وَشَامِ
وَجِجَارِ، وَإِنْجَادٍ وَإِنْجَازِ؛ وَلَمْ يَزَلْ (لَا لِي عَلِيٍّ) فِيهِمْ أَعْلَى مَكَانَةٍ، وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ تَوَسَّدَ
سَيْفَهُ وَأَقْرَشَ حِصَانَهُ؛ وَهَمَّ مِنْ دِمَشْقِ المَحْرُوسَةِ رَدِيفُ أُسْوَارِهَا، وَفَرِيدُ سُورِهَا؛
وَالنَّازِلُونَ مِنْ أَرْضِهَا في أَقْرَبِ مَكَانٍ، وَالنَّازِحُونَ وَلَهُمْ إِلَى الدَّارِ بِهَا أَقْطَارٌ وَأَوْطَانٌ؛
قَدْ أَحْسَنُوا حَوْلَ البِلَادِ الشَّامِيَةِ مَقَامَهُمْ، وَأَسْتَغْنَوْا عَنِ المُقَارَعَةِ عَلَى الضَّيْفَانِ لِمَا
نَصَبُوا بِقَارِعَةِ الطَّرِيقِ خِيَامَهُمْ؛ وَبَاهُوا كُلَّ قَبِيلَةٍ بِقَوْمِ كَأَثَرِ النُّجُومِ عَدِيدُهُمْ،
وَأَوْقَدُوا لَهُمْ فِي اليَقَاعِ نَارًا إِذَا هَمَّى القَطْرُ شَبَّهَا عَيْدُهُمْ؛ وَهَمَّ مِنْ آلِ فَضْلِ حَيْثُ
كَانَ عَلَيْهَا، وَحَدِيثُهُ فِي المَسَامِعِ حُلِيِّهَا؛ فَلَمَّا آتَتْهُمُ الإِمْرَةُ إِلَى الأَمِيرِ المَرْحُومِ
شَمْسِ الدِّينِ، مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ رَحِمَهُ اللهُ - جَمَعَهُمْ عَلَى دَوْلَتِنَا القَاهِرَةِ، وَأَقَامَ فِيهِمْ
يَتَنَجَّى بِطَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ رِضَا اللهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ؛ ثُمَّ أَمَدَهُ اللهُ مِنْ وَلَدِهِ بِنِ ابْنِ أَلِيِّ إِلَيْهِ
هَمَّهُ، وَأَمَضَى بِهِ عَزَمَهُ، وَنَفَّذَ بِهِ حُكْمَهُ، وَنَقَلَ قَسَمَهُ .

وكان الذي يتحمل دونه مشقات أمورهم، ويتلقى شكوى أمرهم ومأورهم؛
ويرد إلى أبوابنا العالية مستمطرا لهم سخائب نعمنا التي أخصب بها مرادهم،

وساروا في الآفاق ومن جدواها راحلتهم وزادهم ؛ وتفرد بما جمعه من أبوته وإبائه ،
وركز في كل أرض مناخ مطيه ومرسى خبائه ؛ وصاهى في المهاجرة إلى أبوابنا
الشريفة النجوم في السرى ، وحافظ على مراضينا الشريفة فما أنفك من نار الحرب
إلا إلى نار القرى ؛ وورد عليه مرسومنا الشريف فكان أسرع من سهم
في مضائه . كم له من مناقب لا يغطي عليها ذهب الأصيل تمويها ! ، وكم تنقل من
كوير إلى سرج ومن سرج إلى كوير فتمنى الهلال أن يكون لهما شيئا ؛ كم أجمل
في قومه سيره ! ، وكم جمل سيره ! ؛ كم أثمر لها أملا ! ؛ كم أحسن عملا ! ؛ كم سدد
خللا ! ، كم جمع في مهماتنا الشريفة كل من امتطى فرسا وركب جملا ! ؛ كم صفوف
به تقدمت ، وسيوف أقدمت ، وحتوف حاتم الحمام بها على الأعداء ترمت !! .

وكان المجلس السامي الأميري ، الأجل ، الكيرى ، المجاهدي ، المؤيدي ،
العصدي ، النصيري ، الأوحدي ، المقدمي ، الذخري ، الظهيري ، الأصيلي :
مجذ الإسلام والمسلمين ، شرف الأمراء في العالمين ؛ همأم الدولة ، حسام الملل ؛
ركن القبائل ، دُخر العشائر ؛ نصره الأمراء والمجاهدين ، عضد الملوك والسلاطين
« جاز بن محمد » أدام الله نعمته - : هو المراد بما تقدم ، والأحق بأن يتقدم ،
والذي لو أن الصباح صوارم والظلام بحافل لتقدم ؛ فلما مات والده رحمه الله نحا
إلى أبوابنا العالية ، ونور ولائه يسعى بين يديه ، ووقف بها : وصدقاتنا الشريفة
ترفرف عليه ؛ فرأينا أنه بقية قومه الذين سلفوا ، وخلف آبائه الذين عن زجر
الجيل ما عزفوا ؛ وكبيرهم الذي يعترف له والدهم ووليدهم ، وأميرهم الذي به تُرعى
عهودهم ؛ وشجرتهم التي تلتف عليه من أسابهم فروعها ، وفريدهم الذي تجتمع عليه
من بحافلهم جموعها .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة آل عليّ : تامّة عامّة ، كاملة شاملة ، يتصرف في أمورهم ، وأميرهم ومأمورهم ، قريبا وبعدا ، وغورا ونجدا ، وظعنا وإقامه ، وعراقا وتهامه ، وفي كلّ حقيرٍ وجليل ، وفي كلّ صاحب رضاءٍ وئفاءٍ وصيريرٍ وصليل ، على أكل عوائد أمراء كلّ قبيله ، وفي كلّ أمورهم الكثيرة والقليلة .

ونحنُ نأمرك بتقوى الله فيها صلاح كلّ فريق ، وإصلاح كلّ رقيق ، ونجاح كلّ سالك في طريق . والحكم : فليكن بما يوافق الشرع الشريف . والحقوق : فخلصها على وجه الحق من القوى والضعيف . والرفق بمن وليته من هذا الجمل الغفير ، والجمع الكبير ، وإلزام قومك بما يلزمهم من طاعتنا الشريفة التي هي من الفروض اللازمة عليهم ، والقيام في مهماتنا الشريفة التي تبرزها مراسمتنا المطاعة إليك وإليهم ، وحفظ أطراف البلاد والذب عن الرعايا من كلّ طارق يطرقهم إلا بخير ، والمسارعة إلى ما يرسم لهم به ما دامت الأسفار في عصاها سير ، والإفراج لعريك لا تسمع به إلا لمن له حقيقة وجود ، وله في الخدمة الشريفة أثر موجود ، ومنعهم : فلا يكون إلا إذا توجه منهم ، أو تواتت عزائمهم وقيل نفعهم ، والمهابة : فأنشرها كسمعتك في الآفاق ، ودع بوارق سيوفها تُسام بالشام وديمها تُراق بالعراق ، وخيول التّقدم : فارتد منها كلّ سابق وسابقة تقف دونهما الرياح ، ويحسدهما الطير إذا طارا بغير جناح ، ولا تتخذ دوننا لك بطانة ولا وليجه ، ولا تقطع عنا أخبارك البهيجه ، وليعرف قومه له حقه ، ويؤفوه من التعظيم مستحقه ، فإنه أميرهم وأمره من أمرنا المطاع ، فمن نازع فقد خالف النص والإجماع ، والله تعالى يؤفقه ما استطاع ، بمنه وكرمه ! والخط الشريف

(١)
[الثاني - أمير آل فضل] .

وهذه نسخة مرسوم شريف بالتقدمة على عربى آل فضل وآل على ، كتب به
للأمير نحر الدين « عثمان بن هبة » وهو :

الحمد لله الذى خص من وآلى هذه الدولة بالتقدمة والفخر ، ورمى من عاداها
بالمذلة والقهر ، ومد فى عمر أيامها حتى يستنفد الدهر ، وحتى توصف أيامها -
وإن قصرت - بالمسار : كل شهر يتر منها كالعام واليوم كالشهر .

نحمده على ما منحنا : من تأييد وظفر ، وطوى دعوة من عاندنا بعد النشر ، ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إن دخلت شواهدا تحت الإحصاء
فلا تدخل فوائدها تحت الحصر ، وأن مجدا عبده ورسوله الذى جعل الله به الهداية
فى المبدأ والشفاعة فى المعاد يوم الحشر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تسعد
بعد الشقاء وتجبر بعد الكسر .

وبعد ، فإن الله سبحانه وتعالى لما مكن لنا فى الأرض ، وجعل بيدنا البسط
والقبض ، وأرانا كيف نصنع الجميل ونجمل الصنع ، وكيف نجبر قلب من جعل
فى أيامنا جبره بعد الصدع ، وكيف تصيح أنجم ذوى الأقدار فى سماء مملكتنا
نيرة المطالع ، وكيف نلقى الخير فى عراضها من رامه إذا كان على الخير فى غير أيامنا
مانع ، وكيف نحل التقدمة فىمن إذا عقل فى حللها قيل : هذا هو أحق بها ممن
كان ، وهذا الذى ما برحت التقدمة فى بيته فى صدر الزمان ، وهذا الذى إذا ذكر
آل فضل وآل على كانت له مرتبة الشرف ولا غرو أن تكون مرتبة الشرف

لُعْثَان، وَأَتْنَا لَا نُمَطِّي صَهْوَةَ الْعِزِّ إِلَّا لِأَهْلِهَا، وَلَا نَسْخُحُ الْآيَةَ لِمَنْ تَقَدَّمَ فِي التَّقْدِيمَةِ إِلَّا بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا؛ وَلَا نُسَلِّمُ رَأْيَتَهَا، إِلَّا لِمَنْ تُعْقَدُ عَلَيْهِ الْخِنَاصِرُ، وَلَا يَتَسَمَّنُ ذُرَّوَتَهَا، إِلَّا مَنْ هُوَ أَحَقُّ بِهَا وَأَهْلُهَا فِي الْأَوَّلِ وَالْآخِرِ .

ولما كان المجلس السامى ، الأميرى ، فخر الدين ، عثمان بن مانع بن هبة : هو المراد بهذا القول الحسن ، والممدوح بحشد هذا المدح الذى يسر السر والعلن ، والحقيق من الإحسان بكلمها والخير بأن ؛ والخصيص من سوائف الخدم بما والمفضل على سائر النظراء ولو قيس بمن - آقتضى حسن الرأي الشريف ، أن رسم بالأمر الشريف - لا زال ذو القدر فى أيامه يرتفع ، وذو الفضل فى دولته لا يعز عليه مطلب ولا يمتنع ، وذو الأصالة التى يجتمع له فيها من النعماء ما لا يلتئم له فى غيرها ولا يجتمع - أن تفوض إليه التقدمة على العربان بالشام المحروس ، وهم من أتى ذكره ، على ما استقر عليه الحال فى ترتيبهم ؛ وأن منازله الداروم : بعدا وقربا ، حضرا وبدوا ، عامرا وغامرا ، رائحا وغاديا ، من الرستن إلى الملوحة . والعرب : آل فضل وآل علي حيث ساروا نزلوا منزلة المذكور ، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن أبى بكر ، والخدمة واحده ، والكلمة على اتفاق المصالح متعاضده .

فليكن للقوى جسد روجها لابل روح جسدها ، ومجموع القبائل أوحد عددها إذا صح الأول من عددها ؛ وقطب فلكها الذى على تديره مدارها ، وعلى تقريره أقصرها ؛ وعلى تقدمته تعويلها ، وإلى نسبة إمارته جملتها وتفصيلها ؛ وليجمعهم على الطاعة فإن الطاعة ملاك الأمر للأمر ، وأس الخير للبادى والحاضر ؛ وليعلم أن لكل منهم نقابة تعرف ، وعلمية أصالة بها يعرف ؛ ومنزلة يرثها الولد عن الوالد ، وشيخة ترجع من ذلك البيت إلى ذلك الواحد ، فيحفظ لهم الأنساب ، ويرع لهم

الأسباب، وإذا أمرُوا بأمرٍ من مَهَامِّ الدَّوْلَةِ يتلَو عليهم : (اَدْخُلُوا الْبَابَ) .
والإلزام له ولهم مَحَاوِضٌ تُحْفَظُ ، وَمَفَاوِزٌ تُلْحَظُ ، وَمَطَارِحٌ لَا تُتْلَفُظُ ؛ وَمَشَاتٍ
وَمَصَافِي ، وَنَفَائِضٌ وَمَصَارِفٌ ؛ وَمَرَابِيعٌ ، وَمَرَاتِعٌ ؛ وَدُنُوقٌ وَأَقْتِرَابٌ ، وَتَوَطَّنٌ
وَأَغْتِرَابٌ ؛ وَإِغَارَةٌ وَنَهِيضٌ ، وَبَرْقٌ وَوَمِيضٌ .

فَلْيُرْتَّبْ ذَلِكَ أَجْمَلَ تَرْتِيبٍ ، وَلْيَسْلُكْ فِيهِ خَيْرَ مَذْهَبٍ وَتَهْذِيبٍ ، وَلْيَدْعُ الْعَادِي ،
وَيُلَاحِظِ الرَّائِغَ وَالْعَادِي ، وَلْيُؤَمِّنْ ذَلِكَ الْجَانِبَ فَأَمُنَّا تُطْرِبُ أَيْبَانُهُ الْمُحَدِّثُ
وَالْحَادِي ؛ وَعَلَيْهِمْ عِدَادٌ مَقْرَرٌ ، وَقَانُونٌ مُحْتَرَبٌ ؛ وَلْيَكُنْ عَلَى يَدِ شَادِهِ شَادَاً ، وَلِسَبَبِ
تَأْيِيدِهِمْ مَادَاً ؛ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ وَإِنْ كَانَ قَدْ أَعْمَضَ مِنْ جُفُونِهِ فِيمَا مَضَى ، وَأَعْرَضَ
عَنْهُ فِي الزَّمَنِ الْأَوَّلِ الَّذِي أَتَقَضَى ؛ وَقُدِّمَ عَلَيْهِ مِنْ كَانَ دُونَهُ ، فَقَدْ رَدَّ اللَّهُ لَهُ أَبْكَارَ
الْأَمْرِ وَعُودَهُ ؛ فَلَا يَجْعَلُ لِقَائِلٍ عَلَيْهِ طَرِيقًا ، وَلَا يَدْخُلُ فِي أَمْرٍ يُقَالُ عَنْهُ فِيهِ :
كَانَ غَيْرُهُ بِهِ حَقِيقًا ؛ بَلْ يَفُوقُ مَنْ تَقَدَّمَ فِي الْخِدْمَةِ وَالْهِمَّةِ ، وَالصَّرَامَةِ وَالْعَزْمَةِ ،
وَاللَّهُ يُوزِعُهُ شُكْرَهُ هَذِهِ النِّعْمَةَ ؛ وَالْخَطَّ الشَّرِيفَ :

الثالث - أمير آل مرءاء، ورتبته «السامى» بالياء .

وقد تقدم أن منازلهم حوران . وعن «مسالك الأبصار» أن ديارهم بين بلاد
الجيدور والجولان، إلى الزرقاء، إلى آخر بصرى . ومشرقاً إلى حرة كشت، على
القرب من مكة المشرفة، زادها الله شرفاً .

وهذه نسخة مرسومة شريف بإمرة آل مرءاء، كتب بها للأمير بدر الدين
«شطى بن عمر» وهى :

الحمد لله الذى زين آفاق المعالى بالبدر، ورفع بآئنا الشريفة خير ولى أضحى
بين القبائل جليل القدر، ومنح من أخلص فى خدم دولتنا الشريفة مزيد الكرم

فأصبح بإخلاصه شديد الأزر؛ وأجزل بره لأصائل العرب العرباء فوفر لهم الأقسام،
وأسبغ ظلال كرمه على من يرعى الجار ويحفظ الدمام .

نحمده على نعيم هطل سخابها ، ومنن تفتحت بالمسائر أبوابها ، ونشهد أن لا إله
إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُقرب صاحبها يوم الفزع الأكبر، من المحل
الآمن ، وتورده نهر الكوثر، الذى مأؤه غير آسن ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله
الذى بعثه الله من أشرف القبائل ، وأوضح بنور رسالته الدلائل ، فأنقذ الله به
هذه الأمة من ضلالها ، وبوأها من قُصور الجنان أعلى غر فيها وأشرف ظلالها ،
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أوصحوا مناهج الإيمان ، وشيدوا قواعد الدين
إلى أن علت كلمته فى كل مكان، [فكان] عصرهم أجمل عصر وقرنهم خير أوان ،
وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من أدبنا من بساط الأصفاء محله ، وأرتشف من سخاب
معروفنا طله فوبله ، ونال من عواطفنا منزلة القرب على بُعد الدار، وحكم له حسن
نظرننا الشريف بتوالى غزير كرمنا المدرار .^(١)

ولما كان المجلس الفلانى : هو المشار إليه بهذا النعت الحسن ، والموصوف
بالشجاعة فى السر والعلن - رسم بالأمر الشريف - لا زال بذره ، ساطع الأنوار ،
وبره ، هامع القطار، وخيره يشمل الأولياء بجزيل الإيثار وجميل الآثار - أن يستقر
المشار إليه فى كيت وكيت : لأنه البطل الشديد ، والفارس الصنديد ، وليث
الحرب المذكور، ومن هو عندنا بعين العناية منظور .

(١) لم يذكر خبرا لأن ولعله سقط من قلم النسخ والأصل « من كرم أصلا ومحمدا ، وسل سيف عزيزته
حتى خضعت له رقاب العدا » أو نحو ذلك .

وَلَيْتَنِي مِنْ صَدَقَاتِنَا الشَّرِيفَةِ بِمَا يُؤْمَلُ وَيَعْمَدُ ، وَلِيَتَحَقَّقَ قُرْبَهُ مِنْ مَقَامِنَا
الشَّرِيفِ وَالْعَوْدُ أَحْمَدُ ؛ وَلِيَتَلَقَّ هَذَا الْإِحْسَانَ بَقَابِ مُنْشَرِحٍ ، وَأَمَلٌ مُنْفَسِحٍ ؛
وَلِيَجْتَهِدُ فِي أَمْرِ عُرْبَانِهِ الَّذِينَ فِي الْبِلَادِ ، فَإِنَّا جَعَلْنَا عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِمُ الْأَعْتِيَادَ ،
وَقَدْ أَقْنَاهُ أَمِيرًا عَلَى عَرَبِ آلِ مِرَاءٍ ؛ فَلْيُشْمَرْ عَنْ سَاعِدِ الْأَجْتِهَادِ فِي مَصَالِحِ دَوْلَتِنَا
الشَّرِيفَةِ بِغَيْرِ زُورٍ وَلَا مِرَاءٍ ؛ وَلِيَقْمَعَ الْمُفْسِدَ مِنْ عُرْبَانِهِ وَيَقَابِلَهُ بِالنَّكَالِ ، وَالصَّالِحَ
الْخَيْرَ مِنْهُمْ يُجْزِلُ لَهُ النَّوَالَ ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةً وَلِئَلَّا لَا تُنْقَالَ ؛ وَالْخَطَّ الشَّرِيفَ أَعْلَاهُ
حِجَّةً فِيهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة مرسوم شريف بنصف إمرة آل مراء، كتب به لقناة بن نجاد،
في العشر الآخر من شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . من إنشاء المقر
الشهابي بن فضل الله، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي آسْتَعْدِمَ لِنَصْرِنَا كُلَّ سَيْفٍ وَقَنَاءَهُ ، وَكُلَّ سُرْعَةٍ وَأَنَاءَهُ ، وَكُلَّ مُتَّقِفٍ
تُسَلِّيُ^(١) جَنَائِيَّاتِهِ وَيَعْدُبُ جَنَاءَهُ ، وَكُلَّ مَاضٍ لَا يَعُوقُهُ عَنْ مَقَاصِدِهِ الصَّالِحَةِ يَعُوقُ
وَهُوَ عَبْدٌ مَنَاءَهُ .

نَحْمَدُهُ حَمْدَ مَنْ أَغْنَاهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَسْتَعِدُّ
مِنْ قَبْلِهَا فَاتَّقِ الصَّبَاحَ سَنَاءَهُ ، وَيُقَكِّمْ مِنْهَا مِنْ قَبْضَةِ السُّيُوفِ عُنَاءَهُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا
عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي [بَوَّأَهُ مَنَازِلَ الشَّرَفِ] وَبَنَاهُ ، وَأَحَلَّهُ مِنَ الْعَرَبِ فِي مَكَانٍ يَخْضَعُ
لَهُ رَأْسُ كُلِّ جَبَّارٍ وَيُخْشَعُ بَصْرُهُ وَتَسْتَمِيعُ لِمَا يُوحَى أَدْنَاهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ صَلَاةً تُخَصِّمُهُمْ مِنْ كُلِّ شَرَفٍ بِأَسْمَاءِهِ وَأَسْنَاءِهِ ، وَسَلَمٌ تَسْلِيَامًا .

(١) سلى جنائياته - ترك فلا يقتص منه .

وبعد، فإن لكل ثاكلة قرارا، ولكل هاجرة مزارا، ولكل معصم سوارا لا يليق إلا بزنده، ولكل عني درأ لا يصلح إلا لعقده، ولكل سيف طال هجوعه في غمده أنسلالا، ولكل قناة لم تعتقل مدة اعتقالا، وكانت إمرة آل مرآء قد ثبتت من البيت الأحمدي بأوثق أوتادها، ووصلت منه في الرفعة إلى نجادها، ولم تزل تنتقل في آفاقها بدورهم الطالع، وتضيء عليها من صفائحهم بروقهم اللامع، وتجول فيها من سوابقهم السحب الماعم، وتغني في حروبها عزائمهم إذا وقعت الواقعة، وتقدمت للجلس السامى، والأميرى، الفلانى، بركابنا الشريف ضجة حمد فيها السرى، وخدمته أوقدت له نار القرى، وهاجر إلينا في وقت دل على وفائه، وسهر إلى قصدنا الليل وله النجم محيط المقل باغفائه، وأتقطع إلينا بأمله، ولازم من عهدنا الشريف صالح عمله، وأستحق تعجيل نعيمنا الشريفه وإن تأخرت لأجل موقوت، وأمل نجاحه لا يقوت.

فلما آن أن تفاض عليه ثيابها، ويضاف إليه ثوابها، ويصرف في قومه أمره، ويشرف بينهم قدره، ويعرف من لم يعرف المسك أنه عندنا ذكوه، ومن جهل البر: أنه على ما يحمد عليه شكره، ومن أنكر أن شيئا أصعب من الموت: أنه في مجال الموت صبره، ومن خالف فيما هو أمضى من القضاء: أنه في البيعة صدره، ومن ادعى أنه لا تصيبه البيض والسمر: أنها مثقفته وبتره، وزال من هذا البيت العريق الطود وهو ثابت، ونزع منه السنن لولا أنه في قناته نابت، و[لولا] لهاجت هذه القبيلة إلى من يقبل على نباتها، ويقبل بها: تارة يُخد في نجدها وأخرى يجول في جولاتها - رسم بالأمر الشريف أن يُقلد من إمرة آل مرآء ما كان الأمير «ثابت ابن عساف» رحمه الله يتقلده إلى آخر وقت، ويرفع فيها إلى كل مسامته وسمت، ليكمل ما نقص من التمام وصفه، ويعلم أنه خلق إليه حتى أتى دون نصف البدر

فاختطف النصفَ وذلك النصفُ هو نصفُه ؛ ليكون لهم إحدى اليدين ، وأخرى
تقع لسيف بحدّين .

وتقوى الله أبرك ما أشملت عليه عودها ، وأنحيت له زييدها ؛ فليتحذها له ذروة
يهتدي بها أنى سلك من الفجاج ، وأقتحم من حلك العجاج . وعليه بحسن الصحبة
لرفيقه ، ويمن القبول على فريقه ، وإقامة الحدود على ما شرع الله من دينه القويم ،
وإدامة التيقظ [للأثر] المنيم ؛ وإنزال عربه ومن ينزل عليه أو ينزل عليهم
في منازلهم .

وليجمع قومه على طاعتنا الشريفة كل الجمع ، ويُقابل ما تردُّ به مراسمنا المطاعة
عليه بما أوجب الله لها من الطاعة والسمع ؛ وليأخذ للجهاد أهبتَه ، ويعجل إليه
هبتَه ؛ وليقف من وراء البلاد الشامية المحروسة دريئة لأسوارها المنيعه ، ونطاقا على
معاقلها الرفيعه ؛ وسداً من بين أيديها وخلفها لباب كل دريعه ، وخندقاً يحوطُ بلادها
الوسيعه ، وحجاباً يمنع فيها من تعدى الحق وخاص الشريعة ؛ ولا يفارق البلاد
حتى يعبس في وجوهها السحاب ، ولا يعود حتى تُؤذن زروعها المخيمة بذهاب ؛
والكرم هو فيه سجايا ، والعزم ما برح لوشان (؟) أسنته بكل قناة لحايا ، والحزم بيده
المراوية من آل مرءٍ يظهر له الخفايا ، والشجاعة هو في رباها المنيرة «ابن جلا وطلاع
الثنايا» ؛ وما رضع المرمل كأفويق الوفاق ، ولا وضع شيئاً في موضعه كمدارة الرفاق ؛
فليكن لرفيقه أكثر مساعدة من الأخ لأخيه ، وأكبر معاوضة من المصراع لتسيمه
والحفن لحفته والشئ لما يؤاخيه . هذا يجب ويتعين وليس يجمعهما فرد طاعه ،
ولا يلزمهما شيء واحد أستطاعه ؛ فكيف وهو [و] رفيقه إلينا أعتراؤهما ومنا
إعزازهما ، وهما قرعان معتنان : لدينا إجنأؤهما وبيدنا إهزازهما .

(١) يريد لنا ، بالهمز فاضطر القلب مراعاة السجع .

وليحصل من الخليل كلَّ سابقة تليق أن تقدّم إلينا، وسابحة في كل مهمه حين
يقدم علينا . والشَّرع الشريف يكون إليه مأبك، وعليه عفوك وعقابك؛ وبمقتضاه
عقد كل نكاح لا يصح إلا على وجه المرضى وإلا فهو سفاح، والميراث على حكمه
لمن جره إليه وإلا فهو ظلم صراح، وبقية ما نوصيه به إذا أتته منه إلى هذه النبتة
فما عليه في سواها جناح . وسبيل كل واقف على تقليدنا هذا أن ينب إلى نوصيه،
ويؤوب إلى عمومه وخصوصه؛ والحذر من الخروج عنه بقول أو عمل، فالسيف
أسبق من العدل؛ والله تعالى يمتعه بما وهبه من العز في النقل، والمحاسن التي هي
يد المسامع والأفواه والمقل؛ والخط الشريف أعلاه

المرتبة الثانية

(من أرباب المراسيم من العرب - من يكتب له في قطع الثلث بـ«السامي»

بغير ياء، مفتتحا بـ«أما بعد» وهم ثلاثة أيضا)

الأول - أمراء بني مهدي، وهي مقسومة بين أربعة . ورتبة كل منهم

«مجلس الأمير» .

وقد تقدم أن منازلهم البلقاء، إلى مائر، إلى الصوان، إلى علم أعفر .

وهذه نسخة مرسوم شريف برقع إمرة بني مهدي، وهي :

أما بعد حمد الله على نعمه التي حققت في كرمنا المأرب، وأجزلت من آلائنا
المواهب، وقربت لمن رجانا بإخلاص الطاعة ما يأتى عليه من المطالب؛ والصلاة
والسلام على سيدنا محمد المبعوث من أشرف ذوائب لؤى بن غالب، المخصوص
باللواء الذي لا يضحى من أوى إلى ظلّه والحوض الذي لا ظمأ بعد وروده

لشَارِب ، وعلى آله وصحبه الذين فازوا من صحبته وطاعته بأسمى المراتب وأسنى المناقب - فإنَّ أولى من رفعت رعايتنا قدره ، وأطلعت عنايتنا في أفق السعادة بداره ، وحققت آلاؤنا سؤله ، وبلغته صدقاتنا مرامه ومأموله - من أحكم في طاعتنا أسباب ولائه ، وأتقن في خدمتنا آنتساب بعيده وآتمائه ؛ وتقرَّب إلينا بإخلاصه في آجتماعه ، ومَتَّ بما يُرضينا من آحتفاله بأُمور جهاده ؛ مع ما تميَّزه من أسباب نتقاصي كرمنا في تقديمه ، وتقتضي إجراءه على ما ألف أولياء الطاعة من حديث إحساننا وقديمه .

ولما كان فلان هو الذي آختص بهذه المقاصد ، وعُني بما ذكر من المصادر والموارد - رُسم أن يُرتب في رُبع إمرة بني مهدي .

فليرتَّب فيما رُسم له به من ذلك قائما من وظائفها بما يجب ، عالمًا من مصالحها بما يأتي وما يَحْتَنِب ، واقفًا لاعتماد ما يرد عليه من المراسم وقوف المنتظر المرتقب ، ملزمًا عرَّبه من الخدم بما يؤكِّد طاعتهم ، ومن إعداد الأُهبه بما يُضعف استيظاعتهم ، ومن المحافظة على أسباب الجهاد بما يجعل في رضا الله تعالى ورضانا قوتهم وشجاعتهم ؛ وليقدم تقوى الله تعالى بين يديه ، ويجعل توفيقه العُمدة فيما آعتمد فيه عليه ؛ والخير يكون ، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة مرسوم شريف برُبع إمرة بني مهدي أيضا :

أما بعد حمد الله على نِعَمه التي جددت لمن أخلص في الطاعة رُتب السُعود ، ورفعت من نهض في الخدم الشريفة حق النهوض إلى مناصب الجُود ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بِلِوَاءِ الحمدِ المعقود ، وظلَّ الشفاعة الممدود ،

والخوض الذى لا ينضب على كثرة الورود ، وعلى آله وصحبه الذين وقوا بالعهود ،
وبدت سيماهم فى وجوههم من أثر السجود - فإن أولى من آجتلى وجوه النعم ،
وأجتلى ثمره ما عرس من الخدم ، وأرتقى إلى ما أنعم به عليه من التقدم الذى أقامه
السعد لاستحقاقه على أثبت قدم - من نشأ فى طاعتنا الشريفة يدين بولائها ،
ويتقلب فى خير نعمها وآلائها ، ويتعبد بما يؤهل له من خدماها ، ويبادر إلى
ما يندب له من المهام الشريفة بين يدي مراسمتنا أو تحت عالمها .

ولما كان فلان هو الذى ذكرت طاعته ، وشكرت خدمه وشجاعته - رسم ...
أن يرتب فى ربيع إمرة بنى مهدي ، على عادة من تقدمه وقاعدته .

فليرتب فى ذلك ، قائماً بما يجب عليه من وظائفها المعروفة المألوفة ، وخدمها
التي هى على ما تبرز به أوامرنا الجارية موقوفة ؛ وليكن هو وعمره بصدد ما يؤمرون
به : من خدمة يبادرون إليها ، وطاعة يثابرون عليها ، وتأهب للجهاد ، حيث سرت
الجيش المنصورة لم يبق لهم عائق عن التوجه بين يديها ؛ وسياسة تأخذهم من
الطرائق الحميدة بسلوك ما يجب ، ويعرف بها سلوك ما يسلك وأجتنب ما يجنب ؛
والخير يكون ، إن شاء الله تعالى .

الثانى - مقدم زبيد . ومنازل بعضهم بالمرج وغوطة دمشق ، وبعضهم
بصرخدا ، وحوران .



وهذه نسخة مرسوم شريف بتقدمة عرب زبيد ، وهى :

أما بعد حمد الله الذى أنبى بنا للنعم تأييدا ، وأحسن العاقبة لأحسن عاقبة أدام
لهم فيها تحليدا ، وأحيا به منهم حيا نكتب لأمرهم وإمرتهم فى كل حين تقليدا ؛

ونقل منهم نوفلاً فلا نزال نجدد فيهم ملابس الفخار بذكر اسمه تجديداً، ورعى بنا أبناء
بيت تناسقوا أبناءً وجدوداً، وتباشروا بولدي لما خلف والده بأب ابن سعيد
لا يكون إلا سعيداً، والصلاة والسلام على نبيه محمد الذي أهلك بسيفه كل غاشم،
وأخجل بسيفه كل غمام لوجنة الرياض وأشم، وأسعد بسيفه نوفلاً وعبد شمس
بأخوتها لهاشم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه خلاصة العرب، صلاة لا يعد ضرباً
لها الضرب، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن العساكر المنصورة الإسلامية: منهم حاضرة أهل جدار، وبادية
في فقار، وقوم هم المدن المدنة وقوم عليها أسوار، وهم صنفان: صنف لا تمل
السيوف عواتقهم، وصنف سيوفهم تحبس بها مناطقهم، والعرب أكرم [أهل]
البادي، وأعظم قبائلهم تضرماً كالبرق مباراة للشحب الغوادي، قد نصبوا بقارة
الطريق خيامهم، وسرحوا مع أسراب الظباء سوامهم، ووقفوا دون الممالك المحروسة
ككاتب مضفوفه، ومواكب بما تعرف به العرب من الشجاعة موصوفه، وزبيد
من أنفها قبيله، وأكثرها فوارس: [فأما أحسابها] فكريمة وأما وجوهها فخميله،
شامية أعرفت أنساباً في يمنها، وأتهمت بشطء أسنتها ما تفتح في الحجر من سوسنها،
فأبيت بطل منهم على دمن، ولا يعرف فارس إلا إذا تمل في الخليلطين من شام
ومن يمن، كم فيهم بمواقع الطعان فطن ذو كئيس، وكم صبغ منهم بالدماء راية حمراء
يمني لا ينسب إلى قيس، كم كرب على معد يكرب منهم فارس، ونسب إلى زبيد
وهو خشن الملابس، منهم صاحب الصمصامة يقي مثلها السيف فردا، وكم قتل من
أقرانه الشجعان من أخ صالح وبواه في العجاج بيديه لحدا، ومن نجومهم الزواهر
السراه، وغيومهم الأكاب السراه، من لم يزل حول دمشق وما يليها من حوران،
منارة منازل وأوطان، حاموا عن جناها المصون، وحاموا حول غوطتها تشبها بجماها

على الغُصون ؛ وما نلوا بسيوفهم أنهارها ، ورماحهم حول دوحات الأيك أشجارها ؛
 وأستلاموا بمثل عُذرائها دُرُوعا ، وحكوا بما أطلوا من دماء الأعداء شقائق روضها ،
 وبما جروا من حللهم المسهمة سبلا ؛ ولم يزل لهم من البيت النوفلي من يجمع جماعتهم ،
 ويضم تحت راية الدولة الشريفة طاعتهم ؛ يُخلف ابن منهم لأبيه أو أخ لأخيه ،
 وينظم كل فرقة مع من يناسبه وينضاف كل كوكب إلى من يؤاخيه .

وكان مجلس الأمير الأجل ، فلان بن فلان الزبيدي - أدام الله عزه - هويّة
 من سلف من آباءه ، وعرف مثل الأسد القسورة بآبائه ، وأخصر فيه من استحقاق
 هذه الرتبة ميراث أبيه ، وأستغرق جميع ما كان من أمر قومه وإمرتهم يليه .

فرسم بالأمر الشريف - زاده الله تعالى شرفا ، وذخر به لكل سالف خلفا -
 أن يرتب في إمرة قومه من زبيد النازلين بظاهر دمشق وبلاد حوران المحروس ،
 على عادة أبيه المستقره ، وقاعدته المستمزه ؛ إلى آخر وقت ، من غير تنقيص له عن
 نجم سعده في سمة ولا سمت ؛ تقديمه تشمل جميعهم ممن أعرق وأشام ، وأنجد
 وأتهم ؛ لا يخرج أحد منهم عن حكمه ، ولا ينفرد عن قسمه ؛ لا ممن هو في جدار ،
 ولا ممن هو مضحرج في قفار ؛ يمشي على ما كان عليه أبوه ، ويقوم فيهم مقامه الذي
 كان عليه هو وأولوّه .

ونحن نوصيك بتقوى الله تعالى ، واتباع حكم الشريعة الشريفة ما أقتت على
 بلد أو أزمعت ارتحالا ، وجمع قومك على الطاعة فُرسانا ورُجبالا ورجالا ؛ واتباع
 أوامرها الشريفة وأمر نوابنا الذين هم بإزائهم ، وما أعتاز من قبلك إلا ما مالوا
 إليه في أعترائهم ؛ والتأهب أنت وقومك لما رسم به في ليل أو نهار ، وحماية حمي
 أتم حوله في صحراء مضحرة أو من وراء جدار ؛ والمطالعة بمن ينتقل من أصحابك

بالوفاء، والوصايا كثيرة ومثلك أيسر ما قال له أمرؤ كفاه، والله تعالى يوفقك لما يرضاه، ويؤثرُك في كلِّ أمرٍ للعمل بمقتضاه، وسبيل كلِّ واقفٍ عليه العملُ به بعد الخط الشريف شرفه الله تعالى وأعلاه أعلاه؛ إن شاء الله تعالى .

النيابة الثانية

(من نيابات البلاد الشامية - نيابة حلب . ووظائفها التي يكتبها
من الأبواب السلطانية على نوعين)

النوع الأول

(من بحاضرة حلب، وهم على أصناف)

الصنف الأول

(منهم أرباب السُّيوف، وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد، وهو نائب السلطنة بها،
وتقليده في قطع الثلثين بـ«الجناب الكريم»)

وهذه نسخة تقليد شريف نيابة السلطنة بحلب، كتبت به للامير استدمر،
من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، وهي :

الحمد لله حافظ ثغور الإسلام في أيامنا الزاهرة، بمن يفتقر عن شنب النصر سيفه،
وناظم نطاق الحصون في دولتنا القاهرة، على همم من لم يزل يغزو عدو الدين قبل
طلوع طلائعه طيفه، وناشر لواء العدل في أسنى ممالكنا بيد من لا يؤمن في الحق فوته

وَلَا يَرْهَبُ فِي الْحُكْمِ حَيْفُهُ ، وَمَدْنِحِرٍ [أَجْر] الرِّبَاطِ فِي سَيْدِلِهِ لِمَنْ لَمْ يَبْتَ لَيْلَةً إِلَّا وَالتَّائِيْدِ
 نَزِيْلُهُ وَالتَّنْصِرِ سَمِيْرُهُ وَالتَّظْفَرُ صَيْفُهُ ؛ الَّذِي جَعَلَ الْجِهَادَ فِي أَطْرَافِ الْمَمَالِكِ الْمَحْرُوسَةِ
 سُورًا لِعَوَاصِمِهَا ، وَالصَّعَادَ فِي مَقَاتِلِ أَعْدَاءِ الدِّينِ شَجْنًا فِي صُدُورِهَا وَشَجِيًّا فِي غَلَاصِمِهَا ؛
 وَالسُّيُوفَ الْحِدَادَ تُرْهِئُ بِمَشَارِكْتِهَا لِأَسْمٍ مِنْ بَيْلَتٍ مِنْهُ أَجْسَادُ أَهْلِ الْكُفْرِ بِقَاسِمِهَا ،
 وَرُمِيَتْ مِنْهُ أَعْمَارُهُمْ بِقَاصِمِهَا ؛ وَأَرْهَفَ لِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ أَوْلِيَائِنَا سَيْفًا نَتَحَلَّى الشَّهْبَاءَ
 بِجَوَاهِرِ فِرْنِيدِهِ ، وَتَتَوَقَّعُ الْأَعْدَاءُ مَوَاقِعَ فَتَكَاتِهِ قَبْلَ تَأْتِيْقِ بَرَقِهِ مِنْ سُبْحِ غَمْدِهِ ؛
 وَيَعْرِفُ أَهْلُ الْكُفْرِ مَضَارِبَهُ الَّتِي لَا تُطِيقُ مَقَاتِلَهُمْ جَحْدَهَا ، وَتَتَفَرَّقُ عُصَبُ الضَّلَالِ
 فَرَقًا مِنْ مَهَابَتِهِ الَّتِي طَالَمَا أَغَارَتْ عَلَى جِيُوشِهِمُ الْمُتَعَدِّدَةَ وَحَدَهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ النَّصْرَ لِأَجْيَادِ مَمَالِكِنَا عُقُودًا ، وَالكُفْرَ لِلْهَيْبِ صَوَارِمِنَا
 وَقُودًا ، وَالتَّائِيْدَ مِنْ نَتَائِجِ سُيُوفِنَا الَّتِي تَأْتِي أَنْ تُرَى فِي مَضَاجِعِ الْعُقُودِ رُقُودًا ؛
 وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُعَلِّي مَنْارَ الْهُدَى ، وَتُطْفِئُ أَنْوَارَ
 الْعِدَا ، وَتُخْلِئُ أَجْسَادَ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ قُوَى أَرْوَاحِهِمْ فَتَعْدُو كِدْيَارِهِمُ الَّتِي لَا يُحِبُّ
 فِيهَا إِلَّا الصَّدَى ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَعْلَى اللَّهُ بِنَاءَ الْإِيْمَانِ بِتَأْيِيْدِهِ ،
 وَأَيَّدَنَا فِي الذَّبِّ عَنْ مِلَّتِهِ ، بِكُلِّ وَليٍّ يَتَلَقَّى رَايَةَ النَّصْرِ بِيَمِينِهِ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَصَالِحِ
 أُمَّتِهِ ، بِكُلِّ سَيْفٍ نَتَأَلَّقِي نَارَ الْأَجْلِ مِنْ زَنْدِهِ وَيَتَرَقُّقُ مَاءَ الْحَيَاةِ مِنْ مَعِينِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ وَسَمَتْ أَسْتَنْتَهُمْ مِنْ وَجْهِ الْكُفْرِ أَغْفَالًا ، وَكَانَتْ سِيُوفُهُمْ
 لِمَعَاظِلِ أَهْلِ الشَّرْكِ مَفَاتِحَ فَلَمَّا فُتِحَتْ غَدَّتْ لَهَا أَقْفَالًا ؛ فَفَنَّهُمْ مَنْ فَازَ بِمِزْيَةِ السَّبْقِ
 إِلَى تَصْدِيْقِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ الشَّيْطَانُ يُنَكِّبُ عَنْ طَرِيقِهِ ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ أَمَرَ بِإِعْمَادِ
 سَيْفِ الْإِتْتِصَارِ لَدَمِهِ عَنْ مَرِيْقِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ حَازَ رُبِّيَّةَ أَخْتَانِهِ وَصِرْهَ دُونَ أُسْرَتِهِ
 الْكِرَامِ وَفَرِيْقِهِ ؛ صَلَاةً دَائِمَةً لِأَهْلِ الْخُلُودِ ، مُسْتَمِرَّةً لِإِقَامَةِ فِي التَّهَائُمِ وَالتَّجُودِ ؛ وَسَلَمًا
 تَسْلِيًّا كَثِيرًا .

وبعد، فإن أولى من حليت التقاليد بلالي أوصافه، ومليت الأقاليم بمواقع
مهاتمه وإنصافه؛ وريعت قلوب العدا بطروق خياله قبل خيله، وخاف الكفر
كل شيء أشبه ظباه من توقد شمس نهاره أو حكي أسنته من تألق نجوم ليله؛
ومد على الممالك من عز ماته سور مصفح بصفاحه، مشرف بأسنه رماحه؛ سامية
على منطقة الجوزاء منطقة بوجه، نائية على أمانى العدا مسافة رفعته فلا يقدر أمل
باغ على ارتقائه ولا رجاء طاع على ولووجه. من تمهدت بسداد تديره الدول، وشهدت
بسير محاسنه السير الأول؛ وتوطدت الممالك على أسنته فحقت أن أعلى الممالك
ما يبنى على الأسل، وسارت في الآفاق سمعته فكانت أسرى من الأحلام وأسبق
من الأوهام وأسير من المشل؛ وصانت الثغور صوارمه فلم يشم برقها إلا أسير
أو كبير، أو من إذا رجع إليها بصره أثقل إليه البصر خاسئا وهو حسير؛ وزانت
الأقاليم معدته فلا ظلم يغشى ظلامه، ولا جور يحشى إمامه، ولا حق تدحض
حجته ولا باطل يعلو كلامه؛ فالبلاذ حيث حل بعدله معموره، وبإياله معموره،
وسيوف ذوى الأقاليم وأقلامهم بأوامره في مصالح البلاد والعباد منهية ومأموره.

ولما كان الحناب العالى هو الذى عاتق الملك الأعز نجاده، وألثت الذى لم يزل
فى سبيل الله إغارته وإنجاده؛ والكفى الذى كم له فى جهاد أعداء الله من موقف
صدق يضل فيه الوهم وتزل فيه القدم، والهمام الذى إن أنكرت أعناق العدا مواقع
سيوفه «فما بالعهد من قدم»؛ والمقدم الذى لا تترك مشاهدته فى إرغام الكفر ولا
تكفر، والزعيم الذى حمت مهابته السواحل نخاف البحر؛ وهو العدو الأزرق، من
بأسه الأحمر، على نبي الأصفه؛ والمقدم الذى كم ضاقت بسرايا شيعته الفجاج؛ وكم
أشرفت نجوم أسنته من أفق النصر فى ظلم العجاج؛ وكم حى المدب الفرات على
البعد بسيوفه وهى مجاورة للملح الأجاج!!؛ مع سطوة أنامت الرعايا فى مهاد أمنها،

ورَافَةٌ عَمَرَتِ البرايا بِعَاطِفَةِ إقبالها وَمِنْهَا ، وَرِفْقٍ تَكْفَلُ لِسَهْلِ البلاد وَحَزْنِهَا بِإِعَانَةِ
مُزْنِهَا ، وَشِجَاعَةٍ أَعَدَّتْ الجيوشَ التي قَبْلَهُ فَعَدَّتْ آحادُها أُلُوفًا ، وَفَتَكَاتٍ عَوَدَتِ
الطَّيْرُ الشَّيْبَ مِنْ وَقَائِعِهِ فَبَاتَتْ عَلَى رِايَتِهِ عُكُوفًا ، وَمَعْدَلَةٌ عَمَّتْ مَنْ فِي إِيالَتِهِ فَأَصْحَى
الضَّعِيفُ فِي الحَقِّ قَوِيًّا عِنْدَهُ وَالقَوِيُّ فِي الباطلِ ضَعِيفًا .

وكانت البلاد الحليية المحروسة هي المملكة التي لا تُجاري شهبأؤها في حلبة نِخَارِ ،
والزُّبَّةِ التي لا يُؤَهِّلُ لها مِنْ حَوَاصِّ الأَوْلِياءِ الأَعزَّةِ إِلَّا مَنْ أَسْتَخَرْنَا اللهُ تَعَالَى
فِي تَقْلِيدِ جِدِّ مَفَاحِرِهِ بِلَا لِي كَفالَتِها نِخَارِ ، فَهِيَ سُورُ الممالكِ الذي لا تَنْسَوْرُهُ
الْحَطُوبُ ، وَأُمُّ الثُّغُورِ التي ما بَرِحَ يُسْفِرُ بِانْتِسابِها عَن شَنْبِ النَّصْرِ وَجْهَ الزَّمَنِ
الْقَطُوبِ ، وَمَوْطِنُ الرِّباطِ الذي كُلُّ يَوْمٍ وَليلةٍ [فِيهِ] خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيها ،
وَعَقِيْلَةُ الأَقالِمِ التي لَمْ تُشْجِئْ قُلُوبَ الملوِكِ الأَكابِرِ صُدُودُها وَأَسْهَرُ عيُونَ العِظاءِ
الأَكاسِرَةِ تَجافِيها ، بِلِ هِيَ عَقْدُ دَرَّةٍ حُصُونُهُ ، وَرَوْضُ سَيُوفِ الكُماةِ جَدَاوِلُهُ
وَرِماحُ الحِماةِ غُصُونُهُ ، وَحَمِيٌّ لَمْ تَزَلْ عيُونَ عِنايَتِنَا بِعَوْنِ اللهِ تَحْفَهُ وَأَيْدِي تَأْيِيدِنَا
بِقُوَّةِ اللهِ تَصُونُهُ - أَقْتَضَتْ آراؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نُرْهَفَ بِجَمائِئِها هَذا السِّيفِ الذي
نُسابقُ الأَجَلَ مَضارِبُهُ ، وَتَبْطُلُ الحِجَلَ تِجارِبُهُ ، وَيتَقَدَّمُ خَبَرُ عِزائِمِهِ خَبَرُها فلا
يَدْرِي : هَلْ رِيحُ الجَنُوبِ أَسْرَى وَأَسْرَعَ أَمْ جَنائِبُهُ ، وَتَبَثُّ مَهابَتُهُ أَمامَ سَراياها إِلَى
العِدا سَرايا رُعبٍ تَقُلُّ جَمعَهُمْ ، وَتَسْبِقُ إِلَى التَّحَرُّزِ مِنْ بَأْسِهِ بَصَرَهُمْ وَسَمعَهُمْ ؛
وَتَسْفِرُ بِكُلِّ أَفقٍ عَن تَعَمُّتِها مَغيرَهُ ، أَوْ كَنِيبَةَ تَجْعَلُها لِمَعاليِ النَّصْرِ الكامِنَةَ مُبَيَّرَهُ .

فذلك رُسمُ بالأمرِ الشَّرِيفِ العالِي - لا زالت أَوامِرُهُ مَبسُوطَةً فِي البِسيطَةِ ،
وَممالِكُهُ مَحْوَطَةً بِمَهابَتِهِ الشَّامِلَةِ وَمَعْدِلَتِهِ المَحِيطَةِ - أَنْ تَفوُضَ إِلَيْهِ نِيابَةَ السُّلْطَنَةِ
الشَّرِيفَةَ بِالمملكةِ الحلييةِ : تَفوِيضًا يَعودُها مِنْ عيُونَ العِدا بآياتِ عِزائِمِهِ ، وَيَعودُها

اجْتِنَاءَ ثَمَرِ الْمُنَى وَالْأَمْنِ مِنْ وَدْقِ صَوَارِمِهِ ؛ وَيُنْظِمُ دَرَارِيَّ الْأَيْسِنَةِ مِنْ أُجْيَادِ حُصُونِهَا فِي مَكَانِ الْقَلَائِدِ ، وَيَجْعَلُ كُجَاةَ أَعْدَائِهَا لِحَوْفِهِ أَوْعَفَ مِنَ الْوُلْدَانِ وَأَجْبَنَ مِنَ الْوَالِدِ ؛ وَيَجْرُدُ إِلَى مُجَاوِرِيهَا مِنْ هِمَّتِهِ طَلَائِعَ تَحْصُرُهُمْ فِي الْفَضَاءِ الْمَتَّعِ ، وَتَسُدُّ عَلَيْهِمْ مَجَالَ الْأَرْضِ الْفَسِيحَةِ فَيَغْدُو لَهُمْ حَزَنُهَا الْحَزْنَ الشَّامِلَ وَسَمَلُهَا السَّمَلَ الْمُتَمَتِّعَ .

فَلْيَتَقَلَّدْ هَذِهِ الرِّتَبَةَ الَّتِي بِمِثْلِهَا تُرْتَى الْأَجْيَادُ ، وَبِتَقَلُّدِهَا يَظْهَرُ حَسَنُ الْإِتِّقَاءِ لِحَوَاهِرِ الْأَوْلِيَاءِ وَالْإِتِّقَادِ ، وَبِتَقْوِيَتِهَا إِلَى مِثْلِهِ يُعْلَمُ حَسَنُ الْإِرْتِيَادِ لِمَصَالِحِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ ؛ وَلِيَزِدَّ جِيوشَهَا الْمَنْصُورَةَ إِرْهَابًا لِعَدُوِّهِمْ ، وَإِرْهَابًا لَصَوَارِمِ الْجِهَادِ فِي رَوَاحِهِمْ وَعُدُوِّهِمْ ، وَإِدَامَةً لِلتَّغْيِيرِ الَّذِي حَبَبَهُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ ، وَقُوَّةً عَلَى مُجَاوِرِيهِمْ مِنْ أَهْلِ التَّفَاقُ الَّذِي يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيِّحَةٍ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِنَّهُمْ فُرْسَانُ الْحِلَالِ الَّذِينَ أَلْبَسُوا الْوَقَائِعَ ، وَأَسْوَارِ الْفُرَاتِ الَّذِينَ عَرَفُوا فِي الذَّبِّ عَنْ مِلَّتِهِمْ بِحِفْظِ الشَّرَائِعِ ، وَكَشَافَةِ الْكُرْبِ الَّذِينَ لَا يَزَالُ لَهُمْ فِي سَائِرِ بِلَادِ الْعِدَا سِرَابًا وَعَلَى جَمِيعِ مَطَالِعِ دِيَارِ الْكُفْرِ طَلَائِعَ ؛ وَهُمْ بِتَقَدُّمَتِهِ تَضَاعَفَ شَجَاعَتُهُمْ ، وَتَزِيدُ أَسْتِطَاعَتُهُمْ وَطَاعَتُهُمْ ؛ وَلِيَأْخُذَهُمْ بِمَضَاعِفَةِ الْأَهْبِ وَإِدَامَةِ السَّعْيِ فِي حِفْظِ الْبِلَادِ وَالذَّبِّ ، وَالتَّشْبَهُ بِأَسْوَدِ الْغَابَاتِ الَّتِي هَمُّهَا فِي الْمَسْلُوبِ لَا السَّلْبَ ؛ وَلِيَهْتَمَّ بِكَشْفِ أَحْوَالِ عَدُوِّ الْإِسْلَامِ لِيَبْرَحَ أَمْنًا عَلَى الْأَطْرَافِ مِنْ حَيْفِهِمْ ، مَتَيْقِظًا لِمَكَائِدِهِمْ فِي رِحْلَتِي سُنَائِهِمْ وَصَيْفِهِمْ ؛ مُفَاجِئًا لَهُمْ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ بِسَيْرٍ يَرَوُّعُ سِرِّيهِمْ ، وَيَكْدُرُ شَرِيهِمْ ؛ وَيَجْعَلُ رُوحَ كُلِّ مَنْهُمْ مِنْ خَوْفِ قُدُومِهِ نَافِرَةً عَنِ الْجَسَدِ ، وَيَسْلُبُهُمْ بِتَوَقُّعِ مُفَاجِئَتِهِ الْقَرَارَ « وَلَا قَرَارَ عَلَى زَائِرٍ مِنَ الْأَسَدِ » ، وَلَا تَزَالُ قُصَادُهُ بِأَسْرَارِ قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ مُنَاجِيهِ [وَلَا تَبْرَحُ لَهُ مِنْ أَعْيَانِ عِيُونِهِ بَيْنَ الْعِدَا فِرْقَةَ نَاجِيهِ] ^(٢) وَلِيَحْتَفِلَ بِتَذْرِيجِ الْحَمَامِ الَّتِي هِيَ رُسُلُ أَعْتَبِهِ ،

(١) مراده ليقى على الدوام أمانا الخ إلا أن هذه المادة لا تؤدي هذا المعنى إلا بسبق النفي . تأمل .

(٢) الزيادة مما يأتي قريبا ليستقيم الكلام .

وإقامة الدياب الذين إذا دعوا همهمةً بالسنة النيران لبثهم السنة أسنته ؛ وليمت
 قلوب أعدائه بوجل لقائه قبل الأجل ، وليزد في الحزم على ابن مزيد الذي
 لم ير في الأمن إلا في درع مضاعفة « لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل » ؛^(١)
 وليجعل أحوال القلاع المحروسة دائما برأى منه ومسمع ، ويُسَيِّدُهَا من ملاحظته
 باحتفال لا يدع لشائم برقها وحول أموالها [مطمعا] فقد استكمل حسن النظر
 في مصالحها أجمع ؛ وليقيم منار الشرع الشريف بمعاودة حكمه ، والالتقياد إلى
 أحكامه ، والوقوف مع تقضيه وإبرامه :

فليجعل حكم الشريعة المطهرة أمامه وإمامه ، وليقيم أمر الله فيمن آتاده الشرع
 إلى حكمه فجاذب زمامه ؛ وليعظم حملة العلم الذي أعلى الله مناره ، وأفاض على
 الأمة أنواره ، وحفظ بهم على الملة سنة نبهم صلى الله عليه وسلم وآثاره ؛ وليكن
 لأقدارهم رافعا ، ولمضارهم دافعا ؛ ولأوقافهم بجمل الاحتفال عامرا ، وفي مصالحهم
 بتخية الأحوال امرا ؛ ولينشر لواء العدل الذي أمر الله بنشره ، ويشفعه بالإحسان
 الذي هو مالوف من سجاياه ومعروف من طلاقة بشره ؛ ويمد على الرعايا ظل رافته
 الذي يضفي في النعم لباسهم ، ويديم الفهم بالرفاهية وأستئناسهم ؛ ويقيم حكم سياسته
 على من لم يستقيم ، ويقف مع رضا الله تعالى في كل أمر : فإذا رحم الله فليرحم
 وإذا أنتقم فليغير الله لا ينتقم ؛ وليعتن بعارة البلاد ببسط العدل الذي ما أحتمى به
 ملك إلا صانته ، والرفق الذي لم يكن في شيء إلا زانه ، وتوحي الحق الذي من جعله
 نصب عينيه وفقه الله له وأعانه . وكذلك أمر الأموال : فإنها ذخيرة الملك وعتاده ،
 ومادة الجيش الذي إذا صرقت إلى مصالحهم هممه لم يحش عليه أقطاعه ولا

(١) يشير إلى بيت من قصيدة لمسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن مزيد الشيباني وهو :

تراه في الامن في درع مضاعفة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

نقَّاده ؛ وجميع الوصايا قد ألفنا من سيرته فيها فوق ما تقترح ، وخبرنا من مقاصده فيها ما يقول للسان قلميها : قد عرفت ما أوَّمت إليه من مقاصدك فاسترح ؛ وملاكها تقوى الله تعالى ورضانا ، وهو المألوف من عدله وإنصافه ؛ والله تعالى يديهما بتأييده وقد فعل ، ويجعله من أركان الإسلام وأعلام المسلمين وقد جعل ؛ بمنه وكرمه ، والاعتماد إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة تقليد شريف بناية حلب أيضا ، كتبت بها عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» للأمر شمس الدين «قراستقر» بإعادته إليها . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهي :

الحمد لله الذي جعل العواصم بإقامة فرض الجهاد في أيامنا الشريفة معتصمه ، والتغور بما تفرغ عنه من شنب النصر في دولتنا القاهرة مبسمة ، والصوارم المرهفة في أطراف الممالك بأيدي أوليائنا لأرواح من قرب أو بعد عنها من الأعداء مقتسمة ، والحصون المصفحة بصفاحننا بأعلام النصر معلمة وبسبب الظفر مسممة ؛ معلي قدر من أحسن في مصالح الإسلام عملا ، ورافع ذكر من يبسط إلى عز طاعة الله ورسوله وطاعتنا أملا ، ومجدد سعد من تلبس الأعلام من أوصافه أنخر الخلل إذا خلعت من المحامد على أوصافه حللا ، ومفوض زمامة الجيوش بمواطن الرباط في سبيله إلى من إذا قلت مقاتل العدا سيوف الحلال كانت عزائم من السيوف المرهفة بدلا .

نحمده على نعمه التي جعلت طاعتنا من آكد أسباب العلو ، وخدمتنا من أنجح أبواب الرفعة بحسب المبالغة في الخدمة والعلو ، ونعمنا شاملة للأولياء بما يربى على

طَوَامِجِ الْأَمَالِ فِي الْبُعْدِ وَالذُّنُوبِ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
تُسْتَنْزَلُ بِهَا مَوَادُّ النَّصْرِ وَالظَّفَرِ ، وَتُسْتَجْزَلُ بِهَا ذَخَائِرُ التَّأْيِيدِ الَّتِي كَمْ أَسْفَرَ عَنْهَا وَجْهٌ
سَفَرٌ ، وَتُرْهَفُ بِهَا سِيُوفُ الْجِهَادِ الَّتِي كَمْ آلَفَتْ مِنْ آمَنٍ وَكَفَّتْ مِنْ كَفَرٍ ، وَنَشْهَدُ
أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي أَنْزَلَ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ ، وَزُوِيَتْ لَهُ الْأَرْضُ فَرَأَى مِنْهَا
مَا يَبْلُغُ مُلْكُ أُمَّتِهِ إِلَيْهِ ، وَعُرِيضَتْ عَلَيْهِ كُنُوزُ الدُّنْيَا فَأَعْرَضَ عَمَّا وُضِعَ مِنْ مَقَالِيدِهَا
بِيَدَيْهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، وَنَهَضُوا بِمَا أَمَرُوا بِهِ
مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَةِ رَسُولِهِ وَطَاعَةِ أَوْلَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ ، صَلَاةً دَائِمَةً الظَّلَالِ ، آمَنَةً
شَمْسٌ دَوَامِيهَا مِنَ الزَّوَالِ ، وَسَلْمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنْ أَوْلَى مِنْ طُوقَتْ أَجْيَادُ الْمَمَالِكِ بِفِرَائِدِ أَوْصَافِهِ ، وَفُوقَتْ إِلَى مَقَاتِلِ
الْعِدَا سِهَامُ مَهَابَتِهِ الَّتِي تَحُولُ مِنْهُمْ بَيْنَ كُلِّ قَلْبٍ وَشِغَاغِهِ ، وَخُصِّصَتْ بِهِ أُمَّ الثُّغُورِ الَّتِي
دَرَّ لَهَا حَبْلُهَا ، وَمَدَّتْ عَلَيْهَا أَقْيَاءَ النَّصْرِ الْمَمْدُودَةَ ذَوَابِلُهَا وَقُضْبُهَا ، وَأَهْدَى أَرْجَ التَّبَلُّجِ
افْتِرَاثُهَا وَشَنْبُهَا - مَنْ تَقَوْمُ مَهَابَتِهِ مَقَامَ الْأُلُوفِ ، وَتَجْتَنِي سُمُعَتُهُ مِنْ ذَوَابِلِ الْعَزَائِمِ تَمَرِ
النَّصْرِ الْمَأْلُوفِ ، وَيَسْبِقُ خَيْالُهُ سَرَايَا خَيْمِلِهِ الَّتِي هِيَ أَسْرَى مِنْ هُوجِ الرِّيَّاحِ إِلَى هَزْمِ
الْجُمُوعِ وَتَفْرِيقِ الصُّفُوفِ ، وَتَنْظِمُ أَسِنَّةَ رِمَاحِهِ فِي الْوَعْيِ قُلُوبَ الْعِدَا نَظْمَ السُّطُورِ
وَتَشْرِيفَ فَاحِهِ رُءُوسِهِمْ تَثْرَا حُرُوفِ ، وَتُحِيطُ بِنِطَاقِ الْمَمَالِكِ الْمُتَطَرِّفَةِ صَوَارِمُهُ إِحَاطَةً
الْأَسْوَارِ بِالْحُصُونِ ، وَالتَّخَامِلِ بِالْغُصُونِ ، وَالْمَهَالِكِ بِالْأَقْمَارِ ، وَالْجَوَانِحِ بِالْأَسْرَارِ ،
وَلَا تَبَيَّتْ مُلُوكُ الْعِدَا مِنْهُ إِلَّا عَلَى وَجَلٍ ، وَلَا يُرَى فِي الْأَمْنِ إِلَّا فِي دِرْعِ مَضَاعِفَةٍ
«لَا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أَنْ يُدْعَى عَلَى عَجَلٍ» ، وَلَا يَخْفَى عَنِ الْمُعْتَبَةِ مَا يَضْمُرُ الْأَعْدَاءُ مِنْ
الْحَرَكَاتِ قَبْلَ إِظْهَارِهَا ، وَلَا يَبْعُدُ عَلَى عَزَمَاتِهِ مَا هِيَ مَلِيَّةٌ بِهِ مِنْ بِدَارِهَا أَعْدَاءَ الدِّينِ

بَدَارِهَا؛ وَإِذَا جَلَسَ لِنَشْرِ الْمَعْدِلَةِ تَبَرَّأَ الظُّلْمَ مِنْ فِكْرٍ [^(١)] البغي والجور على إنسان،
وَشَفَعَ مَا تَصَدَّقْتُ لَهُ مِنْ ذَلِكَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ .

ولما كان الجناب العالی القلانی هو الذی مُلِئَتْ قُلُوبُ الْعِبَادِ بِرُغْبِهِ، وَأَنْطَوَتْ
قُلُوبُ الرعايا على حُبِّهِ، وَتَهَلَّتْ وَجوهُ الْمُتَى فِي سِلْمِهِ وَأَسْتَهَلَّتْ سُبْحُ الْمَنَايا فِي حَرِّهِ،
وَجَمَعَ بَيْنَ حِدَّةِ الْبَأْسِ وَالطَّفِ التَّقِيَّ إِنْ كَانَ هُوَ الْكَيِّ الَّذِي شَفَعَ الشَّجَاعَةَ بِالْخُضُوعِ
لِرَبِّهِ؛ وَحَاطَ مَا وَلِيَهُ مِنَ الْأَقَالِمِ بِسُورَى بَأْسِهِ وَعَدَلِهِ فَبَاتَ كُلُّ أَحَدٍ وَادِعًا فِي مِهَادِهِ
أَمَنًا فِي سِرِّهِ؛ وَأَغَارَتْ سَرَايا مِهَابَتِهِ قَبْلَ طُلُوعِ طَلَائِعِهِ فَأَصْبَحَ كُلُّ مَنْ الْعِدَا أُسِيرَ
الدُّعْرَ قَبْلَ إِمْسَاكِهِ - قَتِيلَ الْخَوْفِ قَبْلَ ضَرْبِهِ؛ مَعَ أَحْتِفَالِ بَعَارَةِ الْبِلَادِ، أَعَانَ
السُّحْبَ عَلَى رِييَا، وَأَشْتَمَلَ عَلَى مِصَالِحِ الْعِبَادِ، قَامَ فِي تَيْسِيرِ أَرْزَاقِهِمْ مَقَامَ وَسْمِيِّ الْغَنَائِمِ
وَوَلِيَهَا، وَتَيَقَّظَ لِمِصَالِحِ الثُّغُورِ أَنَامَ عَنْهَا عَيُونَ الْخُطُوبِ، وَإِشْرَاقِ فِي أَفْقِ الْمَوَاكِبِ
كَسَا وَجَهَ الدِّينِ نُورَ الْبِشْرِ وَوَجَهَ الْكُفْرِ ظِلَامَ الْقُطُوبِ .

وكانت الملكة الحليسة عقيلة المعاقيل، وعاصمة العواصم، وواسطة عقود
الممالك، وسلك فرائد النصر التي كم أضاعت بها إلى الكفر وجوه المسالك، لا تدرك
في مضار الفخار شهابؤها، ولا ترى إلا كما ترى النجوم في عيون العدا حصباؤها؛
ولها من الحصون المصونة كل قلعة يتهيب الطيف سلوك عقابها، ويتقاصر لوح
الجو عن منال عقابها؛ فهي عزيمة المنال، إلا على كريم كفاءته، بعيدة مجال الآمال،
إلا على ما ألفت من إيالة كفايته؛ سامية الأفق إلا على شمسه، نايبة الطرف
إلا على ما عرفت من سلوكه في أمسه، ظامية الغروس التي أنشأها في مصالحها
إلى ما اعتادته من سقيا غرسه - أقتضت آراؤنا الشريفة أن نزيدها إشراقاً بشمس

جَلَالِهِ ، وَأَعْتَلَاءَ بَسَيْفِهِ الَّذِي رِيَاضُ الْجَنَّةِ تَحْتَ ظِلَالِهِ ؛ وَأَنْ نَعِيدَ أَمْرَهَا إِلَى مَنْ
طَالَمَا حَسَنَ عَدْلُهُ بُقْعَتَهَا ، وَحَصَّنَ بَأْسُهُ قَلْعَتَهَا ؛ وَأَطَارَتْ مَهَابَتُهُ سُمُوعَهَا ، وَأَطَالَتْ
سِيرَتُهُ سَكُونَ رَعَايَاهَا فِي مِهَادِ الْأَمْنِ وَهَجْمَتَهَا ؛ وَأَعَادَ وُجُودَهُ أَحْوَالَ مُجَاوِرِيهَا مِنَ الْعِدَا
إِلَى الْعَدَمِ ، وَأَبَادَ سَيْفُهُ أَرْوَاحَ مُعَانِدِيهَا : فَلَوْ أَنْكَرْتَهُ أَعْنَاقَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِالْعَهْدِ
مِنْ قَدَمٍ .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ شَمْسُ عَدْلِهِ ، مُشْرِقَةً فِي الْوُجُودِ ، وَغِيَتْ
فَضْلُهُ ، مُسْتَهْلٌ الْجُودِ فِي التَّهَائِمِ وَالنُّجُودِ - أَنْ تَفُوضَ إِلَيْهِ تَفْوِيضًا
يُجِدُّ أَرْتِفَاعَهَا ، وَيُعَمِّرُ وَهَادَهَا وَيَقَاعَهَا ، وَيُوَيِّدُ أَدْفَاعَ مَضَارِّهَا وَأَنْتِفَاعَهَا ؛ وَيُعِيدُ
الْإِشْرَاقَ إِلَى مَطَالِعِهَا ، وَالْأُمُورَ إِلَى مَوَاقِعِهَا مِنْ سَدَادِ التَّنْذِيرِ وَمَوَاضِعِهَا ؛ وَالْإِقْدَامَ
إِلَى جُبُوشِهَا وَأَبْطَالِهَا [وَالشُّجَاعَةَ إِلَى حِمَاتِهَا وَرَجَالِهَا] .

فَلِيَطْلُعُ فِي أَفْقِ مَوَاقِبِهَا طُلُوعَ نَعْتِهِ الْكَرِيمِ ، وَيُجْرِي فِي جَوَانِبِهَا مَا أَلْفَنَتْهُ مِنْ مَوَارِدِ
عَدْلِهِ الَّذِي فَارَقَهَا عَمَامَهُ وَأَثْرُسَيْلِهِ مُقِيمٍ ؛ وَيُعَاوِدُ مَصَالِحَ تِلْكَ الْمَمْلَكَةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ
أُمُورُهَا إِلَّا عَلَيْهِ ، وَيُرَاجِعُ عِصْمَةَ تِلْكَ الْعَقِيلَةِ الَّتِي لَا تَطْمَحُ أَبْصَارُ عَوَاصِمِهَا إِلَّا إِلَيْهِ ،
وَيُلْقِي فِي قُلُوبِ مُجَاوِرِيهَا ذَلِكَ الرَّعْبَ الَّذِي نَعَى إِلَى كُلِّ مِنْهُمْ نَفْسَهُ وَأَسْلَاهُ عَمَّا
فِي يَدَيْهِ ؛ وَيُثَبِّتُ تِلْكَ الْمَهَابَةَ الَّتِي جَعَلَتْ مَنَايَا الْعِدَا بَرَاخِئَةَ يَأْمُرُهَا فِيهِمْ وَيَنْهَاهَا ،
وَيُنْشِرُ فِي الرَعَايَا تِلْكَ الْمَعْدِلَةَ الَّتِي هِيَ كَالشَّمْسِ : لَا تَبْتَغِي بِمَا صَنَعَتْ مَثْرَلَةً عِنْدَهُمْ
وَلَا جَاهًا ؛ وَلَتَكُنْ أَحْوَالُ عِدْوِ الْإِسْلَامِ بِمَرَأَى مِنْهُ عَلَى عَادَتِهِ وَمَسْمَعٍ ، وَيَكْفُفُ
أَطَاعَ الْكُفَّارِ عَلَى قَاعَدَتِهِ فَلَا يَحْدُثُ لَهُمْ إِلَى شَيْمٍ بَرَقَ الثُّغُورُ مَطْمَحٌ وَلَا فِي الْعِلْمِ
بَشْنِهَا مَطْمَعٌ ؛ وَلِيَكُنْ مِنْ أَرْصَادِهِ ، نَهَارُ عِدْوِ الدِّينِ وَلَيْلُهُ ، وَمِنْ أَمْدَادِهِ ، مَجَازُ الْجِهَادِ
وَحَقِيقَتُهُ فَلَا يَبْرَحُ يَبْتِغِي خَيْالَهُ إِذَا لَمْ تُصَبِّحْهُمْ خَيْلُهُ ؛ وَلَا يَبْرَحُ لَهُ مِنْ أَعْيَانِ عِيُونِهِ

بين العدا فرقة ناجية، وطائفة بأسرار قلوب القوم مناجية، لتكون له مقاتلهم على طول الأبد بادية، وتعدو منازلهم حاوية بين سرايا الرائحة والغادية. وليتعاهد أحوال الجيوش بإدامة عرضها، وإقامة واجبات القوة وفرضها، وإطالة صيت السمعة المشهورة لكلماتها في طول بلاد العدا وعرضها، وإزاحة أعدائها للركوب، وإزالة عوائق آرتيادها للوثوب، وإعداد العدد التي لها من أيديهم طلوع [في] مقاتل أعدائهم غروب. وليتفقد أحوال الحصون المصونة بسداد ثغورها، وسداد أمورها، وإزاحة أعدار رجالها، وإرهاق همم حمايتها التي تضيق على آمال العدا سعة مجالها، وتوفير ذخائرها، وتعمير بواطنها وظواهرها، وتحصين مسالكها التي يرهب الخيال المتولى إلى العيون سلوك محاربتها.

وليعل منار الشرح الشريف بتشديد مناره وإحكامه، وتنفيذه لقضايا قضائه وأحكام حكمه؛ والوقوف في كل أمر مع تقضه في ذلك وإبرامه، ورفع أقدار حملة العلم على ما ألقوه من الرفعة والسمو في أيامه. ولتكن وطأة بأسه على أهل الفساد مشتته، وأوامره متقدمة بوضع الأشياء في مواضعها: فلا توضع الحدة موضع الأناة ولا الأناة موضع الحدة. وليراع عهود الموادعين مهما استقاموا، ويجمع عليهم إن يكفوا أنامل بأسه التي هم في قبضتها رحلوا أو أقاموا؛ ولتخبر السنة النيران بسبها على اليفاع [والآكام] من قدم لمكيدة أو طعن بمطار الحمام - وجميع ما يتعلق بهذه المرتبة السنية من قواعد فإلى سالف تديبه ينسب، ومن سوابق تقريره وتحريره يحسب؛ فهو ابن بجدتها، وفارس نجدتها، ومؤئل قواعدها، ومؤثر ما حشد من أمتداد عضدها إلى مصالح الإسلام وساعدها؛ فليفعل في ذلك ما يشكره الله والإسلام عليه، ويثبت الحجة عند الله تعالى في إنقاء المقاليد إليه؛ وملاك

الوضايا تقوى الله وهي سَجِيَّة نَفْسِهِ ، وَثَمَرَةٌ مَا أَجْتَنَى فِي أَيَّامِ الْحَيَاةِ مِنْ غَرَسِهِ ، وَشَرُّ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ فِيهِمَا تَظْهَرُ مَرْيَّةٌ يَوْمَهُ الْجَمِيلِ عَلَى أَمْسِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُ نِعْمَهُ دَائِمَةً الْإِسْتِقْبَالَ ، وَتَسْمَهُ أَمَنَةً مِنَ الْغُرُوبِ وَالزَّوَالِ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ :

الطبقة الثانية

(من يكتب له في قَطْعِ الثَّلَثِ بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى

(نيابة القلعة بها)

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة قلعة حلب :

الحمد لله مُعَلِّي قَدْرٍ مِنْ تَحَلَّى بِالْأَمَانَةِ وَالصَّوْنِ ، وَرَافِعٍ مَكَانَةٍ مِنْ كَانَ فِيهَا عَرَضٌ مِنَ الْعَوَارِضِ نِعْمَ الْعَوْنُ ؛ وَمُؤَهِّلٍ مِنْ أَرَشَدَنَا إِلَيْهِ لِلْإِجْتِبَاءِ حَسَنُ الْإِخْتِبَارِ ، وَمُبَلِّغٍ الْإِيثَارِ مِنْ شِكْرَتِ عَنْهُ مُحَمَّدُ الْإِثَارِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدَ الشَّاكِرِينَ ، وَنَشْكُرُهُ شُكْرَ الْحَامِدِينَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً مُخْلِصٍ فِي اعْتِقَادِهِ ، مُبَرِّأً مِنْ افْتِرَاءِ كُلِّ جَا حِدٍ وَإِلْحَادِهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَأَيْدِيَهُ بَسُلْطَانٍ مِنْهُ وَطَهَّرَ [بِهِ] الْأَرْضَ مِنْ دَنَسِ الضَّلَالِ تَطْهِيرًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً لَا يَزَالُ عَلَمُ الْعِلْمِ بِهَا مَنْشُورًا ، وَسَلَّمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْعِنَايَةَ بِالْحِصُونِ تُوجِبُ أَنْ لَا يُخْتَارَ لَهَا إِلَّا مَنْ هُوَ مَلِيٌّ بِحِفْظِهَا ؛ مُؤَقَّرٌ [لَهَا] مِنْ حُسْنِ الذَّبِّ غَايَةَ حَظِّهَا ؛ حَسَنُ الْمُرَابَّطَةِ ، مُبَرِّأً مِنْ دَنَسِ الْأَفْعَالِ

السَّاقِطَه ؛ ذوقَ قَلْبٍ [قوى] وَقَالِبَ ، وَعَزَمَ مَازَالَ لِمَهْمَاتِ الْأُمُورِ أَشْجَعَ مُغَالِبَ ؛ إِذْ هُوَ لِلرَّابِطِينَ بِهَا أَوْثَقَ حَرَزٍ حَرِيْزٍ ، وَأَصْوَنَ حِجَابٍ لِمُبَارَاةِ ذَوِي التَّبَرِيْزِ ؛ [فَنصَبِحَ بِهِ] مُسْتَوْرًا عَوَارُهَا ، كَاتِمَةً لِأَسْرَارِهَا أَسْوَارُهَا ؛ تَخَاطَبَ مُنَازِلِهَا مِنْ جَمَانِيْقِهَا بِأَبْلَغِ لِسَانٍ ، وَتُسَافَهُ مُلَاجِيْهَا مِنْ أُنْفَةِ أَنْفِهَا إِلَّا أَنَّهُ بِأَعْلَى مَكَانٍ .

ولما كانت القلعة الفلانية بهذه المتزلة الرفيعة ، والمكانة التي كل مكانة بالنسبة والإضافة إلى علو مكانها المكانة الوضعية - اخترنا لها وأبتغينا ، وأستوعبنا بالتأهيل لنيابتها ولم نترك في أستيعابنا ولا أبقينا ؛ فلم نجد لولايتها كفاً إلا من نظمت عقود هذا التقليد لتقليده ، ورثت سور هذه المحامد بمبدئ لسان تقرظه ومعيده ؛ إذ هو أوثق من يلقى إليه إقليدها ، وأكفاً من يجزبه موعودها ؛ إذ كان المكين ، والثقة المتحلى إذ كان التحلى مما يزين العاطل المشين ؛ إن ذكر الرأي فهو المتصف بسديده ، أو العزم فهو الموسوم بسديده ؛ أو التثبت فهو من صفة شجاعته ، أو حسن المظافرة فهو البادل فيها جهد استطاعته .

ولما كانت هذه المناقب مناقبه ، وهذه المذاهب مذاهبه ؛ رسم بالأمر الشريف العالى - زاده الله مضاءً ونفاذاً ، وأستحواءً وأستحواداً - أن تفوض نيابة السلطنة بالقلعة الفلانية وما هو منسوب إليها من رُيُضٍ ونواحٍ ، وقُرى وِضَواحٍ ، للجلس السامى فلان .

فليرق إلى رُتبتها المنيف قدرها ، المُهم سرها وجهرها ؛ وليكن من أمر مصالحها على بصيره ، ومن تفقد أحوالها على فطنة مازالت منه محبوره ؛ وليأخذ محرزها من الجند وغيرهم بالملازمة لما عِدق به من الوظائف ، ويتقدم إلى واليها مع طوائفها أول طائف ؛ وليتفقد حواصلها من الذخائر ، وواصلها من التبذير بمن

يرتبه على حفظها من الأخير؛ ومهما عرّض يُسرِع بالمطالعة بأمره، والإعلام
بنفعه وضره .

هذه نبذة كافية للوثوق بكفائته، والعلم بسديد كفالته ؛ والله تعالى يحسن له
الإعانة، ويجزل له الصيانة ؛ والخط الشريف أعلاه ... :

الوظيفة الثانية

(شدّ الدواوين بحلب)

وهذه نسخة توقيع بشدّ الدواوين بحلب :

الحمد لله الذى أرهف فى خدمة دولتنا كل سيف يزهى النصر بتقليده ، ويروى
نبأ الفتح عن تجربته فى مصالح الإسلام وتجريده ، ويروى حده إذا قابله عدو الدين
من قلب قلبه وموارد وريده .

نحمده على نعمه السابقة حمد متعرض لمزيد ، ونشكره على مننه السابقة شكر مستزير
مواد تأييده ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقر بتوحيده ، مسر
مثل ما يظهر من الخضوع لكبرياء تقديسه وتمجيده ، مصر على جهاد من الحد
فى آياته بنفسه وجنوده ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من دعت دعوته
الأمم إلى الاعتراف بخالقها بعد جحوده ، وأنجز لأمته من الاستيلاء على الكفر سابق
وعوده ، وأمال به عمود الشرك فأهوى إلى الصعيد بعد صعوده ؛ صلى الله عليه وعلى
آله وصحبه الذين ما منهم إلا من بدل فى طاعة الله وطاعته نهاية مجهوده ، وأطفا نار
الكفر بعد وقودها بإيقاد لبّ الجهاد بعد نحوده ؛ صلاة تقترن بروكوع القرض
ومجوده ، وتقام أركانها فى أغوار الوجود ومجوده ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى ما أجمَلنا في مصالحه النَّظَر ، وأعمَلنا في آرتياد الأَكْفاء له بوادِر الفِكر ، وأخترنا له من الأولياء من كان معدودا من خواصنا ، محبوبا بمزيد تقريدها ومهابة آختصاصنا ، أمرُ الأموال الديوانية بالملكة الحليية وتقويض شدِّ دواوينها المعمورة إلى من تُضاعفها رتبته المكيية ، ونزاهته المتينه ؛ ويده التي هي بكال العفة مبسوطه ، وخبرته التي يمثلها يحسن أن تكون مصالح الدولة القاهرة منوطه ؛ ومزنته التي تكف عن الأموال الأطماع العاديه ، ومهابتة التي تكفي الأولياء من ضبط الأعمال بما يروى الآمال الصادية ؛ لأنها مواد الثغور التي ما برحت عن شنب النَّصر مفتره ، وأمداد الجيوش التي جعل الله لها أبدا على أعدائه الكره ؛ ورياض الجهاد التي تُجتنى منها ثمرات الظفر الغضه ، وكُنوز الملك التي يُنفق منها في سبيل الله القناطير المَقنطرة من الذهب والفضه .

ولما كان فلان هو الذي آخترناه لذلك على علم ، وربحناه لما آجتمع فيه من سرعة يقظة وأناة حلم ؛ ونديناه في مهماتنا الشريفة فكان في كل موطن منها سيفا مرهفا ، وآخترناه فكان في كل ما عدقناه به بين القوى والضعيف منصف ؛ وعامنا من معرفته ما يستثير الأموال من مكائنها ، ومن نزاهته ما يظهر أشتات (؟) المصالح من معادنها ، ومن معدلتيه ما يتبع الرعايا بأجتناء ثمر المنى من إحسان دولتنا القاهرة وآجتلاء محاسنها - آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُحلى جيد تلك الرتبة بعقود صفاته الحسنة ، وأن نُدبه على حُسن هممه التي ما برحت تُسرى إلى مصالح الدولة القاهرة والعيون وسنه .

فذلك رُسم أن يفوض إليه ذلك تقويفا يبسط في مصالح الأموال لسانه ويقرر على مضاعفة آرتفاع الأعمال يومه الحاضر وغده ، ويحسن بسد الخلل

وَتَبَّعَ الإِهْمَالَ مُصَدَّرَهُ الْجَمِيلَ وَمُؤَرَّدَهُ ؛ وَيَجْعَلُ [لَهُ] فِي مَصَالِحِهَا الْعَقْدَ وَالْحَلَّ ،
وَالْتَصَرَّفَ النَّافِذَ فِي كُلِّ مَادَقٍ مِنَ الْأَمْوَالِ الدِّيَوَانِيَةِ وَجَلَّ .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ بِهَيْمَةٍ عَلِمْنَا فِي الْحَقِّ مَوَاقِعَ سَفِيهَا ، وَأَمِنَّا عَلَى الرِّعَايَا بِمَا أَتَّصَفَتْ بِهِ
مِنَ الْعَدْلِ وَالْمَعْرِفَةِ مِنْ مَوَاقِعَ حَتْفِهَا ، وَأَيَقِظَتِ الْعَيُونَ الطَّامِحَةَ لِسُلُوكِ مَا [لَا] يَجِبُ بِمَا لَمْ
تَزَلْ تُنْخِئُهُ مِنْ رَوَائِعِ طَيْفِهَا ؛ وَلْيُشْمِرِ الْأَمْوَالَ بِالْمَجْمَعِ فِي تَحْصِيلِهَا بَيْنَ الرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ ،
وَيَجْعَلْ مَا يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا بِبِرْكَاتِ الْعِقَّةِ وَالرَّفْقِ : ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ
سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ ﴾ . وَلْيُعَفِّ أَثَرِ الْحَمَايَاتِ وَرَسْمِهَا ، وَيُزِيلَ بِالْكَلْبِيَّةِ عَنْ تِلْكَ الْمَمَالِكِ الْحَسَنَةِ
وَسَمِّهَا الْقَبِيحِ وَأَسْمِهَا ؛ وَلْيَكُنْ مُهْمُ الثَّغُورِ هُوَ الْمُهْمُ الْمَقْدَمَ لَدَيْهِ ، وَالنَّظَرُ فِي كُلِّ
الْقِلَاعِ الْمَحْرُوسَةِ هُوَ الْفَرَضُ الْمَتَعَيْنُ أَدَاؤُهُ عَلَيْهِ ، فَيَحْمِلُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالغَلَالِ
مَا يُمْرُ حَوَاصِلُهَا الْمَصُونَةِ ، وَيَكْفِي رِجَالَهَا الْفِكْرَ فِي الْمُتُونَةِ ؛ وَيَضَاعِفُ ذَخَائِرَهَا
الَّتِي تُعَدُّ مِنْ أَسْبَابِ تَحْصِينِهَا ، وَيُصْبِحُ بِهِ حَمْلُ عَامِهَا الْوَاحِدِ كِفَايَةً مَا يَسْتَقْبَلُهُ مَعَ
مَوَالِيَةِ الْجُمُودِ مِنْ سِنِينِهَا ؛ وَمَاعِدَا ذَلِكَ مِنَ الْوَصَايَا فَقَدْ أَلْقَيْنَا إِلَى سَمْعِهِ مَا [عَلَيْهِ]
يَعْتَمِدُ ، وَعَرَفْنَاهُ أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ أَوْفَى مَا بِهِ يَسْتَبْدُّ وَإِلَيْهِ يَسْتَنْدُ ؛ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ :

الصنف الثاني

(من أرباب الوظائف بحلب - أرباب الوظائف الدينية)

وهم على طبقتين أيضا :

الطبقة الأولى

(من يكتب له في قطع الثلث بـ«السامى» بالياء ، ويشتمل على وظائف)

منها - قضاة القضاة . وبها أربعة قضاة : من كل مذهب قاض ، كما في الديار
المصرية والشام . والشافعى منهم هو الذى يولى بالبلاد كما في مصر والشام .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية :

الحمد لله الذي رفع منار الشريعة الشريفة وأقامه ، ونور به كل ظلام وأزال به كل ظلامه ، وجعله صراطاً سويّاً للإسلام والسلامه ؛ الذي جعل القضاة أعلاماً ، بهم يهتدى ، ونصّبهم حكماً ، بمرشدهم يقنأد ويقتدى ، وأخذ بهم الحق من الباطل حتى لا يعتل في قضية ولا يعتدى ؛ والصلاة على سيدنا محمد الذي أوضح الله به الطريق ، وأبدى به بين الحلال والحرام التفریق ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تكفل لرغبات قائمها بالتحقيق .

(١)

وبعد ، فإن أحق ما وجهت الهمم إلى تصريفه وجهاً مسفراً ، وقربت إلى يد الاقتطاف من شجرته المباركة غصنا مثمراً ، وسهدت في الاختيار له والأصطفاء لحظاً ما زال للفكر في مصالح الأمة مسفراً - الشرع الشريف الذي حرس الله به حومة الدين وحى جانبه ، وحفظ به أقوال الهدى عن المجادلة من المتبدعين وأطرافه من المجاذبه ؛ وكانت حراسته معدوقة باختيار الأئمة الأعلام ، وموقوفة على كل من يطاعن البدع عند الاستفتاء برماح الخط وليست رماح الخط غير الأعلام ؛ ومصرفة إلى كل منصف في قضاياها حتى لو ترافعت إليه الليالي لأنصفها من الأيام .

ولما كان فلان هو مداول هذه العبارة ، ومرتمى هذه المشارة ، ومرتمق هذه الإشاره ؛ وقد حلّ من المادح في محل صعب المرتقى على متوقله ، وطلع من منازل سعودها في بروج بعيدة الأوج إلا على سير بدره وتنقله ؛ وطالما حكم فأحكم ؛ وفصل ففصل ؛ وروجع فما رجع وعدل فعدل ؛ وشهدت مراتبه الشريفة بأنه خير من تنولها ميراثاً وأستحقاقاً ، وأجل من كادت ترهوه مطالع النجوم إشرافاً وإشرافاً ؛ وكانت حلب المحروسة مركز دائرة لأيامه ، وسلك جوهر تصريفه الذي

(١) في الأصل «وصلت» ولم تفهم له معنى يناسب .

طلما تقلدت أحسن العقود بنظامه ؛ وقد أفتخرت به أفتخار السماء بسمها ،
والرؤضة بغيرها ؛ والأفهام بإدراك حسها ، والأيام بما عملته من خير في يومها
وأسلفته في أمسها ؛ وقد أشتاقت إلى قربه شوق النفس إلى تردد النفس ، والليل
إلى طلوع النجم أولا وإلى إضاءة القبس .

فذلك خرج الأمر الشريف بأن يُجَدِّد له هذا التوقيع بالحكم والقضاء ، بالملكة
الخليَّة وأعمالها وبلادها ، على عادته .

فليستخر الله تعالى وليستصحب من الأحكام ما همته مليَّة باستصحابه ،
ويستوعب من أمورها ما توضع المصالح باستيعابه ؛ ويقم بها منار العدل والإحسان ،
وينهض بتدبير ما أقدعه منها زمانة الزمان . وعنده من الوصايا المباركة ، ما يستغني به
عن المساهمة فيها والمشاركة ؛ لكن الذكرى النافعة عند مثله نافقه ، فإن لم يكن
شعاع هلال فبارقه ؛ وليتق الله ما استطاع ، ويحسن عن أموال يتامى الدفاع ،
ويحرس موجود من غاب غيبة يجب حفظ ماله فيها شرعا ، ويقطع سبب من رام
لأسباب الحق قطعا ، ولا يراع لحائف حرمة فإن حرمت الحائفين لا تُرعى ؛ وينظر
في الأوقاف نظرا يحرسها ويصونها ، ويحث عنها بحثا يظهر به كميها ؛ والله تعالى
يسدده في أحكامه بمنه وكرمه ! .

قلت : وعلى ذلك تكتب توقع بقية القضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية .

ومنها - وكالة بيت المال المعمور .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، كتبت بها لمن لقبه « كمال الدين » وهى :

الحمد لله الذى جعل كمال الدين موجودا ، فى آفتان العلم بالعمل ، وصلاح بيت
المال معهودا ، فى استناده إلى من ليس له غير رضا الله تعالى وبرائة الذمة أمل ،

وَأَرْتَقَاءَ رُتَبِ الْمُتَّقِينَ مَقْصُورًا عَلَى مَنْ بَارْتَقَاءِ مِنْهُ مِنْ أُمَّةِ الْأُمَّةِ تُزْهِىُ مَنَاصِبُ الدُّوَلِ، وَالْأَكْتِفَاءَ بِالْعُلَمَاءِ مَحْضُورًا فِي الْآرَاءِ الْمَعْصُومَةِ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ مِنَ الْخَلَلِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ مِنْهُمْ مَصَالِحَ الْإِسْلَامِ، مُقَدِّمًا لَدِينِنَا، وَأَخْتِصَاصَ الْمَرَاتِبِ الدِّينِيَّةِ بِالْأُمَّةِ الْأَعْلَامِ، مُحِبِّبًا لِنَا، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً رَفَعَ الْجِهَادُ عَمَّهَا، وَأَمْضَى الْأَجْتِهَادُ كَلِمَهَا، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَشْرَقَتْ سَمَاءُ مِلَّتِهِ، مِنْ عُلَمَاءِ أُمَّتِهِ، بِأَضْوَاءِ الْأَهْلِيَّةِ، وَنَطَقَتْ أَحْكَامُ شَرْعِيَّتِهِ، عَلَى أَلْسِنَةِ حَمَلَةِ سُنَّتِهِ، بِأَوْضَحِ الْأَدْلَى، وَبَزَغَتْ شَمْسُ هِدَايَتِهِ فِي تَهَامِمِ الْوُجُودِ وَجُودِهِ فَانْطَوَتْ بِهَا ظُلُمُ الْأَهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَأَثَرُوا رِضَاهُ عَلَى نَفُوسِهِمْ فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مُرَادٌ سِوَى مُرَادِهِ وَلَا سُؤْلٌ غَيْرُ سُؤْلِهِ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ، فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ تَلَقَّاهُ كَرْمُنَا بِوَجْهِ إِقْبَالِهِ، وَأَخْتَارَتْ لَهُ آلَاؤُنَا مِنَ الرُّتَبِ مَا صَدَّهُ الْإِجْمَالُ فِي الطَّلِبِ عَنِ تَعَلُّقِهِ بِبَالِهِ؛ وَرَأَى إِحْسَانُنَا مَكَانَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ فَعَدَّقَ بِهِ مِنْ مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ مَا لَمْ يَتْرُكْهُ أَوْلًا إِلَّا مُوَافَقَةً لَهُ لَا رَغْبَةَ عَنْ خِيَالِهِ، وَرَعَى رِثْنَا وَقَادَتَهُ فَاقْتَضَى إِعَادَتَهُ مِنْ مَنَاصِبِهِ إِلَى مَا لَمْ يَزَلْ مُشْرِقَ الْأَفُقِ بِكَمَالِ طَلْعَتِهِ وَطَلْعَةِ كَمَالِهِ - مَنْ ظَهَرَتْ لَوَامِعُ فَوَائِدِهِ، وَبَهَرَتْ بِدَائِعِ فَوَائِدِهِ؛ وَتَدَفَّقَتْ بِحَارِ فِضَائِلِهِ، وَتَأَلَّقَتْ أَشْعَةَ دَلَائِلِهِ؛ وَتَوَسَّعَتْ فُنُونُهُ: فَهُوَ فِي كُلِّ عِلْمٍ أَيْبُنُ بِيَدْتِهِ، وَفَارِسُ تَجْدِيدِهِ، وَحَامِلُ رَأْيَتِهِ، وَجَوَادُ مَضَارِهِ الَّذِي تَفَّيَّ جِيَادُ الْأَفْكَارِ دُونَ غَايَتِهِ .

وَمَا كَانَ فَلَانٌ هُوَ هَذَا الْبَحْرَ الَّذِي أُشِيرَ إِلَى تَدَفُّقِهِ، وَالْبَدْرَ الَّذِي أُومِيَ إِلَى كَمَالِ مَا تَأَلَّقَ بِهِ مِنْ أَفْقِهِ؛ وَكَانَتْ وَكَالَتْ بَيْتَ الْمَالِ الْمَعْمُورِ بِحَلَبِ الْمَحْرُوسَةِ مِنَ الْمَنَاصِبِ الَّتِي لَا يَتَمَعَّنُ لَهَا إِلَّا مَنْ تُعَقِّدُ الْخِصَاصَ عَلَيْهِ، وَيُسَارُ بِنَانَ الْأَخْتِصَاصِ إِلَيْهِ، وَيُقَطِّعُ

بجميل فهو فيه فيما يوضع من المصالح الإسلامية بيديه ؛ وله في مباشرتها سوابق ،
وأثار [إن] لم تصفها ألسنة الأقلام أوحث بها تلك الأحوال الحالية وهي نواطق -
أقتضت آراءنا الشريفة أنعام النظر في الإنعام عليه بمكان ألفه ، ومنصب رفع
ما أسلفه فيه من جميل السيرة قدره عندنا وأزلفه .

فرسم بالأمر الشريف - لازال بأبه ثمال الآمال ، وأفق السعد الذي لو أمه البدر
لما فارق رتب الكمال - أن يفوض إليه كذا : لما ذكر من أسباب عينته ، وفضائل
ترينت به كما زينتته ؛ ووفادة تقاضت له نزل الكرامه ، واقتضت له مواد الإحسان
وموارد في السرى والإقامة .

فليل هذه الرتبة التي على مثله من الأئمة مدار أمرها ، وبمثل قوته في مصالحها
يتضاعف در احتلابها ويترادف احتلاب درها ؛ مراعيًا حقوق الأمة فيما جره
الإرث الشرعى إليهم ، مناقشا عن المسلمين فيما قصره مذهبه المذهب من الحقوق
المالية عليهم ؛ وأقفا بالحق فيما يثبت بطريقه المعتبر ، تابعًا لحكم الله فيما يختلف
سبيله [و] فيما يحزر بالعيان أو يحقق بالخبر ؛ محافظًا على ما يؤول إلى بيت المال بلطف
تدقيقه ، وحسن تحقيقه ، وقبول الدافع بوجهه ودفعه بطريقه ؛ ولا يمنع الحق
إذا ثبت بشروطه التي أعذر فيها ، ولا يدفع الواجب إذا تعين بأسبابه التي يتقاضاها
الشرع الشريف ويقضيها ؛ وهو الوكيل عن الأمة فيما لهم وعليهم ، ومتولى
المدافعة عنهم فيما يقره الشرع في يديهم ؛ فليؤد عنهم أمانة دينه ، ويحتد لهم فيما
وضعناه من أمر هذه الوكالة الشريفة بيمينه ؛ وملاك هذا الأمر الوقوف مع الحق
الجلي ، والتمسك بالتقوى التي تظهر بها قوة الأمين وأمانة القوى ؛ والله تعالى يوفقه
ويسدده .

قلتُ : وفي معنى ما تقدم من قطع الورق والألقاب الحسبة ، ونظر الأوقاف
الجبارة، وخطابة الجوامع الجليلة ، و كبار التداريس ، وما يجري مجرى ذلك : إذا
كُتِبَ به من الأبواب السلطانية . وإلا فالغالب كتابة ذلك جميعه عن نائب
السلطنة بها .

الطبقة الثانية

(من يكتب له في قطع العادة «بالسامي» بغيراء ، أو «بمجلس القاضي»)

قال في «التثقيف»: وهم من عدا القضاة الأربعة من [أرباب] الوظائف الدينية؛
فيدخل في ذلك قضاء العسكر، وإفتاء دار العدل، وما يجري مجرى ذلك، حيث
كُتِبَ من الأبواب السلطانية .

الصنف الثالث

(من أرباب الوظائف بحلب - أرباب الوظائف الديوانية،

وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له في قطع الثالث بـ«السامي» بالياء . وتشتمل على وظائف)

منها - كتابة السر . ويعبر عنها في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية - بصاحب
ديوان المكاتبات، وربما قيل : صاحب ديوان الرسائل . قال في «التثقيف» :
وربما كُتِبَ له في قطع النصف .

وهذه نسخة توفيق شريف من ذلك، وهى :

الحمد لله الذى زان الدولة القاهرة، بمن تغدو أسرارها من أمانته فى قرار
مكين، وحلى أيامنا الزاهرة، بمن تبدو مراسمها من بلاغته فى عقد ثمين، ومجمل
الكتب السائرة، بمن إذا وشتها براعته وبراعته قيل : هذا هو السحر البيانى إن لم
يكن سحر مبین .

نحمده على نعمه التى خصت الأسرار الشريفة بمن لم يرثها عن كلاله، ونصت
فى ترقى مناصب التنفيد على من يستحقها بأصالة الرأي وقدم الأصاله، ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة رقم الإخلاص طروسها، وسقى الإيمان
غروسها، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى آتاه جوامع الكلم، ولوامع الهدى
والحكم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كتب فى قلوبهم الإيمان، وكتب
بهم أهل الطغيان، صلاة يشفعها التسليم، ويتبعها التعظيم، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى الرتب بارتداد من تعقد على أولوياته الخناصر، ويعتمد على
أصالته التى ما برحت فى الاتصال والاتصاف بها ثابتة الأواصر، ويعتقد فى أمانته
التى تأوى بها الأسرار إلى «صخرة أعيان الرجال أنصداعها» ويعتصد بفضائله التى يقل
فى كثير من الأكفاء أجمعها، ويعول فيها على بلاغته، التى أعطت كل مقام حقه
من الإطناب والإيجاز، ويرجع فيها إلى بديهته، التى جرت بها سوابق المعالى إلى غاية
الحقيقة فى مضمار المجاز - رتبة هى خزانة سرنا، وكثانة نهينا وأمرنا، فلا يتعين
لبلوغها إلا من ومن، ولا يعين لتلقيها وترقيها إلا أفراد قل أن يكثر مثلهم فى زمن،
ولا يحسن أن تكون إلا فى بيت عريق فى أنسابها، وثيق فى تمكن عمرا أسبابها،
علم بقواعدها التى إذا أشتهت طرق آدابها كان أدرى بها .

ولما كان فلان هو الذي ذُكرت أسباب تعينه لهذه الرتبة وتعيينه ، وفتحت أبواب أولويته بتلق راية هذا المنصب بيمينه ؛ مع أدوات كَلَّتْ مفاخره ، وصِفَاتِ بَحَلَّتْ مآثره ؛ وكتابة ، إذا جادت أنوارها أرض طرس أخذت زخرفها ، وإذا حادَّتْ أنوارها وجه سماء ودَّتِ الدَّزَارِيُّ لو حَكَتْ أحرْفُها ؛ وبلاغة ، إن أطرت بوصف أغارت الفرائد ، وأغارت دُررها القلائد ، وأتت من رِقَّة المعاني بما هو أحسن من دُموع التصابي في خُدود الحرائد ؛ وإن أغرت بعدو أعانت على مقاتله السيوف ، ودلَّتْ على مكامنه الحُتوف ؛ وديانة ، رفعتَه عند الله وعندنا إلى المكان الأسمى ، وصيانة ، جمعت له من الآثاء وأعتنائنا بين الزيادة والحسنى ؛ وأمانة ، أغتته بجوهر وصفها الأعلى عن التعرُّض إلى العرَض الأذنى ، وبراعة ، اعتصم بها يراعه في بلوغ المقاصد اعتضاد الرقص بالمعنى .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا فليُبشَّر بتلق هذا الإحسان ، بيد الاستحقاق ، وليتلق عقود هذا الامتنان ، الذي طالما قلده نَحْرَه الأعناق ؛ وليبشِّر ذلك مباشرة يسر خبرها ويسرى خبرها ، ويسنِّف الأسماع تأثيرها وأثرها ؛ وليسلِّك فيها من السداد ، ما يؤكِّد حمده ، ومن حسن الاعتماد ، ما يؤيد سعده ؛ والوصايا كثيرة وهو بها خير عليم ، حائز منها أوفر الأجزاء وأوفى التقسيم ؛ وملاكها تقوى الله فليجعلها عمده ، وليتخذها في كلِّ الأمور ذخيره ؛ والله تعالى يضاعف له من لدنا إحسانا ، ويرفع له قدرًا وشانا ؛ والاعتقاد في ذلك على الخطِّ الشريف أعلاه اللهُ تعالى أعلاه .

ومنها - نظر الملكة الحليَّة القائم مقام الوزير .

(١) في الاصل : وأوفى التقصير ، ولا معنى له .



وهذه نسخة توقيح من ذلك : كُتِبَ به لعباد الدِّين « سعيد بن ريان » بالعود إليها ، وهي :

الحمد لله رافع قدر من جعل عليه أعبيادا ، ومجدد سعد من غدا في كل ما يُعدُّ به من قواعد النظر الحسن عمادا ، ومسنى حمد من تكفل له جميل التصرف أن لا تُبعد الأيام عليه مرادا ، ومجزل مواد النعم لمن إذا استمطر قلبه في المصالح همى فافتن أفنانا وأبغ تميِّرا وأمر سدادا ، وإذا أيقظ نظره في ملاحظة الأعمال استجلى وجوه المصالح انتقاء لما خفى منها واتقادا .

نحمده على نعمة التي لا تزال النعم بها مُجددة ، والقواعد موطدة ، والكرم مُعادا ، والآله التي جعل لها الشكر أزديانا على الأبد وأزديادا ، ومننه التي لا يقوم بها ولا باداء قرضها الحمد ولو أن ما في الأرض من شجرة أفلام أو كان البحر مدادا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تألوا هممنا أجهادا في إعلاء منارها وجهادا ، ولا تكبو جياذ عزائمنا ، دون أن نُسكنها من الجاحدين قلوبا ومُجربى بها من المنكرين ألسنة وتقلدها من المشركين أجيادا ، ولا تدبو صوارمنا ، حتى نُخذ لها من ورديد كل معانيد موريدا ومن قيم كل ناكث أعمادا ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أسرى الله به إليه فبلغ في الارتقاء سبعا شدادا ، وأنزل عليه أشرف كتبه بيانا وأعجزها آية وأوضحها إرشادا ، وبعثه إلى الأحمر والأسود فسعد من سعد به إيمانا وشقي من شقي به عنادا ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين لم يلقوا في طاعة الله وطاعته مهادا ، صلاة لا تستطيع لها الدهور نقادا ، ولا تملأها الأسماع تعدادا وتردادا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلَى من سَمَّا به مَنْصِبُه الذي عُرِف به قَدِيمًا، وَزُهَيْتُ به رُتْبَتُهُ، التي لم يزل فيها لِأَفْتِنَاءِ الشُّكْرِ مُسْتَدِيمًا، وَتَحَلَّتْ به وَظِيفَتُهُ، التي لم يبرح يلبس بها نَوْبَ الثَّنَاءِ قَشِيْبًا وَيَجْتَرُّهَا رِداءَ السَّعْدِ رَقِيْمًا، وَتَقاضَتْ له عَوَارِفُنَا مَعَارِفُهُ التي لم يزل عَقْدُهَا في جِدِّ المَرَاتِبِ السَّنِيَّةِ نَظْمًا، وَتَطَلَّعَ إِلَيْه مَكَانُهُ فَكَانَهُ بِقَدَمِ هِجْرَتِهِ لم يبرح فيه وَإِنْ بَعْدَ عَنْهُ مُقِيمًا - من لم يزل قَلْمُه بَصْرَفِه في أَسْنَى مَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ كَأَسْمِهِ سَعِيدًا، وَطَرَفِ نَظَرِهِ فِيمَا يَلِيه من المَنَاصِبِ السَّنِيَّةِ يُرِيه من المَصَالِحِ مَا كَانَ غَائِبًا وَيُذِنِي إِلَيْه من أَسْبَابِ التَّدْيِيرِ مَا كَانَ بَعِيدًا، فَمَا أَعْمَلُ في مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ قَلَمًا إِلَّا وَأَقْبَلْتُ نَحْوَهُ وَجِوهَ الأَمْوَالِ سَافِرَهُ، وَلَا لَحَظْتُ في مُهِمَّاتِ وَظَائِفِهَا أَمْرًا إِلَّا وَعَاوَدْتُهُ أَسْبَابُ التَّثْمِيرِ النَّافِرَهُ، وَلَا أَعْرَضْتُ قَلْمُهُ بِنُطْقِهِ وَفِكْرِهِ إِلَّا وَغَدَتِ الثَّلَاثَةُ عَلَيَّ كُلِّ مَا فِيهِ عِمَارَةٌ مَا يُفَوِّضُ إِلَيْه من الأَعْمَالِ مُتَضَافِرَةً، وَذَلِكَ لِمَا أَجْتَمَعَ فِيهِ من عَقَّةِ نَفْسِهِ وَكَمَالِ مَعْرِفَتِهِ وَطَهَارَةِ يَرَاعِهِ، وَأَتَّصَفَ بِهِ من حَسَنِ اضْطِلَاعِهِ وَجَمِيلِ أَطْلَاعِهِ، وَجَبِلْتُ عَلَيْهِ طَبَاعُهُ من نَزَاهَةِ زَانَتِ خِبْرَتِهِ وَمَنْ يُنْقَلُ مَشْكُورًا عَن طَبَاعِهِ .

ولَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي حَنَّتْ إِلَيْهِ رُتْبَتُهُ وَتَلَقَّتْ إِلَيْهِ مَنْصِبُهُ وَدَعَتْهُ وَظِيفَتُهُ النَّفِيسَةُ إِلَى نَفْسِهَا، وَأَعْتَدْتِ بِإِقْبَالِهَا إِلَيْهِ فِي يَوْمِهَا عَن نُسُوزِهَا عَنْهُ فِي أَمْسِهَا، وَأَشْتَاقْتُ إِلَى التَّحَلِّيِّ بِفَضَائِلِهِ التي لم تزل تُزْهِئُ بِمَا أَلْفَتَهُ مِنْهَا عَلَيَّ نَظْرَاتِهَا مِنْ جَنَسِهَا - أَقْتَضَتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نُجَمِّلَ لَهَا عَادَتَهَا وَنُجَدِّدَ لَهُ مِنَ الإِحْسَانِ بِمَبَاشَرَتِهَا السَّعِيدَةَ إِعَادَتَهُ، وَنُعِيدَ إِلَيْهِ بِمَبَاشَرَةِ نَظَرِهِ الْجَمِيلِ مَسْرَّتَهُ التي أَلْفَهَا وَسَعَادَتَهُ .

فَلذَلِكَ رَسْمٌ ... - لَا زَالَ بِهِ لِعِبَادِ الدِّينِ رَافِعًا، وَأَمْرُهُ بِالِإِحْسَانِ شَافِعًا - أَنْ يَفَوِّضَ إِلَيْهِ نَظَرَ الْمَلِكَةِ الْحَلِيَّةِ عَلَيَّ عَادَةً مِنْ تَقَدُّمِهِ .

(١) لعله : "أعتمد" .

فليأشُرْ هذه المملكة التي هي من أشهر ممالك كُتُمَعه ، وأيمنها بقعه ؛ وأحسنها
 بلادا ، وأخصبها رباً ووهاداً ، وأكثرها حصوناً شواهِق ، وقلاعاً [سوامى] سوامق ،
 ونُغوراً لا تُتَسِيمُ ما أفتَر منها البروق الخوافق ؛ مباشرةً تزيد مصالِحها على ما عرَفته ،
 وتُرِيها من خبرته فوق ما ألفتَه ؛ وتدُلُّ على ما فيه من كفاءة هدبَتها التجارب ، وهدبَتها
 الأنوار الثواقب ، وصرقتها الأفكار المطمعة على الطوالع من المغارب ، وسددها
 إلى الأغراض الجميلة الخلو من الأغراض ، ووقفها على جواهر الصواب عدم
 اعتراض النظر إلى الأعراض ؛ وأراها التوفيق ما تأتي من وجوه التدبير وما تدر ،
 وعرفتُها المعرفة الاحتراس من مخالفة الصواب فما تزال من ذلك على حذر ، وفتحت
 لها الدرية أبواب التثمير فاحظت أمراً من الأمور الديوانية إلا وبدت البدر ؛
 ولتكن النعم المصونة المقدم لديه ، والنظر في مصالح القلاع المحروسة هو الغرض
 المنصوص عليه ؛ فليضعف ذخائرها ، ويتفقد موارد أمورها ومصادرِها ؛ وفي معرفته
 بقواعد هذه الوظيفة ما يُعنى عن الوصايا ، لكن ملاكها تقوى الله ، فليجعلها نجى
 نفسه ، وسمير أُنسه ؛ وانلحظ الشريف

*
* *

ومنها - نظر الجيش بها .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش بالمملكة الحليية ، وهى :

الحمد لله الذى جعل أفق السعادة بطلوع شمسهِ منيرا ، وأقر فى ربِّ العلياء من
 يغدو ناظرها بحسنِ نظره قريرا ، وحلى مفاقرِ المناصب السننية بصدرٍ إذا تغالى

اللسان في وصفه كان بَنَانُ البَيَانِ إليه مُشِيرًا ، وأختار لأمصَارِ ممالِكِ الشريفة من إذا فَوْضَ إليه نَظَرُهَا كان بِنِسْبَتِهِ إلى الإِبْصَارِ حَقِيقًا به وَجَدِيرًا .

نجمه وهو المحمود، ونشكره شكرًا مُشْرِقَ السُّعُودِ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً عَذْبَةَ الوُرُودِ ، ونشهدُ أنَّ مَجْدًا عبده ورسوله الذي أضحَّتْ به شيوخٌ من الإسلامِ مَنْشُورَةَ البُنُودِ ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه ما أُوْرِقَ عُودُ ، وأُوْجِحَ نَهَارُ السِّيُوفِ في لَيْلِ العُمُودِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ، فإن الله تعالى لما خَصَّ كُلَّ مَمْلَكَةٍ من ممالِكِ الشريفة بِكَثْرَةِ الجيُوشِ والأَنْصَارِ ، وجعل جِيُوشَنَا وَعَسَاكِرَنَا تُكَارِعُ عِدَدَ النُّجُومِ في كُلِّ مِصْرٍ من الأَمْصَارِ؛ وكانت المَمْلَكَةُ الشريفةُ الحَلِيبِيَّةُ هي رَكْنٌ من أركانِ الإسلامِ شَدِيدِ، وَذُنُورٌ مادعاهم دَاعٍ إلا ولِبَّاهِ منهم عَدَدٌ عَدِيدٌ - وجب أن يُخْتَارَ لِلنَّظَرِ عَلَيْهَا من الأَكْفَاءِ من سَمَا في الرَّاسَةِ أَصْلُهُ وَزَكَافِرُهُ ، فَاسْتَحَقَّ بِمَا فِيهِ مِنَ المَعْرِفَةِ تَمْيِيزَ قَدْرِهِ وَرَفْعَهُ ؛ وَفَاقَ في فَضْلِ السِّيَادَةِ أَبْنَاءَ جِنْسِهِ ، وَأَشْرَقَتْ أَفْلَاكُ المَعَالِي بِطُلُوعِ شَمْسِهِ ؛ وَأَقْرَبَ [بِنَظَرِهِ] نَظَرَ الجيُوشِ المَنْصُورِ ؛ وَسَارَتْ الأَمَثِلَةُ بِمَا أَتَّفَقَ عَلَيْهِ [فِيهِ] من حُسْنِ خِبْرَةِ وَخَيْرِهِ ؛ وَكَانَ فلان هو الذي طَلَعَ في أَفُقِ هَذَا الثَّنَاءِ شَمْسًا مُنِيرَهُ ، وَأَخْتَبَرَ بِالكِفَايَةِ وَالدَّرَايَةِ وَأَخْتَبَرَ لهذا المَنْصِبِ عَلَى بَصِيرَةٍ ؛ وَهُوَ الَّذِي لَهُ مِنَ جَمِيلِ المَبَاشِرَةِ في المَنَاصِبِ السَّنِيَةِ ما هُوَ كَالشَّمْسِ لا يُخْفَى ، وَالَّذِي أَحْسَنَ النَّظَرَ في الأَوْقَافِ المَبْرُورَةِ حَتَّى تَمْنَى كُلُّ مَنْصِبٍ جَلِيلٍ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ وَفَقًا ؛ وَهُوَ الَّذِي حَوَى مِنَ الفَضَائِلِ ما لا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ وَلَا شَبِيهٌ ، وَالَّذِي سَمَا إلى رتبة من المَعَالِي رَيْعَةً وَكَانَ ذَا الجَدِّ النَّبِيِّ وَالْأَبِ النَّبِيِّ .

فلذلك رُسم ... - لا زال يُقرُّ الناظر بِجُوده ، وَيَحْسِنُ النظرُ في أمرِ جُوشه
وَجُوده - أن يفوض إليه كذا: عالماً بأنه أحقُّ بذلك وأولى، وأنَّ كفايته لا يُستثنى
فيها بيلاً ولا بلولاً، وأنَّ السِّدادَ مقترنٌ بحسنِ تصرُّيفه، وعلمه قد أغنى عن تعليمه
بمواقع التَّسديدِ وتوقيفه .

فليباشِرْ ذلك بصدرٍ مُنشرحٍ، وأملٍ مُتفَسِّحٍ، عاملاً بالسُّنة من تقوى الله تعالى
والقرض، عالماً بأنَّه عند وُصولنا إلى البلاد نأمرُ بعرضِ الجيوش : فليعملَ على
ما يبيِّضُ وجهه يومَ العَرَضِ، وليُزِمَ عدَّةً من المباشرين بعمل ما يلزمهم من التَّفريع
والتَّأصيل ، والتَّجريد والتَّزِيل ، وتَحْرِيرِ الأمثلة والمقابلة عليها، وسؤالِكِ الطَّرِيقِ
المُسْتقيمِ التي لا يتطرَّقُ الدَّمُ إليها ، والملاحظة لأُمورِ الجيوش المنصورة في قَلِيلِ
الإقطاعات وكثيرها ، وجليلها وحقيقها ، بحيثُ يكون علمه محيطاً بذلك إحاطةً
اللَّيْلِ ، ويشترطُ على من يتعيَّن تنزيله ما أستطاع من قُوَّةٍ ومن رباطِ الخَيْلِ ؛
ويقابلِ الأمورِ المضطربةَ بالإضرابِ ، ويسلكُ أحسنَ المسالكِ في سيره وسيرته :
فإنَّا فوضنا إليه الجيوش المنصورةَ من جُنْدِ المملكةِ الحَلِيبِيَّةِ ومن أهلِ المدينةِ ومن
حوطهم من الأعرابِ . والوصايا كثيرةٌ وإن كُثرتُ فعلمها عنده ، وقد ضربَ له منها
مثلٌ فليكنْ على سياقته فيما لم يُدكر في العِدَّة ؛ وأهمُّ الأمورِ أن يتمسكَ من خَشْيَةِ الله
بالسَّببِ الأقوى ، ويجعلَ تقوى الله عمادَه في كلِّ الأمورِ : فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقوى ؛
والخطُّ الشريفُ أعلاه حجةٌ فيه .

الطبقة الثانية

من يكتب له من أهل المملكة الحَلِيبِيَّةِ في قَطْعِ العادة مفتتحاً بـ «رسم» إمَّا مع
«مجلس القاضى» أو مع «القاضى الأجل» ككُتَّابِ الدَّرَجِ ومن في رُتبتهم، إن كُتِبَ

لأحد منهم من الأبواب السلطانية . وإلا فالغالب استبدادُ نائب السلطنة بها بالكتابة في ذلك . فإن كُتِبَ شيءٌ منها من الأبواب السلطانية ، فليُمش فيه على نحو ما تقدم في الديار المصرية والمملكة الشامية التي قاعدتها دمشق .

النوع الثاني

(من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية - من هو خارج
عن حاضرتها ، وهم على أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وهم غالبٌ من يكتب لهم عن الأبواب السلطانية)
وقد تقدم أن العادة جاريةٌ بتسمية ما يكتب لمن دون أرباب النيابات العظام : من دمشق ، وحلب ، وطرابلس ، وحمّة ، وصفد ، وغزة ، والكرک - مراسيم . وأن التقاليد مخصصةٌ بالنواب العظام المقدم ذكرهم . ولا يخفى أن النيابات الداخلة في المملكة الحلبية : مما هو تحت أمر نائب السلطنة بحلب أكثر من كل سائر الممالك الشامية .

وبالجُملة فأمرهم لا يخرج عن ثلاثة أضرب : إما مُقدم ألف ، كاتب البيرة ، ونائب قلعة الروم المعبر عنها في ديوان الإنشاء بقلعة المسامين ، ونائب ملطية ، ونائب طرسوس ، ونائب البلسنتين ، ونائب البهنسي ، ونائب آياس المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية . وإما طبعخاناه ، كاتب جعبر ، ونائب درندة ونحوهما . وإما أمير عشرة ، كاتب عين تاب ، ونائب الراوندان ، ونائب كركر ، ونائب بغراس ، ونائب الشغروبكاس ، ونائب الدر بساك ، ونائب سرفندكار ، ومن في معنهم .

وقد تقدّم في الكلام على المكتابات نقلًا عن "التثقيف" : أن هؤلاء التوّابَ
تختلف أحوالهم في الارتفاع والانحطاط : فتارة تكون عادة تلك النيابة أمير طبلخاناه ،
ثم يوتى فيها عشرةً وبالعكس . وقد تكون عادتُها طبلخاناه فيستقرّ بها مقدّم ألف
وبالعكس . والضابط في ذلك أن من يكتب له المرسوم : إن كان مقدّم ألف ،
كتب مرسومه في قطع النصف بـ «المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه ، كتب له
مرسومه في قطع النصف أيضًا بـ «السامى» بالياء . وإن كان أمير عشرة كتب
مرسومه في قطع الثلث . فأما ما يكتب في قطع النصف ، فإنه يفتح بـ «الحمد لله»
سواء كان صاحبه مقدّم ألف أو أمير طبلخاناه .



وهذه نسخة مرسوم شريف بنيابة آياس ، وهى المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية ،
يستضاء بها في ذلك ، وهى :

الحمد لله الذى جعل من أولياء دولتنا الشريفة كل سيف لا تنبو مضاربه ،
وأصطفى لبوادر الفتوحات من أنصارنا من ثمجد آراؤه وتجاربه ، وأهمننا حسن
الآختيار لمن تؤمن في المحافظة مآربه ، وتعذب في المخالطة مشاربه ، وحقق آمالنا
في مضاعفة الفتح التى أغنى الرعب فيها عما تدافعه سيوف الإسلام وتجاربه .

نحمده حمدًا يضاعف لنا فى التأييد تمكيننا ، ونشكره شكرًا يستدعى أن يزيدنا من
فضله نصرًا عزيزًا وفتحًا ميينًا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
مخلص فيها يقينًا من المخاوف يقينًا ، وزرد من نهالها معينًا ، ونشهد أن مجدًا عبده
ورسوله الذى أيدته الله بالملائكة والروح ، وزوى له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها
وزجوا أن يكون ما زواه له مدخرًا لنا من الفتح ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه

الذين هم خيرُ أمةٍ أُخْرِجَتْ للإسلام ، والذين ما زال الإيمانُ بهم مرفوعَ الأويةِ والأعلامِ ، والذين لم يبرحْ دَاعِيَ الضلالةِ تَحْتَ قَهْرِ سِيوفِهِمْ : فإذا أَعْفَى «جَرَّتْ عَلَيْهِ سِيوفُهَا الْأَحْلَامُ» ؛ صلاةً يَطِيبُ اللِّسَانَ مِنْهَا فَيُطْرِبُ ، وَيُعْرِبُ عَنْ صِدْقِ الْإِخْلَاصِ فِي تَكَرُّرِهَا فَيُعْرِبُ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

أما بعدُ ، فإنَّ أَوْلَى مَنْ تَسْتَنْدُ أُمُورُ الْمَمَالِكِ لِعَزَمَتِهِ ، وَيُلْقَى أَمْرَ بَوَادِرِ الْفَتْوحَاتِ السَّعِيدَةِ لِهَيْمَتِهِ ، وَيَعْتَمِدُ فِي تَدْيِيرِ أَحْوَالِ الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ عَلَى يَمِينِ تَصَرُّفِهِ وَمُتَمَدِّ نَهْضَتِهِ - مَنْ لَمْ يَزَلْ مَعْرُوفًا سَدَادُ رَأْيِهِ ، مَشْكُورًا فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ حُسْنُ سَعْيِهِ ؛ مَوْيِدًا [فِي] عَزْمِهِ ، مَظْفَرًا فِي حَزْمِهِ ؛ مَأْمُونًا النَّائِبِ ، مَيُونُ التَّسْدِيرِ ، كَافِيًا فِي الْمَهْمَاتِ ، كَافِلًا بَعْلُو الْهِمَّاتِ ، إِذَا هَمَّ أَلْقَى بَيْنَ عَيْنَيْهِ [صَادِقَ] عَزْمِهِ ، وَإِذَا أَعْتَمَدَ عَلَيْهِ فِي مُهِمٍّ تَقَاهُ بَهْمَتِهِ وَحَزْمِهِ ؛ وَإِذَا جُرِّدَ كَانَ هُوَ السَّيْفَ أَسْمًا وَفِعْلًا ، وَإِذَا دَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ الزُّبُونُ فَهُوَ الشَّهْمُ الَّذِي لَا يَخَافُ سَهْمًا وَلَا يَرْهَبُ نَصْلًا .

ولما كان ^(١) هو بَدْرَ هَذَا الْأَفْقِ ، وَمُقَلَّدَ هَذَا الْعِقْدِ وَلَا يَصْلُحُ هَذَا الطَّلُوقُ إِلَّا لِهَذَا الْعُنُقِ ؛ وَهُوَ الَّذِي فَاقَ الْأَوْلِيَاءَ أَهْتَامًا ، وَرَاقَ الْعِيُونَ تَقْدَمًا وَإِقْدَامًا ؛ وَأَرْضَى الْقُلُوبَ نَضْحًا وَوَفَاءً ، وَأَنْضَى الْهِمَمَ أَحْتِفَالًا لِلصَّالِحِ وَأَحْتِفَاءً ؛ طَلَبًا جُرْبَ فُحْمَدٍ عِنْدَ التَّجَارِبِ ، وَجُرْدَ فَأَعْفَى عَنِ الْقَوَاضِبِ ؛ وَأَخْتَبَرَ فَاخْتَبِرَ ، وَنَظَرَ فِي خَصَائِصِهِ فَلَمْ يُوجِدْ لَهُ نَظِيرًا - أَقْتَضَى حَسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نَقَلَدَهُ فَتُوحَاتٍ أَنْقَدَهَا اللَّهُ تَعَالَى مِنْ شَرِكِ الشَّرِكِ ، وَأَخْرَجَهَا إِلَى النُّورِ بَعْدَ ظِلَامِ الْإِفْكَ ؛ وَبَشَّرَهَا أَنَّ هَذِهِ سَعَابَةُ نَصِيرٍ يَأْتِي وَآبِلُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ رَدَّادِهِ ، وَأَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ سَعِدَ تَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ .

(١) بياض بالأصل والمراد المولى باسمه ولقبه .

فذلك رُسم ... - لا زال الفتح في دولته يزهُو بانتظام سلكه، وأيامه الشريفة تسترد مغتصب البلاد من يد الكفر إلى بسطة ملكه وقبضة ملكه، وإحسانه يحيى الحصون بسيف يروع العدا ببأسه وفتكه - أن يفوض ... اعتماداً على مضائه الذي لا ينكر مثله للسيف، وركوناً إلى همته التي تسرى برعبها إلى قلوب الأعداء سرى الطيف .

فليباشر النيابة المذكورة : مُعملاً رأيه في تمهيد أحوالها، وتقدير أمورها التي راق الأولياء وراع الأعداء ما كان من مآلها ؛ مجتهداً في حفظ ما بها من القلاع والحصون، مُبادراً [إلى] كل ما يحيى حماها ويصون قائماً حق القيام في مصالح تقريرها، وأحوال تحريرها ؛ وأمور تمهدها، ومنافع تُسيدها ؛ وحواصل تكفيها، وأسباب مصلحة تُوافيها بمزيد الأهتمام وتوفيقها ؛ وليكن بأحكام الشرع الشريف مقتدياً، وبنور العدل والإحسان مهتدياً، وبتقوى الله عز وجل متمسكاً، وبخشية الله متمسكاً، وهو يعلم أن هذه الفتوحات [قدى] في حدقة العدو المخدول وسجاً في حُلوقهم، وعلّة في صدورهم وحسرة في قلوبهم .

فليكن دأبه الاجتهاد الذي ليس معه قرار، والتحرز الذي يحلها أو يحميها فيكون عليها بمنزلة سور أو سوار؛ ويصفحها من عزمه بالصفاح، ويجعل عليها من شرفات حزمه ما يكون أحد من أسنة الرماح؛ ثم لا يزال احتياطه محيطاً بها من كل جانب، وتيقظه لأحوالها بمنزلة عين مراقب، واحتفاله الاحتفال الذي بمثله يُصان رداؤها من كل جاذب؛ ثم لا تزال قصاده وكشافه وطلائعه لا يقربهم السرى، ولا يعرفون طعم الكرى؛ يطلعون من أخبار العدا على حقائقها، وتحمّل كل فرقة منهم على معرفة الأحوال بينهم بمكر من تعدد طرقها وألسع طرائقها، لتكون المتجددات عنده بمنزلة ما يراه

في مِرَاة نَظَرِهِ، وَسِرِّ أُمُورِ الْعِدَا لَدَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَشِيْعَ بَيْنَهُمْ ذِكْرُ خَبْرِهِ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَهُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ لَا يَحْتَاجُ مَعَ مَعْرِفَتِهِ إِلَى تَبَصُّرِهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ مَعَ حَسَنِ بَصِيرَتِهِ إِلَى تَذَكُّرِهِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ، وَيُعِينُهُ عَلَى مَا وَّلَاهُ؛ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ .

وأما من يكتب له في قطع الثلث بـ«مجلس الأمير» وهم العشرات [فقد ذكر في «التعريف»: أنه يكتب لهم من الأبواب السلطانية على ذلك .

قلت : وقد تقدّم في الطبقة السابعة أَنَّ الْكَحْتَا، وَكُرْكُرًا، وَالذَّرْبَسَاكَ، قد تكون عشرةً أيضًا . وفي معنى ذلك نيابة عين تاب ، والراوندان ، والقصير ، والشغروبكاس ، إذا كانت عشرة . ونيابة دبركي إذا كانت عشرة [يفتتح فيها^(١) «أما بعد حمد الله» على عادة ما يكتب للعشرات .



وهذه نسخة مرسوم شريف من هذه الرتبة، كُتِبَ بِهِ لِنَائِبِ حَجَرِ شَعْلَانَ مِنْ مَعَامِلَةِ حَلَبَ ، وَهِيَ :

أما بعد حمد الله الذي شيد المعقل الإسلامية بأكفائها، وصان الحصون المحروسة بمن شكرت همته في إعادتها وإبدائها، وحمي سرحها بمن أيقظ [في] الخدمة الشريفة عيون عزمه فما أملت بعد إيقاظه بإغفائها، والصلوة والسلام على سيدنا محمد الذي آتت سيوف الأبيد فأعزّت الهدى وأذلت العدا حين انتصائها ، وعلى آله وصحبه ما بدت النجوم في ظلمائها ، وسرت الغيوم في فضاءها - فإن من شكرت هممه، وثبتت في الطاعة الشريفة قدمه؛ وأشبه عزمه في مضائه صارمه، وأصحت

(١) ما بين القوسين المربعين [] وجد ملحقا بها مش نسخة ومؤشرا عليها بالنصح فإثباته في الصلب

تُعَوَّرُ تَقْدِيمَهُ بِاسْمِهِ ؛ أَوْلَىٰ بِأَنْ تَرْفَعَ هَذِهِ الدَّوْلَةُ الشَّرِيفَةُ مِنْ مَحَلِّهِ ، وَتُنَشَّرَ عَلَيْهِ [مِنْ] تَكْرِيمِهَا وَارْفَ ظِلِّهِ ؛ وَتَرْتَضِيَهُ لِقِلَاعِ الْإِسْلَامِ وَتَشْيِدِيهَا ، وَتَجْتَنِيَهُ لَصَوْنِهَا وَتَأْيِيدِهَا ، وَتَجْعَلُهُ قُرَّةَ عَيْنِهَا وَحِلْيَةَ جِيدِهَا ؛ وَتُمْضِي كَلِمَتَهُ فِي مَصَالِحِهَا ، وَتُعَدِّقُ بِهِ أَسْبَابَ مَنَاجِحِهَا ؛ فَيُصْبِحُ وَقَدْرُهُ مَنَّا إِعْلَاءً وَإِعْلَانًا ، وَيُمَسَىٰ وَهُوَ شُغْلُ بَطَاعَتِنَا الْعَالِيَةِ الشَّانِ ؛ وَشُغْلُ بِالْمَعْقِلِ الَّذِي يُحْرَزُ بِعَزْمِهِ وَيُصَانُ ، فَلَأَجْلِ ذَلِكَ غَدَا وَهُوَ مِنْ هَذِهِ النِّيَابَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ شُعْلَانٌ .

وَكَانَ [فُلَانٌ] هُوَ الَّذِي جَادَتْ عَلَيْهِ دَوْلَتُنَا الزَّاهِرَةُ بِسَحَائِبِهَا ، وَأَشْرَقَتْ عَلَى حُظُوذِهِ سُعُودُ كَوَاكِبِهَا ؛ وَأَسْمَتْ لَهُ قَدْرًا ، وَجَعَلَتْ لَهُ إِمْرَةً وَأَمْرًا ؛ وَصَرَفَتْهُ إِلَى نِيَابَةِ مَعْقِلٍ مَعْدُودٍ مِنْ قِلَاعِ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَحُصُونِهَا ، وَمَعَاقِلِهَا الَّتِي عَلَتْ مَحَلًّا فَالْجِبَالُ الشُّمُّ مِنْ دُونِهَا ؛ قَدْ أَصْبَحَ شَاهِقًا فِي مَبْنَاهِ ، مَمْنَعًا فِي مَعْنَاهِ ؛ مُحَصَّنًا بِرِجَالِهِ ، مَصُونًا مِنْ مَاضِيَيْنِ : السَّيْفِ فِي مَضَائِهِ وَالْعَزْمِ فِي آخِتِفَالِهِ - أَقْضَى حَسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نُوقِّلَهُ رَتْبَةَ هَذِهِ النِّيَابَةِ ، وَنُنَشَّرَ عَلَيْهِ مِنْ إِحْسَانِنَا سَحَابَهُ .

فَلذَلِكَ رَسْمٌ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ أَنْ يَسْتَقَرَّ

فَلْيُحَلَّ هَذِهِ النِّيَابَةُ الْمُبَارَكَةُ مُظْهِرًا مِنْ عَزْمِهِ مَا تُجْمَدُ عَوَاقِبُهُ ، وَتَعْلُو مَرَاقِبُهُ ؛ وَتَسْمُو مَرَائِبُهُ ، وَتَتَوَسَّعُ سُبُلُهُ وَمَذَاهِبُهُ ؛ مُحَصَّنًا لِسَرْحِهِ ، مَعَزَّزًا مَوَادِّ نَجْحِهِ ؛ مُرَاعِيًا أَحْوَالَ رِجَالِهِ ، الْمُعَدِّينَ مِنْ حِمَاتِهِ وَأَبْطَالِهِ ؛ حَتَّى يَغْدُوا يَقِظِينَ فِيمَا يَنْدُبُهُمْ إِلَيْهِ وَيَسْتَنْهَضُهُمْ فِيهِ ، مُبَادِرِينَ إِلَى كُلِّ مَا يَحْفَظُ هَذَا الْحِصْنَ وَيُجَيِّهِ ؛ وَمَنْ يَهَذَا الْمَعْقِلِ مِنَ الرَّعِيَةِ فَلْيَرْفُقْ بَضِعْفَائِهِمْ ، وَلْيُعَامِلِهِمْ بِمَا يَسْتَجِيبُ لِنَابِهِ صَالِحَ دُعَائِهِمْ ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِلَاكُهَا التَّقْوَى ، فَلْيَتَمَسَّكْ بِهَا فِي السَّرِّ وَالنَّجْوَى ؛ وَلْيَغْرِسْهَا فِي كُلِّ

قول يُبْدِيهِ ، وَفِعْلٌ يَرْتَضِيهِ ، فَإِنَّ غُرُوسَهَا لَا تَدْوَى . وَاللَّهُ يُوَفِّقُهُ لِصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيَصُونُهُ مِنَ الْخَطِّ وَالْخَطَلِ ؛ وَالْخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ ، حِجَّةٌ بِمَقْتَضَاهُ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

قُلْتُ : وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ لَا يُكْتَبُ عَنِ السُّلْطَانِ مَرْسُومٌ بِنْيَابَةٍ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ ، لِأَنَّ ذَلِكَ لَا يَكُونُ إِلَّا الْجُنْدِيُّ وَهُوَ دُونَ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ إِنَّمَا يُكْتَبُ عَنِ تَوَابِ الْمَالِكِ .

الصنف الثاني

(مما هو خارج عن حاضرة حلب - الوظائف الدينية بمعاملتها :

من القلاع وغيرها)

وهي في الغالب إنما تصدر الكتابة فيها عن نائب حلب أيضا أوقاضها، إن كان مرجع ذلك إليه . فإن صدر شيء منها عن الأبواب السلطانية، كان في قطع العادة مفتتحاً بـ«رسم» .

وهذه نسخة توقيع من هذا النمط ينسج على منواله ، كُتِبَ بِهِ لِقَاضِي قَلْعَةِ الْمُسْلِمِينَ ، وَهِيَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ عَدْلُهُ مُؤَيِّدًا لِلْحُكْمِ ، وَرَأْيُهُ مَسَدَّدًا فِي النَّقْضِ وَالْإِبْرَامِ ، وَسُلْطَانُهُ يَخْتَارُ لِلنَّاصِبِ الدِّينِيَّةِ مَنْ نَطَقَتْ بِشُكْرِهِ أَلْسِنَةُ الْأَنَامِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ فِي كَذَا : لِمَا أَشْتَهَرَ عَنْهُ مِنْ عِلْمٍ وَدِينٍ ، وَظَهَرَ مِنْ حُسْنِ سِيرَةٍ آفَقَتْ لَهُ التَّعْيِينَ .

فليباشِر هذه الوظيفة المباركة بالحقِّ حاكماً ، وللرفقِ مُلازماً ، وللتقوى مداوماً ؛ وهو غنى عن الإسهاب في الوصايا ، ملىُّ بسُلوك تقوى الله في القضايا ، والله تعالى يزيدُه تأييداً ، ويضاعفُ له بموادِّ السعادة تجديداً ؛ والعلامة الشريفةُ أعلاه ، حجةً بمقتضاه .

الصنف الثالث

(مما هو خارج عن حاضرة حلب - الوظائف الديوانية)

وهي إما تصدر في الغالب أيضاً عن نائب حلب . فإن كُتِبَ شيءٌ منها عن الأبواب السلطانية ، كان في قطع العادة مفتتحاً بـ «رُسم بالأمر» . وهذه نسخةٌ توقيع من ذلك ، يستضاءُ به فيما يُكُتَب من هذا النوع ، كُتِبَ بها بنظر جعبر ، من مُعاملة حلب ، وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال مُنهلَّ الندى ، مُستهلَّ الجدى ، مُعيداً للإحسان كما بدا - أن يُعادَ فلانٌ إلى وظيفته : لما ألفت من سيرة له لم تزل تُحمد ، وسيما خيرٍ منه على مثل الشمس تشهد ، وإلمانتِه التي لم تزل تفتُرُ بها الثغور ، وتخصُرُ بها المعاهد : تارةً في طوقِ النحر وتارةً في نحور البحور ؛ وأصالة أمتدَّ ظلُّها الظليل ، وعُرف منها في العَصْرُ حسنُ الأصيل ، وأينعت أكرم فرج زكا منبتِه في الأرض المقدسة وجوار الخليل ؛ ولما أسلف في هذه المباشرة من عملي صالح ، وسدادِ اعتمادٍ لم يخرج عن تحرير تقريرٍ وتقديرٍ مصالح ؛ وكتابةٍ رآها الرأي ونقلها الناقل ، وكفايةٍ حفت عليه مثل العروس المجلوة من عقائل المعامل .

(١) في الأصل « منبتا » بالتأنيث .

فليباشِر هذه العروس فقد أنقدها سالف الخدم وأمهرها ، وليتأبرسُقيا العروس
 التي أنشأها في هذه الجهة وتمرها ، وليسلك مسلكه الذي لم يزل مُحيمًا على رؤوس
 القُسن ، ومهوومًا به طُرف الأمن لليقظة الذي لا يُلمُّ به الوسن ؛ مُحولًا في وظيفته
 المبرآت ، مُستقبلًا للسرآت ، مُفتخرًا بمباشراته التي تجرى مجارى البحار : تارة الملح
 الأجاج وتارة العذب القرات ؛ وهو أعرف بما يقدمه من أمانة بها يتقدم ، وديانة
 يرجب بها أستكفاؤه ويحكم ؛ وتقوى الله جماعها فليكن بها مُتمسكا ، وبمشاغلها
 مُتنسكا ؛ والله تعالى يجعل عطاءه موفرا ، وعمله مُتدققا ليرد جعبرا جعفرًا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابُلس ، ووظائفها التي جرت العادة بالكتابة فيها)

من الأبواب السلطانية على نوعين)

النوع الأول

(ما هو بحاضرة طرابُلس ، وهو على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وهم على طبقتين)

الطبقة الأولى

(من يكتب له تقليد)

وهو نائب السلطنة بها . ومرسومه في قطع الثلثين ، ولقبه « الجناب العالى »
 مع الدعاء بمضاعفة النعمة .

(١) الذى ورد فى القاموس وغيره أن النقد بمعنى الاعطاء من باب الثلاثى فلعل الهمز من زيادة
 لناصح فتنه .

وهذه نسخة تقليد شريف بنابتها :

الحمد لله الذى جعل لنا التأييد مددا ، والنصر عتادا لا نفقد مع وجوده من الأولياء أحدا ، والعز و زرا تيم شهبه مسامع العدا : ﴿ فَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شَهَابًا رَصَدًا ﴾ . والفتح ذنرا فحث ما نشاء مددنا إليه بقوة الله يدا ، وشددنا عليه بمعونته عضدا .

نحمده على نعيمه التى جعلت مراتب دولتنا فلكا تشرق فيه رتب الأولياء إشراق البذور ، وثور مالكا أفقا حيثما شامتة العدا ضرب بينهم وبينه من سيوف مهايتنا بسور ، وفواتح الفتوح النائية دانية من همم أصفياينا فإذا يمموا غرضا طارت إليه سهامهم بأجنحة الثسور ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يرفع الجهاد علمها ، وينصر الإيمان كلمها ؛ ويؤجى الإيقان إلى رياض التأييد ديمها ، ويستنطق التوحيد بإعلانها وإعلانها سيف أيامنا الزاهرة وقلمها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، ونبية المخصوص بالآيات والذكر الحكيم ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصرنا الله فنصرهم ، وأظهروا دينه فأعزهم وأظهرهم ، ويسروا لأمتهم سبل الهدى فهداهم وللسبيل يسرهم ؛ صلاة لا يزال اليقين يقيم دعوتها ، والتوحيد يعصم من الانفصام عروتها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من تقتر الثغور بإيائته ، عن شنب النصر ، وترمى الحصون بكفالتة ، من شام من العدا برقها بشرير كالفصر ، وتقسم السواحل بمهاتته ، من جاور من أهل الكفر بجرها بين الحصد والحصر ؛ وتمنع عزماته شوانى العدا أن تدب عقاربها ، أو تركب البلج بغير أيامه مرا كها ، أو يتنقل عن ظهر البحر إلى غير

(١) لعله « بغير أمانه » تأمل .

سيوفه أو قيوده مُحارِبها - من لم يزل في نُصرةِ الدِّينِ لامِعاً كالبرقِ شهابه ، زاحراً كالبحرِ عبابه ، واصباً على الشُّركِ عذابه ؛ ظامياً إلى موارِدِ الوردِ يدِ سَيْفِه ، سارياً إلى قلوبِ أهلِ الكُفْرِ قبلِ جُفونهم طَيْفُه ؛ قائمةً مقامِ شُرفِ الحُصونِ أسِنَّةِ رِماحه ، غنيّةِ بروجِ الثُّغورِ عن تَصْفِيحِها بالجَهدِ بصفا صِفاحه ؛ مع خِبرةٍ بتقدِّمةِ الجيوشِ تُضاعفُ إقدامها ، وتثبتُ في موَاطِنِ اللِّقاءِ أقدامها ؛ وتُسدِّدُ إلى مقاتلِ أهلِ الكُفْرِ سهامها ، وتُقربُ عليها في البرِّ والبحرِ مناهِيا وتُبعدُ مرَامِيا على مَنْ رَامَها ؛ ومعدِّلةٌ للرعايا السُّكونُ في مهادِ أمنِها ، والرُّكونُ إلى رَبِّا إقبالها وهادِ يَمَنِّها ؛ فيسربُ الرعايا مِصُونٌ بعَدْلِه ، والعدُلُ مكنونٌ بين قَوْلِه وفِعْلِه .

ولما كان فلانٌ هو اللَّيْثُ الذي يُحْيى به غابُه ، والنَّيِّرُ الذي يُزهِى أَفُقُ تَأَلَّقى فيه شهابُه ؛ والهَمَامُ الذي تُعَدِي هِمَمُه فُرسانَ الوغى فُتَعَدُّ أحادُها بالألُوفِ ، والشُّجاعُ الذي إذا استعانتْ سِواعِدُ الشُّجعانِ بسِويفِها استعانتْ بِقوَّةِ سِواعِدِه السُّيوفِ - أقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أن نُحَلِّيَ به جِيدَ مملكةِ أنتظمتْ على وِشامِ البحرِ ، وأحاطتْ بما في ضميره من بلادِ العدا إحاطةَ القلائدِ بالنَّحْرِ .

فرسم بالأمر الشريف لا زال أن يفوضَ إليه كَيْتٌ وكَيْتٌ : لما أشيرَ إليه من أسبابِ تَعَيُّنِه لهذه الرِّتبةِ المَكِينَةِ ، وتَحَلِّيِه بما وُصِفَ من المحاسنِ التي تُزهِى بها عقائلُ الحُصونِ المِصُونَةِ .

فليلِ هذه النِّياةِ الجَليلةِ بعِزِّةِ مُجَلِّ مواعِبِها ، وهِمَّةِ تُكَلِّلُ مراتِبِها ؛ ومهابةِ تحُوطِ ممالِكِها ، وصِرامةِ تومِّنُ مسالِكِها ؛ ومعدِّلةِ تُعَمِّرُ ربوعِها ورباعِها ، ويَقْظَةُ تَصُونُ حُصونِها وقلاعِها ؛ وشِجاعةِ تُسْرِى إلى العِدا سِرايا رُعيِها ، وسَطوَّةِ تُعَدِي السُّيوفِ فلا تستطيعُ الكِماةُ الدُّنُوَّ من قُرْبِها ، ومِمْعةِ تُرهبُ مُجاوريه حتى يُتَحَيَّلَ البَحْرُ [أنه] من أعوانه على حَرِبِها .

وليؤتِ تَقْدِمةَ الجيوش الإسلامية حقَّها من تَدْيِيرِ يَجْمَعُ على الطاعة أمرها
وأمرأعها، ويرفَعُ في مرَاتِبِ الخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ على ما يَجِبُ أعيانها وكُبراءها، ويُرْهَبُ
بإدَامَةِ الأستعداد قلوب أعدائها، ويربِطُ بأيزاكها شِوَانِي البَحْرِ حَتَّى تَعْتَدَّ الرِّبَاطَ
في ذلك من الفُرُوضِ التي يُتَعَبَدُ بأدائها، فلا يَلُوحُ قَلْعُ في البَحْرِ لِلْعِدَا إلا وهو يَرَهَبُ
الوَقُوعَ في حِبَالِهَا، ولا تَلْحَظُ عَيْنُ عَدُوِّ سَنَا البَرِّ إلا وهي تُتَوَقَّعُ أَنْ تُكْحَلَ بِنِصَالِهَا؛
وَلِيُقِيمَ مَنَارَ العَدْلِ بِنُشْرِ لَوَائِهِ، ويعضدُ حكمَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ بِرِجُوعِهِ إلى أوامره
وَأَتْمَائِهِ؛ وليكفِّ يَدَ الظُّلْمِ [عنها] فلا تَمْتَدَّ إليها بَنَانُ، وليشْفَعِ العَدْلُ بالإحسان إلى
الرعيَّةِ فإن الله يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحسان؛ وفي سِيرَتِهِ التي جعلته صَفْوَةَ الأختيَارِ، وَنُحْبَةَ
مَا أَوْصَحَّتْهُ الحَقِيقَةُ مِنَ الأختيَارِ؛ مَا يُعْنَى عَنِ الوَصِيَّةِ إلا على سبيلِ الذِكْرِ التي
تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ، وَتَرْفَعُ قَدْرَ المُؤَقِّينَ؛ وَمِلَاكُهَا تَقْوَى الله تَعَالَى: فَلْيَجْعَلْهَا أَمَامَ
أَعْتَادِهِ، وَإِمَامَ إِصْدَارِهِ وَإِيرَادِهِ، وَالله تَعَالَى يُدِيمُ مَوَادَّ تَأْسِيدِهِ وَإِسْعَادِهِ؛ إِنْ شَاءَ
الله تَعَالَى.

الطبقة الثانية

(من يُكْتَبُ له مرسومٌ شَرِيفٌ في قَطْعِ الثَّلَثِ بِـ «المجلس

السَّامِي» بِغَيْرِيَاءٍ، وَتَشْتَمَلُ عَلَى وَظَائِفِ)

منها — شُدُّ الدَّوَابِينِ بِطَرَابُلُسَ .

وهذه نسخةُ تَوْقِيعِهَا :

الحمدُ لله مُجَدِّدِ الرُّتَبِ لِمَنْ نَهَضَ فِيهَا إِخْلَاصَهُ بِمَا يَجِبُ، وَمُؤَلِّي المِنَنِ لِمَنْ إِذَا
أَعْتَمَدَ عَلَيْهِ مِنْ مُهَمَّاتِ الدَّوَلَةِ القَاهِرَةِ فِي أَمْرِ عَرَفَ مَا يَأْتِي فِيهِ وَمَا يَحْتَجِبُ بِهِ

وَمَوْكِدِ النَّعَمِ لَمَنْ إِذَا آرْتَيْدَتِ الْإِكْفَاءُ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ كَانَ خَيْرَةً مِّنْ يُخْتَارُ وَنُجْبَةً
مَنْ يَنْتَخِبُ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي سَرَّتْ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ عَوَارِفُهَا ، وَأَشْتَقِلُّ عَلَى الْأَضْفِيَاءِ وَافِرُ
ظِلَالِهَا وَوَارِفُهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُزَلَّفُ لَدَيْهِ ،
وَتَكُونُ لِقَائِهَا ذَخِيرَةً يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ
مَبْعُوثٍ إِلَى الْأُمَّمِ ، وَأَكْرَمُ مَنْعُوتٍ بِالْفَضْلِ وَالكَرَمِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ وُلُّوا أَمْرَ الْأُمَّةِ فَعَدَلُوا ، وَسَلَكُوا سُنَنَ سُنَّتِهِ فَمَا مَالُوا عَنْهَا وَلَا عَدَلُوا ؛ وَسَلَّمْ
تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا اخْتِيرَ لَهُ مِنَ الْأَوْلِيَاءِ كُلِّ ذِي هِمَّةٍ عَلَيْهِ ، وَعَزْمَةٍ بِمَصَالِحِ
مَا يُعَدُّقُ بِهِ مِنْ مِهْمَاتِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ مَلِيَّةٍ ؛ وَخِبْرَةٍ بِكُلِّ مَا يُرَادُ مِنْهَا وَفِيهِ ، وَيَقْظَةُ
تَلَحُّظٍ فِي كُلِّ مَا قَرَّبَ وَنَأَى مِنَ الْمَصَالِحِ الْأُمُورِ الْبَاطِنَةِ وَالْأَحْوَالِ الْخَفِيَّةِ ؛ وَصِرَامَةٍ
تُؤَيِّسُ مِنْ آسْتِلَانَةِ جَانِبِهِ ، وَنَزَاهَةِ تُؤَمِّنُ مِنْ إِمَالَةِ رَأْيِهِ فِي كُلِّ أَمْرٍ عَنِ سُلُوكِ
وَاجِبِهِ ؛ وَمَعْرِفَةٍ مُطَّلِعَةٍ ، وَنَهْضَةٍ بِكُلِّ مَا إِنْ حَمَلَهُ مِنْ أَعْبَاءِ الْمِهْمَاتِ الشَّرِيفَةِ
مُضْطَلِعَةٍ - أَمْرُ الْأَمْوَالِ الدِّيَوَانِيَّةِ : فَإِنَّهَا مَعَادِنُ الْأَرْزَاقِ ، وَمَوَادُّ مَصَالِحِ الْإِسْلَامِ
عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَخَزَائِنُ الدَّوْلَةِ الَّتِي لَوْ مَلَكَتْهَا الْغَائِمُ لَأَمْسَكَتْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ،
وَذَخَائِرُ النُّغُورِ الَّتِي مَوَاقِعُهَا مِنْ أَعْدَاءِ الدِّينِ مَوَاقِعَ الشَّجَا فِي الْقُلُوبِ وَالْقَدَى
فِي الْأَحْدَاقِ .

وَمَا كَانَ الْحِجَاسُ السَّامِيُّ هُوَ الَّذِي سَمَّتْ بِهِ هِمْمَهُ ، وَرَسَخَتْ فِي خِدْمِ الدَّوْلَةِ
الْقَاهِرَةِ قَدَمُهُ ، وَتَبَارَى فِي مَصَالِحِ مَا يُعَدُّقُ بِهِ مِنَ الْمِهْمَاتِ الشَّرِيفَةِ سَيْفُهُ وَقَلَمُهُ ؛
وَكَانَتِ الْمَمْلُوكَةُ الطَّرَابُلُسِيَّةُ مِنْ أَشْهُرِ مَمَالِكِنَا سُمِعَتْهُ ، وَأَيْمَنِيهَا بَقَعَهُ ؛ وَأَعْمَرَهَا بِلَادًا ،

وأخصبها رباً ووهاداً؛ وأكثرها حصوناً شواهدق، وقلاماً سوامي سوامق، وثغورا
لا تسيماً ما أفتّر من ثغورها البروق الخوافق؛ ولها الخواص الكثره، والجهات
الغزيره؛ والأموال الوافره، والغلات المتكاثرة المتكاثرة - أقتضت آراؤنا الشريفة
أن نرتاد لها من يسد خلل عطلها، ويسد عضد ميدها وميلها؛ وينهض من مصالحها
بما يراد من مثله، ويعيد لها بحسن المباشرة بهجة من فقده^(١) من الأكفاء
من قبله .

فذلك رسم أن يفوض إليه شدّ الدواوين المعمورة بالملكة الطرابلسية
والحصون المحروسة، على عادة من تقدمه في ذلك .

فليباشر ذلك بمعرفة تستخرج الأموال من معادنها، وتشتير كوامن المصالح من
مكائنها؛ وتتمر أموال كل معاملة بحسن الأطلاع عليها، وصرف وجه الاعتناء إليها؛
وتفقد أحوال مباشريها، ومباشرة ما يتجدد من وجوه الأموال فيها؛ وضبط ارتفاعها
بعمل تقديره، وحفظ متحصل ضياعها من ضياعه وصون بذارها عن تبذيره؛
وليجهتد في عمارة البلاد بالرفق الذي ما كان في شيء إلا زانه، والعندل الذي
ما أتصف به ملك إلا صانه، والعفة التي ما كانت في امرئ إلا وفقه الله تعالى
في مقاصده وأعانه؛ وليقدم تقوى الله بين يديه، ويعتمد على توفيقه فيما أعتمده فيه
عليه، إن شاء الله تعالى .

قلت : وعلى ذلك يكتب شدّ مراكر البريد ونحوها .

(١) لعله "مافقده من عمل الأكفاء".

الصنف الثاني

(من الوظائف بطرأئس التي يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية -

الوظائف الدينيّة ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(من يُكتب له في قطع الثلث بـ«المجلس السامي» بالياء ، وتشتمل على وظائف)

منها - القضاء . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة : من كل مذهب قاض .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعية بها ، يُنسخ على منواله ، وهي :

الحمد لله الذي أعزّ الدين بعلمائه ، وعضد الحكم بالمتقين من أوليائه ؛ وأوضح
الرشد للفتنين بمن جعلهم في الهداية كنجوم سمانه ، وجعل لكل من الأئمة من
مطالع الظهور أفقا يهتدى فيه بأنواره ويقتدى بأنوائه .

نحمده على أن جعل سهم اجتهادنا في الارتداد للأحكام مضييا ، وقسم لكل من
أفق ممالكا من بركة علماء قسيمه الآخر نصيبا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة تعصم من الهوى في الحكم لعباده ، وتفصم العرا من جاهر فيها
بعناده ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أضاءت أنوار ملته ، فاستشفت العلماء
لوامعها ، ووصحت آثار سنته ، فأحرز أئمة الأمة جوامعها ؛ صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه الذين دُعوا إلى الله فأجابوا ، ودعوا إلى الحكم بسنته فأصابوا ؛ صلاة لا تزال
الألسن تقيمها ، والإخلاص يُدِيمها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى ما أدّى فيه الاجتهاد جهده ، وبلغ فيه الارتداد حدّه ؛ واستضيء
فيه بنور التوفيق ، وأستصحب فيه من استخارة الله خير رفيق - أمر الحكم العزيز

وتَقْوِيضُهُ إِلَى مَنْ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى مَجَالَ عِلْمِهِ ، وَسَدَّدَ مَنَاطَ حُكْمِهِ ؛ وَطَهَّرَ مَرَامَ قَلْبِهِ ، وَنَوَّرَ بَصَرَهُ فِي الْحُكْمِ وَبَصِيرَتَهُ فَأَصْبَحَ فِيهِمَا عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ ؛ فَأَجْرَى الْحَقَّ فِي الْبَحْثِ وَالْفَتْوَا عَلَى لِسَانِهِ وَيَمِينِهِ ، وَزَوَّجَهُ عَنِ إِرَادَةِ الْعِلْمِ لَعَيْرِ وَجْهِهِ الْكَرِيمِ ، وَنَبَّهَهُ عَلَى ابْتِغَاءِ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِذَلِكَ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ .

ولما خلا مَنْصِبُ قَضَاءِ الْقَضَاةِ بِطَرَابُلُسَ الْمَحْرُوسَةِ عَلَى مَذْهَبِ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : وَهُوَ الْمَنْصِبُ الَّذِي يُضِيءُ بِالْأُمَّةِ الْأَعْلَامَ أَفْقَهُ ، وَتَلْتَقَى بِالْفُضَلَاءِ الْكِرَامِ طُرُقُهُ ؛ وَتَحْتَوِي عَلَى أَرْبَابِ الْفُنُونِ الْمُتَعَدِّدَةِ مَجَالِسِهِ ، وَتَزُكُو بِالْفَوَائِدِ الْمُخْتَلِفَةِ مَغَارِسِهِ ؛ وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي أُشِيرَ إِلَى خِصَائِصِ فَضْلِهِ ، وَنُبِّهَ عَلَى أَنَّ الْأَجْتِهَادَ لِلْأُمَّةِ أَفْضَى إِلَى إِسْنَادِ الْحُكْمِ مِنْهُ إِلَى أَهْلِهِ ؛ وَأَنَّهُ وَاحِدٌ زَمَانِهِ ، وَعَلَّامَةٌ أَوَانِهِ ؛ وَجَامِعُ الْفَضَائِلِ عَلَى اخْتِلَافِهَا ، وَقَامِعُ الْبِسْطِجِ عَلَى أَفْتِرَاقِ شُبُهَاتِهَا مِنْهُ وَأُتْلَافِهَا ؛ وَحَاوِيُ الْفُرُوعِ الَّتِي لَا تَنْتَاهِي ، وَالْمُرَبِّي عَلَى رَبِّ كُلِّ فَضِيلَةٍ لَا يَعْرِفُ غَيْرَهَا وَلَا يَأْلَفُ سِوَاهَا - أَفْتَضَّتْ آرَاؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نَجْزِمَ مِنْ آرْتِيَادِهِ لِهَذِهِ الرَّبِّيَّةِ بِهَذَا الرَّأْيِ [السَّدِيدِ] ، وَأَنْ نَقْرَبَ سُرَاهُ إِلَى هَذَا الْمَنْصِبِ الَّذِي نَادَاهُ بِلِسَانِ الرَّغْبَةِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَ إِحْسَانُهُ كَالْبَدْرِ ، يَمَلَأُ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ ، وَبِرُّهُ كَالْبَحْرِ ، يَقْدِيفُ الْقَرِيبَ الْجَوَاهِرَ وَيُبْعَثُ لِلْبَعِيدِ السَّحَابَ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ كَذَا .

فَلِيَطَّلِعَ بِذَلِكَ الْأَفْقِ الَّذِي يَتَرَقَّبُ طُلُوعَهُ رَقَبَةَ أَهْلَةِ الْمَوَاسِمِ ، وَيُسْرِعَ إِلَى تَلْكَ الرَّبِّيَّةِ الَّتِي تَسْتَطِيعُ انْبِئَاءَهُ مِنَ الرِّيَاحِ النَّوَاسِمِ ؛ وَيُنَشِّرُهَا فِرَائِدَهُ الَّتِي هِيَ أَحَقُّ

أن تطوى إليها المراحل ، وَيَقْدُمُ بها على الأسماع الظَّامِيَة لَعْدِبِ فَوَائِدِهِ قُدُومَ الْغَامِ
على الرِّوَضِ الْمَاحِلِ ؛ وَيَلِ هذا الْمَنْصِبَ الَّذِي هُوَ فِيهِ بَيْنَ عَدْلِ يَنْشُرُهُ ، وَحَقِّ
يُظْهِرُهُ ، وَبَاطِلِ يَرْهُقُهُ ، وَغَالِبِ يَرْهُقُهُ ، وَمَظْلُومِ يَنْصُرُهُ .

وَلِيَكُنْ أَمْرُ أَمْوَالِ الْإِيْتَامِ الْمُهَيَّبِ الْمَقْدَمِ لَدَيْهِ ، وَحَدِيثُ أَوْقَافِ الْبِرِّ مِنْ أَوَّلِ وَأَوَّلِي
مَا يَصْرِفُ فِكْرَهُ الْجَمِيلَ إِلَيْهِ ؛ وَيَتَعَاهَدُ كَشَفَ ذَلِكَ بِنَفْسِهِ ، وَلَا يَكْتَفِي فِي عَلَيْهِ
فَعَلَ الْيَوْمَ بِاطْلَاعِهِ عَلَيْهِ بِأَمْرِهِ فِي أَمْسِهِ ؛ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُهُ بِذَلِكَ مَشَارِكًا
لِلْوَاقِفِينَ فِي الْأَجْرِ الْمَخْتَصِّ بِهِمْ وَالشُّكْرِ الْمُنْسُوبِ إِلَيْهِمْ ، خَارِجًا مِنَ الْعَهْدَةِ فِي أَمْرِ
الْيَتَامَى بِاسْتِعْمَالِ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ؛ وَلِيُقِيمَ
مَنَارَ الْحَقِّ عَلَى مَا يَجِبُ وَإِنْ سَرَّ قَوْمًا وَسَاءَ قَوْمًا ، وَيُقِيمَ بِالْعَدْلِ عَلَى مَا شَرَعَ : فَإِنَّ
« عَدْلَ يَوْمٍ خَيْرٌ لِلْأَرْضِ مِنْ أَنْ تُمَطَّرَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا » .

وَأَمَّا مَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ أَحْوَالِ الْحُكْمِ وَعَوَائِدِهِ ، وَآدَابِ الْقَضَاءِ وَقَوَاعِيدِهِ ، فَكُلُّ
ذَلِكَ مِنْ خِصَائِصِهِ يُسْتَفَادُ ، وَمِنْ مَعَارِفِهِ يُسْتَرَادُ ؛ وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ تَقْوَى اللَّهِ
وَهِيَ مِنْ أَطْهَرِ حِلَاةِ الْحَسَنَةِ ، وَأَشْرَفِ صِفَاتِهِ الَّتِي تَتَدَاوَلُهَا الْأَلْسِنَةُ ؛ فليَجْعَلْهَا
وَسِيلَةَ تَسْهِيدِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَذَخِيرَةَ آخِرَتِهِ الَّتِي لَيْسَ لَهَا فِي غَيْرِهَا أَمَلٌ ، وَيَقْلُدُ
الْعُلَى فِيهَا حَدَّثَتْهُ مِنْ أَسْبَابِ نُقْلَتِهِ فَإِنَّ كَمَالَ الْعِزِّ فِي النُّقْلِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمْتَدُّ بِمَوَادِّ
تَأْيِيدِهِ وَقَدْ فَعَلَ ، وَيَجْعَلُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَقَدْ جَعَلَ ؛ بِنَمْنِهِ وَكَرَمِهِ ! ، إِنْ شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى .

قُلْتُ : وَعَلَى ذَلِكَ تَكْتُبُ تَوَاقِعَ الْقُضَاةِ الثَّلَاثَةِ الْبَاقِينَ .

وَمِنْهَا - وَكَالَةِ بَيْتِ الْمَالِ .

(١) لعله « على أمره في أمسه » .



وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهى :

الحمد لله الذى عمّر بيت مال المسلمين بسداد وِكايه ، ونمّو تحصيله ومزِيد
تمويله ، وتمسكه بالصدق من قبليه ، وسُلوكة ماتيين [من] سبيله ، وأَعتماده الحق
فى دليله ؛ ودَفَعِه المَضَارَّ وجَلَبِه المسارَّ بتخويله .

نحمده على بره وتفضيله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله تنزه عن
نَدّه ومثيله ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى بعثه الله لتمام هذا الدين وتكميله ؛
وأُنزل عليه المعجزات فى تنزيله ، وحَفِظَ به الذِّكْرَ الحكيمَ من تبديله ، صَلَّى اللهُ عليه
وعلى آله وصحبه وقبيله ؛ وسلم تسليماً .

وبعد ، فإن بيت المال المعمور هو نظام الإسلام ، وذخر الأنام ، وفيه محصول
المسلمين تحت نظر الإمام ، وفيه مادة المجاهدين فى سبيل الله على تطاول الأيام ؛
وإليه تُجْبَى القناطرُ المُقنطرةُ من الأموال ، وعنه تصدر المبيعاتُ من الأملاك ما بين
أراض وأبنية ومحال . والوكيلُ على ذلك عنّا بالملكة الطرابلسية المحروسة هو الذّابُّ
عن حوزته ، القائمُ بتأمين روعته ، المجتهدُ فى تمييز رجعته ؛ وينبغى أن يكونَ من
العلماء الأعلام الأئمة ، المعولِ عليهم فى الأمور المهمة ، البصيرِ بما يترجى به
جانِبُ بيتِ المالِ المعمورِ ويكشفُ كلَّ عُثمه ، العريقِ فى السيادةِ التى أتقادت إليها
السجايا الجميلةُ بالأزمنة .

ولما كان فلانٌ هو الرّاقى هَضْبَةَ [هذه] المائرِ ، الطّالِعَ كوكبُ مجده السّافرِ ،
المستحقُّ لكلِّ ارتقاءٍ على المنابرِ ، ويعدُّ سلفاً كريماً نصيراً فى المفاخرِ ، ويمتُّ ببيتِ

بحره زاحراً؛ وله في مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه بحثٌ فاق به الأشباه والنظائر، وعنده علمٌ بالمسائل المضروب مثلها السائر - فلذلك رسم

فليباشر هذه الوظيفة محترزاً في كل ما يأتيه ويذرهُ، ويقصده ويحجرهُ، ويورده ويصدِرهُ، ويبينه ويقدرهُ، ويخفيه ويظهرهُ، ويديه ويسترهُ، ويذنيه ويحضرهُ، ويفترز جانب بيت المال المعمور، بما فيه الحظ الموفور؛ والغنطة في كل الأمور، وهو عالمٌ بما فيه صلاح الجمهور؛ ومن رغب في آتباع أراض وقراح، وأنيّة وأمسلاك ورحاب فساح؛ مما هو جار في ملك بيت المال فليوفر جانب القيمة على ما فيه الصلاح، وهو بمجد الله من بيت الدين والصلاح والإصلاح، وهو يقوى بإسناده الأحاديث الصّحاح؛ ومن له حق في بيت المال فليسّمع دعوى مدعيه، ولا يصرف درهماً ولا شيئاً إلا بحق واضح فيما يثبت فيه، وهو وكيل مأمون في تأتية، ومعنى الوكيل الذي يوكل إليه الأمر الذي يليه .

والوصايا كثيرة وأجلها تقوى الله بالسّمع والبصر واللسان، فمن تمسك بها من إنسان فإنه يفوز بالإحسان؛ وهو غني عن الوصايا بما فيه من البيان، والله يجعله في كلاءة الرحمن؛ بمنه وكرمه ! . والخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

قلتُ : وقد يكتب لو كالة بيت المال ونحوها بالافتتاح بـ «أما بعد» على قاعدة أصل الكتابة في قطع الثلث . والكاتب في ذلك على ما يراه بحسب ما يقتضيه الحال .

المرتبة الثانية

(من تواقع أرباب الوظائف الدينية بطرابلس - من يكتب له
في قطع العادة، مفتتحاً بـ«رسم»)

وهذه نسخة تُوَقيع من هذه الرتبة بوظيفة قراءة الحديث النبوي، على قائله
أفضل الصلاة والسلام، لمن أسمه «يحيى» يستضاء به في ذلك، وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال رَمِيمُ الفَضْلِ بأرواح عناية يَحْيَا، وأحاديث مَنَنِهِ
الحِسانِ تَعِيها أذُنٌ وَأَعْيَةٌ من طيب السَّماعِ لا تَعْيَا، ولا بَرَحَتْ أوليائُ خَدَمِهِ تُدْنِي
على صدقاته بألسنة الأَقلامِ، وتُدِيرُ على الأَسْماعِ من رَحِيقِها كُثُوسًا مَسْكِيَّةً
الخِتَامِ - أن يستقر في كذا استقراراً تَرشِفُ الأَسْماعُ، كُثُوسَ روايتها فلا تَرُوي،
ورتب كماله يَقْصُرُ عن طلوعها كُلِّ باعٍ، فُساوانُهُ لا تُنَوِي، ورُبُوعٌ معروفه لا تَبِيدُ،
وآياتُ صَلاتِهِ يَنْطِقُ بتلاوتها كُلِّ بليغٍ فَيُبْدِي وَيُعِيدُ، لأنَّه العالمُ الذي أحيا من
مدارس العلوم مَادَرَسَ، والفاضلُ الذي أضاءَ بِبَصَرِ عُلُومِهِ ليلَ الجَهِلِ ولا غَرَوَ :
«فَطَرَةُ الصُّبْحِ تَمْحِي آيَةَ العَلَسِ»، والكاملُ الذي لا يَشُوبُ كماله تَقْيِصَهُ، والأَمثلُ
الذي أُنْتَه الممالي رَخِيصَهُ، والإمامُ الذي تَأْتَمُّ وراءَهُ الأَفاضِلُ، وتأخَّرَ عَصْرُهُ ففاقَ
الأوامِلِ، مَادَرَسَ إِلا وجمَع من فوائد «أبي حنيفة» و«أبن إدريس»، ولا عَرَسَ
بأبْلِ الطَّلَبِ إِلا حَمِدَ عند إدراك طَلَبِهِ ذلك التَّعْرِيسَ، ولا أعادَ الدُّروسَ للطَّلَبَةِ
إِلا وترشَّحتُ منه بالفوائد، ولا جمَع ما نَصَلَهُ العلماءُ إِلا وأتى بالجمَع الذي لا نظيرَ له
في الفرائد .

فليباشِرْ هذه الوظيفة مباشرةً أنوارُ هداها لا تحمد^(١) ، وليلازمها ملازمةً تشكره
 عليها الألسنة وتحمده ، وأنت - أدام الله تعالى فوائدهك - لا تحتاج إلى الوصايا إذ
 أنت بها عالم ، وبأسبابها متمسكٌ وبالقيام بها يقظٌ غير نائم ، لكن التقوى [أولى]
 بمن عرف الأمور ، وليأس سوايغها يُبعدُ كلَّ محذورٍ ، والاعتماد على الخطِّ
 الشريفِ أعلاه .

الصنف الثالث

(من الوظائف بطرأئس التي يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية -
 الوظائف الديوانية ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع الثلث بـ «المجلس السامي» بالياء ،
 وتشتمل على وظائف)

منها - كتابة السرِّ ، ويعبر عنه في ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ «صاحب
 ديوان المكاتب» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهي :

الحمد لله الذي جعل الأسرار عند الأحرار ، وطوى الصحف على حسنات
 الأبرار ، وأجرى الأقلام ترجماناً للأفكار ، وجعل الحفظة يكتبون الأعمال مع
 تطاول الأعمار ، آناء الليل وأطراف النهار ، وبسط المعاني أرواحاً ، والألفاظ لها
 أشباحاً ، مع التكرار ، وأبهج الصدور بصدور الكتب والإيراد والإصدار .

(١) في القاموس نحدث النار كنصروسمع .

نحمده على فضله المندرار، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة إقرار، وعمل بالحوارج بلا إنكار؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله المصطفى من مضر بن نزار، المخصوص بالمهاجرين والأنصار، الثاوي بأشرف بقعة تزار، المشرف كُتاب الوحي: فهم يكتبون بما يُمليه عليهم المختار، وجبريل يُلقي على قلبه الآيات والأذكار، عن رب العزة المسبب الأستار، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما نفع روض معطار، وسخ صوب أمطار، وسلم تسليمًا كثيرًا .

وبعد، فإن ملاك الملك الشريف حفظ سره، والاحتفال بكتبه الشريفة ولفظها ودرة، وخطابها ونثره، وخطها ونشره، وختمها وعطره، وتجهيزها مع الأمان الثقات الذين تؤمن غائلة أحدهم في كل أمره؛ وما ألقى السر الشريف إلا لأئمة الأعيان، وصدر الزمان، وبلغ كسحبان، وفصبح كقس في هذا الزمان، وأصيل في الأنساب، وعريق في كرم الأحساب، وفاضل يعنوله فاضل بلسان، وينشئ لفظه الدر والمرجان، وكتب السر فلا يفوه بلسان .

ولما كان فلان هو واسطة عقد الأفاضل، ورأس الرؤساء الأماثل، وحافظ السر في السويداء من قلبه، وناظم الدر في سطور كتبه؛ والمورد على مسامعنا الشريفة من عبارته ألفاظًا عذبا، والقائل صوابا، والمجيد خطابا، وإذا جهز مهمما شريفا راعاه بعينه عودا وذهابا، وإذا استعطف القلوب النافرة عادت الأعداء أحيابا، وإذا أردد وأبرق على مازق أغنى عن الجيوش وأبدى عجبًا عجبا، وإذا كتب أنبت في القرطاس رياضًا خصبا .

فذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كذا . فليحل هذا المنصب الشريف حول القمر هالته، وليعد إليه أيام سره وسروره الفاتية، وليعرب عن أصول ثابته،

وَفُرُوجٍ فِي مَنَابِتِ الْخَيْرِ نَاتِيَةٍ ، وَلِيَنْفِذَ الْمَهْمَاتِ الشَّرِيفَةَ أَوَّلًا فَأَقُولَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَعْدِقَ مُهْمًا بغيره أَوْ يَبِيَّتَهُ إِلَى غَدِهِ ، وَلِيَحَرِّرَ الْبَرِيدَ الْمَنْصُورَ بِيَدَيْهِ غَيْرَ مُعْتَمِدٍ فِيهِ عَلَى غَيْرِ رَشِيدِهِ ، وَلَا يَغْبُ عَنْ وَظِيفَتِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ بَلْ يَكُونُ كَالنَّجْمِ فِي رَصَدِهِ لِمُرْتَصِدِهِ ؛ وَلِيُوصِلَ كُتَابَ الْإِنْسَاءِ لَدَيْهِ ، وَالْمُتَصَرِّفِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ ، بِكُتْمِ السَّرِّ فَإِنْ ذَلِكَ إِلَيْهِ ؛ فَإِذَا أَفْشَى أَحَدٌ مِنَ السَّرِّ كَلِمَةً ، فَلْيُزَجِرْهُ وَلْيَأْمُرْهُ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ وَقَامَهُ ، وَيُعْطِ كُلَّ قَضِيَّةٍ مَا تَسْتَحِقُّهَا مِنْ تَنْفِيذِ كَلِمَةٍ ؛ وَالْأَبْتِدَاءُ وَالْأَجْوِبَةُ فَلْتَكُنْ نَغُورُهَا بِالْفَاظَةِ مُتَشَبِّسَةً وَعُقُودُهَا بِإِمْلَانِهِ مُنْتَظَمَةً ؛ فَأَمَّا الْإِبْتِدَاءُ فَهُوَ عَلَى اقْتِرَاحِهِ ، وَأَمَّا الْجَوَابُ فَهُوَ عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ الْكُتَابُ الْوَارِدُ بِاصْطِلَاحِهِ ، وَلَا يَمْلِي إِلَّا إِلَى نِقَاتِهِ وَنُصَاحِهِ ؛ وَالْكَتُبُ الْمَلُوكِيَّةُ فَلْيُوقِّعْهَا مَقَاصِدَهَا ، وَلْيَرَاغِ عَوَائِدَهَا ؛ وَالتَّقْوَى فَهِيَ الْهَامُّ [مِنْ] أَمْرِهِ ، وَخِتَامُ عِطْرِهِ ، وَتَمَامُ بَدْرِهِ ؛ وَالْوَصَايَا فَهِيَ كَثِيرَةٌ لَدَيْهِ وَفِي صَدْرِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَكْتَلِبُ بِهِ أَوْقَاتَ عَصْرِهِ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! وَالخَطُّ الشَّرِيفُ أَعْلَاهُ

ومنها - نظر الملكة ، القائمة بها مقام الوزارة .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُفِيضِ حَلِّلِ إِعْنَامِنَا عَلَى مَنْ أَخْلَصَ فِي طَاعَتِنَا الشَّرِيفَةِ قَلْبَهُ وَلِسَانَهُ ، وَمَوْلَى فَضْلِ الْإِيْتِنَا الْعَمِيمَةِ عَلَى مَنْ أَرْهَفَ فِي مَصَالِحِهَا آلَةَ عَزْمِهِ وَبَنَانَهُ ؛ وَحُلِّيَ رُتَبِ عَلَيَانَا الشَّرِيفَةِ بِنِ شَرِقِ فِي سَمَاءِ الْمَعَالِي بَدْرُهُ وَإِنْسَانُهُ ، وَأَيْنَعَتْ فِي غُصُونِ الْأَمَانِ قُطُوفُهُ وَأَفْنَانُهُ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا يَبْلُغُ [بِهِ] أَقْصَى غَايَةِ الْمَجْدِ مَنْ تَبَسَّمَ بِجَمِيلِ نَظَرِهِ الثُّغُورِ ، وَتَعَتَّصَمَ بِمَجِيدِ خَبَرِهِ وَخَبْرَتِهِ الْأُمُورِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُشْرِقُ بِهَا

البدور، ويعتمد عليها في الأيام والدهور؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله
الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، والناشر لواء العدل بسننه الواضح وشرعه
التويم؛ وعلى آله وصحبه الذين آهتدى بهمديهم ذوو البصائر والأبصار، وأرتدى
بأرديتهم المعلمة مقننى الآثار من النظائر؛ وسلم تسليماً .

وبعد، فإن أولى من أسندنا إلى نظره الجميل رتبة عز ما زالت بنو الآمال عليها
تقوم، وعدقنا بتدبيره الجميل منصب سيادة ما برحت الأماني له تروم؛ واعتمدنا
على هممه العلية فصدق الخبر الخبر، وركنا إلى حميد رأيه فشهد السمع له وأدى
النظر .

ولما كان فلان هو الذى رقى في ذروة هذه المعالي، وانتظم به عقد هذه الآلى،
وحوى بفضيلة البيان واللسان ما لم تدركه المرهفات والعوالى؛ فما حل ذروة عز
إلا حلاها بنظره الجميل، ولا رقى رتبة سيادة إلا وأسفر في ذروتها وجهه صبحه
الجميل، ولا عدق بنظره كفالة رتبة إلا وكان لها خير كفيل .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال يتصى للرتب العلية خير منجد ومغير،
ويختار للنائب السنية نعم المولى ونعم النصير - أن يفوض إليه كذا فإنه القوى
الأمين، والمتمسك من تقوى الله تعالى وكفايته بالسبب المتين، والمستند بجميل
كفالتة وحميد ديانتة إلى حصن حصين، والمستدرى بأصالته الطاهرة وإصابته إلى
الجنة الواقية والحرم الأمين .

فليقدم خيرة الله تعالى ويأشر الجهة المذكورة بعزم لا ينبو، وهمة لا تنجو، وتدبير
يتضاعف على ممر الأيام ويروبو؛ ونظر لا يعزب عن مباشرته مثقال ذرة إلا وهى
من خاطره في قرار مكين، وضبط لا تمتد إليه يد ملتمس إلا ويجد من مرهفه

ما يُكفّف كَفِّهَا بِالْحَدِّ الْمَتِينِ . وَيُضَاعَفُ هِمَّتَهُ ، فِي مِصَالِحِ هَذِهِ الْجِهَةِ الَّتِي عَدَقْنَاهَا
بِنَظَرِهِ السَّعِيدِ ، وَيُؤَفِّرُ عَزَمَتَهُ ، فَإِنَّ الْحَازِمَ مِنَ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ؛ وَالْوَصَايَا
كَثِيرَةٌ وَمِثْلُهُ لَا يَدُلُّ عَلَيْهَا ، وَاتْتِنِيبَاتٌ وَاضِحَةٌ وَهُوَ - وَفَقَهُ اللَّهُ تَعَالَى - أَهْدَى مِنْ أَنْ
يُرْشَدَ إِلَيْهَا ؛ وَاللَّهُ يُوَفِّقُهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، وَيُصَلِّحُ بِجَمِيلِ تَدْوِينِهِ وَحَمِيدِ تَأْمِينِهِ كُلَّ
خَلَلٍ ؛ وَالْإِعْتِمَادَ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - نظر الجيـش بها :



وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه «شمس الدين» وهي :

الحمد لله الذي أطلع في سماء المعالي شمساً منيره ، وأبغ غروس أولي الصدارة
بِعَهَادِ سُحْبِ عَوَارِفِهِ الْعَزِيْرَةِ ، وَأَبْدَعَ الْإِحْسَانَ إِلَى مَنْ قَدَّمَهُ الْإِخْتِبَارُ وَالْإِخْتِبَارُ
عَلَى بَصِيرَةٍ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِهِ الَّتِي عَمَّ فَضْلُهَا ، وَمَدَّ عَلَى أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ظِلَّهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَزْلِفُ لِدَيْهِ ، وَتُسَلِّفُ مَا يَجِدُهُ الْمَتَمَسِّكُ
بِهَا يَوْمَ الْعَرْضِ عَلَيْهِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ مَنْ بُعِثَ إِلَى الْأُمَّمِ
كَافَّةً ، وَأَكْرَمُ مَنْ غَدَتْ أَمْلَاكُ النَّصْرِ بِآيَتِهِ حَافَّةً ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
الَّذِينَ حَازُوا بِصُحْبَتِهِ الشَّرْفَ ، وَفَازُوا بِطَاعَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ مِنَ الْجَنَانِ بَغْرَفٍ مِنْ
فَوْقِهَا عُرْفٌ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا عَدِقَ بِالْأَكْفَاءِ ، وَأَحَقُّ مَا صُرِفَ إِلَيْهِ وَجْهَ الْأَعْتِنَاءِ ،
وَأَجْدَرُ مَا أَوْقِظَ لَهُ طَرْفُ كَافٍ لَا يُلِمُّ بِالْإِغْفَاءِ - أَمْرُ الْجَيُوشِ الْمَنْصُورَةِ بِطَرَابُلسِ

المحروسة التي لا ينهض بأعباء مصالحتها إلا من عرف بالسداد في قلبه وكمه، وألف منه حسن التصرف فيما يبيديه من نزاهته ويظهره من هممه؛ بخبرة مؤكده، وآراء مسدده؛ ومعرفة أوضاع ترتيبها وأحوالها، وقواعد مقدماتها وأبطالها، وكفاية تفتح رحاب حالها .

ولما كان فلان هو الصدر الملى بوافى الضبط ووافر الأهتمام، والكافي الذي نطقت بكفائته ألسنة الحرصان وأفواه الأقلام، والضابط الذي لا يعجز فهمه عن إحاطة العلم بدوى الآلام .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال يقدم للراتب، كافيًا مشكورًا، ويرشح للمناصب، صدرًا أضحى بالأمانة مشهورًا - أن يفوض إليه كذا : لأنه الصدر الذي تراحت ألسنة الثناء عليه، وترادفت بين أيدينا محامدُه فقررنا العوارف لديه؛ وشكرت عندنا هممه في سداد كل ما يباشره، ودكرت لدينا بالخير سيرته وسرائره .

فلباشر هذه الوظيفة الحليّة متحلّيًا بين الأنام بعقودها، مطلعًا شمس نزاهته في فلك سعادتها؛ ناهضًا بأعباء منصبه السعيد، ضابطًا قواعده بكل تحرير تليد؛ متقنًا ديوان الجيوش المنصورة، معملًا في ملاحظتها نافذ البصر وحسن البصيرة؛ محررًا أوراق العدة والعدّة، باذلاً في ضبط الحلي أهتمامه وجهده؛ والله تعالى يسعد جدّه، ويجدد سعده؛ والخط الشريف أعلاه ... إن شاء الله تعالى .

قلت : وربما كتبت مفتتحًا في هذه الرتبة بـ «أما بعد» فإنها أصل ما يكتب في قطع الثلث .

المرتبة الثانية

(من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابلس - من يكتب له في قطع العادة بـ «مجلس القاضى»)

وهو قليل الوقوع . والغالب في ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها .

وهذه نسخة تُوَفِّع من هذه الرتبة بكتابة الدّست بطرابلس ، يقاس عليه ما عدها من ذلك ، وهى :

رُسم بالأمر الشَّرِيف - لا زال أمره الشَّرِيف ، يزيد من يَصْطَفِيهِ شَرَفًا ، وِبرُهُ المُنِيفُ ، يُفِيد من يَحْتَبِيهِ نُحْفًا ، وَخَيْرُهُ المُنِيفُ ، يُجِيد لمن يَخْتاره جُودًا ، وَيُسْرِقَب مَنْ رَفَعَهُ إِلَى صَدْر الدّست صُعودًا ، فَيَسُوُّهُ من جَنّات العِلْيَاء عُرفًا - أَنْ يَسْتَقِرَّ فى كذا : أَسْتَقَرَّارًا يُجْتَنَى منه ثَمَار الخيرات ، وَتُجَلَى عليه عَرُوسُ المَسَرّات ؛ لِأَنَّهُ الرّيسُ الذى تَفْتَخِرُ هذه الوظيفَةُ بِأَنْتسابِها إِلَيْهِ ، وَتُجَمَّلُ حُلُمُها وَأَلْوَبَتُها إِذا نُشِرَتْ عَلَيْهِ ؛ وَالْفَاضِلُ الذى أَلْقَتْ إِلَيْهِ البِلاغَةُ زِمَامَها ، وَالكامِلُ الذى مَلِكَ بَيانَها وَنِظامَها ؛ وَالأَدِيبُ الذى لا يَدْرُكُ فى الآداب ، وَاللَّيِّبُ الذى يَقْصُرُ عَنْهُ طُولُ عَامَةِ الطُّلابِ ؛ كَمَ لَهُ من كِتابَةٍ حَسَنَةِ الأَساقِ ، وَبِلاغَةٍ حَصَلَ عَلَى فَضْلِها الأَتفاقِ ، وَدِيانَةٍ أَطْلَقَ فيها لِسانَهُ وَيَدَهُ فَشَكَرَها النَّاسُ عَلَى الإِطلاقِ ؛ فَهو مُسْتَنَدُ الرّاسِ ، وَأَبْنُ من حاز كُلَّ نِخارِ وَرِاسِ ، وَالعَلَمُ المَشهورُ عِلْمُهُ ، وَصاحبُ القَلَمِ المَشكورُ رِقمُهُ ؛ فَالمناصِبُ بِارتِفاعِهِ إِلَيْها مُفْتَحِرُهُ ، وَالمراتبُ بِعِلالَتِهِ مُسْتَبِشِرُهُ ؛ وَالأَسْماعُ بِفَضائلِهِ مُسْتَنَفَّهُ ، وَالأَسْجاعُ بِكَلِمِهِ مُشَرَّفَهُ .

فليباشر هذه الوظيفة ، وليسلك فيها طريق نفسه العفيفة ؛ وليدبج القمص بأقلامه ، وليبج التواقيع بما يوقع مبرم فصيح كلامه ؛ وليزين الطروس بكتابه ،

وَلْيُنْعِشِ النَّفْسَ ، بِبَلَاغَتِهِ ، وَلِيَجْمَلَ مِنَ الْمُبَاشَرَةِ مَا تُصْبِحُ مِنْهُ مَطَالِعُ شَرْفِهِ
 مِنْيرِهِ ، وَتُحْسَى بِهِ عَيْنُ مُحِبِّهِ قَرِيرِهِ ، وَالْوَصَايَا فَهِيَ خَطِيبُ مَنْبَرِهَا ، وَلِيَبِّبُ مَوْرِدِهَا
 وَمَصْدَرِهَا ، وَالتَّقْوَى فليلازم فيها شعاره ، وليداوم بها على ما يبلغ به أوطاره ، والله
 تعالى يجعل سُعوده كُلَّ يَوْمٍ فِي آزدياد ، ويسهل له ما يرفعُ ذِكْرَهُ بين العباد ، بمنه
 وكرمه ! . والأعتماد في ذلك على الخطِّ الشريفِ أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

النوع الثاني

(من الوظائف بطرابلس - ما هو خارج عن حاضرتها ،

وهم على ثلاثة أصناف أيضا)

الصنف الأول

(أرباب السيوف)

وقد تقدّم أنّه ليس بها مقدّم ألف سوى نائب السلطنة بها ، وحينئذ فالنيابات

بمعاملتها على طبقتين :

الطبقة الأولى

(الطَّبَنخا ناه)

وَمَرَّاسِيهِمْ تُكْتَبُ فِي قَطْعِ التَّلْثِ بِ«السَّامِي» بِالْيَاءِ ، مَفْتُوحَةٌ بِ«الْحَمْدِ لِلَّهِ» .

وهذه نسخة مرسوم شريف من ذلك بِنِيبَاةِ قَلْعَةٍ ، تصلح لنائب الأَلَاذِقِيَّةِ ،

يُنْسَجُ عَلَى مَنْوَالِهَا ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي جعل الحصون الإسلامية في أيامنا الزاهرة ، مصفحةً بالصفاح ،
والثغور المصونة في دولتنا القاهرة ، مشرفةً بأسنة الرماح ، والمعقل المحروسة مخصوصةً
من أوليائنا بمن يعدُّ بأسه لها أوقى الجئن وذبه عنها أقوى السلاح .

نحمده على نعمه التي عوارفها عميمه ، وطوارفها كالتالدة للزيد مستديمه ؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنطق الضمائر قبل الألسنة بإخلاصها ،
وتشرق القلوب بعموم إحاطتها بها واختصاصها ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي
أشرفت بنور ملتبه الظلم ، وأرتوت بفور شريعته الأمم ، صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه الذين امتطوا إلى جهاد أعداء الله وأعدائه غارب الهمم ، صلاةً ساريةً
كالرياح هاميةً كالديم ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى ما عقد عليه في صيانة الحصون الخناصر ، وأعتمد على مثله
في كفاية المعقل إذا لم يكن غير تأييد الله وحده السيف ناصر - من هو في حفظ
ما يليه كالصدور التي تصون الأسرار ، والكائم التي تحوط الثمار ؛ مع اليقظة التي تدود
الطيف أن يلم بجحاة حماه ، والفطنة التي تصد الفكر أن يتخيل فيه ما أشتمل عليه
وحواه ، والأمانة التي ينوي فيها طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا
الشريفة ولكل أمرئ ما نواه .

ولما كان فلان هو السيف الذي تروق تجرئته ويروع تجريده ، وإذا ورد
في الوغى منهل حرب فشرعه من كل كمي وريده - أقتضت آراؤنا الشريفة أن نرهف
حده بحفظ أسنى الحصون عندنا مكاناً ومكانه ، وأسمى المعقل رفعةً وعزّةً وصيانته .

فوسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه النيابة بقاعة كذا .

فليباشِرْ هذه النِّبَاةَ السَّامِيَّ قَدْرُهَا ، الكَامِلَ في أَفْقِ الرُّتْبِ بَدْرُهَا ، مَبَاشِرَةً تَصُدُّ
الأفكارَ ، عن تَوْهَمِهَا ، والأبْصَارَ ، عن تَوْشِيحِهَا ، والخَوَاطِرَ ، عن تَحْيِيلِ مَعْنَاهَا ،
والسَّرَائِرَ ، عن تَمَثُّلِ صَوْرَتِهَا وَمَعْنَاهَا .

وَلِيَكُنْ لمصالحها مَتَمِّمًا ، ولِنَجْوَى رِجَالِهَا مَتَصَفِّحًا ، ولأَعْدَارِ حُمَاتِهَا مُزِيحًا ،
وللخَوَاطِرِ من أسباب كِفَايَتِهَا مُرِيحًا ، وللموَاطِنِ عَامِرًا ، وبِمَا قَلَّ وَجَلَّ من
مَصَالِحِهَا آسِرًا ، وَلِوِطَائِفِهَا مُقِيًا ، وَلِلنَّظَرِ في الكَبِيرِ والصَّغِيرِ من أُمُورِهَا مُدِيحًا ،
وَلِخِدْمَتِهَا مُضَاعِفًا ، وَلِكُلِّ مَا يَتَعَيَّنُ الأَحْتِفَالُ به من مُهَمَّاتِهَا وَأَقْفَاءِ وَمِلَاكِ الوَصَايَا
تَقْوَى الله : وهى أَوَّلُ مَا يَقْدَمُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَوَّلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَصْرِفَ نَظْرَهُ إِلَيْهِ ،
فَيَجْعَلُ ذَلِكَ خُلُقًا نَفْسِهِ ، وَمَرْيَّةً يَوْمِهِ عَلَى أَمْسِهِ ، والخَيْرِ يَكُونُ . والخط الشريفة
أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى .

الطبقة الثانية

(العشرات)

ومراسيمهم إن كتبت من الأبواب السلطانية فنى قطع الثلث بـ«السامى» بغير
ياء، مفتحة بـ«أما بعد» إلا أن الغالب كتابتها عن نائب السلطنة .

وهذه نسخة مرسوم شريف بناية قلعة بلاطنس ، من معاملتها وهى :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللهِ عَلَى نِعْمِ تَوَالِي رِفْدِهَا ، وَوَجِبِ شُكْرِهَا وَحَمْدِهَا ، وَعَدْبِ لَذْوِي
الْأَمَالِ وَرُدُّهَا ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي رَفَعَ بِهِ لِقْرَائِشِ مَجْدِهَا ،
فَعَلَّا جَدُّهَا ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً لَا يَحْصِي عَدْدُهَا وَلَا يَحْصُرُ حُدُّهَا - فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ
فَلَانٌ مِنْ قَدَمَتِ تَقَادُمِ خِدْمِهِ ، وَتَعَالَى بِهِ إِلَى الْعِلْيَاءِ سَامِيٍّ هِمَمِهِ ، وَتَرَفَّعَ بِهِ حُسْنُ

ولائه حتى أعلت الدولة من شأنه ورفعت من علمه ؛ وأستكففته لمصون الحصون ،
 وجادت عليه بصوب إحسان روى الأمانى فأصحت نيرة الغصون ؛ وكانت قلعة
 فلانة هي القلعة التي شمخت بأنفها على القلاع علوا ، وسامت الجوزاء سموا ؛ فوجب
 أن لا يستحفظ عليها وفيها ، إلا من عرف بحسن المحافظة وتوفيقها ؛ وكان المشار
 إليه هو عين هذه الأوصاف ، والوارد من حسن الطاعة المورد الصاف - أقتضى
 حسن الرأي الشريف أن نتوه بذكره ، ونزف من قدره .

ولذلك رسم ... - لازل ... أن تفوض إليه النيابة بهذه القلعة المحروسة ،
 وأن تكون بأوانس صفاته مأنوسه .

فليكن فيما استحفظ كفوا ، وليورد الرعية من حسن السيرة صفوا ، وإذا
 تعارض حكم الانتقام وكان الذنب دون الحد فليقدم عفوا . وعليه بالعدل ، فإنه
 زمام الفصل ؛ والقلعة ورجالها ، وذخايرها وأموالها ، فليمنع النظر في ذلك بكرة
 وأصيلا ، وإجمالا وتفصيلا ، وتحصينا وتحصيلا . وعليه بالتسك بالشريعة المطهرة ،
 وأحكامها المحررة ؛ وليردع أهل الفساد ، ويقابل من ظهر منه العناد ، بما يؤمن
 المناهج ، ويجدد المباحج ؛ والوصايا كثيرة ، فليكن مما ذكر على بصيره ؛ أعانه الله على
 ما أولاه ، ورعاه فيما استرعاه ؛ وانحط الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه ؛ والخير يكون
 إن شاء الله تعالى .

الصنف الثاني

(مما هو خارج عن حاضرة طرابلس - الوظائف الدينية ،)

والغالب كتابتها عن نائب السلطنة بطرابلس . فإن كتب شيء منها عن الأبواب
 السلطانية ، كان في قطع العادة «بمجلس القاضي» مفتتحا بـ«رسم» .

وهذه نسخة توقيع من ذلك بنظر وقف على جامع بمعاملة طرابلس، كتب به لمن لقبه «زين الدين» وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال كريمُ نظره يستنيبُ عنه بمصالح بيوت الله تعالى من ترداد بنظره شرفاً وزينا، ويعين لها من الأعيان من تُسربُه خاطراً وتقرُّه به عينا، ويمتَحُّها من إذا باراه مبارٍ وجد بينهما بونا وبيننا، ويقتر لها كل كافي إذا فاه راء بوضف آرائه الملموحة عين صوابها ولا يجد عليها عينا - أن يستقر بالنظر على كذا : استقراراً يرى الوقف بنظره على ربه طلاوه، ويجد مباشرة في صحبه حلاوه؛ ويعرب عن استمراره على حسن الثناء، ويجد من نيل ربه أكمل وفاء؛ لأنه الناظر الذي لا يمل إنسانه، من حسن النظر، ولا يكمل لسانه، عن الأمر بالمصالح ولفظه عن إلقاء الدرر؛ والشريف الذي وجدت نخائل شرفه من فضل خلاله، والحواد الحائر بجموده قصب السبق على أمثاله؛ والكامل الذي لا توجد في صفاته نقيصه، والفاضل الذي أنته الفضائل على رغبها رخصه .

فلباشر هذا النظر مباشرة ما تكحل ناظره فيها بالوسن، وليقابلها من جميل سلوكه بكل وجه حسن؛ وليبدأ أوقاف الجامع المذكور بالعارة، وليقطع بمديته أمانته يد من يشن على ماله العاره؛ وليأمر أرباب وظائفه بالزوم، وليخص كلاً منهم من فضله بالعموم؛ وليتق الله تعالى في القول والعمل، وليجتهد على أن لا يتخلل مباشرة الخلل؛ والاعتاد على الخط الشريف أعلاه

الصنف الثالث

(مما هو خارج عن حاضرة طرابُلُس - أرباب الوظائف الديوانية)

وقل أن يُكتب فيها شيء عن الأبواب الشريفة السلطانية، وأن الغالب كتابة ما يكتب فيها من نائب السلطنة بطرابُلُس . فإن اتفق كتابة شيء من ذلك عن الأبواب السلطانية، مسمى الكاتب فيه على نهج ما تقدم في الوظائف الدينية : من كتابته في قطع العادة بـ «مجلس القاضي» مفتتحاً بـ «رسم» لا يختلف الحال منه في ذلك إلا في الفرق بين التعلقات الدينية والديوانية . والكاتب الماهر يصرف قلمه في ذلك وفي كل ما يحدث من غيره على وفق ما تقتضيه الحال، وبالله المستعان .

النيابة الرابعة

(نيابة حماة . ووظائفها التي تُكتب بها من الأبواب السلطانية،

ما بحاضرتها خاصة، وهي على ثلاثة أصناف)

الصنف الأول

(أرباب السيوف)

وليس بها منهم إلا نائب السلطنة خاصة . ويكتب له تقليد في قطع الثلثين بـ «الجناب العالي» مع الدعاء بمضاعفة النعمة .

وهذه نسخة تقليد نيابة حماة :

الحمد لله ذي التدبير اللطيف، والعون المطيف، والحياطة التي تستوعب كل تصرف وكل تكليف .

نحده بحامد جميلة التفويف ، حسنة التأليف ، مكملة التكيف ، بريّة من
التطيف ، حرية بكل شكر منيف ، وذكري شريف ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة خلص تحريرها عن كل تحريف ، وتتره مقالها عن تسويد
تفنيده أو تسويف ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله صاحب الدين الحنيف ،
والمبعوث بالرحمة والتخفيف ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة متناوبة تناوب
الصبر والصريف ، والشتاء والمصيف ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن من شيم الدولة وسجاياها ، وأحكامها وقضايها ، تقديم الأهم فالأهم ،
وتحتميم الأتم من الرأي وتحكيم التدبير الأعم ، وفعل كل ما يحوط الممالك ويحفظها ،
ويذكر العيون لملاحظتها ويوقظها : لما أوجبه الله من حقوقها ، وحظه من
عقوقها ، ولا يكون ذلك إلا باختيار الأولياء لضبطها ، والتعويل على الأملاء بالقيام
بشرطها ، والاستناد من الرعماء إلى من يوفى من الخراج^(١) والعيون وأفي قسطها .

ولما كانت المملكة الحموية جديرة بالأنفات ، حقيقة بالحياطة من جميع الجهات ؛
مستدعية من جميل النظر كل ما يجرس ربعها ، ويديم نفعها ، ويحفل ضرعها ،
ويلم شعنها ويشعب صدعها ، ويسر سمعها ، ويفعم شرعها ، ويعظم شرعها ؛
ويكتنفها اكتناف السور والسوار ، والمالة للبدر والأكام للثار ؛ وكان فلان هو
المتقشع سحاب هذا الوصف عن بدره المنير ، والمتقلع ضباب هذا التفويض عن نور
شمسه المنعشة قوى كل نبت نصير ، والذي بأهليته لرتبة هذا التفويض ما خاب
المستخير ، ولا ندم المستشير ، والذي يفرده استحفاؤه بهذه الرتبة فلا يقول أحد من
كبير ولا صغير أمثالا للراسيم الشريفة في حقه : « منّا أمير ومنكم أمير » - أقتضى

(١) في القاموس "رجل خراج ولأج كثير الظرف والاحتيال" ولعله المراد هنا .

جميل الرأي المُنيف ، أن نخرج الأمر الشريف - لا برح يُحسِن التَّعْوِيل ، ويَهْدِي إلى سواء السبيل ، ويمضى مَضَاءَ الْقَضَاءِ الْمُتَزَّلِ والسيف الصَّقِيل - أن تقوِّصَ إليه نياهُ السُّلْطَنَةِ الْمُعْظَمَةِ في مملكة كذا وكذا .

فليَقْدِّم خيرةَ الله قَائِلًا وفاعلا ، ومُقيما وراحلا ، ومُوجِّها ومُواجِها ومُسَجِّلا وساجلا ، وعالمًا وعاملا ؛ ومُعتمداً على الله في أمره كلّه . وليَكُنْ من هذه المعرفة قريبا ، وعلى كلِّ شيءٍ حتَّى على نفسه رَقِيبا ؛ وإذا اتَّقَى اللهُ كفاه اللهُ الناسَ ، وإن اتَّقَى الناسَ لم يُغْنُوا عنه من الله شيئا فليَقَسْ على هذا القياس ، ويَقْتَسِ هذا الاقتباس .

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مَخْلَبُ الظَّفَرِ وظُفْرُه ، وبهم يُكشَف من كلِّ عَدُوِّ سره ، ويُجَلَّى وطنه ووكْرُه ، ويضربُ زيده وعمره ؛ ويبيدُ جمعه ، ويُساء صنعه ، ويعمى بصره ويصمُّ سمعه ؛ وهم أسوارُ نِجَاحِ الأَسْوَارِ ، وأمواجُ تَنْدَفِيعِ وتَنْدَفِيقِ أعظم من آندفاق البحار ، وما منهم إلا من هو عندنا لمن المصْطَفَيْنِ الأَخْيَارِ ؛ فأحْسِن استِجْلَابَ خَوَاطِرِهِمْ ، وأسْتِخْلَابَ بَوَاطِنِهِمْ وسرَائِرِهِمْ ، وأسْتِخْلَابَ الشَّائِعِ مِنْ طَاعَتِهِمْ في مَوَارِدِهِمْ ومَصَادِرِهِمْ ؛ وَكُنْ عَلَيْهِمْ شَفِيقًا ، وبهم في غير الطاعة والأستعباد رُفُوقًا ، وأوجب لهم بالجهاد والأجتِهَادِ حُقُوقًا ، وأصرف لهم حِمْلًا لأعباء المهَمَّاتِ والمَلَمَّاتِ مُطِيقًا ؛ وأسْتَشِرْ مِنْهُمْ ذَوِي الرَّأْيِ الْمُصِيبِ ، ومن أحسن التَّجْرِبِ ، ومن تَحَقَّقَ مِنْهُ النُّصَحُ مِنَ الكُهُولِ والشَّيْبِ ، من كلِّ بغيره منه ما شَبَّ فإنَّ المرءَ كثيرُ بَأْخِيهِ ، وإذا أَجْتَمَعَتْ عُصُوبٌ في يدِ أَيْدٍ عَسَتْ على قَصْفِهِ وَقَصَفُ كُلِّ وَاحِدَةٍ فَوَاحِدَةٌ لا يُعِيهِ .

(١) في الأصل "السامع مع من" الخ وهو تحريف كما لا يخفى .

(٢) في اللسان "عسى القضيبي يس" . وهو مناسب للقام .

(١) والجهادُ فهو ملاكٌ كلِّ استِحْواءٍ واستِحْواذٍ ، وبه يُتميِّزُ أفعال الكُفَّار بالنَّفادِ وأفعال الدِّين الحنيف بالنَّفادِ ؛ وما جعل اللهُ للدافِعِين عن دين الله سِواه ، ولا مُزجِي صَوْبِ صِوابٍ إلا إِيابَه ؛ وعلى ذلك جعل اللهُ أرزاقَهُم ، وهياً لهم به إِرْفاقَهُم ؛ فليُكرِمَهُم بأخذِ الأَهْبَةِ ، في الاعتلاءِ والأنصِبِ ؛ في كلِّ هَضْبَةٍ ، والأستعدادِ برباطِ الخيلِ وكلِّ قُوَّةٍ .

ومن الوصايا التي ينبغي أنْ ترسَمَ في جبهاتِ الفِكرِ [دونِ تِوانٍ] أو ركونِ أنْ لا يَسْتَحْقِرَ عُدُوًّا ، ولا يَسْتَهْزِئَ بِقَلْبَتِهِ لِرِوَاحًا ولا عُدُوًّا ، وليَكُنْ لَلاستِظْهَارِ مُسْتَوْعِبًا ، ولا عَمَلِ المِكايدِ مُسْتَوْثِبًا ، وللكَشْفِ بَعْدَ الكَشْفِ مُسْتَصْحِبًا ؛ وغير ذلك من الأُمُور ، التي بها صَلَاحُ الجُمُهورِ .

والشَّرعُ الشَّرِيفُ وتنفِيزُ أَحكامِهِ ، وتَقْوِيَةُ أيدي حُكَّامِهِ ؛ فهو مِيزانُ الإسلامِ والسَّلَامَةِ ، وقِوَامُ الصَّلَاحِ والأسْتِقامَةِ ، وأخُوهُ المُرتَضِعُ من نَدَى الحَقِّ ، العَدْلُ الذي كَمَّ شاقٌّ وكَثِيرا ما على أَهْلِ الباطلِ شَقٌّ ؛ وعمَّ القَريبَ والبَعِيدَ ، والسَّابِقَ والشَّهِيدَ ، والمُريِبَ والمَريدَ ، وكلَّ ذِي ضَعْفٍ مُبِيدَ ، وكلَّ ذِي بَأْسٍ شَدِيدَ ، وكلَّ مُسْتَشِيرٍ ومُسْتَرِيدَ ؛ فَإِنَّ ذلك إذا شَمِلَ حاطَ ، وتمَّ به الأرتِياذُ والأرتِباطُ ، وهَدَى إلى أَقْومِ صِراطٍ .

والحدودُ فهي حياةُ النفوسِ ، وبها تُزالُ البُؤسُ ؛ فأقْبَهُ ما لم تُدرَأْ بالشُّبُهاتِ الشَّرِيعَةِ ، والأُمُورِ المَرْعِيَّةِ .

والأُمُوالُ فهي جَلْبَةُ الرِّجالِ ، ومَحَلَّةُ الأمالِ ؛ وبها يُسَدُّ الأُزرُ ، وَيَقْوَى الأَسْتِظْهَارُ [و] الظَّهْرُ ، فيشُدُّ من الذين أَمَرها بهم مَعْدُوقٌ ، وَيَقْوَى أيديهم بكلِّ طَريقٍ في كلِّ طُرُوقٍ ، بحيث لا يُؤخَذُ إلا الحَقُّ ولا يتركُ شَيْءٌ من الحَقِوقِ .

(١) في الأصل "والاجتهاد" وهو غلط .

والرعية فهم عند والي الأمر ودائع : ينبغي أنها تكون محفوظة ، وبعين الاعتناء ملحوظة ؛ فأحسن جوارهم ، وأزل نفارهم ، وأكف عنهم مضارهم ، ولا تعاملهم إلا بما لا تسأل عنه غداً بين يدي ربك فإنه يراك حين تقوم ، وأعد جواً لذلك فكل راجع مسؤل .

وأما غير ذلك فلا بد أن تُطلعك المباشرة على خفايا تغنيك عن المؤامره ، وستتوالى إليك الأجوبة عند المسافرة في المكاتبات الواردة والصادرة ؛ والله يوفقك في كل منهج تسلكه وتقتضيه ، ويسدّدك فيما من ذلك تتحجيه .

قلت : أما سائر أرباب الوظائف بها : كشدّ الدواوين ، وشدّ مراكر البريد وغيرهما ، فقد جرت العادة أن النائب يستقل بتوليتهما . فإن قدر كتابة شيء من ذلك لأحد بها ، كتب لمن يكون طبلخاناه في قطع النصف : « السامى » بغيرياء ، ولن يكون عشرة في قطع الثلث بـ « مجلس الأمير » كما في غيرها .

الصنف الثاني

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم على مرتبتين)

المرتبة الاولى — من يكتب له في قطع الثلث بـ « السامى بالياء » . وهم قضاة القضاة الأربعة .

المرتبة الثانية — من يكتب له في قطع العادة : إما في المنصوري ، مفتتحاً بـ « أما بعد » وإما في الصغير مفتتحاً بـ « رسم » . وعلى ذلك تكتب توابع قضاة العسكر بها ، ومفتي دار العدل ، والمحتسب ، ووكيل بيت المال ، ووظائف

التداريس والتصدير، ونظر^(١) إن كتب شيء من ذلك عن الأبواب السلطانية،
وإلا فالغالب كتابة ذلك عن النائب بها^(٢).

النيابة الخامسة

(نيابة صَفَد)

قد تقدم في الكلام على المكتبات أنها في رتبة نيابة طرابُلُس وحمّة في المكتبة،
وأنها تُذكر بعد حمّة في المطلقات .

وظائفها التي توتى من الأبواب السلطانية على ثلاثة اصناف .

الصنف الأول

(أرباب السيوف ، وفيه وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(نيابة السلطنة بها ، ويكتب تقليده في قطع الثلثين)

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بصَفَد ، كتب به سيف الدين «قطلتمش»
السلحدار الناصري ، في سابع رمضان سنة عشر وسبعائة ، من إنشاء الشيخ
شهاب الدين محمود الحلبي ، وهي :

الحمد لله الذي صان الثغور المحروسة من أوليائنا بسيف لا تبو مضاربه ، وخص
أسنى الممالك المصونة من أصفیائنا بعَضْب لا يقل غربه محاربه ، وقدم على زعامة

(١) بياض بالأصل ولعله الأحباس .

(٢) ترك الكلام على الصنف الثالث وهم أرباب الوظائف الديوانية كما يؤخذ من نظائره السابقة واللاحقة .

الجيوش من خواصنا لينا يسكنُ إليه كلُّ أسدٍ من أسدِ ذائلةٍ تُعالِهُ ، حافظِ نطاقِ
البحرِ من أبطالِ دولتنا بكلِّ كميٍّ تُصدُّ البحرَ مهايته أن يَسْتَقِلَّ بِرَاكِبِهِ أو تستقرَّ
على ظهره مَرَاكِبُهُ ، وناشرِ لواءِ عدلنا في أقاليمنا بما يُعْنَى كُلُّ قَطْرٍ [عن] أن
تتدفَّقَ جَدَاوِلُهُ أو تستهلَّ به سَجَائِبُهُ .

نحمدُهُ على نِعَمِهِ التي جعلتْ سَيْفَ الجهادِ رَأِئِدَ أوامِرنا ، وقائِدَ جيوشنا إلى
مواقفِ النَّصْرِ وَعَسَا كَرْنَا ، وذائِدَ أعداءِ المِلَّةِ عن أطرافِ ممالكنا التي أُسْبِقُ إليها من
رَجَعِ النَّفْسِ في الدُّجَى تَأَلَّقُ نَجْمُ ذَوَائِلِنَا ، وفي الضُّحَى تَبْلُجُ غَمَرِ صَوَارِمِنَا ؛ ونَشْهَدُ
أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً يَسْتَنْظِلُ الإِيْمَانَ ، تحتِ لَوَائِمِهَا ، وتَعْبَقُ
الأَكْوَانُ ، بما تنطقُ به الألسنةُ من اروائِمِهَا ، ويُشْرِقُ الوجودُ بما يبدو على
الوجوه من رَوَائِمِهَا ، ويُجَادِلُ أعداءَهَا في الآفاقِ لرفعِ كَلِمَةِ مِلَّتِهَا على المللِ وإِعْلَانِهَا ؛
ونَشْهَدُ أنَّ مَجْدًا عبدهُ ورسولهُ خاتَمَ الأنبياءِ ، وأشرفَ حَمَلَةَ الأنبياءِ ، صَلَّى اللهُ عليه
وعلى آله وصَحْبِهِ المَخْصُوصِينَ بِأَسْنَى مراتِبِ الأَجْتِبَاءِ ، صلاةً دائمةً بدوامِ الأرضِ
والسماءِ ؛ وسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعدُ ، فإنَّ أوَّلِيَّ من فُوِّضَتْ إليه زَعَامَةُ الجيوشِ بِأَسْنَى الممالكِ ، وَعَدِقَ به
من تَقَدَّمَ العساكرِ ما يُرْجَفُ بِمهايته هُنَاكَ أرضَ العَدُوِّ هُنَاكَ ؛ وَعَقِدَ به للرعايا لَوَاءً
عدلَ تَجَلَّى بِإِشْرَاقِ لَيْلِ الظُّلْمِ الخالِكِ ، وَعَوَّلَ عليه من جميلِ السيرةِ فيما تَعَمَّرَ به البلادُ
وتَأَمَّنَ به الرعايا وتَطْمَئِنُّ به المسالكُ - من لم يَزَلْ في خدمةِ الدولةِ القاهِرةِ سَيِّفًا
تَرَهَّبُ العِدا حُدَّهُ ، ويخافُ أهلُ الكُفْرِ فَتَكَاتِهِ تَحَقُّقًا أنَّ أجالهمِ عِنْدَهُ ، ويتوقَّعُ
كُلَّ كَمِيٍّ من عِظَاءِ الشُّرْكَ أنَّ رأسَهُ سيكوُنُ غِندَهُ ؛ مع سياسةٍ تشتملُ على الرعايا

(١) ذائلة طويلة الذيلة .

(٢) حق التركيب « وحفظ عطفًا على صان » ... ونشر لواء .

ظلالها الممتدة، وسيرة تضعُ الأشياءَ مواضعها فلا تضعُ الحدةَ موضع اللين ولا اللينَ موضعَ الحدة؛ وتوفِّرُ علىِ عمارةِ البلادِ يُعِينُ علىِ ربيها طَلَّ الأنواءِ والوابلِ، وبراءةِ تجعلُ ما يودعُ فيها بالبركةِ والتماءِ: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ﴾ .

ولما كان الجناح العالى هو السيف الذى على عاتق الدولة نجاده، والليث الذى لم يزل فى سبيل الله إغارته وإنجاده؛ والغيث الذى يُخصبُ بمعدلته البلد الماحل، والأسد الذى تصد ساكنى البحر مهايته فيتحققون أن العطب لا السلامة فى الساحل - أقتضت آراؤنا الشريفة أن نزيدَ حدَّ عزمه إرهابا، وأن نهرب العدا بآسه الذى يردُّ أحاد ما تقدّم عليه من الجيوش آلافا، وأن نفوض إليه من أمور رعايانا ما اذا أسند إليه يُوسعهم عدلا وإنصافا .^(١)

فذلك رسم بالأمر الشريف: أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بصفد الجروسة: تفويضا يعلى قدره، ويمضى فى عموم مصالحها وخصوصها نبيه وأمره، ويُرهِفُ فى حفظِ سواحلها وموانئها بيضه وسمره، ويضلي مجاورها من ساكنى الماء من بأسه المتوقدِ بجمره .

فلتلق هذه النعمة باع شكره المديد، ويترق هذه المرتبة بمزية أعتزله التى ليس عليها فيما يُعدق به من مصالح الإسلام مزيد؛ وينشرها من عموم معدلته مالا يُحصى دون قوم قوما، ويعمر بلادها بالعدل: فإن «عدل يوم واحد خير للرض من أن تُمطر أربعين يوما»؛ ويسسط فيها من مهائنه ما يكف أكف البغاة أن تمتد، ويمنع رخاء أهوية أهلها أن تستد؛ ويؤمن المسالك أن تُخاف، والرعايا أن يُجار عليهم أو يُخاف؛ وليكن من فى تقدمته من الجيوش المنصورة مكلّى العدد والعدد،

(١) فى الأصل "رعايا أسند إليه ما" الخ وهو خلط من النسخ .

ظَاهِرِي الْأَمَّةِ الَّتِي هِيَ مَادَّةُ الْمَجَالِدَةِ وَعَوْنُ الْجَلْدِ؛ مُزَاحِي الْأَعْدَارِ فِيمَا يُرْسَمُ لَهُمْ بِهِ مِنَ الرُّكُوبِ، مُزَالِي الْعَوَاقِقِ فِي النَّهَابِ لِمَا هُمْ بِصَدَدِهِ مِنَ الْوُثُوبِ؛ حَافِظِي مَرَاكِرِهِمْ حَفِظَ الْعَيُونَ بِأَهْدَابِهَا، آخِذِي أَخْبَارَ مَا يَشْغُلُ الْبَحْرَ مِنْ قِطْعِ الْعِدَا فِي حَالِ بُعْدِهَا كَحَالِ اقْتِرَابِهَا؛ بِحَيْثُ لَا يَشْرَفُ عَلَى الْبَرِّ مَنْ قِطَعَ الْمَخْدُولِينَ إِلَّا أَسِيرًا أَوْ كَسِيرًا، أَوْ مَنْ إِذَا رَجَعَ بَصَرَهُ إِلَى السَّوَاخِلِ يَنْقَلِبُ إِلَيْهِ الْبَصْرُ خَاسِتًا وَهُوَ حَسِيرٌ؛ وَلِيَكُنْ أَهْلُ الْجِبَالِ بِمَهَابَتِهِ كَأَنَّ [هل] لَسَهْلَ فِي حُسْنِ آتِقْيَادِهِمْ وَطَاعَتِهِمْ، وَيَصَدَّ عَنْهُمْ بِسُطُوتِهِ مَجَالَ الْأَوْهَامِ الْمَتَّصِلَةَ فَلَا تَنْصَرِفُ إِلَى غَيْرِ مُجَاوِرِيهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ مَوَاقِعُ بِأَسْمِهِمْ وَشَجَاعَتِهِمْ؛ وَمِلَاكُ الْوَصَايَا تَقْوَى اللَّهِ: وَهِيَ مِنْ أَحْصَى أَوْصَافِهِ، وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَهُمَا مِنْ نَتَائِجِ إِنْصَافِهِ؛ فَيُجْعَلُهُمَا عَمَدَتِي حُكْمِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَجْعَلُهُ مِنْ أَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ وَقَدْ فَعَلَ؛ وَالْإِعْتِمَادُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

الوظيفة الثانية

(نِيَابَةُ قَلْعَةِ صَفَد)

وهذه نسخة مرسومة شريف بنياية قلعة صفد المحروسة، من إنشاء المقر الشماسي ابن فضل الله، كتب به للأمر سيف الدين «أزاق الناصري» خامس المحرم سنة أربع وثلاثين وسبعائة، وهي:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ الْحِصُونَ بِرِفْعَةِ دُرَاهَا، وَسُمِّعَةَ مَنْ فِيهَا مِنْ رِجَالِ تَحْمِيهَا؛ وَتَحَطَّفَ أَبْصَارَ السُّيُوفِ بِسَنَاهَا، وَتُصِيبُ بِرَمِيهَا حَتَّى قُوسَ قُرَحَ إِذَا رَامَاهَا. نَحْمَدُهُ حَمْدًا تَبْرُزُ بِهِ الْمَعَاوِلُ فِي حِلَاهَا، وَتَفْخَرُ بِهِ عَقَائِلُ الْقِلَاعِ عَلَى سِوَاهَا؛ وَتَشْرَفُ بِهِ شُرَفَاتِهَا حَتَّى تَجْرِيَ الْمَجْرَةُ فِي رُبَاهَا؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَطِيبُ جَنَاهَا، وَيَطْنِبُ فِي السَّمَاءِ مَرْتَقَاهَا؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا

مجداً عبده ورسوله الذى كتب به للأمة هداها ، وكبت عداها ، وبوأها مقاعد
للقاتل تقصردوتها النجوم فى سراها ؛ صلى الله عليه على آله وصحبه صلاة لا ينقطع
عنهم قرأها ، وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين .

وبعد ، فإنَّ صفد صفت ، ووقت ووقت ، وكفت وكفت ؛ وجاورت البحر
فما عمضت عنه لدايديها عيون ، ولا خيطة لسيوفها بالكري جفون ؛ ولا وئت
لرماحها عزائم شابت بمئها ، ولا آنتشت من السهام نبال تفيض ديمها ؛ ولا أطالت
مجانيقها السكوت إلا لتهدر شقاشقها ، وتمدد بها من الجبال شواهقها ؛ وتمول العدا
بما تريهم من التويل ، وترى به من كفاتها الحجارة من سجيل .

وهى القلعة التى يضرب المثل بحصاتها ، ويطمئن [أهل] الإسلام فى إيداع
أموالهم وأهلهم إلى أمانتها ؛ قد أطلت على الكواكب نزولا ، وجردت على منطقة
بروجها من البروق نصولا ؛ وأتعبت الرياح لما حلققت إليها ، وأخافت الهلال حتى
وقف رقيباً عليها ؛ وفيها من جنودنا المؤيدة من يزيدهم بها مددا ، وتطيب قلوبهم
إذا خرجوا لجهاد أعداء الله وخلوا لهم فيها مالا وولدا . وكانت النيابة بهذه القلعة
المحروسة قد كادت تنطق بسكواها ، وتتظلم ممن أساء صحبتها لما تولأها ؛ واقتضت
أراؤنا العالية أن نزجرح ظلامه ، عن صباحها ، ونقوص خيامه ، عما فرش على الفلك
الشاهقة من بطاحها ؛ وفكرنا فيمن له بالقلاع المحروسة دربة لا يجنى عليه بها سلوك ،
ولا يخاف معه على هذه الدرّة الثينة فى سلوك ؛ ممن حشد فى دولتنا الشريفة مساء
صباح ، ومن كان فى أبوابنا العالية هو الفتاح ؛ ومن له همه تناط بالثريا مطالبها ،
وعزومة ما القضاء إلا قواضها ، ومعرفة ما الریح المنتف إلا تجارها ، وكفاية ما الغر
الزواهر إذا عدت إلا مناقها .

وكان المجلس السامى - أدام الله عزه - هو المحقق إلى هذه المرتبة، والمحقق بالأصيل أريدتها المذهب؛ والمحقق في صفاته الورع، والمتره عن تدنيس طبعه بالطمع؛ وله في الأمانة اليد المشكورة، وفي الصيانة ما يتبع به ذبول السحاب المجروره؛ ومن التقوى ما قرب عليه المطالب الباطية، ومن الفروسية ما اتخذ كل ذروة صهوة وكل جبل مطية، ومن الاستحقاق ما سهل له من صدقاتنا الشريفة صفد: وفي اللغة أن الصفد هو العطي.

فرسم بالأمر الشريف - شرفه الله وعظمه، وأحكمه وحكمه - أن يرتب في النيابة بقلعة صفد المحروسة: على عادة من تقدم وقاعدته في التقرير، وأما كيف يكون اعتماد، فسند شد منه يصبح منير.

فقدم تقوى الله في سرك وجواك، وأقصر على القناعة رجواك؛ وأحفظ هذه القلعة من طوارق الليل والنهار، وأعد من قبلك للقتال في قرى محصنة أو من وراء جدار؛ وأملاً سماءك حرساً شديداً، وشهباً وكثر رجالها لتبارى بهم النجوم في أمثالها من بروج السماء عديداً، وخذ إلى طاعتنا الشريفة بقلوبهم وهم على ذلك ولكنا نريد أن نزيدهم توكيداً، ونألفهم على موالاتنا حتى لا تجد أنت ولاهم إلى المزيد مزبداً؛ وتفقد الذخائر والآلات، وتيقظ لما تلجئ إليه الضائقة في أوسع الأوقات؛ وحسن مبانيها، وحصل فيها من الذخائر فوق ما يكفيها؛ ومن السلاح ما هو أمتع من أسوارها، وأنفع في أوقات الحاجة مما تكثره الخزائن من درهمها ودينارها؛ من مجانيق كالعقارب شائلة أذناها، دافعة في صدر الخطب إذا نابها؛ تربي بشرر كالقصر، وتنزل من السماء آيات النصر؛ ومن قيسى: منها ما تدافع بالأرجل مرامى

(١) مراده واقصر رجاءك على القناعة ولكن اضطره السجع فاستعمل مصدراً للرجاء ليس فيما بأيدينا من

سهامه ، ومنها ما تدور بالأيدي كأس حمامه ؛ ومنها ما يسكت إذا أطلق حتى لا يسمع كلامه كلامه ، ومنها ما يترجم إذا غنى بالحمام صوت حمامه ؛ و [من] ستائر يستر بها وجهها المصون ، ومنها يشاهد منها أقرب من يكون أبعد ما يكون ؛ ورحمة تجلج بها في كل ليلة عروسها المنعمه ، ودراجة تحاط بهم من جهاتها الست وحدودها الأربعة ؛ وأقرب نوب الحمام الرسائل فيها تسقط علينا وعليك الأخبار ، ويطوى المدى البعيد في أول ساعة من نهار ؛ وأفتح الباب وأغلقه بشمس ، وأحترز على ما أشتمت عليه من مال ونفس ؛ وبقية الوصايا أنت بها أمس ، والله تعالى يزيل عنك اللبس ؛ والاعتقاد

الصنف الثاني

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذين يكتب لهم من الأبواب السلطانية صاحب ديوان الرسائل ، وناظر المال ، وناظر الجيش ، ووكيل بيت المال . وما عدا ذلك فإنه يكتب عن نائبها ، وربما كتب عن الأبواب السلطانية .

الصنف الثالث

([أرباب] الوظائف الدينية ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى : ما يكتب في قطع الثالث بـ «السامى» بالياء ، وهم القضاة الأربعة .

المرتبة الثانية : من يكتب له في قطع العادة ، وتشتمل على قضاء العسكر ، وإفتاء دار العدل ، والحسبة ، ووكالة بيت المال .

الصنف الرابع^(١)

(أرباب الوظائف الديوانية)

والذى يكتب به من الوظائف الديوانية بها - ثلاث وظائف، يُكتب لكلّ منهم فى قطع الثلث بـ «السامى» بالياء؛ وهم: صحابة ديوان المكاتب، ونظر المال، ونظر الجيش. فإن كتب لأحد غير هؤلاء، كتب له فى قطع العادة.

النيابة السادسة

(نيابة غزّة)

وقد تقدّم أنّها تارة تكون نيابة، وتارة تكون تقدمة عسكر، ومقدّم العسكر بها يراجع نائب الشام فى أمره. وبكلّ حال فالوظائف التى تُولى بها من الأبواب السلطانية على صنفين:

الصنف الأول

(أرباب السيف)

وليس بها منهم إلا نائب السلطنة إن كانت نيابة، أو مقدّم العسكر إن كانت تقدمة عسكر. فكيفما كان فإنه يكتب له تقليد فى قطع الثلثين بـ «الجناب العالى» مع الدعاء بدوام النعمة.

وهذه نسخة تقليد بنيايتها: كُتِبَ به للأمير «علم الدين الجاولى» من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ، وهو:

(١) هذا الصنف زائد على ما فى التقسيم ومع ذلك هو بمعنى الصنف الثانى وغاية ما فى هذا أنه بين فيه اللقب وقطع الورق فتنبه.

الحمد لله رافع علم الدين في أيامنا الزاهرة، بإقامة فرض الجهاد وإدامته، وجامع رتب التقديم في دولتنا القاهرة، لمن تفتت الثغور بين ترقوق عدله وتآلق صرامته، وقاطع أطباع المعتدين بمن يتوقد بأسه في ظلال رفقه توقد البرق في ظلال غمامته، وقامع أعدائه الكافرين بتفويض تقدمه الجيوش بأوامرنا إلى كل ولي يجتني النصر ويحتل من أفنان عزماته ووجاهة زعامته .

نحمده على نعمة التي سددت ما يصدر من الأوامر عنا ، وقللت الرتب السيئة بتقليدها أعز الأولياء منا مناً ، وربحت مهمات الثغور لدينا على ما سواها فلا نعدق أمورها إلا بمن تُعقد عليه الخناصر نفاسة به وضنا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا تزال القلوب بإخلاصها متدينه ، والألسنة بإعلانها مترينه ، والألسنة والأعنة متبارين في إقامة دعوتها التي لا تحتاج أنوارها البينة إلى البينة ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله أشرف مبعوث إلى الأمم ، وأكرم منوع بالفضل والكرم ، وأعز منصور بالرعب الذي أعمدت سيوفه قبل تجريدها في القمم ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نهضوا بجهاد أعداء الله وأعدائه على أثبت قدم ، وسروا لفتح ما زوى له من الأرض على جياذ العزائم ونجائب الهمم ، وبدلوا نفائسهم ونفوسهم للدب عن دينه فلم تسترل أقدامهم حمر النعم ، ولم يشن إقدامهم بيض النعم ؛ صلاة لا يمل السامع نداءها ، ولا تسأم الألسن إعادتها وإبداها ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإننا من حين مكن الله لنا في أرضه ، وأنهضنا بمسنون الجهاد وفرضه ؛ وقلدنا سيف نصره الذي انتفضاه ، وأقامنا لنصرة دينه الذي ارتضاه ؛ لم يزل مهمم كل ثغر مقدماً لدينا ، وحفظ كل جانب جاور العدو براً وبحراً متعميناً على اعتنائنا

وَمُحِبِّاً إِلَيْنَا ؛ فَلَا تُرْهِفُ لِإِيَالَةِ الْمَالِكِ إِلَّا مِنْ إِذَا جَرَدَ سَيْفَهُ أَعْمَدَهُ الرَّعْبُ فِي قُلُوبِ
 الْعِدَا ، وَمَنْ إِنْ لَمْ تَسْلُكِ الْبَحْرَ حَيْثُ بَثَّ فِي قُلُوبِ سَائِرِ كِنِينِهِ سَرِيَا مَهَابَةٍ لَا تَرْهَبُ
 مَوْجًا وَلَا تَسْتَبْعِدُ مَدَى ؛ وَمَنْ إِذَا تَقَدَّمَ عَلَى الْجِيُوشِ أَعَادَ آحَادَهَا إِلَى رَتَبِ الْأُلُوفِ ،
 وَجَعَلَ طَلَائِعَهُمْ رُسُلَ الْخُتُوفِ ؛ وَأَعْدَاهُمْ بِأَسْهُ فَاسْتَقَلُّوا أَعْدَاءَهُمْ وَإِنْ كَثُرُوا ،
 وَأَغْرَاهُمْ بِمَعْنَى النَّكَايَةِ فِي كِتَابِ الْعِدَا : فَكَمْ مِنْ قَلْبٍ بِالرَّمَا حِ قَدْ نَظَمُوا وَمَنْ مِنْ
 هَامٍ بِالصَّفَا حِ قَدْ نَثَرُوا .

وَلِذَلِكَ لَمَّا كَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي مَا زَالَ الدِّينَ يَرْفَعُ عِلْمَهُ ، وَالْإِقْدَامُ وَالرَّأْيُ يَبْتَأَنَّ
 فِي مَقَاتِلِ الْعِدَا كُلُّوْمَهُ وَكَلِمَهُ ، وَالْعَدْلُ وَالْبَأْسُ يَتَوَلَّيَانِ أَحْكَامَهُ فَلَا يُمِضِيَانِ إِلَّا بِالْحَقِّ
 سَيْفَهُ وَقَلْمَهُ ؛ فَكَمْ نَكَسَ رَايَةَ عَدُوِّكَ كَانَتْ مُرْتَفَعَهُ ، وَأَبَاحَ عَزْمَهُ وَحَزْمَهُ مَعَاقِلَ
 شِرْكَ كَانَتْ مُتَمَنِّعَهُ ؛ وَمَنْ زَلَزَلَ ثَبَاتَهُ قَدَمٌ كُفِرَ فَأَزَالَهَا ، وَهَزَمَ إِقْدَامَهُ جِيُوشَ بَاطِلِ
 تَرْهَبُ الْآسَادُ نَزَالَهَا ؛ فَهُوَ الْعَلْمُ الْفَرْدُ ، وَالْبَطْلُ الَّذِي لَا وِلَايَاتِهِ الْإِقْبَالُ وَالثَّبَاتُ
 وَلَا عُدَائِهِ الْعَكْسُ وَالطَّرْدُ ؛ وَالْوَلِيُّ الَّذِي لَوْلَا أَحْتِفَالُنَا بِنِكَايَةِ الْعِدَا لَمْ نَسْمَحْ بِمِثْلِهِ ،
 وَالْهَامُ الَّذِي مَا عَدَقْنَا بِهِ أَمْرًا إِلَّا وَقَعَ فِي أَحْسَنِ مَوَاقِعِهِ وَأَسْنَدٍ إِلَى أَكْمَلِ أَهْلِهِ .

وَكَانَتْ الْبِلَادُ الْغَزَاوِيَّةُ وَالسَّاحِلِيَّةُ وَالْجَبَلِيَّةُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ بِمَنْزِلَةِ السُّورِ الْمَشْرِفِ
 بِالرَّمَا حِ ، الْمَصْفَحُ بِالصَّفَا حِ ؛ مُرُوجُهُ الْحَمَاهُ ، وَقُلْلُهُ الْكَمَاهُ ؛ لَا يَشِيْمُ بَرْقَهُ مِنْ سَاكِنِي
 الْبَحْرِ إِلَّا أَسِيرٌ أَوْ كَسِيرٌ ، أَوْ مَنْ إِذَا رَجَعَ إِلَيْهِ طَرَفَهُ يَنْقَابُ إِلَيْهِ الْبَصْرُ خَاسِتًا
 وَهُوَ حَسِيرٌ ؛ وَبِهَا الْجَيْشُ الَّذِي كَمَّ لِسَيْوْفِهِ فِي رِقَابِ الْعِدَا مِنْ مَوَاقِعِهِ ، وَاسْمِعْتَهُ
 فِي قُلُوبِ أَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ إِغَارَةِ تَرَكَّتْهَا مِنَ الْأَمْنِ بِلَاقِعِ ؛ وَبِهَا الْأَرْضُ الْمَقْدَّسَةُ ،
 وَالْمَوَاطِنُ الَّتِي هِيَ عَلَى التَّقْوَى مُؤَسَّسَةٌ ؛ وَالْمَعَايِدُ الَّتِي لَا تُعَدُّقُ أُمُورَهَا إِلَّا بِمِثْلِهِ مِنْ
 أَهْلِ الدِّينِ وَالْوَرَعِ ، وَالْأَعْمَالُ الَّتِي هِيَ أَدْرَى بِمَا يَأْتِي مِنْ مَصَالِحِهَا وَأَدْرَبُ بِمَا

يدع - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نعدق به نيابة ملكها ، ونزين بلائى مفانحه
عقود سلكها ؛ وأن نفوض إليه زعامة أبطالها ، وتقدمة عساكرها التى تلقى البحر
بأزخر من عبابه والأرض بأثبت من جبالها ؛ وأن نرى بحرها من مهاجته بأهول
من أمواجه ، وأمر فى لهوات ساكنيه من أجاجه ؛ لتغدو عقائل أهله ، أرقاء سيفه
الأبيض وذابله ، ويتبر العدو الأزرق من بنى الأصفر ، خوف بأسه الأحمر .

فذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه كيت وكيت : تفويضاً يحق
فى مثله رجاءها ، ويزين بعدله أرجاءها ؛ ويصون بآسسه قاطنها وظاعنها ، ويعمر
ويغمر برقيقه وإنصافه مساكنها وساكنتها .

فليأشر هذه الرتبة التى يكمل به سعادها ، وتكمل به عقودها ؛ مباشرة يخيف
بأسها اللبث فى أجماتها ، ويعين عدلها الغيوت على دفع أزماتها ؛ ويغدو بها الحق
مرفوع العلم ، مسموع الكلم ، ماضى السيف والقلم ، ممدود الظل على من بها
من أنواع الأمم . وليأخذ الجيوش التى بها من إعداد الأهبه بما يزيل أعدارهم
عن الركوب ، ويضيع عوائقهم عن الوثوب ؛ ويجعلهم أول ملب لداعى الجهاد ،
وأسرع مجيب لنداء السنة السيوف الحداد ؛ وينظم أيزاكهم على البحر انتظام
التجوم فى أفلاكها ، والشذور فى أسلاكها ، فلا تلوح للأعداء طريدة إلا طردت ،
ولا قطعة إلا قطعت ؛ ولا غراب إلا حصت قوادمه ، ولا شامخ عمارة إلا وأتبع
له من اللهازم هادمه . وليعمل منار الشرع الشريف بإمضاء أحكامه ، ومعاضدة
حكاه ، والانتقياد إلى أوامره ، والوقوف مع موارد نهيه ومصادره ؛ ولتكن وطائه
على أهل العناد مشتده ، ومعرفته تضع الأشياء مواضعها : فلا تضع الحدة موضع
اللين ولا اللين موضع الحده ؛ وليعلم أنه وإن بعد عن أبوابنا العالية مخصوص منا

بمزية قُربه ، مَخْصُصٌ بِمَنْزِلَةِ إِخْلَاصِهِ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا عَلِيٌّ يَنْبَغُ مِنْ رَبِّهِ ؛ وَجَمِيعُ مَا يَذْكَرُ مِنَ الْوَصَايَا فَهُوَ مِمَّا يُحْكِي مِنْ صِفَاتِهِ الْحَسَنَةِ ، وَأَدْوَاتِهِ الَّتِي مَابَرِحَتْ الْأَفْلامُ فِي وَصْفِ كِبَالِهَا فَصِيحَةَ الْأَلْسِنَةِ ؛ وَمِلاُكُهَا تَقْوَى اللَّهِ وَهِيَ فِي خِصَائِصِهِ كَلِمَةٌ إِجْمَاعٌ ، وَحِلْيَةُ أَبْصَارٍ وَأَسْمَاعٍ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعَلِّي قَدْرَهُ وَقَدْ فَعَلَ ، وَيُؤَيِّدُهُ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ؛ وَالْإِعْتِمَادُ



وهذه نسخة تقليد بتقدمة العسكر بغزة المحروسة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُبْدِي النِّعَمِ وَمُعِيدِهَا ، وَمُؤَكِّدِ أَسْبَابِهَا بِتَجْدِيدِهَا ، وَمُعَلِّي أقدَارِهَا بِمِزَايَا مَزِيدِهَا ؛ الَّذِي زَيَّنَ أَعْنَاقَ الْمَمَالِكِ مِنَ السُّيُوفِ بِتَقْلِيدِهَا ، وَبَيَّنَّ مِنْ مِيَامِنِهِ مَا رُدَّتْ إِلَيْهِ بِمِقَالِيدِهَا .

نَحْمَدُهُ بِمُحَامِدِهِ الَّتِي تَفُوتُ الدَّرَارِيَّ فِي تَنْضِيدِهَا ، وَتَفُوقُ الدَّرَّ فَيَتَمَنَّى مِنْهُ عِقْدَ فَرِيدِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَافِعَةً لَشَهِيدِهَا ، جَامِعَةً لِتَوْحِيدِهَا ، نَاقِعَةً لِأَهْلِ الْجُحُودِ مِمَّا يُورِدُ الْأَرْضَ بِالْدِّمَاءِ مِنْ وَرِيدِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي كَثُرَ الْأُمَمُ بِأَمَّتِهِ فِي عَدِيدِهَا ، وَظَاهَرَ عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ بِمَنْ يُقُلُّ بِأَسْحَادِهَا ، فَيُرْسَلُ مِنْ أَسْنَتِهِ نُجُومًا رُجُومًا لِمُرِيدِهَا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً نَتَظَاوَرُ بِتَأْيِيدِهَا ، وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ مِنْ عَوَائِدِ دَوْلَتِنَا الْقَاهِرَةِ أَنْ تَعُودَ بِإِحْسَانِهَا ، وَتَجُودَ بِثُبُوتِ كُلِّ قَدَمٍ فِي مَكَانِهَا ؛ وَإِذَا وَلَّتْ عَرَفَ سَحَابِهَا عَنْ جِهَةِ عَادَتْ إِلَيْهَا ، أَوْ سَلَبَتْ لَهَا رَوْنَقًا أَعَادَتْ بِهَجَّتِهِ عَلَيْهَا ؛ وَكَانَتْ الْبِلَادُ الْغَزَاوِيَّةُ وَمَا مَعَهَا قَدْ تَمَتَّعَتْ مِنْ قَدَمَاءِ مَلُوكِ

(١) فِي الْأَصْلِ «مَمَالِكٌ» وَهُوَ لَا يَنْبَغُ الْمَقَامُ .

بيتنا الشريف بسيف مشهور، وبطل تشام بوارق عزيمه في الثغور؛ وهو الذي عم بصيبيه بلادها سهلاً وجبلاً، وعمر روضها بعدل أغناها أن يسقي ظلّ طلاً؛ وجمع أعمالها براً وبحراً، ومنع جانبيها شاماً ومصرأ؛ وألف أهلها منه سيرة لولا ما استأثرنا الله به من سره لما أفقدناهم في هذه المدة حلاوة مذاقها، وسريرة لا نرضى معها بكف الثريا إذا بسطت لأخذ ميثاقها؛ ولم نرفع يده إلا لأمر قضى الله به لأجل موقوت، ومضى منه ما يعلم أنه بمرجوعه القريب لا يقوت؛ لأن الشمس تعيب لتطلع بضوء جديد، والسيف يغمد ثم ينتضى فيقتد القد والحيد؛ والعيون تسهد ثم يعاودها الرقاد، والماء لو لم يفقد في وقت لما وجد لموقعه برد على الأجداد.

فلما بلغ الكتاب أجله، وأخذ حقه من المسألة؛ وانتقل من كان قد استقر فيها إلى جوار ربّه الكريم، وفارق الدنيا وهو على طاعتنا مقيم - اقتضت آراؤنا الشريفة أن يراجع هذه العقيلة كفؤها القديم، وترجع هذه الأرض المقدسة إلى من فارقتها وما عهدّه بدميم؛ من لم تزل به عقائل المعاقل أضنان، وخُصُور الحُصون بحائل سيوفه تزان، ومباسم الثغور تُحمي في كل ناحية من أسنته بلسان؛ وحمى الثغرين وما بينهما من الفجاج، وجاور البحرين فمنع جانبيهما: فهذا عذب فرات وهذا ملح أجاج؛ وله في العدا وقائع زلزلت لمواقعها الألوف، ومواقف لولا ما نعتت فيها من غربان البين لطال على الديار الوقوف؛ وهو الذي مدحت له في بيتنا المنصور المنصوري من الخدمة سوابق، وحمدت طرائق؛ وكثرت محاسن، وكبرت ميامن؛ ولعت كواكب، وهمعت سحاب؛ وصدحت حمام، وقجحت كائم؛ وعزت جيوشنا المؤيدة له بمضارب، وهزّت سيوفاً حداداً وهو بالسيف ضارب.

وكان المجلس العالى - أدام الله تعالى نعمته - هو الذى حُمدت له آثار، وحسنت أخبار، وعمت مدح، وتمت منح؛ فرسمنا بإقراره من هذا المنصب الشريف^(١) فى محله، وإعادته إلى صيب وبه، وإقامة أهلها مطمئنين فى عدله، وإقرار عيون من أدرك زمانه بعوده ومن لم يدرك زمانه بما سيروته من فضله.

فرسم بالأمر الشريف - لازالت ملايس نعمه، تُخج وتلبس برودها، وعرايس كرمه، تُفارق ثم تراجع غيدها - أن تفوض إليه أمور غرة المحروسة وأعمالها وبلادها، والتقدمة على عساكرها وأجنادها، والحكم فى جميع ما هو مضاف إليها من سهل ووعر، وبر وبحر، وسواحل وموانى، وبحرى خيول وشوانى؛ ومن فيها من أهل عمد، ورعايا وتجار وأعيان فى بلد؛ ومن يتعلق فيها بأسباب، ويعد فى صف كتيبة وكتاب؛ على عادة من تقدم فى ذلك، وعلى ما كان عليه من المسالك.

وسنخصر له الوصايا لأنه بها بصير، وقد تقدم لها على مسامحة تكرير، ورأس الأمور التقوى وهو بها جدير، وتأييد الشرع الشريف فإنه على هدى وكتاب منير، والأطلاع على الاحوال ولا ينبئك مثل خير.

والعدل فهو العروة الوثقى، والإنصاف حتى لا يجد مستحقا، والعفاف فإن التطلع لما فى أيدى الناس لا يزيد رزقا، والاتصاف بالذكر الجميل هو الذى يبقى؛ وعرض العسكر المنصور ومن يضم إليه من عرابه وتزكاته وأكراده، وكل مكبر فى بحافله ومكتر لسواده؛ وأخذهم بالتأهب فى كل حركة وسكون، والتيقظ بهم لكل سيف مشحود وفلك مشحون؛ والاحتراز من قبل البر والبحر، وإقامة كل يرك فى موضعه كالقلادة فى النحر؛ ولا يعين إقطاعا إلا لمن يقطع باستحقاقه،

(١) فى الأصل «من إقراره» وهو تصحيف إلا أن يكون الأصل فرسمنا فرسمنا من الخ.

وَيَقْمَعُ الْعِدَا بِمَا يَعْرِفُ فِي صَفَحَاتِ الصَّفَاحِ مِنْ أَخْلَاقِهِ ، وَلَا يُجِلُّ الْمُبَاشِرِينَ
 مِنْ عَنَايَةٍ تَمُدُّ إِلَيْهِمْ سَاعِدَ الْمُسَاعَدَةِ ، فَلَا يُجِلُّوْا فِي الْبِلَادِ بِعَمَارَةٍ تَعُدُّوْا فِي حُلَاهَا مَائِدَةً ،
 وَلِيَحْفَظَ الطَّرِيقَاتِ حَفْظًا تَكُونُ بِهِ مَمْنُوعَةً ، وَيُمْسِكُ الْمَسَالِكَ فَإِنَّهُ فِي مَفَرِّقِ طَرَفَاتِهَا
 الْجَمُوعَةَ ، وَلِيَقْدِمَ مِهْمَاتِ الْبَرِيدِ وَمَا يَنْطِقُ عَلَى جَنَاحِ الْحَمَامِ ، وَلِيَتَّخِذَهُمَا نَصَبَ
 عَيْنِيهِ فِي الْيَقْظَةِ وَالْمَنَامِ ، فَرُبَّ غَفْلَةٍ لَا يَسْتَدْرِكُ فَإِنَّهَا رَكُضٌ ، وَرِسَالَةٌ لَا يَبْلُغُهَا
 إِلَّا رَسُولٌ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَأَنْخُرِيْسِيحٌ فِي الْأَرْضِ ، وَيُرْصَدُ مَا تَرِدُ بِهِ مَرَاثِمُنَا الْعَالِيَةَ
 لِيَسَارِعَ إِلَيْهِ مُنْتَمِلًا ، وَيَطَالِعُنَا بِمَا يَتَجَدَّدُ عِنْدَهُ حَتَّى يَكُونَ لَدَيْنَا مُمْتَلًا ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ
 وَأَقْفٌ مِنْ بَابِنَا الشَّرِيفِ بِالْمَجَازِ ، وَقُدَّامَ عَيْنِينَا حَقِيقَةً وَإِنْ قِيلَ عَلَى طَرِيقِ الْمَجَازِ ،
 فَلْيُؤَاخِذْ نَفْسَهُ مَوْأخَذَةً مِنْ هَوْبَيْنِ يَدِينَا ، وَيَعْمَلْ بِمَا يَسْرُهُ أَنْ يَقْدِمَ فِيمَا يُعْرَضُ
 مِنْ أَعْمَالِهِ عَلَيْنَا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُهُ حُطُورَةَ لَدِينَا ، وَيُؤَيِّدُ بِهِ الْإِسْلَامَ حَتَّى لَا يَدَعَ
 عَلَى أَعْدَاءِ اللَّهِ لِلدِّينِ دَيْنًا ، وَالْأَعْتَادَ

• الصنف الثاني

(الوظائف الديوانية بغزة)

وبها ثلاث وظائف : يُكْتَبُ لِكُلِّ مِنْهَا فِي قَطْعِ الْعَادَةِ بِ«السامى» بغير ياء .
 وهى : كِتَابَةُ الدَّرَجِ الْقَائِمَةِ مَقَامِ كِتَابَةِ السَّرِّ ، وَنَظَرُ الْمَالِ ، وَنَظَرُ الْجَيْشِ . قَالَ
 فِي «التثقيف» : «أما قاضيها ومحتسبها ووكيل بيت المال بها ، فإنهم نواب عن
 أرباب هذه الوظائف بالشام ، فلا يكتب لأحد منهم شئ عن المواقف الشريفة .
 قلت : وما ذكره بناء على أنها تقدمه عسكر . أما إذا كانت نياية فإن هذه
 الوظائف يكتب بها عن الأبواب السلطانية . وقد يكتب حينئذ بوكالة بيت

المال والحسبة عن النائب ، ويكون ذلك جميعه في قطع العادة ، مفتتحاً بـ«أماً بعد» في المنصوري ، أو بـ«رُسم» في الصَّغير، على حَسَب ما يقتضيه الحال . على أنه قد حدث بها في الدولة الظاهرية قاض حَفَنِي يُكْتَب له من الأبواب السلطانية .

النيابة السابعة

(نيابة الكرك . وأرباب الولايات بها من الأبواب السلطانية على أصناف)

الصنف الأول (أرباب السيوف)

وليس بها منهم غير نائب السلطنة ، ويكتب له تقليد في قطع الثلاثين بـ«المجلس العالي» .

وهذه نسخة تقليد نيابة السلطنة بالكرك ، كتب به للأmir «سيف الدين ايتمش» من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي ، وهو :

الحمد لله الذي خصَّ بعزائنا معاقِلَ الإسلام وحُصُونَه ، وبصَرنا باختيار من نرتبه في كلِّ معقلٍ منها من أجدادِ الأُمراء ليحفظه ويصونه ، وجعلها بعنايتنا روضاً تجتلي أبصارُ الأولياء من بيضِ صفائحنا نُوره وتجتني من سُمرِ رماحينَا غُصُونَه ، وعوذها من آياتِ الحرس بما لا تزالُ حُماتها وكُتبتها يروون خبره عن سيفنا المتضى الحفظها ويقصونه .

نحمده على نِعَمه التي أعلت بنا بناء الممالك ، وحاطتها من نبل مهايتنا ، بما لو تسَلَّات بينه الأوهام ضاقت بها المسالك ، وصفحتنا من صفاح عنايتنا ، بما يحول برقه

بينها وبين ما يستر طيف العدا من الظلام الحالك ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تعصم من أوى إلى حرم إخلاصها ، وتنجي غداً من غداً من أهل تقريبها واختصاصها ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أضاءت ملته ، فلم تحف على ذى بصر ، وعلت شرعته ، فغدا باع كل ذى باع عن معارضتها ذا قصر ، وسمت أمته ، فلو جالدها معاد أوبقه الحضر أو جادلها مناو أوثقه الحضر ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانت معاقبتهم صهوات جيادهم ، وحضونهم عرصات جلادهم ، وخيأهم ظلال سيوفهم وظلالهم أفياء صعادهم ؛ صلاة لا يزال الإخلاص لها مقياً ، والإيمان لها مديماً ؛ وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى الحصون الإسلامية بأن تحوط عنايتنا أركانها ، وتعاهد رعايتنا مكانه ؛ وتلاحظ مهابتنا أحواله فتخليها ، وتشاهد أوامرنا قواعده فتشيدها بجمل النظر وتعليها ؛ وتحول سطواتنا بين آمال الأعداء وتوهمه ، وتوجب مخافة بأسنا أفكار أهل العناد عن تأمل ما فى الضمير وتوسمه - حصن انعقد الإجماع على انقطاع قرينه ، وأمتناع نظيره فيما خصه الله به من تحصينه ؛ فهو فرد الدهر العزيز مثاله ، البعيد مثاله ؛ المستكنة فى ضمائر الأودية الغوامض بقعته ، المستجنة بقلل الجبال الشواحق نفعته ، السائر فى أقطار الأرض صيته وسمعته .

ولما كانت قلعة الكرك المحروسة هى هذه العقيلة التى تم ردت آمال الملوك راعمه ، ومنعت أهواء النفوس أن تمثلها فى الكرى الأجفان الحالمه ؛ وكان فلان ممن ينهض مثله بحفظ مثلها ، ويعلم أن أمانتها التى لا تحمها الجبال قد أودعت منه إلى كفتها ووضعت كفايتها فى أهلها ؛ فهو سيفنا الذى يحوطها ذبابه ، وولينا الذى من طمح بصره إلى أفق حله أحرقه شهابه ؛ ونسوا إيماننا التى تشئ كل لىث يقنص

الظفر ظفُرُهُ وَيَنْبُو بِالسِّيَوفِ نَابُهُ ، وَغَدَى دَوْلَتِنَا الَّذِي مَا اعْتَمَدْنَا فِيهِ عَلَى أَمْرٍ إِلَّا كَرُمَ بِهِ نُهُوضُهُ وَحَسُنَ فِيهِ مَنَابُهُ - أَقْتَضَتْ آرَأُونَا الشَّرِيفَةَ أَنْ تُحْصَّصَ بِمَهَابَةِ سَيْفِهِ ، وَتُحْصَّصَ بِمَا فِيهِ مِنْ قُوَّةٍ فِي الْحَقِّ تَكْفُفٌ كُلِّ بَاغٍ عَنْ حَيْفِهِ .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف - لازالت الحصون المصونة تُختال من ملكه في أهبى الخلل ، وتعلو معاقل الكُفر بسلطانهِ علو ملة الإسلام على الملل - أن تفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس تفويضاً يعلي قدره ، ويطلع في أفقها بداره ؛ ويطلق في مصالحها سيفه بالحق وقلمه ، ويمضي في حمايتها أفعاله وكلمه ، ويسدد في أمورها آراءه المقرونة بالصواب وهممه .

فليباشر هذه الرتبة العلية صورة ومعنى ، الملية إذا طاولت الكواكب بأن لا يعلم لها ^(١) أسمى وأسنى ؛ وليجتهد في مصالحها اجتهداً يوالى له من سُكرنا المنح ، ويأتي فيه من مواضينا بالعرض المقترح ؛ ويزيدها إلى حصانتها حصانه وقوه ، ويزينها بسياسته التي تعدو قلوب أهل العناد بخافتها مغزوه . ولينظر في مصالح رجالها فيكون لحمايتهم مقدما ، ولتقدمهم مكرما ؛ ولأعذارهم مزيجا ، ولخواطريهم بتيسير مقرراتهم مريحا . وليكن لمنار الشرع الشريف معظما ، ولأحكامه في كل عقد مُحكما ؛ ولما قرب وبعد من بلاد نيابته عامرا ، ولأكف الجور عن الرعية كافا : فلا يبرح عن الظلم ناهيا وبالعدل أمرا ؛ وملاك الوصايا تقوى الله فليجعلها حلية نفسه ، ونجى أنسه ، ووظيفة اجتهاده التي تظهر بها مزية يومه على أمسه ؛ والله تعالى يسدده في أحواله ، ويعضده في أفعاله وأقواله ؛ بمتنه وكرمه ! .

(١) لعله «بأن لا يعلم اسمى منها وأسنى» .



وهذه نسخة تقليد بناية السلطنة بالكرك ، كتب به للأ مير «تلكتمر الناصري»
 عند ما كان المقر الشهابي أحمد ولد السلطان الملك الناصر بالكرك ، وهو :

الحمد لله الذى جعل بنا الممالك محصنة الحصون ، محمية بكل سيف يقطر من
 حده المنون ، ممنة لا تتخطى إليها الظنون ، محجبة لا تراها من النجوم عيون ؛ رافلة
 من الكواكب فى عقد ثمين ، مينة أشبهت السماء وأشبهت بها فأصبحت هذه
 البروج من هذه لا تبين .

نحمده على نعمة التى رفعت الأقدار ، وشرفت المقدار ، وحلت فى ممالك الشريفة
 كل عقيلة ما كان معصمها المتمد إلى الهلال ليترك بغير سوار ؛ ونشهد أن لا إله
 إلا الله وحده لا شريك له شهادة رفعت للحصون العالية رتبا ، ومليت بها سماؤها
 حرسا وشهبا ، وأعلت مكانها فاقتبست من البرق نارا ووردت من السحاب قلبا ؛
 ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أشرف من بعث ولاة على الأمصار ، وكفاة على
 الأقطار ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ما صدحت الحمايم ، وسفحت الغائم ؛
 وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن خير من حمت به الممالك ، وحمدت - والله المنة - منه المسالك ،
 وأرتقت هممه إلى الشمس والقمر والنجوم وما أشبه ذلك ، من حصل الوثوق به
 فى أشرف مملكة لدينا ، وأفضل ما يعرض فى دولتنا الشريفة من أعمالها الصالحة
 علينا : وهى التى قعدت من الجبال على مفارقتها ، وأتصلت من النجوم بعلائقها ؛
 وتحدرت الغائم من ذيولها ، وطففت على السماء وطافت على الكواكب فحرت المجرة

من سيولها . وكان الكرك المحروس هو المراد، ومدينته التي لم يخلق مثلها في البلاد، وقاعته نشكى الرياح لها طلوع واد ونزول واد؛ وهي أرض تمت بأنها لنا سكن، وتمت مناقبها بما في قلوبنا من حب الوطن؛ واستقرت للقمامات العالية أولادنا - أعزهم الله بنصره - فانتقلت من يمين إلى يسار، وتقابلت بين شموش وأقمار، وجاد بها البحر على الأنهار .

فلما حلت نيابة السلطنة المعظمة بها عرضنا على آرائنا الشريفة من تظمن به القلوب، ويحصل المطلوب، وتجري الأمور به على الحسنى فيما ينوب؛ وتبارى عزائم الرياح بمرمي كل مقلة وهزة جيد، ولا يسك في أنه كفؤ هذه العقيلة، وكافي هذه الكفالة التي ما هي عند الله ولا عندنا قلبه، وكافل هذه المملكة التي تم بها بنية أحسن من بنية وخيلة أحسن من خيلة؛ من كان من أبوانا العالية مطلع، وبين أيدينا الشريفة لا يجهل موضعه؛ طالما تكلمت به الصفوف، وتجملت به الوقوف، وحسن كل موصوف، ولم تخف محاسنه التي هو بها معروف؛ كم له شيمه عليه، وهمة جليه، وتقدمت إقدام بكل نهاية غاية مليه، وعزائم لها بنعته مضاء السيف وباسمه قوة الحديد وهي بالنسبة إليه ملكيه؛ وكان المجلس العالى - أدام الله نعمته - هو لابس هذه البرود التي رقت، والعقود التي نظمت، وجامع هذه الدرر التي قسمت، والدرارى التي سمت إلى السماء لما وسمت؛ وهو من الملائك في الوقار، وله حكم كالماس وبأس يقطع الأحجار، وهو ملك نصفه الآخر من حديد كما أن لله ملائكة نصفهم من الناج ونصفهم من نار؛ وهو الذى اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجعله في خدمة ولدنا - أمتعه الله ببقائنا - نائباً بها، وقائماً بحسن منابها؛ والمتصرف فيها بين أيديه الكريمه، والمتلقى دونه لأمرها التي قلدنا بها عنقه أمانة عظيمة .

فلذلك نخرج الأمر الشريف - لا زال به سيف الدين ماضيا ، ولا برح كل واحد بحكم سيفه في كل تجريد وقلمه في كل تقليد راضيا - أن تقوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكرك المحروس وما معه على عادة من تقدمه فيها ، وقاعدته التي يتكفل لها بالإحسان وبكف العدوان ويكفيها ؛ وكل ما فيها من أمر فهو به منوط ، وكل عمل لها به محوط ، وحكمه في مصالحنا الشريفة في جميع بلادها مبسوط ، وله تطالع الأمور ومنه تصدر المطالعة ؛ وبه تُزال كل ظلامه ، وتُراح كل ملامه ؛ ويؤيد الشرع الشريف ويؤبد حكمه ، وينشر علمه وينشر علمه ؛ وتقام الحدود بحمده ، والمهابة بحمده . ورجال هذه القلعة به تتألف على طاعتنا الشريفة قلوبهم ، والرعيا يعمهم بالعدل والإحسان وأيسر ما عندنا مطلوبهم ؛ وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعيتنا الذين هم لنا ولك ؛ فرفرف عليهم بجناحك ، وخذهم بساحك ؛ والمسارعة إلى آمتال مراسمتنا الشريفة هي أول ما نوصيك باعتماده ، وأولى ما يقبس من نوره ويستمد من أمداه ؛ فلا تقدم شيئا على الانتهاء إلى أمره المطاع ، والعمل في السمع والطاعة باكره ما يمكن أن يستطاع ؛ وخدمة أولادنا فلا تدع فيها مُمكنا ، وأعلم بأن خدمتهم وخدمتنا الشريفة سواء لأنه لا فرق بينهم وبيننا ؛ وهذه القلعة هي التي أودعناها في يمين أمانتك ، وحميناها بسيفك وصنأها بصيانتك ؛ فالله الله ! في هذه الوديعه ، وأد الأمانة فإنها نعمت الذريعة ؛ وأحفظها بقوة الله وتحفظ بأسوارها المنيعه ، وعليك بالتقوى لتقوى والوقوف عند الشريعة ؛ والله تعالى يزيدك علوا ، ويبلغك مرجوا ؛ والاعتماد

قلت : وربما ولي نيابة الكرك من هو جليل الرتبة رفيع القدر ، من أولاد السلطان أو غيرهم ، فتعظم النيابة بعظمه ، ويرفع قدرها بارتفاع قدره ، وتكون مكاتبته وتقليده فوق ما تقدم ، بحسب ما يقتضيه الحال من «الجناب» أو غيره .

وهذه نسخة تقليد بناية السلطنة بالكرّك، كُتِبَ بها عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» لولده الملك الناصر «أحمد» قبل سُلْطَنَتِهِ ، وكتب له فيه بـ«الجناب العالی»، من إنشاء الشريف شهاب الدّین، وهی :

الحمد لله الذي أسعدنا بوراة المملك والممالك، وأرشدنا للرأى المصيب في أن
تستتیب من نشاء من ذلك ؛ وأيدنا بالعون والصّون في حفظ ما هنا ولحظ
ما هناك، وعودنا الإمداد بيمينه المتداول والإيجاد بمنه المتدارك ؛ وسدّدنا بالفضل
والإسعاف إلى أن نتبع من العدل والإنصاف أنجح السبل وأوضح المسالك، وعصّدنا
من دُرِّيتنا بكلّ نجلٍ معرّق، ونجمٍ مشرق، يرشق شهابه، في الكرب الحالّ ويأتلق
صوابه، في الخطب الحالك ؛ وأفردنا بالنظر الجميل، والفكر الجليل، إلى أسعد تحویل
تتير بمراته في الآفاق الشهب الطوالع وتسير ببشره في الأقطار النّجب الرواتك .^(١)

نحمده ! وكيف لا يحمّد العبد المالك ! ، ونشكره على أن أهّلنا لإقامة الشّعاء
وإدامة المناسك ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له جل في جبروته، عن
مُشابهة وتعالى في ملكوته، عن مُشارك ؛ ونشهد أن سيدنا محمّدا عبده ورسوله الذي
أنجّد جنوده من الملا الأعلى بالملائك ، وأمدّ بعوته بالنصر والظفر في جميع المواقف
والمعارك ؛ وأيد أمته بولاية ملوك يجلسون في النّعم على الأرائك، ويخرسون حمى
الدّين بجهادهم وأجتهادهم من كلّ فاتنٍ وفاتك ؛ صلى الله عليه وعلى آله سفن النّجاة
المؤمنين من المخاوف والمنقذين من المهالك ، ورضى الله عن أصحابه الذين نظّموا
شمل الإيمان، وهزّموا جمع البهتان، بكلّ باترٍ وفاتك ؛ صلاةً ورضواناً يضحى لقاتلها

(١) أى القرىيات الخطا .

في اليوم العَبُوسِ وَوَجْهَ الطَّائِقِ وَالثَّغْرِ الضَّاحِكِ ، وَيُنْشَرُ فَيُحْشَرُ مَعَ النَّيِّينِ وَالصَّادِقِينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسَنَ أَوْلِيَاكَ ، مَا أَبْتَهَلَ بِصَالِحِ الدُّعَاءِ ، وَنَاجِحِ الْإِسْتِدْعَاءِ ،
لَا يَأْمَنُ كُلُّ عَائِدٍ وَنَاسِكٍ ، وَعَوْنُ حُسْنِ آرَائِنَا عَلَى تَقْدِيمِ مَنْ هُوَ لِحَمِيلِ آثَارِنَا سَالِكٌ ،
وَأَقْبَلُ بِالْإِقْبَالِ سَنَا شِهَابِهِ الْمُنِيرِ يَجْلُو مَا تُثِيرُ مِنْ لَيْلِ نَقْعِهَا السَّنَابِكُ ، فَخِصْلُ لِلدَّرَكِ
وَالشُّوْبِكِ بِهَذَا التُّدُومِ نَخَارَ مَسِيرِكَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ النُّجُومِ الشُّوَابِكِ .

أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى آثَرْنَا بِتَوْفِيرِ التَّوْفِيقِ ، وَيَسَّرْنَا مِنَ الْهُدَى إِلَى أَقْوَمِ طَرِيقٍ ؛
وَوَهَبْنَا فِي الْمَلِكِ النَّسَبَ الْعَلِيَّ الْعَرِيقَ ، وَالْحَسَبَ الَّذِي هُوَ بِالتَّقْدِيمِ وَالتَّحْكِيمِ حَقِيقٍ ؛
وَقَدَدْنَا مِنْ عَهْدِ بَيْعَةِ السُّلْطَنَةِ الْمَلْحَمَةِ فِي الْآفَاقِ تَطْرِيقَ ، وَلِعَقْدِهِ فِي الْأَعْنَاقِ تَطْوِيقَ ؛
فَفِيَانَا مِنْ شَجَرَةِ هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ النَّاصِرِيِّ الْمَنْصُورِيِّ كُلِّ غُصْنٍ وَرِيقٍ ، وَهِيَ
لِلْبَرِيَّةِ تَكْرِيمًا عَمِيمًا بِتَقْدِيمِ مَنْ لَهُ الْمَجْدُ يَتَعَيَّنُ وَبِهِ السُّؤُدُ يُبْلِقُ ؛ وَأُطْلِعَ فِي أَفْقِ أَعْرَ
الْمَمَالِكِ عَلَيْنَا مِنْ بَيْتِنَا شِهَابٌ عَلَا هُوَ لِلْبَدْرِ فِي الْكَمَالِ وَالْجَمَالِ شَيْبُهُ وَشَقِيقُ ، وَأَطْعَمْنَا
أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي مَعَامَلَةِ الْوَالِدِ الْبَارِ مَعَامَلَةَ الْوَالِدِ الشَّفِيقِ ؛ وَأَوْدَعْنَا لَدَيْهِ مَا أَوْدَعَهُ
اللَّهُ تَعَالَى لَدَيْنَا : مَمْلَكَةً مَرْتَفَعَةً مَتَسَعَةً لِيَرْتَفِعَ مَحَلُّهُ وَيَتَسَّعَ أَمَلُهُ وَلَا يَضِيقَ ، وَجَمَعْنَا
لَهُ أَطْرَافَهَا لِتَكُونَ لِكَلِمَتِهِ الْعُلْيَا بِهَا الْاجْتِمَاعُ مِنْ غَيْرِ تَفْرِيقِ .

وَمَا كَانَ الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْوَالِدِيُّ ، الشَّهَابِيُّ ، سَائِلُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ ، حَلِيلُ
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ : هُوَ الَّذِي تُشِيرُ رَبُّتُ الْكَفَالَةِ بِرَقِيهِ ، وَتَقَرَّرُ عِيُونُ الْأَوْلِيَاءِ بِتَعَيْنِهِ لِإِلْقَاءِ
أَمْرِنَا الْمُطَاعِ وَتَلَقِّيهِ ؛ وَتَلْهَجُ الْأَلْسِنَةُ ضَارِعَةً إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يُخَلِّدَ مُلْكَ بَيْتِهِ
الشَّرِيفِ وَيُبْقِيَهُ ، وَتَعْرُجُ إِلَى السَّمَوَاتِ دَعْوَاتُ الْأَتْقِيَاءِ أَنْ يُوقِيَهُ اللَّهُ مَا يَتَّقِيهِ ؛
وَعَمْسُكَ فِي هَذَا الْمَقَامِ لِسَانَ الْمَقَامِ عَنْ مَدْحِهِ أَدْبًا ، وَتَرْكُ الْإِفْتِخَارِ بِالْمَالِ
وَالْعَدِيدِ إِثَارًا لِثَوَابِ اللَّهِ وَطَلَبًا ؛ وَتُدْرِكُ مَوْعِظَةَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ قَصْدًا وَأَرْبَابًا :

(١) ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عِقَابًا﴾ . وبِرَكَّةِ هَذَا الْقَصْدِ يَتِمُّ لَنَا فِيهِ الْمُرَادُ ، وَيَعْنِي هَذِهِ الْمَمْلُوكَةَ النَّفْعُ بِهَذَا الْإِفْرَادِ ؛ فَإِنَّهَا مَعَهُدُ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ ، وَمَشْهُدُ الْوَفْرِ وَالْمَنْحِ ؛ وَمَصْعَدُ الْعِزِّ الَّذِي لِمَا وَطِئْنَا صَرْحَهُ تَدَكُّدَكَ لِعِدَا كُلِّ صَرْحٍ ، وَتَمَلُّكَ لِلْهُدَى كُلِّ سَرْحٍ ؛ وَتَشَقُّقُنَا بِهَا لِقُرْبِ الْمِزَارِ مِنْ طِيبِ طَيْبَةِ أَعْظَمِ نَفْعٍ ، وَقَدْ بَقِيَ نَا بِجَاهِ الْحَالِ بِهَا فِي تَيْسِيرِ التَّائِيدِ فَكَانَ كَاللَّحِّ ؛ وَجَرَى خَلْفُنَا السَّمْعُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى عَادَتِهِ فِي الْحَكْمِ وَالصَّفْحِ ، وَسَرَى ذِكْرُنَا فِي الشَّرْقِ وَالغَرْبِ وَلِلْمُعَادَاةِ بِهِ أَطْرُبُ صَدْحٍ ، وَآتَى اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ مُلْكًا نِعْمًا نَجَلٌ عَنِ الْعَدِّ وَالشَّرْحِ ؛ فِيهَا مَنَشَأُ دَوْلَةِ الدُّوَلِ وَمِنْهَا فَتَحَ الْفَتْوحِ ، وَبِإِضَافَتِهِ إِلَيْنَا تَفَاوُلُ خَيْرٍ مَشْهُورٍ مَمْنُوحٍ ؛ كَمَا قِيلَ قَبْلَهَا كَرَّكَ نُوحٍ ، فَبِطَهْيِيرِ الْأَرْضِ مِنَ الْكُفَّارِ ، عِزَائِمُنَا تَفْدُو وَتُرُوحِ ، وَبِالْأَسْتِنَادِ بِأَطْوَلِ الْأَعْمَارِ ، أَمَارَةٌ بَادِيَةُ الْوُضُوحِ ؛ وَأَتَارُ بِرَكَّةِ الْأَسْمِ الشَّرِيفِ الْمُحَمَّدِيِّ تَظْهَرُ عَلَيْنَا فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَّاتِ وَتَلُوحِ ، وَنَحَارُ هَذِهِ الْمَمْلُوكَةَ الْمُبَارَكَةَ : لِأَخْتِصَاصِهَا بِالْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ عَلَيْهَا طَلَاوَةٌ وَسَعَادَةٌ وَفِيهَا رُوحٌ ؛ وَكَأَنَّ قَدْ سَلَكْنَا بِهَذَا الْوَلَدِ النَّبِيلِ ، سَنَةَ أَبِي الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ ، فِي وَلَدِهِ إِسْمَاعِيلَ ، عَلَيْهِمَا السَّلَامُ التَّامُّ فِي كُلِّ بُكْرَةٍ وَأَصِيلٍ ؛ حَيْثُ فَارَقَهُ وَأَفْرَدَهُ ، وَتَفَقَّدَهُ فِي كُلِّ حِينٍ وَتَعَهَّدَهُ ؛ حَتَّى شَدَّ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَضْدَهُ وَرَفَعَ هُوَ وَأَبُوهُ قَوَاعِدَ الْبَيْتِ وَأَعَانَهُ لِمَا شَيْدَهُ ، فَأَجْمَلَ اللَّهُ لَنَا هَذَا الْقَصْدَ وَأَحْمَدَهُ ، وَكَمَّلَ هَذَا الشَّرُوعَ وَأَسْعَدَهُ ؛ وَأَجْزَلَ [لَهُ] مِنْ فَوَائِدِهِ أَوْفَرِ هِبَةٍ وَأُنْجِزَلَهُ مِنْ عَوَائِدِهِ أَصْدَقَ عَدَهُ ؛ فَأَحْلَلْنَاهُ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ بِمَمْلُوكَةِ الْكَرْكِ فَسَلَّكَ مِنْ حُسْنِ السَّجَايَا أَحْسَنَ مَسَلَّكَ ، وَمَلَّكَ قُلُوبَ الرَّعَايَا وَمِمَّا وَهَبَ مِنَ الْمَنْحِ تَمَلَّكَ ؛ وَبَسْتَنَّا فِي التَّوَضُّعِ لِلْحَقِّ مَعَ الْخَلْقِ تَمَسَّكَ ، وَبَشِيمَنَا وَخَلَقْنَا فِي الْجُودِ تَحَلَّقَ فَبَدَّلَ وَمَا أَمْسَكَ .

(١) التلاوة «وخير أملا» أما وخير عقبا فهو في آية قبلها .

ولما بلغ أشده وأستوى، وبرزغ شهاب علاه الذى هو وبدر الساء سوا؛ وحاز
مكارم الأخلاق وحوى، وفاز سلطاننا فى نجاته بحسن النية: "وإنما ليكل أمرئ
ما نوى" - حكمانه فى هذه النيابة التى ألفتها ودرّجها، وعرف أمورها وجرّجها،
وآستمال خواطر أهلها وآستجلبها، وأدنى لهم لما دنا منهم الميامن ولما قرّجها
منهم قرّجها، وآستحقّ كفاتمها وآستوججها، وأظهر الله تعالى فيه من الشائل أنججها،
ومن الخلائق أرحبها، ومن الأعراق أطيبها، ومن العوارف أنسبها، ومن العواطف
أقربها، ومن البسالة أرففها وأرهبها، ومن الجلالة أحبها إلى القلوب وأعجبها، ومن
السيادة ما أخذت نفسه لها أهبها، ومن الزيادة ما يتعين [له] شكر الله الواهب الذى
وهبها، ومن السعادة ما رفعت الأقدار على مناكب الكواكب رتبها، وأطلعت
لجئاته سماء العلياء شهبها، ورقّت على هامة الجوزاء منصبها، وآستصجبت من العناية
لهذا البيت مزينة فرض الله بها له الطاعة وكتبها؛ فاستخّرنا الله الذى يجتار لنا
ويخير، وسألناه التأييد والتيسير؛ وفوضنا إليه وهو الكفيل لنا بالتدبير، فى كلّ مبدئ
ومصير، واستعنا به وهو نعم النصير، وأقتضى حسن الرأى الشريف أن نُسرح
شهابه المنير، ونُدجج للأولياء بمن التأثيل بحسن هذا التأثير، ونُهبج فى بره سبلا
تقدّمنا إليها كلّ ذى منبر وسرير، ونُثلج الصدور ونُقرّ العيون بسعيد هذا الإصدار
وحميد هذا التقرير.

فذلك رسم بالأمر الشريف - لا برح أمره يصيب السداد فيما إليه يصير،
وخبره يحمل الموافاة فلا لئسنة عن مكافأة بره تنصير - أن تفوض نيابة السلطنة
الشريفة بالكرّك المحروس والشوبك للجناب العالى، الولدى، الشهابى، وما ينضم
إلى ذلك وينضاف، من جميع الأقطار والأكفاف؛ وجمعنا له من هذه المملكة
الأطراف، وجعلنا له على سهلها وجببها إشراف، وصرفناه منها فيما هو عن علمه

الكريم غير خاف ؛ نيابةً كامله ، كافله شامله ، عامه ، تامه ؛ وافره ، سافره ؛ يستلزم طاعته فيها الافتراض ، ونحسم عنه فيها مواد الاعتراض ، وتتفد مراسمه من غير توقف ولا انتقاض ، وتبسط يده البيضاء من غير انقباض ، ويرتفع رأيه من غير انخفاض .

فلتقدر رعية هذه البلاد نعمة هذا التفويض قدرها ، وليسألوا الله أن يوزعهم لحسن هذا التفويض شكرها ؛ فقد أنشأ لهم يسرها ، وأفاء لهم برها ؛ وألقى إليهم جودها وخيرها ، وأبقى عندهم عزها ونصرها . ولتبعوا السبيل القويم ، وليجمعوا على الطاعة التي تبتغي عليهم نعمة العافية وتديم ؛ ولتسمعوا ويطيعوا لما يرد إليهم من المراسيم ، فمن لم يستقم كما أمر لا يستمر بهذه البلاد ولا يقيم ؛ والعاقل لنفسه خصيم ، والجاهل من عدم النعمة وحرم النعيم ؛ وفراستنا تلمح نتائج الخير من هذا التقديم ، وسياستنا تصلح ما قرب منا وما بعد بتعريف أحكام التحكيم ؛ وكيف لا ؟ وهو الكريم بن الكريم بن الكريم ، المؤمل لتمام السؤدد قبل أن يُعقد عليه التميم ؛ المشتمل على الخلال الموجبة له الفضل العيم ، المتوصل بمن حركاته إلى أن يكون مثل هذا الملك العظيم ؛ وإلى أمانته استيداع ، وإلى صيافته تسليم ، المقبل وجهدنا الإقبال فتتلو الرجال : ﴿ ماهذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ﴾ .

ونحن نأمرك من التقوى بما به من الله أمرنا ، ونبصرك من الهدى بما له هدينا وبصرنا ، ونبني لديك من بدائعها ما به خصاصنا وأثرنا ؛ ونوصيك أتباعاً للكتاب والسنة ، ونؤتيك من الهداية ما لله في الإرشاد إليه المنه : فقد وعظ ووصى لقان - عليه السلام - أبنه ، وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل لما بعته إلى اليمن فحقق الله تعالى في نجاحه رجاءه وفي فلاحه ظنه ؛ ونذكر جنابك ، ونرجو أن

تكون ممن تنفعه الذكرى، وتسير شهابك، إلى أفق السعد وتأمل أن تيسر لليسرى،
وتؤمرك فتزيد علم عزك رفعا ولواء مجديك نشرا، وتأمرك ثقة بحسن أخلاقك،
فيتلو لسان وفائقك: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ . فمثلك
من أيدته العزم، وأصعدته الهمم، وحمدته الأمم، وأرشدته إلى الحكم ما عهدته
فكرته من الحكم، وسدته أعراقه وأخلاقه فلا يزداد على ما فيه من كرم؛ فلا تذكرك
منك ناسيا، ولا تفكر لأهيا، ولا تأمر وتنهى إلا من لم يزل بالمعروف أمرا وعن
المنكر ناهيا .

فأتق الله تعالى: فعلى التقوى مراك، وراقب الله تعالى: فالمرقبة للملك من
بيتك ملاك، وجد في نصرة الحق ولا تأب: فقد أنجد الله تعالى بذلك جدك وأباك،
وأعدل فبالعدل تعمر الدول وأقم منار الشرع، فهو الأصل الذي يرد إليه من القضايا
كل فرع، ومجاله الرحب إذا ضاق الدرع؛ فأيد حاكمه، وشيّد معالمه؛ وأكّد
الإلزام بأحكامه الألازمه .

والأمراء والجند فهم جناح النجاج، وصفاح الصفاح؛ فاعتمد أحوالهم بالصلاح،
وأرد فيهم ما استطعت الإصلاح . والخيالة والرجالة الذين يُحجى بهم مصون الحصون
أن يستباح، فالخط أمورهم بعين فكرك في كل مساء وصباح، فمن نهض في الخدمة
تعين من النعمة أن يزداد ومن قصر في العزم قضى الخزم أن يراح . والرعايا فهم
للإحسان ودائع، وللأمتين صنائع؛ فأعذب لهم من المعدلة المشاريع، وأنصب
لهم من إقامة الحرمة الزواجر والروادع؛ وأخصب لهم من النعمة مربعا يرغب الحاجح
ويقرب الطائع . وأهل الذمة فأوهم إلى كنف العدل الواسع، وأحهم أن تمتد
إلى أنفسهم يد جان وإلى أموالهم يد طامع، وأقم عليهم بأسا يحل بهم إذا اعتدوا

القَوَاصِمَ وَالقَوَارِعَ ، وَأَدِيمَ لَهُمْ مَهَابَةَ تُسَدُّ مِنْ فسادِ الذَّرَائِعِ ، وَعَاوِدَ آراءَنَا الشَّرِيفَةَ
 وَرَاجِعَ ، وَوَأَصَلَ بِأَنْبَائِكَ السَّارَةَ وَأَفْعَالَكَ الْبَارَةَ وَتَابِعَ ، وَبِمَا نَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ خَوَاطِرُنَا
 الْعَاطِفَةَ مِنْ مُتَجَدِّدَاتِكَ الْمُبَارَكَةِ أَتَمَّحِفَ وَطَالِعَ ؛ وَاللَّهِ تَعَالَى يَشْفَى بِحَسَنِ سِيرَتِكَ
 الْمَسَامِعَ ، وَيَشْرَفُ بِمَجْلُودِ عَدْلِكَ الْحَافِلَ وَالْمَجَامِعَ ، وَيُوزِعُكَ شُكْرَ نِعْمَتِهِ وَيَجْعَلُ لَكَ
 مِنْ عِصْمَتِهِ أَعْظَمَ وَازِعَ ، وَيَمْتَعِكَ بِأَيَّامِنَا الَّتِي فِيهَا الْخَيْرُ الشَّامِلُ وَالْبِرُّ الْجَامِعُ ،
 وَيَصُونُ بِجَلَالِكَ الْحُسْنَى مَا اسْتَطَعْتَ مِنْ أَسْنَى الْوَدَائِعِ ، وَيُزِينُ سَمَاءَ الْعَلْيَاءِ
 بِجَلَالِكَ فَمِنْهَا لَكَ قَمَرَاهَا وَالنَّجُومُ الطَّوَالِعُ ، وَيُوفِّقُ بِجَمِيلِ قِصْدِكَ إِلَى أَنْ تَأْخُذَ
 مِنَ الْقَسْلُوبِ بِالْمَجَامِعِ ، وَيَحْتَقِقُ فِي إِسْعَادِ جَنَابِكَ الْمَطَالِبَ وَيُشْرِقُ بِإِصْعَادِ شَهَابِكَ
 الْمَطَالِعَ ؛ وَالْعَلَامَةُ

الصف الثاني - أرباب الوظائف الدينية . وبها قاض واحد شافعي ،
 وتوقيعه في قطع الثلث بـ «السامى» بالياء .

الصف الثالث - الوظائف الديوانية . وهي ثلاث وظائف ، يكتب لكل
 منها توقيع في قطع العادة . الأولى كتابة الدرج . الثانية نظر المال . الثالثة
 نظر الجيش .

القسم الثالث

(مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية -

ما يكتب لأرباب الوظائف بالملكة الحجازية)

وقد تقدم أنها تشمل على ثلاث قواعد :

(١) لعله «ما استحفظت» .

القاعدة الأولى

(مكة المشرفة ، وبها وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(الإمارة)

وقد تقدم أن إمارتها في بني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وأنها كانت تُولى من أبواب الخلافة ببغداد إلى حين انقراضها ، إلا ما تغلب عليه الفاطميون أصحاب مصر في خلال ذلك . ثم استقرت آنحاً من جهة ملوك مصر إلى الآن . ويكتب له تقليد في قطع النصف بـ «المجلس العالى» بزيادة ألقاب تخصه ، وقد تقدمت ألقابه في أول هذا الطرف .

وهذه نسخة تقليد بإمرة مكة المشرفة : كتب بها عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون » لأسد الدين « رميثة » بن أبي نُمى ، بإمرة مكة المشرفة ، عوضاً عن أخيه « عطيفة » عند قتل الأمير الدمرجان دار وولده خليل ، من إنشاء المولى تاج الدين ابن الباربارى رحمه الله ، في المحرم سنة إحدى وثلاثين وسبعائة ، وهى :

الحمد لله الحكيم : فالشريف من أتبع أوامره ، العظيم : فالسعيد من أتقى غضبه بأعماله الزاكية ونياته الطاهرة ، الكريم : فالقائم من سلك مراضيه في الدنيا ليأمن في الآخرة ؛ ومن أخاف عاكف حرم الله وبأديه فقد باء بالأفعال الخاسره ، ومن عظم شعائر الله فقد رقل في حلل الإقبال الفاجر .

نحمده على ألطافه الباطنة والظاهرة ، ونشكوه ونرجوه وما زال يُنجح راجيه ويزيد شاكوه ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من اتخذ الحق ناصره ،

وأودع إخلاصها ضمائرَه ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله من الحرم
فألف القلوب النافره ، وفتح مكة فطهرها من الزمرة الكافره ، وقال في ذلك اليوم :
« من أعلق عليه بابه فقد أمن » فأمسى أهلها ونفوسهم بالأمن ظافره ؛ صلى الله عليه
وعلى آله نبي الزهراء العترة الزاهرة ، وعلى صحبه النجوم السافره ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فإن الحكم [بالعدل] شعارنا ، وباللله اقتدأونا وأقترأنا ؛ وفي الإحسان
رغبنا ، وفي كل عنق متناً ؛ نصّح ونمّح ، وزعنا من أمسى قديم الهجرة في ولايتنا
وأصبح ؛ وقيم من أهل البيت لحفظ ذلك البيت الأصلح فالأصلح ، وتقدم من لم
يزل مقدماً وإلى صوب الصواب ينجح فينجح ، وتنجي من الهلكة من لاح له
منهج الخير فسلكه فأفلح .

وكانت مكة المعظمة هي أم القرى ، والبلد الامين المجل في القرى ؛ نشأ الإسلام
في بطحاءها ، وحرّمها الله فلا ينفر صيدها ، ولا يعضد شجرها ، ولا تحل لقطتها
إلا لمنشد تاكيداً لتشريفها وإعلائها ؛ وطلعت شمس النبوة من شعابها ، وغسلت
الذنوب بوبل سحابها ؛ فيها زمزم وكرة جبريل ، وفيها بدأ الوحي والتنزيل ، وإليها
أعنت الركاب ففي كل أبطح للطى مسير ومسيل ؛ فكم أتى إليها من سائر الناس
سائر ، وكم أتى إليها الناس رجالاً وعلى كل ضامر ؛ فالرحمة مستقرة بين نواحيها
والعيون تملئ بأنوار تلك الأستار حتى تجتليها ، والشفاة تشرف بتقبيل ذلك الحجر
الذي يشهد لما في غد ويقيها ؛ فطوبى لمتقيها ، وسحقاً لمن أخاف وقد الله فيها ؛ ونحن
قد بصرنا الله بخدمة بيتها المحرم ، وحرّمها المعظم ، وكرّر إليها حجنا وكرّمه : فله الحمد
أن كرّر حجنا وكرّمه ؛ وما برحنا نقيم في إمارتها من العترة النبوية كل شريف النسب ،

وكلُّ من يكتسب فيها رضا الله تعالى : وكلُّ أمرئٍ وما اكتسب ؛ فمن أصلح منهم أقنناه ، ومن حاد عن الطاعة وجمد النعمة أزلناه ؛ ومن أخاف فيه السبيل لم نجعل له إلى الخير سبيلا ، ومن استقام على الطريقة توكلنا على الله ووليناه : وكفى بالله وكيلا .

وكان فلان هو الذى مازالت خواطرننا الشريفة تقدمه على بنى أبيه ، وتختاره أميرا وتجنبيه ؛ وربما سلفت من بيته هنات صفحنا عنها الصّفح الجميل ، وما قابلناهم إلا بما يليق لمجدهم الحسنى الحسنى الأصيل ؛ والإمرة وإن كانت بيد غيره هذه المدة فما كان فى الحقيقة أميراً عندنا سواه ، لأنه كبير بيته المشكور من سائر الأقبواه .

والآن قد اقتضت آراؤنا الشريفة أن نقيمه فى بلده أميراً مفرداً إليه يشار ، وأن نصطفيه : وإنه عندنا لمن المصطفين الأخيار ، وأن نجعل الكلمة واحدة ليأمن التزبل والجار ؛ ومتى تجاذب الأمر كلمتان فسد نظامه ، ومتى أفرد الحكم حسنت أحكامه ؛ ومتى توحد الأمر زال الاختلاف ، وزاد الائتلاف ، وأقبلت أيامه .

فذلك رسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه إمرة مكة المشرفة ، على عادة والده . فليقلد ما فوضناه إليه من الإمرة والنيابة بمكة المعظمة : شاكراً ما أنعم الله به عليه من مراضينا التى لانجاة لمن لم ينل منها نصيباً موفوراً ، ولا فوزاً لمن لم يدرك منها حظاً كبيراً ؛ وليشرع فى تمهيد البلاد من إزالة المظلمة ، وليطهرها من كل مجترئ على الله تعالى فى البقعة المحرمة ؛ ولا يُترّب من فى قلبه مرض فيعديه ، ولا يرجع لمن فيه شقاق ظاهر فى صفحات وجهه وفتات فيه ؛ وليعلم أن هذا بلد حرام حرّمه الله يوم خلق السموات والأرض ، وصير حج بيته على مستطيعه من الفرض ؛ وجعله للناس معاداً ومعاداً ، وقال صلى الله عليه وسلم يوم

عَرَفَةَ : « إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ حُرْمَةً يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا » .

فَلْيَمْنَعِ الدَّمَاءَ مِنْ أَنْ تُرَاقَ ، وَالْأَمْوَالَ مِنْ أَنْ تُؤْخَذَ بِغَيْرِ اسْتِحْقَاقٍ ، وَالظُّلْمَ فِي الْبَلَدِ الْحَرَامِ حَرَامًا ، وَبَنُو حَسَنٍ أَحَقُّ بِاتِّبَاعِ سُنَّةِ الْإِسْلَامِ ، وَأَتَقَى اللَّهَ لَتَلْقَاهُ بِالْوَجْهِ الْأَبْيَضِ وَالْعَمَلِ الْأَعْرَبِ ، وَأَتَّبِعْ سُنَّةَ جَدِّكَ : فَعَلَى اتِّبَاعِهَا حَتٌّ وَأَمْرٌ ، وَأَلْقِ وَفَدِ اللَّهَ فِي الْبِرِّ وَالْبَحْرِ بِالْحُسْنَى فَمِنْ أَضْيَافِهِ ، وَأَمِّنِ الْحَجَّ لَيْتَمَ نُسَكُهُ وَطَوَّأَهُ .

هَذَا تَقْلِيدُنَا لَكَ أَيُّهَا الشَّرِيفُ : فِطْبُ نَفْسًا بِمَرَاضِينَا ، وَصَفْحًا عَمَّا مَضَى وَمَنْحِنَا الرِّضَا حَقًّا يَقِينًا ، لِأَنَّا نَتَحَقَّقُ أَنَّ الْإِحْسَانَ يَحْرُسُنَا وَيَقِينُنَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة تقليد شريف لأمر مكة المشرفة :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَنَصَبَ فِيهِ لِلْقَائِمِينَ رُكْنًا ، وَجَعَلَ أَرْضَ الْحَرَمِ لَا تَلِيدُ بِرُكَاثِمِهَا وَلَا تَفْنَى ، وَجَعَلَ لَشَجَرَةِ النَّسَبِ الْمَهَاشِمِيِّ فِيهَا أَصْلًا شَرِيفًا كَمْ أَنْجَرَجُ غُصْنًا ، وَأَتَى نَبِيَّ الْحَسَنِ فِيهَا إِحْسَانًا مِنْ لَدُنْهُ وَحُسْنًا ، وَأَقَامَ مِنْهُمْ أَمِيرًا فِي ذَلِكَ الْمَحَلِّ الْأَسْنَى .

نَحْمَدُهُ فِرَادَى وَمَعْنَى ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً كَامِلَةً اللَّفْظِ وَالْمَعْنَى ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَهِدَ اللَّهُ بِهِ لِلدِّينِ خَيْرَ مَبْنَى ، وَأُصْحَتِ الضُّلُوعِ عَلَى مَحَبَّتِهِ تُحْنَى ، وَثَمَارُ الْخَيْرِ مَمَائِنَ رَوْضَتِهِ وَمِنْبَرُهُ تُجْنَى ، وَخَصَّه اللَّهُ بِالشَّرْعِ الْمُسْتَقِيمِ وَاللِّدِينِ الْأَهْنَى ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً فِي الصَّدُورِ لَهَا سُكْنَى ، وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا .

وبعد ، فإنَّ أمَّ القرى ، خير البلاد بلا مِراً ، قد جعل الله للناس إليها رحمةً
وسرى ، وهجروا في قَصْدِهِم إليها لذيذ الكرى ، ونصبَ فيها بيتاً مَينَ العرى ، وأنبع
فيها بئراً مأوها يشفي السَّقِيم ويبرئ الورى ، وجعل فيها للشرف بيتاً على الدرى ؛
فأميرها المطاع ، من أهل بيت النبوة لا يُحِبُّ ولا يُضَاع ، ذُوهمَة تخافها السباع ،
ويرهبها البطل الشجاع ؛ يعدُّ من الآباء أسلافاً كراماً ، كمصابيح السماء تجلو ظلاماً ،
وقد طيب الله مقامهم وأعلى مقامهم حين جاؤوا مقاما .

ولما كان هو شريف العرب ، المعرق في النسب ، الطيب الحسب ،
المحي من آثار آباءه ما ذهب ، الشريف النفس : فلا يلتفت إلى العرض الأدنى
من الرقة وأكد شكره الحرم وأهله ، وأثنى على صفاء سيرته الصفا وعلى مروءته
المروءة إذ طاب أصله ؛ قد أقتفى في الكرم أباه وجدّه ، وأمن سبيل الحاج من جهة
البر ومن جهة البحر من جدّه .

فذلك رسم أن يفوض إليه فليحل البلد الحرام حاكماً وأميراً ،
وليستجلب له من العاكف والباد شاكراً ، وليحسن للطائفين والعاكفين والرَّع
السُّجود ، وليتبع آثار آباءه أهل الكرم والجود ؛ وليؤمن الخائف في تلك التهائم
والنُّجود ، وليردع الخائف عن حيفه فلا يعود ، وليعلم أنه بوادٍ غير ذي زرع ولكن
فيه للبركات ظلٌّ ممدود ، وخير مشهود ؛ وبمكة مولدٍ أشرف مولود ، وجدّه الحسن
رضى الله عنه فليكن حسن الفعل فكما ساد يسود ، وليعرب عن الثناء الأبيض عند
ما يتمسك بتلك السُّور السود ؛ وليتلق المحمل الشريف في كل عام ، بالاحتفال
والإكرام ، والطاعة التي يبلغ بها المرام ، وليقف مع أمراء الحاج مقياً حرمتهم
بجميل الاحترام ؛ وليكف الأشرار من العبيد والموالي ، عن النهب والتخطف لو فد

(١) الورى اسم للقيح يكون في الجوف .

الله الذي قَطَعَ السرى بالأيام والليالي ؛ وليلَازِمُ خدَمَةَ الحَمَلِ الشريفِ على ما يناسب شرفه ، حتى يقف بعرفه ، ثم يدفع إلى المزدلفه ، إلى أن يقضى الحجَّ ويرحل من مكة المشرفة ؛ وليكن سياجاً على الحجَّاج ، في تلك الفجاج ، حتى لا يفقد أحدهم عقلاً ، ولا يحدَّ اختِلالاً ، ويرحلون عن مكة المعظمة من الذنوب خفافاً وبمنته ثقالاً . والوصايا كثيرة وهو غني عن أن نطيل له فيها مقالاً ، وتقوى الله فمن تمسك بها حسن حالاً ، وأتم أهلها كرمكم الله أهلاً وآلاً ، والله في حفظ جانب الصحابة رضى الله عنهم فليردع عن الخوض فيهم جهلاً ، والله يجعله مغموراً مسروراً بنعم الله تعالى ، بمنه وكرمه ! .



وهذه وصية لأمر مكة ، أوردتها في "التعريف" :

وليعلم أنه قد ولى حيث وُلِدَ بمكة في سرة بطحائها ، وأمر عليها ما بين بطن نعاينها إلى بقوة روحائها ؛ وأنه قد جعلت له ولاية هذا البيت الذي به تم شرفه ، وعلت غرفه ، وعرف حقه له أبطحه ومعرفه ، إذ كان أولى ولاية هذا الحرم بتعظيم حرمانه ، وسرور جوانبه بما يلوح من البشر على قيماته ؛ ولأنه أحق بنى الزهراء بما أبقت له أبؤه ، وألقته إليه من حديث فضيَّ جدّه الأقصى أنباؤه ؛ وهو أجدر من طهر هذا المسجد من أشياء يتزه أن يلحق به فحش عايبها ، وشنعاء هو يعرف كيف يتبعتها «وأهل مكة أعرف بشعابها» .

فلتلق راية هذه الولاية باليمين ، ولتوق ما يتخوف به ذلك البلد الأمين ؛ وليعلم أنه قد أعطى الله عهدَه وهو بين ركن ومقام ، وأنه قد باع الله : والله عزيز ذو انتقام ؛ وليعمر تلك المواطن ، ويعمر بيده المار والقاطن ؛ وليعمل في ذلك

(١) في الأصل «نمرة» والتصحيح من "التعريف" (ص ١٠٤) .

بِمَا يُنَجِّثُ عَنْهُ نِجَارَهُ ، وَيَأْمَنُ بِهِ سُكَّانُ ذَلِكَ الْحَرَمِ الَّذِي لَا يُرْوَعُ حَمَاهُ فَكَيْفَ جَارُهُ ، وَلِيُنْصِتَ إِلَى أَسْمِهِ [عَزَّ وَجَلَّ] حَيْثُ يُعَانُ بِهِ الدَّاعِي عَلَى قُبَّةِ زَمْرَمٍ فِي كُلِّ مَسَاءٍ وَيُعْرِفُ حَقَّ هَذِهِ النِّعْمَةِ ، وَيُعَايِلُ مِنْ وُلَّى عَلَيْهِمْ بِمَا يَلِيْقُ أَنْ يُعَايِلَ بِهِ مَنْ وَقَفَ تَحْتَ مِيزَابِ الرَّحْمَةِ ؛ وَقَدْ أَكَّدَ مُؤْتَمِّقَهُ وَاللَّهُ اللَّهُ فِي تَقْضِيهِ ، وَمَدَّ يَدَهُ عَلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ يَمِينِ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ ؛ وَلِيَتَبَصَّرَ أَيْنَ هُوَ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ آسَأَمَنَهُ عَلَى بَيْتِهِ الَّذِي بَنَاهُ ، وَسَلَّمَهُ إِلَيْهِ بِمَشْعَرِهِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِ خَيْفِهِ وَمِنَاهُ ؛ وَإِنَّهُ الْبَيْتُ الْمَقْصُودُ : وَكُلُّ مَنْ تَسَوَّقَ حِمَى لَيْلَىٰ فَإِنَّمَا قَصَدَهُ أَوْ لَمَلَعَ بَلْعَلَعَ فَإِنَّمَا عَنَاهُ ؛ وَفِي جَمْعِهِ يَجْتَمِعُ كُلُّ شَيْئٍ ، وَفِي لَيْلَىٰ مَنَاهُ يَطِيبُ الْمَيْتَ ؛ وَبِحُصَّيْهِ تُقَامُ الْمَوَاسِمُ ، وَتَقْتَرُّ الثُّغُورُ الْبَوَاسِمُ ، وَتَهْبُ مِنْ قَبْلِ نَعْمَانَ الرِّيَّاحُ النَّوَاسِمُ ؛ وَفِي عَقْوَةِ دَارِهِ مَحَطُّ الرِّحَالِ فِي كُلِّ عَامٍ ، وَمَقَرُّ كُلِّ ذَاتِ عُدُوذٍ تُجَذَّبُ بِقَلْعٍ وَعُودٍ تُقَادُ بِزِمَامٍ ؛ وَإِلَيْهِ تَضْرِبُ التِّجَارُ الْبَرَارِيَّ وَالْبِحَارَ ، وَتَأْتِيهِ الْوُفُودُ عَلَى كُلِّ قِطَارٍ يُجَدَىٰ مِنَ الْأَقْطَارِ ؛ وَكُلُّ هَؤُلَاءِ إِنَّمَا يَأْتُونَ فِي ذِمَامِ اللَّهِ بَيْتِهِ الَّذِي مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَإِلَىٰ مَحَلِّ آبِنِ بِنْتِ نَبِيِّهِ الَّذِي يَلْزِمُهُ مِنْ طَرِيقِ بَرِّ الضَّيْفِ مَا أَخَذَ لَهُمْ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ضَايِمًا .

فَلْيَأْخُذْ بِنِ اطَّاعِ مَنْ عَصَى ، وَلِيَرْدَعْ كُلَّ مَفْسِدٍ وَلَا سِيَّئًا الْعَبِيدُ فَإِنَّ الْعَبْدَ الْمَفْسِدَ لَا يَزُجِرُهُ إِلَّا الْعَصَا ؛ وَلِيَتَلَقَّ الْجَجَّاجَ بِالرُّحْبِ وَالسَّعَةِ ، فَهَمْ زُوَّارُهُ وَقَدْ دَعَاهُمْ إِلَىٰ بَيْتِهِ وَإِنَّمَا دَعَاهُمْ إِلَىٰ دَعَاةٍ ؛ وَلِيَتَلَقَّ الْحَمَلِ الشَّرِيفَ وَالْعَصَائِبَ الْمَنْصُورَةَ ، وَلِيُخْدِمَ عَلَىٰ الْعَادَةِ الَّتِي هِيَ مِنَ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مَعْنَىٰ وَمَعْنَىٰ صُورَهُ ؛ وَلْيَأْخُذْ بِخَوَاطِرِ التِّجَارِ فَإِنَّهُمْ سَبَبُ الرَّفْقِ لِأَهْلِ هَذَا الْبَلَدِ وَتَوْسِعَةَ مَا لَدَيْهِمْ ، وَالْمُسْتَجَابُ فِيهِمْ دَعْوَةُ خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ - إِذْ قَالَ : ﴿ وَأَجْعَلْ أَفْنِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ . وَلَا تَحْيِفْ أَمْوَالَهُمْ بِغَرَامَةٍ يَقْلُ بِهَا الْعُمْ ، وَلَا بَطْلَامَةً فَإِنَّهُ بِيَازَاءِ هَذَا

البيت الذي يردُّ دُونَهُ من أراد فيه إلحاداً بظلم ؛ ولينظر كيف حُيس دُونَهُ الفيل ،
 وليكف عاديةً من جاوره من الأعراب حتى لا يخاف ابن سبيل ؛ وليقيم شعائر
 الشرع المطهر ، وأوامر أحكامه التي قامت بأبويه : بحكم جدّه سيدنا محمد صلى الله
 عليه وسلم وسيف أبيه حيدر . وليأمر طوائف الأشراف وأشياهم وسائر أهل
 موالاتهم وأتباعهم بلزوم ما كان عليه صالح السلف وما عليه الإجماع ، وتجنب ما كانت
 الزيدية زادت فيه وكف الأطلاع ، ولتق الله فإنه مسئولٌ لديه عما آستره
 وقد أصبح وهو له راع ؛ وإياه أن يتكل على شرف بلده ، فإن الأرض لا تقُدُّس
 أحداً ، أو شرف محبده ، فإن في يوم القيامة لا ينفع ولدٌ والداً ولا والدٌ ولداً .

الوظيفة الثانية

(قضاء مكة ، ويكتب به توقيعٌ في قطع الثلث بـ«السامي» بالياء)

وهذه نسخة توقيع بقضاء مكة المشرفة :

الحمد لله الذي أنفذ الأحكام ، بالبلد الحرام ؛ وأيد كلمة الشرع في بلده
 ومنشئه بين الركن والمقام ، وجعل الإنصاف الجزيل ، حول حجر إسماعيل ؛
 متسق النظام .

نحمده حمداً حسنَ الدوام ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
 عبدٍ قائمٍ بحقها أحسن القيام ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله السامي من ولد
 سَام ، والذي قام لله حتى ورمت منه الأقدام ؛ وأسرى به من مكة إلى السماء
 مرتين : في اليقظة والمنام ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الصلاة والصيام ؛
 وسلم تسليماً .

وبعد ، فإنَّ وظيفة القضاء بِمَكَّةِ المعظمةِ هي أَجَلٌ مَنْصِبٍ بتلك الأباطح ،
ونورها في الجبينِ لألح ؛ فإنَّ الشرع نَسَأَ منها والوحي أنزل فيها فزهِيت الباطحُ ،
وظهرت النَّصائحُ ، وأطربت الصَّوَادِحُ ، وأسكتت النَّوَائِحُ ، وغمرت المنائحُ ،
وَأَنْتَشَرَتِ الْمَصَالِحُ ، فمن وَلِيَ الحَكْمَ بها وعدَلْ فذلك هو العَدْلُ الصَّالِحُ ؛ وكيف لا؟
وماء زَمْزَمَ شَرَّابُهُ ، وأستارُ البَيْتِ تَمَسُّهَا أَثْوَابُهُ ، وعلى الله أَجْرُهُ وَتَوَابُهُ ؛ وفي ذلك
الجناب الشريف كَرَمُ جَنَابِهِ ، وإذا دَعَا اللهُ عند المَدْتَرَمِ جاءه من القبول جَوَابُهُ .

ولمَّا كان فلانٌ هو فرعُ الدَّوْحَةِ المِثْمَرَةِ ، ومحصَّل من العلوم الشَّرْعِيَّةِ المَادَّةِ
المُوقَّرةِ ، وله البُحُوثُ التي [هي] عن أحسن الفوائد وعُرِّرَ الفرائد مُسْفِرَهُ ؛ ورضي
أهل الحَرَمِ ، لِمَا جَبَلَ عليه من خَيْرٍ وَكَرَمٍ ، [تمسك] بالعروة الوثقى والقوى الأتقى
فلا جرم .

فذلك رسم - لازل

فليكن في أمِّ القرى ، كالوالدِ المُشْفِقِ على الورى ؛ وليتمسك من التقوى بأوثق
العرا ، وليخش ربَّ هذا البيتِ إِنَّهُ سَمِيعٌ يَسْمَعُ وَيَرِي ، ووَفَدَ اللهُ قَطْعُوا إِلَيْهِ
المَرَاحِلَ في السرى ، ليصالحُوا كَفَّهُ المَضْمَخَ عَنبراً ؛ وليقض بين الخصوم بالحقِّ فِئْتَلُهُ
من دَرَأً الباطل : قد جعله اللهُ جَارَ بَيْتِ عَالِي الدُّرَا ، وفي أرضِ شَرَفِ اللهُ جِبَاهَهَا
وقدس غيرانها فمنها غَارُ ثَوْرٍ وَغَارُ حَرَا ، لأنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يتعبَّدُ
في غَارِ حَرَا ، وأوى إلى غَارِ ثَوْرٍ لِمَا هَاجَرَ مُؤَيِّداً مَظْفَرًا ؛ والوصايا كثيرةٌ ومِلاكُهَا
تقوى اللهُ فليتمسك بها من أيامِ وُورَا ، والله تعالى يجعلُ نهاره منورا ، وليله مقمرا ؛
بمنه وكرمه !

القاعدة الثانية

(المدينة النبوية، وبها ثلاث وظائف)

الوظيفة الأولى

(الإمارة)

والأمر فيها على مامر في إمارة مكة المشرفة .

وقد تقدم أن إمارتها في بني الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما ،
ويكتب لها تقليد في قطع النصف بـ «المجلس العالى» أيضا بألقاب مخصوصة ،
وقد تقدم ذكر ألقابه .

وهذه نسخة تقليد شريف بإمارة المدينة النبوية ، كُتب به للأمر بدر الدين
(١) «وُدَى بن جَاز» من إنشاء المقر الشماس بن فضل الله ، سقى الله عهده :

الحمد لله الذى صرف أمرنا فى أشرف البقاع ، وشرف قدرنا بملك ما نعتقد على
فضله الإجماع ، وعرف أهل طيبة الطيبة كيف طلع البدر عليهم من نيات الوداع ؛
وأمدّها بودى صغرًا للتجيب وإلا فهو واد متدفق الأجرع .

نحمده على نعمه التى أغنت مهابط الوحي عن ارتقاب البرد اللعاع ، وأرتقاء النظر
مع بدره المنير إلى كل شمس سافرة القناع ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة محمد من الضلال ما شاع ، ومن البدع ما استطار له فى كل أفق شعاع ؛
ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف من أنفت به حمية الامتناع ، وألفت

(١) سبق ضبطه مرارا فى ج ٤ بالتكبير تبعاً لضبط النسخة والظاهر ما هنا .

بنا سنَّته أن ترعى لأهلها ولا تراع، وعصفت ریحها بمن یمالی دینه فال إلى
الابتداع، صلَّى الله علیه وعلى آله وصحبه الذين ليس فی فضل أحدٍ منهم نزاع،
وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن الأهتمام بكلِّ جهةٍ على قدر شرفها، وعلى حسب الدرّة الثمينة كرامة
صدفها، والکرامة بخرها، والغمامة بمطرها، والهالة بما يجلو الدجى من قمرها،
والمدينة الشريفة النبویة لولا ساکنها ما عاجت إليها الركائب، ولا ناجت حدائقها
غمر السحاب، ولا وقفت بتأرجح شذا الروضة الغناء بها الجنائب، ولا بکی متم
دمن العقيق بمثله من دم ذائب، ولا هاج إليها البرق متألّقا، ولا هام صبب فيها
بظيأت سابع والنقا، ولكنها مئوى النبوة تراها، ومهوى الرسل جناها، ومأوى
كتاب الله الفسیح رحابها، دار الهجرة التي تعالت شمس الشريعة بأفقيها، وتوالت
سحب الهدى من بين أبيرقها، وهى ثانية مكة المعظمة فی فضلها إلا ما ذهب إليه
فی تفضيلها على مكة مالك بن أنس، ومنها أنبعثت للهدى نؤارة كل نور وشعاع
كل قبس، وكانت لنبي هذه الأمة صلَّى الله علیه وسلم أبقي داريه، وأعلى سماء
حوت ثلاثة أقدار منه ومن جاريه .

ولما كان بها لبعض الولاة من الشيعة مقام، ولهم فيها تحامل لا يجوز معه
من الانتقاد إلا الانتقال أو الانتقام، حتى إنّه فیا مضى لما كثر منهم على بعض
الصاحبين - رضی الله عنهم - الإضرار، وأشرأبوا فی التظاهر بسبهما إلى هتك
الأستار، دب من النار فی هذا الحرم الشريف ما تعلق بكلِّ جدار، وأبت لها حمية
الغضب إلا أن يطهر ما سنَّته أيدي الروافض بالنار، فلما اتصل بنا الآن أن منهم
بقايا وجدوا آباءهم على أمه، وأقندوا بهم فی مذهب الإمامية بما لا أراده الله تعالى

ولا رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا أولئك الأئمة ؛ وحضر المجلس العالى الأميرى ،
الأصيلى ، الكبيرى العادلى ، المجاهدى ، المؤيدى ، الزعيمى ، المقدمى ، الذخرى ،
الكافى ، الشرفى ، الحسينى ، النسيبى ، الأوحدي ، البدرى : عز الإسلام
والمسلمين ، شرف الأمراء فى العالمين ، نصرة الغزاة والمجاهدين ؛ جمال العترة
الطاهرة ، جلال الأسرة الزاهرة ؛ طراز العصابة العلوية ، كوكب الدرية الدرية ،
خلاصة البقية النبوية ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، نسيب أمير المؤمنين ؛ ودى بن
جماز الحسينى - أدام الله تعالى نعمته - بين أيدينا الشريفة بمحضر قضاة القضاة
الأربعة الحكام ، وتدمم بأن مع طلوع بدره المنير لا تبقى ظلامه ولا ظلام ؛ وتكفل
لأهل السنة بما أشهدنا الله به عليه ومن حضر ، وتلقى بإظهار فضل الترتيب كما هم
عليه : النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم أبو بكر ثم عمر ؛ فما آخضهما الله بجواره إلا ليثبت
لها على غيرها إفضالا ، وليجعل قبورهما فى معرفة أقربهم منه درجة مثلا ؛ لما
تواترت به الأحاديث الشريفة فى فضائلهما مما هو شفاء الصدور ، ووفاء بعهده
إذ يقول : « عَلَيْكُمْ بِسُنَّةِ وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مِنْ بَعْدِي عَضُوا عَلَيْهَا
بِالنَّوَاجِدِ وَإِيَّائِمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ » ؛ فلم يسعنا إلا أن نجعل له منا تقليدا
يحو بحده ما حدث من أحداث البدع ، ويحدد من عهد جدّه نبينا صَلَّى اللهُ
عليه وسلم فى معرفة حق أصحابه رضى الله عنهم ما شرع ؛ وتوقا بأنه من بيت كان
أول هذا الدين الحنيف من دله ، ومبدأ هذا الحق الظاهر ما أنثته ومثلته فى سلفه
الشريف بأقارب متصله ؛ وأنه هو المورث من الفخار ما ورثه عن آبائه الكرام ،
المحدث عن كرم الحدود بما لا يحقرله جوار أو يحقر ذمام ؛ المشرق من الأسرة
العلوية بدرًا تاما ، المحدث به من الكواكب العلوية ما يظن به (؟) أبا تسمى وأبنا

تسأى؛ المتخَبُّ من آباء صدق أحسن في ديارهم الصنيع ، وحفظ من حسبيهم
الكريم ما أوشك أن يضيع ؛ واستضاء بلامعة من هدى سلفه السابق ، وهامعة من
كدى ما يرويه السحاب عن الجود والبرق عن المهارق ؛ تهتر بمقدمه المدينة سرورا ،
وتفترباها منه بسبب كأن على نسبه من شمس الضحى نورا ؛ ويتبشر ما بين
لابتها بمن يحمى حماها ، ويحيى محياها ؛ وتتشوق منه ربا كل نية إلى ابن جلاها ،
وطلاع ثاياها ؛ مع ما لا يحدد من أن له فيها من أبيه حق الوراثه ، وأنه لما
كان هذا تانى المسجدين آحتاج إلى تانى اثنين تعظيما للواحد وفرازا من الثلاثه ؛
ليكون هو ومن فيها الآن بمنزلة يدين كالتاهما تقبل الأخرى ، وأذنين كالتاهما توعى
درا ؛ وعينين مامنهما إلا ما يدرك أمرا بعيدا ، وفرقدين لا يصلح أن يكون أحدهما
فريدا ؛ وقرين لا يغلب أحدهما على الآخر في التسمية بالقمريين ، وعمرين وكفى
شرفا أن لا يوجد في الفضل ثالث للعمرين .

فرسم بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطانى ، الملكى ، الفلانى . زاد الله
به المواطن شرفا ، وزاد به البواطن الشريفة حبا وشغفا . أن يفوض إليه نصف
الإمرة بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، شريكا للأمر سيف
الدين ابن أخيه ، ورسلا معه فيما يليه ، ولكل منهما حق لا يكاد الآخر يخفيه ،
هذا له بر الولد وهذا له حرمة الوالد لأن ابن الأخ ولد وعم الرجل صنو أبيه ؛ فتقسم
الإمرة بينهما نصفين ، وتوسم جباه الكتب الصادرة عنهما لها بأسمين .

والوصايا تحمد من عنانها ، وتعد من أعيانها ؛ فأولها تقوى الله فإنها من شعائر
القلوب ، وبشائر الغيوب ، وأمائر نجاح كل مطلوب ؛ والاعتصام بالشريعة الشريفة ؛
فإنها الحبل الممدود ، والحبل الذى تم دونه من عقبة كئود ؛ والالتناء إلى مانص عليه

الكتاب والسنة والإجماع ، وقص جناح من مال به الهوى إلى مجاذبة الأطلاع ؛ وتلقى
وفد الله الزائر بما ألهه نزيل هذا الحمي من كرامة المتقى ، وتوفى المذمة فإنها دنس
لا يحد مثله تقاء هذا النقا ؛ ونعني بالمذمة ما نُسب إلى الرافض من البسع التي
لا تُظهرها غر السحاب ، ولا يستبج معها لدخول المسجد الطاهر من قبح بمقامه
حواله التيمم بالتراب ؛ ولا يدع أحدا من هذه الفرقة الضالة بعلى ولا يعيره بما
يكون به مثله ، ولا يشبه قلبه في محبة أهل البيت - سلام الله عليهم - بإناء أمثلاً
ماء ولم تبق فيه فضله .

ولا يظن جاهل منهم أن عليه - كرم الله وجهه - كان على أحد من الصالحين
معاتبا أو عائب ، أو أنه تأول في خلافتها معتقدا أن أحدا منهم غاصب ؛ فما تأخر
عن البيعة الأولى قليلاً إلا لأشغاله بما دهمه بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم
من المصائب ، وإلا فقد أخذ أم ولد من سبي أبي بكر رضي الله عنه لا كما يدعيه
كل كاذب ، وقد تزوج عمر بن الخطاب رضي الله عنه آبنته أم كلثوم وأقام بأمره
الحدود وناب عنه وهو غائب ؛ فيكف من عادية هؤلاء الرافض الأشرار ماسيصلون
في الموافقة بناره ، وسيصلون إلى الموافقة على ما طار من شراره ؛ ولا يدع للإمامية
إماماً يقتدى به منهم قوم شرار ، ولا قاضياً يقضى بينهم : فإنه إنما يقطع لمن قضى
له أو عليه قطعة من نار ؛ ولا عالماً يرفع له علم ، ولا يفتح لهم بفتوى على مذاهبهم
فم ، حتى ولا ما يتحرك به في قيم الدواة القلم .

وليطهر هذا المسجد الشريف من دنسهم ، وليط ما يحمله أديم مجلدات التصانيف
من نجسهم ؛ وسكان هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين ، أو خاطبهم
من زمر المقيمين والسائرين ؛ يحسن لأموارهم الكفالة ، ولا يتعرض لأحد منهم
بما يؤذي نفسه ولا يناله ؛ فهم في جوار نينا صلى الله عليه وسلم وفي شفاعته ،

وكلّ منهم نزيل حرمه ومكثّر سواد جماعته ؛ وحقّهم واجب على كل مسلم فكيف على حامي ذلك الحمى ، بل من له إلى نسبه الشريف مسمى .

وأصحّب رفيقك بالمعروف فإنكما مفترقان والسميد من لا يذم بعد فراقه ، ومُسْتَقَانَ إلى كل مورد لا يدرى أيكما المحمّد في سباقه ؛ ومتفقان على فرد أمرٍ وأفضلكما من داوم صاحبه على إرفاقه ، وصحبه على وفاقه .

وأما ما للمدينة الشريفة من تهائم وتُجود مضافة إليها ، ومُسْتِظَلَّةٌ بجُدِّها أو متقدمة في الصحراء عليها ، فهي ومن فيها : إما أن تُوجد بقلوبهم فهم أعوان ، وإما أن تنفر فهم أشبه شيء بالابل إذا نقرت تعلق بذنب كلِّ بعيرٍ شيطان ؛ فأقربهما إلى المصلحة تقيهم ، وتأتيهم بما يقرب به بعيدهم ويزداد قُربى قريتهم ؛ والرُّكبان التي تتقد بهم جمرات الأصباح والعشايا ، ويعتقد كلُّ منهم في معاجه إلى المدينة الشريفة أن تمام الحج أن تقف عليها المطايا ؛ فهم هجود سُرى ، ووفود قري ، وركود في أفق الرّحال خلعت مقلهم على النجوم الكرى ؛ ومعهم المحامل الشريفة التي هي مُتَفِّ شعابهم ، ومحتف ركابهم ؛ وهي من أسرتنا المرفوعة ، ومبرتنا المشروعة ؛ فعظم شعائر حرّمتها ، وقبّل أمام منابرها المنثلة مراكر راياتها ؛ وأكرم من جاء في خفارتها ، ومن جال في دُجى الليل لا يستضيء إلا بما يبدو من إشارتها ، وقد أشهدنا عليك من هو لك يوم القيامة خصيم ، وأنت وشأنك فيما أنت به عليم .

وباقى الوصايا أنت لها مُتَقَطِّن ، وعليها مُتَوَطِّن ، وما ينتفع الشريف بحسبه ، إن لم يكن عمله بحسبه ؛ ولا يرتفعُ بنسبه ، إن لم يتجنّب مكان تشبهه ، والله تعالى يمتع بدوام شرفه ، ولا يضيع له أجر حال عمله الصالح وسلقه ؛ والاعتدال



وهذه نسخةُ تقليد شريف بإمرة المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام :

الحمد لله الفرد بلا شريك ، الواحد لا من أعداد تقتضى التشرىك ، الملىك الذى يتناهى إله تقليد كل ملىك .

نحمده حمداً يكفل مواهب التملك ، ويحمد عواقب التسلىك ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تصدع التشكىك ، وتصد كل أفىك ، وتسد خلل التدرىك ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله خير من حى به عرىك ، وحى عليه ترىك ، وحمل حتى تأنى له التحرى فى التحرىك ، وتأنى وما فاته على أعدائه النصر الوشىك ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تحلص كالذهب السىك ، وترفع ما شىد وتمنع ماشىك ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ، فلما كانت المدينة الشرىفة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - حراماً لا ىستباح ، وحى ليس إلا لمن آتتهك دم مباح ، وجناباً ما على من حله جناح ، ومهبط وحى لا ىمسح بأر كانه لغير الملائكة جناح ؛ ولا ىمسك بعصمة من أغضى فيه على قدى ، وسكت لساكنيه على أذى .

ولما اتصل بنا عن الروافض ما لا صبر لمسلم ىرجو الله والىوم الآخر عليه ، ولا وجه لمن قنع فيها بإخراج يديه ؛ ولا عذر لمن لقى الله مغضباً لما ىنهى إله ، لا مغضباً لما ىنال رسول الله صلى الله عليه وسلم من التعرض إىل صاحبيه ، مما تقاضى منا ما ىحو ظلامه الممتد ، وظلمه المشتد ، وبدعهم فسوءاً من آبتدعها ومن آرتد - فكناً بتقليدنا الشرىف من أعطى الله وأعطانا على قوله مؤثفاً ، وجرّد عزائم لا تردّها من

خَدَعَهُمُ الرُّقْبُ ، وَأَشْهَدَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَنْ حَضَرَ أَنَّهُ لَا يَدْعُ هَذِهِ الْفِرْقَةَ الضَّالَّةَ حَتَّى يَدْعَ
يَتِيمَهَا ، وَيُعَدُّ لِمَقَاتِلِ السُّيُوفِ حَاطِمَهَا : مِمَّا تَضَمَّنَهُ نَصُّ مَا ضَى ذَلِكَ التَّقْلِيدِ ،
وَمَا ضَمَّ ذِكْرِي لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ، وَنَبَّهْنَا عَلَى أَنَّهُ بَدْرٌ لَمْ يَبْقَ
مَعَ طُلُوعِهِ ظُلْمَةٌ وَلَا ظُلَامَةٌ ، وَلَا إِضَاعَةٌ وَلَا إِضَامَةٌ ^(١) ، وَلَا مَا تَجَنَّبُ بِهِ الرَّكَائِبُ
تَمَامَ الْحَجِّ فِي مَوَاقِفِهَا ، وَلَا تُتَكْرَمَا جِهَلَتْ فِي قِبَابِ قِبَاءٍ مِنْ مَعَارِفِهَا ؛ وَتَرَدُّ أَعْطَانَهَا
وَلَا يُسَوَّقُهَا إِلَى الْأَبْرِيقِ بَارِقٌ عَلَى أَطْلَالِهِ ، وَلَا يُعْجَبُهَا إِنْ خِيلَ لَهَا فِي النَّخِيلِ مَقِيلٌ
فِي ظِلَالِهِ .

وكان المجلس العالى - أدام الله تعالى نعمته هو المتكفل بتطهير ذلك الحرم
الشريف من ألم كل قول يُفترى ، ولم كل باطل يلم يقظة أو طيف كرى ، وإزالة
كل شخ فيها على من أمل قرى أم القرى ؛ وإماتة كل بدعة تُسكب على مثلها العبرات ،
وإماطة كل أذى من طريق منى والجمرات ، ومنع شقاشق شيعية تغلي مرآجلها من
الزفقات ، وقطع كل نجوى يُسَادُون بها من وراء الحجرات ، وقلع طائفية لولا إقامة
حدود الله لكفاهم ما يقطع أجداهم من الحسرات ؛ وكان بها من أولاد أخيه ، بل
بعضه منه وبعضه من بنى أبيه ، من انتهى عما نتحل به شيم الشريف الشريفه ،
وأنهى إلى ما لا يعنيه ولا يغنيه في تأخير خليفة وتقديم خليفه ، وأهمل حقوقاً
عواقبها مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم تحيفه ، وأوهم عقوقاً لأصحابه بل
له لقوله : «دَعُوا إِلَى أَصْحَابِي فَلَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أَحَدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرِكُ مَدَى أَحَدِهِمْ
وَلَا نَصِيفَهُ» . وبقى يتصل بنا في هذا المعنى ما لا يقال مما يقال عنهم ، ويصل
أذاهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صاحبيته وقد قال : «إن أهل الدرجات

(١) مراده اضعاء الحق كله أو نقص شيء منه الا أنا لم نجد فيما بأيدينا من كتب اللغة من هذه المادة

فعلا رباعيا ليكون هذا مصدرا له ولعله استعمل اللغة العامية وترويجا للسمع .

العلى ليراهم من تحتهم كما يرون النجم الطالع في أفق السماء، وإن أبا بكرٍ وعمرَ منهم»^(١) يطلبون في التقديم على من قدمه الله رد فائت ما جرى به القدر، ويضربون صفحا عما لا أراد الله ولا رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله: «لا أدري ما قد بقي لي فيكم فافتدوا باللذين من بعدي: أبي بكرٍ وعمر». مع ما أضيف إلى هذا من قوادح نواب، وفوائح أبواب، وحوادث تُرجع مقر النبوة أنباؤها، وتمتد على مشارق الأنواء ظلمهاؤها، وتغير عوائد الوفود في كرامة زائرهم، وإدامة بشاشة المتلقى لسائرهم؛ وأمن سربهم أن يراع، وشربهم أن يتمثل به لغير برق شعاع، وضمهم إلى ذلك الحمى الذي لا يضام نزيله، ولا يرام في طريق الحجر سبيله؛ ولا يضل سار إليه ووجهه سگان الحمى دليله، ولا يضيع وقد تلقاه من النسيم بليته بليته، ولا يقف وقفه المريب وضوء الصباح من أيمن التقا قنديلته، ولا يخشى وشعب ذلك الحمى شعبه وقبيله قبيله؛ وإراحة ركابهم التي أزعجها حادى السرى، وإمتاعهم بقرب الحوار عوضا من دموعهم عما جرى.

فلما لم يبق لمن أشرنا إليه - ممن أعطانا عهد موثقه، وسار لا يريد إلا نقاء نقاه وبراءة أبرقه - إلا أن يحط بالمدينة الشريفة ركابه، ويبعد الشكوى مما لا عهد من معاهدها أقرابه - أصر من فيها من ذوى قرابته على منعه أن يدخلها إلا بقتال يحل مقاعد الحرم، ويحل مقاعد الحرم^(٢)؛ ويشعل نارا يضل بها من لم تمتد له يد إليها إلى وقود، ويروغ من الآلف فيها من يمتد له في غير مراتع غزلان النقا سجاف قيام معقود، وقدم إلى أبوابنا العالسة من كان فيها مقما، وأنعمنا عليه بإبقاء النصف

(١) مراده أنهم يطلبون في تقديم على رد فائت ما أراد الله من تأخيره عنهما ويتركون أيضا ما ورد في الحديث من الأمر بالافتداء بعده بأبي بكر وعمر. إلا أن العبارة سطت عليها يد النساخ فزادت فيها ما غير ميناها وشوش معناها. تأمل.

(٢) في الأصل مقاعد وهو تصحيف.

ففاتة الكلِّ لمَّا لم يَقَعْ أَنْ يَكُونَ قَسِيماً ، فَأَبَتْ حَمِيَّتَنَا لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
(١) ولتلك المواطن المعظمة إلا أن نُظَهَّرَهَا مِمَّا أَسْبَلَتْ عَلَى سَرِيرِهِ أَذْيَالَهَا ، وَمَا أَطَاقَتْ
عَلَى مَضَضِهِ الْأَلِيمِ أَحْتِمَالَهَا .

فُرْسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ قَدْرَهُ عَالِيَا ، وَبِرِّهِ لَا يَخِلُّ بُوْدَى وَلَا يَخِلُّ مُوَالِيَا -
أَنْ تَفَوِّضَ إِلَيْهِ إِمْرَةَ الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ :
مَسْتَقِيلاً بِأَعْبَائِهَا ، مُسْتَهْلًا سَجَابَهُ عَلَى أَرْجَائِهَا ؛ إِمْرَةً تَسْتَوْعِبُ جَمِيعَهَا ، وَتَسْتَوْعِي
لِمِرَاسِمِ رَبَائِهَا وَرُبُوعِهَا وَعَاصِيَهَا وَمُطِيعَهَا ؛ وَتَهْتِمُ بِوَجُودِهَا ، وَقَرِيْبِهَا وَبَعِيدِهَا ؛ وَكُلَّ
مَا يَدْخُلُ لَهَا فِي حَدِّ ، وَيَنْتَظِمُ لَهَا فِي عَدْبِ وَأَهْلِ حَاضِرَتِهَا وَبَادِيَتِهَا ، وَمَا تَقِفُ عَلَيْهِ
مِنَ السَّحَبِ (؟) رِكَابِ رَوَاعِيهَا وَغَادِيَتِهَا ؛ وَمَنْ تَتَبَسَّمُ بِهِمْ ثَنَائِهَا ، وَتَتَسَمَّمُ لَهُمْ أَرْوَاحِ
بُكَرِهَا وَعَشَائِهَا ؛ وَمَنْ يَضُمُّهُمْ جَنَاحِهَا الْمَفْضَلِ ، وَيَلْمُهُمْ وَشَاحِهَا الْمَفْضَلِ ؛
وَيَجْمَعُهُمْ جَيْشُهَا السَّائِرِ ، وَيَلْفَهُمْ فِي شِمْلَةِ الدَّجَى قَمْرُهَا الزَّاهِرِ - تَفْوِيضًا يَدْخُلُ فِيهِ كُلُّ
شَرِيفٍ وَمَشْرُوفٍ ، وَمَجْهُولٍ وَمَعْرُوفٍ ؛ وَمَسْتَوْطِنٍ مِنْ أَهْلِهَا ، وَغَرِيبٍ آتَيْتْ [بِهِ]
إِلَيْهَا مَطَارِحَ سُبُلِهَا ؛ مَا فِيهِ تَأْوِيلٌ ، وَلَا تَعْلِيلٌ ، وَلَا أَسْتِنَاءٌ ، وَلَا أَنْتَاءٌ ، وَلَا تَخْرُجُ مِنْهُ
الْأَرْضُ الْمَغْبَرَةُ وَلَا الرُّوضَةُ الْغَنَاءُ ؛ لِأَشْبَهَةِ فِيهِ لِدَاحِضٍ ، وَلَا حُجَّةَ لِمَعَارِضٍ ؛ يَسْتَقِلُّ
بِهَا جَمِيعُهَا بَدْرُهُ التَّمَامِ ، وَبِرُّهُ الْغَمَامِ ، وَبَحْرُهُ الَّذِي يَأْتِي قَرِيْبُهُ أَنْ يُؤَانِحِي فِي نِظَامِ ؛
وَأَمْرُهُ الَّذِي يَتَلَقَّى بِهِ عَنِ الثَّقَةِ مِنْ سَادَاتِ بَيْتِهِ مَقَالِيدَ الْأَحْكَامِ ، وَتَقَالِيدَ مَا يَجْرِي
بِهِ الْقَسْمُ وَيَمِضِي السَيْفُ الْحُسَامِ ؛ إِفْرَادًا لَهُ فِي التَّحْكِيمِ ، وَأَنْفَعَةً لِمِثْلِهِ مِنْ ضَرَرِ
التَّقْسِيمِ ، وَفِرَارًا مِنَ الشَّرِكَةِ الْمَشْتَقَةِ مِنَ الشَّرِكِ : (إِنَّ الشَّرِكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) . وَوَلَايَةٌ
تَامَةٌ ، عَامَةٌ ؛ كَامِلَةٌ ، شَامِلَةٌ ؛ لَا يَبْقَى مِنْ أَهْلِ تَجْدٍ مِنْ لَا يَدْخُلُ فِي حُكْمِهَا ، وَيَنْضَافُ

(١) فِي الْأَصْلِ « وَأَطْفَأَتْ » .

إلى قِسْمِهَا؛ تَقَابُلُ السَّوَابِقِ فِي غَايَاتِهَا، وَتُقَاتِلُ الْحَافِلُ تَحْتَ رَايَاتِهَا؛ وَيَعُدُّ مَعَ أَهْلِ بَدْرِ فِيهَا، وَيُعِدُّ مِنْ حَقُوقِهَا مَا يُوقِفِيهَا .

وقد سبق من الوصايا ما فيه غنى، إلا ما لا تخل العوائد به مما يذكركم هنا؛ وقد حوت بحمد الله في جميع طباعك، وجميل أنطباعك؛ من حقّ أعتراكك، وصدق أترامك؛ ما هو كالسنا للشمس، والمئى للنفس؛ مما تحسد على شرفه النجوم، وتنافس العلياء ما تعلق به الغيوم .

فَكَلِّ بِتَقْوَى اللَّهِ شَرَفَكَ، وَاتَّبِعْ فِي الشَّرِيعَةِ الشَّرِيفَةِ سَلَفَكَ؛ وَكُتَابُ اللَّهِ الْمُنَزَّلُ، أَنْتُمْ أَهْلُ بَيْتِ فِيكُمْ تَنْزَلُ، وَسُنَّةُ جَدِّكُمْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَهْمَلُ، وَهِيَ مَجْدُكُمْ الْمُؤْتَلُ؛ وَمَعْرِفَةُ حَقِّ مَنْ مَضَى عَنْكُمْ، وَإِلَّا فَعَمَّنْ تُثَقِّلُ، وَمِنْكُمْ، وَإِلَّا فَمَنْ تَوَمَّلُ؛ وَإِزَالَةُ الْبِدْعِ وَإِلَّا فَلَا شَيْءَ سِوَفِكُمْ تُثَقِّلُ، وَ[لِمَاذَا] رِمَا حُكْمُ تَعْدَلُ؛ وَالرَّافِضَةُ وَغَلَاةُ الشَّيْعَةِ هُمْ دَنَسٌ مِنْ أَنْتُمْ إِلَى هَذَا الْبَيْتِ الشَّرِيفِ بَوْلَانِهِ، وَسَبَبُ وَقُوفٍ مِنْ يَقْصِدُ الدُّخُولَ تَحْتَ لِيَوَانِهِ؛ فَهَمٌّ وَإِنْ حُسِبُوا مِنْ أَمْدَادِهِ، لَيْسُوا - وَحَاشَى نَوْرَهُ السَّاطِعُ - إِلَّا مِنَ الْمَكْتَرِّينَ لِسَوَادِهِ؛ أَرَادُوا حِفْظَ الْمُوَدَّةِ فِي الْقُرْبَى فَأَخْلَوْا، وَقَصَدُوا تَكْثِيرَ عَدَدِهِمْ فَقَلُّوا؛ وَأَنْفٌ مِنْ هُو بَرِيءٌ مِنْ سُوءِ مَذْهَبِهِمْ، أَنْ يَتَّظَاهَرَ بِالْوَلَاءِ فَيَعُدَّ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ بِسَبَبِهِمْ؛ مَعَ أَنْهُمْ طَمَعُوا فِي رِضَا اللَّهِ فَأَخْطَأْتَهُمْ الْمَطَامِعُ، وَصَحِيحٌ أَنْهُمْ زَادُوهُمْ عَدَدًا إِلَّا أَنَّهَا كَرِيذَةُ الشَّيْءِ أَوْ كَرِيذَةُ الْأَصَابِعِ .

فَصَمِّمْ عَزْمَكَ عَلَى مَا عَاهَدْتَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ رَفْعِ أَيْدِي قَضَاتِهِمْ، وَمَنْعِهِمْ هُمْ وَمَنْ أَتَّبَعَ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ فِي سَبِيلِ مَرْضَاتِهِمْ؛ وَحَذَّرَهُمْ مِمَّا لَا يَعُودُ مَعَهُ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ سِتْرِيَسْبِلُ، وَلَا يَبْقَى بَعْدَهُ لَغَيْرِ السَّيْفِ حُكْمٌ يُقْبَلُ؛ فَمَنْ خَاضَ لِلْسَّلَفِ الصَّالِحِ يَمِّ ذَمِّ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٠٧ .

(٢) في القاموس : الشغياء السن المخالفة الخارجة عن نبتة الأسنان .

أغرق في تياره ، أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره ؛ وألزم أهل المدينة الشريفة -
على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم - بكلمة السنة فإنها أول ما رفعت بتلك المواطن
المعظمة أعلامها ، وسمعت في تلك الحجرة المكرمة أحكامها ؛ مع تعفية آثار ما ينشأ
على هذه البدعة من الفتن حتى لا ينعقد لها نفع مثار ، وتوطئة أكثاف الحمى لئلا
يبقى به لمبطل في مدارج نطقه عثار ؛ والوصية بسكان هذا الحرم الشريف ومن ينزل
به من نزيل ، ويحاور به مستقراً في مهاد إقامة أو مستوفزاً على جناح رحيل ؛
ومن يهوى إليهم من ركائب ، ويأوى إليهم من رفة مالت من نسوات الكرى بهم
راقصات التجائب ؛ ومن يصل من رجبان الآفاق ، وإخوان نوى يتشاكون إليهم
مر الفراق ؛ ومن يتلاقى بهم من طوائف كلهم في بيوت هذا الحى عشاق ، وأمم
شتى مجموعهم : من مضر وشام ويمن وعراق ؛ وما يصل معهم في مسيل وفودنا ،
وسبيل جودنا ؛ ومحاملنا الشريفة التي ينصب لنا بها في كل أرض سرير ، وأعلامنا
التي ما سميت بالعقبان إلا وهى إليها من الأشواق تطير ؛ فتى شعرت بمقدم ركابهم ،
أو برقت لك عوارض الأثمار من سماء قباهم ؛ فبادر إلى تلقيمهم ، وقبل لنا الأرض
في آثار مواطيمهم ، وقم بما يجب في طاعة الله وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم
وطاعتنا [وأخرج عنهم كل يد ولا تخرجهم عن جماعتنا] .^(١)

وأهل البادية هم حزبك الحيش اللهم ، وحزبك إذا كان وقودها جثث وهام ؛
وهم قوم لم يؤدبهم الحضرة ، ولا يبيت أحد منهم لأنفته على حذر ؛ فاستجلب
بمداراتك قلوبهم الأشتات ، وبادر حبال إلهم النافرة قبل البتات ؛ وترقب مراسمتنا
المطاعة إذا ذرت لك مشارقها ، وتأهب لجهاد أعداء الله متى لمعت لك من
الحروب بوارقها ؛ وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولولا أن السيف لا يحتاج إلى حلية

(١) الزيادة من الوصية الآتية بعد ومن التعريف (ص ١٠٨) .

لأُطْلَنَا حَمَائِلَ مَا تُمْلِيهِ عَلَيْكَ ؛ فَمَا شَهِدَ لِلشَّرِيفِ بِصِحَّةِ نَسَبِهِ ، أَزْكَى مِنْ عَمَلِهِ
بِحَسَبِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْوَى أَسْبَابَكَ الْمَتِينَةَ ، وَيُمْتَعُ الْعِيُونَ بِلِوَامِعِكَ الْمُبِينَةَ ، وَيُمْسِكُ
بِكَ مَا طَالَ بِهِ إِرْجَافُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ؛ وَالْأَعْتَادُ



وهذه نسخة تقليد بإمرة المدينة النبوية ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ بِالنُّصْرَةِ ، دَارَ الْهَجْرَةِ ، وَأَطْلَعَ لِلْإِيمَانِ بِحَسْرَةِ ، بَتْلِكَ الْجُحْرَةِ ،
وَطَيْبَ طَيْبَةَ وَأَوْدَعَ فِيهَا سَلِيلَ الْأَسْرَةِ .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا نَأْمَنُ بِهِ مَكْرَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةَ
عَبْدٍ تَمَسَّكَ بِالْحَجِّ وَتَنَسَّكَ بِالْعُمْرَةِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَرَّفَ اللَّهُ
قَدْرَهُ ، وَأَنْفَذَ أَمْرَهُ ، وَأَيَّدَهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ، وَكَانَ أَكْرَمَ النَّاسِ فِي الْعِشْرَةِ ، وَأَسْبَغَى
الْعَالَمِينَ إِذْ يَبْسُطُ بِالْجُودِ رَاحَتِيهِ فَمَا أَسْمَحُ عَشْرَةَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
صَلَاةً ثَبَّتَتْ شَجَرَتُهَا مِنَ الْأَرْضِ فَأَتَّصَلَتْ فِرْعَوْنًا بِالسُّدْرَةِ ، وَسَلَّمَتْ سَلِيمًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْمَدِينَةَ النَّبَوِيَّةَ مَعْدِنُ الْهُدَى وَالْوَقَارِ ، وَمَسْكَنُ الرُّضْوَانِ وَالْأَنْوَارِ ،
وَمَهَيْطُ الْمَلَائِكَةِ الْأَبْرَارِ ، وَمَنْزِلُ الْوَحْيِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ، وَدَارُ الْهَيْجَرَةِ لِلنَّبِيِّ الْمُخْتَارِ ،
وَتُرْبَةٌ مَدْفِنَةُ الزَّالِكِي الْمِعْطَارِ ؛ تُنْسَدُ الرَّحَالُ إِلَيْهَا مِنْ أَقَاصِي الْأَقْطَارِ ، وَيَأْتِي إِلَيْهَا
الظَّالِمُونَ لِأَنْفُسِهِمْ بِالْأَسْتِغْفَارِ ، فِيرْجِعُونَ وَقَدْ مَحِيَّتْ عَنْهُمْ الْأَوْزَارُ ، فِقُلُوبُ أَهْلِ
الْإِسْتِثْقَاءِ مُقِيمَةٌ فِي فِنَاءِ تِلْكَ الدَّارِ ، وَإِنْ كَانَتْ أَجْسَامُهُمْ بَعِيدَةً مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ ،
وَبِهَا مِنْ آلِ الْبَيْتِ سَادَةٌ أَطْهَارُ ، وَأُمَرَاءُ كِبَارُ ، يُتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ بِحُبِّهِمْ فِي الْإِعْلَانِ
وَالْإِضْمَارِ ، وَيُتَوَسَّلُ بِلِوَالِهِمْ فِي دَعْوَةِ الْأَسْحَارِ ، قَدْ صَمَّوْا إِلَى كَرَمِ الرَّاحَةِ ، وَسَمَّحَةَ

الأَنْفُسُ الْمُرتَاحَةَ ؛ شَجَاعَةً وَبَسَالَةً ، وَعَلَوِيَّةً فَعَالَةً ، وَتَمَسُّكَ بِالْمُرُوءَةِ المَعْرُوفَةِ بِشَرَفِ
الأَصَالَةِ ؛ وَهَمَّ يَتَوَارَثُونَ لِأَمْرَتِهَا عَنِ آبَاءِ سَادَاتِ ، وَكِرَامِ لَهُمْ فِي الفَضْلِ عَادَاتِ .
وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ بَقِيَّةَ الأُسْرَةِ المَتَضَوِّعَةِ ، وَثَمَرَةَ الشَّجَرَةِ المُنْتَفِرِّعَةِ ؛ وَالمَخْصُوصِ
بِالْوَصْفِ الذِي رَفَعَهُ ، وَالقَوْلِ الذِي أَتَّبَعَهُ حِينَ سَمِعَهُ - مَا زَالَ فِي المَدِينَةِ النَبَوِيَّةِ
عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ مَشْكُورَ الطَّرِيقَةِ ، مَحْفُوظَ الوَثِيقَةِ ، مَعْرُوفَ
الحَقِيقَةِ ، مَوْصُوفَ الآثَارِ الحَسَنَةِ بَيْنَ الخَلِيقَةِ ، يَجْتَنِي لِكُلِّ صَالِحَةٍ مِنْ تِلْكَ الرُّوضَةِ
الشَّرِيفَةِ المُنْتَمِرَةِ الوَرِيقَةِ ؛ وَيَجْمَعُ السَّرْحَ أَنْ يَنْتَهَبَ ، وَيَطْفِئُ نَارَ الفِتَنِ فَمَا تَلْتَهَبُ ،
وَيُعْظَمُ المَجَاوِرِينَ وَالمُؤَادِبِينَ وَالقَادِمِينَ عَلَى حِمَى سَيِّدِ العِجَمِ وَالعَرَبِ .

فَلذَلِكَ رَسَمَ أَنْ يَسْتَقَرَّ

فَلِيَحُلَّ هَذَا الرَّبِيعَ المَعْمُورَ بِالتُّقَى ، وَلِيَبَاشِرَ هَذِهِ الإِمْرَةَ الشَّرِيفَةَ زَادَهَا اللهُ عُلُوقًا
وَأَرْتِقًا ؛ وَلِيَسْتَعْمِلَ السَّكِينَةَ فَإِنَّهَا جَمِيلَةُ اللِّقَاءِ ، وَلِيَسْلُكَ الأَدَبَ مَعَ سَاكِنِ النِّقَا ،
وَلِيَعْتَمِدَ عَلَى حُسْنِ اليَقِينِ فَإِنَّهُ لَهُ وَقَا ، وَقَدْ جَاوَرَ العَقِيقَ فَأَصْبَحَ بِقَلَائِدِهِ الفَاحِرَةَ
مُطَوَّقًا ، وَلِيَحْكُمَ بِالعَدْلِ فِي بَلَدِهِ نَشَأَ مِنْهُ العَدْلُ وَالإِنصَافُ فَمُنْدُ أَجْتَمَعَا فِيهِ مَا أَفْتَرَقَا ؛
وَلِيَصُنَّ شَرَفَهُ مِنَ الوُلُوجِ فِي فِتْنَتِهِ ، وَلِيَعْمِدَ سَيْفَهُ وَلَا يَشْهَرَهُ فِي وَقْتِ مِحْنَتِهِ ؛ وَيَحْقِنِ
الدَّمَاءَ أَنْ تُرَاقَ ، وَيَتَلَقَّ الزُّوَارَ بِالإِرْفَاقِ ، فَإِنَّهُمْ جَاءُوا مِنْ أَقْصَى الآفَاقِ ، رِجَالًا وَعَلَى
النِّيَاقِ ، تَحْتُمُّهُمُ الصَّبَابَةُ وَالأَشْوَاقُ .

وَكَلِمَةُ الشَّرْعِ وَشِعَارُ السُّنَّةِ فَلْيُكُنْ مَعْظَمًا لَهَا بِاتِّفَاقِ بَغِيرِ شِقَاقِ ، وَشَيْخِ الحَرَمِ
الشَّرِيفِ وَخَدَامِهِ وَجُجَاوِرِيهِ فليُكْرِمُ مُحْسِنَهُمْ وَيَعَامِلُهُ بِحَسَنِ الأَخْلَاقِ ، وَيَتَجَاوَزُ
عَنْ مُسِيئَتِهِمْ بِطَيِّبِ أخْلَاقِ ، وَحِوَاصِلِ الحَرَمِ الشَّرِيفِ المَخْزُونَةِ فِيهِ فَلْيُكُنْ مَحِيمةً مِنْ
التَّهْدِيرِ فِي وَقْتِ الإِنْفَاقِ ، وَتِلْكَ دَارُهُمْ سُكَّانُهَا الطَّيِّبُ الإِعْرَاقِ ؛ وَالتَّقْوَى مِنْ بَيْتِهِمْ

الشريف آثارها الإشراق ، وعليهم نزل الفرقان والتَّحريم والطلاق ، فإذا عسى أن نوصيه وهو أهل الفضل على الإطلاق ، والله تعالى يجعل نِجاره في الفخر مجلِّيه في السِّباق ، بمنه وكرمه ! .



وهذه وصية لأمير المدينة أوردتها في "التعريف" ، وهي :

فكَلِّ بتقوى الله شرفك ، وأتبع في الشريعة الشريفة سلفك ؛ وكتاب الله المنزل ، أتم أهل بيت فيكم تنزل ، وسنة جدك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تهمل ، وهي مجدكم المؤتَل ، ومعرفة حق من مضى ، عنكم ، وإلا فعمن تُثقل ، ومنكم ، وإلا فعمن تُؤمل ، وإزالة البدع وإلا فلائى شئ سيوفكم تُصقل ، ولماذا رماحكم تُعدل ؛ والرافضة وغلاة الشيعة هم دنس من آتتى إلى هذا البيت الشريف بولائه ، وسبب وقوف من يقصد الدخول تحت لوائه ؛ فهم وإن حُسبوا من أمداده ، ليسوا - وحاشى نوره الساطع - إلا من المكثرين لسواده ؛ أرادوا حفظ المودة في القربى فأخلوا ، وقصدوا تكثير عددهم فقلوا ؛ وأنف من هو برىء من سوء مذهبهم ، أن يتظاهر بالولاء فيعد في أهل البدع بسببهم ؛ مع أنهم طمعوا في رضا الله فأخطأهم المطامع ، وصحیح أنهم زادوهم عددًا إلا أنها كزيادة [الشغياء أو كزيادة] الأصابع .

فصمَّ عزمك على ما عاهدت الله عليه من رفع أیدی قضايتهم ، ومنعهم من اتباع خطوات الشيطان في سبيل مرضاتهم ؛ وحذرهم مما لا يعود معه على أحد منهم ستر يُسبل ، ولا يبقى معه لغير السيف حكم يقبل ؛ فمن خاض للسلف الصالح يم دم أغرق في تياره ، أو قدح فيهم زناد عناد أحرق بناره ؛ وألزم أهل المدينة الشريفة النبوية

(١) الزيادة من "التعريف" . (ص ١٠٧) ومن التقليد الذي سبق ، انظر (ص ٢٥٢) .

بكلمة السنة فإنها أول ما رفعت بتلك المواطن المعظمة أعلامها ، وسمعت في تلك
 الحجرة المكرمة أحكامها ، مع تعفية [آثار] ما ينشأ على هذه البدعة من الفتن حتى
 لا ينعقد لها تقع مثار ، وتوطئة أذاف [ذلك] الحمى للتلايق^(١) به لمبطل في مدارج نطقه
 عثار ؛ والوصية بسكان هذا الحرم الشريف على الحال به أفضل الصلاة والسلام
 ومن ينزل به من زريل ، ويجاوره به مستقراً في مهاد إقامة أو مستوفزاً على جناح
 رحيل ؛ ومن يهوى إليهم من ركائب ، ويأوى إليهم من رفقة مالت من نشوات الكرى
 بهم راقصات النجائب ؛ ومن يصل من رُبان الآفاق ، وإخوان نوى يتشاكون
 إليهم مرّ الفراق ؛ ومن يتلاقى بها من طوائف كلهم في بيوت هذا الحمى عشاق ،
 وأمم شتى جوعهم من مضير وشام [ويمن]^(١) وعراق ؛ وما يصل معهم في مسيل
 وفودنا ، وسبيل جودنا ؛ ومحاملنا الشريفة التي ينصب لنا بها في كل أرض سرير ،
 وأعلامنا التي ما سميت بالعقبان إلا وهي إليها من الأشواق تطير .

ففي اشعرت بمقدم ركابهم ، أوبرقت [لك] عوارض الأفتار من سماء قبائهم ؛
 فبادر إلى تلقّيتهم ، وقبل لنا الأرض في آثار مواطنهم ، وقم بما يجب في طاعة الله
 وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطاعتنا ، وأخرج عنهم كل يد ولا تخرجهم
 عن جماعتنا .

وأهل البادية هم حزبك الجيش اللهم ، وحربك إذا كان وقودها جثث وهام ؛
 وهم قوم لم يؤدبهم الحضر ، ولا يبيت أحد منهم لأنفته على حذر ؛ فاستجلب
 بمداراتك قلوبهم الأشتات ، وبادر حبال إليهم النافرة قبل الأبتات ؛ ورتّب
 مراسمنا المطاعة إذا ذرت لك مشارفها ، وتأهب لجهاد أعداء الله متى لمعت لك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٠٨) .

من الحروب بوارقها ؛ وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولولا أن السيف لا يحتاج إلى حلية لأطلقنا حمائل ما نملية عليك ؛ فما شهد للشريف بصحة نسبه ، أركى من عمله بحسبه ؛ والله تعالى يقوى أسبابك المتينة ، ويمتدح العيون بلوامعك الميينة ، ويمسك بك ما طال به إرجاف أهل المدينة .

الوظيفة الثانية

(القضاء)

وكان في الزمن القديم بها قاض واحد شافعي ، ثم استقر بها قاضيان آخران : حنفي ومالكي ، يكتب لكل منهم توقيع في قطع الثلث بـ«السامى» بالياء .
وهذه نسخة تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية :

الحمد لله الذى جعل الشرع الشريف دافق السيول ، وفي طيبة له الأصول ؛ ومنها نشأ وتفرع فله في البسيطة عموم وشمول ، وكل قطر به مشمول ، وكل ربع به مأهول ، وتأكد به المعلوم وتبدد به المجهول ، وزالت الشرائع كلها وهو إلى آخر الدهور لا يزول .

نجمه وحده يطول ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عمرت [بها] أطول ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف رسول ، وأكرم مأمول ، وأفضل مسئول ، ومهتد من سيوف الله مسئول ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبى الفروع والأصول ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن الشرع الشريف معدنه في أرض نوى خير الرسل فيها ، ومنشأه في بلاد ملائكة الله تحميها ؛ فلا يلى أفضية الناس إلا من طالت ذوائب علمه ،

وأشرفت ثواقب فهمه ، وبنيت على الأصول قواعد حكمه ، وتحلى بالورع فجلى
في سماء النجاة كنجمه .

ولما كان فلان هو الذى جذبته السعادة إلى مقرها ، وخطبته المغفرة إلى موطن
برها ، وأهله الأقدار إلى جوار نبي هو خاتم الأنبياء وفتح أمرها ؛ وأصبح للحكم
في المدينة ، مستحقا لما فيه من سكينه ، وتحصيل للعلم ومن حصل العلم
كان الله معينه .

فذلك رسم أن يستقر

فليأشر منصباً جليلاً في محلّ جليل ، وليعلم أنّ سائر الأمصار تغبطه وتحسده
وما لمنصبه من مثيل ؛ أين يوجد سواه في كلّ سبيل ؟ من قاض هو بسيد المرسلين
نزىل ، ومن يصبغ ويمسح جاراً للمستجير في المحشر الطويل .

فاحكم بين ناس طيبة بورع وتأصيل ، وتحرير في تحريم وتحليل ، وأتق الله في كل
فعل وقيل ، وأستقم على الحق حذار أن تميل ، فصاحب الشرع أنت منه قريب
والنبي من الله قريب وحبيب وخليل ، وما ذا عسى أن نوصيه وهو بحمد الله تعالى
كالنهار لا يحتاج إلى دليل .

وأما الخطابة : فأرق درج منبرها ، وشف الأسماع من ألفاظك بدرها ؛ وحرر
ما تقوله من المواعظ فإن صاحب العظات يسمعك ، وتواضع لله فإن الله يرفعك ؛
وهذا المرقى فقد قام فيه النبي الأُمى سيد الثقلين ، ومن بعده الخليفةان قرّتا العين ،
ومن بعدهما عثمان ذو النورين ، وعلي رضي الله عنه أبو الحسنين ؛ فأخشع ، عند
المطلع ؛ وأصدع ، بما يتفجع ؛ وأنظر لما تقوله فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم

هناك يسمع ، وقاضي المدينة وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع ، والله تعالى يحوز له الخير ويجمع ؛ بمنه وكرمه ! .

الوظيفة الثالثة

(مشيخة الحرم الشريف)

وقد جرت العادة أن يكون له خادمٌ من الخُصيانِ المعبر عنهم بالطواشِيَّة ، يُعين لذلك من الأبواب السلطانية ، ويكتب له توقيعٌ في قِطْعِ التَلْتِ بـ«المجلس السامى» بالياء مفتتحاً بـ«الحمد لله» .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك :

الحمد لله الذى شرف بخدمة سيد الرسل الأقدار ، وفضل بالتأهل للدخول فى عداد كرمه بخدمته من أختاره لذلك من المهاجرين والأنصار ، وجعل الاختصاص بمجاورة حرمه أفضل غاية تهجر بلوغها الأوطان والأوطار ، وعجل لمن حل بمسجده الشريف تبوأ أشرف روضة تردّها البصائر وترودها الأبصار .

نحمده على نِعَمِهِ التى أكملها خدمة نبيّه الكريم ، وأفضلها التوفّر على مصالح مجاورى قبر رسوله الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، وأجملها الانتظام فى سلكِ خدمة حرمه [لأنها] بمنزلة واسطة العقد الكريم التّظيم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مُزلفَةً لديه ، مُقرّبةً إليه ، مدخّرةً ليوم العرّض عليه ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف نبيّ بعث إلى الأسود والأحمر ، وأكرم من أنار ليل الشّرك بالشرع الأقر؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نخرت الحبشة بهجرتهم الأولى ، ونجا النجاشى بما آخذ عندهم من السّابقة الحسنة واليد الطولى ، وأولى

بِاللَّهِمَّ مِنَ السَّبْقِ إِلَى خِدْمَةِ أَشْرَفِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ
أَفْضَلُ مَا يُؤْتَى؛ صَلَاةٌ لَا يَزَالُ شَهَابُهَا مُرْسِدًا، وَذِكْرُهَا فِي الْأَفَاقِ مُعَيَّرًا وَمُجَدِّدًا؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فَإِنَّ أَوْلَى مَا اعْتَمَدَ عَلَيْهِ مَنْ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَفْضَلُ عَلَيْهِ مِنْ
مَلَائِسِ كَرَمِهِ، وَشَرَفِ قَدْرِهِ أَنَّ أَهْلَهُ لَخِدْمَةِ سَيِّدِ الرَّسْلِ بِلِ مَشِيخَةِ حَرَمِهِ؛ وَخَصَّهُ
بِرُتْبَةٍ هِيَ أَسْنَى الرُّتَبِ الْفَاخِرَةِ، وَأَجْمَعُ الوِظَائِفِ لِشَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - مِنْ رَجْحِهِ
لِذَلِكَ دِينِهِ الْمُتَيْنِ، وَوَرَعِهِ الْمَكِينِ، وَزُهْدِهِ الَّذِي بَلَغَ بِهِ إِلَى هَذِهِ الرُّتْبَةِ الَّتِي سَيَكُونُ
بِهَا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

وَمَا كَانَ فَلَآنَ هُوَ الَّذِي ادْرَكَ مِنْ خِدْمَةِ سَيِّدِ الرَّسْلِ غَايَةَ سُؤْلِهِ، وَزَكَتْ عِنْدَ
اللَّهِ هِجْرَتُهُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْحَقِيقَةِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ؛ وَسَلَكَ فِي طَرِيقِ خِدْمَتِهِ الشَّرِيفَةِ
أَحْسَنَ السُّلُوكِ، وَأَتَمَّتْ بِهِ السَّعَادَةُ إِلَى خِدْمَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
لِيُعْرِضَ بِجَوْهَرِهَا الْأَعْلَى عَنْ عَرَضِ خِدْمَةِ الْمَلُوكِ؛ وَفَازَ مِنْ مُجَاوِرَةِ الْحَجْرَةِ الشَّرِيفَةِ
بِمَا عَظُمَتْ عَلَيْهِ [بِهِ] الْمِنَّةُ، وَحَلَّ بِهِ مِمَّا بَيْنَ الْقَبْرِ وَالْمَنْبَرِ فِي رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ
الْجَنَّةِ؛ وَأَقَامَ فِي مَقَامِ جَبْرِيلَ، وَمَهَيِّطِ الْوَحْيِ وَالنَّزِيلِ؛ يَتَفَيَّأُ ظِلَالِ الرَّحْمَةِ
الْوَارِفَةِ، وَيَتَهَيَّأُ مِنْ تِلْكَ النِّعْمَةِ بِالْعَارِفَةِ بَعْدَ الْعَارِفِ - تَعَيَّنَ أَنْ يَكُونَ هُوَ الْمُحَلِّي
بِعُقُودِ مَشِيخَةِ ذَلِكَ الْحَرَمِ، وَالْمَتَوَلَّى لِمَصَالِحِ هَذِهِ الطَّائِفَةِ الَّتِي لَهُ فِي التَّقَدُّمِ عَلَيْهِمْ
أُثْبِتْ قَدَمَ .

فرسم بالأمر الشريف لا زال أن تفوض إليه المشيخة على خدام
الحرم الشريف النبوي: للعلم بأنه العادل الورع، والكافل الذي يعرف أدب تلك

(١) لعله "من اعتمد عليه من" الخ .

(٢) في الأصل "اليه" .

الوظيفة : من خدمة الرسول صلى الله عليه وسلم - على ما شرع ؛ والزاهد الذي آثر جوار نبيه على ما سواه ، والخاشع الذي نوى بخدمته الدخول في زمرة من خدمه في حياته : « ولكل أمرئ ما نواه » .

فليستقر في هذه الوظيفة الكريمة قائماً بأدائها ، مشرفاً بها نفسه التي تشبثت من خدمته الشريفة بأهدائها ؛ سالماً في ذلك ما يجب ، مُحافظاً على قواعد الورع في كل ما يأتي وما يَحْتَب ؛ قاصداً بذلك وجه الله الذي لا يُحِبُّ لِرَاحِ أَمَلًا ، ولا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ؛ مُلزماً كلاً من طائفة الخُدَّام بما يقربُه عند الله زُلْفَى ، ويضعِفُ الحسنة الواحدة سبعين ضعفاً ؛ هادياً من ضلَّ في قوانين الخدمة إلى سواء السبيل ، مُبدياً لهم من آداب سلوكه ما يغدو لهم منه أوضح هادٍ وأنور دليل ؛ وفيه من آداب دينه ما يغني عن تكرار الوصايا ، وتجديد القضايا ؛ والله تعالى يسدده في القول والعمل ، ويوفقه لخدمة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وقد فعل ؛ بمنه وكرمه .

القاعدة الثالثة الينبع

(وبها وظيفة واحدة، وهي النيابة)

وقد تقدم أن نيابتها في نبي الحسن ، من بني قتادة أيضاً . وعُدل بها عن لفظ الإمارة إلى لفظ النيابة تصغيراً لشأنها عن مكة والمدينة . ويكتبُ لِنَائِبِهَا مرسومٌ شريفٌ في قطع الثلث «بالمجلس السامي» بغيرياء .

وهذه نسخة مرسوم شريف بِنِيَابَةِ الينبع ، كُتِبَ بِهِ «لِخِذْمِ بْنِ عَقِيلٍ» فِي عَاشِرِ رَجَبِ الْفَرْدِ سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْمُقَرَّرِ الشَّهَابِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذي أتم لدولتنا الشريفة أنعمًا، وأحسن في تقديم شريف كل قوم
تقدما، وأمضى في كف كف الأعداء رحماً سمهراً وسيفاً محمداً .

نحمده حمداً يكثر عدد القطر إذا همى، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.
شهادة تؤمن بالإدمان عليها منجداً ومترهما؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي
شرف من إليه آتمى، وعلى نسبه الشريف آرتى، وبجواره المنيع آحمى؛ صلى
الله عليه وعلى آله وصحبه الذين طلّوا في صباح كل نهار شمساً وفي عشيّة كل ليل
أنجماً؛ وسلّم تسليماً .

وبعد، فإن أولى من أعدنا له سعادة جدّه، وعدنا إلى عوائده الحسنى لأبيه
وجده؛ ورعت صدقاتنا الشريفة له قصبه الجميل، وشرفه الذي سما به من أصله
إلى النجم فرع لا ينال طویل؛ وأقربت عينه بسكّنه، وأستقرت به مراسمنا العالية
في مسكّنه؛ وأغنته عنايتنا الشريفة عن انتظار كل نجم سعادة يطّلع، وبعثت إليه كل
خير إلى وطنه وهو «ينبع»؛ منزلة نسبه الصميم، والحسب الذي يتمسك به في قومه
كل كريم؛ والشرف الذي أنارت كواكبّه، والوصف الذي ينظم الدرّ ثاقبه^(١) .

ولما كان المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الشريف، الحسيب،
النسيب، الأوحّد، العضد، النصير، الأصيل، فلان الدين، مجد الإسلام، زين
الأنام، شرف الأمراء الأشراف، نخر العترة الطاهرة، جمال الأسرة الزاهرة،
نسيب الخلافة، عضد الملوك والسلاطين «محمّد بن عقيل» أيدّه الله تعالى - هو
الذى تقدمت إليه كل إشارة، وحسنت به كل شاره، وتعجّلت له بمراضينا
الشريفة من محلق الشفق كل بشاره؛ وحصل في الينبع ما حصل من الاعتداء،
وأمّدت الأيدي به إلى ما كان مجّاج بيت الله من ودّيعه، وظنّ أنّه لا يشيع خبره

(١) لم يذكر خبراً لأن وهو معلوم من نظائره وكثيراً ما ورد كذلك ونهنا عليه .

في البيداء ، نخالف الواجب وتعدى الشريعة ؛ فاقضت آراؤنا الشريفة تفويضها إلى العارف منها بما يجب ، العالم من طريق سلفه الصالح بما يأتي فيها ويحتب ؛ العايل في طاعتنا الشريفة بما هو به ومثله من أهل الشرف يليق ، الماشي في خدمتنا الشريفة وفي خدمة الوفود إلى بيت الله الحرام على الطريق .

فُرم بالأمر الشريف - أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه - أن تُفوض إليه النيابة بالنيح على عادة من تقدمه وقاعدته إلى آخر وقت :

فليقدم تقوى الله في كل ما تقدم ، ويقف مع حكم الشرع الشريف فإنه المهيم المقدم ؛ وليستوس بالهجاج خيراً فإنهم وفد الله وهو عليه سيقدم ، وليؤمن الطريق فإنه بين حرمين : بيت الله ومسجد رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وليحفظ أمانة الله فيما يحل ويخلف عنده الهجاج كتب الله سلامتهم من وداعه ، وليأخذ بقلوب الجلابة فإنهم في توسيعهم على أهل الحرمين كالتصدقين وإن كانوا تجاراً يضاعه ؛ ويوصل من تأخر من أبناء السبيل إلى مأمنهم ، وليخص بالعدل أهل بلده ليستقروا آمنين في موطنهم ، والرفق فهو الذي بحله يزين ، وبحليه يستحسن ، والتأني في معرفة الحق من الباطل فإن به الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الباطل بين ؛ ولزوم الطاعة ، التي أوجبها الله لنا على عباده ونذب إليها ، وملازمة الجماعة ، التي يكفيه من بركانها أن يد الله عليها ؛ وإقامة الخدمة فيما قبله من البلاد ، وكل حاضر وباد ، وكل من كاد أو كاد ، أو تعرض لعناد العباد ؛ فن أقدم على محذور ، أو تقدم إلى محذور ، أو ارتكب في الخلاف أمراً من الأمور ؛ بحر بالبغي إلى مصرعه ، وحرك السيف لمضجعه ، ودع الرمح الذي أعتقله للشقاق يبيك للإشفاق عليه بأدمعه ؛ وقد رأيت كيف

(١) مراده «وديمة» ولكن اضطره السجع الى موافقة اللغة العامية . فتنه .

طَرِيقَتَنَا الْمُثَلَّى، وَسِيرَتُنَا الَّتِي لَا تَجِدُ لَهَا مِثْلًا؛ فَاسْأَلْكَ هَذِهِ الْمَحَجَّةَ، وَحَسْبُكَ أَنْ تَتَّخِذَ
بَيْنَكَ وَبَيْنَ اللَّهِ حُجَّةً؛ وَفِي هَذَا عَنِ بَقِيَّةِ الْوَصَايَا غَنَى، وَاللَّهُ يُزِيلُ عَنْكَ الْخَوْفَ
فِي الْخَيْفِ وَيُيَلِّغُكَ الْمُنَى فِي مَنَى؛ وَالْأَعْتَادُ

القسم الرابع^(١)

(مما يُكْتَبُ مِنَ الْوَالِيَّاتِ عَنِ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ
بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ - مَا يَقَعُ عَلَى سَبِيلِ النُّدُورِ، وَهُوَ الَّذِي يَقَعُ فِي حِينِ
مِنَ الْأَحْيَانِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَسْبِقَ لَهُ نَظِيرٌ)

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي في "حُسن التوسل": "ويحتاج الكاتب فيه
إلى حُسن التصرف على ما يقتضيه الحال .

[فمن ذلك] ما يُكْتَبُ بِهِ لِلنِّيَابَةِ الْخَارِجَةِ عَنِ الْمَمْلُوكَةِ إِذَا رَغِبَ فِيهَا مُتَوَلِّيُهَا .

وهذه نسخةٌ تُقْلِدُ شَرِيفَ مِنْ ذَلِكَ، كَتَبَ بِهِ الْمَوْلَى الْفَاضِلُ شَهَابُ الدِّينِ مَحْمُودُ
الْحَلَبِيُّ لِمَتَمَلِّكَ سَيِّسَ، بِإِقْرَارِهِ عَلَى مَا هُوَ قَاطِعُ النَّهْرِ مِنْ بِلَادِهِ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَصَّ أَيَّامَنَا الزَّاهِرَةَ، بِاصْطِنَاعِ مُلُوكِ الْمَلَلِ، وَفَضَّلَ دَوْلَتَنَا
الْقَاهِرَةَ، بِإِجَابَةِ مَنْ سَأَلَ بَعْضَ مَا أحرزته لَهَا الْبَيْضُ وَالْأَسَلُ؛ وَجَعَلَ مِنْ خِصَائِصِ
مُلْكِكَ إِطْلَاقَ الْمَمَالِكِ وَإِعْطَاءَ الدُّوَلِ، وَالْمَنَّ بِالنَّفُوسِ الَّتِي جَعَلَهَا النَّصْرُ لَنَا مِنْ جُمْلَةِ
الْخَوْلِ؛ وَأَغْرَى عَوَاطِفَنَا بِتَحْقِيقِ رَجَاءِ مَنْ مَدَّ إِلَى عَوَارِفِنَا كَفَّ الْأَمَلِ، وَأَفَاضَ
بِمَوَاهِبِ نِعْمَاتِنَا، عَلَى مَنْ أَنَابَ إِلَى الطَّاعَةِ حُلَّ الْأَمْنِ بَعْدَ الْوَجَلِ؛ وَاتَّرَعَ بِالْآثِنَا،

(١) تقدم له تقسيمه الى ثلاثة أقسام فقط كما ورد في الصفحة ١٣٤ من ج ١١ من هذه الطبعة فيكون

هذا زائدا على الأقسام .

لَمَنْ تَمَسَّكَ بَوْلَانِنَا ، أَرْوَاحَ رَعَايَاهُ مِنْ قَبْضَةِ الْأَجَلِ ، وَجَعَلَ بَرْدَ الْعَفْوِ عَنْهُ وَعَنْهُمْ
بِالطَّاعَةِ تَبِيحَةً مَا أَذَاقَهُمُ الْعِضْيَانُ مِنْ حَرَارَةِ الْعَضْبِ : إِذْ «رُبَّمَا صَحَّتِ الْأَجْسَامُ
بِالْعِلَلِ» .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي جَعَلَتْ عَفْوَنَا مِنْ رَجَاهِ قَرِيبَا ، وَكَرَمَنَا لِمَنْ دَعَاهُ بِإِخْلَاصِ
الطَّاعَةِ مُجِيبَا ، وَرَبَّنَا لِمَنْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ مِثْيَابًا بِوَجْهِ الْأَمَلِ مُنِيبَا ، وَبِأَسْنَانَا مُصِيبَا لِمَنْ لَمْ
يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ فِي التَّمَسُّكِ بِمِرَاحِمِنَا نَصِيبَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
شَهَادَةً تَعَصِمُ دَمًا مِنْ تَمَسُّكِ بِذِمَامِهَا ، وَتَحْسِمُ مَوَادًّا مِنْ عَانَدِهَا بِانْتِقَامِ حُسَامِهَا ،
وَتَقْصِمُ عُرَا الْأَعْنَاقِ مَنْ أَطْعَمَهُ الْغُرُورُ فِي أَنْفِصَالِ أَحْكَامِهَا وَأَنْفِصَامِهَا ، وَتَقْصِمُ
مَنْ قَصَدَ إِطْفَاءَ مَا أَظْهَرَهُ اللَّهُ مِنْ نُورِهَا وَأَقْطَعَ مَا قَضَاهُ مِنْ دَوَامِهَا ، وَتَجْعَلُ كَلِمَةً
حَمَلَتَهَا هِيَ الْعُلْيَا وَلَا تَزَالُ أَعْنَاقُ جَاهِدِيهَا فِي قَبْضَةِ أَوْلِيَائِهَا وَتَحْتَ أَقْدَمِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ
مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَبْعُوثُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ إِلَى كُلِّ أُمَّةٍ ، الْمَنْعُوتُ فِي الْكُتُبِ
الْمَنْزَلَةِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ ، الْمَخْصُوصُ مَعَ عَمُومِ الْمَعْجَزَاتِ بِتَحْسِنِ : مِنْهَا الرَّعْبُ الَّذِي كَانَ
يَتَقَدَّمُهُ إِلَى مَنْ قَصَدَهُ وَيَسْبِقُهُ مَسِيرَةَ شَهْرٍ إِلَى مَنْ أَمَّهُ ، الْمَنْصُوصُ فِي الْكُتُبِ
الْحَكِيمَةِ عَلَى جِهَادِ أُمَّتِهِ الَّذِينَ لَا حَيَاةَ لِمَنْ لَمْ يَتَمَسَّكَ مِنْ طَاعَتِهِمْ بِذِمَّتِهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَتَحُوا بِدَعْوَتِهِ الْمَمَالِكَ ، وَأَوْضَحُوا بِشَرْعَتِهِ إِلَى اللَّهِ الْمَسَالِكَ ،
وَجَلَّوْا بِنُورِ سُنَّتِهِ عَنْ وَجْهِ الزَّمَنِ كُلِّ حَالٍ حَالِكٍ ، وَأَوْرَدُوا مِنْ كَفَرِ بَرَبِّهِ وَرُسُلِهِ مَوَارِدَ
الْمَمَالِكِ ، وَوَرَّثُوا بِمَا وَعَدَ اللَّهُ نَبِيَّهُ حِينَ زَوَى لَهُ ذَلِكَ ؛ صَلَاةً لَا تَزَالُ الْأَرْضُ لَهَا
مَسْجِدًا ، وَلَا يَبْرُحُ ذِكْرُهَا مُغَيَّرًا فِي الْأَفَاقِ وَمُنْجِدًا ؛ مَا اسْتَفْتَحَتْ أَلْسِنَةُ الْأَسِنَّةِ
النَّصْرَ بِإِقَامَتِهَا ، وَأَبَادَتْ أَعْدَاءَهَا بِاسْتِدَامَتِهَا ؛ وَسَلَّمَتْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّهُ لَمَّا آتَانَا اللَّهُ مُلْكَ الْبَسِيطَةِ ، وَجَعَلَ دَعْوَتَنَا بِأَعْنَةِ مَمَالِكِ الْأَقْطَارِ
مُحِيطَةً ؛ وَمَكَّنَ لَنَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَنْهَضَنَا مِنَ الْجِهَادِ فِي سَبِيلِهِ بِالسُّنَّةِ وَالْفَرَضِ ،

وجعل كلَّ يومٍ تُعرض فيه جيوشنا من أمثلة يومِ العَرَضِ ، وأظَلَّتْنا بِوَادِرِ الفُتُوحِ ،
 وأظَلَّتْ على الأعداءِ سِيوفُنا التي هي على من كَفَرَ باللهِ وكفَرَ النِّعْمَةَ دَعْوَةَ نُوحٍ ؛
 وأيدنا بالملائكةِ والرُّوحِ ، على من جعل الواحدَ سبْحانَهُ ثلاثَةً : فانتَصَرَ بالأبِ والأبْنِ
 والرُّوحِ ؛ وألقتْ إلينا مُلُوكُ الأقطارِ السَّلامِ ، وبذلتْ كرائمِ بلادها وتِلادِها رَغْبَةً
 في الاتِّجاءِ إلى ظِلِّ أَعْلَى من الأعلامِ ؛ وتوسَّلَ من كان منهم يُظهِرُ الغِلظةَ بالدَّلَّةِ
 والخُضُوعِ ، وتوصَّلَ من كان منهم يُبْدي القُوَّةَ بالإِخْلاصِ الذي رآوه لهم أقوى
 الجُنِّينِ وأوقى الدُّرُوعِ - عاهدنا الله تعالى أن لا تُردَّ منهم آمِلا ، ولا نصدَّ عن مَشارِعِ
 كَرَمِنا ناهِلا ؛ ولا نُحَيِّبَ من إحساننا راجِيا ، ولا نُحَيِّئَ عن ظِلِّ رَبِّنا لاجِيا ؛ عِلْمًا
 أنَّ ذلكَ شُكْرٌ للقُدْرَةِ التي جعلها اللهُ لنا على ذلكِ الأملِ ، ووُثُوقًا بأنَّه حيثُ كان
 في قبضتِنا متى نَشَاءُ نَجْعُ عليه الأنايلِ ؛ اللَّهُمَّ إلا أن يكونَ ذلكَ اللَّاجِئُ لِلْغَلِّ مُسْرًا ،
 وعلى عداوةِ الإسلامِ مُصْرًا ؛ فيكونُ هو الجاني على نفسه ، والجاني على مَوْضِعِ
 رَمْسِهِ ، والمُفَرِّطِ في مَصْلَحةِ يَوْمِهِ وِغْدِهِ بتذكيرِ عداوةِ أَمْسِهِ .

ولما كان من تقدَّم بالمملكةِ الفلانيَّةِ قد زَيْنَ له الشيطانُ أَعْمالَهُ ، وعَقَدَ بِجَبالِ
 الغُرُورِ آمالَهُ ؛ وحَسَّنَ له التَّمسُّكُ بالتَّسَّارِ الذين هم بمهابتنا محصورون في ديارهم ،
 مأسورون في حبالِ إِدبارِهِم ؛ عاجزون عن حِفْظِ ما لِيهِم ، قاصرون عن ضَبْطِ
 ما اسْتَلَبْتَهُ السَّرايا المنصورةُ من يَدِيهِم ؛ ليس منهم إلا من له عند سِيوفِنا تارٌ ، ولها
 في عُنُقِهِ آثارٌ ، ومن يعلمُ أنَّه لا بدَّ له عندنا من خُطْطَى خَسَفٍ : إمَّا القتلُ أو الإِسارَ .

وحينَ تَمادَى المذكورُ في غِيهِ ، وحملةِ الغُرُورِ على رُكُوبِ جِوَادِ بَيْغِهِ ، أمرنا
 جيوشنا المنصورةَ بِفَاسَتْ خِلالَ تلكِ الممالكِ ، ودَاسَتْ حَواضِرَ خَيْلِها ما هُناكَ ،
 وساوتْ في عُمومِ القَتْلِ والأسْرينِ العَبْدَ والحُرَّ والمملوكَ والمالِكَ ؛ وألحقتْ رِوايَةَ

جبالهم بالصعيد ، وجعلت حُصاتهم كزُرُوعِ فَلَاتِهِمْ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ؛ فَاسْلَمَهُم
 الشَّيْطَانُ وَمَرَّةً ، وَتَرَكَهُمْ وَقَرْبًا ، وَمَا كَرَّمَهُمْ وَمَا كَرَّمَ ، وَأَعْلَمَهُمْ أَنَّ مَوْعِدَهُمُ السَّاعَةُ وَالسَّاعَةُ
 أَذْهَى وَأَمْرًا ؛ وَأَخْلَفَهُمْ مَا ضَمَّنَ لَهُمْ مِنَ الْعَوْنِ ، وَقَالَ لَهُمْ : ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي
 أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ﴾ .

وكان الملكُ فلانٌ ممن تدبَّرَ طُرُقَ النِّجَاةِ فلم يرَ لِيَهِيَ سِوَى الطَّاعَةِ سَيِّدًا ، وَتَأَمَّلْ
 أسبابَ النِّجَاحِ فلم يجدَ عليها غيرَ صِدْقِ الْإِنْتِمَاءِ دَلِيلًا ؛ فَأَبْصَرَ بِالْخِدْمَةِ مَوْضِعَ رُشْدِهِ ،
 وَأَدْرَكَ بِسَعْيِهِ نَافِرَ سَعْدِهِ ؛ وَأَرَاهُ الْإِقْبَالَ كَيْفَ ثَبَّتَ قَدَمَهُ فِي الْمَلِكِ الَّذِي زَلَّتْ عَنْهُ
 قَدَمٌ مِنْ سَلْفٍ ، وَأَظْهَرَ لَهُ الْإِشْفَاقَ عَلَى رَعَايَاهُ مِصَارِعَ مِنْ أَوْرَدِهِ سُوءَ تَدْبِيرِ أَخِيهِ
 مَوَارِدَ التَّلَفِّ ؛ وَعَرَفَهُ التَّمَسُّكَ بِإِحْسَانِنَا كَيْفَ أَحْتَوَتْ يَدَهُ عَلَى مَالِمْ يُبْقِي غَضَبُنَا فِي يَدِ
 أَخِيهِ مِنْهُ إِلَّا الْأَسَى وَالْأَسْفَ ؛ وَحَسَّنَتْ لَهُ الثَّقَّةُ بِكُنَّا كَيْفَ يُجْمَلُ الطَّلَبُ ،
 وَعَامَّتْهُ الطَّاعَةُ كَيْفَ يَسْتَنْزِلُ عَوَارِفُنَا عَنْ بَعْضِ مَا غَلَبَتْ عَلَيْهِ سِيُوفُنَا : وَإِنَّمَا الدُّنْيَا
 لِمَنْ غَلَبَ ؛ وَأَتَمَّتْ لِيُنَا فِصَارَ مِنْ خَدَمِ أَيَّامِنَا ، وَصَنَائِعِ إِنْعَامِنَا ، وَقَطَعَ عِلَاقَتَهُ مِنْ
 غَيْرِنَا ؛ فَلَجَأَ مِنَّا إِلَى رُكْنِي شَدِيدٍ ، وَظِلِّ مَدِيدٍ ، وَنَصْرٍ عَتِيدٍ ؛ وَحَرَمِ تَأْوِي الْمَلَّةِ إِلَيْهِ ،
 وَكَرَمِ تَقَرُّ نِضَارَتِهِ نَاطِرِيهِ ، وَإِحْسَانِ يُمْتَعَهُ بِمَا أَقْرَهُ عَطَاؤُنَا فِي يَدِيهِ ، وَامْتِنَانِ يَضَعُ
 عَنْهُ إِصْرَهُ وَالْأَنْثَالَ الَّذِي كَانَتْ عَلَيْهِ - أَقْتَضَى إِحْسَانُنَا أَنْ نُفَضِّيَ لَهُ عَنْ بَعْضِ
 مَا حَلَّتْ جُبُوشُنَا دُرَاهُ ، وَحَلَّتْ سَطَوَاتُ عَسَا كَرْنَا عُرَاهُ ، وَأَضْعَفَتْ عَزَمَاتُ
 سَرَايَانَا قُوَاهُ ، وَنَشَرَتْ طَلَائِعَ جُنُودِنَا مَا كَانَ سِتْرَهُ صَفْحُنَا عَنْهُمْ مِنْ عَوَارِثِ
 بِلَادِهِمْ وَطَوَادِهِمْ ؛ وَأَنْ يُحَوَّلَهُ بَعْضُ مَا وَرَدَتْ خِيُولُنَا مِنْهَا لَهُ ، وَوَطَّئَتْ جِيَادُنَا غَارِبَهُ
 وَكَاهِلَهُ ، وَسَلَكَتْ كِبَائِسًا فَمَلَكْتَ دَارِسَهُ وَآهْلَهُ ؛ وَأَنْ يَبْقَى مُلْكُ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي
 مَضَى سَلْفُهُ فِي الطَّاعَةِ عَلَيْهِ ، وَيَسْتَمِرَّ مَلِكُ الْأَرْضِ الَّذِي أَجْمَلَ السَّعْيَ فِي مِصَالِحِهِ

بيديه ؛ لَتَيْمَنَ رعاياه به ، ويعلموا أنهم آمنوا على أرواحهم وأولادهم بسببه ، عن طوية مخلصه ونفس مطيعة ، ولا تخشى عليه يد جائره ، ولا سرية في طلب الغرة سائره ؛ ولا تطرق ككاسه أسد جيوش مفترسه ، ولا سباع نهاب محتلسه ؛ بل تستمر بلادُه المذكورة في ذمام رعايتنا ، وحضانة عنايتنا ؛ وكنف إحساننا ، ووديعه برنا وأمتاننا ؛ لا تطمح إليها عين مُعاند ، ولا يمتد إليها إلا ساعد مُساعد وعَضد مُعاضد .

فليقابل هذه النعمة بشكر الله الذي هداه إلى الطاعة ، وصان بإخلاص ولآئِه نفسه ونفائس بلاده من الإضاعة ؛ وليقرن ذلك بإضفاء موارد المودة ، وإضفاء ملابس الطاعة التي لا تزادُ بحسن الوفاء إلا جدّه ؛ وأستمرار المناصحة في السر والعلن ، وأجتنب الخادعة ما ظهر منها وما بطن ؛ وأداء الأمانة فيما أستقر معه الحلف عليه ، ومباينة ما يخشى أن يتوجه بسببه وجه عتب إليه ؛ وأستدامة هذه النعمة بحفظ أسبابها ، وأستقامة أحوال هذه المنّة برؤض موجبات الكدر وأجتنبها ، وإخلاص النية التي لا تعتبر ظواهر الأحوال الصالحة إلا بها .



ومن ذلك ما يكتب به لحكم رمة البندق

قد جرت العادة أنه إذا كان للسلطان عناية برمي البندق ، أقام لرماته حاكماً من الأمراء الذين لهم عناية برمي البندق .

وهذه نسخة توقيع من ذلك :

الحمد لله الذي خص أيامنا الزاهرة ، باستكمال المحاسن في كل مرّام ، وجعل [من] أولياء دولتنا القاهرة ، من أصاب من كل مرّمي بعيد شاكّة الصواب حتى أصبح

حاشا فيه بين كلِّ رَامٍ ، وجمع لخواصنا من أشنات المفاسحِ ما إذا برزوا فيه للرياضة ليلاً [أعنت] قسيهم عن الأهلة ورجومها عن رجوم الظلام ، وسدّد مقاصد أصفينائنا في كلِّ أمرٍ فما شغلوا بمسرة سرّاً إلا وكانت من أقوى أسباب التمرن على خوض الغمرات العظام ، واقتحام الحرب اللّهام ، واشتغال جلابيب الدجى في مصالح الإسلام .

نحمدُه على نِعْمه الوسام ، وأياديه الحسام ، وآلائه التي ما برحت بها تُغور المسائر دائمة الأيتسام ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تعصم من الزلل ، وتؤمن من الزنح والخلل ، وتُلبس المتمسك بها من أنوار الجلالة أبهى الحلل ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله المنزه عن الهوى ، المخصوص بالوحي الذي علمه شديد القوى ، الدالُّ على اعتبار الأعمال بصحة القصد بقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكلِّ أمرئ ما نوى » . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين وفق الإخلاص مساعيهم ، ووفّر الإيمان دواعيهم ؛ صلاة دائمة الاتصال ، مستمرة الإقامة بالغدق والآصال ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنه لما كان رمي البندق من أحسن ما هتت به الحكمة ، في حال سلامها ، ومن أبهج ما حفظت به الرّماة ، حياة نفوسها وعزّة عزيمتها ؛ على ما فيه من أطراح الراحة وأجتنابها ، وأستدعاء الرياضة وأجتنابها ؛ وخوض الظلمات في الظلام ، وتونحي الإصابة في غمرات الدجى التي تخفى فيها المقاتل على حدق السهام ، وأرتقاب ظفر ، يُسفر عنه وجه سفر ، ومهاجمة خطر ، تُفضي إلى بلوغ وطر - وله شرائط تقتضى التقدّم بين أربابه ، وقواعد لا يخالفها من كان مبرّراً في أصحابه ؛ وأدوات

(١) في الأصل « في مخالفتها » ولا معنى له . تأمل .

كمال، لأبدٍ للتحلّي بهذه الرتبة منها، وحسنٍ خلال، تُهدرُ أعمالٌ من بعدٍ عليه مرأها
وقصرت مساعيه عنها؛ وعوائدٌ معلومة، بين أرباب هذا الشأن وكبرائه، ومقاصدُ
مفهومة، فيما يميزه المصيبُ الحاذقُ على نظرائه .

ولما كان الجنبُ العالى الفلانى ممن يشارُ إليه في هذه الرتبة ببنان الترجيح،
ويُرَجَّعُ إلى أقواله فيما اقتضى التعديل فيما بين أربابها والتجريح؛ ويعملُ فيها
بإشارته الخالصة من الهوى والأغراض، ويعوّلُ فيها على قدم معرفته المميزة بين
أقدار الرماة مع تساوى إصابته الأغراض؛ لأحتوائه على غايات الكمال فيها، وسبقه
منها إلى مقاماتٍ حسان لا يُعطيها حقّها [الا] مثله ولا يُوقّئها - اقتضى رأينا الشريفُ
أن نعدق به أحكامها، ونزدّ إلى أمره ونهيه كبراءها وحكامها .

فرسُ بالأمر الشريف أن يكون حاكماً في البندق لما يتعين من اختصاصها
بجنايه، ويتبين من أولويته بالحكم في هذا الفنّ على سائر أربابه .

فليل ذلك حاكماً بشروطه اللازمة بين أهله، المعتبرة بها خلال الكمال في قول كلِّ
أحد منهم وفعله؛ المميزة بين تفاوت الرماة بحسب كيفية الرمي وإتقانه، المرجحة
في كثرة الطير بإمكانه له في وقت البروز ومكانه؛ المهذرة ما يجب بين أهل هذا
الفنّ إهداره، المثبتة ما يتعين في كمال الأدوات إثباته في قدم الكبراء وإقراره؛ ويعملُ
في ذلك جميعه بما تقتضيه معرفته المجمع في فنّه عليها، ويتقدّم فيه بما تدله عليه
خبرته التي ما برح وجه الاختيار مصروقاً إليها؛ والله تعالى يسدده في القول والعمل،
ويبلغه مراتب الرفعة في خلاله الجميلة وقد فعل؛ والخيرُ يكون، إن شاء الله تعالى .

قلت: وربّما كان المرسومُ المكتتب لمن هو دون من تقدّم من أمير عشرة
أو من في معناه. فيفتح بـ«أما بعد» ويكمل على نحو ما تقدّم .

وهذه نسخة ثانية للحاكم البندق، مفتحة بـ «أما بعد» وهي :

أما بعد حمد الله الذي لا معقب لحكمه ، ولا يعزب شيء عن علمه ، ولا فُتُوطَ من رحمته وسعة حلمه ، ملهم أهل محاربة أعداء دينه بالرياضة لها في أيام سلمه ، ومُنَجِّزُ وُعود السُّعود لمن كان النَّجم مَبْدَأَ هِمَّتِهِ ، وَالصِّدْقُ حُلَّةَ بَعِيَّتِهِ ، وَالغُرْحُلِيَّةَ أَسْمِهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي هَدَى اللَّهُ بِنُورِ مَلَكِهِ الْعَادِلَةِ مِنْ تَرَدُّي فِي ظُلُمَاتِ ظُلْمِهِ ، وَرَفَعَ مَنَارَ النُّبُوَّةِ بِمَا خَصَّهُ بِهِ مِنْ آفْتِنَاحِ التَّقَدُّمِ فِي رَتَبَتِهَا وَخَتْمِهِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَرَى كُلُّ مِنْهُمْ إِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ عَلَى نَجَائِبِ هِمَّتِهِ وَجِيَادِ عَزْمِهِ - فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ رُعِيَتْ لَهُ أَسْبَابُ قَدَمِهِ وَتَقَدَّمَ ، وَفُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ حُكْمِهِ فِي رُتْبَتِهِ وَتَحْكُمِهِ ؛ وَأَعِيدَ إِلَى مَكَانَتِهِ الَّتِي رَقَّاهَا بِاسْتِحْقَاقِهِ قَدِيمًا ، وَرُفِعَ إِلَى مَنَزَلَتِهِ الَّتِي لَمْ يَزَلْ بِقَوَاعِدِهَا خَيْرًا وَأَبْوَضَاعِهَا عَلِيًّا - مَنْ ارْتَقَى فِي رُتْبَتِهِ إِلَى نَجْمِ أَفْقِهَا ، وَأَقْتَدَى فِي مَنَاجِيهِ بِدَلِيلِ مَسَالِكِهَا وَطُرُقِهَا ؛ فَاتَى فِي مَصَالِحِهَا بِيَوْتِ الْإِصَابَةِ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَنَقَلَ فِيهَا أَوْضَاعَ الْإِجَادَةِ عَمَّنْ كَانَ أَدْرَى بِهَا ؛ وَتَقَدَّمَ فِيهَا تَقَدُّمَ هِجْرَتِهِ وَسَبَقَ قَدَمِهِ ، وَبَلَغَ فِي مَقَامَاتِهَا الْغَايَةَ بَيْنَ وَثَبَاتِ سَاعِدِهِ وَثَبَاتِ قَدَمِهِ ؛ وَجَمَعَ مِنْ أَشْتَاتِ الطَّيْرِ مَا أَفْتَرَقَ فِي غَيْرِهِ ، وَحَوَى مِنْ السَّبْقِ إِلَى أَنْوَاعِهَا مَا حَكَمَ بِسَعْدِ نَجْمِهِ وَيُمْنِ طَيْرِهِ ؛ فَكَمَّ لَيْلَةَ أُسْفَرٍ فِيهَا أَبْرُزُوهَ عَنْ صَبَاحِ نَجَاحِهِ ، وَكَمَّ طَائِرِ زَاحِمِ النَّسْرَيْنِ بِقَوَادِمِهِ أَصْبَحَ لَدَيْهِ مَحْمُولًا بِجَنَاحِهِ ؛ وَكَمَّ أَنْزَلَتْ أَهْلَةً فَيَسِيهِ الطَّيْرَ عَلَى حُكْمِهَا ، وَكَمَّ حَكَّتْ بِنَادِقِهِ فِي رُجُومِ الطَّيْرِ الْمُحَلَّقَةِ إِلَى السَّمَاءِ أَنْقِضَاصَ نَجْمِهَا ؛ وَكَمَّ أَبْصَرَ مَقَاتِلَ الطَّيْرِ وَهِيَ مِنَ اللَّيْلِ فِي ظُلُمَاتِ بَعْضِهَا فَوْقَ بَعْضٍ ، وَكَمَّ أَشْتَغَلَ مِنَ الطَّيْرِ الْوَاجِبِ بِنَدْبِ رَمِيٍّ لَمْ يَسْغَلْهُ مِنْ إِعْدَادِ الْأَهْبَةِ لِلْجِهَادِ عَنِ الْفَرَضِ ؛ حَتَّى كَادَ النَّسْرُ الطَّائِرَ إِذَا تَوَهَّمُ أَنَّ الْهِلَالَ قَوْسُهُ يَغْدُو كَأَخِيهِ وَاقِعًا ، وَالْمَرْزَمُ الْحَلَقُ فِي الْأَفْقِ يُمَسِّي لِإِشَارَةِ

بنادقه الصمّ متبعا ؛ حتى أصبح وهو الكبير في فنه بأداب التعريف ، وأضحى وهو الخبير بنوعه بطريق النقل والتوقيف .

ولمّا كان فلانٌ هو كبير هذا الفنّ وخيره ، ومقدّم هذا النوع الذى لم يزل بجلائه عظيم كلِّ عصر وأميره ؛ وقديم هذا المرعى الذى جُلُّ المراد به الحدُّ لا اللبّ ، وأليف هذا المرام الذى ينشط إليه اللاعبُ ويستروحُ إليه التعبُ - أقتضى الرأى الشريف أن نجعله حاكماً في هذه الرتبة الجليلة بما علم أو علم منها ، فأصلاً بين أهلها بمعرفته التى ما برحت يؤخذ بها في قواعدها ويتقلّد عنها - فرسم بالأمر الشريف أن يكون حاكماً في البندق .

فليستقرّ في هذه الرتبة التى تلقّاها ، يمين كفايته ويمنه ، وأرتقاها ، بتفرّده في نوعه وتقدّمه في فنه ؛ وليعتمد الإنصاف في أحكام قواعدها ، وإجراء أمر أربابها على أحوالها المعروفة وعوائدها . ويتأفّف المعروفين بها على التحلّي بأدائها ، والتأمّسك من المروءة والأخوة بأفضل أهدائها ؛ ويُنصف بينهم فيما يعتدُّ به من واجبها ، ويُلزِم الداخل فيها بالمشى على المألوف من طرقها والمعروف من مراتبها ؛ ولا يحكم في التقديم والتأخير بهوى نفسه ، ولا يقبل من لم يحتر الصدق في يومه أنّه قبل منه في أمسه ؛ فإنّ استدامة شروطها أمانٌ من السقوط عن درجتها ، وإذا حكمت نفوس أهلها الصدق في أقوالها وأفعالها فقد خرجت من خطّ حرجها ؛ وليرع لذوى التقدّم فيها قدم هجرتهم ، وأشتهار سيرتهم الحسنة بين أسرّتهم ؛ وقد خبر من أوصافه الحسنه ، وسابق رتبته التى لم تكن عين العناية عنها وسنه ؛ ما أقتضى استقرار رتبته على مكائنها ومكانها ، وأكتفى له من مبسوط الوصايا بعنوانها ؛ فليتق الله في قوله وعمله ، ويجعل الاعتماد على توفيقه غاية أمله ؛ والخير يكون : إن شاء الله تعالى .



ومن ذلك ما يكتبُ به في إلباس الفتوة .

إعلم أنّ طائفةً كبيرةً من الناس يذهبون إلى إلباس لباس الفتوة، ويقسمون لذلك شروطاً وأداباً جاريةً بينهم . ينسبون ذلك في الأصل إلى أنه مأخوذٌ عن الإمام عليٍّ كرم الله وجهه .

والطريق الجارى عليه أمرهم الآن أنه إذا أراد أحدهم أخذَ الطريق عن كبيرٍ من كبراء هذه الطائفة، أجمع من أهلها من تيسر جمعه، وتقدم ذلك الكبير فيلبس ذلك^(١) ثياباً، ثم يجعل في كوز أو نحوه ماءً ويخلطُ به بعض ملح، ويقوم كلُّ منهم فيشربُ من ذلك الماء وينسبه إلى كبيره . وربما اعتنى بذلك بعض الملوك . وقد جرت العادة في ذلك أنه إذا ألبس السلطانُ واحداً من الأمراء أن يكتبَ له بذلك توفيقاً .

وهذه نسخةٌ توقيعُ بفتوة، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، وهو :
الحمد لله الذي جعل أنساب الفتوة، متصلةً بأشرف أسباب النبوة، وأفضل من أمده منه بكلِّ حيلٍ وقوة، وأسعد من سما فكان علياً على كلِّ من سام علوه .

نحمده حمداً تغدو الأفواه به مملؤه، ونشكره على مواهبه آيات الشكر المتلوه؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من جعل إلى منهج التوحيد رواجه وغدوه، ونشهد أن محمداً عبده وسوله الذي شد الله أزره بنجر من أفتى وفتى؛ فقال كلُّ فتوى من الفتيان به شرف الأبوّة والبسوة، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نصروا وليه وخذلوا عدوه، صلاةً موصلةً إلى نيل الأمانى المرجوه .

(١) بياض بالأصول، ولعله : المرید أو نحوه .

وبعد، فإن خير من اتصل به رجاء الرجال الأجواد، وطوى البعيد إلى تحصيل مرآته كل طود من الأطواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لئلا كل جود وأمتطى ظهر خير جواد، وأستمسك من ملابس الشرف بما يؤمن ويؤمل وما يشد به من كل خير لباس التقوى، وما تؤيد به عزيمته فتقوى، وما يتقيد به على رؤوس الأحزاب، وما يتنزل به عليه أحسن آية من هذا الكتاب - من أشتهر بالشجاعة التي تقدم بها على قومه، وحمد أمسه في يومه، وبالشهامة التي لها ما للسهام من تفويق، ولزرق الأسنه من تحديق، وليبيض الصفاح من حدة متون، وللسمهرية من أزدحام إذا أزدحمت المنون، ومن صدق العزيمة، ما يشهد به كرم الشيمه، ومن شدتة الباس، ما يجتمع [به] على طاعته كثير من الناس، ومن صدق اللهجة واللسان، ما أتصف عفافه منهما بأشرف ما يتصف به الإنسان، ومن طهارة النفس ما يتنافس على مثله المتنافسون، ويستضيء بأنواره القابسون، ويرفل في حلال نعمائه اللابسون، و[كان] من الذين أبانوا عن حسن الطاعة وأنابوا، وإذا دُعوا إلى استنفار جهاد وأجتهد لبوا وأجابوا، والذين لا يلبون ألبتاهم عن الصدق، ولا يولون وجوههم عن الحق، والذين لا يقعدهم عن بلوغ الأوطار مع إيمانهم حب الأوطان، وإذا نفذوا في حرب حرب الأعداء لا ينفذون إلا بسطان.

ولما كان فلان ذو المفانح، والماتر، أمير الفتيان، مُميز الإخوان والأعيان، هو صاحب هذا المحفل المعقود، والمدوح بهذا المقال المحمود، والمنوح بهذا المقام المشهود، والثناء الذي سر باله بما سر به أثواب العزة والفخار، والأعتناء الذي استخيرا لله في أصطفائه واختياره في ذلك فخار - أقتضى حسن الرأي الشريف - كرم الله أنصاره، وأعلى مناره - أن يجيب وسائل من وقف في هذا القصد وقفة سائل، لينال بذلك كل إحسان وإحسان كل نائل، ودعا إلى الكرم العام بالإنعام،

والدعاء لسُلطان يُدعى له ويدعو كل الأنام ، فقال : أسأل الله وأسأل سُلطان الأرض ، ملك البسيطة إمام العصر ، رافع لواء النصر ، ناصر الملة المحمديّة ، محيي الدولة العباسيّة ، فاتح البلاد والقلاع والأمصار ، قاهر الكفار مُبيد الفرنج والأرمن والتتار ، سُلطان الزمان ، حُسرّوان إيران ، شاهنشاه القان ؛ سُلطان العالم وارث الملك ، سُلطان العرب والعجم والترك ؛ الذي انتهى إليه عن أمير المؤمنين الإمام الأواب ، المغوار ، عليّ بن أبي طالب ذى الفخار ، شرف الفتوة وآتصال الأنساب .

قلت : هذا ما وقفت عليه من نسخة هذا التوقيع . وقد ذكر الشيخ شهاب الدّين محمود الحلبيّ في كتابه "حسن التوسل" نسخة تقليد أنشأه في الفتوة ، أسقط منه أول الخطبة وهو : - وابتدأ منه بقوله :

نحمدُه على ما منّنا من نعم سقّا ، وهبنا من علم وحلم غدونا بهما أشرف من أفتى ، وآتانا ملك خلال الشرف الذي لا ينبغي لغير ما آختصنا به من الكمال ولا يتأتّى ، وخصنا به من رفع أهل الطاعة إلى سماء النعم يتبوءون من جنان الكرم حيث شاءوا ؛ وغيرهم لا يفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة من آنتى في فخار أبوة التقي إلى حسب عليّ ، وآنتى في بأوة البنوة إلى سبب قوى ونسب زكى ، وآرتدى حلال الوقار بواسطة الفتوة عن خير وصى عن أشرف نبيّ ؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذى نور شريعته جليّ ، وجاه شفاعته مليّ ، وبسيفه وبه حاز النصر من آنتى وفاء إليه : فلا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عليّ .

وبعد ، فإن أولى من لبيّ إحساننا نداء وده ، وربّى أمتنا نتاج ولائه الموروث عن أبيه وجده ، ورقاه كرمنا إلى رتبة علاء يقف جواد الأمل عن بلوغها عند حده ؛

وَتَلَقَّتْ كَرَامَتَنَا وَفَدَّ قَصْدِهِ بِالترَّحِيبِ ، وَأَنْزَلَتْ جَارَ رَجَائِهِ مِنْ مِصْرٍ نَصَرَهَا بِالْحَرَمِ
الْأَمِينِ وَالرَّبِيعِ الْخَصِيبِ ، وَأَدْنَتْ لِأَمَلِهِ مَا نَأَى مِنَ الْأَغْرَاضِ حَتَّى بَلَغَهُ بِفَضْلِهَا سَهْمُ
أَجْتِهَادِهِ الْمُصِيبِ ، وَأَعَدَّتْ لَهُ مِنْ حُلِيِّ الْجَلَالَةِ مَا هُوَ أَجْمَعُ مِنْ رِذَاءِ السَّمَاءِ الَّذِي
تَزْدَادُ عَلَى الْأَيْدِ جِدَّةُ بُرْدِهِ الْقَشِيبِ ؛ وَخَصَّصَتْهُ لِابْتِنَاءِ الْمَجْدِ بِأَجَلٍ بِنُورَةٍ جَعَلَتْ لَهُ
فِي إِرْثِ خِلَالِ الشَّرْفِ أَوْفَرَ حَظًّا وَأَوْفَى نَصِيبًا - مِنْ سَمْتِ مَنْابِرِ الْمَجْدِ بِذِكْرِهِ ،
وَأَبْتَسَمَتْ أَسْرَةَ الْمَجْدِ بِشُكْرِ أَوْصَافِهِ وَوَصَفِ شُكْرِهِ ؛ وَأَخْتَالَتْ مَوَادُّ النَّوَاءِ بِحَسَنِ
خِلَالِهِ ، وَأَخْتَارَتْ كَوَاكِبَ السَّنَاءِ إِقْبَالَ طَوْلَعِهِ بِطَوْلَعِ إِقْبَالِهِ ؛ وَتَمَسَّكَ مِنْ طَاعَتِنَا
بِأَمْثَلِ أَسْبَابِ الْهُدَى ، وَأَعْتَصَمَ بِعُرْوَةِ بِنُورَةِ الْأَبْنَاءِ فَأَوْطَاهُ التَّوْتُقُ بِهَا رِقَابَ الْعِدَاءِ ،
وَأَتَّصَفَ بِمَحَاسِنِ الشِّيمِ فِي مَوَدَّتِنَا فَأَضْحَى فِي السَّنِّ كَهْلَ الْحِلْمِ يَهْتَرُّ لِلنَّدَى ؛ وَأَنْتَمَى
إِلَيْنَا فَأَصْبَحَ لَدَيْنَا مَلِكًا مَقْرَبًا ، وَأَوْجِبَ مِنْ حُقُوقِ الطَّاعَةِ عَلَيْنَا مَا أَمْسَى بِهِ لَدَيْنَا
- مَعَ جَلَالَةِ الْأَبْنَاءِ - أَبْنَاءً وَغَدَوْنَا لَهُ - مَعَ شَرَفِ الْأَبَاءِ - فِي نَسَبِ الْفَخْرِ الْعَرِيقِ أَبَاءُ ،
وَنَشَأُ فِي مَهَادِ الْمُلْكِ فَسَمَا بِهِ لِلْعِلْمِ وَالْعَلَمِ ، بِالسَّيْفِ وَالْقَلَمِ ، وَالْبَأْسِ وَالْكَرَمِ ، وَأَعْتَزَى
إِلَى أُبُوَّةِ حَنُونًا بِبِنُورَةِ رَجَائِهِ فَتَشَبَّهَ بِعَدْلِ أَيَّامِنَا : «وَمَنْ يُسِبِّهِ أَبَاهُ فَا ظَلَمَ» ؛ وَتَحَلَّى
بِصَدْقِ الْوَلَاءِ وَهُوَ أَوْلَى مَا يُطَلَبُ فِي سِرِّ هَذَا النَّسَبِ وَيُعْتَبَرُ ، وَتَحَلَّى لِنِكَايَةِ عَدُوِّ
الْإِسْلَامِ بِلُطْفِ مُكَايَدَةِ : السِّيُوفِ تُجْزُ الرِّقَابِ «وَتَعَجْزُ عَمَا تَنَالِ الْإِبْر» .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي زَانَ بِمُؤَالَاتِنَا عُقُودَ مَجْدِهِ ، وَزَادَ فِي طَاعَتِنَا عَلَى مَا وَرِثَ
مِنْ مَكَارِمِ أَبِيهِ وَجَدِّهِ ؛ وَزَانَ الْمُلُوكَ فِي إِقْبَالِ شَبَابِهِ ، وَصَانَ مُلْكَ أَبِيهِ عَنْ عَوَارِضِ
أَوْصِيَاءِهِ بِاتِّبَاعِ مَا أَوْصَى بِهِ ، وَأَنْفَتَ صَوَارِمُهُ أَنْ تَكُونَ لغيرِ جِهَادِ أَعْدَاءِ اللَّهِ مُعَدَّةً ،
وَعَزَائِمُهُ أَنْ تَتَّخِذَ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّهُ أَوْلِيَاءَ تُلْقَى إِلَيْهِمْ بِالْمُؤَدَّةِ ؛ وَسِهَامُهُ أَنْ تُسَدَّدَ
[الـ] إِلَى مَقَاتِلِ الْعِدَاءِ ، وَأَسِنَّتُهُ أَنْ يُبَلَّ لَهَا مِنْ غَيْرِ مَنْاهِلِ صُدُورِ الْكُفْرِ صَدَى ؛
مَعَ أَجْتِمَاعِ خِلَالِ الشَّرْفِ لِشَرَفِ خِلَالِهِ ، وَأَفْتِرَاقِ أَسْبَابِ السَّرَارِ عَنْ هَالَةِ كَمَالِهِ ؛

وَسْؤَالِهِ مَا لَيْسَ لغيرِهِ أَنْ يَمْدَّ إِلَيْهِ يَدًا ، وَأَنْتِيسَهِ مِنْ كَرَمِنَا الْعَمِيمِ أَجَلًا مَا نَحَلَّ وَالِدٌ
 وَلَدًا ؛ وَأَنَّهُ وَقَفَ عَلَى قَدَمِ الرَّجَاءِ الثَّابِتِ ، وَمَتَّ بِقَدَمِ غُرُوسِ الْوَلَاءِ الَّتِي أَصْلَهَا
 فِي رَوْضِ الْمَوَدَّةِ نَابِتٌ ؛ وَقَالَ : أَسْأَلُ اللَّهَ وَأَسْأَلُ سُلْطَانَ الْأَرْضِ ، التَّائِمَ لِجِهَادِ
 أَعْدَاءِ اللَّهِ بِالسُّنَّةِ وَالْفُرْضِ ، فَاتَّخَعَ الْأَمْصَارَ ، الَّذِي لَمْ تَرَلْ سُبُوقَهُ تَهَاجِرُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 عَنْ عَمُودِهَا إِلَى أَنْ صَارَ لَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكِرَامِ أَنْصَارٌ ؛ الَّذِي كَرَّمَ اللَّهُ شَرَفَ الْفُتُوَّةِ
 بِأَنْتَائِهَا إِلَيْهِ ، وَأَعْلَى قَدْرَ بِنَوَةِ الْمُرُوءَةِ بِاتِّصَالِهَا بِهِ عَنِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَنْ أَبِي أَوْابٍ
 عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ ؛ وَأُورَثَهُ مِنْ خُلُقِهِ الْكَرَمِ
 وَالْبَأْسِ فَتَحَلَّى مِنْهُ بِأَجَلٍ مُوَافٍ مُوَافِقٍ ، وَمَنْعَهُ بِحِفْظِ الْعَهْدِ مِنْ خِصَائِصِهِ مَاعِهَدَ بِهِ
 إِلَيْهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ مِنْ أَنَّهُ مَا يَجِبُهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يُبْغِضُهُ إِلَّا مُنَافِقٌ ؛ أَعَزَّ اللَّهُ سُلْطَانَهُ ،
 وَأَوْطَأَ جِيَادَهُ مَعَاقِلَ الْكُفْرِ وَأَوْطَانَهُ ؛ أَنْ يَتَقَبَّلَ قَصْدِي بِقَبُولِ حَسَنِ ، وَيُقْبَلَ
 بِوَجْهِ كَرَمِهِ عَلَى أَمَلِي الَّذِي لَمْ يَقْعُدْ بِهِ عَنْ فُرُوضِ الطَّاعَاتِ وَسُنَنِهَا وَسَنِّ ؛ وَيَنْظِمَنِي
 فِي سَلَكِ عَقُودِ الْفُتُوَّةِ مُلْتَمِزًا بِأَسْبَابِهَا ، مُقْتَدِيًا بِطَاعَتِهَا الَّتِي هِيَ أَكْمَلُ أَنْسَابِهَا ؛ مَتَّصِفًا
 بِمَوَالَاتِهَا الَّتِي لَا يَثْبُتُ لَهَا حُكْمٌ إِلَّا بِهَا ، آتِيًا بِشُرُوطِ خِدْمَتِهَا الَّتِي مِنْ لَمْ يَأْتِ بِهَا عَلَى
 مَا يَجِبُ فَمَا أُنَى الْبُيُوتِ مِنْ أَبْوَابِهَا .

فَاسْتَخَرْنَا اللَّهَ تَعَالَى فِي عَقْدِ لُؤَاءِ هَذَا الْفَخَّارِ لِحُجْدِهِ نَفَّارًا ، وَنَظْمُنَاهُ لِعَقْدِ هَذَا الْمَقَامِ
 الْكَرِيمِ وَاسْطَةَ لِمَثَلِهِ كَانَ يَزِينُهَا الْأَدِّخَارُ .

فُوسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ جُودَهُ يَعْلِي الْجُدُودَ ، وَيُوطِدُ لِأَبْنَاءِ مَلُوكِ الزَّمَنِ
 مِنْ رُتَبِ الشَّرَفِ فَوْقَ مَا وَطِدَتِ الْآبَاءُ وَالْجُدُودَ - أَنْ نِصَلَ سَبَبَهُ بِهَذَا السَّبَبِ
 الْكَرِيمِ ، وَنَعْقِدَ حَسَبَهُ فِي الْفُتُوَّةِ بِأَوْاخِي هَذَا الْحَسَبِ الصَّمِيمِ ، وَنَعْدَقَ نَسَبَهُ بِأَصَالَةِ
 هَذِهِ الْأَبُوتِ الَّتِي هِيَ إِلَّا عَنِ مِثْلِهِ عَقِيمٍ ، وَيُقَاضَ عَلَيْهِ شِعَارُ هَذَا الْخُلُقِ الْمُتَّصِلِ عَنِ
 أَكْرَمِ وَصِيِّ بْنِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي حَقِّهِ : (إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

فليحلَّ هذه الهضبة التي أخذت من مرافق العزِّ بالمعاقيل ، ويحلَّ هذه الرتبة التي دون بلوغها من نوع الفراقد ألف راقِد ، ويجرِّ رداء الفخر على أهداب الكواكب ، ويُرَاحمُ بها كعب مجده النجوم على ورود نهر المجرة بالمناكب ؛ وليصل شرف هذه النسبة من جهته بمن رآه أهلاً لذلك ، وليُفتِّ في الفتوة بما علم من مذهبنا الذي انتهى فيه منّا إلى مالك ؛ وليطلَّ على ملوك الأقطار ، بهذه الرتبة التي تفانى الرجال على حبها ، ويصل على صروف الأقدار ، بهذه العناية التي جعلته - وهي حلية خرب الله - من خربها ؛ وليصل سر هذا الفضل العميم بإيداعه إلى أهله ، وأتراعه ممن لم يره أهلاً لحمله .

قلت : وما تقدم مما يكتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية ، لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم : من التكاليد ، والتفاويض ، والتواقيع ، والمراسيم : المكبرة والمصغرة ، ليس هو على سبيل الاستيعاب ، بل على سبيل التمثيل والتذكير ، لينسخ على منواله ، وينسخ على نهجه . فإنَّ استيفاء ما يكتب في ذلك مما يشق ، ويقف القصدُ دونه . بل لا بد من حوادث تحدث لم يسبق لها مثال يقتفى أثره . فيحتاج الكاتب إلى حُسن التصرف في إيراد ما يلائم ذلك ويناسبه . وكلُّ كاتب ينفق من كسبه ، على قدر سعته ، والله تعالى هو الموفق إلى نهج الصواب ، والهادي إلى طريق الحق في الأمور كلها ، بمنه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فما يكتب من الولايات عن نواب السلطنة؛ وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في مقدمات هذه الولايات، ويتعلق بها مقاصد)

المقصد الأول

(في بيان من تصدر عنه الولايات: من نواب السلطنة)

إعلم أن نواب السلطنة بالديار المصرية لا تصدر عنهم ولاية في جليل ولا حقيير، بل التولية والعزل منوطان بالسلطان، والكتابة في ذلك معدومة به، سواء في ذلك النائب الكافل، ونائب الإسكندرية، ونائب الوجهين: القبلي والبحري، إلا ما يكتب عليه النائب الكافل من القصاص في صغائر الولايات: من نظر الأوقاف وغيرها، ثم تعين ويكتب بها توقيع سلطانية.

أما نواب السلطنة بالممالك الشامية: وهم نائب السلطنة بالشام، ونائب السلطنة بحلب، ونائب السلطنة بطرابلس، ونائب السلطنة بجماعة، ونائب السلطنة بصفد، ونائب السلطنة بغزة، إذا كانت نيابة لا تقدمه عسكر.

(١) يظهر أن هنا سقطا ولعله «فصدر عنهم الولاية» أخذ مما تقدم.

المقصد الثاني

(في بيان الولايات التي تصدر عن نواب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدم في الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية بالممالك الشامية ، أن نواب هذه الممالك يَسْتَبِدُّون بتولية ولاية الأعمال ، وقد يَسْتَبِدُّون أيضا بتولية صغار النواب ، كالقلاع والبُدان التي تكون نيابتها إمرة عشرة . وربما استبدوا بتولية بعض النيابات التي تكون نيابتها إمرة طبلخاناه ، إلا أن تولية العشرات عن النواب أكثر ، وتولية الطبلخاناه عن السلطان أكثر . أما النيابات التي تكون نيابتها مقدمة ألف ، فإنها مخصصة بالسلطان . والنيابات التي يكون متوليها جندياً أو مقدم حلقه فإنها مخصصة بالنواب . وأن تولية أكبر أبواب الأقاليم : كتاب السر ، والوزير بالشام ، حيث جعلت وزارة ، وناظر النظار ، حيث جعلت نظراً ، وأصحاب دواوين المكاتب ، ونظار المال بسائر الممالك ، ونظار الجيش ، وقضاة القضاة بها - فإن التولية في ذلك تختص بالسلطان دون النواب . وما عدا ذلك يولى فيه السلطان تارة ، والنواب أخرى . وربما حصلت الولاية في بعض ذلك من بعض النواب ثم يكتب من الأبواب السلطانية بالتحمل عليها ، على ما تقدم بسط القول فيه هناك ، فليراجع منه .

المقصود الثالث

[في افتتاحات التوقيع والمراسيم بتلك الولايات]

تقدم في الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب السلطانية أنه يراعى فيها براعة الاستهلال في الافتتاح وأن الافتتاح فيها بـ«الحمد لله» أعلى من الافتتاح بـ«أما بعد» والافتتاح بـ«أما بعد» أعلى من الافتتاح بـ«رسم بالأمر الشريف» وأن لفظ «أما بعد» أعلى من لفظ «وبعد» وأنه يراعى في الولايات وصف المتولى والولاية، ويؤتى لكل أحد من ذلك بما يناسبه من صفات المدح، ثم يقال: «ولما كان فلان هو المشار إليه بالصفات المتقدمة، اقتضى حسن الرأي أن يستقر في كذا ونحو ذلك». ثم يؤتى من الوصايا بما يناسب مقام الولاية والمتولى لها، ثم يؤتى بالاختتام: من المشيئة والتاريخ، والحمدلة، والتصلة، والحسبة.

والأمر فيما يكتب عن التواب جار على هذا المنهج إلا في أمور قليلة:

منها - أن جميع ما يكتب عن التواب بالشام يقال فيه «توقيع» ولا يقال فيه «تقليد» ولا «تفويض» وربما قيل «مرسوم» في أمور خاصة.

ومنها - أن التوقيع يوصف بـ«الكريم» لا بـ«الشريف» فيقال: «توقيع كريم» أن يستقر فلان في كذا» أو «مرسوم كريم فلان بكذا» بخلاف ما يكتب عن الأبواب السلطانية، فإنه يوصف بكونه «شريفًا» فيقال: «تقليد شريف» و«تفويض شريف» و«مرسوم شريف» و«توقيع شريف» على ما تقدم ذكره.

ومنها - أن الكاتب يأتي بنون الجمع [جاريا] في ذلك على من تصدر عنه الولاية، كما أن الولايات عن الأبواب السلطانية [يجرى فيها على] العادة في الكتابة

(١) ذكر هذا في المخالف سهو فانه موافق لما يكتب عن السلطان أو الملك كما لا يخفى. (٢) يباصر بالأصل.

عن الملوك . وكأنهم راعوا في ذلك أن المكتوب عنه هو السلطان في الحقيقة ،
وفعل النائب كأنه فعله نفسه ، كما يقال : هزم الأمير الجيش ، وفتح السلطان
المدينة ، والذي هزم وفتح إنما هم جنده لا هو في نفس الأمر .

ومنها - أنه إذا أفتح التوقيع بـ «رسم بالأمر» - لا يوصف بـ «الشريف» بل
بـ «العالى» على ما تقدم . فيقال : «رسم بالأمر العالى ، المولوى ، السلطانى ،
الملكى ، الفلانى الفلانى» . وكذلك إذا أتى بذكر «رسم» بعد الأفتح بـ «الحمد لله
وأما بعد» فإنه يقال فيه : «العالى» دون «الشريف» .

قلت : هذا ما كان الأمر عليه في الزمن المتقدم كما أشار إليه المقر الشهابى
ابن فضل الله في «التعريف» . ثم استقر الحال على وصف الأمر بـ «الشريف»
فيقال : «رسم بالأمر الشريف العالى» إلى آخره ، كما يكتب عن السلطان .

ومنها - أنه يقال في آخر التوقيع : «والاعتماد على الخط الكريم أعلاه» ولا يقال :
«على الخط الشريف» ، كما في السلطان .

ومنها - أنه لا يذكر في تواقيع التواب مستند كتابتها ، كما يكتب فيما يكتب
عن السلطان .

المقصد الرابع

(في بيان الالقاب)

قد تقدم في المقالة الثالثة ، في الكلام على الولايات الصادرة عن الأبواب
السلطانية أن أعلى ما يكتب لأرباب السيوف «المقر الكريم» ثم «الجناب
الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» ثم «المجلس السامى» بالياء ، ثم
«المجلس السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس الأمير» ثم «الأمير» .

وأن أعلى ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية : « الجناب العالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس السامى » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس القاضى » ثم « القاضى » .

وأن أعلى ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية : « المجلس العالى » . ثم أستقر أعلى ما يكتب لهم : « الجناب العالى » و « المجلس العالى » بعده ، ثم « السامى » بالياء ، ثم « السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس القاضى » ثم « القاضى » على ما تقدم فى أرباب الوظائف الديوانية ، إلا فيما يقع الاختلاف فيه من الألقاب والتعوت الخاصة بكل منهما .

وأن أعلى ما يكتب لأرباب الوظائف السوفية : « المجلس العالى » ثم « المجلس السامى » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس الشيخ » ثم « الشيخ » .

وأنه يكتب لأرباب الوظائف العادية : « المجلس السامى ، الصدر الأجل » أو « مجلس الصدر » أو « الصدر » .

وأنه يكتب لزعماء أهل الذمة ألقابهم المتعارفة . فيكتب لرئيس اليهود : « الرئيس » ولبطاركة النصارى : « البطرک » ونحو ذلك .

فأما ما يكتب عن تواب الشام ، فعلى أصناف ، كما تقدم فى الألقاب التى تكتب عن الأبواب السلطانية ، مع اختلاف فى بعض الألقاب بزيادة ونقص ، وعلو وهبوط .

الصنف الأول

(أرباب السيف، ولألقابهم مراتب)

المرتبة الأولى — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكتب للطبقة الأولى من مقدّمي الألوْف بالشَّام، وحَلَب، وطَرابُلُس، إذا وُتِّيَ أحدٌ منهم نَظَرًا ووقف، أو نحو ذلك . أمَّا غير هذه الممالك الثلاث ، فقد تقدّم أنه ليس في شيءٍ منها تقدمةُ ألف، ويقال فيه عندهم : « المقرُّ الشريف، العالى، المولوى، الأميرى، الكبيرى، العالمى، العادى، العونى، الغيائى، الزعيمى، الظهيرى، المخدومى، الفلانى، عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيّد الأمراء فى العالمين ، ناصر الغزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحّدين ، عون الأمة، كهف الملّة ، ظهير الملوك والسلطين ، فلان الفلانى : أعزَّ الله تعالى أنصاره » .

المرتبة الثانية — المقرُّ الكريم . وبذلك يكتب للطبقة الثانية من مقدّمي الألوْف، ويقال فيه : « المقرُّ الكريم ، العالى ، المولوى » . بنحو الألقاب المتقدمة .

المرتبة الثالثة — المقرُّ العالى . وبه يكتب للطبقة الثالثة من مقدّمي الألوْف، ويقال فيه : « المقرُّ العالى ، المولوى » بنحو الألقاب المتقدمة أيضا [كما]^(١) يكتب لنقيب الأشراف بحلب ، وهى : « المقرُّ العالى ، الأميرى ، الكبيرى ، النقيبى ، الحسبى ، النسيبى ، العريقى ، الأصيلى ، الفاضلى ، العلامى ، العارفى ، الحججى ، القدوى ، الناسكى ، الزاهدى ، العايدى ، الفلانى ، جلال الإسلام والمسلمين ، جمال الفضلاء البارعين ، نجر الأمراء الحاكمين ، زين العترة الطاهرة ، شرف الأسرة

(١) بياض بالأصول .

الفائِره، حُجَّة العِصَابَة الهاشميه، قُدُوة الطائفة العَلَوِيَّة، نُحْبَة الفرقة الناجية الحَسَنِيَّة، شَرَف أُولَى المراتب، تَقِيْب ذوى المناقب، ملاذ الطُّلَّاب الدَّاعين، بركة الملوك والسلاطين، فلان : أسبغ الله عليه ظلاله .

المرتبة الرابعة — الجناب الكريم . وبه يُكْتَب للأُمراء الطَّبائِخَانَاه، ويُقال فيه : « الجناب الكريم، العالى، المَوَلَوِيّ، الأَمِيرِيّ، الكَبِيرِيّ، العَضْدِيّ، النَّصِيرِيّ، المِجَاهِدِيّ، المُوَيَّدِيّ، الذُّخْرِيّ، الظَّهْرِيّ، الفُلَانِيّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالمين، نُصْرَة الغزاة والمِجَاهِدِين، ظَهْر الملوك والسلاطين، فلان : أعزَّ الله تعالى نُصْرته .

المرتبة الخامسة — الجناب العالى . وبه يُكْتَب لأُمراء العِشْرِيَّات، ويُقال فيه : « الجناب العالى، الأَمِيرِيّ، الكَبِيرِيّ، الذُّخْرِيّ، النَّصِيرِيّ، المِجَاهِدِيّ، المُوَيَّدِيّ، الأُوْحَدِيّ، الأَكْبَلِيّ، الظَّهْرِيّ، الفُلَانِيّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالمين، نُصْرَة الغزاة والمِجَاهِدِين، ظَهْر الملوك والسلاطين، فلان أدام الله تعالى نِعْمته .

المرتبة السادسة — المجلس العالى . وبه يُكْتَب لأُمراء العِشْرَات، ويُقال فيه : « المجلس العالى، الأَمِيرِيّ، الكَبِيرِيّ، الأَجَلِّيّ، المِجَاهِدِيّ، العَضْدِيّ، النَّصِيرِيّ، المُهْمِيّ، الأُوْحَدِيّ، الذُّخْرِيّ، الفُلَانِيّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالمين، نُصْرَة الغزاة والمِجَاهِدِين، عَضْد الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رِفْعته .

المرتبة السابعة — المجلس السامى بالياء . وبه يُكْتَب لمَقَدِّمِي الحَلْقَة، وأَعْيَان جُنْد الحَلْقَة، ويُقال فيه : « المجلسُ السامى، الأَمِيرِيّ، الأَجَلِّيّ، الكَبِيرِيّ،

المجاهدى، الأعزى، الأخصى، الأكلى، الأوحدى، الفلانى، مجد الأمراء، زين الأكار، ذخر المجاهدين، فلان: أدام الله توفيقه .

المرتبة الثامنة — المجلس السامى بغيرياء . وبه يكتب للطبقة الثانية من جند الحلقة، ويقال فيه: «المجلس السامى، الأمير، الأجل، الكبير، الغازى، المجاهد، المرتضى، المختار، فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، زين الأمراء، نحر المجاهدين، عمدة الملوك والسلطين، فلان: أعزه الله تعالى» .

المرتبة التاسعة — مجلس الأمير . وبه يكتب للطبقة الثالثة من جند الحلقة، ويقال فيه: «مجلس الأمير، الكبير» . بنحو ألقاب السامى بغيرياء .

المرتبة العاشرة — الأمير . وبه يكتب لجند الأمراء ونحوهم، ويقال فيه: «الأمير الأجل» .

الصنف الثانى

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية — أرباب الوظائف

الديوانية، وفيهم مراتب)

المرتبة الأولى — المقر الشريف . وبه يكتب لكاتب السر بالشام، وصاحب ديوان الرسائل بحلب، ومن في معناهما .

وهذه ألقاب كتب بها لكاتب السر بدمشق بولاية مشيخة الشيوخ، وبولغ فيها جد المبالغة، إلا أنها ليست حسنة التأليف، ولا راتفة الترتيب؛ وهى: «المقر الشريف، العالى، المولى، القاضى، الكبيرى، العالى، العالى، العلامى، الإمامى، الفريدى، المفيدى، القدوى، الحجى، الأجلى، الحبرى، المحققى،

المُدَقِّقِيّ، الزَاهِدِيّ، العَارِفِيّ، الخَاشِعِيّ، النَّاسِكِيّ، المُسَلِّكِيّ، العَايِدِيّ، المُرْشِدِيّ،
 الرَّبَّانِيّ، الوَرَعِيّ، المَهْدِيّ، المَشِيدِيّ، المُشِيرِيّ، السَّفِيرِيّ، اليَمِينِيّ، المَلَّادِيّ،
 الشَّيْخِيّ، الفَلَانِيّ، جَلَّالُ الإِسْلَامِ والمُسْلِمِينَ، سَيِّدُ الأَكْبَرِ والرُّؤَسَاءِ فِي العَالَمِينَ،
 عَوْنُ الأُمَّةِ، صِلَاحُ المِللَةِ، جَمَالُ المَمْلَكَةِ، نِظَامُ الدَّوْلَةِ، عِزُّ المُلْكِ، لِسَانُ المَمَالِكِ،
 زَيْنُ الأَوْلِيَاءِ، مُظْهِرُ أنْبَاءِ الشَّرِيعَةِ وَنَاصِرُهَا، مُؤَيِّدُ الحَقِّ والمَعِينُ عَلَى إظهارِهِ،
 قَامِعُ البِدْعِ وَمُخَفِّي أَهْلِهَا، رُحْمَةُ الحُقَافِ، عِلْمُ المُفَسِّرِينَ، حُجَّةُ الطَّالِبِينَ، سَيْفُ
 المُنَاطِرِينَ، قُدْوَةُ العِبَادِ والزُّهَّادِ، مَلْجَأُ الصَّالِحِينَ والعَارِفِينَ، حَسَنَةُ الأَيَّامِ، قَرْدُ
 الزَّمَانِ، غُرَّةُ وَجْهِ الأَوَانِ، شَيْخُ المَشَايِخِ، مُفِيدُ كُلِّ غَادٍ وَرَاحِلِ، مُوَصِّلُ السَّالِكِينَ،
 مُرَبِّي الأَتَقِيَاءِ والمُرِيدِينَ، كَثْرُ السَّالِكِينَ والمُرْشِدِينَ، مُمَهِّدُ الدُّوَلِ، مُشِيدُ المَمَالِكِ،
 مُجَمِّلُ الأَمْصَارِ، مَدَبِّرُ أُمُورِ سُلْطَانِهِ فِي اللَّيْلِ والنَّهَارِ، مُجْهِدُ نَفْسِهِ فِي رِضَا مَوْلَاهِ،
 مُعِينُ الخَلَائِقِ عَلَى حُقُوقِهِمْ، مُدْلُّ حِزْبِ الشَّيْطَانِ، مَلِكُ البَلْغَاءِ والمُتَكَلِّمِينَ،
 خُلَاصَةُ سَلَفِ القَوْمِ المُبَارِكِينَ، بَرَكَةُ المُلُوكِ والسُّلْطَانِينَ، وَلِيُّ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ، فُلَانُ
 الفَلَانِيّ: أَسْبَغَ اللهُ تَعَالَى ظِلَالَهُ» .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم. وبه يُكْتَبُ للطبقة الثانية من أرباب الوظائف
 الديوانية. ويقال فيه: «المقرّ الكريم، العالی، المولوی، القاضوی». بِتَحْوِ الألقاب
 السابقة مع «المقرّ الشريف» .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم. وبه يُكْتَبُ للطبقة الثالثة من أرباب الوظائف
 الديوانية. وهذه ألقابُ كُتِبَ بِهَا لِبَعْضِ الكُتَّابِ بِكُتَابَةِ الإنشاءِ والجِيشِ بِحَلَبَ،
 وهی: «الجناب الكريم، العالی، المولوی، القضاة، الكبیری، العالی، الفاضلی،
 البارعی، الكاملی، الماجدی، الأوحدي، الأیبری، الأیلبی، الأصبلی، القوامی،

النَّظَامِيّ، الْفُلَانِيّ، ضِيَاءُ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ، أَوْحَدُ الْفُضَلَاءِ فِي الْعَالَمِينَ، خَالِصَةُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، فَلَانٌ : ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ .

المرتبة الرابعة — الجنب العالى . وبه يُكْتَبُ لِكُتَّابِ الدَّسْتِ وَنَحْوِهِمْ . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِبَعْضِ كُتَّابِ الدَّسْتِ بِالشَّامِ، وَهِيَ : «الجنب العالى، القضائى»، الكبيرى، العالمى، الفاضلى، الأتكلى، البارعى، الأوحدى، القوامى، النظامى، المفوهى، الرئيسى، الماجدى، الفلانى، مجد الإسلام والمسلمين، شرف الرؤساء فى العالمين، أوجد الفضلاء الماجدين، قُدوةُ البُلغَاءِ، جمال الكُتَّابِ، زَيْنُ الْمُنْتَشِئِينَ، خَالِصَةُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، فَلَانٌ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِكَاتِبِ دَرَجٍ بِالشَّامِ جَلِيلِ الْقَدْرِ، وَهِيَ : «المجلس العالى، القضائى، الأجلّى، الكبيرى»، العالمى، الفاضلى، البارعى، الكاملى، الرئيسى، الأوحدى، الأثيرى، الأصبلى، العريقى، الفلانى، مجد الإسلام، شرف الرؤساء فى الأنام، حُجَّةُ الْبُلغَاءِ، قُدوةُ الْفُضَلَاءِ، أَوْحَدُ الْأَمْنَاءِ، زَيْنُ الْكُتَّابِ، رَضِيَ الدَّوْلَةُ، صَفْوَةُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، فَلَانٌ : أَدَامَ اللَّهُ عُلُوَّهُ .

المرتبة السادسة — المجلس السامى بالياء . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِبَعْضِ كُتَّابِ دِمَشْقَ بِنَظَرِ الرَّبَاعِ وَهِيَ : «المجلس السامى، القضائى، الأجلّى، الكبيرى»، الرئيسى، الأوحدى، الأتكلى، الماجدى، الأثيرى، الأتلى، الأصبلى، الفلانى، مجد الإسلام، شرف الرؤساء، أوجد الفضلاء، صَفْوَةُ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ، أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى عُلُوَّهُ .

المرتبة السابعة — المجلس السامى بغير ياء . وَهَذِهِ أَلْقَابُ كُتُبِهَا لِكُتَّابِ دَرَجٍ بِالشَّامِ، وَهِيَ : «المجلس السامى، القاضى، الأجل، الكبير، الفاضل، الأوحد،

الأئير، الرئيس، البليغ، الأصيل، فلان الدين، مجد الإسلام، بهاء الأنام، شرف الرؤساء، أوجد الفضلاء، زين الأعيان، نخر الصدور، نجل الأكابر، سليل العلماء، صفوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالى رفعتة .»

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلس القاضى ، الاجل ، الكبير »
والباقي من نسبة ألقاب السامى بغيرياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . ويقال فيها : « القاضى ، الاجل » . وربما زيد على ذلك قليلا ، كما تقدم فى السلطانيات .

الصنف الثالث

(من أرياب الولايات بالممالك الشامية — أرياب الوظائف

الدينية ، وفيه مراتب)

المرتبة الأولى — المقر الشريف . وبذلك يكتب لقضاة القضاة ومن فى معناهم . وهذه ألقاب كتب بها قاضى القضاة المالكي بدمشق بتصدير ، وهى : « المقر الشريف ، العالى ، المولوى ، القضاى ، الكبيرى ، الإمامى ، العالمى ، العلامى ، الفريدى ، المفيدى ، الخاشعى ، الناسكى ، الرحلى ، القدوى ، الملاذى ، العابدى ، المحققى ، المدققى ، المحسنى ، الحاكمى ، الفلانى ، جلال الإسلام والمسلمين ، سيد العلماء فى العالمين ، قدوة البارعين ، سيد المناظرين ، لسان المتكلمين ، ملاذ الطالبين ، كثر المتفهمين ، إمام الأئمة ، حجة الأمة ، ناصر الشريعة ، فرد الزمان ، أوجد الوقت والأوان ، رحلة القاصدين ، حكم الملوك والسلاطين ، فلان : أسبغ الله ظلاله » .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم . وبه يُكتب لمن دُونه من هذه الرتبة .

وهذه ألقابُ كتب بها لقاضى القضاة بحلب بوظيفة دينية ، وهى : « المقرّ الكريم ، العالى ، المولوى ، القاضوى ، الكبيرى ، العالى ، العادلى ، الأصيلى ، العريقى ، القوامى ، النظامى ، الإمامى ، العلامى ، القدوى ، المفيدى ، الشيخى ، الركنى ، الصاحبى ، الحاكمى ، المحسنى ، الفلانى ، فلان الإسلام والمسلمين ، شرف الفضلاء فى العالمين ، قُدوة العلماء العاملين ، لسان المتكلمين ، برهان المناظرين ، صدر المدرسين ، رُحمة الطالبين ، بقية السلف الكرام الدارجين ، بركة الملوك والسلاطين ، خالصة أمير المؤمنين ، فلان : أعزّ الله تعالى أحكامه » .

المرتبة الثالثة — الجنب الكريم . وهذه ألقابُ كتب بها لبعض المشايخ بتدريس بالشام ، وهى : « الجنب الكريم ، العالى ، المولوى ، القضاى ، الكبيرى ، العالى ، الفاضلى ، المفيدى ، الفريدى ، المحققى ، المدققى ، الأوحدى ، الأكلى ، الفلانى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء فى العالمين ، جمال الفضلاء المدرسين ، خالصة الملوك والسلاطين ، فلان : أسبغ الله تعالى ظلّه » .

المرتبة الرابعة — الجنب العالى . وهذه ألقابُ من ذلك كتب بها لفاض من قضاة العسكر بالشام ، وهى : « الجنب العالى ، القضاى ، الكبيرى ، العالى ، الفاضلى ، الرئيسى ، الأكلى ، الإمامى ، العلامى ، المفيدى ، المحققى ، الفريدى ، البارعى ، المدققى ، الأوحدى ، القدوى ، الحبرى ، الحافظى ، الأصيلى ، الأثيرى ، النَّاسكى ، الورعى ، العلامى ، مجد الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، زين الحكام فى العالمين ، حجة المذهب ، إمام البلغاء ، مفتى المسلمين ، مفيد الطالبين ، قطب الزهاد ، ملاذُ العباد ، خالصة الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالى نعمته » .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهى : « المجلس العالى ، القضائى ، الأجل ، الكبيرى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الرئيسى ، الأوحدى ، الأثيرى ، الأئبلى ، الأصبلى ، العريقى ، الفلانى ، مجد الإسلام ، شرف الرؤساء فى الأنام ، محبة الفضلاء ، صدر المدرسين ، مرتضى الملوك والسلطين ، فلان : أدام الله تعالى علوه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامى بالياء . وهى : « المجلس السامى ، القضائى ، العالمى ، الفاضلى ، الكاملى ، الأوحدى ، الأصبلى ، العريقى ، المحققى ، الفلانى ، مجد الإسلام والمسلمين ، أوجد الفضلاء فى العالمين ، صدر المدرسين ، أوجد المفيدين ، مرتضى الملوك والسلطين ، فلان : أدام الله سعادته » .

المرتبة السابعة — المجلس السامى بغير ياء . وهى : « المجلس السامى ، القاضى ، الأجل ، الكبيرى ، الأحد ، المرتضى ، الأكل ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ، زين الفضلاء ، أوجد العلماء ، رضى الملوك والسلطين ، فلان : أدام الله عزه » .
المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلس القاضى ، الأجل » بخو الألقاب المذكورة فى « السامى » بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . وهى : « القاضى الأجل » على ما تقدم .

الصنف الرابع

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية - مشايخ الصوفية)

ولم أقف على شئ من ألقاب ما كتب من هذا الباب . سوى [ما كتب] فى مشيخة الشيوخ بالشام لكاتب السر ، وقد تقدم ذكره فى أول الألقاب الديوانية

هناك . وألقاب الجنب العالی فیما كُتِبَ به فی مشیخة الزاویة الأمینیة بدمشق ، وهی :
 « الجنب العالی ، الشیخی ، العالی ، العالی العلامی ، الأوحدی ، القسودی ،
 العابدی ، الزاهدی ، الورعی ، الناسکی ، الخاشعی ، المسلكی ، المرقی ، الربانی ،
 الأصیلی ، الفلانی ، مجد الإسلام ، حسنة الأيام ، قُدوة الزهاد ، ملاذ العباد ، جمال
 الورعین ، مری المریدين ، أوحد السالكين ، خلف الأولياء ، بركة السلاطين ،
 فلان : أعاد الله تعالى من بركته » .

ومن هذا يُؤخذ ما حدث كتابته مما هو فوق ذلك أودونه .

الصنف الخامس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية - أمراء العربان)

ولم أقف على شيء مما كُتِبَ به من ألقابهم ، سوى ألقاب « السامی » بغيرياء
 لبعض أمراء بني مهدي ، وهی : « المجلس السامی ، الأمير ، الأجل ، الكبير ،
 المجاهد ، الأصیل ، العریق ، الأوحد ، فلان الدين ، مجد الإسلام ، بهاء الأنام ،
 شرف العربان ، زين القبائل ، عمدة الملوك والسلاطين ، فلان : أعزّه الله
 تعالى » . وعليه يقاس ما عساه يُكتب من هذا النمط .

الصنف السادس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية - أرباب الوظائف

العادية ، كراسة الطب ونحوها)

وألقاب رئيس الطب : « المجلس العالی ، القضائي » على نحو ما تقدم
 في الديوانيات .

الصنف السابع

(من أرباب الولايات بالنيابات الشامية - زعماء أهل الذمة)

وهي راسة اليهود، وبطركية النصارى .

أما رئيس اليهود، فالذى رأيتهم من ألقابه في عهد قديم، كتبه ابن الزكي في الدولة الأيوبية . قال في ألقابه: «الرئيس، الأوحُد، الأجل، الأعز، الأخص، الكبير، شرف الداووديين، فلان» .

وأما بطرك النصارى، فرأيت لهم فيه طريقتين :

الطريقة الأولى: «البطرك المحتشم، المبجل، فلان، العالم بأموار دينه، المعلم أهل ملته، ذخر الملة المسيحية، كبير الطائفة العيسوية، المشكور بعقله عند الملوك والسلطين، وفقه الله تعالى» .

الطريقة الثانية: «مجلس التسييس، الجليل، الروحاني، الخطير، المتبتل، ابن المطران، الناصب، الخاشع، المبجل، قدوة دين النصارية، فخر الملة العيسوية، عماد بن المعمودية، جمال الطائفة القلانية، صفة الملوك والسلطين، فلان: أدام الله تعالى بهجته» .

المقصد الخامس

(في بيان مقادير قطع الورق المستعمل فيما يكتب)

عن نواب الممالك الشامية)

قد تقدم في المقالة الثالثة، في الكلام على مقادير قطع الورق، أن الورق المستعمل في دواوين الممالك الشامية على ثلاثة مقادير: قطع الطلحية الشامية الكاملة، وهو

في عَرْضِ الطَّلْحِيَةِ المعبر عنها بِالْفَرْخَةِ وطُولِهَا . وقَطَعَ نِصْفَ الحَمْوِيِّ ، وهو في نِصْفِ عَرْضِ الطَّلْحِيَةِ الَّتِي فِي قَطْعِ الحَمْوِيِّ وطُولِهَا ، ورُبَّمَا نَقَصَتْ فِي الطَّوْلِ . وقَطَعَ العادة ، وهو على نَحْوِ مَنْ قَطَعَ العادة البُلْدِي . وقد تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

فَمَا كَانَ مِنْهَا فِي طَوْلِ الشَّامِيِّ الكَامِلِ كُتِبَ بِقَلَمِ التَّلْثِ . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ نِصْفِ الحَمْوِيِّ كُتِبَ بِقَلَمِ التَّوْقِيعَاتِ . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ العادة كُتِبَ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ . ثُمَّ مَا كَانَ فِي قَطْعِ الطَّلْحِيَةِ ، أَفْتَتِحَ مَا يَكْتُبُ فِيهِ بِ«الْحَمْدُ لِلَّهِ» . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ نِصْفِ الحَمْوِيِّ ، أَفْتَتِحَ مَا يَكْتُبُ فِيهِ بِ«أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ» . وَمَا كَانَ فِي قَطْعِ العادة ، أَفْتَتِحَ مَا يَكْتُبُ فِيهِ بِ«رُسْمٌ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ» سِوَاءَ فِي ذَلِكَ عِلَاتِ الْأَلْقَابِ أَوْ أَحْطَطَّ ، حَتَّى إِنَّهُ رُبَّمَا كُتِبَ بِ«الْمَقَرَّ» فِي قَطْعِ العادة ، أَعْتِبَارًا بِحَالِ الوَظِيفَةِ .

المقصود السادس

(في بيان ما يكتب في طرة التوقيع)

اعلم أنَّ التَّوَابَ بِالْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ عَادَتْهُمْ فِي العِلَامَةِ كِتَابَةُ اسْمِ النَّائِبِ ، كَمَا أَنَّ السُّلْطَانَ فِيمَا يَكْتُبُ عَنْهُ مِنَ الوِلَايَةِ يَكْتُبُ فِي العِلَامَةِ اسْمَهُ . وَحِينَئِذٍ فَيَحْتَاجُ الكَاتِبُ إِلَى أَنْ يَكْتُبَ فِي أَعْلَى الدَّرَجِ فِي الوَسْطِ مَا صَوَّرْتَهُ : «الاسْمُ الكَرِيمُ» ثُمَّ يَكْتُبُ مِنْ أَوَّلِ عَرْضِ الدَّرَجِ مَا صَوَّرْتَهُ : «تَوْقِيعُ كَرِيمٍ بِاسْتِقْرَارِ المَقَرَّ الشَّرِيفِ أَوْ الكَرِيمِ ، أَوْ الجَنَابِ الكَرِيمِ أَوْ العَالِي ، أَوْ المَجْلِسِ العَالِي أَوْ السَّامِي ، أَوْ مَجْلِسِ الأَمِيرِ أَوْ القَاضِي ، أَوْ الشَّيْخِ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ ، فِي كَذَا وَكَذَا إِلَى آخِرِهِ» . فَإِنْ كَانَ فِيهِ مَعْلُومٌ كُتِبَ آخِرًا : «بِالمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيْوَانِ المَعْمُورِ ، أَوْ الشَّاهِدِ بِهِ كِتَابُ الوَقْفِ» وَنَحْوِ ذَلِكَ ثُمَّ يَكْتُبُ : «حَسَبَ مَا رَسَمَ بِهِ عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ» . وَلَفْظُ :

«حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ» مما جَرَتْ بِهِ عَادَةُ كُتَّابِهِمْ ، بِخِلَافِ مَا يَكْتُبُ بِهِ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

وهذه طُرَّةٌ تَوْقِيعٌ بِنِقَابَةِ الْأَشْرَافِ بِحَلَبِ الْحَرُوسَةِ ، كُتِبَ بِهِ لِلشَّرِيفِ « غِيَاثِ الدِّينِ أَحْمَدَ » بنِ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمَعْرُوفِ بِابْنِ الْمَدُوحِ ، وَهِيَ :

تَوْقِيعٌ كَرِيمٌ بِاسْتِقْرَارِ الْمُقْتَرِّ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الشَّرِيفِيِّ ، النَّقِيبِيِّ ، الْحُسَيْنِيِّ ، الْأَصِيلِيِّ ، الْعَزْزِيِّ ، بَرَكَةِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ ، أَحْمَدَ ابْنَ الْمُقْتَرِّ الْعَالِي ، الشَّرِيفِيِّ ، النَّقِيبِيِّ ، الشَّهَابِيِّ ، أَحْمَدَ الْحُسَيْنِيِّ ، أَسْبَغَ اللَّهُ ظِلَالَهَا ، فِي وَظِيفَةِ نِقَابَةِ السَّادَةِ الْأَشْرَافِ ، وَنَظَرَ أَوْقَافَهَا ، وَالْحَكْمَ فِي طَوَائِفِهِمْ عَلَى آخْتِلَافِهِمْ أَجْمَعِينَ ، عِوَضًا عَنْ وَالِدِهِ الْمَشَارِإِ إِلَيْهِ بِرِضَاهِ ، عَلَى عَادَتِهِ فِي ذَلِكَ وَمُسْتَقَرِّ قَاعِدَتِهِ ، وَتَعَالِيمِهِ الْمُسْتَمْرَةِ إِلَى آخِرِ وَقْتِ ، حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ بِمَقْتَضَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ ، عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ .



وهذه نسخة طُرَّةٌ تَوْقِيعٌ بِكَشْفِ الصَّفِيقَةِ الْقَبْلِيَّةِ بِالشَّامِ ، مِمَّا كُتِبَ بِهِ لـ«غُرْسِ الدِّينِ خَلِيلِ النَّاصِرِيِّ» وَهِيَ :

تَوْقِيعٌ كَرِيمٌ بِأَنَّ يَسْتَقَرُّ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ ، الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، الْأَمِيرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الْغُرْسِيُّ ، ظَهِيرِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ ، خَلِيلِ النَّاصِرِيِّ ، آدَامَ اللَّهِ تَعَالَى نِعْمَتَهُ ، فِي كَشْفِ الْبِلَادِ الْقَبْلِيَّةِ الْحَرُوسَةِ بِالشَّامِ الْحَرُوسِ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ وَمُسْتَقَرِّ قَاعِدَتِهِ ، حَسَبَ مَا رُسِمَ بِهِ ، عَلَى مَا شَرَحَ فِيهِ .



وهذه نسخة طُرَّةٌ تَوْقِيعٌ بِالْمِهْمَنْدَارِيَّةِ بِالشَّامِ الْحَرُوسِ ، كُتِبَ بِهِ لـ«غُرْسِ الدِّينِ خَلِيلِ الطَّنَاحِيِّ» وَهِيَ :

توقيع كريم باستقرار الجناح العالى، الأيمرى، الكبيرى، الغرسى، عضد الملوك والسلاطين، خليل الطناحى، أدام الله تعالى نعمته، فى وظيفة المهندارية الثانية بالشام المحروس، عوضاً عن حسام الدين حسن بن صاروجا، بحكم شعورها عنه، لما آتفق من الغضب الشريف عليه، وأعتقاله بالقلعة المنصورة بحلب المحروسة، على أجهل عادة، وأكمل قاعدة، حسب ما رسم به، على ما شرح فيه .



وهذه نسخة طرة توقيع بتصدير الجامع الأموى بالشام، كتبت به للقاضى «ناصر الدين» بن أبى الطيب كاتب السرب بالشام، وهى :

توقيع كريم بأن يستقر المقر الشريف، الناصرى، محمد بن أبى الطيب العمري، العثمانى، الشافعى، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، عظم الله تعالى شأنه، فى وظيفة التصدير بالجامع الأموى المعمور بذكر الله تعالى، عوضاً عن القاضى صدر الدين عبد الرحمن الكفرى الشافعى، بحكم وفاته إلى رحمة الله تعالى، بماله من المعلوم الذى يشهد به ديوان الوقف المبرور، حسب ما رسم به، على ما شرح فيه .



وهذه نسخة طرة توقيع بإعادة مشيخة الشيوخ بالشام إلى القاضى «ناصر الدين ابن أبى الطيب» المذكور أعلاه، وهى :

توقيع كريم بأن تفوض إلى المقر الشريف العالى، المولوى، القاضوى، الناصرى، محمد بن أبى الطيب العمري، العثمانى الشافعى، صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، أعاد الله تعالى من بركاته، وأسبغ

ظلاله ، مشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس ، وظيفته التي خرجت عنه ، المرسومُ الآن
إعادتها إليه ، عوضاً عن هي بيده ، بمعلومه في النظر والمشیخة ، الشاهد بهما ديوانُ
الوقف المبرور ، إلى آخر وقت ، على أجمال العوائد ، وأكمل القواعد ، حسب ما رسم
به ، على ما شرح فيه .



وهذه طرةٌ توقيعٍ بالتحمل على النزول والتقرير الشرعي ، بالزاوية الأمينية ، بالقدس ،
كُتب به للشيخ «برهان الدين الموصلي» وهي :

توقيعٌ كريمٌ بأن يُحمل الجنب العالی ، الشيخي ، البرهاني ، إبراهيم ابن سيدنا
المرحوم الشيخ القطب ، تقى الدين أبي بكر الموصلي ، رضي الله عنه وأعاد من
بركاتهما ، في وظيفتي النظر والمشیخة ، بالزاوية الأمينية بالقدس الشريف ، على حكم
النزول الشرعي ، وأستمرار ذلك بمقتضاها ، ومنع المنازع بغير حكم الشرع الشريف ،
حسب ما رسم به ، على ما شرح فيه .



وهذه طرةٌ مرسومٍ برُبیعٍ تقدمةِ امرأةِ بنی مهدي ، كُتب به لـ«عيسى بن
حناس» وهي :

مرسومٌ كريمٌ بأن يستقر المجلس السامی ، الأمير ، شرف الدين ، عيسى بن
حناس (؟) ، أعزّه الله تعالى ، في رُبیعٍ تقدمةِ بنی مهدي ، على عادة من تقدمه ، حملاً
على ما بيده من التوقيع الكريم ، على ما شرح فيه .



وهذه طرةٌ توقيعٍ ببطركيةِ النصاري الملكية بالشام ، كُتب به لـ«دأود
الخورى» وهي :

توقيع كريم بان يستقر البطريك ، المحتشم ، المبجل ، داود الخورى ، المشكور بعقله لدى الملوك والسلاطين ، وفقه الله تعالى ، بطريك الملكية بالملكة الشريفة الشامية المحروسة ، حسب ما اختاره أهل ملته المقيمون بالشام المحروس ، ورغبوا فيه ، وكتبوا خطوطهم به ، وسألونا تقريره دون غيره ، حسب ما رسم به ، على ما شرح فيه .

المقصد السابع

(في بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع)

قد جرت عادة كتاب هذه النيابات أن تكتب الطرة بأعلى الدرج كما تقدم . ثم يترك وصلان بياضاً بما في ذلك من وصل الطرة ؛ ثم تكتب البسملة في أول الوصل الثالث ، ثم يكتب تحت البسملة على سمت الجلالة : « المللكي الفلاني » ثم يخلى بيت العلامة نحو ستة أصابع معترضة ، ثم يكتب السطر الثاني ويوافق كتابة السطر ، ويكون ما بينهما بقدر أصبعين ، والباقي على نحو ما تقدم في السلطانيات .

الطرف الثاني

(في نسخ التواقيع المكتوبة عن نواب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدم في المقالة الثانية أن بالبلاد الشامية سبع نيابات : دمشق ، حلب ، وطرابلس ، وحمّة ، وصفد ، وغزة إن كانت نيابة ، والكرك . وأن أعلاها دمشق ، ثم حلب ، ثم طرابلس . وفي معنى طرابلس حمّة وصفد .

وقد اقتصر في نسخ التواقيع على ما يكتب في ثلاث نيابات [تقديمها]^(١)

على ما عداها .

(١) بياض بالأصل .

النيابة الأولى الشام

(والتواقيع التي تُكتب بها على خمسة أصناف)

الصنف الأول

(ما يكتب بوظائف أرباب السيوف، وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو بمحاضرة دمشق، وهو على مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتح بـ«الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقع من ذلك :

نسخة توقيع بولاية دمشق :

الحمد لله الذي جعل هذه الأيام الزاهرة تنقل أولياء آلائه الشريفة إلى أعلى
المراتب، ويُجزل لهم من منته الجمّة الموهب، وتضاعف لهم النعمة بكرمها الذي إذا
انهمل كان كالغيث السّاك .

نحمده على أن جعل نظرنا يلمح أهل الهيم ويراقب، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة يبلغ قائلها بركتها المنى والمآرب، وتهون عليه كل
المصاعب؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أظهر الله بيعته الحق
في المشارق والمغرب، وأثار به ظلم الغياهب؛ صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين
شيدوا منار الإسلام وأقاموه بالسيوف القواضب؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإنَّ المناصب بمتولِّيها ، والمعالي بمعلِّمها ، والعُقود لِنِسْتِ بمن نُحَلِّيهِ بل
 بمن يُحَلِّيها ؛ وأطيب البقاع جناباً ما طاب أرجاء وثمارا ، وبُحْرٌ خِلالَهُ كُلُّ نَهْرٍ « يروع
 حِصاه حَالِيَةَ العَدَارِي » ورُحَّتْ معاطفُ غُصُونِهِ سُلُوفُ النِّسِيمِ فتراها سُكَّارِي ،
 وتمتدُّ ظلالُ الغُصُونِ فيخال أنها على وجنات الأنهار عَدَارا .

ولما كانت دِمَشْقُ المحروسة لها هذه الصفات ، وعلى صَفَاتِهَا تَهَبُّ نَسَابِتُ
 [هذه] السَّاتِ ، لم يَتَّصِفْ غيرها بهذه الصفة ، [ولا اتفق أولو الألباب إلا على
 محاسنها المختلفة] ^(١) وكان الجَنابُ الكَرِيمُ هو من أعيان الدَّوْلَةِ وأُمائِلِهِمْ ، ووُجُوهِ
 رُؤَسَائِهِمْ وأفاضلِهِمْ ؛ وله في طاعتها آسَترسَالُ الأَمْنِ من سُوءِ مَوَاطِنِ المَخَافِ ،
 وَوَصَلَ في وَلائِهَا القَدِيمَ بالحديث والتَّالِدَ بالطَّارِفِ ؛ وَتَوَلَّى مُهَمَّاتِ الخِدمِ فأبانَ
 في جَمِيعِها عَن مَضَاءِ عَزْمِهِ ، وكان من حُسْنِ آثارِهِ فيها ما شَهَرَ غُفْلَهَا بِوَسْمِهِ ؛ فمن
 نَواهُ من أَقرانِهِ أَرَبِيٌّ عليه زَاد ، ومن بَارَاهُ من أنظارِهِ أَسِيٌّ ذِكرُهُ أو كاد .

فلذلك رُسمَ بالأمر الشَّرِيفِ أن يَستقرَّ في ولايةِ مَدِينَةِ دِمَشْقِ المحروسة .

فلبيا شر هذه الولاية : عاملاً بتقوى الله تعالى التي أمر بها في مُحْكَمِ الكِتَابِ ،
 حيثُ يَقُولُ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الأَلْبَابِ ﴾ . ولْيَشْمَلْ
 كَافَّةَ الرِّعَايَا بِالْحِفْظِ والرِّعَايَةِ ، وَيُجَزِّلْ حَظَّهُمْ من المَلاحِظَةِ والعِنايةِ ؛ ولْيُساوِ في الحَقِّ
 بين ضَعِيفِهِمْ وَقَوِيهِمْ ، وَقَفِيرِهِمْ وَعَظِيمِهِمْ ؛ ولْيُلزِمِ أَتباعَهُ بِحِفْظِ الشُّوارِعِ والحاراتِ ،
 وَحِرَاسَتِها في جَمِيعِ الأَزْمِنَةِ والأوقَاتِ ؛ مع مُواصَلَةِ التَّطَوُّافِ كُلِّ لَيْلَةٍ بِنَفْسِهِ في أَوْفَى
 عَدَّةٍ ، وَأَظْهَرِ عُدَّةٍ ، مُنتهياً في ذلك وفيما يُجاريهِ إلى ما يَشْهَدُ بِاجْتِهادِهِ ، وَيُعْرَبُ عَن
 سَدَادِهِ ، وَيُعَلِّمُ مِنْهُ صَوَابَ قَصدِهِ وَعَتمادِهِ ، وَبَدَلُ مُناصِحَتِهِ في إِصدارِهِ وإيرادِهِ ؛
 وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُهُ على ما وَاوَلاهُ ، وَيَحْفَظُهُ عليه ما نَوَلَهُ وأوْلاه ؛ بِمَنَّةٍ وَكرَمَةٍ .

(١) الزيادة بما تقدّم في الصنف الثالث في توابع أرباب الوظائف في حاضرة دمشق ليستقيم الكلام .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَنْظَرِ الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ، لِصَاحِبِ سَيْفٍ : كُتِبَ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ
الظَّاهِرِيَّةِ « بَرْقُوقِ » لِنَاصِرِ الدِّينِ « مُحَمَّدِ » ابْنِ الْأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ، عَبْدِ اللَّهِ
ابْنِ الْحَاجِبِ، عِنْدَ مُصَاهَرَتِهِ الْأَمِيرِ بَطَا الدُّوَادَارِ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي قَدَّمَ أَعْظَمَ الْأَمْرَاءِ لِيَعْمَ مَوَاطِنَ الذِّكْرِ بِنَظَرِهِ السَّعِيدِ، وَأَقَامَ لِنَعْتَمِيزِ
بَيُوتِ أَدْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ، [أَمِيرًا] فِي الْأَكْتِسَابِ لِلْأَجُورِ أُسْرِعَ مِنَ الْبَرِيدِ، وَأَطْرَبَ
الْمَسَامِيعَ لِسِيرَتِهِ فِي أَحْسَنِ مَعْبَدٍ جَلِيَّتِ فِيهِ عَرُوسٌ مَهْرُهَا كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى وَالنُّورُ مِنْ
زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ وَمَرَّتِي عَلَيْهِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ .^(١)

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أَحَلَّ نَاصِرَ الدِّينِ بِجَمَالِهِ الْأَسْنَى أَشْرَفَ الْمَرَاتِبِ، وَبَوَّأَهُ الْمَحَلَّ الرَّفِيعَ
الَّذِي بَلَغَ بِهِ الْأُمَّةَ الْمُحَمَّدِيَّةَ الْمَأْرَبِ، وَسَارَ خَبْرَ سِيرَتِهِ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَبَلَغَ
بِمُشَارَفَةِ نَظَرِهِ السَّعِيدِ الشَّاهِدِ وَالْغَائِبِ ؛ حَمْدًا نَرْفَعُهُ عَلَى النَّسْرِ الطَّائِرِ، وَنُمَثِّلُ بِقَوْلِ
الْقَائِلِ : كَمْ تَرَكَ الْأَوَّلُ لِلْآخِرِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي
خَلَقَ الْعِبَادَ لِعِبَادَتِهِ، وَفَضَّلَ بَعْضَ الْمَسَاجِدِ عَلَى بَعْضٍ لِمَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مِنْ إِرَادَتِهِ ؛
وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا خَيْرَ الْخَلَائِقِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي سَنَّ الْجُمُعَةَ وَالْجَمَاعَةَ، وَعَمَرَ
الْمَسَاجِدَ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ
اتَّبَعُوهُ فِي قِيَامِ اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا، وَلَا زُمُوا الْمَسَاجِدَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، وَحَضُّوا عَلَى الْجَمَاعَةِ
إِلَى يَوْمٍ تَكُونُ الْجِبَالُ فِيهِ كَنِينًا مَهِيلًا ؛ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ، فَلَمَّا كَانَ جَامِعُ دِمَشْقَ الْمَحْرُوسَةِ رَابِعَ الْمَسَاجِدِ، وَمَوْطِنَ كُلِّ رَاكِعٍ
وَسَاجِدٍ؛ وَتَقَصَّدَهُ الْأُمَّمُ مِنَ الْأَقْطَارِ، وَلَمْ يَحُلْ مِنَ الْعِبَادَةِ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَرَوَاتِبُ
حُكَّامِ الشَّرِيعَةِ عَلَيْهِ، وَالْعُلَمَاءُ الْأَعْلَامُ تَبَّتْ فِيهِ الْعُلُومُ وَتَأَوَّى إِلَيْهِ؛ وَغَالِبُ الْمَسَاجِدِ

(١) فِي الْأَصْلِ « وَمَرْزِيَّةٌ » وَلَمْ نَفْهَمْ مَعْنَاهُ .

إلى سِمَاطٍ وَقَفِهِ مُضَافَهُ، وَخَطَابَتُهُ تُضَاهِي مَرْتَبَةَ الْخِلَافَةِ؛ وَهُوَ أَجْلٌ مُعْجَبٌ
الدُّنْيَا الَّتِي وُضِعَتْ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ، وَبِهِ يَفْتَحِرُ أَهْلُ الْهُدَى عَلَى أَهْلِ الضَّلَالِ - تَعَيَّنَ
أَنْ يَكُونَ النَّاطِرُ فِي أَمْرِهِ مِنْ عَظَمِ قَدْرًا، وَطَابَ ذِكْرًا؛ وَفَتَحَ لَوْفَهُ بَابَ الزِّيَادَةِ
عَلَى مُضَى السَّاعَاتِ، وَجَمَعَ أَمْوَالَهُ بَعْدَ الشَّنَاتِ؛ وَوَصَلَ الْحُقُوقَ لِأَرْبَابِهَا الَّذِينَ
كَانَتْهُمْ جَرَادًا مَنَشَرًا، وَلَمْ يُضَعْ مِنْ مَالِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ وَمَنْ قَالَ: إِنَّهُ صَدَقَهُ فَيَوْمَهُ يَوْمٌ
عَسِرٌ، وَعَمَّ جَمِيعَ الْمَسَاجِدِ الْمُضَافَةَ إِلَيْهِ بِالْفَرَشِ وَالتَّنْوِيرِ، وَبَدَأَ الْأُمَّةَ وَالْمُؤَدِّينَ
وَالْخِدْمَةَ بَعْدَ الْعَارَةِ عَلَى الْكَبِيرِ وَالصَّغِيرِ .

وَكَانَ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ - ضَاعَفَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - هُوَ الَّذِي يَقُومُ فِي هَذَا الْأَمْرِ
أَحْسَنَ مَقَامًا، وَيَصْلِحُ لَهُ فِي مَصْلَحَتِهِ الْكَلَامُ .

رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي، الْمَوْلَوِي، السُّلْطَانِي، الْمَلِكِي، الظَّاهِرِي، السَّيْفِي - لِأَزَالِ
هَذَا الدِّينِ الْقِيَمَ قَائِمًا بِمُحَمَّدِهِ، وَالْمَسَاجِدُ الْمَعْمُورَةُ [مَعْمُورَةٌ] بِإِكْرَامِ مَسْجِدِهِ -
أَنْ يَسْتَقَرَّ الْجَنَابُ النَّاصِرِيُّ الْمَشَارِئِي فِي النَّظَرِ السَّعِيدِ عَلَى الْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ الْمَعْمُورِ
بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَوْقَافِهِ الْمَبْرُورَةِ، عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ، وَأَجْمَلِ الْقَوَاعِدِ؛ بِالْمَعْلُومِ
الشَّاهِدِ بِهِ دِيْوَانُ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ، إِلَى آخِرِ وَقْتِ .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ: لِمَا يَعْرِفُ مِنْ فِعَالِهِ الْحَسَنَةِ، وَخِبْرَتِهِ الَّتِي نَطَقَتْ بِهَا مِنَ الْحَاوِرِ
الْأَفْوَاهُ وَمِنَ الْأَقْلَامِ الْأَلْسِنَةَ؛ وَلِمَا حَازَهُ مِنْ فَضِيلَتِي السَّيْفِ وَالْقَلَمِ، وَأَعْمَالِ الَّتِي
بَدَتْ لِلْمُهْتَدِي بِهَا كُنُوزَ لَانَارٍ عَلَى عِلْمٍ؛ وَلِيَعْمَرَ مَا دَثَرَ مِنَ الْأَوْقَافِ وَيُؤَصِّلَ الْحُقُوقَ
إِلَى أَرْبَابِهَا، وَيُسَدِّقَ الْأَمْوَالَ إِلَى مَنْ هُوَ أَوْلَى بِهَا؛ وَيُكْفِ كَفَّ الظُّلْمِ وَيُسَبِّغُ
الْمُسْتَحِقَّ الْمَارِبِ، وَيُحْجِبِ الْخَوْنَةَ عَنِ التَّوَصُّلِ إِلَى مِثْقَالِ ذَرَّةٍ بِجِدِّهِ فَهُوَ بِجَدِّهِ
حَاجِبٌ؛ وَلْيَبْدَأْ بِالْعَارَةِ وَالْفَرَشِ وَالتَّنْوِيرِ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ، وَأَرْبَابِ الصَّلَاةِ

وَالصَّلَاتِ . وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَهِيَ بِهَا أُذْرَى ، وَتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِلَاكُهَا وَلَا زَالَ يُفِيدُهَا كَمَا يَعْلَمُ الشَّجَاعَةُ زَيْدًا وَعَمْرًا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعْمَلُهُ أَبَدًا لِلدِّينِ نَاصِرًا ، وَيُصَلِّحُ عَمَلَهُ أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَالْإِعْتِمَادُ فِي مَعْنَاهُ ، عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ .

المرتبة الثانية

(ما يفتتح به «أما بعد حمد الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخة توقيع ... الزكاة، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة، وهي: ^(١)
 أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ مُسْعِدٍ مِنْ زَكَاةِ عَمَلِهِ ، وَوَفَّاهُ وَعَدَّ الْخَيْرَ أَمَلَهُ ، وَمُضْعِدٍ مِنْ وَفَّتْ فِي تَدْيِيرِ الْوُظَائِفِ تَفَاصِيلُ أَمْرِهِ وَوَفَّرَتْ فِي تَمْيِيرِ الْأَمْوَالِ جُمْلَهُ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي أَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ، وَشَفَى جَانِبَ الدِّينِ الْقِيمِ مِنَ الشَّكَاةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَارَ عَلَى نَهْجِهِ الْقَوْمِ سَائِرُهُمْ ، وَتَرَكَى - وَإِنَّمَا يَتَرَكَى لِنَفْسِهِ - مُنْجِدُهُمْ وَغَاثَرُهُمْ - فَإِنَّ أَحَقَّ الْوُظَائِفِ أَنْ يُنْدَبَ لِحِمَايَتِهَا الْحُسَامُ ، وَيَتَرْتَبَ لِكِفَايَتِهَا مَنْ تَحَلَّتْ بِالْحَمَامِ شِمِيمَةُ الْحِسَامِ - وَظِيفَةُ الزَّكَاةِ الَّتِي وَصَلَتْ سَبَبَ مَكَانِهَا بِإِمَّاكِنِهَا ، وَبُنِيَتْ شَرِيعَةُ الْإِسْلَامِ عَلَى أَحَدِ أَرْكَانِهَا ، وَمُدِحَّتِ الْمَمْلُوكَةُ بِعَالِي الْبِرِّ وَالْإِحْسَانِ الْمُنْتَظَمَةِ مِنْ دِيَوَانِهَا .

ولما كان فلانٌ ممن زكَّتْ صفاته ، وسمت بالجميل سمائه ؛ وَوَصَّحَتْ كِفَايَتُهُ وَدِرَائَتُهُ ، وَصَلَحَتْ حِمَايَتُهُ الْحُسَامِيَّةَ وَوَقَايَتُهُ ؛ وَكَانَ الْيَمْنُ فِي قَبْضَةِ مَضَائِهِ ، وَتَجْرِيدُهُ وَأَنْتِضَائِهِ ، وَكَانَ نُفُوزُ أَمْرِهِ وَاقْفًا عِنْدَ حُدُودِهِ وَاقْفًا عَلَى وَفْقِ آرْتِضَائِهِ - تَعَيَّنَ أَنْ يُوَصَلَ سَبَبُ الشَّدِّ بِأَسْبَابِهِ ، وَيُرْجَعَ إِلَيْهِ فِي الزَّكَاةِ الْمُسْتَحَقِّ نِصَابُهَا حَتَّى يُقَالَ : رَجَعَ الْحَقُّ بِالْحُسَامِ إِلَى نِصَابِهِ .

(١) بياض بالأصل ولعله : بتولية وظيفة الزكاة الخ .

فلذلك رُسِمَ أن يرتب علماً بأنه الكافي الذي إذا شدَّ سَدَّ، وإذا قَصَرَ رَأَيْهِ عَلَى الصَّنْعِ الْجَمِيلِ مَدَّ؛ وَالْجَبِيرُ الَّذِي إِذَا جَمَعَ مَا لَوْ وَعَدَّه كَانَ مَشْكُورًا ، وَإِذَا فَرَّقَهُ فِي مُسْتَحَقِّهِ كَانَ خِلَافَ الْغَيْرِ بِالْخَيْرِ مَدَّ كُورًا ؛ وَالنَّاهِضُ الَّذِي مَا تَبَرَّمَ بِمَضَائِقِ الْمُهِمَّاتِ وَلَا شَكَاهَا، وَالْمَهَيْبُ الَّذِي قَدْ أَمَّنَ مَنْ سَارَ بِالْبِضَاعَةِ إِلَيْهِ وَقَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا .

فَلَيْسَتْ فِي هَذِهِ الْجِهَةِ اسْتِقْرَارًا يَزِيدُ مَكَانَهُ وَإِمْكَانَهُ ، وَيُثَمِّرُ عَمَلَهُ وَدِيَوَانَهُ ، وَيُوَصِّلُ كُلَّ ذِي حَقٍّ إِلَى حَقِّهِ فَإِنَّمَا بُسِطَتْ أَيْدِي وِلَاةِ الْأُمُورِ لِيَسُطَّ عَدْلُهُ مُتَوَلِّيًا وَإِحْسَانَهُ . وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعُمْدَةُ : فليَحْتَقِّقْ بِاعْتِمَادِهَا فِيهِ ظُنُونَ الرَّاجِينَ ، وَلَيْسَتَعْنِ بِهَا عَلَى رِضَا الْمُسْتَنْهَضِينَ لَهُ وَعَلَى رِضَا الْمُحْتَاجِينَ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُلْهِمُهُ الْخَيْرَ فِي ذَوِي الصَّادِرِ وَالْوَارِدِ حَتَّى يَكُونُوا إِلَى خَيْرٍ «لَا جِينَ» خَيْرَ لَا جِينَ .



وهذه نسخة توقيع بَسَدِّ الحَوَطَاتِ بِدِمَشْقٍ . كُتِبَ بِهِ لِشَرَفِ الدِّينِ يَحْيَى بْنِ الْعَفِيفِ ، [بِاجْرَائِهِ] عَلَى عَادَتِهِ ، وَحَمَلَهُ عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنَ التَّوْقِيعِ الشَّرِيفِ ، وَهِيَ :
أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي سَهَّلَ الْخَيْرَاتِ بِأَسْبَابِهَا ، وَأَقَرَّ فِي الْوِظَائِفِ السَّنِيَةِ كُفَاةَ أَرْبَابِهَا ، وَكَلَّ أَدْوَاتِ مِنْ حَكْمَتِهِ التَّجَارِبُ فِي الْمُبَاشَرَاتِ حَتَّى دَخَلَ الْمَنَاصِبَ الْعَلِيَّةَ مِنْ أَبْوَابِهَا ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ الْأَتَمِّينَ الْأَكْمَلِينَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي جَاءَ بِرِشْدِ الشَّرِيعَةِ وَصَوَابِهَا ، وَعَرَفَ بِحَسَنِ الصَّنِيعَةِ وَثَوَابِهَا ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعِزَّتِهِ الطَّاهِرِينَ - فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ لَقِّنَا إِلَيْهِ جَيْدَ الْإِحْسَانِ ، وَأَلْقَيْنَا إِلَيْهِ طُرْفَ التَّكْرِيمِ فَبَلَغَ الْأَمَانِيَّ وَالْأَمَانَ ، وَلَحَظْنَا بِعَيْنِ عِنَايَتِنَا فَنَالَ مِنْ فَضْلِنَا مَا أَنْجَلَ الْغَيْثَ الْهَتَّانَ ؛ وَمَنْحَنَاهُ مِنْ بَرِّنَا مَا شَرَحَ لَهُ صَدْرًا ، وَأَسْتَصَحَبْنَا لَهُ مَا أَلْفَهُ مِنْ كَرَمِنَا وَجَعَلْنَا لَهُ بَعْدَ

عَسْرِيَسْرًا ، وَأَيْقَظُنَا حَظَّهُ وَقَدْ كَادَ أَنْ يَغْفَى ، وَأَطْلَعْنَا كَوَكَبَ سَعْدِهِ بَعْدَ أَنْ كَادَ يَغْفَى - مِنْ أَلْفَتْ مُهَمَّاتًا مِنْهُ الْهِمَمَ الْعَلِيَّةَ ، وَسَلَكَ بَيْنَ أَيْدِينَا الْمَسَالِكَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَأَثْمَنَ عَلَى أَمْوَالِ الْحَوَاطَاتِ الدِّيَوَانِيَّةِ فَنَمَتَ بِحُسْنِ أَمَاتِهِ ، وَشَكَرَتِ الدَّوْلَةُ جَمِيلَ تَدْيِيرِهِ وَدِرَايَتِهِ .

وكان المجلس العالى فلان - أدام الله عزه - هو الذى أخبر عنه الوصف بما أنبته العيان ، وأظهر الاختبار منه حسن السيرة والسريرة والسجايا الحسان .

فلذلك رسم بالأمر العالى - أعلاه الله تعالى ، وضاعف إحسانه على أهل الهمم ووالى - أن يستمر المشار إليه فى شد الحوطات الديوانية بدمشق المحروسة ، على عادته ، ومستقر قاعدته ، وحمله على ما بيده من التوقيع الشريف المستمر حكمة .

فليباشر هذه الوظيفة على أجهل عوائده ، وليعد إليها على أكل قواعده ؛ إلا أن التدكرة بتقوى الله تعالى لأبد من اقتباس ضيائها ، والتنبيه على سلوك سبيل هداها ؛ فلنكن قاعدة أماله ، وخاتمة عمله . والاعتماد فى معناه ، على الخط الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثالثة

(من توابع وظائف أرباب السيوف بدمشق - ما يفتتح به «رسم

بالأمر العالى » وفيه وظائف)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

نسخة توقيع بشد مراكر البريد ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كتب

بها لمن لقبه «بدر الدين» فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وهى :

رُسم بالأمر العالی - لا زالت البرد سائرة بأوامرِ عدله المدید ، وهوامرِ جوده
المجید ، وسوائر الأخبار عن بأسه ونداه المروی سندهما عن ثابت ویزید ، ولا برحت
جوامع عطایاه وقضایاه : هذه فاتحة لمصالح الآمال باب الزیادة وهذه فاتحة لمصالح
الإسلام باب البرید - أن يستقر المجلس علی عادته الأولى ، وقاعدته التي ما برحت
قدم مساعیه فيها المقدمة وید أمانته الطولی ؛ علمًا بكفائه التي شهدت بها حتى
الخیل المائلات خرسًا فأفصحت ، المواصلات سعيًا فأنجحت ، الموریات قدحًا
إلا أن ألسنة الأحوال فی شهادتها ما قدحت ، المغیرات علی السرى صبحًا ما دار علیها
شفق العشی فأغبتت ، حتى دار علیها شفق الفجر فأصطبحت . ومرأى الطرق
التي حتمها مهابتة فكأنها مرأى الأسل ، ومرأى كض السبل ، كل وإد منها وما حمل
وكل حدب وما نسل ، وأعمادًا علی سداد عزمه الذي وافق خبره الخبر ، ورشاد سعيه
الذي كل أوقاته من وجوه الإجادة ووجوه الحیاد عرر ؛ ورؤنا إلى أنه الكافي
فما يعتمده ویراه ، الساری فی المهمات لا یمل وهیمات أن یمل البدر من سراه ؛ كم
أعان الإسلام علی ما آتخذ من قوة ومن رباط الخیل ، وكم جاد علی الحیاد علی الغیث^(١)
حتى سارت بین یدیه كالسبیل ، وكم حفظ علیها قوتها وقوتها فبعد ما كانت تموت
بالعدد صارت تعيش بالخیل .

فلیبشر ما عول فیهِ علیه ، وأعید من حقه وإن كان نخرج عنه إليه ، ولیطلق ید
أمره ونهیهِ بما یسرّه أن یقدمه بین یدیه ؛ حریصًا علی أن تتطرق هذه الدواب
الخرس غداً بثنائه ، مجریا اقوائها وللإقامة بها علی عادة إجرائه ؛ متخیرًا لها كل
حسن الإمرة والسیاسة عند رحیلها وقدمها ، ومن إذا عرّضت علیه بالعشی
الصفافات الحیاد طفق مسحًا ولكن بإمطة الأذی عن جسومها ؛ موسعًا علیها من

المباني والأحوال كلَّ مَضِيْقٍ، أمرًا بما يحتاج إليه نَوْعُهَا البَدِيعُ من صِنَاعَتِي تَرِشِيحٍ
وَتَطْيِيقٍ، مُسْتَأْمِنًا من الأَيْدِي من يَرُدُّ عَنْهَا الأَيْدِي الضَّائِمَةَ، ومن يُسَاوِي بِهَا
في الأَقْوَاتِ حَتَّى لَا تَكُونَ كَمَا قَالَ الأَوَّلُ: «خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ»، مُتَحَرِّبًا
في تَكْفِيئِهَا أَجْمَلَ الطَّرِيقِ وَالطَّرَائِقِ، مُسْتَجَلِبًا صُنُوفَ العَلِيقِ فَلَا تَنْقَطِعُ من بَرِّ
العَلَائِقِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُدُّهُ بَعُونَهُ وَرَشَدَهُ، وَيَجْعَلُ عَزْمَهُ سَابِقًا إِلَى التَّوْفِيقِ «سَبَقَ
الجَوَادِ إِذَا اسْتَوَى عَلَى أَمَدِهِ»؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخةٌ تَوَقَّعُ بِنِقَابَةِ النُّقَبَاءِ، من إنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بنِ نُبَاتَةَ أَيْضًا،
كُتِبَ بِهَا لِشَهَابِ الدِّينِ «بِوَلَاتِي» عَوْضًا عَنِ أَبِيهِ، فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ:
رُسِمَ بِالأَمْرِ العَالِي - لِأَزَالِ بِإِنْعَامِهِ يُسْفِرُ عَن وَجْهِ الأَمَلِ نِقَابَةَ، وَيَحْفَظُ لِكَافِي
الخِدْمَةِ أَعْقَابَهُ، وَيَلْوِي بِاسْتِمْرَارِ النِّعَمِ أَدْوَارَ الزَّمَانِ وَأَحْقَابَهُ، وَيُطْلِعُ فِي آفَاقِ دَوْلَتِهِ
شَهَابَ كُلِّ عَزْمٍ تَحْمَدُ عَسَاكِرُهُ المَنْصُورَةَ أَرْتِقَاءَهُ وَأَرْتِقَابَهُ - أَنْ يَرْتَبَّ المَجْلِسُ
السَّامِي، الأَمِيرُ: عُلَمَاءُ بِأَوْصَافِهِ الحَسَنَةِ، وَأَوْصِيَاعِهِ الَّتِي لَا يَحْتَاجُ الحَكْمُ
بِفَضْلِهَا إِلَى إِقَامَةِ بَيْنِهِ، وَكَفَافَتِهِ الَّتِي تَنْطِقُ بِهَا أَلْسِنَةُ الأَحْوَالِ المُؤْمِنَةِ وَقُلُوبُ
العَسَاكِرِ المُؤْمِنَةِ، وَهَمَّتِهِ الَّتِي إِذَا وَقَفَتِ المَوَاقِفُ عَلَى الأَعْدَاءِ عَرَفَتْهُ أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ
مَا أَصْحَابُ المَيْمَنَةِ، وَتَصَدِّقًا لِدَلَالَةِ عَزْمِهِ الوَاعِدِ، وَتَحْقِيقًا لِحِمَايَةِ شَهَابِهِ الوَاقِدِ،
وَرُكُونًا إِلَى قِيَامِهِ مَقَامِ أَبِيهِ رَحِمَهُ اللهُ فِي الخِدْمَةِ حَتَّى كَأَنَّ لَمْ يَفْقِدَهُ مِنَ الحَيْشِ
فَاقِدٍ؛ وَأَنَّهُ لِدَرَجَاتِ الأَسْتِحْقَاقِ رَاقِي، وَأَنَّهُ العَوْضُ عَنِ أَبِي لَاقِي مَنِّيَّتِهِ وَكُلِّ
أَمْرِي لَاقِي المِنِّيَّةِ وَأَبْنُ لَاقِي؛ وَأَنَّهُ كُفُّ هَذِهِ المَنْزِلَةِ كَمَا حَكَمَ الرَّأْيُ وَأَقْتَضَى، وَكَمَا
شَهِدَ(؟) لِعَزَّتِهِ بَغَرِّ الفَوَائِدِ وَكَيْفِ لَا وَهُوَ ابْنُ النُّقَيْبِ المُرْتَضَى ! .

فَلْيَتَّقِ بِشَاهِدِ الْمِضِيِّ هَذَا الْمَطَّلَعَ الْأَسْنَى، وَلْيَقُمْ فِي هَذِهِ الْوِظِيفَةِ عَلَى قَدَمِ الْخِدْمَةِ
صُورَةً وَمَعْنَى؛ مُقَدِّمًا عَلَى النَّبَاءِ تَقْدِيمَ إِمَامِهِمْ، مُعَلِّمًا لِحُنْدِ الْإِسْلَامِ مَعْلُومَ مَقَامِهِمْ؛
مَالًا بِإِتْقَانِ مَعْرِفَةِ الْحِلِّيِّ سَمِعَ مِنْ أَسْتِثْلَاهِ، مُحْظِيًّا لِلْجُنْدِيِّ مُعِينًا لَهُ عَلَى حُصُولِ الْخَيْرِ
حَتَّى يَشْكُرَهُ شُكْرًا مِنْ أَطْعَمَهُ وَحَلَّاهُ؛ نَاطِمًا لِلْوَاكِبِ عَقْدَ مُجْتَمَعِهَا الثَّمِينِ، مُصَاحِبًا لَهَا
صُحْبَةً يُنْتَبِئُ بِهَا عَلَيْهِ وَحَسْبُهُ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ؛ مُرْتَبًا لَهَا أَحْسَنَ تَرْتِيبٍ،
مُنْتَقِبًا عَنْ مَحَاسِنِ تَجَمُّلِهَا : فَإِنَّ أَسْمَ النَّقِيبِ مُشْتَقٌّ مِنَ التَّنْقِيبِ . وَلْيُكَاتِرْ حَمَلَةَ
السُّيُوفِ فَإِنَّهُ حَامِلٌ سَيْفٍ وَعَصَا، وَإِنَّهُ بِهَذِهِ مُحَلَّصٌ حَقُوقَ مَنْ أَطَاعَ وَبِهَذَا مُوَبِّقٌ
نَفْسَ مَنْ عَصَى؛ وَلْيَجْرِضْ عَلَى أَنْ يَقُومَ بِوَعْدِ الْأَجْتِهَادِ الْمُتَجَرِّزِ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ
سَيْفَ تَحْرِيطِضِ عَلَى جَرْحَى الْأَعْدَاءِ مُجْهَزًا، وَعَلَى أَنْ يَحْصُلَ فِي مَوَاطِنِ الْجِهَادِ عَلَى
الْأَجْرَيْنِ : أَجْرِ الْمُقَاتِلِ وَأَجْرِ الْمُجْهَزِ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُجِئِدُ فِي الْخَيْرِ طَرَائِقَهُ، وَيُؤَيِّدُ عَزْمَهُ
الْجَيْشِيَّ حَتَّى تَلْهَجَ بِشُكْرِهِ أَلْسِنَةُ الْأَعْلَامِ الْخَافِقَةِ؛ وَالْأَعْتَادُ



وهذه نسخة توقيع بشد خزائن السلاح، من إنشاء ابن نباتة أيضا، وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لا زالت أَسِنَّةُ نَجُومِ السَّعْدِ مِنْ سِلَاحِهِ، وَصَوَاعِقُهَا مِنْ
أَعْوَانِ صِفَاحِهِ، وَسِمَاكُهَا الرَّاحُ مِنْ أَنْصَارِ رِمَاحِهِ؛ وَلَا بَرَحَ يُعْمَلُ مَعَادِنَ الْأَرْضِ
حَتَّى يَفْنَى ذَهَبُهَا وَحَدِيدُهَا عَلَى يَدَيْ بَاسِهِ وَسِمَاحِهِ - أَنْ يَرْتَبَّ لِأَنَّهُ النَّاهِضُ
الَّذِي تَتَرَيْنِ الْوِظَائِفَ بِسَمْتِهِ وَبِأَسْمِهِ، وَتَتَعَيَّنُ الْمَصَالِحُ وَالْمَنَاسِجُ بِعَزْمِهِ وَحَزْمِهِ؛
وَالْمُسَدَّدُ مِنْ آرَائِهِ سِمَامًا، وَالْمُجَرَّدُ مِنْ أَهْتَامِهِ كُلِّ مَاضِي الْحَدِّ إِذَا كَانَ بَعْضُ الْأَهْتَامِ
كِهَامَا؛ وَالْوَقِيُّ فِي شَدِّ الْجِهَاتِ قَوْلًا وَعَمَلًا، وَالْمَلِيُّ بِجَمَلِ السِّلَاحِ وَاسْتِعْمَالِهِ عَلَى رَغْمِ
الْقَائِلِ : «أَصْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السِّلَاحَ وَلَا»؛ وَالْخَبِيرُ بِمَحَاسِنِ الْإِقْتِرَاحِ، وَالكَافِي وَلَا

عَجَبَ إِذَا سَلَّمَتْ لَهُ دَوُوَ الْوِظَانِفِ وَأَلْقَتْ عَلَيْهِ السَّلَاحَ ! ؛ دُوَ الْعَزْمِ الْأَشَدِّ ، وَالرَّأْيِ الْأَسَدِّ ، وَالذِّكْرِ الَّذِي إِذَا تَنَاوَلَ بَعْضَ الْأَسْلِحَةِ وَأَنْتَسَبَتْ شَجَاعَتُهُ رَأَيْتَ الْقَوْسَ فِي يَدِ عَطَارِدٍ فِي بَيْتِ الْأَسَدِ .

فَلْيَبْشِرْ هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ الْمُبَارَكَةَ بِعَزْمٍ أَقْطَعَ مِنْ حُسَامٍ ، وَأَمَانَةٍ أَقْوَمَ مِنْ أَلِيفٍ وَصِيَانَةٍ أَحْصَنَ مِنْ لَامٍ ؛ مُعْتَبِرًا لِأَحْوَالِهَا ، مُقَرَّرًا لِمَطَالِبِ مَا لَهَا مِنْ مَالِهَا ؛ مُؤَفَّرًا مِنْ أَسْلِحَتِهَا الَّتِي تَتَوَفَّرُ بِهَا مِنَ الْخَيْرِ سِهَامُهُ ، مُنْصَفًّا لِمُنَاعِيهَا الَّذِينَ يُحْمَدُ عِنْدَ اسْتِعْمَالِهِمْ صَنِيعُهُمْ وَأَهْمِيَّتُهُمْ ؛ مُكَثِّرًا لِحَزَائِنِهَا مِنْ ذَخَائِرِ الْعُدَدِ ، مُجَهِّزًا لِحِيُوشِ الْإِسْلَامِ مِنْ مَادَّةِ عَمَلِهَا بِأَنْفَعِ مَدَدٍ : مِنْ قِسِيٍّ تَقْضِي أَهْلَهَا بِقَطْعِ أَعْمَارِ الْعِدَا ، وَسُيُوفٍ صَقِيلَةٍ إِذَا نَادَتْ دِيَارَ النَّاكِثِينَ أَجَابَتْ النَّدَا ؛ وَدُرُوعٍ تَمْوِجُتُ غُدْرَانُهَا إِلَّا أَنَّهَا فِي مَهَالِكِ الْحَرْبِ لَا تَقُورُ ، وَرِيْمَاجٍ أَطْرَدَتْ كَعُوبِهَا فَكَلَّهَا عَلَى عِدْوِ الْإِسْلَامِ كَعَبْ مَدَوَّرٍ ؛ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُدَلُّ عَلَى عَزَمِهِ الْحَمِيدِ ، وَيَقْضِي لِلنَّعْمَةِ عَلَيْهِ بِالْمَزِيدِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَّقِفُ عَزَمَهُ ، وَيُوفِّرُ مِنَ السَّلَاحِ وَالنَّجَاحِ سَهْمَهُ .



وهذه نسخة توقيع بشد الجوالى ، من إنشاء ابن نبأته أيضا ، وهى :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت سعوذ أوامره واضحة الأدله ، نافذة الحكم على كل مله ، قائمه لخصب البلاد بالعدل مقام السحب المستهله - أن يرتب فلان فى شد الجوالى بدمشق المحروسة : لما ظهر من نجابته ، وأشتهر من حزمه ومهابته ؛ وبدا من هميه العوالى ، وعزائمه التى تجلو صدا همم الجوالى ، وإذا قيل لحاسده : له ولأبيه إمرة الخيل قال : والجوالى لى ، وأنه الكافى الذى إذا استنهض كانت عزائمهم شابهه ، ونفحات ذكره الجميل هابه ؛ ونجل الهام الذى أشهد على كفاءته النهار وعلى

تَعْبِدَهُ اللَّيْلُ ، وَأَعَدَّ لِمَصَالِحِ الْإِسْلَامِ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ ؛ وَأَنَّ مَرْبَاهَ بَجِيلٍ ، وَمُنْشَاهُ فِي مَنَازِلِ الْخَيْرِ دَلِيلٌ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ الْمُبَارَكَةَ بِعَزْمٍ يُتَمَّرُ مَا لَهَا ، وَيَقَرَّرُ عَلَى السَّدَادِ أَحْوَالَهَا ؛ وَيَسْتَخْلِصُ الْحَقَّ مِنْ أَهْلِ الْاِعْتِقَادِ الْبَاطِلِ ، وَيَسْتَخْرِجُ الْوَفْرَ مِنْ أَهْلِ الْجَلَدِ الْمَاطِلِ ؛ فَلَا نَصْرَانِيًّا إِلَّا وَهُوَ يَتَضَرَّعُ تَحْتَ الزَّرْقَاءِ مِنْ بَاسِهِ ، وَلَا يَهُودِيًّا إِلَّا وَهُوَ يَشْكُو الصَّفْرَاءِ فِي رَأْسِهِ ، وَلَا سَامِرِيًّا إِلَّا وَالنَّارُ الْجَمْرَاءُ مُطْلَعَةً عَلَى أَنْفَاسِهِ ، حَتَّى تَكُونَ أَوْصَافُ شِدَّةِ مَتَلُوهُ ، وَعَزَائِمُهُ فِي الْجَوْلَى مَجْلُوهُ ؛ وَهَمُّهُ جَارِيَةٌ عَلَى إِيْلَافِهَا وَمَأْلُوفِهَا ، مَجْزُئَةٌ لِأَقْلَامِ الْحِسَابِ وَالذَّرَاهِمِ عَلَى حُرُوفِهَا ؛ صَحِيحَةٌ الْوِزْنِ غَيْرَ مَنُوكٍ ، آخِذَةٌ الدِّينَارِ مِنْ وَازِنِهِ وَهُوَ كَالْمَأْخُوذِ مِنْهُ مَصْكُوكٍ ؛ شَدًّا تَتَعَقَّدُ عَلَى آخْتِيَارِهِ الْخُنَاصِرِ ، وَكَمَا أَنَّ لِلْإِسْلَامِ مِنْهُ قُوَّةٌ فَلْيَكُنْ لِلْوَظَائِفِ الدِّينِيَّةِ مِنْهُ نَاصِرٌ .

الضرب الثاني

(من يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب

السيوف - من هو بأعمال دمشق، ومواضعهم على ثلاث مراتب أيضا)

المرتبة الأولى

(ما يُفْتَتَحُ بِـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَفِيهَا وَظَائِفٌ)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

نسخة توقيع بناية بعلبك كتب بها لركن الدين «عمر بن الطحان» وهي :

الحمد لله الذي جعل بحاسن زينه من استحق الصعود إلى أعلى المنازل، وجعل نجم سعدة بارتقائه إلى سماء المناصب طالعا غير آفل، وصان بعقله الراجح أحصن المعامل .

نحمده على إحسانه الواصل ، وغيث جوده الذي هو على الدوام هاطل ؛ حمداً
ينطق بمدح معدته كل لسان قائل ، ويزيد خيره على كل عام قابل ؛ ونشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي ألحق جيات الأواخر بالأوائل ، وجعل أجمل
الأمراء يفوق البدور الكوامل ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي جعله
لديه أعظم الوسائل ، وتلازم هو وجبريل في علو المنازل ، والتقدم في المحافل ؛
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه سادات العشائر والقبائل ، والمجاهدين في سبيل الله
بالبياض البواتر والسمر الدوابل ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فلما كانت بعلبك المحروسة من أعز بلاد الإسلام ، وأبهج مدن الشام -
تعيّن أن نعيّن لها حاكماً دينياً خبيراً ، أميناً أميراً ؛ شجاعاً مهتاباً ، بطلاً برمجاً وسيفه
في صدور الأعداء ورقابهم طعانا ضراباً ؛ وكان الجناب الكريم فلان : - ضاعف الله
تعالى نعمته ، وحرس من الغير مهجته - من بيت كان على التقوى أساسه ، وعدت
لدفع المضلات أناسه ، وأشتهرت همتهم فلا يرد لهم سهم ولا يطلق بأسه ؛ طالما
نفوا عن الدين الحنيفي خبث الكفر بعد ما تمكنت أدناسه ، وشمروا عن ساعد
الاجتهاد فمحي بسيوفهم ضلال الشرك وأرجاسه ؛ وهو أعزه الله تعالى ممن شجى
بشجاعته ، خلوق الكئاب ، ووقى بعدله وحسن سياسته ، حقوق المناصب ؛ وقام
في خدمة الدولة الشريفة أحسن قيام ، وهدبته بمروها الليالي والأيام ؛ وتأهل
لحلول الرتب العلية ، وتعيّن لأرتقاء المراتب السنية ؛ فأردنا أن نختبره فيما نوليه ، ونخبر
عزمه فيما نوليه .

فذلك رسم بالأمر العالی - لزال أمره مستمر الإحسان ، مجزلاً لدوى
الأستحقاق عوارف النعم الحسان - أن يستقر الجناب الكريم المشار إليه - ضاعف

(١) في الأصل «مهابا» ولم يحنى من هذه المادة فعل رباعى بهذا المعنى بل الوارد هابه وآهاته .

الله تعالى نعمته - في نيابة السلطنة الشريفة بعبك المحروسة والباقين المعمورين، على عادة من تقدمه في ذلك، ومستقر قاعدته، بالمعلوم الذي يشهد به الديوان المعمور، إلى آخر وقت .

فليأشر هذه النيابة الشريفة بخاطر منفسح حاضر، وقلب منشرح على الخيرات مشارب، وليتخذ الشرع الشريف إماما، وليتوخ أواصره ونواحيه نقصا وإبراما، وليقف عند حدوده المشروعة، ولا يتعدّها ومن يتعدّ حدود الله فيده من الإيمان مزووعه؛ وليلن جانبه للرعيه، وليحملهم من العدل والإنصاف على المحجة الواضحة الجليله؛ فإنهم الرعية الضعفاء الصالحون الذين أنعم الله عليهم بتفويض أمورهم إليه، وليعرفهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «اللهم من ولي من [أمور] أمتي شيئا فرقق بهم فارقق به ومن شق عليهم فاشقق عليه»؛ وليعمر البلاد، وليقمع أهل الفساد؛ وليهدم البقاع، وليحي موات الضياع؛ وليقم على القلعة المنصورة الحرس، ولا يغفل عن حفظها بمعرفته التي أكّدت له من السعادة سببا، والله تعالى يبلغه من إحساننا أربا، ويُنحّ له من فضلنا طلبا، ويحرسه بسورتي فاطر وسبا؛ والاعتماد في معناه، على الخط الكريم أعلاه .



وهذه نسخة توقيع بكشف البلاد القبلية، كتب به لغرس الدين خليل الناصري في الدولة الظاهرية «برقوق» وهي :

الحمد لله الذي جرد من أولياء هذه الدولة الشريفة سيوقا تحميم مواد الفساد، وتبيد أهل الزيغ والعناد، وتعم ببايسها وبعدها البلاد . حمدا مستمرا على الآباد،

(١) في الأصل : العلماء، والتصحيح من الرسالة الآتية بعد .

(٢) الزيادة من الرسالة الآتية بعد .

مَزُودًا غَرَسَهَا النَّافِعَ وَنِعْمَ الزَّادُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ رَبُّ الْعِبَادِ ، الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَالْمُجَازِي لَهَا بِمَا عَمَلَتْ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا خَيْرَ الْخَلَائِقِ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بَأْغَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَقْصَى الْمُرَادِ ، وَفَضَّلَهُ عَلَى الْخَلَائِقِ : الْآلَافِ وَالْمِثِينَ وَالْعَشْرَاتِ وَالْآحَادِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَتَحُوا الْبِلَادَ ، بِسُيُوفِهِمُ الْحِدَادَ ، وَطَرَقَتْ رِمَاحُهُمْ مِنْ مُخَالِفِي دِينِهِمُ الْقَوِيمِ الْقُلُوبَ وَالْأَجَادَ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا كَانَتِ الْمَمْلَكَةُ الْقَبِيلِيَّةُ جُلَّ الْبِلَادِ الشَّامِيَةِ ، وَبِهَا أَرْزَاقُ الْعَسَاكِرِ الْإِسْلَامِيَةِ ؛ وَطَرِيقُ الْحَاجِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ ، وَزِيَارَةُ نَبِيِّهِ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ؛ وَإِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، الَّتِي هِيَ عَلَى الْخَيْرَاتِ مُؤَسَّسَةٌ ؛ وَإِلَى الْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السُّلْطَانِيَةِ ، وَمَمَرِّ التَّجَارِ قَاصِدِينَ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ؛ وَمَنَازِلِ الْعُرْبَانِ ، وَمَوَاطِنِ الْعَشْرَانِ - (١) - وَجِبَ أَنْ يُفَوَّضَ حُكْمُهَا إِلَى مَنْ عُرِفَ بِالشَّهَامَةِ وَالشَّجَاعَةِ ، وَالْيَقَظَةِ الَّتِي لَا يَغْفُلُ بِهَا عَنْ مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ سَاعَهُ ؛ مِنْ أَمْرِ غَرَسَهُ وَمَا يَفُوهَ ، وَأَيْنَعَ بِالْمُرُوءَةِ وَالْفُتُوَّةِ ؛ وَتَقَدَّمَ فِي الْكَمَالِ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو ، وَأَضْرَمَ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ نَارًا أَحْرَمَ مِنَ الْجَمْرِ .

وَكَانَ الْجَنَابُ الْكَرِيمُ - أَدَامَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ - هُوَ الْمَشْهُورَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ ، وَالْمَنْعُوتَ بِالشَّجَاعَةِ وَالْإِقْدَامِ وَحُسْنِ الْأَدْوَاتِ .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لَا زَالَ إِحْسَانُهُ يُنْمِرُ غَرَسًا ، وَجُودُهُ يُسْرِ نَفْسًا - أَنْ يَسْتَقِرَّ الْجَنَابُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي كَشْفِ الْبِلَادِ الْقَبِيلِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ عَلَى مَنَوَالٍ مِنْ تَقَدَّمِهِ وَعَادَتِهِ ، وَحُدُودِهِ فِي ذَلِكَ وَمُسْتَقَرِّ قَاعِدَتِهِ .

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة ولعله ارتكب القياس في اللغة فجعله كزغيف ورفغان وقطعان .

فليأشِرْ ذلك بهِمَّتِه العَلِيَّةُ ، وشجَاعَتِه الأَحْرَمِيَّةُ ، ونَفْسِه الأَيْبِه ، وليُبَيِّضْ وَجْهَه
 في هذه النَّوْبَةِ حَتَّى يَطْرَبَ النَّاسَ بِالنُّوْبَةِ الخَلِيلِيَّةِ ؛ وليُعِدِّلْ في الكَبِيرِ والصَّغِيرِ ،
 وليَقْمَعَ رُءُوسَ عَشِيرٍ آتَخَذُوا رَأْسَهُمْ مَوْتَى : فَلَيْسَ المَوْتَى وَلَيْسَ العَشِيرِ ؛ وليُدْفَعْ
 أَدَى العَرَبِ ، وليُحْدَرْهُمْ شَرًّا أَقْتَرَبَ ؛ وليُكْثِرِ الرُّكُوبَ إِلَى المَعَامِلَاتِ ، ولا يُخْشِ
 من كَثْرَةِ الحَرَكَاتِ ، وليَعْلَمَ أَنَّ كَلَّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ ؛ وليَتَّخِذِ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ إِمَامًا ،
 وليَتَوَخَّ أَوَامِرَه ونَوَاهِيَه تَقْضًا وإِبْرَامًا ؛ وليَقِفْ عِنْدَ حُدُودِ المَشْرُوعِ ، ولا يَتَعَدَّهَا :
 ومن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَيُدِّهِ مِنَ الإِيمَانِ مَزُوعَه ؛ وأَلِينْ جَانِبَه للرَّعِيَّةِ ، وليُحْمِلْهُمْ مِنَ
 العَدْلِ والإِنصَافِ عَلَى المَحَبَّةِ الوَاضِحَةِ الجَلِيَّةِ ؛ فَإِنَّهُمْ الرِّعِيَّةُ الضُّعْفَاءُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ
 عَلَيْهِمْ بِتَقْوِيضِ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ ، وَلِيَعْتَمِدَ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « اللَّهُمَّ مِنْ
 وَلِيٍّ مِنْ أُمُورِ أُمَّتِي شَيْئًا فَفَرِّقْ بَيْنَهُمْ فَارْفُقْ بِهِ وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ » ؛ والوصايا
 كَثِيرَةٌ وَتَقْوَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ نِظَامُهَا وَقَوَامُهَا ، وَأَتَّبِعْ سُنَّةَ نَبِيِّ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِيَادَهَا وَزِمَامُهَا ، وَالْإِعْتِمَادُ فِي مَعْنَاهُ ، عَلَى الخَطِّ الكَرِيمِ أَعْلَاهُ .



وهذه نسخة توقيع بكشف الرملة ، كتب به لأبي بكر « أمير علم » ، في الدولة
 الظاهرية « برفوق » وهي :

الحمد لله الذي قلَّد أجياد المُجَاهِدِينَ ، سَيْفَ نَصْرِهِ ، وَأَكَّدَ بعزائمِ أهْلِ اليَقِينِ ،
 حِمَايَةَ حَوَازَةِ الإِسْلَامِ وَصِيَانَةَ ثَغْرِهِ ؛ وجعل ألسنة أسنة المرابطين في فم الثغر زينا إذا
 أزدان بغيره بدره ، وأنزل بأعداء الذين قوادح نِقْمِهِ وَقَوَارِعَ قَهْرِهِ .

أحمدُه أَن حَمَى بِأَوَّلِي النَّجْدَةِ والبَّاسِ لِلْمُسْلِمِينَ حَمِيٍّ ، وَأَشْكُرُه عَلَى مَا هَمَّعَ مِنْ صَيِّبِ
 نِعْمَائِهِ وَهَمِيٍّ ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً أَخْتَدُهَا عِنْدَ اللهِ

ذُنُحْرًا ، وَأَرْجُو بَهَا فِي الْعُقْبَىٰ أَجْرًا ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي آيَدَيْدَهُ
بِالسَّيْفِ وَأَمَدَّهُ أَيْدَاءَ ، وَعَلَىٰ آلِهِ الَّذِينَ حَلَّ بِهَمِّهِمُ لِلْإِسْلَامِ جِيدًا ، وَصَحْبِهِ الَّذِينَ جَلَّ
بِبَوَارِقِ صِفَاحِهِمْ ، وَخَوَارِقِ رِمَاحِهِمْ ؛ غَمَمَ الْمَجَالَ ، وَغَمَمَ الْقِتَالَ ، فَلَمْ يُهْمَلِ الْأَعْدَاءُ
وَلَمْ يُهْمَلْهُمْ رُؤْيَا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَىٰ مَنْ جُعِلَ فِي نَحْرِ الْبَحْرِ هُمَامًا صَارِمًا ، وَأَشَدَّ مَنْ قَاطَعَ أَعْدَاءَ
الدين وصارمًا ؛ مَنْ نُضْرِبُ بِشِجَاعَتِهِ الْأَمْثَالَ ، وَيُورِدُ فِي صُدُورِ الْأَبْطَالِ صُمَّ
الأسل النَّهَالَ ؛ وَيَجِي حَمَى الثَّغْرِ فَلَا يَدْعُ عَدُوًّا وَلَا يَرْهَبُ نَهْبًا ، وَيَرِقُّ رِقَابَ الْكُفْرِ
فِيؤْمِنُونَ وَإِنْ كَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَضْبًا .

ولما كان الجَنَابُ الْكَرِيمُ فَلَانٌ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - هُوَ الَّذِي أَخْلَصَ
فِي الطَّاعَةِ ، وَنَصَحَ سُلْطَانَهُ حَسَبَ الطَّاقَةِ وَالْأَسْتِطَاعَةِ - رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ
الْعَالِي - لِأَزَالِ سَيْفِ عَدْلِهِ مَاضِيًا ، وَكُلُّ بِحُكْمِهِ رَاضِيًا - أَنْ يَسْتَقِرَّ الْجَنَابُ الْمَشَارُ
إِلَيْهِ كَاشِفًا بِالرَّمْلَةِ الْمَعْمُورَةَ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمَ فِي ذَلِكَ .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُعَمَّرًا تِلْكَ الْبِلَادَ بَعْدَلِهِ ، مُجْتَمِدًا عَلَىٰ إِيْصَالِ الْحَقِّ إِلَىٰ أَهْلِهِ ؛
وَلْيَتَّخِذِ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ إِمَامًا ، وَلْيَتَوَخَّ أَمْرَهُ وَنَوَاهِيَهُ نَقْضًا وَإِبْرَامًا ؛ وَلْيُقِفْ عِنْدَ
حُدُودِهِ الْمَشْرُوعَةَ ، وَلَا يَتَعَدَّهَا ؛ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَيُدْهِمُ مِنَ الْإِيمَانِ مِزْوَعَةً ؛
وَلْيَلِينْ جَانِبَهُ لِلرَّعِيَّةِ ، وَلْيَحْمَلْهُمْ مِنَ الْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ عَلَى الْمَحَبَّةِ الْوَاضِحَةِ الْجَلِيلَةِ ؛
[فَإِنَّهُمْ الرِّعْيَةُ الضُّعْفَاءُ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِتَقْوِيهِمْ أُمُورِهِمْ إِلَيْهِ] ^(٢) وَلْيَعْتَمِدْ فِيهِمْ قَوْلَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «اللَّهُمَّ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ أُمُورِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَّقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ
وَمَنْ شَقَّ عَلَيْهِمْ فَاشْقُقْ عَلَيْهِ» . وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَأَهْمُهَا التَّقْوَىٰ فَلْيَلْزَمْ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا

(٢) الزيادة مأخوذة مما تقدم .

(١) وقف عليه بلمة ربيعة .

تَحْفَظُهُ ، وبالسيادة والسعادة تَلَحُّظُهُ ؛ والله تعالى يَكْتَلُ تَوْفِيقَهُ ، ويسهّلُ إلى مُبْجَحِ المقاصد طَرِيقَهُ ؛ والأَعْتَادُ في معناه ، على الخطّ الكريم أعلاه .

قلتُ : ومن تأمّل وصايا هذه التواقيع الثلاثة المتقدمة الذكر ، علم ما كان عليه كُتَّابُ الزمان ، من آتضاع الفقرات من تَوْقِيعٍ ، وتَرَصِيعِها في تَوْقِيعٍ آخَرَ ، من غير تغيير لفظ في أكثرها .

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب السيوف ممن بأعمال دِمَشْقٍ - ما يُفْتَحُ بِ«أما بعد حمد الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقِيعِ بِنَايَةِ بَعْلَبَكْ لمن دون من تقدّم في المرتبة الأولى ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتِبَ به لمن لقبه «ناصر الدين» : وهي

أما بعد حمد الله الذي لم يُحِلْ مملكةً إسلاميةً من قُوَّةٍ ولا ناصِر ، ولم يُحِلْ أمرها على ذِي عَزْمٍ قاصِر ، ولم يُحِلْ وَجْهَهَا إلا بنُ نَسِيٍّ به القديم وشهده المعاصر ، ولم يُلَقِ مقاليدها إلا لمن وَصَّحَ برأيه الإبهامُ وثبتت بفضلِهِ الشهادةُ وعقدت على ذِكْرِهِ الخناصر . والصلوة والسلام على سيدنا محمد الذي شيد معالم الدين وأركانَه ، وجدّد مكان الحق وإمكانه ؛ وعلى آله وصحبه الذين تابعوا في الخلق عدله وإحسانه ، وشايعوا في النصر نصله وسنانه ؛ ما استناب الودق في سقيا الرياض غُدرانه ، وخلع على الغصون خلعاً حَظَرَ فيها الزهر بأكمامه وعقد من الثمر تيجانه - فإن شرف الأماكن بساكنيها ، وجسوم الديار بنفوس قاطنيها ؛ والمنازل بكواكبها ، والمناصب

بَنَصِيْبِهَا مِنَ الْكِفَاةِ وَنَائِيْبَهَا ؛ وَإِنَّ مَدِيْنَةَ بَعْلَبَكَّ عِلْمٌ فِي الْمَدَائِنِ مَرْفُوعُ الْحِطَّةِ ، وَجِسْمٌ
 مِنْ جُجُومِ الدِّيَارِ قَدْ آتَاهُ اللهُ بَسْطَهُ ؛ بِنِيَّةِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهِيَ بِالْمَلِكِ قَدِيْمَةٌ
 الْاِخْتِصَاصِ ، وَمُبْتَنَى الْجَانِّ الْمُنْسُوْبَةُ عِقُوْدُهَا الْعَلِيَّةُ وَالذَّرِّيَّةُ إِلَى كُلِّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ؛
 وَشَامُ الشَّامِ الْمُعْجِبَةُ ، وَرَوْضَةُ نَدَاهُ الْمُعْشَبَةُ ؛ وَثَنِيَّةُ تَفْرَهُ الْبَاسِمُ ، وَعَرَفُ أَعْرَاقِ
 حَيَاهِ النَّاسِمِ ؛ وَمَاوَى صَلْحَاتِهِ أَحْيَاءٌ بَيْنَ أَوْطَانِهَا ، وَأَمْوَاتًا بَيْنَ صَفِيْحِ لُبْنَانِهَا ؛
 لَوْ عَرَضَتِ الْبِلَادُ مِحْبَابًا لِقَلِيلٍ لَسَحَابِهَا : يَا كَثِيْرَ الْمِنَنِ ، وَلَوْ صُوِّرَتْ أَنْاسِيٌّ لِقَلِيلٍ
 لِإِنْسَانِهَا : يَا طَيِّبَ النَّجْرِ وَاللَّبَنِ ؛ لَا يُمْنَعُ مَا عُوْنُهَا ، وَلَا يَنْقَطِعُ عَوْنُهَا عَنِ الْبِلَادِ وَمَا
 أَدْرَاكُ مَا عُوْنُهَا ؛ وَلَا تَلِيْقُ مِنَ النَّوَابِ إِلَّا بِكُلِّ سَرِيٍّ الْعَزْمِ وَالْهِمَمِ ، عَلَيَّ الْآرَاءِ
 فِي الْمِلْمَةِ الْمُدْهِمَةِ ؛ نَاجِحَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، صَالِحًا لِأَنْ يُنْتَبَى عَلَى نِيَابَتِهِ الْبَعْلَبَكِّيَّةِ صَالِحُو
 الْمَدِيْنَةِ وَالْحَبْلِ ؛ مُكْمَلٌ لِسُلُوكِ الْحَقِّ الْأَنْجِيِّ وَالْعَزْمِ الْأَنْجِدِ ، مُؤَهِّلٌ لِارْتِقَاءِ الرَّتَبِ
 الَّتِي تَمَاحَدْنَا وَلَهَا الْأَمْجِدُ .^(١)

وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ جُمْلَةٌ هَذَا التَّفْصِيْلِ ، وَجَمَالَ هَذَا التَّفْصِيْلِ ؛ وَكُفَّ هَذِهِ
 الْعَقِيْلَةَ ، وَسَعَدَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي مَدَّتْ بِالسَّيْفِ وَالْقَلَمِ ذِرَاعَهُ وَنَظَّمَتْ مِنَ الْبِنَاءِ
 إِكْلِيْلَهُ .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيْفِ - لَا زَالَتِ الْمَالِكُ بِمَحَاسِنِ أَيَّامِهِ إِرْمَ ذَاتِ الْعِيَادِ ،
 وَبِالْبِلَادِ ذَاتِ الْخِصْبِ السَّنِيِّ لَا ذَاتِ السَّنَةِ الْجَمَادِ - أَنْ يَرْتَبَ فِي نِيَابَةِ بَعْلَبَكَّ
 الْمَحْرُوسَةَ : مُجَدِّدًا بَهْمَتِهِ الْعَالِيَةَ عَلَوُ صَرْحِهَا ، وَحِمَايَةَ سَرْحِهَا ؛ وَرِعَايَةَ جَبَلِهَا وَسَفْحِهَا ،
 مُوْرِيًّا فِي مَصَالِحِهَا زِنَادَ فِكْرِهِ الَّتِي لَا تَمْتَكِنُ أَقْوَالُ الْعُدَاةِ مِنْ قَدْحِهَا ؛ مُصْرَفًا أَوْامِرَهُ
 كَيْفَ شَاءَتْ ، مُنْصَفًّا لِلْأَحْوَالِ الْمُنُوْطَةِ بِرِعَايَتِهِ إِنْ دَنَّتْ أَوْ تَنَاءَتْ ؛ بِاسِطًا لَعْدِلِ
 قَلَمِهِ عَلَى الْمُجِيْدِينَ ، وَسَطَوَاتِ سَيْفِهِ عَلَى الْمُعْتَدِينَ ، وَأَزْعًا بِمَهَابَتِهِ مِنْ جَاوِرِ جِبَالِ

(١) لعله "التي إذا دخلت من ماجد تناوها" الخ .

العَمَل من الضَّالِّين ، (فَعَسَىٰ أَوْلَتْكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) وَلِيَتَّبِعُوا مِنْهَا مَعْقِلًا
يُحْمَدُ الْمُنَاصِرَ وَالْمُهَاجِرَ ، وَلِيَحْظُ مِنْهَا تَعَرًّا مَسَاوِيكُهُ الْأَسْلُ وَالْمَسْعَىٰ إِلَيْهِ عَلَى الْمَاجِرِ ؛
وَلِيُجْرَ أُمُورَ الدِّيَوَانِ عَلَى سَنَنِ التَّمْيِيرِ وَالتَّمْمِيرِ ، وَلِيَدَبِّرَ الْأَوْقَافَ الْمَبْرُورَةَ بِحَاسِنِ
التَّنْدِيرِ ، وَلِيُشَارِكَ أَهْلَهَا فِي الْأَجْرِ الْأَوَّلِ بِالْأَجْرِ الْأَخِيرِ ؛ وَالْأَسْوَارُ هِيَ وَقُلُوبُ الرِّجَالِ
مَنْ أَمَّهُمْ مَا يُعْمَرُهُ ، وَوُفُورُ الْحَوَاصِلِ وَالسَّلَاحِ مِمَّا لِلْوَلِيِّ وَلِقَاءِ الْعَدُوِّ يَدْحِرُهُ ، وَتَقْوَى
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِمَّا لَا يَزَالُ لِسَانُهُ يَسْتَحْلِي الْقَوْلَ فِيهِ فَيُكْرَهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُمِدُّ بِإِعَانَتِهِ
وَلُطْفِهِ ، وَيُكْفِيهِ مَا أَمَّهُمْ مِنَ الْأُمُورِ فَسَاكُنِي مَنْ لَمْ يَكْفِهِ .



وهذه نسخة توقيع بولاية الولاية بالشام المحروس لمن لقبه «عز الدين» من إنشاء
الشيخ جمال الدين بن نباتة أيضا ، وهي :

أَمَّا بِمَدْحِ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَ لِلْوَلَاةِ فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ عِزًّا يَتَجَدَّدُ ، وَعِزًّا مَا يَتَشَدَّدُ ،
وَمَعَالًا يَتَعَدَّى إِذَا حُكِمَ وَزِيدًا لَا يَتَعَدَّدُ ، وَكَفَافِي وُلَاةٍ يَتَلَدَّدُ الْوَاصِفُ بِذِكْرِ
أَهْتَامِهِ الَّذِي إِذَا أَهَمَّتْ لَا يَتَلَدَّدُ ، وَإِذَا أَعْتَبِرَ عِزُّهُ وَحَرَمُهُ فَهَذَا فَضْلٌ يَتَجَدَّدُ ، وَهَذَا
وَصْفٌ لَا يَتَحَدَّدُ . وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِ الْخَلْقِ مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الْعِزِّ
الْمُؤَبَّدِ ، وَالْعِزْمُ الْمُؤَيَّدُ ، مَا كَتَبَ قَلَمُ الْغَيْثِ الْجَائِدِ عَلَى طَرَسِ الرُّوضِ بِخَوْدٍ - فَإِنَّهُ
لَمَّا كَانَتِ الْوَلَاةُ فِي خِدْمَةِ الْبِلَادِ جَيْشًا يَحْمُونَ سَرْحَهَا ، وَيُعْمَرُونَ صَرْحَهَا ، وَيُحْصِبُونَ
بِالْمَدَلِّ قَبْلَ الْعَارَةِ سَفْحَهَا ، وَيُحْكَمُونَ فِي رِعَايَاهَا ، وَيَتَمَكَّنُونَ فِي قَضَائِيهَا ، وَيَقْرَعُونَ
تُغُورَهَا وَيَقْرَعُونَ ثَنَائِيهَا - تَعَيَّنَ أَنْ تَقَدَّمَ عَلَى هَذَا الْجَيْشِ الْمَذْكُورِ أَمِيرًا يَقْرُرُ
أَمْرَهَا ، وَيُنَسِّقُ مِنْ مَيْمَنَتِهِ وَمَيْسَرَتِهِ يَمْنَهَا وَيُسْرَهَا ؛ وَيُجَرِّدُ مِنَ الرَّأْيِ سِلَاحَهُ ،
وَيُسْرِ قَلْبَهُ بِالتَّنْدِيرِ وَيَرِي شُجْرَةَ جَنَاحِهِ .

(١) كذا في الأصل بالاهمال ولعل صوابه «وفعلا اذا حكم لايتعدى ورايا لايتعد» .

وكان المجلس السامى هو الأمير الدال عليه هذه الإمارة ، المعنى بهذه الشارة
والإشارة؛ المستحق بشريف نفسه مدارج الارتقاء ، ومباهج الانتقاد والانتقاء ؛
المسبل أذبال مفاخره أى إسبال ، المرقوم بأسمه ورسمه على أرجاء الولايات : «عز
يدوم وإقبال» ؛ المقيم من أمانته ومهاتبه بين حريز ، الشهم الذى لا يذل وهو من
تعه ومنتسبه بين عزين ؛ الصمصام الذى شمر [به] يد من ارتضاه وانتضاه ،
والماشى على الحق الظاهر حتى يقال : أهذا وإلى الولاة أم قاضى القضاء ؟ .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - شرفه الله وعظمه - أن يستقر اعتماداً
على شهامته التى يمثلها تمهد البلاد ، وكفائه التى تفصح بالخيرات السنية السنة
الجماد ؛ وصرامته التى تشد على أيدى الولاة فيردون الحقوق من أيدى الأغصاب ،
ودريته التى يتسبون إليها فينشدون :

وكأ كالسهم إذا أصابت * مراميا فراميا أصاب .^(١)

فليأشر هذه الرتبة بكفها : من العزم العالى ، والقدر العالى ؛ والمعدلة التى تمسك
منها الأحوال بأوثق العرا ، وتتلو سيارتها المرفقة : (وما كماً مهلكى القرى) .
مراعياً لجميع الأحوال ، متمراً لمربع الأموال ؛ والياً على ولاة إن شكوا فى صنع الله
فألهم من الله من وآل ، ماشياً من تقوى الله تعالى فى كل أمر على أقوى وأقوم
منوال ؛ والله تعالى يخلص البلاد بغمام رأيه الصيب ، ويطيب الأماكن المنبئة
بمثله : « وكل مكان ينبت العز طيب » .



وهذه نسخة توقيع بولاية البلقاء والصلت ، من إنشاء ابن نبأته ، وهى :

(١) الرواية : أصابا بألف الإطلاق ، وحذفت هنا مراعاة الفاصلة .

أما بعد حمد الله مُصَاعِفِ النِّعْمَةِ ، ومُرَادِفِ رُبِّ الإِحْسَانِ لِمَنْ أَخْلَصَ
 فِي الخِدْمَةِ ، ومُجَدِّدِ مَنَازِلِ العِزِّ لِمَنْ طَلَعَتْ كَوَاكِبُ أَهْتَامِهِ فِي آفَاقِ الأُمُورِ المُهِمَّةِ ،
 ومُؤَكِّدِ سِهَامِ الخَيْرِ المُقْتَسَمَةِ ، لِمَنْ سَدَّدَ فِي شَرَفِ الأَعْرَاضِ رَأْيَهُ بِلِ سَهْمِهِ .
 والصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ هَادِيِ الأُمَّةِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ حُمَاةِ
 الدِّينِ مِنَ العَوَارِضِ المُلِمَّةِ ، صَلَاةٌ تَكُونُ بَيْنَ أَرْوَاحِهِمُ الرِّكِيَّةِ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً - فَإِنَّ
 أَحَقَّ الأَوْلِيَاءِ بِمَزِيدِ الآلَاءِ المُتَّصِلَةِ ، وَتَجْدِيدِ النِّعَمِ المُقْبِلَةِ وَتَقْدِيمِ المُسَاعَى الَّتِي
 لَا تَلْبَسُ حُلَّ القَضَائِرِ إِلَّا مُكْتَمِلَةً - مِنْ وَصَحَتْ فِي صِفَاتِ الفَضْلِ آيَاتُهُ ، وَتَقَابَلَتْ
 فِي حَاتِي التَّدْبِيرِ سَطَاهُ وَأَنَانُهُ ، وَرَوَى عُلَّةَ البَلَدِ الخَائِفِ نِفَاضِ عَلَى المُعْتَدِينَ
 جَدُولَ سَيْفِهِ وَجَرَتْ بِالدَّمِ قَنَاتُهُ ؛ وَقَامَ عَلَى قَدَمِ الأَجْتِهَادِ ، وَقَسَمَ بَيْنَ جَفْنِهِ وَجَفْنِ
 سَيْفِهِ السَّمَادِ .

ولما كان المجلس هو المقصود بهذه الحكاية ، والمشهود له في طابق هذه
 الغاية ؛ والعالى بهيمه على ذوى الأرتقاء ، والوالى الذى إذا ركب الولاة لأشهار
 ذكري كان من بينهم فارس البلقاء ؛ والنهض بشمير الأموال عمم رأيه الصيب ،
 والطيب سياسته محل الولاية : « وكل مكان ينبت العز طاب » - تعين أن تتريد
 منصبه إذا تزيدت المناصب ، وأن تستمر مرتبته إذا مرت لذهابها المراتب ؛
 وأن يشتمل فى استمرارها عليه ، وأن يكون فى إعراب الدولة القاهرة مضافاً
 ومضافاً إليه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - أعلى الله تعالى أبداً عماده ، وجعل لولاة أيامه
 الحسنى وزياده - أن يستمر على ولاية البلقاء على عادته ، وأن تضاف إليه ولاية
 الصلت^(١) : جمعا له بين الأختين حلالا ، والذروين منالا ، والرايتين نهوضاً بهما

(١) لم يذكرها القاموس ولا ياقوت وفى تقويم البلدان هي بلدة وقلعة من جند الأردن .

وَأَسْتِقْلَالًا ؛ وَعِلْمًا بِوَفَاءِ عَزْمِهِ الَّذِي أَمَرَ أَمْرَهُ ، وَرَفَعًا لِقَدْرِهِ الَّذِي حَسُنَ أَنْ يَقُولَ لِمَنْصِبِ الْبَلَاءِ : « لَنَا الْأَبْلَقُ الْفَرْدُ الَّذِي سَارِدِ كُرْهُ » ، وَتَيْمَنًا بِغَرَّةِ الصَّلَاتِ فَإِنَّ الصَّلَاتَ هُوَ الْجَبِينُ الْوَاضِحُ بَشْرِهِ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الْكَافِي الَّذِي جَمَعَ مَالَ الْجِهَاتِ فَأَوْعَى ، وَقَسَمَ فُنُونِ الْمَصَالِحِ جِنْسًا وَنَوْعًا ، وَحَسَمَ أَدْوَاءَهَا بِجُسَامِ رِفْقِهِ كَرَمًا وَطَوْعًا .

فَلْيَا بَشْرَ بِالْعِزِّ وَالْيَمِينِ جِهَتَيْهِ ، وَلْيَأْخُذْهُمَا بِكَلْتَا يَدَيْهِ ، وَلْيَفِضْ وَجْهَ عَزْمِهِ فِي أَرْضِ الدَّوْلَةِ حَتَّى يَكُونَ شَبَهَ الْبَلَاءِ الْإِلْزَامِ لِأَحَدِي وَلَا يَتْبَعُهُ ، مُحَصَّنًا بِسِمَاكِي سَيْفِهِ وَقَلَمِهِ فَنِعْمَ الْبَلَدَتَانِ ، مُتَمَرًّا بِسَدَادِ قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ وَمِنْ دُونِهِمَا جَتَانٌ ؛ مُؤَفِّيًا لِلْحَقُوقِ ، مُعْفِيًا لِأَعْتِرَافِ النِّعْمَةِ مِنَ الْعُقُوقِ ، رَاقِيًا بِهَمَّتِهِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - إِلَى رُتَبٍ لَوْ رَامَهَا نَجْمُ الْأَفْقِ لِعَاقِبَةِ الْعَيْقِ ، عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِنَّ خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِتَقْوَى اللَّهِ مَعْدُوقٌ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوضِّحُ لِرَأْيِهِ أَجْمَلَ الطَّرَائِقِ ، وَيُنَجِّحُ عَلَى الْبَلَاءِ وَغَيْرِهَا سَعْيَهُ السَّائِقِ ، وَفِكَرَهُ السَّابِقِ ؛ بِمَنِّهِ وَكِرَمِهِ ! .



وهذه نسخة توقيع بولاية نابلس ، من إنشاء ابن نباتة أيضا ، وهى :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى مَا هُنَا مِنَ الْمَوَاهِبِ ، وَهَيَّا مِنْ عَلَيِّ الْمَرَاتِبِ ، وَأُنْجِزْ مِنْ وُجُودِ السُّعُودِ بَعْدَ مَطَالِ الْمَطَالِبِ ، وَزَيِّنْ مِنْ سَمَاءِ الْوِظَانِفِ عِنْدَ إِزْهَائِهَا بِزِينَةِ الْكُوكُوبِ ، وَعَمِّرْ مِنْ صُدُورِ الْوَلَاةِ وَالْوَالِيَةِ بَعْلِي تَنْبِي عَلَيْهِ الرِّعِيَّةُ « وَلَوْ سَكَّتُوا أَثْنَتَ عَلَيْهِ الْحَقَائِبِ » . وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي جَرَدَ لِنَصْرِ الْإِيمَانِ حَدَّةَ الْقَاضِبِ ، وَحَزَبَهُ الْغَالِبِ ، وَنَدَّبَ لِإِحْيَاءِ الْحَقِّ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا هَمَّتْ بِهِ النَّوَادِبِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ هُمْ فِي الْمَمَاتِ جَمَالَ الْكُتُبِ كَمَا كَانُوا فِي الْحَيَاةِ

بِحَمَالِ الكَنَائِبِ ؛ صلاةً تَعَطَّرُ بِنَفْحَاتِهَا الصَّبَا وَتَنْقَطِرُ مِنْ خَلْفِ سُرَاهَا الجَنَائِبِ - فَإِنَّ عَقَائِلَ الوِلَايَاتِ أَوْلَى بِخُطْبَةِ أَكْفَائِهَا ، وَرَغْبَةِ السَّرَاةِ مِنْ ذَوِي أَحْصِطْفَائِهَا ، وَنِسْبَةِ مَنْ يَقُومُ لِلْأُمُورِ الْمُعَلَّلَةِ بِقَانُونِهَا وَشِفَائِهَا .

ولما كانت بَلَدُ نَابِلَسَ المحروسةِ مِنْ أَعْلَى عَقَائِلِ البِلَادِ قَدْرًا ، وَأَمْرًا لِجِهَاتِ أُمْرَاءِ ، وَأَسْرَى الوِلَايَاتِ مَحَلًّا وَذِكْرًا ، وَأَوْفَى النَّوَاحِي مِنْ زَمَانِ بَنِي أَيُّوبَ عَلَى تَكَالِيفِ المُلِكِ صَبْرًا ، وَأَنْزَهَ الإِقْبَاعِ الَّتِي لَوْ رَأَاهَا المَلِكُ المِضْرِي لَمَّا اسْتَعْلَى غُوطَةَ السَّمَاءِ بِشَبْرَيْنِ مِنْ شَبْرَاءِ بَلَدٍ أَعَارَتْهُ الحِمَامَةُ طَوْقَهَا وَحَمَلَتِ النِّسَاءَ فَوْقَ طَوْقِهِ ، وَنَجَمَ نَبَاتِ وَادِيهَا الزَّهْرَ حَتَّى تَسَاوَى النِّجْجَانُ مِنْ تَحْتِهِ وَمِنْ فَوْقِهِ - تَعَيَّنَ أَنْ يُنْتَخَرُ لَوِلَايَتِهَا مِنْ تَعَيَّنَ وَلَاؤُهُ ، وَتَمَكَّنَ فِي الرُّتَبِ عِلَاؤُهُ ، وَتَبَيَّنَ فِي مِصَالِحِ الوِلَايَاتِ أَحْتِفَالُهُ وَأَحْتِفَاؤُهُ ، وَشَهْرَ وَفَاؤُهُ بِالْخِدْمَةِ فَلَا شَرَفَ بَسَعَى إِلَّا لَهُ مِنْهُ شَيْنُهُ وَرَأْوُهُ وَفَاؤُهُ ؛ مِنْ شَهِدَتْ السَّوَاحِلُ الشَّامِيَّةُ فِي مُبَاشَرَتِهِ أَنَّهُ أَجْرَى مِنْهَا المَالَ بَحْرًا ، وَأَفَاضَ الوَصْفَ دُرًّا ، وَشَهِدَتْ الزَّكَاةُ - وَدِيَوَانُهَا المَادِحُ - أَنَّهُ أَفْلَحَ مِنْ زَكَاةِهَا خَيْرًا وَخُبْرًا .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يُرْتَبَ فُلَانٌ ... عِلْمًا بِأَنَّهُ الأَوْحَدُ الَّذِي جَمَعَ الأَوْصَافَ المَتَقَدِّمَةَ ، وَأَسْمَعَ مِنَ الحَمَامِدِ نَدِيحَةً لَهَا مِنْ كَلَا قَوْلِهِ وَفِعْلُهُ مُقَدِّمَةٌ ، وَأَطْلَعَ فِي آفَاقِ الوِطَائِفِ كَنُجُومِ الجُوزَاءِ الثَّلَاثَةِ رَأْيَهُ وَسَيْفَهُ وَقَلَمَهُ ، وَأَطَّلَعَ عَلَى مَحَاسِنِ التَّنْذِيرِ فَكَانَ فِي رَعَايَا بَلَدِهِ مِمَّنْ تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالرَّحْمَةِ ؛ وَأَنَّهُ الكَافِي الَّذِي إِذَا وَلِيَ ثَمَرًا ، وَإِذَا صَالَ عَلَى المُفْسِدِينَ دَمْرًا ، وَإِذَا شَامَتِ المُهَمَّاتُ بَارِقَ عَزِيمٍ ، أَسْبَلَ وَإِذَا سَامَتِ قُورَاهُ شَمِيرًا ؛ وَأَنَّهُ الأَمِينُ إِذَا تَصَرَّفَ ، وَالمَأْمُونُ إِذَا تَعَرَّفَ ، وَالشُّجَاعُ إِذَا تَحَصَّنَتِ البِلَادُ بِنَسْبِهِ الحِضْنِيِّ : فَسَوَاءٌ فِي شَمُولِ الأَمْنِ مَا تَوَسَّطَ مِنْهَا وَمَا تَطَرَّفَ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الوِلَايَةَ المَبَارَكَةَ بِعَزِيمٍ يُوضِّحُ نِشْرَهَا ، وَيُنَجِّحُ أَمْرَهَا ، وَيُقِيمُ فِي خِطْبَةِ عِلَاهِ عُدْرَهَا ؛ وَحَزِيمٍ يُبَيِّنُ مَالَهَا وَغِلَالَهَا ، وَيُنَقِّعُ غَلَّتَهَا وَيَضَعُ أَغْلَالَهَا ؛ وَبِأَسِّ يَدِعُ

المُفْسِدَ من سَيْفِهِ أَوْ قَيْدِهِ فِي طَوْرِ أَوْ حِجْلِ ، وَيَذُرُ السَّارِقَ وَالْمَارِقَ يُسِيرُ بِلا كَفِّ
وَيَسْعَى بِلا رِجْلِ ؛ مُشِيدًا لِنَوَاحِيهَا بِالترغيب والترهيب على أوثق المَبَانِي ، مُصَلِحًا
بين أَهْلِ الأَهْوَاءِ حَتَّى لا يَضُرَّ قَوْلُ القَائِلِ : «رَفِيقَكَ قَيْسِي وَأَنْتَ يَمَانِي» ؛ مُتَفَقِّدًا
من الأحوالِ كُلِّ جَلِيلٍ وَحَقِيرٍ ، نَاهِيضًا فِي تَلَفِّي المِهْمَاتِ عَلَى قَدَمِ التَّقَدُّمِ بِالْعَزْمِ
الأَثِيرِ ، جَاعِلًا من لَدَى حَجَّجَةِ عَمَلِهِ لِصَلَاحِ العَشِيرَةِ نِعْمَ العَاشِرِ ، عَامِلًا بِتَقْوَى اللهِ
تعالى فِي كُلِّ أَمْرٍ وَإِلَيْهَا بِالْحَدِيثِ يُسِيرُ .



وهذه نسخة توقيع بشد الدواوين بغزة ، من إنشاء ابن نباتة ، كُتِبَ بِهِ
لـ«علاء الدين بن الحصني» المقدم ذكره في التوقيع قبله ، وهي :

أما بعد حمد الله على كلِّ نِعْمَةٍ جَلَّتْ ، وَنِعْمَةٍ فِي أَهْلِهَا حَاتٍ وَحَلَّتْ ، وَرَبَّةٍ
بِانْتِسَابِ كَافِيهَا وَبِاسْمِهِ تَحَصَّنْتَ عَلَى الحَقِيقَةِ وَتَعَلَّتْ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا
مُحَمَّدٍ خَيْرٍ من سَأَمْتُ عَلَيْهِ الأَلْسِنَةُ وَصَلَّتْ ، وَسَلَّتْ بِهِ سِوْفُ النُّصْرِ وَصَلَّتْ ؛ صَلَاةً
دَائِمَةً مَا أُمِّلِيَتْ عَلَى الأَسْمَاعِ فَمَلَّتْ ، وَلا قَابَلَتْهَا وَجْهُ المَلَائِكَةِ إِلا تَهَلَّلَتْ وَلا تُحِبُّ
الرِّضْوَانَ إِلا أَنَهَلَتْ - فَإِنَّ مَنزِلَةً يُسْتَقَى [من] مِهْمَاتِ الدَّوْلَةِ خَبَّرَهَا ، وَيُسْتَدْعَى من جَانِبِي
مِصرَ وَالشَّامِ سَبْرُهَا ، وَيُحْمَدُ إِلَيْهَا من نَاحِيَتِي السَّاحِلِ وَالجَبَلِ سُرَاهَا وَسِيرُهَا ؛ وَتلك
وَظِيفَةُ شَدِّ الدَّوَاوِينِ المَعْمُورَةِ بِغَزَّةِ المَحْرُوسَةِ الَّتِي تُتَلَقُّطُ من سَاحِلِ بَحْرِهَا دُرُّ الخَيْرِ
المُقْتَبَلِ ، وَتَقْوَى المِهْمَاتِ الشَّرِيفَةِ لِسِرَاةِ اسْتِنْهَاضِهَا : يَاسَارِيَةُ الجَبَلِ - حَقِيقَةٌ
أَنْ يُتَخَيَّرَ لَهَا من الشَّاكِرِينَ من يُحْمَدُ أَجْتِهَادُهُ وَجِدُّهُ ، وَمن السَّابِقِينَ إِلَى المَقَاصِدِ من
يَحْسُنُ - كما يُقال - تَقْرِيْبُهُ وَشَدُّهُ ؛ وَمن سُكِرَتْ فِي الوَلَايَاتِ الآلِؤُهُ ، وَمن إِذَا علا
نَظْرُ رَأْيِهِ فِي المِصَالِحِ قِيلَ : دَامَ علاؤُهُ ؛ وَمن إِذَا دَبَّرَ جَهَّةً قَالَتْ بِلِسَانِ الحَالِ :
لَقَدْ زَادَ فِي المِصَالِحِ حُسْنًا ، وَلَقَدْ تَحَصَّنْتُ بِانْتِسَابِ ذِكْرِهِ فَلَا عِدَمْتُ مِنْهُ حِصْنًا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقر لما عُرف من حزمه
وعزمه ، ولما جُدد في مقدمات القدر من رفعة وفي إعلاء المهّمات من جزمه ؛
ولما عُهد من هممه في جهات دبرها ، وفي ولايات تَمَرُّها ؛ وفي وظائف شدّها :
أما على العتاة فشَدَّدها وأما على المُستَحِقِّين فَيَسَّرَها ؛ ولما أشتَهَرَ من ذِكْره الذى
لا يبرح عليًا ، ولما ظهر من درايته التى جعلت كوكب سعده وسعيه دريًّا ، ولما
بهر من تميّزه الذى إذا هزَّ عصاه بيد تُساقط على المقاصد رطبًا جنيًا .

فليأشِرْ هذه الوظيفة المباركة مباشرةً تَبَيُّضُ لها وَجْهًا وَعِرْضًا ، وإذا أُنحى عليه
المُنْحَى تَبَرُّعًا كَفَاهُ حَتَّى يَكُونَ قَرْضًا ؛ مجتهدًا فى تَمْيِيرِ الأموال والغلال ، ضابطًا لأموال
الديوان حتى لا يَشْكُو الخَلَّةَ ولا الأَخْتِلالَ ؛ قائمًا بحقِّ الخِدمَةِ ، مُسْتَرِيدًا - بِشُكْرِ
الأقوال والأفعال - لما يرسُخُ له من أقسام النعمه ، عليًا على كلِّ حالٍ إذا وفّت
الفكرُ قدره وإذا ذكر اللسانُ اسمه .

المرتبة الثالثة

(من تواقع أرباب السيوف بأعمال دِمَشْق ما يفتتح بـ«رسم» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقع من ذلك :

نسخة توقيع بناية قلعة القدس ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كُتِبَ
بها لشرف الدين «موسى الردادى» وهى :

رُسم - لا زالت ولاة أيامه عالية الشرف ، سامية المُسْتَشْرِفِ أَوِيَّةً من جنات
خير الدنيا والآخرة إلى عُرف من فوقها عُرف - أن يستقر المجلس السامى ...
علمًا باهتمامه الوفى ، وأعتزاه المتيقظ إذا نام حدُّ المُشْرِفى ؛ وأستنادًا إلى رأيه الذى

يقول نَجْمَةُ الطَّلَعِ: «مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي»!!؛ وإرشادِ سَعِيهِ إِلَى أَنْ
أَتَّخَذَ مِنَ الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ دَارًا، وَمِنْ حَرَمِهِ الشَّرِيفِ جَارًا، وَأَتَّقَادِ ذَهَبِهِ وَشَجَاعَتِهِ
اللَّذِينَ آتَسَ بِهِمَا مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا؛ وَكَيْفَ لَا؟ وَقَدْ قَالَتْ هَمَّتُهُ: يَا مُوسَى
أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ، وَأَخْرِجْ يَدَكَ الْبَيْضَاءَ فِي النَّيَابَةِ تَكُنْ أَحَقَّ مِنْ اعْتَرَفَ بِهَا الْإِحْسَانَ
وَأَعْتَرَفَ.

فَلْيَبْشُرْ مَا فُوضَ إِلَيْهِ مَبَاشَرَةً يَعْلُو بِهَا شَرَفُ اسْمِهِ وَمُسَمَّاهُ، وَيَبْدُو للاخْتِيَارِ
وَالاخْتِبَارِ فَضْلَ التَّقَدُّمِ الَّذِي إِذَا بَدَأَ لَهُ كِفَاهُ؛ وَلِيُجْرِبَ بِهِذِهِ الرُّتْبَةَ رَأْيًا حَسَنَ الْإِحْكَامِ،
وَلْيُؤَاظِبْ عَلَى حِفْظِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ الَّتِي فُتِحَ بِهَا عَلَيْهِ فَإِنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ فُتُوحِ الْإِسْلَامِ؛
وَلْيَمُدَّ عَلَيْهَا مِنْ كِفَايَتِهِ سُورًا حَوْلَ سُورِهَا، وَلْيَتَفَقَّدْ رِجَالَهَا وَعُدَدَهَا تَفَقُّدَ الشُّهْبِ
فِي دَيْجُورِهَا، وَلْيُرِدَّ عَنْهَا بَعْزِمَهُ الرَّدَادِيَّ عُيُونَ الْأَعَادِي الزُّرْقَ حَتَّى لَا يَرَاعَ فِي أَرْضِ
الْحَرَمِ وَلَا حَامَاتِ طُيُورِهَا. وَلْيَشْكُرْ نِعْمَةَ أَوْتَاهُ إِلَى هَذِهِ الْمَنَازِلِ الطَّاهِرَةِ، وَلْيَقْرُبْ لِيَدِ
أَمَلِهِ طَلَبَ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ. وَلْيَقَدِّمُ مِنَ الْوَصَايَا تَقْوَى اللَّهِ الَّتِي عَنْ أَصْلِهَا تَتَفَرَّغُ
نِعْمَةُ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، حَتَّى يَجْعَلَ لَهُ فِي الْوَادِي الْمُقَدَّسِ رِبْعًا مَانُوسًا، وَجَمْعًا
مَحْرُوسًا، وَأَحَادِيثَ حَسَنَةً تَقُولُ لِمُسْتَمِعٍ مِثْلَهَا فِي الْآفَاقِ: (هَلْ أَنَاكَ حَدِيثُ مُوسَى).
وَاللَّهُ تَعَالَى يَمُدُّهُ بِإِعَانَتِهِ، وَيُلْهِمُهُ شُكْرَ مَا رَزَقَ مِنْ فَضْلِ مَكَانِهِ وَمَكَانَتِهِ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمَةٍ!



وهذه نسخة توقع بنبأ قلع صرخد لمن لقبه «جمال الدين» وهي:

رُسم بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ يَخْتَرُ لِقْلَاعِهِ النَّائِبَ وَيَخْتِزُّ مِنَ النَّائِبَةِ، وَيُمِدُّهَا بِسَحَابِ رِيٍّ^(١)
وَفِكْرِهِ الصَّابِيَةِ، وَيَنْدُبُ لِحُدُومَتِهَا كُلِّ سَيْفٍ يُرِضِي النَّادِبَ وَيُقِيمُ عَلَى غَيْرِهَا النَّادِبَةَ -

أَنْ يُرْتَّبَ مَجْلِسُ الْأَمِيرِ ... لِأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي تُسَرُّ الْحُصُونُ بِأَمْثَالِهِ، وَتَبْتَسِمُ شُرَفَاتُ
الْفَلَاحِ لِإِقْبَالِهِ، وَتَشْرِحُ مَنَازِلَهَا بِتَنْقِيلِ نَجُومِ الْهُدَايَةِ مِنْ أَعْمَالِهِ وَأَقْوَالِهِ؛ وَالْمَلِيُّ بِأَدَاءِ
إِخْلَامِهِ، وَالْمُرْتَجِّحُ لِمَا هُوَ أَوْفَى وَأَوْفَرُ مِنَ الْأُمُورِ الْمُهِمَّةِ .

فَلْيَبِشُرْ نِيَابَةَ هَذِهِ الْقَاعَةِ الْقَدِيمِ أَثْرُهَا، وَالشَّهِيرِ خَيْرِهَا وَخَبَرُهَا؛ بِعَزْمَةِ سَيْفِ
قَاطِعِهِ، وَوَحْدَةِ بَأْسِ ذَائِعِهِ، وَمَهَابَةِ ذِكْرِ لَشِيَّاطِينِ التَّفَاقِ عَنْهَا رَادِعِهِ؛ فَإِنَّهَا مِنْ بِنَاءِ
الْمُرْدَةِ: فَلْيُرِدَّ عَنْهَا آفَةَ جِنْسِهَا، وَلْيَحْطُ بِرُوقِ عَزَائِمِهِ حَوْلَ نَفَاسَتِهَا وَنَفْسِهَا؛ وَلْيَجْرِ
أَمْرُهَا عَلَى السَّدِّدِ، وَلْيَبْنِهَا بِلُزُومِهِ الْمَهْدِيِّ أَوْثَقَ مِمَّا بَنَاهَا أَوْلُوكُ بِالصَّفَاحِ وَالْعَمَدِ،
وَلْيَرِضِ الْآثَارَ السَّلْيَانِيَّةَ بِسَامِعَانِ بَيْتِ الْمَلَاذِمَةِ عَلَى طُولِ الْأَبَدِ، وَلْيَجْتَهِدْ فِيهَا هُوَ
بِصَدْدِهِ حَتَّى تُدْمَرَ بِتُدْمَرِ جَوَانِحِ الْحَسَدَةِ بِالْكَدِّ؛ مَكْتَرًا بِذِكْرِي مَهَابَتِهِ لِعَدَدِهَا،
مُوفِّرًا لِعَدَدِهَا، مُسْتَوْجِبًا لِاسْتِجْلَابِ الْإِنْعَامِ عَلَيْهِ بِاسْتِجْلَابِ مَدَدِهَا .



وهذه نسخة توقيع نبياة قلعة الصببية، وهي :

رُسم بالأمر العالى - لازال إحسانه يُعيد إلى الحصون ناصرها وزينها، ويُفيد
أصحاب الهمم صونها، ويحرسها بن إذا نظر فيها وحماها كان عونها وعينها - أن يستقر
المجلس السامى الأميرى ... لما ألفتها هذه القلعة المنصورة من تحصينه
وتحسينه، وعرفته من ترتيبه فى عمارتها وتزيينه؛ ولأنه الأدرى بالمصالح العائد نفعها،
والأدرى بمناجحتها الحميد وقعبها؛ الذى باشرها من قبل فأحسن السلوك، ونصح
هذه الدولة القاهرة فأثنى على سيرته ملوك الحصون وحصون الملوك .

فليعد إلى هذا المعقل المنيع عود الماء إلى مشاربه، وليسر فى أرجاء أبراجها
مسير القمر بين كواكبه؛ وليتفقد أمور رجالها المستخدمين، وليستجاب قلوب

(١) السدد [بالتحريك] الاستقامة كالسداد .

حَفَظَتْهَا الْأَقْدَمِينَ ؛ مُتَعَاشِيًا مِنْ رَأْيِ الْقَاصِرِ الذِّيَّ ، قَائِمًا بِالْمِهْمَاتِ الَّتِي تُرَاحِمُ مِنْهُ
بَسْخِ لَا تُرَاحِمُ بَصِيَّ ؛ مُقِيًّا عَلَى رَفْعِ الْأُدْعِيَةِ لِهَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ ، مُسْتَرِيدًا بِالشُّكْرِ
لِنِعَمِ اللَّهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، مُجْتَهِدًا مُعْتَمِدًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى الَّتِي جَعَلَتْ لَهُ مَكَانًا
مَكِينًا فِي الدُّنْيَا وَطَرِيقًا سَهْلًا إِلَى الْآخِرَةِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُجِئُ قَصْدَهُ ، وَيَتَقَبَّلُ جِهَادَهُ
وَجُهْدَهُ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! .

قُلْتُ : هَذَا كَانَ شَأْنَهَا حِينَ كَانَ يُوَلَّى بِهَا مَقْدَمَ حَلْتَةٍ أَوْ جُنْدَى مِنَ الشَّامِ .
لَكِنْ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى تَرْتِيبِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ فِي الْمَقَالَةِ الثَّلَاثَةِ أَنَّهَا أَسْتَقَرَّتْ
فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ «فَرَج» فِي سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَثَمَانِمِائَةَ [وَلَايَةَ] ^(١) .

وَحِينَئِذٍ فَكَوْنُ وَلَايَتِهَا مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ . فَإِنْ عَادَتْ إِلَى مَا كَانَتْ عَلَيْهِ
أَوَّلًا ، عَادَ الْحُكْمُ كَذَلِكَ .



وهذه نسخة توقيع بناية قلعة حمص ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ،
وهي :

رسم بالأمر - لا زال يَنْدُبُ لِحُدْمَةِ قِلاَعِهِ كُلِّ سَيْفٍ مُجْتَبَرٍ ، وَمُجَرَّبٍ عَبْرَتْ عَلَيْهِ
العبر ، ومؤدِّ لفرائض الحُدْمَةِ : إِمَّا بِقِيَامِ عِنْدِ الصَّبَا وَإِمَّا بِقُعُودِ عِنْدِ الْكِبَرِ - أَنْ
يُرْتَبَ فُلَانٌ فِي نِيَابَةِ قَلْعَةِ حَمْصِ الْمَنْصُورَةِ إِجَابَةً لِسُؤَالِهِ فِيمَا سَأَلَهُ : مِنْ التَّوْفُرِ عَلَى
مُواصَلَةِ الصَّلَوَاتِ ، وَرَفْعِ الدَّعَوَاتِ ، وَجَمْعِ ثَوَابِ الْجِهَادِ وَالْخَلَوَاتِ ، وَتَقْضَى بَاقِي
العُمُرِ وَأَدْعَا ، مَتَسَكِّيًا طَائِعًا ؛ إِذَا بَكَى بِجَوَارِهِ حَتَّى النَّهْرِ الْعَاصِي رَقَّ عَلَيْهِ فَمَا يَعْدَمُ
مِنْهُ بُكَاءٌ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من بقية الكلام وما تقدم .

فليباشر نيابة هذه القلعة العليّ خبرها ومخبرها، الملىّ سماعها ومنظرها؛ المِطْلَةُ
على مراكر الرّماح المشهوره، وههناّ الرياح : إِمَّا بغيث السّمام مُمِطْرَةٌ وإِمَّا بسهم
الغيث مطوره، المِجَاوِرَةُ لسيّف الله «خالد» فهى بإعراب المِجَاوِرَةِ مَنْصُورَةٌ غير
مَكْسُورَةٌ، مُعْتَمِرًا لأحوالها، مُسْتَدْعِيًا لما تُحتَاج إليه من عددها وعدد رجالها،
مُحَصَّنًا باستدعاء السّلاج وسِلاح الأُدعيّة الجديريّن بأمثالها.



وهذه نسخة توقيع بنيابة قلعة جعبر، قبل أن تُنقل إلى حلب، وهى :

رُسم بالأمر الشريف - أعلى الله تعالى فى سماء الملك كوكابه، ونصر فى أقطار
الأرض كُتبه وكتّابه، وصرف بأوامره العالیه كلّ نائبٍ وفرّق بها كلّ نائبه -
أن يُرتّب علمًا بأنّه الكافى الذى تُعقد على همته الخناصر، ويُنبنى
على تقديم عزائم القديّم والمُعاصِر، وتقوى الجهات وتُنصر باسمه بعد أن كانت
بغير قُوّة ولا ناصِر؛ وأعتادًا على كفاءته النافعه، وشهامته الرّائقة الرّائمه، ودرايته
التي تُضئ بها القلعة وتُسّمو حتى يقول الاستيقان : ما هذه شمس هذه شمس
طالعاه .

فليباشر هذه القاعة القديم أثرها، الحميد خبرها وخبرها، المصغر تصغير التحبيب
والتحسين اسمها ومنظرها، المنفرد مهلهلها بذيل الآفاق فتتمسك بسحبها، المنشدة
لارتقاب نهضة حال من علم ابن منصورها، راقياً صرحها، راعياً بالمصالح

(١) كذا فى الأصل وصوابه شمسية .

(٢) هذا الوصف يناسب قلعة الصيبه فانها هى المصغرة .

(٣) فى الأصل «تمسكا» .

سَرَحَهَا ؛ مُجْتَهِدًا فِيمَا يَقْضِي لَقَدْرَهُ بِالرَّفْعِ ، وَلِرَأْدِ أَمَلِهِ بِخِصْبِ التَّجَعِّهِ ، جَاعِلًا هَذِهِ
الْمَنْزِلَةَ أَوَّلَ دَرَجَاتِهِ : وَحَسْبُهُ بِمَنْزِلَةِ يَكُونُ أَوَّلَ دَرَجَاتِهَا قُبَّةَ قَلْعِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَدِّدُ
عَزْمَهُ وَحَزْمَهُ ، وَيُجَمِّدُ فِي الْكُفَاةِ خَبْرَهُ كَمَا أَحْمَدَ فِيهِمْ أَسْمَهُ ؛ بِمَنْهُ وَكْرَمَهُ ! .



وهذه نسخة توقيع نبياة مغارة زلايا، من إنشاء ابن نباتة، وهي :

رُسم بالأمر - لا زال يَزِيدُ قِلاَعِ الْإِسْلَامِ عِلاَاءً فِي السَّمَةِ وَالْأَسْمِ ، وَفِي الْقُوَّةِ
وَالْحِسْمِ ، وَفِي أَعْتِنَاءِ يَجْمَعُ لِعَقِيلَتِهَا بَيْنَ الْحُسْنِ وَالْقِسْمِ - أَنْ يُرْتَبَ مَجْلِسُ الْأَمِيرِ
لِقِيَامِهِ بِوَأَجِبِ الْخِدْمَةِ ، وَمُلَازِمَةَ فَرَايِضِهَا الْمُهِمَّةِ ؛ وَعَزْمَتَهُ الْوَفِيَّةَ فِي النَّهْسِ ، الزَّائِدِ
وَصَفُوحًا عَلَى الْأَمْسِ ، الْعَلِيِّ نَسَبُهَا وَحَسَبُهَا : قِتَارَةً إِلَى الْعَلِيِّ وَتَارَةً إِلَى الشَّمْسِ .

فليباشر هذه القلعة التي علت بنفسها محلا وسكنا ، وقال ساكن مغارها لشاني
أثنين من حزمه وعزمه : (لَا يَحْزَنَنَّ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) ؛ وَأَسْتَعْلَى نَيْبَتِهَا فَأَنْشُدَ :
«أَنَا ابْنُ جَلَا وَطَلَّاعِ الثَّنَائِيَا» ، وَنَادَى بِقَعْتِهَا : هَذَا عَزْمِي وَحَزْمِي لَا يُقَالُ وَلَا يَزَالُ يَا ؛
مُجْتَهِدًا فِي سَدَادِ أُمُورِهَا ، وَتَحْصِينِهَا بِالْمُهَابَةِ الْقَائِمَةِ مَقَامِ سُورِهَا ؛ مُسْتَجَابًا مَا يَحْتَاجُ
إِلَيْهِ وَمَا يُرْتَبُ مِنْ عُدَّةٍ ، مُلَازِمًا لِرُؤْمِ الْخَمْسِ لِأَوْقَاتِ مُبَاشَرَتِهَا لِأَيُوصَفُ بِالزَّوَالِ
بَلْ يُطَوَّلُ الْمُدَّةُ .



وهذه نسخة توقيع بولاية القدس، من إنشاء ابن نباتة، وهي :

رُسم بالأمر لا زال يَشْمَلُ بِظِلِّهِ وَفَضْلِهِ ، وَيَجْمَلُ بِإِحْسَانِهِ وَعَدْلِهِ ،
وَيُنْقَلُ شَمْسُ الْوِلَاةِ مِنَ الْبُرْجِ الظَّاهِرِ إِلَى مِثْلِهِ - أَنْ يُنْقَلَ فَلَانٌ مِنْ كَذَا إِلَى الْوِلَاةِ

القدس الشريف : علماً بكفائته التي تقدّمت ، وشهامته التي تحكّمت ، وإمامته التي سلّمت فيما سلّمت ؛ وهيمته التي وضّحت شمساً فلا تُنْفَس ، وقالت لقيامه في المصالح :
 ﴿أَخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ .

فليباشِر هذه الولاية مباشرةً تمحو بضياء شمسِه ظُلمًا وظلامًا ، وتقولُ لنارِ الحوادث في المشاهدةِ الجليلةِ : ﴿يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ ؛ مجتهدًا فيما هو بصَدَدِه ، عارِفًا بوجوه المصالح حتى يكونَ السُّكُنُ أَعْرَفَ بِسَمْسِ بَلَدِه ؛ ناهضًا بأُمُورِ الدِّيوانِ جليًّا وخفيًّا ، وعبءِ المهماتِ حافِلها وحفيًّا ؛ مستريدًا بالشكر لمبادئِ النعمِ ، قائِلًا في محلِّ البَلَدِينِ الْمُبَارَكَيْنِ : ماسرْتُ مِنْ حَرِّمٍ إِلَّا إِلَى حَرَمٍ .



وهذه نسخةٌ توقع بولاية غزّة ، وهي :

رُسم بالأمر - لا زال يُنْشِئُ في رِياضِ الإِحْسَانِ غَرَسًا ، وَيُحَقِّقُ في أَسْتَحْقَاقِ الكُفَاةِ حَدَسًا ، وَيُقَدِّمُ من لا تزالُ الْوِلايَاتُ تُحْمَدُ له يَوْمًا وتَدَّكِرُ لِقَوْمِهِ أُمَسًا - أن يُرْتَبَ لِمَا عُرِفَ من عَزَمِهِ الذي جَرَّدَ منه الأَخْتِيارَ والأَخْتِيارَ جَمِيلًا ، وَكَمالِ شَخْصِهِ الذي آتَخَذَهُ التوفيقُ فلم يَقُلْ : ﴿لَيْتَنِي لَمْ آتَخِذْ فَلانًا خَلِيلًا﴾ ؛ وَأَعْتادَهُ الذي يُصْبِحُ في الحامدِ وَيُؤمِسُ ، وَيَنافِسُ مَرْبَاهُ فِهَذَا يَقولُ : تَمَرَى وهذا يَقولُ :
 غَرَسِي .

فليباشِر هذه الولاية بعزيمٍ مقْتَبِلِ الشَّيْبَةِ ، وَحَزْمٍ لا يُعِدُّ الرأى المَحْمِلُ تَجْرِيدَهُ في المصالحِ وَتَجْرِيئِهِ ؛ وَنَفْعٍ في المِهْمَاتِ وَرَدْعٍ لِلْفُسْدينِ تُحْمَدُ مَوارِدُهُ وَمَصادِرُهُ ، وَذَكَرَ له حَسَنٌ تُلْتَقَطُ من ساحلِ الشامِ جَواهِرُهُ ؛ مُسْتَرِيدًا لِمَا رَسَّخَ له من درجاتِ

الأمر المهمّ ، مُرَّةَ العَرِضِ عن كلِّ لائِمَةٍ مُرَجَّحًا تَقْوَى اللهِ تعالى في كلِّ مَلَمَّةٍ ، واللهُ تعالى يُجِدُّ في الخِدْمَةِ آثاره ، ويُعزِّزُ في ولايةِ حربِه السَّاقَةَ إذا هانت الحربُ على النَّظَّارِ .



وهذه نسخةُ تَوَقِيعِ بولايةِ لُدٍّ ، لمن أسَمِه «نجم الدين أيوب» وهي :

رُسم بالأمر - لا زالت نُجُومُ أوامِرِه سَعِيدَه ، وَظِلَالُ غَوَارِفِه مَدِيدَه ، وَمَنَازِلُ
الولاياتِ حَامِدَةٌ لمن يُقَدِّمُه وَطَوَالِيعُ أَفْقِهَا حَمِيدَه - أن يُرَتَّبَ اعتماداً على
كفائتِه التي تُسَيِّدُه لِمَجْدَا ، وَتُعَقِّبُ مَسْعَاهُ جَمْدَا ، وَتَكْفِي من هذه الجهة وأهلها بَلَدًا
وقومًا لُدًّا : لما أحتوى عليه من موجباتِ الأصطناعِ ودواعيه ، وفاتَ باستقلالِه
أمدَ مساجِلِه ومناوِيه ؛ وأشتملَ على الخلالِ التي قَضَتْ بِتَقْدِيمِه ، والأفعالِ التي
أستدعتِ المبالغةَ في تَفْخِيمِه وَتَكْرِيمِه ؛ وسلكَ من الخالصَةِ ما يُوجبُ الأستِحْقَاقَ
والأستِجابَ ، ويوصلُ حَمِيدَ مَسْعَاهُ إلى بُلُوغِ الآمالِ وإدراكِ الحَافِ .

فليأشُرْ هذه الولايةَ : عاملاً بتَقْوَى اللهِ تعالى فيما يُسِرُّه ويُعلِنُه ، مُعْتَمِدًا فيها
غايةً ما يَسْتَطِيعُه المُكَلَّفُ ونهايةً ما يَمِكنُه ؛ وليُسَوِّ بين القَوِيِّ من أهلِ هذه الولايةِ
والضَّعِيفِ ، ولا يجعلُ في الحقِّ فَرَقًا بين المَشْرُوفِ والشَّرِيفِ ؛ ويمُدَّ على كَافِّهِم
رِواقَ السُّكُونِ والأَمْنَةِ ، وليَجْرِهِم في المَعْدِلَةِ على العادةِ الجميلةِ الحَسَنَةِ ؛ وليأخُذْ
في الأمورِ الدِّيوانِيَّةِ بالأجتهادِ مُراعياً في ذلك حالَ العِمارَةِ ، آتياً من الإحسانِ
إلى الرعيةِ ما يكونُ للعدلِ شارةً ؛ وإفياً في ذلك كلَّه بالمَطْلُوبِ ، صابراً على تكاليفِ
المُهَمَّاتِ ولا يُنكِرُ الصَّبْرَ لأَيُوبِ .



وهذه نسخة توقيع بولاية بيسان، لمن لقبه « شهاب الدين » من إنشاء آبن
نبأته ، وهي :

رُسم بالأمر - لا زالت شهب أوقاته سعيدة ، وسحب هباته ساحبة الجود
مديده ، وبحور نعمائه الحقيقية كبحور الأعرابِ بوض المجازية : كاملة منسرحة مديده -
أن يستقر أعتماداً على عزمه المنير شهابه ، الكثير توقده في أوقات المهمات
والتهايه ، وأستناداً إلى كفاءته التي يشهد بها ولاؤه في الخدمة وولايته ، وشهامته
التي يجزم بها في الأمر رأيه وترفع في الخدمة ولايته ومهابته ؛ وعلماً بسياسته
التي يجمع بها أهل الفساد ، وتكاد تفخر بيسان بفضلها كما فخرت بـ «فاضلها»
على البلاد .

فليقم في وظيفته على قدم اجتهاده ، وكرم ازياده واعتياده ؛ شافياً لأحوال أهل
ناحيته من الوصب ، مُمثراً الغلال والأموال بعزم قد ارتفع وانتصب ؛ ظاهراً
في الخدمة بجهوده ، مليئاً لحديد من عصي عليه في عمله كما أورثه داوده ؛ والله
تعالى يوفقه .



وهذه نسخة توقيع بولاية صيدا، لمن لقبه « شجاع الدين » بـ «المجلس العالى»

وهي :

رسم بالأمر العالى - أنفذه الله في الأقطار، ونجم بولاته أيام الأوطان والأوطار،
وأجرى بشكره سفن الركائب وركائب السفن إذا سَفَّ وإذا طار - ان يستقر
فلان : ركوناً إلى عزمه وحرمه ، وسكوناً إلى أهتامه الذى حكم فيه الاختبار

بِعَالِمِهِ؛ وَعَلِمًا أَنَّ لِلْوَلَايَاتِ بِهِ الْإِنْتِفَاعَ، وَلِحُصُونِهَا الْإِمْتِنَاعَ وَالْأَرْتِفَاعَ؛ وَأَنَّهُ إِذَا
وَلِيَ رَعَىٰ وَإِذَا أَقْوَىٰ كَانَ أَصْعَمَ رَاعٍ، وَإِذَا فَكَّرَ فِي الرَّأْيِ وَوَقَّبَ فِي الْمِهْمِ كَانَ
نِعْمَ الشُّجَاعَ .

فَلْيَبْشُرْ وِلَايَةَ عَمَلِهِ نَاهِيًا بِأَعْبَائِهِ، رَافِعًا بِالْعَدْلِ لِأَرْجَائِهِ وَرَجَائِهِ، حَرِيصًا عَلَىٰ
طَيْبِ الْأَخْبَارِ الْمُنْتَشِرَةِ مِنْ كَأْفُورِ صُبْحِهِ وَمِسْكِ مَسَائِهِ . وَلْيَتَفَقَّدْ أَحْوَالَ بَرِّهِ وَبَحْرِهِ،
وَيَتَقَبَّظْ لِذَلِكَ الْبَرِّ وَجَهْرِهِ، وَذَلِكَ الْبَحْرِ وَسِرِّهِ؛ حَتَّىٰ يَتَحَدَّثَ الْبَحْرُ عَنْ عَزْمِهِ
وَلَا حَرَجَ، وَيَسِيرَ ذِكْرَهُ كَنَسِيمِ الرَّوِضِ لِأَضَائِعِ الصَّنْعِ وَكُنْ ضَائِعُ الْأَرْحِ؛ وَيَعْتَمِدُ
مِصَالِحَ النُّوَاحِي وَسُكَّانِهَا، وَالْأَمْوَالِ وَدِيَوَانِهَا، وَالْجِهَاتِ وَضُمَّانِهَا، وَنُجُومِ التَّقْسِيطَاتِ
فِي الْبَلَدَةِ وَتَحْرِيرِ مِيزَانِهَا، وَيَجْمَعُ بَيْنَ اللَّيْنِ وَالشَّدَةِ بِسِيَاسَةٍ لَا يَخْرُجُ بِهَا الرَّأْيُ عَنْ
إِبَانِهَا، وَتَقْوَىٰ اللَّهِ تَعَالَىٰ هِيَ الْعِمْدَةُ فَعَلَيْهَا يَعْتَمِدُ، وَعَلَىٰ رُكْنِهَا يَسْتَنْدُ؛ حَتَّىٰ تَجْعَلَ
لَهُ عَلَى الْمِصَالِحِ أَيْدًا، وَحَتَّىٰ تَنْتَبِي نَحْوَ الشَّاءِ عَلَيْهِ عَمْرًا وَزَيْدًا، وَحَتَّىٰ تَجْعَلَ لَهُ بَأْسًا
فِي الْأَعْدَاءِ يَكِيدُ كَيْدًا، وَحُسْنَ ذِكْرٍ فِي الْبَلَدِ يَصِيدُ «صَيْدًا» .



وهذه نسخة توقيع بولاية قافون، من إنشاء ابن نباتة، وهي :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ يَنْدُبُ لِمِصَالِحِ الْوَلَايَاتِ سُيُوفًا، وَيَقْدَمُ ظَنًّا فِي الْكُفَاةِ
يَعْلَمُ أَنَّهُ سَيُوفِي، وَيُدْنِي مِنْ ثَمَرَاتِ الْإِنْعَامِ وَالْإِرْغَامِ لِأَيْدِي الْمُجْتَنِبِينَ قُطُوفًا - أَنْ
يَسْتَقِرَّ... .. أَعْتَادًا عَلَىٰ هِمَّتِهِ الشَّائِدَةِ، وَدِرَايَتِهِ السَّائِدَةِ، وَأَمَانَتِهِ الشَّاهِدَةِ،
وَصِفَاتِ عَزْمِهِ الَّتِي هِيَ فِي الْوَلَايَاتِ «مَعْنٌ» وَهِيَ «زَائِدَةٌ»؛ مُجْتَهِدًا عَلَىٰ أَنْ يُتِمَّرَ عَمَلُ
وِلَايَتِهِ فَتَرْكُو أَعْمَالَهُ، وَتَرِدُ عَلَيْهِ الْمِهْمَاتُ فَتَلْقَاهَا بِالْكَفَاءَةِ أَعْمَالُهُ الْمَعْرُوفَةُ وَأَقْوَالُهُ،
وَتَشْهَدُ مِنْهُ الْأَحْوَالُ مَعْنَىٰ بَلْ مَعَانِي يَثْبِتُ بِهَا فِي الْأَذْهَانِ قَبُولَهُ وَإِقْبَالَهُ .

(١) أقوى . نزل بالقرء - أعصم - أمنع وأحفظ لرعيته من الاغتيال .



وهذه نسخة توقيع بولاية صرّخد، من إنشائه، لمن لقبه «جمال الدين» وهي :

رُسم بالأمر أعلاه الله تعالى، وبلغ بأيامه الرتب وأهلها آمالا، وزان الولايات بما يُنتج من مُقدمة فعله وقوله جمالا - أن يُرتب مجلس الأمير..... لأنه الكافي الذي عُرفت في المهمّات همته، وألفت عزمته، وأديرت أوصافه عقارا صرّخديّة ولا عجب أن سرت بالنواحي خدمته، والناهض الذي وفي الولاية حقها، وأدى الأمانة وسلك طرقها، وأطلع في سماء الولايات شهب رأيه فخمى وزان أفضها.

فلباش هذه الولاية بعزم سنى، وحرّم سرى، ومهابة تأخذ للضعيف من القوى، وديانة تمشى من الكفاءة والأمانة على صراط سوى، مُمرا للمال والغلال، راقبا لحليل الذكّر بحسن الخلال، مُحسنا لذكّر ولايته حتى يجمع لها بالوصف والنعت بين الحسن والجمال، وإياه والجنّ عن المهمّات فما كل جنّ صرّخدى محمود العاقبة والمآل .



وهذه نسخة توقيع بولاية سلمية، من إنشائه، كتب به ل«شهاب الدين الحجازي» وهي :

رُسم..... - لزال يُطلع شهب الولاة مُشرقه، ويُشئ سُحب الإحسان مُغدقه، ولا برحت أقلام علائمه كالغصون بأحسن ثمرات الدوح مُثمرة مُورقه - أن يُرتب..... علما أنه الناهض الذي إذا ولي كفى، وإذا طبّ الولاية المعتلة بتقديم المعرفة شفى، ورُكونا إلى عزمه الذي أبى لشهابه أن يُجهد، وكفائه التي

قَضَتْ لاسْمِهِ بِالْعُودِ : فَإِنَّ الْعُودَ أَحْمَدُ ؛ وَاعْتِمَادًا عَلَى سِيرَتِهِ الْحَسَنَةِ السَّمْعَةَ ، الْحَقِيقَةَ بِالرَّفْعَةِ ، وَعَلَى سَطْوَتِهِ بِالْمُقْسِدِينَ الَّتِي حَسَنْتُ أَنْ يُقَالَ فِيهِ : « لَقَدْ أَوْفَعَ الْجَحَافُ بِالْيَشِيرِ وَقَعَهُ » ^(١) .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوَلَايَةَ بِعَزْمِهِ الْمُتَوَالِي ، وَاجْتِهَادِ رَأْيِهِ الَّذِي يُطْرِبُ بَارِقَهُ الْمُتَعَالِي ؛ جَارِيًا عَلَى عَادَةِ سَدِّدِهِ ، مُجْتَمِدًا فِيهَا هُوَ بِصَدِّدِهِ ؛ مُسَدِّدًا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ، مَانِعًا لِنَاحِيَتِهِ الْأَعْرَابِيَّةِ مِنْ تَطَرُّقِ الْخَلَلِ وَتَطَرُّفِ الْجَلَالِ ؛ مُصَاحِبًا بِالتَّدْبِيرِ عَمَلٌ مَا يَشْهَدُ بِعَزَائِمِهِ الْوَفِيَّةِ ، وَهَمِّهِ الْجَلِيلَةِ الْجَلِيَّةِ ، وَإِذَا سَأَلَ عَنْ شِدَّةِ الْوَلَاةِ وَاحِدًا قِيلَ : سَلْ مِئَةَ عَنْ سَلَمِيَّةِ .



وهذه نسخة توقيع بشد متحصل قامة، من إنشاء ابن نباتة، وهي :

رُسم بالأمر - بسط الله تعالى على الأمم مهابته وظله ، وبأسه وفضله ، ووجه إليه آمال الخلق من كل قبله ، وأعلى آراءه التي يقال لعد لها : « لقد جدت حتى جرت في كل مله » - أن يرتب مضافاً لما بيده ، وأستناداً إلى صحيح خبره في الكفاءة وعلو سنده ، وأرتياداً لهيمه التي إن رواها مسلم عن طوعه رواها نصراني عن تجلده ؛ وسكوناً إلى حركته التي تُحَصِّلُ مَالًا ، وَتَصِلُ إِلَى مَالًا ؛ وَتَسْتَخْرِجُ الْوَفْرَ مِنْ مَكْمَنِهِ ، وَتَأْخُذُ الْحَقَّ [مِنْ] قُدَّامِ يَدَيِ الْمَائِلِ وَمَنْ خَافَ أُذُنَهُ ؛ وَطَلَمَا أَنَّ الْمَلْمُوحَ قَامَةً مِثْلَ عَزْمِهِ الْخِتَارِ ، وَرَفْقِهِ الَّذِي يَسْتَنْزِلُ دَرَّ الْقَصْدِ الْمِدْرَارِ ، وَاجْتِهَادِهِ الَّذِي زَرَعَهُ الْمُسْتَمْتِضُونَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيْظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوَضِيفَةَ بِشِدَّةٍ وَلِينٍ يَجْعَلُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي مَوْضِعِهِ وَمَقَامِهِ ، وَحَقِّ مُنِيرٍ يَجْعَلُ سَبْتَ نُورٍ كُلِّ لَيْلِيَةٍ وَأَيَامِهِ ؛ وَأَمَانَةٍ مُدْلَةٍ ، وَكِفَاءَةٍ مُظَلَّةٍ ؛ وَصِيَانَةٍ

(١) صدر بيت للأخطل وقامه « ال الله منها المشكى والمعول » والجفاف أسم رجل والبشر أسم جبل .

تُوجِبُ مَزِيدَ الْخَيْرِ إِذَا لَهَ ، وَمَهَابَةَ إِذَا أُدْخِلَتْ مُسْتَخْرَجَ فُؤَادِهِ أَصْلَحَتْهُ وَجَعَلَتْ
 أَعْرَازَ أَهْلِهَا أَذْلَهُ ؛ لَا يَثْنِي هِمَمَهُ النَّفْسِيَّةَ ، وَلَا يَلْتَفِتُ - كَمَا يُقَالُ - لِتَبْخِيرِ الْكَنْيَسَةِ ؛
 بَلْ يَسْتَعْمَلُ فِرَاسَةً تَرُوعُ مِنْ حَمَلٍ عَنْ أَدَاءِ الْحَقِّ بُهْتَانًا ، وَمِنَاقِشَةً تَكْشِفُ عَنْ
 جِبَالِ التَّجَلُّدِ أَكْثَانًا ، وَرَأْفَةً مَعَ ذَلِكَ بِالظَّاهِرِيِّ الْعَجْزِ : ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيئِينَ
 وَرُهْبَانًا ، وَمَتَابِعَةً لِلضَّرَائِبِ الْقَدِيمَةِ لَا يُصْرَفُ عَنْهَا ، وَأَسْتَخْلَاصَ مَا عَلَى الرَّأْسِ حَتَّى
 يُقَالَ : « لَيْسَ تَحْتَ الزَّرْقَاءِ أَخْضَعُ مِنْهَا » ؛ عَامِلًا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فَإِنَّ أَهْلَ مَعَامَلَتِهِ
 أَهْلُ ذِمَّةٍ ، مُجْتَهِدًا فِي اسْتِحْقَاقِ مَا يَتَرْتَبِعُ لَهُ مِنْ وِلَايَاتِ الْأُمُورِ الْمَهْمَةِ .

الصنف الثاني

(مما يكتب لأرباب الوظائف بدمشق - توابع أرباب
 الوظائف الدينية، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب لمن هو بحاضرة دمشق، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(مايفتح بـ«الحمد لله»)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

تَوْقِيعٌ بِنَظَرِ الْحِسْبَةِ بِالشَّامِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي « نُورِ الدِّينِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي الْفَرَجِ »

بـ«الجناب الكريم» وهو :

الحمد لله الذي جعل مقام الأولياء علياً، ورفق بهم إلى طور العناية فأشرق نورهم سنيماً، ووقفهم للأمر بالمعروف فلم يزل غيث الندى بهم ولياً، وزند سبل الرشد والحكمة ورياً .

نحمده حمداً كثيراً طيباً زكياً، ونشكره شكراً لا يزال غصنه بالزيادة جنيماً، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نكرها بكرة وعشياً، ونسلك بها صراطاً سويماً، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده الذي اختاره صفيماً، وقربه نجياً، ورسوله الذي قام به الحق وأصبح به الباطل خفياً؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة ينال بها المؤمن يوم العطش رياً، ويجوز بها في جنة المأوى حلاً وحلياً، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد، فإن أولى ما يلزم الفكر [فيه] ويتعين، ويتم التبحر بحسن النظر فيه ويتبين - أمر الحسبة الشريفة : فإنها المنصب الذي به صلاح أحوال الرعية، وقوام إقامة الحدود الشرعية؛ تسلك العامة لمستوليه سبل صنائعه ذلاً، وتكسو بائقائها أنواع بضائرها حلاً؛ ويتفجع بمعرفته الأمر والمأمور، وتخطط المعاش عن غشيان الغش من حرمة بسور؛ وتطمئن القلوب بإصلاح المطاعم وتتمنى، وتقول الأئمة : شكراً لمن سن هذه السنة الشريفة وسنى، وردع ذوى الغش عن غوايتهم : فمن غشنا ليس منا؛ لا سيما بدمشق فإنها شامة البلاد المحروسة، وموطن البركة الماثورة والبهجة المانوسة؛ بلد شاع ذكرها في المغارب والمشارك، وإن محاسنها لن تقاس بغيرها : والجامع الفارق .

وكان فلان من تحلى من عقود المحامد بجواهرها، وأزادت من حلال المآثر بمفانحها؛ وعرف بالهضة والعفاف، وأتصف بحمائل المعرفة والإنصاف؛ وحسنت سيرته في أحكامه، وحمدت قواعد تعدده ونضارة نظامه .^(١)

(١) لعله "تعهد" .

فذلك رُسم بالأمر العالى - لا زال يُولى جَمِيلاً ، ويُوَلَّى فى الوظائف السَّنيَّة جَلِيلاً - أن يستقرَّ المشارُ إليه فى نَظَرِ الحِسْبَةِ الشريفةِ بالشَّامِ المحروسِ ، على عادة من تقدَّمه فى ذلك ، والقاعدة المستمرة ، بالمعلوم المستمرِّ للوظيفة المذكورة ، إلى آخر وقت : وضِعاً للشئ فى محلِّه ، وتفويضاً لجميل النَّظَرِ إلى أهله .

فليباشر ذلك أمرًا بالمعروف وناهياً عن المنكر ، سالكاً من حُسن الطريقة ما يُحمد به ويُشكر ، ويسره حين تُتلى سورٌ محاسنه وتُذكر ، متفقداً أحوال العامة ومعايشها فى كلِّ آن ، ملتفتاً فى أمر ما يكالُ أو يُوزنُ إلى قوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا وَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ . مُشمرّاً عن ساعده فى الإجراء على العوائد المُستحبة ، مُحترزاً فيما يأمر به : فإنَّ الله تعالى لا يُخفى عليه مثقالُ حَبَّةٍ ، ولينظر فى الدقيق والجليل ، والكثير والقليل ، وليستكثر الأخبار ، وليستعلم الأسعار ، ولا يغفل عن تعاهد السوقِ آناء الليل وأطراف النهار ، وليلاحظ أمر السكَّةِ السلطانية بإصلاح العيار ، وضبط أحوال النقود بمقدار ، وليقيم من خدمته رقيباً على من آتم فى صنعته أو استراب . وليبالغ فى النظر فى أمر المآكل والمشارب فإنَّ أكثر الداء من الطعام والشراب ، وليزجر بتأديبه من أقرئ ، أو تلقى الرُّبجان أو غدا فى الأقوات مُحترِكا ، وليعلم أنه قلد أمر هذه الوظيفة المباركة : فليحتر من يسديب ، وليبصر كيف يسلك برعايته من حكم عليه فما يلفظ من قوبٍ إلا لديه رقيب ، والوصايا كثيرة وأصلها التقوى التى هى أجل ما يقتنى المؤمن . ويكتسب ، وأجدر بالزيادة : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ . والله تعالى يُديم علاه ، ويتولاه فيما تولاه .



وهذه نسخة توقيع بنظر الجامع الأموي، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة،
كتب به للقاضي «عماد الدين بن الشيرازي» في الدولة الصالحية «صالح بن الناصر
محمد» بـ«الجاب الكريم» وهي :

الحمد لله الذي أذن لبيوته أن ترفع فرجع عمادها، وأعاد أحسنها إلى نظر من صرف
أمورها بما حسن وصرفها عما دهي، وأحيا الآثار الأموية حتى غدت كالهشمية
تدعو أجوادها وتبجأها، وأنجز وعد أهلها بمن أشارت إلى مباشرته أعلام أعلام
المنابر بالأصابع ونصت المآذن أجيادها .

نحمده على ماهياً من الفوائد، وهناً من العوائد؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة يقوم بها الخطاب شاهداً ويقوم بها الخطباء في المشاهد، ونشهد
أن محمداً عبده ورسوله الذي أوتى الجوامع من الكلم وجعلت له الأرض من
المساجد؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين عمروا بيوت العبادات بهدأيته،
وظهروا في مجال الجمع وسجال الجموع تحت رأيته؛ صلاة متصلة السير كالسيل،
مسبلة الغمام كالذيل، واضحة كدع الخلق لدلوك الشمس فائحة كفتيت المسك
إلى غسق الليل .

وبعد، فإن أولى الأمور الدينية بتقديم الأهتمام، وتقرير الاعتناء إلى الاعتزام؛
وتسمير ساعد الرأي وزهراته على الأكام - أمر تكون إقامة الصلوات أحد
أركانها، وتذير المصالح مشيراً إلى علوشانه، وأرزاق العلماء والصلحاء تستدر من
هطاله وهتانه .

وكان الجامع الأمويّ بدمشق المحروسة لهذه الأركان بمنزلة الأسّ الراسخ تمكينه ،
والفرع الشامخ في وجه السحاب عزينته ؛ وبئية زمان بنى أمية الذين عفا شرف
مفاجرهم وما عفا شرفه ونخره ، ووكر الإسلام الذي مضى لبد أمثاله وما بقي إلا نسر
السماء ونسره ؛ ذو المرأى الشارح والفضل المشروح ، والحسن الذي إن تعالى
في وصف الجوامع قوم قيل : باب الزيادة مفتوح ؛ تفخر به دمشق وحق
لها على كل مضر أن تفخر ، وتبعث نظرات حسنه الفخر من حملة فصوص
الترخيم إلى الأسود والأحمر ؛ يحمّد المجاور به مغناه وغناه ، ويسع أرباب العلم
والمقاصد نأديه ونأده ، ويطالع المسك سطور مياهه المتجددة فأول ما يقرأ من
تنبيهه عزمه باب المياه ؛ وقد عهد أن يتولى نظره كل سنيّ المفاجر ، سرى
المآثر ؛ كريم الفرع والأصل ، ماضى العزم كالنصل ، حائز من أقلامه أمد العلياء
وقصب الخصل .

ولذلك رسم بالأمر الشريف - لزال وجه الفضل بدولته الشريفة وإخفا ،
وميزان العدل والإحسان راجحا ، ولا زال في كنف من من به على الدين والدنيا
وآتاهما صالحا - أن يفوض إلى فلان نظر الجامع الأمويّ المذكور : لما عرف
من أنه الرئيس الذي ماسد سدى ، والكامل الذي إذا انس [سار] نار فكرته وجد على
النار هدى ؛ وأنه باشر نظر هذا الجامع قديما جملة ، ورصد سنه فكله ، وأستشهد
في محضر ديوانه على الزاهة أقلامه المعدلة ، وتدبيره المعدله ؛ وكثر أوقافه وكانت
قد أضحلت ، وشيد عمائر وكانت قد استقلت ، وملا حواصله وكانت أقلام
المكتسبة تُشدد : «أسألتها أيّ المواطن حلت» ؛ ولما ألف هذا الجامع المعمور من
عواطفه ، وعرف من عوارفه ، وشهد من جلوسه لمصالح ووقفه أحسن الله مكافأة
جالسه وواقفه ؛ فأنبت في صدر الحافل أن الله تعالى قد رزقه من الفضل جسيما ،

وكتب له من شرف الأكتساب والانتساب حديثاً وقديماً ، وألقى إلى يده قلم كفاءة وأمانة كان كرمها للآملين حصيماً وكان قلمها للخائنين خصيماً ؛ كم وفر به المصالح فوقى ، وكم جمع بهمته المحاولة مالا يفجز به من جند الدعاء صفاً ؛ كم سر بمناقبه سرأة سلف مامنهم إلا جواد لا يرضى في سبق المكارم بحاتمته ، وكتب يكبر عن قول الواصف : إن يا قوتنا في قص خاتمته ؛ ورئيس هو أجل ما أهدت شيراز إلى دمشق من عالي طراز الفضل وعالمه .

فليباشر ما فوض إليه بعزم لا تغفل مضاربه ، ورأي لا تأفل كواكبه ، ومعدين وفاء بالمنصب لا تبرح لحناة الحيانة مهالكه ولحناة الحنان مطالبه ؛ ناظراً في حسن وظيفتها بأجتهاد لا يميل من النظر ، ثمراً لأوقافها بغضن قلمه الذي لا ينكر لأصله الصائب أطيب الثمر ، ملاحظاً لمباني هذا الجامع بسعادته : وإن السعادة لتلحظ الحجر ، صارنا لذوى الاستحقاق مستحقة كما عهدوا من إمام براعته المنتظر ؛ مجتهداً على أن يرضى الوظيفة والقوم ، معيناً عدوى أنامله الخمس على عددها من فريضة الليلة واليوم ؛ عالم أن الله تعالى قد أحيا هذا الديوان فإنه كما علم أصل في بابه ، أمراً بما يقترح لنظام هذا الديوان وكتابه ، منتقداً حال من إذا عمر دواة في وقف كانت سبباً لعمرانه أو سبباً - والعياذ بالله تعالى - لخراجه ، مطالباً من ظن أن حسابه يهمل في دهر هذه المباشرة « فكان حساب الدهر غير حسابه » ؛ متخيراً من الكفافة كل ما ثور الفضيلة ، ومن الأمانة كل ما مؤن الرذيلة ، ومن القوام كل من لا يقعد عن الواجب ، ومن الوقادين كل من لا يعاب بطول الفتيلة ، جامعاً تقوى الله تعالى في كل ما يأتي ويذر سابقه إلى الفوز ودليله ؛ والله تعالى يمدد بالسداد ، ويصل مفاخره بالسند ويجرس شرف بيته من السناد ، ويجعل كل منصب كريم باسمه وقلمه كما قال الأول : « رفيع العباد طويل التجاد » .



وهذه نسخة توقيع بنظر مدرسة الشيخ أبي عمر، من إنشاء ابن نباتة، كتب به للقاضي «تقى الدين» بالجناب العالى، وهى :

الحمد لله الذى عمّر عهد التّقى بتقيّه ، وأقرّ نظره بمشاهدة أبيض العريض نقيّه ، وأخصب منازل الأولياء بمن يتوب تمييره وتديره عن الغيث مناب وليّه ، ومن إذا شهد مقام الزهاد بمعروفه شهد سداد العزم بسريّه .

نحمده على جلى اللطيف وحفيّه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وإنى الحق وفيّه ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده أكرم بعبدته ونبيّه ، ورسوله وصفيّه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة يمزج أرجها كأفور صباح النهار بمسك عشيه .

وبعد ، فخير النظر ما كان به الثواب مأمولا ، والعمل مقبولا ، والآخرة لناهض فيه خيرا من الأولى ، وتخير الأكفاء لمناصبه الدينية سببا لخير الدارين موصولا .

ولما كانت المدرسة الصالحية بجبل الصالحية المعروفة بالشيخ العارف أبي عمر: رضى الله عنه وأرضاه، وسقى سبل الغيث آثاره الطاهرة وثرأه؛ مما يتعين فى مصالحتها حسن النظر، ويتبين فى القيام بأمرها فضل الآراء والفكر؛ إذ هى زاوية الخير النافعه ، ومدرسة الذكر الجامعه ، وعش القرآن المترنمة أطياره بحفة قان القلوب الخاشعه؛ وصفة الفقراء الذين لا يسألون الناس إلخافا، والأصفياء من الطمع الذين لا يتقاضون الدهر إنصافا وإن صافى؛ ومرتكض سوابق الأعمال والأقوال، ومقر

الْقُرَاءَ وَالْقِرَاءَةَ عَلَى مَمَرِّ اللَّيْلِ الطَّوَالَ، وَمَعْدِنُ التَّلَاوَةِ الْمَأْتُورُ غَنَاؤُهَا فِي ذَلِكَ الْحَبْلِ
وَمَا كُلُّ الْمَعَادِنِ وَلَا كُلُّ الْحِبَالِ؛ وَالْبَيْنَةُ لِلَّهِ وَتَحْتَاجُ مَنْ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ فِي وَقْفِهَا،
وَيَحْفَظُ مَسَالِكَ جَمْعِهَا وَصَرَفِهَا، وَيَتَمَّى حَالَ دِرْهِمِهَا بِتَدْيِيرِهِ الْوَاقِي: فَرُبَّمَا أَبْقَتْهَا
الْأَحْوَالُ مِنْهُ عَلَى نِصْفِهَا .

وكان فلانٌ ممن لحظَّ أمورَها على بُعْدِ فَشَغَفِ الْمَلْحُوظِ بِاللَّاحِظِ، وَحَفِظَهَا عَلَى
نَأْيٍ فَكَأَنَّمَا رَوَتْ بِالْإِجَازَةِ عَنِ الْحَافِظِ؛ وَأَدَارَ عَلَيْهَا مِنْ رَشَفَاتِ قَلَمِهِ نَعْبَةَ السَّاقِي،
وَأَنْهَلَهَا شَرْبَةً مَضَى بِهَا مَا مَضَى مِنْ تَعَدُّدِ الْمَالِ: وَفِي الْجَرَائِدِ بَاقٍ يَطْلُبُ الْبَاقِي؛
وَسَأَلَ أَهْلَهَا بَعْدَ ذَلِكَ مَلَازِمَتَهُ لِلنَّظَرِ فَلَزِمُوا، وَرَفَعُوا قِصَصَهُمْ فِي طَلْبِهِ لِهَذِهِ الْوِظِيْفَةِ
بِحَزْمٍ، وَكَيْفَ لَا؟ وَهُوَ نِعْمَ النَّاطِرُ وَالْإِنْسَانُ، وَفِي مِصَالِحِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ ذُو الْيَدَيْنِ
وَاللِّسَانِ، وَذُو الْعِزَائِمِ الَّتِي تَقَيَّدَتْ فِي حُبِّهِ الرُّتْبُ: «وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ»؛ وَالْمُتَقَدِّمُ
فِعْلُهُ وَرَأْيُهُ فِي الْعَاجِلِ وَالْآجِلِ، وَالْمَاءُ وَالزُّنْبُورُ الَّذِي يُعْزَى إِلَى عَقِيلَةِ نَسَبَةِ الرَّشِيدِ
وَلَا عَجَبَ أَنْ يُعْزَى الْمَأْمُونُ إِلَى مَرَاجِلِ^(١)، كَمَا جَرَتْ أَلْسِنَةُ الْأَوْقَافِ بِأَوْصَافِهِ، وَكَمْ
رَوَى الْجَمَاعُ الصَّحِيحُ خَبْرًا عَنْ مُسَلِّمٍ عَفَافِهِ، وَكَمْ جَدَّدَ لِبِنَائِهِ زُحْرًا بَعْدَ مَا كَادَ نَادِبُ
الرُّسُومِ يَقِفُ عَلَى أَحْقَافِهِ؛ كَمْ وَقَّرَ عَلَى الْإِيْتَامِ مِيرَاثَ وَفَرَّهَا، وَكَمْ قَالَ آخِيبًا الْمَلُوكِ
الْبَاقِيَةَ: «لَأَشْكُرَنَّكَ مَا حَيِّتُ» فَقَالَ مَا ضَى الْمَلُوكِ ذَوِي الْأَوْقَافِ: «وَلتَشْكُرَنَّكَ
أَعْظَمِي فِي قَبْرِهَا» - فَاقْتَضَى الرَّأْيُ أَنْ يُجَابَ فِي طَلْبِهِ الْمُهَيَّبِ سَأُلَ الْقَوْمِ، وَأَنْ يَتَّصَلَ
أَمْسُ الْإِقْبَالِ بِالْيَوْمِ؛ وَأَنْ تَبْلُغَ هَذِهِ الْوِظِيْفَةُ أَمَلَهَا فِيهِ بَعْدَ مَا مَضَتْ عَلَيْهَا مِنَ الدَّهْرِ
مَلَاوَهُ، وَهَذِهِ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي لَوْلَا تَدَارُكُهُ لَكَانَتْ كَمَا قَالَ الْخِرَازِمِيُّ: «مَدَارِسُ آيَاتِ
خَلَّتْ مِنْ تِلَاوَتِهِ» .

(١) يشير إلى المأمون بن هرون الرشيد العباسي وأمه مراحيل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يُراعى مصالح المؤمنين - أن يفوض إليه النظرُ على هذه المدرسة المعمورة، وأوقفها المبرورة؛ إجابةً لسؤال من فيها من جماعة الفقهاء ورغبتهم فيه، وأرتقايمهم لعزمه الذى إذا نظر حالها الأول تلا فيه تلافيه؛ على أن يتبع فى أمرها شرط الواقف برأى غير قاعد، وإن كان لا يزيد فيها على أربعمائة نفرٍ إلا أن يزيد ربع الوقف وهو - إن شاء الله - ببركته وهيمته زائد.

فليباشر ما فوض إليه مباشرة من إذا بدأ أعاد، وإذا دُعِيَ لمثل هذا الحال الضعيف طبَّ وعاد؛ مثمرا لها - على عادة غضن قلبه الأخضر - أثمارا، مستخلصا للبواقى من أربابها التى تنهب العين وتدعى لقراتها أنكسارا؛ قائلا فى حال هذه المدرسة بالعطف، مساويا فى المواساة بين فقرائها عند الميزان والصرف، نازلا بنور بشره وودّه بينهم منازل القلب والطرف؛ مجهزا لجيش عسرتهم فإنهم جمع للتلاوة والصلوات، متطلعا لخبرهم فإنهم أجناد صفوف الأستحار وسلاحهم الدعوات؛ وتقوى الله تعالى مشتق منها اسمه فلتكن شقيقة نفسه فى الخلوات؛ والله تعالى يحفظ عليه حظا نفيسا، وقدرا للنجوم جليسا، ويحيى به ميت الوظائف حتى يقال: أسليان أنت أم عيسى؟



وهذه نسخة توقيع بخطابة الجامع الأموى، من إنشاء ابن نباتة، كتبت به باستمرار القاضى تاج الدين «الجناب العالى» وهى:

الحمد لله الذى رفع للناس ررأسا باستقرار تاجها، وجمع لصدور الحارِب شملا بعوائد أبتهاجها، وزين مواقع النعم بالتكرار كما تران لآلى النظام بازدواجها، وبين مطالع الفرج بعد النعم: وما الدهر إلا ليل عممة ثم صبح أنفراجها.

نحمدُه على معادِ الآمالِ ومعاجِها ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً تَمشى البصائرُ إلى الحقِّ بسراجِها ، ونشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله القائمُ على المنابرِ لمداواةِ الفُهومِ وعلاجِها ، ومُدارةِ الخُصومِ ومُحاجِها ، القائلُ له تَأْدِيبُ رَبِّهِ : (وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ) آيَةٌ يَسْرِي الفَظنُ على مِنْهاجِها ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه بِجُورِ النِّعمِ والنعَمِ عَديها وأجاجِها ، وبُدُورِ مساجِدِ الثَّقِيِّ ومَشاهدِ الوَعْيِ عندَ عجاجِ ليلِها ولبيلِ عجاجِها ، صلاةٌ كصَلاتهمُ آمَنَةٌ من خِداجِها ، ما مَدَّتْ نَفَحَاتُ الرُوضِ إلى مَحالِطَةِ سيرهم يَدَ اِحْتِجاجِها ، وما زَجَّتْ معاليهم النُّجومَ فُحْسِنَ بِكَاسِ الثُّرَيَّا شَرَفُ ائْتِراجِها .

وبعدُ ، فإنَّ أُولَى الناسِ باستقرارِ مَناصِبِ الدِّينِ العَرِيقَةِ ، وآسْتِمْرارِ عُلُوِّ الدَّرَجَاتِ : إمَّا من المراتبِ مجازًا وإمَّا من المنابرِ حَقِيقَةً ، وآسْتِمْرارِ الوِظائِفِ بَعِيادَةِ فَضْلِهِ ولا سِيَمًا أَعْوَادِ اَلْخُطابَةِ ، وآسْتِيبصارِها بِلَفْظِهِ ولا سِيَمًا إذا سُلِّمَتِ الرِايَةُ العِباسِيَّةُ من نُظْفِهِ لِعِرابِهِ - من دَرَجٍ من عُشِّ فُرُوعِها خافِقًا عليه جَناحًا عَلمِيهِ ، وصَعِدَ إلى عَرَشِها مُقْبِلَةً بِنِظَرَاتِ اَلْجُفُونِ المِتسامِيَةِ آثارَ قَدَمِيهِ ، وأَعْرَقَ نَسَبَهُ في مَوْطِنِ مَكانِها المِكينِ ، وبلَغَ مَقامَهُ مَقامَ سَلَفِهِ أَرْبَعِينَ سَنَةً في الطُّلُوعِ بأَفْئِها المِئينِ ، وقالَ اسْتِحْقاؤُ مِيراثِهِ : ”وماذا تَدْرِي اَلْخُطْباءُ مِنِّي“ * ”وقَد جَاوَزْتُ“ بِمَقامِ السَلَفِ ”حَدَّ الأَرْبَعِينَ“ ؛ وَمَن إذا سَمِعَتْ خُطابَتَهُ قالَ الحَفَلُ : لا فِضُّ فُوه ، ولا عُدَمَ البَيْتِ ولا بَنُوهُ ، وَمَن إذا طَلَعَ دَرَجَ المِنبَرِ قالَ المِستَجِلُّونَ لَسَناهُ : أهْلَ البَدْرِ؟ قِيلَ لَهُمُ : أخُوهُ ؛ وَمَن إذا قامَ فَرِيدًا عَدَّ بأَلْفٍ من فَرائِدِ الرِجالِ تُنظَّمُ ، وإذا أَقبَلَ في سِوادِ طَيْسَانِهِ واحِدًا قِيلَ : جاءَ السِّوادُ الأَعْظَمُ .

(١) الرواية الشعراء وهو ثر بيت لسبحم الرياحي .

ولما كان فلان هو معنى هذه الإشارة ، وحقوى هذه العبارة ، وصدر هذا التصدير : ومن سواه أحق بصفات الصدارة ؟ ، ومن إذا ضرب المثل بالخطابة النبائية في حلب قال نخطابته بدمشق : «إياك أعني فاسمعي بإجاره» ، ومن نشأ في محل نخار طيب المعاهد ، ومن وضع رجله على المنابر ومدّ عزمه إلى الفراقيد ، ومن شمر في أوائل عمره إلى العلياء وحيدا وخلف دونها من أنداده ألف راقد ، ومن إذا صعد للخطابة أنشد الحفدة :

ولما رأيت الناس دون محله * تيقنت أن الدهر للناس ناقد

وكانت خطابة الجامع الأموي المعمور بذكر الله تعالى بدمشق المحروسة هو الذي كل بنان إلى حسنه يُشير ، وكل ذي مذهب إذا عاين تصنيف وضعه قال هذا لفته المحاسن هو الجامع الكبير ، ميزابه (؟) المسلم لرشده ، المعلم بطرازي نسيه ورشده ، المقدم ليد نصرته سيف خطابه لا يخرج بيد الاستحقاق عن حده ، تكاد المنابر تعود للنشأة الأولى طربا لسجع بيانه ، يسهب ويقول الناس ليته لا اختصر ، ويودون لو ليس كل يوم سواد أهبتة وزيد فيه منهم سواد القلب والبصر ، وعارضه من العزاء الكفاة من نوى بدلا فابي حنوا الدولة إلا عظفا ، ونارله وأرد من القضاء ولكن أنزل الله عليه مع القضاء لطفًا .

ولذلك رسم بالأمر الشريف أن يستقر على عادته في خطابة الجامع المذكور ، وما يتعلق بذلك : من تدريس وتصدير ، وتقرير وتقدير ، وتأثيل وتأثير ، ومحكوم بالتفويض إليه ومحكم ، ومرسوم لا يُغير عليه ما رسم به وما رسم به ، وأن يمنع دليل

(١) الكلام هنا غير مستقيم ولعل الصواب «ولما كان فلان هو معنى الخ وكان الجامع الأموي هو الذي

الخ تعين أنه المسلم ليده .

الاعتراض ويُدفع، وَيَكْفَ حَتَّى تَتَّصِلَ الْعِنَايَةُ بِهَذَا الْبَيْتِ الَّذِي هُوَ مِنْ بَيوتِ أذنِ
اللهِ أَنْ تُرْفَعَ، وَحَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ قَوْمًا أَحْسَنُوا صُحْبَةَ الدُّوَلِ فَسَعِدُوا، وَنَهَبُوا عَهودَ الخِدْمَةِ
لِأَعْقَابِهِمْ وَهَجَّدُوا، وَحَتَّى يَقُولَ هَذَا النَّجْلُ الظَّافِرُ بَعْدَ آبَائِهِ وَأَخِيهِ: لَيْتَ أَشْيَانِي
بِيَدِ شَهْدُوا .

فَلْيَعِدْ حَدِيثَ مَنْصِبِهِ الْقَدِيمِ، وَلْيَقِمْ إِلَى تَشْدِيدِ الْأَسْمَاعِ مِنْ تَنْبِيهِ لَفْظِهِ بِأَهْمِيٍّ مِنْ
العقدِ النظيمِ، وَلْيَفَكِّ أَسْرَى الْقُلُوبِ بِرَوَاتِبِ إِشَارَتِهِ: فَإِنَّهُ «الفاضلُ عبدُ الرَّحِيمِ»؛
وَلْيُبْسِكِ الْعْيُونَ بوعَظِهِ وَإِنْ أَقْرَاهَا بِمُشَاهَدَتِهِ، وَلْيَحْرُضْ عَلَى نَخْرِ الدُّوَلَةِ الشَّرِيفَةِ بِهِ
كَمَا نَخَّرَ سَيْفُ الدُّوَلَةِ بَابِنِ نُبَاتَتِهِ .

ووصايا هذه الرتبة متشعبة وهو على كل حال أدرب وأدرى بها، وما استقرت
على قبض سيوفها يده إلا ورجعت الحقوق إلى نصابها؛ وكذلك ما هو معسوق
بوظائفه: من مدارس علوم، ومجالس نظير طالما نظر في كتبها وهو الصحيح نظرة
في النجوم - لا يحتاج فيها إلى مطالعة الوصايا فإنه من كل أبوابها دخل، ولا يمر بها
على أذنه فم المبلغ فإنها من فمه أحلى ومن تسويغ فمه أحل؛ ولكن التذكار بتقوى الله
تعالى فيما يأتي ويذر أس جليل، ووجه تتفاضل وجوه الألفاظ من ذكره على لفظ
بحيل، وألفاظ الخطيب المتقي إذا وصلت من القلب إلى القلب وقت برى الغليل؛
والله تعالى يمدّه بالظافه، ويحجّره على عوائد إسعاده وإسعافه، ويروى بصواب
كلمه الأسماع وبصوب الغمام عهود أسلافه .



وهذه نسخة توقيع بندريس المدرسة المسرورية بدمشق، من إنشاء الشيخ صلاح
الدين الصفدي، كتب به للشيخ «تقي الدين السبكي» ب «المقرّ الكريم» وهي:

الحمد لله الذى جعل تقيِّ الدينِ عليًّا، وأوجده فردًا فى هذا الملاّ فكان بكلِّ علمٍ مليًّا، وأظهر فضله الجليل فكان كالصباح جليًّا .

نحمده على نعمه التى تكاثرت فأنجلت العائم، وتوفرت الألسنة على حمده فتعلمت أنبجاعها الحائم، وتأثرت بموافقها الأحوال فأخملت زهر الخمايل فى الكائم . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا شبهة تُعكّر ما صفا من بحتها، ولا ريبه تُوعر ما تسهل من محبتها ، ولا ظلمة باطل تُكدر ما أنار من حجتها . ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذى جمعت فيه مكارم الأخلاق ، وتقرّد بمزايا منها أنه حبيب الخلاق ، وشارك الأنبياء فى معجزاتهم وزاد عليهم بما أُتيح له من تحميس لم يعطهن غيره منهم على الإطلاق . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين تفقهوا فى الدين ، وحازوا الأجور لما جرّوا إلى جرّ الغلاصم من الملحدين ، وأنزلوا لما نازلوا أبطال الباطل والمعتدين من المعتدين ؛ صلاةً يفوح نسيم رباها المتأرجح ، ويلوح وسيم محياها المتضرج ، ما فرّج العلماء مضايق الجدال فى الدروس ، وقبّلت تُغور الأفلام وجنات الطروس ؛ وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن المدارس - عمرها الله تعالى بالعلماء - لواقفها شروط ، ولأهلها هم أنزلها بالنجوم منوط ؛ يغوصون بجور البحوث فى طلب الآلى ، ويقطعون ظلّ الظلام بالسهر فى حبّ المعالى ؛ سيم المدرسة المسرورية : فإن واقفها - أتابه الله تعالى - شرط فى المدرّس بها شروطاً قلّ من يقبّلها ، أو يتحلّى بعقودها أو يحلّها ؛ وكان مفرقها قد تحلّى بتاج تجوهر ، ومغلقها قد ضمّ منه فاضلاً تمهدت به قواعد المذهب لما تمهر ؛ فأعرض عنها ، ونقض يده منها ؛ رغبة فى الإقبال على شأنه ، وأقطعاً إلى مالك الأمر وديانته ؛ تخلاً ربّعها من أنسه ، وكادت تكون طللاً بعد درسه .

وكان فلانٌ - أسبغ الله ظله - قد وافق بعض ما فيه شرط الواقف ، وشهد
بشْرُ علومِهِ الْبَادِي وَالْعَاكِف ، وطاف بكعبة فوائده كل طائف ، ينصرف عنه
باللطائف ؛ أما "التفسير" فإنه فيه آية ، وأما "الحديث" فإنه الرحلة في الرواية
والدراية ؛ وأما "الأصول" فإنه زار بـ«الرازي» حتى آخفتني ، وأما "الفقه" فلو شاء
أملني في كل مسألة منه مصنفًا ؛ وأما "الخلاف" فقد وقع الاتفاق على أنه شيخ
المذاهب ، وأما "العربية" فـ«الفارسي» يعترف له فيها بالغرائب ؛ إلى غير ذلك من
العلوم التي هو لها حامل الرأي ، وله بالتدقيق فيها أتم عناية ، وإذا كان أهل كل علم
في المبادئ كان هو في الغاية .

فلذلك رسم بالأمر العالی - أعلاه الله تعالى - أن يفوض إليه كذا وكذا : وضعا
للشيء في محله ، ومنعاً لتاريخ ولاية غيره أن يفجأ في غير مستهله ؛ فالآن أمسى
الواقف مسروراً على الحقيقة ، والآن جرى الخلاف فيها على أحسن طريقه ؛ وهو -
أسبغ الله تعالى ظله - أجل خطراً من أن يذكر بشيء من الوصايا ، وأعظم قدراً
من أن تدل المعية على نكته الخفايا ؛ لأنه بركة الإسلام ، وعلامة الأعلام ،
وأوحد المجتهدين والسلام ؛ والله تعالى يمتع المسلمين ببقائه ، ويعل درجات أرتقائه ؛
والخط الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه ، حجة في ثبوت العمل بمقتضاه ؛ إن شاء
الله تعالى .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الناصرية الجوانية ، من إنشاء الصلاح
الصفدي أيضاً ، كتب به للقاضي ناصر الدين «محمد بن يعقوب» كاتب السر يومئذ
بالشام ، حين عاد إلى تدريسيها بعد انفصاله عنه ، بـ«المقر الكريم» وهي :

الحمد لله الذى بدأ النعم وأعادها ، وأفاء المنن وأفادها ، وزان المناصب السنية
 بمن يليها وزادها ، وشاد عماد المعالى بأربابها وصانها عما دهي .

تحمد على نعمه التي بدأت بالمعروف وتمت ، وخصصت بالإحسان وعممت ،
 وبرأت من النقائص وسلمت ، وفلت بالألطف الحفية صوامر الحوادث وثامت .
 ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تضىء بها الحنادس ، وتركو
 بأنوائها منابت الإيمان والمعارس ، وتسمو بأقتنائها إلى عليين النفوس النفائس ،
 ويرغم المؤمنون بإعلائها من الكفار المعاطس ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله
 الذى تم للناس مكارم الأخلاق ، وأحجل بجود كفه الفيض صوب النيت الدفاق ،
 وفضح البدر اللياح فى الدجى بنور جبينه البراق ، وتقدم النبين والمرسلين فى حلبة
 الشرف على جواد فضله السباق ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أعلى من نصبوا
 للهدى أعلاما ، وأرقى من أصبح العلم لفضلهم الباهر رقاما ، وأحلى من كان الزمان
 بوجودهم وجودهم للعفة أحلاما ، وأقوى من كان الإيمان بهم إذا استنجد على
 الكفر أقراما ؛ صلاة لا ينقذ لها أمد ، ولا يقضى لها مدد ، ما شب بارق ونحمد ،
 وشفى الغام طرف زهر من الرمد ؛ وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن مدارس العلم الشريف لها الذكر الخالد ، والشرف الطارف والتألد ؛
 بها تبتين فوارس الجلال فى مضائق الحدال ، وتتحلى بدور الكلام فى مطالع الكمال ،
 وتبدو شمس الجمال فىها من فسيح المجال ؛ والمدرسة الناصرية - أئاب الله تعالى
 واقفها - هى الواسطة فى عقودها ، والذرة الثمينة بلا كفاء لها بين قيم تقودها ؛
 قد تدبج فيها البناء ، وتأرج عليها الثناء ، وتخرج عنها الحسن فإن له بها مزيد
 اعتناء .

وكان المقرُّ الفلانيُّ قد نَفَضَ يَدَهُ مِنْ عِنَانِهَا ، وَرَفَضَ عَنْ آخْتِيَارِ بَهَاءِ جِنَانِهَا ؛ وَتَوَخَّى طَلِبَتَهُ عَنْ مُحَاوَرَتِهَا ، وَرَمَى أُمْنِيَّتَهُ مِنْ مُجَاوَرَتِهَا ؛ فَسَاءَ مَنْ بَهَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِرَاقُهُ ، وَأَوْحَشَهُمْ وَجْهَهُ الَّذِي أَنْجَلَ الْبُدُورَ رَوْنَقَهُ وَالْبَحْرَ أَنْدِاقَهُ ، وَفَقَدُوا مَكَارِمَهُ الَّتِي مَأْسَمِعُ «السَّمْعَانِيُّ» بِمَثَلِهَا وَلَا وَصَلَتْ إِلَى «الصُّوَلِيِّ» وَلَا ضَمَّتْهَا أَوْ رَاقَهُ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي أَنْ يُعَادَ إِلَى تَدْرِيسِهَا : لِأَنَّ الْعَوْدَ أَمْدَحُ وَأُحْمَدُ ، وَالرُّجُوعَ إِلَى الْحَقِّ أَسْعَفُ وَأُسْعَدُ .

فَلِيَا شَرُّ مَا فُوِّضَ إِلَيْهِ مَبَاشَرَةُ الْفِتَنِ مِنْ كَمَالِ أَدْوَاتِهِ ، وَعُرِفَتْ مِنْ جَمَالِ ذَاتِهِ ؛ نَاشِرًا أَعْلَامَ عُلُومِهِ الْمُتَنَوِّعَةِ ، وَفَضَّائِلَهُ الَّتِي تَقْصُرُ عَنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهَا أَنْفَاسُ الرِّيَاضِ الْمُتَضَوِّعَةِ ؛ فَلَوْ عَاصَرَهُ «أَبْنُ عَطِيَّةَ» أَمْسَكَ عَنْهُ فِي تَفْسِيرِهِ ، أَوْ «صَاحِبُ الْكَشَافِ» لَغَطَّى رَأْسَهُ مِنْ تَقْصِيرِهِ ؛ أَوْ «الرَّافِعِيُّ» لِأَصْبَحَتْ رَايَةُ رَأْيِهِ فِي الْفِقْهِ حَافِضَةً رَافِعَهُ ، أَوْ «النَّوَوِيُّ» رَحِمَهُ اللَّهُ لِاسْتِعَارِ مِنْهُ زَهْرَاتِ رَوْضَتِهِ الْيَانِعَةِ ؛ أَوْ «الْأَمِيدِيُّ» لِمَا أَمْتَدَّتْ لَهُ مَعَهُ فِي أَصُولِهِ خَطْوَهُ ، أَوْ «أَبْنُ الْحَاجِبِ» لِمَا كَانَ لَهُ مَعَ ابْنِ الْحَاجِبِ حُظُوهُ ؛ أَوْ «أَبْنُ يَعِيشَ» لِمَاتِ ذِكْرُهُ فِي النَّحْوِ فَكَانَ فَقِيدًا ، أَوْ «أَبْنُ مَالِكٍ» لِأُمْسَى «تَسْمِيْلَهُ» تَعْقِيدًا ؛ أَوْ «السَّبِيلِيُّ» لِعَلِمِ أَنَّهُ مَا شَبَّ لَهُ فِي التَّصْرِيفِ مِثْلُ شَبْلِهِ ، أَوْ «أَبْنُ عَرَبِيِّ» لِأَعْرَبَ عَنِ عُجْمَةٍ وَمَا تَمَسَّكَ صُوفِيٌّ بِجَبْلِهِ ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ إِنْشَاءِ إِنْشَاءٍ سَادَ فِيهِ الْعَبْدِينَ : «عَبْدُ الْحَمِيدِ» وَ«عَبْدُ الرَّحِيمِ» ، وَنَظْمِ كَلِمَاتٍ نَظْمًا إِلَى رَشْفِهِ طَافَتْ عَلَيْنَا قَوَائِمُهُ بِكَأْسٍ مِنْ أَجْهَانِهَا مِنْ تَسْنِيمِ ، وَعَلَى الْجُمْلَةِ فَتَفْصِيلُ مَعَارِفِهِ يَضِيقُ عَنْ فَضْلِهَا فَضَاءُ هَذَا التَّوْقِيعِ الْكَرِيمِ ، وَسَرْدُ مَحَاسِنِهِ لَا تَتَسَعُّ لَهُ حَوَائِثُ هَذَا الْبُرْدِ الرَّقِيمِ ؛ وَلَكِنْ أَشَارَتْ أُمَّةُ الْقَلَمِ مِنْهَا إِلَى نُبْدِهِ ، وَعَلِمْنَا أَنَّ الْقُلُوبَ تَسْتَأْتِي إِلَى أَوْصَافِهِ فَقَلَدْنَا لَهَا مِنْ ذَلِكَ فَلِذِهِ .

وأما الوصايا فمِثْلُهُ لا يَدَّ كُرْبَيْيٍ مِنْهَا ، ولا يقال له : دَعْ هَذِهِ الْوَدْعَةَ وَهَذِهِ الدَّرَّةَ صُنْمًا ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ وَالنَهْيَ لَهُ فِي ذَلِكَ ، وَإِذَا أُطْلِعَ بُدُورٌ وَصِيَّةً ضَوْأً أَحْوَالَ الدِّيَابِجِي الْحَوَالِكِ ؛ وَلَكِنْ تَقْوَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ذِكْرُهَا فِي كُلِّ تَوْقِيعٍ طِرَازِهِ الْمُعْلَمِ ، وَنُكْتَتِهِ الَّتِي طَوَّدَهَا لَا يَثُلُ وَحَدُّهَا لَا يُثْمُ ، فليَكُنْ مُسْتَصْحَبَ حَالِهَا الْحَالِي ، مُسْتَصْعَبَ فِرَاقِهَا الَّذِي يُهَوِّنُهُ الْبَالُ الْبَالِي ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى لَا يُحْجِلِي رُبُوعَ الْعِلْمِ مِنْ أُنْسِهِ ، وَيَجْعَلُ سَعْدَهُ فِي غَدِّ زَائِدًا كَمَا زَادَ فِي يَوْمِهِ عَلَى أَمْسِهِ ، وَالخَطُّ الْكَرِيمُ أَعْلَاهُ ، حِجَّةٌ فِي ثُبُوتِ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَاهُ .



وهذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة النورية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، كُتِبَ بِهِ لِقَاضِي الْقَضَاةِ «نجم الدين الحنفى» بترول والده عنها بـ«الجناب الكريم» وهى :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أُنْمِيَ أَهْلَهُ الْعِلْمَ فَأَبْدَرْتُ ، وَفُرُوعَهُ فَأَثْمَرْتُ ، وَنُجُومَهُ فَاسْتَقَلَّتْ مَطَالِعُهَا التُّورِيَّةُ وَتَنَوَّرَتْ ، وَلَا إِلَهَ فِي بِحَارِ الْأَلْفِظِ وَالْفَضْلِ فَتَجَوَّهَرَتْ ، وَأَنْهَارَهُ الَّتِي أَخَذَتْ فِي الْمَدِّ مَاخِذًا تِلْكَ الْبِحَارِ فَاسْتَرْحَبَتْ وَأَسْتَبَحَّرَتْ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي قَرَّتْ وَقَرَّتْ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً إِذَا خَصَلَهَا الْيَقِينُ وَفَرَّتْ ، وَإِذَا نَصَلَهَا الْإِخْلَاصُ مَضَّتْ فِي أَوْدَاجِ الْبَاطِلِ وَفَرَّتْ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْحَاكِمُ فِي فَضْلِ الْأَفْضِيَّةِ لَمَّا شَجَّرَتْ ، وَالنَّاظِمُ دُرَّرَ الْإِيمَانَ حَتَّى زَهَتْ فِي أَعْنَاقِ الْعَقَائِدِ وَزَهَرَتْ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ فِتْنَةَ الْحَقِّ الَّتِي ظَهَرَتْ وَطَهَّرَتْ ، وَعِصَابَةَ الْإِسْلَامِ الَّتِي سَرَتْ خَلْفَهَا

(١) مستعار من نصل السيف والريح والسهم ركب فيه النصال وهو حديد .

سرايا الدين فهاجرت في الله ونصرت، صلاة طيبة تحلوا إذا تكررت، وتحيية باقية
تشرق شمسها إذا الشمس كورت، وتعقب نفحات نثرها إذا الصحف نثرت .

أما بعد، فإن منازل العلم من خير ما أبقى الآباء للأعقاب، وأجلى ما ذكر لنجباء
الأبناء على مدى الأحقاب، وأعدل ما شهد بلسان حاله المتمثل أن وكر العقاب
لأبن العقاب؛ وكانت المدرسة النورية الكبرى بدمشق المحروسة هي الوسطة
والمدارس دُرر، والصبح وأوطان العلم غرر؛ ومنزلة الحكم الأرفع، وبيت القضاء
الذي أذن الله لقدرة أن يرفع، ومكان ذي اليد الماضي سيف حكمه إذا قرعت
العصا لذي الإصبع؛ وذات العباد التي أدخرها لنجليه، وأعدت فضلها في العباد والبلاد
لفضله؛ وكان ذلك قد نزل لولده فلان عن الحكم على هذا الحكم، ونطق بمزية
الاستحقاق وقلوب بعض الأعداء صم بكم؛ ورغب - أجله الله - فيما يرغب فيه
من الانقطاع ذو السن العالی، والقدر العالی، وانتظم تقليده الشريف فكان أجود
حلية على أحسن جيد حالي؛ ثم التوقيع بتدريس هذه المدرسة التي زكى في أهل
الفضل شهيدها، ونظرها الذي خلف في حكمه ولي عهد من أبيه: فله أمين هذه
الخلافة ورشيدها .

ولذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إلى فلان تدريس المدرسة النورية
ونظرها: لاستحقاقها لها بسفعة منصب الحكم العزيز، ومنشأ الفضل الحريز،
ووجيز النزول المكتتب، وقبول هبة والده الذي يعتاد أن يهب الجليل لمن يهب؛
وتشريفه بإنعامها النفيس، وإجلالها بها على مرتبة حكمه وبساط نظره وسجادة
تدريس؛ وعلمًا بأن نجم ذلك النير أولى بهذه المنازل، وشبهل ذلك الأسد أحق

(١) لعله «وكان ذلك الامام الموصوف» أي والد نجم الدين .

(٢) نص أهل اللغة على أن السن بمعنى العمر مؤنثة .

بهذا الغاب المائل ؛ وأنه كوكب هذا المذهب المنير، وإمام جامعيه المعروفين : كبير
وصغير ؛ وصاحب شبيبة العزم المقتبل ، والرأي الموفى على قياس الأمل ؛ وتجنيس
الجود والإجاده ، وتكميل بحري العلم والبر واجتهاد الزيادة ؛ وأنه ممن آتاه الله رفعة
في القدر والأسم ، وزاده بسطة في العلم والحسب ؛ وأحكم بديهته علمه فما تستوقف
الأسماع رويته ، وأعلاه وعظمه فما هو النجم الذي تستصغر الأبصار رؤيته .

فليباشر تدريس هذه المدرسة ونظرها بعزمه الباهر وصفا ، التالي بلسان الحمد :
(وإبراهيم الذي وفى) ؛ جارياً على أعراق نسيه المشهور ، فائض اللفظ والفضل فإنه
بحر من البحور ؛ مظهرًا من مباحثه التي تقلد العقول بأبهى مما تقلد البحور ، مهتدياً
من رأيه ومن بركة الواقف - رضى الله عنه - بنور على نور ، والله تعالى يزىن بجمه
أفق السيادة ، ويزيد فيما وهبه من الفضل إن كان التمام يقبل زياده .



توقيع بتدريس المدرسة الريحانية الحنفية ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به
للقاضى «عماد الدين الحنفى» بـ«الكتاب الكريم» وهو :

الحمد لله الذى جعل مدارس العلم بدات عمادها ، وصاحب نفلها واجتهادها ؛
ومُنشِر عهدها ومُنشئ عهادها ، وواصل مناسبتها التى لو آدعاه دونه زيد لكنت
دعوى زيادها ، ومُفصح فتاويها على منبر قلم أهرت عوده وفتح وأطرب : فناهيك
بثلاثة أعوادها ! .

نحمده على نعمه التى قصى الحمد بأزديادها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة تُعدها النفس لمعادها ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله هادى الأمة

إلى سبيل رشادها ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ بِحَارِ الْعِلْمِ وَأَطْوَادِهَا ، مَا قَامَتِ
الطُّرُوسُ وَالسُّطُورُ لِعُيُونِ الْأَلْفَاظِ مَقَامِ بَيَاضِهَا وَسَوَادِهَا .

أما بعد ، فإنَّ لمذاهبِ الْعِلْمِ رِجَالًا يَوْصَحُونَ طُرُقَهَا ، ويمدُّون في المباحث طَلْقَهَا ،
ويعمِّرون مَدَارِسَهَا : فيألفها من ذاتِ دُرُوسٍ يكون العُمُرَانُ مُعْتَلِقَهَا وَمُعْتَنِقَهَا ! .

ولمَّا كانت المدرسةُ الرَّيْحَانِيَّةُ بِدِمَشقٍ في أيدي الْعُلَمَاءِ مُجَنَّبَةً رِيْحَانِيَّةً ، وَشَقِيْقَةً
نَفْسٍ نُعْمَانِيَّةً ؛ مأهولةً الْمَنَازِلِ وَالْمَنَازِلِ بِكُلِّ ذِي فَضْلٍ جَلِيٍّ ، وَعِلْمٍ مَلِيٍّ ؛ وَوَصِفٍ
كَرِيمٍ ، وَنَفْسٍ نَفِيسٍ يَتَلَقَّاهُ مِنْهَا رَوْحٌ وَرِيْحَانٌ وَجَنَّةٌ نُعِيمٍ ؛ وَخَلَّتِ الْآنَ مِنْ إِمَامٍ
كُرِّمَتْ خِلَالُهُ ، وَعَظُمَتْ خِصَالُهُ ، وَمَضَى وَتَمَضَّى وَمَا بَقِيَ إِلَّا اللهُ جَلَّ عَنْ الْحَوَادِثِ
جَلَالُهُ - فَتَعَيَّنَ أَنَّ نَخْتَارَ لِتَدْرِيسِ مَكَانِهَا مِنْ يَفْتَخِرُ بِهِ الْمَكَانُ وَالزَّمَانُ ، وَيَتَشَيَّدُ
بِزِيَادَةِ عِلْمِهِ لِصَاحِبِ مَذْهَبِهَا أضعافُ مَا شَاهدَهُ زِيَادَ اللَّعْنَانِ ؛ مِنْ شَيْدِ الشَّرِيعَةِ
الشَّرِيفَةِ مَقَالَهُ وَمَقَامَهُ ، وَعِلَاقِ عِمَادِهِ إِلَى عُقُودِ الشُّهْبِ فَتَنَّهُ مُرَادُهُ وَمَرَامُهُ ، مِنْ
لَوْ عَاصِرِهِ «أَبْنِ الْحُسَيْنِ» لِحَسَنِ أَنْ يَعْتَرِفَ بِقُدْرَةِ الْجَلِيلِ ، وَقَالَ عِنْدَ مُحَاضَرَةِ بَحْثِهِ
كَمَا قَالَ «أَبُو يُوْسُفٍ» : فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ؛ وَأَسْتِرَادُ «شَمْسِ الشَّرِيعَةِ» فَكَيْفَ «السَّرَاجِ»
مِنْ لَمْعِهِ الْبَرِيقِ ، وَقَالَ «أَبْنُ السَّاعَاتِيِّ» : مَا رَأَيْتُ أُرْفَعُ مِنْ هَذَا الْقَدْرِ دَرَجَةً
وَلَا أُبَدَعُ مِنْ هَذَا الذَّهْنِ دَقِيقَةً .

ولذلك رُسمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ عَالِيًا بِأَمْرِهِ كُلِّ عِمَادٍ ، زَاهِيًا بِمَحَامِدِ مُلْكِهِ
كُلِّ نَاطِقٍ وَجَمَادٍ ، أَنْ يَفُوضَ لِفُلَانٍ لِأَنَّهُ الْمَعْنِيُّ بِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَوْصَافِ
الْحُلُوءِ إِذَا تَكَرَّرَتْ ، وَالْمَقْصُودُ بِالْفَظَائِحِ إِذَا تَعَنَّوَتْ الْأَفْهَامُ وَتَيَسَّرَتْ ؛ وَالْمَعْوَدَةُ فَرَايِدُ
مِبَاحِثِهِ الْمَفْرَقَةُ بِ «إِذَا الْكَوَاكِبُ أَنْتَثَرَتْ وَإِذَا الْبِحَارُ جُحَّرَتْ» ؛ وَإِمَامُ الْمَذْهَبِ
الْحَنْفِيِّ وَالْحُكْمِ الْأَحْنَفِيِّ ، وَحِصَاةُ الْقَلْبِ الَّتِي تَنْسِفُ بِإِشَارَتِهَا جِبَالَ «النَّسْفِيِّ» ،
وَلِسَانُ النَّظَرِ الَّذِي أَشْرَفَ عَلَى بُعْدِهِ فَأَخْتَفَى فِي قُرْبِهِ الْمَشْرِفِيُّ ؛ وَصَاحِبُ الْفُنُونِ وَمَا

وَسَقَّتْ ، وَأَفْنَانِ الْحُكْمِ وَالْحِكْمِ ، وَمَا بَسَقَّتْ ، وَنُعُوتِ الْفَضْلِ وَالْفَضَائِلِ ، وَمَا عَطَفَتْ
من البيان وَنَسَقَتْ .

فَلْيَتَوَلَّ تَدْرِيسَ هَذِهِ الْمَدْرَسَةِ الْمَعْمُورَةِ مُؤَيِّدَ الْوَلَايَةِ ، مُجَدِّدَ الْبَدَايَةِ لِحَنِيفِيَّتِهَا
وَالنَّهَائِيَةِ ، سَاجِدًا قَلَمُ الْفَتَاوَى وَالْفُتُوَّةِ كَمَا تَلَا كَرْمَهُ وَكَلِمَهُ آيَةً بَعْدَ آيَةٍ ، مُنْفِقًا مِنْ
أَلْفَاظِهِ حَتَّى يَسْتَفْنِي عَنْ "الْكَنْزِ" وَصَاحِبِهِ ، وَيُرَدِّدَ فَرَعَ الْمَقَالِ عَلَى الْأَصْلِ وَطَالِيهِ ؛
وَيُعْرِضُ عَنْ أَعَارِيضِ "الْبَسِيطِ" ، وَيُغْرِقُ فِي أَفْكَارِ وَارِدِهِ "المحيط" . وَيَمُدُّ سَمَاطِ
الْعِلْمِ الَّذِي وَفَى بَعْدَ «الْقُدُورِيِّ» ، وَمَا حَانَ ، وَتَفَخَّرَ بِقَاضِيهَا أَعْظَمُ مَدِينَةٍ فَمَا يَضُرُّهَا
فَقَدْ « قَاضِي خَانَ » ، وَتَتَذَكَّرُ الْمَقْدَمِيَّةُ مِنْ طَلَبَتِهِ فَوَائِدَ الْحَلَقَةِ ، وَيَنْتَقِلُ الْجَنَابِ
الْكَرِيمِ مِنْ تَقَدِّمَتِهَا إِلَى مَا هُوَ أَوْفَى فِي الْغَرَضِ وَأَوْفَرُ فِي النَّفَقَةِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَزِيدُ رَتَبَ
الْعِلْمِ بِهِ سُرُورًا ، وَيَجْعَلُ لَهُ بِاسْتِطْلَاعِهَا كِتَابَ حُكْمٍ وَحِكْمٍ يَلْقَاهُ مَنْشُورًا .



وهذه نسخة توقيع بتصدير بالجامع الأموي ، كتبت به لفاضل القضاة «علم الدين
أبن القفصي» قاضي قضاة دمشق بـ «المقر الشريف» وهي من تافيق كتاب
الزمان . على أنها بالمدرس أليق منها بالمصدر ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَعْلَى عِلْمِ أُمَّةِ الدِّينِ إِلَى أَعْلَى الْعُرْفِ ، وَمَيَّزَهُم بِالْعِلْمِ الشَّرِيفِ الَّذِي
يَسْمُو شَرْفُهُ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ ، وَأَوْصَحَ بِهِمْ مَنَهِجَ الْحَقِّ الْقَوِيمِ فَعَمَلًا بِإِرْشَادِهِمْ سَبِيلُ
الْهُدَى وَأَنْكَشَفَ .

نَحْمَدُهُ عَلَى مَا أَفَاضَ مِنْ نِعَمِهِ الْمُتَوَاتِرَةِ كُلِّ حِينٍ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى إِحْيَاءِ مَعَاهِدِ
الْمَعَاهِدِ بَيْنَ حَدَا حَدَوِ الْأَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ ؛ حَمْدًا يُظْهِرُ الْآيَاتِ الْحَمْدِيَّةَ وَالْبَرَاهِينَ ،
وَيَسْبُطُ ظِلًّا مَنْ هُوَ عَنِ الْحَقِّ لَا يَمِينُ . وَنَسْمَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الَّذِي عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ وَهُوَ الْعَالِمُ بِمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَيَعْلَمُ عِبَادَةَ الْمُؤْمِنِينَ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أُوتِيَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، وَكَانَ مِنْ دَعَائِهِ لِشَيْبَةَ : « اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ » . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ عَمِلُوا بِمَا عَلِمُوا فَكَانُوا أُمَّةً الْمُسْلِمِينَ ، وَالْعُمْدَةُ عَلَى أَقْوَالِهِمُ الَّتِي نَقَلُوهَا عَنْ خَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، عَلَى تَوَالِي الْأَيَّامِ وَالْجَمْعِ وَالْأَشْهُرِ وَالسِّنِينَ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أَمَا بَعْدُ ، فَلَمَّا كَانَتْ أَعْلَامُ الْعُلَمَاءِ فِي الْآفَاقِ مَنْشُورَةً ، وَرُبُوعُ الْفَوَائِدِ بِطَرِيقَتِهِمُ الْمُتَمَلِّئِ مَعْمُورَةً ، وَصُدُورُ الْمَعَايِدِ الشَّرِيفَةِ مَحْتَاجَةً إِلَى صِلَتِهَا بِكِفَائِهَا الْفَرْدِ مَسْرُورَةً ؛ وَكَانَ فَلَانٌ - أَسْبَغَ اللَّهُ تَعَالَى ظِلَالَهُ ، وَضَاعَفَ جَلَالَهُ - هُوَ الَّذِي مَلَأَتْ مُبَاشَرَتُهُ الْعُيُونَ وَالْأَسْمَاعَ ، وَأَنْعَقَدَتْ عَلَى تَفَرُّدِهِ فِي عَصْرِهِ كَلِمَةُ الْإِجْمَاعِ ، وَأَشْتَهَرَ ذِكْرُهُ الْجَمِيلُ بِأَنْوَاعِ الْمَكْرَمَاتِ وَأَطَاعَهُ مِنْ مُشْكَلِ الْمَذْهَبِ مَا هُوَ عَلَى غَيْرِهِ شَدِيدُ الْإِمْتِنَاعِ ؛ وَأَصْحَحَتْ فِضَائِلُهُ « الْمَدْوَنَةَ » وَلَقِظَهُ الْجَلَّابُ ، وَكَفَّفَهُ « الْمَوْطَأَ » لِلطَّلَبَةِ يُغْنِيهِمْ عَنْ مَعَاهِدِ « عَبْدِ الْوَهَّابِ » ؛ وَعَزِيْمَتُهُ لَا يُلْحَقُ غُبَارُهَا فِي الْمَعَارِكِ ، وَلَا يَظُنُّ خُدَامُ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْأَدْبِيَّةِ إِلَّا أُمَّ مَالِكٍ وَأَبْنَ مَالِكٍ .

فَلِذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ يَجْمَعُ مَنْ بَرَعَ فِي الْعُلُومِ مِنْ أُلُوانِ الْمَنَاصِبِ الْمُخْتَلِفَةِ ، وَيَفْعُ قَدْرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ قُلُوبُهُمْ عَلَى التَّقْوَى مُؤْتَلِفَةٌ - أَنْ يَسْتَقِرَّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي وَظِيفَةِ التَّصْدِيرِ بِالْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ بِدِمَشْقِ الْحَرُوسَةِ - عَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِذِكْرِهِ - عَوَضًا عَنْ فَلَانٍ مُجْتَمِعٍ نَزُولَهُ عَنْهُ بِرِضَاهُ ، حَمَلًا عَلَى مَا بِيَدِهِ مِنَ التَّرْوِيلِ الشَّرْعِيِّ ، بِالْمَعْلُومِ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ دِيْوَانُ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ ، عَلَى أَجْمَلِ عَادِهِ ، وَصَرَفَهُ إِلَيْهِ مَهْنَةً مَيْسَرًا أَسْوَةً أَمَثَالَهُ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الْوِظِيفَةَ عَلَى عَادَةِ مُبَاشَرَاتِهِ الَّتِي حُقِّقَتْ بِالْعُلُومِ ، وَأَفْتَخَرَتْ بِمُحْسِنِ الْمَنْطُوقِ الدَّلَّ عَلَى الْمَعْنَى الْمَفْهُومِ ؛ وَيَمُدُّ مَوَائِدَ عَالِمِهِ الْمَحْتَوِيَةَ عَلَى أَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ ،

وَلِيُبَيِّنَ مَا يَخْفَى عَلَى الطَّلَبَةِ بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ ؛ وَلِيُوَدِّدَ الْفَوَائِدَ الْوَاصِلَةَ إِلَى الْأَذْهَانِ عَلَى أَحْسَنِ أَسْلُوبٍ ، وَلِيَقَرِّرَ الْأَصُولَ الَّتِي آمَنَتْتْ فُرُوعُهَا بِقَوَاعِدِ السُّنَنِ الْمَحْمَدِيَّةِ وَفِي ثَمَرِهَا الْجَنِّيَّ تَقْوِيَةَ الْقُلُوبِ ؛ وَلِيُكْرِمَ مِنْهُمْ مَنْ يَبْضُحُ فَضْلَهُ لَدَيْهِ وَيَبَيِّنَ ، وَلِيَبْسُطَ هَمَمَهُمْ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» . وَلِيُوضِّحَ طَرِيقَ إِرْشَادِهِ لِيَسَهِّلَ سُلُوكَهَا عَلَيْهِمْ ، وَلِيَجْعَلَ وَفُودَ فَوَائِدِهِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَاصِلَةً إِلَيْهِمْ ، وَلِيَتَّبِعَ «إِمَامَ دَارِ الْحِجْرَةِ» فِي مَذْهَبِهِ الْمُدْهَبِ ، وَلِيَخْلُدَ مِنْ صِفَاتِهِ الْجَمِيلَةِ مَا يَذْهَبُ الزَّمَانُ وَلَا يَذْهَبُ ؛ وَلِيَسْمَحَ لِلْفُقَهَاءِ بِمُواصلَةِ فَضْلِهِ الْأَعْمِ ، فَإِنَّهُ أَنْ يَهْدِي بِهِ وَاحِدٌ خَيْرٌ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ .

وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِنْهُ يُطَلَبُ بَيَانُهَا ، وَبِهِ تَقْوَى أَسْبَابُهَا وَيَعْلَمُونَ بُدْيَانُهَا ؛ وَلَكِنْ الذِّكْرُ يُتَفَعُّ الْمُؤْمِنِينَ ، وَيُظْهِرُ [بِهَا] سِرَّ خَبْرِهِمْ وَيَسْتَبَيِّنُ ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى هِيَ الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى ، وَالْخِصْلَةُ الَّتِي بِهَا يَعْظَمُ كُلُّ وَاحِدٍ وَيَرْقَى ؛ فَلْيُؤَاطَبْ عَلَيْهَا ، وَلْيَصْرِفْ وَجْهَ الْعِنَايَةِ إِلَيْهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يَجْعَلَ عِلْمَ عَلَيْهِ دَائِمًا فِي الْآفَاقِ مَنْشُورًا ، وَذَكَرَهُ الطَّيِّبَ عَلَى أَلْسِنَةِ الْخَلَائِقِ كُلِّ أَوْانٍ مَذْكُورًا .

المرتبة الثانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دمشق -

ما يفتتح بـ «أما بعد حمد الله» وفيها عدّة وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك .

توقيع بقضاء العسكر بدمشق ، كتب به للقاضي شمس الدين «محمد الإخنائي»

الشافعي ، بـ «الجناب العالي» وهو :

أما بعد حمد الله تعالى مضاعف النعمة، ومُرَادِفِ رَبِّ الإحسان لمن أخلص في خدمته، ومُجَدِّدِ مَنَازِلِ السَّعْدِ لمن أطلعت كواكب أهتامه في آفاق الأمور المهمة؛ والصلاة والسلام الأتمين الأكلين على سيدنا محمد وآله الذي بشر بنصر هذه الأمة، ووعد بأن سيكشف به غمام كل غممه، وأنه يتجاوز عن أهلها بشفاعته وكيف لا؟ وقد أرسل للعالمين رحمه، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تجزل لقائلها نصيبه من الأجر وتوفر قسمه - فإن أحق الأولياء من تأكدت له أسباب السعادة، وكافأناه بالحسنى وزيادته، وبلغناه من إقبالنا غاية مآربه ومطالبه؛ وعرفت منه العلوم التي لا ينسك فيها، والنباهة التي لا يقدر أحد من أقرانه يوفها؛ والخبرة الوافية الوافرة، والديانة الباطنة والظاهرة؛ وسار بعلمه المثل، وسلك مسلك الأولياء في العلم والعمل؛ وأعتبرت أحواله التي توجب التقديم، وأختبرت فعاله التي ضاعفت له مزيد التكريم .

وكان فلان - أدام الله تعالى نعمته - هو الذي أثنى العلوم بحجاً وتهذيباً، وبرهن عن المسائل الشرعية بأفهام تزيدها إلى الطالين تقريباً؛ وأوضح عويص مشكلاتها، وصحح من ألسن العرب لغاتها .

فلذلك رسم بالأمر العالی - لا زالت تسمسه بالعبارة مشرقه، وأنواء فضائل أوليائه مغدقه - أن يستقر فلان في وظيفة قضاء العساكر المنصورة الشامية : حملاً على ما بيده من النزول الشرعي، على عادة من تقدمه في ذلك وقاعدته، ومعلومه الذي يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت . فهو الحاكم الذي لم يزل للعساكر المنصورة نعم الصاحب، والمورد على سمعهم من الأحكام الشرعية ما يقتدي به الحاضر والغائب؛ والقائم بأعباء العساكر المنصورة، والحافظ لنظام الملك الشريف على أحسن صورة .

فليباشِرْ هذه الوظيفة المباركة وليحل في قضاء العساكر المنصورة بطلعة السنية ،
وليفصل بينهم في الأسفار كل قضيته ، وليعرفهم طرق القواعد الشرعية ؛ وليحترز
في كل ما يأتيه ويذرّه ، ويقصده ويحدره ، ويورده ويصدره .

والوصايا كثيرة ومنه تستفاد ، وإليه يرجع أمرها ويعاد ، ولكن لا بد للقلم
من المرح في ميدان التذكار ، والتنبية على منهاج التقوى التي هي أجمل شعار ؛
والله تعالى يمنحه من إحساننا جزيل العطاء والإيثار ، ويُسمعه من أبناء كرمنا كل
آونة أطيب الأخبار ؛ بمنه وكرمه ! .



توقيع بنظر جامع يلغا الجياوى ، كتب به للامير جمال الدين «يوسف شاه»
العمرى الظاهرى بـ «الجناب الكريم» وهو :

أما بعد حمد الله الذى أظهر جمال الأتقياء في كل مشهد وجامع ، وقدمه بما أولاه
على كل ساجد وراكع ، وخصه من فضله بما قصرت عنه الآمال والمطامع ؛
والصلاة والسلام الأتمين الأكلين على سيدنا محمد عبده ورسوله مؤلى الخير الواسع ،
والإحسان المتتابع ، ومن أحيأ جود جوده النفوس وسر القلوب وأطرب ذكر
عظاته المسامع ؛ وعلى آله وصحبه النجوم الطوالع ، والذين أودعهم العلم الذى آتاه
لإقامة دينه من لا تحيب لديه الودائع ؛ والتشريف و [الإكرام] ، والتبجيل
والإعظام - فإن أولى من رعيناهه حق الخدم ، ووقوفه فى الطاعة الشريفة على
أثبت قدم ، من قام بما لم يقم به غيره ، وحسنت سيرته وسيره .

وكان فلان أدام الله تعالى نعمته ، وحرس من الغير مهجته ؛ ممن جعل المالك
ودبرها ، وضبط أموال الأوقاف وحررها ؛ وأرتفع على الرؤوس ، وحصل أموال

الأوقاف التي فطر تحصيلها أجداد أخوانه وسر من مستحقها النفوس - تعين أن نعرف له مقدارَه الذي لا يخفى، ونوفيه بعض حقه فإنه الذي بالإحسان قد أوفى .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال يُقبل على فضل وليه ، ويضاعف له البر المستمطر من غيث جوده ووليه - أن يستقر فلان في كذا ، على عادة من تقدمه في ذلك ومستقر قاعدته ، بالمعلوم الشاهد به ديوان الوقف المبرور إلى آخر وقت .

فليباشر هذه الأوقاف ، وليسلك فيها طرق العدل والإنصاف ، وليتبع شرط واقفها - رحمه الله تعالى - المجمع على صحته من غير خلاف ؛ وليحى ما تشعث وتخرَّب في الجامع المشار إليه وأوقافه بعين بصيرته ، وليقم بالمعروف من معرفته ؛ وهو أعزه الله تعالى أولى من باشره ، وعمر دائره ، وأخرى من تحرى مباره ومآره ؛ وميز أوقافه ، وتدارك بتلافيه تلافه . وهو غني عن شرح الوصايا فإنها من آدابه تُعرف ، ومن بحر أدواته تُعرف ؛ وملاكها تقوى الله تعالى الرؤف ، فيلكن على مستحق هذا الوقف عطوف ؛ والله تعالى يجزل له أجرا ، ويجعل له ما يفعله من الخير دُجرا .



توقيع بنظر ثربة أرغون شاه ، كتب به « لقعجا السيفي بوطا ، بـ بالجناب العالی »

وهو :

أما بعد حمد الله الذي بلغ الأولياء من مبراته الأمل والإرادة ، وألقى مقاليد الأمور إلى من استحق بحسن مباشرته الزيادة ، والصلاة والسلام الأتمين الأتكلين على سيدنا محمد عبده ورسوله صاحب لواء الحمد والنصر ، ومن جاءت آيات تفضيله كفاتق الصبح وجملت محاسنه كل عصر ؛ وعلى آله وصحبه الذين نصره فنصرهم

الله ، وحجبه بأنفسهم عن البأس ولم يحبوه عن الناس لخفيض جناحه لمولاه ؛
والتشريف والتكريم ، والتبجيل والتعظيم .

ولما كان فلانٌ - أدام الله تعالى نعمته - هو المعروف بالأوصاف الجميلة ،
والمنعوت بالنعوت التي أتت في وصفه بكل فضيلة .

فلذلك رسم بالأمر العالى - لازال إحسانه عمياً ، وفضله لذوى الاستحقاق أبداً
مقيماً - أن يستقر فلانٌ في كذا ، على عادة من تقدمه في ذلك ومُسْتَقْرَعَاتِهِ ،
بالمعلوم الذى يشهد به ديوان الوقف المبرور إلى آخر وقت .

فليأشُر ذلك بهمة العلية ، ونهسه الأبيه ، والوصايا كثيرة وأهمها التقوى :
فليلازم عليها فإنها تحفظه ، وبالسيادة تحفظه ، والله تعالى يكمل وظيفته ، ويسهل
إلى نجاح المقاصد طريقه ؛ بحمد وآله ! .



توقيع بتدريس الجامع الأموى عوداً إليه ، من إنشاء جمال الدين بن نباتة ،
كتب به للقاضى «نخرا الدين المصرى» وهو :

أما بعد حمد الله معيد الحق إلى نصابه ، والغيث إلى مصابه ، والليت - وإن
غاب - إلى مستقر غايه ، وشرف المكان إلى من هو أحق وأولى به ، وبجر العلوم
إلى دوائر محافيه فى الدروس وإلى قوى أسبابه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد
الذى هاجر فرجع بغنيمته وإيابه ، وطلع من ثنابات الوداع طلوع البدر المشرق
فى أنباء صحابه ، وعلى آله وصحبه الشائين سبيل صويه السالكين سبيل صوايه ،
ما قطف من غصون أقلام العلماء ثمر «البيان والتبيين» متشاهاً وغير متشاه -

فَإِنَّ شَرَفَ الْكَوَاكِبِ فِي سِيرِهَا وَرُجُوعِهَا ، وَنَمُوَّ تَسَعُّلِهَا مَا بَيْنَ قَتْرَةٍ مَغِيْبِهَا
وَطُلُوعِهَا ؛ لَا سِيَّامَا الْعُلَمَاءُ الَّذِينَ يَهْتَدِي بِأَنْوَارِهِمْ ، وَيُقْتَدَى بِأَنْوَارِهِمْ ، وَمَصَابِيحُ الْحَقِّ
الَّتِي تُقَدِّحُ وَلَا يُقَدِّحُ فِي أَرْزِدَةِ أَفْكَارِهِمْ .

وَكَانَ مِنْ قُصِدَ بِهَذَا التَّلْوِيحِ ذِكْرُهُ ، وَعُرِفَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى الْمَفْهُومِ نَخْرُهُ ؛ قَدْ
حُمِدَ بِمَجَالِسِ التَّصْدِيرِ بِالْجَامِعِ الْأُمَوِيِّ مَا ذَكَرَهُ مِنْ سَلَفِ أَعْيَانِهِ ، وَقَامَ بِوُجُودِ الدَّلِيلِ
عَلَى وُجُودِ مَاضِي بُرْهَانِهِ ، وَجَادَلَ لِسَانُهُ وَقَلَمُ يَدِهِ عَنِ الشَّرِيعَةِ : وَغَيْرُهُ مِنَ الْعِيِّ
لَا مِنْ يَدِهِ وَلَا مِنْ لِسَانِهِ ؛ ثُمَّ هَجَرَ مَكَانَهُ هِجْرَةً عَلَى الْعُنْدَرِ مَحْمُولَةً ، وَهَاجَرَ إِلَى حَرَمِ اللَّهِ
تَعَالَى وَحَرَمِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هِجْرَةً مَقْبُولَةً ؛ وَرَأَمَ بَعْضُ الصَّبِيَّانِ التَّقَدُّمَ إِلَى
رَتْبَةِ الشَّيْخِ فَقَالَتْ : إِلَيْكَ عَنِّي ، فَأَنَا مِنْ مَحْطُوبَاتِ الْأَكْبَرِ فَمَا أَنَا مِنْكَ وَلَا أَنْتَ
مَنِّي ؛ ثُمَّ حَضَرَ إِلَى مَجْلَى الْكَرِيمِ مِنْ غَابَ ، وَرَجَعَ إِلَى مُسْتَقَرِّهِ الْأَمْثَلِ بِهِ : وَمَا كَلَّ
حَمْرَةَ أَسَدِ اللَّهِ فَلَيْسَ كُنْ فِي ذَلِكَ الْغَابِ .

فَلذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لَا زَالَتْ صَلَاتُ مَرَامِيهِ جَمِيلَةَ الْعَوَائِدِ ، جَلِيلَةَ
الْفَوَائِدِ ؛ وَأَقْلَامُهَا أَغْصَانُهَا مَمْدُودٌ بِهَا الرِّزْقُ فَهِيَ عَلَى الْوَصْفَيْنِ مَوَائِدُ - أَنْ يَسْتَمْتَرَ
عَلَى عَادَتِهِ فِي كَذَا وَكَذَا ، وَإِبْطَالُ مَا كُتِبَ بِهِ لغيره : عَمَلًا بِاخْتِبَارِ الْحَاضِرِ ، وَاخْتِبَارِ
نَظَرِ النَّاطِرِ ؛ وَعَلِمًا أَنَّ هَذِهِ الْمُرْتَبَةَ لَمَنْ لَهُ إِتْقَانٌ عَقْلُهَا وَنَقَالُهَا ، وَتَلَاوُةٌ فِي مَوْضِعِ
الْوَقْفِ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ .

فَقُولَا لِلْمَنْوَعِ : مَا كَلَّ عِزِّ بَدَائِمِ ، وَلَا كَلَّ ذِي طَلَبٍ بِكَمَالِ الْوُجُوبِ قَائِمٌ ؛ وَمَنْ
أَيْنَ لِهَذِهِ الرَّتْبَةِ مِثْلُ هَذَا الْكُفِّ الَّذِي أَشْتَهَرَ نَخْرُهُ ، وَزَهَتْ بِهِ عَلَى الْأَمْصَارِ شَامَهُ
وَمِصْرَهُ ؟ ؛ وَهَذَا الْإِمَامُ ، وَكُلُّ مُضَاهٍ مَأْمُومٍ ، وَهَذَا الْمَقْدَامُ ، تَحْتَ عِلْمِ الْعِلْمِ وَكُلِّ
مُبَاهٍ مَهْزُومٍ ؛ وَهَذَا النَّابِتُ وَكُلُّ نَدٍّ مُشَرَّدٍ ، وَهَذَا الْكَامِلُ وَكُلُّ ضَدٍّ مُبَرَّدٍ .

فليستمر على عادته الجميلة مجللاً لزمانه ومكانه ، مكملًا في وشائع العلم ما يثني
 « ابن الصباغ » من ألوانه ؛ مالِكًا لما حرره « الشافعي » ، جازما بفعل مانصبه
 « الرافعي » ، ساميًا عن وفاء الواصف : فسواء في ذكره إسراف بيان أو إسراف عي ؛
 شاملًا للطلبة المعتادين بعطفه ، مقابلًا للمستفتين بطائفه وأطفه ؛ باحثًا عن دُرر
 الحدال بفكره إذا بحث قلم بعض المجادلين عن حثفه بظلفه ، داعيًا لهذا الملك
 الصالحى فإنَّ دعاء العالم الصالح سور من بين يديه ومن خلفه ؛ والله تعالى يُجزيه
 على خير العوائد ، ويمده باقبال النعم الزوائد ؛ بمنه وكرمه ! .



توقيع بتدريس المدرسة الدماغية بدمشق ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به للقاضي
 جمال الدين « أبو الطيب ، الحسن بن علي » الشافعي ، وهو :

أما بعد حمد الله رافع مُنادى العلم بمُفردِه ، وبيتِ التقي بقافية سُودده ، ونظم
 المفارحين إذا قيل : « أبو الطيب » أصغى الحفل لمنشده ، ومشهد الفضل بإمامه :
 وحسبك من يكون « الحسن بن علي » إمامَ مشهده ؛ والصلوة والسلام على سيدنا
 محمد عبده ورسوله سيد الخلق وسنده ، وعلى آله وصحبه السائرين في العلم والحلم على
 جدده ، ما تحب نسيْمُ الرّوضِ برده وأفتّر لَعَسُ السحابِ عن تغرِ برده - فإنَّ للعلم
 أبناءٌ ينشؤون في ظلاله ، ويسكنون في حلاله ، ويفترقون للخلق بين حرام المنشئه
 وحلاله ، ويُجتلون وجهَ الزمان : فلا عدم الزمان منهم جمال وجهه ولا وجه جماله ؛
 ترتسِفُ شفاهُ المدارس من كلامهم كلَّ عذبِ المساع ، وتُسافهُ منهم كلُّ ذى فضلٍ
 ما هو عند البلاغ ببلّاغ ، وتُشاهد ما خُصوا به من الشرف والرأسه فلا عجب أن
 محلّهم منها محلّ الدماغ ! .

وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمشق المحروسة رأساً في مدارس العلم، وهامة في أعضاء منازل ذوى الحكم والحلم؛ لا تسمو هممتها إلا بكل سامى العمامة، هامى الفضل كالغمامة، ساجع اللفظ إلا أنه أبهى وأزهى من طوق الحمامة، كائد للملحد مكرّم للطالب ولا كئيد لابن الخطيب ولا كرامه - واسطة بين العادلية والأشرفية تليق بمن يكون عقده كلامه المثنى، ونظامه الأمكن، وبيانه المنشد "أجارة بيتينياً" يعنى بيت النسب وبيت المسكن .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازال يجدد لوجوه العلم جمالا، ولوجوب الحمد نوالا، ولوجود الفضل كرما ما قال قط ولا نوى: لا - أن يفوض إلى فلان - أيد الله مجده، وحرس للسلامين أباه وأعلى بالسعادة جده - تدرّس المدرسة الدماغية المذكورة: لأنه جمال العلم المعقودة على خطبته الآمال، المعدوقة بمقدمات فضله وفضله نتائج الأقوال الصالحة والأعمال؛ المحبوبة إلى الله والخلق سيأه وشيئه ولا نكر: فإن الله جميل يحب الجمال؛ ولأنه العالم الذى إذا قال لم يترك مقالاً لقائل، وإذا شرح على قياسه أتى بما لم تستطعه الأوائل؛ وإذا جرى العلماء كاد «إمام الحرمين» يقول: أنا المصلى وأنت السابق، «والغزالي»: من لى أن أنسج على منوال هذا اللفظ الرائق؟ «وآبن دقيق العيد»: كيت لى من هذه الدقائق بلغته؟، و«آبن الصبّاغ»: هذا الذى صبغه الله من المهدي عالماً! ومن أحسن من الله صبغه؟؛ ولأنه العالم الذى أحيا ذكر «آبن نقطة» بعد مادارت عليه الدوائر، وأغنى وحده دمشق عن أتى فى النسب «بعساكر»، ولأنه فى البيان ذو الانتقاد والانتقاء، والعربى الذى إن كان لرقاب الفضلاء «آبن مالك» فإن قرينه «أبو البقاء»؛ والكامل حسباً، ومثل جيده المنقود لا يهرج، والواصل تسبباً، ومثل فرعه بعد أصله: «ولله أوس آخرون ونخرج» .

فليباشر هذا التدريس بعزائم سرّيه، ومباحث تُستنار منها معارف القول التبرّيه،
وطرائف لا تُحسب بدمشق على تقدّاتها المصريه؛ ولينصّر مذهب الإمام الشافعي
رضي الله عنه فإنّ قومه الأنصار، وليخفّض جناحه للطّلبة فطالما خفّضت الملائكة
أجنحتها ليصير فلا تعجب أن صار!؛ وليفدّ وأفديه وهو قاعدٌ أضعاف ما أفادهم صاحب
المكان وهو واقف، وتقوى الله عزّ وجلّ أولى ما طالعه في سرّه وجهره من "عوارف
المعارف" والله تعالى يمدّه بإسعاده ولطفه، ويجوّهه بمعقبات من بين يديه ومن
خلفه؛ ويضيء ببارق كلمه الصيّب، ويطرب أسماع الطّلبة بالطّيب من معاني
«أبي الطّيب» .



توقيع بتدريس المدرسة الركنية الحنفيّة بظاهر دمشق، كتب به للقاضي
بدر الدين «محمد بن أبي المنصور» الحنفيّ بـ«المقرّ العالی» وهو :

أما بعد حمد الله الذي أطلع بدر الدين مشرفاً في منازل السعود، وحرس سماء
مجده فلا يطيق من رام جنابها الاستطراق إليها ولا الصعود؛ وجعل ركنه الشديد
في أيامنا الزاهرة المشيد وظلّه الممدود؛ والصلاة والسلام الأتمين الأكلين على
سيدنا محمد نبي الحوض المورود، والكرم والجود؛ وعلى آله وصحبه نجوم الهدى
وأعيان الوجود، ما أورد عود، ومحمدت عقي الصدر والورود؛ صلاة دائماً
إلى اليوم الموعود - فإنّ أعلام الهدى لم تزل منشورةً بمعالِم العلماء، وأقطار الأرض
ما برحت مشرقةً بمن تستغفر لهم الحيتان في البحر والملائكة في السماء، وطول
الأرض إلى فضائلهم أشدّ اضطراباً وأحوج إلى القرب إليهم والانتفاء؛ وكان فلان -
أدام الله تعالى تأييده - من بيّت شهدت الأيام مفاخره، وحمد الأنام أوائله وأواخره،

وأصَحَّتْ عيُونَ الزمانِ إلى ماثره نَظَرَه ، وَغُصُونُ الفُنونِ بِفرائِدهِ ناضِرَه ، وَأوصافُه
الجليلةُ للأبصارِ والبصائرِ باهرَه ، وَأصنافُ الفَضائلِ من إِملائِه واردةٌ صادِرَه .

فذلك رُسمٌ بالأمرِ العالی - زاده اللهُ تعالی على العلماءِ إقبالا ، وضاعفٌ إحسانَه
إليهم ووالی - أنْ یستمرَّ المشارُ إليه فيما هو مستمرٌّ فيه : من تَدريسِ المدرسة
الرُكنيةِ الحَنَفِیَّةِ ، بظاهرِ دِمَشقِ المحروسَةِ ، حملاً على ما بيده من الولايةِ الشرعیةِ
والتوقيعِ الشريفِ : رِعايةً لِحائِنِه وتوقیراً ، وإجابةً لِقَصْدِه الجمیلِ وتوقیراً ، واستمراراً
بالأحقِّ وتَقْرِیراً .

فلیباشِرْ ذلك مباشرةً ألفتُ منه ، وأشتهرَ وصفُها الزِکیُّ عنه ؛ ولیوضِّحْ للطَّلَبَةِ سُبُلَ
الهدایه ، ولیوصِّلَهم من مقاصِدِهم الجمیلةِ إلى الغایه ؛ ولیسَلِّكْ طریقةَ والدِه ، فإنَّها
الطریقةُ المثلی ، ولیتحلَّ من جواهرِ فرائِدهِ ، فإنَّها أعلى قِیمةً وأغلی ، ولیمثِلِ على
الأسماعِ فضائلِه التي لا تُمَثَّلُ حينَ تُمثَلُ .



وهذه نسخةٌ توقيعٍ بتدريسِ المدرسة الخاتونية البرانية الحنفية بدمشق، كتب بها
للشيخ صدر الدين «علي بن الآدمي» الحنفي بـ «الجناب الكريم». وكأنه في الأصل
لمن لقبه . «بدر الدين» لأنَّ البدر هو المناسب لهذا الأفتتاح؛ فنقله بعض جهلة
الكتاب إلى «صدر الدين» كما تراه . وهذه نسخته :

أما بعد حمد الله الذي زان أهل العلم الشريف بصدر أخفى نوره الشموس ،
وأعلاه - لما حازه من الشرف الأعلی - على الرؤوس ، وجعل كل قلب يأوي إلى
تبيان بيانه يوم الدروس ؛ والصلاة والسلام الأتمين الأكلين على سيدنا محمد الذي
أذهب الله ببركته عن هذه الأمة كل مكروبوس ، وخصهم في الدنيا بطيب

الحياة وفي الآخرة بسرور النفوس ، وعلى آله وصحبه صلاة مُمَثِّرة الغُروس - فإنَّ أوَّلِيَّ من تَتَّصِرُفُ إليه الهِمَمُ ، من تَبَدُّو دلائلُ علمه كَنُورٍ لا نارٍ على علمٍ ، وتَسِيرُ فضائلُهُ في الآفاقِ سِيرَ الشُّمُوسِ والأقمارِ ، وتَبَرُّزُ إذا يُبَدِّها صَدْرُهُ من حُجْبٍ وأَسْتار .

وكان فلائناً - ضاعف الله تعالى نعمته ، وحرس من الغيرِ مُهَجَّته - هو الذي أُشِيرَ إلى ما حواه صَدْرُهُ الكَرِيمِ من الفضائلِ ، وأشتهر في دُرُوسِهِ بإقامة الحجج وإيضاح الدلائل ؛ وبرع في العلوم الدِّينية ، وفاق أبناءَ عَصْرِهِ في الصِّناعة الأدبِيَّةِ ؛ وأنفق كَثْرَهُ على الطُّلابِ ، فأصبح «عمدةَ المُحدِّثين» وأُمسَى «مُختارَ الأصحاب» ، «أبو يعلى» ينزلُ ببابه ، و «أبنُ عقيل» يرتدُّ على أعقابِهِ ؛ و «أبنُ الحاجب» يرفعه على عينِهِ ، و «الرَّازِي» يذخر كَسْبَهُ لوفاء دِينِهِ ؛ و «أبنُ بَطَّة» يَطِيرُ من مواقعِ سِهَامِهِ ، و «مُقَاتِلُ» مجروحٌ بحدِّ كلامِهِ ؛ و «أبنُ قَدَامَةَ» متأخِّرٌ عن مجاراتِهِ ، و «الأثرم» يَحْرَسُ عند سماعِ عباراتِهِ .

فذلك رُسمُ بالأمرِ العالی - لازال يجمعُ لمن برعَ في العلوم من ألوانِ المناصبِ المُختلفة ، ويرفعُ قَدْرَ القومِ الذين قلوبُهُم على التَّقوى مُؤْتَلَفَةً - أن يستمرَّ الجَنابُ الكَرِيمُ المُشارُ إليه بالمدرسة الخاتونية البرانية الحنفيَّة ، حملاً على ما بيده من التَّزولِ الشَّرعيِّ والولايةِ الشرعيَّةِ : لأنَّهُ الخِلاصَةُ التي صَفَّتْ من الأقدارِ ، والعُدَّةُ ليومِ الجِدالِ إذا وُلِّيَ غيرُهُ الأَدبارُ ، والمُختارُ الذي جَنَحَتِ المناصبُ السَّنيَّةُ إلى آخِيارِهِ دون من سِواه ، رَغْبَةً فيما آذَنَهُ من الفضائلِ وحوَاهُ ؛ «بِدايَتُهُ» «نِهايةُ الطُّلابِ» ، وعلومه «مُحَفَّةُ الأصحاب» ؛ إن حَدَّثَ «فابنُ معين» بصحَّةِ نقلِهِ يَحِيَا ، أو فَسَّرَ «فُجَاهِدُ» عن مجاراتِهِ يَعيَا ؛ و «الرَّحْمَشَرِيُّ» يبعُدُ عن الحِوَارِ ، و «البَغَوِيُّ» يبتغي الوقوفَ على الآثارِ ؛ و «سيبويه» عند ما يُحَوِّقُ يقصدُ «التَّسْهِيلَ» من لفظهِ المُعْرَبِ المُعْرَبِ ، و «أبنُ عَصْفُورٍ» يكاد يَطِيرُ طَرَباً لما يُبَدِّيه من «المُرْفِصِ المُطْرِبِ» ؛

و « أبو يوسف » أصبح بصُحْبَتِهِ مَنْصُورًا ، و « محمد بن الحَسَن » أضحى برفعتِهِ مَسْرُورًا ؛ هو في القَدْر « على » وفي الطريفة « محمود » وفي العلوم « محمد » ، وفي النطق والحركة « سعيد » وفي النظر « أسعد » ؛ وفي النَّصْرَة « النعمان » و « طاوس » يتحلَّى جزءًا من كمالِ خِصَالِهِ ، و « الحَسَنُ » يفتدى بحسنِ فعَالِهِ ؛ نَشَأَ فِي العِقَّةِ وَالصِّيَانَةِ ، وَكَفَلَهُ التَّوْفِيقُ وَزَانَتْهُ الأَمَانَةُ ؛ فهو بَحْرُ العُلُومِ ، وَمُسْتَخْلِصُ دُرِّهَا الْمَكْنُونِ وَمُظْهِرُ سِرِّهَا الْمَكْتُومِ ؛ لو رآه « الإمام » لُقِسَ عُلَاهُ بِالشَّمْسِ الْمُنِيرَةِ ، ولو عاصر الأَصْحَابَ لَعَدَّتْ أَعْيُنُهُمْ بِهِ قَرِيرَةً .

فَلْيَبَاشِرْ هَاتَيْنِ الوَظِيفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ أَكْتَسَبَتْهُ بِه بعد نُورِ الشَّمْسِ جَلَالًا ، وَلْيُلِقِ عُلُومَهُ الَّتِي يَقُولُ الْفَائِلُ عِنْدَ سَمَاعِهَا : هَكَذَا هَكَذَا وَإِلَّا فَلَا لَابَ ، وَلْيُعَلِّمِ الطَّلَبَةَ إِذَا أَدْهَشَتْهُمُ كَثْرَةُ عُلُومِهِ أَنْ فَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ، وَلْيَتَكَرَّمْ عَلَيْهِمْ بِكَثْرَةِ الإِفَادَةِ فَإِنَّ عَلِيًّا هُوَ الْكَرِيمُ ، وَلْيُفَقْ فِي مَبَاشَرَةِ النَّظَرِ كُلِّ مَثِيلٍ وَنَظِيرٍ ، وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ، وَلْيَجْتَهِدْ عَلَى عِمَارَةِ مَعَاهِدِهَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَدَاءِ الوِظَائِفِ بِحَسَنِ مَلاحِظَتِهِ : لِيَزِدَادَ عِنْدَ الخَلِيقَةِ جَلَالًا ؛ وَفِيهِ - بِحَمْدِ اللَّهِ - مَا يُغْنِي عَنِ تَأْكِيدِ الوَصَايَا ، وَيُعِينُ عَلَى السَّدَادِ وَفَصْلِ القَضَايَا ، وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الخَيْرُ بِمَا يَأْتِي وَيَذَرُ ، وَالصِّدْرُ الَّذِي لَا يَعْدُو الصَّوَابَ فِي وِرْدٍ وَلَا صَدْرٍ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَسِّرُ القُلُوبَ بِعُلُومِ مَرَاتِبِهِ ، وَيُقِرُّ العُيُونَ بِمُقَاصِدِهِ وَمَآرِبِهِ ؛ بِمَنَّةٍ وَكِرْمَةٍ ! .



تَوْقِيعٌ بِخَطَابَةِ جَامِعِ جِرَاحٍ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ ، كُتِبَ بِهِ لـ « شَرَفِ الدِّينِ بْنِ عَمْرُونَ » بِـ « الْمَجْلِسِ الْعَالِي » وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي قَسَمَ لِلنَّابِرِ شَرَفًا يَتَجَدَّدُ ، وَعَطَفَنَا مِنَ الفَصْحَاءِ يَتَأَكَّدُ ؛ وَعَالِمًا مَرْفُوعًا لَا يَتَعَدَّى وَعَالِمًا مَنْصُوبًا لَا يَتَعَدَّدُ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِ التَّنْقِيحِ

وصاحبِ القِبْلَتَيْنِ مُحَمَّدٌ ، وعلى آله وصحبه القانتينِ القائمينِ الرُّكَّعِ السُّجَّدِ ؛ ما عَظَّمَ
خَطِيبٌ ومَجَّد ، وبدا في حِلْيَةِ سيادةِ وأهبةِ خطابةٍ وهو على الحالينِ مُسَوِّدٌ - فَإِنَّ
لَصَهَوَاتِ المنابرِ فُرْسَانًا ، ولصُدُورِ المحارِبِ أعيانًا ، ولعيونِ المشاهدِ أناسيُّ يرَاعِي
منها الاستحقاقُ لكلِّ عَيْنٍ إنسانًا .

ولمَّا كان جامعُ الجراحِ المعمورُ بِذِكْرِ الله تعالى ممَّا أُسِّسَ على التَّقْوَى ، ووُؤسِمَ
بأهلِ الزُّهدِ سِمَةً إِذَا ضَعُفَتِ السَّمَاتُ تَقْوَى ؛ جَمَعَ الصُّلَحَاءِ من كُلِّ نَاحِيَةٍ ، ومُتَجَعِّعِ
الْفُقَرَاءِ : فَنِعِمَّ الجامِعُ لهم ونِعْمَتِ الرَّأوِيهِ ! ؛ ومَفزَعِ العُظَاءِ عندَ استدْفَاعِ حَرْبٍ
وَكَرْبٍ ، ومَطْلَعِ نُورِ الهداةِ الذي أَغْرَبَ فأطاعَ نُجُومَهُم من الغَرْبِ - تَعَيَّنَ أَن
نُخْتَارَ له الخُطَبَاءُ والأئمَّةُ ، ونَتَخَبَ لمنصِبِهِ من أفاضلِ الأئمَّةِ ؛ وتتناسبُ حُضْرًا مِنْبَرِهِ
بصاحبِ علومهم وأعلامهم وإمامهم ، المسرورين به يوم يَأْتِي كُلُّ أناسٍ بِإمامِهِمْ .

فُرْسِمَ بالأمر - لازلَّتْ أَعْوَادُ المنابرِ بِذِكْرِه أَرْجَه ، وأعلامُها كالألْسِنَةِ بِمَجْدِهِ
لِهَجْمِهِ - أن يفوضَ لفلان علمًا بِاستحقاقِ شَرَفِهِ لهذه الرُّتَبَةِ ، وصُعودِ
هذه الذَّرْوَةِ والمُضَيَّبَةِ ؛ ولأنَّه الأَوْلَى بِدرجاتِ الرُّتَبِ النَّفَّاسِ ، والأجْدَرُ بِجَنَى فروعها
المَوَائِسِ ؛ والإمامُ على الحالينِ إِذَا قَامَتِ صُفُوفُ المساجِدِ وَإِذَا قَعَدَتِ صُفُوفُ
المدارسِ ، والعَرَبِيُّ الذي إِذَا رَفَى ذِرْوَةَ مِنْبَرٍ أُطْلِقَتْ عليه لفظَةُ فَارِسٍ ؛ والوَرَعُ
الذي آثَرَفِي مناصبِهِ الباقِيَةَ على الفانِيَةِ ، ومَنابِرِ الحُكْمِ المُضَيَّبَةِ على مراتبِ الحُكْمِ
الماضيهِ ؛ وعلى مَجَالِسِ الدَّعَاوَى بِمَجَالِسِ الدَّعَوَاتِ ، وعلى مَقَامِ الصَّلَاتِ مَقَامِ
الصلواتِ ؛ وعلى القَضَاءِ القَرَضِ ، وعلى الرَّحْبَةِ ولو كَمَفْجِحِ القَطَاةِ من الأَرْضِ ؛
وعلى عَرَضِ الدُّنْيَا القليلِ جَوْهَرِ الفُضْلِ الكثيرِ ، وعلى "كِتَابِ أدبِ القاضِي"
"كِتَابِ الجامعِ الصَّغِيرِ" .

فليأشِرْ هذه الوظيفة المباركة : خطيباً تَدْرَأُ مَوَاعِظَهُ الخُطُوبَ ، وَأَعْظَا مِنْ قَلْبٍ
تَقَى تَصِلُ هدايا تَقَاهُ إلى القلوب ؛ فَصِيحًا تكاد المنايرُ تَهْتَرُ طَرَبًا ببيانهِ ، نَجِيحًا تكاد
أَجْنَحَةُ أعلامها تَطِيرُ فَرَحًا بمكانهِ ؛ شاملًا بنفحات فضله النَّوَّاسِمِ ، كاملاً ! لو تقدم
زَمَانُهُ لم يَقُلْ : « فلا الكَرَجُ الدُّنْيَا ولا النَّاسُ قَاسِمِ » ؛ والله تعالى يسدُّ أقواله
وأفعاله ، ويرفَعُ على المنابر والرُّتَبِ والمراتب مقامه ومقاله ، ويمتعه بهذه الرُّتَبَةِ التي
أشبهت معنى في الخلافة : « فلم يكن يصلحُ إلَّا لها ولم تكن تصلحُ إلَّا له » .

المرتبة الثالثة

(من توابع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دمشق -

ما يفتتح بـ «رسم بالأمر» وفيها وظائف)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

نسخة توقيع بالتدريس بالجامع الأموي والإفتاء به ، من إنشاء الشيخ جمال الدين
أبن نباتة ، كتب بها للشيخ «نُحْرُ الدين المصري» «استمراراً» ، بـ «المجلس العالي» وهي :
رِسْمُ بالأمر الشريف - لا زال لدَوْلَتِهِ الفَخْرُ على الإطلاق ، والمنُّ على الأعناق ،
والكْرَمُ لطالبي الإرفاد والإرفاق ، والتَّكْرِيمُ والتَّقْدِيمُ لذوي التأهيل والأستحقاق ؛
ولا يَرِحُ النِّعْمُ الثَّابِتَةُ للسَّاجِعينَ بمدحه المطرب قائمة مقام الأَطْواقِ - أن يستقرَّ
فلانٌ نفع الله ببقائه ، ورفع عيون الأنجم لدرجات أرتقائه ؛ : لفوائده
التي شملت الوري ، وعلت الذرا ، وحمدت الأفهام عند صباحها السرى ، وقعد بها
مسيل ذيل الحياء وسار بذكره من لا يسير مشمراً ؛ ومنزلته التي نصبت للهدى
علمًا ، وألفاظه التي أعربت عن بدائع بهرت فما فتح بمنيلها العلماء ثما ؛ وأسنباطه

الذى يقول للأول : قال وقتم ، وأقام وزُلتُم ؛ واحتياطه الذى يقول للسائلين :
 أهبطوا من أنتساب حلقته مضراً فإن لكم ما سألتُم ؛ وأنه الفاضل الذى ما أستنار
 بعلمه فتى فتاه ، والنافع الذى ما استطب بكلماته سقيم ذهن فلما تحركت شفتاه
 شفتاه ؛ كم جلس للأشغال فتى أنفَس المارة عن أشغالها ! ، ونصر العلم فى حلقته
 المجنّدة فكان من أمرائها المنصور ولم يكن للأنداد من رجالها ! ؛ كم سلّم لبيان بجته
 الحقيقى والمجازى ! ، وكم سَطَّرت لمناظرته الحمديّة مع أهل الزيّج سير ومغازى ! ،
 وكم خلاص دينار فهمه المِصرى على التقد فهيات أن يروز مثله «الرازى» ! ؛ كم نفرت
 مضراً بانتسابه ! ، ودمشق بسقيا سخابه ! ، وكم قال الرازى : لیت لی هذا الفخر
 فأروى فى الأول بقى خطيبه وفى الآخر بقى خطابه .

فليستمر - نفع الله به - على وظيفته المأثورة ، وحلقته التى نصبت على مصابيد
 كلماته المشهورة ، ومائدة علمه المنصوبة وذبول منافعها فى الآفاق مجرورة ؛
 وليواظب على جلوسه بالجامع المنشرح المشروح ، ودرسه المتضمن فتح أبواب العلوم
 وغيره كما يقال : على المفتوح ؛ سالكا من نهج الإفادة مسالكه ، مكثرًا بأجنحة فتاويه
 الطيارة ما يبسط لديه من أجنحة الملائكة ؛ متصرفًا على عادة عبادته فى مواطن العلم
 والعمل ، مُستندًا فى جلسته إلى سارية يقول لها وقاره وحلمه : يا سارية الجبل
 الجبل ، داعيًا لهذه الدولة الشريفة : فإن دعاء العالم مثله طائر لآفاق القبول من
 أوكار القبل ؛ والله تعالى يمدّه بعونه ولطفه ، ويحوط مجالس علمه بالملائكة المقرّبين
 من بين يديه ومن خلفه ؛ بمنه وكرمه ! .



وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسة القضاة ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به
 لفخر الدين «أحمد بن الفصيح» الحنفى المقرئ بـ«المجلس السامى» وهى :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال يقدّم من العلماء أنخرهم ذكراً، وأخدمهم أمراً،
وأفصحهم نسب فضائل وفضائل نسب يقول الاستحقاق : كِلَاهُمَا وَمَمْرَا - أَنْ
يرتّب فلانٌ ... : لما شهِر من علومه السنيّة ، وفوائده السريّة ، ووجوه فضائله
الحسنة ، وعيون كلماته المتيقّظة إذا كانت بعض العيون مستوسّنه ؛ ولأنّه غريب
في الوصف والمكان ، وصاحب علم لا يكاد يوجد له شقيق وإن كان منسوباً إلى
« النعمان » ؛ وإمام قراءات ثبتت له فيها على « أبي علي » الحجّه ، وتوصّحت ببيانه
الحجّه ؛ وتعيّن محله الأثير ، وروى الطالب من علمه عن « نافع » ومن ذهنه
في الفوائد عن « ابن كثير » ؛ وأنه نخر الحنفية القائم في السّمعة مقام « رازيها » ،
المطلّ بمنسّر قلبه على المعاني إطلالاً بازياها ؛ « الأكل » الذي له من علوم صدره
خزانه ، « الصدر » الذي كل صدر يشهد له بعلوّ مكانه .

فلباشر تدرّس هذه المدرسة المباركة : حقيقةً يجلس صدرها ، خليقاً بتجديد
شرفها وذكراها ؛ مظهرًا للبايات النكت في زواياها ، جديرًا بأن يكون في خفايا
المسائل ابن جلاها وطلاع ثناياها ؛ يملأ بيان بحوثه فكر الواعي وسمعه ، ويُسِيرُ
ببنان قلم فتياه ما يتجدّد له من رفعة ، ويسطّ إدلال الطلبة حتى يأكلوا في القصّاعية
معه في القصّعة ؛ والله تعالى يسره من مدارس الحنفية بهذه البدايه ، ويقرّه بما
يتجدّد من وظائفها التالية : (وما نريهم من آية) بمته وكرمه ! .



وهذه نسخة توقيع بتدرّس المدرسة الطرخانية ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به
للقاضى جمال الدين « يوسف الحنفى » بزوي من والده ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف - لازالت مواطن العلم مكملةً يذكره ، مبعجةً بأمره ،
 مؤهلهً لكل يوسفى الجمال يذكر عزيز شامه عزيز مضره - أن يستقر فلان في كذا ،
 بحكم ما قرره مجلس الحكم العزيز الشافعى ، ونعم المالك لمذهب شافع ، وأتباعاً لما
 حرره الجناب الشريف التقوى ذو النسب الصحابى الذى كل أمر لأمره تابع ،
 وعملاً بما رآه رأيه الكريم الذى إذا كان الجمال شافعاً كان هو للجمال شافع ، وإذا
 أنشأ من أبناء العلماء فروعاً [لا] تمل عليهم الأيام ميله ، وإذا وقفت في طريقهم
 الأنداد قال اقتصار نسبه الأنصارى : يابى الله ذاك وبنو قيلة ؛ وقبولاً لتزول^(٢)
 هذا الولد الذى أعرقت في آفاق العلم مطالعه ، وإقبالاً على هذا الولد الذى نجحت
 في استحقاق التقديم مطامعه ؛ وعملاً بنجابه هذا الفاضل الذى طاب أصلاً وفرعاً ،
 وقدم نفسه والديه وترأ وشفعاً ؛ وهذا البادى الشيبية الذى يأمر بفضائله على
 الشيب وينهى ، وهذا الواضح الدلالة على مفاخر قومه : حَبْدَا الدعوى وبيتها
 منها ؛ وهذا النجيب الذى قدمه أبوه منجبا ، وذكاؤه معجبا ؛ وقلمه في الأوراق
 معشياً ، وأشتغاله : إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت من محفوظات كُنيتي
 ما يقارب أحد عشر كوكباً ؛ وإذا درس كان لطلبته ملاذا ، وإذا عانده معانداً قال
 برفيع همته : يوسف أعرض عن هذا ؛ وإذا قرأ كتب فصاحت أذهل ذوى
 الألباب ، وإذا فتح لتفسير كتاب الله فأنحة ، عوذ بفضل : ((ألم ذلك الكتاب))
 وإذا روى الأحاديث أطربت حقيقته السماع ، وإذا أخذ في دقائق النقل والعقل
 علم وعقل أن الفكرة صناع .

(١) في القاموس «أهله لذلك رآه له أهلاً» .

(٢) هى قيلة بنت كاهل أم الأوس والخزرج .

فلبيا شر هذه المدرسة المباركة ببيان عربيٍّ وإن كان نَسَبُهَا طَرْخَانِيًّا، وَعِلْمُ رَوْضِيٍّ
لَا يَعْرِفُ الْعُلَمَاءُ شَقِيْقَهُ وَإِنْ كَانَ مَذْهَبُهُ نَعْمَانِيًّا ؛ وَمَبَاحِثُ تَذَكِّي نَارِ قَرِيْحَتِهِ : فَكَمْ
طَبِخَ لِأَنْدَادِهِ مِنْ أَصْحَابِ «الْقُدُوْرِيِّ» قِدْرًا ، وَلُزُومِ دَرَسِ يَسْرُ أَبَاهُ بِمَذْهَبِهِ : فَإِنَّهُ
الْقَاضِي «أَبُو يُوْسُفَ» خَبْرًا فِي الْحَقِيْقَةِ وَخُبْرًا ؛ وَاللّٰهُ تَعَالَى يُصَوْنُ شَيْبَتَهُ الْمَقْبَلَةَ مِنْ
طَوَارِقِ الْحَدَثَانِ ، وَيَنْفَعُ بَعْلُومَ بَيْتِهِ الَّتِي مِنْ شَكِّ مِنْهَا فِي الْحَقِّ فَكَأَنَّهُ مِنَ الْحَدَثَانِ .



وهذه نسخة توقيع بتصدير بالجامع الأمويِّ ، من إنشاء ابن نبأته ، كُتِبَ بِهِ
لـ«شمس الدين بن الخطيب» وهي :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيْفِ - لَا زَالَتْ نِعْمُهُ ظَاهِرَةً الْفَضْلَ كَالشَّمْسِ ، طَاهِرَةً
الْوَضُوحِ مِنْ دَنَسِ اللَّبَسِ ، وَأَفْرَةَ النُّوْفِيَوْمَهَا قَاصِرٌ عَنِ الْغَدِ زَائِدٌ عَلَى الْأَمْسِ - أَنْ
يَرْتَبَ فَلَانٌ فِي كَذَا وَيَرْتَبَ لَهُ كَذَا عَلَى الْمَصَالِحِ ، فَكَمْ لِلْسَّلَامِيْنَ فِي جَامِعِ عِلْمِهِ مَصَالِحٌ ،
وَفِي مَنَافِعِ قَصْدِهِ مَنَاحِحٌ ؛ وَفِي فَوَائِدِهِ نَصِيْبٌ ، وَفِي طُرُقِ هُدَاةِ مَعَالِمِ : وَلَا تُشْكِرُ
«الْمَعَالِمَ» لِابْنِ الْخَطِيْبِ ؛ لِيَتَنَاوَلَ هَذَا الرَّأْيَ الْمُسْتَقَرَّ مِنْ أَحَلِّ الْجِهَاتِ وَأَجْلَهَا ،
وَتَكُونَ شَمْسُهُ الْمُبَارَكَةُ خَيْرَ شَمْسٍ تَجْرِي لِمُسْتَقَرِّهَا ؛ عَوْضًا عَمَّا نَزَلَ عَنْهُ مِنْ تَدْرِيسِ
الْحَلْقَةِ الْمَعْدُوْقَةِ بِصَاحِبِ حِمَصٍ وَتَصْدِيْرًا بِالْجَامِعِ الْأَمْوِيِّ يَسِيْطُ بِهِ أَنْوَارُهُ
الشَّمْسِيَّةِ ، وَيَنْقَلُ أَسْمُهُ إِلَى إِمْرَةِ الْعِلْمِ بِدِمَشْقَ عَوْضًا عَنِ الْحَلْقَةِ الْحِمَصِيَّةِ ؛
فَلْيَعْتَمِدْ مَا رُسِمَ بِهِ ، وَلَا يَتَحَوَّلْ عَمَّا قَضَى الْعَدْلُ وَالْإِحْسَانُ بِمُوجِبِهِ .

الضرب الثاني

(من توابع أرباب الوظائف الدينية بالشام -
ما يكتب به لمن هو بأعمال دمشق ، وهو على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(ما يُفتح بـ «أما بعد حمد الله» وفيها وظائف)

توقيع بتدريس المدرسة النورية بدمشق ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ،
كتب به للقاضي زين الدين «عمر البلقاني» بـ «المجلس العالي» وهو :

أما بعد حمد الله الذي جعل أوجوه العلم زيناً وأى زين ، وأقرلاً ما كنها عيناً
بمن يكون التنبيه على فضل مكانته فرض عين ، ونشر أحاديثها بمن إذا حدث عن يد
تمكّنه في العقل والنقل قيل : صادق «ذو الدين» ، وأحيا مذاهبها بمن إذا عقدت
الخصاصر على أمثاله العلماء كان أول العمد وثاني الغيث وثالث «العمرين» ؛
والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي أوضح تبيين الهدى وسنه ،
وأرهب شبا الحق وسنه ، وعلى آله وصحبه الذين منهم «علي» مفتاح مدينة العلم
و«عمر» سراج أهل الجنة ، ما جرت أقلام العلم والجود في هذه الأيام الصالحة
طلقة العنان مطلقه الأعنة - فإن أولى العلماء بمدارس علم لاخلت ، وبجالس
فهم عزت بأهلها فلا تعزلت ، ومشاهد عقل وتبلي لأعملت ألسنتها بعد مستحقيها
ولا أنتقلت - من أضاءت مشكاتها النورية بمصابيح كلمه ، وفتحت كباؤها النورية
عن زهرات الهدى بقطرات قلبه ، وتذكرت بأوقاته الأخيرة عهود أهلها من هداة
الاسلام وأوقات ذى سلمه .

ولمَّا كان فلانٌ هو المقصودُ بـخلاصة هذا المعنى، والممدود إليه نظرٌ هذا الوصفِ
 الأسنى؛ والعالم الذي تشبث بأسباب محاسنه بلدُ «الهرميين»، والسابق وإن خلا
 وقته الطاهر خلف وقت «إمام الحرمين»؛ كم أجتنى ثمر الفوائد من أصلٍ وفرعٍ؛
 وتم بات قلمه من ورقٍ فتاويه وإسكاتٍ مناويه بين وصلٍ وقطعٍ؛ كم صدق برقُ
 بديته الأفكار حين شامتٍ؛، ولم نبهت عند ليالي المشكلات ^(١) «عمر» ثم نامت؛
 وكم تهادت نظره كتب العلم حتى قال «كتاب الأئم» : نعم الولدُ النجيب، وقال
 «كتاب الروضة» : نعم أخو الغاث الصائب على رياض القول المصيب؛ وقال
 «الشامل» من فضله : هذا طلبته «نهاية المطلب»، وقال «التنبيه» على محاسنه :
 لَيْتَ «التابغة» رآه فدرى أى الرجال «المهذب» وكانت المدرسة الشهدية النورية
 بمحص المحروسة قد شهدت مع من شهد بفضله، وسعدت ببئله؛ ووئمت بعلم
 علمه، وسمت سمو الشهباء : هذه بمقرّ تدرّيسه وهذه بمجلس حكمه؛ ثم زار دمشق
 زورة تشوّقت [إليه] بعدها تلك المشاهد، وتشوّقت إلى العودِ هاتيك المعاهد؛ وقضى
 الوفاء أن يُعاد إليها أحسنَ إعادته، وأن يرجعَ إلى الأماكن الشهيدة الشاهدة بیره
 فتكون منه عادةً ومنها شهادته، وأقتضى الاستحقاق أن يردها بالمعلوم المستقرّ وزيادة
 وأحسن ما وردَ البحرُ في الزيادة .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - أعلاه الله وشرفه، وحلّى بسيره الصالحة سمع
 الدهرِ وشمّته - أن يستقرّ فلانٌ في تدرّيس المدرسة النورية بمحص المحروسة على

(١) يشير الى بيت بشار في مدح عمر بن العلاء أحد عمال المهدي .

إذا أبقظتك حروب العدا * فنبهه لها عمراً ثم نم

وبعد

فنى لا ينام على غرة * ولا يشرب الماء إلا بدم

عادته ، وعلى نهج إفاءته وإفادته ؛ بالمعلوم المقرّر له يجلس الحكم العزيز الشافعيّ
بدمشق المحروسة : رعايةً لتلك المعاهد النورية التي نتأرجح بها الآصال والبكر ، وأنوار
القبول القائلة لوّفدها الطارق : «عليك سلام الله يا عمر» .

فليعدّ إلى هذه الوظيفة عودَ الحليّ إلى العاطل ، وليقبل على رتبته المرتبة إقبال
الغيث على الماحل ، وليقل بلسان تقدّمه لمعانيه : إن كان أعجبكم عامكم فعودوا إلى
حخص في قابل ؛ ولينصّر بقاعها الحصىة بجلاذ جداله فإنها من أول جند الإسلام ،
وليقيم الآن في هذه الأوقات الشامية فإنه بركة الوقت والبركة في الشام ؛ مُثمراً من
أقلام علومه أزكى الغروس ، مُظهِراً من مباحثه النفائس مُبهجاً من طلبته النفوس ،
عامراً لمعاهدها بدروسه : وياعجباً لمعاهد تُعمر بالدروس ؛ ذاكرّاً للوصايا الحسنة
التي لا تُقص عليه فهو أخبر بها ، والتي من أولها وأولها تقوى الله تعالى وهي
بأفعاله أمسك من تفاعيل العروض بسببها ؛ والله تعالى يُعضده في رحلته ومقامه ،
ويمتع الرتب تارة يجالس دروسه وتارة يجالس أحكامه ، ويروي صدقاً مضراً
والشام من موارد علمه : هذه بأوفى من نيلها وهذا بأوفر من غمامه .

المرتبة الثانية

(من توابع أرباب الوظائف الدينية بأعمال دمشق -

ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» ، وفيها وظائف)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

نسخة توقيع بحسبة بعلبك : من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كُتب بها

لـ«شهاب الدين بن أبي النور» ، وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لازلَّتْ شُهْب أوامره عالية السنا والسنا، وِفِيَّةً لِدَوِي
الاستحقاق بمزيد الاعتناء والأغتناء ، جليَّة البرِّ بمن شهد بحُسنِ حِسْبته حتى لسانُ
الميزان وفم الكيل وشفة الإناء - أن يستمرَّ فلانٌ ... لِما ذكر من أوصافه التي
ضاعفت فيه الرُّغبه ، وحالفت به سُمُو الرُّتبه ، وشهدت بها حِسْبته تلو الشهود :
وحسبك من أجمعت على فضله شهادة الفرض وشهادة الحِسْبه ؛ ولما صحَّ من
كفائه وتجرُّبه ، ووضَّح في هذه الوظيفة من تدرِّيسه التي تدرِّى به ؛ ولما تعيَّن
من استمرارِ شهابه في المنزلة التي تكسب من أضوائه وتكتسب ، وهذه الرتبة التي
تعلو بمعرفته ؛ وكفاه أنه يرزق من حيث يُحتسب ومن حيث لا يُحتسب ! ؛ وأنه
فيها ذو الرأى الزائد ، والتفجع الوارد ، والشهاب الذي نُورُهُ هداه في وجه المرید وأثرُ
كُتِّ حِسْبته في وجه المارد ؛ وأنه وليها ولاية لا تزال تُذكر وتُشكر ، وعُرف بوفائها
وكان أوفى من أمرٍ معروف أو نهى عن منكر ؛ وأنه قام حق القيام حتى قال
البلد : رعى الله زمانك ، وأجتهد حتى قال الاعتبار للميزان : لا تُذكر الزينغ
ولا تُحرك به لسانك .

فليستمرَّ في حِسْبته المباركة استمراراً يُستحلى ذكره ، ويُستجلى في الأسمِ شهابه
وفي السمة بدره ، وليُحتسب في نفع المسلمين حِسْبته يُحتسب بها عند الملكة ثناءه
وعند الملائكة أجره ؛ سالكا على نهج العزم الجميل ، جاعلاً أول نظره من أقوات
الرعية في الدقيق والجليل ؛ مُستبيناً لما ألتبس من غشِّ المطاعم والمشارب فلم يَسْتَبِن ،
حاكماً - ولا سيمياً في قاعات بعلبك - برأى يفرق بين الماء واللبن ؛ حاثاً على بيع
المالكِ بخرية من ملا بصره ، حريصاً على أن لا يُنشد لسان الداخل فيه « ومن لم
يمت بالسيف مات بغيره » ؛ دافعاً ضرر المُجترى البائع عن المُشترى المسكين ، ذكياً
فيما يُدكِّي فيسُدج بسكين ويذبح مُتناوله بغير سكين ؛ قاضياً بالحق في كل ما يُشترى

وبياح، متكئاً في أنواع الملابس وغيرها بالباع والذراع؛ وأزناً بالعدل في كل مؤزون
 ومكيول، رادعاً لكل عمال مدهين في كل مدهون ومعمول، حاملاً على الحال
 المستقيم كل حى لديه وكل من هو على آلة حدباء محمول؛ ومن زاد في الإضرار فليمنع
 زائده، ومن زاد في الأشتطاط وتجبير الشراء فليقطع بالنكال زائده؛ ومن دنس
 في الأثرية فلا يلبث أن يغلظ التأديب وأن يريقه، ومن سقى الضعفاء منها كما يقال:
 سقية فليسقه من السوط ما يكاد ينثر جسمه على الحقيقة؛ ومن عانى صناعة
 ليس له فيها يد فليزمه بما بسط في إفساده اليدين، ومن حكم في صناعة الطب بما لم
 يسغ في المسائل فليصرفه منها بحفى حنين؛ ومن تمرّد في معاملته فليرده بالقهر إلى
 صالح مرده، ومن عدا وقتاً فليعامله بما يخرج من الترح لا من الفرح من جلده؛
 مقدماً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا جرع، مستعيناً بالديوان فيما أهم؛
 فإن الله يزع بالسلطان ما لا يزع؛ مجتهداً فيما يزيد تقدّم سعيه المشكور، وصنعه
 المبرور، منيراً لآفاق منصبه وكيف لا وهو الشهاب بن أبي النور؟؛ وتقوى
 الله تعالى هي السيل الأقوم فليكن لها منهاجا، وليواظب على طريقة الحق؛ فكم
 شرعنا حاد وكم خير منها جا!



توقيع بنظر السبيل بدرج الحجاز، بالركب الشامى، من إنشاء ابن نبأته، كتب به
 للقاضى «قطب الدين السبكي» وهو:

رسم بالأمر - لا زال يُقر بالوظائف الدينية من يُحبها ويُحبه، ومن يتوارد على
 ذكره بادي الشكر وركبه، ومن إذا بدت مطالع الخير فهو نيره وإذا دار فللك الثناء
 فهو قطبه - أن يستمر ... : لما ذكر من وصفه الجميل، وأستحقاقه الذى دل عليه

البرهانُ في مُحْفَلِهِ وبرهَنَ في مَوْكِهِ الدليلُ ؛ ودِيَانَتِهِ التي هي لمباني الأوصاف الرِّفِيعَةِ
 أُسَاسٌ ، وكِفَاءَتِهِ التي لها من نَفْسِهِ نَصٌّ ومن نَفْسِ قومه قِياسٌ ؛ ومَرَبَاهُ في بَيْتِ
 تَقِيٍّ صَحَّتْ تَجَارِبُ مَعْدِنِهِ على السَّبْكِ ، و [دلت] مَنَاقِبُهُ على آسْتِحْقَاقِ الرَّتَبِ التي يقول
 بَشِيرُهَا : قِفَا نَبْتِمْ ! ويقولُ حَاسِدُهَا : قِفَا نَبْكَ ؛ وَلِمَا تَقَدَّمَ من تَسْوُفِهِ لِهَذِهِ
 العِزْمَةِ النَّاجِحَةِ ، وَتَسْوُفِهِ من هَذِهِ المَبْرَةِ الشَّرِيفَةِ الصَّالِحِيَّةِ بِسُلُوكِ تِلْكَ الفِجَاجِ
 الصَّالِحِ ؛ ولِأَنَّ الضَّعْفَ عَاقِبَهُ عن المَاضِي فَأَطْلَقْتَهُ الآنَ هَذِهِ القُوَّةَ ، وجعلتُ له
 بِأَوْفَى القَادِرِينَ على الحَسَنَاتِ والإِحْسَانِ أُسْوَهُ ، ومِغْمَتَهُ في هَذِهِ الشُّقَّةِ الطَّوِيلَةِ
 على سَبَبِ أَذْيَالِ المَعْرُوفِ من مَنزِلِ الكُسُوفِ إلى مَنَازِلِ ذَاتِ الكُسُوفِ .

فليباشِرْ هَذِهِ الوَظِيفَةَ المَبْرُورَةَ بعِزِّمِ بِيْرٍ من الوَجْدِ مَا كُنْهَ ، وَحَزْمِ بِيْرٍ من المَدْحِ
 المَشْكُورِ كَامِنِهِ ، ومُتَمِّعَةٍ على أَلْسِنَةِ التَذْكَارِ يَمْضَى وَتَقْبِي حَتَّى تَكَادَ تَكُونُ لِلْكَوَاكِبِ
 السَّبْعَةِ نَامِنِهِ ؛ مُتَّصِرًا في الإِرْفَادِ والإِرْفَاقِ ، بَآرَاءِ يُؤَيِّدُ اللهُ [بِهَا] الذِّينَ هُم رِفَاقُ
 وَأَيُّ رِفَاقٍ ؛ مُنْفِقًا في سَبِيلِ اللهِ على يَدِهِ أَعْدَلَ إنْفَاقٍ ، حَامِيًا عَدْلَهُ من لَفْظَةِ نِفَاقٍ ؛
 مُخْصِبًا بِإِنْعَامِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ في القَفْرِ المَاحِلِ ، حَامِلًا لِلنَّقْطِ على أَنهَضِ وَأَبْرِكِ
 الرِّوَاحِلِ ؛ مُوَاصِلًا لِنَقْلِ الأَزْوَادِ إِقَامَتِهِ وَمَسِيرِهِ ، وبالماءِ والشَّرَابِ الطَّيِّينِ الطَّهْوَورِينَ
 ضَعِيفَهُ وَفَقِيرَهُ ، وبأنواعِ الأَدْوِيَةِ والعَقَاقِيرِ التي تُعْمُ مَتَابِعَ الرِّكْبِ [و] عَقِيرَهُ ، وَتَجْبُرُ
 على الحَالِينِ كَسِيرَهُ ، وبِوَفَاءِ جَمِيعِ المَسْتَحِقِّينَ تَالِيًا عن لِسَانِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ :
 ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ دَاعِيًا بِجُلُودِ مُدْكَهَا في تِلْكَ المَشَاهِدِ
 التي هي بَقْبُولِ مَصَاعِدِ الدَّعَوَاتِ وَزُؤُولِ مَوَاعِدِ البَرَكَاتِ جَدِيدِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَقَبَّلُ
 دَعَاءَهُ وَسَعِيَهُ ، وَيُحْسِنُ كِلَاءَتَهُ وَرَعِيَةَ ، بِمَنِّهِ وَكِرْمِهِ ! .

(١) يريد مكينه ولكنه اضطره السجع الى موافقة العامة .

الصنف الثالث

(من التواقيع التي تُكتب لأرباب الوظائف بدمشق - ما يكتب لأرباب
الوظائف الديوانية، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما يكتب لمن بحاضرة دمشق منهم ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتح بـ «الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بكتابة الدست بدمشق ، كتب به لساج الدين « عبد الوهاب »
ابن المنجا التنوخي ، عوضاً عن شمس الدين « محمد بن حميد » بالوفاة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل تاج الأولياء أيما حلّ حلّ المراتب وزانها ، وغدا على التحقيق
كفأها ووزانها ، وألبسها من براعته ويراعته عقوداً تزرُّ دررها وجمانها ، ومنح
دستها العليّ من ألقاظها المجيدة بيانها ، وزادها بأصالته نغاراً يستصحب وقتها
وزمانها ، وأرتقى ذروتها التي طالما زاد بالمعالي أركانها ، فنبواً بمزيد المجد مكانها .

نحمده على نعمه التي أجزلت إحسانها ، وأجمت أمثانها ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة تشهد القلوب إيمانها ، ويدخر القائل إلى يوم المخاف
أمانها ، ويتبؤ بها في الدار الآخرة من يخلص فيها جنانه جنانه ، ونشهد أن سيدنا
محمدًا عبده ورسوله الذي أظهر الله تعالى به الشريعة المطهرة وأبانها ، وشرف هذه
الأمّة ورفع على جميع الأمم شأنها ، وبعثه رحمةً إلى كافة الخلق فأقام بمعجزاته دليل

الهداية وبرهانها ، وأطفأ بنور إرشاده شرر الضلالة ونيرانها ، وأحمد بدينه القويم
وصراطه المستقيم معتقدات [طوائف] الشرك وأديانها ، صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه الذين ما منهم إلا من نزه نفسه النفيسة وصانها ، وسلك في خدمته وصحبته
الطريقة المثلى فأحسن أسرار أموره وإعلانها ، صلاة دائمة باقية تحمد بالأجور
أقربانها ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من جددنا رفعة تاجه ، وسددنا قوله في مجلس عدل ينشر فيه
بكلمة الحق ما أنطوى من أدرأجه ، وحددنا له محل سفارة يلحظ فيه حوائج السائل
فيغنيه عن إلحاحه ولجأجه - من هو في السؤدد عريق ، ولسانه في الفضائل
طليق ، وقلمه حلل الطروس بما يفوق زهر الرياض وهو لها شقيق ، وكان فلان
هو الذي علا تاجه مفروق الرأسه ، وجلا وصفه صور المحاسن والنفاسه .

فرسم بالأمر العالی - لا زال يولي جميلا ، ويوتى المناصب الجليلة جليلا - أن
يستقر المشار إليه في وظيفة توقيع الدست الشريف بالشام المحروس ، عوضا عن فلان
بحكم وفاته إلى رحمة الله تعالى ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت .

فليباشر ذلك مباشرة تُشكر مدى الزمان ، وتُحمد كل وقت وأوان ، وتيملا بالأجور
لنا صحفا بما يؤديه عنا من خير وإحسان ، والوصايا كثيرة وأهمها التقوى ، فليلازم
عليها في السر والنجوى ، والله تعالى يحرسه ويرعاه ، ويتولاه فيمن تولاه ،
والاعتماد



[وهذه نسخة] توقيع بنظر الخاص ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به للقاضي

«بهاء الدين بن ريان» ، وهي :

الحمد لله معلى رتب الأعيان ، ومبني أجباء السيادة على ممر الأحيان ، ومبدي
 ”بهاء“ المناصب ، بمن فضله الواضح والصبح سيان ، ومُنشى ثمرات المناقب ،
 في منابت أهلها حيث الفرع باسق والأصل ”ريان“ .

نحمده على أن يسر البيت المعلى بحسنه ، وأيقظ جفن الآمال من وسنه ؛ ونشهد
 أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تجمع لنا من خيري الدنيا والآخرة كرم
 المطلبين ، وشرف المنصبين ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المشرق فضله
 على أهل المشرقين والمغربين ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أصبح النناء عليهم
 وقفا ، وأشتمال الذكر عليهم عطفاً ، صلاة تضيء آفاق القبول بشمعة صبح لا تقط
 ولا تطفى ؛ وسلم .

أما بعد ، فإن للمناصب الدينية نسبة بيوت أهل الديانة ، ونخاص الرتب تعلقاً
 بالخاص من ذوى الكفاءة والأمانة ؛ والمنازل بكواكبها المتألقة ، والحدائق بمغاريسها
 المتألقة ، ونفوس الديار بسكان معاهدها المتشوفة المتشوفة .

ولما كان الخاص الشريف والوقف المنصوري لوجه المناصب الشامية بمنزلة
 حسن الشامتين ، ولزائد الخصب من جهتي الدنيا والآخرة بمحل نفع الغامتين ؛ هذا
 على صنع البر الممدود مقصور ، وهذا لسحاب الخير سفاح لأنهر جهة لـ «المنصور» ؛
 يعلمو هذا بالناظر في دقائقه إلى أعلى الدرج ، ويتلوهذا بلسان ميزانه المنفق على
 المارستان : (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون
 حرج) - لا يلبق الجمع بين رتبتهما إلا لمن يجمع بسعفه فضل الدارين ، ومن يجيد
 بنان قلمه الحلبي حلب ضرعيهما الدارين ؛ ومن نشأ في بيت سعادة أذن الله لقدره
 أن يرفع ، وأقلام بيته أن تنفع ، ولحاسن ذويه أن تشفع بحملها إلى قلوب الأولياء
 فتشفع ؛ ومن يسر برواية فضله وبرؤيته السمع والعين ، ومن يفتري شرفه وشرف

إخائه حُبَّ «الحسن» و«الحسين» ؛ ومن تَبَهَّجُ جوانحُ المحارِبِ بَتَعْبُدِهِ ، وتلهجُ
 ألسنةُ مصابيحِ المساجدِ بالثناءِ على تَرَدُّدِهِ وَتَوَدُّدِهِ ، وَتَسْتَبِقُ جِادُ عَزْمِهِ : فَيَدِينَا
 الكَيْمِيَّةُ فِي الشَّهْبَاءِ تَابِعُ أَدْبِهِ إِذَا بَانَ أَذْهَمَ رَسِيلُ تَرْهَدِهِ ؛ وَمَنْ يَقُولُ مَنَاصِبُ
 حَلَبَ : لَلَّهِ دَرُّ بَهَائِهِ الْمُقْتَبِلِ ! ؛ وَمَنْ يَنْشُدُ ثَبَاتُ وَقَارِهِ مَعَ لَطَافَةِ خُلُقِهِ : «يَا حَبْدًا جَبَلُ
 الرِّيَّانِ مِنْ جَبَلِ» ! ؛ وَمَنْ تَنْفَحُ أَخْبَارُهُ مَنَاحِ الْأَزْهَارِ ، وَمَنْ يَشْهَدُ بِفَضْلِهِ جَيْشُ
 الْحَرَابِ فِي اللَّيْلِ وَبِمَاشَرَتِهِ جَيْشُ الْحَرْبِ فِي النَّهَارِ ؛ وَمَنْ تَأْسَى بِلَدَةِ فَارِقِهَا فِرَاقَ الْعَيْنِ
 لِلوَسَنِ ، وَمَنْ يَرَوِي صَامِتِ دِمَشْقٍ وَغَيْرِهَا مِنْ تَدْبِيرِهِ عَنِ «عَامِرٍ» وَعَنِ «حَسَنِ» .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال من ألقابه الشريفة صالح المؤمنين ، وعماد
 الداعين لدولته القاهرة والمؤمنين - أن يفوض للجناب العالی ... فإنه المعنى بهذه
 الأوصاف المتقدمة ، والمقصود بإفاضة حلالها المعلمة ؛ والموصوف الذي يجلو وصفه
 إذا كرر ، ويستعيد الأوصاف والأسماع إذا حرر ، والأحق برتبة عز في النظر
 مضى وأبقى ثناءه ، ومكان نظري إن لم يقل الدعاء اليوم : أدام الله عزه ! قال :
 أدام الله بهاءه ؛ والألئق بتقرير منصب تقصردونه المطامع ، وتصديردويان إن
 انقطعت روايته عن «حمزة» فقد اتصلت روايته عن «نافع» .

فليباشر هذين المنصين المنجيين ، مجتهداً في مصالح الخاص الشريف ، والوقف
 الذي لا تحتاج همته فيه إلى توقيف ؛ حتى يكون خير الخاص عاماً ، وأمر الوقف
 تاماً ؛ ورعيهما بالبركات خير محفوف ، والمنصوري من جهة المعاوضة قد أضحى وهو
 بالعضدين موصوف .

والوصايا متعددة وهو أدرى وأدرب بها ، وتقوى الله تعالى أولى وصية تمسك
 المرء بسببها ، وشكر النعمة أدل على نبيه هميم الرجال وعلى فضل مهديها ؛ والله تعالى
 يسدد قلمه ، ويثبت في مطالع العز قدمه ؛ بمنته وكرمه ! .



توقيع بنظر الخزانة العالمة، من إنشاء ابن نباتة، كتب به للقاضي «تقى الدين
ابن أبي الطيب» بـ«الجناب العالی» وهو :

الحمد لله الذي له خزائن السموات والأرض، وبِحِكْمَتِهِ يَهَبُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ لِمَنْ يَشَاءُ
رِضَى الْمَعَانِدِ أَمْ لَمْ يَرْضَ ، وَبِمَتِّهِ فَضَّلَتْ مَرَاتِبُ أَهْلِ التَّقَى عَلَى الرُّتَبِ كَمَا فَضَّلَ عَلَى
النَّافِلَةِ الْفَرَضَ ، وَبِعِنَايَتِهِ بُنِيَتْ بِيُوتِ أَهْلِ السِّيَادَةِ عَلَى الطُّولِ وَبَقِيَ صَالِحُ عَمَلِهِمْ
إِلَى الْعَرَضِ ، وَبِهِدَايَتِهِ سَمَا إِلَى أَعْلَى الْخَزَائِنِ مِنْ تَقَرُّضِهَا أَوْصَافَ قَلَمِهِ وَقَلَمَ أَبِيهِ
أَحْسَنَ الْقَرَضِ .

نحمده على ما منح من خزائن فضله ، ونشكره والشكر ضامن المزيدي لأهله ؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يدحرجها الإنسان لبنته وقوله وفعله ،
ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذي جمع بقبئه وقرق ببدله ، وأعطى ما لم تنطو
ضمائر الأيكاس في صدور الخزائن على مثله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
السالكين سنن فضيلته وفضله ، التابعين في الكرم والبأس قياس بيانه ونص نصله ؛
ما أطلعت خزانة الوسي آثار تقط الغيث كالدراهم ، وخلعت على الدنيا خلع الروض
مُتَقَلِّبَةً بِمُسْتَدِيرِ الظلال مَرُورَةً بِمَعْقُودِ الكمام ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن الرتب ذخائر قوم في خزائن الاختيار ، وأخاير أهل تركو تقود شيمهم
على محك الاعتناء والاعتبار ، وفروع خلف تظهر مظاهر نصولها الزكية سابعة الظل
رائقة الزهر فائقة الثمار ؛ إذا احتيج منهم إلى ذخيرة نفعت ، وإلى أخير وقت أربى
على عزائم الأول وما صنعت ، وإلى فروع شجرة سرت محامدها الضائعة : لا ممّا
ضاعت بل ممّا تَصَوَّعَتْ .

ولما كانت رتبة نظارة الخزانة العالمية بدمشق المحروسة أحق بمن هذا وصفه ،
وهذا نعته في مقدمة الذكر الجميل وهذا إليه عطفه ؛ إذ هي مرتبة العلياء ومكانها ،
وزهرة سماء الملكة وميزانها ؛ ومنشأ غيوث صلاتها الهامره ، ومنبت رياض
خلعها الزاهره ؛ وأفق السعادة ومطلع نجمها المنير ، وحنة أولياء الدولة ولباسهم فيها
حرير ؛ ومعنى شرف الأكتساء والأكتساب ، ومأوى الفاضل - والحمد لله - الذي
يحفظها التحصيل بحساب ويعطيها الجود بغير حساب .

(١) وكان الجنب (١)
... .. من تضم أعطافه أنوار السعادة ، وتحف أطرافه و
السيادة ، وتنتقل جلسته : إما من تنفيذ الديوان لمرتبة وإما من تدريس العلم
لسجاده ؛ ذو الفضل والفضائل حسن التجنيس والتطبيق ، والكتابة : من حساب
وإنشاء زاكية السنر على التعليق ؛ ونفحات البر من نفحات العيش أجود ، والشبيبة
فيها النهى فكانه كما قال البحرى : نسب أسود ؛ والهيم التي حاولت منال الشهب
المنتعة ولات حين مناص ، والكلمة التي لو عاين « البصرى » فرائد نحرها لقال :
كل هذه درة الغواص ، والعزائم التي رامت المناصب فما قبلت من خزانتها سوى
الرفيع وما رصيت من ديوانها سوى الخاص ؛ كم نهبت منه المقاصد (٢) « عمر »
ثم نامت ! ، وكم أجلسه كواكب اليمن في صدر محفل ثم قامت ! ؛ كم حوى من
الحمد سنيا ! ، وملا الرباع خيرا وفيا ! ، وقبض الله للفقراء والأيتام حنانا من لدنه
وزكاة وكان تقيا .

(١) بياض بالأصل في الموضوعين .

(٢) أخذه من بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبه لها عمرا ثم نم

يريد عمر بن العلاء أحد عمال المهدي وكان على طبرستان .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا بِرَحِّ صَالِحِ الدَّهْرِ كَالزَّهْرِ ، مَالِكِ نَفْسِ
 الأولياءِ والأعداءِ : هَاتِيكَ بِالْإِنْعَامِ وَهَاتِيكَ بِالْقَهْرِ - أَنْ يَفُوضَ إِلَيْهِ نَظْرُ الْخِزَانَةِ
 الْعَالِيَةِ مُضَافًا إِلَى مَا بِيَدِهِ مِنْ نَظَرِ الْخَاصِّ الشَّرِيفِ : لِأَنَّ مِثْلَهُ لَا يُصْرَفُ عَنْ وِطِيقَةِ
 بَسَانِهِ تَعْتَرَفُ ، وَمَنْ نَدَاهُ تَعْتَرَفُ ، وَأَنَّ اجْتِمَاعَ الْعَدْلِ وَالْمَعْرِفَةِ قَاضٍ بِأَنَّ «عُمَرَ»
 لَا يَنْصَرَفُ ؛ وَأَنَّ الْخَاصَّ لِلْخَاصِّ الْأَوْلِيَاءِ أَمْسُ مَكَانِهِ ، وَأَنَّ الْخِزَانَةَ أَنْسَبُ بَيْنَ
 عُرْفِ بِالصِّيَانَةِ ؛ وَأَنَّ خَزَائِنَ الْأَرْضِ وَهِيَ مِصْرٌ لَوْ نَطَقَ نَظِيرُهَا لَقَالَ : لَيْسَ لِي مِثْلُ
 هَذِهِ الْخِزَانَةِ ؛ وَأَنَّ عَيْنَ الْأَعْيَانِ أَوْلَى بِالنَّظَرِ ، وَأَنَّ الْأَنْظَارَ لَا بِلِ الصَّحَابَةِ أَحَقُّ
 بِدُعْمِهِ ؛ لِمَا عَلِمَ مِنْ سِيرَتِهِ النَّقِيَّةِ ، وَسِرِّيَّتِهِ التَّقِيَّةِ ، وَصِفَاتِهِ الَّتِي يَتَمَدَّدُ فِيهَا نَفْسُ
 الْقَوْلِ حَتَّى يَنْقَطِعَ فِي الْأَوْصَافِ بَعْدُ بَقِيَّةً وَبَقِيَّةً .

فليأثر ما فوض إليه من أعلى المراتب المنجيات، والوظائف المعجبات المعشبات،
 والجهات التي مالها كبيت الطيب : والطيبون للطيبات ؛ مستجداً من نظر هذه
 الخزانة ثوب سعده الحديد، مِعْمَلًا فِي مِصَارِفِ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بَصَرَ آرَائِهِ الْحَدِيدِ ؛
 مِنْهَا لَهَا عَزْمَةُ الْعَمْرِى وَنَعْمٌ مِنْ يَنْبِهِ ، مُشْبَهًا فِي الْكِفَاةِ أَبَاهُ الْمُرْحُومَ وَمَا ظَلَمَ مِنْ
 أَشْبَهَ ؛ مُقَرَّرًا مِنْ أَحْوَالِهَا أَحْسَنَ مُقَرَّرٍ ، مُحَرَّرًا مِنْ أُمُورِهَا أَوْلَى مَا أَعْتَمَدَ وَالْخِزَانَةُ
 أَوْلَى بِالْمُحَرَّرِ ؛ حَافِظًا لِمَا لَهَا بِقَلَمِ التَّحْصِيلِ حَتَّى يَنْفَذَ قَلَمَ الْإِطْلَاقِ ، صَائِنًا لَوْفِهَا حَتَّى
 يُنْفِقَهُ الْكِرْمُ خَشْيَةَ الْإِمْسَاكِ بَعْدَ مَا أَمْسَكَ الصَّوْنُ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ؛ مُسْتَدْعِيًا مِنْ
 أَصْنَافِهَا كُلِّ مَاتِنُوعٍ وَتَصَنَّفٍ ، وَتَوَشَّعٍ وَتَفَوَّفٍ ، مُثْبِتًا كُلِّ مَا خَلَعَ مِنْ دِيَوَانِهَا الْعَزِيزِ
 وَتَخَلَّفَ ؛ مُؤَلَّفًا لِلْكَسَاوَى فِي زِحْلَةٍ كُلِّ صَيْفٍ وَشَتْوَةٍ ، مُوَاصِلًا لِلْأَحْمَالِ مِنْ دِمَشْقَ
 عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ جِهَةِ الْكُسُوهِ ؛ مِنْهَا لِإِنْعَامِهَا بِقَلَمِ الْإِطْلَاقِ النَّامِ ، مُتَلَفِّقًا بَعْصًا قَلَمَهُ
 فِي يَدِهِ الْبَيْضَاءِ مَا تَأْتِيكَ عَصَا الْأَقْلَامِ ، حَرِيصًا عَلَى أَنْ يَكُونَ بِأُهَا فِي الْكِرْمِ كَمَا يَقَالُ :

(١) لم يرد هذا الجمع في أيدينا من كتب اللغة . والظاهر أنه جرى العامة في استعماله .

«سهل الحجاب مؤدب الخدام» ؛ عاملاً بتقوى الله تعالى التي بها يبدأ الذكر الجميل ويختم، ويلبس بها في الدنيا والآخرة رداءً للخير المعلم ، غنياً عن تبين بقايا الوصايا التي هو فيها بحر، وابن بحر بكتاب «البيان والتبيين» ، أعلم ؛ والله تعالى يمدّه بفضله ، ويحفظُ عليه الفضل الذي هو من أهله ؛ ويملاً آماله بعام الخير الصيب . ويديمُ سعادة بيته الذي لا يرفع الشكر لطيبه إلا الكلم الطيب .

المرتبة الثانية

(من توابع أرباب الوظائف الديوانية بحاضرة دمشق - مايفتح «أما بعد حمد الله»)

وهذه نسخ توابع من ذلك :

[نسخة] توقيع بنظر الأسرى ونظر الأسوار، كتب بها لدوادار الأمير «سودون

الطرناي» كافي الشام، وإن كانت هي في الأصل ديوانية أو دينية، وهي :

أما بعد حمد الله الذي خص أوليائه بفضله الوافر، وعمهم بحسن نظره فأشرق صبح صباحهم السافر، وانتضى من عزائمهم لنصرة الدين سيقاً يسر المؤمن ويفيط الكافر، وأجبتني من الكفاة من يشيد معاقل الإسلام بفضله المتظافر؛ والصلاة والسلام الآمين الأتكين على سيدنا محمد الذي أضاء برسالته الوجود، وخصه الله تعالى بالصفات الفاتحة والمآثر الحسنة والحدود؛ وعلى آله وصحبه الذين حرسوا الملة الحنيفة من جهادهم بأمنع سور، وأوهنوا جانب الكفر وأنقذوا الأسير وجبروا المكسور؛ صلاة دائمة مدى الأيام والشهور، معلية للأولياء علم النصر المنشور - فإن أولى من عدقنا به المناصب السنية، وفوضنا إليه جليل الوظائف الدينية؛

وَنُطْنَا بِهِ فَكَ رَقَبَةِ الْمُسْلِمِ مِنْ أَسْرِهِ ، وَخَلَّاصَهُ مِنْ عُدُوهِ الَّذِي لَا يَرِيئُ لِمُسْكَنَتِهِ
وَلَا يَرِيئُ لِكَسْرِهِ ؛ وَأَجْرَيْنَا قَلَمَهُ بِبَدْلِ الْفِدَاءِ ، وَجَعَلْنَا مِدَادَهُ دِرْيَاقًا لِمَرِيضِ الْأَسْرِ
الَّذِي يَعْدِلُ أَلْفَ دَاءٍ ، وَأَقْنَاهُ لِلْعَانِي مِنْ شَرِّ الشَّرِّكَ مُنْقِذًا ، وَلِلدَّافِعِ فِي بَيْدَاءِ الْعِدَا
بُحْسَنَ إِعَانَتِهِ مُنْجِدًا ، وَلِلْأَسْوَارِ الْمُنْعَةِ بِجَمِيلِ نَظَرِهِ مُتَّقِدًا - مِنْ أَصْحَى فَضْلُهُ
ظَاهِرًا ، وَجَلَالُهُ بَاهِرًا ، وَخِلَالُهُ مَوْصُوفَةٌ بِالْمَحَاسِنِ أَوَّلًا وَآخِرًا .

وَكَانَ فَلَانٌ هُوَ الَّذِي بَهَّرَتْ مَا تُرَاهُ الْأَبْصَارَ وَمَلَأَتْ الْأَسْمَاعَ ، وَأَنْعَقَدَتْ عَلَى
تَفَرُّدِهِ فِي عَصْرِهِ بِالْمَفَاحِرِ كَلِمَةُ الْإِبْجَاعِ ، وَسَارَتْ الرُّجْبَانَ بِذِكْرِهِ الَّذِي طَابَ وَجُودِهِ
الَّذِي شَاعَ ؛ وَصَفَتْ سِرِّيَّتُهُ ، فَأَصْحَى جَمِيلَ الْإِعْلَانِ ، وَحَدَّثَتْ سِفَارَتُهُ ، فَكَانَتْ
عَاقِبَةُ كُلِّ صَعْبٍ بِبِرْكَتِهَا أَنْ لَانَ .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لِأَزَالِ يُؤَلِّي جَمِيلًا ، وَيُؤَلِّي فِي الْوُضَائِفِ جَلِيلًا -
أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَشَارُ إِلَى فِي وَظِيفَتِي نَظَرَ الْأَسْرَى وَالْأَسْوَارِ بِدِمَشْقَ الْحُرُوسَةِ ، عَلَى
أَجْمَلِ عَادَةٍ ، وَأَكْلِ قَاعِدَةٍ ، بِالْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ دِيْوَانَ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ إِلَى آخِرِ
وَقْتٍ : وَضَعًا لِلشَّيْءِ فِي مَحَلِّهِ ، وَتَقْوِيضًا لِجَمِيلِ النَّظَرِ إِلَى أَهْلِهِ .

فَلْيَبْشُرْ ذَلِكَ مَبَاشِرَةً تُسَرُّ النُّفُوسَ ، وَتَزِيدُ بِهَا الْغِلَالَ وَتَزُكُّ بِهَا الْغُرُوسَ ؛ وَلْيُجِرْ
أَحْوَالَ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ عَلَى مَقْتَضَى شَرَطِ الْوَاقِفِ وَالشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، وَلْيَتَصَرَّفْ
فِي تَحْصِيلِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ أَحْسَنَ تَصْرِيفٍ ؛ وَلْيَجْتَهِدْ عَلَى تَخْلِيصِ الْمَأْسُورِ ، وَإِعَاثَةِ
مَنْ ضُرِبَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ بَسُورٍ ؛ وَيُسَارِعْ إِلَى تَشْيِيدِ الْأَسْوَارِ الْمُنْعَةِ ، وَإِتْقَانِ تَحْصِينِهَا :
لِيَتَضَاعَفَ لِمَنْ حَوَّنَهُ مَنَّا الْأَمْنُ وَالِدَّعَةُ ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَمِلاكُهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى
وَسُلُوكُ صِرَاطِ الْحَقِّ الْمُسْتَقِيمِ : فَلْيُؤَاظِبْ عَلَيْهَا ، وَلْيُصَرِّفْ وَجَهَ عِنَايَتِهِ إِلَيْهَا ؛ وَاللَّهُ
تَعَالَى يُدِيمُ عُلَاهُ ، وَيَتَوَلَّاهُ فِيمَا تَوَلَّاهُ ؛ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .

تَوْقِيعٌ بِصَحَابَةِ دِيْوَانِ الْأَسْرَى ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي شَرْفِ
الدِّينِ «سَالِمِ بْنِ الْقَلَاقِسِيِّ» ، وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي جَدَّدَ بَطَالِعَ الشَّرْفِ قَوَاعِدَ بَيْتِ السِّيَادَةِ ، وَمَشَاهِدَ حَوَكِ
السَّعَادَةِ ، وَمَصَاعِدَ ذُرَا الْأَقْلَامِ الَّتِي قَسَمْتُ مَجَانِي قَصَبِهَا لِلْإِفَاءَةِ وَالْإِفَادَةِ ، وَمَعَاهِدَ
الْقَوْمِ الَّذِينَ سَلَكَوا مَسَالِكَ سَلَفِهِمُ الْحُسْنَى : وَلَوْ كَانَ التَّمَامُ يَقْبَلُ هُنَا مَزِيدًا قِيلَ :
وَزِيَادَةً . وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي شَدَّ اللَّهُ بِرِسَالَتِهِ أَزْرَ الْحَقِّ وَشَادَهُ ،
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ ذَوِي الْأَقْدَارِ الْمُسْتَرَادَةِ الْمُسْتَجَادَةِ ، مَا أَتَّصَلَ بِحَدِيثِ الْفَضْلِ سَنَدُهُ
وَأَمِنْ بَيْتِ التَّقْوَى سِنَادَهُ - فَإِنَّ الْبُيُوتَ الْمُتَنَتِّمَةَ نَخَارُهَا ، الْمَأْمُونَةَ مِنْ عَرَوِضِ الْأَيَّامِ
زِحَافُهَا وَأَنْكِسَارُهَا ؛ أَوْلَى بِأَنْ تُنْتَخَبَ لَهُمُ الْمُنَاصِبُ كَمَا تُنْتَخَبُ لِلْبُيُوتِ الْمَعَانِي ،
وَتُسْتَقْرَى الْوُظَائِفُ الْعَلِيَّةُ كَمَا تُسْتَقْرَى الْمَوَاضِعُ كَلِمَهَا الْمَبَانِي ؛ وَتُنْتَخَرُ لِنَجْلِ الْأَصْحَابِ (؟)
بَيْنَهُمْ كُلِّ جِهَةٍ مَأْمُونَةُ الصَّحَابَةِ ، مَوْقُورَةُ السَّحَابَةِ ، مَجْرُورَةُ ذَيْلِ الْخَيْرَاتِ السَّحَابَةِ ؛
مَصُونَةٌ عَنْ غَيْرِ الْأَكْفَاءِ كَمَا يُصَانُ لِلْجِهَاتِ مُحِبِّبًا ، لِاتِّقَةِ بِالْأَفْضَلِ لِأَنَّ الْأَوْقَافَ
الْأَسْرَى بِالْفَاضِلِ نَسَبًا .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَرْتَبَ فِي كَذَا : عَلَمًا بِأَنَّهُ الرَّئِيسُ الَّذِي إِذَا وَلِيَ
وُظِيفَةً كَفَّاهَا ، وَإِذَا وَعَدَهَا بِصِلَاحِ التَّنْذِيرِ وَقَاهَا وَقَاهَا ، وَإِذَا وَصَلَ نَسَبَهَا بِنَسَبِهِ
كَانَ مِنْ إِخْوَانِ صَفَائِهَا لَا مِنْ إِخْوَانِ صَفَاهَا ؛ وَالْخَيْرُ الَّذِي آسْتَوْضَحَ بَيْنَ الرَّأْيِ
مَدَاهِبِهِ وَمَسَالِكِهِ ، وَالْعَالِمُ الَّذِي إِذَا مَشَى الْأُمُورَ بَسَطَ جَنَاحَ الرَّفْقِ وَإِذَا مَشَى بِسَطَتْ
لَهُ أَجْحَحَتِهَا الْمَلَائِكَةُ ؛ وَالْجَلِيلُ الَّذِي إِذَا نَظَرَ ذَهْنُهُ فِي الْمَشْكَلاتِ دَقَّقَ ، وَالْكَاتِبُ
الَّذِي تَعَيَّنَتْ أَقْلَامُ عَلَيْهِ وَكَفَّاهَتْهُ إِلَّا أَنْ كَلَّمَهَا فِي الْفَضْلِ مُحَقِّقٌ ؛ هَذَا وَحَطَّ عِنْدَارِهِ
مَا كَتَبَ فِي الْخَلْدِ حَوَاشِيهِ ، وَلَيْلُ صِبَاهُ مَا أَكْتَمَلُ ! فَكَيْفَ إِذَا أَطْلَمْتُ كَوَاكِبَ

المَشِيْبِ دِيَاغِيه ، وَكَيْفَ لَا؟ وَأَبُوهُ - أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى جَدَّهُ - صَاحِبُ الْمَجْدِ الْأَمِيلِ ، وَالْفَضْلِ الْأَصِيلِ ، وَوَكِيلِ السُّلْطَنَةِ الَّذِي إِذَا تَأَمَّلْتَ مَحَاسِنَهُ قَالَتْ : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

فَلْيَبْشُرْ هَذِهِ الْوَضِيفَةَ بِرَأْيِ يُسَهِّلِ - بِمَشِيئَةِ اللَّهِ - عَسِيرَهَا ، وَيُقْكُ - بَعُونَ اللَّهِ - أَسِيرَهَا ؛ وَاجْتِهَادِ سَنِيٍّ يُحْسِنُ قَلَمَهُ فِي الْأُمُورِ مَسْرُومًا ، وَأَعْتِمَادِ سِرِّيٍّ لَا يَرَى دِيَوَانَ أُسْرَى مِنْهُ أُسْرَى ؛ مُشْبَهًا أَبَاهُ فِي عَدْلِهِ وَمَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَسَا ظَلَمَ ، وَتَوَقُّدِ رَأْيِهِ لَدَى طَوْدِ حِلْمٍ وَعِلْمٍ «فِيَالِكَ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمٍ!» ؛ حَتَّى يَأْمَنَ دِيَوَانُ مَبَاشَرَتِهِ مِنْ ظُلْمِ الظَّالِمِ ، وَيُسْعِلُ ذِكَاةَهُ حَتَّى يَقَالَ : عَجَبًا لِلشُّعْلِ نَارًا وَهُوَ سَالِمٌ ؛ وَيُثْمِرُ مَالَ الْجَهَةِ بِتَدْيِيرِهِ ، وَيُشْتَرِكُ لَفْظَ إِطْلَاقِ الدِّيَوَانِ فِي مَالِهِ وَأَسِيرِهِ ، وَتَنْتَقِلُ الْأُسْرَى مِنْ رُكُوبِ الْأَدَاهِمِ إِلَى رُكُوبِ الشُّهْبِ وَالْحُمْرِ مِنْ دَرَاهِمِهِ وَدَنَانِيرِهِ ؛ وَيُجَدُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَيَنْفِقُ خَشْيَةَ الْإِمْسَاكِ إِذَا أُمْسِكَ [غَيْرِهِ] خَشْيَةَ الْإِنْتِاقِ ؛ وَيَمِشِي بِتَقْوَى اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فِي الطَّرِيقِ الْأَلْحَبِ ، وَيُنْسَبُ إِلَى دِيَوَانِهِ وَقَوْمِهِ فَيَقَالُ : صَاحِبُ طَالِمَا آتَنَسَبَ مِنْ سَلَفِهِ لِصَاحِبِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُنَجِّحُ لِكُوَاكِبِ رَأْيِهِ مَسِيرًا ، وَيَجْبُرُ بِهِ مِنْ ضَعْفِ الْحَالِ كَسِيرًا ، وَيُكَافِي سَادَاتِ بَيْتِهِ الَّذِينَ «يُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا» .

المرتبة الثالثة

(من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بحاضرة دمشق -

ما يُفْتَحُ بِ«رُسْمِ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

(١)

نسخة توقيع من إنشاء ابن نباتة ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي

«علاء الدين بن شرف الدين بن الشهاب محمود» عند موت أبيه وهو صغير ، وهى :

(١) بياض في الأصل ولعله « توقيع بكتابة السر » .

رُسم بالأمر الشريف - لا زال يجبرُ بيرةً مُصابَ الأبناءِ بأبائهم ، ويسرهم بما يتجدد في كواكب الشرف من علائهم ، ويعتق قلوبهم من إسار الحزن حتى ينشئوا من الصغر على أنساب عفتهم وولائهم - أن يستقر ... اعتماداً على نجاته الشاهده ، ومحايل همته السائده ، وأستناداً إلى أصالته التي لا يئدى فرعها إلا زكى الثمر ، ولا يهيدى بحرُها إلا أنفس الدرر ، ولا يخلف أفتها إلا كبيراً تستصغرُ الأبصارُ رؤيته : والدُّبُّ للطرف لا للكوكب في الصغر ، وعلماً أنه من أسرة شهابية لا يهتدى في الإنشاء إلا بنورهم ، ولا يئدث بالعجائب إلا عن بحورهم ، ولا يئبت أقلام البلاغة إلا عشبهم ، ولا تُعشب روضات الصحائف إلا بحبهم ، ولا تُثبت أفلاك الكتابة إلا كُتبهم ، صغيرهم في صدور الإنشاء كبير ، ومُلقن آيات فضائهم يروى أعداد الفوائد عن « ابن كثير » ، وعليهم بعد « أبي بكر » تقول المحامد لسلفه وخلفه : منّا أميرٌ ومنكم أميرٌ ؛ وأنه اليوم لا سيف إلا « ذو الفقار » من أذهانهم ، ولا فتى إلا « علي » من ولدانهم ؛ وأن فرخ البط ساج ، وسعد القوم لا نداد ذابح ، وخواتم صُحف الجمع الظاهر أشبه بالفواتح ، والبلاغة في الدنيا كنوز والأقلام في أيديهم مفاتيح ؛ وأن الكلام حلينته وسمته ، وأنه إذا خدم دولةً بعد محلة قيل للذهاب : لقد أوحشنا وجهه وللقادم : لقد أنستنا خدمته .

فلناخذ في هذه الوظيفة بقوة كتابه ، ولتناول باليمين واليسار قلم جده كما تناول راية مجده عرابه ؛ ولتقلد بقلائد هذه النعم عقيب ما نزع التمام ، وليجهد في إمرار كلبه الحلو الذي أول سماه قطر ثم صوب الغمام ؛ مجوداً خطه ولفظه حتى تناسب عقده ، ناشئاً على كتم السر حتى كأن الفؤاد قبره والجنب لحدّه ؛ مُهندياً بالعلم الشهابي في يرّ أخيه الأكبر فإنه من بوارق المزن ، مُبتدياً مع أخيه الآخر السرور إذ ينزع

(١) في الأصل هكذا "وأن الكلا محاهم" .

عنهما لباسهما من الحزن ؛ والله تعالى يزيد في فضله ، ويتم عليه النعمة كما أتمها على
أبيه من قبله ، ويفقهه في السيادة حتى يحسن في الفخار ردّ الفرع إلى أصله .



توقيع بنظر مطابخ السكر ، من إنشاء ابن نباتة ، كتب به للقاضي « شرف الدين
ابن عمرون » وهو :

رُسم ... - لا زالت سمة المناصب في دولته الشريفة مشرفة ، وأقلام الكفاة
مُصرفة ، وألفاظ الشكر ثابتة عند ذوى الاستحقاق ومُصنفة ، والنماء المنصفة
لأمثالهم حلوة المذاقين من نوح ومن صفه - أن يستقر ... لما عرف من
شيمه المستجاده ، وهممه المستزاده ، وكفاءته اللاتي بها حسن النظر الثابت بفضائها
رقم الشهاده ، وأصالته التي نهض أوقها بمهمات الدول فلوراها معاوية - رضى الله
عنه - لقال : يا عمرون أنت عمرو وزياده ؛ وليا ألف من مباشرته المنيفة خبرا
وخبرا ، وأنظاره السامية إلى معالى الأمور نظرا ؛ ووظائفه التي لا يكاد يبلغ العشر
منهاذو وهمم العلية ، وجهاته التي عرف بها سلفه وخلفه فلا غرو أن ليس عمامة
مفاحره بيضاء وسكريه .

فليباشر هذه الوظيفة الحلوة معنى ومدافا ، الحليّة عقدا ونطاقا ، المحسوبة على
مطالع الشرف وفقا وآفاقا ؛ جاعلا شكر النعمة من أوفى وأوفر مزاياه ، وصلف الهمة
من أولى وأول وصاياه ؛ حافظا للطابع وإن كان عادة آباءه بذلك ، مدخرا للخفان
وإن كانت سمة قراهم إزالتها ونقلها ؛ حريصا على أن لا يجعل لأيدى الأقلام الخائنة
مطمحا ، وعلى أن ينشد كل يوم للتذير لا للتبذير .

* [لنا] الجفنت الغريمن في الضحى *

مُحَرَّرًا لِحَسَابِ دِرْهَمِهَا وَمَحْمُولًا ، وَمَصْرُوفًا وَمَحْصُولًا ؛ مُحْتَرِّزًا عَلَى مُبَاشَرَتِهِ
 مِنَ الْخَلَلِ فِي هَذَيْنِ الْمَكَانَيْنِ ، حَذِرًا مِنْ كِفَّتِهَا وَقَبَانِهَا فَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِي الْحَمْدِ أَوْ فِي الذَّمِّ
 بِلِسَانَيْنِ ؛ بَلْ تُعَلِّنُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِحَمْدِهِ الْمُقَرَّرَ ، وَتُكْرِّرُ الْأَحَادِيثَ الْحَمْلَوَةَ عَنْهُ فَمِنْ
 عِنْدَهَا نَحْرَجُ حَدِيثَ الْحُلُوفِ الْمَكْرَرِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُمِدُّ مَسَاعِيَهُ بِالنُّجُجِ الْوَفِيِّ ، وَيُلْهِمُ هِمَّتَهُ
 أَنْ تُنْشِدَ : « مَا أَبْعَدَ الْعَيْبَ وَالنَّقْصَانَ مِنْ شَرَفِي ! » .



تَوْقِيْعٌ بِنَظَرِ دَارِ الطَّرَازِ ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لِأَزَالَتْ سِيْرَهُ بِمَرْقُومِ الْحَامِدِ مُطْرَرَهُ ، وَدَوَّلْتُهُ بِمَحَاسِنِ التَّائِيْدِ وَالتَّائِيْدِ
 مُعَزَّزَهُ ، وَنِعْمَهُ وَنِقْمَهُ : هَذِهِ عَلَى الْأَعْدَاءِ مُجْهَزَةٌ وَهَذِهِ إِلَى الْأَوْلِيَاءِ مُجْهَزَةٌ - أَنْ يَرْتَبَ
 فَلَانٌ : لِكِتَابَتِهِ الَّتِي رَقَمَتِ الطُّرُوسَ ، وَطَرَزَتْ بِالظُّلْمَاءِ أَرْضِيَّةَ الشُّمُوسِ ، وَأَثْمَرَتْ
 أَقْلَامَهُ بِمَحَاسِنِ التَّدْيِيرِ فَكَانَتْ فِي جِهَاتِ الدُّوَلِ نِعْمَ الْغُرُوسِ ؛ وَحِسَابِهِ الَّذِي نَاقَشَ
 وَنَقَشَ ، وَرَقَمَ الْأَوْرَاقَ وَرَقَشَ ؛ وَأَعْتَرَاهُ الَّذِي عَلَّمَ رَشْدًا ، وَسَلَّمَ طَرِيقًا فِي الْخِدْمَةِ
 جَدًّا ، وَقَوِيَّ أَسْمُهُ وَتَكَاثَرَتْ أَوْصَافُهُ فَمَا كَانَ مِنْ أُنْدَادِهِ أَضْعَفَ نَاصِرًا وَأَقْلَّ عَدَدًا ؛
 وَأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي إِذَا قُدِّمَ نَهَضَ ، وَإِذَا سَدَّدَ سَهْمَ قَلَمِهِ أَصَابَ الْغَرَضَ ؛ وَالسَّامِي
 إِلَى سَمَاءِ رُتْبِهِ بِالْقَلْبِ وَالطَّرْفِ ، وَالْمَنْزَهَ لِقَلَمِهِ الْحُرِّ مِنْ أَنْ يَسْتَعْبِدَ عَلَى حَرْفٍ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوَضِيفَةَ بِكَفَاءَةٍ عَلَيْهَا الْمَعْوَلُ ، وَأَقْلَامٍ إِذَا تَمَشَّتْ فِي دَارِ الطَّرَازِ عَلَى
 الْوَرَقِ قِيلَ : « شُمُّ الْأَنْوَفِ مِنَ الطَّرَازِ الْأَوَّلِ » ؛ مُسْتَدْعِيًّا لِأَصْنَافِهَا وَمَالِهَا ، عَادِلًا
 فِي قِسْمَةِ رَجَائِهَا وَرِجَالِهَا ؛ مُعْمَلًا رَاحَتَهُ بِالْقَلَمِ فَإِنَّ كِتَابَتَهَا مُتَّبِعَةٌ ، مُهْتَدِيًّا فِي طُرُقِ
 حِسَابِهَا فَإِنَّهَا طَرُقٌ مُتَشَعِّبَةٌ ؛ مَاشِيًّا عَلَى نَهْجِ الْأَحْتِرَازِ ، سَاعِيًّا إِلَى الرُّتَبِ بِإِرْهَافِ
 عَزْمٍ كَالسَّيْفِ الْجُرَازِ ، سَعِيدِ السَّعْيِ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - حَتَّى يَقُولَ سَنَاءُ الْمَلِكِ

المُسْتَهْضَلُ له : هذا القاضي السعيد وهذه دار الطراز ؛ والله تعالى يوفقه في جميع أحواله ، ويؤيد مساعى قلبه الذى تنسج أفلام الكفاة على منواله .



توقيع بنظر الرباع ، من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصفدى ، باسم القاضي نجم الدين « أحمد بن نجم الدين محمد بن أبى الطيب » ، وهو :

رُسم بالأمر العالى - لزال نجم أوليائه يتقد نورا ، وخاطر أوليائه يتحد بالآمال سرورا - أن يرتب المجلس السامى القضائى - أدام الله تعالى علوه - فى نظر الرباع الديوانية ، ومباشرة الأيتام - حرسهم الله تعالى - على عادة من تقدمه وقاعدته ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأنه النجم الذى بزغ فى أفق الرأسه ، وجمل ما أثره قبيله وأناسه ؛ والأصيل الذى شاد الفضل مجده ، وأحكم الفخر عقده ؛ والرئيس الذى يصدق التقرس فى شمائله ، ويحكم الظن الصائب فى أثناء مخاييله .

فليباشر ذلك مباشرة هى معروفة من هذا البيت ، مأوفاً من كبيرهم وصغيرهم : فإنهم لا لوفيهم ولا لئيت ، معتمداً على سلوك طريقة أخيه وأبيه ، مجتهداً على أتباع اعتمادهما فى توخيه الصواب أو تأبيه ؛ حتى يقال : هذا صنو ذلك الغضن الناضر ، وهذا شبل ذلك اللئث الخادر ؛ وتصبح الرباع بحسن نظره أهلة بالأهله ، كاملة بالمحاسن التى تسمى الأفتار منها مستهله ؛ وتعود الأيتام بمشارفته كأنهم لم يفقدوا بر والدهم ، ولم يحتاجوا مع تدبيره إلى مساعدتهم . والوصايا كثيرة وأهمها تقوى الله عز وجل فإنها الحصن الأوقى ، والمعقل المنيع المرقى ؛ فليتخذها لعينه نصبا ، وليشغل

بها صَمِيرَه حَتَّى يَكُونَ بِهَا صَبَاً ؛ وَاللَّهِ تَعَالَى يَمِيَّ غُضْنَه النَّاضِرَ ، وَيُقَرُّ بِكَالِه الْقَلْبُ
وَالنَّاطِرُ ! وَالخَطُّ الْكَرِيمُ أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ ، حُجَّةٌ فِي ثُبُوتِ الْعَمَلِ بِمَا آقْتَضَاهُ ؛
وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ ! .



تَوْقِيعٌ بِاسْتِيفَاءِ الْمَقَابِلَةِ وَاسْتِيفَاءِ الْجَيْشِ ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لِأَزَالَتِ الْمَنَاقِبُ فِي دَوَانِيهِ الشَّرِيفَةِ شَمْسِيَّةَ الْأَنْوَارِ ، قُرْشِيَّةَ الْفَخَّارِ ،
مُشْتَقَّةَ الْحَامِدِ مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالْآثَارِ ، مُحْصَلَةً بِأَقْلَامِ الْيَمِينِ مَا يَسُدُّهُ الْكَرَمُ مِنْ أَقْسَامِ
الْيَسَارِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ ... حَسَبَ الْأَسْتِحْقَاقِ الْمُقْتَضَى ، وَالْأَخْتِيَارِ الْمُرْتَضَى ؛ وَعَيْنِ
الرَّأْيِ الَّذِي مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّأْيِ حَاجِبٌ ، وَتَقَدَّمَ السُّنَّةِ الْقَدِيمَةِ فَإِنَّ التَّقْدِيمَ لِقُرَيْشٍ
وَاجِبٌ ؛ وَلِأَنَّ الصِّفَاتِ الشَّمْسِيَّةَ أَوْلَى بِشَرْفِ آفَاقِهَا ، وَمَنَازِلِ إِشْرَافِهَا وَإِشْرَاقِهَا ،
وَمَطَالَعِ سَعْدِهَا الْمُتَزَهِّةِ عَنِ اللَّبْسِ ، وَجَلَائِلِ قَلَمِهَا الْعُطَارِدِيِّ فِي يَدِ الشَّمْسِ ؛
وَلِأَنَّ الْمَشَارَإِلِيهِ أَحَقُّ بِمَصَاعِدِ الْمُرْتَقِينَ ، وَلِأَنَّهُ تَرَبَّى فِي بَيْتِ التَّقَى فَكَانَ اللَّهُ مَعَهُ
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ .

فَلْيَبِإِشْرَهَاتَيْنِ الْوُضُوعِيَّتَيْنِ عَلَى الْعَادَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِعَزَمِهِ السَّيِّدِ ، وَمَدَّاتِ قَلَمِهِ الَّتِي
بَجَرَهَا فِي السَّبْعِ بَسِيْطٌ وَظَلُّهَا فِي النَّفْعِ مَدِيدٌ ؛ وَلِيَتَمَثَّلَ بِدِيَوَانِ مُقَابَلَةٍ فَرِيدًا لَا يَرْهَبُ
مُثَالَّهُ ، وَلِيَجْبُرَ أَحْوَالَهَا بِضَبْطِهِ حَتَّى يَجْمَعَ بَيْنَ الْجَبْرِ وَالْمُقَابَلَةِ ؛ وَلِيُمَدِّدَ الْجَيْشَ الْمَنْصُورَةَ
مِنْ أَوْرَاقِهِ بِأَعْلَامِهِ ، وَمِنْ قَصَبَاتِ السَّبْقِ بِرِمَاجِ تُعْرَفُ بِأَقْلَامِهِ ؛ وَلِيَسْتَرْفِعَ مِنْ
الْحُسْبَانَاتِ مَا يَحْمُو بِإِيضَاحِهِ وَتَكْمِيلِهِ مِنْ مُقَدَّمَاتِ ظُلْمٍ وَإِظْلَامٍ ، وَلِيَجْمَعَ بَيْنَ صَرَفِي
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي شَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُمَدِّدُ قُرْشِيَّتَهُ بِأَنْصَارٍ مِنَ الْعَزْمِ ، وَتَابِعِينَ
بِإِحْسَانٍ مِنْ نَوَافِدِ نَوَافِلِ الْحَزْمِ .



تَوْقِعُ بِصَحَابَةِ دِيْوَانِ الْأَسْوَاقِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الشَّيْخِ جَمَالِ الدِّينِ بْنِ نُبَاتَةَ ، وَهُوَ :
رُسم بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتْ أَسْوَاقُ نِعْمَةٍ قَائِمَتِهِ ، وَأَجْلَابُ كَرَمِهِ دَائِمَتِهِ ، وَلَا بَرِحَتْ
الْمَنَاصِبُ مُكَلَّمَةً بِكُفَاةِ أَيَّامِهِ الَّذِينَ يُحَقِّقُونَ ظُنُونَهَا السَّامِيَةَ وَيَرَعُونَ أَحْوَالَهَا
السَّائِمَةَ - أَنْ يَرْتَبَ فَلَانٌ : عَائِمًا بِكُتَابَتِهِ الَّتِي وَصَّيَتْ الدَّفَاتِرَ أَحْسَنَ سِمَتِهِ ،
وَأَسْتَبَقَتْ إِلَى صُنْعِ الْخَيْرِ الْمُسَوِّمَةِ ، وَكِفَاةِ تِهِ الَّتِي لَا تَرَالُ تَنَمُّو لَدَيْهِ وَتَنَمِّي ، وَيَرَاعَتِهِ
الَّتِي إِذَا سُئِلَ عَنْهَا السُّوقُ قَالَ : هِيَ عَصَايَ أَنْوَكًا عَلَيْهَا وَأَهْشُ بِهَا عَلَى غَنَمِي ، وَدِرَائِيهِ
الَّتِي تُعِينُ الْمَلِكَةَ عَلَى الْمَيْرِ ، وَيَشْهَدُ تَيْمُنُهَا أَنَّ الْخَيْلَ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرَ ، وَتُحَقِّقُ فِيهِ
الظَّنَّ وَالْأَمْلَ ، وَتَحْوِطُ السُّوقَ عَنِ الْخَائِنِ حَتَّى يَقُولَ : لَا نَاقَةَ لِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلَ ،
وَأَنَّهُ الْكَافِي الَّذِي إِنْ قَالَ أَوْ فَعَلَ كَانَ مُسَدَّدًا ، وَإِنْ ضَبَطَ دِيْوَانَ الشَّدِّ السَّعِيدِ كَانَ
عَلَى الزَّائِعِينَ مِنَ الْكُتَيْبَةِ حَرَفًا مُسَدَّدًا .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُضُفَةَ الْمُبَارَكَةَ مُتِمِّكِنَ الْأَسْبَابِ ، مَالِكِ الْحَزْمِ وَالرِّفْقِ حَتَّى تَكْثُرَ
لَدَيْهِ الْجُلَّابُ ، مُعِينًا لِمَيِّتِ الْمَالِ عَلَى الْإِنْفَاقِ ، قَائِمًا بِحَقُوقِ ذَوِي الْأَسْتِحْقَاقِ ،
عَالِمًا أَنَّهُ [مَتَوَلَى] أَكْثَرَ جِهَاتِ الْخَيْرِ الْمُطَاقِ فَلْيَكُنْ بِهَا مَشْكُورًا عَلَى الْإِطْلَاقِ ، مُجْتَمِدًا
فِي رِضَا الْمَطَالِينِ حَتَّى يَدْبِعُوا سَنِينَ الْمُرْسَلِينَ فِي هَذِهِ [الصفة] يَا كُؤُونَ الطَّعَامِ وَيَسْتُونَ
فِي الْأَسْوَاقِ ، مُوَاطِبًا عَلَى الدِّيْوَانِ الَّذِي هُوَ بِصَحَابَتِهِ مَعْدُوقٌ ، سَالِكًا سُبُلَ الصِّيَانَةِ
وَالْكَفَاةِ فَكِلَاهُمَا نِعْمَ السَّبِيلُ الْمَطْرُوقُ ، مُحْتَرِّزًا مِنْ ذِي خِيَانَةٍ إِنْ غَفَلَ عَنْهُ طَفِيقٌ
مَسْعًا بِالسُّوقِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُوفِّقُ عِزَائِمَهُ الَّتِي هِيَ أَشْهَرُ مِنْ عِلْمِهِ ، وَهَمَّتِهِ الَّتِي قَاسَمَتْ
« أبا الطَّيِّبِ » : « وَالْخَيْلُ تَشْهَدُ وَالْقُرْطَاسُ وَالْقَلَمُ » .



نسخة توقيع بشهادة الخزانة العالية ، من إنشاء ابن نباتة ، كتبت به لجمال الدين «عبد الله بن العماد الشيرازي» وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لا زالت سِمةُ المناصب في دولته بأسماء الكُفافة مُجمَّلة ،
 وِخْلُ المِفاخرِ على بيوت السيادة مُكَّلة ، ونِخْرَينُ المُلْكِ بين تَقْيِضَيْنِ من جِنْسِ واحدٍ :
 فبينما هي بأقلام الكُفافة مُحْتَفَظَةٌ إذا هي بأقلام الكُفافة مُبَدَّلَةٌ - أن يستقر المجلس
 السامى ... : علما بمجاسينه التي وَصَحَ بِجَماها ، وتَفَسَّحَ في العِلاءِ بِجَماها ، ونَجَّحَ
 في مَنابِتِ الفَضْلِ أَصلُها ، وشَرُفَ بِكِواكبِ اليُنِّ اتِّصَافُها ؛ ومَعالِيهِ التي تَهَلَّلَ بِها
 وَجْهُ الأَصالَةِ ، وكلِ بَيْتِ الرَّاسَةِ والجِلالَةِ ، ومَساعِيهِ التي آسَتوفى بِها أَجناسَ
 الفَضْلِ وتَوَرِيثَهُ فما أَخذها عن كِلالٍ ولا وَرِثَها عن كِلالَةٍ ؛ وَسِيرَتِهِ التي تَطوَى
 نِخارَ الأَقْرانِ حينَ تُنْشَرُ ، وهِمَّتِهِ التي أَشَدَّتِ السَّعادَةَ فرَعها الكَرِيمُ : «مباديكَ
 في العِلاءِ غايَةٌ مَعشَرٌ» ؛ ومَكانَتِهِ من بَيْتِ السِيادةِ الرَّفِيعِ عِمادُهُ ، البَدِيعِ سَنَدُهُ المَنِيعِ
 سِنادُهُ ، المَدِيدِ من تَلقاءِ الحِجرَةِ طُنْبُهُ الثابِتَةِ من حَيَرِ النُّجومِ أوتادُهُ ؛ وأَنَّهُ نَجَلِ السَّراةِ
 الذين أَخذُوا من الفَضْلِ في كُلِّ وادٍ ، وأَسْتَشْهدُوا على مَنابِقِهِمِ كُلِّ عَدُوٍّ وكلِّ وادٍ ؛
 وحَمَلُوا من صِناعاتِهِمِ رَيايَتِ عِباسِيَّةٍ سارتْ بِها رِماحُ أَقلامِهِمِ تحتِ أَبدِجِ سِوادِ ،
 ومَلَكُوا قَدِيمَ الأوطانِ بِشَرَفِ الأَخيرِ : فسِواءُ علي شيرازِ مُحاسِنُ «ابن العميد»
 ومحاسِنُ «ابن العماد» ؛ وتَبَيَّنَتْ مَنابِقِهِمِ بِهذا النَجَلِ السَّعيدِ طُرُقَ المَرابِتِ كَيْفَ
 تُسَلِّكُ ، وإِحْرازِ المَناصِبِ كَيْفَ يَكُونُ لها يَدُ أربابِ البُيوتِ أُمَلِّكُ ، ودرجاتِ
 الوِظائِفِ كَيْفَ تُسَمُّ الوالِدَ بالوَلَدِ حَتَّى يَقولَ : لا أبا لي هي اليَومَ لي أم لَكَ ؟ ؛
 كَمِ اسْتَنْبُضِ والِدِهِ لِجَليلِ فَكفَى ، وَجَميلِ قَصِدِ فوفى ؛ وأوقاتِ عِلَّتْ حَتَّى أَصْحَتْ

إلى علاه تَنَسَّب ، ومَنَاصِبَ رُزِقَ - بتَقْوَاهُ فِيهَا - مِنْ حَيْثُ يَحْتَسِبُ وَمِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ؛ وَجَاءَ هَذَا الْوَلَدُ ذَخِيرَةَ وَالِدِهِ فَحَسُنَتْ لِلخَزَانَةِ الذَّخِيرَةُ ، وَعُضِدَتِ الْأَوَّلَةُ مِنَ السِّيَادَةِ بِالْآخِرَةِ .

فَلْيَبْشُرْ هَذِهِ الْوُظُفَةَ مَبَاشِرَةً هِيَ أَعْلَى مِنْهَا وَأَشْرَفُ سِيرِهِ ؛ مُجْتَهِدًا فِيهَا يَبِيضُ وَجْهَهُ عَلَيْهِ وَنَسَبِهِ ، عَارِفًا قَدْرَ هَذِهِ الرَّتَبَةِ مِنْ أَوَائِلِ رُتَبِهِ ، مَتَّقِظًا الْأَفْكَارَ وَالطَّرْفَ ، مُتَأَرِّجًا الْمَعْرِفَةَ إِذَا ذَكَرُوا الْعَرَفَ ، زَائِجًا تَبْرِ شَهَادَتِهِ عَلَى التَّلْعِيقِ فَلَا يُتَّقَدُّ عَلَيْهِ فِي مُتَحَصِّلٍ وَلَا صَرَفٍ ؛ حَتَّى تَقُولَ الْخَزَانَةُ : نَعَمْ الْعَزْمُ الشَّاهِدُ ! وَحَتَّى يَشْهَدَ بِوَفَاءِ فَضْلِهِ الْمَضْمُونُ ، وَحَتَّى يَعْلَمَ بِأَمَانَتِهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ هُوَ «الْمَأْمُونُ» ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي الْوَصَايَا أَوَّلٌ وَأَوْلَى مَا تَمَسَّكَ بِهِ ، وَأَسْتَقَامَ عَلَى شَرَفِ مَذْهَبِهِ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُسِّرُ الْإِسْلَامَ بِتَنْبِيهِ قَدْرِهِ وَيُقِرُّ الْأَوْصَافَ بِمَهْدِيهِ !



تَوْقِيعٌ بِشَهَادَةِ الْأَسْوَارِ ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ يَمُدُّ عَلَى الْإِسْلَامِ مِنْ عِنَايَتِهِ سُورًا ، وَيَجِدُّ لِلْأَوْلِيَاءِ بِرَأْيِ مَيْسُورًا ، وَيُسْعِدُهُمْ بِكُلِّ تَوْقِيعٍ يَكُونُ بِالْحِسَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا - أَنْ يَرْتَبَ الْمَجْلِسُ : عِلْمًا بِعَزْمِهِ السَّاهِدِ ، وَحَزْمِهِ الشَّاهِدِ ؛ وَكِفَايَتِهِ وَأَمَانَتِهِ الَّتِي مَا كَانَ وَصْفُهَا حَدِيثًا يُفْتَرَى ، وَنَظَرًا لِحَالِهِ وَحَالِ الْأَسْوَارِ : فَيَالَهَا شَهَادَةٌ كَانَتْ أَصْلَهَا نَظْرًا .

فَلْيَبْشُرْ هَذِهِ الرَّتَبَةَ الْمُبَارَكَةَ كَمَا عَاهَدَ مِنْهُ مَبَاشِرَةً حَسَنَةَ الْآثَارِ ، مُشْرِقَةً الْأَنْوَارَ ، جَاعِلَةً تِلْكَ الْعَمَارَةَ لِذِمَّتِهِ لِدِمَشْقَ : فَبَيْنَمَا هِيَ سُورٌ إِذَا هِيَ سِوَارٌ ؛ ضَائِقًا لِمَتَحَصِّلِهَا وَمَصْرُوفًا ، مَحْرَرًا لَوْفِهَا مُحْتَرِّزًا مِنْ وَقُوفِهَا ، جَارِيًا عَلَى جَمِيلِ عَادَتِهِ ، زَائِجًا بِكْرَمِ اللَّهِ

تعالى على التوفيق تبرُّشهادته ؛ حتى تشهد هذه الوظيفة بهِمته المتمكِّنة الأسباب ،
ويُضرب بين المدينة وبين من كادها بسورٍ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ؛
والله تعالى يسدُّه في كلِّ أمر ، ويحفظ هِمته وبركته «ليوم كريمةٍ وسدادٍ نغر» .



توقيعٌ بمشارفة خزائن السلاح ، لمن لقبه «جمال الدين إبراهيم» وهو :

رُسم بالأمر العالى - أعلى الله تعالى أعلام حمده ، وجعل أحكام المقادير من
جنده ، ولا زالت أفلاك الشهب من خزائن سلاح سعده - أن يرتب ... : حملاً
على حكم النزول الشرعى ، والطُلوغ إلى رتب الاستحقاق المرعى ؛ وعلمًا بكفايته
التي بلغت آمالاً ، وجعلت للوظائف بذكره جمالا ، وتمرت بقلبه للجهات مالا ،
وأوصلته على رغم الأنداد لما لا ؛ وأعتاداً على أمانته التي أعدّها ملاذاً ، وآكفياً
بها سلاح عزمه نفاذاً ؛ وصيانتته التي طالما أعترض [لها] عرض الدنيا فقالت :
يا إبراهيم أعرض عن هذا ؛ واستناداً إلى نشأته في بيت علت في المناصب أعلامه ،
وصدقت في المراتب حُلومه وأحلامه ، وتناسبت الآن تصرفاته السعيدة : فإما في تدبير
الجيوش وإما في تثير السلاح أعلامه .

فليأشر هذه الوظيفة المباركة بعزم بآدى النجا والنجاح ، وقلم على حالى وظيفته^(١)
وهمته ماضى عزم السلاح ؛ مقررًا لعملها ومعمولها ، ضابطاً لواصلها ومجولها ؛ حتى
يذهب لسان سيفها بشكره ، وتطلع أهلة قسيها بيمين ذكره ، وتكون كعوب رماحها
كلها كعب مبارك بمباشرة وبشره ؛ والله تعالى يسدُّ قلبه في وظيفته تسديد
سهامها ، ويوفر له من أنصبا المرائد وسهامها .

(١) هو مصدر نجا نجا بالمد وقد يقصر ،



قلتُ : وهذا توقيعٌ بوظيفةٍ بكتابة ديوانيةٍ لسامريِّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاته ، وهو :

رُسِمَ بالأمر - لا زالَ قَلَمُ أُوامِرِهِ الفِضِّيَّ يُظهِرُ مَمَرَهُ ، مُسَمِعًا حَدِيثَ الإِنعامِ الشاملِ حَتَّى سَمَرَهُ - أن يَرْتَبَ فلانٌ في كذا : عِلْمًا بِكفائتِهِ التي يُعَدِّرُ بِها في قَوْمِهِ على سُلوكِ النَّبِيِّ ، وَحِدْقِ حِسابِهِ الذي هو أَلَدُّ مِنَ السَّلَوِيِّ المُجْتَنِدِهِ وَمُجْتَبِيهِ ؛ وَفَرِيحَتِهِ التي إِذا آخَثارها آخِيارُ قَوْمِ مُوسى فَازَ مِنَ العَمَلِ بِمَطْلُوبِهِ ، وَإِذا قِيلَ : يا سَامِرِيُّ ما قَدَّمَكَ على القُرْناءِ في الحِسابِ ؟ قالَ : بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ؛ وَأمانتِهِ التي حاطَتِ حِياطَةَ الصَّعْدَةِ السَّمراءِ ، وَرَفَعَتْ رايَتَهُ على الأندادِ قائِلَةً : ما حاطَ البِيضاءَ وَالصَّفراءَ كصاحبِ الحِمْراءِ ! ؛ وَأَعْتادًا على كِتابَتِهِ التي شَهِدَتْ بِها من حُساباتِهِ الأَسفارِ المُبَيَّنَةِ ، وإِقرأءِ لصناعاتِهِ التي سَحَرَتْ الفِكرَ حَتَّى قِيلَ : هَذا من شَعْبِ القَرَّايينَ وَالكَهَنَةِ .

فليباشر هذا الاستيفاء لأوفى منه مترقيًا ، ولكلمات الاختيار متلقيًا؛ ناهضًا بالخدمه ، مجددًا باعتزامه الإسرائيلي ذكر النعمه ، عارفاً قدر الإنعام الذي رعى وشمل كل ذمه ؛ سالكًا من الاجتهاد في خدمه حسابيه كل طريقه ، غائظًا للمحاسد من أهل ملته : فيعبدون العجل مجازًا وحقيقه ؛ مجتمدًا في استئزال المن لا المنع ، معودًا آلاف الحواصل بعشر كلمات رائيه منه في السمع ، معلقًا على جميعها هيكلًا من أمانته فهو أدري في الهيكل بشرط الجمع ؛ صائبا لنفسه من عدوان الحيانه حتى لا يعدو في سبت ولا في أحد ، متترها عن أكل المال مع الخونه حتى يقال : نعم السامري الذي لا يأكل مع أحد .

الضرب الثاني

(من الوظائف الديوانية بالشام - ما هو خارج عن حاضرة دمشق .

وغالب ما يكتب فيها من التواقيع مفتوح بـ«رسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بنظر غزّة، وهي :

رُسم بالأمر - لازل النَّصْرُ المَكْرَرُ، يَحْلُو بِذِكْرِهِ، والسَّعْدُ المَقْتَرُ، يَحْلُو وَجْوهَ الآمالِ
بذَهْرِهِ، وَلَا يَرِحُ سِرَاجُ الخِدْمِ مُضِيًّا عِنْدَ لِيَالِي نَهْيِهِ الحَالِكِ وَأَمْرِهِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ
فَلَانٌ ... : لِمَا عُرِفَ فِي المَنَاصِبِ مِنْ نُهوضِهِ الذِي رَاقَ وَرَاجَ، وَفِي المِهْمَاتِ
مِنْ رَأْيِهِ الذِي يَمْتَنِي أَحْوَالِ الجِهَاتِ المَسْتَقِيمَةِ بِسِرَاجٍ ؛ وَلِمَا شَهْرِلَهُ فِي الأنظَارِ
المُتَعَدِّدَةِ مِنْ عُلُوِّ الهِمَمِ ، وَفِي الوِظَائِفِ المُرْتَدِّدَةِ مِنَ العِزَمَاتِ الَّتِي يَقُولُ السَّدَادُ :
نَبَهُ [لَهَا] عُمْرًا ثُمَّ نَمَّ ؛ وَلِمَا وُصِفَ مِنْ أَمَانَتِهِ وَدِرَائِبَتِهِ وَهِيَ المَرَادُ [تَان] مِنْ مِثْلِهِ ،
وَرَأْسَةِ خَلْقِهِ وَخُلُقِهِ المُشِيدِينَ عَنِ حُسْنِ الثَّنَاءِ وَسَهْلِهِ ، وَإِتَارِهِ الحَمِيدَةِ المُنْتَقَلَاتِ
وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ المُنْتَسِبُ إِلَى سَلِيفٍ يَحْمَدُ لِسَانُ الإِسْلَامِ أَثَرِ عَقْلِهِ وَنَقْلِهِ .

فليأشر هذه الوظيفة المباركة على العادة مباشرة يُحمد أثرها ، ويُسند عن صحيح
عزمه خُبرها وخبرها، ويُورق بفضون الأقلام وورق حسابها ويورق ثمرها؛ مُجتهدًا
فهو من تسأل المجتهدين في عوائد التحصين والتحصيل ، والتأثير والتأثيل ، مليًا بما
يجبر كسر هذه البلاد بالصحة ويأسو جرحها بعد التعديل ، حريصًا على أن يُحْيِيَ -
بمشيئة الله تعالى وتديره - عملها الذي لم يبق الموت من ذمائه غير القليل ؛ سَالِكًا

من الزَاهَةِ والصَّيَانَةِ طَرِبَقَتَهُ الْمُثَلَّى، ومن الكَفَاءَةِ والأَمَانَةِ عَادَتَهُ التِّى تَرْفَعُ دَرَجَتَهُ -
 إن شاء الله - إلى ما هو أعلى وأعلى؛ مُسْتَرْفِعًا لِلْحَسَابِ وَلِقَدْرِهِ فِي الخِدْمَةِ، شَاكِرًا :
 فَإِنَّ الشُّكْرَ صَمِيمٌ لِأَزْدِيَادِ النِّعْمَةِ بَعْدَ النِّعْمَةِ، سِرَاجًا وَهَاجَ الذِّكَاةِ عَلَى الْمَنَارِ وَلَا ظُلْمَ
 مَعَ وُجُودِهِ وَلَا ظُلْمَهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُعَلِّي قَدْرَهُ ، وَلَا يُطْفِئُ ذِكْرَهُ .



تَوْقِيعٌ بِصَحَابَةِ دِيَوَانِ الْحَرَمَيْنِ ، من إنشاءِ ابنِ نُبَاتَةَ ، لمن لَقِبَهُ « شمس
 الدين » وهو :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتْ أَوَامِرُهُ نَافِذَةٌ فِي الْآفَاقِ ، عَاطِفَةٌ عَطْفَ النَّسَقِ عَلَى دَوَى
 الْاِسْتِحْقَاقِ ، مُطْلَعَةٌ شَمْسِ التَّقَى وَالْعِلْمِ فِي مَنَازِلِ الْإِشْرَاقِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَجْلِسُ ... :
 عَلِمًا بِاسْتِحْقَاقِهِ لِمَا هُوَ أَكْثَرُ وَأَكْبَرُ ، وَأَوْفَى وَأَوْفَرُ ، وَإِطْلَاعًا لِشَمْسِهِ وَإِنْ آعَتْزَهَا
 غَمٌّ غَمٌّ فِي مَطَالَعِ شَرْفِهَا الْأَنْوَارِ ؛ وَإِعْلَامًا بِأَنَّهُ غَيْمٌ يَزُورُ وَيُزُولُ ، وَتَقْصُّ لَا يُقِيمُ
 إِلَّا كَمَا يَذْهَبُ عَارِضٌ مِنْ أَقْوَالِ ؛ وَأَعْتَادًا عَلَى مَا عَرِفَ مِنْ وَفَاءِ صَحَابَتِهِ ، وَأَلْفَ مِنْ
 سَنَاءِ دِرَائَتِهِ وَدَرَابَتِهِ ، وَوُصِفَ مِنْ أَيَّامِ دِيُونَتِهِ ^(١) بَعْدَ أَيَّامِ حُكْمِهِ بَعْدَ أَيَّامِ خَطَابَتِهِ ؛
 وَأَسْتِنَادًا إِلَى نَسَابَتِهِ فِي بَيْتِ الْعِلْمِ الْمُسْتَفَادِ ، وَالْحُكْمِ الْمُسْتَجَادِ ، وَالْفَضْلِ الْمُسْتَرَادِ ،
 وَتَرْبِيَةِ الْوَالِدِ الَّذِي كَانَ الْاِخْتِيَارَ يَحْلِفُ بِالْفَخْرِ أَنَّهُ مَا يَرَى أَظْهَرَ مِنْ ذَاتِ الْعَمَادِ .

فَلْيَبَاشِرْ صَحَابَةَ دِيَوَانِ هَذَيْنِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ بِأَمَلٍ مَبْسُوطٍ ، وَحَالٍ بَيْنَهُمَا هُوَ
 مَنَحُوسٌ حَظٌّ إِذَا هُوَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَغْبُوطٌ ؛ وَأَجْتِهَادٍ مَضْمُونٍ لِحَدَوَاهِ فَضْلُ
 الزِّيَادَةِ ، وَسَيْرٍ لَا يَزَالُ بِسَمْسِهِ حَتَّى تَجْرِيَ لِمُسْتَقَرِّهَا مِنْ مَنَازِلِ السَّعَادَةِ ، وَمُبَاشَرَةٍ
 لِأَوْقَافِهَا تُعَانُ وَتُعَادُ أَجْمَلُ إِعَانَةٍ وَأَكْلُ إِعَادَةٍ ، وَصَحَابَةٍ يَتَنَوَّعُ فِي نَفْعِهَا وَيَتَعَيَّنُ حَتَّى
 تَكُونَ [مِنْهُ] عَادَةٌ وَمِنْهَا شَهَادَةٌ .

• أَيَّامُ كَانَ بِدِيَوَانِهِ . وَهُوَ لَفْظٌ سَخِيفٌ لَيْسَ بِعَرَبِيٍّ .



تَوْفِيعٌ بِنظَرِ الشُّعْرَا وَبَانِيَا س، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ، لِمَنْ لَقِبَهُ «صَدْرُ الدِّينِ» وَأَسْمَهُ «أَحْمَدُ» بِالْعَوْدِ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتْ صُدُورُ الْكُفَاةِ مُنْشِرِحَةً فِي أَيَّامِهِ، مُنْشِرِحَةَ الْآمَالِ فِي إِنْعَامِهِ، وَلَا بَرَحَ عَوْدُهُ أَحْمَدًا إِلَى الْمَنَاصِبِ فِي ظِلَالِ سَيُوفِهِ وَأَقْلَامِهِ .

ومنه : فليباشر هذه الوظيفة الشاكرة له أولاً وأخيراً ، وليجتهد فيما يزيد من الاعتناء والاعتناء باطناً وظاهراً ، وليستزِدْ بِشُكْرِهِ مِنَ النِّعْمَةِ فَمَا أَخْلَفَ وَعَدُّ الْمَزِيدِ شَاكِرًا، وَلِيَحْرِضْ عَلَيَّ أَنْ يُرَى أَبَدًا فِي الْمَرَاتِبِ صَدْرًا وَلَا يُرَى عَنْ وُرُودِ الْإِحْسَانِ صَادِرًا .



تَوْفِيعٌ بِنظَرِ حَمِصٍ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ، كُتِبَ بِهِ لِابْنِ الْبَدْرِ نَاطِرٌ حِمِصٌ بِالْزَوْلِ مِنْ أَبِيهِ عِنْدَ مَا أَسَنَّ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالِ حَسُنُ النَّظَرِ مِنْ مَوَاهِبِهِ، وَمِنْ الظَّفَرِ مِنْ مَرَاكِبِهِ، وَسَقَى الْبِلَادَ صَوْبَ الْعَدْلِ مِنْ سِحَائِبِهِ، وَلَا بَرَحَ سَنَا الْبَدْرِ مِنْ خَدَمِهِ إِذَا أَحْسَسَ بِالسَّرَارِ أَلْقَى الْخِدْمَةَ إِلَى أَزْهَرِ كَوَاكِبِهِ - أَنْ يَسْتَقِرَّ الْمَجْلِسُ ... : لِمَا عَلِمَ مِنْ رَأْيِهِ الْأَسَدَ، وَعَزَمَهُ الْأَشَدَّ، وَمَرْبِيٍّ وَالِدَهُ حَتَّى يَبِينَ عِظَمُ الْهِنَاءِ بِالشَّبِيلِ عِنْدَ مَا وَهَنَ عِظَمُ الْأَسَدِ؛ وَرُكُونًا إِلَى نَجَابَتِهِ الَّتِي سَمَتْ أَصْلًا وَفِرْعًا، وَقَدُمْتُ غَنَاءً وَتَفَعًا، وَتَبَسَّمْتُ كَمَا تَمُّ أَصْلُهَا الْمُسْتَأْنَفَةُ حَيْثُ كَادَ الزَّمَانُ يَنْعَى مِنْهُ يَتَعَا، وَاسْتِنَادًا إِلَى أَنَّ الصَّنَاعَةَ شَابَهُ، وَتَسْمَاتِ التَّمْكِينِ هَابَهُ؛ وَإِلَى أَنَّ أَغْصَانَ الْعِزَائِمِ نَضَرَهُ، وَإِلَى أَنَّ مَعَ الْقُدْرَةِ قُدْرَهُ، وَإِلَى أَنَّ كَوَكَبَ الْعِزِّ فِي الْمُنْتَزِلَةِ قَدْ خَلَفَ بَدْرَهُ؛ وَأَعْتَادًا عَلَى سِيَهَامِ تَنْفِيذِهِ الصَّابِئِ،

وأحكام هممه الواجبه ، وأقلام يده التي تُحسِن إخراج الأمل فيه وكيف لا ؟ وهى الحاسبة الكاتبة .

فليأثر هذا النظر المفوض إليه سامياً نظره ، زاكياً فى الخدمة خبره وخبره ، شاكراً هذا الإنعام الذى برأباه وأسعد جدّه ومزید الإنعام مضمون^(١) المزيد لمن شكره ؛ علماً أنّ هذه المملكة المحصية من أقدم ذخائر الأيام ، وأكرم ما أفاء الله من غنيمتها وظلها على جند الإسلام ، وأنها من مراكز الرماح كما شهير فليمدّها من تديره برماح الأقسام ؛ وليواطب بحسن نظره على تقرير أحوالها ، وتقرير آمالها ، وتأثير المصالح فى أعمالها ، ولا يخص أمرها فى التضييق فكفى ما حصتها الأيام على تعاقب أحوالها ؛ بل يجتهد فى إزاحة أضرارها بسداد الرأى الرابع ، وإشاعة الذكر الحسن مع كلّ غادٍ ورائح ، ورفع الأيدي بالأدعية الصالحة فى تلك المشاهد للملك «الظاهر» فى هذا الوقت والملك «الصالح» ؛ حتى يشهد سيف الله «خالد» بمضاء سيف حزمه وعزمه ، وحتى يتوفر من غرض الخير والحمد نصيب سئمه ، وتقوى الله تعالى أول الوصايا وآخرها فلتكن أبداً فى همّة فهمه .



توقيع بنظر الرحبة ، من إنشاء ابن نباتة لمن لقبه «تاج الدين» وهو :

رسم بالأمر - لا زال مليء السحاب ، بسقيا الآمال الوارده ، مملوء الرحاب ، بكفاة الأعمال السائده ، مخدوم الممالك والأيام بأقلام الدواوين الحاسبة وأقلام الدواوين الحامده - أن يستقر : لكفائه التى وافق خبرها الخبر ، ونشر ذكرها نشر الخبر ؛ وصناعة حسابه التى لوعاش «أبو القاسم المعرى» لم يكن له فيها قسيما ،

(١) لعل هذه الكلمة زائدة من قلم الناصح .

ولو عاصرها «أَبْنُ الْجَرَّاحِ» بَقَدَمِهِ وإِقْدَامِهِ لَا نَقْلِبَ عَنْهَا جَرِيحَ الْفِكْرِ هَزِيمًا ؛
بَلْ لَوْ نَوَّاهُ الشَّدِيدَ الْمَاعِزُ لَدُجَّ بِغَيْرِ سَكِينٍ ، وَالتَّاجُ الطَّوِيلُ لَرَجَعَ عَنِ هَذَا التَّاجِ
الطَّائِلُ رُجُوعَ الْمَسْكِينِ .

فَلْيَبَاشِرْ مَا فُوضَ مِنْ هَذِهِ الْوِظِيْفَةِ إِلَيْهِ ، وَتَبَّهَ الْإِخْتِبَارَ فِيهَا نَظَرَ الْجَمِيلِ وَنَاطِرِيَهُ ؛
جَارِيًا عَلَى عَوَائِدِ هِمَمِهِ الْوَثِيقَةِ ، مَا شِئًا عَلَى أَنْجَحِ طَرِيقٍ مِنْ آرَائِهِ وَأَوْضَحِ طَرِيقِهِ ،
نَازِلًا مَنزِلَةَ الْعَيْنِ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ الَّتِي لَوْ صُوِّرَتْ بَشَرًا لَكَانَ نَاطِرَهَا عَلَى الْحَقِيقَةِ ؛
مُفَرَّجًا لِمَصَافِيحِهَا حَتَّى تَكُونَ كَمَا يُقَالُ رَحْبَهُ ، مُقْتَحِمًا مِنْ حُزُونِ أَحْوَالِهَا الْعَقَبَةِ
وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ؟ ؛ فَكَّ مِنْ رِقَابِ السُّفَّارِ الْمَوْقِينَ رَقَبَهُ ؛ وَأَطْمَ أَرْبَابَ
الْأَسْتَحْقَاقَاتِ فِي يَوْمِ ذِي مَسْغَبِهِ ، وَسَاعَفَ بِتَيْسِيرِ الْمَعْلُومِ كُلِّ كَاتِبٍ ذِي مَتْرَبِهِ ؛
حَرِيصًا عَلَى أَنْ يُغْنِيَ الدِّيْوَانَ بَوْفِرِهِ ، وَتُغْنِيَ حُدَاةَ التُّجَّارِ بِشُكْرِهِ ، وَعَلَى أَنْ يَقُومَ
رِجَالُ الْأَسْتِخْدَامِ فِي الْمُهَمَّاتِ بِنَصْرِهِ ؛ وَعَلَى أَنْ تُسَاقَ بِفِضَى قَلْبِهِ الْأَمْوَالُ أَحْسَنَ
سَوَقٍ ، وَعَلَى أَنْ يَكُونَ لِأَهْلِ الرَّحْبَةِ مِنْ إِحْسَانِهِ «مَالِكٌ» وَمِنْ جَدْوَى تَدْيِيرِهِ
«طَوْقٌ» ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوضِّحُ فِي الْمَصَالِحِ مِنْهَاجَهُ ، وَيُعَلِّي عَلَى رُءُوسِ الْأَوْصَافِ تَاجَهُ .



تَوَقَّعُ بِنَظَرِ جَعْبَرٍ قَبْلَ أَنْ تُنْقَلَ إِلَى عَمَلِ حَلَبَ ، مِنْ إِنْشَاءِ أَبِي نُبَاتَةَ ، كُتِبَ بِهِ
«لِهُبَةِ اللَّهِ بْنِ النَّفِيسِ» ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتِ الْمَنَاصِبُ فِي دَوْلَتِهِ الشَّرِيفَةِ تَسْتَقْبِلُ هِبَةَ اللَّهِ بِشُكْرِهَا ،
وَتَنَائِجُ الذِّكْرِ النَّفِيسِ بِمَقْدَمَاتِ نَشْرِهَا وَبِشْرِهَا - أَنْ يَرْتَبَ : لِكِفَايَتِهِ
الَّتِي أَشْهَرَتْ ، وَأَمَانَتِهِ الَّتِي طَهَّرَتْ فَظْهَرَتْ ، وَمُبَاشَرَتِهِ الَّتِي ضَاهَتْ نُجُومِ السَّمَاءِ
إِذَا زَهَرَتْ ، وَنُجُومِ الْأَرْضِ إِذَا أَزْهَرَتْ ؛ وَأَنَّهُ الَّذِي جُرَّبَ عَزْمُهُ فَزَكَ عَلَى

التَّجْرِبِ، وَرَقِي فِي مَطَالَعِ التَّدْرِيجِ وَالتَّدْرِيبِ، وَنَصَّ حَدِيثُ أَجْتِهَادِهِ الْمُقَرَّبِ فَكَانَ سَابِقًا عَلَى النَّصِّ وَالتَّقْرِيبِ؛ وَأَنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةُ الْمُبَارَكَةُ مِنْ أَطَابِ التَّأْرِيجِ خَبَرَهَا، وَقَصَّ سِيرَهَا، وَحَمَدَ صَاحِبَهَا الْعَقِيلِيَّ مِنْ قَدِيمِ أَثَرِهَا، وَعَرَفَ بِرَكَّتِهَا لَمَّا آسْتَسْقَى بِهَا مِنَ السَّمَاءِ عَلَى لِسَانِ بَعْضِ الْحَيَوَانَ مَطَرَهَا .

فَلْيَبَاشِرْ هَذَا الثَّرَى الْمَحْرُوسَ بِكِفَاءَةِ بِاسْمِهِ، وَعَزْمَةِ كَالْحَسَامِ لِأَذْوَاءِ الْأُمُورِ حَاسِمَهُ؛ وَرَأْيِي لِلنَّجَاحِ حَسَنِ الْأَسْتِصْحَابِ، وَتَثْمِيرِ كَمَا مَلَأَ الرَّجَبَةَ فَلَيْمَلَأَ بِمُضَاعَفَتِهِ الرَّجَابِ؛ مُؤَفِّرًا الْعَدَدَ لِلْحَوَاصِلِ وَحَوَاصِلِ الْعِدَادِ، فَاتِحًا لِأَفْوَاهِ الْقُقُولِ بِذِكْرِ الْجَمِيلِ فِي التَّهَامِ وَالنَّجَادِ، مَاشِيًا فِيمَا يَأْتِي وَيَذَرُ عَلَى سَدَادِ الطَّرِيقِ وَطُرُقِ السَّدَادِ .



تَوْقِيعٌ بِنَظَرِ الْبِقَاعِ، مِنْ إِنْشَاءِ ابْنِ نُبَاتَةَ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَ مِثِّي لِلْكَفَاةِ رِزْقًا، وَهَيْبِي لِتَجْدِيدِ الْمَنَاصِبِ مُسْتَحِقًّا،
وَلَا بَرِحَتِ الْبِقَاعُ بِأَيَّامِهِ الْكَرِيمَةِ تَسْعَدُ كَمَا تَسْعَدُ الرَّجَالُ وَلَا تَشْقَى - أَنْ يَرْتَبَ ...
حَسَبَ مَا تَضَمَّتْهُ مَكَاتِبَةُ الْجَنَابِ الْفَلَائِي: مِنْبَهَا عَلَى قَدْرِ هَذَا النَّاطِرِ الْمُهْتَدِّبِ وَصَفُهُ،
الْمُرْتَبَ عَلَى نَحْوِ الثَّنَاءِ نَعْتُهُ وَعَطْفُهُ؛ الْمَشْهُورِ بِمَبَاشَرَتِهِ أَنْتِفَاعِ الْوُظَائِفِ وَأَرْتِفَاعِهَا،
الشَّاهِدِ بِكِفَاةِهِ وَأَمَانَتِهِ مَسَالِكِ الْأَعْمَالِ وَيَقَاعِهَا؛ وَأَعْتَادًا عَلَى مَبَاشَرَتِهِ الزَّكِيهِ،
وَكِتَابَتِهِ الَّتِي لَا يَدَاهِنُهَا الْمَدَاهِنُونَ وَهِيَ نِعْمَ الْبَعْلَبَكِيَّةُ^(١) .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةَ الْمَتَيْمَنَةَ بِمَطَالَعِ رَشْدِهِ، وَمَطَالِبِ سَدِّهِ، عَلِيمًا أَنَّ الْبِقَاعَ
كَالرِّجَالِ تَسْعَدُ وَتَشْقَى: فَلْيَكُنْ سَعْدُهَا عَلَى قَلْبِهِ وَيَدِهِ؛ مَجْتَهِدًا فِيمَا يُبَيِّضُ وَجْهَهُ

(١) نسبة الى بعلبك عند من يجعله اسما واحدا وينعه من الصرف فأما من يضيف الأول الى الثاني ويجرى الأول بوجوه الاعراب فالنسبة عنده بعلي .

شَاكِرِهِ، حَرِيصًا عَلَى آزْدِيَادِ الصِّفَاتِ الَّتِي كَانَتْ فِي عَقْدِ حِسَابِ الْعَمَلِ مَحَلَّ بِنَانِهِ
بِفَعْلِهِ الْآنَ مَحَلَّ نَظِيرِهِ ؛ مُتَمَرًّا لِأَمْوَالِ النُّوَاحِي وَغِلَالِهَا ، وَاضِعًا عَنِ أَرْبَابِ
الْأَسْتِحْقَاقَاتِ مَا عَلَيْهَا مِنْ سُوءِ التَّنْدِيرِ : مِنْ إِضْرِبِهَا وَأَغْلَالِهَا ؛ مَحْتَاطًا لِنَفْسِهِ
فِي الْحَوَاطِ حَتَّى لَا يُذَكَّرَ إِلَّا بِخَيْرٍ، وَلَا يُعْرَفَ قَلَمُهُ إِلَّا بِمَيْرٍ؛ نَائِرًا حَبَّ حُبِّهِ حَتَّى
تَهْوِي إِلَيْهِ أَلْفَاظُ الثَّنَاءِ هُوِيَّ الطَّيْرِ، جَاعِلًا تَقْوَى اللَّهِ مَقْصَدَهُ : فَإِنَّهَا السَّبِيلُ إِلَى فَوْزِ
الدَّارِينَ لَا غَيْرَ .

الصنف الرابع

(مما يكتب لأرباب الوظائف بالشام - تواقع مشايخ الخواص ،

وهي على ضربين)

الضرب الأول

(ما هو بحاضرة دمشق ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح به «الحمد لله»)

وهو توقيع شيخ الشيوخ بدمشق : وهي مشيخة الخاتقاه الصلاحية المعروفة
بالشميصاتية . وقد تقدم أنها يكتب بها أيضا من الأبواب السلطانية . ثم هي تُفرد
تارة عن كتابة السر بالشام ، وتارة تُضَافُ إليها .

توقيع بمشيخة الشيوخ بالشام ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كتب به
للشيخ «علاء الدين علي» مفردة عن كتابة السر ، وهو :

الحمد لله الذي جعل شرف أوليائه عليا، وفضلته الجليل جليا، وأتصال علائهم
كأتصال كوكب الشرف بإيلاء الخيرات مليا، وحاضر أفيقهم كغائبه إذا سطرت
دعواته وأستمرت هباته كان على كلال الحالين وليا .

نحمده على توالى النعم الأنيقه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
شهادة تستمر بأصاها فروع الحقيقة ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله أجدر الخلق
بكرم الخلقه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين سلكوا بهداه أحسن طريق
وسلكوا في أحسن طريقه ، صلاة دائمة لا تزال بها عقائد الإخلاص مؤنقة وألسنة
الذكر طليقة ، ونحية إذا بدت في حضرة الأدكار كانت للأعين من النور نهارة
وكانت للأبصار من القدر شقيقة .

أما بعد ، فإن أولى المراتب الدينية بتقديم العناية ، وتفخيم الرعاية ، وتكريم التولية
ولا سيما إذا كانت منتسبة إلى أهل الولاية - مرتبة مشيخة الشيوخ التي يجمع عباد الله
الصالحين نطائفا ، ويضمهم رواقها ، وتطلعهم مطالع كواكب الهدى آفاقها المنيرة
وأوقافها .

ولما حلت الآن هذه الرتبة بالشام المحروس من شيخ تدور هذه الطائفة على
قطبه ، وتجتمع على مائدة قرباته وقربه ، وتمشى على قدميه وتساوى صلاح أحوالها
عن قلبه - تعين أن نختار لها من كملت بالله أداته ، وصفت في مشاهد الحق
ذاته ، وزكت في علمي الإبانة والأمانة شهادته المفضحة ومشاهداته ، وأجمع الناس
على فوائد تسليكه وأسلاك قلبه حيث بدت في وجوه الحسن حسنة ، ووجوه
الشام شاماته ؛ لما شهر من معرفته وعرفانه ، ولما دعى له ببقاء نوح لما فاض

في العلم من طوفانه ؛ ولما قام في الأذهان من طبقة قدره الموصوف ، ولما سار من رسالة أخباره فإذا قالت الآثار : « هذا السرى » قال الإيثار : « وقضله معروف » .

فليأشر هذه المشيخة المباركة بصدر السالكين رحيب ، وبر السائلين مجيب ، وقضيل يقول الرائد والمريد بدار إقامته : قفا نبك من ذكرى منزل وحيب ؛ وبشر وبشرى يملآن عين المجتلي ويد المجتدي ، وعطف ولطف إذا قال الذاكر لمن مضى :
 راح ماليكي ! قال المعانين : وجاء سيدي ؛ وليراع أمور الخواني الشامية ما غاب منها وما حضر ، وما سمع منها وما نظر ، وليهدب قلوب ساكنيها حتى يعود كإخوان الصفاء من المودة قوم كانوا إخوان الصفا من الحجر ؛ قائما بحق الرتبة قيام مثله من أئمة العلم والعمل ، داعيا لهذه الدولة العادلة فإنه أقصى دواعي الأمل ، معربا -
 لأن العربية من علومه - عن الإيضاح غنيا عن تفصيل الجمل ؛ وهو المسلك فما يحتاج لتسليك درر الوصايا ، الخبوء لمنل هذه الزوايا المبرورة : فنعم الزوايا المحبوة بنعم الخبايا ؛ والله تعالى يعيد على الأمة بركاته ، ويمتعمهم باستسقاء النيوث : إما بسطها عند بره ! وإما بسطها عند دعواته .



وهذه نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بالشام أيضا ، مضافة إلى كتابة السرى به ، كتب بها للقاضي ناصر الدين « محمد بن أبي الطيب » كاتب السرى بالشام « بالمقرر الشريف » وهي :

الحمد لله الذي شرح صدور أوليائه بمعرفة الحق وأتباعه ، وجعلهم خواصه الذين غدوا من أتباع الحبيب وأشياعه ، ورفع ذكركم على رؤوس الأشهاد وآواهم إلى مقام الأئس في محل القرب بالتسليك المحمدي الذي أوصل إليه مزيد بانقطاعه ، وخصهم

بركات من حصّهم على الأعمال الصالحة بقصده الجميل وعلمه الغزير واتّضاعه ،
 ومنّهم بمن أوضح لهم الطّريق المستقيم بإبدائه الحقّ وإبدار إبداعه ، وغذّاهم بالحكمة
 فنشّوا بالمعرفة وصار لهم العقل السليم بالتحفّظ من الأهوية الرديّة فسلمت لهم الطّيبة
 على قانون الصّحة بحسن تركيبه وأوضاعه ، وأفاض عليهم من بحر علمه ما نالوا به الرشد
 فصاروا أولياء بملازمة أوراذه ومتابعة أوزاعه .

نحمده على ما ألهمنا من وضع الشّيء في محله ، وإيصال الحقّ إلى أهله ، وإجابة
 سُؤال الفقراء وإعانتهم بمن أغناهم عن السؤال بفضائله وفضله ، حمداً بعيد كسّاف
 الكرب على مُريديه وطلّبتيه ، ويرفع مقام من قام بشعار الدين بتعظيم قدره وعلوّ
 درجته ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذي من تقرب منه ذرّاعا ،
 تقرب منه باعا ، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة وإذا تقرب إليه عبده بالنوافل
 أحبه ، (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من
 ورقة إلا يعلمها ولا حبه) . ونشهد أنّ سيدنا محمّدا عبده ورسوله الذي أضاءت
 الأكوأ من نور هديه فأهتدت به أصحاب المعارف المسامون لموجدهم الأمر
 والإرادة ، ومن هو روح الوجود الذي أحيا كلّ موجود وسلّك طريق سنّته
 المؤصّلة إلى عالم الغيب والشّهادة ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين صفت
 قلوبهم من الأكدار وإلى التقوى سبقوا ، وصدقوا في المحبة فاستحقوا ثناء مولاهم :
 (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا) ؛ فمنهم من سُمّت من فيه رائحة كيد مشويّة من
 خشية الله ، ومنهم من حدّث بما شاهده ببصره وبصيرته على البعد ورآه ؛ ومنهم
 من أحيا ليله وأسّحت منه ملائكة السماء ، ومنهم من آخذها إذا هو باب
 مدينة العلم وركن العلماء ؛ صلاة دائمة تُطيّب أوقات المحييين ، وتُطربُ بسماعها
 قلوب المتقين أهل اليقين ؛ وسلّم تسليما .

أما بعد، فإن أولى من قدمناه، إلى أهل الصلاح، ورفقناه، إلى عمل القرب وروح الأرواح؛ وحكمناه، على أهل الخير، ومكّاه في حزب الله الذي غلب لما اجتهدوا على إخراج حزب الشيطان من قلوبهم وزحفوا على قراره بجيش التقوى وسمتهم الزهد وحسن السير؛ وولّناه أجل المناصب الذي تجتمع فيه قلوب الأولياء على الطاعة، وأحللناه أرفع المراتب الذي خطبه منهم خيار الجمع لجلوة عروس الجمال في الخلوة بعقد ميثاق سنة المحبة وشهادة قلوب الجماعة - من جملة صورة ومعنى، وأنخر به أجاد ومتنى؛ وباشره على أحسن الوجوه، وبلغ كلاً من مريدية وطلبته من فضائله وفضله ما يؤمله ويرجوه؛ ومدّ موائد علومه المحتوية على أنواع الفضائل المغدّية للقلوب، وجلس في حلال الرضا فكسا القوم الذين لا يشقى بهم الجليس ملايس التقوى المطهرة من العيوب؛ وظهر في محفلهم للهداية كالبدر وهم حوله هاله، وكان دليلهم إلى الحق فدّوا بتسليكه من مشايخ الرسالة؛ وجاهد في بيان معاني القرآن العظيم حتى قيل لما فسره: هذا «مجاهد»، وأستدل على تنزيهه من تكلم به - سبحانه - عن التشبيه والتعليل «وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد»؛ ونقل الحديث الحمدي الذي هو «موطاً» لتفهم «الغريب» منه وميز «صحيحه» لكل «مسلم» فأطرب بسماعه الوفود، وأفاد العباد «تنبيه الغافلين» فقاموا في الخدمة فأصبحوا تعرفهم بسياهم: (سماهم في وجوههم من أثر السجود)؛ وخفض جناحه الذي عبر به الشعري العبور والنسر الطائر، وسار إحسانه إلى طوائف الفقراء فصار مثلاً فخيداً «المنزل السائر».

وكان فلان - أعاد الله تعالى من بركاته وأسبغ ظلاله - هو الذي أقامه الله تعالى لهذه الطائفة المباركة مرة بعد مره، ودُكرت صفاته الجميلة فكان مثله للعيون قرة؛

وَأَتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي مَلَأَتْ الْأَفْوَاهَ وَالْمَسَامِعَ كَمَا مَلَأَتْ مِرْءَاتَهُ الْمُقَلَّ، وَحَصَلَ
 الْبَشَرُ بِمَعْرِفِهِ الَّذِي تَتَّبِعُهُ السَّرِيُّ أَبُو يَزِيدَ بَغْرِي عَلَى عَادَةِ الْقَوْمِ الْكِرَامِ؛ وَتَبَعَتْ
 وَتَبَعَتْ عَنَاصِرُ فِضَائِلِهِ فَكَانَتْ شَرَابَ الَّذِينَ صَفَّتْ قُلُوبُهُمْ مِنْ كَدِّهَا، وَأَمْطَرَتْ
 سَمَائِبُ عُلُومِهِ الْإِلَهِيَّةِ الدَّارَةَ مِنْ سَمَاءِ الْحَقِيقَةِ فَسَالَتْ أَوْدِيَةً بِقَدْرِهَا؛ وَظَهَرَتْ لَمْعَةُ
 أَنْوَارِ شَمْسِ مَعَارِفِهِ عِنْدَ التَّجَلِّيِّ عَلَى الْمُرِيدِ، وَسَاقَ نَفُوسَ الْقَائِمِينَ لِمَا عَزَّ مَطْلَبُهُمْ
 بِأَصْلِهِ الَّذِي شَرَحَ طَلَّاسِمَ قَلْبِ الْغَائِي بِذِكْرِ الْبَاقِي فَعَرَفُوا فِي بَحَارِ الْحَبَّةِ ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ
 نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ .

فَلذَلِكَ رُسِمَ بِالْأَمْرِ الْعَالِي - لَا زَالَ يَرْفَعُ أَهْلَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ إِلَى أَعْلَى مَقَامٍ ،
 وَيَبْنِي لَهُمْ فِي جَنَّاتِ الْقُرْبِ قُصُورَ الرِّضَا: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا﴾ وَمَنْ يَدُهُمُ الْإِكْرَامُ -
 أَنْ تُفَوِّضَ إِلَيْهِ مَشِيخَةُ الشُّيُوخِ بِالشَّمَامِ الْحَرُوسِ : وَظِيْفَتُهُ الَّتِي خَرَجَتْ عَنْهُ ،
 الْمَرْسُومُ الْآنَ إِعَادَتُهَا عَلَيْهِ ، عَوْضًا عَمَّنْ كَانَتْ بِيَدِهِ ، بِمَعْلُومِي النَّظَرِ وَالْمَشِيخَةِ الشَّاهِدِ
 بِهِمَا دِيْوَانَ الْوَقْفِ الْمَبْرُورِ إِلَى آخِرِ وَقْتِ ، عَلَى أَجْمَلِ الْعَوَائِدِ ، وَأَكْلِ الْقَوَاعِدِ ؛
 تَفْوِيضًا نَظَّمَتْ بِالْقَبُولِ عُقُودَهُ ، وَدَامَتْ فِي دَارِ السَّعَادَةِ سَعُودَهُ ، وَفِي دَرَجِ الْمَعَالِي
 صُعُودَهُ .

فَلْيَتَلَقَّ ذَلِكَ بِالْقَبُولِ ، وَلْيَبْتَغِ الْفُقَرَاءَ مِنْ إِقْبَالِهِ الْحِمِّ الَّذِي أَلْجَمَ عُدُوهُ الْمُنَى وَالسُّوْلَ ؛
 وَلْيَعَامِلِ الْمُرِيدِينَ بِالشَّفَقَةِ الْمَعْرُوفَةِ مِنْ رَحْمَةِ دِينِهِ وَإِفْضَالِهِ ، وَلْيَسْمَلْ كَلًّا مِنْهُمْ
 بِعَيْنِيَّةٍ وَطُفْهِهِ فَإِنَّ الْخَلْقَ عِيَالُ اللَّهِ وَأَحَبَّهُمْ إِلَيْهِ أَشْفَقُهُمْ عَلَى عِيَالِهِ ؛ وَلْيَأْمُرْهُمْ بِمَلَاذِمَةِ
 إِقَامَةِ الصَّلَاةِ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنَ اللَّيْلِ ، وَإِذَا مَالُوا - وَالْعِيَادَ بِاللَّهِ تَعَالَى - يَوْمًا
 إِلَى مُنَافَسَةِ بَيْنِهِمْ فَلْيَقُلْ : اتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا وَلَا تَمِيلُوا كُلَّ
 الْمَيْلِ ؛ وَلْيَفْسَحْ لَهُمْ حَرَمَ الْخَيْرِ الَّذِي وَقُنُوا فِيهِ نُجَاهَ قَصْرِ تَعْبُدِهِ الَّذِي عَلَا بِالْجَوْهَرِ

الْقَرْدِ وَقُوَّةِ الْإِخْلَاصِ ، وَيُدْخِلُهُمْ مِنْ جَنَّةِ إِقْبَالِ فَوَائِدِهِ الَّتِي فِيهَا مِنْ أَبْكَارِ مَعَانِيهِ حُورٍ مَقْصُورَاتٍ فِي خِيَامِ أَدَائِهِ لَمْ يَطْمِئِنَّ نَأْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ وَأَعْجَزُهُ الْعَالِي وَجْوهُهُ الْعَالِي كُلُّ بِنَاءٍ وَعَوَاصٍ ؛ وَلِيَجْعَلَهُمْ لَهُ عَلَى جَبَلِ آعْتَادِهِ وَمَرُورَةِ مَرُورَتِهِ إِخْوَانَ الصِّفَا ، وَيُقِيمُهُمْ فِي رُكْنِ مَقَامِ الْمُنَاجَاةِ إِذَا زَمَزَمَ مُطْرِبُ حَيْبِهِمْ تَلْقَاءَ أَهْلِ الْوَفَا ؛ وَلِيَقْدِمَ السَّابِقِينَ بِمَعْرِفَةِ حَقِّهِمْ وَنَجْدَتِهِمْ بِالْوَرَعِ الَّذِي يَغْلِبُونَ بِهِ الشَّيْطَانَ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِبُونَ ، وَيُؤَدِّدُوا قُلُوبَهُمُ الْمَرْضَى بِشَرَابِ الْمَحَبَّةِ وَتَرْكِيبِ أَدْوِيَةِ الْإِمْتَلَاءِ مِنَ الدُّنْيَا لِيَعْتَدُوا وَقْتَ السَّحَرِ [بِحَدِيثِ] (هَلْ مِنْ تَائِبٍ) وَلَا يَسْتَقِيمُ كَاسَاتٍ تَضْعُفُ عَنْهَا قُوَّتُهُمْ حَتَّى يُنْقَوُوا مِنْ بَرْدَةِ الْهَوَى الْمُضِرَّةِ وَيَغْتَسِلُوا بِحَارِّ مَجَارِي دُمُوعِ الْخُشُوعِ وَيَلْبَسُوا جَدِيدَ مَلَائِسِ التَّقَى وَيَغْدُوا مِنَ الْحَبَائِبِ . وَمِنْهُ تُعْرَفُ الْوَصَايَا ، وَعَنْهُ تُنْقَلُ الْمَزَايَا ، وَكَرُمُ الْأَخْلَاقِ وَالسَّجَايَا ؛ وَلِيَأْمُرَ السَّالِكِينَ بِمَدَاوِمَةِ الْأَعْمَالِ الَّتِي قَامَتْ بِحُسْنِ الْعَقَائِدِ وَأَسْتَقَلَّتْ ، وَلِيَحُضِّضَ الْمُرِيدِينَ أَوْائِلَ التَّسْلِيكِ عَلَى ذَلِكَ فَإِنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّتْ ؛ وَلِيَعْرِفَهُمُ الْمَحَبَّةَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى لِقَوْلِهِمْ يَقُومُوا عَلَى قَدَمِ الْهَيَامِ ، وَلِيَبَيِّنَ لَهُمُ الْمَعْنَى إِذَا لَمْ يَعْرِفُوا الْمَعْنَى لِيَقْطَعُوا الْهَوَاجِرَ فِي طَلَبِ الصِّيَامِ ؛ وَلِيَفَرِّقَ بَيْنَ الْوَارِدَاتِ بِمَلَازِمَةِ الْأَوْرَادِ لِثَلَاثًا يَقَعُوا مِنَ الْإِسْتِبَاهِ فِي حَيْرِهِ ، وَلِيَأْمُرَهُمْ بِإِدْخَالِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ لِتَكُونِ التَّقْوَى لِقُلُوبِهِمْ قُوْتًا وَالزُّهْدُ مِيرَةً ؛ وَلِيَقْمَعَ أَهْلَ الْبِدْعِ ، وَلِيَرْفَعَ مَنْ أَنْضَعَ ؛ وَلِيَتَفَقَّدَ أَحْوَالَ أَوْقَافِهِمْ بِجَمِيعِ الْخَوَاقِ وَالرُّبُطِ وَالزُّوَايَا بِالْجَمِيلِ مِنَ النَّظَرِ ، وَلِيَزِدَّ فِي الْأَجُورِ بِمَا يُوَثِّرُ فِيهَا نَظَرُهُ الَّذِي مَازَالَ لَهُمْ مِنْهُ أَوْفَرُ نَصِيبٍ فَبِذَا الْعَيْنُ وَالْأَثَرُ ؛ وَالْوَصَايَا وَإِنْ كَثُرَتْ فَهِيَ مُفِيدَةٌ وَعِنْدَهُ مَنبَعُهَا ، وَتَقْوَى اللَّهِ الَّذِي هُوَ شَيْخُهَا وَمُرِيدُهَا فِي بَيْتِهِ الْمُبَارَكِ حَلَاوَةَ ذَوْقِهَا وَجَمْعُهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَكُونُ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِآيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ ، وَيَرْفَعُهُ بِهَا وَيُرْقِيهِ إِلَى أَعْلَى الدَّرَجَاتِ .

المرتبة الثانية

(من تواقع مشايخ الأمكنة بحاضرة دمشق - ما يفتح به «أما بعد

حمد الله» وفيها وظائف)

نسخة توقيع بمشيخة إقراء القرآن ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ،
كتب به للشيخ شهاب الدين «أحمد بن النقيب» بـ«المجلس العالى» وهى :

أما بعد حمد الله رافع شهب الهدى أعلما، وجاعل رب أفضلها أعلى ما ، ومحل
أحدها من مدارس الآيات منازل بدر إذا مح الحاق من هذا أسما أثبت من سمو هذا قمرًا
تمما، ومسكنه من مواطن الذكر جنات قوم بارتقائهم وبقاء ذكرهم خالدين فيها
حسنت مستقرًا ومقاما، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أرفع من أخذ القرآن إماما،
وأفجع من عقد استحقاق النبوة على حمده خنصرًا وجل الحق بهداه إنبها ما ، وعلى آله
وصحبه أمتع من لبس بسر الآيات درعا وأقسم من بركتها سهامًا - فإن وظيفة
يكون القرآن الكريم، ربيع فصلها وفصلها، ورتبة يكون الذكر الحكيم، مداوى قلوب
جفائها، ومشيخة يكون مرید الآيات البينات وإرد زوايا أهلها - لأحق أن تختير لها
الأكفاء من ذوى الفضل الأثير، والأدلاء على أشرف نتاج الهداية من ذوى الحليم
الساكن والعزم المثير .

ولما كانت مشيخة إقراء القرآن بالثربة المعروفة بأمر الصالح بدمشق المحروسة :
هى كما يقال : أم العلم وأبوه، وأخوه وحموه، وصاحبته وأهل الكتاب والسنة بنوه؛
وخلت الآن من شيخ [كان] يحى حماها، وتقسّم الخلوات والآيات من بركتته وتلاوته
بـ«الشمس وضحاها والقمر إذا تلاها»، وكان فلان هو الذخيرة الخبوة لهذا الأمر ،
وذو السيرة المحبوة بهذا الشرف الغمر، وصاحب القراءة والبيان الذى لا يعوز زمان

طَلَبْتَهُ [أبو] عُمَرُ وَلَا أَبُو عَمْرٍو؛ وَالْجَامِعُ لِعُلُومِ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى جَمَعَ سَلَامَةً فِي فَنِّهِ، وَصِحَّةٍ فِي شَرَفِ ذِهْنِهِ، وَجَوَازِ أَمْرِ يَشْهَدُ أَنَّ الْبَحْرَ يَخْرُجُ [لَدَى] الْمَشْكَالَاتِ مِنْ صَدْرِهِ وَيَدْخُلُ عِنْدَ عَقْدِ الْحُبِّ فِي رُذْنِهِ؛ وَالْقَارِيُّ الَّذِي إِذَا قَالَ مُبِينًا قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، وَالتَّالِي الَّذِي إِذَا قَصَرَ أَوْ مَدَّ، مَدَّ إِلَى سَمَوَاتِ الْعُلَى بِأَسْبَابِ، وَالْمُشِيرُ إِلَى عِلْمِهِ الْمَرْسُومِ بِمُصْحَفِهِ فَلَا عَدَمَ إِشَارَتِهِ وَمَرْسُومَهُ أَوْلُو الْأَلْبَابِ؛ وَالْمَجْلِيُّ وَإِنْ سَمَّاهُ الْعُرْفُ تَالِيًا، وَالْمُنْتَقَبَ عَنِ غَوَامِضِ التَّفْسِيرِ: وَ«أَبْنُ النَّقِيبِ» أَوْلَى بِسِنْدِ التَّفْسِيرِ عَالِيًا، وَالْإِمَامَ السُّنِّيَّ وَإِنْ سَمَّاهُ الشَّرْعُ الْإِمَامَ الْحَاكِمَ دَهْرًا وَأَقَامَ لَهُ فِي أَفْقِ كُلِّ فَضْلٍ دَاعِيًا، وَالسَّامِي الَّذِي يَسْلُكُ بِفَخْرِهِ عَلَى «الْعِرَاقِيِّ» أَوْضَحَ مَحَجَّهُ، وَالْعَرَبِيُّ الَّذِي مَا «لِلْفَارِسِيِّ» دَخُولٌ فِي بَابِ تَيْقُنِهِ وَإِنْ جَاءَ بِحُجَّةٍ، وَذُو الرِّوَايَاتِ الْمُرُوبَةِ سَحَابِيَّةٍ، وَخَلْفَ الْعُلَمَاءِ الْأَبْيَضُ فَمَا «خَلْفَ الْأَحْمَرِ» مِمَّا يُقَارِبُهُ، وَلَا «تَعَلَّبَ» مِمَّا تَضِحُّ لَدَيْهِ تَعَالِيَهُ، وَلَا «أَبْنُ خَرُوفٍ» مِمَّا يُدَانِيهِ وَهُوَ «الَلَيْثُ» وَمِنَ الْأَقْلَامِ مَحَالِيَهُ، وَبَقِيَّةُ السَّادَةِ الْقُرَاءِ الْمُنَشَّدُ قَوْلَ الْحَمَاسِيِّ .

وَأَيُّ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ هُمْ هُمْ * إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ صَاحِبُهُ!
بَدُورُ سَمَاءٍ، كَلَّمَا غَابَ كَوْكَبٌ، * بَدَا كَوْكَبٌ، تَأَوَى إِلَيْهِ كَوَاكِبُهُ!

تَعَيَّنَ أَنْ يُخْطَبَ لِهَذِهِ الْمَشِيخَةِ خُطْبَةُ الْفَقِيِّ لِاقْتِبَالِ مَجْدِهِ وَالشَّيْخِ لِتَوْقِيرِهِ، وَيُطَلَّبُ لِهَذِهِ الرَّتَبَةِ طَلَبًا يَقْضِي الْأَمْلَ فِيهِ بَعْنَوَانُ تَيْسِيرِهِ .

فَرُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ أَنْ يَسْتَقَرَّ... : وَضَعًا لِلْأَشْيَاءِ فِي مَحَلِّهَا، وَرَفْعًا لِأَقْدَارِ الْأَفْضَالِ إِلَى أَعْلَى رُتَبِ الْفَضْلِ وَأَجْلِّهَا؛ وَعِلْمًا بِمَقْدَارِ هَذَا الْعَالَمِ السَّابِقِ فِي أَفْقِ الْهُدَى شَهَابًا، الْمُدْفِقِ عَلَى رِيَاضِ الْعِلْمِ سَحَابًا، النَّاقِلِ إِلَى مَجَالِسِ الْأَسْتِغْلَالِ خُطًّا يَقُولُ لَهَا الْمُؤْمِنُ بِالْإِكْرَامِ وَالْكَافِرُ بِالْإِرْغَامِ: ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا﴾ .

فليأشُرْهـ هذه الوظيفة مباشرة مثله من ذوى الأناة والإفادَة ، وكفاة المناصب الذين على سَعِيهِمُ الحُسْنَى وعلى الدولة تصلُّ الزيادة ؛ وليسلك في الأشغال عادة نُطْقِهِ الأَحْسَنُ ، وليعَامِلْ طَلَبَتَهُ في المباحث بغير ما أَلْفُوا من الخلق الأَحْسَنُ ، وليَعْلَمْ أَنَّهُ قد جُمِعَ بين بَرِّهِ وتُرْبَةِ الأُمِّ كى تَقَرَّعِنِهَا ولا تَحْزَنُ ؛ فليسرها بِنُبْلِهِ ، وليبرها بفضله ؛ وليوفِّرِ السَّعَى إليها كُلِّ وَفْتٍ في المَسِيرِ ، وليُفَسِّرْ أَحْلَامَ أميها فيه فَمِنْ مُفْرَدَاتِ علومه التَّفْسِيرُ ؛ وليُحَسِّنْ لتلاميذِهِ الجَمْعَ ، وليُحِمِّ حَمِيَّ رواياتِهِم من الخَطِّ ولا عَجَبَ أن يُحْمَى حَمِيَّ السَّبْعِ ! ؛ تالياً كلام رَبِّهِ كما أنزل وحسبِهِ ، داعياً بِذَنبِ قراءتِهِ إلى ابنِ كَعْبٍ فحِذا نَسَبُهُ المَبَارِكُ وكَعْبُهُ ؛ ناصباً بِمَنْظَرٍ تَخَّصَّهُ أشخاصُ أمثاله الأَوَّلِ بعد ما ضمهم صَفِيحُ الخُدِّ وتُرْبُهُ ، حتَّى يَمِيسَ «الكِسَائِيُّ» في بُرْدِ مَسْرَّتِهِ الفاسحِ ، ويفتَحَ عيونَ «حَمْرَةَ» على زَهْرَاتِ رَوْضِ عَيْقِ المَباحِرِ ، ويتَرَمَّ وَرِشَانُ «وَرِشِ» في الأوراقِ على بَحْرِه الزَّاحِرِ ؛ ويظهِرَ بِفَضْلِهِ ذِكْرَ «الشَّاطِئِي» فيكون «القاضي الفاضل» رحمه الله قد أظهره في الزمنِ الأَوَّلِ و«القاضي الفاضل» أجلُّه الله قد أظهره في الزمنِ الآخِرِ ، وتقوى اللهُ تعالى كما عُلِمَ خَتَامُ الوصايا البِيضِ فليتناوَلْ مِسْكَهَا الذى هو بِشَدَا المِسْكِ سَانِحِ ؛ واللهُ تعالى يَنْفَعُ بِعلومِ صَدْرِهِ الذى ما ضاقَ عن السُّؤالِ فَمَلَّهُ ، ويمتَعُ بعلوِ قَدْرِهِ الذى إن لم يَكُنْ هو لَفَضْلِ الشَّاءِ فَمَنْ لَهُ .

المرتبة الثالثة

(من تواقع مشايخ الأماكن بحاضرة دِمَشْقَ - ما يفتتح بـ «رُسم بالأمر»)

تَوَقِّعُ بِمَشِيخَةِ الحَوَالِيقية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ؛ وهو :

رُسم بالأمر - لا زال حُسْنُ اعتقاده يَسْتَنْزِلُ النَّصْرَ فينصر ، وَيَسْتَبْصِرُ مطالعِ الفَوْزِ فيبصر ، وَيَسْتَجِلِبُ الأُدعيَةَ الصالحة من كُلِّ زاھِدٍ إذا حام في أفقِ العبادة

حَاقَ وما قَصَرَ - أن يستقرَّ ... : حملاً على الوصية التامة الحكم والأساس ، وعلماً بأنه ممن حلَّ في مشيخته لباسٌ بَلَّاسٌ ، ونزع في الزهد عما عدَّ زينةً في النَّاسِ ؛^(١) وسرح شعره حقيقة التَّسريح فأطلقه ، ومحا رِقَّ سَوَادِهِ وبياضه فأعتقه ؛ ولازم طريقَ مشايخه فما ، وشكر الحال بفعل في منبت كلِّ شعرةٍ لساناً للشُّكْرِ وفاً ؛ وسرَّ طائفةً وردوا على آثاره مناهل الوفا ، وصفت قلوبهم وجوههم فدارت عليهم كُؤُوسُ إخوان الصفا ؛ حتى مشوا إلى مطالب الخير مشى الرَّخاخ ، وفأخروا أقواماً دنسوا عِزَّةَ رُتبتهم فلولا أدبهم لأتسُدُّوهم : «عقول مُردِّ ولحى أشياخ» .

فليقم في مشيخته قياماً يُحْيِي القومَ بأنفاسه ، ويهبهم بكرامة الكشف من قلبه وتكريم الكشف من رأسه ؛ سالكا بهم في طرائق الخير مُستبشرين ، آمراً بتقصير الملابس ورعاً حتى يدخل بهم إلى النَّسكِ مُحَلِّقِينَ ومُقَصِّرِينَ ؛ والله تعالى ينفعُ به ، ويُفِيَّ حاله بمذهبٍ مذهبِهِ .

الضرب الثاني

(من تواقع مَشِيخة الأماكن - ماهو بأعمال دِمَشق ، وفيه مرتبة

واحدة ، وهي الأفتاح بـ«رسم»)

وهذه نسخ تواقع من ذلك :

نسخة تَوَاقِع بِمَشِيخة الحَرَمِ الحَلِيلِيَّة ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، كُتِبَ به للشيخ «شمس الدين بن البرهان» الجعبري بـ«المجلس» وهي :

رُسم بالأمر الشريف - أعلاه الله تعالى ، وبَسَطَ عدلَه الذي لا يبلغه الوَاصِفُ ولو تَعَالَى ، وسرى لأولياء بني الأولياء بيَّره الذي تَسَنَّنَ بِسُنَّةِ الغَيْثِ ثم تَوَالَى - أن

(١) البلاس كسحاب المسح فارسي مغرب .

يستقر... .. - أدام الله تعالى بركته الانتفاع، وباقتداء سلفه الارتفاع، وأعاد من بركات بيته الذي قام البرهان بفضلته وقال بوضوح شمس الإجماع - في مشيخة حرم سيدنا الخليل صلوات الله عليه وسلامه، على عادته القديمة المقدمه، ومستقر قاعدته المعلومة المعلمه؛ بعد إبطال ما كُتِبَ به لغيره فإن هذا الوليَّ أولى، ولأنَّ الحقَّ معه وباع الحقَّ أطول على المعنيين إطالةً وطولاً؛ وضماً للشئ في محله الفانحر، وحملًا على ما بيده من تواقيع شريفة توارث بركتها ملوك البسيطة في الأول والآخر؛ وعلمًا أنه بقية العلم المشيد، والزهد العتيد؛ وخليفة السلف الصالح وما منهم إلا من هو «أمين». العزم «رشيد»، وأنه الشيخ وكل من عرفه في بقائه ولقائه مُريد؛ والقائم بالمقام الخليلي - صلوات الله تعالى على ساكنه - مقامًا مجتبي، والمنتسب إلى خدمة الحرم الإبراهيمي مخدوما صلى الله عليه ونسبا؛ والقديم المهجرة فلا تتركه الأوطان ولا تهجره، والمقيم بالبلد الخليلي على إقامة الخير: فما ضره أن العدو يشكوه إذا كان «الخليل» يشكره؛ وقد سبقت له مباشرات في هذا الحرم الشريف فكان عزها تمامًا، وشكرها لزما، وكانت على الصادرين والواردين كذلك النار النبوية بردًا وسلامًا. فليعد إلى مباشرة وظائفه المذكورة في التواقيع الشريفة التي بيده، وليكن يومه في الفضل زائدًا على أمسه مقصرًا عن غده؛ بثناء يتلق الأضياف أبي الأضياف، باليف أحوال الداخلين إليه شتاءً وصيفًا وإن لم تكن رحلة إيلاف، جاريًا في بركة التدبير والشمير على عادته وعادة سلفه فنعم الخلف ونعم الأسلاف؛ مواظبًا على عادة تقواه ورفع الأدعية لهذه الدولة الشريفه، جاعلاً ذلك منه أول وانحر كل وظيفه؛ والله تعالى ينفع بركات سلفه وبه، ويكافئ عن الأضياف بسط راحته بالخيرات وفضل تعبته .



تَوَقَّعُ بِمَشِيخَةِ الزَّاوِيَةِ الْأَمِينِيَّةِ بِالْقُدْسِ وَنَظَرِيهَا، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي «بِرَهَانَ الدِّينِ»
أَبْنِ الْمَوْصِلِيِّ بِ«الْجَنَابِ الْعَالِيِّ» وَهُوَ :

رُسْمٌ ... - لِأَزَالِ يُجْرَى الْأَوْلِيَاءُ فِي مَقَاصِدِهِمْ عَلَى أَجْمَلِ عَادَةٍ، وَيَخْتَارُ مِنْهُمْ لِمَوَاطِنِ
الْخَيْرِ مَنْ يَرَعَاهَا بِنَظَرٍ يَمُرُّهَا السَّعَادَةُ - أَنْ يُحْمَلَ فَلَانٌ فِي وَظِيفَتِي النَّظَرِ وَالْمَشِيخَةِ
بِالزَّاوِيَةِ الْأَمِينِيَّةِ بِالْقُدْسِ الشَّرِيفِ، عَلَى حَكْمِ النُّزُولِ وَالتَّقْرِيرِ الشَّرْعِيِّينَ الْمُسْتَمَرِّ
حُكْمُهُمَا إِلَى آخِرِ وَقْتٍ، وَأَسْتَمَرَّاهُ فِي الْوِظِيفَتَيْنِ الْمَذْكُورَتَيْنِ بِمَقْتَضَاهُمَا، وَمَنْعِ
الْمَنَازَعِ بِغَيْرِ حَكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

فَلْيَبْشُرْ ذَلِكَ بِمَا يُقْتَدَى بِهِ مِنْ تَسْلِيكِهِ وَتَأْدِيهِهِ، وَتَسْرِعِ رَغْبَتِهِ فِي هَذَا الْمَقَامِ
وَمِنْ عَنَايَةِ تَهْنِئَتِهِ، وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ وَلَكِنْ لَا تُقَالُ لِمِثْلِهِ إِذْ هُوَ مُعَلِّمٌ، وَتَقْوَى اللَّهِ
سَبْحَانَهُ أَهْمٌ وَأَعْظَمٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى الْمَسْئُولُ أَنْ يَرشِدَنَا إِلَيْهَا، وَأَنْ يَجْعَلَ فِي كُلِّ
الْأُمُورِ أَعْتَادَنَا عَلَيْهَا، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .

الصَّنْفُ الْخَامِسُ

(مَّا يُكْتَبُ لِأَرْبَابِ الْوِظَائِفِ بِالشَّامِ - تَوَاقِعِ الْعُرْبَانِ)

وَالَّذِي وَقَفَتْ عَلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ مَرَسُومٌ مَكْتَتَبٌ بَرُّعٍ تَقْدِمَةِ بَنِي مَهْدَى بِ«الْمَجْلِسِ
السَّامِيِّ» بِغَيْرِ بَيَانٍ، كُتِبَ بِهِ لـ«مُوسَى بْنِ حَنَاسٍ» مَفْتَحًا بِ«أَمَّا بَعْدُ» وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي جَمَعَ عَلَى الطَّاعَةِ الشَّرِيفَةِ كُلِّ قَبِيلَةٍ، وَبَسَطَ عَلَى ذَوِي
الإِخْلَاصِ ... (١) ... الظَّلِيلَةِ، وَالشَّهَادَةِ بِأَنَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ

(١) بِيَاضٍ فِي الْأَصْلِ وَلَعَلَّهُ «ظِلَالٌ نَعْمَةُ الظَّلِيلَةِ» .

شهادة أتخذها للتوحيد دليلاً ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي
 أتخذه الله تعالى حبيبه وخليته ، وآتاه الدرجة الرفيعة والوسيلة ، وعلى آله وصحبه
 صلاة مباركة أصيله - فإن الأولى لتزكية القوم تُرعى ، وذات الإخلاص ينحج له
 كل مسعى ، والجدير بالنعم من يُجيب بالطاعة حين يُدعى ؛ من سلك في الخدمة
 الشريفة مسلك الأسلاف ، وتجنب ما يُفرض إلى الشقاق والخلاف ؛ فعند ذلك
 رفعت مراتبه ، وضاعت مواهبه ، وأزنا بالإقبال الشريف كواكبه ، وأجملنا مكاسبه ؛
 وبسطنا في رُبع تقدمه بنى مهدي كلامه ، ونقدنا أمره على طائفتيه : قوله وإبرامه ؛ من
 أضحى مشكوراً من كل جانب ، مجتهداً في المصالح وبلوغ المآرب ؛ من عُرف بالأمانة
 فسلكتها ، وأشتهر بالصيانة فملكها ؛ وحاز أوصافاً حسنة ، وسيرةً نطقت بها
 الأئسنه ؛ وكان فلان هو الذي أضحى على عُربانه مقدماً ، ومن أكابريهم معظماً .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازلتم مراسمهُ الشريفة عاليةً نافذةً ، وأوامرهُ
 بصلة الأرزاق عائدته - أن يستقر ... على عادته وقاعدته : حملاً على ما بيده من
 التوقيع الكريم .

فليباشر هذه الإمرة مع شركائه مباشرةً حسنة ، وليسير فيها سيراً تشكره عليه
 الأئسنه ؛ وليظهر السداد ، وليبذل الطاعة والاجتهاد ؛ وليسلك المسالك الحسنه ،
 والله تعالى يجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛ والوصايا كثيرةٌ
 وملاكمها تقوى الله تعالى ، والله تعالى يجعل إحساننا إليه يتوالى .

قلت : وقد تقدم أنه يكتب بإمرة بنى مهدي من الأبواب السلطانية أيضاً .
 على أن هذا التوقيع من التواقيع الملتفة ، ليس فيه مطابقة للتواقيع ، وليس برائق
 اللفظ ، ولا مؤثق المعنى .

(١) هذا الكلام كانه عليه المؤلف بعد غير منسجم بل غير مستقيم .

الصفحة السادسة

(مما يكتب لأرباب الوظائف بالشام - توقيع زعماء

أهل الذمة : من اليهود والنصارى)

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى مفتتحاً بـ «أما بعد» كتب به للبطرك

« ميخائيل » وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعلنا نشمَلُ كلَّ طائفةٍ بمزيد الإحسان، ونُقْبِضُ من دولتنا الشريفة على كلِّ بليةٍ أطمئناناً لكلِّ ملةٍ وأماناً، ونُقَرُّ عليهم من آخثاره ونُزاعيمهم بمزايا الفضل والامتنان؛ والشهادة بأنه الله الذي لا إله إلا هو الواحد الذي ليس في وحدانيته قولان، والقرء المنزه عن الجوهري والأقنوم والوالد والولد والحلول والحدثان، [شهادة] أظهر إقرارها اللسان، وعمَلت بها الجوارح والأركان؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله المبعوث إلى كافة المملئ والإنس والجان، الذي بشر به عيسى وآمن به موسى وأنزل عموم رسالته في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، فصَحَّ النقل بنبوته وآدم في الماء والطين وأوضح ذلك البرهان، وعلى آله وصحبه الذين سادوا بإخلاص الوحدانية، وشادوا أركان الملة المحمديه، وأعزوا الإيمان وأذلوا الطغيان، صلاة ينفع طيبها، ويفصح خطيبها، ويفرح بها الرحمن - فإن أولى من أقمناه بطريكا على طائفة النصارى الملكيه، على ما يقتضيه دين النصرانية والملة العيسويه؛ حاكماً لهم في أمورهم، مفضحاً عما كن في صدورهم - من هو أهل هذه البطريكه، وعارف بالملة المسيحيه؛ أخذها لها أهل طائفته، لما يعلمون من خبرته ومعرفته، وكفايته ودربته، ونذب إلى ولاية يستحقها على أبناء جنسه، ورغب في سلوكه لها مع إطابة نفسه، مع ماله من معرفة سرت

أخبارها ، وظهرت بين النصارى آثارها ؛ وكان فلانٌ - أدام الله تعالى بهجته - هو من النصارى المملِكية بالمعرفة مدكور ، وسيره بينهم مشكور ، القائم فيهم بالسيرة الحسنه ، والسالك في مذاهبهم سيرا تشكره عليها الألسنه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال إحسانه العميم لكل طائفة شاملا ، ويره الجسيم لسائر الملك بالفضل متواصلا - أن يستقر بطركا على النصارى المملِكية بالشام وأعماله ، على عادة من تقدمه في ذلك ، وتقوية يده على أهل ملته ، من تقادم السنين بحكم رضاهم ، ومنع من يعارضه في ذلك : حملا على ما بيده من التوقيع الكريم المستمر حكه إلى آخر وقت .

فلباش هذه البطرِكية مباشرة محمودة العواقب ، مشكورة لما تحلّت به من جميل المناقب ؛ وليحكم بينهم بمقتضى مذهبه ، وليسرفهم سيرا جميلا ليحصل لهم غاية قصده ومأربه ؛ ولينظر في أحوالهم بالرحمة ، ويعمل في تعلقاتهم بصدق القصد والهمة ؛ وليسلك الطرق الواضحة الجلية ، وليتخلى بالأخلاق المرضية ، وليفصل بينهم بحكم مذهبه في مواريتهم وأنكحتهم ، وليعتمد الزهد في أموالهم وأمتعتهم ؛ حتى يكون كل كبير منهم وصغير ممتثلا لأمره ، واقفا عندما يقدم به إليه في سره وجهره ؛ مشتصين لإقامة حرمة ، وتنفيذ أمره وكلمته ؛ وليحسن النظر فيمن عنده من الرهبان ، وليرفق بذوى الحاجات والضعفاء : من النساء والصبيان ، والأساقفة والمطارنة والقسيسين زيادة للإحسان ؛ إحسانا جاريا في المساء والصباح ، والغدو والرواح .

فليمتثلوا أمره بالطاعة والإذعان ، وليجيبوا نهييه من غير خلاف ولا توان ؛ ولا يمكن النصارى في الكنائس من دق ناقوس ، ورفع أصواتهم بالصحيح ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة الناموس ؛ وليتقدم إلى جميع النصارى بأن كلا منهم يلزم

زِيَّةً، وما جاءت به الشروط العُمريَّةُ - عمر بن الخطاب رضى الله عنه - لتكونَ أحوالهم في جميع البلاد مرعيَّةً؛ وليخشَ عالم الخفِيَّاتِ، وليستعمل الأناةَ والصَّبْرَ في جميع الحالات؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها عارف، والله تعالى يُلهمه الرُّشدَ والمعارفَ .

قلتُ : وهذا التوقيع فيه ألفاظٌ ومعانٍ غيرُ مستحسنَةٍ، وألفاظٌ ومعانٍ مُنكرةٌ، أفضُّها قوله : مُفصَّحاً عما كَنَ في صُدُورِهِمْ . فإنه لا يعلم ما تُخفي الصدورُ وتُكنُّه إلا الله تعالى .

واعلم أنه ربما أفتتح توقيعُ البطريرك عندهم بـ «رسم بالأمر» .



توقيع لبَطْرِكِ النصارى بالشام أيضاً، كُتِبَ به للبطريرك «داود الخُورى» بـ «البَطْرِكِ المحتشم» وهو :

رسم بالأمر - لازال يَعرُزُ بالألتجاء إلى حَرَمِهِ من يَأوى إليه، ويقصد عدله من أهل المِلَلِ ويعتمدُ عليه - أن يستقرَّ فلانٌ - وفقه الله تعالى - بطريرك المَلِكِيَّةِ، بالملكة الشريفة الشامية المحروسة، حَسَبَ ما آختره أهل مَلَّتِهِ المقيمون بالشام المحروس ورَغِبوا فيه، وكتبوا خطوطهم به، وسألوا تقريره في ذلك دون غيره؛ إذ هو كبير أهل مَلَّتِهِ، والحاكِمُ عليهم ما أمتد في مدته؛ وإليه مرجعهم في التَّحريمِ والتَّحليلِ، وفي الحكم بينهم بما أنزل الله تعالى في التَّوراةِ ولم يُنسخ في الإنجيل؛ وشريعته مبنية على المسامحة والأحتمال، والصَّبْرَ على الأذى وعدم الأكتراث [به] والاحتفال .

نقدُ نفسِكَ في الأوَّلِ بهذه الآداب، وأعلم بأنَّ لك في المدخل إلى شريعتك طريقاً إلى الباب؛ فتخلِّق من الأخلاق بكلِّ جميل، ولا تستكثر من متاع الدنيا

فإنه قليل ؛ وقدّم المصالحة بين المتحاكمين إليك قبل الفصل البتّ فإنّ الصلح كما قيل : سيّد الأحكام ، وهو قاعدة دينك المسيحيّ ولم تخالف فيه المحمديّة الغراء دين الإسلام ، ونظف صدور إخوانك من الغلّ ولا تقنع بما ينظفه ماء المعمودية من الأجسام ؛ وإليك الأمر في البيع ، وأنت رأس جماعتك والكلّ لك تبع ؛ وإياك أن تتخذها لك تجارةً مربّحة ، أو تقطّع بها مال نصرانيّ تقربه فإنه ما يكون قد قربه إلى المدبج وإنما ذبحه ؛ وكذلك الديار - والقلاى ، [يتعين عليه أن يتفقد فيها كل أمر في] الأيام والليالي ؛ وليجتهد في إجراء أمورها على ما فيه رفع الشبهات ، ولعلم أنّهم إنّما أعتروا فيها للتعبّد فلا يدعها تتخذ متزّهات ؛ فهم إنّما أحدثوا هذه الرهبانية للتقليل في هذه الدنيا والتعطف عن الفروج ، وحبسوا فيها أنفسهم حتى إنّ أكثرهم إذا دخل إليها ما يعود يبقى له خروج ؛ فليحذرهم من عملها مصيدةً للسال ، أو خلوة له ولكن بالنساء حراماً ويكون إنّما تنزه عن الحلال ؛ وإياه ثم إياه أن يؤوى إليه من الغرباء القادمين عليه من يريب ، أو يكتم عن الإنهاء إلينا مشكّل أمرٍ ورد عليه من بعيد أو قريب ؛ ثم الحذر الحذر من إخفاء كتابٍ يرد [إليه] من أحد من الملوك ، ثم الحذر الحذر من الكتابة إليهم أو المشى على مثل هذا السلوك ؛ وليتجنب البحر وإياه من اقتحامه فإنه يغرق ، أو تلقى ما يلقيه إليه جناح غراب منه فإنه بالبين ينقع ؛ والتقوى مأمور بها أهل كلّ ملّة ، وكلّ موافقٍ ومخالفٍ في القبلة ؛ فليكن عمله بها وفي الكفاية ما يغني عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المسيح .



توقيع براسة اليهود بالشام ، مفتوحاً بـ «رسم» من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نباتة ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال جُوده في كلِّ مله ، وعمام كرمه على الخلق كأنه ظنَّه ،
 وذمَّام نِعْمه يُبلِّغ المسلمَ والذميَّ من الاستحقاق محلَّه ، أن يستقرَّ الحكيم ... (١) ...

ومنه : - وأن يعاملهم على ما ألقوه من الأحكام ، ويُنيِّف صاحبَ حقِّهم
 من مُتطلِّبهم : حتَّى لا يعدُّوا أحدٌ في سبِّ ولا في سائر الأيام ؛ ويهدِّب وحشيَّ
 جاهلهم بآيناسه ، ويعالج سقم كاهلهم حتَّى تطلع الصفرء من رأسه .

فليُقم مقاماً في هذه الطائفة القديمه ، وليعبِّر من أسفارٍ عبرانيَّة عن عوائد قضاياهم
 النظيمه ؛ مفرِّحاً بمعرفته كلِّ حرَّان ، جامعاً كلَّ شعثٍ على عدلٍ عنده وإحسان ؛
 شاكرًا لظلال النعمه ، عارفاً بالعوارف التي ترعى يمينها كلَّ ذمه .

النيابة الثانية

(من النيابات التي يكتب عن نوابها بالولايات - نيابة حلب)

وهي على نحو من نمط دِمَشق فيما يكتب عن نائبيها . فيكتب عن نائبيها أيضاً
 بالتواقيع لأرباب الوظائف بحاضرة حلب وأعمالها : من أرباب السيوف ، وأرباب
 الأقلام الدينيَّة ، وأرباب الأقلام الديوانية ، ومشايخ الأمَّاكن وغيرهم ، مُرتبةً على
 المراتب الثلاث : من الأفتتاح بـ«الحمد لله» ، والأفتتاح بـ«أما بعد حمد الله» ،
 والأفتتاح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نسخُ تواقيع مما كتب به لأرباب السيوف بحاضرة حلب وأعمالها ،
 يُستضاءُ بها في ذلك :

تَوْقِيحٌ بِتَقَابَةِ الْأَشْرَافِ ، كُتِبَ بِهِ لِلشَّرِيفِ عِزِّ الدِّينِ «أَحْمَدُ بْنُ أَحْمَدَ الْحُسَيْنِيُّ»
بِ«المَقْرَعَالِيِّ» وَهُوَ :

أَمَّا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي خَلَدَ السِّيَادَةَ فِي بَيْوتِ الشَّرِيفِ أَحْمَدَ تَخْلِيدًا ، وَقَلَّدَ تَقَالِيدَ
السَّعَادَةِ ، لِأَهْلِ الْإِفَادَةِ ، أَسْعَدَ تَقْلِيدًا ، وَجَدَّدَ الْوِفَادَةَ ، لَحَرَمِ الْعِبَادَةِ ، بِعِزِّ الْعِصَابَةِ
الْمُحَمَّدِيَّةِ أَكَّدَ تَجْدِيدًا ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِ الْخَلْقِ الَّذِي عَقَدَ الْعَهْدَيْنِ لِأُمَّتِهِ ،
بِالثَّقَلَيْنِ : مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَعِثْرَتِهِ ، وَسَرِّ النُّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ هُدَاهُ بِكُلِّ أَبِيٍّ مِنْ أُسْرَتِهِ ، وَأَقْرَبِ
الْعِيُونَ الْمِرَاقِبَةَ بِكُلِّ سَرِيٍّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ تَبَرُّقَ أَنْوَارِ النُّبُوَّةِ مِنْ أُسْرَتِهِ ، وَعَلَى آلِهِ حَبْلُ
النَّجَاةِ لِلتَّمَسُّكِ ، وَسُبُلِ الْهُدَاةِ لِلتَّنَسُّكِ ؛ وَصَحْبِهِ نَجْوَى الْهُدَى ، وَرُجُومِ الْعِدَا ، وَأُمَّةِ
الْخَيْرِ لِمَنْ بِهِمْ آفَتْ دِيٌّ ؛ صَلَاةً وَسَلَامًا ، يَتَعَاقَبَانِ دَوَامًا ، وَيَتَلَاوَمَانِ عَلَى الْأَيْسِنَةِ مَدَى
الْمَدَى لِزَامَا ؛ مَا حَلَا بَعِينَ وَطَفًا ، وَمَا عَلَا عَلَوِيٌّ ذُرًّا شَرَفًا - فَإِنَّ أَهْمَّ مَا أَعْتَنِي
بِهِ وُلاةُ أُمُورِ الْإِسْلَامِ ، وَأَعَمُّ مَا أَقْنَيْ مِنْهُ رُعاةُ أَجْوَازِ الْحُكْمِ - رِعايَةُ مُصَالِحِ أَهْلِ
الْبَيْتِ ، وَأَتَهَاؤِ الْفُرْصَةِ فِي مَوالاتِهِمْ حَتَّى لَا يَقَالَ لِقَوَاتِهَا : لَيْتَ ؛ وَتَعْظِيمُ مَا عَظَّمَ اللَّهُ
تَعَالَى مِنْ حُقُوقِهِمْ ، وَتَكْرِيمُ مَا كَرَّمَ رَسُولُهُ مِنْ بَرِّهِمْ وَاجْتِنَابُ عُقُوبِهِمْ ، وَتَقْدِيمُ
أَحَقِّهِمْ بِالتَّقْدِيمِ لِأَحَقِّ سَبَاقِهِمْ إِلَى غَايَاتِ الْعُلُواتِ وَسَبُوقِهِمْ ؛ وَالتَّعَبُّدُ بِالتَّعَبِّ
وَالْإِجْتِهَادُ فِي نَفْعِهِمْ ، وَنَضْبُ النُّفُوسِ لِلنَّضْبِ لِتَجَرُّذِ بُولِ الْفَخْرِ بِوالاتِهِمْ ،
وَإِعْلَانُهُمْ عَلَى الرُّؤُوسِ وَرَفْعِهِمْ ؛ أَخْتِيارًا لِرَأْيِي مَنْ زَادَ فِي الْعِنَايَةِ بِالْعِتْرَةِ الطَّاهِرَةِ
وَأَرْبِي ، وَأَتَمَّارًا بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾
خُصُوصًا بِتَقَابَةِ الْأَشْرَافِ ، وَالنَّظَرَ فِيمَا لَهُمْ مِنَ الْأَوْقَافِ ؛ فَهِيَ شَامِلَةٌ لِمَجْمَعِهِمْ ، وَجَامِعَةٌ
شَمَلِيَّةٌ ، وَوَاصِلَةٌ نَفْعُهُمْ ، وَنَافِعَةٌ كَلِّهِمْ ؛ وَبِفَضْلِ مَبَاشَرِهَا تُسَبِّغُ عَلَيْهِمُ النِّعْمَةَ ،
وَتُسْتَدْرُ بِبِرْكَةِ إِجْمَاعِهِمْ عَلَيْهِ سُحْبُ الرَّحْمَةِ ؛ وَبِكِفَالَتِهِ تُجْعَلُ الْمِنَّةُ لِمَرَاتِبِهِمْ وَأَحْسَابِهِمْ ،
وَبِإِيالَتِهِ تُدْفَعُ الظَّنَّةُ عَنْ مَنَاقِبِهِمْ وَأَنْسَابِهِمْ ؛ وَهُوَ الْقَائِمُ عَنْ وُلاةِ الْأُمُورِ مِنْ خَدَمِهِمْ

بفروض الكفايه، والدائم الدأب لمرآة أدبهم لتحسن لهم الرعايه ، فوجب الاحتفال باختيار من يُحلى هذا المنصب الشريف، وتعين الأبهال في أمتياز من يُسبغ عليه هذا الظل الوريف؛ ممن قدم في هذه السيادة بيته، وأرتفع بحفض العيش لقربته بعافه وديانته صيته؛ وتنزه عن كل ما يشين وتبرا، واكتسى حلل الفخار العلية ومن أعراض الدنيا الدنية تعزى .

وكان فلان بن فلان - أسبغ الله تعالى ظلالهم ، وضاعف بمعالى الشرف جلالهم - ممن حاز في هذه الخلال المنازع ، وجاز نهاية هذه الخصال بلا منازع ، وورد من حياض المناقب الجميلة أعذب المشارع؛ ودرى المراقى إلى التجرد ودرج ، وبلغت نفوس محييه من مخايل سُعوده الأرب ، وقوت عيون أقاربه بما حصل له من القرب؛ ونشأ في حجر السعاده، وأرتضع لبان الإفاده، ولحق بالسابقين الأولين من أهل بيته في الزهاده ، وتبدل بالإخلاص فظهرت على وجهه أنوار العباده؛ وأتقطع على العمل ، وبلغ من العلوم الأمل : قووم تشبث بالجره وهو شامة في شامه المنسوب :

ورث السيادة كابرًا عن كابر! * كالرُخ أنبوب على أنبوب.

أصل فخار سما، وفرع نجار سما، وغيث فضل همى؛ أثبت في أعلى المعالى قدما، وناسب قدره سعیه كرمًا؛ وجلت صفات محاسنه اللائقه ، وحلت الأفواه مدايح سبحاياہ الرائقه ، وتملت الألسن وما ملت ما تملى عنه بالخير كل ناطقه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لزالته أو امره ببرآل موالاته ماضيه، ونوايه به أهل معاداته قاضيه - أن يستقر... استقرًا يقر عين العلاء، ويسر نفوس أهل الولا؛ ويضع الأشياء في محلها، ويسند الأمور إلى أهلها؛ ويستجلب الأدعيه،

ويجمل بالولاء الجميل أُلويّه ، ويشرح خواطر الأشراف ويطيب نفوسهم ، ويرفع
بعد سُجود الشكر بالدعاء رؤسهم .

فليأشُر هذه الوظيفة مباشرة يقفوها آثار بيته الطاهر ، بعزم كريم : لكل مُصلح
بالخير غامر ، ولكل مُفسد بالضير قاهر ، وحزم حليم : لكل حق ناصر ، ولكل
كسر جابر ، وليصل بالبر رحمة ، ولين للضعيف كلمة ، وليقم بأعباء هذه الوظيفة
قيام عمه الشريف وأبيه ، وليصم عن أموال الأوقاف صياماً يقربه الله تعالى به
ويحتويه ، ليحمد ، هذا المنصب الجليل ، في بيته الأصيل ، عوده على أحمد ،
ولينفع قرابته بتمير أموالهم ، وليشفع النهضة بالمعرفة في تميم غلالهم : لتدبر بركته
أخلاف أرزاقهم ، وتقر خواطرهم بمضاعفة أرزاقهم وإطلاقهم ، ويخصب
في جنابه مرعاهم ، ويقرب في باب مساعدهم ، وتنطق بشكره ألسنتهم الشريفة ، وتنطق
على حجبته ظلال بيوتهم الوريقة ، ويعتبر ويختبر أشغالهم ويمنع شبانهم من الاحتراف
بحرف الأدياء ، وليأمر الآباء بتعهد تربية الأبناء ، وليأمرهم من العمل بما يناسب
معاليهم ، وليجبرهم بتدبيره السديد جبراً يميزهم بحسن السم من أوليائهم : وكلنا
من مواليتهم .

والوصايا كثيرة ، وعين علومه بتعدادها بصيره ، وتقوى الله تعالى لا يهمل النص
عليها ، والإشارة بحسن البيان وحسن البنان إليها ، فلتكن ركن استناده ، ورأس
مال اعتمادها ، والله تعالى يديه في صعود درج السعود مدة حياته ، ويجمع له خيري
الدنيا والآخرة برفع درجاته .



وهذه نسخة توقيع بنقابة الجيوش بحاب ، كتبت به لـ «ناصر الدين بن ايتبك»

بـ «السامي» بغير ياء ، وهي :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال أمره الشريف يُعَضد الجيوش بأعضدِ ناصر،
 ويُرشدُ أولياءِ الخِدمة إلى ارتقاء رتبِ المعالي فكلُّ إنسانٍ عن إدراك محلِّها قاصر -
 أن يستقرَّ فلانٌ - أدام الله توفيقه، وجعل اليُمن والسُّعد قرينَه ورَفيقَه - ... استقرَّ أرسًا
 يُظهر مالم يخفِّ من نهضتِه وكفايتِه، ويُشهر معلن سربَقظتِه ودرايتِه؛ لأنَّه الفارسُ
 الذي أعزَّ كلَّ راجلٍ بشجاعته، وأُمَّارسُ الذي خَبَر الوقائع بحُسنِ دُرْبته ودراية
 صناعتِه؛ والعارِفُ الذي أتَّصف بالخبرة وحُسنِ الصِّفهِ، وعُرفَ في أموره بالعدل
 والمُعرفه؛ والهَامُ الذي علَّتْ همتُه فوق كلِّ همِّه، وكشَفَ بجزِيلِ مُروءتِه من
 الكُربات كلَّ عُمه؛ وسار في الجيوش سيرةً والدِه، فشَهِد كلُّ بما حواه من طَارِفِ
 الفضلِ وتألِّده .

فليباشِرْ ذلك : سائرًا في الجنود أحسنَ سيره، مُراقبًا الله تعالى فيما يُبديهِ من القولِ
 والفِعلِ والعَلانِيَةِ والسَّرِيهِ؛ مُلَازِمًا ما يلزمه من حُقوقِ هذه الوظيفة، قائمًا بما يجب
 من أداءِ الخِدمة الشَّرِيفِهِ؛ ولينفِذْ ما يُؤمَرُ به من الأوامر، عالِمًا بما يتعيَّن من
 حُقوقِ المأمورِ والأمرِ، [وليجتهد] في جَمعِ العساكرِ وإعلامِهم بالمِهْمَاتِ، وليتفَقَّدْ
 أحوالَ الجُنُودِ في سائرِ الأوقاتِ؛ وليُسفِرِ النَّقابَ عن الوجوه بالحليَّةِ يومِ العَرَضِ،
 وليُسبِلِ حجابَ السِّتْرِ على من أدركه العَجْزُ عن أداءِ الفَرَضِ؛ والوصايا كثيرةٌ لا تحتاج
 إلى التَّعدادِ، وتقوى الله تعالى هي العُمدةُ في كلِّ الأمورِ وعليها الأَعْتادُ .



تَوَقِّعُ بِالْمِهْمَنْدَارِيَّةِ بِجَلَبَ، كُتِبَ بِهِ لـ «فَرَسِ الدِّينِ الطَّنَاحِي» بِـ «الْجَنَابِ
 الْعَالِي» وَهُوَ :

رُسم الأمر الشريف - لا زالت عزائمُه تَسُدُّ للمِهْمَاتِ من غُرِسَتْ بِرِياضِ
 وَلِيهِ أَدْوَاخُ الهمَمِ فزكا غرَسًا، وتقرَّرَ لها من شاب فودُه في إفادة الوفود فأجاب

قَصْدًا وَأَطَابَ نَفْسًا، وَلَا بَرِحَتْ عَنَّا تَه تَشْمَلُ مِنْ أَوْلِيَاءِ خِدْمَتِهَا كُلِّ شَهْمٍ إِذَا سَلَّ
عَضْبًا أَزَالَ نَفْسًا وَأَسَالَ نَفْسًا، وَتَعَيَّنَ مِنْ أَعْيَانِهِمْ كُلِّ جَمِيلٍ يَوْذُ الْمُنَافِسِ
لَوْ شَاهَدَهُ وَلَا يَجْسُ يَدِ الرَّقِيِّ مِنْهُ نَفْسًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ لِأَنَّهُ ذُو الْهَمِّ الَّتِي
لَا تُلْحَقُ جِيَادُهَا، وَلَا تُسْبِقُ جُودَةَ جِيَادُهَا^(١)؛ لَا مُنْتَهَى لَصِغَارِ هِمِّهِ فَإِنِّي تُدْرِكُ
بِكَارُهَا، وَلَا تُدْرِكُ سَوَابِقَهُ فَإِنِّي تَقْتَنِي أَنَارُهَا؛ لَهُ قَدَمٌ إِقْدَامٍ فِي الثَّرَى لَا يَزَالُ رَاسِخًا^(٢)،
وَهَامَةٌ هِمَّةٌ لَمْ يَزَلْ شَرَفُهَا عَلَى الثَّرَى بَادِحًا؛ وَلِأَنَّهُ الْفَارِسُ الَّذِي تُفَرِّسَتْ فِي مَخَايِلِهِ
الشَّجَاعَةُ، وَتَبْضَعُ الشَّهَامَةَ فِي الْحُرُوبِ فَكَانَتْ أَرْبَحَ بِيضَاعِهِ؛ كَمْ أَزْرَتْ سُمْرَ مَرَايحِهِ
بِهَيْفِ الْقُدُودِ، وَأُنْجَلَتْ بِيضُ صِفَاحِهِ كُلِّ خَوْذِ أَمْلُودٍ؛ وَكَمْ جَرَدَتْ مِنْ مُطْرِبَاتِ
قِسِيَةِ الْأَوْتَارِ فَنَرَاقَصَتْ الرُّؤُوسَ، وَشَرِبَتْ الرَّمَّاحُ نَجْمَ الدِّمَاءِ فَعَرَبَدَتْ عَلَى النَّفُوسِ:

لَهُ هِمٌّ تَعْلُو السَّحَابِ رِفْعَةً، * وَكَمْ جَادَ مِنْهَا بِالنَّفَاسِ وَالنَّفْسِ!

وَيُجْنَى ثَمَارُ الْفَضْلِ مِنْ دَوْحِ غَرَسِهِ! * وَلَا غَرَوَ أَنْ تُجْنَى الثَّمَارُ مِنَ الْغَرَسِ!

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْوُضُفَةَ مَبَاشِرَةً تَحْمَدُهُ فِيهَا الْوَرَادُ، وَتَشْكُرُهُ بِالْقَصْدِ أَلْسِنَةُ الْقَصَادِ،
وَتَذْكُرُهُ الْبَرِيدِيَّةُ بِالْخَيْرِ فِي كُلِّ وَادٍ؛ وَلِيَهَيِّئْ لَهُمْ [مِنَ الْقُرَى مَا يَهَيِّئُهُ^(٣)] الْمَضِيفُ،
وَلِيَحْصَلْ لَهُمُ النَّالِدُ مِنْهُ وَالطَّرِيفُ، وَلِيَتَلَقَّهَمْ بِوَجْهِ الْإِقْبَالِ، وَلِيَبْدَأَهُمْ بِالْخَيْرِ لِيَحْسُنَ
لَهُ الْمَالُ، وَلِيَجْعَلَ التَّقْوَى إِمَامَهُ فِي كُلِّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ، وَلِيَتَّصِفَ بِالْإِنصَافِ فَهُوَ
أَحْمَدُ الْأَوْصَافِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ.



تَوْقِيعٌ بَتَقْدِيمَةِ الْبَرِيدِيَّةِ بِحَلَبَ، كُتِبَ بِهِ لِعِمَادِ الدِّينِ «إِسْمَاعِيلُ» بِدِ الْمَجْلِسِ

الْعَالِي «وَهُوَ:

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ مُشِيرًا إِلَيْهِ بِعَلَامَةِ التَّوْقِيفِ وَلَا تَوْقِيفَ لِأَنَّ الْأَوَّلَ جَمْعٌ جَيِّدٌ قَيْضُ الرَّدِيِّ. وَالثَّانِيَةُ

جَمْعُ جَوَادٍ لِلْفَرَسِ الرَّائِعِ السَّابِقِ .

(٣) زِيَادَةُ تَطْلُبُهَا صِحَّةُ الْمَعْنَى .

(٢) ذِكْرُ الْقَدَمِ وَهِيَ أَيْضًا مَجَارَاةٌ لِلْعَامَةِ .

رسم بالأمر الشريف - لا زالت عنايته الكريمة تقدم إلى الرتب العلية من بنى
 أس إقدامه من المروءة على أشرف عماد ، وتعين للهجات الشريفة من امتطى من
 جواد العزم أسبق جواد ، وتندب لها من أولياء خدمه كل ندب لم يزل ساعد سعه
 مبنياً على السداد ، وتضعد إلى أفها من ذوى الشهامة من فاقت بيمينه الصعاد -
 أن يستقر ... : لأنه ذو الهمم التي سامى بها القراقد ، والكفاء الذى نشط
 إلى القيام بالعزائم إذا قعد عنها من ذوى الهمم ألف راقد ، والمقدم الذى قدمه
 الإقدام على قضاء الأمور المعضلات ، وحلى أجياد ذوى المارب إذ حل لهم منها
 بمن عزمه المشكلات ، ماعلا جواد بريد إلا وسابق الطرف بل الطرف إلى المراد ،
 ولا ندب إلى مهم للحكم فيه نيلاً لأمل إلا قدح من رأيه فى فضائه أورى زناد ،
 والفارس الذى تمايلت بكفه العوامل محبباً فأحجبت الأغصان ، وحلت إذ حلت
 بقلوب الأعداء وإن كانت من المران ، والشهم الذى سبق السهم إلى الغرض ،
 والشجاع الذى ما أعرض عن محاربة الأقران : فصفى جوهر شجاعته من العرض ،
 واليقظ الذى لم يكن يناظره إنسان ، ولا أنطق على أسيافه المسهدة بيمينه أجفان .
 فليأشر هذه التقدمة مباشرة يشهد الحاسد له فيها بالتقديم ، ويقر الحاحد أنه أهدي
 لما أسدى إليه إلى صراط عزم مستقيم ، وليطر إلى قضاء المهتمات الشريفة بأجنحة
 السداد ، وليمتط من جواد الجواد أسبق جواد ، وليسوين البريدية فى الأشغال ، وليقبل
 عليهم فيما يرومونه من حسن السفارة بوجه الإقبال ، وليسلك سنن الصدق والتقوى
 وليجعلهما له أحسن سنه ، وليلبس سوايغ الإنصاف فإنها من سهام الخلل جنة .



نسخة توقيع بناية عيبتاب ، كتب به لناصر الدين «محمد بن شعبان» بـ«المجلس
 العالى» عوضاً عن كان بها ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف - لا زال إحسانه العميم، يرفع لناصر الدين قدرا، وامتنانه
الجسيم، ينفذ له في حفظ الممالك المنصورة أمرا، ويؤلى أمر الرعية من حسنت
سيرته سرا وجهرا - أن يستقر... .. : لأنه شههم شههم عرفانه مصيب، وفارس
ربع خبره وخبره خصيب، له مناقب جليله، وسيرة محمودة جميلة، تنقل في المراتب
تنقل البدر في صعوده، وأرتقى ذروة السيادة آرتقاء الكوكب في منازل صعوده؛
مباشرة مباشرة إلا ونشرت له بها أعلام شكره، ولا علا منزلة إلا تليت بها سور حمده
وذكره؛ لم يزل متبعا للحق في أحكامه، سالكا سبل الصواب في تقضيه وإبرامه؛
فتح له إقبالنا الكريم بابيه، فلذلك قدم على غيره في هذه النيايه .

فنيابشرها مفتحيا آثار العفاف، مرتديا أودية العدل والإنصاف؛ مقيما منار
الشرع الشريف، منصفًا من القوى الضعيف؛ والله تعالى يوفقه للصواب فيما
تولاه، والخط الكريم شاهد أعلاه .

قلت : وعلى نيابة عيتاب هذه يقاس ما في معناها من نيابات العشرات، فيجري
الحكم في تواقعها كذلك . أما الطلبخانات فقد تقدم أن الأصل أنه لا يؤلى فيها
إلا من الأبواب السلطانية .



وهذه نسخة مرسوم بإمارة الركب الحلبي المتوجه إلى الحجاز الشريف، كتب به
لشهاب الدين « أحمد بن الطنبغا » بـ «الجناب الكريم» . والبيض فيه وصل
واحد، وهي :

رُسم بالأمر العالی - لا زال يمنح وقد الله تعالى بمن لم يزل شهاب هممه في أفق
الصيانة منيرا، ويسند أمرهم إلى كل نذب لا يزال على الحق ظاهرا وعلى دوى الباطل

ظَهيرا - أن يستقر فلان من أعيان الموالى الأُمراءِ الطبلخانات بحلب المحروسة -
 أعزَّ الله تعالى نُصرتَه - أميرا على ركب الحاجِّ الحلبى في هذا العام المقبل ، على أجل
 العوائد ، وأجل القواعد ، حسب ما رسم به . استقرارا يحمده به الوفد عند صباح هممه
 السرى ، ويبلغ بهم قرى الغفران بأَمِّ القرى ؛ وينال به طيب العيش بطيبة وطابه ،
 ويدرك بيجاد فضله آراهه ؛ ويمح به زيارة سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام ،
 ويقوق به سهم إصابته من البشر إلى مراعى المرام ؛ ويشهد به بين قبره ومبهره روضة
 من رياض الجنة ، ويلبس به سوايغ القبول لتكون له من سهام الذنوب أوقى جنه ؛
 ويتردى [به] برود التقي حين يترع محرمات الإحرام ، ويقبل به على ذكر الله تعالى
 فى الوهاد والبساج والآكام ، ويستقبل به حرم بيت الله الحرام ، ويشب له
 الهناحين دخوله المسجد من باب بنى شيبه ، ويتعاطى به أسباب التوبة ، لينال
 من العفو من الله الكريم سببه ؛ ولا يقتصر به عن التطاول إلى الدعاء إلى الله تعالى
 لتعمه الرحمة بفضله وطوله ، ويدخل به حرما آمنا يخطف الناس من حوله ،
 ويفتح به إلى المقام بابا من الأمن إلى يوم القيامة مقيم ، ويدكر بوقوفه بعرفات
 وقوفه ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ .

فليأشر هذه الإمرة المباركة مباشرة يتقط منها لهجر المنام ، وليصرف وجهه
 سهامه إليها فى المسير والمقام ؛ ولينفق على الحاج من كنوز معدته ، وليجعل القيام
 بمصالحهم من أكبر همته ؛ وليسع بالصفاء فى حراستهم من أهل الفساد ، وليعتمد
 صونهم من ذوى العناد ؛ وليعلمهم بالإفراد والإرفاق ، وليقطع من بينهم شقة
 الشقاق ؛ وليجعل تقوى الله إمامه فى القول والعمل .



وهذه نسخ توابع لأرباب الوظائف الدينية بحلب :

توقيع بقضاء القضاة، كتب به لقاضي القضاة جمال الدين «إبراهيم بن أبي جرادة»
قاضي قضاة حلب المحروسة الشهير بـ «أبن العديم» من إنشاء ... الخنفي بـ «المقرّر
الكريم» وهو .

الحمد لله الذي رفع مراتب المناصب العلية وكساها من ملابس أهلها حلل الجمال،
وجمع شملها فأقترنت بإلفها أقران النيرين: شمس الضحى وبيت الكمال، ورفع عنها
يد المتناول والمتناول فأصبح رقم طرازها الموثى منسجاً على أحسن منوال، وقطع
الأطعاع عن إدراك شأوها فلا يصل إليها إلا كل خفي من الرجال .

نحمده على نعمه التي أعترف من أعترف من بحرها الوافر بالخير الكامل والفضل
المديد، وأقترف من أقترف ثمار جودها جميل النوال المفيد، وجزيل الإحسان
العديد، حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده، ويعم بالإنعام الشامل نائله ومزيده،
وتشكره على مننه التي يقصر لسان الإطناب عن حصرها وتعدادها، وتعجز بنات
الفكر عن إدراك وصفها وتردادها، شكرياً ينال به العبد رضا المعبود، ويبلغ به من
مقاصد الكرم والجود غاية المقصود، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
ولا ضد، ولا والد له ولا ولد ولا ند، شهادة تبيض وجه قائلها عند العرض،
وينطق بها لسان التوحيد يوم تبدل الأرض غير الأرض، ونشهد أن سيدنا محمداً
عبده ورسوله الذي أظهر الله به الحق وأعلنه، وبهر بحقائق معجزاته العقول فاعترف

كُلُّ بِيضَةٍ مَا عَرَفَهُ وَبَيَّنَّهُ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ نَصَرَ اللهُ بِهِمُ
 الْإِسْلَامَ وَأَبَدَ أَحْكَامَهُ ، وَأَحْكَمَ بِهِمْ مَبَانِيَ الْإِيمَانِ الْمُثِيرَةَ وَأَيْدِ إِحْكَامِهِ ؛ صَلَاةً تَتَعَطَّرُ
 بِنَفَحَاتِ عَرَفِهَا أَرْجَاءُ الْمَدَارِسِ ، وَيُنَادِي لِسَانُ فَضْلُهَا لِرَأْسِ فِرَائِدِ الْمَعَالِي عَلَى طُولِ
 الْمَدَائِرِ . (١) وَسَلَّمَ وَمَجَّدَ وَكَرَّمَ ، وَشَرَّفَ وَبَجَّلَ وَعَظَّمَ .

وبعد : فَإِنَّ أَوْلَى مِنْ لِحَظْتِهِ عَيْنُ الْعِنَايَةِ وَالْقَبُولِ ، وَأَجْدَرَ مِنْ بَلَّغٍ مِنْ مَقَاصِدِ
 الْمَنَاصِبِ الْعَلِيَّةِ غَايَةَ الْقَصْدِ وَالسُّؤْلِ ؛ وَأَعَزَّ مِنْ رَقِي ذُرَا الْمَعَالِي وَأَرْثَقِي ، وَأَجَلَّ مِنْ
 وَصْفِ بِالْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ وَنُعَيْتِ بِالذِّيَانَةِ وَالثَّقِي - مَنْ سَارَتْ سِيرَةُ فَضْلِهِ فِي الْآفَاقِ ،
 وَدَلَّ عَلَى صَفَاءِ السَّرِيرَةِ مِنْهُ حُسْنُ الْأَخْلَاقِ ؛ وَاشْتَهَرَ بِالْعُلُومِ الْجَزِيلَةِ ، وَالْمَنَاقِبِ
 الْجَلِيلَةِ ، وَعُرِفَ فِي الْإِنصَافِ بِالْأَوْصَافِ الْمَحْمُودَةِ وَالْحِصَالِ الْجَمِيلَةِ ؛ وَأُظْهِرَ مِنْ
 الْعُلُومِ الشَّرِيفَةِ ، مَا حَيْرَ الْعُقُولَ ، وَحَقَّقَ مِنَ الْمَسَائِلِ اللَّطِيفَةِ ، مَا جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْمَقْتُولِ
 وَالْمَعْقُولِ ؛ وَدَقَّقَ الْمُبَاحِثَ حَتَّى اعْتَرَفَ بِفَضْلِهِ الْخَاصِّ وَالْعَامِ ، وَفَرَّقَ بَيْنَ الْحَقِيقَةِ
 وَالْمَجَازِ فَلَا يَحْتَاجُ إِلَى اسْتِعَارَةٍ إِذَا تَسَبَّه الْأَخْصَامُ ؛ وَحَكَّمَ بِمَا أَرَاهُ اللهُ فَاحْكَامُهُ
 مَرْضِيَّةً ، وَقَضَايَاهُ فِي الْجُمْلَةِ قَدْ أَثْبَتَتْ فَهِيَ مُقَدِّمَةٌ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ ؛ وَثَابَرَ عَلَى الْإِقَاءِ
 الدُّرُوسِ فِي وَقْتِهَا وَأَوَانِهَا ، وَقَرَّرَ كُلَّ مَسْأَلَةٍ فِي مَحَلِّهَا وَمَكَانِهَا ؛ وَأَفَادَ طُلَّابَ الْعِلْمِ
 الشَّرِيفِ مِنْ فَوَائِدِهِ الْجَمَّةِ ، وَكَشَفَ لَهُمْ عَنْ غَوَامِضِ الْمُبَاحِثِ بِخَلَاةٍ عَنِ الْقُلُوبِ
 كُلِّ عُمَّةٍ ؛ وَجَالَ فِي مِيَادِينِ الدُّرُوسِ خَيْرَ الْأَبْطَالِ ، وَحَازَ قَصَبَ السَّبْقِ فِي حَلْبَةِ
 اللَّقَاءِ فَرَدَّ مُتَأَسِّفًا كُلَّ بَطَالٍ ؛ وَنَظَرَ فِي أُمُورِ الْأَوْقَافِ بِمَا أَرَاهُ اللهُ فَاتَّقَنَ بِحُسْنِ
 النَّظَرِ وَجَهَ ضَبْطِهَا ، وَأَجْرَى أُمُورَ الْوَاقِفِينَ عَلَى الْقَوَاعِدِ الْمَرْضِيَّةِ فَوَافِقِ الْمَشْرُوطِ
 فِي شَرْطِهَا ؛ وَجَمَعَ مَا تَفَرَّقَ مِنْ شَمَلِهَا فَاجْمَلَ وَفَصَّلَ ، وَحَفِظَ أُمُومَهَا فَخَصَّلَ

(١) مراده ارس من رسايرسو .

وأصل ؛ فهو الحاكم المشهور بالعدل والمعرفة ، والناظر الذي حميت الأمور تصرفه ؛ والإمام الذي أتم الأنام بأقواله وأفعاله ، والعالم الذي يجمد الطالب إليه شد رحاله ؛ والمدرس الذي أفاد بفقهِه المفيد النافع ، وترفع في البداية والنهاية فهو المختار في المنافع ؛ وسلك منهاج الهداية ، فنال من العلوم الغاية ؛ فبدائع ألفاظه لعقائد الدين منظومه ، وكثر عز فانه عزير المطالب ومحاسنه المشتملة على الكمال معلومه .

ولما كان فلان - أعز الله تعالى أحكامه ، وقرن بالتوفيق والسداد نقضه وإبرامه ؛ هو المشار إليه بالأوصاف والنعوت ، والمعول عليه إذا نطق بالفضائل والحاضرون سكوت ؛ والمشكور أثر بيته المشهور ، والمنشور علم علمه من السنة والشهور ؛ ياله من بيت لم يزل معمورا بالتقوى والصلاح ، تحميا بأسلحة أهله : فمن أحكامهم السيوف ومن أعلامهم الرماح ؛ فهو العديم المثل وبيته العديم ، وحرم فضيل يمحج إليه الراحل والمقيم ؛ فاستحق أن تقابل مقاصده بالإقبال ، ويقابل بما يؤمله مقابلة مثله ولا كسائر الأمثال .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت مراسمها المطاعة تقر الحق في يد مستحقه ، وترد الأمر إلى وليه ومالك رقه ؛ وتسوق هدى الإحسان إلى محله ، وتضع الاستحقاق في يد مستحقه والحق وضع الشيء في محله - أن يستقر بحكم ظهور الحق بيده المباركه ، وخفاء الباطل الذي ليس له في الحق مشاركة ؛ استقرارا مباركا ميمونا ، بالخير والسعد مقرونا ؛ لأنه الأحق بأمر وظائفه ، والطائف حول حرمة المنوع طائفه ؛ وأولى من عقلت عليه عقيلته ، وردت إليه فريده ؛ وبأشر بنفسه الكريمة ما عهد إليه سلفه ، وأنفرد به فلا يناله - إن شاء الله - إلا خلفه ؛

طالما أَلْقَتْ مِنْهُ الأَوْقَافُ مِنَ الشَّفَقَةِ وَالخَيْرِ ، وَحَفِظَ جِهَاتِهَا المَحْمِيَّةَ عَنْ تَطَاوُلِ
يَدِ الغَيْرِ ؛ وَنِعِمَّ بِحُسْنِ نَظَرِهِ مِنَ المَدَارِسِ كُلِّ دَارِسٍ ، وَفازَتْ مِنْهُ الدُّرُوسُ بِالعَالِمِ
العَارِفِ وَالبَطْلِ المُمَارِسِ .

فليباشِرْ ذلكَ عليّ ما تقدّمَ له مِنْ حُسْنِ المِباشِرَةِ ، وَليجْتَهِدْ - عليّ عَوَائِدِهِ -
فِي تَحْصِيلِ رَيعِهِ مُثَابِرًا عَلَيّ الأَجُورِ أَشَدَّ مُثَابِرَةً ؛ وَليصْرِفْ أُمُوالَ الأَوْقَافِ فِي مَصَارِفِهَا ،
بَعْدَ العِمَارَةِ وَالتَّشْمِيرِ المَبْدَأِيِّنَ فِي شَرَطِ وَاقِفِهَا ؛ وَليَسُوْ - عَلَيّ مُقْتَضَى مَعَدِلَتِهِ - بَيْنَ
القَوِيّ وَالضَّعِيفِ ، وَالشَّابِّ الصَّغِيرِ وَالشَّيخِ النَّحِيفِ ، عَلَيّ قَدَرِ تَفَاوُثِهِمْ فِي العِلْمِ
الشَّرِيفِ ؛ وَليُطَلِّقْ لِسَانَهُ فِي إِلقاءِ الدُّرُوسِ عَلَيّ عَادَتِهِ ، وَليُتَمَهَّدْ لِلشَّغْلَيْنِ طَرِيقَ
القَهْمِ لِيَنالُوا القَصْدَ مِنْ إِفادَتِهِ ؛ وَهُوَ بِمِجْدائِهِ تَعَالَى أَوَّلِيّ مِنْ أَدَى الأُمُورِ عَلَيّ الوَجْهِ
المُسْتَقِيمِ ، وَوَفِّي المَناصِبِ حَقَّهَا فَإِنَّ الوَفَاءَ جَدِيدٌ بِ«إِبْرَاهِيمِ»^(١) .

وَالوَصايا كَثيرةٌ وَإِلَيْهِ مَرْجوعُهَا ، وَمَنْ يَحارِ عِلْمَهُ وَدِينَهُ المِثِينَ يَبْذُوعُهَا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يُؤَيِّدُ بِهِ المَناصِبَ ، وَيُرفَعُ بِعُلُوِّ رُتَبَتِهِ المَرَاتِبَ .



نَسْخَةُ تَوْقِيعِ بِمِخْطَاطَةِ جَامِعِ ، كُتِبَ بِهِ لِقاضِي القَضَاةِ «سِكالِ الدِّينِ عَمْرٍ» ابْنِ
قاضِي القَضَاةِ جَمالِ الدِّينِ إِبْرَاهِيمِ بنِ أَبِي جَرادَةَ الحَنَفِيِّ ، الشَّهِيرِ بِابْنِ العَدِيمِ بِ«المَقَرِّ
الشَّرِيفِ» وَهِيَ :

رُسمَ بِالأَمْرِ الشَّرِيفِ - لا زالَتْ عِنايَتُهُ تُرَقِّي فِي مَنازِلِ المِجْدِ مِنْ تَتائِلِ بفضْلِهِ
بِهَجَّةٍ وَكِمالٍ ، وَتَدَكَّلَ جِياذِها الفُرسانِ الفُضائلِ فَتُجيدُ لَهُمْ فِي مِيسَدانِ البِلاغَةِ جَمالًا ،

(١) يَشِيرُ إِلى قَوْلِهِ تَعَالَى : (وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى) .

وَسَلَّمَ رَأَيْتَهَا [إلى من صدق بارق سعده ، ووهب من العلم] ملكا لا ينبغي لأحدٍ من بعده - أن يستقر... .. لأنه الإمام الذي [لو] تقدّم عصره لكان أحد أئمة الاجتهاد، والعارف الذي بلغ بولايته مُريد الفضل غاية المراد، والعالم الذي وجدت أخبار علومه نسبة يطابقها في الخارج صالح العمل ، وآتبع سنن الكتاب والسنة فلم يتخلل طريقته المثلى خلل ؛ والمحقق الذي وجد إلى كنه الحقيقة أكل مجاز ، والمفوه الذي بلغ من البلاغة في كلام البشر حد الإعجاز ؛ إن خطب شنف بدرر مواعظه الأسماع ، وشرف بغير فرائده الأسماع ؛ وأهترت أعواد المنابر طرباً لكلمه الطيب ، وروى أوام القلوب سح فضله الصيب ؛ وإن قرأ في محرابه أقر بفضله الجمع الجامع ، وأستقل « ابن كثير » حين وجد « الكسائي » عارياً مما لديه وفضله الجرم أكل « نافع » :

خَطِيبٌ إِذَا الصَّادِي تَصَدَّى لِفَضْلِهِ : * لِيَرَوِي ، فَأَنْوَأُ الْعُلُومَ تُعِيْهُ !

وَإِنْ يَرَوْهُ بِلَجْلَاسٍ أَخْبَارَ أَحْمَدٍ ، * نَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يَمَلُّ حَدِيثَهُ !

وهو الكامل الذي أدرك درجات الكمال في البداية فأمين في النهاية وهو قاض من النقص ، وسارت عيس الطلاب إلى حضرته الكريمة وأخذة ولكن بالنقص ؛ والصاحب الذي استصحب يسار العفاة باليمين ، وأزال ظن قاصده في ربه الشامل باليقين ؛ ثم أطلق بأقلامه المفيدة مكرمة بصلة الأرزاق ، ونسخ بحقق فضله رِقَاع الأول بالعتاء على الإطلاق ؛ ولو نظر الملكان : هَارُوتُ وَمَارُوتُ ماملکه من

(١) الزيادة يقتضيا المقام .

(٢) الأوام بالضم العطش .

كاتبته السَّاحِرَةَ لِأَفْزَا أَنَّهُ السَّحْرُ الْحَلَالُ ، وَلَوْ قَابَلَهُ «أَبْنُ هَلَالٍ» لَأَخْسَفَ بَدْرَ فَضْلِهِ
عند الكمال :

فَفِي كَفِّهِ الْأَفْلَامُ تَهَزُّ بِالْقَنَّا ، * وَتَحْشَى سَطَاهَا الْأَسَدُ فِي غَابِ غَابِهَا!
يُرْوَعُ سَيْوَفُ الْهِنْدِيِّ يُرَاعِهِ ، * وَقَدْ طَارَ مِنْ خَوْفِ حَدِيدِ ذُبَابِهَا!

فليباشر هذه الخطابة مباشرة ترشف منها كئوس كلمة الأشماع ، وليكشف لها
عن وجوه فضائله القناع ؛ ولينثر عليهم من درر بلاغته ما تلتقطه أفواه المسامع ،
ولينثر من طي لسانه علم علمه الذي لا يقاس عليه غيره أبى الله والفارق الجامع ؛
وليضطرب بمواصل أنبجائه القاطعة بفضائله المكملة ، وليظهر ما جمعه من محاسنه التي
هي الجمع الذي لا نظير له ؛ ولينفق على الجمع يوم الجمعة مما آناه الله تعالى من كنوز
الفضائل ، وليبلغهم من بلاغته التي أنحلت ذكر «قس» و «سبحان وأئل» ؛ وأنت
- أسبغ الله تعالى ظلالك - معدن الفضائل فأني تهدي إليك الوصايا؟ ، والمتصف
بصفات الكمال فكيف تعرض عليك المزايا؟ ؛ ولكن الوصية بتقوى الله تعالى من
شعائر الإسلام ، والله تعالى يديمك غرة في جبهة الأيام .



وهذه نسخة توقيع بتدريس بالجامع المذكور ، كتبت به للقاضي علاء الدين
«علي الصرخدي» الشافعي ، نائب الحكم العزيز بحلب بـ «المقرر العالی» وهي :

رسم بالأمر - لا زالت صدقاته تمنح دروس العلم الشريف بعلى العلوم ، وتتدب
لها من ذوى الاجتهاد من سائر بهمه البرق وسائر النجوم ، وتقرر للطلبة من

(١) في الأصل «دوى» بتشديد الياء وهو تحريف .

أولى العناية من حَقِّق الفضائل وأطلع على سرِّها المكتوم، وتُدِير عليهم من مشرب فوائده ما يُخَال أنه الرِّحِيقُ المَخْتوم - أن يستقر فلان... .. أستقراراً تقرُّ به أعيُنُ الطلاب، وتلمح من صوب فضله عين الصواب؛ ويشيد به دَارِسُ الدروس، ويطلع به في سماء الفضائل أنور شمس؛ وتُنشر به أعلامُ العلوم من طى الألسنة، ويذهب من كلِّ الطلِّبة في تحصيل العلم الشريف وسنه؛ لأنه الحبر الذى شهدت بفضله الأسفار، ورحلت إلى فوائده الجمَّة السُّفَّار؛ والبحر الذى جرت سُنن الأذهان به فلم تُدرِك غاية قراره، وعجزت الأمثال عن خوض تياره؛ والعالم الذى أقرَّب بعلمه الأعلام، وشهدت بإحكام أحكامه الأحكام؛ ما برز في موطن بحث إلا وبرز على الأقران، ولا جاره مجتهد إلا وكانا كَفَرَسَى رِهَان، ولا نطق بمنطق إلا وأنتجت مُقدِّمات هممه العليَّة وأجتاده على فضله أكل برهان، ولا أجرى جياذ علومه إلى غاية إلا مُطلقة العنان، ولا رآه من أخبر عن فضله إلا تمثل له: ليس الحبر كالعيان؛ إن تصدَّر للفوائد ألتقطت الأسماع دُرِّ علمه النفيس، وإن دَرَس تحال الطلِّبة أنه «أبن إدريس»؛ فهو طودُ فضلٍ لا يُسمى علواً ورفعاً، ولا يتوى مُناواته مُناوى ولو كان «أبن رفعة»:

إمامَ عدا للساكنين مُسلِّكاً، * عليمٌ، وممَّ أولى الفضائل من ولى!

علا فأسال البحر من فيض علمه! * وذلك سيلٌ جاء بالفضل من على!

فليأشُر هذا التدريس المبارك مباشرةً يُثبت بها فوائده، وينثر بها فرائده؛ ويُطرب الطلاب بطريف العلم وتالده، ويجمع لهم من صلة الفضل وعائده؛ وليلازم المباشرة ملازمة لا ينفك عنها أيام الدروس، ولينز القلوب بمصابيح الكتاب والسنة ويسر النفوس.

وأنت - أمتع الله بفوائدهك - من نورِكَ الوصايا تُقتبس ، وكم آس الطالب نار
فضلاً فاتى منها بأنورِ قَبَسٍ ؛ والله تعالى يُبقيك للعلوم كثرًا لا تُتفنى مواهبه ، ويُدِيمك
للطلاب بحرًا لا تُنقضى عجائبه .



وهذه نسخةٌ تَوَقِّعُ بتدريسِ بالجامع المذكور الحنفى ، كُتِبَ به للشيخ شمس الدين
«محمد القرى» الحنفى ، بـ«الجناب العالى» ، وهى :

رُسم بالأمر - لازلت عناية الكريمة تُطَلِّعُ شمس الدين للهداية فى أفق المدارس ،
وُسَّيدَ بالعلماء الأعلام من رُبوعها كلِّ دارِسٍ ؛ وتمنحُ الفقهاء ؛ بن إذا تصدَّى
للإفادة جادت نفسه بالدرر النَّفائِسُ ، وتندب لها من أولى البلاغة من إذا أَلَّفَ
فَصَلًا وُجِدَتْ غُصُونُ أَقْلَامِهِ فى رَوْضَاتِ الطُّرُوسِ أَحْسَنَ مَوَاسٍ - أن يستقر
فلانٌ : استقرارًا يُجَلُّ به الدروسُ بالفوائد ، وتمنحُ الطلبة منها بالصلة والعائد ؛ ويمدُّ
لهم من مَوَادِّ العلوم أشرف مَوَائِدِ ، ويوردُهم من مناهلها أعذب مَوَارِدِ ؛ لأنه شمس
العلوم ومِصْبَاحُها ، وقرئيل المُشكلاتِ وصباحُها ؛ وساعدُ الفتاوى الطائرة بفضائله
فى الآفاق وجناحُها ، وروحُ كُثُوسِ العلوم وراحُها ؛ وطليعةُ الحقائق وعنوانُها ،
وعينُ الدقائق وإنسانُها ؛ والإمامُ الذى أتمَّ به الطلابُ فاستحقَّ الإمامه ، والعالمُ
الذى أجتهد على فضل العلوم فاستوجب أن يُنعتَ بالعلامة ؛ والفاضلُ الذى
ضبطت أقواله : للأطلاع على سيرها المكتوم ، فأختصَّ فعلُ علمه المتعدى بالزوم
لإتصافه بالعموم ؛ كم أَلْقَطْتُ من دروسه الجواهر ، وتمثل لأبكار فوائده : كم ترك
الأول للآخر ؛ قابلته الأسفار عن وجوه فوائدها بالإسفار ، وأظهرت لذكاء ذكائه
ما صمته أحشأؤها من الإضمار ؛ فهو المختار لهذا التدريس : إذ درر فوائده منظومه ،
والحُبَّيْ لِالإفادة بسُلوكة طرق الهداية إلى دقائقها المكتومه ؛ وكم استنارت الطلبة

من سَمِرِ فَضْلِهِ حَتَّى كَادَ أَنْ يَكُونَ ثَالِثَ الْقَمَرَيْنِ، وَجَمَعَ فِي صَدْرِهِ بِحَرَمِي الْمَقُولِ
وَالْمَعْقُولِ حَتَّى قِيلَ : هَذَا «مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ» :

هُوَ الْبَحْرُ، إِلَّا أَنْ فِيهِ مَجَابِبًا، * وَوَاوِ فَضْلٍ لَيْسَ يُوجَدُ فِي الْبَحْرِ!
بَلَغَتْهُ السِّحْرُ الْحَلَالُ، وَإِنَّمَا * بَدِيعُ مَعَانِيهَا يَجِلُّ عَنِ السِّحْرِ!

فَلْيَبْشُرْ هَذَا التَّدْرِيسَ نَائِرًا دُرَّرَ فَرَائِدُهُ، نَائِرًا غُرَّرَ فَوَائِدُهُ؛ جَائِدًا بِجِيَادِ فُضَائِلِهِ
السَّابِقَةِ إِلَى الْغَايَاتِ، عَائِدًا بِصَلَاتِ حَقَائِقِهِ لِتَكْمُلَ لِلطَّلَبَةِ بِهِ الْمَسْرَاتِ؛ وَبِلِزَامِ أَيَّامِ
الدَّرُوسِ مَا أَسْدَى إِلَيْهِ مِنْ هَذِهِ الْوُظَيْفَةِ، وَلِيَرْتَقِ مِنْ دَرَجِ التَّقْوَى لُغْرَفِ الْمَعَارِفِ
الشَّرِيفَةِ .



وهذه نسخةٌ تُوَقِّعُ بِإِمَامَةٍ وَتَصْدِيرٍ بِجَامِعِ مَنْكِلِي بَغَا الشَّمْسِيِّ بِجَلَبٍ، كُتِبَ بِهِ
لِلشَّيْخِ شَمْسِ الدِّينِ «مُحَمَّدِ الْإِمَامِ»، بِ«الْجَنَابِ الْعَالِيِ»، وَهِيَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ الْعَمِيمَةُ تُطْلِعُ شَمْسَ الدِّينِ فِي أَفْقِ الْمَعَالِيِ، وَتَرْفَعُ
مِنْ أَوْلِيَائِهِ خِدْمَةَ مَنْ جِيَدُهُ بِالْفَضْلِ حَالِيٌ؛ وَتَمْنَحُ بِرَّهَا مَنْ أَعْرَبَتْ عَنْ لَحْنِهِ الطَّيِّبِ
وَتَسْتَنْفِتُ مِنْ فِيهِ بِاللَّالِيِ، وَتَسْفَحُ غَيْثَ جُودِهَا عَلَيَّ مِنْ أَجْمَعِ عَلَيَّ طَيْبِ مُسَامَرَتِهِ
وَرَفَعِ أَدْعِيَتِهِ الْأَشْمَاعِ وَاللَّيَالِيِ - أَنْ يَسْتَقِرَّ فَلَانُ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى ضِيَاءَ شَمْسِهِ، وَبَنَى لَهُ
رَبْعَ السَّعْدِ مِنْ جُودِهِ عَلَيَّ أُسَّه - لِأَنَّهُ الْإِمَامُ الَّذِي شَهِدْتُ بِجُسْنِ قِرَاءَتِهِ
الْمَحَارِيبِ، وَالْآتِيِ مِنْ فَضْلِ فُضَائِلِهِ بِالْأَغَارِيبِ؛ وَالْفَاضِلُ الَّذِي سَلَكَ طُرُقَ الْفُضَائِلِ
أَحْسَنَ سُلُوكِ، وَشَهِدَ بِسَبْقِ جِيَادِ جُودِهِ فِي حَلْبَةِ الْأَخْتِبَارِ كُلِّ حَتَّى الْمُلُوكِ؛ وَالْكَامِلُ
الَّذِي كَلَّمَ أَوْصَافَهُ الْمَحْمُودَةَ فَمِنْ النِّقَائِصِ، وَأَخْتَصَّ بِجَمِيلِ الشِّيمِ وَحُسْنِ الْخِصَائِصِ؛
مَا أُمَّ إِلَّا وَشَهِدَ بِفُضْلِهِ كُلِّ مَأْمُومٍ، وَأَقْرَبُوا أَنْ أَسْمَاعَهُمْ أَرْتَشَفَتْ رَحِيقَ فُضَائِلِهِ مِنْ

كَأْسِهَا الْمُخْتَوِمَ ؛ وَمَا سَامَرَ الْخَوَاصَّ إِلَّا وَشَهِدَ الْعَوَامُ بِحُسْنِ صِفَاتِهِ ، وَلَا حَدَّثَ إِلَّا
وَكَانَتْ الْمَلُوكُ مِنْ رُؤَاتِهِ .

فَلْيَبْشِرْ هَذِهِ الْوُظَانَفَ الْمُبَارَكَةَ مَبَاشِرَةً تَقَرُّ بِهَا النَّوَظِرُ ، وَتَجْتَمِعُ الْأَلْسِنَةُ عَلَى أَنَّهُ
أَكْرَمُ إِنْسَانٍ وَخَيْرُ نَظِيرٍ ؛ وَلِيَتَصَدَّرَ لِإِلْقَاءِ الْفَوَائِدِ ، وَلِيُكْسِبَ الْأَسْمَاعَ مِنْ عِلْمِهِ
بِالطَّرِيفِ وَالتَّلَادِ ؛ وَلِيَتَنَاوَلَ مَعْلُومَهُ أَوْانَ الْوُجُودِ وَالْإِسْتِحْقَاقِ ، هِنَاءً مُبَسَّرًا مِنْ غَيْرِ
تَقْيِيدٍ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَلِيَتَّقِيَ اللَّهَ فِيمَا أُسْدِيَ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ ، وَلِيَسْلُكَ مِنْ سَنَنِ التَّقْوَى
- بِقَدَمِ الصَّدْقِ - أَحْسَنَ الْمَسَالِكِ .



وهذه نسخ تواقع لأرباب الأقلام الديوانية بحلب وما معها :

توقيع بكاتبه الدست بحلب ، كتب به لـ «بهاء الدين بن الفرفور» ونظر بيت
المال بحلب ، بـ «الحجاب العالي» ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال ينظم عقود الإحسان في أجياد أوليائه ، ويحجز لهم بوافر
نظيره وأفي عطائه ، ويحجى بهاء الدين على أحسن نظام فينجزله عدة وفائه - أن
يستقر استقراراً يباغ به وجوه الآمال ، ويكسو الدواوين ملابس البهائم
والكمال ، ويزيدها رفعة بما يفعله من ذلك الجمال ؛ لأنه الفاضل الذي إذا
قصد المعاني أصاب ، وإذا سئل عن كل معنى لطيف أجاد وأجاب ؛ والفصيح
الذي إذا تكلم أجزل وأوجز ، وأسكت كل ذي لسان بفصاحته وأعجز ؛ والبلغ الذي
أبدع في مكاتباته بمشوره ومنظومه ، واللييب الذي أطلع من أزهار كلبه المسموعة
في رياض الطروس ما يحجزل الروض إذا أفتخرت بمشومه ؛ والكاتب الذي قطعت
بمعرفة الأقلام ، والحاسب الذي عقدت على خبرته خناصر الأنام ؛ والأديب الذي

جمع بين قلم الإنشاء الشريف (؟)، وحاز ما في ذلك من تآلٍدٍ وطريفٍ ؛ فله دره من كاتب زين الطروس بحسن كتابته ، وجمال الألفاظ والمعاني بجميل درايته وفصاحته .

فليس ما عُدق به من ذلك مباشرةً مقرونةً بالسداد ، مشكورةً المساعي والاعتماد ؛ مظهرًا براعةً يراعه ، باسطًا يد إيداعه الجميل وإبداعه ؛ مُقوِّفًا حواشي القصص بتوقعاته ، مُوشيًا برود الطروس بترصيعاته وتوشيعاته ؛ ناظرًا على اعتماد مصالح بيت المال المعمور ، وتحصيل حواصله على الوجه المشهور والطريق المشكور ؛ عاملاً بتقوى الله عز وجل في ضبط مصالح ديوان الجيوش المنصوره ، سالكًا من حسن الاعتماد طرقًا على السداد والتوفيق مقصوره ؛ والوصايا الكثيرة وتقوى الله تعالى عمادها ، فليجعلها عمده فيما يتم به للنفس المطمئنة مرادها ؛ وليتناول معلومه المستقر لذلك أوان وجوبه ، والله تعالى يبلغه غاية قصده ومطلوبه .



توقيع بصحابة ديوان الأموال بحلب ، من إنشاء ابن الشهاب محمود ، كتب به للقاضي شمس الدين « محمد بن محمد » ، أحد كتّاب الدست بحلب ، بـ « المجلس العالي » ، وهو :

رسم بالأمر - لازالت صدقاته العميمة تُسر نفوسا ، وتُطلع في هالات الوظائف السنية عوَض الشمس شُموسا ؛ وتسقى غرس نعمائها الهبات الهنية فترهي أغصانًا يانعةً وغرُوسا - أن يستقر ... : لأنه الأُوحدُ الكامل ، والرئيس الفاضل ؛ ولأنه حاز قصب السبق في المباشرات ، والمناصب الجليلة والمراتب السنيات ؛ طالما بذل جهده في خدمة الدول ، وسلك بجميل مباشرته طريق السلف وسبيل الأول ؛ فأدرك بحسن سيرته ويمن طريقته نهاية السؤل وغاية الأمل ، وأتى الأمور على

قَدْرٌ ولا يقال : على عَجَلٍ ؛ ولأنه الأَمِينُ في صَنَعَةِ الإِنشاءِ ، والتابِعُ في فَتْنَةِ فُنونِ الأَدباءِ ؛ إن رَمَقَ الطُّروسَ طَرزًا ، وإن بارزَ الأَقْرانَ في مَواطِنِ الأَفْتِخارِ بَرزًا ؛ وإن بَسَطَ الجِرائدَ ، تَعَارَ من حُسْنِ الخِرائدِ ؛ طالما نَطَقَ بالحِكمِ ، وأشتهرَ بين أَصحابِهِ مِثْلَ أَشْهائِ النَّارِ على عَلمٍ ؛ نَظَمَ المحاسِنَ في نَثْرِ البَدِيعِ ، وجمَعَ بين الأَضدادِ فيما يُبَدِيهِ من الإِنشاءِ ويُحْيِيهِ من التَّصريحِ ؛ قَدِّمَتْ هِجْرَتُهُ في الخِدمَةِ الشَّرِيفَةِ ، وأَقْتَنَفَ من زَهْرِ الصَّدَقَاتِ الشَّرِيفَةِ أَحْسَنَ مَنصِبٍ وأَجْمَلَ وِظيفَةٍ ؛ وَتَحَلَّى جِيدَهُ بالقلائدِ ، وَحَصَلَ بِسَعْيِهِ مجموعَ الفرائدِ ، فَعادَتْ عليه الصَّدَقَاتُ الشَّرِيفَةُ بأَجْمَلَ العوائدِ ؛ قد اسْتَحَقَّ التَّقْدِيمَ ، وأَسْتَوْجَبَ من الصَّدَقَاتِ العَمِيمَةِ نِهايةَ التَّكْرِيمِ .

فَلْيَبْشُرْ هَذِهِ الوَظيفَةَ مِباشِرَةً حَسَنَةَ الأَثارِ ، جَمِيلَةَ الإِيرادِ والإِصدارِ ؛ ناظِمًا بِقَلامِهِ الحِسابَ على أنواعِهِ ، مُحْكِمًا لَه على سِدادِ أَوْضاعِهِ ؛ وَلْيُطَلِّعْ شَمْسَهُ في سَماءِ هَذِهِ الوَظيفَةِ ، وَلْيَجْنِ من رَوْضِها الأَرِيبِ كُلَّ يانِعَةٍ لَطِيفَةٍ ؛ وَلْيَعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ بَوادِرُ خَيْرِ سَرَتِ إِليه ، وَسَوايِعُ نَعِيمِ خُلِعَتْ عَلَيْهِ ؛ وَأَنَّ الصَّدَقَاتِ العَمِيمَةَ لا بُدَّ أَنْ تُؤَلِّيَهُ بَعْدَ ذلكِ بَرًا ، وَتَرادَفَ عَلَيْهِ تَتْرأى ؛ وَتَعَلَّ لَه بين رِفاقِهِ المَرْفُوقينَ قَدْرًا ؛ وَمِثْلُهُ لا يُنْبَهُ على وَصِيٍّ ، لا دَانيَةٍ ولا قَاصِيَةٍ ؛ لَكن التَّقوى لا بُدَّ مِها ، ولا يَجوزُ أَنْ يُغْفَلَ عَها ؛ فليَجْعَلْها أَعْتادَهُ في كُلِّ الأُمورِ ، وَلْيَتَناوَلْ مَعلومَهُ المَقَرَّرَ لَه على الوَظيفَةِ المَذكُورَةِ في غُرَرِ الشُّهُورِ ؛ وَاللهُ تَعالَى يَضاعِفُ لَه بِمِضاغِفَةِ الصَّدَقَاتِ عَلَيْهِ أوقاتَ السُّرورِ ، وَيَقِيهِ بِلُطْفِهِ كُلَّ مَحذورٍ .



توقيع بنظر بهسنى ، من عمل حلب ، كتب به لفتح الدين « صدقة بن زين الدين ،
عبد الرحيم المصرى » ، بـ « المجلس السامى » ، وهو :

رُسم بالأمر - لازالت صدقائه العميمة تفتح لأولياء خدمته أبواب الخيرات ، ولا برحت تُهدى إليهم أنواع المسرات - أن يستقر... .. في وظيفة النظر بمدينة بهسنى المحروسة عوضاً عن بها ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت ، على العادة في ذلك والقاعدة ، آستقراراً يسر خاطره ، ويُقر ناظره ، لأنه الماهر في صناعته ، والرائج في متاجر بضاعته .

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة حسنه ، لتصبح الألسنة بشكرها معلنه ، وليصرف قامه فيما يعود نفعه عليه ، وليجتهد فيما يستجلب الأثنية إليه ، وليقبض معلومه أو أن وجوبه هنياً ، ولتناوله بيد استحقاقه مرئياً ، والوصايا كثيرة وهو - بحمد الله تعالى - غير محتاج إليها ، لأنه الفاعل لها والدال عليها ، وتقوى الله تعالى عمادها ، وبه قوامها وسنادها ، فليتمسك بسببها في الحركات والسكات ، والله تعالى يهتد له أسباب المسرات .



توقيع بكتابة الإنشاء ونظر الجيش بدبركي ، كتب به للقاضي شهاب الدين « أحمد ابن أبي الطيب العمري العثماني » ، بـ « بالجناب الكريم » ، وهو :

رُسم بالأمر - لازال يجمل الثغور بن تزهو برحيق كلمه الطيب [المناصب] ، ويكمل محاسنها بن لم تزل الصحف تقود من جياذ فضله أجمل جنائب ، وحبابها بشهاب يهتدى إلى المقاصد بنجم رايه التأقب ، وسرها بكل تدب لم تزل كُتبه تُرد من الدعار الكئاب - أن يستقر... .. في وظيفتي كتابة الإنشاء الشريف والجيش المنصور بدوركي المحروسة ، عوضاً عن فلان ، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر

(١) لغة في دبركي كما سلف قريبا وتقدم في ج ٤ ص ١٣٢ من هذا الطبع .

وقيت . لأنه من بيت رُفِعَ علمُ قدره على السحاب ، وأنتصبت رايةً آرائهم بالتمييز في مواكب العزة عن المواكب ، وأضيف إلى مجدهم شرف الكمال فانجرت بالإضافة ذيل مجدهم على الكواكب ، وجزم أولو الفضل بنسبتهم إلى المعالي فجازوا قصبتها استحقاقاً وما زاحموا عليها بالنناكب ، وأسس أصله على عماد شرف «الفاروق» و«ذي النورين» ففترع على أكل تناسل بتناسب .

النيابة الثالثة

(مما يكتب من التواقيع بالولايات عن نواب السلطنة بها - نيابة طرابلس)

وهي على ما تقدم في دمشق : من تقسيمها إلى تواقيع أرباب السيوف ، وتواقيع وظائف أرباب الأقاليم الدينية ، وتواقيع أرباب الوظائف الديوانية ، وأرباب الوظائف بمشيخة الأماكن وغيرهم ، وتقسيم ذلك إلى ما يفتح بـ«الحمد لله» ، وما يفتح بـ«أما بعد حمد الله» ، وما يفتح بـ«رسم بالأمر» .

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بشد الدواوين بطرابلس ، كتب به لصالح الدين «صالح الحافظي» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهي :

الحمد لله الذي أيد هذه الدولة وسددها بأنواع الصلاح ، وعمّر العالم بعديل سلطانها وجعل أيامه مقرونةً بالنجاح ، وأقام لتدبير المملكة [كل] كفاء كافٍ مشهور باليمن والصلاح .

نحمده على نعمة الغامرة في المساء والصباح ، ونشكره على آلائه في كل غدو ورواح ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة ضوئية كالمصباح ،

وَأَنَّ سَيِّدَنَا مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَشْرَفُ مِنْ أَصْطَفَاهُ وَأَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْخَيْفِيِّ فَبَشَّرَ
وَأَنْذَرَ وَحَلَّلَ وَحَرَّمَ ... (١) ... وَأَبَاحَ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ صَلَاةً دَائِمَةً
مُسْتَمِرَّةً مَا حَيَّعَلَ الدَّاعِيَ إِلَى الْفَلَاحِ .

وبعد، فإن أولى الأولياء بمضاعفة الإحسان، وأن يعلى له في المكان والإمكان -
من عرف بأجل المباشرات في الفتوحات، وأشهر فيها بالكفاية والصيانة وجميل
التدبير وحسن الصفات .

ولما كان فلان هو المنفرد بهذه الصفات الحسنه، وأتفقت على نعوته الجميلة
الألسنه، والوحيد بهذه السجايا، الفريد بشرف المزايا، عقدت الخناصر عليه،
وأقتضت الآراء أن يسند تدبير المملكة إليه: فإنها لم تجد لها كفاً غيره، ولا من
يجمع شمل شتات أقوالها ولم يفرط بمثقال ذره .

فلذلك رُسم بالأمر - لازال يندب لتدبير الممالك كل كُفء كاف، ويورد أولياءه
من موارد إحسانه مورداً عذباً صاف - أن يفوض إلى الجناب الكريم - أدام الله
علو قدره، وأيده بالمعونة في أمره - شدّ الدواوين المعمورة بالمملكة الطرابلسية،
بالمعلوم المستقر، الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت، على عادة من تقدمه .



وهذه نسخة توقيع بالاستمرار في شدّ الدواوين :

الحمد لله الذي قرن الشدة بالفرج وجبر بعد الانكسار، وأمتحن عباده بأنواع
من المحن ليعلم الصادقين في الاضطبار، وأطلع في أفق العلا سعد السعود ساطعاً

(١) بياض بالأصل ولعله : وحظر وأباح، الخ .

بالتور بعد ما غار، وجمع لمن أنقطع به حبل الرجاء من الخلق فتوكل عليه بين نيل
المطلوب وتمحيص الأوزار .

نحمده وفي محامده تطيب الآثار، ونشكره على ما أسبل من النعم الغزار؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله كشف الغم بعد ما غم القلوب وغطى على
الأبصار، وفرج الهمم، وقد كان أدلهم، وأظلمت منه النواحي والأقطار؛ ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله المصطفى المختار، سيد ولد آدم في الدنيا وسيدهم في دار
القرار، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار، وصحابة الأخيار، ما أظلم ليل وأضاء نهار .

وبعد، فإن الله تعالى لطف بهذه الدولة المعظمة في المقام والسير، فما مضى
لأحد معها يوم سرور إلا والذي من بعده خير؛ ونصب خيام عدلها على الخلق
وشرع أطناها، ورغب العباد في فضلها العميم وفتح لهم بابها؛ وجعلها كاشفة
للكرób الموجبة للحرز والضيق، راشفة من خزائن ملكه ومعادن نصره كأس
رحيق؛ تصل بقوة وتقطع، وتفرق بارادته وتجمع؛ ثم جعل المال نظام ملكها
القويم، وقوام سلكها النظيم؛ به ترضى أوامرُه ونواهيُه، وتجرى على السداد بما
يُحبه ويُرْضيه؛ فتعين إعداده من يُقيم بعزمه عمده، ويُعيد من أخذ منه غير استحقاق
من أفتد الدين زنده؛ وقدّر الله تعالى في هذا الوقت ما قضاه، ونفذ حكمه فيمن
خرج عن طاعته وأمضاه؛ فلم تبق مملكة إلا ومسها وأهلها الإضرار، ولا بقعة
إلا ولحق أهلها بأس أولئك الفجار؛ فأدرك الأطف الإلهي ممالك الإسلام، وحل
الركاب الشريف بأرض الشام، فكان بردا وسلام، ونجا المخلص وهلك الناكث
الناكل بقدم سلطان الإسلام؛ خلد الله ملكه [ليقذف] بالحق على الباطل، وأيد
الله دولته الشريفة بعونه المتواصل .

وكان فلانٌ له مباشراتٌ عديده ، وتأثيراتٌ حميده ، وآخر ما كان في وظيفة شدِّ الدواوين بطرابلس : فباشرها مباشرةً جميلةً الأثر، مشكورةً السير عند من ورد وصدر ، ودبر مهماتٍ يعجز عن حصرها أولو العقول والفكر ؛ وحصل للديوان المعمور أموالاً كالطوفان ولكن بلا غرق ، وأستعجب منها كيف حصرتها الأقلام أو وسعها الورق ! ؟ ؛ والذي كان بوظيفة الشدِّ الآن زاهدٌ عنها ، ليس له رغبةٌ فيها ولا في شيءٍ منها .

فتعين إعادة الجنب الفلاني إليها . ورسم بالأمر - لازلت أيام دولته الشريفة تُصلح الشأن ، وتعيد الخير إلى ما كان - أن يستقر

فليعد إليها عود الحسام إلى غمده ، والماء إلى منهلٍ ورده ؛ وليباشرها بمباشرتيه المعروفة ، وعزائمه المألوفه ، وهممه الموصوفه ، مُسترفِعاً المتحصل ومصرفه ؛ وليتحقق أن الله تعالى سيصل رزقه فلا يُوجس في نفسه خيفه ، وليجعل تقوى الله تعالى دأبه في كلِّ قضيةٍ ثقيلةٍ كانت أو خفيفه ، والله تعالى يمدُّ بالطفاه المطيفه ؛ بئنه وكرمه .



وهذه نسخةٌ توقيع بنقابة العساكر بطرابلس :

الحمد لله الأول بلا آخر ، الغنى في ملكه عن الناصر ، المنزه في سلطانه عن المؤازر ، المتوحد بعدم الأشباه والنظائر ، المبيد لكلِّ مظاهر العناد مجاهر ، العليم بما تكنه الأفكار وتجنه الضمائر ، الرقيب على كلِّ ما تردد من الأحوال بين سوادى القلب والناظر .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً خالصةً يرغم بها كلِّ جاحدٍ وكافر ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث والشرك مدلهم الدياجر ، والرشد

قد خيم عليه الضلال فما له من قوة ولا ناصر، فأقام به الدين الحنيفي النير الزاهر، ورفع ذكره في سائر الأقطار والأمصار على رؤوس المنابر، صلى الله عليه وعلى آله أهل المكارم والمآثر، ما حمد السرى عند الصباح سائر، ونحمد شرر الشر بكل مناضل ومناظر، وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد، فإن أولى من سيقت إليه وفود النعم، ومنح من الخيرات أجزال القسم، وعُدت الأمور بعزائمها، وأعتمد على همته التي هي في المضاء كأسنته وصوارمه؛ ورعيت جهود ولائه التي لا تُشكر، ووصفت مساعيه التي استحق أن يُحمد بها ويُشكر - من إذا عول عليه في المهمات كفأها، وإذا استطببت المعضلات به شفاها؛ وسارت أبناء مهابته غوراً ونجداً، وأتصف بحسن التدبير الذي عليه من الإقبال أكل إجداً.

ولما كان فلان هو الذي تناقلت تباشير أخباره الرُجبان، وأثنى على شهامته السيف والسنان؛ وشرفت بحجاسنه الأعلام، وأرتفع ذكره بالشجاعة على رؤوس الأعلام.

فلذلك رسم - لا زال للدين الحنيفي ناصرًا، وللأعداء قاصمًا قاهرًا، وللحق مؤيدًا باطنًا وظاهرًا - أن يستقر الجناح العالى المشار إليه أمير نقيب العساكر المنصورة الطرابلية، عوضًا ممن كان بها، على عادته وقاعدته : لأنه الخبر الذى عقدت على خبرته الخناصر، وورث الشهامة كبرًا عن كبر؛ وأضحى بتدبيره واضح الغرر، شاهدًا له به العين والبصر؛ إن جال بين صفوف العساكر كان أسداً، وإن رتب جيوشها أحصاها حلية وعدداً.

فليباشر هذه الوظيفة محرراً أحوال العساكر المنصورة، مقررًا لهم في منازلهم على أكل عادة وأجمل صورته؛ بمناجحة صمخ بمسكها، ومخالصة قام مقام واسطة جوهر

سَلِكُهَا ، وَمُلَازِمَةَ خِدْمَةِ تَأَزَّرَتْ بِهَا أَعْطَافُهُ ، وَصَفَاءِ طَوِيَّةٍ شَرَفَتْ بِهَا أَوْصَافُهُ ؛
وَمَحَبَّةِ عَدْلِ جَمَعَ فِيهَا بَيْنَ قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ ، وَإِخْلَاصِ يَحْسُنُ بِالْمَرْءِ أَنْ يَكُونَ مُتَحِفًا
بِظَلِّهِ : لَكِنِّي يُتِمُّ اللَّهُ النَّعْمَ عَلَيْهِ كَمَا أَتَمَّتْهَا عَلَى أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ ؛ وَلِيقْصِدُ رِضَا اللَّهِ تَعَالَى
فِي هَذَا الْأَمْرِ ، لَا رِضًا زَيْدٌ وَلَا عَمْرُو ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ فِيهَا تَوَلَّاهُ ، وَالْأَعْتَادُ
فِي ذَلِكَ عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ ، حِجَّةٌ بِمُقْتَضَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



وهذه نسخة توقيع بنقابة الأشراف بطرابلس بـ «المجلس السامى» بالياء ، وكتب
فيه «القضائى» على خلاف الأصل ، وهى :

رُسم بالأمر - لا زال يرفعُ لذوى الأصلة الشريفة قدرًا ، وينقلهم إلى الرتبِ
السنية ويعلى لهم ذكرا ، ويشملهم من إحسانه بما يسرُّ لهم قلبًا ويشرحُ صدرًا ؛
ويبلغهم من المآرب أوفاهًا ، ومن ملابس القبول أجملها وأسناها - أن يستقرَّ فلانُ
- أدام الله نعمته - فى نقابة السادة الأشراف بالمملكة الطرابلسية ، على ما تقدم من
عادته فى ذلك : استقرارًا جاريًا فيه على أجمل العادات ، وأعتادًا على ما عهد من
سلفه الشريف الذات ؛ ورعاية له فى تجديد المسار ، وترجيحًا لما أشتمل عليه من
حسن الكفاية فى كل إيراد وإصدار ؛ ورفعة ليد الباسطة على أبناء جنسه ، وتقوية
يحد أثرها فى معناه وحسه ؛ رَسْمًا يستوجب به النعم الجزيله ، وولاية تولىه
من الكرم سوله ، وعناية تُصيحُ بها ربوع أنسه ماهوله ؛ لأنه أولى أن يقرَّ فى هذه
الوظيفة ويؤاد ، وأحق أن يُرعى لما سبق له من السداد ، وأجدر أن لا يُضاع
حقه حيث له إلى ركن الشرف المنيف استناد .

فليباشر هذه الوظيفة المباركة مبسوطًا أمله فى المزيد ، منوطًا رجأؤه فى نعمنا
باستئناف وتجديد ، محوطًا ما بيده من كرمنا العديد ؛ وهو غنى أن نثنى له الوصايا

ونعيد، ملى بحسن السجايا التي جُيِّبَتْ على التحقيق والتوفيق والتسديد؛ والله تعالى
يُطَوِّقُ بِمَنِّ جُودِنَا مِنْهُ الْحَيْدَ ، وَيُعِدُّ لَهُ سَحَابَ رِفْدِنَا الَّتِي تُجْرِيهِ عَلَى مَا أَلْفَ مِنْ
فَضْلِهَا الْعَدِيدِ ؛ وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ - أَعْلَاهَا اللَّهُ تَعَالَى - أَعْلَاهُ ، مُجْتَمَعَةٌ بِمَقْتَضَاهُ .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَشَدِّ الشَّوَانِي بِطَرَابِلِسَ ، كُتِبَ بِهِ لِعَلَاءِ الدِّينِ «أَيْدِ غَمَش» وَهِيَ :
رِسْمٌ ... - لِأَزَالَتْ أَيَامُهُ ، قَائِمَةٌ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَعْلَامُهُ ، حَائِمَةٌ
عَلَى الْإِتْقَانِ مُهَجِّجِ الْعِدَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا يُقَرِّبُ لَهُمُ الْأَجَلَ - أَنْ يَسْتَقَرَّ فَلَآنُ فِي شَدِّ
الشَّوَانِي الْمَعْمُورَةِ الْمَنْصُورَةِ عَلَى الْعَادَةِ فِي ذَلِكَ ، بِهَيْمَتِهِ الْعَالِيَةِ ، وَعَزَمَتِهِ الَّتِي هِيَ بِلُغِ
الْمَقَاصِدِ مِلَّةً ؛ وَشَهَامَتِهِ الَّتِي تُرْهِبُ الْعِدَا ، وَشَجَاعَتِهِ الَّتِي تُلِيْسُهُمْ أَرْضِيَّةَ الرَّدَى ؛
وَبَسَائِلِهِ الَّتِي تُبْسِلُهُمْ فِي الْبَحْرِ فَتَصِيرُهُمْ كَالْأَسْمَاكِ لَا يُسَامُ لَهُمْ صَدَى .

فَلْيَجْتَهِدْ فِي ذَلِكَ جِدَّ الْأَجْتِهَادِ ، وَلْيَعْمِدْ فِيهِ السَّدَادَ وَالسَّدَادَ ؛ وَلْيُوقِظْ أَجْفَانَ
سَيُوفِهِ مِنَ الْعَمَاضِ ، وَلْيُرْهِبْ الْعِدَا بِشِدَّةِ وَطْأَتِهِ الَّتِي لَهَا الثَّبَاتُ فِي الْأَرْضِ ؛
وَلْيَلْزِمْ مُوَاطَبَةَ الشَّوَانِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، وَلْيَكُنْ هُوَ وَمَنْ حَوْلَهُ لِنَ بَهَا أَنْصَارًا ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى
يُجْزِلُ لَهُ مَبَارَا ، وَيَرْفَعُ لَهُ مَقْدَارَا ، بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ .



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بَشَدِّ دَارِ الضَّرْبِ ، كُتِبَ بِهِ لِعَلَاءِ الدِّينِ الدَّوَامِ ، وَهِيَ :
رِسْمٌ ... - لِأَزَالَ إِحْسَانَهُ يَجُودُ عَمَامَا ، وَقَضَلُهُ الشَّامِلُ عَلَى الْأَوْلِيَاءِ الْمُتَّقِينَ إِمَامَا ،
وَسَحَابُ بَرِّ كَرَمِهِ هَامِيَةٌ عَلَى أَوْلِيَائِهِ ، هَامِلَةٌ عَلَى أَصْفِيَائِهِ ، فَتَرَاهُمْ يَخْرُونَ لِلْأَذْقَانِ سُبْحَدَا
وَيَنْتَصِبُونَ قِيَامَا - أَنْ يَسْتَقَرَّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ فِي شَدِّ دَارِ الضَّرْبِ : إِعَانَةٌ لَهُ عَلَى الْخِدْمَةِ
الشَّرِيفَةِ ، وَإِرْفَادًا لَهُ بِمَعْلُومِهَا إِذْ هِيَ لَيْسَتْ لَهُ بِوُضُوفِهِ ؛ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ قَدْرًا ،

وأحقُّ بكلِّ منزلةٍ عليِّه وأخرى ؛ ولكن هذه الجهة هي قانونُ المعاملة ، وسكتها بشعار الملك مُتصلةً وبين الحقِّ والباطلِ فاصله ، ومنها النقوش التي هي رُستاق الأرزاق ، وصدر كلِّ إطلاقٍ وقداق ؛ حكيمٌ ما أرسل في حاجةٍ إلا وأذن لها بالنجاح ، ولا آستؤمن عليه أمرؤ باذن الإمام إلا وحق له [الاتصاف] بالصلاح والفلاح ؛ هذا وهو في الأصل مذموم ، وطالبه محروم : لأنه مقسوم ، والأجل محتوم ؛ ولكن تطهيره من الدنس واجب ، والحسبة في عيابه حتى يغدو وبودق صفائه من الغش ناضب .

فليعتمد المشار إليه في شد هذه الجهة حسن التقوى ويلاحظ بعزمه أمورها لتكون على السداد ، ويعتمد على السيد الناظر فإنه نعم العباد ، ويفوض إليه كشف الروايع وحك العيار فهو به أدري وأخرى وأدرب بأدحاض غش الفساد ، وليناول معلومه المقرره عند الوجوب والاستحقاق ، هنيئاً ميسراً خالصاً من التنازع والشقاق ، ومثله فلا يدل على [صواب] : إذ تقوى الله تعالى كلمة الفصل وفصل الخطاب ، والله تعالى يجعلها لنا وله زاداً وحرزاً ، وذخراً يوم المعاد وركزاً .^(١)



وهذه نسخة توقيع بشد البحر بمينا طرأ بلس ، وهي :

رُسم بالأمر - لا زال سيفه قاطعاً من الأعداء نحرًا ، وأمره نافذاً برًا ونحرًا ، وفعله صالحًا دنيا وأخرى - أن يستقر الجنب المشار إليه في شد مينا البحر بطرأ بلس .

فليأشر هذه الوظيفة شارحاً لها صدرًا ، فاتحاً لها بحسن مباشرته الجميلة بصراً وفكرًا ؛ باعنا لها في الآفاق بمباشرته ذكراً جميلاً ، باحثاً عما يتعلق بمتحصل المينا

(١) يريد ركزة واحدة الركاز المال المدفون . وذكر مراعاة للسمع .

المعمورة بكرةً وأصيلاً؛ مُسَوِّياً بين الناس فيما رَزَقَ اللهُ وَفَتَحَ ، وَبَعَثَ مِنْ فَضْلِهِ وَمَنَحَ ؛ بِحَيْثُ لَا يَقْدَمُ عَزِيزًا وَلَا يُؤْتَرَدُّ لَيْلًا ، وَلَا يُرَاعَى فِي ذَلِكَ صَدِيقًا وَلَا خَلِيلًا .

وَلِيقْدَمَ خَوْفَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى خَوْفِ خَلْقِهِ ، وَلِئَسُوَّيْنِ الضَّعِيفِ وَالْقَوِيِّ فِيمَا بَسَّطَ اللَّهُ مِنْ رِزْقِهِ ؛ وَأَكْدُ مَا نُوصِيهِ بِهِ تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِيمَا هُوَ بِصَدَدِهِ ، فَلِيَجْعَلَهَا فِي أُمُورِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ مِنْ عُدَدِهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقْدُمُهُ فِي مَبَاشَرَتِهِ لِأَقْتِنَاءِ مُحَاسِنِ الْمَعْرُوفِ وَزُبْدِهِ ، وَيَرْزُقُهُ مِنَ الْأَجْرِ عَلَى مَا يَعْمَلُهُ مِنَ الْخَيْرِ مَعَ تِجَارَةِ هَذَا الْبَحْرِ بِمَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْ زُبْدِهِ .



توقيع كريم بناية اللادقية ، من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارباري ، كتب به لـ «شمس الدين» ابن القاضي ، بـ «الجناب العالی» ، وهو :

الحمد لله الذي زاد «شمس» الأولياء إشراقاً ، ومنحه في هذه الدولة الشريفة إرفاقاً وإرفاقاً ، وصان الثغور المحروسة بعزادته التي سرت قلوباً وأقرت أحداقاً ، وجددت لأوليائها من مواهبها عطاءً وفاقاً .

نحمده على حكمه وفعله ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تمنح قائلها مزيد فضله ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الذي أيدته الله بملائكته المقربين ، وشهد أزره من أصحابه بالآباء والبنين ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أئمة الدين ، صلاة تمنح قائلها عُرف الحنان (وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقِيْنَ) وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن من شيم هذه الدولة إذا بدأت تعود ، وإذا نظرت تجود ، وإذا قَدِّمَتْ وَلِيًّا لِحَظَّتْهُ بِأَعْيُنِ السُّعُودِ .

وكان الجنبُ العالى - أدام اللهُ نعمته - عَيْنَ القِلَادَةِ ، وَبَيْتَ السِّيَادَةِ ، وَمَعِدَنَ السَّعَادَةِ ؛ وَأَهْلًا أَنْ يُدَبَّرَ الْأُمُورُ ، وَيَسَدَّ الثُّغُورُ ؛ وَنِيَابَةُ الْأَلَذِيْقَةِ مَجَاوِرَةُ الْبُحُورُ ، وَجَزِيرَةُ الْعَدُوِّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهَا نَهَارٌ فَهِيَ فِي أَمْرِهَا لَهُ قَاعِدَةٌ فِي النُّحُورِ ؛ وَقَدْ رَأَيْنَاهُ أَهْلًا أَنْ يَصُونَ نَحْرَهَا ، وَيَتَقَلَّدَ أَمْرَهَا ؛ وَيَحْفَظَ بَرَّهَا ، وَيُدْفَعُ شَرَّهَا .

فَلذَلِكَ رُسْمٌ بِالْأَمْرِ - أَعْلَى اللَّهِ تَعَالَى شَرَفَهُ - أَنْ تُفَوَّضَ إِلَيْهِ نِيَابَةُ الْأَلَذِيْقَةِ الْحَرُوسَةِ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدَّمِهِ .

فَلْيَسِرْ إِلَيْهَا سَيْرَ الشَّمْسِ فِي أَبْرَاجِ شَرَفِهَا ، وَلْيُقْبَلْ عَلَيْهَا إِقْبَالَ الدَّرَّةِ عَلَى التَّرَائِبِ بَعْدَ مُفَارَقَةِ صَدَفِهَا ؛ وَأَوَّلُ مَا نَأْمُرُهُ [بِهِ] : إِرْهَابُ الْعَدُوِّ بِالْعَدَّةِ وَالْعَدِيدِ ، وَإِظْهَارُ الْمَهَابَةِ فِي الْقَرِيبِ وَالْبَعِيدِ ، وَتَفَقُّدُ الْأَيْرَاقِ بِنَفْسِهِ مِنْ غَيْرِ اتِّكَالٍ عَلَى سِوَاهِ كَمَا يَفْعَلُ الْبَطْلُ الصَّنِيدِ ، وَلِيُخْلَعَ عَنْهُ مَلَابِيسُ الْوَشْيِ وَيَلْبَسَ الْحَدِيدَ ، وَلِيَمْجُرَّ الْمُضَاجِعَ وَيَتَّخِذَ ظَهْرَ جَوَادِهِ مُسْتَقَرَّهُ الْعَتِيدَ ، حَتَّى يَنْتَشِرَ لَهُ صِمْتُ بَيْنِ أَهْلِ التَّثْلِيثِ كَمَا أَنْتَشَرَ صِمْتُهُ بَيْنِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ .

وَأَبْسُطُ بَسَاطَةِ الْعَدْلِ لِيَطَّاهُ الْمَوَالِي وَالْعَبِيدَ ، وَأَحْكَمُ بِالْحَقِّ فَالْحَقُّ مُفِيدٌ وَالْبَاطِلُ مُبِيدٌ ، وَمَتَى تَسَامَعَ التُّجَّارُ بِعَدْلِكَ جَاءُوا بِالْأَصْنَافِ وَالْمَتَجَرِّجِ الْحَدِيدِ ، وَأَرَكْنَ إِلَى حُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ فَإِنَّهُ يَأْوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ، وَأَتَقَى اللَّهَ تَجِدُهُ أَمَامَكَ فِيمَا تَرُومُ وَتُرِيدُ ، وَتَمَسَّكَ بِالسَّيْرِ الْحَسَنَةِ يَزِدُّكَ اللَّهُ رِفْعَةً وَأَنْتَ أَحَقُّ بِالْمَزِيدِ ، وَعَقِبَهَا نَسْتَنْجِزُ لَكَ تَشْرِيفًا شَرِيفًا مَقْرُونًا بِتَقْلِيدِ أَعْظَمٍ مِنْ هَذَا التَّقْلِيدِ ؛ وَالخَطُّ الْكَرِيمُ أَعْلَاهُ حِجَّةٌ بِهِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .



تَوْقِيعٌ بِنِيَابَةِ قَلْعَةِ حَضْنِ الْأَكْرَادِ ، كُتِبَ بِهِ لَشَهَابِ الدِّينِ «أَحْمَدُ النَّاصِرِيُّ» ،

وهو :

الحمد لله الذي أطلع في سماء الدين شهابا، وفتح لمن خافه وآتقاه إلى الخيرات أبوابا، وحباه من إفضاله وألبسه من حلال إنعامه ونعمائه أثوابا .

نحمده على نعمه التي أجزل لنا بمزيد حمدها أنعمًا وثوابا، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتخذها من النار حجابا، ونعتد بها في الآخرة مفازا حدائق وأعنابا، وكواعب أترابا، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي شرفه على الأنبياء منصباً ونصبا، وسبى بطبعته وطبيعته قلوبا وأحزابا، وقربه إلى أن كان قاب قوسين وأسمعه من لذيذ كلامه خطابا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه : أكرم به وبهم ألا وأصحابا ! ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من أتدب، لحفظ المعامل الإسلامية وأتخذب، وأخرى من لخطته عين عنايتنا فكان إليها من العين أقرب، وأحق من اعتمد على بسالته وإيالته بما سبر من الأنام والأيام وجرب - من عرف بشجاعة ابن منها عمرو بن معدى، وأمانه كفت حين كفت كف التعدى؛ وعفة جعلها في أحواله كلها نصب العين، وسياسة ما زال يصلح بها بين ذوى المشاققة ذات البين؛ وكان فلا أن هو الموصول المقدم، الموصوف بهذه الصفات التي سر الساحل بها فبسم .

فذلك رسم بالأمر - لا زال يطالع في آفاق الحصون المصونة شهابا، ويرفع الأولياء بإحسانه الذى يؤكدهم في جوده أسبابا - أن يستقر ^(١) نائبا بقلعة حصن الأكراد المحروس وأعمالها، على عادة من تقدمه ومستقر قاعدته .

فليأشروا ما وليناه وأوليناه : مباشرة تسفير عن حسن فطنته وذكائه، ونضىء الآفاق بنور شهابها وسنائه، وتظهر معروفها المعروف بعدم غيبته وخفائه؛ معتمدا

(١) بياض بأصله ومراده الجناب العالى . أو المجلس العالى .

على الله تعالى في إبدائه وإنهائه ، شارحاً لكل قلب أَلانَه إحسانه بعد غلظته
وجفائه ، مانحاً من بحر جوده وعدله بالدر لا يحفائه ، مكرماً لمن بهذا المعقل : من
أمرائه وأجناده وأغنيائه وفقرائه ، مقيماً لمنار الشرع الشريف الذي لا تستقيم
الأُمور إلا باتباعه وإبدائه ، وليُظهِر من شجاعته وبسالته ما لا فائدة في خفائه ،
وليُشهر سيفه ، في وجه من أظهر حيفه ، وعدم خوفه ، من سطوة ربه وكرمائه .

وأعظم ما نُوصيه به التقوى ، فإنه بملازمتها يقوى ، على دفع الشرِّ وفعل الخير
وإسدائه ، والوصايا كثيرة وهو المحجَّب بالعمل بها لمن يرغب في استيلائه ، والله
تعالى يحرق بشهاب عدله كل مُتمرد



وأعلم أنه ربما كتب توقيع نائب حصن الأكراد مفتتحاً بـ«أما بعد حمد الله» .
وهذه نسخة توقيع بنياية حصن الأكراد ، كتب به باسم «شهاب الدين الجاكي»
بـ«الجناب العالی» ، وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل شهاب الدين يتنقل في مطالع سعده ، وجدد
أثواب النعماء لمن قدمت هجرته وظهر خيره فأنجزله الإقبال صادق وعده ؛ وأشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُبلغ قائلها إنالة قصده ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله الذي أيده الله بنصر من عنده ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كانوا
من أنصاره وجنوده ، صلاة دائماً يبلغ المؤمن بها غاية رُشدِه ؛ وسلم تسليماً كثيراً - فإن
أولى من شمله إحسان هذه الدولة الشريفة وتولاه مُرادُه ، وأجزل عليه النعم فكان
أحق بها لحسن طويته فأجره الله على أحسن عاده ، وبلغه غاية القصد ومعين
السعادة - من سلك مسالك الأمانة الثقات ، وأشتهرت عنه العفة وحسن الصفات ،
فتعين تقديمه وتقريبه إلى أجل ولايات الفتوحات .

ولما كان فلاناً - أدام الله عزه، وأنجح قصده - هو المنعوت بصفات السداد، المشهور بالهضة والشجاعة في هذه البلاد، الذي حوى المكارم والإفضال، ووافق خبره خبره في سائر الأحوال .

فلذلك رسم بالأمر - لا زال شهاب فضله ساطعاً، ونور إحسانه لامعاً - أن يستقر المجلس العالی الشهابي المشار إليه في ولاية الأعمال الحزنية والمناصف عوضاً عن بها، على عادته وقاعدته : لأننا وجدناه شمس أعيان الأمائل، وأفيناها قليل الظير والمضاهي والمائل؛ وعليه عقدت الخناصر، وأتفتت الآراء الناقبة في الباطن والظاهر؛ ولما جمع من كرم الشيم وجميل الخلال، وحاز من النباهة الرفعة الذرا المديدة الطلال .

فليتوجه إلى محل ولايته، وليظهر ما أكنه من العدل والإنصاف في ضمائه بحسن سياسته؛ ولينصف المظلوم ممن جار عليه وأعدى، ويتبع في ذلك ما يوضح له من طريق منار الهدى؛ وليبسط المعدلة ويمد باعه، وليبيد الظلم ويقصم ذراعاه؛ وليصرف همته في عمارة البلاد، وتأمين العباد، وسؤلك سبل الرشاد؛ وليجتهد في سد الخلال، وإصلاح ما فسد بغيره من الأحوال؛ وليجعل تقوى الله محجته، وأتباع العدل محجته، وسؤلك الحق عذته؛ فقد جاءت التقوى في التنزيل مؤكده، ووردت في كثير من السور مرده؛ والله تعالى يعينه على ما ولّاه، ويحرسه ويتولّاه، بعد الخط الكريم أعلاه .



وهذه نسخة توقيع بناية قلعة المرقب والولاية بها، كتب به لصالح الدين

«خليل»، بـ «الجناب العالی»، وهي :

الحمد لله الذى جعل هذه الدولة الشريفة مقرونة بالتأييد والنجاح ، ووفق أوليائها
إلى سلوك سبيل السعادة وشيئها بالصلاح ، وخولهم فى أيامها المراتب العلية ليتهلوا
بأدعيتهم وبدوامها فى المساء والصباح .

نحمده على نعمه التى لا يبرح محليصها فى ازدياد وأرتياح ، ونشكره على آلائه شكراً
نستحق به المزيد كما أوضح فى القرآن أكل إيضاح ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له شهادة معلنة بالفلاح ، وأن محمداً عبده ورسوله الذى أنزل عليه فى محكم
كتابه العزيز : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾
صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الغر الكرام الأشباح ، ماترتم طائر على غضن وحيل
الداعي إلى الفلاح ؛ وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أولى من عُدت به نيابةً أجل المعاقيل والثغور وفوضت إليه ، وعول
فى حفظها ومباشرتها الحسنة الجميلة عليه - من عُدت على حزمه الخناصر ، وورث
الشجاعة والشهامة كبراً عن كبر ؛ وهو الذى نما فرعاً وزكا [أصلاً] ، وفاق فى المكارم
على نظرائه قولاً وفعلًا ؛ فأضحى وإفرائئنا واضح الغرر ، شاهدًا له به العين والبصر .

ولما كان فلان هو المنعوت بهذه الصفات ، والموصوف فى مواقف الحروب
بما لديه من الثبات والثبات ؛ المشكورة خدمته ، شاماً ومضراً ، المشهورة بين الهمم
همته ، براً وبحراً .

فلذلك رسم ... - لازالت مراسيمه الشريفة مبثوثة بالعدل والإحسان ، ومعدته
تستدعى بدوام دولته الشريفة لسان كل إنسان - أن تفوض إليه نيابة قلعة
المرقب المحروس ، والولاية بالأعمال الشريفة ، وما هو منسوب إليها ، على العادة
فى ذلك ومستقر القاعدة : إذ هو أحق بها وأهلها ، وأكمل [من] يجمع شتات شملها .

فليباشر ما نُدب إليه من هذه الجهات مباشرةً تقصُر الأفكار عن توهمها ،
والأبصار عن توهمها ؛ والخواطر عن تحيّل مَبناها ، و [الأذهان] عن تمثّل صورتها
ومعناها ؛ وليكن لمصالحها متمسّحاً ، ولأحوالِ رجالها متصفّحاً ، ولأقدار جهاتها مُربحاً ،
وللخواطر بادء أحوالها على السداد مُريحاً ؛ ولوظائفها مُقيماً ، وللنظر في الكبير والصغير
من مصالحها مُديماً ؛ ولحُرمتها مُضاعفاً ، وعلى كلّ ما يتعيّن الاحتفالُ به من مهمّاتها
واقفاً ؛ ويُعدّ للعدوّ المخذولِ عند تحرّكه العزمَ الشديد ، ويهجر لبسَ الوشي ويتألّف
لبسَ الحديد ، ويتَّخذ ظَهْر جواده مُستقرّه العتيد ؛ ويشمّر للجهاد ذبلاً ، ومعاذ الله
أن يميلَ عنه ميلاً ؛ ويتبسّط العَدْل للرعيّه ، ويُعاملهم المعاملة المرصّيه ، ويُحسِن
إلى الأمراء البحريّه ، ويلاحظُ مصالحهم في كلّ قضيّه ؛ ويتفقّد الرجال ، وأرباب
الأدراك والشّواني ويحدّزهم من الإهمال ، ويأمرهم باليقظة والاحتراز في الليل
والنهار وسائر الأحوال ؛ وليعمل ما يحتاج إليه من آلات الجهاد وليكن على حدّ
ما يتجدد كلّ يوم ، وليوقع الرّهبة في قلوب الأعداء بَحيلته في اليقظة وحياله في النوم ؛
ويتفقّد الموانى في سائر الأوقات في الليل والنهار ، وليحدّزُ أمراء الأيْرَاق من الغفلة
فإنّ الغافل لا يزال على شفا جُرف هار .

وليتق الله في أقواله وأفعاله . والوصايا كثيرةٌ وهو أدربُ بها وأدري ، وأبوابُ
الخيرات واسعةٌ وهو إليها أسرعُ وأجرى ؛ وليشكر الله تعالى على ما ولّاه ، والاعتماد
على الخطّ الكريم أعلاه .



وهذه نسخةٌ توفيق بناية حصن عكّار ، كتبتُ به لـ «ناصر الدين الكردي» ،

بـ «الجناب العالی» ، وهي :

الحمد لله الذى نصر هذا الدين الحنيفى بسيد البشر، وخص هذه الدولة الشريفة
بالتأييد والظفر، ووفى الأولياء بجودها الذى لم يزل من ذمة الوفاء ينتظر .

نحمده على منته الذى طالما بدا فى جبهات الأولياء بشره وظهره، ونشكره على
جوده الذى أغنى عن التحجيل والغرر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له
شهادة تُحجى قائلها يوم الفرع الأكبر، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أقام الله
بسيفه الإيمان فآشتره، وكف به يد الطغيان وزجر، صلى الله عليه وعلى آله
ما اتصلت عين بنظر وأذن بخبر، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من رعى له خدم عديده، وعرفت له فى أجل الثغور
مباشرات سعيده، وآشترت شهامته وكفايته فى الآفاق، وظهرت أمانته ظهور
الشمس فى الإشراق، وتقدم بذلك على نظرائه وفاق .

ولما كان الجنب العالى هو المنعوت بهذه الصفات الجميله، والمحتوى على هذه
المزايا الخليله، الذى شاعت شجاعته مع طهارة يد، ولا عجب فإن هذا الشبل من
ذاك الأسد؛ وسارت الرجان فى الممالك بنهضتهما فى المباشرات، وسد الخلل
فى المهمات المعضلات .

فلذلك رسم ... - لازلت أيامه مبنوثة بالعوارف والإحسان، ومعدته تستدعى
بدوام دولته الشريفة لسان كل إنسان - أن تفوض إليه نيابة قلعة حصن عكار
المحروس، على عادة من تقدمه وقاعدته، بالمرتب الشاهد به الديوان المعمور .

فليقدم خيرة الله تعالى ويتوجه إليها، ويصرف وجه الإقبال عليها، وينظر فى عمارتها
ومصالحها، ويستدرك ما استهدم من بيوت حواصلها، ليصبح وجه هذا الثغر

(١) لعل الصواب «فان أولى الأولياء بالمنصب من رعى» الخ ليستقيم الكلام .

بِحُلُولِهِ بِهِ بِاسْمَا، وَيُنْشَرُّهُ مِنْ حُسْنِ تَدْيِيرِهِ وَجَمِيلِ تَأْيِيرِهِ عَامَا، وَيُحَسِّنُ إِلَى الْأَمْرَاءِ
 الْبَحْرِيَّةِ، وَيُتَزَلِّمُهُمْ مَنَازِلَهُمْ عَلَى الْعَادَاتِ الْمَرْضِيَّةِ، وَيُعَدِّلُ فِي الرَّعِيَّةِ، وَيُنْصِفُ
 الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ، وَيُزِمُّ أَرْبَابَ الْوِظَائِفِ مِنَ الْمُقَدِّمِينَ وَالرَّجَالَةَ
 بِالْخِدْمَةِ بِالنُّوبَةِ عَلَى الْعَادَةِ، وَيُوصِلُ إِلَيْهِمْ مَعْلُومَهُمْ مِنْ جِهَاتِهِمُ الْمُعْتَادَةِ، وَيَتَّبِعُ
 الْحَقَّ الْمُخْتَصَّ فِي كُلِّ أَمْرٍ، لَا يَقْتَدِي بِرَأْيِ زَيْدٍ وَلَا عَمْرٍو، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ مُطَالِبٌ بِالْعَدْلِ
 فِي وظيفته، فَإِنَّ كُلَّ رَاجِعٍ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجَالَةَ كَثِيرَةً وَمُعْظَمَهَا تَقْوَى اللَّهَ
 فِي سَائِرِ الْأُمُورِ: فَلَيْتَمَسَّكَ بِهَا يَقْوَى، فَإِنَّهَا السَّبَبُ الْأَقْوَى، وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ فِي السِّرِّ
 وَالنَّجْوَى، بَعْدَ الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ.



وهذه نسخة تَوْقِيعِ بِنَايَةِ بَلَاطْنُسَ بِ«بِالْحَنَابِ الْعَالِي»، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَسْبَغَ نِعَمَهُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَأَجْرَلَ كَرَمَهُ عَلَى أَصْفِيَائِهِ، وَنَشَهُدُ أَنَّ
 لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُنْحَى قَائِلُهَا مِنْ وَبِيلِ الْعَذَابِ، وَتُجَدِّدُ لَهُ
 أَسْبَابَ السَّعَادَةِ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْحِسَابِ، وَنَشَهُدُ أَنَّ مَهْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمُبْعُوثُ
 بِالنُّورِ الْمُبِينِ، الْمَخْصُوصُ بِالدِّينِ الْمُتَيْنِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَأَهْلِهِ
 وَأَصْفِيَائِهِ وَأَتْرَابِهِ.

وَبَعْدُ، فَإِنَّ الْقِلَاعَ الْمَنْصُورَةَ مِمَّا يَتَعَيَّنُ الْأَحْتِفَالُ بِأَمْرِهَا، وَالْإِهْتِمَامُ بِحِفْظِ
 رِجَالِهَا فِي سِرِّهَا وَجَهْرِهَا، وَمَنْ أَجَلَّ قِلَاعِ السَّاحِلِ الْمَحْرُوسِ، وَأَجْمَلَ مَسَاكِنِ الْبَحْرِ
 الْمَأْنُوسِ، قَلْعَةَ بَلَاطْنُسَ.

فَلِذَلِكَ رُسِمَ... - لَا زَالَتْ صَدَقَاتُهُ تَشْمَلُ كُلَّ أَوْحَدٍ، وَتَجْبُرُ كُلَّ وَلِيٍّ أَمْجَدٍ - أَنْ
 يَسْتَقَرَّ... .. إِذْ هُوَ الْخَيْرُ، الَّذِي لَيْسَ لِمَعْرِفَتِهِ نَظِيرٌ، وَالضَّابِطُ الَّذِي يُحَاقِقُ عَلَى

الجليل والحقير، والتقىير والقطمير، والشجاع الذى هو فى يوم النضال على أخذ العدو
لقدِير، والضَّرغام الذى أعطاه الله القُوَّة والمَعْرِفَةَ التَّامَةَ فهو بهما جَدِير .
فَلَيْسَ إِلَى الثَّغْرِ المحروس، وَيَعْتَمِدُ فى أموره ما هو فيه من الخِبرَةِ مَغْرُوس .



وهذه نسخة تُوَقيعُ بِتَقْدِيمَةِ العَسْكَرِ بِجَبَلَةَ ، كُتِبَ بِهِ لـ «صِلاَحِ الدِّينِ الحَافِظِي» ،
بـ «الجَنَابِ العَالِي» ، وَهِيَ :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ تَنْقُلُ كُلَّ وَلىٍّ إِلَى درجَاتِ سَعْدِهِ ،
وَتُوَكِّدُ أسبابَ الأَرْتِقَاءِ لمن حُدَّتْ مآثِرُهُ وَحَسُنَتْ سِيرَتُهُ فى اليومِ والذى من بَعْدِهِ ،
وَتُجَدِّدُ أَثْوَابَ النِّعْمَاءِ لمن ظَهَرَ خَيْرُهُ وَخَبِرَتْهُ فَانْجَزَ لَهُ الإِقْبَالَ صَادِقَ وَعْدِهِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التى أَجْزأتْ مُسْتَحِقَّهَا مَوَاهِبَ رِفْدِهِ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَنَنِهِ التى
خَصَّتْ كُلَّ كَافٍ بِتَأْثِيلِ مَجْدِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً
يَبْلُغُ بِهَا قَائِلُهَا غَايَةَ قَصْدِهِ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مَجْدًا وَعَبْدَهُ وَرَسُولُهُ الذى أَيْدَهُ اللهُ تَعَالَى
بِنَصْرِ مَنْ عِنْدَهُ ، وَأَمَنَهُ عَلَى وَحْيِ الرِّسَالَةِ فَنُصِّحَ الأُمَّةَ غَايَةَ جُهْدِهِ ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الذِّينَ كَانُوا مِنْ أَنْصَارِهِ وَجُنْدِهِ ، صَلَاةً دَائِمَةً باقيةً يَبْلُغُ بِهَا المُؤْمِنُ
غَايَةَ رُشْدِهِ ؛ وَسَلِّمًا كَثِيرًا .

وبعدُ، فإنَّ الجَنَابَ العَالِيَّ لما تَقَدَّمتْ لَهُ مِباشِرَاتُ فى أَجَلِ الوِلايَاتِ وَأَحْسَنِ
النِّبَاتِ ؛ وَهُوَ يَسِيرُ فى كُلِّ مِنْهَا أَجْمَلَ سَيْرٍ ، وَيُحْسِنُ إِلَى رِعِيَّتِهَا فلا غَرَوَ أَنَّ يَذْكَرُهُ
بِكُلِّ خَيْرٍ ؛ كَمَ قَامَ بِمُهَمَّاتٍ مِنْ غَيْرِ عَسْفِ أَهْلِ البِلاَدِ ، وَكَمَ أَعَانَ الدِّيوانَ المَعْمُورَ
من غَيْرِ ضَرَرٍ لِلعِبَادِ ؛ وَكَمَ مِيزَ أَمْوالًا فَكانتْ أَيامُ مِباشِرَاتِهِ أعيادًا ، وَكَمَ لَهُ مِنْ خِدامِ
سارِ بِهَا الرِّكابُ وَبَلَغَ بِهَا المُرَادُ ، وَكَمَ أَثْنَى عَلَيْهِ لِسَانُ القَلَمِ حَتَّى نَفَدَ المِدادُ ،

وَكَمْ وَصَفَتْ هِمَمَهُ وَحُسْنَ تَأْتِيهِ فِي كُلِّ تَوْقِيعٍ وَتَقْلِيدٍ عَلَى أَنَّ الْكَاتِبَ مَا زَاغَ عَنِ الْحَقِّ وَلَا مَالَ عَنِ الصَّدَقِ فِيهَا وَلَا حَادَ .

فَاتَّقَضَىٰ مَجْمُودٌ رَأْيَنَا الَّذِي مَا بَرِحَ بَعُونَ اللَّهُ يُصِيبُ، وَجَمِيلٌ فِكْرِنَا الَّذِي مَا دَعَوْنَاهُ لِأَمْرِ إِلَّا وَبِالْإِصَابَةِ بِحَمْدِ اللَّهِ يُجِيبُ، أَنْ نُعَيِّنَ لَهُ وَظِيفَةً نُرِيحُهُ فِيهَا مِنَ التَّعَبِ، وَنُوفِرُهُ مِنْ تَبَعَاتِ الطَّلَبِ؛ وَكَانَ مَنْ فِي تَقْدِيمَةِ الْعَسْكَرِ بِجَبَلَةٍ يَعْتَرِيهِ أَلَمْ يَعُوقُهُ عَنِ الرُّكُوبِ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ وَالنُّزُولِ، سِيَّيَا فِي هَذَا الْوَقْتِ الَّذِي فِيهِ يَتَحَرَّكُ الْعَدُوُّ الْمَخْذُولُ .

فَلذَلِكَ رَسْمٌ ... - لَا زَالَتْ أَيَّامُهُ الشَّرِيفَةُ تُبَسِّرُ أَسْبَابَ النَّجَاحِ، وَعَوَارِفُهُ تُطَوِّئُ لَهَا أَرْضَ الْبُعْدِ غِنَى أَوْلِيَائِهَا كَمَا تُطَوِّئُ لِذِي الصَّلَاحِ - أَنْ يَسْتَقِرَّ الْجَنَابُ فِي تَقْدِيمَةِ الْعَسْكَرِ الْمَنْصُورِ بِجَبَلَةٍ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقْدِيمِهِ وَقَاعِدَتِهِ .

فَلْيَبَاشِرْهَا مَبَاشِرَةً تَلِيْقُ بِشَجَاعَتِهِ، وَتُعْهَدُ مِنْ حُسْنِ سِيَاسَتِهِ؛ وَلْيُكْرِمِ الشَّرْعَ الشَّرِيفَ، وَلْيُرَدِّعْ مَنْ يَجِيدُ عَنِ الْحَقِّ أَوْ يَجِيفُ؛ وَلْيَجْمَعْ الْأُمْرَاءَ الْمَقْدَمِينَ وَالْحَلِيقَةَ الْمَنْصُورَةَ عَلَى الرُّكُوبِ فِي الْخِدْمَةِ الشَّرِيفَةِ، وَلْيَشْكُرْ نِعْمَةَ اللَّهِ تَعَالَى الْمُطِيفَةَ؛ وَلْيَتَّقِظْ رُدَّعِ الْعَدُوِّ الْمَخْذُولِ، وَلْيَعْلَمْ أَنَّهَا أَسْتَرَعَيْنَاهُ أَمْرَ ذَلِكَ وَكُلَّ رَاجِعٍ مَسْئُولٍ؛ وَلْيَتَحَقَّقْ أَنَّ الْعَدُوَّ الْمَخْذُولَ طَالِبٌ لِلْهَالِكِينَ مِنْهُمْ بِالثَّارِ، وَهُمْ قَاصِدُونَ جَبَلَةَ فَلْتَكُنْ عِنْدَهُ يَقِظَةً وَأَسْتَبْصَارًا؛ وَلْيُرْتَبِ الْأَيْزَاكُ وَلْيُعْمَرِ الْمَوَانِي بِالرِّجَالِ، وَيَتَفَقَّدَهُمْ فِي اللَّيْلِ أَكْثَرَ مِنَ النَّهَارِ؛ وَلْيَهْجُرِ النَّوْمَ فِي طَلَبِ الظَّفَرِ وَالْمُنَىٰ فَمَنْ سَهَرَ لِذَلِكَ مَا حَابَ، وَلَا يَأْمُنْ مَكِيدَتَهُمْ وَيَعْتَرِّبُهُمْ فَيَقُولُ: قَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ وَيُنْهَىٰ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ؛ وَبَاقِي الْوَصَايَا فَهِيَ بِهَا أَعْلَمُ، وَلَمْ يَبْرَحْ مُتَلَقِّعًا بِشَوْبِهَا الْمُعْلَمِ؛ وَمِلَاكُهَا تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَىٰ فَمَنْ لَمْ يَعْمَلْ بِهَا يَأْتَمُّ، وَمَنْ تَرَكَهَا يَنْدَمُ، وَمَنْ لَزِمَهَا فَهُوَ فِي الدَّارَيْنِ مُقَدَّمٌ؛ وَاللَّهُ تَعَالَىٰ يَتَوَلَّاهُ، وَالْإِعْتِمَادَ عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَىٰ .

وأعلم أنه ربما أفتح توقيع مقدم العسكر بجبله بـ «أما بعد حمد الله» .
توقيع بتقدمة العسكر بجبله ، مما كتب به لحسام الدين العلائي بـ «الجناب
العالي» وهو :

أما بعد حمد الله على نعمه التي تُجزل لكل ولي من مواد فضلها إنعاماً ، وتمنح
من عوارفها أفساماً ، وتبلغ من النجح لذوى الاستحقاق آمالاً وتجعل في نُحور
الباغين حُساماً ، والشهادة له بالوحدانية التي لم تزل للأولياء المتقين لزاماً ، وترفع لهم
في الجنات مقاماً ، والصلوة على سيدنا محمد الذي محّا الله بنبوته عن الأمة المحمدية
آثاماً ، وشرّفه على سائر خلقه وجعله للأنباء ختاماً ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
الذين ظافروه وبايعوه دهوراً وأعواماً ، صلاة دائماً تزيد مُردّها عزّاً وإكراماً -
فإن الأهتمام بكلّ جهة هو على قدرها ، والعناية بقطرها .

ولما كانت مدينة جبله المحروسة مخصوصة بمقام بر ^(١) السند، الزاهد الذي
ترك الدنيا والأهل والولد، والولي المبرز في عبادة الخالق ، والمتوكل الذي لم يدنح
قوت ساعة لساعة أعتاداً على الرأزق - تعين النظر في أمرها وحفظها من العدو
المخدول ، وإن كان بهذا السيد السند قد تبين حفظها ، وكان فلان ممن باشرها
فأحسن فيها المباشرة ، وكلاً حفظها بيقظته وعينه الساهرة - أقتضى رأياً أن نُعيده
إليها ، ونُسبغ ظلّه عليها .

فذلك رسم بالأمر - لا زال حُسامه قاطعاً من الأعداء نحراً ، وفعله صالحاً دنياً
وأخرى - أن يُعاد المشار إليه إلى تقدمة العسكر المنصور بجبله المحروسة ، عوضاً
عمن بها ، وعلى عادته وقاعدته .

(١) بياض بالأصول ولعله بركات السيد السند .

فليعد إليها عود الحسام إلى غمده، والماء إلى منهل وزده ؛ وليقدم خيرة الله في المسير إليها، وليبسط العدل ليأمن أهلها بقدومه عليها ؛ وليكرم من بها من العسكر المنصور، ويحسن إلى الرعية بها ليصبح خير مشكور؛ ولينصف المظلوم ممن ظلمه، وينشر للشرع الشريف علمه ؛ وليخلص الحق من القوى والضعيف، والدني والشريف؛ وليزوم من بهذا الثغر يعمل اليك المعتاد، واليتقظ لأمر العدو المخدول ومضاعفة الاجتهاد، واليلازم تقوى الله تعالى في الأقوال والأفعال، والله تعالى يمنحه من فضله ما يرجو من الآمال .



وهذه نسخ توقع لأرباب الوظائف الدينية بطرابلس .

توقيع بنظر الحسبة بطرابلس، كتب به للقاضي «ناصر الدين بن شيصة» وهو :
الحمد لله مبشر الصابرين، وموصل الأرزاق على يد أصفياه من العالمين، ومعيد كل ولي إلى منصبه ولو بعد حين .

نحمده على فضله المبين، ونشكره على أن جعلنا من عباده المؤمنين؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ندرها ليوم الدين، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الصادق الوعد الأمين، الذي أرسله بواضح الحجج ومحكم البراهين، وأنزل عليه كتابا عربيا مبين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الغر المحجلين، صلاة مستمرة على ممر الأيام والشهور والسنين؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من غررنا مواد رفته، وأجزلنا له حظوظ سعده، وبلغناه من إقبالنا غاية قصده، وحمدنا تصرفه من قبل عند مآرسم لما جدد [من] بعده؛ وأعدناه إلى رتبة ألفت منه حسن السياسة والتدبير، وعرف فيها بالكفاية والصيانة

وَيُؤْمِنُ التَّائِيرَ - مَنْ لَهُ وَسْلَفُهُ فِي الْمَبَاشِرَاتِ الْجَلِيلَةِ يَدٌ طَوِيلَى ، فَكَانَ بوظيفته
أَحَقُّ وَأَوْلَى .

ولما كان المجلسُ العالى هو الْمُتَصِفُ بِصفات الكمال ، الْمَشْكُورَ فِي سائرِ الأحوال ؛
فلذلك رُسِمَ بِالْأَمْرِ - أَنْفَذَهُ اللهُ فِي الْآفَاقِ ، وَأَجْرَاهُ بِصِلَةِ الْأَرْزَاقِ - أَنْ يُعَادَ فُلَانٌ
- أَدَامَ اللهُ نِعْمَتَهُ - إِلَى نَظَرِ الْحِسْبَةِ الشَّرِيفَةِ بِالْمَمْلَكَةِ الطَّرْبُوسِيَّةِ عَلَى عَادَتِهِ وَقَاعَدَتِهِ ،
مُضَافًا إِلَى مَا بِيَدِهِ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ الْمَعْمُورِ : لِأَنَّهُ الْفَاضِلُ الَّذِي لَا يُجَارَى ، وَالْعَالِمُ
بِأَحْوَالِ الرِّعْيَةِ فَلَا يُنَاطَرُ فِي ذَلِكَ وَلَا يُمَارَى ؛ وَالْفَيْلَسُوفُ الَّذِي يُظْهِرُ زَيْفَ كُلِّ
مُرِيْبٍ ، وَالتَّحْرِيرُ الَّذِي بَخْبِرَتِهِ يَسِيرُ كُلَّ حَبِيبٍ وَلَيْبٍ .

فَلْيَنْظُرْ فِي الدَّقِيقِ وَالْجَلِيلِ ، وَالكَثِيرِ وَالْقَلِيلِ ؛ وَمَا يُحْصَرُ بِالْمَقَادِيرِ وَمَا لَا يُحْصَرُ ،
وَمَا يُؤْمَرُ فِيهِ بِمَعْرُوفٍ أَوْ يُنْهَى عَنْ مُنْكَرٍ ؛ وَمَا يُشْتَرَى وَيُبَاعُ ، وَمَا يُقَرَّبُ بِتَحْرِيرِهِ إِلَى
الْحِنَّةِ وَيُبْعَدُ عَنِ النَّارِ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ قَدْ بَقِيَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا قَدْرُ بَاعٍ أَوْ ذِرَاعٍ ؛ وَكُلُّ
مَا يَعْمَلُ مِنَ الْمَعَايِشِ فِي نَهَارٍ أَوْ لَيْلٍ ، وَمَا لَا يُعْرَفُ قَدْرُهُ إِلَّا إِذَا نَطَقَ لِسَانُ الْمِيزَانِ
أَوْ تَكَلَّمَ فَمِ الْكَيْلِ ؛ وَلِيَعْمَلَ لَدَيْهِ مَعَدَّلًا لِكُلِّ عَمَلٍ ، وَعِيَارًا إِذَا عَرَضَتْ عَلَيْهِ الْمَعَايِرُ
يَعْرِفُ مِنْ جَارٍ وَمِنْ عَدَلٍ ، وَلِيَتَفَقَّدَ أَكْثَرَ هَذِهِ الْأَسْبَابِ ، وَيُحَدِّثُ مِنَ الْغِشِّ : فَإِنَّ الدَّاءَ
أَكْثَرَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ؛ وَلِيَتَعَرَّفَ الْأَسْعَارَ ، وَيَسْتَلِمَ الْأَخْبَارَ مِنْ كُلِّ سُوقٍ
مِنْ غَيْرِ إِعْلَامٍ لِأَهْلِهِ وَلَا إِشْعَارٍ ؛ وَلِيُقِيمَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَمْنَاءِ مَنْ يَزُوبُ عَنْهُ فِي النَّظَرِ ،
وَيَطْمَئِنُّ بِهِ إِنْ غَابَ أَوْ حَضَرَ ؛ وَدَارَ التَّقْوَدِ وَالضَّرْبِ الَّتِي مِنْهَا تَنْبَثُ ، وَقَدْ يَكُونُ
فِيهَا مِنَ الزَّيْفِ مَا لَا يَظْهَرُ إِلَّا بَعْدَ طَوْلِ اللَّبْثِ ؛ فَلْيَتَصَدَّقْ لِمَهْمَّهَا بِصَدْرِهِ الَّذِي لَا يَخْرُجُ ،
وَلْيَعْرِضْ مِنْهَا عَلَى الْحَكِّ [مِنْ رَأْيِهِ] مَا لَا يَجُوزُ عَلَيْهِ بِهِرَجٌ ، وَمَا يَبْلَقُ مِنَ الذَّهَبِ
الْمَكْسُورِ وَيُرِوِصُ مِنَ الْفِضَّةِ وَيَخْرُجُ ؛ وَلِيُقِيمَ الضَّمَانَ عَلَى الْعَطَّارِينَ وَالطَّرِيقَةَ

في بيع غرائب العقاقير إلا ممن لا يُستتراب فيه وهو معروف ، وبخطّ طيّب ماهين
لمريض معين في دواء موصوف ؛ والطَّرِيقَةُ وأهل النّجامة وسائر الطوائف المنسوبة
إلى ساسان ، ومن يأخذ أموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان ، وكلّ إنسان سوء
من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطانٌ لا إنسان ؛ فامنعهم كلّ المنع ، وأصدعهم مثل
الزجاج حتى لا يجبر لهم صدع ، وصب عليهم النكال وإلا فأتجدي في تأديبهم
ذات التأديب والصفع ؛ ومن وجدته قد غشّ مسابا ، أو أكل باطل درهما ؛
أو أخبر مُشترياً بزائد ، أو خرج عن معهود العوائد ؛ اشهره بالبلد ، وأركب تلك
الآلة قفاه حتى يضعف منه الجلد ؛ وغير هؤلاء [من فقهاء المكاتب ، وعالمات
النساء وغيرهما من الأنواع] ^(١) ممن يخاف من ذنبه العاث في سرب الظباء والجماذر ،
ومن يقدم على ذلك أو مثله وما يحاذر ؛ أرشقهم بسهامك ، وزلزل أقدامهم
بأقدامك ؛ ولا تدع منهم إلا من اخترت أمانته ، واختبرت صيانتته ؛ والتواب
لا ترض منهم إلا من يحسن نفاذا ، ويحسب لك أجر استنابته إذا قيل لك : من
استنبت ؟ قلت : هذا ؛ وتقوى الله هي نعم المسالك ، وما لك في كلّ ما ذكرناه
بل أكثره إلا إذا عملت فيه بمذهب مالك ، والله تعالى يسدّدك ويرشدك ويوفّقك
إلى أحسن المسالك .



توقيع بالخطابة والإمامة بالجامع المنصوري بطرابلس ، كُتِبَ به للخطيب
« جمال الدين إبراهيم » ، بـ « المجلس السامي » بغيرياء ، وهو :

رُسم بالأمر الشريف - لزال عود منابر الإسلام بماء إحصانه رطيبا ، وبرد
شعائر الدين الحنيفي في أيامه الزاهرة قشيبا ، ومواهبه ومناقبه تقيم لمادحه في كلّ

(١) الزيادة من « التعريف صفحة ١٢٦ » وهي لازمة لاستقامة الكلام .

وَإِدِّ شَاعِرًا وَمَحَامِدِهِ فِي كُلِّ نَادٍ خَطِيْبًا - أَنْ يُرْتَّبَ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ، الْإِمَامُ، الْعَامِلُ :
 - رَحِمَ اللَّهُ تَعَالَى السَّلْفَ، وَزَادَ مَجْدَ الْخَلْفِ - خَطِيْبًا وَإِمَامًا بِالْمَسْجِدِ الْجَامِعِ الْمَعْمُورِ
 الْمَنْصُورِيِّ بِطَرَابُلُسِ الْحُرُوسَةِ، عِوَضًا عَنْ فُلَانٍ، وَعَلَى عَادَتِهِ وَقَاعِدَتِهِ، وَمَعْلُومِهِ
 الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيْوَانِ الْمَعْمُورِ الْمُسْتَقَرَّ بِاسْمِهِ، إِلَى آخِرِ وَقْتٍ : رِعَايَةَ لِأَهْلِيَّتِهِ الْوَاصِحَةِ
 الدَّلَائِلِ، وَفَضِيلَتِهِ النَّاطِقَةِ الشُّوَاهِدِ الصَّادِقَةِ الْحَايِلِ، وَأَوْصَافِهِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي بِهَا تُعْرَفُ
 مِنْ أَبِيهِ الشَّمَائِلِ ؛ وَلِأَنَّهُ الصَّدْرُ ابْنُ الصَّدْرِ النَّجِيبِ، وَالْخَطِيبُ الْإِمَامُ ابْنُ الْإِمَامِ
 الْخَطِيبِ ؛ وَالْوَلَدُ النَّجِيبُ الَّذِي حَدَا حَدُوَ وَالِدِهِ فِي الصَّلَاحِ مَا خَابَ وَلَا يَنْجِبُ،
 وَالتَّجَلُّ النَّبِيَّةُ الْمُهَذَّبُ الَّذِي أَشْبَهَهُ أَبَاهُ فِي الدِّينِ وَالْوَرَعِ : وَمَنْ أَشْبَهَهُ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ
 فِي النَّبَاهَةِ وَالتَّهْذِيبِ .

فَلْيَبَاشِرْ هَذِهِ الْخَطَابَةَ وَالْإِمَامَةَ الَّتِي هُوَ ابْنُ جَلَالِهَا، وَطَلَّاعُ ثَنَائِهَا؛ زَائِنًا حِلَالِهَا،
 زَائِدًا عَلَاهَا ؛ وَلِيَرِقْ ذِرْوَةَ هَذَا الْمَنْصِبِ الَّذِي هُوَ أَعْلَى الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ، وَلِيَتَلَقَّ
 نِعَمَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالشُّكْرِ الَّذِي يُوجِبُ الْمَزِيدَ وَيُكْسِبُ الْمَزِيَّةَ ؛ وَلِيُقِمَّ مَقَامَ وَالِدِهِ
 فِي هَذِهِ الرُّتْبَةِ السَّنِيَّةِ، بِإِخْلَاصِ الْعَمَلِ وَصِدْقِ النِّيَّةِ ؛ مُجَلِّيًا فِي مِضْمَارِ الْبَيَانِ الَّذِي
 سَأَمَّتْ إِلَيْهِ أَعْتَتُهُ، وَأُلْقِيَتْ إِلَيْهِ أَرْزَمَتُهُ ؛ مُحَلِّيًا بِقَلَائِدِ الْمَوَاعِظِ وَقِرَائِدِ الْأَمْثَالِ أَعْوَادَ
 الْمُنْبَرِ الَّذِي لَوْ أَمَكُنَهُ لَسَعَى إِلَيْهِ، مُشَنَّفًا الْأَسْمَاعَ بِجَوَاهِرِ الْأَوَامِرِ وَزَوَاهِرِ الزُّوَاهِرِ
 الَّتِي يَصَدِّعُ بِهَا عَلَيْهِ .

وَلْيَسِرْ كَسِيرَةَ وَالِدِهِ فِي الطَّرِيقَةِ الْمُتَلِيِّ وَسُلُوكِ الْمَنْهَجِ الْأَسَدِ، وَلِيَجْتَهِدْ فِي إِحْيَاءِ
 رُسُومِهِ فِي الْعِبَادَةِ وَأَقْفِيَاءِ آثَارِهِ فِي الْعِلْمِ وَالزَّهَادَةِ حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ : هَذَا الشَّبْلُ
 مِنْ ذَلِكَ الْأَسَدِ؛ جَازِيًا عَلَى أَفْضَلِ الْعَوَائِدِ فِي دِيَانَتِهِ، سَارِيًا بِأَجْمَلِ الْقَوَاعِدِ مِنْ
 صِيَانَتِهِ؛ وَثِيُوَصِّلْ إِلَيْهِ مَعْلُومَهُ الشَّاهِدُ بِهِ الدِّيْوَانُ الْمَعْمُورُ الْمُسْتَقَرُّ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ، عَلَى
 عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ : لِاسْتِقْبَالِ مُبَاشَرَتِهِ أحيانَ الْوُجُوبِ وَأزْمَانِ الْاسْتِحْقَاقِ،

رُزْقًا دَارًا ، سَارًا ، هَيَّيًّا ، مَرْضِيًّا ، من غير تَنَغِيصٍ ، ولا تَنَقِيصٍ ، والاعتماد على
العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوتها إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخةٌ تَوْقِيعٌ بَحْطَابِيَّةٌ ، كُتِبَ بِهِ لِلشَّيْخِ «صدر الدين الخابوري» ، بـ«المجلس
السامى» ، بالياء ، وهى :

رُسم - لا زَالَتْ أَيَّامُهُ الشَّرِيفَةُ تَضَعُ الْأَشْيَاءَ فِي مَحَلِّهَا ، وَتَفُوضُ الْمَنَاصِبَ
الْمُنِيفَةَ إِلَى أَهْلِهَا ، وَتُشْرِفُ صُدُورَ الْحَافِلِ بِصَدْرِ الْعُلَمَاءِ فِي حَزْنِهَا وَسَهْلِهَا - أَنْ تَفُوضَ
إِلَى فُلَانِ الْخَطَابَةِ بِالْجَامِعِ النَّاصِرِيِّ الْمَعْرُوفِ "بِجَامِعِ التَّوْبَةِ" بِطَرَابُلُسِ الْمَحْرُوسَةِ
وَجُوبًا وَتَعِينًا ، أَقْتَضَى فِي تَقَدُّمِ الْفَاضِلِ عَلَى الْمَفْضُولِ تَيْقِينًا وَتَيْبِنًا ؛ لِأَنَّهُ الْخَبْرُ الَّذِي
لَا يُجَارَى فِي فِضَائِلِهِ ، وَالْبَحْرُ الَّذِي يَجُودُ فِيْجِدُ بِفَوَاضِلِهِ ، وَالصَّدْرُ الَّذِي مِلَّتْ
بِقَوَائِدِهِ وَقَرَائِدِهِ بَزْمَانِهِ مَحَافِلُ صُدُورِهِ وَصُدُورُ مَحَافِلِهِ ؛ كَمَا نَطَقَتْ أَلْسُنُ الْأَقْلَامِ
بِأَفْوَاهِ الْحَابِرِ بِفَضْلِهِ فِي الْأَقَالِمِ وَالْآفَاقِ ، وَكَمْ مِنْ عِبَارَةٍ بِفَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ حَقَّقَتْ أَنَّهُ
بِهَا فَاتِ الْفُصْحَاءِ وَالْبُلْغَاءِ وَقَاقٍ ؛ لَقَدْ أَصْبَحَ شَمْلُ هَذَا الْجَامِعِ بِهَذَا الْفَاضِلِ الَّذِي
طَالَ أَرْتِقَابُهُ لَهُ جَامِعًا ، وَأَمْسَى وَقَدْ ظَفِرَتْ يَمِينُهُ مِنَ الْيَمِينِ بِهِ وَالْبَرَكَةُ بِمَا لَمْ يَكُنْ
بَشَيْءٍ مِنْهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْأَيَّامِ طَامِعًا ، فَلِذَلِكَ بَادَرَ مِنْبَرَهُ الْمُنِيفِ وَحَلَّ لَهُ حَقْوَتَهُ
مُسَارِعًا ؛ وَوَطَّأَ - لِامْتِنَانِهِ إِيَّاهُ - صَهْوَتَهُ ، وَغَفَرَ لِلدَّهْرِ بِهَذِهِ الْحَسَنَةِ الْجَمِيلَةِ فِيمَا
سَلَفَ مِنْهُ هَفْوَتَهُ ؛ وَعَلِمَ أَنَّهُ الْخَطِيبُ الَّذِي اسْتَقَرَّ بِطَالِعِ الْمَنَارِ مِنْ خُطْبَتِهِ بِمَا يُفَجِّرُ
مِنَ الْعُيُونِ مَنَابِعَ الْمَدَامِيعِ ، وَيُسَوِّقُ إِلَى الْآخِرَةِ : مِنْ أَلْفَاظٍ يُشْنَفُ بِهَا الْمَسَامِيعُ ؛
وَأَنَّ قَسًّا لَا يُقَاسُ بِهِ فِي خُطْبَتِهِ وَعِظَاتِهِ ، وَأَنَّ سَحَابَانَ يَوَدُّ مِنْ نَجْمِهِ أَنْ يَسْحَبَ ذَيْلَهُ
عَلَى مَا تَرَهُ الْمَأْتُورَةَ عَنْهُ لِيُعْفَى آثَارَ فَلَنتَاتِ كَلِمَاتِهِ وَلَقَنَاتِ لَفْظَاتِهِ .

فليباشر هذه الوظيفة المباركة بالله تعالى مذكراً ، وليأمر عباده ونهأهم عنه على
أسماعهم مكرراً ، ويعلم أنه في المحراب مناخ لربه ، واقف بين يدي من يحول بين
المريء وقلبه ، فليعتصم بالله عز وجل في قوله وفعله ، ويتيقن أن الكلمة إذا خرجت
من قلب لا تقع إلا في مثله .

وفي إحاطة علمه المشهور ، وفضله المشهود المشكور ، ما يغني عن وصية بها
يتذكر ، وتذكرة في صحيفة فكره ترقم وتسطر ، وتوصل إليه معلومه على هذه
الوظيفة الشاهد به الديوان المعمور . وليوفر خاطره من التبذل في تحصيل معلومه
الجاري له وطلبه ، وليعامل بما يليق من الإجلال والإعظام بوظيفته الشريفة
والمحل العالي الرفيع من منصبه ، والعلامة الكريمة أعلاه ، حجة بمقتضاه ،
إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخ تواقع لأرباب الوظائف الديوانية بطرابلس :

نسخة توقيع بشهادة الجيوش بطرابلس ، كتبت به للقاضي بدر الدين « محمد
أبن الفرфор » ، ووالده يومئذ ناظر الجيوش بها ، بـ « المجلس العالى » ، وهى :

أما بعد حمد الله الذى زين سماء المعالى ببدرها ، وأثبت فى رياض السعادة يانع
زهراها ، ورفق المناصب السنية إلى شرف محلها ومحل شرفها ، ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة خالصة فى قولها وفعلها ، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله
بالملة الحنيفة قائماً بفرضها ونفائها ، أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر مبلغاً لرسالات
ربه كلها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا ينحصر عددها ، ولا ينقضى أمدها ،
وسلم تسليماً كثيراً - فإن أولى من خطبته المناصب من هو أحق بها وأهلها ^(١) فيها

(١) بياض بالأصل ولعله : وله فيها ، الخ .

نِسْبَةً لَا يُنْكَرُ فَضْلُهَا ، وَمُبَاشَرَاتٌ فِي الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ مَشْهُورَاتٌ بِالْكَفَايَةِ وَالْعَفَّةِ فِي بَرِّهَا وَبِحَرَمِهَا .

وَلَمَّا كَانَ فُلَانٌ - حَرَسَ اللَّهَ جَنَابَهُ وَأَسْبَغَ ظِلَّ وَالِدِهِ - هُوَ الْمَعْنَى بِهَذِهِ الْإِشَارَةِ ، وَتَمَسَّ هَذِهِ الْهَالَةَ وَبَدَّرَ هَذِهِ الدَّارَةَ .

فَلذَلِكَ رَسْمٌ - زَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَظَمَةً وَشَرَفًا ، وَمَنْحَهُ فِي الْحِنَانِ قُصُورًا وَعُغْرَفًا - أَنْ يَسْتَقَرَّ ... : اِقْرَارًا لِعَيْنِ وَالِدِهِ ، وَجَمْعًا لَهُ بَيْنَ طَرِيفِ السَّعْدِ وَتَالِدِهِ ؛ لِأَنَّهُ التَّبَعَةُ الَّتِي نَشَأَتْ فِي رِيَاشِ السِّيَادَةِ ، وَالزَّهْرَةُ الَّتِي بَرَزَتْ فِي كِيَامِ السَّعَادَةِ ؛ فَلَا يَزَالُ فَرَعُهُ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - بِسَعَادَةِ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ يَتِمَّى إِلَى أَنْ يَتَّصَلَ ، وَزَهْرَتُهُ تُزْهِى إِلَى أَنْ تَبْلُغَ الْإِنْمَارَ وَتَتَوَصَّلَ .

فَلْيُبَاشِرْ هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ الْمُبَارَكَةَ مُبَاشَرَةً تَظْهَرُ فِيهَا كِفَايَتُهُ عِنْدَ الْاِسْتِقْدَادِ ، وَتَمَحَّدُ فِيهَا عُقْبَى الْاِخْتِيَارِ وَالْاِخْتِبَارِ وَالرَّشَادِ ؛ وَلْيَسْلُكْ فِي أَمَانَتِهِ سُنَنَ أَبِيهِ - أَسْبَغَ اللَّهُ ظِلَّهُ - الَّتِي أَحْكَمَهَا فِي كُلِّ مَا أَبْدَى وَأَعَادَ ، وَيَتَّبِعْ طُرُقَهُ الْهَادِيَةَ إِلَى سَبِيلِ السَّعَادَةِ وَالْإِرْشَادِ ؛ وَيُنْدِ مَا آكْتَسَبَهُ مِنَ وَالِدِهِ عَنِ سَلْفِهِ مِنْ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَهُوَ أَحَقُّ بِهَذَا السَّنَدِ ، وَلَا يَخْرُجُ عَنِ رَأْيِ أَبِيهِ - أَيَّدَهُ اللَّهُ - حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ : هَذَا الشُّبْلُ مِنْ ذَاكَ الْأَسَدِ ؛ وَلْيَسْتَمِرَّ فِي تَحْصِيلِ الْفَضَائِلِ الَّتِي تُبْلَغُ بِهَا الْأَمَالُ ، وَتَصْلُحُ الْأَحْوَالُ ؛ وَلْيَتَلَقَّ هَذِهِ الْمُبَاشَرَةَ بِعَزْمِهِ الشَّدِيدِ ، بِنَفْسِهِ لَا بِالتَّقْلِيدِ ؛ فَإِنَّهُ شَاهِدٌ وَمَسْئُولٌ ، يَقُولُهُ يَوْفَقُ فِي الْاِسْتِحْقَاقِ وَفِي التَّقْوِدِ وَالْكَيْوَلِ ؛ وَتَقْوَى اللَّهِ هِيَ السَّبَبُ الْأَقْوَى ، فَلْيَتَمَسَّكَ بِحَبْلِهَا يَقْوَى ؛ وَالْوَصَايَا كَثِيرَةٌ فِي ذَلِكَ وَوَالِدُهُ بِهَا أَعْلَمُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُسَلِّكُهُ سَبِيلَ الْهَدْيِ فَإِنَّهُ أَنْجَحَ الطَّرِيقَ وَأَسْلَمَ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يَتَوَلَّى عَوْنَهُ ، وَيُدِيمُ صَوْنَهُ ؛ وَالْاِعْتِمَادَ



تَوْقِيعٌ بِكُتَابَةِ الدَّرَجِ بَطْرَابُلُسَ ، كُتِبَ بِهِ د. «المجلس السامى» بالياء ، وهو :

رُسمُ بالأمرِ الشَّرِيفِ - لا زالت مَراسِمُهُ العَالِيَةُ تُطَلِّعُ في أَفلاكِ المعالى بَدْرًا مُنِيرًا
 هَادِيًا إلى الفضائلِ مَأْمُونًا من السَّرارِ ، ومَكَارِمِهِ الوَافِيَةُ تُرْفَعُ من أعلامِ المعانى صَدْرًا
 كَبِيرًا رَشِيدًا في البَيانِ أَمِينًا على الأسرارِ ، ومَرَامِحُهُ الكَافِيَةُ تُقَرِّعُ عِيونَ الأَعْيَانِ
 والأَخْيَارِ - أن يُرْتَبَ فلانٌ - ضاعف اللهُ تعالى أنوارَ فضائله التى يَأْتَمُّ بها المُسْتَضِيءُ
 والمُهْتَدَى ، وَيَعُشُّو إلى قِراها المُسْتَعِينُ والمُقْتَدَى - في كُتَابَةِ الدَّرَجِ السعيدِ بَطْرَابُلُسَ
 المحروسَةِ بما قَرَّرَ له من المعلومِ الواردِ فى الأستِمارِ الشَّرِيفِ على مايتعينُ بقلمِ الأستيفاءِ
 جِهَتُهُ ، وَيُبَيِّنُ تَفْصِيلَهُ وَجَمَلَتَهُ ، نَظْرًا إلى آسْتَحْقَاقِهِ الظَّاهِرِ ، وَفَضْلِهِ البَاهِرِ ؛
 وَبِلاغَتِهِ التى أَفْصَحَتْ عن بَيانِ البَلِيغِ القادرِ ، وَفِصاحَتِهِ التى بَلَغَتْ الكَمالَ بعَوْنِ
 الملكِ القادرِ ؛ وإطرابِهِ ، فى إطنابِهِ ؛ وإعْجَازِهِ ، فى إيجازِهِ ؛ فله فى الدلائلِ قُدْرَةُ
 «الْمَنْصُورِ» وَفى الفضائلِ قُوَّةُ «النَّاصِرِ» ؛ طالما أَزْهَرَ بقلمِهِ «المُهْتَدَى» لِلصَّوابِ ،
 «السَّفَّاحِ» كالسَّحابِ ، رَوَّضَ العُلومِ والآدابِ ؛ وَأَظْهَرَ بَيانَهُ «الْمُنْتَصِرِ»
 فى الخُطابِ ، «المُقْتَدِرِ» على الأَقْتِضابِ ؛ طُرُقَ الفُنونِ ، وَأَصْحَمَةَ العِيونِ ، مُحْكَمَةَ
 الأَسبابِ ، وَسَبيلَ الحِكمِ مُفْتَحَةَ الأبوابِ ؛ فهو بالسنا والسناء بَدْرُ «المُسْتَرشِدِ» ،
 وبالحداءِ والجداءِ «مُعِزُّ» «المُسْتَنجِدِ» ؛ وَبِقَرِطِ الحِياِ والحِياِ سَحَابُ المُسْتَمْطَرِ
 وَ«المُسْتَمْطَرِ» ، وَبِغَرْبِ الذِّكَا والذِّكَا بَرَقَ «المُسْتَبْصِرِ» وَ«المُسْتَنْصِرِ» .

فليأشِرْ هذه الوظيفة المباركة «مُعْتَصِمًا» بِجَبَلِ التَّقْوَى ، «مُسْتَعْصَمًا» من المراقبةِ
 بالسَّببِ الأَقْوَمِ الأَقْوَى ، مُجَدِّدًا رُسُومَ هذه الصناعةِ التى رَبَعُها قَد دَرَسَ وَحَمَلُها
 قَد أَقْوَى ؛ فإن «الْمُتَّقَى اللهُ» «الرَّاضَى» به هو «الرَّاشِدُ» «الفَائِزُ» بالسَّعَادَةِ ،

و«المُتَوَكَّل» عليه «المُطِيع» له هو «الوَائِقُ» ببلوغ القصد الحائز للإرادة؛ وليطرز حُلَّ البيان بوشى بنانه الذى أصبح ديباج الطرس به «مُعْتَرًا»، وليقوم معانى البديع بعامل قلبه الخَطِيّ الذى أمسى الفضل به كالمهري قائمًا مهترًا؛ «مُسْتَكْفِيًا» بما يصرعه ويصرعه نظرًا ونثرًا من البدائع، «مُسْتَعْلِيًا» لما يرفعه ويفرعه من غرر الفقر، ودُررِ الفكر، بخاطره الوَقَادِ القَادِ المتقاد الطائع؛ «مُقْتَفِيًا» فيما ينشئه آثار ما يصدر عن «الحاكم» و«الأمير»، «مكتفيا» فيما يئديه بمقدار ما تبرز به المراسيم والأوامر، «حافظًا» للسرّ «العزيز» كاتبًا كاتبًا فلا يعضده فيه «عاضد» ولا يظفر به «ظافر»؛ «معتمدًا» على الكتان في جميع ما يورده ويصدره، مقتصدًا بالتوفيق في سائر ما يخفيه ويظهره .

والوصايا فن آدابه تُستفاد، والنصائح فلها منه المبدأ وإليه المعاد؛ فليتنسّم ذرّوة أعلاها، وليتنسّم نفعها رايها



توقيع بشهادة دار الضرب بطرابلس، وهو :

رسم بالأمر - لزال رأيه الشريف يقرب من الأمور صوابًا، ولا برح أفق سماء مملكته الشريفة يطالع بفلكه بدرًا منيرًا وشهابًا - أن يربّ فلان ... : لأنه العدل الذى أشتهرت عدالته، والأمين الذى بهرت فظهرت أمانته؛ والرئيس الذى ما برح صدر المحافل، والفاضل الذى فاق بفضله على الأقران والأماثل، وشهدت بتراهته المشهورة الأوانح والأوائل .

فليأشر هذه الوظيفة مباشرة مطابقة لعدالته المشهورة، معربة عن أصلته المخبورة، موصحة عن ديانته التى غدت فى العالمين معروفة غير منكورة؛ ليصبح هذا المنصب

مُشْرِقًا بُنُورَهُ ، سَنَى الْأَرْجَاءِ بِسَاطِعِ ضِيَاءِ شِهَابِهِ وَنُورِ بُدُورِهِ ؛ وَهُوَ - أَعَزَّهُ اللَّهُ -
غَنِيٌّ عَنِ وَصِيَّةٍ مِنْهُ تُسْتَفَادُ ، أَوْ تَنْبِيهِ عَلَى أَمْرٍ مِنْهُ يُبْدَأُ وَإِلَيْهِ يُعَادُ ؛ وَلِيَتَنَاوَلَ مَعْلُومَهُ
الشَّاهِدَ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ هِنِيًّا مُبَسَّرًا ، وَلَا يَقِفُ أَمَلُهُ عِنْدَهُ : فَإِنَّا لَنَرَجُو فَوْقَ
ذَلِكَ مَظْهَرًا .



تَوْقِيْعٌ بِنَظَرِ اللَّادِئِيَّةِ ، كُتِبَ بِهِ لِلْقَاضِي «بُرْهَانَ الدِّينِ» الْأُدْرَعِيَّ ، وَهُوَ :

رُسِمَ بِالْأَمْرِ - أَنْفَذَهُ اللَّهُ فِي الْآفَاقِ ، وَطَوَّقَ بِمَنِّهِ وَقَوَاضِلِ بَرِّهِ الْأَعْنَاقِ - أَنْ
يَسْتَقِرَّ الْمَجْلِسُ السَّامِيُّ - حَرَسَ اللَّهُ مُهْجَتَهُ ، وَأَهْلَكَ حَسَدَتَهُ - فِي نَظَرِ اللَّادِئِيَّةِ
الْمَحْرُوسَةِ ، عَلَى عَادَةٍ مِنْ تَقَدُّمِهِ وَقَاعِدَتِهِ ، بِالْمَعْلُومِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى
آخِرِ وَقْتٍ : عَلِيمًا بِأَمَانَتِهِ الْمَشْهُورَةِ ، وَكِتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ بَيْنَ أَهْلِ الصَّنَاعَةِ مَشْكُورَةٍ ،
وَخَبْرَتِهِ الَّتِي هِيَ فِي الْمُبَاشَرَاتِ مَعْرُوفَةٌ غَيْرَ مَنْكُورَةٍ ، وَكِفَايَتِهِ الْمَالُوفَةَ الْمَوْفُورَةَ ؛ فَإِنَّهُ
بَاشَرَ الْحِسْبَةَ الشَّرِيفَةَ وَنَهَى وَأَمَرَ ، وَأَتَّبَعَ فِي أَحْكَامِهِ مَا أَمَرَ بِهِ «أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرُ» ؛
وَصَبَّطَ أَمْوَالَ بَيْتِ الْمَالِ بِحُسْنِ نَظَرِهِ وَمَيِّزَ وَثَمَرَهُ .

فَلْيَبِشِرْ هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ الْمُبَارَكَةَ مُبَاشَرَةً عَلَى أَجْمَلِ الْعَادَاتِ ، وَيَسْتَرْفِعْ مَا لَهَا مِنْ
الْحُسْبَانَاتِ ، وَيُوصِّلْ إِلَى أَرْبَابِ الْأَسْتِحْقَاقِ مَا لَهُمْ مِنَ الْحُقُوقَاتِ ، عَلَى مَا يَشْهَدُ بِهِ
الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ فِي سَائِرِ الْأَوْقَاتِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الْوِظِيْفَةَ مِنْ أَجْلِ الْمُبَاشَرَاتِ ، وَلِيَتَنَاوَلَ
مَعْلُومَهُ الشَّاهِدَ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ هِنِيًّا مُبَسَّرًا عَلَى جَارِيِ الْعَادَةِ لِمَنْ تَقَدَّمَ فِي الْفُرُوعِ
وَسَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَلِيَعْتَمِدَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى فِي سَائِرِ الْحَرَكَاتِ وَالسَّكَّاتِ ؛ وَاللَّهُ
تَعَالَى يَتَوَلَّاهُ ، وَالْإِعْتِمَادُ عَلَى الْخَطِّ الْكَرِيمِ أَعْلَاهُ .



توقيع أيضا في المعنى .

لا زالت صدقاته الشريفة تُقِيمُ لاتباع الحق برهانا، وتُسَدِّي إلى كلِّ أحدٍ خيرا وإحسانا - أن يرتب فلانٌ ناظرا بالأذقية المحروسة وما هو مضاف إليها، على عادة من تقدمه وقاعدته ومعلومه الشاهد به الديوان المعمور : لأنه طالما بأشر نظر بيت المال فوق الأموال ، وأصلح ما فسد من الأحوال ، وسدد بحسن تدبيره الأقوال والأفعال ؛ وأظهر من الأمانة ما تميز به في مباشراته ، وفاق به على قرنائه وأهل زمانه وأوقاته ؛ ثم بأشر الحسبة فسلك فيها مسلك السر والجهر وصدق الخبر ، وسلك مسلك أمير المؤمنين عمر .

فليأشر هذا النظر بقلب مشرح ، وأمل منفسح ؛ وليظهر فيه ما جرب به من الأمانة ، وتجنب الحيانه ؛ وليجتهد في تحصيل أموال الديوان المعمور ، ويسط قلمه في إصلاح الأمور؛ وليوصل إلى أرباب المرتبات ما هو لهم مستحق ، فانهم به أولى وأحق ؛ وليوصل إليه معلومه أو أن وجوبه وأستحقاقه



توقيع بمشارفة حصن الأكراد ، كتب به للقاضي « بدر الدين » بـ « بالمجلس

العالي » ، وهو :

رسم بالأمر الشريف - لا زالت مراسمه العالية تولى الأنام براء ، وتجدد بإسباغ الإنعام بشرا ، وتضوع في كل نادٍ من أندية الثناء والدعاء تشرا ؛ وتطلع في كل أفق من آفاق السيادة من صدور الأعيان وأعيان الصدور بدرا - أن يرتب فلانٌ في مشارفة حصن الأكراد المحروس : لما هو عليه من العفة والصلف ، والنزاهة

التي عُرف بها وأنصف ؛ والرآسة التي أنتقلت إلى الخلف عن السلف ، والعدالة التي لا يتكلف لسلك نهجها : ومن العجب خلو البدر عن الكلف ؛ كم حفظت بمباشرة الأموال ، وصلحت بملاحظته الأحوال ؛ وعقدت انحصار على سيرته وحسن سيره ، وأشتهر بحيل تدبير أوجب تقديمه على غيره .

فليأشر هذه الوظيفة التي هي من أجل الوظائف ، وليشكر ما أولي من المعروف وأُسدي إليه من العوارف ؛ وليبدل جهده في صلاح الأحوال ، وبثمير الأموال ، وتقرير القواعد على السداد ، وإجراء العوائد على وفق المراد ؛ فإنه ممن دلت خبرته على جميل آثاره ، ولاحت الغبطة في اختياره الذي أغنى عن تقديم اختياره ؛ كيف لا ؟ وهو ممن نشأ في خدور فنون الكتابة ، وأشهر في مواطن النضال مع وفور الانتقال بحسن الإصابه ؛ فهو إن شاء الإنشاء بلغ منه المرام ، وإن بسط الجرائد للتصرف قيل : هذا الكاتب النظام ؛ كم له من يد بيضاء في التبييض والتسويد ، وهمة علياء بلغ بها من السيادة ما كان يُريد .

فليقدم خيرة الله تعالى في هذا الأمر ويجمعها إمامه ، وليتمسك بها مقتدياً بمن قدمها أمامه ، وليكن عند حسن الظن به ليلبغ من سعادة الدارين مرامه .

والوصايا التي يعم نفعها ، ويتعين على تناسب الأعمال جمعها ؛ به تسلك سبلها ، وعنه تؤخذ تفاصيلها وجمالها ؛ فليسلك منها الأقوم الأرشد ، وليتمسك بالأفود الأحمد ؛ بحزم وافر ، وعزم غير قاصر ؛ وليتناول معلومه الشاهد به الديوان المعمور أحيان الوجوب والاستحقاق رزقاً داراً ، هنيئاً ميسراً ساراً ؛ من غير تقثير ولا تكدير ، ولا تنغيص ولا تأخير .

تَوْقِيعٌ بِمَشِيخَةِ الْمَقَامِ الْأَذْهَمِيِّ ، كُتِبَ بِهِ بِاسْمِ الشَّيْخِ «عَبْدِ اللَّهِ السُّطُوْحِيِّ»
بِ«الْمَجْلِسِ الْعَالِيِّ» ، وَهُوَ :

أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي سَقَى مَحَلَّنَا بِلِيَّابِهِ ، وَأَنْبَتَ عُشْبَنَا بِسَحَابِهِ ؛ وَأَقْرَأَنَا كِتَابَ
وَجْهِهِ وَأَغْنَانَا عَنْ وَجْهِ كِتَابِهِ ؛ وَجَعَلَ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا مِنْ صِدْقِ أَوْلِيَائِهِ ، وَمَنْحَهُمْ
بِمَا آخْتَارَ لَهُمْ مِنْ سِرَائِرِ مَوَاهِبِهِ وَعَطَائِهِ ، وَجَمَعَ قُلُوبَ الْفُقَرَاءِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالِدَعَاءِ
بِوَأَسْطَةِ مَنْ أَحْبَبَهُ وَأَخْصَاءِ نُجَبَائِهِ ؛ وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَجْمِ السُّرَى ،
وَلَيْثِ السُّرَى ، وَسَيِّدِ مَنْ وِطِئَ التُّرَى ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ لِأَبْرَ
قَسَمَهُ رَبُّ السَّمَاءِ ، وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا - فَلَمَّا كَانِ الْأَعْيُنُ بِالْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ مِنْ
الْوَاجِبَاتِ ، وَالْمَحَافِظَةِ عَلَيْهَا [مِمَّا] تُبَادِرُ إِلَيْهِ مِنَ النُّفُوسِ الرَّغْبَاتِ ؛ وَبُيُوتِ اللَّهِ تَعَالَى
فَهِيَ قِوَامُ الدِّينِ الْمَتِينِ ، وَلَا يَنْهَضُ بِعَارَتِهَا إِلَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا وَأَمَنُوا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ،
فَطُوبَى لَهُمْ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ .

وَمِنْ الْبُيُوتِ الْعَامِرَةِ ، وَالسَّرَاتِ الطَّاهِرَةِ ، وَالْمَقَامَاتِ الَّتِي إِذَا حَلَّ بِسَاحَتِهَا
أَكْمَهُ الْعَيْنُ بِصَرْتِهِ نُجُومًا زَاهِرَةً - مَقَامٌ مِنْ ذِكْرِ كَرَامَتِهِ أَشَامٌ فِي أَقْطَارِ الْأَرْضِ
وَأَيْمَنُ وَأُنْجِدُ وَأَتَمُّهُمْ ، السَّيِّدِ الْجَلِيلِ وَلِيِّ اللَّهِ «إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمٍ» ؛ سَيِّدِ الْأَوْلِيَاءِ ،
وَسُلْطَانِ الْأَتْقِيَاءِ ؛ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ مَا سَارَ عَلَى الطَّرِيقِ سَائِرًا ، وَمَا أَمْتَطَى ظَهَرَ قُلُوبِ
مُسَافِرٍ ؛ مَقَامٌ بِالزُّهْدِ مَوْصُوفٍ ، وَبِالْبَرَكَاتِ مَعْرُوفٍ ؛ وَلَهُ الْإِطْلَاقَاتُ الْمَشْهُورَةُ ،
وَالْمَنَاهِلُ الْمَأْتُورَةُ ، فِي وَرْدِهَا الْمَبْرُورَةُ ؛ قَدْ آسَتْوَلَتْ عَلَيْهِ يَدُ التَّبْذِيرِ ، وَعَادَ بَعْدُ طَوْلُ
سِمَاطِهِ فِي تَقْصِيرِ ، وَأَخْتَلَفَ فِيهِ النَّيَاتُ فَكَانَ فِي كَيْسِ الْفَقِيرِ ؛ فَكَشَفَ اللَّهُ
هَذِهِ النَّقْمَةَ ، وَأَدَامَ سَوَائِغَ النِّعْمَةِ ؛ وَأَسْبَلَ عَلَى هَذَا الْمَقَامِ ظِلَالَ الْحُرْمَةِ ؛

(١) لَعَلَّ الصَّوَابَ «فَكَانَ فِي كَيْسِ الْفَقِيرِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي كَيْسِ» الخ .

وَأَرْسَلَ اللَّهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ الْمُتَّقِينَ بَاعْتَابًا مِنْ عِنْدِهِ ، وَأَيُّقِظَهُمْ لَعَلَّهُمْ بَانَ كَلَّا وَاقِفٌ عِنْدَ أَمْرِهِ وَحَدِّهِ ؛ وَأَنْتَ لِسَانَ مَنْ لَا رَادَّ لِأَمْرِهِ ، فَكَشَفَ عُمَّةَ هَذَا الْمَقَامِ وَعَزَلَ مِنْ يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءِ تَدْبِيرِهِ وَشَرِّهِ .

فَلذَلِكَ رُسِمَ - أَنْ تَفُوضَ مَشِيخَةَ الْمَقَامِ الْجَلِيلِ الْأَذْهَمِيَّ بِشَفْرِ جَبَلَةِ الْحُرُوسِ - عَلَى سَاكِنِهِ الرَّحْمَةِ وَالرِّضْوَانِ - إِلَى فُلَانٍ - نَفَعَ اللَّهُ بِبِرَكَاتِهِ ، وَأَعَادَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ صَالِحِ دَعْوَاتِهِ - عِوَضًا عَمَّنْ كَانَ بِهَا بِحَكْمِ أَنْفِصَالِهِ حَسَبَ مَا وَرَدَتْ الْمُرَاسِمُ الشَّرِيفَةُ - شَرَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَعَظَّمَهَا - عِنْدَ اتِّصَالِ الْعُلُومِ الشَّرِيفَةِ - زَادَهَا اللَّهُ تَعَالَى بِأَمْرِ الْمَقَامِ الْمَشَارِإِلِيهِ وَعَاطَادِ الْمُتَصَرِّفِينَ فِيهِ : إِذْ وُضِعَتْ الْآيَاتُ الْأَشْيَاءُ فِي مَحَلِّهَا ، وَأُسْنَدَتْ الْأُمُورُ إِلَى أَهْلِهَا ، وَقُلِدَتْ هَذِهِ الْمُتَوَبُّةُ إِلَى مَنْ يُظْهِرُ سَرَائِرَ فَضْلِهَا ؛ وَلَحِظْتَ الْآرَاءَ حَجَّرَ هَذَا الْمَقَامِ وَالْأَثْرَ ، وَلَا شَكَّ أَنَّ السَّعَادَةَ تَلْحَظُ الْحَجْرَ ؛ كَمَا لَهُ مِنْ آيَاتٍ مَشْهُورَةٍ ، وَكَرَامَاتٍ بِلِسَانِ الْحَمْدِ مَذْكُورَةٍ ، وَمَسَاجِدَ فِي الْخَيْرَاتِ مَبْرُورَةٍ ؛ وَقَدْ عَمَّ الزَّوَايَا بِأَجْنَاسِ الْمَكَارِمِ ، وَبَسَّطَ تَعْيِيرَاتِهِ مِنْ إِكْرَامِهِ سِمَاطًا يَقُولُ الزَّائِرُ : هَذَا وَلَا حَاتِمَ :

زُورُ دِيَارًا زَارَهَا جُودُ كَفِّهِ ، * وَمِنْ دُونِهَا لِلزَّائِرِينَ مَرَاحِلُ ،

وَتَرْجِعُ عَنْهَا وَالْحُقُوفُ قَرِيرَةٌ : * كَمَا رَاجَعَتْ مَاوَى الْحُقُوفِ الْمَسَاحِلُ !

فَلْيَتَلَقَّ - أَعَادَ اللَّهُ مِنْ بَرَكَتِهِ - هَذِهِ الْوَيْلِيَّةُ : وَيُجْعَلُ لِلْمَشَارِإِلِيهِ مِنْ خَاطِرِهِ

الْكَرِيمِ أَوْفَرَ عِنَايَةٍ ؛ وَيَسْتَخْلِفُ عَنْهُ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى

فَإِنَّهَا مُسْتَمِرَّةٌ بِيَدِهِ وَوَلَايَتِهَا بَاقِيَةٌ عَلَيْهِ ؛ وَأَمْرُهَا فِي إِبْدَانِهِ وَإِعَادَتِهِ عَلَيْهِ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى

يَتَوْلَاهُ ، فِيمَا وَوَلَّاهُ ؛ وَالْإِعْتَادُ

(١) بياض بالأصل ومراده الى مشيخة بحصن الأكراد .

قلتُ : وقد أتيتُ على بجملة من توابع أرباب الوظائف : بدمشق وحلب
وطرابلس وأعمال كل منها ، يستغني بها الماهر عما سواها ، ويقيس عليها ما عداها ،
إذ لا سبيل إلى استيفاء جميعها ، والإتيان على بجمتها .

وفيما ذكر من هذه الممالك الثلاث تنبيه على ما يكتب بحجة وصفد اللتين هما
في رتبة طرابلس ، وتلويح إلى ما عداها ، مما هو دونها كغزة إذا كانت نياية ،
والركك التي هي دون ذلك .

والله تعالى هو الهادي إلى التوفيق ، والمرشد للسداد ، بمنه وكرمه .

تم الجزء الثاني عشر . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثالث عشر

أذلة المقالة السادسة

(فيما يكتب في المسامحات ، والاطلاقات السلطانية ، والطرخانيات

وتحويل السنين والتذاكر ، وفيها أربعة أبواب)

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وأله وصحبه وآله وسلم ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهرس

الجزء الثاني عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- القسم الثاني — مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية
 ما يكتب لأرباب الوظائف بالملك الشامية ،
 ٥ وهي على ضربين
- الضرب الأول — من لا تصدر عنه منهم تولية في عمل نيابته ... ٥
 » الثاني — من تصدر عنه التولية والعزل في عمل نيابته ،
 ٦ وهي سبع نيابات
- النيابة الأولى — نيابة دمشق ، ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام ،
 ٧ ووظائفها على نوعين
- النوع الأول — ما هو بحاضرة دمشق ، ويشتمل ما يكتب به عن
 الأبواب السلطانية على أربعة أصناف ٨
- الصنف الأول — أرباب السيوف ، وهم على طبقات ٨
 الطبقة الأولى — من يكتب له تقليد في قطع الثلثين ٨
 » الثانية — من يكتب له تقليد في قطع النصف ... ٢٤
 » الثالثة — من يكتب له مرسوم ، وهي على مرتبتين ... ٢٦
 المرتبة الأولى — من يكتب له في قطع النصف ٢٦
 » الثانية — من المراسيم التي تكتب بحاضرة دمشق لأرباب
 السيوف ما يكتب في قطع الثلث ٣٣
- الصنف الثاني — من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية ، وجميع
 ما يكتب فيها تواقع ، وهي على مرتبتين ٣٨
- المرتبة الأولى — ما يكتب في قطع النصف الخ ٣٨
 » الثانية — ما يكتب في قطع الثلث الخ ٥٩
- الصنف الثالث — تواقع أرباب الوظائف الديوانية ، وفيها مرتبتان
 المرتبة الأولى — ما يكتب في قطع النصف الخ ٥٦
 » الثانية — من يكتب له في قطع الثلث الخ ٥٩

صفحة

- ١٠١ - حنف الرابع - وظائف المتصوفة ومشايخ الخواص، وفيها مرتبتان
- ١٠١ قطع الثلث الخ
- ١٠٣ الثانية - من يكتب له في قطع العادة الخ
- ١٠٤ - النوع الثاني - من وظائف دمشق ما هو خارج عن حاضرتها
- ١٠٦ الطبقة الأولى - ما يكتب به مرسوم في قطع النصف
- ١١٨ - الصنف الثاني - ممن هم خارج دمشق أمراء العرب، وهم على طبقتين
- ١١٨ الطبقة الأولى - من يكتب له منهم تقليد في قطع النصف
- ١٢٤ الثانية - من يكتب له مرسوم شريف، وهم على مرتبتين
- ١٢٤ المرتبة الأولى - من يكتب له في قطع النصف
- ١٣٥ الثانية - من يكتب في قطع الثلث
- النيابة الثانية - من نيابات البلاد الشامية نيابة حلب، ووظائفها
- ١٤٠ التي يكتب بها من الأبواب السلطانية على نوعين
- ١٤٠ النوع الأول - من بحاضرة حلب، وهم على أصناف
- ١٤٠ الصنف الأول - منهم أرباب السيوف، وهم على طبقتين
- ١٤٠ الطبقة الأولى - من يكتب له تقليد في قطع الثلثين
- ١٥١ الثانية - من يكتب له في قطع الثلث
- ١٥٥ - الصنف الثاني - أرباب الوظائف الدينية بحلب، وهم على طبقتين
- ١٥٥ الطبقة الأولى - من يكتب له في قطع الثلث الخ
- ١٦٠ الثانية - من يكتب له في قطع العادة
- الصنف الثالث - من أرباب الوظائف بحلب أرباب الوظائف
- ١٦٠ الديوانية، وهم على طبقتين
- ١٦٠ الطبقة الأولى - من يكتب له في قطع الثلث
- ١٦٧ الثانية - من يكتب له في قطع العادة

- النوع الثاني - من أرباب الوظائف بالمملكة الحليسه من
 خارج عن حاضرتها، وهم على أصناف ١٦٨
- الصفء الأول - أرباب السيوف ١٦٨
- » الثاني - الوظائف الدينية ١٧٤
- » الثالث - الوظائف الديوانية ١٧٥
- النيابة الثالثة - نيابة طرابلس ، ووظائفها التي جرت العادة بالكتابة فيها
 من الأبواب السلطانية على نوعين ١٧٦
- النوع الأول - ما هو بماضرة طرابلس ، وهو على ثلاثة أصناف ... ١٧٦
- الصفء الأول - أرباب السيوف ، وهم على طبقتين ١٧٦
- الطبقة الأولى - من يكتب له تقليد ١٧٦
- » الثانية - من يكتب له مرسوم في قطع الثالث ١٧٩
- الصفء الثاني - الوظائف الدينية ، وهي على مرتبتين ١٨٢
- المرتبة الأولى - من يكتب له في قطع الثالث ١٨٢
- » الثانية - من يكتب له في قطع العادة ١٨٧
- الصفء الثالث - الوظائف الديوانية ، وهي على مرتبتين ١٨٨
- المرتبة الأولى - ما يكتب في قطع الثالث ١٨٨
- » الثانية - من يكتب له في قطع العادة ١٩٤
- النوع الثاني - ما هو خارج عن حاضرة طرابلس ، وهم على ثلاثة أصناف ١٩٥
- الصفء الأول - أرباب السيوف ، وهم على طبقتين ١٩٥
- الطبقة الأولى - الطبلخاناه ١٩٥
- » الثانية - العشرات ١٩٧
- الصفء الثاني - الوظائف الدينية ١٩٨
- » الثالث - أرباب الوظائف الديوانية ٢٠٠

- النيابة الرابعة - نيابة حماة، وهي على ثلاثة أصناف
- الصف الأول - أرباب السيوف
- » الثاني - أرباب الوظائف الدينية
- النيابة الخامسة - نيابة صفد، ووظائفها على ثلاثة أصناف
- الصف الأول - أرباب السيوف، وفيه وظيفتان
- الوظيفة الأولى - نيابة السلطنة
- » الثانية - نيابة قلعة صفد
- الصف الثاني - أرباب الوظائف الديوانية
- » الثالث - أرباب الوظائف الدينية
- النيابة السادسة - نيابة غزة، ووظائفها على صنفين
- الصف الأول - أرباب السيوف
- » الثاني - الوظائف الديوانية بغزة
- النيابة السابعة - نيابة الكرك، وأرباب الولايات فيها على أصناف
- الصف الأول - أرباب السيوف
- » الثاني - أرباب الوظائف الدينية
- » الثالث - أرباب الوظائف الديوانية

القسم الثالث - مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ما يكتب لأرباب الوظائف

- بالمملكة الحجازية، وتشمل على ثلاث قواعد
- القاعدة الأولى - مكة المشرفة، وبها وظيفتان
- الوظيفة الأولى - الإمارة
- » الثانية - قضاء مكة
- القاعدة الثانية - المدينة النبوية، وبها ثلاث وظائف

- ٢٤٢ الإمارة — الأولى
- ٢٥٨ القضاء — الثانية »
- ٢٦٠ مشيخة الحرم الشريف — الثالثة »
- ٢٦٢ والنبية ، وبها وظيفة واحدة وهى النيابة — سابعة الثالثة
- ٢٦٥ مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ما يقع على سبيل الدور
- ٢٨٠ من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من الولايات عن تواب السلطنة ، وفيه طرفان
- ٢٨٠ فى مقدمات هذه الولايات ، ويتعلق بها مقاصد
- ٢٨٠ فى بيان من تصدر عنه الولايات من تواب السلطنة المقصد الأول —
- » الثانى — فى بيان الولايات التى تصدر عن تواب السلطنة
- ٢٨١ بالممالك الشامية
- ٢٨٢ فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات
- ٢٨٣ فى بيان الألقاب ، وفيه أصناف
- ٢٨٥ أرباب السيوف ، ولألقابهم مراتب
- ٢٨٧ أرباب الوظائف الديوانية ، وفيهم مراتب
- » الثالث — من أرباب الولايات بالممالك الشامية أرباب
- الوظائف الدينية ، وفيه مراتب
- ٢٩٢ من أرباب الولايات بالممالك الشامية مشايخ الصوفية » الرابع —
- ٢٩٣ من أرباب الولايات بالممالك الشامية أمراء العربان » الخامس —
- » السادس — من أرباب الولايات بالممالك الشامية أرباب
- الوظائف العادية
- ٢٩٣ من أرباب الولايات بالممالك الشامية زعماء » السابع —
- أهل الذمة
- ٢٩٤

صفحة

- المقصد الخامس - في بيان مقادير قطع الورق المستعمل فيما
 يكتب عن نواب الممالك الشامية... .. ٢٩٤
- » السادس - في بيان ما يكتب في طرزة التواقيع... .. ٢٩٥
- » السابع - في بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع... .. ٢٩٩
- الطرف الثاني - في نسخ التواقيع المكتتبة عن نواب السلطنة
 بالممالك الشامية، وفيه ثلاث نيبات... .. ٢٩٩
- النيابة الأولى - الشام، والتواقيع التي تكتب بها على خمسة أصناف... .. ٣٠٠
- الصف الأول - ما يكتب بوظائف أرباب السيوف،
 وهو على ضربين... .. ٣٠٠
- الضرب الأول - ما هو بحاضرة دمشق، وهو على مراتب... .. ٣٠٠
- المرتبة الأولى - ما يفتتح بالحمد لله... .. ٣٠٠
- » الثانية - ما يفتتح بأما بعد حمد الله... .. ٣٠٤
- » الثالثة - ما يفتتح برسم بالأمر العالي... .. ٣٠٦
- الضرب الثاني - ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من
 أرباب السيوف من هو بأعمال دمشق،
 ومواضعهم على ثلاث مراتب... .. ٣١١
- المرتبة الأولى - ما يفتتح بالحمد لله... .. ٣١١
- » الثانية - ما يفتتح بأما بعد حمد الله... .. ٣١٧
- » الثالثة - ما يفتتح برسم... .. ٣٢٥
- الصف الثاني - تواقيع أرباب الوظائف الدينية، وهي على ضربين
 الضرب الأول - ما يكتب لمن هو بحاضرة دمشق،
 وهو على ثلاث مراتب... .. ٣٣٧
- المرتبة الأولى - ما يفتتح بالحمد لله... .. ٣٣٧
- » الثانية - ما يفتتح بأما بعد حمد الله... .. ٣٥٩
- » الثالثة - ما يفتتح برسم بالأمر... .. ٣٧٢

صفحة	
٣٧٧	الضرب الثانى — ما يكتب به لمن هو بأعمال دمشق، وهو على مرتبتين
٣٧٧	المرتبة الأولى — ما يفتح بأما بعد حمد الله
٣٧٩	» الثانية — ما يفتح برسم بالأمر
	الصفن الثالث — ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية ،
٣٨٣	وهى على ضربين... ..
	الضرب الأول — ما يكتب لمن بحاضرة دمشق منهم ،
٣٨٣	وهو على ثلاث مراتب
٣٨٣	المرتبة الأولى — ما يفتح بالحمد لله
٣٩٠	» الثانية — ما يفتح بأما بعد حمد الله
٣٩٣	» الثالثة — ما يفتح برسم بالأمر الشريف
	الضرب الثانى — ما هو خارج عن حاضرة دمشق ، وغالب ما يكتب
٤٠٤	فيها من التواقيع مفتح برسم
٤١٠	الصفن الرابع — تواقيع مشايخ الخواتق ، وهى على ضربين
٤١٠	الضرب الأول — ما هو بحاضرة دمشق ، وهى على ثلاث مراتب
٤١٠	المرتبة الأولى — ما يفتح بالحمد لله
٤١٧	» الثانية — ما يفتح بأما بعد حمد الله
٤١٩	» الثالثة — ما يفتح برسم بالأمر
	الضرب الثانى — ما هو بأعمال دمشق ، وفيه مرتبة واحدة
٤٢٠	وهى الافتتاح برسم
٤٢٢	الصفن الخامس — تواقيع العربان
٤٢٤	» السادس — تواقيع زعماء أهل الذمة من اليهود والنصارى
٤٢٨	النيابة الثانية — نيابة حلب
٤٥٠	» الثالثة — نيابة طرابلس

(تم فهرس الجزء الثانى عشر من كتاب صبح الأعشى)

دار الكتب السلطانية

كتاب

صحيح الإسكندرية

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد بن القلقشندي

الجزء الثالث عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٧ هـ

م ١٩١٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقالة السادسة

فيما يُكْتَبُ في [الوصايا الدينية^(١)] والمسامحات، والإطلاقات السلطانية
والطَّرْخَانِيَّاتِ، وتحويل السنين والتذاكر؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الوصايا الدينية، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما تقدماء الكُتَّاب من ذلك

اعلم أنه كان تقدماء الكُتَّاب بذلك عنايةً عظيمةً بحسب ما كان للولوك من الإقبال
على معالم الدين، ومن أكثرهم عنايةً بذلك أهل الغرب؛ لم يزالوا يكتبون بمثل ذلك
إلى نواحي ممالكهم، ويُقرأ على منابرهم؛ ولهم في ذلك الباع الطويل والهمة الوافرة.
وهذه نسخة من ذلك كتب بها أبو زيد الداراري: أحد كُتَّاب الأندلس عن
أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين المنصور^(٢): أحد خلفاء بني أمية بالأندلس، وهي:

(١) الزيادة من ج ١ ص ٢٦ من هذا المطبوع.

(٢) ليس في خلفاء بني أمية بالأندلس من اسمه المنصور، وإنما المنصور هو ابن أبي عامر كان تغلب على
عشام بن الحكم الأموي واستبقه بالأمر وتغلب من بعده أبوه المنصور ثم أخوه المنصور عبد الرحمن الملقب بالناصر
لدين الله، ثم انقرضت دولتهم وعادت الدولة إلى بني أمية. فقلع هشام هذا ويبيع إليه محمد الملقب بالمهدي.
انظر "نسخ الطيب" ج ١ و"العرب" ج ٤ و"صبح الأعشى" ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ من هذا المطبوع.

الحمد لله الذى جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أصليين تنفرت عنهما مصالح الدنيا والدين ، وأمر بالمعروف والإحسان إرشاداً إلى الحق المبين ، والصلاة على سيدنا محمد الكريم المبتعث بالشرعية التى طهرت القلوب من الأدران وأستخدمت بواطن القلوب وظواهر الأبدان طوراً بالشدة وتارة باللين ، القائل (ولا عدول عن قوله عليه السلام) « من أتقى الشبهات استبرأ لدينه » تنبيها على ترك الشك لليقين ، وعلى آله الكرام أعلام الإسلام الملتقى راية الأهداء فى إظهار السنن وإيضاح السنن باليمين ؛ الذين مكّتهم الله تعالى فى الأرض فأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر : وفاءً بالواجب لذلك التمكن .

والرضا عن الأئمة المظهرين للدين المتين ، البالغين بالبلاد والعباد نشرًا للعُدل وإتماماً للفضل إلى أقصى غاية التمهيد والتأمين ، رضى الله عنهم أجمعين ! وعن تابعيهم بإحسانٍ إلى يوم الدين ! .

وإنّا كتبناه لكم - كتب الله لكم أتباعاً إلى ما ينهى من المصالح إليكم ، وأستماعاً إلى ما يتلى من المواعظ عليكم - من حضرة إشبيلية - كلاًها الله - .

والذى نوصيكم به تقوى الله تعالى والعمل بطاعته والأستعانة به والتوكل عليه ، وأن تعلموا أنا لم نتم هذا المقام الذى حفظ الله به نظام الحق من انتشاره ، وأمدنا بعونه الجميل على إحياء الدين وإفاضة أنواره ، إلا لستوفى كل نظر يعود على الأمة باستقامة أئمرها وأولآها ، ونهيب بها إلى أسمى رتب السعادة وأعلاها ، ونوقظ بصائرنا بنافع الذكري من كراها . فعليها لها بحكم ما تقلدناه من إمامتها ، وتحملنا من أمانتها ، أن نخوّلها بالحكمة والموعظة الحسنة ، ونرشدنا إلى المناهج الواضحة والسبل البينة ، ونضغى على خاصتها وعامتها ظل الدعة والأمنة ؛ وإذا كنا نوفيها تمهيد دنياها ،

ونعتني بحماية أفضاها وأذناها ، فالدين أهم وأولى ، والتهمم باحياء شرائعه وإقامة شعائره أحق أن يقدم وأحرى . وعلينا أن نأخذ بحسب ما أمر به ونُدع ، ونتبّع السنن المشروعة ونذر البدع . ولما أن لا ندخر عنها نصيحة ، ولا نُعَبِّها إرادة من الأدواء مُريجه . ولنا [عليها] أن تُطيع وتسمع ، وقد علم الله أنا لم نتحمّل أمانة الإسلام ، لنستكثر من الدنيا وزُحُفِها ، ولم نتصدّ لهذا المقام ، لنستأثر بنعيمها وترَفِها ، وإنما كان قصدنا قبل وبعد إقامة الكفافة في أوثر قرأها وأوطأ كنفِها ، وبحسب هذه النية التي طابقتها العمل ، ولم يتعدّها الأمل ، نيلت من الخيرات نِهايات ، كانت الخواطر تستبعد منأها ، وتيسرت إرادات ، كانت الأمة منذُ زمان لم ترمأها ، وساعدت العناية الربانية فلم تُؤن مقصوداً جميلاً ، ولا منأً جزيلاً .

وإلى هذا - أدام الله كرامتكم - فإننا لم نزل مع طول المباشرة للأحوال كلأها ، وتردّد المشاهدة لعقد الأمور وحأها ، نقف وقوف المتأمل على جزئيات الأمور وكيأتها ، ولا يغيب عن تصفأنا وتعرفنا شيء من مصالح الجهات وكيأياتها ، ولم نمتر بمائل إلا تولأنا إقامته ، وأعدنا إليه أعتداله وأستقامته ، ولا آتأهنا إلى صواب قول أو عمل إلا شدنا مبنأه ، وأظهرنا لفظه ومعناه .

والآن حين آستوفي إشرافنا على البلاد قاطبه ، ولزمنأ بحكم القيام لله في خلأه بحقه أن نتعهد الكفافة دائنة ونائية وشاهدة وغائبه ، ورجونا أن نتخلص من القسم الأول في قوله عليه السلام : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فرفق بهم فارفق به» بأعمال على الرفق دائنه ، وعلى الحق مواظبه - صرفنا أعتناء بجوامع المصالح فرأينا الدين ينظم تبدأها ، ويستوعب تعدأها ، لا تشد مصالحة عن قوانينه ، ولا تسأل بركة إلا مع تحصيله وتحسينه ، والله تعالى يعيننا وإياكم على إقامة حدوده ، وإدامة

عُهوده . وأول ما يتناول به الأمر كافة المسلمين الصلاة لأوقاتها ، والأداء لها على
أكل صفاتها ، وشهودها إظهاراً لشرائع الإيمان في جماعاتها ، فقد قال عليه السلام :
« أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ الصَّلَاةُ ، فَمَنْ حَفِظَهَا وَحَافِظَ عَلَيْهَا حَفِظَ دِينَهُ ، وَمَنْ ضَيَّعَهَا
فَهَوِّمًا سِوَاهَا أَضْيَعُ » . وقال عمر رضى الله عنه : « وَلَا حَظَّ فِي الْإِسْلَامِ لِمَنْ تَرَكَ
الصَّلَاةَ » فهي الركن الأعظم من أركان الإيمان ، والأسس الأوثق لأعمال الإنسان ،
والمواظبة على حضورها في المساجد ، وإيثار الصلاة الجماعة من المزية على صلاة
الواحد ، أمر لا يضيِّعه المُفْلِحُونَ ، ولا يحافظُ عليه إلا المؤمنون . قال ابن مسعود
رضى الله عنه : « لَقَدْ رَأَيْتُنَا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلَّا مُنَافِقٌ مَعْلُومَ النَّفَاقِ ، وَلَقَدْ كَانَ
الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يَهَادَى بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ » وشهود الصبح والعشاء
الآخرة شاهد بتحصيل الإيمان ، وقد جاء : « إِنَّ شُهُودَ الصُّبْحِ فِي جَمَاعَةٍ يَعْدِلُ
قِيَامَ لَيْلَةٍ » وحسبكم بهذا الرجحان . والواجب أن يُعتنى بهذه القاعدة الكبرى من
قواعد الدين ، ويُؤخذ بها في كافة الأمصار الصغير والكبير من المسلمين ، ويُحفظ
في التزامها قوله عليه السلام : « مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ لَسَبْعٍ وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرِ
سِنِينَ » . وبحسب ذلكم رأينا أن نلزم جار كل مسجد ، وأمير كل سوق وشيخ
كل زقاق ومعلم كل جهة الانتداب لهذا السعى الكريم ، واليدار لما فيه من الأجر
العظيم ، وأن يحض كل من في جهته أو سوقه أو حومة مسجده أو موضع صنعته
أو تجارته أو تعليمه على الصلاة وحضورها ، والأعتناء بأحكام طهورها ، وأن لا يتخلف
عن الجماعة إلا لعذر بين ، أو أمر يكون معه الشهود غير ممكن . وعليهم أن يلتزموا
هذه الوظيفة أتم الأتم ، ويقوموا بها مؤتجرين أحسن قيام ، ويسمروا عن ساعد
كل جد وأعتزام ، ويتعرفوا كل من تحتوى عليه المنازل من بلغ حد التكليف من
الرجال ، ويتعهدوهم الحين بعد الحين والحال إثر الحال ، ويطلبوهم بالذكر بملازمة

هذا العمل الذي قدّمه الله على سائر الأعمال . ويحذر المسلم أن يواقع بياضعة المكتوبة أمرا إمرأ ، ويترك من فرائض الإسلام ما يقتل متعمداً تركه حداً أو كُفراً . وعلى معلمي كتاب الله أن يأخذوا الصبيان بتعلم الصلاة والطهارة والإدابة لإقامتها والموالاتة وحفظ ما نقام به وأقل ذلك سورة فاتحة الكتاب . وعلى كل إنسان في خاصته أن يأخذ صغار بنيته وبناتهم وسائر أهله ومن إلى نظره بذلك ويأمرهم به ، قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « كلُّكم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رعيته » .

ثم آملوا أن الصلاة بما آثرها الله به من وظائفها الشريفة ، وخصائصها المنيفة ، تنظّم من أعمال البرِّ ضرورياً لا تُحصَر ، وتخصم من موقعة ما يُسَنُّ ويُمنكر ، وتُحطى من الخيرات العميمة الجسيمة بالقسم الأوفى الأوفر ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ . ونحن لا نوسع ناركها بحالٍ عُدرا ، ولا نُؤخِّرله عقابا وزجرا ، ولا نزال نجبه على إقامتها قسرا ، وإذا استمرّ التعهّد لها مع الأحيان ، وعمل الناس بما جددناه من إجراء التذكير بها بين القرابة والصّحابة والخيران ، وتواصوا بالمحافظة عليها حسب الإمكان ، لم تزل بيوتُ أذن الله تعالى أن تُرفع ويُذكر فيها اسمه معمورةً بتلاوة القرآن ، ولم تنفك إلا للإقامة عن الأذان .

ومما يزيد هذه الوظيفة تأكيدا ، ويوقِّ قواعدها تسبيدا ، درس كتاب الصلاة والطهارة حتى يستكوه وعيا وحفظا ، ويُؤدوا مضمّنه لفظا فلفظا ، ففي ذلك من الإشراف على أحكام العبادتين ما تبيّن مزيتته وفضله ، ولا يسع المؤمن بحال جهله ، ثم إذا أحكوه انتقلوا إلى درس كتاب الجهاد ، وعمرُوا الآناء بتعرف ما أعدّ الله للمجاهدين من الخير المستفاد ، فالجهاد في سبيل الله فرض على الأعيان ، وقد تأكد

تعيته لهذه البلاد المجاورة لعبدة الأصنام والصُّلبان، ونرجو أن يُخز الله ما وعد به من الفتح القريب لأهل الإيمان، وليطلبوا الناس بعرض ما يتدارسون تهيئة لمحفوظاتهم، واستراداة لقسمهم من الأجر وحُظوظهم .

ومن مقدمات الجهاد، وأقوى أسباب الاعتماد، تعلم الرماية التي ورد الحَضُّ عليها، وندب الشرع إليها، قال عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ «ألا إن القوة الرمي» قالها ثلاثا: فأظفروا الناس بتعلمهم، ولتربوهم طبقات على قدر إجادتهم وتقدمهم، قال عليه السلام: «مَنْ تَرَكَ الرَّمِيَّ بَعْدَ مَا عَلِمَهُ رَغْبَةً عَنْهُ فَإِنَّهَا نِعْمَةٌ تَرَكَهَا أَوْ قَالَ كَفَرَهَا». وقال عليه السلام: «مَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَلَغَ الْعُدُوَّ أَوْ لَمْ يَبْلُغْ كَانَ لَهُ كَعَتَقِ رَقَبَةٍ» .

وليعلموا أنهم يُطابون في وقت الحاجة بما يُثمره هذا التأكد من بدارهم، ويترتب عليه من أثمارهم، وليحرصوا على أن يُلقى عددهم وافرًا في حالتهم إيرادهم وإصدارهم .

ومما فيه مصلحة كريمة الأثر، واضحة الجُول والغرر، يكون ذكرها جميلاً، وأجرها جزيلًا، نعهد الضعفاء والفقراء، وإسمائهم من الكثير كثيرًا ومن القليل قليلًا بحسب الإصابة والرخاء، ووضع الصدقات في أهل التعفف الذين لا يسألون الناس الخافاً أول ما يجيء حين العطاء، فقد قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لَيْسَ الْمِسْكِينُ بِهَذَا الطَّوْفِ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ فَزِدَّهُ الثَّمَرَةَ وَالتَّمْرَانِ وَإِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي لَا يَجِدُ غَنِيَّ يُغْنِيهِ وَلَا يُفْطِنُ لَهُ فَيَتَصَدَّقَ عَلَيْهِ وَلَا يَقُومُ فَيَسْأَلُ النَّاسَ» فتفقّدوا هذا الصنف فهو أولى بالإيثار، وأحق أهل الإقتار، والمؤمنون إخوة ويعنى الجار بالجار، ويعنى الغنى الفقير فذلك من مكارم الآثار .

والأمرُ بالمعروف والنهي عن المنكر وظيفةٌ تعيَّنت إقامتها على المسلمين جميعاً فمن رأى منكراً فليُنهِه إليكم وعليكم تغييره وتَعْفِيَةُ أثره على ما يوجبُه الدين ويقتضيه ، وليأخذوا الحق من كل من تعيَّن عليه سواء في ذلك القوي والضعيف ، والمشروف والشريف . وكلُّ من ارتكب منكراً كائناً من كان ، عزَّ قدره أو هان ، فليبالغ في عقابه ، وينكَل على قدر ما ارتكب من المنكر وأتى به ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إِمَّا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ ، وَإِنِّي وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » وقال لأسامة في الحديث نفسه « أَسْفَعُ فِي حَدِّ مَنْ حُدَّ اللَّهُ » وقد حدَّ عمر رضي الله عنه ولده ، وحدَّ عثمان رضي الله عنه أخاه .

فلتكن هذه الوظيفة منكم بمرأى ومسمع ، ولتسلُّكوا في إقامتها على الخامل والنبية أَوْضَحَ مَهْيَعٍ ، ووفِّوا المعروف حَقَّه من الإظهار ، وتلقوا المنكر بأتم وجوه الإنكار ، ثم عليكم أجمعين بالتواصي بالخير والتعاون على البر والتقوى ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ . وقال عليه السلام : « لَا تَبَاغُضُوا وَلَا تَحْسَدُوا وَلَا تَدَابَرُوا وَلَا تَجَسَّسُوا وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا » .

وبالجملة فعلى المؤمن أن يستنفذ وسعه في الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف من بعده ، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ؛ ولم ينشأ ما نشأ من الأهوال ، ولا طراً في هذه الأمة ما طراً من الاختلال ، إلا بمفارقة الاقتداء الذي هو للدين رأس المال ، ورضي الله عن عمر حيث قال : « فُرِضَتِ الْفِرَائِضُ وَسُنَّتِ السُّنَنُ وَتُرِكْتُمْ عَلَى الْوَاضِحَةِ إِلَّا أَنْ تَضِلُّوا بِالنَّاسِ يَمِينًا وَشِمَالًا » .

ومن أشد المنكرات بغير نكير وجوب تغيير الخمر التي هي أس الإثم والفجور ، وأم الخبائث والشُرور ، وأس كلِّ خطيئة ورأس كلِّ محظور ، فليشتدَّ أتم الاستداد

في أمرها ، ويبحث غاية البحث عن مكان عصرها ، ويتفقد الأماكن المهمة
ببعضها ، ويتسبب بكل وجه وكل طريق إلى قطعها . وليبادر حيث كانت إلى إراقة
دنانها ، وليبالغ إلى أقصى غايات الاجتهاد في شأنها ، وإن الله لعن الخمر وعاصرها
ومعصرها وحاملها والمحمولة إليه ، فليتيق الله مدين شربها فإنها رجس من عمل
الشيطان ، وليحذر ما في قوله عليه السلام : « لا يشرب المؤمن الخمر حين يشربها
وهو مؤمن » : من إخراجها عن أهل الإيمان ؛ وشرب الخمر لحاج في الطبع ، فلا خير
فيها مع الاعتناء المبني على الشرع ، ولو نهى الناس عن فت البعر لفتوه حرصا غالبا على
ما تقدم فيه من الزجر والمنع ؛ فمن عثر عليه بهد من شارب لها أو عاصر ، مستسرها
أو مجاهر ، فليضرب الضرب المبرح ، ويسجن السجن الطويل ، وليبق إلى أن تصح
توبته صحة لا تختمل التأويل ؛ ثم إن عاد فالحسام المصمم يحسم داءه إذا أعضل ،
ويصد به سواه عما استحل من هذا الحرام وأستسهل .

ومن أشد ما حذر منه ، وأكده النهي عنه ، كتب الفلاسفة لعن الله واضعها !
فإنهم بنوها على الكفر والتعطيل ، وأخلوها من البرهان والدليل ، وعدلوا بها ضللا
وإضللا عن سواء السبيل ، وجعلوها نكاة لعقائدهم ومقاصدهم الخيالة ركونا إلى
الباطل وتمسكا بالمستحيل . وقد كان سيدنا الإمام المنصور رضى الله عنه قد جد فيها
بالتحريق والتمزيق ، وسد بامضاء عزمه المسدد ورأيه المؤيد وجوه طلابها بكل
طريق ، فحسبنا أن تقتدى في ذلك بأثره الجميل ، وتأخذ في إحراقها حيث وجدت
وإهانة كاتبها وطالبيها وقاربيها ومقربيها ، ولا يعدل عن السيف في عقاب من أتبعها
وأستوهبها وإن السيف في حقه لقليل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تركت
فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنة نبيه » وبحسب العاقل كتاب
الله وسنة الرسول .

ويتعلق بهذا المنهى عنه ما استرسل فيه مرادة أهل الأهواء ، والمتنكبون فيما تلبسوا به من الأدران عن سنن الأهداء ، أولئك قوم اعتقدوا إباحة المحظورات كلها ، وعدوا ببيها ماتهم السخيفة ، وتحيلاتهم الضعيفة ، كل وأهى العقيد منحلاها ، وأدعوا أنهم من الملة وأعمالهم تقضى بأنهم ليسوا من أهلها ، فليبحث عن ذلك الصنف الأول وهذا الثان ، فذهبنا أن نظهر دين الله مما لصق به من الأدران ؛ وأن نعيده إلى ما كان عليه قبل والله المستعان .

ومن الوظائف التي يجب أن تعتنوا بها غاية الأعتناء ، وأن تقدموا النظر فيها على سائر الأشياء ، أمر أسواق المسلمين فقد اتصل بنا ما تطرق للتجارات من مساحات تعنى عليها الخدع ، ولا يثرها إلا الحرص والطمع ، ولا توافي الشرع ولا يطابقها الورع ، حتى شاب أكثر المعاملات الفساد ، ولا يجري على القانون الشرعي في كثير من المبيعات الإنعقاد ، وتصدى المتحيلون فيها لحيل يقصدونها ، وأنواع لاجتلاب السحت يرصدونها ، وربما ورد التاجر من القطر الشاسع ، وحسن الظن بالمشتري منه أو البائع ، فيبلغ في خدعته ، والإضرار به في ساعته ، أسوأ المبالغ ، ويرتكب من محرم الخلالة ما ليس بالسائغ ، وسمع من ذلك أن من لا يتيق الله تعالى يلايس الربا في تجارته ، ويبنى عليه جميع إدارته ، وحفظ المكاسب من الخباياث أو جب الواجبات ، والحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات ، ويحق الله الربا ويربي الصدقات ، فلتنلوا الأمانة المعروفين بالديانة ، المشهورين بالأمانة ، تفقد هذه الأسواق ، وليخص كل أمين من تشتمل عليه سوقه من التجار ، وليعرف المختار منهم من غير المختار ، ومن لا يصلح للتجارة في سوق المسلمين يقام منها على أسوأ حال ، ومن عثر منهم على ربا في معاملته عاجلتموه بأشد العقاب وأسوأ النكال ، فخلصوا المتاجر من الشوائب ، ومرضوهم بأن يسيروا في بيعهم وشراءهم وأقتضائهم على

أجل المذاهب ، وأن يُحَدِّرُوا الغِشَّ فقد قال عليه السلام : «مَنْ غَشَّنا فَلَيْسَ مِنَّا»
والإكتفاء من الإيمان من أعظم المصائب ، وإذا اعتبرت في المبايعات الوجوه
الشرعية وحُظت الأحكام زكى الله عمل التاجر ، وبورك له فيما يُدير من المتاجر .
ثم لتوصوا كل من تقدّمونه لشغل من الأشغال أن يبدأ بصلاح نفسه قبل سواها ،
وأن يلتزم الأعمال التي يُؤثرها الله تعالى ويرضاها ، وحدّروهم كلّ الحذر أن تقفوا لهم
على ما يشين ، أو تسمعوا لهم قبيحا يُخني أو يبين ، فمن سمعتم عنه أدنى سبب من هذا
فعاجلوه بالعقاب الشديد ، والنكال المبيد ، إن شاء الله تعالى والسلام .

قلت : وعلى هذه المعاني والأمور المأمور بها في هذا الكتاب قد كانت الخلفاء
تكتب بها في المكتبات على أنحاء متفرقة على ما تقدّم في مقاصد المكتبات من
المقالة الرابعة ، وكانوا يؤلون على الصلاة والمساجد من يقوم بأمرها على ما تقدّم ،
وإن أكثر هذه الأمور الآن مضمّنة في توابع أصحاب الحسبة على ما تقدّم ذكره
في الكلام على الولايات في المقالة الخامسة وبالله التوفيق .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة السادسة

(فيما يكتب من ذلك في زماننا)

وهو قليل : لقلة الاعتناء بأمر الدين والأكتفاء في ذلك بالتفويض إلى متولّي
الحسبة ، إلا أنه رُبما كُتب في ذلك في الأمور المهمة عند تعدّي الطور في أمر
من الأمور الدينية ، والخروج فيه عن الحدّ .

ثم هو على ضربين :

الضرب الأول

(ما يُكْتَبُ عن الأبواب السلطانية)

وهذه نسخة توقيع شريف من هذا النوع كُتِبَ به في الأيام أن لا يباع
على أهل الذمة رقيقٌ حين كثر شراء أهل الذمة من اليهود والنصارى العبيد والحواري
(١)
وتهويدهم وتصيرهم .

(١) لم يذكر نسخة التوقيع بل كتب بهامش غير نسخة مانصه "بياض مقدار ورقة".

الضرب الثاني

(مما يُكتب في الأوامر والنواهي الدينية - ما يُكتب

عن نواب السلطنة بالمالك)

وهذه نسخة توقيع كريم بمنع أهل صيدا وبيروت وأعمالها من اعتقاد الرافضة
والشيعة وردعهم ، والرُّجوع إلى السنّة والجماعة ، واعتقاد مذهب أهل الحق ، ومنع
أكابرهم من العقود الفاسدة والأنكحة الباطلة ، والتعرّض إلى أحد من الصحابة
رضوان الله عليهم أجمعين ؛ وأن لا يدعوا سلوك [طريق] أهل السنة الواضحة ،
ويمشوا في شرك أهل الشك والضلال ، وأن كل من تظاهر بشيء من يدعهم قوبل
بأشدّ عذاب وأتمّ نكال ، وليُخمد نيران يدعهم المذمّمة ، وليُبادر إلى حسم فسادهم
بكل همّة ، وتصريفهم عن ^(١) اعتبره ، وتطهير بواطنهم من ردّالة اعتقادهم
الباطل إلى أن يُعانوا جميعهم بالترضى عن العشرة . وليحفظ أنسابهم بالعقود
الصحيحة ، وليُداوموا على اعتقاد الحق والعمل بالسنّة الصريحة . في خامس عشرين ^(٢)
جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعائة ، وهي :

الحمد لله الذى شرع الحدود والأحكام ، وجَدَعَ بالحق لأنوف العوامّ الأغمّام
الطغام ، وجمع الصّلاح والنّجاح والفلاح فى الأخذ بسنّة خير الخلق وسيد الأنام ،
وقَعَ الزائعين عمّا عليه أهل السنة من الحق فى كلّ نقض وإبرام .

نحمده على نعمه الحسام ، ومننه التى تؤمض بروقها ونشام ، وآلائه التى لا تُسأم
ولا تُسأم ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ليس لمن تمسك

(١) بياض فى الأصل ولعله « عن التهوك فى مهالك أهوائهم إلى مانص عليه الشرع واعتبره » .

(٢) كذا فى الأصل باثبات النون ونقل الصبان عن ابن هشام تلحين الكتاب فيه .

بِعُرْوَتِهَا الْوُثْقَى أَنْفِصَالٌ وَلَا أَنْفِصَامٌ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الدَّاعِي إِلَى الْمَلِكِ الْعَلَّامِ، وَالْهَادِي إِلَى الْحَقِّ بِوَأَضْحِ الْإِرْشَادِ وَالْإِعْلَامِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ هُمْ أُمَّةُ الْإِسْلَامِ، وَهُدَاةُ الْخَلْقِ إِلَى دَارِ السَّلَامِ؛ خُصُوصًا أَبَا بَكْرَ الصِّدِّيقَ الَّذِي سَبَقَ النَّاسَ بِمَا وَقَّرَ فِي صَدْرِهِ لَا بِبَزِيَّةِ صَلَاةٍ وَلَا بِبَزِيدِ صِيَامٍ، وَعُمَرَ بْنَ الْخَطَّابَ الَّذِي كَانَ لَهُ فِي إِقَامَةِ الْحَقِّ أَعْظَمُ مَقَامٍ، وَمَنْ أَهْلَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ آتِقَاءً وَأَنْتِقَامٍ، وَعُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ الَّذِي جَمَعَ الْقُرْآنَ فَخَصَّلَ لَشَمْلِ سُورِهِ وَأَيَاتِهِ بِمَا فَعَلَ أَحْسَنُ التَّنْظِيمِ، وَأَنْفَقَ مَالَهُ مُحْتَسِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فَحَازَ مِنَ الثَّوَابِ رَتْبَةً لَا تُرَامُ، وَعَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ صَهْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَبْنَ عَمِّهِ وَوَارَثَ عِلْمَهُ اللَّهَامَ، وَالْمُجَادِلَ عَنِ دِينِهِ بِالْعِلْمِ وَالْمُجَاهِدَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحُسَامِ، وَالْبَاقِينَ مِنَ الْعَشْرَةِ الْكِرَامِ، صَلَاةً تُسْتَمَدُّ بِرَكَاتِهَا وَتُسْتَدَامُ، وَيَتَمُّوْ فُضْلُهَا بِغَيْرِ أَنْقِضَاءٍ وَلَا أَنْصِرَامٍ .

وَبَعْدَ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَعَثَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشَرَعِهِ الَّذِي آرْتِضَاهُ، وَدِينِهِ الَّذِي قَضَاهُ، وَحُكْمَهُ الَّذِي أُبْرَمَهُ وَأَمْضَاهُ؛ فَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ، وَأَوْضَحَ الدَّلَالَهَ، وَأَفْصَحَ الْمَقَالَهَ؛ وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ طَوَائِفَ الْأَعْدَاءِ، وَأَمَالَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى قَبُولِ قَوْلِهِ وَتَصْدِيقِهِ مِنْ سَبَقَتْ لَهُ الْعِنَايَةُ مِنَ الْأَوْدَاءِ؛ وَنَصَرَهُ عَلَى مُخَالَفَتِهِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَالْحَاسِدِينَ حَتَّى مَاتَ كُلُّ مَنْهُمْ بِمَا فِي نَفْسِهِ مِنَ الدَّاءِ؛ وَبَيَّنَّ الطَّرِيقَ، وَبَرَهَنَ عَلَى التَّحْقِيقِ، فَأَعْلَنَ النَّذَارَةَ وَالْبِشَارَةَ، وَمَهَّدَ قَوَاعِدَ الدِّينِ تَارَةً بِالنَّصِّ وَتَارَةً بِالْإِشَارَةِ؛ وَتَمَّ الدِّينُ بِأَحْكَامِ أَحْكَامِهِ، وَشُدِّدَتْ قَوَاعِدُهُ بِإِعْلَانِهِ؛ وَعَمَّتِ الدَّعْوَةُ وَتَمَّتْ، وَفَشَّتِ الْهُدَايَةُ وَتَمَّتْ؛ وَدَخَلَ النَّاسُ فِي الدِّينِ أَرْسَالًا، وَبَلَّغَتْ نَفُوسُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ إِعْلَاءِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ آمَالًا، وَأَصْبَحَتْ الْخَيْرَاتُ وَالْبَرَكَاتُ تَتَوَاتَرُ وَتَتَوَالَى، وَنَحَمَدُ نَارَ الشَّرْكِ وَطَفَفَتْ مَصَابِيحُ الضَّلَالَةِ وَوَحَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

فلما تكامل ما أراد الله تعالى إظهاره في زمانه، وتم ماشاء إبرازه في إبانته، وأعلنت الهداية، ومحيت الغواية، وقام عمود الدين، ودحضت حجة الملحدين، وأستوسق أمر الإسلام، وأستتب، وتبت يدا مناويه وتب - أختار الله تعالى لتبنيه صلى الله عليه وسلم جواره وقربه، فقضى تحبه ولقي ربه، فقام خلفاؤه بعده بأثاره يقتدون، وبهديه وإرشاده يهتدون، ولأحكامه يتبعون، ولأوامره يستمعون، ولإماني ماجاء به يعون، وإلى قضاياه يرجعون، لا يغيرون ولا يبدلون، ولا يتعرضون ولا يتأولون، فقضى على ذلك الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديون، لم يتبع أحد منهم في زمانهم عقيدة فاسده، ولم يظهر أحد مقالة عن سواء السبيل حائده، ثم تفرقت الآراء، وتعددت الأهواء، وأختلفت العقائد، وتباينت المقاصد، ووهت القواعد، وتصادمت الشواهد، وتفرقت الناس إلى مقتز بالحق وجاحد، وظهرت البدع في المقالات، وضل كثير في كثير من الحالات، وتهاقت غالبهم في الضلالات، وقال كل قوم مقالة تضمنت أنواعا من الجهالات، وكان من أضعفهم عقلا، وأضعفهم نقلا، وأوهنهم حجة، وأبعدهم من الرشد محجة، طائفة الراضية والشيعة، لأرتكابهم أمورا شنيعة، وإظهارهم كل مقالة فظيعة، وخرقهم الإجماع، وجمعهم قبيح الابتداع، فتنبدوا فرقا، وسلكوا من فواحش الاعتقادات طرقا، وتنوع ناسهم، وتعددت أجناسهم، وتجرعوا على تبديل قواعد الدين، وأقدموا على نبذ أقوال الأئمة المرشدين، وقالوا ما لم يسبقوا إليه، وأعظموا الفرية فيما حملوا كلام الله ورسوله عليه السلام عليه، وبأوا بإثم كبير وزور عظيم، وعرجوا عن سواء السبيل نخرجوا عن الصراط المستقيم، وفأهرا بما لم يفه به قبلهم عاقل، وأنتحلوا مذاهب لا يساعدهم عليها نقل ناقل، وتحيلوا أسياء فاسدة حالهم فيما تحيلها أسوأ من حال باقل، وتمسكوا بأثار

موضوعه، وحكاياتٍ إلى غير التّقات مرفوعه؛ يُنقل عن أحدهم ما ينقله عن مجهول غير معروف، أو عن هو بالكذب والتدليس مشهور وموصوف؛ فأذاهم ذلك إلى القول بأشياء - منها ما يوجب الكفر الصّراح، ويبيح القتل الذي لاجح على فاعله ولا جناح - ومنها ما يقتضى الفسق إجماعاً، ويقطع من المتّصف به عن العدالة أطعاماً - ومنها ما يوجب عظيم الزجر والنكال - ومنها ما يقضى بقائه إلى الويل والوبال. لعب الشيطان بعقولهم فأغواهم، وصمّمهم إلى حربه وآوهم، ووعدهم غرورا ومنّاهم، وتمنّوا مغالبة أهل الحق فلم يبلغوا منهاهم؛ مرقوا من الدين، وخرقوا إجماع المسلمين، وأستحلّوا المحارم، وآرتكبوا العظائم، وأكتسبوا الجرائم؛ وعدلوا عن سواء السبيل، وتبوّءوا من غضب الله شرّاً مقيلاً. مذهبهم أضعف المذاهب، وعقيدتهم مخالفة للحق الغالب؛ وآراؤهم فاسده، وقرائحهم جامده، والتقول والعقول بتكذيب دعاويهم شاهده؛ لا يرجعون في مقاتلهم إلى أدلّة سليمة، ولا يرجعون في استدلالهم على طريق مستقيمة؛ يعارضون النصوص القاطعة، ويضطلون القواعد لمجرد المنازعة والمدافعة، ويفسّرون كلام الله تعالى بخلاف مراده منه، ويتجرّون على تأويله بما لم يرده الله ولم يرده عنه؛ فهم أعظم الأمة جهالة، وأشدهم غواية وضلالة؛ ليس لهم فيما يدعونه مستند صحيح، ولا فيما ينقلونه نقل صريح.

فلذلك كانوا أقلّ رتبةً في المناظره، وأسوأ الأمة حالاً في الدنيا والآخرة؛ وأحققراً قدرًا من الاحتجاج عليهم، وأقلّ وضعا من توجيه البحث إليهم؛ أكابرهم مخلطون، وأصاغرهم مثلهم ومعظمهم محبّطون؛ بل كلهم ليس لأحد [منهم] حظ في الجدل، ولا قدم في صحة الاستدلال؛ ولو طُلب أحد منهم بصحة دعواه لم يجد عليها دليلاً؛ ولو حُقق عليه بحث لم يلق إلى الخلاص سبيلاً؛ غاية متكلّمهم أن يروى عن منكر من الرجال مجهول، ونهاية متعلّمهم أن يُورد حديثاً هو عند العلماء موضوع أو معلول؛ يطعنون

في أئمة الإسلام، ويسبون أصحاب النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، ويدعون
 أنهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو برىء منهم، منزه
 عما يصدر عنهم، فقد رُفِعَ عند الله والناس، ومحلُّه أعلى بالنص والقياس، ويجرم
 أن يُنسب إليه الرضا بهذه العقائد، أو التقرير لهذه المفاسد، فإن طريقته هي المنفى،
 وسيرته هي العُليا، فالأخذ بالحق إليه يُسول، والصواب معه حيث يفعل أو يقول،
 ولا يصحُّ نقلُ شيء من هذا عنه، ولا يحلُّ نسبةُ شيء إليه منه، ومنصبه أجلُّ من
 ذلك، ومكانه أعزُّ مما هُناك، غير أن هؤلاء يعرض لأحدهم في دينه شبهة، يقلد
 فيها مثله في الضلالة وشبهه، ويتردد في نفسه من التعمُّ برهته لا يجد الخلاصه منها
 وجهه، ولا يوجه قلبه إلى طلب النجاة منها وجهه، ولا يقع نظر بصيرته على طريق
 الصواب ولا يحقق كنهه، فيرتكب خطرا يُوجب توبيخه في القيامة وجهه، وتسوُّد
 في الموقف ناصية منه وجهه، ويعتمد لتحصيره في الضلال عقله وفهمه وفقهه،
 قد صرَّفوا إلى الطعن في العساء، ومخالفة رب الأرض والسماء، همهم وهمهم،
 واقتروا على الله كذبا فدَمَّهم وأباح دمَّهم، وقال لسان حال أمرهم أرا قدمهم أراق
 دمَّهم، وهان دمَّهم فما ندَمَّهم .

وقد بلغنا أن جماعة من أهل بيروت وضواحيها، وصيدا ونواحيها، وأعمالها
 المضافة إليها، وجهاتها المحسوبة عليها، ومن أرا ع كل من الجهتين وضياعتها، وأصقاعها
 وبقاعها، قد انتحلوا هذا المذهب الباطل وأظهروه، وعملوا به وقزروه، وبثوه
 في العامة ونشروه، واتخذوه ديناً يعتقدونه، وشرعاً يعتمدونه، وسلكوا منهاجه،
 وخاضوا لحاجه، وأصلوه وفرعوه، وتدينوا به وشرعوه، وحصلوه وفصلوه، وبلغوه
 إلى نفوس أتباعهم ووصلوه، وعظَّموا أحكامه، وقدموا حكمه، وتمموا تجيله
 وإعظامه، فهم باطله عاملون، وبمقتضاه يتعاملون، ولأعلام عليه حاملون، وللفساد

قائلون، وبغير السداد قائلون، وبحرم حرامه عائذون، وبجحى حمايته لائذون، وبكعبة ضلاله طائفون، وبسدة شدته عاكفون. وإنهم يسبون خير الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلون دم أهل السنة من المسلمين، ويستبيحون نكاح المتعة ويرتكبونه، ويأكلون مال مخالفيهم ويتهبونه، ويجمعون بين الأختين في النكاح، ويتدينون بالكفر الصراح، إلى غير ذلك من فروع هذا الأصل الخبيث، والمذهب الذى ساوى في البطلان مذهب التثليث - فأكرنا ذلك غاية الإنكار، وأكبرنا وقوعه أشد إكبار، وغضبنا لله تعالى أن يكون في هذه الدولة للكفر إذاعه، وللعصية إشادة وإشاعة، ولطاعة إخافة وإضاعة، وللإيمان أزجى بضاعة، وأردنا أن نجهز طائفة من عسكر الإسلام، وفرقة من جند الإمام، تستأصل شأفة هذه العصبة الملعونة، وتطهر الأرض من رجس هذه المفسدة، ثم رأينا أن نقدم الإنذار، ونسبق إليهم بالإعذار، فكتبنا هذا الكتاب، ووجهنا هذا الخطاب، ليقرا على كافةهم، ويبلغ إلى خاصتهم وعامتهم، يعلمهم أن هذه الأمور التى فعلوها، والمذاهب التى اتحلوها، تبيح دماءهم وأموالهم، وتمتضى تعميمهم بالعذاب واستئصالهم، فإن من استحل ما حرم الله تعالى وعرف كونه من الدين ضرورة فقد كفر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَأَفَ﴾ عطفًا على ما حكم بتحريره، وأطلق النص فتعين حمله على تعميمه، وقد آنقذ على ذلك الإجماع، وأنقطعت عن مخالفته الأطلاع، ومخالفة الإجماع حرام بقول من لم يزل سميعا بصيرا ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. ونكاح المتعة منسوخ، وعقده في نفس الأمر منسوخ، ومن ارتكبه بعد علمه بتحريره واشتباره، فقد خرج عن الدين برده الحق وإنكاره، وفاعله ان لم يتب فهو مقتول، وعذره فيما يأتيه من ذلك غير مقبول. وسب الصحابة رضوان الله عليهم

مخالف لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم من تعظيمهم ، ومنايذ لتصريحه
 باحترامهم وتبجيلهم ، ومخالفته عليه السلام فيما شرعه من الأحكام ، موجبة للكفر
 عند كل قائل وإمام ، ومُرتكب ذلك على العقوبة سائر ، وإلى الجحيم صائر . ومن
 قذف عائشة أم المؤمنين رضی الله عنها بعد ما برأها الله تعالى فقد خالف كتابه العظيم ،
 واستحق من الله النكال البليغ والعذاب الأليم ، وعلى ذلك قامت واضحات الدلائل ،
 وبه أخذ الأواخر والأوائل ، وهو المنهج القويم ، والصرط المستقيم ، وماعدا ذلك
 فهو مردود ، ومن الملة غير معدود ، وحادث في الدين ، وباعث من المُلحدین ،
 وقد قال الصادق في كل مقالته ، والموضح في كل دلاله ، « كلُّ مُحَدِّثَةٍ بِدْعَةٍ وَكُلُّ بَدْعَةٍ
 ضَلَالَةٌ » . فتوبوا إلى الله جميعا ، وعودوا إلى الجماعة سريعا ، وفارقوا مذهب أهل
 الضلالة ، وجانبوا عصبية الجهالة ، واسمعوا مقالة الناصح لكم في دينكم وعوا ، وعن
 النبي ارجعوا ، وإلى الرِّشادِ ارجعوا ، وإلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات
 والأرضِ ااتباع السنة بادروا وسارعوا . ومن كان عنده امرأةً بنكاح متعة فلا يقربها ،
 ويحذر من غشيانها وليتجنبها . ومن نكح أختين في عقدين فليفارق الثانية منهما فإن
 عقدها هو الباطل ، وإن كانتا في عقد واحد فليخرجهما معا عن حبالته ولا يماطل ،
 فإن عذاب الله شديد ، ونكال المجرم في الحميم كل يوم يزيد ، ودار غضب الله تُنادى
 بأعدائه هل من مزيد ، فلا طاقة لكم بعذابه ، ولا قدرة على أليم عقابه ، ولا مفر
 للظالم منه ولا خلاص ، ولا ملجأ ولا مناص . فريح الله تعالى أمراً نظراً لنفسه ،
 واستعداً لرأسه ، ومهداً لمصرعه ، ووطاً لمضجعه ، قبل فوات القوت ، وهجوم
 الموت ، وانقطاع الصوت ، واعتقال اللسان ، وانتقال الإنسان ؛ قبل أن تُبدل
 التوبة ولا تُقبِل ، وتُدري الدموع تُسبَل ، وتنقضي الآجال وينقطع الأمل ،
 ويمتنع العمل ، وترهق من العبد نفسه ، ويضمه رأسه ، ويرد على ربه وهو عليه

غَضَبَانِ، وَإِنَّ سُخْطَهُ عَلَيْهِ بِمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ قَدْ بَانَ، وَلَا يَنْفَعُهُ حَيْثُذِ النَّدَمِ، وَلَا تُقَالُ عَثْرَتُهُ إِذَا زَلَّتْ بِهِ الْقَدَمُ، وَقَدْ أَعْدَرَ مِنْ أُنْدَرٍ، وَأَنْصَفَ مِنْ حَدَّرٍ، فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا سَيَغْلِبُونَ، وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مَنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ، أَلْهَمْنَا اللَّهَ وَإِيَّاكُمْ رُشْدَنَا، وَوَفَّقَ إِلَى مَرَاضِيهِ قُصْدَنَا، وَجَمَعَنَا وَإِيَّاكُمْ عَلَى الطَّاعَةِ، وَأَعَانَنَا جَمِيعًا عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ ! .



وهذه نسخة مرسوم كتب به عن نائب المملكة الطرابلسية إلى نائب حصن الأكراد، بإبطال ما أُحْدِثَ بِالْحِصْنِ : من الخمار، والفواحش، وإلزام أهل الذمة بما أُجْرِيَ عَلَيْهِمْ أَحْكَامُهُ من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه - في أواخر جمادى الأولى سنة خمس وستين وسبعائة، وهو :

المرسومُ بالأمرِ العالى - لازل قصده الشريفُ المناصرةَ على تغيير المنكر، وشدَّ أزر المنكر، مشمراً فى إراحة القلوب بإزاحة مواطن الفواحش : من سَفَاحٍ ومُخَدَّرٍ ومَيْسِرٍ ومُسْكَرٍ - أن يتقدّم الجنبُ الكريمُ باستمرار ما وُفِّقْنَا اللَّهُ تَعَالَى لَهُ وَرَسَمْنَا بِهِ، وَأَعْطَيْنَاهُ دُسْتُورًا يَجِدُهُ مِنْ عَمَلٍ بِهِ يَوْمَ حِسَابِهِ : من إبطال الخمار، وهدم مبانيها بحيث لا يبقى للنفس الأمانة عليها أماره، وإخفاء معالمها التى توطنها الشيطانُ فقطن، وإزالة ما بها من الفواحش التى ما ظهر منها أقلُّ مما بطن، وإخلاء تلك البلاد من هذا الفساد الموجب لكثرة المحن والاختلاف وإراقة ما بها من الخمر، التى هى رأس الإثم والشُرور، وإحراق كل مُخَدَّرٍ مذموم فى الشرع مُخَدَّرٍ، وإذهاب اسم الخانة بالكلية بحيث لا يتلفظ به مسلمٌ ولا كافرٌ، ولا يُطَمَعُ نَفْسُهُ فى الترتيب عليها من هو على نخزيه وبقية مظافر . وقد غيرنا هذا المنكر بيد أطل الله بفضله فى الخير بأعماها، وغنمنا إزالة هذه المفسدة فأحرزنا برها وأصطناعها، خوفاً من وعيد

قوله تعالى: ﴿ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ورجاء أن نكون من المراد بقوله تعالى: ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ وعملاً بقوله عليه السلام: « مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ » . وعلمنا بأن أمير الرعية إذا لم يزل المنكر من بينهم فكيف يفلح في يومه وحال السؤال عنهم في غده .

وقد صار حصن الأكراد بهذه الحسنة في الحصن المتبع ، وأهله المتمسكون بالعروة الوثقى في مريع خصيب مريع ، وضواحيه مطهرة من خبث السفاح ونجاسة الخمر ، ونواحيه كثيرة الشرور قليلة الشرور ، قد أعلى الله تعالى به كلمته ، وأجاب لصغيره وكبيره في هذا الأمر دعوته ، وما ذلك إلا بتوفيق من أهلكنا لذلك ، وألهمنا رشدنا وطهرنا من هذه المفسدات تلك المسالك ، وله الحمد على ما وفق إليه ، وأعان عبده في ولايته عليه ، فإن المنكر إذا فشا ولم ينكر آن نحراب الديار ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إِنَّ اللَّهَ لَيَغَارُ » ، فعند ذلك تمنع السماء درها ، وتمسك الأرض بذرها ، ويحرف الضرع ، ويبيس الزرع ، وتعطش الأجداد ، وتهلك البلاد .

فليست الحناب الكريم يده في إزالة ما بقي من منكر ، متفقدا لجليسه وحقيره بالفحص الشديد وما على ذلك يحمد بكل لسان ويُسكّر ، مترقبا من يدخل البلد ذلك ليقابله بالضرب بالسياط ، أخذًا في تتبع حلاله بالحزم والتحرّي والاحتياط ، إلى أن تصل بنا أخباره ، ويعلّو لدينا في سياسته ونهضته مناره ، ونحمد عندنا لإيأته وآثاره ، وهو بحمد الله كما نعهد شديد على كل مُفسد ومعاند ، سيدي الآثار والآثار والمقاصد .

وأما أهل الذمة فما رُفع عنهم السيف إلا باعطاء الجزية والتزام الأحكام ، وأخذ عهود أكيدة عليهم من أهل النقص والإبرام .

فلتقدم الجنبُ الكريمُ بِلِزَامِهِمْ بما أَلَزَمَهُمْ بهِ الفَارُوقُ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَلِيَلْجِئَهُمْ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِمْ إِلَى مَا أَلْهَاهُمْ إِلَيْهِ : مِنْ إِظْهَارِ الذَّلَّةِ وَالصَّغَارِ ، وَتَغْيِيرِ النَّعْلِ وَشَدِّ الزُّنَّارِ، وَتَعْرِيفِ الْمَرْأَةِ بِصَبْغِ الْإِزَارِ، وَلِيَمْنَعُوا مِنْ إِظْهَارِ الْمُنْكَرِ وَالنَّجْمِ وَالنَّاقُوسِ وَلِيَجْعَلَ الْخَلَاتِمَ أَوْ الْحَدِيدَ فِي رِقَابِهِمْ عِنْدَ التَّجَرُّدِ فِي الْحَمَامِ، وَلِيَلْزَمُوا بِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأَحْكَامِ الَّتِي وَرَدَ بِهَا الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ مِنْ مُدَّةِ أَيَّامٍ، وَمَنْ لَمْ يَلْتَمِمْ مِنْهُمْ بِذَلِكَ وَأَمْتَنَعَ، وَأَعْلَنَ بِكُفْرِهِ وَأَعْلَى كَلِمَتَهُ وَرَفَعَ، فَهَلْ حَكَمَ إِلَّا السَّيْفَ، وَغَنَمَ أَمْوَالَهُ وَسَبَى ذُرَارِيَهُ وَمَا فِي ذَلِكَ عَلَى مِثْلِهِ حَيْفٌ، فَهَاتَانِ مَفْسَدَتَانِ أَمْرُنَا بِالزَّمَامِهِمَا فِرَارًا مِنْ سُخْطِ اللَّهِ تَعَالَى وَحِدَارًا، إِحْدَاهُمَا إِبْطَالُ الْحَانَةِ وَالثَّانِيَةُ إِخْفَاءُ كَلِمَةِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى .

فلتقدم الجنبُ المشارُ إليه باستمرار ما رَسَمْنَا بِهِ فَهُوَ الْحَقُّ الَّذِي لَا شَكَّ فِيهِ ، وَالنُّورُ الَّذِي يَتَّبِعُهُ الْمُؤْمِنُ وَيُحْكِيهِ ، وَنَرْجُو مِنْ كَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى اسْتِمْرَارَ هَذِهِ الْحَسَنَةِ مَدَى الْأَزْمَانِ، وَأَسْتِمَارَ شَجَرِهَا الْمَائِدِ الْأَغْصَانِ ، وَإِبْطَالَ هَذَا الْحُزْنَ الْمَسْمُومِ ظَلَمًا بِالْفَرَحِ، وَإِعْمَالَ السَّيْفِ فِي عُنُقِ مَنْ آرْتَضَاهُ بَيْنَ أَظْهَرِ الْمُسْلِمِينَ فَانْتَهَكَ سِرَّهُ وَأَفْتَضَحَ .

وَلِيَقْمَعَ أَهْلَ الشَّرْكِ وَالضَّلَالِ ، بِمَا يَلْزِمُ الصَّغَارَ عَلَيْهِمُ وَالْإِذْلَالَ ، إِلَى أَنْ لَا يُرْفَعَ لَهُمْ رَاسٌ ، وَلَا يُسَيِّدُوا كَيْدًا إِلَّا عَلَى غَيْرِ أَسَاسٍ ، وَلِيَسْتَجْلِبَ الْجَنْبُ الْكَرِيمُ هَذِهِ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ وَلِنَا الدَّعَاءَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَالْفُقَرَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَالْمَسَاكِينَ ، وَلِيُطَبِّبَ قُلُوبَهُمْ بِاسْتِمْرَارِ مَا أَرْزَلْنَاهُ ، وَمَحْوُنَا آثَارَهُ وَأَبْطَلْنَاهُ ، وَقَصْدُنَا بِإِبْطَالِهِ مِنْ تِلْكَ الْأَرْضِ ، مَسَاحَةً مِنَ الْحَكْمِ الْعَدْلِ يَوْمَ الْعَرَضِ ؛ وَمَنْ أَعَادَ مَا أَبْطَلْنَاهُ أَوْ أَعَانَ عَلَى إِعَادَتِهِ ، أَوْ أَمَرَ بِتَشْيِيدِهِ وَبِنَاءِ حِجَارَتِهِ ، أَوْ رَبَّ مَرْتَبًا عَلَى خِذْرِ بَغْيٍ وَمَوَّهٍ وَدَلَّسَ بِالْأَفْرَاحِ ، أَوْ أَطْلَقَ أَنْ يُبَاعَ مُشْرَكَ أَوْ سَوَّلَ لَهُ شَيْطَانُهُ أَنَّهُ مِنَ الْأَرْبَاحِ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحَاكِمُهُ وَهُوَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ؛ وَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ .

الباب الثاني

فيما يكتب في المسامحات والإطلاقات، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما يكتب في المسامحات

والمسامحات جمع مُسَامِحَة، وهي [الجُودُ والمُوافَقَةُ على ما أُريد منه] . والمزاد
المسامحة بما جرت به عادة الدواوين السلطانية : من المقررات واللوازم السلطانية،
وهي على ضربين :

الضرب الأول

(ما يُكْتَب من الأبواب السلطانية)

وقد جرت العادة أنّ السلطان إذا سمح بترك شيء من ذلك كُتِب به مرسومٌ
شريف وشملته العلامة الشريفة، وهو على مرتبتين :

المرتبة الأولى - المسامحات العظام .

وقد جرت العادة أن تُكْتَب في قطع الثلث مفتوحةً بـ «الحمد لله» .

وصورتها أن يُكْتَب في أعلى الدرَج بوسَطِهِ الأسمُ الشريف كما في مراسيم
الولايات، ثم يكتب من أول عَرْض الورق إلى آخره «مرسومٌ شريفٌ أن يُسَاحَ
بالجهة الفلانية وإبطال المكوس بها، أو أن يساح بالباقي بالجهة الفلانية، أو أن
يُسَاح أهل الناحية الفلانية بكذا وكذا، ابتغاءً لوجه الله تعالى، ورجاءً لنواله الجسيم

(١) بياض في الأصل والتصحيح من المصباح .

على ما شرح فيه» ثم يترك وصلان بياضاً غير وصل الطُرة، ويكتب في أول الوصل الثالث البسمة، ثم الخطبة بالحمد لله إلى آخرها، ثم يقال: وبعد، ويؤتى بمقدمة المسامحة: من شكر النعمة، والتوفيق بحققها ومقابلتها بالإحسان إلى الخلق، وعمل مصالح الرعية وعمارة البلاد، وما ينخرط في هذا السلك، ثم يقال: ولذلك لما كان كذا وكذا اقتضت آراؤنا الشريفة أن يُسأخ بكذا، ثم يقال: فرُسم بالأمر الشريف أن يكون الأمر على كذا وكذا، ثم يقال: فلتستقر هذه المسامحة ويؤتى فيها بما يناسب، ثم يقال: وسبيل كل واقف على هذا المرسوم الشريف العمل بمضمونه أو بمقتضاه، ويحتم بالدعاء بما يناسب.



وهذه نسخة مرسوم بمسامحة بواقى دمشق وأعمالها، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمه الله تعالى، وهي:

الحمد لله الرؤوف بخلق، المتجاوز لعباده عما قصرُوا فيه من حقه، المسامح لبريته بما أهملوه من شكر ما بسط لهم من رزقه، جاعل دولتنا القاهرة مطمع كرم، تُجتلى أنوار البر في البرايا من أفقه، ومنشأ ديم، تُجتلب أنوار الرقى بالريايا من برقه، ومضمار جود يحتوى على المعروف من جميع جهاته ويشتمل على الإحسان من سائر طرقه، فلا يرتهى إليه الآمال إلا ولكرنا إليه منية سبقة، ولا أجزيتوجه إليه وجه الأمانى إلا تلقته نعمنا بمتهلل وجه الإحسان طلقه، ولا معروف يُجذب منه أرجاء الرجاء إلا واستهلت عليه الأؤنا من صوب ربنا المألوف لآلى ودقه.

نحمده على نعمه التي عمّت الرعايا بتوالي الإحسان إليهم، وأنامتهم في مهاد الأمن بما وضعت عنهم مسامحتنا من إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، وأنالتهم ما لم

تَطْمَحْ آمَانُهُمْ إِلَيْهِ : من رَفَعَ الطَّلَبَ عن بواقِ أموالِ أَخْرَوْهَا وراءَ ظُهُورِهِمْ وَكَانَتْ كالأَعْمَالِ المَقْدَمَةِ بَيْنَ يَدَيْهِمْ .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبعث على نشر رحمته ، التي وسعت كل شيء في عبادته ، وتحت على بث نعمته ، التي عمّرت كل حي على اجتماعه وسعت إلى كل حي على انفراديه ، وتخص على ما ألهنا من رافية بمن نابله بتوحيده وشدته على من جاهره بعناده .

ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أسكت ألسنة الشرك وأخرسها ، وعفى معالم العُدوان وطمسها ، وأثل قواعد الدين على أركان الهدى وأسسها ، وأوضح سبيل الخيرات لسالكها فإذا سعدت بالملوك رعاياها فإنما أسعدت الملوك بذلك في نفس الأمر أنفسها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين شفقوا العدل بالإحسان ، وجمعوا بين ملك الدنيا والآخرة بإحياء السنن الحسان ، وزرعوا الجهاد بالإيمان في كل قلب فأنمّر بالتوحيد من كل لسان ، صلاة جامعة أشتات المراد ، سامعة نداء أربابها يوم يقوم الأشهاد ، قامعة أرباب الشك فيها والإلحاد ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإننا لما آتانا الله من ملك الإسلام ، وخصنا به من الحكم العام ، في أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وأيدنا به من النصر على أعداء دينه ، وأمدنا به من تأييد تأييده ودوام تمكينه ، وجعل دولتنا مركزا مدار ملك الأمة الإسلامية عليه ، وقلكا مال أمور الأمة المحمدية في سائر الممالك على اختلافها إليه ، ورزقنا من النصر على أعدائه ما أعز المسلمين وأداهم ، وأذل المشركين وأذاهم ، وكف بالرعب أطعاهم ، وأعمى بما شاهدوه أبصارهم وأصم بما سمعوه أسماعهم ،

وحَصَرَهُم بِالْمَهَابَةِ فِي بِلَادِهِمْ ، وَأَيَّاسَهُمْ بِالْخَافَةِ مِنْ نَفْسِهِمْ قَبْلَ طَارِفِهِمْ وَتِلَادِهِمْ - لَمْ
نَزَلْ نَرْغَبُ فِي حَسَنَاتِ تُحَلَّى بِهَا أَيَّامُنَا ، وَقُرْبَاتِ تَجْرِي بِهَا أَقْلَامُنَا ، وَمَكْرَمَاتِ تَكْمَلُ
بِهَا عَوَارِفُنَا وَإِنْعَامُنَا ، وَمَا تَرِيحُلِدُّ بِهَا فِي الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ ذِكْرُنَا ، وَمَوَاهِبَ تُجْمَلُ
بِهَا بَيْنَ سِيرِ الْعَصُورِ الذَّاهِبَةِ سِيرَتُنَا الشَّرِيفَةَ وَعَصْرُنَا ، وَمَصَالِحَ يُصْرَفُ بِهَا إِلَى مَصَالِحِ
الْبِلَادِ وَالْعِبَادِ نَظَرْنَا الْجَمِيلِ وَفِكْرُنَا ، نُهُوضًا بِطَاعَةِ اللَّهِ فِيمَا أَلْقَى مَقَالِيدَهُ إِلَيْنَا ، وَأَدَاءً
لشُكْرِهِ فِيمَا أْتَمَّ بِهِ نِعْمَةَ الْعَمِيمَةِ عَلَيْنَا ، وَكَتْسَابًا لثَوَابِهِ فِيمَا نُقَدِّمُهُ مِنْ ذَخَائِرِ الطَّاعَاتِ
بَيْنَ يَدَيْنَا ، وَنَظَرًا فِي عِمَارَةِ الْبِلَادِ بِخِفَّةِ ظُهُورِ سَاكِنِيهَا ، وَإِطَابَةً لِقُلُوبِ الْعِبَادِ مِنْ
تَبَعَاتِ الْبَوَاقِي الَّتِي كَانَتْ تَمْنَعُهُمْ مِنْ عِمَارَةِ أَرْضِيهِمْ وَتُنْفِرُهُمْ مِنَ التَّوَطُّنِ فِيهَا ، وَرَغْبَةً
فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ، وَتَحَرُّيًا لِلْإِصَابَةِ وَجِهَ الْمَصْلَحَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ
فِي ذَلِكَ وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِلصَّوَابِ .

وَلِذَلِكَ لَمَّا آتَوْنَا بِنَا [أَنَّ] بَاقِيَ الْبِلَادِ الشَّامِيَّةِ مِنَ الْبَوَاقِي الَّتِي يُتَبَعُ أَلْسِنَةُ
الْأَقْلَامِ ، إِحْصَاؤُهَا ، وَيُثْقَلُ كَوَاهِلُ الْأَفْهَامِ ، تَعْدَادُ وَجُوهِهَا وَاسْتِقْصَاؤُهَا ، مِمَّا
لَا يُسْمَحُ بِمِثْلِهِ فِي سَالِفِ الدُّهُورِ ، وَلَا يَسْتَحُو بِهِ إِلَّا مَنْ يَرِغِبُ مِثْلُنَا فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ
أَجُورٍ لَا تُخْرِجُهُ عَنْ مَصَالِحِ الْجُمْهُورِ - اقْتَضَتْ آرَائُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ نُعْفِيَ مِنْهَا ذِمًّا
كَانَتْ فِي أَغْلَالِ إِسَارِهَا ، وَأَثْقَالِ انْكَسَارِهَا ، وَرَوْعَةِ اقْتِضَائِهَا ، وَلَوْعَةِ التَّرَدُّدِ بَيْنَ
إِنظَارِ الْمَطَالِبَةِ وَإِمضَائِهَا ؛ وَأَنْ نُعْتِقَ مِنْهَا نَفُوسًا كَانَتْ فِي سِيَاقِ مَسَاقِيهَا ، وَحِبَالِ
إِزْهَاقِهَا وَإِرْهَاقِهَا ، لِتَتَوَفَّرَ الْهَمَمُ عَلَى عِمَارَةِ الْبِلَادِ ، بِالْأَمْنِ عَلَى الطَّارِفِ وَالتَّلَادِ ،
وَتُجْمَعَ الْخَوَاطِرُ عَلَى حُسْنِ الْخَلْفِ ، بِمَا حَصَلَ لَهُمْ مِنَ الْمَسَاحَةِ عَمَّا عَلَيْهِمْ مِنْ ذَلِكَ
سَلَفٌ ، بِذِمِّ بَرِيَّةٍ مِنْ تِلْكَ الْأَنْفَسَالِ ، عَرِيَّةٍ عَنْ عَثَرَاتِ تِلْكَ الْبَوَاقِي الَّتِي مَا كَانَ
يُقَالُ لَهَا تُقَالُ .

فُرِسِمَ بالأمر الشريف - زاده الله تعالى علواً وتشريفًا، وأمضاه بما يعم الآمال
 رفقا بالرعايا وتخفيفًا، وأجراه من العدل والإحسان بما يعم البلاد، ويمجرب العباد،
 فإن الأرض يُحييها العدلُ ويعمرها الاقتصادُ على الاقتصاد - أن يسامح
 فليستقرَّ حكم هذه المسامحة استقراراً يَبْقَى رَسْمَهَا، ويحُو من تلك البواقي المسامحة
 رَسْمَهَا واسْمَهَا، ويضع عن كواهل الرعايا أعباءها، ويُسير بين البرايا أخبارها الحسنة
 وأنباءها، ويُسقط من جرائد الحساب تفاصيلها وجملها، ويحقق بتعفيته آثارها رجاء
 رعية بلادنا المحروسة وأملها .

فقد آبتغينا بالمسامحة بهذه الجمل الوافرة ثواب الله وما عند الله خير وأبقى ،
 وأعتقنا بها ذمم من كانت عليه من ملكة المال الذي كان له باستيلاء الطلب
 واستقراره مستترقًا، تقربا إلى الله تعالى لما فيه من إثارة التخفيف ، ووضع إضر
 التكليف ، وتقوية حال العاجز فإن غالب الأموال إنما تُساق على الضعيف ،
 وتوفير هم الرعايا على عمارة البلاد وذلك من أكد المصالح وأهمها ، وتفريغ خواطرهم
 لأداء ما عليهم من الحقوق المستقبلية وذلك من أخص المنافع وأعمها ، فليقبلوا هذه
 النعم بشكر الله على ما خصّ دولتنا به من هذه المحاسن ، ويوالوا حمده على ما تمتعهم
 به من موادّ عدلها التي ماء إحسانها غير أسن ، ويتهللوا لأيامنا الزاهرة بالأدعية
 التي تُخلد سلطانها، وتشيّد أركانها، وتعلي منار الدين باعتلائها ، وتؤيّد بها بالملائكة
 المقربين على أعداء الله وأعدائها . وسبيل كل وافٍ على مسؤولنا هذا : من ولاية
 الأمر أجمعين العمل بضمونه ، والانتهاؤ إلى مكنونه ، والمبادرة إلى إثبات هذه
 الحسنة ، والمسارة إلى العمل بهذه المسامحة التي تستدعي مسازة القلوب وثناء
 الألسنة ، وتعفية آثار تلك البواقي التي عفونا عن ذكرها ، ومحو ذكرك تلك الأموال
 التي تعوضنا عن استيفائها بأجرها .



وهذه نسخة مرسوم شريف بالمساحمة بالبواقي في ذم الجنيد والرعايا بالشام ،
 كتبت به في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون في شهر سنة اثنتين وسبعائة بخط
 العلامة كمال الدين محمد الزمليكاني من إنشائه ، وقُرى على المنبر بالجامع الأموي^(١)
 بدمشق المحروسة ، وهي :

الحمد لله الذي وسع كل شيء رحمةً وعلمًا ، وسيع نداء كل حي رافةً وحلمًا ،
 وخص أيامنا الزاهرة بالإحسان فأنتجح فيها من عدلٍ وخاب من حمل ظلمًا ،
 وزان دولتنا بالعفو والتجاوز فهي تعتد المساحمة بالأموال الحسيمه غنا إذا اعتدتها
 الدولُ غرما .

نحمد على نعمه التي عمّرت رعايانا بإدامة الإحسان إليهم ، وعمّرت ممالكنا بما
 نتعاهد به أهلها من نشر جناح الرافة عليهم ، وخففت عن أهل بلادنا أنقال بواقي
 الأموال التي كانوا مطلوبين بها من خلفهم ومن بين يديهم ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله
 وحده لا شريك له شهادة لم تزل تشفع لأهلها العدل بالإحسان ، وتجمع لأربابها
 بالرأفة والرفق أشتات النعم الحسان ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي جلا
 الغمة ، وهدى الأمة ، وسن الرافة على خلق الله والرحمة ، وحث على الإحسان إلى
 ذوى العسرة لما في ذلك من براءة كل مشغول الذمه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
 الذين أمروا بالتيسير ، وأقنعوا من الدنيا بالتيسير ، وأوضحوا طرق الإحسان لسالكها
 فسهل على المقتدى بهم في الحنو على الأمة الصعب ويُسّر العسير ، صلاة تدخر ليوم
 الحساب ، وتعد للوقت الذي إذا نُفخ في الصور فلا أنساب ، وسلم تسليما كثيرا .

(١) نسبة إلى زمليكان وقد ضبطها صاحب القاموس بالسر وضبطها ياقوت في معجمه بالفتح فاعل
 فيها روايتين .

وبعد ، فإن الله تعالى لما خص أيامنا الزاهرة بالفتوح التي أنامت الرعايا ، في مهاد أمنها ، وأنالت البرايا ، مواقع يمينها ومنها ، وكفت أكف الحوادث عن البلاد وأهلها ، ونشرت عليهم أجنحة البشائر في حزن الأرض وسهائها ، وأعدبت من الطمانينة مواردهم ، وعمت بالدعة والسكون قاطنهم وراحلهم ، وبدلتهم من بعد خوفهم أمنا ، ونولتهم باجابة داعي الدب عنهم منا منا ، رأينا أن نقسح لهم مجال الدعة والسكون ، وأن لا تقع لهم بما كان من أسباب المسار حتى تتبعها بما يكون ، وأن نصفي بالإعفاء من شوائب الأكدار شربهم ، ونؤمن بالإعفاء عن طلب البواقي التي هي على ظهورهم كالأوزار شربهم ، وأن نشفع العدل فيهم كما أمر الله تعالى بالإحسان إليهم ، ونضع عنهم بوضع هذه الأثقال إضرهم والأغلال التي كانت عليهم ، وأن نوفر على عمارة البلاد هممهم ، ونبرئ من تبعات هذه الأموال اللازمة لهم ذممهم ، ونريح من ذلك أسرهم ، ونطلق من ربة الطلب المستمر إسارهم ، ونساحمهم بالأموال التي أهملوها وهي كالأعمال محسوبة عليهم ، ونعفيهم من الطلب بالبواقي التي نسوها كالأجال وهي مقدمة بين يديهم ، لتكون بشرهم بالنصر كامله ، ومسرهم بالأمن من كل سبيل شامله .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازل بره عميا ، وفضله لحسن النظر في مصالح رعاياه مديما - أن تساح مدينة دمشق المحروسة وسائر الأعمال الشامية بما عليها من البواقي المساقاة في الدواوين المعمورة إلى المدد المعينة في التذكرة الكريمة المتوجهة بالخط الشريف ، وجملة ذلك من الدراهم ألف ألف وسبعائة ألف وستة وأربعون^(١) ألفا ومائة ألف وخمسة وأربعون درهما ، ومن الغلال المتوعة تسعة آلاف وأربعمائة وأثنان وأربعون غرارة ، ومن الحبوب مائتان وثمان وعشرون غرارة ، ومن الغنم

(١) لعله « من الدنانير » وحينئذ يستقيم الكلام .

نحسائة رأس ، ومن الفولاذ ستمائة وثمانية أرطال ، ومن الزيت ألفان وثلثمائة
رطل ، ومن حب الرمان ألف وستمائة رطل .

فليتلقوا هذه النعمة بباع الشكر المديد ، ويستقبلوا هذه المنّة بحمد الله تعالى فإن
الحمد يستدعي المزيد ، ويرفقا في أيامنا الزاهرة ، في حلال الأمن الضافية ، ويردوا
من نعمنا الباهرة ، مناهل السعد الضافية ؛ ويقبلوا على مصالحهم بقلوب أزال الأمن
قلقها ، وأذهبت هذه المسامحة المبرورة فرقها ؛ ونفوس أمّنت المؤاخدة من تلك
التبعات بحسابها ، ووثقت بالنجاة في تلك الأموال من شدّة طالب يأبى أن يفارق
إلا بها ؛ وابتوقروا على رفع الأدعية الصالحة لأيامنا الزاهرة ، ويتيمنوا بما شملهم من
الأمن والمنّ في دولتنا القاهره ؛ فقد تصدقنا بهذه البواق التي أبقّت لنا أجرها وهي
أكل ما يُقتنى ، وخففت أثمان رعايانا وذلك أجل ما به يُعنى . وسبيل كل واقف
على هذا المرسوم الشريف اعتماد حكمه ، والوقوف عند حدّه ورسمه ؛ ويعنى آثار
هذا الباقي المذكور بحجور رسمه واسمه ، بحيث لا يُترك لهذه البواق المذكورة في أموالنا
انتساب ، ولا يبق لها إلى يوم العرض عرض نُورده ولا حساب ؛ وانخط الشريف
شرفه الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه .



وهذه نسخة مسامحة بمكوس على جهات مستقبحة بالملكة الطرابلسية ، وإبطال
المنكرات ، كُتِب بها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » أيضا في شهر سنة
سبع عشرة وسبعائة ، وهي :

الحمد لله الذي جعل الدين المحمدي في أيامنا الشريفة على أثبت عماد ، وأصطفانا
لإشادة أركانه وتنفيذ أحكامه بين العباد ؛ وسهل علينا من إظهار شعائره ما رام

مَنْ كَانَ قَبْلَنَا تَسْبِيلَهُ فَكَانَ عَلَيْهِ صَعْبَ الْأَقْيَادِ ، وَأَدَّخَرْنَا مِنْ أَجُورِ نَصْرِهِ أَجَلَ
مَا يُدْخِرُ لِيَوْمِ يَفْتَقَرُ فِيهِ لِصَالِحِ الْإِسْتِعْدَادِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمِ بَلَّغْتُمْ مِنْ إِقَامَةِ مَنَارِ الْحَقِّ الْمُرَادِ ، وَأَحْمَدُتُمْ نَارَ الْبَاطِلِ بِمُطَافِرَتِنَا
وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَتْ شَدِيدَةَ الْأَقْيَادِ ؛ وَنَكَّسْتُمْ رُءُوسَ الْفَحْشَاءِ فَعَادَتْ عَلَى اسْتِحْيَاءِ
إِلَى مُسْتَسْنِئِهَا أَقْبَحَ مَعَادِ ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ سَطَّرَ فِي صَحَائِفِنَا مِنْ غُرَرِ السَّيْرِ مَا تَبَقَى
بِهِجَّتُهُ لِيَوْمِ الْمَعَادِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً يَجِدُّهَا الْعَبْدُ
يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ، وَتَسْرَى أَنْوَارُ هَدْيِهَا فِي الْبَرَايَا فَلَا تَزَالُ آخِذَةً فِي الْإِزْدِيَادِ ؛
وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبَسَهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي بَعَثَهُ اللَّهُ بِالْإِنْدَارِ إِلَى يَوْمِ التَّنَادِ ؛ وَالْإِعْذَارِ إِلَى
مَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ الْحِجَّةُ بِشَهَادَةِ الْمَلَائِكِينَ فَأَوْضَحَ لَهُ سَبِيلَ الرَّشَادِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ
وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مِنْهُمْ مَنْ رَدَّ أَهْلَ الرَّدَّةِ إِلَى الدِّينِ الْقَوِيمِ أَحْسَنَ تَرْدَادِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ عَمَّمَ
بِالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ سَائِرَ الْعِبَادِ وَالْبِلَادِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ بَدَّلَ مَالَهُ
لِلْجَاهِدِينَ وَنَفْسَهُ لِلْجِهَادِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ دَافَعَ عَنِ الْحَقِّ فَلَا بَرِحَ فِي جِدَالٍ عَنْهُ وَفِي جِلْدَادِ ،
صَلَاةٌ تَهْدِي إِلَى السَّدَادِ ، وَتَقُومُ الْمُعْوَجَّ وَتُثَمِّفُ الْمَيَّادِ ، وَسَلْمٌ تَسْلِيًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مِنْدُ مَلَكًا أُمُورَ خَلْقِهِ ، وَبَسَطَ قُدْرَتَنَا فِي التَّصَرُّفِ فِي عِبَادِهِ
وَالْمَطَالِبَةِ بِحَقِّهِ ، وَفَوَّضَ إِلَيْنَا الْقِيَامَ بِنُصْرَةِ دِينِهِ ، وَفَهَّمَنَا أَنَّهُ تَعَالَى قَبْضَ قَبْلِ خَلْقِ
الْخَلَائِقِ قَبْضَتَيْنِ فَرَعَبْنَا أَنْ نَكُونَ مِنْ قَبْضَةِ يَمِينِهِ ، وَالْقِيَامَ إِلَيْنَا مِنْ مَقَالِيدِ الْمَمَالِكِ ،
وَأَقَامَ الْحِجَّةَ عَلَيْنَا بِتَمَكِينِ الْبَسْطَةِ وَعَدَمِ الْمَشَاقِقِ فِي ذَلِكَ ، وَمَهَّدَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مَا عَلَى
غَيْرِنَا تَوَعَّرَ ؛ وَأَعَدَّ لَنَا مِنَ النَّصْرِ مَا أَجْرَانَا فِيهِ عَلَى عَوَائِدِ لُطْفِهِ لِأَعْنَ مَرَحٍ فِي الْأَرْضِ
وَلَا عَنِ خَدِّ مُصْعَرٍ - أَلْهَمْنَا إِعْلَاءَ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ ، وَإِعْزَازَ الْحَلَالِ وَإِذْلَالَ الْحَرَامِ ،
وَأَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَأَنْ لَا تَخْتَارَ عَلَى دَارِ الْآخِرَةِ دَارَ الدُّنْيَا ؛ فَلَمْ تَنْزَلْ نُقِيمِ

للدِّينِ شِعَارًا ، وَنَعَفَى لِلشَّرِكِ آثَارًا ؛ وَنُعَلِنُ فِي النِّصِيحَةِ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَهْرًا وَإِسْرَارًا ؛ وَنَتَّبِعُ أَتْرَ كَرَمِ نَقْتَنِيهِ ، وَمُطَوِّلِ بَحْقِهِ نُوفِيهِ ؛ وَنَعْلَمُ حَقَّ قُرْبَةٍ نُسَيْدِهِ ، وَنُحَدِّثُ وَلَا آسْتَظْهَرُ عَلَيْهِ الْبَاطِلَ نُؤَيِّدُهُ ؛ وَذَا كُرْبَةٍ نَفْرَجُهَا ، وَغَرِيْبَةٍ فَخْشَاءَ آسْتَظْرَدْتُ مِنْ أَدْوَارِ الْحَقِّ نُخْرِجُهَا ؛ وَسَنَّةٍ سَيِّئَةٍ تَسْتَغِيْمُ النَّفْسُ زَوَالَهَا فَجَعَلُهَا هَبَاءً مَنْشُورًا ، وَجَمَلَةً عَظِيْمَةً أُسِّسْتُ عَلَى غَيْرِ التَّقْوَى مَبَانِيهَا فَيَحْطِمُهَا كَرْمُنَا فَتُؤَدَى الْجِزَاءَ عَنْهَا مَوْفُورًا ؛ فَاسْتَقْصَيْنَا ذَلِكَ فِي مَمَالِكِ الشَّرِيْفَةِ مَمْلَكَةِ مَمْلَكَةٍ ، وَآسْتَظْرَدْنَا فِي إِبْطَالِ كُلِّ فَاحِشِيَةٍ مُوْبِقَةٍ مُهْلِكَةٍ ؛ فَفَعَّيْنَا مِنْ ذَلِكَ بِالْأَدْيَارِ الْمِصْرِيَّةِ مَا شَاعَ خَبْرُهُ ، وَظَهَرَ بَيْنَ الْأَنْامِ أَثَرُهُ ؛ وَطُبِّقَتْ بِمَحَاسِنِهِ الْآفَاقُ ، وَهَجَّتْ بِهِ أَلْسِنَةُ الدُّعَاةِ وَالرَّفَاقُ : مِنْ مَكُوسِ أَبْطَلْنَاهَا ، وَجَهَاتِ سُوءِ عَطَّلْنَاهَا ، وَمِظَالِمِ رَدَدْنَاهَا إِلَى أَهْلِهَا ، وَزَجَرْنَاهَا عَنْ غِيْبِهَا وَجَهْلِهَا ، وَبَوَاقِ سَاحِنِهَا وَسَمِّحِنَا ، وَطَلِبَاتِ خَفَّفْنَا عَنْ الْعِبَادِ بِتَرْكِهَا وَأَرْحَنَاهَا ؛ وَمَعْرُوفِ أَقْنَاهَا دَعَائِمَهُ ، وَبُيُوتِ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ أَثَرْنَا مِنْهَا كُلِّ نَائِمَةٍ بِثَمِّ بَثْنَاهَا ذَلِكَ فِي سَائِرِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ ، وَجَنَّتِنَا ثَمَرَاتِ النَّصْرِ مِنْ شَجَرَاتِ الْعَدْلِ الَّتِي هِيَ بَيْدٌ يَقْطِنَتِنَا مَغْرُوسَةٌ .

وَمَا أَتَّصَلَ بِعِلْمِنَا الشَّرِيْفَةِ أَنَّ بِالْمَمْلَكَةِ الطَّرَابُلُسِيَّةِ آثَارَ سُوءٍ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهَا ، وَمَوَاطِنَ فِسْقٍ لَا يَقْدِرُ غَيْرُنَا عَلَى دَفْعِ ضَرَرِهَا وَضَيْرِهَا ؛ وَمِظَانِ أَنْامٍ يَجِدُ الشَّيْطَانَ فِيهَا جَمَالًا فَيْسِجًا ، وَقُرَى لَا يُوجَدُ بِهَا مِنْ [كَان] إِسْلَامُهُ مَقْبُولًا وَلَا مِنْ [كَان] دِينُهُ صَحِيحًا ؛ وَخُورًا يُظَاهَرُ بِهَا ، وَيَتَّصَلُ سَبَبُ الْجَبَائِرِ بِسَبَبِهَا ؛ وَشُعَاعٌ بَيْنَ الْخَلَائِقِ مُجْهَرًا ، وَتَبَاعٌ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ فَلَا يُوجَدُ لِهَذَا الْمَنْكَرِ مُنْكَرًا ؛ وَيُحْتَجُّ فِي ذَلِكَ عَمَقْرَاتٍ نُحْتِ لَا نُحْدِي نَفْعًا ، وَتَبْقَى فِي يَدِ آخِذِهَا كَانِهَا حَيَّةٌ تُسْمَى .

ومما أنهى إلينا أن بها حانةً عبر عنها بالأفراح قد تطاير شررها، وتفاقم ضررها، وجوهر فيها بالمعاصي، وأذنت لولا حلم الله وإمهاله بزلزلة الصياصي، وغدت لأهل الأهوية مجمعا، ولذوى الفساد مربعا ومرتعا، يتظاهر فيها بما أمر بسنئه من القاذورات، ويؤتى بما يجب تجنبه من المحذورات، ويُسترسل في الأفراح بها بما يؤدى إلى غضب الجبار، وتهاقت النفوس فيها كالفراس على الأفتحام في النار.

ومنها - أن المسجون إذا سُجن بها أخذ بجميع ما عليه بين السجن وبين الطلب، وإذا أفرج عنه ولو في يومه أنقلب إلى أهله في الخسارة بشر منقلب، فهو لا يجد سرورا بفرجه، ولا يجحد عشي مخرجه.

ومنها - أن بالأطراف القاصية من هذه المملكة قرى سُكنها يعرفون بالنصيرية لم يلج الإسلام لهم قلبا، ولا خالط لهم لبا، ولا أظهروا له بينهم شعارا، ولا أقاموا له منارا، بل يُخالقون أحكامه، ويجهلون حلاله وحرامه، ويخاطون ذبايحهم بذبايح المسلمين، ومقابرهم بمقابر أهل الدين، وكل ذلك مما يجب ردعهم عنه شرعا، ورجوعهم فيه إلى سواء السبيل أصلا وقرعا، فعند ذلك رغبتنا أن نفعل في هذه الأمور ما يبقى ذكره مَفخرة على ممر الأيام، وتُدوم بهجته بدوام دولة الإسلام، ونمحو منه في أيامنا الشريفة ما كان على غيرها به عارا، ونسترجع للحق من الباطل ثوبا طالما كان لديه معارا، وثبتت في سيرة دولتنا الشريفة عوارف لا تزال مع الزمن تُذكر، وتتلو على الأسماع قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾.

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لا زال بالمعروف آمرا، وعن المنكر ناهيا وزاجرا، ولامثال أوامر الله تعالى مسارعا ومبادرا - أن يُبطل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتى ذكره:

<p>سجين الأقباص أُخْبِثَ بِأَمْرِ أَقْبَاصِ الدِّيوانِ المعمور التي كان فلاحو الكورة بطرابلس يعملون بها ثم أعفوا عن العمل وقدر عليه في السنة لل</p>	<p>السجون بالمملكة الطرابلسية خارجا عن سجين طرابلس بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدم التاريخ وتقديرها عالم</p>	<p>جهات الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجا عما اعلمه يستقر من ضمان الفرح الخ . وتقديرها للم</p>
<p>حق الديوان بصهيون بطرابلس وقصريون بطرابلس عمن كان معا في حصنها وتقدير منحصل ذلك للم</p>	<p>عفاية الشام بكور طرابلس واقفة والسرون وما معه بحكم أن المذكورين كانوا ثبتوا على المراكز بالبحر فلما شكت المراكز بالعساكر المنصورة قزر على ذلك في السنة عالم</p>	<p>أقباص للأمراء بحكم أن بعض الأمراء كان لهم جهات زرع أقباص وقزروا على بقية فلاحهم العمل بها والقيام بنظيره آخر العمل . وتقدير ذلك للم</p>
<p>المستحدث إقطاعا من بعض الأمراء على الفلاحين مما لم تجربه عادة : من حشيش وملح وضيافة . وتقديره للم</p>	<p>ضمان المشعل بطرابلس مما كان أولا بديوان الشام بالفتوحات ثم استقر بالديوان المعمور في شهور سنة ست عشرة وسبعائة وتقديره للعالم</p>	<p>هبة الشاد بنواحي الكهف تُشَدُّ فيما كان يستأدى من كل مدير وتقدير متحصله للم</p>

فليُظَلَّ هذا على مَمَرِ الأزمنة والُدهور، إبطالاً باقياً إلى يوم النُشور، لا يُطَلَب ولا يُسْتادى، ولا يَبْلُغُ الشيطانُ في بقاءه مُراداً .

ويُقرأ مرسومنا هذا على المنابر ويُشاع، وتُسْتَجَلَبُ لنا منهم الأدعية الصالحة فإنها نِعَمُ المَناع .

وأما النُصيرية فليُعمروا في بلادهم بكل قرية مسجداً، ويُطَلَقَ له من أرض القرية رُقعة أرض تقومُ به وبمن يكون فيه من القوام بمصالحه على حَسَبِ الكفاية، بحيث يستفِرُّ الحناب الفلاني نائب السلطنة بالملكة الطرابلسية والحصون المحروسة ضاعف الله تعالى نعمته من جهته من يثق إليه لإفراد الأراضى وتحديدها وتسليمها لأئمة المساجد المذكورة، وفصلها عن أراضى المُتَطعين وأهل البلاد المذكورة ويعملُ بذلك أوراقا وتُحَدِّد بالديوان المعمور حتى لا يبقى لأحد من المُتَطعين فيها كلام، ويُنادى في المُتَطعين وأهل البلاد المذكورة بصورة ما رسمنا به من ذلك .

وكذلك رسمنا أيضاً بمنع النُصيرية المذكورين من الخطاب وأن لا يُمكنوا بعد ورود هذا من الخطاب جملةً كافية، وتؤخذ الشهادة على أكابهم ومشايخ قراهم لئلا يعود أحد منهم إلى التظاهر بالخطاب ومن تظاهر به فويل أشدَّ مقابلة .

فلتعمد مراسمتنا الشريفة ولا يُعدل عن شيء منها، وتُتجرِ المملكة الطرابلسية مجرى بقية الممالك المحروسة في عدم التظاهر بالمنكرات، وتعفية آثار الفواحش وإقامة شعائر الدين القويم : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَأَمَّا إِمَّهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .



وهذه نسخة توقيع بالمساحمة في جميع المراكز بما يُستأدى على الأغنام الدغالي الداخلة إلى حلب ، وأن يكون ما يُستخرج من تجار الغنم على الكبار منها خاصة ، من إنشاء المقتر الشهابي بن فضل الله ، مما كُتب به في شهر سنة سبع وثلاثين وسبعائة ، وهي :

الحمد لله ذي المواهب العظيمة ، والعطايا التي لا تُجود بها يد كريمة ، والمِن التي عوّضنا منها عن كل شيءٍ بخيرٍ منه قيمة ، والمساحمة التي أدرلنا بها عن كل مالٍ حَسَنٍ مَالٍ وبكُلِّ غَنَمٍ غَنِيمَةٍ .

نحمده على نِعَمِهِ التي عَدَتْ على كثرة الإنفاق مُقِيمِهِ ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أكرم من سَمَحَ وسامح في أمورٍ عظيمة . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً مُسْتَدِيمَةً ، وسلم تسلياً كثيراً .

وبعد ، فبندُ مَلِكِنَا اللهُ لم نزل نرغب إليه ، ونعامله بما نهبه له ونزج عليه ، ولم نُنبئ مملكةً من ممالكنا الشريفة حتى ساحتنا فيها بأموال ، وساميتنا فيها بنفع أرضها السُحْبُ الثَقَال ، وكانت جهة العِداد بالملكة الحليية المحروسة مُثَقَلَة الأوزار بما عليها ، مَشْدُودَة النَّطَاق بما يغلُّ من الطلب يديها ، مما هو على التُرْكَان بها محسوب ، وإلى عديدهم عَدَدُه منسوب ، ونحن نُظَنُّه في جملة ما أسقطته مساحتنا الشريفة وهو منهم مطلوب ، وهو المعروف بالدغالي زائداً على الرؤوس الجبار ، ومعدوداً عند الله من الجائر وهو في حساب الدواوين من الصغار ، فلما اتصل بنا أن هذه المظلمة ما أنجلي عنهم ظلمها ، ولا رُفِعَ من الحساب عنهم قلمها - أكبرنا موقع بقائها ، وعلمنا أنها مدة مكتوبة لم يكن بدُّ من المصير إلى انقضائها ؛ واستجلبنا قلوب

طوائف التُّركان بها ، وأوثقنا أسبابهم في البلاد بسببها ، لأمرين كلاهما عظيم :
لرغبتنا فيما عند الله ولمّا لهم من حقّ ولاءٍ قديم ، كم صاروا مع الجيوش المنصورة
جُيوشاً ، وكم ساروا إلى بلاد مُلوك الأعداء فثَلُّوا لهم عُروشاً ، وكم كانوا على أعقاب
العساكر المؤيدة الإسلامية ردفاً ومقدمتهم في محاصرة جاليشا ، وكم قتلوا بسببهم
كافراً وقدموا لهم رماحهم نعوّشا ، ومنهم أمراء وجنود ، ونزولٌ ووُفود ، وهم وإن
لم يكونوا أهل خِباء فهم أهل عمود ، وذوو أنسابٍ عريقة ، وأحسابٍ حقيقه ،
إلى القَبْجاق الخُلص مرجعهم ، والفُرس بفرسان دولتنا الشريفة تجمّعهم - فاقضى
رأيتنا الشريف أن نرعى لهم هذه الحقوق بإبطال تلك الزيادة المراده ، وأن نتناسى
منها ما هو في العدد كالنسيء في الكُفْر زيادته .

فرسم بالأمر الشريف - لازلّت مواهبسه تشمّل الآفاق ، وتزيد على الإنفاق ،
وتقدّم ما ينفد إلى ما هو عند الله باق - أن يُسأخ جميع التراكيب الدّاخِل عدادهم
في ضَمَان عِدَاد التُّركان بالملكة الحلبية المحروسة بما يُستأدى منهم على الأغنام الدغالى ،
وأن يكون ما يُستخرج منهم من العدد على الجِكار خاصّة : وهو عن كل مائة رأس
جِكار ثلاثة أُرؤس جِكار خاصّة لا غير من غير زيادةٍ على ذلك ، مساحةً مستتمّره ، دائمةً
مستقره ، باقيةً بقاء الليالى والأيام ، لا تُبدّل لها أحكام ، ولا تتغيّر بتغيّر حاكم من
الحُكّام ، نرجو أن تُسرّبها في صحائف أعمالنا يوم العَرْض ، لا يتأول فيها حساب ،
ولا تمتد إليها [يد] حُساب ، ولا يبقى عليها سبيلٌ للدواوين والكتّاب ، ولا تُسبب
أغنامهم ليرعاها منهم أولئك الدّئاب ، كلّمّا مرّ على هذه المساحة زمانٌ أكّد أسبابها ،
وبيّض في صحائف الدفاتر حسابها ، لا تُعارض ولا تُناقض ولا يتأول فيها متأول
في هذا الزمان ولا فيما بعده من الزمان ، ولا يدخل حُكْمها في النسيان ، ولا يُنقص
أجرها المضمون ، ولا تُطلب أصحاب هذه الدغالى عليها بعداد في قرن من القرون ،

ولا يُستحقر بما يُستأدى منها جليلاً ولا حقيراً ، ولا يُسمح لنفسه من قال إنها صغيرة
وهي عند الله كبيرة : لتطيب لأهلها ومن تسمع بما شملهم من إحساننا الشريف
النفوس ، ولا تُصدع لهم بسبب هذا الطلب رؤوس ، فمن تعرّض في زماننا أمدنا
الله بالبقاء أو كُشف في هذه الصدقة الجارية وجه تأويل ، أو سكن فيها إلى مداومة
بقليل ، أو طلب من ظالم بعينه مداواة قوله العليل ، فسيجد ما يضح به مثله ،
ويتوب به مثله ويكون لمن بعده عبرة بمن قدّم قبله ، ونحن نبرأ إلى الله ممن يتعرّض
بعدنا إلى نقضها ، وهذه المسامحة عليه حجتنا التي لا يقدر عند الله على دحضها .

ولتقرأ على المنابر وتعلّ كلمتها ، وتمدّ في أقطار الأرض كما أمتد السحاب ترحتها ،
وسيل كل واقف عليها من أرباب الأحكام : أصحاب السيوف والأقلام ، ومن
يتناوب منهم على الدوام ، العمل بما رسمنا به واعتماداً بحكم بموجبه ، بعد الخط
الشريف شرفه الله تعالى أعلاه . إن شاء الله تعالى .

المرتبة الثانية — من المسامحات أن تُكتب في قطع العادة مفتوحة برسم
بالأمر الشريف .

وغالب ما يكتب ذلك للتجار الخواجكية بالمسامحة بما يلزمهم من المكوس
والمقررات السلطانية عن نظير من ما يتتاع منهم من الممالك .
والعادة أن يكتب في طرفها « توقيع شريف بمسامحة فلان بما يجب عليه من
الحقوق الديوانية بالديار المصرية والبلاد الشامية » بحسب ما يرسم له .

وهذه نسخة توقيع من ذلك ، وهي :

رسم بالأمر الشريف — لا زال يتبع السماح بمثله ، ويشمل الرعايا كل وقت
في ممالكه الشريفة بعدله ، ويواصل إليهم رفقته ورفده فلا يرحون في مهاده من

نعمه وإسعاده من فضله - أن يُسأَحَ المجلس السامى (إلى آخر ألقابه) أدام الله تعالى رفعتَه بما يَجِبُ عليه من الحقوق الديوانية بالديار المصرية والبلاد الشامية، وسائر الممالك الإسلامية، فيما يبيعه ويتبعه ويتعوضه من سائر الأصناف خلا المنوعات: صادراً لاغيراً أو صادراً ووارداً، بنظير الممالك الذين ابتاعهم برسم الأبواب الشريفة بكذا وكذا ألف درهم .

فليعتد هذا المرسوم الشريف كل واقف عليه ويعمل بحسبه ومقتضاه ، من غير عدول عنه ولا خروج عن حكمه ومعناه ، والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالى .

* * *

وهذه نسخة دعاء آخر يفتح به توقيع مساحجة ، وهو: لازلّت نعمه عميمه ، وسجاياه كريمه ، ومواهبه فى الآفاق سائرة وفى الأقطار مقيمه ، أن يسأَحَ فلان بكذا وكذا .
آخر : لازلّت صدقاته الشريفة تحقّق وسائل طالبها ، وأوامره المطاعة نافذة فى مشارق الأرض ومغاربها ، أن يسأَحَ فلان بكذا وكذا .

قلت : والعادة فى مستند ذلك أنه تُحَضَّرُ به قائمة من ديوان الخصاص الشريف فيكتب عليها كاتب السربالتعيين ، ويخلدها كاتب الإنشاء عنده شاهدا له بذلك كما فى غيره من سائر المستندات .

الضرب الثانى

(ما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية)

وغالب ما يكون فى مساححات التجار بمقرر ما يتبعونه أو يشترونه ، أو بقدر معين يحصل الوقوف عنده ، ويعبر عما يكتب فيه بالتواقيع كما فى الولايات عندهم ، وأكثر ما يفتح برسم بالأمر .

وهذه نسخة مرسوم شريف بمساحة كُتِبَ بها عن نائب الشام في الدولة الناصرية «فرج» لخوaja محمد بن المزلق، وهي :

رسم بالأمر العالى - لا زال قصدُ ذوى الحقوق عنده نا حجا، وإحسانه للقرب إليه مساحا - أن يُسأخ الجناح العالى، الصُدريّ، الكبيرىّ، المحترمىّ، المؤتمنىّ، الأوحدىّ، الأكلبىّ، الرئيسىّ، العارىّ، المقرّبىّ، الخواجكىّ، الشمسىّ، مجدُ الإسلام والمسلمين، شرف الأكاربى العالمين، أوحدُ الأئمة المقرّبين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُدور، عينُ الأعيان، كبير الخواجكيه، سفيرُ الدوله، مؤتمنُ الملوك والسلاطين: محمد بن المزلق، عين الخواجكية بالملكة الشريفة الشامية المحروسة - أدام الله تعالى نعمته - بما يجب عليه من الحقوق الديوانية بالطرقات المِصرية، وجميع البلاد الشامية المحروسة والركاه بدمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد، وغزّة، وحمص، وبعبك المحروسات، والبروك، والمقطعين، وقطيا، مما يبيعه ويتاعه ويتعوضه من جميع الأصناف خلا المنوعات صادرا وواردا، ويؤمن عليه بقيمة ما يشتريه بما مبلّغه من الدراهم النقرة الجيدة مائتا ألف درهم، ولا يُطالب عن ذلك بحق من الحقوق ولا بمقرر من المقررات، مساحةً باقيةً مستمره، دائمة أبداً مستقره، لا ينتقض حكمها، ولا يغير رسمها، لخدمته الدول على اختلافها، ولبلاغته فى التقرب بما يرضى الخواطر الكريمة وينفع الناس بما يحضره من أنواع المتاجر وأصنافها، ولاستحقاقه لهذا الإنعام، ولاختصاصه به دون الخاصّ والعام .

فيلتق ذلك بالحمد والأبتهال، والله تعالى يبلّغه من مزيد إنعامنا الآمال، والأعتاد فى معناه، على الخط الكريم أعلاه . إن شاء الله تعالى .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة السادسة

(فيما يكتب من الإطلاقات : إما تقريراً لما قرره غيره من الملوك السابقة ،
وإما ابتداءً لتقرير ما لم يكن مقرراً قبلاً ، وإما زيادةً على ما هو مقرراً ،
وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما يكتب عن الأبواب السلطانية ، وهو على ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يكتب في قطع الثلث مفتتحاً بالحمد لله ، وهو أعلاها)

وهذه نسخة توقيع شريفٍ باستقرار ما أطلقه السلطان صلاح الدين يوسفُ
أبنُ أيوب بالديار المصرية للعمريين أعصاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله
عنه ، كُتِبَ به في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، من إنشاء المقر الشهابي بن
فضل الله ، وهي :

الحمد لله الذى أبدأ الجميل وأعاده ، وأجرى تكرمنا على أجمل عاده ، وقفى بنا آثار
الذين أحسنوا الحسنى وزيادة .

نحمده على أن جعل جودنا المقدم وإن تأخر أياما ، والمطيب لذكر من تقدم حتى
كأنما حاله مثل المسك ختاماً ، والصيب الذى تقدمه من بوادر الغيث قطر ثم أستهل
هو عماما ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نرفع أعلامها ونمنع
أن تطمس الليالى لمن جاهد عليها من ملوك الزمان أعلاما ؛ ونشهد أن سيدنا محمداً

عبدُه ورسوله الذي هَدَى به إلى أوضح المسالك ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين فتحوا من الأرض ما وعد أنه سيبلغُ ملكُ أمته إلى ما زوى من ذلك ، وسلم . وبعدُ ، فإن أفضل النعم ما قرِن بالإدامه ، وأعظم الأجور [أجر] من سنِّ سنة [حسنة] فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، وأحسن الحسنات ما رغبت السلف الصالح في خلفهم ، وأمرت بأيديهم ما حازوه من ميراث سلفهم ، وكان المولى الشهيد الملك الناصر صلاح الدين ، منقذُ بيت المقدس من المشركين ، أبو المظفر يوسف بن أيوب - قدس الله روحه - هو الذي كان على قواعد العمرين بنينا ، والفتاح لكثير من فتوحات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فتوحا ثانيا ، ولما اعلى الله بمصر دولته المنيه ، ومحابه من البدع الإسماعيلية عظام كثيره ، حبس ناحية « شباس الملح » وما معها جميع ذلك بحدوده وقرنيه وبعيده ، وعامره وغامره ، وأوله وآخره ، على المقيمين بالحرمين الشريفين من الذرية العمرية ، كما قاله في توقيعه الشريف المكتتب بالخط الفاضل عمر الأنام ، وأقتنى بهداه بعده من إخواننا الصالحين مالوك الاسلام ، بخدنا لهم هذا التوقيع الشريف تبركا بالمشاركة واستدراك ما فاتنا مع سلفهم الكريم بالإحسان إلى أعقابهم . ومرسومنا أن يحملوا على حكم التوقيع الشريف الصلاحي وما بعده من تواقع الملوك الكرام ، ولا يغير عليهم فيه مغير من عوائد الإكرام ، ولا يقبل فيهم قول معترض ولا تتعرض إليهم يد متعرض ، ولا يفسح فيهم لمستعص إن لم يكن رافضا فإنه برفض حقهم مترفض ، وليعامل الله فيهم بما يزيد جدتهم رضى الله عنه رضا ، ويحبس تحبسا ثانيا لولانا لقيال لمن يطالب بها كيف تطالب بشيء مضى مع من مضى ، ونحن نبرأ إلى الله ممن سعى في نقضها بسبب من الأسباب ، أو مد فيها إلى فتح باب ، أو تأول في حكم هذا الكتاب عليهم وقد وافق حكم جدتهم حكم الكتاب ، وأن لا يقسم شيء من ريع

هذه الناحية على غير المقيمين منهم بالحرمين الشريفين . ومن خاف على نفسه في المقام فيهما من كان في أحدهما ثم فارقه على عزم العود إلى مكانه ، وأقام وله حيناً إلى أوطانه ، ولم يلبه استبدال أرض بأرض وجيران بـجيران عن أرضه وجيرانه ، إتباعاً لشرطها الأول بمثله ، وآتباعاً فيها (؟) فاز مع السابقين الأولين بمزيد فضله .

وليكن النظر فيه لأمثل هذا البيت من المستحقين لهذا الحبس كإبراهيم عن كابر ، ناظراً بعد ناظر ، آتباعاً للراد الكريم الصلحى في مرسومه المقدم ، وتفسيراً لمن لا يفهم ، من غير مشاركة معهم لأحد من الحكام ، لأرباب السيوف ولا أرباب الأقلام : لنكون نحن ومحسبنا - أثابه الله على هذه الحسنة - متناصرين ، ولتجد البقية التي قد ناصرها ناصرين الأول منهما بناصرين ، وليحذر من تبتع عليهم تأويلاً ، ومن وجد في قلبه مرضاً فأعداهم به تعليلاً ، فاستبناه لتأويل حصل عليهم ، ولا لتعليل المراسيم الملوكية التي هي في أيديهم ، وإنما هو بمثابة إسجال أتصل من حاكم إلى حاكم ، وسيف جددنا تقليده ليضرب به على يد الظالم ، وجود أهلنا من يحيى أنه على مدى الليالي والأيام ضرب لازم ، وفضل إن تقدمنا إليه من الملوك الكرام حاتم ، فإن كرمنا عليه حاتم ، فقد نبهوا رحمهم الله مكافأة على إحسانهم إلى الذرية العمرية عمراً ، ثم ماتوا وأحالوا على جودنا الحمدي فإنهم ببركات من سمينا باسمه صلى الله عليه وسلم لأنواع الحسنات أسراً . فكان توقيعنا هذا لهم بمنزلة الخاتمة الصالحة ، والرحمة التي أربت أوائلها على الغيوث السالفة ، فلقد تداركنا رفق بهم المعلل ، ولحقنا سابق معروفهم فلم نتمهل ، وأعدنا ما بدأوا به من الجميل فتكلم ، وقرناً مراسيمنا المطاعة بعضها ببعض وربما زاد الآخر على الأول ، فأمددناها منه بما لو لم يكن مداده أعز من سواد القلب والبصر لما كان قرة عين لمن يتأمل : يرتفع عن هذه الناحية وعمرفيها كل كارث كارث ، ويزال عنهم إلا ما يكون من مجدّدات

الخير خير حادث ، ويعلم المَلِكُ المتقدِّمان أماننا أن نُعزِّز بثالث . وجميع الثواب والولاية والمتصرفين ، والمسارعين إلى الخيرات ونعوذُ بالله من المتوقِّفين ، ومن يدخلُ في دائرة الأعمال ، وينضمُّ إلى راية العَمَلِ ، فإنا نُحذِّره أن يتعرَّضَ فيها إلى سُوءِ مآل ، أو يردَّ منها يده إلى جيبه بما ، أو يُسَوِّشَ على أهلها ما استقاموا على أحسن حال ؛ وإن يحمِّد الله من تقدَّمتنا من الملوك واتَّبَعُوا فيه التوفيقَ في علاماتهم فإنا نحمِّدُه وهو أملنا ولنا في الغيبِ آمال ، والله تعالى يجعلُ هذه الحسنةَ خالصةً لوجهه الكريم ، معوِّضةً منه بالثواب العظيم ، واصلهً بالرحمة لرميم هذا البيت القديم ، إن شاء الله تعالى ، والاعتماد

المرتبة الثانية

(ما يُفتتح بـ«أما بعد حمد الله»)

وهو على نحو ما تقدَّم في الولايات : إما في قُطْعِ الثلث أو في العادة المنصوريِّ .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك ، وهي :

أما بعد حمد الله الذي جعل أيامنا مطلعا للسَّعادة ، وجعل لأوليائنا ، من إحساننا الحُسنى وزيادته ، وأضفى حُلَّ بهائنا ، على من لم يجتمع لغيره ما اجتمع له من أوصاف السِّياده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد عبده ورسوله الذي شَيدَّ اللهُ به مباني الدين الحنيفيِّ ورفع عماده ، ونصر جيوش الإسلام ومهد مهاده ، وعلى آله وصحبه الذين مامنهم إلا من جعل طاعته ونصرتَه عمدته وعتاده ، وأتخذ مظافرتَه ومؤازرتَه في كل أمر عتاده ، صلاةً مستمرةً على كَرِّ الحديدِ إلى يوم الشَّهاده - فإنَّ أولى من تلحَّظُه دولتنا الشريفة في أقبالها بمزيد إقبالها ، وتعلي قدره إلى غاية

تَقْصُرُ الْأَفْلَاقُ عَنْ إِدْرَاكِ مَنَارِهَا وَبَعْدَ مَنَاهَا ، وَتُضَاعَفُ لَهُ أَسْبَابُ الْإِحْسَانِ مِنْ حُسْنِ نَظَرِهَا وَأَسْتَمَاتِهَا ، وَتُشَيِّدُ مَبَانِي عِزِّهِ فَلَا تَصِلُ يَدُ الزَّمَنِ إِلَى بَعْضِ تَصَرُّمِهَا ، وَتُسَبِّغُ مَلَابِسَ النِّعَمِ عَلَيْهِ فَيَخْتَالُ فِي أَضْفَايَا وَمُعَلِّمِهَا ، وَتُجَدِّدُ مِنْ مَزَايَا جُودِهَا مَا يَحْسُنُ بِهِ الْجَزَاءَ عَمَّا أَسْلَفَهُ مِنْ خِدْمَتِهَا - مَنْ نَظَرَ فِي مَصَالِحِ أَحْوَالِهَا الْمَنْصُورَةِ فَأَحْسَنَ النَّظَرَ ، وَعَضَّدَ أَنْصَارَهَا بِأَرَاثِهِ الَّتِي تُشْرِقُ بِهَا وَجُوهُ الْأَيَّامِ إِشْرَاقَ الدَّرَارِيِّ وَالذَّرْرِ ، وَأَضْحَى لَهُ فِي الْعَلِيَاءِ الْمَحَلُّ الْأَيْبِلُ ، وَالْمَنَاقِبُ الَّتِي هِيَ كَالنَّهَارِ لَا تَحْتَاجُ إِلَى دَلِيلٍ ، وَالسِّيَادَةُ الَّتِي تَكْسُو الزَّمَانَ حُلَّ الْبَهَاءِ فَيَجْرُ مِنْهَا عَلَى الْحَجَرَةِ ذِيلاً ضَافِياً ، وَالْمَأْتُرَاتِي لَوْلَا مَا أَحْيَيْتَهُ مِنْ مَعَالِمِ الرَّأْسَةِ كَانَ طَلَّلاً عَافِياً ، مَعَ مَالِهِ مِنَ الْحَقُوقِ الَّتِي تَشْكُرُهَا الْأَيَّامُ وَالذُّوَلُ ، وَالخِدْمِ الَّتِي كَمَّ بَلَّغَ بِمَخَالِصَتِهِ فِيهَا مِنْ قَصْدٍ وَأَمَلٍ ، وَالسَّجَايَا الَّتِي إِذَا خَلَعَتْ عَلَيْهَا حُلَّالاً مِنَ الثَّنَاءِ وَجَدْتَهَا مِنْهُ فِي أَهْبَى الْحُلَلِ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي تَحَلَّى مِنْ هَذَا الثَّنَاءِ بِدُرِّهِ الثَّمِينِ ، وَتَلَقَّى رَايَةَ هَذَا الْمَجْدِ كَمَا تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ ، وَتَنَضَّدَتْ كَوَاكِبُ هَذَا الْمَدْحِ لِتَنْتَظِمَ سِلْكَهَا لِمَا ثَرِيهِ ، وَأَتَّسَقَتْ فَرَائِدُ هَذَا الشُّكْرِ لِتُرْصِعَ عَقُوداً لِمَفَاخِرِهِ - وَجِبَّ عَلَيْنَا أَنْ نُجَدِّدَ لَهُ فِي أَيَّامِنَا مَا تَنَضَاعَفَ بِهِ أَسْبَابُ النِّعَمِ لَدَيْهِ ، وَيَتَحَقَّقَ مِنْهُ إِقْبَالُنَا بِوَجْهِهِ الْإِقْبَالِ عَلَيْهِ .

فَلذَلِكَ رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي عِلَائِهِ ، وَأَضْفَى عَلَى أَوْلِيَائِهِ حُلَّ آلَائِهِ ، وَأَبْقَى عَلَى الزَّمَنِ بِوُجُودِهِ رَوْتَقَ بَهَائِهِ - أَنْ يَسْتَقَرَّ لِلشَّارِ إِلَيْهِ فِي الشَّهْرِ كَذَا وَكَذَا مُضَافاً إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ لَحْمٍ وَتَوَابِلٍ وَعَلِيقٍ عَلَى مَا يَشْهَدُ بِهِ الدِّيَوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ ، فَلْيَتَّقِ إِحْسَانَنَا بِيَدِ اسْتِحْقَاقِهَا فِي الْفَضْلِ بَاعٍ شَدِيدٍ ، وَيَتَّقِ مِنَّا بِالْإِقْبَالِ الَّذِي لَا يَزَالُ عِنْدَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ وَهُوَ ثَابِتٌ وَيَزِيدُ ، وَيَتَنَاوَلُ مَا قُرِّرَ بِاسْمِهِ فِي كُلِّ شَهْرٍ مِنْ أَسْتِقْبَالِ تَارِيخِهِ بَعْدَ الْخَطِّ الشَّرِيفِ أَعْلَاهُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

المرتبة الثالثة

(مما يكتب به في الاطلاقات)

أن يُكْتَبَ في قطع العادة مفتتحاً بِرِسْمِ بالأمر الشريف ، والرسمُ فيه على نحو ماتقَدَّم في الولايات ، وهو أن يقال : « رسم بالأمر لا زال أن يستقرَّ باسم فلان كذا وكذا : لأنه كذا وكذا » ونحو ذلك .

وهذه نسخة توقيع شريفٍ بمربَّتب على الفَرَجِجِ الجُرْجَانِ الواردين لزيارة القُدُسِ أنشأته لشرف الدين قاسم ، وهي :

رِسْمِ بالأمر الشريف - لا زال عندله الشريف لمال الفَيءِ بين ذَوِي الأَسْتَحْقَاقِ قاسمًا ، وفضله العميمُ لأولى الفضل في سلك الصَّلَاتِ نَاطِمًا ، ومعروفه المعروفُ لمواقع البرِّ يُؤمُّ علما وبيت غانما - أن يستقرَّ لمجلس القاضي فلان الدين على الفَرَجِجِ الجُرْجَانِ الواردين لزيارة قُسامَةَ بالقُدُسِ الشريف كذا وكذا : لما أشتَمَلَ عليه : من مُبِينِ العلم ومَتِينِ العمل وجميل السَّيرِه ، واجتمع لديه : من طَيِّبِ الذِّكْرِ وجميل الأَثَرِ وَصَفْوِ السَّرِيرِه ، وإقامته بالمسجدِ الأفضى الذي هو أحدُ المساجدِ الثلاثة التي تُسَدُّ الرِّحَالَ إليها ، وإحدى القبلتين المعوَّلُ في أول الإسلام عليهما ، ومجاورة الصَّخْرَةِ المعظَّمِه ، والآثارِ الشريفةِ والأماكنِ المَكْرَمِه ، وقيامه بما يجبُ من الدعاء لدولتنا الفاهره ، والأبتهالِ إلى الله تعالى بدوام أياْمِنَا الزاهره .

فليتناول هذا المعلوم مَهَنًا ميسرًا ، وليرجح من كرمنا الوافر فوق ذلك مَظْهَرًا ، وليشهر سلاح دعائه بتلك الأماكن الشريفة على أعداء الله وأعداء الدين ، ويرمهم بسهم الليل التي لا تُحْطَى إن شاء الله تعالى الطَّغَاةَ المتمردين ، فبذلك يستحقُّ هذا السهم من الفَيءِ حقًا ، ويُعدُّ من المقاتلةِ الذابِّين عن الإسلامِ صِدْقًا ، وليقيم على جادة

الاستقامة في الدين وليكن مما سوى ذلك برياً ، ويقابل هو ومثله إنعامنا بالشكر
يتلوا عليهم لسان كرمنا فكلوه هنيئاً مريئاً ، وانلحظ الشريف أعلاه



وهذه نسخة توقيع شريف أيضا أنشأته باسم بهاء الدين أبي بكر بن غانم كاتب
الدست الشريف بالشام المحروس باستمرار مرتبه على الفرنج الجرجان الواردين إلى
تغر الرملية المحروس ، وهي :

رسم بالأمر الشريف - لازل إحسان كرمه يزين بهاء حسنه المكارم ، وكرم
إحسانه تراكم سخائه الهاميه فتررى بالسيول وتهزأ بالغانم ، وفي نواله يقسم
في أوليائنا حلقاً بعد سلف فهم من فضله بين غانم وأبن غانم - أن يستقر مرتب
(١)
الجلس السامى

(١) لم يذكر الطرف الثاني وهو ما يكتب عن الثواب فنه .

الباب الثالث

من المقالة السادسة في الطرخانيات

والمرادُ بها أن يصيرَ الشخصُ مسموحاً له بالخدمِ السلطانية : يُقيم حيثُ شاء ،
ويرتجِل متى شاء : تارةً بمعلوم يتناولُه مجَّاناً، وتارةً بغير معلوم ، وفيه فصلان :

الفصل الأول

في طرخانيات أربابِ السُّيوف

وأعلمُ أنَّ الطرخانية تُكتبُ للأمرءِ تارةً وللأجنادِ أخرى ، وأكثرُ ما تُكتبُ
لمن كبرتِ سنُّه وضعُفت قُدْرتهُ وعجزَ عن الخِدمة السلطانية .
وقد جرتِ العادةُ أن يسمَّى ما يكتبُ فيها مراسم ، وهي على ثلاثِ مراتبِ :

المرتبة الأولى

(أن يُفتَحَ المرسومُ المكتتبُ في ذلك بالحمد لله)

والرسمُ فيه على نحوِ من الولاياتِ : وهو أن تُستوفى الخطبةُ إلى آخرها ، ثم يقال :
وبعدُ ، ثم يقال : ولما كان فلانٌ ونحو ذلك ، ثم يقال : أقتضى رأينا الشريف ،
ثم يقال : فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقرَّ فلانٌ طرخاناً يتصرَّف على اختياره
يسيرُ ويقيمُ في أيِّ مكان اختاره من بلاد المملكة ، وما يجري مجرى ذلك .

وهذه نسخة مرسوم شريف بطرخانيةٍ لأمير ، وهي :

الحمد لله اللطيف بعباده الرؤوف بحلقه ، المانِّ بفضله الغامرِ بجوده الجائد برزقه ،
المتفضل على العبد : في الصبا بصفحه وفي الكهولة بعفوه وفي الشيخوخة بعنقه .

نحمدُه على أن جَبَلْنَا على أَصْطِنَاعِ الصَّنَائِعِ ، وَخَصَّصْنَا بَرَفَ العَوَائِقِ وَقَطَعَ القَوَاطِعِ ،
وَأَلْهَمْنَا عَطْفَ النَّسِقِ وَإِنْ كَثُرَتْ مِمَّا سِوَاهِ التَّوَابِعِ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ
لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ تُسَكِّنُ الرَّحْمَةَ فِي قَلْبِ قَائِلِهَا ، وَتَرْفَعُ سَطْوَةَ الغَضَبِ عَنْ مُتَحَلِّهَا
فِي أَوَاحِرِ السَّطْوَةِ وَأَوَائِلِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مَجْدًا عِبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ أَوْعَدَ
فَعَقًا ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ وَعَدَّ فَوْقِي . صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكَوا
فِي المَعْرُوفِ سَنَنَهُ ، وَنَهَجُوا فِي الإِحْسَانِ إِلَى الخَلْقِ نَهْجَهُ فَكَانَ لَهُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ
حَسَنَةٌ ، صَلَاةٌ تُقِيلُ العَثْرَاتِ ، وَتَلْوِي بِإِن قَبُولِهَا ﴿ إِنَّ الحَسَنَاتِ يُدْهِنُ السَّيِّئَاتِ ﴾
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد ، فإن أَوْلَى مَنْ رَمَقْتَهُ المَرَاحِمُ الشَّرِيفَةُ ، بَعَيْنِ عِنَايَتِهَا ، وَلِحَظَّتِهِ العَوَاطِفُ
الْمَنِيفَةُ ، بَلَحْظِ رِعَايَتِهَا ، ^(١) مَا لَا يُفَارِقُهُ وَلَا يُبَايِنُ ، وَأَنْ لَا يُحِطُّ مِنْ قُدْرَةِ العَالِي
بَسَبَبِ مَا أَتَفَقَّ إِذْ كُلُّ مَقْدَرٍ كَائِنٌ ، وَأَنْ يُصَرَّفَ آخْتِيَارُهُ فِي الإِقَامَةِ حَيْثُ شَاءَ مِنْ
المَمَالِكِ المَحْرُوسَةِ وَالمَدَائِنِ .

فلذلك رَسَمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ - لِأَزَالِ مِنْ شِمِيهِ السَّمَاحِ ، وَمِنْ كَرَمِهِ بُلُوغُ النِّجَا
وَالنَّجَاحِ ، وَمِنْ نِعْمَةِ الصَّفْحِ عَنِ الذَّنْبِ المُنَّاحِ ، حَتَّى يَحْفَظَ عَلَى الأَنْفِيسِ النِّفِيسَةَ
الْأَمْوَالَ وَيُرِيحَ لَهَا الأَرْوَاحَ ، [وَلَا بَرِحَ يُؤَلِّي] ^(٢) مِنْ قِسْمَةِ المَكْرَمَاتِ مَا يُنْسَى بِهِ الذَّنْبُ
فَمَكَانُهُ كَانَ بَرَقًا أَوْ مِضَ وَلمِجَ وَرَاحَ - أَنْ يَكُونَ المُشَارُ إِلَيْهِ طَرْحَانًا يُقِيمُ حَيْثُ شَاءَ
وَأَيْنَ أَرَادَ مِنَ البِلَادِ الإِسْلَامِيَةِ المَحْرُوسَةِ مُعَامَلًا بِمَزِيدِ الإِكْرَامِ وَالأَحْتِرَامِ ، وَأَوْفَرَ
العِنَايَةِ وَالرَّعَايَةِ حَسَبَ مَا أَقْتَضَتْهُ المَرَاثِمُ الشَّرِيفَةُ فِي ذَلِكَ عِنْدَ مَا شِئْتَهُ الصَّدَقَاتُ
العَمِيمَةُ وَالمَرَاحِمُ الشَّامِلَةُ بِالْعَفْوِ الشَّرِيفِ ، وَالحُكْمِ المَنِيفِ ، وَالإِقْبَالِ وَالرِّضَا ،

(١) بياض في الأصل ولعله « من أهله إخلاصه في الخدم لأن يقوم مقام الخ » .

(٢) زدنا هذه الجملة ليتسق الكلام .

والصَّفْحَ عَمَّا مَضَى، لِمَا رَأَيْنَاهُ مِنْ تَرْفِيهِ خَاطِرَهُ، وَقَرَّارِ قَلْبِهِ بِرَفْعِ التَّكْلِيفِ عَنْهُ
وَقُرَّةِ نَظَرِهِ . وَلِمَا تَخَلَّقَتْ بِهِ أَخْلَاقُنَا، مِنْ التَّيْمَنِ الَّذِي أَلْبَسَهُ أَثْوَابَ الْأَمَانِ،
وَجُبِلَتْ عَلَيْهِ طِبَاعُنَا، مِنْ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالرَّاحُونَ بِرَحْمَتِهِمُ الرَّحْمَنُ، وَلِمَا مَهَّدَهُ لَهُ
عِنْدَنَا اعْتِرَافُهُ الَّذِي هُوَ لَهُ فِي الْحَقِيقَةِ أَقْوَى شَفَاعَةٍ، وَلِمَا تَحَقَّقْنَا مِنْ أَنَّهُ لَمْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ إِلَّا لَوْفُورِ الطَّاعَةِ الَّتِي أُوجِبَتْ لَهُ الْإِرْهَابُ إِذْ الْهَرَبَ مِنَ الْمَلُوكِ طَاعَهُ، وَكَيْفِ
لَا وَقَدْ تَيَقَّنَ سُبْحَانَا الشَّرِيفِ وَعَلِمَ، وَخَشِيَ مَهَابَتَنَا الشَّرِيفَةَ وَمَنْ خَافَ سَلِمَ .

فَلْيَتَلَدَّ عُقُودَ هَذِهِ الْمِنَّةِ الَّتِي طَوَّقَتْ جِيدَهُ الْجُودِ، وَلِيَشْكُرْ مَوَاقِعَ هَذَا الْحِلْمِ الَّذِي
سَرَّ وَسَارَ كَالْمَثَلِ السَّائِرِ فِي الْوُجُودِ، وَلِيُقَابِلُ هَذَا الْإِقْبَالَ بِالْإِعْدَاءِ لِأَيَّامِنَا الزَّاهِرَةِ،
وَلِيَحْظَ بِمَوَاهِبِنَا الْعَمِيمَةِ وَصَدَقَاتِنَا الْبَاهِرَةِ، وَلِيَحِظْ عِلْمًا بِأَنَّ إِحْسَانَنَا الْعَمِيمَ قَدْ
أَعَادَ إِلَيْهِ مَا أَلْفَهُ مِنَ الْإِسْعَادِ وَالْإِصْعَادِ، وَأَنَّ صَفْحَنَا الشَّرِيفَ قَدْ أَضْرَبَ عَمَّا
مَضَى وَالْمَاضِيَ لِأَيْعَادِ، فَلْيَقُمْ حَيْثُ شَاءَ مِنَ الْبِلَادِ الْمَحْرُوسَةِ، مَتَقِيًّا ظِلَالَ مَوَاهِبِنَا
الَّتِي يَغْدُو وَسِرَائِرُهَا بِهَا مَا نُوسِسُهُ، وَارْدًا بِحَارِ عَطَايَانَا الزَّائِرَةِ، مَتَمِّعًا بِمَلَابِسِ رِضَانَا
الْفَاحِرَةِ، طَيِّبَ الْقَلْبِ مِنْبَسِطِ الْأَمَلِ، مُنْشِرِحَ الصَّدْرِ بِمَا عَمَّهُ مِنَ الْإِنْعَامِ وَشَمَلِ،
مَرْعَى الْجَنَابِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، مَعْظَمَ الْقَدْرِ عَلَى تَوَالِي الْأَزْمَانِ، مَبْتَهَجًا بِعَمْدِ
مَا عَرَضَ مِنْ ذَلِكَ التَّقْطِيبِ، مُسْتَبْشِرًا بِإِقْبَالِنَا الَّذِي يَلْدُّ بِهِ عَيْشُهُ وَيَطْبِيبُ، وَاللَّهُ
تَعَالَى يُدِيمُ لَهُ عَوَارِفَنَا الْمُطْلَقَةَ، وَغَمَائِمَ كَرَمِنَا الْمُغْدِقَةَ، وَمَوَاهِبِنَا الَّتِي انْتَشَرَتْ لَهُ
فِي كُلِّ قُطْرٍ فَهِيَ لِأَنْوَاعِ الْعَطَايَا مُسْتَعْرِقَةٌ، وَمِنْدَنَا الَّتِي تَسِيرُ مَعَهُ حَيْثُمَا سَارَ وَتُقِيمُ لَدَيْهِ
أَنْ أَقَامَ فَلَا تَزَالُ عِنْدَهُ مَخِيْمَةٌ فِي الْأَمَاكِنِ الْمُنْفَرِقَةِ، وَالْإِعْتَادُ عَلَى الْخَطِّ الشَّرِيفِ
أَعْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَعْلَاهُ .

المرتبة الثانية

(أن يفتح مرسوم الطرخانية بـ «أما بعد»)

والرسم فيه كما في الولايات أيضا يقال فيه [أما بعد] فإن كذا وكذا ، ثم يقال :
ولما كان كذا وكذا ، اقتضى رأينا الشريف ، ثم يقال : ولذلك رُسم بالأمر
الشريف ، ويكَلِّ عليه .

وهذه نسخة مرسوم من ذلك ، وهي :

أما بعد حمد الله على نعمه التي أوزعتنا بالإحسان إلى عباده أداء شكرها ، وآلائه
التي أهدمتنا بالتخفيف عن برئته اقتران محامده بذكرها ، ومنته التي وفق بها دولتنا
الشريفة لأن يكون العدل والإحسان أولى ما أجرته بفكرها ، وأحق ما أمرته
بذكرها . والصلاة والسلام على رسوله الذي أوضح سبيل المعروف ، وشرع سنن
العدل المألوف ، ووصفه الله تعالى بالرافة والرحمة فيه يقتدى كل رحيم وبه ياتم كل
رؤوف ، وعلى آله وصحبه الذين رفعوا منار العدل لسالكيه ، وقربوا منال الفضل
لآخذه وبينوا الحيف والإستطاط لتاركه - فإن الله تعالى خص أيامنا الزاهرة
بتعاهد أهل خدمتنا بالعدل والإحسان ، وتفقد رعايانا بإزالة ما يكدر عليهم موارد
النعم الحسان ، فلا نزال ننعم النظر في أمورهم ، ونفيض عام إحساننا على خاصهم
وجمهورهم ، ليناموا من عدلنا في مهاد الدعة ، ويبيت ضعيفهم من مراحنا الشريفة
في أتم رافة وفقيرهم في أوفر سعة .

ولما كان فلان ممن توفرت في الخدمة الشريفة قسمة ، وكبر في الطاعة سنه ووهن
عظمه ، وعجزت عن الركوب والنزول حركته ، وذهبت مواقف حربه ولم يبق إلا أن
تلتمس بركته - اقتضى حسن الرأي الشريف أن يُضاعف إليه الإحسان ، ويُعامل
بوافر البر وجزيل الأمتنان .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف - لا زال يُوالى المِنَن ، ويُولى الأولياء من المعروف
كلَّ جميلٍ حسنٍ - أن يستقرَّ المذكورُ طَرْخَانًا لا يُطَلَب لخدمة في نهارٍ ولا ليل ،
ولا يُلْزَم بالقيام بتزكُّ^(١) ولا خيل ، فليَمُضْ حَكْمُ هذه الطَرْخَانِيَّة لِاتِّسَاؤُلِ ألسنة الأَقلام
في نصِّه ، ولا تتطرق أوهاجُ الأفهام إلى اعتراضٍ ما ثبت من إعفائه بنقصه ولا نقصه ،
وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه أعتاد مضمونه والوقوف عند حكمة ، والأتفاء إلى حدِّه
وأتباع رُسمه ، إن شاء الله تعالى .^(٢)

الفصل الثاني

من الباب الثالث من المقالة السادسة

(فيما يكتب في طَرْخَانِيَّات أرباب الأَقلام)

وهو قليل نادر قلَّ أن يُكْتَب ، وإذا كتب فغالبا ما يفتتح برسم ، ويسمى
ما يكتب فيه تواقع .

وهذه نسخة طَرْخَانِيَّة كُتِب بها عن الملك الناصر محمد بن قلاوون للقاضي
قُطْب الدين بن المَكْرَم أحد كُتَّاب الدَّرَج الشريف بالأبواب الشريفة ، عند إقامته
بالمحجاز الشريف ، بأن يستقرَّ طَرْخَانًا بنصف معلومه الذي كان له على كتابة الدَّرَج
الشريف وأن يقيم حيث شاء ، وهي :

رُسِم بالأمر الشريف - لا زال يأمرُ فِطَاع ، ويوصلُ فِيعين على الأتقطاع ،
ويُرى على اقتراح الأمل جوده المكرر المَكْرَم فالأمل يقترح ما أستطاع - أن يستقرَّ
للجلس السامي القضائي فلان بن المَكْرَم نفع الله به من معلومه عن كتابة الدرج

(١) التزك الطعن بالتزك وهو رخ صغير .

(٢) لم يذكر المرتبة الثالثة ولعلها ما يفتتح برسم بالأمر الشريف .

الشریف الشاهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت النصف من كل شهر ، على الأذعية الصالحة لهذه الدولة القاهرة ، ويُقيم حيث شاء ، ثم يستقر ذلك لأولاده من بعده ، ثم الأولاد أولاده بالسوية إعانة له على بلوغ قصده ورغائبه ، وأستعانةً بحاضر الجود دون غائبه ، وإكراماً لجانبه ، وطالب وجه الله تعالى [يعان] على الفوز بكنوز مطالبه .

وما كنا لنسمح ببعده عن أبواننا الشريفه ، ولا نُحبيه لمفارقة ما بيده من وظيفه ، لأنه ما يدرك أحد من أبناء عصره مده ولا نصيفه ، ولديوان إنشائنا جمال بعقود كتابته النظيمة ومعاني ألفاظه اللطيفه ، وإتسا لإقباله على الآجله ، وإعراضه عن العاجله ، وأستيعاب أوقاته بأداء الفريضة والنافله ، أسعفتنا سؤاله بالإجابة ، وأعتاه على الإنابة ، وأجزلنا سهمه من الإحسان فبلغ سهمه الإصابه ، ومن أحسن سبيلا من أخذ لنفسه قبل الحين ، ونفض يديه من الدنيا فرآح بالخير مملوء اليدين ، فنظر إلى معاده فأقبل على الله قري العين ، وها نحن قد كرمناه في وقت واحد بإنشاء ولدين .

فليشكر لصدقاتنا هذه النعم المتزايدة ، والصلوات العائده ، والإحسان إليه وإلى بنيه جملةً واحده ، وليسدع لدولتنا القاهرة حين يقوم لله قانتاً ، وحين يقول ناطقاً وحيث يفكر صامتا ، وعند فطره من صومه ، وفي أعقاب الصلوات في ليلته ويومه ، وليوصل إليه هذا المرتب ميسرا لا يكدر مورده بتأخير ، وليصرف إليه مهناً لا يُشأن طولُه بتقصير ، ولا يُحوج إلى عناء وطلب ، ولا يُلجأ في تناوله إلى كد وتعب ، بل يُرفه خاطرُه عما فاز به من حسن المنقلب ، والله تعالى يمده بعونه وفضله ، ويُنجب فرعه ببركة أصله ، والخط الشريف أعلاه حجة فيه ، إن شاء الله تعالى .

الباب الرابع

من المقالة السادسة

(فيما يُكْتَب في التوفيق بين السنين الشمسية [والقمرية] المعبر عنه في زماننا
تحويل السنين، وما يُكْتَب في التذاكر، وفيه فصلان)

الفصل الأول

[فيما يكتب في التوفيق بين السنين، وفيه طرفان

(١)
الطرف الأول]

(في بيان أصل ذلك)

اعلم أن استحقاق الخراج [و] جبايته منوطان بالزروع والتّمار من حيث إن الخراج
من متحصّل ذلك يُؤخَذ، والزروع والتّمار منوطة بالشهور والسنين الشمسية من
حيث إن كل نوع منها يظهر في وقتٍ من أوقاتها ملازمٍ له لا يتحوّل عنه ولا ينتقل
للزوم كل شهر منها وقتاً بعينه من صيف أو شتاءٍ أو خريفٍ أو ربيعٍ؛ وأستخراجُ
الخراج في الملة الإسلامية منوطٌ بتاريخ الهجرة النبوية، على صاحبها أفضل الصلاة
والسلام، وشهوره وسنوه عربية. والشهور العربية تنتقل من وقتٍ إلى وقتٍ،
فربما كان استحقاقُ الخراج في أول سنةٍ من السنين العربية، ثم تراخى الحال فيه
إلى أن صار استحقاقه في أواخرها، ثم تراخى حتى صار في السنة الثانية فيصير الخراج
منسوباً للسنة السابقة، وأستحقاقه في السنة اللاحقة، فيحتاج حينئذٍ إلى تحويل
السنة الخراجية السابقة إلى التي بعدها على ماسياتي ذكره.

(١) الزيادة مأخوذ مما سيأتى له من التقسيم.

قال في "موادّ البيان": والسبب في انفراج ما بين السنين الشمسية والهلالية أنّ أيام السنة الشمسية هي المدة التي تقطع الشمس الفلك فيها دفعة واحدة، وهي ثلثمائة وخمسة وستون يوماً ورُبُع يوم بالتقريب حسب ما تُوجبه حركتها، وأيام السنة الهلالية هي المدة التي يقطع القمر الفلك فيها اثنتي عشرة دفعة، وهي ثلثمائة وأربعة وخمسون يوماً وسُدُس يوم؛ فيكون التفاوت بينهما أحد عشر يوماً وسُدُس يوم، فتكون زيادة السنين الشمسية على السنين الهلالية في كل ثلاث سنين شهراً واحداً وثلاثة أيام ونصف يوم تقريباً. وفي كل ثلاث وثلاثين سنة سنة بالتقريب؛ فإذا تمدد الزمان تفاوت ما بين السنين تفاوتاً قبيحاً؛ فيرى السلطان عند ذلك أن تنقل السنة الشمسية إلى السنة الهلالية بالأسم دون الحقيقة توفيقاً بينهما، وإزالة للشبهة في أمرهما؛ ومتى أوعز بذلك لم يقف على الغرض فيه إلا الخاصّة دون العامة؛ وأسرع إلى ظنّ المعاملين وأرباب الخراج والأملك أنّ ذلك عائد عليهم بظلم وحيف، وإلى ظنّ مستحقّ الإقطاع أنه منقّص لهم، ونسبوا الجور إلى السلطان بسبب ذلك وشنعوا عليه، فرسم بلغاء الكتاب في هذا المعنى رسوا تعود بتفهيم الغي، وتبصير العمى؛ وتوصل المعنى المراد إلى الكافة إيصلاً يتساوون في تصديقه وتيقنه، ولا تتوجه عليهم شبهة ولا شك فيه.

قلت: وقد ذكر أبو هلال العسكري في الأوائل: أنّ أول من أضرّ البروز المتوكل على الله أحد خلفاء بني العباس، وذلك أنه بينما هو يطوف في متصيد له إذ رأى زرعاً أخضر، فقال: قد استأذني عبيد الله بن يحيى في فتح الخراج وأرى الزرع أخضر؛ فقيل له: إن جباية الخراج الآن قد تضرّ بالناس إذ تلجئهم إلى أهمهم يقترضون ما يؤدّون في الخراج، فقال: أهدأ شيء حدث أو لم يزل كذا؛ فقيل له: بل حدث، وعرف أنّ الشمس تقطع الفلك في ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ورُبُع يوم،

وَأَنَّ الرُّومَ تَكْبِسُ فِي كُلِّ أَرْبَعِ سِنِينَ يَوْمًا فَيَطْرَحُونَهُ مِنَ الْعَدَدِ ، فَيَجْعَلُونَ شَبَاطَ ثَلَاثِ سِنِينَ مَتَوَالِيَاتٍ ثَمَانِيَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا . وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةِ يَنْجِرُّ مِنْ ذَلِكَ الرَّبِيعِ الْيَوْمِ يَوْمٌ تَامٌ ، فَيَصِيرُ شَبَاطُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا ، وَيُسَمَّوْنَ تِلْكَ السَّنَةَ الْكَيْسَةَ . وَكَانَتْ الْفَرَسُ تَكْبِسُ لِلْفُضْلِ الَّذِي بَيْنَ سِنِيهَا وَبَيْنَ سَنَةِ الشَّمْسِ فِي كُلِّ مِائَةٍ وَسِتِّ عَشْرَةَ سَنَةً شَهْرًا ؛ فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ عَطَّلَ ذَلِكَ وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَأَضْرَبَ النَّاسُ ذَلِكَ ؛ وَجَاءَ زَمَنُ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ فَاجْتَمَعَ الدَّهَاقِنَةُ إِلَى خَالِدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْقَسْرِيِّ وَشَرَحُوا لَهُ ذَلِكَ (وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ فَأَضْرَبَ النَّاسُ ذَلِكَ) ، وَقَدْ سَأَلُوهُ أَنْ يُؤَخَّرَ إِلَيْهِ [فَأَرْسَلَ] الْكُتُبَ إِلَى هِشَامٍ سَرًّا فِي ذَلِكَ ، فَقَالَ هِشَامُ : أَخَافُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾ .

فَلَمَّا كَانَ أَيَّامَ الرَّشِيدِ اجْتَمَعُوا إِلَى يَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبَرْمَكِيِّ ، وَسَأَلُوهُ فِي تَأْخِيرِ النَّيْرُوزِ نَحْوَ شَهْرِ فَعَزَمَ عَلَى ذَلِكَ ، فَتَكَلَّمَ أَعْدَاؤُهُ فِيهِ وَقَالُوا : تَعَصَّبَ لِلْمَجُوسِيَّةِ ، فَأَضْرَبَ عَنْهُ فَبَقِيَ عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ ؛ فَأَحْضَرَ الْمُتَوَكَّلُ حَيْثُئِذَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ ، وَأَمَرَهُ أَنْ يَكْتُبَ عَنْهُ كِتَابًا فِي تَأْخِيرِ النَّيْرُوزِ بَعْدَ أَنْ تُحَسَّبَ الْأَيَّامُ ، فَوْقَ الْإِتِّفَاقِ عَلَى أَنْ يُؤَخَّرَ إِلَى سَبْعَةِ وَعِشْرِينَ يَوْمًا مِنْ حَزْرِيَّانَ ، فَكَتَبَ الْكِتَابَ عَلَى ذَلِكَ . قَالَ الْعَسْكَرِيُّ : وَهُوَ كِتَابٌ مَشْهُورٌ فِي رِسَائِلِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْعَبَّاسِ ، ثُمَّ قُتِلَ الْمُتَوَكَّلُ قَبْلَ دُخُولِ السَّنَةِ الْجَدِيدَةِ ، وَوَلِيَ الْمُتَصَرِّفُ وَأَحْتِجَّ إِلَى الْمَالِ فَطُؤِلِبَ بِهِ النَّاسُ عَلَى الرَّسْمِ الْأَوَّلِ ، وَانْتَقَضَ مَارِسَتَهُ الْمُتَوَكَّلُ فَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ حَتَّى وَلى الْمُعْتَضِدُ ، فَقَالَ الْعَلِيُّ بْنُ يَحْيَى الْمُنْجَمُ : تَذَكَّرُ ضَجِيجَ النَّاسِ مِنْ أَمْرِ الْخِرَاجِ فَكَيْفَ جَعَلَتِ الْفُرْسُ مَعَ حِكْمَتِهَا وَحُسْنِ سِيرَتِهَا أَفْتِتَاحَ الْخِرَاجِ فِي وَقْتِ مَا لَا يَتِمَّكُنُّ النَّاسُ مِنْ أَدَائِهِ فِيهِ ؟ فَشَرَحَ لَهُ أَمْرَهُ ، وَقَالَ :

(١) لعل ما بين القوسين مكرر من قلم الناسخ .

(٢) بياض في الأصل بقدر كلمة .

ينبغي أن يُردَّ إلى وقته ، ويلزم يوماً من أيام الروم فلا يقع فيه تغير ، فقال له المعتضد سرُّ إلى عبيد الله بن سليمان فوافقه على ذلك ، فصرت إليه ووافقته ، وحسبنا حسابه فوقع في اليوم الحادى عشر من حزيران ، فأحكِم أمره على ذلك ، وأثبت في الدواوين ، وكان النيروز الفارسي إذ ذاك يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين وثمانين ومائتين . ومن شهور الروم الحادى عشر من نيسان .

وقد قال أبو الحسين على بن الحسين الكاتب رحمه الله : عهدت جباية الخراج في سنين قبل سنة إحدى وأربعين ومائتين في خلافة أمير المؤمنين المتوكل رحمة الله عليه تجزى لكل سنة في السنة التي بعدها بسبب تأخر الشهور الشمسية عن الشهور القمرية في كل سنة أحد عشر يوماً ورُبَّع يوم وزيادة الكسر عليه ، فلما دخلت سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، كان قد آنقضى من السنين التي قبلها ثلاث وثلاثون سنة ، وأوطن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمة الله عليه ، واجتمع من هذا المتأخر فيها أيام سنة شمسية كاملة : وهي ثلاثمائة وخمسة وستون يوماً ورُبَّع يوم وزيادة الكسر ، وتيمياً إدراك غلات وثمار سنة إحدى وأربعين ومائتين في صدر سنة اثنتين وأربعين [ومائتين] ، فأمر أمير المؤمنين المتوكل رحمة الله عليه بالغاء ذكر سنة إحدى وأربعين ومائتين ، إذ كانت قد آنقضت ونُسب الخراج إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين .

قال صاحب "المنهاج في صناعة الخراج" : ولما نُقلت سنة إحدى وأربعين ومائتين إلى سنة اثنتين وأربعين ، جَبَّ أصحاب الدواوين الجوالي والصدقات لستى إحدى واثنتين وأربعين ومائتين في وقت واحد ، لأن الجوالي بسر من رأى ومدينة السلام ومضافاتهما كانت تُجَبَّى على شهور الأهلة ، وما كان عن جماجم أهل القرى

(١) والضياع والمستغلات كانت تُجْبَى على شهور الشمس ، بألْزِم أهل الجوالى خاصَّةً في مدة الثلاثِ وثلاثين سنة ، ورفعها العَمَال في حُسباناتهم فاجتمع من ذلك ألوف ألوف دراهم ، فحرت الأعمالُ بعد نقل المتوكَّل على ذلك سنةً بعد سنةٍ ، إلى أن انقضت ثلاثٌ وثلاثون سنةً آخرتُنْ انقضاءً سنة أربع وسبعين ومائتين ؛ فلم يَنْبَهُ كُتَّابُ أمير المؤمنين : المعتمدِ على الله رحمة الله عليه على ذلك ، إذ كان رؤسائهم في ذلك الوقتِ إسماعيلَ بن بُلبل وبنِي القُرَات ، ولم يكونوا عَمِلُوا في ديوانِ الخِراج والضياع في خلافة أمير المؤمنين المتوكل رحمة الله ، ولا كانت أسنانتهم أسناناً بلغت معرفتهم معها هذا التَّغَلُّب ، بل كان مولدُ أحمد بن محمد بن القُرَات قبل هذه السنة بخمس سنين ، ومولدُ عليٍّ أخيه فيها ؛ وكان إسماعيل يتعلَّم في مجلسٍ لم يبلغْ أن يَنْسَخ ، فلما تقلدتُ لناصر الدين رحمة الله عليه أعمالَ الضياع بقروين ونواحيها لسنة ستِّ وسبعين ومائتين ، وكان مقيماً بأذربيجان ، وخليفته بالجبل والقرى جرادة بن محمد ، وأحمد بن محمد كاتبه ، واحتججتُ إلى رفع جماعتي إليه - ترجمتها بجماعة [سنة] ستِّ وسبعين ومائتين [التي أدركت غلاتها وثمارها في سنة سبع وسبعين ومائتين] ، ووجب إلغاء ذكر سنة ستِّ وسبعين ومائتين ؛ فلما وقفنا على هذه الترجمة أنكرها وسألني عن السبب فيها فشرحتُ لها ، ووَكَّدت ذلك بأن عرَّفتهما أني قد استخرجتُ حسابَ السنين الشمسية والسنين القمرية من القراءان [بعد] ما عرضته على أصحاب التفسير ، فذكروا أنه لم يأت فيه شيء من الأثر ، فكان ذلك أوكد

(١) عبارة المقرئ ج ١ ص ٢٧٦ « وفي ثلاث وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالى ورفعها الخ » وهي أوضح .

(٢) الزيادة من "المواعظ والاعتبار" للمقرئ ج ١ ص ٢٧٦ وقد اعتمدها في كثير من التصحيف في هذا الموضع .

في لطف استخراجي : وهو أن الله تعالى قال في سورة الكهف : ﴿ وَلِيُثَبِّتْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ . فلم أجد أحدًا من المفسرين عرف ما معنى ' وازدادوا تسعًا ، وإنما خاطب الله جل وعز نبيه بكلام العرب وما تعرفه من الحساب ؛ فعنى هذه التسع أن الثلاثمائة كانت شمسية بحساب العجم ومن كان لا يعرف السنين القمرية ، فإذا أضيف إلى الثلاثمائة القمرية زيادة التسع كانت سنين شمسية [صحيحة] فاستحسنناه ؛ فلما انصرف جرادة مع الناصر رحمة الله عليه إلى مدينة السلام وتوفي الناصر رضوان الله عليه وتقلد أبو القاسم عبيد الله بن سليمان رحمه الله كتابة أمير المؤمنين : المعتضد بالله صلوات الله عليه ، أجرى له جرادة ذكر هذا النقل ، وشرح له سببه : تقرّباً إليه ، وطعناً على أبي القاسم عبيد الله رحمه الله في تأخيره إياه .

فلما وقف المعتضد بالله رحمه الله على ذلك تقدم إلى أبي القاسم بإنشاء الكتب بنقل سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين ، فكتب ، وكان هذا النقل بعد أربع سنين من وجوبه ، ثم مضت السنون سنة بعد سنة إلى أن انقضت الآن ثلاث وثلاثون سنة أولاهن السنة التي كان النقل وجب فيها : وهي سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرهن انقضاء سنة سبع وثلاثمائة ، فوافق ذلك خلافة المطيع لله في وزارة أبي محمد المهدي ، فأمر بنقل سنة ست وثلاثمائة إلى سنة سبع وثلاثمائة ، ونسبة الخراج إليها فتقلت ، وأمر بالكتابة بذلك من ديوان الإنشاء فكتب به .

وقد حكى أبو الحسين هلال بن المحسن بن أبي إسحق إبراهيم الصابي عن أبيه أنه قال : لما أراد الوزير أبو محمد المهدي نقل السنة أمر أبا إسحق والدي وغيره من كتابه في الخراج والرسائل بإنشاء كتاب عن المطيع لله رحمه الله عليه في هذا المعنى ، وكل منهم كتب ، وعرضت النسخ على الوزير أبي محمد فاختر منها كتاب والدي

(١) وتقدم بأن يُكْتَبَ إلى أصحاب الأطراف . وقال لأبي الفرج بن أبي هاشم خليفته :
اكتب إلى العمال بذلك كتباً مخففة ، وأنسخ في أواخر [ها] هذا الكتاب السلطاني
فحفظ أبا الفرج وقوع التفضيل والاختيار لكتاب الدي ، وقد كان عمل نسخة
أطرح في جملة ما أطرح ، وكتب : « قد رأينا نقل سنة خمسين [إلى إحدى
وخمسين] فاعمل على ذلك » ولم ينسخ الكتاب السلطاني ، وعرف الوزير أبو محمد
ما كتب به أبو الفرج ، فقال له : لماذا أغفلت نسخ الكتاب السلطاني في آخر الكتاب
إلى العمال وإبائته في الديوان ؟ فأجاب جواباً علل فيه ، فقال له يا أبا الفرج : ما تركت
ذلك إلا حسداً لأبي إسحق على كتابه ، وهو والله في هذا الفن أكتب أهل زمانه .

قال صاحب "المنهاج في صنعة الخراج" : وقد كان نقل السنين في الديار المصرية
[أغفل] حتى كانت سنة تسع وتسعين وأربعمائة الهلالية فنقلت سنة تسع وتسعين
الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة فيما رأيته في تعليقات أبي . قال : وأخر ما نقلت
السنة في وقتنا هذا أن نقلت سنة خمس وستين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين
وخمسمائة الهلالية ، فتطابقت السنتان . وذلك أني لما قلت للقاضي الفاضل عبد الرحيم
البيساني : إنه قد آن نقل السنة ، أنشأ سجلاً بنقلها نسخ في الدواوين ، وحمل
الأمر على حكمه ، ثم قال : وما برح الملوك والوزراء يعنون بنقل السنين في أحيائها ،
ومطابقة العاميين في أول زمان اختلافهما بالبعد وتقارب اتفاقهما بالنقل .

قلت : والحاصل أنه إذا مضى ثلاث وثلاثون سنة من آخر السنة ، حوت
السنة الثالثة والثلاثون إلى تلو السنة التي بعدها ، وهي الخامسة والثلاثون ، وتأنى

(١) في المقرئ «هشام» .

(٢) الزيادة من المقرئ ج ١ ص ٢٧٧ .

(٣) من المقرئ ص ٢٧٦ - ج ١ .

الرابعة والثلاثون ، ومقتضى البناء على التحويل الذى كان فى خلافة المطع فى سنة سبع وثلثمائة المقدم ذكره أن تحوّل سنة سبع وثلثمائة إلى سنة تسع وثلثمائة ؛ ثم تحوّل سنة أربعين وثلثمائة إلى اثنتين وأربعين وثلثمائة ، وتلغى سنة إحدى وأربعين ؛ ثم تحوّل سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة إلى سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، وتلغى سنة أربع وسبعين ؛ ثم تحوّل سنة ست وأربعمئة إلى سنة ثمان وأربعمئة ، وتلغى سنة سبع ؛ ثم تحوّل سنة تسع وثلاثين وأربعمئة إلى سنة إحدى وأربعين وأربعمئة ، وتلغى سنة أربعين ؛ ثم تحوّل سنة اثنتين وسبعين وأربعمئة إلى سنة أربع وسبعين وأربعمئة ، وتلغى سنة ثلاث وسبعين ؛ ثم تحوّل سنة خمس وخمسمائة إلى سنة سبع وخمسمائة ، وتلغى سنة ست ؛ لكن قد تقدّم من كلام صاحب "المناهج فى صنعة الخراج" أن التحويل كان تأخر بالديار المصرية إلى آخر سنة تسع وتسعين وأربعمئة ، فحوّلت سنة تسع وتسعين الخراجية إلى سنة إحدى وخمسمائة ؛ فيكون التحويل بالديار المصرية قد وقع قبل استحقاقه بمقتضى الترتيب المقدم ذكره بستّ سنين من حيث إنه كان المستحقّ مغلّ سنة خمس وخمسمائة إلى سنة سبع وخمسمائة كما تقدّم ، فنقلت سنة تسع وتسعين وأربعمئة إلى سنة إحدى وخمسمائة . والأمر فى ذلك قريبٌ إذ التحويل على التقريب دون التحديد .

ثم مقتضى ترتيب التحويل الرابع فى الديار المصرية بعد تحويل سنة تسع وتسعين وأربعمئة إلى سنة إحدى وخمسمائة أن تحوّل بعد ذلك سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة إلى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وتلغى سنة ثلاثٍ وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة خمس وستين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين وخمسمائة ، وتلغى سنة ستّ وستين ؛ ثم تحوّل سنة ثمانٍ وتسعين وخمسمائة إلى سنة ستّمائة ، وتلغى سنة تسع وتسعين وخمسمائة ؛ ثم تحوّل سنة إحدى وثلاثين وستّمائة إلى سنة ثلاثٍ وثلاثين وستّمائة ، وتلغى سنة

أثنتين وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة أربع وستين وستمائة إلى سنة ست وستين وستمائة ،
وتلغى سنة خمس وستين ؛ ثم تحوّل سنة سبع وتسعين وستمائة إلى سنة تسع وتسعين
وستمائة ، وتلغى سنة ثمان وتسعين ؛ ثم تحوّل سنة سبعمائة وثلاثين إلى سنة سبعمائة
وأثنتين وثلاثين ، وتلغى سنة إحدى وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة ثلاث وستين وسبعمائة
إلى سنة خمس وستين وسبعمائة ، وتلغى سنة أربع وستين وسبعمائة ؛ وتحوّل سنة
ست وتسعين وسبعمائة إلى سنة ثمان وتسعين وسبعمائة ، وتلغى سنة سبع وتسعين ؛
ثم لا يكون تحويل إلى سنة تسع وعشرين وثمانمائة ، فتحوّل إلى سنة إحدى وثلاثين
وثمانمائة ، لكن قد حوّل كُتّاب الدواوين بالديار المصرية وأرباب الدولة بها سنة
تسع وأربعين وسبعمائة : (وهي سنة الطاعون الجارف العام) إلى سنة إحدى وخمسين
وسبعمائة ، وألغوا سنة خمسين . وكان يقال : مات في تلك السنة كل شيء حتى
السنة ، وسيأتي ذكر المرسوم المكتتب بها في تحويل السنين في هذه المقالة ،
إن شاء الله تعالى .

وتُنقل ذلك لتأخير وقع من إغفال تحويل سنة سبعمائة وثلاثين المتقدمة الذكر ،
وآخر سنة حوّلت في زماننا سنة ... (١)

(١) بياض في الأصل .

الطرف الثاني

(في صورة ما يكتب في تحويل السنين ، وهو على نوعين)

النوع الأول

(ما كان يكتب في ذلك عن الخلفاء ، وفيه مذهبان)

المذهب الأول

(أن يفتح ما يكتب به «أما بعد»)

وعلى ذلك كان يكتب من ديوان الخلافة ببغداد .

وهذه نسخة ما ذكر أبو الحسين بن علي الكاتب المتقدم ذكره أنه كتب به في ذلك في نقل سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين في خلافة المعتضد بالله أمير المؤمنين ، وهي :

أما بعد ، فإن أولى ما صرف إليه أمير المؤمنين عنايته ، وأعمل فيه فكره ورويته ، وشغل به تفقده ورعايته ، أمر الفيء الذي خصه الله به وألزمه جمعه وتوفيره ، وحياطته وتكثيره ، وجعله عماد الدين ، وقوام أمر المسلمين ، وفيما يصرف منه إلى أعطيات الأولياء والجنود ، ومن يستعان به لتحصين البيضة والذئب عن الحرير ، ووجع البيت ، وجهاد العدو ، وسد الثغور ، وأمن السبل ، وحنن الدماء ، وإصلاح ذات البين . وأمير المؤمنين يسأل الله راغباً إليه ، ومتوكلاً عليه ، أن يحسن عونته على ما حمله منه ، ويديم توفيقه لما أرضاه ، وإرشاده إلى ما يقضى عنه وله .

وقد نظر أمير المؤمنين فيما كان يجري عليه أمر جباية هذا الفيء في خلافة آباءه الراشدين فوجد على حسب ما كان يدرك من الغلات والثمار في كل سنة أولاً

أولاً على مجارى شهور سنَى الشمسِ فى النجوم التى يحلُّ مالٌ كلِّ صنف منها فيها ،
ووجد شهور السنة الشمسية تتأخر عن شهور السنة الهلالية أحد عشر يوماً ورُبعا
وزيادةً عليه ، ويكون إدراك الغلات والثمار فى كل سنة بحسب تأخرها .

فلا تزال السنون تَمْضى على ذلك سنةً بعد سنةٍ حتى تتَقضى منها ثلاثٌ وثلاثون
سنةً وتكونُ عبدة الأيام المتأخرة منها أيام سنةٍ شمسيةٍ كاملةً ، وهى ثلاثمائة وخمسة
وستون يوماً ورُبْع يومٍ وزيادةً عليه ، فحينئذٍ يتَّهياً بمشيئة الله وقدرته إدراكُ الغلات
التي تجرى عليها الضرائبُ والطسوقُ فى استقبال المحرم من سنَى الأهلة . ويجب مع
ذلك إلغاء ذكر السنة الخارجة إذ كانت قد انقضت ونسبتها إلى السنة التي أدركت
الغلات والثمار فيها . وإنه وجد ذلك قد كان وقع فى أيام أمير المؤمنين المتوكل على الله
رحمة الله عليه عند انقضاء ثلاثٍ وثلاثين سنةً ، آخرهن سنة إحدى وأربعين ومائتين ،
فاستغنى عن ذكرها بالغائبها ونسبتها إلى سنة اثنتين وأربعين ومائتين ؛ فخرت
المكاتبات والحسابات وسائر الأعمال بعد ذلك سنةً بعد سنةٍ إلى أن مضت ثلاثٌ
وثلاثون سنةً ، آخرهن انقضاء سنة أربع وسبعين ومائتين ، [ووجب إنشاء الكتب
بالغاء ذكر سنة أربع وسبعين ومائتين] ونسبتها إلى سنة خمس وسبعين ومائتين .
فذهب ذلك على كُتاب أمير المؤمنين [المعتمد على الله وتأخر الأمر أربع سنين إلى
أن أمر أمير المؤمنين] المعتضد بالله رحمه الله فى سنة سبع وسبعين ومائتين بنقل
نحراج سنة ثمان وسبعين ومائتين إلى سنة تسع وسبعين ومائتين ؛ فجرى الأمر على
ذلك إلى أن انقضت فى هذا الوقت ثلاثٌ وثلاثون سنةً : أولهن السنة التي كان
يجب نقلها فيها ، وهى سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرهن انقضاء شهور نحراج
سنة سبع وثلاثمائة ؛ ووجب افتتاح نحراج ما تجرى عليه الضرائب والطسوق فى أولها

(١) الزيادة من المقرئى ص ٢٧٧ ج ١ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

[وإن] من صواب التدبير واستقامة الأعمال، واستعمال ما يخف على الرعية معاملتها به نقل سنة الخراج لسنة سبع وثلاثمائة إلى سنة ثمان وثلاثمائة، فرأى أمير المؤمنين (لم) يلزمه نفسه ويؤاخذها به، من العناية بهذا الفء وحياطة أسبايه، وإجرائها مجاريها، وسلوك سبيل آباءه الراشدين رحمة الله عليهم فيها، أن يكتب إليك وإلى سائر العمال في النواحي بالعمل على ذلك، وأن يكون ما يصدر [إليكم] من الكتب وتصدرونه عنكم وتجري عليه أعمالكم ورفوعكم وحساباتكم وسائر مناظراتكم على هذا النقل .

فأعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأعمل به مستشعرا فيه وفي كل ما أمضيه تقوى الله وطاعته، ومستعملا [عليه] ثقات الأعوان وكفائهم، مشرفا عليهم ومقومًا لهم، واكتب بما يكون منك في ذلك، إن شاء الله تعالى .



وهذه نسخة ما كتب به أبو إسحق الصابي عن المطيع لله بتقل سنة ست وثلاثمائة (١) إلى سنة سبع وثلاثمائة، وهى :

أما بعد ، فإن أمير المؤمنين لا يزال مجتهدا في مصالح المسلمين ، وباعثا لهم على مرآشد الدنيا والدين ، ومهيئا لهم إلى أحسن الاختيار فيما يوردون ويصدرون ، وأصوب الرأى فيما يبرمون وينقضون ، فلا تلوح له خلة داخله على أمورهم إلا سدها وتلافها [ولا حال عائدة بحظ عليهم إلا اعتمدها وأتاها] (٢) ولا سنة عادلة إلا أخذهم باقامة رسمها ، وإمضاء حكمها ، والافتداء بالسلف الصالح في العمل بها والاتباع لها ، وإذا عرض من ذلك ما تعلمه الخاصة بوفور ألبابها ، وتجهله العامة بقصور أفهامها ، وكانت أوامرهم فيه خارجة إليك وإلى أمثالك من أعيان رجاله ، وأمائل

(١) صوابه «نقل سنة خمسين وثلاثمائة الى إحدى وخمسين وثلاثمائة» كما يفيد نص الكتاب بعد اهـ .

(٢) الزيادة من "رسائل الصابي" ص ٢٠٩ ومن المقرئى ص ٢٧٨ ج ١ .

عَمَّالَهُ ، الذين يَكْتَفُونَ بالإشارة ، وَيَجْتَرِعُونَ بِسِيرِ الإبانة والعبارة ، لم يدع أن يبلغ من تلخيص اللفظ وإيضاح المعنى إلى الحسد الذي يلحق المتأخر بالمتقدم ، ويجمع بين العالم والمتعلم ، ولا سيما إذا كان ذلك فيما يتعلق بمعاملات الرعية ، ومن لا يعرف إلا الظواهر الجلية دون البواطن الخفية ، ولا يسئل عليه الانتقال عن العادات المتكررة ، إلى الرسوم المتغيرة ، ليكون القول بالمشروح لمن برز في المعرفة مدركا ، ولمن تأخر فيها مبصرا ، ولأنه ليس من الحق أن تُمنع هذه الطبقة من برد اليقين في صدورها ، ولا أن يقتصر على الأمانة الدالة في مخاطبة جمهورها ، حتى إذا استوت الأقدام بطوائف الناس في فهم ما أمروا به وفقه ما دُعوا إليه وصاروا فيه على كلمة سواء لا يعترضهم شك الشاكين ولا استرابة المستربيين ، أطمأنت قلوبهم ، وأنشرحت صدورهم ، وسقط الخلاف بينهم ، واستمر الاتفاق فيهم ، وأستيقنوا أنهم مسوسون على استقامة من المنهاج ، ومحروسون من جرائر الزيف والأعوجاج ؛ فكان الأتقياء منهم وهم دأرون عالمون ، لا مقلدون مسامون ؛ وطائعون مختارون ، لا مكرهون ولا مجبرون .

وأمر المؤمنين يستمد الله تعالى في جميع أغراضه ومراميه ، ومطالبه ومغازيه ، مادة من صنعه تقف به على سنن الصلاح ، وتفتح له أبواب النجاح ، وتنهضه بما أهله لحمله من الأعباء التي لا يدعى الاستقلال بها إلا بتوقيفه [ومعونه] ، ولا يتوجه فيها إلا بدلالته وهدايته ، وحسب أمير المؤمنين الله ونعم الوكيل .

وأمر المؤمنين يرى أن أولى الأقوال أن يكون سدادا ، وأحرى الأفعال أن يكون رشادا ، ما وجد له في السابق من حكم الله أصول وقواعد ، وفي النص من كتابه آيات وشواهد ، وكان مفضيا بالأمة إلى قوام من دين ودنيا ، ووفاق في آخره وأولى ،

فذلك هو البناء الذي يثبت ويعلو، والغرس الذي ينبت ويزكو، والسعى الذي تتجح مباديه وهو أدية، وتبجح عواقبه وتواليه، وتستنير سبيله لسالكها، وتوردهم موارد السعود في مقاصدهم فيها، غير ضالين ولا عادلين، ولا متحرفين ولا زائلين .

وقد جعل الله عز وجل لعباده من هذه الأفلاك الدائره، والنجوم السائره، فيما تتقلب عليه من اتصالٍ وافتراق، ويتعاقب عليها من اختلافٍ واتفاق، منافع تظهر في كُرور الشهور والأعوام، ومُرور الليالي والأيام، وتناوب الضياء والظلام، واعتدال المساكن والأوطان، وتغاير الفصول والأزمان، ونشء النبات والحيوان، فما في نظام ذلك خلل، ولا في صنعة صانعه زلل، بل هو منوط ببعضه ببعض، ومحوط من كل ثمة ونقض، قال الله سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وقال جل من قائل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ . وقال عزت قدرته: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ . ففضل الله تعالى في هذه الآيات بين الشمس والقمر، وأنبأنا في الباهر من حكمه، والمعجز من كلمه، أن لكل منهما طريقاً سُخرَ فيها وطبيعة جُبلَ عليها، وأن كل تلك المبانة والمخالفة في المسير، تُؤدى إلى موافقة وملازمة في التدبير؛ فمن هنالك زادت السنة الشمسية فصارت ثلثمائة وخمسة وستين يوماً ورُبُعاً بالتقريب المعمول عليه، وهى المدة التى تقطع الشمس فيها المَلَك مرة واحدة، ونقصت السنة الهلالية فصارت ثلثمائة وأربعة وخمسين يوماً وكسراً، وهى المدة التى يُجامع القمر فيها الشمس اثنتى عشرة

مرة، واحتيج إذا انساق هذا الفضل إلى استعمال النقل الذي يطابق إحدى السنتين بالأخرى إذا افترقتا، ويدانى بينهما إذا تفاقمتا .

وما زالت الأمم السالفة تكسب زيادات السنين على افتنانٍ من طرُقها ومذاهبها، وفي كتاب الله عز وجل شهادةً بذلك إذ يقول في قصة أهل الكهف : ﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾ . فكانت هذه الزيادة بأن الفضل في السنين المذكورة على تقريب التقريب .

فأما الفرس فإنهم أجروا معاملاتهم على السنة المعتدلة التي شهروها اثنا عشر شهرا، وأيامها ثلثمائة وستون يوما، ولقبوا الشهور اثني عشر لقباً، وسموا أيام الشهر منها ثلاثين اسماً، وأفردوا الأيام الخمسة الزائدة، وسموها المسترقة وكبسوا الربع في كل مائة وعشرين سنة شهرا .

فلما انقرض ملكهم، بطل في كبس هذا الربع تدييرهم، وزال نور وزهم عن سنته، وانفرج ما بينه وبين حقيقة وقته، انفراجاً هو زائد لا يقف، ودائر لا ينقطع، حتى إن موضوعهم فيه أن يقع في مدخل الصيف وسينتهي إلى أن يقع في مدخل الشتاء، [ويتجاوز ذلك، وكذلك موضوعهم في المهرجان أن يقع في مدخل الشتاء^(١) وسينتهي إلى أن يقع في مدخل الصيف ويتجاوزه .

وأما الروم فكانوا أتقن منهم حكمةً وأبعد نظراً في عاقبة : لأنهم رتبوا شهور السنة على أرسادٍ رصودها، وأنواءٍ عرفوها، وقضوا الخمسة الأيام الزائدة على الشهور، وساقوها معها على الدهور، وكبسوا الربع في كل أربع سنين يوماً، وسموا أن يكون إلى شباط مضافاً فقتروا ما بعده غيرهم، وسهلوا على الناس أن يقتنوا أثرهم، لاجرم

(١) الزيادة من "المقرزي" ص ٢٧٩ ج ١ ومن الرسائل وهي من سقطات النسخ .

(١)
 أن [المعتضد بالله صلوات الله عليه على أوصولهم بنى ، ولما لهم أحتدى] في تصييره
 نوروزة اليوم الحادى عشر من حزيان ، حتى سلم مما لحق النواريزي سالف
 الأزمان ، وتلافوا الأمر في عجز سنى الهلال عن سنى الشمس ، بأن جبروها بالكبس ،
 فكما أجمع من فضول سنى الشمس ما يفي بتمام شهر جعلوا السنة الهلالية التي
 يتفق ذلك فيها ثلاثة عشر هلالا ، فربما تم الشهر الثالث عشر في ثلاث سنين
 وربما تم في سنتين بحسب ما يوجب الحساب ، فتصير سنتا الشمس والهلال عندهم
 متقاربتين أبدا لا يتباعد ما بينهما .

وأما العرب فإن الله جل وعز فضلها على الأمم الماضية ، وورثها ثمرات مساعيها
 المتعبه ، وأجرى شهر صيامها ومواقيت أعيادها وزكاة أهل منتهى ، وجزية أهل
 ذمتها ، على السنة الهلالية ، وتعبدها فيها برؤية الأهلة ، إرادة منه أن تكون مناهجها
 واضحه ، وأعلامها لأئحه ، فيتكافأ في معرفة الغرض ودخول الوقت الخاص منهم
 والعام ، والناقص الفقه والنام ، والأثني والذكر ، وذو الصغر والكبر ، فصاروا حينئذ
 يحبون في سنة الشمس حاصل الغلات المقسومة ونجاج الأرض المسوحة ، ويحبون
 في سنة الهلال الجوالى والصدقات والأرجاء والمقاطعات والمستغلات ، وسائر
 ما يجرى على المشاهرات ، وحدث من التعاؤل والتداخل بين السنين ما لو آسمر
 لقبح جدا ، وازداد بعدا ، إذ كانت الجباية الخراجية في السنة التي تنتهى إليها تنسب
 في التسمية إلى ما قبلها فوجب مع هذا أن تطرح تلك السنة وتلغى ، ويتجاوز إلى
 ما بعدها ويتخطى ، ولم يجوز لهم أن يقتدوا بخالفهم في كبس سنة الهلال بشهر ثالث
 عشر ، لأنهم لو فعلوا ذلك لترححت الأشهر الحرم عن مواقعها ، وانحرفت المناسك

(١) الزائد من "رسائل الصابي" و"المقرزى" .

(٢) كذا في المقرزى أيضا والذي في الرسائل الخطية «والأرحام» .

عن حقائقها ، ونقصت الجباية عن سني الأهلّة القبطية بقسط ما استغرقه الكبس منها ، فانتظروا بذلك الفضل إلى أن تيمّ السنة ، وأوجب الحساب المقرّب أن يكون كل اثنتين وثلاثين سنة شمسية ثلاثا وثلاثين سنة هلالية ؛ فنقلوا المتقدمة إلى المتأخرة نقلا لا يتجاوز الشمسية ، وكانت هذه الكلفة في دنياهم مستسهلة مع تلك النعمة في دينهم .

وقد رأى أمير المؤمنين نقل سنة خمسين وثلاثمائة الخراجية إلى سنة إحدى وخمسين وثلاثمائة الهلالية جمعاً بينهما ، ولزوما لتلك السنة فيهما .

فاعمل بما ورد به أمر أمير المؤمنين عليك ، وما تضمنته كتابه هذا إليك ، ومُرِ الكُتاب قبلك أن يحتدوا رسمه فيما يكتبون به إلى عمّال نواحيك ، ويخلدونه في الدواوين من دُكورهم ورُفوعهم ، ويقرّرونه في دُروج الأموال ، وينظّمونه في الدفاتر والأعمال ، ويدنون عليه الجماعات والحسابات ، ويوعزون بكتبه من الروزنامات والبرآت ، وليكن المنسوبُ كان من ذلك إلى سنة خمسين وثلاثمائة التي وقع النقل [عنها معدّولا به إلى سنة إحدى وخمسين التي وقع النقل ^(١) إليها ، وأقيم في نفوس من بحضرتك من أصناف الجند والرعية وأهل الملة والذمة أنّ هذا النقل لا يغيّر لهم رسماً ، ولا يلحق بهم ثلماً ، ولا يعود على قايض العطاء بتقصان ما استحقّوا قبضه ، ولا على مؤدى حق بيت المال بإغضاء عما وجب أدائه ، فإن قرائح أكثرهم فقيرة إلى إفهام أمير المؤمنين الذي يؤثر أن ترآح فيه العله ، وتسدّ به منهم الخلة ، إذ كان هذا الشأن لا يتجدد إلا في المدد الطوال التي في مثلها يحتاج إلى تعريف الناس ، وإذكار الناس ، وأجب بما يكون منك جواباً يحسن موقعه لك ، إن شاء الله تعالى .

(١) الزيادة من رسائل الصابي الخطية .

المذهب الثاني

(مما كان يُكْتَب عن الخلفاء في تحويل السنين أن يُفْتَح ما يكتب بلفظ :
« من فلان أمير المؤمنين إلى أهل الدولة » ونحو ذلك)
ثم يُؤْتَى بالتحميد وهو المعبر عنه بالتصدير، وعليه كان يكتب خلفاء الفاطميين
بالديار المصرية .

قال في "موادّ البيان" : والطريق في ذلك أن يفتح بعد التصدير والتحميد ...
.....

الضرب الأول

(ما كان يُكْتَب في الدولة الأيوبية)

وكانت العادة فيه أن يفتح بخرجات الأوامر ونحو ذلك ، ثم يذكر فيه نحو
ما تقدم .

وهذه نسخة مرسوم بتحويل السنة القبطية [إلى السنة العربية] ، من إنشاء
القاضي الفاضل عن الملك الناصر « صلاح الدين يوسف بن أيوب » تغمده الله
برحمته ، وهي :

خرجت الأوامر الصلاحية بكتب هذا المنشور وتلاوة مودعه بحيث يستمر ،
ونسخه في الدواوين بحيث يستقر ، ومضمونه .

إن نظرنا لم يزل نتجلى له الجلائل والدقائق ، ويتوحنى من الحسنات ما تسيربه
الحقائب والحقائق ، ويجلد من الأخبار المشروعة ، كل عذب الطرائق رائق ، ويجدد

(١) هنا بياض في الاصل بقدر كلمات ولعل بعدها وهو على ضربين « الضرب الخ .

من الآثار المتبوعة ، ما هو ببناء الخلائق لائق ، ولا يُعَادِرِ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً من الخير إلا جَهَدْنَا أن نَكْتَسِبَهَا ، ولا يُثَوِّبُ بنا الداعي إلى مَثُوبَةٍ إلا رأينا أن نُحْتَسِبَهَا ، لا سِيَّما ما يكون للسنين الماضية مُمَضِيًا ، وإلى القضايا العادلة مُفْضِيًا ، ولِحَاسِنِ الشريعة مُجَلِّيًا ، ولِعَوَارِضِ الشُّبُهَةِ رَافِعًا ، ولتَنَاقُضِ الخَبَرِ دَافِعًا ، ولأَبْوَابِ المَعَامَلَاتِ حَافِظًا ، ولأسبابِ المَعَالِطَاتِ لَافِظًا ، ولتَخَوَّاطِرِ من أمراضِ الشُّكُوكِ مُصَحِّحًا ، وعن حَقَائِقِ اليقين مُفْصِحًا ، وللأَسْمَاعِ من طَيِّفِ الأَخْتِلَافِ مُعْغِيًا ، ولعنايةِ الإِشْكَالِ من طُرُقِ الأَفْهَامِ مُعْغِيًا .

ولما أَسْتَهَلَّتْ سَنَةٌ كَذَا الهَلَالِيَّةُ ، وَقَدْ تَبَاعَدَ ما بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّنَةِ الخِرَاجِيَّةِ إِلَى أن صَارَتْ غَلَّتْهَا مَنَسُوبَةٌ إِلَى ما قَبْلَهَا ، وفي ذلك ما فِيهِ : من أَخَذَ الدَّرْهَمَ المَنقُودَ ، عن غيرِ الوَقْتِ المَنقُودِ ، وتَسْمِيَةِ بَيْتِ المَالِ مُمَطَّلًا وَقَدْ أُنْجِزَ ، وَوَصَفِ الحَقِّ المُتَلَفِّ بِأنه دَيْنٌ وَقَدْ أُعْجِزَ ، وَأَكَلَ رِزْقَ اليَوْمِ وتَسْمِيَتِهِ مَنَسُوبًا إِلَى أَمْسِهِ ، وإِخْرَاجِ المَعْتَدِّ لِسَنَةِ هَلَالِهِ إِلَى حِسابِ المَعْتَدِّ إِلَى سَنَةِ شَمْسِهِ .

وكان اللهُ تَعَالَى قد أَجْرَى أمرَ هَذِهِ الأُمَّةِ عَلَى تاريخِ مَنزَعِهِ عَنِ اللَّبَسِ ، مُوقِّرًا عَنِ الكَبَسِ ، وَصَرَّحَ كِتابُهُ العَزِيزُ بِتَحْرِيمِهِ ، وَذَكَرَ ما فِيهِ من تَأخِيرِ وَقْتِ النِّسْيِ وتَقْدِيمِهِ ؛ والأُمَّةُ المَحْمُودِيَّةُ لا يَنْبَغِي أن يُدْرِكَهَا الكَسْرُ ، كَمَا أن الشَّمْسَ لا يَنْبَغِي أن تُدْرِكَ القَمَرَ ، وَسُنُّهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالباطِلِ فَارِقَةٌ ، وَسُنُّهَا أَبَدًا سَاقِيَةٌ ، وَالسُّنُونُ بَعْدَهَا لا حَقَّ ، يَتَعَاوَرُهَا الكَسْرُ الَّذِي يُزْحِرُحُ أَوْقَاتَ العِبَادَاتِ عَنِ مَوَاضِعِهَا ، ولا يُدْرِكُ عَمَلَهَا إلا من دَقَّ نَظْرَهُ ، وَاسْتَفْرَعَتْ فِي الحِسابِ فِكْرَهُ ، وَالسَّنَةُ العَرَبِيَّةُ تَقَطَّعَ بِخَنَاحِ أَهْلِهَا الأَشْتِبابِ ، وَتَرُدُّ شَهْرَها حَالِيَةً بِعُقُودِها مُوسُومَةَ الحِبابِ ، وَإِذَا تَقَاعَسَتِ السَّنَةُ الشَّمْسِيَّةُ عَنِ أن نَطَأَ أَعْقَابَها ، وَتَوَاطَى حِسابَها ، اجْتَذَبَتْ قِراها قَسْرًا ، وَأَوْجَبَتْ

لحَقَّهَا ذِكْرًا، وَتَرَوَجَّتْ سَنَةُ الشَّمْسِ سَنَةَ الْهِلَالِ وَكَانَ الْهِلَالُ بَيْنَهُمَا مَهْرًا، فَسَنَّتَهُمُ
 الْمُؤَنَّثَةُ وَسَنَّتْنَا الْمَذْكُورَةَ، وَآيَةُ الْهِلَالِ هُنَا دُونَ آيَةِ اللَّيْلِ هِيَ الْمُبْصَرَةُ، وَفِي السَّنَةِ
 الْعَرَبِيَّةِ إِلَى مَا فِيهَا مِنْ عَرَبِيَّةِ الْإِفْصَاحِ، وَرَاحَةِ الْإِيضَاحِ، الزِّيَادَةُ الَّتِي تَظْهَرُ
 فِي كُلِّ ثَلَاثٍ وَثَلَاثِينَ سَنَةً تُوفِّي عَلَى عَدَدِ الْأُمَّمِ قَطْعًا، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ إِلَيْهَا بِقَوْلِهِ:
 ﴿وَلْيَبُثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾. وَفِي هَذِهِ السَّنَةِ الزَّائِدَةِ زِيَادَةً،
 مِنْ لَطَائِفِ السَّعَادَةِ، وَوِطَائِفِ الْعِبَادَةِ، لِأَنَّ أَهْلَ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ يَمْتَازُونَ عَلَى كُلِّ
 مِلَّةٍ بِسَنَةِ فِي نَظِيرِ تِلْكَ الْمُدَّةِ قَصْدُوا صَلَاتَهَا، وَأَدَّوْا زَكَاتَهَا، وَحَجَّوْا فِيهَا الْبَيْتَ الْعَتِيقَ
 الْكَرِيمَ، وَصَامُوا فِيهَا الشَّهْرَ الْعَظِيمَ، وَاسْتَوْجَبُوا فِيهَا الْأَجُورَ الْجَلِيلَةَ، وَأَنَّسَتْ فِيهَا
 أَسْمَاءُهُمْ بِالْأَعْمَارِ الطَّوِيلَةِ، وَمَخَالَفُوهُمْ فِيهَا قَدْ عَطَلَتْ صِحَابَتَهُمْ فِي عُذْوَانِهِمْ، وَإِنْ
 كَانَتْ عَاطِلَةً، وَخَلَّتْ مَوَاقِفَهُمْ فِي أَدْيَانِهِمْ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ قَطُّ آهَلَةً.

وَقَدْ رَأَيْنَا بِاسْتِخَارَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَتَبُّعِ الْعَوَائِدِ الَّتِي سَلَكَهَا السَّلَفُ،
 وَلَمْ تَسْلُكْ فِيهَا السَّرْفَ، أَنْ يَنْسَخُوا أَسْمَاءَهَا مِنَ الْخُرَاجِ، وَيَذْهَبَ مَا بَيْنَ السَّنِينَ
 مِنَ الْأَضْطِرَابِ وَالْإِعْجَاجِ، لِأَسْمَاءِ الشُّهُورِ الْخُرَاجِيَّةِ قَدْ وَاقَعَتْ فِي هَذِهِ الشُّهُورِ
 الشُّهُورَ الْهِلَالِيَّةِ، وَأَلْقَى اللَّهُ فِي أَيَّامِنَا الْوِفَاقَ بَيْنَ الْأَيَّامِ، كَمَا أَلْقَى بَاعْتِلَانَنَا الْوِفَاقَ بَيْنَ
 الْأَنَامِ، وَأَسَكَّنَ بِنَظَرِنَا مَا فِي الْأَوْقَاتِ مِنْ أَضْطِرَابٍ وَفِي الْقُلُوبِ مِنْ أَضْطِرَامٍ.

فَلْيُسْتَأْنَفِ التَّارِيخُ فِي الدَّوَابِ الْمَعْمُورَةِ، لِأَسْتِقْبَالِ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ، بِأَنْ تُوسَمَ
 بِالْهِلَالِيَّةِ الْخُرَاجِيَّةِ لِإِزَالَةِ الْإِلْتِبَاسِ، وَإِقَامَةِ الْقِسْطِ، وَإِيضًا [حَا] لِمَنْ أَمْرُهُ عَلَيْهِ
 عُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ، وَعَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ، تُكْتَبُ سِجِلَاتُ التَّحْضِيرِ، وَتُنَظَّمُ الْحُسْبَانَاتُ
 الْمَرْفُوعَةُ، وَالْمَشَارِعُ الْمَوْضُوعَةُ، وَتَنْطَرِدُ الْقَوَانِينُ الْمَشْرُوعَةُ، وَتُثَبَّتُ الْمَكَلَّفَاتُ
 الْمَقْطُوعَةُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ دَوَاعِي نَقْلِهَا، وَعَوَارِضِ زَلِيلِهَا وَزَوَالِهَا، إِلَّا أَنَّ الْأَجْنَادَ

إذا قبضوا واجباتهم عن منشورٍ إلى سنةٍ نحس في أواخر سنةٍ سبعٍ وسقط ساقطهم بالوفاة، وجرى بحكم السمع لا بالشرع إلى أن يرث وارثه دون بيت المال مستغلاً السنة الخراجية التي يلتقي فيها تاريخ وفاته من السنة الهلالية وفي ذلك ما فيه، مما يبين الإنصاف وينافيه [لكفى] .

وإذا كان العدل وضع الأشياء في مواضعها فلستنا نحرم أيامنا المحرمة بدماننا، مارزقته أبناؤها من عدل أحكامنا، بل نخلع عن جديدها المس كل المس، و[تمنع] تبعه الضلال أن تُسند مهادنته إلى نور الشمس، ولا نجعل أيامنا معمورة بالأسقاط التي تجمعها، بل معمورة بالأقساط التي تنفعها، فليبن التاريخ على بنيانه وليحسم الخلف الواقع في السنين، بهذا الحق الصادع المبين، وليُنسخ المشهود به في جميع الدواوين، وليكتب بحكمه من الخراج إلى من يملكه من المستخدمين - ومنها أن المستجد من الأجناد لو حُل على السنة الخراجية في استغلاله، وعلى الهلالية في استقباله، لكان محالاً على ما يكون محالاً، وكان يتعجل استقبالا، ويأطن استعلالا، وفي ذلك ما ينافر أوصاف الإنصاف ويصون الفلاح إن شاء الله تعالى .

الضرب الثاني

(ما يُكتب به في زماننا)

وقد جرت العادة أن يكتب في قطع الثلث وأنه يفتح بخطبة مفتحة بـ«الحمد لله» ثم يقال : وبعد فإننا لما اختصنا الله تعالى به من النظر في أمر الناس ومصالحهم، ويذكر ما سنح له من ذلك ثم يقال : ولما كان، ويذكر قصة السنين : الشمسية والقمرية، وما يطرأ بينهما من التباعد الموجب لنقل الشمسية إلى القمرية،

ثم يقال : أفتضى الرأي الشريف أن يحول مغل سنة كذا إلى سنة كذا وتذكر نسخة ذلك ، ثم يقال : فرسم بالأمر الشريف الفلانى لا زال أن تحول سنة كذا إلى سنة كذا .

وهذه نسخة مرسوم بتحويل السنة القبطية إلى العربية ، وهى :

الحمد لله الذى جعل الليل والنهار آيتين ، وصير الشهور والأعوام لأبتداء المبدء وانتهائها غايتين ، ليعلم خلقه عدد السنين والحساب ، وتعمل برئته على توفية الأوقات حقها من الأفعال التى يحصل بها الاعتداد ويحسن بها الاحتساب .

نحمده على ما خص أيامنا الزاهرة من إنعام النظر فى مصالح خلقه ، وإمعان الفكر فى تشييد ما بسط لهم من رزقه ، وإزالة الضرر فى تيسير القيام بما أوجب عليهم من حقه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عاصمة من الزبغ ذا هوى ، معتصمة من التوفيق بأقوى أسباب التوثيق وأوثق أسباب القوى ، شافعة حسن العمل فى مصالح العباد بحسن النية ، فإن الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرئ ما نوى ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى بعثه الله رحمة للعالمين ، وحجة على العالمين ، ونشردعوته فى الآفاق فأيده لإقامتها بنصره وبالمؤمنين ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أمروا فإطاعوا ، ونهوا فاجتنبوا ما نهوا عنه ما استطاعوا ، صلاة تسمى نساء البذور ، وتبقى بقاء الدهور ، وتطوى بنشرها مراحل الأيام إلى يوم النشور .

وبعد ، فإننا لما أختصنا الله تعالى به من التوفيق على مصالح الإسلام ، والتناول لما تنشرح به فى مواقف الجهاد ، صدور السيوف وتنطق به فى مصالح العباد ، السنة الأفلام ، تتبع كل أمر فنسد خلاله ، ونثقف ميله ، ونقيم أوده ، وننظر ليومه

بما يصلح به يومه ولغده بما يصلح غده ، إصلاحاً لكل حالٍ بحسبه ، وتقريباً لكل شيءٍ على ما هو أليقُ بشأنه وإقراراً لكل أمرٍ على ما هو الأحسنُ به .

ولما كان الزمنُ مقسوماً بين سنينَ شمسيةٍ يتفق فيها ما أخرج الله تعالى من الرزق لعباده ، ويحصلُ بها ميقاتُ القوتِ الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ كَلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ﴾ وقريةٍ لا يعولُ في أحكامِ الدينِ إلا عليها ، ولا يرجعُ في تواريخِ الإسلامِ إلا إليها ، ولا تُعتبرُ العبادةُ الزمانيةُ إلا بأهلئها ، ولا يُهتدى إلى يومِ الحجِّ الأكبرِ إلا بأدلتها ، ولا يعتدُّ في العددِ التي تُحفظُ بها الأنسابُ إلا بأحكامها ، ولا تُعلمُ الأشهُرُ الحُرُمُ إلا بوجودها في الأوقاتِ المخصوصة من عامها . وكان قد حصلَ بينهما من تفاوتِ الأيامِ في المددِ ، واختلافِ الشهورِ الهلاليةِ في العددِ ، ما يلزمُ منه تداخلُ مُغلٍّ في مُغلٍّ ، ونسبةُ شيءٍ راحٍ وأنقضى إلى ما أدرك الآنُ وحصلَ ، ويؤدى ذلك إلى إبقاءِ سنةٍ بغيرِ نَحَاجٍ ، وهُدْرٍ ما يجبُ تركه فليس الوقتُ إليه محتاجٌ ، وإلغاء ما يتعينُ إلغائهُ ، وإسقاط ما تلتفتُ إليه الأذهانُ وهو لا يمكنُ رجائهُ ، وإن كان ذلك الإسقاطُ لاضررٍ فيه على العبادِ والبِلادِ ، ولا نقصٌ يتجُ منه للأمرءِ والأجنادِ ، ولا حقيقةٌ له ولا معنى ، ولا إهمالٌ شيءٍ أفقرُ تركهُ ولا إبقائهُ أغنى ، ولكن صار ذلك من عوائدِ الزمنِ القديمِ ، ومصطاحاً لا تزالُ العقولُ بالأحتياجِ إلى فعله عليه ، وأمرها لا بُدَّ لئلكِ منه ، وحالاً لا مندوحةً للدولِ عنه ، لتغدو التصرفاتُ على الاستقامةِ ماشيةً ، والمعاملاتُ من الحقِ ناشيةً ، ويعنى رسمُ مالم يكن في الحقيقةِ رابطُ ، ويزالُ أسمُ مالمو توسمهُ الفضلُ لأضحى كأنه يُغالطُ - أقتضى حسنُ الرأى الشريفُ أن تحوّلَ هذه السنةُ التي يحصلُ بها الكبسُ ، وأن يدحضَها يقينُ النفسِ ، وأن يُرفعَ ما بها من أشكالِ الإشكالِ ، ويُزالَ هذا السببُ الذى نشأ عنه دخولُ الأكثرِ باستدراجِ الأقلِ فلا يكونُ للأذهانِ عليه أتكالُ .

نظراً بذلك في مصالح الأمة ، ودفعاً لما يجدونه من أوهام مُدْهِمَةٍ ، وعملاً يطابق به الدليل حكمة ، ويوافق فيه اللفظ معناه والفعل أسمه ، وتخفيفاً عن الرعية من لزوم مالا يلزم في الحقيقة عملاً بقوله تعالى : ﴿ ذَلِكْ تَخْفِيفٌ مِّنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لا زال عدله سائراً في الأيام والأَنَام ، وفضله [سائداً] بالرفق الذي تغدو به العقول والعيون كأنها من الأمن في منام - أن يُحوَّل مغل سنة تسع وأربعين وسبعائة بالديار المصرية المحروسة ، لمغل سنة خمسين وسبعائة ، ويُغنى أسم مغل السنة المذكورة ، من الدواوين المعمورة ، ولا يُنسب إليها مغل بل يكون مغل سنة خمسين وسبعائة تالياً لمغل سنة ثمان وأربعين وسبعائة ، وتستقر السنة حينئذ هلالية خراجية بحكم دوران السنين ، وأستحقاق هذا التحويل من مدة خمس عشرة سنة ، حيث أتفاق مبدأ السنين الشمسية والقمرية ، ووقوع الإغفال عن هذا المَبْهَم في الدول الماضية ، لتكون هذه الدولة الشريفة قائمة بما قعد عنه من مَضَى من الدول ، مقومة بعون الله لكل متأقِد من الزبغ والخلل ، لما في ذلك من المصلحة العامة ، والمنحة التامة ، والحق الواضح ، والقصد الناجح ، والمنهج القويم ، والصراط المستقيم ، والأعتاد على الشهور القمرية قال الله تعالى : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ .

فليعتمد حكم ماقرزناه ، وليمثل أمر ما أمرناه ، وليثبت ذلك في الدواوين ، وليشمر نبؤه المبين ، وليسقط ما تخلل بين هاتين السنتين من المغل الذي لاحقيقة له ، وليترك ما بينهما من التفاوت الذي لا تعرف الحسابات معدله ، وليصح أسم هذه الأيام من الدفاتر ، ولينسح حكمها فإنها أولى بذلك في الزمن الآتي والغابر ، فليس المغل سوى للعام الذي وجد فيه سببه ، وظهر فيه حصوله وتعين طلبه ، وأدرك في إبانته ، وجاء

في زمانه، وأبغ به ثم غرسه، وأستحَقَّ في وقته لا كما يلزم أن يكون اليوم في أمسه؛
وفي ذلك من الأسباب الباعثة على ممارستها به، والدواعي اللازمة لدهابه، والبراهين
القاطعة بقطعها، والدلائل الواضحة على دفعه، ما قدمناه: من المصالح المعينه،
والطرق المبيته، وإزالة الأوهام، وتأكيده الأفهام، وإراحة الخواطر، وإزاحة
ما تشوق إليه الظنون في الظاهر، وليبطل ذلك من الارتفاعات بالكيفية، ويستقط
من الجرائد لتغدو الحسابات منه خليه، ولا يذكر مغل السنة المدحوضة في سجل
ولا مشروح، ولا مشهود يغدو حكمه ويروح، ولا مكلفات تُودعها الأقلام شيئاً
على الحجاز وهو في الحقيقة مطروح، لتثبت الحسنات لأيماننا الزاهرة في هذا المحو،
ويكشف ما ينتج بسماء العقل من غيم الجهالة بما وصح من هذا الصحو، ويتمسك
في صحة العبادات والمعاملات بالسنيين العربية من غير خروج عن ذلك النحو، والله
تعالى يبين بنا طرق الصواب، ويحسن ببقاء ملكنا الشريف المال والمآب، ويجعل
دولتنا توضح الأحكام على اختلاف الحديد: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ .

والاعتقاد فيه على الخط الشريف - أعلاه الله تعالى - أعلاه، إن شاء الله تعالى .

(١)
حادى عشرين جمادى الأولى سنة خمسین وسبعائة .

حسب المرسوم الشريف، بالإشارة الكافية السيفية، كافل الممالك الشريفة
الإسلامية، أعز الله تعالى نصرته، ثم الحمدلة والتصلية والحسبة .

قلت: وهذه النسخة صدرها إلى قوله: والشهور الهلالية أجنبي عما بعد
ذلك من نعمة الكلام. وذلك أني ظفرت بعجز النسخة، وهو المكتتب في تحويل

(١) كذا في الأصل باثبات النون وهو كثير في كتابات الكتاب وهو لحن .

سنة تسع وأربعين في نفس المرسوم الشريف الذي شملته العلامة الشريفة ،
وقد قُطِعَ أوَّلُه فَرَكَّبَها على هذا الصَّدْر .

ومن عجيب ما يُذَكَّرُ في ذلك أن سنة تسع وأربعين التي حُوِّلَتْ إلى سنة خمسين
هي السنة التي وَقَعَ فيها الطاعونُ الجارفُ الذي عمَّ الأقطارَ خلا المدينة النبوية ،
على ساكنها أفضل الصلاة والسلام التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يدخُلها
الطاعون ، وكَثُرَ فيها الموتُ حتى أَنتَهَى إلى عشرين ألفاً في اليوم الواحد ، وكان يُقال
في هذه السنة لما حُوِّلَتْ : [مات كلُّ شيء حتى السنة] لإلغائها . وجعل مُغَلَّ
سنة خمسين تالياً لمُغَلِّ سنة ثمانٍ وأربعين كما تقدَّم .

الفصل الثاني

من الباب الرابع من المقالة السادسة
(فيما يُكْتَبُ في التذكار)

والتذكار جمع تذكرة .

قال "في مواد البيان" : وقد جرت العادة أن تُضَمَّنَ حملَ الأموال التي يُسافر
بها الرسولُ ليعودَ إليها إن أغفل شيئاً منها أو نسيه ، أو تكونَ حجةً له فيما يُورده
ويُصدره ، قال : ولا غنى بالكاتب عن العلم بعنواناتها وترتيبها .

فأما عنوانُ التذكرة في صدرها تلوَ البسملة ، فإن كانت للرسول يعمل
عليها ، قيل : تذكرة منجحة صدرت على يد فلان عند وصوله إلى فلان بن فلان ،
ويُنْتَهَى بمشيئة الله تعالى إلى ما نُصِّصَ فيها . وإن كانت حجةً له يعرضها لتشهد بصدق

ما يورده، قيل : تذكرة مُنِجحة صدرت على يد فلان بن فلان بما يحتاج إلى عَرْضه على فلان .

وأما الترتيبُ فيختلف أيضا بحسب اختلاف العُنوان : فإن كانت على الرسم الأول ، كان بصدرها « قد استخرنا الله عز وجل وندينك ، أو عولنا عليك ، أو نقدناك ، أو وجهناك إلى فلان : لإيصال ما أودعناك وشافهناك به من كذا وكذا » ويقص جميع الأغراض التي أُلقيت إليه جملة . وإن كانت محمولة على يده كالجملة له فيما يعرضه ، قيل : « قد استخرنا الله عز وجل وعولنا عليك في تحمل تدكيرنا هذه والشُحُوص بها إلى فلان ، أو النفوذ ، أو التوجه ، أو المصير ، أو القصد بها وإيصالها إليه ، وعرض ما تضمنته عليه ، من كذا وكذا » ويقص جميع أغراضها .

ثم قال : وهذه التذاكرُ أحكامُها أحكامُ الكتب في النفوذ عن الأعلى إلى الأدنى ، وعن الأدنى إلى الأعلى ، فينبغي أن تُبتنى على ما يحفظ رتب الكاتب والمكتوب إليه : فإن كانت صادرة عن الوزير إلى الخليفة مثلا فتصدر بما مثاله « قد استخرت الله تعالى ، وعزلت عليك في الشُحُوص إلى حضرة أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - متحملا هذه التذكرة ، فإذا مثلت بالمواقف المطهرة ، فوقها حقها من الإعظام والإجبار ، والإجلال والوقار ، وقدم تقمیل الأرض والمطالعة بما أشاء مواصلته من شُكر نعم أمير المؤمنين الضافية على ، المتابعة لدى ، وإخلاص طاعته ، وأنتصاي في خدمته ، وتوفيري على الدعاء بنبات دولته ، وخُلُود مملكته ، وطالع بكذا وكذا » وعلى هذا النظام إلى آخر المراتب يعني مراتب المكاتبات .

قلت : والذي جرى عليه اصطلاحُ كُتّاب الزمان في التذاكر أن التذكرة تكتب في قطع الشامي ، تُكسّر فيها الفرخة الكاملة نصفين ، وتجعل دفترا وورقة إلى جنب

أخرى لا كُرَّاسَةً بعضها داخل بعض ، وتكون كُتَابَتُهَا بِقَلَمِ الرَّقَاعِ ، وتكون البسْملة في أعلى باطن الورقة الأولى ببياض قليل من أعلاها وهامش عن يمينها ؛ ثم يُكْتَبُ السطر التالي من التذكرة على سَمْتِ البسْملة ملاصقاً لها ، ثم يُحَلَّى قَدْرُ عَرْضِ إصبعين بياضاً ويكتب السطر التالي ، ثم يُحَلَّى قَدْرُ إصبع بياضاً ويكتب السطر التالي ؛ ويجرى في باقى الأسطر على ذلك حتى يأتى على آخر الورقة ، ثم يُكْتَبُ باطن الورقة التى تليها كذلك ، ثم ظاهرها كذلك ، ثم الورقة الثانية فبا بعدها على هذا الترتيب إلى آخر التذكرة ، ثم يكتب « إن شاء الله تعالى » ثم التاريخ ، ثم الحدلة والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الحسبلة ، على نحو ما تقدم فى المكتبات والولايات وغيرها على ما تقدم بيانه فى المقالة الثالثة فى الكلام على الخواتم .



وهذه نسخةُ تَذَكْرَةِ أنشأها القاضى الفاضلُ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ ابنِ أيوب ، سيرها صُحْبَةُ الأمير شمس الدين الخطيب : أحدِ أمراءِ الدولة الصلاحية إلى أبواب الخلافةِ ببغدادَ فى خلافةِ الناصر لدين الله ، وهى :

تَذَكْرَةٌ مباركة ولم تزل الذكرى للؤمنين نافعاً ، ولعوارىض الشكِّ دافعاً ، صُمِّتْ أغراضاً يُقَيِّدُهَا الكِتَابُ ، إلى أن يُطْلَقَهَا الخطاب . على أن السائر سيار البيان ، والرسول يمضى على رسل التبيان ؛ والله سبحانه يُسَدِّدُهُ قَائِلاً وفاعلاً ، ويحفظُهُ بادئاً وعائداً ومقيماً وراحلاً .

الأميرُ الفقيهُ شمسُ الدين خطيبُ الخطباء - أدام الله نعمته ، وكتب سلامته ، وأحسن صحابته - يتوجه بعد الاستخارة ويقصد دار السلام ، والخطبة التى هى عُشُّ بيضة الإسلام ؛ ومجتمع رجاء الرجال ، ومتسع رحاب الرجال ؛ فإذا نظر تلك الدار

الدائر سبحانها ، وشافه بالنظر معالم ذلك الحرم المحترم على الخطوب خطبها ، ووقف أمام تلك المواقف التي تحسد الأرجل عليها الرؤوس ، وقام بتلك المنازل التي تنافس الأجسام فيها النفوس ، فلو استطاعت لزارت الأرواح محرمة من أجسادها ، وطافت بكعبتها متجردة من أعمادها ، فليمطر الأرض هناك عنا قبلا تخضها ، بأعداد لا تحصى ؛ وليسلم عليها سلا ، نعتده من شعائر الدين اللازمه ، وسنن الإسلام القائم ، وليورد عنا تحية يستزلهما من عند الله تحية مباركة طيبة ، وصلاة تحترق أنوارها الأستار المحجبه ، وليصاغ عنا بوجهه صفحة الثرى ، وليستشرف عنا بنظره فقد ظفر بصباح السرى ، وليستلم الأركان الشريفة ، فإن الدين إليها مستند ، وليستدم الملاحظات اللطيفة ، فإن النور منها مستمد ، وإذا قضى التسليم وحق اللقاء ، وأستدعى الإخلاص جهد الدعاء ، فليعد وليعد حوادث ما كانت حديثا يفتري ، وجواري أمور إن قال منها كثيرا فأكثر منه ما جرى ، وليشرح صدرا منها لعله يشرح منا صدرا ، وليوضح الأحوال المستسرة فإن الله لا يعبد سرا :

وَمِنَ الْغَرَائِبِ أَنْ تَسِيرَ غَرَائِبُ * فِي الْأَرْضِ لَمْ يَعْلَمْ بِهَا الْمَأْمُولُ

كَالْعَيْسِ أَقْتَلُ مَا يَكُونُ لَهَا الظَّمَا * وَالْمَاءُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَجْمُولُ

فإننا كنا نقتبس النار بأيدينا ، وغيرنا يستدير ، ونستديط الماء بأيدينا ، وغيرنا يستمير ، ونلقى السهام بنحورنا ، وغيرنا يغير التصوير ، ونصاغ الصفاح بصدورنا ، وغيرنا يدعي التصدير ، ولا بد أن نسترد بضاعتنا ، بموقف العدل الذي ترد به الغصوب ، ونظهر طاعتنا ، فنأخذ بحظ الألسنة كما أخذنا بحظ القلوب ، وما كان العائق إلا أننا كنا ننظر ابتداء من الجانب الشريف بالنعمة ، يضاهاى ابتداءنا بالخدمة ، وإيجابا للحق ، يشاكل إيجابنا للسبق ، إلى أن يكون سبحانها بغير يد مستترا ، وروضها بغير غرس مطفلا .

كان أول أمرنا أنا كُفَّا في الشام نفتح الفتوحات مباشرةً بأنفسنا ونجاهد الكفار متقدمين لعساكره نحن والدنا وعمنا، فأى مدينة فتحت، أو معقل ملك، أو عسكر للعدوكيسر، أو مصاف للإسلام معه ضرب، فما يجهل أحد، ولا يحدد عدو، أنا نصطلي البحر، ونملك الكسره، ونتقدم الجماعة، ونرتب المقاتلة، وندير النعبه، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرننا أن يكون غيرنا ذكرها .

وكانت أخبار مصر نتصل بنا بما الأحوال عليه فيها من سوء التدبير، وما دولتها عليه من غلبة صغير على كبير، وأن النظام قد فسد، والإسلام بها قد ضعف عن إقامته كل قائم بها وقعد، والفرنج قد احتاج من يدبرها إلى أن يقطعهم بأموال كثيره، لها مقادير خطيره، وأن كلمة السنة بها وإن كانت مجموعه، فإنها مجموعه، وأحكام الشريعة وإن كانت مسماه، فإنها متجاهاه، وتلك البدع بها على ما يعلم، وتلك الضلالات فيها على ما يفنى منها بفران الإسلام ويحكم، وذلك المذهب قد خالط من أهله اللحم والدم، وتلك الأنصاب قد نصبت آلهة تتخذ من دون الله تعظم وتفخم، فتعالى الله عن شبه العباد، وويل لمن غره تقلب الذين كفروا في البلاد .

فسمت هممنا دون همم ملوك الأرض إلى أن نستفتح مقلها ونسترجع للإسلام شاردها ونعيد على الدين ضالته منها فسرنا إليها بعساكر ضخمه، وجوع جبهه، وبأموال انتهكت الموجوده، وبلغت من المجهود، وأنفقناها من خالص ذمنا وكسب أيدينا، ومن أسارى الفرنج الواقفين في قبضتنا، فعرضت عوارض منعت، وتوجهت للمصريين حيل باستنجد الفرنج تمت : (ولكل أجل كتاب) . ولكل أمل باب .

وكان في تقدير الله سبحانه أننا نمالكها على الوجه الأحسن، ونأخذها بالحكم الأقوى الأمكن، فغدر الفرنج بالمصريين غدره في هذنه عظم خطبها وخبطها،

وَعَلِمَ أَنَّ أَسْتِنْصَالَ كَلِمَةِ الْإِسْلَامِ مَحْطُّهَا ، وَكَاتَبْنَا الْمُسْلِمُونَ مِنْ مِصْرَ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ ، كَمَا كَاتَبْنَا الْمُسْلِمُونَ مِنَ الشَّامِ فِي هَذَا الْوَأَنَ ، بَأَنَّ إِنْ لَمْ نُدْرِكِ الْأَمْرَ وَالْإِخْرَاجَ مِنَ الْيَدِ ، وَإِنْ لَمْ نُدْفَعْ غَرِيمَ الْيَوْمِ لَمْ يُمَهِّلْ إِلَى الْغَدِ ، فِسرْنَا بِالْعَسَاكِرِ الْمَوْجُودَةِ وَالْأَمْرَاءِ الْأَهْلِ الْمَعْرُوفَةِ إِلَى بِلَادٍ قَدْ تَمَهَّدَ لَنَا بِهَا أَمْرَانِ ، وَتَقَرَّرَ لَنَا فِيهَا فِي الْقُلُوبِ وَدَانَ : الْأَوَّلُ لِمَا عَلِمُوهُ مِنْ إِثَارِنَا الْمُدْعَبِ الْأَقْوَمِ ، وَإِحْيَاءِ الْحَقِّ الْأَقْدَمِ ، وَالْآخِرُ لِمَا يَرْجُوهُ مَنْ فَكَّ إِسَارَهُمْ ، وَإِقَالَةَ عِثَارِهِمْ ، فَفَعَلَ اللَّهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَجَاءَ الْخَبْرُ إِلَى الْعَدُوِّ فَانْقَطَعَ حَبْلُهُ ، وَضَافَتْ بِهِ سُبُلُهُ ، وَأَفْرَجَ عَنِ الدِّيَارِ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ضِيَاعُهَا وَرَسَائِقُهَا وَبِلَادُهَا وَإِقْلِيمُهَا قَدْ نَفَذَتْ فِيهَا أَوْامِرُهُ ، وَخَفَقَتْ عَلَيْهَا صُلْبَانَهُ ، وَأَمِنَ مِنْ أَنْ يُسْتَرْجَعَ مَا كَانَ بِأَيْدِيهِمْ حَاصِلًا ، وَأَنْ يُسْتَنْقَذَ مَاصِرًا فِي مِلْكِهِمْ دَاخِلًا ، وَوَصَانَا الْبِلَادِ وَبِهَا أَجْنَادٌ عَدَدُهُمْ كَثِيرٌ ، وَسَوَادُهُمْ كَبِيرٌ ، وَأَمْوَالُهُمْ وَسِيعَةٌ ، وَكَلِمَتُهُمْ جَامِعَةٌ ، وَهُمْ عَلَى حَرْبِ الْإِسْلَامِ أَقْدَرُ مِنْهُمْ عَلَى حَرْبِ الْكُفْرِ ، وَالْحِيلَةُ فِي السَّرِّ مِنْهُمْ أَنْفَذُ مِنَ الْعَزِيمَةِ فِي الْجَهْرِ . وَبِهَا رَاجِلٌ مِنَ السُّودَانِ يَزِيدُ عَلَى مِائَةِ أَلْفِ رَجُلٍ كُلِّهِمْ أَغْتَامٌ أَعْجَامٌ ، إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ، لَا يَعْرِفُونَ رَبًّا إِلَّا سَاكِنَ قَصْرِهِ ، وَلَا قِبْلَةً إِلَّا مَا تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ مِنْ رُكْنِهِ . وَبِهَا عَسَاكِرٌ مِنَ الْأَرْمَنِ بَاقُونَ عَلَى النَّصْرَانِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ عَنْهُمْ الْحِزْبِيَّةُ كَانَتْ لَمْ شَوْكَةٌ وَشِكَّةٌ ، وَحِمِيَّةٌ وَحِمَّةٌ ، وَلَهُمْ حَوَاشٍ لِقَصْرِهِمْ مِنْ بَيْنِ دَاخِلِ تَلْطُفٍ فِي الضَّلَالِ مَدَاخِلُهُ ، وَتُصِيبُ الْعُقُولَ مَخَاتِلُهُ ، وَمِنْ بَيْنِ كُتَابِ أَفْلَامِهِمْ تَفْعَلُ أفعالَ الْأَسَلِ ، وَخُدَّامٌ يَجْمَعُونَ إِلَى سَوَادِ الْوُجُوهِ سَوَادَ النَّحْلِ ، وَدَوْلَةٌ قَدْ كَبُرَ عَلَيْهَا الصَّغِيرُ ، وَلَمْ يَعْرِفْ غَيْرَهَا الْكَبِيرُ ، وَمَهَابَةٌ تَمْنَعُ خَطَرَاتِ الضَّمِيرِ ، فَكَيْفَ لِحَطَّاتِ التَّنْدِيرِ .

هذا إلى استباحة للحارم ظاهرة ، وتعطيل للفرائض على عادة جارية ، وتحريف للشريعة بالتأويل ، وعدول إلى غير مراد الله في التنزيل ، وكفر سمي بغير اسمه ، وشرع يستتر به ويحكم بغير حكمه .

فما زلنا نَسَحْتَهُمْ سَحَّتِ الْمَبَارِدُ لِلشَّفَارِ ، وَتَحَقَّقَهُمْ تَحَيَّفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارُ لِلأَعْمَارِ ،
بِعَجَائِبِ تَدْيِيرٍ ، لَا تَحْتَمِلُهَا الْمَسَاطِيرُ ، وَغَرَائِبِ تَقْرِيرٍ ، لَا تَحْمِلُهَا الْأَسَاطِيرُ ، وَلَطْفِ
تَوْصُلِ مَا كَانَ فِي حِيلَةِ الْبَشْرِ وَلَا قُدْرَتِهِمْ إِلَّا إِعَانَةُ الْمُقَادِيرِ ، وَفِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ اسْتَنْجَدُوا
عَلَيْنَا الْفَرَجَ دَفْعَةً إِلَى بُلَيْسٍ ، وَدَفْعَةً إِلَى دِمْيَاطٍ ، فِي كُلِّ مِنْهُمَا وَصَلُوا بِالْعَدُوِّ الْمُجْهَرِ ،
وَالْحَشْدِ الْأَوْفَرِ ، وَخِصُوصًا فِي نَوْبَةِ دِمْيَاطٍ فَإِنَّهُمْ نَازَلُوهَا بِحَرًّا فِي أَلْفِ مَرَكَبٍ مُقَاتِلِ
وَحَامِلٍ ، وَبَرًّا فِي مِائَتِي أَلْفِ فَارِسٍ وَرَاجِلٍ ، وَحَصَرُوهَا شَهْرَيْنِ بِيَاكُوفِهَا وَيُرُوحِوْنَهَا ،
وَيُمَاسُونَهَا وَيُصَاحِجُونَهَا ، الْقِتَالُ الَّذِي يُصَلِّيهِ الصَّلِيبُ ، وَالْقِرَاعُ الَّذِي يُنَادِي بِهِ مَنْ
مَكَانٍ قَرِيبٍ ، وَنَحْنُ مُقَاتِلُ الْعُدُوتَيْنِ : الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ ، وَنُصَابِرُ الضَّدَّيْنِ : الْمُنَافِقِ
وَالْكَافِرِ ، حَتَّى أَتَى اللَّهُ بِأَمْرِهِ ، وَأَيَّدَنَا بِنَصْرِهِ ، وَخَابَتِ الْمَطَامِعُ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ وَمَنْ
الْقَرْجِ وَمَنْ مَلَكَ الرُّومَ وَمَنْ الْجَنُوبِيِّينَ وَأَجْناسِ الرُّومِ لِأَنَّ أَنْفَارَهُمْ تَنَافَرَتْ ، وَنَصَارَاهُمْ
تَنَاصَرَتْ ، وَأَنَاجِيلُ طَوَاعِيهِمْ رُفِعَتْ ، وَصُلبَ صَلْبُوتِهِمْ أُخْرِجَتْ ، وَشَرَعْنَا فِي تِلْكَ
الطَّوَائِفِ مِنَ الْأَجْنَادِ وَالسُّودَانِ وَالْأَرْمَنِ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنَ الْقَاهِرَةِ تَارَةً بِالْأَوَامِرِ
الْمُرْهِقَةِ لَهُمْ ، وَبِالدُّنُوبِ الْفَاضِحَةِ مِنْهُمْ ، وَبِالسُّيُوفِ الْمَجْرَدَةِ وَبِالنَّارِ الْمُحْرِقَةِ ، حَتَّى بَقِيَ
الْقُصْرُ وَمَنْ بِهِ مِنْ خَدَمِهِ قَدْ تَفَرَّقَتْ شِيعَتُهُ ، وَتَمَزَّقَتْ بَدَعُهُ ، وَخَفَّتْ دَعْوَتُهُ ،
وَخَفِيَتْ ضَلَالَتُهُ . فَهِنَاكَ تَمَّتْ لَنَا إِقَامَةُ الْكَلِمَةِ وَالْجَهْرُ بِالْخَطْبَةِ وَالرَّفْعُ لِلِوَاءِ السَّوَادِ
الْأَعْظَمِ ، وَالْجَمْعُ لِكَلِمَةِ السَّوَادِ الْأَعْظَمِ ، وَعَاجَلَ اللَّهُ الطَّاعِيَةَ الْأَكْبَرَ بِفَنَائِهِ ، وَبَرَّأْنَا
مِنْ عَهْدَةِ يَمِينٍ كَانَ حِثُّهَا أَيْسَرَ مِنْ إِثْمِ إِبْقَائِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ عُوِجِلَ لِقَرْطِ رَوْعَتِهِ ، وَوَأْفَقَ
هَلَاكُ شَخْصِهِ هَلَاكُ دَوْلَتِهِ .

وَمَا خَلَا دَرْعُنَا ، وَرَحِبَ وَسْعُنَا ، نَظَرْنَا فِي الْغَزَوَاتِ إِلَى بِلَادِ الْكُفَّارِ ، فَلَمْ
تَخْرُجْ سَنَةٌ إِلَّا عَنْ سُنَّةٍ أُقِيمَتْ فِيهَا بَرًّا وَبِحَرًّا ، وَمَرَجَبًا وَظَهْرًا ، إِلَى أَنْ أَوْسَعْنَاهُمْ
قِتْلًا وَأَسْرًا ، وَمَلَكْنَا رِقَابَهُمْ قَهْرًا وَقَسْرًا ، وَفَتَحْنَا لَهُمْ مَعَاقِلَ مَا خَطَرَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ فِيهَا

منذ أخذت من أيديهم ، وما أوجفت فيها خيلهم ولا ركابهم مذ ملكها أعاديهم ،
فمنها ما حكمت فيه يد الخراب ، ومنها ما استولت عليه يد الاكتساب ، ومنها قاعة
بشفر أيلة كان العدو قد بناها في بحر الهند ، وهو السلوك منه إلى الحرمين واليمن ،
وغزا ساحل الحرم فسبى منه خلقا ، وخرق الكفر في هذا الجانب خرقا ، فكادت
القبلة أن يستولى على أصلها ، ومساجد الله أن يسكنها غير أهلها ، ومقام الخليل
صلوات الله عليه أن يقوم به من ناره غير برد وسلام ، ومضجع الرسول شرفه الله أن
يتطرقه من لا يدين بما جاء به من الإسلام ، ففتح الله هذه القلعة وصارت معقلا
للجهاد ، وموقلا لسفار البلاد ، وغيرهم من عباد العباد ، فلو شرح ماتم بها للمسلمين
من الأثر الجليل ، وما استند من خلاصهم ، وأحرق من زروع المشركين ورعى من
غلاتهم ، إلى أن ضعفت ثغورهم ، وأختلت أمورهم ، لاحتيج فيه إلى زمن يشغل
عن المهمات الشريفة لسماع موارده ، وإيضاح مقصده .

وكان باليمن ما علم من ابن مهدي الضال وله آثار في الإسلام ، وثار طائفة النبي
عليه الصلاة والسلام ، لأنه سبى الشرائف الصالحات وباعهن بالثمن البخس ،
وآستباح منهن كل ما لا تقتر عليه نفس ، وكان يبذعه دعا إلى قبر أبيه وسماه كعبه ،
وأخذ أموال الرعايا المعصومة وأجاحها ، وأحل الفروج المحرمة وأباحها ، فأنهضنا
إليه أخانا بعسكرنا بعد أن تكلفنا له نفقات واسعة ، وأسلحة رائمة ، وسار فأخذناه
ولله الحمد ، وأنجح الله فيه القصد ، ووردتنا كتب عساكرنا وأمرائنا بما نفذ في ابن
مهدي وبلاده المفتحة ومعاقله المستضافة ، والكلمة هنالك بمشيئة الله إلى الهند
ساريه ، وإلى ما لم يقتض الإسلام عذرتة مذ أقام الله كلمته متمادية .

ولنا في المغرب ، أثر أعرب ، وفي أعماله أعمال دون مطلبها كما يكون المهلك
دون المطلب ، وذلك أن نبي عبد المؤمن قد أشتهر أن أمرهم أمر ، ومملكهم

قد عمير، وجيوشهم لأنطاق، وأوامرهم لأنشاق، ونحن والحمد لله قد ملكنا مما
يُجاورنا منه بلاداً تزيد مسافتها على شهر، وسيرنا عسكرياً بعد عسكر رجع بنصر بعد
نصر، ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير - لك - برقة - قفصة - قسطنطينية -
توزر؛ كل هذه تُقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلام الله عليه،
ولا عهد للإسلام باقامتها، وتنفذ فيها الأحكام بعلمها المنصور وعلامتها. وفي هذه
السنة كان عندنا وفدٌ قد شاهده وفود الأمصار، مقداره سبعون راجعاً كلهم يطلب
لساطان بلده تقليداً، ويرجو منا وعداً ويخاف وعياداً.

وقد صدرت عنا بحمد الله تقاليدها، وألقيت إلينا مقاليدها، وسيرنا الخلع
والألوية، والمناشير بما فيها من الأوامر والأفضيه.

وأما الأعداء الذين يُحذقون بهذه البلاد، والكفار الذين يُقاتلوننا بالملك العظام
والعزائم الشداد، فمنهم صاحب قسطنطينية وهو الطاغية الأكبر، والجبّار الأَكفر،
وصاحبُ المملكة التي أكلت على الدهر وشربت، وقائمُ النصرانية التي حكمت دولته
على ممالكها وغلبت، وجرت لنا معه غزوات بحرية، ومناقلات ظاهرية وسرية،
وكانت له في البلاد مطامع منها أن يجبي خراجاً، ومنها أن يملك منها فيجاء، وكانت
غصّة لا يسيفها الماء، وداهية لا تُرجى لها الأرض بل السماء، فأخذنا والله الحمد
بكتامه، وأقمناه على قدمه، ولم نُخرج من مصر، إلى أن وصلتْنا رسله في جمعة واحدة
في نوبتين بكتابين كل واحد منهما يُظهر فيه خفض الجناح، وإلقاء السلاح،
والانتقال من معاداه، إلى مهاده، ومن مناصحه، إلى مناصحه، حتى إنه أنذر
بصاحب صقلية وأساطيله التي يرد ذكرها، وعساكره التي لم يخف أمرها.

ومن هؤلاء الكفار صاحبُ صِقْلِيَّةَ هذا كان حينَ علمَ أن صاحبَ الشام
وصاحبَ قُسطنطينِيَّةَ قد اجتمعَا في توبةِ دِمِيَاطِ فغلبَا وهزِمَا وكسِرا، أراد أن يُظهِرَ
قُوَّتَه المستقلَّةَ بمُفْرِدِهَا، وعزمتَه القائمَةَ بِمُجْرِدِهَا، فعمرَ أسطولاَ استوعبَ فيه مالهَ
وزمَانَه: فإنه إلى الآنَ منذُ خمسِ سنينَ يكثرُ عِدَّتَه، ويذخِبُ عِدَّتَه، ويحتلبُ مقاتلَتَه
إلى أن وصلَ منها في السنةِ الخاليةِ إلى إسكندريةِ أمرٌ رابعٌ، وخَطَبَ هائلٌ، ما أُثقلَ
ظَهَرَ البحرِ مثلَ حملِه، ولا ملاءَ صدرَه مثلَ خيلِه ورجلِه، ماهو إقْلِيمٌ بل أقاليمُ تَقَلَه،
وحيشٌ ما احتفلَ ملكٌ قطُّ بنظيره لولا أن اللهَ خَدَلَه؛ ولو ذهبنا نِصْفَ ما ذهبَ،
فيه من ذَهَبٍ؛ وما أُخِذَ منه من سلاحٍ وخيلٍ وعُدَدٍ ومجانيقٍ، ومن أسرَمَ منه من
خيَالَةِ بَكارٍ، ومقدِّمينَ ذوى أقدارٍ، وملوكٍ يُقَاطِعُونَ بالحملِ التي لها مقدارٌ؛ وكيف
أخذَه وهو في العَدَدِ الأَكْثَرِ بالعَدَدِ الأَقَلِّ من رجالنا، وكيف نصر اللهَ عليه مع
الأصعبِ من قتاله بالأسهلِ من قتالنا، لعلَّ أن عنايةَ اللهَ بالإسلامِ تُغْنِيَه عن السلاحِ،
وكفايةَ اللهَ لهذا الدينِ تكفيَه مَئُونَةُ الكِفَاحِ؛ ومن هؤلاء الجنويينَ الذين يسربون
الجِوشَ - البنادقُ - البياشنةَ - الجنويةَ كلُّ هؤلاء تارةً لا تُطَاقُ ضراوةُ ضرِّهم، ولا تُنفَأُ
شرارةُ شرِّهم؛ وتارةً يُجهِّزونَ سفاراَ يَحْتَكُونَ على الإسلامِ في الأموالِ المجلوبةِ، وتَقْصُرُ
عنهم يدُ الأحكامِ المرهوبةِ؛ وما منهم الآنَ إلا من يجلبُ إلى بلدنا آلةَ قتاله وِجْهاده،
ويتقرَّبُ إلينا بإهداءِ طرائفِ أعمالِه وبلادِه؛ وكلُّهم قد قرَّرتَ معه المواصفهَ،
وانتظمتَ معه المسالمةَ؛ على ما نريدُ وبكرهونَ، ونؤثرُ ولا يؤثرونَ .

ولما قضى اللهَ بالوفاةِ النوريةِ، وكنا في تلكَ السنةِ على نيةِ الغزوِ، والعساكرُ قد
ظَهَرَت، والمضاربُ قد برزتَ، ونزلَ الفَرْمَاجُ بانياسَ وأشرفوا على أحْيَازِها، ورأوها
فرصةً مُدوِّلاً إليها يدُ أنتهازِها، استصرخَ بنا صاحبُها للممانعةِ، وأستمنضنا لتفريجِ
الكُربِ الواقعه؛ فسرنا مراحلَ اتَّصلَ بالعدوِّ أمرُها، وعوجلَ بالهدنةِ الدمشقيةِ

التي لولا مسيرنا ما انتظم حكمها ولا قيل كثيرها ولا قلياها ؛ ثم عدنا إلى البلاد فتوافقت إلينا الأخبار بما الدولة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها ، وتشدت الأمور وتقطعت بها ، وأن كل قلعة قد حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمخ إليه طالب ؛ والفرنج قد بنوا بلادا يتحيفون بها الأطراف الإسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ؛ وأمرأء الدولة قد سجن أكابريهم وعوقبوا وصودروا ، والمماليك الذين للتوقي أغراراً خلّقوا للأطراف لا للصُدور ، وجعلوا للقيام لا للجُلوس في المحفل المحصور ؛ وقد مدوا الأعين والأيدي والسيوف ، وساءت سيرتهم في الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف ؛ وكل واحد يتخذ عند الفرنج يدا ، ويجعلهم لظهره سندا ؛ ويرفع عنهم ذخيرة كانت للإسلام ، ويفرح لهم عن أسير من أكابر الكفار كان مقامه مما يدفع شرا ، ولا يزيد نار الكفر جمرًا ، وإطلاقه يجلب قطعة تقوى إسلاما وتضعف كفرا ؛ فكثرت إلينا مكاتبات أهل الآراء الصائبة ، ونظرنا للإسلام ولنا وبلاد الإسلام في العاقبة ؛ وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تبيسر الأسباب لفتحته ، وأمر الكفر إن لم يجرّد العزم في قلبه ؛ وإلا ثبتت عروقه ، وآتسعت على أهل الدين نحروقه ؛ وكانت الحجة لله قائمه ، وهمم القادرين بالقعود آئمه ؛ وإذا لا يتمكن بمصر منه مع بُعد المسافة ، وأتقطاع العارة وكلال الدواب ، وإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ؛ والميرة متسعة والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة ، والجموع متيسرة ، والأوقات مساعدة ؛ وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة ، وأمور مختلة ؛ وآراء فاسده ، وأمرأء متحاسده ؛ وأطباع غالبه ، وعمول غائبه ؛ وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، وكملناه كفالة من يقضى الحق ويؤفيه ؛ فإننا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء بخدمه وهم عاملون بظلمه ؛ والمراد الآن هو كل ما يقوى الدولة ،

ويؤكد الدعوه؛ ويجمع الأمة، ويحفظ الألفه، ويضمن الزلفه؛ ويفتح بقية البلاد،
ويطبق بالاسم العباسي كل ما تخطئه العهاد - ونحن نقترح على الأحكام المهوده،
وننتظر أن يأتي الإنعام على الغايات المزیده؛ وهو تقليد جامع لمصر والمغرب واليمن
والشام، وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية، وكل ما يفتحه الله للدولة بسيفنا
وسيف عساكرنا، ولن نقيم من أخ وولد من بعدنا، تقليدًا يضمن للنعمة
تخليدًا، وللدعوة تجديدًا؛ مع ما نعلم به من السمات التي يقتضيها الملك، فإن الإمارة
اليوم بحسن نيتنا في الخدمة تصرف بأقلامنا، ونستفاد من تحت أعلامنا؛ ويتبين
أن أمراء الدولة النورية يحتاج اليهم في فتح البلاد المقدسية ضرورة: لأنها منازل
العساكر، وجمع الأنفار والعشائر؛ فحتى لم يكن عليهم يد حاكمه، وفيهم كلمة نافذه؛
منعهم ولاية البلاد، وبغاة العناد.

وبالجملة فالشام لا ينتظم أمره بمن فيه، وفتح بيت المقدس ليس له قرن يقوم به
ويكفيه؛ والفرنج فهم يعرفون منا خصما لا يمل الشر حتى يملأوا، وقرنا لا يزال يحرم
السيف حتى يكلأوا؛ حتى إننا لما جاورناهم في هذا الأمد القريب، وعلموا أن
المصحف قد جاء بأيدينا يخاصم الصليب؛ استشعروا بفراق بلادهم، وتهادوا التعازي
لأرواحهم بأجسادهم، وإذا سدد رأينا حسن الرأي ضربنا بسيف يقطع في غمده،
وبلغنا المنى بمشيئة الله ويد كل مسلم تحت برده، وأستبقنا أسيرا من المسجد
الذي أسرى الله اليه بعبد.

هذا ما لاح طابهُ على قدر الزمان، والأنفس تطالب على مقدار الإحسان؛ فإن
في استنهاض نيات الخدام بالإنعام ما يعود على الدولة منافعه، وتتكا الأعداء مواقعهُ؛
وتبعث العزائم من موت منامها، وتتفرض عن البصائر غبار ظلامها؛ والله تعالى يُجبد
إرادتنا في الخدمة بمضاهة الأقدار، ومساعدة الأقدار، إن شاء الله تعالى.

الضرب الثاني

(ما كان يُكْتَبُ لنواب السلطنة بالديار المصرية عند سفر السلطان

عن الديار المصرية)

والعادة أن يُكْتَبَ فيما يتعلق بمهمات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها ، وما يترتب فيها ، وما يُشئ على حكمه بمصر والقاهرة المحروستين ، وسائر أعمال الديار المصرية ، وما تبرز به المراسيم الشريفة في أمورها وقضاياها ، وأستخراج أموالها ومحوها ، وعمل جسورها وحفائرها ، وما يتجدد في ذلك ، وما يجري هذا المجرى من سائر التعلقات ، وتصدر بذلك التذكرة .

وهذه نسخة تذكرة سلطانية كتبت بها عن السلطان الملك الصالح على ، ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ، الأمير زين الدين كتبغا ، عند سفر السلطان الملك الصالح الى الشام ، وأستقرار كتبغا المذكور نثباً عنه في سنة تسع وتسعين وستائة ، من إنشاء أحمد بن المكرم بن أبى الحسن الأنصارى ، أحد كُتَّاب الدرج يومئذ ومن خطه نقلت ، وهى :

تذكرة نافعة ، للخيرات جامعه ، يعتمد عليها المجلس العالى ، الأميرى ، الزينى ، كتبغا المنصورى ، نائب السلطنة الشريفة - أدام الله عزه - فى مهمات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها ، وما يترتب بها ، وما يبت ويفصل فى القاهرة ومصر المحروستين وسائر أعمال الديار المصرية ، صانها الله تعالى ، وما تُستخرج به المراسيم الشريفة ، المولوية ، السلطانية ، الملكية ، الصالحية ، الفلانية - أنفذها الله تعالى - فى أمورها وقضاياها ، وولاياتها وولاتها ، ومحوها وحفيرها وحفظها ومتجدداتها على ما شرح فيه :

فصل الشَّرْع الشريف :

يُسَدُّ مِنْ حُكَّامِهِ وَقُضَاتِهِ فِي تَنْفِيزِ قَضَايَاهُ وَتَصْرِيفِ أَحْكَامِهِ ، وَالشَّدُّ مِنْهُ فِي تَقْضِهِ وَإِبْرَامِهِ .

فصل العَدْل والانصافِ والحق :

يَعْتَمِدُ ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمَمْلَكَةِ الشَّرِيفَةِ : مَدِينِهَا وَقُرَاهَا وَأَعْمَالِهَا وَوِلَايَاتِهَا : بِحَيْثُ يَشْمَلُ جَمِيعَ الرِّعَايَا مِنْ خَاصٍّ وَعَامٍّ ، وَبَعِيدٍ وَقَرِيبٍ ، وَغَائِبٍ وَحَاضِرٍ ، وَوَارِدٍ وَصَادِرٍ ؛ وَيَسْتَجْلِبُ الْأَدْعِيَةَ الصَّالِحَةَ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ لِهَذِهِ الْأَيَّامِ الزَّاهِرَةِ ، وَيَسْتَنْطِقُ الْأَلْسِنَةَ بِذَلِكَ ، فَإِنَّ الْعَدْلَ حِجَّةُ اللَّهِ وَمَحَجَّةُ الْخَيْرِ ، فَيُدْفَعُ كُلَّ ضَرَرٍ وَيَرْفَعُ كُلَّ ضَيْرٍ .

فصل الدماء :

يَعْتَمِدُ فِيهَا حَكْمُ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ . وَمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ قِصَاصٌ يَسَلِّمُ لِعَرِيْمِهِ لِيَقْتَصَّ مِنْهُ بِالشَّرْعِ الشَّرِيفِ ، وَمَنْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْقَطْعُ يُقَطِّعُ بِالشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

فصل الأمور المختصَّة بالقاهرة ومصر المحروستين حرسهما الله تعالى :

لَا يَتَّجُوهُ فِيهَا أَحَدٌ ، وَلَا يَقْوَى قَوْيٌّ عَلَى ضَعِيفٍ ، وَلَا يَتَعَدَّى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ جَمَلَةً كَافِيَةً .

فصل

يَتَقَدَّمُ أَنْ لَا يَمْشِيَ أَحَدٌ فِي الْمَدِينَةِ وَلَا ضَوَاحِيهَا فِي الْحُسَيْنِيَّةِ وَالْأَحْكَارِ فِي اللَّيْلِ إِلَّا لِمُضْرُورَةٍ ، وَلَا يُخْرَجُ أَحَدٌ مِنْ بَيْتِهِ لِمُضْرُورَةٍ مَأْسُومَةٍ ، وَالنِّسَاءُ لَا يَنْصُرِفْنَ فِي اللَّيْلِ وَلَا يُخْرَجْنَ وَلَا يَمْشِينَ جَمَلَةً كَافِيَةً .

فصل الجبوس :

تُحْرَسُ وَتُحْفَظُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَتَحْلُقُ لِحَى الْأَسَارَى كُلِّهِمْ : مَنْ فَرَّجَ وَأَنْطَاكِيَّيْنِ
وغيرهم ، وَيُتَمَهَّدُ ذَلِكَ فِيهِمْ كَمَا تَنَبَّأَتْ ، وَيُحْتَرَزُ فِي أَمْرِ الدَّخْلِ إِلَى الْجُبُوسِ ،
وَيُحْتَرَزُ عَلَى الْأَسَارَى الَّذِينَ يُسْتَعْمَلُونَ ، وَالرِّجَالُ الَّتِي يُخْرَجُونَ مَعَهُمْ ، وَتُقَامُ الضَّمَانُ
النَّقَاتُ عَلَى الْجَانْدَارِيَّةِ الَّذِينَ مَعَهُمْ ، وَلَا يُسْتَعْمَلُ فِي ذَلِكَ غَرِيبٌ ، وَلَا مَنْ فِيهِ رِيْبَةٌ ،
وَلَا تَبِيْتُ الْأَسَارَى الَّذِينَ يُسْتَعْمَلُونَ إِلَّا فِي الْجُبُوسِ ، وَلَا يُخْرَجُ أَحَدٌ مِنْهُمْ لِحَاجَةٍ
تَخْتَصُّ بِهِ وَلَا لِحَمَامٍ وَلَا كَنِيْسَةٍ وَلَا فُرْجَةٍ ، وَتُنْفَقُ قِيُوْدُهُمْ وَتُوْتَقُّ فِي كُلِّ وَقْتٍ .

وَيَضَاعَفُ الْحُرْسُ فِي اللَّيْلِ عَلَى خِزَانَةِ الْبُنُودِ بِإِظْهَارِ ظَاهِرِهَا وَعَلْوَاهَا وَحَوْلَهَا
وَكَذَلِكَ خِزَانَةُ الشَّمَائِلِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْجِيُوشِ .

فصل

يُرْتَّبُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْجُنْدِ مَعَ الطُّوُوفِ فِي الْمَدِينَةِ لِكَشْفِ الْأَزْقَةِ وَعَاقِ الدُّرُوبِ وَنَفَقَتِ
أَصْحَابِ الْأَرْبَاعِ ، وَتَأْدِيْبِ مَنْ يُحِلُّ بِمَرْكَزِهِ مِنْ أَصْحَابِ الْأَرْبَاعِ ، وَتَكُونُ الدُّرُوبُ
مَغْلَقَةً . وَكَذَلِكَ تَجْرُدُ جَمَاعَةُ الْحُسَيْنِيَّةِ وَالْأَحْكَارِ وَجَمِيعِ الْمَرَكَزِ ، وَيَعْتَمِدُ فِيهَا هَذَا
الْإِعْتِمَادُ ؛ وَمَنْ وَجِدَ فِي اللَّيْلِ قَدْ خَالَفَ الْمَرْسُومَ وَيَمْشِي لَغَيْرِ عُدُرٍ يُسَكِّ وَيُؤَدِّبُ .

فصل

يَحْتَرَزُ عَلَى الْأَبْوَابِ غَايَةَ الْإِحْتِرَازِ ، وَيَتَفَقَّدُ فِي اللَّيْلِ خَارِجَهَا وَبَاطِنَهَا وَعِنْدَ
فَتْحِهَا وَغَلْقِهَا .

فصل

الْأَمَاكُنُ الَّتِي يَجْتَمِعُ فِيهَا الشَّبَابُ وَأَوْلُو الدَّعَاةِ وَمَنْ يَتَعَانَى الْعَيْثَ وَالزَّنْطَرَةَ ،
لَا يُفْسَحُ لِأَحَدٍ فِي الْاجْتِمَاعِ بِهَا فِي لَيْلٍ وَلَا نَهَارٍ ، وَيَكْفُونُ الْأُكُفَّ النَّوَامَ بِحَيْثُ
تَقُومُ الْمَهَابَةُ وَتَعْظُمُ الْحَرَمَةُ ، وَيَتَزَجَّرُ أَهْلُ النَّحْيِ وَالْعَيْثِ وَالْعَبَثِ .

فصل

يرتَّب المجرِّدون حولَ المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة، وكذلك جهة القرافة وخلفِ التلعةِ وجهة البحر، وخارجِ الحسينية، ولا يهملُ ذلك ليلةً واحدة، ولا يفارقُ المجرِّدون مراكرهم إلا عند السُّفور وتكاملِ الضوء .

فصل

يتقدَّم بأن لا تجتمع الرجال والنساء في ليالي الجُمع بالقرافتين، ويمنعُ النساء من ذلك .

فصل

مِهْمَات الغائبين في البيكار المنصور تُنحَظ وَيَشُدُّ من نوابهم في أمورهم ومصالحهم، ويستخلص حقوقهم لنوابهم وغلمانهم ووكلائهم؛ ومن كانت له جهةٌ يستخلص حقه منها ولا يتعرضُ إلى جهاتهم المستقرّة فيما يستحقُّونه؛ ويقوى أيديهم، وتؤخذ الحجج على وكلائهم بما يقبضونه حتى لا يقولوا موكلوهم في البيكار: إنَّ كُتِب وكلائنا وردتْ بأنهم لم يقبضوا لنا شيئاً، فيكون ذلك سبباً لردِّ شكوايهم .

فصل

خليجُ القاهرة ومصر المحروستين يرسم بعمله وحفره وإتقانه في وقته: بحيث يكون عملاً جيّداً متقناً من غير حيف على أحد، بل كلُّ أحدٍ يعمل ما يلزمه عملاً جيّداً .

فصل

جسورُ ضواحي القاهرة يُسرِّع في إتقانها وتعريضها، ويجتهد في حُسن رصفها وفتح مشاربها، وحفظها من الطارق عليها، وتبقى متقنةً مكملةً إلى وقت النيل المبارك، ولا يخرج في أمرها عن العادة، ولا يحتَمي أحدٌ عن العمل فيها بما

يلزمه ، ويحمل الأمر في جراريها ومقلقاتها على ما تقدمت به المراسيم الشريفة في أمر الجسور القريبة والبعيدة .

فصل في الأعمال والولايات .

تُنجز الأمثلة الشريفة السلطانية ، الملووية ، الملكية ، الصالحية ، الفلانية ، شرفها الله تعالى ، بإتقان عمل الجسور وتجويدها وتعريضها وتفقد القناطر والتراع ، وعمل ماتمدم منها وتريم ماوهي ، وإصلاح ماتسعت من أبوابها ، وتحصيل أصنافها التي تدعو الحاجة إليها في وقت النيل ، وتعتمد المراسيم الشريفة من أن أحدا لا يعمل بالجاه ، ومن وجب عليه فيها العمل يعمل على العادة في الأيام الصالحة ، ويؤكد على الولاية في مباشرتها بنفوسهم ، وأن لا يتكلموا على المشدين ، وأي جهة حصل منها نقص أو خلل كان قبالة ذلك رُوح وإلى ذلك العمل وماله ، ويشدد على الولاية في ذلك غاية التشديد ، ويحذر أتم التحذير ، وتؤخذ خطوط الولاية بأن الجسور قد أتقن عملها على الوضع المرسوم به ، وأنها أتقنت ولم يبق فيها خلل ، ولا ما يخشون دافية ، ولا ما يخافون دركه ، وأنها عمات على ما رسم .

فصل

يتقدم إلى الولاية ويستخرج الأمثلة الشريفة السلطانية بترتيب الخفراء على ما كان الحال رتب عليه في الأيام الظاهرية : أن يرتب من البلد إلى البلد خفراء ينزلون بيوت شعر على الطرقات على البلدين ، يحفرون الرأخ والغادي ، وأي من عدم له شيء يلزمه دركه ، وينادي في البلاد أن لا يسافر أحد في الليل ولا يغرب ، ولا يسافر الناس إلا من طلوع الشمس إلى غروبها ، ويؤكد في ذلك التأكيد التام .

فصل الثغور المحروسة :

يُلاحظ أمورَها ومهمَّاتها، ويستخرج الأمثلة الشريفة السلطانية في مهمَّاتها وأحوالها وحفظها، والأحترار على المعتقلين بها، والأستظهار في حفظهم، والتيقُّظ لمهمَّات الثغر، وأستجلاب قلوب التجار، وأستمالة خواطيرهم، ومعاملتهم بالرفق والعدل حتى تتواصل التجار وتعمُر الثغور؛ ويؤكد عليها في المستخرج وتحصيل الأموال، وأصناف الدخائر، وأصناف الخزائن المعمورة والخوارج خاناه، ويوعز إليهم بأنَّ هذا وقتُ أنفتاح البحر وحضور التجار وتزجية الأموال، وصلاح الأحوال، والنهضة في تكثير الحمول، ويؤكد عليهم في المواصلة بها، وأن تكون حمولا متوفرة، وأنه لا يُفترط في مستخرج حقوق المراكب الواصلة، ولا يُقلَّل متحصِّلها، ولا يتقصَّ حملها، ويسير بحملها حملا إلى بيت المال المعمور على العادة، ويؤكد عليهم في الاستعمالات، وتحصيل الأقسنة والأمتعة على اختلاف أصنافها وإزالة الأعدار فيها: بحيث لا يتوقف أمر الاستعمالات ولا يؤخر مهمَّتها عن وقته، ومهما وصل من المال والحواري والحرير والوبر والأطلس والفضة الحجر، وأقصاب الذهب المغزول يعتمد في تحصيله العادة .

فصل

يؤكد على ولاة الأعمال في أستخلاص الحقوق الديوانية من جهاتها، والمواصلة بالحمول في أوقاتها، ومباشرة أحوال الأقباص ومعاصرها في أوقاتها، وأعتاد مصلحة كل عمل على ما يناسبه وتقتضيه مصلحته: من مستخرج ومستغل، ومحمول ومزدرع، ومستعمل ومُنفق، ويحذِّرهم عن حصول خلل، أو ظهور عجز، أو فتور عزم، أو تقصير رأى، أو ما يقتضي الإنكار ويوجب المؤاخذه، ويشدّد في ذلك ما تقتضيه فرص الأوقات التي ينبغي أتمارها على ما يطالعون به .

فصل [أموال] الخراج الديوانية :

يحتز عليها وتربى وتتمى، ولا يطلق منها شيء إلا برسوم شريف منّا، ويُطالع بأنّ المرسوم ورد بكذا وكذا ويعود الجواب بما يعتمد في ذلك .

فصل حقوق الأمراء والبحرية والحلقة المنصورة والحند وجهاتهم :

يستخلص أموالهم ووكلاءهم، ويوجد الشهادات بما عليهم من غلة ودرهم، وغير ذلك، ولا يجوز الوكلاء إلى شكوى منهم نتصل بن هوفى البيكار، ويحسم هذه المادة، ويسد أبواب الماطلة عنهم .

فصل

يتقدم إلى الولاية والنظار والمستخدمين بعمل أوراق بما يتحصل للمقطعين الأصلية (؟) في كل بلد، ولقطع الجهة، ولن أفرده طين بجهة، وان جهته على الرسوم : ليعلم حال المقطعين في هذه السنة الجيشية والجهاتية وما تحصل لكل منهم، ولا يحصل من أحد من الولاية مكاشرة ولا إهمال، ولا يطمع في الوكلاء لأجل غيبة الأمراء والمقطعين في البيكار، ولا يجوز أحد من المقطعين إلى شكوى بسبب متأخر ولا ظليمة ولا إجحاف .

فصل

إذا خرج جاندار من مصر إلى الأعمال لا يعطى في العمل أكثر من درهمين نورة، ويوصل الحق الذى جاء فيه لمستحقه، فإن حصل منه قال وقيل أوحيف أو تعنت يرسم عليه، ويسير الحق مع صاحبه معه، ويطلع بأن فلانا الجاندار حضر وجرى منه كذا وكذا، ويشرح الصورة ليحسم المواد بذلك .

فصل

إذا سَيرَ أحدٌ من الولاة رسولا بسببِ خلاصِ حقٍّ من بعضِ قرى أعماله فيكون ما يُعطى الجاندار عن مسافةِ سفرِ يومٍ نصفَ نُقْرةٍ ، وعن يومينِ درهمٍ واحدٍ لا غيرُ ، وأىُّ جاندارٍ تعدَّى وأخذ غيرَ ذلكِ يُؤدَّبُ ويُصْرَفُ من تلكِ الولاية .

فصل :

تُكتبُ الحججُ على كلِّ وكيلٍ يقبضُ لمخدومه شيئاً من مغلَّةٍ أو جِهتهِ : من الديوان أو الفلاحين ؛ ولا يسلمُ له شيءٌ إلا بشهادةٍ بحججٍ مكتوبةٍ عليه ، تُخلدُ منها حجةٌ الديوان المعمور بما قبضه من جهته أو إقطاعه ، وتبقى الحججُ حاصلةٌ حتى إذا شكَا أحدُ إلينا وسيرنا عرفناهم بمن يشكو من تأخرِ حقه ، يُطالعوننا بأمرٍ ويكلمه وما قبض من حقه ، وتُسِيرُ الشهادةُ عليه طيَّ مطالعته ، (ويُحترزُ من الشهادات) بما وصل لكلِّ مُتَطعٍ ، حتى إنا نعلم من مضمونِ الحججِ والشهاداتِ متحصِّلِ المُقْطَعين من البلاد والجهاتِ مُفَصَّلاً وجملةً ما حصل لكلِّ منهم : من عينٍ وغلةٍ وما تأخر لكلِّ منهم ، ويعملُ بذلكِ صورةً أمورِ البلادِ والمُقْطَعين وأحوالهم ، ويُزِيلُ شكوى من يجب إزالةُ شكواه ، وتُعلمُ أحوالهم على الجليَّةِ .

فصل

تقرأ هذه التذاكر على المنابر فصلاً فصلاً ، ليسمعها القريبُ والبعيدُ ، ويُبلغها الحاضرُ والغائبُ ، ويعمَلُ بمضمونها كلُّ أحدٍ . ومن نَحَرَ عنها أو عمِلَ بخلافها فهو أخْبَرٌ بما يلقاه من سَطواتنا وشدةِ بأسنا ، والسلام .

الضرب الثالث

(ما كان يُكتب لثواب القلاع وولّاتها : إما عند استقرار النائب بها ،
 وإما في خلال نيابته)

والعادة فيها أن يكتب فيها باعتماد الكشّف عن أحوال القلعة وأسوارها وعرض
حواسلها ، ومقدّمى رجالها ، وترتيب الرجال في مراكزهم ، وكشف مظالم الرعايا ،
والنظر في الاحتراز على القلعة وعلى أبوابها ، والاحتفاظ بما تيجها على العادة ، وتحصيل
ما يحتاج إليه فيها من الزاد والحطب والملح والفحم وغير ذلك . والمطالعة بمتجددات
الأخبار .



وهذه نسخة تذكرة كتبت بها عن السلطان الملك المنصور قلاوون بسبب قلعة
صرّخد من الشام ، عند استقرار الأمير سيف الدين باسطى نائباً بها ، والأمير عز الدين
واليها في سنة تسع وسبعين وستمائة ، من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر
صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية ، وهى :

تذكرة مباركة نافعة ، لكثير من المصالح جامعها ، يعتمد عليها الأميران : سيف الدين
وعز الدين عند توجههما إلى قلعة صرّخد المحروسة :

يعتمدان العدل في الرعيه ، وسلوك منّج الحق في كل قضيه ، وأعتاد ما يرضى الله
تعالى ويرضينا ، وليكن الإنصاف لهما عقيدة والتقوى ديناً ، ولا يتطاع أحدهما إلى
ما في يد أحد من مال ولا نسب ، ولا يعارض أحد أحداً بلا سبب ، وليتقوا الله
ويخشوه ، ويتجنبوا الباطل ولا يغشوه ، ولا يظن أحد منهم أن قد بعدنا فيطمح
إلى الظلم أو يطمح ، فإننا منهم بمرأى ومسمع ، وليكونوا على المصالح متفقين ، وبأذيان
الحق متعلقين ، وعلى الرعيّة مشفقين .

فصل

يَتَقَدَّمَانِ بِكَشْفِ أَسْوَارِ الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ وَأَبْرَاجِهَا وَبَدَنَاتِهَا وَأَبْوَابِهَا ، وَمَا يَحْتَاجُ إِلَى إِصْلَاحٍ وَتَرْمِيمٍ وَعِمَارَةٍ ، وَيُحَرِّرانَ أَمْرَ ذَلِكَ تَحْرِيراً ، وَيَحْتَمِدَانِ فِي إِصْلَاحِ مَا يَجِبُ إِصْلَاحُهُ وَتَرْمِيمِ مَا يَجِبُ تَرْمِيمُهُ ، وَالْمُطَالَعَةَ بِمَا كَشَفَاهُ وَمَا اعْتَمَدَاهُ .

فصل

يَتَقَدَّمَانِ بَعَرَضِ حَوَاصِلِ الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، وَالخِزَانَةِ الْمَعْمُورَةِ ، وَيَحَقِّقُونَ مَا بَهَا مِنَ الْأَمْوَالِ وَالغَلَالِ وَالذَّخَائِرِ وَالْحَوَاصِلِ ، وَيَعْمَلُونَ بِذَلِكَ أَوْرَاقًا مُحْتَرَةً ، وَيُسَيِّرُونَ نَسِخَتَهَا إِلَى الْبَابِ الشَّرِيفِ .

فصل

يَتَقَدَّمَانِ بَعَرَضِ مَقْدَمِي رِجَالِ الْقَلْعَةِ ، وَأَرْبَابِ الْحَامِيَّاتِ وَالرَّوَاتِبِ بِهَا ، وَيُحَرِّرانَ أَمْرَ مَقَرَّرَاتِهِمْ : مِنْ جَامِكِيَّةٍ وَجِرَايَةِ ، وَيُحَرِّيانَ فِي صَرْفِ ذَلِكَ نَلَى الْعُودَةِ الْجَارِيَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ .

فصل

يَسْتَوْضِحَانِ مِنَ الْأَمِيرِ عِزَّ الدِّينِ وَالْأَمِيرِ عِلْمَ الدِّينِ الْمُنْصَرِفَيْنِ عَنِ الْمَصَالِحِ الْمُخْتَصَّةِ بِهَذِهِ الْقَلْعَةِ وَعَنْ أُمُورِهَا ، جَلِيلِهَا وَحَقِيرِهَا ، فَإِنَّهُمَا قَدْ أَحْسَنَا فِي ذَلِكَ التَّدْبِيرَ ، وَأَجْمَلَا التَّأْيِيرَ ، وَسَلَكَا أَجْمَلَ مَسَلِكٍ ، وَيَهْتَدِيَانِ بِمَا يَوْضِحَانِهِ لَهَا مِنَ الْمَصَالِحِ وَالْمَهْمَّاتِ لِيَكُونَ دُخُولُهَا فِي هَذَا الْأَمْرِ عَلَى بَصِيرَةٍ .

فصل

يَكُونُ أَمْرُ النِّيَابَةِ وَالْحُكْمِ الْعَامِّ فِي الْقَلْعَةِ الْمَنْصُورَةِ ، وَتَنْزِيلِ الرِّجَالِ وَاسْتِخْدَامِهِمْ وَصَرْفِ مَنْ يَجِبُ صَرْفُهُ - لِلْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ بِاسْطِطَى بِمُشَارَكَةِ الْأَمِيرِ عِزِّ الدِّينِ فِي أَمْرِ الرِّجَالِ وَالاسْتِخْدَامِ وَالصَّرْفِ ، وَيَكُونُ أَمْرُ النِّيَابَةِ رَاجِعًا لِلْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ

باسطى والحكم فيها له ، ويكون أمر ولاية القلعة للأمير عن الدين ، ويجريان في ذلك على عادة من تقدمهما في هذه النيابة والولاية ، ويكون الأمير سيف الدين في الدار التي كان يسكنها الأمير عن الدين ، وحكمه في النيابة حكمه ، ويسكن الأمير عن الدين في الدار التي كان يسكن فيها الأمير علم الدين ، وحكمه في الولاية حكمه . ولا يتعدى أحد طوره ، ولا يخرج عما قرر فيه ، ويرعى كل منهما لصاحبه حقه فيما رتب فيه ، ويتفقان على المصالح كلها ، ويكونان كروحين في جسد واحد .

فصل

يتقدمان بأن يترتب الرجال في مراتبهم ومنازلهم على العادة في الليل والنهار ، والحرسية على العادة في الليل والنهار . وإن كان ثم خلل في ذلك أو تفریط أو إهمال ، فليستدرك الفارط ويرتب الأمر فيه على أحسن ترتيب .

فصل

ينتصبان في أوقات العادة في باب القاعة لكشف مظالم الرعية في القاعة والبر ، ويعتمدان إنصافهم ، وتلبية داعيهم ، وسماع كلمهم ، وكف ظالمهم وإعانة مظلومهم ، وأعتاد ما يجب من العدل وبسطه في الرعية ، وكف الأيدي العادية .

فصل

أبواب القلعة إذا أغلقت في كل ليلة تُبَيِّت المفاتيح عند النائب في المكان المعتاد بعد ختم الوالى عليها على العادة ، وإذا تسلمها يتسلمها بختمها على العادة .

فصل

الذخائر والغلال يُجْتَهَد في تحصيلها بالقلعة ، ولا تُخزَن غلة جديدة على غلة عتيقة . وكل هري يُخزَن فيه غلة يحترق أمرها وتُسَال عينتها في كيس وتجعل في الخزانة ويختم عليها ، ولا يُصْرَف من الحديد قبل نفاد العتيق ، ولا يُترك العتيق ويُصْرَف من الحديد . وكذلك بقية الحواصل يُسَلَك فيها هذا المسلك .

فصل

مَهْمَا جرت العادةُ بِتَمِينِهِ على أربابِ الحَامِيَّاتِ والمَقَرَّاتِ ، فليَجْرُ الأمرُ فيه على العادة من غير حَيْفٍ ، وليَدْخُلِ الديوانُ والمباشرُونَ في التَّمِينِ لئلاَّ يُسَلَّكَ أمرُ التَّمِينِ على الرَّجَالَةِ والضُّعَفَاءِ مع قَلَّةِ معلومهم ويُوَفَّرُ من ذلك أربابُ الدَّوَاوِينِ مع كثرة معلومهم ، بل يَكُونُوا أَوَّلَ من يُتَمَّنَ عليه ؛ ومن لاقُدْرَةَ له : مثلُ راجلٍ ضعيفٍ أَوْ رَبِّ معلومٍ قليلٍ ، فليُرْفَقَ به في ذلك ، نظرًا في حقِّ الضعفاءِ .

فصل

يُكَثِّرُونَ من الأخطابِ ومن الفَحْمِ والمِلْحِ بالذخائرِ ، وكذلك من كلِّ ما تدعو الحاجةُ إليه ، ويحتهدُونَ في تحصيلِ الأموالِ وتوفيرِها بالخزانةِ المعمورةِ : بحيث لا يكون لهما شُغْلٌ يَشغُلُهُما عن ذلك ، بل يَصْرِفانِ الهِمَّةَ في غالبِ أوقَاتِهِما إلى الفِكْرَةِ في مالٍ يَحْصِلُونَهُ ، أو صِنْفٍ يَدْنُرُونَهُ ، ولا يَهْمَلانِ ذلكِ .

فصل

يُطالِعانِ الأبوابَ العالِيَةَ في غالبِ أوقَاتِهِما بما يتجددُ عندهما من المصالحِ ، وبما يَتَمَيَّزُ من الأموالِ ، و [بما] حُمِلَ إلى الخزانِ وإلى الأَهْرَاءِ من الأموالِ والغلالِ . وكذلك يُطالِعانِ نائِبَ السلطنةِ بِدمشقِ المحروسةِ على العادةِ في ذلك ، ولتكن مطالعتهما جامعةً وعابها خُطُهما . ومن لاحت له مصلحةٌ في بعضِ الأوقاتِ وأختار أن يطالعَ بانقراده فليطالعِ .

فصل

لا يَمَكِّنُ أحدا من الرجالِ المرتبِّينِ بالقلعةِ المحروسةِ وأربابِ النَّوَبِ أن يُجِلَّ بنوَبته ولا يفارقها ، ولا يخرجُ من القلعةِ أحدٌ من الرجالِ إلا بدُستورٍ ويعودُ في يومه والله الموفقُ .

قلت : وبالجملّة فالتنذكرة منوّطة بحال المكتوب له التذكرة، والمكتوب بسببه؛
فيختلف الحال باختلاف الأسباب، ويُؤتى لكل تذكرة بفصول تُناسبها بحسب
ماتدعو الحاجة إليه .

وأعلم أنّ اللائق بالتنذكرة الخارجة من ديوان الإنشاء أن تكون في الفصاحة
والبلاغة على حدّ الرسائل، فيعلو شأن التذكرة باعتبار أشتمالها على الفصاحة والبلاغة،
وينحطّ بفواتهما؛ وأنظر إلى تذكرة القاضي الفاضل المبتدأ بها، وما أشتملت عليه
من الفصاحة والبلاغة، وأين هي من التذكرتين اللتين بعدها؛ فإنه قد أهمل فيهما
مراعاة الفصاحة والبلاغة جملةً، بل لم تُراع في الأخيرة منهما قوانين النحو، إذ يكون
يتكلم بصيغة التثنية على سياق ما عُدت له التذكرة لا شتمالها على آئين فإذا هو
قد عدل إلى لفظ الجمع، ثم يعود إلى لفظ التثنية، هذا، وهي منسوبة إلى القاضي
محي الدين بن عبد الظاهر، صاحب ديوان الإنشاء يومئذ، وهو من بيت الكتابة
والبلاغة، إلا أنه قد يُريد بعُدوله من التثنية إلى الجمع أن ينتقل إلى خطاب جمع
المتحدثين في القلعة فيما يتعلّق بذلك الفصل الذي يكون فيه، وإلا فلا يجوز صدور
مثل ذلك عنه وتكراره المرّة بعد الأخرى .

المقالة السابعة في الإقطاعات والقَطَائِع ، وفيها بابان

الباب الأول

في ذكر مقدمات الإقطاعات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في ذكر مقدماتٍ تتعلّق بالإقطاعات ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان معنى الإقطاعات وأصلها في الشرع)

أما الإقطاعاتُ بجمعٍ إقطاع ، وهو مصدر أقطع ، يقال : أقطعته أرض كذا يقطعها إقطاعاً ، وأستقطعه إذا طابَّ منه أن يُقَطَّعه ، والقَطِيعَةُ الطائفةُ من أرض الخراج .
وأما أصلها في الشرع فإرواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق بسنده إلى ابن سيرين عن تميم الدارِيِّ أنه قال : « أَسْتَقَطَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْضًا بِالشَّامِ قَبْلَ أَنْ تُفْتَحَ فَأَعْطَانِيهَا ، فَفَتَحَهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي زَمَانِهِ فَأَتَيْتُهُ ، فَقُلْتُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَانِي أَرْضًا مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا ، فَجَعَلَ عَمْرٌ نُثْمَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ ، وَنُثْمًا لِعِمَارَتِهَا ، وَنُثْمًا لَنَا » .

وفي رواية : أَسْتَقَطَعْتُ أَرْضًا بِالشَّامِ فَأَقَطَعْتَنِيهَا ، فَفَتَحَهَا عَمْرٌ فِي زَمَانِهِ فَأَتَيْتُهُ ، فَقُلْتُ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْطَانِي أَرْضًا مِنْ كَذَا إِلَى كَذَا ، فَجَعَلَ عَمْرٌ نُثْمَهَا لِابْنِ السَّبِيلِ ، وَنُثْمًا لِعِمَارَتِهَا ، وَتَرَكَ لَنَا نُثْمًا .

وذكر الماوردي في "الأحكام السلطانية" : أن أبا ثعلبة الخشني رضي الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يقطع أرضاً كانت بيد الروم فأعجبه ذلك ، وقال ألا تسمعون ما يقول ؟ فقال : والذي بعثك بالحق ليقتحنَّ عليك ، فكتب له بذلك كتاباً .

وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقطع الزبير بن العوام ركض فرسه من موات البقيع فأجراه ورمى بسوطه رغبة في الزيادة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أعطوه منتهى سوطه» .

وذكر أن الأبيض بن حمال استقطع مراح مارب فأقطعته ، فأخبره الأفرع ابن حابس أنه كان في الجاهلية [وهو بأرض ليس فيها غيره من ورده أخذه ، وهو مثل الماء العذب بالأرض ، فاستقال الأبيض في قطيعة المراح فقال قد أقلبتك على أن تجعله مني صدقة ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هو منك صدقة ، وهو مثل الماء العذب من ورده أخذه] .^(١)

وذكر أبو هلال العسكري في كتابه "الأوائل" : أن أول من أقطع القضايع بالأرضين أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه - ولا وجه له بعد ما تقدم ذكره ؛ اللهم إلا أن يريد أن عثمان أول من أقطع القضايع بعد الفتح ، فإن ما أقطعته النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل الفتح كما تقدم .

قال بعد ذلك : ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم : أقطع قضايع فافتدى عثمان به في ذلك وأقطع حباب بن الارت وسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد

(١) ترك في الأصل بيضا في هذا الموضع وقد تداركناه من كتاب الأحكام السلطانية ص ١٧٤

(١)
والزبير، وأقطع طلحة أجمّة الحُرْف : وهو موضع النَّشَاجِج ، فكتب إلى سعيد
ابن العاص وهو بالكوفة أن ينقذها له .

الطرف الثاني

(في بيان أول من وَضَعَ ديوانَ الجيش ، وكيفية ترتيب منازل الجند
فيه ، والمساواة والمفاضلة في الإعطاء)

ذكر أبو هلال العسكري في "الأوائل" والمأوردى في "الأحكام السلطانية"
أن أول من وَضَعَ الديوان في الإسلام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه .
قال المأوردى : وأختلف [الناس] في سبب وضعه [له] : فقال قوم : سببه أن
أبا هريرة قدم عليه بمال من البحرين ، فقال له عمر : ما جئت به ؟ قال نحمة
ألف درهم ، فأستكثره عمر ، وقال : أتدري ما تقول ؟ قال نعم ! مائة ألف نحس
مرات ، فقال عمر : أطيب هو ؟ قال لا أدري . فصعد عمر المنبر ، فحمد الله
وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! قد جاءنا مال كثير ، فإن شئتم كلنا لكم كَيْلاً ،
وإن شئتم عددنا لكم عدداً ، فقام إليه رجل فقال يا أمير المؤمنين : رأيت الأعاجم
يدونون ديواناً ، فدوّن أنت لنا ديواناً .

وذهب آخرون إلى أن سبب وَضَع الديوان أن عمر بعث بعثاً وعنده
الهُرمُزَان ، فقال لعمر : هذا بعثٌ قد أعطيت أهله الأموال ، فإن تخلف منهم
رجل وأحلّ مكانه ، فمن أين يعلم صاحبك به ؟ فأثبت لهم ديواناً ، فسأله عن
الديوان ففسره له .

(١) في الأوائل "الجوف" .

ويُروى أنَّ عمرَ رضى الله عنه استشار المسلمين في تدوين الدواوين ، فقال على ابن أبي طالب كرم الله وجهه : تقسيم كل سنة ما اجتمع اليك من المال ، ولا تمسك منه شيئا . وقال عثمان : أرى مالا كثيرا يسع الناس ، فإن لم يخصوا حتى يعلم من أخذ من لم يأخذ ، خشيت أن ينتشر الأمر - فقال خالد بن الوليد رضى الله عنه : قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دقوا ديوانا وجنودا جنودا ، فدوّن ديوانا وجنودا جنودا ، فأخذ بقوله ودعا عقيل بن أبي طالب ، ومخرمة بن نوفل ، وجبير بن مطعم ، (وكانوا من شباب قريش) فقال : آكتبوا [الناس] على منازلهم ، فبدعوا بنى هاشم فكتبوهم ، ثم أتبعوهم أبا بكر وقومه ، [ثم عمر وقومه] وكتبوا القبائل ووضعوها على الخلافة ، ثم رفعوه إلى عمر ، فلما نظر فيه ، قال : لا ! وما وددت أنه هكذا ، ولكن أبدءوا بقراية رسول الله صلى الله عليه وسلم : الأقرب فالأقرب حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله . فشكره العباس على ذلك ، وقال : وصلتك رحم .

وروى زيد بن أسلم عن أبيه : أن نبي عديّ جاءوا إلى عمر ، فقالوا : إنك خليفة أبي بكر ، وأبو بكر خليفة رسول الله ، فلو جعلت نفسك حيث جعلك هؤلاء القوم الذين كتبوا ؟ فقال : بئح يا بني عديّ ! ! إن أردتم إلا الأكل على ظهري ، وأن أذهب حسناتي لكم ، لا والله ! حتى تأتيكم الدعوة ولو أنطبق عليكم الدفتر . يعنى ولو أن تكتبوا آخر الناس . إن صاحبي سلكا طريقا ، فإن خالفتهما خولف بي ، والله ما أدركنا الفضل في الدنيا والآخرة ، ولا نرجو الثواب عند الله على عملنا إلا بحمد صلى الله عليه وسلم ، فهو أشرفنا ، وقومه أشرف العرب ، ثم الأقرب فالأقرب ، والله لئن جاءت الأعاجم بعمل وجئنا بعمل دونهم ، لهم أولى بحمد صلى الله عليه وسلم منا يوم القيامة : فإن من قصر به عمله لم يسرع به نسبه .

وروى أن عمر رضى الله عنه حين أراد وضع الديوان، قال: بمن أبدأ؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف: أبدأ بنفسك، فقال عمر: أذكر أئى حضرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبدأ ببني هاشم وبني عبد المطلب، فبدأ بهم عمر، ثم بمن يليهم من قبائل قريش بطننا بعد بطن، حتى استوفى جميع قريش، ثم انتهى إلى الأنصار، فقال عمر: أبدأوا برهط سعد بن معاذ من الأوس، ثم بالأقرب فالأقرب لسعد.



وأما المساواة والمفاضلة في العطاء فقد اختلف فيه: فكان أبو بكر رضى الله عنه يرى التسوية [بينهم] في العطاء [ولا يرى التفضيل بالسابقة] كما حكاه عنه الماوردي في "الأحكام السلطانية".

قال أبو هلال العسكري في "الأوائل": وقد روى عن عوانة أنه قال: جاء مال من البحرين إلى أبي بكر رضى الله عنه فساوى فيه بين الناس، فغضبت الأنصار، وقالوا له: فضلنا، فقال: إن أردتم أن أفضلكم فقد صار ما عملتموه للدنيا، وإن شئتم كان ذلك لله، فقالوا: والله ما عملناه إلا لله! وأنصرفوا. فرقى أبو بكر رضى الله عنه المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: يامعشر الأنصار لو شئتم [أن] تقولوا: إنا آويناكم وشاركناكم أموالنا ونصرناكم بأنفسنا لقائم، وإن لكم من الفضل ما لا يحصى له عدد، وإن طال الأمد، فنحن وأتم كما قال الغنوي:

بحزى الله عنا جعفر احين أزلفت * بنا نعلنا في الواطين فزلت

أبو أن يملونا ولو أن أمنا * تلاقى الذي لا قوه منا ملت

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم * ظلال بيوت أدفات وأكنت

قال المسورديّ : وإلى ما رأى أبو بكر رضى الله عنه ذهب على رضى الله عنه في خلافته ، وبه أخذ الشافعيّ ومالك .

وكان عمر رضى الله عنه يرى التفضيل بالسابقة في الدين ، حتى إنه ناظر أبا بكر رضى الله عنه في ذلك ، حين سوى بين الناس ، فقال : أئساوي بين من هاجر هجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف ؟ ! - فقال أبو بكر : إنما عملوا لله ، وإنما أجورهم على الله ، وإنما الدنيا [دار] بلاغ [للكب] ، فقال له عمر : لا أجعل [من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ فلما وضع الديوان جرى] ^(١) على التفضيل بالسابقة ؛ ففرض لكل رجلٍ شهيد بَدْرًا من المهاجرين [الأولين] خمسة آلاف درهمٍ كل سنة ، ولكل من شهيد بَدْرًا من الأنصار أربعة آلاف درهم ، ولكل رجلٍ هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم ، ولكل رجلٍ هاجر بعد الفتح ألفين ؛ وفرض لغانم أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار أسوة من أسلم بعد الفتح ؛ وفرض للناس على مآزهم ، وقراءتهم القرآن ، وجهادهم بالشام والعراق ؛ وفرض لأهل اليمن وقيس : لكل رجلٍ من ألقى درهم إلى ألف درهم ، إلى خمسمائة درهم ، إلى ثيمائة درهم ، ولم ينقص أحدا عنهما ، وقال : لئن كثُر المال لأفرضن لكل رجلٍ أربعة آلاف درهم : ألفا لقرسه ، وألفا لسلاحه ، وألفا لسفوره ، وألفا يُخفّفها في أهله ؛ وفرض للنفوس مائة درهم ، فإذا ترعرع فرض له مائتين ، فإذا باع زاده . وكان لا يفرض للوؤد شيئاً حتى يفطم ، إلى أن سمع ليلة امرأة تكّره ولدها على الفطام ، وهو يبكي ، فسألها عنه - فقالت : إن عمر لا يفرض للوؤد حتى يفطم ، فإنا أكرهه على الفطام حتى يفرض له - فقال يا ويح عمر ! كم احتتمب من

(١) الزيادة من "الاحكام السلطانية" ص ١٧٧ .

وَزُرَّ وَهُوَ لَا يَدْرِي ؛ ثُمَّ أَمَرَ مَنَادِيَا فِينَادِي : أَلَا لَا تُعْجِلُوا أَوْلَادَكُمْ بِالْفِطَامِ ، فَإِنَا نَفْرَضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ . قَالَ الْمَاوَرِدِيُّ : ثُمَّ رُوِيَ فِي التَّفْضِيلِ عِنْدَ أَنْقِرَاضِ أَهْلِ السَّوَابِقِ التَّقَدُّمَ فِي الشَّجَاعَةِ وَالْبَلَاءِ فِي الْجِهَادِ .



وأما تقديرُ العطاءِ فمعتبرٌ بالكفايةِ حتَّى يستغنى بها عن التماسِ مادةٍ تَقْطَعُه عن حيايةِ البَيْضَةِ . ثم الكفايةُ معتبرةٌ من ثلاثة أوجه : أحدها عددٌ من يعوله من الدَّرَارِيِّ والمَالِكِ - والثاني عددٌ ما يرتبط من الخيل والظَّهْر - والثالث : الموضعُ الذي يحلُّه في الغلاء والرُّخْصِ فتقدر [كفايته في] نفقته وكسوته لعامه كَلَّةً . ثم تُعتبر حاله في كل عام ، فإن زادت نفقاته زيد ، وإن نقصت نُقص ، فلو تقدَّرَ رزقه بالكفاية ، فمنع الشافعي من زيادته على الكفاية وإن أوسع المال ، لأن أموال بيت المال لا توضع إلا في الحتوق اللازمة ؛ وأجاز أبو حنيفة زيادته حينئذٍ .

الطرف الثالث

(في بيان من يستحق إثباته في الديوان ، وكيفية ترتيبهم فيه)

فأما من يستحق إثباته في الديوان ، ففيه خمسة أمور :

أحدها - البُلُوغ . فلا يجوز إثبات الصَّبِيِّ في الديوان ، وهو رأيُ عمر رضي الله عنه ، وبه أخذ الشافعي رضي الله عنه ، بل يكون جارياً في جملة عطاءِ الدَّرَارِيِّ .
الثاني - الحُرِّيَّة . فلا يُثبت في الديوان مملوكٌ ، بل يكون تابعاً لسيده داخلًا في عطاءه ، خلافاً لأبي حنيفة فإنه جوز إفراد المملوك بالعطاء ، وهو رأيُ أبي بكر رضي الله عنه .

الثالث - الإسلام ، ليدفع عن الملة باعتقاده ، حتى لو أثبت فيهم ذمى لم يجز ، ولو آرتد منهم مسلم سقط .

الرابع - السلامة من الآفات الممانعة من القتال . فلا يجوز أن يكون زمناً ولا أعمى ولا أقطع ، ويجوز أن يكون أخرس أو أصم . أما الأعرج ، فإن كان فارساً جاز إثباته أو راجلاً فلا .

الخامس - أن يكون فيه إقدام على الحرب ومعرفة بالقتال ، فإن ضعفت همته عن الإقدام ، أو قلت معرفته بالقتال لم يجز إثباته .

فإذا وجدت فيه هذه الشروط ، اعتبر فيه خلوه عن عمل وطلبه الإثبات في الديوان ، فإذا طلب فعلى ولي الأمر الإجابة إذا دعت الحاجة إليه . ثم إن كان مشهور الاسم فذاك ، وإلا حلّ ونعت ، بذكر سنه وقده ولونه وصفة وجهه ، ووصف بما يميز به عن غيره ، كي لا تتفق الأسماء ، أو يدعى في وقت العطاء ، ثم يضم إلى نقيب عليه أو عريف يكون مأخوذاً بدركه .



وأما ترتيبهم في الديوان فقد جعلهم المأوردى في "الأحكام السلطانية" على ضربين :

الضرب الأول - الترتيب العام . وهو ترتيب القبائل والأجناس حتى نتميز كل قبيلة عن غيرها وكل جنس عن مخالفة ، فلا يجمع بين المختلفين ، ولا يفرق بين المؤتلفين : لتكرن دعوة الديوان على نسق معروف النسب يزول فيه التنازع والتجاذب . فإن كانوا عرباً روعى فيهم القرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فعل عمر

رضى الله عنه : فُقَدَّمُ الْعَرَبُ الْمُسْتَعْرَبَةُ : وهم عَدَنَانُ من ولد إِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
 عَلَى الْعَرَبِ الْعَارِبَةِ : وهم بَنُو حُطَّانَ عَرَبُ الْيَمَنِ : لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ
 عَدَنَانَ . ثُمَّ عَدَنَانُ تَجْمَعُ رِبِيعَةَ وَمُضَرَ ، فَتَقْدَمُ مُضَرُّ عَلَى رِبِيعَةَ : لِأَنَّ النَّبِيَّ فِي مُضَرَ ،
 وَمُضَرُّ تَجْمَعُ قُرَيْشًا وَغَيْرَ قُرَيْشٍ ، فَتَقْدَمُ قُرَيْشٌ عَلَى غَيْرِهِمْ : لِأَنَّ النَّبِيَّ فِيهَا ، فَيَكُونُ
 بَنُو هَاشِمٍ هُمْ قُطْبُ التَّرْتِيبِ ، ثُمَّ مِنْ يَلِيهِمْ مِنْ أَقْرَبِ الْأَنْسَابِ إِلَيْهِمْ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ
 قُرَيْشًا ، ثُمَّ مِنْ يَلِيهِمْ فِي النَّسَبِ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ جَمِيعَ مُضَرَ ، ثُمَّ مِنْ يَلِيهِمْ حَتَّى يَسْتَوْعِبَ
 جَمِيعَ عَدَنَانَ .

وإن كانوا عَجَابًا لَا يَجْتَمِعُونَ عَلَى سَبَبٍ ، فَاَلْمَرْجُوعُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِهِمْ : إِمَّا أَجْنَسًا
 وَإِمَّا بِلَادٍ ، فَالْمُمَيِّزُونَ بِالْأَجْنَسِ كَالْتُّرْكِ وَالْهِنْدِ ، ثُمَّ تَمَيِّزُ التُّرْكِ أَجْنَسًا ،
 وَالْهِنْدُ أَجْنَسًا . وَالْمُمَيِّزُونَ بِالْبِلَادِ : كَالدَّيْلِمِ وَالْجَبَلِ ، ثُمَّ تَمَيِّزُ الدَّيْلِمِ بِلَدَانًا ،
 وَالْجَبَلِ بِلَدَانًا . فَإِذَا تَمَيَّزُوا بِالْأَجْنَسِ أَوْ الْبِلَادِ : فَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ سَابِقَةٌ تَرْتَّبُوا عَلَيْهَا
 فِي الدِّيْوَانِ ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ سَابِقَةٌ تَرْتَّبُوا بِالْقُرْبِ مِنْ وَلِيِّ الْأَمْرِ ، فَإِنْ تَسَاوَوْا
 فَبِالسَّبْقِ إِلَى طَاعَتِهِ .

الضرب الثاني : الترتيبُ الخاصُّ : وهو ترتيبُ الواحدِ بعدَ الواحدِ ، فيقدمُ
 فيه بالسابقة بالإسلام كما فعلَ مُحَمَّدٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَإِنْ تَسَاوَوْا تَرْتَّبُوا بِالدِّينِ ، فَإِنْ
 تَقَارَبُوا فِيهِ رَتَّبُوا بِالسَّنِّ ، فَإِنْ تَقَارَبُوا بِالسَّنِّ رَتَّبُوا بِالشَّجَاعَةِ ، فَإِنْ تَقَارَبُوا فِيهَا ،
 كَانَ وَلِيُّ الْأَمْرِ بِالْخِيَارِ بَيْنَ أَنْ يَرْتَّبَهُمُ بِالْقُرْعَةِ أَوْ عَلَى رَأْيِهِ وَاجْتِهَادِهِ

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة السابعة

(في بيان حكم الإقطاع)

قال في "الأحكام السلطانية": وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه، ونفذت فيه أوامره، دون ماتعين مالكة وتميز مستحقه .

ثم الإقطاع على ضربين :

الضرب الأول

(إقطاع التملك)

والأرض المقطعة بالتملك إما موات، وإما عامر، وإما ممدن .

فأما الموات فإن كان لم يزل مواتا على قديم الزمان، لم تجر فيه عمارة، ولم تثبت عليه ملك، فيجوز للسلطان أن يقطعه من يحميه ويعمره. ثم مذهب أبي حنيفة أن إذن الإمام شرط في إحياء الموات، وحينئذ فيقوم الإقطاع فيه مقام الإذن. ومذهب الشافعي أن الإقطاع يجعله أحق بإحيائه من غيره. وعلى كلا المذهبين يكون المقطع أحق بإحيائه من غيره .

وأما إن كان الموات عامرا فغرب وصار مواتا عاطلا، فإن كان جاهليا: كأرض عاد وثمود، فهي كالموات الذي لم تثبت فيه عمارة في جواز إقطاعه . قال صلى الله عليه وسلم: « عادت الأرض لله ولرسوله، ثم هي لكم مني، يعني أرض عاد ». وإن كان الموات إسلاميا جرى عليه ملك المسلمين، ثم حرب حتى صار مواتا عاطلا،

فذهب الشافعي أنه لا يملك بالإحياء، عُرفَ أربابه أم لم يُعرفوا؛ ومذهب مالك أنه يملك بالإحياء، عُرفَ أربابه أم لم يُعرفوا؛ ومذهب أبي حنيفة أنه إن عُرفَ أربابه لم يملك بالإحياء، وإلا ملك . ثم إذا لم يجوز أن يملك بالإحياء على مذهب الشافعي، فإن عُرفَ أربابه لم يجوز إقطاعه، وإن لم يُعرفوا جاز إقطاعه وكان الإقطاع شرطاً في جواز إحيائه . فإذا صار الموات إقطاعاً لمن خصه الإمام به لم يستقر ملكه عليه حتى يُحييه ويكمل إحياءه، فإن أمسك عن إحيائه كان أحق به يداً وإن لم يصر له ملكاً .

وأما العامر: فإن تعين مالكوه، فلا نظر للسلطان فيه إلا ما تعلق بتلك الأرض من حقوق بيت المال إذا كانت في دار الإسلام، سواء كانت لمسلم أودمي، وإن كانت في دار الحرب التي لم يثبت عليها للمسلمين يد جاز للإمام أن يقطعها لملكها المقطع عند الظفر بها، كما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم تيمماً وأصحابه أرضاً بالشام قبل فتحه، على ما تقدم ذكره في أول الباب .

وإن لم يتعين مالكوه: فإن كان الإمام قد أصطفاه لبيت المال من فتوح البلاد: إما بحق الخمس، أو باستطابة نفوس الغائبين، لم يجوز إقطاع رقبته: لأنه قد صار بأصطفائه لبيت المال ملكاً لكافة المسلمين، فصار على رقبته حكم الوقف المؤبد؛ والسلطان فيه بالخيار بين أن يستغله لبيت المال وبين أن يتخير له من ذوى المكنة والعمل من يقوم بعمارة رقبته، ويأخذ حراجه، ويكون الخراج أجرة عنه تُصرف في وجوه المصالح .

(١) عبارة الأحكام السلطانية «وان لم يجوز على مذهبه أن يملك» الخ والضمير عائذ على أبي حنيفة، وحرر.

(٢) عبارة «الأحكام» السلطانية «بجزى على رقبته حكم الخ» وهي أوضح .

وإن كان العاصر أرض خراج لم يُجزَ إقطاع رقبها تملكاً .

وأما إقطاع خراجها فسيأتى فى إقطاع الاستغلال فيما بعد، إن شاء الله تعالى .

وإن كان الموات قد مات عنه أربابه من غير وارث، صار لبيت المال ملكاً لعامة المسلمين . ثم قيل : تصيرُ وقفاً على المسلمين بمجرد الانتقال الى بيت المال، لا يجوزُ إقطاعها ولا بيعها . وقيل : لا تصيرُ وقفاً حتى ينفى الإمام، ويجوز للإمام بيعها إذا رأى فيه المصلحة ويصرف ثمنها فى ذوى الحاجات . ثم قيل : يجوزُ إقطاعها كما يجوز بيعها، ويكون تملك رقبها بالإقطاع كتمليك ثمنها . وقيل : لا يجوزُ إقطاعها وإن جاز بيعها : لأن البيع معاوضةٌ والإقطاع صلة .

الضرب الثانى

(من الإقطاع إقطاع الاستغلال)

وهو : إمام خراج أو عشر .

فأما الخراج : فإن كان من يقطع الإمام من أهل الصدقات لم يجوز أن يقطع مال الخراج : لأن الخراج قىء لا يستحقه أهل الصدقة كما لا يستحق الصدقة أهل النىء وأجاز إقطاعه أبو حنيفة .

وإن كان من أهل المصالح ممن ليس له رزق مفروض فلا يصح أن يقطع على الإطلاق وإن جاز أن يعطى من مال الخراج : لأنهم من نفل أهل النىء لا من فرضه، وما يعطونه إنما هو من غلات المصالح، فإن جعل لهم من مال الخراج شىء أجرى عليه حكم الحوالة لأحكام الإقطاع .

وإن كان من مُرْتَقَةٍ أَهْلِ النَّيِّءِ وَهَمَّ أَهْلُ الْجَيْشِ ، فَهَمَّ أَحْصَى النَّاسُ بِجَوَازِ
الِإِقْطَاعِ : لِأَنَّ لَهُمُ أَرْزَاقًا مَقْدَرَةً تُصْرَفُ إِلَيْهِمْ مَصْرُفَ الْأَسْتَحْقَاقِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهَا
أَعْرَاضٌ عَمَّا أَرْصَدُوا نَفْسَهُمْ لَهُ مِنْ حِمَايَةِ الْبَيْضَةِ وَالذَّبِّ عَنِ الْحَرِيمِ .

ثُمَّ الْخَرَاجُ : إِمَّا جِزْيَةٌ وَهِيَ الْوَاجِبُ عَلَى الْجَمَاعِمِ ، وَإِمَّا أُجْرَةٌ وَهِيَ الْوَاجِبُ عَلَى
رِقَابِ الْأَرْضِ . فَإِنْ كَانَ جِزْيَةً لَمْ يَجْزِ إِقْطَاعُهُ أَكْثَرَ مِنْ سَنَةٍ ، لِأَنَّهُ غَيْرُ مَوْثُوقٍ
بِاسْتِحْقَاقِهِ بَعْدَهَا لِاحْتِمَالِ أَنْ يُسَلِّمَ الذَّمِّيُّ فَتُرَوَّلَ الْجِزْيَةُ عَنْهُ . وَإِنْ كَانَ أُجْرَةً جَازَ
إِقْطَاعُهُ سَنِينَ لِأَنَّهُ مُسْتَقَرُّ الْوَجُوبِ عَلَى التَّأْيِيدِ .

ثُمَّ لَهُ ثَلَاثُ أَحْوَالٍ :

إِحْدَاها - أَنْ يُقَدَّرَ بِسَنِينَ مَعْلُومَةٍ ، كَمَا إِذَا أَقْطَعَهُ عَشْرَ سَنِينَ مِثْلًا ، فَيَصِحُّ ، بِشَرْطِ
أَنْ يَكُونَ رِزْقُ الْمُقْطَعِ مَعْلُومًا الْقَدْرَ عِنْدَ الْإِمَامِ ، وَأَنْ يَكُونَ قَدْرُ الْخَرَاجِ مَعْلُومًا عِنْدَ
الْإِمَامِ وَعِنْدَ الْمُقْطَعِ ، حَتَّىٰ لَوْ كَانَ مَجْهُولًا عِنْدَهُمَا أَوْ عِنْدَ أَحَدِهِمَا لَمْ يَصِحَّ . ثُمَّ بَعْدَ
صِحَّةِ الْإِقْطَاعِ يُرَاعَىٰ حَالُ الْمُقْطَعِ فِي مُدَّةِ الْإِقْطَاعِ : فَإِنْ بَقِيَ إِلَىٰ أَنْقِضَاءِ مُدَّةِ الْإِقْطَاعِ
عَلَىٰ حَالِ السَّلَامَةِ فَهُوَ عَلَىٰ اسْتِحْقَاقِ الْإِقْطَاعِ إِلَىٰ أَنْقِضَاءِ الْمُدَّةِ ، وَإِنْ مَاتَ قَبْلَ
أَنْقِضَاءِ الْمُدَّةِ بَطَلَ الْإِقْطَاعُ فِي الْمُدَّةِ الْبَاقِيَةِ ، وَيَعُودُ الْإِقْطَاعُ إِلَىٰ بَيْتِ الْمَالِ . وَإِنْ
كَانَ لَهُ ذَرِيَّةٌ دَخَلُوا فِي عَطَاءِ الذَّرَارِيِّ دُونَ أَرْزَاقِ الْأَجْنَادِ ، وَيَكُونُ مَا يُعْطَوْنَهُ
تَسْبِيًا لِإِقْطَاعِهِ . وَإِنْ حَدَثَ بِالْمُقْطَعِ زَمَانَةٌ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ فَفِي بَقَاءِ الْإِقْطَاعِ قَوْلَانِ :
(أَحَدُهُمَا) أَنَّ إِقْطَاعَهُ بَاقٍ عَلَيْهِ إِلَىٰ أَنْقِضَاءِ الْمُدَّةِ (وَالثَّانِي) أَنَّهُ يُرْتَجَعُ مِنْهُ .

الثَّانِيَةِ - أَنْ يُقْطَعَهُ مُدَّةَ حَيَاتِهِ ثُمَّ لِعَقِبِهِ وَوَرِثَتِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ ، فَلَا يَصِحُّ : لِأَنَّهُ
يُخْرَجُ بِذَلِكَ عَنِ حَقُوقِ بَيْتِ الْمَالِ إِلَىٰ الْأَمْلاكِ الْمَوْرُوثَةِ ، فَلَوْ قَبِضَ مِنْهُ شَيْئًا بَرِيًّا
أَهْلُ الْخَرَاجِ يَقْبِضُوهُ : لِأَنَّهُ عَقْدٌ فَاسِدٌ مَأْذُونٌ فِيهِ وَيُجَاسَبُ بِهِ مِنْ جَمَلَةِ رِزْقِهِ : نَافِئًا

كان أكثر ردّ الزيادة، وإن كان أقلّ رجح بالباقي، وعلى السلطان أن يظهر فساد الإقطاع حتى يمتنع هو من القبض ويمتنع أهل الخراج من الدفع ولم يبرءوا بما دفعوه إليه حينئذ .

الثالثة — أن يُقَطَّعه مدّة حياته . ففي صحّة الإقطاع قولان للشافعي بالصحة والبطلان، ثم إذا صحّ الإقطاع فالسلطان أسترجاعه منه فيما بعد السنة التي هو فيها، ويعود رزقه إلى ديوان العطاء . أما السنة التي هو فيها : فإن حلّ رزقه فيها قبل حلول خراجها لم يسترجع منه في سنته لأستحقاق خراجها في رزقه، وإن حل خراجها قبل حلول رزقه جاز أسترجاعه منه : لأنّ تعجيل المؤجل وإن كان جائزا فليس بلازم .

وأما العُشْر فلا يصحّ إقطاعه، لأنه زكاة الأصناف، فيعتبر وصف استحقاتهم عند دفعها إليهم، وقد يجوز أن لا يوجد فلا تجب .

قلتُ : هذا حكم الإقطاع في الشريعة، وعليه كان عمل الخلفاء والملوك في الزمن السالف، أما في زماننا فقد فسّد الحال وتغيّرت القوانين، وخرجت الأمور عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعات ترد من جهة الملوك على سائر الأموال : من خراج الأرضين، والحزبية، وزكاة المواشي، والمعادن، والعُشْر، وغير ذلك . ثم تفاحش الأمر وزاد حتى أقطعوا المكوس على اختلاف أصنافها، وعمت بذلك البلوى؛ والله المستعان في الأمور كلّها ! .

الباب الثاني من المقالة السابعة

(فيما يُكْتَبُ في الإقطاعات في القديم والحديث ، وفيه فصلان)

الفصل الأول في أصل ذلك

والأصل فيه ماروي أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع تَمِيمًا الدَّارِيَّ أرضًا بالشَّامَ
وكتب له بها كتابًا .

وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق فيه طرقًا مختلفة . فروى بسنده إلى
زياد بن فائد ، عن أبيه فائد ، عن جده زياد بن أبي هند ، عن أبي هند الدارِيَّ أنه
قال : قَدِمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ وَنَحْنُ سِتَّةٌ نَقَرُ : تَمِيمُ بْنُ أَوْسٍ ،^(١)
وَنَعِيمُ بْنُ أَوْسٍ أَخُوهُ ، وَيَزِيدُ بْنُ قَيْسٍ ، وَأَبُو هِنْدٍ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْحَدِيثِ ،
وَأَخُوهُ الطَّيِّبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ [كَانَ اسْمُهُ بَرًا] فَسَمَاهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^(٢)
عَبْدَ الرَّحْمَنِ ، وَفَاكُهُ بْنُ النُّعْمَانِ ، فَأَسَامَنَا وَسَأَلْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْطِعَنَا^(٣)
أَرْضًا مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « سَأَلُوا حَيْثُ شِئْتُمْ » .
فَقَالَ تَمِيمٌ : أَرَى أَنْ نَسْأَلَهُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ وَكُورَهَا ، فَقَالَ أَبُو هِنْدٍ : [هَذَا مَحَلُّ مُلْكِ
العجم] وَكَذَلِكَ يَكُونُ فِيهَا مُلْكُ الْعَرَبِ وَأَخَافُ أَنْ لَا يَتِمَّ لَنَا هَذَا ، فَقَالَ تَمِيمٌ : فَنَسْأَلُهُ^(٤)

(١) في "سيرة ابن هشام" عدم ثمانية .

(٢) الزيادة من "سيرة ابن هشام" ج ٢ ص ١٩٥ وهي لازمة لصحة المقام .

(٣) في "سيرة ابن هشام" - عبد الله - وأن الذي سماه عبد الرحمن إنما هو عرفة بن مالك ولم يذكر هنا .

(٤) الزيادة من "السيرة الخلبية وتاريخ ابن عساكر المحفوظ بدار الكتب الأزهرية" .

بيت جبرين وكورتها ، فقال أبو هنيدي : هذا أكبر وأكبر . فقال : فأين ترى أن نسأله ؟ فقال : أرى أن نسأله القرى التي يقع فيها تل مع آثار إبراهيم . فقال تميم : أصبت ووقفت - قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم : « أُحِبُّ أَنْ تُخْبِرَنِي بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ أَوْ أُخْبِرَكَ ؟ » - فقال تميم : بل تُخْبِرْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ نَزَادُ إِيمَانًا - فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَرَدْتُمْ أَمْرًا فَأَرَادَ هَذَا غَيْرَهُ » وَنِعْمَ الرَّأْيُ رَأَى - قال : فداء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطعة جلد من آدم ، فكتب لنا فيها كتابا نسخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا [كتاب^(١)] ذِكر [فيه] ما وهب محمد رسول الله للداريين إذا
« أعطاه الله الأرض . وهب لهم بيت عينون وحبرون ، وبيت إبراهيم
بمن فيهن لهم أبداً » .

« شهد عباس بن عبد المطلب ، وجهم بن قيس ، وشرحبيل بن^(٢)
« حسنة ، وكتب » .

قال : ثم دخل بالكتاب إلى منزله فعالج في زاوية الرقعة وغشاه بشيء لا يعرف ،
وعقده من خارج الرقعة بسير عقدين ، وخرج إلينا به مطويا وهو يقول :
« إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ »

(١) الزيادة من "السيرة الحلبية" ج ٣ ص ٢٩٦ وتاريخ ابن عساكر .

(٢) في "السيرة الحلبية" ص ٢٩٦ ج ٣ « ونخبة بن قيس » .

(٣) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، والتصحيح من تاريخ ابن عساكر .

ثم قال : أَنْصِرْفُوا حَتَّى تَسْمَعُوا بِي قَدْ هَاجَرْتُ . قال أبو هند : فأنصرفنا . فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قَدِمْنَا عَلَيْهِ فَسَأَلْنَاهُ أَنْ يُجَدِّدَ لَنَا كِتَابًا ، فكَتَبَ لَنَا كِتَابًا نُسَخْتُهُ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« هَذَا مَا أَنْطَقَ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِتَمِيمِ الدَّارِيِّ »
 « وَأَصْحَابِهِ ، إِنِّي أَنْطَيْتُكُمْ عَيْنُونَ وَحَبْرُونَ وَالرُّطُومَ وَبَيْتَ إِبْرَاهِيمَ بِرُمَّتِهِمْ »
 « وَجَمِيعَ مَا فِيهِمْ نَطِيئَةَ بَيْتٍ ، وَنَفَذْتُ وَسَلَّمْتُ ذَلِكَ لَهُمْ وَلَا عَقَابِهِمْ مِنْ »
 « بَعْدِهِمْ أَبَدَ الْأَبَدِ ، فَمَنْ آذَاهُمْ فِيهَا آذَاهُ اللَّهُ » .

« شَهِدَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي حُقَافَةَ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ ، »
 « وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمَعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ ، وَكَتَبَ » .
 فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وولي أبو بكر، وجّه الجنود إلى الشام، فكتب لنا كتاباً نُسَخْتُهُ :

« بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ »

« مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ إِلَى عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ ، سَلَامٌ عَلَيْكَ فَإِنِّي »
 « أَحْمَدُ إِلَيْكَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ » .

« أَمَا بَعْدَ ، أَمْنَعُ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ مِنَ الْفَسَادِ »
 « فِي قَرْيِ الدَّارِيِّينَ ؛ وَإِنْ كَانَ أَهْلُهَا قَدْ جَلَوْا عَنْهَا وَأَرَادَ الدَّارِيُّونَ »

« أن يزرعوها فليزرعوها، فإذا رجع أهلها إليها فهى لهم وأحق بهم »
« والسلام عليك » .

وروى بسنده أيضا إلى الزهرى وثور بن يزيد عن راشد بن سعد، قال: قام تميم الدارى وهو تميم بن أوس، رجل من نخم، فقال يارسول الله، إن لى جيرة من الروم بفلسطين لهم قرية يقال لها حبرى، وأخرى يقال لها بيت عينون : فإن فتح الله عليك الشام فهبما لى، قال : هما لك، قال : فاكتب لى بذلك، فكتب له :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«هذا كتاب من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لتيمة بن أوس»
«الدارى، إن له قرية حبرى وبيت عينون قريتها كلها سهلها وجبلها»
«وماءها وحرثها وأنباطها وبقرها ولعقبه من بعده لا يحاقه فيها أحد»
«ولا يلججه عليهم أحد بظلم . فمن ظلمهم أو أخذ من أحد منهم شيئا»
«فعلية لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» وكتب على .

فلما ولي أبو بكر كتب لهم كتابا نسخته :

«هذا كتاب من أبى بكر أمين رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى»
«استخلف فى الأرض بعده، كتبه للداريين أن لا تقسد عليهم ما أوتتهم»
«قرية حبرى وبيت عينون، فمن كان يسمع ويطيع فلا يفسد منها شيئا»
«وليقيم عمرو بن العاص عليها فليمنعهما من المفسدين» .

وروى ابن منده بسنده إلى عمرو بن حزم رضى الله عنه أنه قال : أقطع النبي صلى الله عليه وسلم تيمماً الدارى ، وكتب :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا كتاب من محمد رسول الله لتيمم بن أوس الدارى ، إن له صهيون »
« قريتها كلها سهلها وجبلها وماءها وكرومها وأنباطها وورقها ، ولعقبه من »
« بعده لا يحاqqه فيها أحد ، ولا يدخل عليه بظلم ، فمن أراد ظلمهم »
« أو أخذهم منهم فإن عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

قلت : وهذه الرقعة التي كتب بها النبي صلى الله عليه وسلم موجودة بأيدى التميميين خدام حرم الخليل عليه السلام إلى الآن ، وكلمنا نازعهم أحد أتوا بها إلى السلطان بالديار المصرية ليقف عليها ويكف عنهم من يظلمهم . وقد أخبرني برؤيتها غير واحد ، والأديم التي هي فيه قد خالق لطول الأمد .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة السابعة

(في صورة ما يُكْتَبُ في الإقطاعات، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فيما كان يُكْتَبُ من ذلك في الزمن القديم)

وكانت الإقطاعات في الزمن الأول قليلةً، إنما كانت تُجْبَى الأموال إلى بيت المال ثم يُنْفَق منه على الجند على ما تقدم ذكره، وربما أقطعوا القرية ونحوها وقرروا على مُقْطَعِهَا شيئاً يقوم به لبيت المال في كل سنة، ويسمونه ذلك المقاطعة.

ثم ما كان يُكْتَبُ في ذلك على ضربين، كلاهما مفتتح بلفظ «هذا» :

الضرب الأول

(ما كان يُكْتَبُ عن الخلفاء، ولهم فيه طريقتان)

الطريقة الأولى

(طريقة تُكْتَبُ الخلفاء العباسيين ببغداد)

وكان طريقتهم فيها أن يُكْتَبُ « هذا كتابٌ من فلان (بلقب الخليفة) إنك ذكرت من أمر ضيعتِك الفلانية كذا وكذا، وسألت أمير المؤمنين في كذا وكذا، وقد أجابك أمير المؤمنين إلى سؤالك في ذلك ونحوه » .

وهذه نسخة مقاطعة، كُتِبَ بها عن المُطْبِعِ لله الخليفة العباسي، من إنشاء

أبي إسحاق الصابي، وهي :

هذا كتاب من عبد الله الفضل، الإمام المطيع لله أمير المؤمنين، لفلان بن فلان .
 إنك رفعت قِصَّتَكَ تذكُرُ حالَ ضِيعَتِكَ المعروفةِ بكذا وكذا، من رُستاق كذا وكذا،
 من طُسُوج كذا وكذا، وأنها أرضٌ رَقيقَةٌ قد توالى عليها الخراب، وأنفاقٌ أكثرُها
 بالسدِّ والدغل، وأن مِثلها لا تَنسَعُ يَدُ اللِئالي للإِنفاقِ عليه، وولب بالاسله (?) وأستخرج
 سُودُه وقفل أَرْضِه، ولا يرغبُ الأَكْرَةَ في أزدِراعِه والمعاملةِ فيه . وإن أمير المؤمنين
 مُقاطِعُك عن هذه الضِيعَةِ على كذا وكذا من الورقِ المُرسَلِ في كلِّ سنةٍ، على أَسْتِقبالِ
 سنة كذا وكذا الحراجية، مُقاطِعَةً مؤبَّدةً، ماضيةً مُقرَّرةً نافذةً، يُسْتَخْرَجُ مالُها
 في أوَّلِ المحرمِ من كلِّ سنةٍ، ولا تُتَّبَعُ بِنَقِضٍ ولا يتأوَّلُ فيها متأوَّلٌ، ولا تُعْتَرَضُ
 في مستأنفِ الأيامِ، [إن] أجتهدت في عمارتها، وتكلفت الإِنفاقَ عليها وأستخرج
 سُودَها، وقفل أراضِها وأحتفَارَ سواقِها، وأجتلابَ الأَكْرَةَ إليها، وإطلاقَ البُدُورِ
 والتقاوى فيها، وإرغابَ المزارعين بتخفيفِ طُسُوجِها بحقِ الرقبةِ ومُقساماتِها، وكان
 في ذلك توفيرٌ لحقِّ بَيْتِ المالِ وصالحٌ ظاهرٌ لا يَحْتَلُّ .

وسألت أمير المؤمنين الأمرَ بذلك والتقدُّمَ به والإسجالَ لك به، وإثباته في ديوان
 السَّوادِ ودَواوينِ الحَضرةِ وديوانِ الناحيةِ، وتَصْيِيرِه ماضياً لك ولعقبِكَ وأَعقابِهِمْ،
 ومَنْ لَعَلَّ هذه الضِيعَةَ أو شيئاً منها يَنْتَقِلُ إليه ببيعٍ أو ميراثٍ أو صدقةٍ أو غير ذلك
 من ضُروبِ الأَنْتقالِ .

وإنَّ أمير المؤمنين بإيثاره الصَّلاحِ، وأَعْتادِه أسبابه، ورَغْبَتِه فيما عادَ بالتوفيرِ على
 بَيْتِ المالِ، والعمارةِ والتَّرفِيهِ للرَّعيةِ، أمرنا بالنظرِ فيما ذكَّرتَه، وأستقصاءِ البَحْثِ عنه،
 ومَعْرِفَةِ وجهِ التَّدبِيرِ، وسبيلِ الحِظِّ فيه، والعملِ بما يُوافقُ الرُّشدَ في جميعه . فُرِجِعْ
 إلى الدِّيوَانِ في تَعْرِفِ ما حَكِيَّتَه من أحوالِ هذه الضِيعَةِ، فأُنْفِذْ منه رجلاً مُخْياراً ثِقَةً

مأمونٌ، من أهل الخبْرة بأمور السَّواد وأعمال الخراج: قد عَرَفَ أمير المؤمنين أمانته وعلمه ومعرفته، وأمر بالمصير إلى هذه الناحية، وجمع أهلها: من الأدلاء والمجاورة والمزارعين، وثقات الأمناء والمجاورين، والوقوف على هذه الأفرحة، وإيقاع المساحة عليها، وكشف أحوال عامرها وغايرها، والمسبِر على حدودها، وأخذ أقوالهم وآرائهم في وجه صلاح وعمارة قراج قراج منها، وما يوجبُه صواب التدبير فيما أتمسته من المقاطعة بالمبلغ الذي بذلته. وذكرت أنه زائدٌ على الارتفاع، والكتاب بجميع ذلك إلى الديوان، ليوقف عليه وينهى إلى أمير المؤمنين فينظر فيه: فاصحَّ عنده منه أمضاه، وما رأى الاستظهار على نظر الناظر فيه استظهر فيما يرى منه، حتى يقف على حقيقته، ويرسم ما يعمل عليه.

فذكر ذلك الناظر أنه وقف على هذه الضيعة، وعلى سائر أفرحتها وحدودها ونطاقها، بمشهد من أهل الخبْرة بأحوالها: من ثقات الأدلاء والمجاورين، والأدلة والمزارعين، والأمناء الذين يرجع إلى أقوالهم، ويعمل عليها، فوجد من حاجة بطون الأفرحة المزدرعة من جميعها، دون سواقيها وبرورها وتلاها وجنائها ومستنقعاتها، وما لا يعتمد من أرضها، بالخريب الهاشمي الذي تمسح به الأرض في هذه الناحية كذا وكذا جريباً: منها جميع القراج المعروف بكذا وكذا، ومنها قراج كذا وكذا، ومنها الحصن والبيوت، والساحات، والقرارات، والخزانات، ووجد حالها في الخراب والأنداد، وتعذر العمارة، والحاجة إلى عظيم المسونة وفرط النفقة على ما حكيتة وشكوته، ونظر في مقدار أصل هذه الخزانات من هذه الضيعة، وما يجب عليها، وكشف الحال في ذلك..

ونظر أمير المؤمنين فيما رفعه هذا المؤمن المنقذ من الديوان، وأستظهر فيه بما
 رآه من الأستظهار، ووجب عنده من الاحتياط، فوجد ما رفعه صحيحاً صححةً عرفها
 أمير المؤمنين وعلمها، وقامت في نفسه، وثبتت عنده، ورأى إيقاع المقاطعة التي
 آتمستها على حق بيت المال في هذه الضيعة، فقاطعك عنه في كل سنة هلالية، على
 أستقبال سنة كذا وكذا الخراجية، على كذا وكذا: درهماً صحاحاً مرسلةً بغير كسر
 ولا كعانه (?) ولا حق حرب ولا جهنزة، ولا محاسبة ولا زيادة، ولا ثنى من جميع
 المؤن وسابق التواقيع والرؤوم. تؤدى في أول الحرم من كل سنة، حسب ما تؤدى
 المقاطعة، مقاطعة ماضية مؤبدة، نافذة ثابتة، على مضي الأيام، ولزوم الأعوام،
 لا تتقص ولا تفسخ، ولا تتبع، ولا يتأول فيها، ولا تميم. على أن يكون هذا
 المال: وهو من الورق المرسل كذا وكذا في كل سنة مؤدى في بيت المال،
 ومصححاً عند من أورد عليه في هذه الناحية أموال خراجهم ومقاطعاتهم وجباياتهم،
 لا يعتل فيها بأفة تالحق الغلات، سماوية ولا أرضية، ولا بتعطيل أرض، ولا بقصور
 عمارة، ولا نقصان ربع، ولا بانحطاط سعر، ولا بتأخر قطر، ولا بشرب غلة،
 ولا حرق ولا شرق، ولا بغير ذلك من الآفات بوجه من الوجوه، ولا بسبب من
 الأسباب، ولا يمتنع في ذلك بحجة يمتنع بها التنا (?)، والمزارعون، وأرباب الخراج
 في الالتواء بما عليهم، وعلى أن لا يدخل عليك في هذه المقاطعة يد ماسح ولا مخن،
 ولا حازر، ولا مقدم، ولا أمين، ولا حاطر، ولا ناظر، ولا متبّع، ولا متعرف لحال
 زراعة وعمارة، ولا كاشف لأمر زرع وغلة، ماضياً ذلك لك ولعقبك من بعدك،
 وأعقابهم، وورثتك وورثتهم، أبداً ما تناسلوا، ولن عسى أن تنقل هذه الأفرحة
 أو شئ منها إليه بيارث، أو بيع، أو هبة، أو نخل، أو صدقة، أو وقف، أو مناقلة،
 أو إجارة، أو مهياة، أو تملك، أو إقرار، أو بغير ذلك من الأسباب التي تنتقل بها

الأملاك من يد إلى يد، ولا يُقَضُّ ذلك ولا شيء منه، ولا يغير ولا يفسخ، ولا يُزال ولا يبدل، ولا يعقب، ولا يعترض فيه بسبب زيادة عمارة، ولا ارتفاع سعر ولا وفور غلة، ولا زكاء ربيع، ولا إحياء موات، ولا أعتال معطل، ولا عمارة نحراب، ولا أستخراج غامر، ولا صلاح شرب، ولا استحداث غلات لم يجر الرسم باستحداثها وزراعتها، ولا يعد ولا يمسح ما عسى أن يفرس بهذه الأفرحة: من النخل وأصناف الشجر المعدود والكرم؛ ولا يتأول عليك فيما لعل أصل المساحة أن تزيد به فيما تعمره وتستخرجه من الجباين^(١) والمستنقعات، ومواضع المشارب المستغنى عنها، إذ كان أمير المؤمنين قد عرف جميع ذلك، وجعل ما يجب على شيء منه عند وجوبه داخلا في هذه المقاطعة، وجاريا معها.

على أنك إن فصأت شيئا من مال هذه المقاطعة على بعض هذه الأفرحة من جميع الضيعة، وأفردت باقي مال المقاطعة بباقيها عند ملك ينتقل منها عن بدل، أو فعل ذلك غيرك ممن جعل له في هذه المقاطعة ما جعل لك من ورتك وورثتهم، وعقبك وأعقابهم، ومن لعل هذه الضيعة أو شيئا من هذه الأفرحة ينتقل إليه بضرب من ضروب الانتقال، قبل ذلك التفصيل منكم عند الرضا والاعتراف ممن تفصلون باسمه، ويحملون عليه، وعوملتهم على ذلك، ولم يتأول عليكم في شيء منه.

وعلى أنك إن أتمست أو أتمست من يقوم مقامك ضرب منار على هذه الضيعة، تعرف به حدودها ورسومها وطرفها، ضرب ذلك المنار أي وقت أتمسوه، ولم يمنعوا منه، وإن تأخر ضرب المنار لم يتأول عليكم به، ولم يجعل علة في هذه المقاطعة، إذ كانت شهرة هذه الضيعة وأفرحتها في أماكنها، ومعرفة مجاورها بما ذكر من تسميتها ومساحتها، تُغنى عن تحديدها أو تحديد شيء منها، وتقوم مقام المنار

(١) الجباين الصحارى .

في إيضاح معالمها ، والدلالة على حدودها وحقوقها ورسومها . وقد سَوَّغَ يافلانُ
 ابن فلان أمير المؤمنين وعقبك من بعدك وأعقابهم ، وورثتك وورثتهم أبدًا
 ماتا سَلُوا ، ومن تتقل هذه الأقرحة أو شيء منها إليه - جميع الفصل بين ما كان يلزم
 هذه الضيعة وأقرحتها من حق بيت المال وتوايحه ، على الوضيعة التامة ، وعلى
 الشروط القديمة ، وبين ما يلزمها على هذه المقاطعة ، وجعل ذلك خارجًا عن حاصل
 طسوج كذا وكذا ، وعمما يرفعهُ المؤمنون ، ويوافق عليه المتضمنون ، على غير الدهر
 ومَرَّ السنين ، وتعاقب الأيام والشهور .

فلا تُقبل في ذلك سعاية ساج ، ولا قدح قادح ، ولا قرف قاريف ، ولا إغراء مغر ،
 ولا قول معنّف ، ولا يرجع عليك فيما سوغته ونظر لك به في حال من الأحوال ،
 ولا يرجع في التقريرات ، ولا تنقض بالمعاملات وردّها إلى قوام أصولها ، ولا ضرب
 من ضروب الحجج والتاويلات ، التي يتكلم عليها أهل العدل على سبيل الحكم والنظر ،
 وأهل الجور على سبيل العُدوان والظلم . ولا تكلف يافلان بن فلان ، ولا عقبك من
 بعدك ، ولا ورثتك ، ولا أعقابهم ، ولا أحد من تخرج هذه الضيعة أو هذه الأقرحة
 أو شيء منها إليه ، على الوجوه والأسباب كلها - إخراج توقيع ، ولا كتاب مجدد ،
 ولا منشور بانفاذ شيء من ذلك ، ولا إحضار سجل به ، ولا إقامة حجة فيه في وقت
 من الأوقات .

وعلى أن لا يلزمك ولا أحدًا من يقوم مقامك في هذه المقاطعة مشونة ، ولا كلفة ،
 ولا ضريبة ، ولا زيادة ، ولا تقسيط كراء منه ، ولا مصالحة ، ولا عامل بريد ،
 ولا نفقة ، ولا مشونة جماعة ، ولا خفارة ، ولا غير ذلك . ولا يلزم بوجه من الوجوه
 في هذه المقاطعة زيادة على المبلغ المذكور المؤدّى في بيت المال في كل سنة نجاجية ،

وهو من الورق المرسل كذا وكذا، ولا تمنع من روزه جهيداً أو حجة كاتب أو عامل
بما لهذه المقاطعة إذا أديته أو أديت شيئاً منه أولاً أولاً، حتى يتكفل الأداء،
وتحصل في يدك البراءة في كل سنة بالوفاء بجميع المال بهذه المقاطعة .

وعلى أن تعاونوا على أحوال العارة ، وصلاح الشرب ، وتوقروا عليكم الضيافة
والحمية ، والدب والرعاية .

ولا يتعقب ما أمر به أمير المؤمنين أحد من ولاية العهود والأمراء والوزراء
وأصحاب الدواوين ، والكتاب والعمال والمشرفين ، والضمان والمؤمنين ، وأصحاب
الخراج والمعاونين ، وجميع طبقات المعاملين ، وسائر صنوف المتصرفين - يئطه
أو يزيله عن جهته ، أو ينقضه ، أو يفسده ، أو يغيره ، أو يبدله ، أو يوجب عليك
أو على عقبك من بعدك وأعقابهم وورثتهم أبداً ما تناسلوا ومن تخرج هذه الضيعة
أو شيء منها [إليه] حجة على سائر طرق التأويلات ، ولا يلزمك شيئاً فيه ، ولا يكلفكم
عوضاً عن إرضائه ، ولا ينظر في ذلك أحد منهم نظر تتبع ولا كشف ، ولا بحث ،
ولا فحص . فإن خالف أحد منهم ما أمر به أمير المؤمنين ، أو تعرض لكشف
هذه المقاطعة أو مساحتها أو تخمينها أو اعتبارها والزيادة في مبلغ مالها ، أو ثبت
في الدواوين في وقت من الأوقات شيء يخالف ما رسمه أمير المؤمنين فيها : إما على
طريق السهو والغلط ، أو العدوان والظلم والعداوة والقصد ، فذلك كله مردود ،
وباطل ، ومفسوخ ، وغير جائز ، ولا سائغ ، ولا قاذح في صحة هذه المقاطعة وثبوتها
ووجودها ، ولا معطل لها ، ولا مانع من تلافى السهو وأستدراك الغلط في ذلك ،
ولا مغير لشيء من شرائط هذه المقاطعة . ولا حجة تقوم عليك يافلان بن فلان ،
ولا على من يقوم في هذه المقاطعة بشيء من ذلك : إذ كان ما أمر به أمير المؤمنين

(١) الروزالتجربة .

من ذلك على وجه من وجوه الصلاح، وسبيل من سبله رأهما وأمضاهما، وقطع
 بهما كل اعتراض ودعوى، واحتجاج وقذف، وأزال معهما كل بحث وخص، وتبعية
 وعلاقة، وإن كان من الشرائط فيما سلف من السنين وخلا من الأزمان ما هو أوكد
 وأتم وأحكم وأحوط لك، ولعقبك وورثتك، وأعقابهم وورثتهم؛ ومن تنقل هذه
 الأفرحة أو شيء منها إليه مما شُرط في هذا الكتاب بحال، أوجبها لك الاحتياط على
 اختلاف مذاهب الفقهاء والكتاب وغيرهم مما للخلفاء أن يفعلوه وتنفذ فيه أمورهم،
 وحيات وحملوا عليه، وهو مضاف إلى شروط هذا الكتاب التي قد أتى عليها الذكر،
 ودخات تحت الحصر، ولم يكلف أحد منكم إخراج أمر به .

وإن أتممت [أنت] أو أحد من ورثتك وأعقابك، ومن عسى أن تنقل هذه
 الضيعة والأفرحة أو شيء منها إليه في وقت من الأوقات تجديده كتاب بذلك،
 ومكتبة عامل أو مشرف، أو إخراج توقيع ومذشور إلى الديوان بمثل ما تضمنه هذا
 الكتاب، أجبتم إليه ولم تمنعوا منه .

وأمر أمير المؤمنين بإثبات هذا الكتاب في الدواوين، وإقراره في يدك، حجة لك
 ولعقبك من بعدك وأعقابهم، وورثتك وورثتهم، ووثيقة في أيديكم، وفي يد من
 عسى أن تنقل هذه الضيعة أو الأفرحة أو شيء منها إليه، بضرب من ضروب
 الانتقال التي ذكرت في هذا الكتاب والتي لم تذكر فيه، وأن لا تكلفوا إيراد [حجة]
 من بعده، ولا يتأول عليكم متأول فيه .

فمن وقف على هذا الكتاب وقرأه أو قرئ عليه : من جميع الأمراء، وولاة اليهود
 والوزراء، والعُمَّال، والمشرِّفين، والمتصرفين، والناظرين في أمور الخراج، وأصحاب
 السيوف على اختلاف طبقاتهم، وتباين منازلهم وأعمالهم . فليمتثل ما أمر به أمير

المؤمنين ولينفذ فلان بن فلان وورثته وورثتهم، وعقبه وأعقابهم، ولمن تنتقل هذه الأفرحة أو شيء منها إليه - هذه المقاطعة، من غير مراجعة فيها، ولا استئثار عليها، ولا تكليف [له] ولا لأحدٍ ممن يقوم بأمرها إيراد حجة بعد هذا الكتاب بها .
وليعمل بمثل ذلك من وقف على نسخة من نسخ هذا الكتاب في ديوان من دواوين الحضرة، وأعمالها أو الناحية، وليقر في يد فلان بن فلان أو يد من يورده ويحتج به من يقوم مقامه، إن شاء الله تعالى .

الطريقة الثانية

(ما كان يكتب في الإقطاعات عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

وهو على نحو مما كان يكتب عن خلفاء بني العباس .

قال في "مواد البيان" : والرسم فيها أن يكتب :

أمير المؤمنين بما وهبه الله تعالى : من شرف الأعراق، وكرم الأخلاق، ومنحه من علو الشأن، وارتفاع السلطان؛ يقتدى بإذن الله سبحانه في إفاضة إنعامه وبره، على الناهضين بحقوق شكره؛ ويوقع أياديته عند من يقوم بحققها، ويتألفها بحمدها، وشكرها، ولا ينفرها ويوحشها بكفرها، ويحدها؛ ويتحرى بعوارفه المغارس التي تُحب شجرتها، وتحلولى ثمرتها؛ والله تعالى نسأله أن يوفقه في مقاصده، ويريه مخايل الخير في مصادره وموارده؛ ويعينه على إحسان يفضيه ويسغفه، وأمتنان يضيفه ويفرغه .

ولما كان فلان بن فلان من غرس أمير المؤمنين [إحسانه] لديه فأثر، وأواه طوله فشكره؛ وراه مستقبلاً بالصنيعه، حافظاً للوديعه؛ مقابلاً للعارفة بالإخلاص في الطاعة، مستندراً بالانقياد والتباعه، أخلاف الفضل والنعمه (ويوصف الرجل

المقّطع بما تقتضيه منزلته) ثم يقال : رأى أمير المؤمنين مضاعفة أياديه لديه ، ومواصلته إنعامه إليه ، وإجابة سؤاله ، وإنالته أفاضى آماله ، وتنويله ما نحت إليه أمانته ، وطمحت نحوه راحته ، وإسعافه بما رغب فيه من إقطاعه الناحية الفلانية ، أو الدار أو الأرض ، أو تسويغه ما يجب عليه من نجاج ملكه ، وما يجرى هذا المجرى . ثم يقال : ثقة بأن الإحسان مغروس منه في أكرم مغرس وأزكاه ، وأحق منزّل بالتنويل وأولاه . وخرج أمره بإنشاء هذا المنشور بأنه قد أقطعه الناحية الفلانية ، لاستقبال سنة كذا بحقوقها وحدودها ، وأرضها العامرة ووجوه جباياتها ، (وينص على كل حق من حقوقها ، وحد من حدودها) فإذا استوفى القول عليه ، قال : إنعاماً عليه ، وبسطة لأمله ، وإبانة عن خطره .

فيعلم ذلك كافة الولاة والنظار والمستخدمين من أمير المؤمنين ورسمه ، ليعملوا عليه وبحسبه ، وليحذروا من تجاوزه وتعديه ، وليقتربوا بعد العمل بما نص فيه ، إن شاء الله تعالى .

قلت : والتحقيق أن لحم في ذلك أساليب : منها ما يفتح بلفظ « هذا » والمعروف أنه كان يسمى ما يكتب في الاقطاعات عندهم سبيلات كالذى يكتب في الولايات .

*
*

وهذه نسخة منشور من مناشيرهم ، من إنشاء القاضي الفاضل لولد من أولاد الخليفة اسمه حسن ولقبه حسام الدين مفتتح بلفظ « هذا » وهى :

هذا كتاب من أمير المؤمنين لولده الذى جلّ قدرنا أن يسامى ، وقتر فى ناظر الإيمان نورا وسنته يد الله حساما ، وحسن به الزمان فكان وجوده فى عطفه

حليّةً والفترةً آبتساما، وأضاعت وجوه السعادة لمنحها بكريم اسمه أنساما، وتبيات الأقدار لأن تجرى على نقش خاتم إرادته أمتثالاً وأرتساما - الأمير فلان، جرياً على عادة أمير المؤمنين التي أوضح الله فيها إشراق العوائد، وأتباعاً لسنة آبائه التي هي سنن المكارم والمرشد، وأرتفاداً مع آرتياح [إلى موارد] كرمه التي هي موارد لا يخلأ عنها واردة، وأختصاصاً بفضله لمن كفاه من الشرف أنه له والد، وعموماً بما يسوقه الله على يده من أرزاق العباد، وإنعاماً جعل نجله طريقه إلى أن يفيض على كل حاضرٍ وباد .

وأمير المؤمنين بحر ينتشئ من آله السحاب المتزل، ويمدّهم جواد العطاء الأجل .

أمر بكتبة لما عرضت لمقامه رقةً بكنا وكذا، وخرج أمر أمير المؤمنين إلى وليه وناصره، وأمينه على ما استأمنه الله عليه وموازيره؛ السيد الأجل الذي لم تزل آراؤه ضوأمناً للصالح كوافل، وشهب تدبيره من سماء التوفيق غير غاربة ولا أوافل، وخدمته لأمر المؤمنين لا تقف عند الفرائض حتى نخطى إلى النوافل، وجاد فأخلاف النعم به حوافل، وأقبل فأحزاب الخلاف به جوافل، وأيقظ عيوننا من التدبير على الأيام لا تدعى الأيام أنها غوافل؛ بأن يوعز إلى ديوان الإنشاء بإقطاع ناحية كذا بجدها، والمعناد من وصفها المعاد، وما يدل عليه الديوان من عبرتها، ويتحصّل له من عينها وغلتها؛ إلى الديوان الفلاني: إقطاعاً لا يتقطع حكمه، وإحساناً لا يعفو رسمه، وتسويةً لا يطيش سهمه، وتكبيلاً لا ينجي اسمه، وتخويلاً لا يثني عزمه، يتصرف فيه هذا الديوان ويستبد به مالكا، ويُفاوض فيه مُشاركاً، ويزرعه متعملاً ومضمناً، ويستثمره عادلاً في أهله مُحسناً؛ لانتعقه الدواوين بتأويل ما، ولا الأحوال بتحوّل ما؛ ولا الأيام بتقلّبها، ولا الأعراض بتعقّبها؛ ولا أخلاف الأيدي بتقلّها، ولا تعترضه الأحكام بتأولها .

(١) في الأصول هكذا «بمها» باهمال نقط الكلمة بتماها .

وقد أوجب أمير المؤمنين على كلِّ والٍ أن يتحامى هذه الناحية بضربه، ويقصدها
بجميل أثره، ويحيطها بحسن نظره، ويتقن فيها ركوب عواقب غرره، ويحتنب فيها
مطالب ورده وصدره، ونزول مستقره؛ ولا يمكن منها مستخدماً، ولا يكلف أهلها
مغرمًا، ويجرىها مجرى ما هو من الباطل حمى؛ مالم يقل فيها بميل، أو يخف من سبها
سبيل، وله أن يتطلب الجاني بعينه، ويقتضيه بأداء ما استوجب من دينه، وأخذه
مسوقاً بجرائم ذنبه إلى موقف حينه، فمن قرأه فليعمل به .



وهذه نسخة سبيلٍ بإقطاع، عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين أيضاً لبعض أمراء
الدولة، من إنشاء القاضي الفاضل أيضاً، وهى :

أمير المؤمنين - وإن عمَّ جوده كما عمَّ فضل وجوده، وسار كثير إحسانه ويره
في سهول المعمور ونجوده، ورحم الله الخلق بما استأثره دون الخلائق من قربه
في سبجوده - فإنه يخص بنى القرى من جدّه، والضاريين معه في أنصاء مجده؛ من
سلالته الزكية، وطينته المسكية؛ وأعراقه الشريفة، وأنسابه المنيفة؛ فكل غراء
لا تخفى أوضاعها، إلا إذا فاضت أنوارهم، وكل عدراء لا يعهد إنساحها، إلا إذا
راضت أخطارهم .

ولما عرضت بحضرتة ورقة من ولده الأمير فلان الذى أذن الله به عين الإسلام،
وأنجز به دين الأيام؛ وأطلعه بدرًا فى سماء الحسب، وجلا بأنواره ظلام التوب؛
وأمتاح من منبع النبوة وأرتوى، وأستولى على خصائص الفضل الجلى وأحتوى،

وأعد الله لسعد الأئمة ذا مِرَّةٍ شديدة القوي ، وأدنى الاستحقاق من العايات حتى تأهب لأن يكون بالوَادِ المُقَدَّسِ طُوبَى ؛ وأضحت كافة المؤمنين مؤمّنين على مكارمه ، وأمست كافة الحائفين خائفين من سيل أنفُسِهِم على صَوارمه ؛ وآراؤه أعلى أن يُضاهيها [رأى] وإن جَلَّ خطره ، وأعطيته أرقى أن يُدانيها عطاءً وإن حَسُنَ في الأحوال أثره ؛ وإنما يُنْبِغُ بِمُلْكِهِ منها ما راق بعين اختياره وإيثاره ، وسعد بالانتظام في سلك جوده الذي يعرضه أبداً لانتثاره ، وتضمنت هذه الرُقْمَةُ الرغبة في كذا وكذا ، وذكر الديوان كذا .

خرج أمر أمير المؤمنين إلى فتاه وناصريه ، ووزيره ومُظَاهِرِهِ ؛ السيد الأجل الذي انتصر الله به لأمر المؤمنين من أعدائه ، وحسم بحسامه ما أعضل من عارض الخطب ودائه ، ونظقت بفضله ألسن حُسادِهِ فضلاً عن ألسنة أودائه ، وسخت الملوك بأنفسها أن تكون فداءً له إذا حوزها المجد في فدائه ؛ الذي ذخره الله لأمر المؤمنين من آدم ذخيرته ، وجمع له في طاعته بين إيقاظ البصيرة وإخلاص السريه ، وفُضِّلَت أيامه على أيام أوليائه بما حلَّها من جميل الأحداث وحسن السيره ؛ وسهل عليه التتوي في المنافع والعكوف على المصالح ، وأجنى من أقلامه ورماحه ثمرات النصائح ، وفاز بما حاز من ذخائر العمل الصالح بالمتجر الرابح ؛ وألهمه من حراسة قانون الملك ما قضى بحفظ نظامه ، ولم ينصرف له عزم إلا إلى ما صرف إليه رضا ربه ورضا إمامه .

ونفذت أوامره بأن يُوعزَ إلى ديوان الإنشاء بكتب هذا السَّجَلِ إلى الديوان الفلاني بإقظاعه الناحية وما معها منسوباً إليها وداخلاً فيها لاستقبال [سنة] كذا ، منحةً سائعه ، لا يعترضها التكدير ، ونعمةً سائعه ، لا ينقضها التغيير ؛ وحباً موصول

الأسباب، وعطاءً بغير من ولا حساب؛ يتحكّم فيه على قضايا الاختيار، وتتفدّ فيه أوامره الميمونة الإيراد والإصدار.

ومنها - أن يفتح السّجل بلفظ: «إن أمير المؤمنين» ويذكر من وصفه ما سنع له، ثم يذكر حكم الإقطاع، وكيفية خروجه.

وهذه نسخة سّجل من ذلك كتبت به لبعض وزراءهم، من إنشاء القاضي الفاضل، وهي:

إن أمير المؤمنين لما أطلق الله يدّيره من أميال تبدو على الأحوال شواهد آثارها، وتروض الآمال سحائبها بسائب مدرارها، وتنتزه مواعدها عن إنظارها، ومواردها عن أن يؤتى بأنظارها، ويقوم بناصرها فيكون أقوى أعوانها على الشكر وأنصارها؛ وألهمه من مواصلة المن التي لا تنقطع روايتها ولا تنتاهي مراتبها، وموالاتة المنح التي تهب على جناب الخير شمائلها وجنائبها، وتلتقي في مسارح المسامح غرائبها ورغائبها؛ وحببه إليه من انتهاز فرص المكارم في الأكارم، وأبتداء المعروف وأبتدار معانمه التي لا تعقبها مغارم - يولي آلاءه من يجزي عن حسنتها عشرًا، ويعقل عقائلها عند من يسوق إليها من استحقاقها مهرا، ويقابل بالإحسان إحسان أجل أوليائه قدرا، ويضعف الأمتنان عند من لم يضعف في موازرتة أزرًا؛ ويودع ودائع جوده في المغارس الجيدة بالزكاة والتماء، ويؤزق أصول معروفه لمن يفتخر بالانضواء إلى موالاته والائتماء، ويستكرم مستقر منه وآلائه، ويحسن إلى الإحسان ثم يتبجح بموالاته لديه وإيلائه.

ولما كان السيد الأجل أمير الجيوش آية نصر أمير المؤمنين التي أنبرت فما تبارى، ونعمة الله التي أشرقت أنوارها وأورت فما تتوارى؛ وسيف حقه الذي

لا تَكَلِّمْ مَقَاتِعَهُ ، وَبِحَرَ جُودِهِ الَّذِي لَا تُكَدَّرُ مَشَارِعُهُ ؛ وَالْمُسْتَقَلَّ مِنَ الدَّفَاعِ عَنْ حَوَازَتِهِ بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ الْأُمَمُ ، وَالْعَلَى عَلَى مِقْدَارِ الْأَقْدَارِ إِذَا تَفَاوَتَتْ قِيَمُ الْهَمَمِ ، وَالكَاشِفَ الْجُلِّيَّ عَنْ دَوْلَتِهِ وَقَدْ عَظُمَتْ مَظَالِمُ الظُّلْمِ ، وَالْجَامِعَ عَلَى الْمُبَارَاةِ وَالْمُؤَارَاةِ قَلْبَ الْمُؤَالَفِ وَالْمُخَالَفِ وَلِسَانَ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ ؛ وَالْمُتَبَوِّئَ مِنَ الْمُلْكِ مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، وَالْمُتَوَقِّلَ مِنَ الْفَخْرِ مَحَلًّا لَا يَطْمَعُ النَّجْمُ فِيهِ مِنْ بَعْدِهِ ؛ وَالْمُغَيَّرَ عَلَى الْحَرْبِ الْعَوَانِ بِقَبْلِيَّةِ الْبُكَرِ ، وَالْمُنْفَذَ بِمَبْتَدَعِ الْعَزَمَاتِ مَا لَوْلَا وَقُوعُهُ لَمَّا وَقَعَ [فِي] الْفِكْرِ ؛ وَالْقَاضِيَ لِلدِّينِ بِجِدِّ سَيْوْفِهِ مَطْلُوعِ حَقِّهِ وَمَمْطُوعِ دِينِهِ ، وَالْقَائِمَ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَقَامًا قَامَ بِهِ أَبُوهُ فِي نُصْرَةِ جَدِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا يَوْمَ بَدْرِهِ وَيَوْمَ حُنَيْنِهِ .

وَلَقَدْ أَظْهَرَ اللَّهُ آيَاتِ نَضَارَةِ نَظَرِهِ عَلَى الْأَرْضِ فَأَخَذَتْ زُخْرُفَهَا وَأَزَيْتَ ، وَأَبْتَدَتْ أَيْدِيهِ الْجَنِّيَّ فَتَظَاهَرَتْ أَدْلَتُهَا عَلَى دَوْلَتِهِ وَتَبَيَّنَتْ ؛ وَأَسْتَلَّامَتِ الْمَمْلُوكَةُ مِنْ تَدْبِيرِهِ بِجَنَّةٍ تَنَحَّامَاها الْأَقْدَارُ وَهِيَ سِهَامٌ ، وَوَتَّقَتْ مِنْ عِنَايَتِهِ إِلَى هَجْرِ الْخُطُوبِ بِمَا يُعِيدُ نَارَهَا وَهِيَ بَرْدٌ وَسَلَامٌ ؛ وَمَا ضَرَّهَا مَعَ تَيْقُظِ جَفْنِهِ أَنْ يَهْجَعَ فِي جَفْنِهِ طَرْفُ الْحُسَامِ ، وَلَا أَحْتَاجَتْ وَقَلْبَهُ يُسَاوِرُ جَسِيمَ أُمُورِهَا أَنْ تَتَعَبَ فِي وَادِّهَا الْأَجْسَامِ ؛ فَأَيُّ خَيْرٍ يُؤَلَى - وَإِنْ عَظُمَ - يَتَاهُضُ اسْتِحْقَاقَهُ ؟ وَأَيُّ غَايَةٍ وَإِنْ جَلَّتْ تَرُومُ نَيْلِ مَدَى مَسْعَاهِ وَحَقَاقِهِ ؟ ؛ وَأَيُّ لَأَعْرَاضِ الدُّنْيَا أَنْ تُهْدِيَ لِحُورِهِ عَرَضًا ، وَلَا تَبْلُغُ مَبَالِغَ النِّعَمِ الْجَلَائِلِ أَنْ تَعْتَدَّ الْيَوْمَ مِنْ مَسَاعِيهِ عَوَضًا ؟ ؛ وَهَلْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعْمَالٌ فِي مُجَازَاتِهِ عَنْ قِيَامِهِ بِعَمْدِ رَأْيِهِ وَمَجْرَدِ عَضْبِهِ ، وَدِفَاعِهِ عَنْ حَوَازَةِ عُدَّتِهِ وَدَبِّهِ ، وَكُرِّهِ فِي مَوَاقِفِ كُرْبِهِ ، وَكِفَايَتِهِ لِلْأُمَّةِ فِي سِلْمِهِ وَحَرْبِهِ ، وَإِيَابَتِهِ الَّتِي خَصَّ الْأَرْضَ مِنْهَا فَضْلُ خِصْبِهِ ، إِلَّا أَنْ يَذْكُرَهُ بِقَلْبِهِ عِنْدَ رَبِّهِ ، وَأَنْ يَرْفَعَ الْجُبَّ عِنْدَ كُلِّ سُؤَالٍ كَمَا يَرْفَعُ اللَّهُ عِنْدَ دَعَاةِ مُسَدَّلِ حُجْبِهِ ؟ .

وَعَرِضَتْ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ مَطَالَعَةً مِنْهُ عَنِ خَيْرِ بِاسْمِهِ الْكَرِيمِ مَقْصُورٍ عَلَى الرِّغْبَةِ فِي خُرُوجِ الْأَمْرِ بِتَمْلِيكِ جِهَتِهِ الَّتِي تَقُومُ عِنْدَهَا عِدَّةُ أَلْفٍ ، مُسْتَخْرِجًا بِهَا الْخَطَّ الشَّرِيفَ بِإِمضَاءِ التَّمْلِيكِ وَإِجَازَتِهِ ، وَتَسْلِيمِ الْمَلِكِ وَحِيَازَتِهِ .

فَتَلَقَّى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذِهِ الرِّغْبَةَ بِإِفْرَازِ حَرَى فِيهِ مِنْ الْأَوَامِرِ عَلَى أَفْضَلِ سَنَنِ ، وَتَقْبَالِهَا مِنْهُ بِقَبُولِ حَسَنِ ؛ وَتَهَلَّتْ عَلَيْهِ لِسُؤَالِهِ مَصَابِيحُ الطَّلَاقَةِ وَالْبِشْرِ ، وَنَفَذَتْ (١) مَوَاقِعَ تَوْقِيعِهِ مَا لَا تَبْلُغُهُ مَوَاقِعُ مَاءِ الْمَزْنِ فِي الْبَلَدِ الْقَفْرِ . وَشَمِلَهُ خَطُّهُ الشَّرِيفُ بِمَا نُسِخَتْهُ : نَخَرَجَ أَمْرُهُ إِلَيْهِ بِأَنْ يُوعِزَ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِكُتْبِ هَذَا السَّجَلِ بِتَمْلِيكِ الْجِهَةِ الْمَقْدَمِ ذِكْرُهَا بِجَمِيعِ حُدُودِهَا وَحُقُوقِهَا ، وَظَاهِرِهَا وَبَاطِنِهَا ، وَأَعَالِيهَا وَأَسَافِهَا ، وَكُلِّ حَقِّ لَهَا ، دَاخِلٍ فِيهَا وَخَارِجٍ عَنْهَا ، وَمَا هُوَ مَعْرُوفٌ بِهَا وَمَنْسُوبٌ إِلَيْهَا ؛ تَمْلِكًا مَمْلُوكًا ، وَإِنْعَامًا مَوْبُودًا ، وَحَقًّا مَوْكَّدًا ؛ يَجْرِي عَلَى الْأَصْلِ وَالْفَرْعِ ، وَيُحْكَمُ أَحْكَامَ الْكَرَمِ وَالشَّرْعِ ، مَا ضِيًّا لَا تُتَعَقَّبُ حُدُودُهُ بِفَسْخِ ، جَائِزًا لَا تُتْجَاوَزُ عَقُودُهُ بِنَسْخِ ؛ مَوْصُولَةً أَسْبَابُهُ فَلَا تَنْطَرُقُ أَسْبَابُ التَّغْيِيرِ إِلَيْهَا ، مَوْرُوثًا حَتَّى يَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا .

فَلْيَعْتَمِدْ كَافَّةً وُلَاةَ الدَّوَاوِينِ ، وَمَنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْمُتَصَرِّفِينَ ؛ حَمَلَ الْأَمْرَ عَلَى مُوجِبِهِ ، وَالْحَدَرَ مِنْ تَعَدِّيهِ وَتَعَقُّبِهِ ؛ وَأَمْتَالَ مَارِسِمَهُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَحَدَّهُ ، وَالْوَقُوفَ عِنْدَ أَمْرِهِ الَّذِي عَدَمَ مَنْ مَالَ فَرَدَّهُ ، وَلِيَقْتَرَفَ فِي يَدِ الدِّيْوَانِ حُجَّةً لِمُودَعِهِ بَعْدَ نَسْخِهِ فِي الدَّوَاوِينِ بِالْحَضْرَةِ ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) لعله « وبلغت مواقع » الخ .

الضرب الثاني

(مما كان يُكتب في الإقطاعات في الزمن المتقدم ما كان يُكتب
عن ملوك الشرق القائمين على خلفاء بني العباس)

وطريقتهم فيه أن يكتب في الابتداء : « هذا كتاب » ونحو ذلك ، كما كان
يُكتب عن خلفاء بني العباس في ذلك ، ثم يُذكر عرض أمره على الخليفة ،
وأستكشاف خبر ما تقع عليه المقاطعة من الدواوين ، وموافقة قولهم بما ذكره
في رُقعته ، ويذكر أن أمير المؤمنين وذلك السلطان أمضياً أمر تلك المقاطعة وقرّراه .
ثم ربّما وقع تسويغ ما وجب لبيت المال لصاحب المقاطعة زيادة عليها ليكون
في المعنى أنه بأمرها .

وهذه نسخة مقاطعة بضيعة كُتب بها عن صمصام الدولة بن ركن الدولة بن
بويه ، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة ، وشمس الملة ، أبي كالجار ، بن عضد الدولة وتاج
المسلة أبي شجاع ، بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين ، لمحمد بن عبد الله
أبن شهرام .

إنك ذكرت حال ضياعك المعروفة برسدولا والبدرية من طسوج نهر الملك ،
والحظائر والحصة بنهر قلا من طسوج قُطريل ، وما لحقها : من اختلال الحال
ونقصان الإرتفاع ، وأندواب^(١) المشارب ، وأستئجام المزارع ، وطمع المجاورين ،
وضعف الأكرة والمزارعين ، وظلم العمال والمنصرفين ، لتناول غيبتك عنها ،
وأنقطاعك بالأسفار المتصلة عن استيفاء حقوقها ، وإقامة عماراتها ، والإنفاق على

(١) كذا بالأصل ، ولا معنى لها ولعلها : « واندثار المشارب » .

مصالحها، والأنتصاف من المجاورين لها والمعاملين فيها؛ ووصفت ما تحتاج إلى تكافئه من الجملة الوافرة: لأحتفار أنهارها، وإحياء مواتها، وأعمال متعطلها، وإعادة رؤسومها، وإطلاق البذور فيها، وأبتاع العوامل لها، وأختلاف الأكرة إليها .

وسألت أن تقاطع عن حق بيت المال فيها وجميع توابعه ، وسائر لزومه ، على ثلاثة آلاف درهم في كل سنة ، معونة لك على عمارتها ، وتمكيناً من إعادتها إلى أفضل أحوالها ، وتوسعة عليك في المعيشة منها .

فأنهينا ذلك إلى أمير المؤمنين الطائع لله ، وأفضنا بحضرتة فيما أنت عليه من الخلائق الحميدة ، والطرائق الرشيدة ، وما لك من الخدمات القديمة والحديثة ، الموجبة لأن تلحق بنظرائك من الخدم المختصين ، والحواشى المستخلصين ، بإجابتك إلى ما سألت ، وإسعافك بما أتمست . فخرج الأمر - لازال عالياً - بالرجوع في ذلك إلى كتاب الدواوين ، وعمال هذه النواحي ، وتعرف ما عندهم فيه مما يعود بالصلاح ، ويدعو إلى الاحتياط . فرجع إليهم فيما ذكرته وحكيته ، فصداقوك في جميعه ، وشهدوا لك بصحته ، وتردد بينك وبينهم خطاب في الأرتفاع الوافر القديم ، وما توجبه العبر لعدة سنين ، إلى أن استقر الأمر على أن توقع على هذه الضياع المسماة في هذا الكتاب خمسة آلاف درهم ورقاً مرسلاً بغير كسر ، ولا كفاية ، ولا حق نزن ، ولا جهبذة ولا محاسبة ، ولا غير ذلك من المؤن كلها .

ثم أنهينا ذلك إلى أمير المؤمنين الطائع لله ، فأمر - زاد الله أمره علواً - بإمضاء ذلك ، على أن يكون هذا المال ، وهو خمسة آلاف درهم مؤدى في الوقت الذى تفتح فيه المقاطعات : وهو أول يوم من المحرم في كل سنة ، على استقبال السنة الحاربية ، سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة الحراجية ، عن الخراج فى العلات الشتوية

والصيفية ، والمحدثه والمبكرة الحارية على المساحة ، والحاصل من الغلات الحارية على المقاسمة والجوالى ، والمرعى ، والأرضاء ، وسائر أبواب المسال ، ووجوه الجبايات ، وتقسيم المصالح ، والحماية ، مع ما يلزم ذلك من التوابع كلها : قليلها وكثيرها ؛ والرسوم الثابتة فى الدواوين بأسرها ؛ وعن كل ما أحدث ويحدث بعدها على زيادة الارتفاع ونقصانه ، وتصرف جميع حالاته : مقاطعة مقررة مؤبده ، مفضاة مخلده ؛ على مرور الليالى والأيام ، وتعاقب السنين والأعوام . لك ولولدك ، وعقبك من بعدك ، ومن عسى أن تنتقل هذه الضياع إليه بميراث ، أو بيع ، أو هبة ، أو تملك ، أو منقولة ، أو وقف ، أو إجارة ، أو مبادرة ، أو مزارعة أو غير ذلك من جميع الوجوه التى تنتقل الأملاك عليها ، وتجرى بين الناس المعاملات فيها ، لا يفسخ ذلك ولا يغير ، ولا ينقض ولا يبدل ، ولا يزال عن سبيله ، ولا يحال عن جهته ، ولا يعترض عليك ولا على أحد من الناس فيه ولا فى شىء منه ، ولا يتأول عليك ولا على غيرك فيه ، بزيادة عمارة ، ولا زكاء ربيع ، ولا غلوسعر ، ولا إصلاح شرب ، ولا أعمال تحراب ، ولا إحياء موات ، ولا بغير ذلك من سائر أسباب وفور الارتفاع ودور الاستقلال .

وحظر مولانا أمير المؤمنين الطائع لله ، وحظرنا بحظره على كتّاب الدواوين : أصولها وأزمته ، وعمال النواحي ، والمشرفين عليها ، وجميع المتصرفين على اختلاف طبقاتهم ومنازلهم ، الاعتراض عليك فى هذه المقاطعة ، أو إيقاع ثمن أو مساحة على ما كان منها جارياً على الخراج ، أو تقريير أو خزي ، أو قسمة على ما كان منها جارياً على المقاسمة ، أو أن تدخلها يد مع يدك لناظر أو حاطر أو مستظهر أو معتبر أو متصفح ، إذ كان ما يظهر منها من الفضل على مرور السنين مسوّفاً لك ، لا تطالب به ، ولا بمرفق عنه ، ولا على ما ظهر عليه وعلى شىء منه ؛ ولا يلمس منك تجديد كتاب ،

ولا إحصار حجّة، ولا توقيع به ولا منشور بعد هذا الكتاب : إذ قد صار ذلك لك
وفي يدك بهذه المقاطعة، وصار ما يجب من الفضل بين ما توجب المسائح والمقاسمات
وسائر وجوه الجبايات، وبين مال هذه المقاطعة المحدودة المذكورة في هذا الكتاب
خارجاً عما عليه العال، ويرفعه منهم المؤمنون، ويوافق عليه المتضمنون ؛ على
مرور الأيام والشهور، وتعاقب السنين والدهور؛ فلا تقبل في ذلك نصيحة ناصح،
ولا توفير موفر، ولا سعاية ساع، ولا قذف قاذف، ولا طعن طاعين .

ولا يلزم عن إمضاء هذه المقاطعة مئونة، ولا كلفة، ولا مصنعة، ولا مصالحة،
ولا ضريبة، ولا تقسيط، ولا عمل بريد، ولا مصالحة من المصالح السلطانية،
ولا حق حماية، ولا خفارة، ولا غير ذلك من جميع الأسباب التي يتطرق بها عليك،
ولا [على من] بعدك، لزيادة على مالها المحصور المذكور في هذا الكتاب، ولا حق خزن
ولا جهنذة، ولا محاسبة ولا مئونة ولا زيادة . متى استخرج منك شيء أو من أحد
من أنسابك، أو ممن عسى أن تنتقل إليه هذه المقاطعة بشيء زائد عليها على سبيل
الظلم والتأول والتعنت لم يكن ذلك فاسخاً لعقدتها، ولا مزيلاً لأمرها، ولا قادحاً
في صحتها، وكان لك أن تطالب برد المأخوذ زائداً على مالها، وكان على من ينظر
في الأمور إنصافك في ذلك وردّه عليك، وكانت المقاطعة المذكورة مضمناً على
تصرف الأحوال كلها .

ثم إننا رأينا بعد ما أمضاه مولانا أمير المؤمنين، وأمضيته لك من ذلك وتمامه
وإحكامه ووجوبه وثبوته، أن سوغناك هذه الخمسة آلاف درهم المؤداة عن هذه
المقاطعة على استقبال سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة الخراجية، تسويفاً مؤبداً، ماضياً
على مائة السنين : ليكون في ذلك بعض العوض عن باقي أملاكك وضياعك التي

فُيُضِتْ عَنْكَ ، وَبَعْضُ الْمَعُونَةِ فِيمَا أَنْتَ مَتَصَرِّفٌ عَلَيْهِ مِنْ خِدْمَتِنَا ، وَمَتَرَدَّدٌ فِيهِ مِنْ مَهْمَاتِ أُمُورِنَا ؛ وَأَوْجَبْنَا لَكَ فِي هَذَا التَّسْوِيعِ جَمِيعَ الشَّرُوطِ الَّتِي تُشْتَرَطُ فِي مِثْلِهِ ؛ مِمَّا ثَبَتَ فِي هَذَا الْكِتَابِ وَمِمَّا لَمْ يَثْبُتْ فِيهِ : لِيُنَحِّسِمَ عَنْكَ تَتَبُّعَ الْمُتَتَبِّعِينَ ، وَتَعَقُّبَ الْمُتَعَقِبِينَ ، وَتَأْوِيلَ الْمُتَأْوِيلِينَ عَلَى الْوُجُوهِ وَالْأَسْبَابِ .

وَأَمْرِنَا - مَتَى وَقَعَ عَلَى مَالِ هَذَا التَّسْوِيعِ (وَهُوَ خَمْسَةُ آلَافِ دَرَاهِمٍ) أَرْتَجِعُ ، بِحَدِيثٍ يَحْدُثُ عَلَيْكَ ، أَوْ بَتَعْوِضٍ تَعْوِضُ عَنْهُ ، أَوْ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تُوجِبُ أَرْتَجَاعَهُ - أَنْ يَكُونَ أَصْلُ الْمُقَاطَعَةِ مَحْضَى لَكَ ، وَرِثْمُهَا بَاقِيًا عَلَيْكَ وَعَلَى مَنْ تَنْتَقِلُ هَذِهِ الضِّيَاعُ إِلَيْهِ بَعْدَكَ ، عَلَى مَا نَخْرَجُ بِهِ أَمْرُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي ذَلِكَ ، مِنْ غَيْرِ تَقْضٍ وَلَا تَأْوِيلٍ فِيهِ ، وَلَا تَغْيِيرٍ لِرِسْمٍ مِنْ رِسْمِهِ ، وَلَا تَجَاوُزٍ لِحُدِّهِ مِنْ حُدُودِهِ ، عَلَى كُلِّ وَجْهِ وَسَبَبٍ .

فَلْيَعْلَمَنَّ ذَلِكَ مِنْ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ وَأَمْرِهِ ، وَمَنْ أَمْتَنَالِنَا وَإِمْضَائِنَا ، وَلْيَعْمَلْ عَلَيْهِ جَمَاعَةٌ مِنْ وَقَفِ عَلَى هَذَا الْكِتَابِ : مِنْ طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ ، وَالْعَمَّالِ ، وَالْمُشْرِفِينَ ، وَالْمُتَصَرِّفِينَ فِي أَعْمَالِ الْخَرَاجِ وَالْحِمَايَةِ وَالْمَصَالِحِ ، وَغَيْرِهِمْ . وَلْيَحْذَرُوا مِنْ مَخَالَفَتِهِ ، وَيُحْمِضُوا بِأَسْرِهِمْ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ شَهْرَامٍ وَمَنْ بَعْدَهُ جَمِيعَهُ ، وَلْيَحْمِلُوهُ عَلَى مَا يُوجِبُهُ . وَلْيُقَرَّرْ هَذَا الْكِتَابُ فِي يَدِهِ وَأَيْدِيهِمْ بَعْدَهُ حِجَّةً لَهُ وَهُمْ ، وَلْيُنَسَخْ فِي جَمِيعِ الدَّوَاوِينِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

الطريقة الثانية

(مما كان يُكْتَب في الإقطاعات في الزمن المتقدم - ما كان يُكْتَب

عن الملوك الأيوبيَّة بالديار المصرية)

وكانوا يُسمُّون ما يُكْتَب فيها توقيع ، ولهم فيه أساليب :

الأسلوب الأول

(أن يُفْتَح التوقيع المكتَب بالإقطاع بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله»)

وكان من عادة خُطِّبهم أن يُؤْتى فيها بعد التحميد بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يُؤْتى ببعديَّة ، ثم يُذْكَر ما سَنَح من حال السلطان ، ثم يُوصَف صاحبُ الإقطاع بما تقتضيه حاله من صفات المدح ، ويُرتَّب على ذلك استحقاقه للإقطاع . وقد كان من عادتهم أنهم يأتون بوصية على ذلك في آخره .

وهذه نسخة توقيع على هذا الأسلوب ، كُتِب به عن السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» رحمه الله ، لأخيه العادل «أبي بكر» بإقطاع بالديار المصرية ، وبلاد الشام ، وبلاد الجزيرة ، وديار بكر ، في سنة ثمانين وخمسمائة ، بعد الانفصال من حرب الكفار بَعكًا وعَقْد الهدنة معهم ، وهي :

الحمد لله الذي جعل أيامنا حسانا ، وأعلى لنا يداً ولسانا ، وأطابَّ مَحْتَدنا أوراقتنا وأغصانا ، ورفع لِحْدنا لواءً وِلْدنا بُرْهانا ، وحقَّق فينا قوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلَ لَكُمُ سُلْطَانًا ﴾ .

نَحْمَدُه على سُبُوغ نِعْمته ، ونسأله أن يجعلنا من الداخلين في رَحْمته .

ثم نُصَلِّي على رسوله محمد الذي أيده بِحِكْمته ، وَعَصَمَه من الناس بِعِصْمته ، وأخرج به كَلِّ قَلْب من ظُلْمته ، وعلى آله وأصحابه الذين خَلَّفُوهُ فَأَحْسَنُوا الخِلافة في أُمَّته .

أما بعد ، فإن فروع الشجرة يأوى بعضها إلى بعض لمكان قربه ، ويؤثر بعضها
بعضاً من فضل شربه ؛ ونحن أهل بيت عرف منا وفائق القلوب ودا ، وإيثار
الأيدي رفاً ؛ وذلك وإن كان من الحسنات التي يكثر فيها إثبات الأقلام ، فإنه من
مصالح الملك التي دلت عليها تجارب الأيام ؛ وكلا هذين الأمرين مشكورة مذهباً ،
محمودة عواقبه ، مرفوعة على رؤوس الأشهاد مناقبه ؛ وما من أحد من أدانينا
إلا وقد ستمناه بعوارف يختال في ملابسها ، ويسر في كل حين بزفاف عرائسها ،
ولم نرض في بل أرحامهم بمواصلة سلامها دون مواصلة برها وإدناء مجالسها ؛
ولإخوتنا من ذلك أوفر الأقسام ، كما أن لهم منا رجا هو أقرب الأرحام ؛ وقد أمرنا
بتجديد العارفة لأخينا الملك العادل ، الأجل ، السيد ، الكبير ؛ سيف الدين ،
ناصر الإسلام «أبي بكر» أبقاه الله . ولو لم نفعل ذلك قضاءً لحق إخوانه الذي ترّف
عليه حوائى الأضالع ، لفعلناه جزاءً لذائع خدمته التي هي نعم الدرائع ؛ فهو في لزوم
آداب الخدمة بعيد وقف منها على قدم الاجتهاد ، وفي حمة شوايك النسب قريب
وصل حمة نسبه بحومة الوداد ؛ وعنده من الغناء ما يحكم لاماله بسطة الخيار ،
ويرفع مكانته عن مكانة الأشباه والأنظار ، ويجعله شريكاً في الملك والشريك
مساوياً في النقص والإمرار ؛ فكم من موقف وقفه في خدمتنا بفعل وعمره سهلاً ،
وفاز فيه بارضائنا وبفضيلة التقدم نانقلب بالمحبدين إرضاء وفضلاً ؛ ويكني من
ذلك ما أبلاه في لقاء العدو الكافر الذي استشرى في هياجه ، وتمادى في بلحاجه ،
ونزل على ساحل البحر فأطل عليه بمثل أمواجه ، وقال : لا برآح ، دون استفتاح ،
الأمر الذي عسرت معالجة رتاجه ؛ وتلك وقائع استضأنا فيها برأيه الذي ينوب
مناب الكمين في مضمرة ، وسيفه الذي ينسب من الاسم إلى أبيضه ومن اللون إلى
أخضره ؛ ولقد استغينا عنهما بنصرة لقبه الذي تولت يد الله طبع فضله ، وعنت يد

السَّيَادَةُ بِرَوْتَقٍ صَقَلَهُ ؛ فَهُوَ يَفْرِى قُلُوبَ الْأَعْدَاءِ قَبْلَ الْأَجْسَادِ ، وَيَسْرِى إِلَيْهِمْ مِنْ غَيْرِ حَامِلٍ لِمَنَاطِ النَّجَادِ ، وَيَسْتَقْصِي فِي أَسْتِلَابِهِمْ حَتَّى يَنْتَرِعَ مِنْ عِيُونِهِمْ لَذَّةَ الرَّقَادِ ؛ وَلَيْسَ لِلْحَدِيدِ جَوْهَرٌ مَعْدِنُهُ الْمُسْتَخْرَجُ مِنْ زَكَاءِ الْحَسَبِ ، وَإِذَا أَسْتُنْجِدَ قِيلَ لَهُ : يَا ذَا الْمَعَالِي ! كَمَا يُقَالُ لِسَمِيَّةٍ : يَا ذَا الشُّطْبِ ؛ وَلَوْ أَخَذْنَا فِي شَرْحِ مَنَاقِبِهِ لَطَلَّ الْقَلَمُ وَأَقْفَا عَلَى أَعْوَادِ مِثْرِهِ ، وَأَمْتَدَّ شَأْوُ الْقَوْلِ فِيهِ فَلَمْ يَنْتَهِ مَوْرَدُهُ إِلَى مَصْدَرِهِ ؛ فَهَمَّا خَوْلَانَاهُ مِنَ الْعَطَايَا فَإِنَّهُ يَسِيرٌ فِي جَنْبِ غَنَائِهِ ، وَمَهْمَا أَتَيْنَا عَلَيْهِ فَإِنَّهُ سَطْرٌ فِي كِتَابِ ثَنَائِهِ .

وقد جعلنا له من البلاد ما هو ممتسَم من الديار المصرية والشامية ، وبلاد الجزيرة وديار بكر : ليكون له من كلِّ منها حِطٌّ تُفِيضُ يَدُهُ فِي أَمْوَالِهِ ، وَيَرْكَبُ فِي حَشْدٍ مِنْ رِجَالِهِ ؛ وَيُصْبِحُ وَهُوَ فِي كُلِّ جَانِبٍ مِنْ جَوَانِبِ مُلْكِنَا كَالطَّلِيعةِ فِي تَقَدُّمِ مَكَانِهَا ، وَكَالرَّيْبِيَّةِ فِي إِسْهَارِ أَجْفَانِهَا .

فَلَيْتَسَلَّمَ ذَلِكَ بِيَدِ مَعْظَمِ قَدْرَاءِ ، وَلَا يَسْتَكْثِرُ كَثْرَاءِ ، وَيَجْمَلُ مِنْهَا رِفْدَهَا غِيثًا أَوْ بَحْرًا ؛ وَكَذَلِكَ فَلْيَعْدِلْ فِي الرِّعِيَّةِ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَهُ وَدَائِعُ ، وَلْيَجَاوِزْ بِهِمْ دَرَجَةَ الْعَدْلِ إِلَى إِحْسَانِ الصَّنَائِعِ ؛ فَإِذَا أَسْنَدَ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى وُلَاتِهِ فَلْيُكُونُوا نُقَاةً لَا يَبْجِدُ الْهَوَىٰ عَلَيْهِمْ سَيْبِلًا ، وَلَا يَجِدُ الشَّيْطَانَ عِنْدَهُمْ مَقِيلًا ، وَإِذَا حُمِّلُوا ثِقَلًا لَا يَجِدُونَ حَمْلَهُ ثَقِيلًا .

وقد فَشَا فِي هَذَا الزَّمَنِ أَخْذُ الرَّشْوَةِ وَهِيَ سُبْحَتُ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنَبْذِهِ ، وَنَهَىٰ عَنْ أَخْذِهِ ؛ وَعَنِ الرَّغْبَةِ فِي تَدَاوُلِهِ ، وَهُوَ كَأَخْذِ الرَّبَا الَّذِي قُرِنَتِ اللَّعْنَةُ بِمُؤْكَلِهِ وَأَكْلِهِ .

وَأَمَّا التَّقْضَاةُ الَّذِينَ هُمْ لِلشَّرِيعَةِ أَوْتَادٌ ، وَإِلْمِضَاءِ أَحْكَامِهَا أَجْنَادٌ ، وَلِحِفْظِ عُلُومِهَا كَنُوزٌ لَا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهَا النَّفَادُ ؛ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعُولَ فِيهِمْ عَلَى الْوَاحِدِ دُونَ الْآخَرِينَ ، وَأَنْ يُسْتَعَانَ مِنْهُمْ فِي الْفَصْلِ بِيَدِي الْأَيْدِي وَفِي الْيَقْظَةِ بِيَدِي الْيَدَيْنِ ، وَمَنْ رَامَ هَذَا

المنصب سائلا فليأمنه وليغليظ القول في تجريح ملامه ، وليعرف أنه ممن رام
أمرًا فأخطأ الطريق في استجلاب مرآمه ؛ وأمر الحكام لا يتولاه من سأله ، وإنما
يتولاه من غفل عنه وأغفله .

وإذا قضينا حق الله في هذه الوصايا فلنعطفها على ما يكون لها تابعا ، ولقواعد
الملك رافعا ، وذلك أن البلاد التي أضفناها اليك : فيها مدن ذات أعمال واسعة ،
ومعاقل [ذات] حصانة مانعه ؛ وكلها يفتقر إلى استخدام الفكر في تديره ، وتصريف
الزمان في تعميره ؛ فوَلِّ وجهك إليها غير وان في تكثير قليلها ، وترويض محيلها ؛
وبت الأمانة على أوساطها ، وإهداء الغبطة إلى أفئدة أهلها حتى تسمع باغتيالها ؛
وعند ذلك يتحدث كل منهم بلسان الشكور ، ويمثل بقوله تعالى : ﴿ بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ
وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ .

وأعلم أنه قد يجاورك في بعضها جيران ذو بلاد وعساكر ، وأسرة ومناير ، وأوائل
للجند وأواخر ؛ وما منهم إلا من يتمسك منا بؤد سليم ، وعهد قديم ، وله مساعدة
نعرف له حقها (والحق يعرفه الكريم) .

فكن لهؤلاء جارا يودون جواره ، ويمجدون آثاره ؛ وإن سألك عهدا نابذ له لم
بدل وفي واقف على السنن ، مساو بين السر والعلن ؛ ولا يكن وفأوك لخوف تنق
مراصده ، ولا لرجاء ترقب فوائده ؛ فأنه قد أغناك أن تكون إلى المعاهدة لاجيا ،
وجعلك بنا محوفا ومرجوا لآخائفا ولا راجيا ؛ وقد زدناك فضلا في محلك تكون بها
على غيرك مفضلا ، وقد كنت من قبلها أغر فأوفت بك أغر محجلا ؛ وذلك أنا
جعلناك على آية الخيل تقودها إلى خوض الغار ، وتصرفها في منازل الأسفار ، وترتب
قلوبها وأجبحتها على اختلاف مراتب الأطوار ، فنحن لائق عدوا ولا نهد إلى

بلدٍ إلا وأنت كوكبنا الذي نهدي بمطلعهِ، ومفتاحنا الذي نستفتح المُغلقَ بِئِنَّ موقِعهِ، ونوقن بالنصر في ذهابهِ وبالغنيمة في مَرَجِعِهِ؛ والله يشرحُ لك صدرًا، وييسرُ لك منَّا أمرًا، ويُسَدُّ أزرنا بك كما سَدَّ لموسى بأخيه أزرًا، والسلام .

الأسلوب الثاني

(أن يُفتَحَ التوقيع بالإقطاع بلفظ : « أما بعد فإن كذا »)

ويذكر ما سَنَحَ له من أمر السلطان أو الإقطاع أو صاحبه، ثم يتعرّض إلى أمر الإقطاع، وهو دون الأسلوب الذي قبله في الرتبة .

وهذه نسخة توقيع بإقطاع من هذا الأسلوب، كتب بها لأميرٍ قدم على الدولة فاستخدمته، وهي :

أما بعدُ، فإنَّ لكلَّ وسيلةٍ جزاءً على نِسْبَةِ مكانها، وهي تتفاوتُ في أوقات وجوبها ومناقيل ميزانها؛ ومن أوجبها حقًا وسيلةُ الهجرة التي طوى لها الأمل من شقته ما طوى، وبعث بها على صدق النية «ولكلِّ أمرٍ ما نوى»؛ فالأوطانُ إليها مُودَعه، والخطواتُ موسَّعه، والوجوه من برد الليل وحرّ النهار مُنمَّعه؛ وقد توخَّأها قومٌ في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فخطُّوا في الدنيا باعْتِلاءِ المنازل، وفي الآخرة بعقبي الدار، وقُدِّموا على من آوى ونصر فقال تعالى : ﴿ والسائقون الأولون من المهاجرين والأنصار ﴾ . ثم صارت هذه سنةً فيمن هاجر من أقوام إلى أقوام، واستبدل بأنام عن أنام؛ وكذلك فعلت أيها الأمير فلان - وفقك الله - وقد تلقيت هجرتك هذه بالكرامة، وزُحِرَتْ لها دارُ الإقامة؛ فما أبتغيت بها بغيَّةً إلا سَهَلت لك فحاجها، أو عاج عليك معاجها، وحمد لَدَيْكَ تأويها وإدلاجها؛ وأصبحت

وقد وجدتَ خَفْضًا غَبَّ السُّرَى، وَخِيطٌ مِنْكَ الْجُفُونُ عَلَى أَمْنِ الْكَرَى، وَتَبَوَّاتَ
كَتَفَ الدَّوْلَةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الدُّوَلِ إِذْ صَرَّتَ إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي هِيَ أُمُّ الْقُرَى . وَنَحْنُ قَدْ
أَذِينَاكَ مِنَّا إِدْنَاءَ الْخَلِيطِ وَالْعَشِيرِ ، وَرَفَعْنَاكَ إِلَى مَحَلِّ الْأَخْتِصَاصِ الَّذِي هُوَ الْمَحَلُّ
الْأَثِيرِ ، وَآخِينَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَطَايَانَا كَمَا وَوَحَى بَيْنَ الصَّحَابَةِ النَّبَوِيَّةِ يَوْمَ الْعَدِيرِ .

هذا ولكِ وسيلةٌ أُخْرَى تُعَدُّ مِنْ حِسَانِ الْمَنَاقِبِ ، وَتُوصَفُ بِالصِّفَاتِ الْأَطْيَابِ ؛
وَمَا يُقَالُ إِلَّا أَنهَا مِنَ الْأَطْوَادِ الرَّوَّاسِ ، وَأَنَّهَا تَبْرُزُ فِي اللَّبَاسِ الْأَحْمَرِ وَغَيْرِهَا لَا يَبْرُزُ
فِي ذَلِكَ اللَّبَاسِ ؛ وَهِيَ الَّتِي تَجْعَلُكَ بِوَحْدَتِهَا فِي كَثْرَةِ ، وَتُنَاقِضُهَا مِنْ غَيْرِ إِسْرِهِ ؛
وَطَالَمَا أَطَالَتْ يَدُكَ بِمِنَاطِ الْبَيْضِ الْحِدَادِ ، وَفَرَّجَتْ لَكَ ضَيْقَ الْكُرِّ وَقَدْ غَضَّ
بِهَوَادِي الْجِيَادِ ، وَحَسَّنَتْكَ الْعَيْونَ وَقَدْ رُمِيَتْ مِنْكَ بِشَرِّ الْقَذَا وَنَبْوَةِ الشَّهَادِ ؛
وَمَنْ شَرَّفَ الْإِقْدَامَ أَنْ الْعُدُوَّ يُحِبُّ الْعُدُوَّ مِنْ أَجْلِهِ ، وَيَضْطَرُّهُ إِلَى أَنْ يُقَرَّ بِفَضْلِهِ ؛
وَمَذْ وَصَلَتْ إِلَيْنَا وَصَلْنَاكَ بِأَمْرَاتِنَا الَّذِينَ سَلَفَتْ أَيَّامُهُمْ ، وَثَبَّتْ فِي مَقَامَاتِ الْغِنَاءِ
أَقْدَامُهُمْ ؛ وَتَوَسَّمْنَا أَنَّكَ الرَّجُلُ الَّذِي يَزُكُّ لَدَيْكَ الصَّنِيعُ ، وَأَنَّكَ سَتَشْفَعُهُ بِحَقِّهِ
خِدْمَتِكَ الَّتِي هِيَ نِعْمَ الشَّفِيعِ .

وقد عَجَّلْنَا لَكَ مِنَ الْإِقْطَاعِ مَا لَا نَرْضَى أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ شَاكِرًا ، وَجَعَلْنَاكَ لَكَ أَوْلَا
وَإِنْ كَانَ لَغَيْرِكَ آخِرًا ؛ وَهُوَ مُثَبَّتٌ فِي هَذَا التَّوْقِيعِ بِقَلَمِ الدِّيَوَانِ الَّذِي أُقِيمَ لِفَرْضِ
الْجُنْدِ كِتَابًا ، وَلِعَرَفَةِ أَرْزَاقِهِمْ حِسَابًا ، وَهُوَ كَذَا وَكَذَا .

فَتَنَاوَلْ هَذَا التَّخْوِيلَ الَّذِي حُوِّلَتْهُ بِالْيَمِينِ ، وَأَسْتَمْسِكْ بِهِ أَسْتَمْسَاكَ الضَّمِينِ .

وَأَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ كَثُرَ الْخَوَاسِدُ لِمَا مَدَدْنَاهُ مِنْ صُنْعِكَ ، وَبَسَطْنَاهُ مِنْ ذَرْعِكَ ؛
فَأَشْجِحْ حُلُوقَهُمْ بِالسَّعْيِ لِأَسْتَحْقَاقِ الْمَزِيدِ ، وَارْقُ فِي دَرَجَاتِ الصُّعُودِ وَأَلْزِمُهُمْ صَفْحَةَ
الصَّعِيدِ .

والذي تأمرك به أن [تعدّ] نفسك للخدمة التي جعلت لها قرنا وأنت بها أغنى،
 وأن تنتهي فيها إلى الأمد الأقصى 'دون الأذنى'؛ فلا تضم جناحك إلا على قوادم
 من الرجال لا على خواف، وإذا استنفرت فأنفر بثقال من الخيل وخفاف؛ وكن
 مدخورا لواحدة يقال فيها: يا عزائم أغضبي، ويا خيل النصر أركبي؛ وتلك هي التي
 تنظّم بها الجماجم من الضراب، وتلاقى فيها عصب الغربان والذباب؛ ولا تحتاج مع
 هذه إلى منقبة تجمل بتفويها، وتكثر بتعريفها، وتنتمى إلى تليدها باستحداث
 طريفها .

والله تعالى يشدّ بك أظرافنا، ويملاّ بك عيننا وصدرا، ويعمل الفلج مقرونا
 برأيك ورايتك حتى يقال: «مكروا مكرا» وجرّدنا بيضا ومثرا؛ والسلام
 إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثالث

(أن يفتح التوقيع المكتتب بالإقطاع بما فيه معنى الشجاعة والقتال
 وما في معنى ذلك ، وهو أدنى من الذي قبله رتبة)

وهذه نسخة توقيع بإقطاع من هذا النمط ، كتبت به لبعض الأمراء الصغار ،

وهي :

القلم والرّيح قامان كلاهما أسمر، وكما تشابه في المنظر فكذلك تشابه في المخبر،
 غير أنّ هذا يركب في عسكر من القول وهذا يجهل في عسكر؛ وقد نطق أحدهما
 بالثناء على أخيه فأحسن في نطقه، وأقرّله بالفضيلة ومن الإنصاف أن يُقرّ
 لدى الحق بحقه، غير أنّ هذه الفضيلة تُعزى إلى من يُقيم أود الساعي بتقويم

أودِه، ولا يرى لها سبيلاً فصدًا إلا بالوطء على قَصده، وهو أنت أيها الأمير فلان
أيُّدك الله ! .

وقد آخترناك لخدمتنا على بصيره، وأجرتناك من آعتنا على أكرم وتيره، ورفعنا
درجتك فوق درجة المعلّى لمن سبقك وإنما لكبيره .

ولم يكن هذا الاختيار إلا بعد اختبار لا يحتاج معه إلى شهادة ، ولو كُشف
الغطاء لم يجد اليقين من زياده؛ فطالما نُحِمت نبتك، وُيمنت طلعك، ولم تعرض
سلة الغناء إلا نفقت سلعتك؛ ومثلك من تُباهى الرجال بمكانه، وتُحلى له فضلة
عنانه ، ويتسع ميدان القول في وصفه إذا ضاق بغيره سعة ميدانه ؛ وما يُقال إلا
أنك الرجل الذي تقذف الجانب المهيم بعزمك، وترمي برأيك قبل رماء سهمك ؛
وبك يُحسر دُجى الحرب الذى أعوزه الصباح، ويُحجى عقبها أن يُحص له جناح ؛
فأسباب الاعتضاد بك إذن كثيرة الأعداد ، وأنت الواحد المشار إليه ولا تكثر
إلا مناقب الآحاد .

وقد بدأناك من العطاء بما يكون بيسم الله فى صدر الكتاب ، وجعلناه كالغامة
التي تأتي أولاً بالقطار ثم تأخذ فى الأنسكاب ؛ وخير العطاء ما رب بعد ميلاده ،
وأينع ثمره بعد جداده ؛ وإن صادف ذلك وسائل خدم مستأنفة كان لها قرانا ،
وصادف الإحسان منه إحسانا ؛ وقد ضمن الله تعالى للشاكر من عباده مزيدا ،
ولم يرض له بأن يكون مُبدئا حتى يكون مُعيدا ؛ وكذلك دأبه فى من عرف مواقع
نعمه ، وعلم أن صحتها لا تفارقه مالم يُعدها بسقمه .

ونحن أولى من أخذ بهذا الأدب الكريم ، وألزم نفسه أن نتحلّى بخلقته وإنه
للخلق العظيم ؛ وعطاؤنا المنعم به عليك لم يُذكر فى هذا التوقيع على حكم الامتان ،

بل إثباتاً لحساب الجُند الذين هم أعوانُ الدَّولة ولا بدَّ من إحصاءِ الأعوان ؛
وهو كذا وكذا .

فأمُدُّ له يداً تتجمع من الشُّكرِ مواظبه ، ^(١) ومن الطَّاعة مُراقبه ؛ وكنُ في النَّهَبِ
للخدمة كالسَّهمِ الموضوعِ في وتره ، وأصيحُ بِسَمْعِكَ وبصركِ إلى ما تُؤمَرُ به فلا آتِمَارَ
لمن لم يُصخِ بِسَمْعِهِ وبَصَرِهِ .

وملاكُ ذلك كلُّه أن تتكثر من فُرسانِ الغِوارِ ، وحِماةِ الدِّمارِ ، والذين هم زينةُ سِلمٍ
ومَفزَعُ حَدَارٍ ؛ ومثلُ هؤلاء لا يُضمُّهم جيشٌ إلا تقدَّمه جيشٌ من الرُّعبِ ، ودَارَتْ
منه الحربُ على قُطبها ولا تُدور رُحى إلا على قُطب ؛ وإذا ساروا خلفَ رَأْيِكَ
نُشرت ذوائبها على غايةٍ من الآسادِ ، وخفقت على بحرٍ من الحديدِ ليسيِّرُ به طودُ
من الحِيادِ .

ومن أهمِّ الوصايا إليك أن تُضيفَ إلى غنائمهم غنيَّ يُبرِّزهم في زهرةٍ من اللباسِ ،
ويُعينهم على إعدادِ القُوَّةِ ليومِ الباسِ ، ويُقصرَ لديهم شقَّةَ الأسفارِ التي تذهبُ بنزقاتِ
الشَّماسِ ، وينقطعَ دُونَ قُطْعِهَا طُولُ الأنفاسِ ؛ وأى فائدةٍ في عسكِرٍ يأخذُ بعدَ المسرئِ
في حورِهِ ، ولا يزيدُ صبرُهُ بزيادةِ سَفَرِهِ ، ويكونُ حافرُهُ وخُفُّهُ سواءً في آنتسابِ كلِّ
منهما إلى شدَّةِ حَجَرِهِ .

فانظُرْ إلى هذه الوصيةِ نظراً من طالَ على صحبته بالكفِّ الأوسعِ ، وعلمِ ما يضرُّ
فيهم وما ينفعُ ؛ واللهِ يمتحكُ من لدنهِ توفيقاً ، ويسلِّكُ بكِ إلى الحُسنى طريقاً ،
ويجعلُك خَلِيقاً بما يُصالحُك وليس كلُّ أحدٍ بصالحِهِ خَلِيقاً ، والسلام .

(١) لعله «مع» بدل «من» في الموضعين .

الطرف الثاني

(ما يُكْتَبُ فِي الْإِقْطَاعَاتِ فِي زَمَانِنَا)

وهو على ضربين :

الضرب الأول

(ما يُكْتَبُ قَبْلَ أَنْ يُنْقَلَ إِلَى دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ)

وفيه جملتان :

الجملة الأولى — في ابتداء ما يُكْتَبُ فِي ذَلِكَ مِنْ دِيْوَانِ الْجَيْشِ .

إعلم أَنَّ مَظِنَّةَ الْإِقْطَاعَاتِ هُوَ دِيْوَانُ الْجَيْشِ دُونَ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ ، وَمَا يُكْتَبُ فِيهِ مِنْ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ هُوَ قَرَعٌ مَا يُكْتَبُ مِنْ دِيْوَانِ الْجَيْشِ .

ثم أول ما يُكْتَبُ مِنْ دِيْوَانِ الْجَيْشِ فِي أَمْرِ الْإِقْطَاعِ إِمَّا مِشَالٌ ، وَإِمَّا قِصَّةٌ ،
(١)
وإِمَّا نَزُولٌ .

فأما المِشَالُ ، فَإِنَّهُ يُكْتَبُ نَاطِرُ الْجَيْشِ فِي نِصْفِ قَائِمَةٍ شَامِحٍ ، بَعْدَ تَرْكِ التَّلْثِينَ مِنْ أَعْلَاهَا بِيَاضًا ، فِي الْجَدُولِ الْأَيْمَنِ مِنَ الْقَائِمَةِ مَا صُورْتَهُ :

«خُبْرُ فُلَانٍ الْمَتَوَفَّى إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى» أَوْ «الْمَرْسُومُ آرْتِجَاعُهُ» أَوْ «الْمُنْتَقِلُ لِعَیْرِهِ»
وَنَحْوَ ذَلِكَ . وَيَكُونُ «خُبْرٌ» سَطْرًا ، وَبَاقِي الْكَلَامِ تَحْتَهُ سَطْرًا . وَتَحْتَ ذَلِكَ مَا صُورْتَهُ :
«عَبْرَةٌ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا» بِالْقَلَمِ الْقَبْطِيِّ . وَفِي الْجَدُولِ الْأَيْسَرِ مَا صُورْتَهُ :

«بِأَسْمِ فُلَانٍ الْفُلَانِي» وَإِنْ كَانَ زِيَادَةً عِيْنٌ ، ثُمَّ يُشْمَلُهُ الْخَطُّ الشَّرِيفُ السُّلْطَانِي بِمَا مِثَالُهُ : «يُكْتَبُ» ثُمَّ يُكْتَبُ تَحْتَهُ نَاطِرُ الْجَيْشِ مَا مِثَالُهُ : «يُمْتَثِلُ الْمَرْسُومُ

(١) أى إسهاد بنزول كما يؤخذ من التفصيل الآتى .

الشريف» ويَعِينَهُ عَلَى مَنْ يَخْتَارُهُ مِنْ كُتَّابِ الْجَيْشِ، ثُمَّ يُتْرَكُ بَعْدَ ذَلِكَ بِدِيَوَانَ النَّظَرِ؛ وَيُكْتَبُ تَارِيخُهُ بِحَطِّ كَاتِبِ نَاطِرِ الْجَيْشِ بِذَيْلِ الْمَثَالِ، وَيُخَلِّدُهُ الْكَاتِبُ الْمَعِينُ عَلَيْهِ، وَيُكْتَبُ بِذَلِكَ مَرَبَّعَةً، عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ .

وَأَمَّا الْقِصَصُ فَتَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْحَالِ : فَتَارَةٌ يُنْهَى فِيهَا وَفَاءٌ مِنْ كَانَ بِيَدِهِ الْإِقْطَاعُ، وَتَارَةٌ أُنْتَقَلَهُ عَنْهُ، وَتَارَةٌ آرْتَجَاعُهُ، وَتَارَةٌ طُلِبَ إِعَادَةُ مَا نَحَرَ عَنْهُ، وَتَارَةٌ طُلِبَ تَجْدِيدُهَا، وَنَحْوُ ذَلِكَ .

وَيُكْتَبُ نَاطِرُ الْجَيْشِ عَلَى حَاشِيَتِهَا بِالْكَشْفِ . وَيُكْتَبُ الْكَشْفُ بِذَيْلِ ظَاهِرِهَا مِنْ دِيَوَانَ الْجَيْشِ بِمَا مِثَالُهُ :

« رَافِعُهَا فُلَانٌ أَنْهَى مَا هُوَ كَذَا وَكَذَا ، وَسَأَلَ كَذَا وَكَذَا » وَيَذَكُرُ حَالَ الْإِقْطَاعِ . ثُمَّ يَشْمَلُهَا الْخَطُّ الشَّرِيفُ السَّاطِنِيُّ بِمَا مِثَالُهُ : « يَكْتَبُ » وَبَاقِي الْأَمْرِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي ذِكْرِ الْمَثَالِ .

وَأَمَّا الْإِشْهَادَاتُ فَتَكُونُ تَارَةً بِالزُّوْلِ، وَتَارَةً بِالْمُقَايَصَةِ؛ وَرَبَّمَا وَقَعَ ذَلِكَ بِالشَّرْكَةِ، ثُمَّ يَكْتَبُ نَاطِرُ الْجَيْشِ عَلَى ظَاهِرِ الْإِشْهَادِ بِالْكَشْفِ، وَيُعْمَلُ فِيهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ فِي الْقِصَّةِ .

الجملة الثانية — في صورة ما يكتب في المربعة الجيشية .

قَدْ جَرَتْ عَادَةُ دِيَوَانَ الْجَيْشِ أَنَّهُ إِذَا عَيَّنَ نَاطِرُ الْجَيْشِ الْمَثَالَ أَوْ الْقِصَّةَ أَوْ الْإِشْهَادَ عَلَى أَحَدٍ مِنْ كُتَّابِ دِيَوَانَ الْجَيْشِ، يُخَلِّدُ الْكَاتِبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ، ثُمَّ تُكْتَبُ بِهِ مَرَبَّعَةٌ مِنْ دِيَوَانَ الْجَيْشِ وَتَكْتَلَى بِالْخَطِّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، وَتُجَهَّزُ إِلَى دِيَوَانَ الْإِنْشَاءِ، فَيُعِينُهَا كَاتِبُ السَّرِّ عَلَى مَنْ يَكْتَبُ بِهَا مَنْشُورًا عَلَى مَا سَيَأْتِي .

وصورة المربعة أن يَكْتُبَ في ورقة مربعة، يجعلُ أعلى ظاهر الورقة الأولى منها بياضا، ويَكْتُبُ في ذيلها معترضا: آخذا من جهة أسفل المربعة إلى أعلاها أسطرا قصيرة على قدر عرض ثلاثة أصابع ما صورته :

«مثال شريف — شرفه الله تعالى وعظمه — بما رُسم به الآن : من الإقطاع»
باسم من عين فيه من الأمراء أو من الممالك السلطانية بالديار المصرية ،
أو بالملكة الفلانية ، أو من الحلقة المصرية أو الشامية ، أو نحو ذلك «على ما شرح
فيه حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه» .

وتحت ذلك كله ما صورته :

(١)
«يحتاج الشريف أعلاه الله تعالى» .

ثم يَكْتُبُ داخل تلك الورقة بعد إخلاء هامش عرض إصبعين البسملة ،
وتحتها في سطرٍ ملاصقٍ لها : «المرسومُ بالأمر الشريف العالى ، المولوى ، السلطاني»
ثم ينزل إلى قدر ثلثي الصفحة ، ويكتب في السطر الثاني بعد البياض الذى تركه على
مسامحة السطر الأول : «الملكيّ الفلانيّ الفلانيّ» بلقب السلطنة : كالناصرى ، ولقب
السلطان الخاص كالزنجي « أعلاه الله تعالى وشرفه ، وأنفذه وصرفه ، أن يُقطع من
يذكر : من رجال الحلقة بالديار المصرية أو المملكة الشامية أو نحو ذلك ، ما رُسم له به
الآن في الإقطاع ، حسب الأمر الشريف شرفه الله تعالى وعظمه» .

ثم يكتب في الصفحة الثانية مقابل البسملة : «فلان الدين فلان الفلانيّ ، المرسومُ
إثباته في جملة رجال الحلقة المنصورة بالديار المصرية أو الشامية ، بمتنضى المثال

(١) بياض في الأصل ولعله «إلى الخط الشريف» .

الشَّريف أو المربَّعة الشريفة المشمولة بالخط الشريف» . ثم يكتب تحت السَّطر الأخير في الوسط ما صورته : « في السنه كربستا » إن كان جميع البلد أو البلاد المقطعة لا يُستثنى منها شيء ، أو يكتب : « خارجاً عن الملك والوقف » أو نحو ذلك « على ما يقتضيه الحق » .

ثم يكتب تحت ذلك على حبال السُّطور ممتداً من أول السَّطر إلى آخره :
« خبز » .

ثم يكتب تحته : « فلان بن فلانى الفلانى ، بحكم وفاته ، أو بحكم نزوله برضاه »
ونحو ذلك على عادته - ناحية كذا . ناحية كذا . ناحية كذا .

وإن كان فيه نقد ونحوه ذكره ، ويستوفى ذلك إلى آخر : « بعد الخط الشريف - شرفه الله تعالى - إن شاء الله تعالى » .

ثم يُؤرَّخ في سَطْرَيْنِ قصيرين ويُحضر إلى صاحب ديوان الإنشاء ، فيعيَّنه على مَنْ يكتبه من كُتَّاب الإنشاء ، على ما سياتى بيانه .

الضرب الثاني

(فيما يُكْتَبُ في الإقطاعات من ديوان الإنشاء ، وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(في ذكر أسم ما يُكْتَبُ في الإقطاعات من ديوان الإنشاء)

قد اصطلح كُتَّابُ الزمان على تسمية جميع ما يُكْتَبُ في الإقطاعات : من عَليها ودَانيها ، للأمرء والجنُود والعُربان والأُتُركان وغيرهم - مَنَاشِيرَ ، جمع مَنشور . والمنشورُ في أصل اللُغة خلافُ المَطوِي . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنشُورٍ ﴾ .

وأعلم أن تَحْصِيصَ ما يُكْتَبُ في الإقطاعات باسم المَناشير مما حَدَثَ الاصطلاحُ عليه في الدولة التُركية .

أما في الزَمن المتقدم فقد كانوا يُطَلِّقون أسم المَناشير على ما هو أعمُّ من ذلك : مما لا يَحْتَاجُ إلى خَتَمٍ : كالمكتوب بالإقطاع على ما تقدم ، والمكتوب بالولاية ، والمكتوب بالحماية ، وما يجرى مجرى ذلك . وربما سُمِّي ما يُكْتَبُ في الإقطاع مُقاطعةً ، وربما سُمِّي سِجلاً وغير ذلك .

أما الآن فإذا أُطْلِقَتِ المَناشيرُ لا يُفْهَمُ منها إلا ما يُكْتَبُ في الإقطاعات خاصَّةً ، وخصَّصوا كُلَّ واحدٍ مما عداها باسمه ، على ما هو مذكُور في مواضعه دُونَ ما عداها ، ولا مِشاحَةً في الاصطلاح بعد فَهَمِ المعنى .

قالتُ : ومن خاصَّةِ المَناشير أنها لا تُكْتَبُ إلا عن السلطان مشمولَةً بِحَطِّه ، وليس لغيره الآن فيها تَصَرُّفٌ ، إلا ما يُكْتَبُ فيه النائبُ الكافلُ ابتداءً .

الجملة الثانية

(في بيان أصناف المناشير، وما يُحْصَى كُلُّ صِنْفٍ مِنْهَا: من مقادير قَطْعِ الْوَرَقِ،
وما يَخْتَصُّ بِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا مِنْ طَبَقَاتِ الْأَمْرَاءِ وَالْجُنُودِ)

إِعلم أَنَّ الْمُنَاشِيرَ الْمَصْطَاحَ عَلَيْهَا فِي زَمَانِنَا عَلَى أَرْبَعَةِ أَصْنَافٍ: يَخْتَصُّ بِكُلِّ صِنْفٍ مِنْهَا مِقْدَارٌ مِنْ مَقَادِيرِ قَطْعِ الْوَرَقِ .

الصِّنْفُ الْأَوَّلُ — مَا يَكْتَبُ فِي قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ وَهُوَ لِأَعْلَى الْمَرَاتِبِ مِنَ الْأَمْرَاءِ .
قال في "التثقيف": "ومن كان مؤهلاً لأن يكتب له تقليد كان منشوره من
نوعه ومن دون ذلك إلى أدنى الرتب .

قال في "التثقيف": "وفي قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ يُكْتَبُ لِمُقَدَّمِي الْأُلُوفِ بِالْديَارِ الْمِصْرِيَّةِ،
سواء كان من أولاد السلطان أو الخاصكية أو غيرهم، وكذلك جميع النواب الأكبر
بالممالك الإسلامية، والمقدمون بدمشق . وكل من له تقليد في قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ يَكُونُ
منشوره في قَطْعِ الثُّلُثَيْنِ .

الصِّنْفُ الثَّانِي — مَا يَكْتَبُ فِي قَطْعِ النِّصْفِ .

قال في "التثقيف": "وفيه يُكْتَبُ لِأَمْرَاءِ الطَّبَاحَانَاتِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ، سِوَاهُ
فِي ذَلِكَ الْخَاصِكِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ . وَكَذَلِكَ الْأَمْرَاءُ الْمُقَدَّمُونَ مِنْ نَوَابِ الْقِلَاعِ الشَّامِيَّةِ .
وفي معناهم المقدمون بحلب وغيرها: من نواب القلاع وغيرهم .

الصِّنْفُ الثَّلَاثُ — مَا يَكْتَبُ فِي قَطْعِ الثَّلَاثِ .

قال في "التثقيف": "وفيه يُكْتَبُ لِأَمْرَاءِ الْعَشْرَاتِ مَطْلَقًا بِسَائِرِ الْمَمَالِكِ، يَعْنِي
مِصْرَ وَالْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ بِجَمَلَتِهَا . قال: "وكذلك الطَّبَاحَانَاتِ مِنَ التُّرْكِيَّةِ وَالْأَكْرَادِ
بِالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

الصنف الرابع — ما يكتب في قطع العادة المنصوري .

قال في "التتقيف" : وفيه يكتب للمالِك السلطانية، ومقدّم الحلقّة، ورجال الحلقّة . إلا أنه يَخْتَلِفُ الحَالُ بين المالِك السلطانية، ومقدّم الحلقّة، وبين رجال الحلقّة بزيادة أوصال الطّرة، والإتيان بالدُّعاء المناسب: يعني أنه يُتْرَكُ في طّرة مناشير المالِك السلطانية ثلاثة أوصال بياضاً، وفي مناشير رجال الحلقّة وصلان .

قلتُ : ولا فرق في ذلك بين حلقّة مصر وغيرها من الممالك الشاميّة .

الجملة الثالثة

(في بيان صورة ما يكتب في المناشير في الطّرة والمثن)

قال في "التتقيف" : إن كان المنشور في قطع الثلثين، كُتِبَ في طرته من يمين الورق بغير هامش ما صورته :

«منشور شريف بأن يجرى في إقطاعات المقرّ الكريم» أو «الجناب الكريم العالى الأميرى الكبيرى» وإن كان نائباً زيد بعدها : «الكافى الفلانى» يعنى بلقبه الخاص «فلان الفلانى» بلقب الإضافة إلى لقب السلطان: كالناصرى ونحوه . ثم الدعاء بما جرت به عادته دعوة واحدة « ما رسم له به الآن من الإقطاع » ويشرح ما تضمنته المربّعة إلى آخره، فمن ذلك جميعه سطران بقلم الثلث .

قال : والأحسن أن يكون آخر السطر الثانى الدعاء والتتمة بالقلم الرّقاع أسطراً قصاراً بهامش من الجانبين، ثم يكتب في الوسط سطرًا واحدًا بالقلم الغليظ : «والعدّة» وتحتّه بالقلم الدقيق «خاصته، ومائة طواشى أو تسعون طواشياً أو ثمانون طواشياً أو سبعون طواشياً» حسب ما يكون في المربّعة . ويترك ثلاثة أوصال بياضاً بما فيه من وصل الطّرة؛ ثم تُكْتَبُ البسملة في أول الوصل الرابع، وبعدها

خُطْبَةٌ مَفْتَحَةٌ بِالْحَمْدِ، وَيَكْتَلُ بِهَا يَنَاسِبُهُ، ثُمَّ يُقَالُ: «أَمَا بَعْدُ» وَيَذْكَرُ مَا يَنْبَغِي ذِكْرَهُ عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقَالِيدِ.

قال في "التعريف": إلا أن المناشير أخصر، ولا وصايا فيها.

قال في "التثقيف": ثم يذْكَرُ بَعْدَ ذَلِكَ اسْمُهُ بِأَن يُقُولُ: «وَلِمَا كَانَ الْجَنَابُ» وَبَقِيَّةُ الْأَلْقَابِ وَالنُّعُوتِ وَالِدُعَاءِ - وَلَا يُزَادُ عَلَى دَعْوَةٍ وَاحِدَةٍ «هُوَ الْمُرَادُ بِهَذِهِ الْمِدْحِ، وَالْمَخْصُوصَ بِهَذِهِ الْمِنْحِ» أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ - «أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ تُحَوَّلَهُ بِمَزِيدِ النِّعَمِ».

وإن كان المنشور في قطع النصف كُتِبَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ، إِلَّا أَنَّهُ لَا يُقَالُ: «أَنْ يُجْرَى فِي إِقْطَاعَاتٍ». بَلْ إِنْ كَانَ مَقْدَمًا بِجَبَّ أَوْ غَيْرِهَا أَوْ طَبِخَانَاهُ خَاصِيكًا، أَوْ كَانَ مِنْ أَوْلَادِ السُّلْطَانِ، كُتِبَ: «أَنْ يُجْرَى فِي إِقْطَاعِ الْمَجْلِسِ الْعَالِي أَوِ السَّامِيِّ». وَإِنْ كَانَ طَبِخَانَاهُ مِنْ عَدَا هَؤُلَاءِ، كُتِبَ «مَنْشُورُ شَرِيفٍ بِمَا رُسِمَ بِهِ مِنَ الْإِقْطَاعِ لِلْمَجْلِسِ السَّامِيِّ» وَالتَّيْمَةُ عَلَى حَكْمِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ غَيْرِ فَرْقٍ.

وَأَمَّا مَا يَكْتَبُ فِي قِطْعِ الثَّلَاثِ فَيَكْتَبُ: «مَنْشُورُ شَرِيفٍ بِمَا رُسِمَ بِهِ مِنَ الْإِقْطَاعِ لِلْمَجْلِسِ الْأَمِيرِ».

وَأَمَّا التَّجْدِيدَاتُ فَيَكْتَبُ فِي طَرْتِهَا: «مَنْشُورُ شَرِيفٍ رُسِمَ بِتَجْدِيدِهِ بِاسْمِ فُلَانِ بْنِ فُلَانِ الْقَلَانِيِّ، بِمَا هُوَ مُسْتَقَرٌّ بِيَدِهِ مِنَ الْإِقْطَاعِ الشَّاهِدِ بِهِ الدِّيْوَانُ الْمَعْمُورُ إِلَى آخِرِ وَقْتٍ» وَيُسْرَحُ حَسَبَ مَا تَضَمَّنَتْهُ الْمَرْبَعَةُ، ثُمَّ يُقَالُ: «عَلَى مَا سُرِّحَ فِيهِ».

وَأَمَّا الزِّيَادَاتُ وَالتَّعْوِيضَاتُ، فَقَالَ فِي "التعريف": إِذَا رُسِمَ لِلْأَمِيرِ زِيَادَةٌ أَوْ تَعْوِيضٌ: فَإِنْ كَانَ مِنْ ذَوِي الْأَوْفِ: كَالنُّوَابِ الْأَكْبَرِ، وَمَقْدَمَى الْأَوْفِ بِمِصْرَ وَالشَّامِ، كُتِبَ لَهُ فِي قِطْعِ الثَّلَاثِ الطَّرْزُ عَلَى الْعَادَةِ، وَبَعْدَ الْبِسْمَلَةِ: «خَرَجَ الْأَمْرُ

الشريف العالى، المولوى، السلطانى، المالكى، الفلانى، الفلانى، ويُدعى له بما يناسب الحال «أن يُجرى فى إقطاعات المقتر الفلانى أو الجناح الفلانى». وفى التيممة نظير ما تقدم فى المناشير المفتحة بالخطبة، على ما تقدم بيانه .

والذى ذكره فى "التعريف" : أنه يُكتب فى ذلك لمقدمى الأئوف أو من قاربهم : «أما بعد حمد الله» .

وإن كان من أمراء الطباجاناه الصغار فمن دونهم حتى جند الحلقة ، كتب له فى قطع العادة : «خرج الأمر الشريف» .

قال فى "التثقيف" : وكذلك الزيادات والتعويض ، سواء فى ذلك كبيرهم وصغيرهم . قال : ويمكن أن يميز أمير آل فضل فيكتب له ذلك فى قطع الثالث . قال فى "التعريف" : أما إذا أنتقل الأمير من إقطاع إلى غيره ، فإنه يكتب له كأنه مبتدأ على ما تقدم أولاً .

وأعلم أنه لم تجر العادة بأن تكتب فى أعلى الطرة إشارة إلى العلامة السلطانية ، كما يكتب فى الولايات الأسم الشريف فى أعلى الطرة . قال فى "التثقيف" : والسبب فيه أن العلامة لا تخرج عن أحد ثلاثة أمور : إما الأسم الشريف مفرداً ، كما فى الأمثلة السلطانية إلى من جرت العادة أن تكون العلامة له الأسم الشريف ، وما يتعلق بالتقاليد والتواقيع والمراسيم الشريفة ، وأوراق الطريق . أو يضاف إلى الأسم الشريف والده ، أو أخوه ، وذلك مما يتعلق بالأمثلة الشريفة خاصة إلى من جرت عادته بأن تكون العلامة إليه كذلك . ودك بخلاف المناشير فإن العلامة فيها على ما جرت به العوائد ، أن يكتب السلطان : «الله أملى» أو «الله ولي» أو «الله حسبي» أو «الملك لله» أو «المنة لله وحده» لا يختلف فى ذلك أعلى

(١) لعله « وذلك مما يتعلق » الخ .

ولا أدنى، فلا يحتاج إلى إشارة بسببها يئبه عليها، لأن ترك الإشارة إليها دليلٌ عليها، وإشارةٌ إليها، كما ذكر النحاة علامات الأسم والفعل ولم يذكروا للحرف علامة، فصار ترك العلامة إليها علامة، بخلاف الأمثلة: فإنها تختلف: فتكون العلامة فيها تارة الأسم، وتارة أخوه، وتارة والده.

الجملة الرابعة

(في الطغرى التي تكون بين الطرة المكتتة في أعلى المنشور وبين البسملة)

قال في "التعريف": "قد جرت العادة أن تكتب للناشير الجكار كمقدمي الألوفا والطبلخانات طغرى بالألقاب السلطانية، ولها رجل مفرد بعملها وتحصيلها بالديوان. فإذا كتب الكاتب منشوراً أخذ من تلك الطغراوات واحدة، وألصقها فيما كتب به. قال في "التعريف": "وتكون فوق وصلٍ بياض فوق البسملة. قال في "التشقيف": "فبعد وصلين أو ثلاثة من الطرة."

قلت: ولم تزل هذه الطغرى مستعملة في المناشير إلى آخر الدولة الأشرافية «شعبان بن حسين» ثم تركت بعد ذلك ورُفض استعمالها وأهملت. ولا يخفى أنه يرد عليها السؤال الوارد على الطغرى المكتتة في أول المكاتب إلى سائر ملوك الكُفَر من تقديم أسم السلطان على البسملة، على ما تقدم بيانه في موضعه.

وقد تقدم الاحتجاج لذلك بقوله تعالى في قصة بلقيس: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وأنه يحتمل أن يكون قوله:

(١) نص في النجاء على أن الطغرى بضم الطاء وسكون العين وفتح الراء مقصورة كلمة أجمية استعملتها العرب.

﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمِنَ ﴾ حكاية عن قول بلقيس ، ويكون ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ هو أول الكتاب ، فلا يكون في ذلك حجة على تقدم الأسم على البسملة . وأنه إنما يتجه الاحتجاج بذلك على القول بأن قوله : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمِنَ ﴾ من كلام سليمان عليه السلام . وأنه إنما قدم اسمه على البسملة وقاية لأسم الله تعالى ، من حيث إنه كان عادة ملوك الكفر أنهم إذا لم يرضوا كتاباً مرقوه أو تفلوا فيه ، بفعل اسمه حالاً محل الوقاية . ولا شك أن مثل ذلك لا يجيء هنا ، لأن المحذور فيه مفقود ، من حيث إن هذه المناشير إنما تُلقي إلى المسلمين القائمين بتعظيم البسملة والمؤمنين لها حقها . وحينئذ فيكون لترك استعمالها وجه ظاهر من جهة الشرع ، بخلاف ما في المكتابات إلى ملوك الكفر .

وأعلم أن هذه الطغراوات تختلف تركيباتها باعتبار كثرة منتصباتها من الحروف وقتها ، باعتبار كثرة آباء ذلك السلطان وقتهم ، ويحتاج واضعها إلى مراعاة ذلك باعتبار قلة منتصبات الكلام وكثرتها . فإن كانت قليلة أتى بالمنتصبات كما سيأتي بيانه بقلم جليل مبسوط ، كمتصر الطومار ونحوه ، لئلا على قلتها فضاء الورق من قطع الثلثين أو النصف . وإن كانت كثيرة أتى بالمنتصبات بقلم أدق من ذلك ، بخليل الثلث ونحوه آكتفاء بكثرة المنتصبات عن بسطها .

ثم تختلف الحال في طول المنتصبات وقصرها باعتبار قطع الورق : فتكون منتصباتها في قطع النصف دون منتصباتها في قطع الثلثين .

ثم قد اصطح واضعوها على أن يعملوا لها هامشاً أبيض من كل من الجانبين بتدر إصبعين مطبوقين ، وطرة من أعلى الوصل قدر ثلاثة أصابع مطبوقة .

ثم إن كانت في قَطْع النصف جُعِلت مُتَصِبَاتُهَا مع تصوير الحروف بأسفلها
في الطول بقدر ^(١) ذراع، وفي العَرْض بقَدْر ^(١) ذراع .

وإن كانت في قطع الثلثين جُعِل طولُها مقدار ^(١) ذراع ، وعرضها
مقدار ^(١) ذراع . ثم تارة تكون مُتَصِبَاتٍ مَحْضَةً يقتصِر فيها من أسم السلطان
على ما هو مذكور من أسميه وأسم أبيه ، وتارة يجعل أسم السلطان وأسم أبيه بأعلى
المتصبات في الوَسَط بقلم الطومار قاطعاً ومقطوعاً ، بحيث يكون ما بين أعلى الأسم
وآخر أعلى المتصبات قدر أربعة أصابع أو خمسة أصابع مطبوقه . ثم إذا ألصق
الكتاب الطغرى ، كَتَب بأسفلها في بقية وصلها في الوَسَط ، بعد إخلاء قدر إبهام
بياضاً ماصورتُه : « خَلَدَ اللهُ سُلْطَانَهُ » .

وهذه صورة طغرى منشور بالقباب السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون »
مضمونها .

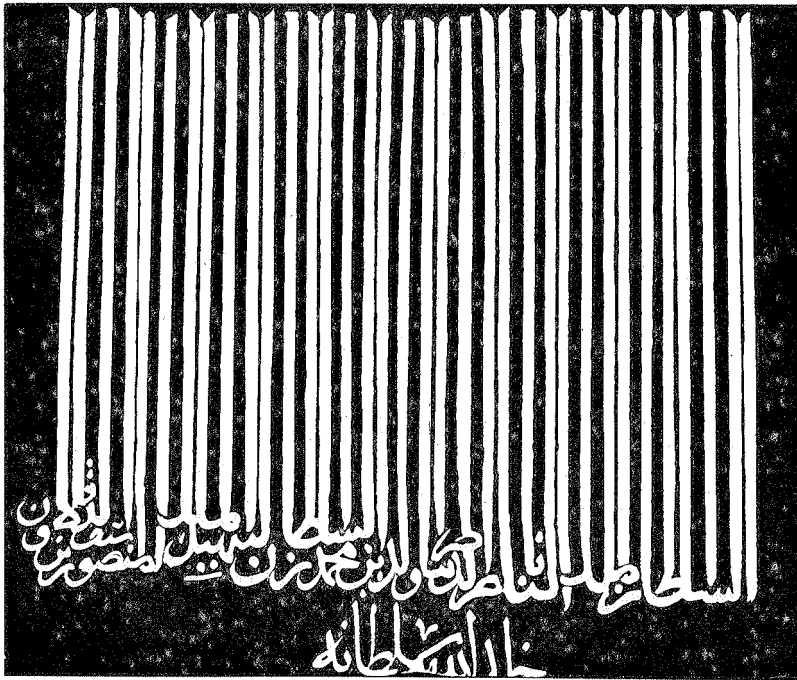
« السلطان الملك الناصر ، ناصر الدنيا والدين ، محمد ابن السلطان الشهيد الملك
المنصور ، سيف الدين قلاوون » .

وعدد متصباتها من الألف وما في معناها خمسة وثلاثون متصباً بقلم النصف ،
وهو بقدر قلم الثالث الثقيل وقدر نصفه .

وترتيب متصباتها [متصباتان] متقاربان بينهما بياض لطيف بقدر مرود دقيق ،
ثم متصبة يحفه بياضان ، كل منهما أعرض من المنتصب الأسود بيسير . وبعد
ذلك متصباتان متقاربان بينهما على ما تقدم . وكذلك إلى آخر المتصبات ، فتختتم

(١) بياض في الأصل في هذه المواضع .

بمتمصين مُزْدَجِين ، كما أفتتحت بمتمصين مُزْدَجِين ، على ما أقتضاه تحرير التّقسيم ،
وهي في طول نصف ذراع بذراع القماش القاهريّ مع زيادة نحو نصف قيراط ،
وعرض مثل ذلك . وتحتها في الوسط بقلم الثّالث الجليل بعد خوض عرض إصبع
بياضاً ما صورته : « خلد الله سلطانه » وهي هذه :



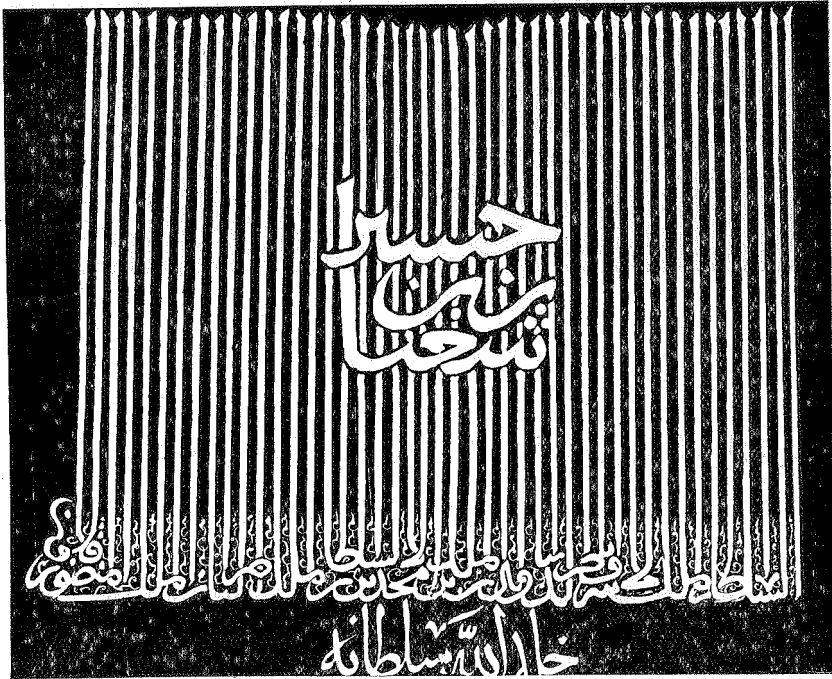
وهذه نسخة طغرئي منشور أيضاً بألقاب السلطان الملك الأشرف
شعبان بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون ، مضمونها .

« السلطان الملك الأشرف ناصر الدنيا والدين آبن الملك الأجد آبن السلطان

الملك الناصر آبن الملك المنصور قلاوون » .

وعدد منتصباتها من الألفات وما في معناها خمسة وأربعون منتصبا، بقلم جليل
الثُلث، بين كلُّ مُنتصبينِ قدرٌ منتصبٍ مرتينِ بياضاً، وطولها ثلثُ ذراعٍ وربعٌ
ذراعٍ بالذراع المقدم ذكره، وعرضها كذلك؛ وأسمُّ السلطان بأعلىها بقلم الطُّومار
بالحبر قاطع ومقطوع كما أشار إليه في التعريف .

مثاله : شعبان بن حسين - الشين والعين والباء والألف سطر، والنون
من شعبان وأبن سطر مركب فوق الشين والعين، وحسين سطر مركب فوق ذلك؛
وطول ألف شعبان تقدير سدس ذراع، وقد قطعت النون الألف وخرجت عنها
بقدر يسير، وأقول الأسم بعد المنتصب السادس عشر من المنتصبات، وآخر النون
من حسين البارزة عن ألف شعبان إلى جهة اليسار بعدها أحد عشر منتصبا من
جهة اليسار، وهي هكذا :



الجملة الخامسة

(في ذكر طرف من نسخ المناشير التي تكتب في الإقطاعات في زماننا)

قد تقدم الكلام في الجملة الثالثة على صورة ما يكتب في المناشير وما تفتح [به] وذكر ترتيبها ، واختلاف حالها باختلاف حال مراتب أصحابها صوداً وهبوطاً ، فأغنى عن ذكر إعادته هنا .

وأعلم أن الأحسن بالمناشير أن تكون مبتكرة الإنشاء ، ليراعى فيها حال المكتوب له في براعة الاستهلال وغيرها من المناسبات والمطابقات . فإن تعدد ذلك فلا أحسن أن تكون براعة الاستهلال منقولة في الأسم والكنية واللقب ونحوها ليكون ذلك أقرب إلى الغرض المطلوب . فإن تعدد ذلك فينبغي أن تكون براعة الاستهلال قاصرة على معنى الإقطاع وما ينبئ إليه من ذكر كرم السلطان ومنه وإحسانه إلى أخصائه ، وما يتخبط في دنا السلك .

ثم نسخ المناشير على ثلاثة أنواع :

النوع الأول

(ما يفتح بـ «الحمد لله» ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(مناشير أولاد الملوك)

وهذه نسخ مناشير من ذلك :

نسخة منشورية ، كتب به عن الملك المنصور قلاوون لابنه الناصر محمد في سلطنة أبيه المذكور ، من إنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهي :

الحمد لله الذي زين سماء الملك بأنور كوكب بزغ، وأعز ملك نبغ، وأشرف سلطان بلغ إلى ما بلغ ذوو الأكتحال من اختيار شرف الحلال وما بلغ .

نحمده حمداً تزيد به النعماء وتبني، وتهمل به الآلاء وتمحي، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة خالصة من كل ريب، واقصة كل عيب، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي بعثه الله تعالى بمكارم الأخلاق، ومعادة ذوى النفاق، وسأوى بين الصغير والكبير من أولى الاستحقاق، فى الإرفاد والإرفاق . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه مارق نسيم وراق، وما خُصفت أوراق .

وبعد، فإن الهوائف أين ما تشدو، إذا حفت الرياض بها من كل جانب، والسماء أحسن ما تبدو، إذا تريت بالكواكب السيارة والشهب النواقب، والسعادة أحمد ما تحدو، إذا خصصت بمن إليه، وإلا ما تشد الركائب، وعليه، وإلا ما تثنى الحقائق والحقائب، ومن هو للملك فلذة كبد، ونور مقلته وساعد يده، ومن نتمن السلطنة بملاحظة جبينه الوضى، وتستنير بالأنور المضى، ومن تغضب الدنيا لغضبه وترهى إذا رضى، ومن نشأ فى روض الملك من خير أصل زكى، وفاحت أزهاره بأعطر أريج وأطيب نثر ذكى، وطلع فى سماء السلطنة نجماً ما لليرين ماله من الإضاءة، ويزيد عليهما بحسن الوضاء، ومن تشوف النصر له من مهده، وتشوق الظفر إلى أنه يكون من جنده، وأستبشرت السلطنة بأن صار لها منه فرع باسق، وعقد متناسق، وزند وار وجناح وارف، وغفار تليد وعن طارف، وطرفان معلمان تنشر فيهما المطارف .

ولهذه المحاسن التى تشرب إلى قصدها آمال الخلائق المتجمعة - أفضى حسن البر الوصول، وشرف الإقبال والقبول، أن خرج الأمر العالى - لا برحت مر اسمه

مترينةً زينة السماء بكواكبها، ومزاجحةً سمك السماء بمنآكبها - أن يجرى في ديوان
الجناب العالى المرلوى، المللكى، الناصرى

قلت : كما أن هذا المنشور منشور سلطان فهو فى البلاغة لحسن إنشائه سلطان
المناشير .

الضرب الثانى

(من نسخ المناشير المفتحة بالحمد مناشير الأمراء مقدمى الألوف)

وهذه نسخ مناشير منها .

نسخة منشور، كتب به للأمير بدر الدين بيدرا استادار الملك المنصور قلاوون،
من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

الحمد لله الذى جعل بدر الدين تماماً على الذى أحسن، وإماماً تقندى النجوم
منه بالضياء الأبين والثور الأزين، ونظاماً يجمع من شمل الدرى ما يغدو به حماء
الأخى وجنابه الأصون .

نحمده حمد من أعلى صوته وصيته أعلن، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة تغدو وتبدو عند الذب وفى القاب مكانها الأمكن، ونشهد أن محمداً عبده
ورسوله ونبيه الذى أوهى الله به بناء الشرك وأوهن . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه
ورضى عمن آمن به وعمن أمن .

وبعد، فإن خير النعماء ما أتى به على التدريج، وأتى كما أتى الغيث بالقطر والقطر
لإنبات كل زوج بهيج، وأقبل كما تقبل الزيادة بعد الزيادة فيينا يقال : هذا خليج

يُمَدُّ الْبَحْرُ إِذْ يُقَالُ : هَذَا بَحْرٌ يَسْتَمِدُّ مِنْهُ كُلُّ خَائِجٍ ، وَبَيْنَا يُقَالُ : هَذَا الْأَمِيرُ ، إِذْ يُقَالُ : هَذَا الْمُحِيرُ ، وَبَيْنَا يُقَالُ : هَذَا الْهَالِلُ ، إِذْ يُقَالُ : هَذَا هُوَ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ بِوَضْعِ الْعُرَّةِ مِنَ الْجَيْشِ ، وَمَكَانِ الرَّاحَةِ مِنَ الْجَيْشِ ، وَهُوَ سَوَابِقُ خِدْمَةِ لَا يَزَاحِمُهُ أَحَدٌ فِي طُرُقِ طُرُوقِهَا ، وَلَا تُسْتَكْتَرَلُهُ زِيَادَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مُوجِبَاتِ حَقُوقِهَا ، وَهُوَ مِنَ التَّقْوَى بِالْمَحَلِّ الْأَسْمَى ، عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الطَّرَاقِ ، وَالْمَكَانِ الْأَحْمَى ، الَّذِي مَكَانُهُ مِنْهُ - وَإِنْ كَانَ أَمِيرَ مَجْلِسٍ - صَدْرُ الرُّوَقِ ، وَهُوَ الْكِرَامَاتُ الَّتِي تُرَى الْخُدُودُ لَهَا صُغْرٌ ، وَكَمْ سَقَتْ مِنْ سُمِّ الْعِدَاةِ دَاقَةَ الدُّعْرِ ، وَكَمْ قَابِلُ نُورِهِ نَارًا فَصَارَتْ بَرْدًا وَسَلَامًا ، وَكَمْ تَكَلَّمَ عَلَى خَاطِرٍ فَشَاهَدَ النَّاسُ مِنْهُ شَيْخًا مِنْ حَيْثُ الشَّبِيهَةِ أَجَلَ اللَّهُ قَدْرَهُ غُلَامًا ، فَهُوَ الْمَجَاهِدُ لِلْكَفَّارِ ، وَهُوَ الْمَتَمَجِّدُ فِي الْأَشْخَارِ ، وَهُوَ حَاكِمُ الْفُقَرَاءِ وَإِنْ كَانَ سُلْطَانُهُ جَعَلَهُ أَسْتَادَ الدَّارِ ، وَهُوَ صَاحِبُ الْعِصَا الَّتِي أَصْبَحَ بِمَجْلَاهَا مِضَافَةً إِلَى السَّيْفِ يَنْشَرَفُ ، وَمُعْجِزًا لَا يُسْتَكْتَرَلُهُ أَنَّهُا لِكُلِّ حَيَّةٍ تَلْقَفُ ، وَهُوَ الَّذِي تَجَدُّ الْكُشُوفُ وَالسِّيُوفُ فِتْوَحَهُ وَفَتَحَهُ ، وَالَّذِي يُسْكِرُ يَدَهُ عِنَانُ كُلِّ سَاحِجٍ وَزِمَامُ كُلِّ سُبُحَةٍ ، وَكَمْ أَسَالُ بِيَدَيْهِ مِنْ دِمَاءِ الْأَعْدَاءِ مَاءً جَرَى ، وَعَمِلَ بَيْنَ يَدَيْهِ لِلْفُقَرَاءِ مَا جَرَى ، وَكَمْ وَلَّى لِلَّهِ خَفِيَّ شَخْصُهُ فَأَظْهَرَ مَحْضَهُ فَقَالَ الْوَلِيُّ : وَمَا أَدْرَى دَرًا لَوْلَا بَيِّنَاتُهَا - أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفُ أَنْ يَجْمَلَ بِإِحْسَانِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ لَهُ عَمَلًا ، وَأَنْ يُحْسِنَ لَهُ عِلْمًا وَنَهْلًا ، وَأَنْ يَخْتَارَ لَهُ إِذَا هُوَ صَاحِبُ الْعِصَا كَمَا اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا .

وَنُجِرَ الْأَمْرُ الْعَالِي - لَا زَالَ ظَلُّهُ ظَلِيلًا ، بِإِمْتِدَادِ النَّيِّءِ بَعْدَ النَّيِّءِ ، وَعِطَاؤُهُ جَزِيلًا ، بِتَنْوِيلِ الشَّيْءِ بَعْدَ الشَّيْءِ - وَهُوَ ذُو الْكَرَمِ وَالْكَرَامَاتِ ، وَصَاحِبُ الْعِصَا بِالْأَسْتَادَارِيَّةِ وَلَا يُسْتَكْتَرَلُ لِصَاحِبِهَا سِحْرُ الْحَيَاتِ .



وهذه نسخة منشور من ذلك لمن لقبه سيف الدين، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، وهي :

الحمد لله الذي جرد في دولتنا القاهرة سيفاً ماضياً ، ووفق من جعل فعله
لمزيد النعم متقاضياً ، وأسعد بإقبالنا الشريف من أصبح به سلطاناً مرضياً
وعيشه راضياً .

نحمده على نعمه التي تسرُّ موالياً وتسوءُ معادياً، وتقدم من أوليائنا من يقوم مقامنا
إذا سمع منادياً ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة كم أروت
في موارد الوريد من الرماح صادياً ، وأورت هادياً ، ورفعت من أعيان الأعلام
هادياً، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أنزل القرآن بصفاته حالياً، وأحلنا ببركة
المشاركة في اسمه المحمدي مكاناً عالياً. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يبرح
كل لسان لها تالياً، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن صدقاتنا الشريفة لم تزل تُجدد إنعاماً، وتزيد إكراماً، ونضاعف
لكل من أضحى ناصرنا بحقيقة ولائه إجلالاً وإعظاماً ليترقى إلى أعلى الدرج ، ويعلم
أنه قد ورد البحر فيحدث عن كرمه ولا حرج ؛ ومن رأى التقرب إلى الله تعالى
بمراضينا الشريفة فتقرب إليها ؛ وأقبل بقلبٍ مُخلصٍ عليها ؛ وأشبه البدور في مواقفه
توسماً ، وحكى السيف بارق ثغره لما أومض في حومة الحرب متقسماً ، وأقدم حين
لم يجد بداً أن يكون مقدماً ، ووصفت الطعنات التي أطلعت أسننتها الكواكب بها
دريته ، والحمالات التي تقتر العدا لفعلاتها أنها بهادريه ؛ كم له من محاسن ، وكم عرفت
له من مكامن ؛ وكم له من صفات كالعقود يصدق بها من قال : الرجال معادن ؛

كم له من همة تترقى به إلى المعالي ، كم له من عزيمة يروى حديثها المسند عن العوالى ؛
 كم به أمور تتساقط ، وكم جمهور يحاط به ، كم له من احتفاء واحتفال ، وكم له من
 قبول وإقبال ، وكم له من وثبات وثبات ، وكم له من صفات وصفات ، وكم له
 إماتة حجة ؛ كم له من مناقب تُصبح وتُسمى ، وكم له من معارف لما علم بها مملكه
 - خلد الله ملكه - قال الملك : آتوني به أستخلصه لنفسي .

فلذلك لا تزال آراؤنا العالية تعقد له في كل وقت رايه ، وتسعى به إلى أبعد غايه ،
 وتنبع له عنايه بعد عنايه ، حتى لا تخلو دولتنا الشريفة من سيف مشهور ، وعلم
 منشور ، وبطل لا يرد عن الصميم تصميم ، ولا تعدأ كبار الأمراء إلا ويكون على
 العساكر مقدما وعلى الجيوش زعيما : ليعلم كل مأمور وأمير ، وكل ثمائل ونظير ،
 أن حسن نظرنا الشريف يضاعف لمن تقرب إلينا بالطاعة إحسانا ، ويوجب على
 من وجد المنشور بهذا المنشور امتنانا : ﴿ لَيْسَتَيْنِ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَيَزِدُّوا الَّذِينَ
 آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ .

ولما كان فلان هو المعنى بهذه المتناصد ، والخصوص بهذه المادح والمحامد ،
 والواحد الذي ما قدم على الألف إلا وكالألف ذلك الواحد .

فلذلك نرحب الأمر الشريف - لا زالت أيامه موصولة الخلود ، موسومة بمزايا
 الخلود - أن يجرى في إقطاعه



وهذه نسخة منشور من ذلك لمن لقبه «شمس الدين» كتب به في الدولة الناصرية

«محمد بن قلاوون» وهي :

الحمد لله الذي جعل دولتنا القاهرة . مَطَّلَعَ كُلَّ قَمَرٍ مُنِيرٍ ، وجمعَ كُلِّ مَأْمُورٍ
وأَمِيرٍ ، وموقعَ كُلِّ سَحَابٍ يَظْهَرُ بِهِ البرقُ في وجهِ السَّحَابِ المَطِيرِ ؛ الذي شَرَّفَ بنا
الأقْدَارَ ، وزادَ الأَقْتِدَارَ ، وجعلَ مَمَالِكَنَا الشريفةَ سَمَاءً تُشْرِقُ فِيهَا الشُّمُوسُ
والأَقْفَارُ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي تَخْتَالُ أَوْلِيَاؤُنَا بِهَا فِي مَلَابِسِهَا ، وَتَخْتَصُّ بِنَفَائِسِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً نَجْرُدُ سَيْفَ الدِّينِ لِإِقَامَتِهَا ، وَنُحَافِظُ بِوَقَائِعِهِ
فِي الحَرْبِ عَلَى إِدَامَتِهَا ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدَ عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ الَّذِي خَصَّهُ بِمِزْيَةِ التَّقْرِيبِ ،
وَشَرَفَهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِالْمَكَانِ القَرِيبِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ الَّذِينَ عَظَّمَهُمْ بِقُرْبِهِ ،
وَكَرَّمَهُمْ بِحُبِّهِ ، وَقَدَّمَهُمْ فِي السَّلَفِ الصَّالِحِ إِذَا جَاءَ كُلُّ مَلِكٍ بِأَتْبَاعِهِ وَكُلُّ مَلِكٍ
بِصَحْبِهِ ، وَسَلَمَ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى الْأَوْلِيَاءِ أَنْ تَشْمَلَهُ صِدْقَاتُنَا الشَّرِيفَةُ بِحَسَنِ نَظَرِنَا الشَّرِيفِ ،
وَبِرَفْعَةِ قَدْرِهِ المُنِيفِ ؛ لِيَتِمَّ لَهُ إِحْسَانُهَا ، وَيَزِيدَ إِمكَانُهَا ؛ حَتَّى يَنْتَقِلَ هَلَالُهُ إِلَى أَكْمَلِ
مَرَاتِبِ البُدُورِ ، وَيَتَمَدَّدَ بِحُصْنِهِ المَسْتِظَلُّ بِهَ كَثِيرٌ مِنَ الجُهورِ ؛ وَيَتَقَدَّمَ فِي أَيَّامِنَا
الشَّرِيفَةِ إِلَى الغَايَةِ الَّتِي يَرْجُوهَا ، وَيَقْدَمُ قَدَمَهُ إِلَى مَكَانَةِ أَمْثَالِهِ الَّتِي حَلَّوْهَا ، وَنَتَكَلَّمُ
بِنَا نِعْمَةَ اللَّهِ : ﴿ وَإِنْ تُعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لِأَنحُصُّوْهَا ﴾ - النَّاصِرِيُّ بِحَقِيقَةِ وِلَايَتِهِ ، البَهَادِرِيُّ
شِجَاعَةً فِي لِقَائِهِ ؛ مَنْ تَكَفَّلَتْ صِدْقَاتُنَا العَمِيمَةُ لَهُ بِمَا لَمْ يَكُنْ فِي أَمَلِهِ ، وَجَحَّتْ
حَايَتُنَا الشَّرِيفَةُ بِعَاطِفِهِ بِأَبْهَى مَا يَأْسِجُهُ الرِّبِيعُ مِنْ حُلَلِهِ ، وَتَوَسَّمتْنَا فِيهِ مِنْ مَعْرِفَةِ
تَقَرُّبِ إِلَى مَرَاضِينَا الشَّرِيفَةِ بِهَا دَرِيًّا ، وَهَمَّةٍ جَرَدْنَا بِهَا مِنْهُ سَيْفًا بِهَا دَرِيًّا ، وَطَلَعَةَ
أَطْلَعَتْ مِنْهُ بِالْبَهَاءِ كَوَجْأَ دَرِيًّا ؛ مَعَ مَا تَحْوَلُ فِيهِ مِنْ نِعْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ ، وَقَامَ بِهِ فِي أَبْوَابِنَا
العَالِيَةِ مِنْ أَحْسَنِ القِيَامِ فِي كُلِّ وَظِيفَةٍ .

ولما كان فلان هو الذي أشرنا إليه، ونهنا مقلّ النجوم عليه . فاقنصت آراؤنا الشريفة أن نبلغه أقصى رتب السعاده ، ونعجل له بحظّ الذين أحسنوا الحسنى وزيادته ؛ ليعدّ في أكابر أمراء دولتنا الشريفة إذا ذكروا، والمقدّمين على جيوشنا المنصورة إذا بادروا إلى مهمّ شريف أو ابتدروا ؛ ليعلم كلُّ أحد كيف يجازى كلُّ شكور، وكيف يتحلّى بنعمنا الشريفة كلِّ سيف مشهور ، وكيف نذكر واحدا منهم فيغدو في زعماء المساكر المؤيّدة وهو مذكور ؛ ليسدلّوا في خدمة أبواننا الشريفة جهدهم ، ويتوكلّوا على الله تعالى ثم على صدقاتنا العميمة التي تحقّق قصدهم .

فلذلك نرح الأمر الشريف



وهذه نسخة منشور من ذلك ، كتبت به في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» لمن لقبه «بدر الدين» وهي :

الحمد لله الذي زين أفق هذه الدولة القاهرة بسدرها ، وسيره في درج أوجها ونصرها ، ونقله في بروج إشراقها ومنازل نقرها .

نحمده على نعمه المنهلة ببرها ، المتهدلة ببشرها ، المتريّدة كلبا زدنا في حمدها وشكرها ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تنطق بها القلوب في سرّها وجهرها ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث إلى الأمم بأسرها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تملأ الوجود بأجرها ، وتضمن لأمتها النجاة يوم حشرها .

وبعد ، فإن أولى من تعمت النعمى بتواليها عليه ومرّها ، وخير من استقرت الخيرات عنده في مستقرّها ، وأعلى من عمّته الأقاليم ببدايع نظمها ونثرها ،

وخصصته بمحمد تتأرجح المناشير بنشرها - من كان للدولة القاهرة يشرح صدرها ،
بتيسير أمرها ، ويُسَدُّ أزرها ، بحَمَلِ وزرِها ، ويتكفَّل بأداء فرائض إتمامها
ونصرها ، ويوصل حَمَل ما يفتحه من الحصون الضيقة إلى مصرها .

ولما كان فلان هو بدر هذه السماء ومُنِير زهرِها ، ونير نجوم هذه المقاصد ومُبْتَدَأ
نجرها ، وفريدة عقد هذه الفلائد ويلمعة دُرِّها ، وصاحب هذه الأنغاز ومفتاح
سِرِّها - آقتضت الآراء الشريفة أن تُرَفَّ إليه عرائس العوارف ، ما بين عوانها
وبكرها ، وترَفَّ عليه نفائس اللطائف ، ما بين شفعتها ووترها ، وتهادى إليه الهدايا
ما بين صفرها ومحرها ، وتتوالى عليه الآلاء ما بين ثمرها وزهرها ، وأن تزداد عدته
المباركة في كميتها وقدرها ، وأن تكمل عشرينه التسع بعشرها ، ليعلم أنه لا يبرح
في خلدتها وسرِّها ، وأنها لا تُخلِّيه ساعة من سعيد فركها .

فذلك خرج الأمر العالى - لا زالت الأقدار تحض دولته القاهرة بإطابة ذكرها ،
وإطالة عمرها ، ولا برح الأمل كفضيلة بنصرها ، بمضاء يبضها وإعمال سمرها -
أن يجرى



وهذه نسخة منشور من ذلك كُتِبَ به في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
لمن لقبه «صلاح الدين» وهى :

الحمد لله الذى أتحف الممالك الشريفة من سعيد تديرنا ، بصلاحها ، وصرف
حميد تأميرنا ، بإنجاب الأولياء وإنجاحها ، وأسعف طرائح أمانتهم : من اقتربهم من
خواطرنا الشريفة فى بئدهم وتدانيمهم باجابة سُؤالنا وإصابة اقتراحها .

نحمده على أن جعل نصر دواتنا الثمينة قريبا من نصاحها ، ونشكره على أن
وصل أراجيحهم بإزباحها ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تُحسِن

المآل والعاقبة لذوي الإخلاص كما أحسنت في ابتدائها وافتتاحها، ويؤذن لحسن
اعتنائها لأحوال أولى الأختصاص بإصلاحها، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله
الذي عمّت مواهبه، بإبراق سماءها وإغداق سماءها، وسمت مناقبه، بأثلاق غررها
وإشراق أوضاعها، وأمّت مواكبها، ديار العدا فشدت عليهم شهور قراعها ومنصور
كفاحها . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أصابت أكتفهم في السلم بمسغفات
أقلامها وصالت أيديهم في الحرب بمهفات رماحها، ماجرت الأقدار بمتاحها،
وسرت المبارز بمتاحها، وظهرت أنار الإقبال التام على من له بخدمة أهتمام واحتفال
فلاح على مقاصده معهود فلاحها . وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد، فإن أولى من لمحّ نظرنا الشريف حيث كان، ورجحه فكرنا الحسن
الجميل فمنحه الإجمال والإحسان، من لم يزل شكره أرجا بكل مكان، وذكره بهجاً
تسرى به الركائب وتسير به الرجان، وصدّره الرحيب مستودع الأسرار فلا تُصاب
إذ كانت فيه نصاب، وقدره عندنا المحفوظ المكانية، فإن بعد فهو قريب دان، وأمره
منا المحفوظ بالإعانة، فلا تزال نولية البر ونعلى له الشان .

ولما كان فلان



وهذه نسخة منشور، كتب به للأب سعيد الدين مسعود بن الخطيرى، من إنشاء
الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء، وهو :

الحمد لله على نعمه التي زادت سعودا، وضاعفت صعودا، وكرّمت في أيامنا من
لا حاجب له عن أن تمنحه من إندامنا مزيدا، وقدمت بين أيدينا الشريفة من
أولياتنا من غدا قدره عندنا خطيرا وحظه لدينا مسعودا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ أُنْجِزَ لِأَصْفِيَانَا مِنْ وَفَائِنَا وَعُودَا، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَحْمَدُ لِمُخْلِصِهَا صُدُورًا وَوُرُودًا، وَتَلْقَى مُؤْمِنَهَا بِالْبِشْرِ إِذَا جَمَعَ الْمَوْقِفُ وَوُودَا، وَنَشْهَدُ أَنَّ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي شَرَّفَ بِإِنْجَادِهِ مَطْرُودًا، وَأَرْدَفَ بِالْمَلَائِكَةِ جُنُودًا، وَأَوْصَلَ بِهِ حُقُوقًا وَأَقَامَ حُدُودًا، وَحَجَّبَ بِبَرَكَاتِهِ الْفِتَاكَةَ الْأَسْوَاءَ فَغَدَا الْعَدْلُ مَوْجُودًا، وَأُصْحَى الْحُكْمُ مَقْصُودًا . صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا وَعَلَى الْمَشْرِكِينَ شَدِيدًا .

أَمَا بَعْدُ ، فَنِعْمَنَا إِذَا أَوْلَتْ وَلِيًّا ، مَنَحَهَا وَالَّتْ ، وَإِذَا قَدَمَتْ صَفِيًّا ، وَهَبَتْهُ مَنَزِيدَهَا وَأَنَالَتْ ، وَإِذَا أَقْبَلَتْ بَوَجْهِ إِقْبَالِهَا عَلَى مُخْلِصٍ تَتَابَعَتْ إِلَيْهِ الْمَسَرَّاتِ وَأَنْتَالَتْ ، لَا سِيَّيَا مِنْ أَطَابِتِ الْأَلْسِنَةِ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ وَأَطَالَتْ ، وَجُبِلَتْ سَجَايَاهُ عَلَى الْعَدْلِ وَالْمَعْرِفَةِ فَمَا حَافَتْ وَلَا مَالَتْ ، وَأَوْصَلَتْ رَأْفَتَهُ مِنَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ وَعَلَى الْمَجْرُمِينَ سَطْوَتُهُ صَالَتْ ؛ فَيَسْمُنُ مَقَاصِدَهُ هَائِتِ الْخَطُوبُ وَإِنْ كَانَتْ فِتْنَاكَتُهُ فِي الْحُرُوبِ كَمْ هَائِتْ ، وَهَمْمُهُ فِي السَّلَامِ قَدْ جَلَّتْ وَيَوْمَ الرَّوْعِ كَمْ جَالَتْ ، وَعِزَائِمُهُ كَمْ غَارَتْ فَأَغَارَتْ وَلِلْعَتِيدِينَ كَمْ غَالَتْ ، وَكَمْ سَبَقَ إِلَى خِدْمَتِنَا صَاحِبُ الشَّمْسِ وَكَيْفَ لَا وَهُوَ الْبَدْرُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزُلْ وَإِنْ هِيَ زَالَتْ .

وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي نَقَلْنَاهُ فِي دَرَجَاتِ التَّقْدِيمِ حَتَّى كَمَلَ بَدْرُهُ ، وَوَقَلْنَاهُ فِي مَرَاتِبِ التَّكْرِيمِ حَتَّى أَصْبَحَ وَهُوَ الْمَسْمُودُ حِظَّهُ الْمَحْمُودُ ذِكْرُهُ ، وَخَوَّلْنَاهُ مَوَاهِبَ جُودِنَا الْعَمِيمَةِ فَاسْتَدَّ بَاعَهُ وَأَشْتَدَّ أَرْزُهُ .

فَلِذَلِكَ نَحْرَجُ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ - لَا بَرَحَ إِنْعَامُهُ يَجِلُّ عَنِ الْحَضَرِ ، وَدَوْلَتُهُ يَخْدُمُهَا الْعِزُّ وَالنَّصْرُ ، وَإِكْرَامُهُ يَقْضِي بِمَسَرَّاتِ الْأَوْلِيَاءِ بِالْجَمْعِ وَيُقْضَى إِلَى أَعْمَارِ الْأَعْدَاءِ بِالْقَضْرِ -



وهذه نسخة منشور، كُتِبَ به لعلاء الدين إيدغمش أمير اخور الناصري [كُتِبَ به في الدولة الناصرية] محمد بن قلاوون، من إنشاء الشريف، وهو :

الحمد لله الذي زادَ علاءَ دَوْلَتِنَا الشَّرِيفَةَ ، وَأَفَادَ النِّعْمَاءَ النَّامَّةَ مِنْ قَامَ بَيْنَ أَيْدِينَا أُمَّتِمْ قِيَامٍ فِي أُمَّتِمْ وَظِيْفِهِ ، وَأَجَادَ الْآلَاءَ الْمُتَوَالِيَةَ بِمَنْ أَعْنَةُ الْجِيَادِ بِإِشَارَتِهِ مُصْرَفَةً وَمِنَّةَ الْجُودِ بِسِفَارَتِهِ مَصْرُوفَهُ ، وَأَرَادَ الْأَصْطَفَاءَ لِأَعَزِّ هُمَامٍ : فِي قُلُوبِ الْأَوْلِيَاءِ لَهُ مَحَبَّةٌ وَفِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ مِنْهُ خِيْفَةٌ ، وَأَبَادَ أَوْلِيَ الْعِيَادِ بِفَتَكَاتِهِ الَّتِي بَهَا الْغَوَائِلُ مَكْفِيَةٌ وَالطَّوَائِلُ مَكْفُوفَةٌ ، وَشَادَ الْمُلُوكَ الْأَعَزَّ بِإِرْفَادِ وَلِيِّ لَهُ الشُّجَاعَةَ الْمَشْكُورَةَ وَالطَّاعَةَ الْمَعْرُوفَةَ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ جَعَلَ آخْتِيَارَاتِنَا بِالتَّسْهِيدِ مَحْفُوظَةً وَبِالتَّأْيِيدِ مَحْفُوفَةً ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً السَّرَائِرِ لِإِخْلَاصِهَا الْوَفْسَهُ ، وَالضَّمَائِرِ عَلَى آخْتِصَاصِهَا مَعْظُوفَهُ ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي نَسَلَهُ مِنَ النَّبَعَةِ الْمُنِيْفَةِ ، وَأَرْسَلَهُ بِالشَّرْعَةِ الْحَنِيفَةِ ، وَفَضَّلَهُ بِالرَّفْعَةِ عَلَى ظَهْرِ الْبُرَاقِ إِلَى السَّمْعِ الطَّبَاقِ وَجُنُودِ الْأَمْلَاقِ بِهِ مُطِيفَهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ ذَوِي الْهَمَمِ الْعَالِيَةِ وَالشِّيمِ الْعَفِيفَةِ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدٌ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مَدَّةَ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ ، صَلَاةً تَبِيضُ بِالْأَجُورِ الصَّحِيفَةَ ، وَتَعَوِّضُ بِالْوُفُورِ مِنْ مَبْرَاتِنَا الْجَلِيلَةِ بِفِكْرَتِنَا الْجَمِيلَةِ اللَّطِيفَةِ ، وَسَلَامٌ تَسْلِيماً كَثِيراً .

أَمَا بَعْدُ ، فَكُرْمِنَا يُسْبِغُ الْمَوَاهِبَ وَالْمَنَاجِحَ ، وَنِعْمِنَا تُبَلِّغُ الْمَأْرِبَ وَالْمَنَاجِحَ ؛ فَلَا نَبْرَحُ نَنْقُلُ فِي دَرَجَاتِ الصُّعُودِ مَنْ هُوَ فِي خِدْمَتِنَا لِإِيْرَاحِ ، وَتِيكْتَفُلُ صَالِحُ نَظَرِنَا الشَّرِيفِ صَلَاحَ حَالٍ مَنْ أَجْمَلَ النَّصَائِحَ وَأَنْثَلَ الْمَصَالِحَ ؛ فَكَمْ رَاضٍ لَنَا مِنْ جَائِحِ ، وَخَاضَ بَحْرَ الْوَعْيَى عَلَى ظَهْرِ سَائِحِ ، وَحَمَى رُوقَ الْإِسْلَامِ مِنْ رُعْبِهِ بِذَبِّ وَرَمَى

أعناق الكفار من غضبه بذابح ، وأصمى المقاتل بكل نابل يستجن في الجوانح ،
 وأنتهى إلى سعادة سلطاننا الناصر الفاتح ، وسمّا عزّم إعلانه بتقريبه وإدناؤه إلى
 السماك الرامح . طامك مس الكفار الضر إذ مساهم بالعاديات الضوايح ، وأحس كل
 منهم بالدمار لما ظن أنه لخر به يكابد ولخر به يكافح ، وصبحهم بإغارته على الموريات
 قدحاً فأغرى بهم الخطوب الفوادح ، وطرحهم بالفتكات إلى الهلكات فصاحت
 [رقأهم] رقب الصفايح ، وأخلى من أهل الشرك المسارب والمسارح ، وأجلى أهل
 الإفك عن المطارد والمطارح .

ولما كان فلان هو الذى استثار إليه شأن هذه المدائح ، وسار بذكره وشكره كل
 غادٍ ورائح .

خرج الأمر الشريف - لا بريح سبيل هداه الواضع ، وجزيل نداءه يندو كالغواذى
 بالعائيد والبادى من فضله وهو الناصح ،



وهذه نسخة منشورة ، كتبت به للأمر شمس الدين سننقر البكتوتى الشهرير
 بالمساح ، وهى :

الحمد لله الذى أجزل المواهب ، وجدد من النعم ما لا تزال الألسنة تتحدث
 عن بحرها بالعجاب ، وأطلع فى أفق الدولة الشريفة شمساً تستمد من أنوارها
 الكواكب .

نحمده على نعم يتوالى درها توالى السحاب ، ويغالى درها عن أن تطوق به الأذنان
 والترائب ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تختص قائلها من

(١) المراد بالتطويق هنا مطلق التحلية وكان الأولى «أن تقرط به الأذنان وتطوق به الأعناق وتحلى به الترائب» .

درجات القبول والإقبال بأسمى الدرجات وأسنى المراتب ؛ ونشهد أن محمداً عبده
ورسوله الذي أصطفاه من لؤى بن غالب ، وصان ببعثته الشريفة رداء النسك
عن كل جاذب ، وخصه بأشرف المواهب ، وصير الإيمان بنور هدايته واضح
السبل والمداهب . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يمضي جزء من الدهر
إلا ووجودها فيه وجود الفرض الراتب ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن أحق من حلى من النعماء بأفضل العقود ، وخص بأضنى ملايس
الإقبال وأضنى مناهل الإفضال : فاستعدب من هذه الورود ، واختال من هذه
في أجمل البرود ، ومنح من الإقبال بكل غادية تحجل السحاب إذ يجود ، وإن
رقت بها الأفلام سطورا في طروس أزرت بالزهر اليانع والروض المجود ، ونقل
قدره من منزل عز إلى منزل أعز فكان كالشمس تنقل في منازل الشرف والسعود -
من ظهرت مكارم سماته ، وأشتهرت محاسن صفاته ، وطلعت في سماء العجاج نجوم
خرصانه ولمعت في دجى النقع بروق طبائنه ، وقدم على الجيوش والجحافل فظهرت
نتائج التأييد والتسديد من تقدمه وتقدماته ، وهزم جيوش الأعداء ، في مواقف
الهيحاء ، ببات أقدامه في إقدامه ووثباته ، وتجرد في المهمات والملمات تجرد
الماضيين : من سيوفه وعزماته .

ولما كان فلان هو الموصوف بهذه الأوصاف الجميلة ، والمنعوت بهذه المحاسن
الجميلة ، والمشار إليه بهذه المحامد والمآدح التي ترهق على زهر الكواكب ، وتسمو
بماله من جميل المآثر والمناقب - أوجب له الاختيار المزيد ، وقضى له الأمتنان
بتحويله نعماً وتنويله منناً : تُضحى هذه عقداً في كل جيد ، وتسمى هذه مقربة له من

الآمال كل بعيد — وأقتضى حسن الرأي الشريف أن يمنح بهذا المنشور : ليخص
من الأولياء بالسعد الجديد والحد السعيد .
فلذلك نخرج الأمر الشريف



وهذه نسخة منشور، كتب به للأمر خاص ترك في الروك الناصري، وهي :
الحمد لله على نعمه التي سرت إلى الأولياء ركايتها ، وهمت على رياض الأصفياء
سحائبها ، وتوالت إلى من أخلص في الطاعة بغرائب الاحسان رغائبها ، وتكفلت لمن
خص بأسنى رتب البر الحسان مكارمها العميمة ومواهبها ، وغمرت بحار كرمها الزاهرة
من يحدث عن شجاعته ولا حرج كما يحدث عن البحور التي لا تقى عجائبها .

نحمده على نعمه التي إذا أغبتنا سحاب الندى أعقت سحاب ، وخصت الخواص
من درج الأمتان بمراتب تراجمها الكواكب على نهر المحرّة بالنسك ، ونشهد أن
لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا يزال الجهاد يرفع ألويتها ، والجلاد يعمر
بوفود الإخلاص أنديتها ، والإيمان يُشيد في الآفاق أركانها الموطدة وأبنتها ، ونشهد
أن محمدا عبده ورسوله الذي أيده الله بنصره ، وخصه بمزية التقدم على الأنبياء مع
تأخر عصره ، وآتاه من المعجزات ما تكفل السنة الأعلام عن إحصائه وحصره .
صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين حاطوا دينه بالمحافظة على جهاد أعدائه ، وأيدوا
ملته بإعادة حكم الجلاد في سبيل الله وإبدائه ، صلاة لا يزال الإيمان يُقيم فرضها ،
والإيقان يملأ بها طول البسيطة وعرضها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أولى من ضوعفت له النعم ، ووطدت له الرتب التي لا تُدرَك غاياتها
إلا بسوابق الخدم ، وأشرقَت به مطالع السعود ، وحُققت له مطالب الاعتلاء

والصعود؛ ورفَعته مواقع الإحسان إلى أسنى المراتب التي هو مَلِيٌّ بارتقائها، وتولّت له هَوَامِعُ البرِّ والامْتِنانِ آنتقاءَ فرائدِ النِّعمِ التي هو حَقِيقٌ باختيارها وآنْتقائها؛ وبلَغته العِنايةُ بأجلِّ مما مَضَى قَدْرًا، وآسْتقبَلته الرعايَةُ من أُنْفُقِ الإقبالِ بما إذا حَقَّقَ التأمُّلُ وَجِدَ هِلاَلَهُ بَدْرًا - مَنْ رُبِّيَ فِي ظِلِّ خِدْمَتِنَا الَّتِي هِيَ مَنَشَأُ الْآسَادِ، وَمَرْبَى فُرْسَانَ الْجِهَادِ، وَغَرِينُ لِيُوثِ الْوَعْيِ الَّتِي آجَامُهَا عَوَالِي الصَّعَادِ؛ وَبَرَانِهَا مَوَاضِي السُّيُوفِ الْحِدَادِ، وَفِرَائِسُهَا نُجُجَةُ أَهْلِ الْكُفْرِ وَحِمَاةُ أَرْبَابِ الْعِنَادِ؛ فَكَمَ لَهُ فِي الْجِهَادِ مِنْ مَوَاقِفٍ أَعَزَّتِ الدِّينَ، وَأَدَلَّتِ الْمُعْتَدِينَ؛ وَزَلَزَتِ أَقْدَامَ الْأَبْطَالِ، وَزَحْرَحَتِ ذَوِي الإِقْدَامِ عَنِ مَوَاقِفِ الْمَجَالِ؛ وَحَكَّمَتِ صَفَاتِهِ فِي الْقِمَمِ، وَأَنْبَتَتْ صِفَاحَهُ فِي مَنَابِتِ الْحِمَمِ؛ وَفَرَّقَتْ مَا لِأَهْلِ الْكُفْرِ مِنْ صُفُوفٍ، وَأَرْتَمَتْ كَيْفَ تُعَدُّ أُلُوفُ الرِّجَالِ بِالْأَحَادِ وَآحَادُهَا بِالْأُلُوفِ .

ولما كان فلان هو الذي أُشِيرَ إِلَى مَنَاقِبِهِ، وَنَبَّهَ عَلَى شَهْرَةِ إِقْدَامِهِ فِي كُلِّ مَوْقِفٍ يُمِنُّ عَوَاقِبِهِ، وَأَوْمِيَّ إِلَى خِصَائِصِ أَوْصَافِهِ الَّتِي مَا زَالَ النِّصْرُ يَلْحَظُهَا فِي مَشَاهِدِ الْجِهَادِ بَعِيْنٍ مُلَاحِظِهِ وَمُرَاقِبِهِ - أَقْتَضَتْ آرَؤُنَا الشَّرِيفَةَ أَنْ تُجَدِّدَ أَعْتِلَاءَ مَجْدِهِ، وَتَزِيدَ فِي أُنْفُقِ الْآرْتِقَاءِ إِضَاءَةَ إِقْبَالِهِ وَإِنَارَةَ سَعْدِهِ .

فلذلك نرحب الأمر الشريف لا زال :



وهذه نسخة منشور كُتِبَ بِهِ فِي الدَّوْلَةِ النَّاصِرِيَّةِ مُحَمَّدُ بْنُ قَلَاوُونَ لِجَمَالِ الدِّينِ أَفُوشِ الْأَشْرَفِيِّ، الْمَعْرُوفِ بِنَائِبِ الْكَرْكِ عِنْدَ خُرُوجِهِ مِنَ الْجُبِّ، وَهِيَ :

الحمد لله مفرح القلوب، ومفرح الكروب، ومبهرج النفوس بذهاب غيآهيب الخطوب، ومبلغ من تقادم عهده في حفظ ولائنا نهاية المرغوب، وغاية المطلوب؛ الذى أعاد إلى الخالصين في طاعتنا النعمة بعد شرودها، وعوضهم عن تقطيب الأيام بائسائها وعن تحمولها بسعودها، وألقى على الأول منهم جمالا لا يسع الأذهان أن نتصيف بإنكار حقوقه وبجحودها .

نحمده على ما وهبنا من الأناة والحلم، وخصص به دولتنا من المهابة التي تُخشى يوم الحرب والمواهب التي تُرجى يوم السلم؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تكفلت بالنجاة لقلبنا، وأغنت من حافظ عليها عن ضراعات النفوس ووسائلها؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله المبعوث برعاية الذمم، والمنعوت بحسن الرأفة التي هي شعار أهل الوفاء والكرم، [صلى الله عليه] وعلى آله وصحبه ما تلافت الأقدار نفوسا من العدم، وتوافقت الأمانى والمناسخ فأظفرت من أخاص نيتته الجميلة برد ضلالة النعم، صلاة تُضفي على الأولياء حُلل القبول والرضا، وتضفي من الأكدار مناهل سُرورهم فكان الخطب أبردق وأومض فضي، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من انتظمت بعد الشتات عقود مساره، وأبتسمت بعد القُطوب تُغور مباره، وأشتمت عواطفنا عليه بجلبت أسباب منافعه وسلبت جلباب مضايره، وأحتفلت عوارفنا بالملاحظة لعهد الوثيق العرا، والمحافظة على سالف خدمته التي ما كان صدق ولائها حديثا يُفترى؛ وسبق له من الاختصاص في الإخلاص ما يرفع من خاطرنا مكانة عالية الذرا - من أضحى من السابقين الأولين في الطاعة، والباذلين في أداء الخدمة والنصيحة لدولتنا جُهد الأسطاعة، والمالكين للمالِك بحسن الخلة وجميل الأعتام؛ والمحافظين على تشييد قواعد الملك

بآرائه وراياته التي لا تُسامى ولا تُسام ، وأمسى هو الولي الذي لا يُشاركه أحد
 في إخلاص الضمير في موالاتنا وصفاء النيّة ، ولا يُساهمه وليّ فيما أشتمل عليه من
 صدق التعبد وجميل الطويّة ، والخُلص الذي انفرد بخصائص الحقوق السابقة
 والآتية ، وأمتاز بموجبات خديم لا يُجحد محافظتها التالدة والطارفة ، وطلعت شمس
 سعادته في سماء مملكتنا فلم يُسبها الغروب ، وأضاء بدره في أفق عزّه فكان سراره
 مذهباً لأعين الخطوب .

ولما كان فلان

الضرب الثالث — مما يفتح بالحمد مناشيرُ أمراء الطبليخانا .

وقد تقدّم أنّها كناشير مقدّمة الألوّف في الترتيب إلا أنّها أخصّر منها .

وهذه نسخ مناشير من ذلك :

نسخة منشور كُتب به لبعض الأمراء ، وهي :

الحمد لله رافع الأقدار، ومُجزل المبار، وجاعل يمين كرمنا مبسوطةً باليسار .

نحمده على غير فضله الدار؛ ونشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
 سرت الأسرار ، وأذهب نورها ما كان للشرك من سرار ؛ ونشهد أنّ محمدا عبده
 ورسوله الذي أنجد له في نصر الحق وأغار ، وأرهف من سيف النصر الفرار .
 صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من كان ثاني اثنين في الغار ، ومنهم من
 سبق له دعوة سيد المرسلين من سالف الأقدار ، ومنهم من كرم الله وجهه فكان له
 من أعظم الانتصار .

وبعد، فإنَّ العطايا أيسرُ ما يكونُ تنوُّيلُها، وأسرُّ ما يُلْفَى تحوُّيلُها، إذا وَجَدَتْ مَنْ هو لرايتها متلقِّيا، وفي ذرِّ الطاعة مترقِّيا، ومنَّ إذا صدحتُ حمائمُ التأييدِ كانتِ رماحُه الأغصانَ، وألويتهُ الأفنانَ، ومنَّ تردى ثيابَ الموتِ حُرما فما يأتي لها الليلُ إلا وهى بالشهادةِ مُحضَّرةٌ من سُندسِ الجنانِ، وإذا شهِرَ عَضْبُه، أرضى رَبُّه، وإذا هزَّ رُجْحُه، حمى سرحه؛ وإذا أطلقَ سَهْمُه، قتلَ شَهْمُه؛ وإذا جردَ حُسَامُه، كان حَسَامُه؛ وإذا سافرتُ عزائمُه لتَطْلُبَ نصرا، حلتْ سُيوفُه بقاءتْ بالأوجالِ جمعا وبالآجالِ قَصْرا .

ولما كان فلانٌ هو الذى جمع هذه المناقبَ الجمَّةَ، وأمتاز بالصَّرامةِ وعُلُوِّ الهِمَّةِ، استَحَقَّ أن يُنظرَ إليه بعينِ العِنايةِ، وأن يُجْعَلَ آبتدأؤُه فى الإِمرَة دالًّا على أَسْعَدِ نِهايِه .

فذلك خرج الأمرُ الشريْفُ - لا زال يرفعُ الأقدارَ، ويُجزِلُ المَبازَ، أن يجرى فى إقطاعِ



وهذه نسخة منشور لمن لقبه زين الدين، وهى :

الحمدُ لله الذى وهبَ هذه الدولةَ من أوليائها أحسنَ زينَ، ومنحها منهم من يشكرُ السيفَ والعِنانَ منه اليدينَ، ومنَّ يملأُ ولاؤُه القلبَ وشأؤُه السَّمعَ وبهاؤُه العَيْنَ .

نجمه على نِعْمه التى نَفَتْ عن نُورِ المُلْكِ كلَّ شَيْءٍ من شَيْنٍ، وأبَقَتْ له من كُباتِه ومُحاتِه مَنْ لافى إخلاصه رَيْبٌ ولا فى محافظتِه مَيْنٌ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له شهادةً متبرِّئٍ من اتِّخاذِ المُسَيِّئِ اثْنينَ؛ ونشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسولُه شهادةً متمسِّكٍ من هذهِ وهذهِ بعُروتَيْنِ . صلَّى اللهُ عليه وعلى آلِه وصَحْبِه صلاةً دائمةً

ما جمع المسافرين من الصلوات بين الأختين ، وما جلس خطيب بين خطبتين ، وسلم تسليماً كثيراً .

وبعد ، فإن خير من رقى خطيبه إلى أرفع رتبة ، وأنجح في تحويل النعم على كل طلبية ورغبة ، لا بل أهديت إليه عرائس النعماء وقد ابتدأت هي بالخطبة ، وكثر له في معروف أصبح ببذله معروفاً ، وأعين على جود أمسى به موصوفاً ، وذلت له فطوف إحسان كم ذلل الأولياء [من أجله] في مراضى الدولة ومحابها فطوفاً فطوفاً - من خلف الملك أحسن الخلف ، ومن له بفعل الخير أعظم كلف ؛ ومن يشهد له بالشجاعة الخيل والليل والبيداء ، والسيف والرمح والأعداء ، فلا غزوة إلا له فيها تأثير وأثر ، ولا ندوة إلا وبها من وصفه بالذكر الجميل سمر ، تتشوف إلى ملاحظة غرته كل عين ويتبين لحياطينه في الوجود كل أثر ، ما أنار وجهه في نهار سلم إلا وقيل الشمس ولا بدأ في ليل خطب إلا وقيل القمر .

ولما كان فلان هو بدر هذه الهاله ، وجل هذه الجلالة ، ونور هذه المقله ، ولايس هذه الحله - اقتضى حسن الرأي الشريف أن تكثر لديه النعم وأن يجرى بتمية الإحسان هذا القلم .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا برح يجود ، وبالخيرات يعود - أن يجرى في إقطاعه



وهذه نسخة منشور من ذلك ، وهي :

الحمد لله الذي أيد دولتنا القاهرة بكل راية تُعقد ، وأمير يؤمر وجنود يُجنّد ، وكل بطل إذا جرد عزمه سلم إليه المهند ، وأشقبه الرج بمعاطفه فلم يدر أيهما تأود .

نَحْمَدُهُ كَمَا يَجِبُ أَنْ يُحْمَدَ ، وَنَمْدَحُهُ بِمَا لَا يُمَائِلُهُ الدُّرُّ الْمُنْتَضِدُ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ أَفْضَلَ مَا بِهِ نَشْهَدُ ، وَنُصَلِّيُ عَلَى نَبِيِّهِ وَعَبْدِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ .
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ فِي كُلِّ مَقَالٍ يَتَجَدَّدُ ، صَلَاةً فِيهَا الْأَقْلَامُ لَا تَتَرَدَّدُ فِيهَا
تَتَرَدَّدُ ، وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْ أَصْحَابِهِ وَسَلَّمْ وَكْرَمْ وَمُجْدُ ، مَا غَرَبَ فَرَقْدٌ وَطَلَعَتْ شَمْسٌ
ثُمَّ مَا غَرَبَتْ شَمْسٌ وَطَلَعَ فَرَقْدٌ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ لآرَائِنَا الْعَالِيَةَ الْمَزِيدَ فِي كُلِّ مَا تَقْتَضِيهِ ، وَفِي كُلِّ مَنْ تَرْضِيهِ ، مِنْ
جَمِيعِ أَوْلِيَائِنَا ، لِجَمِيلِ آلِيَانَا ، مِمَّنْ فَاقَ أَبْنَاءَ جَنْسِهِ ، وَكَانَ فِي أَمْثَالِهِ وَحِيدًا لِأَنَّهُ
لَا يُوجَدُ لَهُ نَظِيرٌ وَهُوَ كَثِيرٌ بِنَفْسِهِ ، وَتَسَابَقَتْ الْخَيْلُ إِلَى أَرْتِقَائِهِ عَلَى صَهْوَاتِهَا ،
وَالْتَطَمَّتْ بِحَارِ الْوَعْغَى لِمَا أُلْقِيَ لَهُ كُلُّ سَابِحٍ فِي غَمْرَاتِهَا ، وَأَفْتَحَرَّتِ الْقَيْسِيُّ بِمَدِّهِ الَّذِي
لَا تَخْرُجُ بِهِ الْأَقْمَارُ عَنْ هَالَاتِهَا ، وَالسُّيُوفُ لِأَنَّهُ إِذَا اشْتَرَكْتَ مَعَهُ فِي لَقَبٍ كَانَ أَسْمَى
مَسْمِيَّتِهَا ، وَالرَّمَاحُ لِأَنَّهُ كَمَّ لَهُ عَلَيْهَا مِنْ مَنَّةٍ لَمَّا أَطْلَقَهَا فِي الْحُرُوبِ مِنْ أَعْتِقَالِ رَايَاتِهَا ؛
وَتَجَدَّدَتِ الْأَسْنَةُ فِيمَا يَتَلَوُّهُ مِنْ سُورَاتِ الْفُرْسَانِ لِأَنَّهُ أَكْبَرُ آيَاتِهَا ، وَهُوَ الَّذِي أَنْتَضَمَتْ
بِهِ الْمَعَالِي وَالْعَوَالِي قَصْدَهَا الَّذِي بِهِ يَرَى غَمْرَاتِ الْمَوْتِ ثُمَّ يَزُورُهَا عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ
إِهَالَاتِهَا ، مَعَ مَالِهِ فِي خِدْمَتِنَا الشَّرِيفَةِ مِنْ سَوَابِقِ لَاتُجَارَى فِي سَبِيلِ ، وَلَا يَلْحَقُ لَهَا
شَأْوًا أَشْهَبُ الصَّبْحِ وَلَا أَدْهَمُ اللَّيْلِ وَلَا أَشْقَرُ الْبَرْقِ وَلَا أَصْفَرُ الْأَصِيلِ . فَاقْتَضَتْ
صِدْقَاتِنَا الشَّرِيفَةَ لَهُ الْإِحْسَانَ ، وَتَقَاضَتْ عَوَارِفُنَا الْحِسَانَ ، فَرَفَعَتْ لَهُ رَتَبَةً لَا يَبْلُغُهَا
كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ إِلَّا بِاللِّسَانِ ، وَكَانَ فُلَانٌ هُوَ الَّذِي حَسُنَ وَصَفَا ، وَشَكَرَتْ مَسَاعِيهِ
سَبْجَايَاهُ وَهُوَ أَوْفَرُ وَأَوْفَى .

فَلذَلِكَ نَحْرَجُ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ

(١) يريد من هولها ولكن السجع أضطره إلى أن يجارى العوام في لغتهم .



وهذه نسخة منشور، وهي :

الحمد لله على نعمه التي أسنت المواهب ، وأغنت الأولياء بالأيام عن دَوْمِ الدِّيمِ
وسبح السحاب .

نحمده على غرائب الرغائب ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة
تتكفل لقائلها ببلوغ المآرب ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أفتخرت
باسمه المناقب ، وانتصرت بعزمه المقانِب ، وقهر بياسه كل جانٍ وعمر بناسه كل
جانِب ، وكشف الله ببركته الأواء ، وغلب بفتكاته الأعداء ، وكيف لا وهو سيّد
لؤي بن غالب . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين أذلّ بجهادهم المحارب ، وسلم
تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنّ أولى من أعدبنا نَهله ، وأنجحنا أمّله ، وأجرلنا [له] من هبات
جودنا [وأغدقنا عليه من مَن عطاءنا ورفدنا - من نازل الأعداء يوم الوغى فراح^(١)
إلى أعلامهم فنكسها وإلى أعناقهم فوقصها ، وحكم سيفه في أشلائهم وأرواحهم :
فهذه أقتناها وهذه أقتنصها ، ما فوق يوم الرّوع سهمه إلا أصاب المقاتل ، ولا شمر
سيفه إلا قهر بياسه كل باسل ، ولا سارت عقبان راياته إلى معترك الحرب صُحّي إلا
ظلل بعقبان طير في الدماء نواهل .

ولما كان فلان هو الذي يُشير إليه بنانُ هذا المدح ، ويسير إليه إحسانُ
هذا المنح .

(١) زدنا هذه الكلمات لاحتياج المقام إليها .

(٢) في الأصل "فكصها" وهو لا يفيد ما يريد .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا برحت ظلال كرمه وارفه، وسحاب نعمه
واكفه - أن يُجرى في إقطاعه



وهذه نسخة منشور تصلح لمن مات أبوه، وهي :

الحمد لله الذي جعل سماء كرمنا، على الأولياء هامية السحاب، وعوارف نعمنا،
جميلة العقبي للأعقاب، وعواطف أيماننا الشريفة تجزل العطاء وتجبر المصاب .

نحمده على نعمه التي ما سخنت العيون إلا أقرتها، ولا آكتابت النفوس بملمة إلا
سرتها؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة لا يزال ربح الأئس بها
معمورا، وصدع النفس بها مجبورا؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذي أصبح
شعث الإيمان به مأموما، وحزب الطغيان به مهزوما، وداء البهتان بجسامه محسوما .
صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين كان [هو] بدر السيادة وكانوا نجوما ، صلاة
لا يبرح ذكرها في صحائف القبول مرقوما، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن أولى من درت أخلاف جودنا خلفه، ورعى كرمنا خدام سلفه ،
ونقلنا هلاله من تقربنا إلى منازل شرفه، وأجراه إحساننا على جميل عوائده، وسوغه
نوالنا أعدب موارده، وجمع له إنعامنا بين طارفه وتالده، من آستمسك من سبب
إخلاصنا بأكده، وحدنا في ولائنا أحسن حدو ولاغرو أن يجحدوا الفتى حدو والده،
وأشتهر بالشهامة التي أغنت بمفردها عن الألوف ، وعريف بالإقدام الذي طالما
فرق الجموع وأخترق الصنفوف، مادنا من الأعداء إلا دنت منهم الحتوف، ولا أظلم
ليل النقع إلا جلته أنجم الصعاد وأهله السيوف .

ولما كان فلان هو الممدوح بجليل هذه الشِّيم ، والممنوح جزيل هذه النِّعم ، والشَّيبة في مولاتنا بأبيه ومن أشبه أباه فما ظلم .

فلذلك خرج الأمر الشريف - لا برحت سحِب كرمه هاظلة الأنواء ، شاملة الآباء والأبناء - أن يُجرى في إقطاعه

النوع الثاني

(من المناشير ما يفتتح بـ «أما بعد» ويختص بأمر العشرات ومن في معناهم :

كأمر العشرينات ونحوهم ممن لم يبلغ شأوَ الطبائعات)

وهي على ضربين :

الضرب الأول

(في مناشير العشرات كائنًا ذلك الأمير من كان)

وهذه نسخة مناشير من ذلك :

نسخة منشور من ذلك، وهي :

أما بعد حمد الله على نعمه التي يبديها ويعيدها ، ويفيها ويفيدها ، ويديها على من شكر ويزيدها ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي نزلت لنصره ملائكة السماء وجنودها ، وأخذت على الإقرار بنبوته موثيق الأملاك وعهودها ، وعلى آله وصحبه الذين هم أمناء هذه الأمة وشموؤها - فإنَّ أحق من تقلب في إناصنا ، وتقدم في أيامنا ، وتوالت اليه الأؤنا تترى ، وتكررت عليه نعاؤنا مرة بعد أخرى ، من ظهرت آثار خدمته ، وصحت أخبار تجدته ، وشكرت مساعيه الجليله ، ومحمدت

دَوَاعِيهِ الْجَمِيلَةِ ، وَكَانَ لَهُ مِنْ صِفَاتِهِ الْحُسْنَى ، مَا يُبَيِّنُهُ مِنَ الدَّرَجَاتِ الْأَعْلَى وَمِنَ الْمَطَالِبِ الْأَسْنَى .

وَمَا كَانَ فُلَانٌ مِّنْ زَانَتِهِ طَاعَتُهُ ، وَقَدَّمَهُ إِقْدَامُهُ وَشِجَاعَتُهُ ، وَشَهِدَتْ لَهُ مَوَاقِفُ الْحُرُوبِ ، أَنَّهُ مُجَلِّي الْكُرُوبِ ، وَأَقْرَبُ لِيَوْمِ الْوَعْدِ ، بِإِبَادَةِ مَنْ بَغَى ، وَكَانَ لَهُ مَعَ الشَّهَامَةِ الرَّأْيِ الثَّاقِبِ ، وَالسَّهْمِ الصَّابِ ، يُصِيبُ وَلَا يُصَابُ ، جَدْعُ الْقَرِيحِ ، رَابِطُ الْجَأَشِ عِنْدَ تَغْيِيرِ الْأَذْهَانِ الصَّحِيحَةِ - أَقْتَضَى حَسَنُ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ تُرْفَعَ دَرَجَتُهُ ، وَتُعْلَى رُتْبَتُهُ ، وَيُنْتَظَمَ فِي عَقُودِ الْأَمْرَاءِ ، وَيُسَلِّكَ بِهِ جَادَّةَ الْكِبْرَاءِ ، لِتَرْقِيَهُ فِي دَرَجِ السَّعَادَةِ ، وَتَبْلُغَ بِهِ رُتْبَةَ السِّيَادَةِ .

فَلِذَلِكَ نَحَرَجَ الْأَمْرَ الشَّرِيفَ - لَا بَرَحَتْ هَامِيَةً غَوَادِي آلَائِهِ ، سَابِغَةً مَلَابِسَ نَعْمَائِهِ - أَنْ يُجْرَى فِي إِقْطَاعِهِ



وهذه نسخة منشور من ذلك، وهي :

أَمَا بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ عَلَى نِعْمَتِهِ الَّتِي فَسَّحَتْ فِي كَرَمِهَا مَجَالَ الْمَطَالِبِ ، وَفَتَّحَتْ لِحَدْمِهَا أَبْوَابَ مُنْجِ الْمَتَارِبِ ، وَحَقَّقَتْ فِي عَوَارِفِهَا آمَالَ مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهَا مِنَ الْخِدْمَةِ وَالطَّاعَةِ بِأَنْجِحَ مَا تَقَرَّبَ الرَّاعِبُ إِلَى الرَّغَائِبِ ، وَالصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ الَّذِي زَوَى اللَّهُ لَهُ [الْأَرْضَ] لِيَرَى مَا تَنْتَهَى إِلَيْهِ الْكَوَاكِبِ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ آسْتَسْهَلُوا فِي جِهَادِ أَعْدَائِهِ الْمَصَاعِبِ ، وَرَمَى اللَّهُ مِنْ الْحَدِّ فِي دِينِهِ مِنْ سَطَوَاتِهِمْ بَعْدَابٍ وَاصِبٍ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَنْ تَلَقَّتهُ وَجُوهَ النَّعْمِ السَّوَابِرِ ، وَأَسْتَقْبَلَتْهُ نِعَمَ الْعَوَارِفِ الَّتِي هِيَ مِنْ غَيْرِ الْأَكْفَاءِ نَوَافِرِ ، وَأَنْتَهُ السُّعُودِ الْمُقْبِلَةِ ، وَوَأَنْتَهُ الْآلَاءِ الْمُقِيمَةُ وَالْمُسْتَقْبَلَةُ ، مَنْ صَحَّتْ شِجَاعَتُهُ فِي مَوَاقِفِ الْجِهَادِ الْمُدْهِمَةِ ، وَتَمَحَّتْ شَهَامَتُهُ فِي الْوَعْدِ بِجِجَالِ السُّيُوفِ الْمُرْهَفَةِ

عن أحمد . وذهب أبو حنيفة إلى أنه الحلف على الماضي من غير قصد الكذب في يمينه ، مثل أن يظن شيئا فيحلف عليه ؛ وهو الرواية الثانية عن أحمد ، وحكى عن مالك أن هذه هي اليمين الغموس .

الطرف الثاني

(في التحذير من الوقوع في اليمين الغموس)

أما اليمين الغموس فإنها من أعظم الجائر، وناهيك أنها تعمس صاحبها في الإثم . وقد قال تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ ﴾ . وقال جل وعز : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال امرئ مسلم لقي الله عز وجل وهو عليه غضبان » . وقد قيل إن التوحيد (وهو : الذي لا إله إلا هو) إنما أوصّل في اليمين رفقاً بالخالف كئى لا يهلك لوقته ، فقد روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « إذا حلف الخالف بالله الذى لا إله إلا هو ، لم يعاجل لأنه قد وحد الله تعالى » .

ويروى أن جعفر بن محمد عليه السلام : أدعى عليه مدعى عند قاض ، فأحلفه جعفر بالله ، لم يزد على ذلك ، فهلك ذلك الخالف لوقته ، فقال القاضى ومن حضر : ما هذا ؟ فقال : إن يمينه بما فيه ثناء على الله ومدح يؤخر العقوبة كراماً منه عز وجل وتفضلاً . وقال أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه : « أحلفوا الظالم إذا أردتم يمينه بأنه برىء من حول الله وقوته ، فإنه إذا حلف بها كاذباً عوجل » .

ومن غريب ما يحكى في ذلك أن عبد الله بن مصعب الزبيرى سعى يحيى بن عبد الله بن الحسن إلى الرشيد، بعد قيام يحيى بطلب الخلافة، بجمع بينهما وتوافقاً، ونسب يحيى إلى الزبيرى شعراً يقول منه :

قَوْمُوا ببيعَتِكُمْ نَهَضْ بَطَاعَتَهَا * إِنَّ الْخِلَافَةَ فِيكُمْ يَا بَنِي حَسَنَ

فأنكر الزبيرى الشعر، فأحلفه يحيى، فقال : قل قد برئت من حول الله وقوته، وأعتصمت بحولى وقوتى، وتقلدت الحول والقوة من دون الله أستجاراً على الله، وأستغناء عنه، وأستعلاءً عليه، فامتنع . فغضب الرشيد وقال : إن كان صادقاً فليحلف، وكان للفضل بن الربيع فيه هوى، فرفسه برجله، وقال : ويحك احلف ! خالف وجهه متغير وهو يرعد، فابرح من موضعه حتى أصابه الجُدامُ فتقطع ومات بعد ثلاثة أيام، ولما حُمل إلى قبره ليوضع فيه أنخسف به حتى غاب عن أعين الناس، وخرجت منه غبرة عظيمة، وجعلوا كلما هالوا عليه التراب أنخسف به فسقفوه وأنصرفوا .

الباب الثاني

من المقالة الثامنة

(في نسخ الأيمان الملوكية، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء، وهي على نوعين

النوع الأول

(في الأيمان التي يُخلف بها على بيعة الخليفة عند مبايعته ،

وهي الأصل في الأيمان الملوكية بأسرها)

وأول من رتبها الحجاج بن يوسف حين أخذه البيعة لعبد الملك بن مروان على أهل العراق، ثم زيد فيها بعد ذلك، وتنقحت في الدولة العباسية وتنضدت . وكان عادتهم فيها أن يجرى القول فيها بكاف الخطاب ، كما في مكاتباتهم يومئذ ، وربما أتى فيها بلفظ المتكلم .

وهذه نسخة يمين أوردتها أبو الحسين الصابي في كتابه "غُرر البلاغة" وهي :

تبايع عبد الله أمير المؤمنين فلاناً : ببيعة طوع وأختيار، وتبرع وإيثار، وإعلان وإسرار، وإظهار وإضمار، وصحة من غير نغل ، وسلامة من غير دغل ؛ وثبات من غير تبديل ، ووفاء من غير تأويل ؛ وأعراف بما فيها من اجتماع الشمل ، وأتصال الحبل ، وانتظام الأمور ، وصلاح الجمهور ؛ وحقن الدماء ، وسكون الدهماء ، وسعادة الخاصة والعامة ، وحسن العائدة على أهل الملة والذمة - على أن عبد الله فلاناً

أمير المؤمنين عبد الله الذي أصطفاه ، وأمينة الذي أرتضاه ؛ وحليفته الذي جعل طاعته جاريةً بالحق ، وموجبةً على الخلق ؛ وموردةً لهم مورد الأمن ، وعاقدةً لهم معاقدة اليمن ؛ وولايته مؤذنةً بجميل الصنع ، ومؤديةً لهم إلى جزيل النفع ، وإمامته التي اقترن بها الخير والبركة ، والمصلحة العامة المشتركة ؛ وأمل فيها فجع المُلحد الجاحد ، وردُّ الجائر الجائد ، ووقم العاصي الخالع ، وعطف الغاوي المنازع . وعلى أنك وليُّ أوليائه ، وعدوق أعدائه : من كلِّ داخلٍ في الجملة ، وخارجٍ عن الملة ؛ وعائذٍ بالحوزة ، وحائذٍ عن الدعوه ؛ ومتمسكٍ بما بذلته عن إخلاص من رأيك ، وحقيقته من وفائك ؛ لا تتقصُّ ولا تتكث ، ولا تُخلف ولا تُورى ولا تُحادع ، ولا تُداجى ولا تُحتال ؛ علايتك مثل نيتك ، وقولك مثل طويتك . وعلى أن لا ترجع عن شيء من حقوق هذه البيعة وشروطها على ممر الأيام وتطاولها ، وتغير الأحوال وتقلُّها ، واختلاف الأوقات وتقلُّها . وعلى أنك في كلِّ ذلك من أهل الملة الإسلامية ودعاتها ، وأعوان الملائكة العباسية ورعاتها ، لا يتداخل قولك موارد ولا مداهنه ، ولا يعترضه مغالطة ولا يتعقبه مخالفه ؛ ولا تُحبس به أمانه ، ولا تنقله خيانه ؛ حتى تلقى الله تعالى مقبياً على أمرك ، ووفياً بعهدك ؛ إذ كان مباعوا ولاة الأمر وخلفاء الله في الأرض ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسُوتُهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

عليك بهذه البيعة التي أعطيت بها صفة يدك ، وأصفيت فيها سريرة قلبك ؛ والتزمت القيام بها ما طال عمرك ، وأمتد أجلك - عهد الله إنَّ عهد الله كان مشئولاً ، وما اخذه على أنبيائه ورسله ، وملائكته وحمله عرشه : من أيمن مغالطة وعهود مؤكده ، ومواثيق مشدده ؛ على أنك تسمع وتصفى ، وتطيع ولا تعصى ؛ وتعديل

ولا تَمِيد، وَتَسْتَقِيمُ وَلَا تَمِيلُ، وَتَنِيحُ وَلَا تَغْدُرُ، وَتَثْبُتُ وَلَا تَتَغَيَّرُ؛ فَهِيَ زُلَّتْ عَنْ هَذِهِ الْحَجَّةِ خَافِرًا لِأَمَانَتِكَ، وَرَافِعًا لِذِيَانَتِكَ؛ فَجَحَدْتَ اللَّهُ تَعَالَى رُبُوبِيَّتَهُ، وَأَنْكَرْتَ وَحْدَانِيَّتَهُ، وَقَطَعْتَ عِصْمَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْكَ وَجَدَدْتَهَا، وَرَمَيْتَ طَاعَتَهُ وَرَاءَ ظَهْرِكَ وَنَبَذْتَهَا، وَلَقِيتَ اللَّهَ يَوْمَ الْحَشْرِ إِلَيْهِ، وَالْعَرِضُ عَلَيْهِ، مَخَالِفًا لِأَمْرِهِ، وَنَاقِضًا لِعَهْدِهِ؛ وَمَقِيمًا عَلَى الْإِنْكَارِ لَهُ، وَمُضِرًّا عَلَى الْإِشْرَاقِ بِهِ؛ وَكُلُّ مَا حَلَّلَهُ اللَّهُ لَكَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكَ، وَكُلُّ مَا تَمَلِكُهُ يَوْمَ رَجُوعِكَ عَنْ بَدَلِكَ، وَأَرْتَجِعُكَ مَا أَعْطَيْتَهُ فِي قَوْلِكَ:

مِنْ مَالٍ مَوْجُودٍ وَمَذْخُورٍ، وَمَصْنُوعٍ وَمَضْرُوبٍ، وَسَارِحٍ وَمَرْبُوطٍ، وَسَائِمٍ وَمَعْقُولٍ؛ وَأَرْضٍ وَضَيْعَةٍ، وَعَقَارٍ وَعُقْدَةٍ، وَمَمْلُوكٍ وَأَمَةٍ، صَدَقَةٌ عَلَى الْمَسَاكِينِ، مُحَرَّمَةٌ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ أَهْلُكَ تَمَلِكُ شَعْرَهَا وَبَشَرَهَا، وَأُخْرَى تَتَرَوَّجُهَا مِنْ بَعْدِهَا طَالِقٌ ثَلَاثًا بَتَانًا، طَلَاقِ الْحَرْجِ وَالسَّنَةِ، لَا رَجْعَةَ فِيهَا وَلَا مَشْوِيَّةَ؛ وَعَلَيْكَ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ دَفْعَةً حَاسِرًا حَافِيًا، وَرَاجِلًا مَاشِيًا، نَذْرًا لِأَزْمَا، وَوَعْدًا صَادِقًا؛ لَا يُبْرَأُكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَضَاءُ لَهَا، وَالْوَفَاءُ بِهَا؛ وَلَا قَبِيلَ مِنْكَ تَوْبَةٌ وَلَا رَجْعَةٌ، وَلَا أَقَالِكَ عَثْرَةً وَلَا صَرَعَةً؛ وَخَدَّكَ يَوْمَ الْأَسْتِنْصَارِ بِجَوْلِهِ، وَأَسْلَمَكَ عِنْدَ الْأَعْتِصَامِ بِجَبَلِهِ؛ وَهَذِهِ الْيَمِينُ قَوْلُكَ قَلْتَهَا قَوْلًا فَصِيحًا، وَسَرَدْتَهَا سَرْدًا صَرِيحًا؛ وَأَخْلَصْتَ فِيهَا سِرَّكَ إِخْلَاصًا مُبِينًا، وَصَدَقْتَ بِهَا عَزْمَكَ صِدْقًا يَقِينًا؛ وَالنِّيَّةُ فِيهَا نِيَّةُ فُلَانٍ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ دُونَ نِيَّتِكَ، وَالطَّوِيَّةُ دُونَ طَوِيَّتِكَ؛ وَأَشْهَدْتَ اللَّهُ عَلَى نَفْسِكَ بِذَلِكَ ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ عَلَيْهَا حَافِظًا وَرَقِيبًا.



وهذه نسخة يمين بيعة أوردتها ابن حمدون في "تذكرة" وأبو الحسن بن سعد في "ترسله"؛ تواردت مع البيعة السابقة وأيمانها في بعض الألفاظ، وخالفت في أكثرها، وهي:

تُبَاعِ الإِمَامَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِيَعَةِ طَوْعٍ وَإِثَارٍ، وَرِضًا وَأَخْتِيَارًا، وَأَعْتِقَادًا وَإِضْمَارًا،
وَإِعْلَانًا وَإِسْرَارًا؛ وَإِخْلَاصًا مِنْ طَوِيَّتِكَ، وَصِدْقًا مِنْ نَيْتِكَ، وَأَنْشِرَاحَ صَدْرِكَ
وَصِحَّةَ عَزْمِيَّتِكَ؛ طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ، وَمُتَقَادًا غَيْرَ مُجْبَرٍ؛ مُقَرَّرًا بِفَضْلِهَا، مُدْعِنًا بِحَقِّهَا،
مُعْتَرِفًا بِرِكَتِهَا، وَمُعْتَدًّا بِحُسْنِ عَائِدَتِهَا؛ وَعَالِمًا بِمَا فِيهَا وَفِي تَوْكِيدِهَا مِنْ صَالِحِ
الْكَافَّةِ، وَاجْتِمَاعِ الْكَلِمَةِ الْخَاصَّةِ وَالْعَامَّةِ؛ وَلَمْ الشَّعْتَ، وَأَمِنَ الْعَوَاقِبَ، وَسَكُونِ
الدَّهْمَاءِ، وَعِزِّ الْأَوْلِيَاءِ، وَقَفَّعِ الْأَعْدَاءِ - عَلِيٌّ أَنْ فَلَانًا عَبْدُ اللَّهِ وَخَلِيفَتُهُ، وَالْمَفْتَرَضُ
عَلَيْكَ طَاعَتُهُ، وَالْوَاجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ إِقَامَتُهُ وَوِلَايَتُهُ، الْأَلْزِمُ لَهُمُ التَّيَامُّ بِحَقِّهِ، وَالْوَفَاءُ
بِعَهْدِهِ، لَا تَشْكُ فِيهِ، وَلَا تَرْتَابُ بِهِ، وَلَا تُدَاهِنُ فِي أَمْرِهِ وَلَا تَمِيلُ؛ وَأَنْكَ وَلِيٌّ وَلِيَّهُ،
وَعَدُوٌّ عَدُوُّهُ: مِنْ خَاصِّ وَعَامِّ، وَقَرِيبٍ وَبَعِيدٍ، وَحَاضِرٍ وَغَائِبٍ، مُتَمَسِّكٌ فِي بَيْعَتِهِ
بِوَفَاءِ الْعَهْدِ، وَذِمَّةِ الْعَقْدِ؛ سِرِّيَّتِكَ مِثْلَ عَلَانِيَّتِكَ، وَظَاهِرُكَ فِيهِ مِثْلَ بَاطِنِكَ،
وَبَاطِنُكَ فِيهِ وَفَقَ ظَاهِرُكَ. عَلِيٌّ أَنْ إِعْطَاكَ اللَّهُ هَذِهِ الْبَيْعَةَ مِنْ نَفْسِكَ، وَتَوْكِيدَكَ
إِيَّاهَا فِي عُنُقِكَ، لِفَلَانِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ سَلَامَةٍ مِنْ قَلْبِكَ، وَأَسْتِقَامَةٍ مِنْ عَزْمِكَ،
وَأَسْتِمْرَارٍ مِنْ هَوَاكَ وَرَأْيِكَ. عَلِيٌّ أَنْ لَا تَتَأَوَّلَ عَلَيْهِ فِيهَا؛ وَلَا تَسْعَى فِي تَقْضِي شَيْءٍ
مِنْهَا، وَلَا تَقْعُدَ عَنْ نُصْرَتِهِ فِي الرَّخَاءِ وَالشَّدَّةِ، وَلَا تَدْعَ النَّصْرَ لَهُ فِي كُلِّ حَالٍ رَاهِنَةٍ
وَحَادِثَةٍ، حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ تَعَالَى مُوْفِيًا بِهَا، مُؤَدِّيًا لِلْأَمَانَةِ فِيهَا إِذْ كَانَ الَّذِينَ يَبَايَعُونَ
وَلَاةَ الْأَمْرِ وَخُلَفَاءَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ
فَأِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾.

عَلَيْكَ بِهَذِهِ الْبَيْعَةِ الَّتِي طَوَّقَهَا عُنُقُكَ، وَبَسَطْتَ لَهَا يَدَكَ، وَأَعْطَيْتَ بِهَا صَفْقَتَكَ؛
وَمَا شَرِطَ فِيهَا مِنْ وِفَاءٍ وَمُوَالَاةٍ، وَنُصْحٍ وَمُشَايَعَةٍ، وَطَاعَةٍ وَمُؤَافَقَةٍ، وَاجْتِهَادٍ
وَمُبَالَغَةٍ - عَهْدُ اللَّهِ إِنْ عَهَدَ اللَّهُ كَانَ مَسْئُولًا، وَمَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ عَلَيْهِمُ

السلام، وأخذ على عباده من وكيدات موثيقه، ومحكات عهديه؛ وعلى أن
تتمسك بها ولا تبدل، وتستقيم ولا تميل .

وإن نكثت هذه البيعة، أو بدلت شرطاً من شروطها، أو عفتت رسماً من
رسومها، أو غيرت حكماً من أحكامها، مُعلناً أو مُسراً، أو محتالاً أو متاولاً، أو زغت
عن السبيل التي يسلكها من لا يخفر الأمانه، ولا يستحل الغدر والخيانة؛ ولا يستجيز
حل العقود - فكل ما تملكه من عين أو ورق أو آنية أو عقار أو زرع أو ضرع
أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقده، والأموال المدخرة، صدقة على المساكين،
محرمة عليك أن ترجع من ذلك، إلى شيء من مالك، بحيلة من الحيل، على وجه
من الوجوه وسبب من الأسباب، أو مخرج من مخرج الأيمان؛ وكل ما تُفديه
في بقية عمرك: من مال يقل خطره أو يحل، فذلك سبيله إلى أن تتوفك منبتك،
ويأتيك أجلك . وكل مملوك لك اليوم أو تملكه إلى آخر أيامك أحرار سائون
لوجه الله تعالى، ونسأؤك يوم يلزمك الحنث، ومن تترج بعدهن مدة بقائك
طوالق ثلاثاً بتاتاً، طلاق الحرج والسنة، لا مثنوية فيها ولا رجعة، عليك المشي
إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجة حافية حاسراً راجلاً، لا يرضى الله منك إلا
بالوفاء بها، ولا يقبل الله منك صرفاً ولا عدلاً، وخذلك يوم تحتاج إليه، وبرآك
الله من حوله وقوته، وأجأك إلى حولك وقوتك، والله تعالى بذلك شهيد
﴿ وكفى بالله شهيداً ﴾ .

(١) أى التي اعتقدها صاحبها ملكاً، انظر القاموس .

الضرب الثاني

(الأيمن التي يُحَلِّفُ بها الخلفاء)

وقلّ من تعرّض لها القلّة وقوعها ، إذ الخليفة قلماً يُحَلِّفُ : لعلو رتبته ، وأرتفاع محله . ومدار تحليف الخلفاء بعد التّسمّ بالله على التّعليق بوقوع المحذور عليهم ، ولزومه لهم ، مثل البراءة من الخلافة والانخلاع منها ، وما يجرى مجرى ذلك . ولم أقف على ذلك إلا في ترسل الصّابي ، وذلك حين كان الأمر معدّوقاً بالخلفاء .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة الثامنة

(في نسخ الأيمان المتعلقة بالملوك ، وفيه خمسة مهائج)

المهيج الأول

(في بيان الأيمان التي يُحَلِّفُ بها المسلمون ، وهي على نوعين)

النوع الأول

(من الأيمان التي يُحَلِّفُ بها المسلمون أيماناً أهل السنة)

وهي الأيمان العامة التي يُحَلِّفُ بها أهل الدولة : من الأمراء والوزراء والنواب ، ومن يجرى مجراهم .

وهذه نسخة يمينٍ أوردتها في "التعريف" وهي :

أقول وأنا فلان : والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله العظيم الذي لا إله إلا هو ، الباري الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسّر

والعلانية، وما تُخفي الصدور؛ القائم على كل نفس بما كسبت، والمجازي لها بما عملت . وحق جلال الله، وقدره الله، وعظمة الله، وكبرياء الله، وسائر أسماء الله الحسنى، وصفاته العليا إنني من وقفي هذا، وما مد الله في عمري، قد أخلصت نيتي، ولا أزال مجتهداً في إخلاصها، وأصفت طوييتي، ولا أزال مجتهداً في إصفاها، في طاعة مولانا السلطان فلان الفلاني - خلد الله ملكه - وخدمته ومحبتته، وأمثاله مراسيمه، والعمل بأوامره . وإنني والله العظيم [حرب لمن حاربه، سلم لمن سلمه، عدو لمن عاداه؛ ولي لمن وآاه من سائر الناس أجمعين . وإنني والله العظيم] لا أضمر لمولانا السلطان فلان سوءاً ولا غدرًا، ولا خديعةً ولا مكراً، ولا خيانةً في نفس ولا مال، ولا ساطنة، ولا قلاع ولا حصون، [ولا بلاد ولا غير ذلك] ولا أسعى في تفريق كلمة أحد من أمرائه، ولا بماليكه، ولا عساكره، ولا أجناده، ولا عمرانه ولا تُركانه ولا أكراده، ولا أستماله طائفة منهم لغيره، ولا أوافق على ذلك بقول ولا فعل ولا نية ولا بمكاتبة [ولا مراسلة]، ولا إشارة ولا رمي، ولا كناية ولا تصريح . وإن جاني كتاب من أحد من خلق الله تعالى بما فيه مضرّة على مولانا السلطان أو أهل دولته لا أعمل به، ولا أصغى إليه، وأحمل الكتاب إلى ما بين يديه الشريفتين هو ومن أحضره إن قدرت على إمساكه .

وإنني والله العظيم أفي لمولانا السلطان بهذه اليمين من أولها إلى آخرها، لا أتقضاها ولا شيئاً منها، ولا أستثنى فيها ولا في شيء منها، ولا أخالف شرطاً من شروطها؛ ومتى خالفها أو شيئاً منها، أو تقضتها أو شيئاً منها، أو استثنيت فيها أو في شيء منها طلباً لتقضها، فكل ما أملكه : من صاميت وناطق صدقة على الفقراء والمساكين،

وَكُلُّ زَوْجَةٍ فِي عَقْدِ نِكَاحِهِ أَوْ يَتَرَوَّجُهَا فِي الْمُسْتَقْبَلِ فَهِيَ طَالِقٌ [ثَلَاثًا بَتَانًا عَلَى سَائِرِ الْمَذَاهِبِ] ^(١) ، وَكُلُّ عَبِيدِي وَإِمَائِي أَحْرَارٌ لَوَجْهَ اللَّهِ ، وَعَلَيْهِ الْحُجُّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ بِمَكَّةَ الْمُعَظَّمَةِ ، وَالْوَقُوفُ بِعَرَفَةَ ثَلَاثِينَ حَجَّةً مُتَوَالِيَاتٍ مُتَابِعَاتٍ كَوَامِلٍ ، حَافِيًا مَاشِيًا ، وَعَلَيْهِ صَوْمُ الدَّهْرِ كُلِّهِ إِلَّا الْمُنْهَى عَنْهُ ، وَعَلَيْهِ أَنْ يُفَكَّ أَلْفَ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ مِنْ أَسْرِ الْكُفَّارِ ، وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَمِنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ إِنْ خَالَفتْ هَذِهِ الْيَمِينَ أَوْ شَرَطًا مِنْ شُرُوطِهَا .

وهذه اليمينُ يميني وأنا فلان، والنيةُ فيها بأسرها نيةُ مولانا السلطان فلان، ونيةُ مُسْتَحْلِيٍّ لَهُ بِهَا ، لَا نِيَّةَ لِي فِي بَاطِنِي وَظَاهِرِي [سواها] ، أَشْهَدُ اللَّهُ عَلَيَّ بِذَلِكَ ، وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ، وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا أَقُولُ وَيَكِلُ .

قلتُ : عَجِيبٌ مِنَ الْمُقَرَّرِ الشَّهَائِدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ مَا أَتَى بِهِ فِي نُسخَةِ هَذِهِ الْيَمِينِ ، فَإِنَّهُ أَتَى بِهَا بِلَفْظِ التَّكْلِيمِ إِلَى قَوْلِهِ : « وَكُلُّ زَوْجَةٍ » فَعَدَلَ عَنِ التَّكْلِيمِ إِلَى الْغَيْبَةِ ، وَقَالَ فِي نِكَاحِهِ ، وَكَذَلِكَ مَا بَعْدَهُ إِلَى قَوْلِهِ « مِنْ أَسْرِ الْكُفَّارِ وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنْ اللَّهِ وَمِنْ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنْ خَالَفتْ هَذِهِ الْيَمِينِ » وَأَتَى بِصِيغَةِ التَّكْلِيمِ إِلَى آخِرِ الْكَلَامِ . فَإِنْ كَانَ قَرَأَ فِي قَوْلِهِ : وَكُلُّ زَوْجَةٍ فِي نِكَاحِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقُولَ فِي نِكَاحِي فَتَنَطَّلَقَ زَوْجَتُهُ هُوَ ، فَلَا وَجْهَ لَهُ : لِأَنَّ الْحَاكِمِيَّ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ الطَّلَاقُ ، وَكَذَا مَا بَعْدَهُ مِنْ الْعِتْقِ وَغَيْرِهِ .

وَأَعْجَبُ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَوْلُهُ : وَيَكُونُ بَرِيئًا مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ إِنْ خَالَفتْ ، بِجَمْعِ بَيْنِ الْغَيْبَةِ وَالتَّكْلِيمِ فِي حَالَةٍ وَاحِدَةٍ ! ! . عَلَى أَنْ مَا ذَكَرَهُ بِلَفْظِ الْغَيْبَةِ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا سَطَّرَهُ فِي النُّسخَةِ . أَمَا إِذَا كُتِبَتْ الْيَمِينُ

(١) الزيادة من "التعريف" صفحة ١٤٧ .

التي يُخَلِّفُ بها ، فإنها لا تكونُ في الجميع إلا بلفظ التكلُّم ، فما المعنى في أنه خاف من الوقوع في المحذورِ عند حكاية القول ، ولم يخفِ مثل ذلك فيما يكتبه في نفس أيمن ؟ .

وقد ذكر صاحبُ "التثقيف" جميع ذلك بلفظ التكلُّم ، مع المخالفة في بعض الألفاظ وزيادة ونقص فيها .

وهذه نسختها ، وهي :

أقول وأنا فلانُ بن فلان : واللهِ واللهِ واللهِ ، وباللهِ وباللهِ وباللهِ ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ ، واللهِ الذى لا إله إلا هو ، البارىُّ الرحمنُ الرحيمُ ، عالمُ الغيبِ والشَّهادة ، والسرِّ والعلانية ، وما تُخفى الصدورُ ، القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ، والمجازى لها بما احتَقَبَتْ . وحقُّ جلالِ الله ، وعظمةِ الله ، وقُدرةِ الله ، وكِبْرِيَاءِ الله ، وسائرُ أسماءِ الله الحُسنى ، وصفاته العُليا ، وحقُّ هذا القُرْآنِ الكريمِ ومن أنزَلَهُ ، ومن أنزَلَ عليه - إني من وقْتى هذا ، ومن ساعى هذه ، وما مدَّ الله في عمري قد أخلَصْتُ نيتى ، ولا أزالُ مجتهداً في إخلاصها ، وأصْفَيْتُ طَوْبَتِي ، ولا أزالُ مجتهداً في إصْفَائِهَا - في طاعةِ السُّلْطَانِ المَلِكِ الفُلانِيّ ، فلانِ الدنيا والدِّينِ فلان - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَهُ - وفي خِدْمَتِهِ ومَحَبَّتِهِ ونُصْحِهِ ، وأ كُونُ وِلياً لمن والاه ، عُدُوّاً لمن عاداه ، سَلماً لمن سالمه ، حَرْباً لمن حاربه : من سائرِ الناسِ أجمعين ؛ لا أُضْمِرُ لَهُ سُوءاً ولا مَكْرَماً ، ولا خَدِيعَةً ولا خِيَانَةً في نَفْسِي ، ولا مَالٍ ، ولا مُلْكٍ ، ولا سُلْطَنَةً ، ولا عَسَاكِرَ ، ولا أَجْنَادٍ ، ولا عُرْبَانَ ، ولا تُرْجُمَانَ ، ولا أكراد ، ولا غير ذلك ؛ ولا أَسْعَى في تَفْرِيقِ كَلِمَةٍ أَحَدٍ مِنْهُمْ عن طاعته الشريفة . وإِنِّي واللهِ العَظِيمِ أَبْدُلُ جُهْدِي وطَاقِي في طاعةِ مولانا السُّلْطَانِ المَلِكِ الفُلانِيّ ، فلانِ الدنيا والدِّينِ المُشارِ إليه . وإن كَاتَبَنِي أَحَدٌ مِنْ سائرِ الناسِ أجمعين بما فيه مَضَرَّةٌ عَلَى مُلْكِهِ لا أوافقُ عَلَى ذلك بقَوْلٍ

ولا فعيل ولا نية ؛ وإن قدرت على إمساك الذي جاءني بالكتاب أمسكته ،
وأحضرتُه لمولانا السلطان الملك الفلاني المشار إليه ، أو النائب القريب مني .
وإنني والله العظيم أفني لمولانا السلطان المشار إليه بهذه اليمين من أولها إلى آخرها ،
لا أستثنى فيها ولا في شيء منها ، ولا أستفتي فيها ولا في شيء منها . وإن خالفتها
أو شيئاً منها ، أو استثنيت منها ، أو استفتيت طلباً لتقصها أو نقض شيء منها ،
فيكون كل ما أملكه من صاميت وناطق صدقة على الفقراء والمساكين من المسلمين ؛
وتكون كل زوجة في عقد نكاحي أو أتزوجها في المستقبل طالقاً ثلاثاً بتاتاً على سائر
المذاهب ، وتكون كل أمة أو مملوك في ملكي الآن أو أملكه في المستقبل أحراراً
لوجه الله تعالى ؛ ويلزمني ثلاثون حجة متواليات متابعات ، حافياً حاسراً ؛ وعلى
صوم الدهر بمجلبته إلا الأيام المنهي عن صومها .

وهذه اليمين يميني ، وأنا فلان بن فلان ، والنية في هذه اليمين بأسرها نية مولانا
السلطان الملك الفلاني المشار إليه ، ونية مستحلفي له بها ، لانية لي في غيرها ،
ولا قصد لي في باطني وظاهري سواها . أشهد الله على ذلك ، وكفى بالله شهيداً ،
والله على ما أقول وكيل .

قلت : وربما كان للسلطان ولي عهد بالسلطنة فيقع التحليف للسلطان ولولده
جميعاً ، وهي على نحو ما تقدم ، لا يتغير فيها إلا نقل الضمير من الأفراد إلى التثنية .



وهذه نسخة يمين حلف عليها العساكر للسلطان الملك المنصور "قلاوون" في سنة
ثمان وسبعين وستائة له ولولده ولي عهده الملك الصالح علاء الدين "علي" ، وأوردتها
أبن المكرم في تذكرته ، وهي :

وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ ، وَبِاللَّهِ وَبِاللَّهِ وَبِاللَّهِ ، وَتَاللَّهِ وَتَاللَّهِ وَتَاللَّهِ ، وَاللَّهِ الْعَظِيمِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ، وَالسَّرُّ وَالْعَلَانِيَةُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، الْقَائِمُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ، وَالْمُجَازِي لَهَا بِمَا أَحْتَقَبَتْ . وَحَقَّ جَلَالِ اللَّهِ ، وَعِزَّةِ اللَّهِ ، وَعِزَّةِ اللَّهِ ، وَعِزَّةِ اللَّهِ ، وَسَائِرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِيَّ ، وَصِفَاتِهِ الْعُلْيَا - إِنِّي مِنْ وَقْتِي هَذَا ، وَمِنْ سَاعَتِي هَذِهِ ، وَمَا مَدَّ اللَّهُ فِي عُمْرِي قَدْ أَخْلَصْتُ النَّيَّةَ ، وَلَا أَزَالُ مُجْتَهِدًا فِي إِخْلَاصِهَا ، وَأُضْفِيْتُ طَوِيبِي وَلَا أَزَالُ مُجْتَهِدًا فِي إِصْفَائِهَا ، فِي طَاعَةِ السُّلْطَانِ فَلَانِ ، وَطَاعَةِ وَلَدِهِ وَوَلِيِّ عَهْدِهِ فَلَانِ ، وَخِدْمَتِهِمَا وَمُؤَالَاتِهِمَا ، وَأَمْتَالِ مَرَّاسِمِهِمَا ، وَالْعَمَلِ بِأَمْرِهِمَا . وَإِنِّي وَاللَّهِ الْعَظِيمِ حَرْبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمَا ، سَلْمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمَا ، عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمَا ، وَوَلِيٌّ لِمَنْ وَالَاهُمَا . وَإِنِّي وَاللَّهِ الْعَظِيمِ لَا أَسْعَى فِي أَمْرٍ فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَى مَوْلَانَا السُّلْطَانِ ، وَلَا فِي مَضَرَّةٍ وَلَدِهِ ، فِي نَفْسٍ وَلَا سُلْطَنَةٍ ، وَلَا أَسْتِمَالَةٍ لغيرِهِمَا ، وَلَا أُوَافِقُ أَحَدًا عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ ، وَلَا مَكَاتِبَةٍ وَلَا مُشَافَهَةٍ ، وَلَا مَرَّاسَلَةٍ ، وَلَا تَصْرِيحٍ . وَإِنِّي وَاللَّهِ الْعَظِيمِ لَا أَذْخِرُ عَنِ السُّلْطَانِ وَلَا عَنِ وَلَدِهِ نَصِيحَةً فِي أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ مُلْكِهِمَا الشَّرِيفِ ، وَلَا أَخْفِيهَا عَنْ أَحَدِهِمَا ، وَأَنْ أَعْلِمَهُ بِهَا فِي أَقْرَبِ وَقْتٍ يُمْكِنُنِي الْإِعْلَامُ لَهُ بِهَا ، أَوْ أَعْلِمَ مِنْ يُعْلِمُهُ بِهَا ، وَأَنْ أَلْخُ ... (١) ...

(١) كذا في الأصل ولعله ترك الباقي اتكالا على ما سبق في الأيمان قبله .

النوع الثاني

(من الأيمان التي يُحَلِّفُ بها المسلمون أيمانُ أهلِ البِدْعِ .
والذين منهم بهذه المملكةِ ثلاثُ طوائِفِ)

الطائفة الأولى

(الخوارجُ)

وَهُمْ قَوْمٌ مِمَّنْ كَانُوا مَعَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، حَمَلُوهُ عَلَى أَنْ رَضِيَ بِالْتَّحْكِيمِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، وَأَشَارُوا بِإِقَامَةِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ حَكَمًا عَنْ عَلِيٍّ ، وَإِقَامَةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ حَكَمًا عَنْ مُعَاوِيَةَ ، نَخَّدَعُ عَمْرٍو أَبَا مُوسَى : بِأَنْ أَتَّفَقَ مَعَهُ عَلِيٌّ أَنْ يَخْلَعَا عَلِيًّا وَمُعَاوِيَةَ جَمِيعًا ، وَيُقِيمَ الْمُسْلِمُونَ لَهُمْ خَلِيفَةً يَخْتَارُونَهُ ، فَتَقَدَّمَ أَبُو مُوسَى وَأَشْهَدَ مَنْ حَضَرَ أَنَّهُ خَلَعَهُمَا ، فَوَافَقَ عَمْرٍو عَلَى خَلْعِ عَلِيٍّ ، وَلَمْ يَخْلَعْ مُعَاوِيَةَ ، وَبَقِيَ الْأَمْرُ لِمُعَاوِيَةَ . فَأَنْكَرُوا ذَلِكَ حِينَئِذٍ ، وَرَفَضُوا التَّحْكِيمَ ، وَمَنْعُوا حُكْمَهُ ، وَكَفَرُوا عَلِيًّا وَمُعَاوِيَةَ وَمَنْ كَانَ مَعَهُمَا بِصَفِيٍّ ، وَقَالُوا : لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَخَرَجُوا عَلَى عَلِيٍّ ، فَسُمُّوا الْخَوَارِجَ ، ثُمَّ فَارَقُوهُ وَذَهَبُوا إِلَى النَّهْرَوَانَ فَأَقَامُوا هُنَاكَ ، وَكَانُوا أَرْبَعَةَ آلَافٍ غَوَاةً لَا رَأْسَ لَهُمْ ، فَذَهَبَ إِلَيْهِمْ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَاتَلَهُمْ ، فَلَمْ يُقَلِّتْ سِوَى تِسْعَةِ أَنْفُسٍ : ذَهَبَ مِنْهُمْ اثْنَانِ إِلَى عُثْمَانَ ، وَاثْنَانِ إِلَى كَرْمَانَ ، وَاثْنَانِ إِلَى بَيْحِسْتَانَ ، وَاثْنَانِ إِلَى الْجَزِيرَةِ ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْيَمَنِ ، فَظَهَرَتْ بِدْعَتُهُمْ بِتِلْكَ الْبِلَادِ وَبَقِيَتْ بِهَا .

ثُمَّ مِنْ مَدْهَبِهِمْ مَنَعَ التَّحْكِيمَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَتَخَطَّطُ عَلَيْهِ وَأَصْحَابِيهِ ، وَمُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِيهِ بِصَفِيٍّ فِي أَعْتَادِهِمْ إِيَّاهُ ، بَلْ تَكْفِيرُهُمْ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ، وَمِنْهَا أَمْتِنَاعُ ذَلِكَ عَنْ رِضَا أَصْلًا (٩) وَأَنَّهُمْ يَمْنَعُونَ التَّأْوِيلَ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى . وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ سُورَةَ

يُوسَفَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَيْسَتْ مِنَ الْقُرْآنِ، وَإِنَّمَا هِيَ قِصَّةٌ مِنَ الْقِصَصِ، وَمَنْ
أَدْخَلَهَا فِي الْقُرْآنِ فَقَدْ زَادَ فِيهِ مَا لَيْسَ مِنْهُ، عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرَهُ. وَيَقُولُونَ:
إِنَّ إِمَارَةَ بَنِي أُمَيَّةٍ كَانَتْ ظُلْمًا، وَإِنَّ قَضَاءَهُمُ الَّذِي رَتَّبُوهُ عَلَى التَّحْكِيمِ بَاطِلٌ.
وَيَذْهَبُونَ إِلَى تَحْطِئَةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ فِيمَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ عِنْدَ
تَحْكِيمِهِمَا، وَيُسْتَعْنُونَ عَلَى مَعَاوِيَةَ وَأَصْحَابِهِ، وَيَقُولُونَ: اسْتَبَاحُوا الْفُرُوجَ وَالْأَمْوَالَ
بِغَيْرِ حَقٍّ.

ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِالْكَبَائِرِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْفُرُ بِالْإِصْرَارِ عَلَى الصَّغَائِرِ بِخِلَافِ الْكِبَائِرِ
مِنْ غَيْرِ إِصْرَارٍ عَلَى مَا يَأْتِي ذِكْرَهُ. وَيَصُوبُونَ فَعْلَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ فِي قَتْلِهِ عَلِيًّا
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَيُنْكِرُونَ عَلَى مَنْ يُنْكِرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ، لَا سِيَّمَا مَنْ ذَهَبَ مِنَ الشَّيْعَةِ إِلَى
أَنَّ ذَلِكَ كُفْرٌ. وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ شَاعِرُهُمْ:

يَا ضَرْبَةً مِنْ وَلِيٍّ مَا أَرَادَ بِهَا * إِلَّا لِيَبْلُغَ مِنْ ذِي الْعَرْشِ رِضْوَانَا

إِنِّي لَأَذْكُرُهُ يَوْمًا فَأَحْسَبُهُ * أَوْفَى الْخَلِيقَةِ عِنْدَ اللَّهِ مِيزَانَا

وَكَذَلِكَ يَصُوبُونَ فِعْلَ عَمْرٍو بْنِ بَكْرِ الْخَارِجِيِّ فِي قَتْلِ خَارِجَةَ بْنِ أَبِي حَبِيبَةَ صَاحِبِ
شُرْطَةِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ بِمَضْرٍ، حِينَ قَتَلَهُ عَلَى ظَنِّ أَنَّهُ عَمْرٍو بْنُ الْعَاصِ، لَمَّا لَمْ
عِنْدَهُ مِنَ الْإِحْنِ وَالضَّغَائِنِ. وَأَنْهُمْ يَصُوبُونَ فِعْلَ قَطَامِ زَوْجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ
فِي وَأَنْهُمْ يَسْتَعْظِمُونَ خَلْعَ طَاعَةِ رُءُوسِهِمْ، وَأَنْهُمْ يُجَوِّزُونَ كَوْنَ الْإِمَامِ غَيْرِ

(١) فِي الْمَلَلِ ص ٦٩ "مَنْ مَنِيْب" وَفِي كَامِلِ ابْنِ الْأَثِيرِ ج ٣ ص ١٧١ «مَنْ شَقِيَ».

(٢) فِي الْأَصْلِ حَنِيفَةٌ وَهِيَ تَصْجِيفٌ وَالتَّصْحِيحُ مِنْ كَامِلِ ابْنِ الْأَثِيرِ ج ٣ ص ١٧٠.

(٣) بِيَاضٍ بِالْأَصُولِ وَلَعَلَّهُ «فِي اشْتِرَاطِهَا عَلَى ابْنِ مُلْجَمٍ حِينَ خَطَبَهَا ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَعَبْدًا وَقِيْنَةً وَقَتْلَ عَلِيٍّ»

أَنْظَرَ كَامِلُ ابْنِ الْأَثِيرِ ج ٣ ص ١٦٨ وَ ١٦٩.

قُرَيْشِيٌّ ، بَلْ هُمْ يَجُوزُونَ إِمَامَةَ الْحُرِّ وَالْعَبْدِ جَمِيعًا ، وَيَنْسُبُونَ مِنْ خَالِفِهِمْ إِلَى الْخَطِإِ ، وَيَسْتَبِيحُونَ دِمَاءَهُمْ بِمُقْتَضَىٰ ذَلِكَ .

واعلم أن ما تقدم ذكره من معتقدات الخوارج هو مُقْتَضَىٰ ما رتبته من يمينهم في "التعريف" على ماسياتي ذكره . على أن بعض هذه المعتقدات يختص بها بعض فرق الخوارج دون بعض على ماسياتي بيانه ، ولكل منهم معتقدات أخرى تزيد على ما تقدم ذكره .

وهنا أذكر بعض فرقهم ، وبعض ما اختلفت [به] كل فرقة منهم ، ليبيّن على ذلك من أراد ترتيب يمين لفرقة منهم :

فمنهم المُحَكِّمَةُ - وهم الذين ينعون التَّحْكِيمَ .

ومنهم الأزارقة - وهم أتباع نافع بن الأزرق ، وهم الذين خرجوا بفارس وكرمان أيام ابن الزبير ، وقتلهم المهلب بن أبي صفرة ، وهم الذين يكفرون علياً مع جمع من الصحابة ، ويصوبون فعل ابن ملجم ، ويكفرون القعدة عن القتال مع الإمام وإن قاتل أهل دينه ، ويبيحون قتل أطفال المخالفين ونسائهم ، ويسقطون الرجم عن الزاني المُحصن ، وحدّ القذف عن قاذف الرجل المُحصن دون قاذف المرأة المُحصنة ، ويُخرجون أصحاب الكبائر عن الإسلام ، ويقولون : التَّقِيَّةُ غير جائزة .

ومنهم النجدات - وهم أصحاب نجد بن عامر ، يكفرون بالإصرار على الصغائر دون فعل الكبائر من غير إصرار ، ويستحلون دماء أهل العهد والذمة وأموالهم في دار التَّقِيَّةِ ، ويتبرؤون ممن حرّمها .

ومنهم البيهسية - وهم أصحاب أبي بهس بن خالد، يرون أنه لآحرام إلا ما وقع عليه النص بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِيهَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية . ويكفرون الرعية بكفر الإمام .

ومنهم المعجزة - وهم الذين ينكرون كون سورة يوسف من القرآن ، ويقولون : إنما هي قصة من القصص ، ويوجبون التبري من الطفل فإذا بلغ دعي إلى الإسلام .

ومنهم الميمونية - وهم فرقة يقولون : إن الله تعالى يريد الخير دون الشر ، ويحوزون نكاح بنات البنات وبنات أولاد الإخوة والأخوات .

ومنهم الإباضية - يرون أن مرتكب الكبيرة كافر للنعمة لأمشرك ، ويرون أن دار مخالفهم من المسامير دار توحيد ، ودار السلطان منهم دار بغي .

ومنهم الثعالبة - يرون ولاية الطفل حتى يظهر عليه إنكار الحق فيتبرءون منه .

ومنهم الصفرية - يرون أن ما كان من الجائر فيه حد كالزنا لا يكفر به ، وما كان منها ليس فيه حد : كتترك الصلاة يكفر به .

وكان الذي أورده في "التعريف" متفق عليه عندهم ، أو هو قول أكثرهم فاكنتى به .

وقد رتب في "التعريف" تخليفهم على مقتضى ما ذكره من اعتقادهم فقال :

وَأَيَّمَانُهُمْ أَيْمَانُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، وَيَزَادُ فِيهَا : وَإِلَّا أَبْجَزْتُ التَّحْكِيمَ ، وَصَوَّبْتُ قَوْلَ الصَّرِيقَيْنِ فِي صِغْفَيْنَ ، وَأَطَعْتُ بِالرِّضَا مَنْ حَكَّمَ أَهْلَ الْجَوْرِ ، وَقُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ

(١) كذا بالأصول ، والذي في "القاموس" و"الملل والنحل" للشهرستاني أن أبا بهس اسمه "الهيصم ابن جابر" ولعل ما في الأصول تصحيف .

بالتأويل : وأدخلت في القرآن ما ليس منه . وقلت : إن إمارة بنى أمية عدلٌ ، وإن قضاءهم حقٌ ، وإن عمرو بن العاص أصاب ، وإن أبا موسى ما أخطأ ، وأسْتَبَحْتُ الأموال والفروج بغير حق ، وأجترحتُ الكجائر والصغائر ، ولقيتُ الله مثقلاً بالأوزار ، وقلت : إن فعلة عبد الرحمن بن ملجم كُفِرَ ، [وإن قاتل خارجة آثم ، وبرئت من فعلة قطام ^(١) ،] وخلصت طاعة الرؤوس ، وأنكرت أن تكون انخلافة إلا في قریش ، وإلا فلا رويت سيني ورُحِي من دماء الخُطيين .

الطائفة الثانية (الشَّيْمَةُ)

وهم الذين شايعوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقالوا بإمامته وخلافته : نصاً ووصايةً : [إماماً] جليلاً أو خفياً ، وإن الامامة لا تخرج عنه وعن بيته إلا بظلم من غير ذلك الإمام ، أو بتقية منه لغيره .

قال الشهرستاني في " النحل والملل " : ويجمعهم القول بوجوب التعيين للأمام والتنصيب عليه ممن قبله ، وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكجائر والصغائر ، والقول بالتولي للأئمة والتبري من غيرهم .

وقال في " التعريف " : يجمعهم حبُّ علي رضي الله عنه ، وتختلف فرقتهم فيمن سواه .

فأما مع إجماعهم على حبه فهم مختلفون في اعتقادهم فيه ، فمنهم أهل غلو مفرط وعوزائد : ففهم من أدى به الغلو إلى أن اتخذ علياً الهاً وهم النصيرية . قال : ومنهم

(١) الزيادة من " التعريف " ص ١٦٢ .

(٢) عبارة الشهرستاني « بظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده » وهي أوضح .

من قال : إنه النبي المرسل وإن جبريل غلط . ومنهم من قال : إنه شريك في النبوة والرسالة . ومنهم من قال : إنه وصي النبوة بالنص الجلي ، ثم تخالفوا في الإمامة بعده وأجمعوا بعده على الحسن ثم الحسين . وقالت فرقة منهم : وبعدهما محمد بن الحنفية .

ثم قد ذكر في "التعريف" أن الموجود من الشيعة في هذه المملكة خمس فرق :

الفرقة الأولى

(الزيدية)

وهم القائلون بإمامة زيد بن علي بن الحسين السبط ، ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهو الذي رأسه مدفون بالمشهد الذي بين كيان مصر ، جنوبي الجامع الطولوني ، المعروف بمشهد الرأس ، فيما ذكره القاضي محيي الدين ابن عبد الظاهر في خطط القاهرة . قال في "التعريف" : وهم أقرب القوم إلى القصد الأمم . قال : ولهم إمام باقي اليمن إلى الآن ، وصنعاء داره ، وأمرأ مكة المعظمة منهم . ثم قال : وحدثني مبارك بن عطيفة بن أبي نمي : أنهم لا يدينون إلا بطاعة ذلك الإمام ، ولا يرون إلا أنهم نوابه ، وإنما يتقون صاحب مصر لخوفهم منه وللاقطاع ، وصاحب اليمن لمداراته لواصل الكارم ورؤسوم الأنعام . ومن ثم عدّهم في جملة من بهذه المملكة من طوائف البدع .

وكان من مذهب زيد هذا جواز إمامة المفضل مع قيام الأفضل ، ويقول : إن علياً رضي الله عنه كان أفضل الصحابة رضوان الله عليهم ، إلا أن الإمامة فوّضت إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها : من تسكين نائرة الفتنة ، وتطبيب قلوب العامة ، مع تفضيل علي على الشيخين عندهم في أوانهم .

وأتباعه يعتقدون أنّ هذا هو المعتقد الحقّ، ومن خالفه نرجح عن طريق الحقّ،
وضل عن سواء السبيل .

وهم يقولون : إن نصّ الأذان بدل الحيعتين : «حَيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» يقولونها
في أذانهم مرتين بدل الحيعتين، وربما قالوا قبل ذلك : «مُحَمَّدٌ وَعَلِيٌّ خَيْرُ الْبَشَرِ،
وَعِترَتُهُمَا خَيْرُ الْعِترِ» ومن رأى أن هذا بدعة فقد حاد عن الجادة .

وهم يسوقون الإمامة في أولاد عليّ كرم الله وجهه من فاطمة رضى الله عنها،
ولا يجوزون ثبوت الإمامة في غير بنيهما، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل فاطميّ
عالم زاهد شجاع نرجح لطلب الإمامة إماماً معصوماً واجب الطاعة، سواء كان من
ولد الحسن أو الحسين عليهما السلام، ومن خلع طاعته فقد ضلّ . وهم يرون أن
الإمام المهديّ المنتظر من ولد الحسين رضى الله عنه دون ولد الحسن، ومن خالف
في ذلك فقد أخطأ . ومن قال : إن الشيخين أبا بكرٍ وعمر رضى الله عنهما أفضل
من عليّ وبنيه فقد أخطأ عندهم وخالف زيّداً في معتقده . ويقولون : إن تسليم
الحسن الأمر لمعاوية كان لمصلحة اقتضاها الحال، وإن كان الحق له .

قال في "التعريف" : "وَأَيُّهُمْ أَيْمَانُ أَهْلِ السُّنَّةِ ، يَعْنِي فَيَحْلَفُونَ كَمَا تَقَدَّمَ ،
ويزاد فيها : وإلا برئت من معتقد زيد بن عليّ، ورأيت أن قولي في الأذان : «حَيَّ
عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ» بدعة، وخلعت طاعة الإمام المعصوم الواجب الطاعة، وأدعت
أن المهديّ المنتظر ليس من ولد الحسين بن عليّ، وقلت : بتفضيل الشيخين علي
أمير المؤمنين عليّ وبنيه، وطعنت في رأى ابنه الحسن لما اقتضته المصلحة،
وطعنت عليه فيه .

الفرقة الثانية (من الشيعة الإمامية)

وهم القائلون بإمامة اثني عشر إماما : أولهم أمير المؤمنين علي المرتضى ، ثم ابنه الحسن المجتبي ، ثم أخوه الحسين شهيد كربلاء ، ثم ابنه علي السجاد زين العابدين ، ثم ابنه محمد الباقر ، ثم ابنه جعفر الصادق ، ثم ابنه موسى الكاظم ، ثم ابنه علي الرضا وهو الذي عهد إليه المأمون بالخلافة ومات قبل أن يموت المأمون ، ثم ابنه محمد التقي ، ثم ابنه علي النقي ، ثم ابنه الحسن الزكي المعروف بالعسكري ، ثم ابنه محمد الحجة ، وهو المهدي المنتظر عندهم ، يقولون إنه دخل مع أمه صغيرا سردابا بالحلة على القرب من بغداد فمقد ولم يعد ، فهم ينتظرونه إلى الآن ، ويقال : إنهم في كل ليلة يقفون عند باب السرداب ببغلة مشدودة ملجمة من الغروب إلى مغيب الشفق ينادون : أيها الإمام ! قد كثرت الظلم ! وظهر الجور فأخرج إلينا ! ثم يرجعون إلى الليلة الأخرى ، وتلقب هذه الفرقة بالاثني عشرية أيضا ، لقولهم بإمامة اثني عشر إماما ، وبالموسوية لقولهم بانتقال الخلافة بعد جعفر الصادق إلى ابنه موسى الكاظم المقدم ذكره دون أخيه إسماعيل إمام الإسماعيلية الآتي ذكره ، وبالقطعية لقولهم بموت إسماعيل المذكور في حياة أبيه الصادق والقطع بانتقال الإمامة إلى موسى .

قال في "التعريف" : وهم مسلمون ، إلا أنهم أهل بدعة كبيرة سبابة .

وهم يقولون : بإمامة علي رضي الله عنه نصا ظاهرا ، وتعيينا صادقا ، احتجاجا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «من يبايعني على ماله ، فبايعه جماعة» ، ثم قال :

من يبايعني على رُوحه وهو وصيُّي ووليُّ هذا الأمر من بعدي ، فلم يبايعه أحدٌ ، حتى مدَّ أمير المؤمنين عليُّ عليه السلام يده إليه فبايعه على رُوحه ووفى بذلك .

قال في "العبر" : وهذه الوصية لا تُعرف عن أحدٍ من أهل الأثر ، بل هي من موضوعاتهم ؛ ويخصونه بوراثة علم النبي صلى الله عليه وسلم .

ويروون أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم غدِرخم : «من كنت مولاه فعليُّ مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه ، وأدر الحق على لسانه كيفما دار» ويرون أنَّ بيعة الصديق رضي الله عنه يوم السقيفة غير صحيحة : حين اجتمع الأنصار بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم على سعد بن عبادة في سقيفة بني ساعدة ليبايعوه ، وذهب إليهم أبو بكر رضي الله عنه ومعه عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ، وروى لهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : «لا يصلح هذا الأمر إلا لهذا الحَيِّ من قريش» فرجعوا إلى قوله وبايعه عمر ، ثم بايعه الناس على ما تقدم ذكره في الكلام على مبايعات الخلفاء في المقالة الخامسة ، وأنَّ القائم فيها مجتمراً لا سيما أول بادٍ بذلك . ويقولون : إن الحق كان في ذلك لعليُّ بالوصية . ويقولون : إن القيام على أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وحصره في الدار كان واجباً لأعتقادهم عدم صحة خلافته مع وجود علي رضي الله عنه ، وإن المتأخر عن حصره كان مُحطاً . ويرون جواز التقيية خوفاً على النفس ، وأنَّ علياً رضي الله عنه إنما تأخر عن طلب الإمامة عند قيام من [كان] قبله بها تقيية على نفسه . ويرون أنَّ من أعان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الخلافة كان مُحطاً : لبطلان خلافته بترتيبها على خلافة أبي بكرٍ ووجود علي الذي هو أحقُّ بها . ويزعمون أنَّ الصديق رضي الله عنه منع فاطمة رضي الله عنها حقها من إرثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم تعدياً ، وأنَّ

مَنْ سَاعَدَ فِي تَقْدِيمِ تَيْمٍ بِخِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، أَوْ تَقْدِيمِ عَدِيٍّ بِخِلَافَةِ عُمَرَ ، أَوْ تَقْدِيمِ
أُمَيَّةَ بِخِلَافَةِ عُثْمَانَ كَانَ مُحْطَطًا . وَيَزْعُمُونَ أَنَّ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لَمْ يُصَبِّ فِي جَعَلِ
الْأَمْرِ شُورَى بَيْنَ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، لِأَسْتَحْقَاقِ
تَقْدِيمِ عَلِيٍّ عَلَى الْجَمِيعِ .

وَيَصَوِّبُونَ قَوْلَ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيمَا كَانَ مِنْ مَوَاقِفِهِ فِي حَدِيثِ
الإفكِ فِي حَقِّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَلَا يَرَوْنَ تَكْذِيبَهُ فِي ذَلِكَ . وَيَرَوْنَ أَنَّ عَائِشَةَ
أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ مُحْطَطَةً فِي قِيَامِهَا عَلَى عَلِيٍّ يَوْمَ الْجَمَلِ ، وَأَنَّ مَنْ قَامَ
مَعَهَا كَانَ مُحْطَطًا لِلْوِاقِفَةِ عَلَى الْخَطِإِ .

وَيَقُولُونَ إِنَّ مَنْ قَامَ مَعَ مَعَاوِيَةَ عَلَى عَلِيٍّ بِصِفِّينَ وَشَهْرَ السَّيْفِ مَعَهُ عَلَيْهِ فَقَدْ
أَرْتَكَبَ مَحْظُورًا . وَيُنْكِرُونَ مَا وَقَعَ مِنْ زِيَادِ بْنِ أَبِيهِ مِنَ الدَّعْوَى الْبَاطِلَةِ . وَذَلِكَ
أَنَّهُ بَعْدَ قَتْلِ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَهَّزَ جَيْشًا إِلَى الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ مَعَ مُسْلِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ
فَقَتَلُوا وَسَبُّوا وَبَايَعُوا مِنْ تَبِعِهِمْ عَلَى أَنَّهُمْ خَوْلٌ لِيَزِيدَ .

وَيَقُولُونَ : بِيْطْلَانَ حُكْمِ أَبِي مَرْجَانَةَ . وَيَعُدُّونَ مِنَ الْعِظَائِمِ قِيَامَ عُمَرَ بْنِ سَعْدٍ
فِي قِتَالِ الْحُسَيْنِ ، وَحَقِيقٌ أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ وَيَسْتَعْظِمُوهُ ! فَقَدْ قِيلَ : لِأَنَّهُ بَعْدَ
قَتْلِهِ أَمَرَ جَمَاعَةً فَوَطَّئُوا صَدْرَ الْحُسَيْنِ وَظَهَرَهُ بِالْحَيْلِ ، وَكَانَ يَزِيدُ قَاتِلَهُ اللَّهُ
قَدْ أَمَرَهُ بِذَلِكَ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ الْأَمْرَ صَارَ بَعْدَ الْحُسَيْنِ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى أَخِيهِ الْحُسَيْنِ ، وَيَقُولُونَ :
إِنَّ الْإِمَامَةَ عِنْدَ الْحُسَيْنِ مُسْتَوْدَعَةٌ لِامُسْتَقَرَّةٍ ، وَلِذَلِكَ لَمْ تَثْبُتْ فِي بَيْتِهِ . وَيَعُدُّونَ
مِنَ الْعِظَائِمِ فِعْلَ شَمْرِ بْنِ [ذِي] الْجَوْشَنِ : وَهُوَ الَّذِي أَحْتَرَّ رَأْسَ الْحُسَيْنِ ، وَأَنَّ
مَنْ سَاعَدَهُ عَلَى ذَلِكَ مُرْتَكِبٌ أَعْظَمَ مَحْظُورَاتٍ بِأَشَدِّ بَلَاءَةٍ ، وَحَقِيقٌ ذَلِكَ أَنْ
يَسْتَعْظِمُوهُ ! فَأَيُّ جَرِيْمَةٍ أَعْظَمُ مِنْ قَتْلِ سَبِيِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ .

وقد ذكر صاحب "نظم السمط في خبر السببط" : أنه وُجد في حجر مكتوب قبل البعثة بألف سنة ما صورته :

أترجو أمة قتلت حسيناً * شفاعته جدّه يوم الحساب؟

ويقال : إن الذي أحتر رأس الحسين إنما هو سنان بن أنس النخعي . ويعُدون من العظام أيضاً سبي معاوية أهل البيت عند غلبة علي رضي الله عنه بصفيين وسوقهم معه إلى دمشق سوقاً بالعصي . ويرون أن خلافة يزيد بن معاوية كانت من أعظم البلايا ، وأن المغيرة بن شعبه أخطأ حيث أشار على معاوية بها . ويقولون بالتبري من عمرو بن العاص رضي الله عنه لأنتمائه إلى معاوية ، وخديمته أبا موسى الأشعري يوم الحكمين حتى خلع علياً ، وإن من ظاهره أو عاضده كان مُحطناً .

وكذلك يتبرءون من بسر بن [أبي] أرطاة : لأن معاوية بعثه إلى الحجاز في عسكر فدخل المدينة وسفك بها الدماء ، وأسكره الناس على البيعة لمعاوية ، وتوجه إلى اليمن بعد ذلك فوجد صبيين لعبيد الله بن عباس عاملين على اليمن ققتلهما .^(١)

ويرون تحطئة عقبة بن عبد الله المزني ، ويقدحون في رأي الخوارج : وهم الذين نخرجوا على علي رضي الله عنه بعد حرب صفين ، على ما تقدم ذكره [في الكلام] على أيمن الخوارج : وهو مفارقهم علياً رضي الله عنه ، وتحطتهم له في الغنائم .

ويقولون : إن الامامة انتقلت بعد الحسين السبط عليه السلام في أبنائه إلى تمام الأئمة عشر . فانتقلت بعد الحسين إلى ابنه زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد

(١) صوابه "عامل علي على اليمن" والصبيان هما قثم وعبد الرحمن أبنا عبيد الله انظر ج ٣ ص ١٦٦ من الكامل لابن الأثير .

الباقرة، ثم إلى ابنه جعفر الصادق، ثم إلى ابنه موسى الكاظم، ثم إلى ابنه علي الرضا، ثم إلى ابنه محمد النقي، ثم إلى ابنه علي النقي، ثم إلى ابنه الحسن الزكي، ثم إلى ابنه محمد الحجة، وهو المهدي المنتظر عندهم، على ما تقدم ذكره في أول الكلام على هذه الفرقة، وإن من خالف ذلك فقد خالف الصواب .

ويستعمون دلالة من دلّ بني أمية وبني العباس على مقاتل أهل البيت .
أما دلالة بني أمية، فبعد غلبة معاوية بصفيين . وأما دلالة بني العباس، فعند تنازع بني العباس وأهل البيت في طلب الخلافة، زمن أبي جعفر المنصور وما بعده .
ويقولون : ببقاء حكم المتعة : وهي النكاح المؤقت الذي كان في صدر الإسلام .
ويُسْنَعُونَ على نجدة بن عامر الحنفي الخارجي حيث زاد في حدّ النجر، وغلظ فيه تغليظاً شديداً، كما حكاه الشهرستاني عنهم .

ويستعظمون البراءة من شيعة أمير المؤمنين على رضي الله عنه، وأتباع أهوية أهل الشام من متابعي بني أمية والغوغاء القائمين بالنهر وان : وهم الخوارج الذين خالفوا علياً بعد قضية التحكيم بصفيين، وأقاموا بالنهر وان من العراق لقتال علي، ورئيسهم يومئذ عبد الله بن وهب، فسار اليهم علي وكانوا أربعة آلاف فقتلوا عن (١) آحدهم، ولم يقتل من أصحاب علي سوى سبعة أنفس .

ويرون أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه أخطأ في موافقته عمرو بن العاص رضي الله عنه : حيث حكم بخلع علي ولم يخلع عمرو معاوية .

ويعتمدون في القرآن الكريم على مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، دون المصحف الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، فلا يثبتون ما لم يثبت فيه قرأنا .

(١) أي ولم يبق منهم سوى تسعة تفرقوا في الجهات كما تقدم .

ويتبرءون من فعل ابن مُلجَم في قتله أمير المؤمنين رضى الله عنه ، وحق لهم التبرى
من ذلك .

ويرون أن مولاة ابن مُلجَم وإسماعلة في صداق زوجته قطام جريرة .

ويرون محبة قبيلة همدان من المحبوب المطلوب : لمشايعتهم علياً رضى الله عنه
ومحبتهم أهل البيت كما هو المشهور عنهم ؛ حتى يُحكى أن أمير المؤمنين علياً رضى الله
عنه صعد يوماً المنبر وقال : ألا لا يُنكحن أحد منكم الحسن بن علي فإنه مطلق ،
فنهض رجل من همدان وقال : والله لننكحنه ثم لننكحنه ! إن أمهر أمهر كشيفاً ،
وإن أولد أولد شريفاً ! . فقال علي رضى الله عنه حينئذ :

لو كنتُ بواباً على باب جنة * لقلتُ لهمدان أدخل بسلام!

ويقولون باشتراط العصمة في الأئمة ، فلا يكون من ليس بمعصوم
عندهم إماماً .

وقد رتب في " التعريف " يمينهم على هذه العقائد ، فقال : وهؤلاء يمينهم هي :
إني والله والله العظيم ، الرب الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وما اعتقده
من صدق محمد صلى الله عليه وسلم ونصه على إمامة ابن عمه ووارث علمه علي بن
أبي طالب رضى الله عنه يوم غدِير خُم ، وقوله : « من كنت مولاه فعلي مولاه
اللهم وال من والاه ! وعاد من عاداه ! وأدر الحق على لسانه كيف دار ! » . وإلا كنتُ
مع أول قائم يوم السقيفة ، وآخر متأخر يوم الدار ، ولم أقل بجواز التقيّة خوفاً على
النفس ، وأعتتُ ابن الخطاب ، وأضطهدتُ فاطمة ، ومنعتها حقها من الإرث ،
وساعدتُ في تقديم تيم وعدي وأمّية ، ورضيتُ بحكم الشورى ، وكذبتُ حسان بن

ثابت يوم عائشة، وقت معها يوم الجمل، وشهرت السيف مع معاوية يوم صفين،
 وصدقت دعوى زياد، ونزلت على حكم ابن مرجانة؛ وكنت مع عمر بن سعد
 في قتال الحسين، وقلت: إن الأمر لم يصبر بعد الحسن إلى الحسين، وساعدت شمر
 ابن [ذى] الجوشن على فعل تلك البلية، وسببت أهل البيت وسقتهم بالعصى إلى
 دمشق، ورضيت بإمارة يزيد، وأطعت المغيرة بن شعبة، وكنت ظهيرا لعمر بن
 العاص، ثم لبسرتن [أبي] أرطاة، وفعلت فعل عقبة بن عبد الله [الزبي] ^(١) وصدقت رأى
 الخوارج، وقلت: إن الأمر لم ينتقل بعد الحسين بن علي في أبنائه إلى تمام الأمة،
 إلى الإمام المهدي المنتظر، ودللت على مقاتل أهل البيت بني أمية وبني العباس،
 وأبطلت حكم التمتع، وزدت في حد الخمر ما لم يكن، وحرمت بيع أمهات الأولاد،
 وقلت: برأى في الدين، وبرئت من شيعة أمير المؤمنين، وكنت مع هوى أهل الشام
 والقوغاء القائمة بالهروان، وأتبعت خطأ أبي موسى، وأدخلت في القرآن ما لم يثبت
 ابن مسعود، وشركت ابن ملجم وأسعدته في صداق قطام، وبرئت من محبة
 همدان، ولم أقل باشرط العصمة في الإمام، ودخلت مع أهل النصب الظلام.
 قلت: قد ذكر في "التعريف" فرقة الإمامية هذه من الشيعة الذين بهذه المملكة،
 ولم أعلم أين مكانهم منها.

الفرقة الثالثة

(من الشيعة الإسماعيلية)

وهم القائلون بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق، وأن الأمامة انتقلت إليه بعد
 أبيه دون أخيه موسى الكاظم المقدم ذكره في الكلام على فرقة الإمامية. وهم

(١) الزيادة من "التعريف" (ص ١٥٩).

يوافقون الإمامية المتقدم ذكرهم في سوق الامامة من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
رضى الله عنه إلى جعفر الصادق، ثم يعدلون بها عن موسى الكاظم الذي هو الامام
عند الإمامية إلى إسماعيل هذا، ثم يسوقونها في بنيه، فيقولون: إن الامامة
انتقلت بعد أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى ابنه الحسن، ثم إلى أخيه الحسين،
ثم إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق،
ثم إلى ابنه إسماعيل - الذي تُنسب إليه هذه الفرقة - بالنص من أبيه. فمن قائل:
إن أباه مات قبله، وانتقلت الإمامة إليه بموته. ومن قائل: إنه مات قبل أبيه.
وفائدة النص ثبوتها في بنيه بعده. ثم يقولون: إنها انتقلت من إسماعيل المذكور
إلى ابنه محمد المكتوم، ثم إلى ابنه جعفر الصدوق، ثم إلى ابنه محمد الحبيب، ثم إلى
ابنه عبيد الله المهدي أول خلفاء الفاطميين ببلاد المغرب، وهو جد الخلفاء الفاطميين
بمصر؛ ثم إلى ابنه القائم بأمر الله أبي القاسم محمد: ثاني خلفاء الفاطميين ببلاد
المغرب؛ ثم إلى ابنه المنصور بالله أبي الطاهر إسماعيل: ثالث خلفاء الفاطميين
ببلاد المغرب؛ ثم إلى ابنه المعز لدين الله أبي تميم معد: أول خلفاء الفاطميين
بمصر بعد قيامه ببلاد المغرب (وهو باني القاهرة)؛ ثم إلى ابنه العزيز بالله أبي المنصور
نزار: ثاني خلفائهم بمصر؛ ثم إلى ابنه الحاكم بأمر الله أبي علي المنصور: ثالث
خلفائهم بمصر؛ ثم إلى ابنه الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي: رابع خلفائهم
بمصر؛ ثم إلى ابنه المستنصر بالله أبي تميم معد: خامس خلفائهم بمصر.

ثم من هاهنا أفرقت الإسماعيلية إلى فرقتين: مستعلوية ونزارية.

فأما المستعلوية فيقولون: إن الامامة انتقلت بعد المستنصر بالله المتقدم ذكره
إلى ابنه المستعلي بالله، أبي القاسم أحمد: سادس خلفائهم بمصر، ثم إلى ابنه الأمير

(١) كذا في الأصول ووقع في العبر «الصادق».

بأحكام الله أبي علي المنصور : سابع خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى ابنه الحافظ لدين الله (١) أبي الميمون عبد الحميد بن أبي القاسم : ثامن خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى ابنه الظافر بأمر الله أبي المنصور إسماعيل ، تاسع خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى ابنه الفائز بنصر الله أبي القاسم عيسى بن الظافر : عاشر خلفائهم بمصر ؛ ثم إلى العاضد لدين الله أبي محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ : حادي عشر خلفائهم بمصر ، وهو آخرهم حتى مات .

وأما النزارية فانهم يقولون : إن الإمامة انتقلت بعد المستنصر إلى ابنه نزار بالنص من أبيه دون ابنه المستعلي ؛ ويستندون في ذلك إلى أن الحسن بن الصباح كان من تلامذة أحمد بن غطاش صاحب قلعة أصفهان والموت ، وكان شهماً عالمياً بالتعاليم والتنجوم والسحر ، فأتهمه ابن غطاش بالدعوة للفاطميين خلفاء مصر ، فخاف وهرب منه إلى مصر في خلافة المستنصر المتقدم ذكروه ، فأكرمه وأمره بدعاية الناس إلى إمامته ، فقال له ابن الصباح : من الإمام بعدك ؟ فقال له : أبن نزار ، فعاد ابن الصباح من مصر إلى الشام والجزيرة وديار بكر وبلاد الروم ، ودخل نجرسان ، وعبر إلى ما وراء النهر ، وهو يدعو إلى إمامة المستنصر وأبنه نزار بعده . قال الشهرستاني في "النحل والملل" : وصعد قلعة الموت في شعبان سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة وأستظهر وتمحصن .

ثم النزارية يزعمون أن نزاراً المذكور خرج من الإسكندرية حَمَلًا في بطن جارية ، تقيّة على نفسه ، وخاض بلاد الأعداء حتى صار إلى الموت . ورأيت في المغرب

(١) الصواب «ثم إلى الحافظ» وفي المقرئ ج ١ ص ٣٥٧ «ومن بعده الحافظ ... ابن الأمير أبي القاسم محمد» ووقع في ج ٣ ص ٤٣١ من هذا المطبوع «ثم ولي بعده ابن عمه الحافظ ... عبد الحميد بن الأمر أبي القاسم محمد الخ» وفيه بعض التصحيف فغلبه .

لأَبْنِ سَعِيدٍ أَنَّهُ إِذَا صَارَ مِنْ عَقْبِهِ مَنْ وَصَلَ إِلَى تِلْكَ الْبِلَادِ ، وَصَارَتِ الْإِمَامَةُ فِي بَيْتِهِ هُنَاكَ .

والمستعلوية يُنكرون ذلك إنكاراً ، ويقولون : إنه قُتِلَ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ : سَارَ إِلَيْهِ الْأَفْضَلُ بْنُ أَمِيرِ الْجُيُوشِ وَزَيْرِ الْمُسْتَعْلِيِّ وَحَاصَرَهُ بِالْإِسْكَانْدَرِيَّةِ ، ثُمَّ ظَفِرَ بِهِ وَأَتَى بِهِ إِلَى الْمُسْتَعْلِيِّ ، فَبَنَى عَلَيْهِ حَائِطَيْنِ فَاتَ ، ثُمَّ فَرَّ بِعُضِّ بَنِي نِزَارٍ إِلَى بِلَادِ الْمَشَارِقِ (٢) وَأَقَامَ بِالْمَغْرِبِ ، وَالْقَائِمُونَ بِهَا الْآنَ مِنْ وَوَلَدِهِ ، وَهُوَ الَّذِي تَشْهَدُ بِهِ كُتُبُ التَّوَارِيخِ : كَمَغْرِبِ ابْنِ سَعِيدٍ وَغَيْرِهِ .

ثُمَّ الْإِسْمَاعِيلِيَّةُ فِي الْجُمْلَةِ : مِنَ الْمُسْتَعْلَوِيَّةِ وَالنَّزَارِيَّةِ يَسْمُونَ أَنْفُسَهُمْ أَصْحَابَ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَّةِ ، تَبَعًا لِإِمَامِهِمْ إِسْمَاعِيلَ الْمَذْكُورِ ، فَإِنَّهُ كَانَ يُسَمَّى صَاحِبَ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَّةِ .

قَالَ فِي "التعريف" : وَهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ وَقَالُوا بِقَوْلِ الْإِمَامِيَّةِ ، ثُمَّ خَالَفُوهُمْ فِي مُوسَى الْكَاطِمِ وَقَالُوا : إِنَّ الْإِمَامَةَ لَمْ تَصْرُ إِلَّا إِلَى أَخِيهِ إِسْمَاعِيلَ ، فَإِنَّهُمْ طَائِفَةٌ كَافِرَةٌ يَعْتَقِدُونَ التَّنَاسُخَ وَالْحُلُولَ .

وَذَكَرَ فِي "مسالك الأبصار" : أَنَّ مُلَخَّصَ مُعْتَقِدِهِمُ التَّنَاسُخُ . ثُمَّ قَالَ : وَلَقَدْ سَأَلْتُ الْمَقْدَمَ عَلَيْهِمُ وَالْمُشَارَإِلَيْهِ فِيهِمْ : (وَهُوَ مُبَارَكُ بْنُ عَلْوَانَ) عَنْ مُعْتَقِدِهِمْ وَجَادِبَتَهُ الْحَدِيثَ فِي ذَلِكَ مَرَّارًا ، فَظَهَرَ لِي مِنْهُ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ الْأَرْوَاحَ مَسْجُونَةٌ فِي هَذِهِ الْأَجْسَامِ الْمَكْلُفَةِ بِطَاعَةِ الْإِمَامِ الْمُطَهَّرِ عَلَى زَعْمِهِمْ . فَإِذَا أَنْتَقَلَتِ عَلَى الطَّاعَةِ

(١) لعل الصواب «فرالى الاسكندرية» ليستقيم الكلام بعد وقد ذكر المقرئى خبره ج ١ ص ٢٣٤

على وجه الصحة فتنبه .

(٢) كذا بالأصل ولعل مراده بلاد مشارق أفريقيا كما سيأتى .

كانت قد تخلّصت وانتقلت للأنوار العلوية ، وإن أنتقلت على العصيان هوت في الظلمات السفلية .

وذكر في "العبر" : أن منهم من يدعى ألوهية الإمام بنوع الحُلُول ، ومنهم من يدعى رجعة من مات من الأئمة بنوع التناسخ والرجعة ، ومنهم من ينتظر مجيء من يقطع بموته ، ومنهم من ينتظر عود الأمر إلى أهل البيت .

ثم المستعلوية والنزارية يتفقون في بعض المعتقدات ويختلفون في بعضها .

فأما ما يتفقون عليه من الاعتقاد ، فهم يتفقون على أنه لا بد من إمام معصوم : ظاهر أو مستور . فالأئمة الظاهرون هم الذين يُظهرون أنفسهم ويدعون الناس إلى إمامتهم ، والمستورون هم الذين يستترون ويظهرون دعواتهم . وآخر الظاهرين عندهم إسماعيل الذي ينسبون إليه ، وأول المستورين ابنه المكنوم . ومن معتقدتهم أن من مات ولم يعرف إمام زمانه أو لم يكن في عنقه بيعة إمام ، مات ميتة جاهلية . ويرون أن العلم لا يكون إلا بالتعليم من الأئمة خاصة ، وأن الأئمة هم هداة الناس . ويقولون : إن للأئمة أدواراً في كل دورٍ منها سبعة أئمة : ظاهرين أو مستورين . فإن كان أهل الدور ظاهرين يسمّى ذلك الدور دور الكشف ، وإن كانوا مستورين يسمّى دور السّر . ويقولون بوجوب موالاة أهل البيت ، ويتبرءون ممن خالفهم ، وينسبونهم إلى الأخذ بالباطل ، والوقوف في الضلال ، لاسيما النواصب ، وهم الطائفة المعروفة بالناصبية أتباع^(١) ، ويرمونهم بالعظائم ، وينسبونهم إلى اعتماد المحال والأخذ به . ومن خرج عن القول بانتقال الإمامة بعد الحسن

(١) بياض في الأصول .

السُّبُط عليه السلام ، ثم أخيه الحُسَيْن ، ثم في أُمَّتِهِم المتقدم ذكرهم ، إلى إمامهم
 إسماعيل الذي يُنسَبون إليه بالنَّصِّ الجَلِيِّ ، فقد حادَّ عن الحَقِّ . وهم يعظمون
 ويستعظمون القَدْح فيه ، وأن من وقع في ذلك فقد ارتكب خطأً كبيراً .

ولدعاة الأئمَّة المستورين عندهم من المَكَاة وعلو الرتبة الرتبة العُظمى ، لا سيَّما
 الداعي القائمُ بذلك أوَّلاً : وهو الداعي إلى محمد المكتوم أوَّلي أُمَّتِهِم المستورين على
 ما تقدَّم ذكره ، فإن له من الرتبة عندهم فوق ما لغيره من الدعاة القائمين بعده .

ومَّا اشتهر من أمرِ الدعاة لأُمَّتِهِم المستورين أنه كان مَن يُنسَب إلى التَّشيعِ
 رجُلٌ اسمه رمضان ، ويقال : انه صاحب كتاب "الميزان" في نُصرة الزندقة ، فولد
 له ولدٌ يقال له : ميمونٌ ، نشأ على أهبة في التَّشيع والعلم بأسرار الدعاء لأهل البيت ،
 ثم نشأ لميمونٍ ولدٌ يقال له : عبدالله ، وكان يعالج العيون ويقدها ، فسمي القَدَّاح ،
 وأُطاع على أسرار الدعوة من أبيه ، وسار من نواحي كَرْخ وأصبهان إلى الأهواز
 والبصرة وسامية من أرض الشام يدعو الناس إلى أهل البيت ، ثم مات ونشأ له ولدٌ
 يسمي أحمد فقام مقام أبيه عبد الله القَدَّاح في الدعوة ، وصحبه رجلٌ يقال له رستم
 ابن الحسين بن حوشب النجاري من أهل الكوفة ، فأرسله أحمد إلى اليمن ، فدعا
 الشيعة باليمن إلى عبد الله المهدي فأجابوه ، وكان أبو عبد الله الشيعي من أهل صنعاء
 من اليمن ، وقيل من أهل الكوفة ، يصحبُ ابن حوشب ، فخطب عنده وبعثه إلى
 المغرب . ومن نسب أحدًا من هذه الدعاة إلى ارتكاب محظورٍ أو احتقَابٍ إثمٌ فقد
 ضلَّ وخرج عن جادة الصواب عندهم . ويرون تحطُّة من مالاً على الإمام عبيد الله
 المهدي : أوَّل أُمَّتِهِم القائمين ببلاد الغرب على ما تقدَّم ، وأرتكابه المحظور وضلاله عن

(١) بياض في الأصول ولعله « إمامهم إسماعيل » .

طريق الحق؛ وكذلك من خذل الناس عن أتباع القائم بأمر الله بن عبید الله المهديّ
ثاني خلفائهم ببلاد المغرب، أو نقض الدولة على المعزّ لدين الله: أوّل خلفائهم
بمصر؛ ويرون ذلك من أعظم العظام، وأكبر الجائر.

ومن أعيادهم العظيمة الخطر عندهم يوم غدِيرِخُم (بفتح الغين المعجمة وكسر
الذال المهملة وسكون المثناة تحت وراء مهملة في الآخر، ثم خاء معجمة مضمومة
بعدها ميم): وهو غيضة بين مكة والمدينة على ثلاثة أيام من الحجة. وسبب جعلهم
له عيداً أنهم يذكرون أنّ النبي صلى الله عليه وسلم نزل فيه ذات يوم فقال لعليّ
رضي الله عنه: «اللّهم من كنت مولاه فعليّ مولاه، اللّهم والٍ من وآله، وعاد
من عاداه، وأنصر من نصره، وأخذل من خذله، وأدير الحق معه حيث دار» على
ما تقدم نحوه في الكلام على يمين الإمامية.

وقد كان للخلفاء الفاطميين بمصر بهذا العيد اهتمام عظيم، ويكتبون بالبيشارة به
إلى أعمالهم، كما يكتبون بالبيشارة بعيد الفطر وعيد النحر ونحوهما. ويعتقدون
في آئمتهم أنهم يعلمون ما يكون من الأمور الحادثة.

وقد ذكر المؤرخون عن عبید الله المهديّ جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر أنه
حين بنى المهديّة بمشارق أفريقيا من بلاد المغرب طلع على سورها ورعى بسهم
وقال إلى حدّ هذه الرمية ينتهي صاحب الحمار، نخرج بالمغرب خارجي يعرف بأبي
يزيد صاحب الحمار، وقصد المهديّة حتى انتهى إلى حدّ تلك الرمية؛ فرجع ولم
يصل المهديّة.

وكان الحاكم بأمر الله أحد خلفاء مصر من عقب المهديّ المذكور يدعى علم
الغيب على المنبر بالجامع المعروف به على القرب من باب الفتوح بالقاهرة، فكتبوا
له بطاقة فيها:

بِالظُّلْمِ وَالْجَوْرِ قَدْ رَضِينَا * وليس بالكُفْرِ وَالْحَمَاقَةِ

إِنْ كُنْتَ أُوْتِيتَ عِلْمَ غَيْبٍ * بَيْنَ لَنَا كَاتِبِ الْبِطَاقَةِ

فترك ما كان يقوله ولم يعد إليه ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وهم يقدحون في عيَّاش بن أبي الفتوح الصنهاجيّ وزير الظافر: أحد الخلفاء الفاطميين بمصر . وذلك أنه كان له ولدٌ حسنُ الصورة اسمه نصر ، فأحبه الظافر المذكور حتى كان يأتي إليه ليلاً إلى بيته ، فرمى عيَّاش الظافر بأبنته ، وأمره أن يستدعيه فاستدعاه ، فأتى إليه ليلةً على العادة ، فأجتمع عيَّاش بن السلار هو وأبنته نصر على الظافر وقتلاه ، وهربا إلى الشام ، فأسرهما الفرنج ، ثم فدى أبنته وصلب على باب زويلة .

وهم يقدحون في عيَّاش المذكور ويرمونه بالنفاق بسبب ما وقع منه في حق الظافر من رميه بابنته وقتله إياه .

قلت : وعيَّاش هذا هو الذي أشار إليه في "التعريف" في صورة يمين الإسماعيلية بأبن السلار . وهو وهم منه ، إذ ليس عيَّاش بأبن السلار ، وإنما أبن السلار هو زوج أم عيَّاش المذكور ، وكان قد وزر للظافر المذكور قبل ربيبه عيَّاش وتلقب بالعدل ، وأستولى على الأمر حتى لم يكن للظافر معه كلام ، ثم دس عليه ربيبه

(١) كذا في الأصول بالمشاة التحتية والشين المعجمة ووقع في ابن الأثير والمقرزي بالموحدة والسين المهملة .

(٢) سيأتي بعد أسطر التنبيه على هذه النسبة .

(٣) عبارة ابن الأثير (ج ١١ ص ٧٩) باختصار: فقتل عياشا الفرنج وأسروا ابنه ثم فداه الملك الصالح طلائع بن رزيك منهم وطلبه على باب زويلة .

عِيَّاشُ مَنْ قَتَلَهُ ، وَوَزَّرَ لِلظَّافِرِ بَعْدَهُ . فابنُ السُّلَارِ هُوَ الْعَادِلُ وَزَيْرُ الظَّافِرِ أَوْلَا
لَا عِيَّاشُ رَبِّبُهُ .

ومن أكبر الجائر عندهم وأعظم العظائم أن يُرمَى أحدٌ من آلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ
عليه وسلم لاسمِ الأئمةِ بكبيرة ، أو ينسبها [أحد] إليهم ، أو يُوالى لهم عدواً
أو يُعادى ولياً .



وأما ما يختص به المُستعلوية ، فانهم يُنكرون إمامة نزار بن المُستنصر المُقدم ذكروه ،
ويكذبون التُّزاريَّة في قولهم : إن نزاراً خرجَ حَمَلًا في بَطْنِ جاريةٍ حتى صار إلى بلاد
الشَّرقِ . ويقولون : إنه مات بالإسكندرية ميتةً ظاهرة . ويقولون : إنه نازع
الحقَّ أهلَه وجاذب (١) من حيث إن الحقَّ في الإمامة والخلافة كان لإمامهم
المُستعلي بالله فادعاه لنفسه . ويقولون : إن شيعته على الباطل ، وموافقتهم
في اعتقادهم إمامته خطأ . ويرون من الضلال أتباع الحسن بن الصباح داعية نزارٍ
والتأويل عن المُستنصر النَّصَّ على إمامته ، ويرون الكونَ في جملة التُّزاريَّة من أعظم
الأضاليل ، لا سيما من كان فيهم آخر أدوار الأئمة التي هي في كلِّ دورٍ سبعة أئمة ،
على ما تقدم ذكره في صدر الكلام على أصل معتقد هذه الفرقة .

ثم هم يعظمون راشد الدين سنان : وهو رجلٌ كان بقلاع الدعوة بأعمال طرابلس
من البلاد الشامية في زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، انتهت
رياستهم إليه . قال في "مسالك الأبصار" : وكان رجلاً صاحب سيميا ، فأراهم بها
ما أضلَّ به عقولهم : من تحييل أشخاص من مات منهم على طاعة أئمتهم في جنات
النعم ، وأشخاص من مات منهم على عصيان أئمتهم في النار والحجيم ، فثبت ذلك

(١) بياض بالأصول ولعله : الخلافة ربها ، كما سيأتي نقلاً عن التعريف .

عندهم وأعتقدوه حقًا . ومن قدح في ذلك فقد دَخَلَ في أَهْلِ الضلال . وَيَقْدَحُونَ في ابنِ السُّلارِ المُقَدِّمِ ذِكْرَهُ وَيَسْفَهُونَ رَأْيَهُ فِيمَا كَانَ مِنْهُ : من إِزَالَةِ الخُطْبَةِ لِلْفَاطِمِيِّينَ وَحَطِّ رَأْيَتِهِمُ الصَّفْرَاءِ وَالخُطْبَةِ لِنَبِيِّ العَبَّاسِ وَرَفْعِ رَأْيَتِهِمُ السُّودَاءِ ، وما كان مِنْهُ من الفَعْلَةِ التي أَسْتَوْلَى بها على قَصْرِ الفَاطِمِيِّينَ وَمَنْ فِيهِ ، وأخَذَ أَمْوَالِهِمْ بَعْدَ مَوْتِ العاضِدِ .



وأما ما يختص به التُّزَارِيَّةُ ، فانهم يقولون : إنَّ الأَمْرَ صارَ إلى نِزَارٍ بَعْدَ أَبِيهِ المُسْتَنْصِرِ على ما تقدَّم ذكره ، وإنَّ مَنْ بَجَدَ إِمَانَتَهُ فَقَدْ أَخْطَأَ ، وَيُزَعَمُونَ أَنَّهُ خَرَجَ مِنَ الإِسْكَندَرِيَّةِ حَمَلًا في بَطْنِ أُمَّةٍ وَخَاضَ بِلَادَ أَعْدَائِهِ الَّذِينَ هُمُ المُسْتَعْلَوِيَّةُ بِمِصْرَ حَتَّى صارَ إلى بلادِ الشَّرْقِ . ويقولون : إنَّ الأَسْمَ يَغْيِرُ الصُّورَةَ بِمَعْنَى ؛ وَيَرُونَ أَنَّ الطَّعْنَ على الحَسَنِ بنِ الصَّبَّاحِ المُقَدِّمِ ذِكْرَهُ فِيمَا نَقَلَهُ عَنِ المُسْتَنْصِرِ مِنْ قَوْلِهِ : الإِمَامَةُ بَعْدِي في وِلْدِي نِزَارٍ مِنْ أَعْظَمِ الآثَامِ ، وَيَعْظُمُونَ دَلَاءَ الدِّينِ صَاحِبَ قَلْعَةِ أَلْمُوتِ ؛ وَهِيَ قَلْعَةٌ بِالطَّائِقَانِ بَنَاهَا السُّلْطَانُ مَلِكُ شَاهِ السَّجُوقِيَّةِ . وَذَلِكَ أَنَّهُ أَرْسَلَ عُقَابًا فَبَرَزَ في مَكَانِهَا ؛ فَلَمَّا وَافَى مَكَانَهَا بَنَى فِيهِ هَذِهِ القَلْعَةَ وَسَمَّاهَا أَلْمُوتَ ، وَمَعْنَاهُ تَعْلِيمُ العُقَابِ .

وعلاءُ الدِّينِ هَذَا هوَ ابنُ جلالِ الدِّينِ الحَسَنِ الملقَّبِ بِالإِكْبَا ، وَهُوَ مِنْ عَقْبِ الحَسَنِ بنِ الصَّبَّاحِ المُقَدِّمِ ذِكْرَهُ ، وَكَانَ أبُوهُ جلالُ الدِّينِ قَدْ أَظْهَرَ شِعَارَ الإِسْلامِ ، وَكَتَبَ بِذَلِكَ إلى سَائِرِ بِلَادِ الإِسْمَاعِيلِيَّةِ بِالعَجَمِ وَالشَّامِ فَأُقِيمَتْ فِيهَا ، ثُمَّ تُوِّفِّيَ بِقَلْعَةِ أَلْمُوتِ المذكُورَةِ في سَنَةِ ثَمَانِ عَشْرَةَ وَسِتِّمِائَةَ ، فَاسْتَوْلَى أبْنُهُ علاءُ الدِّينِ هَذَا على قَلْعَةِ

(١) لعل الصواب « ويسفهنون رأى صلاح الدين يوسف بن أيوب » فانه هو الذي عمل ذلك العمل كما يشير إلى ذلك في العيمن الآتى والا فابن السُّلارِ قَتَلَ في زَمَنِ الطَّافِرِ .

ألموت المذكورة، وخالف رأى أبيه المذكور إلى مذهب الزارية، وصار رأساً من رؤوسهم، والتبرى منه عندهم من أشد الخطأ.

وأعلم أنّ أصل هذه الفرقة كانت بالبحرين في المائة الثانية وما بعدها، ومنهم كانت القرامطة الذين خرجوا من البحرين حينئذ، نسبة إلى رجلٍ منهم اسمه قرمط، خرج فيهم وأدعى النبوة وأنه أنزل عليه كتاب، ثم ظهروا بالمشرق "بأصبهان" : في أيام السلطان ملكشاه السلجوقي، وأشتهروا هناك بالباطنية : لأنهم يُبطنون خلاف ما يُظهرون، وبالملاحدة : لأن مذهبهم كله إلحاد، ثم صاروا إلى الشام، ونزلوا فيما حوّل طرابلس، وأظهروا دعوتهم هناك، وإليهم تُنسب قلاع الإسماعيلية المعروفة بقلاع الدعوة، فيما حوّل طرابلس، كصيف، واخلواي، والقدموس، وغيرها.

ولما أفرقوا إلى مستعوية وزارية كما تقدم، أخذ من منهم ببلاد المشرق بمذهب الزارية، عملاً بدعوة ابن الصباح المقدم ذكره، وأخذ من منهم بالشام بقلاع الإسماعيلية بمذهب المستعوية، وصاروا شيعة لمن بعد المستعلي من خلفاء الفاطميين بمصر، وأشتهروا باسم الفداوية، ووثبوا على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بالشام مراتٍ وهو راكب ليقتلوه فلم يتمكنوا منه. ثم صالحهم بعد ذلك على قلاعهم بأعمال طرابلس في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، ثم اتفقوا إلى ملوك مصر في أيام الظاهر بيبرس، وأشتهروا باسم الفداوية لمفاداتهم بالمال على من يقتلونه. وقد ذكر في "مسالك الأبصار" نقلاً عن مقدمهم : مبارك بن علوان : أن كل من ملك مصر كان مظهرًا لهم. ولذلك يرون إتلاف نفوسهم في طاعته : لما ينتقلون إليه من النعيم الأكبر في زعمهم. ورأيت نحو ذلك في "أساس السياسة" لابن ظافر، وذكر أنهم يرون أن ملوك مصر كالنواب لأئمتهم : لقيامهم مقامهم.

أما آيماهم التي يُخلفون بها فقد قال في "التعريف" جرياً على معتقدهم المتقدم :
 إن اليمين الجامعة لهم أن يقول : إِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ ، الْفَرْدِ الصَّمَدِ ،
 الْقَادِرِ الْقَاهِرِ ، الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، وَحَقَّ أَمَّةَ الْحَقِّ ، وَهُدَاةَ الْخَلْقِ ، عَلِيٌّ وَبِنْتُهُ أَمَّةُ
 الظُّهُورِ وَالْخَفَاءِ ، وَإِلَّا بَرِئْتُ مِنْ صَحِيحِ الْوَلَاءِ ، وَصَدَّقْتُ أَهْلَ الْأَبَاطِيلِ ، وَقُمْتُ
 مع فِرْقَةِ الضَّلَالِ ، وَأَنْتَصَبْتُ مع النَّوَاصِبِ فِي تَقْرِيرِ الْمَحَالِ ، وَلَمْ أَقُلْ بِأَنْتِقَالِ الْإِمَامَةِ
 إِلَى السَّيِّدِ الْحُسَيْنِ ، ثُمَّ إِلَى بِنْتِهِ بِالنَّصِّ الْجَلِيِّ ، مَوْصُولَةً إِلَى جَعْفَرِ الصَّادِقِ ؛ ثُمَّ إِلَى
 ابْنِهِ إِسْمَاعِيلِ صَاحِبِ الدَّعْوَةِ الْهَادِيَةِ ، وَالْآثَرَةِ الْبَاقِيَةِ ، وَإِلَّا قَدَحْتُ فِي الْقَدَّاحِ ،
 وَأَتَمَّمْتُ الدَّاعِيَ الْأَوَّلَ ، وَسَعَيْتُ فِي اخْتِلَافِ النَّاسِ عَلَيْهِ ، وَمَالَاتُ عَلَى السَّيِّدِ
 الْمَهْدِيِّ ، وَخَدَلْتُ النَّاسَ عَنِ الْقَائِمِ ، وَتَقَضَّيْتُ الدَّوْلَةَ عَلَى الْمُعْزِ ، وَأَنْكَرْتُ أَنْ يَوْمَ
 غَدِيرِ حُمٍّ لَا يُعْتَدُّ فِي الْأَعْيَادِ ، وَقُلْتُ : أَنْ لَا عِلْمَ لِلْأَمَّةِ بِمَا يَكُونُ ، وَخَالَفْتُ مَنْ أَدَّعَى
 لَهُمُ الْعِلْمَ بِالْحَدِيثَانِ ، وَرَمَيْتُ آلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ بِالْعِظَامِ ، وَقُلْتُ فِيهِمْ بِالْكَبَائِرِ ، وَوَالَيْتُ
 أَعْدَاءَهُمْ ، وَعَادَيْتُ أَوْلِيَاءَهُمْ .

قال : ثم من هنا تُزادُ التَّزَارِيَةُ : وَإِلَّا بَخَحَدْتُ أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ صَارَ إِلَى نِزَارٍ ،
 وَأَنَّهُ أَتَى حَمَلًا فِي بَطْنِ جَارِيَةٍ لَخَوْفِهِ خَوْضَ بِلَادِ الْأَعْدَاءِ ، وَأَنْ الْأَسْمَ لَمْ يَغْيَرِ
 الصُّورَةَ . وَإِلَّا طَعَنْتُ عَلَى الْحَسَنِ بْنِ الصَّبَّاحِ ، وَبَرِئْتُ مِنَ الْمَوْلَى عَلَاءِ الدِّينِ
 صَاحِبِ الْأَمْوَاتِ ، وَمَنْ نَاصِرِ الدِّينِ سِنَانِ الْمَلَقِّ بِرَاشِدِ الدِّينِ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ
 الْمُعْتَدِينَ ؛ وَقُلْتُ : إِنَّ مَارَوْهَ كَانَ مِنَ الْأَبَاطِيلِ ، وَدَخَلْتُ فِي أَهْلِ الْفِرْيَةِ
 وَالْأَضَالِيلِ .

قال : وَأَمَّا مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ الْمُنْكَرِينَ لِإِمَامَةِ نِزَارٍ ، فَيُقَالُ لَهُمْ عِوَضُ
 هَذَا : وَإِلَّا قُلْتُ : إِنَّ الْأَمْرَ صَارَ إِلَى نِزَارٍ ، وَصَدَّقْتُ الْقَائِلِينَ أَنَّهُ نَحْرَجَ حَمَلًا فِي بَطْنِ

جارية، وأنكرت ميثته الظاهرة بالإسكندرية، وأدعت أنه لم يَنزِعِ الحقَّ أهله،
ويجاذب الخِلافةَ ربها، ووافقتُ شيعته، وتبعْتُ الحَسَنَ بنَ صَبَّاحٍ، وكنتُ
في النَّزَارِيَّةِ آخرَ الأدوارِ.

قال: ثم يجمعهم آخر اليمين أن يُقال: وإلا قلتُ مقالةَ ابنِ السَّلارِ في النَّفاقِ
وسدَّدتُ رأىَ ابنِ أيوبَ، وألقيتُ بيدي الرأيةَ الصَّفراءَ، ورفعتُ السوداءَ، وفعلتُ
في أهلِ القَصْرِ تلكَ الفِعالَ، وتمحلتُ مثل ذلك المَحَالِ.

قلتُ: ما ذكره في "التعريف" فيما تَزَادُهُ النَّزَارِيَّةُ: «ومِنَ ناصرِ الدِّينِ سَنانِ
المَلَقِّ بِراشدِ الدِّينِ» وهم: فإنَّ سنانا المذكورَ إِنَّمَا هو من إسماعيلية الشَّامِ الذين
هم شِيعَةُ المُسْتَعْلَوِيَّةِ لامن الإسماعيلية النَّزَارِيَّةِ الذين هم ببلاد المَشْرِقِ، على ما تقدَّم
بِسَانِهِ. فكان من حَقِّهِ أن يُلْحِقَ ذلكَ بِبَيْنِ مَنْ سواهم من الإسماعيلية الذين هم
المستعلوية. وكذلك قوله: ثم يجمعهم آخر اليمين أن يُقال: «وإلا قلتُ مقالةَ
ابنِ السَّلارِ في النَّفاقِ، وسدَّدتُ رأىَ ابنِ أيوبَ» إلى آخره، فإنَّ ذلكَ مما يختص
بالمُستَعْلَوِيَّةِ، لأنَّ ابنَ السَّلارِ كان وزيرَ الظافر كما تقدَّم، والظافر من جُملة الخلفاء
القائمين بِمِصرَ بعد المُسْتَعْلِي، الذين خالفتِ النَّزَارِيَّةُ في إمامتهم. وكذلك قِصَّةُ ابنِ
أيوبَ إِنَّمَا كانت مع العاضدِ آخرِ حُفَّائِهِم بِمِصرَ، وكلُّ ذلكَ مختصٌّ بإسماعيلية الشَّامِ
الذين هم شِيعَةُ المُسْتَعْلَوِيَّةِ دون النَّزَارِيَّةِ، وحينئذٍ فكان من حَقِّهِ أن يقتصرَ في زيادة
بين النَّزَارِيَّةِ على آخر «وبرئتُ من المولى هلاءِ الدِّينِ صاحبِ الموتِ» ويزيدُ في يمينِ
مَنْ سواهم من الإسماعيلية بعد قوله آخر الأدوار: «وإلا برئتُ من ناصرِ الدِّينِ
سنانِ المَلَقِّ بِراشدِ الدِّينِ، وكنتُ أولَ المُعتدِينَ، وقلتُ: إنَّ ماراه كان من
الأباطيلِ، ودخلتُ في أهلِ الفِرْيَةِ والأضاليلِ» ثم يقول بعد ذلك: «وإلا قلتُ

مقالة ابن السَّلار في النِّفاق ، وسَدَّدْتُ رَأْيَ ابْنِ أَيُّوبَ ، وألْقَيْتُ بِيَدِي الرِّأْيَةَ الصَّفْرَاءَ ، ورفَعْتُ السَّوداءَ ، وفعلتُ في أهل القَصْر تلكَ الفِعالَ ، وتمَحَّلْتُ مثل ذلكَ الحالِ .»

الفرقة الرابعة (من الشيعة الدرزية)

قال في "التعريف" : وهم أتباعُ أبي محمدِ الدرزي . قال في "التعريف" : وكان من أهلِ موالاةِ الحاكمِ أبي عليِّ المنصورِ بنِ العزيزِ خليفةِ مصر . قال : وكانوا أولاً من الإسماعيلية ، ثم خرجوا عن كلِّ ما تمحلُّوه ، وهَدَمُوا كلَّ ما أنلَّوه ، وهم يقولون برَجعةِ الحاكمِ ، وأن الألوهية انتهت إليه وتديرت نأسوته ، وهو يَغيبُ ويُظهِرُ بهيئتهُ ويُقتلُ أعداءَهُ قَتْلَ إبادةٍ لامعادَ بعده ، بل ينكرون المعادَ من حيثُ هو ، ويقولون نحو قولِ الطبايعية : إن الطبايع هي المولدة ، والموتُ بقاءُ الحرارةِ الغريزية ، كأنطفأ السراجُ بقاءَ الزيتِ إلا من اعتبط ، ويقولون : دهرٌ دائمٌ ، وعالمٌ قائمٌ ؛ أرحامٌ تدفعُ ، وأرضٌ تبلى ؛ بعد أن ذكر أنهم يستبيحون فروجَ المحارمِ وسائرَ الفروجِ المحرمةِ ، وأنهم أشدُّ كُفراً ونفاقاً من النصيريةِ التي ذكرهم ، وأبعدُ من كلِّ خيرٍ وأقربُ إلى كلِّ شرٍّ .

ثم قال : وأصلُ هذه الطائفة هم الذين زادوا في البسملةِ أيامَ الحاكمِ ، فكتبوا : باسمِ الحاكمِ اللهُ الرَّحمنُ الرَّحيمُ ، فلما أنكر عليهم كتبوا : باسمِ اللهُ الحاكمِ الرَّحمنِ الرَّحيمِ ، فجعلوا في الأولِ اللهُ صِفةً للحاكمِ ، وفي الثاني العكس . وذكر أن منهم أهلَ كسروانٍ ومن جاورهم . ثم قال : وكان شيخنا ابنُ تيميةَ رحمه اللهُ تعالى يرى

أَنَّ قِتَالَهُمْ وَقِتَالَ النَّصِيرِيَّةِ أَوْلَى مِنْ قِتَالِ الْأَرْمَنِ : لِأَنَّهُمْ عَدُوٌّ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ وَشَرٌّ بِقَائِهِمْ أَضَرُّ .

وقد رتب علي هذا المعتقد أيمانهم في "التعريف" فقال : وهؤلاء أيمانهم .
 إنني والله وحق الحاكم ، وما أعتقده في مولاي الحاكم ، وما أعتقده أبو محمد
 الدرزي الحجة الواضحة ، وراه الدرزي مثل الشمس اللأحج ، وإلا قلت : إن مولاي
 الحاكم مات وبلي ، وتفترقت أوصاله وفني ، وأعتقدت تبديل الأرض والسماء ،
 وعود الرّم بعد الفناء ، وتبعث كل جاهل ، وحظرت على نفسي ما أبيع لي ، وعملت
 بيدي على ما فيه فساد بدني ، وكفرت بالبيعة المأخوذة ، وألقيتها ورأي منبوذة .

الفرقة الخامسة

(من الشيعة النصيرية بضم النون وفتح الصاد المهملة)

قال في "إرشاد القاصد" : وهم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 رضى الله عنه ، وهم يدعون ألوهية علي رضى الله عنه مغلاة فيه . قال الشهرستاني :
 [ولهم جماعة ينصرون مذهبهم ويؤوبون عن أصحاب مقالاتهم] ^(١) قال : وبينهم خلاف
 في كيفية إطلاق الألوهية على الأمة [من أهل البيت] ^(١) واختلافهم راجع ^(٢)

(١) الزيادة من «الملل والنحل» للشهرستاني ص ١٠٩ .

(٢) بياض في الأصول مقدار ثلاثة أسطر .

ويزعمون أن مسكن عليّ السحاب ، وإذا مرّ بهم السحاب قالوا : السلام عليك يا أبا الحسن ، ويقولون : إن الرعد صوته ، والبرق ضحكك ، وهم من أجل ذلك يعظمون السحاب ؛ ويقولون : إن سلمان الفارسيّ رسولهُ ، وإن كشف الحجاب عمّا يقوله من أيّ كتابٍ بغير إذن ضلالٌ ، ويحبون ابن ماجة قاتل عليّ رضي الله عنه ، ويقولون : إنه خلص اللاهوت من الناسوت ، ويخطئون من يلعنه .

قال في "التعريف" : ولهم خطابٌ بينهم ، من خاطبوه به لا يعودُ يرجع عنهم ولا يُذيعه ولو ضرب عُنقه . قال : وقد جرب هذا كثيرا ، وهم ينكرون إنكاره .

قال في "إرشاد القاصد" : وهم يخفون مقاتلهم ، ومن أذاعها فقد أخطأ عندهم ، ويرون أنهم على الحق ، وأن مقاتلهم مقالة أهل التحقيق ، ومن أنكر ذلك فقد أخطأ .

قال في "التعريف" : ولهم [اعتقاد] في تعظيم النحر ، ويرون أنها من النور . ولزمهم من ذلك أن عظموا شجرة العنب التي هي أصل النحر حتى استعظموا قلعها . ويزعمون أن الصديق وأمير المؤمنين عمر وأمير المؤمنين عثمان رضي الله عنهم تعدوا عليه ومنعوه حقه من الخلافة ؛ كما تعدى قاييل^(١) بن آدم عليه السلام عليّ أخيه هابيل ، وكما أعدى الثمود على الخليل عليه السلام ، وكما يقوم كل فرعون من الفراعنة عليّ نبيّ من الأنبياء عليهم السلام .

قال في "التعريف" : وهي طائفة ملعونة مردولة مجوسية المعتد ؛ لا تحرم البنات ولا الأخوات ولا الأمهات . قال : ويحكى عنهم في هذا حكايات .

وقد ربّ في "التعريف" حلقهم عليّ مقتضى هذا المعتد ، فقال : وإيمانهم : إنني وحقّ العليّ الأعلى ، وما أعتقده في المظهر الأسنى ؛ وحقّ النور وما نشأ منه ،

(١) الضمير راجع الى "علي بن أبي طالب" وان لم يذكر .

والسحاب وساكنه . وإلا برئت من مولاى على العلي العظيم ، وولائى له ، ومظاهر الحق ، وكشفت حجاب سلمان بغير إذن ، وبرئت من دعوة الحجة نصير ، وخضت مع الخائضين فى لعنة ابن ملجم ، وكفرت بالخطاب ، وأذعت السر المصون ، وأنكرت دعوى أهل التحقيق ، وإلا قلعت أصل شجرة العنب من الأرض بيدي حتى أجتت أصولها وأمنع سبيلها ، وكنت مع قابيل على هايسل ، ومع التمرود على إبراهيم ، وهكذا مع كل فرعون قام على صاحبه ، إلى أن ألقى العلي العظيم وهو على ساخط ، وأبرأ من قول قنبر ، وأقول : إنه بالنار ما تطهر .

الطائفة الثالثة

(من أهل البدع القدرية)

وهم القائلون بأن لا قدر سابق ، وأن الأمر أنف : يعنى مستأنفاً ، ولكنهم لما سمعوا قول النبي صلى الله عليه وسلم « القدرية مجوس هذه الأمة » ، قَبِلُوا الدليل وقالوا بموجب الحديث ، وقالوا : القدرية اسم لمن يقول بسبق القدر . ثم غلب عليهم اسم المعتزلة بواسطة أن وأصل بن عطاء أحد أئمتهم كان يقرأ على الحسن البصرى فاعتزله بمسألة خالقه فيها . وهم يسمون أنفسهم أهل التوحيد [وأهل العدل] ويعنون بالتوحيد نفى الصفات القديمة عن الله تعالى : كالحياة والعلم والإرادة والقدرة ؛ وأنه تعالى حتى بذاته ، [عالم بذاته] مُريد بذاته ، قادر بذاته ، لا بحياة وعلم وإرادة وقدرة ؛ ويعنون بالعدل أنهم يقولون : إن العبد إنما يستحق الثواب والعقاب بفعله الطاعة والعصيان ، باعتبار أنه الخالق لأفعال نفسه دون الله تعالى ، تنزيهاً له تعالى عن أن يضاف إليه خلق الشر : من كفر ومعصية . وإذا كان العبد هو الخالق لأفعال نفسه الموجد لها فليس قدر سابق .

ولهم أئمة كثيرة، لهم مصنفات في الأصول والفروع : منهم وأصل بن عطاء، وأبو الهديل العلاف، وإبراهيم النّظام، وإسْرُ بن المعتَمِر، ومعمَر بن عبّاد، وأبو عثمان الجاحظ، [وأبو عليّ الجبائي] ^(١) وابنه أبو هاشم، وغيرهم . وعندهم أنه لا قدر سابق بل الأمر أنف، وأن الله تعالى إنما يخلق الأفعال والمشئبة، وأن العبد هو المكتسب لأفعاله كما تقدم .

ومَن علّت رتبته فيهم الجعد بن درهم، اجتمع على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وأخذ عنه مروان مذهبَه في القول بالقدر وخلق القرآن، وعلّت رتبته عنده، وبه سُمي مروان المذكور الجعدي . وكانت له واقعة مع هشام بن عبد الملك ابن مروان . ويستعظمون الإيمان بالقدر : خيره وشره، ويتبعون منه، ويتكرون القول بأن ما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه . ويقولون : إذا كان أمر مفروغ منه فقيم يسدّد الإنسان ويُقارب؟ . ويطعنون في رُواة حديث : « أعملوا فكل ميسر لما خلق له » . ويتأولون قوله تعالى : (وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِّي حَكِيمٌ) . ويستعظمون البراءة من اعتقادهم ، ولقاء الله تعالى على القول بأن الأمر غير أنف .

وقد رتب في "التعريف" أيماهم على هذا المعتقد، فقال :

ويمينهم : والله والله العظيم ذى الأمر الأئف ، خالق الأفعال والمشئبة . وإلا قلت : بأن العبد غير مكتسب ، وأن الجعد بن درهم محْتَقَب ، وقلت : إن هشام بن عبد الملك أصاب دماً حلالاً منه ، وإن مروان بن محمد كان ضالاً في أتباعه ، وآمنت بالقدر خيره وشره ، وقلت : إن ما أصابني لم يكن ليخطئني

(١) الزيادة عن «خط المبرزي» ج ٢ ص ٣٤٨ .

وما أخطأني لم يكن ليصيني ، ولم أفل : إنه إذا كان أمرٌ قد فرغ منه ففيم أسدد وأقارب ، ولم أظعن في رُوةٍ حديث « آعملوا فكلُّ ميسرٌ لما خلق له » ولم أتأولُ معنى قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ ﴾ . وبرئت مما أعتقد ، ولقيتُ الله وأنا أقول : إِنَّ الْأَمْرَ غَيْرُ أَنْفٍ . والله التوفيق والعصمة .

المهيع الثاني

(في الأيمان التي يُخلف بها أهل الكُفر ممن قد يُحتاج إلى تحليفه ،
وهم على ضربين)

الضرب الأول

(من زعم منهم التمسك بشريعة نبيٍّ من الأنبياء عليهم السلام ،
وهم أصحاب ثلاث مائل)

الملة الأولى

(اليهود)

وأشتقاقها من قولهم : هَادَ إِذَا رَجَعَ . ولزمها هذا الأسمُ من قولِ موسى عليه السلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أي رجعنا وتضرعنا . ومثّلها اليهود المتمسكون بشريعة موسى عليه السلام . قال السلطان عمادُ الدين صاحبُ حماة في تاريخه : وهم أعمُّ من بني إسرائيل : لأن كثيراً من أجناس العرب والروم وغيرهم قد دخلوا في اليهودية وليسوا من بني إسرائيل . وكتابهم الذي يتمسكون به "التوراة" وهو الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام .

قال أبو جعفر النَّحَّاسُ ، في "صناعة الكُتَّاب" : وهي مُشْتَقَّةٌ من قولهم : وَرَّتْ نَارِي وَوَرَيْتَ ، وَأَوْرَيْتَهَا إِذَا اسْتَخْرَجْتَ ضَوْءَهَا : لأنه قد اسْتَخْرَجَ بها أَحْكَامَ شَرْعَةِ موسى عليه السلام ، وكان النَّحَّاسُ يَمْنَحُ إلى أن لفظ التَّوراة عَرَبِيٌّ ، والذي يظهر أنه عِبْرَانِيٌّ مُعَرَّبٌ : لأن لغة موسى عليه السلام كانت العِبْرَانِيَّةُ ، فَنَاسَبَ أن تكون من لُغَتِهِ التي يفهمها قَوْمُهُ ، قال الشَّهْرَسْتَانِيُّ في "النَّحْلُ وَالْمِلَلُ" : وهي أوَّلُ مُتَرَجِّمٍ على بنى إِسْرَائِيلَ سُمِّيَ كِتَابًا ، إِذْ مَا قَبْلَهَا مِنَ الْمَتَرَّلِ إِنَّمَا كَانَ مَوَاعِظَ وَنَحْوَهَا . قال صَاحِبُ حَمَاةَ : وليس فيها ذِكْرُ الْقِيَامَةِ وَلَا الدَّارِ الْآخِرَةِ وَلَا بَعْثٍ وَلَا جَنَّةٍ وَلَا نَارٍ ، وَكُلُّ وَعِيدٍ يَقَعُ فِيهَا إِنَّمَا هُوَ بِمَجَازَاةٍ دُنْيَوِيَّةٍ ، فَيُوعَدُونَ على مَجَازَاةٍ الطَّاعَةِ بِالنَّصْرِ على الأَعْدَاءِ ، وَطُولِ العُمُرِ ، وَسَعَةِ الرِّزْقِ وَنَحْوِ ذَلِكَ ؛ وَيُوعَدُونَ على الكُفْرِ وَالْمَعْصِيَةِ بِالموتِ وَمَنْعِ القَطْرِ وَالْحَمِيَّاتِ وَالْحَرْبِ ، وَأَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمُ بَدَلِ المَطَرِ الغُبَارُ وَالظُّلْمَةُ وَنَحْوِ ذَلِكَ ، يَشْهَدُ لما قاله قوله تعالى : ﴿ فَيُظِلُّمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ . الآية ، بفعل الظُّلْمِ سببًا للتحريم . قال : وليس فيها أيضًا ذمُّ الدنيا ، وَلَا طَلَبُ الرُّهْدِ فيها ، وَلَا وظيفَةُ صَلَوَاتٍ معلومة ، بل في التوراة الموجودة بأيديهم الآن نسبةٌ أمورٍ إلى الأنبياء عليهم السلام من الأسباط وغيرهم لَا تَحِلُّ حكايتها .

وَأَعْلَمُ أَنَّ التَّوراةَ على خَمْسَةِ أسْفارٍ :

أولها — يشتمل على بدء الخليفة والتاريخ من آدم إلى يوسف عليه السلام .

وثانيها — فيه استخدامُ المِصْرِيِّينَ بنى إِسْرَائِيلَ ، وظهورُ موسى عليه السلام عليهم ، وهلاكُ فِرْعَوْنَ ، وَنَصْبُ قُبَّةِ الزمانِ وهي قُبَّةُ [كان ينزل على موسى فيها الوحي] وأحوالُ النَّبِيِّ ، وإمامةُ هَرُونَ عليه السلام ؛ ونزولُ العَشْرِ كَلِمَاتٍ في الألواحِ

(١) بياض في الأصل والتصحيح مما سيأتي قريباً . انظر ص ٢٥٨ من هذا الجزء .

على موسى عليه السلام ، وهى شبه مختصر مما فى التوراة يشتمل على أوامر ونواهٍ وسماع القوم كلام الله تعالى . وقد أخبر الله تعالى عنها بقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فى الأَلْوَاحِ من كُلِّ شَيْءٍ مَّوعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ . قال مجاهد : وكانت الألواح من زمردة خضراء ، وقال ابن جبير : من ياقوتة حمراء ، وقال أبو العالمة : من زبرجد ، وقال الحسن : من خشب نزلت من السماء ، ويقال : إنها كانت لوحين . وإنما جاءت بلفظ الجمع : لأن الجمع قد يقع على الاثنين ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ والمراد آثان .

وثالثها — فى كيفية تقريب القرابين على سبيل الإجمال .

ورابعها — فى عدد القوم ، وتقسيم الأرض بينهم ، وأحوال الرسل الذين بعثهم موسى عليه السلام من الشام ، وأخبار المن والسلوى والغمام .

وخامسها — فى أحكام التوراة بتفصيل المجمال ، وذكر وفاة هرون ثم موسى عليهما السلام ، وخلافة يوشع بن نون عليه السلام بعدهما .

ثم قد ذكر الشهرستانى وغيره أن فى التوراة البشارة بالمسيح عليه السلام ، ثم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ قد ورد ذكر المشيخا فى غير موضع ، وأنه يخرج واحد فى آخر الزمان ، هو الكوكب المضى الذى تشرق الأرض بنوره . وغير خاف على ذى لب أن المراد بالمشيخا المسيح عليه السلام ، وأن المراد بالذى يخرج فى آخر الزمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ربما وقعت البشارة بهما جميعا فى موضع واحد ، كما فى قوله : إن الله تعالى جاء من طور سيناء وظهر من ساعير وعان بقاران .

(١) كذا فى الشهرستانى أيضا وفى معجم البلدان لياقوت : وأشرق من ساعير وأستعلن الخ .

وساعير هي جبال بيت المقدس حيث مظهر المسيح عليه السلام، وفاران جبال مكة حيث ظهر النبي صلى الله عليه وسلم .

قال الشهرستاني : وما كانت الأسرار الإلهية ، والأنوار الربانية ، في الوحي والتنزيل ، [والمناجاة والتأويل] ^(١) على ثلاث مراتب : مبدأً ووسطاً وكالاً ، وكان المحيى أشبه شئاً بالمبدأ ، والظهور أشبه بالوسط ، والعلن أشبه بالكال ، عبر في التوراة عن ظهور صبح الشريعة [والتنزيل] ^(١) بالمحيى [على طور سيناء] ^(١) ، وعن طلوع شمسها بالظهور [على ساعير] ، وعن بلوغ درجة الكمال [والأستواء] بالعلن [على فاران] ^(١) ، وقد عرفوا النبي صلى الله عليه وسلم بوصفه في التوراة حق المعرفة : ﴿ فَمَا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ . وقد ذكر المفسرون عن ابن عباس رضي الله عنه أن موسى عليه السلام لما ألقى الألواح عند رجوعه إلى قومه ، تكسرت فلم يبق منها إلا سدسها . ويروى أن التوراة كانت سبعين وسقاً بعير ^(٢) وأنها رُفِعَ منها ستة أسباعها وبقي السبع ، ففي الذي بقي الهدى والرحمة ، وفي الذي رُفِعَ تفصيل كل شئ .

وليعلم أن اليهود قد آفترقوا على طوائف كثيرة ، المشهور منها طائفتان :

الطائفة الأولى

(المستفق على يهوديتهم ، وهم القراءون)

وهم وإن كانوا فرقتين ، فإنهم كالفرقة الواحدة ، إذ تورأتهم واحدة ، ولا خلاف في أصل اليهودية بينهم . وقد اتفق الجميع على استخراج ستمائة وثلاث عشرة

(١) الزيادة عن « الملل والنحل » للشهرستاني (ص ١٢٥) .

(٢) بياض بأصله .

(٣) أي قرآئين وربانيين بدليل ما يأتي .

فَرِيضَةً مِنَ التَّوْرَةِ يَتَعَبَّدُونَ بِهَا . ثُمَّ كُلُّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى نُبُوَّةِ مُوسَى وَهَرُونَ وَيُوشَعَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَعَلَى نُبُوَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ : وَهُوَ إِسْرَائِيلُ ، وَالْأَسْبَاطُ : وَهُمْ بَنُوهُ الْاِثْنَا عَشَرَ الْآتِي ذَكَرَهُمْ آخِرًا . وَهُمْ يَنْفَرِدُونَ عَنِ الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ الْآتِي ذَكَرَهَا : وَهِيَ السَّامِرَةُ بِنُبُوَّةِ أَنْبِيَاءَ غَيْرِ مُوسَى وَهَرُونَ وَيُوشَعَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، وَيَنْقَلُونَ عَنِ يُوشَعَ تِسْعَةَ عَشَرَ كِتَابًا زِيَادَةً عَلَى التَّوْرَةِ يَعْبَرُونَ عَنْهَا بِالنَّبَوَاتِ تَعْرِفُ بِالْأَوَّلِ .

ثُمَّ الرَّبَّانِيُّونَ يَنْفَرِدُونَ عَنِ الْقَرَّائِينَ بِشُرُوحِ مَوْضُوعَةٍ لِفَرَاغِ التَّوْرَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ ، وَضَعَهَا أَحْبَابُهُمْ ، وَتَفْرِيغَاتٍ عَلَى التَّوْرَةِ يَنْقَلُونَهَا عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَيَتَّفِقُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْقَرَّاءُونَ عَلَى أَنَّهُمْ يَسْتَقْبَلُونَ صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ فِي صَلَاتِهِمْ ، وَيُوجِّهُونَ لَهَا مَوْتَاهُمْ ، وَعَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَلَّمَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى طُورِ سَيْنَاءَ : وَهُوَ جَبَلٌ فِي رَأْسِ بَحْرِ الْقَلْزَمِ فِي جِهَةِ الشَّمَالِ عَلَى رَأْسِ جَزِيرَةٍ فِي آخِرِهِ ، دَاخِلٌ بَيْنَ ذِرَاعَيْنِ يَكْتَنِفَانِهِ .

وَهُمْ مُخْتَلِفُونَ فِي أَمْرَيْنِ :

أَحَدُهُمَا — الْقَوْلُ بِالظَّاهِرِ وَالْجُنُوحِ إِلَى التَّأْوِيلِ . فَالْقَرَّاءُونَ يَقْفُونَ مَعَ ظَوَاهِرِ أَنْصُوصِ التَّوْرَةِ ، فَيَحْمِلُونَ مَا وَقَعَ فِيهَا مَنْسُوبًا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى : مِنْ ذِكْرِ الصُّورَةِ ، وَالتَّكْلِمْ ، وَالْأَسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ ، وَالتَّرْوِيلِ عَلَى طُورِ سَيْنَاءَ ، وَنَحْوِ ذَلِكَ عَلَى ظَوَاهِرِهِ ، كَمَا تَقُولُهُ الظَّاهِرِيَّةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وَيُنَجِّرُونَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى الْقَوْلِ بِالتَّشْبِيهِ ، وَالْقَوْلِ بِالْجِهَةِ . وَالرَّبَّانِيُّونَ يَذْهَبُونَ إِلَى تَأْوِيلِ مَا وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، كَمَا تَفْعَلُ الْأَشْعَرِيَّةُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ .

الثاني — القول بالقدر . فالرَّبَّانِيُّونَ يقولون بأن لا قدرَ سابق وأن الأمرُ أنفُ كما تقولهُ القَدْرِيَّةُ من المسلمين . والقراءون يقولون بسابق القدر كما تقولهُ الأشعريَّةُ . أما ما عدا ذلك فكلُّ القاريِّين يقولون : إن الله تعالى قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ وَاحِدٌ قَادِرٌ ، وإنهُ تعالى بعث موسى بالحقِّ ، وشَدَّ أزرهُ بأخيه هرون . ويعظِّمون التوراة التي هي كتابهم أتمَّ التعظيم ، حتَّى إنهم يُقسِّمون بها كما يُقسِّم المسلمون بالقراءان ، وكذلك العشر كلمات التي أنزلت على موسى عليه السلام في الألواح الجوهريَّة ، وقد تقدَّم أنها مختصِّرة ما في التوراة ، مشتملة على أوامرٍ ونواهٍ وسماع كلام الله تعالى ، وهم يخلفون بها كما يخلفون بالتوراة ، ويعظِّمون قُبَّةَ الزَّمان وما حوته : وهي القُبَّة التي كان ينزل على موسى فيها الوحي .

ومن أعظم أنواع الكُفر عندهم تَعَبُّدُ فِرْعَوْنَ وهامان لعنهما الله . (وكان اسمُ فِرْعَوْنَ موسى فيما ذكره المفسرون الوليد بن مضعب ، وقيل : مضعب بن الريان . وأختلف فيه : فقيل كان من العالقة . وقيل من النبط . وقال مجاهد : كان فارسياً وهامان وزيره) والتبري من إسرائيل (وهو يعقوب عليه السلام) ومعنى إسرائيل فيما ذكره المفسرون « عبد الله » كأنَّ « إسرأ » عبد ، و« إيل » اسم الله تعالى بالعبرانية . وقيل : إسرأ من السر ، وكانَّ إسرائيل هو الذي شدَّه الله وأتقن خلقه .

ومن أعظم العظائم عندهم الأخذُ بيدِ النَّصرانية ، وتصديق مريم عليها السلام في دعاها أنها حملت من غير أن يمسها بشرٌ ، ويرمونها بأنها حملت من يوسف النَّجار ، وهو رجلٌ من أقاربها كان يخدم البيت المقدَّس معها ، ويرون تبرُّتها من ذلك جريرةً تقترف .

ويستعظمون الوقوع في أمور :

(١) لعله من الأسر كما يفيدُه ما بعده .

منها - القول بإنكار خطاب الله تعالى لموسى عليه السلام وسماعه له .

ومنها - تعمد طور سيناء الذى كلم الله تعالى موسى عليه بالقادورات، ورعى صخرة بيت المقدس التى هى قبيلتهم بالنجاسة، ومشاركة بختنصر فى هدم بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل، وإلقاء العذرة على مظان أسفار التوراة .

ومنها - الشرب من النهر الذى آبتى به قوم طالوت ملك بنى إسرائيل، والميل إلى جالوت ملك الكنعانيين: وهو الذى قتله داود عليه السلام، ومفارقة شيعة طالوت الذين قاموا معه على جالوت. وذلك أنه لما رفعت التوراة وتسلط على بنى إسرائيل عدوهم من الكنعانيين الذين ملكهم جالوت، كانت النبوة حينئذ فيهم في شمعون، وقيل في شمويل، وقيل في يوشع بن نون، فقالوا له: إن كنت صادقاً فابعث لنا ملكاً تقاتل في سبيل الله، فقال لهم ما أخبر الله تعالى به: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ولم يكن من سبط الملك، إذ كان الملك من سبط معروفٍ عندهم، فقيل: كان سقاءً، وقيل: كان دباغاً، فأنكروا ملكه عليهم، وقالوا كما أخبر الله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾ الآية؛ فلما فصل طالوت بالجنود أراد الله تعالى أن يريه من يطيعه فى القتال ممن يعصيه، فسلط عليهم العطش وأبتلاهم بنهر من حولهم، قيل: هو نهر فلسطين، وقيل: نهر بين الأردن وفلسطين، فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ إلى قوله: ﴿وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ﴾ .

ومنها - إنكار الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى إليهم: وهم موسى وهرون ويوشع ومن بعدهم: من أنبيائهم عليهم السلام، ومن قبلهم: من إبراهيم وإسحق ويعقوب صلوات الله عليهم، والأسباط الأثني عشر الآتى ذكرهم، والدلالة على دانيال

النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قُتِلَ ، وَإِخْبَارُ فِرْعَوْنَ مِصْرَ بِمَكَانِ إِرْمِيَاءِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ اخْتِفَائِهِ بِهَا ، وَالْقِيَامُ مَعَ الْبَنِيِّ وَالْفَوَاحِشِ يَوْمَ يَحْيَىٰ بِنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ فِي الْمُسَاعَدَةِ عَلَيْهِ .

ومنها - القَوْلُ بِأَنَّ النَّارَ الَّتِي أَضَاءَتْ لِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ شَجَرَةِ الْعَوْسِجِ بِالطَّرِيقِ عِنْدَ مَسِيرِهِ مِنْ مَدْيَنَ حَتَّى قَصَدَهَا وَكَانَتْ وَسِيلَةً إِلَىٰ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَىٰ لَهُ نَارُ إِفْكٍ لَا وُجُودَ لَهَا ؛ وَكَذَلِكَ أَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ تَوَجُّهِهِ إِلَىٰ مَدْيَنَ فَأَرَأَىٰ مِنْ فِرْعَوْنَ ، وَالْقَوْلُ فِي بَنَاتِ شُعَيْبِ اللَّاتِي سَقَىٰ لَهْنًا مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالْعِظَائِمِ وَرَمِيَهُنَّ بِالْقَيْحِ .

ومنها - الإِجْلَابُ مَعَ سَحْرَةِ فِرْعَوْنَ عَلَىٰ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَالْقِيَامُ مَعَهُمْ فِي غَلْبَتِهِ ، وَالتَّبَرُّيُّ مِنَ آمَنَ مِنْهُمْ بِمُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ .

ومنها - قَوْلُ مَنْ قَالَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ : اللَّحَاقَ اللَّحَاقَ : لِنُدْرِكَ مِنْ فِرَّ : مِنْ مُوسَىٰ وَقَوْمِهِ عِنْدَ خُرُوجِهِمْ ، كَمَا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَىٰ عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴾ .

ومنها - الإِشَارَةُ بِتَخْلِيفِ تَابُوتِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بِمِصْرَ حِينَ أَرَادَ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ نَقْلَهُ إِلَى الشَّامِ لِيُدْفِنَهُ عِنْدَ آبَائِهِ : إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ : وَذَلِكَ أَنَّهُمْ جَعَلُوا تَابُوتَهُ فِي أَحَدِ شِقِّي النَّيْلِ فَأَخْصَبَ وَأَجْدَبَ الْجَانِبُ الْآخَرَ ، فَعُولُوهُ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ فَأَخْصَبَ ذَلِكَ الْجَانِبُ وَأَجْدَبَ الْجَانِبُ الْأَوَّلُ ، فَعُولُوهُ وَسَطَ النَّيْلِ فَأَخْصَبَ جَانِبَاهُ جَمِيعًا ، إِلَى أَنْ كَانَ زَمَنُ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَضَرَبَ النَّيْلَ بَعْصَاهُ فَأَنْفَلَقَ عَنِ التَّابُوتِ . فَأَخَذَ فِي نَقْلِهِ إِلَى الشَّامِ لِيُدْفِنَهُ عِنْدَ آبَائِهِ كَمَا تَقَدَّمَ . فَأَشَارَ بَعْضُهُمْ بِبَقَائِهِ بِمِصْرَ فَوَقَعَ فِي مَحْطُورٍ لِمُخَالَفَةِ مُوسَىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا يُرِيدُهُ .

ومنها - التَّسْلِيمُ لِلسَّامِرِيِّ وَتَصَدِيقُهُ عَلَى الحِوَادِثِ الَّتِي أَحَدَتْهَا فِي اليَهُودِيَّةِ عَلَى مَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ فِي الكَلَامِ عَلَى السَّامِرَةِ فِي الطَّائِفَةِ الثَّانِيَةِ مِنَ اليَهُودِ .

ومنها - نُزُولُ أَرِيحَا : مَدِينَةِ الجَبَّارِينَ مِنْ بِلَادِ فِلَسْطِينَ .

ومنها - الرِّضَا بِفِعْلِ سَكْنَةِ سَدُومَ مِنْ بِلَادِ فِلَسْطِينَ أَيْضًا وَهَمَّ قَوْمُ لُوطٍ .

ومنها - مَخَالَفَةُ أَحْكَامِ التَّوْرَةِ الَّتِي وَرَدَ [الحَثُّ] فِيهَا عَلَيْهَا .

ومنها - اسْتِبَاحَةُ السَّبْتِ بِالْعَمَلِ فِيهِ وَالْمَدْوِ فِيهِ : إِذَا اسْتَبَاحَتْهُ عِنْدَهُمْ تَوْجِبُ هَدْرَ دَمٍ مُسْتَبِيحِهِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ مُسِيخٌ مِنْ مُسِيخٍ بِاسْتِبَاحَتِهِ قِرْدَةً وَخَنَازِيرًا ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

ومنها - إِنْكَارُ عِيدِ المِظْلَةِ وَهُوَ [سَبْعَةُ أَيَّامٍ أَوَّلَهَا الخَامِسُ عَشْرَ مِنْ تَشْرِى] وَعِيدِ الحَنْكَةِ وَهُوَ [ثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ يَوْقِدُونَ فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى مِنْ لَيْلِيهِ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِمْ سَرَاجًا وَفِي اللَّيْلَةِ الثَّانِيَةِ سَرَاجِينَ وَهَكَذَا حَتَّى يَكُونَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّامِنَةِ ثَمَانِيَةَ سَرَجٍ] وَهُمَا مِنْ أَعْظَمِ أَعْيَادِهِمْ .

ومنها - القَوْلُ بِالْبَدَاءِ عَلَى اللَّهِ فِي الْأَحْكَامِ ، وَهُوَ أَنْ يَخْطِرَ لَهُ غَيْرُ الخَاطِرِ الْأَوَّلِ ، وَهُوَ تَعَالَى مُتَزَهٌّ عَنْ ذَلِكَ ، وَرَتَّبُوا عَلَيْهِ مَنَعَ نَسْخِ الشَّرَائِعِ ، وَيَزَعْمُونَ أَنَّ النِّسْخَ يَسْتَلْزِمُ البَدَاءَ ، وَهُوَ مِمَّا اتَّفَقَ كَافَّةُ اليَهُودِ عَلَى مَنَعِهِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ أَوَّلًا .

ومنها - أَعْتِقَادُ أَنَّ المَسِيحَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ المَوْعُودُ بِهِ عَلَى لِسَانِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، المَذْكَورَ بِلَفْظِ المَشِيحَا وَغَيْرِ ذَلِكَ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَتِ الإِشَارَةُ إِلَيْهِ .

ومنها - الأَنْتِقَالُ مِنْ دِينِ اليَهُودِيَّةِ إِلَى مَا سِوَاهَا مِنَ الْأَدْيَانِ ، إِذْ عِنْدَهُمْ أَنَّ شَرِيعَةَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ هِيَ الَّتِي وَقَعَ بِهَا الإِبْتِدَاءُ ، وَبِهَا وَقَعَ الإِخْتِثَامُ .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من ج ٢ ص ٤٢٦ و ٤٢٨ من هذا المطبوع

(٢) هو عين ما بعده في المعنى .

ومنها - الانتقال من اليهودية إلى ما عداها من الأديان : كالإسلام والنصرانية وغيرهما ، فإنه يكون بمثابة المُرْتَدَّ عند المسلمين .

ومنها - استباحة لحم الجمل : فإنه محرَّم عندهم ، ومن استباحه فقد ارتكب مَحْظُورًا عَظِيمًا عندهم ، وقد دخل ذلك في عموم قوله تعالى إخباراً بما حرَّم عليهم : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ ﴾ . يعني ما ليس بمتفَرِّج الأصابع كالإبل وما في معناها .

ومنها - استباحة أكل الشحم خلا شحم الظهر ، وهو ما علا فإنه مباح لهم ؛ وعن ذلك أخبر الله تعالى بقوله : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَتِ ظُهُورُهُمَا ﴾ .

ومنها - استباحة أكل الحوايا . قال ابن عباس وغيره : هي المباعس . وقال أبو عبيدة : هي ما تحوى من البطن أى استدار ، والمراد شحم الثرب . وكذلك استباحة ما اختلط من الشحم بعظم وهو شحم الآلية ، وعنه أخبر تعالى بقوله : ﴿ أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ عطفًا على الشحوم المحرمة . على أن بعض المفسرين قد عطف قوله تعالى : ﴿ أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ على المستثنى في قوله : ﴿ إِلَّا مَا حَمَتِ ظُهُورُهُمَا ﴾ . فحمله على الاستباحة ، والموافق لما يدعونه الأول ، وبرون أن سبب نزول هذه الآية أن اليهود قالوا لم يحرم علينا شيء إنما حرَّم إسرائيل على نفسه الثرب وشحم الآلية فجنَّ حرَّمه ، فنزلت . على أن اليهود القرائن والربانيين يحملونها فيبيعونها ويأكلون ثمنها ، ويتأولون أن أكل ثمنها غير آكل منها ، وإلى ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : « قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ ! حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ فَبَاعُوهَا وَأَكَلُوهَا ثَمَنُهَا » والسامرة مخالفون في ذلك ، ويقولون بتحریم الثمن أيضًا ، على ما سيأتى ذكره .

وَيُعْلَمُ أَنَّ الْقَرَّائِينَ وَالرَّبَّانِيِّينَ يُحْرَمُونَ مِنَ الذَّبِيحَةِ كُلِّ مَا كَانَتْ رِثَّتُهُ مُلْتَصِقَةً بِقَلْبِهِ
أَوْ يَضْلَعُهُ ، وَالسَّامِرَةَ لَا يُحْرَمُونَ ذَلِكَ .

(١)

ومنها - مقالة أهل بابل في إبراهيم عليه السلام ، وهي قولهم (١)

ومنها - أن يُحْرَمَ الْأَحْبَارُ الَّذِينَ هُمْ عُلَمَاؤُهُمْ عَلَى الْوَاحِدِ مِنْهُمْ ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ يَمْنَعُونَهُ
مِنْ مَبَاهِطِهِمْ فِي الْمَأْكَلِ وَالْمَشَارِبِ وَالنِّكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ حُرْمَةً يَجْعَعُونَ عَلَيْهَا ، وَنَتَأَكَّدُ
بِقَلْبِ حُصْرِ الْكُتَّاسِ عَلَيْهَا ؛ إِذْ مِنْ عَادَتِهِمْ أَنَّهُمْ إِذَا حَرَّمُوا عَلَى شَخْصٍ وَأَرَادُوا التَّشْدِيدَ
عَلَيْهِ قَلَبُوا حُصْرَ الْكُتَّاسِ عِنْدَ ذَلِكَ التَّحْرِيمِ تَغْلِيظًا عَلَى الْمَحْرَمِ عَلَيْهِ .

ومنها - الرَّجُوعُ إِلَى التَّيِّبِ بَعْدَ الْخُرُوجِ مِنْهُ ، فَإِنَّهُمْ إِذَا خَرَجُوا إِلَيْهِ عِنْدَ سُخْطِ
اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِمُخَالَفَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَ امْتِنَاعِهِمْ عَمَّا أَمَرُوا بِهِ مِنْ قِتَالِ
الْجَبَّارِينَ ، كَمَا أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحْرَمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً
يَتِيمُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : وَكَانَ تَيْمُهُمْ
سِتَّةَ فَرَاسِخٍ فِي أَرْبَعَةِ فَرَاسِخٍ ، يَمْشُونَ كُلَّ يَوْمٍ وَيَبْتَئُونَ حَيْثُ يُصْبِحُونَ ، فَأَمَرَ اللَّهُ
تَعَالَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَضْرَبَ الْحَجْرَ بِعَصَاهُ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ آيَاتُ عَشْرَةِ عَيْنًا ،
وَكَانُوا اثْنَيْ عَشَرَ سَبْطًا لِكُلِّ سَبْطٍ عَيْنٌ ، فَإِذَا أَخَذُوا حَاجَتَهُمْ مِنَ الْمَاءِ أَحْتَسِبُ
وَحَمَلُوا الْحَجْرَ مَعَهُمْ ، وَكَانَتْ ثِيَابُهُمْ فِيمَا يُرَوَى لَا تُحْرَقُ وَلَا تُتَدَنَسُ ، وَتَطُولُ كَمَا
طَالَ الصَّيَّانُ .

ومنها - تَحْرِيمُ الْمَنِّ وَالسَّلْوَى الَّذِي آمَنَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ بِهِ كَمَا أَخْبَرَ بِذَلِكَ بِقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴾ وَيُقَالُ إِنَّهُ التَّرَجِيمُ .
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : وَالْمَرَادُ بِالْمَنِّ الَّذِي يَسْقُطُ عَلَى الشَّجَرِ وَهُوَ مَعْرُوفٌ . قَالَ قَتَادَةُ :
كَانَ الْمَنُّ يَسْقُطُ عَلَيْهِمْ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ كَسُقُوطِ النَّجْمِ ، فَيَأْخُذُ

(١) بياض بالأصول ولعله « انه لمن الظالمين في تكسير أصنامهم » .

الرجل منهم ما يكفيه ليومه، فإن أخذاً أكثر من ذلك فسد. وأما السلوى، فقيل: هي طائر كالمسائي، وقال الضحّاك: هي السمانى نفسها، وقال قتادة: هو طائر إلى الحمرة كانت تحشره عليهم الجنوب.

ومنها - التبرؤ من الأسباب: وهم أولاد يعقوب عليهم السلام، وعددهم اثنا عشر سبطاً: وهم يوسف، وبنيامين، ونفتالى، ورؤييل، ويهوذا، وشمعون، ولاوى، ودان، وزبولون، ويشجر، وجاد، وأشر، ومنهم تفرع جميع بني إسرائيل ولد كل منهم أمة من الناس. وسموا أسباطاً أخذاً من السبط وهو التابع، إذ هم جماعة متتابعون. وقيل: من السبط وهو الشجر، فالسبط الجماعة الراجعون إلى أصل واحد.

ومنها - القعود عن حرب الجبارين مع القذرة على حريمهم: وذلك أنهم أمرُوا بدخول الأرض المقدسة: وهي بيت المقدس فيما قاله ابن عباس والسدي وغيرهما، والشام فيما قاله قتادة، ودمشق وفلسطين وبعض الأردن فيما قاله الزجاج، وأرض الطور فيما قاله مجاهد، وكان فيها قوم جبارون من العاقلة كما أخبر الله تعالى، والجبار هو المتعظم المنتفع من الدل والقهر أخذاً من الإجبار: وهو الإكراه كأنه يجبر غيره على ما يريد.

قال ابن عباس: لما بعث موسى عليه السلام من قومه اثني عشر نقيباً ليخبروه خبرهم، رآهم رجل من الجبارين فأخذهم في كفه مع قاكهة كان قد حملها من بستانه وجاء بهم إلى الملك فنثرهم بين يديه، وقال: إن هؤلاء يريدون قتالنا، وكان من أمرهم ما قصه الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أَدْخَلُوا

(١) كذا في الكشاف للزمخشري (ج ١ ص ٣٨٠) وفي الأصل «نفتاي».

(٢) في الأصل: ربولى، والتصحيح من الخطيب الشربيني (ج ٢ ص ٩١).

الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا
يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَدْخُلُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنهَا فَإِنَّا
دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيَّمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا
دَخَلْتُمُوهُ فَانكروا غَالِبُونَ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا
أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ
إِلَّا نَفْسِي وَآخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ . فكان في قعودهم عن حرب
الجبارين مع القدرة والنشاط مخالفة لما أمرُوا به .

وقد رتب في "التعريف" "إيمان اليهود على هذا المقتضى" ، فقال : ويمينهم .

إِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهُ وَاللَّهُ الْعَظِيمُ ، الْقَدِيمِ الْأَزَلِيِّ الْقَرْدِ الصَّمَدِ الْوَاحِدِ الْأَحَدِ الْمُدْرِكِ
الْمُهْلِكِ ، بَاعِثِ مُوسَىٰ بِالْحَقِّ ، وَشَادَّ أَزْرَهُ بِأَخِيهِ هَارُونَ ، وَحَقَّ التَّوْرَةَ الْمَكْرَمَةَ وَمَا
فِيهَا وَمَا تَضَمَّنَتْهُ ، وَحَقَّ الْعَشْرَ كَلِمَاتِ الَّتِي أَنْزَلْتَ عَلَىٰ مُوسَىٰ فِي الصُّحُفِ الْجَوْهَرِ ،
وَمَا حَوَتْهُ قُبَّةَ الزَّمَانِ ، وَإِلَّا تَعَبَدْتُ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ ، وَبَرَّيْتُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ،
وَدِنْتُ بِدِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَصَدَّقْتُ مَرْيَمَ فِي دَعْوَاهَا ، وَبَرَّيْتُ يُوسُفَ النَّجَّارَ ،
وَأَنْكَرْتُ الْخَطَابَ ، وَتَعَمَّدْتُ الطُّورَ بِالْقَادُورَاتِ ، وَرَمَيْتُ الصَّخْرَةَ بِالنَّجَاسَةِ ،
وَشَرَكْتُ بِجُحَنَنْصَرَ فِي هَدْمِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَقَتْلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَأَلْقَيْتُ الْعَذْرَةَ عَلَىٰ
مَظَانِّ الْأَسْفَارِ ، وَكُنْتُ مِمَّنْ شَرِبَ مِنَ النَّهْرِ وَمَالَ إِلَىٰ جَالُوتَ ، وَفَارَقْتُ شَيْعَةَ
طَالُوتَ ، وَأَنْكَرْتُ الْأَنْبِيَاءَ ، وَدَلَلْتُ عَلَىٰ دَانِيَالَ ، وَأَعْلَمْتُ جَبَّارَ مِصْرَ بِمَكَانِ إِرْمِيَاءَ ،
وَكَنْتُ مَعَ الْبَغِيِّ وَالْفَوَاحِرِ يَوْمَ يَحْيَىٰ ، وَقُلْتُ : إِن النَّارَ الْمُضِيئَةَ مِنْ شَجَرَةِ الْعَوْسِجِ نَارُ
إِفْكٍ ، وَأَخَذْتُ الطَّرِيقَ عَلَىٰ مَدْيَنَ ، وَقُلْتُ بِالْعِظَائِمِ فِي بَنَاتِ شُعَيْبٍ ، وَأَجْلَبْتُ مَعَ
السَّحْرَةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ ، ثُمَّ بَرَّيْتُ مِنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، وَكُنْتُ مَعَ مَنْ قَالَ : اللَّحَاقَ اللَّحَاقَ

لندرك من فرّ، وأشرت بتخليف تابوت يوسف في مصر، وسلمت إلى السامريّ، ونزلت أريحا مدينة الجبارين، ورضيت فعل سكرة سدوم، وخالفت أحكام التّوراة، وأستبحت السبّ وعدوت فيه، وقلت إن المظلة ضلال، وإن الحكمة محال، وقلت بالبداء على الله تعالى في الأحكام، وأجرت نسخ الشرائع، واعتقدت أن عيسى بن مريم المسيح الموعود به على لسان موسى بن عمران، وانتقلت عن اليهودية إلى سواها من الأديان، وأستبحت لحم الجمل والشحم والحوايا أو ما أختلط بعظم، وتأولت أن أكل ثمنه غير آكله، وقلت مقالة أهل بابل في إبراهيم، وإلا أكون محرماً حرمة يجمع عليها الأخبار، وتقلب عليها حصر الكنائس، ورُددت إلى الله، وحرمت المن والسلوى، وبرئت من كل الأسباط، وقعدت عن حرب الجبارين مع القدرة والنشاط.

قلت: قوله في هذه اليمين في حرمة الشحم وما في معناه: وتأولت أن أكل ثمنه غير آكله، بمعنى أنه يستعظم الوقوع في تأول ذلك، وهو خلاف معتقدهم: لأنهم يتأولون أن أكل ثمنه غير آكله كما تقدم عنهم، وإنما تمنع ذلك السامرة، فكان من حقه أن يورد ذلك في يمين السامرة وأن يقول هنا: ولم أتأول أن أكل ثمنه غير آكله فتنبه لذلك.

وَأَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ مَا اسْتُحْدِثَتْ هَذِهِ الْإِيمَانُ لِأَهْلِ دِينِ الْيَهُودِيَّةِ فِيمَا ذَكَرَهُ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو الْمَدَائِنِيُّ فِي كِتَابِ "الْقَلَمِ وَالذَّوَاةِ" فِي زَمَنِ الْفَضْلِ بْنِ الرَّبِيعِ وَزَيْرِ الرَّشِيدِ، أَحَدَيْهَا كَاتِبٌ لَهُ قَالَ لَهُ: كَيْفَ تُحَاكِّفُ الْيَهُودِيَّ قَالَ: أَقُولُ لَهُ: وَإِلَّا بَرَّتَ مِنْ إِلَهِكَ الَّذِي لَا تَعْبُدُ غَيْرَهُ وَلَا تَدِينُ إِلَّا لَهُ، وَرَغِبْتَ عَنْ دِينِكَ الَّذِي أَرْتَضِيْتَهُ، وَجَحَدْتَ التَّوْرَةَ وَقُلْتَ: إِنَّ حِمَارَ الْعَزِيرِ رَاكِبٌ بِحَمَلِ مُوسَى، وَلَعْنِكَ ثَمَامَةَ

حَبَّرَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَمَسَّخَكَ اللَّهُ كَمَا مَسَّخَ أَصْحَابَ السَّبْتِ ،
 فَعَمِلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْحَنَازِيرَ ، وَخَالَفَتْ مَا دَوَّنَهُ دَانِيَالُ وَأَشْلُومَا وَيُوحَنَّا ،
 وَتَقَبَّتْ اللَّهُ بَدَمَ يَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّا ، وَهَدَمَتِ الطُّورَ صَخْرَةً صَخْرَةً ، وَضَرَبَتِ بِالنَّاقُوسِ
 فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ، وَتَبَرَأَ مِنْكَ الْأَسْبَاطُ وَأَبَاؤُهُمْ : إِسْرَائِيلُ ، وَإِسْحَاقُ ، وَإِبْرَاهِيمُ ،
 وَغَمَسَتِ حَيَّةَ الْجَائِلِيَّ فِي مَعْمُودِيَّةِ النَّصَارَى ، وَأَتَقَلَّبَتِ عَنِ السَّبْتِ إِلَى الْأَحَدِ ،
 وَإِلَّا قَدَّرَ اللَّهُ لَكَ أَنْ تَلْقَى الَّذِي يُخْرِجُ مِنَ الْمَاءِ لَيْلَةَ السَّبْتِ ، وَصَيَّرَ اللَّهُ طَعَامَكَ لَحْمَ
 الْخَنزِيرِ وَكُرُوشَ الْجَمَالِ وَمِعْدَانَ الْخَنَازِيرِ ، وَسَاطَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَعَلَى أَهْلِكَ بِخَتْمِ ثَانِيَةٍ
 يَقْتُلُ الْمُقَاتِلَةَ وَيَسْبِي الذَّرِيَّةَ وَيَحْرَبُ الْمَدَائِنَ ، وَأَرَاكَ اللَّهُ الْيَدَى الَّتِي تَبَالُ الرُّكْبَ
 مِنْ قَبِيلِ الْأَسْبَاطِ ، وَأَخَذَكَ اللَّهُ بِكُلِّ لِسَانٍ جَمَدَتَهُ وَبِكُلِّ آيَةٍ حَرَّقَهَا ، وَقَلَّتْ
 فِي مُوسَى الزُّورَ ، وَإِنَّهُ فِي مَحَلِّ ثُبُورٍ ، وَفِي دَارِ غُرُورٍ ، وَجَمَدَتْ إِهْيَا أَشْرَاهِيَا^(١)
 أَصْبُوتُ آلِ شَدَاءَ . وَهَذِهِ الْيَمِينُ لِأَزْمَةِ لَكَ وَلِبَيْتِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

قُلْتُ : هَذِهِ الْيَمِينُ فِي غَايَةِ الْإِيْتِمَانِ وَالتَّشْدِيدِ ، إِلَّا أَنَّ قَوْلَهُ : وَأَخَذَكَ اللَّهُ بِكُلِّ
 لِسَانٍ جَمَدَتَهُ وَبِكُلِّ آيَةٍ حَرَّقَهَا غَيْرُ مَنَاسِبٍ لِتَحْلِيْفِهِمْ : لِأَنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنْ لَا إِثْمَ عَلَيْهِمْ
 فِي الْجَمْدِ وَلَا يَعْتَرِفُونَ بِالتَّحْرِيفِ بَلْ يُنْكِرُونَهُ . عَلَى أَنْ أَكْثَرَهَا غَيْرُ مُتَوَارِدٍ عَلَى الْيَمِينِ
 الَّتِي أوردَهَا فِي "التعريف" : فَلَوْ أَلْحَقَهَا بِهَا مُلْحَقٌ فِي آخِرِهَا عَلَى صِيغَةِ الْيَمِينِ الْأُولَى
 مِنْ إِيْرَادِهَا بِصِيغَةِ التَّكْلِيمِ ، مِثْلُ أَنْ يَقُولَ : وَإِلَّا بَرَّتْ مِنْ إِلْهِى الَّذى لَا أَعْبُدُ
 غَيْرَهُ وَلَا أَدِينُ إِلَّا لَهُ ، وَإِلَّا رَغِبْتُ عَنْ دِينِى الَّذى آرْتَضِيْتُهُ ، وَعَلَى ذَلِكَ فِي الْبَاقِ ،
 لَكَانَ حَسَنًا .

(١) هكذا ضبطها في القاموس ، ثم قال : ويقولون إهيا شراها وهو خطأ ، على ما رجمه أخبار اليهود .

الطائفة الثانية

(من اليهود السامرة)

وهم أتباع السامري الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله في سورة الأعراف :
 ﴿ وَأَصْلَهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ . قال بعض المفسرين : وأسمه موسى بن ظفر ، وكان أصله
 من قوم يعبدون البقر فرأى جبريل عليه السلام مرة وقد جاء إلى موسى راكباً على
 قرس الحياة ، فأخذ قبضة من تراب من تحت حافر فرسه . وكان بنو إسرائيل
 قد خرجوا معهم حلبي [استعاروه] من القبط ، فأمرهم هرون أن يحفروا حفرة
 ويلقوا فيها ذلك الحلبي حتى يأتي موسى فيرى فيه رأيه ، فجمعوا ذلك الحلبي كله
 وألقوه في تلك الحفرة ، فجاء السامري فألقى ذلك التراب عليه ، وقال له : كن عجلاً
 جسداً له خوار ، فصارك ذلك . قال الحسن : صار حيواناً لحمًا ودمًا . وقيل :
 بل صار يحور ولم تتقلب عينه . فقال لهم السامري : هذا إلهكم وإله موسى ،
 فعكفوا على عبادته ، ونهاهم هرون فلم ينتهوا ^(١) . وحرق العجل وذراه في اليم
 كما أخبر الله تعالى عنه بقوله : ﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا
 لَنُحْرِقَنَّكَ نَحْرُقَهُ ثُمَّ لِلنَّاسِ فِي الْيَمِّ نَسَقًا ﴾ . فأمروا بقتل أنفسهم كما أخبر تعالى بقوله :
 ﴿ فَتَوَبُّوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية . فقتل منهم سبعون ألفاً ثم رُفِعَ عنهم
 القتل بعد ذلك .

وقد اختلف في السامرة : هل هم من اليهود أم لا؟ والقراءون والربانيون
 ينكرون كون السامرة من اليهود . وقد قال أصحابنا الشافعية رحمهم الله : إنهم إن
 وافقت أصولهم أصول اليهود فهم منهم حتى يقروا بالحزية وإلا فلا .

(١) بياض بالأصل ولعله "جاء موسى وحرق الخ" .

ثم السامرة لهم توراة تخصهم غير التوراة التي بيد القرائين والربانيين ، والتوراة التي بيد النصارى ؛ وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بإنكار نبوة من بعد موسى ما عدا هرُونَ ويوشع عليهما السلام ، ويخالفونهم أيضا في استقبال صحرة بيت المقدس ، ويستقبلون طور نابلس ويوجهون إليه موتاهم ، زاعمين أنه الذي كلم الله تعالى موسى عليه ، ويزعمون أن الله تعالى أمر داود عليه السلام ببناء بيت المقدس عليه ، فخالف وبناه بالقدس : قاتلهم الله أنى يؤفكون . وهم قائلون أيضا : إن الله تعالى هو خالق الخلق البارئ لهم ، وإنه قادر قاهر قديم أزلي . ويوافقون على نبوة موسى وهرُونَ عليهما السلام ، وأن الله تعالى أنزل عليه التوراة ، إلا أن لهم توراة تخصهم تخالف توراة القرائين والربانيين المتقدمة الذكر ، وأنه أنزل عليه أيضا الألواح الجوهر المتضمنة للعشر كلمات المتقدمة الذكر ، ويقولون أن الله تعالى هو الذى أتقذ بنى إسرائيل من فرعون ونجّاهم من الغرق ، ويقولون : إنه نصب طور نابلس المقدم ذكره قبلة للتعبد .

وليستعظمون الكفر بالتوراة التي هم يعترفون بها ، والتبرى من موسى عليه السلام دون غيره من بنى إسرائيل ، ويعظمون طورهم طور نابلس المقدم ذكره ؛ وليستعظمون دكه وقلع آثار البيت الذى حُمر به ؛ وليستعظمون استباحة السبت كغيرهم من اليهود ؛ ويوافقون القرائين فى الوقوف مع ظواهر نصوص التوراة ؛ ويمنعون القول بالتأويل الذاهب إليه الربانيون من اليهود ؛ وينكرون صحة توراة القرائين والربانيين ، ويجعلون الاعتماد على توراتهم ؛ ويقولون : لا مَسَّس : بمعنى أنه لا يمَسُّ أحدا ولا يمسه . قال فى "الكشاف" : كان إذا مسَّ أحدا أو مسَّه أحدٌ حصلت الحمى للمسَّ والمسوس . وقد أخبر الله تعالى عن ذلك بقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام للسامري ﴿ أَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَّاسَ ﴾

وَيُحْرَمُونَ مِنَ الذَّابِحِ ^(١) ، وَيُحْرَمُونَ أَكْلَ اللَّحْمِ مُخْتَلَطًا بِلَبَنٍ ، زَاعِمِينَ أَنَّ
فِي تَوَارِيثِهِمُ النَّهْيَ عَنِ أَكْلِ لَحْمِ الْجَدْيِ بِلَبَنِ أُمِّهِ ، وَيَسْتَعْظِمُونَ السَّعْيَ إِلَى الْخُرُوجِ
إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي حُرِّمَ عَلَيْهِمْ سُكَّانُهَا وَهِيَ مَدِينَةُ أَرِيحَا .

وَمَنْ أَكْبَرَ الْجَبَائِرِ عِنْدَهُمْ وَطَءَ الْمَرْأَةَ الْحَائِضَ ، وَالنَّوْمُ مَعَهَا فِي مَضْجَعٍ وَاحِدٍ ،
لَا سِيَّيَا إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ مُسْتَبِيحًا لَهُ . وَمَنْ أَعْظَمَ الْعِظَامِ عِنْدَهُمْ إِنْكَارُ خِلَافَةِ هَرُونَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالْأَنْفَةُ مِنْ كَوْنِهَا .

وَقَدْ رَتَّبَ فِي "التعريف" : يَمِينَهُمْ عَلَى مَقْتَضَى ذَلِكَ ، فَذَكَرَ أَنَّ يَمِينَهُمْ :

إِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ الْعَظِيمِ ، الْبَارِيَّ ، الْقَادِرِ ، الْقَاهِرِ ، الْقَدِيمِ ، الْأَزَلِيِّ ، رَبِّ
مُوسَى وَهَرُونَ ، مُنَزِّلِ التَّوْرَةِ وَالْأَلْوَابِ الْجَوْهَرِ ، مُنْقِذِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَنَاصِبِ الطُّورِ
قِبْلَةً لِلتَّعْبِيدِ . وَإِلَّا كَفَرْتُ بِمَا فِي التَّوْرَةِ ، وَبَرِئْتُ مِنْ نُبُوَّةِ مُوسَى ، وَقُلْتُ : إِنَّ
الْإِمَامَةَ فِي غَيْرِ بَنِي هَرُونَ ، وَدَكَّيْتُ الطُّورَ ، وَقَلَعْتُ بِيَدِي أَثْرَ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ،
وَأَسْتَبِيحُ حُرْمَةَ السَّبْتِ ، وَقُلْتُ بِالتَّأْوِيلِ فِي الدِّينِ ، وَأَقْرَرْتُ بِصِحَّةِ تَوْرَةِ الْيَهُودِ ،
وَأَنْكَرْتُ الْقَوْلَ بِأَنَّ لَامِسَّاسَ ، وَلَمْ أَتَجَنَّبْ شَيْئًا مِنَ الذَّابِحِ ، وَأَكَلْتُ الْجَدْيَ بِلَبَنِ
أُمِّهِ ، وَسَعَيْتُ فِي الْخُرُوجِ إِلَى الْأَرْضِ الْمَحْظُورِ عَلَى سُكَّانِهَا ، وَأَتَيْتُ النِّسَاءَ الْحَيْضَ
زَمَانَ الطَّمْثِ مُسْتَبِيحًا لَهُنَّ ، وَبِتُّ مَعَهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ، وَكُنْتُ أَوَّلَ كَافِرٍ بِخِلَافَةِ
هَرُونَ ، وَأَنْفَتُ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ .

(١) بياض بالأصل .

الفِرْقَةُ الثَالِثَةُ

(مَنْ تَدْعُو الضَّرُورَةَ إِلَى تَحْلِيفِهِ - النَّصْرَانِيَّةُ)

وقد اختلف في اشتقاقها، ف قيل : أخذًا من قول المسيح للحواريين : ((من أنصاري إلى الله)) وقول الحواريين : ((نحن أنصار الله)) . وقيل : من زُوله هو وأمه - بعد عودها به من مصر - بالناصرة : وهي قرية من بلاد فلسطين من الشام : وقيل غير ذلك .

والنصارى - هم أمة عيسى عليه السلام ، وكاتبهم الإنجيل . وقد اختلف في اشتقاقه على ثلاثة مذاهب حكاه أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" :

أحدها - أنه مأخوذ من قولهم : نجت الشيء إذا أخرجته ، بمعنى أنه خرج به دأرس من الحق .

والثاني - أنه مأخوذ من قولهم : تناجل القوم إذا تنازعوا ، لأنه لم يقع في كتاب من الكتب المنزلة [مثل] التنازع الواقع فيه . قاله أبو عمرو الشيباني .

والثالث - أنه مأخوذ من التجل بمعنى الأصل : لأنه أصل العلم الذي أطلع الله تعالى فيه خليقته عليه ، ومنه قيل للوالد تجل : لأنه أصل لولده .

ثم ذكر هذه الاشتقاقات جنوح من قائلها إلى أن لفظ الإنجيل عبري ، والذي يظهر أنه عبراني : لأن لغة عيسى عليه السلام كانت العبرانية ، وقد قال صاحب "إرشاد القاصد" : إن معنى الإنجيل عندهم البشارة .

وأعلم أن النصارى بجمتهم مجموعون على أن مريم حملت بالمسيح عليه السلام ، وولده بيوت لحم من بلاد القدس من الشام ، وتكلم في المهد ، وأن اليهود حين

أنكروا على مريمَ عليها السلام ذلك فَرَّتْ بالمسيح عليه السلام إلى مِصرَ، ثم عادتْ به إلى الشام، وعمره اثنتا عشرة سنة، فنزلت به القرية المسماة ناصرة المقدم ذكرها، وأنه في آخر أمره قبض عليه اليهود وسعوا به إلى عامل قيصر ملك الروم على الشام، فقتله وصلبه يوم الجمعة، وأقام على الخشبة ثلاث ساعات، ثم أستوهبه رجل من أقارب مريم اسمه يوسف النجار من عامل قيصر، ودفنسه في قبر كان أعدّه لنفسه في مكان الكنيسة المعروفة الآن بالقمامة بالقدس، وأنه مكث في قبره ليلة السبت ونهار السبت وليلة الأحد، ثم قام من صبيحة يوم الأحد، ثم رآه بطرس الحواري وأوصى إليه؛ وأن أمه جمعت له الحواريين فبعثهم رسلاً إلى الأقطار للدعاية إلى دينه، وهم في الأصل اثنا عشر حواريًا: بطرس ويقال له: سمنان، وسيمون الصفا أيضا. وأندراوس وهو أخو بطرس المقدم ذكره، ويعقوب بن زبدي، ويوحنا الإنجيلي، وهو أخو أندراوس، وفيلبس، وبرثلوماوس، وتوما؛ ويعرف بتوما الرسول، ومتى ويعرف بمتى العشار، ويعقوب بن حلفاء، وسمعان القناني ويقال له شمعون أيضا، وبولس ويقال له تداوس، وكان اسمه في اليهودية شاول، ويهوذا الاسخريوطي (وهو الذي دلَّ يهود على المسيح حتى قبضوا عليه بزعمهم) وقام مقامه بنيامين، ويقولون: إنه بعد أن بعث من بعث من الحواريين صعد إلى السماء. وهم متفقون على أن أربعة من الحواريين تصدوا لكتابة الإنجيل: وهم بطرس، ومتى، ولوقا، ويوحنا^(٢). فكتبوا فيه سيرة المسيح من حين ولادته إلى حين رفعه، وكتب كل منهم نسخة على ترتيب خاص بلغة من اللغات.

(١) سيأتي قريباً كما في "العبر" (ج ٢ ص ١٤٧) أن يوحنا الإنجيلي أخو يعقوب بن زبدي وكذلك في "المقريري" ج ٢ ص ٤٨٣.

(٢) كذا في "الملل والنحل" أيضا ولكن لم يرد في الحوار بين المذكورين قبل هذا الاسم.

فكتب بطرس إنجيله باللغة الرومية في مدينة رومية قاعدة بلاد الروم، ونسبه إلى تلميذه مرقس أول بطاركة الإسكندرية، ولذلك يعرف بمرقس الإنجيلي، وقيل: إن الذي كتبه مرقس نفسه. وكتب متى إنجيله بالعبرانية في بيت المقدس، ونقله بعد ذلك يوحنا بن زبدي إلى اللغة الرومية. وكتب لوقا إنجيله بالرومية وبعث به إلى بعض أكابر الروم، وقيل: بل كتبه باليونانية بمدينة الإسكندرية. وكتب يوحنا إنجيله باليونانية بمدينة أفسس، وقيل مدينة رومية.

قال الشهرستاني: وخاتمة إنجيل متى: «إني أرسلكم إلى الأمم كما أرسلني أبي إليكم فاذهبوا وأدعوا الأمم بأسم الأب والابن وروح القدس» ثم اجتمع برومية من توجه إليها من الحواريين ودونوا قوانين دين النصرانية على يد أقليمس تلميذ بطرس الحوارى، وكتبوا عدد الكتب التي يجب قبولها والعمل بمقتضاها، وهي عدة كتب: منها الأناجيل الأربعة المتقدمة الذكر، والتوراة التي بأيديهم، وجملة كتب من كتب الأنبياء الذين قبل المسيح عليه السلام، كيشوع بن نون، وأيوب، وداود، وسليمان عليهم السلام، وغيرهم.

ثم لما مات الحواريون أقام النصارى لهم خلاف، عبر عنهم بالبطاركة جمع بطرك، وهي كلمة يونانية مركبة من لفظين، أحدهما بطر ومعناه، والثانية يرک ومعناه، ورأيت في ترسل العلاء بن موصلايا: كاتب القائم بأمر الله العباسي "فطرك" ببدال الباء فاء، والعامية يقولون: "بترک" ببدال الطاء تاء، وهو عندهم خليفة المسيح، والقائم بالدين فيهم.

(١) في المقرئ ص ٤٨٣ ج ٢ "قليموس" وفي العبرج ٢ ص ١٤٨ "أقليمس".

(٢) بياض الأصول، وكذلك بيض له فيما تقدم عند الكلام على ألقاب وظائف النصارى انظر (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع.

وقد كان لبطاركتهم في القديم ^(١)خمسة كراسي، لكل كرسي منها بطرك. الأول منها بمدينة رومية، والقائم به خليفة بطرس الحواري المتوجه إليها بالإشارة. والثاني بمدينة الإسكندرية. والقائم به خليفة مرقس تلميذ بطرس الحواري المقدم ذكره وخليفته بها. والثالث بمدينة بزنتية: وهي القسطنطينية. والرابع بمدينة أنطاكية من العواصم التي هي في مقابلة حاب الآن. والخامس بالقدس. وكان أكبر هذه الكراسي الخمسة كرسي رومية لكونه محل خلافة بطرس الحواري، ثم كرسي الإسكندرية، لكونه كرسي مرقس خليفته.

ثم أصطلحوا بعد ذلك على أسماء وضعوها على أرباب ووظائف دياناتهم، فعبروا عن صاحب المذهب بالطيريق، وعن نائب البطرک بالأسقف، وقيل الأسقف عندهم بمنزلة المفتي، وعن القاضي بالمطران، وعن القاري بالقسيس، وعن صاحب الصلاة وهو الإمام بالخانليق، وعن قيم الكنيسة بالشماس، وعن المنقطع إلى المولى للعبادة بالراهب.

وكانت الأساقفة يسمون البطرک أبا، والقسوس يسمون الأسقف أبا، فوقع الأشتراك عندهم في اسم الأب، فوقع اللبس عليهم، فاخترعوا لبطرك الإسكندرية اسم الباب، ويقال فيه البابا بزيادة ألف، والبابه بإبدال الألف هاء، ومعناه عندهم أبو الآباء: لتمييز البطرک عن الأسقف، فاشتهر بهذا الاسم، ثم نقل اسم الباب إلى بطرك رومية لكونه خليفة بطرس الحواري، وبقي اسم البطرک على بطرك الإسكندرية وغيره من أصحاب الكراسي.

(١) تقدم في (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع أنها أربعة ولم يذكر كرسي بزنتية.

وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصَارَى مُجْمَعُونَ عَلَى أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاحِدٌ بِالْجَوْهَرِ ثَلَاثَةٌ بِالْأَقْنُومِيَّةِ ؛ وَيُفَسِّرُونَ الْجَوْهَرَ بِالذَّاتِ وَالْأَقْنُومِيَّةَ بِالصِّصْفَاتِ : كَالْوُجُودِ وَالْعِلْمِ وَالْحَيَاةِ ؛ وَيَعْبُرُونَ عَنِ الذَّاتِ مَعَ الْوُجُودِ بِالْأَبِّ ، وَعَنِ الذَّاتِ مَعَ الْعِلْمِ بِالْأَبْنِ ؛ وَيَعْبُرُونَ عَنِ الذَّاتِ مَعَ الْحَيَاةِ بِرُوحِ الْقُدُسِ ؛ وَيَعْبُرُونَ عَنِ الْإِلَهِ بِاللَّاهُوتِ ، وَعَنِ الْإِنْسَانِ بِالنَّاسُوتِ ؛ وَيُطْلِقُونَ الْعِلْمَ عَلَى الْكَلِمَةِ الَّتِي أُتِّقِيَتْ إِلَى مَرْيَمَ عَلَيْهَا السَّلَامُ فَحَمَلَتْ مِنْهَا بِالْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ ؛ وَيُحْصِنُونَهُ بِالْإِتِّحَادِ دُونَ غَيْرِهِ مِنَ الْأَقَانِيمِ .

وَأَجْتَمَعَ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ وَثَمَانِيَّةَ عَشَرَ ، وَقِيلَ وَسَبْعَةَ عَشَرَ أُسْقَفًا مِنْ أَسَاقِفَتِهِمْ بِمَدِينَةِ نَيْقِيَّةَ مِنْ بِلَادِ الرُّومِ بِحَضْرَةِ قُسْطَنْطِينَ مَلِكِ الرُّومِ عِنْدَ ظَهْوَرِ أَرِيُوشِ الْأُسْقَفِ وَقَوْلِهِ : إِنَّ الْمَسِيحَ مَخْلُوقٌ ، وَإِنَّ الْقَدِيمَ هُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَأَلْفُوا عَقِيدَةَ اسْتِخْرَاجِ جَوْهَا مِنْ أُنَاجِيهِمْ لِقَبُولِهَا بِالْأَمَانَةِ ، مِنْ نَخْرَجَ عَنْهَا نَخْرَجَ عَنِ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ؛ وَنَصَّهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ الشَّهْرَسْتَانِيُّ فِي "النَّحْلِ وَالْمِلَلِ" وَأَبْنُ الْعِمِيدِ مُؤَرِّخُ النَّصَارَى فِي تَارِيخِهِ مَا صُورَتْهُ .

تُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْوَاحِدِ الْإِبِّ ، مَالِكِ كُلِّ شَيْءٍ ، وَصَانِعِ مَا يُرَى وَمَا لَا يُرَى ، وَبِالْأَبْنِ الْوَاحِدِ أَيشوعَ الْمَسِيحِ ابْنِ اللَّهِ ؛ بِكُرِّ الْخَلَائِقِ كُلِّهَا ، وَلَيْسَ بِمَصْنُوعٍ ؛ إِلَهُ حَقٌّ مِنْ [إِلَهُ حَقٍّ مِنْ] جَوْهَرِ أَبِيهِ الَّذِي بِيَدِهِ أُتْقِنَتِ الْعَوَالِمُ وَكُلُّ شَيْءٍ ، الَّذِي مِنْ أَجْلِنَا [مِنْ] أَجْلِ خَلَاصِنَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ، وَتَجَسَّدَ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَوُلِدَ مِنْ مَرْيَمَ الْبَتُولِ ، وَصَلَبَ أَيَّامَ فِيلَاطُوسَ ، وَدُفِنَ ثُمَّ قَامَ فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَصَعِدَ إِلَى السَّمَاءِ ، وَجَلَسَ عَنِ يَمِينِ أَبِيهِ ، وَهُوَ مُسْتَعِدٌّ لِلْجِيءِ تَارَةً أُخْرَى لِلْقَضَاءِ بَيْنِ الْأُمَمَاتِ

(١) الَّذِي فِي "الْمِلَلِ وَالنَّحْلِ" لِلشَّهْرَسْتَانِيِّ (ص ١٣٢) وَثَلَاثَةٌ وَثَلَاثَةٌ عَشَرَ رَجُلًا . وَفِي "الْعِبَرِ"

ج ٢ ص ١٥٠ أَنَّهُمْ كَانُوا أَلْفَيْنِ وَأَرْبَعِينَ أُسْقَفًا وَاتَّفَقُوا مِنْهُمْ عَلَى ثَلَاثَةِ وَثَمَانِيَّةِ عَشَرَ .

(٢) الزِّيَادَةُ مِنَ الْعِبَرِ (ج ٢ ص ١٥٠) .

والأحياء . وَتُؤْمِنُ بِرُوحِ الْقُدُسِ الْوَاحِدِ الْحَيِّ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْ أَبِيهِ ، وَبِمَعْمُودِيَّةِ
وَاحِدَةٍ لِعُفْرَانِ الْخَطَايَا ، وَبِجَمَاعَةِ [وَاحِدَةٍ] قُدْسِيَّةٍ مَسِيحِيَّةٍ جَانَلِيكِيَّةٍ ، وَبِقِيَامِ
أَبْدَانِنَا ، وَبِالْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ أَبَدَ الْآبِدِينَ .

ووضعوا معها قوانين لشرائعهم سموها الهيانات ^(١) . ثم اجتمع منهم جمع
بُقُسَطَنْطِينِيَّةٍ عند دَعْوَى مَقْدُونِيُوسِ الْمَعْرُوفِ بِعُدُوِّ رُوحِ الْقُدُسِ ، وَقَوْلِهِ : إِنْ رُوحَ
الْقُدُسِ مَخْلُوقٌ ، وَزَادُوا فِي الْأَمَانَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ الذِّكْرَ مَا نَصَهُ : « وَتُؤْمِنُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
الْحَيِّ الْمُنْتَبِئِ مِنَ الْآبِ » ، وَلَعَنُوا مَنْ يَزِيدُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى كَلَامِ الْأَمَانَةِ أَوْ يَنْقُصُ مِنْهَا .
وَافْتَرَقَ النَّصَارَى بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى فِرَقٍ كَثِيرَةٍ ، الْمَشْهُورُ مِنْهَا ثَلَاثُ فِرَقٍ :

الفِرْقَةُ الْأُولَى (الْمَلَكَانِيَّةُ)

قال الشَّهْرَسْتَايُّ : وَهْمُ أَتْبَاعِ مَلَكَانَ الَّذِي ظَهَرَ بِبِلَادِ الرُّومِ ، وَمَقْتَضَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ
مَنْسُوبُونَ إِلَى مَلَكَانَ صَاحِبِ مَذْهَبِهِمْ . وَرَأَيْتُ فِي بَعْضِ الْمَصْتَفَاتِ أَنَّهُمْ مَنْسُوبُونَ
إِلَى مَرَّكَانٍ قَيْصَرَ أَحَدِ قِيَاصِرَةِ الرُّومِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ كَانَ يَقُومُ بِتُعْمِيرِ مَذْهَبِهِمْ ، فَقِيلَ
لَهُمْ مَرَّكَانِيَّةٌ ، ثُمَّ عَرَّبَ مَلَكَانِيَّةً ، وَمُعْتَقِدُهُمْ أَنَّ جُزْءًا مِنَ اللَّاهُوتِ حَلَّ فِي النَّاسُوتِ ،
ذَاهِبِينَ إِلَى أَنَّ الْكَلِمَةَ وَهِيَ أَقْنُومُ الْعِلْمِ عِنْدَهُمْ اتَّحَدَتْ بِجَسَدِ الْمَسِيحِ وَتَدَرَّعَتْ بِنَاسُوتِهِ
وَمَا زَجَّتْهُ مُمَازَجَةُ الْخَمْرِ [اللَّبَنِ] أَوْ الْمَاءِ اللَّبَنِ ، وَلَا يُسَمُّونَ الْعِلْمَ قَبْلَ تَدَرُّعِهِ أَبْنَاءً ،
بَلِ الْمَسِيحُ وَمَا تَدَرَّعَ بِهِ هُوَ الْآبُنُ ، وَيَقُولُونَ : إِنْ الْجَوْهَرُ غَيْرُ الْأَقَانِيمِ كَمَا فِي الْمَوْصُوفِ
وَالصَّفَةِ ، مَصْرَحِينَ بِالتَّثْلِيثِ ، قَائِلِينَ بِأَنَّ كَلَّمَ مِنَ الْآبِ وَالْآبِنِ وَرُوحِ الْقُدُسِ إِلَهُ ،
وَالِيَهُمْ وَقَعَتِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ .

(١) فِي " الْعَبْر " : الْهَيَاوِنُ .

وهم يقولون : إن المسيح قديم أزلي من قديم أزلي ، وإن مريم ولدت إلهًا أزليًا ، فيطلقون الأبوة والبُنة على الله تعالى وعلى المسيح حقيقة ، متمسكين بظاهر ما يزعمون أنه وقع في الإنجيل من ذكر الأب والابن : « تكاد السموات تنفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً » .

ثم هم يقولون : إن المسيح ناسوت كل لا جزئي ، وإن القتل والصلب وقعا على الناسوت والآهوت معا كما نقله الشهرستاني في « النحل والممال » وإن كان الشيخ شمس الدين بن الأکفاني في كتابه « إرشاد القاصد » قد وهم فنقل عنهم القول بأن الصلب وقع على الناسوت دون الآهوت .

ومن معتقدهم أيضا أن المعاد والحشر يكون بالأبدان والأرواح جميعا ، كما تضمنته الأمانة المتقدمة ، وأن في الآخرة التلذذات الجسمانية بالأكل والشرب والنكاح وغير ذلك كما يقوله المسلمون .

ومن فروعهم أنهم لا يَحْتَنُونَ ، وربما أكل بعضهم الميتة . وممن تذهب بمذهب الملكانية الروم والفرنجية ومن والأهم .

والملكانية يدينون بطاعة الباب : وهو بطرك رومية المقسم ذكره ، قال في «الروض المعطار» : من قاعدة الباب أنه إذا اجتمع به ملك من ملوك النصارى ينطح على بطنه بين يديه ، ولا يزال يقبل رجله حتى يكون هو الذي يأمره بالقيام .

الفِرْقَةُ الثَّانِيَّةُ (الْيَعْقُوبِيَّةُ)

وهم أتباع ديسقرس بطرك الإسكندرية في القديم : وهو الثامن من بطاركتها من حين بطركية مرقس الإنجيلي نائب بطرس الحواري بها . قال ابن العميد في تاريخه : وسمى أهل مذهبه يعقوبية : لأن اسمه كان في الغلمانية يعقوب . وقيل : بل كان له تلميذ اسمه يعقوب فنسبوا إليه . وقيل : بل كان شاو يرش بطرك أنطاكية على رأى ديسقرس ، وكان له غلام اسمه يعقوب فكان يبعثه إلى أصحابه : أن أثبتوا على أمانة ديسقرس فنسبوا إليه . وقيل : بل نسبوا إلى يعقوب البردغاني تلميذ سويرس بطرك أنطاكية ، وكان راهباً بالقسطنطينية فكان يطوف في البلاد ويدعو إلى مذهب ديسقرس . قال ابن العميد : وليس كذلك فإن العاقبة ينسبون إلى ديسقرس قبل ذلك بكثير ، ومعتقدهم أن الكلمة أنقلمت لهما ودماً فصار الإله هو المسيح .

ثم منهم من قال إن المسيح هو الله تعالى . قال المؤيد صاحب حماة : ويقولون مع ذلك إنه قتل وصلب ومات وبقى العالم ثلاثة أيام بلا مدبر . ومنهم من يقول : ظهر اللاهوت بالناسوت ، فصار ناسوت المسيح مظهر الحق لا على طريق حلول جزء فيه ، ولا على سبيل اتحاد الكلمة التي هي في حكم الصفة ، بل صار هو هو ، كما يقال : ظهر الملك بصورة إنسان ، وظهر الشيطان بصورة حيوان ، وكما أخبر التنزيل عن جبريل عليه السلام بقوله تعالى : ﴿ قَمَثَل لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

وأكثرهم يقول : إن المسيح جوهر واحد إلا أنه من جوهرين ، وربما قالوا : طبيعة واحدة من طبيعتين . بجوهر الإله القديم وجوهر الإنسان المحدث تركباً

النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً أقنوماً واحداً وهو إنسانٌ كهُ وإلهٌ كهُ، فيقال :
 الإنسان صار إلهاً ولا ينعكس ، فلا يقال : الإله صار إنساناً ، كالفحمة تُطرح
 في النار فيقال : صارت الفحمة ناراً، ولا يقال : صارت النار فحمةً ، وهى فى الحقيقة
 لا نارٌ مطلقة ولا فحمةٌ مطلقة ، بل هى جمره .

ويقولون : إن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئى لا الكلى ، وربما عبروا عن
 الاتحاد بالامتزاج والأدراع والحلول ، كحلول صورة الإنسان فى المرأة .

ومنهم من يقول : إن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً لكنها مرت بها كمرور
 الماء بالميزاب ، وإن ما ظهر من شخص المسيح عليه السلام فى العين هو كالحيال
 والصورة فى المرأة ، وإن القتل والصلب إنما وقعا على الحيال .

وزعم آخرون منهم أن الكلمة كانت تُدخل جسد المسيح أحياناً فتصدر عنه
 الآيات : من إحياء الموتى ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وتفارقته فى بعض الأوقات
 فترد عليه الآلام والأوجاع . ثم هم يقولون : إن المعاد إنما هو روحانى فيه لذة
 وراحة وسرور ، ولا أكل ولا شرب ولا نكاح .

ومن فروعهم أنهم يختننون ، ولا يأكلون الحيوان إلا بعد التدكية . وقد حكى
 ابن العميد مؤرخ النصارى أن ديسقورس صاحب مذهب اليعقوبية حين ذهب
 إلى ما ذهب : من مذهبه المتقدم ذكره ، رفع أمره إلى مر كان قيصر ملك الروم
 يومئذ ، فطلبه إلى مدينة خالقدونية من بلاد الروم ، وجمع له ستمائة وأربعة وثلاثين
 أسقفًا ، وناظره بحضور الملك فسقط فى المناظرة ، فكلمته زوجة الملك فأساء الرد
 فاطمته بيدها ، وتناولوه الحاضرون بالضرب ، وأمر باخراجه ، فسار إلى القدس ،

(١) كذا فى "العبر" أيضا باثبات مشاة تحية بعد النون والذى فى معجم ياقوت بحذفها .

فأقام به واتبعه أهل القدس وفلسطين ومصر والإسكندرية ، وقد آتبعه على ذلك أيضا النوبة والحبشة ، وهم على ذلك إلى الآن .

الفِرْقَةُ الثَّلَاثَةُ

(النُسْطُورِيَّةُ)

ومقتضى كلام ابن العميد أنهم أتباع نسطور يوس بطرك القسطنطينية . ويحكى عنه أن من مذهبه أن مريم عليها السلام لم تلد إلهاً ، وإنما ولدت إنساناً ، وإنما أتحد في المشيئة لافي الذات ، وأنه ليس إلهاً حقيقة بل بالموهبة والكرامة . ويقولون بجوهريين وأقنوميين ، وإن كرلس بطرك الإسكندرية و بطرك رومية خالفاه في ذلك ، فجمع لهم مائتي أسقف بمدينة أفسس وأبطلوا مقالة نسطور يوس وصرحوا بكفره ، فنفي إلى إناحيم من صعيد مصر ومات بها ، فظهر مذهبه في نصارى المشرق : من الجزيرة الفراتية والموصل والعراق وقارس .

والذي ذكره الشهرستاني في "النحل والملل" أنهم منسوبون إلى نسطور الحكيم الذي ظهر في زمان المأمون ، وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه ، وقال : إن الله تعالى واحد ذو أقانيم ثلاثة : الوجود والعلم والحياة ؛ وإن هذه الأقانيم ليست بزائدة على الذات ولا هي هي ، وإن الكلمة اتحدت بجسد المسيح عليه السلام لاعلى طريق الأمتزاج ، كما ذهب إليه الملكانية ، ولا على طريق الظهور كما قالته اليعقوبية ،

(١) عبارة ابن خلدون في العبر (ج ٢ ص ١٥٢) وبلغت مقالة نسطور يوس إلى كرلس بطرك الإسكندرية ، فكتب إلى بطرك رومية وهو اكليمس ، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكية ، وإلى يوناوس أسقف بيت المقدس ، فكتبوا إلى نسطور يوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرتجع ولم يلتفت إلى قولهم ، فاجتمعوا في مدينة افسيس في مائتين أسقفاً الخ .

ولكن كاشراق الشمس في كوة ، أو كظهور النقش في الخاتم : قال الشهرستاني :
 ويعنى بقوله إنه واحد بالجوهر أنه ليس مركباً من جنس بل هو بسيط واحد .
 ويعنى بالحياة والعلم أقنومين جوهرين أى أصليين مبدئين للعالم . قال : ومنهم من
 يثبت لله تعالى صفات زائدة على الوجود والحياة والعلم : كالقدرة والإرادة ونحوهما .
 ومنهم من يطلق القول بأن كل واحد من الأقسام الثلاثة حتى ناطق إله . ومنهم من
 يقول : إن الاله واحد ، وإن المسيح ابتداء من مريم عليها السلام ، وإنه عبد صالح
 مخلوق ، خلقه الله تعالى وسماه ابناً على التبنّي لا على الولادة والاتحاد . ثم هم يخالفون
 في القتل والصلب مذهب الملكانية واليعقوبية جميعاً ، فيقولون : القتل والصلب
 وقعا على المسيح من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته : لأن الإله لا تحله الآلام .
 قال صاحب حماة : وهم عند النصارى كالمعتزلة عندنا .

ويعلم أن للنصارى أشياء يعظمونها و [أشياء] يستعظمون الوقوع فيها .

فأما التي يعظمونها فإنهم يعظمون المسيح عليه السلام حتى انتهوا فيه إلى ما انتهوا :
 من دعوى الألوهية والبنوة لله سبحانه ، تعالى الله عما يشركون ، وأسمه عندهم
 أيسوع فعرّب عيسى . وإنما سُمي المسيح لكونه ممسوح القدمين لأنحص له .

ويعظمون مريم عليها السلام لولادتها المسيح عليه السلام ، ويعبرون عنها
 بالسيدة ، وبالتول ، وبالعدراء .

ويعظمون مريمنا المعمدان ، وهو عندهم يحيى بن زكريا عليه السلام ، ومعنى
 مريم السيد ، ويحنا معنى يحيى ، ويسمونه المعمدان لأنهم يزعمون أن مريم عليها
 السلام حين عودها من مصر إلى الشام ومعها السيد المسيح تلقاه يحيى عليه السلام
 فعمده في نهر الأردن من بلاد فلسطين ، يعنى عمسه فيه ، ويعملون ذلك أصلاً

للمعمودية : وهو الماء الذي يغمسون فيه عند تنصرتهم ، ويقولون : إنه لا يصح تنصرتنصراني دون تعمّد . ولما المعمودية بذلك عندهم من التعظيم مالا فوقه . وبعضهم يقول : إن المراد بمرئحنا المعمدان غير يحيى بن زكريا عليهما السلام .

ويعظمون الحواريين : وهم أصحاب المسيح عليه السلام . وقد تقدم أن عدتهم اثنا عشر حواريًا ، ومعنى الحواري الخاض ، ومنه قيل للدقيق الناصع البياض دقيق حواري ، سموا بذلك لأن المسيح عليه السلام استخلصهم لنفسه .

ويعظمون البطارقة لأنهم خلفاء الدين عندهم ، ويرون لهم من الحرمة مالمالدين النصرانية عندهم من الحرمة ، بل يجعلون أمر التحليل والتحرير منوطًا بهم ، حتى لو حرم البطررك على أحدهم زوجته لم يقربها حتى يحلها له . وسياق^(١) مالبطررك اليعقوبية عند صاحب الحبشة من الحرمة عند ذكر المكتبة إليه فيما بعد ، إن شاء الله تعالى .

وكذلك يعظمون أرباب الوظائف الدينية عندهم : من البطريرق ، والأسقف ، والمطران ، والقسيس ، والشماس ، والراهب ، وقد تقدم تفسيرهم فيما مر .

ويعظمون يوسف النجار : وهو قريب لمريم عليها السلام ، يقال : إنه ابن عمها ، كان معها في خدمة بيت المقدس ، وهو الذي استوهب المسيح بعد الصلب بزعمهم حتى دفنه . واليهود يؤمنون بمريم عليها السلام معه بالفجور على ما تقدم .

ويعظمون مريم المجدلانية المقدم ذكرها ، ويزعمون أنها^(٢) أخرج منها سبعة شياطين ، وأنها أول من رأى المسيح حين قام من قبره .

(١) سبق الكلام على المكتبة اليه في ج ٨ ص ٣٩ فهذا الوعد سهو عما سبق .

(٢) بياض بالأصول .

ومن عادتهم أنه إذا مات منهم أحدٌ ممن يعتقدون صلاحه صوروا صورته
في حيطان كنائسهم ودياراتهم يتبركون بها .

ويعظمون قسطنطين بن قسطنطين ملك الروم ، وذلك أنه أول من أخذ بدين
النصرانية من الملوك وحمل على الأخذ به . وقد اختلف في سبب ذلك فقيس :
إنه كان يحارب أمة البرجان بجواره وقد أعجزه أمرهم ، فرأى في المنام كأن ملائكة
نزلت من السماء ومعها أعلام عليها صليبان ، فعمل أعلاماً على مثالها وحاربهم بها
فظهر عليهم . وقيل : بل رأى صورة صليب في السماء . وقيل : بل حملته أمه هيلاني
على ذلك .

ويعظمون هيلاني أم قسطنطين المقدم ذكره ، ويقولون : إنها رحلت من
قسطنطينية إلى القدس ، وأتت إلى محل الصليب بزعمهم ، فوفقت وبكت ،
ثم سألت عن خشبة الصليب ، فأخبرت أن اليهود دفنوها وجعلوا فوقها القمامات
والنجاسات ، فاستعظمت ذلك ، وأستخرجتها وغسلتها وطيبتها وغشتها بالذهب ،
وألبستها الحرير ، وحملتها معها إلى القسطنطينية للتبرك ، وبنت مكانها كنيسة ، وهي
المسماة الآن بالقمامة ، أخذنا من أسم القمامة التي كانت موضوعة هناك .

ويعظمون من الأمكنة بنت لحم حيث مولد المسيح عليه السلام ، وكنيسة قمامة
حيث قبره ، وموضع خشبة الصليب التي أستخرجتها هيلاني أم قسطنطين بزعمهم .
وكذلك يعظمون سائر الكائس : وهي أمكنة عباداتهم كالمساجد للمسلمين .
وأصلها في اللغة مأخوذ من قولهم : كئس الظبي : وهو المكان الذي يستتر فيه ،
سميت بذلك لاستتارهم فيها حال عبادتهم عن أعين الناس . وكذلك يعظمون
الديارات : وهي أمكنة التخلى والاعتزال كالزوايا للمسلمين .

ويعظمون المذبح : وهو مكان يكون في الكنيسة يقربون عنده القرابين
ويذبحون الذبائح، ويعتقدون أن كل ما ذبح عليه من قربان صار لحمه ودمه هو لحم
المسيح ودمه حقيقة .

ويعظمون من الأزمنة أعيادهم الآتي ذكرها عند ذكر أعياد الأمم : كعيد
الغطاس من أعيادهم الجكار، وموقعه في الحادي عشر من طوبه من شهر القبط .
وعيد السيدة من أعيادهم الصغار . وموقعه في الحادي والعشرين من بشونة منها .
وعيد الصليب . وموقعه عندهم في السابع عشر من ثوت ، إلى غير ذلك من الأعياد
الآتي ذكرها مع أعياد الأمم ، في الكلام على الأزمنة من هذه المقالة ، إن شاء
الله تعالى .

وأما الأشياء التي [يتعبدون] بها ، فإنهم يصلون سبع صلوات في اليوم والليلة ،
وهي : الفجر، والضحي ، والطهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ونصف الليل ؛
ويقرون في صلواتهم بمزامير داود عليه السلام كما تفعل اليهود . والسجود في صلواتهم
غير محدود العدد ، بل قد يسجدون في الركعة الواحدة خمسين سجدة . وهم
لا يتوضئون للصلاة ، ولا يغتسلون من الجنابة ، وينكرون الطهر للصلاة على المسلمين
وعلى اليهود ، ويقولون : الأصل طهارة القلب . وإذا أرادوا الصلاة ضربوا
بالنأقوس ، وهو خشبة مستطيلة نحو الذراع يضرب عليها بخشبة لطيفة فيجتمعون .
وهم يستقبلون في صلواتهم المشرق ، وكذلك يوجهون إليه موتاهم . قال الزحشري :
ولعل ذهابهم إلى ذلك لأخذ مريم عليها السلام عنهم مكاناً شرقياً كما أخبر تعالى
بقوله : ﴿ إِذِ أَنْتَبَدْتُ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ .

(١) لم يذكر شيئاً من الأعياد في هذه المقالة وقد سبق ذكر ذلك في الفصل الثالث من المقالة الأولى
فإنها سهو .

ولهم صياماتٌ في أوقاتٍ مُتفرِّقة .

منها - صَوْمُهُمُ الْكَبِيرُ : وهو سِتُّونَ يوماً أوْطأ يومَ الأثنين . وموقعُ أوْله في شباطِ أو آذارٍ من شُهورِ السُّريان ، بحسَبِ ما يقتضيه حسابُهُم ، يُفْطِرُونَ في خِلالِها يومَ الأحدِ ، تبقى مدَّةُ صيامِهِم منها تسعةٌ وأربعونَ يوماً .

ومنها - [صَوْمُهُمُ الصَّغِيرُ] : وهو سِتَّةٌ وأربعونَ يوماً يُصومُونها بعدَ الفصحِ الكبيرِ بخمسينَ يوماً ، أوْطأ يومَ الأثنين أيضاً ، وعندَهُم فيه خِلافٌ .

ومنها - صَوْمُ العَدَارِيِّ : وهو ثلاثةُ أيامٍ ، أوْطأ يومَ الأثنين الكائِنَ بعدَ كائُونِ الثاني ، في صياماتٍ أُخرى يطولُ ذِكْرُها ، ولكثرةِ صيامِهِم قيل : إذا حَدَّثتَ أن نَصْرانِيًّا ماتَ من الجُوعِ فَصَدَّقْ .

وأما ما يَحْرَمُونَهُ ، فإنَّهُم يقولونَ بتَحريمِ لَحْمِ الجَمَلِ ولَبَنِهِ كما يَقُولُهُ اليهودُ ، ويقولونَ : بحلِّ لَحْمِ الخنزيرِ خِلافًا لليهودِ ، وهو مما يُنكِرُهُ اليهودُ عليهم من مخالفةِ أحكامِ التوراةِ .

ويحرمونَ صَوْمَ يومِ الفِصحِ الأكبرِ ، وهو يومُ فِطْرِهِم من صَوْمِهِم الأكبرِ .

ويحرمونَ على الرجلِ أن يترجَّحَ أمرَ أثنين في قرانٍ واحدٍ .

ويحرمونَ طلاقَ الزوجةِ بل إذا ترجَّحَ أحدهمُ امرأةً لا يكونُ له منها فِراقٌ إلا بالموتِ .

وأما الأشياءُ التي يستعظمونَ الوقوعَ فيها :

فمنها - جحودُ كَوْنِ المَسِيحِ هو المُبَشَّرَ بِهِ على لسانِ مُوسَى عليه السلامُ .

ومنها - إنكارُ قَتْلِ المَسِيحِ عليه السلامُ وصَلْبِهِ ، فإنَّهُم يعتقدونَ أن ذلكَ كانَ سَببًا لخِلاصِ اللّاهوتِ من النَّاسوتِ ، فمن أنكرَ عندهمُ وَقوعَ القَتْلِ والصَّلبِ على المَسِيحِ

خرج عن دين النصرانية ، بل إنكار رؤيته مصلوباً عندهم ارتكابٌ محذور . على أنهم ينكرون على اليهود ارتكابهم ذلك ، ويستعظمون مشاركتهم في ذلك ، فيألف من عقول أضلها بارئها ! .

ومنها - كسر صليب الصلوات ، وهو الخشبة التي يزعمون أن المسيح عليه السلام صاب عليها . وقد تقدم أن هيلاني أم قسطنطين استخرجتها من القمامة وغسلتها وطيبتها وغششها بالذهب وألبسها الحرير وحملتها معها للتبرك .

ومنها - الرجوع عن متابعة الحوار بين الذين هم أصحاب المسيح عليه السلام . ومنها - الخروج عن دين النصرانية أو التبري منه ، والقول بدين التوحيد أو دين اليهودية .

ومنها - الوقوع في حق قسطنطين وأمه هيلاني : لقيامهما في إقامة دين النصرانية أولاً على ما تقدم ذكره . وكذلك الاستهانة بالبطاركة أو أحد من أرباب الديانات عندهم : كالأساقفة ونحوهم ممن تقدم ذكره .

ومنها - القعود عن أهل الشعانين : وهم أهل التسييح الذين كانوا حول المسيح عليه السلام حين ركب الحمار بالقدس ودخل صهيون يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وهم حوله يسبحون الله تعالى ويقدمونه .

ومنها - صوم يوم الفصح الأكبر ، وصرف الوجه في الصلاة عن الشرق ، وأستقبال صحرة بيت المقدس موافقة لليهود .

ومنها - هدم كنيسة قسامة : لكونها عندهم في محل القبر بزعمهم . وكذلك غيرها من الكنائس والديرة .

ومنها - تكذيب أحد من نقلة الإنجيل الأربعة الذين كتبوه كمتى وغيره ،
أو تكذيب أحد من القسوس : وهم الذين يقرءون الإنجيل والمزامير ، وتكذيب مريم
المجدلانية فيما أخبرت به عن المسيح من قيامه من قبره الذى كان دُفِنَ فيه بزعمهم ،
فإنهم يزعمون أنها أول من رآه عند قيامه .

ومنها - القول بنجاسة ماء المعمودية : وهو الماء الذى يتغمسون فيه عند
تنصيرهم .

ومنها - عدم اعتقاد أن القربان الذى يُذبح فى المذبح لا يصير لحمه ودمه هو لحم
المسيح ودمه ، ولعمري إن هذه لعقول ذاهبة .

ومنها - أستباحة دماء أهل الديارات ، والمشاركة فى قتل الشمامسة الذين هم
خدام الكنائس .

ومنها - خيانة المسيح فى وديعته . وذلك أنهم يزعمون أن كل ماخالفت فيه فرقة
من الفرق الثلاث الفرقة الأخرى كقول الملكانية بأن المعاد جسماني ، وقول
اليقوبية : إن المعاد روحاني ، فإن الفرقة الأخرى يستعظمون الوقوع فيما ذهب
إليه مخالفاً ، وكذلك كل ماجرى هذا المجرى .

وقد رتب الكتاب إيمان النصارى على هذه المعتقدات . قال محمد بن عمر المدائني
فى كتاب "القلم والدواة" : وقد يذهب على كثير من الكتاب ما يستخلف به اليهود
والنصارى عند الحاجة إلى ذلك منهم ، فيستخلفون بإيمان الإسلام وهم مستحلون
للحرام ، ومجتربون على الآثام ، ويتأتمون من أيمنهم ، والأستقسام بأديانهم .
ثم أشار إلى أن أول ما رُتبت الأيمان التى يخلف بها النصارى على هذه الطريقة
فى زمن الفضل بن الربيع ، فخكى عن بعض كتاب العراق أنه قال : أراد الفضل

أَبْنُ الرَّبِّيعِ : يَعْنِي وَزِيرَ الرَّشِيدِ أَنْ يَسْتَحْلِفَ كَاتِبَهُ "عَوْنَا النَّصْرَانِي" فَلَمْ يَدْرِ
 كَيْفَ يَسْتَحْلِفُهُ ، فَقُلْتُ : وَلَيْتِي أَسْتَحْلِفُهُ ، قَالَ : دُونَكَ ، فَقُلْتُ لَهُ : احْلِفْ
 بِالْهِكِ الَّذِي لَا تَعْبُدُ غَيْرَهُ ، وَلَا تَدِينُ إِلَّا لَهُ ، وَإِلَّا خَلَعْتَ النَّصْرَانِيَّةَ ، وَبَرِئْتَ مِنَ
 الْمَعْمُودِيَّةِ ، وَطَرَحْتَ عَلَى الْمَذْبُوحِ خِرْقَةَ حِيْضَةٍ يَهُودِيَّةٍ ، وَقُلْتَ فِي الْمَسِيحِ مَا يَقُولُهُ
 الْمُسْلِمُونَ ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ . وَإِلَّا فَلَعَنَكَ
 الْبَطْرِيكُ الْأَكْبَرُ ، وَالْمَطَّارَنَةُ ، وَالشَّامِسَةُ ، وَالْقَمَامَسَةُ ، وَالْدِيرَانِيُّونَ ، وَأَصْحَابُ
 الصَّوَامِعِ عِنْدَ مَجْتَمَعِ الْخَنَازِيرِ وَتَقْرِيْبِ الْقُرْبَانِ ؛ وَبِمَا اسْتَعَاثَتْ بِهِ النَّصْرَانِيُّ لِيَسُوعَ ،
 وَإِلَّا فَعَلَيْكَ جُرْمٌ ثَلَاثَاةٌ وَثَمَانِيَةٌ عَشْرًا سَقَفًا الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ نِيْقِيَّةَ حَتَّى أَقَامُوا عُمُودَ
 النَّصْرَانِيَّةِ ، وَإِلَّا فَشَقَّقْتَ النَّاقُوسَ وَطَبَخْتَ بِهِ لَحْمَ جَمَلٍ وَأَكَلْتَهُ يَوْمَ الْأَثْنِينَ مَدْخَلِ
 الصَّوْمِ وَأَحْمَمْتَ مِنْ كُلِّ بَرَكَةٍ يَوْمًا (؟) وَرَمَيْتِ الشَّاهِدَ بَعَشْرِينَ حَجْرًا جَاحِدًا بِهَا ،
 وَهَدَمْتَ كَنِيسَةً لَدُنَّ ، وَبَنَيْتَ بِهَا كَنِيسَةَ الْيَهُودِ ، وَخَرَقْتَ غِفَارَةَ مَرْيَمَ وَكَهَنُونَ دَاوُدَ ،
 وَأَنْتَ حَنِيفٌ مُسْلِمٌ ؛ وَهَذِهِ الْيَمِينُ لِأَزْمَةٍ لَكَ وَلِعَقِيكَ مِنْ بَعْدِكَ . قَالَ فَقَالَ عَوْنٌ :
 أَنَا لَا أَسْتَحِلُّ أَنْ أَسْمَعَ هَذِهِ فَكَيْفَ أَقُولُهَا ! وَخَرَجَ مِنْ جَمِيعِ مَا طَالَبَهُ بِهِ الْفَضْلُ ،
 فَأَمَرَ بِهَا الْفَضْلُ فَكُتِبَتْ نُسْخًا وَفُرِّقَتْ عَلَى الْكُتَّابِ وَأَمَرَهُمْ بِحِفْظِهَا وَتَحْلِيفِ
 النَّصْرَانِيِّ [بِهَا] .

قُلْتُ : وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ مِنْ تَرْتِيبِ نُسْخِ الْإِيمَانِ لِتَحْلِيفِ النَّصْرَانِيِّ ، فَمِنْ
 مُطَبِّعٍ وَمِنْ مُوَجِّهِ ، عَلَى آخْتِلَافِ مَقَاصِدِهِمْ فِيمَا يَقَعُ بِهِ التَّحْلِيفُ وَيُؤَافِقُ آرَاءَهُمْ
 فِيهِ . وَقَدْ رَتَّبَ الْمُقَرَّبُ الشَّهَابِيُّ أَبْنَ فَضْلِ اللَّهِ فِي "التَّعْرِيفِ" لَمْ أَيْمَانًا عَلَى مُقْتَضَى
 آرَاءِ فِرْقَتِهِمُ الثَّلَاثِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ : مِنَ الْمَلَكَانِيَّةِ ، وَالْيَعْقُوبِيَّةِ ، وَالنَّسَاطِرَةِ .

فأما الملكانية، فقال : إن يمينهم : والله والله العظيم ، وحق المسيح عيسى
 ابن مريم ، وأمه السيدة مريم ، وما اعتقده من دين النصرانية ، والملة المسيحية .
 وإلا أبرأ من المعمودية ، وأقول : إن ماءها نجس ، وإن القرابين رجس ، وبرئت
 من مريختي المعمدان والأنجيل الأربعة ، وقلت : إن متى كذوب ، وإن مريم
 المجدلانية باطلة الدعوى في إخبارها عن السيد يسوع المسيح ، وقلت في السيدة
 مريم قول اليهود ، ودنت بدينهم في الجحود ، وأنكرت اتحاد اللاهوت بالنسوت ،
 وبرئت من الأب والابن وروح القدس ، وكذبت القسوس ، وشاركت في ذبح
 الشمامس ، وهدمت الديارات والكائس ، وكنت ممن مال على قسطنطين بن
 هيلاني ، وتعمد أمه بالعظام ، وخالفت الجامع التي أجمعت الأساقفة برومية
 والقسطنطينية ، ووافقت البردعاني بأنطاكية ، وجمدت مذهب الملكانية ،
 وسفقت رأي الرهبان ، وأنكرت وقوع الصلب على السيد يسوع ، وكنت مع اليهود
 حين صلبوه ، وحدت عن الحوارين ، وأستبحت دماء الديريين ، وجذبت رداء
 الكبرياء عن البطريرك ، وخرجت عن طاعة الباب ، وضمت يوم الفصح الأكبر ،
 وقعدت عن أهل الشعانيين ، وأبنت عيد الصليب والفطاس ، ولم أحفل بعيد
 السيدة ، وأكلت لحم الجمل ، ودنت بدين اليهود ، وأبحت حرمة الطلاق ، وخنث
 المسيح في ديبته ، وتزوجت في قرن باهرأتين ، وهدمت بيدي كنيسة قامة ،
 وكسرت صليب الصلبوت ، وقلت في البتوة مقال نسطورس ، ووجهت إلى الصخرة
 وجهي ، وصدت عن الشرق المنير حيث كان المظهر الكريم ، وإلا برئت من
 النورانيين والشعشعانيين ، ودنت غير دين النصارى ، وأنكرت أن السيد يسوع أحيا
 الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص ، وقلت بأنه مربوب ، وأنه ما رؤى وهو مصلوب ،
 وأنكرت أن قربان المقدس على المذبح ما صار لحم المسيح ودمه حقيقة ، وخرجت

في النصرانية عن لاجِبِ الطريقة ، وإلَّا قُلْتُ بِدِينِ التَّوْحِيدِ ، وتعبَدْتُ غيرَ الأربابِ ، وقصَدْتُ بالمظانِياتِ غيرَ طَرِيقِ الإِخْلَاصِ ، وقلْتُ : إنَّ المَعَادَ غيرُ رُوحَانِيٍّ ، وإنَّ بَنِي المَعْمُودِيَّةِ لَا تَسِيحُ فِي فِسِيحِ السَّمَاءِ ، وأُثْبِتُ وُجُودَ الحُورِ العِينِ فِي المَعَادِ ، وأنَّ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ التَّلذُّذَاتِ الجُسَمَانِيَّةِ ؛ ونَحْرَجُ خُرُوجَ الشَّعْرَةِ مِنَ العَجِينِ مِنْ دِينِ النِّصْرَانِيَّةِ ، وَأَكُونُ مِنْ دِينِي مَحْرُومًا ، وقلْتُ إنَّ جَرِجَسَ لَمْ يُقْتَلْ مَظْلُومًا .

وأما اليعاقبة ، فقال : إنه يُبَدِّلُ قَوْلَهُ : اتِّحَادِ الأَلْهُوتِ بِالنَّاسُوتِ بِقَوْلِهِ : مُمَاسَّةِ الأَلْهُوتِ لِلنَّاسُوتِ . وَيُبْطِلُ قَوْلَهُ : وَوَأَقَمْتُ البَرْدَعَانِيَّ بِأَنْطَاكِيَّةِ ، وَجحدت مذهب المَلَكَانِيَّةِ وَيَسُدُّ بِقَوْلِهِ : وَكذَّبْتُ يَعْقُوبَ البَرْدَعَانِيَّ ، وقلْتُ : إنه غيرُ نصراني ، وَجحدت اليعقوبية ، وقلْتُ إنَّ الحَقَّ مَعَ المَلَكَانِيَّةِ . وَيُبْطِلُ قَوْلَهُ : وَنَحْرَجُ عَنْ طَاعَةِ البَابِ ، وَيُبَدِّلُ قَوْلَهُ : وَقَاتَلْتُ بِيَدِي عَمْدَشِيونَ ، وَنَحْرَبْتُ كَنِيسَةَ قُمَامَةَ وَكُنْتُ أَوَّلَ مَفْتُونٍ .

وإن كان من النساطرة أبدل القولين وأبقى ما سواهما ، وقال عوض مُماسَّةِ الأَلْهُوتِ لِلنَّاسُوتِ : إِشْرَاقِ الأَلْهُوتِ عَلَى النَّاسُوتِ ، وَيُزَادُ بَعْدَ مَا يُحَذَفُ : وَقَاتَلْتُ بِالْبَرَاءَةِ مِنْ سُسْطُورِسَ وَمَا تَضَمَّنَهُ الإِنْجِيلُ المَقَدَّسَ .



وهذه نُسخةٌ يَمِينٌ حُفَّتْ عَلَيْهَا مَلِكُ النُّوبَةِ لِلسُّلْطَانِ المَلِكِ المَنْصُورِ « قلاوون »
عند استقراره نائِبًا عنه في بلادِ النُّوبَةِ ، وَهِيَ :

وَاللَّهُ وَاللَّهُ وَاللَّهُ ، وَحَقَّ النَّالُوثِ المَقَدَّسِ ، وَالإِنْجِيلِ الطَّاهِرِ ، وَالسَّيِّدَةِ الطَّاهِرَةِ
العَدْرَاءِ أُمِّ النُّورِ ، وَالْمَعْمُودِيَّةِ ، وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَالرُّسُلِ ، وَالْحَوَارِيِّينَ ، وَالْقَدِيسِينَ ،

والشهداء الأبرار، وإلا أجمد المسيح كما جمده بودس؛ وأقول فيه ما يقول اليهود، وأعتقد ما يعتقدونه؛ وإلا أكون بودس الذي طعن المسيح بالحربة - إني أخضت يدي وطويته من وقتي هذا وساعتي هذه للسلطان الملك فلان، وإني أبذل جهدي وطاقتي في تحصيل مرضاته، وإني ما دمت نائبه لا أقطع المقرر عليّ في كل سنة تمضي: وهو ما يفضّل من مشاطرة البلاد على ما كان يتحصل لمن تقدّم من ملوك النوبة، وأن يكون النصف من المتحصل للسلطان مخلصاً من كل حق، والنصف الآخر مرصداً لعمارة البلاد وحفظها من عدو يطرقها، وأن يكون عليّ في كل سنة كذا وكذا. وإني أقرّ على كل نفرٍ من الرعية الذين تحت يدي في البلاد من العقلاء البالغين ديناراً عينا. وإني لا أترك شيئاً من السلاح ولا أخفيه، ولا أمكن أحداً من إخفائه. ومتى خرجت عن جميع ما قرّرتُه أو عن شيءٍ من هذا المذكور أعلاه كله، كنت بريئاً من الله تعالى ومن المسيح ومن السيدة الطاهرة، وأخسر دين النصرانية، وأصلي إلى غير الشرق، وأكسر الصليب، وأعتقد ما يعتقد اليهود. وإني مهما سمعت من الأخبار الضارة والنافعة طالعت به السلطان في وقته وساعته، ولا أنفرد بشيءٍ من الأشياء إذا لم يكن مصلحة. وإني وليّ من وإلى السلطان وعدو من عاداه، والله على ما نقول وكيل.

قلت: وسيأتي ذكر أيمان الفرنج على الهدنة عند ذكر ما أهمله في "التعريف":

من نسخ الأيمان في آخر الباب، إن شاء الله تعالى.

المِلَّةُ الثَّلَاثَةُ

(المَجُوسِيَّةُ : وهى المِلَّةُ التى كان عابها الفُرسُ ومَن دَانَ بدينهم)

وهم ثلاثُ فِرَقٍ :

الفِرقةُ الأولى - الكُيُومَرِيَّةُ - نسبةً إلى كُيُومَرْت ، ويقال : كُيُومَرْتُ بالجيم بدل الكاف . وهو مَبْدَأُ النَّسْلِ عندهم كَادَمَ عليه السلامَ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَرَبِّمَا قِيلَ : إن كُيُومَرْتُ هو آدَمُ عليه السلامَ . وهؤلاءُ أَثْبَتُوا إلهًا قَدِيمًا وَسَمَّوهُ يزدانَ ، ومعناه النُّورُ ، يعنونُ به اللهُ تعالى ، وإلهًا مَخْلُوقًا سَمَّوهُ أَهرمنَ ، ومعناه الظُّلْمَةُ ، يعنونُ به إبليسَ . ويزعمون أن سَبَبَ وُجُودِ أَهرمنَ أنَّ يزدانَ فَكَّرَ فى نَفْسِهِ أَنَّهُ لو كان له مُنَازَعٌ كيف يكونُ ، فُخِذَتْ من هذه الفِكرَةُ الرِّدِيَّةُ أَهرمنَ ، مَطْبُوعًا على الشَّرِّ والْفِتْنَةِ والْفَسَادِ والضَّرَرِ والإِضْرَارِ ، فخرَجَ على يزدانَ وخَالَفَ طَبِيعَتَهُ ، فَخَرَّتْ بَيْنَهُمَا مُحَارَبَةٌ كانَ أحرَّ الأَمْرِ فيها على أنَّ أَصْطَلَحَا أن يكونَ العَالَمُ السُّفْلِيُّ لِأَهرمنَ سبعةَ آلافِ سَنَةٍ ، ثم يَخْلَى العَالَمُ وَيُسَامَهُ ليزدانَ . ثم إنه أَبَادَ الَّذِينَ كانوا فى الدُّنْيَا قَبْلَ الصَّلْحِ وَأَهْلَكَهُمْ ، وَبَدَأَ بِرَجُلٍ يُقالُ له كُيُومَرْتُ ، وَحَيَوانٍ يُقالُ له النُّورُ ، فَكانَ من كُيُومَرْتِ البَشَرُ ومن النُّورِ البَقَرُ وَسائِرُ الحَيَوانِ .

وقاعدةٌ مَدَّهَبُهُمُ تَعْظِيمُ النُّورِ ، والتَّحَرُّزُ مِنَ الظُّلْمَةِ ، ومن هُنا أُتَّجَرَّوا إلى النارِ فَعَبَدوها : لما أَشْتَمَلَتْ عَليه من النُّورِ . ولَمَّا كانَ النُّورُ هو أَصْلَ الحَيَوانِ عندهم المُضادِ لِوُجُودِ كُيُومَرْتِ ، عَظَّمُوا البَقَرَ حَتَّى تَعَبَدُوا بِأَبوالها .

الفِرقةُ الثَّانِيَةُ - الشَّوِيَّةُ - وهم على رَأْيِ الكُيُومَرِيَّةِ فى تَفْضِيلِ النُّورِ والتَّحَرُّزِ مِنَ الظُّلْمَةِ ، إلا أَنَّهُم يَقولونَ : إنَّ الأَثْنينَ اللذَيْنِ هُما النُّورُ والظُّلْمَةُ قَدِيمانِ .

الفِرْقَةُ الثَّلَاثَةُ — الزَّرَادَشْتِيَّةُ الدَّائِنُونَ بِدِينِ الْمَجُوسِيَّةِ — وَهُمْ أَتْبَاعُ زَرَادَشْتِ
الَّذِي ظَهَرَ فِي زَمَنِ كَيْسَتَانِسَفِ السَّابِعِ مِنْ مُلُوكِ الْكَيْلَانِيَّةِ ، وَهُمْ الطَّبَقَةُ الثَّانِيَةُ مِنْ مُلُوكِ
الْفُرسِ ، وَأَدَّعَى النُّبُوَّةَ وَقَالَ بِوَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا ضِدَّ
وَلَا نِدَّ ، وَأَنَّهُ خَالِقُ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ وَمُبْدِعُهُمَا ، وَأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالصَّلَاحَ وَالْفَسَادَ إِنَّمَا
حَصَلَ مِنْ آمْتَرَا جِهَمَا ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي مَزَجَهُمَا لِحِكْمَةٍ [رَأَاهَا] فِي التَّرْكِيبِ ،
وَأَنَّهُمَا لَوْ لَمْ يَمْتَرِجَا لَمَا كَانَ وُجُودٌ لِلْعَالَمِ ، وَأَنَّهُ لَا يَزَالُ الْآمْتَرَا جُ حَتَّى يَغْلِبَ النُّورُ
الظُّلْمَةَ ، ثُمَّ يَخْلُصُ الْخَيْرُ فِي عَالِمِهِ وَيَخْطُ الشَّرُّ إِلَى عَالِمِهِ ، وَحِينَئِذٍ تَكُونُ الْقِيَامَةُ .
وَقَالَ بِاسْتِقْبَالِ الْمَشْرِقِ حَيْثُ مَطَّلَعَ الْأَنْوَارُ ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ ، وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَأَجْتِنَابِ الْخَبَائِثِ . وَأَنَّى بِكِتَابٍ قِيلَ صَنَّفَهُ ، وَقِيلَ أُتْرِلَ عَلَيْهِ . قَالَ الشَّهْرَسْتَانِيُّ :
أَسْمُهُ "زَنْدُوسْتَا" . وَقَالَ الْمَسْعُودِيُّ فِي "التَّنْبِيهِ وَالْإِشْرَافِ" : وَأَسْمُ هَذَا الْكِتَابِ
"الْإَيْسْتَا" ، وَإِذَا عُرِّبَ أَثْبَتَتْ فِيهِ قَافٌ فَقِيلَ : "الْإَيْسْتَاقُ" وَعَدَدُ سُورِهِ إِحْدَى
وَعِشْرُونَ سُورَةً ، تَفْعَلُ كُلُّ سُورَةٍ فِي مَائَتِي وَرَقَةٍ ، وَعَدَدُ حُرُوفِهِ سِتُّونَ حَرْفًا ، لِكُلِّ
حَرْفٍ سُورَةٌ مُفْرَدَةٌ ، فِيهَا حُرُوفٌ تَتَكَرَّرُ فِيهَا حُرُوفٌ تَسْقُطُ . قَالَ : وَزَرَادَشْتِ
هُوَ الَّذِي أَحْدَثَ هَذَا الْخَطَّ وَالْمَجُوسُ تَسْمِيَهُ : دِينَ تَبَرَهُ ، أَيْ كِتَابَ الدِّينِ .

وَذَكَرَ أَنَّهُ كَتَبَ بِاللُّغَةِ الْفَارِسِيَّةِ الْأُولَى فِي اثْنَيْ عَشَرَ أَلْفَ جِلْدٍ ثَوْرٍ بِقُضْبَانِ
الذَّهَبِ حَفْرًا ، وَأَنَّ أَحَدًا الْيَوْمَ لَا يَعْرِفُ مَعْنَى تِلْكَ اللُّغَةِ ، وَإِنَّمَا تَقَلُّ لَهُمْ إِلَى هَذِهِ
الْفَارِسِيَّةِ شَيْءٌ مِنَ السُّورِ فِي أَيْدِيهِمْ يَقْرَءُونَهَا فِي صَلَوَاتِهِمْ : فِي بَعْضِهَا الْخَبَرَ عَنْ مُبْتَدِ
الْعَالِمِ وَمَنْتَاهَا ، وَفِي بَعْضِهَا مَوَاعِظٌ . قَالَ : وَعَمِلَ زَرَادَشْتِ لِكِتَابِ "الْإَيْسْتَا"
شَرْحًا سَمَّاهُ "الزَنْدَ" وَمَعْنَاهُ عِنْدَهُمْ : تَرْجُمَةُ كَلَامِ الرَّبِّ ، ثُمَّ عَمِلَ لِكِتَابِ "الزَنْدَ"
شَرْحًا سَمَّاهُ : "بَادزَنْدَهُ" وَعَمَلَتْ عَلَيْهِمُ أَعْلَمَاءُهُمْ لِذَلِكَ الشَّرْحَ شَرْحًا سَمَّوهُ : "يَا زَنْدَهُ" .

ومن حيث اختلاف الناس في كتاب زرادشت المقدم ذكره هذا : نُزِلَ عليه
أو صَنَّفَهُ قال الفقهاء : إنَّ لِلْجُوسِ شُبُهَةً كِتَابَ : لِأَنَّهُ غَيْرُ مَقْطُوعٍ بِكَوْنِهِ
كِتَابًا مُنْزَلًا .

وَأَتَى زَرَادُشْتَ كَيْسْتَا سَفَ الْمَلِكِ بِمُعْجَزَاتٍ .

منها - أنه أتى بدائرةٍ صحيحةٍ بغير آلة ، وهو ممتنع عند أهل الهندسة .

ومنها - أنه مرَّ على أعمى ، فأمرهم أن يأخذوا حَشِيشَةً سَمًّاها وَيَعْصِرُوهَا
فِي عَيْنَيْهِ ، فَأَبْصَرَ . قال الشَّهْرَسْتَانِيُّ : وليس ذلك من المعجزة في شيء ، إذ يحتملُ
أنه كان يعرف خاصَّة الحشيشة .

وهم يقولون : إن الله تعالى خلق في الأوَّلِ خَلْقًا رُوحَانِيًّا ، فلبا مَضَتْ ثَلَاثَةُ
آلَافِ سَنَةٍ أَنْفَذَ اللهُ تَعَالَى مَشِيئَتَهُ فِي صُورَةٍ مِنْ نُورٍ مُتَلَايٍ عَلَى [تَرْكِيْبِ] صُورَةِ
الإنسان ، وخلقَ الشَّمْسَ والقَمَرَ والكواكِبَ والأرضَ (وبنو آدم حينئذٍ غيرُ
مَتَحَرِّكِينَ) فِي ثَلَاثَةِ آلَافِ سَنَةٍ .

ثمَّ الْجُوسُ يَفْضَلُونَ الفُرسَ عَلَى العَرَبِ وَسائرِ الأُمَمِ ، وَيَفْضَلُونَ ما لِمَ : مِنْ مُدُنٍ
وَأبْنِيَّةٍ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ الأَبْنِيَّةِ ، فَيَفْضَلُونَ إِقْلِيمَ بَابِلَ عَلَى غَيْرِهِ مِنَ الأَقْلِيمِ ، وَمَدِينَتَهُ عَلَى
سائرِ المُدُنِ ، مِنْ حَيْثُ إِنَّ أوشمهنجَ أَوَّلَ طَبَقَةِ الجِكانِيَّةِ مِنْ مُلُوكِ الفُرسِ هُوَ الَّذِي
بَنَاهَا ؛ وَيَقُولُونَ : إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ جَلَسَ عَلَى السَّرِيرِ ، وَلَيْسَ النَّاجِ ، وَرَفَعَ الأَعْمَالَ ،
وَرَبَّبَ الخِراجَ ؛ وَكَانَ مُلْكُهُ بَعْدَ الطُّوفانِ بِمِائَتِي سَنَةٍ ، وَقِيلَ : بَلْ كَانَ قَبْلَ
الطُّوفانِ .

وَيَفْضَلُونَ الكِتابَةَ الفَهْلُويَّةَ وَهِيَ الفارسية الأولى على غيرها من الخُطُوطِ ، وَيَزْعُمُونَ
أَنَّ أَوَّلَ مَنْ وَضَعَهَا طَهْمُورْتُ : وَهُوَ الَّذِي مَلَكَ بَعْدَ أوشمهنجِ المُقَدَّمِ ذِكْرُهُ .

ويجحدون سياسة بني ساسان ، وهم الطبقة الثالثة من ملوك الفرس منسوبون
إلى ساسان . ويسخظون [على] الروم ، لغزوهم الفرس وتسلطهم عليهم ببلاد
بابل . ويعبدون النار ، ويرون أن الأفلاك فاعلة بنفسها ، ويستبيحون فروج
المحارم من البنات والأمهات ، ويرون جواز الجمع بين الأختين إلى غير ذلك
من عقائدهم .

ويعظمون النيروز : وهو أول يوم من سنتهم وعيدهم الأكبر . وأول من
رتبه جمشيد أخو ظهثورث . ويعظمون أيضا المهرجان : وهو عيد مشهور
من أعيادهم .

ويسخظون [على] بيوراسب : وهو رابع ملوكهم : وهو الضحاك يقال له
بالفارسية : الدهاش ، ومعناه عشر آفات . وكان ظلوما غشوما ، سار فيهم بالجور
والعسف ، وبسط يده بالقتل ، وسن العشور والمكوس واتخذ المغنين والملاهي ،
وكان على كفيه ساعتان مستورتان بثيابه يحرثهما إذا شاء ، فكان يدعي أنهما
حياتان ، تهويان على ضعفاء العقول ، ويزعم أن ما يأخذه من الرعية يطعمه لهما
ليكفهما عن الناس ، وأنهما لا يشبعان إلا بأدمغة بني آدم ، فكان يقتل في كل
يوم عددا كثيرا من الخلق بهذه الحجمة . ويقال : إن إبراهيم الخليل عليه السلام
كان في آخر أيامه .

وكان من شأنه أنه لما كثر جورُه وظلمه على الناس ، ظهر بأصمهان رجل اسمه
كابي ، ويقال : كابيان من سفلة الناس ، قيل حداد ، كان الضحاك قد قتل له ابنين
فأخذ كابي المذكور درفسا وهو الحربة وعلق بأعلاها قطعة نطع كان يتقي بها النار ،

(١) في "العبر" ج ٢ ص ١٦٩ أنها الرابعة .

ونادى في الناس بحاربة الضحَّاك ، فأجابه خلقٌ كثيرٌ ، وأستفحل أمرُه ، وقصدَ الضحَّاكُ بمن معه ، فهرب الضحَّاكُ منه ، فسأله الناسُ أن يملك عليهم ، فامتنع لكونه من غير بيتِ المُلِكِ ، وأشار بتولية إفريدون من عقب جمشيد المقدم ذكره ، فوَلَّوه ، فتبع الضحَّاكُ فقبضَ عليه وقتلَه ، وسار فيهم بسيرة العدلِ وردَّ ما اغتصبه الضحَّاكُ إلى أهلِه ، فصار لكاتبِ المذكورِ عندهم المقامُ الأعلى ، وعظَّموا درفَسَه الذي علق به تلك القطعة من النطع ، وكللوه بالجواهر ، ورضعوه بالواقيت ، ولم يزل عند ملوكهم يستفتحون به في الحروب العظيمة حتى كان معهم أيام يزيدِ حرد آخر ملوكهم عند محاربة المساميين لهم في زمن عثمان ، فغلبهم المسلمون وأقتلعوه منهم .

وهم يعظمون إفريدون ملكهم المقدم ذكره ، لقيامه في هلاك الضحَّاك وقتلَه .
وفي أول ملك إفريدون هذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام . ويقال : إنه ذو القرنين المذكور في القرآن الكريم .

وهم يعظمون أيضا من ملوكهم سابور الملَّقب بذي الأكتاف ، لأخذه بشار العجم من العرب . وذلك أنه كان يتبع العرب بالجزيرة الفُراتية وما جاورها ، وسار في طلبهم حتى بلغ البحرين ، لئيلكهم قتلا ، لا يقبلُ من أحدٍ منهم فداءً ، ثم أخذَ في حُلج أكتافهم ، فلذلك سُمي ذا الأكتاف .

ويعظمون ماني بن فائق : وهو رجلٌ ظهر في زمن سابور بن أردشير بعد عيسى عليه السلام ، وأدعى النبوة وأحدث دينًا بين الجوسية والنصرانية . وكان يقول :
نبوة المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام ، وقال : إن العالم

(١) في "الملل" ابن فائق بالكاف .

مَصْنُوعٌ مِنَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ ، وَإِنَّمَا لَمْ يَزَلَا قَدِيمِينَ حَسَّاسِينَ سَمِيعِينَ بَصِيرِينَ . وَلَهُ
أَتْبَاعٌ يَعْرِفُونَ بِالْمَانَوِيَّةِ .

ويتبرعون من مزدك : وهو رجلٌ مشهورٌ منسوبٌ عندهم إلى الزَّنْدَقَةِ أَيضًا ،
ظهر في زمن قُبَادَ أَحَدِ مُلُوكِ الفُرْسِ مِنَ الأَكَّاسِرَةِ ، وَأَدَّعَى النُّبُوَّةَ وَنَهَى عَنِ المَخَالِفَةِ
والمَبَاغِضَةِ ، وَزَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ إِنَّمَا يَحْصُلُ بِسَبَبِ النِّسَاءِ وَالمَالِ ، فَأَمَرَ بِالأَشْتِرَاكِ
والمَسَاوَاةِ فِيهِمَا ، وَتَبِعَهُ قُبَادُ عَلَى ذَلِكَ ، فَتَوَصَّاتِ سِفْلَةَ الرِّجَالِ إِلَى أَشْرَافِ النِّسَاءِ ،
وَحَصَلَ بِذَلِكَ مَفْسَدَةٌ عَظِيمَةٌ . وَكَانَ يَقُولُ : إِنَّ النُّورَ عَالِمٌ حَسَّاسٌ ، وَالظُّلَامَ
جَاهِلٌ أَعْمَى ، وَالنُّورُ يَفْعَلُ بِالقَصْدِ وَالأَخْتِيَارِ ، وَالظُّلْمَةُ تَفْعَلُ عَلَى الخَبْطِ وَالأَتْفَاقِ ،
وَإِنَّ أَمْتَرَجَ النُّورِ وَالظُّلْمَةِ كَانَ بِالأَتْفَاقِ وَالخَبْطِ دُونَ القَصْدِ وَالأَخْتِيَارِ ، وَكَذَلِكَ
الْخِلَاصُ . وَلَهُ أَتْبَاعٌ يُقَالُ لَهُمُ المَزْدَكِيَّةُ ، وَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى قَتَلَهُ شَرَوَانُ بْنُ قُبَادَ
هُوَ وَأَتْبَاعُهُ ، وَقَتَلَ مَعَهُمُ المَانَوِيَّةَ أَتْبَاعَ مَانِي المَقْدَمِ ذَكَرَهُ ، وَعَادَتِ الفُرْسُ إِلَى
المَجُوسِيَّةِ القَدِيمَةِ .

وقد رتب في "التعريف" للجوس يمينا على مقتضى ما عليه عقيدة الجوس أتباع
زرادشت المقدم ذكره، وهي :

إِنِّي وَاللهِ الرَّبِّ العَظِيمِ ، القَدِيمِ ، النُّورِ ، الأَقْلِ ، رَبِّ الأَرْبَابِ ، وَإِلَهِ الأِلَهَةِ ،
مَاحِي آيَةِ الظُّلْمِ ، وَالمُوجِدِ مِنَ العَدَمِ ، مَقْدِرِ الأَفْلاكِ وَمُسَيِّرِهَا ، وَمُنُورِ الشُّهُبِ
وَمُصَوِّرِهَا ، خَالِقِ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ ، وَمُنْبِتِ النُّجُومِ وَالشَّجَرِ ، وَالنَّارِ وَالنُّورِ ، وَالظَّلِّ
وَالحُرُورِ ، وَحَقِّ جِوْمَرَتِ وَمَا أَوْلَدَ مِنْ كَرَامِ النَّسْلِ ، وَزَرادشت وَمَا جَاءَ بِهِ مِنَ القَوْلِ
الفَصْلِ ، وَالزُّنْدِ وَمَا تَضَمَّنَهُ ، وَالخَطِّ المُسْتَدِيرِ وَمَا بَيْنَ . وَإِلَّا أَنْكَرْتُ أَنَّ زَرادشتَ
لَمْ يَأْتِ بِالدَّائِرَةِ الصَّحِيحَةِ بِغَيْرِ آلِهِ ، وَأَنَّ مَلَكَةَ إِفْرِيدُونَ كَانَتْ ضَلاَلَهُ ، وَأَكُونُ

قد شاركت بيوراسب فيما سنك طعمًا حَيَّيَّةً ، وقلتُ إن كايان لم يُسلط عليه ؛
 وحرقتُ بيدي الدرفس ، وأنكرتُ ما عليه من الوضع الذي أشرقت عليه أجرام
 الكواكب ، وتمازجتُ فيه القوى الأرضية بالقوى السماوية ، وكذبتُ ماني وصدقتُ
 مزدك ، وأسبختُ فضول الفروج والأموال ، وقلتُ بانكار الترتيب في طبقات
 العالم ، وأنه لا مرجع في الأبوة إلا إلى آدم ، وفضأتُ العربَ على العجم ، وجعلتُ
 الفرس كسائر الأمم ، ومسحتُ بيدي خطوطَ الفهلوية ، وجمدتُ السياسةَ
 الساسانية ، وكنتُ ممن غزا الفرس مع الروم ، ومن خطأ سابور في خلع أكتاف
 العرب ، وجلبتُ البلاءَ إلى بابل ، ودينْتُ بنيردين الأوائل ؛ وإلا أطفأتُ النار ،
 وأنكرتُ فعلَ الفلكِ الدقار ، ومالأتُ فاعلَ الليلِ على فاعلِ النهار ، وأبطلتُ حكمَ
 النيروز والمهرجان ، وأطفأتُ ليلةَ الصدقِ مصابيحَ النيران ؛ وإلا أكونُ ممن حرم
 فروج الأمهات ، وقالَ بأنه لا يجوز الجمعُ بين الأخوات ؛ وأكونُ ممن أنكر صوابَ
 فعلِ أردشير ، وكنتُ لقومي نُسَ المولى ونُسَ العشير .

المهييع الثالث

(في الأيمان التي يُخلف بها الحكماء)

وهم المعبر عنهم بالفلاسفة ، جمعُ فيلسوفٍ : ومعناه باليونانية مُحِبُّ الحكمة .
 وأصله فيلاسوف ، فقيلَ معناه مُحِبُّ ، وسوف معناه الحكمة ، وهم أصحاب الحكم
 الغريزية والأحكام السماوية ، فمنهم من وقف عند هذا الحد ، ومنهم من عرف الله
 تعالى وعبدَه بأدبِ النفس .

قال الشهرستاني : وهم على ثلاثة أصناف :

الصنف الأول — البراهمة ، وهم لا يُقرون بالنبوات أصلاً ، ولا يقولون بها .

[الصِّنفُ الثَّانِي - حِكْمَاءُ الْعَرَبِ] ^(١) ، وَهْمٌ شِرْذِمَةٌ قَلِيلَةٌ ، وَأَكْثَرُ حِكْمَتِهِمْ
فَاتَاتُ الطَّعْبِ ، وَخَطَرَاتُ الْفِكْرِ ، وَهَوْلَاءُ رَبِّمَا قَالُوا بِالنَّبَوَاتِ .

[الصِّنفُ الثَّالِثُ - حِكْمَاءُ الرُّومِ] ^(١) ، وَهْمٌ عَلَى ضَرْبَيْنِ :

الضرب الأول

(القدماء منهم الذين هم أساطين الحكمة)

^(٢) وَهْمٌ سَبْعَةٌ حِكْمَاءُ : ثَالِيسُ الْمَلَطِي ، وَأَنْكَسَاغُورَسُ ، وَأَنْكَسِمَانَسُ ، وَأَنْبَادِيْقَلَسُ ،
وَفَيْثَاغُورَسُ ، وَسُقْرَاطُ ، وَأَفْلَاطُونُ . وَمَذَاهِبُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ ، وَبَعْضُهُمْ عَاصِرُ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ
عَالِمُهُمُ السَّلَامُ ، وَتَلَقَّفَ مِنْهُ ، كَأَنْبَادِيْقَلَسِ : كَانَ فِي زَمَنِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَمَضَى
إِلَيْهِ وَتَلَقَّى عَنْهُ ، وَأَخْتَلَفَ إِلَى لُقْمَانَ وَأَقْتَبَسَ مِنْهُ الْحِكْمَةَ . وَكَذَلِكَ فَيْثَاغُورَسُ : كَانَ
فِي زَمَنِ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَأَخَذَ الْحِكْمَةَ مِنْ مَعْدِنِ النَّبِوَةِ .

الضرب الثاني

(المتأخرون منهم ، وهم أصحاب أرسطاطاليس ، وهم ثلاث طوائف)

طَائِفَةٌ مِنْهُمْ تُعْرَفُ بِالْمَشَائِينِ : وَهْمٌ الَّذِينَ كَانُوا يَمَشُونَ فِي رِكَابِهِ يقرءون عليه
الحكمة في الطريق وهو راكب . وطائفة تُعرف بالرواقين : وهم الذين كان يجلس
لتعليمهم بالرواق . والطائفة الثالثة فلاسفة الإسلام : وهم حكام العجم . أما قبل
الإسلام فإنه لم ينقل عن العجم مقالة في الفلسفة ، بل حكيمهم كلها كانت مُستفادَةً

(١) الزيادة عن الشهرستاني بالمعنى ليستقيم الكلام .

(٢) في الملل والنحل : انبذقلس .

من النبوت : إما من الملة القديمة ، وإما من غيرها من الملل . ومعتقدهم أن الله تعالى واجب الوجود لذاته ، وأنه ليس بجوهر ولا عرض ، وأن ما سواه صادر عنه على ترتيب ، وأنه تعالى واحد فرد ، ليس له شريك ولا نظير ، باق أبدي سرمدي ، وأنه الذي أوجد الأشياء وكونها ، ويعبرون عنه بعلّة العال ، وأنه قادر ، يفعل إن شاء ولا يفعل إن لم يشأ ، فاعل بالذات ليس له صفة زائدة على ذاته ، سرمد ، له إرادة وعناية لا تزيد على ذاته ، وأنه أول لا بداية له ، آخر لا نهاية له ، وأنه يستحيل أن يتغير ، منزّه عن أن يكون حادثاً أو عرضاً للحوادث ، حتى متصف بصفات البقاء السرمديّة ، وأنه حكيم بمعنى أنه جامع لكل كمال وجلال ، وأنه خالق الأفلاك بقدرته ، ومدبرها بحكمته ، ويقولون : إن الأرض ثابتة لا تتحرك ، والماء مُحيط بها من سائر جهاتها على ما اقتضته الحكمة الإلهية ، وكشف بعض أعلاها لسكنى الخلق فيه ، فهي كبطيخة مُلقاة في بركة ماء ، ويحيط بالماء الهواء ، ويحيط بالهواء النار ، ويحيط بالنار فلك القمر وهو الأول ، ويحيط بفلك القمر فلك عطارد وهو الثاني ، ويحيط بفلك عطارد فلك الزهرة وهو الثالث ، ويحيط بفلك الزهرة فلك الشمس وهو الرابع ، ويحيط بفلك الشمس فلك المريخ وهو الخامس ، ويحيط بفلك المريخ فلك المشتري وهو السادس ، ويحيط بفلك المشتري فلك زحل وهو السابع ، ويحيط بفلك زحل فلك الكواكب وهو الثامن ، وهو الذي فيه الكواكب الثابتة بأسرها ، وهي ما عدا الكواكب السبعة التي في الأفلاك السبعة المقدم ذكرها : من البروج الأثني عشر ومنازل القمر الثمانية والعشرين وغيرها . ويحيط بالكواكب الفلك الأطلس وهو الفلك التاسع ، والأفلاك التسعة دائرة بما فيها من المشرق إلى المغرب ، بحيث تقطع في اليوم والليلّة دورة كاملة ، والكواكب السبعة

التي في الأفلاك السبعة الأولى ، وهي : زحل ، والمشتري ، والمريخ ، والشمس ،
والزهرة ، وعطارد ، والقمر ، متحركة بالسَّير إلى جهاتٍ مخصوصة : الشمس والقمر
يسيران بين المشرق والمغرب وبقية الكواكب يختلف سيرها استقامةً ورجوعاً ،
والكواكب التي في الفلك الثامن ثابتة لا تتحرك ، والله تعالى هو الذي يسير هذه
الأفلاك والكواكب ويفيض القوى عليها .

ويقولون : إن الشمس إذا سخنت الأرض بواسطة الضوء صعد من الرطب
منها بخار ، ومن البارد الياس دخان . ثم بعضه يخرج من مسام الأرض فيرتفع
إلى الجو ، وبعضه يحتبس في الأرض بوجود ما يمنعه من الخروج منها : من جبل
ونحوه .

فأما ما يخرج من مسام الأرض ، فإن كان من البخار ، فما تصاعد منه في الهواء
يكون منه المطر والتلج والبرد وقوس قزح والهالة ؛ ثم ما ارتفع من الطبقة الحارة من
الهواء إلى الباردة تكاثف بالبرد وأنعقد غيماً ، وإن كان ضعيفاً أثرت فيه حرارة
الشمس فاستحال هواءً ، ومهما انتهى إلى الطبقة الباردة تكاثف وعاد وتقاطر وهو
المطر . فإن أدركها برد شديد قبل أن تجتمع ، جمدت ونزلت كالقطن المندوف وهو
التلج ، وإن لم تدركها برودة حتى اجتمعت قطرات من الجوانب أذهبت برودتها ،
أنعقدت برداً ، وإذا صار الهواء رطباً بالمطر مع أدنى صقالة ، صار كالمرأة فيتولد من
ضوء الشمس الواقع في قفاه قوس قزح ، فإن كان قبل الزوال رؤى في المغرب ،
وإن كان بعد الزوال رؤى في المشرق ، وإن كانت الشمس في وسط السماء لم يمكن
أن يرى إلا قوساً صغيراً إن اتفق . وفي معنى ذلك الهالة المحيطة بالقمر ، إلا أن
الهالة إنما تحصل من مجرد برودة الهواء وإن لم يكن مطر .

وإن كان ما يخرج من مسام الأرض دُخانًا : فإن تصاعدَ وارتفع في وسط البخار وضربه الريحُ في ارتفاعه ، نُقلُ وانكسَ فحركه الهواءُ فحصل الريحُ . وإن لم يضربه الريحُ ، تصاعد إلى عنصِر النار واشتعلت النارُ فيه فصار منه نارٌ تشاهد ، وربما استطال بحسب طولِ الدخانِ فيسمى كوكبا منقضا . وإن كان الدخانُ كَثيفا واشتعل بالنار ولكنه لم يستحل على القُرب ، بل بقي زمانا ، رُوى كأنه كوكبٌ ذو ذنَب . وإن بقي شيءٌ من الدخانِ في تضاعيف الغيمِ وبرد ، صار ريحًا في وسط الغيمِ فيتحركُ فيه بشدة فيحصل منه صوتٌ وهو الرعدُ ، فإن قويت حركته اشتعل من حرارة الحركة الهواءُ والدخانُ فصار نارًا مُضيئةً وهو البرقُ . وإن كان المُشتعلُ كَثيفا ثَقِيلا مُحرقًا ، أندفع بمصادفة الغيمِ إلى جِهَةِ الأرضِ وهى الصاعقة :

﴿ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ .

ويَقْرُونَ أن الله تعالى مُكوِّنُ الأَكوانِ ، ومُمتَيِّ المعادنِ والنَّباتِ والحَيوانِ . فأما المعادنُ — فهى التى تتكوَّنُ فيها جواهرُ الأرضِ : من الذهبِ والفضَّةِ وغيرهما . وذلك أن البخارَ والدخانَ فى الأرضِ فإنها [ان] تجتمعُ وتمترجُ ، فإن غلب الدخانُ كان الحاصلُ منه مثل النُوشادرِ والكِبْرِيتِ ، وربما تغلبَ البخارُ فى بعضه فيصير كالماءِ الصَّافى المنعقدِ المتحجِّجِ ، فيكون منه الياقوتُ والبِلُورُ ونحوه ممَّا لا يتطرقُ تحت المطارقُ . وإن استحكمت أمتراجُ الدخانِ منه بالبخارِ وقَلَّتْ الحرارةُ المحققة فى جواهرها ، انعقد منه الذهبُ والفضَّةُ والنحاسُ والرصاصُ ونحوها ممَّا يتطرقُ بالمطرقةِ .

وأما النباتُ — فانهم يقولون : إن العناصرُ قد يقعُ بها أمتراجٌ وأختلاطٌ أتمُّ من أمتراجِ البخارِ والدخانِ المقدم ذكره ، وأحسنُ وأقربُ إلى الاعتدالِ ، فيحصل من ذلك الثمُّ الذى لا يكون فى الجمادات .

وينشأ عن ذلك ثلاثة أمور :

أحدها — التغذيةُ بقوة مغذية : وهي قوةٌ محيَلةٌ للغذاء تتخلعُ عنها صورتها وتكسوها صورة المتغذى ، فتنشر في أجزائه وتلتصق به وتسدُّ مسدًا ما تحلل من أجزائه .

وثانيها — التَّغذيةُ بقوة مُمَيِّة ، بأن يزيد الجسم بالغذاء في أقطاره على التناسب اللائق بالنامي حتى ينتهي إلى مُتَمِّى ذلك الشيء .

وثالثها — التَّوَلِيدُ بقوة مولدة : وهي التي تفصل جسمًا من جسمٍ شبيه به .

وأما الحيوان — فإنهم يقولون إن تكوُّنه من مزاجٍ أقرب إلى الاعتدال وأحسن من الذى قبله ، من حيث إن فيه قوة النباتية وزيادة قوتين ، وهما المُدِرَكَّة والمتحرِّكة ، ومهما حصل من الإدراك أنبعثت الشهوة والتزوع ، وهو إما لطاب ما يحتاج إليه في طلب الملائم الذى به بقاء الشخص : كالغذاء ، أو بقاء النوع : كالجماع ، ويسمى قُوَّةً شهوانية . وإما للهرب ودفع المنافي ، وهي قُوَّةٌ غضبية ، فإن ضعفت القوة الشهوانية فهو الكراهة ، وإن ضعفت القوة الغضبية فهو الخوف .

والقوة المدركة تنقسم إلى باطنة : كالتحالية والمتوهمة والذائكة والمفكرة ، وإلى ظاهرة : كالسمع والبصر والذوق والشم واللمس . فالألس قُوَّةٌ منبهة في جميع البشرة ، تُدرك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والصلابة واللين والخشونة والملاسة والحقة والثقل . والشم في زائدتى الدماغ الشببيتين بحامتى الندى . والسمع في عصبية في أقصى الصماخ . والذوق في عصبية مفروشة على ظاهر اللسان بواسطة الرطوبة العذبة التي لا طعم لها ، المنبسطة على ظاهر اللسان . والإبصار يحصل عن انطباع مثل صورة المدرك في الرطوبة الجليدية التي تُشبه البرد والجمد فإنها كالمرآة ، فاذا قابلها يكون انطباع فيها مثل صورته فتحصل الرؤية .

وَيَرَوْنَ أَنَّ النَّفْسَ مَحَلُّهَا الْعُلُومُ . وَيَقُولُونَ : إِنْ النَّفْسَ فِي أَوَّلِ الصَّبَا تَكُونُ عَالِمَةً
بِالْمَعْقُولَاتِ الْمَجْرَدَةِ وَالْمَعَانِي الْكُلِّيَّةِ بِالْقُوَّةِ ، ثُمَّ تَصِيرُ بَعْدَ ذَلِكَ عَالِمَةً بِالْفِعْلِ .

ثُمَّ إِنْ سَعِدَتْ بِالْأَسْتِعْدَادِ لِلْقَبُولِ ، انْقَطَعَتْ حَاجَتُهَا عَنِ النَّظَرِ إِلَى الْبَدَنِ
وَمُقْتَضَى الْحَوَاسِّ ، إِلَّا أَنَّ الْبَدْنَ لَا يَزَالُ يَجَازِبُهَا وَيَشْغَلُهَا وَيَمْنَعُهَا مِنْ تَمَامِ الْإِتِّصَالِ
بِالْعُلُومَاتِ ، فَذَا انْحَطَّ عَنْهَا شُغْلُ الْبَدَنِ بِالْمَوْتِ أَرْتَفَعَ عَنْهَا الْحِجَابُ ، وَزَالَ الْمَانِعُ ،
وَدَامَ الْإِتِّصَالُ ، وَكُلُّ حَالِهَا بَعْدَ فِرَاقِ الْبَدَنِ ، وَالتَّدْتُّ بِهِ لَذَّةٌ لَا يُدْرِكُ الْوَصْفُ
كُنْهَهَا . وَإِنْ كَانَتِ النَّفْسُ مَحْجُوبَةً عَنْ هَذِهِ السَّعَادَةِ فَقَدْ شَقِيَتْ .

وَعِنْدَهُمْ أَنَّهُ إِذَا تَحَجَّبُ بِاتِّبَاعِ الشَّمَوَاتِ ، وَقَصُرِ الْهَمَّةِ عَلَى مُقْتَضَى الطَّبَعِ ،
وَبَاقَامَتِهِ فِي هَذَا الْعَالَمِ الْخَسِيسِ الْغَانِي ، فَتَرْتَبِحُ فِي نَفْسِهِ تِلْكَ الْعَادَةُ وَيَتَأَكَّدُ شَوْقَهُ
إِلَيْهَا ، فَتَقُوتُ بِالْمَوْتِ آلَةٌ دَرَكِ ذَلِكَ الشَّوْقِ وَيَبْقَى التَّشَوُّقُ وَهُوَ الْأَلَمُ الْعَظِيمُ الَّذِي
لَا حَدَّ لَهُ ، وَذَلِكَ مَانِعٌ مِنَ الْوَصَالِ وَالْإِتِّصَالِ . وَهَذِهِ النَّفْسُ نَاقِصَةٌ بِفَقْدِ الْعِلْمِ ،
مَلْطَاطَةٌ بِاتِّبَاعِ الشَّمَوَاتِ ، بِخِلَافِ النَّفْسِ السَّابِقَةِ .

وَيَقُولُونَ : إِنْ الْهَيُولَى قَابِلَةٌ لِتَرْكِيبِ الْأَجْسَامِ ، وَيُخَالِفُونَ أَهْلَ الطَّبِيعَةِ فِي قَوْلِهِمْ :
بِانْكَارِ الْمَعَادِ وَفَنَاءِ الْأَرْوَاحِ ، فَيَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ الْأَرْوَاحَ بَاقِيَةٌ وَأَنَّ الْمَعَادَ حَقٌّ .

وَيَرَوْنَ أَنَّ التَّحْسِينَ وَالتَّجْبِيحَ رَاجِعَانِ إِلَى الْعَقْلِ دُونَ الشَّرْعِ ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ
الْمُعْتَرِلَةِ وَغَيْرِهِمْ .

وَيَقُولُونَ : إِنْ الْإِلَهِ تَعَالَى فَاعِلٌ بِالذَّاتِ لَيْسَ لَهُ صِفَةٌ زَائِدَةٌ عَلَى ذَاتِهِ ، عَالِمٌ
بِذَاتِهِ وَبَسَائِرِ أَنْوَاعِ الْمَوْجُودَاتِ وَأَجْنَاسِهَا ، لَا يَعْرُبُ عَنْ عِلْمِهِ شَيْءٌ ، وَإِنَّهُ يَعْلَمُ
الْمَحْكَاتِ الْحَادِثَةَ .

ويقولون بأثبات النبوات لأن العالم لا ينتظم إلا بقانونٍ متبوعٍ بين كافة [الناس] يحكّمون به بالعدل ، وإلا تقاتلوا وهلك العالم ، إذ النبي هو خليفة الله في أرضه ، بواسطته تنتهى إلى الخلق الهداية إلى مصالح الدنيا والآخرة ، من حيث إنه يتلقى عن الملك والملك يتلقى عن الله تعالى ، إلا أنهم يقولون : إن النبوات غير متناهية وإنما مكتسبة ينالها العبد بالرياضات . وهاتان المقاتلتان من جملة ما كفروا به : تجويز النبوة بعد النبي صلى الله عليه وسلم الذى أخبر تعالى أنه حاتم النبيين ، وقولهم إنها تنال بالكسب .

وقد حكى الصّلاح الصّفديّ في "شرح لامية العجم" أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إنما قتل عمارة اليمنى الشاعر ، حين قام فيمن قام بإحياء الدولة الفاطمية بعد انقراضها ، على ما تقدم ذكره في الكلام على ترتيب مملكة الديار المصرية في المقالة الثانية ، مستنّداً في ذلك إلى بيت نُسب إليه من قصيدة ، وهو قوله :

وكان مبدأ هذا الدين من رجلٍ * سعى فأصبح يدعى سيّد الأمم

بفعل النبوة مكتسبة ^(١) على أن الله تعالى ليس بجسم ولا جسماني ، وأنه ليس في جهة ولا يدخل تحت الحد والماهية .



وهذه نسخة يمين رتبها لهم في "التعريف" وهي :

إني والله والله العظيم ^(٢) [العظيم] ، الذى لا إله إلا هو ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الأبدى ، السرمدي ، الأزلي ، الذى لم يزل علة العليل ، رب الأرباب ،

(١) يياض في الأصل ، ولعله « وهم يجمعون على أن » الخ .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٦٢ .

ومُدَبِّرُ الكُلِّ [القدير] القَدِيم ؛ الأَوَّلُ بلا بَدَايَةَ ، والآخِرُ بلا نِهَايَةَ ، المُنْتَهَى عن أن يَكُونَ حَادِثًا أو عَرَضًا لِحَوَادِثِ ، الحَيُّ الَّذِي آتَّصَفُ بِصِفَاتِ البَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالكَمَالِ ، وَالمُتَرَدِّى بِرَدَاءِ الكِبْرِيَاءِ وَالجَلَالِ ؛ مُدَبِّرُ الأَفْلاكِ وَمُسِيرُ الشُّهُبِ ، مُفِيضُ القُوَى عَلَى الكَوَاكِبِ ، وَبَاطِنُ الأَرْوَاحِ فِي الصُّوَرِ ، مَكُونُ الكَائِنَاتِ ، وَمُمَيِّزُ الحَيوانِ وَالمَعْدِنِ وَالنَّبَاتِ . وَإِلَّا فَلا رَقِيَتْ رُوحِي إِلَى مَكَانِهَا ، وَلا آتَّصَلَتْ نَفْسِي بِعَالِمِهَا ، وَبَقِيْتُ فِي ظُلْمِ الجَهَالَةِ وَحُجْبِ الضَّلَالَةِ ، وَفَارَقْتُ نَفْسِي غَيْرَ مُرْتَسِمَةٍ بِالمَعَارِفِ وَلا مُكَمَّلَةٍ بِالعِلْمِ ، وَبَقِيْتُ فِي عَوَزِ النَّقْصِ وَتَحْتَ إِمْرَةِ النِّغِيِّ ، وَأَخَذْتُ بِنَيْصِبٍ مِنَ الشَّرْكِ ، وَأَنْكَرْتُ المَعَادَ ، وَقَلْتُ بِفَنَاءِ الأَرْوَاحِ ، وَرَضِيْتُ فِي هَذَا بِمَقَالَةِ أَهْلِ الطَّبِيعَةِ ، وَدُمْتُ فِي قَيْدِ المَرْجَبَاتِ وَشِوَاغِلِ الحَسَنِ ، وَلَمْ أُدْرِكِ الحَقَائِقَ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ ؛ وَإِلَّا فَقَلْتُ : إِنْ المَيُوتَى غَيْرُ قَابِلَةٍ لِتَرْكِيبِ الأَجْسَامِ ، وَأَنْكَرْتُ المَادَّةَ وَالصُّورَةَ ، وَخَرَقْتُ النِّوَامِيسَ ، وَقَلْتُ : إِنْ التَّحْسِينِ وَالتَّفْطِيحِ إِلَى غَيْرِ العَقْلِ ، وَخَلَدْتُ مَعَ النِّفُوسِ الشَّرِّيرَةِ ، وَلَمْ أُجِدْ سَبِيلًا إِلَى النِّجَاةِ ، وَقَلْتُ : إِنْ الإِلَهِ لَيْسَ فَاعِلًا بِالذَّاتِ ، وَلا عَالِمًا بِالكَلِمَاتِ ، وَدِنْتُ بِأَنَّ النِّبَوَاتِ مُتَنَاهِيَةٌ وَأَنَّهَا غَيْرُ كَسْبِيَّةٍ ، وَحَدَّثْتُ عَنِ طَرَائِقِ الحِكْمَاءِ ، وَنَقَضْتُ تَقْرِيرَ القَدَمَاءِ ، وَخَالَفْتُ الفِلاسِفَةَ ، وَوَأَفَقْتُ عَلَى إِفْسَادِ الصُّوَرِ لِلعِبَثِ ، وَحَيَّرْتُ الرَّبَّ فِي جِهَةِ ، وَأَثَبْتُ أَنَّهُ جِسْمٌ ، وَجَعَلْتُهُ فِيمَا يَدْخُلُ تَحْتَ الحَدِّ وَالمَاهِيَةِ [وَرَضِيْتُ بِالتَّقْلِيدِ فِي الأُولَهِيَّةِ] .^(١)

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٦٣ .

المهيمع الرابع

(في بيان المحلوف عليه ، وما يقع على العموم ، وما يختص به كل واحد من أرباب الوظائف مما يناسب وظيفته)

إعلم أن المحلوف عليه في الأيمان الملوكية تارة يشترك فيه جميع من يحلف من أهل الدولة ، وتارة يختلف باختلاف ما يمتاز به بعضهم عن بعض مما لا تقع الشركة بينهم فيه .

فأما ما يقع فيه الأشتراك ، كطاعة السلطان وما في معناها : من إخلاص النية وإصفاء الطوية ، وما يجري مجرى ذلك ، فذلك مما يشترك فيه كل حالف يحلف للسلطان على اختلاف عقائدهم : من مسلم : سني أو بدعي ، وكافر : يهودي أو نصراني ، أو غيرهما . فكل أحد يحلف بما تقتضيه عقيدته في التعظيم ، على ما تقدم بيانه في أيمان الطوائف كلها .

فاذا آتتهى إلى المحلوف عليه ، قال : إئتني من وقتي هذا ومن ساعتي هذه وما مد الله في عمري قد أخلصت نيتي ولا أزال مجتهدا في إخلاصها ، وأصفيت طوبيتي ولا أزال مجتهدا في إصفاها ، في طاعة مولانا السلطان المالك الملك الفلاني فلان الدنيا والدين فلان ، ابن السلطان السعيد الشهيد المالك فلان الدنيا والدين فلان خلد الله تعالى ملكه ، وفي خدمته ومحبتته ونصحه ، وأكون وليا لمن وآله ، عدوا لمن عاداه ، سائما لمن سالمه ، حربا لمن حاربه من سائر الناس أجمعين ، لا أضمر له سوءا ولا مكروها ولا خديعة ولا خيانة ، في نفس ولا مال ولا ملك ولا سلطنة ولا عسكرة ولا جندي ولا عربان ولا تركان ولا أكراد ولا غير ذلك ، ولا أسعى في تفريق كلمة أحد منهم عن طاعته الشريفة . وإنتي والله العظيم أبذل جهدي

وَطَاقَتِي فِي طَاعَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمَلِكِ فَلَانَ الدُّنْيَا وَالدِّينِ الْمَشَارِإِلَيْهِ ، وَإِنْ كَانَتَنِي أَحَدٌ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ بِمَا فِيهِ مَضَرَّةٌ عَلَى مُلْكِهِ لَا أَوْافِقُ عَلَى ذَلِكَ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ وَلَا عَمَلٍ وَلَا نِيَّةٍ ، وَإِنْ قَدَرْتُ عَلَى إِمْسَاكِ الَّذِي جَاءَنِي بِالْكِتَابِ أَمْسَكْتُهُ وَأَحْضَرْتُهُ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمَلِكِ فَلَانَ الْمَشَارِإِلَيْهِ أَوْلَانَيْهِ الْقَرِيبِ مِنِّي .

وَأَمَّا مَا يَقَعُ فِيهِ الْإِخْتِلَافُ فَمَا يَتَبَيَّنُ الْحَالُ فِيهِ بِإِخْتِصَاصِ رَبِّ كُلِّ وَظِيْفَةٍ بِمَا لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ الْآخَرُ . وَقَدْ أَشَارَ فِي "التَّعْرِيفِ" إِلَى نُبْذَةِ مَنْ ذَلِكَ فَقَالَ : وَقَدْ يُزَادُ نَوَاطِبُ الْقِلَاعِ وَتُقْبَأُوهَا وَالْوَزَرَءُ وَأَرْبَابُ التَّصَرُّفِ فِي الْأَمْوَالِ وَالِدَوَادَارِيَةِ وَكُتَّابُ السَّرَرِيزَادَاتِ ، يَعْنِي عَلَى مَا تَقَدَّمَ .

فَأَمَّا نَوَاطِبُ الْقِلَاعِ وَتُقْبَأُوهَا فَيُزَادُ فِي تَحْلِيفِهِمْ : وَإِنِّي أَجْمَعُ رِجَالَ هَذِهِ الْقَلْعَةِ عَلَى طَاعَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ وَخِدْمَتِهِ فِي حِفْظِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ وَحِمَايَتِهَا وَتَحْصِينِهَا ، وَالذَّبِّ عَنْهَا ، وَالْجِهَادِ دُونَهَا ، وَالْمُدَافَعَةِ عَنْهَا بِكُلِّ طَرِيقٍ . وَإِنِّي أَحْفَظُ حَوَاصِلَهَا وَذَخَائِرَهَا وَسِلَاحَ خَانَاتِهَا عَلَى إِخْتِلَافِ مَا فِيهَا مِنَ الْأَقْوَاتِ وَالْأَسْلِحَةِ . وَإِنِّي لَا أُخْرِجُ شَيْئًا مِنْهَا إِلَّا فِي أَوْقَاتِ الْحَاجَةِ وَالضَّرُورَةِ الدَّاعِيَةِ الْمُتَعَيِّنِ فِيهَا تَفْرِيقُ الْأَقْوَاتِ وَالسِّلَاحِ ، عَلَى قَدْرِ مَا تَدْعُو الْحَاجَةُ إِلَيْهِ . وَإِنِّي أَكُونُ فِي ذَلِكَ كَوَاحِدٍ مِنْ رِجَالِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ ، وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ يَتَّبِعُنِي كَوَاحِدٍ مِنْ يَتَّبِعُ أَتْبَاعَ رِجَالِ هَذِهِ الْقَلْعَةِ ، لَا أُحْصِصُ وَلَا أَمَكِّنُ مِنَ التَّخْصِيسِ . وَإِنِّي وَاللَّهِ وَاللَّهِ وَاللَّهِ لَا أَفْتَحُ أَبْوَابَ هَذِهِ الْقَلْعَةِ إِلَّا فِي الْأَوْقَاتِ الْجَارِيَةِ بِهَا عَادَةٌ فَتُحَاطَبُ أَبْوَابُ الْحِصُونِ ، وَأُغْلَقُهَا فِي الْوَقْتِ الْجَارِيِ بِهَ الْعَادَةِ ، وَلَا أَفْتَحُهَا إِلَّا بِسَمْسِيسٍ ، وَلَا أُغْلِقُهَا إِلَّا بِسَمْسِيسٍ . وَإِنِّي أَطَالِبُ الْحِرَّاسَ وَالِدِرَاجَةَ وَأَرْبَابَ النُّوَبِ فِي هَذِهِ الْقَلْعَةِ بِمَا جَرَّتْ بِهِ الْعَوَائِدُ اللَّازِمَةُ لِكُلِّ مَنْهُمْ مِمَّا فِي ذَلِكَ جَمِيعُهُ مَصْلِحَةٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ . وَإِنِّي لَا أَسَلِّمُ هَذِهِ الْقَلْعَةَ إِلَّا

لمولانا السلطان فلان، أو بمرسومه الشريف وأمارته الصحيحة وأوامره الصريحة .
 وإني لا أستخدم في هذه القلعة إلا من فيه نفعها وأهلية الخدمة، لا أعمل في ذلك
 بغرض نفسي، [ولا أرخص فيه لمن يعمل بغرض نفسه له ^(١)] ، وإني أبدل
 في ذلك كله الجهد، وأشتر فيه عن ساعد الحد، قال : ويسمى القلعة التي هو فيها .
 وأما الوزراء وأرباب التصرف [في الأموال] فما يزداد في تخليفهم : وإني أحفظ
 أموال مولانا السلطان فلان - خلد الله ملكه - من التبذير والضبايح ، والحونة
 وتفريط أهل العجز ، ولا أستخدم في ذلك ولا في شيء منه إلا أهل الكفاية
 والأمانة ، ولا أضمن جهة من الجهات الديوانية إلا من الأمانة الأتقياء القادرين ،
 أو من زاد زيادة ظاهرة وأقام عليه الضمان الثقات ، ولا أؤخر مطالبة أحد بما يتعين
 عليه بوجه حق من حقوق الديوان المعمور والموجبات السلطانية على اختلافها .
 وإني والله العظيم لا أرخص في تسجيل ولا قياس ، ولا أسأخ أحدًا بموجب
 يجب عليه ، ولا أخرج عن كل مصلحة تتعين لمولانا السلطان فلان ولدولته ،
 ولا أخلي كل ديوان يرجع إلى أمره ، ويعتدق بي أمر مباشرته من تصفح
 لأحواله ، وأجتهد في تميم أمواله ، وكف أیدی الخونة عنه ، وغل أيديهم أن تصل
 إلى شيء منه ، ولا أدع حاضرًا ولا غائبًا من أمور هذه المباشرة حتى أجد فيه ،
 وأبدل الجهد الكلي في إجراء أموره على السداد وحسن الاعتماد . وإني لا أستجد
 على المستقر إطلاقه ما لم يرسم لي به إلا ما كان فيه مصلحة ظاهرة لهذه الدولة
 القاهرة ، ونفع بين هذه الأيام الشريفة . وإني والله أؤدى الأمانة في كل ما عدت بي
 ووليت : من القبض والصرف ، والولاية والعزل ، والتأخير والتقديم ، والتقليل
 والتكثير ، وفي كل جليل وحقير ، وقليل وكثير .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٩ .

وأما الدَّوَادِرِيَّةُ وَكُتَابُ السَّرِّ فِيزَادُ فِيهِمَا : وَأَنْتِي مَهْمَا أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ مِنْ مَصَالِحِ
 مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانٍ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - وَنَصَائِحِهِ ، وَأَمْرٍ دَانِي مُلْكِهِ وَنَازِحِهِ ، أَوْصَلَهُ
 إِلَيْهِ ، وَأَعْرَضَهُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَخْفِيهِ شَيْئًا مِنْهُ وَلَوْ كَانَ عَلَيَّ ، وَلَا أَكْتُمُهُ وَلَوْ خَفْتُ
 وَصُولَ ضَرَرِهِ إِلَيَّ .

ويفرد الدَّوَادِرُ : بِأَنِّي لَا أُؤَدِّي عَنْ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ رِسَالَةً فِي إِطْلَاقِ مَالٍ ، وَلَا
 اسْتِخْدَامِ مُسْتَحْدَمٍ ، وَلَا إِقْطَاعِ إِقْطَاعٍ ، وَلَا تَرْتِيبِ مُرْتَبٍ ، وَلَا تَجْدِيدِ مُسْتَجِدٍّ ،
 وَلَا شَادِّ شَاغِرٍ ، وَلَا فَصْلٍ مُنَازَعَةٍ ، وَلَا كِتَابَةِ تَوْقِيعٍ وَلَا مَرْسُومٍ ، وَلَا كِتَابِ
 صَغِيرٍ كَانَ أَوْ كَبِيرًا إِلَّا بَعْدَ عَرْضِهِ عَلَيَّ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانٍ وَمُشَاوَرَتِهِ ، وَمَعَاوِدَةِ
 أَمْرِهِ الشَّرِيفِ وَمُرَاجَعَتِهِ .

ويفرد كاتب السر : بِأَنَّهُ مَهْمَا تَأَخَّرَتْ قِرَاءَتُهُ مِنَ الْكُتُبِ الْوَارِدَةِ عَلَيَّ مَوْلَانَا
 السُّلْطَانَ فَلَانٍ مِنَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ ، يَعَاوِدُهُ فِيهِ فِي وَقْتٍ آخَرَ ، فَإِنْ لَمْ يَعَاوِدْهُ فِيهِ بِجَمْعٍ
 لَفْظِهِ ، لَطَوَّلَهُ الطُّوْلَ الْمُلَّ ، عَاوَدَهُ فِيهِ بِمَعْنَاهُ فِي الْمَلَخَّصَاتِ ، وَأَنَّهُ لَا يُجَاوِبُهُ بِشَيْءٍ لَمْ
 يُنصَّ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ فِيهِ بِنصِّ خَاصٍّ ، وَمَا لَمْ تَجْرِ الْعَادَةُ بِالنَّصِّ فِيهِ لَا يُجَاوِبُ
 فِيهِ إِلَّا بِأَكْمَلِ مَا يَرَى أَنْ فِيهِ مَصْلَحَةٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانٍ وَمَصْلَحَةٌ دَوْلَتِهِ بِأَسَدِّ
 جَوَابٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ ، وَيَصِلُ أَجْتِهَادُهُ إِلَيْهِ . وَأَنَّهُ مَهْمَا أَمَكَّنَهُ الْمُرَاجَعَةُ فِيهِ لِمَوْلَانَا
 السُّلْطَانَ فَلَانٍ رَاجَعَهُ فِيهِ وَعَمِلَ بِنصِّ مَا يَرِيسَمُ لَهُ بِهِ فِيهِ . هَذَا مَا أَتَيْتُ بِهِ إِلَيْهِ كَلَامَهُ .

قال في "التتقيف" : وَيَزَادُ النَّوَابُ مِثْلَ قَوْلِهِ : وَلَا أَسْعَى فِي تَفْرِيقِ كَلِمَةٍ أَحَدٍ
 مِنْهُمْ عَنْ طَاعَتِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَعَلَى أَنْ أَبْدَلَ جُهْدِي وَطَاقِي فِي ذَلِكَ كُلِّهِ وَفِي حِفْظِ
 الْمَمْلُوكَةِ الَّتِي أَسْتَنْبِئُ فِيهَا ، وَصِيَانَتِهَا وَحِمَايَتِهَا ، وَمَا بَهَا مِنَ الْقِلَاعِ وَالثُّغُورِ وَالسُّوَاوِلِ .
 ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَهُ : وَإِنْ كَاتَبْتَنِي أَحَدٌ أَخْلَجُ .

(١) في "التتقيف" ص ١٥٠ «ولا سداد ناغر» .

قلتُ : والمراد أنه يُؤتى باليمين العامة التي يحلف عليها كلُّ أحدٍ، ثم يزداد لكلِّ واحدٍ من أرباب الوظائف ما يُناسبه مما تقدّم ، ثم يؤتى على بقية اليمين من عند قوله : وإِنِّي أَفِي لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ بِهَذِهِ الْيَمِينِ ، إلى آخرها أو ما في معنى ذلك من أيمان أهل البدع وأصحاب الملل على ما تقدّم ذكره .

ثم قال في "التثقيف" : وقد تتجدد وقائع وأمور تحتاج إلى التّحليف ، بسببها تتغير صيغة المحلوف عليه بالنسبة إلى ما رسم به فيها . ثم أشار إلى أنه لم يرمدة مباشرة بديوان الإنشاء أحدًا ممن ذكره في "التعريف" : من أرباب الوظائف حلف ، وإنما ذكرها لاحتمال أن تدعو الحاجة إليها في وقت من الأوقات ، أو أنها كانت مستعملة في المتقدم ، فيكون في تركها إهمال لبعض المصطلح .

قلت : وقد أهملوا في "التعريف" و "التثقيف" : ذكر يمينين مما رتبته الكُتّاب وحافظوا به في الزمن المتقدم مما لا غنى بالكاتب عنه .

الأولى — اليمين على الهدنة التي تتعقد بين ملكين أو نائبيهما ، أو ملكٍ ونائب ملكٍ آخر ، على ما سيأتي ذكره في المقالة التاسعة ، إن شاء الله تعالى .

وتقع اليمين فيها على ما فيه تأكيد عقْد الهدنة والتزام شروطها والبقاء عليها وعدم الخروج عنها أو عن شيء من ملزماتها ، وغير ذلك مما يدخل به التطرق إلى النقص والتوصل إلى الفسخ .



وهذه نسخة يمين حلف عليها السلطان الملك المنصور «قلاوون» على الهدنة الواقعة بينه وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعثليت وبلادها ، من الفرج الاستبارية ،

في شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستائة، في مباشرة القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر كتابه السر، على ما أورده ابن مكرم في تذكّره، وهي :

أقول وأنا فلان : والله والله والله ، وبالله وبالله وبالله ، وتالله وتالله وتالله ، والله العظيم ، الطالب ، الغالب ، الضار ، النافع ، المدرك ، المهلك ، عالم ما بدأ وما خفى ، عالم السر والعلانية ، الرحمن الرحيم ، وحقّ القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه ، وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وما يقال فيه من سورة سورة ، وآية آية ، وحقّ شهر رمضان ، إنني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة التي استقرت بيني وبين مملكة عكا والمتقدمين بها على عكا وعثليت وصيدا وبلادها ، التي تضممتها هذه الهدنة ، التي مدتها عشر سنين كوامل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ، وعشر ساعات ، وأولها يوم الخميس خامس ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستائة للهجرة من أولها إلى آخرها ، وأحفظها وألترم بجميع شروطها المشروحة فيها ، وأجرى الأمور على أحكامها إلى انقضاء مدتها ولا أتأول فيها ولا في شيء منها ، ولا أستفتي فيها طلباً لتقضيها مادام الحاكسون بمدينة عكا وصيدا وعثليت - وهم كافل المملكة بعكا ، ومقدم بيت الروم ، ومقدم بيت الأستبار ، ونائب مقدم بيت الأستبار إلى الآن ، ومن تولى بعدهم في كفالة مملكة ، أو مقدم بيت هذه المملكة المذكورة - وافين باليمين التي يخلقون عليها (في ولدي الملك الصالح ، ولأولاده ، على استقرار هذه الهدنة المحررة الآن) عاملين بها وبشروطها المشروحة فيها إلى انقضاء مدتها ، ملتزمين أحكامها ، وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمي الحجج إلى بيت الله الحرام بمكة حافياً حاسراً ثلاثين حجة ، ويلزمي صوم الدهر كله إلا الأيام المنهية عنها .

ويذكر بقية اليمين إلى آخرها ، ثم يقول : والله على ما تقول وكيل .



وهذه نسخة يمين حُلف عليها الفَرَجُ المعافدون على هذه الهدنة أيضا، في التاريخ
المقدم ذكره على ما أورده ابن مكرم أيضا، وهي :

والله والله والله ، وباللّهِ وباللّهِ وباللّهِ ، وتالله وتالله وتالله ، وحقّ المسيح وحقّ
المسيح ، وحقّ الصليب وحقّ الصليب ، وحقّ الأقانيم الثلاثة من جوهر واحد
المكثى بها عن الأب والأبْنِ وروح القدس إله واحد، وحقّ الصليب المكرّم الحالّ
في النَّسُوتِ ، وحقّ الإنجيل المطهّر وما فيه ، وحقّ الأناجيل الأربعة التي نقلها متى
ومرقس ولوقا ويوحنا ، وحقّ صلواتهم وتقديساتهم ، وحقّ التلامذة الاثني عشر ،
والاثني وسبعين ، والثمانمائة وثمانية عشر المجتمعين للبيعة ، وحقّ الصّوت الذي
نزل من السماء على نهر الأردن فزجره ، وحقّ الله مُنزل الإنجيل على عيسى بن مريم
روح الله وكلمته ، وحقّ السيدة مارية أمّ النور (ومارية مريم) ويوحنا المعمودى
ومرتمان ومرتماني ، وحقّ الصّوم الكبير ، وحقّ ديني ومعبودي وما اعتقده من
النصرانية ، وما تلقّيته عن الآباء والأقساء المعمودية - إني من وقتي هذا وساعتي
هذه ، قد أخلصتُ نبيي ، وأصفيتُ طوبتي في الوفاء للملك المنصور ولولده
الملك الصالح ولأولادهما ، بجميع ما تضمّنته هذه الهدنة المباركة التي انعقد الصلح
عليها ، على مملكة عكا وصيدا وعنّيث وبلادها الداخلة في هذه الهدنة ، المسماة فيها ،
التي مدتها عشر سنين كوايل ، وعشرة أشهر ، وعشرة أيام ، وعشر ساعات ، أولها
يوم الخميس ثالث حريّان سنة ألف وخمسة وأربع وتسعين للإسكندر بن فيلبس
اليوناني ، وأعملُ بجميع شروطها شرطًا شرطًا ، وألتزم الوفاء بكلّ فصل في هذه الهدنة
المذكورة إلى آتضاء مدتها . وإني والله والله وحقّ المسيح ، وحقّ الصليب ،

وَحَقِّ دِينِي لَا أَتَعَرَّضُ إِلَى بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، وَلَا إِلَى مَنْ حَوَّثَهُ وَتَحَوَّيَهُ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، وَلَا إِلَى مَنْ يَتَرَدَّدُ مِنْهُمْ إِلَى الْبِلَادِ الْدَاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ بِأَذِيَّةٍ وَلَا ضَرَرٍ فِي نَفْسٍ وَلَا فِي مَالٍ . وَإِنِّي وَاللَّهِ وَحَقِّ دِينِي وَمَعْبُودِي أَسْلُكُ فِي الْمَعَاهِدَةِ وَالْمُهَادَنَةِ وَالْمُصَافَاةِ وَالْمُصَادَقَةِ وَحِفْظِ الرَّعِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، الْمُرْتَدِّينَ فِي الْبِلَادِ السُّلْطَانِيَّةِ ، وَالصَّادِرِينَ مِنْهَا وَإِلَيْهَا - طَرِيقَ الْمَعَاهِدِينَ الْمُتَصَادِقِينَ الْمُلْتَمِّينَ كَفِّ الْأَذِيَّةِ وَالْعُدْوَانِ عَنِ النَّفُوسِ وَالْأَمْوَالِ ، وَأَلْزَمُ الْوَفَاءَ بِمَجْمَعِ شُرُوطِ هَذِهِ الْهُدْنَةِ إِلَى أَنْقِضَائِهَا ، مَا دَامَ الْمَلِكُ الْمَنْصُورُ وَأَقِيًا بِالْيَمِينِ الَّتِي حَلَفَ بِهَا عَلَى الْهُدْنَةِ ، وَلَا أَنْقُضُ هَذِهِ الْيَمِينَ وَلَا شَيْئًا مِنْهَا ، وَلَا أَسْتَنْبِي فِيهَا وَلَا فِي شَيْءٍ مِنْهَا طَلَبًا لِنَقْضِهَا ، وَمَتَى خَالَفْتُهَا وَنَقَضْتُهَا فَأَكُونُ بَرِيئًا مِنْ دِينِي وَأَعْتِقَادِي وَمَعْبُودِي ، وَأَكُونُ مُحَالِفًا لِلْكَنِيسَةِ ، وَيَكُونُ عَلَيَّ الْحُجُّ إِلَى الْقُدْسِ الشَّرِيفِ ثَلَاثِينَ حَجَّةً حَافِيًا حَاسِرًا ، وَيَكُونُ عَلَيَّ فَكُّ أَلْفِ أَسِيرٍ مُسْلِمٍ مِنْ أَسْرِ الْفَرَنْجِ وَإِطْلَاقُهُمْ ، وَأَكُونُ بَرِيئًا مِنَ الْأَاهُوتِ الْحَالِّ فِي النَّاسُوتِ ، وَالْيَمِينِ يَمِينِي وَأَنَا فُلَانٌ ، وَالنِّيَّةُ فِيهَا بِأَسْرِهَا نِيَّةُ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، وَنِيَّةُ وَوَلَدِهِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَنِيَّةُ مُسْتَحْلَفِي لَهَا بِهَا عَلَى الْإِنْجِيلِ الْكَرِيمِ ، لِأَنِّي لِي غَيْرُهَا ، وَاللَّهُ وَالْمَسِيحُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكَيْلٍ .

وكذلك كتبت اليمينان، من جهة السلطان الملك الظاهر بيبرس، ويمين صاحب بيروت وحصن الأكراد والمرقب من الفرنج الاستبارية في شهر رمضان سنة خمس وستين وستائة .

قلت : ومقتضى ما ذكره ابن المكرم في إيراد هذه الأيمان أن نسخة اليمين تكون منفصلة عن نسخة الهدنة كما في غيرها من الأيمان التي يُستحلف عليها ، إلا أن مقتضى كلام "مواد البيان" : أن اليمين تكون متصلة بالهدنة . والذي يتجه أنه

إن تيسر الحلف عقيب الهدنة - لوجود المتحالفين - كتبت في نفس الهدنة متصلاً بها ، وإلا أفرد كل واحد من الجانبين بنسخة يمين ، كما في غيرها من الأيمان . وربما جردت الهدنة عن الأيمان ، كما وقع في الهدنة الجارية بين الظاهر بيبرس وبين دون حاكم الريدأرغون ، صاحب برشلونه من بلاد الأندلس ، في شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة على مقتضى ما أورده ابن المكرم في تذكرته .

وأعلم أنه قد يكتفى باليمين عن الهدنة [باليمين] في عقد الصلح .

وقد ذكر القاضي تقي الدين ابن ناظر الحيش في "التتيف" : أنه رتب يميناً حلف عليها الفرنج بالأبواب السلطانية بالديار المصرية عند عقد الصلح معهم ، في سنة اثنتين وسبعين وسبعائة ، فيها زيادات على ما ذكره المقر الشهابي بن فضل الله في "التعريف" وهي :

والله والله والله العظيم ، إله إبراهيم ، مالك الكحل ، خالق ما يرى وما لا يرى ، صانع كل شيء ومثقبه ، الرب الذي لا يعبد سواه ، وحق المسيح ، وحق الصليب ، وحق السيدة مريم ، وحق الإنجيل ، وحق الإنجيل ، وحق الأب والأبْنِ وروح القدس إله واحد من جوهر واحد ، وحق الآلهة المكرم ، الحال في الناسوت المعظم ، وحق الأناجيل الأربعة التي نقلها متى ومرقس ولوقا ويوحنا ، وحق الآلهة والناسوت وصليب الصلوات ، وحق التلاميذ الاثني عشر ، والاثني وسبعين ، والثلاثمائة وثمانية عشر المجتمعين على البيعة ، وحق الصوت الذي نزل على نهر الأردن فزجره ، وحق السيدة مارية أم النور ، وحق بيعة وقديس وثالوث ، وما يقوله في صلواته كل معمداني ، وحق ما اعتقده من ديز النصرانية ، والملة المسيحية - إنني أفعل كذا وكذا ، ومتى

خالفت هذه اليمين التي في عنق ، أو نقضتها أو نكثتها ، أو سعت في إبطالها بوجه من الوجوه ، أو طريق من الطرق - برئت من المعمودية ، وقلت : إن ماءها نجس ، وإن القرايين رجس ، وبرئت من مريخنا المعدادان ، والأناجيل الأربعة ، وقلت : إن متى كذوب ، وإن مريم المجدلانية باطلة الدعوى في إخبارها عن السيد يسوع المسيح ، وقلت في السيدة مريم قول اليهود ، ودنت بدينهم في الجحود ، وبرئت من الثالوث ، ومجدت الأب ، وكذبت الأبن ، وكفرت بروح القدس ، وخلعت دين النصرانية ، ولزمت دين الحنيفية ، ولطخت الهيكل بحیضة يهودية ، ورفضت مريم ، وقلت : إنها قرنت مع الأنخريوطي في جهنم ، وأنكرت اتحاد اللاهوت والناسوت ، وكذبت القسوس ، وشاركت في ذبح الشمامس ، وهدمت الديارات والحائس ، وكنت ممن مال على قسطنطين بن هيلاني ، وتعمدت أمه بالعمائم ، وخالفت المجامع التي اجتمعت عليها الأساقف برومية والقسطنطينية ، ومجدت مذهب الملكانية ، وسفقت رأي الرهبان ، وأنكرت وقوع الصلب على السيد يسوع ، وكنت مع اليهود حين صلبوه ، وحدت عن الحواريين ، وأسبخت دماء الديرانيين ، وجذبت رداء الكبرياء عن البطريرك ، وخرجت عن طاعة الباب ، وصمت يوم الفصح الأكبر ، وقعدت عن أهل الشمانين ، وأبيت عيد الصليب والغطاس ، ولم أحفل بعيد السيدة ، وأكلت لحم الجمل ، ودنت بدين اليهود ، وأبخت حرمة الطلاق ، وهدمت بيدي كنيسة قمامة ، وخنثت المسيح في وديعته ، وتزوجت في قرن بامرأتين ، وقلت : إن المسيح كادم خلقه الله من تراب ، وكفرت بإحياء العيازرة ، وحجى الفارقليط الآخر ، وبرئت من التلامذة الاثني عشر ، وحرمت على الثلاثة وثمانية عشر ، وكسرت الصلبان ، ودست برجلي القربان ، وبصقت في وجوه الرهبان عند قولهم : كير اليصمون ، وأعتقدت أن نعبه كفر الجون (؟)

وَأَنَّ يَوْسُفَ النَّجَّارَ زَنَى بِأُمِّ الْيَسُوعَ وَعَهَرَ ، وَعَطَّطُ النَّاقُوسَ ، وَمَلَّتْ إِلَى مِلَّةِ
 الْمَجُوسِ ، وَكَسَرَتْ صَلِيبَ الصَّلْبُوتِ ، وَطَبِخَتْ بِهِ لَحْمَ الْجَمَلِ ، وَأَكَلَتْهُ فِي أَوَّلِ يَوْمٍ
 مِنَ الصَّوْمِ الْكَبِيرِ ، تَحْتَ الْهَيْكَلِ بِحَضْرَةِ الْآبَاءِ ، وَقُلْتُ فِي الْبِنُوءِ مَقَالَ نُسْطُورِسَ ،
 وَوَجَّهْتُ إِلَى الصَّخْرَةِ وَجْهِي ، وَصَدَّيْتُ عَنِ الشَّرْقِ الْمُنِيرِ حَيْثُ كَانَ الْمَطْهَرُ
 الْكَرِيمُ . وَإِلَّا بَرِئْتُ مِنَ الثُّورَانِيِّينَ وَالشَّعْشَعَانِيِّينَ ، وَأَنْكَرْتُ أَنَّ السَّيِّدَ الْيَسُوعَ
 أَحْيَا الْمَوْتَى وَأَبْرَأَ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَقُلْتُ : إِنَّهُ مَرْبُوبٌ ، وَإِنَّهُ مَا رُؤِيَ وَهُوَ
 مَصْلُوبٌ ، وَأَنْكَرْتُ أَنَّ الْقُرْبَانَ الْمَقْدَّسَ عَلَى الْمَذْبَحِ مَاصِرَ لَحْمِ الْمَسِيحِ وَدَمَهُ حَقِيقَهُ ،
 وَخَرَجْتُ فِي النَّصْرَانِيَّةِ عَنِ لَاحِبِ الطَّرِيقَةِ . وَإِلَّا قُلْتُ بِدِينِ التَّوْحِيدِ ، وَتَعَبَّدْتُ
 غَيْرَ الْأَرْبَابِ ، وَقَصَدْتُ بِالْمُظَانِّيَّاتِ غَيْرَ طَرِيقِ الْإِخْلَاصِ ، وَقُلْتُ : إِنْ الْمَعَادَ غَيْرُ
 رُوحَانِيٍّ ، وَإِنْ بَنَى الْمَعْمُودِيَّةَ لِاتِّسِيحٍ فِي فَسِيحِ السَّمَاءِ ، وَأَثْبَتُ وُجُودَ الْخُورِ الْعَيْنِ
 فِي الْمَعَادِ ، وَأَنَّ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ التَّلَذُّذَاتِ الْجُسْمَانِيَّةِ ، وَخَرَجْتُ خُرُوجَ الشَّعْرَةِ مِنْ
 الْعَجِينِ مِنْ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَأَكُونُ مِنْ دِينِي مَحْرُومًا ، وَأَقُولُ : إِنْ جَرِحِدِسَ لَمْ يُقْتَلْ
 مَظْلُومًا ، وَخَرَقَتْ غَفَارَةُ الرَّبِّ ، وَشَارَكَتُ الشَّرَّ [بِر] فِي سَلْبِ ثِيَابِهِ ، وَأَحْدَثْتُ تَحْتَ
 صَالِيهِ ، وَتَجَمَّرْتُ بِجَسَدِي ، وَصَفَعْتُ الْجَائِلِيْنَ . وَهَذِهِ ائِمِّيْنُ يَمِينِي وَأَنَا فَلَآنُ ، وَالنَّبِيَّةُ
 [فِيهَا] بِأَسْرِهَا نَبِيَّةُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ «شُعْبَانَ» وَنَبِيَّةُ
 مُسْتَحْفِيَّةٍ ، وَالْإِلَهِ وَالْمَسِيحِ عَلَى مَا أَقُولُ وَيَكِلُ .

قُلْتُ : خَلَطُ فِي هَذِهِ الْيَمِينِ بَعْضَ يَمِينِ الْبِعَاقِبَةِ الْخَارِجَةِ عَنْ مُعْتَقِدِ الْفَرَجِ الَّذِينَ
 حَلَفَهُمْ مِنْ مَذْهَبِ الْمَلَكِيَّةِ ، يُظْهَرُ ذَلِكَ مِنَ النَّظَرِ فِيمَا تَقَدَّمَ مِنْ مُعْتَقَدَاتِ
 النَّصْرَانِيَّةِ قَبْلَ تَرْتِيبِ آيْمَانِهِمْ . عَلَى أَنَّهُ قَدْ أَتَى فِيهَا بِأَكْثَرِ مَرَاتِبِهِ الْمَقَرَّةِ الشُّهَابِيِّ بْنِ
 فَضْلِ اللَّهِ فِي تَحْلِيفِهِمْ عَلَى صِدْقَتِهِ ، وَزَادَ مَا زَادَ مِنَ الْيَمِينِ الْمُرْتَبَةِ فِي التَّحْلِيفِ عَلَى
 الْهُدْنَةِ السَّابِقَةِ وَغَيْرِهَا .

اليمن الثانية — مما أهمله في "التعريف" يمين أمير مكة .

والقاعدة فيها أن يحلف على طاعة السلطان، والقيام في خدمة أمير الركب ،
والوصية بالحجاج، والأحفاظ بهم .

وهذه نسخة يمين حلف بها الأمير نجم الدين أبو نعيم أمير مكة المشرفة، في الدولة
المنصورية قلاوون الصالحى، في شعبان سنة إحدى وثمانين وستمائة .

وُسُخَّتْهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ الْمُكَرَّمِ فِي تَذَكُّرِهِ بَعْدَ اسْتِيفَاءِ الْأَقْسَامِ :

إِنِّى أَخْلَصْتُ نِيَّتِي ، وَأَصْفَيْتُ طَوْبِي ، وَسَاوَيْتُ بَيْنَ بَاطِنِي وَظَاهِرِي فِي طَاعَةِ
مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، وَوَلَدِهِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الصَّالِحِ ، وَطَاعَةِ أَوْلَادِهِمَا
وَأَرْثِي مُدَكِّهِمَا ، لِأَضْرَافِهِمْ سُوءًا وَلَا عَدْرًا فِي نَفْسٍ وَلَا مَلِكٍ وَلَا سُلْطَنَةٍ . وَإِنِّى
عَدُوٌّ لِمَنْ عَادَاهُمْ ، صَدِيقٌ لِمَنْ صَادَقَهُمْ ؛ حَرَبٌ لِمَنْ حَارَبَهُمْ ، سَلَمٌ لِمَنْ سَالَمَهُمْ . وَإِنِّى
لَا يُخْرِجُنِي عَنْ طَاعَتِهِمَا طَاعَةُ أَحَدٍ غَيْرِهِمَا ، وَلَا أَتَلَفْتُ فِي ذَلِكَ إِلَى جِهَةٍ غَيْرِ
جِهَتِهِمَا ، وَلَا أَفْعَلُ أَمْرًا مُخَالَفًا لِمَا اسْتَقَرَّ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ ، وَلَا أَشْرِكُ فِي تَحْكُمِهِمَا
عَلَى وَلَا عَلَى مَكَّةَ وَحَرَمِهَا وَمَوْقِفِ جِبَلِهَا زَيْدًا وَلَا عَمْرًا . وَإِنِّى أَلْتَزِمُ مَا اشْتَرَطْتُهُ
لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ وَلِوَلَدِهِ فِي أَمْرِ الْكُفُوفِ الشَّرِيفَةِ الْمَنْصُورِيَةِ الْوَاصِلَةِ مِنْ مِصْرَ
الْمَحْرُوسَةِ وَتَعْلِيْقِهَا عَلَى الْكَعْبَةِ الشَّرِيفَةِ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ ، وَأَنْ لَا يَعْلَوْهَا كُفُوفٌ غَيْرُهَا ،
وَأَنْ أَقْدِمَ عَامَهُ الْمَنْصُورِ عَلَى كُلِّ عَامٍ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ ، وَأَنْ لَا يَتَقَدِّمَهُ عِلْمٌ غَيْرِهِ .
وَإِنِّى أَسَهِّلُ زِيَارَةَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَيَّامَ مَوَاسِمِ الْحَجِّ وَغَيْرِهَا لِلزَّائِرِينَ وَالطَّائِفِينَ وَالْبَادِينَ
وَالْعَاكِفِينَ ، وَالْأَمِينَ لِحَرَمِهِ وَالْحَاجِّينَ وَالْوَاقِفِينَ . وَإِنِّى أَجْتَهِدُ فِي حِرَاسَتِهِمْ مِنْ
كُلِّ عَادٍ بَفِعْلِهِ وَقَوْلِهِ ، وَمُتَخَطِّفٍ لِلنَّاسِ مِنْ حَوْلِهِ . وَإِنِّى أُؤَمِّنُهُمْ فِي سِرِّيهِمْ ،
وَأَعِزُّبُ لَهُمْ مَنَاهِلَ سُرِّيهِمْ ؛ وَإِنِّى وَاللَّهِ اسْتَمَرُّ بِتَفَرُّدِ الْخُطْبَةِ وَالسُّكَّةِ بِالْأَسْمِ الشَّرِيفِ

المنصوري ، وأفعلُ في الخدمةِ فَعَلَ المَخْلِصَ الوَلِيَّ . وإِنِّي واللهِ واللهِ أمتثلُ مراسيمه
أمتثالَ النَّائِبِ للمستناب ، وأكونُ لداعي أمرِهِ أوَّلَ سامعٍ مُجِيبٍ . وإِنِّي ألتزمُ
بشروطِ هذهِ اليمينِ من أولها إلى آخرها لا أنقضُها .

المهيع الخامس

(في صورةِ كتابةِ نُسخِ الأيمانِ التي يحلفُ بها)

وقد جرت العادةُ أنه إذا استقرَّ مَلِكٌ في المُلْكِ يُحلفُ له جميعُ الأُمراءِ والنوابِ
في المملكةِ ، وإذا استقرَّ نائِبٌ من النوابِ في نيابةٍ حُلفَ ذلكُ النَّائِبُ عندَ استقراره ،
وربما اقتضت الحالُ التحليفَ في غير هذهِ الأوقاتِ .

ثم الأيمانُ التي يُحلفُ بها على ضربين :

الضرب الأول

(الأيمانُ التي يحلفُ بها الأُمراءُ بالديارِ المصريةِ)

وقد جرت العادةُ أن تُكَّابَ ديوانِ الإنشاءِ يجتمعُ من يجتمعُ منهم بالقلعةِ ،
ويتصدى كُلُّ واحدٍ منهم لتَحْلِيفِ جماعةٍ من الأُمراءِ والمماليكِ السلطانيةِ وغيرهم ،
وينصبُ المصحفُ الشريفُ على كُرْسِيِّ أَمَامَ الحالفينِ ، ويحلفُ كُلُّ كاتبٍ من
كُتَّابِ الإنشاءِ من يُحلفُه نِجَاهَ المصحفِ بِالفاظِ اليمينِ المتقدمةِ الذِّكْرُ على الوجهِ الذي
يرسمُ تَحْلِيفُهُمْ عليه ؛ ويكتبُ كُلُّ واحدٍ من أولئك الكُتَّابِ أسماءَ الذين حلفهم
في ورقةٍ ويؤرخها ويحملها إلى ديوانِ الإنشاءِ فتخلدُ فيه .

الضرب الثاني

(الأيمان التي يحلف بها توابُ السلطنة والأمراءُ بالملك الشامية وما أنضم إليها)

وقد جرت العادةُ أنه إذا أريدَ تحليفُ نائبٍ من توابِ الممالك الخارجة عن الحضرة بالديار المصرية أو أميرٍ من أمرائها أن تكتبَ نسخةً يمين من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ، وتجهزَ إلى النائب أو الأمير الذي يقصدُ تحليفه فيحلف على حكامها متلفظاً بالفاظها جميعها . قال في "التشيف" : وصفة ما يكتب في النسخة بعد

البسملة من يمين الورق «أقول وأنا» ثم يخلى بياضاً قليلاً بقدر أصبعين

لموضع كتابة الخالف اسمه ، ثم يكتبُ تحته من يمين الورق بهامش دقيق جداً «والله والله والله» وتكملُ تيممة النسخة على ما تقدم ذكره . وتكون سطورها متلاصقة

سَطراً إلى سَطْرٍ إلى عند قوله «وهذه اليمين يميني وأنا» فيخلى بعد ذلك

ببياضاً قليلاً لموضع كتابة اسم الخالف أيضاً ، ثم يكتبُ من يمين الورق : «والنية في هذه اليمين بأسرها» إلى آخر النسخة .

قلت : وكذلك تُسخُّ الأيمان التي تكتبُ ليحلف بها في الهدن التي تُفرد الأيمانُ

فيها عن الهدن ، يخلى فيها بياضٌ لكتابة الاسم بعد قوله «أقول وأنا»

وبعد قوله «وهذه اليمين يميني وأنا» سواء في ذلك اليمين التي يحلف بها

السلطان أو الملك الذي تقع معه المهادنة : من ملوك الإسلام أو ملوك الكفر .

وقد جرت العادةُ أن يكون الورق الذي تكتب فيه تُسخُّ الأيمان التي يحلف بها

التواب وغيرهم من الأمراء الخارجين عن الحضرة في قطع العادة . أما ما يحلف به

على الهدن فلم أقف فيه على مقدار قطع الورق . والذي يظهر أن كلَّ يمين تكون

في قطع الورق الذي يكتبُ بها ذلك الملك الذي يحلف .

المقالة التاسعة

في عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك، وفيها خمسة أبواب^(١)

الباب الأول

في الأمانات، وفيه فصلان

الفصل الأول

في عقد الأمان لأهل الكفر

قال في "التعريف": وهو أقوى أمور الصلح دلالة على اشتداد السلطان، إذ كان يؤمن الخائف أمناً لا عوض عنه في عاجل ولا آجل، وفيه طرفان:

الطرف الأول

(في ذكر أصله وشروطه وحكمه)

علم أن الأمان هو الأمر الأول من الأمور الثلاثة التي يرفع بها القتل عن الكفار. قال العلماء: وهو من مكاييد القتال ومصالحه وإن كان فيه ترك القتال: لأن الحاجة [داعية] إليه. والأصل فيه من الكتاب قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾. ومن السنة قوله صلى الله عليه وسلم: «المؤمنون تكافأ دماؤهم، ويحبر عليهم أذنهم، وهم يد على من سواهم».

(١) كذا وقع أيضا في فهرست المؤلف ج ١ ص ٢٩ من هذا المطبوع ولكن سيد ذكر آخر المقالة بابا سادسا في الفسوخ.

وقد ذكر الفقهاء له أركاناً وشرائط وأحكاماً .

فأما أركانه ، فثلاثة :

الأول — العاقد للأمان من المسلمين . ويُعلم أنّ الأمان على ضربين : عامٌّ وخاصٌّ . فالعامُّ هو عقده للعَدَد الذي لا يُحصَر كأهل ناحية ، ولا يصحُّ عقْدُ الأمانِ فيه إلا من الإمام أو نائبه كما في الهدنة . والخاصُّ هو عقده للواحد أو العَدَدِ المحصور ؛ ويصحُّ من كلِّ مُسلمٍ مكلفٍ [وإن لم تكن] له أهلية القتال ، فيصح من العبد والمرأة والشَّيخِ الحرِّمِ والسَّفِيهِ والمُفْلِسِ ، بخلاف أمانِ الصَّبِيِّ والمجنون .

الثاني — المعقود له ، ويصحُّ عقده للواحد والعَدَدِ من ذكور الكُفَّارِ وإناهم . نعم في تأمينِ المرأة عن الاسترقاق خلاف .

الثالث — صيغة العقْد . وهي كلُّ لفظٍ يُفهم الأمانَ كنايةً كان أو صريحاً ، وفي معنى ذلك الإشارةُ المُفهِمة . ويعتبرُ فيه قبُولُ الكافر ، فلا بد منه حتى لو ردَّ الأمان لم ينعقد ، وفيما إذا سكت خلافٌ . نعم لو دخل للسفارة بين المسلمين والكُفَّارِ في تبليغ رسالة ونحوها ، أو لسماع كلام الله تعالى لم يُعتبر فيه عقْدُ الأمان ، بل يكون آمناً بمجرد ذلك ، أما لو دخل لقصْد التجارة بغير أمانٍ فإنه لا يكون آمناً إلا أن يقول الامامُ أو نائبه : من دخل تاجراً فهو آمنٌ .

وأما شرطه ، فإن لا يكون على المسلمين ضررٌ في المُستأمنِ : بأن يكون طليعاً أو جاسوساً ، فإنه يقتل ولا يُبالي بأمانه ، ويعتبر أن لا تزيد مدَّة الأمان

(١) عبارة "المنهاج" ويجب أن لا تزيد مدته على أربعة أشهر "وفي قول يجوز ما لم تبلغ سنة" قال

صاحب النخفة : فان بلغت امتنع قطعاً .

على سنة بخلاف الهدنة، فقد تقدم أنها تجوز عند ضعف المسلمين إلى عشر سنين .

وأما حكمه، فإذا عقد الأمان لزم المشروط، فلو قتله مسلم وجبت الدية . ثم هو جائز من جهة الكفار، فيجوز للكافر نبذته متى شاء، ولازم من جهة المسلمين، فلا يجوز النبذ إلا أن يتوقع من المستأمن الشر، فإذا توقع منه ذلك جاز نبذ العهد إليه ويلحق بأمنه؛ وبقيّة فقه الفصل مستوفى في كتب الفقه .

الطرف الثاني

(في صورة ما يكتب فيه)

والأصل ما رواه ابن إسحاق أن رفاعَةَ بن زيد الخزاعيّ ^(١) قدّم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية، فأهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلاماً، وأسلم وحسن إسلامه؛ وكتب له رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى قومه فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا كتاب من محمد رسول الله لرفاعة بن زيد : إني بعثته إلى قومه »
 « عامةً ومن دخل فيهم يدعوهم إلى الله تعالى وإلى رسوله ؛ فمن أقبل »
 « منهم ففي حرب الله ورسوله ، ومن أدبر فله أمان شهرين » .
 فلما قدم رفاعَةُ على قومه أجابوا وأسلموا .

(١) في الأصل الجذامى والتصحيح من السيرة النبوية ص ٣٣ ج ٣ وقد ضبطها بالعبارة .

ثم للكُّتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول — أن يُفتح الأمان بلفظ : « هذا كتابُ أمانٍ » أو « هذا أمانٌ » وما أشبه ذلك ، كما أفتح النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما كتب به لرفاعة بن زيد على ما تقدم .

وعلى ذلك كتب عمرو بن العاصِ رضی الله عنه الأمان الذى كتب به لأهل مِصرَ عند فتحها ، ونصّه بعد البسملة :

”هذا ما أعطى عمرو بن العاصِ أهلَ مِصرَ من الأمانِ على أنفسِهِم ومالِهِم وأموالِهِم^(١) ، وكأنسِهِم وُصُلِهِم وبرِّهِم وبحرْمِهِم ، لا يدخلُ عليهم شئٌ من ذلك ولا يُنتقصُ ، ولا تُساكِنُهُم التُّوبةُ . وعلى أهلِ مِصرَ أن يُعطُوا الحِزْبَةَ إذا اجتمعوا على هذا الصُّلحِ ، وأتته زِيادةُ نَهْرِهِم — نحسين ألف ألف . وعليه مَن جَنَى نُصْرَتَهُم ، فإن أبى أحدَهُم أن يُجيبَ رُفْعَ عنهم من الحِزْبِ بقدر [هم وذِمَّتْنا مَن أبى بَرِيَّةً ، وإن نقَصَ نَهْرَهُم عن غايته إذا أتتهى رُفْعَ عنهم بقدر] ذلك ؛ ومن دخل في صلِحِهِم : من الرومِ والتُّوبةِ فله ما لهم وعليه ما عليهم ؛ ومن أبى وأختار الذَّهابَ فهو آمنٌ حتى يبلغَ ما آمنه أو يخرجَ من سُلْطاننا . وعليهم ما عليهم أنلانا في كلِّ ثلثِ جبايةٍ ثلثُ ما عليهم . على ما في هذا الكتابِ عهدَ الله [وذِمَّتْنا^(٢) وذِمَّةُ رسوله وذِمَّةُ الخليفةِ أميرِ المؤمنين] وذِمَّةِ المؤمنين [. وعلى التُّوبةِ الذين استجابوا أن يعينوا بكذا وكذا رأساً ، وكذا وكذا فرساً ، على أن لا يغزوا ولا يُمنعوا من تجارةٍ صادرةٍ ولا واردةٍ .

شَهد الزُّبيرُ وعبدُ الله ومُجدُّ ابناه ، وكتبَ وردانٌ وحَضَرَ .

(١) فى العبر ص ١١٥ بقية الجزء الثانى « وذمهم » وفيه بعض التغيير من زيادة ونقص .

(٢) الزيادة من العبر ص ١١٥ بقية ج ٢ .

وعلى ذلك كتب الحافظ لدين الله أحد خلفاء الفاطميين الأمان لبهرام الأرميني ، حين صُرف من وزارته وهرب عنه إلى بلاد الأرمين ، وكتب إلى الحافظ يُظهر الطاعة ويسأل تسيير أقاربه ، فكتب له بالأمان له ولأقاربه .

فأما ما كتبت له هو فنصه بعد البسملة .

هذا أمانٌ أمر بكتبه عبد الله ووليه عبد الحميد أبو الميمون الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ، للأمير المقدم ، المؤيد ، المنصور ، عن الخلافة وشمسها ، وتاج المملكة ونظامها ، نخير الأمراء ، شيخ الدولة وعمادها ، ذى المجدين ، مصطفى أمير المؤمنين بهرام الحافظي : فإنك آمن بأمان الله تعالى ، وأمان جدنا محمد رسوله ، وأبنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب صلى الله عليهما ؛ وأمان أمير المؤمنين ، على نفسك ومالك ، وأهلك وجميع حالك ، لا ينالك سوء ، ولا يصل إليك مكروه ، ولا تقصد باغتيال ، ولا يخرج بك عن عادة الإحسان والإنعام ، والتميز والإكرام ، وحراسة النفس ، والصون للحريم والأهل ، والرعاية في القرب والبعد ، مادمت متحيزاً إلى طاعة الدولة العلوية ، ومتصرفاً على أحكام مشايعها ، موالياً لمواليها ، ومُعادياً لمُعاديها ، ومستمرراً على مرضاة إخلاصك . فتق بهذا الأمان وأسكن إليه ، وأطمئن إلى مضمونه ، والله بما أودعه كفيلاً وعليه شهيد ، وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكل وإليه يُنيب .

وأما الأمان الذي كتبت لأقاربه فنصه :

هذا أمانٌ تقدم بكتبه عبد الله ووليه ، لسيل وزرقا ، وبهرام ابن أختهما ، ومن ينتمي إليهم ويتعلق بهم ، ويلتزمون أمره ممن دونهم ، ومن يمسك بسابحهم .

مضمونه : إنكم معشر الجماعة بأسركم لما قصدتم الدولة ووفدتم عليها، وتفيأتم ظلها وهاجرتُم إليها، شملكم الصنع الجميل ، وعمركم الإنعام السابغ والإحسان الخزيل ، وكنتُم بالرعاية التامة؛ والعناية الخاصة لا العناية العامة، ووفر حظكم من الواجبات المقررة لكم ، والإقطاعات الموسومة بكم ، وكنتم مع ذلك تذكرون رغبتكم في العود إلى دياركم، والرُّجوع إلى أوطانكم، وألثفاناً إلى من تركتموه من ورائكم . وقد سرتُم من الباب على قِضية المخافة، وقد أمَّنتُم أمير المؤمنين ، فأنتم آمنون بأمان الله تعالى وأمان جدنا محمد رسوله وأبينا أمير المؤمنين : علي بن أبي طالب، صلى الله عليهما ، وأمان أمير المؤمنين ، على نفوسكم وأهليكم وأموالكم وما تحويه أيديكم ويجوزه ملككم، ويشتمل عليه احتياطكم ؛ لا ينالكم في شيء من ذلك مكروه، ولا سبب مخوف، ولا يمسكم سوء، ولا تخشون من ضم ، ولا تُقصدون بأذية ، ولا يُغير لكم رسم، ولا تُنقض لكم عادة، وأنتم مُستمرُّون في واجباتكم وإقطاعاتكم على ما عهدتموه، ولا تُنقضون منها ، ولا تُبخسون فيها . هذا إذا رغبتُم في الإقامة في ظلال الدولة، فإن آثرتم ما كنتم تذكرون الرغبة فيه من العودة إلى دياركم عند أنفتاح البحر، فهذا الأمان لكم إلى أن تتوجهوا مشمولين بالرعاية، ملحوظين بالعناية، ولكم الوفاء بجميع ذلك، والله لكم به وكيل وكفيل، وكفى به شهيدا .

المذهب الثاني — أن يُفتح الأمان المكتتب لأهل الكفر بالتحديد، ثم يقال : « ولما كان كذا وكذا اقتضى حُسن الرأي الشريف كذا وكذا » ثم يقال : « فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يكون كذا وكذا » على نحو ما يُكتب في الولايات .

وعلى ذلك كُتِبَ عن السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » أماناً لفرا كس صاحب السرب ، من ملوك النصارى بالشمال وزوجته ومن معهما من الأتباع ، عند طلبهم التمكن من زيارة القدس الشريف ، وإزالة الأعراس عنهم ، وأستصحاب العناية بهم ، إلى حين عودهم آمين على أنفسهم وأموالهم ، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء .

ونصه بعد البسملة :

أما بعد حمد الله الذي آمنَ بمهابتنا المناهج والمسالك ، ومكَّنَ لكلماتنا المطاعة في الأقطار والآفاق والممالك ، وأعان على لساننا بدعوة الحق التي تنفي كل كُرب حاكٍ وتكفي كل كُرب حالك ، والشهادة له بالوحدانية التي تنفي المشابهة والمشاركة ، وتفي بالميعاد من الإصعاد على الأرائك ؛ والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أنجده ببعوث الملا الأعلى من الملائك ، وأيده بالصون الملازم والعون المتدارك ، ووعدته أن سيبلغ ملك أمته ما بين المشرق والمغرب وأنجز له ذلك ، وعلى آله وصحبه الذين زحروا عن المهالك ، ونصحووا الله ورسوله وأولئك !!! - فإن كرمنا يرعى الوفود ، وشيئنا تدعى فتجود ، وذمنا بها لحظ الحقوق وحفظ العهود ، فيخدمنا ينجح كل مقصود ، وبنعمنا تمنح الأمانى والمنى وهما أعظم نعمتين في الوجود ؛ فليس أمل عن أبواب سماحنا بمردود ، ولا متوسل إلينا بضراعة إلا ويرجع بالمرام ويعود .

ولما كانت حضرة الملك الجليل ، المُكْرَم ، المَجَل ، العَرِيْز ، المَوْقِر ، "إستيفانوس فرا كس" : كبير الطائفة النصرانية ، جمال الأمة الصليبية ، عماد بني المعمودية ،

(١) لعله « وأعان لساننا على دعوة الحق » .

صديق المُلوك والسلاطين ، صاحب السُّرب - أطال الله بقاءه - قد شمله إقبالنا
 المعهود ، وَوَصَلَهُ إِفْضَالُنَا الَّذِي يَحْجِزُ عَنْ مِيَامِنِهِ السُّوءَ وَيُخِزُّ الوُعُودَ - أَقْبَضُوا
 حُسْنَ الرَّأْيِ الشَّرِيفِ أَنْ نُيَسِّرَ سَبِيلَهُ ، وَنُوفِّرَ لَهُ مِنَ الْإِكْرَامِ جَسِيمَةً كَمَا وَفَّرْنَا لغيره
 مِنَ الْمُلُوكِ مَسْوَلَةً ؛ وَأَنْ يُمَكِّنَ مِنَ الْحُضُورِ هُوَ وَزَوْجَتُهُ وَمَنْ مَعَهُمَا مِنْ
 أَتْبَاعِهِمَا إِلَى زِيَارَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ ، وَإِزَالَةِ الْأَعْرَاضِ عَنْهُمْ ، وَإِكْرَامِهِمْ وَرِعَايَتِهِمْ ،
 وَأَسْتِصْحَابِ الْعِنَايَةِ بِهِمْ ، إِلَى أَنْ يَعُودُوا إِلَى بِلَادِهِمْ ، آمِنِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ،
 وَيُعَامَلُوا بِالْوَصِيَّةِ التَّامَّةِ ، وَيُوَاصَلُوا بِالكَرَامَةِ وَالرَّعَايَةِ إِلَى أَنْ يَعُودُوا فِي كَنْفِ الْأَمْنِ
 وَحَرِيمِ السَّلَامَةِ ؛ وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَيْهِ أَنْ يَسْمَعَ كَلَامَهُ ، وَيَتَّبِعَ إِبْرَامَهُ ، وَلَا يَمْنَعَ
 عَنْهُمْ الْخَيْرَ فِي سَبْرِ وَلَا إِقَامَةٍ ، وَيُدْفَعَ عَنْهُمْ الْأَذَى حَيْثُ وَرَدُوا أَوْ صَدَرُوا فَلَا يَحْدَرُوا
 إِلْمَامَهُ ؛ وَاللَّهُ تَعَالَى يُوفِّرُ لِكُلِّ مُسْتَعِينٍ مِنْ أَبْوَابِنَا أَقْسَاطَ الْأَمْنِ وَأَقْسَامَهُ ، وَيُظْفِرُ
 عَزْمَنَا بِالْمُحَمَّدِيِّ بِالنَّصْرِ السَّرْمِدِيِّ حَتَّى يُطَوَّقَ الطَّائِعَ وَالْعَاصِيَ حُسَامَهُ . وَالْعَلَامَةُ
 الشَّرِيفَةُ أَعْلَاهُ مُجَّةٌ فِيهِ ، وَالْخَيْرُ يَكُونُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى :

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة التاسعة

(في كتابة الأمانات لأهل الإسلام وما يُكتب فيها، ومذاهب الكُتاب في ذلك

في القديم والحديث، وأصله؛ وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في أصله)

إعلم أن هذا النوع فرع ألحقه الكُتاب بالنوع السابق، وإلا فالمسلم آمن بقضية الشرع بمجرد إسلامه، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها». وإنما جرت عادة الملوك بكتابة الأمان لكل من خاف سطوتهم، لاسيما من خرج عن الطاعة، وخيف استئراء الفساد باستمرار خروجه عن الطاعة خوفاً؛ حتى صار ذلك هو أغلب ما يُكتب من دواوين الإنشاء.

وقد ورد في السنة ما يدل لذلك، وهو ما رواه أبو عبيد في «كتاب الأموال» عن أبي العلاء بن عبد الله بن الشخير أنه قال: كنا بالمربد ومعنا مطرف، إذ أتانا أعرابي ومعه قطعة أديم، فقال: أفیکم من یقرأ؟ قلنا: نعم، فأعطانا الأديم فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«من محمد رسول الله لني زهير بن أقيش من عكلى. إنكم إن شهدتم»

«أن لا إله إلا الله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وفارقتم المشركين،»

«وأعطيتم من الغنائم الخمس، وسَمَّهم النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّفِيَّ»؛
 «أَوْ قَالَ : وَصَفِيَّهٖ ، فَأَنْتُمْ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ» .

الطرف الثاني

(فيما يُكْتَبُ فِي الْأَمَانَاتِ)

وللكتاب في ذلك مذهبان :

المذهب الأول - أن يفتح الأمان بلفظ : « هذا كتاب أمان » أو « هذا أمان » ونحو ذلك ، على ما تقدم في الفصل السابق .

قال في «مواد البيان» : والرسم فيه : « هذا كتاب أمان ، كتبه فلان بن فلان الفلاني أمير المؤمنين أو وزيره ، لفلان بن فلان الفلاني الذي كان من حاله كذا وكذا ، فإنه قد آمنه بأمان الله تعالى وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم وأمانه » .
 فإن كان عن الوزير قال : « وأمان أمير المؤمنين فلان بن فلان وأمانه ، على نفسه وماله ، وسعره ، وبشره ، وأهله ، وولده ، وحرمة ، وأشياعه ، وأتباعه ، وأصحابه ، وحاله ، وذات يده ، وأملاكه ، ورباعه ، وضياعه ، وجميع ما يخصه ويخصهم - أماناً صحيحاً ، نافذاً واجباً لازماً ، لا ينقض ولا يفسخ ولا يبدل ، ولا يتعقب بخاتلة ، ولا دهان ولا مواربة ، ولا حيلة ولا غيلة . وأعطاه على ذلك عهد الله وميثاقه وصفقة يمينه ، بنية خالصة له وجميع من ذكر معه ، وعفاه عن كل جريرة متقدمة ، وخطيئة سالفة ، إلى يوم تاريخ هذا الأمان ، وأحلّه من ذلك كله ، وأستقبله بسلامة النفس ونقاء السريرة ، وأوجب له من الرعاية ما أوجبه لأمثاله ،

من سَمَلَهُ ظِلُّهُ ، وَكَفَّتَهُ رِعَايَتُهُ ، حَاضِرًا وَغَائِبًا ، وَمَلَكَهُ مِنْ آخْتِيَارِهِ قَرِيبًا وَبَعِيدًا ، وَأَنْ لَا يُكْرِهَهُ عَلَى مَا لَا يَرِيدُهُ ، وَلَا يُلْزِمُهُ بِمَا لَا يَخْتَارُهُ .

قلت : هذا ما أصَّله صاحبُ "مواد البيان" : في كتابة الأمانات . ومقتضاه
أفتتاحُ جميع الأمانات المكتتبة عن الخليفة أو الوزير أو غيرهما بلفظ « هذا » .
وسأتي أن الأمانات قد تُفتتحُ بغير هذا الافتتاح : من الحمد وغيره ، على ما سأتى
بيانه ، ولعل هذا كان مُصطلحَ زمانه فوقَّف عنده .

وبالجملة فالأماناتُ المكتتبة لأهل الإسلام على نوعين :

النوع الأول

(ما يُكْتَبُ عَنِ الْخُلَفَاءِ ، وَفِيهِ مَذْهَبَانِ)

المذهب الأول — طريقة صاحب "مواد البيان" المتقدمة الذكر، وهي
أن يُفتتحَ الأمانُ بلفظ « هذا » . وحينئذ فيقال : « هذا كتابُ أمانٍ كتبَهُ عبدُ الله
فلان أبو فلان أمير المؤمنين الفلاني ، أعزَّ اللهُ تعالى به الدينَ ، وأدامَ له التَّمَكِينَ ،
لفلان الفلاني ، فإنه قد آمنه بأمانِ الله تعالى ، وأمانِ رسوله صلى الله عليه وسلم
وأمانه ، على نفسه ، وماله ، وشعره ، وبشيره ، وأهله ، وولده ، وحرمة ، وأشياجه ،
وأتباعه ، وأصحابه ، وحاله ، وذاتِ يده ، وأملاكه ، ورباعه ، وضياعه ، وجميع
ما يُحْصِيهِ وَيُحْصِيهِمْ . أمانًا صحيحًا ، نافذاً واجبًا لازمًا ، لا يُتَّقَضُ وَلَا يُفْسَخُ ،
ولا يُبدَلُ ، ولا يُتَعَقَّبُ بِمُخَاتَلَةٍ ، ولا دِهَانٍ ولا مُوَارَبَةٍ ، ولا حِيلَةٍ ولا غِيَلَةٍ ، وأعطاه
على ذلك عهدَ الله وميثاقه وَصَفَقَةَ يَمِينِهِ ، بِنِيَّةِ خَالِصَةٍ لَهُ وَلِجْمَعٍ مِنْ ذُكْرٍ مَعَهُ ،
وعفا له عن كلِّ جريرةٍ متقدمة ، وَخَطِيئَةٍ سَالِفَةٍ ، إلى يومِ تاريخِ هذا الأمان ،

وأحلّه من ذلك كلّهُ ، وأسْتقبله بِسلامة النَّفس ونَقَاءِ السَّريرة ، وأوجب له من الرَّعاية ما أوجب له لأمثاله : مَن شَمَلَهُ ظِلُّهُ ، وَكَفَّتَهُ رعايَتُهُ ، حاضراً وغائِباً ، ومَلِكُهُ من آخِيارِهِ قَرِيباً وبعيداً ، وأن لا يُكْرِهَهُ على ما لا يريدُهُ ، ولا يُلْزِمُهُ بما لا يَخْتارُهُ .
وغير ذلك مما يَقتضيه الحال ويدعو إليه المقام .

المذهب الثاني — أن يفتتح الأمان بِخطبةٍ مفتحَةٍ بالحمد . والرسم فيه أن يُستفتحَ الأمانُ بِخطبةٍ يَكرَّرُ فيها الحمدُ مرتين أو ثلاثاً فأكثر ، بحسب ما يقتضيه حالُ النِّعمةِ على من يصدُرُ عنه الأمانُ في الأستظهارِ على من يُؤمِّنُهُ . يَحمدُ اللهُ في المَرَّةِ الأولى على آلائِهِ ، وفي الثانية على إِعزازِ دينِهِ ، وفي الثالثة على بَعثةِ نبيِّهِ ، وفي الرابعة على إقامَةِ ذلك الخليفةِ من بَيْتِ النبوَّةِ لإقامةِ الدينِ . ويأتي مع كلِّ واحدةٍ منها بما يناسب ذلك ، ثم يذُكَّرُ الأمانُ في الأخيرة .



وهذه نُسخةُ أمانٍ من هذا النمطِ ، كُتِبَ به عن بعض متقدِّمي خُلفاءِ بني العباسِ بَبَقَدادَ ، وأوردها أبو الحُسَيْنِ أحمدُ بنُ سَعِيدٍ في "كتابِ البلاغة" الذي جمعه في الترسُّلِ :

الحمدُ لله المَرْجُو فَضْلُهُ ، المَخُوفِ عَدْلُهُ ، باريِ النَّسمِ ، ووليِّ الإحسانِ والنِّعمِ ، السابقِ في الأمورِ علمُهُ ، النَّافِذِ فيها حُكْمُهُ ، بما أحاطَ به من مُلكِ قُدْرَتِهِ ، وأنفذَ من عزائمِ مَشِيئَتِهِ ، كلَّ ما سِوَاهُ مدبَّرٌ مخلوقٌ وهو أنشأه وأبتدأه ، وقَدَّرَ غايَتَهُ ومُنتَهَاهُ .

والحمدُ لله المُعزِّزِ لدينِهِ ، الحافظِ من حُرْمَاتِهِ ما تَرَبَّصَ المتربِّصُونَ عن حياطتِهِ ، المُدْكِي من نُورِهِ ما دأب المَلْحُدُونَ لِإطفائِهِ حتَّى أعلاه وأظْهَرَهُ كما وَعَدَ في مُتَزَلِّ

(١) في اللسان « رجل رُبُضَةٌ ومترَبِّصٌ عاجزٌ » ولعل ما هنا منه وهي في الأصل بالصاد المهملة .

فُرقانه بقوله جل ثناؤه : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

والحمد لله الذي بعث محمداً رحمةً للعالمين ، وحجّةً على الجاحدين ، نخم به النبيين والمرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وجعله الداعي إلى دين الحق ، والشهيد على جميع الخلق ، فأدّى إليهم ما استودع من الأمانة ، وبلغهم ما حمل من الرسالة ، فلما أنقذ الله به من التورط في الضلالة ، والتهور في العمى والجهالة ، وأوضح به المعالم والآثار ، ونهج به العدل والمنار ، اختار له ما لديه ، ونقله إلى ما أعد له في دار الخلود : من النعيم الذي لا يتقطع ولا يبدي . ثم جعله في حُمته وأهله وراثته بما قدّمهم من خلافته في أمته ، وقدم لهم شواهد ما اختصّهم به من الفضيلة ، وزلّفة الوسيلة ، في كتابه الناطق ، على لسان نبيّه الصادق ، صلى الله عليه وسلم - منها ما أخبر به من تطهيره إياهم : ليجعلهم لما اختاره معدناً ومحلاً ، إذ يقول جل وعز : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ . ومنها ما أمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من مسألته أمته المودّة ، فقد أوضح لدوى الأبواب أنهم موضع خيرته ، بتطهيره إياهم ، وأهل صفوته ، بما افترض من مودّتهم ، وولاية الأمر الذين قرن طاعتهم بطاعته .

ولم يزل الله بعظيم منّهِ وإنعامه يُدعم أركان دينه ، ويسيد أعلام هُدايه ، باعزاز السلطان الذي هو ظلّه في أرضه ، وقوام عدله وقسطه ، والحجاز الدائد لهم عن النظم والتعاشم ، والحِصن الحريز عند مخوف البوائق وملمّ النوائب ؛ فليس يكيد ولا ته المستقلين بحق الله فيه كائد ، ولا يجحد ما يجب لهم من حق الطاعة جاحد ، إلا من أطوى على غشّ الأمة ، ومحاولة التشتيت للكلمه .

والحمد لله على ما تولى به أمير المؤمنين في البدء والعاقبة : من الإدلاء بالحنة ،
 والتأييد بالعبلة ، عند تشوه من حيز وطأة الخفض (؟) ، متبعا لكتاب الله حيث
 سلك به حُكْمُه ، مُقْتَفِيًا سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيثُ أَنْسَابَتْ أَمَامَهُ ،
 بآذَانَ اللَّهِ نَفْسَهُ ، لَا يُصَدِّهُ وَعِيدٌ مَنْ تَكَبَّرَ وَعَتَا ، وَلَا يُوحِشُهُ خِدْلَانٌ مِنْ أَدْبَرِ وَتَوَلَّى ،
 مُسْتَضْرًّا لِمَنْ نَكَثَ عَهْدَهُ وَغَدَرَ بَيْعَتَهُ وَأَتَمَسَ الْمَكْرَ بِهِ فِي حَقِّهِ الْآيَاتِ الْمَوْجِبَةِ
 فِي قَوْلِهِ : ((ثُمَّ بَغَى عَلَيْهِ لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ)) . ((فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ)) .
 مُكْتَفِيًا بِاللَّهِ مَنْ خَدَلَهُ ، مُسْتَعِينًا بِهِ عَلَى مَنْ نَصَبَ ، لَا يَسْتَفْزُهُ مَا أَجْلَبَ بِهِ الشَّيْطَانُ
 مِنْ خَيْلِهِ وَرَجَلِهِ ، وَهُوَ فِي أَنْصَارِهِ الْمُعْتَصِمِينَ ، لَا تَسْتَهْوِيهِمُ الشُّبُهَاتُ فِي بَصَائِرِهِمْ ،
 وَلَا تَحْوِيهِمْ قَوَاعِدُ عِزَائِهِمْ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَتْ تَرِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ
 مِنْهُمْ ، فَكَتَبَهُمْ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْهَدَهُمْ لَعْدُوهُ ، يَنْتَظِرُونَ إِحْدَى الْحُسَيْنِيِّينَ : مِنْ
 الْفَاجِحِ الْمَيْمَنِ ، وَالْفَوْزِ بِالشَّهَادَةِ وَالسَّعَادَةِ ، فَلَيْسَ يُلْفِتُهُمْ عَنْ حَقِّهِمْ مَا يُتَلَقَّوْنَ بِهِ مِنْ
 التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ ، وَلَا يَزِدَادُونَ عَلَى عَظِيمِ التَّهَاوِيلِ وَالْأَخْطَارِ إِلَّا تَقَحُّمًا وَإِقْدَامًا ؛
 مُتَمَثِّلِينَ لِسَيْرِ إِخْوَانِهِمْ قَبْلَهُمْ فِيمَا أَقْنَصَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ شَأْنِهِمْ ، إِذْ يَقُولُ جَلَّ وَعَزَّ :
 ((الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا
 حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)) .

وكان بداية جند أمير المؤمنين في حربهم التقدُّم بالإعذار والإندار ، والتخويف
 بالله جَلَّ وَعَزَّ وَأَيَّامِهِ ، وما همُ مَسْئُولُونَ عَنْهُ فِي مَقَامِهِ : مِنْ عَهْدِهِ الْمُؤَكَّدَةِ عَلَيْهِمْ
 فِي حَرَمِهِ ، وَبَيْنَ رُكْنِ كَعْبَتِهِ وَمَقَامِ خَلِيلِهِ ، الْمَعْلَقَةِ فِي بَيْتِهِ ، الشَّاهِدِ عَلَيْهَا وَفُودِهِ .

فكان أول ما بصرهم الله به حُجَّتُهُ الَّتِي لَا يَقْطَعُهَا قَاطِعٌ ، وَلَا يَدْفَعُهَا دَافِعٌ ،
 ثُمَّ مَا جَعَلَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ التَّنَاصُرِ وَالتَّوَأُّرِ الَّذِي فَتَّ فِي أَعْضَادِهِمْ ، وَرَمَاهُمْ بِهِ مِنْ

التَّحَاذُلُ وَالتَّوَاكُلُ ، فَكُلَّمَا تَجَمَّتْ لَهُمْ قُرُونٌ أَجْتَمَعَهَا اللَّهُ بِحَدِّ أَوْلِيَائِهِ ، وَكُلَّمَا سَرَقَ مِنْهُمْ مَارِقٌ أَسَالَ اللَّهُ مُهَجَّتَهُ ، وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَهُ وَدِيَارَهُ .

وَمُخْلَوِعُهُمُ الْمُبْتَدِيُّ بِمَا عَادَتْ عَلَيْهِمْ نِقْمَتُهُ وَنَكَالُهُ قَدْ أَعْلَقَ بِالرِّدَّةِ ، وَصَرَّحَتْ شَيْطَانِيَّةُ الْغَدْرِ وَالتَّنَكُّثِ ، يَرَى بِذَلِكَ الدَّلَّ فِي نَفْسِهِ وَحِزْبِهِ ، وَتَنْتَقِصُ عَلَيْهِ الْأَرْضُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا ، وَيُؤْتِي بُنْيَانَهُ مِنْ قَوَاعِدِهِ ، وَيَرُدُّ اللَّهُ جُيُوشَهُمْ مَفْضُولَةً ، وَجُنُودَهُمْ مُخَلَّاةً عَنِ مَرَكَزِهَا ، مَقْمُوعًا بِاطْلَاقِهَا . وَليْسَ مَعَ مَا نَالَهُ مِنْ سُخْطِ اللَّهِ جَلٌّ وَعِزٌّ نَازِعًا عَنِ آتِهَاتِكَ مَحَارِمِهِ وَمَأْتِمِهِ ، وَلَا مُحْدَثًا عَنِ جَانِحَةِ يُحْلِئُهَا بِهِ إِحْجَامًا عَنِ التَّفَحُّمِ فِي مَلَاحِمِهِ الْمَلْبَسَةِ لَهُ فِي عَاجِلِ مَا يُرِيدُهُ وَيُؤَيِّقُهُ ، وَآجِلِ مَا يَرِصُدُ اللَّهُ بِهِ الْمُعَانِدِينَ عَنِ سَبِيلِهِ ، النَّاكِبِينَ عَنِ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وَأَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - إِذْ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ مُتَبَايِنَ الْأُلْفَةِ ، وَضَمَّ لَهُ مُنْتَشِرَ الْفُرْقَةِ ، عَلَى مَعْرِفَتِهِ بِحَرْبِهِ وَحِزْبِهِ ، وَعَدُوَّهُ وَوَلِيَّهُ ، وَمَنْ سَعَى لَهُ أَوْ عَلَيْهِ ، أَوْ أَطَاعَ اللَّهَ أَوْ عَصَاهُ فِيهِ : مِنْ وَافٍ بِنِعْمَتِهِ ، أَوْ خَاطِرٍ بِيَالٍ وَذِمَّةٍ [جَدِيرٌ] أَنْ يَعْمَ بِجَيْمِلِ نَظَرِهِ كَافَّةً رِعْيَتِهِ ، وَيَتَعَطَّفَ عَلَيْهِمْ بِحُسْنِ عَائِدَتِهِ ، وَيَشْمَلَهُمْ بِمَسْوُطِ عَدْلِهِ وَكَرِيمِ عَفْوِهِ ، وَتَقْدِيمِ أَهْلِ الْأَفْكَارِ الْحَمُودَةِ ، فِي الْمَوَاطِنِ الْمَشْهُودَةِ ، بِمَا لَمْ تَزَلْ أَنْفُسُهُمْ تَشْرَبُ إِلَيْهِ ، وَأَعْيُنُهُمْ تَرْتَوِي نَحْوَهُ ، لِتُحْمَدَ عَنْهُمْ عَاقِبَةُ الطَّاعَةِ ، وَيُعَجَّلَ لَهُمُ الْوَفَاءُ بِمَا وَعَدَهُمْ مِنَ الْجِزَاءِ ، إِلَى مَا ذَخَرَهُ لَهُمْ مِنْ حُسْنِ الْمُثُوبَةِ وَمَزِيدِ الشُّكْرَانِ . وَأَمْرٍ لِفِلَانٍ بِكَذَابٍ ، وَلِمَنْ قَبْلَهُ مِنْ أَهْلِ الْغَنَاءِ بِكَذَابٍ ، وَأَمَّنِ الْأَسْوَدَ وَالْأَحْمَرَ ، مَا خَلَا الْمُلْحِدَ ابْنَ الرَّبِيعِ ، فَإِنَّهُ سَعَى فِي بِلَادِ اللَّهِ وَعِبَادِهِ سَعَى الْمَفْسِدِينَ ، وَالتَّمَسَّ نَقْضَ وَثَائِقِ الدِّينِ .

جَمِيعٌ مِنْ حَلِّ مَدِينَةِ السَّلَامِ آمِنُونَ بِأَمَانِ اللَّهِ ، غَيْرُ مُتَّبِعِينَ بِتَرَةٍ ، وَلَا مَطْلُوبِينَ بِإِحْنَةٍ ، فَلَا تَدْخُلَنَّ أَحَدًا وَحِشَّةً مِنْهُمْ لَضَعِيفَةٍ يَظُنُّ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْأَنْطَوَاءَ عَلَيْهَا ، وَلَا

يُجَلِّدُهُ مَا عَفَا لَهُ عَنْهُ مِنْ ذَنْبِهِ عَلَى [خِلاَف] مَا هُوَ مُسْتَوْجِبٌ مِنْ ثَوَابِ طَاعَتِهِ أَوْ نِكَالِ مَعْصِيَتِهِ ، فَإِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَقُولُ : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ .
 فَاحْمَدُوا اللَّهَ عَلَى مَا أَلْهَمَ خَلِيفَتَكُمْ ، مِنْ إِثَابَةِ أَهْلِ السُّوَابِقِ مِنْكُمْ بِأَوْفَى سَعْيِهِمْ ، وَالتَّطَوُّلِ عَلَى عَامَّةِ جُنْدِهِ بِمَا شَمَلِهِمْ بِرِفْقِهِ وَحَسَنَتِ عَلَيْهِمْ عَائِدَتِهِ ، وَمَا تَعَطَّفَ بِهِ عَلَى أَهْلِ التَّفْرِيطِ : مِنْ إِقَالَةِ هَقَوَاتِهِمْ وَعَثْرَاتِهِمْ ، حَتَّى صِرْتُمْ بِنِعْمَةِ اللَّهِ إِخْوَانًا مُتَرَفِّدِينَ ، قَدْ أَذْهَبَ اللَّهُ أَضْغَانَكُمْ وَنَزَعَ حَسَائِكَ صُدُورِكُمْ ، وَرَدَّ أَلْفَتَكُمْ إِلَى أَحْسَنِ مَا يَكُونُ ، وَصَرَّيْتُمْ بَيْنَ مُتَقَدِّمٍ بَغْيَاءَ ، وَمُقَمَّعٍ بِإِحْسَانٍ . فَحَافِظُوا عَلَى مَا يُرْتَبَطُ بِهِ رَاهُنُ النِّعْمَةِ ، وَيُسْتَدْعَى بِهِ حُسْنُ الْمَزِيدِ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

النوع الثاني

(من الأمانات التي تُكْتَبُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ ، مَا يُكْتَبُ بِهِ عَنِ الْمَلُوكِ ،

وهو على ضربين)

الضرب الأول

(ما كان يُكْتَبُ مِنْ هَذَا النَّحْوِ فِي الزَّمَنِ السَّابِقِ ، مِمَّا كَانَ يُصَدَّرُ عَنْ وَزَرَاءِ

الْخُلَفَاءِ وَالْمَلُوكِ الْمُتَقَلِّبِينَ عَلَى الْأَمْرِ مَعَهُمْ ، وَطَمَّ فِيهِ أَسْلُوبَانِ)

الأسلوب الأول

(أَنْ يُصَدَّرَ بِالْتِمَاسِ الْمُسْتَأْمِنِ الْأَمَانِ)

وَهَذِهِ نُسْخَةٌ أَمَانٍ مِنْ هَذَا الْأَسْلُوبِ ، كَتَبَ بِهَا أَبُو [إِسْحَاقَ بْنِ] هَلَالِ الصَّابِيِّ ، عَنْ صَمَّامِ الدَّوْلَةِ ، بِنِ عَضُدِ الدَّوْلَةِ ، بِنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ ، بِنِ بُوَيْهِ الدَّيْلَمِيِّ لِبَعْضِ مَنْ كَانَ مُتَخَوِّفًا مِنْهُ ، وَهُوَ :

هذا كتاب من صمصام الدولة وشمس الملة أبي كاليبجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي مولى أمير المؤمنين - لفلان بن فلان .

إنك ذكرت رغبتك في الانحياز إلى جملتنا، والمصير إلى حضرتنا، والسكون إلى ظلتنا، والسكنى في كنفنا، وأتمست التوثقة منا بما تطيب به نفسك، ويطمئن إليه قلبك؛ فتمبئنا ذلك منك، وأوجبنا به الحق والدمام لك، وأمنناك بأمان الله جل ثناؤه، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم، [وأمان] أمير المؤمنين أطل الله بقاءه، وأماننا - على نفسك، وجوارحك، وشعرك، وبشرتك، وأهلك، ووالدك، ومالك، وذات يدك : أماناً صحيحاً ماضياً نافذاً، واجبا لازماً؛ ولك علينا بالوفاء به إذا صرت إلينا عهد الله وميثاقه، من غير نقض له ولا فسخ لشيء منه، ولا تأويل عليك فيه على [كل] وجه وسبب .

ثم إنا نتناولك إذا حضرت بالإحسان والإجمال، والأصطناع والإفضال، مؤفين بك على أملاك، ومجتاوزين حد ظنك وتقديرك . فأسكن إلى ذلك وثق به، وتيقن أنك محمول عليه، ومفوض إليه . ومن وقف على كتابنا هذا : من عمال الخراج والمعاون وسائر طبقات الأولياء والمتصرفين في أعمالنا، فليعمل بما فيه، وليحذر من تجاوزه أو تعديه؛ إن شاء الله تعالى .



وعلى نحو من ذلك كتب أبو إسحق الصابى، عن صمصام الدولة المقدم ذكره، الأمان لجماعة من عرب المتفق، بواسطة محمد بن المسيب، وهو :

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

هذا كتاب منشور من صمصام الدولة، وشمس الملة، أبي كاليبجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين لجماعة من العرب من المنتفق، الراغبين في الطاعة والداخلين فيها مع أولياء الدولة .

إن محمد بن المسيب سأل في أمركم، وذكر رغبتكم في الخدمه، والالتحياز إلى الجمله، وأتمس أمانكم على نفوسكم وأموالكم، وأهلكم وعشيرتكم، على أن تلتزموا الاستقامه، وتسلكوا سبيل السلامه، ولا تخيفوا سبيلا، ولا تسعوا في الأرض فسادا، ولا تخالفوا للسلطان وولاية أعماله أمرا، ولا تؤوا له عدوا، ولا تعادوا له وليا، ولا تحيروا أحدا خرج عن طاعته، ولا تدموا لأحد طلبه، ولا تحونوه في سر ولا جهر، ولا قول ولا عمل . فرأينا قبول ذلك منكم، وإجابة محمد إلى ما رغب فيه عنكم، وتضمنته العهدة فيما عقد من هذا الأمان لكم على شرائطه المأخوذة عليكم : في الكف عن الرعيه والسأيلة، وأهل السواد والحاضرة، وترك التعرض للال والدم، أو الأنتهاك لذمة أو محرم، أو الأرتكاب لمنكر أو مائم .

فكونوا على هذه الحدود قايمين، وللصحة والاستقامة معتقدين، ولأحدانكم ضابطين، وعلى أيدي سفهائكم آخذين؛ وأنتم مع ذلك آمنون بأمان الله جل جلاله، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمان مولانا أمير المؤمنين، وأماننا : على نفوسكم وأموالكم وأحوالكم، وكل داخل في هذا الأمان وشرائطه معكم : من أهلكم وعشيرتكم وأتباعكم، ومن صمته حوزتكم .

ومن قرأ هذا الكتاب من عمال الخراج والمعاون، والمتصرفين في الحمارة والسيارة وغيرهم من جميع الأسباب، فليعمل بمتضمنه، وليحمل جماعة هؤلاء القوم على موجه، إن شاء الله تعالى .

الأسلوب الثاني

(أن لا يتعرض في الأمان لألتماس المستأمن الأمان)

وهذه نسخة أمانٍ على هذا الأسلوب ، أورده أبو الحسين بن الصابي في كتابه
 ”غرر البلاغة“ ونصه بعد البسملة :

هذا كتاب من فلان مولى أمير المؤمنين لفلان .

إننا أمناك على نفسك ومالك وولدك وحرملك ، وسائر ما تحويه يدك ، ويشتمل
 عليه ملكك ؛ بأمان الله جلَّتْ أسماؤه ، وعظمت كبريأؤه ، وأمان مجد رسوله
 صلى الله عليه وسلم ، وأماننا - أماناً صحيحاً غير معلول ، وسليماً غير مدخول ، وصادقاً
 غير مكذوب ، وخالصاً غير مشوب ؛ لا يتداخله تأويل ، ولا يتعقبه تبديل ؛ قد كفله
 القلب المحفوظ ، وقام به العهد الملحوظ - على أن تشملك الصيانة فلا يلحقك
 اعتراض معترض ، وتكنفك الحراسة فلا يطرفك اغتراض مغتمض ؛ وتعزك النصرة
 فلا ينالك كف متخطف ، ولا تمتد إليك يد متطرف ؛ بل تكون في ظل السلامة
 راتعاً ، وفي محاماة الأمانة وأدعاً ؛ وبعين المراجعة ملحوظا ، ومن كل تعقب وتبعب
 محفوظا ؛ لك بذلك عهد الله الذي لا يخفر ، وموآثيقه التي لا تنكث ؛ وذمامه الذي
 لا يرفض ، وعهده الذي لا يتقض :

المذهب الثاني

(مما يكتب به في الأمانات لأهل الإسلام - أن يفتح الأمان بلفظ : «رسم»)

كما تفتح صغار التواقيع والمراسيم ، وهي طريقة غريبة)

وهذه نسخة أمانٍ على هذا النمط ، أوردها محمد بن المكرم أحد كتّاب ديوان
 الإنشاء في الدولة المنصورية «قلاوون» في تذكرة التي سماها : «تذكرة اللبيب»

كتب بها عن المنصور قلاوون المقدم ذكره ، للتجار الذين يصلون إلى مصر من الصين والهند والسند واليمن والعراق وبلاد الروم ، من إنشاء المولى فتح الدين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وهي :

رُسم - أعلى الله الأمر العالی - لا زال عدله يُحل الرعايا من الأمن في حصن حصين ، ويستخلص الدعاء لدولته الزاهرة [من] أهل المشارق والمغرب فلا أحد إلا وهو من الخالصين ، ويهيئ رحابها للعتفين جنة عدن من أي أبوابها شاء الناس دخولاً : من العراق من العجم من الروم من الحجاز من الهند من الصين - أنه من أراد من الصدور الأجلء الأكابرتجار وأرباب التكبسب ، وأهل التسبب ، من أهل هذه الأقاليم التي عددت والتي لم تعدد ، ومن يؤثر الورود إلى ممالكها إن أقام أو تردد - النقلة إلى بلادنا الفسيحة أرجأؤها ، الظليلة أفيأؤها وأفناؤها ؛ فيعزم عزم من قدر الله له في ذلك الخير والخير ، ويحضر إلى بلاد لا يحتاج ساكنها إلى ميرة ولا إلى ذخيره : لأنها في الدنيا جنة عدن لمن قطن ، ومسلاة لمن تغرب عن الوطن ؛ ونزهة لا يملها بصر ، ولا تهجر للإفراط في الخصر^(١) ، والمقيم بها في ربيع دائم ، وخير ملازم ؛ ويكفيها أن من بعض أوصافها أنها شامة الله في أرضه ، وأن بركة الله حاصله في رحل من جعل الإحسان فيها من قراضه والحسنة من قرضه ؛ ومنها ما إذا أهبط إليها أمل كان له ما سأل ، إذ أصبحت دار إسلام يجنود تسبق سيوفهم العدل ؛ وقد عمر العدل أوطانها ، وكثر سكانها ؛ وآسعت أبنيتها إلى أن صارت ذات المدائن ، وأيسر المعسر فيها فلا يخشى سورة المدائن ؛ إذ المطالب بها

(١) الخصر بالتحريك البرد .

غير متعسره ، والنظرة فيها إلى ميسره ؛ وسائر الناس وجميع التجار ، لا يخشون فيها من يجوز فان العدل قد أجار .

فمن وقف على مرسومنا هذا من التجار المقيمين باليمن والهند ، والصين والسند ؛ وغيرهم ، فليأخذ الأهبة في الارتحال إليها ، والقُدوم عليها ؛ ليجد الفعال من المقال أكبر ، ويرى إحساناً يقابل في الوفاء بهذه العهود بالأكثر ؛ ويحل منها في بلدة طيبة ورب غفور ، وفي نعمة جزاؤها الشكر وهل يجازى إلا الشكور ؛ وفي سلامة في النفس والمال ، وسعادة تجل الأحوال وتمول الآمال ؛ ولهم منا كل ما يؤثرونه : من معدلة نجيب داعيها ، وتمجد عيشتهم دواعيها ، وتبقى أموالهم على مخلفيهم ، وتستخلصهم لأن يكونوا متفيئين في ظلالها وتصطفيفهم ؛ ومن أحضر معه بضائع من بهار وأصناف محضرها تجار الكارم فلا يخاف عليه في حق ، ولا يكلف أمراً يشق ، فقد أبقى لهم العدل ما شاق ورفع عنهم ما شق ؛ ومن أحضر معه منهم ممالك وجواري فله في قيمتهم ما يزيد على ما يريد ، والمساحة بما يتعوضه بهم على المعتاد في أمر من يجلبهم من البلد القريب فكيف من البعيد : لأن رغبتنا مصروفة إلى تكثير الجنود ، ومن جلب هؤلاء فقد أوجب حقاً على الجود ؛ فليستكثر من يقدّر على جلبهم ، ويعلم أن تكثير جيوش الإسلام هو الحاث على طلبهم : لأن الإسلام بهم اليوم في عزّ لوأوه المنشور ، وسلطانُه المنصور ، ومن أحضر منهم فقد أخرج من الظلمات إلى النور ؛ وذم بالكفر أمسه وحمد بالإيمان يومه ، وقاتل عن الإسلام عشيرته وقومه .

هذا مرسومنا إلى كل واقف عليه من تجار شأنهم الضرب في الأرض :
 ((يبتغون من فضل الله وآخرون يقَاتِلون في سبيل الله)) . ليقروا منه ما تيسر لهم

من حُكْمِهِ، وَيَهْتَدُونَ بِنَجْمِهِ، وَيَعْتَدُونَ بِعِلْمِهِ؛ وَيَمْتَطُونَ كَاهِلَ الْأَمَلِ الَّذِي يَجْلِبُهُمْ
عَلَى الْمُهْجَرَةِ، وَيَسُطُونَ أَيْدِيَهُمْ بِالْدُّعَاءِ لِمَنْ يَسْتَدْنِي إِلَى بِلَادِهِ الْخَلَائِقَ لِيَفُوزُوا مِنْ
إِحْسَانِهِ بِكُلِّ نَضَارَةٍ وَبِكُلِّ نَظْرَةٍ، وَيَعْتَنِمُونَ أَوْقَاتَ الرَّيْحِ فَإِنَّهَا قَدْ أَدَّتْ قِطَافَهَا،
وَبَعَثَتْ بِهَذِهِ الْوُعودِ الصَّادِقَةِ إِلَيْهِمْ مُخَقِّقٌ لَهُمْ حُسْنَ التَّأْمِيلِ، وَتَثَبَّتْ عِنْدَهُمْ أَنْ
الْخَطَّ الشَّرِيفَ حَاكِمٌ بِأَمْرِ اللَّهِ عَلَى مَا قَالَتْهُ الْأَقْلَامُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

قلتُ : هذا المكتوبُ وإن لم يكن صريحاً أماناً فإنه في معنى الأمان، كما أشار إليه
أَبْنُ الْمُكَرَّمِ . وفيه غمرايتان : إحداهما - الأفتتاح «برسم» ، والثانية - الكتابةُ به إلى
الأذواق البعيدة والأقطار النائية ، إشارةً إلى امتداد لسان قلم هذه المملكة إليهم .

الضرب الثاني

(من الأمانات التي تُكْتَبُ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ مَا عَلَيْهِ مِصْطَلَحُ زَمَانِنَا، وَهِيَ صِنْفَانِ)

الصنف الأول

(ما يُكْتَبُ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ)

وَالنَّظَرُ فِيهِ مِنْ جِهَةِ قَطْعِ الْوَرَقِ، وَمِنْ جِهَةِ الطَّرْزِ، وَمِنْ جِهَةِ مَا يُكْتَبُ
فِي الْمَتْنِ .

فَأَمَّا قَطْعُ الْوَرَقِ فَقَدْ قَالَ فِي "التثقيف" : إِنَّ الْأَمَانَ لَا يُكْتَبُ إِلَّا فِي قَطْعِ الْعَادَةِ .

قلتُ : وَالَّذِي يَنْجِيهِ أَنْ تَكُونَ كِتَابَةُ أَمَانٍ كُلِّ أَحَدٍ فِي نَظِيرِ قَطْعِ وَرَقِ الْمَكْتَابَةِ
إِلَيْهِ . فَإِنْ كَانَ مِنْ تَكْتَبِ الْمَكْتَابَةِ إِلَيْهِ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ، كُتِبَ لَهُ فِي قَطْعِ الْعَادَةِ .
وَإِنْ كَانَ فِي قَطْعِ فَوْقَ ذَلِكَ، كَتَبَ فِيهِ .

وأما الطَّرة فقد قال في "التثقيف": إنه يُكتب في أعلى الدرَج في الوَسَط الأسمُ الشَّريفُ ، كما في المكاتبات وغيرها، ثم يكتب من أول عَرْض الورقِ إلى آخره كما في سائر الطَّرر ما صورته :

« أمانٌ شريفٌ لفلان بن فلان الفُلانيّ بأن يحضُر إلى الأبواب الشريفة ، أو إلى بلده أو مكانه ، أو نحو ذلك آمِنًا على نفسه وأهله وماله ، لا يصبِيه سوءٌ ، ولا يناله ضيمٌ ، ولا يمسه أذى ، على ما شرح فيه » .

قلتُ : والعلامةُ في الأمان الأسمُ ؛ والبياضُ بعد الطَّرة على ما في المكاتبات إما وصلانٍ أو ثلاثةٌ ، بحسب ما تقتضيه رتبةُ صاحبِ الأمان ، وبحسب ما يقتضيه الحال : من مُداراة من يُكتب له الأمان : نخوفُ استِشراءِ شرِّه وما يُخالفُ ذلك .

وأما متن الأمان : فإنه تُكتبُ البَسْملةُ في أولِ الوصلِ الثالثِ أو الرابعِ ، بهامِشٍ من الجانبِ الأيمنِ كما في المكاتبات ، ثم يكتبُ سَطْرٌ من الأمان تحت البَسْملةِ على سَمِّها ، ويخلَى موضعُ العلامةِ بياضًا كما في المكاتبات ، ثم يكتبُ السَطْرَ الثاني وما يليه على نَسَقِ المكاتبات .

قال في "التعريف" : ويجمعُ المقاصدُ في ذلك أن يُكتب بعد البَسْملة : « هذا أمانٌ الله تعالى وأمانٌ نبيِّه محمَّدٍ [نبيِّ الرحمة] صلى الله عليه وسلم وأماننا الشَّريفُ ، لفلان بن فلان الفُلانيّ [ويذكر أشهرَ أسمائه وتعريفه] ، على نفسه وأهله وماله ، وجميعِ أصحابه وأتباعه وكلِّ ما يتعلق به : من قليلٍ وكثيرٍ ، وجليلٍ وحَقيرٍ - أمانًا لا يبقى معه خوفٌ ولا جَزَعٌ في أولِ أمره ولا آخره ، ولا عاجله ولا آجله ، يخصُّ ويعمُّ ، وتُصانُ به النَّفسُ والأهلُ والوَلدُ والمالُ وكلُّ ذاتِ اليَدِ . فليحضرهُ هو

وبنوه، وأهله وذووه وأقربوه، وغلمانُه وكلُّ حاشيته، وجميع ما يملكه من دانيته وقاصيته، وليصل بهم إلينا، ويقد عليَّ حضرتنا في ذمام الله وكلاءته وضمّانة هذا الأمان، له ذمّة الله وذمّة رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يناله مكروه منا، ولا من أحدٍ من قبلنا، ولا يتعرض إليه بسوءٍ ولا أذى، ولا يرتق له موردٌ بقديّ؛ وله منا الاحسان، والصّفاء بالقلب واللسان؛ والرعاية التي تؤمّن سربه [وشهّي شربه] ^(١) ويطمئن ^(١) [بها] خاطره، وتُرفق عليه كالسحاب لا يناله إلا ماطره.

فليحضر واثقاً بالله تعالى وبهذا الأمان الشريف، وقد تلفظنا له به ليزداد وثوقاً، ولا يجد بعده سوء الظنّ إلى قلبه طريفاً. وسبيل كلِّ واقفٍ عليه إكرامه في حال حضوره، وإجراؤه على أحسن ما عهد من أموره؛ وليكن له ولكل من يحضر معه أوفر نصيب من الاكرام، وتبلغ قصارى القصد ونهاية المرّام؛ والاعتماد على الخطّ الشريف أعلاه» .

وذكري في "التثقيف": بصيغة أخرى أخصر من هذه، وهي :

«هذا أمان الله عزّ وجلّ، وأمان رسوله صلى الله عليه وسلم، وأماننا الشريف لفلان بن فلان الفلاني، بأن يحضر إلى الأبواب الشريفة آمناً على نفسه وأهله وماله، لا يصيبه سوء، ولا يناله ضيم، ولا يمسه أذى. فليثق بالله وبهذا الأمان الشريف ويحضر إلى الأبواب الشريفة، آمناً مطمئناً، لا يصيبه سوء، ولا يناله أذى في نفس ولا مالٍ ولا أهيلٍ ولا وليدٍ. والاعتماد على الخطّ الشريف أعلاه، والله الموفق بمنه وكرمه» .

وزاد فقال : ثم التاريخ والمستند والحسبة . ولا يكتب فيه : «إن شاء الله تعالى» لأنها تقتضى الاستثناء فيما وقع من الأمان المذكور .

(١) من "التثقيف" ص ١٦٥ .

ثم قال : هذا هو الأمر المستقر من ابتداء الحال وإلى آخر وقت ، لم يكتب خلاف ذلك . غير أن القاضي شهاب الدين ذكر النسخة المذكورة بزيادات حسنة لا بأس بها ، لكنني لم أر أنه كتب بها في وقت من الأوقات . ثم قال : وهي في غاية الحسنى ، وكان الأولى أن لا يكتب إلا هي .

قلت : وقد رأيت عدة نسخ أمانات فيها زيادات ونقص عما ذكره في "التعريف" و"التتيف" . والتحقيق ما ذكره صاحب "مواد البيان" : وهو أن مقاصد الأمان تختلف باختلاف الأحوال ، والذي يضبط إنما هو صورة الأمان ، أما المقاصد فإن الكاتب يدخل في كل أمان ما يليق به مما يناسب الحال .

وهذه نسخة أمان ، كتب بها الأسد الدين ربيعة أمير مكة ، في سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء القاضي تاج الدين بن البارباري ، وهي :

هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأماننا الشريف ، للجلوس العالى الأسدي ربيعة ابن الشريف نجم الدين محمد بن أبي ميمى : بأن يحضر إلى خدمة السنجق الشريف المجهز صعبة الجناح السيفي ايمش الناصري ، آمناً على نفسه وماله وأهله وولده وما يتعلق به ، لا يخشى حلول سطوة قاصمه ، ولا يخاف مؤاخذه حاسمه ، ولا يتوقع خديعة ولا مكراً ، ولا يجد سوءاً ولا ضراً ، ولا يستشعر مهابة ولا وجلاً ، ولا يرهب بأساً وكيف يرهب من أحسن عملاً ؟ ، بل يحضر إلى خدمة السنجق آمناً على نفسه وماله وآله ، مطمئناً واثقاً بالله وبرسوله وبهذا الأمان الشريف المؤكد الأسباب ، المبيض للوجوه الكريمة الأحساب ، وكل ما يخطر بباله أنا نؤاخذه به فهو مغفور ، والله عاقبة الأمور ،

وله من الإقبال والتأخير والتقديم ، وقد صفحنا الصَّفْحَ الحَمِيلَ : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴾ .

فليثق بهذا الأمان الشريف ولا تذهب به الظنون ، ولا يصغ إلى الذين
لا يعلمون ؛ ولا يستشروا في هذا الأمر غير نفسه ، ولا يظن إلا خيراً فيومه عندنا ناسخ
لأمسه ؛ وقد قال صلى الله عليه وسلم [فيما يرويه عن ربه] : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ
عَبْدِي بِي فليظن بي خيراً » .

فتمسك بعروة هذا الأمان فإنها وثقى ، وأعمل عمل من لا يضل ولا يشقى ؛ ونحن
قد أمناك فلا تخف ، ورعينا لك الطاعة والشرف ؛ عفا الله عما سلف ؛ ومن أمناه
فقد فاز ، فطب نفساً وقر عيناً فأنت أمير الحجاز .

قلت : هذا الأمان إنشاء مبتكر مطابق للواقع ، وهكذا يجب أن يكون كل أمان
يكتب .



وهذه نسخة أمان كتب بها عن السلطان الملك الظاهر « برقوق » عند محاصرته
لدمشق بعد خروجه من الكرك بعد خلعهِ من السلطنة : أمن فيها أهل دمشق خلا
الشيخ شهاب الدين بن القرشي وجر دمر الطاربي ، كتب في ليلة يسفر صباحها
عن يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر ذي الحجة الحرام ، سنة إحدى وتسعين
وسبعمائة ، وهي :

هذا أمان الله سبحانه وتعالى ، وأمان نبيه سيدنا محمد نبي الرحمة ، وشفيع الأمة ،
وكاشف الغم ، صلى الله عليه وسلم ، وأماننا لكل واقف عليه من أهل مدينة دمشق
المحروسة : من القضاة ، والمفتين ، والفقهاء ، وطالبي العلم الشريف ، والفقراء
والمساكين ، والأمراء ، والأجناد ، والتجار ، والمتسبين ، والشيوخ ، والكهول

والشبان ، والجبار والصغار ، والدُّكور والإناث ، والخاص والعام من المسلمين
و [أهل] الذمة ، إلا جردم الطاربي ، وأحمد بن القُرشيّ - على أنفسهم ، وأموالهم ،
وأولادهم ، وأهلهم ، وحريمهم ، وأصحابهم ، وأتباعهم ، وغلمانهم ، وقبائلهم ،
وعشائرهم ، ودوابهم ، وما يملكونه من ناطق وصامت ، وكل ما يتعلق بهم : من كثير
وقليل ، وجليل وحقير . أمان لا يبق معه خوف ولا جزع ، في أول أمره ولا في آخره ،
ولا في عاجله ولا في آجله ، ولا ضرر ، ولا مكرب ، ولا غدر ، ولا خديعة ، يخص
ويعم ، وتصان به النفس والمال ، والولد والأهل ، وكل ذات يد .

فليحضروا ببنيهم ، وأهلهم وذويهم ، وأقربائهم ، وغلمانهم ، وحاشيتهم ، وجميع
ما يملكونه من ناطق وصامت ، ودان وقاص ، وليصلوا بهم إلينا ، وليفدوا بهم على
حضرتنا الشريفة في ذمام الله تعالى وكآلته ، وضمان هذا الأمان . لهم ذمة الله تعالى
وذمة رسوله سيدنا محمد نبي الرحمة ، صلى الله عليه وسلم - أن لا ينالهم مكروه منّا ،
ولا من أحد من قبلنا ، ولا يتعرض إليهم بسوء ولا أذى ، ولا يرتق لهم مورد بقدى ،
ولهم منّا الإحسان ، والصفاء بالقلب واللسان ، والرعاية التي نؤمن بها سربهم ، ونهني
بها سربهم ، ويطمئن بها خاطرهم ، وتزفر عليهم كالسحاب لا ينالهم إلا ما طرهم .

فليحضروا واثقين بالله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم ، وبهذا الأمان
الشريف . وقد نلطنا بهم ليزدادوا وثوقا ، ولا يجد سوء الظن بعد ذلك إلى قلوبهم
طريقا . وسبيل كل واقف عليه إكرامهم في حال حضورهم ، وإجراؤهم على أكمل
ما عهدوه من أمورهم ، وليكن لهم ولكل من يحضر معهم وما يحضر أوفر نصيب
من الإكرام ، والقبول والاحترام ، وتبليغ فصارى القصد ونهاية المرام ، والصفح
والرضا ، والعفو عما مضى ، ولتتمسكوا بعروة هذا الأمان المؤكدة الأسباب ، الفاتح

إلى الخيرات كلِّ باب؛ وليثقوا بعروته الوثقى، فإنه من تمسك بها لا يضل ولا يشق؛
وليشرحوا بالصفح عما مضى صدرا، ولا يحشوا ضميرا ولا ضرا؛ ولا يعرض كل
منهم على نفسه شيئا مما جنى وأقترف، فقد عفا الله عما سلف .

ونحن نعرفهم أن هذا أماننا بعد صبرنا عليهم نيِّفاً وأربعين يوماً مع قدرتنا على
دوس ديارهم وتخريبها، وأستئصال شأفتهم، ولكننا منعنا من ذلك الكتاب العزيز
والسنة الشريفة، فإننا مستمسكون بهما، وخوفنا من الله تعالى ومن نبيه سيدنا
محمد صلى الله عليه وسلم واليوم الآخر ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَىَّ اللَّهِ
يَقْلِبِ سَلِيمٌ﴾ وهم يغالبون أنفسهم ويظنون أن تأخيرنا عنهم عن عجز منا .

فليتلقوا هذا الأمان الشريف بقلوبهم وقلوبهم، وليرجعوا إلى الله تعالى، وليصونوا
دماءهم وأموالهم وأولادهم، وحرمتهم وديارهم، فقد رأوا ما حلَّ بهم من نكبتهم
وبغيتهم . قال الله عز وجل: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا
عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ . وقال عز من قائل: ﴿وَالْمُؤْفُونَ بِعَهْدِهِمْ
إِذَا عَاهَدُوا﴾ في معرض المدح لمن وفى بعهده: وقال جل وعلا: ﴿ثُمَّ بَغَىٰ عَلَيْهِ
لِيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ . وقال تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بُغِيكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ .
وقال تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ . وقال النبي صلى الله
عليه وسلم: « ثلاث من كن فيه كن عليه : المكر والبغي والحديعة » . وقال عليه
السلام: « المرء مجزي بعمله » . وقال عليه السلام: «الجزء من جنس العمل» .
وقال أهل التصوف: (الطريق تأخذ حقيها) . وقال أهل الحكمة: (الطبيعة كافية) .
وقال الشاعر :

قضى الله أن البغي يصرع أهله * وأن على الباغى تدور الدوائر!

ثم إنهم يعللون آلامهم بعسى ولعل ، ويقولون : العسكرُ المِصرى واصل إليهم نَجدة لهم ، وهذا والله من أكبر حَسراتنا أن تكون هذه الإشاعة صحيحة ، وبهذا طمعت آملنا ، وصبرنا هذه المدة الطويلة ، وتمنينا حضوره ورجوانه ، فإنه بأجمعه ممالكُ أبوابنا الشريفة ، وقد صارت الممالك الشريفة الإسلامية المحروسة في حوزتِنا الشريفة ، ودخل أهلها تحت طاعتنا المفترضة على كل مسلم يؤمن بالله تعالى وبنبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وباليوم الآخر : من حاضِر وبَادٍ ، وعُربانٍ وأكرادٍ وتُركيانٍ ، وقاصٍ ودانٍ ، وهم يتحققون ذلك ويكايرون في المحسوس ويتعللون بعسى ولعل ، ويقولون : ياليت ، فيقال لهم : هيات .

فليستدرِكوا الفارطَ قبل أن يعضوا أيديهم ندما ، وتجرى أعينهم بدلَ الدموع دما ، وهذا منا والله أمانٌ ونصيحةٌ في الدنيا والآخرة ، والله تعالى ربُّ النيات ، وعالمُ الخفيات ، يعلمون ذلك ويعتمدونه ، والله تعالى يوفقهم فيما يُبدئون به ويعيدونه ، والخطُ الشريفُ شرفه اللهُ تعالى وأعلاه ، وصرفه في الآفاق وأمضاه - أعلاه ، حجة فيه .

قلت : وهذا الأمانُ أوله مُلقًى من كلام "التعريف" وغيره ، وآخره كلامُ سوقيٍّ مبتدئٌ نازلٌ ، ليس فيه شيءٌ من صناعة الكلام .

(تنبيه) من غرائب الأمانات ما حكاه محمد بن المكرم في كتابه : "تذكرة اللبيب" أن رُسلَ صاحبِ اليمنِ وفدت على الأبواب السلطانية ، في الدولة المنصورية «قلاوون» في شهر رمضان ، سنة ثمانين وستمائة ، وسألو السلطان في كتب أمان لصاحب اليمن ، وأن يكتب على صدره صورة أمان له ولأولاده ، فكتب له ذلك وشملتُه علامةُ السلطان ، وعلامةُ ولده وليِّ عهده «الملك الصالح على» وأعلمهم

أَنَّ هَذَا مِمَّا لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً ، وَإِنَّمَا أَجَابَهُمْ إِلَى ذَلِكَ إِكْرَامًا لِمُخْذُومِهِمْ ، وَمُوَافَقَةً لِفَرَضِهِ وَأَقْتِرَاحِهِ .

الصنف الثاني

(من الأمانات الجارية عليها مُصْطَلَحُ كُتَابِ الزَّمَانِ ، مَا يُكْتَبُ

عَنْ نَوَابِ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَةِ)

وهو على نحو ما تقدّم ذكره مما يُكْتَبُ عَنْ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ ، إِلَّا أَنَّهُ يُزَادُ فِيهِ : « وَأَمَانٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ » وتُذَكَّرُ أَلْقَابُهُ الْمَعْرُوفَةُ ، ثُمَّ يُؤْتَى عَلَى بَقِيَّةِ الْأَمَانِ ، عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ ، وَيُقَالُ فِي طَرَّتِهِ : « أَمَانٌ كَرِيمٌ » . وَيُقَالُ فِي آخِرِهِ : « وَالْعَلَامَةُ الْكَرِيمَةُ » كَمَا تَقَدَّمَ فِي التَّوَاقِيعِ .

وهذه نُسْخَةُ أَمَانٍ كُتِبَ بِهِ عَنْ نَائِبِ السُّلْطَانَةِ بَحَلَبَ فِي نِيَابَةِ الْأَمِيرِ قَشْتَمِرِ الْمَنْصُورِيِّ ، فِي الدَّوْلَةِ الْأَشْرَفِيَّةِ « شُعْبَانُ بْنُ حُسَيْنٍ » لِبَعْضِ مَنْ أَرَادَ تَأْمِينَهُ ، وَهِيَ :

هَذَا أَمَانٌ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَأَمَانٌ نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَمَانٌ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْأَعْظَمِ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ، الْمُجَاهِدِ ، الْمُرَابِطِ ، الْمُتَأَخِّرِ ، الْمُؤَيَّدِ ، الْمَالِكِ ، الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، نَاصِرِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، سُلْطَانِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، مُجِي الْعَدْلِ فِي الْعَالَمِينَ ، مُنْصِفِ الْمَظْلُومِينَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، قَامِعِ الْكُفْرَةِ وَالْمُشْرِكِينَ ، قَاهِرِ الطُّغَاةِ وَالْمُعْتَدِينَ ، مُؤَمِّنِ قُلُوبِ الْخَائِفِينَ وَالتَّائِبِينَ ، مَلِكِ الْبَحْرَيْنِ ، صَاحِبِ الْقِبْلَتَيْنِ خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ ، وَارِثِ الْمُلْكِ ، سُلْطَانِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالتُّرْكِ ، مَلِكِ الْأَرْضِ ، الْحَاكِمِ فِي طَوْلِهَا وَالْعَرَضِ ، سَيِّدِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِينَ ، قَسِيمِ أُمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ « شُعْبَانُ » ابْنِ الْمَلِكِ الْأَمْجِدِ بَجَمَالِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ « حُسَيْنٍ » ابْنِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ

المَلِكِ الناصر، ناصرِ الدُّنيا والدِّين، سلطانِ الإسلامِ والمسلمين «محمد» ابن مولانا السلطانِ الشهيدِ المَلِكِ المنصورِ «قلاوون» - خَلَدَ اللهُ مُلْكَهُ، وجعلَ الأرضَ بأسْرِها مَلِكَةً - إلى فلانٍ بالحضورِ إلى الطاعةِ الشريفةِ: طَيَّبَ القَلْبَ، مُنْبَسِطَ الأَمَلِ؛ أَمِنًا على نَفْسِهِ ومالِهِ وأولادِهِ، وجماعتهِ وأصحابِهِ ودوابِّهِ؛ لا يَخَافُ ضَرَرًا ولا مَكْرًا، ولا حَديعةً ولا غَدْرًا؛ وله مَزِيدُ الإِكْرَامِ والأحترامِ، والرعايةِ الوافرةِ الأقسامِ، والعفوِ والرِّضا، والصفحِ عَمَّا مَضَى.

فَلْيَتَمَسَّكَ بِعُرْوَةِ هَذَا الأمانِ المُؤَكَّدِ الأسبابِ، الفاتِحِ إلى الخيراتِ كُلِّ بابٍ، وَلْيَتَّقِ بِعُرْوَتِهِ الوُثْقَى، فَإِنَّهُ من تَمَسَّكَ بِهَا لا يَضِلُّ ولا يَشُقُّ؛ وَلْيُشْرَحِ بِالصَّفْحِ عَمَّا مَضَى صَدْرًا، ولا يَخْشَ صَمِيمًا ولا ضَرًّا؛ ولا يَعْرِضُ على نَفْسِهِ شَيْئًا مِمَّا جَنَى وأَقْتَرَفَ، فقد عفا اللهُ عَمَّا سَلَفَ؛ وَالخَطُّ الكَرِيمُ أعلاه اللهُ تعالى أعلاه حِجَّةً فِيهِ.

قُلْتُ: ومما ينبغى التنبيهُ عليه في الأمانات، أنه إن احتاج الأمر في الأمان إلى الأيمان، أتى بها بحسب ما يقتضيه حال الخالف والحلوف له، على ما تقدم ذكره في المقالة الثامنة.

الباب الثاني

من المقالة التاسعة

(في الدفن)

والمراد به دفن ذنوب من يُكْتَب له حتى لم تُرَبِّدْ، وفيه فصلان :

الفصل الأول

في أصله وكونه مأخوذاً عن العرب

والأصل فيه ما ذكره في "التعريف" أن العرب إذا جَنَى أحدٌ منهم جنايةً، وأراد الحَجْبِيَّ عليه العَفْوَ عما وقع، فالتَّعْوِيلُ في الصَّفْحِ فيها على الدَّفْنِ. قال في "التعريف": وطريقتهم فيه أن تجتمع أكارُ قَبِيلَةٍ الذي يَدْفِنُ بحضور رجالٍ يَثِقُ بهم المدفونُ له، ويقومُ منهم رجلٌ، فيقول للحَجْبِيَّ عليه: نُريدُ منك الدَّفْنَ فلانٍ، وهو مُقَرَّبٌ بما أهاجَكَ عليه، ويُعدُّ ذنوبه التي أُخِذَ بها ولا يَبْقَى منها بَقِيَّةٌ، ويَقْرَأُ الذي يَدْفِنُ ذلك القائلِ على أن هذا جُمْلَةٌ ما نَقَمَه على المدفون له، ثم يَحْفِرُ بيده حَفِيرَةً في الأرض، ويقول: قد أَلْقَيْتُ في هذه الحَفِيرَةِ ذُنُوبَ فلانٍ التي نَقَمْتُمَا عليه، ودَفَنْتُمَا له دَفْنِي لهذه الحَفِيرَةِ، ثم يردُّ ترابَ الحَفِيرَةِ إليها حتى يَدْفِنَهَا بيده. قال: وهو كثيرٌ متداولٌ بين العرب، ولا يَطْمَئِنُّ خَاطِرُ المُنْدَبِ منهم إلا به، إلا أنه لم تَجْرِ للعربِ فيه عادةٌ بكتابة، بل يُكْتَفَى بذلك الفِعْلُ بِمُحَضَّرِ كَبَّارِ الفريقين؛ ثم لو كانت دِمَاءٌ أَوْ قَتْلٌ عُقِبَتْ وَعَفَّتْ بها آثارُ الطلائبِ.

الفصل الثاني

من الباب الثاني من المقالة التاسعة

(فيما يكتب في الدفن عن الملوك)

قال في "التعريف" : صورته أن يكتب بعد البسملة : « هذا دفن لذنوب فلان ، من الآن لا تُذكر ولا يطالب بها ، ولا يُؤخذُ بسببها ؛ أقتضته المراحمُ الشريفةُ السلطانية الملكية الفلانية ، ضاعف الله تعالى حسناتها وإحسانها : وهي ما بدأ من الذنوب لفلان من الجرائم التي ارتكبها ، والمظالم التي آحقت بها ، وحصل العفو الشريف عن زللها ، وقابل الإحسان العيم بالتعمد سوء عملها ؛ وهي : كذا وكذا (وتذكر) : دفناً لم تبق معه مؤاخدة بسبب من الأسباب ، ومات به الحقد وهيل عليه التراب ، ولم يبق معه لمطالب بشيء منه مطمع ، ولا في إحيائه رجاء وفي غير ما وارت الأرض فاطمع ؛ تصدق بها سيدنا ومولانا السلطان الأعظم (ويذكر ألقابه وأسمه) - تقبل الله صدقته - وعفا عنها ، وقطع الرجاء باليأس منها ؛ وأبطل منها كل حق يطلب ، وصفح منها عن كل ذنب كان [به] ^(١) يستندب ؛ ودفنها تحت قدمه ، ونسيها في علم كرمه ، وخلاها نسيًا منسيًا لا تُذكر في خفارة ذممه ؛ وجعله بها مُقيماً في أمن الله تعالى إلى أن يبعث الله تعالى خلقه ، ويتقاضى كما يشاء حقه ؛ لا يتعقب في هذا الأمان متعقب ، ولا ينتهي إلى أمده له نظر مترقب ؛ لا ينبش هذا الدفين ، ولا يُوقف له على أثر في اليوم ولا بعد حين ؛ ولا يُحشى فيه صبر مصابر ، ولا يُقال فيه :

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٦٦ .

إِلَّا وَهَبَهَا كَشْيءٍ لَمْ يَكُنْ أَوْ كَنَزَحَ بِهِ الدَّارُ أَوْ مَنْ غَيَّبَتْهُ المَقَابِرُ . وَرُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ العَالِي ، المَوْلَوِيِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، المَلِكِيِّ الفُلَانِيِّ - أَعْلَاهُ اللهُ تَعَالَى وَشَرَّفَهُ ، وَغَفَرَ بِهِ لِكُلِّ مُذْنِبٍ مَا أَسْلَفَهُ - أَنْ يُكْتَبَ لَهُ هَذَا الكِتَابُ بِمَا عُنِيَ لَهُ عَنْهُ وَحُفِرَ لَهُ وَدُفِنَ ، وَأَصْبَحَ بِعَمَلِهِ غَيْرَ مُرْتَمِينَ ؛ وَدُفِنَ لَهُ فِيهِ دَفَنَ العَرَبِ ، وَقُطِعَ فِي التَّدْشُرِ لَهُ أَرَبُ كُلِّ [ذِي] أَرَبٍ ؛ وَدُرِسَ فِي القُبُورِ الدَّوَارِسَ ، وَغُيِبَ مَكَانَهُ فِيمَا طُمِرَ فِي اللَّيَالِي الدَّوَامِسَ .

وَسَبِيلُ كُلِّ وَاقِفٍ عَلَى هَذَا الكِتَابِ - وَهُوَ المِحْجَةُ عَلَى مَنْ وَقَفَ عَلَيْهِ ، أَوْ بَلَغَهُ خَبْرُهُ ، أَوْ سَمِعَهُ أَوْ وَضَّحَ لَهُ أَثْرَهُ - أَنْ يَتَنَاسَى هَذِهِ الوُقَائِعَ ، وَيَتَخَذَهَا فِيمَا تَضَمَّتْهُ الأَرْضُ مِنَ الوُدَائِعِ ، وَلَا يَذْكُرُ مِنْهَا إِلَّا مَا أَقْتَضَاهُ حَامِنُنَا الذِي يُؤْمِنُ مَعَهُ التَّلَفَ ، وَعَفُونَا الذِي شَمِلَ وَعَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ .

قَالَ فِي "التَّنْقِيفِ" : وَلَمْ أَكُنْ رَأَيْتُ شَيْئًا مِنْ هَذَا وَلَا وَجَدْتُهُ مَسْطُورًا إِلَّا فِي كِتَابَةِ "التَّعْرِيفِ" . قَالَ : وَالذِي أَعْتَقِدُهُ أَنَّهُ لَمْ يُكْتَبْ بِهِ قَطُّ ، وَإِنَّمَا الرَّجُلُ بِسَعَةِ فَضْلِهِ وَفَضِيلَتِهِ ، أَرَادَ أَنْ يَرْتَبَّ هَذِهِ النُّسْخَةَ لِأَحْتِمَالِ أَنْ يُؤْمَرَ بِكِتَابَةِ شَيْءٍ مِنْ هَذَا المَعْنَى ، فَلَا يَهْتَدِي الكَاتِبُ إِلَى مَا يَكْتُبُهُ . ثُمَّ قَالَ : عَلَى أَنَّهُ كَرَّرَ فِيهَا ذِكْرَ السُّلْطَانِ مَرَّتَيْنِ ، وَالثَّلَاثَةَ قَالَ : رُسِمَ بِالْأَمْرِ الشَّرِيفِ ، فَهِيَ عَلَى غَيْرِ نَحْوِ مِنَ النِّظَامِ المَعْهُودِ وَالمَصْطَلَحِ المَعْرُوفِ ، بِحُكْمِ أَنْ فِيهَا أَيْضًا تَوْسَعًا كَثِيرًا فِي العِبَارَةِ وَالأَلْفَاظِ الَّتِي تُؤَدِّي كُلُّهَا مَعْنَى وَاحِدًا . قَالَ : وَكَانَ الأَوَّلِيُّ بِنَا أَخْتَصَرَ ذَلِكَ وَعَدَمَ كِتَابَتَهُ ، لَكِنَّا أَرَدْنَا التَّنْبِيهَ عَلَى مَا أَشَارَ إِلَيْهِ ، لِيَكُونَ هَذَا الكِتَابُ مُسْتَوْعِبًا لِجَمِيعِ مَا ذُكِرَ ، مِمَّا يُسْتَعْمَلُ وَمِمَّا لَا يُسْتَعْمَلُ .

قلت : ما قاله في "التثقيف" كلامٌ ساقطٌ صادرٌ عن غير تحقيق ، فإنه لا يلزم من عدم اطلاعهِ على شيءٍ كُتب في هذا المعنى ولا سَطَّر فيه أن لا يكون مسطوراً لأحدٍ في الجملة . وماذا عسى يبلغ اطلاعُ المطلع فضلاً عن غيره ؟ وإن كان صاحبُ "التعريف" هو الذي أبتكر ذلك ، كما أشار إليه في "التثقيف" فنعمت السَّجِيَّة الآتية بمثل ذلك مما لم يُسبق إليه . وأما إنكاره تكرير ذكر السلطان فيها ، فلا وجه له بعد انتظام الكلام وحسن ما أتى به في "التعريف" سواء كان فيه مُبتكراً أو مُتبعاً أو مُنتزَعاً له من الأصل السابق .

وأحسن ما يكتب في ذلك في تأمين العربان : لأنه إنما أُخِذَ عنهم ، فإذا صدر إليهم شيءٌ يعرفونه ويَجْرِي على قواعدهم التي يألّفونها ، تلقّوه بالقبول ، وأطمأنت إليه قلوبهم ، ووقع منهم أجلّ موقع ، وباللّه المُستعان .

الباب الثالث

من المقالة التاسعة

(فيا يُكْتَبُ فِي عَقْدِ الدِّمَّةِ، وَمَا يَتَفَرَّعُ عَلَى ذَلِكَ؛ وَفِيهِ فَصْلَانِ)

الفصل الأول

فِي الْأَصُولِ الَّتِي يَرْجِعُ إِلَيْهَا هَذَا الْعَقْدُ، وَفِيهِ طَرَفَانِ

الطرف الأول

(فِي بَيَانِ رُتْبَةِ هَذَا الْعَقْدِ، وَمَعْنَاهُ، وَأَصْلِهِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ،

وَمَا يَنْخَرِطُ فِي سِلْكِ ذَلِكَ)

أَمَّا رُتْبَتُهُ، فَإِنَّهُ دُونَ الْأَمَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِمَامِ. وَذَلِكَ أَنَّهُ إِنَّمَا يَقْرُرُهُ بَعْوِضٌ يَأْخُذُهُ مِنْهُمْ، بِخِلَافِ الْأَمَانِ.

وَأَمَّا مَعْنَاهُ، فَقَدْ قَالَ الْغَزَالِيُّ فِي «الْوَسِيْطِ»: «إِنَّهُ عِبَارَةٌ عَنِ الْقِرَامِ تَقْرِيرُهُمْ فِي دِيَارِنَا، وَحِجَابَتِهِمْ، وَالذَّبُّ عَنْهُمْ بِبَدَلِ الْحِزْبِيَّةِ أَوْ الْإِسْلَامِ مِنْ جِهَتِهِمْ».

وَأَمَّا الْأَصْلُ فِيهِ: فَمِنْ الْكِتَابِ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. فَجَعَلَ الْحِزْبِيَّةَ غَايَةً مَا يُطَلَّبُ مِنْهُمْ، وَهُوَ دَلِيلُ تَقْرِيرِهِمْ بِهَا.

وَمِنَ السُّنَّةِ مَا وَرَدَ «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ وَجَّهَ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ إِلَى الْيَمَنِ. قَالَ: إِنَّكَ سَتَرُدُّ عَلَى قَوْمٍ مُعْظَمُهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ فَأَعْرِضْ عَلَيْهِمُ الْإِسْلَامَ،

فإن أمتنعوا فأعرض عليهم الجزية وخذ من كل حالم ديناراً ، فإن أمتنعوا فاقتلهم»
 بفعل القتل بعد الامتناع عن أداء الجزية يدل على تقريرهم بها أيضا .

وقد قرّر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه نصارى الشام بإيالتهم على شروطٍ أشرطوها في كتاب كتبوا به إليه ، مع زيادة زادها .

قال الإمام الحافظ جمال الدين أبو صادق محمد ، ابن الحافظ رشيد الدين
 أبي الحسين يحيى ، بن علي ، بن عبد الله القرشي في كتابه الموسوم "بالزبد المجموعه ،
 في الحكايات والأشعار والأخبار المسموعه" : أخبرنا الشيخ الفقيه أبو محمد عبد العزيز
 ابن عبد الوهاب بن إسماعيل الزهرى المالكى وغير واحد من شيوخنا إجازة ،
 قالوا : أنبأنا أبو الطاهر إسماعيل بن مكّي بن إسماعيل الزهرى ، قال : أخبرنا
 أبو بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى قراءة عليه ، قال : أخبرنا قاضى القضاة
 الدامغانى ، أخبرنا محمد ، أخبرنا أبو محمد عبد الرحمن بن عمر بن محمد النجيبى فيما قرأت
 عليه ، أخبرنا أبو سعيد أحمد بن عمر بن زياد الأعرابى بمكة سنة أربعين وثلاثمائة ،
 أخبرنا محمد بن إسحق أبو العباس الصفار ، أخبرنا الربيع بن تغلب أبو الفضل ، أخبرنا
 يحيى بن عقبة بن أبي العيزار عن سفيان الثورى ، والوليد بن روح ، والسرى بن
 مصرف ، يذكرون عن طلحة بن مصرف ، عن مسروق ، عن عبد الرحمن بن غنم ،
 قال : كتبت لعمر بن الخطاب حين صالح نصارى الشام .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا كتاب لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من نصارى مدينة كذا وكذا »
 « إنكم لما قدمتم علينا سألناكم الأمان لأنفسنا وذرائعنا وأموالنا »
 « وأهل ملتنا ، وشرطنا لكم على أنفسنا أن لا نتحدث في مدينتنا »

«ولا فيما حولها قَلْبَةً^(١) ولا صَوْمَعَةً رَاهِبٍ، ولا يُجَدِّدَ مَا حَرَبَ مِنْهَا : دَيْرًا»
«ولا كَنِيسَةً، ولا نُحْفَى ما كان منها في خِطَطِ الْمُسْلِمِينَ، ولا نَمْنَعُ كَنَائِسِنَا»
«أَنْ يَنْزِلَهَا أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ثَلَاثَ لَيَالٍ نَطْعِمُهُمْ، ولا نُؤْوِي فِي مَنَازِلِنَا»
«ولا كَنَائِسِنَا جَاسُوسًا، ولا نَكْتُمُ غَشًّا لِلْمُسْلِمِينَ، ولا نَعْلَمُ أَوْلَادِنَا الْقُرْآنَ»
«ولا نُنْظِرُ شُرَكَاءَ، ولا نَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدًا، ولا نَمْنَعُ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِنَا»
«الدُّخُولَ فِي الْإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ، وَأَنْ نُوقِّرَ الْمُسْلِمِينَ وَنَقُومَ لَهُمْ فِي مَجَالِسِنَا»
«إِذَا أَرَادُوا الْجُلُوسَ، ولا نَتَشَبَّهُ بِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ لِبَاسِهِمْ : فِي قَلَنْسُوءَةٍ»
«ولا عِمَامَةٍ ولا نَعْلَيْنِ ولا فَرْقِ شَعْرٍ، ولا نَتَكَلَّمُ بِكَلَامِهِمْ، ولا نَتَكَنَّى»
«بِكُنَاهُمْ، ولا نَرْكَبُ الشُّرُوجَ، ولا نَتَقَلَّدُ السُّيُوفَ، ولا نَتَّخِذُ شَيْئًا مِنْ»
«السِّلَاحِ، ولا نَتَّحِلُّهُ مَعْنَا، ولا نَنْقُشُ عَلَى خَوَاتِمِنَا بِالْعَرَبِيَّةِ، ولا نَبِيعُ الْخُمُورَ»
«وَأَنْ نُبْزَّ مَقَادِمَ رُءُوسِنَا، وَأَنْ نَلْزِمَ دِينَنَا حَيْثُ مَا كُنَّا، وَأَنْ نَسُدَّ زَنَايِرِنَا»
«عَلَى أَوْسَاطِنَا، وَأَنْ لَا نُظْهِرَ الصَّلِيبَ عَلَى كَنَائِسِنَا، ولا كُتُبِنَا فِي شَيْءٍ»
«مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ ولا أُسْوَاقِهِمْ، ولا نَضْرِبَ بِنِوَاقِسِنَا فِي كَنَائِسِنَا»
«إِلَّا ضَرْبًا خَفِيفًا، ولا نَرْفَعُ أَصْوَاتِنَا بِالْقِرَاءَةِ فِي كَنَائِسِنَا ولا فِي شَيْءٍ»
«مِنْ حَضْرَةِ الْمُسْلِمِينَ، ولا نَخْرُجُ سَعَائِينَ ولا بَاعُوثًا، ولا نَرْفَعُ»
«أَصْوَاتِنَا مَعَ مَوْتَانَا، ولا نُظْهِرَ النِّيرَانَ مَعَهُمْ فِي شَيْءٍ مِنْ طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ»

(١) القلية هي التي يقال لها القلاية . وهي من بيوت عباداتهم . والسعائين عيد لهم قبل عيدهم الكبير بأربعين . والباعوث عندهم كالاستسقاء عندنا . انظر لسان العرب .

«ولا أسواقهم، ولا نُجُورهم بموتانا، ولا نَنَحِّدَ من الرِّقِيقِ ما يَجْرِي عليه»
 «سِهَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ فِي مَنَازِلِهِمْ» .
 قال عبد الرحمن : فلما أتيتُ عُمرَ بالكُتَّابِ زاد فيه :

«ولا نَضْرِبَ أَحَدًا من المسلمين . شَرَطْنَا ذلِكَ على أَنْفُسِنَا وَأَهْلِ
 «مِلَّتِنَا، وَقَبِلْنَا عَلَيْهِ الْأَمَانَ . فَإِنْ نَحْنُ خَالَفْنَا عَنْ شَيْءٍ مِمَّا شَرَطْنَاهُ
 «لَكُمْ وَضَمَّنَاهُ على أَنْفُسِنَا فلا ذِمَّةَ لَنَا، وَقَدْ حَلَّ لَكُمْ مِنَّا ما يَحِلُّ لِأَهْلِ
 «الْمُعَانَدَةِ وَالشِّقَاقِ» .

وفي رواية له من طريقٍ أُخرى «أن لا نُحَدِّثَ في مَدِينَتِنَا ولا فيما حَوْلَهَا
 «دَيْرًا ولا كَنِيسَةً ولا قَلْبِيَّةً ولا صَوْمَعَةً رَاهِبٍ» .

وفيها : — «وَأَنْ لَا تَمْنَعَ كُنَائِسِنَا أَنْ يَنْزِلَها أَحَدٌ في لَيْلٍ ولا نَهَارٍ، وَأَنْ
 «نُوسِعَ أَبْوابَها لِلْمَارَّةِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ» .

وفيها : — «وَأَنْ تُنْزَلَ مِنْ مَرَّ بِنَا من المسلمين ثلاثة أَيَّامٍ نُطْعِمُهُ» .

وفيها : — «وَأَنْ لَا نُظْهِرَ صَليبًا أو نُجَسَّأَ في شَيْءٍ من طُرُقِ الْمُسْلِمِينَ
 «وَأَسْواقِهِمْ» .

وفيها : — «وَأَنْ نُرِشِدَ الْمُسْلِمِينَ وَلَا نَطَّلِعَ عَلَيْهِمْ في مَنَازِلِهِمْ» .

قال أبو صادق المقدم ذكره : ومما ذكره أهل التاريخ أن الحائِمَ الفاطِمِيَّ
 أمر اليهود والنصارى إلا الجبارة بلبس العائم السود، وأن يحمل النصارى في أعناقهم

من الصُّلبان ما يكونُ طوله ذراعاً ووزنه خمسة أرطالٍ ؛ وأن تحملَ اليهودُ في أعناقهم قرأى الخشب على وزن صُلبان النَّصارى، وأن لا يركبوا شيئاً من المراكب المحلّاة، وأن تكون رُكبتهم من الخشب، وأن لا يستخدّموا أحداً من المسلمين، ولا يركبوا حماراً مُكّارٍ مُسلم، ولا سفينةً نُوتيتها مسلم؛ وأن يكونَ في أعناقِ النَّصارى - إذا دخلوا الحمام - الصُّلبان، وفي أعناقِ اليهودِ الجلاجلُ : لتمييزوا بها من المسلمين، وأفردَ حمامات اليهود والنصارى عن حمامات المسلمين ونهوا عن الاجتماع مع المسلمين في الحمامات، وخطَّ على حمامات النَّصارى صور الصُّلبان، وعلى حمامات اليهود صور القرامى .

قال : وذلك بعد الأربعائة . ثم قال : ولقد أحسن فيما فعل بهم، عفا الله عنّا وعنه، ورزقنا من ينظر في أمورنا وأمورهم بالمصلحة .

الطرف الثاني

(في ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في عقد الذمة)

وَأَعْلَمُ أَنَّ مَا يَحْتَاجُ الْكَاتِبُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ يَرْجِعُ إِلَى ثَمَانِيَةِ أُمُورٍ :

الأمر الأول - فيمن يجوز أن يتولى عقد الذمة من المسلمين . ويختص ذلك بالإمام أو نائبه في عقدها؛ وفي آحاد الناس خلاف، والأرجح أنه لا يصح منه لأنه من الأمور الكُلية، فيحتاج إلى نظرٍ واجتهادٍ .

الأمر الثاني - معرفة من تُعقد له الذمة . ويشترط في المعقود له : التَّكْلِيفُ والذِّكُورَةُ والحُرِّيَّةُ . فلا تُعقدُ لصبيٍّ ولا مجنونٍ ولا امرأةٍ ولا عبداً، بل يكونون تبعاً، حتى لا تجب على أحدٍ منهم الجزية؛ وفيمن ليس أهلاً للقتال : كالشيخ الكبير

والزمن خلاف، والأصح صحة عقدها له . ويعتبر في المعقود له أيضا أن يكون زاعم التمسك بكتاب: كاليهودي يزعم تمسكه بالتوراة، والنصراني يزعم تمسكه بالتوراة والإنجيل جميعا، وفي التمسك بغير التوراة والإنجيل: كصحف إبراهيم وزبور داود خلاف والأصح جواز عقدها له . وكذلك المجوس، لقوله صلى الله عليه وسلم: «سئوا بهم سنة أهل الكتاب» . والسامرة إن وافقت أصولهم أصول اليهود، عقد لهم وإلا فلا . وكذلك الصابئة إن وافقت أصولهم أصول النصارى، ولا يُعقد لزيدي، ولا عبيد وثني، ولا من يعبد الملائكة والكواكب . ثم إذا كملت فيه شروط العقد فلا بد من قبوله العقد . ولو قال: قررتي بكذا فقال: قررتك صح . ولو طلبها طالب من الإمام وجبت إجابته .

الأمر الثالث — معرفة صيغة العقد: وهي ما يدل على معنى التقرير من الإمام أو نائبيه، بأن يقول: أقررتكم أو أذنت لكم في الإقامة في دارنا على أن تبدلوا كذا وكذا وتنفدوا لحكم الإسلام .

الأمر الرابع — المدة التي يُعقد عليها . ويعتبر فيها أن تكون مطلقة بأن لا يقيد بها بانتهاء، أو بما شاء المعقود له من المدة . ولا تجوز إضافة ذلك إلى مشيئة الإمام، لأن المقصود من عقدها الدوام . وقوله صلى الله عليه وسلم «أقرتكم ما أقرتكم الله» إنما ورد في المهادنة لا في عقد الدمة .

الأمر الخامس — معرفة المكان الذي يقرون فيه . وهو ما عدا الحجاز، فلا يقرون في شيء من بلاد الحجاز: وهي مكة، والمدينة، واليمامة، ومخاليقها يعني قرأها: كالطائف بالنسبة إلى مكة، وخيبر بالنسبة إلى المدينة، ونحو ذلك . وسواء في ذلك القرى والطرق المتخللة بينها . ويمنعون من الإقامة في بحر الحجاز، بخلاف ركوبه للسفر . وليس لهم دخول حرم مكة لإقامة ولا غيرها، إذ يقول تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾

المَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا . فلو تَعَدَّى أَحَدٌ مِنْهُمْ بِالْدُخُولِ وَمَاتَ وَدُفِنَ فِي الْحَرَمِ ، نُبِّشَ وَأُخْرِجَ مِنْهُ مَا لَمْ يَتَقَطَّعْ ، فَان تَقَطَّعَ تَرِكَ . وقيل : يُجْمَعُ عِظَامُهُ وَتُخْرَجُ . وعليه يدلُّ نَصُّ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فِي الْأَمِّ .

الأمر السادس — معرفة ما يلزم الإمام لهم بعد عقْدِ الذِّمَّةِ . إذا عقَّد لهم الإمامُ الذِّمَّةَ فينبغي أن يكتبَ أسماءَهم وديَنهم وحِلَّاهم ، وينصَّبَ على كلِّ جَمْعٍ عَرِيفًا : لمعرفة من أسلم منهم ، ومن مات ومن بلغ من صِبيانهم ، ومن قَدِمَ عليهم أو سافر منهم ، وإحضارهم لأداء الجزية ، أو شكوى من تَعَدَّى الذِّمَّةَ عليه من المسلمين ونحو ذلك ؛ وهذا العَرِيفُ هو المعبرُّ عنه في زماننا بالديار المصرية بالحاشر . ثم يجب الكفُّ عنهم بأن لا يتعرَّضَ متعرِّضٌ لأنفسهم ولا أموالهم ، ويضمن ما أتلفَ منها ، ولا تُراقُ محوَرهم إلا أن يُظهِروها ، ولا تُتلفُ خنازيرهم إذا أخفوها ، ولا يَمْنَعُونَ التَّرَدُّدَ إلى كَنائسهم . ولا ضَمَانَ على من دخل دارَ أحدٍ منهم فأراقَ حَمْرَهُ وإن كان متعدياً بالدخول ، وأوجب أبو حنيفة عليه الضمان . ويجب ذبُّ الكُفَّار عنهم ما داموا في دارنا ، بخلاف ما إذا دخلوا دارَ الحرب .

الأمر السابع — معرفة ما يُطلبُ منهم إذا عقَّد لهم الذِّمَّةَ . ثم المطلوب منهم ستة أشياء :

منها — الجزية : وهي المَالُ الذي يُبدُلونه في مُقابلةِ تَقْرِيرهم بدار الإسلام . قال الماوردي في "الأحكام السلطانية" : وهي مأخوذة من الجزاء : إمَّا بمعنى أنها جزاءٌ لتَقْرِيرهم في بلادنا ، وإمَّا بمعنى المُقابلةِ لهم على كُفْرهم .

وقد اختلف الأئمة في مقدارها : فذهب الشافعي رضي الله عنه إلى أنها مقدرة الأقل ، وأقلها دينار أو اثنا عشر درهما نُقْرَةً في كلِّ سنة على كلِّ حَالِمٍ ، ولا يجوز

الاقْتِصَارُ عَلَى أَقَلِّ مِنَ الدِّينَارِ؛ وَغَيْرُ مَقْدَرَةِ الْأَكْثَرِ، فَتَجُوزُ الزِّيَادَةُ عَلَى الْأَقَلِّ بِرِضَا الْمَعْقُودِ لَهُ . وَيَسْتَحِبُّ لِلْإِمَامِ أُمَّ كَسَّةٌ : بِأَنْ يَزِيدَ عَلَيْهِمْ بِحَسَبِ مَا يَرَاهُ . وَنَقَلَ ابْنُ الرَّفْعَةِ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ إِذَا قُدِّرَ عَلَى الْعَقْدِ غَايَةً لَمْ يَجِزْ أَنْ يُتَقَصَّ عَنْهَا . وَيَسْتَحِبُّ أَنْ يُفَاوِتَ فِيهَا : فَيَأْخُذُ مِنَ الْفَقِيرِ دِينَارًا، وَمِنَ الْمُتَوَسِّطِ دِينَارَيْنِ، وَمِنَ الْغَنِيِّ أَرْبَعَةَ دَنَانِيرٍ .

وذهب أبو حنيفة إلى تصنيفهم ثلاثة أصناف : أغنياء، يؤخذ منهم ثمانية وأربعون درهمًا . وأوساط، يؤخذ منهم أربعة وعشرون درهمًا . وفقراء، يؤخذ منهم اثنا عشر درهمًا . فجعلها مقدرَةَ الأقل والأكثر، ومنع من اجتهاد الإمام ورأيه فيها .

وذهب مالك إلى أنه لا يتقدَّرُ أقلُّها ولا أكثرها، بل هي موكولة إلى الاجتهاد في الطرفين .

ومنها - الضيافة : فيجوز للإمام بل يستحبُّ أن يشترط على غير الفقير منهم ضيافة من يربُّهم من المسلمين زيادةً على الجزية ، ويعتبرُ ذِكْرَ مَدَّةِ الإِقَامَةِ ، وَأَنْ لَا تَزِيدَ عَلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَكَذَلِكَ يَعْتَبَرُ ذِكْرُ عَدَدِ الضُّيْفَانِ مِنْ فُرْسَانٍ وَرِجَالَةٍ ، وَقَدْرٍ طَعَامٍ كُلِّ وَاحِدٍ وَأُدْمِهِ ، وَقَدْرٍ الْعَلِيقِ وَجِنْسِ كُلِّ مِنْهُمَا ، وَجِنْسِ الْمَتَرِ .

ومنها - الاتقياء لأحكامنا، فلوترافعوا إلينا أمضينا الحكم بينهم برضا خصم واحد منهم، ونحكم بينهم بأحكام الإسلام .

ومنها - أن لا يركبوا الخيل . ولهم أن يركبوا الحمير بالأكف عَرْضًا : بِأَنْ يَجْعَلَ الرَّأْيُ كِبُ رِجْلَيْهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ . وَفِي الْبِغَالِ النَّفِيسَةُ خِلَافٌ : ذَهَبُ الْغَزَالِيِّ وَغَيْرِهِ إِلَى الْمَنْعِ مِنْهَا وَالرَّاحِ الْجَوَازِ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَتَّخِذُونَ الْجُهْمَ الْمُحَلَّلَةَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ .

ومنها - أن يُنزِلُوا المسلمين صَدْرَ المَجْلِسِ وَصَدْرَ الطَّرِيقِ . وإن حصل في الطَّرِيقِ ضَيْقٌ [اَلْحِوْا] إِلَى أَضْيَقِهِ . وَيُمنَعُونَ من حَمْلِ السِّلَاحِ .

ومنها - التمييز عن المساميين في اللباس : بأن يَخِيْطُوا في ثِيَابِهِم الظَاهِرَةَ ما يَخَالِفُ لَوْنَهَا ، سِوَاءَ في ذلِكَ الرِّجَالُ والنِّسَاءُ . والأوَّلَى باليهود الأَصْفَرُ ، والنصارى الأزرقُ والأَكْهَبُ (وهو المعبرُ عنه بِالرَّمَادِيِّ) وبالمجوسى الأسود والأَحْمَرُ . ويُشَدُّ الرِّجَالُ منهم الزُّنَارَ من غير الحَرِيرِ في وَسَطِهِ ، وتُشَدُّه المَرَأَةُ تحت إِزَارِهَا ، وقيل فَوْقَهُ . وَيَمَيِّزُونَ مَلَابِسَهُم عن مَلَابِسِ المسلمين ، وتُغَايِرُ المَرَأَةُ لونَ حُفْيَيْهَا : بأن يكون أَحَدُهُمَا أبيضَ والآخَرَ أَسْوَدَ ، ونحو ذلك . ويجعل في عُنُقِهِ في الحَمَامِ جُلُجْلًا أو خَاتَمًا من حَدِيدٍ . وإن كان على رَأْسِ أَحَدِهِم شَعْرٌ أُمِرَ بِجَزِّ ناصِيَتِهِ . وَيُمنَعُونَ من إِرسالِ الصَّفَفَاءِ كما تفعلُ الأشرافُ . ولهم لُبْسُ الحريرِ والعِمَامَةِ والطَّيْلَسَانِ . والذي عليه عُرِفَ زماننا في التَّمييزِ أَنَّ اليهودَ مطلقًا تَلْبَسُ العِمَامَةَ الصُّفْرَ ، والنصارى العِمَامَةَ الزُّرْقَ ، ويركبون الحميرَ على البَرَاذِعِ ، وَيَثْنِي أَحَدُهُم رِجْلَهُ قُدَامَهُ ، وتختصُّ السَّامِرَةُ بالسَّامِ بلبسِ العِمَامَةِ الحَمْرَاءِ ، ولا تُمَيِّزُ يعتادونه الآن سِوَى ما قَدَّمْنَاهُ .

ومنها - أنهم لا يرفعون ما يَبْنُونَهُ على [بنیان] جيرانهم من المسلمين ، ولا يُساوونَهُ به ولو كان في غاية الانخفاض ، وَيُمنَعُ من ذلك وإن رَضِيَ الجارُ المسلمُ ، لأنَّ الحقَّ للدين دون الجارِ ، وله أن يرفع ما بناه بَحَلَّةٍ مَنْفَصِلَةٍ عن أبنية المسلمين . ولو اشترى بِنَاءً عَالِيًا بَقِيَ على حاله ، فلو أَنه دَمَ فأعاده لم يكن له الرِّفْعُ على المسلم ولا المُساوَاةُ .

ومنها - أنهم لا يُحَدِّثُونَ كَنِيسَةً ولا بَيْعَةَ فيما أَحَدَتْهُ المَسامُونَ من البلاد : كالْبَصْرَةَ ، والكُوفَةَ ، وبَغدَادَ ، والقَاهِرَةَ ، ولا في بلدٍ أسلم أهلُها عليها : كالمدينة واليمن . فإن أَحَدَثُوا فيها شيئًا من ذلك نُقِضَ ، نَعْمَ يُتْرَكُ ما وَجَدَ منها ولم يُعْلَمَ حالُهُ :

لأحتمال اتصال العمارات به . وكذلك لا يجوز إحداث الكائس والبيع فيما فُتِحَ عنوةً ،
 ولا إبقاء القديم منها لحصول الملك بالاستيلاء . أمّا ما فُتِحَ صلحاً بخراج على أن
 تكون الرقبة لهم ، فيجوز فيها إحداث الكائس وإبقاء القديمة منها ، فإن الارض لهم .
 وإن فُتِحَتْ صلحاً على أن تكون لنا : فإن شُرِطَ إبقاء القديمة بقيت وكأنتهم
 استثنوها . ويجوز لهم إعادة المتهدمة منها ، وتطيين خارجها دون توسيعها .
 الأمر الثامن — معرفة ما ينتقض به عهدهم .

ويُنْتَقِضُ بأموٍر :

منها — قتال المسلمين بلا شبهة ، ومنع الجزية ، ومنع إجراء حكمنا عليهم ، وكذا
 الزنا بمسامة أو إصابتها بأسم نكاح ، والأطلاع على عورات المسلمين وإنهاؤها لأهل
 الحرب ، وإيواء جاسوس لهم ، وقطع الطريق ، والقتل الموجب للقصاص ، وقذف
 مسلم ، وسب نبي جهرًا ، وطعن في الإسلام أو القرآن إن شُرِطَ عليهم الانتقاض
 وإلا فلا . أما لو أظهر ببلد الإسلام الخمر أو الخنزير أو الناقوس أو معتقده في عزير
 والمسيح عليهما السلام أو جنازة لهم أو سقى مسلمًا خمرًا فإنه يُعزَّر .

الفصل الثاني

من الباب الثالث من المقالة التاسعة

(ما يكتب في مُتعلّقات أهل الذِّمة [عند خروجهم] عن لوازم عَقْدِ الذِّمة)

وأعلم أنه ربما نرجح أهل الذِّمة عن لوازم عَقْدِ الذِّمة ، وأظهروا التمييز والتكبر
وعُدُوّ البِئاء ، إلى غير ذلك مما فيه مخالفةُ الشروط ، فيأخذ أهل العَدْلِ : من الخلفاء
والمملوك في قَمَعهم والغَضّ منهم وحَطّ مقاديرهم ، ويكتبون بذلك كُتُباً وبيعتونَ بها
إلى الآفاق ليعمَلَ بمقتضاها ، غَضّاً منهم وحَطّاً لقدَرهم ، ورفعةً لدين الإسلام
وتشريعاً لقدَره ، إذ يقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

وهذه نُسخةُ كِتَابٍ كُتِبَ به عن المتوكِّلِ على الله حين حجَّ ، بِمِيعَ رجلًا يدعُو
عليه ، فهِمَّ بِقَتْلِهِ ، فقال : واللهِ يا أمير المؤمنين ما قُلتُ ما قُلتُ إلا وقد أيقنتُ بالقتلِ ،
فاسمعَ مقالِي ثم مُرِّ بِقَتْلِي ، فقال : قُلْ ! - فشكا إليه أَسْتِطالةُ كُتَابِ أهلِ الذِّمةِ على
المسامين في كلام طويل ، نفرج أمره بأن تلبسَ النَّصارى واليهودُ ثيابَ العَسَلِيِّ ،
وأن لا يُمَكَّنُوا من لبسِ البياضِ كى لا يتشبهوا بالمسامين ، وأن تكونَ رُكْبُهُم خَشَبًا ،
وأن تُهدَمَ بيَعُهُم المستجِدَّة ، وأن تُطَاقَ عليهم الجزيةُ ، ولا يُفسحَ لهم في دخول
حماماتِ خَدْمِها من أهلِ الإسلام ، ولا يُستخدِمُوا مسلمًا في حوائجهم لنفوسهم ،
وأفردهم بن يحاسب عليهم . وقد ذكر أبو هلال العسكرى في كتابه "الأوائل" :
أن المتوكِّلَ أوَّلَ من أزمهم ذلك ، وهى :

أما بعد، فإن الله أصطفى الإسلام ديناً فشرّفه وكرّمه، وأناره ونصّره وأظهره،
 وفضّله وأكّله؛ فهو الدين الذي لا يقبل غيره، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ
 دِينًا فَإِنَّ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ . بعث به صصيفه وخيرته من
 خلقه: محمداً صلى الله عليه وسلم، فجعله خاتم النبيين، وإمام المتقين، وسيد المرسلين:
 ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقِّ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ . وأنزل كتاباً: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ
 مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ . أسعد به أمته، وجعلهم خير
 أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله: ﴿وَلَوْ آمَنَ
 أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ . وأهان الشرك
 وأهله، ووضعهم وصغّروهم وقمعهم وخذلهم وتبرأ منهم، وضرب عليهم الذلّة والمسكنة،
 فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ
 وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ . وأطلع على قلوبهم، وخبث سرائرهم وضمائرهم، فنبى عن أئمتناهم،
 والثقة بهم: لعداوتهم للمسلمين، وغشهم وبغضائهم، فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ
 آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُؤًا مَا عُنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ
 أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . وقال
 تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ يَدُونَ
 أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ . وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ
 مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ .
 وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ
 بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وقد انتهى إلى أمير المؤمنين أن أناساً لا رأى لهم ولا روية يستعينون بأهل
الذمة في أفعالهم ، ويخضعونهم بغانة من دون المسلمين ، ويسلطونهم على الرعية ،
فيعسفونهم ويسطون أيديهم إلى ظلمهم وغشهم والعدوان عليهم . فأعظم
أمير المؤمنين ذلك ، وأنكره وأكبره ، وتبرأ منه ، وأحب التقرب إلى الله بحسبه
والتهبى عنه ؛ ورأى أن يكتب إلى عماله على الكور والأمصار ، وولاة الثغور
والأجناد ، في ترك استعمالهم لأهل الذمة في شيء من أعمالهم وأمورهم ، والإشراك
لهم في أماناتهم ، وما قلدهم أمير المؤمنين وأستحفظهم إياه ، إذ جعل في المسلمين
الثقة في الدين ، والأمانة على إخوانهم المؤمنين ، وحسن الرعاية لما استراحهم ،
والكفاية لما استكفوا ، والقيام بما حملوا بما أغنى عن الاستعانة [بأحد] من المشركين
بالله ، المكذبين برسله ، الجاحدين لآياته ، الجاحلين معه إلهاً آخر ، ولا إله إلا هو
وحدّه لا شريك له ، ورجا أمير المؤمنين - بما ألهه الله من ذلك ، وقذف في قلبه -
جزيل الثواب ، وكريم المآب ؛ والله يعين أمير المؤمنين على نيته على تعزيز الإسلام
وأهله ، وإذلال الشرك وحزبه .

فلتعلم هذا من رأي أمير المؤمنين ، ولا تستعن بأحد من المشركين ؛ وأنزل أهل
الذمة منازلهم التي أنزلهم الله بها . فاقراً كتاب أمير المؤمنين على أهل أعمالك وأشيعة
فيهم ، ولا يعلم أمير المؤمنين أنك استعنت ولا أحد من عمالك وأعوانك بأحد
من أهل الذمة في عمل الإسلام .



وفي أيام المقتدر بالله ، في سنة خمس وتسعين ومائتين ، عزّل كتاب النصارى
وعملهم ، وأمر أن لا يستعان بأحد من أهل الذمة حتى أمر بقتل ابن ياسر النصراني
عامل يونس الحاجب ، وكتب إلى عماله بما نسخته :

عَوَانِدُ اللَّهِ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تُوفِي عَلَى غَايَةِ رِضَاهُ وَنِهَايَةِ أَمَانِيهِ ، وَلَيْسَ أَحَدٌ يُظْهِرُ عِصْيَانَهُ إِلَّا جَعَلَهُ اللَّهُ عِظَةً لِلْأَنَامِ ، وَبَادَرَهُ بِعَاجِلِ الْأَصْطِلَامِ : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ . فَمَنْ نَكَثَ وَطَعْنَى وَبَغَى ، وَخَالَفَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالَفَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَسَعَى فِي إِفْسَادِ دَوْلَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَاجَلَهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِسَطْوَتِهِ وَطَهَّرَ مِنْ رَجْسِهِ دَوْلَتَهُ ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وَقَدْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِتَرْكِ الْأَسْتِعَانَةِ بِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ ، فَيُحَدِّدُ الْعِهَالَ تَجَاوُزَ أَوْامِرِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَنَوَاهِيهِ .



وَفِي أَيَّامِ الْأَمِيرِ بِأَحْكَامِ اللَّهِ الْفَاطِمِيِّ بِالْبَيْتِ الْمِصْرِيِّ ، أَمْتَدَّتْ أَيْدِي النَّصَارَى ، وَبَسَطُوا أَيْدِيهِمْ بِالْحِيَانَةِ ، وَتَفَنَّنُوا فِي أَدَى الْمُسْلِمِينَ وَإِصَالِ الْمَضْرَةِ إِلَيْهِمْ . وَأَسْتَعْمَلَ مِنْهُمْ كَاتِبٌ يَعْرِفُ بِالرَّاهِبِ ، وَلَقَّبَ بِالْأَبِ الْقَدِيسِ ، الرَّوْحَانِي النَّفِيسِ ، أَبِي الْأَبَاءِ ، وَسَيِّدِ الرُّؤَسَاءِ ، مَقْدَمَ دِينِ النَّصْرَانِيَّةِ ، وَسَيِّدَ الْبَتْرِكِيَّةِ ، صَفَى الرَّبِّ وَمُخْتَارَهُ ، وَثَلَاثَ عَشَرَ الْحَوَارِيِّينَ . فَصَادَرُ اللَّعِينُ عَامَّةً مِنَ الْبَيْتِ الْمِصْرِيِّ : مِنْ كَاتِبٍ وَحَاكِمٍ وَجُنْدِيٍّ وَعَامِلٍ وَتَاجِرٍ ، وَأَمْتَدَّتْ يَدُهُ إِلَى النَّاسِ عَلَى اخْتِلَافِ طَبَقَاتِهِمْ . فَخَوَّفَهُ بَعْضُ مَشَايخِ الْكُتَّابِ مِنْ خَالِقِهِ وَبَاعِيهِ وَمُحَاسِنِهِ ، وَحَدَّرَهُ مِنْ سُوءِ عَوَاقِبِ أَعْمَالِهِ ، وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِتَرْكِ مَا يَكُونُ سَبَبًا لِهَلَاكِهِ . وَكَانَ جَمَاعَةٌ مِنْ كُتَّابِ مِصْرٍ وَقَبِطُهَا فِي مَجْلِسِهِ ، فَقَالَ مُحَاطِبًا لَهُ وَمُسَمِّعًا لِلْجَمَاعَةِ : نَحْنُ مُلَاكُ هَذِهِ الدِّيَارِ حَرَثًا وَخَرَاجًا ، مَلَكَهَا الْمُسْلِمُونَ مِنَّا ، وَتَغَلَّبُوا عَلَيْهَا وَغَضَبُوهَا ، وَأَسْتَمَلَكُوهَا مِنْ أَيْدِينَا ، فَتَحْنُ مَهْمَا فَعَلْنَا بِالْمُسْلِمِينَ فَهِيَ قِبَالَةٌ مَا فَعَلُوا بِنَا ، وَلَا يَكُونُ لَهُ نِسْبَةٌ إِلَى مَنْ قُتِلَ مِنْ رُؤَسَائِنَا وَمُلُوكِنَا فِي أَيَّامِ الْفُتُوحِ ، بِجَمِيعِ مَا نَأْخُذُهُ مِنْ أَمْوَالِ الْمُسْلِمِينَ وَأَمْوَالِ

مَلُوكِهِمْ وَخُلَفَائِهِمْ حُلٌّ لَنَا ، وَهُوَ بَعْضُ مَا نَسْتَحِقُّهُ عَلَيْهِمْ ؛ فَإِذَا حَمَلْنَا لَهُمْ مَا لَأَ كَانَتْ
الْمِنَّةُ لَنَا عَلَيْهِمْ ، وَأُنْشِدُ :

بِنْتُ كَرِيمٍ يَمُوتُهَا أُمَّهَا * وَأَهَا نُوهَا فِدَيْسَتَ بِالْقَدَمِ
ثُمَّ عَادُوا حَكَمُوهَا بَيْنَهُمْ * وَيَلَهُمْ مِنْ فِعْلِ مَظْلُومٍ حَكَمٌ

فاستحسن الحاضرون من النصارى والمنافقين ما سمعوه منه ، واستعادوه ، وعضوا
عليه بالتواجد ، حتى قيل : إن الذي احتاط عليه قلم اللعين من أملاك المسلمين
مائتا ألف واثان وسبعون ألفاً ، ومائتا دارٍ وحانوتٍ وأرضٍ بأعمال الدولة ، إلى أن
أعادها إلى أصحابها أبو علي بن الأفضل ؛ ومن الأموال ما لا يُحصيه إلا الله تعالى .

ثم أنتبه من رقده ، وأفاق من سكرته ، وأدركته الحمية الإسلامية ، والغيرة
المحمدية ؛ فعضب لله غضبة ناصر للدين ، وثائر للمسلمين ؛ فألبس أهل الذمة الغيار ،
وأزلمهم بالمزلة التي أمر الله أن يتزلوا بها من الثل والصغار ؛ وأمر أن لا يولوا شيئاً
من أعمال الإسلام ، وأن ينشأ في ذلك كتاب يقف عليه الخاض والعام .

وهذه نسخته :

الحمد لله المعبود في أرضه وسمائه ، والمحيب دعاء من يدعو باسمائه ؛ المنفرد
بالقدرة الباهره ، المتوحد بالقوة الظاهره ، وهو الله الذي لا إله إلا هو له الحمد
في الأولى والآخرة ؛ هدى العباد بالإيمان إلى سبيل الرشاد ، ووفقهم في الطاعات
لما هو أنفع زاد في المعاد ؛ وتفرد بعلم الغيوب فعلم من كل عبد إضماره كما علم
تصريحه ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ
وَتَسْبِيحَهُ ﴾ . الذي شرف دين الإسلام وعظمه ، وقضى بالسعادة الأبدية لمن أتى به
ويممه ، وفضله على كل شرع سبقه وعلى كل دين تقدمه ؛ فنصره وخذلها ، وأشاده

وَأَنْحَلَهَا ، وَرَفَعَهُ وَوَضَعَهَا ، وَأَطَدَهُ وَضَعَضَهَا ، وَأَبَى أَنْ يَقْبَلَ دِينًا سِوَاهُ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ، فَقَالَ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ الْقَائِلِينَ : ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ . وَشَهِدَ بِهِ بِنَفْسِهِ ، وَأَشْهَدَ بِهِ مَلَائِكَتُهُ وَأَوْلَى الْعِلْمِ الَّذِينَ هُمْ خُلَاصَةُ الْأَنْامِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولَا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

وَلَمَّا أَرْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ وَأَتَمَّ بِهِ نِعْمَتَهُ ، أَكَلَهُ لَهُمْ وَأَطْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُكْلَهُ وَأَوْضَحَهُ لِإِضَاحًا مُبِينًا ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمْتَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .

وَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَائِهِ وَأَعْدَائِهِ ، وَبَيْنَ أَهْلِ الْهُدَى وَالضَّلَالِ ، وَأَهْلِ الْبَغْيِ وَالرِّشَادِ ، فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِي فَقُلْ لِلدِّينِ أُتُوا الْكِتَابَ وَالْأَمِينَ أَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾ .

وَأَمَرَ تَعَالَى بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى الْمَمَاتِ فَقَالَ وَبِقَوْلِهِ يَهْتَدِي الْمُهْتَدُونَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الدِّينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وَهِيَ وَصِيَّةُ إِمَامِ الْخِطَفِ لِبَنِيهِ وَإِسْرَائِيلَ : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وَشَهِدَ عَلَى الْخَوَارِجِيِّينَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَهُوَ الشَّاهِدُ الْأَمِينُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِجِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمر تعالى رسوله أن يدعو أهل الكتاب إليه ، ويُشهد من تولى منهم بأنه عليه ؛ فقال تعالى وقوله الحق المبين : ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وصلى الله على الذى رفعه بأصطفائه إلى محله المنيّف ، وبعثه للناس كافة بالدين القيم الحنيف .

أما بعد ، فإن الله سبحانه ببالغ حكمته ، وبتابع نعمته ، شرف دين الإسلام وطهره من الأدناس ، وجعل أهله خير أمة أخرجت للناس ؛ فالإسلام الدين القويم الذى أصطفاه الله من الأديان لنفسه ، وجعله دين أنبيائه ورسله وملائكته قدسه ؛ فارتضاه وأختاره ، وجعل خير عباده وخاصتهم هم أوليائه وأنصاره ؛ يحافظون على حدوده ويثابرون ، ويدعون إليه ويدكرون ، ويحافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون ، فهم آيات ربهم يؤمنون ، وإلى مرضاته يسارعون ؛ ولئن خرج عن دينه مجاهدون ، ولعباده مجهدهم ينصحون ، وعلى طاعته مثابرون ، وعلى صلواتهم يحافظون ، وعلى ربهم يتوكلون ، وبالآخرة هم يوقنون : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هذا وإن أمة الله هداها إلى دينه القويم ، وجعلها - دون الأمم الجاحدة - على صراط مستقيم ، توفى من الأمم سبعين ، هم خيرها وأكرمها على رب العالمين - حقيقةً بأن لا نوالى من الأمم سواها ، ولا نستعين بمن حاد الله خالقه ورآقه وعبده من دونه إلهًا ، وكذب رسله ، وعصى أمره وأتبع غير سبيله ، واتخذ الشيطان وليًا من دونه الله ؛ ومعلوم أن اليهود والنصارى مؤسومون بغضب الله ولعنته ، والشرك به والجحد

لَوْحَدَانِيَّتِهِ ؛ وقد فرض الله على عباده في جميع صلواتهم أن يسألوا هِدَايَةَ سَبِيلِ
الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ : مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، وَيَجَنَّبَهُمْ سَبِيلَ
الَّذِينَ أَبْغَضَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَطَرَدَهُمْ عَنْ جَنَّتِهِ ؛ فَبَاءُوا بِغَضَبِهِ وَلَعْنَتِهِ : مِنَ الْمُغَضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَالضَّالِّينَ .

فَالْأُمَّةُ الْغَضَبِيَّةُ هُمُ الْيَهُودُ بَنَصِّ الْقُرْآنِ ، وَأُمَّةُ الضَّالِّينِ هُمُ النَّصَارَى الْمُشْتَكَّةُ عِبَادُ
الصُّلَيْبَانِ ؛ وَقَدْ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنِ الْيَهُودِ بِأَنَّهُمْ بِالذَّلَّةِ وَالْمَسْكِنَةِ وَالغَضَبِ مَوْسُومُونَ ،
فَقَالَ تَعَالَى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيَّمَا الذَّلَّةِ أَنْ تَقْفُوا إِلَّا يُحِبُّ مِنَ اللَّهِ وَحِبُّهُ مِنَ النَّاسِ
وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكِنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ
وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ .

وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُمْ بَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُفْتَرِينَ ، فَقَالَ : ﴿ نَسِئَ
مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يَنْزِلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ .

وَأَخْبَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّهُ لَعَنَهُمْ وَلَا أَصْدَقَ مِنَ اللَّهِ قَيْلًا ، فَقَالَ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَوْا
الْكِتَابَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَى
أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

وَحَكَّمَ سُبْحَانَهُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُسْلِمِينَ حُكْمًا تَرْتِضِيهِ الْعُقُولُ ، وَيَتَلَقَّاهُ كُلُّ مُنْصِفٍ
بِالْإِذْعَانِ وَالْقَبُولِ ، فَقَالَ : ﴿ قُلْ هَلْ أَنْبَأُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ شُرُوبًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ
اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْحَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا
وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ .

وأخبر عما أحلَّ بهم من العقوبة التي صاروا بها مثلاً في العالمين ، فقال تعالى :
 ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ
 بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهِوا عَنْهُ قَالُوا كُنَّا لَهُمْ كُونًا قَرِيبًا خَاسِرِينَ ﴾ .

ثم حكم عليهم حكماً مستمراً عليهم في الذراري والأعقاب ، على ممر السنين
 والأحقاب ، فقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ
 يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾ . فكان هذا العذاب في الدنيا
 بعض الاستحقاق : ﴿ وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾ . وأنهم أنجس
 الأمم قلوباً وأخبثهم طوية ، وأزادهم سجية ، وأولاهم بالعذاب الأليم ، فقال :
 ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَظْهِرْ قُلُوبَهُمْ فِي الدُّنْيَا نَزَىٰ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ
 عَظِيمٌ ﴾ . وأنهم أمة الخيانة لله ورسوله ودينه وكتابه وعباده المؤمنين ، فقال :
 ﴿ وَلَا تَرَالِ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
 الْمُحْسِنِينَ ﴾ .

وأخبر عن سوء ما يسمعون ويقبلون ، وخبث ما يأكلون ويحكون ، فقال تعالى :
 ﴿ سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ
 وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ
 يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ .

وأخبر تعالى أنه لعنهم على السنة أنبيائه ورسله بما كانوا يكسبون ، فقال :
 ﴿ لَعْنُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا
 عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَىٰ
 كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ
 وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ ﴾ .

وقطع الموالاة بين اليهود والنصارى وبين المؤمنين، وأخبر أن من تولاهم فإنه منهم في حكمه المدين، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإِنَّهُمْ مِمَّنْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ .

وأخبر عن حال متولّيهم بما في قلبه من المرض المؤدى إلى فساد العقل والدين، فقال: ﴿فَتَرَىٰ آيِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ تَادِمِينَ﴾ .

ثم أخبر عن حبوط أعمال متولّيهم ليكون المؤمن لذلك من الحذرين، فقال: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ آيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ .

ونهى المؤمنين عن اتخاذ أعدائه أولياء، وقد كفروا بالحق الذي جاءهم من ربهم، وإنهم لا يمتنعون من سوء ينالونهم به بأيديهم وألسنتهم إذا قدرُوا عليه فقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تُخْرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقَوْكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ .

وجعل سبحانه لعباده المسلمين أسوة حسنة في إمام الحنفاء ومن معه من المؤمنين، إذ تبرأ ممن ليس على دينهم أمثالاً لأمر الله، وإيثاراً لمرضاة وما عنده،

فقال تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ﴾ . وتبرأ سبحانه من اتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ أَلَيْسَ بِكُلِّ ذَنْبٍ عِندَ اللَّهِ الْعِصْيَانُ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

فمن ضروب الطاعات إهانتهم في الدنيا قبل الآخرة التي هم إليها صائرون ، ومن حقوق الله الواجبة أخذ جزية رؤسهم التي يعطونها عن يده وهم صاغرون ، ومن الأحكام الدينية أن يعتم جميع الأمة إلا من لا يجب عليه باستخراجها ، وأن يعتمد في ذلك سلوك سبيل السنة المحمدية ومنهاجها ، وأن لا يسأح بها أحد منهم ولو كان في قومه عظيماً ، وأن لا يقبل إرساله بها ولو كان فيهم زعيماً ، وأن لا يُحمّل بها على أحد من المسلمين ، ولا يؤكّل في إخراجها عنه أحداً من الموحدّين ؛ بل تؤخذ منه على وجه الدلّة والصغار ، اعزازاً للإسلام وأهله وإذلالاً لطائفة الكفار ؛ وأن تستوفى من جميعهم حقّ الاستيفاء ، وأهل خير وغيرهم في ذلك على السواء .

وأما ما ادّعاه الجبّارة من وضع الجزية عنهم بعهده من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن ذلك زور وبهتان ، وكذب ظاهر يعرفه أهل العلم والإيمان ؛ لفقّه القوم البهت وزوروه ، ووضعوه من تلقاء أنفسهم وتمقّوه ؛ وظنّوا أن ذلك يخفى على الناقدين ؛ أو يروج على علماء المسلمين ؛ ويأبى الله إلا أن يكشف محالّ المبطلين ، وإفكّ المفتريين ؛ وقد تظاهرت السنن وصحّ الخبر بأن خير فتحت عنوة ، وأوجف عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على إجلالهم عنها كما أجلي إخوانهم من أهل الكتاب ، فلما ذكروا أنهم أعرف بسقّي نخلها ومصالح أرضها ، أقرهم فيها

كالأجراء وجعل لهم نصف الأرتفاع، وكان ذلك شرطاً مبيناً، وقال: «نقركم فيها ما شئنا»؛ فأقر بذلك الجباية صاغرين، وأقاموا على هذا الشرط في الأرض عاملين؛ ولم يكن للقوم من الدمام والحرمه، ما يوجب إسقاط الجزية عنهم دون من عداهم من أهل الدمه؛ وكيف؟ وفي الكتاب المشحون بالكذب والمين، شهادة سعد ابن معاذ وكان توفي قبل ذلك بأكثر من سنتين؛ وشهادة معاوية بن أبي سفيان، وإثماً أسلم عام الفتح بعد خير سنة ثمان؛ وفي الكتاب المكذوب أنه أسقط عنهم الكلف والسخر، ولم تكن على زمان خلقائه الذين ساروا في الناس أحسن السير.

ولما ألتسعت رقة الإسلام، ودخل فيه الخاص والعام، وكان في المسلمين من يقوم بعمل الأرض وسقى النخل، أجلي عمر بن الخطاب اليهود من خيبر بل من جزيرة العرب حتى [قال]: لا أدع فيها إلا مسلماً.



وفي شهر رجب سنة سبعائة وصل إلى القاهرة المحروسة وزير صاحب المغرب حاجاً، فأجتمع بالملك الناصر «محمد بن قلاوون» ونائبه يومئذ الأمير سلا، فتحدث الوزير معه ومع الأمير بيبرس الجاشنكير في أمر اليهود والنصارى، وأنهم عندهم في غاية الذلة والهوان، وأنهم لا يمكن أحد منهم من ركوب الخيل ولا الاستخدام في الجهات الديوانية، وأنكر حال نصارى الديار المصرية ويهودها بسبب لبسهم أنغر الملايس، وركوبهم الخيل والبغال، وأستخدمهم في أجل المناصب، وتحكيمهم في رقاب المسلمين؛ وذكر أن عهد ذمتهم أنقضى من سنة ستمائة من الهجرة النبوية، فأثر كلامه عند أهل الدولة، لاسيما الأمير بيبرس الجاشنكير، فأمر بجمع النصارى واليهود، ورسم أن لا يُستخدم أحد منهم في الجهات السلطانية، ولا عند

الأمراء ، وأن تُغيَّرَ عمامتهم : فيلبس النصارى العمامَ الزرق ، وتُشدُّ في أوساطهم الزنانير ، ويلبس اليهود العمامَ الصفراء ويدقوا ^(١) في البيع في إبطال ذلك فلم يقبل منهم ، وغلقت الكنائس بمصر والقاهرة ، وسمرت أبوابها ، ففعل بهم ذلك ، وألزموها بأن لا يركبوا إلا الحمير ، وأن يلف أحدهم إحدى رجليه إذا ركب ، وأن يقصر بنيانهم المجاور للمسلمين عن بناء المسلم . وكتب بذلك إلى جميع الأعمال ليُعمل بمقتضاه ، وأسلم بسبب ذلك كثير منهم ؛ وأليس أهل الذمة بالشام : النصارى الأزرق ، واليهود الأصفر ، والسامرة الأحمر .

ثم عادوا إلى المباشرة بعد ذلك ، فانتدب السلطان الملك «الصلاح صالح» ابن الملك الناصر في سنة خمس وخمسين وسبعائة لمنعهم من ذلك ، وألزمهم بالشروط العمريَّة ، وكتب بذلك مرسوماً شريفاً وبعث بنسخته إلى الأعمال فقُرئت على منابر الجوامع .

وهذه نسخته - صورة ما في الطرَّة :

«مرسوم شريف بأن يعتمد جميع طوائف اليهود والنصارى والسامرة : بالديار المصرية ، والبلاد الإسلامية المحروسة وأعمالها ، حكم عهد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لمن مضى من أهل ملتهم : وهو أن لا يُجدثوا في البلاد الإسلامية ديراً ولا كنيسةً ولا صومعةً راهب ، ولا يُجدثوا ما تحرب منها ، ولا يؤوا جاسوساً ولا من فيه ريبة لأهل الإسلام ، ولا يكتُموا غشاً للمسلمين ، ولا يُعلموا أولادهم القرآن ، ولا يُظهروا شركاً ، ولا يمتنعوا ذوى قرابة من الإسلام إن أرادوه ، ولا يتشبهوا بالمسلمين في لباسهم ؛ ويلبسون الغيار الأزرق والأصفر ، وتمنع نساؤهم

(١) بياض في الأصل في غير نسخة والكلام غير ملتئم ولعل الأصل «العمام الصفراء فبالغوا في السعي في إبطال ذلك» الخ .

من التَّشَبُّه بنساء المسلمين ، ولا يركبوا سَرَجًا ، ولا يتقلدوا سَيْفًا ، ولا يركبوا الخيلَ
 ولا البغالَ ، ويركبون الحميرَ بالأُكُفِّ عَرَضًا ، ولا يبيعوا الخُورَ ؛ وأن يلزموا زِيَّهِمْ
 حيث كانوا ، وَيُسُدُّوا زَنَايَهُمْ غيرَ الحُرِيرِ على أوساطهم ؛ والمرأةُ البارزةُ من النصارى
 تلبسُ الإزارَ الكَنَّانَ المصبوغَ أزرقَ ، واليهوديةُ الإزارَ الأصفرَ ؛ ولا يدخلُ أحدٌ
 منهم الحمامَ إلا بعلامةٍ تُميِّزه عن المسلمين في عُقْبِهِ : من خاتمٍ حديدٍ أو رصاصٍ أو غير
 ذلك ؛ ولا يعلوا على المسلمين في البناءِ ولا يساؤوهم ، بل يكونون أدونَ منهم ؛
 ولا يضربوا بالناقوسِ إلا ضربًا خفيفًا ، ولا يرفعوا أصواتهم في تكاليفهم ، ولا يخدموا
 في دولتنا الشريفة - تَبَّتْ اللهُ قواعدها - ولا عند أحدٍ من أمرائها - أعزَّهم اللهُ
 تعالى - ولا يُلَوِّا وظيفَةً يعلو أمرهم فيها على أحدٍ من المسلمين ؛ وأن يُجَمَلَ الأمرُ
 في موارِيثِ موتاهم على حُكْمِ الشريعةِ الشريفةِ المحمَّديَّةِ ، وتوقع عليهم الحَوَاطَةُ
 الديوانيةُ أسوةً موتى المسلمين ؛ وأن لا يدخلَ نسوةُ أهلِ الذِّمَّةِ الحماماتِ مع
 المسلماتِ ، ويُجْعَلُ لهنَّ حماماتٌ تخصَّنَّ يَدْخُلْنَها ، عملاً في ذلك بما رَجَّحه علماءُ
 الشَّرْعِ الشَّريفِ ، على ما شرح فيه .

ونصه بعد البسملة الشريفة .

الحمدُ لله الذى بصَّرَ سلطاننا الصَّالحَ ، باعتمادِ مَصَالِحِ الدِّينِ والدُّنْيَا ، ويسَّرَ لرائينا
 الرَّاجِحَ ، تَوْفِيرَ التَّوْفِيقِ إثباتًا ونفيًا ، وتَحْرِيرَ التَّحْقِيقِ أمرًا ونهيًا ؛ وقَهَرَ بأحكامِ الإسلامِ ،
 من رامَ نكثَ العَهْدِ وتَقَضَّ الذِّمَّامَ ، بتعدُّى الحُدُودِ عُدْوَانًا وبغْيًا ، وجَسَرَ على اقْتِحَامِ
 ذُنُوبِ عِظَامٍ ، تُجَلُّ به في الدَّارَيْنِ عذابًا ونِزْيًا ، وتَكْفَلُ للأُمَّةِ المحمَّديَّةِ فى الأُولَى
 والأُخْرَى بالسَّعادةِ السَّرمِديَّةِ التى لا تُنتاهى ولا تُتَغَيَّا ، وجعلَ كلمةَ الدينِ كَفَرُوا
 السُّفلى وكَلِمَةَ اللهِ هى العُلَى .

نحمده أَنْ أَحْصَبَ فِكْرَنَا رَشَدًا وَأَذْهَبَ بِأَمْرِنَا غِيًّا ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى أَنْ جَبَرَ بِأَحْكَامِ
الْعَدْلِ لِلْإِيمَانِ وَهَنَا وَأَثَرِ لَذْوِي الْبُهْتَانِ بِالْإِنْتِقَامِ وَهَيَّا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَاحِدٌ أَحَدٌ ، قَدْ صَدَّقَ ، خَلَقَ وَرَزَقَ وَأَنْشَأَ وَأَفْنَى وَأَمَاتَ وَأَحْيَا ،
وَتَقَدَّسَ وَتَمَجَّدَ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ ، وَأَوْجَدَ عَيْسَى بْنَ مَرْيَمَ كَمَا أَوْجَدَ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ
شَيْئًا وَجَعَلَهُ عَبْدًا صَالِحًا نَبِيًّا زَكِيًّا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مَهْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَنْزَلَ
عَلَيْهِ مَعَ الرُّوحِ الْأَمِينِ قُرْآنًا وَوَحْيًا ، وَأَسْتَأْصِلُ بِهِ شَافَةَ الْكُفَّارِ وَأَنْزَلَ بِهِمْ مِنَ
الْأَخْطَارِ الدَّاهِيَةِ الدَّهْيَا ، وَاتَّبَعَ مِلَّةَ أَبِيهِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي أَرَى الصِّدْقَ وَصَدَّقَ الرُّؤْيَا ،
وَجَمَعَ اللَّهُ بِهِ الشَّتَاتَ فَهَدَى قُلُوبًا غُلْفًا وَأَسْمَاعًا صُمًّا وَأَبْصَارًا غُمًّا ، وَبَلَّغَ الرِّسَالَةَ ،
وَأَدَّى الْأَمَانَةَ ، وَنَضَحَ الْأُمَّةَ فَبُشِّرَى لِمَنْ وَفَّقَ مِنْ أُمَّتِهِ فُرُوقَ لِحِكْمَتِهِ وَعِيَا ، وَرَفَعَ
الضَّلَالََةَ ، وَرَدَّ الضَّلَالََةَ ، وَأَجْمَلَ لِلْعَهْدِ حَقْطًا وَلِلدِّمَامِ رَعِيًا ، وَنَسَخَتْ شَرِيعَتُهُ
الشَّرَائِعَ ، وَسَدَّتْ الذَّرَائِعَ ، وَشَمَخَتْ عَلَى النُّجُومِ الطُّوَالِعَ ، فَهِيَ أَسْمَى مِنْهَا رِفْعَةً
وَأَمَى عَدَدًا وَأَسْنَى هَدِيًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ فُرُوعَ الزَّهْرَاءِ الَّذِينَ عُنُوا بِقَوْلِهِ
تَعَالَى : ﴿ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أَمْرَعَ سَقِيًا ،
خُصُوصًا صَدِيقَهُ وَرَفِيقَهُ فِي الْمَمَاتِ وَفِي الْحَيَا ، وَمَنْ أَسْتَخْلَفَهُ فِي الصَّلَاةِ عَنْهُ
إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ أَحَقُّ لِرُبَّةِ الْخِلَافَةِ بِالرُّقِيَا ، وَمَنْ فَرَّقَ مِنْهُ الشَّيْطَانُ وَوَأَفَقَ الْفُرْقَانُ لَهُ
رَأْيَا ، وَيَسِّرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَيَّامِهِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الْفُتُوحَاتِ مَا لَا أَتَّفَقُ لغيرِهِ وَلَا تَهَيَّا ،
وَذَا الثُّورَيْنِ الَّذِي قَطَعَ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا وَأَحْيَا ، وَأَسْتَحْيَتِ مِنْهُ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ
لَمَّا مِنَ اللَّهِ أَسْتَحْيَا ، وَعَلَى الصَّهْرِ وَأَبْنِ الْعَمِّ الْمُجَاهِدِ الرَّاهِدِ الَّذِي طَلَّقَ ثَلَاثًا الدَّارَ
الْفَانِيَةَ الَّتِي لَيْسَ لَهَا بَقِيَا ، وَسَرَّهُ لَمَّا قَضَى عَلَى الرِّضَا نَجْبَهُ ، فَوَجَدَ الْأَجْبَةَ : مَهْدًا
وَحَرْبَهُ ، وَحَمَدَ الْحَقَّ وَاللُّقْمَا ، وَعَلَى تَمِّمَةَ بَقِيَّةِ الْعَشْرَةِ الْأَبْرَارِ ، وَبَقِيَّةِ الْمُهَاجِرِينَ

والأنصار، رحمةٌ تُدِيمُ لمضاجعهم صَوْبَهَا الدَّارَ السُّفْيَا ، صلاةً وإِفِرَةَ الأقسامِ سَافِرِ
القَسَمَاتِ بِأَهْرَةَ الْحَيَا ، وسَلَّمَ تسليماً كثيراً .

أما بعدُ ، فأحكامُ الشَّرْعِ الشريفِ أولىُّ بوجودِ الأتباعِ ، وذِمَامُ الدِّينِ الحَنِيفِ
يُؤَيِّدُ من عَصَى وَيُجِيرُ من أطاع ، وَحُرْمَاتُ المِلَّةِ المحمَّديَّةِ أَحَقُّ بأنْ تحفظَ فلا تُضَاعَ ؛
ومن المِهْمَاتِ التي تُصَرِّفُ إليها الهِمَّةُ ، وَيُرْفَعُ لها حَدُّ العَزْمَةِ ، وتُقَامُ على متعدي
حُدُودِها بالانتقامِ الحَزِيهِ ؛ أعتبارُ أحوالِ المِلَّتَيْنِ من أهلِ الذِّمَّةِ الذين حَقَّنَ منهم
الدَّمَاءَ حُكْمَ الإسلامِ ، وسَكَّنَ عنهم الدَّهْمَاءَ ما أَلْتَمَوْهُ من الأحكامِ ، مع القيامِ بالحَزِيَّةِ
في كُلِّ عامٍ ، وسَأَمُوا الأوامرَ الشَّرِيعَةَ المطهَّرةَ التي لولا الأتقياءُ إليها والأستسلامُ ،
لأُعْجِدَ في نُحُورِهِمْ حَدُّ الحُسَامِ . فهم تَحْتَ قَهْرِ سُلْطَانِ الإِيْمَانِ سَائِرُونَ ، ولأمرِ دِينِ
الحَقِّ الذي نَسَخَ اللهُ تَعَالَى به الأديانَ صَائِرُونَ ؛ وهم المعنِيُّونَ بقوله تعالى : ﴿ قَاتِلُوا
الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ
دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الحَزِيَّةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

ولَمَّا فَتَحَ اللهُ تَعَالَى بِبِرْكَةِ سَيِّدِنَا رَسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما فَتَحَ من البلادِ ،
وَأَسْتَرْجَعَ بِأَيْدِي المَهاجِرِينَ والأَنْصارِ من أَيْدِي الكُفَّارِ العادِيَةِ كثيراً من الأَمْصارِ
وَأَسْتَعَادَ ؛ وأكثَرَ ذلكَ في خِلافةِ أميرِ المؤمنينِ «عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ» رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،
فإنها كانتَ لِلْفَتْحِ مَواسِمَ ، وبِالْمَنْجِ بَواسِمَ ؛ وتَظافَرَتْ فيها لِلْمُسْلِمِينَ غَرائِرُ العِزائمِ ،
التي أَعادَتْ هَزْأَهُنَّها الكُفَّارُ يَجْرُونَ ذُبُولَ الهِزائِمِ - عَقَدَ أَمْرًاؤُهُ الفاتِحُونَ لها
بأَمْرِهِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنْهُمْ - لأَهْلِ الكِتَابِ عَهْدًا ، وَحَدَّثُوا لَهُمْ من الآدابِ حَدًّا
لا يَجوزُ أَنْ يَتَعَدَّى ؛ ولم تَزَلْ الخِلفاءُ بعدَ ذلكَ والمَمْلوكُ في جَمِيعِ بلادِ الإسلامِ
يُجَدِّدُونَهَا ، وبِالمَحافظةِ والمَلاحِظَةِ يَتَمَهَّدُونَهَا ؛ وَأَخْرَجُوا أَلْزَمَهُمُ أَحكامُها العادِلَةَ ،

وَعَصَمَهُمْ بِذِمَّتِهَا الَّتِي هِيَ لَهُمْ مَا اسْتَقَامُوا بِالسَّلَامَةِ كَافِلِهِ ؛ وَالدُّنَا السُّلْطَانُ الشَّمِيدُ
« الْمَلِكُ النَّاصِرُ » نَاصِرُ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى عَهْدَهُ عِيَادَ الرَّحْمَةِ ، وَلَقِيَ نَفْسَهُ
الْخَيْرَ لِنُصِيحَةِ الْأُمَّةِ ؛ فَإِنَّهُ - قَدَسَ اللَّهُ رُوحَهُ - جَدَّدَ لَهُمْ فِي سَنَةِ سَبْعِينَ لِبَاسَ الْغِيَارِ ،
وَشَدَّدَ عَلَيْهِمْ بَأْسَ النَّكَالِ وَالْإِنْكَارِ ؛ وَعَقَدَ لَهُمْ ذِمَّةَ بِهَا الْأَعْتِبَارِ ، وَسَطَّرَ فِي الصِّحَافِ
مِنْهَا شُرُوطًا لَهُمْ بِالْإِتْمَانِ الْإِقْرَارِ ؛ وَبِأَحْكَامِهَا أَمَكْنَهُمْ فِي دَارِ الْإِسْلَامِ الْأَسْتِقْرَارِ ؛
وَخَذَلَ الْفِتْنَتَيْنِ الْمُفْتَرَتَيْنِ عَمَلًا بِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

وَمَا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمْدُ تَمَادَوْا عَلَى الْأَعْتِرَارِ ، وَتَعَادَوْا إِلَى الضَّرِّ وَالْإِضْرَارِ ؛
وَتَدَرَّجُوا بِالْتَكْبَرِ وَالْأَسْتِجْبَارِ ، إِلَى أَنْ أَظْهَرُوا التَّرْتِينَ أَعْظَمَ إِظْهَارًا ، وَخَرَجُوا عَنْ
الْمَعْهُودِ فِي تَحْسِينِ الزُّنَارِ وَالشُّعَارِ ، وَعَتَوْا فِي الْبِلَادِ وَالْأَمْصَارِ ، وَأَتَوْا مِنَ الْفَسَادِ
بِأُمُورٍ لَا تُطَاقُ بِكَارٍ .

وَمَا وَصَحَ عِنْدَنَا مِنْهُمْ الْأَسْتِقْرَارُ عَلَى ذَلِكَ وَالْإِضْرَارِ ، أَنْكَرْنَا عَلَيْهِمْ أَشَدَّ إِنْكَارًا ،
وَرَأَيْنَا أَنْ تَتَّبَعَ فِيهِمْ مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، وَأَبَيْنَا [إِلَّا مَعَامَلَتِهِمْ]
بِأَحْكَامِ الْمِلَّةِ الْحَمْدِيَّةِ الَّتِي كَمَّ لَهَا عَلَى الْمِلَّتَيْنِ الْعَيْسَوِيَّةِ وَالْمُوسَوِيَّةِ مِنْ مَنَّهُ ، وَادَّخَرَ اللَّهُ
تَعَالَى لَنَا هَذِهِ الْحَسَنَةَ الَّتِي هِيَ مِنْ جَمَلَةِ الْفَتْوحَاتِ الَّتِي يَفْتَحُ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا لَنَا فِي الدُّنْيَا
أَبْوَابَ السَّعَادَةِ وَفِي الْآخِرَةِ أَبْوَابَ الْجَنَّةِ ؛ فَاسْتَفْتَيْنَا فِي أَمْرِهِمُ الْمَجَالِسَ الْعَالِيَةَ حُكَّامَ
الشَّرِيعَةِ الْمُطَهَّرَةَ ، وَأَقْتَدَيْنَا بِأَقْوَالِ مَذَاهِبِهِمُ الْمُحَرَّرَةَ ، الَّتِي لَنَا بِهَدْيِهَا إِلَى إِصَابَةِ
الصَّوَابِ تَبْصُرَهُ ؛ وَعَقَدْنَا لَهُمْ مَجْلِسًا بَدَارَ عَدْلِنَا الشَّرِيفِ ، وَأَلْزَمْنَاهُمْ أَحْكَامَ أَهْلِ
الذِّمَّةِ الَّتِي بِالْإِتْمَانِ أَوْائِيهِمْ لَهَا جَرَى عَلَيْهِمْ حُكْمُ هَذَا التَّكْلِيفِ ؛ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ بِالْعَهْدِ
الَّذِي نَسُوهُ ، وَأَلْبَسْنَاهُمْ تَوْبَ الْهُوَانِ الَّذِي لَيْسُوا [وَ] لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الزَّمَانُ نَزَعُوهُ
وَلَمْ يَلْبَسُوهُ ؛ وَأَجْرَيْنَا عَلَيْهِمُ الْآنَ شُرُوطَهُ الْمَضْبُوطَةَ ، وَقَوَانِينَهُ الَّتِي هِيَ مِنَ التَّبَدُّلِ

والتَّغْيِيرُ مَحُوطُهُ ؛ فَمَنْ جَاوَزَهَا ، فَقَدْ شَاقَّقَ الشَّرِيعَةَ الشَّرِيفَةَ وَبَارَزَهَا ؛ وَمَنْ خَالَفَهَا ، فَقَدْ عَانَدَ الْمِلَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ وَوَأَقَفَهَا ؛ وَمَنْ صَدَفَ عَنْ سُبُلِهَا وَتَسَكَّبَهَا ، فَقَدْ آقَرَفَ الْجَبَائِرَ وَأَرْتَكَبَهَا ؛ وَحَظَرْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ يَجْعَلَ أَحَدُهُمْ لِهَ بِالمَسْلَمِينَ شَبَهاً ، وَصَيَّرْنَا عَلَيْهِمُ الدَّلَّةَ الَّتِي ضَرَبَهَا اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ وَأَوْجَبَهَا .

فَلِذَلِكَ رَسَمَ بِالأَمْرِ الشَّرِيفِ العَالِي ، المَوَلَوِي ، السُّلْطَانِي ، المَلِكِي ، الصَّالِحِي ، الصَّالِحِي - لَا زَالَ أَمْرُهُ المُمْتَثَلَ المَطَاعَ ، وَزَجَرُهُ بِهِ عَنِ المَأْتَمِ أَمْتِنَاعٌ وَأَرْتِدَاعٌ ، وَرَأْيُهُ الصَّالِحُ يُرِيدُ الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَاعَ - أَنْ يَعْتَمِدَ جَمِيعَ طَوَائِفِ النِّصَارِيِّ وَالْيَهُودِ وَالسَّامِرَةِ بِالدِّيَارِ المِصْرِيَّةِ وَجَمِيعِ بِلَادِ الإِسْلَامِ المَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا : مِنْ سَائِرِ الأَقْطَارِ وَالآفَاقِ ، مَا أُخِذَ عَلَيَّ سَالِفِيهِمْ فِي عَهْدِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ مِنْ أَكِيدِ العَهْدِ وَوَثِيقِ المِيثَاقِ :

وهُوَ أَنْ لَا يُجَدِّثُوا فِي البِلَادِ الإِسْلَامِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا دِينًا وَلَا كَنِيْسَةً وَلَا قَلَابَةً وَلَا صَوْمَعَةً رَاهِبٍ ، وَلَا يُجَدِّدُوا فِيهَا مَا خَرِبَ مِنْهَا ، وَلَا يَمْنَعُوا كَنَائِمَهُمُ الَّتِي عُوْهِدُوا عَلَيْهَا ، وَثَبَتَ عَهْدُهُمْ لَدَيْهَا ، أَنْ يَنْزِلَ أَحَدٌ مِنَ المَسْلَمِينَ ثَلَاثَ لَيَالٍ يُطْعَمُونَهُمْ ، وَلَا يُؤْوُوا جَاسُوسًا وَلَا مَنْ فِيهِ رِيْبَةٌ لِأَهْلِ الإِسْلَامِ ، وَلَا يَكْتُمُوا غِشًّا لِلْمَسْلَمِينَ ، وَلَا يَعْلَمُوا أَوْلَادَهُمُ القُرَانَ ، وَلَا يُظْهِرُوا شِرْكًَا ، وَلَا يَمْنَعُوا ذَوِي قَرَابَةٍ مِنَ الإِسْلَامِ إِنْ أَرَادُوهُ ، وَإِنْ أَسْلَمَ أَحَدٌ مِنْهُمْ لَا يُؤْذُوهُ وَلَا يُسَاكِنُوهُ ، وَأَنْ يُؤْفِرُوا المَسْلَمِينَ ، وَأَنْ يَقُومُوا مِنْ مَجَالِسِهِمْ إِنْ أَرَادُوا الجُلُوسَ ، وَأَنْ لَا يَتَشَبَّهُوا بِشَيْءٍ مِنَ المَسْلَمِينَ فِي لِبَاسِهِمْ قَلَنْسُوتَةً وَلَا عِمَامَةً وَلَا تَعْلِينَ وَلَا فَرَقَّ شَعْرًا ، بَلْ يَلْبَسُ النِّصْرَانِيُّ مِنْهُمْ العِمَامَةَ الزَّرْقَاءَ عَشْرَةَ أَذْرُعٍ غَيْرِ الشَّعْرِي (؟) فَهَا دُونَهَا ، وَالْيَهُودِيُّ العِمَامَةَ الصَّفْرَاءَ كَذَلِكَ ؛ وَتَمْنَعُ نِسَاءَهُمْ مِنَ التَّشْبِهِ بِنِسَاءِ المَسْلَمِينَ وَلبَسِ العِمَامِ ، وَلَا يَتَسَمَّوْنَ بِأَسْمَاءِ

المسلمين ، ولا يتكفونوا بجانهم ، ولا يتلقبوا بألقابهم ، ولا يركبوا سرجاً ، ولا يتقلدوا سيفاً ، ولا يركبوا الخيل ولا البغال ، ويركبون الحمير بالأكف عرساً من غير ترزين ولا قيمة عظيمة لها ، ولا يتخذوا شيئاً من السلاح ، ولا ينقشوا خواتيمهم بالعربية ، ولا يبيعوا الخمر ، وأن يجزوا مقدم رؤوسهم ، وأن يلزموا زيهم حيث ما كانوا ، ويتشدوا زنايهم غير الحرير على أوساطهم ، والمرأة البارزة من النصراني تلبس الإزار الكتان المصبوغ أزرق ، واليهودية الإزار المصبوغ أصفر ، ولا يدخل أحد منهم الحمام إلا بعلامة تميزه عن المسلمين في عنقه : من خاتم نحاس أو رصاص أو جرس أو غير ذلك ، ولا يستخدموا مسلياً في أعمالهم ، وتلبس المرأة البارزة منهم خفين : أحدهما أسود ، والآخر أبيض ، ولا يجاوروا المسلمين بموتاهم ، ولا يرفعوا بناء قبورهم ، ولا يعملوا على المسلمين في البناء ، ولا يسأوهم ، ولا يتخيلوا على ذلك بحيلة ، بل يكونون أدون من ذلك ، ولا يضربوا بالناقوس إلا ضرباً خفيفاً ، ولا يرفعوا أصواتهم في كآلهم ، ولا يخرجوا شعانين ، ولا يرفعوا أصواتهم على موتاهم ، ولا يظهرها الثيران ، ولا يشتروا مسلماً من الرقيق ولا مسلمة ، ولا من جرت عليه سهام المسلمين ، ولا من منشؤه مسلم ، ولا يهودوا ولا ينصروا رقيقاً ، ولا يجتنبون أوساط الطريق توسعةً للمسلمين ، ولا يقتنوا مسلماً عن دينه ، ولا يدلوا على عورات المسلمين . ومن زنى بمسلمة قتل ، ولا يضعوا أيديهم على أراض موت المسلمين ولا غير موت ولا مزدرع ، ولا ينسبوه لصومعة ولا كنيسة ولا دير ولا غير ذلك ، ولا يشتروا شيئاً من الحلب الرقيق ولا يوكلوا فيه ، ولا يتخيلوا عليه بحيلة . ومتى خالفوا ذلك فقد حل منهم ما يحل من أهل النفاق والمعاندة .

وكذلك رسمنا أن كل من مات من اليهود والنصارى والسامرة : الذكور والإناث منهم يحتاط عليهم من ديوان الموارث الحشرية بالديار المصرية وأعمالها وسائر

البلاد الإسلامية المحروسة ، إلى أن تُثبِتَ ورثته ما يستحقونه من ميراثه بمقتضى
 الشَّرْعِ الشريف ، وإذا أثبتوا ما يستحقونه يعطونه بمقتضاه ، ويحمل ما فضل بعد
 ذلك لبيت المال المعمور ، ومن مات منهم ولا وارث له يستوعب ، حمل موجوده
 لبيت المال المعمور ، ويحرون في الحوطة على موتاهم من دواوين المواريث ووكلاء
 بيت المال المعمور مجرى من يموت من المسلمين : لبيت أمر موارِيثهم ، ويحمل
 الأمر فيها على حكم الشَّرْعِ الشريف ، عملاً بالفتاوى الشرعية المتضمنة إجراء
 موارِيث موتاهم على حكم الفرائض الشرعية بحكم الملة الإسلامية المحمديّة : من
 إعطاء كل ذى فَرِيضٍ وعَصَبَةٍ ما يستحقه شرعاً ، من غير مخالفة ولا امتناع ،
 ولا موافقة ولا دِفَاعٍ ، فإن ذلك مما يتعين أن يكون له إلى بيت المال المعمور فيه
 إرجاع ، ولتعلق حقوق المؤمنين بذلك ، ولأنه يعيد حيث تفيا إلى المسلمين
 ما يستحقه بيت المال من مال كل هالك ، ولأننا المطالبون بما يسؤل إلى ميراث
 المسلمين من تراث أولئكَ ، لتكون هذه الحسنَةُ في صحائفنا مسطره ، وإن كانت
 الأيام قد تبادت عليها ومعرفتها نكره ، وتعادت إليها أيديهم العادية فاختلست من
 الذهب والفضة القناطير المقنطرة .

ورسمنا أن لا يخدم نصراني ولا سامري ولا يهودي في دولتنا الشريفة ثبتت الله
 قواعدها ، ولا في دواوين الممالك المحروسة والأعمال ، ولا عند أحد من أمرائنا
 أعزهم الله تعالى ، ولا يباشر أحد منهم وكالة ولا أمانة ، ولا ما فيه تأمر على
 المسلمين ، بحيث لا يكون لهم كلمة يستعملون بها على أحد من المسلمين في أمر من
 الأمور ، فقد حرم الله ذلك نصاً وتأويلاً ، وضمن حكمه في الحال والاستقبال قرآناً
 وتنزيلاً ، فقال تعالى : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ . وأوضح
 في آجتناهم للتيقن علم اليقين ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ

اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَافِرَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مَّؤْمِنِينَ ﴿٥٠﴾

وقد نهى الله عن مواليتهم وأضاف بسخطه كل نخزي إليهم ، فقال تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقد أذنبهم الله جلَّ وعزَّ لأقترابهم وأجترائهم من كتابه العزيز في مواضع عدده ، فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مَّسْوُودَةٌ ﴾ . فوجب أن لا يكونوا على الأعمال آمنه ، ولا للأموال خزنة : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليهود والنصارى خونه » . وقال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : « لا تستعملوا اليهود والنصارى فإنهم أهل رشا في دينهم ولا تحل الرشا » فباعترأهم وأضترأهم يؤمن من مكرهم وخيانتهم ما يُحْتَشَى .

ولما قدم عليه أبو موسى الأشعري من البصرة وكان عاملة بها ، دخل عليه المسجد ، وأستأذن لكتابه وكان نصرانياً ، فقال له أمير المؤمنين عمر : - ولَيْتَ ذَمِيًّا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، أما سمعت قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ هَلَّا اتَّخَذْتَ حَنِيفِيًّا ؟ - فقال يا أمير المؤمنين : لى كَاتِبُهُ وَهْ دِينُهُ ، فأنكر أمير المؤمنين عليه ذلك ، وقال : لا أكرِمُهُم إِذْ أَهَانَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا أَعِزُّهُمْ إِذْ أَذْنَبَهُمُ اللَّهُ ، وَلَا أُدْنِيهِمْ إِذْ أَفْضَاهُمُ اللَّهُ . - فاتبعنا في صرفهم الكتاب والسنة والأثر ، ومنعنا عن المسلمين - بقل أيديهم عن المباشرة - الأذى والضرر ، ودفعنا عن أمير المؤمنين من سوء معاشرتهم ما أَلَمُوا له من الأذى مع شَرِّ مَعْشَرٍ .

فليعتمد حكم هذا المرسوم ، الذى هو بالعدل والإحسان موسوم ، وليعتمد فى صحائف المثوبات لِيَسْتَقِرَّ وَيَسْتَمِرَّ وَيُدْوِمَ ، وليسَّع ذكره فى المالك ، وليدَّع أمره فى المسالك ؛ وعلى حكام المسلمين - أيدهم الله تعالى - وقضاتهم ، ومتصرفيهم

وولاتهم ؛ أن يُوقَعُوا بمن تَعَدَّى هذه الحدود ، من النصارى واليهود ، ويردَعُوا
بسيِّفِ الشَّرْعِ كُلِّ جَهْلٍ من أهلِ الجُودِ ، ويُجَلِّوا العذابَ بمن حمَله العُقُوقُ على
حَلِّ العُقُودِ ، ويُدَبِّلُوا رِقَابَ الكَافِرِينَ بِالإِذْعَانِ لآسْتِخْرَاجِ الحُقُوقِ وإِخْرَاجِ
الأضغانِ والحُقُودِ .

وقد رَسَمْنَا بأن يُجَلَّ الأَمْرُ في هذا المَرْسُومِ الشَّرِيفِ على حُكْمِ ما أَلْتَمَمَ في المَرْسُومِ
الشَّرِيفِ الشَّهِيدِيِّ النَّاصِرِيِّ المُنْتَقَمِ ، المَكْتَتَبِ في رَجَبِ سَنَةِ سَبْعِمِائَةٍ ، المُنْتَضَمِينَ
لِلشَّهَادَةِ على بَطْرِكِي النِّصَارِيِّ اليَعاقِبَةِ ، وَالْمَلِكِيَّةِ ، وَرَئِيسِ اليَهُودِ بِالتَّحْرِيمِ وإِيقَاعِ
الكَلِمَةِ على من خَالَفَ هَذَا الشَّرْطَ المَشْرُوطَ وَالْحَدَّ المَحْدُودَ ، وَأَن لا يُجَلِّوا ما أَنبَمَ
من حُكْمِ العُقُودِ ، فيَحِلُّ عليهم عَذَابٌ غيرُ مُرَدُّودٍ ، وَاللَّهُ تَعَالَى يُعِينُ سُلْطَانَ الحَقِّ على
ما يَرْجِعُ بِنَفْعِ الخَلْقِ وَيَعُودُ ، وَيَزِينُ بِصَالِحِ المُؤْمِنِينَ مُلْكَ الإِسْلَامِ وَمَمْلَكَةَ الوُجُودِ ،
وَيُهَيِّئُ بِبَاسِهِ أَعْدَاءَ الدِّينِ ، الَّذِينَ لَهُمُ عَنِ السَّبِيلِ المُبِينِ ، صُدُوفٌ وَصُدُودٌ ، وَيَسَلِّكُ بِهِ
شِرْعَةَ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَمِنْهَاجَهُ : من إِمَاتَةِ البِسْطِيعِ وإِحْيَاءِ السُّنَنِ وإِدَامَةِ الصُّوْنِ
وَإِقَامَةِ الحُدُودِ ، وَيُهْلِكُ بِسَطْوَتِهِ الكَافِرِينَ كَمَا هَلَكَ بِدَعْوَةِ صَالِحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ نَمُودُ . وَالْعَلَامَةُ الشَّرِيفَةُ أَعْلَاهُ حُجَّةٌ فِيهِ .

تم الجزء الثالث عشر . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الرابع عشر

وأته الباب الرابع من المقالة التاسعة

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين
وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه
وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ١٦٩٣/١٩١٨/٣٠٠٠)

تَارِيخُ الْبَيْتِ السُّنِّيِّ

صَبْحُ الْأَسَدِ
٢٠١٦
١٤١٧

الجزء الثالث عشر

طبع
بالمطبعة الاميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٧ هـ
٢٠١٨ م

فهرس

الجزء الثالث عشر

من كتاب صبح الأعشى للقائشندى

المقالة السادسة

صفحة

- فيما يكتب في الوصايا الدينية، والمساحات، والاطلاقات السلطانية
والطرخانيات؛ وتحويل السنين والتذاكر، وفيها أربعة أبواب ٢
- الباب الأول** - في الوصايا الدينية، وفيه فصلان ٢
- الفصل الأول** - فيما لقدماء الكتاب من ذلك ٢
- » **الثاني** - فيما يكتب من ذلك في زماننا، وهو على ضربين ١١
- الضرب الأول** - ما يكتب عن الأبواب السلطانية ١٢
- » **الثاني** - ما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك ١٣
- الباب الثاني** - فيما يكتب في المساحات والاطلاقات،
وفيه فصلان ٢٣
- الفصل الأول** - فيما يكتب في المساحات، وهي على ضربين ... ٢٣
- الضرب الأول** - ما يكتب من الأبواب السلطانية، وهو على مرتبتين ٢٣
- المرتبة الأولى** - المساحات العظام ٢٣
- » **الثانية** - من المساحات أن تكتب في قطع العادة الخ ... ٣٨
- الضرب الثاني** - ما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية ٣٩
- الفصل الثاني** - فيما يكتب من الاطلاقات، وفيه طرفان ... ٤١
- الطرف الأول** - فيما يكتب عن الأبواب السلطانية، وهو على
ثلاث مراتب ٤١
- المرتبة الأولى** - ما يكتب في قطع الثلث مفتوحا بـ «الحمد لله» ... ٤١
- » **الثانية** - ما يفتح بـ «أما بعد حمد الله» ٤٤
- » **الثالثة** - مما يكتب به في الاطلاقات أن يكتب في قطع
العادة مفتوحا بـ «رسم بالأمر الشريف» ٤٦

- صفحة
- الباب الثالث - في الطرخانيات، وفيه فصلان ٤٨
- الفصل الأول - في طرخانيات أرباب السيوف، وهي على ثلاث مراتب (لم يذكر إلا مرتبتين) ٤٨
- المرتبة الأولى - أن يفتح المرسوم المكتتب في ذلك بـ«الحمد لله» ... ٤٨
- » الثانية - أن يفتح مرسوم الطرخانيات بـ«أما بعد» ... ٥١
- الفصل الثاني - فيما يكتب في طرخانيات أرباب الأقلام ... ٥٢
- الباب الرابع - فيما يكتب في التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية المعبر عنه في زماننا بتحويل السنين وما يكتب في التذاكر، وفيه فصلان ... ٥٤
- الفصل الأول - فيما يكتب في التوفيق بين السنين، وفيه طرفان ... ٥٤
- الطرف الأول - في بيان أصل ذلك ٥٤
- » الثاني - في صورة ما يكتب في تحويل السنين، وهو على نوعين (لم يذكر إلا نوعاً واحداً) ٦٣
- النوع الأول - ما كان يكتب في ذلك عن الخلفاء، وفيه مذهبان ٦٣
- المذهب الأول - أن يفتح ما يكتب بـ«أما بعد» ٦٣
- » الثاني - مما كان يكتب عن الخلفاء في تحويل السنين أن يفتح ما يكتب بلفظ «من فلان أمير المؤمنين إلى أهل الدولة» ونحو ذلك، وفيه ضربان ... ٧١
- الضرب الأول - ما كان يكتب في الدولة الأيوبية ٧١
- » الثاني - ما يكتب به في زماننا ٧٤

صفحة

- الفصل الثاني - فيما يكتب في التذاكر [وفيه ثلاثة أضرب]
 (ولم يذكر الضرب الأول) ٧٩
 الضرب الثاني - ما كان يكتب لتواب السلطنة بالديار المصرية
 عند سفر السلطان عن الديار المصرية ٩١
 » الثالث - ما كان يكتب لتواب القلاع وولاتها : إما عند
 استقرار النائب بها وإما في خلال نيابته ٩٩

المقالة السابعة

- في الاقطاعات والقطائع ، وفيها بابان ١٠٤
الباب الأول - في ذكر مقدمات الاقطاعات ، وفيه فصلان ... ١٠٤
الفصل الأول - في ذكر مقدمات تتعلق بالاقطاعات ،
 وفيه ثلاثة أطراف ١٠٤
الطرف الأول - في بيان معنى الاقطاعات وأصلها في الشرع ... ١٠٤
 » الثاني - في بيان أول من وضع ديوان الجيش وكيفية
 ترتيب منازل الجند فيه والمساواة والمفاضلة
 في الاعطاء ١٠٦
 » الثالث - في بيان من يستحق إثباته في الديوان وكيفية
 ترتيبهم فيه ١١٠
الفصل الثاني - في بيان حكم الاقطاع ، وهو على ضربين ... ١١٣
الضرب الأول - إقطاع التملك ١١٣
 » الثاني - إقطاع الاستغلال ١١٥
الباب الثاني - فيما يكتب في الاقطاعات في القديم والحديث ،
 وفيه فصلان ١١٨

- صفحة
 الفصل الأول — في أصل ذلك ١١٨
- » الثاني — في صورة ما يكتب في الاقطاعات، وفيه طرفان ١٢٣
- الطرف الأول — فيما كان يكتب من ذلك في الزمن القديم،
 وهو على ضربين ١٢٣
- الضرب الأول — ما كان يكتب عن الخلفاء، ولهم فيه طريقتان ١٢٣
- الطريقة الأولى — طريقة كتاب الخلفاء العباسيين ببغداد ١٢٣
- » الثانية — ما كان يكتب في الاقطاعات عن الخلفاء
 الفاطميين بالديار المصرية ١٣١
- الضرب الثاني — مما كان يكتب في الاقطاعات في الزمن المتقدم
 ما كان يكتب عن ملوك الشرق القاسمين على
 خلفاء بني العباس، وفيه طريقتان ١٣٩
- الطريقة الأولى — أن يكتب في الابتداء « هذا كتاب » كما كان
 يكتب عن خلفاء بني العباس في ذلك ١٣٩
- » الثانية — ما كان يكتب عن الملوك الأيوبية بالديار
 المصرية، ولهم فيه أساليب ١٤٤
- الأسلوب الأول — أن يفتح التوقيع المكتتب بالاقطاع بخطبة
 مفتوحة بـ « الحمد لله » ١٤٤
- » الثاني — أن يفتح التوقيع بلفظ « أما بعد فان كذا » ... ١٤٨
- » الثالث — أن يفتح التوقيع بما فيه معنى الشجاعة والقتال،
 وما في معنى ذلك ١٥٠
- الطرف الثاني — ما يكتب في الاقطاعات في زماننا، وهو على
 ضربين ١٥٣

- الضرب الأول — ما يكتب قبل أن ينقل إلى ديوان الإنشاء ،
 وفيه جملتان ١٥٣
- الجملة الأولى — في ابتداء ما يكتب في ذلك من ديوان الجيش ١٥٣
- » الثانية — في صورة ما يكتب في المربعة الجيشية ... ١٥٤
- الضرب الثاني — فيما يكتب في الاقطاعات من ديوان الإنشاء ،
 وفيه خمس جمل ١٥٧
- الجملة الأولى — في ذكر اسم ما يكتب في الاقطاعات من ديوان
 الإنشاء ١٥٧
- » الثانية — في بيان أصناف المناشير، وما يخص كل صنف
 منها من مقادير قطع الورق ١٥٨
- » الثالثة — في بيان صورة ما يكتب في المناشير في الطرة والمتمن ١٥٩
- » الرابعة — في الطغرى التي تكون بين الطرة المكتتبة في أعلى
 المنشور وبين البسمة ١٦٢
- » الخامسة — في ذكر طرف من نسخ المناشير التي تكتب
 في الاقطاعات في زماننا، وهي على ثلاثة أنواع ١٦٧
- النوع الأول — ما يفتح بـ«الحمد لله» وهو على ثلاثة أضرب ... ١٦٧
- الضرب الأول — مناشير أولاد الملوك ١٦٧
- » الثاني — » الأمراء مقدمى الألوفا ١٦٩
- » الثالث — » أمراء الطبليخاناه ١٨٤
- النوع الثاني — من المناشير ما يفتح بـ«أما بعد» وهو على ضربين ١٩٠
- الضرب الأول — في مناشير العشرات كائنا ذلك الأمير من كان ... ١٩٠
- » الثاني — » أولاد الأمراء ١٩٣
- النوع الثالث — من المناشير ما يفتح بـ«يخرج الأمر الشريف» ١٩٨

المقالة الثامنة

صفحة	في الأيمان ، وفيها بابان	٢٠٠
	الباب الأول - في أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض	
٢٠٠	في الأيمان ، وفيه فصلان	
٢٠٠	الفصل الأول - فيما يقع به القسم ، وفيه طرفان	
	الطرف الأول - في الأقسام التي أقسم بها الله تعالى في كتابه	
٢٠٠	العزير...	
٢٠٣	» الثاني - في الأقسام التي تقسم بها الخلق ، وهي على ضربين	
٢٠٣	الضرب الأول - ما كان يقسم به في الجاهلية	
٢٠٥	» الثاني - الأقسام الشرعية	
	الفصل الثاني - في بيان معنى اليمين الغموس ولغو اليمين والتحذير	
	من الحنث والوقوع في اليمين الغموس ،	
٢٠٨	وفيه طرفان	
٢٠٨	الطرف الأول - في بيان معنى اليمين الغموس ولغو اليمين	
٢٠٩	» الثاني - في التحذير من الوقوع في يمين الغموس	
٢١١	الباب الثاني - في نسخ الأيمان الملوكية ، وفيه فصلان	
	الفصل الأول - في نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء ، وهي	
٢١١	على نوعين	
	النوع الأول - في الأيمان التي يحلف بها على بيعة الخليفة	
٢١١	عند مبايعته	
	» الثاني - الأيمان التي يحلف بها الخلفاء (ووقع مهوًا :	
٢١٦	الضرب الثاني الخ)	

صفحة

- الفصل الثاني - في نسخ الأيمان المتعلقة بالملوك، وفيه خمسة
 مهايع (لم يذكر المهيع الخامس) ٢١٦
- المهيع الأول - في بيان الأيمان التي يُحلف بها المسلمون،
 وهي على نوعين ٢١٦
- النوع الأول - أيمان أهل السنة... .. ٢١٦
- » الثاني - أيمان أهل البدع، وهم ثلاث طوائف ... ٢٢٢
- الطائفة الأولى - الخوارج ٢٢٢
- » الثانية - الشيعة، وهم خمس فرق ٢٢٦
- الفرقة الأولى - الزيدية ٢٢٧
- » الثانية - الإمامية ٢٢٩
- » الثالثة - الاسماعيلية ٢٣٥
- » الرابعة - الدرزية ٢٤٨
- » الخامسة - النصيرية ٢٤٩
- الطائفة الثالثة - القادرية ٢٥١
- المهيع الثاني - في الأيمان التي يحلف بها أهل الكفر،
 وهم على ضربين ٢٥٣
- الضرب الأول - من زعم منهم التمسك بشريعة نبي من الأنبياء،
 وهم أصحاب ثلاث ملل ٢٥٣
- الملة الأولى - اليهود، وهم طائفتان ٢٥٣
- الطائفة الأولى - المتفق على يهوديتهم، وهم القراؤون ... ٢٥٦
- » الثانية - من اليهود السامرة... .. ٢٦٨

صفحة

- الملة الثانية - النصرانية (ووقع سهواً : الفرقة الثالثة الخ)
 وهم ثلاث فرق ٢٧١
- الفرقة الأولى - الملكانية ٢٧٦
- » الثانية - اليعقوبية ٢٧٨
- » الثالثة - النسطورية ٢٨٠
- الملة الثالثة - المجوسية ، وهم ثلاث فرق ٢٩٢
- الفرقة الأولى - الكيوسمرتية ٢٩٢
- » الثانية - الثنوية ٢٩٢
- » الثالثة - الزرادشتية ٢٩٣
- المهييع الثالث - في الأيمان التي يُحلف بها الحكماء ، وهم على
 ثلاثة أصناف ٢٩٨
- الصنف الأول - البراهمة ٢٩٨
- » الثاني - حكماء العرب ٢٩٩
- » الثالث - حكماء الروم ، وهم على ضربين ٢٩٩
- الضرب الأول - القدماء منهم ٢٩٩
- » الثاني - المتأخرون منهم ، وهم أصحاب أرسطاطاليس ٢٩٩
- المهييع الرابع - في بيان المحلوف عليه ، وما يقع على العموم ،
 وما يختص به كل واحد من أرباب الوظائف
 مما يناسب وظيفته ٣٠٧
- » الخامس - في صورة كتابة نسخ الأيمان التي يُحلف بها ،
 وهي على ضربين ٣١٩
- الضرب الأول - الأيمان التي يُحلف بها الأمراء في الديار
 المصرية ٣١٩
- » الثاني - الأيمان التي يُحلف بها نواب السلطنة والأمراء
 بالممالك الشامية ، وما أنضم إليها ٣٢٠

المقالة التاسعة

- صفحة
- ٣٢١ ... في عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك، وفيها خمسة أبواب ...
- ٣٢١ ... الباب الأول - في الأمانات، وفيه فصلان ...
- ٣٢١ ... الفصل الأول - في عقد الأمان لأهل الكفر، وفيه طرفان ...
- ٣٢١ ... الطرف الأول - في ذكر أصله وشرطه وحكمه ...
- ٣٢٣ ... » الثاني - في صورة ما يكتب فيه ...
- ٣٢٩ ... الفصل الثاني - في كتابة الأمانات لأهل الإسلام، وفيه طرفان ...
- ٣٢٩ ... الطرف الأول - في أصله ...
- ٣٣٠ ... » الثاني - فيما يكتب في الأمانات، وفيه مذهبان ...
- المذهب الأول - أن يفتح الأمان بلفظ: «هذا كتاب أمان الخ»
- ٣٣٠ ... وهو على نوعين ...
- ٣٣١ ... النوع الأول - ما يكتب عن الخلفاء، وفيه مذهبان ...
- ٣٣١ ... المذهب الأول - أن يفتح الأمان بلفظ: «هذا» ...
- ٣٣٢ ... » الثاني - أن يفتح الأمان بخطبة مفتوحة بالحمد ...
- ٣٣٦ ... النوع الثاني - ما يكتب به عن الملوك، وهو على ضربين ...
- الضرب الأول - ما يكتب من هذا النمط مما كان يصدر عن وزراء الخلفاء والملوك المتغلبين على الأمر معهم،
- ٣٣٦ ... ولهم فيه أسلوبان ...
- ٣٣٦ ... الأسلوب الأول - أن يصدر بالتماس المستأمن الأمان ...
- » الثاني - الا يتعرض في الأمان لأتماس المستأمن
- ٣٣٩ ... الإمان ...

صفحة

- المذهب الثاني — مما يكتب به في الأمانات لأهل الإسلام
 أن يفتح الأمان بلفظ: «رسم» ٣٣٩
- الضرب الثاني — من الأمانات التي تكتب لأهل الإسلام ما عليه
 مصطلح زماننا، وهي صنفان ٣٤٢
- الصنف الأول — ما يكتب من الأبواب السلطانية ٣٤٢
- » الثاني — من الأمانات الجاري عليها مصطلح كتاب
 الزمان — ما يكتب عن نواب الممالك الشامية... ٣٥٠
- الباب الثاني** — من المقالة التاسعة في الدفن (دفن الذنوب)،
 وفيه فصلان ٣٥٢
- الفصل الأول** — في أصله وكونه مأخوذاً عن العرب ٣٥٢
- » الثاني — فيما يكتب في الدفن عن الملوك ٣٥٣
- الباب الثالث** — فيما يكتب في عقد الذمة، وفيه فصلان ٣٥٦
- الفصل الأول** — في الأصول التي يرجع إليها هذا العقد،
 وفيه طرفان ٣٥٦
- الطرف الأول** — في بيان رتبة هذا العقد، ومعناه وأصله من
 الكتاب والسنة ٣٥٦
- » الثاني — في ذكر ما يحتاج الكاتب إلى معرفته في عقد الذمة ٣٦٠
- الفصل الثاني** — ما يكتب في متعلقات أهل الذمة عند خروجهم
 عن لوازم عقد الذمة ٣٦٦

(تم فهرس الجزء الثالث عشر من كتاب صبح الأعشى)

دَارُ الْكِتَابِ السُّلْطَانِيَّةِ

كِتَابٌ

صُنْحُ الْأَسْبَعِ

تَالِيفُهُ

السَّيِّحُ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ الْقَلْقَشِينِيُّ

الجزء الرابع عشر

حقوق إعادة طبعه محفوظة لدار الكتب السلطانية

طبع

بالمطبعة الأميرية بالقاهرة

سنة ١٣٣٨ هـ

١٩١٩ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(في الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصولٍ نتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأول

(في بيان رتبتهما ومعناها، وذكر ما يرادفها من الألفاظ)

أما رُتبتُها فإنها متأخرة - عنيد قوّة الساطان - عن عقْد الحزبية : لأن في الحزبية ما يدل على ضعف المعقود له ، وفي الهدنة ما يدل على قوته .

وأما معناها فالمهادنة في اللغة المصالحة ، يقال : هادنه يهادنه مهادنة إذا صالحه والاسم الهدنة . وهى إما من هدن بفتح الدال يهدن بضمها هدونا إذا سكن ، ومنه قولهم : « هدنة على دخن » . أى سكون على غل ، أو تكون قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها .

(١) أى من باب قتل كما في المصباح وبه ضبط بالقلم في نسخة خطية من الصحاح ولكن ضبطه في التاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب ، ففعل فيه لغتين .

(٢) هذا هو أحد شق الفصل . أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير .

ويرادفها ألفاظٌ أخرى :

أحدها — المُوَادَعَة، ومعناها المصالحةُ أيضاً، أخذًا من قولهم : عليك بالموَدُوع يريدون بالسَّكِينَةِ والوَقَارِ، فتكونُ راجعةً إلى معنى السُّكُونِ . وإِما أخذًا من تَوَدِيع الثَّوبِ ونَحْوِهِ : وهو جَعَلُهُ فِي صَوَانٍ يَصُونُهُ ، لأنه بها تحصل الصِّيانَةُ عن القتال . وإِما أخذًا من الدَّعَاة : وهى الخَفْضُ والهَنَاءُ ، لأن بسببها تحصل الرَّاحَةُ من تَعَبِ الحَرْبِ وكَلْفِهِ .

الثانى — المُسَالَمَة ومعناها ظاهِرٌ : لأن بوقوعها يَسَلِّمُ كُلُّ من أَهْلِ الجانين من الآخر .

الثالث — المُقَاضَاة، ومعناها [المُخَاكَمَةُ مُفَاعَلَةٌ مِنَ التَّقْضَاءِ بِمَعْنَى الفَصْلِ والحُكْمِ] .

الرابع — المُوَاصَفَةُ ، سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ الكَاتِبَ يَصِفُ ما وَقَعَ عَلَيْهِ الصُّلْحُ مِنَ الجانين . على أَنَّ الكُتَّابَ يُحْصُونَ لَفْظَ المُوَاصَفَةِ بما إِذا كانت المهادنة من الجانين ، ولا شَكَّ أَنَّ ذلك جارٍ فِي لَفْظِ المُوَادَعَةِ والمُسَالَمَةِ والمُقَاضَاةِ أَيضاً : لِأَنَّ المُفَاعَلَةَ لا تكونُ إِلا بين أَثنين إِلا فِي أَلفاظٍ قَلِيلَةٍ مَحْفُوظَةٍ ، على ما هو مَقْرَّرٌ فِي عِلْمِ العَرَبِيَّةِ .

أما لَفْظُ الهُدْنَةِ فَإِنَّهُ يَصْدُقُ أَنَّ يَكُونُ مِنْ جانِبٍ واحِدٍ ، بِأَنَّ يَعْقِدَ الأَعْلَى الهُدْنَةَ لِمَنْ هو دُونَهُ . على أَنَّها عند التَّحْقِيقِ تَرْجِعُ إِلى مَعْنَى المُفَاعَلَةِ ، إِذ لا تُتَصَوَّرُ إِلا مِنْ أَثنين .

وأما فِي الشَّرْعِ فعبارةٌ عن صُلْحٍ يَقَعُ بَيْنَ زَعِيمَيْنِ فِي زَمَنِ معلومٍ بِشروطٍ مَخْصُوصَةٍ ، على ما سياتى بَيانُهُ فيما بَعْدُ ، إِذا شاءَ اللهُ تَعَالَى .

والأصلُ فِيها أَنَّ تكونَ بَيْنَ مَلَكَينِ مُسْلِمٍ وَكافِرٍ ، أو بَيْنَ نائِبَيْهِما ، أو بَيْنَ أَحَدِهِما وَنائبِ الآخرِ . وعلى ذلك رَتَّبَ الفُقَهَاءُ رَحِمَهُمُ اللهُ بابَ الهُدْنَةِ فِي كُتُبِهِمْ . قال صاحب

”مواد البيان“ . وقد يتعاقد عطاء أهل الإسلام على التواضع والتسليم واعتقاد المودة والتصافي، والتوازر والتعاون، والتعاقد والتناصر، ويشترط الأضعف منهم للأقوى تسليم بعض ما في يده والتفادي عنه بمعاطفته والالتقياد إلى أتباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمعاملة في المعاملة، أو الإمداد بجيش، أو أمثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يُحصى .

قلت : وقد يكون المايكان متساويين في الرتبة أو متقاربين، فيقع التعاقد بينهما على المسالمة والمصافاة، والموازرة والمعاونة، وكف الأذية والإضرار وما في معنى ذلك، دون أن يلتزم أحدهما للآخر شيئاً يقوم به أو إتاوة يحملها إليه؛ ولكل مقام مقال، والكاتب الماهر يوفى كل مقام حقه، ويعطى كل فصل من الفصول مستحقه .

الطرف الثاني

(في أصل وضعها)

أما مهاده أهل الكفر فالأصل فيها قوله تعالى : (فسيحوا في الأرض أربعة أشهر) الآية، وقوله : (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) .

وما ثبت في صحيح البخاري من حديث عروة بن الزبير رضي الله عنه :

« أن قريشاً وجهت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو بالحدية حين »

« صده قريش عن البيت - سهيل بن عمرو، فقال للنبي صلى الله عليه »

« وسلم : هات [أكتب] بيننا وبينك كتاباً، فدعا النبي صلى الله عليه وسلم »

« الكاتب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أكتب بسم الله الرحمن »

«الرحيم». فقال سهيل: أما الرحمن فوالله ما أدري ما هو؟ ولكن آكتب»
 «بأسمك اللهم كما كنت تكتب. فقال المسلمون: والله لانكتب إلا»
 «بسم الله الرحمن الرحيم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: آكتب:»
 «بأسمك اللهم - ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله - فقال سهيل:»
 «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا ناتلناك؛»
 «ولكن آكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: والله»
 «إني لرسول الله وإن كذبتوني، آكتب محمد بن عبد الله، ثم قال النبي»
 «صلى الله عليه وسلم: على أن تخلوا بيننا وبين البيت فطوف به - فقال»
 «سهيل: والله لا نتحدث العرب أنا قد أخذنا ضغطة، ولكن ذلك من»
 «العام المقبل، فكتب - قال سهيل: وعلى أنه لا يأتيك منا رجل»
 «وإن كان على دينك إلا رددته إلينا - قال المسلمون: سبحان الله!»
 «كيف يرد إلى المشركين وقد جاء مسلماً! فبينما هم كذلك، إذ جاء»
 «أبو جندل يرسف في قيوده، وقد خرج من مكة حتى رعى بنفسه بين»
 «أظهر المسلمين - فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن»
 «ترده إلى - فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعد -»
 «قال: فوالله [إذا] لأصالحك على شيء أبدا - قال النبي صلى الله»
 «عليه وسلم: فأجزه لي - قال: ما أنا بجزه لك - قال بلن فافعل -!»

« قال : ما أنا بفاعيلٍ . قال مِكرَزُ بنُ حَفِصٍ : بلى قد أجزأه لك . قال »
« أبو جندبٍ : أى معشرَ المسلمين : أُرِدُّ إلى المشركين وقد جئتُ مسلماً؟ »
« ألا ترونَ ما قد لقيتُ؟ وكان قد عُدِّبَ عذاباً شديداً فى الله تعالى . »
« قال عمرُ بنُ الخطَّابِ : فأثبتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ، فقلت : «
« ألسنتَ نبيِّ الله حقًّا؟ قال بلى ! قلتُ : ألسنا على الحقِّ وعدونا على »
« الباطلِ؟ قال بلى ! قلتُ : فلم نُعطى الدنْيَةَ فى ديننا إذا؟ قال : إني »
« رسولُ الله ولستُ أعصيه وهو ناصرى » .

قلت : هذا ما أورده البخارىُّ فى حديثٍ طویلٍ ^(١) . والذى أورده أصحابُ
السِّيرِ أن الكاتبَ كان علىَّ بنَ أبى طالبٍ ، وأن نُسخةَ الكتابِ :

« هذا ما قاضى عليه محمدُ بنُ عبدِ الله سُهَيْلُ بنُ عمرو على وَضْعِ الحَرْبِ »
« عن الناسِ عَشْرَ سنينَ ، وأنه من أحبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ محمدٍ »
« وعَهْدِهِ دخلَ فيه ، ومن أحبَّ أن يدخلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدِهِم »
« دخلَ فيه » .

وأشهد فى الكتابِ على الصَّالحِ رجالاً من المسلمين والمشركين .

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من "إرشاد السارى" للقسطلانى ومنه كان

الطرف الثالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن)

قال في "مواد البيان" : وهذا الفن من المكاتب له من الدولة محل خطير ، ومن المملكة موضع كبير ؛ ويتعين على الكاتب أن يحل له فكره ، ويعمل فيه نظره ، ويتوفر عليه ترفراً يحكم مبادئه ، ويهدب معانيه .
والذى يلزم الكاتب في ذلك نواع : :

النوع الأول

(ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر)

وهي الشروط الشرعية المعتبرة في صحة العقد ، بحيث لا يصح عقد الهدنة مع إهمال شيء منها . وهي أربعة شروط :

الأول — في العاقد . ويختلف الحال فيه باختلاف العقود عليه : فإن كان المعقود عليه إقليماً : كالحند والروم ونحوهما ، أو مهادنة الكفار مطلقاً ، فلا يصح العقد فيه إلا من الإمام الأعظم أو من نأيه العام المفوض إليه التحدث في جميع أمور المملكة . وإن كان على بعض القرى والأطراف ، فلا حد الألواة المجاورين لهم عقد الصلح معهم .
الثاني — أن يكون في ذلك مصلحة للمسلمين : بأن يكون في المسلمين ضعف أو في المال قلة ، أو توقع إسلامهم بسبب اختلاطهم بالمسلمين ، أو طمع في قبولهم الجزية من غير قتال وإنفاق مال . فإن لم تكن مصلحة فلا يهادنون بل يقتلون حتى يسلموا أو يؤدوا الجزية إن كانوا من أهلها .

الثالث — أن لا يكون في العقد شرط ياباه الإسلام : كما لو شرط أن يترك بأيديهم مال مسلم ، أو أن يرده عليهم أسير مسلم أنفقت منهم ، أو شرط لهم على المسلمين

مَالٌ مِنْ غَيْرِ خَوْفٍ عَلَى الْمَسَامِينِ، أَوْ شُرْطَ رَدِّ مُسْلِمِيهِمْ، فَلَا يَصِحُّ الْعَقْدُ مَعَ شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا لَوْ شُرْطَ رَدُّ الرَّجُلِ الْمُسْلِمِ أَوْ الْمَرْأَةِ الْكَافِرَةِ فَإِنَّهُ لَا يَمْنَعُ الصَّحَّةَ .
 قَالَ الْغَزَالِيُّ : وَقَدْ بَجَرَتِ الْعَادَةُ أَنْ يَقُولَ : ^(١) عَلَى أَنْ مَنْ جَاءَكُمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ رَدَّدْتُمُوهُ، وَمَنْ جَاءَنَا مُسْلِمًا رَدَدْنَاهُ . فَإِنْ كَانَ فِي الْمَسَامِينِ ضَعْفٌ وَخِيفٌ عَلَيْهِمْ، جَازَ التَّرَامُ الْمَسَالِ لَهُمْ دَفْعًا لِلشَّرِّ، كَمَا يَجُوزُ فَكُّ الْأَسِيرِ الْمُسْلِمِ إِذَا عَجَزْنَا عَنْ آتْرَاعِهِ .

الرابع — أن لا تزيد مدة الهدنة عن أربعة أشهر عند قوة المسلمين وأمنهم، ولا يجوز أن تبلغ سنة بحال، وفيما دون سنة و فوق أربعة أشهر قولان للشافعي رضي الله عنه، أحدهما أنه لا يجوز. أما إذا كان في المسلمين ضعف وهناك خوف، فإنه تجوز المهادنة إلى عشر سنين؛ فقد هادن رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل مكة عشر سنين كما رواه أبو داود في سننه. ولا تجوز الزيادة عليها على الصحيح، وفي وجه تجوز الزيادة على ذلك للأصلحة. فلو أطلق المدة فالصحيح من مذهب الشافعي أنها فاسدة، وقيل: إن كانت في حال ضعف المسلمين حلت على عشر سنين، وإن كانت في حال القدرة: فقد قيل تحمل على الأقل: وهو أربعة أشهر، وقيل على الأكثر: وهو ما يقارب السنة. ولو صرح بالزيادة على ما يجوز عقد الهدنة عليه: فإن زاد على أربعة أشهر في حال القوة أو على عشر سنين في حال الضعف صح في المدة المعتبرة وبطل في الزائد. فإن احتجج إلى الزيادة على العشر، عقد على عشر ثم عشر ثم عشر قبل تقضى الأولى، قاله الفوراني وغيره من أصحابنا الشافعية. وذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلى أن مدتها غير محدودة، بل يكون موكولا إلى اجتهاد الإمام ورأيه.

(١) بياض في الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادكم على الخ » .

النوع الثاني

(ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، و عقود الصلح

الجارية بين زعماء المسلمين، وهي ضربان)

الضرب الأول

(الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين

الملك في كتابة الهدن خلا ما تقدم)

وليس لها حدٌ يحصرها، ولا ضابطٌ يضبطها، بل بحسب ما تدعو الضرورة إليه

في تلك الهدنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك - أن يشترط عليه أن يكون لوليه موالياً، ولعدوه معادياً، ولمسالمة
مُسالماً، ومحاربه محارباً؛ ولا يواطئ عليه عدواً، ولا يوقع عليه صلحاً، ولا يوافق
على ما يقدح في أمره، ولا يقبل سؤال سائلٍ، ولا بدل باذلٍ، ولا رسالة مراسل
مما يخالف الاتفاق الجاري؛ والأخذ على يد من سعى في نقض الصلح ونكث
العهد إن كان من أهل طاعته، والمقاتلة إن كان من المخالفين له، وأنه إذا جنى
من أهل مملكتهم جان كان عليه إحضاره أو الأخذ منه بالجناية .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يكف عن بلاده وأعماله، ومطرف ثغوره،
وشاسع نواحيه - أيدي الداخلين في جماعته، والمنضمين إلى حوزته، ولا يجهز لها
جيشاً، ولا يحاول لها غزواً، ولا يبدأ أهلها بمنازعة، ولا يشرع لهم في مقارعة،
ولا يتناوبهم بمكبدة ظاهرة ولا باطنة، ولا يعاملهم بأذية جلية ولا خفية،
ولا يطلق لأحد ممن ينوب عنه في إمارة جيشه، ومن ينسب إلى جملته، ويتصرف

على إرادته - عَنَّا إلى شَيْءٍ من ذلك بوجهٍ من الوجوه، ولا سببٍ من الأسباب، وأن لا يُجاوِزَ حُدُودَ مملكته إلى المملكة الأخرى بِنَفْسِهِ ولا بعَسْكَرٍ من عساكره .

ومن ذلك - أن يشترط عليه أن يُفْرِجَ عَمَّنْ هو في حوزته مَن أحاطت به رِبْقَةُ الأَثَرِ، ويمكِّنهم من المسير إلى بلادهم: بأنفسهم وخدمهم وعيالهم وأتباعهم، وأصناف أموالهم، في أتم حراسة، وأكمل خفارة، دون كلفةٍ ولا مشونةٍ تلحقهم على إطلاعهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه ما لا يحمله إليه في كل سنة، أو أن يُسَلِّمَ إليه ما يختاره: من حصون وقلاع وأطراف وسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أحب انتزاعه أو استضافته من بلاد من يئادنه من ملوك الكفر، وأن يُبقيَ من بها من أهلها، ويُقررهم فيها بجرمهم وأولادهم ومواشيهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم، دون أن يلتمس عن ذلك أو عن شيء منه مالا، أو يطلب عنه بدلا، وما ينخرط في هذا السلك .

ومن ذلك - أن يشترط عليه عدم التعرض لتجار مملكته، والمسافرين من رعيته، برا وبحرا بنوع من أنواع الأذية والإضرار، في أنفسهم ولا في أموالهم، وللجوارين للبحر عدم ركوب المراكب الحربية التي لا يعتاد التجار ركوب مثلها .

ومن ذلك - أن يشترط عليه إمضاء ما وقعت عليه المعاهدة، وأن لا يرجع عن ذلك ولا عن شيء منه، ولا يؤخر شيئا عن الوقت الذي ... (١) ...

ومن ذلك - أن يشترط عليه أنه إذا بقي من مدة الهدنة مدة قريبة مما يحتاج إلى التعمية فيه، أن يعلمه بما يريد من مهادنة أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذي اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترط عليه أنه إذا آتقضى 'أمد الهدنة' على أحد من الطائفتين وهو في بلاد الآخرين، أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمته .

ومن ذلك — أن يشترط ما لا يجمله إليه في الحال أو في كل سنة، أو حصوناً، أو بلاداً يُسلمها من بلاده، أو مما يغلب عليه من بلاد مهادنه، إلى غير ذلك من الأمور التي يجري عليها الاتفاق مما لا تُحصى كثرة .

الضرب الثاني

(ما يلزم الكتّاب في كتابة الهدنة — تحريراً وأوضاعها، وترتيب

قوانينها، وإحكام معاقبتها)

وذلك باعتبار أمور :

منها — أن يكتب الهدنة فيما يناسب الملك الذي تجرى الهدنة بينه وبين ملكه، ولم أر من تعرض في الهدن لمقدار قطع الورق وإن كثرت كتابتها في الزمن المتقدم بين ملوك الديار المصرية وبين ملوك الفرنج، كما سيأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى . والذى ينبغي أن يراعى في ذلك مقدار قطع الورق الذى يكتب فيه الملك الذى تقع الهدنة معه : من قطع العادة أو الثلث أو النصف .

ومنها — أن يأتي في ابتدائها براءة الاستهلال : إما بذكر تحسين موقع الصلح والتدب إليه ويمن عاقبته، أو بذكر السلطان الذى تصدر عنه الهدنة، أو السلطانين المتهادين، أو الأمر الذى ترتب عليه الصلح، وما يجرى هذا المجرى مما يقتضيه الحال ويستوجبه المقام .

ومنها — أن يأتي بعد التصدير بمقدمة يذكر فيها السبب الذى أوجب الهدنة ودعا إلى قبول المودعة .

فإن كانت الهدنة مع أهل الكفر، أحتج للإجابة إليها بالائتمار بأمر القرآن والالتقياد إليه، حيث أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالمطووعة على الصلح والإجابة إلى السلم بقوله: ﴿وَأِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾. وما وردت به السنة من مصالحته صلى الله عليه وسلم قريناً عام الحديبية، وذكر ما سنع له من آيات الصلح وأحاديثه، وما جرى عليه الخلفاء الراشدون من بعده، وكفهم عن القتال وقوفاً عند ما حد لهم. وأنه لولا ذلك لشرعوا الأسنة إلى مخالفيهم في الدين، وركضوا الجياد إلى جهاد من يلبهم من الملحدين.

وإن كان الصلح بين مسلمين أحتج بنحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾. وبأحاديث التحذير من تقتل المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم: «إِذَا لَقِيَ الْمُسْلِمَانِ بَسِيفَتَيْهِمَا فقتل أحدهما صاحبه فالقاتل والمقتول في النار» وما يجرى هذا الجرى.

ومنها - أن يراعى المقام في تجليل المتهادين أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحال، ووصف كل واحد منهما بما يليق به: من التعظيم، أو التوسيط، أو انحطاط الرتبة بحسب المقام، ويجرى على حسب ذلك في الشدة واللين.

فإن كانت الهدنة بين متكافئين سوى بينهما في التعظيم، وجرى بهما في الشدة واللين على حد واحد، إلا أن يكون أحدهما أسن من الآخر، فيراعى للأسن ما يجب له على الحد من التأديب معه، ويراعى للحد ما يجب له على الكبير من الحنو والشفقة.

وإن كانت الهدنة من قوى لضعيف، أخذ في الأشتداد، آتياً بما يدل على علو الكلمة، وأنيساط القدرة، وحصول النصرة، وأستكمال العدد، وظهور الأيد،

ووفور الجند، وقصور الملوك عن المطاولة، وعجزهم عن المحاولة، ونحو ذلك مما يخرط في هذا السلك، لا سيما إذا كان القوى مسلماً والضعيف كافراً، فإنه يجب الأزدیاد من ذلك، وذكراً ما للإسلام من العزة، وما توالى له من النصرة؛ وذكر الوقائع التي كانت فيها نصرة المسلمين على الكفار في المواطن المشهورة، والأماكن المعروفة، وما في معنى ذلك .

وإن كانت الهدنة من ضعيف لقوى، أخذ في الملاينة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجلافة، وتماسك القوة، خصوصاً إذا كان القوى المعقود معه الهدنة كافراً. وإن شرط له مالا عند ضعف المسلمين للضرورة أتى في كلامه بما يقتضى أن ذلك رغبة في الصلح المأمور به، لا عن خور طبايع وضعف قوة، إذ الله تعالى يقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْآعِلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ .

ومنها - أن يتحفظ من سقط يدخل على الشريعة نقيصة، إن كانت المهادنة مع أهل الكفر، أو يجر إلى سلطانه وهيمته، إن كانت بين مسلمين، ويتحذر كل الحد من خلل يتطرق إليه: من إهمال شيء من الشروط، أو ذكر شرط فيه خلل على الإسلام أو ضرر على السلطان، أو ذكر لفظ مشترك أو معنى ملتبس يوقع شبهة توجب السبيل إلى التأويل، وأن يأخذ المأخذ الواضح الذي لا تتوجه عليه معارضة، ولا تتطرق إليه مناقضة، ولا يدخله تأويل .

ومنها - أن يبين أن الهدنة وقعت بعد استشارة الله تعالى وتروية النظر في ذلك وظهور الخير فيه، ومشاورة ذوي الرأي وأهل الحجى، وموافقتهم على ذلك .

ومنها - أن يبين مدة الهدنة . فقد تقدم أن الصحيح من مذهب الشافعي أنه إذا لم تبين المدة في مهادنة أهل الكفر فسدت الهدنة .

قال في "التعريف": "وقد جرت العادة أن يحسبوا مدة سنين شمسية فيحرر حسابها بالقمريّة. ويذكر سنين وأشهرًا وأيامًا وساعات حتى يستوفي السنين الشمسية المهادن عليها. أما في عقد الصّاح بين مسلمين فإنه لا يشترط ذلك، بل ربّما قالوا: إن ذلك صار لازماً للأبد، حتى في الولد وولد الولد.

ومنها - أن يبيّن أن الهدنة وقعت بين الملّكين أنفسهما، أو بين نائبيهما، أو بين أحدهما ونائب الآخر، ويستوفي ما يجب لكلّ قسم منها.

فإن كانت بين الملّكين أنفسهما بغير واسطة بين ذلك، ذكر ما أخذ عليهما من العهود والمواثيق، والأيمان الصادرة من كلّ منهما، وذكر ما وقع من الإشهاد بذلك عليهما، وما جرى من ثبوت حكمه إن جرى فيه ثبوت ونحو ذلك.

وإن كانت بين المكتوب عنه ونائب الآخر، بين ذلك، وتعرض إلى المستند في ذلك: من حضور كتاب من الملّك الغائب بتفويض الأمر في ذلك إلى نائبه، وأنه وصل على يده أو يد غيره، والإشارة إلى أنه معنون بعنوانه، مختم بمختمه المتعارف عنه أو وكالة عنه. ويتعرض إلى قيام البيّنة بها وثبوتها بمجاس الحكم ونحو ذلك من المستندات.

وإن كانت بين نائبين، بين ذلك وذكر مستند كلّ نائب منهما على ما تقدم ذكره. ويتعرض إلى أن النائب في ذلك قام فيه بأختياره وطواعيته، لا عن إكراه ولا إجبار، ولا قسر ولا غلبة، بل لما رأى لنفسه ومستنبيه في ذلك من المصلحة والحظ. وأن كتاب الهدنة قرئ عليه وبين له فصلاً فصلاً، وترجم له بموثوق به، إن كان لا يعرف العربيّة ونحو ذلك.

ومنها - أن يتعرض إلى ما يجري من التّخفيف في آخرها: على الوفاء، وعدم النكث والإخلال بشيء من الشروط، أو الخروج عن شيء من الألتزامات،

أو مُحَاوَلَةِ التَّأْوِيلِ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، أَوْ السَّعْيِ فِي تَقْضِيهِ أَوْ فِي شَيْءٍ مِنْهُ ،
وما في مَعْنَى ذَلِكَ :

فَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ مَلَائِكِينَ ، تَعَرَّضَ إِلَى تَحَايِفِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى التَّوْفِيَةِ بِذَلِكَ .

وَإِنْ كَانَتْ بَيْنَ أَحَدِهِمَا وَنَائِبِ الْآخَرِ ، حَلَفَ الْمَلِكُ كَمَا تَقَدَّمَ ، وَسَتَاتِي صُورَةَ
الْحَلْفِ الَّذِي يَقَعُ فِي الْمَدِينِ فِي الْكَلَامِ عَلَى الْإِيمَانِ فِيْمَا بَعْدُ ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

ومنها - أَنْ يُحَرَّرَ أَمْرَ التَّارِيخِ بِالْعَرَبِيِّ وَمَا يُؤَرِّخُ بِهِ فِي مَمْلَكَةِ الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ : مِنْ
السَّرْيَانِيِّ وَالرُّومِيِّ وَغَيْرِهِمَا . قَالَ فِي "التَّعْرِيفِ" : وَهْمٌ عَادَةٌ أَنْ يُحْسَبُوهَا مَدَّةُ
سِنِينَ شَمْسِيَّةٍ فَيَحْرَرُ حَسَابَهَا بِالْقَمَرِيَّةِ ، وَيَذْكَرُ سِنِينَ وَأَشْهُرًا وَأَيَّامًا وَسَاعَاتٍ حَتَّى
يَسْتَكْمِلُ السِّنِينَ الشَّمْسِيَّةِ الْمُهَادِنِ عَلَيْهَا . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى التَّارِيخِ مِنْ
المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ وأستخراجها .

ومنها - أَنْ يَقَعَ الْإِشْهَادُ عَلَى كُلِّ مِنَ الْمُتَعَاقِدِينَ بِذَلِكَ ، وَلَا بِأَسَاسٍ بِإِثْبَاتِ ذَلِكَ .
وَقَدْ بَحَرَتِ الْعَادَةُ أَنَّهُ يَشْهَدُ عَلَى كُلِّ مَلِكٍ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ دَوْلَتِهِ لِيُقْضَى عَلَيْهِمْ عَلَى مَلِكِهِمْ
بِقَوْلِهِمْ وَإِنْ كَانَ مُحَاوَلًا فِي الدِّينِ . وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ «أَشْهَدُ عَلَى مُصَالِحَتِهِ مَعَ قُرَيْشٍ رِجَالًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرِجَالًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .
وَرَبَّمَا طَلَبَ النَّائِبُ عَنِ الْمَلِكِ الْغَائِبِ إِحْضَارَ نُسخةٍ مُهَادِنَةٍ مِنْ جِهَةِ مُسْتَبَدِّهِ
عَلَى مَا وَقَعَ بِهِ الْعَقْدُ ، مَشْهُولَةً بِحَطِّ الْكُتَّابِ ، مَشْهُودًا عَلَيْهِ فِيهَا بِأَهْلِ مَمْلَكَتِهِ ،
أَوْ يُجَهِّزُ إِلَيْهِ نُسْخَةً يَكْتُبُ عَلَيْهَا خَطَّهُ ، وَيَشْهَدُ عَلَيْهِ فِيهَا أَهْلُ مَمْلَكَتِهِ . وَالغَالِبُ
الْأَكْتَفَاءُ بِالرُّسُلِ فِي ذَلِكَ .

(١) أى الإيمان الواقعة فى عقود الصلح ، وإلا فالإيمان بأنواعها تقدمت فى ج ١٣ .

الفصل الثاني

في صورة ما يُكْتَبُ في المهادنات والسِّجَلَاتِ ، ومَذَاهِبِ
الْكِتَابِ فِي ذَلِكَ ، وفيه طرفان

الطرف الأول

(فيما يُسَبِّدُ ملوكُ الإسلامِ فيه بالكتابة عنهم - ويُحَدِّدُ منه نُسخًا بالأبواب
السلطانية ، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلى ملوك الكُفْر)
ثم ما يُكْتَبُ في ذلك على تَمَطُّينِ :

التمَطُّ الأول

(ما يُكْتَبُ في طَرَةِ الهدنة من أعلى الدرَج)

وقد جرت العادة أن يفتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما في معنى ذلك ،
مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صلحٍ » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوَادَعَةٌ »
أو « هذه مُوَاصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربما حُذِفَ المبتدأ وهو « هذا » وأُكْتَفِيَ
بالخبر عنه ، مثل أن يقال : « كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « كِتَابُ مُوَادَعَةٍ » أو « عَقْدُ مُصَالِحَةٍ »
وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقد صلح أنشأها لِيُنسَجَ على منوالها ، وهي :

هذا عَقْدُ صلحٍ أنتظمت به عُقُودُ المصالح ، وأنتسقت بواسطته سُبُلُ المنابح ؛
وتحدت بحسن مقدمته الغادى وترتم بمن نتيجه الرأيج . عاقد عليه السلطان فلان
فلاناً القائم في عقد هذا الصلح عن مُرسِله فلان ، حسب ما فوض إليه الأمر في ذلك
في كتابه الواصيل على يده ، المؤرخ بكذا وكذا ، المعنون بعنوانه ، المختوم بطابعه

المُتَعَارِفِ عَنْهُ - عَلَى أَنْ يَكُونَ الْأَمْرُ كَذًّا وَكَذًّا . وَيُشْرَحُ مُلَخَّصٌ مَا يَقَعُ مِنَ الشَّرْطِ
الَّتِي يَقَعُ عَلَيْهَا الْأَتْفَاقُ بَيْنَهُمَا فِي الصُّلْحِ إِلَى آخِرِهَا ؛ ثُمَّ يَقَالُ : عَلَى مَا شُرِّحَ فِيهِ .

النَّمَطُ الثَّانِي

(مَا يُكْتَبُ فِي مَتْنِ الْهُدْنَةِ ، وَهُوَ عَلَى نَوْعَيْنِ)

النَّوْعُ الْأَوَّلُ

(مَا تَكُونُ الْهُدْنَةُ فِيهِ مِنْ جَانِبٍ وَاحِدٍ)

بأن يكون المملكان متكافئين ، [فيتعاقدان إما على حصين^(١)] وإما على مالٍ يعطيه
الملك المعقودة له الهدنة لعاقدها ، كما كان يُكْتَبُ عَنْ صَاحِبِ الدِّيارِ المِصرِيَّةِ .
وَاللِّكَّابِ فِيهِ مَذْهَبَانِ :

المِذْهَبُ الْأَوَّلُ

(أَنْ تُفْتَحَ الْهُدْنَةُ بِلَفْظِ : « هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ »)

أَوْ « هَذِهِ هُدْنَةٌ أَوْ مُوَادَعَةٌ أَوْ مُوَاصَفَةٌ أَوْ سَلْمٌ أَوْ صُلْحٌ » أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ

عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي الْكَلَامِ عَلَى الطَّرِيقَةِ

وَعَلَى ذَلِكَ كُتِبَ كِتَابُ الْقَضِيَّةِ بَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَبَيْنَ قُرَيْشٍ عَامَ
الْحَدَيْبِيَّةِ ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذَكَرَهُ فِي الْكَلَامِ عَلَى أَصْلِ مَشْرُوعِيَّتِهَا .

وهذه نسخة هُدْنَةٍ كُتِبَ بِهَا عَنْ سُلْطَانِ قَوِيٍّ ، لِلْمَلِكِ مَضْعُوفٍ ، بِاشْتِرَاطِ مَالٍ
يَقُومُ بِهِ الْمَضْعُوفُ لِلْقَوِيِّ فِي كُلِّ سَنَةٍ أَوْ حُصُونٍ يَسَاهِمُ لَهَا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ ، وَهِيَ :

هَذَا مَا هَادَنَ عَلَيْهِ ، وَأَجَلَ إِلَيْهِ ، مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فُلَانًا - حَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ
وَشَرَّفَ بِهِ زَمَانَهُ - الْمَلِكِ فُلَانًا الْفُلَانِيَّ . هَادَنَهُ حِينَ تَرَدَّدَتْ إِلَيْهِ رُسُلُهُ ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهِ

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتِبَ ، وَأَمَلَهُ ، لِيُحْمِلَهُ ؛ وَسَأَلَهُ ، لِيُكْفِيَ عَنْهُ أَسَلَهُ ؛ حِينَ أَبَتْ صِفَاحُهُ أَنْ تَصْفَحَ ،
وَسَمَاءٌ مَجَّاجِهِ بِالذَّمَاءِ إِلَّا أَنْ تَسْفَحَ ؛ فَرَأَى - سَدَدَ اللَّهِ آرَاءَهُ - أَنْ الصُّلْحَ أَصْلَحَ ،
وَأَنْ مُعَامَلَةَ اللَّهِ أَرْبَحَ ؛ وَهَادَنَ هَذَا الْمَلِكُ (وَيُسَمِّيهِ) عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِهِ ، وَوَلَدَهُ
وَنَسَلِهِ ؛ وَجَمِيعَ بِلَادِهِ ، وَكُلَّ طَارِفِهِ وَتِلَادِهِ ؛ وَمَالَهُ مِنْ مَلِكٍ وَمَالٍ ، وَجِهَاتٍ
وَأَعْمَالٍ ؛ وَعَسْكَرٍ وَجُنُودٍ ، وَجُمُوعٍ وَحُشُودٍ ؛ وَرَعَايَا فِي مَمْلَكَتِهِ مِنَ الْمُقِيمِ وَالطَّارِي ،
وَالسَّائِرِ بِهَا وَالسَّارِي - هُدْنَةً مُدْتَمَّتْهَا أَوَّلُ تَارِيخِ هَذِهِ السَّاعَةِ الرَّاهِنَةِ وَمَا يَتَلَوُّهَا ، مَدَّةً
كَذَا وَكَذَا مِنْ سِنِينَ وَأَشْهُرٍ وَسَاعَاتٍ ، يَجْمَلُ فِيهَا هَذَا الْمَلِكُ فَلَانَ إِلَى بَيْتِ مَالِ
الْمُسْلِمِينَ ، وَإِلَى تَحْتِ يَدِ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ فَلَانَ قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ فِي هَذِهِ الْمَدَّةِ
كَذَا وَكَذَا - يَقُومُ بِهِ هَذَا الْمَلِكُ مِنْ مَالِهِ ، وَمِمَّا يَتَكْفَلُ بِجَبَايَتِهِ مِنْ حِزْبِيَةِ أَهْلِ بِلَادِهِ
وَنَحَائِجِ أَعْمَالِهِ ؛ عَلَى أَفْسَاطِ كَذَا وَكَذَا - قِيَامًا لَا يُحُوجُّ مَعَهُ إِلَى تَكْلُفٍ مُطَالَبَةٍ ،
وَلَا إِلَى تَتَاوُلِهِ بِيَدِ مُغَالِبَةٍ .

عَلَى أَنْ يُكْفِيَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ عَنْهُ بَأْسَ بَأْسَائِهِ ، وَخَيْلَهُ الْمُطَلَّةَ عَلَيْهِ فِي صَبَاحِهِ
وَمَسَائِهِ ؛ وَيَضُمُّ عَنْ بِلَادِهِ أَطْرَافَ جُنُودِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَيُؤَمِّنُهُ مِنْ بَطَانِهِمْ
وَسِرَاعِهِمْ ، وَيَمْنَعُ عَنْ بِلَادِ هَذَا الْمَلِكِ الْمُتَنَائِحَةِ لِبِلَادِهِ ، وَالْمُزَاجِمَةَ لِدَوَاقِفِ أَمْدَادِهِ ،
وَيُرَدِّدُ عَنْهَا وَعَمَّنْ جَاوَرَهَا مِنْ بَقِيَّةِ مَا فِي مَمْلَكَتِهِ ، وَهِيَ كَذَا وَكَذَا أَيْدِي النَّهْبِ ،
وَيُكْفِيَ الْغَارَاتِ وَيَمْنَعُ الْأَذْيِ ، وَيُرَدِّدُ مَنْ نَزَحَ مِنْ رَعَايَا هَذَا الْمَلِكِ إِلَيْهِ ،
مَا لَمْ يَدْخُلْ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ وَيَشْهَدُ الشَّهَادَتَيْنِ ، وَيُقَرَّبُ بِالْكَلِمَتَيْنِ الْمُعْتَادَتَيْنِ ؛
وَيُؤَمِّنُ جَلَابَةَ هَذَا الْمَلِكِ وَتُجَارَهُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ بِلَادِهِ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ فِي عَوَارِضِ
الْأَشْغَالِ ، وَلَا يَحْصِلُ عَلَيْهِمْ ضَرَرٌ فِي نَفْسٍ وَلَا مَالٍ ؛ وَإِنْ أَخَذَتِ الْمُتَجَرِّمَةُ مِنْهُمْ
مَالًا أَوْ قَتَلَتْ أَحَدًا ، أَمَرَ بِأَنْصَافِهِمْ مِنْ ذَلِكَ الْمُتَجَرِّمِ ، وَأَنْ يُؤَخَذَ بِحَقِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ
الْمُجْرِمِ . وَعَلَيْهِ مِثْلُ ذَلِكَ فِيمَنْ يَدْخُلُ إِلَيْهِ مِنْ بِلَادِ الْإِسْلَامِ ، وَأَنْ لَا يَفْسَحَ لِنَفْسِهِ

ولا لأحد من جميع أهل بلاده في إيواء مُسَلِّمٍ مُتَنَصِّرٍ، ولا يرخصَ لذي عَمَى منهم
ولا مُتَبَصِّرٍ .

وأنه كتبنا وردت إليه كتب مولانا السلطانِ فلانٍ أو كتب نوابه، أو أحد
[من المتعلقين] ^(١) بأسبابه، يسارع إلى أمثاله والعمل به في وقته الحاضر ولا يؤخره
ولا يمهله، ولا يطرحه ولا يمهله .

وعليه أن لا يكون عيناً للكفار، على بلاد الإسلام وإن دنت به أو بعدت
الدار، ولا يواطئ على مولانا السلطانِ فلانٍ أعداءه [وأولهم التتار] ^(٢) وأن يلتزم ما يلزمه
من المسكاة بالمسكنة، ويفعل ما تسكت عنه به الأئمة وما أشبهها من الأئسنة .
وعليه أن ينهى ما يتجدد عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهل ملته، وينبه على
سوء مقاصدهم، ويعرف ما يهيم سماعه من أحوال ما هم عليه .

هذه هدنة تم عليها الصلح إلى منتهى الأجل المعين فيه ما استمسك بشروطها،
وقام بحقوقها، ووقف عند [حدّها الملتزم به] ^(٣)، وصرف إليها عنان اجتهاده وبني
عليها قواعد وفائه، وصان من التكدير فيها سرائر صفائه، سأل هر في هذه الهدنة
المقررة، وأجابه مولانا السلطانُ إليها على شروطها المحترمة، وشهد به الحضور
بالمملكيتين وتضمنته هذه الهدنة المسطرة، وباللغة التوفيق .

قلت: الظاهر أنه كان يكتب بهذه النسخة عن صاحب الديار المصرية والممالك
الشامية، لتملك سيس، فإن في خلال كلام المقرّر الشهابي بعد قوله: ولا يواطئ
على مولانا السلطانِ فلانٍ أعداءه: «وأولهم التتار»، وقد تقدم في الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) » » (ص ١٦٩) وما يأتي قريبا .

(٣) بيض له في الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن ممتلك سيس كان يما لي التتار ويميل إليهم، ويساعدهم في حرب المسلمين ويكثر في سوادهم .



وعلى مثل ذلك يكتب لكل ملك مضعوف في مهادنة الملك القوي له .

وهذه نسخة هدية من هذا النمط، كتب بها أبو إسحق الصابي، عن صمصام الدولة، بن عضد الدولة، بن ركن الدولة، بن بويه الديلمي، بأمر أمير المؤمنين الطائع لله، الخليفة العباسي ببغداد يومئذ، لوردس المعروف بسفلاروس ملك الروم، حين حيل بينه وبين بلاده، وأتمس أن يفرج له طريقه إلى بلاده، على شروط أقرتها، وحضون يسلمها، على ما سيأتي ذكره، وهي :

هذا كتاب من صمصام الدولة، وشمس الملة، أبي كالبجار، بن عضد الدولة وتاج الملة أبي شجاع، بن ركن الدولة أبي علي، مولى أمير المؤمنين؛ كتبه لوردس ابن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم .

إنك سألت بسفارة أختينا وعدتنا، وصاحب جيشنا (أبي حرب ربار بن شهر الكويه) تأمل حالك في تطاول حبسك، واعتياقك عن مراجعة بلدك؛ وبدلت - متى أفرج عنك، وخلى طريقك، وأذن لك في الخروج إلى وطنك، والعود إلى مقر سلطانك - أن تكون أولينا وليا، ولعدونا عدوا، ولسلمنا سلما، ولحربنا حربا: من جميع الناس كلهم، على اختلاف أحوالهم وأديانهم، وأجناسهم وأجيالهم، ومقارهم وأوطانهم؛ فلا تصالح لنا ضدنا مبينا، ولا تواطئ علينا عدوا مخالفا؛ وأن تكف عن تطرق الثغور والأعمال التي في أيدينا وأيدي الداخلين في طاعتنا: فلا تجهز إليها جيشا، ولا تحاول لها غزوا؛ ولا تبدأ أهلها بمنازعه، ولا تشرع لهم في مقارعه، ولا نتناولهم بمكيدة ظاهرة ولا باطنة، ولا تقابلهم بأذية جلية ولا خفية؛ ولا تطلق لأحد ممن

ينوبُ عنك في قيادة جيوشك ، ومن ينسب إلى جُمَاتِكَ ، ويتصرف على إرادتك -
 الأجراء على شيءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كلها ؛ وأن تُفْرَجَ عن جميع
 المسلمين وأهل ذمّتهم الحاصلين في محاسن الروم ، ممن أحاطت بعنقه ربة الأسر ،
 وأشتمت عليه قبضة الحصر والقسر ، في قديم الأيام وحديثها ، وبعيد الأوقات
 وقربها ؛ المقيمين على أديانهم ، والمختارين للعود إلى أوطانهم ؛ وتنهضهم بما
 ينهض به أمثالهم ، وتمكّنهم من البروز والمسير بنفوسهم وحرهم وأولادهم وعيالاتهم
 وتابعهم ، وأصناف أموالهم ؛ موفورين مضمونين ، متبدرقين محروسين ، غير
 ممنوعين ، ولا معوقين ، ولا مطالين بمؤونة ولا كلفة صغيرة ولا كبيرة .

وأن تُسلمَ تَمَّةً سبعة من الحصون ، وهى : حصن أرحكاه المعروف بحصن
 الهندرس ، وحصن السناسة ، وحصن حويب ، وحصن اكل ، وحصن انديب ،
 وحصن حالى ، وحصن تل حرم ، برسائيقها ومزارعها إلى من نكّاتك بتسليمها إليه ،
 مع من بها من طبقات أهلها أجمعين ، المختارين لسكناها والاستقرار فيها ، بحرمهم
 وأولادهم وأسبابهم ومواشيهم وأصناف أموالهم وغلاتهم وأزوادهم وسلاحهم وآلاتهم ،
 ليكون جميعها حاصلًا في أيدينا وأيدي المسلمين ، على غابر الأيام والسنين ؛ من غير
 أن تلتمس عنها أو عن شيءٍ منها مالا ، ولا بدلا ، ولا عوضا من الأعواض كلها .
 وعلى أنك تمضى ما عقدته على نفسك من ذلك كله بابا بابا ، وتغنى به أولا أولا ،
 منذ وقت وصولك إلى أوائل أعمالك ، وإلى غاية أسديلاك عليها ، ونفاذ أمرك
 فيها ؛ ولا ترجع عن ذلك ولا عن بعضه ، ولا تؤخر شيئا منه عن الوقت الذى تقدر
 فيه عليه ، ولا ترخص لنفسك في تجاوز له ولا عدول عنه . ومتى سعت طائفة من
 الطوائف التى تنسب إلى الروم والأرمن وغيرهم في أمرٍ يخالف شرائط هذا الكتاب ،

كان عليك منهم من ذلك إن كانوا من أهل الطاعة والقبول منك ، أو مجاهدتهم
وممانعتهم إن كانوا من أهل العنود عنك ، والخلاف عليهم حتى تصرفهم عما يرومونه ،
وتحول بينهم وبين ما يحاولونه ، بمشيئة الله وإذنه ، وتوفيجه وعونه .

وأشترطت علينا بعد الذي شرطته لنا من ذلك التخليّة عن طريقك وطريق من
تضمّمته جملتك ، وأشتملت عليه رفقتك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، في جميع
أعمالنا حتى تتفدّ عنها إلى ما وراءها ، غير معوّق ، ولا معقّل ، ولا مؤذّي ،
ولا معارض ، ولا مطالب بمثوثة ولا كلفة ، ولا ممنوع من آتباع زاد ولا آله ،
ولا تؤثر عليك أحداً نأواك في أعمالك ، ونازعك سلطان بلادك ، ودافعك عنه
وناصبك العداوة فيه : من ينتسب إلى الروم والأرمن والخرزية وسائر الأمم المضادة
لك ، ولا نوقّع معه صلحاً عليك ، ولا موافقة على ما يعود بثلمك أو قدح في أمرك ،
ولا تقبل سؤال سائل ، ولا بذل باذل ، ولا رسالة مراسل فيما خالف شرائط هذا
الكتاب أو عاد بإعلاله ، أو إعلال وثيقة من وثائقه .

ومتى وقد إلينا رسول من جهة أحد من أضدادك ، راغباً إلينا في شيء يخالف
ما انعقد بيننا وبينك - أمتنعنا من إجابته إلى ملتصقه ، ورددناه خائباً خالياً من
طلبته . وإذا سلمت الحصون المقدم ذكرها إلى من نكاتبك بالتسليم إليه ، كان لك
علينا أن نقر من فيها وفي رسايقها على نعمهم ومنازلهم وضيايعهم وأملاكهم ،
وأن لا نزيّلهم عنها ولا عن شيء منها ، ولا نحول بينهم وبين ما نحويه أيديهم من جميع
أموالهم ، وأن نجريهم في المعاملات والجبايات على رؤسومهم الجارية الماضية التي
عوملوا عليها ، على مرّ السنين ، وإلى الوقت الذي يقع فيه التسليم ، من غير فسح
ولا تبيير ولا تقض ولا تبديل .

فأنهيناً إلى مولانا أمير المؤمنين الطابع لله ماسألت وآتمست، وضممت وشرطت
وأشترطت من ذلك كله، وأستأذناه في قبوله منك، وإيقاع المعاهدة عليه معك،
فأذن - أدام الله تمكينه - لنا فيه، وأمرنا بأن نحكمه ونؤديه؛ لما فيه من انتظام
الأمور، وحياطة الثغور؛ وصلاح المسلمين، والتفيس عن المأسورين .

فأمضيناه على شرائطه، وتراضينا جميعاً به، وعاقداك عليه، وحلفت لنا باليمين المؤكدة
التي يملف أهل شريعتك بها، ويتخرجون من الحنث فيها على الوفاء به؛ وأشهدنا على
نفسنا، وأشهدت على نفسك الله جل ثناؤه، وملأناكته المقرين، وأنبأه المرسلين،
وأخانا وعدتنا أبا حرب ربار بن شهراً كويه مولى أمير المؤمنين، ومن حضر المجلس
الذي جرى فيه ذلك، باستقرار جميعه بيننا وبينك، ولزومه لنا ولك .

ثم حضر بعد تمام هذه الموافقة واستمرارها، وثبوتها واستقرارها، قسطنطين
ابن بينير أخو وردس بن بينير، وأرمانوس بن وردس بن بينير، فوقعا على هذا
الكتاب، وأحاطا به علماً، وأستوعبا معرفة، وشهدا على وردس بن بينير ملك الروم
بإقراره به، والتمزامه إياه . ثم تبرع كل واحد منهما بأن أوجب على نفسه التمسك
به والمقام عليه متى قام وردس بن بينير فيما هو موسوم به من ملك الروم، وجعل
جميع الشروط النابتة في هذا الكتاب المعقود بعضها ببعض أمانة في ذمته، وطوقاً
في عنقه، وعهداً يسأل عنه، وحقاً يطالب في الدنيا والآخرة به؛ وصار هذا العقد
جامعاً لهم ولنا، ولأولادنا وأولادهم، وعقبنا وعقبهم؛ ماعشنا وعاشوا، يلزمنا
وإياهم الوفاء بما فيه علينا وعليهم، ولنا ولهم، على مرور الليالي والأيام، واختلاف
الأدوار والأعوام .

أمضى وأنفذ صمصام الدولة وشمس الملة أبو كاليبج ذلك كله على شرائطه
وحدوده، والتممه وردس بن بينير المعروف بسفلاروس ملك الروم، وأخوه

قُسَطْنِيْنُ ، وابنه أَرْمَانُوْسُ بن وردس بن بينير ، وَصَنُوا الوَفَاءَ به ، وأشهدوا كلَّ واحدٍ منهم على نَفْسِهِم بِالرِّضَا به ، طَائِعِينَ غير مُكْرِهِينَ ولا مُجْبَرِينَ ، لا عِلَّةَ بِهِم من مَرِيضٍ ولا غيره ، بعد أن قرأه عليهم ، وَفَسَّرَهُ لَهُم وخاطبهم باللغة الرومية من وُثْقٍ به ، وَفَهَّمُوا عِنْدَهُ ، وَفَقَهُوا مَعْنَى لَفْظِهِ ، وأحاطوا عِلْمًا ومعرفةً به ، بعد أن مَلَكَوا نَفْسَهُمْ ، وَتَصَرَّفُوا على أختيارهم ، وَتَمَكَّنُوا من إيثارهم ، وَرَأَوْا أن في ذلك حَظًّا لَهُم ، وَصَلَحًا لِسَانِهِمْ ، وذلك في شعبان سنة ست وسبعين وثلثمائة .

وقد كُتِبَ هذا الِكِتَابُ على ثلاث نُسخٍ متساوياتٍ ، خُلِدَتْ اثنتان منها بدواوين مَدِينَةِ السَّلَامِ ، وسَلِمَتِ الثَّالِثَةُ إلى وردس بن بينير مَلِكِ الرُّومِ وأخيه وأبنيه المذكورين معه فيه .



وهذه نُسخةٌ هُدِيَتْ من مَلِكٍ مضعوفٍ لِمَلِكِ قَوِيٍّ ، كُتِبَ بها الفقيهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ابن ^(١) أَحَدِ كُتَّابِ الأَنْدَلُسِ ، عن بعض ملوك الأندلس من المسلمين ، من أتباع « المهدي بن تومرت » القائم بدعوة الموحدين ، مع « دون فرانده » صاحب قشتالة من ملوك الفرنج بمقد الصلح على مُرْسِيَّةٍ من بلاد الأندلس ، وهي :

هذا عَقْدُنَا بعد استخارة الله تعالى وأسترشاده ، وأستعانته وأستنجاده ؛ نيابةً عن الإمارة العليَّة بِحُكْمِ أَسْتِنَادِنَا إلى أوامرها العالية ، وأرائها الهاديَّة . عَقْدُنَاهُ - والله الموفق - لِقَشْتَالَةَ مع فلانِ النَّائِبِ في عَقْدِهِ معنا عن مُرْسَلِهِ إلينا ، المَلِكِ الأَجَلِّ الأَسْنَى المَبْجَلِ « دون فرانده » مَلِكِ قَشْتَالَةَ ، وَطَلِيْطَةَ ، وَقُرْطُبَةَ ، وَلِيُونِ ، وَبَلَنْسِيَّةِ - أدام الله كرامته وميزته بتقواه - حين وصلنا من قبله كتابٌ مختمٌ بطابعه المعلوم له المتعارف عنه ، تفويضًا منه إليه ، في كل ما يعقد له وعليه . وعاقدنا على أن يكون

السلم بيننا وبين مُرسِلِهِ المذكورِ لعامينِ آثنين ، أولها شهرُ المحرمِ الذي هو أولُ سنةِ تاريخِ هذا الكتابِ ، الموافقُ من الأشهرِ العجميةِ شهرِ كذا ، على جميعِ ما تحتمُ نظرنا الآنَ من البلادِ الراجعةِ إلى الدعوةِ المهديةِ - أسماها الله تعالى - حواضِرِها وتُغوزِها ، مَواسِمِ طِها وأطرافِها ، من جزيرةِ شَقْرٍ إلى بيرةِ والمنصورةِ وما يليها - حرسِ الله جميعها - سِلماً محافظاً عليها من الجهتينِ ، محفوظاً عهدها عند أهلِ الملتينِ ؛ لا غدرَ فيها ، ولا إخلالَ في معنَى من معانيها ؛ ولا تُشنُّ في مُدنها غارَه ، ولا تُدعِرُ سَيارَه ، ومَهْمَا وقعَ اغوارُ ، أو حَدَّتِ اقدارُ ؛ على جهةِ المجاهره ، إذا اتَّصلتِ والمُستارَه ؛ فإن كان من جهةِ النصارى ، فعلى ملكِ قشتالةِ تَسريحُ الأسارى ، وردُّ الغنائمِ والنَّهبِ ، والإِنْصافُ من الغنيمَةِ إن عُدِمَتِ العينُ ، وأَعُوذُ الطَّلبِ . وعلينا مثلُ ذلكِ سَواءٍ ، ليقابلَ بالوفاءِ ؛ هذا بعد أن يُتَّبَعَ الأمرُ ويُعَلَمَ من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يُتَسَبَّبَ إلى الحُصُونِ بالغدِرِ ولا بالشرِّ ، ولا يتجاوزَ النصارى حُدُودَ بلادهم وأرضهم بشيءٍ من البناءِ ، ولا يَصِلَ من بلادِ قشتالةِ مَدَدٌ لِحُالفِنَا ، ولا مَعُونَةٌ لِمُفائِنِنَا . وكل ما يرجعُ إلى هذه الدعوةِ ، ويدخلُ في الطاعةِ من البلادِ بعد هذا العَقْدِ فداخلٌ في السلمِ ، بزيادةِ نِسْبَتِهِ من المالِ الذي دَوَّ شَرَطُ في صحِّه هذا الحُكْمِ . وإذا بقيَ من مُدَّةِ هذه المُسالمةِ شهرانِ آثنانِ ، فعلى ملكِ قشتالةِ أن يُعلمِنَا بَعَرَضِهِ في المهادنةِ أو سِوَاها ، إعلاماً من مذاهبِ الوفاءِ أو نَاحِها .

وقد أَلْتَزَمَ رسولُ المذكورِ لنا هذه الشُّروطَ ، وأحْكَمَ معنا - نيابةً عنه فيها - العُقُودَ والرُّبُوطَ ؛ على كلِّ ما ذكرناه . وألْتَزَمْنَا في هذا السلمِ مَلِكِ قشتالةِ المذكورةِ - مكافأةً عن وفاءِ عَهْدِهِ ، وصِحِّه عَقْدِهِ - مائةَ ألفِ دينارٍ واحِدةً ، وأربعينَ ألفَ دينارٍ في كلِّ عامٍ من عاصِمِي هذا الصُّلحِ المُقَدِّمِ الوُصْفِ ، مقسِّماً ذلكَ على ثلاثةِ أَجْزِمِ

في العام، ليتقاضاها نِفَاقَتُهُ، وَيُوفَى عَيْنِهَا عَلَى التَّمَامِ وَالْكَامِلِ، قَبَضَ مِنْهَا كَذَا لِيُوصِّلَهَا إِلَى مُرْسَلِهِ، وَأَلْتَرَّمَ لَهُ تَخْلِيصَ بَاقِي كَذَا عِنْدَ أَنْقِضَاءِ كَذَا عَلَى أَوْفَى وَجْهِهِ وَأَكْمَلِهِ؛ فَإِنْ وَفَى لَهُ بِذَلِكَ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ يَوْمًا الْمُؤَقَّتَةَ، فَالسَّلْمُ بَاقِيَةٌ وَحُكْمُهَا نَابِتٌ، وَإِلَّا فَالسَّلْمُ مَفْسُوحَةٌ وَلَا حُكْمَ لَهَا إِنْ عَجِزَ عَنِ الْوَفَاءِ لَهُ، بِحُصُولِ مَا بَقِيَ مِنَ الشُّرُوطِ فِي اسْتِصْحَابِ الْحُكْمِ وَأَتِّصَالَ الْعَمَلِ؛ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

وعلى ما تَضَمَّنَتْهُ هَذَا الْكِتَابُ أَمْضَى فُلَانٌ - أَعَزَّهُ اللَّهُ - بِحُكْمِ النِّيَابَةِ، عَنِ الْأَمْرِ الْعَالِي - أَسْمَاءُ اللَّهِ - هَذَا الْعَقْدَ الصَّالِحِيَّ، وَأَشْهَدُ بِمَا فِيهِ عَلَى نَفْسِهِ وَحَضْرَهُ الْمَسْلُورِ طُورِ (?) الْمَذْكُورِ، فَتَرْجِمَ لَهُ الْكِتَابُ وَبَيَّنَّتْ لَهُ مَعَانِيَهُ، وَقَرَّرَ عَلَى مَضَامِينِهِ، فَالْتَرَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ عَنِ مُرْسَلِهِ مَلِكٍ قَشْتَالَةَ حَسَبَ مَا قُوضَ إِلَيْهِ فِيهِ؛ وَأَشْهَدُ بِذَلِكَ عَلَى نَفْسِهِ، فِي صِحَّتِهِ وَجَوَازِ أَمْرِهِ فِي كَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ لِمَا يَرْضَاهُ، وَمُقَدِّمُ الْخَيْرِ وَالْخَيْرَةِ فِيمَا قَضَاهُ، بِمَنَّةِ وَالسَّلَامِ .

المذهب الثاني

(أن تُفْتَحَ الْمُهَادِنَةُ قَبْلَ لَفْظِ «هَذَا» بِنَعْدِيَّةٍ)

وهذه نُسْخَةٌ هُدْنِيَّةٌ بَيْنَ مَلَائِكِينَ مُتَكَافِئِينَ دُونَ تَقْرِيرِ شَيْءٍ مِنَ الْجَانِبِينَ، كَتَبَ بِهَا الْفَقِيهُ الْمَحْدِثُ أَبُو الرَّبِيعِ بْنِ سَالِمٍ مِنْ كُتَّابِ الْأَنْدَلُسِ، فِي عَقْدٍ صَاحِحٍ عَلَى بَلَنَسِيَّةٍ وَغَيْرِهَا مِنْ شَرَقِ الْأَنْدَلُسِ، وَهِيَ :

وبعدُ، فِهَذَا كِتَابُ مُوَادَعَةٍ أَمْضَى عَقْدَهَا وَأَلْتَرَمَهُ، وَأَبْرَمَ عَهْدَهَا وَتَمَمَهُ؛ فُلَانٌ لِلدِّارِ أَرْغُونِ، وَقَوْمُ بَرْجُلُونَةَ، وَيَرْسَبُ مَقْتِ بَشَلِي، حَافِظَةُ (?) بِنَ بَطْرَةَ، بِنِ أَدْفُونَشِ، ابْنِ رِيْمُونْدِ، أَدَامُ اللَّهِ كَرَامَتَهُ بِتَقْوَاهُ لَهُ خَاتِمًا وَعِنَوَانًا، الْمَعْهُودِ صِدُورِهِ فِي أَمْثَالِهَا مِنَ الْمَرَاوِضَاتِ الصَّالِحِيَّةِ تَضَرُّعًا وَإِعْلَانًا؛ مُتَضَمِّنًا مِنَ الْإِحَالَةِ فِي عَقْدِ الْمُسَالَمَةِ

عليه ، والتفويض في إبرام أسبابها والتزام فصولها وأبوابها إليه ؛ ما أوجب صحیح النظر ، وصريح الرأي المُعتَبَرِ ؛ مقارَبَةً فيه ، وموافقَةً منه على ما يحفظ حق المسلمين ويُوقِّيه ، جُنُوحًا منه إلى ما جَنَحَ إليه من ذلك مُتَقَاضِيهِ ، وتحرُّرًا للعمل على شاكِلَةِ الصَّوابِ والإيثارِ لما يَتَضَيِّهِ ، بعد مُحاولاتٍ بلغ منها النَّظَرُ غَايَتَهُ من الاجتهاد ، وإِراغَاتٍ قَرَنَ بها من استخارةِ اللهِ تعالى وأستنجادِهِ ما رضى فيه من فضله العَمِيمِ مَعهُودِ التَّسَدِيدِ والإِنجَادِ ؛ فأجلى ذلك عن إمضاءِ عَهْدِ السَّلْمِ لِمَلِكِ أَرْغُونَ على بِلَنْسِيَّةِ وكافَّةِ جَهاَتِها أَطرافًا ومَواسِطَ ، وتُغورًا وبَسائِطَ ؛ وكذلك شاطِبَةُ ودانِيهِ ، وما يَنْتَظِمُ معهما من أَحوازِهِما ويرجعُ إلى حُكْمِ بِلَنْسِيَّةِ وحالِها من الجِهةِ النَّائِيَةِ والدانِيَةِ ؛ لِمَدَّةِ عامَيْنِ اثْنَيْنِ ، شَمْسِيَيْنِ مُتَصلِيْنِ ، وأيامٍ مُتَصلَةٍ بهما كذلك . وهذا يَحْصُرُ أمرَهُ ، ويُحَقِّقُ عَدَدَهُ ؛ أن تَفْتَحَهُ بيومِ الأَحَدِ الرَّابِعِ والعَشرِينِ لَشَهْرِ نَوامِبرِ ، المُوافِقِ لِعاشِرِ ذِي القَعْدَةِ المُؤرَّخِ به هذا الكِتابُ ، الذي هو من عامِ أَحَدٍ وعَشرِينِ وَسِمائَةٍ بَتارِيخِ الحِجْرَةِ - مُسَلِّمَةً تَضَعُ بها الحَرْبُ بَيْنَ الجانِبَيْنِ أوزارَها ، وتُهدُّهُمُ لِلهُدَى بَيْنَ الطائِفَتَيْنِ آثارَها ، وترْفَعُ اللَّبَنَةَ (?) عَمَّنْ ذَكَرَ مِنَ المَلْتِنِ أذِيَّتِها وأضْرارَها ؛ البرِّ والبَحْرِ في ذلك سِيَّانِ ، والمُساوَرَةِ فيها بِالأَدْيِ والمُجَاهِرَةِ مِمَّنودانِ ، وَحَقِيقَةُ الأَلْزامِ من ذلك غَيِّ بَيانِهِ ووُضُوحِهِ عن الإيضاحِ والتَّبيانِ ؛ لا التَّباسِ ولا إِشْكالِ ، ولا غائِلَةٍ ولا أَحْتِيالِ ؛ ليس إِلا الأَمْنُ الكافِلُ لِكافَّةِ من تَشْتَمِلُ عليه كافَّةُ المَواضِعِ المذْكَورَةِ مِنَ المِساكينِ ، ومن تَحْوِيهِ بِإِذْنِ مَلِكِ أَرْغُونَ مِنَ الطَّوائِفِ أَجمَعِينَ . وكلُّ مُتَمِّمٍ إلى خِدْمَةِ هَذِهِ المِلكَةِ الأَرْغونِيَّةِ بما كان من وُجُوهِ الأَنْماءِ ، أو ناظِرٍ في جُزءٍ منها كائِنًا ما كان من الأَجْزاءِ ؛ فهو في هذا الحُكْمِ دَاخِلٌ ، وتَحْتِ هَذَا الرِّبْطِ الصُّلْحِيِّ واصلٌ ؛ ولا حُجَّةٌ لِمَنْ كان له مِنْهُمُ حِصْنٌ يَنْفَرِدُ بِهِ عن هَذِهِ المِلكَةِ ، على ما لَهِمُ في ذلك مِنَ العِوائِدِ المُتَعارَفَةِ . فإن تَقَضَّ بِجُزءٍ مِنْهُمُ وَذَهَبَ إلى أن يَكُونَ في حِصْنِهِ مُنْفَرِدًا فهو

وما آختر، إذا تنكَّب الإضرار، فإن رام التَّطَرُّقَ بشيءٍ إلى أحدِ الجانبين كان على المسلمين وعلى أهل أرغونَ التظافرُ على استنزاله، والتظاهرُ على قتاله، حتى يكفوا ضرره، ويعفوا أثره .

والحدودُ الفاصلةُ بين الجزأين هي أوساطُ المسافات، على ما عرِف من مُتقدِّم المسلمات، ويدَّكُلُ فَرِيقٌ منهم مُطلقةً فيما وراءَ حدِّه بما شاء، من آنتشاءِ برسمِ الإصلاح والانشاء، وكلٌّ من قصد المسلمين من رجال المملكة الأرغونيةَ بريئاً من تبعَةِ الفسادِ فقبُولُ قصِّده مُباح، وليس في استخدايمه والإحسانِ إليه جُنَاح، والطريقُ للتجارِ المعهودِ وُصُولهم من بلادِ أرغونَ إلى بلنسيةَ في البرِّ والبحرِ مباحةُ الأنتياب، مَحْمُوفَةٌ بالأمنةِ التامةِ في الحيثَةِ والدَّهَاب، وعلى تجارِ البحرِ منهم أن يتجنَّبوا رُكُوبَ الأجنانِ الحرِّيَّةِ التي يُمكنُ بها الإضرار، ويستغنى عن (١) التجارِ، والأستِهابُ مرفوعٌ عن هؤلاءِ الواصلين برسمِ التجارةِ على آختلافهم، وتبائينِ أصنافهم، فيما لم تجنِّه أيديهم، ولا كان منسُوباً إلى تعديهم، وكلُّ مُعتقِلٍ من الطائفتين بأذنِ شيءٍ يُطَرِّقُ إلى حُكْمِ هذه السِّلْمِ خلافاً، أو يُلحِقُ بعهدِها إخلافاً، فعلى أهلِ موضعه الإنصافُ من جنَّاه، وصرفُ ماسلته يَدَاه، وإحضاره مع ذلك يُعاقبُ بما أتاه. وليس لأحدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ بأسترسال، إلى الإنصافِ من جنائيةِ حال، بل يقومُ بدفعِ ذلك حيثُ يُحب، ويطلبه في الموضعِ الذي ينبغي فيه الطلَب، حتى يخاطبَ الناظرُ على المملكةِ التي نُسبتُ إليها هذه الإذايه، وصدرتُ عن أهلها [تلك] الإحنايه، بطلبِ الإنصافِ من عدوانها، وتعادُ عليه الأعداؤُ في شأنها، وعليه - ولا بُدَّ - التخليصُ منها عملاً بالوفاءِ الذي يجبُ العملُ به، وقياماً بحقِّ العهدِ الذي أُكِّدَ الأعتلاقُ بسببِهِ، ومتى غادر مغادرٌ من أحدِ الملتين حصناً من حصون

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوبها » .

الأخرى، فله الأمان على الكمال، والرعى الحافظ للنفس والمال؛ حتى يلحق بأمانه، ويعود سالماً إلى وطنه.

فعلی هذه الشروط المحققة، والربوط الموثقة، انعقد هذا السلم، وعلى من ذكر من المسلمين وأهل أرغون الحكم؛ وهذا الكتاب ينطق في ذلك بالحق اللازم للطائفتين، ويعرب عن حقيقة ما انعقد بين من سمي من أهل الملتين؛ والتزم كلّه عن ملك أرغون النائب عنه بتقويضه إليه، وأستنابته إياه عليه؛ الزعيم بطره ابن فدايف بكدريش(?) على أتم وجوه الالتزام، وأبرم ذلك ملك أرغون بأوثق علائق الإبرام، وكل ذلك بعد أن بينت له الفصول المتقدمة غاية التبيين وأفهمها حق الإفهام؛ وألزم نفسه مع ذلك وصول كتاب هذا الملك الذي تولى النيابة عنه في هذا العقد، مصرحاً بالترامه وإمضائه فيه عمله، وفق ما تضمنه كتابه الذي أرسله، وأشهد مع ذلك زعماء دولته وكبراء القائمين عليه، تحقيقاً لما به، وتوثيقاً لمبناه، إن شاء الله تعالى.

النوع الثاني

(من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر - أن تكون الهدنة

من الجانبين جميعاً)

وفيها للكتاب ثلاثة مذاهب:

المذهب الأول

(أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة» ونحو ذلك)

قال في "التعريف": وسبيل الكتابة فيها أن يكتب بعد البسملة: هذه هدنة. أستقرت بين السلطان فلان والسلطان فلان، هادن كل واحد منهما الآخر على الوفاء عليه، وأجل له أجلاً ينتهي إليه؛ لما أقتضته المصلحة الجامعة، وحسبت به مواد

الآمالِ الطَّامِعِ ؛ تَأَكَّدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابُهَا ، وَفُتِحَتْ بِهِمَا أَبْوَابُهَا ؛ وَعَالِيَهُمَا عَهْدُ اللَّهِ عَلَى الْوَفَاءِ بَشْرُطِهَا ، وَالْإِتِّهَاءِ إِلَى أَمْدِهَا ، وَمَدَّ حَبْلَ الْمُوَادَعَةِ إِلَى آخِرِ مُدَدِهَا ؛ ضَرْبًا لَهَا أَجَلًا أَوَّلُهُ سَاعَةٌ تَارِيخُهُ وَإِلَى نَهَايَةِ الْمُدَّةِ ، وَهِيَ مُدَّةٌ كَذَا وَكَذَا ؛ عَلَى أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يُعْمَدُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ صَاحِبِهِ سَيْفَ الْحَرْبِ ، وَيَبْكُفُ مَا بَيْنَهُمَا مِنَ السَّمَامِ الرَّاشِقَةِ ، وَتُعَقَلُ الرِّمَاحُ الْخَطَّارَةُ ، وَتُقَرَّرُ عَلَى مَرَابِطِهَا الْخَيْلُ الْمُغِيرَةُ ، وَبِلَادُ السُّلْطَانِ فَلَانٍ كَذَا وَكَذَا ، وَبِلَادُ السُّلْطَانِ فَلَانٍ كَذَا وَكَذَا ، وَمَا فِي بِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا مِنَ الثُّغُورِ وَالْأَطْرَافِ وَالْمَوَانِي وَالرَّسَاتِيقِ وَالْجِهَاتِ وَالْأَعْمَالِ : بَرًّا وَبَحْرًا ، وَمَهَلًا وَجَبَلًا ، وَنَائِيًا وَدَانِيًا ، وَمَنْ فِيهَا : مِنْ مَالِكِهَا الْمَسْمُومِ وَبَيْتِهِ ، وَأَهْلِهِ وَأَمْوَالِهِ ، وَجُنْدِهِ وَعَسَاكِرِهِ ، وَخَاصٌّ مِنْ يَتَعَلَّقُ بِهِ وَسَائِرِهِ ؛ وَرَدَايَاهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهِمْ ، وَعَلَى أَنْفِرَادِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ ؛ الْبَادِي وَالْحَاضِرُ ، وَالْمَقِيمُ وَالسَّائِرُ ، وَالتَّجَّارُ وَالسَّفَّارَةُ ، وَجَمِيعُ الْمُتَرَدِّدِينَ مِنْ [سَائِرِ] النَّاسِ أَجْمَعِينَ . عَلَى أَنْ يَكُونَ عَلَى فَلَانٍ كَذَا وَ[عَلَى فَلَانٍ] كَذَا [وَيَعِينُ مَا يَعِينُ] ^(١) : مِنْ مَالٍ ، أَوْ بِلَادٍ ، أَوْ مَسَاعِدَةٍ فِي حَرْبٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ ، يَقُومُ بِذَلِكَ لِصَاحِبِهِ ، وَيَنْهَضُ مِنْ حَقِّهِ الْمَقَرَّرِ بِوَاجِبِهِ ؛ وَعَلَيْهِمَا الْوَفَاءُ الْمَوْكَّدُ الْمَوَاطِيقِ ، وَالْمَحَافِظَةُ عَلَى الْعَهْدِ وَالْتِمَسُّكُ بِسَبِيهِ الْوَثِيقِ - هَذِهِ صَحِيحَةٌ صَرِيحَةٌ ، نَطَقًا بِهَا ، وَتَصَادِقًا عَلَيْهِا ، وَعَلَى مَا تَضَمَّنَتْهُ الْمَوَاصِفَةُ [الْمُسْتَوْعِبَةُ بَيْنَهُمَا فِيهَا ، وَأَشْهَدَا اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِمَضْمُونِهَا ، وَتَوَاقَعَا عَلَى دِيُونِهَا ، وَشَهَدَا مِنْ حَضَرٍ مَقَامِ كُلِّ مِنْهُمَا عَلَى هَذِهِ الْمُدَّةِ وَمَا تَضَمَّنَتْهُ مِنَ الْمَوَاصِفِ] ^(١) ، وَجَرَتْ بَيْنَهُمَا عَلَى حُكْمِ الْمُنَاصِفِ ، رَأْيًا فِيهَا سُكُونِ الْجَمَاحِ ، وَخِصَّ طَرَفِ الطَّلَاحِ .

وَعَلَى أَنَّ عَلَى كُلِّ مِنْهُمَا رِعَايَةَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالرَّعِيَّةِ ، وَحَمَلَهُمْ فِي قَضَائِهِمْ عَلَى الْوُجُوهِ الشَّرْعِيَّةِ ؛ وَمَنْ نَزَحَ مِنْ إِحْدَى الْمَلَائِكَتَيْنِ إِلَى الْأُخْرَى أُعِيدَ ، وَمَا أُخِذَ مِنْهَا بِالْيَدِ الْغَاصِبَةِ اسْتُعِيدَ ؛ وَبِهَذَا تَمَّ الْإِشْهَادُ ، وَقُرِيَ عَلَى الْمَسَامِعِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهُادِ .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٧٠ .

المذهب الثاني

(أن تُفتتح الهدنة : بلفظ : « استقرت الهدنة بين فلان وفلان »)

ويقدم فيه ذكر الملك المسلم)

وعلى ذلك كانت الهدن تُكتب بين ملوك الديار المصرية ، وبين ملوك الفرنج ، المتغلبين على بعض البلاد الشامية .

وهذه نسخة هدنة على هذا النمط : دون تقرير من الجانبين ؛ كتبت بين الملك الظاهر « بيبرس البندقدارى » صاحب الديار المصرية ، وبين الاستبارة ^(١) بحصن الأكراد والمرقب ، فى رابع شهر رمضان سنة خمس وستين وسمائة ، وهى :

استقرت الهدنة المباركة الميمونة بين مولانا السلطان الملك الظاهر ركن الدين أبى الفتح « بيبرس » الصالحى النجمى ، وبين المقدم الكبير المهام فلان مقدم بيت الاستبارة الفلانى بعكا ، والبلاد الساحلية ، وبين فلان مقدم حصن الأكراد ، وبين فلان مقدم حصن المرقب ، وجميع الإخوة الاستبارة ، لمدة عشر سنين متوالية وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات : أولها يوم الاثنين رابع رمضان سنة خمس وستين وسمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، الموافق لليوم الثلاثين من أيام سنة ألف وخمسمائة وتسعة وسبعين سنة للإسكندر بن فيلبس اليونانى - على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة المباركة ، واقع عليها الاتفاق المبارك ، ومستقرتها لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة ، وبلادها الموصوفة ؛ وقراها وضياعها ، وسهولها وجبلها ، وعامرها وغامرها ، ومزروعها ومعطلها ، وطرقاتها ومياهها ، وقلاعها

(١) الاستبارة بتقديم الموحدة على التاء هورئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاستبارة .

(٢) بياض بالأصول .

وحُصُونِهَا - عَلَى مَا يُفْصَلُ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ، وَيُشْرَحُ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ لِلدَّعَةِ الْمَعِينَةِ إِلَى آخِرِهَا .

وعلى أن المستقرَّ بمملكةٍ محصَّ المحروسةِ أنَّ جميعَ المَوَاضِعِ والقُرَى والأراضي التي من نَهْرِ العاصِي، وتغرَّبَ إلى الحدِّ المعروفِ من العَرَبِ لبلدِ المُنَاصَفَاتِ : عامَّةً وداثراً، وبما فيها من الغلَّاتِ صَيفِيَا وَشَتَوِيَا، والعدادِ وَغَيْرِهَا من الفوائدِ جَمِيعِهَا - تَقَرَّرَ أن يكونَ النِّصْفُ من ذلكَ للسلطانِ المَلِكِ الظاهرِ رُكْنِ الدنِيَا والدينِ أَبِي الفَتْحِ «بيبرس»، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسِيْتَارِ .

وعلى أن كلاً من الجهتين يَتَّهَدُ وَيَحْرِصُ في عِمَارَةِ بَلَدِ المُنَاصَفَاتِ المذكورةِ بِجُهْدِهِ وَطَاقَتِهِ، وَمَنْ دَخَلَ إِلَيْهَا من الفلَّاحينِ بَدَوَابَّ، أو من التُّركَانِ، أو من العَرَبِ، أو من الأَكْرَادِ، أو من غيرهم، أو الفُنَّاءِ - كانَ عليهمُ العِدَادُ بِكَارِي العَادَةِ . ويكونَ النِّصْفُ للسلطانِ، والنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسِيْتَارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظاهرِ يَجِي بِبَلَدِ المُنَاصَفَاتِ المَقْدَمِ ذِكْرُهَا من جَمِيعِ عَسْكَرِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَمَنْ هُوَ فِي حُكْمِهِ وَطَاعَتِهِ، ومن جَمِيعِ المُسْلِمِينَ الدَّاخِلِينَ في طَاعَتِهِ كَافَّةً . وكذلكَ مَقْدَمُ بَيْتِ الأَسِيْتَارِ وَأَصْحَابِهِ يَجْمُونَ بِبِلَادِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الدَّاخِلَةَ في هَذِهِ الْهُدْنَةِ .

وعلى أن جَمِيعَ من يَتَعَدَّى نَهْرَ العاصِي مُغْرَباً لِرَعِي دَوَابِّهِ : سواءً أَقَامَ أو لَمْ يَقُمْ، كانَ عليه العِدَادُ سِوَى فُنَّاءِ البَلَدِ ودَوَابِّهِ، ومن يَخْرُجُ من مَدِينَةِ حِمَصَ وَيَعُودُ إِلَيْهَا، ومن غَرَبَ مِنْهُمْ وماتَ كانَ عليه العِدَادُ .

وعلى أن يكونَ أَمْرُ فَلَاحِي بَلَدِ المُنَاصَفَاتِ في الحَبْسِ والإِطْلَاقِ والحِجَابِيَةِ راجِعاً إلى نَائِبِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ، بِاتِّفَاقٍ من نَائِبِ بَيْتِ الأَسِيْتَارِ، على أن يَحْكُمَ فِيهِ بِشَرِيعَةِ الإِسْلَامِ إنْ كانَ مُسْلِماً، وإنْ كانَ نَصْرَانِيّاً يَحْكُمُ فِيهِ بِمَقْتَضَى دَوْلَةِ حِمَصَ الأَكْرَادِ .

وأن يكون الفلاحون الساكنون في بلاد المناصفت جميعها مُطْلَقِينَ من السَّخْرِ من
الجانين .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يأخذُ في بَلَدِ المناصفت المذكورة: من تُرْكَانٍ ولا عَرَبٍ
ولا أَكْرَادٍ ولا غَيْرِهِمْ عِدَادًا ولا حَقًّا من حقوق بَلَدِ المناصفت، إلا وَيَكُونُ النِّصْفُ
منه لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ، والنِّصْفُ الآخَرُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يَتَقَدَّمُ بِمَنْعِ أَحَدٍ من الفَلَّاحِينَ المعروفين بِسُكْنَى بلاد
المناصفت من الرُّجُوعِ إِلَيْهَا، والسَّكَنِ فِيهَا إِذَا أَخْتَارُوا العُودَ. وكذلك بَيْتُ الأَسْتَبَارِ
لا يَمْنَعُونَ أَحَدًا من الفَلَّاحِينَ المعروفين بِسُكْنَى بلاد المناصفت من الرُّجُوعِ إِلَيْهَا
وَالسَّكَنِ فِيهَا إِذَا أَخْتَارُوا العُودَ .

وعلى أن المَلِكَ الظَاهِرَ لا يَمْنَعُ أَحَدًا من العُرَبَانِ وَالثَّرْكَانِ وغيرهم : مِمَّنْ يُودَى
العِدَادَ، من الدُّخُولِ إِلَى بَلَدِ المناصفت، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مُحَارِبًا لِبَعْضِ الفَرَنْجِ الدَّاخِلِينَ
فِي هَذِهِ الهُدُنَةِ، فَهَذَا المَنْعُ من ذَلِكَ . وَأَنْ تَكُونَ خُشَارَاتُ المَلِكِ الظَاهِرِ وَخُشَارَاتُ
عَسَاكِرِهِ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِ تَرَعَى فِي بَلَدِ المناصفت آمِنَةً من الفَرَنْجِ وَالنَّصَارَى
كَأَفَّةً . وَكَذَلِكَ خُشَارَاتُ بَيْتِ الأَسْتَبَارِ وَخُشَارَاتُ عَسَاكِرِهِمْ وَغِلْمَانِهِمْ وَأَهْلُ بَلَدِهِمْ
تَرَعَى آمِنَةً من المُسْلِمِينَ كَأَفَّةً فِي بَلَدِ المناصفت . وَعِنْدَ خُرُوجِ الخُشَارَاتِ من المَرَاغَى
وَتَسْلِيمِهَا لِأَصْحَابِهَا، لا يُؤْخَذُ فِيهَا حَقٌّ وَلَا عِدَادٌ وَلَا تُعَارَضُ من الجُهْتِينَ .

وعلى أن تكون مِصِيدَةُ السَّمِكِ الرُّومِيَّةِ مَوْجَا تَحْصَلَ مِنْهَا، يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ
لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ . وَكَذَلِكَ المَصَايِدُ الَّتِي فِي الشَّطِّ العَرَبِيِّ من
العاصِي يَكُونُ النِّصْفُ مِنْهُ لِلْمَلِكِ الظَاهِرِ وَالنِّصْفُ لِبَيْتِ الأَسْتَبَارِ . وَيَكُونُ لِبَيْتِ
الأَسْتَبَارِ فِي كُلِّ سَنَةٍ نَحْسُونَ دِينَارًا صُورِيَّةً عَنِ القَشِّ، وَيَكُونُ القَشُّ جَمِيعُهُ لِلْمَلِكِ
الظَاهِرِ يَتَصَرَّفُ نَوَابَهُ فِيهِ عَلَى حَسَبِ اخْتِيَارِهِمْ . وَيَكُونُ اللِّيَنُوفُ مَنَاصِفَةً: النِّصْفُ

منه للملك الظاهر والنصف لبنت الاسبتار . وتقرر أن الطاحون المستجد المعروف بإنشاء بيت الاسبتار، الذي كان حصل الحرب فيه، والبستان الذي هناك المعروف بإنشاء بيت الاسبتار أيضا يكون مناصفة . وأن يكون متولى أمرهما نائب من جهة تواب السلطان ونائب من جهة بيت الاسبتار ، يتولى أمرهما والنصف فيهما وقبض متحصليهما . وتقرر أن مهما يجدد بيت الاسبتار على الماء الذي تدور به الطاحون ويسقى البستان من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مناصفة بين الملك الظاهر وبين بيت الاسبتار .

وأما المستقر بمملكة شيزر المحروسة ، فهي شيزر ، وأبو قبيس وأعمالها ، وعيناب وأعمالها ، ونصف زاوية بغراس المعروفة بحماية بيت الاسبتار وأعمالها ، وجميع أعمال المملكة الكسرية والبلاد المذكورة بحدودها المعروفة بها ، وقراها المستقر بها ، وسهلها وجبلها وعامرها وغازها .

وما استقر بمملكة الملك المنصور ، ناصر الدين « محمد » بن الملك المظفر أبي الفتح « محمود » بن الملك المنصور « محمد » بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهي : حماة المحروسة وقلاعها ومدنها ، والمعرة وقراها وسهلها وجبلها وأنهارها ، ومناقعها وثمارها وعامرها وغازها ، وبلاد رقية وبلاد بارين بحدودها ونحومها وعامرها ودائرها وجميع من فيها وما فيها - على أن الملك المنصور لا يرخص للتركان ولا للعرب أن يتزلوا بلد رقية وبارين سوى ثلاثين بيتا يحملون الغلة لقلعة بارين ، وإن أرادوا الزيادة يكون بمراجعة الإخوة الاسبتارية والاتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنه إن تعدى أحد من أصحابه بأذية ، أو تعدى أحد من القرنجة في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فإن أنكشفت الأخيذة ،

أعيدت . وإلا تُحَلَّفُ الْجِهَةُ المدْعَى عليها أنها ما علمت وما أحست ، وكما لهم ،
كذلك عليهم .

والمستقر لمملكة الصالحين : نجيم الدين وجمال الدين ، والأمير صارم الدين نايبي
الدعوة المباركة ، وولد الصاحب رضى الدين ، وهى : مصياف والرصافة وجميع
قلاع الدعوة وحصونها وسهلها ووعيرها ودامرها ودائرها ، ومدنها وبلادها ،
وضياعها وطرقاتها ، وميادها ومنابعها ، وجميع بلاد الإسماعيلية بجبل بئرا واللكام ،
وكل ما تشتمل عليه حدود بلاد الدعوة وتحوها - أن يكون الجميع آمنين من على
الرصيف الذى بسيزر إلى نهاية الأراضى التى بحصون الدعوة وبلادها . وحماية
القرية المعروفة بعرطار (؟) يكون له أسوة الإسماعيلية . وإن علم الأصحاب أن أحدا
من الإسماعيلية قد عبر إلى بيت الاستتار لأذية ، أعلموا بيت الاستتار قبل أن تجرى
أذية ، وما لم يعلموا به عليهم اليمين أنهم ما علموا به ، وإن لم يخلقوا يردوا الأذية
التي تجرى .

وتقرر أن يكون فلاحو بيت الاستتار راحين وغازين ومتصرفين فى بيعهم
وشرائهم ، مطمئنين لا يتعدى أحدٌ عليهم . وكذلك جميع فلاحى بلاد الإسماعيلية
لا يتعدى أحدٌ عليهم ، وأن يكونوا آمنين مطمئنين فى جميع بلاد الاستتارية ، وإن
تعدى أحدٌ من الجهتين فى سوقٍ أو طريقٍ ، فى ليلٍ أو نهارٍ ، تكون المهلة خمسة عشر
يوما ؛ فإن ردت الشكوى كلها فما يكون إلا الخير بينهم ، ومن توجهت عليه اليمين
حلف ، ومن لم يفعل يحلف وإلا يرد الأذية . وتكون الضيعة التى رهنها عبد المسيح
رئيس المرقب الاستتار ، وهى المشيرة تكون آمنة إن كان الحال استقر عليها إلى
آخر وقت عند كتابة هذه الهدنة المباركة بين الأصحاب وأصحابهم . ويجعل الأمر
فى الحقيق .

ويطل ما هو على بلاد الدعوة المباركة من جميع ما لبثت الاستتار على حماية مصياف والرصافة، وهو في كل سنة ألف ومائتا دينار قومصية، ونمسون مئدا حنطة، ونمسون مئدا شعيرا، ولا تبقى قطعة على بلاد الدعوة جميعها، ولا يتعرض بيت الاستتار ولا توأهم ولا غلمانهم إلى طلب قديم من ذلك ولا جديد، ولا منكسر ولا أضر، ولا حاضر ولا مستقبل على اختلافه .

وتقرر أن تكون جميع المباحات من الجهتين مطلقة مما يختص بالملكة الحمصية، يسترزق بها الصعاليك . وأن توأب الملك الظاهر يمجونهم من أذية المسلمين من بلاده المذكورة، وأن توأب بيت الاستتار يصونونهم ويحرسونهم ويحجرونهم من النصارى والفرنج من جميع هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة . ولا يتعرض أحد من المسلمين كافة من هذه البلاد الداخلة في [هذه] الهدنة [إلى بلاد الاستتارية] بأذية ولا إغارة، ولا يتعرض أحد من جميع الفرنجة من هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة بحدودها الحاربية في يد توأب الاستتار وفي أيديهم، إلى بلاد الملك الظاهر بأذية ولا إغارة .

وعلى أنه متى دخل في بلاد المناصقات أحد ممن يجب عليه العداد وأنتع من ذلك، وكان عداد إحدى الجهتين حاضرا : إما عداد ديوان الملك الظاهر، وإما عداد بيت الاستتار، فلنائب العداد الحاضر من إحدى الجهتين أن يأخذ من ذلك الشخص المتنع عن العداد أو الخارج من بلد المناصقات رهنا بمقدار ما يجب عليه من العداد، بحضور رئيس من رؤساء بلد المناصقات، ويترك الرهن عند الرئيس ودیعة إلى أن يحضر النائب الآخر من الجهة الأخرى، ويوصل إلى كل من الجهتين حقه من العداد .

وإن خرج أحد ممن يجب عليه العداد، وعجز النائب الحاضر عن أخذ رهنه : فإن دخل بلدا من بلاد الملك الظاهر، كان على التوأب إيصال بيت الاستتار إلى حقه

مما يجب على الخارج من العداد . وكذلك إن دخل الخارج المذكور إلى بيت الاستتار، كان عليهم أن يوصلوا إلى نواب الملك الظاهر حَقَّهُمْ مما يجب على الخارج من العداد . وكذلك يعتمد ذلك في المملكة الحموية وبلاد الدعوة المحروسة .

وعلى أن التجار والسفّار والمترددين من جميع هذه الجهات المذكورة يكونون آمنين من الجهتين : الجهة الإسلامية ، والجهة الفرنجية والنصرانية ، في البلاد التي وقعت هذه الهدنة عليها - على النفوس والأموال والدواب وما يتعلق بهم ، يجهم السلطان ونوابه ، ويتعاهدون البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من جميع المسلمين . ويجهم بيت الاستتار في بلادهم الواقع عليها الصلح وفي بلد المناصفت - من الفرنج والنصارى كافة .

وعلى أن يتردد التجار والمسافرون من جميع المترددين على أى طريق اختاروه من الطرق الداخلة في عقد هذه البلاد الداخلة في هذه الهدنة المباركة المختصة بالملك الظاهر ، وبلاد معاهديه ، وبلاد المناصفت ، وخاص بيت الاستتار والمناصفت ، يكون الساكنون والمترددون في الجهتين آمنين مطمئنين على النفوس والأموال ، تحمي كل جهة الجهة الأخرى .

وعلى أن ما يختص بكل جهة من هذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . لا يكون عداد على ما لها في المناصفت : من الدواب والغنم والبقر والجبال وغيرها ، على العادة المقررة في ذلك .

وعلى أن إطلاق الرؤساء يكون باتفاق من الجهتين : الإسلامية ، والفرنجية الاستتارية . ومتى وقعت دعوى على الجهة الأخرى ، وقف أمرها في الكشف عنها أربعين يوماً ، فإن ظهرت أعيدت على صاحبها ، وإن لم تظهر حلف ثلاثة

فَقَرَّ مَنْ يَخْتَارُهُمْ صَاحِبُ الدَّعْوَى عَلَى مَا يَعْلَمُونَهُ فِي تِلْكَ الدَّعْوَى، وَإِنْ ظَهَرَتْ بَعْدَ الْيَمِينِ أُعِيدَتْ إِلَى صَاحِبِهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ تَعَوَّضَ عَنْهَا أُعِيدَ الْعَوَضُ .

وعلى أن يكشفوا عن الأخذة بجهدهم وطاقتهم . ومتى تحققت أعيدت إلى صاحبها ؛ فإن حلفوا ببراءة من الدعوى ، وإن ظهرت بعد اليمين أعيدت إلى صاحبها ، وإن امتنع المدعى عليه من اليمين حلف المدعى ، ولا يستحق عوض ما عدم من كل شيء مثله . وكذلك يجري الأمر في القتل : عَوَضُ الْفَارِسِ ، فَارِسٌ ، وَعَوَضُ الرَّاجِلِ رَاجِلٌ ، وَعَوَضُ الْبَرَكِيِّ بَرَكِيٌّ ، وَعَوَضُ الْبَاحِرِ تَاجِرٌ ، وَعَوَضُ الْفَلَّاحِ فَلَاحٌ . وإذا انقضت الأربعون يوماً المذكورة لكشف الدعوى ولم يحلف المدعى عليه للمدعى وجب عليه العوض حتى يرد ، وإن رد اليمين على المدعى ومضى على ذلك عشرة أيام ، ولم يحلف صاحب الدعوى بطلت دعواه وحكمتها ، وإن حلف أخذ العوض .

ومتى هرب من إحدى الجهتين إلى الأخرى أحد ، ومعه مال لغيره أعيد جميع ماله ، وكان الهارب مخيراً بين المقام والعود . وإن هرب عبداً وخرج عن دينه ، أعيد ثمنه ، وإن كان باقياً على دينه أعيد .

وعلى أن لا يدخل أحد من القاطنين في بلد المناصفت : من الفلاحين والعرب والتركان وغيرهم ، إلى بلاد الفرنج والنصارى كافة لإغارة ولا أذية بعلم الملك الظاهر وبلاد معايدته ، [ولا يدخل أحد] بلاد المسلمين لإغارة ولا أذية بعلم بيت الاستبارة ولا رضاهم ولا إذنبهم .

وعلى أن الدعوى المتقدمة على هذا الصلح يحل أمرها على شرط المواصفة التي بين الملك الظاهر وبين معايدته وبين بيت الاستبارة .

(١) كذا في الأصل ، ولعل الصواب «ويستحق» كما هو ظاهر .

وعلى أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تُنقض بموت أحد من الجهتين، ولا وفاة ملك ولا مُقدّم، إلى آخر المدة المذكورة، وهي : عَشْرَ سِنِينَ وَعَشْرَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرَةَ أَيَّامٍ وَعَشْرَ سَاعَاتٍ ، أولها يوم تاريخه .

وعلى أن نواب الملك الظاهر ومعاهديه لا يتركون أحدًا من التركان ، ولا من العربان، ولا من الأكراد ، يدخل بلاد المناصفت بغير اتفاقٍ من بيت الاسبتار أو رضاه، إلا أن يكفلوه على نفوسهم في هذه الطوائف المذكورة، ويعلموا حاله، لئلا تبدؤ منهم أذية أو ضرر أو فساد ببلد المناصفت وبيلد النصارى . ولنواب مولانا السلطان أن تركهم على شرط أنهم يعلم بهم بيت الاسبتار في غد نزولهم المكان، إن كان المكان قريبا . وإن ظهر منهم فساد كان النواب يجاوبون بيت الاسبتار . وعلى أن المهادنة بحدودها يكون الحكم فيها كما في المناصفت، والحدود في هذه البلاد جميعها تكون على ما تمهد به نسخ الهدن، وما استقر الحال عليه إلى آخر وقت .

وعلى أن تخلى أمور المملكة الحصيّة على ما كان مستقرًا في الأيام الأشرفيّة، على ما قرره الأمير علم الدين « سنجر » .

هذا ما وقع الاتفاق والترضى عليه من الجهتين . وبذلك جرى القلم الشريف السلطانى الملكى الظاهرى : حجة بمقتضاه ، وتأكيدها لما شرح أعلاه . كُتِبَ في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هديّة من هذا التمث، عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين ملكة يروت من البلاد الشامية ، في شهر سنة سبع وستين وستمائة حين كانت بيدها ، وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس» وبين الملكة الجليلة المصونة الفاهرة، فلانة آمنة فلان، مالكة بيروت وجميع جبالها وبلادها التحية مدة عشر سنين متوالية؛ أولها يوم الخميس سادس رمضان سنة سبع وستين وستمائة الموافق لتاسع إيار سنة ألف وخمسمائة وثمانين يونانية - على بيروت وأعمالها المضافة إليها، الجارى عادتهم فى التصرف فيها فى أيام الملك العادل، أبى بكر بن أيوب، وأيام ولده الملك المعظم عيسى، وأيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز. والقاعدة المستقرة فى زمنهم إلى آخر الأيام الظاهرية، يقتضى الهدنة الظاهرية. وذلك مدينة بيروت وأما كتبها المضافة إليها: من حد جليل إلى حد صيدا، وهى المواضع الآتى ذكرها: جونية بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراوق بحدودها، وسن الفيل بحدودها، والرح والشوف بحدودها، وانظلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوطاء المعروف بمدينة بيروت، وجميع ما فى هذه الأماكن من الرعايا والتجار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصادرين منها والواردين إليها من جميع أجناس الناس، والمترددين إلى بلاد السلطان فلان، وهى: الحميرة وأعمالها وقلاعها وبلادها وكل ما هو مختص بها، والمملكة الأنطاكية وقلاعها وبلادها، وجبله والأذقية وقلاعها وبلادها، وحصص المحروسة وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، ومملكة حصن عكا وما هو منسوب إليه، والمملكة الحموية وقلاعها وبلادها وما هو مختص بها، والمملكة الرحيبة وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة البعلبكية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها، والمملكة الدمشقية وما هو مختص بها: من قلاعها وبلادها ورعاياها

وممالكها، والمملكة الشَّقِيفِيَّة وما يختص بها من قلاعها وإلادها ورعاياها، والمملكة
 القُدْسِيَّة وما يختص بها، والمملكة الحَلَبِيَّة وما يختص بها، والمملكة الكَرَكِيَّة والشَّوْبَكِيَّة
 وما يختص بها من القلاع والبلاد والرعايا، والمملكة النَّابُلُسِيَّة، والمملكة الصَّرْحَدِيَّة،
 ومملكة الديار المصرية جميعها : بثغورها، وحصونها، وممالكها، وبلادها،
 وسواحلها، وبرها، وبحرها، ورعاياها، وما يختص بها، والسَّاكنين في جميع هذه
 الممالك : المذكورة وما لم يذكر من ممالك السُّلطان وبلاده، وما سيفتحه الله تعالى
 على يده ويَدُ نُؤايه وغلماينه يكونُ داخلًا في هذه الهدنة المباركة، ومنتظماً في جملة
 شروطها، ويكونُ جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمينين مُطمئنين على نفوسهم
 وأموالهم وبضائعهم، من المملِكة فلانة وغلمايها، وجميع من هو في حُكْمها وطاعتها :
 برًا وبحرًا، ليلاً ونهارًا، ومن مراكبها وشوانيها . وكذلك رعية المملِكة فلانة وغلمايها
 يكونون آمينين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السُّلطان ومن جميع نُؤايه وغلماينه
 ومن هو تحت حُكْمه وطاعته : برًا وبحرًا، ليلاً ونهارًا : في جبلة، والألاذقية،
 وجميع بلاد السُّلطان، ومن مراكبها وشوانيها .

وعلى أن لا يُجَدِّد على أحد من التجَّار المترددين رسمٌ لم تجر به عادة، بل يجرون
 على العوائد المُستمرَّة، والقواعد المُستقرَّة من الجهتين . وإن عُدِم لأحد من الجانبين
 مالٌ، أو أخذت أخيدة، وصحَّت في الجهة الأخرى رُدَّت إن كانت موجودة،
 أو قيمتها إن كانت مفقودة . وإن خفي أمرها كانت المدة للكشف أربعين يومًا،
 فإن وُجدت رُدَّت، وإن لم توجد حلف وإلى تلك الولاية المدعى عليه، وحلف
 ثلاثة نفرٍ ممن يختارهم المدعى، وبرئت جهته من تلك الدعوى . فإن أبى المدعى
 عليه عن اليمين حلف الوالي المدعى، وأخذ ما يدعيه . وإن قُتِل أحد من الجانبين
 خطأً كان أو عمدًا، كان على القاتل في جهته العوض عنه نظيره : فارس بفارس،

وَبَرِيكِلْ بِيرِكِيلْ ، وَرَاجِلْ بَرَايِلْ ، وَفَلَّاحُ بَفَلَّاحِ . وَإِنْ هَرَبَ أَحَدٌ مِنَ الْجَانِبِينَ إِلَى الْجَانِبِ الْآخَرَ بِمَالٍ لغيره ، رَدَّ مِنَ الْجَهْتَيْنِ هُوَ وَالْمَالُ ، وَلَا يُعْتَدَرُ بَعْدُ .

وعلى أنه إن تاجر فرنجي صدر من بيروت إلى بلاد السلطان يكون داخلًا في هذه الهدنة ، وإن عاد إلى غيرها لا يكون داخلًا في هذه الهدنة .

وعلى أن الملكة فلانة لا تمكن أحدًا من الفرنج على اختلافهم من قصد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ؛ وتمنع من ذلك وتدفع كل متطرق بسوء ، وتكون البلاد من الجهتين محفوظة من المتجرمين المفسدين .

وبذلك انعقدت الهدنة للسلطان ، وتقرر العمل بهذه الهدنة والالتزام بعهودها والوفاء بها إلى آخر مدتها من الجهتين : لا ينقضها مرور زمان ، ولا يغير شروطها حين ولا أوان ؛ ولا تنقض بموت أحد من الجانبين . وعند انقضاء الهدنة تكون التجار آمنين من الجهتين مدة أربعين يومًا ، ولا يمنع أحد منهم من العود إلى مستقره ، وبذلك شمل هذه الهدنة المباركة الخط الشريف حجة فيها ، والله الموفق ، في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخة هدنة عُقدت بين السلطان الملك الظاهر «بيبرس» وولده الملك السعيد ، وبين الفرنج الاستبارية ، على قلعة لُدَّ بالشام ، في سنة تسع وستين وستمائة ، وهي :

استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين «بيبرس الصالح» قسيم أمير المؤمنين وولده الملك السعيد ناصر الدين «محمد برکه خاقان» خليل أمير المؤمنين ، وبين المباشر المقدم الجليل افريز اولدكال مقدم جميع بيت استبار سرجوان بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الإخوة الاستبارية ، لمدة عشر سنين

كواويل متواليات متتابعات، وعشرة أشهر، أولها مُستهل رمضان سنة تسع وستين
 وستمائة للهجرة النبوية المحمدية، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة
 وأثنتين وثمانين للإسكندر بن فيلبس اليوناني - على أن تكون قلعة لُد بكالما
 ورَبَضها وأعمالها، وما هو منسوب إليها ومحسوب منها، بحدودها المعروفة بها من
 تقدم الزمان، وما استقر لها الآن، وما يتعلق بذلك: من المواضع، والمصايد،
 والملاحات، والبساتين، والمعاصر، والطواحين، والجزائر: سمائها وجباها،
 وعاصرها، ودأريها، وما يجري بها من أنهار، ويذبح بها من عيون، وما هو مبنى بها
 من عمائر، وما استجدَّ بها من القراج وغير ذلك؛ وكل ما عمَّر في أراضي المناصفت
 على دورها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نهر بدرة إلى جهة الشمال، وما استقر
 لبلدة من هذه الجهات إلى آخر الأيام النَّاصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة
 لها، وحصن برغن وما يُنسب إلى ذلك من البلاد والضِّياع والقرى التي كانت
 مُناصفة - تكونُ جميع بلدة وهذه الجهات خاصا إلى آخر الزائد لللك الظاهر،
 ولا يكون لبيت الأستبار ولا للرقب فيها حق ولا طلب بوجه ولا سبب إلى حين
 انقضاء مدة الهدنة وما بعدها إلى آخر الزائد، ولا لأحد من جميع الفرنجة فيها تعلق
 ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مُناصفة، كتملة العليقة في بلادها لبيت الأستبار، يكون
 ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف، ولا يكون للرقب فيها شيء
 ولا لبيت الأستبار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى - لا تكون
 فيها مُناصفة لبيت الأستبار ولا للرقب، ولا حق، ولا رسم، ولا شرط، ولا طلب

في جميع بلاد الدَّعوة : مِصْيَافِ المَحْرُوسَةِ ، وَالكَهْفِ ، وَالْمِنْقَسَةِ ، وَالْقُدْمُوسِ ،
وَالْحَوَائِي ، وَالرُّصَافَةِ ، وَالْعَلِيقَةِ . وَكُلُّ مَا هُوَ فِي هَذِهِ الْقِلَاعِ وَفِي بِلَادِهَا مِنْ مُنَاصَفَةٍ ،
يَكُونُ ذَلِكَ خَاصًّا لِلْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، وَلَيْسَ لِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَلَا الْفَرَنْجَةِ فِيهِ حَدِيثٌ
وَلَا طَلَبٌ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَرْقَبِ وَحُدُودُهَا مِنْ نَهْرٍ لَدَّ وَمُقَبَّلًا وَمَغْرِبًا إِلَى حُدُودِ بِلَادِ
مَرْقَبَةِ الْمَعْرُوفَةِ بِهَا ، الدَّاخِلِ جَمِيعُهَا فِي الْفَتْوحِ الشَّرِيفِ ، وَأَسْتَقْرَرَهَا بِحُكْمِ ذَلِكَ
فِي الْخَاصِّ الْمُبَارِكِ الشَّرِيفِ ، وَحَدَّ الْبُيُوتِ الْمَحَازِيَةِ لِسُورِ الرَّبِضِ ، تَسْتَقَرُّ جَمِيعُهَا
مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ نِصْفَيْنِ بِالسُّوِيَّةِ ، وَمَا فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ :
مِنْ بَسَاتِينِ ، وَطَوَاحِينِ ، وَعِمَارَةٍ ، وَمَصَايِدَ ، وَمَلَاحَاتَ ، وَوُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْمُسْتَغْلَاتِ
الصَّيْفِيَّةِ وَالشَّتُوبَةِ ، وَالْقَطَانِي ، وَالْحُقُوقِ الْمَسْتَخْرَجَةِ ، وَمَا هُوَ مَزْرُوعٌ مِنَ الْفَدَنِ
لِأَهْلِ الرَّبِضِ وَبِيَادِرِهَا : يَكُونُ ذَلِكَ مُنَاصَفَةً بَيْنَ السُّلْطَانِ وَبَيْنَ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ
سَرَجَوَانَ بِالسُّوِيَّةِ نِصْفَيْنِ .

وَمَا هُوَ دَاخِلُ الرَّبِضِ وَدَاخِلُ الْمَرْقَبِ ، فَإِنَّهُ مُطْلَقٌ مِنَ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ لِلْقَدَمِ
الْكَبِيرِ أَفْرِيزِ أَوْلَادِ كَالِ مَقْدَمِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ سَرَجَوَانَ وَخِيَّائِهِ ، وَرِجَالِهِ وَحِمَائِهِ
وَرِجَالَتِهِ وَرَعِيَّتِهِ ، بِرَسْمِ إِقَامَتِهِمْ وَسُكْنَاهُمْ مِنْ دَاخِلِ الْأَسْوَارِ ، وَعَنْ سُورِ الرَّبِضِ
الْمَحَازِيَةِ لِسُورِ تَكُونُ مُنَاصَفَةً جَمِيعُهَا ، بِمَا فِيهِ مِنْ حُقُوقِ طُرُقَاتِ وَأَحْكَارِ ،
وَمَرَاعِي الْمَوَاشِي عَلَى آخْتِلَافِ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا ، وَجَمِيعِ السَّخْرِيَّاتِ ، وَكُلِّ أَرْضِ
مَزْرُوعَةٍ أَوْ غَيْرِ مَزْرُوعَةٍ مَهْمَا أُخِذَ مِنْهُ مِنْ حَقِّ أَوْ عِدَادٍ يَكُونُ مُنَاصَفَةً .

وَكُلُّ مَا هُوَ مِنَ الْمَوَائِنِ وَالْمَرَّاسِي الْبَحْرِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ جَمِيعُهَا بِمَحْضِنِ الْمَرْقَبِ : مِنْ
مِينَاءِ بَلَدَةٍ إِلَى مِينَاءِ الْقَنْظَرَةِ الْمَجَاوِرَةِ لِحُدُودِ مَرْقَبَةٍ - تَكُونُ هِيَ وَمَا يَتَحَصَّلُ مِنْهَا مِنْ

الحقوق المُستخرجة من الصادرين والواردين والتجار ، وما ينعقد عليه ارتفاعها ،
وتشهد به الحسابات - جميعه مناصفة . وما يدخل في ذلك من أجناس البضائع
على اختلافها يؤخذ الحق [منه] مناصفة على العادة الحارية من غير تغيير لفاعدة من
حين أخذ بيت الأستبار المرقب إلى تاريخ هذه الهدنة المباركة مناصفة على العادة
الحارية ، بل تجرى التجار في الحقوق على عادتهم في البضائع التي يضررونها والمتجر
كائنا من كان .

يعتمد ذلك في كل ما يصل للتردين والمقيمين بالقلعة والربض : من عامة وغير
عامة ، وخیالة وغير خیالة ، على اختلاف أجناسهم ، خلا ما يصل للإخوة ولعلمائهم
المعروفين بالإخوة الأستبارية من الحبوب والمثونة والكسوة والخيل التي هي برسم
رؤسهم خاصة ، لا يكون عليها حتى ، بشرط أنه لا يكون فيها للتجار شيء من ذلك ،
وما خلا ذلك جميعه يؤخذ الحق منه مناصفة على ما شرحناه .

وعلى أنه لا يجمي أحد من الإخوة الخيالة ، والوزراء ، والكتاب ، والثواب ،
والمستخدمين شيئاً على اسم بيت الأستبار ، ليستطلق الحق وينع من استيدائه ، ولو
أنه أقرب أجد إلى المقدم أو ولد المقدم . إذا ظهر منه خلاف ما وقع عليه الشرط ،
أخذ جميع ماله مستهلكاً للجهتين : للديوان السلطاني المعمور ، وليت الأستبار ،
إن كان خارجاً من البحر أو نازلاً إلى البحر ، صادراً ووارداً ، وكذلك في البر صادراً
ووارداً بعد المحاكمة على ذلك وصحته .

وعلى أن ثواب المباشر المقدم الكبير لبيت الأستبار ، وولاته وكتابه ومستخدميه
وغلماناه ، يكونون آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وجميع ما يتعلق بهم .
وكذلك غلماننا وولاتنا وثوابنا ومستخدمونا وكتائبنا ورعايا بلادنا يكونون آمنين

مُطْمَئِنِّينَ عَلَىٰ نَفْسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ ، مُتَّقِينَ عَلَىٰ مَصَالِحِ الْبِلَادِ وَأَخْذِ الْحُقُوقِ ، وَسَائِرِ الْمَقَاسِمَاتِ وَالطَّرَقَاتِ وَالْبَسَاتِينَ وَالطَّوَاحِينَ ، وَالْحُقُوقِ الْمَقْرَّرَةَ عَلَى الْفَدَنِ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهَا . وَكَذَلِكَ الرَّأْسَةُ وَأَسْتِخْرَاجُ وُجُوهِ الْعَيْنِ ، وَالْحُبُوبِ ، وَالتَّصَارِيفِ الْجَارِي بِهَا الْعَادَةُ الْمَقْرَّرَةُ عَلَى الْفَدَنِ ، مِنْ جَمِيعِ مَا يَتَعَلَّقُ بِهَا .

وَعَلَىٰ أَنْ جَمِيعَ الضَّمَانَاتِ يَكُونُ نُوبُ السَّلْطَانِ وَنُوبُ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ مُتَّقِينَ بِجُمْلَةٍ عَلَىٰ ذَلِكَ ، لَا يَنْفَرِدُ أَحَدٌ مِنْهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ وَتَنْزِيلٍ فِي دِفَاتِرِ الدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَدِيَوَانِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، وَلَا يُطَلَّقُ وَلَا يُحْبَسُ إِلَّا بِاتِّفَاقٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، وَلَا يَنْفَرِدُ وَاحِدٌ دُونَ الْآخَرِ .

وَعَلَىٰ أَنْ أَىُّ مُسْلِمٍ تَصَدَّرَ مِنْهُ أَذِيَّةٌ يُحْكَمُ فِيهِ بِمَا يَقْتَضِيهِ الشَّرْعُ الشَّرِيفُ فِي تَأْذِيهِ ، يَعْتَمَدُ ذَلِكَ فِيهِ نَائِبًا : مِنْ شَتَّىٰ يَجِبُ عَلَيْهِ ، أَوْ قَطْعٌ . أَوْ أَدَبٌ بِحُكْمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ : مِنْ شَتَّىٰ ، وَقَطْعٌ ، وَكَلِّلُ أَعْيُنٍ ، بِحَيْثُ لَا يُعْمَلُ ذَلِكَ إِلَّا بِحَضُورِ نَائِبٍ مِنْ جِهَةِ بَيْتِ الْأَسْبِتَارِ ، حَاضِرٍ يُعَايِنُ ذَلِكَ بِعَيْنِهِ ، وَيَكُونُ قَدْ عَرَفَ الذَّنْبَ وَتَحَقَّقَهُ . وَإِنْ كَانَ ذَنْبُهُ يَسْتَوْجِبُ جَنَايَةً أَوْ غَرَامَةً دَرَاهِمٍ أَوْ ذَهَبٍ أَوْ مَوَاشٍ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، يَكُونُ مَا يُسْتَأْدَىٰ مُنَاصَفَةً لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ وَصَاحِبِ الْمَرْقَبِ . فَإِنْ كَانَ فِيهَا قِشَاشٌ وَبَضَائِعٌ عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِ ، وَصَاحِبُهُ مُسْلِمٌ ، يَأْخُذُ بِضَاعَتَهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ لِلدِّيَوَانِ الْمَعْمُورِ وَلِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ وَكَانَتْ لِمُسْلِمٍ ، أُعِيدَتْ لِلخِزَانَةِ السَّلْطَانِيَّةِ وَلَا يَكُونُ لِبَيْتِ الْأَسْبِتَارِ فِيهَا تَعَلُّقٌ . وَإِنْ كَانَ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ نَصْرَانِيًّا عَلَىٰ اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ النَّصْرَانِيِّ ، تُؤْخَذُ بِضَاعَتُهُ مِنْ غَيْرِ اعْتِرَاضٍ مِنَ جِهَتِنَا ، بَعْدَ آدَاءِ الْحَقِّ . وَإِنْ لَمْ يُعْرِفْ صَاحِبُ الْبِضَاعَةِ ، وَكَانَتْ لِنَصْرَانِيٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شيء ، يعود عليه الضمير .

تَبَقَى تَحْتَ يَدِ بَيْتِ الْأَسْبَتَارِ ، خَلَا مِنْ كَانَ مِنْ بِلَادِ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ عَلَى اخْتِلَافِ دِينِهِ : إِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَوْ ذَمِيًّا ، عَلَى اخْتِلَافِ جِنْسِ دِينِهِ ، لَيْسَ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ عَلَيْهِمْ آعْتَرَاضٌ ، وَيَحْمَلُ ذَلِكَ جَمِيعُهُ عَلَى اخْتِلَافِ أَجْنَاسِ الْبِضَاعِ لِلدِّيَّوَانِ الْمَعْمُورِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أَنْكَسَرَ مَرْكَبٌ ، وَظَهَرَ إِلَى بَرِّ الْمَوَانِي بِضَاعَةٌ ، وَقَصَدَ صَاحِبُهُ شَيْلَهُ إِلَى جِهَةِ يَخْتَارُهَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَا يُدْبِعُ ، فَيُؤْخَذُ الْحَقُّ مِنْهُ : إِنْ بَاعَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَإِنْ حَمَلَ يُؤْخَذُ الْحَقُّ ، وَيَكُونُ الْحَقُّ لِلْجِهَتَيْنِ : وَهُوَ الْحَقُّ الْمَعْرُوفُ الْجَارِي بِهِ الْعَادَةُ .

وَعَلَى أَنَّ التُّجَّارَ السَّفَّارَةَ وَالْمُتَرَدِّدِينَ بِالْبِضَاعِ مِنْ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ وَالنَّصَارَى مَتَى مَا خَرَجُوا مِنَ الْمَوَانِي الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ يَتَوَجَّهُونَ بِخِفَارَةٍ الْجِهَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ حَقٍّ : لَا يُتَنَاوَلُ مِنَ الْخِفَارَةِ شَيْءٌ مَنَسُوبٌ إِلَى نَفْسِهِمْ إِلَى أَنْ يُخْرِجَهُمْ وَيُحْضِرَهُمْ إِلَى بَرِّ حُدُودِ الْمَرْقَبِ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ تَحْتَ حِفْظِ الْجِهَتَيْنِ . وَمَتَى وَصَلَ التُّجَّارُ مِنْ مَمْلَكَةِ السُّلْطَانِ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ وَمَوَانِيهَا ، فَالْتَّرْتِيبُ عَلَى الْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، مَعَ تَدْرُكِ الرُّؤَسَاءِ الْحِفْظِ لِلطَّرْفَاتِ صَادِرًا وَوَارِدًا ، بِحَيْثُ إِنَّهُمْ يَحْضِرُونَ إِلَى بِلَادِ الْمَرْقَبِ ، وَإِلَى الْمَوَانِي بِالْمَرْقَبِ الْمَحْدُودَةِ أَعْلَاهُ ، طَيِّبِينَ آمِنِينَ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْخِفَارَةِ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، عَلَى مَا شَرَحْنَاهُ .

وَعَلَى أَنَّ غُلَامَانَ الْمُبَاشِرِ الْمَقْدَمِ لَبَيْتِ الْأَسْبَتَارِ وَالْإِخْوَةَ وَالْحِيَالَةَ وَالرَّعِيَّةَ الْمَقِيمِينَ بِقَلْعَةِ الْمَرْقَبِ وَالرَّيْضِ ، يَكُونُونَ آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَمَنْ يَلُودُ بِهِمْ وَيَتَعَلَّقُ ، فِي حَالِ صُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ إِلَى بِلَادِنَا الْجَارِيَةِ فِي مَمْلَكَتِنَا فِي الْبَرِّ ، مَنْأً وَمَنْ نُؤَابِنَا بِالْمَمْلَكَةِ وَالْبِلَادِ الْجَارِيَةِ فِي حَكْمِنَا ، وَمَنْ وَلَدَنَا الْمَلِكَ السَّعِيدِ ، وَمَنْ أُمَرَانِنَا وَعَسَا كَرْنَا الْمَنْصُورَةَ . وَإِنْ قِيلَ قَتِيلٌ أَوْ أُخِذَتْ أَخِيذَةٌ فِي حُدُودِ الْمَنَاصِفِ بِبِلَادِ

المرقب ، فيقع الكشْفُ عن ذلك عشرين يوماً : فإن وُجد فاعِلُ ذلك ، يؤخِّدُ الفاعِلُ بذَنبِهِ . وإن لم يظهر فاعِلُ ذلك مدَّةَ عشرين يوماً فيمَسِكُ رؤسَاءُ مكانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأخذ الأخيذة ، وقَتَلَ القَتِيلِ ، إن كان أخذَ وقَتَلَ - مكانَ من قَتَلَ القَتِيلَ أو أخذَ الأخيذة - أقربَ القُرباءِ إلى الذي قَطَعَ عليه الطريقَ أو قَتَلَ قَتِيلًا . فإن خَفِيَ الفاعِلُ لذلك ، وعُجِزَ عن إحضاره بعد عشرين يوماً ، يُلْزِمُ أهلُ نُوابِ الجهتين من القُرباءِ الأقربَ لذلك المكانِ بألفِ دينارٍ صُورِيَّةٍ : للديوانِ السلطانيِّ النَّصْفُ ، ولتَقْيِبِ الأَسْبَتارِ النَّصْفُ ، ولا تُتْكَاسَلُ الولايةُ في طَلَبِ ذلك ، ويكونُ طَلَبُهُ يَدًا واحدةً ، ولا يختصُّ الواحدُ دون الآخر . ولا يجابى أحدُ منهم لأخذِ الفَلاحِ في هذا أو غيره في مَصْلَحةِ عِمارةِ البلادِ ، وأَسْتِخْراجِ الحُقُوقِ ، ومُقاسِمةِ الغِلالِ ، وطَلَبِ المُفْسِدِينَ ليلاً ونهاراً .

وعلى أن لا تَغْيِرَ الهدنةُ المباركةُ بأمرٍ من الأمور ، لامن جِهَتِنَا ولا من جِهَةِ وِلْدانِ المَلِكِ السَّعِيدِ ، إلى أنْقِضاءِ مَدَّتِهَا المَعِينَةُ أَعْلَاهُ وفروغِهَا . ولا تَتَغَيَّرُ بتَغْيِرِ المَقْدَمِ المَبْاشِرِ لِبَيْتِ الأَسْبَتارِ الحَاكِمِ على المَرْقَبِ وغيره . وإذا جَرَتْ قِضِيَّةٌ في أمرٍ من الأمور يَعْرِفُهُم نُوابُنَا ، ويَحَقِّقُ الكَشْفُ إلى مَدَّةِ أربعين يوماً ، فن يكونُ للبيدايةِ يخرجُ منها على من سمى (?) ويكونُ قد عَرَفَ دَيْنَهُ الذي بدأ من جِهَةِ كُلِّ واحدٍ . وإذا تَغْيِرَ النُوابُ بالمَرْقَبِ وحضَرَ نائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يَعْتَمِدُ ما تَضَمَّنَتْهُ هذه الهدنةُ ، ولا يخرجُ عن هذه المُواصِفَةِ . وإذا تَسَحَّبَ من المسلمين أحدٌ على آخْتِلافِ أَجْناسِهِ ، إن كان مَمْلُوكًا أو غير مَمْلُوكٍ ، أو مَعْتُوقًا أو غير مَعْتُوقٍ ، أو كائِنًا من كان من المسلمين على آخْتِلافِ مَنازِلِهِمْ ، وإن كان غُلامًا أو غير غُلامٍ - يردُّ بجمیع ما یُوجَدُ معه ، إن كان قَليلًا أو كَثيرًا يردُّ . ولو أنَّ المَتَسَحِّبَ دخلَ الكَنِيسَةَ وجلسَ فيها يُمسِكُ بِيَدِهِ ويخرُجُ ويسَلِّمُ لِنُوابِنَا بجمیع ما مَعَهُ ، وإن كان خَيلاً أو قماشًا أو دَرَاهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناس به ، يسلم بما معه إلى نوابنا على ما شرحناه . وكذلك إذا تسحب أحد من جهتهم من الفرنج أو النصارى إلى أبوابنا الشريفة ، أو وصل إلى جهة نوابنا يسك ويسلم بما يحضر معه : من الخيل والأقشاة والعدة وجميع ما يصل إن كان قليلاً أو كثيراً ، يسك نوابنا ويسلمون ذلك بما معه لنائب المقدم الماستر المقيم بالدرق ، وأخذوا الخطوط بذلك بتسليمه بما حضر معه .

وعلى أنهم لا يكون لهم حديث مع قلعة العليقة ، ولا الرعية الذين فيها ، ولا مع نواب ابن الرديني المقيمين فيها : لا بكتاب ، ولا بمشافهة ، ولا برسالة ، ولا بقول ، ولا يطالع أحد من جهتهم إليهم ؛ ولا يمكن أحد من الحضور إليهم ، [والوصول] إلى جهتهم من القلعة المذكورة ؛ ولا تسير إليهم مؤونة ولا تجارة ولا جلب على اختلاف أجناسه ، ولا تكون بينهم معاملة . وإن حضر أحد من جهة قلعة العليقة إليهم يسكون ويسلمون لنوابنا ويأخذوا بذلك خطوطهم .

وعلى أنهم لا يحددون عمارة قلعة ، ولا في القلعة عمارة ، ولا في البدنة ولا في أبراجها ؛ ولا [يعتمدون] إصلاح شيء منها إلا إذا عاينه نوابنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضرورة في ترميم يرمونه بعد أن يعاينه نوابنا من هذا التاريخ ؛ ولا يحددون عمارة في ربضها ، ولا في سورها ، ولا في أبراجها ، ولا يحددون حفر خندق ، وعمارة خندق ، أو تجديد بناء خندق أو قطع جبل ، أو تحصن عمارة ، أو تحصن بقطع جبل ، منسوباً لتحصين يمنع أو يدفع . ولم نأذن لهم بسوى البناية [على] أثر الدور التي أحرقت عند دخول العساكر صخرة الملك السعيد . وقد أذننا لهم في عمارة باطن الربض على أثر الأساس القديم .

وعلى أن صهيون وأعمالها ، ورومه (٩) وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وعيدوب وأعمالها ، الجارية تحت نظر الأمير سيف الدين محمد بن عثمان صاحب صهيون -

يجرى حُكْمُ هذه البلاد المختصة به حُكْمُ بلادنا في المُهادنة، بِحُكْمِ أَنَّ بلادَهُ المذكورةَ جاريةٌ في ممالِكِ الشَّرِيفَةِ .

وعلى أَنه لا يُمكنُ بَيْتُ الأَسْبِتارِ من دُخُولِ رِجُلٍ غَرِيبَةٍ في البرِّ ولا في البَحْرِ إلى بلادنا، بأذِيَّةٍ ولا ضَرَرٍ يعودُ على الدَّوْلَةِ ، وعلى بلادِنا وَحُصُونِنا ورِعِيَّتِنا ، إلا أن يكونوا يَدًا غَالِبَةً ، صُحْبَةً مَلِكٍ مُتَوَجِّحٍ .

وعلى أَنَّ البُرْجَ الداخِلَ في المُناصِفَةِ ، وهو بُرْجُ مُعاوِيَةَ الذي عند المِخاصَةِ الداخِلَةِ في مَناصِفِ المَرَقَبِ الآنَ ، يُحَرَّبُ ما يُحْصِنُنا منه ، وهو النِّصْفُ من البُرْجِ المذكورِ أعلاه . وأن الحِمْسَ المعروفَ بِحِمْسِ بَلَدَةٍ لم يكنْ لَبَيْتِ الأَسْبِتارِ فيه شيءٌ من البرِّين ، وأنه خالِصٌ للديوانِ المعمورِ دُونَ بَيْتِ الأَسْبِتارِ . وأن الدَّارَ المُستجَدَّةَ عمارتُها بقلعةِ المَرَقَبِ برِسمِ الماسِترِ المُقدَّمِ الكَبِيرِ ، الذي هو عازِزٌ تَكْمِيلِ عِمارةِ سَقْفِ القَبوِ بالحجارةِ والكَلِيسِ ، لا تَكْمَلُ عِمارتُها ، ويبقى على حاله ، وهو في وَسَطِ القَلْعَةِ الظاهرِ منه قَلِيلٌ إلى البرِّ الشَّرْقِيِّ وهو المذكورُ أعلاه .

وعلى أَنَّ نُوابِ الأَسْبِتارِ بالمَرَقَبِ لا يُخْفُونَ شيئاً من مَقاماتِ البلادِ ولا شيئاً من حُقُوقِها الجارى بها العادةُ أن يَبْتَ الأَسْبِتارِ يَسْتَحْرِجُونَهُ ولا يُخْفُونَ منه شيئاً ، وكلُّ ما كان يَسْتَأدِي من البلادِ في أَيدي الأَسْبِتارِ قَبْلَ هذه المُهدنةِ يُطاعُونَ تَوَابناً عليه ولا يُخْفُونَ منه شيئاً قَلِيلاً ولا كثيراً من ذلك .

وعلى أَنَّ السُلطانَ يَأْمُرُ نُوابِهِ بِحِفْظِ مُناصِفاتِ بلادِ المَرَقَبِ الداخِلَةِ في هذه المُهدنةِ ، من المُفْسِدِينَ والمُتَلَصِّصِينَ والحِرامِيَّةِ من هو في حُكْمِهِ وطاعَتِهِ . وكذلك الماسِترِ المُقدَّمِ افرِيزِ أولدكالِ يلزِمُ ذلك من الجِهةِ الأُخْرَى . ومتى وَقَعَ - والعياذُ باللَّهِ - فَسَخٌ سَبَبٍ من الأَسبابِ ، كان التُّجَّارُ والسُّفَّارُ آمِنِينَ من الجهتين إلى

أن يعودوا بأموالهم ، ولا يمتنعون من السفر إلى أَمَا كِنِهِم من الجهتين ، وتكونُ
 النهايةُ لهم أربعين يوماً . وتكونُ هذه الهدنةُ منعقدةً بشروطها المذكورة ، مُستقرّةً
 بقواعدها المسطورة للذةِ المعينة ، وهي : عشر سنين وعشرة أشهرٍ كواملٍ ، أولها
 مُستهلُّ رمضان سنة تسع وستين وستمائة إلى آخرها ، متتابعةً متواليّةً ، لا تنسخُ
 بموتِ أحدٍ من الجهتين ، ولا بعزلِ وإلٍ وقيامٍ غيره موضعه ، ولا زوالِ رجلٍ غريبيةً ،
 ولا حضورِ يدٍ غالبةٍ ؛ بل يلزمُ كلاً من الجهتينِ حفظُها إلى آخرها ؛ ومن تولى بعد
 الآخرِ حفظها إلى آخرها ، بالشروطِ المشروطةِ فيها أولاً وآخرًا . والخطُ أعلاه ، حجةٌ
 بمقتضاها ، إن شاء الله تعالى . في تاريخ كذا وكذا .



وهذه نسخةُ هدنةٍ عُقدتْ بين السلطانِ المَلِكِ المنصورِ « قلاوون » الصالحِ
 صاحبِ الديارِ المصريةِ والبلادِ الشاميةِ وولدهِ المَلِكِ الصالحِ « علي » وليِّ عهدِهِ ،
 وبينِ حكامِ الفرنجِ بعكا وما معها من بلادِ سواحلِ الشامِ ، في شهورِ سنة اثنتين
 وثمانين وستمائة ، وهي يومئذ بأيديهم . وصورتها :

استقرت الهدنةُ بين مولانا السلطانِ المَلِكِ المنصورِ سيفِ الدينِ أبي الفتحِ
 « قلاوون » المَلِكِ الصالحِ وولدهِ السلطانِ المَلِكِ الصالحِ علاءِ الدينِ « علي » -
 خلد الله تعالى سلطنتهما - وبينِ الحُكَّامِ بمملكةِ عكا ، وصيدا ، وعثليث ، وبلادها
 التي آنعقدت عليها هذه الهدنةُ ، وهم : الشيخانِ أودهيل المملكةِ بعكا ، وحضرةُ
 المقدمِ الجليلِ افريزكاسام دسا حول (؟) مقدمُ بيتِ الديويةِ ؛ وحضرةُ المقدمِ الجليلِ
 افريزكافل للورن (؟) مقدمُ بيتِ الاستباريةِ ، والمرشانِ الأجلُّ افريزكورات نائبُ
 مقدمِ بيتِ الاستبار الآمن - لمدةِ عشرِ سنين كواملٍ ، وعشرةِ أشهرٍ ، وعشرةِ أيامٍ ،

وعَشْرَ سَاعَاتٍ : أَوْلَاهَا يَوْمُ الْخَمِيسِ خَامِسُ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَثَمَانِينَ وَسِتِّمِائَةٍ
لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَى صَاحِبِهَا وَسَلَامُهُ ، الْمَوَافِقُ لِلثَّلَاثِ مِنْ حَزْرِيَّانَ
سَنَةِ أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةٍ وَأَرْبَعٍ وَتِسْعِينَ لِعَلْبَةِ الْإِسْكَانْدَرِيَّيْنِ فِيلِبَسِ الْيُونَانِيِّ - عَلَى جَمِيعِ
بِلَادِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ ، وَهِيَ الَّتِي فِي مَمْلَكَتَيْهَا وَتَحْتَ حُكْمَيْهَا وَطَاعَتَيْهَا وَمَا تَحْتَوِيهِ
أَيَّدِيهِمَا يَوْمَئِذٍ : مِنْ جَمِيعِ الْأَقَالِمِ وَالْمَمَالِكِ ، وَالْقِلَاعِ ، وَالْحُصُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَتَغْرٍ
دِمِيَاطَ ، وَتَغْرٍ الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، وَتَسْتَرُو ، وَسَنْتَرِيَّةٍ وَمَا يَنْسَبُ إِلَيْهَا مِنْ
الْمَوَاتِي وَالسَّوَاخِلِ ، وَتَغْرٍ فُؤَّةَ ، وَتَغْرٍ رَشِيدَ ، وَالْبِلَادِ الْحِجَازِيَّةِ ، وَتَغْرٍ غَزَّةَ الْمَحْرُوسِ ،
وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَوَاتِي وَالْبِلَادِ ، وَالْمَمْلَكَةِ الْكَرْكِيَّةِ ، وَالشُّوبِكِيَّةِ وَأَعْمَالِهَا ، وَالصَّلَاتِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَبُصْرَى وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ بِلَادِ الْخَلِيلِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ ،
وَمَمْلَكَةِ الْقُدْسِ الشَّرِيفِ وَأَعْمَالِهَا ، وَبَيْتِ لَحْمٍ وَأَعْمَالِهِ وَبِلَادِهِ ، وَجَمِيعِ مَا هُوَ
دَاخِلٌ فِيهَا وَمَحْسُوبٌ مِنْهَا ، وَبَيْتِ جَبْرِيْلَ ، وَمَمْلَكَةِ نَابِلَسَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَمْلَكَةِ
الْأَطْرُونِ وَأَعْمَالِهَا ، وَعَسْقَلَانَ وَأَعْمَالِهَا وَمَوَانِيهَا وَسَوَاحِلِهَا ، وَمَمْلَكَةِ يَاقَا وَالرَّمْلَةِ
وَمِيثَاهَا ، وَقَيْسَارِيَّةَ وَمِيثَاهَا وَسَوَاحِلِهَا وَأَعْمَالِهَا ، وَأَرْسُوفَ وَأَعْمَالِهَا ، وَقَلْعَةَ قَاقُونَ
وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَأَعْمَالَ الْعَوْجَاءِ وَمَا مَعَهَا مِنَ الْمَلَاخَةِ ، وَالْفُتُوحِ السَّعِيدِ وَأَعْمَالِهَا
وَمَزَارِعِهَا ، وَبَيْسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَبِلَادِهَا ، وَالطُّورِ وَأَعْمَالِهِ ، وَالْبَحْرَيْنِ وَأَعْمَالِهِ ، وَجَبِينِ
وَأَعْمَالِهَا ، وَعَيْرَ جَالُوتَ وَأَعْمَالِهَا ، وَالْقَيْمُونِ وَأَعْمَالِهِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ ، وَطَبْرِيَّةَ
وَجَبْرِيَّتَهَا وَأَعْمَالِهَا وَمَا مَعَهَا ، وَالْمَمْلَكَةِ الصَّقَدِيَّةِ وَمَا يُنْسَبُ إِلَيْهَا ، وَتَبْنِينَ وَهُونِينَ
وَمَا مَعَهُمَا مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ ، وَالشَّقِيفِ الْمَحْرُوسِ الْمَعْرُوفِ بِشَقِيفِ أَرْزُونِ
وَمَا مَعَهُ مِنَ الْبِلَادِ وَالْأَعْمَالِ وَمَا هُوَ مَنْسُوبٌ إِلَيْهِ ، وَبِلَادِ الْفَرَنْ وَمَا مَعَهُ خَارِجًا
عَمَّا عُنِيَ فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ الْمُبَارَكَةِ ، وَنِصْفِ مَدِينَةِ إِسْكَانْدَرُونَةَ ، وَنِصْفِ ضَيْعَةِ مَأْرِبَ
بِقُدْسِيَّتَيْهَا وَكُرُومَيْهَا وَبَسَاتِينَيْهَا وَحُقُوقَيْهَا ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ مِنْ حُقُوقِ إِسْكَانْدَرُونَةَ

المذكورة ، يكون جميعه بمحدوده وبلاده للسلطان المملك المنصور ولولده النصف ،
والنصف الآخر لمملكة عكا . والبقاع العزيزى وأعماله ، وشعرا وأعمالها ، وشقيف
تيرون وأعماله ، والعامر جميعها ولا نا وغيرها (؟) ، وبانياس وأعمالها ، وقلعة الصبيبة
وأعمالها وما معها من البحيرات والأعمال ، وكوكب وأعمالها وما معها ، وقلعة عجلون
وأعمالها ، ودمشق والمملكة الدمشقية - حرمها الله تعالى - وما لها من القلاع والبلاد
والمالك والأعمال ، وقلعة بعلبك المحروسة وما معها وأعمالها ، ومملكة حمص وما لها
من الأعمال والحدود ، ومملكة حماة المحروسة ومدينتها وقلعتها وبلادها وحدودها ،
وبلاطنس وأعمالها ، وصهيون وأعمالها ، وبرزية وأعمالها ، وقوتحات حصن
الأكراد المحروس وأعماله ، وصافيتا وأعمالها ، و (٢)
أعمالها ، والعريمة
وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعمالها ، والقلعة وأعمالها ، وحصن عكار
وأعماله وبلاده ، وقلعة شيزر وأعمالها ، وأفامية وأعمالها ، وجبلة وأعمالها ،
وأبو قبيس وأعماله ، والمملكة الحلبية وما هو مضاف إليها من القلاع والمدن والبلاد
والحصون ، وأنطاكية وأعمالها وما دخل في الفتح المبارك ، وبقراس وأعمالها ،
والدر بسالك وأعمالها ، والرأوندان وأعمالها ، وعيتاب وأعمالها ، وحرارم وأعمالها ،
ويبرين وأعمالها ، وسمح الحديد وأعماله ، وقلعة نجم وأعمالها ، وشقيف دركوش
وأعماله ، والشغر وأعماله ، وبكاس وأعماله ، والسويداء وأعمالها ، والباب وبزاعا
وأعمالها ، وآلبيرة وأعمالها ، والرحبة وأعمالها ، وسامية وأعمالها ، وشيمس
وأعمالها ، وتدمر وأعمالها وما هو منسوب إليها ، وجميع ما هو منسوب لمولانا
السلطان ولولده من البلاد التي عيئت في هذه الهدنة المباركة ، والتي لم تعين .

(١) أوردتها ياقوت في معجم البلدان هكذا : برزويه ، وذكر أن العامة تقول : برزیه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلى جميع العساكر، وعلى جميع الرعايا من سائر الناس أجمعين : على اختلافهم ،
وتغير أنفارهم وأجناسهم وأديانهم ، للقاطنين فيها ، والمترددين في البر والبحر ،
والسهل والجبل ، في الليل والنهار ، يكونون آمنين مطمئنين في حالي صدورهم
وورودهم - على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وحرهم ، وبضائعهم ، وغلمانهم ،
وأتباعهم ، ومواشيهم ، ودوابهم ؛ وعلى جميع ما يتعلق بهم ، وكل ما تحوي أيديهم
من سائر الأشياء على اختلافها ، من الحكام بمملكة عكا : وهم كفيّل المملكة بها ،
والمقدم افريزكليم دسا حول (؟) مقدم بيت الديوية ؛ والمقدم افريزبيكوك
للورن (؟) ، وافرزاهداب نائب مقدم بيت الاسبتار الآمن ، ومن جميع الفرنج
والإخوة ، والفرسان الداخلين في طاعتهم وتحويه مملكتهم الساحلية ، ومن جميع
الفرنج على اختلافهم ، الذين يستوطنون عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة
من كل وأصل إليها في بر أو بحر على اختلاف أجناسهم وأنفارهم ، لا ينال بلاد
السلطان وولده ، ولا حصونهما ، ولا قلاعهما ، ولا بلادهما ، ولا ضياعهما ،
ولا عساكرهما ، ولا جيوشهما ، ولا عربهما ، ولا تركبتهما ، ولا أكرادهما ،
ولا رعاياهما ، على اختلاف الأجناس والأنفار ؛ ولا ما تحويه أيديهم من المواشي
والأموال والغلال وسائر الأشياء منهم غدر ولا سوء ، ولا يخشون من جميعهم أمرا
مكروها ولا إغارة ، ولا تعرضا ولا أذية .

وكذلك ما استفتحه ويضيفه السلطان وولده على أيديهما ، وعلى يد توابهما
وعساكرهما : من بلاد ، وحصون ، وقلاع ، ومملك ، وأعمال ، وولايات ، برا
وبحرا ، سهلا ووعرا .

وكذلك جميع بلاد الفرنج التي استقرت الآن عليها هذه الهدنة : وهي مدينة
عكا وبساتينها ، وأراضيها وطواحينها ؛ وما يختص بها من كروها ، وما لها من

(١) حُقُوقٍ حَوْلَهَا ، وما تَقَرَّرَ لها من بلادٍ في هذه الهُدنة وهي : البصة ومَزْرَعَتُها ، مجدل ، حمصين ، رأس عبده ، المَنَوَاتُ ومَزْرَعَتُها ، الكابرة ومزراعتهَا ، نصف وفيه جمعون ، كَفَرِ بَرْدَى ومَزْرَعَتُها ، كَوَكَبُ عمقا ومَزْرَعَتُها ، المونيه ، كفر ياسيف ومَزْرَعَتُها ، تُوسيان ، مكر حرسين ومَزْرَعَتُها ، الحديدة ، الغياضة ، العطوانية ، مرتوقا الحارثية ، ثَمرا الطره ، الرب ، البابوحه ومَزْرَعَتُها ، العرج ومَزْرَعَتُها ، المزرعة السَميرية البِيضاء ، دعوق والطاحون ، كردابه والطاحون ، حدرول ، تل النحل ، الغار ، الرخ والمجدل ، تَلُ كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكة ، المشيرقه ، العطرانية ، المنير ، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشه ، الزراعة الحديدة الشمالية ، الرحاحيه ، قسطه ، كفر نبتل ، الدويرات ، ماصوب ، مَتماس العباسية ، سيعابه ، عين الملك ، المنصورة ، الرضيقة ، حانا ، سرطا ، كفترا ، أرض الزراعة ، رولس ، صغد عدى ، سفر عم . هذه البلادُ المذكورةُ [تكون] خاصا للفرنج . حيفا والكروم والبساتين التي لها جميعها ، والقصر وهو الحوش وكَفَر توثا ، وهي : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعرة ، والباجور ، وسومرا . تكون حيفا وهذه البلادُ المذكورةُ بِمحدودِها وأراضيها خاصَّةً للفرنج . وكذلك قرية مارسا باره بها ، المعروفة بها وكرومها وغرسها يكون خاصا للفرنج . وديرُ السياح ، وديرُ مارلباس بأراضيها المعروفة بهما وكرومهما وبساتينهما يكونُ خاصًا للفرنج .

وعلى أن يكونَ للسلطانِ المَلِكِ المنصورِ ولولده الصَّالحِ : من بلادِ الكِرمِ ، وهي : الدالية ، ودونه ، وضريسة الرياح ، والكرك ، ومعليا ، والرامون ، ولونه ، وديور ،

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها في معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعنا الأصول في الإهمال والنقط .

وخربة يونس، وخربة خميس، ورشما، ودواه، يكون خاصاً للفرنج في بلادٍ أخرى
ذَكَرَهَا . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكاملها .

وتكونُ جميعُ هذه البلاد العكاويّة وما عيّن في هذه المُدنة المباركة من البلاد
السّاحلية آمنةً من السُّلطان المَلِك المنصور وولده المَلِك الصّالح ، وآمنةً من
عساكرهما وجُنودهما ومن خَدَمهما ، وتكونُ هذه البلادُ المشروحةً أعلاه ، الداخلةُ
في هذه المُدنة المباركة : الخاصّ بها ، وما هو مُنَاصَفَةٌ - مُطمَئِنَّةٌ هي ورعاياها ،
وسائرُ أجناسِ الناسِ فيها ، والقاطنين بها ، والمتردّدين إليها على اختلافِ أجناسهم
وأديانهم ، والمتردّدين إليها من جميعِ بلادِ الفرنجية والسُّفّار ، والمتردّدين منها وإليها
في برٍّ وبحرٍ ، في ليلٍ أو نهارٍ ، سهلاً وجبلاً ، آمنينَ على الثُّنوسِ والأموالِ والأولادِ ،
والمراكبِ والدوابِّ ، وجميعِ ما يتعلّقُ بهم ، وكلّ ما تحويه أيديهم من الأشياءِ على
اختلافِها ، من السُّلطانِ ولده ، وجميعِ من هوتحت طاعتها : لا ينالهم ولا ينالُ
هذه البلادَ المذكورةُ التي أتعقدتُ عليها المُدنةُ سوءٌ ولا ضررٌ ولا إغارةٌ ، ولا ينالُ
إحدى الجهتين المذكورتين : الإسلاميّة والفرنجيّة من الأخرى ضررٌ ولا أذيةٌ ؛
ويكونُ ما تقرّرَ أنه يكونُ خاصاً للفرنج حسب ما بينَ أعلاه لهم ، وما تقرّرَ أن يكونَ
للسُّلطانِ ولولده خاصاً لها ، والمناصفاتُ تكونُ كما شِرح . ولا يكونُ للفرنج من
البلادِ والمناصفاتِ إلا ما شِرح في هذه المُدنة وعينٌ فيها من البلادِ .

وعلى أن الفرنج لا يُجدّدون في غير عكا وعثليث وصيدا : مما هو خارجٌ عن أسوار
هذه الجهاتِ الثلاثِ المذكوراتِ ، لا قلعةً ، ولا بُرجاً ، ولا حصناً ، ولا مُستجداً .

وعلى أنه متى هرب أحدٌ - كائناً من كان - من بلادِ السُّلطانِ ولده إلى عكا
والبلادِ السّاحلية المعينة في هذه المُدنة ، وقصدَ الدُخولَ في دينِ النُصرانيّة وتتنصّر

بإرادته، يُرَدُّ جميع ما يروحُ معه وَيَبْقَى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولَ في دين النصرانية ولا يَتَنَصَّرُ، رُدُّ إلى أبايها العالِيسَةِ بجمع ما يروحُ معه، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعْطَى الأمانَ . وكذلك إذا حَضَرَ أحدٌ من عَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، وقصدَ الدُخُولَ في دينِ الإسلامِ وأسلمَ بإرادته، يُرَدُّ جميع ما معه ويبقى عُرْيَانًا . وإن كان ما يقصدُ الدُخُولَ في دينِ الإسلامِ ولا يُسَلِّمُ، يُرَدُّ إلى الحُكَّامِ بعَمَّا، والمقدَّمينَ بجمع ما يروحُ معه بشفاعةٍ بعد أن يُعْطَى له الأمانُ .

وعلى أنَّ الممنوعاتِ المعروفَ مَنعها قديمًا تَسْتَقَرُّ على قَاعِدَةِ المَنعِ من الجهتين . ومتى وُجِدَ مع أحدٍ من تُجَّارِ بلادِ السُّلطانِ وولَدِهِ من المسلمينَ وغيرهم على اختلافِ أديانهم وأجناسهم شَيْءٌ من الممنوعاتِ بعَمَّا والبلادِ السَّاحِلِيَّةِ الداخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ، مثلَ عَدَّةِ السِّلاحِ وغيره، يُعادُ على صاحبه الذي اشتراه منه، ويعادُ إليه ثَمَنُهُ، ويُردُّ ولا يُؤخَذُ ماله استهلاكًا، ولا يُؤذَى . وللسُّلطانِ ولولَدِهِ أن يفتصلا في من يخرجُ من بلادِهِما من رعيَّتِهِما، على اختلافِ أديانهم وأجناسهم، بشيءٍ من الممنوعاتِ . وكذلك كَفِيلُ المملَكَةِ بعَمَّا والمقدَّمونَ لهم أن يفتصلوا في رعيَّتِهِم الذين يخرجونَ بالممنوعاتِ من بلادِهِم الداخِلَةِ في هذه الهُدْنَةِ .

ومتى أخذتُ أخِيذَةً من الجانيِّينَ، أو قُتِلَ قَتِيلٌ من الجانيِّينَ، على أَى وَجْهِ كانَ - والعياذُ باللهِ - رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بعينها إن كانت مَوْجُودَةً، أو قِيمَتُها إن كانت مَفْقُودَةً . والقَتِيلُ يكونُ العِوَضُ عنه بِنَظِيرِهِ من جِنْسِهِ : فَارِسٌ بِفَارِسٍ، وَبِرِكِلٌ بِبِرِكِلٍ، وَتَاجِرٌ بِتَاجِرٍ، وَرَاجِلٌ بِرَاجِلٍ، وَفَلَّاحٌ بِفَلَّاحٍ . فإن خَفِيَ أمرُ القَتِيلِ والأَخِيذَةِ، كانت المَهْلَةُ في الكَشْفِ أربعينَ يومًا، فإن ظَهَرَتِ الأَخِيذَةُ أو تَعَيَّنَ أمرُ المَقْتُولِ، رُدَّتِ الأَخِيذَةُ بعينها ويكونُ العِوَضُ عن القَتِيلِ بِنَظِيرِهِ، وإن لم تَظْهَرِ

كانت اليمين على والى المكان المدعى عليه، وثلاثة نفر يقع اختيار المدعى عليهم، من تلك الولاية . وإن امتنع الوالى عن اليمين حلف من الجهة المدعية ثلاثة نفر تختارهم الجهة الأخرى وأخذ قيمتها . وإن لم ينصف الوالى ولا ردّ المسأل، أنهى المدعى أمره إلى الحكام من الجهتين ، وتكون المهلة بعد الإنهاء أربعين يوماً ، ويلزم الولاية من الجهتين بالوفاء بهذا الشرط .

ومتى أخفوا قتيلاً أو أحيده ، أو قدروا على أخذ حق ولم يأخذه كل واحد فى ولايته، يتعين على الذى يولى من ملوك الجهتين إقامة السياسة فيه : من أخذ الروح والمال والشئق، والإنكار التام على من يتعين عليه الإنكار إذا فعل ذلك فى ولايته وأرضه .

وإن هرب أحد بمالٍ وأعترف ببعضه وأنكر بعض ما يدعى به عليه، لزمه أن يحلف أنه لم يأخذ سوى ماردّه . فإن لم يقنع المدعى بيمين الهارب، حلف والى تلك الولاية أنه لم يطّلع على أنه وصل معه غير ماردّه . وإن أنكر أنه لم يصل معه شئ أصلاً، استحلف الهارب أنه لم يصل معه للمدعى شئ .

وعلى أنه إذا أنكسر مركب من مراكب تجار السلطان وولده التى انعقدت عليها الهدنة ، ورعيتهما من المسلمين وغيرهم : على اختلاف أجناسهم وأديانهم ، فى ميناء عكا وسواحلها ، والبلاد الساحلية التى انعقدت عليها الهدنة ، كان كل من فيها آمناً على الأئفس والأموال والأتباع والمتأجر . فإن وجد أصحاب هذه المراكب التى تنكسر تسلم مراكبهم وأموالهم [إليهم] . وإن عدموا بموت أو غرق أو غيبة ، فيحفظ بموجودهم ويسلم لتواب السلطان وولده . وكذلك المراكب المتوجهة من هذه البلاد الساحلية المنعقد عليها الهدنة للفرنج ، يجرى لها مثل ذلك فى بلاد

السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ، وَيَحْتَفِظُ بِمَوْجُودِهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهَا حَاضِرًا إِلَى أَنْ يُسَلَّمَ لِكَفِيلِ الْمَمْلُوكَةِ بَعَاثًا أَوْ الْمَقْدَمِ .

ومتى توفى أحد من التجار الصادرين والواردين: على اختلاف أجناسهم وأديانهم، من بلاد السلطان وولده، في عكا وصيدا وعثليث، والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة على اختلاف أجناسهم وأديانهم [فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده] ، وإذا توفى أحد في البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة، يحتفظ على ماله إلى حين يسلم إلى كفيل المملكة بعكا والمقدمين .

وعلى أن سواني السلطان وولده إذا عمرت وخرجت لا تتعرض بأذية إلى البلاد الساحلية التي انعقدت عليها هذه الهدنة . ومتى قصدت الشواني المذكورة جهة غير هذه الجهات، وكان صاحب تلك الجهة معاهدا للحكام بمملكة عكا، فلا تدخل إلى البلاد التي انعقدت عليها هذه الهدنة ولا تتروّد منها . وإن لم يكن صاحب تلك الجهة التي تقصدها الشواني المنصورة معاهدا للحكام بمملكة عكا والبلاد التي انعقدت عليها الهدنة، فلها أن تدخل إلى بلادها وتتروّد منها . وإن أنكر شيء من هذه الشواني - والعياد بالله - في مينا من مواني البلاد التي انعقدت عليها الهدنة وسواحلها: فإن كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدمي بيوتها عهد، فيلزم كفيل المملكة بعكا ومقدمي البيوت بحفظها، وتمكين رجالها من الزوادة وإصلاح ما أنكر منها، والعود إلى البلاد الإسلامية، و[لا] يبطل حركة ما تتكر منها - والعياد بالله - أو يرميه البحر . هذا إذا كانت قاصدة من له مع مملكة عكا ومقدميها عهد . فإن [قصدت من] لم يكن لها معهم عهد، فلها أن تتروّد وتعمّر رجالها من البلاد المتعقد عليها هذه الهدنة، وتوجه إلى البلاد المرسوم لها بقصدها، ويعتمد هذا الفصل من الجهتين .

وعلى أنه متى تحرك أحد من ملوك الفرنجة وغيرهم من جوار البحر لقصده الحضور لمضرة السلطان وولده في بلادهما المتفقّة عليها هذه الهدنة ، فليزّم نائب المملكة والمقدمين بعكا ، أن يعرفوا السلطان وولده بحركتهم قبل وصولهم إلى البلاد الإسلامية الداخلة في هذه الهدنة بمدة شهرين . وإن وصلوا بعد انقضاء مدة شهرين ، فيكون كفيل المملكة بعكا ، والمقدمون بريئين من عهدة اليمين في هذا الفصل . ومتى تحرك عدو من جهة البر من التتار وغيرهم ، فأى من سبق الخبر إليه من الجهتين يعرف الجهة الأخرى بما سبق الخبر إليه من أمرهم .

وعلى أنه إن قصد البلاد الشامية - والعياد بالله - عدو من التتار وغيرهم في البر ، وأنحازت العساكر الإسلامية من قدام العدو ، ووصل العدو إلى القرب من البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة وقصدوها بمضرة ، فيكتب إلى [كفيل] المملكة بعكا ، والمقدمين بها أن يدعوا عن بيوتهم ورعيّتهم وبلادهم بما تصل قدرتهم إليه . وإن حصل - والعياد بالله - جفل من البلاد الإسلامية إلى البلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، فليزّم كفيل المملكة بعكا ، والمقدمين بها حفظهم والدفع عنهم ومنع من يقصدهم بضرر ، ويكونون أميين مطمئنين بما معهم .

وعلى أن النائب بمملكة عكا ، والمقدمين بها يوصون في سائر البلاد الساحلية التي وقعت الهدنة عليها ، أنهم لا يمتكئون حرامية البحر من الزوادة من عندهم ولا من حمل ماء . وإن ظفروا بأحد منهم يمسكونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بضائع فيمسكها كفيل المملكة بعكا والمقدمون حتى يظهر صاحبها وتسلم إليه . وكذلك يعتمد السلطان وولده .

وعلى أن الرهائن بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، كل من عليه منهم مبلغ أو غلة ، فيحلف وإلى ذلك المكان الذي منه الرهينة ، ويحلف المباشر والكااتب

فِي وَقْتِ أَخْذِ هَذَا الشَّخْصِ رَهِينَةً أَنَّهُ عَلَيْهِ كَذَا وَكَذَا : مِنْ دَرَاهِمٍ أَوْ غَلَّةٍ أَوْ بَقْرٍ أَوْ غَيْرِهِ . فَإِذَا حَلَفَ الْوَالِيُ وَالْمُبَاشِرُ وَالكَاتِبُ قَدَامَ نَائِبِ السُّلْطَانِ وَوَلَدِهِ عَلَى ذَلِكَ يَقُومُ أَهْلُ الرَّهِينَةِ عَنْهُ بِمَا لِلْفَرَنْجِ عَلَيْهِ وَيُطْلِقُونَهُ . وَأَمَّا الرَّهَائِنُ الَّذِينَ أَخَذُوا مَنْسُوبِينَ إِلَى الْجَهْلِ وَالْأَخْتِشَاءِ أَنَّهُمْ لَا يَهْرُبُونَ إِلَى بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَيَتَمَتَّعُ الْوَلَاةُ وَالْمُبَاشِرُونَ مِنَ الْيَمِينِ عَلَيْهِمْ ، فَأُولَئِكَ يَطْلِقُونَ .

وَعَلَى أَنْ لَا يَجِدَّ عَلَى التُّجَّارِ الْمَسَافِرِينَ : الصَّادِرِينَ وَالْوَارِدِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً ، وَيُجْرَوْنَ عَلَى عَوَانِدِهِمُ الْمَسْتَمِرَّةَ إِلَى آخِرِ وَقْتِ ، وَتُؤَخَّذُ مِنْهُمْ الْحَقُوقُ عَلَى الْعَادَةِ الْمَسْتَمِرَّةِ ، وَلَا يَجِدُّ عَلَيْهِمْ رَسْمٌ وَلَا حَقٌّ لَمْ تَجْرِبْ بِهِ عَادَةً . وَكُلُّ مَكَانٍ عُرِفَ بِاسْتِخْرَاجِ الْحَقِّ فِيهِ يَسْتَخْرَجُ بِذَلِكَ الْمَكَانِ مِنْ غَيْرِ زِيَادَةٍ مِنَ الْجِهَتَيْنِ ، فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَيَكُونُ التُّجَّارُ وَالسَّفَّارُ وَالْمُتَرَدِّدُونَ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ مُحَقَّرِينَ مِنَ الْجِهَتَيْنِ فِي حَالَتِي سَفَرِهِمْ وَإِقَامَتِهِمْ ، وَصُدُورِهِمْ وَوُرُودِهِمْ بِمَا صَحَّحْتَهُمْ مِنَ الْأَصْنَافِ وَالْبَضَائِعِ الَّتِي هِيَ غَيْرُ مَمْنُوعَةٍ .

وَعَلَى أَنَّهُ يَنَادَى فِي الْبِلَادِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْبِلَادِ الْفَرَنْجِيَّةِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْهُدُنَةِ : أَنَّهُ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ يَعُودُ إِلَى بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مُسَامِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًّا . وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ مِنْ فَلَاحِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ مُسَامِمًا كَانَ أَوْ نَصْرَانِيًّا ، مَعْرُوفًا قَرَارِيًّا مِنْ الْجِهَتَيْنِ ، وَمَنْ لَمْ يَعُدْ بَعْدَ الْمُنَادَاةِ يُطْرَدُ مِنَ الْجِهَتَيْنِ . وَلَا يَمَكُنُ فَلَاحُو بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْفَرَنْجِ الْمُنْعَقِدِ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدُنَةَ ، وَلَا فَلَاحُو بِلَادِ الْفَرَنْجِ مِنَ الْمَقَامِ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ الَّتِي أَنْعَقَدَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْهُدُنَةَ ؛ وَيَكُونُ عَوْدُ الْفَلَاحِ مِنَ الْجِهَةِ إِلَى الْجِهَةِ الْأُخْرَى بِأَمَانٍ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ كَنِيسَةُ النَّاصِرَةِ وَأَرْبَعُ بُيُوتٍ مِنْ أَقْرَبِ الْبُيُوتِ إِلَيْهَا لَزِيَارَةِ الْمُجْتَاجِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ دِينِ الصَّلِيبِ : كَثِيرِهِمْ وَصَغِيرِهِمْ عَلَى آخْتِلَافِ أَجْنَاسِهِمْ وَأَنْفَارِهِمْ :

من عكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة ، ويصلى بالكنيسة الاقساء^(١) والرهبان ، وتكون البيوت المذكورة لزوار كنيسة الناصرة خاصة ، ويكونون آمنين مطمئنين في توجههم وحضورهم إلى حدود البلاد الداخلة في هذه الهدنة . وإذا نُقِبَت الحجارة التي بالكنيسة المذكورة ترمى برا ، ولا يُحطُّ بحجر منها على حجر لأجل بنيته ، ولا يتعرض إلى الأقساء والرهبان ، وذلك على وجه الهبة لأجل زقارين الصليب بغير حق .

ويلزم السلطان وولده حفظ هذه البلاد المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة من نفسيهما وعساكرهما وجنودهما ، ومن جميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهما وطاعتها . ويلزم كفيل الملكة بعكا والمقدمين بها حفظ هذه البلاد الإسلامية المشروحة التي انعقدت عليها الهدنة ، من نفسيهم وعساكرهم وجنودهم ، وجميع المتجرمة والمتلصصين والمفسدين : ممن هو داخل تحت حكمهم وطاعتهم بالملكة الساحلية الداخلة في هذه الهدنة . ويلزم كفيل الملكة بعكا ، ومقدمي البيوت بها الحكم بعكا والبلاد الساحلية الداخلة في هذه الهدنة - القيام بما تضمنته هذه الهدنة من الشروط جميعها ، شرطا شرطا ، وفصلا فصلا ، والعمل بأحكامها ، والوقوف مع شروطها إلى انقضاء مدتها . ويفي كل منهم بما حلف به من الأيمان المؤكدة : من أنه يفى بجميع ما في هذه الهدنة على ما حلفوا به . تستمر هذه الهدنة المباركة بين السلطان وولده وأولادها وأولاد أولادهم ، وبين الحكماء بملكة عكا ، وصيدا ، وعثليث ، وهم الشبخان أودرا(٩) المقدمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغير بموت ملك أحد الجهتين ، ولا بتغير مقدم وتولية غيره ، بل تستمر على حالها إلى آخرها وانقضائها ، بشرطها المحدودة ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقواعدها المقررة ، كاملة تامة . ومتى أنقضت هذه الهدنة المباركة ، أوقع
 - والعيادُ بالله - فسُخِّ ، كانت المهلةُ في ذلك أربعين يوماً من الجهتين . ويُنادى
 بـرجوع كلِّ أحدٍ إلى وطنه بعد الإسهاد ، ليعود الناس إلى مواطنهم آمينين مطمئنين ،
 ولا ينعون من السفر من الجهتين ، ولا تبطل بعزل أحدٍ من الجهتين ، وتُسَيِّدُ
 أحكامها متتابعة متوالية ، بالسنين والشهور والأيام إلى أنقضائها ؛ ويلزم المتولى
 حفظها والعمل بشروطها وفصولها ، وفروعها وأصولها ؛ ويجرى الحال فيها على
 أبجل الحالات إلى آخرها . وعلى جميع ذلك وقع الرضا والصفح والاتفاق ، وحلف
 عليها من الجهتين ، والله الموفق .



وهذه نسخة هُدنة ، عُقدت بين الملك الأشرف ، صلاح الدين « خليل » ابن
 الملك المنصور سيف الدين « قلاوون » صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية ؛
 وبين دون حاكم الريد أرغون ، صاحب برشلونة من بلاد الأندلس ؛ على يد رُسُلِهِ :
 أخويه وصهرية الآتي ذكرهم ، في صفر سنة أئتين وتسعين وسمائة ، وهى :

استقرت المودة والمصادقة بين الملك الأشرف ، وبين حاضرة الملك الحليل ،
 المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ، الضرغام ، المفخّم ، المبعجل « دون » حاكم
 الريد أرغون ، وأخويه دون ولدريك ، ودون بيدرو ؛ وبين صهرية اللذين طلب
 الرسولان الواصلان إلى الأبواب الشريفة عن مرسلهما الملك دون حاكم أن يكونا
 داخلين في الهدنة والمصادقة ، وأن يلتزم الملك دون حاكم عنهما بكل ما ألتزم به عن
 نفسه ، ويتدرك أمرهما . وهما الملك الحليل ، المكرم ، الخطير ، الباسل ، الأسد ،
 الضرغام ، دون شانجه ، ملك قشتالة ، وطليطلة ، وليون ، والنسيّة ، وأشبيلية ،
 وقرطبة ، ومرسية ، وجيان ، والغرب ، الكفيل بمملكة أرغون وبرتقال - والملك

الجَلِيلُ دون أُنْفُونش مَلِكُ بَرْتُقَال، من تاريخ يومِ الخميسِ تاسعِ عَشْرِ صَفَرِ سَنَةِ
 أَنْتَيْنِ وتسعينِ سِمَاءَةٍ، المُوَافِقِ لثلاثِ بَقِينِ من جنيرِ سَنَةِ أَلْفِ وَمائَتَيْنِ وَأَنْتَيْنِ
 وتسعينِ لمولانا السَّيِّدِ المَسِيحِ عليه السلام. وذلك بِمَحْضُورِ رَسُولِي المَلِكِ دون حاكم،
 وهما: المَحْتَشِمُ الكَبِيرُ وروصوديمار موند الحَاكِمُ، عن المَلِكِ دون حاكم في بَانَسِيَّةَ،
 ورَفِيقَهُ المَحْتَشِمُ العُمْدَةُ ديمون المان قراري بَرَجَلُونَةَ، الوَاصِلَيْنِ بِكَلْبِ المَلِكِ دون
 حاكم، المَخْتومِ بِخَتَمِ المَلِكِ المذكور، المَقْتَضِي معناه أَنَّهُ سَمَّاهُمَا جَمِيعًا أَحْوَالمُ
 وَمَطْلُوبِهِمُ، وَسَأَلَ أَنْ يَاقُومًا فِيمَا يَقُولَانِهِ عَنْهُ، فَكان مَضمُونُ مُشَافَهَتِهِمَا وَسُؤَالِهِمَا تَقْرِيرَ
 قَوَاعِدِ الصَّلْحِ والمَوَدَّةِ والصَّدَاقَةِ. والشُّرُوطِ الَّتِي يَشْتَرِطُهَا المَلِكُ الأَشْرَفُ على المَلِكِ
 دون حاكم، وَأَنَّهُ يَلْتَزِمُ بِجَمِيعِ هَذِهِ الشُّرُوطِ الآتِي ذِكْرُهَا، وَيَحْفِظُ المَلِكُ المذكورُ
 عليها هو وَأَخْوَاهُ وصَهْرَاهُ المَذْكُورُونَ. ووَضَعَ الرَسولانِ المذكورانِ خُطُوطَهُمَا بِجَمِيعِ
 الفُصُولِ الآتِي ذِكْرُهَا، بِأَمْرِهِ وَمَرْسُومِهِ. وَأَنَّ المَلِكِ دُونَ حاكم وَأَخْوَِيهِ وصَهْرِيهِ
 يَلْتَزِمُونَ بِهَا، وهى: أَسْتِقْرَارُ المَوَدَّةِ والمُصَادَقَةِ مِنَ التَّارِيخِ المَقْدَمِ ذِكْرُهُ، على مَمَرِّ
 السنينِ والأعوامِ، وتَعاقِبِ الأَيامِ والأَيامِ: بَرًّا وَبِجَورًا، سَهْلًا ووَعْرًا، قُربًا وَبُعدًا.

وعلى أن تكون بلاد السلطان الملك الأشرف، وقلاعُه، وحصُونُه، وثغورُه،
 وممالكُه، وموانِي بلادِه وسواحلُها، وبرورُها، وجميعُ أقاليمِها ومُدُنِها، وكلُّ ما هو
 داخلٌ في مملكته، ومحسوبٌ منها، ومنسوبٌ إليها: من سائرِ الأقاليمِ الرُّومِيَّةِ،
 والعِراقِيَّةِ، والمَشْرِقِيَّةِ، والشَّامِيَّةِ، والحلبِيَّةِ، والفُراتِيَّةِ، واليَمِينِيَّةِ، والحِجَازِيَّةِ، والذِّيارِ
 المِصرِيَّةِ، والغَرْبِ.

وحُدُّ هذه البلادِ والأقاليمِ وموانِيها وسواحلُها من البرِّ الشَّامِيِّ مِنَ القُسْطَنْطِينِيَّةِ
 والبلادِ الرُّومِيَّةِ السَّاحِلِيَّةِ، وهى: من طرابُلُسِ الغَرْبِ، وسواحلِ بَرَقَةَ،
 والإسْكَندَرِيَّةِ، ودمِياطِ، والطَّيْنَةِ، وقُطَيَا، وغَزَّةَ، وعَسْقلانَ، ويَافَا،

وَأَرْسُوفَ ، وَقَيْسَارِيَّةَ ، وَعَنْثَلِيثَ ، وَحِيفَا ، وَعَكَا ، وَصُورَ ، وَصَيْدَا ، وَيَبْرُوتَ ،
وَجَبِيلَ ، وَالْيَبْرُونِ ، وَأَنْفَةَ طَرَابُاسِ الشَّامِ ، وَأَنْطَرَسُوسَ ، وَمَرْقِيَّةَ ، وَالْمَرْقَبَ ،
وَسَاحِلِ الْمَرْقَبِ : بَانِيَّاسَ وَغَيْرَهَا ، وَجَبَلَةَ ، وَاللَّادِقِيَّةَ ، وَالسُّوَيْدِيَّةَ وَجَمِيعِ الْمَوَانِي
وَالْبُرُورِ إِلَى تَغْرِيْمِيَاطَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ .

وَحَدَّهَا مِنَ الْبَرِّ الْغَرْبِيُّ : مِنْ تُونُسَ وَإِقْلِيمِ إِفْرِيْقِيَّةَ وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَطَرَابُاسَ
الْغَرْبِ وَتَغُورِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، وَبَرْقَةَ وَتَغُورِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا ، إِلَى تَغْرِ
الْإِسْكَنْدَرِيَّةِ وَرَشِيدَ وَبُحَيْرَةِ تَيْسَ وَسَوَاحِلِهَا وَبِلَادِهَا وَمَوَانِيهَا .

وَمَا تَحْتَوِيهِ هَذِهِ الْبِلَادُ وَالْمَمَالِكُ الْمَذْكُورَةُ وَالَّتِي لَمْ تُذْكَرْ ، وَالْمَدَائِنُ وَالتُّغُورُ
وَالسَّوَاحِلُ وَالْمَوَانِي وَالتُّطُرُقَاتُ فِي الْبَرِّ وَالتَّبَحَّرَ ، وَالتُّصُدُورُ وَالتُّوْرُودُ ، وَالتُّمَقَامُ وَالتُّسَفَرُ ،
مِنْ عَسَاكِرَ وَجُنُودَ ، وَتُرُكِيَانِ ، وَأَكْرَادِ ، وَعُرَبِيَانِ ، وَرَعَايَا ، وَتُجَّارَ ، وَشَوَانِي ،
وَمَرَاكِبَ ، وَسُفُنَ ، وَأَمْوَالَ ، وَمَوَاشِيَ ، عَلَى آخْتِلَافِ الْأَدْيَانِ وَالْأَنْفَارِ وَالْأَجْنَاسِ ،
وَمَا تَحْتَوِيهِ الْأَيْدِي مِنْ سَائِرِ أَصْنَافِ الْأَمْوَالِ وَالْأَسْلِحَةِ وَالْأَمْتِعَةِ وَالبَضَائِعِ وَالتَّنَاجِرِ ،
قَلِيلًا كَانَ أَوْ كَثِيرًا ، قَرِيبًا كَانَ أَوْ بَعِيدًا ، بَرًّا كَانَ أَوْ بَحْرًا . أَمِنَةً عَلَى الْأَنْفُسِ ،
وَالْأَرْوَاحِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالتَّحْرِيمِ ، وَالْأَوْلَادِ مِنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَمِنْ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
الْمَذْكُورِينَ ، وَمِنْ أَوْلَادِهِمْ ، وَفُرْسَانِهِمْ ، وَخِيَالَتِهِمْ ، وَمُعَاهِدِيهِمْ ، وَعَمَّائِهِمْ ،
وَرِجَالِهِمْ ، وَكُلِّ مَنْ يَتَعَلَّقُ بِهِمْ . وَكَذَلِكَ كُلُّ مَا سَيَفْتَحُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدِ الْمَلِكِ
الْأَشْرَفِ ، وَعَلَى يَدِ أَوْلَادِهِ وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ ، مِنَ الْقِلَاعِ وَالْحُصُونِ ، وَالبِلَادِ
وَالْأَقَالِيمِ ، فَإِنَّهُ يَجْرِي عَلَيْهِ هَذَا الْحُكْمُ .

وَعَلَى أَنْ تَكُونَ بِلَادُ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَبِلَادُ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ وَمَمَالِكُهُ الْمَذْكُورَةُ
فِي هَذِهِ الْهُدْنَةِ ، وَهِيَ : أَرْغُونُ وَأَعْمَالُهَا وَبِلَادُهَا : صَقَلِيَّةٌ وَجَزِيرَتُهَا وَبِلَادُهَا

(١) خبر قوله : أن تكون بلاد السلطان الواردة في الصفحة قبل .

وأعمالها، برُبُولِيَّةَ وأعمالها وبلادها، جَزِيرَةُ مَالِقَةَ، وَقَوْصَرَةَ وبلادها وأعمالها،
مِيورَقَةَ وَيَابَسَةَ وبلادها، وأرسويار (؟) وأعمالها، وما سَيَفْتَحُهُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ
مِن بِلَادِ أَعْدَائِهِ الْفَرَنْجِ الْمَجَاوِرِينَ لَهُ بِتِلْكَ الْأَقَالِيمِ - آمِنِينَ مِنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ
وَأَوْلَادِهِ، وَعَسَاكِرِهِ وَجُيُوشِهِ، وَشَوَانِيهِ وَعَمَائِرِهِ، هِيَ وَمَنْ فِيهَا مِنْ فُرْسَانٍ وَخِيَالَةٍ
وَرَعَايَا. وَأَهْلُ بِلَادِهِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ عَلَى الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ، وَالْحَرِيمِ وَالْأَوْلَادِ،
فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَالصُّدُورِ وَالْوُرُودِ.

وعلى أن الملك دون حاكم هو وأخواته وصهره أصدقاء من بصادق الملك الأشرف
وأولاده، وأعداء من يعاديه من سائر الملوك الفرنجية وغير الملوك الفرنجية. وإن
قصد الباب برومية، أو ملك من ملوك الفرنج: متوجا كان أو غير متوج، كبيرا كان
أو صغيرا، أو من الجنوية، أو من البنادقة، أو من سائر الأجناس على اختلاف
الفرنج والروم، والبيوت: بيت الإخوة الديوية، والاسبتارية، والروم، وسائر
أجناس النصارى - مصرة بلاد الملك الأشرف، بمحاربة أو أذية، يمنعهم الملك دون
حاكم هو وأخواته وصهره ويردوهم، ويعمرون شوانيمهم ومرابكهم، ويقصدون
بلادهم، ويشغلونهم بنفوسهم عن قصد بلاد الملك الأشرف وموانيه وسواحه
وتغوره المذكورة، وغير المذكورة؛ ويقاتلونهم في البر والبحر بشوانيمهم وعمائيرهم،
وفرسانهم وخيالاتهم ورجالتهم.

وعلى أنه متى خرج أحد من معاهدي الملك الأشرف من الفرنج عن شروط
الهدنة المستقرة بينه وبينهم، ووقع ما يوجب فسخ الهدنة، لا يعينهم الملك دون
حاكم ولا أحد من أخويه ولا صهره، ولا خيالاتهم، ولا فرسانهم، ولا أهل
بلادهم، بخيل ولا خيالة، ولا سلاح ولا رجالة، ولا مال ولا تجدة، ولا ميرة،
ولا مراكب ولا شوان ولا غير ذلك.

وعلى أنه متى طلب الباب بروميسة، وملوك الفرنج، والروم، والتتار، وغيرهم من الملك دون حاكم أو من أخويه أو من صهره أو من بلادهم، إنجاداً، أو معاونةً: بجيالة، أو رجالة، أو مال، أو مراكب، أو شوان، أو سلاح - لا يوافقهم على شيء من ذلك، لا في سر ولا جهراً؛ ولا يعين أحداً منهم ولا يوافقه على ذلك. ومتى أطلعوا على أن أحداً منهم يقصد بلاد الملك الأشرف لمخاربه أو لمضرتة بشيء، يعرف الملك الأشرف بخبرهم، وبالجهة التي اتفقوا على قصدتها في أقرب وقت، قبل حوطلتهم من بلادهم، ولا يخفيه شيئاً من ذلك.

وعلى أنه متى أنكسر مركب من المراكب الإسلامية في بلاد الملك دون حاكم، أو بلاد أخويه أو بلاد صهره، [فعلهم] أن يخفروهم، ويحفظوا مراكبهم وأموالهم، ويساعدوهم على عمارة مراكبهم، ويجهزوهم وأموالهم وبضائعهم إلى بلاد الملك الأشرف. وكذلك إذا انكسرت مركب من بلاد دون حاكم، وبلاد أخويه وصهره، ومعاهديه في بلاد الملك الأشرف، يكون لهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى مات أحد من تجار المسلمين ومن نصارى بلاد الملك الأشرف، أو ذمة أهل بلاده، في بلاد الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره وأولاده ومعاهديه، لا يعارضوهم في أموالهم ولا في بضائعهم، ويحمل ما لهم وموجودهم إلى بلاد الملك الأشرف: ليفعل فيه ما يختار. وكذلك من يموت في بلاد الملك الأشرف من أهل مملكة الملك دون حاكم وبلاد أخويه وصهره ومعاهديهم، فلهم هذا الحكم المذكور أعلاه.

وعلى أنه متى عبر على بلاد الملك دون حاكم أو بلاد أخويه أو صهره أو معاهديه رسل من بلاد الملك الأشرف قاصدين جهة من الجهات القريبة أو البعيدة،

صَادِرِينَ أَوْ وَارِدِينَ ، أَوْ رَمَاهُم الرِّيحُ فِي بِلَادِهِمْ ، تَكُونُ الرُّسُلُ وَغِلْمَانُهُمْ وَأَتْبَاعُهُمْ ،
وَمَنْ يَصِلُ مَعَهُمْ مِنْ رُسُلِ الْمُلُوكِ أَوْ غَيْرِهِمْ - آمِنِينَ مَحْفُوظِينَ فِي الْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ ،
وَيُجَهِّزُهُمْ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ مَتَى جَرَى مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِهِمْ قَضِيَّةٌ
تُوجِبُ فِسْخَ الْمُهَادَنَةِ ، كَانَ عَلَى كُلِّ مَنْ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ طَلَبُ
مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَفِعْلُ الْوَاجِبِ فِيهِ .

وَعَلَى أَنْ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ يَفْسُخُ كُلَّ مِنْهُمْ لِأَهْلِ بِلَادِهِ وَغَيْرِهِمْ
مِنَ الْفَرَنْجِ ، أَنَّهُمْ يَجْلِبُونَ إِلَى الثُّغُورِ الْإِسْلَامِيَّةِ : الْحَدِيدَ وَالْبَيَاضَ وَالْحَشَبَ وَغَيْرَ ذَلِكَ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى أُسْرَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي الْبَرِّ أَوْ الْبَحْرِ ، مِنْ مَبْدِئِ تَارِيخِ هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ
مِنْ سَائِرِ الْبِلَادِ : شَرْقِيَّهَا وَغَرْبِيَّهَا ، أَقْصَاهَا وَأَدْنَاهَا ، وَوَصَلُوا بِهِ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ
حَاكِمِ وَبِلَادِ أَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ لِيَبِيعَهُ بِهَا ، فَيَلْزِمُ الْمَلِكُ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ
فَكَ أَسْرِهِ وَحَمْلَهُ إِلَى بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى كَانَ بَيْنَ تِجَّارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَبَيْنَ تِجَّارِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ
وَصِهْرِيهِ مُعَامَلَةٌ فِي بَضَائِعِهِمْ ، وَهَمَّ فِي بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ ، كَانَ أَمْرُهُمْ مَحْمُولًا عَلَى
مُوجِبِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى رَكِبَ أَحَدٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَرَآكِبِ بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، وَحَمَلَ بَضَاعَتَهُ مَعَهُمْ وَعُدِمَتِ الْبِضَاعَةُ ، كَانَ عَلَى الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ
وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ رُدُّهَا إِنْ كَانَتْ مَوْجُودَةً ، أَوْ قِيَمَتَهَا إِنْ كَانَتْ مَفْقُودَةً .

وَعَلَى أَنَّهُ مَتَى هَرَبَ أَحَدٌ مِنْ بِلَادِ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ الدَّاخِلَةِ فِي هَذِهِ الْمُهَادَنَةِ إِلَى
بِلَادِ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِ وَأَخَوِيهِ وَصِهْرِيهِ ، أَوْ تَوَجَّهَ بِبِضَاعَةٍ لغيرِهِ وَأَقَامَ بِتِلْكَ الْبِلَادِ ،

كان على الملكِ دون حاكم وعلى أخويه وصهرية ردُّ الهاربِ أو المقيمِ ببضاعة غيره ،
والمالِ معه إلى بلاد الملكِ الأشرفِ ما دام مُسَلِّماً . وإن تَنَصَّرَ ، يرُدُّ المالَ الذى
معه خاصَّة . ولملكة الملكِ دون حاكم وأخويه وصهرية فيمن يهرب من بلادهم
إلى بلاد الملكِ الأشرفِ هذا الحكمُ المذكورُ أعلاه .

وعلى أنه إذا وصل من بلاد الملكِ دون حاكم وبلاد أخويه وصهرية ومعهديه
من الفرنج من يقصدُ زيارة القُدسِ الشَّريفِ ، وعلى يده كِتَابُ الملكِ دون حاكم
وختمه إلى نائب الملكِ الأشرفِ بالقُدسِ الشَّريفِ ، يُفَسِّحُ له فى الزيارة مَسْمُوحًا
بالحقِّ لِقَضَى زيارته ويعود إلى بلاده آمناً مطمئناً فى نفسه وماله ، رجلاً كان
أو امرأةً ، بحيثُ إن الملكِ دون حاكم لا يكتبُ لأحدٍ من أعدائه ولا من أعداءِ
الملكِ الأشرفِ فى أمرِ الزيارة بشيءٍ .

وعلى أن الملكِ دون حاكم يحرسُ جميعَ بلادِ الملكِ الأشرفِ هو وأخواه وصهره
من كل مَضَرَّةٍ ، ويجهدُ كلَّ منهم فى أنَّ أحدًا من أعداءِ الملكِ الأشرفِ لا يصلُ
إلى بلاد الملكِ الأشرفِ ، ولا يُنَجِّدُهم على مَضَرَّةِ بلاد الملكِ الأشرفِ ولا رعاياه ،
وأنه يساعِدُ الملكِ الأشرفِ فى البرِّ والبحرِ بكلِّ ما يشتهيه ويختاره .

وعلى أن الحقوقَ الواجبةَ على من يصُدِّرُ ويردُّ ويتردَّدُ من بلاد الملكِ دون حاكم
وأخويه وصهرية ، إلى نغرى الإسكندرية ودمياط ، والنغور الإسلامية ، والممالكِ
السُّلْطانية ، بسائر أصناف البضائع والمتاجر على اختلافها ، تستمرُّ على حكمِ الضرائبِ
المستقرَّة فى الديوان المعمور إلى آخر وقتٍ ، ولا يُحدَثُ عليهم فيها حَدِثٌ . وكذلك
يجرى الحكمُ على من يتردَّدُ من البلاد السلطانية إلى بلاد الملكِ دون حاكم وأخويه
وصهرية .

تَسْتَمِرُّ هَذِهِ الْمَوَدَّةُ وَالْمُصَادَقَةُ عَلَى حُكْمِ هَذِهِ الشَّرْطِ الْمَشْرُوحَةِ أَعْلَاهُ مِنْ
الْجِهَاتِ عَلَى الدَّوَامِ وَالْإِسْتِمْرَارِ، وَتَجْرِي أَحْكَامُهَا وَقَوَاعِدُهَا عَلَى أَجْمَلِ الْأَسْتِقْرَارِ،
فَإِنَّ الْمَالِكَ بِهَا قَدْ صَارَتْ مَمْلَكَةً وَاحِدَةً وَشَيْئًا وَاحِدًا، لَا تَنْقُضُ بَمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ
الْجَانِبِينَ، وَلَا بَعْزِلِ وَالٍ وَتَوَلِيَةِ غَيْرِهِ، بَلْ تُؤَيِّدُ أَحْكَامُهَا، وَتَدُومُ أَيَّامُهَا، وَشُهُورُهَا
وَأَعْوَامُهَا. وَعَلَى ذَلِكَ آتَنْظَمْتُ وَأَسْتَقَرَّتْ فِي التَّارِيخِ الْمَذْكُورِ أَعْلَاهُ، وَهوَ كَذَا
وَكَذَا، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ بِكَرَمِهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

قُلْتُ: وَهَذِهِ النُّسخُ الْخَمْسُ الْمُتَقَدِّمَةُ الذِّكْرِ نَقَلْتُهَا مِنْ تَذَكُّرَةِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُكْرَمِ،
أَحَدِ كُتَّابِ الْإِنشَاءِ بِالْدَوْلَةِ الْمَنْصُورِيَةِ «قَلَاوُونَ» الْمُسَمَّاءِ: «تَذَكُّرَةُ اللَّيْبِ، وَزُهَّةُ
الْأَدِيبِ» مِنْ نُسخَةٍ بِحُطَّه، ذَكَرَ فِيهَا أَنَّ النُّسخَةَ الْأُولَى مِنْهَا كَتَبَهَا بِحُطَّه عَلَى مَدِينَةِ
صَفَد. وَليْسَ مِنْهَا مَا هُوَ حَسَنُ التَّرْتِيبِ، رَائِقُ الْأَلْفَاظِ، بَهِجُ الْمَعَانِي، بَلِغُ الْمَقاصِدِ،
غَيْرِ النُّسخَةِ الْأَخِيرَةِ الْمَعْقُودَةِ بَيْنَ الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ وَبَيْنَ الْمَلِكِ دُونَ حَاكِمِهِ. أَمَا سَائِرُ
النُّسخِ الْمُتَقَدِّمَةِ فَإِنَّهَا مُبْتَدَلَةٌ الْأَلْفَاظِ، غَيْرُ رَائِقَةٍ التَّرْتِيبِ، لَا يَصْدُرُ مِثْلُهَا مِنْ كَاتِبٍ
عِنْدَهُ أُذُنٌ مُمَارَسَةٌ لِصِنَاعَةِ الْكَلَامِ. وَالْعَجَبُ مِنْ صُدُورِ ذَلِكَ فِي زَمَنِ «الظَّاهِرِ
يَبْرَسَ» وَ«الْمَنْصُورِ قَلَاوُونَ» وَهُمَا مِنْهُمَا مِنْ عُظَمَاءِ الْمُلُوكِ!! وَكِتَابَةُ الْإِنشَاءِ يَوْمَئِذٍ
بِيَدِ بَنِي عَبْدِ الظَّاهِرِ الَّذِينَ هُمْ بَيَّتُ الْفِصْحَةَ وَرَعُوسُ أَرْبَابِ الْبَلَاغَةِ!!! وَلَعَلَّ
ذَلِكَ إِنَّمَا وَقَعَ، لِأَنَّ الْفَرَنْجِ كَانُوا مُجَاوِرِينَ لِلسُّلَمِيِّينَ يَوْمَئِذٍ بِلَادِ الشَّامِ، فَيَقَعُ الْأَتْفَاقُ
وَالْتِراضَى بَيْنَ الْجِهَتَيْنِ عَلَى فَضْلِ فَضْلٍ، فَيَكْتُبُهُ كَاتِبٌ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ مِنْ جِهَتِي
الْمَسَامِينِ وَالْفَرَنْجِ بِالْفَظِ مُبْتَدَلَةٍ غَيْرِ رَائِقَةٍ، طَلَبًا لِلسَّرْعَةِ، إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ بِهِمُ الْحَالُ
فِي الْأَتْفَاقِ وَالتِراضَى، إِلَى آخِرِ فُصُولِ الْهُدْنَةِ، فَيَكْتُبُهَا كَاتِبُ الْمَلِكِ الْمُسْلِمِ عَلَى صُورَةِ
مَا جَرَى فِي الْمُسَوَّدَةِ، لِيُطَابِقَ مَا كَتَبَ بِهِ كَاتِبُ الْفَرَنْجِ. إِذْ لَوْ عَدَلَ فِيهَا كَاتِبٌ

السلطان إلى الترتيب ، وتحسين الألفاظ وبلاغة التركيب ، لأختل الحال فيها عما وافق عليه كاتب الفرنج أولاً ، فينكرونه حينئذ ، ويرون أنه غير ما وقع عليه الاتفاق ، لقصورهم في اللغة العربية ، فيحتاج الكاتب إلى إبقاء الحال على ما توافق عليه الكاتبان في المسودة . وبالجملة فإنما ذكرت النسخ المذكورة - على سخافة لفظها ، وعدم انسجام ترتيبها - لأشتملها على الفصول التي جرى فيها الاتفاق فيما تقدم من الزمان ، ليستمد منها الكاتب ما لعله لا يحضربباله من مقاصد المهادنان ، أغنانا الله تعالى عن الحاجة إليها .

وأعلم أنه قد جرت العادة ، أنه إذا كتبت الهدنة ، كتب قرينها يمين يحلف بها السلطان أو نائبه القائم بعقد الهدنة ، على التولية بفصولها وشروطها ، ويدين يحلف عليها القائم عن الملك الكافر بعقد الهدنة ، ممن يآذن له في عمدها عنه ، بكتاب يصدر عنه بذلك ، أو تجهز نسختها إلى الملك الكافر ليحلف عليها ، ويكتب خطه بذلك ، وتعاد إلى الأبواب السلطانية .

المذهب الثالث

(أن تفتتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ « الحمد لله »)

وعلى هذا بنى صاحب "مواد البيان" أمره في كتابة الهدنة ، حيث قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالى على الهداية إلى دين الإسلام الذي أدل كل دين وأعزّه ، وخذل كل شرع ونصره ، وأخفى كل مذهب وأظهره ، والتوغل في توحده ، وتقديسه وتمجيديه ، والثناء عليه بالائه ، والصلاة على خير أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلت : ولم يأت بصورة هُدنةٍ مُتظمةٍ على هذا الترتيب ، بل أشار إلى كَيْفِيَّةِ عملها . ثم قال : والْبَلِيغُ يَكْتَفِي بِقَرِيحَتِهِ فِي تَرْتِيبِ هَذِهِ الْمَعَانِي إِذَا دُفِعَ إِلَى الْإِنْشَاءِ فِيهَا ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى . ولم أَقِفْ لغيره على صورة هُدنةٍ مُفتحةٍ بالتحديد ، ولا يخفى أن الأبتداء به في كلِّ مُهِمٍّ من العهودِ وِجلائِلِ الولاياتِ ونحو ذلك هو المعمولُ عليه في زَمَانِنَا .

الطرف الثاني

(فيا يُشَارِكُ فِيهِ مُلُوكُ الْكُفْرِ مُلُوكَ الْإِسْلَامِ فِي كِتَابَةِ نُسخٍ مِنْ دَوَائِبِهِمْ)

إِعلم أَنَّ الْغَالِبَ فِي الْهُدَنِ الْوَاقِعَةِ بَيْنَ مُلُوكِ الْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَبَيْنَ مُلُوكِ الْكُفْرِ أَنَّ تُكْتَبَ نَسْخَةٌ تُخَلَّدُ بِدِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَنُسْخَةٌ تُجَهَّزُ إِلَى الْمَلِكِ الْمُهَادِنِ . وَرُبَّمَا كَتَبَتْ نَسْخَةٌ مِنْ دِيْوَانِهِ مُفْتَحَةً بِمِيزَانٍ .

وهذه نسخة هُدنةٍ وَرَدَتْ مِنْ جِهَةِ الْأَشْكَرِيِّ ، صَاحِبِ الْقُسْطَنْطِينِيَّةِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ سَنَةِ ثَمَانِينَ وَسِتْمِائَةَ ، مُؤَرَّخَةً بِتَارِيخِ مَوَافِقِ لِأَوَاحِرِ الْحَرَمِ مِنْ السَّنَةِ الْمَذْكُورَةِ ، فَعَرَّبَتْ فَكَانَتْ نُسخَتِهَا عَلَى مَا ذَكَرَهُ أَبُو مُكْرَمٍ فِي «تَذَكُّرَتِهِ» :

إِذْ قَدْ أَرَادَ السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ ، النَّسِيبُ ، الْعَالِي ، الْعَزِيزُ ، الْكَبِيرُ الْجَنَسُ ، الْمَلِكُ ، الْمَنْصُورُ ، سَيْفُ الدِّينِ « قَلَاوُونَ » صَاحِبُ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَدِمَشْقَ وَحَلَبَ ، أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَمْلَكَتِي مُحَبَّةً - فَمَمْلَكَتِي تُؤَثِّرُ ذَلِكَ ، وَتُخْتَارُ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ عِزِّ سُلْطَانِهِ مُحَبَّةً . وَهَذَا وَجِبَ أَنْ يَتَوَسَّطَ هَذَا الْأَمْرَ بَيْنَهُمَا وَأَتَّفَقَ : لِتَدْوَمَ الْمُحَبَّةُ الَّتِي بَهَذِهِ الصُّورَةِ فِيمَا بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ نَائِتَةً بِلا تَشْوِيشٍ . فَمَمْلَكَتِي هَذَا الْيَوْمَ ، وَهُوَ يَوْمُ الْخَمِيسِ الثَّامِنُ مِنْ شَهْرِ إِيَّارٍ مِنَ التَّارِيخِ [الرُّومِي] التَّابِعِ لِسَنَةِ سِتَّةِ آلَافِ

وسبعائة وتسع وثمانين لآدم - تحلف بأناجيل الله المتدسة، والصليب المكرم المحيي،
أن مملكتي تكون حافظة للسلطان العظيم، النسيب، العالی، العزيز، الكبير الجنيس،
سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية ودمشق وحاب، ولولده ولوارث
ملك عز سلطانة: محبة مستقيمة، وصدقة كاملة تقيّة، ولا يحرك ملكي أبداً على
عز سلطانة حرباً، ولا على بلاده ولا على قلاعها، ولا على عساكره، ولا يتحرك
ملك أبداً على حربيه، بحيث إن هذا السلطان العظيم، النسيب، العالی، العزيز،
الكبير الجنيس، الملك المنصور سيف الدين «قلاوون» صاحب الديار المصرية
ودمشق وحلب، يحفظ مثل ذلك لمملكتي ولولده مملكتي الحبيب الكينوس،
الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا يحرك عز سلطانة على
مملكتنا حرباً قط، ولا على بلادنا، ولا على قلاعنا، ولا على عساكرنا، ولا يحرك
أحدًا آخر أيضاً على حرب مملكتنا. وأن تكون الرسل المترددون عن عز سلطانة أيضاً
مطلقاً [آمين لهم] أن يعبروا في بلاد مملكتي بلا مانع ولا عائق، ويتوجهوا إلى حيث
يسيرون من عز سلطانة، وكذلك يعودون إلى عز سلطانة. وأن لا يحصل للتجار
الواردين من بلاد عز سلطانة [ضرر] من بلاد مملكتي، لا يحدرون من أحد جوراً
ولا ظمناً، بل يكون لهم مباحاً أن يعملوا متاجرهم. ونظير هذا - التجار الواردون إلى بلاد
عز سلطانة من أهل بلاد ملكي، يقومون بالحق الواجب على بضائعهم، وليقيم كذلك
التجار الواردون من بلاد عز سلطانة إلى بلاد ملكي بالحق الواجب على بضائعهم.
وإن حضر من بلاد سوداق تجار وأرادوا السفر إلى بلاد عز سلطانة، فلا ينال
هؤلاء تعويق في بلاد ملكي، بل في عبورهم وعودهم يكونون بلا مانع ولا عائق بعد
القيام بالحق الواجب. وهؤلاء التجار الذين من بلاد عز سلطانة والذين من أهل
سوداق إن حضر صحتهم ممالك وتجار، فليعودوا بهم إلى بلاد عز سلطانة بلا عائق

ولا مانع، ما خلا إن كانوا نصارى، لأنَّ شرعنا وترتيب مذهبنا لا يسمح لنا في أمر
النصارى بهذا .

وأما إن كان في بلاد عِزَّ سلطانه ممالك نصارى : روم وغيرهم من أجناس
النصارى، متمسكون بدين النصارى، ويحصل لقوم منهم العتق، فليكن للذين معهم
عتائق مباح ومطلق من عِزَّ سلطانه، أن يفدوا في البحر إلى بلاد مملكتي . وكذلك
إن أراد أحد من أهل بلاد عِزَّ سلطانه أن يبيع مملوكاً نصرانياً هذه صورته لأحد
من رُسل مملكتي، أو لتجار وأناس بلاد مملكتي، أن لا يحد في هذا تعويفاً، بل
يشتروا المذكور ويفدوا به في البحر إلى بلاد مملكتي بلا عائق . وأيضاً إن أراد
هذا السلطان العظيم النسيب، أن يرسل إلى بلاد ملكي بضائع متجراً، وأرادت
مملكتي أن ترسل إلى بلاد عِزَّ سلطانه بضائع متجراً، فليكن هكذا : وهو إن أراد
عِزَّ سلطانه أن تكون بضائع متاجره في بلاد ملكي منجاة من القيام بكل الحقوق،
فليكن أيضاً بضائع متاجر مملكتي في بلاد عِزَّ سلطانه منجاة مثل ذلك من كل
الحقوق، وإن أراد أن تقوم متاجر ملكي في بلاده بالحقوق الواجبة [يقوم] بمثل
ذلك . وأيضاً أن يطلق عِزَّ سلطانه لملكه أن يرسل أناساً من بلاد مملكتي إلى بلاد
عِزَّ سلطانه، فيشترون لي خيلاً جيداً ويحملونها إلى بلاد ملكي . وكذلك إن أراد
عِزَّ سلطانه شيئاً من خيرات بلاد ملكي، فمملكتي أيضاً تطلق لعِزَّ سلطانه أن يرسل
أناسه ليشتروه ويحملوه إلى عِزَّ سلطانه .

ولما كان في البحر كرساليه من بلاد غربية، وقد يتفق في بعض الأوقات أن
يعملوا خسارة في بلاد ملكي، وكذلك يجدون هؤلاء الكرسالية قوماً من بلاد عِزَّ
سلطانه فيعملون لهم خسارة، ثم إن هؤلاء الكرسالية يفعلون هذا في الآفاق في شحوم
بلاد ملكي . لأجل هذا صار : إذا حضر قوم من بلاد مملكتي إلى بلاد عِزَّ

سُلْطَانِهِ بِمَجْرِيٍّ يُمَسْكُونُ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ وَيَغْرَمُونَ . وَلِهَذَا فَلْيَصِرْ مَرْسُومًا
 مِنْ عِزِّ سُلْطَانِهِ فِي كُلِّ بِلَادِهِ أَنْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي لَا يَقْرَمَ بِهَذَا السَّبَبِ
 وَلَا يُمَسَّكُ ، وَإِنْ عَرَّضَ أَنْ يَقُولَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ : إِنَّهُ غَرَّمَ أَوْ ظَلِمَ
 مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مُلْكِي فَلْيَعْتَرَفْ مُلْكِي بِذَلِكَ . وَإِذَا كَانَ الَّذِي وَضَعَ الْغَرَامَةَ مِنْ أَهْلِ
 بِلَادِ مُلْكِي ، فَمُلْكِي يَأْمُرُ ، وَتَعَادُ تِلْكَ الْخَسَارَةُ إِلَى بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ . وَكَذَلِكَ إِنْ
 قَالَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بِلَادِ مَمْلَكَتِي : إِنَّهُ ظَلِمَ أَوْ غَرَّمَ مِنْ أَحَدٍ مِنْ بِلَادِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ،
 يَأْمُرُ عِزُّ سُلْطَانِهِ ، وَتَعَادُ الْغَرَامَةُ إِلَى بِلَادِ مُلْكِي . وَأَيْضًا إِذَا قَدْ أْزَمَعَتِ الْحَبَّةُ أَنْ
 نَصِيرَ بِهَذِهِ الصُّورَةِ ، وَتَكُونَ الصَّدَاقَةُ بَيْنَ مَمْلَكَتِي وَعِزِّ سُلْطَانِهِ خَالِصَةً ، حَتَّى إِذَا
 أُرْسِلَ يَقُولُ لِمُلْكِي عَلَى مَعُونَةٍ وَتَجِدَةٍ مُلْكِي فِي الْبَحْرِ لِمَضْرَّةِ الْعَدُوِّ الْمَشْتَرِكِ ، فَمَمْلَكَتِي
 تَفَوِّضُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى اخْتِيَارِ عِزِّ سُلْطَانِهِ ، أَنْ يَرْتَبِ فِي نَسْخَةِ الْيَمِينِ مَعَ بَقِيَّةِ
 الْفُصُولِ الْمَعِينَةِ فِيهِ ، وَتَأْتِي الصُّورَةُ كَيْفَ تَعِينُ وَتَجِدُ مَمْلَكَتِي فِي الْبَحْرِ . وَإِنْ كَانَ
 لَا يُرِيدُ تَجِدَةً وَمَعُونَةً مَمْلَكَتِي ، فَمَمْلَكَتِي تَسْمَحُ بِهَذَا الْفَصْلِ أَنْ لَا يَضَعَهُ عِزُّ سُلْطَانِهِ
 فِي نَسْخَةِ يَمِينِهِ ، وَهَذِهِ الْيَمِينُ مِمَّا يَحْفَظُ مُلْكِي لِعِزِّ سُلْطَانِهِ ثَابِتَةً غَيْرَ مُتَرَعِّزَةٍ إِنْ كَانَ
 هَذَا السُّلْطَانُ الْعَظِيمُ يَخْلَفُ لِي يَمِينًا بِمِثْلِهَا ، وَأَنَّهُ يَحْفَظُ الْحَبَّةَ لِمَمْلَكَتِنَا ، ثَابِتَةً غَيْرَ
 مُتَرَعِّزَةٍ ، وَالسَّلَامُ .



وهذه نسخة اتفاق، كتبت من الأبواب السلطانية عن الملك المنصور «قلاوون»
 عن نظير الهدنة المتقدمة، الواردة من قبل صاحب القسطنطينية، مفتوحة بيمين
 موافقة لها، وهي :

أقول وأنا فلان : إنه لما رغب حضرة الملك الجليل، كرميخائيل ، الدوقس،
 الأبحالوس، الكينيوس، البالاولوغس، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى،

أكبر ملوك المسيحية ، أبقاه الله - أن يكون بين مملكته وبين عز سلطانى ، حبةً وصداقةً ومودةً لانتغير بتغير الأيام ، ولا تزول بزوال السنين والأعوام ؛ وأكد ذلك يمين حلف عليها ، تاريخها يوم الخميس ثامن شهر إيار سنة ستة آلاف وسبعائة وتسع وثمانين لآدم ، صلوات الله عليه ، بحضور رسول عز سلطانى ، الأمير ناصر الدين ابن الجزرى ، والبطرك الحليل انبا سيوس بطرك الاسكندرية ، وحضر رسوله فلان وفلان إلى عز سلطانى بنسخة اليمين ، ملتَمِسِينَ أن يتوسط هذا الأمر أيضًا يمين وآفاق من عز سلطانى ، لتدوم المحبة فيما بين مملكته وعز سلطانى ، وتكون ثابتة مستمرة على الدوام والاستمرار .

فعر سلطانى من هذا اليوم ، وهو يوم الاثنين مستهل رمضان العظيم ، سنة ثمانين وستائة للهجرة النبوية المحمدية ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ؛ يحلف بالله العظيم ، الرحمن الرحيم ، عالم الغيب والشهادة ، والسر والعلانية وما تخفى الصدور ، والقرآن العظيم ، وبمن أنزله ، وبمن أنزل عليه ، وهو النبي الكريم ، محمد صلى الله عليه وسلم - على استمرار الصداقة ، واستقرار المودة النقية ، للملك الحليل كرميخائيل ، ضابط مملكة الروم والقسطنطينية العظمى ، ولولد مملكته الحبيب الكينوس الانجالوس ، الدوقس ، البالاولوغس ، الملك إيراندروبنفوس ، ولوارثي مملكة ملكه . ولا يحرك عز سلطانى أبدًا على مملكته حربًا ، ولا على بلاده ، ولا على قلاعِهِ ، ولا على عساكرِهِ : فى بر ولا بحر . ولا يحرك عز سلطانى أحدًا آخر على حربِهِ ، بحيث إن الملك الحليل كرميخائيل يحفظ مثل ذلك لعز سلطانى ، وملكى ، ولبلادى ، ولقلاعى ، ولعساكرى ، ولولدى السلطان الملك الصالح علاء الدين «علي» ولوارثي ملكى من أولادى ؛ ويستمر على هذه الصداقة والمودة النقية ، ولا يحرك ملكه على عز سلطانى حربًا قط ، ولا على

بلادى ، ولا على قلاعى ، ولا على عساكرى ، ولا على مملكتى ، ولا يحرك أحداً آخر على حرب مملكة عز سلطانى فى البر ولا فى البحر ، ولا يساعده أحداً من أضداد عز سلطانى ، ولا أعدائى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يؤايقه على ذلك ، ولا يفسح لهم فى العبور إلى مملكة عز سلطانى لمضرة شئ فيها بجهد وطاقتيه .

وأن الرسل المسيرين من مملكة عز سلطانى إلى بر بركة وأولاده وبلادهم وتلك الجهات ، وبحر سوداق وبره ، يكونون آمنين مطمئنين مطلقاً : لهم أن يعبروا فى بلاد مملكة الملك الجليل ، كرميخايل من أوها إلى آخرها ، بلا مانع ولا عائق : أرسلوا فى بر أو بحر ، على ما تقتضيه مصلحة ذلك الوقت لمملكة عز سلطانى ، آمنين مطمئنين ، غير ممنوعين بجميع من يصل معهم من رسل تلك الجهات وغيرها ، وكل من معهم من ممالك وجوار وغير ذلك . وأن لا يحصل للتجار الواردين من مملكة الملك الجليل كرميخايل إلى بلاد عز سلطانى جور ولا ظلم ، ويترددون آمنين مطمئنين يعملون متاجرهم ، ولهم الرعاية فى الصدور والورود ، والمقام والسفر : بحيث يكون لتجار مملكة عز سلطانى فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل مثل ذلك ، ويكونون مرعيين ، لا يجردون من أحد فى بلاد مملكة الملك الجليل كرميخايل جوراً ولا ظلماً . ومن عليه حق واجب فى الجهتين على ما استقر عليه الحال ، يقوم به من غير حيف ولا ظلم .

وأن من حضر من التجار : من سوداق وغيرها بماليك وجوار تمكثهم مملكة الملك الجليل كرميخايل من الحضور بهم إلى مملكة عز سلطانى ولا تمنعهم . وأن الكرسالية متى تعرضوا إلى أخذ أحد من التجار المسلمين فى البحر ، ونسبت الكرسالية إلى رعية مملكة الملك الجليل كرميخايل ، يسير عز سلطانى إليه فى طايمهم ،

ولا يتعترض أحدٌ من نواب مملكة عِزِّ سلطاني إلى هذا الجنس بسببهم ، إلا أن يتحقق أنهم آخذون ، أو تظهر عين المال معهم ، على ما تضمنته نسخة يمين الملك الجليل كرميخائيل ، ومملكة الملك الجليل كرميخائيل من بلاد عِزِّ سلطاني مثل ذلك .

وعلى أن الرسل المترددين من الجهتين : من مملكة عِزِّ سلطاني ، ومن مملكة الملك الجليل كرميخائيل ، يكونون آمنين مطمئنين في سفرهم ومقامهم : براً وبحراً ، وتكون رعية بلاد عِزِّ سلطاني ، ورعية بلاد الملك الجليل كرميخائيل ، في الجهتين من المسلمين وغيرهم آمنين مطمئنين ، صادرين واردين ، محترمين مرعيين . وهذه اليمين لا تزال محفوظة ملحوظة ، مستمرة مستقرة ، على الدوام والاستمرار .

قلت : وهذه النسخة والنسخة الواردة من صاحب القسطنطينية المتقدمة عليها ، وإن عبر عنهما في خالهما بلفظ اليمين ، فإنهما بعقد الصلح أشبه ، واليمين جزء من أجزاء ذلك ، ولذلك أوردتها في عقود الصلح دون الأيمان .

الباب الخامس من المقالة التاسعة

(في عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين ، وفيه فصلان)

الفصل الأول

في أصولٍ تُعتمدُ في ذلك

اعلم أنَّ الأصلَ في ذلك ما ذكره أصحابُ السيرِ وأهلُ التاريخِ ، أنه لما وقع الحربُ بين أمير المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ كرمَ اللهُ وجهه ، وبين معاويةَ بن أبي سفيانَ رضيَ اللهُ عنه ، في صِفِّينَ ، في سنة سبعٍ وثلاثينَ من الهجرة - توافَقا على أن يُقيما حَكَمَيْنِ بينهما ، ويعملا بما يتفقان عليه . فأقام أمير المؤمنين عليُّ أبا موسى الأشعريَّ حَكَمًا عنه ، وأقام معاويةُ عمرو بن العاصِ حَكَمًا عنه . فاتفق الحَكمان على أن يُكتبَ بينهما كتابُ بعقدِ الصلحِ ، وأجتمعا عند عليِّ رضي اللهُ عنه ، وكتبَ كتابُ القضيَّةِ بينهما بحضرتِهِ ، فكتبَ فيه بعد البسملة :

هذا ما تقاضى أمير المؤمنين عليُّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تمحُ أسم أمير المؤمنين فإني أخاف إن محوتها أن لا ترجعَ إليك أبدا . لا تمحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبى ذلك عليٌّ مليًّا من النهار . ثم إن الأشعث^(١) ابن قيس قال : أمحُ أسم أمير المؤمنين ؛ فأجاب عليٌّ ومجاه . ثم قال عليٌّ : اللهُ أكبر ! سنةً بسنة . والله إني لكتَّابُ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَّةِ ، فكتبتُ : محمدُ رسولُ اللهِ ، فقالوا : لستَ برسولِ اللهِ ، ولكن آكتبُ أسمك وأسم أبيك .

(١) بياض في الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فَأَمَرَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَوِّهِ ، فَقُلْتُ : لَا أَسْتَطِيعُ أَفْعَلُ ! فَقَالَ
إِذَنْ أُرِيهِ فَأَرَيْتُهُ فَمَحَاهُ بِيَدِهِ ، وَقَالَ : « إِنَّكَ سَتُدْعَى إِلَى مِثْلِهَا فَتُجِيبُ » .



وهذه نُسخةُ كِتَابِ الْقِضِيَّةِ بَيْنَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ وَبَيْنَ مُعَاوِيَةَ ، فِيمَا رَوَاهُ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنُ بْنُ نَصْرِ بْنِ مُزَاهِمِ الْمُنْقَرِي ، فِي « كِتَابِ صِفَةِ الْحَكَمِيِّينَ » ،
بِسَنَدِهِ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ الشَّعْبِيِّ ، وَهُوَ :

هَذَا مَا تَقَاضَى عَلَيْهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ وَشِيعَتُهُمَا ،
فِيمَا تَرَاضِيَا مِنَ الْحُكْمِ بِكِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قِضِيَّةٌ عَلَى عَلِيٍّ
أَهْلِ الْعِرَاقِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، وَقِضِيَّةٌ مُعَاوِيَةَ عَلَى أَهْلِ
الشَّامِ وَمَنْ كَانَ مِنْ شِيعَتِهِ مِنْ شَاهِدٍ أَوْ غَائِبٍ ، أَنَا رَضِينَا أَنْ نَنْزَلَ عِنْدَ حُكْمِ
كِتَابِ اللَّهِ بَيْنَنَا حُكْمًا فِيمَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتَمَتِهِ ، نُحْيِي مَا أَحْيَا ، وَنُمِيتُ
مَا أَمَاتَ . عَلَى ذَلِكَ تَقَاضَيْنَا ، وَبِهِ تَرَاضِينَا . وَأَنَّ عَلِيًّا وَشِيعَتَهُ رَضُوا أَنْ يَبْعَثُوا
عَبْدَ اللَّهِ بْنِ قَيْسٍ نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، وَرَضَى مُعَاوِيَةُ وَشِيعَتُهُ أَنْ يَبْعَثُوا عَمْرُوبَ بْنَ الْعَاصِ
نَاطِرًا وَمُحَاجًّا ، عَلَى أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَيْهِمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ ، وَأَعْظَمَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَى
أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ ، لِيَتَّخِذَانَ الْكِتَابِ إِمَامًا فِيمَا بَعَثَا لَهُ ، لَا يَبْعُدُونَهُ إِلَى غَيْرِهِ فِي الْحُكْمِ
بِمَا وَجَدَا فِيهِ مَسْطُورًا ، وَمَا لَمْ يَجِدَاهُ مَسْمُومًا فِي الْكِتَابِ رَدَّاهُ إِلَى سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ
الْجَامِعَةِ ، لَا يَتَعَمَّدَانِ لَهَا خِلَافًا ، وَلَا يَتَّبِعَانِ فِي ذَلِكَ لَهَا هَوًى ، وَلَا يَدْخُلَانِ
فِي شُبُهَةٍ .

وَأَخَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ ، وَعَمْرُوبُ بْنُ الْعَاصِ عَلَى عَلِيٍّ وَمُعَاوِيَةَ عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقَهُ
بِالرِّضَا بِمَا حَكَمَ بِهِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ، لَيْسَ لَهَا أَنْ يَنْقُضَا ذَلِكَ تَخَالُفًا إِلَى

غيره ، وأنها آمنان في حكومتيهما على ديمائهما وأموالهما وأهليهما ، ما لم يعدوا الحق ، رضى بذلك راض أو أنكركم منكر . وأن الأمة أنصار لها على ما قضيا به من العدل .

فإن توفى أحد الحكيمين قبل انقضاء الحكومة ، فأمير شيعته وأصحابه يختارون رجلاً ، لا يألوان عن أهل الممدلة والإفساط ، على ما كان عليه صاحبه من العهد والميثاق والحكم بكتاب الله وسنة رسوله ، وله مثل شرط صاحبه .

وإن مات واحد من الأميرين قبل القضاء ، فليشيعته أن يؤولوا مكانه رجلاً يرضون عدله .

وقد وقعت القضية بيننا والأمن والتفاوض ، ووضع السلاح . وعلى الحكيمين عهد الله وميثاقه : ليحكما بكتاب الله وسنة نبيه ، لا يدخلان في شبهة ولا يألوان اجتهدا ، ولا يتعمدان جوراً ، ولا يتبعان هوى ، ولا يعدوان ما في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فإن لم يفعلا برئت الأمة من حكمهما ، ولا عهد لها ولا ذمة .

وقد وجبت القضية على ما سمينا في هذا الكتاب من موقع الشرط على الأميرين والحكيمين والفريقين ، والله أقرب شهيدا وأدنى حفيظا ، والناس آمنون على أنفسهم وأهليهم وأموالهم إلى انقضاء مدة الأجل ، والسلاح موضوع ، والسبيل محلى ، والشاهد والغائب من الفريقين سواء في الأمر . وللحكيمين أن يترلا منزلاً عدلاً بين أهل العراق وأهل الشام ، ولا يحضرهما فيه إلا من أحببا عن ملائمتها وتراض . وأجل القاضيين المسلمون إلى رمضان : فإن رأى الحكمان تعجيل الحكومة فيما وجها له ، عجلاً . وإن أرادا تأخيرها بعد رمضان إلى انقضاء الموسم ، فإن ذلك إليهما . فإن هما لم يحكما بكتاب الله وسنة نبيه إلى انقضاء الموسم ، فالمسلمون على

(١) أى تشاور واجتماع .

أمرهم الأول في الحرب، ولا شرط بين واحد من الفريقين . وعلى الأمة عهد الله وميثاقه على التمام على ما في هذا الكتاب . وهم يدُّ على من أراد في هذا الكتاب الحاداً أو ظمماً ، أو أراد له نقضاً .

شهد على ما في هذا الكتاب من أصحاب عليّ : الأشعث بن قيس ، وعبد الله بن عباس ، والأشتر بن الحرث ، وسعيد بن قيس الهمداني ، والحسين والطفيل ابنا الحرث بن المطلب ، وأبو أسيد بن ربيعة الأنصاري ، وخباب بن الأرت ، وسهل بن حنيف الأنصاري ، وأبو اليسر بن عمرو الأنصاري ، ورفاعة بن رافع ابن مالك الأنصاري ، وعوف بن الحرث بن المطلب القرشي ، وبريدة الأسلمي ، وعقبة بن عامر الجهني ، ورافع بن خديج الأنصاري ، وعمرو بن الحقيق الخزاعي ، والحسن والحسين ابنا عليّ ، وعبد الله بن جعفر الهاشمي ، واليعمر بن عجلان الأنصاري ، ومجر بن عدي الكندي ، ووزراء بن سمي البجلي ، وعبد الله بن الطفيل الأنصاري ، ويزيد بن حجة الدكري ، ومالك بن كعب الهمداني ، وربيعة بن شرحبيل ، وأبو صفرة ، والحرث بن مالك ، ومجر بن يزيد ، وعقبة بن حجة .

ومن أصحاب معاوية : حبيب بن مسامة الفهمي ، و[أبو] الأعور السلمي ، وبسر ابن أرطاة القرشي ، ومعاوية بن خديج الكندي ، والمخارق بن الحرث الحميري ، وزميل بن عمرو السكسكي ، وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد المخزومي ، وحمرة بن مالك الهمداني ، وسبع بن زيد الحميري ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعقمة بن مرثد

(١) في الكامل لابن الأثير "ابن حجة التيمي" .

(٢) في خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) في الكامل : "سبع بن يزيد الأنصاري" .

الكلبي، وخالد بن الحصين السكسكي، وعلقمة بن يزيد الحضرمي، ويزيد بن الحز
العبيسي، ومسروق بن حملة العكي، ومثير بن يزيد الحميري، وعبد الله بن عامر
القرشي، ومروان بن الحكم، والوليد بن عقبة القرشي، وعقبة بن أبي سفيان،
ومحمد بن أبي سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، ويزيد بن عمرو الجذامي، وعمار
ابن الأخوص الكلبي، ومسعدة بن عمر القيني، وعاصم بن المستنير الجذامي،
وعبد الرحمن بن ذى كلاع الحميري، والصبح بن جلهمة الحميري، ومثامة بن
حوشب، وعلقمة بن حكيم، وحمزة بن مالك .

وإنّ بيننا على ما في هذه الصحيفه عهد الله وميثاقه . وكتب عمير يوم الأربعاء
لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين .

وأخرج أيضا بسنده إلى أبي إسحق الشيباني أن عقده الصلح كان عند سعيد
أبن أبي بردة في صحيفه صفراء عليها خاتمان : خاتم في أسفلها، وخاتم في أعلاها .
في خاتم علي «مجد رسول الله» وفي خاتم معاوية «مجد رسول الله» .

قلت : وذكر روايات أخرى فيها زيادة ونقص أضربنا عن ذكرها خوفاً
الإطالة، إذ فيما ذكرنا مفتح . على أن المؤرخين لم يذكروا من ذلك إلا طرفاً يسيراً .

الفصل الثاني

من الباب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرت العادة بكتابه بين الخلفاء وملوك المسلمين على تعاقب الدول ،

مما يُكتب في الطرة والمتن)

أما الطرة : فليعلم أن الذي ينبغي أن يكتب في الطرة هنا : « هذا عقد صلح »
ويكمل على ما تقدم في الهدنة . ولا يكتب فيه : « هذه هدنة » لما يسبق إلى
الأذهان من أن المراد من الهدنة ما يجري بين المسلمين والكفار .

وأما المتن فعلى نوعين :

النوع الأول

(ما يكون العقد فيه من الجانبين)

ولم أرفه للكتاب إلا الأستفتاح بلفظ : « هذا » . وعليه كتب كتاب الفضية
بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وبين معاوية بن أبي سفيان
رضي الله عنه ، على ما تقدم ذكره .

وعلى ذلك أستكتب هرون الرشيد ولديه : محمدا الأمين ، وعبد الله المأمون :
العهدين اللذين عهد فيهما بالخلافة بعده لابنه الأمين ، وولي خراسان ابنه المأمون ،
ثم عهد بالخلافة من بعد الأمين للمأمون ، وأشهد فيهما ، وبعث بهما إلى مكة فعلقا
في بطن الكعبة ، في جملة المعلقات التي كانت تعلق فيها ، على عادة العرب السابقة :
من تعليق القصائد ونحوها . وبذلك سُميت القصائد السبع المشهورة : بالمعلقات ،
لتعليقهم إياها في جوف الكعبة .

أما عهد الأمين ، فُنسختُه بعد البسملة - على ما ذكره الأزرقي في أخبار مَكَّة -
ما صورته :

هذا كِتَابُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ [له] مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي مُؤَمَّرٍ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ فِي صِحَّةٍ
مِنْ بَدَنِهِ وَعَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ .

إنَّ أميرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ وَلَإِنِّي الْعَهْدُ مِنْ بَعْدِهِ ، وَجَعَلَ لِي الْبَيْعَةَ فِي رِقَابِ
الْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا ، وَوَلَّى أَيْحَى عَبْدَ اللَّهِ بْنِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ الْعَهْدَ وَالْخِلاَفَةَ وَجَمِيعَ
أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِي ، بِرِضَا مِنِّي وَتَسْلِيمٍ ، طَائِعًا غَيْرَ مُكْرَهٍ . وَوَلَّاهُ خُرَاسَانَ
بِثَغُورِهَا ، وَكُورِهَا ، وَجُنُودِهَا ، وَخَرَاجِهَا ، وَطَرَازِهَا ، وَبَرِيدِهَا ، وَبُيُوتِ أَمْوَالِهَا ،
وَصَدَقَاتِهَا ، وَعُشْرِهَا وَعُشُورِهَا ، وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا ، فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ وَفَاتِهِ . فَشَرَطْتُ
لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا جَعَلَهُ لَهُ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ : مِنْ الْبَيْعَةِ
وَالْعَهْدِ ، وَوِلَايَةِ الْخِلاَفَةِ وَأُمُورِ الْمُسْلِمِينَ بَعْدِي ، وَتَسْلِيمِ ذَلِكَ لَهُ ، وَمَا جَعَلَ لَهُ
مِنْ وِلَايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا ، وَمَا أَقْطَعَهُ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ مِنْ قِطْعَةٍ ، وَجَعَلَ لَهُ
مِنْ عُقْدَةٍ أَوْ ضَبْعَةٍ مِنْ ضَبَاعِهِ وَعُقْدَةٍ ، أَوْ ابْتِاعَ لَهُ مِنَ الضَّبَاعِ وَالْعُقَدِ . وَمَا أَعْطَاهُ
فِي حَيَاتِهِ وَصِحَّتِهِ : مِنْ مَالٍ ، أَوْ حُلِيِّ ، أَوْ جَوْهَرٍ ، أَوْ مَتَاعٍ ، أَوْ كُسُوفَةٍ ، أَوْ رَقِيقٍ ،
أَوْ مَنزِلٍ ، أَوْ دَوَابٍّ ، قَلِيلًا ، أَوْ كَثِيرًا ، فَهُوَ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ مُوقَرًّا عَلَيْهِ ،
مُسَامًّا لَهُ . وَقَدْ عَرَفْتُ ذَلِكَ كُلَّهُ شَيْئًا فَشَيْئًا بِاسْمِهِ وَأَصْنَافِهِ وَمَوَاضِعِهِ ، أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ
ابْنُ هُرُونَ أميرِ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ اخْتَلَفْنَا فِي شَيْءٍ مِنْهُ فَالْقَوْلُ فِيهِ قَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ
أميرِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَا أَتَّبِعُهُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَخْذُهُ مِنْهُ ، وَلَا أَنْتَقِصُهُ ، صَغِيرًا
وَلَا كَبِيرًا [مِنْ مَالِهِ] وَلَا مِنْ وِلَايَةِ خُرَاسَانَ وَلَا غَيْرِهَا مِمَّا وَلَّاهُ أميرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ
الْأَعْمَالِ ، وَلَا أَعِزُّهُ عَنْ شَيْءٍ مِنْهَا ، وَلَا أَخْلَعُهُ ، وَلَا أُسْتَبَدِّلُ بِهِ غَيْرَهُ ، وَلَا أَقْدِمُ عَلَيْهِ

في العَهْدِ وَالْخِلاَفَةِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا ، وَلَا أُدْخِلُ عَلَيْهِ مَكْرُوهًا فِي نَفْسِهِ وَلَا دَمَهُ ، وَلَا شَعْرَهُ وَلَا بَشْرَهُ ، وَلَا خَاصًّا وَلَا عَامًّا مِنْ أُمُورِهِ وَوِلَايَتِهِ ، وَلَا أَمْوَالِهِ ، وَلَا قَطَائِعِهِ ، وَلَا عُقَدَهُ ، وَلَا أُغَيِّرُ عَلَيْهِ شَيْئًا لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، وَلَا أَخْذُهُ وَلَا أَحَدًا مِنْ عُمَّالِهِ وَكُتَّابِهِ وَوِلَاةِ أَمْرِهِ - مِنْ صَحْبِهِ وَأَقَامَ مَعَهُ - بِمُحَاسَبَةٍ ، وَلَا أَتَتَّبِعُ شَيْئًا جَرَى عَلَى يَدَيْهِ وَأَيْدِيهِمْ فِي وِلَايَةِ خُرَاسَانَ وَأَعْمَالِهَا وَغَيْرِهَا مِمَّا وُلَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي حَيَاتِهِ وَصِحَّتِهِ : مِنَ الْجَبَايَةِ ، وَالْأَمْوَالِ ، وَالطَّرَازِ ، وَالْبَرِيدِ ، وَالصَّدَقَاتِ ، وَالْعُشْرِ وَالْعُسُورِ ، وَغَيْرِ ذَلِكَ ؛ وَلَا أَسْرُ بِذَلِكَ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ ، وَلَا أَرْخِصُ فِيهِ لَغَيْرِي ، وَلَا أَحَدْتُ نَفْسِي فِيهِ بِشَيْءٍ أَمْضِيهِ عَلَيْهِ ، وَلَا أَلْتَمِسُ قَطِيعَةً لَهُ ، وَلَا أَتَقْصُ شَيْئًا مِمَّا جَعَلَهُ لَهُ هَرُونَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَأَعْطَاهُ فِي حَيَاتِهِ وَخِلاَفَتِهِ وَسُلْطَانِهِ مِنْ جَمِيعِ مَا سَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا . وَأَخَذُ لَهُ عَلَيَّ وَعَلَى جَمِيعِ النَّاسِ الْبَيْعَةَ ، وَلَا أَرْخِصُ لِأَحَدٍ - مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ كُلِّهِمْ فِي جَمِيعِ مَا وُلَاهُ - فِي خَلْعِهِ وَلَا مُحَالَفَتِهِ ، وَلَا أَسْمَعُ مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْبَرِيَّةِ فِي ذَلِكَ قَوْلًا ، وَلَا أَرْضَى بِذَلِكَ فِي سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ ، وَلَا أَعْضُ عَلَيْهِ ، وَلَا أَتَنَافَلُ عَنْهُ ، وَلَا أَقْبَلُ مِنْ بَرٍّ مِنَ الْعِبَادِ وَلَا فَاحِرٍ ، وَلَا صَادِقٍ وَلَا كَاذِبٍ ، وَلَا نَاصِحٍ وَلَا غَاشٍّ ، وَلَا قَرِيبٍ وَلَا بَعِيدٍ ، وَلَا أَحَدٍ مِنْ وَلَدِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : مِنْ ذَكَرِي وَلَا أُثِيَّ - مَشُورَةً ، وَلَا حِيلَةً ، وَلَا مَكِيدَةً فِي شَيْءٍ مِنَ الْأُمُورِ : سَرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَحَقًّا وَبَاطِلًا ، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا ، وَلَا سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ ، أَرِيدُ بِذَلِكَ إِفْسَادَ شَيْءٍ مِمَّا أَعْطَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ هَرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ نَفْسِي ، وَأَوْجِبْتُ لَهُ عَلَيَّ ، وَشَرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا .

وإن أراد به أحد من الناس أجمعين سوءاً أو مكروهاً، أو أراد خلعه أو محاربتة، أو الوصول إلى نفسه ودمه، أو حرمة، أو ماله، أو سلطانه أو ولايته: جميعاً أو فرادى، مسرّين أو مظهرين له - فإني أنصره وأحوطه، وأدفع عنه، كما أدفع عن نفسي، ومهجتي، ودمي، وشعري، وبشري، وحرمي، وسلطاني، وأجهز الجنود

إليه ، وأعينه على كلِّ من غَشَّه وخَالَفه ، ولا أسلمه [ولا أخذه] ولا أنخَلَّ عنه ،
ويكونُ أمرى وأمره في ذلكَ واحدًا [أبدا] ما كنتُ حيًّا .

وإن حدث بأمير المؤمنين هرون حَدَثُ الموتِ ، وأنا وعبدُ اللهِ ابنُ أمير المؤمنين
بَحْضَرَةَ أمير المؤمنين ، أو أَحَدُنَا ، أو كُتَا غَائِبِينَ عنه جميعًا : مجتمعين كَمَا أو متفرقين ،
وليس عبدُ اللهِ بنُ هرون أمير المؤمنين في ولايته بخُرَاسَانَ [فعلى لعبدِ اللهِ ابنِ
أمير المؤمنين أن أمضيه إلى خُرَاسَانَ] وَأَنْ أُسَلِّمَ له ولايتها بأعمالها كلها وجنودها ، ولا
أعوقه عنها ، ولا أحبسُه قبلي ، ولا في شيء من البلدانِ دون خُرَاسَانَ ، وأُتَجَلَّ إشخاصه
إلى خُرَاسَانَ وإلياً عليها مفرداً بها ، مَفَوَّضًا إليه جميعُ أعمالها كلها ، وأشخصُ معه
من ضمَّ إليه أمير المؤمنين : من قُوَادِهِ ، وجنوده ، وأصحابه ، وكُتَابِهِ ، وعماله ،
ومواليه ، وخدمته ، ومن تبعه من صنوف الناس بأهلهم وأموالهم ؛ ولا أحبسُ عنه
أحدًا ، ولا أشركُ معه في شيءٍ منها أحدًا ، ولا أُرْسِلُ أمينًا ولا كاتبًا ولا بُندارًا ،
ولا أَضْرِبُ على يديه في قليلٍ ولا كثيرٍ .

وأعطيتُ هرونَ أمير المؤمنين وعبدَ اللهِ بنَ هرونَ على ما شرطت لهما على نفسي ،
من جميع ما سميتُ وكتبتُ في كتابي هذا - عهدَ اللهِ وميثاقه ، وذمة أمير المؤمنين
وذمتي ، وذمة آبائي وذمة المؤمنين ، وأشدَّ ما أخذَ اللهُ تعالى على النبيين والمرسلين
وخَلَفِهِ أجمعين : من عهوده ومواثيقه ، والأيمانِ المؤكدة التي أمرَ اللهُ عزَّ وجلَّ
بالوفاءِ بها ، ونهى عن نقضها وتبديلها .

فإن أنا نقضتُ شيئًا مما شرطتُ لهرونَ أمير المؤمنين ولعبدِ اللهِ بنِ هرونَ
أمير المؤمنين وسميتُ في كتابي هذا ، أو حَدَّثْتُ نفسي أن أنقضَ شيئًا مما أنا عليه ،

أَوْ غَيَّرْتُ أَوْ بَدَّلْتُ ، أَوْ حُلْتُ أَوْ غَدَرْتُ ، أَوْ قَبِلْتُ [ذلك] مِنْ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ :
صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ، بَرًّا أَوْ فَاجِرًا ، ذَكَرًا أَوْ أُنْثَى ، وَجَمَاعَةً أَوْ فُرَادَى - فَبَرِئْتُ مِنَ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ ، وَمِنْ وِلَايَتِهِ ، وَمِنْ دِينِهِ ، وَمِنْ مَهْدِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَقْبَيْتُ اللَّهَ
عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَفْرَأَ مُشْرِكًا . وَكُلُّ أَمْرَأَةٍ هِيَ الْيَوْمَ لِي أَوْ أَتَزَوَّجُهَا إِلَى
ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا ، الْبَتَّةَ ، طَلَّاقِ الْحَرَجِ ، وَعَلَى الْمَشِيِّ إِلَى بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ
ثَلَاثِينَ حَجَّةً : نَذْرًا وَاجِبًا لِلَّهِ تَعَالَى فِي عُنُقِي ، حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ
بِذَلِكَ . وَكُلُّ مَالٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكُفْبَةِ
الْحَرَامِ . وَكُلُّ مَمْلُوكٍ هُوَ لِي الْيَوْمَ ، أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارًا لَوْجَهُ اللَّهُ
عَزَّ وَجَلَّ .

وَكَأَنَّ مَا جَعَلْتُ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَلِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكُتِبَتْهُ وَشَرَطْتُهُ
لَهُمَا ، وَحَلَفْتُ عَلَيْهِ ، وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزْمِ لِي الْوَفَاءَ بِهِ ، لَا أَضْمُرُ غَيْرَهُ ،
وَلَا أَنْوِي إِلَّا إِيَّاهُ . فَإِنْ أَضْمَرْتُ أَوْ نَوَيْتُ غَيْرَهُ فَهَذِهِ الْعُقُودُ وَالْمَوَاطِيقُ وَالْأَيْمَانُ
كُلُّهَا لِأَزْمَةٍ لِي ، وَاجِبَةٌ عَلَيَّ . وَقُوَادُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ وَجُنُودُهُ وَأَهْلُ الْأَفَاقِ وَالْأَمْصَارِ
فِي حِلٍّ مِنْ خَلْعِي وَإِحْرَاجِي مِنْ وِلَايَتِي عَلَيْهِمْ ، حَتَّىٰ أَكُونَ سُوقَةً مِنَ السُّوقِ ،
وَكَرْجُلٍ مِنْ عَرْضِ الْمُسْلِمِينَ ، لِأَحَقَّ لِي عَلَيْهِمْ ، وَلَا وِلَايَةَ ، وَلَا تَبِعَةَ لِي قِبَالِهِمْ ،
وَلَا بَيْعَةَ لِي فِي أَعْنَاقِهِمْ ، وَهُمْ فِي حِلٍّ مِنَ الْأَيْمَانِ الَّتِي أَعْطَوْنِي ، بَرَاءً مِنْ تَبِعَتِهَا
وَوِزْرِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

شَهِدَ سُلَيْمَانُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ ، وَعِيسَى بْنُ جَعْفَرٍ ، وَجَعْفَرُ بْنُ جَعْفَرٍ ،
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمَهْدِيِّ ، وَجَعْفَرُ بْنُ مُوسَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ مُوسَى
أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَإِسْحَاقُ بْنُ عِيسَى بْنِ عَلِيٍّ ، وَأَحْمَدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ عَلِيٍّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ

جعفر بن سُلَيْمَانَ ، وَعِيسَى بْنُ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ ، وَدَاوُدُ بْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَيَحْيَى
 ابْنُ عِيسَى بْنِ مُوسَى ، وَدَاوُدُ بْنُ سُلَيْمَانَ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَخَزِيمَةُ بْنُ حَازِمٍ ، وَهَرْمَةُ بْنُ
 أَعْيَنَ ، وَيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَالْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى ، وَجَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى ، وَالْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
 مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَالْقَاسِمُ بْنُ الرَّبِيعِ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَدِمَائَةُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
 الْعَبْسِيِّ ، وَسُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْأَصَمِّ ، وَالرَّبِيعُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَارِثِيُّ ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ
 ابْنُ أَبِي الشَّامِرِ النَّسَائِيُّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَاضِي مَكَّةَ ، وَعَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ شُعَيْبِ
 الْحَجَبِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَبِيِّ ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ شُعَيْبِ الْحَجَبِيِّ ، وَمُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 ابْنُ عَثْمَانَ الْحَجَبِيِّ ، وَإِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيِّ ، وَعَبْدُ الْوَاحِدِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 الْحَجَبِيِّ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَبِيهِ الْحَجَبِيِّ ، وَأَبَانُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمُحَمَّدُ
 ابْنُ مَنْصُورٍ ، وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ صَبِيحٍ ، وَالْحَارِثُ مَوْلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَالِدُ مَوْلَى
 أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ .

وَكُتِبَ فِي ذِي الْحِجَّةِ سَنَةِ سِتِّ وَثَمَانِينَ وَمِائَةٍ .



وَأَمَّا مَا كَتَبَهُ الْمَأْمُونُ ، فَنَصَّهُ بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ :

هَذَا كِتَابٌ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، كَتَبَهُ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 فِي صِحَّةٍ مِنْ عَقْلِهِ ، وَجَوَازٍ مِنْ أَمْرِهِ ، وَصِدْقِ نِيَّةٍ فِيمَا كَتَبَ مِنْ كِتَابِهِ ، وَمَعْرِفَةِ
 مَا فِيهِ مِنَ الْفَضْلِ وَالصَّلَاحِ لَهُ وَلِأَهْلِ بَيْتِهِ وَلِجَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ .

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونَ وَلَإِنِّي الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ وَجَمِيعَ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ فِي سُلْطَانِهِ
 بَعْدَ أُنْحَى مُحَمَّدِ بْنِ هُرُونَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَوَلَّيْتِي فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَهُ نُرَّاسَانَ وَكُورَهَا ،
 وَجَمِيعَ أَعْمَالِهَا : مِنَ الصَّدَقَاتِ وَالْعُشْمِ وَالْبَرِيدِ وَالطَّرَازِ وَغَيْرِ ذَلِكَ . وَأَشْتَرْتُ لِي عَلِيٍّ

محمد بن أمير المؤمنين الوفاء بما عقد لي من الخلافة والولاية للعباد والبلاد بعده ،
 وولايي نحرستان وجميع أعمالها ، ولا يعرض لي في شيء مما أقطعني أمير المؤمنين ،
 أو أتباع لي من الضياع والعقد والدور والرباع ، أو آتعت منه [لنفسى] من ذلك ،
 وما أعطاني أمير المؤمنين هرون من الأموال والجواهر والكسا والمتاع والدواب
 في سبب محاسنته [لأصحابى] ، ولا يتتبع لي في ذلك ولا لأحد منهم أثراً ، ولا يدخل
 على ولا على أحد ممن كان معي وميني ، ولا عمالي ولا كتابي ، ومن آستعت به من جميع
 الناس - مكروهاً : في ديم ، ولا نفس ، ولا شعر ، ولا بشر ، ولا مال ، ولا صغير ،
 ولا كبير .

فاجابه إلى ذلك وأقر به ، وكتب له به كتاباً كتبه على نفسه ورضى به أمير المؤمنين
 [هرون وقبله وعرف صدق نيته . فشرط لعبد الله هرون أمير المؤمنين]
 وجعلت له على نفسي أن أسمع لمحمد بن أمير المؤمنين وأطيعه ولا أعصيه ، وأنصحه
 ولا أغشه ، وأوفى ببيعته وولايته ، ولا أغدر ولا أنكث ، وأنفذ كتبه وأموره ،
 وأحسن مؤازرته ومكافئته ، وأجاهد عدوه في ناحيتي بأحسن جهاد ما وفى لي بما
 شرط لي ولعبد الله هرون أمير المؤمنين ، وسماه في الكتاب الذى كتبه لأمر المؤمنين
 ورضى به أمير المؤمنين ، ولم ينقض شيئاً من ذلك ، ولم ينقض أمراً من الأمور التى
 اشتراطها لي عليه هرون أمير المؤمنين .

وإن أحتاج محمد بن هرون أمير المؤمنين إلى جندي وكتب لي يأمرني
 بإتخاذهم إليه ، أو إلى ناحية من النواحي ، أو إلى عدو من أعدائه خالفه أو أراد
 نقض شيء من سلطانه وسلطاني الذى أسنده هرون أمير المؤمنين إلينا ولولانا -
 أن أنفذ أمره ولا أخالفه ، ولا أقصر في شيء كتب به إلى .

وإن أراد محمد بن أمير المؤمنين هرون أن يوَلِّي رجلاً من وَلَدِهِ الْعَهْدَ وَالْخِلَافَةَ
من بعدى، فذلك له ما وَفَى لِي بِمَا جَعَلَ لِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ، وَأَشْرَطَ لِي عَلَيْهِ،
وَشَرَطَهُ عَلَيَّ نَفْسَهُ فِي أَمْرِي، وَعَلَى إِنْفَادِ ذَلِكَ وَالْوَفَاءِ لَهُ بِذَلِكَ، وَلَا أَنْقُضَ ذَلِكَ
وَلَا أُغَيِّرُهُ، وَلَا أَبَدُّهُ، وَلَا أَقْدِمُ [قبله] أَحَدًا من وَلَدِي، وَلَا قَرِيبًا وَلَا بَعِيدًا من
الناس أجمعين، إِلَّا أَنْ يُوَلِّيَ هُرُونُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَحَدًا من وَلَدِهِ الْعَهْدَ من بعدى،
فيلزمني الوفاء بذلك .

وجعلتُ لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ومحمد بن أمير المؤمنين عَلَى الْوَفَاءِ بِمَا أَشْرَطْتُ وَسَمَّيْتُ
فِي كِتَابِي هَذَا، مَا وَفَى لِي مُحَمَّدُ بْنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ بِمَجْمَعِ مَا أَشْرَطَ لِي هُرُونُ
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ فِي نَفْسِي، وَمَا أَعْطَانِي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هُرُونُ من جميع الأشياء
المسماة في الكتاب الذي كتبه له . [وعلى] عهد الله تعالى وميثاقه، وذمة أمير المؤمنين،
وذمتي، وذمة آبائي، وذمة المؤمنين، وأشد ما أخذ الله عز وجل على النبيين
والمُرسلين من خلقه أجمعين من عهوده وموآثيقه، والأيمان المؤكدة التي أمر الله
عز وجل بالوفاء بها .

فإن أنا نقضتُ شيئاً مما أَشْرَطْتُ وَسَمَّيْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لَهُ، أَوْ غَيَّرْتُ، أَوْ بَدَّلْتُ،
أَوْ نَكَحْتُ، أَوْ غَدَرْتُ - فَبَرِئْتُ من الله عز وجل ومن ولايته ومن دينه، ومن
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وَلَقِيْتُ الله سبحانه وتعالى يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَافِرًا
مُشْرِكًا . وكلُّ امرأةٍ لِي اليَوْمَ أَوْ أَنْزَوْجُهَا إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً طَالِقٌ ثَلَاثًا الْبَتَّةَ [طَلَّاقٌ]
الْحَرَجِ . وكلُّ مَمْلُوكٍ لِي اليَوْمَ أَوْ أَمْلِكُهُ إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً أَحْرَارٌ لَوَجْهِ الله تعالى . وَعَلَى
الْمَشْيُ إِلَى بَيْتِ الله الْحَرَامِ الَّذِي بِمَكَّةَ ثَلَاثِينَ حَجَّةً، نَذْرًا وَاجِبًا عَلَيَّ وَفِي عُنُقِي،

حَافِيًا رَاجِلًا ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنِّي إِلَّا الْوَفَاءَ بِهِ ، وَكُلُّ مَا لِي هُوَ لِي الْيَوْمَ أَوْ أَمَلِكُمْ
إِلَى ثَلَاثِينَ سَنَةً هَدَى بِالْبَيْعِ الْكَعْبَةِ . وَكُلَّ مَا جَعَلْتُ لِعَبْدِ اللَّهِ هُرُونَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
أَوْ شَرَطْتُ فِي كِتَابِي هَذَا لِأَزِيمٍ لِي ، لَا أُضْمِرُ غَيْرَهُ وَلَا أَنْوِي سِوَاهُ .

شَهَدَ فُلَانٌ وَفُلَانٌ ، بِأَسْمَاءِ الشُّهُودِ الْمَقْدَمِ ذِكْرَهُمْ فِي كِتَابِ الْأَمِينِ الْمَبْتَدِئِ بِذِكْرِهِ .
قَالَ الْأَزْرَقِيُّ : وَلَمْ يَزَلْ هَذَانِ الشَّرْطَانِ مَعْلَقَيْنِ فِي جَوْفِ الْكَعْبَةِ حَتَّى مَاتَ
هُرُونَ الرَّشِيدُ ، وَبَعْدَ مَا مَاتَ بَسْنَتَيْنِ فِي خِلَافَةِ الْأَمِينِ . فَكَلَّمَ الْفَضْلُ بْنُ الرَّبِيعِ
مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الْحَجَّيِّ فِي إِثْبَانِهِ بِهِمَا ، فَتَزَعَمَهُمَا مِنَ الْكَعْبَةِ وَذَهَبَ بِهِمَا إِلَى بَغْدَادَ ،
فَأَخَذَهُمَا الْفَضْلُ فَحَرَّقَهُمَا وَحَرَّقَهُمَا بِالنَّارِ .

قُلْتُ : وَعَلَى نَحْوِ مَنْ ذَلِكَ كَتَبَ أَبُو إِسْحَاقَ الصَّائِبِيُّ مُوَاصِفَةً بِالصُّلْحِ بَيْنَ
شَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، وَصَمَّصَامِ الدَّوْلَةِ وَشَمْسِ الْمِلَّةِ أَبِي كَالِيجَارَ ،
أَبْنَى عَضُدِ الدَّوْلَةِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ بْنِ بُوَيْهٍ ، فِي النِّصْفِ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ سِتٍّ وَسَبْعِينَ
وثلثمائة .

وَنَصَّهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةَ :

هَذَا مَا اتَّفَقَ وَأَصْطَلَحَ وَتَعَاهَدَ وَتَعَاوَدَ عَلَيْهِ شَرَفُ الدَّوْلَةِ وَزَيْنُ الْمِلَّةِ أَبُو الْفَوَارِسِ ،
وَصَمَّصَامُ الدَّوْلَةِ أَبُو كَالِيجَارَ ابْنَا عَضُدِ الدَّوْلَةِ وَتَاجِ الْمِلَّةِ أَبِي شُجَاعِ بْنِ رُكْنِ الدَّوْلَةِ
أَبِي عَلِيٍّ ، مَوْلِيَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الطَّائِعِ لِلَّهِ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، وَأَدَامَ عِزَّهُ وَتَأْيِيدَهُ ،
وَنَصَّرَهُ وَعَلَّوهُ وَإِذَّنَهُ .

إِتِّفَاقًا وَتَصَالِحًا ، وَتَعَاهَدًا وَتَعَاوَدًا ، عَلَى تَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَإِثَارِ طَاعَتِهِ ، وَالْاِعْتِمَادِ
بِحَبْلِهِ وَقُوَّتِهِ ، وَالْاِلْتِمَاسِ إِلَى حُسْنِ تَوْفِيقِهِ وَمَعُونَتِهِ ، وَالْإِقْرَارِ بِأَنْفِرَادِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ،
لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا مِثْلَ ، وَلَا ضِدَّ وَلَا نِدْبَ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى

آله وسلّم تسليماً، والطاعة لأمر المؤمنين الطائعين لله، والالتزام بوثائق بيعته، وعلائق دعوته؛ والتوازر على موالاة وليه، ومعاداة عدوه؛ وعلى أن يمسكا [ذات] بينهما بالسير الحميدة، والسُنن الرشيدة، التي سنّها لهما السلف الصالح من آباءهما وأجدادهما في التألف والتوازر، والتعاضد والتظافر؛ وتعظيم الأصغر للأكبر، وإشبال الأَكْبَر على الأصغر؛ والاشتراك في النعم، والتقاوض في الحظوظ والقسم؛ والاتحاد بملحوص الطوايا، والحقايا؛ وسلامة الخواطر، وطهارة الضمائر؛ ورفع ما خالف ذلك من أسباب المناقسه، وجرائر المضاغنه؛ وجوالب النبوه، ودواعي الفرقة؛ والإقتران لأعداء الدولة، والإرصاد لهم؛ والاجتماع على دفع كل ناجم، وقمع كل مقاسوم؛ وإزغام أنف كل ضار متجبر، وإضرع خد كل متطاول مستكبر؛ حتى يكون الموالى لأحدهم منصوراً من جماعتهم، والمعادى له مقصوداً من سائر جوانبهم؛ فلا يجد المناذير على أحدهم مفزعاً عند أحد من الباقيين ولا اعتصاماً به، ولا النجاء إليه؛ لكن يكون مرمياً بجمع سهامهم، ومضروباً بأسيف نقتهم، ومأخوذاً بكليّة بأسيهم وقوتهم، ومقصوداً بغالب تجذبتهم وشدتهم؛ إذ كانت هذه الآداب القويمه، والطرائق السليمه؛ جارية للدول مجرى الجنن الدافعه عنها، والمعاقيل المانعه لها؛ ويمثلها تظمن النعم وتسكن، كما أن بأضدادها تسمت وتنفّر.

ولما وفق الله تعالى شرف الدولة وزين الملة أبا الفوارس، وصمّام الدولة وشمس الملة أبا كاليبجار اعتقاد هذه الفضائل وإيثارها، والتظاهر بها وأستشعارها؛ ودعاها مولاها الطائعين لله أمير المؤمنين إلى ما دعاها إليه من التعاطف والتألف، والتصافي والتخالص؛ وأمر صمّام الدولة أبا كاليبجار بمراسلة شرف الدولة

أبي الفوارس في إحكام معاهد الأخوة، وإبرام وناثق الألفة - أمتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس: أصغى إليه شرف الدولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبله تقبل العالم اللبيب؛ وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر نرشيد بن ديار بن مافنة بالمعروف من كفايته، والمشهور من أصطناع الملك السعيد عضد الدولة وتاج الملة رضوان الله عليه له، وإيداعه إياه وديعة الإحسان التي يحق عليه أن يساوى في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين .

فقرت بين صمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار وبينه مخاطبات استقرت على أمور أتت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه المواقفة ما احتجج إلى إثباته منها [أمر] عام للفريقين، وقسمان يختص كل واحد منهما بواحد منهما .

ذأما الأمر الذي يجمعهما عمومهما، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدولة وزين الملة أبو الفوارس، وضمصام الدولة وشمس الملة أبو كالجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جزه عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التواصل، وأستعمال التقاطع؛ ويرجعا عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة؛ وعن منقصة التنافر والتهاجر، إلى منقبة التبار والتلاطف؛ فيكون كل واحد منهما مريدا لصاحبه من الصلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقدا في الذب عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذب عما يختص به؛ ومسرا مثل ما يظهر: من موالاته وليه، ومعاداة عدوه؛ والمرامة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان نجم على أحدهما ناجم، أو راعمه مراعم؛ أو هم به حاسد، أو دلف إليه معاند؛ أتفقا جميعا على مقارعة: قريبا كان أو بعيدا، وترافدا على مدافعة: دانيا كان أو قاصيا؛ وسمح كل منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزمان

وَأَوْبِهِ ، وَتَصَارِيفِهِ وَغَيْرِهِ ؛ بِمَا يَتَّسِعُ وَيَشْتَمَلُ عَلَيْهِ طَوْقُهُ مِنْ مَالٍ وَعُدَّهِ ، وَرِجَالٍ وَنَجْدِهِ ، وَاجْتِهَادٍ وَقُدْرَةٍ ؛ لَا يَغْفُلُ أَخَاهُ مِنْهُمَا عَنْ أَخِيهِ ، وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يُسْلِمُهُ ، وَلَا يَتْرُكُ نَصْرَتَهُ ، وَلَا يَنْصَرِفُ عَنْ مُؤَازَرَتِهِ وَمُظَاهَرَتِهِ بِحَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ الَّتِي تَسْتَحِيلُ بِهَا النَّيَاتُ : مِنْ إِرْغَابٍ مُرْغِبٍ ، وَحِيلَةٍ مُخْتَالٍ ، وَمُحَاوَلَةٍ مُحَاوِلٍ . وَلَا يَقْبَلُ أَحَدَهُمَا مُسْتَأْمِنًا إِلَيْهِ مِنْ جِهَةِ صَاحِبِهِ : مِنْ جُنْدِيٍّ ، وَلَا عَامِلٍ ، وَلَا كَاتِبٍ ، وَلَا صَاحِبٍ ، وَلَا مُتَصَرِّفٍ فِي وَجْهِهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّصَرُّفَاتِ كُلِّهَا ؛ وَلَا يُجِيرُ عَلَيْهِ هَارِبًا ، وَلَا يَعِصُمُ مِنْهُ مُوَارِبًا ؛ وَلَا يَتَطَرَّفُ لَهُ حَسَدًا ، وَلَا يَتَحَفِّفُهُ حَقًّا ، وَلَا يَهْتِكُ لَهُ حَرِيمًا ، وَلَا يَتَنَاوَلُ مِنْهُ طَوْقًا ، وَلَا يُخِيفُ لَهُ سَبِيلًا ، وَلَا يَتَسَبَّبُ إِلَى ذَلِكَ بِسَبَبٍ بَاطِنٍ ، وَلَا بِأَعْتِلَالٍ ظَاهِرٍ ؛ وَلَا يَدْعُ مُوَافَقَتَهُ ، وَمُلَاءَمَتَهُ ، وَمُعَاوَنَتَهُ وَمُظَافَرَتَهُ فِي كُلِّ قَوْلٍ وَفِعْلٍ ، وَسِرٍّ وَجَهْرٍ ، عَلَى سَائِرِ الْجِهَاتِ ، وَتَصَرُّفِ الْحَالَاتِ ، وَوَجْهِهِ النَّائِيَاتِ . يَلْتَرَمُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا ذَلِكَ لِصَاحِبِهِ التَّرَامًا عَلَى التَّمَانُلِ وَالتَّعَادُلِ ، وَالتَّوَاوُزِيِّ وَالتَّقَابُلِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الَّذِي يَخْتَصُّ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ بِهِ ، وَيَلْتَرِمُهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمْسُ الْمِلَّةُ لَهُ ، فَهُوَ أَنْ يُقَدِّمَهُ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمْسُ الْمِلَّةُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَيُعْطِيَهُ مَا أَعْطَاهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ فَضْلِ سِنِّهِ ، وَيُطِيعَهُ فِي كُلِّ مَا أَفَادَ الدَّوْلَةَ الْجَامِعَةَ لَهَا صَلَاحًا ، وَهَاضَ مِنْ عَدُوِّهَا جَنَاحًا ؛ وَعَادَ عَلَى وَلِيِّهِمَا بَعِزًّا ، وَعَلَى عَدُوِّهِمَا بَدَلًّا ؛ وَأَنْ يُقِيمَ صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ الدَّعْوَةَ عَلَى مَنَابِرِ مَا فِي يَدِهِ مِنْ مَدِينَةِ السَّلَامِ وَسَائِرِ الْبُلْدَانِ وَالْأَمْصَارِ ، الَّتِي أَحَاطَتْ بِهَا حُقُوقُهُ ، وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمَا حُدُودُهُ ، لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ثُمَّ لَشَرَفِ الدَّوْلَةِ وَزَيْنِ الْمِلَّةِ أَبِي الْفَوَارِسِ ، ثُمَّ لِنَفْسِهِ . وَيُجْرَى الْأَمْرُ فِي نَفْسِ سِكَكِ دُورِ الضَّرْبِ الَّتِي يُطْبَعُ بِهَا الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ فِي جَمِيعِ هَذِهِ الْبِلَادِ عَلَى الْمِثَالِ . وَيُوقَى صَمِّصَامُ الدَّوْلَةِ وَتَمْسُ الْمِلَّةُ أَبُو كَالِجَارِ شَرَفَ الدَّوْلَةِ وَزَيْنَ الْمِلَّةِ أبا الْفَوَارِسِ فِي الْمَكَاتِبَاتِ

والمخاطبات حقَّ التَّعظيم ، وشِعَارَ التَّفخيم ، على التَّقْرِيرِ بِنه و بين خرشيد بن ديار ابن مافنة في ذلك .

وأما الأمرُ الذي يختصُّ صَمصامُ الدَّولةِ وشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ به ، وَيَلْتَرِمُهُ شَرَفُ الدَّولةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارسِ له ، فهو تَرْكُ التَّعْرِضِ لِسائرِ مَمَالِكِهِ ، وما يَتَّصِلُ بها من حُدُودِها الحارِيةِ معها ؛ والإفراجُ منها عَمَّا يودُّه وَيُسْرِعُ إليه أصحابُ شَرَفِ الدَّولةِ وَزَيْنِ المِلَّةِ ، وَتَجَنُّبُ التَّحْيِيفِ لها أو لشيءٍ من الحقوقِ الواجبةِ فيها ، ومُراعَاةُها في الأمورِ التي يحتاجُ فيها إلى نَظَرِهِ وطَوْلِهِ ، وإِجْمالِهِ وَقَضْلِهِ ، وما يجبُ على الأَخِ الأكبرِ مُراعَاةُ أخيه وتَالِيهِ فيه ، ممَّا ثَبَّتَتْ في هذه المُواصِفَةِ جُمْلَتَهُ ، وَأَشْتَمَلَتْ المِفاوِضَةُ مع خورشيد بن ديار بن مافنة على تَفْصِيلِهِ .

اتَّفَقَ شَرَفُ الدَّولةِ وَزَيْنُ المِلَّةِ أبو الفوارسِ ، وَصَمصامُ الدَّولةِ وَشمسُ المِلَّةِ أبو كَالِيجَارَ ، بأمرِ أميرِ المؤمنينِ الطَّائِعِ لله ، وعلى الأَخْتِيَارِ مِنْهُمَا ، والأَنْشِراحِ مِنْ صُدُورِهِمَا ، من غيرِ إِكْرَاهٍ ولا إِجْبَارٍ ، ولا أَصْطِبارٍ ولا أَضْطِرَّارٍ - على الرِّضَا بِذلك كُلِّهِ ، والأَلْتِرامِ له ، وَيَصِيرُ جَمِيعُهُ عَهْدًا مَرْجوعًا إليه ، وَعَقْدًا مَعْمولًا عليه ؛ وَحَلَفَ كُلُّ مِنْهُمَا على ما يَلْتَرِمُهُ من ذلك يَمِينًا عَقْدَها بأن يَحْلِفَ صَاحِبُها بِمِثْلِها ، على ما يَلْتَرِمُهُ مِنْهُ . فقال صَمصامُ الدَّولةِ : واللهِ الذي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ (ويستتمُّ اليمين) .

النوع الثاني

(مما يجري عقد الصلح فيه بين ملكين مسلمين -

ما يكون العقد فيه من جانب واحد)

وللكتاب فيه مذهبان :

المذهب الأول

(أن يفتح عقد الصلح بلفظ : « هذا » كما في النوع السابق)

وهذه نسخة عقد صلح من ذلك ، كتب بها أبو إسحاق الصّابي ، بين الوزير أبي نصر سابور بن أردشير ، والشّريفين : أبي أحمد الحسين بن موسى ، وأبي الحسن محمد ابنه الرّضى ، بما انعقد من الصّالِح والضمير بين الوزير المذكور ، وبين النّقيب ابن أحمد الحسين وولده محمد ، حين تزوج ابنه محمد المذكور بنت سابور المذكور ، وجعله على نسختين ، لكلّ جانب نسخة ، بعد البسملة ماضورته :

هذا كتاب لسابور بن أردشير ، كتبه له الحسين بن موسى الموسوي ، وولده محمد بن الحسين الموسوي .

إنا وإياك - عند ما وصله الله بيننا من الصّمر والحلطة ، وشجّه من الحال والمودّه - آثرنا أن ننعقد بيننا وبينك ميثاقاً مؤكّداً ، وعهداً مجدّداً ؛ تسكن النفوس إليهما ، وتطمئن القلوب معهما ؛ وتزداد الألفة بهما على مرّ الأيام ، وتعاقب الأعوام ؛ ويكون ذلك أصلاً مستقيماً نرجع جميعاً إليه ، ونعوّل ونعتمد عليه ؛ وتوارثه أعقابنا ، وتبّعنا فيه أخلاقنا .

فأعطيناك عهد الله وميثاقه ، وما أخذهُ على أنبيائه المرسلين ، وملائكته المقرّبين ، صلى الله عليهم أجمعين ؛ عن صدورٍ مُنشرحه ، وآمالٍ في الصّلاح مُنفسّحه - أنا

تُخِصُّ لَكَ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا إِخْلَاصًا صَحِيحًا يُسَاكِلُ ظَاهِرُهُ بَاطِنَهُ ، وَيُؤَافِقُ خَافِيَهُ عَالِنَهُ ، وَأَنَا نُؤَالِي أَوْلِيَاءَكَ ، وَنُعَادِي أَعْدَاءَكَ ؛ وَنِصَلُّ مِنْ وَصَلِكَ ، وَنَقْطَعُ مِنْ قَطْعِكَ ، وَنَكُونُ مَعَكَ فِي نَوَائِبِ الزَّمَانِ وَشِدَائِدِهِ ، وَفِي فَوَائِدِهِ وَعَوَائِدِهِ ؛ وَصَمْنَا لَكَ صَمَانًا شَهِدَ اللَّهُ بِلُزُومِهِ لَنَا ، وَوُجُوبِهِ عَلَيْنَا . وَأَنَا نَصُونُ الْكَرِيمَةَ عَلَيْنَا ، الْآيَةَ عِنْدَنَا ، فَلَانَةَ بِنْتِ فُلَانٍ - أَدَامَ اللَّهُ عِزَّهَا - الْمُسْتَقْلَةَ إِلَيْنَا ؛ كَمَا تَصَانُ الْعُيُونُ بِجُفُونِهَا ، وَالْقُلُوبُ بِسِغَا فِيهَا ؛ وَتُجْرِيهَا مُجْرَى كَرَامِ حُرْمِنَا ، وَنَفَائِسِ بِنَاتِنَا ، وَمِنْ تَضَمُّهِ مَنَازِلُنَا وَأَوْطَانِنَا ؛ وَتَنْتَاهِي فِي إِجْلَالِهَا وَإِعْظَامِهَا ، وَالتَّوَسُّعَةِ عَلَيْهَا فِي مَرَاغِدِ عَيْشِهَا ، وَعَوَارِضِ أَوْطَارِهَا ، وَسَائِرِ مُمُوتِهَا وَمُؤْنِ أَسْبَابِهَا ، وَالتَّهْوِضِ وَالْوَفَاءِ بِالْحَقِّ الَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَيْنَا لَهَا وَلَكَ فِيهَا ؛ فَلَا نُعْذِمُ شَيْئًا أَلْفَتَهُ : مِنْ إِشْبَالِ عَلَيْهَا ، وَإِحْسَانِ إِلَيْهَا ، وَذَبِّ عَنْهَا ، وَمُحَامَاةِ دُونِهَا ، وَتَعَهُّدِ لِمَسَارِهَا ، وَتَوَخُّحِ لِحَابِهَا ؛ وَنَكُونُ جَمِيعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُقِيمِينَ لَكَ وَلَهَا عَلَى جَمِيعِ مَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْكِتَابُ فِي حَيَاتِكَ - أَطَالَهَا اللَّهُ - وَبَعْدَ الْوَفَاةِ إِنْ تَقَدَّمْتَنَا ، وَحُوشِيَتِ مِنَ السُّوءِ فِي أُمُورِكَ كُلِّهَا ، وَأَحْوَالِكَ أَجْمَعِهَا .

ثُمَّ إِنَّا نَقُولُ - وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا ، طَائِعِينَ مُخْتَارِينَ ، غَيْرِ مُكْرَهِينَ وَلَا مُجْبَرِينَ ، بَعْدَ تِمَامِ هَذَا الْعَقْدِ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ ، وَلِزُومِهِ لَنَا وَلَكَ - : وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الطَّالِبُ الْغَالِبُ ، الْمُدْرِكُ الْمُهْلِكُ ، الضَّارُّ النَّافِعُ ، الْمَطَّلِعُ عَلَى السَّرَائِرِ ، الْمُحِيطُ بِمَا فِي الضَّمَائِرِ ، الَّذِي يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ . وَحَقَّ مَجْدُ النَّبِيِّ ، وَعَلَى الرُّضَى - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - مَا وَسَّمَّ وَشَرَّفَ ذِكْرَهُمَا ، وَسَادَتَنَا الْأُمَّةُ الطَّيِّبِينَ ، الطَّاهِرِينَ ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ . وَحَقَّ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ ، وَمَا أُنزِلَ فِيهِ مِنْ تَحْلِيلٍ وَتَحْرِيمٍ ؛ وَوَعْدٌ وَوَعِيدٌ ، وَتَرْغِيبٌ وَتَرْهِيْبٌ ؛ لِنَفِيْنِ لَكَ يَا سَابُورُ بْنُ أَزْدِشِيرَ ، وَالْكَرِيمَةَ الْآيَةَ أَبْنَتِكَ فَلَانَةَ - أَحْسَنَ اللَّهُ رِعَايَتَهَا - بِجَمِيعِ مَا تَضَمَّنَتْ هَذَا الْكِتَابُ ، وَفَاءً صَحِيحًا ، وَلِنَلْتَرَنَّ لَكَ وَلَهَا شَرَائِطَهُ وَوَتَائِقَهُ ، فَلَا نَنْفَسُحُهَا ، وَلَا نَنْقُضُهَا ،

ولا تتبّعها، ولا تتعقبها، ولا تتأول فيها، ولا تنزول عنها، ولا نلتمس محرّجاً ولا مخلصاً منها، حتى يجمعنا الموقف بين يدي الله، والمقدم على رحمة الله، ونحن يومئذ ثابتان عليها، ومؤذيان للأمانة فيها، أداءً يشهد الله تعالى به وملائكته يوم يقوم الأشهاد، ويحاسب العباد. فإن نحن أخلنا بذلك أو بشيء منه، أو تأولنا فيه أو في شيء منه، أو أضربنا خلاف ما نظهر، أو أسررنا ضد ما نعلن، أو ألتسنا طريقاً إلى تقضيه، أو سبيلاً إلى فسخيه، أو أئمتنا بإخفار ذمّة من ذمّه، أو آتتهك حرمة من حرمة، أو حلّ عصمة من عصمه، أو إبطال شرط من شروطه، أو تجاوز حدّ من حدوده - فالذى يفعل ذلك منّا يوم يفعله أو يعتقده، وحين يدخل فيه ويسجّره - برىء من الله جلّ شأنه، ومن نبوة رسوله محمّد، ومن ولاية أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب صلى الله عليهما وسلّم، ومن القرآن الحكيم العظيم، ومن دين الله الصحيح القويم؛ ولقى الله يوم العرض عليه، والوقوف بين يديه، وهو به - سبحانه - مشرك، ورسوله صلى الله عليه وسلم مخالف، ولأهل بيته معاد، ولأعدائهم موال؛ وعليه الحج إلى بيت الله الحرام العتيق الذي بمكة: راجلاً، حافياً، حاسراً، وإماؤه عواتق، ونسأؤه طوالق، طلاق الحرج والسنة، لا رجعة فيه ولا مشنوية؛ وأمواله - على اختلاف أصنافها - محرمة عليه، وخارجة عن يديه، وحبيسة في سبيل الله وبراءه من حوله وقوته، وأجناه إلى حوله وقوته.

وهذه اليمين لازمة لنا، وقد أطلق كل واحد منا بها لسانه، وعقد عليها ضميره، والنية في جميعها نية فلان بن فلان، لا يقبل الله من كل واحد منّا إلا الوفاء بها، والثبات عليها، والالتزام بشروطها، والوقوف على حدودها، وكفى بالله شهيداً، وجزاءً لعباده ومثيباً. وذلك في يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا.

المذهب الثاني

(أن يُفْتَحَ عَقْدُ الصُّلْحِ بِمُخْطَبَةٍ مُفْتَسِحَةٍ بِـ «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وَرُبَّمَا كُرِّرَ فِيهَا
التَّحْمِيدُ إِعْلَامًا بِعَظِيمِ مَوْجِعِ النِّعْمَةِ)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلْحِ كَتَبَ بِهَا أَبُو الْحُسَيْنِ أَحْمَدُ بْنُ سَعْدٍ عَنْ بَعْضِ الْأَمْرَاءِ
(١)

لمن كان

ونصّها على ما ذكره في "كتاب البلاغة" في الترسُّل، بعد البَسْمَلَةِ :

الحمد لله الذي خلق العبادَ بِمُدْرَتِهِ ، وَكَوَّنَ الْأُمُورَ بِحِكْمَتِهِ ، وَصَرَّفَهَا عَلَى إِرَادَتِهِ .
لَمْ يَلْطُفْ عَنْهُ خَفِيٌّ ، وَلَا أَمْتَعَ عَنْهُ قَوِيٌّ ، أَسْتَدْعِ الْخَلَائِقَ عَلَى اخْتِلَافِ فِطْرِيهَا ،
وَتَبَايُنِ صُورِهَا ، مِنْ غَيْرِ مِثَالٍ أَحْتَذَاهَا ، وَلَا رَسِيمٍ آقْتَفَاهَا ؛ وَأَيَّدَهُمْ بِنِعْمَتِهِ ، فِيمَا رَكِبَهُ
فِيهِمْ مِنَ الْأَدْوَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ ، النَّاطِقَةِ بِوَحْدَانِيَّتِهِ ؛ وَأَكْتَفَوْنَا بِالْمَعْرِفَةِ بِهِ
- جَلَّ جَلَالُهُ - بِخَبَرِ الْعُقُولِ ، وَشَهَادَةِ الْأَفْهَامِ . ثُمَّ اسْتَظْهَرَ لَهُمْ فِي التَّبَصُّرَةِ ، وَغَلَبَهُمْ
فِي الْحُجَّةِ ؛ بِرُسُلٍ أَرْسَلَهَا ، وَأَيَّاتٍ بَيَّنَّا بِهَا ؛ وَمَعَالِمٍ أَوْضَحْنَا ، وَمَنَارَاتٍ لِمَسَالِكِ الْحَقِّ
رَفَعْنَا ؛ وَشَرَعَ لَهُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا وَأَرْتَضَاهُ وَأَصْطَفَاهُ ، وَفَضَّلَهُ وَأَجْتَبَاهُ ، وَشَرَّفَهُ
وَأَعْلَاهُ ؛ وَجَعَلَهُ مُهِمًّا عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَقَدَّرَ الْعِزَّ لِحُزْبِهِ وَأَهْلِهِ ؛ فَقَالَ جَلَّ جَلَالُهُ :
(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ)
وَأَيَّدَهُ بِأَنْبِيَائِهِ الدَّاعِينَ إِلَيْهِ ، وَالنَّاهِيينَ لَطُرُقِهِ ، وَالْهَادِيينَ لِفَرَائِضِهِ ، وَالْمُخْبِرِينَ عَنْ
شَرَائِعِهِ ؛ قَرْنًا بَعْدَ قَرْنٍ ، وَأُمَّةً بَعْدَ أُمَّةٍ ، فِي قَتْرَةٍ بَعْدَ قَتْرَةٍ ، وَبَيْنَةٍ بَعْدَ بَيْنَةٍ ؛ حَتَّى
أَتَتْهُ تَقْدِيرُهُ - جَلَّ جَلَالُهُ - أَنْ بَعَثَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ، الْفَاضِلَ الزَّكِيَّ ؛ الَّذِي قَفَى بِهِ
عَلَى الرُّسُلِ ، وَنَسَخَ بِشَرِيْعَتِهِ شَرَائِعَ الْمَلَلِ ، وَبَدِيْنِهِ أَدْيَانَ الْأُمَمِ ؛ عَلَى حِينِ تَرَانِحِي

(١) بياض بالأصل .

فَتره ، وتراعى حيره ؛ فأبأخ به نيرانَ الفتنِ بعدَ اضطرامِها ، وأضأء به سبيلَ الرِشادِ بعدَ إظلامِها ؛ على عِلمٍ منه - تعالى ذِكرُه - بما وجده عنده من النهوضِ بأعباءِ الرِساله ، والقيامِ بأداءِ الأمانه ؛ فأزاحَ بذلكِ العِلمه ، وقطعَ المَعذِره ؛ ولم يُبقِ للشاكِّ موضعَ شُبُهه ، ولا للمُعاندِ دَعوى مُموّهه ؛ حتى مَضى حَميدًا تَهْمُدُ له آثارُه ، وتقومُ بتأبيدِ سُنَّتِه أخبارُه ؛ قد خَلَفَ في أمَّتِه ، ما أصارهم به إلى عَطْفِ اللهِ ورحمَتِه ، والنَّجاةِ من عِقابِه وسُخْطِه ؛ إلا من شقَّ بسوءِ اختيارِه ، وحرمَ الرِشادَ بخذلانِه ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله الطيبينَ أفضلَ صلَاةٍ وأتمَّها ، وأوفاهَا وأعمَّها .

والحمدُ لله الذي خَصَّ سَيِّدَنَا الأَمِيرَ بالتَّوْفِيقِ وتَوَحَّدَه بالإرْشادِ والتَّسْديدِ ؛ في جميعِ أُنْحائِه ، ومواقِعِ آرائِه ؛ وجعلَ هِمَّتِه (إذْ كانتِ الهِمْمُ مَنْصَرِفَةً إلى هَشِيمِ الدُّنْيا وزَخارِفِها ، التي يتخَلَّى بها الأبناءُ وتدعوها إلى نَفْسِها) ، مَقْصُورَةً على ما يَجْمَعُ له رِضا رَبِّه ، وسَلَامَةً دِينِه ؛ وأسْتِقَامَةً أُمُورِ مَمْلَكَتِه ، وصِلَاحَ أحوالِ رِعيَّتِه ؛ وأيدَه في هذه الحَالِ المَعارِضِ ، والشُّبُهه الواقِعِ ؛ التي تَحارُ في مِثْلِها الآراءُ ، وتَضْطَرِبُ الأهواءُ ؛ وتَنزاعُ حَوَاطِرُ النُفوسِ ، وتفتلجُ وَساوسُ الصُّدُورِ ؛ ويخفى مَواقِعُ الصُّوابِ ، ويُشكَلُ مَنهَجُ الصِّلاحِ - بما آخِترَ له من السِّلْمِ والمُؤادَعِ ، والصُّلحِ والمُوافَقِ ؛ الذي أخبَرَ اللهُ تعالى في كِتابِه على فَضْلِه ، والخَيْرِ الذي في ضِمْنِه ، بقوله جَلَّ وَعَزَّ : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وقوله جَلَّ ذِكرُه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ حتى أَصبحَ السَّيْفُ مَغْمُودًا ، ورواقُ الأَمْنِ مَمْدُودًا ؛ والأهواءُ مُتَفَقَّهه ، والقُلُوبُ مُؤْتَلَفَه ، والكَلِمَةُ مُجْتَمَعَه ؛ ونيرانُ الفِتنِ والضَّلالةِ خامِدَه ، وظُنُونُ بُغائِها والسَّاعِينُ لها كاذِبَه ، وطَبَقاتُ الأولياءِ والرَّعيَّةِ - بما أُعيدَ إليهم من

الْأَمْنَةُ تُعَقَّبُ الْخِيفَةَ ، وَالْأَنْسَةَ مِنْ بَعْدِ الْوَحْشَةِ - مُسْتَبْشِرَةٌ ؛ وَإِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ -
 فِي إِطَالَةِ بَقَاءِ الْأَمِيرِ وَإِدَامَةِ دَوْلَتِهِ ، وَحِرَاسَةِ نِعْمَتِهِ وَتَنْبِيْهِ وَطَأْتِهِ - رَاغِبِينَ ،
 وَفِي مُسَالَمَتِهِ مُخْلِصِينَ . وَلَوْ لَمْ يَكُنِ السَّلْمُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَأْمُورًا بِهِ ، وَالصَّلْحُ مَجْبُورًا عَنْ
 الْخَيْرِ الَّذِي فِيهِ ؛ لَكَانَ فِيمَا يَنْتَظَمُ بِهِ : مِنْ حَقْنِ الدَّمَاءِ ، وَسُكُونِ الدِّهْمَاءِ ؛ وَيَجْمَعُ
 مِنْ الْخِلَالِ الْمَحْمُودَةِ ، وَالْفَضَائِلِ الْمَمْدُودَةِ ، الْمُقَدِّمِ ذِكْرُهَا - مَا حَادَا عَلَيْهِ ، وَمَثَلِ
 لِلْعُقُولِ السَّلِيمَةِ وَالْآرَاءِ الصَّحِيحَةِ مَوْضِعَ الْخَيْرِ فِيهِ ، وَحُسْنِ الْعَائِدَةِ عَلَى الْخِصِّصِ
 وَالْعَامِّ بِهِ ؛ فِيمَا يَجِبُ لِلْعِيُونِ ، مِنْ مُسْتَبْهَاتِ الظُّنُونِ ، إِذِ الدِّينُ وَإِقْعُ ، وَالشُّكُّ جَانِحٌ
 بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمُبْطَلِ ، وَالْجَائِرِ وَالْمُقْسِطِ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ جَلَّ شَأُوهُ : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ
 مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوَّهُمْ فِتْصِيْبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بَغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ نَاطِرًا
 لِلْمَسْلَمِينَ مِنْ مَعْرَةٍ أَوْ مَضْرَبَةٍ تَلْحَقُ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ بَغَيْرِ عِلْمٍ ؛ وَمُؤَثِّرًا تَطْهِيْرَهُمْ مِنْ ظَنِّ
 الْعُدُوَانِ ، مَعَ رَفْعِهِ عَنْهُمْ فِرَاطِ النَّسِيَانِ ، وَكَفَافًا أَيْدِي الْمَسْلَمِينَ عَنِ الْمَشْرِكِينَ ،
 كَمَا كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنِ الْمَسْلَمِينَ ؛ تَحْتُنَّا عَلَى بَرِيَّتِهِ ، وَإِبْقَاءً عَلَى أَهْلِ مَعْصِيَّتِهِ ؛ إِلَى أَنْ
 يَتِمَّ لَهُمُ الْمِيقَاتُ الَّذِي أَدْنَاهُ ، وَالْأَمْرُ الَّذِي أَمْضَاهُ ، وَمَوْقِعُ الْحَمْدِ فِي عَاقِبَتِهِ ، وَالسَّلَامَةُ
 فِي خَاتِمَتِهِ . وَبَلَّغَهُمْ مِنْ غَايَةِ الْبَقَاءِ أَمْدَهَا ، وَمِنْ مَرَافِقِ الْعَيْشِ أَرْغَدَهَا ، مَقْصُورَةً
 أَيْدِي النَّوَائِبِ عَمَّا حَوْلَهُ ، وَمَعْصُومَةً أَعْيُنُ الْحَوَادِثِ عَمَّا نَوَّلَهُ ؛ إِنَّهُ جَوَادٌ مَا جَدُّ .

قُلْتُ : وَعَلَى هَذَا الْمَذْهَبِ كُتِبَ عَمْدُ الصَّلْحِ بَيْنَ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ
 أَبِي السَّعَادَاتِ «فَرَج» بْنِ السُّلْطَانِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ «بَرْقُوق» ، وَبَيْنَ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ
 النَّظْمِيِّ تَيْمُورْ كُورْكَانِ صَاحِبِ مَا وَرَاءَ النَّهْرِ ، بَعْدَ طُرُوقِهِ الشَّامَ وَفَتْحِهِ دِمَشْقَ
 وَتَحْرِيْقِهَا وَتَحْرِيْبِهَا ، وَإِرْسَالِ كِتَابِهِ فِي مَعْنَى طَلَبِ الصَّلْحِ ، وَإِرْسَالِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشِ
 لَزِمَهُ ، الْمَأْسُورِ فِي الدَّوْلَةِ الظَّاهِرِيَّةِ «بَرْقُوق» صَحْبَةَ الْخَوَاجَا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ
 الْكُجْجَانِي . جُهِّزَ ذَلِكَ إِلَيْهِ قَرَيْنَ كِتَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ صَحْبَةَ الْخَوَاجَا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانيه، في جمادى الأولى سنة خمس وثمانمائة، بإشارة المقرّ المتّحى صاحب ديوان الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدين طاهر، ابن الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي، أحد كتّاب الدست الشريف بالأبواب السلطانية، وهو مكتوب في قطع (١) بقم (١) وفي طرته ما صورته :

« مرقوم شريف جليل عظيم، مبجل مكرم جميل نظيم؛ مشتمل على عقد صالح آتتحة المقام الشريف، العالي، القطبي، نصره الدين، تيمور كوركان، زيدت عظّمته، يكون بينه وبين المقام الشريف، السلطان، المالك، الملك الناصر أبي السعادات « فرج » بن السلطان الشهيد، الملك الظاهر أبي سعيد « برقوق » خادم الحرمين الشريفين، خلد الله تعالى ملكه . انعقد بمباشرة السفير عن المقام الشريف القطبي، المشار إليه ويكليه في ذلك، الخواجا نظام الدين مسعود الكججاني، بشهادة من حضر صحبته من العُدول بالتوكيل المذكور، على حكم إشارة مرسله إليه ومضمون مكاتبتة، وقصده تجهيز الأمير أطمش لزمه . وحلف المقام القطبي على الموفاة والمصافاة، واتّحاد المملكتيه، وإجراء الأمور على السداد، وعمل مصالح العباد والبلاد .

والبياض ثلاثة أوصال بوصل الطرة، والبسملة في أول الوصل الرابع بهامش عن يمينها، وتحت البسملة سطر، ثم بيت العلامة، والسطر الثاني بعد بيت العلامة . والعلامة بجليل الثلث بالذهب ما صورته : « الله أملي » .

وُنسخةُ المَكْتُوبِ بعدَ البِسْمَلَةِ ما صُورَتُهُ :

الحمد لله الذي جعل الصُّلْحَ خَيْرَ ما أُنْعَمَتْ عَلَيْهِ المَصَالِحُ ، والإِصْلَاحَ بَيْنَ النَّاسِ
أَوْلَى ما أُنْصَلَّتْ بِهِ أسبابُ المَنَاجِحِ ، وأَحَقُّ ما نَطَقَتْ بِهِ أَلْسُنُ المَحامِدِ وأُثِنَتْ عَلَيْهِ
أَفْواءُ المَدَائحِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ التي جَمَعَتْ أَشْجَاتَ القُلُوبِ الطَّوَائِحِ ، وَأَضَافَتْ إِلَى ضِيَاءِ الشَّمْسِ
نُورَ القَمَرِ فَاهْتَدَى بِهِما كُلُّ غَايٍ وَرَأَيْحٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنَّ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ
شَهادَةً تَبْلُغُ قَائِلِها أَهْني المَنَاجِحِ ، وَتَعَطِّرُ مَجالِسَ الذِّكْرِ بِعَرَفِ رِوائِحِها الرِّوائِحِ ؛ وَنَشْهَدُ
أَنَّ مَجدًا عِبدُهُ وَرِسالَهُ أَفضَلُ مِنَ آخِي بَيْنَ المَتَجاكِينِ فَنُصِحَ لِلَّهِ وَرَأَى الصُّلْحَ مِنَ
أَعْظَمِ النِّصَاحِ ، وَأَكْمَلَ رِسالِ أَتِقادِ لِأَخْلاقِهِ الرِّضِيَّةِ ، وَصِفاتِهِ المَرِضِيَّةِ ، جِوانِحِ
النُّفُوسِ الجِوانِحِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى ما أَجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ آراءُ أَوْلِي الأَبْبابِ ، وَرَكَنتُ إِلَيْهِ قُلُوبُ ذَوِي
المَعرِفَةِ مِنَ أَهْلِ المِوَدَّةِ والأَحْبابِ - أَتِلافِ القُلُوبِ بَعْدَ أَخْتِلافِها ، وَأَتِصافِها
بِالتَّلبِيسِ بأَحْسَنِ أوصافِها ؛ وَالعَمَلِ عَلَى الصُّلْحِ الَّذِي هُوَ أَصْلَحُ لِلنَّاسِ ، وَأَرْجَى
مَتَاحِرِ الدُّنْيا والآخِرَةِ وَأَدْفَعُ لِلْيَأْسِ والبِاسِ ؛ إِذْ هُوَ مِفْتاحُ أَبْوابِ الخِيراتِ الشَّامِلِ ،
وَمِصْباحُ مَناهِجِ الفِكرِ الصَّحِيحَةِ الكامِلَةِ ؛ وَالذِّعْوِ إِلَى كُلِّ فِعْلي جَميلِ ، وَالسَّاعِي
بِكُلِّ قَوْلٍ هُوَ شِفاءُ صَدَى الغَليلِ وَنِجاةٌ مِنَ داءِ العَليلِ .

وَلَمَّا كانَ المَقامُ الشَّرِيفُ ، العَالِي ، الكَثيرُ ، العَالِمِيُّ ، العَامِلِيُّ ، المُوَيْدِيُّ ،
المُظَفَّرِيُّ ، المُنْجِئِيُّ ، المَلادِيُّ ، الوالِدِيُّ ، القُطْبِيُّ ؛ نُصْرَةَ الدِّينِ ، مَلْجَأَ القاصِدِينَ ،
مَلأُذُ العالِمِينَ ، قُطْبُ الإِسلامِ والمُسلمِينَ ، تَيمُورُ كورِ كانَ ، زِيدَتْ عَظَمَتُهُ -
هُوَ البَادِي بِإِحْياءِ هَذِهِ السُّنَّةِ الحَسَنَةِ ، وَالْحادِي إِلَى العَمَلِ بِمُقْتَضَى مَقاوِصِهِ الشَّرِيفَةِ

التي هي لذلك مُتَضَمِّنَةٌ ، الْوَارِدَةَ إِلَى حَضْرَةِ عَبْدِ اللَّهِ وَوَلِيِّهِ ، السُّلْطَانِ الْمَالِكِ ، الْمَلِكِ النَّاصِرِ ، زَيْنِ الدُّنْيَا وَالدِّينِ ، أَبِي السَّعَادَاتِ « فَرَج » بنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ ، أَبِي سَعِيدِ « بَرْقُوقِ » خَادِمِ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - عَلَى يَدِ سَفِيرِ حَضْرَتِهِ ، الْمَجْلِسِ السَّامِيِّ ، الشَّيْخِي ، النَّظَامِيِّ ، مَسْعُودِ الْكَجَجَانِيِّ ، الْمُوَرَّخَةِ بِسَمْتَلٍّ شَهْرَ رَبِيعِ الْأَوَّلِ سَنَةِ تَارِيخِهِ .

وَجُلٌّ مَضْمُونُهَا ، وَسِرٌّ مَكْنُونُهَا - قَصْدُ إِيقَاعِ الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بَيْنَ الْمَشَارِ إِلَيْهِمَا ، وَتَسْجُجِ الْمَوَدَّةِ وَالْمَحَبَّةِ وَالْمُصَادَقَةِ بَيْنَهُمَا ، وَإِسْبَالِ رِدَائِ مَحَاسِنِهَا عَلَيْهِمَا ؛ بِمَقْتَضَى تَفْوِضِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ الْأَمْرِ فِي الصُّلْحِ الْمَذْكُورِ إِلَى الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَتَوَكُّلِهِ إِيَّاهُ فِيهِ ، وَإِقَامَتِهِ مَقَامَ نَفْسِهِ الشَّرِيفَةِ ، وَجَعَلَ قَوْلَهُ مِنْ قَوْلِهِ ، وَأَنَّهُ - عَظَّمَ اللَّهُ تَعَالَى شَأْنَهُ - أَشْهَدُ اللَّهَ الْعَظِيمَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ ، وَأَشْهَدُ عَلَيْهِ مِنْ يَضَعُ خَطَّهُ مِنْ جَمَاعَتِهِ الْمَجْهَزِينَ بِصُحْبَةِ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ ، وَهُمَا : الشَّيْخُ بَدْرُ الدِّينِ أَحْمَدُ بنُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ شَمْسِ الدِّينِ مُحَمَّدِ بنِ الْجَزْرِيِّ الشَّافِعِيِّ ، وَالصَّدْرُ الْأَجَلُّ كَمَالُ الدِّينِ كَمَالُ أَعَا ؛ وَأَنَّ ذَلِكَ صَدَرَ عَنِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، مُوَافَقَتِهِ عَلَى الصُّلْحِ الشَّرِيفِ ، وَإِجَابَةِ الْقَصْدِ فِيهِ بِإِطْلَاقِ الْأَمِيرِ أَطْلَمِشٍ لَزِمَ الْمَقَامَ الْقُطْبِيَّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَتَجْهِيزِهِ إِلَى حَضْرَتِهِ الْعَالِيَةِ ؛ وَأَنَّهُ عَاهَدَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بِحُضُورِ جَمِّ غَفِيرٍ مِنْ أَمْرَاءِ دَوْلَتِهِ وَأَكْبَرِيهَا ، وَمَنْ حَضَرَ مَجْلِسَهُ ، بِالْيَمِينِ الشَّرْعِيَّةِ الْجَامِعَةِ لِأَشْتَاتِ الْحَلِيفِ : بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْبَرِيَّةِ وَبَارِئُ النَّسَمِ ، عَلَى ذَلِكَ جَمِيعِهِ ، وَعَلَى أَنَّهُ لَا يَدْخُلُ إِلَى الْبِلَادِ الدَّاخِلَةِ فِي مَمْلَكَةِ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا عَاهَدَ وَصَالِحَ وَعَاقَدَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ نِظَامُ الدِّينِ مَسْعُودُ الْوَكِيلِ الْمَذْكُورُ يَقْضَى بِهِ الْمَقَامُ الْقُطْبِيُّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ ، وَيُمْضِيهِ وَيَرْتَضِيهِ . وَأَنْفَصَلَ الْأَمْرُ عَلَى ذَلِكَ .

فَعِنْدَ مَا وَقَفَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - عَلَى الْمَكْتَابَةِ الشَّرِيفَةِ الْمَشَارِ إِلَيْهَا، وَتَفَهَّمْ مَضْمُونَهَا، وَرَأَى أَنْ الْمَصْلَحَةَ فِي الصُّلْحِ: تَبَرُّكًا بِمَا وَرَدَ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اسْتِخَارَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرَ بِتَجْهِيزِ الْأَمِيرِ أَطْلَمَشِ الْمَذْكُورِ، وَتَسْلِيمِهِ لِلشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْمَذْكُورِ، وَأَذِنَ لَهَا فِي التَّوَجُّهِ إِلَى حَضْرَةِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ: بِمُؤَافَقَةِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَهُ - عَلَى ذَلِكَ، وَحُضُورِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْفَرْدِ الْأَوْحَدِ، شَيْخِ الْإِسْلَامِ، سِرَاجِ الدِّينِ، عَمْرَ الْبُلْقِينِيِّ - أَعَادَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْمَسْلَمِينَ مِنْ بَرَكَاتِهِ - وَقَضَاةِ الْقَضَاةِ الْحُكَّامِ - أَعَزَّ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُمْ - وَمَشَايِخِ الْعِلْمِ الشَّرِيفِ وَالصَّلَاحِ، وَأَرْكَانِ الدَّوْلَةِ الشَّرِيفَةِ، وَمَنْ يَضَعُ خَطَّهُ فِي هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ بِالشَّهَادَةِ بِمَضْمُونِهِ .

وَعَقَدَ الصُّلْحُ الشَّرِيفُ بَيْنَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ الْمَشَارِ إِلَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَبَيْنَ الشَّيْخِ نِظَامِ الدِّينِ مَسْعُودِ الْوَيْكِلِ الْمَذْكُورِ عَنِ الْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْقُطْبِيِّ الْمَشَارِ إِلَيْهِ - زِيدَتْ عَظَمَتُهُ - عَلَى حُكْمِ مَضْمُونِ مِفَاوَضَتِهِ الشَّرِيفَةِ الْمَقْدَمِ كَرَاهًا، وَمَا قَامَتْ بِهِ الْبَيِّنَةُ الشَّرْعِيَّةُ، بِشَهَادَةِ الْعَدْلَيْنِ الْمَذْكُورِينَ الْوَاصِلِينَ صُحْبَةً الْوَيْكِلِ الْمَذْكُورِ بِالتَّوَكُّلِ الْمَشْرُوحِ فِيهِ . فَكَانَ صُلْحًا صَحِيحًا شَرْعِيًّا، تَامًّا كَامِلًا مُعْتَبَرًا مَرْضِيًّا، عَلَى أَحْسَنِ الْأُمُورِ وَأَجْمَلِهَا، وَأَفْضَلِ الْأَحْوَالِ وَأَكْمَلِهَا .

وَحَلَفَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْمَلِكُ النَّاصِرُ الْمَشَارُ إِلَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى مُلْكَهُ - وَعَاهَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَظِيرَ مَا حَلَفَ وَعَاهَدَ عَلَيْهِ الْمَقَامُ الشَّرِيفُ الْقُطْبِيُّ الْمَشَارُ إِلَيْهِ مِنَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَاسْتَقْرَّتْ بِمِثْبَئَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْخَوَاطِرُ، وَسُرَّتِ الْقُلُوبُ وَقَرَّتِ النَّوَاطِرُ، بِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ حِفْظِ دِمَامِ الْعُهُودِ الشَّرِيفَةِ، وَإِقَامَةِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ وَأَمْتِنَادِ

ظلالِ أعلامِهِ الْوَرِيْفِهِ ؛ وَإِجْرَاءِ كَلِمَةِ الصَّديْقِ ، عَلَى لِسَانِ أَهْلِ الْحَقِّ ، وَصَوْنِ
أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَشِعَارِ دِينِهِ بَيْنَ الْخَلْقِ ؛ فَلَا يَتَغَيَّرُ عَقْدُ هَذَا الصُّلْحِ الشَّرِيفِ
عَلَى مَدَى اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ ، وَلَا يَنْقُضِي حُكْمُهُ وَلَا يَنْحَلُّ إِبْرَامُهُ عَلَى تَوَالِي السِّنِّينِ
وَالْأَعْوَامِ .

هذا : عَلَى أَنْ لَا يَدْخُلَ أَحَدٌ مِنْ عَسَاكِرِهِمَا وَجُدَيْهِمَا وَمَمَالِكِيهِمَا إِلَى حُدُودِ
مَمْلَكَةِ الْآخَرِ ، وَلَا يَتَعَرَّضَ إِلَى مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنْ مَمَالِكٍ وَقِلَاعٍ ، وَحُصُونٍ
وَسَوَاحِلَ وَمَوَانٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ سَائِرِ الْأَنْوَاعِ ؛ وَرِعَايَاهُمَا مِنْ جَمِيعِ الطَّوَائِفِ
وَالْأَجْنَاسِ ، وَمَا هُوَ مَخْتَصٌّ بِبِلَادِ كُلِّ مِنْهُمَا وَمَعْرُوفٌ بِهِ بَيْنَ النَّاسِ : حَاضِرُهَا
وَبَادِيهَا ، وَقَاصِيهَا وَدَانِيهَا ، وَعَامِرُهَا وَغَامِرُهَا ، وَبَاطِنُهَا وَظَاهِرُهَا ، وَلَا إِلَى مَنْ
فِيهَا مِنَ الرَّعِيَّةِ وَالتَّجَارِ وَالْمَسَافِرِينَ ، وَسَائِرِ الْغَادِيْنَ وَالرَّائِحِينَ فِي السَّبِيلِ وَالطَّرِيقِ :
مَتَفَرِّقِينَ وَمَجْتَمِعِينَ .

هذا عَلَى أَنْ يَكُونَ كُلُّ مِنَ الْمُتَقَامِينَ الشَّرِيفِينَ الْمُشَارِإِلَيْهِمَا مَعَ الْآخَرِ عَلَى أَكْمَلِ
مَا يَكُونُ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ : مِنْ حُسْنِ الْوَفَاءِ ، وَجَمِيلِ الْمُوَدَّةِ وَالصَّفَاءِ ؛ وَيَكُونَا
فِي الْإِتِّحَادِ كَالْوَالِدِ وَالْوَالِدِ ، وَعَلَى الْمُبَالِغَةِ فِي الْأَمْتِرَاجِ وَالْإِخْتِلَاطِ كُرُوحِينَ فِي جَسَدِ ؛
مَعَ مَا يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ مِنْ مُصَادَقَةِ الْأَصْدِقَاءِ ، وَمُعَادَاةِ الْأَعْدَاءِ ؛ وَمُسَالَمَةِ الْمُسَالِمِينَ ،
وَمُحَارَبَةِ الْمُحَارِبِينَ ؛ فِي السَّرِّ وَالْإِعْلَانِ ، وَالظُّهُورِ وَالْكِتْمَانِ ؛ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقِ ، وَهُوَ
الْعَالِمُ بِمَا تُبْدِي الْأَعْيُنُ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ، وَعَلَيْهِ التَّكْلَانُ فِي كُلِّ الْأُمُورِ ،
فِي الْغَيْبَةِ وَالْحُضُورِ ، وَالْوُرُودِ وَالصُّدُورِ .

الباب السادس

من المقالة التاسعة

(في الفسوخ الواردة على العقود السابقة، وفيه فصلان)

الفصل الأول

الْفَسْخُ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر

قال في "التعريف": "وقل أن يكون فيه إلا ما يبعث به على ألسنة الرسل .
قال : وقد كتب عمي صاحب شرف الدين [أبو محمد] ^(١) عبد الوهاب رحمه الله ،
سنة دخول العساكر الإسلامية لمطية، سنة أربع عشرة وسبعائة فسخا على التكفور
متملك سيس، كان سببا لأن زاد قطيعته . ولم يذكر بصورة ما كتبه في ذلك .

وقد جرت العادة أنه إذا كان الفسخ من الجانب الواحد أن يذكر الكاتب فيه
موجب الفسخ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظهور ما يوجب نقض العهد،
ونكث العقد، وإقامة الحجّة على المفسوخ عليه من كل وجه .

قال في "التعريف": "والذي أقول فيه : إنه إن كتبت فيه، كتبت بعد البسملة :

هذا ما أستخار الله تعالى فيه فلان، أستخارة تبين له فيها غدر الغادر، وأظهر له بها
سر الباطن ما حققه الظاهر؛ فسوخ فيها على فلان ما كان بينه وبينه من المهادنة
التي كان آخر الوقت الفلاني آخر ممتتها، وطهر السيوف الذكور فيها من الدماء إلى
انقضاء عدتها؛ وذلك حين بدا منه من موجبات النقص، وحل المعاقدة التي كانت
يُسَدُّ بعضها ببعض (وهي كذا وكذا، وتذكر وتعد) مما يوجب كل ذلك إخفارا

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الذمة ، وتقضى العهود المرعية الحرمة ؛ وهند قواعيد الهدنة ، وتخليصة ما كان قد أمسك من الأعتة ؛ كتب إنذارا ، وقدم حذارا ؛ ومن يشهد بوجوب هذا الفسخ ، ودخول مائة تلك الهدنة في حكم هذا النسخ ؛ ما تشهد به الأيام ، ويحكم به عليه النصر المكتتب للإسلام ؛ وكتب هذا الفسخ عن فلان لفلان وقد نبذ إليه عهده ، وأنجز وعده ؛ وأنفذ إليه سهمه بعد أن صبر مليا على مُمالاته ، وأقام مدة يُدارى مرض وفائه ولا ينجح فيه شيء من مداواته ؛ ولينصرن الله من ينصره ، ويحذر من يأمن مكره من يحذره ؛ وأمر فلان بأن يقرأ هذا الكتاب على رؤوس الأشهاد ، لينقل مضمونه إلى البلاد ؛ أفنة من أمر لا يتأدى به الإعلان ، وينصب به لهذا الغادر لواء لا يقال إذا يقال : هذا اللواء لغدر فلان بن فلان .

الفصل الثاني

المفاسخة وهي ما يكون من الجانبين جميعا

قال في "التعريف" : وصورة ما يكتب فيها : هذا ما آختره فلان وفلان من فسح ما كان بينهما من المهادنة التي هي إلى آخر مدة كذا . آخترنا فسح بنايها ، ونسخ أنبايها ؛ وتقضى ما أبرم من عقودها ، وأكّد من عهودها ؛ جرت بينهما على رضا من كلّ منهما بايقاد نار الحرب ، التي كانت أطفئت ، وإثارة تلك الثوائر التي كانت كُفيت ؛ نبذاه على سواء بينهما ، واعتقاد من كلّ منهما ؛ أن المصلحة في هذا لجهته ، وأسقط ما كان يجمله للآخر من ربقته ؛ ورضى فيه بقضاء السيوف ، وإمضاء أمر القدر والقضاء في مساقات الخوف ؛ وقد أشهدا عليهما بذلك الله وخالقه ومن حصره ، ومن سمع ونظر ؛ وكان ذلك في تاريخ كذا وكذا .

المقالة العاشرة

في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتناقس في عملها، ليس لها
تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

الباب الأول

في الجدييات، وفيه خمسة فصول

الفصل الأول

في المقامات

وهي جمع مقامة بفتح الميم، وهي في أصل اللغة اسم للجلس والجماعة من الناس .
وسميت الأحدث من الكلام مقامة، كأنها تُذكر في مجلس واحد يجتمع فيه الجماعة
من الناس لسماعها . أما المقامة بالضم، فبمعنى الإقامة، ومنه قوله تعالى حكاية
عن أهل الجنة: ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ﴾ .

وأعلم أن أول من فتح باب عملي المقامات، علامة الدهر، وإمام الأدب،
البديع الهمداني: فعمل مقاماته المشهورة المنسوبة إليه، وهي في غاية من البلاغة،
وعلو الرتبة في الصنعة . ثم تلاه الإمام أبو محمد القاسم الحريري، فعمل مقاماته
الخمس المشهورة، بجاءت نهاية في الحسن، وأتت على الجزء الوافر من الخط،
وأقبل عليها الخاص والعام، حتى أنست مقامات البديع وصيرتها كالمرفوضة .
على أن الوزير ضياء الدين بن الأثير في "المثل السائر" لم يوفه حقه، ولا عامله
بالإنصاف، ولا أبجل معه القول . فإنه قد ذكر أنه ليس له يد في غير المقامات،

حَتَّى ذَكَرَ عَنِ الشَّيْخِ أَبِي مُحَمَّدٍ أَحْمَدَ بْنِ الْحَشَّابِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ : إِنَّ الْحَرِيرِيَّ رَجُلٌ مَقَامَاتٍ . أَيْ إِنَّهُ لَمْ يُحَسِّنْ مِنَ الْكَلَامِ الْمُنْتَوِرِ سِوَاهَا ، فَإِنِ اتَى بِغَيْرِهَا فَلَا يَقُولُ شَيْئًا . وَذَكَرَ أَنَّهُ لَمَّا حَضَرَ بَعْدَادَ ، وَوُقِفَ عَلَى مَقَامَاتِهِ ، قِيلَ : هَذَا يُسْتَصَلَحُ لِكِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ فِي دِيْوَانِ الْخِلَافَةِ ، وَيُحَسِّنُ آثَرَهُ فِيهِ ، فَأَحْضَرَ وَكَلَّفَ كِتَابَةَ كِتَابِ فَأَقْبَمَ ، وَلَمْ يَجْرِ لِسَانُهُ فِي طَوِيلِهِ وَلَا قَصِيرِهِ ، حَتَّى قَالَ فِيهِ بَعْضُهُمْ :

شَيْخٌ لَنَا مِنْ رَبِيعَةِ الْفَرَسِ * يَنْتِفُ عُنُونَهُ مِنَ الْهُوسِ ،

أَنْطَقَهُ اللَّهُ بِالْمَشَانِ وَفِي * بَعْدَادَ أَصْحَى الْمَلْجُومَ بِالْحَرَسِ !

وَأَعْتَدَرَ عَنْهُ بِأَنَّ الْمَقَامَاتِ مَدَارُهَا جَمِيعُهَا عَلَى حِكَايَةِ تَخْرُجُ إِلَى مَخْلِصٍ ، بِخِلَافِ الْمَكْتَابَاتِ فَانْهَاجُهَا بِحَرْفٍ لَا سَاحِلَ لَهُ : مِنْ حَيْثُ إِنَّ الْمَعَانِي تَتَجَدَّدُ فِيهَا بِتَجَدُّدِ حَوَادِثِ الْأَيَّامِ ، وَهِيَ مُتَجَدِّدَةٌ عَلَى عَدَدِ الْأَنْفَاسِ .

وهذه المقامة التي قَدِّمْتُ الْإِشَارَةَ إِلَيْهَا فِي خُطْبَةِ هَذَا الْكِتَابِ ، إِلَى أَنِّي كُنْتُ أُنْشَأْتُهَا فِي حُدُودِ سَنَةِ إِحْدَى وَتِسْعِينَ وَسَبْعِينَ ، عِنْدَ اسْتِقْرَارِي فِي دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَنَّهَا أَشْتَمَلَتْ - مَعَ الْأَخْتِصَارِ - عَلَى جُمْلَةِ جَمَّةٍ مِنْ صِنَاعَةِ الْإِنْشَاءِ ، وَوَسَمْتُهَا بِ"الْكَوَاكِبِ الدَّرِّيَّةِ" ، فِي الْمَنَاقِبِ الْبَدْرِيَّةِ ، وَوَجَّهْتُ الْقَوْلَ فِيهَا لِتَقْرِيطِ الْمَقَرِّ الْبَدْرِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْعَلَائِيِّ ، بِنِ الْمَقَرِّ الْحَيَوِيِّ ، بِنِ فَضْلِ اللَّهِ ، صَاحِبِ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ بِالْأَبْوَابِ السُّلْطَانِيَّةِ بِالْأَبْوَابِ الْمِصْرِيَّةِ يَوْمئِذٍ . جَعَلْتُ مَبْنَاهَا عَلَى أَنَّهُ لَا بَدَّ لِلْإِنْسَانِ مِنْ حَرْفَةٍ يَتَعَلَّقُ بِهَا ، وَمَعِيشَةٍ يَتَسَكُّ بِسَبَبِهَا ؛ وَأَنَّ الْكِتَابَةَ هِيَ الْحَرْفَةُ الَّتِي لَا يَلْبِقُ بِطَالِبِ الْعِلْمِ سِوَاهَا ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ الْعُدُولُ عَنْهَا إِلَى مَا عَدَاهَا ؛ مَعَ الْجُنُوحِ فِيهَا إِلَى تَفْضِيلِ كِتَابَةِ الْإِنْشَاءِ وَتَرْجِيحِهَا ، وَتَقْدِيمِهَا عَلَى كِتَابَةِ الدِّيْوَانَةِ وَتَرْشِيحِهَا .

وقد اشتملت على بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد ، وما ينبغي أن يسلكه من الجواد ؛ مع التنبيه على جملة من المصطلح بيئت . مقاصده ، ومهدت قواعده ؛ على ما ستقف عليه في خلال مطاوعها إن شاء الله تعالى ، وهي :

حكى الناثر ابن نظام ، قال : لم أزل من قبل أن يبلغ برید عمري مركز التكليف ، ويتفرق جمع خاطري بالكلف بعد التأليف ؛ أنصب لأقتناص العلم أشراك التحصيل ، وأثره توحيد الاستغفال عن إشراك التطويل ؛ مشمرا عن ساق الحد ذيل الاجتهاد ، مستمرا على الوحدة وملازمة الانفراد ؛ أتميز فرصة الشباب قبل توليها ، وأغتم حالة الصحة قبل تجافها ؛ قد حالف جفني الشهاد ، وحالف طيب الرقاد ؛ أمرن النفس على الاشتغال كي لا تمل فتفر عن الطلب وتجمع ؛ مميلا جانب قصدها عن ركوب الأهواء والميل إليها ، صارفا وجه غايتها عن المطالب الدنيوية والركون إليها ؛ متخيرا أليق الأماكن وأوفق الأوقات ، قانعا بأذني العيش راضيا بأيسر الأقوات ؛ أونس من شوارد العقول وحشيبا ، وأشرد عن روايض المنقول حوشيبا ؛ وألتقط ضالة الحكمة حيث وجدتها ، وأقيد نادرة العلم حيث أصبثها ؛ مقدما من العلوم أشرفها ، ومؤثرا من الفنون أظفها ؛ معتمدا من ذلك ما تألفه النفس ويقبله الطبع ، مقبلا منه على ما يستجلي حسنه النظر ويستحلي ذكره السمع ؛ متقيا من الكتب أمتعها تصديفا ، وأتمها تحريرا وأحسنها تأليفا ؛ متخبا من أشياخ الإفادة أوسعهم علما وأكثرهم تحقيقا ، ومن أقران المذاكرة أروضهم بحنا وأظفهم تدقيقا ؛ عارفا لكل عالم حقه ، وموفيا لكل علم مستحقه ؛ قد استغنيت بكتابي عن خلى ورفيقي ، وآثرت بيت خلوتي على شفيقي وشقيبي ؛ أجوب فيافي الفنون لتظهر لي طلائع الفوائد فأشهدها عيانا ، وأجول في ميدان الأفكار لتلوح لي كائن المعاني فلا أنثي عنها عيانا ؛ وأشن غارات المطالعة على كتائب الكتب فأرجع

بالغنيمه ، وأهجم على حصون الدفاتر ثم لا أولى عن هزيمه ؛ بل كلما لاحت لى فئه
من البحث تحيزت إليها ، أو ظهرت لى كتيبة من المعانى حملت عليها ؛ إلى أن أتيج
لى من الفتح ما أفاضته النعمه ، وحصلت من الغنيمه على ما اقتضته القسمة .

فبينما أنا أرتع فى رياض ما نقت ، وأجتنبى ثمار ما خولت ، إذ طلع على جيش
التكليف فخصرنى ، وخرج على كمين التكليف فأسررنى ؛ فأمسيت فى أضيق خناق ،
وأشد وثاق ؛ قد عاقبى قيد الأكتساب عن الاشتغال ، وصددنى كل الكد عن
الأهتمام بالطلب والاحتفال ؛ فغشيتنى من القبض ما غشيتنى ، وأخذنى من الوحشة
ما أخذنى ؛ وتعارض فى حكم العقل بين الكسب وطلب العلم ، وتساويا فى الترجيح
فلم تجنح واحدة منهما إلى السلم ؛ فصرت مدهوشا لا أحسن صنعا ، وبقيت متحصرا
لا أدرى أى الأمرين أقرب إلى نفع ؛ : إن طلبت العلم للكسب فقد أخشت
رجوعا ، وإن تركت الكسب للعلم هلكت ضيعة ومث جوعا .

فما علمت أن كلا منهما لا يقوم إلا بصاحبه ، ولا يتم الواجب فى أحدهما
مالم يتم فى الآخر بواجبه ؛ التمت كسبا يكون للعلم موافقا ، وبجملته لا نقاب ؛ ليكون
ذلك الكسب للعلم موضوعا والعلم عليه محمولا ، والجمع ولو بوجه أولى ؛ فجعلت
أسبر المعاش سبر متقصد ، وأسير فى فلوات الصنائع سير متعهد ؛ لكى أجد
حرفه تطابق أربى ، أو صنعة تجانس طلى .

فبينما أنا أسير فى معاهدها ، وأردد طرفى فى مشاهدها ؛ إذ رفيع لى صوت قرع
سمعى برنته ، وأخذ قلبى بجنته ؛ فقفوت أثره متبعا ، وملت إليه مستمعا ؛ فإذا رجل
من أحسن الناس شكلا ، وأزجهم عقلا ؛ وهو يترنم ويؤشد :

إن كنت تقصدنى بظاك عامدا ، * حرمت نفع صداقة الكتاب ؛

السَّائِقِينَ إِلَى الصِّدِّيقِ ثَرَى الْغِنَى * وَالنَّاعِشِينَ لَعَثْرَةَ الْأَصْحَابِ ،
وَالنَّاهِضِينَ بِكُلِّ عِبٍّ مُثْقَلٍ * وَالنَّاطِقِينَ بِفَضْلِ كُلِّ خِطَابٍ ،
وَالعَاطِفِينَ عَلَى الصِّدِّيقِ بِفَضْلِهِمْ * وَالطَّيِّبِينَ رَوَائِحِ الْأَنْوَابِ .
وَلَيْنَ بَحَدَثِهِمُ الشَّنَاءَ فَطَالَمَا * بَحَدَّ الْعَيْدُ تَفَضَّلَ الْأَرْبَابِ !

فلما سمعتُ منه ذلك ، وأعجبتُني من الوصفِ ما هنالك ؛ دنوتُ منه دُنُوَ الْوَاجِلِ ،
وجلسْتُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِلِ ؛ وقلتُ : هذه وأبيكَ صِفَاتُ الْمُلُوكِ بِلِ مَلُوكُ
الصِّفَاتِ ، وَأَكْرَمُ الْفَضَائِلِ بِلِ أَفْضَلِ الْمَكْرَمَاتِ ؛ وَلَمْ أَلِكْ أَظُنُّ أَنَّ لِلْكِتَابَةِ هَذَا
الْخَطَرَ الْجَسِيمَ ، وَاللِّكَّابِ هَذَا الْحِطَّ الْعَظِيمَ ؛ فَأَعْرَضَ مُغْضِبًا ، ثُمَّ فَوَّقَ بَصْرَهُ إِلَى
مُعْجَبًا ، وَقَالَ : هَيْهَاتَ فَاتَكَ الْحَزْمُ ، وَأَخْطَاكَ الْعَزْمُ ؛ إِنَّهَا لَمِنْ أَعْظَمِ الصَّنَائِعِ قَدْرًا ،
وَأَرْفَعِهَا ذِكْرًا ؛ نَطَقَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِفَضْلِهَا ، وَجَاءَتِ السَّنَةُ الْعَرَاءُ بِتَقْدِيمِ أَهْلِهَا ؛
فَقَالَ تَعَالَى جَلَّ شَأُوهُ ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ : ﴿ أَقْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّهُ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، حَيْثُ وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْكَرَمِ ؛ إِشَارَةً
إِلَى أَنَّ تَعْلِيمَهَا مِنْ جَزِيلِ نِعْمِهِ ، وَإِيذَانًا بِأَنَّ مَنَحَهَا مِنْ فَائِضِ دِيَمِهِ ؛ وَقَالَ جَلَّتْ
قُدْرَتُهُ : ﴿ نَبِّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمُعْجِزُونَ ﴾ فَأَقْسَمَ بِالْقَلَمِ
وَمَا سَطَّرَتْهُ الْأَقْلَامُ ، وَأَتَى بِذَلِكَ فِي آكِدِ قَسَمٍ فَكَانَ مِنْ أَعْظَمِ الْأَقْسَامِ . وَقَالَ
تَقَدَّسَتْ عَظَمَتُهُ : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ لِجَعْلِ الْكِتَابَةِ مِنْ وَصْفِ
الْكَرَامِ ، كَمَا قَدْ جَاءَ فِعْلُهَا عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ؛ وَإِنَّمَا مُنِعَهَا النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُعْجِزَةً قَدِيمَةً تَعَالَى سَبَبُهَا ، حَيْثُ ذَكَرَ الْخَادِمُ بِقَوْلِهِ :
﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ آكْتَبَهَا ﴾ .

هذا : وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في كثرة الكُتَّابِ رَاغِبًا ، فقد رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ لَهُ عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ نَيْفٌ وَثَلَاثُونَ كَاتِبًا ، هُمْ مُنْجَبَةٌ أَصْحَابِهِ ، وَخُلَاصَةٌ أَتْرَابِهِ ، مَنْ آمَنَتْهُمْ عَلَى أَسْرَارِ الْوَحْيِ وَالتَّنْزِيلِ ، وَخَاطَبَ بِالسَّنَةِ أَقْلَامِهِمْ مُلُوكَ الْأَرْضِ فَأَجَابُوا بِالْإِدْعَانِ عَلَى الْبُعْدِ وَالْمَدَى الطَّوِيلِ ، وَكَتَبَ الْمُلُوكُ أَيْضًا إِلَيْهِ أَبْتِدَاءً وَجَوَابًا ، وَكَاتَبَ أَصْحَابَهُ وَكَاتَبُوهُ فَأَحْسَنَ اسْتِمَاعًا وَأَحْمَرَ خَطَابًا ، وَبِهَذَاكَ جَرَتْ سُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ فَمَنْ تَلَّاهُمْ ، وَعَلَى نَهْجِهِ مَشَتْ مُلُوكُ الْإِسْلَامِ وَمَنْ ضَاهَاهُمْ .

فَالْكَاتِبَةُ قَانُونُ السِّيَاسَةِ ، وَرُتْبَتُهَا غَايَةُ رُتْبِ الرِّيَاسَةِ ، عِنْدَهَا تَقِفُ الْإِنَافَةُ ، وَإِلَيْهَا تَنْتَهِي مَنَاصِبُ الدُّنْيَا بَعْدَ الْخِلَافَةِ ، وَالْكَتَّابُ عِيُونُ الْمُلُوكِ الْمُبْصِرَةِ وَأَذَانُهُمُ الْوَاعِيَةِ ، وَأَلْسِنَتُهُمُ الْنَاطِقَةُ وَعُقُولُهُمُ الْحَاوِيَةُ ، بَلْ مَحْضُ الْحَقِّ الَّذِي لَا تَدْخُلُهُ الشُّكُوكُ ، وَإِنِ الْمُلُوكُ إِلَى الْكَتَّابِ أَحْوَجُ مِنْ الْكَتَّابِ إِلَى الْمُلُوكِ ، وَنَاهِيكَ بِالْكَاتِبَةِ شَرَفًا ، وَأَعْلَى بِذَلِكَ رُتْبَةً وَكَفَى ، أَنَّ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ يُزَاحِمُ الْكَاتِبَ فِي قَلَمِهِ ، وَلَا يُزَاحِمُ الْكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ وَالْعِلْمِ فِي سَيْفِهِ وَعَاةِهِ .

وعلى الجملة فهم الحَاوُونَ لكلِّ وَصِفٍ جَمِيلٍ ، وَشَائِنٍ نَبِيلٍ ، الْكَرَمِ شِعَارُهُمْ ، وَالْحِلْمِ دِنَارُهُمْ ، وَالْجُودِ جَادَتُهُمْ ، وَالخَيْرِ عَادَتُهُمْ ، وَالْأَدَبِ مَرَكَبُهُمْ ، وَاللُّطْفِ مَذْهَبُهُمْ ، وَلِلَّهِ الْقَائِلُ :

وَشَمُولٍ كَأَنَّهَا أَعْتَصَرُوهَا * مِنْ مَعَانِي شَمَائِلِ الْكُتَّابِ !

فَلَمَّا أَنْقَضَى قَيْلُهُ ، وَبَانَتْ سَيْلُهُ ، قُلْتُ : لَقَدْ ذَكَرْتَ قَوْمًا رَاقِيًا وَصَفُهُمْ ، وَشَاقِيًا لُطْفُهُمْ ، وَدَعَانِي طَيْبُ حَدِيثِهِمْ ، وَحُسْنُ أَوْصَافِهِمْ ، وَجَمِيلُ نَعْوَتِهِمْ ، إِلَى أَنْ أَحَلَّ بِنَادِيهِمْ ، وَأَنْزَلَ بِوَادِيهِمْ ، فَأَجْعَلَ حِرْقَتَهُمْ كَسْبِي ، وَصَنَعَتَهُمْ دَائِي ، لِيَجْتَمِعَ بِالْعِلْمِ شَمْلِي ، وَيَتَّصِلَ بِالْأَسْتِغَالِ حَبْلِي ، فَأَكُونَ قَدْ ظَفَرْتُ بِمَنْبِتِي ، وَفُزْتُ بِبَيْعَتِي .

فأى قَيْلٍ من الكُتَابِ أَرَدتْ ؟ وإلى أَى نَوْعٍ من الكِتَابَةِ أَشْرَتْ ؟ أَكِتَابَةُ
الْأَمْوَالِ ؟ أم كِتَابَةُ الْإِنشَاءِ وَالْحَطَابَةِ ؟ ، أم غَيْرَهُمَا من أَنْوَاعِ الكِتَابَةِ ؟ ؛ فنظَرُ إِلَى
مُتَبَسِّمًا ، وَأَنْشُدُ مُتَرَنِّمًا :

قَوْمٌ إِذَا أَخَذُوا الْأَقْلَامَ مِنْ غَضَبٍ * ثُمَّ اسْتَمَدُّوا بِهَا مَاءَ الْمَنِيَّاتِ ،
نَالُوا بِهَا مِنْ لُعَادِيهِمْ وَإِنْ بَعُدُوا * مَا لَمْ يَنَالُوا بِحَدِّ الْمَشْرِفِيَّاتِ !

فَقُلْتُ : كَأَنَّكَ تُرِيدُ كِتَابَةَ الْإِنشَاءِ دُونَ سَائِرِ الكِتَابَاتِ ، وَهِيَ الَّتِي تَقْصِدُهَا
بِالتَّصْرِيحِ وَتُسِيرُ إِلَيْهَا بِالِكَيَّاتِ ؛ فَقَالَ : وَهَلْ فِي أَنْوَاعِ الكِتَابَةِ جُمْلَةٌ نَوْعٌ يُسَاوِيهَا ،
أَوْ فِي سَائِرِ الصَّنَائِعِ عَلَى الْإِطْلَاقِ صَنْعَةٌ تُضَاهِيهَا ؟ ؛ إِنَّ لَهَا لَلْقَدْحَ الْمُعَلَّى ، وَالْحِيدَ
الْمُحَلَّى ؛ وَالذَّرْوَةَ الْمُنِيفَةَ ، وَالرُّتْبَةَ الشَّرِيفَةَ ؛ كِتَابَهَا أَسُّ الْمُلْكِ وَعِمَادُهُ ، وَأَرْكَانُ الْمُلْكِ
وَأَطْوَادُهُ ؛ وَلِسَانُ الْمَلَكَةِ النَّاطِقِ ، وَسَهْمُهَا الْمَفُوقُ الرَّاشِقُ ؛ وَلِلَّهِ حَبِيبُ بْنُ أَوْسِ
الطَّائِيِّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَلَضْرِبَةٌ مِنْ كَاتِبِ بَنِي سَانِهِ * أَمْضَى وَأَقْطَعُ مِنْ رَقِيقِ حُسَامِ !
قَوْمٌ إِذَا عَزَمُوا عِدَاوَةَ حَاسِدٍ * سَفَكُوا الدَّمَاءَ بِأَسِنَّةِ الْأَقْلَامِ !

قَامَهَا يَبْلُغُ الْأَمَلَ ، وَيُعْنَى عَنِ الْبَيْضِ وَالْأَسَلِ ؛ بِهِ تُصَانُ الْمَعَاقِلُ ، وَتَفْرُقُ
الْمُجَافِلُ :

فَلَكَمْ يَقُولُ الْجَيْشِ وَهُوَ عَرَّ مَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ !

فَقُلْتُ : إِنَّ كِتَابَ الْأَمْوَالِ يَزْعَمُونَ أَنْ لَهُمْ فِي ذَلِكَ الْمَقَامِ الْأَعْلَى ، وَالطَّرِيقَةَ
الْمُنْتَهَى ؛ وَيَسْتَشْهِدُونَ لِفَضْلِهَا ، وَتَقَدِّمُ أَهْلِهَا ؛ بِقَوْلِ الْإِمَامِ أَبِي مُحَمَّدٍ الْقَاسِمِ الْحَرِيرِيِّ
رَحِمَهُ اللَّهُ ، فِي مَقَامَاتِهِ :

«إِنَّ صِنَاعَةَ الْحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّحْقِيقِ ، وَصِنَاعَةُ الْإِنشَاءِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى التَّلْفِيقِ ؛
وَقَلَمُ الْحَاسِبِ ضَايِعٌ ، وَقَلَمُ الْمُنْشِئِ حَاطِبٌ ؛ وَبَيْنَ إِتَاوَةِ تَوْطِيفِ الْمَعَامَلَاتِ ، وَتِلَاوَةِ

طَوَامِيرُ السَّجَلَاتِ ؛ بَوْنٌ لَا يُدْرِكُهُ قِيَاسٌ ، وَلَا يَعْتَوِرُهُ التَّنْبَاسُ ؛ إِذِ الْإِنَاوَةُ تَمَلَأُ
 الْأَيْكَاسَ ، وَالتَّلَاوَةُ تُفْرِغُ الرَّاسَ ؛ وَخَرَجُ الْأَوَارِجِ ، يُغْنِي النَّاطِرَ ، وَاسْتِخْرَاجُ
 الْمَدَارِجِ ، يُغْنِي الْخَاطِرَ ؛ وَالْحَسَبَةُ حَفَظَةُ الْأَمْوَالِ ، وَحَمَلَةُ الْأَثْقَالِ ؛ وَالتَّقَلُّةُ
 الْأَثْبَاتِ ، وَالسَّفَرَةُ الثَّقَاتِ ؛ وَأَعْلَامُ الْإِنْصَافِ وَالْإِتِّصَافِ ، وَالشُّهُودُ الْمَقَانِعُ
 فِي الْأَخْتِلَافِ ؛ وَمِنْهُمْ الْمُسْتَوْفِي الَّذِي هُوَ يَدُ السُّلْطَانِ ، وَقُطْبُ الدِّيَّانِ ؛ وَقِسْطَاسُ
 الْأَعْمَالِ ، وَالْمُهَيِّمُنُ عَلَى الْعَمَلِ ؛ وَإِلَيْهِ الْمَأْبُ فِي السَّلْمِ وَالْمَهْرَجِ ، وَعَلَيْهِ الْمَدَارُ
 فِي الدَّخْلِ وَالخَرْجِ ؛ وَبِهِ مَنَاطُ الضَّرِّ وَالنَّفْعِ ، وَفِي يَدِهِ رِبَاطُ الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ؛ وَلَوْلَا
 قَلَمُ الْحُسَابِ ، لَأَوَدَّتْ ثَمَرَةُ الْاِكْتِسَابِ ، وَلَا تَصِلَ التَّغَانُ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ ؛ وَلَكَّانَ
 نِظَامُ الْمَاعْمَلَاتِ مَحْلُولًا ، وَجُرْحُ الظَّلَامَاتِ مَطْلُولًا ، [وَجَيْدُ التَّنَاصُفِ مَغْلُولًا ^(١)] ،
 وَسَيْفُ التَّنْظَامِ مَسْأُولًا ؛ عَلَى أَنَّ يَرَاعَ الْإِنْشَاءَ مُتَقَوِّلًا ، وَيَرَاعَ الْحِسَابَ مُتَأَوِّلًا ؛
 وَالْحَاسِبُ مُنَاقِشٌ ، وَالْمُنْشِئُ أَبُو بَر_اقِشٍ .

فوصف كتابة الأموال بأتم الصفات ، ونبه من شيم أهلها وشياتهم على أكرم
 الشيم وأحسن الشيات .

فقال : هذه الحجة معارضةً بمثلها ، بل باطلةً من أصلها . وأين ذلك من قوله
 في صدر كلامه ؟ :

«اعلموا أن صناعة الإنشاء أرفع ، وصناعة الحساب أنفع ؛ وقلم المكاتبية خاطب ،
 وقلم المحاسبة خاطب ؛ وأساطير البلاغات تُنسخُ لتُدْرَسَ ، ودساتير الحسابات تُنسخُ
 وتُدْرَسُ ؛ وَالْمُنْشِئُ جَهِيئَةُ الْأَخْبَارِ ، وَحَقِيئَةُ الْأَسْرَارِ ؛ وَنَجِيُّ الْعُظْمَاءِ ، وَكَبِيرُ النَّدَمَاءِ ؛
 وَقَلَمُهُ لِسَانُ أَسْرَارِ الدَّوْلَةِ ، وَقَارِسُ الْجَوْلَةِ ؛ وَلِقْمَانُ الْحِكْمَةِ ، وَتَرْجَمَانُ الْهِمَمَةِ ؛ وَهُوَ

(١) الزيادة من مقامات الحريري .

البشير والنذير، والشفيح والسفير؛ به تُستخلص الصياحي، ومُتلك النواصي؛ ويُقتاد العاصي، ويُستدنى القاصي؛ وصاحبه برىء من التبعات، آمن كيد السعات؛ مفرط بين الجماعات، غير معرض لنظم الجماعات» .

فهذه أرفع المراتب، وأشرف المناقب؛ التي لا يعثرها شين، ولا يشوبها مين، وصدر الكلام يقتضي الترجيح، ويؤذن بالترشيح؛ والرّفع، أبلغ في الوصف من النّفع؛ فقد يتفّع بالزّر اليسير، ولا يرتفع إلا بالأمر الكبير؛ على أنه لو اعتبر نفع كتابة الإنشاء لكان أبلغ، وإقامة الدليل عليه أسوغ؛ وأتى لكتاب الأموال، من التأثير في قلّ الجيوش من غير قتال، وفتح الحصون من غير نزال؛ فهذه هي الخصيصة التي لا تُساوى، والمتنبئة التي لا تُتاوى :

تلك المكارم لا قبان من لبن * شيبا بماء فعادا بعد أبوالا !

فقلت: الآن قد انقطعت الحجّة، وبانت المحجّة، فما الذي يحتاج كاتب الإنشاء إلى ممارسته؟ فقال: إذا قد تعلّقت من الصنعة بأسبابها، وأتيت البيوت من أبوابها .
إعلم أن كاتب الإنشاء لا تظهر فصاحته، وتبين بلاغته؛ وتقوى براعته، وتجلّ براعته؛ إلا بعد تحصيل جملة من العلوم، ومعرفة الأصلاح والإحاطة بالرّسوم؛ ثم أهم ما يبدأ بتحصّيله، ويعتمد عليه في جملة الأمر وتفصيله؛ حفظ كتاب الله العزيز الذي هو معدن الفصاحة، وعنصر البلاغة؛ وإدامة قراءته وتكرير متانيه، مع العلم بتفسيره وتدبر معانيه؛ حتى لا يزال دائراً على لسانه حاضراً في ذكره، ولا يبرح معناه ممثلاً في قلبه مصوراً في فكره؛ ليكون مستحضراً له في الوقائع التي يحتاج إلى الاستشهاد به فيها، ويضطرّ إلى إقامة الأدلة القاطعة عليها؛ فله الحجّة البالغة، ولآياته الأجوبة الدامغة؛ خصوصاً السير والأحكام، وما يتعلّق بذلك من مهمّات

الدِّينِ وَقَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ؛ وَمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كَلَامُ النَّبُوَّةِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي أَبْكَتِ
 الْفُصْحَاءَ ، وَالْمَعَانِي الدَّقِيقَةَ الَّتِي أُعْيَتِ الْبُلْغَاءَ ؛ مَعَ النَّظْرِ فِي مَعَانِيهَا وَمَعْرِفَةَ غَرِيبِهَا ،
 وَالْإِطْلَاعَ عَلَى مَا لِلْعُلَمَاءِ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَقْوَالِ بَعِيدِهَا وَقَرِيبِهَا ؛ لِتَكُونَ أَيْدًا مُجْتَمِعَةً
 ظَاهِرِهِ ، وَأَدِلَّتُهُ قَوِيَّةً مُتَّظَاهِرَةً ؛ فَإِنَّ الدَّلِيلَ إِذَا اسْتَدَّ إِلَى النَّصِّ انْقَطَعَ التَّرَاغُ
 وَسَلَّمَ الْمَدْعَى وَلَزِمَ ، وَالْفَصَاحَةُ وَالْبَلَاغَةُ غَايَتُهُمَا - بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى - فِي كَلَامٍ
 مِنْ أَوْتَى جَوَامِعِ الْكَلِمِ ؛ وَالْعِلْمُ بِالْأَحْكَامِ السُّلْطَانِيَّةِ وَفُرُوعِهَا ، وَخُصُوصِهَا وَشُيُوعِهَا ؛
 وَالتَّوَعُّلُ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَالْمَوْلَدِينَ ، وَأَهْلِ الصَّنَاعَةِ مِنَ الْمُحَدِّثِينَ ؛ وَمَا وَرَدَ عَنْ كُلِّ
 فَرِيقٍ مِنْهُمْ مِنَ الْأَمْثَالِ نَثْرًا وَنَظْمًا ، وَمَا جَرَى بَيْنَهُمْ مِنَ الْمُحَاوَرَاتِ وَالْمُنَاقَضَاتِ حَرْبًا
 وَسِلْمًا ؛ وَالتَّوَعُّلُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْأَشْعَارِ الْبَدِيعَةِ الَّتِي اخْتَارَهَا الْعُلَمَاءُ بِهَا ، فَتَمَسَّكُوا
 بِأَوْتَادِهَا وَتَعَلَّقُوا بِسَبَبِهَا ؛ وَالْأَمْثَالُ الْغَرِيبَةُ الَّتِي آتَتْقَوْهَا ، وَدَوَّنَوْهَا وَرَوَّوْهَا ؛ وَأَسْتِيضَاحُ
 الْقِسْمِينَ وَأَسْتِكْشَافُ غَوَامِضِهِمَا ، وَأَسْتِظْهَارُ النَّوْعَيْنِ وَاسْتِطْطَارُ غَوَارِضِهِمَا ؛
 وَالْإِطْلَاعُ عَلَى خُطَبِ الْبُلْغَاءِ ، وَرَسَائِلِ الْفُصْحَاءِ ؛ وَمَا وَقَعَ لَهُمْ فِي مُحَاطَبَاتِهِمْ ؛
 وَمُكَاتَبَاتِهِمْ ؛ وَالْعِلْمُ بِأَيَّامِ الْعَرَبِ وَحُرُوبِهِمْ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْوَقَائِعِ بَيْنَ قَبَائِلِهِمْ وَشُعُوبِهِمْ ؛
 وَالنَّظَرُ فِي التَّوَارِيخِ وَأَخْبَارِ الدُّوَلِ الْمَاضِيَةِ ، وَالْقُرُونِ الْخَالِيَةِ ؛ وَسِيرِ الْمُلُوكِ وَأَحْوَالِ
 الْمَمَالِكِ ، وَمَعْرِفَةُ مَكَائِدِهِمْ فِي الْحَرْبِ الْمُتَقَدِّمَةِ مِنَ الْمَهَاوِي وَالْمُنْتَجِمَةِ مِنَ الْمَهَالِكِ .

مَعَ سَعَةِ الْبَاعِ فِي اللُّغَةِ الَّتِي هِيَ رَأْسُ مَالِهِ ، وَأُسُّ مَقَالِهِ ؛ وَكَثْرَةُ الْعُدُدِ لِلْإِنْفَاقِ ،
 وَمُعِينُهُ بَلْ مُعِينُهُ وَقَتَّ الضَّرُورَةَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ؛ وَالتَّحْوِيلُ الَّذِي هُوَ مَنَحُ كَلَامِهِ ، وَمَسْكُ
 خَتَامِهِ ؛ وَالتَّصْرِيفُ الَّذِي تُعْرَفُ بِهِ أَصُولُ أُبْنِيَةِ الْكَلِمَةِ وَأَحْوَالُهَا ، وَكَيْفِيَةُ التَّصْرِفِ
 فِي أَسْمَائِهَا وَأَفْعَالِهَا ؛ وَعُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانِ وَالْبَدِيعِ الَّتِي هِيَ حَلِيَّةُ لِسَانِهِ ، وَآيَةُ بَيَانِهِ ؛
 وَمَعْرِفَةُ أَبْوَابِهَا وَفُصُولِهَا ، وَتَحْقِيقُ فُرُوعِهَا وَأَصُولِهَا : مِنْ الْفَصَاحَةِ وَطَرَأَتِهَا ،
 وَالْبَلَاغَةِ وَدَقَائِقِهَا ؛ وَاخْتِيَارُ الْمَعَانِي وَتَرْبِيئِهَا ، وَنَظْمُ الْأَلْفَاظِ وَتَرْكِيبِهَا ؛ وَالْفَصْلُ

والوصل ومواقفهما، والتقديم والتأخير ومواضعهما؛ ومواطن الحذف والإضمار، وحكم الروابط والأخبار؛ وغير ذلك من الحقيقة والحجاز، والبسط والإيجاز؛ والحل والعقد، وتمييز الكلام جيده من رديه بصحة النقد؛ مع معرفة أنواع البديع وطرأقتها، والأطلاع على غوامض أسرارها وفرائد دقائقها .

على أن أكد شيء يجب تحصيله قبل كل حاصل، ويستوى في الاحتياج إلى معرفته المفضول من الكتاب والفاضل؛ العلم بالخط وقوانينه؛ من الهجاء والنقط والشكل، والفرق بين الضاد والطاء المتخالفين في الصورة والشكل؛ مع المعرفة بالآلات الكتابة وصفاتها، وتباين أنواعها واختلاف صفاتها .

هذه أصوله التي ينبغي عليها، وقواعده التي يرجع إليها؛ فإذا أحاط بهذه الفنون علماً، وأتقنها فهماً؛ غزرت عنده المواد، وأتضح له الجواد؛ فأخذ في الاستعداد، وسهل عليه الاستشهاد؛ فقال عن علم وتصرف عن معرفة وأستحسن ببهان، وأتقن بجملة وتخير بدليل وصاغ بترتيب وبخ على أركان؛ وأتسع في العبارة مجاله، وفتح له من باب الأوصاف أقاله؛ وتلقى كل واقعة بما يأتئها، وقابل كل قضية بما يشا كلها؛ وعلم المحيد فنسج على منواله، وظهر له القاصر فأعرض عن أقواله؛ وحصل له القوة على فهم الخطاب، وأتسبأ الجواب بحسب الوقائع والأعراض، على طبق المقاصد والأعراض؛ ومتى أخل بشيء من ذلك فأتته الفضائل، وعلقت به الرذائل؛ وقلت بضاعته، وتقصت صناعته؛ وساءت آثاره، وقبحت أخباره؛ وخلط الغرر بالغرر، ولم يميز بين الصدف والدرر؛ فأخرج الصنعة عن أماكنها، وطمس من الكتابة وجوه محاسنها؛ بجز اللوم إلى نفسه، وأمسى مهزاةً لأبناء جنسه .

ووراء ذلك علوم هي كالنافلة للكاتب ، والزيادة للراغب :

منها ما تكمل به صناعته ، وتعظم به مكائده : كعلم الكلام ، وأصول الفقه
وسائر الأحكام ، والمنطق والجدل ، وأحوال الفرق والنحل والممال ؛ وعلم العروض
والميزان المحكم ، وعلم القوافي وحل المترجم ؛ والحساب المفتوح وما يترتب عليه من
المعاملة ، وما تُستخرج به المجهولات : من حساب الخطاين والدرهم والدينار والجنبر
والمقابلة ؛ وحساب الدور والوصايا ، والتخت والميل وما لأعماله على غيرها من
المزايا ؛ والعلم بالفلاحة ، وأحوال المساحة ؛ وعلم عود الأبنية والمنظر المحققة ،
ومراكر الأثقال والمرايا المحرقة ؛ وعلم جر الأثقال الأبيّة ، والعلم بالآلات الحربيّة ؛
وعلم المواقيت والبنكومات ، والتقاويم والزيجات ؛ وعلم تسطيح الكرة والتوصل بها
إلى استخراج المطالب الفلكيّة ، وكيفية الأرصاد وأحكام النجوم والآلات الظليّة ؛
وعلم الطبّ والبيطرة ، وأحوال سائر الحيوان وعلم البيزرة .

ومنها ما تكمل به ذاته ، وتتم به أدواته ؛ كعلم التعبير وعلم الأخلاق وعلم السياسة ،
وعلم تدبير المنزل وعلم الفراسة . وغير ذلك من العلوم التي أضربنا عن ذكرها خشية
الإطالة ، وأعرضنا عن إيرادها خوف الملالة ؛ فهذه علوم فضلة يهضم بعلمها
أمره ، وفضيلة يرتفع بتحصيلها ذكره ؛ بل لا يستغنى عن العلم برؤوس مسائلها ،
وإشارات أربابها الآخذة من بحارها بأطراف سواحلها ؛ على أنه قد تردّ عليه
أوقات لا يسعه جهل ذلك فيها ، وتمز عليه أزمان يؤدّ لو شترى فيشترها .

قلت : قد بان لي علومها ، فما رؤسوها؟ . قال : إن أعبأها لبأهظة حملا ،
وإنها لكبيرة إلا ؛ ولكن سأحدث لك مما سألت ذكرا ، وأنبئك بما لم تُخط
به خبرا .

فمن ذلك : المعرفة بالولايات ولواحيها ، على اختلاف مقاصدها وتباين طرائقها ؛ من البيعات وأحكامها ، والعهود وأقسامها ؛ والتقاليد وصفاتها ، والتقاويض ومضاهاتها ؛ والمراسيم وأوضاعها ، والتواقيع وأنواعها ؛ والخطب ومناسباتها ، والوصايا ومطابقتها ؛ ثم العلم بالمناشير ومراتبها ، والمربعات الجيشية ومعانيها ؛ ومعرفة رتب المكاتب وطبقاتها ، ومن يستحق من الرتب أذناها أو يستوجب الرفع إلى أعلى درجاتها : من المكاتب الصادرة عن الأبواب الشريفة الخليفةية ، والمكاتب الواردة عليها وعلى أرباب المناصب من سائر الآل والعتره النبويه ؛ ومُلوِك المسلمين والقنات ، ومُلوِك الكُفْر وأرباب الديانات ؛ وأهل المملكة من التواب والكُشاف والولاه ، والأمرء والوزراء والعُربان والقُضاة ؛ وسائر حمله الأقالم ، وأهل الصلاح وبقية الأعلام ؛ ونساء المُلوِك والخوندات ، ومكاتب التجار وما عساه يطرأ من المكاتب المُستجدات ؛ وكُتب البشرى بالجلوس على التخت والفتح والظفر ، والبشرى بوفاء النيل والقُدوم من الغزو والسفر ؛ وأسترهاف العزائم ، والبطائق المحمولة على أجنحة الحمام ؛ والمُلطفات التي يُضطرُّ إليها ، ويعول في الأمور الباطنة عليها ؛ وأوراق الجواز في الطرقات ، والإطلاقات في التسفير والمثالات المطلقات ؛ ومعرفة الأوصاف التي يكثر في المكاتب تكرارها ، ويتسقى في جيد المراسلات إيرادها وإصدارها : كوصف الأنواء والكواكب ، والأفلاك العلية المراتب ؛ والآلات الملوكية الخليفة المقدار ، والسلاح وآلات الحصار ؛ والخيل المسومة ، والجوارح المئمة ؛ وجليل الوحش وسباعه ، وطير الواجب وأتباعه ؛ والأمكنة والرياض ، والمياه والغياض ؛ وغير ذلك مما يعزُّ ويعلو ، ويرتفع ويعلو ؛ وإخوانيات المكاتب وطبقاتها ، وتميز كل طبقة منها عن أخواتها ؛ وما تشتمل عليه من الأبتداء والجواب ، والتشوق والعتاب ؛ والترفق والأعتذار ،

والشفاعة وطلب الصَّفح والعفو عند الأقدار؛ والتَّهَانِي والتَّعَاذِي، وما يكتب مع الهدية ويحاطُ عنها من المَجَازِي وغير المَجَازِي .

وغير ذلك من مقاصد المكاتبات التي يتعدَّدُ حصرُها، ويمتنعُ على المُستَقْصِي ذِكْرُها، ومعرفة الطُّغْرَاةِ والطَّرَّةِ والعُنُونِ والتَّعْرِيفِ، والعلامة في الكُتُبِ على أَمَا كِنِهَا الفارقة بين أخطاط القَدْرِ والتَّشْرِيفِ؛ وتَرْبِيبِ الكِتَابِ وَطَيْهِ وَخَتْمِهِ، وتعمية ما في الكُتُبِ بضرِبٍ من الحيلة وإخفاء ذلك وكتمه؛ ونسخ الأيمان التي يُستخلف بها، ويُمَسَّكُ للوفاء بسببها؛ كيمين البيعة العامة للوفاق والمخالف، وما يختص من ذلك بالنواب وأرباب الوظائف؛ وأيمان أصحاب البدع والأهواء، وأهل الملل والحكماء؛ وكتابة الهدن والمواصفات، والأمانات والدفن والمفاسحات؛ ومعرفة الأسماء والكُنَى والألقاب، وبيان المستندات ومحلها المصطلح عليه بين الكُتَّابِ؛ وكتابة التاريخ وما أخذت به كل طائفة وثابت إليه تمسكا، وما يفتتح به في الكتابة تيمنا ويختتم به تبركا؛ ومعرفة قطع الورق: من كامل البغدادى والشامى والثلاثين والنصف والثلاث والمنصوري والعادة، ومن يستحق من هذه المقادير أعلاها أو يوقف به مع أدنى رتبها من غير زياده؛ والأقلام المناسبة لهذه الأقدار، من الرقاع والتواقيع والثلاث ومختصر الطومار؛ والعلم بالأوضاع وكيفية الترتيب، ومقادير البياض ومباعدة ما بين الشطور والتقريب؛ ومعرفة الرزاديق وقطانها، والنواحي والبلدان وسكانها، والأمم وممالكها، وطرق الأقاليم ومسالكها؛ ومرآة البريد ومسافاتها، وأبراج الحمام ومطاراتها؛ وهجن الثلج والسفن المعتدة لنقله، والمحركات المؤدية إلى اجتياح العدو وتفريق شمله؛ والمناور وأماكنها، والقصد ومكانها .

هذه رؤسومها على سبيل الإجمال، والإشارة إلى مصطلحاتها بأخصر الأقوال .
 وأعلم أن حُسن الخطِّ من الكتابة واسطة عقديها، وقوة الملكة على السجع
 والأزدواج ملاك حلها وعقدتها؛ على أن خير الخطِّ ما قرى، وأحسن السجع ما سلم
 من التكلّف وبرى؛ وللكتاب في بحر الكتابة سبع طویل، وتفنن يسفر عن كل
 وجه جميل .

قلت: فهل لهذه الرتبة الرئيسة، والمنقبة النفسه؛ سبط يلمها، أو سلك يضمها؟
 فقال: سبحان الله: إن بيتها لأشهر من قفانك، وأظهر للعيان من شاحات جبال
 النبك؛ أيحفي من البدر ضوءه الباهر، ونوره الزاهر؛؟ إن ذلك لقاصر على
 «آل فضل الله» حقاً، ومنحصر في المقرّ البدرى صدقاً؛ فهو قُطْبُها الذي تدور
 عليه، وأبْنُ بجدتها التي ترجع في علومها ورُسومها وسائر أمورها إليه؛ فلورآه
 «الفاضل عبد الرحيم» لم ير لنفسه فضلاً ولا رضى لفيه مقلاً، أو عاينه «عبد الحميد
 الكاتب» لقال: هكذا هكذا وإلا فلا؛ أو عاصره «قدامة» جلس قدامه،
 أو أدركه «أبن قتيبة» لا تحذه في «أدب الكاتب» شيخه وإمامه؛ أو بصر به
 «الصّابي» لصبا إليه ومال، أو قارن زمانه «الحسن بن سهل» بل «الفضل» أخوه
 لأقام ببابه وما زال؛ أو جنح «أبن العديم» إلى مناوآته لأدركه العدم، أو جرى
 «الصاحب بن عباد» في مضمار فضله لجا وزلت به القدم؛ أو أطلع «أبن مقلة»
 على حُسن خطّه لقال: هذا هو الجوهر الثمين، أو نظر «أبن هلال» إلى بهجة
 رونقه لقال: إن هذا هو الفضل المبين؛ إن تكلم فنت سحراً، أو كتب خلت زهراً
 أو تحيأت ذراً:

يؤلف السؤلؤ المنثور منطقه، * وينظم الدرّ بالأقلام في الكتب!

قد علا نَسَبًا ، وفاق حَسَبًا ؛ وورث الفضل لا عن كَلَالَه ، وأستحقَّ الرتبةَ بِنَفْسِه
وإن كانت له بالأصالة :

فَحَيْبًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى ، * وَحَيْبًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدِدِ الْمُحِضِ !
فلما سمعتُ ذلك زال عَنِّي الإلباس ، وقلتُ : ذلك من فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى
النَّاسِ . ثم قلتُ : أقسمتُ عليك بالذى تُسِيرُ إِلَيْهِ ، إلا تَدُلُّنِي عَلَيْهِ ؛ فقال : إِنَّهُ
صَفِيُّ الْمَلِكِ وَنَجِيَّهُ ؛ وَكَاتِبُ سِرِّهِ وَوَلِيُّهُ ؛ وَالقَرِيبُ مِنْهُ إِذَا بَعُدُوا ، وَالْمَخْصُوصُ بِالْمَقَامِ
إِذَا طُرِدُوا ؛ وَالْمَوْجَّهُ إِلَيْهِ الخِطَابُ إِذَا حَضَرُوا ، وَالْمُسْتَأْثَرُ بِالوُرُودِ إِذَا صَدَرُوا ؛
وَالْمَتَكَلِّمُ بِلِسَانِ الْمَلِكِ إِذَا سَكَتُوا ، وَالنَّاطِقُ بِفَضْلِ الخِطَابِ إِذَا بُهتُوا ؛ وَالصَّائِلُ
بِحَسَامِ لِسَانِهِ وَخَطَى قَلْبِهِ ، وَالْحَامِي المَمَالِكِ بِجُيُوشِ سَطُورِهِ وَجُنْدِ كَلِمِهِ ؛ وَالْمُسْتَتِ
شَمَلِ العُدُوِّ بِبَدِيعِ أَلْفَاظِهِ وَدَقِيقِ حِكْمِهِ ؛ وَالخَائِزُ قَصَبِ السَّقِيِّ بِكَرَمِ فَضْلِهِ وَفَضْلِ
كَرَمِهِ ، وَالْمُرُوى ظَمًا الوَافِدِينَ إِلَيْهِ بِوَاكِفِ وَبَلِّهِ وَفَائِضِ دِيَمِيهِ ، وَالْمُجَلِّي غِيَابِهِ
الظُّلْمِ بِنِيرِ بَدْرِهِ وَمُضِيءِ أُنْجُمِهِ :

فَمَا زَالَ بَدْرًا فِي سَمَاءِ سَيَادَةٍ * يُسَارُ إِلَيْهِ فِي الْوَرَى بِالْأَنَامِلِ :
بَسِيطِ مَسَاعِي المَجِيدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الأَعْلَى وَبَدَلِ الفَوَاضِلِ ؛
إِذَا سَالَ أَعْيُنُ السَّامِعِينَ جَوَابَهُ * وَإِنْ قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالًا لِقَائِلِ !
قلتُ : حَسْبُكَ ! قَدْ دَلَّنِي عَلَيْهِ عَرَفُهُ ، وَأرْشَدَنِي إِلَيْهِ وَصْفُهُ ؛ وَبَانَ لِي مَحْتَدُهُ
الْفَائِزِ وَحَسَبِهِ الصَّمِيمِ ، وَعَرَفْتُ أَصْلَهُ الزَّاكِيَ وَفَرَعَهُ الكَرِيمِ ، ﴿ ذَلِكِ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ ﴾ .

ثم عَرَّجْتُ إِلَى حِمَاهُ ، وَمَلَّتْ إِلَى حَيْهِ كَيْ أَرَاهُ ؛ فَإِذَا بِهِ قَدْ بَرَزَ تَلَالُؤَ أَنْوَارِهِ ،
وَتَشْرِيقَ بِالحَلَالَةِ أَقْمَارِهِ ؛ قَدْ عَاتَمَهُ الهَيْبَةُ وَغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ وَحَقَّقَتْهُ الرِّيَاضَةُ وَجَلَّلَتْهُ
السَّعَادَةُ ، وَحَكَمَتْ بِعِزِّ مَنَالِ قَدْرِهِ الأَقْدَارِ كَمَا أَقْتَضَتْهُ الإِرَادَةُ .

فلما رأته أستصغرت الرتبة مع شرفها الباذخ في جانبه ، وعلمت أن ما تقدم من المدح لم يوف حقه ولم يقم ببعض واجبه ؛ فغلبت هيئته إقدامي ، وحالت حرمة بني وبين مرامي ؛ فقلت : إنا لله ! قد فانتني مآربي ، ورجعت من فوري إلى صاحبي ؛ فأظهرت له الأسف ، وقصصت عليه القصة قال : لا تحف ؛ إنها لمقبة عمرية ، وأثرة عدويه ؛ فالفاروق جدّه ، وبنو عدى قبيلته وجنده .

هذا وإنه لألطف وأرق من السيم السارى ، والماء الجارى ؛ وأحى من العذراء في خدزها ، وأشفق من الوالدة إذا صمت ولدها إلى صدرها ؛ وأحلم من « معن بن زائده » ، وإن كان أفصح من « قس بن ساعده » :

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضِي مِنْ مَهَابَتِهِ * فَلَا يُكَلِّمُ إِلَّا حِينَ يَتَسَمُّ!

بالعزائم الفاروقية فتحت الأمصار ، وبالهيبة العمرية أقر المهاجرون والأنصار ؛ ويشهد لذلك قصة « ابن عباس » في العول وسكوتها في خلافة عمر وصمته ، وجوابه بعد ذلك للقاتل له : هلا قلت ذلك في زمن عمر ؟ بقوله : إنه كان مهيباً فهيبته ؛ كيف ؟ وما سلك بقاً إلا وسلك الشيطان بقاً غير بقفه وضاق عليه الفجاج ، ولم تُماتل هيئته بهيبة غيره وإن عظمت سطوته حتى قال الشعبي : إن درة عمر لأهيب من سيف الحجاج ؛ وهو مع ذلك يلطف بالأرامل والمساكين ، ويعين الفقراء والمحتاجين ؛ فقد آنضحت لك القضيته ، وتحققت أنها سمات إرثيه .

ف عند ذلك ذهب روعي ، وقوى روعي ؛ وقلت : فهل له أتباع من الكُتاب فاتعاق بجالهم ، وأتأسى بهم في أقوالهم وأفعالهم ؟ ؛ لكن أئسم بسمه الكُتاب ، وأثبت في جملة غلمان الباب ؛ قال : أجل ! رأس الدست الشريف صنوه الكريم ، وقسيمه في حسبه الصميم ؛ به شد عضده ، وقوى كتده ؛ فأجتمع الفضل له

ولأخيه ، وورثنا سرَّ أبيهما « والولدُ سرَّ أبيه » ؛ ثم كُتِبَ ديوانُ الإنشاءِ جُنْدُه
وأتباعه ، وأولياؤه وأشياؤه ؛ وكُتِبَ الدَّسْتُ منهم أرفعُ في المقام ، وكُتِبَ الدرَجُ
أجدرُ بالكتابةِ وصنعةِ الكلام .

قلتُ : القسمُ الثاني أليقُ بمقداري ، وأقربُ إلى أو طاري ؛ ثم ودَّعتُ صاحبي
شاكراً له على صنيعةِ وحامدٍ له على أدبه ، وتركتهُ ومضيتُ وكان ذلك آخرَ العهدِ
به ؛ ثم عدتُ إليه هو فرفعتُ إليه قصتي ، وسألته الإسعافَ بإجابةِ دعوتي ؛
فقابلها بالقبول ، وأنعمَ بالمسئول ؛ وقررتُ في كتابةِ الدرَجِ الشريف ، وأكتفى
بالعرفِ عن التعريف ؛ وطابقَ الخبرَ الخبرَ ، وأستغثتُ بالبيانِ عن الأثر ؛ ثم قمتُ
مجتلاً ، وأنشدتُ مرَّتين :
إذا ما بنو الفاروقِ في المجدِ أعرقوا ، * ونالوا بفضلِ اللهِ مالا كمثلهِ ،
وجلتُ دجى الظلماءِ أنوارُ بدرِهِم ، * وعمتِ بقاعَ الأرضِ أنواءُ فضلهِ ،
تعالَتْ ذرى العلياءِ فيهم وأنشدتُ : * أبى الفضلُ إلا أن يكونَ لمثلهِ !

ثم تشرفتُ بتقريبِ يده ، ومضيتُ إلى ما أنا بصددِهِ ؛ قد منعتني هيتي من اللياذِ
به والقربِ إليه ، وصيرتُ عاطرَ مدحي وخالصَ أدعيتي وقفًا عليه ؛ وصرتُ إلى
الديوانِ ، فوجدتُ قوماً قد حَفَّهمُ الحُسْنُ وزانهمُ الإحسانُ ؛ فقلتُ : الحمدُ لله !
هؤلاءِ فتيةُ ذلك الكهفِ بلا أمْتراء ، وأشبالُ ذلك الأسدِ من غيرِ أمْتراء ؛ فجلستُ
جلوسَ الغريبِ ، وأطرفتُ إطرارقَ الكئيبِ ؛ إذ كنتُ في هذه الصنعةِ عصامياً
لا عظامياً ، ومثمماً لا تهمياً ؛ غيرَ أني تعلقتُ منها بجبالِ القمرِ ، وأستوقدتُ نارها
من أصغرِ الشررِ ؛ فتلقوني بالرحبِ ، وأحلوني من ديوانهم بالمكانِ الرَّحْبِ ؛ وقابلوني
بالجميلِ قبلَ المعرفةِ ، وعاملوني بالإحسانِ والنصفه .

فلما رأيتُ ذلكَ منهم حمِدْتُ مسرايَ ، وشكرتُ مسعايَ ؛ ودعوتُ لصاحبي أولاً
إذ حَبَّبَ صَنَعَتَهُمْ إِلَيَّ وَشَاقَتِي ، وَدَانَى عَلَيْهِمْ وَسَاقَتِي .

ولما تحققتُ أني قد أثبتُ في ديوانه ، وكُنيتُ من جُملةِ غلمانِه ؛ رجعتُ
القَهْقَرَى عن طَابِ الكَسْبِ ، وَأَسْتَوَى عِنْدِي المَحَلُّ وَالخِصْبُ ؛ وَأَكْتَفَيْتُ
بِنَظَرِي إِلَيْهِ عَنِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ ، وَتَيَقَّنْتُ أَنْ نَظَرَةً مِنْهُ إِلَى تَرْقِيئِي إِلَى السَّحَابِ ؛
وَتَلَوْتُ بِلِسَانِ الصَّدِيقِ عَلَى المَالِ وَهُمْ يَسْمَعُونَ : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرِحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيا تضمنته هذه المقامة من فضلِ الكِتابَةِ وشرفِ الكُتَّابِ مَقْنَعٌ مِنْ غَيْرِهَا ،
وَمَعْنٍ عَنِ سِوَاهَا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَالْمِنَّةُ .



وهذه نُسخةُ مَقَامَةِ أنشأها أبو القاسم الخوارزمي في لِفَانِهِ لِأَدِيبٍ يَعْرِفُ بِالهِتْيَةِ ،
وَأَنْقَطَاعِهِ فِي البَحْثِ ، وَعَلَبَةِ الخِوَارِزْمِيِّ لَهُ . أوردها ابنُ حمدونَ في "تذكرة" وهي :
وَصِيَّةٌ لِكُلِّ لَيْبٍ ، مُتَقَيِّظٌ أَرِيبٌ ، عَالِمٌ أَدِيبٌ ؛ يَكْرَهُ مَوَاقِفَ السَّقَطَاتِ ، وَيَحْفَظُ
مِن مَصَادِفِ الغَلَطَاتِ ، وَيَتَلَطَّفُ مِنْ مُخْزِيَاتِ الفَرَطَاتِ ؛ أَنْ يَدْعَى دُونَ مَقَامِهِ ،
وَيَقْتَصِرَ مِنْ تَمَامِهِ ، وَيَغْضُ مِنْ سِهَامِهِ ؛ وَيُظْهِرُ بَعْضَ شِكِيمَتِهِ ، وَيُسَاوِمُ بِأَيْسَرِ
قِيمَتِهِ ، وَيَسْتُرُ كَثِيرًا مِنْ بِضَاعَتِهِ ، وَيَكْتُمُ دَقِيقَ صِنَاعَتِهِ ، وَلَا يَبْلُغُ دَقِيقَ غَايَةِ
أَسْتَطَاعَتِهِ ؛ وَأَنْ يُعَاشِرَ النَّاسَ بِصِدْقِ المُنَاصِحَةِ ، وَجَمِيلِ المُسَاحَمَةِ ؛ وَأَنْ لَا يَجْمَلَهُ
الإعجابُ بما يُحْسِنُهُ ، عَلَى الأَزْدَرَاءِ بِنِ يَسْتَقْرِئُهُ ، وَالْأَقْبَرَاءِ عَلَى مَنْ يَعْتَرِضُهُ وَيُلْسِنُهُ ؛
لِيَكُونَ خُبْرُهُ أَكْثَرَ مِنْ خَبْرِهِ ، وَنَظَرَتُهُ أَرْوَعَ مِنْ مَنَظَرِهِ ؛ وَيَكُونَ أَقْرَبَ مِنَ الأَعْتِدَارِ ،
وَأَبْعَدَ مِنَ المَجَلَّةِ وَالْأَنْكِسَارِ .

فليس القتي من قال: إني أنا القتي، * ولكنه من قيل: أنت كذلك.

وكم مدح ملكا بغير شهادة * له نجمة إن قيل: أن لست مالكا!

ولقد نصرت بالأتضاع، على ذى نباهة وأرتفاع؛ وذلك أنى أضعدت في بعض الأعوام، مع جماعة من العوام؛ بين تاجرٍ وزائرٍ، إلى العزل والحائر؛ حتى آتيتنا إلى قريةٍ شارعه، أهلة زارعه؛ وما منا إلا من أملتته السمريّة فأعرضته، وأسقمته وأمرضته، وقترته فقبضته؛ وكثر منا الجوار، وأستولى علينا الدوار؛ فخرجنا منها خرّوج المسجون، وقد تقوسنا تقوس العرجون؛ فاسترحنا بالصعود، من طول القعود:

كأننا الطير من الأفاص * ناجية من أحبل القناص،

طيبة الأنفيس بالخالص * منفضات الريش والنواصي!

فما استتمت الراحة، ولا استقرت بنا الراحة؛ حتى وقف علينا واقف، وهتف بنا هاتف؛ أيكم الخوارزمي؟ فقالوا له: ذلك الغلام المنفرد، والشاب المستند؛ فأقبل إلى، وسلم على؛ وقال: إن الناظر يستيرك، فليعجل إليه مصيرك؛ فقمتم معه، يتقدمني وأتبعه؛ حتى انتهى بي إلى جلة من الرجال، ذوى بهاء وجلال، وزينة وجمال؛ من أشراف الأمصار، وأعيان ذوى الأخطار؛ من أهل واسط وبغداد، والبصرة والسواد.

ترى كل مرهوب العمامة لائما * على وجه بدرٍ تحته قلبٌ ضيعم!

فقام إلى ذو المعرفة لإكرامه، وساعده الباقون على قيامه، وأطال في سؤاله وسلامه؛ وجذبوني إلى صدر المجلس فأبيت، ولزمت ذناباه وأحبيت؛ وأخذوا

يَسْتَحْضِرُونِي عَنِ الْحَالِ، وَالْمَعِيشَةِ وَالْمَالِ؛ وَدَاعِيَةَ الْإِرْتِحَالِ؛ وَعَنِ النَّيَّةِ وَالْمَقْصِدِ،
وَالْأَهْلِ وَالْوَلَدِ، وَالْحَيْرَانَ وَالْبَلَدِ .

وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا حَفِيٌّ مُسَائِلٌ، * وَوَاصِفٌ أَشْوَاقٍ وَمُثْنٍ بِصَالِحٍ،
وَمُسْتَشْفِعٌ فِي أَنْ أُقِيمَ لَيْلِيًا * أَرْوَحُ وَأَغْدُو عِنْدَهُ غَيْرَ بَارِحٍ!

ثم قال قائلهم: هل لقيت عين الزمان وقلبه، ومالك الفضل وربّه، وقليب الأدب
وغربه؛ إمام العراق، وتشمس الآفاق؟ . فقلت: ومن صاحب هذه الصفة المهولة،
والحجاية المجهولة؛ فقالوا: أو ما سمعت بكامل هيت، ذي الصوت والصيت؟ :

ذَٰكَ الَّذِي لَوْعَاشَ [دَهْرًا] إِلَى * زَمَانِهِ ذَا وَأَبْنُ صُوحَانِ،
وَأَبْنُ دُرَيْدٍ وَأَبُو حَاتِمٍ * وَسَيِّبَوِيهِ وَأَبْنُ سَعْمَانَ،
وَعَامِرُ الشَّعْبِيِّ وَأَبْنُ الْعَلَا * وَأَبْنُ كُرَيْزٍ وَأَبْنُ صَفْوَانَ .
قالوا مجاب كلهم: إنه * سيدنا، أو قال: غلماني .

فقلت لهم: قد قلدتم الله، وهيجتم الحنن؛ إلى لقاء هذا العالم المذكور، والسيد
المشهور؛ وقد كانت الرياح تأتيني بنفحات هذا الطيب، وهدير هذا الخطيب؛
فالآن لا أثر بعد عين، سأصبح لأجله عن سرى القين؛ أغتناماً للقائده، والنعم
البارده، ووجداناً للضالة الشارده .

أَيْنَ أَمْضَى وَمَا الَّذِي أَنَا أَبْنَى * بَعْدَ إِدْرَاكِ الْمُنَى وَالطَّلَابَا؟
فَإِذَا مَا وَجَدْتُ عِنْدَكُمْ الْعِلْمَ قَرِيبًا فَمَا أُرِيدُ الثَّوَابَا .
إِذْهَبُوا أَتَمُّ فُرُورُوا عَلِيًّا : * لِأَزُورَ الْهَيْتِي وَالْآدَابَا :
لَنْ أَبَالَى إِنْ قِيلَ الْخَوَارِز * مَيَّ أَخْطَأَ فَعْمَلُهُ أَوْ أَصَابَا !

نقالت الجماعة : بل أصبت ، ووجدت ما طلبت ، وقديماً كنا ننشرُ أَعْلَاقَكَ ،
وَنَمْنَى أَتْفَاقَكَ ، وتداولُ أوصافك ، ونحبُّ مضافك ، ونكبرُ لَدَيْهِ ذَكَرَكَ ، ونُعْظِمُ
لديه قَدْرَكَ ، فيتحرَّكُ منك سَاكِنُهُ ، وتثقلُ بك أَمَّا كِنُهُ ، ونسألُ الله سبحانه أن
يجمعَ بينك وبينه بمحضَرنا ، وتلامحَ عينك عينه بمنظرنا ، ويلتفِ غبارك بغبارهِ ،
ويتمرِّجُ تيارك بتيَّارهِ ، ويختلطُ مضمارك بمضارهِ ، فيعرفُ منكما السابقُ والسكيتُ ،
والسودانيُّ والكميتُ ، ويتبينُ من الذى يحوى القصبَ ، فانكما كما قال الشاعرُ :

هُمَا رُحْمَانِ حَطِيَّانِ كَانَا * مِنَ السَّمْرِ الْمُتَقَفِّهِ الصَّعَادِ

تُهَالُ الْأَرْضُ أَنْ يَطَا عَلَيْهَا * بِمَثَلِهِمَا تُسَالِمُ أَوْ نَعَايَ !

فقال [بعضُ الجماعة] لقد تتكَّبتُم الإِنصافَ ، وأخطأتمُ الاعترافَ ؛ وأبعدتمُ
القياسَ ، وأوقعتُمُ الالتباسَ ؛ أينَ ابنُ ثلاثينَ ، إلى ابنِ ثمانينَ ؟ ؛ وابنُ اللبُونِ ،
من البازِلِ الأَمُونِ ؟ ؛ والرَّيْحُ الرَّاوِحِ ، من الجَوَادِ القَارِحِ ؟ ؛ والكَوْدُنِ المَبْرُوضِ ،
من المَجْرَبِ المَبْرُوضِ .

وَأَبْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزَّ فِي قَرْنٍ * لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُرْلِ القَنَاعِيسِ !

كم لديهم بطائحُ وسباحُ ، وساكنُ صرائفِ وأكواخُ ، بين يديه سوادية أنباطُ ،
وعُلُوجُ أشراطُ ، ورعاعُ أخلاطُ ، وسفْلُ سُقَّاطُ ؛ فى بلدةٍ إن رأيتُ سُورَهَا ،
وعبرتُ جُسُورَهَا ، صَحَّتْ : وأغرَبتَاهُ ، وإن رأيتُ وجهاً غريباً ناديتُ : وأبتَاهُ ؛
لا أعرفُ غيرَ النَّبِيطَةِ كلاماً ، ولا ألقى سوىَ والدى إماماً ؛ فى معشِرِ ما عرَفُوا
الترَّحالَ ، ولا ركبوا السُّرُوحَ والرِّحالَ ، ولا فارقوا الحِداَرِ والطلَّالَ .

أولئك معشِرُ كَبَنَاتِ نَعِيشٍ * خَوَالِفَ لَا تَعُورُ مَعَ النُّجُومِ !

[فأثني له] بمصاولة رَجُلٍ جَوَّالٍ ، رَحَالٍ حَلَّالٍ ؛ بِهَيْتٍ وُضِعَ ، وَبِالْكُوفَةِ أَرْضِعَ ؛ وَبِبَغْدَادَ أَثَغَرَ ، وَبِوَأَسْطَ أَحْفَرَ ؛ وَبِالْحِجَازِ وَتِهَامَةَ فِطَامَهُ ، وَبِمِصْرَ وَالْمَغْرِبِ كَانَ أَحْتِلَامَهُ ؛ وَبِنَجْدٍ وَالشَّامِ بَقَلَ عَارِضُهُ ، وَبِالْيَمَنِ وَعَمَانَ قَوَيْتُ نَوَاهِضُهُ ؛ وَبِحُرَّاسَانَ بَلَغَ أَشُدَّهُ ، وَبِحِجَارًا وَسَمَرْقَنْدَ تَنَاهَى جِئُهُ ؛ وَبِعَزْرَةَ وَالهِندِ شَابَ وَأَكْتَمَلَ ، وَمِنْ سَيْحُونَ وَجَيْحُونَ عَلَّ وَنَهَلَ ؛ وَبِمِيسَانَ وَالْبَصْرَةَ عَوَّدَ وَقِرِحَ ، وَبِالْحِبَالِ جَلَهُ وَجَالِحَ ؛ فَهُوَ يَعِدُّ «الْمَازِنِيَّ» إِمَامَهُ ، وَأَبْنَ «جِنِّيَّ» ذُلَامَهُ ؛ وَ«الْمُتَنَبِّيَّ» مِنْ رُؤَايِهِ ، وَ«الْمَعْرِيَّ» حَامِلَ دَوَائِهِ ؛ وَ«الصَّيَّابِيَّ» بَارِيَّ قَلَمِهِ ، وَ«الصَّاحِبِيَّ» رَافِعَ عِلْمِهِ ؛ وَ«أَبْنَ مُقَلَّةَ» مِنْ نَاقِلِي غَاشِيَتِهِ ، وَ«بَنِيَّ أَبِي حَفْصَةَ» بَعْضَ حَاشِيَتِهِ ؛ وَقَدْ قَرَأَ الْكُتُبَ وَتَلَّاهَا ، وَحَفِظَ الْعُلُومَ وَرَوَاهَا ، وَدَرَسَ الْآدَابَ وَوَدَّاهَا ؛ وَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ وَأَفْقَهَا ، وَأَنْشَأَ الْحِكْمَ وَصَنَّفَهَا ؛ وَفَصَّلَ الْمَشْكَالَاتِ وَشَرَحَهَا ، وَأَرْتَجَلَ الْخُطَبَ وَنَقَحَهَا ؛ فَهُوَ الْبَحْرُ الْمُرُودُ ، وَالْإِمَامُ الْمَقْصُودُ ، وَالْعَلَمُ الْمَضْمُودُ ، هَذَا بَوْنٌ وَمُرْتَقَى شَدِيدٌ .

أَتَلَقُونَ بِالْأَعْرَلِ الرَّاحِمَاءَ ، * وَبِالْأَكْشَفِ الْحَاسِرِ الدَّارِعَاءَ ،

وَبِالْكَوْدِنِ السَّابِقِ السَّابِحَاءَ ، * وَبِالْمِنْجَلِ الصَّارِمِ الْقَاطِعَاءَ ؟

فَمَا اسْتَمَّ كَلَامُهُ حَتَّى أَقْبَلَ : فَإِذَا نَحْنُ بِهِ قَدْ طَلَعَ مُهْرُوْلًا ، وَأَقْبَلَ مُسْتَعْجَلًا ؛ فَرَأَيْتُ رَجُلًا أَجْلَحَ ، أَهْمَ أَفْلَحَ ، أَفْطَحَ أَرْدَحَ ؛ طَوِيلًا عَنَطَنَطَ ، يَجْحِي ذَنْبًا أَمْعَطَ ، أَجْمَعُ أَحْبَطَ ؛ فَتَلَقَّوهُ مُعْظَمِينَ ، وَلَهُ مُفَخِّمِينَ ؛ فَقَصَدَ فِي الْمَجْلِسِ صَدْرَهُ ، وَأَسْنَدَ إِلَى الْحِدَّةِ ظَهْرَهُ ؛ فَمَا اسْتَقْرَبَهُ الْمَكَانَ ، حَتَّى قِيلَ لَهُ : هَذَا فُلَانٌ ؛ فَقَبِضَ مِنْ أَنْفِهِ ، وَنَظَرَ إِلَى بَشْطِ مَنْ طَرَفَهُ ؛ وَقَالَ بَبْعُضٍ فِيهِ ، هَامُوا مَا كُنْتُمْ فِيهِ ؛ تَعَسَّا لِلشُّوَاهِ وَجَالِيهَا ، وَالْقَرَعَاءِ وَحَالِيهَا :

جَاءَ زَيْدٌ مَجْرَرًا رَسَنَةً * فَحَلَّ لَا يَمْنَعُهُ سِنَنَهُ (؟)

أَحَبَّهُ قَوْمُهُ عَلَى شَوْءٍ * إِنْ الْقَرْنِيَّ فِي عَيْنِ أُمَّهَا حَسَنَةً !

كان لنا شيخٌ بالأخبار، كثيرُ الأخبار؛ قد بلغ من العمر أملاه، ومن السنِّ أعلاه؛
قرأتُ عليه جميعَ الكتاب، وعلمَ الأنساب؛ و”مسائلُ ابنِ السَّراج“، و”ديوانُ
ابنِ العجاج“؛ و”كتابُ الإصلاح“، و”مشروحُ الإيضاح“؛ و”شعرُ الطَّرمَّاح“،
و”العين“، للفرهويِّ، و”الجمهرة“، للأزديِّ؛ وأكثرُ من المصنَّفاتِ، المجهولاتِ
والمعروفاتِ؛ ينفخُ في شقاشيقه، ويزيدُ في بقايقه، ويتعاطمُ في مخارقه؛ وجعل
القومُ يقسمونَ بيننا الألفاظَ، ويحسبونُ الألفاظَ؛ وما منهم إلا من آغناظُ لسكوتي
وكلامه، وتآخري وإقدامه .

ثم هذى الشيخُ إذ وُصفَ له رجلٌ على القَيْبِ ثم رآه، فاحتقره وأزدرأه؛
وأُنشدَ مُمَثِّلاً :

لعمري أيبك تسمع بالمعيدي * بعيد الدار خير أن تراه

فقال : هذا المعيدى هو ضمرة، بنُ ضمرة، بن جابر، بن قطن، بن نهشل، بن
دارم، بن مالك، بن حنظلة، بن مالك، بن زيدمناة، بن تميم، بن مرة، بن أد،
ابن طابخة، بن أليس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان . والمعيدى تصغيرُ
معدى، وهو الذى قالت فيه نادبته :

أنى الكريم النهشلي المصطفى * أكرم من خامر أو تخندفا!

فقلتُ : ما بعد هذا المقال، وجهٌ للاحتمال؛ وما يجبُ لى بعد هذه المواقفِ،
غيرُ المكافئه؛ ولم يبق لى بعد المغالبه، من مراقبه :

ما عليّ وأنا جلدٌ نابلٌ * والقوسُ فيه وترُ عنابلٍ^(١)

* تزلُّ عن صفحته المعابلُ ! *

(١) كذا فى اللسان فى مادة - علل - وفى مادة عنبل ”خب خاتل“ .

ماعلتى وأنا [رجل] جلدٌ * والقوسُ فيه وترٌ عرْدٌ
* مثلُ ذراعِ البكرِ أو أشدُّ *

فمَطَفْتُ عليه عَطْفَ النَّائِرِ العَاسِفِ ، وَالتَفْتُ إِلَيْهِ التَّفَاتِ الطَّائِرِ الخَاطِفِ ؛
فَقُلْتُ لَهُ : يَا أَخَاهَيْتِ ، قَدْ قُلْتَ مَا سَمِعْتُ ، فَاجِبِ الْآنَ إِذَا دُعِيتِ ؛ وَأَلْزِمِ مَكَانَكَ ،
وَعُضِّ عِنَانَكَ ، وَقَصِّرِ لِسَانَكَ ؛ إِنَّ نَادِيَةَ ضَمْرَةَ خَنَدَفَتْهُ ، لَمَّا وَصَفَتْهُ ؛ وَمَا سَمِعْتُ
فِي نِسْبَتِكَ إِيَاهُ لِيُخَنِدِفَ ذِكْرًا ، فَأَيُّنُ عَنْ ذَلِكَ عُدْرًا ؛ فَقَالَ : إِنَّ خَنِدِفَ هِيَ أَمْرَأَةٌ
أَلْيَاسُ بْنُ مُضَرَ ، غَلَبَتْ عَلَى بَيْنِهَا فَنَسَبُوا إِلَيْهَا ، كَطَهْمِيَّةٍ وَمُزَيْنِيَّةٍ ، وَبَلَعَدَوِيَّةٍ وَعُرَيْنِيَّةٍ ،
وَالسَّلَكَةِ وَجُهَيْنِيَّةٍ ، وَنُدْبَةَ وَأُذَيْنَةَ ؛ وَكَشَيْبِ بْنِ الْبَرِّصَاءِ وَأَبْنِ الدِّعْمَاءِ . فَقُلْتُ لَهُ :
سُئِلْتُ ، فَأَجَبْتَ وَأَصَبْتَ ؛ فَأَخْبِرْنِي عَنْ خَنِدِفَ هَلْ هُوَ أَسْمٌ مَوْضُوعٌ ، أَوْ لَقَبٌ
مَوْضُوعٌ ؛ فَنُوقِفَ عِنْدَ ذَلِكَ حِمَارُهُ ، وَنَمَحَدُثُ نَارُهُ ؛ وَرَكَدَ جَرِيَانُهُ ، وَسَكَنَ هَدْيَانُهُ ،
وَقَتَّرَ غَلِيَانُهُ ، وَظَهَرَ حِرَانُهُ ؛ وَذَلَّ وَأَنْقَمَعَ ، وَأَنْطَوَى وَأَجْتَمَعَ ؛ فَاضْطَرَّهُ الحَيَاءُ ، وَأَجْلَاهُ
الِاسْتِجْدَاءُ ؛ إِلَى أَنْ قَالَ وَهُوَ يُخْفِي لَفْظَهُ ، وَيُطْرِقُ لِحَظَهُ : أَظُنُّهُ لِقَبًا . فَقُلْتُ : هُوَ
كَمَا ظَنَنْتَ فَمَا مَعْنَاهُ وَمَا سَبَبُهُ ؟ وَكَيْفَ كَانَ مُوجِبُهُ ؟ فَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَقُولَ :
لَا أَدْرِي ، فَقَالَ وَقَدْ أَذَقْتُهُ مَرُّ الإِمَاتَةِ ، وَأَحَسَّ مِنَ القَوْمِ بِتَطَاهُرِ الشَّمَاتَةِ :

وَوَدَّ يَجِدُ عِجَابَ الأَنْفِ لَوْ أَنَّ صَحْبَهُ * تَنَادَوْا وَقَالُوا فِي المَنَاخِ لَهُ : نَمَ !

ثُمَّ أَقْبَلُوا إِلَى ، وَعَكَّفُوا عَلَى ؛ بِأَوَجِهِ مُهَلِّلَهُ ، وَالنِّسْبَةَ مُتَوَسِّلَهُ ؛ فِي شَرْحِ الحَالِ ،
وَالقِيَامِ بِجَوَابِ السُّؤَالِ ؛ فَقُلْتُ : هَذَا بَدِيعٌ عَجِيبٌ ، أَنَا أَسْأَلُ وَأَنَا أُجِيبُ ؛ إِنَّ أَلْيَاسَ
أَبْنَ مُضَرَ تَزَوَّجَ لَبْلَى بِنْتَ ثَعْلَبَةَ ^(١) ، بِنَ حُلْوَانَ ، بِنِ إِخْلَافِ ، بِنِ قُضَاعَةَ ، بِنِ مَعْسَدَةَ ،
(فِي بَعْضِ النِّسَبِ) ، فَوُلِدَ لَهُ مِنْهَا : عَمْرُو وَعَامِرٌ وَعَمِيرٌ . فَفَقَدْتُمْ ذَاتَ يَوْمٍ ، فَأَلْحَى

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران .

على ليلى باللوم، فقال: أخرجني في أثرهم، وأتيني بجبرهم؛ فعمنت في طلبهم، وعادت بهم؛ فقالت: ما زلت أخدم في أتباعهم، حتى ظفرت بلقائهم؛ فقال لها الياوس: أنت خديف. والخدمدة في الأتباع، تقارب الخطو في إسراع؛ وقال عمرو: يا أبتى أنا أدركت الصيد فلويته، فقال له: أنت مدركة إذ حويته. وقال عامر: أنا طبخته وشويته. فقال له: أنت طايحة إذ شويته. فقال عمير: أنا أنقمت في الحباء، فقال له: أنت قعمة للاختباء؛ فلصقت بها وبهم هذه الألقاب، وجرت بها إليهم الأنساب.

فقال حينئذ: هذا علم أستفدته، وفضل أستردته؛ وقد قال الحكيم: مذاكرة ذوى الألباب، نماء في الآداب. فقلت له ممتثلاً:

أقول له والرُح ياطر متنه * تأمل خفافاً: إني أنا ذليكا!

ثم لم يحتسب إلا قليلاً، ولم يمسك طويلاً؛ حتى عاد إلى هديره، وأخذ في تهديره؛ طمعاً بأن يأخذ بالنار، ويعود الفيض له في القمار؛ فعدل عن العلوم النسيبة، وجال في ميدان العريية؛ ولم يحس أن باعه فيها أقصر، وطرفه دون حقائقها أحسر؛ فقال: حضرت يوماً حلبة من حلبات العلوم، وموسماً من مواسم المنثور والمنظوم؛ وقد غص بكل خطيب مصقع، وحكم مقنع، وعالم مصدع؛ ومليء من كل عتيق صهال، وفتيق صوال، ومنطيق جوال؛ فأخذوا في فنون المعارضات، وصنوف المناقضات؛ وسلكوا في معاني القريض، كل طويل عريض؛ حتى أخذ السائل منهم بالمتقى، بيت [الفرزدق]:

وعص زمان يا ابن مروان لم يدع * من المال إلا مسحاً أو مجلف!

فَكَثُرَ فِيهِ الْحَدَالُ ، وَطَالَ الْمَقَالُ ؛ وَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ أَجَادَ الْقِيَاسَ ، وَأَصَابَ
الْقِرْطَاسَ ؛ وَوَقَعَ عَلَى الطَّرِيقِ ، وَأَتَى بِالْتَّحْقِيقِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتَهُمْ فِي عَمْرِيَّتِهِمْ سَاهُونَ ،
وَفِي ضَلَالَتِهِمْ يِعْمَهُونَ ؛ فَنَادَيْتُهُمْ : إِلَى قَسَارِعُوعُوا ، وَمِنِّي فَاسْمَعُوا ؛ فَإِنِّي أَنَا ابْنُ بَجْدَتِهَا ،
وَعَالِمُ مَا تَحْتُ جِلْدَتِهَا ؛ ثُمَّ إِنِّي أَبْدَيْتُ لَهُمْ سِرَّارَهُ ، وَأَبْقَيْتُ نَارَهُ ؛ وَحَلَّاتُ عُقَدَهُ ،
وَمَحَضَتْ زُبْدَهُ ، وَأَطْرَتْ لَبَدَهُ ؛ وَبَجَسَتْ حَجْرَهُ ، وَأَبَثَّتُمْ عُجْرَهُ وَيُجْرَهُ ؛ فَقَالُوا : لِلَّهِ
أَبُوكَ ! فَإِنَّكَ أَسْبَقْنَا إِلَى غَايِهِ ، وَأَكْشَفْنَا لَغَايَاهُ ؛ وَأَجْلَانَا لَشَبْهِهِ ، وَأَضْرَأْنَا فِي بَدْهِ ؛
وَمَا أَعْلَمُ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ يَوْمٍ يَعْلَمُ مَا فِيهِ ، وَيَطَّلِعُ عَلَى خَافِيهِ .

فَأَدْرَكَنِي الْأَمْتِعَاضُ ، وَأَخَذَنِي الْإِتْمِنَافُ ؛ فَانْشَدْتُهُ :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ عُقُولَ النَّاسِ نَاقِصَةٌ * وَعَقْلُهُ زَائِدٌ أَزْرَى بِهِ الطَّمَعُ !

وَقُلْتُ لَهُ : أَدَعَيْتَ ، فَوْقَ مَا وَعَيْتَ ؛ فَأَخْبَرَنِي دُنْ أَوَّلَ هَذَا الْبَيْتِ ، يَا مُجْرِي
الْكَيْتِ ؛ وَكَيْفَ نُنْشِدُهُ : وَعَضَّ بِالْفَتْحِ أَوْ وَعَضَّ بِالضَّمِّ ؟ فَقَالَ : كِلَاهُمَا مَرْوِيٌّ ،
فَقُلْتُ : نَبْتَدِيُّ بِالْفِعْلِ ثُمَّ نَعُودُ إِلَى الْأَسْمِ يَازَا الْإِعْجَابَ ، تَهْيَأُ لِلسَّائِلِ فِي الْجَوَابِ ؛
وَأَخْبَرَنِي لَمْ تَفْتَحْ آخِرَ الْمَاضِي ؟ فَاسْرِعْ مِنْ غَيْرِ التَّغَاضِي ، وَقَالَ : لِأَنَّهُ مَبْنِيٌّ عَلَيْهِ ،
لَا يُضَافُ سِوَاهُ إِلَيْهِ ؛ فَقُلْتُ : هَذَا جَوَابٌ تَعْلَمُهُ ، وَمِنْ صِبْيَانِ الْمَكْتَبِ لَا تَعْدِمُهُ ؛
وَإِنَّمَا أَلْتَمَسُ مِنْكَ الْفَائِدَةَ فِيهَا ، وَأَطْلُبُ كَشْفَ خَافِيهَا . فَقَالَ : مَا جَاءَ عَنْ أُمَّةِ
النُّحَاهِ ، وَسَائِرِ الرُّوَاهِ ؛ فِي هَذَا غَيْرُ مَا شَرَحْتُهُ ، وَلَا زَادَ عَلَيَّ مَا أَوْصَحْتُهُ . فَقُلْتُ : دَعِ
عَنكَ هَذَا وَأَخْبَرَنِي عَنْ هَذَا الْبِنَاءِ ، أَلِغَلَّةِ أَمْ لَغَيْرِهَا ؟ فَأَقْبَلَ يَتَرَدَّدُ وَيَتَرَحَّرُ ، وَيَتَنَابَّ
تَارَةً وَيَتَنَحَّحُ . فَلَمَّا سَدَّ عَلَيْهِ مِنْ طَرِيقِهِ ، وَحَصَلَ فِي مَضِيقِهِ ، وَعُضَّ بِرِيقِهِ ؛
قَالَ : لَا أَعْلَمُ ! . فَقَالَتِ الْجَمَاعَةُ : أَعْدَرَ إِلَيْكَ مِنَ الْتِي سِلَاحَهُ ، وَعُضَّ جِمَاحَهُ ؛
وَمَنْ أَدْبَرَ بَعْدَ إِقْبَالِهِ ، عُدِلَ عَنْ قِتَالِهِ :

والحق أبلج لا يحسد سيده * والحق يعرفه ذوو الألباب!

والآن فقد فازت قداحك ، وبانت غررك وأوضأحك ؛ وأجدت النصال ،
وأدركت الخصال ؛ فأوضح لنا عما سألت ، وأرشدنا إلى ما دللت ؛ لئلا يقال : هذا
بهت ، ومحالٌ بحت ؛ فقلت حبا وكرامه ، إسمع أنت ياطغامه ؛ إن الفعل من
فاعله ، كالولد من ناجله ؛ لا يخلو الفعل من علامة الفاعل ، في لفظ كل قائل ؛
وهي الفتحة من ماضيه وواقعه ، والزوائد في مستقبله ومضارعه . وبيان ذلك :
أن الفتحة لا تكون مع التاء والنون ... فتثبت الفتحة ، ثم تقول : أخرجت
وأخرجنا ، فتنسقط ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت
النون التي مع الألف ضمير المفعول عادت الفتحة ، فتقول : أخرجنا الأمير ، فهذا
بين . فصفت الجماعة وسمحت ، وحسنت وبجحت ؛ وجعل الأديب يضطرب
أضطراب العصفور ، ويتقلب تقاب الصقور ؛ متيقنا أن أسده صار جردا ،
وبأزيه عاد صردا ؛ ودوره انقلبت محشلبا (؟) ، وزيتونه تحول عربا ، وقناه تغير
قصبا ؛ وأن مستقيمه تعوج ، وجيده تبرج ، وصحيحه تدخرج ، وجديده تكرج ؛
فقال منشداهم :

ترى الرجل النحيف فتدريه * وتحت ثيابه أسد مزير ،

ويعجبك الطير فتبتأيه * فيخاف ظنك الرجل الطير .

فما عظم الرجال لهم بفخر * ولكن خرمهم كرم وخير!

فأخذه الأبلاس ، وضافت به الأنفاس ، وسكنت منه الحواس ، ورفضه
الناس ؛ وجعل ينكت الأرض ، ويواصل بكفمه العض ؛ ويتشاءم بيومه ،

ويعودُ على نفسه بلومه ؛ يمسحُ جبينه ، ويكثرُ أنينه . فقامتُ فقامتُ معي الجماعة
وتركته ، وأسْتَهانتُ به وفركته ؛ فلما بقيَ وحده ، تمنىَ لحدّه ؛ وأسبَل دمعته ،
وودَّ أن الأرض بلعته :

وكان كمثل البومَيْنِ رُومٍ * تلوذُ بحقويه السراةُ الأكبرُ ،
فأصبحَ مثلَ الأجرِبِ الحِلْدِ مُفْرَدًا * طريدًا فما تدنو إليه الأباعرُ !

فقام فنبعني ، ووقف وودعني ؛ وأطال الاعتذار ، وأظهر التوبةَ والاستغفار ؛
وقال : مثلك من ستر الخلال ، وأقال العثرةَ والزَّلَّال ؛ فقد آخترتُ من سنك بالحدائنه ،
ومن أخلاقك بالدمائه . فقلتُ : كلُّ ذلك مفهومٌ معلوم ، وأنت فيه معذورٌ
لاملوم ؛ وما جرى بيننا فهو منسيٌّ غير مذكور ، ومطويٌّ غير منشور ، ومخفيٌّ
غير مشهور :

و[جدال] أهل العلم ليس بقادح * ما بين غاليهم إلى المغلوب !

ثم سكتَ فما أعاد ، ونزلتُ وعاد ؛ وكان ذلك أولَ عهدٍ به وآخره ، وباطنَ
لقاءٍ وظاهره ، وكلِّ اجتماعٍ وسائرِه .

الفصل الثاني

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الرسائل)

وهي جمع رسالة ، والمرادُ فيها أمورٌ يرتبها الكاتبُ : من حكاية حالٍ من عدوِّ
أو صَيدٍ ، أو مدحٍ وتقريضٍ ، أو مُفَاخَرةٍ بين شيئين ، أو غير ذلك مما يجري هذا
الجرى ، وسميتُ رسائلٍ من حيثُ إنَّ الأديبَ المنشئَ لها ربَّما كتبَ بها إلى غيره

مُخْبِرًا فِيهَا بِصُورَةِ الْحَالِ، مُفْتَحَةً بِمَا تُفْتَحُ بِهِ الْمَكْتَابَاتُ، ثُمَّ تُوَسَّعُ فِيهَا فَانْتَحَتْ بِالْخَطِّبِ وَغَيْرِهَا .

ثم الرسائل على أصناف :

الصنف الأول

(منها الرسائل الملوكة ، وهي على ضربين)

الضرب الأول

(رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها)

وهذه نسخة رسالة أنشأها القاضي محي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله ، بفتح [الملك الظاهر] لقيسارية من بلاد الروم ، وأقتلاعها من أيدي التتار ، وأستيلائه على ملكها ، وجأوسه على تخت بنى سلجوق ، ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية . كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا ، وزير السلطان الملك الظاهر ، ومعرفة ما كان في تلك الغزوة ، وما أشتمت عليه حال تلك السفرة ، وهي :

يُقبَلُ الأَرْضَ بِسَاحَاتِ الأَبْوَابِ الشَّرِيفَةِ السَّيِّدِيَّةِ ، الصَّاحِبِيَّةِ الْبِهَائِيَّةِ ؛ لِأَنَّهَا لَزَالَتْ رَكَائِبُ السَّيْرِ تَحْتُ إِلَى أَرْجَائِهَا السَّيْرِ ، وَصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسَالِمُ خُدَامَهَا وَتُحِلُّ الْغَيْرَ بِالْغَيْرِ ، وَلَا بَرِحَتْ مَوْطَنَ الْبِرِّ وَمَعْدِنَ الْجُودِ وَبَحْرَ الْكَرَمِ وَعُكَاظَ الْخَيْرِ ؛ وَيُنْهَى بَعْدَ رَفْعِ أَدْعِيَتِهِ الَّتِي لَا تَزَالُ مِنَ الإِجَابَةِ مَحُوطَةً ، وَلَا تَبْرَحُ يَدَاهُ بِهَا مَبْسُوطَةً ؛ أَنَّ الْعَيْدَ مِنْ شَأْنِهِمْ إِتْحَافَ مَوَالِيهِمْ بِمَا يُشَاهِدُونَهُ فِي سَفَرَاتِهِمْ مِنْ عَجَائِبِ ، وَإِطْلَاعِهِمْ عَلَى مَا يَرَوْنَهُ فِي غَزَوَاتِهِمْ مِنْ غَرَائِبِ ؛ لِيَقْضُوا بِذَلِكَ حُقُوقَ الأَسْتِرْقَاقِ ، وَتَكُونَ نِعْمَ سَادَاتِهِمْ قَدْ أَحْسَنَتْ لِأَفْوَاهِهِمْ الأَسْتِنَاطَ ؛ وَيَتَعَرَّضُوا لِمَا عَسَاهُ يَعْزُ مِنْ مَرَاحِمِهِمُ اتِي مَاعِنْدَهُمْ غَيْرَهَا يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَهَا بَاقٌ .

ولما كان المملوك قد انتظم في سلك الخدم والعبيد، وأصبح كم له قصيد في مدح هذا البيت الشريف كل بيت منها بقصيد بيت القصيد؛ وأن في ما تره الرسائل التي قد شاعت، وضاعت نفعاتها في الوجود وتم رسالة غيرها في غيره ضاعت - رأى أن يُخف الخواطر الشريفة من هذه الغزوة بلمح يختار منها من يؤلف، ويسند إليها من يؤرخ أو يصنف؛ وإما قصد أن يُخف بها أبواب مولانا مع بسط القول واتساع كلماته، لأن الله قد شرف المملوك بمبودية مولانا: والله أعلم حيث يجعل رسالاته؛ فإن كان المملوك قد طوّل في المطارحة، فمولانا يتطوّل في المسامحة؛ وإن قال أحد: هذا هدى، فما زال شرح الوقائع مطولا كذا؛ وتالله ما ورح مثلها في التواريخ الأول، ولعمري إن خيرا من سيرة ذلك البطال سيرة هذا البطل؛ والأمر أعلى في قراءتها واستماعها، والتأمل في حجلها حتى تُسفر حسن نقابها وترفع مسدول قناعها،

.....

قد أحاطت العلوم الشريفة بالعزومات الشريفة السلطانية، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفحت المهالك؛ وسرنا لا يبتقر بنا في شيء منها قرار، ولا يقتدح من غير سنايك الخيل نار، ولا تمر على مدينة إلا مرور الرياح على الخائل في الأصائل والإبكار؛ ولا نقيم إلا بمقدار ما يتزدد الزائر من الأهبه، أو يتزود الطائر من النغبه؛ تسبق وفد الرياح من حيث نتجى، وتكاد مواطئ خيلنا بما تسحبه أذيال الصوافن تمتجى؛ تحمل هنا الخيل العتاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق، وكل يقول لسلطاننا نصره الله:

أين أزمعت أيها هذا الهمام؟ * نحن نبت الربا وأنت الغمام!

ومرّ لا يفعل السيف أفعاله ، ولا يسير في مهمه إلا عمه ولا جيل إلا طاله ؛
 تسيره السوارى والغواذى ، ولا ينفك الغيث من أنسكاب في كل نادٍ ووادى :
 فباشروجهًا طامًا باشراً القنا ، * وبلى ثيابًا طامًا بلها الدم !

وكان مولانا السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بأذراع لامات حريمهم ،
 وحمل آلات طعنهم وضربهم :

فجاز له حتى على الشمس حكمة ، * وبأن له حتى على البدر ميسم .
 يد يديه في المفاضة ضيغم * وعينه من تحت التريكة أرقم !

ورحلوا من حلب في يوم الخميس ثانی ذی القعدة جرائد على الأمر المعهود ،
 قد خففوا كل شيء حتى البنود والعمود ؛ فسرنا في جبال نشتمى فيها سلوك الأرض ،
 وأودية تملك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركنض ؛ تزور دياراً ما نحب
 معناها ، ولا نعرف أقصاها من أذناها ، وأستقبلنا الدرب فكان كما قال المتنبي :

رحى الدرب بالخليل العتاق إلى العدا ^(١) * وما علموا أن السهام خيول ،
 شوائل تشوال العقارب بالقنا * لها مرخ من تحته وصهيل .
 [وما هي إلا خطرة عرّضت له * بحزان لبثها قنا ونصول
 همّام إذا ما همّ أمضى همومه * بأرعن وطء الموت فيه ثقيل
 وخيل برأها الركنض في كل بلدة * إذا عرّست فيها فليس ثقيل]
 فلما تجلّى من دلوك وصنجة * عات كل طودٍ رأية ورعيل

(١) الذى فى ديوان المتنبي : بالجرّد الجواد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبي .

عَلَى طُرُقٍ فِيهَا عَلَى الطَّرِيقِ رِفْعَةٌ * وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْإِنْسِ حُمُولُ!

وَمَرَرْنَا عَلَى مَدِينَةِ دَاوُكَ وَهِيَ رُسُومٌ سُكَّانُهَا ، ضَاحِكَةٌ عَنِ تَبَسُّمِ أَزْهَارِهَا
 وَقَهْقَهَةِ غُدْرَانِهَا ؛ ذَاتُ بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، وَأَرْكَانٍ مَوْطَدَةٍ ، وَنِيرَانٍ تَرَاوِقٍ مُوقَدَةٍ ،
 فِي عَمَدٍ مِنْ كَنَاسِهَا مُمَدَّدَةٍ ؛ وَسِرْنَا مِنْهَا إِلَى مَرَجٍ الدِّيَابِجِ تَتَعَادَى ، وَذَلِكَ فِي لَيْلَةٍ
 ذَاتِ أُنْدِيَةٍ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ جُمَادَى ؛ ظُلُمَاتُهَا مُدْمِمَةٌ ، وَطُرُقَاتُهَا قَدْ أَصْبَحَ أَمْرُهَا
 عَلَيْنَا عُمَةً ، لَا يَثْبُتُ تَرَبُّهَا تَحْتَ قَدَمِ الْمَازِ ، وَكَأَنَّهَا سَالِكُهَا يَمْشِي عَلَى شَفَا جُرْفِ
 هَارٍ ؛ فَبِتْنَا هُنَاكَ لَيْلَةً نَسْتَحْقِرُ بِالنَّسْبَةِ إِلَى شِدَّتِهَا لَيْلَةَ الْمَلْسُوعِ ، وَتَمَّتْ الْعَيْنُ بِهَا
 هَجْمَةً هُجُوعٍ ؛ وَأَخَذْنَا فِي آخِرَاتِ غَابَاتِ أَشْجَارٍ تُخْفِي الرِّفِيقَ عَنِ رَفِيقِهِ ، وَتَسْغُلُهُ عَنِ
 أَقْفَاءِ طَرِيقِهِ ؛ يَنْبَرِي مِنْهَا كُلُّ غُضْنٍ يُرْسِلُهُ الْمُتَقَدِّمُ إِلَى وَجْهِ رَفِيقِهِ ، كَمَا يَخْرُجُ السَّهْمُ
 بِقُوَّةٍ مِنْ مَنَجْنِيقِهِ ؛ حَوْطًا مَعَاثِرُ أَجْحَارٍ كَأَنَّهَا قُبُورٌ بُعِثَتْ ، أَوْ جِبَالٌ تَفْطَرْتُ ؛ بَيْنَهَا
 مَخَائِضٌ ، لَا بَلَّ مَغَائِضٌ ، كَأَنَّهَا بَحَارٌ بَحُرْتُ ؛ مَا نَخْرَجْنَا مِنْهَا إِلَّا إِلَى جِبَالٍ قَدْ تَمَنَّقَتْ
 بِالْجَدَاوِلِ وَتَعَمَّمَتْ بِالثَّلُوجِ ، وَعَمِيَّتْ مَسَالِكُهَا فَلَا أَحَدٌ إِلَّا وَهُوَ قَائِلٌ : فَهَلْ إِلَى
 خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ أَوْ إِلَى سَبِيلٍ مِنْ خُرُوجٍ ؛ تَضَيِّقُ مَنَاهِجُهَا بِمَشْيِ الْوَاحِدِ ، وَتَلْتَفُّ
 شَجَرَاتُهَا الْتِفَافَ الْأَكْجَامِ عَلَى السَّاعِدِ ؛ ذَاتُ أَوْعَارٍ زَلَقَةٍ ، وَصُدُورٍ شَرِقَةٍ ، وَأُودِيَةٍ
 بِالْمُزْدَحِمِينَ مُحْتَنِقَةٍ ؛ بَيْنَمَا يَقُولُ مُتَحَيِّمًا : قَدْ نَلْتُ السَّمَاءَ بِسُلْمٍ مِنْ هَذِهِ الشَّوَاهِقِ ،
 إِذَا هُوَ مُتَضَائِلٌ قَدْ هَبَطَ فِي مَازِقٍ مُتَضَائِقٍ ؛ لَمْ تَزَلْ هَذِهِ الْجِبَالُ تَأْخُذُنَا وَتَرْمِينَا ،
 وَتَلِكِ الْمَسَارِبُ تَضُمُّنَا وَتَلِكِ الْمَشَارِبُ تُظْمِينَا :

(١) سُودُ الشَّمْسِ مَنَابِيضٌ أَوْجُهَانَا ، * وَ [لَا] سُودٌ بِيضُ الْعُدْرِ وَاللَّيْمِ ،
 [وَكَانَ حَالَهُمَا فِي الْحُكْمِ وَاحِدَةً * لَوْ أَحْتَكَمْنَا مِنَ الدُّنْيَا إِلَى حَكِيمٍ]

وَتَرَكُ الْمَاءَ لَا يَنْفَكُ مِنْ سَفَرِي، * مَسَارَ فِي الْغَيْمِ مِنْهُ سَارَ فِي الْأَدَمِ!

حتى وصلنا الحَدَثَ الحَمْرَاءَ الْمُسَمَّاءَ الْآنَ بِكَيْنُوكَ ومعناها الْمُحْرَقَةُ ، كان الْمَلِكُ قُسْطَنْطِينُ وَالِدُ صَاحِبِ سِيسَ قد أَخَذَهَا مِنْ أَصْحَابِ الرُّومِ وَأَحْرَقَهَا ، وَتَمَلَّكَهَا وَعَمَرَهَا ، بِقَصْدِ الضَّرَرِ لِبِلَادِ الْإِسْلَامِ وَالتُّجَّارِ . فلما كان في سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِمِائَةَ سِيرَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ إِلَيْهَا عَسْكَرَ حَلَبَ فَأَفْتَحَهَا بِالسَّيْفِ وَقَتَلَ مِنْ كَانَ بِهَا مِنَ الرِّجَالِ وَسَبَى الْحَرِيمَ وَالذَّرِيَّةَ ، وَخَرِبَتْ مِنْ ذَلِكَ الْحِينِ ، وَمَا بَقِيَ بِهَا مِنْ يَكَادُ يُبِينُ ، فَشَاهَدْنَا مَا بَنَى سَيْفُ الدَّوْلَةِ بِنُ حَمْدَانَ مِنْهَا وَالقَنَا تَقْرَعُ الْقَنَا وَمَوْجُ الْمَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاظِمٌ ، وَقِيلَ حَقِيقَةٌ هُنَاكَ : عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ ؛ وَهِيَ الَّتِي عَنَاهَا أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

غَصَبَ الدَّهْرَ وَالْمُلُوكَ عَلَيْهَا * فَبِنَاهَا فِي وَجَنَةِ الدَّهْرِ خَالًا

فَهِيَ تَمَشِي مَشَى الْعُرُوسِ أَخْتِيَالًا * وَتَنْتَنِي عَلَى الزَّمَانِ دَلَالًا !

فَبِتْنَاهَا وَأَبْتَيْنَاهَا وَخَيْلِنَا مَبْنُوتَةٌ فَوْقَ الْأَحْيَادِ كَمَا نَثَرَتْ الدَّرَاهِمُ فَوْقَ الْعُرُوسِ ، وَجِيَادُنَا عَلَى الرُّكُوبِ فِي أَعْلَى الْعَيْنِ تَدُوسُ ؛ إِذَا زَلَقَتْ مَشَتْ كَالْأَرَاقِمِ عَلَى الْبُطُونِ ، وَإِنْ تَكَاسَلَتْ جَرَّ بَعْضُهَا بِالصَّهِيلِ : « وَالْحَدِيثُ شُجُونٌ » ؛ وَخُضْنَا فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ مَخَائِصَ سَوَافِحَ ، كَأَنَّهَا لِأَجْلِ عَوْمِ الْخَيْلِ بِهَا سُمِّيَ كُلُّ مِنْهَا لِأَجْلِ ذَلِكَ سَابِحٌ ؛ كَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا بَحْرٌ قَدْ قَطَعْنَاهُ أَعْتَرَضَ لَنَا جَبَلٌ ، وَكَلَّمَا قُلْنَا : هَذَا جَبَلٌ طَلَعْنَاهُ بَانَ لَنَا وَادٍ يُسَمَّاهُ دُونَ الْهُوِيِّ فِيهِ نَفَادُ الْأَجَلِ ؛ لَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى وَصَلْنَا كُوكُصَا (؟) وَهُوَ النَّهْرُ الْأَزْرَقُ ، وَهُوَ الَّذِي رُدَّ الْمَلِكُ الْكَامِلُ مِنْهُ سَنَةَ الدَّرَبَنْدَاتِ لِمَا قَصَدَ التَّوَجُّهَ إِلَى الرُّومِ . وَهَذَا النَّهْرُ بَيْنَ الْجِبَالِ مَهْوِيُّ رِجَامِهَا ، وَمَثْوِيُّ عَمَامِهَا ، وَمَلْوِيُّ زِمَامِهَا ، وَمَأْوِيُّ قَتَامِهَا ؛ فَلِلْوَقْتِ عَبْرَانَهُ رَكُضًا ، وَأَعْمَلَتْ الْخَيْلُ فَمَا دَرَّتْ هَلْ خَاضَتْ بِلُحَّةٍ أَمْ قَطَعَتْ

أَرْضًا؛ وَبَاتَ النَّاسُ مِنْ بَرِّ هَذَا النَّهْرِ الْآخَرِ وَأَصْبَحُوا مُتَسَلِّينَ فِي تِلْكَ الشَّمْسِ، وَوَقَعَ
السَّيَّاحُ يُسْمَعُ مِنْ تِلْكَ الْجِبَالِ الصُّمِّ؛ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى أَبْجَادِرْبَنْدٍ فَمَا ثَبَّتَ يَدُ فَرَسٍ
لِمَصَافِحَةٍ صَفَّاهَا، وَلَا نَعَلُهُ لِمَكَاخِفَةِ رَحَاهَا، وَلَا رِجْلُهُ لِمَطَارِحَةِ قُوَاهَا؛ وَتَمَرَّتْ
الْحَيْلُ عَلَى الْأَقْبِحَامِ وَالْأَزْدِحَامِ فِي التَّطَرُّقِ، وَتَعَوَّدَتْ مَا تَعَوَّدَتْهُ الْأَوْعَالُ مِنَ التَّسْرِبِ
وَالتَّسَلُّقِ؛ فَصَارَتْ نَحْطُ أَنْحِطَاطِ الْهَيْدَبِ، وَتَرْتَفِعُ آرْتِفَاعِ الْكَوْكَبِ؛ وَتَسْرِي
سَرِيَانِ الْخَيْالِ، وَتُمْكِنُ حَوَافِرُهَا الْجِيَادَ فَتَرُولُ مِنْهَا الْجِبَالَ؛ حَتَّى حَصَلَ الْخُرُوجُ مِنْ
مُنْتَهَى أَبْجَادِرْبَنْدٍ وَهُوَ خِنَاقُ ذَلِكَ الْمَازِقِ الَّذِي كَمْ أَمْسَكَ عَلَى طَارِقِ، وَفَمُ ذَلِكَ
الدَّرْبِ الَّذِي كَمْ عَضَّتْ أُنْيَابُهُ عَلَى مُسَاوِقٍ وَمُسَابِقِ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ تَامِنِ
ذِي الْقَعْدَةِ، وَبَاتَ السُّلْطَانُ وَالنَّاسُ فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ، وَسَمَّجَتْ السُّحُبُ بِمَا شَاءَتْ
مِنْ بَرْدٍ وَبَرْدٍ، وَجَاءَتْ الرِّيَّاحُ بِمَا آلَمَتْ الْجِلْدَ وَاسْتَنْفَدَتْ الْجِلْدَ؛ وَأَنْتَشَرَتْ الْعَسَاكِرُ
فِي وَطْأَةِ هُنَاكَ حَتَّى مَلَأَتْ الْمَفَاوِزَ، وَمَلَكَتِ الطَّرِيقَ عَلَى الْمَارِّ وَأَخَذَتْهَا عَلَى الْجَائِزِ؛
وَقَدَّمَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُنْقَرًا الْأَشْقَرِ فِي الْجَالِيشِ فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْعَسَاكِرِ
فَوَقَعَ عَلَى ثَلَاثَةِ آلَافِ فَارِسٍ مِنَ التَّنَّارِ مَقْدَمُهُمْ كِرَايَ، فَانْمَزَمُوا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَأَخَذَ
مِنْهُمْ مِنْ قُدَمِ السُّيْفِ السُّلْطَانِيِّ فَأَكَلَ نَهْمَتَهُ وَأَسَارَ، وَأَسْتَمَرَّتْ تِلْكَ سُنَّةً فَيَعْنُ
يُؤْخَذُ مِنَ التَّنَّارِ وَيُؤَسَّرُ؛ وَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ تَاسِعِ ذِي الْقَعْدَةِ .

وَبَاتَ التَّنَّارُ عَلَى أَجْمَلِ تَرْتِيبٍ لِأَنْفُسِهِمْ وَأَجْمَلِ مَنَظَرٍ، وَبَاتَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أْتَمِّ
تَيْقِظٍ وَأَعْظَمِ حَذَرٍ؛ وَلَمْ يَتَحَقَّقُوا قُدُومَ مَوْلَانَا السُّلْطَانِ فِي جِيُوشِ الْإِسْلَامِ، وَلَا أَنَّهُ
حَضَرَ بِنَفْسِهِ النَّفِيسَةِ لِيَقُومَ فِي نُصْرَةِ دِينِ اللَّهِ هَذَا الْمَقَامَ . فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ
عَاشِرُ ذِي الْقَعْدَةِ تَتَابَعَ الْخَبَرُ بَعْدَ الْخَبَرِ بِأَنَّ الْقَوْمَ قَدْ قَرُبُوا، وَأَنَّهُمْ تَأَبَّوْا وَوَشَّوْا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَحْيٍ * أَنْ يُبْصِرُوهُ فَلَمَّا أَبْصَرُوهُ عَمَّوْا !

وشرع مولانا السلطان فوصى جنوده بالثبث عند المصدمة ، والاجتماع عند المصادمة ؛ ورتب جيش الإسلام اللجج ، على ما يجب ، وأراهم من نور رأيه . الا على بصير ولا بصيرة يحتجب ، فطلعت العساكر مشرفة على صحرات هوني من بلد أبلستين ، وكان العدو ليلته تلك بائنا على نهر زمان ، وهو أصل نهر جهان ، وهو نهر جيحان المذكور في الحديث النبوي ، وإنما الأرمَن لا تنطق بالهاء .

فلما أقبل الناس من علو الجبل شاهدوا المغل قد ترتبوا أحد عشر طلبا كل طلب يزيد على ألف فارس حقيقة ، وعزلوا عسكر الروم عنهم خيفة منهم ، وجعلوا عسكر الكرج طلبا واحدا بمفرده . ولما شاهدوا سناجق مولانا السلطان المنصورة ومن حولها من الممالك الظاهرية ، وعليهم الخود الصفرة المقترحة ، وكأنها في شعاع الشمس نيرانا مقتدحة ؛ رجعوا إلى ما كانوا عقدا من العزائم فحلقوا ، وسقط في أيديهم وراوا أنهم قد ضلوا ؛ وأقبل بعضهم على بعض يتساعلون ، وعلى الموت يترأسلون ؛ فانضبت الخيل إليهم من أعلى الجبل آنصاب السيل ، وبطلت الخيلة منهم ونفى الخيل ؛ فشمروا عن السواعد ، ووقفوا وقفة رجل واحد ؛ وهؤلاء المغل كان طاغية التتار أبنا - أهلكه الله - قد اختارهم من كل ألف مائة ، ومن كل مائة عشرة ، ومن كل عشرة واحدا لأجل هذا اليوم ، وعرفهم بسيا الشجاعة وعرضهم لهذا السوم ؛ وكان فيهم من المقدمين الجار تدلون ، ومعنى هذا الاسم التقاذ ، يعنى أنه ما كان في عسكر قط إلا نفضه ، والمقدم الآخر هو (؟) وإليه أمر بلاد الروم وعساكر المغل بها ، وأرختوا أخوتدلون ، وبهادر بخشى . ومن مقدمي الألوف ذنك ، وصهر أبنا ، وقرالقي وخواصه :

بِيضُ الْعَوَارِضِ طَعَانُونَ مِنْ حَقُّوْا * مِنَ الْفَوَارِسِ سَلَالُونَ لِلنَّعِيمِ !
قَدْ بَلَّغُوا بَقَانَهُمْ فَوْقَ طَاقَتِهِ * وَلَيْسَ يَبْلُغُ مَا فِيهِمْ مِنَ الْحِمْمِ .

فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِلَّا أَنْ أَنْفُسَهُمْ * مِنْ طَيِّبِينَ بِهِ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرْمِ!
 فَعِنْدَ مَا شَاهَدُوا تَجْدُ الْمَلَائِكَةَ ، وَتَحَقَّقُوا أَنْ نُفُوسَهُمْ هَالِكَةٌ ؛ أَخَذَتْ فِرْقَةً مِنْهُمْ
 إِلَى الْأَرْضِ فَقَاتَلَتْ ، وَعَاجَتِ الْمَنَائِمَا عَلَى نُفُوسِهِمْ وَعَاجَلَتْ ؛ وَبَاعَتْ نُفُوسَ الْمُسْلِمِينَ
 لَهُمْ وَتَاجَرَتْ ، وَكَسَّرَتْ وَمَا كَاسَّرَتْ ؛ وَجَاءَ الْمَوْتُ لِلْعَدُوِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، وَأَصْبَحَ
 مَا هُنَاكَ مِنْهُمْ وَقَدْ هَانَ ؛ وَلِلْوَقْتِ خُذِلُوا وَجُدُّوا ، وَلِبَطُونِ السَّبَاجِ وَحَوَاصِلِ
 الطُّيُورِ حُصِّلُوا ؛ وَصَارُوا مَعَ عَدَمِ ذِكْرِ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ، يَقَاتِلُونَ قِيَامًا وَقُعُودًا
 وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ؛ فَكَمْ مِنْ شُجَاعِ الْأَصْبَقِ ظَهَرَ إِلَى ظَهْرِ صَاحِبِهِ وَحَامِي ، وَنَاضَلَ وَرَامِي ؛
 وَكَمْ فِيهِمْ مِنْ شَهْمٍ ، مَا سَلَّمَ قَوْسَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِي كِتَابَتِهِ سَهْمٌ ؛ وَذِي سِنَّ طَارِحَ بِهِ فَمَا
 طَرَحَهُ حَتَّى تَسَلَّمَ ، وَذِي سَيْفٍ حَادِثَهُ بِالصِّقَالِ فَمَا جَلَى مُحَادَّةً حَتَّى تَكَلَّمَ ؛ وَأَبَانُوا
 عَنْ نُفُوسٍ فِي الْحَرْبِ أَبِيهِ ، وَقُلُوبٍ كَافِرَةٍ وَنَحْوَةٍ عَرَبِيَّةٍ ؛ وَأَشَدَّتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْعَدُوِّ
 مِنْ جِهَةِ الْمَيْسِرَةِ مُعَرِّجِينَ عَلَى السَّنَاجِقِ الشَّرِيفَةِ مِنْ خَلْفِهَا ، مُتَقَلِّبِينَ بِصُفُوفِهِمْ
 عَلَى صَفِّهَا :

فَلَزَهُمُ الطَّرَادُ إِلَى قِتَالٍ * أَحَدٌ سَلَّاحِهِمْ فِيهِ الْفِرَارُ !

فَتَابَ مَوْلَانَا لِإِلَيْهِمْ ، وَوَتَّبَ عَلَيْهِمْ ، فَضَحَّى كُلُّ مِنْهُمْ بِكُلِّ أَشْطَطٍ ، وَأَفْرَى الْأَجْسَادِ
 فَأَفْرَطَ ؛ وَحَلَّقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ مِنْهُمْ مِنْ قَصْدِ التَّحْصِينِ بِالْجِبَالِ فَأَخَذَهُمُ الْأَخْذَةَ
 الرَّأْيِيَّةَ ، وَقَتَلَهُمْ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ ؟ :

وَمَا الْفِرَارُ إِلَى الْأَجْبَالِ مِنْ أَسَدٍ * تَمَشَّى النَّعَامُ بِهِ فِي مَعْقِلِ الْوَعْلِ ؟

وَأَنْهَزَتْ جَمَاعَةَ يَسِيرَةً طَمِعَ فِيهَا مِنَ الْعَوَامِّ مَنْ كَانَ لَا يَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَأَخَذَتْهُمْ
 الْمَهَاوِي فَمَا نَجَا مِنْهُمْ إِلَّا آيِسٌ مِنْ حَيَاةِ غَدِهِ فِي أَمْسِهِ .

مَضُوا مُتَسَابِقِينَ الْأَعْضَاءِ فِيهِ * لِأَرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ حِثَارُ

إِذَا فَاتُوا الرِّمَاحَ تَنَاوَلْتَهُمْ * بأرماح من العَطَشِ الفِقَارُ!

وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوبأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى
 صَجِرَ الحديد من الحديد ؛ وكان مولانا الصاحب زين الدين - حرس الله جلالة -
 لما دُعيت نزال أول مسابق ، وأسرع راشق ؛ وأقرب مطاعن ، وأعظم معاون ؛
 فذكر من شاهده أنه أحسن في معركته ، وأجمل في كرتيه ، وأجاد في طعنته ؛ وزار
 زئير الآيث ، وسابق حتى لم يبق حيث ؛ ووقف دريئة للرماح من عن يمينه وشماله ،
 وخضب بما تحدر من دم عدوه أخفاف سرجه وعنان لحامه ، وكانت عليه من الله
 باقية واقية في تقدمه وإقدامه ؛ وشاهدناه وقد خرج من وسط المعركة وهو شاكي
 السلاح ، وقد أخذ نصيبه ونصيب فرسه من سالم الحراح ؛ وأراد الله أن لا يُجْلِيَه من
 إسالة دم يعظم الله الأجر بسائله ، فجعله - والمِنَّة لله - من بعض أطراف أنامله .

ولقد ذكر الأمير عز الدين أيذمر الدوادار الظاهري ، قال : لقيتني وقد تكسرت
 رُمحي ، وعاد - لولا لطف الله - إلى الخسارة رنجي ؛ فأعطاني المولى الصاحب
 زين الدين رُمحه فإذا فيه نصول ، وبسنه من قراع الدارعين فلول ؛ ورأيت دُبوس
 المولى الصاحب زين الدين وقد تشلم ، وكان الخوف عليه في ذلك اليوم شديداً
 ولكن الله سلم ؛ ولقد بلغ مولانا السلطان خبره فسأله فما أجابه بغير أن قال :
 سيف مولانا السلطان هو الذي سفك ، وعزمه هو الذي فتك .

وَمَنْ يَكُ مَحْفُوظًا مِنَ اللَّهِ فَلْتَكُنْ * سلامته ممن يُحَادِرُ هَكَذَا ،

وَيُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّفُوفِ مُسَلِّمًا * وَلَا مَنَّ يُّدِيهِ وَلَا نَالَه أَدَى !!

وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهرل والصوافن ، وما يصولون به
 من سيوف وقسي وكائن ، وما يلبسونه من خود ودروع وجراشن ، وما يمتولونه

من جميع أصناف المعادين ؛ فَعِمْ ما هُنَّاكَ ، وَتَسَلِّمْ من أَسْتَشْهَد من المُسْلِمِينَ رِضْوَانُ
وَتَسَلِّمْ من قُتِلَ من الكُفَّارِ مَالِكِ .

وكان الذين أَسْتَشْهَدُوا في هذه الوَقْعَةِ من المُقَدِّمِينَ : شَرَفُ الدِّينِ قَبْرَانُ العَلَّائِيُّ ،
وَعِزُّ الدِّينِ أَخُو الأَمِيرِ جَمَالِ الدِّينِ المُحَمَّدِيُّ . ومن الممالك السلطانية : شَرَفُ الدِّينِ
فَلدَحِقُ (؟) الجَاشَنكِيَرِ الظَّاهِرِيُّ ، وَأَيُّبُ الشَّقِيفِيِّ الَّذِي كانَ وَزِيرَ الشَّقِيفِيِّ . وكان
المجروحون عِدَّةً لَطِيفَةً لم يُعْلَمَ عَدَدُهَا لِقَاتِهَا ، بل لِحَقَّتِهَا ؛ وأورث الله المُسْلِمِينَ مَنَازِلَهُمْ
فَنزَلُوهَا ، ووِطَاقَاتِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ فَتَمَوَّلُوهَا ؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أَعْدَاؤُهُ كَمَا قِيلَ :

فَمَسَّاهُمْ وَبَسَطَهُمْ حَرِيرٌ ، * وَصَبَحَهُمْ وَبَسَطَهُمْ تَرَابٌ !!

وَأَصْبَحَ الأَعْدَاءُ لا تُرَى إِلا أَشْلاؤُهُمْ ، وَلا تُبْصَرُ إِلا أَعْيَاؤُهُمْ ؛ كَأَنَّما جَزُرُ
أَجْسَادِهِمْ جَزَائِرٌ يَتَخَلَّلُهَا من الدَّماءِ السَّيْلُ ، وَكَأَنَّما رُءُوسُهُم المَجْمُوعَةُ لَدَى الدَّهْلِيزِ
المَنْصُورِ أَكْرَ تَلْعَبُ بِهَا صَوَالِحُهُ من الأَيْدِي والأَرْجُلِ من الخَيْلِ :

أَلْقَتْ إِليْنَا دِمَاءَ المُغْلِ طَاعَتِهَا * فَلوَدَعَوْنَا بِلا حَرْبٍ أَجَابَ دَمُ!

فَكَمْ شَاهَدَ مولانا السلطانُ مِنْهُمْ مَهِيْبَ الهَامَةِ ، حَسَنَ الوَسَامَةِ ، نُتْفَرَسُ في جِهَامَةِ
وَجْهِهِ الفَخَامَةِ ، قَدْ فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فَقَرَعَ السِّنَّ على الحَقِيقَةِ نَدَامَهُ :

وَوُجُوهاً أَخَافَها مِنْكَ وَجْهٌ * تَرَكَتْ حُسْنَها لَه وَالْجَمالَ!

أَوْ كَمَا قِيلَ :

لَا رَحِمَ اللهُ أَرُوسًا لَهُمْ * أَطْرَنَ عَن هَامِهِنَّ أَحْفاً!^(١)

وأقبل بعض الأحياء من الأسارى على الأموات يتعارفون ، ولأخبار شجاعتهم
يتواصفون ؛ فَمَنْ من قائل : هَذَا فلانٌ وَهَذَا فلانٌ ، وَهَذَا كانَ وَهَذَا كانَ ؛ وَهَذَا

(١) في ديوان المتنبي "لا يرحم".

كَانَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَنَّهُ يَهْزِمُ الْأُلُوفَ ، وَهَذَا يُقَرَّرُ فِي ذَهْنِهِ أَنَّهُ لَا تَقِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ
الصُّفُوفُ ؛ وَكَثُرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الْمُغَلِّ فَاخْتَارَ السُّلْطَانُ مِنْ كُبْرَائِهِمُ الْبَعْضَ ، وَعَمِلَ
فِيهِمْ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُخَنِّ فِي الْأَرْضِ ﴾ .
فَجَعَلَهُمْ لِلسُّيُوفِ طُعْمَهُ ، وَأَحْضَرَتِ الْأَسَارِيُّ مِنَ الرُّومِ قَرِيبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
فِيهِمُ الْإِلَّ وَالذَّمَّه :

وَمَا قَتَلَ الْأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنْهُمْ ، * وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الَّذِي يُحْفَظُ الْيَدَا !

وَكَانَ فِي جَمَلَةِ الْأَسَارِيِّ الرُّومِيِّينَ مُهْدَبُ الدِّينِ بِكَلَارَنْكِي ، يَعْنِي أَمِيرَ الْأَمْرَاءِ
وَلَدُ الْبِرْوَانَاهُ ، وَنُورُ الدِّينِ جَاغَا أَكْبَرُ الْأَمْرَاءِ ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْ أَمْرَاءِ الرُّومِ
وَمُقَدِّمِي عَسَاكِرِهِ ، فَكَانَ الْبِرْوَانَاهُ أَحَقَّ بِقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ :

نَجَوْتُ بِإِحْدَى مَقْتَلَيْكَ جَرِيحَةً * وَخَلَفْتَ إِحْدَى مُهْجَتَيْكَ تَسِيلًا !

أَتَسَلِمُ لِلخَطِيئَةِ أَنْبَكَ هَارِبًا * وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلًا ؟

لَأَنَّهُ شَمَّرَ الدَّلِيلَ ، وَأَمْتَطَى - هَرَبًا - أَشْهَبَ الصُّبْحِ وَأَحْمَرَ الشَّفَقِ وَأَصْفَرَ الْأَصِيلِ
وَأَدَهَمَ اللَّيْلَ ؛ وَثُمَّ يُخَيَّرُ مِنْ خَلْفِهِ بِمَا تَمَّ ، وَهَمَّ قَلْبُهُ رَفِيقَهُ حِينَ هَمَّ :

فَتَحْنُ فِي جَدَلٍ ، وَالرُّومُ فِي وَجَلٍ ، * وَالْبُرُّ فِي سُغْلٍ ، وَالْبَحْرُ فِي مَجَلٍ !!

وَدَخَلَ الْبِرْوَانَاهُ مَدِينَةَ قَيْصَرِيَّةَ فِي تَارِيخِ يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ الشَّهْرِ الْمَذْكُورِ ،
فَأَفْهَمَ غِيَاثَ الدِّينِ سُلْطَانَهَا ، وَالصَّاحِبَ نَخْرَ الدِّينِ بْنِ عَلْمَا (؟) وَالْأَتَايِكَ مَجْدَ الدِّينِ ،
وَالْأَمِيرَ جَلَالَ الدِّينِ الْمُسْتَوْفِي ، وَالْأَمِيرَ بَدْرَ الدِّينِ مِيكَائِيلَ النَّائِبِ ، وَالْأَمِيرَ فُلَانَ
الدِّينِ الطُّغْرَائِي ، وَهُوَ وَلَدُ عَزِّ الدِّينِ أُنْحَى الْبِرْوَانَاهُ ، وَهُوَ الَّذِي يَكْتُبُ طُرُقَ الْمُنَاشِيرِ -
أَنَّ الْمُسْلِمِينَ كَسَرُوا بَعْضَ الْمُغَلِّ وَبَقِيَّتُهُمْ مِنْهُمْ مُونَ ، وَيُحْشَى مِنْهُمْ دُخُولَ قَيْصَرِيَّةَ
وَإِتْلَافَ مَا يَكُونُ بِهَا فِي طَرَائِفِهِمْ حَقًّا عَلَى الْإِسْلَامِ . فَأَخَذَهُمْ جَرَأَتُهُ ، وَأَخَذَ

زَوْجَتَهُ كُرْجِي خَاتُون بِنْتِ غِيَاثِ الدِّينِ صَاحِبِ أَرْزَنِ الرُّومِ، فَاسْتَصَحَبَتْ مَعَهَا
 أَرْبَعَةَ جَارِيَةٍ لَهَا، وَكَانَ لَهَا مَالًا كَانَ لِصَاحِبِ الرُّومِ مِنَ البَخَائِيِّ وَالخِيَامِ وَالآلَاتِ،
 وَتَوَجَّهُوا كُلُّهُمْ إِلَى جَرِهِ تَوَقَاتِ (؟) وَهُوَ مَكَانٌ حَصِينٌ مَسِيرَةً أَرْبَعَةَ أَيَّامٍ مِنْ
 قَيْصَرِيَّةٍ . وَلَمَّا خَرَجُوا مِنْ قَيْصَرِيَّةٍ حَمَلَهُمْ عَلَى سُرْعَةِ المَرَبِّ ، وَأَنْذَرَهُمْ عَذَابًا قَدْ
 اقْتَرَبَ ؛ وَهَوَّلَ عَلَى بَقِيَّةِ أَمْرَاءِ الرُّومِ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ، وَأَخْفَى البرَوَانَةَ أَمْرَهُ
 وَأَمَرَ مِنْ مَعَهُ حَتَّى لَا يُخْبِرُ بِمُخْرَجِهِمْ .

وَكَانَ مولانا السلطانُ قد جَرَدَ الأَمِيرَ شَمْسَ الدِّينِ سُتْقَرًا الأَشْقَرُ فِي عَدَدِ مُسْتَظْهِرًا
 بِهِ لِإِدْرَاكِكَ مِنْ فَاتٍ مِنَ المَغْلِ ، فَهَرَّوْا فِي طَرِيقِهِمْ بِفِرْقَةٍ مَعَهَا بِيُوتُهُمْ فَأَخَذَ مِنْهَا جَانِبًا ؛
 وَدَخَلَ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ فَمَرَّ كُلُّ فِي سِرِّيهِ ذَاهِلًا ذَاهِبًا . وَرَحَلَ مولانا السلطانُ فِي بُكْرَةِ
 السَّبْتِ حَادِي عَشْرَ ذِي القَعْدَةِ مِنْ مَكَانِ المَعْرَكَةِ ، فَنَزَلَ قَرِيبَ القَرْيَةِ المَعْرُوفَةِ
 بَرِيَّانَ ، وَهَذِهِ القَرْيَةُ قَرِيبُ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ حَقِيقَةً ، لِأَمَّا يُقَالُ : إِنَّهُ قَرِيبٌ حُسْبَانٍ
 مِنْ بِلَادِ البَلْقَاءِ ، وَقَرِيبًا مِنْهُ صَلْدٌ مِنَ الصَّفَا عَلَيْهِ كِتَابَةٌ بِالرُّومِيَّةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ الخَطِّ
 القَدِيمِ . وَأَمَّا القَرْيَةُ المَذْكُورَةُ المَسْمُوءَةُ بَرِيَّانَ فَانَّ بِيُوتَهَا بُنِيَتْ حَوْلَ سِنِّ جَبَلٍ قَائِمٍ
 كَأَهْرَمٍ إِلَّا أَنَّهُ مَأْمُومٌ ، وَعُمِّرَتْ البُيُوتُ فِي سَفْحِهِ حَوْلَهُ بَيْتًا فَوْقَ بَيْتٍ فَسَدَّتْ كَأَنَّهَا
 مَجْرَةُ النُّجُومِ ؛ وَمَا مِنْ بَيْتٍ مِنْهَا إِلَّا وَبِهِ مَقَاعِدُ ذَوَاتِ دَرَابِزِينَاتٍ مَنجُورَةٍ ،
 وَرَوَاشِنَ قَدْ بَدَّتْ فِي أَكْمَلِ صُورِهِ ؛ يَخْتَمُّهَا مِنْ أَعْلَاهَا أَحْسَنُ بُيُوتَانِ ، وَيَعْلُوهَا مِنْ
 رَاسِهَا مَنْزِلٌ مُسَمَّى الرِّاسِ كَمَا يَعْلُو الصَّعْدَةَ السَّنَانُ ؛ وَتَطُوفُ بِهَذِهِ القَرْيَةِ جِبَالٌ كَأَنَّهَا
 أَسْوَارٌ بِلِ سِوَارٍ ، وَكَأَنَّهَا فِي وَسَطِهَا إِنَاءٌ فِيهِ جَدْوَةٌ نَارٌ ؛ وَيَتَفَرَّغُ مِنْهَا أَنهَارٌ ، هِيَ
 فِي تِلْكَ الأَوْدِيَةِ كَأَنَّهَا بَهْبُوطُهَا كَثِيبٌ قَدْ أَنهَارَ ؛ ذَوَاتُ قَنَاطِرٍ لِاتَّسَعُ غَيْرَ رَاكِبٍ ،
 وَمَضَائِقُ لَا يُلْفِي عَبْرَهَا لَنَاكِبٌ ؛ قَدَّرَ اللهُ أَنَّ العَسَاكِرَ خَلَصَتْ مِنْهَا وَلَكِنْ بَعْدَ
 مِقَاسَةِ الجُهْدِ ، وَخَرَجَتْ وَقَدْ رَقَّ لَهَا قَلْبٌ كُلٌّ وَهَدَّ ؛ وَزَلْنَا قَرِيبًا مِنْهَا حَتَّى

تَحَلَّصَ مِنْ تَحَلُّصٍ ، وَحَضَرَ مِنْ كَانَ فِي الْمَضَائِقِ قَدْ تَرَبَّصَ ، وَقَالَ : كُلُّ الْأَرْضِ حَصَّ حَصَّ .

وَرَحَلْنَا مِنْ هُنَاكَ فِي يَوْمِ الْأَحَدِ ثَانِي عَشَرَ شَهْرَ ذِي الْقَعْدَةِ وَكَانَتِ السَّمَاءُ قَدْ حَيَّتِ الْأَرْضَ بِيَجَانٍ أَمْطَارِهَا ، وَأَغْرَقَتِ الْمَوَاطِمَ فِي أَجْحَارِهَا ، وَالْفُتُوحَ فِي أَوْكَارِهَا ؛ وَأَصْبَحَتِ الْأَرْضُ لَا تَمْسُكُ حَتَّى لَا لِمُرُورِ الْأَرَاقِمِ ، وَالْجِبَالُ لَا تَمْسُكُ أَنْ تَكُونَ لِلعَصَمِ عَوَاصِمَ ؛ تَضَعُ بِهَا مِنَ الدَّوَابِّ كُلِّ [ذَاتِ] حَمَلٍ ، وَتَتَلَقُّ فِي صَقِيلِهَا أَرْجُلَ النَّمْلِ ؛ وَسِرْنَا عَلَى هَذِهِ الْحَالَةِ نَهَارًا كُلَّهُ إِلَى قَرِيبِ الْغُرُوبِ ، وَقَطَعْنَاهُ بِتَسَائِمِنَا أَيْدِي الدُّرُوبِ مِنْ أَيْدِي الدُّوُوبِ ؛ وَزَلْنَا عِشَاءً فِي مُنْتَقِعِ أَرْضٍ تَطُوفُ بِهَا جِبَالٌ شَاهِقَةٌ ، وَمِيَاهٌ دَافِقَةٌ ؛ تُعْرَفُ قَاعَةٌ تَكُ الْأَرْضِ بُوطَاةَ قَشَلَا وَسَارِ (٩) مِنْ أَعْمَالِ أَصَارُوسِ الْعَتِيقِ . وَيَقْرُبُ مِنْ تِلْكَ الْجِهَةِ مَعْدِنُ الْفِضَّةِ .

وَبَيْنَمَا نَحْنُ قَدْ شَرَعْنَا فِي أَهْبَةِ الْمَيْتِ ، وَلَمْ نَقْضِ الشَّمْلَ الشَّتِيتَ ؛ وَإِذَا بِالصَّادِحِ قَدْ صَدَحَ ، وَالنَّذِيرِ قَدْ سَنَّحَ ؛ رَافِعًا عَقِيرَتَهُ بِأَنْ فَوْجًا مِنَ التَّنَّارِ فِي بَجْوَةٍ هُنَاكَ قَدْ أَسْتَرَوْا ، وَفِي تَجْوَةٍ لَغْرَةٍ قَدْ أَنْتَظَرُوا ؛ فَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَرَكِبَ النَّاسُ فِي السَّلَاحِ ، وَعَزَمُوا عَلَى الْمَطَارِ فَعَاقَهُمْ تَتَابِعُ الْغَيْثِ وَكَيْفَ يَطِيرُ مَبْلُولُ الْجَنَاحِ ؟ ؛ ثُمَّ لَطَفَ اللَّهُ وَعَادَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ وَهُوَ يَقُولُ لِلنَّاسِ : ، لَا بَاسَ ؛ فِيمَنَّا نَوْمَةٌ السَّلِيمِ ، وَصَدَرَتْ أَفْكَارُنَا شَاغِرَةً فِي كُلِّ وَادِيَتِهِمْ ؛ وَأَصْبَحْنَا فَسَلَكْنَا جِبَالًا لَا يَحِيطُ بِهَا الْوَصْفُ ، وَتَبَسَّطَ عِذْرَاءُ الطَّرْفِ فِيهَا حِينَ يَكْبُو فِيهَا الطَّرْفُ ؛ نَخْطُ مِنْهَا إِلَى جِنَادِلَ ، يَضَعُفُ عَنِ الْمُهْوِيِّ إِلَيْهَا قَوِيُّ الْأَجَادِلِ ؛ بَيْنَا نَقُولُ : قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهَا نَفَادًا وَمِنْهَا نَفَادًا ، وَإِذَا بَعْدَ الْأُودِيَةِ أُوْدِيَةٌ وَبَعْدَ الْجِبَالِ جِبَالٌ نَشْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ هَذِهِ وَذَلِكَ عِنْدَ هَذَا ؛ وَمَرَرْنَا عَلَى قَرْيَةٍ أَوْتَرَكَ ، وَتَحْتَهَا قَنَاطِرٌ وَخَانٌ مِنْ حَجَرٍ مَنْحُوتٍ ، ثُمَّ خَانَ آخَرَ

للسبيل على رأس رابية هناك تعرف باشيدي ، قرياً من حصن سمندو ، التي عرض بها أبو الطيب في قوله :

فإن يقدم فقد زرنا سمندو * وإن يحجم فوعده الخليج!

وكان مولانا السلطان قد سير إليها خواصه بكتاب إلى نائبها فقبله وقبله ، وأذعن لتسليم حصنها المنيع والتزول لأمر السلطان عنها إن استزله ، فشكر مولانا السلطان له تلك الإجابة ، ووفاه من الشكر حساباً . وكذلك إلى قلعة دوندا وإلى دوالوا ، فكلهم أجابوا وأطاعوا ولكلمة الإذعان قالوا ، وتزلنا في وطاة قريب قرية تعرف بجمرها ، وكان الناس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت ، والخيول قد باتت ليالي بلا علفي فما استفادت ، وشاركتها خيول الكسوب (؟) في علفها ، وما ساعدتها في طروقها ولا في طريقها ، فضجعت عن حمل نفوسها فما ظنك براكيها ، وكاد الفارط - لولا لطف الله عز وجل - أن يفرط فيها ، فصادفنا في هذه الليلة بعض أثبان أمسكت أرقامها ، وأحسنت إرفادها وإرفاقها .

وأصبحنا في يوم الثلاثاء رابع عشر ذي القعدة راحلين في جبال كأنها تلك الأول ، وهاطين في أودية يمتني سالكها من شدة مضايقتها أن لو عاد إلى ترقى أعلى جبل ، وما زلنا كذلك حتى أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي يدل على شرف همة بانيه ، وطلب ثواب الله فيه ، وذلك أنه من أكبر الأبنية سعة وارتفاعاً ، وأحسنها شكلاً وأوضاعاً ، كله مبنى بالحجر المنحوت المصقول الأحمر الذي كأنه رخام ، ومن ظاهر أسواره وأركانها نقوش لا يتمكن أن يرسم مثلها بالأقلام ، وله خارج بابيه مثل الرض بيابن بأسوار حصينة ، مبلط الأرض ، فيه حوانيت . وأبواب الخان حديد من أحسن ما يمكن استعماله . وداخله أووين صفيه ، وأمكنة

شَتْوِيَه ، وإصْطَبَلَاتٌ عَلَى هَذِهِ الصُّورَةِ لَا يُحْسِنُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهَا بِكَيْفٍ ،
 وَمَا مِنْهَا إِلَّا مَا يَجِدُهُ الْإِنْسَانُ رِحْلَةً لِلشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ ؛ وَفِيهِ الْحَمَامُ وَالْبِيَارِسْتَانُ
 وَالْأَدْوِيَةُ وَالْفَرُشُ وَالْأَوَانِي وَالضِّيَافَةُ الْكُلُّ طَارِقٍ عَلَى قَدْرِهِ ، حَمَلٌ لِمَوْلَانَا السُّلْطَانِ
 مِنْ ضِيَافَتِهِ لَمَّا مَرَّ عَلَيْهِ ، وَكَثُرَ النَّاسُ فَمَا وَصَلَ أَحَدٌ إِلَيْهَا وَلَا إِلَيْهِ ؛ وَعَلَيْهِ أَوْقَافٌ
 عَظِيمَةٌ ، وَضِيَاعٌ كَثِيرَةٌ حَوْلَهُ وَفِي غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ ، وَلَهُ دَوَاوِينُ وَكُتُبٌ وَمُبَاشِرُونَ
 يَتَوَارُونَ اسْتِخْرَاجَ أَمْوَالِهِ وَالْإِنْفَاقَ فِيهِ ، وَلَمْ يَتَعَرَّضْ التَّبَارُ إِلَى الْإِطَالِ شَيْءٍ مِنْ
 رُسُومِهِ ، وَأَبْقَوْهُ عَلَى عَوَائِدِ تَكْرِيمِهِ ، وَأَهْلُ الرُّومِ يِبَالِغُونَ فِي تَجْمِيلِ بَانِيهِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
 وَتَعْظِيمِهِ ؛ وَنَزَلْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ قَرِيبَ قَرْيَةٍ تَقْرُبُ مِنْ قَيْصَرِيَّةٍ مِنْ حُقُوقِ وَادِي
 صَلْعَوْمَةِ شَرْقِي الْجَبَلِ الْمَعْرُوفِ بِعَسِيبٍ ، وَفِيهِ قَبْرُ أَمْرِي الْقَيْسِ الشَّاعِرِ

أَجَارَتْنَا إِنَّ الْخُطُوبَ تَتُوبُ ، * وَإِنِّي مُقِيمٌ مَا أَقَامَ عَسِيبُ ،

أَجَارَتْنَا إِنَّا غَرِيبَانِ هَاهُنَا * وَكُلُّ غَرِيبٍ لِلْغَرِيبِ نَسِيبُ !!

وَهَذَا الْجَبَلُ يعلوه جَبَلُ أَرْجَاسٍ ، وَهُوَ الَّذِي يَضْرِبُ الرُّومَ الْأَمْثَالَ بِتَسَامِيهِ ،
 وَتَنْتَضَاءُ الْجِبَالُ فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا لِتَعَالِيهِ ؛ لَا تُسْحَبُ ذُبُولُ السَّحَابِ إِلَّا دُونَ
 سَفْحِهِ ، وَلَا يُعْرَفُ مِنْ نُجُوجِهِ شِتَاءً وَصَيْفًا وَمِنْ مِثَالِ الْأَبْجَرَةِ الْمُتَصَعِّدَةِ مِنْهُ عِشَاؤُهُ
 مِنْ صُوبِهِ .

وَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ مُتَصَفِّ ذِي الْقَعْدَةِ ، وَهُوَ يَوْمُ شَرَفِ الزُّهْرَةِ رَكِبَتْ
 الْعَسَاكِرُ الْمَنْصُورَةَ مُتَرْتِبَةً ، وَمَلَأَتِ الْقَضَاءُ مُتَسَرِّبَةً ؛ وَرَكِبَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ
 فِي زُمْرَتِهِ ، وَذَوِي أَمْرِهِ وَإِمْرَتِهِ ؛ يَخْتَالُ جَوَادُهُ فِي أَفْسَحِ مِيدَانِ ، وَيَصِيحُ بِهِ فَرَحًا
 وَمَرَحًا كَأَنَّهُ نَشْوَانٌ دَرَى أَنَّهُ سُلْطَانُ :

تَظَلُّ مَلُوكُ الْأَرْضِ حَاشِعَةً لَهُ * تُفَارِقُهُ هَلِكًا وَتَلْقَاهُ سُجْدًا !

وخرج أهل قيصريّة وأكاريها، وعلماءؤها وزهادها وتجارها، ورعايها ونسائها
 وصغارها؛ فأكرم مولانا السلطان ممّشاهم، وشكر مساعدهم؛ وتلقى قضاتهم وعلماءهم
 رُجباناً، وحادثهم إنساناً فأنساناً؛ وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالاتٌ وجد
 مطرّبه، وصدّحاتٌ ذكريّ معجبه. وكان دهليز السلطان غياث الدين صاحب الروم
 وخيامه وشعار سلطنة الروم قد بنى جميع ذلك في وطأة قريب الجوسق والبستان
 المعروف بكبخسرو، وترجل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من
 ملكٍ وأمةٍ ومأمورٍ وأمير، وأرتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير:

رَجَا الرُّومُ مِنْ تَرْجَى النُّوَايِلِ كُلُّهَا * لَدَيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدَيْهِ الطَّوَائِلُ!

ونزل مولانا السلطان في تلك المصارب المعدّة لكرم الوفاة، وضربت نوبة
 سلجوق على باب دهليزه على العاده؛ وأذن مولانا السلطان للناس في التقرب إلى
 شريف فسطاطه، وشملهم بنظره واحتياطه؛ وحضر أصحاب الملاهي، فما ظفروا
 بغير النواهي؛ وقيل لهم: أرجعوا وراءكم فالتمسوا، وأذهبوا إلى وادٍ غير هذا
 الرادى فاقتمسوا؛ فهذه الهنأة لا تنفق هنا، وما هذا موضع الغناء بل هذا موضع
 الغنى؛ وشرع مولانا السلطان في إنفاق اللهي، وعين لكل جهة شخصاً وقال: أنت
 لها؛ وحكم وحكم، وعلم وعلم؛ واعتمد على الأمير سيف الدين جاليش في النيابة،
 وأعطى كلاً بيئته كتابه؛ وأقام الحجّة على من أتتج بالاستعطاف، وتأمين من خاف؛
 فما خرج كبيرهم عن مخالته، ولا زعيمهم عن المطاولة؛ فلما علم مولانا السلطان
 أنهم لا يقبلحون، ولغير التتار لا يصلحون؛ وأنهم إن أصبحوا على الطاعة لا يمسون
 وإن أمسوا لا يصحون؛ عاد عن تلك الوعود، وأختار أن مابدأ إليه يعود، وأن
 يبعث نفسه إلى ما بعثه الله إليه من المقام المحمود؛ فركب يوم الجمعة سابع عشر

ذِي الْقَعْدَةِ مُسْتَقْبَلًا مِنْ اللَّهِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَنَصَبَ جِثْرَ بَنِي سَلْجُوقَ عَلَى رَأْسِهِ فَشَاهَدَ
النَّاسَ مِنْهُ صَاحِبَ الْقَبَّةِ وَالسَّبْعِ وَصَاحِبَ الْقُبَّةِ وَالطَّيْرِ؛ وَدَخَلَ قَيْصَرِيَّةَ فِي بُكْرَةِ
هَذَا الْيَوْمِ وَكَانَتْ دَارَ السَّلْطَنَةِ قَدْ فُرِشَتْ لِنَزْوِلِهِ، وَتَحْتُ بَنِي سَلْجُوقَ وَقَدْ هَيَّئَتْ
لِحُلُولِهِ؛ وَهِيَ دَارُ تَرْهَوَ، وَمَنَازِلُ مِنْ يَتَعَبَّدُ أَوْ مَنَازِلُهُ مِنْ يَلْهَوُ؛ أُنَيْقَةُ الْمُبْتَنَى، تَحْفُ
بِهَا بَسَاتِينُ عَدْبَةِ الْجَنَى؛ جُدْرَانُهَا بِأَحْسَنِ أَصْنَافِ الْقَاشَانِيِّ مُصَفَّحَةً، وَبِأَجْمَلِ
نُقُوشِهِ مُصَرَّحَةً؛ بَجَلَسَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ فِي مَرْتَبَةِ الْمَلِكِ فِي أَسْمَعِدِ وَقْتُ، وَنَالَ
التَّخْتُ بِمَجْلُولِهِ أَسْعَدَ الْبَيْتِ :

وَمَا كَانَ هَذَا التَّخْتُ مِنْ حِينَ نَصَبِهِ * لَعَيْرِ الْمَلِكِ الظَّاهِرِ النَّدْبِ يَصْلُحُ .
مَلِيكَ عَلَى أَسْمِ اللَّهِ مَا فَتَحَتْ لَهُ * صَوَارِمُهُ الْبَيْضُ الْمَوَاضِي وَتَفْتَحُ .
أَنْتَهُ وَفُودِ الرُّومِ وَالْكُلُّ قَائِلُ : * رَأْيُنَاكَ تَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ وَتَصَفِّحُ .
فَأَوْسَعَهُمْ حِلْمًا وَجَادَ لَهُمْ نَدَى * وَأَمْسُوا عَلَى مَنْ وَأَمِنْ وَأَصْبِحُوا .
وَلَوْ أَنَّهُمْ لَمْ يَجْنَحُوا لِمَنْكَبِ * عَنِ الْحَقِّ وَالنَّهْجِ الْقَوِيمِ لَأَفْلَحُوا ،
وَلَكِنَّهُمْ أَعْطَوْا يَدًا فَوْقَهَا يَدٌ * تُصَافِحُ كَيْفَا زَنْدَهَا النَّارُ يَهْدَحُ !!!

وَأَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى مَوْلَانَا السَّلْطَانِ يَهْنُؤُونَ، وَعَلَى كَفِّهِ الشَّرِيفِ يَقْبَلُونَهُ؛ وَبَعْدَ
ذَلِكَ حَضَرَتِ الْقُضَاةُ وَالْفُقَهَاءُ وَالْعُلَمَاءُ وَالصُّوْفِيَّةُ وَذَوُو الْمَرَاتِبِ مِنْ أَصْحَابِ الْعَمَامِ
عَلَى عَادَةِ بَنِي سَلْجُوقَ فِي كُلِّ جُمُعَةٍ، وَوَقَفَ أَمِيرُ الْمَحْفَلِ وَهُوَ كَبِيرُ الْمِقْدَارِ عِنْدَهُمْ، لَهُ
وَسَامَةٌ وَنَخَامَةٌ، وَهُوَ أَكْبَرُكُمْ وَأَوْسَعُ عِمَامَةٍ؛ وَأَخَذَ فِي تَرْتِيبِ الْمَحْفَلِ عَلَى قَدْرِ الْأَقْدَارِ،
وَأَنْتَصَبَ قَائِمًا بَيْنَ يَدَيْ مَوْلَانَا السَّلْطَانِ مُنْتَظِرًا مَا إِلَيْهِ بِهِ يُسَارُ؛ وَشَرَعَ الْقُرَاءَةَ يَقْرَعُونَ
بِجَمِيعًا وَفُرَادَى بِأَحْسَنِ تَلْحِينٍ، وَأَجْمَلِ تَحْسِينٍ؛ فَأَتَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِكُلِّ عَجِيبٍ، وَعَدَلُوا
عَنِ التَّرْتِيلِ إِلَى التَّرْتِيبِ . وَلَمَّا فَرَعُوا شَرَعَ أَمِيرُ الْمَحْفَلِ صَارِخًا، وَبُكُورًا فِيهِ نَافِخًا؛

فَأُتْسَدُّ وَأُورَدُ بِالْفَارِسِيَّةِ مَا يُعْجِبُ مَدْلُولُهُ ، وَيَهْوِلُ مَقُولُهُ ، وَأَطَالَ وَمَا أَطَابَ ،
وَأَسْتَصَوَّبُ مَنْ يَعْرِفُ مَقَالَهَ قَوْلَهُ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالصَّوَابِ .

ولما أَتَقَضَى ذلكَ مَدَّ سِمَاطَهُ لَيْسَ يُنَاسِبُ هِمَمَ الْمَلُوكِ ، فَأَكَلَ النَّاسُ مِنْهُ
لِلشَّرَفِ لَا لِلشَّرَفِ ، ثُمَّ عَادَ كُلُّ مِنْهُمُ إِلَى مَقَامِهِ فَوَقَّفَ ؛ وَقَامَ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ إِلَى
مَكَانِ الْإِسْتِرَاحَةِ فَأَقَامَ سَاعَةً أَوْ سَاعَتَيْنِ ، ثُمَّ نَزَحَ إِلَى مُحِيْمِهِ قَرِيرَ الْعَيْنِ ؛ وَكَانَ بَدَارِ
الْمَلِكِ حَرَمِ السَّلْجُوقِيَّةِ قَدْ أَصْبَحُوا لَا تَرَى إِلَّا مَسْكَنَتَهُمْ وَمَسَاكِنَهُمْ ، قَدْ نَبَتْ بِهِمْ
مَوَاطِنُهُمْ وَمَوَاطِنُهُمْ ؛ عَلَى أَبْوَابِهِمْ أَشْمَالُ سُتُورٍ مِنْ حَرِيرٍ ، وَمَشَائِخُ خُدَامٍ يَسْتَحِقُّ كُلُّ
مِنْهُمْ - لِكِبَرِ سِنَتِهِ - أَنْ يُدْعَى بِالْكَبِيرِ ؛ عَلَيْهِمْ ذِلَّةُ الْأَنْكِسَارِ ، وَأَمَارَةُ الْإِفْتِقَارِ ؛
بِخَبَرِهِمْ مَوْلَانَا السَّلْطَانُ وَأَنَّهُمْ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِمْ ؛ وَتَوَجَّهَ مِنْ تَوَجُّهِهِ إِلَى صَلَاةِ الْجُمُعَةِ
فِي قَيْصَرِيَّةٍ وَبِهَا سَبْعُ جَمْعِ تَقَامِ ، وَبِهَا خُطْبَاءُ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ؛ فَصَلَّيْنَا فِي جَامِعِ
السَّلْطَانِ وَهُوَ جَامِعٌ عَلِيٌّ يَدُلُّ عَلَى أَحْتِفَالِ مَلُوكِهَا بِيُوتِ عِبَادَاتِهِمْ ، وَرَأَيْنَا فِيهِ مِنْ
دَلَائِلِ الْخَيْرِ مَا يَقْضَى بِحَسَنِ إِرَادَاتِهِمْ ؛ فَخَضَرَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ وَأَكَارِبُهَا ، وَجَلَسُوا حِلَقًا
لَا صُفُوفًا ، وَأَجْرُوا مِنَ الْبَحْثِ بِالْعَجْمِيَّةِ صُوفًا ؛ وَاجْتَمَعَتْ جَمَاعَةٌ مِنْ حَفَظَةِ
الْكِتَابِ الْعَزِيزِ فَتَخَارَجُوا الْقِرَاءَةَ آيَةً آيَةً ، وَهِيَ قِرَاءَةٌ بَعِيدَةٌ عَنِ الدَّرَايَةِ ؛ بَلْ لَمَّا
تُبْرِزُهَا أَصْوَاتٌ مُتَرْتِمَةٌ ، وَالْحَانَ لِتَفْرِيقِ الْكَلِمَاتِ مُقَسَّمَةٍ ؛ يَنْطِقُونَ بِالْحُرُوفِ
كَيْفَ أَتَفَقَّتْ ، وَلَا يَتَوَقَّفُونَ عَلَى مَخَارِجِ الْحُرُوفِ أَنَّهَا نَطَقَتْ أَوْ لَا نَطَقَتْ .

فَلَمَّا آتَى وَقْتُ الْأَذَانِ قَامَ صَبِيٌّ عَلَيْهِ قَبَاءٌ مِنْ وَسَطِ جَمَاعَةٍ عَلَيْهِمْ أَقْيِيَّةٌ قَعُودٌ عَلَى
دِكَّةِ الْمُؤَذِّنِينَ ، فَابْتَدَأَ بِالتَّكْبِيرِ أَوَّلًا وَثَانِيًا بِمُفْرَدِهِ مِنْ غَيْرِ إِعَانَةٍ وَلَا إِيَانَةٍ . وَلَمَّا تَشَهَّدَ
سَاعَدُوهُ جَمِيعُهُمْ بِأَصْوَاتٍ مُجْمَعَةٍ مُتَلَعَلَةٍ ، وَنَفَاتٍ مُتَنَوِّعَةٍ ؛ يُمَسِّكُونَ لَهُ النِّعَمَ بِأَحْسَنِ
تَلْحِينٍ ، وَيَتَرْتَمُونَ بِالأَصْوَاتِ إِلَى آخِرِ التَّأْذِينِ ؛ وَفَرَّغَ الْأَذَانَ وَكُلَّهُمْ قَعُودٌ مَا مِنْهُمْ

أحد غير الصبي وقف ، وما منا أحد لكلمة من الأذان عرف ؛ ولما فرغ الأذان طاع شيخ كبير السن يعرف بأمر محفل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر، وشرع في دعاء لا نعرفه ، وأدعاء لا نألفه ؛ كأنه مُحاصِم ، أو ويكل شرع أحصره لمُشَادَّةِ حَصَمِه مُحَاكَمِ بَيْنَ يَدَيْ حَاكِمٍ ؛ وطلع الخطيب بعد ذلك نخطب ودعا مولانا السلطان بغير مُشَارِكِه ، ودعا الناس بما تلقته من الأفواه الملائكة ؛ وأنقضت الجمعة على هذه الصورة، المسطورة ؛ وضربت السكة باسم مولانا السلطان ، وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم ، فشاهدنا فرأى أوجهها باسمه الميمون ، وأقرت الألسنة بهذه النعمة وقرت العيون ؛ وشاهدت بقيسارية مدارس وخواق ورُبُطًا تدل على اهتمام بآنيها ، ورغبتهم في العلوم الشرعية والدينية ، مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة المنقوشة ، وأراضيها بأجمل تلك مفروشه ؛ وأواوينها وصففها مؤزره بالقاشاني الأجل صورة ، وجميعها مفروشة بالبسط الكرجية العالية ، وفيها المياه الجارية ، ولها الشبايك على البساتين الحسنة ، وسوق قيصريّة طائف بها من حولها ، وليس داخل المدينة دكان ولا سوق .

والوزير في بلاد الروم جميعها يُعرف بالصاحب «نحر الدين خواجه علي» ولا يُحسِن الكتابة ولا الخط ، وخلعته من ممالكه خاصة مائتا مملوك ، ودخله في كل يوم - غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه - سبعة آلاف درهم سلطانية . ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه ونحركاوته شيئًا لا يكون لأكثر الملوك ، وله برٌّ ومعروف ، وهو بالخير موصوف :

وَالْمُسَمَّونَ بِالْوَزِيرِ كَثِيرٌ * وَالْوَزِيرُ الَّذِي لَنَا الْمَأْمُولُ !

وَعَلَى هَذَا وَذَلِكَ عَلِيٌّ * وَعَلَى هَذَا لَهُ التَّفْضِيلُ !

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وَغَرْبًا * وَنَدَاهُ مُقَابِلِي لَا يَزُولُ !
وَمَعِيَ أَيُّهَا سَاكِنُ كَأَنِّي * كُلُّ وَجْهِ لَهُ بِوَجْهِ كَفِيلُ !

وَأَمَّا مُعِينُ الدِّينِ سُلَيْمَانَ الْبُرْوَانَهِ وَزَوْجَتَهُ كُرْجِي خَاتُونَ ، فَظَهَرَ لَهَا مِنَ الْمَوْجُودِ
الْبَادِي لِلْعَيْونِ كُلِّ نَفِيسٍ ، وَبِحَمْدِ اللَّهِ اسْتَوْلَى مَوْلَانَا السَّاطَانَ وَمَمَالِيكُهُ مِنْ مَوْجُودِهِ
وَدَارِ زَوْجَتِهِ الْمَذْكُورَةِ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَصَرَحَ بِلَفَيْسٍ .

ولما أقام مولانا السلطانُ بَقِيصَرِيَّةَ هَذِهِ الْمَدَّةَ ، فَكَّرَ فِي أَمْرِ عَسَاكِرِهِ وَمَصَالِحِهِ
بِمَا لَا يَعْرِفُهُ سِوَاهُ ، وَنَظَرَ فِي حَالِهِمْ بِمَا أَرَاهُ اللَّهُ ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْأَقْوَاتَ قَلَّتْ ،
وَالسُّيُوفَ مِنَ الْمِصَارَعَةِ مَلَّتْ ، وَالسَّوَاعِدَ مِنَ الْمِصَادِمَةِ كَلَّتْ ؛ وَأَنَّهُ مَا بَقِيَ فِي الرُّومِ
مِنَ الْكُفَّارِ مِنْ يُعْزَى ، وَلَا يَجْزَاءِ السُّوءِ يُجْزَى ؛ وَلَا بَقِيَ فِي الْبِلَادِ غَيْرِ رِيعَايَا كَالسَّوَائِمِ
الْهَامِلَةِ ، وَلَا دِيَّةٍ - لِلْكَفْرِ مِنْهُمْ - عَلَى عَاقِلٍ وَهَاقِلِهِ ؛ وَأَنَّهُ إِنْ أَقَامَ فَالْبِلَادُ لَا تَحْمِلُهُ ،
وَمَوَادُّ بِلَادِهِ لَا تَصِلُهُ ؛ وَأَعْشَابُ الرُّومِ بِالْدُّوسِ قَدْ أَضْحَكَتْ ، وَعُلُوفَاتُهَا قَدْ قَلَّتْ ؛
وَزُرُوعُهَا لَا تُرْتَجَى لِكَفَايَةِ ، وَلَا تَرْضَى خِيُولُ الْعَسَاكِرِ الْمَنْصُورَةِ بِمَا تَرْضَى بِهِ خِيُولُ
الرُّومِ مِنَ الرَّعْيِ وَالرَّعَايَةِ ؛ وَأَنَّ الْحَسَامَ الصَّقِيلَ الَّذِي قُتِلَ التَّتَارُ بِهِ فِي يَدِ الْقَاتِلِ ،
وَأَنَّهُمْ إِنْ كَانَ عَجَبُهُمْ عَامَهُمْ فَيَعُودُونَ إِلَى الرُّومِ فِي قَابِلٍ .

وَرَحَلَ فِي يَوْمِ الْاِثْنَيْنِ عِشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بَعْدَ أَنْ أُعْطِيَ أَمْرَاءَهُ وَخَوَاصَّهُ
كُلَّ مَا أُحْضِرَ إِلَيْهِ مِنَ الْأَعْنَةِ وَالْأَزْمَةِ ، وَكُلَّ مَا يُطْلَقُ عَلَى تَوَلِيهِ أَسْمُ النَّعْمَةِ ؛ فَزَلَّ
بِمَنْزِلَةٍ تَعْرِفُ بَعْتَلُوا وَفِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ وَرَدَ إِلَى السُّلْطَانِ رَسُولٌ مِنْ جِهَةِ غِيَاثِ الدِّينِ
سُلْطَانِ الرُّومِ ، وَمِنْ جِهَةِ الْبُرْوَانَهِ وَالْكَبْرَاءِ الَّذِينَ مَعَهُ ، يُسَمَّى ظَهِيرِ الدِّينِ التَّرْبُجْمَانَ ،
وَفِي الْحَقِيقَةِ هُوَ مِنْ عِنْدِ الْبُرْوَانَهِ ، يَسْتَوْقِفُ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ عَنِ الْحَرْكَةِ وَمَا عَلِمُوا
إِلَى أَيْنَ ، بَلْ كَانَ الْأَمْرُ شَائِعًا بَيْنَ النَّاسِ أَنَّ الْحَرْكَةَ إِلَى جِهَةِ سِيَوَاسٍ . فَعَدَّدَ مَوْلَانَا
السُّلْطَانُ عَلَيْهِ حُسْنَ وَقَائِهِ بَعْدَهُ ، وَأَنَّهُ أَجَابَ دُعَاءَهُمْ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مِنْ أَقْصَى

مُلكه مع بُعْدِهِ ؛ وأنهم ما وَقَفُوا عند الشُّرُوطِ الْمُقَرَّرَةِ ، ولا وَفَّوا بِمَضْمُونِ الرِّسَالِ الْمُسَيَّرَةِ ، وأنهم لما جاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ طَلَبُوا نَظْرَةً إِلَى مَيْسَرِهِ ؛ وَأَنْ أَعْتَبْتَهُمْ لِلْكَفْرِ مُسَلِّمَةً ، وَأَنْتُمْ مِنْذَ اسْتِيلاءِ التَّارِهِمِ أَصْحَابِ الْمَشَامَةِ ؛ وَعَلِمَ مولانا السُّلْطَانُ أَنَّ بِلَادَ الرُّومِ ما بِهَا عَسْكَرٌ يَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِهِ ، ولا مَنْ يُقَابِلُ الْمُغْلَ فِي غَدِهِ خَوْفًا مِمَّا شَاهَدَهُ كُلُّ مَنْهُمْ فِي أَمْسِهِ ؛ وَأَنْتُمْ أَهْلُ التَّنَادِ ، لا أَهْلُ نَفَادِ ؛ وَأَهْلُ طَرْبِ ، لا أَهْلُ حَرْبِ [وَعَلَبِ] ؛ وَأَهْلُ طَيْبَةِ عَيْشِ ، لا قُودَ جَيْشِ ؛ فَرَدَّ السُّلْطَانُ إِلَى سُلَيْمَانَ الْبِرْواناهِ مَدَّ يَدَهُ ، وقال : قُلْ لَهُ : إِنِّي قَدْ عَرَفْتُ الرُّومَ وَطُرُقَاتِهَا ، وَأَخَذْتُ أُمَّهُ أُسَيْرَةً وَأَبْنَ بَنْتَهُ وَوَلَدَهُ ؛ وَيَكْفِينَا ما جَرَى مِنَ النِّصْرِ الرَّجِيحِ ، ﴿ وَلِيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُهُ ﴾ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ وما كُلُّ مَنْ قَضَى فَرِيضَةَ الْحَجِّ تَجِبُ عَلَيْهِ الْمُجَاوَرَةَ ، ولا بَعْدَ هَذِهِ الْمُنَاصَرَةِ مُنَاصَرَهُ ، ولا بَعْدَ هَذِهِ الْمُحَاوَرَةِ مُحَاوَرَهُ ، وَنَحْنُ قَدْ ابْتَغَيْنَا فِيمَا آتانا اللهُ : مِنْ حَقْنِ دِمَاءِ أَهْلِ الرُّومِ وَعَدَمِ نَهْبِ أَمْوَالِهِمُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ؛ وَتَنْزَهِنَا عَنْ أَمْوَالِ كُتْمِ اللَّتَّارِ تَسْتَجِبُونَهَا ، وَمَعَارِمَ كَثِيرَةٍ هِيَ لَهُمْ مِنَ الْجَنَّاتِ مَغَانِمٌ يَأْخُذُونَهَا حِينَ يَأْخُذُونَهَا ؛ وَمَا كَانَ جُلُوسُنَا فِي تَحْتِ سُلْطَنَتِكُمْ لَزِيادَةِ بَغْتِ آلِ سَلْجُوقِ ، إِلا لِإِعْلَامِكُمْ أَنَّه لا عَاتِقَ لَنَا عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأُمُورِ يَعُوقُ ؛ وَأَنَّ أَحَدًا لا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَأْمَنَ لَنَا سَطْوَهُ ، وَلِيَتَحَقَّقَ كُلُّ أَنْ كَلَّ مَسافَةَ جُمُعَةٍ لَنَا خَطْوَهُ ؛ وَسُرُوجُنَا - بِحَمْدِ اللهِ - أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ التَّحْتِ جَلالًا ، وَأَرْفَعُ مَنالًا ؛ وَكَمْ فِي مَمالِكِنا كَراسِيُّ مُلِكٍ نَحْنُ آيَةُ ذَلِكَ الْكُرْسِيِّ ، وَكَمْ لَنَا فَتْحُ كُلِّهِ - وَالْحَمْدُ لِلَّهِ - فِي الْإِنافَةِ الْفَتْحِ الْقُدْسِيِّ .

مَنْ كَانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُهُ * فَلَيْسَ يَرَفَعُهُ شَيْءٌ ولا يَضَعُهُ !

وَأَسْتَضْحَبَ السُّلْطَانُ مَعَهُ تَحْتِ الرِّضَا وَالْعَفْوِ مِنْ أَكْبارِ الرُّومِيِّينَ - الْأَمِيرِ سَيْفِ الدِّينِ جالِيشِ النَّائِبِ بِالرُّومِ ، وَهُوَ رَجُلٌ شَيْخٌ نَبِيَّهُ لَهُ اسْتِغْلالٌ بِعِلْمِ ، وَكانَ لَهُ

في الروم صورة، وهو أمير دار يعني أمير المظالم . وأستصحب ظهير الدين موح (؟) مشرف الممالك، ومرتبته دون الوزارة وفيه فضل، ونسخ كثيراً من العلوم بخطه، مثل الصّحاح في مجلّد واحد، وغير ذلك . وأستصحب الأمير نظام الدين أوحّد ابن شرف الدين بن الخطير، وإخوته وجماعته وجماعة والده، وأولاد عمّه ضياء الدين بن الخطير المستشهد رحمه الله .

وأستصحب من الأمراء : الأمير مظفر الدين محاف (؟) والأمير سيف الدين بكيجا الجاشنكير، والأمير نور الدين المنجيني، وأصحاب ماطية أولاد رشيد الدين أمير عارض، وهم : كمال الدين وإخوته، وأمير على صاحب كركر .

وأستصحب قاضي الأضاة بملطية، وهو القاضي حسام الدين ابن قاضي العسكر، ووالده الذي كان يرسل عن السلطان علاء الدين إلى الملوك، وهو رجل عالم فاضل . وأكثر هؤلاء حضروا بيوتهم ونسائهم وغلمانهم وحفدهم .

والذين حضروا تحت الغضب - ولّد البرواناه المذكور، وولّد خواجا يونس، وهو ابن بنت البرواناه، ووالدة البرواناه . والأمير نور الدين جاجا، وهو أكبر أمراء الروم أصحاب النعمة والنعم، والأمير قطب الدين أحمد أخو الأتابك، والأمير سيف الدين سنقر حاه الروناسي، والأمير سراج الدين إسماعيل بن جاجا، والأمير نصر الدين صاحب سيواس، والأمير كمال الدين عارض الجيش، والأمير حسام الدين ركوك قريب البرواناه، والأمير سيف الدين الجاويش، والأمير سراج الدين أخو حسام الدين، والأمير شهاب الدين غازي بن علي شير التركاني .

ومن المغل : مقدمي الألوף والمآت - زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده

وتماديه (؟) .

ثُمَّ رَحَلَ السُّلْطَانُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي وَنَزَلَ بِمَنْزِلَةٍ قَرِيبِ خَانَ السُّلْطَانِ عَلَاءِ الدِّينِ كَيْقْبَادَ، وَيَعْرِفُ بِكِرَوَانِي صَرَائِي . وَهَذَا الْخَانَ بِنِيَّةٍ عَظِيمَةٍ مِنْ نِسْبَةِ خَانَ قَرطَايَ ، وَهُوَ أَوقَافٌ عَظِيمَةٌ . وَمِنْ جُمْلَةِ مَا وَجِدُ قَرِيبًا مِنْهُ أَدْوَادٌ كَثِيرَةٌ مِنَ الْأَغْنَامِ عَمِلَتْ فِيهَا الْعَسَاكِرُ الْمَنصُورَةُ، سَأَلْتُ عَنْهَا فَقِيلَ : إِنَّهَا وَقَفَ عَلَى هَذَا الْخَانَ يَذْبَحُ نَتَاجِهَا لِلْوَارِدِينَ عَلَى هَذَا الْخَانَ ، وَهَذِهِ الْأَغْنَامُ لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْوُقُوفِ، قَدَّرَ اللَّهُ اسْتِيفَادَهَا جُمْلَةً لَمَّا كَثُرَتْ عَلَى هَذَا الْخَانَ مِنَ الْجُيُوشِ الْمَنصُورَةِ الضُّيُوفِ .

وَرَحَلْنَا فِي الْيَوْمِ الثَّلَاثِ وَهُوَ يَوْمُ الْأَرْبَعَاءِ ثَانِي عَشْرِينَ مِنَ الشَّهْرِ، وَنَزَلْنَا فِي وَطَاءَةٍ عَادَةً التَّتَارِ يَنْزِلُونَ بِهَا تَسْمَى رُورَانَ كُودَلُوَا، وَكُودَلُوَا أَسْمُ جِبَالِ تِلْكَ الْوَطَاءَةِ .

وَرَحَلْنَا فِي يَوْمِ الْخَمِيسِ ثَالِثَ عَشْرِينَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ ، فَعَارَضْنَا بِهَا - فِي وَطَاءَةٍ خَلْفَ حِصْنٍ سَمَّيْنَاهُ مِنْ طَرِيقٍ غَيْرِ الطَّرِيقِ الَّتِي كُنَّا تَوَجَّهْنَا مِنْهَا - نَهْرٌ يَعْرِفُ بِنَهْرِ قَزَلِ صُورٍ، قَرِيبِ كُودَلُوَا الصَّغِيرِ . وَمَعْنَى قَزَلِ صُورِ النَّهْرِ الْأَحْمَرِ، وَهَذَا النَّهْرُ صَعَبُ الْمَخَاضِ، وَاسِيعُ الْأَعْتِرَاضِ ؛ عَالِي الْمَهَبَطِ، زَائِقُ الْمَسْقَطِ، مُرْتَفِعُ الْمُرْتَقَى، بَعِيدُ الْمُسْتَقَى، لَا يَجِدُ السَّالِكُ مِنْ أَوْحَالِ حَافَتَيْهِ إِلَّا صَعِيدًا زَلَقًا؛ فَوْقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ بِنَفْسِهِ، وَجَرَدَ سَيْفِهِ بِيَدِهِ، وَبَاشَرَ الْعَمَلَ بِنَفْسِهِ هُوَ وَجَمِيعُ خَوَاصِّهِ، حَتَّى أَتَيْتُمَا الْمَكَانَ جَمِيعُهُ، وَوَقَفَ رَاجِلًا يُعَبِّرُ النَّاسَ أَوَّلًا فَأَوَّلًا : مِنْ كَبِيرٍ وَصَغِيرٍ وَعُغْلَامٍ، وَهُوَ فِي أَثْنَاءِ ذَلِكَ يَكْرَهُ عَلَى مَنْ يَزِدُّهُمْ، وَيُكْرَهُ التَّنَادِيْبَ لِمَنْ يَطْلُبُ بِأَذِيَّةٍ رَفِيقَهُ وَيَقْتَحِمُ؛ وَمَا زَالَ مِنْ رَابِعَةِ هَذَا النَّهَارِ إِلَى السَّاعَةِ الثَّامِنَةِ حَتَّى عَبَرَتِ النَّاسُ سَالِمِينَ . وَلَمَّا خَفَّتِ الْبُرُورُ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْمُرُورُ؛ رَكِبَ فَرَسَهُ وَعَبَرَ الْمَاءَ وَالْأَلْسِنَةَ لَهُ دَاعِيَهُ، وَعَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ وَاقِيَةٌ بَاقِيَهُ؛ فَتَزَلُ فِي وَادٍ هُنَاكَ بِهِ مَرَعَى وَلَا كَالسَّعْدَانِ، وَمَرَأَى وَلَا كَشَعْبِ بَوَانَ .

ثم رحل في يوم الجمعة فنزل عند صحرات قراجار حصار، وهي قرية كانت عامرة فيما مضى، قرية من هدر رجال (؟) قبالة بازار بلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه كل شيء يجلب من الأقاليم، ويقرب من كودلوا الكبير.

وسرنا في يوم السبت سوفا طول النهار، حتى نزلنا في وطاة الأبلستين، وفي هذا النهار عبر مولانا السلطان - نصره الله - على مكان المعركة لمشاهدة أُم التتار، وكيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، وكف بأسهم من النُور مناسرها؛ وكيف أصبحوا لا يندبهم إلا البوم، وتحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم؛ فرأهم لمن بقي عبره، وعرضوا على ربهم صفاً وجاؤوه كما خلقوا أول مره؛ وأبصر الرياح لأشلائهم متخطفه، والهوام في أجسادهم متصرفه، وشاهدتهم وقد هدأهم كل شيء حتى الوحوش والرياح: فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفة.

قد سَوَدَتْ شَجَرِ الْجِبَالِ شُعُورُهُمْ * فَكَانَ فِيهِ مِسْفَةَ الْغُرَبَانِ!

ولما عاينهم مولانا السلطان وعانينهم الناس، أكثروا شكر الله على هذه النعم التي أمست لكافة الكفر كافة وشالة ودارزه، وأثنوا على مننه التي سنت إليهم خيار العساكر المنصورة حتى أصبحت تلك الأرض بهم بارزه؛ وحضرت من أهل الأبلستين هنالك جماعة من أهل التقى والدين، واستخبرهم مولانا السلطان عن عدة قتلى المغل فقالوا: ((فأسأل العادين))؛ فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل، فقال: ((قل الله أعلم بعديتهم ما يعلمهم إلا قليل)) وقال بعضهم ممن عدتهم ومن عنده علم من الكتاب:، أنا عددت ستة آلاف وسبعائة وسبعين نفراً وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سن الإبل ساقها سوقا سريعا .

الحِسَاب ؛ هذا : غير من آوى إلى جَبَلٍ يَعِصِمُهُ من مَاءِ السُّيُوفِ فما عَصَمَهُ ،
وغير من آعتقد أن فرسه تُسَمِّهُ فأَسَمَهُ ؛ فتركهم مولانا السلطان ومضى والقلاوُتُ
مزرعةً جُسُومِهِمْ ، والدُّود - لأنها مُؤَمِنَةٌ وهم كُفَّار - قد أثرت كالنواسر في حُومِهِمْ ؛
فرسم مولانا السلطانُ بتقدّم الأثقالِ والحُرَّاسِ والدَّهْلِيْزِ المَنْصُورِ حُجْبَةَ الأميرِ
بَدْرُ الدِّينِ الخَزَنْدَارِ ، والدُّخُولِ في أبقه دربند ، وأقام مولانا السلطانُ في سَاقَةِ العَسْكَرِ
المَنْصُورِ بَقِيَّةَ يَوْمِ السَّبْتِ ويومِ الأحد :

فهو يَوْمَ الطَّرَادِ أوَّلُ سَابِقِ * وهو يَوْمَ القُفُولِ آخِرُ سَائِقِ !

وَأَنْتَظِرُ في هذين اليومين صَيْدًا من العَدُوِّ يَئِجُ ، وما من دِمَاءِهِمْ إلى السَّيْفِ يَئِجُ ؛
فلَمَّا لم يَجِدْ أحدًا رحلَ في يومِ الأثنين فنزل قريبًا من الخانِ الذي في الدَّرْبِنْدِ ، وركبَ
يومِ الأثنين من طَرِيقِ غيرِ التي حَضَرَ منها ، فسلكَ طريقًا من الأوعارِ يَبَسَا ، وسلكَ
من قُلَلِ الجبالِ في هِضَابٍ كَأَنَّ كَلًّا منها أَلْفٌ حملت من الأنجمِ قَبَسًا ؛ فقاسى العالمُ
في هذا اليوم من الشَّدَةِ ما لا يَدْخُلُ في قِياسِ ، وكادوا يَهْلِكُونَ لولا أن الله عزَّ وجلَّ
تَدَارَكَ النَّاسَ ؛ فتَسَابَقُوا ولكن على مِثْلِ حَدِّ السَّيْفِ ، وتَسَلَّلُوا ولكن سَلَّ حَوَافِرِ
الخَيْلِ كَيْفَ ؟ ، وهَبَطُوا من جبالٍ يَسْتَصْعِبُها كُلُّ شَيْءٍ حتى طَارِقُ الطَّيْفِ ؛
يَسْتَصْعَبُ الحَجْرُ المُحَلَّقُ من شَاهِقٍ وَقُوعَهُ في عِقَابِهَا ، وَيَسْتَهْوِلُ النَّجْمُ النَّاقِبُ تَرَفُّعِ
شِعَابِهَا ؛ بالقربِ منها جَبَلٌ شَاهِقٌ يُعْرِفُ بِسَقَرٍ وما أدراك ما سَقَرٌ ، لا يُبْقِي على شَيْءٍ
من الدَّوَابِّ ولا يَذُرُّ له عَقَبَةً لَوَاحَةً للبَشَرِ ؛ أعان الله على الهبوطِ منها ، وفازَ بمشيئةِ
الله وبسعادةِ مولانا السلطانِ من زُحْرَحَ عنها ؛ وعَدِينَا كوكبوا وهو النَّهْرُ الأَزْرَقُ ،
وبات مولانا السلطانُ هناك ، وكان قَضِيمُ البِغَالِ تلكَ اللَّيْلَةَ وَرَقَ البَلُوطُ ، إلا من
أَمَسَتْ عنايةِ الله أَنْ تَيْسَرَ في شِعْبِ بِخَمْسَةِ عَشَرَ درهماً كُلُّ مَدٍّ يَحُوطُ .

ورحل مولانا السلطانُ في يوم الأربعاء تاسعَ عشرين من ذى القعدة فنزل قريبَ كسول (؟) المقدم ذِكْرُها ، وعدل إلى طريق مَرَعَش فزال بحمد الله الداعي ، وقالوا للشَّعير : ما فينا لك مُحاطِبٌ ولا مِنَّا فيك بماله مُحاطِر ، وللخيول قد حصلَ لك في مِصرَ الرَّبيعِ الأوَّل في شَعْبان وفي الشَّامِ في ذى الحِجَّةِ الرَّبيعِ الآخِر ، فأرتعتَ لا يروعا أصحابُ الموازين في تلك المساجد ، وأستمرتَ في مُروِج يتأسف عليها ابنُ المساجد (؟) ؛ وقسم مولانا السلطان تلك الأعشاب كما تقسمت في آفاق السماء النجوم ، وأوقفَ كلَّ أحدٍ في مقامٍ حتَّى قال : (وما مِنَّا إلَّا له مُقامٌ معلوم) ؛ فكم هناك من مُروِجٍ أعشبتُ فأعجبتُ ، وأنجابتِ السماءُ عنها فأنجبتُ ، وأربتُ على زُهرِ النجوم فاهترتُ وربتُ :

يَصُدُّ الشَّمْسَ انِّي وَأَجْهَتُنَا * فَيَحْجُبُهَا وَيَأْذُنُ لِلنَّسِيمِ!

يَتَخَلَّلُهَا هُنَاكَ أترعُ الحِياضَ ، ويأهوها كلُّ شيءٍ فكم قصفَ العاصي بها في تلك الرياض .

هذا كَلُّه : وخيرٌ من أرزنجان ، حارة برجوان ؛ وخيرٌ من أراضى توريز ، قطعةٌ من ايليز ؛ وكومٌ من كيان سسقط ميدوم ، خيرٌ من قصير في قيصريَّة الروم ؛ ونظرةٌ إلى المقياس ، خيرٌ من سيواس ؛ ومناظر اللوق ، خيرٌ من كيقباز آل سلجوق ؛ وتربةٌ من تريب القرافه ، خيرٌ من مُروِج العرافه ؛ وشبرٌ من شبرا ، خيرٌ من سطا ومرأ (؟)

وجُلوسٌ في باب دارك خيرٌ * من جلوسٍ في [باب] إيوان كسرى ،

وأنماحي لنور وجهك خيرٌ * لي من أني أشاهدُ بدرًا!

ياوليا يولي الأيادي سرا * ووزيرا فليس يكسبُ وزرا:

مارأينا والله فيمن رأينا * لك مثلاً من البرية طزا.

كَمْ خَبَرْنَا الرَّجَالَ فِي كُلِّ أَرْضٍ * فَإِذَا أَنْتَ أَعْظَمُ الْخَلْقِ قَدْرًا!
 كَمْ فُلَانٍ قَالُوا وَقَالُوا فُلَانًا * فَإِذَا النَّاسُ دُونَ عَلَيْكَ حَسْرَى.
 لَكَ مَدْحٌ قَدْ طَبَّقَ الْأَرْضَ سُبْحًا * نَ إِلَهٍ بِهِ إِلَى النَّاسِ أَسْرَى!
 مَا رَأَيْنَا مِصْرًا كَمِصْرٍ وَلَا مِثْلَكَ فِينَا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ شُكْرًا!

الضرب الثاني

(من الرسائل الملوكية رسائل الصيّد)

وهذه نسخة رسالة في صيّد السلطان الشهيد الملك الناصر بن السلطان الشهيد
 الملك المنصور «قلاوون» من إنشاء القاضي تاج الدين البازباري، وهي :

الحمد لله الذي نعم النفوس الشريفة بإدراك الظفر، وأنعم على هذه الأمة بمحمدٍها
 الذي أثار كوكب نصره وسفره، وشرع لها على لسان نبيها صلى الله عليه وسلم الغنيمة
 في السفر، وأسعف هذه الدولة الشريفة بدوام سلطانها الذي حقت أيامه بالعزيز
 والتأييد والظفر .

نحمده على أن أقرّ العيون بفضله بما أقر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
 له شهادة ألانت قلب من نفر، وكرمت أسبابها فلا يتمسك بها إلا أعزّ فريقٍ ونفر،
 ونشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أعزّ من آمن وأذلّ من كفر، صلى الله عليه
 وعلى آله وأصحابه الذين تجاوز الله عن ذنوبهم وغفر، وسلم تسليمًا .

وبعد، فإنّ في ابتغاء النصر ملاًذا تُدرِكها كلُّ ذاتٍ شرفت، وتملكها السجايا
 التي تعارفت بالفخار وانتلفت، وتناها النفوس التي مالت إلى العزّ وإلى تلقائه

صُرِّفَتْ ؛ وَمَنْشُؤُهَا مِنْ حَالَتَيْنِ : إِمَّا فِي مَوْقِفٍ عَزَّ عِنْدَ مَا تَلَمَّعُ بُرُوقُ الصَّفَاحِ ،
وَتَشْيِبُ مِنْ هَوْلِ الْحَرْبِ رُؤُوسَ الرِّمَاحِ ، وَتَشْرَحُ جَوَارِحُ النَّبَالِ لِتَحَلُّ فِي الْجَوَارِحِ
وَتَصِيدَ فِي الْأَرْوَاحِ ؛ وَإِمَّا فِي مَوْطِنِ سَلَمٍ عِنْدَ مَا تَنْهَسُطُ النُّفُوسُ إِلَى أَمْتِطَاءِ صَهَوَاتِ
الْجِيَادِ فِي الْأَمْنِ وَالِدَعَةِ ، وَتَنْشُرِحُ الصُّدُورُ إِلَى مَعَاوَاةِ الصُّيُودِ وَالْمَسَرَّاتِ مُجْتَمِعَةٍ ؛
وَتُطْلَقُ الْبُرَاةُ فَتَصِيدُ ، وَتَتَصَرَّفُ بِأَمْرِ الْمُلُوكِ الصَّيْدَ ؛ وَتُرْسَلُ الْحَوَاجِي الْمُسَكَّةُ ،
وَتُلْقَى عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ الْوَحْشِ فَلَا تُرَى إِلَّا مُدْرِكَهُ ؛ وَتَقَاضُ حِينَئِذٍ النِّعَمَ السُّلْطَانِيَّةُ
وَتُجْزَلُ مَوَاهِبُهَا ، وَتُلَوَّحُ الْعِصَابَةُ الشَّرِيفَةُ وَتَتَبَعُثُ مَوَاقِبُهَا .

وكان الله تعالى قد جمع للمواقف الشريفة ، المعظمة ، السلطانية ، المملكية ،
النَّاصِرِيَّةِ ، خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهَا - سَعَادَةَ الْحَالَتَيْنِ حَرْبًا وَسِلْمًا ، وَأَتَاهَا فِيهِمَا النَّصْرَ الْأَرْفَعَ
وَالْعِزَّ الْأَشْمَى ؛ وَوَسَمَ بِصِدْقَاتِهِ وَعِزِّ مَاتِهِ الْأَمْرَيْنِ وَنَسَا ، وَنَصَرَهُ نَعْتًا وَعَظَّمَهُ
سُمْعَةً وَشَرَّفَهُ أَسْمًا ؛ فَأَيَّامُ حُرُوبِهِ كُلُّهَا رِفْعَةٌ وَأَنْتِصَارُ ، وَأَسْتِيْلَاءٌ وَأَسْتِظْهَارُ ، وَقُوَّةُ
تَحْيَا بِهَا الْمُؤْمِنُونَ وَتَفْنَى الْكُفَّارُ ؛ وَأَيَّامُ سَلَامِهِ كُلُّهَا عَدْلٌ وَهَيْبَةٌ ، وَصِدَقَاتُ مُنْجِيَّةٌ
مُنْجِيَّةٌ ، وَرَفْعُ ظُلُمَاتٍ مُتَشَعِّبَةٍ ؛ وَقَسْعُ نَفُوسٍ مُتَوَشِّبَةٍ ؛ وَحَسْمُ خُطُوبٍ مُسْتَدَّةٍ ،
وَحِفْظُ الْحُوزَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ وَوَقَايَتُهَا مِنْ كُلِّ شِدَّةٍ ؛ وَفِي خِلَالِ كُلِّ عَامٍ
تُصَرَّفُ عِزَّتُهُ الشَّرِيفَةُ إِلَى آبَتِغَاءِ صَيْدِ الْوَحْشِ وَالطَّيْرِ : لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ تَمْرِينِ
النُّفُوسِ عَلَى آكْتِسَابِ التَّائِيْدِ ، وَحُصُولِ الْمَسْرَةِ بِكُلِّ ظَفْرِ جَدِيدٍ ؛ فَيُرْسَمُ - خَلَّدَ
اللَّهُ سُلْطَانَهُ - فِي الْوَقْتِ الَّذِي يَرْسَمُ بِهِ مِنْ مَشْتَى كُلِّ عَامٍ بِإِخْرَاجِ الدَّهْلِيْزِ الْمَنْصُورِ
فِيَنْصَبُ فِي بَرِّ الْحِيزَةِ بِسَفْحِ الْحَرَمِ ، فِي سَاعَةِ مُبَارَكَةِ آخِذَةِ فِي إِقْبَالِ الْجُودِ وَالكَرَمِ ؛
فَتَمُدُّ بِالتَّائِيْدِ أَطْنَابَهُ ، وَتُرْفَعُ عَلَى عُمْدِ النَّصْرِ قِبَابُهُ ، وَيُحَاطُ بِجِرَاسَةِ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ
رِحَابُهُ ؛ وَتَضْرِبُ خِيَامُ الْأَمْرَاءِ حَوْلَهُ وَطَاقًا ، وَتُحْفُ بِهِ [مِثْلُ] النُّجُومِ بِالْبَدْرِ إِشْرَاقًا ؛
وَيَسْتَقْبَلُ الرِّكَابُ الشَّرِيفُ - شَرَفَهُ اللَّهُ - بَعْدَ ذَلِكَ بِقَصْدِ عُبُورِ النَّبْلِ الْمُبَارَكِ فَيُظْهِرُ

من القلعة المحروسة والسلامة تحجبه من المخافة، والحراسة تصحبه فيما قرب ونأى
من المسافة، ولسان السعد قد خاطبه بالتحية وشافه؛ ومالكه الأمراء قد حفوا به
أطلاباً، وسنى موكبه قد بعث أمامه من الإضاءة نجاباً؛ ولم يزل حتى يأتي النسل
المبارك ويستوى على الكرسي في الفلك المشحون، محوطاً بالنصر الميمون والخيـ
المأمون، وقد استبشر باعتلائه البحر والنون؛ وأضحى لظهر الفلك من الفخار
[بحضرتة] المكرمة، مالمهوات أجياده العناق المسومة؛ فلهذا نشر أعلام بشرها،
وقال: ﴿ أركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها ﴾؛ فسارت به في اليم، ونصر الله
قد تم؛ وصعد من فلكه، على ما يسر نفوس المؤمنين في كمال سلطانه وعزرة ملكه؛
وأستقر على جواد شرفت صهوته، وقربت بالأناة والسكون خطوته؛ عمر بي النجار،
يختال في سيره كأنما أنتشى من العقار:

ويختال بك الطرف * كأن الطرف نسوان.

ترى الطرف درى أو ليس يدري أنك سلطان!

وسار في زروع محضرة، وتغور نبات مفتره؛ وقد طلعت للظفر شمسه وبدوره،
وأعدت للصيد بزائه وصقوره؛ من كل متوقد اللخط من الشهامه، محمول على
الراحات من فرط الكرامه؛ يتوسم فيه النجاح، قبل خفق الجناح، ويخرج من
جو السماء ولا حرج ولا جناح؛ وبازها الأشهب، يجيء بالظفر ويذهب بصدر
مفضض وناظر مذهب؛ له منسر أفتى، طالما أغنى، كأنما هو شبا السنان وقد
جابه الحكمة طعنا:

وصارم في يدك منصيات * إن كان للسيف في الوعى روع،

متقد اللخط من شهامة * فالجو من ناظره مجروح!

قد رآه النَّجْمُ جَنَاحَهُ ، وَقَرَنَ اللهُ بِالْيَمِينِ غُدُوهُ وَرَوَّاحَهُ ، وَنَصَرَهُ فِي حَرِّهِ حَيْثُ
جَعَلَ مِنْسَرَهُ رُحْمَهُ وَمَحَلَّهُ صَفَاحَهُ ؛ فِي قَوَادِمِهِ السَّعْدُ قَادِمٌ ، وَفِي خَوَافِيهِ النَّصْرُ
ظَاهِرٌ الْمَعْلَمُ ؛ كَمَا أَهْمَ قَوْلَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «بُورِكَ لَأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» ،
فِيسْرَحُ وَالطَّيْرُ جَائِمَةً فِي وُكُورِهَا ؛ وَيَخْرُجُ فِي إِغْبَاشِ السَّحَرِ وَعَلَيْهِ سَوَادٌ ، فِيهَا بَهُ
الصَّادِحُ فِي الْجَوِّ وَالْبَاقِعُ فِي الْوَادِ ؛ وَيَأْمُرُ - خَلَّدَ اللهُ سُلْطَانَهُ - أَمْرَاءَهُ فَيَضْرِبُونَ
عَلَى الطَّيْرِ حَلَقَةً وَهِيَ لَاهِيَةٌ فِي الْإِنْقَاطِ حَبًّا ، غَافِلَةٌ عَمَّا يُرَادُ بِهَا ، فَيَدْعُرُونَهَا بِحَفَقِ
الطُّبُولِ وَضَرْبِهَا ؛ وَمَوْلَانَا السُّلْطَانُ - خَلَّدَ اللهُ مَلِكَهُ - لِنَافِرِهَا مُتَرَقِّبٌ ، وَإِطَائِهَا
بِالْحَارِجِ مُعَقِّبٌ ، فَمَا يَدْنُو الْكُرْكِيُّ مَقْرُورًا ، حَتَّى يَثُوبَ مَقْهُورًا ؛ سَاقِطًا مِنْ
سَمَائِهِ إِلَى أَرْضِهِ ، وَمَنْ سَعَيْتَهُ إِلَى قَبْضِهِ ، فَسُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ كُلَّ جِنْسٍ وَقَهَرَ بَعْضَهُ
بِبَعْضِهِ ؛ هَذَا : وَالْحَارِجُ قَدْ أَنْشَبَ فِيهِ مَخَالِبَهُ ، وَسَدَّ عَلَيْهِ سُبُلَهُ فِي جَوِّ السَّمَاءِ
وَمَذَاهِبَهُ ؛ وَلَمْ يَزَلْ - خَلَّدَ اللهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - عَامَّةَ يَوْمِهِ مُتَوَغَّلًا فِي التَّمَتُّعِ بِلَدَاتِ
صُيُودِهِ ، وَأَوْقَاتِ سُعُودِهِ ؛ وَحُصُولِ أَرِيهِ وَمَقْصُودِهِ ، وَجُنُودِ الْمَلَائِكَةِ حَافُونَ بِهِ
وَبِجُودِهِ ؛ حَتَّى يَنْسَخَ النَّهَارَ اللَّيْلَ بِظُلْمَائِهِ ، وَيَلْبَسَ الطَّارِقُ بِأَضْوَائِهِ ؛ فَيَعُودُ عِنْدَ
ذَلِكَ الرَّكَّابُ الشَّرِيفُ إِلَى الْمُخِيْمِ الْمَنْصُورِ وَالْجَوَارِحِ كَاسِبِهِ ، وَالْأَقْدَارُ وَاهِبِهِ ؛
وَالْجَوَارِحُ مَسْرُورَةٌ ، وَالطُّيُورُ مَأْسُورَةٌ ؛ وَالنُّفُوسُ مُتَمَّتَةٌ ، وَالْمَوَاهِبُ مُنَوَّعَةٌ ، وَالْأَرْجَاءُ
مُضَوَّعَةٌ ، وَاللَّهُ تَعَالَى مَعَ سُلْطَانِهِ بِكَلَاءَتِهِ : «وَمَنْ كَانَ مَعَ اللهِ كَانَ اللهُ مَعَهُ» ؛ فَيَرْفَعُ
أَمَامَهُ فَاثُوسَانَ تَوْعْمَانَ ، كَأَنَّهُمَا كَوْكَبَانِ بَيْنَهُمَا أَقْتِرَانٌ ، أَوْ فَرْقَدَانِ رَفَعْتَهُمَا يَدَانِ ؛ فَيَدْنُو
إِلَى مُخِيْمِهِ الْمَنْصُورِ فِي سُرَادِقِ الْعِزِّ الْحَفِيْلِ ، وَعِصَابَةِ النَّصْرِ الْأَمِيْلِ ، وَتَرْتَجُلُ الْإِنصَارُ
قَبْلَ فُسْطَاطِهِ الْمَعْظَمِ عَلَى قَدْرِ مِيلٍ ؛ وَيُسْعَى بِالشَّمُوعِ لِتَلْقِيهِ ، وَيُسَوَّى نُحْتُ الْمَلِكِ
لِتَرْقِيهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَطُوفُ بِالدهليزِ الْمَنْصُورِ أَمْرَاءُ الْحَرَسِ بِالشَّمُوعِ الْمَرْفُوعَةِ ،
وَالْمَزَاهِرِ الْمَسْمُوعَةِ ؛ فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ مُسْتَطِيلًا ، وَجَاءَ الصُّبْحُ شَيْئًا قَلِيلًا ؛ عُرِضَتْ

عليه النعم فأعطاها ، والمهمات الإسلامية فقضاها ، وقدمت له الحيات المسومة فامتطأها ؛ ويسرُح إلى الصيد والجوارح التي صادت بالأمس قد استأسدت ، وبسعادته إلى ظفريها قد أرشدت ؛ فإذا سار ركابه الشريف فرقت على أثره عساكر الإسلام ، وقوضت تلك الخيام كأنها الأيام .

ولم يبرح ذلك دأبه في كل يوم من أيام حركته حتى يأخذ حظه من صيد الطير ، فعند ذلك يئني عنان السير ؛ إلى آقاص الوحش فيعد لإمساكها كل هيكل قيد الأوباد ، قد عقد الخير بناصيته فأصبح حسن المعاهد .

فن أشهب : كريم المغار ، ذى إهاب من النهار ، وأديم كأنه صحيفة الأبرار ، أبيض مثل الهدى ، له في الصبح إثارة النضر وإغارة على العدا ؛ علا قدراً وغلا قيمه ، وله إلى آل أعوج نسبة مستقيمة ؛ إذا استن في مضمار يسبق البروق الخاطفه ، ويخلف الريح حسرى وهى واقفه ؛ يجده الفارس بحراً ، وله عند تجرى العوالى مع السوايق مجرى .

ومن أحمر : كأنما صبغ بدم الأعداء أديمه ، وكأنما هو شقيق الشقيق وقسيمه ؛ كرمت غمره وجوله ، وحسنت أعرافه وذبوله ، مكر مفتر جلود صخر حطته من على سيوله ؛ حتى لونه نجر الرحيق ، وله كل يوم ظفر جديد مع أنه عتيق .

ومن أدهم : مدرك كالليل ، منصب كالسيل ؛ كريم الناصيه ، جواب قاصيه ؛ كأن غمرته صبح تنفس في الدجى الحالك ، وكأنه من الليل باق بين عينيه كوكب يضي المسالك ، وكان مجوله بروق تفرقت في جوانب النسق فحسن منظرًا لذلك ؛ سنايكه يورى قدحها ، وغمرته ينير صبحها ؛ وجوارحه مسود جنبها ، وصموته كمن فيها العز فلا يزال ظاهرًا بجنبها .

وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الْجِيَادِ الْمُخْتَبَرَةِ ، وَالصَّافِيَاتِ الْمُعْتَبَرَةِ :

إِذَا مَا صَرَفْتَ اللَّحْظَ نَحْوَ شِيَاتِهَا * وَأَلْوَانِهَا فَالْحُسْنُ عَنكَ مُغِيبٌ !^(١)

وإنما هي بصبرها على الظأ، وشدة عدوها في النور والظلمة؛ وسبقها إلى غايات رهنائها، وثباتها تحت رايات فرسانها .

وتليها الفهود الحسن منظرها ، الجميل ظفرها ، الكاسب نأبها وظفرها ؛ تفرق الليل في أهبها المجتمعه ، وأدركت العواصم في هضابها المرتفعه ؛ وجوهها كوجوه الليوث الحادره ، ووثباتها على الطريده وثبات المؤمنة على الفئته الكافره ؛ مقلصة الخواصر ، عزمتها على الوحش حواصر ؛ ما أطلقت على صيد إلا قنصته سريعا ، ولا بصرت بعانة من حمر إلا أخذتها جميعا .

ثم الحوامى المعلمه ، والضواري التي أضحت بالشفح متوسمه ؛ ما منها إلا طاوي الخاصره ، وثباته طائفة غير قاصره ؛ بنديب كالأسنه ، وساعدين مفتولين تسبق بهما ذوات الأعنه ؛ لوراه عدى بن حاتم رضى الله عنه لضمه إلى ما لديه ، وأكل مما أمسك عليه .

وتضرب العساكر حلقة ما يلتقي طرفها إلا إلى الليل في اتساعها ، تحوى سائر الأوايد على اختلاف أنواعها .

فمن نعام : خضب ظليهما لما أكل ربيعا ، وأحمرت أطراف ريشه فكانها سهام أصابت جميعا ؛ طالت أعناقها الناحلة فكانها خطيه ، وأشدت قوائمها الحاملة فكانها مطيه ؛ شاركت الطير في وجود الجناح ، وفارقتها في كثافة الأشباح ؛ وأشبهت

(١) الذى فى ديوان المتنبي :

إذا لم تُشاهد غير حسن شياتها * وأعضائها فالحسن عنك مغيب .

الْوَحْشَ فِي مَسْكَنِ الْقِفَارِ، وَشِدَّةِ النَّفَارِ؛ قَدْ أَجْتَمَعَ فِي ظَاهِرِهَا اللَّوْنَانِ مِنَ الْوَحْشِ
وَالطَّيْرِ وَأَنْتَلَفَ فِي بَاطِنِهَا الصَّدَّانِ مِنْ مَاءٍ وَنَارٍ .

وَمِنْ طِبَاءٍ : مُسَوِّدَةَ الْأَحْدَاقِ ، حَكَّتِ الْحَبَائِبَ فِي كُحْلِ الْمُقْبَلِ وَحُسْنِ سَوَالِفِ
الْأَعْنَاقِ ؛ أَيْبَضَّتْ بَطُونَهَا ، وَأَحْمَرَّتْ مُتُونَهَا ؛ وَرَاقَتْ أَوْرَاقُهَا ، وَحَاكَّتْ أَمَاقُهَا ؛
نَافِرَةٌ فِي صَحْرَائِهَا ، طَيِّبٌ مَرَعَاها فَالْمِسْكُ مِنْ دَمَائِهَا .

وَمِنْ بَقَرٍ وَحَشِيَّةٍ : عُفْرِ الْإِهَابِ ، سَاكِنَةِ الْمُضَابِ ؛ لَهَا فِي حِقَافِ الرِّمْلِ
مَرَايِضٌ ، حَدَرًا مِنْ قَانِيصٍ قَابِضٍ ؛ كَمْ فِي مِنْ لَوَى يَتَهَادَى ، كَأَنَّ إِبْرَةَ
رَوْقِهِ قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الدَّوَاةِ مِدَادًا .

وَمِنْ حُمُرٍ إِهَابِهَا أَقْمَرُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى أَحَدِ (؟) وَلَمْ تُرَكَّبْ مُتُونُهَا ، وَقَدْ حَكَّى الْجَزَعُ
الَّذِي لَمْ يُثَقِّبْ فِي دُجَى اللَّيْلِ عَيُونَهَا .

وَعِنْدَ مَا تَلْتَقِي حَلَقَةُ الْعَسَاكِرِ يَلْحَقُهَا - خَلَّدَ اللَّهُ سُلْطَانَهُ - وَمَعَهُ الْجَوَارِحُ الصَّائِدَةُ ،
وَالْحَوَامِي الصَّائِلَةُ ؛ وَالْأَسْهُمُ النَّافِذُ ، وَالْفُهُودُ الْآخِذَةُ ؛ فَمَوْجُ الْوَحْشِ دُعْرًا ،
وَتَرَى مَسَالِكَهَا قَدْ سُدَّتْ عَلَيْهَا سَهْلًا وَوَعْرًا ؛ وَضُرِبَ دُونَ نَجَاتِهَا بِسُورٍ مِنَ الْجِيَادِ
وَالْفُرْسَانِ ، وَحِيلَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ خَلَاصِهَا بِنِبَالٍ وَخُرْصَانٍ ؛ فَيُخَيِّدُ تَفَرُّ النَّعَامِ عَنْ رِمَالِهَا ،
وَالطَّبَّاءُ عَنْ ظِلَالِهَا ؛ وَالْبَقَرُ عَنْ جَاذِرِهَا ، وَالْحُمُرُ عَنْ بُولِهَا ؛ وَيَقْبِضُ - خَلَّدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - مِنْ جِنْسِ الْوَحْشِ كُلِّ نَوْعٍ ، وَلَوْ لَمْ يُمَسِّكْهَا بِجَارِحٍ لِأَمْسِكِهَا كَمَا تُمَسِّكُ
عُدَاةُ الْإِسْلَامِ بِالرُّوعِ ؛ وَتُجَزَلُ مِنْهَا الْمَكَاسِبُ ، وَتُمَلَأُ مِنْهَا الْحَقَائِبُ ؛ فَاذَا أَخَذَ حَظَّهُ
مِنَ الْقَبِضِ وَوَلَدَةَ آكْتِسَابِهِ ، رَسَمَ لِأَمْرَائِهِ بِالصَّيْدِ عِنْدَ صُدُورِ رِكَابِهِ ؛ فَيَصِيدُونَ
وَيَقْتَنَصُونَ ، زَادَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ - فَإِنَّهُمْ فِي طَاعَتِهِ مُخْلِصُونَ ؛ فَيَكْثُرُ عِنْدَ ذَلِكَ كُلِّ

قنص دَبِيح، ويأتي كلُّ بما أَقْتَنَصَه لِيُظْهَرَ التَّرْجِيحُ؛ فاذا أَسْتَكَلَ أَوْقَاتَ الصَّيْدِ
من الطَّيْرِ وَالْوَحْشِ ثَنَى رِكَابَهُ الشَّرِيفَ إِلَى جِهَةِ القَلْعَةِ المحرَّسَةِ والقِفَارِ قد شَرَفَتْ
بمَرُورِ مَوَاكِبِهِ، وَالْوَحْشِ وَالطَّيْرِ قد أَفْتَخَرَتْ بِكُونِهَا أَصْبَحَتْ من مَكَايِبِهِ .

هذا كُلُّهُ وَإِنْ كَانَتْ النَفْسُ تَرَاهُ لَهَوًا، وَتَبْلُغُ بِهِ كَلَّ مَاتَهَوَى، ففِي طَيْبِهِ من تَمْرِينِ
الجُنُودِ عَلَى الحَرْبِ مَا تُشَدُّ بِهِ العَزِمَاتُ وَتَقْوَى؛ فَيَوْمُ الرِّكَابِ الشَّرِيفِ عَائِدًا إِلَى
سَرِيرِ مُلْكِهِ بِالْقَلْعَةِ المحرَّسَةِ، وَالسَّلَامَةِ قد قَضَتْ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا من حِرَاسَتِهِ،
وَالْأَقْدَارُ قد وَفَّتْ مَا يَنْبَغِي من كَلَاءَتِهِ؛ فَلَمْ يَكُ إِلَّا وَهُوَ صَاعِدٌ إِلَى القَلْعَةِ المحرَّسَةِ
وَالسَّنَةِ السَّعَادَةِ مُخَاطِبُهُ، وَسَرِيرُهُ قد أَهْتَرَتْ فَرَحًا بِمَقْدَمِهِ جَوَانِبُهُ، وَالصَّيْدُ المُبَارَكُ
قد سَعِدَتْ مَبَادِيهِ وَجَمِدَتْ عَوَاقِبُهُ؛ فُلِقِيَ أَهْبَةُ السَّفَرِ، وَيَأْخُذُ فِيمَا بَطَّنَ من المَصَالِحِ
الإِسْلَامِيَّةِ وَظَهَرَ، وَتُنشِئُهُ أَلْسِنَةُ السَّلَامَةِ مَا أَمَلَى عَلَيْهَا العِزُّ وَالتَّائِيدُ وَالظَّفَرُ :

مَلِكُ البَيْسِطَةِ أَبَ من سَفَرِهِ * وَالنَّصْرُ وَالتَّائِيدُ فِي آثَرِهِ،
فَكَأَنَّهُ فِي عِزِّ مَوَاكِبِهِ * بَدْرٌ تَأَلَّقَ فِي سَنَا حَقَرِهِ .
مَا فِي البَرِّيَّةِ مِثْلَهُ مَلِكٌ * أَوْقَى الذِّي أُوْتِيَهُ من ظَفَرِهِ!
يَسْرِي إِلَى أَعْدَائِهِ رَهْبٌ * مِمَّا يَبْئُثُ النَّاسُ من خَبَرِهِ .
فَاللَّهُ رَبُّ النَّاسِ فَاطِرُنَا * يُؤْتِيهِ مَا يُرِي عَلَى وَطَرِهِ!!

الصنف الثاني

(من الرسائل ما يردُّ منها مَوْرِدُ المَدْحِ وَالتَّقْرِيبِ)

إِذَا بَانَ يَجْعَلُ المَدْحَ مَوْرِدَ الرِّسَالَةِ وَيُصَدَّرُ بِمَدْحِ ذَلِكَ الشَّخْصِ المُرَادِ، وَإِذَا بَانَ
يُصَدَّرُ بِمَاجِرِيَّةٍ يَحْكِيهَا المُنْشِئُ وَيَتَخَلَّصُ مِنْهَا إِلَى مَدْحِ من يَقْصِدُ مَدْحَهُ وَتَقْرِيبَهُ

وما يجرى مجرى ذلك . وللكتاب وأهل الصناعة في ذلك أفانين مختلفة المقاصد، وطرق متباينة الموارد .

وهذه نسخة رسالة أنشأها أبو عمرو عثمان بن بحر الجاحظ سماها "رسالة الشكر" قصد بها تقرير وزير المستوكل وشكر نعمه لديه ، مصدرًا لها بذكر حقيقة الشكر وبيان مقاصده، وهى :

جُعِلَتْ فِدَاكَ، أَيُّدِكَ اللهُ وَأَكْرَمَكَ وَأَعَزَّكَ ، وَأَتَمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعِنْدَكَ . لَيْسَ يَكُونُ الشُّكْرُ - أَبْقَاكَ اللهُ - تَامًا، وَمِنْ حَدِّ النُّقْصَانِ خَارِجًا، حَتَّى يَسْتَصِحِبَ أَرْبَعَ خِلَالَ، وَيَشْتَمِلَ عَلَى أَرْبَعِ خِصَالٍ :

أولها : العِلْمُ بِمَوْجِعِ النِّعْمَةِ مِنَ الْمُنْعَمِ عَلَيْهِ، وَبِقَدْرِ انْتِفَاعِهِ بِمَا يَصِلُ إِلَيْهِ مِنْ ذَلِكَ : مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ ، أَوْ مَبْلَغِ لَذَّةٍ وَعُلُوِّ فِي دَرَجَةِ ، مَعَ الْمَعْرِفَةِ بِمَقْدَارِ أَحْتِمَالِ الْمُنْعَمِ لِلشَّقَّةِ ، وَالَّذِي حَاوَلَ مِنَ الْمَعَانَاةِ وَالْكَلْفَةِ فِي بَدْلِ جَاهِ مَصْرُوفٍ ، أَوْ مَفَارِقَةِ عُلُقٍ ثَمِينٍ . وَكَيْفَ لَا يَكُونُ كَذَلِكَ ؟ وَقَدْ خَوَّلَ مِنْ نِعْمِهِ بَعْضَ مَا كَانَ حَيِّسًا عَلَى حَوَادِثِ عِدَّةٍ، فَزَادَ فِي نِعَمٍ غَيْرِهِ بِمَا انْتَقَصَ مِنْ نِعَمٍ نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ . فَكَلَّمَا تَذَكَّرَ الشَّاكِرُ مَا أَحْتَمَلَ مِنْ مَثُونَةِ الْبَدْلِ، سَهَّلَ عَلَيْهِ أَحْتِمَالُ مَا نَهَضَ بِهِ مِنْ ثِقَلِ الشُّكْرِ .

والخصلة الثانية : الحرِّيَّةُ الْبَاعِثَةُ عَلَى حُبِّ الْمَكَافَاةِ وَأَسْتِحْسَانِ الْمَجَازَاةِ . وَالشُّكْرُ مِنْ أَكْبَرِ أَبْوَابِ الْأَمَانَةِ، وَأَبْعَدِهِ مِنْ أَسْبَابِ الْخِيَانَةِ . وَلَنْ يَبْلُغَ أَحَدٌ فِي ذَلِكَ غَايَةَ الْمَجْدِ إِلَّا بِمَعُونَةِ الطَّمَعِ، وَإِلَّا الْحَرْبُ سِجَالٌ بَيْنَهُمَا، وَالظُّفْرُ مَقْسُومٌ عَلَيْهِمَا . كَذَلِكَ حُكْمُ الْأَشْيَاءِ إِذَا تَسَاوَتْ فِي الْقُوَّةِ، وَتَقَارَبَتْ فِي الْبُلُوغِ الْمُدَّةِ . وَقَدْ زَعَمَ نَاسٌ أَنَّ الشَّاكِرَ وَالْمُنْعَمَ لَا يَسْتَوِيَانِ، كَمَا أَنَّ الْبَادِيَّ بِالظُّلْمِ وَالْمُنْتَصِرَ لَا يَعْتَدِلَانِ ؛ لِأَنَّ الْبَادِيَّ أَخَذَ مَا لَيْسَ لَهُ ، وَالْمُنْتَصِرَ لَمْ يَتَجَاوَزْ حَقَّهُ الَّذِي هُوَ لَهُ ؛ وَلِأَنَّ الْبَادِيَّ لَمْ يَكُنْ مُهَيِّجًا عَلَى

الظلم بعلّة جناها المُتَصِر، والمُتَصِر مهيجٌ على المُكَافَاة بعلّة جناها البَادِي، والمُتَوَرِّد للطحاع المُغَضَّب، والمُسْتَحْفُف المِهْيَج أُعْذِر من السَّاكِن الوَادِع المُطْمَئِن .
فلذلك قالوا : إن البَادِي أَظْلَم، والمُتَصِر أُعْذِر . وزعموا أن المُنعم هو الذي أودع صدرَ الشَّاكِرِ المحبّة بانعامه عليه، وهيجّه بذلك على مُكَافَاة لِإِحْسَانِهِ إليه، فقد صار المُنعمُ شريكَ الشَّاكِرِ في إحسانه، وتفردَ بِفَضْلِ إِنْعامِهِ دُونَ مُشَارَكَةِ غيره، والمُنعم هو الذي دَفَعَ للشَّاكِرِ أداةَ الشُّكْرِ، وأَعَارَهُ آلةَ الوَقَاءِ، فهو من ههنا أحقُّ بالتقديم، وأوّلَى بالتفضيل .

هذا، وقد قال بعضُ الحكماء والأدباء والعلماء : من تَمَّامِ كَرَمِ المُنعمِ التَّغافلُ عن حُجَّتِهِ، والإقْرَارُ بِالْفَضِيلَةِ لِشَّاكِرِ نِعْمَتِهِ ؛ لأنَّ الحُجَاةَ مُغَالِبَهُ، وَلَا يَتِمُّ مَوَدَّةٌ إِلَّا مَعَ المُسَامَحَةِ . ولذلك قال الرَّبِيعُ لِنَاسٍ مِنَ العَرَبِ يَحْتَضِمُونَ : هَلْ لَكُمْ فِي الحَقِّ أَوْ خَيْرٍ مِنْهُ ؟ قالوا : قد عَرَفْنَا الحَقَّ، فما الذي هو خَيْرٌ مِنْهُ ؟ قال : التَّغافلُ فَإِنَّ الحَقَّ مُرٌّ . ألا تَرَى إِلَى بِنْتِ هَرِمِ بْنِ سِنَانٍ لَمَّا قَالَتْ لِأَبْنَةِ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ فِي بَعْضِ المَنَاحَاتِ، أَوْ فِي بَعْضِ المَزَاوِرَاتِ : إِنَّهُ لَيُعْجِبُنِي مَا أَرَى مِنْ حُسْنِ شَارَتِكُمْ، وَنِقَاءِ نَفْسِكُمْ . قالت ابْنَةُ زُهَيْرٍ : أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ قُلْتِ مَا قُلْتِ، فَمَا ذَلِكَ إِلَّا مِنْ فُضُولِ مَا وَهَبْتُمْ، وَمِنْ بَقَايَا مَا أَنْعَمْتُمْ . قالت بِنْتُ هَرِمٍ : لَابِلْ لَكُمْ الفَضْلُ، وَعَلَيْنَا الشُّكْرُ، أَعْطَيْنَاكُمْ مَا يَفْنَى، وَأَعْطَيْتُمُونَا مَا يَبْقَى . وقيل لعبد الله بن جعفر حين أجزل لنصيب الشاعر في الهبة، وكثرله في العطيّة : أتذيل هذا العبد الأسود كل هذا النيل، وتجبوه بمنل هذا الجباء ؟ فقال عبد الله بن جعفر : أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ أَسْوَدَ الحِلْدِ إِنَّهُ لِأَبْيَضَ الشُّعْرَ، أَعْطَيْنَاهُ دَرَاهِمَ تَفْنَى، وَثِيَابًا تَبْلَى، وَرَوَاحِلَ تُنْضَى، وَأَعْطَانَا شَاءَ يَبْقَى، وَحَدِيثًا يُثْنَى، وَمَكَارِمَ لَا تَبْلَى . فلهذه الخصال تكاملت خصال المجد فيهم، فظهر عنوان كرم الخير عليهم، فصاروا في زمانهم منارا، ولمن بعدهم

أعلامًا . وليس تيمَّ معاني كرمِ المنعم ، ومعاني وفاء الشاكر ، حتى تتوافق أقوالهما ،
وتتفق أهواؤهما على تدافع الحجمة ، والإقرار بالمعجزة ، فيزدادُ بذلك المنعم فضلًا ،
والشاكرُ نبلاً .

هذا جملة القول في خصلتين من الأربع التي قدمنا ذكرها ، وشهرنا أمرها .

والخصلة الثالثة : الديانة بالشكر ، والإخلاص للمنعم في تصفية الود ، فان الدين
قائدُ المروءة ، كما أن المروءة خطامُ الحمية . وهذه الخصال وإن تشعبت في بعض
الوجوه ، وافترقت في بعض الأماكن ، فإنها ترجع إلى نصابٍ يجمعها ، وإلى إناءٍ
يحفظها ، منه نجت ، وعنه أنبتت ، وإليه رجعت . ولا اجتماع هذه الخصال على
مخالفة الهوى ، ومجانبة الهوى ، وعلى اتهام دواعي الشهوة ، والامتناع من كلب
الطبيعة - وفق الأقول بينها في جملة الأسم ، وقارنوا بينها في جمهرة الحكم . ولذلك
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أعتد عزمه بحميتته ، وحزمه بمتاع بيته .

ومدار جميع الأحوال المحمودة على الصبر ، ولن يتكلف مرارة الصبر من يجهل
عاقبة الصبر . وقالوا : لما صار ثقلُ الشكر لا يُحتمل إلا بالصبر ، صار الشكر من
نتاج الصبر . وكما أنه لا بد للحم - مع كرم اللحم - من الصبر ، فكذلك لا بد للشكر
- مع كرم الشكر - من الصبر . فالصبر يجري مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يجري
الهوى مع جميع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« خلق الله عز وجل النار وحققها بالشهوات ، وخلق الجنة وحققها بالمكاره » .

والخصلة الرابعة : وصف ذلك الإحسان باللسان البين ، وتخييره بالبيان التبر ،
وباللفظ العذب الشهي ، والمعنى الشريف البهي . فان الكلام إذا كان حسنًا ،
جعلته الحكاء أدبا ، ووجدت الرواة إلى نشره سببا ، حتى يصير حديثًا مأثورًا ، ومجدًا

مَدُّ كُورًا؛ وِدَاخَلًا فِي أَسْمَارِ الْمُلُوكِ، وَسُوقًا مِنْ أَسْوَاقِ الْمُتَادِبِينَ، وَوَصْلَةً فِي الْمَجَالِسِ،
 وَزِيَادَةً فِي الْعَقْلِ، وَشَحْدًا لِلْسَانَ، وَتَرْهِيْفًا لِلْقَلْبِ، وَتَطْيِيفًا لِلْفِكْرِ، وَعِمَارَةً لِلصُّدْرِ،
 وَسُلْمًا إِلَى الْعُظْمَاءِ، وَسَبَبًا إِلَى الْحِلَّةِ الْكُبْرَاءِ . وَإِذَا لَمْ يَكُنِ اللَّفْظُ رَائِعًا، وَالْمَعْنَى
 بَارِعًا؛ وَبِالنَّوَادِرِ مُرْتَحِمًا، وَبِالْمَلْحِ مَجْلُوبًا؛ لَمْ تَصْغُ لَهُ الْأَسْمَاعُ، وَلَمْ تَنْشَرْحْ لَهُ الصُّدُورُ،
 وَلَمْ تَحْفَظْهُ النَّفُوسُ، وَلَمْ تَتَطَّقْ بِهِ الْأَفْوَاهُ، وَلَمْ يُجَلِّدْ فِي الْكُتُبِ، وَلَمْ يَقَيِّدْ بِالدَّرْسِ،
 وَلَمْ يَجِدَلْ بِهِ قَائِلٌ، وَلَمْ يَلْتَدِّ بِهِ سَامِعٌ . وَمَتَى لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ كَانَ كَلَامًا كَكَلَامِ اللَّغْوِ،
 وَمَعَانِي السَّمْوِ؛ وَكَأَلْجَرِ الَّذِي لَا يُفْهَمُ، وَالْمُسْتَعْلَقِ الَّذِي لَا يَعْلَمُ .

وليس - أبقاك الله - نبيٌّ أحوج إلى الحِذْقِ، ولا أفقر إلى الرِّفْقِ؛ من الشُّكْرِ
 النَّافِعِ، وَالْمَدِيحِ النَّاجِعِ؛ الَّذِي يَبْقَى بَقَاءَ الْوَشْمِ، وَيُلُوحُ كَمَا يُلُوحُ النِّجْمُ . كَمَا أَنَّهُ لَا شَيْءَ
 أَحْوَجُ إِلَى وَسْعِ الطَّاقَةِ، وَإِلَى الْفَضْلِ فِي الْقُوَّةِ، وَإِلَى الْبَسْطَةِ فِي الْعِلْمِ، وَإِلَى تَمَامِ
 الْعَزْمِ - مِنَ الصَّبْرِ . وَعَلَى أَنْ الشُّكْرُ فِي طَبَقَاتٍ مُتَفَاوِتَةٍ، وَمَنَازِلٍ مُتَبَايِنَةٍ، وَإِنْ جَمَعَهَا
 أَسْمٌ، فَلَيْسَ يَجْمَعُهَا حُكْمٌ، فَرُبَّمَا كَانَ كَلَامًا تَجِيئُ بِهِ الصُّدُورُ، وَتَمُجُّهُ الْأَفْوَاهُ،
 وَتَجِدُّ بِهِنَّ الْأَلْسِنَةُ، وَيُسْتَعْمَلُ فِيهِ الرَّأْيُ الْمُقْتَضِبُ، وَالْحَاظِرُ الْمُخْتَارُ، وَالْكَلَامُ
 الْمُرْتَجَلُ، فَيُرْمَى بِهِ عَلَى عَوَاهِنِهِ، وَتُبْنَى مَصَادِرُهُ عَلَى غَيْرِ مَوَارِدِهِ، لَا يَتَعَدَّرُ فِيهِ
 الشَّاكِرُونَ لِانْتِفَاعِ الْمُتَعَمِّينَ، كَمَا تَعَدَّرَ الْمُتَعَمِّونَ لِانْتِفَاعِ الشَّاكِرِينَ . وَلَيْسَتْ غَايَةُ
 الْقَائِلِ إِلَّا أَنْ يَعْدَّ بِلَبَّغًا مَفُوهًا، أَوْ يَسْتَرِيدَ بِهِ إِلَى نِعْمَةِ السَّالِفَةِ نِعْمًا آتِيَةً، أَوْ لَيْسَ
 إِلَّا لِيَعْتَرَّ كَرِيمًا، أَوْ يَخْتَدِعَ غَيِّبًا لَا يَتَفَقَّدُ سَاعَاتِ الْقَوْلِ، وَلَا يَتَعَرَّفُ أَقْدَارَ الْمُسْتَمْعِينَ؟
 وَلَيْسَ غَايَتُهُ إِلَّا الْكَسْبُ وَالتَّعَرُّضُ وَالانْتِفَاعُ وَالتَّرْتُّحُ، وَعَلَى هَذَا يَدُورُ شُكْرُ الْمُسْتَأْكِلِينَ،
 وَإِحْمَادُ الْمُتَكَسِّبِينَ .

وهذا البابُ وإن جَعَلْتَهُ الْعَوَامُّ شُكْرًا، فَهُوَ بَغَيْرِ الشُّكْرِ أَشْبَهَهُ، وَبِذَلِكَ أَوْلَى،
 وَرُبَّمَا كَانَ شُكْرُهُ عَنْ تَأَنُّقٍ وَتَدْكِيرٍ، وَعَنْ تَخْيِيرٍ وَتَخْيِيرٍ، وَعَنْ تَفَقُّدٍ لِلْحَالَاتِ،

وَتَحْصِيلِ لِلْأُمُورِ فِي الْمَقَامَاتِ الَّتِي تُحِيطُ بِمُهْجَتِهِ ، وَبِحَضْرَةِ عَدُوِّ لَإِيْرَالِ مُتْرَصِّدًا
لِنِعْمَتِهِ ، فَرُبَّمَا آتَمَسَ الزِّيَادَةَ فِي غَيْظِهِ ، وَرُبَّمَا آتَمَسَ شِفَاءَ دَائِهِ وَإِصْلَاحَ
قَلْبِهِ ، وَنَقَضَ الْمُبْرَمَ مِنْ مَعَاقِدِ حَقْدِهِ ، عَلَى قَدْرِ الرَّدِّ ، وَعَلَى قَدْرِ تَصَرُّفِ الْحَالَاتِ
فِي الْمَصْلُحَةِ ، لِأَنَّ الشَّاكِرَ كَالرَّائِدِ لِأَهْلِهِ ، وَكَرْعِيمِ رَهْطِهِ ، وَالْمُشَارُ إِلَيْهِ عِنْدَ مَشُورَتِهِ ،
فَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ شُكْرُهُ شِعْرًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أَشْهَرُ ، وَرُبَّمَا آخْتَارَ أَنْ يَكُونَ كَلَامًا
مَنْشُورًا : لِأَنَّ ذَلِكَ أُنْبَلُ ، وَرُبَّمَا أَظْهَرَ الْبَسْرَ وَأَتَّحَلَ الثَّرْوَةَ ، وَجَعَلَ مِنَ الدَّلِيلِ
عَلَى ذَلِكَ كَثْرَةَ النَّفَقَةِ ، وَحُسْنَ الشَّارَةِ ، وَيَرَى أَنَّ ذَلِكَ أَصْدَقُ الْمَدْحِينَ ، وَأُنْبَلُ
الشُّكْرِينَ ، وَيَجْعَلُ قَائِدَهُ إِلَى هَذَا الْمَذْهَبِ ، وَسَابِقَهُ إِلَى هَذَا التَّدْبِيرِ قَوْلُ نُصَيْبٍ :

فَعَاجُوا فَاثْشُوا بِالَّذَى أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَنْتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ !
وَمَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ وَليْسَ بِهِ - قَوْلُ الْعَتْرِيِّ :

يَابْنَ الْعَلَاءِ وَيَابْنَ الْقِرْمِ مِرْدَاسٍ : * إِنِّي لِأَطْرِيكَ فِي أَهْلِ وَجِلَّاسِي .

حَتَّى إِذَا قِيلَ : مَا عَطَاكَ مِنْ صَفْدٍ؟ * طَاطَأْتُ مِنْ سُوءِ حَالٍ عِنْدَ هَارِاسِي !

أُنْتِي عَلَيْكَ وَلي حَالٌ تُكْذِبُنِي * بِمَا أَقُولُ فَاسْتَحْيِي مِنَ النَّاسِ !

وَبَيْنَ هَذَيْنِ الشُّكْرِينَ طَبَقَاتٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَمَنَازِلٌ مَعْلُومَةٌ . وَمَوْضِعُ الشُّكْرِ
قَلْبُ السَّامِعِ فِي الْقَبُولِ وَالْأَسْتِنَامَةِ ، عَلَى قَدْرِ حُسْنِ النِّيَّةِ ، وَالَّذى يَعْرِفُ بِهِ الشَّاكِرُ
مِنْ صِدْقِ اللَّهْجَةِ ، وَمِنْ قِلَّةِ السَّرْفِ ، وَاعْتِدَالِ الْمَذَاهِبِ ، وَالْإِقْتِصَادِ فِي الْقَوْلِ .
وَهَذَا بَابٌ سِوَى الْبَابِ الْآخِرِ مِنْ حُسْنِ الْوَصْفِ ، وَجُودَةِ الرَّصْفِ . وَلِذَلِكَ لَمَّا
أَحْسَنَ بَعْضُ الْوَاعِظِينَ فِي الْمَوْعِظَةِ ، وَأَبْلَغَ فِي الْأَعْتِبَارِ وَفِي تَرْفِيقِ الْقُلُوبِ ، وَلَمَّا لَمْ يَرِ
أَحَدًا يَحْشَعُ ، وَلَا عَيْنًا تَدْمَعُ ، قَالَ : يَا هُوْلَاءِ إِمَا أَنْ يَكُونَ بِي شَرٌّ ، أَوْ يَكُونَ بِكُمْ شَرٌّ .

وَقِيلَ لِحَسَائِرِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ ، وَعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْفَضْلِ الرَّقَاشِيِّ : مَا بَالُ
دُمُوعِكُمْ عِنْدَ الْفَضْلِ أَغْرَزَ ، وَعِنْدَ عَبْدِ الصَّمَدِ أَنْزَرَ ، وَكَلَامُ عَبْدِ الصَّمَدِ أَغْرَزَ ،

وَكَلَامُ الْفَضْلِ أَزْرَر؟ قَالُوا : لِأَنَّ قَلْبَ الْفَضْلِ أَرْقَ ، فَصَارَتْ قُلُوبُنَا أَرْقَ ،
وَالْقُلُوبُ تَبْجَارَى .

وقالوا : طُوبَى لِمُدَّوْحٍ إِذَا كَانَ لَلسَّدِجِ مُسْتَحِقًّا ، وَلِلدَّاعِي إِذَا كَانَ لِلأَسْتِجَابَةِ
أَهْلًا ، وَلِلْمُنْعِمِ إِذَا حَظِيَ بِالشُّكْرِ ، وَلِلشَّاكِرِ إِذَا حَظِيَ بِالقَبُولِ .

إِنِّي لَسْتُ أَحْسَبُ مِنْ مَدْحِكَ ، لِأَنِّي لَسْتُ أَتَزِيدُ فِي وَصْفِكَ ، وَلَسْتُ أُمْدِحُكَ
مِنْ جِهَةِ مَعْرُوفِكَ عِنْدِي ، وَلَا أَصِفُكَ بِتَقْدِيمِ إِحْسَانِكَ إِلَيَّ ، حَتَّى أَقْدِمَ الشُّكْرَ الَّذِي
هُوَ أَوْلَى بِالتَّقْدِيمِ ، وَأَفْضَلُ الصَّنْفِ الَّذِي هُوَ أَحَقُّ بِالتَّمْضِيلِ . وَفِي الخَبَرِ
المُسْتَفِيضِ ، وَالحَدِيثِ المَأْثُورِ : « مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَهَلَى . وَقَلِيلٌ بَاقٍ
خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ فَإِنْ » .

تَدَاكَرَ النَّاسُ عِنْدَ بَعْضِ الحُكَمَاءِ طَبَقَاتِ السَّابِقِينَ فِي الْفَضْلِ ، وَتَنَزِيلَ حَالَاتِهِمْ
فِي البرِّ ، وَمَنْ كَانَتْ الخِصْلَةُ المَحْمُودَةُ فِيهِ أَكْثَرَ ، وَالخِصْلَةُ الثَّانِيَةُ فِيهِ أَوْفَرَ ، فَقَالَ
ذَلِكَ الحَكِيمُ : لَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَسْبِقَ رَجُلٌ إِلَى الإِسْلَامِ ، وَكُلُّ شَيْءٍ ، فَقَدْ سَبَقَ
إِلَى تَقْدِيمِهِ نَاسٌ وَأَبْطَأَ آخَرُونَ ، وَلَيْسَ بِعَجَبٍ أَنْ يَفُوقَ الرَّجُلُ أَتْرَابَهُ فِي الرُّهْدِ ،
وَأَكْفَاءَهُ فِي الفِئَةِ ، وَأَمْثَالَهُ فِي الذَّبِّ : وَهَذَا يُوجَدُ فِي كُلِّ زَمَانٍ ، وَيُصَابُ فِي كُلِّ
البُلْدَانِ . وَلَكِنَّ العَجَبَ العَجِيبَ ، وَالبَّادِرَ العَرِيبَ ، الَّذِي تَهَيَّأَ فِي مَحْرَبِ الخَطَّابِ
رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَسْقَى لَهُ . وَذَلِكَ أَنَّهُ غَبَرَ عَشْرَ حَجِجٍ : يَفْتَحُ الفُتُوحَ ، وَيُدَوِّخُ البِلَادَ ،
وَيُصَرِّصُ الأَمْصَارَ ، وَيُدَوِّنُ الدَّوَاوِينَ ، وَيَفْرِضُ الفُرُوضَ ، وَيُرَتِّبُ الخِلاصَةَ ، وَيُدَبِّرُ
العَامَةَ ، وَيُنْجِي النَّفْسَ ، وَتَرْمِي إِلَيْهِ الأَرْضُ بِأَفْلاذِ كَيْدِهَا ، وَأَنْوَاعِ زُخْرُفِهَا ، وَأَصْنَافِ
كُنُوزِهَا ، وَمَكُونِ جَوْهَرِهَا ، وَيَقْتُلُ مَلُوكَهَا ، وَيَبِي مَمَالِكَهَا ، وَيَحُلُّ وَيَعْقِدُ ،
وَيُؤَلِّ وَيُعزِّلُ ، وَيَضَعُ وَيَرْفَعُ ، وَبَلَغَتْ حَيْلُهُ إِفْرِيقِيَّةً ، وَدَخَلَتْ خُرَاسَانَ : كُلُّ ذَلِكَ
بِالتَّسْدِيرِ الصَّحِيحِ وَالصَّبْطِ ، وَالإِتْقَانِ وَالقُوَّةِ ، وَالإِشْرَافِ ، وَالبَصَرِ النَّافِذِ ، وَالعَزْمِ

المتمكن . ثم قال : لا يجمع مصلحة الأمة ، ولا يحوشهم على حظهم من الألفة
وآجتماع الكلمة ، وإقامتهم على المحجة ، مع ضبط الأطراف ، وأمن البيضة - إلا لين
في غير ضعيف ، وشدة في غير عنيف . ثم غير بعد ذلك سينه كلها على وتيرة واحدة ،
وطريقة مطردة ؛ لا يبحر عن غيرها ، ولا يغيرها ، ولا يسامها ، ولا يزول عنها :
من خشونة المأكلي والملبس ، وغليظ المركب ، وظلف النفس عن صغيرها وكبيرها ،
ودقيقها وجليلها ، وكل ما يباحر الناس عليه ، لم يتغير في لقاء ولا في حجاب ،
ولا في معاملة ولا في مجالسة ، ولا في جمع ولا في منع ، ولا قبض ولا بسط :
والدنيا تنصب عليه صبا ، وتتدفق عليه تدفقا ، والحصلة من خصاله ، والحلة من
خلاله ؛ تدعو إلى الرغبة ، وتفتح باب الألفة ، وتقص المبرم ، وتفيد المروءة
وتفسح المنة ، وتحل العقدة ، وتورث الاعتزاز بطول السلامة ، والأتكال على دوام
الظفر ، ومواتاة الأيام ، ومتابعة الزمان . وكان ثباته عشر حجج على هذه الحال
أعجوبة ، ومن البدائع الغريبة . وبأقل من هذا يظهر العجب ، ويستعمل الكبير ،
ويظهر الجفاء ، ويقبل التواضع .

ونحن وإن كنا لا نستحيز أن نلحق أحدا بطباع عمر ومذهبه ، وفضل قوته ،
وتمام عزيمه ، فإننا لا نجد بدا من معرفة فضل كل من استقامت طريقته ، ودامت
خليقته ، فلم يتغير عند تتابع النعم ، وتظاهر الصنع ، وإن كانت النعم مختلفة
الأجناس ، ومفتاوتة في الطبقات . وكيف يلحق به أحد ؟ مع قوله : " لو أن
الصبر والشكر بعيان ما باليت أيهما ركبت " ، وإنما على حال لا ندع تعظيم كل من
بان من نظرائه في المرتبة ، وأشابهه في المنزلة ، إذ كان أدومهم طريقه ، وأشدهم
مسيره ، وأمضاهم على الجادة الوسطى ، وأقدرهم على المحجة العظمى .

ولا بد من أن يُعطى كل رئيس قسطه، وكل زمان حظه؛ ولا يُعجبنى قول
القائل: لم يدع الأول للآخر شيئاً، بل لعمري لقد ترك له العريض الطويل،
والثمين الخاطر، واللحم النج، والمنهج الرحب. ولو أن الناس مذجرت هذه الكلمة
على أفواه العوام، وأعجب بها الأعمار من الرجال - قلدوا هذا الحكم، وأسئسوا
لهذا المذهب، وأهملوا الروية، ويتسوا من الفائدة، لقد كان ارتفع من الدنيا نفع
كثير، وعلم عزيز.

وأى زمان بعد زمان النبي صلى الله عليه وآله أحق بالتفضيل، وأولى بالتقديم،
من زمان ظهرت فيه الدعوة الهاشمية، والدولة العباسية، ثم زمان المتوكل على الله،
والناصر لدين الله، والإمام الذي جل فكره، وكثر شغله بتصفية الدين وتهذيبه،
وتلخيصه وتنقيحه، وإعزازه وتأيينه، واجتماع كلمته، ورجوع ألقته. وقد
سمعت من يقول - ويستشهد العيان القاهر، والخبر المتظاهر - : مارأيت في زماننا
من كفاة السلطان وولائه، وأعوانه وحمانه؛ من كان يؤمل لملك، ويتقدم
في التأهب له، إلا وقد كان معه من البذخ والنفع، ومن الصاف والعجب، ومن
الخيلاء، ومن إفراط التغيير للأولياء، والتمسك على الخلطاء، ومن سوء اللقاء،
ملا خفاء به على كاتب ولا على عامل، ولا على خطيب ولا على أديب؛ ولا على
خاصي ولا على عامي.

بجمعت - والحمد لله على النعمة فيك - بين التواضع والتجرب، وبين الإنصاف
وقلة التريد؛ فلا يستطيع عدو معن، ولا كاشح مسر، ولا جاهل غبي، ولا عالم
مبرز، يزعم أنه رأى في شماثلك وأعطافك - عند تتابع النعم، وتظاهر المنن - تغيراً
في لقاء ولا في بشر عند المساءلة، ولا في إنصاف عند المعاملة، وأحتمل عند
المطاوله. الأمر واحد، والخلق دائم، والبشر ظاهر، والمجح ناقبه، والأعمال

زَاجِيهِ ، وَالنَّفُوسَ رَاضِيَهُ ، وَالْعُيُونَ نَاطِقَةَ بِمَحَبَّتِهِ ، وَالصُّدُورَ مَأْهُولَةَ بِالمُؤَدِّهِ ؛
وَالدَّاعِيَ كَثِيرَ ، وَالشَّاكِيَ قَلِيلَ ، وَأَنْتَ بِمُحَمِّدِ اللَّهِ تَزْدَادُ فِي كُلِّ يَوْمٍ بِالتَّوَاضُعِ نُبْلًا ،
وَبِالْإِنصَافِ فَضْلًا ؛ وَبِحَسَنِ اللِّقَاءِ مَحَبَّةً ، وَبِقِلَّةِ العُجْبِ هَيْبَةً .

وَقَالَ سَهْلُ بْنُ هُرُونَ فِي دَعَائِهِ لِبَعْضِ مَنْ كَانَتْ يَعْتَنِي بِسَأْنِهِ : اللَّهُمَّ زِدْهُ مِنْ
الْخَيْرَاتِ ، وَابْسُطْ لَهُ فِي الْبَرَكَاتِ ؛ حَتَّى يَكُونَ كُلُّ يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِهِ مُوفِيًا عَلَيَّ أَمْسِهِ ،
مُقْصِرًا عَنِ فَضِيلَةِ غَدِهِ . وَقَالَ فِي هَذَا الْمَعْنَى 'أَعَشَى' هَمْدَانٌ ، وَهُوَ مِنَ الْمُخْضَرِّمِينَ :

رَأَيْتُكَ أَمْسِ خَيْرَ بَنِي مَعَدٍّ * وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرَ مَنْكَ أَمْسِ ،

وَبَعْدَ غَدٍ تَزِيدُ الْخَيْرَ ضِعْفًا * كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبَادِ شَمْسِ !

قَدْ وَاللَّهِ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَأَسْبَغَ ، فَاشْكُرِ اللَّهَ وَأَخْلِصْ ؛ مَحْتَدِكَ شَرِيفَ ، وَأَرُومَتِكَ
كَرِيمَةَ ، وَالْعِرْقُ مُنْجِبَ ، وَالْعَدَدُ دَنْزَ ، وَالْأَمْرُ جَمِيلَ ، وَالرُّجُوهُ حَسَنَانَ ، وَالْعُقُولُ
رِزَانَ ؛ وَالْعَفَافُ ظَاهِرَ ، وَالذِّكْرُ طَيِّبَ ، وَالنِّعْمَةُ قَدِيمَةَ ، وَالصَّنِيعَةُ جَسِيمَةَ ؛
وَمَا مِثْلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

إِنَّ الْمَهَالِبَةَ الْكِرَامَ تَحْمَلُوا * دَفَعَ الْمَكَارَهَ عَنْ ذَوِي الْمَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهُمْ بِحُسْنِ حَدِيثِهِمْ * وَكَرِيمَ أَخْلَاقٍ بِحُسْنِ وُجُوهِهِ !

النِّعْمَةُ مَحْفُوظَةٌ بِالشُّكْرِ ، وَالْأَخْلَاقُ مُقَوِّمَةٌ بِالْأَدَبِ ، وَالْكَفَاءَةُ مَحْفُوفَةٌ بِالْحَدِيقِ ،
وَالْحَدِيقُ مَرْدُودٌ إِلَى التَّوَكُّلِ ، وَالصُّنْعُ مِنْ وَرَاءِ الْجَمِيعِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

هَذَا إِلَى مَا أَلْبَسَكَ اللَّهُ مِنَ الْقَبُولِ ، وَغَشَّكَ مِنَ الْمَحَبَّةِ ، وَطَوَّقَكَ مِنَ الصَّبْرِ .
فَبَقِيَ الْآنَ أَنْ تَنْتَهِيَ مَا أَنْتَ فِيهِ شَهْوَةٌ فِي وَزْنِ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ ، وَفِي مَقْدَارِ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ؛
فَإِنَّ الرِّغْبَةَ وَإِنْ قَوِيَتْ ، وَالرَّهْبَةَ وَإِنْ أَشْتَدَّتْ ؛ فَإِنَهُمَا لَا يَمْتَرَانِ مِنَ النِّشَاطِ ،

وَيَنْبَغُ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْمُبَاشَرَةِ وَالكَدِّ ، مَا تُثْمِرُهُ الشَّهْوَةُ وَإِنْ ضَعُفَتْ ، وَالْحَرَكَةُ
 مِنْ ذَاتِ النَّفْسِ وَإِنْ قَلَّتْ ، لِأَنَّ النَّفْسَ لَا تَسْمَحُ بِمَكْنُونِهَا كُلِّهَا ، وَتَجُودُ بِغَزْوِنِ
 قُوَاهَا أَجْمَعٍ ، إِلَّا بِالشَّهْوَةِ دُونَ كُلِّ عِلَّةٍ مُحَرَّكَةٍ ، وَكُلِّ سَبَبٍ مَهِيحٍ .

قال يحيى بن خالد بن جعفر بن يحيى حين تقلد الوزارة ، وتكاف النهوض بأعباء
 الخِلافة : أَيْ بُحَيِّ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَجْزَ : لِعَظِيمِ مَا تَقَلَّدْتَ ، وَجَسِيمِ مَا تَحْمَلْتُ .
 إِنِّي لَسْتُ آمِنٌ أَنْ تَنْفَسَخَ تَحْتَ ثِقَلِهَا تَفْسَخَ الْجَمَلُ تَحْتَ الْجَمَلِ الثَّقِيلِ .
 قال جعفر : لِكِنِّي أَرْجُو الْقُوَّةَ ، وَأَطْمَعُ أَنْ أَسْتَقِلَّ بِهَذَا الثَّقَلِ وَأَنَا مُبْتَهِلٌ غَيْرِ
 مَبْهُورٍ ، وَأَجِيءُ قَبْلَ السَّوَابِقِ وَأَنَا ثَانِي . يقول : وَأَنَا ثَانِي عِنَانِي ، لِأَنِّي لَمْ أَجْهَدْ
 قَرَسِي رَكْضًا . قال يحيى : إِنْ لَكُلِّ رَجَاءٍ سَبَابًا ، فَمَا سَبَبُ رَجَائِكَ ؟ قال :
 شَهْوَتِي لِمَا أَنَا فِيهِ ، وَالْمُشْتَهَى لِلْعَمَلِ لَا يَجِدُ مِنَ الْمَكْدِ مَا يَجِدُهُ الْعَسِيفُ الْأَسِيفُ .
 قال يحيى : إِنْ نَهَضْتَ بِثِقَلِهَا فِيهِذَا ، وَإِلَّا فَلَآ . وَأَنَا أَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَصْرِفَ شَهْوَتَكَ
 إِلَى حُبِّ ذَلِكَ ، وَهَوَاكَ إِلَى الْإِحْتِفَاطِ بِنِعْمَتِكَ : بِشُكْرِ الْمُصْلِحِينَ ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَى رَبِّ
 الْعَالَمِينَ .

وَحَقٌّ لِمَنْ كَانَ مِنْ غَرَسِ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَابْتِدَائِهِ ، وَمِنْ صَنَائِعِهِ وَأَخْتِيَارِهِ ،
 أَنْ يُجَرِّحَ عَلَى آدِيهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَعَلَى تَثْقِيهِ وَتَقْوِيمِهِ ، وَأَنْ يُحَقِّقَ اللَّهُ فِيهِ الْأَمَلَ ،
 وَيُخْرِجَ فِيهِ الطَّمَعَ ، وَأَنْ يَمُدَّ لَهُ فِي السَّلَامَةِ ، وَيُجْزِلَ لَهُ مِنَ الْغَنِيمَةِ ، وَيُطَيِّبَ ذِكْرَهُ ،
 وَيُعَلِّي كَعْبَهُ ، وَيَسِّرَ صَدِيقَهُ ، وَيَكْتُمَ عَدُوَّهُ .



وهذه نسخة رسالة تسمى الإغريضية ، أرسلها أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن
 سليمان المعري التنوخي إلى أبي القاسم الحسين بن علي المغربي ، وهي :

(١)
[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ الْإِعَانَةُ] .

السلام عليك أيتها الحكمة المغربيه ، والألفاظ العربيه ؛ أي هواء رفاقك ، وأى غيث سقائك ؛ برقه كالإحريض ، وودقه مثل الإغريض ؛ حلت الربوه ، وجلت عن الهبوه ؛ أقول لك ما قال أخو نمير ، لفتاة بنى عمير :

زَكَ لَكَ صَالِحٌ وَخَلَائِكُ دَمٌ * وَصَبْحِكَ الْإِيَامُنُ وَالسُّعُودُ!

لأننا أسف على قريك من الغراب الحجازي ، على حسن الزى ؛ لما أفقر ، ورب السفر ؛ فقدم جبال الروم في تو ، أنزل البرس من الجوى ؛ فالتفت إلى عطفه وقد شمت فأسى ، وترك التعيب أوتسى ؛ وهبط إلى الأرض فمشى في قيد ، وتمثل بيت دريد :

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ ، * فَلَمَّا عَلَاهُ قَالَ لِلْبَاطِلِ : أَبْعِدِ!

وأراد الإياب ، في ذلك الجلباب ؛ فكره الشنات ، فكمد حتى مات ؛ ورب ولي أغرق في الإكرام ، فوقع في الإبرام ؛ إبرام السأم ، لإبرام السلم ؛ فخرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء في الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ؛ وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدا ، رخو وشديد ، وهادٍ وذو تصعيد ؛ وهما في الجهر والهمس ، بمنزلة غد وأمس ؛ وجعل الله رتبته التي كالفاعل والمبتدا ، نظير الفعل في أنها لا تخفص أبدا ؛ فقد جعلني : إن حضرت عرف شاني ، وإن غبت لم يجهل مكاني ؛ كما في النداء ، والمخدوف من الابتداء ؛ إذا قلت : زيد أقبل ، والإيل الإيل ؛ بعد ما كنت كهاء الوقف إن ألقيت فواجب ، وإن ذكرت فغير لازب .

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريقية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن ، والمراد الثلج الشبيه به .

إني وإن غَدَوْتُ [في زمانٍ] كثير الدد ، كهاءِ العَدَدِ ؛ لَزِمَتِ المَذَكْرَ ، فَاتَتْ
بالمُنْكَرِ ؛ مَعَ إِنْفِ يَرَانِي فِي الْأَصْلِ ، كَأَلِفِ الْوَصْلِ ؛ يَذْكَرُنِي بغيرِ النَّوَاءِ ، وَيَطْرَحُنِي
عندِ الْأَسْتِغْنَاءِ ؛ وَحَالٍ كَالهَمْزَةِ تُبَدِّلُ الْعَيْنَ ، وَتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْنَ ؛ وَتَكُونُ تَارَةً حَرْفَ لَيْنَ ،
وَتَارَةً مِثْلَ الصَّامِتِ الرَّصِينِ ؛ فَهِيَ لَا تَتَّبَعُ عَلَى طَرِيقِهِ ، وَلَا تُدْرِكُ لَهَا صَوْرَةً
فِي الْحَقِيقَةِ ؛ وَنَوَائِبُ الْحَقِيقَةِ الْكَبِيرِ بِالصَّغِيرِ ، كَأَنَّهَا تَرْخِيمُ التَّصْغِيرِ ؛ رَدَّتِ الْمُسْتَحْلِسَ
إِلَى حُلَيْسَ ، وَقَابُوسًا إِلَى قُبَيْسَ ؛ لِأَمْدَنَ صَوْتِي بِتِلْكَ الْآلَاءِ ، مَدَّ الْكُوفِيَّ صَوْتَهُ
فِي هَؤُلَاءِ ؛ وَأَخْفَفَ عَنْ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا [الْوَزِيرِ] الرَّئِيسِ الْحَبْرَ ، تَخْفِيفَ الْمَدْنِيِّ مَا قَدَرَ
عَلَيْهِ مِنَ النَّبْرِ ؛ إِنْ كَاتَبْتُ فَلَسْتُ مُتَمَسِّسَ جَوَابَ ، وَإِنْ أَسْمَهْتُ فِي الشُّكْرِ فَلَسْتُ طَالِبَ
ثَوَابَ ؛ حَسْبِي مَا لَدَيَّ مِنْ أَيْدِيهِ ، وَمَا عَمَّرَ مِنْ فَضْلِ السَّيِّدِ الْأَكْبَرِ أَبِيهِ ؛ أَدَامَ اللَّهُ
لَهَا الْقَدْرَ مَا دَامَ الضَّرْبُ الْأَوَّلُ مِنَ الطَّوِيلِ صَحِيحًا ، وَالْمُنْسَرِحُ خَفِيفًا سَرِيحًا ؛
وَقَبَضَ اللَّهُ بَيْنَ عَدُوِّهِمَا عَنْ كُلِّ مَعْنٍ ، قَبَضَ الْعَرُوضِ مِنْ أَوَّلِ وَزْنٍ ؛ وَجُمِعَ لَهُ
الْمَهَانَةُ إِلَى التَّقْيِيدِ ، كَمَا جُمِعَا فِي ثَانِي الْمَدِيدِ ؛ وَقَلِمَ قَلَمَ الْفَسِيطِ ، وَخُيِّلَ كَسْبَاعِيَّ
الْبَسِيطِ ؛ وَعَصَبَ [اللَّهُ] الشَّرْبَهَامَةَ شَانِيهِمَا وَهُوَ مَجْزُوقٌ ، عَصَبَ الْوَافِرِ الثَّلَاثِ وَهُوَ
مَجْزُوقٌ ؛ بَلْ أَضْمَرْنَاهُ الْأَرْضَ إِضْمَارَ ثَالِثِ الْكَامِلِ ، وَعَدَاهُ أَمْلُ الْآمِلِ ؛ وَسَلِمَ سَيِّدَانَا
أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُمَا وَمِنْ أَحْبَابِهِ وَقَرَّبَاهُ سَلَامَةً مُتَوَسِّطِ الْمَجْمُوعَاتِ ، فَإِنَّهُ آمِنٌ مِنْ
الْمُرُوعَاتِ ؛ فَقَدْ أَفْتَنْتُ فِي نِعْمَتِهِمَا الرَّائِعَةِ ، كَأَفْتِنَانِ الدَّائِرَةِ الرَّابِعَةِ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهَا أُمَّ سِتَّةٍ
مَوْجُودِينَ ، وَثَلَاثَةِ مَقْقُودِينَ .

وَأَنَا أَعِدُّ نَفْسِي مُرَاسَلَةَ حَضْرَةِ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْلِ ، وَثُرَيَّا سُهَيْلَ ؛
هَذِهِ الْقَمَرُ ، وَتِلْكَ عُمَرُ ؛ وَأَعْظَمُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ ، إِعْظَامًا فِي مِقَّةٍ وَبَعْضَ الْإِعْظَامِ

فِي مَمَّتْ ؛ فَقَدْ نَصَبَ لِلدَّابِّ قُبَّةَ صَارَ الشَّامُ فِيهَا كَشَامَةَ الْمَغِيبِ ، وَالْعِرَاقُ كَعِرَاقِ
 الشَّعِيبِ ؛ أَحْسَبَ ظِلَالُهَا مِنَ الْبَرْدَيْنِ ، وَأَغْنَتِ الْعَالَمَ عَنِ الْهِنْدَيْنِ ؛ هِنْدِ الطَّيْبِ ،
 وَهِنْدِ النَّسِيبِ ؛ رَبَّةَ الْخِمَارِ ، وَأَرْبَابَ قِصَارِ ؛ أَخْدَانِ التَّجْرِ ، وَخَدِينَةَ الْحَجْرِ .
 إِحَامِلَةَ طَوْقٍ مِنَ اللَّيْلِ ، وَبُرْدٍ مِنَ الْمُرْتَبِعِ مَكْشُوفِ الدَّلِيلِ ؛ أَوْفَتِ الْأَشْيَاءُ ، فَقَالَتْ
 لِلْكَئِيبِ مَا شَاءَ ؛ تُسَمِعُهُ غَيْرَ مَفْهُومٍ ، لَا بِالرَّمْلِ وَلَا بِالْمَزْمُومِ ؛ كَأَن سَجَّعَهَا قَرِيبُضُ ،
 وَمُرَاسِلَهَا الْغَرِيبُضُ ؛ فَقَدْ مَادَ لَشَجْوِهَا الْعُودَ ، وَفَقَّيْدُهَا لَا يَعُودُ ؛ تَتَدَبَّ هَدِيلاً فَاتِ ،
 وَأَتِيحُ لَهُ بَعْضُ الْآفَاتِ - بِأَشْوَقَ إِلَى هَدِيلِهَا مِنْ عَبْدِهِ إِلَى مُنَاسِمَةِ أَنْبَائِهِ ، وَلَا أَوْجَدَ
 عَلَى إِفْنِهَا مِنْهُ عَلَى زِيَارَةِ فَنَائِهِ ؛ وَوَلَيْسَتْ الْأَشْوَاقُ ، لَذَوَاتِ الْأَطْوَاقِ ؛ وَلَا عِنْدَ
 السَّاجِمِ ، عَبْرَةٌ مَتَرَاجِعِهِ ؛ إِنَّمَا رَأَتْ الشَّرْطَيْنِ ، قَبْلَ الْبُطَيْنِ ؛ وَالرِّشَاءِ ، بِمَدِّ
 الْعِشَاءِ ؛ فَخَكَّتْ صَوْتَ الْمَاءِ فِي الْخَرِيرِ ، وَأَتَتْ بَرَاءَ دَائِمَةِ التَّكْرِيرِ ؛ فَقَالَ جَاهِلٌ
 فَقَدَّتْ حَمِيمًا ، وَتَكَلَّتْ وَلَدًا كَرِيمًا : وَهِيَهَاتَ يَا بَاكِيَةً أَصْبَحْتِ ، فَصَدَحْتِ ؛
 وَأُمْسَيْتِ ، فَتَنَاسَيْتِ ؛ لَا هَمَامَ لَا هَمَامَ ، مَا رَأَيْتِ أَعْجَبَ مِنْ هَاتِفِ الْحَمَامِ ؛ سَلِمَ
 فَنَاحَ ، وَصَمَّتْ وَهُوَ مَكْسُورُ الْجَنَاحِ ؛ إِنَّمَا الشَّوْقُ لِمَنْ يَدِّ كَرَفِي كُلِّ حِينِ ، وَلَا يُدْهِلُهُ
 مَضَى السَّنِينِ .

وَسَيِّدُنَا الْوَزِيرَ أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءَهُ الْقَائِلُ النَّظْمَ فِي أَدِّ كَاءِ مِثْلِ الزَّهْرِ ، وَفِي النَّقَاءِ مِثْلُ
 الْجَوْهَرِ ؛ تَحْسَبُ بِإِدْرَتِهِ التَّاجَ ، أَرْتَفَعُ عَنِ الْجَحَاجِ ؛ وَغَايِرَتِهِ الْجِجْلَ ، فِي الرَّجْلِ ؛ يَجْمَعُ
 بَيْنَ اللَّفْظِ الْقَلِيلِ ، وَالْمَعْنَى الْجَلِيلِ ؛ جَمَعَ الْأَفْعَوَانَ فِي لُغَايِهِ بَيْنَ الْقَلَّةِ ، وَفَقَدِ الْبِلَّةَ ؛
 خَشُنَ ، فَحَسُنَ ؛ وَلَا نَ ، فَا هَانَ ؛ لَيْنُ الشَّكِيرِ ، يَدُلُّ عَلَى عُنُقِ الْمُحْضِرِ ، وَحَرَشُ
 الدَّيْنَارِ ، آيَةُ كَرَمِ النَّجَارِ ؛ فَصُنُوفِ الْأَشْعَارِ بَعْدَهُ كَأَلْفِ السَّلَامِ ، يُلْفِظُ بِهَا فِي الْكَلَامِ ،
 وَلَا تَثْبُتُ لَهَا هَيْئَةٌ بَعْدَ اللَّامِ ؛ حَلَّصَ مِنْ سَبِّكَ النَّقْدَ خُلُوصَ الذَّهَبِ ، مِنْ اللَّهَبِ ؛
 وَاللُّجَيْنِ ، مِنْ يَدِ الْقَيْنِ ؛ كَأَنَّهُ لَأَلْ ، فِي أَعْنَاقِ حَوَالِ ؛ وَسِوَاهُ لَطَّ ، فِي عُنُقِ نَطَّ ؛

ما خانتَه قُوَّةُ الخاطرِ الأَمِينِ ، ولا عيبَ بسنادٍ ولا تَضْمِينِ ؛ وأينَ النُّثْرَةُ ، من العَثْرَةِ ؛ والغَرَقْدُ ، من الفَرَقْدِ ؟ ؛ فالسَّاعِي في أثرِهِ فارسٌ عَصاً بَصِيرٌ ، لا فَارِسُ عَصاً قَصِيرٌ .

وأنا نبتٌ على هَذِهِ الطَّوِيَّةِ ثَبَاتَ حَرَكََةِ البِنَاءِ ، مُقِيمٌ تِلْكَ الشَّهَادَةَ بغيرِ اسْتِنْدَاءٍ ؛ غَنِيٌّ عَنِ الأَيْمَانِ فلا عَدَمَ ، مُقْسِمٌ عَلَى ما قَلْتُ فلا حِنْتَ ولا نَدَمَ ؛ وإِنَّمَا تُحِبُّ الدَّرَّةَ ، لِلحُسْنَاءِ الحُزْوَ ؛ وَيُجَادُ بِالْيَمِينِ ، فِي العَلَقِ الثَّمِينِ ؛ ما أَنفَسَهُ خَاطِرًا أَمْتَرَى الفِضَّةَ ، من الفِضَّةِ ؛ والوَصَاءَ ، من مِثْلِ الحِصَاءِ ؛ وَرُبَّمَا نَزَعَتِ الأَشْبَاهُ ، ولم يُشَبَّهِ المَرءُ أباهُ ؛ ولا غَرَوَ لذلِكَ : الحُضْرَةُ أمُ اللَّهيبِ ، والنَّخْرَةُ بِنْتُ الغَرِيبِ .

وكذلِكَ سَيِّدُنَا وَلَدٌ من سَعْرِ المَتَقَدِّمِينَ ، حِكْمَةٌ لِلخُنْفَاءِ المَتَدَيِّبِينَ ؛ كَمَ لَهُ من قَافِيَةِ تَبَيُّ السُّودِ ، وَتَبَيُّ الحَسُودِ ؛ كَلِمَتٌ ، من شُرْبِ العَاقِقَةِ الكَمِيَّتِ ؛ نُشُورُهُ قَرِيبٌ ، وَحِسَابُهُ تَثْرِبٌ ؛ أَيْنَ مُشَبَّهُو النِّسَاقَةِ بالفِئْدَنِ ، وَالصَّحَّاصِحِ بِرِداءِ الرِّدَنِ ؛ وَجَبَ الرِّحِيلُ ، عَنِ الرَّبْعِ المُحِيلِ ؛ نَسَأَ بَعْدَهُمُ وَاصِفاً ، غَوَدِرَ رَأْيَهُ كالمُنَاصِفِ ؛ إِذَا سَمِعَ الخَافِضُ صِفَتَهُ لِلسَّهْبِ الفَيْسِحِ ، وَالرَّهْبِ الطَّلِيحِ ، وَدَّ أَنْ حَشِيَّتَهُ بَيْنَ الأَحْنَاءِ ، وَخَلُوقَهُ عَصِيمِ الهِنَاءِ ؛ وَحَلَمَ بِالقُودِ ، فِي الرُّقُودِ ؛ وَصَاغَ بُرَى ذَوَاتِ الأُرْسَانِ ، من بُرَى البِيضِ الحِسانِ ؛ شَنَفَا لُدْرَ النُّحُورِ ، وَعُيُونِ الحُورِ ؛ وَشَغَفَا بَدْرَ بَكِي ، وَعَيْنِ مِثْلِ الرِّكِيِّ ؛ وَإِعْرَاضًا عَنِ بُدُورِ ، سَكَنَ فِي الخُدُورِ ؛ إِلَى مُحُولِ ، كَأَهْلَةِ المُحُولِ ؛ فَهِنَّ أَشْبَاهُ القَيْسِيِّ ، وَنِعَامِ السَّيِّ ؛ وَإِنْ أَحَدٌ فِي نَعْتِ [الخَلِيلِ]^(١) فَيَاخِيبَةٌ من سَمِيئَةٍ^(٢) الأَوَايِدِ بِالتَّقْيِيدِ ، وَشَبَّهَ الخَافِرَ بِقَعْبِ الوَلِيدِ ؛ نَعْتًا غَبَطَ بِهِ الهَجِينُ المُنْسُوبُ ، وَالبَازِيُّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حوائجها . وفي الأصل شَبَّهَ بالسَّيِّ .

الْيَعْسُوبُ؛ إِذْ رُزِقَ مِنَ الْخَيْرِ، مَا لَيْسَ لِكَثِيرٍ مِنْ سِبَاعِ الطَّيْرِ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ عَلَى الصَّغَرِ، سَمِيَ بَعْضُ الْغُرَبِ؛ وَقَدْ مَضَى حَرْسٌ، وَخَفَتْ جَرْسٌ؛ وَالْقَالِعُ، أَبْغَضُ طَالِعٍ؛ وَالْأَزْرَقُ، يُحْتَبَكُ عَنْهُ الْفَرْقُ.

فَالآنَ سَلِمَتِ الْجَبْهَةُ مِنَ الْمَعْضِ، وَشَمِلَ بَعْضُهَا بَرَكَاتُ بَعْضٍ؛ فَأَيَّنَ النَّطِيحُ، أَنَّ رَبَّهُ لَا يَطِيحُ؛ وَالْمَهْقُوعُ، نَجَاءٌ رَأَى كَيْهَ مِنَ الْوُقُوعِ؛ فَلَنْ يُحْرَبَ، قَائِدُ الْمُقْرَبِ؛ وَلَنْ يُرْجَلَ، سَائِسُ الْأَرْجَلِ؛ وَالْعَابُ، وَإِنْ لَحِقَ الْكِعَابُ؛ فَإِنَّهُ نَاكِبٌ، عَنْ نَاقِلَاتِ الْمَرَاكِبِ. وَقَالَتْ خَيْفَانَةُ أَمْرِي الْقَيْسُ: الدَّبَاءَةُ، لِرَاعِي الْمَاءَةِ؛ وَالْأَنْفِيَّةُ، لِلْقِدْرِ الْكَفِيَّةِ؛ تَقَمَّاعاً عَلَى جَاعِلٍ غُدْرَهَا كَقُرُونِ الْعُرُوسِ، وَجَبْهَتَهَا كَمُحَدِّفِ الثَّرُوسِ؛ وَأَيُّهَا لَلِكِنْدِيِّ، قَوَافٍ كَهَيْجَمَةِ السَّعْدِيِّ:

إِذَا أَصْطَكَّتْ بِضَيْقِي حَجْرَتَاهَا * تَلَاقِي الْعَسْجَدِيَّةَ وَاللِّطِيمُ!

فَالْقَسِيْبُ، فِي تَضَاعِيفِ النَّسِيبِ، وَالشَّبَابُ فِي ذَلِكَ التَّشْبِيهِ؛ لَيْسَ رَوِيَهُ بِمَقْلُوبٍ، وَلَكِنَّهُ مِنْ إِرْوَاءِ الْقُلُوبِ؛ قَدْ جَمَعَ اللَّيْلُ مَاءَ الصَّبَا، وَصَلِيلَ ظَمَاءِ الظُّبَا؛ فَالْمِصْرَاعُ كَوَذِيلَةِ الْغَرِيْبَةِ، حَكَتِ الزَّيْنَةَ وَالرَّيْبَةَ؛ وَأَرَتِ الْحَسَنَاءُ سَنَاهَا، وَالسَّمْعَجَةَ مَا عَنَاهَا؛ فَأَمَّا الرَّاحُ فَلَوْ ذَكَرَهَا لَشَفَّتْ مِنَ الْهَرَمِ، وَأَتَتْكَ مِنَ الْكَرَمِ إِلَى الْكَرَمِ؛ وَلَمْ تَرَضْ دِنَانُ الْعَقَارِ، بِلِبَاسِ الْقَارِ؛ وَتَسْجَعُ الْعَنَّاكِبُ، عَلَى الْمَنَاكِبِ؛ وَلَكِنْ تُكْسِي مِنْ وَشِي ثِيَابَا، وَيُجْعَلُ طَلَاؤُهَا زِرْيَابَا؛ وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ ذَكَرَ خَيْمَةً يَغِطُ الْمِسْكَ جَارَهَا مِنَ الشَّيَامِ، وَيُوَدُّ سَعْدُ الْأَخِيْبَةِ أَنَّهُ سَعْدُ الْحِيَامِ.

وَوَقَفْتُ عَلَى «مُحْتَصِرِ إِصْلَاحِ الْمَنْطِقِ» الَّذِي كَادَ لِسِمَاءِ الْأَبْوَابِ، يُعْنَى عَنْ سَائِرِ الْكِتَابِ؛ فَعَجِبْتُ كُلَّ الْعَجَبِ مِنْ تَقْيِيدِ الْأَجْمَالِ، بِطِلَاءِ الْأَحْمَالِ؛ وَقَلْبِ الْبَحْرِ،

إلى قَلْبِ النَّحْرِ؛ وإِجْرَاءِ الْفُرَاتِ، في مِثْلِ الْأَنْحَرَاتِ؛ شَرَفًا لَهُ تَصْنِيفًا شَفَى الرَّيْبِ،
وَكَفَى من أبنِ قُرَيْبٍ؛ ودَلَّ على جَوَامِعِ اللُّغَةِ بالإيْماءِ، كما دَلَّ الْمُضْمَرُ على ما طَالَ
من الأَسْمَاءِ.

أَقُولُ في الإِخْبَارِ: أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الْجَبَّارِ؛ إِذَا أَضْمَرْتَهُ، عُرِفَ مَتَى قُلْتُ:
أَمَرْتُهُ؛ وَأَبَلَّ من المَرَضِ والمَمْرِيضِ، بما أَسْقَطَ من شُهُودِ القَرِيضِ؛ كَأَنَّهُمْ
في تِلْكَ الحَالِ، شَهِدُوا بِالحَالِ؛ عِنْدَ قَاضٍ، عَرَفَ أَمَانَتَهُمُ بِالِاتِّقَاضِ؛ على حَقِّ
عَلِمِهِ بِالْعَيَانِ، فَاسْتَغْنَى فِيهِ عَن كُلِّ بَيَانٍ.

وقد تَأَمَّلْتُ شَوَاهِدَ "إِصْلَاحِ المَنْطِقِ" فوجدتُهَا عَشْرَةَ أَنْوَاعٍ في عِدَّةٍ إِخْوَةَ
الصِّدِّيقِ، لَمَّا تَظَاهَرُوا على غير حَقِيقٍ؛ وَتَزِيدُ على العَشْرَةِ بِوَأَحِدٍ، كَلَّخَ لِيُوسُفَ
لَمْ يَكُنْ بِالشَّاهِدِ. والشُّعْرُ الأَوَّلُ وَإِنْ كَانَ سَبَبَ الأَثَرِ، وَصَحِيفَةَ المَأْثَرِ؛ فَإِنَّهُ كَذُوبُ
القَالَه، نَمُومُ الإِطَالِه؛ وَإِنَّ قِفَانِكَ [على حُسْنِهَا]، وَقَدِيمُ سِنِّهَا؛ لِقُرْبِهَا بِمَا يُبْطِلُ
شَهَادَةَ العَدْلِ الرِّضَا، فَكَيْفَ بِالبِنِيِّ الأَثْنِيِّ؛ قَاتَلَهَا اللهُ عَجُوزًا لَوْ كَانَتْ بِشَرِيهِ،
كَانَتْ من أَغْوَى البَرِيهِ. وَقَد تَمَادَى بِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ اللهُ الأَجْتِهَادُ، في إِقَامَةِ
الأَشْهَادِ؛ حَتَّى أَتَشَدَّ رَجَزَ الصَّبِّ، وَإِنْ مَعَدًّا من ذَلِكَ لِجِدِّ مُغْضَبٍ؛ أَعْلَى فَصَاحْتِهِ
يُسْتَعَانُ بِالقَرَضِ، وَيُسْتَشْهَدُ بِأَحْنَاشِ الأَرْضِ؛؛ مَارُؤُبَةُ عِنْدَهُ في نَفِيرِ، فَمَا قَوْلِكَ
في صَبِّ دَامِي الأُظْطَافِيرِ؟؛ وَمَنْ نَظَرَ في كِتَابِ يَعْقُوبَ وَجَدَهُ كَالْمُهْمَلِ، إِلا بِأَبِ فَعَلٍ
وَفَعَلٍ؛ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ على عَشْرِينَ حَرْفًا: سِتَّةَ مُدْلَقِهِ، وَثَلَاثَةَ مُطَبَقِهِ؛ وَأَرْبَعَةَ من
الحُرُوفِ الشَّدِيدَةِ، وَوَأَحَدٌ من المَزِيدَةِ؛ وَنَفِثَتَيْنِ: النَّاءِ وَالدَّالِ، وَأَخْرَمْتَعَالٍ؛
وَالأَخْتَيْنِ العَيْنِ وَالحَاءِ، وَالشَّيْنِ مُضَافَةً إلى حَيْرِ الرَّاءِ. فَوَحَّمَ اللهُ أبا يُوسُفَ لَوْ عَاشَ
لَفَاطَ كَمَدًا، أَوْ أَحْفَاطَ حَسَدًا، سَبَقَ أبنِ السَّكِّيتِ ثُمَّ صَارَ السَّكِّيتِ، وَسَمَّقَ ثُمَّ حَارَ
وَتَدًّا لِلبَيْتِ؛ كَانَ الكِتَابُ تِبْرًا في تُرَابِ مَعْدِنٍ، بَيْنَ الحُثِّ وَبَيْنَ المُتَدَّنِ؛ فَاسْتَخْرَجَهُ

سَيِّدَنَا وَأَسْتَوْشَاهُ ، وَصَقَلَهُ فِكْرَهُ وَوَشَّاهُ ؛ فَعَبَطَهُ النَّيِّرَاتُ عَلَى التَّرْقِيشِ ، وَالْأَلِ النَّقِيشِ ؛
فَهُوَ مَحْبُوبٌ لَيْسَ بِهَيْنٍ ، عَلَى أَنَّهُ ذُو وَجْهَيْنِ ؛ مَا نَمَّ قَطُّ وَلَا هَمَّ ، وَلَا نَطَقَ وَلَا أَرَمَ ؛
فَقَدْ نَابَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الصَّمِيمِ ، مَنَابَ مِرْآةِ الْمُتَنَجِّمِ فِي عِلْمِ التَّنْجِيمِ ؛ شَخْصُهَا ضَيْلٌ
مَلْمُومٌ ، وَفِيهَا الْقَمَرَانِ وَالنُّجُومُ .

وَأَقُولُ بَعْدُ فِي إِعَادَةِ اللَّفْظِ : إِنَّ حُكْمَ التَّأْلِيفِ فِي ذِكْرِ الْكَلِمَةِ مَرَّتَيْنِ ، كَلْتَجْمَعُ
فِي النِّكَاحِ بَيْنَ الْأَخْتَيْنِ ؛ الْأُولَى حِلُّ يُرَامُ ، وَالثَّانِيَةِ بَسْلٌ حَرَامٌ ؛ كَيْفَ يَكُونُ
فِي الْهُودَجِ لِمَيْسَانَ ، وَفِي السَّبَّةِ تَحْمِيسَانَ ؛ يَا أُمَّ الْفَتَيَاتِ حَسْبُكَ مِنَ الْهُنُودِ ، وَيَا أَبَا
الْفَتَيَانِ شَرَعُكَ مِنَ السُّعُودِ ؛ عَلَيْكَ أَنْتِ بَزِينَبَ وَدَعْدُ ، وَسَمَّ أَيُّهَا الرَّجُلُ بِسَيِّئِ سَعْدُ ؛
مَا قَلَّ أَثِيرٌ ، وَالْأَسْمَاءُ كَثِيرٌ .

مَثَلُ يَعْقُوبَ مَثَلُ خُودٍ كَثِيرَةٍ الْحُلِيِّ ضَاعَفَتْهُ عَلَى التَّرَاقِ ، وَعَطَّلَتِ الْخَضِرَ وَالسَّاقِ ؛
كَانَ يَوْمٌ قَدُومٌ تِلْكَ النُّسْخَةُ يَوْمَ ضَرِيْبِ حَشَرِ الْوَحْشِ مَعَ الْإِنْسِ ، وَأَضَافَ
الْحِنْسَ إِلَى غَيْرِ الْحِنْسِ ؛ وَلَمْ يَحْكَمْ عَلَى الطَّبَّاءِ ، بِالسَّبَاءِ ؛ وَلَا رَمَى الْآجَالَ ، بِالْأَوْجَالَ ؛
وَلَكِنَّ الْأَضْدَادَ تَجْتَمِعُ ، فَتَسْتَمِعُ ؛ وَتَنْصَرِفُ بِلَذَاتِ ، مِنْ غَيْرِ أَدَاةٍ ؛ وَإِنْ عَبَدَهُ
مُوسَى لِقَيْنِي تَقَابَا ، فَقَالَ : هَلُمَّ كِتَابَا ؛ يَكُونُ لَكَ شَرَفَا ، وَبِمَوَالَاتِكَ فِي حَضْرَةِ سَيِّدِنَا
- أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ - مُعْتَرِفَا ؛ فَتَلَوْتُ عَلَيْهِ هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ : ﴿ إِنَّ لَكَ أَنْ لَا تَجُوعَ فِيهَا
وَلَا تَعْرَى وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى ﴾ . وَأَحْسَبُهُ رَأَى نُورَ السُّؤْدُودِ فَقَالَ لِمُخْلِيفِهِ ،
مَا قَالَهُ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ لِأَهْلِيهِ ؛ : ﴿ إِنِّي آتَيْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ
أَوْ آجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ . فَلَيْتَ شِعْرِي : مَا يَطْلُبُ ؟ أَوْ قَبَسٌ ذَهَبٌ ؟ أَمْ قَبَسٌ
لَهَبٌ ؟ بَلْ يَنْشَرُفُ بِالْأَخْلَاقِ الْبَاهِرَةِ ، وَيَتَبَرَّكُ بِالْأَحْسَابِ الطَّاهِرَةِ .

(١) السَّبَّةُ الزَّمَنُ مِنَ الدَّهْرِ ، وَلَعَلَّهُ يَرِيدُ بِهَا الْأَسْبُوعَ كَمَا جَاءَ فِي شَرْحِ رِسَالَةِ الْمُعْزَى الْمَوْجُودَةِ

بَاتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلِي يَقْتَسِنُ لَهَا * جَزَلَ الْجَدَا غَيْرَ حَوَارٍ وَلَا دَعْرَا!

وقد آب من سَفَرِهِ الأَوَّلَى ومعه جَدْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمَةٍ : إن لِمِسْتُ فَنَارُ إِبْرَاهِيمَ ،
أَوْ أُونِسْتُ فَنَارُ الكَلِيمِ ؛ وَأَجْتَنِي بِهَارًا حَبَّتْ بِهِ المَرَازِبَةُ كِسْرَى ، وَحِجْلٌ فِي فَكَاكِ
الْأَسْرَى ؛ وَأَدْرَكَ نُوحًا مع القوم ، وَبَقِيَ غَضًّا إلى اليَوْمِ ؛ وَمَا أَتَجَمَّعَ مُوسَى إِلَّا الرُّوضُ
العَمِيمِ ، وَلَا أَتَبَعَ إِلَّا أَصْدَقَ مُقِيمٍ ؛ وَوَرَدَ عَبْدُهُ الرَّهْبِيُّ مِنْ حَضْرَتِهِ المَطْهَرَةِ وَكَانَتْ
زَهْرَةً بَقِيعَ ، أَوْ وَرْدَةً رَبِيعَ ؛ كَثِيرَةُ الوَرَقِ ، طَيِّبَةُ العَرَقِ ؛ وَليس هُوَ فِي نِعْمَتِهِ كَالرَّيْمِ ،
فِي ظِلَالِ الصَّرِيمِ ؛ وَالجَنَابِ ، فِي السَّحَابِ المُنْجَابِ ؛ لِأَنَّ الظَّلَامَ يَسْفِرُ ، وَالعَنَامَ
يَسْفِرُ ؛ وَلِكِنَّهُ مِثْلُ التُّونِ فِي الجُبِّهِ ، وَالأَعْقَرِ تَحْتِ جِرْيِهِ .

وقد كُنْتُ عَرَفْتُ سَيِّدَنَا فِي مَا سَلَفَ أَنَّ الأَدَبَ كَعُهُودٍ فِي غِيبٍ عُهُودَ ، أَرَوَّتْ
النَّجَادَ فَمَا ظَنُّكَ بِالوُهُودِ ؟ ؛ وَأَنَّى نَزَلْتُ مِنْ ذَلِكَ الغَيْثِ ببلدِ طَسْمِ ، كَأَثَرِ الوَسْمِ ؛
مَنْعَهُ القِرَاعِ ، مِنْ الإِمْرَاعِ ؛ يَابُوسَ ، بِنِي سَدُوسَ ؛ العُدُو حَازِبَ ، وَالكَلَاءُ
عَازِبَ ؛ يَاحْضَبَ بِنِي عَبْدِ المَدَانِ ، ضَانٌّ فِي الحُرْبِثِ وَإِبِلٌ فِي السَّعْدَانِ ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ
ذَلِكَ أَتَعَبْتُ الأَظْلَ ، فَلَمْ أَجِدْ إِلَّا الحَنْظَلَ ؛ فَلَيْسَ فِي اللَّيِّدِ ، إِلَّا الهَيْبِذُ ؛ جَنَيْتُهُ مِنْ
شَجَرَةٍ أَجْتَنَيْتُ مِنْ فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ . لَبَنُ الإِبِلِ عَنِ المُرَارِ مَرَّةً ، وَعَنِ
الأَرَاكِ طَيِّبٌ حَرٌّ .

هَذَا مِثْلِي فِي الأَدَبِ . فَأَمَا فِي النَّسَبِ ؛ فَلَمْ تَزَلْ لِي بِمَجْدِ الله تَعَالَى وَبِقِيَامِ سَيِّدِنَا
بُلْغَتَانِ : بُلْغَةُ صَبْرٍ ، وَبُلْغَةُ وَقْرِ ؛ أَنَا مِنْهُمَا بَيْنَ الدَّلِيلَةِ المَرْعِيَّةِ ، وَالأَلْقُوجِ الرَّبِيعِيَّةِ ؛ هَذِهِ
عَامٌ ، وَتِلْكَ مَأَلٌ وَطَعَامٌ ؛ وَالقَالِيلُ ؛ سَلَّمَ إِلَى الحَلِيلِ ؛ كَالْمَصْلِيِّ يُرِيقُ الضَّمُوءَ ، بِأَسْبَاحِ
الْوَضُوءِ ؛ وَالتَّكْفِيرِ ، بِإِدَامَةِ التَّعْفِيرِ ؛ وَقَاصِدُ بَيْتِ الله يَغْسِلُ الحُوبَ ، بِطُولِ الشُّحُوبِ .

وأنا في مكاتبة حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْجَلِيلَةِ، وَالْمَيْلِ عَنْ حَضْرَةَ سَيِّدِنَا الْأَجَلِّ وَالِدِهِ
 - أَعَزَّ اللَّهُ نَصْرَهُ - كَسَبَ بِنِ يَعْرُبَ، لِمَا أَتَهَلَ فِي التَّقَرُّبِ؛ إِلَى خَالِقِ الثُّورِ، وَمُصَرَّفِ
 الْأُمُورِ، نَظَرَ فَلَمْ يَرَأْ شَرَقَ مِنَ الشَّمْسِ يَدَا، فَسَجَدَ لَهَا تَعَبُدًا . وَغَيْرُ مَلُومٍ سَيِّدِنَا
 لَوْ أَعْرَضَ عَنْ شَقَائِقِ الثَّمَانِ الرَّبِيعِيِّ، وَمَدَائِحِ الْيَرْبُوعِيِّ، مَلًّا مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْبَلَدِ
 الْمُضَافِ إِلَى هَذَا الْأَسْمِ، فَغَيْرُ مُعْتَدِرٍ، مَنْ أَبْغَضَ لِأَجْلِهِمْ بَنِي الْمُنْذَرِ؛ وَهُمْ إِلَى
 حَضْرَتِهِ السَّنِيَّةِ رَجُلَانِ : سَائِلٌ، وَقَائِلٌ؛ فَأَمَّا السَّائِلُ فَأَلْحَ، وَأَمَّا الْقَائِلُ فَغَيْرُ
 مُسْتَمْلَحٍ؛ وَقَدْ سَتَرْتُ نَفْسِي عَنْهَا سِتْرَ الْجَمِيسِ، بِالْقَمِيصِ؛ وَأَنْحَى الْهَيْتَرَ، بِسُجُوفِ
 السِّتْرِ؛ فَظَهَرَ لِي فَضْلُهُ الَّذِي مَثَلُهُ مَثَلُ الصُّبْحِ إِذَا لَمَعَ تَصَرَّفَ الْحَيَوَانُ فِي شُؤُونِهِ
 وَخَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ الْيَرْبُوعِ، وَبَرَزَ الْمَلِكُ مِنْ أَجْلِ الرَّبُوعِ، وَقَدْ يُوَلِّعُ الْهَجْرَسُ؛ بِأَنْ
 يَجْرَسُ؛ فِي الْبَلَدِ الْجَرْدِ، قُدَّامَ الْأَسَدِ الْوَرْدِ . وَإِنِّي خُبِرْتُ أَنَّ تِلْكَ الرِّسَالَةَ الْأُولَى
 عُرِضَتْ بِالْمَعْرِضِ الْكَرِيمِ : فَأَوْجَبَ ذَلِكَ رَحِيلَ أُخْتَهَا، مُتَعَرِّضَةً لِمِثْلِ بَحْثِهَا؛
 وَكَيْفَ لَا تَتَفَعَّعُ، وَفِي الْيَمِّ تَفَعَّعَ؛ وَهِيَ بِمَقْصِدِ سَيِّدِنَا فَانْحَرَهُ، وَلَوْ نُهِيتِ الْأُولَى
 لَأَتَمَّتِ الْآخِرَةَ :

كَلَّتِ الرِّسَالَةَ .



قُلْتُ : وَهَذِهِ رِسَالَةٌ أَنْشَأْتُهَا فِي تَقْرِيبِضِ الْمَقَرِّ الْكَرِيمِ الْفَتْحِيِّ، أَبِي الْمَعَالَى فَتَحَ اللَّهُ،
 صَاحِبِ دَوَاوِينِ الْإِنْشَاءِ الشَّرِيفِ بِالْذِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ، أَدَامَ اللَّهُ
 تَعَالَى مَعَالِيَهُ، فِي شَهْرِ سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْفَتْحَ مَحَطَّ رِحَالِ الْقَرَائِحِ الْجَائِدَةِ، وَمُسْتَقَرَّ نَوَاهَا، وَوَحِيظَ
 دَائِرَةِ الْأَفْكَارِ الْوَارِدَةِ، وَمَرْكَزَ شُعَاعِ كُوَاهَا، وَمَادَّةَ عَنَاصِرِ الْأَفْهَامِ الْجَائِلَةِ، وَعِتَادَ
 شَكِيمَةِ قُوَاهَا .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ خَصَّ الْمَمْلَكَةَ الْمِصْرِيَّةَ مِنْ إِيدَاعِ سِرِّهَا الْمَصُونِ بِأَوْسَعِ صَدْرِ رَحِيبٍ ، وَأَنْهَضَ بِتَدْيِيرِ مَصَالِحِهَا مَنْ إِذَا سَرَتْ كِتَابُ كُتُبِهِ إِلَى عَدُوٍّ أَنْشَدَ مِنْ شِدَّةِ الْفِرَاقِ : فَقَا نَبِكَ مِنْ ذِكْرِي حَيْبٍ ، وَأَقَامَ لِنُصْرَتِهَا بِأَسْلِ الْأَقْلَامِ وَصِفَاحِ الْمَهَارِقِ مِنْ إِذَا طَرَفَهَا عَلَى الْبُعْدِ طَارِقٌ تَلَا لِسَانَ يِرَاعِنِهِ : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسِيرُ بِهَا بُرْدُ الْهِدَايَةِ إِلَى آفَاقِ الْأَخْلَاقِ فَتُشِيدُ لِقَلَاعِ الْإِيمَانِ بِأَقْطَارِ الْقُلُوبِ أَرْكَانًا ، وَتُرَقِّمُ أَسْرَارُ شِعَارِهَا بِنَقِيسِ الْقَبُولِ فِي صُحُفِ الْإِقْبَالِ فَبَسْدَلُ دَاعِيهَا بِإِذَاعَةِ خَبَرِهَا مِنَ الْإِسْرَارِ إِعْلَانًا ، وَتَدِينُ بِطَاعَتِهَا مَلُوكُ الْمَمَالِكِ النَّائِبَةِ خُضُوعًا فَتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلِهَا عَلَى الْمَفَارِقِ بَعْدَ اللَّئَمِ تَيْجَانًا ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَفْضَلُ نَبِيِّ سَنِّ الْمَعْرُوفِ وَنَدَبِ إِلَيْهِ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ جَعَلَ خَيْرَ بَطَانَتِي الْمَلِكِ الَّتِي تَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ وَتَحْتَمِيهِ عَلَيْهِ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ سَلَكُوا فِي السَّيْرِ سَبِيلَهُ وَاتَّبَعُوا فِي السَّيْرِ سُنَنَهُ وَأَقْتَفَوْا فِيهِ سُنَنَهُ ، وَاتَّبَعُوا فِي الْمَعْرُوفِ آثَارَهُ فَتَلَا عَلَيْهِمُ تَالِي الْإِخْلَاصِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . صَلَاةٌ نَتَنَاوَلُ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ أَخْبَارُهَا ، وَيَتَّصِدُّ لِرِوَايَتِهَا مِنَ الْأُمَّةِ عَلَى تَمَادِي الدَّهْرِ أَخْبَارُهَا ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعد، فإن رياسة أهل الدول تتفاوت باعتبار قرب الرئيس من ملكه في مخاطبته ومناجاته، وأعتاد تصرفه في أمور دولته وتنفيذ مهماته، والاستناد على رأيه في جليل خطوبه وعظيم ملهاته :

فَعَالَ تَمَادَتْ فِي الْعُلُوِّ كَأَنَّهَا * مُتَحَاوِلٌ ثَارًا عِنْدَ بَعْضِ الْكَوَاكِبِ !

ولا خفاء أن صاحب ديوان الإنشاء من هذه الرتبة بالحل الأرفع، والمترلة التي لا تدافع ولا تدفع، والمقام الذي تفرّد بصدارته فكان كالمصدر لا يُثنى ولا يُجمع ؛

إذ هو كَلِيمُ الْمَلِكِ وَنَجِيهِ ، وَمُقَرَّبُ حَضْرَتِهِ وَحَظِيهِ ، بِلِ عَمِيدِ الْمَلَكََةِ وَعِمَادُهَا ،
وَرُكْنِهَا الْأَعْظَمِ وَسِنَادُهَا ، حَامِي حَوْمَتِهَا وَسِدَادُهَا ، وَعِقْدُهَا الْمَسِيقُ وَنِظَامُهَا ، وَرَأْسُ
ذِرْوَتِهَا الْعَلِيَاءِ وَسَنَامُهَا ، وَجُهَيْنَةُ خَبَرِهَا ، وَحَقِيبَةُ وَرْدِهَا وَصَدْرِهَا ، وَمُبَلِّغُ أَنْبَاءِهَا
وَسَفِيرُهَا ، وَزَنْدُ رَأْيِهَا الْمُوْرِي وَمُشِيرُهَا .

فِيهَا بِالْمَكْرُمَاتِ وَبِالْعُلَى * وَحَيْمَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤْدُدِ الْحَضِ!

هذا . وهو الواسطةُ بين الْمَلِكِ وَرَعِيَّتِهِ ، وَالتَّكْفُلُ لِقَصِيهِمْ بِدَرْكِ قَصْدِهِ وَبُلُوغِ
بُعَيْتِهِ ، وَالمُسْعِدُ لِلظُّلُومِ مِنْ عِزَائِمِ تَوْقِيْعَاتِهِ بِمَا يَقْضِي بِنُصْرَتِهِ ؛ وَحِيْنْتِذُ فَلَا يَصْلُحُ
لَهَا إِلَّا مَنْ كَانَ مَعَ كَرَمِ الْحَيْمِ بَارِزًا لِحَيْمِ الْأَصْطِنَاعِ الْمَعْرُوفِ ، وَمَعَ سُمُو الرُّتْبَةِ سَامِيَا
الْهِمَّةِ لِإِعَاثَةِ الْمَلْهُوفِ ؛ وَمَعَ عِزِّ الْجَنَابِ لَدَى مَلِكِهِ لِيَنَّ الْجَانِبَ لَدَى الْمَسْأَلَةِ ، وَمَعَ
قُرْبِهِ بِحَضْرَةِ سُلْطَانِهِ قَرِيْبًا مِنَ الرَّعِيَّةِ حَتَّى مِنْ الْمَسْكِيْنِ وَالْأَرْمَلَةِ .

وغير خاف أن كلَّ وَصْفٍ مِنْ هذه الأوصاف مع مُقَابِلِهِ كَالضَّيْدَيْنِ اللَّذَيْنِ
لَا يَجْتَمِعَانِ بِجَالٍ ، وَالتَّقِيْضَيْنِ اللَّذَيْنِ قَضَى الْعَقْلُ بَأَنَّ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا مُحَالٌ ؛ وَأَنَّى يَجْتَمِعُ
الْعَالِي وَالْهَاطِلُ ، وَالْمُرْتَفِعُ وَالسَّاقِطُ ؛ أَمْ كَيْفَ تُتَّصِلُ الْأَرْضُ بِالسَّمَاءِ ، أَوْ يَقَعُ
أَمْتِرَاجُ عُنْصُرِ النَّارِ بِعُنْصُرِ الْمَاءِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ عَزَّ هَذَا الْمَطْلَبُ لِهَذِهِ الْوَضِيْفَةِ حَتَّى إِنَّهُ
لَأَعَزُّ مِنَ الْجَوْهَرِ الْقَرْدِ ، وَقَلَّ وُجُودُهُ حَتَّى لَمْ يُوجَدْ إِلَّا فِي الْوَاحِدِ الْقَسْدِ فَلَا تَرَاهُ
إِنْ تَرَاهُ إِلَّا فِي حِيْزِ النَّادِرِ ، وَلَا تَظْفَرُ بِهِ إِلَّا ظَفْرُكَ بِيَضِّ الْأَنْوَقِ إِنْ كَانَ يَظْفَرُ بِهِ
ظَافِرٌ ؛ إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا سَمِحَ الدَّهْرُ فَاتَى بِالْقَدِّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ فِي الزَّمَنِ الْمُتَبَاعَدِ ، أَوْ أَسْعَدَ
الدَّهْرُ فَاسْعَفَ بِالوَاحِدِ بَعْدَ أَلْفٍ وَوَاحِدٍ .

ثم قد مضتُ برهةً من الأيام وَجِدْتُ دِيْوَانَ الْإِنْشَاءِ مِنْ نَظَرٍ مِنْ هُوَ مُتَّصِفٌ بِبَعْضِ
هَذِهِ الْأَوْصَافِ عَاطِلٌ ، وَالدَّهْرُ بَعْدُ مِنْ يَقُومُ فِيهِ بِتَفْرِيحِ كُرْبَةِ الْمَلْهُوفِيْنَ وَلَكِنَّهُ
يُطَاطِلُ :

يرفه ما يُرفّه في النَّقَاضِي * وليس لَدَيْهِ غَيْرُ الْمَطْلِ تَقْدًا!

إلى أن طَلَعَ نِيرُ الزَّمَانِ وتَوَضَّحَ شُرُوقُهُ، وظهرت تَبَاشِيرُ صَبَاحِهِ وَأَفْلَ بَطْلُوعِ السَّعْدِ عِيُوقُهُ؛ فَأَقْبَلَتِ الدَّوْلَةُ الظَّاهِرِيَّةُ بِسَعَادَتِهَا، وَتَلَقَّتْهَا الأَيَّامُ النَّاصِرِيَّةُ جَارِيَةً مِنْهَا عَلَى وَفْقِ عَادَتِهَا؛ وَوَفَّرَ لِلدَّوْلَتَيْنِ مِنْ آتِنْتَخَابِ الأَصْفِيَاءِ قِسْمَتَهَا، وَمَحَضَّتْ لَهَا الرَّأْيَ الصَّابِبَ حَتَّى أَظْهَرَتْ فِي الوُجُودِ زُبْدَتَهَا؛ فَكَانَ خُلَاصَةَ أَصْطِفَائِهَا، وَزُبْدَةَ آتِنْتَاقِيَّهَا؛ الْمُقْتَرُ الأَشْرُفُ، العَالِي، المُؤَلَّوِيُّ، القَاضِي، الكَبِيرِيُّ، السِّفِيرِيُّ، المُشِيرِيُّ، الفَتْحِيُّ، نِظَامُ المَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ وَزِمَامُ سِيَّاسَتِهَا، وَمُنْقَدُّ أُمُورِهَا، وَجَامِعُ رَأْسِهَا؛ أَبُو المَعَالِي فَتْحُ اللهُ صَاحِبُ دَوَاوِينِ الإِنشَاءِ الشَّرِيفِ بِالمَمَالِكِ الإِسْلَامِيَّةِ، زَادَ اللهُ تَعَالَى فِي آرْتِقَانِهِ عَلَى تَعَاقِبِ الدُّوَلِ، وَأَجْرَاهُ مِنْ خَيْفِ اللُّطْفِ عَلَى أَجْمَلِ العَوَائِدِ وَقَدْ فَعَلَ؛ فَأَلْقَى إِلَيْهِ مِنْ أَسْرَارِ المَمْلُوكَةِ مَقَالِيدُهَا، وَأَتَفَقَتْ بِحُسْنِ سِفَارَتِهِ بِاتِّفَاقِ الرِّوَاةِ أَسَانِيدُهَا؛ فَتَقَدَّتْ بِتَنْفِيذِهِ أُمُورُهَا، وَكَلَّمَتْ بِصَحِيحِ رَأْيِهِ كُسُورُهَا؛ بَجَرَّتِ الأُمُورَ بِحُسْنِ تَدْبِيرِهِ عَلَى السَّدَادِ، وَمَشَّتِ الأَحْوَالُ بِلُطْفِ سِفَارَتِهِ عَلَى أُمَّةٍ المُرَادِ؛ وَأَعْتَرَفَتْ لَهُ الكَافَّةُ بِالسِّيَادَةِ فَاطَاعَتْ، وَعَرَفَتْ لَهُ الرِّعِيَّةُ تَقَدُّمَهُ فِي الرِّأْسَةِ فَرَعَتْ حُرْمَتَهُ وَرَاعَتْ.

وَإِنَّ أُمُورَ المُلْكِ أَضْحَى مَدَارُهَا * عَلَيْهِ كَادَرَتْ عَلَى قُطْبِهَا الرِّحَى!

قَدْ اسْتَعْبَدَ الخَطُّ فَأَصْبَحَ لَهُ كَالخَلِيدِ، وَأَتَى مِنَ المَعْرُوفِ بِكُلِّ غَرِيبٍ فَانْسَى مِنْ أَثَرِ عَنهُ ذَلِكَ فِي الزَّمَنِ القَدِيمِ؛ فَلَو رَأَاهُ «خَالِدُ بْنُ بَرْمَكٍ» لِأَحْجَمٍ عَنِ مَلَاقَاتِهِ عَظْمًا، أَوْ نَاوَاهُ «يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ» لَمَاتَ مِنْ مُنَاوَأَتِهِ عَدَمًا، أَوْ سَابَقَهُ «الْفَضْلُ وَجَعْفَرُ» أَبْنَاهُ لِسَبَقِهَا كَرَمًا:

مَنَاقِبُ لَوْ أُنِّي تَكَلَّفْتُ نَسَخَهَا، * لِأَفَلَسْتُ فِي أَقْلَامِهَا وَمِدَادِهَا!

أو سمع به "الحسن بن سهل" لقطع إليه الحزن والسمل، أو بصر به "الفضل"
أخوه، لما رأى أنه للفضل أهل، أو عاينه "أبو علي بن مقله" لعلم أنه فاقه حظاً
وخطاً، أو نظر "ابن هلال" إلى أهله نواته لتتحقق أنه سبقه إلى تحرير هندسة
الحروف وما أخطأ :

إِذَا أَخَذَ الْقِرطَاسَ حَلَّتْ يَمِينُهُ * تَفْتَحُ نُورًا أَوْ تُنظِّمُ جَوْهَرًا !

فإن تكلم أنى من بيانه بالسحر الحلال، أو حاور أنى من البلاغة بما يقصر عن
رتبه "سحبان" في المقال، أو ترسل أعين "عبد الحميد" في رسائله، أو كتب رعت
من روض خطه في زهر نحاته :

يُؤَلِّفُ اللَّوْلُوَ الْمَشُورَ مَنْطِقَهُ * وَيَنْظِمُ الدَّرَّ بِالْأَقْلَامِ فِي الْكُتُبِ !

فرايه السيف لا ما صنع الهند، وعقله الصارم لا ما استودع الغمد :

فَفِي رَأْيِهِ يُنْجِحُ الْأُمُورَ وَلَمْ يَزَلْ * كَفَيْلًا بِإِرْشَادِ الْحَيَارَى مُوقِفًا !

أفلامه تزرى بالصوارم وتهزأ بالأسل، وتجري بصلة الأرزاق فتريد على الأماني
وتربو على الأمل :

بِتْ جَارَهُ فَالْعَيْشُ نَحْتَ ظِلَالِهِ * وَأَسْتَسْقِهِ فَالْبَحْرُ مِنْ أَنْوَانِهِ !

فكارمه تُغني من الإملاق، وبواكره بالإسعاد تبادر الغدو والإشراق، وعطاياه
تسير سير السحاب فتمطر الغيث على الآفاق :

كَرِيمٌ مَسَاعِي الْمَجْدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً * مِنْ الشَّرَفِ الْأَعْلَى وَبَدَلِ الْفَوَاضِلِ !

قد خدمته الحظوظ وأسعدته الجُدود، وقُسمت المنازلُ السنية فكان له منها
سعد السعد :

لوعَدَدَ النَّاسِ مَا فِيهِ لِمَا بَرِحَتْ * تَثْنِي الْخَنَاصِرَ حَتَّى يَنْفَدَ الْعَدَدُ!

فَلَوْ غَرَسَ الشُّوكَ أَمْرَ الْعِبَاءِ أُنِّي أَرَادَهَا ، أَوْ حَاوَلَ الْعَنْقَاءَ فِي الْجَوِّ لَصَادَهَا ؛
أَوْ زَرَعَ فِي السَّبَاحِ لَكَانَ ذَلِكَ الْعَامَ الْعَامَ وَالسَّنَةَ الْخِصْبَةَ ، وَلِضَوْعِفَتْ مُضَاعَفَةً
حَسَنَاتِهِ فَأَنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَأَحْظَنَكَ عِيُونُهَا ، * نَمَّ فَالْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ ،

وَأَصْطَدَّ بِهَا الْعَنْقَاءَ فَهِيَ حَبَائِلُ * وَأَقْبَدَ بِهَا الْجَوْزَاءَ فَهِيَ عِنَانُ!

قَدْ لَيْسَ شَرْقًا لَا تَطْمَعُ الْأَيَّامُ فِي خَلْعِهِ ، وَتَقْمَصُّ مِنَ الْفَضْلِ جِلْبَابًا لَا تَنْتَطِعُ
الْأَيَّامُ إِلَى نَزْعِهِ ؛ وَأَتَتْهُ إِلَى الْجَبْدُ فَوْقَ ، وَعَرَفَ الْكَرَمُ مَكَانَهُ فَانْحَازَ إِلَيْهِ وَعَطَفَ .

فَقَصُرَتْ عَنْهُ خُطَا مِنْ يُجَارِيهِ ، وَضَاقَ عَنْهُ بَاعٌ مِنْ يُبَارِيهِ :

نَالَتْ يَدَاهُ أَقْاصِي الْكَرَمِ الَّذِي * مَدَّ الْحُسُودَ إِلَيْهِ بَاعًا ضَيْقًا!

فَمَنَّا قَبَهُ تَسْبِقُ أَقْلَامَ الْكَاتِبِ ، وَتَسْتَعْرِقُ طَاقَةَ الْحَاسِبِ ؛ لَيْسَ لَأَرْتَفَاعِهَا غَايَهُ ،
وَلَا لَتَدَاوُلِهَا نِهَائِيَهُ ؛ فَلَا تُؤْنِي جَامِعَةٌ بَشْرَطِهَا ، وَلَا تُقَوْمُ جَرِيدَةٌ بِسُنْطِهَا :

وَقَدْ وَجَدَتْ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنْ وَجَدْتَ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلْ !

قَدْ هَتَفَ بِمَدْحِهِ خُطْبَاءُ الْأَقْلَامِ عَلَى مَنَابِرِ الطُّرُوسِ ، وَنَطَقَتْ بِفَضْلِهِ أَفْوَاهُ الْمَخَابِرِ
فَنَكَّسَتْ لِرِفْعَةِ قَدْرِهِ شَوَاحِجَ الرُّؤُوسِ ؛ وَظَلَعَتْ فِي أَفْنِ الْمَهَارِقِ سُعُودُ إِيَابَتِهِ السَّعِيدَةِ
فَأَقْلَتْ لَوْجُودِهِ التُّحُوسِ ؛ وَرُقِيتْ مَحَاسِنُهُ بِنَقِيسِ اللَّيْلِ عَلَى صَفْحَاتِ النَّهَارِ فَارْتَسَمَتْ ،
وَحِمَلَتْ أَخْبَارَ مَعْرُوفِهِ فَتَرَا حَمَتِ الْآفَاقِ عَلَى أَنْتِشَاقِ أَرْجِ رِيحِهِ الْعَبْقَةِ وَأَسْتَهَمَتْ :

لَقَدْ كَرَّمَتْ فِي الْمَكْرَمَاتِ صِفَاتُهُ * فَمَا دَخَلَتْ لَاءٌ عَلَيْهَا وَلَا إِلَّا!

انْفَقَتِ الْأَيْسَنَةُ عَلَى تَقْرِيبِهِ مُدْحَ بَكْلِ لِسَانٍ ، وَتَوَافَقَتِ الْقُلُوبُ عَلَى حُبِّهِ فَكَانَ
لَهُ بِكُلِّ قَلْبٍ مَكَانٌ ، وَاسْتَعْرَقَتْ مَادِحُهُ الْأَزْمِنَةَ وَالْأَمَكِنَةَ فَاسْتَوْلَى شُكْرُهُ عَلَى الزَّمَانِ
وَالْمَكَانِ :

وَلَمْ يَخُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ * وَلَمْ يَخُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٍ !
عَلَى أَنِّي اسْتَقْبَلُ عَثْرَتِي مِنَ التَّقْصِيرِ فِي إِطْرَائِهِ ، وَالتَّعَرُّضِ مِنْ مَدْحِهِ لِمَا لَا أَنْهَضُ
بِأَعْبَائِهِ ، فَلَوْ أَنَّ « الْجَالِحِظَّ » نَصِيرِي ، وَ « آبْنَ الْمُقَفَّعِ » ظَهِيرِي ، وَ « قَسَّ بْنَ سَاعِدَةَ »
يُسْعِدُنِي ، وَ « سَبْحَانَ وَائِلِ » يُجِدُنِي ، وَ « عَمْرَو بْنَ الْأَهَمِّ » يُرْشِدُنِي ؛ لَكَانَ اعْتِرَافِي
بِالْعِجْزِ فِي مَدْحِهِ أَبْلَغَ مِمَّا آتَيْهِ ، وَإِقْرَارِي بِالتَّقْصِيرِ فِي شُكْرِهِ أَوْلَى مِمَّا أَصَفُهُ مِنْ
تَوَالِي طَوْلِهِ وَأَيَادِيهِ :

وَلَوْ أَنَّ لِي فِي كُلِّ مَنِيَّةٍ شَعْرَةٌ * لِسَانًا يُطِيلُ الشُّكْرَ فِيهِ لَقَصَّرَا !



وهذه نسخة رسالة للشيخ الإمام العالم معين الدين تاج العلماء، خطيب الخطباء،
زين الأئمة، فُدوة الشريعة، الصدر أبي الفضل يحيى بن جعفر بن الحسين بن محمد
الحصكفي رحمه الله، سماها: «عَتَابَ الْكُتَّابِ، وَعِقَابَ الْأَلْقَابِ، الْمُشْتَمَلَةَ عَلَى
أُصُولِ الْغَرِيبِ وَالْإِغْرَابِ» وهي :

عَذِيرِي مِنْ وَزْرَاءِ النَّصِيبَةِ وَكُتَّابِهَا، وَكِبْرَاءِ الدُّسُوتِ وَأَرْبَابِهَا ، وَأَوَانِحِي الدُّوَلِ
وَأَطْنَابِهَا ، وَنَوَابِ الدَّوَابِّ وَأَنْبِيَاءِهَا^(١) ؛ وَجِبَابَةِ بِيُوتِ الْأَمْوَالِ ، وَالسُّعَاةِ فِي زَمِّ نُسْرِ
الْأَحْوَالِ ؛ وَسَاسَةِ الْمَمَالِكِ ، وَصُحُفِ أَسْرَارِ الْمَالِكِ ؛ الشَّائِحِينَ بِأَنْوَفِ التِّيهِ
وَالكِبْرِيَاءِ ، وَالسَّاحِحِينَ دُيُولِ الْعُجْبِ وَالخِيَلَاءِ ، الرَّافِلِينَ فِي حُلِيِّ الْبِهَاءِ ، وَالغَافِلِينَ
عَنْ فُرُوضِ الْعِلَاءِ ؛ الَّذِينَ تَبَوَّءُوا السُّؤْدَدَ مِنْ غَيْرِ سَدَادٍ ، وَتَسَنَّمُوا الرُّتَبَ بِلا إِعْدَادٍ ؛

(١) الأنبياء جمع نأب وهو سيد القوم وكبيرهم .

فكانهم الحاصب ، وعدوا لله المناصب ؛ شغلهم الأشر والفجور ، وكل على بسطته يجر ، همهم محج الأجرح ، وثبج الراح بالماء القراح ؛ وأمتطاء المرذ ، والعتاق الجرد ؛ أملهم تحيد الأفنيه ، وتشييد الأينيه ؛ والزيادة في الرقيق والكراع ، والنحول والأبعاغ ؛ وليس بغال ، كثرة خيل وبغال ؛ بما باعوه من الورع والديانة ، وأضاعوه من العفة والصيانة :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنْيَا عَلَى غَيْرَةٍ * وَنَافَسُوا فِيهَا السَّلَاطِينَا !
 تَوَزَّعُوا الدَّوْلَةَ وَالْمُلْكَ وَالْحَضْرَةَ وَالْإِسْلَامَ وَالدِّينَا ،
 شَادُوا بِأَعْمَالِهِمْ دُورَهُمْ * وَأَخْرَبُوا فِيهَا الدَّوَاوِينَا ،
 عَفُوا وَمَا عَفُوا بِأَقْلَامِهِمْ * مَسَاكِنًا تَحْوِي مَسَاكِينَا ،
 غَرَّتْهُمُ الدُّنْيَا بَانَ أَظْهَرَتْ * عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُهَا لِينَا ،
 وَالدَّهْرُ كَمْ جَرَّعَ فِي مَرَّةٍ * مُرًّا وَحِينًا سَاقَهُ حِينَا .
 يَا أَنْفُسَا ذَلَّتْ بِإِتْيَانِهِمْ * وَيَكِ اتَّائِينَ الْأَتَائِينَا .
 لَا تَرْتَضِي فِي رِسَالِهِمْ إِيَّا * تَمْرِينَ فِي الْقَعْبِ الْأَمْرِينَا !
 وَكَانَ يُجِدِي الْقَصْدَ لَوْ أَنَّهُمْ * يَدْرُونَ شَيْئًا أَوْ يَدْرُونََا .
 مَوْتِي هُوَ فَلَيْكَ تَقْرِيبُهُمْ * إِنْ كُنْتَ لَا تَأْبِينُ ، تَأْبِينَا ،
 لَا يَبْعَتِي الْفَضْلُ بِإِطْرَاءٍ مِنْ * يَكُونُ فِيهِ الْهَجُومُ مَغْبُونَا ،
 لَو رُمْتَ شَيْئًا دُونَ أَقْدَارِهِمْ * لَهَجُوهُمْ لَمْ تَجِدِ الدُّونَا !!!

قد أخذوا إلى الوضاعة ، عن تحصيل البضاعة ، وكفاهم من البراعة ، برى البراعة ،
 وعنوا بأسوداد الليقه ، عن سؤدد الخليقة ؛ وأحالوا على الرمم ، عند قصور الهمم ؛
 ومن أعظم الآفات ، نحرهم بالعظم الرقات .

وَكَاثِمٍ لِّصَمِيمِ هَاشِمٍ * أَوْ مِنْ لَهَا مِيمِ الْعَبَاشِمِ ،
غَشِمُوا فَمَا يَغْشَاهُمْ * بِالطَّوْعِ إِلَّا كُلُّ غَاشِمٍ :

لا يُعِينُ أَحَدَهُمْ عَلَى مُرْوَةٍ ، وَلَا يُنْعِشُ ذَا أَخْوَةٍ ، وَلَا يَرَعِي وَارِثَ أَبُوهِ ، وَلَوْ
أَعْتَرَى إِلَى بَنُوهِ ؛ فَهُوَ غَيْرَ آسٍ بِجُودِهِ ، وَلَا مُوَأَسٍ بِمُجُودِهِ ؛ يَرُوقُكَ كَيْسُهُ وَالغُلَامُ ،
وَتَرُوعُكَ دُويُّهُ وَالْأَقْلَامُ ؛ فَإِذَا أَسْتَنْطَقَ قَلَمَهُ الصَّامِتِ ، أَجْدَلُ عَدُوَّهُ الشَّامِتِ ؛
فَزَادَ أَدْرَاجَهُ نَاقِصًا ، وَعَادَ عَلَى أَدْرَاجِهِ نَاكِصًا .

فَهُوَ الَّذِي أُمِّلَى لَهُمْ حِلْمُهُ * مَعَ الْخِنَا وَالنَّكَدِ الْبَاهِضِ :
لَوْ أَنِّي وُلِّيتُ تَأْدِيَهُمْ * شَقِيَّتُ صَدْرِ النَّقِيهِ النَّاهِضِ !
مَنْ نَاطِرٍ يُضْحِي بِلا نَاطِرٍ ، * وَعَارِضٍ يُمَسِي بِلا عَارِضٍ ،
وَمُشْرِفٍ لِلدِّينِ مَا قَصَدُهُ * فِي الْوَطْبِ إِلَّا زُبْدًا مَالِخِضٍ ،
وَخَازِنٍ إِنْ لَفَّ مَرْضَاتَهُ * مِنْ حُلُومِهِ عَفَّ عَنِ الْحَامِضِ ،
وَمَنْ خَبِيثٌ جَاءَنَا ذِكْرُهُ * فِي الذِّكْرِ بَيْنَ الْبِكْرِ وَالْفَارِضِ ،
وَكَاتِبٍ لَوْ أَنْصَفُوا مُهْرَهُ * لَكَانَ أَوْلَى مِنْهُ بِالرَّائِضِ !!!

إِنْ وَقَعَ ، رَأَيْتَ اللَّفْظَ الْمُرَقَّعَ ؛ وَإِنْ أَطَالَ وَأَسْهَبَ ، أَذَالَ عِرْضَهُ وَأَنْهَبَ ؛
وَكَانَ أَحَقَّ بِتَقْلِيدِ الْفُهُودِ ، عِنْدَ تَقْلِيدِ الْعُهُودِ ؛ وَأَوْلَى بِشَطْرِ الْمَنَاشِيرِ ، عَنِ سَطْرِ
الْمَنَاشِيرِ ؛ وَأَجْدَرُ بِقَبْضِ الرُّوحِ ، إِذَا أَنْبَسَطَ لِلشُّرُوحِ ، وَأَخَذَ فِي ذِكْرِ الْوَقَائِعِ وَالْفُتُوحِ ؛
كَفَّهُ بِالْحِلْمِ ، أَوْلَى مِنْهَا بِالْقَلَمِ ؛ وَأَخْلَقَ بِالْمَسْحَاهِ ، مِنَ السَّحَاهِ ؛ وَأَلْيَقُ بِالْفُؤُوسِ ،
مِنَ الطُّرُوسِ ؛ يَبْرِي وَيَقُطُ ، وَلَا يَدْرِي مَا يَحُطُّ ؛ إِذْ لَيْسَ فِي السَّقَطِ ، غَيْرَ السَّقَطِ ؛
إِنْ فَاتَحْتَهُ ، أَوْ طَارَحْتَهُ ؛ ظَفِرَتْ بَعْضَةُ الْمَاتِحِ ؛ وَخَشَرَ الْمَفَاتِحِ ، إِنْ خَطَّ : فَنُونُهُ
كَلَامُهُ ، وَخَلَطَ فَنُونُهُ فِي كَلَامِهِ .

إِنْ وَقَعُوا وَقَعُوا فِي ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، * أَوْ أَنْفَدُوا أَنْفَدْتَهُمْ أَسْمَهُمُ الْكَلِمَ ،
 أَوْ قَلَدُوا قَلَدُوا خَزِيًّا يُجِلُّهُمْ ، * أَوْ أَقْطَعُوا قُطِعُوا شَتْمًا بِجَهْلِهِمْ .
 أَرَأَيْتُمُ الْمَالَ وَالْأَعْمَالَ إِنْ رَقَمُوا * جَاءُوا مِنَ الرَّقْمِ وَالْأَلْفَاظِ بِالرَّقْمِ ،
 فَاللَّهُ يَأْخُذُ مِنْهُمْ لِلدَّوَاءِ وَلَا تُقَاسُ بِالْحَقِّ وَالْقِرْطَاسِ وَالْقَلَمِ !!

فالجديد بهم سئل ، والسؤال بينهم همل ، ولا علم عندهم ولا عمل ؛ لهفي على
 الفضل المذال ، برفعة الأذال ؛ وضياح الحقوق ، وأنصياح البيضة عن العقوق .

ثم ما على سيدنا الوزير ، مع أصطحاب البم والزير ؛ ونفاق سوقه ، وأنفاسه
 في فسوقه ، وأتصال صبوحة بغبوقه ؛ وتخلية في البهو ، للعب والأهو ؛ من ظهر غي
 يرتب ، وذى يسارينكب ؛ وساع يثي ، وراج يرتشي ؛ ورُسوم حيف تجدد ،
 وسوات تعدد ؛ ما يضره من شكوى الجراح البغات ، وصریح لا يغاث ؛ ووال
 يعسف بأهل مصره ، وإن شرکه في إضره ؛ وقاض لا ينصف الرعية ، ولا يتبع
 القضايا الشرعية ؛ وفقية يسف إلى تحصيل عرض زائل ، وتعجيل عرض من
 سائل ؛ ماله وحفظ المال ، ومحاسبة العال ؛ :

أَمْ مَاعَلَى الْعَامِلِ نَمِسِ الدَّجَاجِ * إِنْ نَقَصَ الْكَرَمُ وَزَادَ الْخُرَاجُ ؟
 عَلَيْهِ أَنْ يَحْضَلَ فِي كَمِّهِ * شَيْءٌ وَإِنْ أَخْلَى جَمِيعُ الْخُرَاجِ .
 وَهُوَ خُرَاجٌ عِنْدَ مَا يَنْتَهِي * يَبْطُ بِالْمَبْضَعِ مَا فِي الْخُرَاجِ !!!

شغلهم بالشهد المشور ، لا بمشهد يوم النشور ، وقصدهم الجمع والآكتساب ،
 ومتى الجمع والحساب ؛ إنما هو مال يُحْتَقَبُ ، لا مال يُرْتَقَبُ ؛ وفساد في الأرض ،
 لا إعداد ليوم العرض :

وَإِنِّي لَأَرْتِي لِلرَّاتِبِ تَحْوِي * عَلَيْهَا قُرُودٌ فَوْقَهُنَّ بُرُودٌ،
 سِرَاعٌ إِلَى السَّوَاتِ فِيمَا يَشِيئُهُمْ * وَلِكِنَّهُمْ عَمَّا يَزِينُ رُكُودٌ،
 يِقَاطُ إِذَا مَا تَوَبَّ اللُّؤْمُ دَاعِيًا * وَعِنْدَ نِدَاءِ الْمَكْرَمَاتِ رُقُودٌ،
 وَمَا غَرَّنِي إِلَّا جَلَاوِزَ حَوْلَهُمْ * وَإِلَّا قِيَامٌ بَيْنَهُمْ وَقُعُودٌ،
 لَقَدْ حَسِدُوا ظَلَمًا عَلَى مَا أَنَاهُمْ * وَهَلْ لِأَحْيَى نَقِصٌ يَسُودُ حَسُودٌ؟
 وَلِلسَّيِّدِ الْمَحْسُودِ كَفٌّ عَنِ الْعُلَى * تَدُودٌ وَأُنْحَرَى بِالنَّوَالِ تَجُودٌ،
 لَمَّا اللَّهُ دُنِيَانَا الَّتِي ضَلَّ سَعِيهَا * وَفِيهَا عَلَيْنَا بِالضَّلَالِ شُهُودٌ،
 إِذَا صَغُرَتْ كَأَسْمِ الْحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وَعَلَا فِيهَا يَزِيدُ يَزِيدُ.

إنما الصدر من صدره كاله، وحسنت أعماله، وجرّد العزمات، فشرّد
 الأزمت؛ ونفى بذبه الكربات، وأصطفى لربه القربات؛ فسهل الغنى، وأفعم الإنا،
 ووضع مواضع الثقب الهنا؛ فهو يهش للنوال، ويش عند السؤال؛ لا يسوب
 ورده القذا، ولا يبطل منه بالئن والأذى؛ يبشر بشره بمجاسين الأخلاق، وينشر بشره
 الطيب في الآفاق؛ ويحجم بدوانه داء الإملاق، ويحجز بقصبتها قصب السباق:

يُجَرِّدُهَا مِنْ مِثْلِ وَفَضَّةِ نَابِلٍ * أَجْنَتْهَا مِنْ نَافِدَاتِ الْمَعَايِلِ،
 وَفِي خَطِّهِ الْمُنْسُوبِ تُرْرِي شَبَابَهَا * بَلَهْدَمَ مَنْسُوبٍ إِلَى الْخَطِّ ذَابِلِ،
 وَإِنْ بَدَرَتْ عَنْ حَبَّةِ الْقَلْبِ أَنْبَتَتْ * مِنَ الْبَرِّ قَبِيلَ الْبُرْسَعِ سَنَابِلِ!!

دؤوبه لإقالة العائر، وعمارة الدائر، وإشاعة المائر؛ همه في معضلة تراض،
 ومعدلة تفاض؛ وخلل يسد، وجلل يصد؛ وعان بظهره يعان، وعات بقره يهان؛
 بابه مفتوح، وخيره ممنوح؛ وما أقل اللائم، لمن أكثر الولائم؛ وأغفل الجادب،

لمن صَنَعَ المَادِبَ؛ وَأَخْلَصَ الإِخَاءَ، لمن أَسْتَخْلَصَ السَّخَاءَ؛ فَبَدَّلَ الرِّغْوَةَ وَالصَّرِيحَ،
وَالسَّنَامَ الإِطْرِيحَ؛ لَأَكْمَنَ يَشْحُ بِالْقَتَارِ، لَفَرَطِ الإِقْتَارِ؛ وَيَضُنُّ بِالْوَضْرِ، عَلَى
الْمُحْتَضِرِ؛ وَيَخْلُ بِالْعَرَاقِ، عَمَّنْ رُوْحُهُ فِي التَّرَاقِ، وَيُسِرُّ الغَمِيرَةَ، لمن يَتَنَبَّئِي المِيرَةَ؛
وَيُبَيِّنُ الدَّاءَ؛ لمن يَتَنَظَّرُ الغَدَاءَ؛ وَيُسْعِرُ الأَحْشَاءَ، لمن تَرَقَّبَ العِشَاءَ :

مسلط سيرته نعمة * وجائر قسمته ضيزى،

ليس بذي لب يملئ التائي * ولا لباب يملأ الشيزي!

يَحْقُدُ عَلَى الإِخْوَانِ، عِنْدَ ظُهُورِ الخَوَانِ؛ فَتَرَاهُ يُحَدِّقُ، إِلَى مَنْ يُشَدِّقُ؛ وَيَتَّقِمُ،
مَنْ يَلْتَقِمُ؛ وَيُدُلُّ الأَكِيلَ، وَيُحِلُّ بِهِ التَّنْيِيزَ؛ وَيُبَغِّضُ الشَّرِيبَ، وَإِنْ كَانَ الخِدْنَ
القَرِيبَ؛ فَالْحَائِنُ مَنْ يَرِدُ، فَيَزْدَرِدُ؛ وَالْحَائِنُ مَنْ يَنْبَسِطُ، فَيَسْتَرِطُ؛ يَسْنَأُ مَنْ
الأَجْرَاسِ، صَوْتِ الأَضْرَاسِ؛ وَحَشْرَجَةَ البَلَاعِمِ، بِدَحْرَجَةِ المَطَاعِمِ؛ وَهَرَهْرَةَ
الشَّدُوقِ، وَجَرَجَةَ الخُلُوقِ؛ وَقَدْ صَدَّتْ حَوَازِرُ بَلَوَاهُ، أَفَوَاهَا تَصَدَّتْ لِحَلَوَاهُ؛
وَحَكَمَتْ لِحَامِهِ، بِحِكْمَةِ لِحَامِهِ؛ وَعَدَّتْ بِكِيَوَانِهِ، لَهْيَ وَعَدَّتْ بِأَلْوَانِهِ؛ رَغِيْفُهُ أَعْرَزُ^(١)
مَنْ الغَرِيْفِ، وَأَعْرَبُ مِنَ الشَّيْءِ الطَّرِيْفِ؛ صَرِيْفُ بَابِهِ، دُونَ صَرِيْفِ نَابِهِ؛
وَيُحْكِمُ صَكَّ بَابِهِ، عَنِ كَبَابِهِ؛ وَيُعَدُّ سَدِيْفَ جِفَانِهِ، مِنْ سَدِيْفِ أَجْفَانِهِ؛ يُمَانِعُ
بَلَدِيْدِهِ، عَنِ سَفُوْدِ قَدِيْدِهِ؛ وَيُصَافِحُ بِصَفْحَةٍ وَرِيْدِهِ، عَنِ صَفْحَةِ ثَرِيْدِهِ؛ حَمَلُهُ مِنْ
نُجُومِ الحَمَلِ، وَسَمَكُهُ فَوْقَ السَّمَكِ الأَعْزَلِ؛ وَحُوْتُهُ بَيْنَ الحُوْتِ والأَسَدِ، وَجَدِيْهُ
عِنْدَ جَدِيِ الفَرَقْدِ؛ دُونَ مُجْتَمِعِهِ أَرْتِفَاعِ العِجَاجِ، وَتَحْتِ دَجَاجَتِهِ ذَنْبُ الدَّجَاجَةِ :

يدرج في القدر دراجه * ليلقط الحب وطيهوجه

ففي السموات سماتاه * وعند ديك العرش فروجه

(١) من عرزه يعرزه انترعه انترعا عنيفا والغريف الدلو .

يَحْرُسُ مَا دَتَهُ الدَّلْوُ والعَقْرَبُ، وهما منَّا أدنى وأقرب؛ يُعَجِبُهُ التَّشْمِيرُ والأَحْتِجَانُ،
 وَيَذَلُّهُ التَّوْفِيرُ والأَخْتِرَانُ؛ وقصر مُفَاجَأَةً أحوال، تُصْرِحُ عن أهوال؛ وَكَأَنَّكَ
 بالأَيَّامِ بعد الأَيْتِسَامِ، شاهرةً لِلْحَسَامِ؛ قد كَثُرَتْ عن أنيابها العُصَلُ، في بُكْرَها
 والأَصْلُ؛ وأجَلْتُ عن سَلِيْبٍ مَسْحُوبٍ، لَتَنَكَّرَ مَصْحُوبٌ؛ وآخِرَ يَتَرَدَّدُ في البُوسِ،
 وَيُخَلِّدُ في الجُبُوسِ؛ قد حصل على سَلَّةِ الحَاوِي، من سلة الحلاوى؛ ومن طَعْمِ
 العَسَلِ، على طَعْنِ الأَسَلِ؛ ومن العَدْبِ البَارِدِ، على حَزِّ المَبَارِدِ :

تقبض من خَطْوِهِ الكَبُولُ * فهو على قَيْدِهِ يَبُولُ،

خَلَا من الخَيْرِ فهو طَبْلٌ * وهَكَذَا تَضْرِبُ الطُّبُولُ،

يَشْكُو إلى الله مُسْتَعِينًا * وما له عنده قَبُولُ،

ذَلِكَ بما كان مُسْتَطِيلًا * تُرْدِي دَوَاهِيهِ والمِيُولُ!

فهم بين حصى تعصر، وقفا يقصر؛ وَرِكَابٍ مَثْقُوبَةٍ، وَأَنْوَاعٍ عُقُوبَةٍ؛ أُوَيْقَالُ
 فَلانٌ أَنَارَتِهِ شَعُوبٌ، وَوَارَتَهُ الجُبُوبُ، وَأَكْتَفَى بِسُلْفَةِ المَمَاتِ، من المُقَدِّمَاتِ؛
 وما ظَنُّكَ بِالشَّلْوِ الطَّرِيحِ، في صَنْكِ الصَّرِيحِ؛ تَحْتَهُ البَرِزْخُ المَوْصُودُ، وفوقه الجَبَلُ
 المَنْصُودُ؛ أَنْظِرْ كَيْفَ هَجْرَ بابِهِ المَقْصُودِ، وَجَانِبَتِ جَنَابَهُ الوُفُودُ؛ وَأَخْلَقْتَ رَبَّاعَهُ،
 وَتَفَرَّقَتْ أَتْبَاعُهُ؛ ثم تَشْوِيهِ الحُوبُ، أَسْبَعُ من تَشْوِيهِ الشُّحُوبِ(?)؛ وَوَيْلٌ لِلْقَوْمِ
 البُورِ، من بَعَثَةِ القُبُورِ :

وَيَا خَسَارَ الأَنْفُسِ العَاوِيَةِ * من بعد تلك الحُفْرِ الهَاوِيَةِ،

وَكُلُّ مَنْ حَقَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمَّهُ في بَعْتِهِ هَاوِيَةِ،

وَلَيْسَ يَدْرِي وَيَجْهَهُ مَا هِيَ * نَارٌ عَلَى سُكَّانِهَا حَامِيَةِ!

أعاذنا الله من خِلَالٍ يَقْضِي جَهْلُهَا بِالشَّنَارِ، وَأَفْعَالٍ تُقْضِي بِأَهْلِهَا إِلَى النَّارِ؛ بِكَرَمِهِ
وإِحْسَانِهِ، وَطَوْلِهِ وَأَمْتِنَانِهِ .

الصنف الثالث

(من الرسائل المفاخرات ، وهي على أنواع)

منها : المفاخرة بين العلوم .

وهذه نسخة رسالة في المفاخرة بين العلوم ، أنشأتها في شهر سنة ثمان وتسعين
وسبعمائة ، لفاضل القضاة شيخ الإسلام ، علامة الزمان ، جلال الدين ، عبد الرحمن
ابن شيخ الإسلام ، بقیة المجتهدين ، أبو حفص عمر البلقيني الكفائي ، الشافعي ،
أمتع الله تعالى المسامین ببقائه ، ذكرت فيها نيفاً وسبعين عالماً ، ابتدأتها بعلم اللغة ،
وختمتها بفن التاريخ ؛ ذا كراً فخر كلِّ علم على الذي قبله ، محتجاً عليه بفضائل موجودة
فيه دون الآخر ، وجعلت مصب القول فيها إلى أشتماله على جميعها ، وإحاطته بكلها ،
مع الإشارة إلى فضل والده ، شيخ الإسلام ، ومساهمته له في الفضل ، على ما ستقف
عليه إن شاء الله تعالى ؛ وهي :

الحمد لله الذي جعل للعلم جلالاً تودُّ جلائل الفضائل أن تكون له أتباعاً ، وأطلق
السنة الأعلام من جميل شأنه بما أنطق به السنة العالم ليكون الحكم بما ثبت من
مأثور فضله إجماعاً ، وأجرى من قاموس فكره جداول أنهار العلوم الزكية فنعش
قلوباً ونزه أبصاراً وشنف أسماعاً .

أحمدُه على أن أفاض نتائج الأفكار على الأذهان السليمة لذي النظر الصحيح ،
وبث جياد الألسنة في ميدان الجدال فحاز قصب السبق منها كل لسان ذليق فصيح .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الذى قَهَرَتْ بَيِّنَاتُ دَلَالِهِ الْمُلْحَدَ
 المَعَانِدَ، وَبَهَرَتْ قَوَاطِعُ بَرَاهِينِهِ الْأَلَدَّ الْخَصِيمَ وَالْجَدِلَ الْمُكَايِدَ؛ وَأَشْهَدُ أَنَّ مَجْدًا عَبْدَهُ
 وَرَسُولَهُ الَّذِي أَظْهَرَ مِنْ وَاضِحِ الْمَجْجِ الْجَلِيَّةِ مَا نَسَقَطُ بِمُجْتَبِهَ دَعْوَى الْمُعَارِضِ، وَأَتَى
 مِنْ فَصْلِ الْخِطَابِ بِمَا أَفْحَمَ بِهِ الْخِصُومَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَشَدُّهُمْ فِي الْبَلَاغَةِ شِكِيمَةً أَنْ
 يَأْتِيَ لَهُ بِمُنَاقِضٍ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ فَازُوا مِنْ جَلِيلِ الْمُنَاقِبِ بِكُلِّ
 وَصْفٍ جَمِيلٍ، وَأَشْتَهَرَتْ فِي الْوُجُودِ مَقَاخِرُهُمْ فَلَمْ يُحْتَجَّ فِي إِثْبَاتِهَا إِلَى إِقَامَةِ دَلِيلٍ؛
 صَلَاةٌ يُمَسِّكُ فِي دَعْوَى الشَّرَفِ بِمَتِينِ حَبْلِهَا، وَتَتَّفِقُ أَدَلَّةُ الْعَقْلِ وَالنَّقْلِ عَلَى الْقَطْعِ
 بِعُلُوشَانِهَا وَتَوْفِيرِ فَضْلِهَا .

وبعد ، فلما كانت العلومُ مشتركةً في أصلِ التَّفْضِيلِ ، مُتَّفِقَةً الْفَضْلُ فِي الْجُمْلَةِ
 وَإِنْ تَفَاوَتَتْ فِي التَّفْصِيلِ ؛ مُسَامًا أَصْلُ الشَّرَفِ فِيهَا مِنْ غَيْرِ مُنَازَعٍ ، مُجْمَعًا عَلَى أَنَّهُ
 لَا شَيْءَ مِنَ الْعِلْمِ مِنْ حَيْثُ هُوَ عِلْمٌ بِضَارٍّ وَلَا شَيْءَ مِنَ الْجَهْلِ مِنْ حَيْثُ هُوَ جَهْلٌ
 بِنَافِعٍ ؛ مَعَ آخْتِلَافِهَا فِي التَّفَاضُلِ بِاخْتِلَافِ مَوْضُوعَاتِهَا ، وَتَفَاوُتِهَا فِي الشَّرَفِ بِحَسَبِ
 الْحَاجَةِ إِلَيْهَا أَوْ وَثَاقَةِ مُجْجِهَا أَوْ نَفَاسَةِ غَايَاتِهَا ؛ عَطَسَ كُلُّ مَنْهَا بِأَنْفِ شَايخٍ غَيْرِ مُسَلِّمٍ
 لِلْآخِرِ وَلَا مُسَلِّمٍ ، وَمَدَّ إِلَى الْعَلِيَاءِ يَدَ الْمَطَاوِلَةِ فَيَتَنَاوَلُ الثَّرِيًّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمٍ ؛ وَادَّعَى
 كُلُّ مَنْهَا أَنْ بَحْرَهُ الطَّامِي ، وَفَضْلُهُ النَّامِي ؛ وَجَوَادُهُ الطَّامِحُ ، وَسِمَاكُهُ الرَّامِحُ ؛ زَاعِمًا
 أَنْ حُسَامَهُ الْقَاطِعُ وَعَضْبُهُ الْقَاضِبُ ، وَقِدْحُهُ الْمُعَلِّيُّ وَسَهْمُهُ الصَّائِبُ ، وَتَجْمَهُ السَّارِي
 وَشِهَابَهُ الشَّاقِبُ ؛ وَأَنْ نَشْرَ الثَّنَاءِ عَلَى بَجَائِمِهِ مَوْقُوفٌ ، وَخَطِيبَ الْحَامِدِ بِمَنَابِرِهِ
 مَعْرُوفٌ ؛ وَفَلَكَ الْفَضْلِ عَلَى قُطْبِهِ دَائِرٌ ، وَكُلَّ شَرَفٍ عَلَيْهِ مُحْبَسٌ وَكُلَّ فَخْرٍ عَلَيْهِ قَاصِرٌ ؛
 فَمَاسَ بِعِطْفِهِ وَمَالَ ، وَبَسَطَ فِي الْكَلَامِ لِسَانَهُ فَقَالَ وَطَالَ .

هذا : وَإِنَّهَا أَجْتَمَعَتْ يَوْمًا أَجْتِمَاعَ مَعْنَى لَا صُورَةَ ، وَقَامَتْ لَهَا سُوقٌ بِالْبَحْثِ
 مَعْرُوفَةٌ وَعَلَى الْجِدَالِ مَقْصُورَةٌ ؛ وَتَفَاوَضَتْ بِلِسَانِ الْحَالِ وَتَخَاطَبَتْ ، وَتَحَاوَرَتْ

في دَعْوَى الشَّرَفِ وَتَجَاوَبَتْ ، وَأَلَمَّتْ بِالمُنَافَرَةِ فَتَنَافَرَتْ ، وَتَسَابَقَتْ فِي مِيدَانِ
الْإِفْتِخَارِ فَتَنَافَحَتْ ؛ وَأَخَذَ كُلُّ مَنهَا فِي نُصْرَةِ مَذْهَبِهِ ، وَتَحْقِيقِ مَطْلَبِهِ ؛ بِأَنْوَاعِ المَجْجِ
وَالْأَسْتِدْلَالَاتِ ، وَإِقَامَةِ البرَاهِينِ وَالْأَمَارَاتِ ، وَمَا يَتَوَجَّهُ عَلَى ذَلِكَ مِنَ الْأَسْئَلَةِ
وَالْإِعْتِرَاضَاتِ . فَكَانَ أَوَّلُ بَادِيٍّ بَدَأَ مِنْهَا بِالكَلَامِ ، وَفَتَحَ بَابَ الحِدَالِ وَالْحِصَامِ : -

عَلْمُ اللُّغَةِ فَقَالَ :

قَدْ عَلِمْتُمْ مَعَشَرَ العُلُومِ أَيْ أَعْمَكُمْ نَفْعًا ، وَأَوْسَعَكُمْ مَجَالًا وَأَكْثَرَكُمْ جَمْعًا ؛ عَلَى قُطْبِ
فَلَكَ تَدْوِيرُ الدَّوَائِرِ ، وَبِوَأَسْطَى تَدْرِكِ المَقَاصِدِ وَيَسْتَعْلَمُ مَا فِي الضَّمَائِرِ ؛ وَبِدَلَالَتِي تُعَلِّمُ
المَعَانِي المَفْرَدَاتِ ، وَيَتَمَيَّزُ مَا يَدُلُّ عَلَى الذَّوَاتِ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى الأَدْوَاتِ ؛ وَتَتَبَيَّنُ دِلَالَاتُ
العَامِّ وَالخَاصِّ ، وَيَتَعَرَّفُ مَا يُرْشِدُ إِلَى الأنْوَاعِ وَالْأَجْنَاسِ وَمَا يَخْتَصُّ بِالأَشْخَاصِ ؛
عَلَى أَنْ كَلِّمَ كُلُّ عَلَى ، وَحُتَّاجٌ فِي تَرْجُمَةٍ مَقْصُودِهِ إِلَى ؛ فَلَفِظِي "المُحْكَمُ" وَأَقْوَالِي
"الصَّحَاحُ" ، وَكَلَامِي "الجَامِعُ" وَسَيْفُ لِسَانِي "المُجْرَدُ" نَاهِيكَ مِنْ سِلَاحٍ ؛ وَفَضْلِي
"المُجْمَلُ" لَا يَحْتَاجُ إِلَى بَيَانٍ . اسْتَأْثَرَ اللهُ تَعَالَى بِتَعْلِيمِي لِأَدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَآثَرَهُ بِ
مَعْرِفَةِ عَلَى المَلَأَيْكَةِ فَكَانَ خِصِيصَةً لَهُ عَلَى المَلَأَيْكَةِ الكَرَامِ .^(١)

فَلَمَّا أَنْقَضَى قِيْلَهُ ، وَبَانَتْ لِلسَّيْرِ سَبِيلُهُ ؛ تَابَ إِلَيْهِ عِلْمُ التَّصْرِيفِ مُبْتَدِرًا ،
وَلنَفْسِهِ وَلسَائِرِ العُلُومِ مُتَّصِرًا ؛ فَقَالَ : رُوِيَكَ أَيُّهَا المُسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ يَا ذَا
المُنَازِلِ ؛ فَقَدْ دَلَّ مَنْ لَيْسَ لَهُ نَاصِرٌ ، وَحُطَّ قَدْرُ مَنْ تَرَفَّعَ عَلَى أبنَاءِ جِنْسِهِ وَلَوْ عَقِدَتْ
عَلَيْهِ الخَنَاصِرُ ؛ وَمَا يُجِدِي البَازِي بِغَيْرِ جَنَاحٍ ، أَوْ يُغْنِي السَّاعِي إِلَى الحَرْبِ بِغَيْرِ
سِلَاحٍ ؛ وَأَيُّ يَطْعُنُ رُحْمًا بِغَيْرِ سِنَانٍ ، أَوْ يَقْطَعُ سَيْفًا لَمْ يُؤَيِّدْ بِقَائِمٍ وَلَمْ تَقْبِضْ عَلَيْهِ
بَنَانٌ ؛ إِنَّكَ وَإِنْ حَوَيْتَ فَضْلًا ، وَأَعْرَفْتَ أَصْلًا ؛ وَكُنْتَ لِلْكَلامِ نِظَامًا ، وَإِلَى

(١) الذي في كتب اللغة « خِصِيصِي » ويمدُّ .

بيان المقاصد إماما ؛ فانت غير مُستقل بنفسك ، ولا قائم برأسك ؛ بل أنا المتكفل بتأسيس مبانيك ، والملمتم بتجوير ألفاظك وتقرير معانيك ؛ بي تعرف أصول أبنية الكلمة في جميع أحوالها ، وكيفية التصرف في أسمائها وأفعالها ؛ وما يتصل بذلك من أحوال الحروف البسيطة وترتيبها ، واختلاف مخارجها وبيان تركيبها ؛ والأصلي منها والمزيد ، والمهموس والرخو والشديد ؛ و ^(١) تقديره ، والصحيح والمعتل وتحريره ؛ وكيفية التثنية والجمع ، والفصل والوصل والابتداء والقطع ؛ وأنواع الأبنية وتغيرها عند اللواحق ، وكيفية تصريف الفعل عند تجرده عن العوائق ؛ وأمثلة الألفاظ المفردة في الزنة والهئية وما يختص من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتميز الجامد منها والمُشتق وأصناف الاشتقاق ؛ وكيف هو على التفصيل والإجمال .

على أنك لو خليت ومجرد التعريف ، وبيان المقاصد بالأصطلاح أو التوقيف ؛ لكان علم الخط يقوم مقامك في الدلالة الحالية لدى الملتقى ، ويتبرجح عليك ببعد المسافة مع طول البقاء ؛ مع ما فيه من زيادة ترتيب الأحوال ، وضبط الأموال ؛ وحفظ العلوم في الأدوار ، وأستمرارها على الأكوار ؛ وانتقال الأخبار من زمان إلى زمان ، وحملها سرا من مكان إلى مكان ؛ بل ربما آكتفى عنك بالإشارة والتلويح ، وقامت الحكاية منها مقام التصريح .

فعندها غضب علم النحو وأكفهر ، وزجر وأشمخر ؛ وقال : يا لله ! ”أستنت الفصائل حتى القرعا“ ، و”أستسمرت البعاث“ ، فكان أشد ثلما وأعظم صدعا ؛ لقد أدعيت ما ليس لك ففاتك الحبور ، و”من تشبع بما لم ينل فهو كلايس توبي زور“ ؛ وهل أنت الا بضعة مني ؟ ، تُسند إلى وتقل عني ؛ لم يزل علمك بابا من أبواي ،

وَجُمِّلَتْ دَاخِلَةً فِي حِسَابِي ؛ حَتَّى مَيَّزَكَ "الْمَازِنِي" فَأَفْرَدَكَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَتَلَاهُ
 "أَبْنُ جُنَيْ" فَتَبِعَهُ فِي التَّالِيفِ ؛ وَأَقْتَصَرَ "أَبْنُ مَالِكٍ" مِنْكَ فِي تَعْرِيفِهِ عَلَى الضَّرُورِيِّ
 الْوَاجِبِ ، وَأَحْسَنَ بِكَ "أَبْنُ الْحَاجِبِ" فِي شَافِيَتِهِ فَرَفَعَ عَنْكَ الْحَاجِبَ ؛ وَأَنْتَ
 مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَطْوِيُّ ضَمْنِ كُتُبِي ، نِسْبَتُكَ مُتَّصِلَةٌ بِنِسْبَتِي وَحَسَبُكَ لِاحِقٌ بِحَسَبِي ؛
 أَنَا مِلْحُ الْكَلَامِ ، وَمِسْكُ الْخِتَامِ ؛ لَا يَسْتَعْنِي عَنِّي مِتْكَمٌ ، وَلَا يَلِيقُ جَهْلِي بِعَالِمٍ
 وَلَا مُتَعَلِّمٍ ، بِي نَتَيْنِ أَحْوَالِ الْأَلْفَاظِ الْمُرَكَّبَةِ فِي دِلَالَتِهَا عَلَى الْمَقَاصِدِ ، وَيَرْتَفِعُ اللَّبْسُ
 عَنِ سَامِعِهَا فَيَرْجِعُ مِنْ فَهْمِهَا بِالصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ فَلَوْ أَنَّي الْمِتْكَمُ فِي لَفْظِهِ بِأَجَلٍ مَعْنَى
 وَلَحْنٍ لَذَهَبَتْ حَلَاوَتُهُ ، وَزَالَتْ طَلَاوَتُهُ ، وَعَيْبَ عَلَى قَائِلِهِ وَتَغَيَّرَتْ دِلَالَتُهُ . وَقَدْ كَانَتْ
 الْخُلَفَاءُ تَحُثُّ عَلَى النَّحْوِ وَتُرْشِدُ إِلَيْهِ ، وَتَحْذَرُ اللَّحْنَ وَتُعَاقِبُ عَلَيْهِ :

وَإِذَا طَلَبْتَ مِنَ الْعُلُومِ أَجَلَهَا * فَأَجَلُهَا عِنْدِي مُقِيمُ الْأَلْسِنِ !

فِيئِمَّا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ بَرَزَتْ عُلُومُ الْمَعَانِي وَالْبَيَانَ وَالْبَدِيعِ جُمْلَهُ ، وَحَمَلَتْ عَلَيْهِ
 بِصِدْقِ الْعَزْمِ فِي اللَّقَاءِ حَمْلَهُ ؛ وَقَالَتْ : جَعَجَعَةٌ رَحًا مِنْ غَيْرِ طِخْنٍ ، وَتَصْوِيتُ
 رَعْدٍ مِنْ غَيْرِ مُزْنٍ ؛ لَقَدْ أَتَيْتَ بِغَيْرِ مُعْرَبٍ ، وَأَعْرَبْتَ عَنِ لَيْنٍ لَيْسَ بِمُطْرَبٍ ؛
 الْحَقُّ أَبْلَجُ ، وَالْبَاطِلُ بَلْخَجُ ؛ إِنْ الْفَوْزَ لَقِدْحِنَا ، وَالْوَرَى لَقِدْحِنَا ؛ نَحْنُ لُبُّ
 الْعَرَبِيَّةِ وَخُلَاصَتِهَا ، وَالْمُعْتَرِفُ لَنَا بِالْفَضْلِ عَامَّتُهَا وَخَاصَّتُهَا ؛ وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا شَيْءٌ
 جَرَى عَلَيْكَ الْأَصْطِلَاحُ ، وَسَاعَدَكَ الْأَسْتِمَالُ فَأَمِنْتَ الْأَطْرَاحَ ؛ فَلَوْ أَصْطَلِحَ عَلَى
 نَصْبِ الْفَاعِلِ وَرَفَعِ الْمَفْعُولِ لَمْ يَخَلِّ بِالتَّفَاهُمِ فِي الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا كَلَامُ الْعَامَّةِ لِذَلِكَ أَقْوَمُ
 دَلِيلٌ وَأَعْظَمُ شَاهِدٌ .

فَقَالَ عِلْمُ الشُّعْرِ : أَرَأَيْتُمْ قَدْ نَسَيْتُمْ فَضْلِي الَّذِي بِهِ فَضَلْتُمْ ، وَصَرَّمْتُمْ حَبْلِي الَّذِي
 مِنْ أَجْلِهِ وَصَلْتُمْ ؛ أَنَا حُجَّةُ الْأَدَبِ ، وَدِيْوَانُ الْعَرَبِ ؛ عَلَى تَرِدُونِ ، وَعَنِّي تَصُدُّرُونَ ؛

وإلى تَنَسِّبُونَ، وبى تَشْتَهَرُونَ، مع ما أَشْمَلْتُ عليه من المدح الذى كم رَفَعُ وَضَعًا، وَجَلَبَ نَفْعًا، وَوَصَلَ قَطْعًا، وَجَبَرَ صَدْعًا، وَالْمَجَّوِذِ الذى كم حَطَّ قَدْرًا، وَأَنحَدَ ذِكْرًا، وَجَعَلَ بَيْنَ الرَّفِيعِ وَالرَّوَضِيعِ فى حَطِيطَةِ الْقَدْرِ نَسْبًا وَصِهْرًا؛ إِلَى غير ذلك من أنواعِ الشُّعْرِيَّةِ التى شَاعَ ذِكْرُهَا، وَأَصْوَاعِى الْعِطْرِيَّةِ التى فَاحَ نَشْرُهَا، بل لا يكادُ عِلْمٌ من العلومِ الأَدْبِيَّةِ يَسْتَعْنِي عن شَوَاهِدِى، ولا يَخْرُجُ فى أَصُولِهِ عن قَوَائِنِى وَقَوَاعِدِى؛ حَتَّى عِلْمُ النَّثْرِ الذى هُوَ شَقِيقِى فى النَّسَبِ، وَعَدِىلى فى لِسَانِ الْعَرَبِ؛ لم يَزَلْ أَهْلُهُ يَتَطَفَّلُونَ عَلَى فى بَيْتِ يَحْلُونَهُ، وَيَقْفُونَ من بَدِيعِ مَحَاسِنِى عِنْدَ حَدِّ لا يَتَعَدُّونَهُ .

فقال علمُ القافية : إِنَّكَ وَإِن تَأَلَّقَ بَرُّقُ مَبَاسِمِكَ، وَطَابَتْ أَيَّامُ مَوَاسِمِكَ؛ فانتَ مَوْقُوفٌ عَلَى مَقَاصِدِى، وَمُعْتَرِفٌ من رَوَى مَوَارِدِى؛ أَنَا عُدَّةُ الشَّاعِرِ، وَعُمْدَةُ النَّاثِرِ؛ لا يَسْتَعْنِي عَنِ شِعْرٍ ولا خَطَابَةٍ، ولا يَسْتَنْكِفُ عن الوُقُوفِ عَلَى أَبْوَابِ دُورِ تَرْسِيلِ ولا كِتَابَةٍ؛ طَالَمَا عَثَرَ الْفُحُولُ فى مِيدَانِى، وَتَشَعَّبَتْ عَلَيْهِمُ طُرُقِى فَضَلُّوا السَّبِيلَ وَأَخْتَلَفَتْ عَلَيْهِمُ الْمَبَانِى؛ فلم يَفْرُقُوا بَيْنَ التَّكَاوُسِ وَالتَّارَكِبِ فى التَّعَارُفِ، ولم يُمَيِّزُوا بَيْنَ التَّدَارُكِ وَالتَّوَاتُرِ وَالتَّرَادُفِ .

فقال علمُ العروض : لقد أَشْمَعْتَ الْقَوْلَ فى الدَّعْوَى من غير تَوَجُّهِهِ فَدَخَلَ عَلَيْكَ الدَّخِيلُ، وَأَوْقَعَكَ الْوَصْلُ دُونَ تَأْسِيسِ فى هُوَّةِ النَّقِصِ : فَهَلْ إِلَى خُرُوجِ من سَبِيلِ؟؛ أَنَا مَعْيَارُ الْفَرِيضِ وَمِيزَانُهُ، وَعَلَى تَبْنِى قَوَاعِدِهِ وَأَرْكَانِهِ؛ لم يَزَلِ الشُّعْرُ فى عُلُوِّ رُتْبَتِهِ بِفَضْلِي مُعْتَرِفًا وَلِحَقِّى مُتَحَقِّقًا، وَمِن بُحُورِى مُعْتَرِفًا، وَبِأَسْبَابِى مُتَعَلِّقًا؛ فَابْيَانُهُ بِمِيزَانِى مُحَرَّرَهُ، وَأَجْرَاؤُهُ بِقِسْطَائِى تَفَاعِيلِى مُقَدَّرَهُ؛ وَبِقَوَاصِلِى مُتَّصِلَهُ، وَبِأَوْتَادِى مُرْتَبِطَهُ غير مُنْفَصِلَهُ .

فقال علمُ الموسيقى : لقد أَسْرَفْتَ فى الْإِقْتِبَارِ فَضَلَّمْتَ الطَّرِيقَ وَبَدَّتْ عَنْهَا، وَوَرَطْتَ نَفْسَكَ فِيمَا لا فَائِدَةَ فِيهِ فَلَزِمْتَ دَائِرَةَ لا تَنْفَكُ عَنْهَا؛ وَأَتَيْتَ من طَوِيلِ

الكلام بما لا طائل تحته فنقل قولاً، وجئت من بسيط القول بما لو اقتصرته منه على المتقارب لكان بك أولى؛ فانت بين ذى طبع وزان لا يحتاج إلى معيارك في نظم قريضه، وأخرت طباعه عن الوزن فلم ينتفع من علمك بظريه ولا عروضة؛ فإذا لا فائدة فيك ولا حاجة إليك، ولا عبرة بك ولا معول عليك؛ وكفى بك هضماً، ونقيصةً وذمماً؛ وأستدللاً على دحض حجتك، وضعف أدلتك؛ قول ابن حجاج:

مُسْتَفْعِلُنْ فَاعِلُنْ فَعُولٌ * مَسَائِلُ كُلِّهَا فُضُولٌ،

قَدْ كَانَ شِعْرُ الْوَرَى صَحِيحًا * مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْخَلِيلُ!

على أنه إن ثبتت لك فائدة، وعاد منك على الشعر أو الشعراء عانده؛ فأنما تفاعيلك مقدمة للألحاني، وأوزانك وسيلة إلى أوزاني؛ نعم أنا غذاء الأرواح، وقاعدة عمود الأفرح؛ والمتكفل بسيط النفوس وقبضها، والقائم من تعديلها وتقويتها بنقلها وقرضها؛ أحرک النفس عن مبدئها فيحدث لها السرور وتظهر عنها الشجاعة والكرم، وأبعثها إلى مبدئها فيحدث لها الفكر في العواقب وتزايد الهوموم والندم؛ فتارة أستعمل في الأفرح وزوال الكروب، وتارة في علاج المرضى وأخرى في ميادين الحروب؛ وأونة في محل الأخران واجتماع الماتم، ومررة يستعملني قوم في بيوت العبادات فأبعثهم على طلب الطاعات واجتناب المحارم؛ وآتى من غريب الألحان، بما يشبع به الجائع ويروى به الظمان، ويأنس به المستوحش وينشط به الكسلان؛ وتدنو لسماعه السباع، ويعنوله بعد الشدة الشجاع.

مع ما يفتزع عنى من علم الآلات الروحانية التي تُنعش الأرواح، وتجلب الأفرح؛ وتنفى الأتراح، وتؤثر في البخيل السباح، وتفعّل في الأبواب ما لا تفعل في اللبّات بيض الصفاح.

فقال علم الطب : لقد أضعت الزمان في اللهو، ومِلت مع الأريحية فاس بك العُجب وزاد بك الرهو، وداخلك الطيش فقنعت بالإطراب، وعنيت بمعرفة اللحن فقأتك الإعراب، تُذكر العشاق أحوال النوى فيسلمها الهوى إلى الهوان، وتنتقل في نواحي الإيقاع تنقل الهائم فتمسى في حجاز وتصبح في أصهان، وأنت وإن ادعيت أنك العلم الروحاني، والمستولى بتحرك الطبائع الأربع على النوع الإنساني وغير الإنساني، فأنت غير مستغن عني، ولا فنك في الحقيقة مُفك عن فني، بل قواعِدك مُرتبة على قواعِدي، وفوائِدك مُستفادَةٌ من فوائِدي، وأهل صناعتك يتطفلون في معرفة الملائم والمنافي على ساقط لباب موائِدي، وأنى تبسط بك الروح مع وجود السقم، أو يستريح إليك القلب مع شدة مقاساة الألم؟ بل أنا قوام الأبدان، وغاية ملاك الإنسان، بي تحفظ صحة الأجسام، وتحمك النفس من استكمال قوتها النظرية والعملية بواسطة زوال الأقسام وانتفاء الآلام، مع ما يتضح بالنظر في التشريح الذي هو أحد أنواع من سرِّ قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ . وما يظهر من حال الصحة والمرض وسرِّ الموت من أنه تعالى بدأ الخلق أوّل مرّة وإليه يحشرون .

مع ما يلحق بي من علم خواص العقاقير الغريبة، والأحجار التي تؤثر بتمزيجها الصناعاتي التأثير العجيب، وتأتي من نوادر الأفعال بالأعمال الغريبة، على أنني لست بمتخص في الحقيقة ببدن الإنسان، ولا قاصر على نوع من أنواع الحيوان، وإنما أوردت بنوع البشر اهتماماً بشأنه، وتنبهاً على جلالة قدره وعلو مكانه .

ثم أُلحِق بالإنسان في الاعتناء به الخيول فأشتق لها مني علم البيطرة، وتلاها في الاعتناء بجوارح الطيور لاهتمام الملوك بشأنها فاستنبط لها من أجزاء علم البيطرة، وأهمّل ما سوى ذلك من جنس الحيوان، فلم يُعتمَنَ بأمره ولم يُهتَمَ له بشأن .

فقال علم القافة : لقد ارتقيت مرتقى صعبا ، وولجت مولوجا صلبا ؛ وأتيت من مشكلات الفضايا بما ضاقت مطالبه ، وعرضت نفسك لمغالبة الموت والموت لا شيء يغالبه ؛ واقتصرت في تشريحك الأعضاء على ذكر منافعها وصفاتها ، وأضربت عما تدل عليه بصورها وكيفياتها ؛ أين أنت من الحاق الابن بالأب بالصفات المتماثلة ، والحكم بنبوت النسب بدلائل الأعضاء كما يحكم بالبينة العادلة ؛ فهذه هي الفضيلة التي لا تساوى ، والمثقة التي لا تعادل ولا تساوى ؛ وكفالك لذلك شاهدا ، وعلى ثبوته في الشريعة المطهرة مساعدا ؛ وأنه لا يعتور ذلك معارضة ولا نقض ، أستبشار النبي صلى الله عليه وسلم بقول مدح المدلجى : « إن هذه الأقدام بعضها من بعض » .

فقال علم قص الأثر : نعم إن شأنك لغريب ، وإن أجهادك لمصيب ؛ غير أنى أنا أغرب منك شأنا ، وأدق في الإدراك معنى ؛ إذ أنت إنما تلحق المحقق بالمشاهدة بمنه ، وتقيس فرعا على أصل ثم تلحق الفرع بأصله ؛ وأنا فأدرك المؤثر من الأثر ، وأستدل على الغائب بما يظهر من اللوائح في الرمل والمدرب ؛ وربما ميزت أثر البعير الشارد من المراتع ، وفرقت بالنظر فيه بين الصحيح والظالم ؛ فأدركت من الأمر الخفي ما تدركه أنت من الظاهر ، وقضيت على الغائب بما تقضى به على الحاضر .

فقال علم غصون الكف والجبته : ما الذى أتيت به من الغريب ، أو أظهرته بعلمك من العجيب ؛ فلو أتيت بأرض صلبة لوقفت أمالك ، أو محت الریح معالم الأثر لطلت أعمالك ؛ أو ولى من تقفى أثره المساء لقات حدسك الصائب ، أو جعل الماشى مقدم نعله مؤخره لقلت : إن الداهب قادم والقادم ذاهب ؛ لكن أنا كاشف الأسرار الخفية ، والمستدل على لوازم الإنسان بما ركب فيه من الدلائل الخلقية ؛

أَسْتَخْرِجُ مِنْ أَسَارِيرِ الْجَهَنَّمَةِ وَغُضُونِ الْكَفِّ أُمُورًا قَدْ أُرْشَدَتِ الْحِكْمَةُ الْإِلَهِيَّةُ إِلَيْهَا ، وَجُعِلَتْ تِلْكَ الْعَلَامَةُ فِي الْإِنْسَانِ دِلَالَةً عَلَيْهَا .

فَقَالَ عِلْمُ الْكَتِفِ : إِنَّهُ لَيْسَ فِي الْأَسْتِدْلَالِ عَلَى الشَّيْءِ بِإِلَازِمِهِ أَمْرٌ مُسْتَعْرَبٌ ، وَلَا مَا يُقَالُ فِيهِ : هَذَا مِنْ ذَلِكَ أَعْجَبٌ ، وَإِنَّمَا الشَّانُ أَنْ يَقَعَ الْأَسْتِدْلَالُ عَلَى الشَّيْءِ بِمَا هُوَ أَجْنَبِيٌّ مِنْهُ ، وَخَارِجٌ عَنْهُ ، كَمَا أَسْتَدِلُّ أَنَا بِالْخَطُوطِ الْمَوْجُودَةِ فِي كَتِفِ الدَّيِّجَةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَسْرَارِ الْعَجِيبَةِ ، مِمَّا أَجْرَى اللَّهُ بِهِ الْعَادَةَ فِي ذَلِكَ ، وَجَعَلَهُ عِلَامَةً دَالَّةً عَلَى مَا هُنَاكَ .

فَقَالَ عِلْمُ خَطِّ الرَّمْلِ : لَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّكَ لَسْتَ بِمُحَقِّقٍ لِمَا أَنْتَ لَهُ مُتَوَسِّمٌ ، وَلَا وَائِقٍ بِالْإِصَابَةِ فِيمَا أَنْتَ عَنْهُ تُتَرَجِّمُ ، وَغَايَتُكَ الْوُقُوفُ مَعَ التَّجَارِبِ ، وَالرُّجُوعُ فِيمَا تُحَاوِلُهُ إِلَى التَّقَارِبِ ، مَعَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنَ الرَّفْضِ وَالْإِهْمَالِ ، وَمَا رُمِيَتْ بِهِ مِنَ الْقَطِيعَةِ وَقِلَّةِ الْأَسْتِعْمَالِ ، أَمَا أَنَا فَقَارِسُ هَذَا الْمِيدَانِ ، وَمَالِكُ زِمَامِ هَذَا الشَّانِ ، فَكَمْ مِنْ ضَمِيرٍ أَبْرَزْتُهُ ، وَأَمْرٍ خَفِيَ أَظْهَرْتُهُ ، وَمَكَانٍ عَيَّنْتَهُ فَوَافِقٌ ، وَأَمْدٍ قَدَّرْتَهُ فَطَائِقٌ ، عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ لَكَ أَصْلٌ تَرْجِعُ إِلَيْهِ ، وَلَا دَلِيلٌ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ، فَأَنَا أَثْبَتُ مِنْكَ قَوَاعِدَ ، وَأَوْضَحُ عِنْدَ الْإِعْتِبَارِ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى الْمَقَاصِدِ ، فَانْ عَدَوْتَ طَوْرَكَ ، أَوْ جُرْتَ فِي الْإِحْتِجَاجِ خِصْمَكَ ، فَمَدَّكَ ، أَنَّهُ كَانَ نَبِيٌّ يَخْطُ فَنِ وَأَفَقَ خَطَّهُ فَذَلِكَ .

فَقَالَ عِلْمُ تَعْيِيرِ الرُّؤْيَا : إِنَّكَ وَإِنِ أَظْهَرْتَ السَّرَائِرَ ، وَأَبْرَزْتَ الضَّمَائِرَ ، فَإِنَّ أَمْرَكَ مَوْقُوفٌ فِي حَدْسِكَ عَلَى الدَّلَالَةِ الْحَالِيَةِ ، وَمَقْصُورٌ فِي تَحْمِينِكَ عَلَى الْأُمُورِ الْإِحْتِمَالِيَةِ ، أَيْنَ أَنْتَ مَنِيَّ حِينَ أُعَبَّرَ عَمَّا شَاهَدْتَهُ النَّفْسُ فِي النَّوْمِ مِنْ عَالَمِ الْغَيْبِ ؟ وَكَيْفَ أُكْشِفُ عَنْهُ الْمُجَبَّ بِالتَّأْوِيلِ فَيَقَعُ كِفَافَتِ الصُّبْحِ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، فَأَخْبِرْ بِحَوَادِثِ تَقَعُ فِي الْعَالَمِ قَبْلَ وُجُودِهَا ، وَآتِي مِنْ حَقَائِقِ النَّدَارَةِ وَالْبَشَارَةِ بِمَا يُنَبِّئُهُ عَلَى التَّحْذِيرِ مِنْ نُحُوسِهَا وَالتَّرَقُّبِ لِمُؤَافَاةِ سَعُودِهَا .

فقال علم أحكام النجوم : حقيق ما أولت ، وصحيح ما عنه عبرت وعليه
 عولت ؛ إلا أنك قاصر على وقائع مخصوصة تُرشد إليها ، وأمور محدودة تُنبه عليها ؛
 على أنه ربما نَسَبَت الرُّبَا عن فكرة وقعت في اليقظة فاتصلت بالنام ، أو حدثت
 عن سوء مزاج أو رداءة مطعم ونحو ذلك فكانت أضغاث أحلام ؛ أما أنا فأني أدل
 بما أجراه الله تعالى من العادة ، على الحوادث العامة مصاحباً لمقتضيات إرادته ؛
 ليظهر ما في الحكمة الإلهية من قضايا التدبير ، ويبيِّن ما أشتملت عليه الأفلاك
 العلوية من تقدير الترتيب وترتيب التقدير ؛ مع ما يترتب على ذلك من الأعمال
 العجيبة ، والأحوال الغريبة ؛ التي تبهر العقول ، ويمتنع إليها من غير طريق
 الوصول :

من علم السحر على الإطلاق ، وعلم الطلسمات الغريبة وعلم الأوفاق ،
 وكذلك علم النيرنجيات وعلم السيميا الآخذ بالأحداق .

فقال علم الهيئة : مالك ولا باطيل تتممها ، وأكاذيب تُزخر فيها وتزبرقها ؛
 وأمانيل يعتمدها المعتمد فتخيب ، وأقاويل تارة تُخطئ وتارة تصيب ؛ ولقد وردت
 الشريعة المطهرة بالنهي عن اعتبارك ، وجاءت السنة الغراء بنحو أخبارك وإعفاء
 آثارك ؛ ونأهيك بفساد هذا الاعتقاد ورد هذا المذهب ، ما ثبت في الصحيح من
 أنه من قال : مطرنا بنوء كذا فهو كافر بالله مؤمن بالكوكب ؛ على أنك في الحقيقة
 نوع من أنواع ، معدود من جندي ومحسوب من أتباعي ؛ نعم أنا القائم من دليل
 الاعتبار في القدرة بتمام الفرض ، والقائد بزمام العقل إلى التفكر في خلق السموات
 والأرض ؛ عني يتفرع علم الزيجات والتقويم الذي به يُعرف موضع كل واحد
 من الكواكب السيارة ومدة إقامتها ، وزمن تسريتها وتغريبها ومقدار رجوعها

وَأَسْتَقَامَتَهَا ؛ وحال ظهورها وأخفائها في كلِّ زمان ، وما يتَّصَلُ بذلك من الأَنْصَالِ
والأَنْفِصَالِ والخُسُوفِ والكُسُوفِ واختصاص ذلك بمكانٍ دُونَ مكان .

فقال علم كَيْفِيَّةِ الأَرْضَادِ : ما عِلْمُ الرِّيحَاتِ والتَّقَاوِيمِ الذي تُقَدِّمُهُ في الذِّكْرِ عَلَيَّ ،
وَتَوْثُرُهُ من الفضل بما لَدَيَّ ؛ إذ بي تُتَعَرَّفُ كَيْفِيَّةُ تحصيلِ مقاديرِ الحَرَكَاتِ الفَلَكِيَّةِ ،
والتَّوَصُّلِ إليها بِالآلَاتِ الرَّصَدِيَّةِ ؛ التي عليها يترتب عِلْمُ الرِّيحَاتِ ، ويُعْرَفُ في التَّقْوِيمِ
الأَنْصَالَاتِ والأَنْفِصَالَاتِ والأَمْتِرَاجَاتِ .

مع ما يَلْتَحِقُ بي من عِلْمِ الكُرَّةِ الذي منه تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ آتِخَاذِ الآلَاتِ الشُّعَاعِيَّةِ ،
ويتوصَّلُ به إلى آسْتِخْرَاجِ المَطَالِبِ الفَلَكِيَّةِ .

فقال علم المَوَاقِيتِ : كيف وأنا سَيِّدُ عُلُومِ الهَيْئَةِ وَرَزْعِمِهَا ، وشَرِيفُهَا في الشَّرِيعَةِ
وَكَرِيمُهَا ؛ بي تُعْرَفُ أَوْقَاتُ العِبَادَاتِ ، وَتُسْتَخْرَجُ جِهَةُ القِبْلَةِ بل سَائِرِ الجِهَاتِ ؛
وتُعَلَّمُ أَحْوَالُ البُلْدَانِ ومَحَلُّهَا من المَعْمُورِ في الطُّولِ والعَرْضِ ، ومَقَادِيرُ أبعادها
وَأَنْحِرَافُ بَعْضِهَا عن بَعْضٍ ؛ مع ما يَنْخَرِطُ في هَذَا السَّلْكِ من مَعْرِفَةِ السُّمُوتِ
وَأَرْتِفَاعِ الكَوَاكِبِ ، ومطالعتها من أَجْزَاءِ البُرُوجِ والطَّالِعِ منها والغَارِبِ ؛ وغير ذلك
من الشُّعَاعَاتِ المَخْرُوطَةِ ، وَالظَّلَالِ القَائِمَةِ والمَبْسُوطَةِ ؛ إلى غير ذلك مما يَلْتَحِقُ بي ،
ويُنَسَبُ إلىَّ وَيَتَعَلَّقُ بِسَبَبِي :

من علم الآلاتِ الظِّلِّيَّةِ التي تُعْرَفُ بها ساعاتُ النهارِ ، ويَظْهَرُ منها الماضي
والباقى بأقرب مُتَمَسِّسٍ وألطفِ أَعْتِبَارٍ ، من نحو الرِّخَامَاتِ القَائِمَاتِ ، والمَبْسُوطَاتِ
منها والمَائِلَاتِ .

فقال علم الهندسة : إن فَضْلَكَ لَمَشْهُورٍ ، ومَقَامَكَ في الشَّرَفِ غيرِ مَنْكُورٍ ؛ إلا أن
آلاتِكَ بي مُقَدَّرَةٌ ، وأشْكَالِكَ بأَوْضَاعِي مُحَرَّرَةٌ ؛ فأنا إِمَامُكَ الذي به تَقْتَدِي ، وتَجْمَعُ

الذي به تهتدي ؛ بل جميع علوم الهيئة في الحقيقة موقوفة على ، وراجعة في قواعدها إلى ؛ لولاى لم يعرف السطح والكوه ، ولم يميز بين الخطوط والقسي والدوائر المقدره ؛ مع ما ينشأ عنى ، ويستملى من صحابي ويقتبس منى ؛ من أحوال المقادير ولواحقها ، ومعرفة ظواهرها الواضحة ودقائقها ؛ وأوضاع بعضها عند بعض ونسبها ، وخواص أشكالها والطرق إلى عمل ما سيبله أن يعمل لها ، وأستخراج ما يحتاج إلى أستخراجه بالبراهين البينة القاطعه ، وإظهارها إلى الحس بالأشكال البينة والحدود الجامعة المانعه .

فقال علم عقود الأبنية : نعم ، إلا أنى أنا أجل مقاصدك ، وأعذب مواردك ؛ ونور عيونك ، وعروس فنونك ؛ منى يستفاد ببناء الحصون والأسوار ، ويتعرف شق الأقبية وحفر الأنهار ؛ وعمارة المدن وعقد القواصر ، وسد البثوق وبناء القناطر ؛ وتضييد المساكن ووضع المنازل ، ونصب الأشجار وترتيب الرياض ذوات الخمائل .
فقال علم جبر الأثقال : صدقت ولكنى أنا أساس مبانيك وقاعدة سنادك ، وحامل أقالك وعمود اعتمادك ؛ بي تعرف كيفية نقل الثقل العظيم بالقوة اليسيره ، حتى تسقل مائة ألف رطل بقوة خمسمائة وذلك من الأسرار النفيسة والأعمال الخطيره .

فقال علم مرا كز الأثقال : إلا أنك محتاج إلى فى أعمالك ، ومتوقف على فى جميع أحوالك ؛ من حيث أستخراج مرا كز الأجسام المحموله ، وبيان معادلة الجسم العظيم بما هو دونه لتوسط المسافة بالآلات المعموله .

فقال علم المساحة : أراك قد غفلت عن معرفة المقادير والمسافات التى هى مقدمة عليك فى وضع المباني ، ومفردة عنك بكثير من المعانى ؛ من أ الخراج والزراعات ،

وتقدير الرساتيق والبياعات ، وكيفية ذرع المثلثات ، والمربعات ، والمدورات ،
والمستطيلات ؛ وغير ذلك من دقائق الأعمال ، وإدراك كميات المقادير على التفصيل
والإجمال .

فقال علم الفلاحة : فإذا قد اعترفت أنك من جملة آواحي ، مندرج في حقوق
وداخل تحت مرافق ؛ فأنا في الحقيقة المقصود منك في الوضع بالقياس ، والمحدد
بك دون غيري من غير التباس ؛ مع ما أنا عليه من معرفة كيفية تدبير النبات من بدء
كونه إلى تمام تدبيره ، وتسمية الحبوب والثمار بإصلاح الأرض وما تحللها
من المعفونات كالسواد وغيره وما أيديه من اللطائف في إيجاد بعض الفواكه في غير
فصله ، وتركيب بعض الأشجار على بعض واستخراج بعضها من غير أصله .

فقال علم إنباط المياه : إلا أنني أنا بداية عمك ، وغاية منتهى أمك ؛ لا يتم لك
أمر بدوني ، ولا تثبت لك خضراء ما لم تُسقى من بتاري وعيوني ؛ فأنا الكفيل
باحياء الأرض الميتة وإفلاحها ، والقائم بتلطيف مزاجها وإصلاحها .

فقال علم المناظر : ما الذي تجدي أنت وطرفي عنك مُرتد ، ونظري إليك غير
مُمتد ؛ وأنى تستطيع مياهاك الترقى من الأغوار إلى النجود ، وتتنقل عيونك وأنبارك
بين الهبوط والصعود ؛ إذا لم أكن لك ملاحظا ، وعلى الاعتناء بأمرك محافظا ؛
مع ما أشتمل عليه غير ذلك من تحقيق المبصرات في القرب والبعد على اختلاف معانيها ،
وما يغلط فيه البصر كالأشجار القائمة على سُطوط المياه حيث تُرى وأسافلها أعاليها .

(١)
فقال علم المرايا المحرقة : إنك وإن دقت النظر ، وحققت كل ما وقع عليه
حاسة البصر ؛ فأنا مقصدك الأعظم ، ومهمك المقدم ؛ طالما أحرقت القلاع

(١) ذكر في لسان العرب أن المرأة جمعها مراة كمرع وأن العوام يقولون في جمعها : مرايا .

بُشَعَامِي، وَحَصَّنَتِ الْجِيُوشَ بِدِفَاعِي، وَقَتُّ بِمَا لَمْ يَقُمْ بِهِ الْجَيْشُ الْعَرَمَرَمَ وَالْعَسْكَرَ
الْحَزَارًا، وَأَغْنَيْتُ مَعَ أَنْفِرَادِي عَنِ كَثْرَةِ الْأَعْوَانِ وَمُعَاوَدَةِ الْأَنْصَارِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْآلَاتِ الْحَرْبِيَّةِ : وَإِنْ حَدَّكَ لِكَيْلٍ ، وَإِنْ جَدَّكَ لِقَلِيلٍ ، وَإِنْ
الْمُسْتَنْصِرُ بِكَ لِلذَّلِيلِ ؛ وَمَاذَا عَسَى تَصِلُ فِي الْإِحْرَاقِ إِلَيْهِ ، أَوْ تُسَلِّطَ فِي الْحُرُوبِ عَلَيْهِ ؟ ؛
أَنَا بَاعُ الْحَرْبِ الْمَدِيدِ ، وَالْمُحَصَّنِ مِنْ كُلِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ ، وَالتَّالِي بِلِسَانِ الصَّدْقِ عَلَى
الْأَعْدَاءِ : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾ . فَأَنَا نَفْسُ الْمَقْصُودِ وَعَيْنُ
الْمُرَادِ ، وَعَمُودُ الْحَقِّ وَقَاعِدَةُ الْجِهَادِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْكِيمِيَا : مَا أَنْتَ وَالْقِتَالُ ، وَمُوقِفَةُ الْحُرُوبِ وَقَوَارِعُ التَّرَالِ ؛ وَهَلْ
أَنْتَ إِلَّا آلَةٌ مِنَ الْآلَاتِ ، لَا تَسْتَقِلُّ بِنَفْسِكَ فِي حَالَةٍ مِنَ الْحَالَاتِ ؛ وَأَتَى يُعْنَى
السَّلَاحُ عَنِ الْجَبَانَ مَعَ خَوَرِ الطَّبَاعِ ، أَوْ يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْبَطْلُ الصَّنِيدُ وَالْمُجْرِبُ الشُّجَاعُ ؛
فَالْعِبْرَةُ بِالْمُقَاتِلِ ، لَا بِالذَّوَابِلِ ؛ وَالْعُمْدَةُ عَلَى الرَّجَالِ ، لَا بِبَوَارِقِ السُّيُوفِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛
وَبِكُلِّ حَالٍ فَالْعُمْدَةُ فِي الْحُرُوبِ وَجَمْعُ الْعَسَاكِرِ عَلَى التَّقْدِيرِ دُونَ مَاعِدَاهُمَا ،
وَالْأَسْتِنَادُ إِلَى الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ بِخِلَافِ مَاسَوَاهُمَا ؛ وَإِلَى هَذَا الْحَدِيثِ يُسَاقُ وَعَلَى
فِيهِ يُعْتَمَدُ ، وَعَنَى يُؤْخَذُ وَإِلَى فِي مِثْلِهِ يُسْتَنْدُ ، أَحْوَالُ بِحُسْنِ التَّبْدِيرِ ، مَا طَبَخَتْهُ
الطَّبِيعَةُ عَلَى مَرِّ الدَّهْوَرِ ؛ فَاتَى بِمِثْلِهِ فِي الزَّمَنِ الْقَرِيبِ ، وَأَجَانِسُ بَيْنَ الْمَعَادِنِ فِي مُمَارَجَتِهَا
فِيظْهَرُ عَنْهَا كُلُّ مَعْنَى غَرِيبٍ ؛ وَأَبْرَزُ مِنْ خِصَائِصِ الْإِكْسِيرِ مَا يَقْلِبُ الْمَرِيحَ قَمْرًا
مِنْ غَيْرِ تَبَسٍّ ، وَيُجِيلُ الزُّهْرَةَ سَمْسًا وَنَاهِيكَ بِإِحَالَةِ الزُّهْرَةِ إِلَى الشَّمْسِ ؛ فَصَاحِبِي
أَبْدَا عَزِيزُ الْمَنَالِ ، شَرِيفُ النَّفْسِ عَنِ الطَّلَبِ عَفِيفُ اللِّسَانِ عَنِ السُّؤَالِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْحِسَابِ الْمُفْتَوَحِ : إِنَّكَ وَإِنْ دَفَعْتَ عَنَّا ، وَجَلَبْتَ غَنِيَّ ؛ فَأَمْوَالُكَ
الْجَمَّةُ ، وَحَوَاصِلُكَ الضَّخْمَةُ ؛ مَحْتَاجَةٌ إِلَى حُسَابِي ، غَيْرُ غَنِيَّةٍ عَنِ كِتَابِي ؛ أَنَا جَامِعُ

الأموال وضابط أصولها ، والمتكفل بحفظ جملتها وتفصيلها ؛ مع احتياج كثير من العلوم إلى في الضرب والقسمة والإسقاط .

قد أخذت من علم الارتماطيقى الذى هو أصل علوم الحساب بجوانبه ، وتعلقت منه بأسهل طرقه وأقرب مداخله ؛ ونأهيك بشرف قدرى ، ورفعته ذكرى ؛ قول أبى محمد الحريرى فى بعض مقاماته ، منها على شرف قلبى وسنى حالاته : « ولولا قلم الحساب لاودت ثمرة الأكتساب ، ولاتصل التغابن إلى يوم الحساب » .

فقال علم حساب التخت والميل : مه ! فما أنت إلا علم العامة فى الأسواق ، تدور بين الكافة على العموم وتتداول بينهم على الإطلاق ؛ تكاد أن تكون بديها حتى للأطفال ، وضروريا للنساء والعبيد فى جميع الأحوال ؛ يتسع عليك مجال الضرب فتقصر عنه همتك المقصره ، وتتشعب عليك مدارك القسمة فتأق بها على التقريب غير محوره ؛ أين أنت من سعة باعى ، وأمتداد ذراعى ، وتحرير أوضاعى ؟ ؛ لا يعتمد أهل الهيئة فى مساحة الأفلاك والكواكب غير حقائق أمورى ، ولا يعولون فيها - على سعة فضائها - إلا على صحاحى وكسورى .

فقال علم حساب الخطأين : مالى ولعلم لا يوصل إلى المقصود إلا بعد عمل طويل ؟ ، ويحتاج صاحبه مع زيادة العناء إلى استصحاب تخت وميل ، وقد قيل : كل علم لا يدخل مع صاحبه الحماة بحداه قاصر ونفعه قليل ؛ على أن غيرك يُساركك فيما أنت فيه ، ويوصل إلى مقصودك بطريق لا يدخله الغلط ولا يعتريه ؛ وإنما الشأن فى استكشاف غامض أو إظهار غريب ، ولا أعجب من أن تُصيب إخراج المجهول من الأعداد بخطأين فيقال : أتى بخطأين وهو مُصيب .

فقال علم الجبر والمقابلة : حَسْبُكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ فِي اسْتِخْرَاجِ الْمَجْهُولَاتِ كَسْتَقْطِ
 مِنْ قَطْرٍ ، أَوْ نُفْسَةٍ مِنْ بَحْرِ ، تَقْتَصِرُ مِنْهَا بِطَرِيقِكَ الْقَاصِرَةِ وَأَعْمَالِكَ النَّاكِبَةِ ،
 عَلَى مَا أَمْكَنَ صَيْرُورَتِهِ مِنَ الْعَدَدِ فِي أَرْبَعَةِ أَعْدَادٍ مُتَنَاسِبَةٍ ؛ نَعَمْ أَنَا أَبُو عُدْرَتِهَا ،
 وَأَبْنُ يَجْدَتِهَا ، وَأَخُو نَجْدَتِهَا ؛ اسْتَخْرِجْ جَمِيعَ الْمَجْهُولَاتِ ، مِنْ مَسَائِلِ الْمَعَامَلَاتِ ،
 وَالْوَصَايَا وَالتَّرِكَاتِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَجْرِي هَذَا الْمَجْرَى ، وَيَتَّخِذُ هَذَا النَّحْوَ وَيَسْرَى
 هَذَا الْمَسْرَى ؛ مِمَّا يَدْخُلُ تَحْتَ الْأَمْوَالِ وَالْحُدُودِ ، وَالْأَعْدَادِ الْمُطْلَقَةِ مِنَ الصَّحَاحِ
 وَالْكُسُورِ .

فقال علم حساب الدرهم والدينار : مَالِكٌ وَلِدَاعَاءِ التَّعْمِيمِ فِي اسْتِخْرَاجِ
 الْمَجْهُولَاتِ وَكَشْفِ الْغَوَامِضِ ؟ وَإِنَّمَا أَنْتَ قَاصِرٌ عَلَى اسْتِعْلَامِ الْمَجْهُولَاتِ الْعَدَدِيَّةِ
 الْمَعْلُومَةِ الْعَوَارِضِ ؛ دُونَ مَا تَزِيدُ عِدَّتَهُ عَلَى الْمَعَادِلَاتِ الْجَبْرِيَّةِ ، فَقَدْ فَاتَكَ حِينَئِذٍ
 الدَّعَاوَى الْحَصْرِيَّةِ ؛ لِكِنِّي أَنَا كَاشِفٌ هَذِهِ الْحَقَائِقَ ، وَمُبَيِّنٌ سُبُلَهَا بِالطَّائِفِ الطَّرَائِقِ ؛
 فِي إِيَّاهَا يُتَوَصَّلُ ، وَعَلَى قَوَاعِدِي لِاسْتِخْرَاجِ مَقَاصِدِهَا يُجْمَلُ وَيُقَصَّلُ .

فقال علم حساب الدَّورِ وَالْوَصَايَا : إِنَّ اسْتِخْرَاجَ الْمَجْهُولَاتِ وَإِنْ عَظُمَ نَعْمًا ،
 وَحَسُنَ وَضْعًا ؛ فَأَنَا أَعْظَمُ مِنْهُ فَائِدَهُ ، وَأَجَلُّ مِنْهُ عَائِدَهُ ؛ أُبَيِّنُ مِقْدَارَ مَا يَتَعَلَّقُ بِالدَّورِ
 مِنَ الْوَصَايَا ، حَتَّى يَتَّضِحَ لِمَنْ يَتَمَلَّلُ ، وَأَقْطَعُ الدَّورَ فَنَعُودُ الْمَسْأَلَةَ مِنْ أَظْهَرِ الْقَضَايَا ،
 وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَدَارَ أَوْ تَسَلَّلَ .

فقال علم الفقه : وَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نُبْدَةٌ مِنَ الْوَصَايَا الَّتِي هِيَ بَارِقَةٌ مِنْ بَوَارِقِ ،
 تَتَعَلَّقُ بِأَطْنَابِي وَتَدْخُلُ تَحْتَ سُرَادِقِي ؛ بِي تُمَيِّزُ مَعَالِمَ الْأَحْكَامِ ، وَيَتَبَيَّنُ الْوَأَجِبُ
 وَالْمَنْدُوبُ وَالْمُبَاحُ وَالْمَكْرُوهُ وَالْحَرَامُ ؛ وَيُتَعَرَّفُ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنْ
 الْعِبَادَاتِ ، وَسَائِرِ أَنْوَاعِ التَّكَالِيفِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ مِمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ الضَّرُورَاتُ

وتَجَرى به العادات ؛ فَأَنَا إِمَامُ الْعُلُومِ الَّذِي بِهِ يُقْتَدَى ، وَعَمِيدُهَا الَّذِي عَلَيْهِ يُعْتَمَدُ
وَتَجْمَعُهَا الَّذِي بِهِ يُهْتَدَى ؛ فَلَوْلَا إِرْشَادِي لَضَلَّ سَعَى الْمُكَلِّفِينَ ، وَلَا مَسْوَا فِي دِيَارِ
مُدْهَمَّةٍ فَأَصْبَحُوا عَنْ رَكَائِبِ الْخَيْرِ مُخْتَلِفِينَ .

وَنَاهِيكَ أَنْ مِنْ جُمْلَةِ أَفْرَادِي ، وَآحَادِ أَعْدَادِي : -

علم الفرائض الذي حَضَّ الشارِعَ عَلَى تَعَلُّمِهِ وَتَعْلِيمِهِ ، وَأَخْبَرَ بِأَنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ
مُنْبَهًا عَلَى تَعْظِيمِ شَأْنِهِ وَتَفْخِيمِهِ ؛ وَبَالَغَ فِي إِثْبَاتِ قَوَاعِدِهِ وَإِحْكَامِ أَسْئَلِهِ ، فَقَالَ :
« إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكِلْ قِسْمَةَ مَوَارِيثِكُمْ إِلَى مَلِكٍ مُقَرَّبٍ وَلَا نَبِيٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا
فَقَسَمَهَا بِنَفْسِهِ » .

فَقَالَ عِلْمُ أُصُولِ الْفِقْهِ : إِنَّ مَقَالَكَ لَعَالٌ ، وَإِنَّ جِدِّكَ لِحَالٌ ؛ غَيْرَ أَنِّي أَنَا
الْمُتَكَفَّلُ بِتَقْرِيرِ أُصُولِكَ ، وَتَوْجِيهِ الْمَسَائِلِ الْوَاقِعَةِ فِي خِلَالِ أَبْوَابِكَ وَفُصُوكِ ؛
بِي تُعْرَفُ مَطَالِبُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ الْعَمَلِيَّةِ وَطُرُقُ أَسْتِنْبَاطِهَا ، وَمَوَادُّ حُجْجِهَا
وَأَسْتِخْرَاجِهَا بِدَقِيقِ النَّظَرِ وَتَحْقِيقِ مَنَاطِقِهَا ؛ فَبِأُصُولِي فُرُوعُكَ مَقَرَّرَةٌ ، وَبِحَاثِنِي
أَسْتِدْلَالِي حُجُجُكَ مُنْتَهَجَةٌ مُحَرَّرَةٌ ؛ قَدْ مَهَّدْتُ طُرُقَكَ حَتَّى زَالَ عَنْهَا الْإِلْبَاسُ ، وَبَنَيْتُ
عَلَى أَعْظَمِ الْأُصُولِ فُرُوعَكَ فَأَسْتَدْتَهَا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ وَالْقِيَاسِ .

فَقَالَ عِلْمُ الْجَدَلِ : قَدْ عَلِمْتَ أَنَّ الدَّلِيلَ لَا يَقُومُ بِرَأْسِهِ ، وَلَا يَسْتَقِيلُ بِنَفْسِهِ ؛
بَلْ لَا بُدَّ فِي تَقْرِيرِهِ مِنَ النَّظَرِ فِي مَعْرِفَةِ كَيْفِيَّةِ الْأَسْتِدْلَالِ ، وَالطَّرِيقِ الْمَوْصِلِ إِلَى
الْمَطْلُوبِ عَلَى التَّفْصِيلِ وَالْإِجْمَالِ ؛ وَأَنَا الْمُتَكَفَّلُ بِذَلِكَ ، وَالْمَوْصِلُ بِكَشْفِ حَقَائِقِ
الْبَحْثِ إِلَى هَذِهِ الْمَدَارِكِ ؛ بِي تُعْرَفُ كَيْفِيَّةُ تَقْرِيرِ الْحُجَجِ الشَّرْعِيَّةِ ، وَقَوَادِحُ
الْأَدْلَةِ وَتَرْتِيبُ الثُّبُوتِ الْخِلَافِيِّهِ ؛ فَمَوْضُوعُكَ عَلَى مَحْمُولٍ ، وَنَظْرُكَ إِلَى نَظَرِي بِكُلِّ
حَالٍ مُوَكَّلٍ .

فقال علم المنطق : حَفْضَ عَلَيْكَ ! فَهَلْ أَنْتَ إِلَّا نَوْعٌ مِنْ قِيَاسَاتِي الْمُنْطِقِيَّةِ
أَفَرِدْتَ بِالتَّصْنِيفِ ، وَخُصِّصْتَ بِالْمَبَاحِثِ الدِّيَلِيَّةِ نَحْفَاطَتَ أَصُولِ الْفِقْهِ فِي التَّالِيفِ ؟ ؛
فَأَنْتَ إِذَا فَرَدُّ مِنْ أَفْرَادِي ، وَوَاحِدٌ مِنْ أَعْدَادِي ؛ مَعَ مَا أَشْتَمَلُ عَلَيْهِ سِوَاكَ مِنْ
الْقِيَاسَاتِ الْبُرْهَانِيَّةِ الْقَاطِعَةِ فِي الْمُنَاطَرَاتِ ، وَالْقِيَاسَاتِ الْخَطَّابِيَّةِ وَالْبَلَاغَاتِ النَّافِعَةِ
فِي مَخَاطِبَاتِ الْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ الْمُخَاصَمَاتِ وَالْمُسَاوَرَاتِ ؛ وَكَذَلِكَ حَالُ الْقِيَاسَاتِ
الشَّعْرِيَّةِ ، وَكَيْفَ يُسْتَعْمَلُ التَّشْبِيهِ الْمُقِيدَ لِلتَّخْيِيلِ الْمَوْجِبِ لِلانْفِعَالَاتِ النَّفْسَانِيَّةِ ؛
كَالْإغْرَاءِ وَالتَّحْذِيرِ ، وَالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهِيْبِ وَالتَّعْظِيمِ وَالتَّحْقِيرِ ؛ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنْ مَعْرِفَةِ
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ عَامَّةٌ كُلِّهَا ، وَتَرْكِيبِ الْمَعَانِي الْمَفْرَدَةِ بِالنِّسْبَةِ
إِلَى الْإِيجَابِيَّةِ وَالسَّلْبِيَّةِ ؛ تَعَصُّمُ مَرَاغَاتِي الْفِكْرِ عَنِ الْخَطَا فَلَإِ يَزِلَّ ، وَتَهْدِيهِ سِوَاءِ السَّبِيلِ
فَلَإِ يَجِيدُ عَنِ الصَّرَاطِ السَّوِيِّ وَلَا يَضِلُّ ، وَأَسْرَى فِي جَمِيعِ الْمَعْقُولَاتِ فَاتَصَرَّفُ فِيمَا
يَدِقُّ مِنْهَا وَيَجَلُّ .

فقال علم دَارِيَّةِ الْحَدِيثِ : قَدْ عَلِمْتَ بِمَا ثَبَّتَ بِهِ الْأَدَلَّةُ بِالتَّلْوِيحِ وَالتَّصْرِيحِ ،
أَنَّهُ لَا جَمَالَ لِلْعَقْلِ فِي تَحْسِينِ وَلَا تَقْيِيحِ ؛ وَحِينَئِذٍ فَلَا بُدَّ مِنْ نَصِّ شَرْعِيٍّ تَعْتَمِدُ عَلَيْهِ ،
وَتَسْتَنْدُ فِي مُقَدِّمَاتِكَ إِلَيْهِ ؛ وَلَا أَقْوَى حُجَّةً ، وَأَوْضَحَ حُجَّةً ؛ مِنْ كَلَامِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِذَا تَكَلَّمَ ؛ فَإِذَا اسْتَنْدْتَ إِلَى نُصُوصِهِ ،
وَأَعْتَمَدْتَ عَلَيْهِ فِي عُمُومِهِ وَخُصُوصِهِ ؛ فَقَدْ حَسُنَ مِنْكَ الْمُقَدِّمُ وَالتَّالِي ، وَكَانَتْ
مُقَدِّمَاتِكَ فِي الْبَحْثِ أَمْضَى مِنَ الْمُرْهَفَاتِ وَتَتَأَجُّجُ أَنْفَعُ مِنَ الْعَوَالِي ؛ وَقَدْ تَحَقَّقَتْ
أَنْتَى إِمَامُ هَذَا الْمَقَامِ ، وَمَالِكُ قِيَادِ هَذَا الزَّمَانِ .

فقال علم رِوَايَةِ الْحَدِيثِ : لَقَدْ ذَكَرْتَ مِنَ الصَّحِيحِ الْمُتَّفَقِ عَلَيْهِ بِمَا لَا طَعْنَ
فِيهِ لِمُرِيبٍ ، وَتَعَلَّقْتَ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ بِأَوْثِقِ سَبَبٍ فَأَتَيْتَ بِكُلِّ لَفِظٍ حَسَنِ وَمَعْنَى

غريب؛ إلا أن الدراية، موقوفة على الرواية؛ وكيف يقع نظر الناظر في حديث قبل وصوله إليه، أو يتأني العلم بمعناه قبل الوقوف عليه؟ وهل يثبت فرع على غير أصل في مقتضى القياس، أو يرقى من غير سلم أو يبنى على غير أساس؟؛ فعلى المحدث تقديم العلم بالرواية بشرطها، ومعرفة أقواله صلى الله عليه وسلم بالسماع المتصل وتحريرها وضبطها.

فقال علم التفسير: قد تبين لدى العلماء بالشريعة أن حكم الكتاب والسنة واحد، وإن اختلفت في الأسماء فلم تختلف في المقاصد؛ إلا أنهما وإن اتفقا في الدلالة والإرشاد، فقد اختلفت في النقل بالتواتر وجاء أكثر السنة بالأحاد.

فقال علم القراءات: إلا أنه لا ينبغي للفسر أن يقدم على التفسير ما لم يكن بقراءة السبع والشاذ عالماً، وبلغاتها عارفاً وللنظر في معانيها ملازماً؛ مع ما يتحقق بذلك من علم قوانين القراءة المتعلقة من المصاحف بخطها، والأشكال والعلامات المتكفلة بتحريرها وضبطها.

فقال علم النواميس: (وهو العلم بمتعلقات النبوة): إنك فرع من فروع الكتاب المبين، وما نزل به الروح الأمين على قلب سيد المرسلين؛ وإلى النظر في أحوال النبوة وحقيقتها، ومسيس الحاجة إليها في بيان الشريعة وطريقتها؛ والفرق بين النبوة الحقة، والدعاوى الباطلة غير المحقة؛ ومعرفة المعجزات المختصة بالأنبياء والرسل عليهم السلام، والكرامات الصادرة عن الصديقين الأبرار والأولياء الكرام؛ فإنا المقدم على سائر العلوم الشرعية، وإمام الأصلية منها والقرعية.

فقال علم الإلهي: لقد تحققت أن اللازم المحتم، والواجب تقديمه على كل مقدم؛ العلم بمعرفة الله تعالى والطريق الموصل إليها، وإثبات صفاته المقدسة

وما يجب لها ويستحيل عليها؛ وأنه الواجب الوجود لذاته، وباعت الرسل لإقامة الحجّة على خلقه بحجكم آياته؛ وأنا الزعيم بإقامة الأدلة على ذلك من المعقول والمنقول، والمتكفل بتصحيح مقدماته البرهانية بتحرير المقدم والتألي والموضوع والمحمول .

فقال علم أصول الدين : فحينئذ قد فُزْتُ من جمعكما بالشرفين ، وجمع لي منكما الفضل بطرفيه فصرت بكما معلم الطرفين ؛ وميزت بين صحيح الاعتقاد وفاسده فكان لي منهما أحسن الاختيارين ، وبينت طريق الحق لسالكها فكنت سبباً للفوز والنجاة في الدارين ؛ فانا المقصود للإنسان بالذات في كمال ذاته ، وكل علم يستمد مني في مبادئه ويفتقر إلى في مقدماته .

فقال علم التصوف : لو كشف الغطاء ما أزددت يقيناً ، إذ كان كل أمرئ بما عمل مجازي وبما كسب رهيناً ؛ إنه يجب على كل من كان بمعتقد الحق جازماً ، أن يكون عن دار الغرور متجافياً ولأعمال البر ملازماً ؛ فأنما الدنيا مزرعة للآخرة ، إن حصلت النجاة فذلك التجارة الرابحة وإن كانت الأخرى فذلك إذا أكره خاسره ؛ فمن لزم طريقتي في الإعراض عن الدنيا والزهد فيها سلم ، ومن اغتر بزخرفها القاني فقد خاب في القيامة وتدم .

فلما كثرت الدعاوى والمعارضات ، وتتابعت الحجج والمنافضات ؛ نهض علم السياسة قائماً ، وقصد حسم مادة الحدال وطلمأ ؛ وقال : أنا جديلهما المحكك وعديقهما المرجب ، وسائسها الكافي وحاكمها المهذب ؛ لقد ذكر كل منكم من فضله ما يسوق السامع ، وأظهر من جليل قدره ما تتقطع دونه المطامع ، وأتى من واضح كلامه بما لا يحتاج في إثباته إلى دليل ظني ولا برهان قاطع ؛ غير أنه لا يلبق بالمنصف أن يتخطى أقداره المحدود ولا يتعدى جزئه المقسوم ، ولكل أحد حد يقف عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ؛ فَلَوْ سَلَكَ كُلُّ مِنْكُمْ سَبِيلَ الْمَعْدَلَةِ ، وَأَنْصَفَ مِنْ نَفْسِهِ فَوْقَ عِنْدِ مَا حُدَّ لَهُ ؛ لَكَانَ بِهِ أَلْيَقُ ، وَلِمَقَامِ الْعِلْمِ أَرْفَقُ .

فقال علم تدبير المنزل : لقد تحريت الصواب ، ونطقت بالحكمة وفصل الخطاب ؛ لئنه لا بد لكم من حبر عالم ، وإمام حاكم ؛ يكون لشملكم جامعا ، ولمواقع الشك في محل التفاضل بينكم رافعا ؛ محيطة من كل علم بمقصوده ومرايه ، عارفة بما تشتمل عليه مباديه من حده وموضوعه وفائدته وأستمداده ؛ ليبلغ به من الفضل منتهاه ، ويقف به من الشرف عند حد لا يتعداه ؛ فلا يدعى مدح بغير مستحق ، ولا يطالب طالب ما ليس له بحق ؛ إلا أن المحيط بكلكم عالما ، والقائم بجمعكم فهما ؛ أعز من الجوهر الفرد والكبريت الأحمر ، وأقل وجودا من بيض الأنوق بل بيض الأنوق في الوجدان أكثر .

فقال علم الفراسة : على الخبير سقطت ، وبأن يحدتها حططت ؛ أنا بذلك زعيم ، وبمظنته عليم ؛ فليعلم عرف ينم على صاحبه ، وتلوح عليه بوارقه وإن أكنه بين جوانبه ؛ فحامل المسك لا تخفى ريحه على غير ذي زكام ، والنهار لا يخفى ضوءه على ذي بصير وإن تسترت شمس بأذيال الغمام ؛ ولقد تصفحت وجوه العلماء الكلكم ، الذين طويأياهم على أجمل العلوم منطوية وعلى تفاصيلها مشتملة ؛ وسبرت وقسمت ، وتفردت وتوسمت ؛ فلم أجد من يليق لهذا المقام ، ويصلح لقطع الحدال وإحصام ؛ ويعرف بلغية كل علم فيجيب بلسانه ، ويحكم فلا ينقض حكمه غيره لأنخطاؤه عن بلوغ مكانه ؛ إلا البحر الزانح ، و (١) الذي لا يعلم لفضله أول ولا يدرك لمداه آخر ؛ حبر الأئمة ، وعلامة الأئمة ؛ وناصر السنة وحاميها ، وقامع البدعة وقامياها ؛ تجل (٢)

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصله وقامياها بالهمز تخففه من قاه كتمه قعه .

شيخ الإسلام ، وخلاصة غرر الأيام ، جلال الدين ، بقية المجتهدين ؛ أبو الفضل عبد الرحمن البلقيني الشافعي ، الناظر في الحكم العزيز بالديار المصرية ، وسائر الممالك الإسلامية وما أُضيف إلى ذلك من الوظائف الدينية ؛ لزالفت فواضل الفضائل معروفة : فهو العالم الذي إذا قال لا يعارض ، والحاكم الذي إذا حكم لا يناقض ؛ والإمام الذي لا يتخال أجهاده خلل ، والمناظر الذي ما حاول قطع خصم إلا كان لسانه أمضى من السيف إذا يقال : « سبق السيف العدل » :

إذا قال بَدَّ القائلين ولم يدع * لمتمس في القول جدًا ولا هزلًا!

إن تكلم في الفقه فكأنما بلسان « الشافعي » تكلم ، و « الربيع » عنه يروى و « المزني » منه يتعلم ؛ أو خاص في أصول الفقه . قال « الغزالي » : هذا هو الإمام باتفاق ، وقطع السيف « الأبدى » بأنه المقدم في هذا الفن على الإطلاق ؛ أو جرى في التفسير . قال « الواحدي » : هذا هو العالم الأوحده ، وأعطاه « ابن عطية » صفة يده بأن مثله في التفسير لا يوجد ؛ وأعترف له « صاحب الكشاف » بالكشف عن الغوامض ، وقال الإمام « نضر الدين » : « هذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل » فارتفع الخلاف وأندفع المعارض ؛ أو أخذ في القراءات والرسم أزدى بأبي « عمرو الداني » ، وعدا شأو « الشاطبي » في « الرائية » وتقدمه في « حرز الأمانى » ؛ أو تحدث في الحديث شهده « السفينان » بعلو الرتبة في الرواية ، وأعترف له « ابن معين » بالتبريز والتقدم في الدراية ؛ وهن « الخطيب البغدادي » يذكره على المنابر ، وقال « ابن الصلاح » : لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة وفي تحصيلها تنفذ المحارب ؛ أو أبدى في أصول الدين نظرًا تعلق منه « أبو الحسن الأشعري » بأوفى زمام ، وسد باب الكلام على المعتزلة حتى يقول « عمرو بن عبيد » و « وأصل بن

عطاء : « لَيْتَنَا لَمْ نَفْتَحْ بَابًا فِي الْكَلَامِ ؛ أَوْ دَقَّقَ النَّظْرَ فِي الْمَنْطِقِ بِهَرِّ « الْأَبْهَرِيِّ » فِي مَنَازِرَتِهِ ، وَكُتِبَ « الْكَاتِبِيُّ » عَلَى نَفْسِهِ وَثِيقَةً بِالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَتِهِ ؛ أَوْ أَلَمَ بِالْجَدَلِ رَمَى « الْأَرْمَوِيُّ » نَفْسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَجَعَلَ « الْعَمِيدِيُّ » عُمْدَتَهُ فِي آدَابِ الْبَحْثِ عَلَيْهِ ؛ أَوْ بَسَطَ فِي الْأَلْفَةِ لِسَانَهُ اعْتَرَفَ لَهُ أَبُو « سَيْدَهُ » بِالسِّيَادَةِ ، وَأَقْرَبَ بِالْعَجْزِ لَدَيْهِ « الْجَوْهَرِيُّ » وَجَلَسَ « أَبُو فَارِسٍ » بَيْنَ يَدَيْهِ بِمَجَاسِ الْأَسْتِفَادَةِ ؛ أَوْ نَجَّأَ إِلَى النَّحْوِ وَالنَّصْرِيفِ أُرْبَى فِيهِ عَلَى « سَيْبَوَيْهِ » ، وَصَرَفَ « الْكِسَائِيُّ » لَهُ عَزْمَهُ فَسَارَ مِنَ الْبُعْدِ إِلَيْهِ ؛ أَوْ وَضَعَ أَمْثُودَجًا فِي عُلُومِ الْبَلَاغَةِ وَقَفَّ عِنْدَهُ « الْجُرْجَانِيُّ » ، وَلَمْ يَتَعَدَّ حُدُودَهُ « أَبُو أَبِي الْإِصْبَعِ » وَلَمْ يُجَاوِزْ وَضْعَهُ « الرَّمَّانِيُّ » ؛ أَوْ رَوَى أَشْعَارَ الْعَرَبِ أُرْزَى بِ« الْأَصْمَعِيِّ » فِي حِفْظِهِ ، وَفَاقَ « أَبَا عَيْدَةَ » فِي كَثْرَةِ رِوَايَتِهِ وَغَزِيرِ لَفْظِهِ ؛ أَوْ تَعَرَّضَ لِلْعُرُوضِ وَالْقَوَافِي اسْتَحَقَّقَهُمَا عَلَى « الْخَلِيلِ » ، وَقَالَ « الْأَخْفَشُ » عَنْهُ : أَخَذْتُ الْمُنَادِرَ وَاعْتَرَفَ « الْجَوْهَرِيُّ » بِأَنَّهُ لَيْسَ لَهُ فِي هَذَا الْفَنِّ مِثِيلٌ ؛ أَوْ أَصَلَ فِي الطَّبِّ أَصْلًا قَالَ « أَبُو سَيْنَا » : هَذَا هُوَ الْقَانُونُ الْمُعْتَبَرُ فِي الْأُصُولِ ، وَأَقْسَمَ « الرَّازِيُّ » بِمُحْيِي الْمَوْتِ إِنْ « يَقْرَاطُ » لَوْ سَمِعَهُ لِمَا صَنَّفَ « الْفُصُولُ » ؛ أَوْ جَنَحَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ فَكَأَنَّهَا طُبِعَ عَلَيْهِ ، أَوْ جَدَّبَ لَهُ ذَلِكَ الْعِلْمَ بِزِمَامٍ فَأَنْقَادَ إِلَيْهِ ؛ أَوْ سَلَكَ فِي عُلُومِ الْهَنْدَسَةِ طَرِيقًا لِقَالَ « أُوقْلِيدِسُ » : هَذَا هُوَ الْخَطُّ الْمُسْتَقِيمُ ، وَأَعْرَضَ « أَبُو الْهَيْثَمِ » عَنْ حَلِّ الشُّكُوكِ وَوَلَّى وَهُوَ كَظِيمٌ ، وَحَمَدَ « الْمُؤَمِّنُ بْنُ هُوَيْدٍ » عَدَمَ إِكْمَالِ كِتَابِهِ « الْأَسْتِكْمَالُ » وَقَالَ : عَرَفْتُ قَدْرَ نَفْسِي : وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ؛ أَوْ عَرَّجَ عَلَى عُلُومِ الْهَيْئَةِ لِاعْتَرَفَ « أَبُو الرَّيْحَانِ الْبِيرُونِيُّ » أَنَّهُ الْأَعْجُوبَةُ النَّادِرَةُ ، وَقَالَ أَبُو أَلْفَحٍ : هَذَا الْعَالِمُ قُطْبُ هَذِهِ الدَّائِرَةِ ، أَوْ صَرَفَ إِلَى عِلْمِ الْحِسَابِ نَظْرَهُ لِقَالَ « السَّمَوْعُ بْنُ يَحْيَى » لَقَدْ أَحْيَا هَذَا الْفَنَّ الدَّارِسَ ، وَنَادَى « أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَوْصِلِيُّ » قَدْ أَنْجَلْتَ عَنِ هَذَا الْعِلْمِ غَيَابَهُ حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ عَمَّةٌ لِعَامِهِ وَلَا عَمَّةٌ عَلَى مُمَارِسِ .

وقَدْ وَجَدْتِ مَكَانَ الْقَوْلِ ذَا سَعَةٍ * فَإِنِّ وَجَدْتِ لِسَانًا قَائِلًا فَقُلِّ!

وكَيْفَ لَاتُنَاقِي إِلَيْهِ الْعُلُومُ مَقَالِيدَهَا، وَتَصِلُ بِهِ الْفَضَائِلُ أَسَانِيدَهَا؛ وَهُوَ أَبُو شَيْخِ
الإِسْلَامِ وَإِمَامُهُ، وَوَاحِدُ الدَّهْرِ وَعَلَامُهُ؛ وَجَامِعُ الْعُلُومِ الْمُتَفَرَّدِ، وَمَنْ حَقَّقَ وَجُودَهُ
فِي أَوَانِ الْأَعْصَارِ أَنَّ الزَّمَانَ لَا يَخْلُو مِنْ مُجْتَمِدٍ؛ وَمَنْ لَمْ يَزَلْ مَوْضِعَ الْأَوْضَاعِ الْمَعْتَبَرَةِ
عَلَيْهِ تَحْمُولًا، وَمَنْ كَانَ عَلَى رَأْسِ الْمِائَةِ الثَّامِنَةِ مُضَاهِيًا لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ عَلَى رَأْسِ
الْمِائَةِ الْأُولَى؛ فَالْحَنَاصِرُ عَلَيْهِ وَعَلَى وَوَلَدِهِ تُعْقَدُ، وَلَا غَرَوَ إِنْ قَامَ مُشْدُهُمَا فَانْتَسَدَ:

إِنَّ الْمِائَةَ الْأُولَى عَلَى رَأْسِهَا أَنِّي * لَهَا عَمْرُ النَّانِي لَذَا الدِّينِ صَاحِبُهُ،
وَوَالِي رِجَالٍ بَعْدَ ذَلِكَ كَمِثْلِهِ * فَهَا عُمَرُ وَاقِي عَلَى رَأْسِ تَامَنِهِ
يُظَاهِرُهُ نَجَلٌ سَعِيدٌ غَدَّتْ بِهِ * مَعَاقِلُ عِلْمٍ فِي ذُرَا الْحَقِّ آمِنِهِ.
إِذَا شَيْخُ إِسْلَامٍ أَضَاءَ سِرَاجَهُ * رَأَيْتَ جَلَالًا مِنْ سَنَا الْفَضْلِ قَارَنَهُ!
فَلَا يَعْدِمُ الْإِسْلَامُ جَمْعَ عَلَاهُمَا * وَلَنْ يَبْرِحَا لِلدِّينِ دَابَا مِيَامِنَهُ!

فَقَالَ عِلْمُ الْأَخْلَاقِ : أَصَبْتَ سَوَاءَ الثُّغْرَةِ وَجِئْتَ بِالرَّأْيِ الْأَكْمَلِ، وَعَرَفْتِ مَنْ
أَيْنَ تُؤَكَّلُ الْكَيْفَ فَطَبَّقْتَ الْمِفْصَلَ بِالْمِفْصَلِ؛ إِلَّا أَنَّ مِنْ مَحَاسِنِ الْأَخْلَاقِ، وَمَعَالِمِ
الْإِرْفَاقِ؛ أَنْ تُعَوِّدُوا بِفَضْلِكُمْ، وَتَرْجِعُوا بِمَعْرُوفِكُمْ وَبِرِّكُمْ؛ إِلَى مَنْ جَرَى بِكُمْ فِي التَّفَاخُرِ
مَجْرَى الْإِنْصَافِ، وَبَسَطَ لِسَانَ كَلِمِهِ بِمَا أَشْتَمَلَ عَلَيْهِ كُلُّ مَنْكُمْ مِنْ جَمِيلِ الْأَوْصَافِ؛
ثُمَّ كَانَ مِنْ شَأْنِهِ أَنْ وَصَلَ بِالْإِتْفَاقِ وَالْإِتِّتَامِ حَبْلَكُمْ، وَجَمَعَ بِالْحَلِّ الْكَرِيمِ بَعْدَ التَّبَاعَدِ
شَبْلَكُمْ؛ وَذَكَرَكُمْ بِجُسْنِ الْمُصَافَاةِ أَصْلَ الْوِدَادِ الْقَدِيمِ، وَتَلَا بِلِسَانِ الْأَلْفَةِ فِيكُمْ :
(فَإِذَا الَّذِي يَبْنُوكَ وَيَبْنِيهِ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) . بَانَ يَنْصِبُ كُلُّ مَنْكُمْ لَهُ شَفِيعًا
إِلَى هَذَا السَّيِّدِ الْجَلِيلِ، وَيَكُونُ لَهُ وَسِيلَةً إِلَى هَذَا الْإِمَامِ الْحَقِيلِ؛ أَنْ يَصْرِفَ إِلَيْهِ
وَجْهَ الْعِنَايَةِ، وَيَنْظُرَ إِلَيْهِ بَعَيْنِ الْإِقْبَالِ وَالرَّعَايَةِ؛ لِيَعْرِضَ فِي النَّاسِ جَانِبَهُ، وَيَطْلُعَ

في أفق السعد بعد الأقول غاربه ؛ ويبلغ من منتهى أمله ماله جهده ، ويسعد
بالنظر السعيد جدّه فقد قيل : «من وقع عليه نظر السعيد سعد» .

على أنه - أمتع الله الإسلام ببقائه وبقاء والده ، وجمع بينهما في دار الكرامة
كما جمع لها بين طاريف الحمد وتالده ؛ - قد فتح له من الترقى أول باب ، ولا شك
أنّ نظرة منه إليه بعد ذلك تُرقيه إلى السحاب .

فَأَزْرُقُ الْفَجْرَ يَبْدُو قَبْلَ أَيْضِهِ * وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُ يَنْسَكِبُ !

فقال علم التاريخ : أهبطوا مضراً فإنّ لكم ما سألتكم ، وقرؤا عينا إلى القصد
الجليل وصلتم ، وعلى غاية الأمل - والله الحمد - حصّتم ؛ فقد بلوت الأوائل والأواخر ،
وخبرت حال المتقدم والمعاصر ؛ فلم أرَ فيمن مضى وغبر ، وشاع ذكره وأشتهر ؛ من
ذوى المراتب العلية ، والمناصب السنية ؛ من يساوى هذا السيد الجليل فضلا ،
أو يدانيه في المعروف قولاً وفعلاً ؛ قد ليس شرفاً لا تطمع الأيام في خلعه ، ولا يتطلع
الزمان إلى نزعهِ ؛ وآنهى إليه الحمد فوقف ، وعرف الكرم مكانه فأنحاز إليه وعطف ؛
وحلت الرأسة بفنائهِ فاستغنت به عن السوى ، وأناحت السيادة بأفنائهِ فألقت
عصاها وأستقر بها النوى ؛ فقصرت عنه خطا من يجاريه ، وضاق عنه باع من
يئاويه ؛ واجتمعت الألسن على تقرّيبه فمدح بكلّ لسان ، وتوافقت القلوب على
حبه فكان له بكلّ قلب مكان :

وَلَمْ يَحُلْ مِنْ إِحْسَانِهِ لَفْظٌ مُخْبِرٌ ، * وَلَمْ يَحُلْ مِنْ تَقْرِيبِهِ بَطْنٌ دَفْتَرٌ !

فهو الحريّ بأن يكتب بأفلام الذهب جميل مناقبه ، وأن يرقم على صفحات
الايام حميد مطالبه ؛ فلا يذهب على ممر الزمان ذكرها ، ولا يزول على توالي
الدهور نحرها .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذي قَارَن السَّعْدُ جَلَالَهٗ ، وَتَفَجَّرَتْ يَنَابِيعُ الْفَضْلِ خِلَالَهٗ ؛ أَقْبَلُوا بِوُجُوهِهِمْ عَلَى الشُّعْرِ مُعَاتِبِينَ ، وَبِمَا يَلْزِمُهُ مِنْ تَقْرِيبِ هَذَا الْخَبْرِ وَمَدْحِهِ مُطَالِبِينَ ؛ وَقَالُوا : قَدْ أَتَى النَّثْرُ مِنْ مَدْحِهِ بِقَدْرِ طَاقَتِهِ ، وَإِنْ لَمْ يُوفِ بِجَلِيلِ قَدْرِهِ وَرَفِيعِ مَكَانَتِهِ ؛ فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ نَحْتِمَ هَذِهِ الرَّسَالَةَ بِأَبْيَاتٍ بِالْمَقَامِ لِائْتِقَانِهِ ، وَلِمَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ الْقَضِيَّةِ الْوَاقِعَةِ مُطَابِقَهُ ؛ فَائْتَمَّ مِنْ مَدْحِهِ بِالْوَاجِبِ ، سَالِكَةً مِنْ ذَلِكَ أَحْسَنَ الْمَسَالِكِ وَأَجْمَلَ الْمَذَاهِبِ ؛ لِتَكْمُلَ هَذِهِ الرَّسَالَةُ نَظْمًا وَنَثْرًا ، وَتَقَنَّ فِي صِنَاعَةِ الْأَدَبِ خَطَابَةً وَسِعْرًا ؛ فَقَالَ : سَمِعًا وَطَاعَةً ، وَأَسْتِكَانَةً وَضِرَاعَةً ؛ ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ قَامَ مَجْلًا ، وَأَنْشَدَ مَرَّجِلًا :

بُشْرَاكُمْ مَعَاشِرَ الْعُلُومِ أَنْ * جُمِعَتْ بِصَدْرِ حَبْرٍ كَامِلٍ !
فُنُونُهُ لَمْ تَجْتَمِعْ لِعَالِمٍ * وَفَضْلُهُ لَمْ يَكْتَمِلْ لِفَاضِلٍ !
يَسْفِي الصُّدُورَ إِنْ غَدَا مُنَاطِرًا ، * وَبَحَثُهُ فَرِيضَةُ الْحَافِلِ !
كَمْ عَمَّرَتْ دُرُوسُهُ مِنْ دَارِيْسٍ ، * وَزَيَّنَتْ بِحَلِيِّهَا مِنْ عَاطِلِ !
وَأَوْصَحَتْ أَقْوَالُهُ مِنْ مُشْكَلٍ * لَمَّا أَتَى بِأَوْضَحِ الدَّلَائِلِ !
وَكَمْ غَدَّتْ آرَأُوهُ حَمِيدَةً ، * وَنَهَتْ بِجِدِّهَا مِنْ خَامِلِ .
وَحُكْمُهُ فَكَمِ أَقَالَ عَثْرَةً * وَجُودُهُ فَفَوْقَ قَصْدِ الْأَمِلِ !
هَذَا : وَقَدْ فَاقَ الْوَرَى رَأْسَةً * مَحْفُوفَةً بِالطَّفِ الشَّمَائِلِ !
مَنْ ذَا يَرُومُ أَنْ يَنَالَ شَأُوهُ؟ * أَتَى لَهُ بِأَمْثَلِ الْأَمَائِلِ ؟
مَوْلَى عَلَا فَوْقَ السَّمَاءِ رُبِيَّةً * قَدْ زُيِّنَتْ بِأَفْضَلِ الْفَوَاضِلِ !
فَمَا لَهُ فِي فَضْلِهِ مِنْ مُشْبِهِ ، * وَمَا لِبَحْرِ جُودِهِ مِنْ سَاحِلِ !
حَاشَى لِرَاجٍ فَضْلَهُ أَنْ يَنْتَبِي * صَفْرَ الْيَدَيْنِ أَوْ مُمَنَّى الْأَجَلِ !

قلت : ولم أر من تعرّض للمفاخرة بين العلوم سوى القاضي الرشيد أبي الحسين
 ابن الزبير في مقالته المقدم ذكرها على أنّها لم تكن جارية على هذا النمط ، ولا مرتبة
 على هذا الترتيب ، مع الاقتصار فيها على علوم قليلة ، أشار إلى المفاضلة بينها على
 ما تقدم ذكره . ولكن الله تعالى قد هدى بفضلِهِ إلى وجه الترجيح التي يرجح بها
 كل علم على خصمه ، ويفالج به على غيره ، والمُنصف يعرف لذلك حقه . والذي
 أعانني على ذلك جلاله قدر من صنفت له وعلورتبه ، واتساع فضله ، وكثرة
 علومه ، وتعداد فنونه ، إذ صفات المدوح تهدي المادح وترشده .



ومنها المفاخرة بين السيف والقلم ، وقد أكثر الناس منها : فمن عالٍ وهابط ،
 وصاعد وساقط .

وهذه رسالة في المفاخرة بين السيف والقلم ، أنشأها المقر الزيني أبي يزيد الدوادار
 الظاهري ، في شهر سنة أربع وتسعين وسبعمائة ، وسميتها : "حلية الفضل وزينة
 الكرم ، في المفاخرة بين السيف والقلم" وهي :

الحمد لله الذي أعز السيف وشرف القلم ، وأفردهما برتب العلياء فقرن لهما بين
 المجد والكرم ، وساوى بينهما في القسمة فهذا للحكم وهذا للحكم .

أحمد على أن جمع بحير أمير بعد التفرق شملهما ، ووصل بأعز ملك بعد التقاطع
 حبّلهما ، وأرغب إليه بشكري أكثر النجوم في عديدها ، ويكون للنعمة على ممر الزمان
 أبا يزيد لها ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة ياتم الإخلاص
 بهديها ، ولا ينجو من سيفها إلا من أجاب داعيتها وأقرّبها ، وأن مجدّ عبده ورسوله

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضى فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى حُصَّ بأشرف المناقب وأفضل المآثر، وأسأثر بالسؤدد في الدارين فحاز أخراً
المعالى ونال أعلى المفاخر؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قامت بنصرتهم
دولة الإسلام فسمت بهم على سائر الدول، وكرعت في دماء الكفر سيوفهم فعدت
بخلق النصر لاجمعة الخجل؛ صلاة ينقضى دون انقضائها تعاقب الأيام، وتكمل السنة
الأقلام عن وصفها ولو أن مافي الأرض من شجرة أقلام .

وبعد، فإنه ما تقارب اثنين في الرتبة إلا تحاسدا، ولا اجتمعا في مقام رفعة إلا
أزدهما على الجهد وتواردًا؛ ورام كل منهما أن يكون هو الفائز بالقدح المعلى، وأن يكون
مفرقه هو المتوجح وجيده هو المحلى؛ وأدعى كل منهما أن جواده هو السابق في حابة
السباق، والفائز بقصب السبق بالاتفاق؛ وأن نجمه هو الطالع الذي لا يافل،
وسؤدده هو الحاكم الذي لا يعزل؛ وأن المسك دون غيره، والبحر لا يبحى نقطة
في غديره؛ والدر لا يصلح له صدفا، ونفيس الجوهر لا يعادله شرفا؛ وأن منابر
المعالى موقوفة على قدمه، ومجاصر المفاخر فاححة بنشر كرمه .

ولما كان السيف والقلم قد تدانيا في الجهد وتقاربا، وأخذنا بطرفي الشرف
وتجاذبا؛ إذ كانا قطبين تدور عليهما دوائر الكمال، وسعدين يجتمعان في دائرة
الاعتدال؛ ونجمين يهديان إلى المعالى، ومضباحين يستضاء بهما في حنادس الليالي؛
وقاعدتين تبنى الدول على أركانهما، وشجرتين يجتنى العزمن أغصانهما؛ جر كل منهما
ثوب الخيلاء فخرا فشى وتخترا، وأسبل رداء العجب تيهًا فاستجبل ولا تعثر؛ وأتسع
له المجال في الدعوى بخال، وطاوعته يد المقال فقال وطال؛ وتطرقتا إليهما عقارب
الشحناء ودبت، وتوقدت بينهما نار المنافسة وشبت؛ وأظهر كل منهما ما كان
يخفيه فكتب وأملى، وباح بما يكنه صدره والمؤمن لا يكون حلي؛ وبدأ القلم
فتكلم، ومضى في الكلام بصدق عزيم فما توقف ولا تلثم؛ فقال :

باسم الله تعالى أَسْتَفْتِحُ ، وَبِحَمْدِهِ أَتَيْمِنُ وَأَسْتَجِجُ ؛ إِذْ مِنْ شَأْنِي الْكِتَابُ ، وَمَنْ
فَتَى الْخَطَابُ ؛ وَكُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِاسْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ أَجْزَمٌ ، وَكُلُّ كَلَامٍ
لَا يَفْتَتِحُ بِحَمْدِهِ فَاسَاسُهُ غَيْرُ مُحْكَمٍ وَرِدَاؤُهُ غَيْرُ مُعْلَمٍ ؛ وَالْعَاقِلُ مِنْ أَتَى الْأَمْرَ مِنْ فَصَّهِ ،
وَأَخَذَ الْحَدِيثَ بِنَصِّهِ ؛ وَالْحَقُّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ ، وَالْبَاطِلُ أَجْدَرُ أَنْ يَتْرَكَ فَلَا يُصْنَعُ إِلَيْهِ
وَلَا يَسْتَمَعُ ؛ إِنِّي لِأَوَّلُ مَخْلُوقٍ بِالنَّصِّ الثَّابِتِ وَالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْمُسْتَحَقُّ لِفَضْلِ
السَّبْقِ مِنْ غَيْرِ مُنَازَعَةٍ ؛ أَقْسَمُ اللَّهُ تَعَالَى بِي فِي كِتَابِهِ ، وَشَرَفَنِي بِالذِّكْرِ فِي كَلَامِهِ لِرَسُولِهِ
وَخَطَابِهِ ، فَقَالَ جَلَّ مِنْ قَائِلٍ : ﴿ تَبَّ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ
بِمُحْمَدٍ ﴾ . وَقَالَ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ
مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . فَكَانَ لِي مِنَ الْفَضْلِ وَافِرِ الْقِسْمَةِ ، وَخُصِصْتُ بِكُلِّ الْمَعْرِفَةِ بِجَمْعَتِ
شَوَارِدِ الْعُلُومِ وَكُنْتُ قِيمَ الْحِكْمَةِ .

فَقَالَ السَّيْفُ : بِسْمِ اللَّهِ وَاللَّهُ أَكْبَرُ : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ . لِكُلِّ بَاغٍ
مَصْرَعٍ ، وَلِلصَّائِلِ بِالْعُدْوَانِ مَهْلِكٌ لَا يَنْجُو مِنْهُ وَلَا يَنْجَعُ ؛ وَفَاتِحُ بَابِ الشَّرِّ يُعْلِقُ بِهِ ،
وَقَادِحُ زَنْدِ الْحَرْبِ يُحْرَقُ بِلَهَبِهِ ؛ أَقُولُ بِمَوْجِبِ آسَدِ الْبَدَلَالِكِ ، وَأُوجِبُ الْأَعْتِرَاضَ
عَلَيْكَ فِي مَقَالِكَ :

نَعَمْ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْقَلَمِ وَلَسْتُ بِذَلِكَ ، وَكَانَ أَوَّلُ مَخْلُوقٍ وَلَسْتَ الْمَعْنَى بِمَا
هُنَالِكَ ؛ إِنَّ ذَلِكَ لَمَعْنَى يَكِلُ قَهْمُكَ عَنْ إِدْرَاكِهِ ، وَيَضِلُّ تَجَمُّكَ أَنْ تَسْرِيَ فِي أَفْلَاكِهِ ؛
وَأَنْتَ وَإِنْ دُرِكَتَ فِي التَّنْزِيلِ ، وَتَمَسَّكَتَ مِنَ الْأَمْتِنَانِ بِكَ فِي قَوْلِهِ : ﴿ عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴾
بِشَبْهِهِ التَّفْضِيلِ ؛ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى تَعَلُّمَ خَطِّكَ عَلَى رَسُولِهِ ، وَحَرَّمَكَ مِنْ مَسِّ
أَنَامِلِهِ الشَّرِيفَةِ مَا يُؤْسَى عَلَى قَوْلِهِ وَيَسْرُ بِمُحْصُولِهِ ؛ لِكَيْتَى قَدْ نَلْتُ مِنْ هَذِهِ الرَّتَبَةِ
أَسْنَى الْمَقَاصِدِ ، فَشَهَدْتُ مَعَهُ مِنَ الْوَقَائِعِ مَا لَمْ تَشَاهِدْ ؛ وَحَلَّلَنِي مِنْ كَفِّهِ شَرْفًا لِأَنْزُولِ

حَلِيهِ أَبَدًا، وَفُتُّ بِنَصْرِهِ فِي كُلِّ مُعْتَرِكٍ : وَسَلَّ حَيْنِنًا وَسَلَّ بَدْرًا وَسَلَّ أَحَدًا !!! ؛
 ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ جِنْسِي الَّذِي أَنَا نَوْعُهُ الْأَكْبَرُ ، وَنَبِيٌّ عَلَيَّ مَا فِيهِ مِنْ
 الْمَنَافِعِ الَّتِي هِيَ مِنْ نَفْعِكَ أَعْمُ وَأَشْهَرُ؛ وَمَا اجْتَمَعَ فِيهِ مِنْ عَظِيمِي الشَّدَّةِ وَالْبَاسِ ،
 فَقَالَ تَقَدَّسَتْ عَظْمَتُهُ : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ . عَلَيَّ أَنْكَ
 لَوْ أَعْتَبَرْتَ جِنْسِي الْقَصَبِ وَالْحَدِيدِ ، وَعَرَفْتَ الْكَيْلَ مِنْهُمَا وَالْحَلِيدَ ؛ لِتَحَقَّقْتَ
 تَسَلُّطَ الْحَدِيدِ عَلَيْكَ قَطًّا وَبَرِيًّا ، وَتَحَكَّمَ فَيْكَ أَمْرًا وَنَهْيًا .

فَقَالَ الْقَلَمُ : فَرَّرْتَ مِنَ الشَّرِيعَةِ وَعَدَلْتَهَا ، وَعَوَّلْتَ عَلَى الطَّبِيعَةِ وَجَهَلْتَهَا ؛ فَانْتَحَرْتَ
 بِجِحْفِكَ وَعُدُوَانِكَ ، وَأَعْتَمَدْتَ فِي الْفَضْلِ عَلَى تَعَدُّكِ وَطُغْيَانِكَ ؛ فَلَمَّتْ إِلَى الظُّلْمِ
 الَّذِي هُوَ إِلَيْكَ أَقْرَبُ ، وَغَلَبَ عَلَيْكَ طَبْعُكَ فِي الْحَوْرِ : وَ « الطَّبَعُ أَغْلَبَ » ؛ فَلَا فِتْنَةَ
 إِلَّا وَأَنْتَ أَسَاسُهَا ، وَلَا غَاةَ إِلَّا وَأَنْتَ رَأْسُهَا ؛ وَلَا شَرًّا إِلَّا وَأَنْتَ فَاتِحُ بَابِهِ ، وَلَا حَرْبَ
 إِلَّا وَأَنْتَ وَاصِلُ أَسْبَابِهِ ؛ تُؤَكِّدُ مَوَاقِعَ الْحَفَاءِ ، وَتُكَدِّرُ أَوْقَاتَ الصَّفَاءِ ؛ وَتُؤَثِّرُ
 الْقَسَاوَةَ ، وَتُؤَثِّرُ الْعَدَاوَةَ ؛ أَمَا أَنَا فَالْحَقُّ مَذْهَبِي ، وَالصِّدْقُ مَرْكَبِي ؛ وَالْعَدْلُ سَيْمِي ،
 وَحِلْيَةُ الْفَضْلِ زِينَتِي ؛ إِنْ حَكَمْتُ أَقْسَطْتُ ، وَإِنْ اسْتَحْفِظْتُ حَفِظْتُ وَمَا فَرَطْتُ ؛
 لَا أَفْتِنِي سِرًّا يَرِيدُ صَاحِبَهُ كَتْمَهُ ، وَلَا أَكْتُمُ عِلْمًا يَتَغَيُّ مُتَعَلِّمُهُ عَلَيْهِ ؛ مَعَ عَمُومِ
 الْحَاجَةِ إِلَيَّ ، وَالِافْتِقَارِ إِلَى عِلْمِي وَالِاكَتِسَابِ مِمَّا لَدَيْ ، أُدِيرُ فِي الْقِرطَاسِ كَاسَاتِ
 نَحْمَرِي فَأُزْرِي بِالْمَزَامِيرِ وَأَهْزَأُ بِالْمَزَاهِرِ ، وَأَنْفُتُ فِيهِ سِحْرَ بَيَانِي فَأَلْعَبُ بِالْأَلْبَابِ
 وَأَسْتَجْلِبُ الْخَوَاطِرَ ، وَأُنْفِذُ جِيُوشَ سُطُورِي عَلَى بَعْدِ فَاهِرِمِ الْعَسَاكِرِ :

فَلَكُمْ يَفْلُ الْجَيْشِ وَهُوَ عَرَمَرَمٌ * وَالْبَيْضُ مَا سَلَّتْ مِنَ الْأَعْمَادِ!

فَقَالَ السَّيْفُ : أَطَلْتَ الْغَيْبَ ، وَجِئْتَ بِالْحَيْبِ ؛ وَسَكَتَ أَلْفًا ، وَنَطَقْتَ خَلْفًا .

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ * فِي حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْحَدِّ وَاللَّعِبِ

إِنَّ نِجَادِي لِحِلْيَةِ الْعَوَاقِقِ ، وَمُصَاحِبَتِي أَمْنَةٌ مِنَ الْبَوَاقِقِ ؛ مَا تَقَلَّدَنِي عَاتِقُ إِلَّا بَاتَ
عَزِيزًا ، وَلَا تَوَسَّدَنِي سَاعِدٌ إِلَّا كُنْتُ لَهُ حِرْزًا حَرِيزًا ؛ أَمْرِي الْمَطَاعُ وَقَوْلِي الْمُسْتَمْعُ ،
وَرَأْيِي الْمَصُوبُ وَحُجَّتِي الْمُسْتَبَعُ ؛ لَمْ أَزَلْ لِلنَّصْرِ مُفْتَاخًا ، وَلِلظَّلَامِ مُصْبَاحًا ؛ وَلِلْعَزِّ قَائِدًا ،
وَلِلْعُدَاةِ ذَائِدًا ؛ فَأَنَّى لَكَ بِمَسَاجِلَتِي ، وَمُقَاوَمَتِي فِي الْفَخْرِ وَمُنَافَرَتِي ؟ ؛ مَعَ عُرْيِ جِسْمِي
وَتَحَاقَةِ بَدَنِكَ ، وَإِسْرَاعِ تَلَاغِكِ وَقِصْرِ زَمَنِكَ ، وَبَحْسِ أَمْنَانِكَ عَلَيَّ بَعْدِ وَطَنِكَ ،
وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِ مِنْ جَرِي دَمْعِكَ ، وَضَيْقِ دَرْعِكَ ، وَتَفَرُّقِ جَمْعِكَ ؛ وَقِصْرِ بَاعِكَ ،
وَقَلَّةِ أَتْبَاعِكَ .

فَقَالَ الْقَلَمُ : مَهَلًا أَيُّهَا الْمَسَاجِلُ ، وَعَلَى رِسْلِكَ أَيُّهَا الْمَغَابُ وَالْمُنَاضِلُ ؛ لَقَدْ
أَحْسَنْتَ مَقَالًا ، وَتَمَقَّتْ مَحَالًا ؛ فَوَادَرْتَكِ سُبُلُ الْإِصَابَةِ ، وَخَرَجْتَ عَنِ جَادَةِ الْإِنَابَةِ ،
وَسُوَّتَ سَمْعًا فَاسَّاتَ جَابَهُ ؛ إِنِّي لِمَبَارِكِ الطَّلَعَةِ وَسَيْمُهَا ، شَرِيفُ النَّفْسِ كَرِيمُهَا ؛
أَخَذْتُ بِالْفَضَائِلِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهَا ، مُسْتَوِفٍ لِلْمَادِحِ بِسَائِرِ صِفَاتِهَا ؛ فَطَائِرِي مِيمُونَ ،
وَعَوْلِي مَامُونَ ، وَعَطَائِي غَيْرُ مَمْنُونٍ ؛ أَصْلٌ وَتَقَطَّعَ ، وَأُعْطِيَ وَتَمَنَعَ ، وَتَفَرَّقَ وَأَجْمَعَ ؛
وَإِنَّ أَزْدِرَاءَكَ بِي مِنَ الْكِبَرِ الْمَهْمِيِّ عَنْهُ ، وَغَضَبِكَ عَنِّي مِنَ الْعُجْبِ الْمُسْتَعَاذِ مِنْهُ ؛
وَمِنْ حَقَّرَ شَيْئًا قَتَلَهُ ، وَمَنْ آسْتَمَانَ بِفَاضِلٍ فَضَلَّهُ ؛ وَإِنِّي وَإِنْ صَغُرَ حِرْمِي فَإِنِّي لَكَبِيرُ
الْفِعَالِ ، وَإِنْ نُحِفَّ بِدَنِي فَإِنِّي لَشَدِيدُ الْبَأْسِ عِنْدَ التَّرَالِ ؛ وَإِنْ عَرِيَ جِسْمِي فَكَمْ
كَسَوْتُ عَارِيَا ، وَإِنْ جَرَى دَمْعِي فَكَمْ أَرَوَيْتُ ظَامِيَا ؛ وَإِنْ ضَاقَ دَرْعِي فَإِنِّي بِسَعَةِ
الْحِجَالِ مَشْهُورٌ ، وَإِنْ قَصُرَ بَاعِي فَكَمْ أَطَلَقْتُ أُسِيرًا وَأَنَا فِي سِجْنِ الدَّوَاةِ مَأْسُورٌ ؛ إِذَا
أَمْتَطَيْتُ طَرْسِي ، وَتَدَرَّعْتُ نَفْسِي ، وَتَقَلَّدْتُ نَحْسِي ، وَجَاسْتُ عَلَى الْأَعْدَاءِ نَفْسِي :-

رَأَيْتَ جَلِيلًا شَأْنَهُ وَهُوَ مُرْهَفٌ * ضَنْيَ وَسَمِينًا خَطْبُهُ وَهُوَ نَاحِلٌ !

أَنْسَيْتَ إِذْ أَنْتَ فِي الْمَعْدِنِ تُرَابٌ تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ ؟ ، وَتَنْسِفُكَ الرِّيحُ وَتُزْرِئِي بِكَ
الْأَيَّامَ ؟ ؛ ثُمَّ صرْتَ إِلَى الْفَيْنِ تَقَعْدُ لَكَ السَّنَادِينَ بِالْمَرَّاصِدِ ، وَتَدْمَعُكَ الْمَقَامِعُ وَتَسْطُو

بك المبارد ؛ ثم لولا صقالك لأذهبك الحرب وأكلك الصدى ، مع قلة صبرك على المطر والندى .

فقال السيف : إنا لله ! لقد استأسدت الثعالب ، واستنشرت البعاث فعدَّ العصفور نفسه من طير الواجب ؛ وجاء الغراب إلى البازي يهدده ، ورجع ابن آوى على الأسد يشرده ؛ فلو عرفت قدر نفسك ، ولزمت في السكينة طريق أبناء جنسك ؛ ووقفت عند ما حدثك ، وذكرت عجزك وكسلك ؛ لكان أجدرك ، وأحمد لعاقبتك ، وأليق بأدبك .

إن الملوك لتعدني لمهماتي ، وتستنجدني في مهماتي ؛ وتعالى في نسي ، وتعالى في حسي ؛ وتنافس في قنيتي وتحماسد ، وتجعلني عرضة لايمانها فتعاقد بالحلف على وتعاهد ؛ وتدخري في خزائنها ادخار الأغلاق ، وتعدني أنفس ذخايرها على الإطلاق ؛ فتكلمي الجواهر ، وتخليني العقود فأظهر في أحسن المظاهر ؛ أبرز للشجعان خدي الأسيل فأسيهم الحدود ذوات السوالف ، وأزهو بقدي فأسلبهم هيف القدود مع لين المعاطف ؛ وأوهم الظمان من قرب أن بأناري ماء يسيل ، وأخيّل للقرور من بعد أني جدوة نار فيطلبي على المدى الطويل ؛ ويخالني متوقع الغيث برقاً لامعا ، ويظنني الجائر في الشرق نجماً طالعا ؛ فالشمس من شعاعي في نجم ، والليل من ضوئي في وجل ، وما أسرعت في طلب نار إلا قيل : « فات ماذبح » و« سبق السيف العدل » .

فقال القلم : برق لمن لاعرنك ، وروج على غير الجوهرى صدقك ؛ فما أنت من بزى ولا عطري ، ولست بمساوحدك القاطع بقلامه ظفري ؛ إن برقك لخلب ، وإن ريحك لأزيب ؛ وإن ماءك لجامد ، وإن نارك لجامد ؛ ومن آدعي ما ليس له فقد باء بالفجور ، ومن تشبع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور .

وَمَنْ قَالَ : إِنَّ النَّجْمَ أَكْبَرُهَا السُّهَى * بغيرِ دَلِيلٍ كَدَّبَتْهُ ذُكَاءُ!

أنا جُدَيْلُهَا الْمُحَكِّكُ ، وَعُدَيْقُهَا الْمُرَجَّبُ ، وَكَرِيمُهَا الْمُبَجَّلُ وَعَالِمُهَا الْمُهْدَّبُ ؛ يَخْتَلِفُ حَالِي فِي الْأَفْعَالِ السَّنِيَّةِ بِأَخْتِلَافِ الْأَعْرَاضِ ، وَأَمْشِي مَعَ الْمَقَاصِدِ الشَّرِيفَةِ بِحَسَبِ الْأَعْرَاضِ ؛ وَأَتَرِيًّا بِكُلِّ زِيٍّ جَمِيلٍ ، فَأَنْزَلُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَأَسِيرُ فِي كُلِّ قَبِيلٍ ؛ فَنَارَةٌ أَرَى إِمَامًا عَالِمًا ، وَنَارَةٌ لُدْرُ الْكَلَامِ نَائِرًا وَأُخْرَى لِعُقُودِ الشُّعْرِ نَاطِلًا ؛ وَطَوْرًا تُفَنِّئِي جَوَادًا سَابِقًا ، وَمَرَّةً تَجِدُنِي رُحْمًا طَاعِنًا وَمَهْمًا رَاشِقًا ؛ وَأَوْنَةٌ تَخَالُنِي نَجْمًا مُشْرِقًا ، وَحِينًا تَحْسَبُنِي أَفْعُوَانًا مُطْرِقًا ؛ قَدْ فُقْتُ الشَّبَابَةَ فِي الطَّرَبِ ، وَبَرَزْتُ عَلَيْهَا فِي كُلِّ مَعْنَى وَإِنْ جَمَعَ بَيْنَنَا جِنْسُ الْقَصَبِ ؛ فَكَانَتْ لِلأَغَانِي ، وَكُنْتُ لِلْمَعَانِي ؛ وَجَاءَتْ بِغَرِيبِ النَّعْمِ ، وَجِئْتُ بِبَدِيعِ الْحِكْمِ ؛ وَلَعِبْتُ بِالْأَسْمَاعِ طَرَبًا ، وَوَلَعْتُ بِالْأَلْبَابِ فَاتَّخَذْتُ لِدَهْرِهَا مِمَّا عَرَاهَا عَجَبًا .

فَقَالَ السَّيْفُ : ذَكَرْتَنِي الطَّعْنُ وَكُنْتُ نَاسِيًا ، وَطَلَبْتَ التَّكْثُرَ فَازْدَدْتَ قَلَّةً وَعُدْتَ حَاسِيًا ؛ فَكَانَتْ كَطَالِبِ الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ إِنْ لَقِيَهُ أَهْلُكِهِ ، وَخَالَفْتَ النَّصَّ فَالْقَيْتَ بِيَدَيْكَ إِلَى التَّهْلُكَةِ ؛ فَأَقْعُ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ ، وَعُدَّ الْهَزِيمَةَ مَعَ السَّلَامَةِ مِنْ أَرْبَحِ الْأَكْسَابِ ؛ فَلَسْتَ مِمَّنْ يُشْقُ غُبَارِي ، وَلَا يُقَالُ فِي الْهَيْجَاءِ ضَرَمِي وَلَا يَصْطَلِي بِنَارِي ؛ فَكَمْ مِنْ بَطَلٍ أَبْطَلْتُ حِرَاكَهُ ، وَكَمْ مِنْ شُبَّاحٍ عَجَلْتُ هَلَاكَهُ ؛ وَكَمْ صِنْدِيدٍ أَرَقْتُ دَمَهُ ، وَكَمْ نَابِتِ الْجُنَاشِ زَلْزَلْتُ قَدَمَهُ .

وَأَرَادَ الْقَلَمُ أَنْ يَأْخُذَ فِي الْكَلَامِ ، وَيَرْجِعَ إِلَى الْجِدَالِ وَالْحِصَامِ ؛ فَغَلَبَ عَلَيْهِ رِقَّةٌ طَبِيعُهُ وَحُسْنُ مَوَارِدِهِ ، وَسَلَاَسَةُ قِيَادِهِ وَجَمِيلُ مَقَاصِدِهِ ؛ فَمَالَ إِلَى الصُّلْحِ وَجَنَحَ إِلَى السَّلْمِ ، وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَهْلِ وَتَمَسَّكَ بِالْحِلْمِ ؛ وَأَقْبَلَ عَلَى السَّيْفِ بِقَلْبِ صَافٍ ، وَلِسَانِ رَطْبٍ غَيْرِ جَافٍ ؛ فَقَالَ : قَدْ طَالَتْ بَيْنَنَا الْمُجَادَلَةُ ، وَكَثُرَتْ الْمُرَاجَعَةُ وَالْمُقَاوَلَةُ ؛

مع ما بيننا من قرابة الشرف ، وأخذ كل منا من الفضل بطرف ؛ فتحن في الكرم شقيقان ، وفي المجد رفيقان ؛ لا يستقل أحدا بنفسه ، ولا يأنس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلبت الدهر أشطره ، وعامت أصفاه وأكدره ؛ وقلبت ظهرها وبطنها ، وجبت فيا فيه سهلا وحرنا ؛ وإن معاداة الرقيق ، ومباينة الشقيق ؛ توجب شماتة العدو ونعم الصديق ؛ فهل لك أن تعقد للصلح عقدا لا يتعدى حده ، ولا يحل على طول الزمان عقده ؟ ؛ لنكون أبدا متالفين ، وعلى السراء والضراء متصاحبين ؛ حتى لا يضرب بنديمي جديمة مع أخطابنا مثل ، ولا يتشبه بنا الفرقدان إلا بآء بالخطل .

ولست بمستيق أخا لا تلثمه * على شعث ، أي الرجال المهذب ؟

فقال السيف : لقد رأيت صوابا ، ورفعت عن وجه المحجة نقابا ؛ وسريت أحسن مسرى وسرت أجمل سير ، وصحبك التوفيق فأشرت بالصلح ؛ والصلح خير .

وقد يجمع الله الشيتين بعدما * يظنان كل الظن أن لا تلاقيا !

ثم قال : لا بد من حكم يكون الصلح على يديه ، وحاكم يرجع في ذلك إليه ؛ لتحظى بزيادة الشرف ، ونظفر من كمال الرقعة بغرف من فوقها عُرف ؛ ولسنا بفائزين بطلبتنا ، وظافرين ببغيتنا ؛ إلا لدى السيد الأكل ، والمالك الأفضل ؛ الماجد السرى ، والبطل الكمي ؛ والبحر الحضم ، والغيث الأعم ؛ مولى المعالي ومولى النعم ، وممتطي جواد العز ورافع أعلام الكرم ؛ جامع أشات الفضائل ومالك زمامها ، وضابط أمر الدولة الظاهرية وحافظ نظامها ؛ المقر الكريم ، العالى ، المولوى ، الزينى ، أبى يزيد الدوادار الظاهرى : ضاعف الله تعالى حسناته المتكاثرة ، وزاده رفعة في الدارين ليجمع له الارتقاء بين منازل الدنيا والآخرة ؛ فهو قُطب

المملكة الذى عليه تدور، وفارسها الأروع وأسدّها المصور، وبطلها السميع وليثها
 الشهير، وأبو عذرتها حقًا من غير نكرٍ وابن بجدتها الساقطة منه على الخير، ومعقلها
 الأمتع وحرزها الحصين، وعقدّها الأنفس وجوهرها الثمين، وتلاذها العاليم
 بأحوالها، والحدير بمعرفة أقوالها وأفعالها، وترجمانها المتكلم بلسانها، وعالمها المتفنن
 فى أفنانها، وطبيبها العارف ببطبها، ومنجدها الكاشف لكربها .

هذا : وإنه لما لك أمرنا ، ورافع قدرنا ؛ والصائل منا بالحدّين ، والجامع منا
 بين الضدّين ؛ فلو لقيه «فارس عيس» لولى عايسا، أو طرق حمى «كليب» لبات من
 حماه آيسا ؛ أو قارعه «ربيعة بن مكدّم» لعلا بالسيف مفرقه، أو نازله «سبطام»
 لبدّد جمعه وفرقه ؛ كما أنه لو قرّن خطه بنفيس الجوهر لعلاه قيمه، أو فانسّه
 «ابن مقلّة» فى الكتابة لما رضى أن يكون قسيمه ، أو فاحره «ابن هلال» لرأى
 انه سبقه إلى كل كريمه .

وبالجمله فعزه الظاهر وفضله الأكل ، وسماكّه الرّاح وسماكّ غيره الأعزل ؛
 فلا يسمّح الزمان أن يأتى له بنظير، ولا أراد مدّع بلوغ شأوه إلا قيل : أتتد فلقد
 حاولت الاتّهاض بجناح كسير :

خَيْهَلًا بِالْمَكْرَمَاتِ وَبِالْعُلَى * وَحَيْهَلًا بِالْفَضْلِ وَالسُّؤُودِ الْمَحْضِ !

فالحمد لله الذى جمعنا بأكرم محلّ وأفضل ، وأحسن مقامٍ وأجمل ؛ فهلمّ إليه بعقد
 بيننا عقد الصلح، ونبايعه على ملازمة الخدمة والنصح .

ثم لم يلبثا أن كتبّا بينهما كتابًا بالصلح والمصافاه ، وتعهدا على الودّ والمؤافاه ؛
 وأعلن بعقد الصلح مناديهما ، وحدّا بذكر التعاضد والتناصر حاديهما ؛ وراح يُشدد :

حَسَمَ الصُّلْحَ مَا أَشْتَهَتْهُ الْأَعَادَى ، * وَأَذَاعَتْهُ السُّنُّ الْحَسَادِ !

وزالت عنهما الأحقاد والإحْن ، وباتا في أعزّ مكانٍ وأشرفِ وطنٍ ؛ وثَلَّتْ
قرانهما فأسعد ، ثم قام مُنشدُهُما فأنشد :

لا يُنكر الصُّلحَ بين السِّيفِ والقَلَمِ * فعاقِدُ الصُّلحِ على القَدَرِ والهِمَمِ !
أبو يزيدِ نظامِ المُلكِ مالِكُما * وواصلُ العِلْمِ في عَلياهِ بالِعِلْمِ .
فهو المراد بما أُنشِدَ من مِديحٍ * وغايةُ القَصْدِ من تَرتيبِ ذَا الكَلِمِ !
وإن جرى مَدحُ سِيفٍ أو عَلاقِمٍ ، * فذاك وَصْفٌ لما قد حازَ من كَرَمِ !

قلتُ : وسببُ إنشائي لهذه الرسالة أن الأميرَ أبا يزيدَ الموضوعَ له ، تَعَمَّدَهُ اللهُ
تعالى بالرحمة والرضوان ، كان من جَوْدَةِ الخَطِّ وتَحْرِيرِ قواعِدِهِ في الطَّبَقَةِ العُلَيَّا ،
وعَظُمَت مَكَانَتُهُ عند سلطانِهِ الملكِ الظاهرِ «برقوق» وَعَلَت رُتَبَتُهُ حَتَّى وُلَّاهِ وظيفَةَ
الدَّوَادِرِيَّةِ بِإِمرَةِ تَقْدِمةِ أَلِفٍ ، ولم يَزَلْ مُقَدِّمًا عنده حتى مات وهو مُتَوَلِّيًا ، وأوَّلاني
عند عَمَلِها له من الصَّلَةِ والبرِّ المُتَوَالِي ما يَقْضِرُ عنه الوَصْفُ ، ويَكِلُ عنه اللِّسانُ .

الصِّنْفُ الخامسُ

(من الرسائل - الأسئلة والأجوبة ، وهي على ضربين)

الضرب الأوَّل

(الأسئلة الامتِحانيَّة)

قد جَرَتْ عادةُ مَشايخِ الأَدبِ وفُضلاءِ الكُتُبِ أَنهم يَكْتُبُونَ إلى الأفاضِلِ
بالمَسائِلِ يَسألُونَ عنها : إمَّا على سبيلِ الاستِفافِها وأَسْتِباحَةِ ما عند المَكْتُوبِ إليه
في ذلك ، وإمَّا على سبيلِ الامْتِحانِ والتَّعْجِيزِ . ثم تارةً يُجابُ عن تلكِ الأسئلةِ بأجوبةٍ
فَتُكْتَبُ ، وتارةً لا يُجابُ عنها ، بحسبِ ما تَقْتَضِيهِ الحالُ .

وهذه رسالة كتبها الشيخ جمال الدين بن نباتة المِصرى إلى الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي صاحب ديوان الإنشاء بالمملكة الشامية ، وقد بلغه أن بعض أهل الديوان نال منه ، وأن الشيخ شهاب الدين المذكور ناضل عنه ودافع ، فكتب إليه يشكره على ذلك ويسأل كُتاب الديوان عن أسئلة بعضها يرجع إلى صنعة الإنشاء ، وأكثرها يرجع إلى فن التاريخ . وقد بينت بعضها ونهت عليه في مواضعه في خلال هذا الكتاب ، وهي :

لا يُجْرَحُ الكُوهَ مَنِّيَ غَيْرُ نَائِيَةٍ * ولا أَلِينُ لِمَن لا يَتَنَبَّأُ لِيَنِي !

الاستفتاح بـ«ملا» تيمناً بركة الشهادة ، وهي ههنا مقرأض يقطع من العيب المدة ويحسم المأذة ؛ فحسم الله عن سيدنا الإمام العلامة القدوة ، شهاب الدين ، مكل الآداب ، وملك الشعراء والكتّاب ؛ شر كل عين حاسد ولو أنها عين الشمس ، وحماه عن مد ألسنة ذوى الأعتياب والأرتياب من الهمج والهمس ؛ وهياً له أسباب الخير حتى يكون يومه فيه مقصراً عن الغد زائداً على الأمس ، وأستخدم له الأقدار حتى تكون قرائض تقبيل أنامله العشر عندهم كقرائض الخمس ، وجعل ما يرد عنه العين من العيب بعد شأنه عن المتناول وقايته عن اللبس ، حتى يكون المعنى بقول القائل :

ولا عيب فيه غير أن علاه * إذا حدوده كان قد جاوز الحد ،

ولا عيب أيضاً في ماثر بيتيه * سوى أنها تروى بألسنة الأعدا !

وحتى يؤمن عليه القائل :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى * عيب يوقيه من العير !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيره لما يريد وانما هو . لا يُجْرَحُ الْقَسْرَ مَنِّيَ غَيْرُ مَائِيَةٍ . الْقَسْرُ :

القهر والمأية مصدر كالتحمية معناها الإباء والبيت من كلمة لدى الإصبع العدواني .

وَيُقْبَلُ مِنَ الْآخِرِ قَوْلُهُ :

شَخَّصَ الْأَنَامُ إِلَى كَمَالِكَ فَاسْتَعَدَّ * مِنْ شَرِّ أَعْيُنِهِمْ بَعِيْبٍ وَاحِدٍ!
 الْعَبْدُ يَخْدُمُ بِسَلَامٍ مَارَوْضَةَ نَقَطَهَا الْجَوْ بَدْرٌ سَخَائِبِهِ ، وَأَفْرَغَ عَلَيْهَا الْأَفْقُ سَفَطَ
 كَوَاكِبِهِ ؛ وَأَمْتَدَّ نَوْءَ الذَّرَاعِ لِتَدْبِيحِ سَمَائِهَا ، وَتَارِيحِ أَرْجَائِهَا ، وَتَحْمِيْشِ مَعَاصِمِ أَنْهَارِهَا
 الْمُنْشَقَّةِ بِأَفْنَائِهَا ؛ وَصِقَالَ نَسَمَاتِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَمُغَازَلَةَ عِيُونِهَا السَّحْرِيَّةِ ، وَهَوَاثِرِ
 الْعَالِيَةِ بِتَفْحَاتِهَا الشَّجَرِيَّةِ ؛ تَصْرِفُ دَنَائِرَ أَزْهَارِهَا الصُّرُوفِ ، وَيَسْلُ جَدْوُلَهَا عَلَى
 الْهَمُومِ السُّيُوفِ ؛ وَتَجْدُبُ حَمَائِمُهَا الْقُلُوبَ بِالْأَطْوَاقِ ، وَيَتَشَفَّعُ دَوْحُهَا إِلَى النُّوَاطِرِ
 بِالْأُورَاقِ ؛ قَدْ تَرَقَّرَقَ فِي وَجَنَاتِهَا مَاءُ الشَّبَابِ ، وَغَيَّأَ مُطْرَبُ حَمَامِهَا وَعَنْتَرَهُ فِي حَكِ
 مِنَ الذُّبَابِ ، وَبَجَرَهَا رَوْتِقُ السَّيْفِ وَفِي قَلْبِ رَوْضَتِهِ الذُّبَابُ .^(٢)

فَمَا كُلُّ أَرْضٍ مِثْلَ أَرْضِ هِيَ الْحَيَا ، * وَمَا كُلُّ نَبْتٍ مِثْلَ نَبْتِ هُوَ الْبَانُ !
 يَوْمًا بِأَهْجٍ مِنْهُ أَشْوَاقًا ، وَأَطْيَبَ مِنْهُ أَنْتَشَاقًا وَأَتَسَاقَا ، وَالطَّيْبُونَ لِلطَّيْبَاتِ ،
 وَلِكُلِّ غَيْثٍ نَبَاتٌ ، وَمَا لِدَٰكِ الْغَيْثِ إِلَّا هَذَا النَّبَاتُ .

وَنَعُودُ فَنَقُولُ : لَا أَدْرِي أَتَعْجَبُ :

عَلَى أَنَّهَا الْأَيَّامُ قَدْ صِرْنَ كُلُّهَا * عَجَائِبَ حَتَّىٰ لَيْسَ فِيهَا عَجَابٌ !!
 مِنْ قَوْمٍ هُمْ مَا هُمْ : شَرِبُوا مَنَاسِبَ ، وَطَيَّبُوا مَكَاسِبَ ؛ قَدْ أَمَكَّنْتَهُمُ الْمَعَالِي ،
 وَطَاوَعْتَهُمُ الْأَيَّامُ وَاللَّيَالِي ؛ وَخَدَمْتَهُمْ جَوَارِي السُّعُودِ ، وَتَطَامَنَّتْ لِكُلِّ مِنْهُمْ مَرَاقِي
 السُّعُودِ ، كَابِرٍ بِسُكُونِ الْجَاشِ مَنْحَدِرٍ (؟) وَكَنْتُ قَدْ اسْتَجَدَّيْتُ كَلًّا مِنْهُمْ وَلَكِنْ
 بِالْكَلامِ ، وَأَسْتَسْقَيْتُ وَلَكِنْ قَطْرَةً مِنْ عَمَامِ الْأَقْلَامِ :

وَأَيْسَرُ مَا يُعْطَى الصِّدِّيقُ صَدِيقَهُ * مِنَ الْهَيِّرِ الْمَوْجُودِ أَنْ يَتَكَلَّمَا !

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حده أو طرفه المنظر .

”وَلْيُسْعِدِ النُّطْقُ إِنْ لَمْ يُسْعِدِ الحَالُ“ فَضَنَّ وَظَنَّ مَاظَنَّ ، وَأَسْتَعِطَفَ بِنَسِيمِ الكَلَامِ
غُضْنُ يَرَاعِهِ فَمَا عَطَفَ وَلَا حَنَّ ؛ وَبَجَلٍ بِمَا رَزَقَهُ اللهُ فَإِنَّ الفَضِيلَةَ مِنَ الرِّزْقِ ،
وَحَرَمِنِي لَذَّةَ أَلْفَاظِهِ فَإِنَّمَا التِّي إِذَا أُدْخِلْتَ فِي رَقٍّ دَخَلَ حُرُّ البَلَاغَةِ تَحْتِ ذَلِكَ الرِّقِّ ؛
وَهَلْ هُوَ البَحْرُ فَكَيْفَ سَخَّ بِمَدَّةٍ مِنْ مَدَّةِ ، وَأَلْغَيْتُ وَلَا أَقُولُ : إِنْ الذِّي حَبَسَهُ
إِلَّا مَا قَسَمَهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ الحِطِّ عِنْدَ عَبْدِهِ :

وَإِذَا الزَّمَانُ جَفَاكَ وَهُوَ أَبُو الوَرَى * طَرًّا فَلَا تَعْتَبِ عَلَى أَوْلَادِهِ!

فَاعَلَى اللهُ كَلِمَةَ سَيِّدِنَا العَلَامَةِ فِي الدَّارَيْنِ ، وَشَكَرْ غَنِيَّ جُودِ كَرَمِهِ وَكَلِمَةَ الدَّارَيْنِ ،
[فَهُوَ] صَاحِبُ دِيوَانِهِمْ ، وَحُجَّةُ زَمَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ وَصَفَنِي بِمَا يَزِيدُ عَلَى الجَوَابِ ، وَشَافَهَنِي
مِنَ الشُّكْرِ بِمَا لَا يَتَوَارَى مِنَ الرِّزْقِ بِحِجَابِ ، وَأَمَّنَنِي العِزَّ وَالزَّمَانَ حَرْبَ ، وَنَصَرَ نِي
وَالْأَيَّامُ سَيُؤَفِّقُ نَتَّقِعُ مِنَ الضَّرْبِ فِي كُلِّ ضَرْبٍ ؛ وَأَعْطَانِي كَرَمَهُ وَالمَحَلَّ مَحَلَّ ،
وَفِي قَلْبِ الزَّمَانِ دَحَلُ ، وَنَحَلْنِي شُهَدَاءَ إِحْسَانِهِ وَالأَوْقَاتُ كَابِرَ النَّحْلِ ؛ حَتَّى عَدَرَنِي
فِي حُبِّهِ مَنْ كَانَ مِنَ اللَّاأَمِينَ ، وَأَهْتَدَيْتُ مِنْ لَفْظِهِ وَفَضْلِهِ بِقَمَرَيْنِ لَا يَمِيلُ أَحَدُهُمَا
وَلَا يَمِينُ ، وَصُلَّتْ مِنْ جَاهِهِ وَمَالِهِ بِيَدَيْنِ إِلَّا أَنْ كَلَّمْتَهُمَا فِي الإِعْرَاضِ يَمِينِ :

وَيُلُومُنِي فِي حُبِّ عُلُوِّ نِسْوَةٍ * جَعَلَ الإِلَهُ خُدُودَهُنَّ نِعَالَهَا!

وَحَرَسَ اللهُ سَيِّدَنَا شَهَابَ زَمَانِهِمْ ، كَمَا حَرَسَ بِهِ سَمَاءَ دِيوَانِهِمْ ؛ فَلَقَدْ أَسْمَعُنِي
مِنَ الشُّكْرِ مَا أَرَبِي عَلَى الأَرَبِ ، وَجَعَلَنِي كَحَاجِبٍ حِينَ دَخَلَ عَلَى كَسْرِي وَهُوَ وَاحِدٌ
مِنَ العَرَبِ خَرَجَ وَهُوَ سَيِّدُ العَرَبِ ، وَهَدَيْتَنِي أَنْوَارَهُ وَأَنَا أَخِيطُ مِنْ لَيْلِ القَرِيحَةِ
فِي عَشْوَاءَ ، وَجَادَتْ عَلَى أَنْوَارِهِ وَنَاهِيكَ بِتِلْكَ الأَنْوَارِ مِنَ الأَنْوَاءِ ، وَرَفَعْتَنِي أَلْفَاظَهُ
وَلَكِنْ عَلَى السَّمَاءِ بِرَغَمِ حَسُودِي العَوَاءِ ؛ وَهَذِهِ قَصَائِدُهُ فِي تَنَادَرِهَا أَلْسِنَةُ الأَقْلَامِ ،
وَتُكْتَبُ بِأَنْفَاسِ اللَّيَالِي عَلَى صَفْحَاتِ الأَيَّامِ ؛ مِنْ كُلِّ بَيْتٍ هُوَ بَيْتٌ مَالٍ لَا يَنْقُصُهُ
الإِنْفَاقُ ، وَلَوْلَا التَّقِيُّ لَقَلْتُ : إِنَّهُ البَيْتُ الذِّي أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِحُجَّتِهِ الرَّفَاقِ مِنَ الأَفَاقِ ؛

فَتَى أَنْفَرُغْ لَطَلَبِ مَدْحِهِ ، وَقَدْ شَغَلَنِي بِمَنْحِهِ ؟ ، وَمَتَى أَجَارِيهِ بِأَمْتَدَاحِ وَإِنَّمَا مَدْحِي
له من فوائد مدحه :

وما هو إلا من نَدَاهُ وَإِنَّمَا * مَعَالِيهِ تُمْلِيْنِي الَّذِي أَنَا كَاتِبُهُ !

أَمْ أَتَعْجَبُ مِنْ سَنَيْتِ عِنَانِ التَّنَاءِ إِلَيْهِ ، وَجَلَوْتُ عَرَائِسَ الْمَدَائِحِ عَلَيْهِ ؛ وَعَادَيْتُ
فِي تَنْضِيدِ أَوْصَافِهِ الْكَرَى ، وَأَنْضَيْتُ بِالْقَلَمِ لَهُ فِي نَهَارِ الطَّرْسِ وَلَيْلِ النَّقْسِ مِنَ السَّيْرِ
وَالسَّرَى ؛ وَمَدَحْتَهُ بِلَاءٍ فِيَّ وَأَجْتَهَدْتُ فِي وَصْفِهِ وَكَانَ سِوَاءٍ عَلَيَّ أَنْ أَجْهَدْتُ ،
فِي وَصْفِهِ أَوْ أَجْتَهَدْتُ ؛ بِفَازَانِي مُجَازَاةَ السَّيَّارِ ، وَأَوْقَعَنِي مِنْ عَنَتِ عَيْبِهِ فِي النَّارِ ،
وَجَعَلَ مَحَاسِنِي الَّتِي أَدْلِي بِهَا ذُنُوبًا فَكَيْفَ يَكُونُ الْإِعْتِدَارُ ؟ :

وَكَانَ كَذِئْبِ السُّوءِ إِذْ قَالَ مَرَّةً : * لَعَمْرُوسَةَ وَالذَّبُّ غَرَّانُ مُرْمِلُ :

أَأَنْتِ الَّتِي مِنْ غَيْرِ سُوءٍ شَتَمْتَنِي ؟ * فَقَالَتْ : مَتَى ذَا ؟ قَالَ : ذَا عَامٍ أَوَّلُ

فَقَالَتْ : وُلِدْتُ الْآنَ بَلْ رُمْتَ غَدْرَةَ * فَدُونَكَ كُلِّي لَاهِنًا لَكَ مَا كُلُّ !

وَحَلَّ هَذَا الْمُتَرَجِّمَ ، وَتَحْقِيقَ هَذَا الظَّنِّ الْمُرْجَمِ ؛ أَنَّهُ بَلَّغَنِي أَنَّ جَمَاعَةً مِنَ الَّذِينَ
اسْتَفْتَيْتُهُمْ اسْتِنْبَاطًا لِقَوَائِدِهِمْ ، وَالنَّبَاطًا لِقَرَائِدِهِمْ ؛ لَا تَكْلِيفًا لَهُمْ فِيمَا لَا يَقُومُ بِهِ إِلَّا
الْأَقْوَى مِنَ الْأَقْوَامِ ، وَلَا يُسْتَنْجَدُ بِهِ فِي هَذَا الْوَقْتِ إِلَّا بِأَرْبَابِ صَفْحَاتِ السُّيُوفِ
لَا أَرْبَابِ قَصَبَاتِ الْأَقْلَامِ ؛ أَرَادُوا الْغَضَّ مِنِّي ، وَفَنَى الْإِحْسَانَ عَنِّي ؛ وَهَيْهَاتَ !

* أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي *

هَآنَا وَبِضَاعَتِي ، وَهَذِهِ يَدِي لَا أُنِّي أَلْقَيْتُ بِهَا إِلَى السَّلْمِ وَلَكِنْ لِأَعْرِضَ

صِنَاعَتِي : * هُوَ الْجَمَى وَمَعَانِيهِ مَعَانِيهِ *

وَإِنِّهِمْ أَجْتَمَعُوا بِالْمِيدَانِ عَلَى حَدِيثِي ، وَذَكَرُوا قَدِيمِي وَحَدِيثِي ؛ وَتَسَابَقُوا فِي الْغَيْبَةِ
أُفْرَاسَ رِهَانَ ، وَأَعْجَبَ كَلًّا مِنْهُمْ أَنْ يَقُولَ : هَذِهِ الشُّقْرَاءُ فِي يَدِي وَهَذَا الْمِيدَانُ ؛

وَلَا مَوَا وَعَدَلُوا، وَهَمُّوا بِالسَّبِّ وَفَعَلُوا، وَأَسْتَطَابُوا لَحْمَ أَخِيهِمْ فَسَلَقُوهُ بِالسِّنَةِ حَدَادٍ
وَأَكَلُوا؛ حَتَّى تَعْدَى ذَلِكَ إِلَى مَنْ جَادَ عَلَى الْجَوَابِ، وَفِيهِ إِمَّا جَزَاءٌ لِلدَّحْجِ وَإِمَّا
لِلشَّوَابِ :

فَقُلْتُ لَهَا عَيْثُ جَعَارِ وَجَرِّى * بِلَحْمِ أَمْرِي لَمْ يَشْهَدِ الْيَوْمَ نَاصِرُهُ!
وَمَا كَانَ الْمَالِيحُ أَنْ يُغْرِى بِي مِنْ سَبْقِ مَدْحِهِ إِلَى ، وَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعِزَّهُ لِنَفْسِهِ فَمَا
أَنْتَصَرَ لَدَى "وَهَذَا لِعَمْرَى جَهْدٌ مِنْ لَالَةٍ جَهْدٌ" وَمَا تَحْلُو هَذِهِ الْأَفْعَالُ: إِمَّا أَنْ تَكُونَ
مُجَازَاةً عَلَى مَدْحِهِمْ ، فَأَيْنَ الْكِرَامُ وَفَضْلُهُمْ ، وَالْمُنْصِقُونَ وَعَدْلُهُمْ ؟ ، أَوْ ظَنًّا أَنِّي
عَرَّضْتُ بِهِمْ فِيمَنْ عَرَّضْتُ ، فَأَيْنَ ذِكَاةَ الْأَلْبَاءِ وَأَيْنَ عَقْلُهُمْ ؟ ؛ وَهَلْ تَنْظُرُ السَّمَاءَ
أَنْ يَدَا تَصِلَ إِلَيْهَا ، وَالنُّجُومُ أَنْ خَلَقًا تَحْكُمَ عَلَيْهَا ؟ ؛ وَالذَّهَبُ مَحْرُوسٌ لَا يَصُدَا
حِرْمُهُ ، وَالْجَوْهَرُ مَعْرُوفٌ لَا يَجْهَلُ حُكْمَهُ ؛ وَمَنْ الَّذِي يُحَدِّثُهُ نَفْسُهُ أَنْ يَجْحَدَ الشَّمْسَ
فَضْلَهَا الطَّائِلَ ، أَوْ يُحَسِّنَ لَهُ عَقْلَهُ أَنْ يَقُولَ : سَحَابٌ وَائِلٌ كَبَاقِلٍ ؟ ؛ (١)
أَدْرِكُنِي ذَلِكَ الْيَوْمَ وَلَمَّا أَمْرَقُ ، وَأُنْجِدُنِي بِكُلِّ لَفْظَةٍ هِيَ أَمْضَى مِنَ السَّهْمِ وَأَرْشَقُ ،
وَأَضْوَاءُ مِنَ النَّجْمِ وَأَشْرَقُ ؛ وَمَا أَعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِي عَلَى هَذَا الْحَرْبِ فِي صُورَةِ
السَّلْمِ ؟ ؛ وَمَا أَظُنُّهُ أَرَادَ إِلَّا أَنْ يَعْلَمَ قَلْبِي الَّذِي فِي يَدِهِ الْحُكْمَ ، كَمَا عَلَّمَهُ لِلْقَلَمِ ؛ وَحَيْثُ
قَضَى الْحَدِيثُ مَا قَضَى ، وَمَضَى الْوَقْتُ وَمَا كَانَ إِلَّا سَيْفًا فِي عَرْضِ الْعَبْدِ مَضَى :

فَكَرَّتْ تَبَتُّغِيهِ فَصَادَفْتُهُ * عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعِهِ السَّبَاعَا

فَأَنَا أَنْشُدُ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ لِإِلسَادَةِ الْعَائِيْنَ ، أَوْ الْقَوْمِ الْعَائِيْنَ ؛ هَلْ يَعْرِفُونَ أَنَّ
الَّذِي عَرَّضْتُ بِهِ مِنْهُمْ قَوْمٌ قَدْ اسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ الْعِيُّ بِجَرِيضِهِ ، وَنَزَلَ فِيهِمُ الْجِهَادُ
بِقَضِهِ وَقَضِيضِهِ ؛ وَأَصْبَحَ بَابُهُمْ لَمْ كَبَسْتَانِ بِلَاثِمَارِ ، وَدِيَوَانُهُمْ عَلَى رَأْيِ أَبِي الْعَلَاءِ
كِدْيَوَانَ أَبِي مَهْيَارِ ؛ لَا يُحَسِّنُ أَحَدُهُمْ فِي الْكِتَابَةِ غَيْرَ الْعَامَةِ الْمُدْرَجَةِ ، وَالْعَدْبَةَ الْمُعْجَبَةَ ،

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

وَالْعِبَاءَةُ الضَّيْقَةُ وَالْأَنْوَابُ الْمُفْرَجَةُ ؛ وَيَتَنَاوَلُ السَّلْمُ بِالْيَمِينِ وَكِتَابُهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى
بِالشَّمَالِ ، وَمَشَى هَذَا عَلَى هَذَا وَلَكِنْ عَلَى الضَّلَالِ ؛ لَوْ سُئِلَ أَحَدُهُمْ عَنْ «الْبَدِيعِ»
فِي الْكِتَابَةِ لَمْ يَعْرِفْ مِنَ السُّؤَالِ غَيْرَ التَّرِيدِ ، وَعَنْ «عَبْدِ الْحَمِيدِ» لَزَادَ فِي الْفِكْرِ وَنَقَصَ :
وَعَبْدُ الْحَمِيدِ عَبْدُ الْحَمِيدِ ؛ وَ«الصَّاحِبِ» لَقَالَ : إِنَّهُ تَبَرَّقَعَ بِمَجْلِسِي ، وَ«الْخَوَارِزْمِيِّ»
لَقَالَ : سَرَّجُ فَرَسِي ، «وَالْقَاضِلِ» لَقَالَ : هَا هُوَ ذَا ذَيْلِ مَلْبَسِي . فَإِنْ كَانَ الْأَمْرُ
كَذَلِكَ فَفِيهِ الْمَلَامُ وَالتَّفْنِيدُ :

عَلَّقُوا اللَّحْمَ لِلْبُرَا * عِ عَلَى ذِرْوَتِي حَضَنُ (١)
ثُمَّ لَامُوا الْبُرَاةَ أَنْ * قَطَعْتَ نَحْوَهَا الرَّسَنَ ،
لَوْ أَرَادُوا صِيَاتِي * حَجَبُوا وَجْهَكَ الْحَسَنَ !

وَالْوَجْهَ الْحَسَنَ هُنَا وَجْهَ الْمَنْصِبِ وَحِجَابَهُ عَنْ شَيْءٍ تِلْكَ الْآثَارُ ، وَتَحْمِيشُ تِلْكَ
الْأَلْفَاظُ .

وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ فَمَا مَثَلِي مَعَ مَنْ ذَكَرَنِي إِلَّا قَوْلُ الْقَائِلِ :

سَافِرٌ بَطْرَفِكَ حَيْثُ شِئْتُ * فَلَنْ تَرَى إِلَّا بَحِيحًا !

فَقِيلَ لَهُ : بَحَلَّتِ النَّاسَ ، فَقَالَ : كَذَّبُونِي بِوَاحِدٍ . وَهَآنَا فَلْتَكْذِبُونِي بِوَاحِدٍ مِّنْ
عَرَضَتْ ، وَصَحِيحٌ مِّنْ أَمْرَضَتْ ؛ وَلِيَبْرُزْ إِلَى مَضْجِعِهِ ، وَلِيَكُنْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ مَضْرِعِهِ ؛
وَلَا يَتْرِكُ شَيْئًا مِنْ أَدْوَاتِهِ ، وَلَا يَأْتِي إِلَّا وَمَعَهُ نَادِيَتُهُ مِنْ حَمَائِمِ هَمَزَاتِهِ .

وَأَنَا أَقْتَرِحُ عَلَيْهِ مِنْ مَسَائِلِ الْكِتَابَةِ بَعْضَ مَا أَقْتَرِحُهُ الْفَضَاءُ ، وَنَبَّ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ ،
وَإِلَّا فَمَا أَنَا أَبُو عُدْرَتِهِ ، وَمَالِكُ إِمْرَتِهِ ؛ وَلَا يَلُومُ إِلَّا الْقَائِلُ :

مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِ مَا هُوَ فِيهِ * فَضَحَّتْهُ شَوَاهِدُ الْإِمْتِحَانِ !

(١) حَضَنُ جَبَلٌ بِأَعْلَى نَجْدٍ .

فانه الذى نبئى عليه وإن لم أكن ساهيا، وذكرنى الطعن وما كنت ناسيا؛ حتى
رميته من هذه المسائل، فى مجاهل؛ لا يهتدى فيها بغير الذهن الواقد، وأفتحمت
به فى بحار لا يعصم منها جبل الفكر الجامد؛ على أنها فيما أغفلت كالنمذ من البحار،
واللحة من النهار؛ ولولا الاختصار، لأتيت منها بالجمع الحزم فلنحمد الله والاختصار،
فأقول :

من كتب فى الورق وأستنبطه؟ ومن ختم الكتاب بالطين وربطه؟ ومن غير
طين الكتاب بالنشا وضبطه؟؛ ومن قال: أما بعد فى كتابه؟ ومن جعلها فى الخطب
وأسقطها فى ابتدائه فى المكتبة وجوابه؟؛ ومن كره الاستشهاد فى مكاتبات الملوك
بالأشعار؟؛ وكيف تركها على ما فيها من الآثار؟؛ ومن الذى أراد أن يكتب نثرا
بجاء شعرا؟؛ ومن وضع هذه الطرة فى التقاليد وأخترعها؟؛ وما حجتها إذ قدمها على
أسم الله ورفعها؟؛ ومن الذى باعد بين السطور وسعها؟؛ وكيف ترك بالتعظيم
فى كتبه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التواضع ما وسعها؟؛ ومن
أستغنى بكتابة آية من كتاب الله عن الجواب؟؛ ومن أكتفى بيت من الشعر عما
يجتاج من تطويله الكتاب؟؛ ومن الذى عانى المترجمات ورتبها؟ وأخفى مطلقات
الجوايس وغيبها؟؛ ومن الذى سن البرد وبعثها فى المهمات؟؛ ومن حاكى شيئا
من ملك سليمان فأستخدم الطيور فى بعض المهمات؟؛ وما أوجز مكاتبة كتب بها
عن خليفة فى معنى؟؛ وما أبلغ جواب وأوجزه أجاب به عن خليفة من لاسمى
ولا كنى؟؛ ولم أرخ بهجرة النبي صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرخ بمولده أو غير
ذلك من الأيام؟؛ ومن الذى أمره الخليفة بكتابة معنى فأرتج عليه الكلام ولقنه
فى المنام؟؛ ومن الذى وصف برسالة طويلة شيئا لم يصفه بنثر ولا نظام؟؛ وكيف
جاز للكاتب أن يكتب آية من الكتاب فى لفظة يحسبها من لا يحفظ أنها من عنده

لَا مِنْ حِفْظِهِ؟ ، مِثْلُ قَوْلِهِ مَعَ الرَّسُولِ: ﴿وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ . وَقَوْلِ الْآخَرِ فِي كِتَابِهِ: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ . وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا؟ وَهَلْ يُؤْخَذُ عَلَيْهِ فِي مِثْلِ ذَلِكَ كَمَا أُخِذَ عَلَى الْحَجَّاجِ فِي أَسْمَاءِ الْمُسْتَفْعِينَ بِهِ مِنْ أَهْلِ السَّجَنِ: ﴿اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾؟ . وَمَا الْفَرْقُ بَيْنَهُمَا؟

وَعَلَامَ يُطَوَّلُ الْكَاتِبُ بَاءَ الْبَسْمَلَةِ؟ ، وَلَا يُثَبِّتُ إِلَّا قَلِيلًا وَأَوَّ الْحَسْبَلَةَ؟ ؛ وَلَا يُجْهِدُ وَلَا يُسَمِّلُ عَلَى مَا أَلْفَ ، وَكَيْفَ يُعَلِّمُ فِي بَعْضِ السَّجَعَاتِ عَلَى الْأَسْمَاءِ الْمَقْصُورَةِ بِالْيَاءِ وَالْأَصْلُ فِيهَا الْأَلْفُ؟ ؛ وَأَسْأَلُهُ كَيْفَ يَصِفُ الْقَرَّاطِيسَ وَالْأَقْلَامَ وَيَسْتَدْعِيهَا؟ ، وَالسَّكِينِ وَالذَّوَاءَ وَيَسْتَهْدِيهَا ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ مَلِكٌ طَلَبَ مِنْهُ عَدُوٌّ قَطِيعَةً عَنْ جَيْشِهِ يُعْطِيهَا؟ ؛ وَكَيْفَ يَكْتُبُ عَنْ خَلِيفَةٍ أَسْتَسْقَى وَلَمْ يُمْطَرْ؟ ، وَخَلِيفَةٍ صَارَعَ فَضْرَعًا كَالْمُعْتَصِمِ وَكَيْفَ يُعْذِرُ؟ ؛ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ فِي نَارٍ وَقَعَتْ فِي حَرَمِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ وَمَا الَّذِي يَكْتُبُ عَنِ الْمَهْزُومِ إِلَى مَنْ هَزَمَهُ فِي مَعْنَى رُكُونِهِ إِلَى الْإِحْجَامِ؟ ؛ وَكَيْفَ يُبَيِّنُ خَلِيفَةٌ خُلِعَ فَرَجِعَ ، وَغُرِّبَ عَنِ السَّجَنِ وَطَلَعَ؟ ؛ وَأَسْرَهُ الْعَدُوُّ ثُمَّ تَخَلَّصَ وَأَسْتَقَامَ بَعْدَ مَا نَهَضَهُ الدَّهْرُ بِمَرَضٍ ، أَوْ تَمَرَّضَ فَانْتَهَضَ؟ ؛ وَكَيْفَ يُبَيِّنُ مِنْ زَوْجٍ بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِ أُمَّهُ ، وَيُعْزِي وَالِدًا قَتَلَ وَلَدَهُ وَوَلِدًا قَتَلَ وَالِدَهُ وَيُصَوِّبُ حُكْمَهُ؟ ؛ وَيَكْتُبُ عَمَّنْ حَاصَرَ حَصْنًا وَتَرَكَهُ بَعْدَ تَسْهِيلِ الْمَسَالِكِ ، وَكَيْفَ يَكْتُبُ فِي نَيْلٍ لَمْ يُوفِ لَآ أَحْوَجَ اللَّهُ لَذَلِكَ؟ ؛ وَيُعْزِي كَافِرًا عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَاءِ الْأَنْزَامِ ، وَيُنْشِئُ عَهْدَ يَهُودِيٍّ بِوِزَارَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ ؛ وَيَكْتُبُ تَقْلِيدًا ثَلَاثَةً أَوْ أَرْبَعَةً مِنَ الْحُكَّامِ ، وَيَسْتَنْجِدُ بِأَمْوَالٍ أَوْ مَسَاكِينِ (؟) مِنْ عَدُوِّ كَافِرٍ عَلَى كَافِرٍ؟ وَيُبَشِّرُ عَدُوًّا بِأَخْذِ بِلَادِهِ مِنْهُ ، وَيَعْتَذِرُ عَنِ مَلِكٍ أَخَذَتْ شَوَانِيهِ وَحُجِرَتْ عَنْهُ؟ ؛ وَيُبَيِّنُ خَصِيًّا بِزَوَاجِهِ ، وَيَعْتَذِرُ عَمَّنْ فَرَّ وَتَرَكَ وَلَدَهُ تَحْكُمُ الظُّبَا فِي أَوْدَاجِهِ؟ ؛

(١) كَذَا فِي الْأَصُولِ . وَلَعَلَّهُ فِي إِسَاءَةٍ .

وَيَكْتُبُ لِمَلِكِ بَنِي مَبَانِي فَأَحْتَرَقَتْ أَوْ وَقَعَتْ، أَوْ أَجْرَى خِيُولَ رَهَانٍ فَسَبَقَتْ خَيْلَهُ
وَأَنْقَطَعَتْ؟؛ أَوْ خَرَجَ لَصِيدٍ فَلَمْ يَجِدْ مَا يُصَادُ، أَوْ لِبُرْزَةِ بَنْدُقٍ أَحْتَقِلُ فِيهَا وَلَمْ يَصْرَعْ
شَيْئًا مِنَ الْوَاجِبِ الْمُعْتَادِ؟؛ أَوْ رَكِبَ أَوَّلَ يَوْمٍ مِنْ تَمَّاكِه فَتَقَطَّرَ بِهِ الْجَوَادُ،
أَوْ وُضِعَتْ لَهُ أَثْنَى فَضَّلَهَا بِكَلَامٍ عَلَى مَا يَرْجُوهُ مِنْ ذُكُورِ الْأَوْلَادِ .

ومن ههنا أكَفَّ الْقَلَمَ عَنْ شَوْطِهِ، وَأَرْفَعَ عَنْهُ مَا وَضَعَهُ اللِّسَانَ مِنْ سَوْطِهِ؛
خَوْفًا مِنَ الْمَلَالِ وَالصَّخَبِ، وَكَفَى بِالغَرْفَةِ عَنْ مَعْرِفَةِ النِّهْرِ .

فَإِذَا تَسَطَّرَ هَذَا الْكَاتِبُ مِنْ هَذَا الْعِقَالِ، وَتَصَرَّفَ فِي فُنُونِ هَذَا الْمَقَالِ، وَخَرَجَ
مِنْ هَذِهِ الْأَسْئَلَةِ خُرُوجَ السِّيفِ مِنَ الصِّقَالِ؛ أَمْتَدَّتْ كَفُّ الثَّرِيَّا فِي هَذَا النَّسِيَانِ
بِمَسْحِ جَبْهَتِهِ، وَجَاءَ بِجَوَابِ هَذَا النِّكَثِ كَمَا يُقَالُ: بِرَمْتِهِ؛ (؟) وَأَمَاطَ لِنَائِمَهَا،
وَشَمَّرَ عَنْ أَزْهَارِهَا أَكْثَمَهَا - أَنْقَطَعَتْ الْأَطَاعُ دُونَ غَايَتِهِ، وَبُسِطَتْ أَيْدِي رَسَائِلِ
الْبُلْغَاءِ مُبَايَعَةَ رَسَائِلِهِ، بَلْ أَتَتْهُ وَحَمَلَ قَلَمَهُ عَلَى أَقْلَامِ فُرْسَانَ الْكَلَامِ سَوْدَاءَ رَأْيَتِهِ؛
وَبَانَ هُنَاكَ ظَلَمَ الْعَائِبِ وَحَيْفُهُ، فَكَانَ كَمَنْ سَلَّ لِنَحْرِهِ سَيْفَهُ؛ وَعُنْدَ عَلَى تَوَالِي
التَّائِبِ مُؤْتَبَهُ، وَكَانَ يَوْمُذِلُهُ الْوَيْلُ لِأَمِنْ يُكَذِّبُهُ، وَأَمْتَازَ هَذَا الْفَاضِلُ بِمَا تُحْدِثُهُ
هَذِهِ الْوَاقِعَةُ مِنَ الْفَخْرِ وَتَجَلُّبِهِ :

فَعَاجُوا فَأَثْنُوا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ * وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتَ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ!

وَالْمَسْئُولُ مِنْ إِحْسَانِ سَيِّدِنَا أَنْ يَسُدَّ الْحَلَالَ كَيْفَ مَا وَجَدَهُ، وَيُصْلِحَ الْخَطَأَ وَالْخَطْلَ
كَمَا عَوَّدْتُهُ مِنْهُ وَكَمَا عَوَّدَهُ؛ فَإِنَّهُ أَمِيرُ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ وَنَحْنُ الرِّعَايَا، وَشَيْخُ الْفَصَاحَةِ
وَنَحْنُ الْفُقَرَاءُ الَّذِينَ كَمْ وَجَدْنَا فِي زَوَايَاهُ مِنْهَا خَبَايَا؛ وَمَا هَذِهِ الرِّسَالَةُ إِلَّا يَدٌ
أَمْتَدَّتْ تَسْأَلُ مِنَ الْحِلْمِ مَا يَسْئَلُهَا، وَهَذِهِ السُّطُورُ إِلَّا حَبَائِلُ لِنَتَّصِيدُ مِنْ عَوَائِدِهِ
مَا يَنْفَعُهَا وَيَرْفَعُهَا :

فَارْخَ عَلَيْهَا سِتْرَ مَعْرُوفِكَ الَّذِي * سَتَرْتَ بِهِ قِدْمًا عَلَى عَوَارِي!

والله تعالى العالم أنها وردت عن قلب مدهول عن حُسن الإيقان ، ممددٍ عليه
نوابِ الدهر بأنامل الخفقان ؛ مرمرٍ بسهام الأعدى في قسي الضلوع ، غائص في بحر
المهم وكلمارمت أن يلقي إلى در الكلام ألقى در الدموع :

أبكي فتجري مهجتي في عبرتي * وكان ما أبكىته أبكاني !

لا يدع لي الفكر في قلة (١) الإخوان وقتنا استبط فيه معنى ، ولا يفسح لي
التمعجب من أبناء الزمان لتقصهم أن أضح نقداً ولا وزناً ؛ أجنح لسلم الأيام فكأني
لحربها جنحت ، وأقدح فكري في استعطاف الزمان فكأني فيه قد قدحت ، فلو قضى
الله لي بالمنية من المنية لأرحت الزمان وأسترحت :

فالأرض تعلم أنني متصرف * من فوقها وكأني من تحتها !

ولا فرق فيما بيننا غير أننا * بمس الأذى ندرى ومن مات لا يدري !

ولا بد لي أن أطلق هذه الصناعة طلاقاً قطعياً ، لا طلاقاً رجعيّاً ؛ وأجاهرها
جهاراً حربياً لا جهاراً عيانياً ؛ وأضع صعدة حملها من أدب عن بدني ، وأتولى قوس
داله مع سهم بائها فما أصبت غير كبدى ؛ « كأتما القوس منها موضع الوتر » ، « وقلت
أذهبي يا صبوتي بسلام » ، « فإذا لقيت من آفاتنا ، ومُنيت به من الخوف في عرفاتنا ،
ومطرت لا من عوارض قطرها ولكن من عوارض مرجفاتنا :

ولمى رأيت الحب في القلب والأذى * إذا اجتمع لم يلبث الحب يذهب !

ومع هذا الحديث لم أشك أن أحداً سينتقد على تشبيهي ، وطرقه قديمة في استفتاح
المكاتبه ، واستنجاح المخاطبه ، ويقول : تلك أمة قد حلت ، ودولة فاضلية أدبرت
مثل ما أقبلت ؛ فكيف تبعها وترك طريقة فضلاء عصره ، وأبناء مضره ؛ فالجواب

(١) بياض بالأصل ولعله : « مصافاة الاخوان » أو نحوه .

ما قاله القاضى السعيد بن سناء الملك رحمه الله تعالى ، فما كان أسعدَ خاطره ! ،
وأكثرَ ذهبَ لفظه وجواهره !! :

إني رأيتُ الشمسَ ثم رأيتها * ما ذأ على إذا عشقتُ الأحسنًا !

وذكرت أن الاس عدرة ونسيت أن الاس أفلها^(١) .

انتهت إلى هذا الموضع ، والديك قد نعى بعيد الظلام ، وبلغ عن الصبح السلام ،
والأزهار قد سلبتَه عينه فقام من كراه يصيح ، وميدانُ الغصون قد أصحَبَ بمعنى
الأطيارِ وشغِبَ الرِّيحُ ، ونسُرَ السماءِ قد فرَّ من الغدَاةِ وبازيها ، والنجوم قد حُمِلتْ
إلى ملحدِها من الغربِ على نعوشِ دياجِيا ، والمجرة من الجوزاءِ عاطلةُ الخصرِ ،
وخاقانُ الصُّبحِ قد حمل على تجاشي الظلامِ رايةَ النصرِ .

لابرح سيدنا معصوم الروية والأرتجال ، مسجلا بسجاعة البراعة والحربُ مجال ،
محمود المواقفِ والمساعي ”والنقشُ نفعٌ والطروسُ مجال“ ، والسلام .

الصنف السادس

(من الرسائل ما كتبت به الحوادثُ والمآجريات)

ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع : فإذا وقعت للأديب ما جريته وأراد
الكتابة بها إلى بعض إخوانه ، حكى له تلك المآجرية في كتابه مع تبيين الكلام
في ذلك ، إما ابتداءً وإما جواباً ، عند مصادفة ورود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نسخة رسالة أنشأها الإمام قاضى قضاة المسلمين محي الدين ، أبو الفضل
يحيى ، بن قاضى القضاة الإمام محي الدين أبى المعالى محمد ، بن على ، بن محمد ،

(١) وردت هذه الجملة في الأصل هكذا ولا معنى لها .

ابن الحسين، بن علي، بن عبد العزيز، بن علي، بن الحسين، بن محمد، بن عبد الرحمن،
 ابن القاسم، بن الوليد، بن القاسم، بن عبد الرحمن، بن أبان، بن عثمان، بن عفان
 رضى الله عنه، لما ورد إلى القاهرة المحروسة في التاسع من جمادى الأولى من سنة
 تسع وعشرين وستمئة، وتعرف "برسالة التمس" وهي :

وردت رقة سيدنا أسعده الله بتوفيقه، وأوضح في آكتساب الخيرات سبيل
 طريقه، فوفقت عليها وفوف السائر بورودها، المستسعد بوفودها، المبتهل إلى الله
 في إبقاء مهجته التي يشرف الوجود بوجودها :

وليس بترويق اللسان وصوغه * ولكنه قد مازج اللحم والدماء!

وفضضتها عن مثل النور فتفتح الصبا، وبرود الرياض تساهمت في آكتساء
 وشيا الأهضاب والزبا، يكبو جواد البليغ في مضمار وصفها، وينبو غضب لسانه
 عن مجاراتها في رصفها، يججل محيا النهار بياض طرسها، ويود الليل لو تقضت عليه
 صبغة نفسها، وتحسد الكواكب رائق معانيها، وتنتى لو أغيرت فضل إشراقها
 وتلايها، في كل فقرة روضة وكل معنى كأس مدام، وكل ألف ساق وكل سين
 طرة غلام، وكل واو عطفة صديغ وكل نون تقويس حاجب، وكل لام مشقة
 عذار وكل صاد خطة شارب، تصيب من سامعها أقصى ما يراد بالتفت في العقد،
 وتستولى بلفظها على لبه آستلاء الجواد على الأمد .

فلما آجليت منها المعانى المسبهة في اللفظ الموجز، وأجأت طرني منها ما بين
 نزهة المطمين وعقلة المستوفز، وأسلمت قيادي إلى سحرها المحلل وإن جنى قتل
 العاشق المتحرز - علمت أن سيدنا أجرى في حلبة السباق فآاز قصب سبقتها،

وَدَلَّتْ لَهُ الْبَلَاغَةُ فَتَوَعَّلَ فِي شِعَابِهَا وَطُرُقِهَا؛ وَحَكَمَتْ يَدَهُ فِي أَعْنَةِ الْفَضَائِلِ فَسَلِمَتِ الْقَوْسَ إِلَى بَارِيهَا، وَدَرَجَاتِ الْعُلَى إِلَى مُسْتَحَقِّهَا؛ فَمَنْ وَائِلٌ؟ وَمَنْ سَجْبَانٌ؟ ، وَمَنْ عَبْدُ الْحَمِيدِ؟ وَأَبْنُ صُوحَانَ ، وَأَيُّ خَبْرٍ يُقَابِلُ الْعِيَانَ؟ وَمَنْ يُقَاوِمُ مَا هُوَ كَائِنٌ بِمَا كَانَ؟ . فَسَأَلْتُ خَاطِرِي الْجَامِدَ أَنْ يُعَارِضَ بَوَائِلَهُ طَلَّهَا، وَأَنْ يُقَابِلَ بِجُثْمَانِهِ ظَلَّهَا؛ وَأَنْ يُجَارِيَهَا فِي حَلْبَةِ الْمُسَاجَلَةِ وَإِنْ دُعِيَ بِالسُّكَيْتِ ، وَلَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا وَكَيْفَ بِنُطْقٍ مِنْ مَيْتٍ ؛ وَأَنْتَى يُطْعَمُ فِي مُجَارَاةِ الْبَحْرِ وَلَاتَ حِينَ لَعَلَّ أَوْلَيْتَ ؛ فَوَجَدْتُهُ أَصْلَدَ مِنَ الصَّخْرَةِ مَسَا ، وَأَلْفَيْتُ بِأَقْلَا لَدَيْهِ قُسَا ، فَمَا كُلُّ مَنْ طَرِقَ قَرَى ، وَلَا مَنْ إِذَا خَلَقَ فَرَى ؛ وَهَذَا الْمَعْهُودُ مِنْ خَاطِرِي إِذَا كَانَ جَامَأً فَكَيْفَ وَقَدْ نَضَبَ مَأُوهُ وَكَدَّرَتِ الْحَوَادِثُ بَحْرَ عِلْمِهِ وَالغَيْرَ ، فَمِنْ دُونِ أَنْ تُسْتَخْرَجَ مِنْهُ الدَّرُّ أَنْ يَلِينَ لِحُرْسِ الْمَاضِعِ الْحَجْرَ ؛ فَبَدَّلَ جُهْدَهُ لِمَا شَعِبَتِ الْهُمُومُ سُبُلَهُ ، وَتَقَنَّعَ بِالْخَلْقِ مَنْ لَا جَدِيدَ لَهُ .

هَذَا مَعَ وَاقِعَةٍ وَقَعَتْ لَهُ فَأَصْبَحَ مُنْشَتْنَا ، وَنَحَى عِنَانَهُ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَيْهَا مُتْلَقًا ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ فِي بَارِحَتِهِ أَسْتَوْلَى عَلَيْهِ الْقَلْقُ بِسُلْطَانِهِ ، وَأَسْتَلَبَتْ يَدُ الْأَرْقِ كَرَاهٍ مِنْ بَيْنِ أَجْفَانِهِ ؛ كَأَنَّهُ سَاوَرْتَهُ ضَمِيلَةَ سُمَّهَا نَاقِعٌ ، أَوْ مَدَّتْ إِلَيْهِ خَطَاطِيفُ حُجْنٍ لَهَا أَيْدِي الْخُطُوبِ نَوَازِعَ :

إِذَا اللَّيْلُ الْبَسَنِي ثَوْبَهُ * تَقَلَّبَ فِيهِ فَنَى مَوْجِعُ

فَنَارَةٌ فِكْرَتُهُ مُتَوَجِّهَةٌ نُحُوقَلَةٌ حَظَّهُ ، وَأَوْنَةٌ لَا يَقَعُ إِلَّا عَلَى مَا يَقْدِفُهُ طَارِفُ لِحْظِهِ ؛ وَإِنْ يَدُ الْخُمُولِ قَدْ أَسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ ، وَأَزِمَّةُ الْمَطَالِبِ صُرِفَتْ عَنْهُ وَحَقَّقَهَا أَنْ تُصَرَّفَ إِلَيْهِ ، وَالسَّعَادَةُ شَارِدَةٌ عَنْهُ وَمَا أَجْدَرُهَا أَنْ تُطِيفَ بِبَابِهِ وَتَسْتَقَرَّ بَيْنَ يَدَيْهِ :
لَنْ كَانَ أَدْلَى حَابِلٌ فَتَعَدَّرَتْ * عَلَيْهِ وَكَانَتْ رَادَةً فَتَحَطَّتْ ،

لَمَّا تَرَكْتَهُ رَغْبَةً عَنِ حِبَالِهِ * وَلَكِنَّهَا كَانَتْ لَا تَحْرُخُطُ !!

ولقد جهد في سِلمِ الدهرِ وهو يُجَارِبُهُ، "وَكَيْفَ تُوقِي ظَهْرَ مَا أَنْتَ رَاكِبُهُ؟" فإشام بآرقة أملٍ إلا أخفقت ورجع بحفى حنين، وقرت أعينُ أعاديهِ كلما سَخَّنت منه العين، فلقد أصبح أفرغ من حجام سابات وإن كان "أشغل من ذات النحيين".

وكما تأمل جدّه العائر الناكص، ونظر رزقه الناضب الناقص؛ وقابله الدهر بالوجه العابس الكالج، ومنى نفسه عُقبى يوم صالح، ربع عليها فنن لي بالسائح بعد البارح؟؛ وناجى نفسه بإعمال الركائب، والأضطراب في المشارق والمغارب، وأن يرى بالحدود طلعة نائر وبالعريس غرة آيب؛ ويصل التهجير بالسرى، ويبت من قيد الأوطان موثقات العرى؛ وإن كسدت فضيلة من فضائله، أورت وسيلة من وسائله؛ اكتسب بأخرى من أخواتها، ونفت في عقدها ومت بها وقال: أنا ابنُ بجدتها؛ فالأم وعلام وحتى متى، أجاور من أنا فيهم أضيع من قمر الشنا؛ وحالي أظهر من أن يقام عليه دليل، و"إذا ذل مولى المرء فهو ذليل":

وما أنا كالعير المقيم بأهله * على القيد في مجبوحه الدار يرتع!

ثم استهول تقحم الإغوار والإنجاد، وأستفتح لقادح زناد الحظ الإكداء والإصلاح، وأقول: أخطأ مستعجل أو كاد؛ فأثوب مثاب من حلب الدهر أشطره، وأخذ إذا ارتفع عن الدنية من حظه أيسره، وبني كما بنى سلفه وقرر ما قرره؛ فأقول: أرفض الدنية ولا تلو عليها، فتكون "أحق من الممهورة إحدى خدمتها"، "فالحررة تجوع ولا تأكل بشديها":

ولسنا بأول من فاته * على رفقه بعض ما يطلب.

وقد يدرك الأمر غير الأريب * وقد يصرع الحول القلب!

وتارة يُحْطَرُ أَنْ لَوْ شَكَوْتُ حَالِي إِلَى أصدقائي من ذَوِي الجَاهِ، وسألْتهم بِالْحَاقِي
 فِي الْإِتِّغَاءِ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ؛ وَأَحْضَمُّهُمُ عَلَى أَنْتِهَارِ فُرْصَةِ الْإِحْسَانِ قَبْلَ الْقَوْتِ ،
 وَأَضْرَبُ لَهُمْ : ”أَعْنُ أَحَاكَ وَلَوْ بِالصَّوْتِ“ فليس على مثلي من يُحْيِفُهُ الدَّهْرُ فِي ذَلِكَ
 مِنْ جُنَاحٍ ، ”وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَارِئُ بِغَيْرِ جَنَاحٍ“ ؛ ثُمَّ أَرَى أَنَّهُمْ لَوْ فَضَّلَ عَنْهُمْ شَيْءٌ جَلَدُوا ،
 بَلْ لَوْ زُوِيَتْ الْأَرْضُ لَهُمْ لِأَزْدَادُوا ؛ وَلَوْ مُلِّكُوا ظِلَّ اللَّهِ لِأَصْبَحَتْ لَدَيْهِمْ ضَاحِيَا ،
 وَمَا حَالِي بِخَافٍ عَلَيْهِمْ وَكَفَى بُرْغَانِيَا مُنَادِيَا ، وَقَبْلِي بَغَى عَلَى الْأَمْرِ فِقَاتَهُ وَأَدْرَكَ الْجِدَّ
 السَّعِيدَ مُعَاوِيَا ؛ وَإِلَى كَمْ أَعْلَلُ تَعْلِيلَ الْفَطِيمِ بِالْخَضَابِ :

سَمِتُ الْعَيْشَ حِينَ رَأَيْتُ دَهْرِي * يُكَلِّفُنِي التَّذَلُّلَ لِلرَّجَالِ !

وَأُخْرَى يُسَلِّي نَفْسَهُ عَنْ مُصَابِيهَا وَمَصَائِبِهَا ، وَيَمْنِيهَا كَرَّ الْأَيَّامِ بِتَعَاقُفِهَا ، وَيَقْصُ
 عَلَيْهَا تَقَلُّبَ اللَّيَالِي بِالْأَتَمِّ الْمَاضِيَةِ فِي قَوَالِيهَا ؛ وَأَنْهَا مَاقَدَمَتْ لِأَحَدٍ سَعَادَةً إِلَّا عَقَبَتْهَا
 بِتَغْيِيرٍ ، وَمَا سَقَتْ صَفْوَ الْأَمَانِي بَشْرًا إِلَّا شَابَتْ كَأْسَهُ بِتَكْدِيرٍ ، وَأَنَّ سَبِيلَ كُلِّ أَحَدٍ
 مِنْهَا سَبِيلٌ ذِي الْأَعْوَادِ ، وَقُصَارَايَ وَلَوْ آتَخَذْتُ الْأَرْضَ مَسْكًا وَأَهْلَهَا خَوْلًا سَبِيلُ
 رَبِّ الْقَصْرِ مِنْ سَنَدَادٍ ، وَلَوْ عَمَّرْتُ عُمْرُ نُوحٍ كُنْتُ كَأَنِّي وَآدَمَ وَقَتَ الْوَفَاةِ عَلَى
 مِعَادٍ ؛ فَانْ شِئْتَ فَارْفَعْ عَصَا التَّسْيِيرِ أَوْضِعْ ، فَمَا هُوَ إِلَّا : ”حَارِبٌ بِجِدِّ أَوْدَعٌ“ .

فَبَيْنَا أَنَا أَعُومُ فِي هَذِهِ الْخَوَاطِرِ مُتَفَكِّرًا ، وَأَقْرَعُ سِنَّ النَّدَمِ عَلَى تَقْصِي عُمُرِي فِي غَيْرِ
 مَارِي مُتَحَسِّرًا ، وَأَتَسَلَّى بِمَصَارِعِ الْأَوَّلِينَ أُخْرَى مُعْتَبَرًا ؛ وَلَوْ أَنْجَزْتَنِي الْأَيَّامَ مَوَاعِيدَ
 عُرُقُوبٍ ، لِأَفْضَيْتُ بِي إِلَى أَحْلَى مِنْ مِيرَاثِ الْعَمَّةِ الرَّقُوبِ ، وَلَقَدْ تَقَاعَسَ أَمَلِي حَتَّى
 قَنِعْتُ بِحَالِي ”وَوَشَّرَ مَا أَبْجَاكَ إِلَى مُخَّةِ عُرُقُوبٍ“ ، ثُمَّ يُخَاطِبُنِي حِجَايَ بِأَنْ تَثَبَّتْ وَأَصْبِرْ ،
 فَالِئِلْ طَوِيلٌ وَأَنْتَ مُقَمَّرٌ ؛ فَسَتَبْلُغُ بِكَ الْأَسْبَابُ ، وَيَتَهَيَّ بِكَ إِلَى الْمَقْدُورِ الْيَكَّابِ ،
 فَلَا تَعَجَلْ بِجَرِي الْمَذِيكَاتِ غَلَابِ .

فَاسْتَرَوَحْتُ إِلَى فَتْحِ بَابِ كَانَ مُرْتَجَا ، وَأَرْتَدْتُ بِاسْتِجْلَاءِ مُحْيَا السَّمَاءِ مِنْ بَعْضِ
هَمِّي فَرَجَا ، وَأَنْتَشَقْتُ مِنْ نَسِيمِ السَّجَرِ مَا وَجَدْتُ بِهِ مِنْ ضَيْقِ فِكْرِي مُخْرَجَا ؛
فَفَتَحْتُهُ عَنْ شُبَّاكِ كِتْخِطِيطِ الْأَوْفَاقِ ، أَوْ كَرُوعَةِ شِطْرَنْجٍ وَضَعْتَ بَيْنَ الرَّفَاقِ ؛
الْأَيْسِ مِنْ صِبْغَةِ اللَّيْلِ شِعَارَا ، وَأَتَّخِذُ لِاسْتِجْلَاءِ وَجْهِ الْغَزَالَةِ نَهَارَا ؛ جَلِدُ عَلَى الْقِيَامِ
وَالكَدِّ ، صَبُورٍ عَلَى الْحَالَيْنِ فِي الْحَرِّ وَالْبَرْدِ ؛ يُحَوِّلُ جُثْمَانَ الْمَرْءِ عَمَّا وَارَاهُ ، وَيُبِيحُ
إِنْسَانَ الطَّرْفِ رَعَى حِمَاهُ ؛ يُدِيلُ مِنْ ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهَارِ ، وَيُنِمْ بِمَا اسْتَوَدَعَتْهُ
مِنَ الْأَسْرَارِ ؛ يُشْرِفُ إِلَى غَيْضَةِ قَدِ الْتَفَّتْ أَشْجَارُهَا ، وَتَهْدَلْتُ تِمَارُهَا ، وَرَقِصْتُ
أَغْصَانُهَا إِذْ غَنَّتْ أَطْيَارُهَا ، وَأَطْرَدْتُ بِصَافِي الزَّلَالِ أَنْهَارُهَا ، وَتَمَّتْ بِعَرَفِ الْعَبْرِ
الشَّجَرَى أَزْهَارُهَا ؛ وَقَدْ قَامَتْ عَرَائِسُ النَّارَنْجِ عَلَى أَرْجُلِهَا ، تَحْتَالُ فِي حَلِيهَا وَحُلَلِهَا ؛
قَدْ أَلْبَسَتْ مِنْ أَوْرَاقِهَا خَلْعًا خُضْرًا ، وَحَلَيْتْ مِنْ تِمَارِهَا تَبْرًا ؛ وَنَظَّمْ قَدَاحُهَا
فِي جِيَادِهَا لَوْلَا رَطْبُهَا ، وَرَحَّحَهَا نَسِيمُ السَّحَرِ فَالَتْ مُعْجَبًا ؛ وَقَدْ مَدَّتْ فِي أَرْضِهَا
مِنَ الْبَنْفَسِجِ مَفَارِشُ سُندُسٍ فُرُوزَتْ بِالْجَدَاوِلِ ، كَيْسَاطِ أَخْضَرَ سَلَّتْ أَيْدِي الْقِيُونَ
عَلَيْهِ صَقِيلَاتِ الْمَعَاوِلِ ؛ وَقَدْ حَدَقَتْ عِيُونَ الرُّقْبَاءِ مِنَ التَّرْجِيسِ قَائِمَةٌ عَلَى سَاقِ ،
وَلَعِبَتْ بِهَا يَدُ النَّسِيمِ فَمَا يَلَتْ كَعْنَاقِ الْحُبِيِّ عِنْدَ الْفِرَاقِ ، فَأَجْتَلَيْتُ مُحْيَا وَسِيمًا تَبْلِجِ
أَسْرَتِهِ ، وَمَنْظَرًا جَسِيمًا تَرُوقُ بِهِجْتِهِ ؛ قَدْ مَدَّ السَّمَاطُ بَسَاطًا أَرْقَا ، بَزْهَرِ الْكَوَاكِبِ
مُشْرِقًا ؛ وَطَرَزَهُ بِالشَّفِيقِ طِرَازًا مُذْهَبًا ، وَأَبْدَى تَحْتَهُ لِلْأَصْبَاحِ مَفْرِقًا أَشْيَبَا :

وَرَثَ قَيْصُ اللَّيْلِ حَتَّى كَانَهُ * سَلِيبٌ بِأَنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّحٌ ،

وَرَقَعَ مِنْهُ الدَّيْلُ صُبْحُ كَانَهُ * وَقَدْ لَاحَ شَخْصٌ أَشْقَرُ اللَّوْنِ أَجْلَحٌ ،

وَلَا حَتَّ بَقِيَّاتُ التَّجُومِ كَانَهَا * عَلَى كَيْدِ الْخُضْرَاءِ نَوْرٌ يَفْتَحُ !

وَجَنَحَ الْبَدْرُ لِلْغُرُوبِ فَتَدَاعَتْ الْكَوَاكِبُ تَذَمُّهُ كَوَجِبًا فَكَوَجِبًا ، فَكَانَهُ مَلِكٌ آتَخَذَ

الْحَجْرَةَ عَلَيْهِ مَضْرِبًا ؛ وَتَوَجَّحَ بِالْثَرِيَا إِكْلِيلًا ، وَخَنَسَتْ الْكَوَاكِبُ بَيْنَ يَدَيْهِ تَوْفِيرًا لَهُ

وَتَجِيلا ؛ وَأَصْطَفَتْ حَوْلَهُ خَدَمًا وَجُنُودًا ، وَنَشَرَتْ مِنْ أَسْعَتِهَا أَلُويَةً وَبُنُودًا ؛
وَأَخَذَتْ مَقَامَاتِهَا فِي مَرَاكِزِهَا بِجُيُوشِ عُبَّتْ لِلِقَاءِ مُنَاجِرِهَا ، وَمَسَاقِهَا أَخَذَ فُرْصَةَ
النَّصْرِ وَمَنَاهِزَهَا :

وَلَا حَ سَهِيلٌ مِنْ بَعِيدٍ كَأَنَّهُ * شِهَابٌ يُجَيِّهِ عَنِ الرِّيحِ قَائِسُ !

وَأَنْبَرِيٌّ نَسِيمُ السَّحَرِ عَلِيلا ، وَجَرَّ عَلَيَّ أَعْطَافَ الْأَزْهَارِ ذَيْلًا بَلِيلا ؛ وَرَوَى أَحَادِيثَ
الرِّيَاضِ بِلِسَانِ نَشْرِهِ ، مُذِيعًا لِأَسْرَارِ خُرَآمَاهُ وَزَهْرِهِ ؛ وَغَرَّدَتْ خُطْبَاءُ الطَّيْرِ عَلَيَّ مَنَابِرَ
الْأَغْصَانِ ، وَأَسْتَنْبَطَتْ مِنْ قُلُوبِ الْمُحِبِّينَ دَفَائِنَ الْأَشْجَانِ ؛ وَحَثَّ دَاعِي الفَّلَاحِ ،
طَائِفَةَ التُّقَى وَالصَّلَاحِ ؛ عَلَيَّ أَنْ تُؤَدِّيَ قَرَضَهَا وَنَفَلَهَا ، وَتَرْتَقِيَ بِخُضُوعِهَا بَيْنَ يَدَيِ
مَوْلَاهَا دَرَجَاتِ السَّعَادَةِ الَّتِي كَانَتْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ؛ وَهَتَفَ بِشِيرِ التُّجُجِ بَيْنَ أَحْيَا
لَيْلَتِهِ لَمَّا تَمَزَّقَ قَمِيصُ اللَّيْلِ وَأَنْفَرَى : "عِنْدَ الصَّبَاحِ يَمْحَدُ القَوْمُ السُّرَى" .

فَبَيْنَا أَنَا أَتَفَكَّرُ فِي أَنَّ جُمْلَةَ مَا عَايَنْتُهُ سَيُصْبِحُ زَانِلًا ، وَعَنْ تِلْكَ الصَّبْغَةِ الْعَجِيبَةِ
حَائِلًا ، وَأَتَدَبَّرُ : (وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا)
إِذْ أَهْدَتْ إِلَى الْأَيَّامِ إِحْدَى طُرْفِهَا وَغَرَّابِهَا ، وَكُبْرَى أَوَايِدِهَا وَعَجَائِبِهَا ؛ فَطَرَقَ سَمْعِي
مِنَ الشُّبَّاكِ نَبَأٌ ، وَتَاتَهَا وَجِبَةٌ تَتَّبَعُهَا وَثَبَةٌ ؛ فَاسْتَعَدْتُ مِنْ كَيْدِ الشَّيْطَانِ الْمَرِيدِ ،
وَقُلْتُ : أَسَعْدُ أُمَّ سَعِيدٍ ؛ وَإِذَا بِمُحْسٍ قَدْ فَارَقَ وَجَارَهُ إِلَى وَجَارِي ، وَأَخْتَارَنِي عَلَى
الصَّحْرَاءِ جَارًا فَارْتَضَيْتُهُ لِحَوَارِي ؛ فَوَلَّجَ مُسْتَأْنَسًا ، وَمَرَحَ بَيْنَ يَدَيَّ آنَسًا ، وَأَرَانِي
أَحَدَ كَيْفِيهِ فِي الْأَسْتِرْسَالِ لَيْتِنَا وَالْآخِرَ بِاتِّمْنَعِ شَامِسًا ؛ فَدَلَّ لَهَ الحِرْصَ عَلَى جَوْزِهِ حَبَائِلَ
مَكْرِهِ وَسِبَاكِهِ ، وَيَدُ الْعَبْشِ تَحُولُ دُونَ قَنْصِهِ وَإِنْسَا كَهْ ؛ وَبَقَايَا الظَّلَامِ تَقْضِي
بِتَمْنَعِهِ ، وَتَصُدُّ عَنْ جَعْلِهِ مِنَ الْوَتَاقِ فِي مَوْضِعِهِ ؛ وَأَنَا مُلَازِمُهُ مُلَازِمَةُ الْمُعْسِرِ لِرَبِّ
الدِّينِ ، حَتَّى يَتَبَيَّنَ الصُّبْحُ لَدَى عَيْنَيْنِ .

فلما خَشِيتُ على صَلَاتِي النَّوْتَ عَدَلْتُ إلى تَأْدِيَةِ فَرِيضِهَا ، وَتَوَجَّيْتُهَا بَيْنَ يَدَيْ
مُوجِبِهَا وَعَرَضِهَا ؛ فلما أَنْقَلْتُ من مَصَلَّاي ، وَأَنْصَرَفْتُ عن مُنَاجَاةِ مَوْلَاي ؛
بَرَقَتْ لِي بَارِقَةٌ ، خُيِّلَ إلى أَنَّهَا صَاعِقَةٌ ؛ فَقَالَتْ : أَدْرَقَرُنُ الْغَزَالَهَ ؟ ، وَإِلَا فَلَائِ
حِينَ ذُبَالَهَ ؛ فَقِيلَ : إِنَّ الْغُلَامَ نَظَرَ إِلَيْهَ شَرًّا ، وَهَزَّلَهَ الْمُهَنْدِ فَشَقَّ لَهُ من الظُّلْمَاءِ
بِحُرِّهَا ، وَأَبْدَى لَهُ وَجْهًا مُكْفَهَرًا ، وَرَامَ أَنْ يُعْطِيَهَ من الْمَنِيَّةِ مَرَّجًا وَعُغْرًا ، كَأَنَّهُ قَدْ لَاقَى
أَسَدًا هَزَبْرًا ؛ وَأَتْرَعَ لَهُ كَأْسَ الْحَمَامِ بِالْوَافِي ، وَرَمَاهُ بِثَالِثَةِ الْأَثَانِي ؛ فَعَطَفْتُ عَلَيْهِ
بِاللَّامَةِ مُنْكَرًا لِحَمَلِهِ ، وَهَتَفْتُ بِهِ زَاجِرًا عن قُبْحِ فِعْلِهِ ، ثُمَّ عَدَّرْتُهُ : ” وَمَنْ لَكَ بِأَخِيكَ
كُلَّهُ “ ؛ وَقُلْتُ لَهُ : مَاذَا تَرَكَ تَصْنَعُ لَوْلَا قَيْتُ أَسَدًا أَغْلِبَا ؟ ، لَقَدْ خَلَّتْ أَنْكَ تَرْتُدُّ - وَإِنْ
كُنْتُ وِلِيدًا - أَشْيَا ؛ أَمِنْ هَذَا بَادَرْتُ إلى السَّيْفِ مُحْتَرِطًا ؟ ، ” إِنَّكَ لِأَجْبَنُ من
الْمُزَوِّفِ صَرِطًا “ لَقَدْ أَظْهَرْتَ من الْفَشْلِ مَا جَاوَزَ قَدْرَ الْحَدِّ ، وَوَضَعْتَ الْمِرَاحَ
فِي مَحَلِّ الْحَدِّ وَقَابَلْتَ الْأَسْهَلَ بِالْأَشَدِّ ؛ فَسُحِقًا لَكَ وَبُعْدًا ، لَقَدْ قَدَحَ مَرَجِيكَ
بِعِدْهَا زِنَادًا صَلْدًا ، وَأَسْتَنْعِجَ الْمَاءَ جَاهِدًا جَلْدًا .

فَصَوَّبَ طَرْفَهُ فِي وَهْتَفٍ مُنَادِيًا ، وَأَظْهَرَ وَفَاءً أَرْزَى بِالسَّمْوَعِلِ بْنِ عَادِيَا : أُنْجِ
هَرَبًا وَلَا إِخَالِكَ نَاجِيَا ؛ إِنِّي رَمَيْتُ من الْخُطُوبِ بِأَصْعَمِيَا ، وَلَا يُبْنِيكَ بِالْحُرُوبِ
كُجْرِيهَا ، وَالغَاصُّ بِاللُّقْمَةِ أَخْبَرِيهَا ؛ فَلَقْدَ أُوطَأَنِي مَا لَا أَسْتَقِيلُ مِنْهُ الْعَثْرَةَ ، وَمَا لَقَيْتُ
فِي حَرْبٍ كَهَيْذِهِ الْمَرَّةِ ، ” وَالْعَوَانُ لَا تُعَلِّمُ الْخِمْرَةَ “ ؛ لَقَدْ صَرَّحَ لِي بِالشَّرِّ وَلَمْ يُجِجْ ، وَكَشَرَ
عن أَنْبِيَايِهِ غَيْرِ مُتَبَسِّمٍ ؛ ” وَحَسْبُكَ من شَرِّ سَمَاعِهِ “ ، ” وَأَسْتُ الْبَائِنِ أَعْلَمُ “ ؛ تَاللَّهِ إِنَّهُ لِأَجْرًا
من خَاصِي الْأَسَدِ ، وَلَتِنْ سَبْرَتِهِ لَتَمَنَّيَنَّ مَا بَيْنَ الدَّنْبِ وَالنَّقْدِ ؛ وَلَقَدْ رَضِيْتُ نَفْسِي من
الْغَنِيمَةِ أَنْ تَوُوبَ بِذَمَائِمِهَا ، لَمَّا تَشَبَّثَ بِخِصْرِي نَخْضِبَهَا بِذَمَائِمِهَا ، نَقَلْتُ : ” أَجْفَلَ عن
جَنَابِكَ الْخَيْرُ وَأَجْلَى “ ، ” وَأَضْرَطَّا وَأَنْتَ الْأَعْلَى “ ؟ ؛ ثُمَّ تَضَاحَكْتُ إِلَيْهِ لَمَّا شَاهَدْتُ
أَسْتِعْبَارَهُ ، وَأَوَيْتُ لَهُ إِذْ رَأَيْتُ أَسْتِكْبَارَهُ الْخُطْبَ وَأَسْتِكْبَارَهُ ؛ وَقُلْتُ : من صَافِ الْأَسَدِ

قَرَاهُ أَظْفَارَهُ، وَمِنْ حَرَكَ الدَّهْرِ أَرَاهُ أَفْتِدَارَهُ، وَعَدَلْتُ إِلَى الدَّلُولِ الشَّامِسِ، الْمُسْتَأْسِدِ
 الْمُسْتَأْسِسِ، وَمَدَدْتُ يَدِي إِلَيْهِ فَأَنْقَادَ لَهَا طَائِعًا، وَخَضَعَ لِإِجَابَةِ دَعْوَتِي سَامِعًا.
 فَلَمَّا حَازَهُ فِي الْقَبْضَةِ الْإِسَارَ، وَبَطَلَ الْإِقْلَالَ مِنْ ذَلِكَ اللَّفْظِ وَالِإِكْثَارِ، وَقَدْ
 كَانَ أَعَزَّ مِنَ الْأَبْلَقِ الْعُقُوقِ، وَأَبْعَدَ مِنْ بَيْضِ الْأَنْوُقِ، أَسْتَجَلَيْتُ صُورَتَهُ مُتَمَلِّمًا،
 إِذْ لَمْ يَبْقَ لَهُ سِوَى قَبْضَتِي مَوْلَا، فَرَأَيْتُ هَامَةً نَحْمَهُ، وَجِنَّةً صَحْمَهُ، وَشِدْقًا أَهْرَتَا
 رَحْبًا، ذَا مِرَّةٍ عَلَى آخْتِلَافِ الْحَوَادِثِ صَعْبًا، وَأُنْيَابًا مُحَدَّدَةً عُصَلًا كَالنِّصَالِ، وَطُرْفًا
 مُحَالِسًا غَيْرَ غَرِّ بِالْمَكْرِ وَالخِتَالِ، كَأَنَّهُ شَهَابٌ يَتَوَقَّدُ، أَوْ شُعْلَةٌ نَارِي لَمْ تَجُدْ، وَسَامِعَتَيْنِ
 نَتَوَجَّسَانِ مَادَارِ فِي الْأَوْهَامِ، وَتُدْرِكَانِ مَا يَنَاجِي بِهِ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَلَوْ فِي الْأَحْلَامِ، قَدْ
 نَيْطَتْ بِعُنُقِ صُغُرْتِ هَامَتِهِ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ، إِنْ أَسْتَدْبَرْتَهُ قَلْتَ : هُوَ مُشْرِفٌ عَلَيْهَا
 أَوْ أَسْتَقْبَلْتَهُ قَلْتَ : هِيَ مُشْرِفَةٌ عَلَيْهِ، يَسْتَمِلُ عَلَى نَحْرِ خَصِيبِ، وَصَدْرِ رَحِيبِ،
 فِيهِ نَزَعْنَا بِيَاضَ كِهْلَالَيْنِ قُرْنَا فِي نَسَقِ، أَوْ تَجْمَى ذُوَابَةَ ظَهْرًا فِي غَسَقِ، تُسَرُّ نَفْسُ
 النَّاطِرِ إِلَيْهَا، وَيُعْقَدُ خَنْصَرَ الْأَخْتِيَارِ فِي حُسْنِ الشِّيَاتِ عَلَيْهَا، أَتَّصَلَ ذَلِكَ بِمَنْكَبِ
 عَيْدِ، وَسَاعِدِ شَدِيدِ، وَبُرْشِنِ شَتْنِ وَمَحَلِّبِ حَدِيدِ :

ذَوَاتِ أَشَافٍ رُكِبَتْ فِي أَكْفِهَا * نَوَافِدَ فِي صَمِّ الصُّحُورِ نَوَاشِبِ،

مُعَقَّفَةِ التَّرْهِيْفِ عُوِجَ كَأَنَّهَا * تَعَقَّرُبُ أَصْدَاغِ الْحَسَانِ الْكَوَاعِبِ !!

قَدْ جَاوَرَ جَوْجُؤًا نَهْدًا، وَقَابَلَ كَاهِلًا مُتَمَدِّدًا، يَكَادُ خَصْرُهُ يَنْعَقِدُ أَضْطِرَارًا،
 وَهَمَّتْهُ نَسْعَرُ نَارًا، بِرِجْلَيْنِ تَسْبِقِ فِي الْحَضِرِ يَدَيْهِ، وَتَقْدُ بِأَظْفَارِهَا أذُنَيْهِ، وَذَنْبِ
 كَالرِّدَاءِ الْمُسَيْلِ يَجْرُهُ آخْتِيَالًا وَمَرَحًا، وَيَتَيْهُ نُجْبًا وَفَرَحًا، إِنْ أَنْسَابَ قَلْتَ : أَنْسَابِ
 أُنْفُوعَانِ، أَوْ صَالَ قَلْتَ : أَسْدُ خَفَّانِ، أَوْ وَثَبَ سَبَقِ الْوَهْمِ فِي أَنْحِطَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ
 أَدْرَكَ الْبَرَقَ مِنْ نَشَاطِهِ، أَوْ طَلَبَ فَاتَ الطَّرْفِ فِي أَنْحِرَاطِهِ، أَنْعَمَ مَسًّا مِنْ أَرْبِ،

وأزهي من نعلب؛ قد كساه الظلام خلعتَه، وقبل الصُّباح طلعتَه؛ حاز من القنَدِسِ صقاله وبهجته، ومن الفَنِكِ لِينَه ونعمته؛ أليس رداء الشَّباب، ووزنه عن تزوير الحِصاب؛ إن أختلس فما تآبط شراً، أو خاتل أزرى بالشَّفَرى مكرًا؛ أحد نفساً من عمرو بن معدى، لا يُصلدُ قاذح زناد بطشه ولا يُكديب؛ أنزق من أبي عبَّاد، وأصول من عنترة بن شداد؛ أفتك من الحرث بن ظالم، وأنهر فصدًا للدم من حاتم؛ لا يلين ولا يشكو إلى ذى تصميت، "كأنه كوكبٌ في إثرِ عفریت"؛ يكادُ عند المَحائِلَةِ في أنسيابه، يفوتُ الخاطرُ أو يخرجُ من إهابه؛ إن قارنَ طيراً أباحه منسراً كمنسِرِ الأسد، أغلبَ فيه شغاً كأنه عقدُ ثمانين في العدد؛ فينشدُه: الأعمُّ صباحاً أيها الطللُ البالي، فلا يحسُّ له بعينٍ ولا أثرٌ سيجيس الليالى، فكان قلوبها رطباً وياساً لذي وكريه العناب والحشف البالي؛ أعتاد قنص السائح والبارح، ففات ورد المينة منه غاد ولا رائج؛ طویلُ القرا مدحج الأعظم، له مُحائِلَةٌ سرحانٍ وهجمة ضيغم؛ أحن من نعبه(?)، وأظلم من حيه، أطيئس من فراشه، وأسبق إلى الغايات من عكاشه؛ أخطف من عقاب، وأشجع من ساكن غاب؛ أسرق من جرد وأنوم من قهد، وألين من عهن وأخشن من قد؛ بأسه قضاءً على الطير منزل، وبطشه ملكٌ بأجلها مُرسل .

فلما تأملت خلقه، وسبرتُ بجرية الفِراسة خلقه؛ عجَّلتُ له جريراً مُستحصداً المِرَّةَ لوثاقه، وأحكمتُ شدَّه في محلِّ خناقِه؛ وقلتُ له: إني مجربك سخابة هذا النهار، "ومن سلك الجددًا من من العنار"؛ ففعل ذى خبرة بمكره، وعلى ثقة من غدريه؛ فإن اللئيم ذو صولة بعد الخضوع، وفضح التطبُّع شمية المطبوع؛ وكيف الثقة به وإن استقر ولم يتيسر؟ وأنى الطمأنينة إليه وهو الأزرق المتأسس؟ .

ثم أنصرفت إلى البلد لبعض شاني ، والاجتماع بأخلائى وأخذاني ؛ وأستغفرت أديم النهار فيما توجهت له ، وقطعت عمر يوم ما كان أطوله ! .

فلما قضيت نهجتي ، من نجعتي ، وحانت مع وجوب الشمس رجعتي ، ألفتته عمداً إلى الوثاق فقرضه ، ووفاه بالكيل الوافي ما أقرضه ؛ وصال على شيخة نستسعد بدعائها ، ونفزع إن دهمنا هم قبل نداء أولى البطش إلى نداءها ؛ ذات خلق عظيم ، ومنطق رخم ، وقلب رحيم ، ووجه ذى نضرة ونعيم ؛ إن قامت أحييت الليل بالسهر ، أو قرأت رأيتنا حولها زمراً بعد زمراً ؛ إن حادتها نطقت بالسحر محلاً ، أو تاركتها رأت الصمت على كثير من النطق مفضلاً ؛ تسرفسك في حالة الصخب ، وتريك وجه الرضا في صورة الغضب ؛ فدد إليها يد العدوان ، وأطاع بأذاها أمر الشيطان ؛ ولم يقرب فيها إلا ولا ذمة ، وحملها حملنا من أذاها غمها ؛ ومزق قشيب أنوابها ، وحكم محالها الحديدية في إهابها ، فعظم مصاب من حوت دارى بمصاها .

فلما وصلت رأيتها باكية ذات قلب مريض ، وجناح مهيب ؛ فسليتها بأن المصائب تلقاها الأبرار ، وترققت بها إلى أن رقات تلك الأدمع الغزار ، وأوردت : «إن جرح العجاء جبار» ؛ وقلت : إياها لك وآها ، لقد ارتكبت خطة ما ألقها بعذرك وأولاهها !! ، فلقد أنصف القارة من رامها ، ثم آلت ألية بره ، لأوطئته من الوثاق جمره ، ولأقتصن بهذه المرة تلك المرة ؛ وأيته بسلسلة تنبو أنيابه عن عجمها ، ولا تثبت شياطين مكره برجمها ؛ قد أبدع قينها الصنعة بإحكامها ، وأنى بالعجب في نظامها ؛ فله هو من تحكم فيما يقطع الجسد ، بفعله من اللطافة يحل ويعقد ؛ فاستودعت عنقه منها أميناً لا يخفر وثيق ذمته ، ولا تتطرق الاوهام إلى تهمته ؛ مستحكم القوة في الشد ، فتغيظ تغيظ الأسير على القد ؛ ونظر إلى بطرف حديد ،

وَتَذَلُّ بِعَدِّ بَأْسٍ شَدِيدٍ، وَبَضْبِصَ بَدْنِهِ قَلْتُ : ”أَمْرُكَأ وَأَنْتَ فِي الْحَدِيدِ“ . فَلَمَّا
أَيْسَ مِنَ الْخَلَّاصِ ، تَلَوْتُ : (وَلَاتِ حِينَ مَنَاصِ) .

فَلَمَّا تَمَّ مَا ذَكَرْتُهُ ، وَأَبْدَأْتُهُ وَأَعَدْتُهُ ؛ وَرَدَّتْ رُقْعَةٌ سَيِّدِنَا عَلَى عَقَائِبِ هَذِهِ الْوَقْعَةِ
الَّتِي وَقَعَتْ ، وَصَدَّتْ عَنِ الْجَوَابِ وَمَنَعَتْ ؛ وَأَقْتَضَى بِي الْحَالُ كَتَبَ هَذِهِ الْخُرَافَةَ
وَإِنْ تَشَبَّهْتُ بِأَذْيَالِ الْخَلْدِ ، فَأَخْرَجْتُمَا مَخْرَجَ الْهَزْوِ وَإِنْ دَلَّتْ عَلَى حَوَازِ قِصَبَاتِ
الْمَجْدِ ؛ يُعْلَمُ أَنَّ فِي الرِّوَايَا خَبَايَا ، وَإِذَا صَحَّ أَنَّ الْأَصُولَ عَلَيْهَا تَنَبَّتُ الشَّجَرُ فَلَمَّا نَأَى جَلَا
وَطَلَّاعُ النَّبَايَا“ .

هَذَا : وَإِنْ أَبْقَى قِرَاعَ الْخُطُوبِ فِي حَدِّي فُلُولًا ، ”فَالْفَحْلُ يَجِي سَوْلَهُ مَعْقُولًا“ ؛
وَلَقَدْ تَجَمَّعَتِ الْخُطُوبُ عَلَىَّ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَأَوْبٍ ، وَطَرَقَتِ الرِّزَايَا جَنَابِي مِنْ كُلِّ
صَوْبٍ ؛ وَجَرَيْتُ مَعَ الْخُطُوبِ كَقَرَسِي الرَّهَانِ ، وَمَا هَمَمْتُ بِمَقْصِدٍ إِلَّا سَقَطَ بِي
الْعِشَاءُ عَلَى سِرْحَانٍ ؛ وَبِكُلِّ حَبْلٍ يَحْتَنِقُ الشَّقِي ، وَلَعَمْرُكَ مَا يَدْرِي أَمْرٌ وَكَيْفَ يَتَّقِي ؛
وَالْجَلْدُ يَرَى عَوَاقِبَ الْأُمُورِ فَيَحْمَدُ عِنْدَ النَّجَاحِ عُنَى السَّيْرِ ، (وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ
لَأَسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ) .

تَجُوزُ الْمُصِيبَاتُ الْفَسَى وَهُوَ عَاجِزٌ * وَيَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بِالْحَازِمِ الْجَلْدُ !

قَسَطَرْتُ هَذِهِ الْأَحْرَفَ إِلَى سَيِّدِنَا لِيُؤَافِقَ خَبْرِي عِنْدَ أَصْحَابِهِ خُبْرَهُ ، وَ”مَنْ يَشْتَرِي
سَيْفِي وَهَذَا أَثْرُهُ“ وَأَعْلَمُ أَنَّهَا سَيُضْرَبُ بِهَا فِي بَابِهَا الْمَثَلُ ، وَقَدْ ”أُورِدَهَا سَعْدٌ وَسَعْدٌ
مُشْتَمِلٌ“ .

(١) المقابيل جمع عقبولة وعقبول بالضم . وهي الشدائد .



وهذه رسالة في الشكر على نزول الغيث ، من إنشاء أبي عبد الله محمد بن أبي
الحصّال الغافقي الأندلسي ، نقلتها من خط الشيخ شمس الدين محمد بن محمد بن محمد
أبن سيد الناس اليعمرى المصرى ، وهى :

الحمد لله الذى لا يكشفُ سوءَ سواه، ولا يدعُو المضطرَّ إلا إياه، نزلَ قفَرنا بغناه،
ونعوذُ من سُخْطه برضاه، ولستغفره من ذُنوبنا : (ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ) .

وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له إلهًا عَلا فأقتدر ، وأوردَ عبادَه
وأصدر ، وبسطَ الرزقَ وقدرَ ، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدهُ ورسوله الذى بَشَّرَ وأنذَرَ ،
ورَعِبَ وحَدَّرَ، وغَلَبَ البُشرى على الإقنَاطِ ، ودَلَّ على الصِّراطِ ، وأشار إلى السَّاعةِ
بالأشراطِ ، ولم يَأُلْ أُمَّتَه فى الذَّبِّ والاحتِياطِ ، صلى اللهُ عليه وعلى الوُزراءِ الخُلَفاءِ ،
والبرَّةِ الأتقياءِ ، والأشدَّاءِ الرِّحما ، والأصحابِ الرِّعما ، صلاةً تملأ ما بين الأرضِ
والسَّما ، وتوافقهم فى كلِّ الأوقاتِ والآنا ، وتَضَعُ الثَّناءَ مَوْضِعَ الثَّنا .

ولما لَفَحَتْ حَرْبُ الجَدْبِ عن حِيالِ ، وأشفقَ رَبُّ الصَّرِيحَةِ والعِيالِ ، وتنادَى
الجيرانُ للتفرُّقِ والزَّيالِ ، وتناوحتْ فى المهبُوبِ ريحُها الجَنُوبُ والشَّمالُ ، وتراوحتْ
على القلوبِ راحتا اليمينِ والشَّمالِ ؛ وأحضرتْ أنفُسُ الأغنياءِ الشَّحَّ ، وودَّوا أن
لا تَنشَأَ مَزنَةٌ ولا تَسحَّ ؛ وتوهمَ حازِنُ البرِّ ، أن صاعَه يَبدلُ صاعَ الدُّرِّ ؛ وخَفَّتْ
الأزوادُ ، وماجتِ الأرضُ وألقتْ الرُّوادِ ؛ وأنترعتِ العازبُ القِصَى ، فالقَتِ العِصَى ،
وصدَّرتْ بحسراتِها ، وقد أسلمتْ حَرَراتِها ؛ وأصبحت كلُّ قَنَةٍ فدعاءً ، وهَضْبَةٌ درعاءً ،
(صفاهَها وهما ونقبا وهما) (١) ؛ والصُّبْحُ فى كلِّ أُفقٍ قَطْرٌ أو قطع ، والأرضُ كُلُّها سَيْفٌ
ونِطع ، والشَّعرُ يشمرُ ذَيْلَه للنفاقِ ، ويُضمَّرُ خَيْلَه للسِّباقِ ؛ وجاءَ الجِدُّ وراحَ الهزلُ ،

(١) كذا فى الأصل ، ولم نصل إلى أصله مع البحث والتنقيب .

وقُلْنَا : هذه الشدة هذا الأزل ؛ وللمرجفين في المدينة عجاذة ظنوها لا تلبد ،
 وقسي نحو الغيوب تعطف وتلبد ؛ فما يسقط السائل منهم إلا على ناب يحرق ،
 وشهاب يبرق ؛ حتى إذا عقدوا الأيمان ، وأخذوا بزعمهم الأمان ؛ وقالوا : لا يطمع
 في القيث ، وزحل في الليث ؛ فإذا فارق الأسد ، لكذ ما أفسد :

تَحْرَصًا وَأَحَادِيثًا مُلَفَّقَةً * لَيْسَتْ بِنَيْعٍ إِذَا عُدَّتْ وَلَا غَرَبٍ !

أُنْسَاءَ اللَّهِ الْعَنَانِ ، وقال له : كُنْ فَكَانَ ؛ فبينما النجوم دراريها الأعلام ، وأغفالها
 التي لا تُحمد عندهم ولا تُلام ؛ قد اختلط مرعاها بالهمل ، ولم تدر السدة بالحمل ؛
 ولا علم الجدى بالربال ، ولا أحس الثور بالرامي ذى الشمال ؛ إذ غشيتها ظلل الحمام ،
 وحجبتها أستار كأجحة الحمام ؛ وأخذت عليها في الطروق ، مصادير الغروب والشروق ؛
 فما منها إلا مقيع بنصيف ، أو مزمل في نجاد خفيف ؛ لم تترك له عين تطرف ،
 ولا ثقبه يطلع منها أو يشرف ؛ فباتت بين دور متداركة السقوط ، ودور متناثرة
 السموط ، وديم منحلة الخيوط ؛ وجيوش منصوره الأعلام ، نابتة الأقدام ؛ وكنايب
 صادقة الهجوم ، صائبة الرجوم ، تطلب المحل ما بين التخوم والنجوم ؛ وما زالت
 ترميه بأحجاره ، وتحترسه في أحجاره ؛ وتفزوه في عقرداره ، حتى عفت على آثاره ،
 وأخذت للحزن والسمل بناره .

فيا أيها المؤمن بالكواكب ، أنظر إلى الديم السواكب ؛ وأسبح في لجج سيوها ،
 واربح في ممر ذيولها ؛ وسبح بأسم ربك العظيم الذى قدف بالحق على الباطل ، وأعاد
 الحلى إلى العاطل ؛ فبرود الظواهر محضره ، ونفور الأزاهر مفتره ؛ ومسرات النفوس
 منتشره ، والدنيا صاحكة مستبشره ؛ وأرواح الأدواح حامله ، وأعطاف الأغصان
 مائله ؛ وأوراق الأوراق تفصل ، وأجنحة الظلال تراش وتوصل ؛ وخطباء الطير

تَرَوِي وَنُحْبِرُ ، وَشُبُوخُ الْحَارِبِ تَهْلَلُ وَتُكَبِّرُ ؛ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُخَضِّعُ لِحَبْرَتِهِ ،
وَيَشْهَدُ لِمَلَكُوتِهِ ، وَتَلُوحُ الْحِكْمَةُ مَا بَيْنَ مَنْطِقِهِ وَسُكُوتِهِ .

فَأَمَّا الْخَطَاطِيفُ فَقَدْ سَبَقَ هَا يَهَا ، وَنَطَقَ شَادِيهَا ، وَتَرَاجَعَ شُكْرًا لِلَّهِ نَادِيهَا ؛
فُعْشُ يَوْمٍ ، وَلَيْبِنَةٌ إِلَى أُخْرَى تَزْمُ ، وَشَعْتٌ يُلْمُ ، وَبِدْءَةٌ تُوفِّي وَتُمُّ ؛ وَكَأَنَّهَا حَنْتُ
نَحْوَ الْمَشَاهِدِ ، وَسَابَقَتِ اللَّعَاتِقَ إِلَى الْمَعَاهِدِ ؛ فَظَلَّتِ اللَّقَائِقُ بَعْدَهَا نُزَاعًا ، وَسَقَطَتْ
عَلَى أَطَامِهَا أَوْزَاعًا ، وَأَجَدَّتْ إِقْطَاعًا ، وَأَجَابَتْ مِنَ الْخِصْبِ أَمْرًا مُطَاعًا ؛ وَحَارَزَتْ
مِنَ الْحِدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ إِقْطَاعًا ؛ وَسِغْرَدٌ فِي رَوْضَتِهِ الْمَكَاءُ ، وَيُضْحِكُكَ هَذَا الْوَايِلُ
الْبَكَاءُ ، وَتُرُومُهُ فَلَا تَلْحَظُهُ ذُكَاءٌ ؛ تَحْتَهُ مِنَ الْأَفْنَانِ النَّاعِمَةُ قِلَاصٌ ، وَأُحْصَانَتُهُ مِنْ
الْخِضْرَاءِ التَّبَعِيَّةِ دِلَاصٌ ؛ فَالْوَيْلُ لِأَهْلِ الْأَقْوَالِ الْمُنْكَرَاتِ ، وَالنَيْلُ لِأَهْلِ الثَّنَاءِ
وَالنَّخِيرَاتِ ؛ وَالْمَرْعَى وَالسَّعْدَانِ ، وَأَرْضُ بَكْوَا كِبِ النُّورِ تَزْدَانُ ، وَبِقَاعٌ تَدِينُ الْغَيْثَ
كَمَا تُدَانُ ؛ أَذْكَرَهَا فَذَكَرَتْ ، وَسَكِرَتْ مِنْ أَخْلَاقِهِ فَشَكَرَتْ ، وَعَرَفَهَا مَا أَنْكَرَتْ ؛
كَأَنَّمَا أَعْدَاؤُهَا مِنْ أُمَّ خَارِجَةَ نَسَبَ أَوْ مَلَحَ ، قَالَتْ لَهَا : خِطْبُ فَقَالَ : نِجْحُ ،
فَقَتَلَتْ الْأَزْهَارَ بِسَيْلِهِ ، وَنَبَتَتْ فِي سَيْلِهِ ، وَثَبَّتْ كَاللَّحْظَةِ فِي شَطْطِي نَجْمِيهِ .

فَمِنْ نَجْمِيٍّ تَزْنُو الرُّوَانِي بِأَحْدَاقِهِ ، وَتَسْتَعِيرُ الشَّمْسُ بِهِجَةَ إِشْرَاقِهِ ؛ وَيُودُّ الْمِسْكَ
نَفْحَةَ آتِنَشَاقِهِ ، يَحْسُدُ السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِهِ ، وَيَمْتَنَاهُ الْحَمَامُ بَدَلًا مِنْ أَطْوَاقِهِ ؛ كُحْلَةٌ
نَدَى تَتَرَقَّرُ ، أَوْ غُصْنٌ بَانَ لَا يَزَالُ يُورِقُ .

وَمِنْ عَرَارٍ تَغْنَى مُطَالِمُهُ عَلَى عَرَارِ ، وَكَلَفَتْ بِهِ السَّوَارِي وَالْعَوَادِي كَلْفَ عَمْرٍو
بِعَرَارٍ ؛ بَجَاءِ كَسَوَالِفِ الْغَيْدِ تَرَفٌ ، وَكَوْمِيضِ الثُّغُورِ يَعْْبَقُ وَيَسْفُ .

وَمِنْ أَخْضَانٍ جَرَى عَلَى الثَّنَائِيَا الْغُزْرُ ، وَسِيكَ مِنْ نَاصِعِ الدَّرِّ ؛ يُقْبَلُهُ النَّسِيمُ فَيَعْبَقُ ،
وَيَصْبِحُ الْجَوْبَمَا ^(١) وَيَغْنِقُ ، وَيَسْتَقْبِلُهُ نَاطِرُ الشَّمْسِ فَيُشْرِقُ .

(١) بياض بالأصل .

ومن بَنَفَسِجٍ كَطَوَاقِ الْوُرُقِ ، أَوْ كَالْيَوَاقِيتِ الزُّرْقِ ؛ تَشْرَفَ بِأَبْدِجِ الْخَلْقِ ،
وَتَأَلَّفَ مِنَ النَّسِقِ وَالخَلْقِ ؛ تَلَحَّظُهُ مِنْ بَيْنِ أَوْرَاقِهِ نَوَاطِرُ دُجَجٍ بِالْأَجْفَانِ وَقِيَتِ ،
وَبِدْمُوعِ الْكُحْلِ سُقِيَتِ ؛ نَسِيْمُهُ أَلِينٌ مِنَ الْخَرِيرِ ، وَنَفْسُهُ أَعَطَّرَ مِنَ الْعَيْدِ ؛ يُفَاحِرُهُ
كَأَنُّونُ الْبَرْدِ ، مُفَاحِرَةٌ نَيْسَانَ بِالْوَرْدِ .

وَكُلَّ رَبْوَةٍ قَدْ أَخَذَتْ زُرْفَهَا وَأَزَيَنْتِ ، وَبَيَّنَتْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَا بَيَّنَّتْ ؛ كَمَا نَتَوَجَّحُ
فِي إِيْوَانِهِ كَسْرِيٌّ ، وَأَسْتَقْبَلْتَهُ وَفُودُهُ تَتْرَى ، وَأَنْقَلَبْتَ عَنْ حُسْنِ نَادِيهِ النَّوَاطِرُ حَسْرِيٌّ ،
وَكُلَّ تَلَعَةٍ مَدَانِبُ نُصُوحَهَا نَسَلٌ وَمَضَارِبُ فُصُوحِهَا لَا تُتْنَى ؛ وَأَرَاقِمُ تَنْسَابِ ، وَلِحْيِنِ
يُدَابُ وَيُدَابُ ؛ عَلَى حَافَاتِهَا نُجُومٌ مِنَ النُّورِ مُشْتَبِكَةٌ ، وَجُيُوبٌ عَنْ لَبَّاتِ الْغَوَازِي
مُنْتَهِكَةٌ ؛ فَلَوْ أَفْتِيحَتْ الظُّهُورُ وَالْبُطُونُ ، وَنَطَقَتِ السُّهُولُ وَالْحُزُونُ ، لَقَالَتْ :
(قَتَلَ الْخَبْرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرَةٍ سَاهُونَ) .

فَشُكْرًا لِرَبِّنَا شُكْرًا ، وَنُحْقًا لِلَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ؛ اللَّهُمَّ بَارِيَّ النَّسَمِ ،
وِدَارِيَّ الْقَسَمِ ، وَنَاشِرَ الرَّحْمَةِ وَالنِّعَمِ ، وَمُنْزِلَ الدِّيمِ ، وَبَاعِثَ الرَّحْمِ ، وَنُحْيِيَ الْأُتَمِّ ؛
فَإِنَّا نُوْمِنُ بِقُدْرِكَ ؛ حَيْرُهُ وَشَرُّهُ ، وَنَطْوِي غَيْشَكَ عَلَى غِرِّهِ ، وَلَا تَتَعَرَّضْ لِنَشْرِهِ
حَتَّى تَأْذَنَ بِنَشْرِهِ ؛ وَنَعْتَقِدُ رُبُوبِيَّتَكَ كُلَّ الْأَعْتِقَادِ ، وَنَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ أَهْلِ الْمُرُوقِ
وَالْإِلْحَادِ ؛ وَنَسْتَرِيدُكَ مِنْ مَصَالِحِ الْعِبَادِ وَمَنَافِعِ الْبِسْلَادِ ؛ رِزْقُنَا لَدَيْكَ ، وَنَوَاصِينَا
بِيَدَيْكَ ، وَتَوَكَّلْنَا عَلَيْكَ ، وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْكَ ؛ وَلَا نُشْرِكَ بِكَ فِي غَيْبِكَ أَحَدًا ، وَلَا يَجِدُ عَبْدٌ
مِنْ دُونِكَ مُلْتَحِدًا ؛ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ ، وَأُمَّتٌ الْحَىِّ وَأَحْيَيْتَ الْمَيِّتَ ؛ لَا هَادِيَ
لِمَنْ أَضَلَّتْ وَلَا مُضِلٌّ لِمَنْ هَدَيْتَ ، فَكُنْفِنَا فِيمَنْ كَفَيْتَ ، وَتَوَلَّنَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ ،
إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ ، وَتَقْرَأُ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ
الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ الْآيَةَ .



وهذه نسخة رسالة ، كتّبت بها الصاحب نحر الدين عبد الرحمن بن مكناس ،
تعمّده الله برحمته ، إلى الشيخ بدر الدين البشتكى عند ما زاد النيل الزيادة المفرطة ،
سنة أربع وثمانين وسبعائة ، وهي :

ربنا أجمعنا في هذا الطوفان من الآمنين ، وسلاماً على نوح في العالمين .
ما تأخير مولانا ببحر العلم وشيخه عن رؤية هذا الماء ؟ ، وما قعاده عن زرقه
هذا النيل الذى جعل الناس فيه بالتوبة كالملائكة لما غدا هو أيضاً كالسما ؟ ،
وكيف لم يرهذا الطوفان الذى استحال للزيادة فما أشبه زيادته بالظأ ، فهى كزيادة
الأصابع الدالة فى الكف على نقصه ، وأولى أن نُسَدَ بيت المثل بنصه :
طَفَحَ السُّرُورُ عَلَى حَتَّى إِنَّهُ * مِنْ عَظِيمِ مَا قَدَّ سَرَّنِي أَبْكَانِي !

فإنه قارب أن يمتزج بنهر المجرة بل وصل وأمتزج ، وأرانا من عجائبه ما حقق أنه
المعنى [بقول القائل] : "حَدَّثَ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ" ، وتجاوز فى عشر الثلاثين
الحَدَّ ، وأرانا بالمعينة فى كل ساحل منه ما سمعناه عن الجزر والمد ، وأساء فى دفعه
فلم يدفع بالتي هى أحسن ، وأقعد الماشى عن التَّسَبُّبِ والحركة حتى شكأ إلى الله
فى الحالين جور الزمن ؛ وسقى الناس من ماء حياته المعهودة كما شربوا من الموت
أصعب كأس ، وسئل ابنُ أبي الرِّدَادِ عن قياس الزيادة فقال : زاد بلا قياس ؛
أمتلاً لليباب ، وهال العباب ، وضاع العُدَّ وأختلط الحَسَابُ ؛ كأل فظف ، وزار
فا خفف ؛ غسل الجُور ، وأعاد الإملاق بعزمه إلى البحور ، وبرع فكان أولى
بقول الحلى من ابن منصور :

بمكارم تذر السباب أبحراً * وعزائم تذر البحار سباباً !

جمع في صعوده إلى الجبال بين الحادى والملاح، ودخل الناس إلى أسواقٍ مضرٍ
وخصوصاً سوق الرقيق على كل جارية ذات ألواح؛ وغدا التيار ينساب في كل يومٍ
كالآيم، وأصبحت هضاب الموج في سماء البحر وكأنها هي قطع الغيم؛ وأستحالت
الأفلاك فكلُّ برجٍ مائي، وتغيرت الألوان فكل ما في الأرض سمائي؛ وحكى ماؤه
حكاكة الصندل لما مسه شيطان الريح فتخبط، وزاد فأستحال نفعه فتحقق
ما ينسب إلى الصندل من الاستحالة إذا أفرط؛ فلقد حكّت أمواجه ودوايره
الأعكان والسرر، وغدا كل حي ميتاً من زيادته لا كما قال المعري: حياً من بني مطر؛
وتحالى إلى أن أقرف الليمون الأخضر، وأحمرت عينه على الناس فأذاقهم الموت
الأحمر؛ ولقد صعب سلوكه وكيف لا؟ وهو البحر المديد، وأصبح كل جدولٍ منه
جعقراً ويزيد:

فَلَسْتُ أَرَى إِلَّا إِفَاضَةَ شَاخِصٍ * إِلَيْهِ بَعِينٍ أَوْ مُشِيرًا بِأُصْبُعٍ!

فلكم قال الهرم للسارين ياسارية الجبل، وأنشد وقد شمر ساقه للخوض: أنا الغريق
فما خويف من البلل؟ وكم قال أبو الهول: لا هول إلا هول هذا البحر، وقال
المسافرون: ما رأينا مثل هذا النيل من هنا إلى ما وراء النهر، وقال المؤرخون: لم تنقل
كهذه الزيادة من عهد التهروان وإلى هذا الدهر.

وكيف يسوغ لمولانا في هذه الأيام غير آرتشاف فم الخمر؟ ولم لا يُغير مذهبه
ويطّيب على هذه الخللج بالسلسل والدور؟ وكيف وكيف؟! ولم لا يتخذ
مولانا حمو النيل وبرده رحلة الشتاء والصيف؟ وهو في المبادرة إلى علو المعالي
وعلو المعاني، وأنتهاز الفرص في بلاغ الآمال وبلوغ الأماني:

(١) يشير إلى بيت المعري في قوله:

وإن بجلت عن الأحياء كلهم * فأسقى المواطر حياً من بني مطر

أنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠).

عَجَبٌ مِنْ مَجَائِبِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ * وَنَوْعِ فُرْدٍ وَشَكْلِ غَرِيبٍ !

نَعَمْ :

مَنْ قَاسَكُمْ بِسِوَاكُمْ * قَاسَ الْبَحَارَ إِلَى التَّمَادِ !

أَعْلَى الْأَنَامِ فِي الْعُلُومِ قَدْرًا ، وَإِمَامِ النُّحَاةِ مِنْ عَهْدِ سَيَبَوِيهِ وَهَلُمَّ جَرًّا ، وَشَيْخِ
الْعَرُوضِيِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ بَرًّا وَبَحْرًا :

وَشَيْخِ سَيْحُونِ وَالنَّيْلِ وَالْفُرَاتِ وَدِجْلِهِ ،

وَشَيْخِ جَيْحُونَ أَيْضًا ، * وَشَيْخِ نَهْرِ الْأُبَلَّةِ !

أَيَّ وَاللَّهِ :

أَقُولُهَا لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَى : * الطَّبْلُ لَا يُضْرَبُ تَحْتَ الْكُسَا !

لَا تَجْبَأَ لِعَطْرِ بَعْدِ عُرُوسٍ ، أَنْتِ أَعْوَمٌ فِي بُحُورِ الشُّعْرِ مِنْ آبِنِ قَادُوسٍ ، وَأُصْلِحُ
إِذَا حَدَّثْتَ مِنْ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ التُّدُوسِ ، وَأَثْمَهُ إِذَا هَزَلْتَ مِنْ آبِنِ حِجَّاجٍ إِلَى
النَّفُوسِ :

وَلَوْ أَنَّ بَحْرَ النَّيْلِ جَارَكَ مَا زَحَا * وَحَقَّكَ مَا اسْتَحَلَّ لَهَ النَّاسُ زَائِدًا !

نَعُودُ إِلَى مَا كُنَّا فِيهِ مِنْ وَصْفِ النَّيْلِ ، وَذِكْرِ حَالِهِ الَّذِي أَصْبَحَ كَمَا قَالَ آبِنُ
عَبْدِ الظَّاهِرِ : كَوَجْهِ جَمِيلٍ ؛ : فَلَوْ رَأَاهُ مَوْلَانَا وَقَدْ هَجَمَ عَلَى مِصْرٍ بِنِجَاسِ خِلَالِ الدِّيَارِ ،
وَدَخَلَ إِلَى الْمَعْشُوقِ فَتَرَكَهَ كَالْعَاشِقِ الْمَهْجُورِ لَمْ يَرْمَنْهُ غَيْرُ الْآثَارِ ؛ لَبَكَّى بَعْنَى عُرُوهُ ،
وَأَوَى مِنْ الرِّصْدِ وَقَدْ تَفَجَّرَتْ مِنْ صَلَدِهِ عَيُونَ التَّرِّ إِلَى رَبْوِهِ ؛ أَوْرْنَا لِرُوضِ الْحَزِيرَةِ
وَقَدْ خَلَعَ حِلَاهُ ، وَتَخَامَلَتْ عَرَائِسُ أَشْجَارِهِ عَلَى الْحَالِينِ بِالْمِيَاهِ . وَالنَّخِيلِ وَقَدْ قُتِنَتْ
مُلَاكُمَهَا - حِينَ فَتَكَ - بِالْأَسْفِ ، وَجَفَّ أَحْمَرُ ثَمَرِهَا وَأَصْفَرَهُ فَأَرَانَا الْعَنَابُ وَالْحَشْفُ .
وَالْحَزِيرَةِ وَقَدْ قَلْتُ لَهَا : تَبًّا لِحَارِكِ النَّيْلِ إِذْ أَفْسَدَكَ صُورَةٌ وَمَعْنَى ، وَسَكَنَ مَغَانِيكَ فَسَقَى

دِيَارَكَ بغيرِ اسْتِثْنَاءٍ . وَقُرَاهَا الغَرَبِيَّةُ . وَقَدْ قَلَبْتُ لَهَا حِينَ أَوْتِ إِلَى أَعَالِي الأَرْضِ هَرَبًا
 مِنَ المِيَاهِ ، وَأَعْتَصَمْتُ بِالجِبَلِ الغَرَبِيِّ : لَأَعَاصِمَ اليَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ . وَكُلُّ سَفِينَةٍ
 وَقَدْ عَلَتْ عَلَى وَجْهِ المَاءِ ، وَأَرْتَقَتْ لِأرتقاءِ البَحْرِ إلى أَنْ آخِطَطْتُ بِالسَّمَاءِ ، وَقَدْ
 قَالَتْ لَهَا أَثْرَابُهَا عِنْدَ الفِرَاقِ : إِلا تَرَجِّعِي ، وَقُلْنَا لَهَا نَحْنُ عَلَى سَبِيلِ التَّمَاوُلِ : يَا سَمَاءُ
 أَقَامِي ؛ وَالنَّيْلُ تَبَدُّو عَلَيْهِ القُلُوعُ خَافِيَةٌ لِبُعْدِهَا فَكَانَهَا الخِيَامُ بذي طُلُوحٍ ، وَجَارَ عَلَى
 النَّاسِ بِطُغْيَانِهِ فَكَانَ مَا هُوَ أَخُو فِرْعَوْنَ مِصرَ أَوْ ابْنُ طُوفَانَ نُوحِ .

فَلَقَدْ طَارَ النَّسْرُ مَبْلُولَ الجَنَاحِ ، وَدَنَا نَهْرَ المَجْرَةِ مِنَ السَّكَارَى بِالسَّخَاتِيَتِ إِلَى أَنْ
 كَادَ يَدْفَعُهُ مِنْ قَامٍ بِالرَّاحِ . وَنَزَجِسَ البَسَاتِينَ وَقَدْ أَيْضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الحُزَنِ فَهُوَ
 كَظِيمٌ ، وَفَارَقَ أَحِبَّابَهُ مِنَ الرِّيَاحِينَ وَلَمْ يَبْقَ لَهُ غَيْرَ القَلَانِسِ صَدِيقٌ وَغَيْرَ المَاءِ حَمِيمٌ .
 وَالوَرْدِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : مَا لَكَ مِنْ آسٍ ، وَغُضِنَ البَّانِ وَقَدْ قِيلَ لَهُ : طُوبَى لِمَنْ عَانَقَكَ
 وَلَا بَاسَ . وَالأَسْمَاكِ وَقَدْ أَجْمَهَمَ العَرَقُ ، وَالقُلُقَاسِ وَقَدْ شَكَا شَكْوَى ابْنِ قَلَاقِسِ
 وَأَبْنِهِ مِنَ العَرَقِ . وَالقَصَبِ بِالجِيزَةِ وَقَدْ شَرِبَ مَاءَ التَّرِّ فَهُوَ بِنَسِّ الشَّرَابِ ، وَالقَصَبِ
 بِبُولَاقٍ لَمْ يُنْجِهِ مِنْ مُشَاهَدَةِ العَرَقِ إِلا كَوْنُهُ غَابٍ ، وَالقَارِسِيِّ بِالبَسَاتِينَ وَقَدْ تَرَجَّلَ
 وَوَقَعَ فَأَرَانَا كَيْفَ تَكْسِيرِ الأَقْصَابِ ؛ وَقِيلَ لِلآسِ : عَالِجُ حَيْرَانِكَ بِالعِيطَانِ فَالنَّاسُ
 بِالنَّاسِ ، وَبَادَرَ إِلَى جَبْرِ مَا كَسِرَ فَالحَاجَةُ تُدْعُو المَكْسُورَ فِي الحَالِينِ إِلَى الآسِ .

هَذَا وَأَنَا مُقِيمٌ بِالرُّوْضَةِ إِذْ زَهَتْ عَلَى سَائِرِ الرِّيَاضِ ، وَسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبَائِهَا مِنْ
 أَكْثَرِ هَذِهِ الأَعْمَرِاضِ ؛ وَإِنْ أَعْتَلَّتْ بِالأَسْتِسْقَاءِ فَهُوَ عَيْنُ الصَّحَّةِ كَمَا يُنْسَبُ السَّقَمُ
 إِلَى العُيُونِ المِرَاضِ ، أَوْ كَمَا قَالَ المَمْلُوكُ قَدِيمًا مِنْ قَصِيدَةٍ فِي بَعْضِ الأَغْرَاضِ :

وَقَائِلٌ : فِي لِحَاطِ الغَيْدِ بِأَقْبَعِ * مِنْ السَّقَامِ وَمَا صَمَّتْ خُصُورُهُمْ ،

وفي النَّسِيمِ فَقُلْتُ : الأَمْرُ مُشْتَدِّهِ * عَلَيْكَ فَالزَّمِ فَأَنْتَ الحَادِقُ الفَهِيمُ .
قُلْتُ الصَّحِيحَ وَلِكِنِّي بِمُوجِبِهِ * أَقُولُ : تِلْكَ دَوَاةٌ بَرُوها السَّقَمُ !

قد أحاط بها النيلُ إحاطةَ المَرَاشِفِ بالآ ، فأشرفتُ ضياءً بين زُرْقَتِهِ فَكأنَّها
البَدْرُ في كَبِدِ السَّما :

بَصَحْنِ خَدِّ لَمْ يَغِضْ مَأْوُهُ * ولم تَخْضُهُ أَعْيُنُ النَّاسِ !

مُتَعَطِّشٌ مع هذا الطوفانِ لِرِيَاكُ ، مُتَشَوِّفٌ وإن كنتُ مُغَازِلَ النُّجُومِ الأَرْضِيَّةِ
والسَّمَائِيَّةِ يَا بَدْرُ لِرُؤْيَاكَ ، لِكِنِّي يُسَلِّبُنِي أَنِي ما نَظَرْتُ إلى النَّيْلِ إلا رَأَيْتُكَ من سائرِ
الجهاتِ ، ولا لَمَحْتُ بِيُوتَ البَحْرِ بل البُحُورِ إلا رَأَيْتُكَ عِمارةَ الأبياتِ :

ولا هَمَمْتُ بِشُرْبِ المِماءِ من عَطِيشٍ * إلا رَأَيْتُ خَيالًا مِنكَ في المِماءِ !

ولَكِنِ لِلعِيانِ لَطِيفٌ مَعْنَى * له طَلَبَ المُشاهِدَةَ الكَلِيمُ !

فَهَلُمَّ إلى التَّمَتُّعِ بِرُؤْيِيَةِ هذا النَّيْلِ الذي لم تَرَمْتَهُ العُيُونُ ، والنَّظَرَ إلى سائرِ المَخْلُوقاتِ
لعمومِهِ وكُلِّ في فَلكِ يَسْبَحُونَ ؛ فليس يَطِيبُ لِلتَّامِيذِ رُؤْيِيَةَ هذا البَحْرِ بِغَيْرِ رُؤْيِيَةِ
شَيْخِهِ ، ولا يَلِدُّ لَهُ التَّمَلُّ بِمِشاهِدَةِ هذا الفُلكِ ما لم يُشْرِقْ وَجْهُهُ وَذَهَبَهُ بِيَدِهِ وَمَرَّيخِهِ ؛
فما هذا الإهمالُ ؟ ، ولَيْتَ شِعْرِي يا أَدِيبُ تَسَاغَلُكَ بِأَيِّ الأَعْمالِ ؟ ، أبا لِكتابَةِ ؟
فَلتَكُنْ في هذا النَّيْلِ الذي هو كالأَطْلَحِيَّةِ بِغَيْرِ مِثالِ ، أو بالنَّثرِ والنَّظْمِ ؟ ففِي هذا البَحْرِ
الذي مِنْهُ تُؤَخَذُ الدُّرَرُ وفيهِ تُضْرَبُ الأَمثالُ ؛ ولَقَدْ وُلِدَ فِيهِ الفِكرُ لِلْمَمْلُوكِ ، كَيْفَ
تَصَادَمَ الأَكْفاءِ وَقَهْرُ المَمْلُوكِ لِلْمَلُوكِ ؛ فإنه لم يُسْمَعِ في مَمْلَكَةِ الإسلامِ ، ولا وُرِّخَ
في عامٍ من الأَعوامِ ؛ بِمِثْلِ هذه الزيادةِ الزائِدَةِ ، والجَزْريِّ على نَحْرِ العادَةِ التي لا جَعَلَ

الله بها صلةً ولا منها عائدة ؛ وغايته ما وصل إليه في الماضي من عشرين : فضيق
بسعته المسالك ؛ وأوجب المهالك ، وتطرق تطرق أهل الجرائم والفساد فقطع
الطريق على السالك ، وأحوج مرات إلى الاستضياء لا أحوج الله لذلك .

ودليل ما شمل به من الفساد، وما عامل به البلاد وأهل البلاد؛ ما قاله أدباء كل
عصر، عند ما أبيع للسافر في مدّ عرضة القصر .

فن ذلك ما قاله مولانا القاضي الفاضل ، وما هو رحمه الله إلا بحر طفق دُرّه ،
فله دُرّه ، من رسالة :

ورود مثاله يتضمّن نبأ سطورهِ العظيمة أمر طوفان النيل التي كأنها جدأوله ،
وأنه جاد لمؤمّله بنفسه التي ليس في يده غيرها فليتيّ الله سائله

ومنها : ولم يزل يجرى مُستقرّ له ، ويضمه شيئاً فشيئاً إلى أن أدرك آخره أوّله ؛
حتى إذا تكامل سمواً أمواجه حالاً على حال ، وتثور أقاصي الأرض من بنية المقياس
فأدناها النظر العال ؛ فلم يترك بقعة كانت من قبل فارغة إلا وكلها عند نظره ماق ،
وليت هواه المعتل كان عدلاً فحمل كل غدير ما أطاق ؛ وطالما جرى بالصفاء ولكن
كدر صفاه بهذا المسعى ، والمرجو من الله أن يتلو ما أفسده هذا الماء ما يُصاحه
خروج المرعى .

وما قاله القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ، سقى الله تلك الأنفاظ النيّية
صوب الماطر :

ويُنهى إليه أمر النيل الذي سرفى أوائله الأنفس بأنفس بشرى ، ويقص عليه
نبأ العظيم الذي مايرينا من آية إلا هي أكبر من الأخرى ، ويصف له ما ساقه
إلى الأرض من كل طليعة إذا تنفس الليل تفرق صبوحها وتقرى ؛ فهو وإن كان

خَصَّ اللهُ الْبِلَادَ الْمِصْرِيَّةَ بِوَفْوَرِهِ وَوَفَائِهِ ، وَأَعْنَىٰ بِهِ قَطْرَهَا عَنِ الْقَطْرِ فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ مَدِّ كَافِهِ وَفَائِهِ ، وَتَزَهَّهَ عَنِ مِنَّةِ الْعِمَامِ الَّذِي هُوَ إِنْ جَادَ فَلَا بُدَّ مِنْ شَهَقَةِ رَعْدِهِ وَدَفْعَةِ بُكَائِهِ ؛ فَقَدَّ وَطِئَ بِإِلَادِهَا بِعَسْكَرِهِ الْعَجَّاجِ ، وَزَاحَمَ سَاحَتَهَا بِأَفْوَاجِ الْأَمْوَاجِ ؛ فَعَمِلَ فِيهَا بِذِرَاعِهِ ، وَدَارَ عَلَيْهَا بِخِنَاقِهِ وَتَخَلَّلَهَا بِبِرَاعِهِ ، وَحَمَلَهَا عَلَىٰ سَوَارِي الصَّوَارِي تَحْتَ قُلُوعِهِ وَمَا هِيَ إِلَّا عُمْدُ قِلَاعِهِ ؛ وَزَارَ زَرَابِي الدُّورِ الْمَبْنُوتَةِ ، وَجَاسَ خِلَالَ الْحَنَائِيَا كَأَنَّ لَهُ فِيهَا خَبَايَا مَوْرُوثِهِ ؛ وَمَرَّقَ كَالسَّهْمِ مِنْ قَنَاطِرِهِ الْمَنْكُوسَةِ ، وَعَلَا زَبْدُ حَرَكَتِهِ وَلَوْلَاهُ ظَهَرَتْ فِي بَاطِنِهِ مِنَ الْأَقْمَارِ وَالنُّجُومِ أَشْعَتُهَا الْمَعْكُوسَةَ ؛ وَحَمَلَ عَلَىٰ بَرَكَةِ الْفِيلِ حَمْلَ الْأَسُودِ عَلَى الْأَبْطَالِ ، وَجَعَلَ الْمَجْنُونَةَ مِنْ تِيَّارِهِ الْمُنْحَدِرِ فِي السَّلَاسِلِ وَالْأَغْلَالِ ؛ وَالْمَرْجُوُّ مِنْ اللَّهِ أَنْ يُزِيلَ أَذَاهُ ، وَيُعِيدَ عَلَيْنَا مِنْهُ مَا عَاهَدَنَا ؛ فَإِنَّ لَهُ الْإِيَابَ الْأَكْبَرَ ، وَفِيهِ الْعَجَائِبُ وَالْعِبَرُ ؛ فَهَا وَجُودُ الْوَفَاءِ ، عِنْدَ عَدَمِ الصَّفَاءِ ؛ وَبُلُوغُ الْهَرَمِ ، إِذَا أَحْتَدَمَ وَأَضْطَّرَمَ ؛ وَأَمِنْ كُلِّ قَرِيبٍ ، إِذَا قَطَعَ الطَّرِيقَ ؛ وَفَرَحَ قُطَّانِ الْأَوْطَانِ ، إِذَا كُسِرَ وَهُوَ كَمَا يُقَالُ : سُلْطَانٌ ؛ إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ خَصَائِصِهِ ، وَبِرَائَتِهِ مَعَ الزِّيَادَةِ مِنْ نَقَائِصِهِ ؛ طَالَمَا فَتَحَ أَبْوَابَ الرَّحْمَةِ بِتَعْلِيْقِهِ ، وَفَازَ كُلُّ أَحَدٍ عِنْدَ رُؤْيَا مَائِهِ الْمُعْضَفَرِ بِتَخْلِيْقِهِ .

وما قاله المولى زين الدين عمر الصفدي تغمده الله بعفوه، وجمع له بين حلاوة الكوثر وصفوه :

وَأَمَّا النَّيْلُ فَقَدْ أَخَذَ الدَّارَ وَالسُّكَّانَ ، وَقَالَ ابْنُ الْخَامَلِ كَمَا قَالَ ابْنُ النَّبِيِّ : الْأَمَانَ الْأَمَانَ ، وَبَكَى النَّاسُ عِنْدَ مَا رَأَوْهُ مُقْبِلًا عَلَيْهِمُ بِالطُّوفَانِ ؛ وَأَنْسَابَتِ أَرَأَيْمُ غُدْرَانِهِ فِي الْإِقْلِيمِ فَأَبْتَلَعَتْ غُدْرَانَ أَرَأَيْمِهِ ، وَمَحَا سَيْلُهُ الْمَتَدَفِّقُ مَعَالِمَهُ الْمَجْهُولَةَ فَاسْتَعْمَلَ الْأَفْلَامَ فِي إِثْبَاتِ مَعَالِمِهِ ؛ وَأَحَاطَ بِالْقُرَى كَالْمُحَاصِرِ فَضَرَبَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ السَّمَاءِ بِسُورٍ ، وَأَخَذَ الطَّرِيقَ عَلَى السَّالِكِينَ فَلَا مَرَكَبَ إِلَّا الْمَرَاكِبُ وَلَا عَاصِمَ إِلَّا الْبُحُورُ .

وما قاله السيد ابن كاتب المرح ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحد عمَدِ الشعر المشهورة
بالفسطاط ؛ فما أطيَّبَ مدائحَه النبوية التي جعلها سوراً بينه وبين النار، وما أعجَبَ
رثاءه : جعل الله قبره بالرحمة كالروض غب القطار !! :

يَانَيْلُ يَا مَلِكَ الأَنْهَارِ قَدْ شَرِبْتُ * مِنْكَ البرايا شَرَاباً طَيِّباً وَغَدَاً ،
وَقَدْ دَخَلْتُ القُرَى تَبْنِي مَنَافِعَهَا * فَعَمَّهَا بَعْدَ فَرَطِ النِّفْعِ مِنْكَ أَدَى .
فَقَالَ : يُذَكِّرُ عَنِّي أَنِّي مَلِكٌ * وَتَعْتَدِي نَاسِيًا : إِنَّ المُلُوكَ إِذَا !

وما قاله شيخنا الشيخ جمال الدين بن نباتة الذي أطاعنه من الآداب جوائع
نظمها ونثرها ، وسخرت له بحور الشعر فقالت له الآداب : اختر من درها ؛ فسبحان
من يسر له تمتيع الكلام وهونه ، وجعله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ؛
فما أشفَ دقيقَ فكره الجليل ، وما أكثر ما يضحك زهر تقاطيعه على زهر مقطعات
النيل ؛ فما كان إلا مخصوصاً في الأدب بحور الهبات ، وكلامه في العذوبة والبلاغة
يزري بالقرات وآبن القرات ؛ وإن قيل أي أصدق كلمة قالها شاعر بعد لبيد ، يقال
قول ابن نباتة .

فَلَا عَجَبٌ لِلْفِظَى حِينَ يَحْلُو * فهِذَا القَطْرُ مِنْ ذَاكَ النَّبَاتِ ! :

وأما النيل فقد استوى على الأرض فثبتت فيها قدمه ، وأمتد نصل تياره كالسيف
الصقيل فقتل الإقليم وهذا الأحمرار إنما هو دمه :

هُرْمَتْهَا مِنْ دِمَاءِ مَا قَتَلَتْ * وَالدَّمُ فِي النَّصْلِ شَاهِدٌ عَجَبُ !

فلم يترك وعداً بل وعيداً إلا وفاه ، ولا وهذا بل جبلاً إلا أخفاه ؛ أقبل كالأسد
المهصور إذا احتد وأضطرم ، وجاء من سن الحنادل فتحدر وعلا حتى بلغ أقصى
الهرم ؛ وعامل البلاد بالخيلاء وكيف لا ؟ وهو سلطان جائر أيد بالنصر ، قائلاً :

إِنْ كُنْتُ يُلَيْتُ بِالْأَحْتِرَاقِ فِي أَرْضِكُمْ فَأَنَا أَفِيضُ بَأَنِ أَرْبِي مِنْ بَرُوقِ تِيَّارِي
بِشَرِّهِ كَالْقَصْرِ .

هذا وطلما قابلنا قبلها بوجه جميل، وسمعنا عنه كل خير خير ثابت ويزيد كما قال
جميل، وكل بديع من آثار جود يصبغ الثرى فيخضر بخلاف المشهور عن صبغة
الليل؛ وطلما خصصناه بدعاء فكانت الراحة به كقياسه ذات بسطة، وكنازل
الخصب بقدمه المبارك ذات غبطة، ومنتحاه بولاء وثناء هذا يدور من الإخلاص
بفلك وهذا يعدب من البحار بنقطة؛ كم ورد إلى البلاد صيفا ومعه القرى، وتم أتى
مرسلا بمعجز آيات الخصب إلى أهل القرى؛ فهو جواد قد خلع الرسن، ساهر
في مصالح الخلق وقد ملأ الأمن أجفانهم بالوسن، جامع لأهل مصر من سقياه
ومرعاه ووجهه بين الماء والخضرة والوجه الحسن؛ كم بات سير مقياسه يشمل
بظله الغائبين والحاضرين، وتم رفع على الوفاء راية صفراء فاقع لونها تسر الناظرين؛
وبلغ وبلغ بحر التيار سلامه، وبات الناس بوفائه من حذار الغلاء تحت الستر
والسلامه؛ وخلق صدر العمود وكيف لا يخلق بشير العباد والبلاد، ودعا مصر لأخذ
زهرها فسواء قيل: ذات العمود أو ذات العماد؛ وبسط يده ببركة الماء فقيل:
سلام لك من أصحاب اليمين، وخصب بنانه وأقسم بحصول الخير فقيل لمخضوب
البنان يمين؛ وأشار إلى وصول المد المتتابع، وقبض يده المحلقة على الماء فوفت
وما خابت فروج الأصابع؛ ونادى رائد الوفاء ولكن كم حياة في الأرض لمن ينادى،
ومت أصابع الزيادة وتمت حتى قال الناس: ما ذى أصابع ذى أيادي .

هذا وقد قرنت زرابي الدور المبتوثة بالتمارق، وقال المقياس: تغطت منها
الدرج فنال الرجاء وظهرت الدقائق؛ فهو جم المنافع، عذب المنابع، يشار في الحقيقة
والمحجاز إليه بالأصابع .

فأعاده الله إلى ذلك النَّفْعِ المعهود ، وأرآنا منه الأمانَ من الطَّوْفَانِ إلى أن نَرِدَ
 الحَوْضَ المَورودَ ؛ وكَفَيْ أهلَ مِصرَ هذه المِصيبةَ التي إذا أصابَتْهم قالوا :
 إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ، وَلَا أَبْتَلَاهُمْ بِمِثْلِ مَا أَبْتَلَى بِهِ قَوْمًا جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ
 فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ فَإِنَّمَا يَسْتَغْشَى ثِيَابَهُ مِنْهُمْ الْفُقَرَاءُ فِي المَطَرِ وَيَجْعَلُ
 أَصَابِعَهُ فِي آذَانِهِ مِنْهُمْ المُؤَدِّدُونَ ؛ اللَّهُمَّ إِنَّكَ وَلِيُّ النِّعْمَةِ ، وَأُولَى بِرَحْمَةِ خَلْقِكَ مِنْ
 فَيْضِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ .

وما قاله صاحبنا الشيخُ شهابُ الدين بن أبي حَجمَةَ الذي كان أغربَ من زرقاءِ
 اليمامة ، وأعجبَ إذا ركبَ بَعْلتهُ وزرُورَه من أبي دَلَامَه ؛ الأديبُ الذي كان حُجَّةَ
 العَرَبِ ، والنَّائِثُ الذي كان ينسبته إلى الطُّيورِ مُحَرِّكِ المَنَاطِقِ وإلى الشَّعْرِ صَنَاجِدَ
 الأَدبِ ، والنَّاظِمُ الذي كان إذا أنشدَ مَقَاطِيعَه في التَّشْيِيبِ فاقَ على المَواصِلِ ذَوَاتِ
 الطَّرَبِ ؛ والصَّديقُ الذي كانت منه عَوَائِدُ الوفاءِ مألُوفَه ، وشَيْخُ الصُّوفِيَّةِ الذي
 لا عَجَبَ إذا كانت له المَقَامَاتُ الموصُوفَه ؛ أسكَنه اللهُ فِسيحَ الحِنانِ ، وخصَّ ذلكَ
 الوَجْهَ الجميلَ بالعَارِضِ الهَتَّانِ ؛ من مَقَامَتِهِ الرَّعْفَرَانِيَّةِ عن أبي الرِّياشِ :

فَاعْتَنَقْتُهُ لَدَى السَّلَامِ ، وَقُلْتُ : مَا وَرَاءَكَ يَا عِصَامَ ؛ فَقَدْ بَلَّغْنَا أَنَّ النَّيْلَ تَرَايَدَ
 دَفْعُهُ ، وَأَدَّى إِلَى الضَّرْرِ نَفْعُهُ ؛ فَقَالَ : خُذِ العَفْوَ ، وَلَا تُكَدِّرْ بِذِكْرِ النَّيْلِ الصَّفْوَ ؛
 فَقَدْ أَمْتَرَجَ بِالمُعْصِرَاتِ مُجَاجُهُ ، وَأَعْيَى طَيِّبَ الغِيطَانِ عِلاجَهُ :

وَشَرِّقْ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرِّقِ مَشْرِقٌ * وَعَرَّبْ حَتَّى لَيْسَ لِلغَرَبِ مَغْرِبٌ !

قُلْتُ : فما فعل النُّغَيْرِ ، بِجَزِيرَةِ الطَّيْرِ ؛ قال : لم يبقَ بها هاتِفٌ يُبَشِّرُ بالصَّبَاحِ ،
 وَلَا سَاحِجٌ يَسْعَى بِرِجْلِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِ ؛ إِلَّا اتَّخَذَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سَلَمًا فِي السَّمَاءِ ،
 أَوْ أَوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُهُ مِنَ المَآءِ ؛ فَادَّاقَ بِهَا الحَمَامَ الحَمَامَ فِي المَرُوجِ ، وَتَرَكَ أَرْضَهَا

كسَاءَ مَالِهَا مِنْ فُرُوجٍ ، وَتَلَا عَلَى الْحَمَامِ : ﴿ أَيَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ ﴾ . وَكَمْ فِي سَمَاءِ مَائِهَا مِنْ نَسِيرٍ وَقَعَ ، وَبُومَةٍ تُصَفِّرُ عَلَى دِيَارِهَا الْبَلَاغِ :

وَمَنْ مَلَّ فِيهِ الْغُرَابُ مَيْتٌ * سَقَيْتُ مِنْهُ الْقَوْمَ وَأَسْتَقَيْتُ !

قُلْتُ : فِمِصْرٍ ؟ قَالَ : زَحَفَ عَلَيْهَا بَعْسُكَرِهِ الْجَرَّارُ ، وَنَفِطَ مَائِهِ الطَّيَّارُ .

قُلْتُ : فَالْحَيِزَةُ ؟ قَالَ : طَفَى الْمَاءُ حَتَّى عَلَا عَلَى قَنَاطِرِهَا وَتَجَسَّرَ ، وَوَقَعَ بِهَا الْقَصَبُ مِنْ قَامَتِهِ حِينَ عَلَا عَلَيْهِ الْمَاءُ وَتَكَسَّرَ ؛ فَأَصْبَحَ بَعْدَ أَخْضَارِ زَيْتِهِ شَاحِبَ الْإِهَابِ ، تَأَصَّلَ الْخِضَابُ ، غَارِقًا فِي قَعْرِ بَحْرِ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ؛ وَقَطَعَ طَرِيقَ زَاوِيَتِهَا عَلَى مَنْبَاطِهَا مِنَ الْمُقْطَعِينَ وَالْفُقَرَاءِ ، وَتَرَكَ الطَّلَاحَ كَالصَّالِحِ يَمْسِي عَلَى الْمَاءِ ؛ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ، أَلَّا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ؛ وَأَدْرَكَهُمْ الْغَرَقُ فَأَيْسُوا مِنَ الْخَلَّاصِ ، وَعَشِيَهُمْ مِنَ الِيمِّ مَا غَشِيَهُمْ وَلَا تَ حِينَ مَنَاصٍ ؛ وَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ فَهَدَّتْ قَوَاهِمَ ، وَأَسْتَغَاثُوا مِنْ كَثْرَةِ الْمَاءِ بِالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ .

قُلْتُ : فَالرَّوْضَةُ ؟ قَالَ : أَحَاطَ بِهَا إِحَاطَةُ الْكَيْمِ بِزَهْرِهِ ، وَالكَأْسُ بِجُبَابِ نَحْرِهِ :

فَكَانَهَا فِيهِ بِسَاطُ أَخْضَرَ * وَكَأَنَّهُ فِيهَا طِرَارُ مُذْهَبٍ !

فَلَمْ يَكُنْ لَهَا بَدْفَعُ أَصَابِعِهِ يَدَانِ ، وَكَمْ أَنْشَدَ مَرَّجُهَا حِينَ مَرَّجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ :

أَعْيَنِي كُفًّا عَنِ فُرُودِي فَإِنَّهُ * مِنَ الْبَغِيِّ سَعَى أَشْيَيْنِ فِي قَتْلِ وَاحِدٍ !

قُلْتُ : فَدَارُ النُّحَاسِ ؟ قَالَ : انْحَسَّ حَالُهَا ، وَأَفْسَدَ مَا عَلَيْهَا وَمَا لَهَا ؛ فَدَخَلَ مِنْ

حَمَامِهَا الطُّهْرُ ، وَقَطَعَ الطَّرِيقَ بِالْجَامِعِ الطُّهْرِ ؛ فَالْحَقَّ بِجَازِ بَابِهِ بِالْحَقِيقَةِ ، وَرَقِيَ

مِنْهُ عَلَى دَرَجَتَيْنِ فِي دَقِيقِهِ ؛ كَمْ أَغْتَرَفَ مَا جَاوَرَهُ مِنَ الْغُرْفِ غُرْفًا ، وَأَطْلَقَ مِنْ مَائِهِ

الْأَحْمَرِ النَّارَ بِمُورِدَةِ الْخُلْفَا .

قلت : فالخليج الحاربي ؟ قال : خرج عسكر موجه بعهد الكسر على حمية ،
ومرقة من قسي قناطره مروق السهم من الرمي .

قلت : فالمنشأة ؟ قال : أصبحت للبحر مفره ، بعد أن كانت للعيون قره ، وقيل
لمنشأها : أتى يحيى هذه الله بعد موتها قال : يُحييها الذي أنشأها أول مره ، قد مال
على ما فيها من شون الغلال كل الميل ، وتركها تتلوق بمها الذي شفتاه مضراعا
بابها : (ياء بآنا منع منا الكيل) .

قلت : بغزيرة أروى ؟ قال : قد أفسد جل ثمارها ، وأتى على مغايبها فلم يدع
شيئا من رديها وخيارها ، أخلق دياجة روضها الأنف ، وترك قلفاسها في الجروف
على شفا جرف :

بعيني رأيت الماء يوما وقد جرى * على رأسه من شاهق فتكسرا !

طلما تضرع بأصابعه إلى ربه ، ولطم برؤوسه الحيطان مما جرى من الماء
على قلبه ؛ وتمثل بقول الأول :

وإن سألوك عن قلبي وما قاسى * فقل : قاسى ، وقل : قاسى ، وقل : قاسى !!!

لم يفده تحضنه من ورقه بالدرق والستائر ، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه
فضح أن الماء سلطان جائر .

قلت : فحكر ابن الأمير ؟ قال : لم يبق منه غير الثلث والثلث كثير ، قد أنحل
من دوره نماثلها ، وجعل غاليها سافلها ، فكم دار أعدم صاحبها قراره ، ونادى
في عرساتها المتداعية : إياك أعني فاستمعي يا جاره ، فأصبحت بعد نفعها قليسة
الجداء ، مستولية عليها يد الردى ، شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أصحكت في يومها
أبكت غدا .

قلت : فبولاق ؟ قال : إِملاق ، قد أَلْتَقَتْ بها من الرِّقِّ السَّاقُ بالسَّاقِ ، فَأَتَى
 من النُّوتِيَّةِ على الصَّغِيرِ والكَبِيرِ ، ومن المَرَاكِبِ ومَمَرَّهَا على النِّقِيرِ والقَطْمِيرِ .
 هذا بعد أن تَرَكَ جَامِعَ الخَطِيرِيَّ على خَطَرٍ ، وحيطَانَهُ يَابِغَةَ الثَّرْبِ ؛ قد دَنَا قِطَانُهَا ،
 وَحَانَ تِلَافُهَا ؛ فَكَأَنِّي به وقد مَنَعَ رِفْدَهُ ، وتَلَا على مَحْرَابِهِ سُورَةَ السَّجْدَةِ .
 قلتُ : بغزيرة الفيل ؟ قال : آفَلَعُ أشْجَارَهَا بِشُرُوشِهَا ، وتَرَكَ سَوَاقِيهَا خَاوِيَةً
 على عُرُوشِهَا .

قلتُ : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هَجَمَ على حُرْمِهَا ، وعمَّ الوجوه من فَرْقِهَا
 إلى قَدَمِهَا ؛ فَبَلَّ ثَرَى المَوْتَى في التَّخُومِ ، وَعَنَتِ الوجوهُ لَمَعَى القِيُومِ ؛ قلتُ : فما
 الحيلة ؟ ، قال : تَرَكَ الحِيلَةَ :

دَعَا سَمَاوِيَةً تَجْرِي على قَدْرِ * لَا تُفْسِدُنَا بِرَأْيِ مَنْكَ رَاضِي (؟)

طَالَ الكِتَابُ ، وَخَرَجْنَا عن فَضْلِ الخِطَابِ :

وَلَرُبَّمَا سَاقَ المُحَدِّثُ بَعْضَ مَا * لَيْسَ النَّدَى إِلَيْهِ بِالمُحْتَاجِ !

وكأني بقائل يقول : أليس من الكبر أن يستخدم هذا في رسالته ملوك الكلام ،
 ومن الحق أن يحل عرائس أفكاره بما للناس من حلي النثر والنظام ؛ فأقول :
 مُسَلِّمٌ أَنْ كُلَّ مَا أوردته دُررٌ وجواهرٌ ، وعقودٌ كرهير الرِّبْعِ عيونٌ وجوهها النواضر
 نَوَاطِرٌ ؛ وَلَكِنَّهَا هَاهُنَا أمثل ، وَجَمَعَ شَمْلَهَا على هَدْيِ العُرُوسِ أَجْمَلِ :

* وَفِي عُنُقِ الحَسَنَاءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ ! *

وعلى الجملة فيرجع المملوك إلى التواضع وهو الأليق بالأدب ، فيقول : لا عيب
 على الفقيرة إذا تجملت بحلي الغني ، ولا عار على الجوهرية إذا نظمت سلكا كانت
 دُررُه على الطُّرُقِ مَرْمِيَّةً ، وَتَرَجَّعُ إلى ما وَلَدَهُ الفِكرُ من عَجَبِ البَحْرِ ، وما ظهر من دَفْعِ

الملوك لأمثالها عن جرحيها إلى غاياتها بصور القمر، فأقول : إنما قالت الأدباء ذلك لما جرى من جور النيل على الأرض، ولما عم الناس من الإرجاف بطول أذاه وهرجه فكأنما هم في يوم العرض ؛ وكل ذلك وما وصل إلى هذا الارتفاع ، وربما كان أنقص من هذه الزيادة بقريب الدرّاع .

وعلى هذا القياس إنما دفع ضرره، وجمّل في البلاد أثره، وحسن في السماء خبره وفي الأرض مخبره ؛ السرى الذي أهتاه بالمعروف معروف ، وسيف الدين الذي سهر في مصالح الرعايا لما تنام ملء أجنافها السيوف ؛ أتاك العساكر، والمملك الذي هو بالإسلام وله منصور وناصر؛ حصن سائر الكوى بالחסور، وركز على أفواه البحر والخليج الأمراء كما يركز المجاهدون على الثغور ؛ وقابل البحر من سطواته بما ليس له به قبل ، وردّ دفعه بكلّ دفع من الرأي والتدبير يُغني عن البيض والأسل ؛ وحاربه بجيش عزيم إلى أن ولّى هارباً مع التراع والقناطر، وجاهدّه بجند زكّهم على جوانبه لما تحقق أن البحر سلطان جائر؛ وحصره بالتضييق عليه كما تُحصر البرك والتراع، وغلّ يده عن التصرف فسفاه الموت كما سقى الناس أنواع التراع ؛ فما هو إلا أن تضاعل بينان سطواته وأحترق ، ودلّ خاضعاً وكفى به تضرعاً بالأصابع وتوسلاً بالملق، وأطاع لما لم تُجّه مجاهرته من تياره بالسيوف ولا تحصنه من داراته بالدرق .

على أنه تطاول ليضاهي بأصابعه جود أيديه فقصر، وتحمس فركب خيل خيلائه ليحاكي بأسه فوقع من جسور مجبه وتقطر، وسمت نفسه كبيراً لأن يبلغ قدره فقيل : يا بحر هذا خليفة الله في أرضه والله أكبر ؛ نعم :

رأى البحر الخضم نداء طام * يفيض على الورى منه بحار،

فصار البحر ملتطماً وأضحى * على الحالين ليس له قرار!

فلوزدت في أيام غيره من الملوك المترفين ، وفيمن يؤثر بالأذ نفسه على مصالح
المسلمين ؛ كنت أيها الملك بلغت قصدك ، وفعلت في أبناء مصر كجهدك ؛ وكنت
من الملوك الذين إذا دخلوا قرية آتعلوا فيها الأهله ، وأفسدوها وجعلوا أعزة أهلها
أذله ؛ لكن هب قبولك إذارا ، ولاقت ريتك إعصارا ؛ فليس لك به قبل ،
«والسبل أدرى بالجل ،» ؛ فمالك سبيل إلى بلاده ، ولا طاقة بآباب الخير على عياده ؛
فانه خادم الحرمين ، والمدعو له حتى في مواقف الحرب بين العلمين ؛ حامى السواحل
والشعور ، والمخدوم بأيدى السحائب وأصابع البحور ، وإن كنت يا أبا خالد أبا جعفر
فلمست بمنصور ؛ والرأي أن تقف مستغفرا ، وتقول مُتندرا ؛ : لم أفرط بالزيادة
في أيامه ، ولم أفض على طرف الميدان إلا لأفوز بتقبيل آثار جواد خيله ومواطي
أقدامه ؛ وتتبع نواهيته وتمتثل أوامره ، وتدعو له كالرايا بطول البقاء في الدنيا
وحسن الثواب في الآخرة .

ونحن نسأل الله كما بلغ بك المنافع ، أن يرينا كوكب نورك عن قريب راجع ؛
وكما أغنى بزيادتك عن الاستسقاء ، لا يئوجنا في نقصك إلى الاستسقاء ، إنه سميع
مجيب الدعاء ؛ بمنه وكرمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في قدمات البندق)

جمع قِدْمَةٍ بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهي رَسَائِلُ تُسْتَمَلُ عَلَى حَالِ الرَّبِّيِّ بِالْبُنْدُقِ، وَأَحْوَالِ الرَّمَاةِ، وَأَسْمَاءِ طَيْرِ الْوَاجِبِ، وَأَصْطِلَاحِ الرَّمَاةِ وَشُرُوطِهِمْ. وهذه نسخة قِدْمَةٌ، كَتَبَ بِهَا شَيْخُنَا الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ الصَّائِغِ الْحَنْفِيُّ الْأَدِيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ، لِصَلَاحِ الدِّينِ بْنِ الْمُقْتَرِ الْحَمِيَوِيِّ بْنِ فَضْلِ اللَّهِ، وَنَصَّهَا :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي سَدَّدَ لِصَلَاحِ الدِّينِ سِهَامِ الْوَاجِبِ، وَشَيَّدَ بِجَاحِ الْمَطْلُوبِ مَرَامَ الطَّلَبِ، وَجَعَلَ حُصُولَ الرِّزْقِ الشَّارِدِ بِالسَّعْيِ فِي الْمَنَاقِبِ، وَسَهَّلَ الْمُتَمَتِّعَ عَلَى الْقَاصِدِينَ فَمَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ رَجَعَ وَهُوَ صَابِتٌ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَلَا وَلَدٌ وَلَا صَاحِبٌ، شَهَادَةٌ تَرْجَعُ طَيْرَ الْإِشْرَاقِ بِهَذِهِ الْأَشْرَاقِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَرَّبَهُ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى؛ وَهَذِهِ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ رَقَّوْا فِي الْعِلْيَاءِ لِمَرَاقٍ لَمْ يَسْمُ إِلَيْهَا طَيْرٌ مُرَاقِبٌ، صَلَاةٌ يَسْبِقُ بِهَا الْمُصَلِّيُّ إِلَى بَقَاعِ شَرَفٍ يُشْرِقُ سَنَاهُ فِي الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ، وَيَرْجِعُ طَائِرًا بِالسُّرُورِ وَلَا رُجُوعَ الطَّائِرِ الشَّارِدِ إِلَى الْمَشَارِبِ .

وَبَعْدُ، فَإِنَّ الصَّيْدَ مِنْ أَحَلِّ الْأَشْيَاءِ وَأَحْلَاهَا، وَأَجْلَاهَا وَأَجْلَاهَا، وَأَبْهَرَهَا وَأَبْهَاهَا، وَأَشْهَرَهَا وَأَشْهَاهَا؛ وَاخْتَرَهَا قِيمَةَ، وَأَغْزَرَهَا دِيمَةَ؛ بِوُرُودِ الطَّيْرِ فِيهِ إِلَى الْمَنَاهِلِ تَنْشِيرِ الصَّدُورِ، وَبُوقُوعِهِ فِي سُرُورِ الشَّرْكِ يَتِمُّ السُّرُورُ؛ يُحْصَلُ عِنْدَ مُتَعَاطِيهِ نَشَاطًا، وَيَزِيدُهُ أَنْبَسَاطًا؛ وَيُشْرِحُ خَاطِرَهُ، وَيُسْرِّحُ نَاطِرَهُ؛ وَيَمَلَأُ عَيْنَهُ قُرَّةً،

وَقَلْبَهُ مَسْرَهُ؛ يُشَجِّعُ الْجَبَانَ، وَيُثَبِّتُ الْجَنَانَ، وَيُقَوِّى الشُّهُوهَ، وَيُسَوِّى الخَطُوهَ؛
وَيُسَوِّقُ الظَّفَرَ، وَيُسَوِّقُ النَّظَرَ، وَيُرْوِقُ مِنْهُ الْوَرْدَ وَالصَّدْرَ، وَيَفُوقُ فِيهِ الخُبْرَ عَلَى
الخُبْرِ. قَالَ بَعْضُ الحِكَمَاءِ: قَلَمًا يَغْمَشُ نَاطِرُ زَهْرَةٍ، أَوْ يَزِمُنُ مُرْبِعُ طَرِيدَةٍ، يَعْنِي
بِذَلِكَ مَنْ أَدْمَنَ الحِرْكََةَ فِي الصَّيْدِ وَنَظَرَ إِلَى البَسَاتِينِ، فَاسْتَمَعَ طَرْفَهُ بِنُضْرَتِهَا،
وَأَنَبَقَ مَنَظَرَهَا.

وَمَنْ ذَا الَّذِي يُنْكِرُ لَذَّةَ الْأَصْطِيَادِ، وَالطَّرَبَ بِالْقَنَصِ عَلَى الإِطْرَادِ؟ وَنَهْ دَرَّ القَائِلُ:

لَوْلَا طَرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكْ لَذَّةٌ * فَتَطَارِدِي لِي بِالْوِصَالِ قَلِيلًا.

هَذَا الشَّرَابُ أَخُو الحَيَاةِ وَمَالِهِ * مِنْ لَذَّةٍ حَتَّى يُصِيبَ عَلِيلًا!

يَا حُسْنَهُ مِنْ فِعْلٍ آعْتَلَّتْ بِالنِّسِيمِ مَوَارِدُهُ وَمَصَادِرُهُ، وَفَاقَتْ أَوَائِلَهُ فِي اللِّدَادَةِ

أَوَاخِرُهُ؛ وَنَهْ القَائِلُ:

إِنَّمَا الصَّيْدُ هَمَّةٌ وَنَشَاطٌ * يُعْقِبُ الجِسْمَ صِحَّةً وَصَلَاحًا،

وَرَجَاءٌ يُنَالُ فِيهِ سُرُورٌ * حِينَ يَلْقَى إِصَابَةً وَنَجَاحًا!

وَمَا أَطْيَبَ الاِقْتِنَاصَ بَعْدَ الشُّرُودِ، وَكَيْفَ يُرَى مَوْقِعَ الوِصْلِ بَعْدَ الصَّدُودِ:

وَزَادَنِي رَغْبَةً فِي الحُبِّ أَنْ مَنَعْتُ. * أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الإِنْسَانِ مَا مَنَعْنَا!

تَقْضِي رِيَاضَاتُ النُّفُوسِ السَّامِيَةَ بِعَاطَاةِ كَاسِهِ، وَمُصَافَاةِ نَاسِهِ؛ لِمَا فِيهِمْ مِنْ

الْفُتُوهِ، وَكَيْلِ المُرُوهِ؛ وَصِدْقِ اللِّسَانِ، وَثَبَاتِ الجَنَانِ؛ وَطِيبِ الأَخْلَاقِ، وَحِفْظِ

المِيتَاقِ؛ لَا يَعْرِفُونَ غَيْرَ الصَّدْقِ وَإِنْ كَانُوا يَمِيلُونَ إِلَى المَلَقِ، وَلَا يَبِغُونَ بِصَاحِبِهِمْ

بَدِيلًا يَعْطِفُونَ عَلَيْهِ عَطْفَ النَّسَقِ؛ لَا سِوَمَا تَعَاطَى صَيْدُ طُيُورِ الوَاجِبِ، الَّذِي سَنَّهُ

الأَكْبَرُ وَجَعَلُوا أَمْرَهُ مِنَ الوَاجِبِ؛ وَتَشَرَّفْتَ بِهِ هِمْمُهُمُ العَالِيَةُ: تَارَةً إِلَى السَّمَاءِ،

وَأُوتِيَةً إِلَى مَشَارِعِ المَاءِ.

لا يَتَمُّ سرورهم إلا برؤية تم كبدر التمام، ومصباح الظلام؛ يفر من ظله فرارا،
ويريك بياض لونه وسواد منقاره شيئا ووقارا؛ ولا يداوي هموم لغيمهم مثل كئي،
لأجنحته الخوافي في الخافقين نشر وطى؛ ولا تبتهج نفوسهم النفيسة إلا بإوزة،
يزدري دلاها بالكعب المعتزة؛ ولا يطرب أسماعهم غير لغات اللغلة، حين تمتد
كانها مدامة في الرجاجة مفرغه؛ ولا يؤنسهم إلا الأنيسة الأنيسه، والذرة النفيسة؛
ولا يذهب حرهم غير الحبرج الصادح، المستوقف بحسنه كل غاد ورائح؛ تكاد
قلوبهم تطير بالفرح عند رؤية النسر الطائر، وتجر خواطيرهم بكسر ذلك الكاسر؛
إذا عينوا عقباناً أعقبهم الفرح، ونزع عنهم الترح؛ وإن كركر كئي فر عنهم البوس،
ورأوا على رأسه ذلك التاج الذي لم يعل منله على الرؤوس؛ وإن عرض غرنوق
غير قوا في بحار أفكارهم، وجدوا إلى أن يقع يجداول أوتارهم؛ وإن لاح ضوع
كالذهب المصوغ، ألقوه في الحبال وهو بدمه مصبوغ؛ وإن مر مرزم كالخودة
الحسنة، ضربوا له الآلة الحذاء؛ وإن مر السبيطر أجنحته كالسحاب، جاءت
المرامي من كل جانب؛ وإن عن عز عمدا إليه، حتى يسقط في يديه؛ قد تعالوا
في رتبها، وتغالوا في وصف وشيها.

وجعلوا كل آلة صنيعة، وربة جمال منيعه، وبعيدة الرمي بديعه :-

من كل قوس هي في العين كالحاجب، أو النون التي أجادها الكاتب؛ تدور
الطائر عند الرمي وتدييه، وتئن آيئنا أولى به من نصيبه. وبندي جيلت طينته
على صوب الصواب، يستنزل الطير ولو استتر بذيل السحاب؛ كأنه النجم الثاقب،
والشهاب الصائب؛ يرى الطير كالسحاب الواكف، فينقض عليه انقضا البرق
الخاطف؛ ويرجع النسر من حنقه راتعا، ويقدو بعد أن كان طائرا واقعا؛ ويصير
بعد أن كان كاسرا مكسورا، وفي سوار القسي مأسورا؛ فهناك يلتقي الغالب

وهو مغلوب ، والطير الواجب وهو مندوب ؛ فحينئذٍ تنشرح النفوس ، وتطرب ولا طربها بالكؤوس .

ولما كان بهذه المنزلة العظيمة ، والمرتبة الحسيمة ؛ تعاطته الملوك وأبناء الملوك ، ونظموا عقده بحسن السلوك ؛ وأرناضت به النفوس الطاهرة ، وأعتاضت به عن الكؤوس الدائرة ؛ ورأت به تكميل الأدوات ، وسامت به فعل الواجب وإن قيل : إن ذلك من الهفوات ؛ فهو تعب تنشأ الراحة عنه ، وأعب لم يكن شيء أشبه بالجد منه .

فلذلك قصد الجناب الكريم ، العالى ، الصلاحى ، صلاح الدنيا والدين ، ونجاح الطالبين ؛ سليل الوزراء ، ونجل الكبراء ، وصدر الرؤساء ، وعين العطاء ؛ ابن المقر المحيوى بن فضل الله ، أدام الله تعالى علاه ، وكبت عداه ؛ وأعلى معاليه ، وشكر مساعيه ؛ وأطال حياته ، وأطاب ذاته - أن يسلك تلك المسالك ، ويرى نفسه الكريمة بذلك ، ويتحيل على تحصيل اللذات بالتحول ، عملاً بقول الشاعر :

* تنقل فلذات الحموى فى التقل ! *

وعمد إلى تحصيل آلاته ، سائراً كالبدنر فى هالاته ؛ فسار مع سرايا كالجُوم ، يتفك كهون فى الحديث بالمشور والمنظوم ؛ ويخلطون جد القول بهزله ، كلما خلط لهم طل الجود بوبله ؛ وأتحدرُوا فى النيل بجمعهم الصحيح ، وقصدوا المرامي العالية ولم يقنعوا من الأيام بالريح ؛ وظلُّوا يسرون فى تلك المراكب ، التى كأنها قطع السحاب .

هذا وهم يتشوفون إلى المصايد ، ويشرفون إلى الشوارد ؛ فيطلعون أحياناً إلى البرمترجين ، وبطيب ذلك النسيم متارجين :

نَسِيمٌ قَدْ سَرَى فِيهِمْ بَنَشِيرٌ * فَأَذَكَّهُمْ بِمَسْرَاهِ السَّرِيَا!

كَرَامَتُهُ اسْتَقَرَّتْ حِينَ وَاقَى * لَهُ نَفْسٌ يُعِيدُ الْمَيِّتَ حَيًّا!

وَيَحْتَنُونَ مِنَ الْقُضْنِ الرَّاهِي قَدَا ، وَيَحْتَلُونَ مِنَ الْوَرْدِ الرَّاهِرِ حَدَا ، وَيَتَأْمَلُونَ
ضَحْكَ الْأَرْضِ مِنْ بُكَاءِ السَّمَاءِ ، وَشِمَاخَةَ الْقُضْبِ عِنْدَ حَرِيرِ الْمَاءِ ؛ لَا تَذُوقُ أَجْفَانَهُمْ
طَعْمَ الْكَرْبِيِّ ، وَلَا يَمِيلُونَ عَنِ السَّيْرِ وَلَا يَمْلُونَ السَّرِيَّ ؛ مَا مِنْهُمْ إِلَّا مَنْ إِذَا رَأَى الطَّيْرَ
جَائِئًا ، عَادَ مِنْ وَقْتِهِ لَهُ حَائِئًا ؛ بَيْنَا هُمْ يَسِيرُونَ مُتَفَرِّقِينَ ، حَتَّى إِذَا لَاحَ لَهُمْ طَيْرٌ
تَدَاعَوْا إِلَيْهِ غَيْرَ مُقَصِّرِينَ وَآتَقُوا مُحَلِّقِينَ ؛ وَلَمْ يَزَالُوا كَذَلِكَ يَهْمُونَ الْعَيْشَ ، بِالذِّعَةِ
وَالطَّيِّشِ ؛ حَتَّى إِذَا أَقْبَلَ الْيَوْمُ الْمُبَارِكُ الثَّامِنُ وَالْعَشْرُونَ مِنْ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ
تِسْعٍ وَثَلَاثِينَ وَسِعِمَاتَةَ ، وَهُوَ الْيَوْمُ الَّذِي عَزَمَ فِيهِ الْجَنَابُ الصَّلَاحِيُّ عَلَى الْأَصْطِيَادِ ،
بِالْبِنَادِقِ الْحِدَادِ ؛ فَتَبَاشَرَتْ بِهِ الطُّيُورُ ، وَسَدَّتْ بِأَجْنِحَتِهَا الثُّغُورَ ؛ وَسَهَّلَ عِنْدَهَا
فِيهِ نُزُولَ الرَّيْسِ ، فَجَادَتْ لَهُ بِالنَّفِيسِ ؛ وَخَرَجَتْ مِنْ قَشْرِهَا ، وَسَمَحَتْ عِنْدَ
مَدِّ الْقَوْسِ بِحَزِّ نَجْرِهَا ؛ وَرَغِبَ كُلُّ مَنْهَا أَنْ يَكُونَ لَهُ بِذَلِكَ أَوْفَرُ الْقِسْمِ ، وَتَرَجَّى أَنْ
يَكُونَ هُوَ الْمَكْتُوبَ لَهُ فِي الْقِدَمِ .

وَمَدَّ يَدَهُ نَحْوَ السَّمَاءِ ، فَأَصَابَ مِرْزَمًا ؛ فَيَالَهُ مِنْ صَيْدٍ فَاقَ بِهِ عَلَى الْأَكْبَارِ الصَّيْدِ !
وَيَالَهُ مِنْ يَوْمٍ صَارَ يَنْجُرُ الطَّيْرَ يَوْمَ الْعِيدِ ! أَقَامَ فِيهِ بِوَجِبِ مَاشِرَعِهِ الرَّمَاتَةَ مِنَ الشَّرْعِ ،
وَذَكَرْنَا بِهَذَا الصَّرْعِ يَوْمَ ذَلِكَ الصَّرْعِ ؛ فَلَا زَالَ سَهْمُهُ مَسْتَدُّ الْأَعْرَاضِ ، وَجَوْهَرُهُ
نَحْيًا مِنَ الْأَعْرَاضِ ؛ يَجْرِي بِمَرَادِهِ الْمَقْدُورُ ، وَيُطِيعُهُ فِي سَائِرِ الْأُمُورِ .

وَقَدْ نَظَّمْتُ مُحَمَّسًا مُشْتَمَلًا عَلَى ذِكْرِ طُيُورِ الْوَاجِبِ ، وَطَرَّزْتُهُ بِاسْمِهِ ، لِأَنَّ هَذِهِ
الْقِدْمَةَ قَدْ قَدِّمْتُ لَهُ وَجَعَلْتُ بِرِسْمِهِ ، غَيْرَ أَنِّي أَعْتَدْتُ عَنْهَا ، الْعَدَمَ مَادَّةً عِنْدِي
أَسْمَدُ مِنْهَا :

جَلَّ كُؤُوسًا عَطَّلَتْ بِالرَّاحِ، * وَلَا تُطْعَمُ فِيهَا كَلَامَ لَاحِي،
وَأَشْرَبَ هَنِينًا وَأَسْفِنِي بِاصْبَاحِ، * وَأَذْكَرَ زَمَانًا مَرًّا بِالْأَفْرَاحِ،
* هَبَّتْ بِهِ فِيمَا مَضَى رِيَاحِي ! *

أَيَّامَ كُنْتُ أَحْبَبُ الْأَكَابِرَا، * وَأَغْتَدِي مَعَ الرَّمَاةِ سَائِرَا،
وَلَا أَزَالُ بِالغَيْسَارِ غَائِرَا، * إِذَا رَأَيْتُ فِي المِيَاهِ طَائِرَا،
* نَحْوَتُهُ مِنْ سَائِرِ النَّوَاحِي ! *

فِتَارَةٌ كُنْتُ أَصِيدُ النَّسْرَا، * وَبَعْدَهُ الْعُقَابُ يَحْكِي الْجَمْرَا
وَالكِيَّ وَالكُرْكِيَّ صِدْتُ جَهْرَا، * وَصِدْتُ غِرْنَ نَوْقًا وَعَتْرًا قَهْرَا
* وَكُنْتُ بِالْإِوزِ فِي أَنْسِرَاحِ ! *

وَتَارَةٌ تَمَّا كَبَدْرِ التَّمِّ * تَتَّبِعُهُ أَيْسَةً كَالنَّجْمِ،
وَلَغْلَغُ أَسْوَدُ مِسْكَ الهَمِّ، * وَجَبْرَجٌ عَنِ الرَّمَاةِ مَحْمِي،
* وَالضُّوْعُ مَعَ سَبِيطِرِ سِيَّاحِ ! *

وَكَمْ وَكَمْ قَدْ صِدْتُ يَوْمًا مَرَزَمًا * أَنْزَلْتُهُ بِالْقَوْسِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ،
جَنَاحَهُ يَحْكِي طَرَاذَا مُعَلَّمَا * عَلَيَّ بِيَاضُ شَيْءٍ شَبِهَ الدَّمَاءِ،
* كَأَنَّهُ لَيْلٌ عَلَيَّ صَبَاحِ ! *

حَيْثُ الصَّبَا تُسْفَعُ بِالْقُبُولِ، * وَشَمَلْنَا يُجْمَعُ بِالشَّمُولِ،
فِي مَجْلِسٍ لَيْسَ بِهِ فُضُولِي، * وَجَاءَنَا التَّوْقِيعُ فِي الوُضُولِ :
* فَسَادٌ كَمْ يَغْفَرُ بِالصَّلَاحِ ! *

(١) ورد في (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب : بالشين المعجمة مضمومة .

السَّيِّدِ الْفَائِئِي فِي أَفْعَالِهِ ، * وَالْمُزْدَرِي بِالْبَدْرِ فِي كَمَالِهِ ،
وَالْمُشْتَرِي حُسْنَ النَّائِبِ بِمَالِهِ ، * لَا أَحَدٌ يَحْكِيهِ فِي نَوَالِهِ :

* إِلَّا أَحُوهُ مَعْدِنُ السَّمَاكِ ! *

مَنْ سَادَ فِي الدُّنْيَا عَلَى الْكُتَّابِ ، * وَصَانَ سِرَّ الْمُلْكِ فِي حِجَابِ ،
عَلَى الْعَالِي عَلَى السَّحَابِ ، * الْبَاذِلِ الْمَالَ بِلا حِسَابِ !
(١٦)

زاده الله نعمًا، وأجرى له في الندى يدا وثبت له في العلى قدما؛ بمنه وكرمه .



وهذه نسخة رسالة في صيد البندق ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين أبي التَّاء
محمود بن سلمان الحلبي رحمه الله ، وهي :

الرِّيَاضَةُ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ الْجَنَابِ الْفُلَانِيَّ ، وَجَعَلَ حُبَّهُ كَقَلْبِ عَمُوَّةٍ وَاجِبَا ، وَسَعَدَهُ
كَوَصْفِ عَيْدِهِ لِسَارِ جَالِيَا ، وَلِلضَّارِّ حَاجِبَا - تَبَعْتُ النَّفْسَ عَلَى مُجَانِبَةِ الدَّعَةِ وَالسُّكُونِ ،
وَتَصَوَّنِيهَا عَنْ مُشَابَهَةِ الْحَمَائِمِ فِي الرُّكُونِ إِلَى الْوُكُونِ ؛ وَتَحَضَّنِيهَا عَلَى أَخْذِ حَظِّهَا مِنْ كُلِّ
فَنٍّ حَسَنٍ ، وَتَحَمَّنِيهَا عَلَى إِضَافَةِ الْأَدْوَاتِ الْكَامِلَةِ إِلَى فَصَاحَةِ اللَّسَنِ ؛ وَتَأْخُذُ بِهَا طَوْرًا
فِي الْجِدِّ وَطَوْرًا فِي اللَّعِبِ ، وَتَضْرِفُهَا مِنْ مَلَاذِّ السُّمُوفِ فِي الْمَشَاقِّ الَّتِي يَسْتَرْوِحُ إِلَيْهَا
التَّعَبُ . فَتَارَةٌ تَحْمِلُ الْأَكَابِرَ وَالْعُظَمَاءَ فِي طَلَبِ الصَّيْدِ عَلَى مُوَاصَلَةِ السَّرِيِّ ، وَمُقَاطَعَةِ
الْكِرِيِّ ؛ وَمُهَاجِرَةَ الْأَوْطَارِ ، وَمُهَاجِمَةَ الْأَخْطَارِ ؛ وَمُكَابِدَةَ الْهَوَاجِرِ ، وَمُبَادِرَةَ الْأَوَابِدِ
الَّتِي لَا تُدْرِكُ حَتَّى تَبْلُغَ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ؛ وَذَلِكَ مِنْ مَحَاسِنِ أَوْصَافِهِمُ الَّتِي يُدْمُ الْمُعْرِضُ
عَنْهَا ، وَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ مَيْلِهِمْ جِدَّ الْحَرْبِ فَهَذِهِ صُورَةٌ لِعَيْبِ يُجْرَجُ إِلَيْهَا مِنْهَا .
وَتَارَةٌ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْبُرُوزِ إِلَى الْمَلَقِ ، وَيَحْدُوهُمْ فِي سُلُوكِ طَرِيقِهَا مَعَ مَنْ هُوَ دُونِهِمْ

(١) سقطت الشطرة الخامسة من قلم الناسخ .

على ملازمة الصّدق ومجانبة الملقّ؛ فيعتسِفون إليها الدّجى، إذا سَجى؛ ويقْتحمون في بلوغها حرق النّهار، إذا أنهار؛ ويتنعمون بوعتاء السّفَر، في بلوغ الظّفَر؛ ويسْتصغرون رُكوب الخطر، في إدراك الوطر؛ ويؤثرون السّمَر على النّوم، والليلة على اليَوْم؛ والبندق على السّمَام، والوحدة على الألتِثام .

ولمّا عدنا من الصّيد الذى اتّصل به حديثه، وشِرح له قَدِيم أمره وحديثه؛ تُقنا إلى أن تَسْفَع صيد السّوانح، برمي الصّوادح؛ وأن نَفعل في الطّير الجوانح، بأهله القسيّ . ما نَفعل الجوارح؛ تَفْضيلًا لملازمة الأرتحال، على الإقامة في الرّحال؛ وأخذًا بقولهم :

لَا يُصْلِحُ النَّفْسَ إِذْ كَانَتْ مُدْبِرَةً * إِلَّا التَّنْقُلُ مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ !

فبرزنا وتَمَسُّم الأصيل تجود بنفسها، ولَسِير من الأفق الغربيّ إلى موضع رَمْسها؛ وتُغازل عيون النّور بمقلة أَرَمَد، وتُنظر إلى صَفحات الورْد نظر المَرِيض إلى وجوه العود؛ فكأنها كَتِيبُ أَخْجَى من الفراق على فرق، أو عَليْلٌ يقضى بين صحبه بقايا مَدّة الرّمق؛ وقد أَخضلت عيون النّور لوداعها، وهمّ الرّوضُ بخلج حُتّه الموهبة بذهب شُعاعها :

والظّل في أعين النّوارِ تحسبه * دَمْعًا تحيّر لم يرقأ ولم يكف :

كلؤلؤ ظلّ عطف الغصن مُتَشحًا * بعقده وتبدّى منه في شَنِف .

يضمّ من سندس الأوزاق في صرير * خُضِرٍ ويحني من الأزهار في صدف !

والشمس في طفّل الإمساء تنظر من * طرف غدا وهو من خوف الفراق خفي :

كعاشق سار عن أحبّاه وهفا * به الهوى فتراأههم على شرف .

إلى أن نَضَى المغرب عن الأفق حلى قلائدها، وعوّضه عنها من النّجوم بجددتها وولائدها؛ فلئنا بعد أداء الفرض لبث الأهلّة، ومنعنا جفوننا أن تردّ النّوم

إِلَّا تَحِلَّهُ ؛ وَنَهَضْنَا وَبُرْدَ اللَّيْلِ مُوشَعٌ ، وَعِقْدُهُ مُرْصَعٌ ، وَإِكْلِيلُهُ مُجُوهرٌ ، وَأَدِيمُهُ
مُعْتَبَرٌ ؛ وَبَدْرُهُ فِي خِدرِ سِرَارِهِ مُسْتَكِنٌ ، وَبِحُفْرِهِ فِي حَشَا مَطَالِعِهِ مُسْتَجِنٌ ؛ كَانَ
أَمْتَرَجَ لَوْنُهُ بِشَفَقِ الْكواكِبِ خَلِيطًا مِسْكٍ وَصَنْدَلٍ ، وَكَأَنَّ ثُرْيَاهُ لِأَمْتَدَادِهِ مُعَلَّقَةٌ
بِأَمْرَاسٍ كَّانٍ إِلَى صُمِّ جَنْدَلٍ :

وَلَا حَتَّ نَجْمُ اللَّيْلِ زُهْرًا كَأَنَّهَا * عُقُودٌ عَلَى خَوْدٍ مِنَ الرَّيْحِ تُنْظَمُ ،

مُحَقَّقَةٌ فِي الْجَوِّ تُحْسَبُ أَنَّهَا * [طُيُورٌ] عَلَى نَهْرِ الْمَجْتَرَةِ حَوْمٌ

إِذَا لَاحَ بَازِي الصَّبِيحِ وَلَّتْ يَوْمَهَا * إِلَى الْغَرْبِ خَوْفًا مِنْهُ نَسْرٌ وَمِرْزَمٌ !

إِلَى حَدَائِقِ مُلْتَقَّةً ، وَجَدَاوِلَ مُحْتَفَّةً ؛ إِذَا نَحَسَّ النَّسِيمُ غُصُونَهَا اعْتَنَقَتْ اعْتِنَاقَ
الْأُحْبَابِ ، وَإِذَا فَرَكَ مَرُّ الْمِيَاهِ مُتُونَهَا أَنْسَابَتْ فِي الْجَدَاوِلِ أَنْسِيَابَ الْحُبَابِ ،
وَرَقِصَتْ فِي الْمَنَاهِلِ رَقِصَ الْحَبَابِ ؛ وَإِنْ لَمْ تُغَوِّرْ نُورَهَا حَيَّتْهُ بِأَنْفَاسِ الْمَشُوقِ ،
وَإِنْ أَبْقَطَ نَوَاعِيسَ وَرُقْفَاهُ غَتَّتْهُ بِالْحُلَانِ الْمَشُوقِ ؛ فَنَسِيمُهَا وَإِنْ ، وَشِيمُهَا لِعَرَفِ الْجَنَانِ
عُنُونٌ ، وَوَرْدُهَا مِنْ سَهَرِ نَزْجِهَا غَيْرَانٌ :

وَطَلُّهَا فِي خُدُودِ الْوَرْدِ مُنْبِعَثٌ * طَوْرًا وَفِي طُرْرِ الرَّيْحَانِ حَيْرَانٌ !

وَطَائِرُهَا غَرِيدٌ ، وَمَأْوَاهَا مُطْرِدٌ ؛ وَغُصْنُهَا تَارَةٌ يَعْطِفُهَا النَّسِيمُ إِلَيْهِ فَيَنْعَطِفُ ، وَتَارَةٌ
يُعَلِّلُ تَحْتِ وَرَقَاتِهِ فَيُحْسِبُ أَنَّهَا هَمَزَةٌ عَلَى الْإِفِّ ؛ مَعَ مَا فِي تِلْكَ الرِّبَاضِ مِنْ تَوَافُقِ
الْمَحَاسِنِ وَتَبَايُنِ التَّرْتِيبِ ، إِذْ كَلَّمَا أَعْتَلَّ النَّسِيمُ صَحَّ الْأَرْجُ وَكَلَّمَا نَحَرَ الْمَاءُ شَمَخَ الْقَضِيبُ :

فَكَأَنَّهَا تِلْكَ الْغُصُونُ إِذَا نَتَتْ * أَعْطَفَهَا رِيحُ الصَّبَا أَحْبَابُ :

فَلَهَا إِذَا أَفْتَرَقَتْ مِنْ أَسْتَعْطَفِهَا * صَلَحَ وَمِنْ سَمِجِ الْحَمَامِ عِتَابُ .

وَكَأَنَّهَا حَوْلَ الْعُيُونِ مَوَائِسًا * شَرِبَتْ وَهَاتِيكَ الْمِيَاهُ شَرَابُ !

فَقَدِيرُهَا كَأَنَّهَا وَعَدْبُ نَطَافِهَا * رَاحَ وَأَضْوَاءُ النُّجُومِ حُبَابُ !

يَحِيطُ بِمَلَقِي نِطَاقِهَا صَافٍ، وَظِلَالِ دَوْحِهَا ضَافٍ، وَحَصَاهَا لَصَفَاءِ مَائِهَا فِي نَفْسِ
الْأَمْرِ رَاكِدٌ وَفِي رَأْيِ الْعَيْنِ طَافٌ؛ إِذَا دَغْدَغَهَا النَّسِيمُ حَسِبْتَ مَاءَهَا بِتَمَائِلِ الظَّلَالِ
فِيهِ يَتَّبِعُ وَيَمِيلُ، وَإِذَا أَطْرَدَتْ عَلَيْهِ أَنْفَاسُ الصَّبَا ظَنَنْتَ أَفْيَاءَ تِلْكَ الْعُصُونِ تَارَةً
تَمَوْجُ وَتَارَةً تَسِيلُ :

فَكَانَهُ مَحِبُّ هَامٍ بِالْعُصُونِ هَوَى فَمَثَلَهَا فِي قَلْبِهِ، وَكَأَنَّ النَّسِيمَ كَلَّفَ بِهَا غَارَ مَنْ
دُونَهَا إِلَيْهِ فَمِيلُهَا عَنْ قُرْبِهِ :

وَالنَّوْرُ مِثْلُ عَرَائِسٍ * لُفَّتْ عَلَيْهِنَّ الْمَسَاءُ،

شَمْرَنْ فَضْلُ الْأَزْرِ عَنْ * سُوقٍ خَلَاخُلْنِ مَاءُ،

وَالنَّهْرُ كَالْمِرَاةِ تَنْظُرُ وَجْهَهَا فِيهِ السَّمَاءُ !!!

وَكَأَنَّ صَوَافِ الطُّيُورِ الْمُتَسِقَةَ بِتِلْكَ الْأَرْضِ خِيَامٍ، أَوْ ظُبَاءَ بَأَعْلَى الرَّقَّتَيْنِ قِيَامٍ،
أَوْ أَبَارِيْقُ فِضَّةٍ رُؤُوسَهَا لَهَا أَقْدَامُ، وَمَنَاقِيرُهَا الْمُحْمَرَّةُ أَوَائِلُ مَا أَنْسَكَبَ مِنَ الْمُدَامِ؛
وَكَأَنَّ رِقَابَهَا رِمَاحَ أُسْتَتْهَا مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ شُمُوعَ أَسْوَدَ رُؤُوسَهَا مَا أَنْطَفَى وَأَحْمَرَهُ
مَا أَلْتَبَّ، وَكَمَا كَالطَّيْرِ الْجَلِيلِ عَدَّهُ، وَكَطِرَازِ الْعُمَرِ الْأَوَّلِ جِدَّهُ :

مِنْ كُلِّ أَلْبَجٍ كَالنَّسِيمِ لَطَافَةً * عَفَّ الضَّمِيرُ مُهَدَّبِ الْأَخْلَاقِ،

مِثْلُ البُدُورِ مَلَاةً، وَكَعْمَرِهَا * عَدَدًا، وَمِثْلُ الشَّمْسِ فِي الْإِشْرَاقِ!

وَمَعَهُمْ قِسِيٌّ كَالْعُصُونِ فِي لَطَاقِهَا وَلِينِهَا، وَالْأَهْلَةَ فِي نَحَاقِهَا وَتَكْوِينِهَا، وَالْأَزَاهِرَ
فِي تَرَاقِهَا وَتَلْوِينِهَا؛ بِطُوبُنِهَا مُدْبِجَهُ، وَمُتُونِهَا مُدْرَجَهُ؛ كَأَنَّهَا كَوَاكِبُ الشُّوْلَةِ فِي أَنْعَاطِهَا،
أَوْ أُرُوقُ الظُّبَاءِ فِي أَلْتِفَافِهَا؛ لِأَوْتَارِهَا عِنْدَ الْقَوَادِمِ أَوْتَارُ، وَلِبِنَادِقِهَا الْحَوَاصِلُ
أَوْ كَارٍ؛ إِذَا أُنْتَضِيَتْ لَصِيدَ ذَهَبٍ مِنَ الْحَيَاةِ نَصِيْبِهِ، وَإِنْ أُنْتَضَتْ لِرَمِيٍّ بَدَأَ لَهَا
أَنَّهَا أَحَقُّ بِهِ مِنْ يُصِيبُهُ؛ وَلَعَلَّ ذَلِكَ الصَّوْتُ زَجْرٌ لِبِنَادِقِهَا أَنْ يُنْطِئَ فِي سَمِيرِهِ،

أَوْ يَخْطَى الْغَرَضَ إِلَى غَيْرِهِ ، أَوْ وَحْشَةً لِمُفَارَقَةِ أَفْلَازِ كَبِيدِهَا ، أَوْ أَسْفُ عَلَى
خُرُوجِ بَيْنِهَا مِنْ يَدِهَا ؛ عَلَى أَنَّهَا طَالَمَا نَبَذَتْ بَيْنَهَا بِالْعَرَاءِ ، وَشَفَعَتْ لِحَصْمِهَا
التَّحْذِيرَ بِالْإِغْرَاءِ :

مِثْلُ الْعَقَابِ أَدْنَابًا مُعَقَّدَةً * لِمَنْ تَأَمَّلَهَا أَوْ حَقَّقَ النَّظْرَ !

إِنْ مَدَّهَا قَمْرٌ مِنْهُمْ وَعَيْنَهُ * مُسَافِرُ الطَّيْرِ فِيهَا أَوْ نَوَى سَفْرًا ،

فَهُوَ الْمُسَيِّءُ أَخْتِيَارًا إِذْ نَوَى سَفْرًا * وَقَدْرَأَى طَالِعًا فِي الْعَقَبِ الْقَمْرَ !

وَمِنَ الْبِنَادِقِ كُرَاتٌ مِتْفَقَةٌ السَّرْدُ ، مُتَّحِدَةٌ الْعَكْسُ وَالطَّرْدُ ، كَأَنَّهَا تُحِرِّطُ مِنْ
الْمُنْدَلِ الرُّطْبِ أَوْ تُحِثُّ مِنَ الْعَبْرِ الْوَرْدِ ؛ تَسْرَى كَالشَّهْبِ فِي الظَّلَامِ ، وَتَسْبِقُ إِلَى
مَقَاتِلِ الطَّيْرِ مُسَدَّدَاتِ السَّهَامِ :

مِثْلُ النُّجُومِ إِذَا مَا سَرْنَ فِي أَفْقٍ * عَنِ الْأَهْلَةِ لَكِنْ نُؤْنِبُ رَأً .

مَا فَاتَهَا مِنْ نُجُومِ اللَّيْلِ إِنْ رُمِقَتْ * إِلَّا تَبَاتُ يُرَى فِيهَا وَأَضْوَاءُ ،

تَسْرَى وَلَا يَتَسَعَّرُ اللَّيْلُ الْبَهِيمُ بِهَا * كَأَنَّهَا فِي جُفُونِ اللَّيْلِ إِغْفَاءُ ،

وَتَسْمَعُ الطَّيْرَ إِذْ تَهْفُو قَوَادِمُهُ * خَوَافِقًا فِي الدِّيَاجِي وَهِيَ صَمَاءُ !! !

يَصُونُهَا جِرَاوَةً كَأَنَّهَا دُرُجٌ دُرَّرَ ، أَوْ دُرُجٌ غُرَّرَ ، أَوْ كِمَامَةٌ ثَمْرٌ ؛ أَوْ كَمَا نُهُ نَبْلٌ ،
أَوْ عَمَامَةٌ وَبَلٌ ؛ حَالِكَةُ الْأَدِيمِ ، كَأَنَّهَا رُقِمَتْ بِالشَّفَقِ حُلَّةٌ لَيْلِهَا الْبَهِيمُ :

كَأَنَّهَا فِي وَضْعِهَا مَشْرِقٌ * تَنْبَثُّ مِنْهُ فِي الدُّجَى الْأَنْجَمُ ،

أَوْ دِيمَةٌ قَدْ أَطْلَعَتْ قَوْسَهَا * مُلُونًا وَأَنْبَثَّتْ تَسْجِمُ !

فَاتَّخَذَ كُلُّ لَهُ مَرْكُورًا ، وَتَقَضَّى مِنَ الْإِصَابَةِ وَعَدَا مُنْجِرًا ، وَصَمَنَ لَهُ السَّعْدُ أَنْ
يُصْبِحَ لِمُرَادِهِ مُحْرَزًا :

كَأَنَّهُمْ فِي يَمِينِ أفعالِهِمْ * فِي نَظَرِ الْمُتَنَصِّفِ وَالْجَاهِدِ:

قَدْ وُلِدُوا فِي طَالِعِ وَاحِدٍ، * وَأَشْرَفُوا مِنْ مَطْلَعِ وَاحِدٍ!

فَسَرَتْ عَلَيْنَا مِنَ الطَّيْرِ عِصَابَهُ، أَطَلَّتْنَا مِنْ أَجْحَتِهَا سَحَابَهُ؛ مِنْ كُلِّ طَائِرٍ أَفْلَحَ
يَرْتَادُ مَرْتَعًا، فَوَجَدَ وَلَكِنْ مَضْرَعًا، وَأَسْفَ يَبْتَنِي مَاءً جَمًّا فَوَجَدَ وَلَكِنْ السَّمَّ مُنْقَعًا،
وَحَلَّقَ فِي الْفَضَاءِ يَبْنِي مَلْعَبًا فَبَاتَ هُوَ وَأَشْيَاعُهُ سُجْدًا لِمَحَارِبِ الْقَيْسِيِّ وَرُكْعًا؛ فَتَبَرَّكْنَا
بِذَلِكَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ، وَتَدَارَكْنَا أَوَائِلَ ذَلِكَ الْقَبِيلِ .

فَاسْتَقْبَلَ أَوْلَانَا تَمَامَ بَدْرِهِ، وَعَظُمَ فِي نَوْعِهِ وَقَدْرِهِ؛ كَأَنَّهُ بَرَقَ كَرَعٌ فِي غَسَقٍ،
أَوْ صُبْحٌ عَطَفَ عَلَى بَقِيَّةِ الدُّجَى عَطَفَ النَّسَقِ؛ تَحَسَّبَ فِي أَسْدَافِ الْمُنَى غُرَّةً نُجُجَ،
وَتَحَالَهُ تَحْتَ أَذْيَالِ الدُّجَى طُرَّةً صُبْحٍ؛ عَلَيْهِ مِنَ الْبِيَاضِ حُلَّةٌ وَقَارٌ، وَلَهُ كُدْهَانٌ عَنَبِيرٌ
فَوْقَ مِثْقَالٍ مِنْ قَارٍ، لَهُ عُنُقٌ ظَلِيمٌ، وَالْتِفَاتَةٌ رِيمٌ، وَسُرَى غَيْمٍ يَصْرِفُهُ نَسِيمٌ :

كَلَوْنِ الْمَشِيبِ، وَعَصْرِ الشَّبَابِ، * وَوَقْتِ الْوِصَالِ، وَيَوْمِ الظَّفَرِ!

كَأَنَّ الدُّجَى غَارَ مِنْ لَوْنِهِ * فَأَمْسَكَ مِنْقَارُهُ ثُمَّ فَتَرَ!

فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ عَنِ الْهَلَالِ تَجْمًا، فَسَقَطَ مِنْهُ مَا كَبُرَ بِمَا صَغُرَ حِجَابًا؛ فَاسْتَبْشَرَ بِجَنَاحِهِ،
وَكَبَّرَ عِنْدَ صِيَابِحِهِ، وَحَصَّلَهُ مِنْ وَسَطِ الْمَاءِ بِجَنَاحِهِ .

وَتَلَاهُ كَيْ نَفَى اللَّبَاسَ، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّأْسِ، كَأَنَّهُ فِي عَرَائِنِ شَيْبِهِ لَا وَبَلَهُ كَبِيرُ
أَنَاسٍ؛ إِنْ أَسْفَ فِي طَيْرَانِهِ فَنَمَامٌ، وَإِنْ خَفَقَ بِجَنَاحِهِ فَقَلَعُ لَهُ بَيْدِ النَّسِيمِ زَمَامٌ؛
ذَوْعِيَّةٌ كَالْحِرَابِ، وَمِنْقَارٌ كَالْحِرَابِ، وَلَوْنٌ يَغُرُّ فِي الدُّجَى كَالنَّجْمِ وَيُخَدَعُ فِي الضَّحَى
كَالسَّرَابِ؛ ظَاهِرُ الْهَرَمِ، كَأَنَّمَا يُخْبِرُ عَنْ عَادٍ وَيُحَدِّثُ عَنْ إِرَمِ :

إِنْ عَامَ فِي زُرْقِ الْغَدِيرِ حَسْبَتَهُ * مَبِيضُ غَيْمٍ فِي أَدِيمِ سَمَاءِ،

أَوْ طَارَ فِي أُنْفُسِ السَّمَاءِ ظَنَنَتَهُ * فِي الْجَوِّ شَيْخًا عَائِمًا فِي مَاءِ،

مُتَنَاقِضِ الْأَوْصَافِ فِيهِ خِفَّةُ الْجُهَالِ نَحْتِ رِزَانَةِ الْعُلَمَاءِ!

فَنَنِي النَّانِي إِلَيْهِ عِنَانَ بِنْدِقِهِ ، وَتَوَخَّاهُ فِيمَا بَيْنَ رَأْسِهِ وَعُنُقِهِ ، نَفْزُ كَارِدٍ أَنْقَضَ
عَلَيْهِ نَجْمٌ مِنْ أَفْقِهِ ؛ فَتَلَقَّاهُ الْكَبِيرَ بِالتَّكْبِيرِ ، وَأَخْتَطَفَهُ قَبْلَ مَصَافِحَةِ الْمَاءِ مِنْ
وَجْهِ الْغَدِيرِ .

وَقَارَنَتْهُ إِوْرَزَةُ حَلْبَاءِ دَكَّاءٍ ، وَحَمَّتْهَا حَسَنَاءٌ ؛ لَهَا فِي الْفَضَاءِ مَجَالٌ ، وَعَلَى طَيْرَانِهَا خِفَّةٌ
ذَوَاتِ التَّبْرِجِ وَخَفَرُ رَبَّاتِ الْجِمَالِ ؛ كَأَمَّا عَبَّتْ فِي ذَهَبٍ ، أَوْ خَاضَتْ فِي لَمَبٍ ؛
تَخْنَأُ فِي مِشْيَتِهَا كَالْكَعَابِ ، وَتَنَائِي فِي خَطْوِهَا كَاللَّاعِبِ ؛ وَتَعَطِفُ بِجِيدِهَا كَالظُّبِي
الْغَرِيرِ ، وَتَتَدَاغُ فِي سَيْرِهَا مِشْيَ الْقَطَاةِ إِلَى الْغَدِيرِ :

إِذَا أَقْبَلَتْ تَمَشِي نَخْطَرَةَ صَكَاعِبٍ * رَدَّاجٍ ، وَإِنْ صَاحَتْ فَصَوْلَةٌ حَازِمٍ ،
وَإِنْ أَقْلَعَتْ قَالَتْ لَهَا الرِّيحُ : لَيْتَ لِي * خَفَا ذِي الْخَوَافِي أَوْ قُوَى ذِي الْقَوَادِمِ .
فَأَنْعَمَ بِهَا فِي الْبُعْدِ زَادُ مَسَافِرٍ ، * وَأَحْسِنَ بِهَا فِي الْقُرْبِ ثُمُفَةُ قَادِمٍ !
فَلَوَى الثَّلَاثُ جِيدَهُ إِلَيْهَا ، وَعَطَفَ بِوَجْهِ إِقْبَالِهِ عَلَيْهَا ؛ فَلَجَّتْ فِي تَرْقُعِهَا مُمِعِنَةً ، ثُمَّ نَزَلَتْ
عَلَى حُكْمِهِ مُدْعِنَةً ، فَأَعْجَبَهَا عَنْ أَسْتِكْمَالِ الْهَبُوطِ ، وَأَسْتَوْلَى عَلَيْهَا بَعْدَ أَسْتِمْرَارِ الْقُنُوطِ .
وَحَادَتْهَا لَغْلَغَةٌ تَحْكِي لَوْنَ وَشَيْهَا ، وَتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِهَا ؛ وَتُرِي عَلَيْهَا بُغْرَتَهَا ،
وَتَنَافِسُ فِي الْمَآسِنِ كَضْرَبَتِهَا ؛ كَأَنَّهَا مُدَامَةٌ قُطِبَتْ بِمَائِهَا ، أَوْ عِمَامَةٌ شَفَّتْ عَنْ بَعْضِ
مُجُومِ سَمَائِهَا :

بَغْرَةٌ بِيضَاءَ مَيْمُونَةٍ * تُشْرِقُ فِي اللَّيْلِ كَبَدْرِ النَّوَامِ !

وَإِنْ تَبَدَّتْ فِي الضُّحَى خَلَّتْهَا * فِي الْحُلَّةِ الدُّكَّاءِ بَرَقَ الْعَامِ !

فَنَهَضَ الرَّابِعُ لِاسْتِقْبَالِهَا ، وَرَمَاهَا عَنْ فَلَكَ سَعِيدِهِ بِنَجْمٍ وَبَالِهَا ؛ بَجَدَّتْ فِي الْعُلُوِّ
مَبْتَدَاهُ ، وَتَطَارَدَتْ أَمَامَ بِنْدِقِهِ وَلَوْلَا طِرَادُ الصَّيْدِ لَمْ تَكُ لَدَّهُ ؛ وَأَنْقَضَ عَلَيْهَا مِنْ يَدِهِ

شهابٌ حَفِيها، وأدركها الأجلُ لِحَفَّةِ طَيْرَانِها من حَلْفِها؛ فوَقَعَتْ من الأَفْقِ في كَفِّه،
ونَفَرَ ما في بَقايا صَفِّها عن صَفِّه .

واتت في إثرها أَيْسَةُ أَنْسِه، كأَنَّها العَدْرَاءُ العائِسَه، أو الأُدْماءُ الكائِسَه؛ عليها
خَفَرُ الأَبكارِ، وِخْفَةُ ذَوَاتِ الأَوْكارِ، وحَلَاوَةُ المَعانِي التي تُجَلُّ على الأَفكارِ؛ ولها
أُنْسُ الرِّيبِ، وإدْلالُ الحَيْبِ، وتَلَقُّتُ الزائرَ المُرِيبِ من خَوْفِ الرِّيبِ؛ داتُ عُنُقِ
كالإبريقِ، أو العُصْنِ الوَرِيقِ، قد جَمَعَ صُفْرَةَ البَهارِ إلى حُمْرَةِ الشَّقِيقِ؛ وصَدْرُ بَهِىِّ
الملبوسِ، شَهِىِّ إلى النَفوسِ، كأَنَّما رَقِمَ فيه النَهارُ باللَّيْلِ أو نُقِشَ فيه العَاجُ بالأَبْنوسِ؛
وجَنَاحُ يُجَيِّها من العَطَبِ، يَحْكِي لونها المَنَدَلَ الرُطْبَ لولا أَنه حَطَبٌ :

مُدْبِجَةُ الصِّدْرِ تَفْوِيفُهُ * أَضَافَ إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهْرِ!

لِها عُنُقٌ خَالَهَ من رَأاه * شَقائِقُ قد سَيَّجَتْ بالبَهارِ!

فوثبَ الخامِسُ منها إلى العَنيمه، ونظَمَ في سِلْكِ رَمِيهِ تلكَ الدَّرَّةَ اليَتيمه، وحَصَلَ
بِتَحْصِيلِها بين الرُّماةِ على الرُّتَبَةِ الجَسيمه .

وأنى على صَوْتِها حَبْرُجٌ تَسْبِقُ هِمَّتُه جَناحَه، وَيَغْلِبُ حَفَقُ قَوادِمِهِ صِياحَه؛ مَدْبِجُ
المطَا، كأَنَّما خَلَعَ حَلَّةً مَنكِبِيَه على القِطَا؛ يَنْظُرُ من لُحْبٍ، وَيَحْطُو على رِجْلينِ من ذَهَبٍ:

يَزُورُ الرِّياضَ، وَيَجْفُو الحِياضَ * وَيُشْبِهُ في اللَوْنِ كُدْرَةَ القِطَا،

وَيَغْوِي الزُّرُوعَ وَيَلْهُو بِها، * ولا يَرِدُ المِاءَ إِلا خَطَا!

فبَدَره السَّادِسُ قَبْلَ ارْتِفاعِها، وأعانَ قَوْسَه بامتِدادِ باعِها، نَحَرَ على الأَلَاءِ كِبِساطِ
أَبْنِ قَيْسٍ، وأَنْقَضَ عليه رَاميَه حَمَلَه بِحِدْقٍ وحَمَلَه بِكَيْسٍ .^(١)

(١) يشير إلى قول الشاعر في بسطام :

نَحَرَ على الأَلَاءِ لَمْ يَوْسَدِ * كَأَنَّ جَبِينَهُ سَيْفٌ صَقِيلٌ :

الألأاء، بوزن العلاء، شجرٌ والألأاءة أخص منه .

وتعندَر على السَّابِغِ مَرَامُهُ ، وَنَبَاً عَنِ بُلُوغِ الأَرَبِ مَقَامُهُ ؛ فَصَعِدَ هُوَ وَتَرَبَّ لَهُ
إِلَى جَبَلٍ ، وَثَبَّتْ فِي مَوْقِفِهِ مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ بِمِرَافِقَتِهَا قِبَلٌ .

فَعَنَ لَهُ نَسْرُ فَوْائِمِ شِدَادٍ ، وَمَنَاسِرِ حَدَادٍ . كَأَنَّهُ مِنْ نُسُورِ لُقْمَانَ بْنِ عَادٍ ؛ تَحْسِبُهُ
فِي السَّمَاءِ تَالِثَ أَخَوِيهِ ، وَتَخَالُهُ فِي الفَضَاءِ قُبْتَهُ المُنْسُوبَةَ إِلَيْهِ ؛ قَدْ حَلَقَ كَالْفُقَرَاءِ
رَأْسَهُ ، وَجَعَلَ مِمَّا قَصَرَ مِنَ الدُّلُوقِ الدُّكْنَ لِیَاسِهِ ؛ وَأَشْتَمَلَ مِنَ الرِّيشِ العَسَلِيِّ
إِزَارًا ، وَأَلْفَ العُرْزَلَةَ فَلَا تَجِدُ لَهُ إِلَّا فِي قُنَنِ الجِبَالِ الشَّوَاهِقِ مَرَارًا ؛ قَدْ شَابَتْ نَوَاصِي
الذَّلِيلِ وَهُوَ لَمْ يَشِبْ ، وَمَضَتْ الدُّهُورُ وَهُوَ مِنَ الحَوَادِثِ فِي مَعْقِلِ أَشْبِ :

مَلِيكَ طُيُورِ الأَرْضِ شَرْقًا وَمَغْرِبًا * وَفِي الأَفْقِ الأَعْلَى لَهُ أَخْوَانِ !

لَهُ حَالٌ فَتَاكِ ، وَحِلْيَةٌ نَاسِكِ ، * وَإِسْرَاعٌ مِقْدَامِ ، وَفَتْرَةٌ وَأَنْ !

فَدَنَا مِنْ مَطَارِهِ ، وَتَوَسَّحَى بِبُنْدُقِهِ عُنُقَهُ فَوَقَعَ فِي مِتْقَارِهِ ؛ فَكَأَنَّمَا هَدَّ مِنْهُ صَخْرًا ،
أَوْ هَدَمَ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا ؛ وَنَظَرَ إِلَى رَفِيقِهِ ، مُبَشِّرًا لَهُ بِمَا أَمْتَازَ بِهِ عَنِ فَرِيقِهِ .

وَإِذَا بِهِ قَدْ أَظْلَنَتْهُ عُقَابٌ كَاسِرٌ ، كَأَنَّمَا أَضَلَّتْ صَيِّدًا أَفْلَتَ مِنَ المَنَاسِرِ ؛ إِنْ
حَطَّتْ فَسَحَابٌ أَنْكَشَفَ ، وَإِنْ أَقَامَتْ فَكَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَأْسًا لَدَيْ
وَكَرَّهَا العُنَابُ وَالحَشْفُ ، بِعِيدَةٍ مَا بَيْنَ المَنَازِكِ :

إِذَا أَفْلَعْتَ بَلَّتْ عُلُوقًا كَأَنَّمَا * تُحَاوِلُ نَارًا عِنْدَ بَعْضِ الكَوَاكِبِ !

يُرَى الطَّيْرُ وَالوَحْشُ فِي كَفِّهَا * وَمِتْقَارِهَا ذَا عِظَامٍ مُزَالَهُ .

فَلَوْ أَمَكْنَ الشَّمْسُ مِنْ خَوْفِهَا * إِذَا طَلَعَتْ مَا تَسَمَّتْ غَزَالَهُ !

فَوَشِبَ إِلَيْهَا التَّامِنُ وَثَبَّةٌ لَيْثٌ قَدْ وَثِقَ مِنْ حَرَكَاتِهِ بِبَجَاحِهَا ، وَرَمَاهَا بِأَوَّلِ بُنْدُقَةٍ فَمَا
أَخْطَأَ قَادِمَةَ جَنَاحِهَا ؛ فَأَهْوَتْ كَعُودٍ صُرْعَ ، أَوْ طَوْدٍ صُدْعَ ؛ قَدْ ذَهَبَ بِأَسْمَا ،

وَتَذَهَّبُ بِدَمِهَا لِبَاسُهَا، وَكَذَلِكَ الْقَدْرُ يُخَادِعُ الْجَوَّ عَنْ عُنُقَيْهِ، وَيَسْتَنْزِلُ الْأَعْمَمَ مِنْ عُنُقَيْهِ؛ فَعَمَلُهَا بِجَنَاحِهَا الْمَهِيضِ، وَرَفَعَهَا بَعْدَ التَّرْفَعِ فِي أَوْجِ جَوْهَا مِنَ الْحَضِيضِ، وَنَزَلَ إِلَى الرَّفْقَةِ، جَدَلًا بِرِيحِ الصَّفْقَةِ .

فوجد التأسع قد مر به كركي طويل الشفقار، سريع النفار؛ ثمهي الفراق، كثير الاعتراب يستو بمصر ويصيف بالعراق؛ لقوادمه في الجو حفيف، ولأديمه لون سماء طراً عليها غيم خفيف؛ تحن إلى صوته الجوارح، وتعجب من قوته الرياح البوارح؛ له أثر حورية في رأسه كوميض جمر تحت رماد، أو بقية جرح تحت ضناد، أو فص عقيق سفت عنه بقايا نمد؛ ذو منقار كسنان، وعنق كعنان؛ كأنما ينوس، على عودين من أبوس :

إذا بدا في أفق مُقلعاً * والجو كالماء تفاويفه :

حسبته في لجة مَرَجًا * رجلاه في الأفق مجاديفه !

فصبر له حتى جازه مجلياً، وعطف عليه مصلياً؛ فخر مضرراً بدمه، وسقط مشرفاً على عدمه؛ وطالما أفلت لدى الكواسر من أظفار المنون، وأصابه القدر بجملة من حمي مسنون؛ فكثرت التكري من أجله، وحمله على وجه الماء برجله .

وحاذاه غرنوق حكاة في زيه وقدره، وأمتاز عنه بسواد رأسه وصدره؛ له ريشتان ممدودتان من رأسه إلى خلفه، معقودتان من أذنيه مكان شفه :

له من الكركي أوصافه * سوى سواد الصدر والرأس .

إن شال رجلا وأنبرى قائماً * ألفتيه هيئة برجاس !

فأصغى العاشر له منصتنا، ورماه متلفتاً؛ فخر كأنه صريع الألحان، أو تزيف بنت الحان؛ فأهوى إلى رجله بيده، وأنقض عليه أنقضاض الكاسر على صيده .

وَتَبِعَهُ فِي الْمَطَارِ ضُوعٌ ^(١)، كَأَنَّهُ مِنَ النَّضَارِ مَصْنُوعٌ؛ تَحْسَبُهُ عَاشِقًا قَدْ مَدَّ صَفْحَتَهُ،
أَوْ بَارِقًا قَدْ بَتَّ لَفْحَتَهُ :

طَوِيلَةٌ رِجْلَاهُ مُسْوَدَةٌ * كَأَنَّهَا مِتْقَارُهُ خَنْجَرٌ:

مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُهَا أَشْمَطٌ * جَاءَتْ فِي رِقَبَتِهَا مِعْجَرًا!

فَاسْتَقْبَلَهُ الْحَادِي عَشَرَ وَوَتَّبَ، وَرَمَاهُ حِينَ حَاذَاهُ مِنْ كَشْبٍ؛ فَسَقَطَ كَفَّارِسٍ تَقَطَّرَ
عَنْ جَوَادِهِ، أَوْ وَايِقٍ أُصِيبَتْ حَبَّةُ فُؤَادِهِ؛ فَحَمَلَهُ بِسَاقِهِ، وَعَدَّلَ بِهِ إِلَى رِفَاقِهِ .

وَأَقْتَرَنَ بِهِ مِرْزَمٌ لَهُ فِي السَّمَاءِ مَبِيٌّ مَعْرُوفٌ، ذُو مِتْقَارٍ كَصُدُغٍ مَعْطُوفٍ؛ كَأَنَّ
رِيَّاشَهُ فَتَقَّى أَتَّصَلَ بِهِ شَفَقٌ، أَوْ مَاءٌ صَافٍ عَلِقَ بِأَطْرَافِهِ عَلَقٌ :

لَهُ جِسْمٌ مِنَ التَّلْحِجِ * عَلَى رِجْلَيْنِ مِنْ نَارٍ:

إِذَا أَقْلَعَ يَلْأَقْلَعُ * بَرَقَ فِي الدَّجَى سَارِي!

فَانْتَهَى الثَّانِي عَشَرَ مِيمًا، وَرَمَاهُ مُصَمًّا؛ فَأَصَابَهُ فِي زَوْرِهِ، وَحَصَلَهُ مِنْ فَوْرِهِ،
وَحَصَلَ لَهُ مِنَ الشَّرِّ وَرَمَا حَرَجَ بِهِ عَنْ طَوْرِهِ .

وَأَلْتَحَقَ بِهِ سَبَيْطَرٌ، كَأَنَّهُ مَدْبَةٌ مَبَيْطَرٌ؛ يَتَحَطُّ كَالسَّيْلِ، وَيَكْرَهُ عَلَى الْكَوَاسِرِ كَالْحَيْلِ،
وَيَجْمَعُ مِنْ لَوْنِيهِ بَيْنَ ضِدِّينِ يُقْبَلُ مِنْهُمَا بِالنَّهَارِ وَيُدْبَرُ بِاللَّيْلِ؛ يَتَلَوَّى فِي مِتْقَارِهِ الْأَيْمِ،
تَلَوَّى التَّنِينِ فِي الْغَيْمِ :

تَرَاهُ فِي الْجَوِّ مُمْتَدًّا وَفِي فَمِهِ * مِنَ الْأَفَاعِي شِبْجَاعٍ أَرْقَمَ ذَكَرٌ:

كَأَنَّهُ قَوْسٌ رَأَمَ عُنُقَهُ يَدُهَا * وَرِجْلُهُ رِجْلُهَا وَالْحَيَّةُ الْوَتْرُ!

(١) هو بضم الصاد المعجمة وكسرهما مع فتح الواو. وورد في الجزء الثاني (ص ٦٤) من هذا الكتاب :

”صُوعٌ“ وأنظر ما كتبناه عليه في الحاشية الثانية هناك .

فصوب الثالث عشر إليه بندقه، فقطع لحية وعنقه، فوقع كالصرح الممرد،
أو الطراف الممدد .

وأتبعه عناز أصبح في اللون ضده ، وفي الشكل نده ، كأنه ليل ضم الصبح إلى
صدره، أو أنطوى على هالة بدره :

ترآه في الجو عند الصبح حين بدا * مسود أجنية مبيض حيزوم :

كأنه حبشي عام في نهر * وضم في صدره طفلاً من الروم !

فهنض تمام القوم إلى التتمة ، وأسفرت عن نوح الجماعة تلك الليلة المدهمة ؛
وغدا ذلك الطير الواجب واجباً ، وكل العدد به قبل أن تطلع الشمس عينا أو تبرز
حاجبا ؛ فيالها ليلة حصرنا بها الصادح في الفضاء المتسع ، ولقيت فيها الطير ما طارت به
من قبل على كل شمل مجتمع ؛ وأصبحت أشلاؤها على وجه الأرض كفرائد خانها
النظام ، أو شرب كأن رقابهم من اللين لم يخلق لمن عظام ، وأصبحنا مثنين على
مقامنا ، مثنين بالظفر إلى مستقرنا ومقامنا ؛ داعين لولئ جهدنا ، مدعين له قبلنا
أوردنا ؛ حاملين ما صررنا إلى بين يديه ، عاملين على التشرّف بخدمته والانتفاء إليه :

فانت الذي لم يلف من لا يوده * ويدعى له في السر أو يدعى له :

فان كان رمي ، أنت توضع طرفه ، * وإن كان جيش : أنت تحمي قبيلة !

والله تعالى يجعل الآمال منوطه به وقد فعل ، ويعمله كهفا للأولياء وقد جعل ؛

بمنه وكرمه :

الفصل الرابع

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(في الصدقات ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(في الصدقات الملوكية وما في معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوج سلطان أو ولده أو بنته أو أحد من الأمراء الأكابر وأعيان الدولة أن تُكتب له خُطبةُ صدق تكون في الطول والقصر بحسب صاحب العقد، فطال للوك وتقصّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخة صدق، كتبت به لملك السعيد بركة ، ابن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، على بنت الأمير سيف الدين قلاوون الصالحى الأنفى قبل سلطته ، بالقلعة المحروسة ، من إنشاء القاضي محيى الدين بن عبد الظاهر ، وهى : الحمد لله موفق الآمال لأسعد حركة ، ومصدق القائل لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبه سلطانة وصهره ملكة ؛ الذى جعل للأولياء من لدنه سلطاناً نصيراً ، وميز أقدارهم بأصطفاء تأهله حتى حازوا نعيماً ومُدكاً كبيراً ؛ وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أفاد شمس أمالم ضياءً وزاد قمرها نورا ، وشرف به ووصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيماً وإنعامه كثيراً ؛ مهياً أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجاعل رُبوع كل إملاك من الأملاك بالشموس والبُدور والأهلة آهله ، جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة وحلت عندهم البركة الكاملة .

تحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع، وأجمل لتأجيلهم الاستطلاع،
وكل لأخيرهم الأجناس من العز والأنواع، وأتى آمالهم بما لم يكن في حساب
أحسابهم من الابتداء بالتحويل والابتداع؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة حسنة الأوضاع، ملبية بتشريف الأئمة وتكريم الأسماع؛ ونصلي على
سيدنا محمد الذي أعلى الله به الأقدار، وشرف به الموالى والأصهار، وجعل كرمه
داراً لهم في كل دار، وبقره على من استطلعه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار،
صلى الله عليه وعليهم صلاة زاهية الأزهار، يأنعة الثمار.

وبعد، فلو كان اتصال كل شيء بحسب المتصل به في تفضيله، لما استصلح
البدر شيئاً من المنازل لتزوله، ولا الغيث شيئاً من الرياض لهطوله، ولا الذكر
الحكيم لساناً من الأئمة لتزويله، ولا الجوهر الثمين شيئاً من التيجان لحلوله؛ لكن
ليتشرّف بيت يحلّ به القمر، ونبت يزوره المطر، ولسان يتعوذ بالآيات والسور،
ونثار يجمل باللاتي والذرر؛ ولذلك تجلّت برسول الله صلى الله عليه وسلم أضهاره
وأصحابه، وتشرفت أنسابهم بأنسابه؛ وتزوج صلى الله عليه وسلم منهم، وتمت لهم
مزية الفخار حتى رضوا عن الله ورضى عنهم.

والمرتّب على هذه القاعدة الفاضلة نور يستمدّه الوجود، وتقدير أمر يقارن سعد
الأخية منه سعد السعد؛ وإظهار خطبة تقول للثريا لانتظام عقودها: كيف،
وإبراز وصلة تجمل بترصيع جوهرها متن السيف الذى يغيظه على إبداع هذا
الجوهر به كل سيف؛ وتسج صهارة يتم بها - إن شاء الله - كل أمر سيد،
ويتفق بها كل توفيق تخلق الأيام وهو جديد، ويختارها أربك طالع: وكيف لا تكون
البركة في ذلك الطالع وهو السعيد؟

وذلك بأن المَرَّاحِمَ الشَّرِيفَةَ السُّلْطَانِيَّةَ أَرَادَتْ أَنْ تُحْضِنَ الْمَجْلِسَ السَّامِيَ بِالْإِحْسَانِ الْمُبْتَكِرِ ، وَتُقَرِّدَهُ بِالْمَوَاهِبِ الَّتِي يُرْهَفُ بِهَا الْحَدُّ الْمُنْتَضَى وَيَعْظُمُ الْحَدُّ الْمُنْتَظَرُ ، وَأَنْ تَرْفَعَ مِنْ قَدْرِهِ بِالصَّهَارَةِ مِثْلَ مَا رَفَعَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ قَدْرِ صَاحِبِيهِ : أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ ؛ نَخَطَبُ إِلَيْهِ أَسْعَدَ الْبَرِيَّةِ ، وَأَمْنَعُ مِنْ تَحْمِيهَا السِّيُوفُ الْمَشْرِفِيَّةُ ، وَأَعَزُّ مِنْ تُسْبَلُ عَلَيْهَا سُتُورُ الصَّوْنِ الْخَفِيَّةِ ، وَتُضْرَبُ دُونَهَا خُدُورُ الْجَلَالِ الرَّضِيَّةِ ، وَتَجْمَلُ بِنِعْوَتِهَا الْعُقُودُ : وَكَيْفَ لَا ؟ وَهِيَ الدَّرَّةُ الْأَلْفِيَّةُ ؛ فَقَالَ وَاللَّهِ هُوَ الْأَمِيرُ الْمَذْكُورُ : هَكَذَا تُرْفَعُ الْأَقْدَارُ وَتُزَانُ ، وَكَذَا يَكُونُ قِرَانُ السَّعْدِ وَسَعْدُ الْقِرَانِ !!! ؛ وَمَا أَسْعَدَ رَوْضًا أَصْبَحَتْ هَذِهِ الْمَرَّاحِمُ الشَّرِيفَةُ السُّلْطَانِيَّةُ لَهُ حَمِيلَةَ ! ، وَأَشْرَفَ سَيْفًا غَدَّتْ مِنْطَقَةُ بَرْوِجِ سَمَائِهَا لَهُ حَمِيلَةَ ! ؛ وَمَا أَعْظَمَهَا مُعْجِزَةٌ آتَتْ الْأَوْلِيَاءَ مِنْ لَدُنْهَا سُلْطَانًا ! ، وَزَادَتْهُمْ مَعَ إِيْمَانِهِمْ إِيْمَانًا ! ؛ وَمَا أَخْفَرَهَا صَهَارَةٌ يَقُولُ التَّوْفِيقُ لِإِبْرَاهِمَ : لَيْتَ ! ، وَأَشْرَفَهَا عُبُودِيَّةٌ كَرَّمَتْ سَمَائِهَا بِأَنْ جَعَلْتَهُ مِنْ أَهْلِ الْبَيْتِ ! .

وَإِذْ قَدْ حَصَلَتْ الْأَسْتِخَارَةُ فِي رَفَعِ قَدْرِ الْمَمْلُوكِ ، وَخَصَّصْتَهُ بِهَذِهِ الْمَزِيَّةِ الَّتِي تَقَاصَرَتْ عَنْهَا آمَالُ أَكْبَرِ الْمَمْلُوكِ ؛ فَالْأَمْرُ لِمَلِكِ الْبَسِيطَةِ فِي رَفَعِ دَرَجَاتِ عَبِيدِهِ كَيْفَ يَشَاءُ ، وَالتَّصَدُّقُ بِمَا يَتَّقُوهُ بِهِ هَذَا الْإِنْشَاءُ ؛ وَهُوَ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا كِتَابٌ مُبَارَكٌ تَمَّاسَدَتْ وَمَاحُ الْخَطِّ وَأَقْلَامُ الْخَطِّ عَلَى تَحْرِيرِهِ ، وَتَنَافَسَتْ مَطَالِيعُ النُّوَّارِ وَمَشَارِقُ الْأَنْوَارِ عَلَى نَظْمِ سَطُورِهِ ؛ فَأَضَاءَ نُورُهُ بِالْجَلَالَةِ وَأَشْرَقَ ، وَهَطَّلَ نُورُهُ بِالْإِحْسَانِ فَاعْتَدَقَ ، وَتَنَاسَبَتْ فِيهِ أَجْنَاسُ تَجْنِيسِ لَفْظِ الْفَضْلِ فَقَالَ الْإِعْتِرَافُ : هَذَا مَا تَصَدَّقَ ، وَقَالَ الْعُرْفُ : هَذَا مَا أَصَدَّقَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ : أَصَدَّقَهَا مَا مَلَائِمًا حَرَامِينَ الْأَحْسَابِ نَخَارًا ، وَشَجَرَةَ الْأَنْسَابِ ثَمَارًا ، وَمِشْكَاتَةَ الْجَلَالَةِ أَنْوَارًا ، وَأَضْلَافَ الْإِلَهِ

ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا؛ فبدل لها من العين المصيرى
ما هو باسم والدها قد تشرف ، وبنعوته قد تعرف ، وبين يدي هباته وصدقاته
قد تصرف .



وهذه نسخة صدق المقام الشريف العالى السيفى أنوك ، ولد السلطان الشهيد
الملك الناصر «محمد بن قلاوون» على بنت المقر المرحوم السيفى «بكتمر الساقى» .
وكان العاقد قاضى القضاة جلال الدين القزوينى ، والقبائل السلطان الملك الناصر
والد الزوج ، وهى :

الحمد لله مسير الشمس والقمر ، وميسر حياة كل شىء باتصال الروض بالمطر ،
ومبشر المتقين من درارى الدرارى بأسعد كوكب ينتظر ، وأحمد عاقبة تهتر لها
أعطاف عطاء الملوك على كبر ، وتنجاب عن الأنجاب كما تفتح الأكام عن الثمر ،
الذى مد من الشجرة المباركة الملوكية فروعا ألتفت بعضها على بعض ، ورفقت على
من استظل بها فراقب السماء على الأرض .

نحمده على نعمه التى أطابت لنا جنى الغروس ، وأطالت منا منى النفوس ،
وأطافت بملوكا حتى مدت لسؤالهم الأيدي وخضعت لأمرهم الرؤوس ؛ ونشهد
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تتخذها عزيمة نأفعه ، ونعمة حسن
العاقبة جامع ، ورحمة تبارك على أممتنا وعلى أبنائهم البدور الطالعة ، والأنوار
الساطعة ، والبروق اللامعة ، والغيوث الهامعة ، والسيول الدافعة ، والسيوف القاطعة ،
والأسود التى هى عن حرم حضرتها مانعة ؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أزان
من تمسك له بحسب ، وشرف من أعتزى إليه بالتقربى أو أعتز منه بصهر أو نسب ؛

صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ أَرْضَاهُمْ وَرَضِيَ عَنْهُمْ ، وَكَرَّمَهُمْ بِصَلْتِهِ الشَّرِيفَةِ
لِمَا زَوَّجَهُمْ وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ ؛ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ، فإنَّ من عادة الغمام أن يتفقد الأرض بمطره ، والبحر أن يسقي الزروع
بما فاض من نهره ؛ والمصاييح أن تمدَّ بأنوارها ما يتوقد ، والسماء أن لا تخلو أفقها
من اتصال فَرْقِدٍ بفَرْقِدٍ ؛ ولو توقفت القُربى على مقاربة كبير ، أو مقارنة نظير ،
لما صلحت الأعماد لمضاجع السُّيوفِ ولا دنت الكواكب من الشمس والقمر
المُئبر ؛ ولا صاحت يمينٌ شمالاً ، ولا جاورت جنوبٌ شمالاً ؛ ولا حوت الكائن
سهماً ، ولا جمع السلكُ للجواهر نظاماً ؛ ولا طمح طرفٌ إلى غايه ، ولا قدر لسان
إنسانٍ على تلاوة سورةٍ ولا آيه ؛ وإلما الصدقات الشريفة الملوكية لها في البر
عوائد ، وفي الخير سجاجاً يقتدى فيها الولد بالوالد .

ولم يزل من المقام الشريف ، الأعظم ، العالى ، المولوى ، السلطاني ، المالكى ،
الناصرى ، أعزَّ الله سلطانَه على من لاذ به تُسبَلُ دُيُولُ الفخار ، وتودع في هالات
أقارهم ودائع الأنوار ، وتوهل أهلهم لأن يكون منها أحدُ الأبوين لُدْرِيته الأَطهار ،
وتحطب من مجيهم كلُّ مصونة يغور بها بدر الدجى وتغار منها شمسُ النهار .

وكان من تمام النعمة الشريفة السلطانية ، الناصرية ، على من تعرض لسحابها
الماطر ، ووقف للاعتراف من بحرها الزانح - ما رفعت به ذكره إلى آخر الأبد ،
وأتمت له السعادة إذ كان يعدُّ في جُدود من يُنسب إليه من ولد ؛ وأكدت له
بالقربى مزيةً مزيد ، وأستخرجت من بحره جوهره لا يطمع في التطوق بها كلُّ
جيد ؛ وقالت : نحنُ أحقُّ بتكامل ما بنينا ، وتحويل الخولة من أولينا ؛ وتأهيل من قر
بنا عيناً وقربناه إلينا ، وتفضيل غرس نعمة نحنُ غرسناه وأجنتنا ثمراته بيدنا .

فاقتضى حُسن الاختيار الشريف المديني الناصري، لولده المقام العالی السيفي؛
أحسن الله لها الاختيار، وأجرى بارادتهما آقتدار الأقدار - أن تُرفَّ أتمَّ الشمس إلى
سُورهِ الرفيعه، وتُصانَ أكلَّ معاقِلِ العقائلِ بِجُجِبِهِ المنيعة، وتُحاطَ أشرفُ الدرِّ
في مُستودَعِهِ، وتُناطَ أشرفُ الدراري بِمَطَلَعِهِ؛ وتُساقَ إليه الكريمةُ حسبا، العظيمةُ
بأبيه - عظم الله سُلطانه - أبا؛ الذي كَمَّ له في خِدمةِ الدولةِ القاهرةِ من مناقِبِ
كالنجوم، ومذاهبِ تَسَبَّه بها البرقُ قَشَبَتْ بأذيالِ الغيوم، ومراتبِ تقدّم فيها على
كلِّ تَظهيرِ قالٍ: وما مِنَّا إلَّا من له مقامٌ معلوم، من قدره لا يُسامى ولا يُسام، ورأيه
لا يُرامى ولا يُرام، وسيفه في غير طاعتنا الشريفة لا يُسَمُّ ولا يُسام، وهو «سيفُ
الدولة» لا كما يُسمَّى به من استعار هذا اللَّقب في سالفِ الأيام؛ كم له في مرَاضِي
سُلطانه من رغبةٍ بذل بها ما لَدَيْهِ، وسمحَ فيها بولده وهو أحبُّ شيءٍ إليه، وجاد
بِرُوحِهِ أو بما هو أعزُّ عليه؛ كم نَهَبَتْ بعزائمِ السُّيوفِ من سِنانِها، كم وهَبَتْ من
مكارمِهِ الأيامُ ما يُعَدُّ من حسناتِها؛ كم ألتهبت صوارمه نارا جُفرت أنهارا جُفرت
من جنابِها؛ كم لسماءِ المُلكِ بُشْبُه من حرس، وبِقَضِيهِ من قَبَس، وكم قام وقعد
في مصلحةٍ وكان أذنانهم من ملكه مقاما لما قام وأعلامهم مجلسا لما جلس؛ فسَمِعَ
المقامُ العالی السيفي وأطاع، وآنهى إلى ما برزت به مراسم والده - أنفذها الله -
وأمثل أمره المُطاع، وعَمِلَ برأيه الشريف وهو ناصرُ السُنَّةِ فقدم فيها ما استطاع،
وسارَعَ إلى ما أمر الله به من الألفةِ والاجتماع، واتبَعَ السُنَّةَ النبويةَ في تكثيرِ الأمةِ
دُرِّيَّةِ أُمَّةٍ مُلوَكِيَّةِ كلِّ واحدٍ منها له الأمةُ أتباع؛ لعلمه اليقين أنه لو خطب له
والده في أقطار الأرض إلى جميع الملوك، لم يجحد منهم إلا كلَّ ملكٍ عظيم وهو له
عبدٌ مملوك؛ فأحْيَى سُنَّةَ شريفةٍ مُلوَكِيَّةٍ ما برحت الخلفاءُ والمُلوَكُ تحفظ بها قلوب
أوليائها على أمدادِ المديني، ويكفي من هذا ميمونُ فعلِ «المأمون» لما تزوج

« بُورَانَ » من أبيها « آبن سَهْلٍ » وخطب « المعتضدُ » إلى « آبن طُولُونٍ » آبتَه
« قَطْرَ النَّدى » .

ورأى والدها أعزّه الله تعالى قدراً هالَه مهابةً فسلم وقال : لَلْأَلِكِ التَّصْرُفُ
وَلِللَّيْلِ التَّصْرِيفُ ، وَإِذَا أَقْتَضَى حُسْنُ النَّظَرِ الشَّرِيفِ تَشْرِيفٌ عَيْدٌ فَيَا حَبِيبًا
الشَّرِيفِ ؛ وَيَا حَبِيبًا السَّبَبُ الَّذِي آتَصَلْتُ لَهُ بِالْمَقَامِ الشَّرِيفِ الْأَسْبَابُ ، وَأَخْتَفَلْتُ
دِيمَ النَّعْمِ وَأَخْتَفَمْتُ لِلْإِجْتِمَاعِ عَلَى سُنَّةٍ وَكِتَابٍ ، فَتَحَاسَدْتُ عَلَى إِثْبَاتِهِ صُفْرُ الْأَصْنَافِ
وَحُمْرُ النَّعْمِ ، وَتَنَافَسْتُ عَلَى رَقْمِ سُطُورِهِ صَحَائِفُ السَّحَابِ وَصَفِيحُ الْمَاءِ وَصَلِيلُ
السَّيْفِ وَصَرِيرُ الْقَلَمِ ؛ وَتَمَنَّتْ الْكَوَاكِبُ لَوْ اجْتَمَعَتْ مَوَاكِبُ فِي يَوْمِهِ الْمَشْهُودِ ،
وَالْمَنَاقِبُ لَوْ أَنهَا حَوْلَهُ بِمَقَانِبِ خَافِقَةِ الْبُنُودِ ؛ وَوَدَّتْ نَسَمَاتُ الْأَنْجَارِ لَوْ كَانَتْ هِيَ
الَّتِي سَعَتْ بِالْإِتْفَاقِ ، وَالْحَمَائِمُ لَوْ أُبِيحَ لَهَا أَنْ تُغَرَّدَ وَتَحْلَعُ مَا فِي أَعْنَاقِهَا مِنَ الْأَطْوَاقِ ؛
بَلِ السُّيُوفُ لَمَّا رَأَتْ مَقَامَ الْجَلَالَةِ أَغْضَتْ وَغَضَّتِ الْأَحْدَاقُ ، وَالرَّمَاحُ لَمَّا بَدَأَ لَهَا
سِرِيرُ الْمَلِكِ مَائِلًا وَقَفَّتْ عَلَى سَاقٍ .

فبرزت المراسمُ الشريفةُ - زادها الله شرفًا - بتجريد هذا الكتابِ الكريمِ ، وتضديد
ما يصلحُ من الدررِ لهذا العقدِ النظيمِ ؛ ونفدَ المرسومُ العالى المولوى السلطانى ما أمر
به وصدق ، وتادبَ إجلالًا لمقامِ أبيه الشريفِ فأطرق ، وتواضعَ لله فلم يقل : هذا
ما تصدق ؛ بل قال : هذا ما أصدق المقامُ العالى السينى أنوك آبن مولانا السلطان
الأعظم ، مالكِ رقابِ الأئمِّ ؛ الملكِ الناصرِ ، السيدِ الأجلِّ ، العالمِ ، العادلِ ، الغازى ،
المجاهدِ ، المؤيدِ ، المرابطِ ، المناغِرِ ، المظفرِ ، المنصورِ ، الشاهنشاهِ ، ناصرِ الدنيا
والدينِ ، سلطانِ الإسلامِ والمسلمينِ ، محيى العدلِ فى العالمينِ ، مُنصِفِ المظلومينِ
من الظالمينِ ، مللِ البسيطةِ ، ناصرِ السنةِ ، رُكنِ الشريعةِ ؛ ظلَّ الله فى أرضه ،

القائم بُسْنَتِهِ وَفَرَضَهُ ؛ وَارِثِ الْمُلْكِ ، مَلِكِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالثَّرَكِ ، خَدَاوَنَدِ عَالَمِ
 بادشاه بنى آدم ، بهلوانِ جهان ، شهریارِ ایران ، إسْكَندَرِ الزَّمَانِ ، مُمَلِّكِ أَصْحَابِ الْمَنَابِرِ
 وَالْأَسْرِ وَالنُّخُوتِ وَالتَّيْجَانِ ؛ فَاتِحِ الْأَفْطَارِ ، وَهَبِ الْمَمَالِكِ وَالْأَقَالِيمِ وَالْأَمْصَارِ ،
 مُبِيدِ الْبَغَاةِ وَالطُّغَاةِ وَالْكُفَّارِ ؛ صَاحِبِ الْبَحْرَيْنِ ، حَامِي الْحَرَمَيْنِ ، خَادِمِ الْقِبْلَتَيْنِ ؛
 كَفِيلِ الْعِبَادِ وَالْعِبَادِ ، مُقِيمِ شَعَائِرِ الْحَجِّ وَالْجِهَادِ ؛ إِمَامِ الْمُتَّقِينَ ، قَسِيمِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ،
 أَبِي الْمَعَالِي مُحَمَّدِ بْنِ السُّلْطَانِ الشَّهِيدِ الْمَلِكِ الْمَنْصُورِ ، السَّيِّدِ ، الْأَجَلِّ ، الْعَالِمِ ، الْعَادِلِ ،
 الْمَجَاهِدِ ، الْمُؤَيَّدِ ، سَيْفِ الدِّينِ ، وَالِدِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ ، أَبِي الْفَتْحِ «قَلَاوُونَ» خَلْدِ
 اللَّهِ سُلْطَانِهِ ، وَنَصْرِ جُنُودِهِ وَجُيُوشِهِ وَأَعْوَانِهِ - : الْحِجَابِ الْكَرِيمِ ، الرَّفِيعِ ، الْمُنِيعِ ،
 الْمَصُونِ ، الْمَكْنُونِ ، الْحِمَاةِ الْمُكْرَمَةِ ، الْمُفَضَّمَةِ ، الْمُعْظَمَةِ ، بِنْتِ الْجَنَابِ الْكَرِيمِ ،
 الْعَالِي ، الْأَمِيرِيِّ ، الْأَجَلِيِّ ، الْكَبِيرِيِّ ، الْعَالِمِيِّ ، الْعَادِلِيِّ ، الْمُتَهَدِيِّ ، الْمُشَيْدِيِّ ،
 الزَّعِيمِيِّ ، الْمُقَدِّمِيِّ ، الْغِيَاثِيِّ ، الْعَوْنِيِّ ، الذُّخْرِيِّ ، الْأَوْحَدِيِّ ، الظَّهْرِيِّ ، الْكَافِلِيِّ ،
 السَّيْفِيِّ ، رُكْنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ ، سَيِّدِ الْأَمْرَاءِ فِي الْعَالَمِينَ ، نَصِيرِ الْغُرَاةِ وَالْمَجَاهِدِينَ ،
 زَعِيمِ الْجِيُوشِ ، مَقْدَمِ الْعَسَاكِرِ ، عَوْنِ الْأُمَّةِ ، غِيَاثِ الْمِلَّةِ ، مَهْدِ الدُّوَلِ ، مُشِيدِ
 الْمَمَالِكِ ، ظَهِيرِ الْمُلُوكِ وَالسُّلْطَانِ ، عَضُدِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، بَكَتْمَرِ السَّاقِي النَّاصِرِيِّ ،
 ضَاعَفَ اللَّهُ نِعْمَتَهُ .

أَصْدَقَهَا مَا تَلَقَّتْ بِهِ أَنْسَابُهَا إِجْلَالًا ، وَبَلَّغَتْ بِهِ أَحْسَابُهَا جَمَالًا ، وَطَلَعَتْ فِي سَمَاءِ
 الْمُلْكِ هَلَالًا ؛ وَلَيْسَتْ نَخَارًا ، وَقَبِسَتْ أَنْوَارًا ؛ وَأَوْتَتْ إِلَى حِصْنِ حَصِينِ ، وَوَصَلَتْ
 إِلَى مَقَامِ آمِينَ ، وَابْتَغَتْ بِأَمْوَالِ وَبَنِينَ ؛ مَالِوَلَا أَدَبُ الشَّرْفِ ، وَتَجَنَّبُ السَّرْفِ ؛
 وَالْعَمَلُ بِالشَّرْعِ فِي تَعْيِينِ مَعْلُومِ ، وَتَبَيَّنَ مَقْدَارُ مَفْهُومِ ؛ لَخَرَجَ عَنْ كُلِّ وَصْفِ
 مَحْدُودِ ، وَقَدَّرِ مَعْدُودِ ؛ وَلَمَّا قَامَ بِهِ مَوْجُودِ ، وَلَكَانَ مِمَّا تَقَلُّ لَهُ الْمَمَالِكُ
 وَلَا يُسْتَكْتَفَرُ لِأَجْلِهِ الْوُجُودِ .

قَدِّمَ لَهَا مِنْ الذَّهَبِ الْعَيْنِ الْمِصْرِيَّ الْمَسْكُوكَ مَا هُوَ بِنَقْدِ مَمْلُوكٍ وَالِدِهِ مَعْرُوفٌ ،
وَمِنْ حُقُوقِهِ مَقْبُوضٌ فِي هِبَاتِهِ مَضْرُوفٌ ؛ مَا يُجَدُّ مَالًا ، وَيُنْمَى مَالًا ، وَيَأْتِي كُلُّ
دِينَارٍ مِنْهُ وَوَجْهَهُ بِذِكْرِ اللَّهِ وَأَسْمِ أَبِيهِ يَتَلَا .

أَصْدَقَهَا عَلَى بَرَكَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ وَتَوْفِيقِهِ كَذَا وَكَذَا ، مَجَّلَ لَهَا كَذَا وَكَذَا ؛ قَبَضَهُ
وَكَيْلٌ وَالِدُهَا مِنْ وَكَيْلِهِ ، قَبَضَهَا تَامًا كَامِلًا ، وَتَأَخَّرَ بَعْدَ ذَلِكَ كَذَا وَكَذَا دِينَارًا حَالًا ؛
عَلَى مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ مِنْ إِمْسَاكِ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيجِ بِإِحْسَانٍ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ
اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

وَوَلِيَّ تَرْوِيحِهَا مِنْهُ عَلَى الصَّدَاقِ الْمُعَيَّنِ بِإِذْنِ وَالِدِهَا - أَعَزَّهُ اللَّهُ تَعَالَى - الْمَقْدَمِ
ذِكْرُهُ : - الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، قَاضِي الْقَضَاةِ ، حَاكِمُ الْحُكَّامِ ، خَطِيبُ خُطَبَاءِ
الْمُسْلِمِينَ ، جَلَالُ الدِّينِ ، خَالِصَةُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ؛ أَبُو الْمَعَالِي ، مُحَمَّدُ بْنُ قَاضِي الْقَضَاةِ
سَعْدِ الدِّينِ أَبِي الْقَاسِمِ ، عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ الْعَلَامَةِ إِمَامِ الدِّينِ ،
أَبِي حَفِصِ عُمَرَ بْنِ أَحْمَدَ الْقَرْوِينِيَّ الشَّافِعِيَّ ، الْحَاكِمَ بِالْدِيَارِ الْمِصْرِيَّةِ الْمَحْرُوسَةِ وَأَعْمَالِهَا
وَبِلَادِهَا ، وَجُنْدِهَا وَضَوَاحِيهَا ، وَسَائِرِ الْمَمَالِكِ الْمُضَافَةِ إِلَيْهَا ، بِالْوِلَايَةِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَدَامَ
اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَقْضِيَّتَهُ وَأَحْكَامَهُ . فَقَبِلَ مَوْلَانَا السُّلْطَانَ - خَلَّدَ اللَّهُ مُلْكَهُ - لَوْلَهُ
الْمُسَمَّى - أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى نِعْمَتَهُ - ذَلِكَ مِنْهُ قَبُولًا شَرْعِيًّا ، يَخَاطَبُ عَلَيْهِ شِفَاةَا بِحُضُورِ
مَنْ تَمَّ الْعَقْدُ بِحُضُورِهِ ، فِي دَارِ الْمُلْكِ بِالْقَصْرِ الْأَبْنَى ، بِقَاعَةِ الْجَبَلِ ، حَرَمِهَا اللَّهُ
تَعَالَى ، بُكْرَةَ يَوْمِ السَّبْتِ حَادِي عَشْرِينَ مِنْ صَفَرِ سَنَةِ آثْنَتَيْنِ وَثَلَاثِينَ وَسَبْعِينَ .



وهذه نسخة صدق المقر الشريف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد
ابن قلاوون ، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله ، وهي :

الحمد لله مَعْنَى المُلُوكِ بالمُظَاهَرَةِ ، وَمُكَثِّرِ زِينَةِ الأَسْمَاءِ بِجُومِهِمُ الزَّاهِرَةِ ، وَمُكَبَّرِ أقدَارِ الأَوْلِيَاءِ بِمَا تَمَّتِ النِّعْمَةُ بِهِ مِنْ شَرَفِ المِصَاهِرَةِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي شَرَّفَتْ قَدْرًا ، وَصَرَّفَتْ أَمْرًا ، وَأَطْلَعَتْ مِنْ هَالَةِ البَدْرِ المُنِيرِ شَمْسًا لَا تَخْذُ غَيْرَ الأَفُقِ خِذْرًا ، وَلَا تَنْتَمِي اللَّيَالِي والأَيَّامُ إِلَّا أَنْ تُقَلِّدَهَا مِنَ الأَشِعَّةِ يَاقُوتًا وَمِنَ الكَوَاكِبِ دُرًّا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَجْمَعُ مِنْ حُجَاةِ الدِّينِ نَسَبًا وَصِهْرًا ، وَتَرْفَعُ فِي أُنْبَاءِ الأَبْنَاءِ لَهَا حَسَبًا وَذِكْرًا ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي عَصَمَ بِهِ ، وَخَصَّ صَفْوَةَ الخَلْقِ فِي المِصَاهِرَةِ بِاخْتِلَاطِ نَسَبِهِمْ بِنَسَبِهِ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً تَسْتَوْتِقُ بِهَا الأَسْبَابَ ، وَتَسْتَوَسِقُ الأَنْسَابَ ، وَتَبْقَى أَنْوَارُهَا بِمَلِكِ أُنْبَاءِ المُلُوكِ كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي الأَعْقَابِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَلَمَّا جَمَعَ اللهُ بِمُلُوكِ البَيْتِ الشَّرِيفِ المَنْصُورِيِّ - كَثَّرَ اللهُ عَدَدَهُمْ - شَتَاتِ الإسلامِ ، وَمَحَا بَيَّوَارِقَ جِهَادِهِمْ مَا أَمْتَدَّ مِنْ ظَلَامٍ ؛ حَتَّى أَنْتَهتِ النَّوْبَةُ إِلَى مَنْ أَصْبَحَتْ بِهِ الدَّوْلَةُ القَاهِرَةَ وَكُلَّ أَوْقَاتِهَا أَنْوَارُ صَبَاحٍ ، وَتَوَارَاقَاجٍ ، وَسَمَاءٍ سَمَّاحٍ ، وَأَسْمَى نِعِيمٍ لَا تُعَدُّ إِلَّا مَعَاقِدَ تَيْجَانِ المُلُوكِ عَلَى كُلِّ جَبِينٍ وَضَّاحٍ ؛ المَقَامِ الشَّرِيفِ العَالِيِ المَوْلُويِّ ، السُّلْطَانِيِّ ، المَلِكِيِّ ، النَّاصِرِيِّ ، زَادَ اللهُ شَرَفَهُ ، وَأَعْلَى عَلَى شُرَفَاتِ بُرُوجِ السَّمَاءِ غَرْفَهُ ؛ فَأَحَبَّ - لِمَا أَجْرَاهُ اللهُ بِهِ وَبِمَنْ سَلَفَ مِنْ مَبْلُوكِ بَيْتِهِ الشَّرِيفِ مِنْ تَأْيِيدِ هَذِهِ الأُمَّةِ ، وَتَأْيِيدِ مَا شَبَّهَهَا بِفَتْوحَاتِهِمُ المُدْهَبَاتِ الفُتُوحِ مِنْ سَوَائِجِ النِّعْمَةِ ؛ - أَنْ يَعْمَلَ بِقَوْلِ نَبِيِّهِ المُشْرِفِ بِمُوافَقَةِ أَسْمِهِ وَمُتَابَعَةِ حُكْمِهِ فِي التَّرْوِيجِ ، وَأَنْ تَقَعَ مَوَاقِعُ أَمْطَارِهِ عَلَى كُلِّ أَرْضٍ حُرَّةٍ فَتَنْدِبَ كُلَّ زَوْجٍ بِرَيْحٍ . وَكَانَ مِنْ بَيْنِهِ - أَدَامَ اللهُ سَعُودَهُمْ - مَنْ يُطِيعُ فِي كُلِّ أَمْرٍ أَمْرَهُ العَالِيِ أَدَامَ اللهُ تَمَكِّيْنَهُ ، وَلَوْلَا هَذَا لَمَّا رَضِيَ سِوَى أَقْرَانِ الفُرْسَانِ لَهُ قَرِينَهُ ؛ وَكَانَ مِنْ مُجْبَاهِيهِمْ إِذَا

عَدَّتْ الأَوْلَادَ ، وَأَحِبَّائِهِمْ إِذَا كَانَ كَمَا يُقَالُ : الْوَلَدُ ثَمَرَةُ الْفُؤَادِ ؛ وَمَنْ هُوَ لِمَلْتَمِهِمْ
جَمَالٌ ، وَلِدَوْلَتِهِمْ دَلَالٌ ، وَلِقَائِهِمْ أَسَدُ الأَشْبَالِ - مَنْ يَعْتَرِفُ كُلَّ مَنْ عَرَفَهُ بِفَضْلِهِ ،
وَيُؤْتِلُ فِي أبنَائِهِ مَا لِأبنَاءِ سَمِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ بَرَكَاتِ نَسْلِهِ .

بَرَزَ الْمَرْسُومُ الشَّرِيفُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، السُّلْطَانِي ، الْمَلِكِي ، النَّاصِرِيُّ ، أَنْفَذَهُ
اللهُ فِي الأَفْطَارِ - بَانَ يُعْخِرُ لِمَغْرَسِهِ الْكَرِيمِ ، وَنَسَبِهِ الصِّمِيمِ ؛ وَصَبَّاحِهِ الْمُشْرِقِ ،
وَسَمَّاحِهِ الْمُغْدِقِ ؛ فِصَادِفِ الإِحْسَانِ مَوْضِعِهِ ، وَأَنْتَخِبَ لَهُ مِنْ مَشْرِقِ البَدْرِ التَّمَامِ
مَطْلَعَهُ ؛ وَمَنْ هُوَ مِنْ هَذِهِ الدَّوْلَةِ الْقَاهِرَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْيَمِينِ ، وَمَنْ هُوَ الْبَحْرُ الرَّانِحِ
وَمِنْ مَكُونِهِ يُسْتَخْرَجُ الْخَيْرُ الثَّمِينِ ؛ فَبَادَرَ الخَاطِبُ إِلَيْهِ إِلَى آغْتِنَامِ هَذَا الشَّرَفِ
الَّذِي لَا يُطَاوَلُ ، وَعَاجَلَ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي لَوْلَا فَضْلُ اللهِ وَصَدَقَاتُ سُلْطَانِهِ - خَلَّدَ اللهُ
مُلْكَهُ - مَا كَانَتْ مِمَّا تُحَاوَلُ ؛ وَقَالَ : إِنْ رَضِيَتْ تِلْكَ السُّتُورُ بِهَذِهِ المَخْطُوبَةِ ،
أَوْ أَهَلَّتْ تِلْكَ السَّمَاءُ الْعُلْيَاءُ هَذِهِ المَحْجُوبَةَ ؛ فَهِيَ لِمَا أَهَلَّتْ لَهُ فِي خِدْمَةِ ذَلِكَ المَقَامِ
الْأَمِينِ ، وَهِيَ كَمَا شَاءَ مَالِكُهَا الْمُتَصَدِّقُ مِنْ ذَوَاتِ العِفَّةِ وَإِلَّا فَهِيَ مِمَّا مَلَكَتِ
الْيَمِينُ ؛ فَاتَّمَّتِ الصَّدَقَةُ الشَّرِيفَةُ عَوَارِفَهَا بِمَا هُوَ أَشْرَفُ مَقَامًا ، وَأَعْظَمُ لَهَا فِي رَتْبَةِ
الفَخَارِ فَهِيَ تَسْمُو بِهَذَا وَلَا تُسَامَى ؛ وَشَرَّفَتْهُ بِمَا وَصَلَتْ إِلَيْهِ عِنْدَ المَقَرِّ الشَّرِيفِ
مِنَ المَقَامِ الْكَرِيمِ ، وَلَمْ تَكُنْ إِلَّا مِنْ ذَوَاتِ العُقُودِ وَلَا كَيْدِ وَلَا كِرَامَةِ لِمَا يَنْجَلِي بِهِ
اللَّيْلُ البَيْمِ ، وَلَا لِمَا يَتَحَلَّى فِي جِيدِ الجُوزَاءِ مِنْ عِقْدِ دُرِّهَا النِّظِيمِ ؛ وَلَوْلَا إِجْلَالُ
المَقَامِ عَنِ التَّطْوِيلِ لِمَا آخِضَرَ القَائِلُ فَقَالَ :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَذَا مَا أَصْدَقُ
.....

الطرف الثاني

(في صدقات الرؤساء والأعيان وأولادهم)

وهي على نحو من الصدقات الملوكة في الترتيب، إلا أنها أخصر، ومن الألقاب بحسب أحوال أصحابها من أرباب السيوف والأقلام .

(١)

وهذه نسخة صدق جمال الدين عبد الله [بن سيف الدين أبي سعيد أمير حاجب]

على بنت بيدمر العمري، من إنشاء المقر الشهابي بن فضل الله، وهي :

الحمد لله مبلغ كل أمل ما يرجوه، ورأعي ذمم من لم ينسوا عهده ولم يخلفوه،
ومكّل الخير لكل ذي ^(١) يصد من يخفوه، وجيب كل منيب يدعو قائماً
وقاعدا : (ولما قام عبد الله يدعو) .

نحمده حمداً نكرّر فضله وتتلوه، ونحلّ معضله ونجّله؛ ونشهد أن لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة يتظاقر عليها الأمر المسلم وبنوه، وتبيض بها وجوه
الأوداء، وتسود وجوه الأعداء، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه؛ ونشهد أن سيدنا
محمداً عبده ورسوله الذي سجد به ذووه، وصعد قدر صهره وحموه، وشرف نسباً
ما ألقى فيه على سفايح هو ولا أولوه؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة لا يزال
بها الروض الأرج يقوه، والسحر يبلغها ولو سكت وختم بالبرق فوه؛ وسلم تسليماً .

وبعد، فإن أزهي زهر طاب مجتنوه، وطال باعاً في الفخار مجتنوه؛ زهر كرامة
جرت عنها لامة كمي، وأبرزتها سنة الإسلام من حجاب ذي أنف حمي؛ وطلعت
من أفق بدرى طالما سنع مجتنوه، وحمى سيف أمن في كلته بكلاءته مجتنوه .

وكان الجَنَابُ الجَمَالِيُّ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ المَرْحُومِ سَيْفِ الدِّينِ أَبِي سَعِيدِ أميرِ حَاجِبٍ ،
أدام اللهُ تَعَالَى عُلَاهُ ، وَرَحِمَ أَبَاهُ ، هُوَ وَلَدَ ذَلِكَ الوَالِدِ ، وَطَارَفَ ذَلِكَ التَّالِدِ ؛ وَتَشَوَّ
هَذِهِ الدَّوْلَةَ الشَّرِيفَةَ الكَامِلِيَّةَ الَّتِي أَخَذَ مِنْهَا حَظَّهُ بِالتَّمَامِ وَالكَمَالِ ، وَأَصْبَحَتْ بِهِ
كَالغَادَةِ الحَسَنَاءِ ذَاتِ الحُسْنِ وَالجَمَالِ ؛ وَلَمْ يَمُتْ أَبُوهُ فِي أَيَّامِ سُلْطَانِهَا - خَلَدَ اللهُ
مُلْكَهُ - حَتَّى قَرَّتْ بِهِ عَيْنُهُ ، وَسَاوَاهُ فِي الإِمْرَةِ لَوْلَا تَفَاوُتِ العِدَّةِ وَقِدَمِ المُدَّةِ بَيْنَهُ
وَبَيْنَهُ ؛ وَجَاءَ مِنْهُ وَلَدٌ نَجِيبٌ ، وَأَبْنٌ شَاعٌ وَذَاعَ سِرَّأِيهِ وَحَمِدَ وَهَذَا نَجِيبٌ !!! .
وَمَا أَتَقَلَّ وَالِدُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى إِلَى رَحْمَةِ رَبِّهِ ، وَشَرِبَ بِالكَأْسِ الَّذِي لَا بُدَّ لِكُلِّ
حَيٍّ مِنْ شُرْبِهِ - تَطَلَّبَ مِثْلَ ذَلِكَ الأَبِ وَلَمْ يَزَلْ يَجِدُّ حَتَّى وَجَدَ ، وَظَفَرَ بِوَالِدِهِ إِنْ
لَمْ يَكُنْ وَلَدَهُ حَقِيقَةً فَإِنَّهُ عِنْدَهُ مِثْلُ الوَلَدِ ؛ وَهُوَ المَقْتَرُ بِيَدِهِ ، وَهُوَ الوَالِدُ الَّذِي لَمْ يَفْقِدْ
مَعَهُ مِنْ وَالدِهِ ذَرَّةً ، وَالأَبُ الَّذِي هُوَ أَرَأْفُ مِنْ كُلِّ أُمِّ بَرٍّ ؛ وَالنَّيِّرُ البَسْدِرِيُّ الَّذِي
سَعَدَ قِرَانًا ، وَصَعِدَ وَدَاسَ بِقَدَمِهِ أَقْرَانًا ، وَقَسَمَ دَهْرَهُ شَطْرَيْنِ : نَهَارَهُ لِلضُّيُوفِ قِرَى
وَلَيْلَهُ لِلَّهِ قُرَانًا .

هَذَا إِلَى أَنَّهُ طَالَمَا طَيَّبَ لَزَكَاةِ أَمْوَالِهِ وَتَمَرَّهَا ، وَزَيَّنَ فِي أَعْمَالِهِ بِمَدْرَسَةِ عَمْرُهَا ،
وَقَيَّدَ سُورِدَ حَسَنَاتِهِ وَتَقَفَّهَا ؛ مَعَ أَنَّهُ شَيَّدَ المَمَالِكَ وَسَدَّدَ أَمْوَرَهَا ، وَسَدَّدَ نُغُورَهَا ؛
وَحَمَى بِيضَ سُيُوفِهِ السَّوَادِ الأَعْظَمِ ، وَرَمَى بِصَوَابِ سِهَامِهِ النُّوَابِغِ وَلَمْ تُسْتَعْظَمْ ؛
وَلَمْ تَزَلْ نُوبُ الأَيَّامِ مُجْرَبٌ مِنْهُ مِسُورِيًا ، وَبِجَرْدٍ حَرًّا كَرِيمًا جَاءَ فِي أوَّلِ السَّنَةِ صَقْرًا
بَدْرِيًا ؛ فَكَانَ مِنْ تَمَامِ بَرِّهِ بِمَنْ سَلَفَ إِجَابَةُ وَالدِهِ ، وَإِجَالَةُ الرَّأْيِ فِيهَا يَكُونُ سَبَابًا
لِصَيَانَةِ عَزَمَتِهِ وَذَاتِ يَدِهِ ؛ فَانْعَمَ لَهُ بِعَقِيلَتِهِ المُنْعَمَةِ ، وَرَبِيبَتِهِ الَّتِي غَدَّتِ الشَّمْسُ مِنْهَا
سَافِرَةً مُنْعَمَةً ؛ وَقَالَ : عَلَى الخَيْرِ وَالخَيْرِهِ ، وَأَبْنُ أُخِي كَرِيمٌ وَجَدَعَ الحَلَالُ أَنْفَ الغَيْرِهِ ؛
وَمَا أَسْنَى عَقْدًا يَكُونُ مُتَوَلِّيهُ ، وَمُنْشِئُهُ إِحْسَانًا مِنْهُ وَمُسْنِيَهُ ؛ مَوْلَى بِهِ نَظُمَتْ عَقُودُ
اللَّائِي ، وَرُقِمَتْ بِعَلَمِهِ أَعْلَامُ الأَيَّامِ وَذَوَابِغُ اللَّيَالِي ؛ وَسَأَمْتُ القَضَايَا بِهِ إِلَى مُنْقَدِّ

أحكامها، ومُنِيلَ الْفَضْلِ لِحُكْمِهَا؛ الْبَحْرِ الرَّاحِرِ، وَالنَّجْمِ الَّذِي تَمَّ تَرْكُ الْأَوَّلِ مِنْهُ
لِللَّاحِرِ؛ وَالنَّهَامِ إِلَّا أَنَّهُ قَضَتْ صَوَاعِقُهُ عَلَى الْخُصُومِ، وَالْإِمَامِ الَّذِي أَجْمَعَتْ عَلَيْهِ
السُّنَّةُ وَلَمْ تُتَكْرَمْ الشَّيْعَةُ أَنَّهُ الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ؛ وَالْعَالَمِ الَّذِي مَابَرَحَتْ بُرُوقُهُ نُشَامًا، وَحُقُوقُهُ
عَلَى أَهْلِ مِصْرَ وَالشَّامِ؛ وَالَّذِي وَلَّى الظُّلْمَ مُنْذُ وَلِيَّ، وَأَعْتَرَفَ ذُووُ الْفَضْلِ وَالْفَضْلُ
فِي الْقَضَاءِ أَنَّ أَتْقَاهُمْ تَقَى الدِّينَ وَأَقْضَاهُمْ :

قَاضِي الْقَضَاءِ أَبُو الْحَسَنِ * بَبَقَائِهِ يُجَلِّي الْحَزْنَ ،
و [هُوَ] الَّذِي فِي حُكْمِهِ * يَجْرِي عَلَى أَقْوَى [سِنَّن] ^(١) !
طَوْدٌ إِذَا وَازَنَتْهُ * بِالطَّوْدِ فِي حُكْمٍ وَزَنَ !
وَالْبَحْرُ طَى رِدَائِهِ * قَلْدَ الْعُقُودِ بِلَا ثَمَنِ ^(٢) !

فأضاء المخفل به وبال حاضرين ، وقام شعار الدين حتى قال القائل : هذه سيوف
المجاهدين وهذا سيف المناظرين ؛ وقيل : هذا وقت جود قد حضر ، وموضع
سروير ينبغي أن يعجل منه ما ينتظر ؛ فابتدأ السعد مجاهد الوسيم ، وأفتتح فقال :
بسم الله الرحمن الرحيم هذا



وهذه نسخة صدق ناصر الدين محمد بن الخطيرى ، من إنشاء المقتز الشهابي بن
فضل الله ، وهي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي زَادَ الْأَصُولَ الطَّيِّبَةَ قُرْبًا ، وَزَانَ الْأَنْسَابَ الطَّاهِرَةَ بِصَلَاةٍ نَتَأَكَّدُ
حُبًّا ، وَصَانَ كَرَامَاتِ الْبُيُوتِ الْقَدِيمَةِ الْفَخَّارِ بْنِ يُنَاضِلُ عَنْ حَسَبِهِ ذَبَابًا ، وَيُنَاطِرُ الْعُلِيَاءَ
فَلَمْ يَبْنِ إِلَّا بَيْنَ مَنَازِلِ النُّجُومِ بِيُوتًا وَلَمْ يُسْبِلْ سِوَى السُّمْرِ سُمْرًا الْقَنَا حُجْبًا .

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من المقام .

(٢) بمعنى جمع .

نَحْمَدُهُ حَمْدًا مِنْ دَعَاةِ قَبْلِ بَثِّ النَّسِيمِ فَلَيْبِي ، وَأَسْتَدْعَاهُ لِأَخْذِ الْعَهْدِ عَلَيْهِ أَمَامَ
تَفْرِيقِ الْقِسَمِ فَمَا تَابَيَّ ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَسْتَنْطِقُ
السُّنَّةَ وَتَشْكُرُ قَلْبًا ، وَتَسْتَعْدِقُ أَنْوَاءَ السَّرُورِ فَتُضِيءُ الْبَشَائِرَ بَرُوقًا وَتُمْطِرُ الرَّحْمَةَ سَحَابًا ،
وَنَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي قَامَ فِي تَكْثِيرِ الْأُمَّةِ حَتَّى زَادَ عَدَدُهَا عَلَى مَوَاقِعِ
الْقَطْرِ وَأَرْبَى ، وَقَالَ مِمَّا أَمَرَ بِهِ : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَعَلَى أَقْرَبَائِهِ صَلَاةً تَصُمُّ آلًا وَصَحْبًا ، مَاسَرَّتِ الشُّهْبَ
تَقَطَّعَ الْآفَاقَ شَرْقًا وَغَرْبًا ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَشْتَبَكَ وَشَبِيحُهُ ، وَأَشْتَبَهُ فِي مَنَابِتِ الْإِيكِ بَهَبِجُهُ ، وَأَنْتَبَهُ
فِي أَرَائِكِ الْخَمَائِلِ أَرِيحُهُ ، وَأَنْتَدَبَ لِإِتْيَانِهِ الْأُفُقَ وَظَهَرَ عَلَيْهِ مِنْ ذَهَبِ الْعِشَاءِ تَمْوِيحُهُ
وَمِنْ لَمَعِ الصَّبَاحِ تَدْيِيحُهُ - مَا أَتَبَعَتْ فِيهِ الشَّرِيعَةُ الْمَطَهَّرَةَ حَيْثُ لَا تَخْتَلِفُ الْأُمَّةُ ،
وَالسُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ عَلَى مَنْ سَنَّهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فِيمَا تَأْتَلَفُ بِهِ الْبُعْدَاءُ وَتَكْتُمُ
لِمَبَاهَاتِهِ الْأُمَّمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَذِهِ الْأُمَّةُ ، وَتَدْنُو بِهِ الْأَجَانِبُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ وَيَجْعَلُ
بَيْنَهُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، وَتُعَدُّ بِهِ أَيَادِي جَمَّةٍ لَا تُحْصَرُ وَيُجَلِّدُ بِهِ فِي الْعَاقِبَةِ شَرَفُ الذِّكْرِ
وَيُتَجَلَّلُ بِهِ شَرَفُ النَّعْمَةِ ، وَهُوَ النَّكْحُ الَّذِي تَسْتَدُّ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَتَعْتَدُّ بِهِ الْمَوَارِدُ
لِتَمَثِيلِ أَكْثَرِ الصُّوَرِ مِنْ أَرْزَاقِ الْعَنَاصِرِ ، وَتَمْتَدُّ بِهِ هِمُّ الْأَبْطَالِ لِمَا يَسْتَخْرِجُهُ بِجَفْدَةِ
أَنْبَاءِهِ مِنْ أَمِّ قُوَّةٍ وَنَاصِرٍ . وَأَكْمَلَهُ مَا تَمَثَّلَتْ فِي أَشْرَفِ الْبُيُوتِ الْعَرِيقَةِ وَجُوهُ
نَخَارِهِ ، وَتَقَابَلَتْ فِي مَطَالِعِ السُّعُودِ - حَيْثُ الْبَدْرُ الْمُنِيرُ وَالشَّرْفُ الْخَطِيرُ - مَشَارِقُ
شُمُوهِ وَمَطَالِعُ أَفْقَارِهِ .

وَكَانَ الْأَبْوَانُ فِي أَهْلِ الْفَخَّارِ مِنْ جُرْثُومَةٍ بَسَقًا ، وَأَرْوَمَةٍ تَفَرَّقَتْ فُرُوعُهَا
ثُمَّ تَلَاقَتْ مِنْهَا غُضُنَانٌ وَأَعْتَقْنَا ، مِنْ بَيْتٍ مَا حُجِبَهُ إِلَّا مَوَاضِي الصَّفَاحِ ، وَلَا شَبِيهَهُ

إلا طلائع الأسنّة في رؤوس الرّماح، ولا سُبُحُه إلا ما يفيضُ على جَنابَتِه من النفوس
 أو يفيضُ من السّماح، ولا سُبُحُه إلا المناقبُ لولا أن الثّرياً جاذبت ما يعرضُ
 في السماء أثناء الوشاح ؛ وكان هو الرّاغِب إلى عمّه، الخاطِب إليه ما لم يكن يُجَبُّ
 إلا لقسَمِه ؛ الطّامِح بَنظَرِه إلى عَقيلَة الفخّار في غُرفِها، الطّامِع بِنِخْطَة السّمسِ شمسِ
 النّهار إلا أنها في بَيْتِ شَرَفِها ؛ المُتَوَقِّع من كَرَمِ عمّه الإجابة التي لحظها بأَمَلِه ، وتَوَلِيَة
 يدِ كَرِيمة لا يَعتَدِلُ الزمانُ إلا إذا حُمِلت سَمْسُها في بَيْتِ حَمَلِه ؛ تَوَقُّعاً لَنَسْلِ لا يزال به
 شَرَفُ هذا البَيْتِ الكَرِيمِ مَوْجوداً، ونَسَبِ إذا عَدَّ ولدٌ منه الآباءَ عَدَّ جَدَّيْنِ سَعِيدَيْنِ
 هَذَا مَسْعُوداً وهذا مَحْمُوداً ؛ فَتَلَقَى قَصَدَه بِإِكرامِ بَوَاهِ أُنكافِ الشَّرَفِ ، وَأوطاهُ
 فُرُشَ الكَرَامَةِ مَتَعاً بِنَعِيمِ التَّرَفِ ، آبتداعاً للكِرَمِ المألوفِ ، وآتباعاً للسَّنَةِ الشَّرِيفَةِ
 إذ كان الأقربون أَوْلَى بالمعروفِ .

فَبَارِيَا جُودًا سارِعَ كُلِّ منهما في أدَاءِ حَقِّه إلى الواجبِ ، وَتَجَارِيَا إليه لِيَلْحَقَا
 شَأوَأبويهما وكُلِّ منهما يعلم أنه العَيْنُ والعَيْنُ لا تَرْتَفِعُ على الحَاجِبِ ؛ وَأَتَمَّ الحَنَابُ
 الشَّرْفِيُّ مَحْمُودٌ - أدام اللهُ نِعْمَتَه بِحُسْنِ إجابته، وَيُنِ رَغْبَتِه في أَهْلِ عِصْبَتِه ، وَأَهْلَ
 جُنُودِه إلى أن ساروا إلى الهِجاءِ نَحْتِ عِصَابَتِه - بأن فَوَضَّ هذا الأمرُ إلى أَخِيهِ
 الكَبِيرِ وَالِدِ الخاطِبِ ، وَسَكَتَ وقال : هو في التَّصَرُّفِ وَعَنَى الخاطِبُ ؛ وله الأمرُ
 ولولا الشَّرْفُ بِنِسْبَةِ الأُخُوَّةِ إليه لما قُلْنَا : إلا أَنّا مِلْكُ يَدِه ، وإذا كان العمُّ صِنو
 الأبِ فَأَيُّ فَرَقٍ بين وَلَدِي وولَدِه؟ ، وَلَئِن آخَتَصَّ في نِسْبَةِ هذه الزَّوْجَةِ في يَوْمِه هذا
 فإنَّ أولادها لا تُعرَفُ إلا به في غَدِه ؛ فَكُلُّ هذا العَقْدِ ، وَأَشْرُقُ به السَّعْدُ الطَّالِعُ
 أَضوًا مِمَّا قَدَّمَ وَأَخْرَمَ مِنَ النِّقْدِ ؛ وكان من تَمَامِ التَّكْرِيمِ ، أن قال قائِلُه :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



وهذه نسخةُ صَداقِ القاضِي تَقِيَّ الدِّينِ ، وهى :

الحمد لله الذى رَفَعَ إلى المَنَازِلِ العَلِيَّةِ من كان تَقِيًّا ، وَجَمَعَ شَمْلَ من لم يَبْرَحْ لِسَانِ
السُّنَنِ تَابِعًا وَبِهَا حَفِيًّا ؛ وَخَلَعَ أَثْوَابَ الثَّوَابِ عَلَى من سَرَّحَ طَرْفَ طَرْفِهِ فى رَوْضِ
التَّاهُلِ وَجَعَلَهُ وَضِيًّا .

نَحْمَدُهُ عَلَى نِعَمِهِ الَّتِي من هَرَجِ جِدْعِ نَحْلِهَا تَسَاقَطَ عَلَيْهِ رُطْبًا جَنِيًّا ، وَتَشْكُرُهُ عَلَى
فَضْلِهِ الَّذِي كَمَّ أَجْرَى لِقَاصِدِهِ من بَحْرِهِ المَعْرُوفِ سَرِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَن لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ
وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تَمُنُّحُ قَائِلِهَا فى غُرْفِ الجَنَّةِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وَنَشْهَدُ أَن سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا
عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ الَّذِي آتَاهُ اللهُ الكِتَابَ وَجَعَلَهُ نَبِيًّا ، الأَمْرَ أُمَّتَهُ بِالنِّكَاحِ لِيُكَاثِرَ بِهِمُ الأُمَّمَ
يَوْمَ يَقْرُبُهُ اللهُ نَجِيًّا ، صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ كان يُحِبُّ مِنْهُمْ فى حَالَتِي
الكَرَمِ وَالكَرَامَاتِ وَوَلِيًّا ، ما أَطْلَعَ التَّوْفِيقُ فى آفاقِ الأَنْصَالِ مِنَ الأَنْسابِ الكَرِيمَةِ
كَوَجْبا دُرِّيًّا ؛ وَسَلِّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فإن أَوْلَى السُّنَنِ بِالأَتْباعِ سُنَّةُ النِّكَاحِ ، الَّتِي أَخْفَى نُورُ مُصْبِحِهَا شَمْسَ
الصُّبْحِ ، وَخَفَقَتْ عَلَى مَعَالِمِهَا أَعْلَامُ النِّجاةِ وَالنَّجَاحِ ، وَحَمِدَ المَسِيرِ إلى رُبوعِها الأَهْلَةَ
بأَهْلَةَ العِصْمَةِ فى العُدُوِّ وَالرَّواحِ ؛ يا لها سُنَّةٍ وَجْهَها جَمِيلَةٌ ، وَأَصْباغُ نَيْلِها
بِلِ أَيْدِيهِ جَزِيلَةٌ ؛ بِها تُحْمَى أشْجارُ النَّسَبِ وَيَطيبُ جَنانُها ؛ وَتَبْلُغُ النَفوسُ مِنَ الصَّيْانةِ
أَفْصَى مُناها ؛ وَيظْفَرُ أَوْلُو الرِّغْبَةِ فىها أَحَلَّ اللهُ بِمَطْلُوبِهِمْ ، وَتَوَلَّفَ بَيْنَ مَنْ لو أَنْفَقَتْ
ما فى الأَرْضِ جَمِيعًا ما أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ؛ وهى الوَسِيلَةُ الَّتِي تُكثِّرُ سَواذَ هَذِهِ الأُمَّةِ ،
وَالدَّرِيعَةُ إلى [بَقاء] النُّوعِ الَّذِي أَظْهَرَ اللهُ فى سَماءِ التَّكْرِيمِ نَجْمَهُ ؛ وَإِليها الإِشارةُ
فى قولِهِ تَعالى : (وَمِنَ آياتِهِ أَن خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوا إِليها وَجَعَلَ
بَيْنَكُمْ مودَّةً وَرَحْمَةً) .

ولما كان كذلك رَغِبَ في أَقْتِنَاءِ آثَارِهَا ، وَأَهْتَدَى بِالضَّوئِ الْأَمَعِ من أَفْهَارِهَا ؛ مَنْ
يَتَشَرَّفُ الْمَكَانَ بِذِكْرِ وَصْفِهِ ، وَيَتَعَطَّرُ مَا أَنْتَشَرَ فِي طَيْبِهِ من طَيْبِ عَرَفِهِ ؛ مَا جَدُّ
عَمْرَ الْبِلَادِ السَّاحِلِيَّةِ بِدَوَامِ دِيَمِهِ ، وَجَوَادٍ مَا جَاوَرَهُ الْبَحْرُ إِلَّا لِيَقْتَبِسَ من كَرَمِهِ ؛
وَرَأَيْتُ أَمْتَطَى ذِرْوَةَ الْعَلْيَاءِ بِحُسْنِ السُّلُوكِ ، وَأَرَيْتُ لَوْ لَمْ يَكُنْ صَدْرًا لِمَا أُودِعَ سِرُّ
الْمُلُوكِ ؛ إِنْ تَكَلَّمَ أُبْرَزَكَ الْجَوْهَرِ الْمَصُونِ ، وَإِنْ كَتَبَ صَحَّكَتْ لُبْكَاءُ قَلْبِهِ تُغَوِّرُ
التُّغَوِّرُ وَالْحُصُونِ ؛ لِلَّهِ نَسَبُهُ الْمَشْهُورُ بَيْنَ الْأَكْبَرِ الْأَعْيَانِ ، وَبَيْنَهُ الْمَعْمُورُ بِالْعَيْنِ
الْمَرْفُوعِ خَبَرُهَا إِلَى فِتْيَانٍ ؛ نَخَطَبُ من عَلَا قَدْرُهَا ، وَأَشْتَهَرُ بِالْحُسْنِ الْجَمِيلِ ذِكْرُهَا ؛
وَجَلَّتْ عن أَنْ تَرَى الْعُيُونَ لَهَا فِي الصُّونِ شَيْبًا ، وَعَمَّتِ الْبِقَاعُ سَحْبَ بَرَكَةِ أَبِيهَا ؛
أَكْرَمُ بِهِ عَالِمًا عَامِلًا ، وَإِمَامًا لَمْ يَزَلْ يُنْدَى فَضْلًا وَيُسَدَى نَائِلًا ؛ كَمْ لَهُ من آثَارِ
مَشْهُورِهِ ، وَمَنَاقِبِ مَأْثُورِهِ ، وَصَدَقَاتِ مَبْرُورِهِ ، وَمَوَاطِنِ بِذِكْرِ اللَّهِ مَعْمُورِهِ .

فَقُوِيلَ بِالْبِشْرِ قَوْلَ رَسُولِهِ ، وَرَدَّ رَائِدُهُ مُحِبًّا بِبُلُوغِ سُؤْلِهِ ؛ وَقِيلَ لَهُ بِلِسَانِ الْحَالِ ، :
هَذَا مَا كَانَتْ تَنْتَظِرُ الْأَمَالَ ؛ يَا لَهُ عَقْدًا غَلَّتْ جَوَاهِرُ عَقُودِهِ ، وَأَنَارَتْ فِي آفَاقِ
الْأَنْفَاقِ أَنَجْمُ سَعُودِهِ ؛ وَمَا يَلَتْ قُدُودَ أَغْصَانِ الْأَفْرَاحِ ، وَزَهَّتْ مَجَالِسُ السُّرُورِ
بِالْأَنْشِرَاحِ ؛ وَهَبَتْ قُبُولَ الْإِقْبَالِ ، وَقَامَ الْقَلَمُ خَطِيبًا عَلَى مِنْبَرِ الطَّرْسِ فَقَالَ :

هذا ما أصدق... ..



وهذه نسخةٌ صدَّقَ من إنْشاءِ الشَّيْخِ صَاحِحِ الدِّينِ الصَّفَدِيِّ ، لِلْقَاضِي بَدْرِ الدِّينِ
خَطِيبِ بَيْتِ الْآثَارِ ، عَلَى بِنْتِ شَمْسِ الدِّينِ الْخَطِيبِ من بَيْتِ الْآثَارِ ، تُسَمَّى
سُؤْلِي ، فِي مُسْتَهْلِ جُمَادَى الْآخِرَةِ سَنَةِ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ وَسَبْعِمِائَةٍ ، فِي مَجْلِسِ مَوْلَانَا
قَاضِي الْقِضَاةِ تَقِيِّ الدِّينِ السُّبُكِيِّ الشَّافِعِيِّ ، أَدَامَ اللَّهُ أَيَّامَهُ ، وَهِيَ :

الحمد لله الذي زينَ سماءَ المعالي ببدرها، وأثبتَ في رياضِ السعادةِ يانعَ زهرها،
وألهمَ ذوي الهممِ أن يبذلوا في الكرائمِ غوالي مَهْرها .

نحمدُه على نِعَمِهِ التي حَلَّتْ ما ضَفَا من لِبَاسِها ، وَسَوَّغَتْ ما صَفَا من رُضَابِ
كَاسِها ، وَخَصَّنَا بما عَمَّتْ به من أنواعِ أَجْناسِها ؛ وَأَشْهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده
لا شريكَ له ، أَعْلَمُنَا في الإيمانِ نَصْها بالأداء ، وَبَنَى أَسْمَها على الفَتْحِ كما فَتَحَ
المُضَافُ في النِّداءِ ، وَرَفَعَ خَبَرها : إِمَّا على رَأْيِ الرُّواةِ للشُّهرةِ وإِما على رَأْيِ النُّحاةِ
بالأبتداء ؛ وَنَشْهَدُ أن سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الذي شَرَعَ النِّكاحَ لهذه الأُمَّةِ ،
وَمَنَعَ السَّفَاحَ فلم يكن أمرُنا علينا عُمَّةً ، وَنَهَجَ الصَّوابَ فما ظَنُّكَ بالصَّباحِ إذا أَبْتَلَجَ
عَقِيبَ اللَّيْلَةِ المُدْهِمَةِ ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِهِ الذين تَلَقَّوْا أوَامِرَهُ بالطاعةِ ،
وَاجْتَنَبُوا نَوَاهِيَهُ حَتَّى بَلَغُوا جُهْدَ الأَسْطِطَاعَةِ ، وَفَهِمُوا مُرَادَهُ بِمُكَاتَرَةِ الأُمَّمِ فكان
البِضَاعُ عندهم خَيْرَ بِضَاعِهِ ؛ صَلَاةَ رِضْوَانِها يُبْضِئُ إِضَاءَةَ الكواكبِ في أَبْرَاجِها ،
وَعُفْرانِها يُكَاتِرُ البِحارَ في أَعْدادِ مَوْجِها ؛ ما أَتَّصَلَ سَبَبٌ بالنِّكاحِ ، وَأَنْفَصَلَ نَسَبٌ
بالسَّفَاحِ ؛ وَسَلِّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا إلى يَوْمِ الدينِ .

وبعدُ ، فإن النِّكاحَ من مَحاسِنِ هذا الدينِ التَّيِّمِ ، وَفَضائلِ هذا اللِّشْرِعِ الذي
لا زال شَرَفُهُ بَدْرًا بين مُشْرِقاتِ النُّجُومِ وهو مُحَمِّمٌ ؛ به يُحْفَظُ النِّسَبُ الشَّرُودِ ، وَيُرْعَى
عَهْدُ القَرِينَةِ الوُلُودِ الوُدُودِ .

وكان فلانٌ مِمَّنْ أَشْبَهَ أباهُ ، وَأَيِّينَ ما أودَعَهُ من نَفائِسِ العُلُومِ وَحَبَاهُ ؛ تَصَدَّرَ
في المَجالِسِ ، وَدَرَسَ في المَدارسِ ، وَأُورِدَ ما عنده من النِّفائِسِ ؛ كَيْفَ لا ؟ وهو
سَبَطُ شَيْخِ الإسلامِ وإِمَامِ المُسلمينِ ، وَقاضِي قُضاةِ الشَّافِعِيَّةِ وَأوْحِدِ المُجتهدينِ ؛
وقد أراد الآنَ إِحْصانَ فَرَجِهِ ، وَأَنْ تَنْزِلَ الزُّهْرَةُ مع بَدْرِهِ في بُرْجِهِ .

فلذلك رَغِبَ إلى المَجْلَسِ العَالِي (المسمى) وَخَطَبَ الجِهَةَ المَصُونَةَ المَحْجَبَةَ ،
التَّقِيَّةَ، التَّقِيَّةَ، العَفِيفَةَ ، الخَاتُونَ، غُضِنَ الإسلامَ، شَرَفَ الخَوَاتِينَ، جَمَالَ ذَوَاتِ
السُّتُورِ، قُرَّةَ عَيْنِ المُلُوكِ والسُّلَاطِينِ، السَّيِّدَةَ "سُؤلى" بِنْتُ فُلَانٍ، صَانَ اللهُ
حِجَابَهَا - فَأَكْرَمَ مَوَارِدَ قَصْدِهِ، وَحَبَاهُ أَنْفَسَ دُرَّةٍ فِي عِقْدِهِ .

فلذلك قام خَطِيبُ هَذَا الحَفْلِ الكَرِيمِ، والنَّجْمُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ نَجْمَهُ بِالطَّالِعِ المُسْتَقِيمِ،
وقال :

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



قُلْتُ : وَهَذِهِ نَسْخَةُ صِدَاقِ زَيْنِ الدِّينِ صَدَقَةَ السَّيْفِيِّ أَزْدَمِرَ ، عَلِيَّ بِنْتِ أَمِيرِ
المُؤْمِنِينَ «المُتَوَكِّلِ عَلَى اللهِ» . أَنشَأَتْهُ لَهُ فِي خِلَافَةِ أَخِيهَا المُسْتَعِينِ بِاللهِ العَبَّاسِيِّ ، وَهِيَ :
الحَمْدُ لِلَّهِ مُسْتَخْرَجِ الدَّوْحَةِ الهَاشِمِيَّةِ مِنْ أَطْيَبِ العِنَاصِرِ ، وَمُقَرَّرِ النَّبْعَةِ العَبَّاسِيَّةِ
مِنْ أَكْرَمِ صِنُوفِهَا أُنْعَقِدْتُ عَلَى فَضْلِهِ الخِنَاصِرَ ، وَمُخَصَّصِ بَيْتِ الخِلَافَةِ مِنْهَا بِأَعَزِّ
جَانِبِ ذَلَّتْ لِعِزِّهِ عُظْمَاءُ المُلُوكِ مَا بَيْنَ مُتَقَدِّمِ وَمُعَاصِرِ .

نَحْمَدُهُ عَلَى أَنْ صَانَ عِقَائِلَ الخُلَفَاءِ بِمَعَاقِلِ الحَسَبِ ، وَحَصَرَ كِفَائَتَهَا فِي العِلْمِ وَالدِّينِ
حَيْثُ لَمْ يُكَافَأَ بِحِرْفَةٍ وَلَا نَسَبٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ الَّذِي
سَنَّ النِّكَاحَ وَشَرَعَهُ ، وَأَرْغَمَ بِالْحِلِّ أَنْفَ الغَيْرَةِ لَدَى الإِبَاءِ وَقَمَعَهُ ؛ شَهَادَةً يُسْتَشَقُّ
مِنْ رِيَاءِ عِيْرِهَا كُلِّ شَيْءٍ أَرِيحُ ، وَتُجْتَنَى ثِمَارُ بِنْعِمِهَا بِشَرِيفِ النَّجَاحِ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ
بِهَيْجٍ ؛ وَنَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَفْضَلَ نَبِيٍّ وَفُرَى فِي الفَضْلِ سَهْمُهُ حَتَّى لَمْ
يُسَآهَمْ ، وَأَكْرَمُ رَسُولٍ رَخَّصَ فِي تَزْوِيجِ بَنَاتِهِ مِنْ صَحَابِهِ وَإِلَّا فَايَنْ كُفَّ رَسُولُ اللهِ
مِنَ العَالَمِ ؟ ؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ شَرَّفَهُمْ بِقُرْبِهِ ، وَقَرَنَ الصَّهْرَ

بالتَّسْبِ فِيهِمْ نَخْصُ مُصَاهَرَتِهِ أَخْصَمُهُ بِهِ ؛ صَلَاةً تَصِلُ سَبَبَ قَائِلِهَا بِسَبَبِهِ ،
وتَجْعَلُ الْفَخَارَ بِهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ؛ وَسَلْمٌ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وبعدُ ، فَإِنَّ أَوْلَى مَا أَطَالَ فِيهِ الْمَطِيلُ ، وَتُحَدِّدُ فِي وَصْفِهِ الذَّهْنَ الْكَلِيلَ ، وَرُقِيَّتْ
مَحَاسِنُ ذِكْرِهِ عَلَى صَفْحَةِ النَّهَارِ بِذَائِبِ ذَهَبِ الْأَصِيلِ - مَا تَوَاصَلَتْ بِهِ الْأَنْسَابُ ،
وَتَوَصَّلَ بِوِاسْطَتِهِ فِي دَرَارِيِّ الدَّرَارِيِّ إِلَى شَرَفِ الْأَحْسَابِ ؛ وَتَوَفَّرَتْ عَلَيْهِ الدَّوَاعِي
فَأَشْتَدَّتْ بِهِ الْأَوَاصِرُ ، وَحَسُنَتْ فِي طَرِيقِ قَصْدِهِ الْمَسَاعِي فَتَأَكَّدَتْ بِهِ الْمَوَدَّةُ
فِي الْبَوَاطِنِ وَالظُّوَاهِرِ . وَهُوَ النَّكَّاحُ الَّذِي نَدَبَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُعَاطَاتِهِ ، وَحَضَّ
عَلَى التَّحَلِّيِّ بِجَلِيلِهِ حَتَّى أَلْحَقَهُ بِالْعِبَادَةِ فِي بَعْضِ حَالَاتِهِ ؛ طَلَبًا لِلتَّخْصِينِ الْكَافِلِ بِسُلُوكِ
نَهْجِ الْأَسْتِقَامَةِ ، وَرَغْبَةً فِي تَكْثِيرِ النَّسْلِ الْوَاقِعِ [بِهِ] مُكَاتِرَةً الْأُمَّمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

هَذَا وَكَرَائِمُ بَيْتِ الْخِلَافَةِ ، وَرَبَائِبُ مُحَمَّدِ الْمُجْدِّ وَالْإِنَافَةِ ؛ فِي حَيْزِ لَوْ طَلَبَ مُنَاوِ
مُكَافَأَتِهَا لَطَلَبَ مُعْوِزًا ، أَوْ رَامَ مُقَاوِمَ مُضَاهَاةِهَا فِي عُلُوِّ الرَّبِّيَّةِ لَرَامَ مُعْجِزًا ؛ لِمَا
أَخْتَصَّتْ بِهِ مِنَ السِّيَادَةِ الَّتِي لَا يُرْقَى إِلَى مِزَلَّتِهَا ، وَالْمَعَالِي الَّتِي لَا تَسْمُو النَّفُوسُ
وَإِنْ شَمَخَتْ إِلَى رُبَّتِهَا ؛ إِذْ كَانَ النَّظِيرُ لَشَرَفِ أَرْوَمَتِهَا مُثْمِنًا ، وَالنَّقِيضُ بِمَا ثَبَّتَ مِنْ
طِيبِ جُرْثُومَتِهَا مُرْتَفِعًا ؛ فَبَرَقَ مَعَالِيهَا فِي التَّطَاوُلِ لَا يُسَامُ ، وَجَوْهَرُ نَخَارِهَا فِي الْمَآثِرِ
لَا يُسَامَى وَلَا يُسَامُ ؛ فَعَزَّ بِذَلِكَ فِي الْوُجُودِ مُكَافِئًا ، وَأَمْتَنَعَ - خَوْفَ الْهُجُومِ بِالْأَخْتَابِ -
مُؤَافِئًا ؛ لِأَنَّ الْمَوَاقِفَ الشَّرِيفَةَ الْمُقَدَّسَةَ الْمُتَوَكِّلَةَ - زَادَ اللَّهُ تَعَالَى فِي شَرَفِهَا ،
وَأَدَامَ رِعَايَتَهَا بِجَلَّةِ الْمُلُوكِ وَحِمَايَتِهَا وَكَنَفِهَا - مَعَ مَا أَنْفَرَدَتْ بِهِ مِنَ الْعِزِّ الشَّامِخِ الَّذِي
لَا يُسَاوَى ، وَالشَّرَفِ الْبَازِخِ الَّذِي لَا يُتَاوَى ؛ قَدْ رَغِبَ تَفَضُّلُهَا فِي أَهْلِ الْفَضْلِ فَهَالِ
إِلَيْهِمْ ، وَأَخْتَصَّ بِأَقْبَالِهِ أَهْلَ الدِّينِ فَأَقْبَلَ بِكَلِمَتِهِ عَلَيْهِمْ ؛ مُحِلًّا لَهُمْ مِنْ شَرِيفِ مَقَامِهِ
الْعَلِيِّ مَحَلَّ الْأَصْطِفَاءِ ، وَمُقَدِّمًا لَهُمْ فِي الْمُصَاهَرَةِ عَلَى أَسْنَاءِ الْمُلُوكِ وَالْخُلَفَاءِ ؛ فَوَافَقَ

في الفضل شُنَّ طَبَقَهُ ، وَحَاوَلَ سَاوَةَ النِّعَمِ مِنْهَا خَيْرُ خَاطِبٍ فَلْتَقَى بِقَبُولِ : إِنَّ اللَّهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ بِصَدَقَتِهِ ؛ فَعِنْدَ ذَلِكَ أَبْتَدَرَ الْقَلَمَ مِنْبَرِ الطَّرْسِ فَخَطَبَ ، وَخَطَبَ بِالْحَمْدِ لِسَانَهُ اللَّسِنُ فَكَتَبَ :

هَذَا مَا أَصَدَّقَ الْعَبْدَ الْفَقِيرَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، الْجَنَابُ الْعَالِي ، الْأَمِيرِيُّ ، الْكَبِيرِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ، الْعَائِدِيُّ ، الْخَاشِعِيُّ ، النَّاسِكِيُّ ، الْبَلِيغِيُّ ، الْمُفَوِّهُ ، الصَّوْدَرِيُّ ، الرَّئِيسِيُّ ، الْأَصِيلِيُّ ، الْعَرِيقِيُّ ، الرَّزِينِيُّ ، أَبُو الْمَعَالَى صَدَقَةٌ - الْجِهَةُ الشَّرِيفَةُ الْعَالِيَةُ ، الْكُبْرَى ، الْمَعْظَمَةُ ، الْمَحْجَبَةُ ، الْمَصُونَةُ ، سَلِيلَةُ الْخِلَافَةِ ، فَرَعُ الشَّجَرَةِ الزَّكِيَّةِ ، جَلِيلَةُ الْمَصُونَاتِ ، جَمِيلَةُ الْمُحْجَبَاتِ ، سَارَةُ ، الْبِكْرُ الْبَالِغُ ، ابْنَةُ سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ ، الْمُقَدَّسِ ، الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، السَّيِّدِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، النَّبِيُّ ، الْمُتَوَكَّلِ عَلَى اللَّهِ "أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٍ" أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، ابْنِ الْمَقَامِ الْأَشْرَفِ الْعَالِي ، الْمَوْلَوِيُّ ، الْإِمَامِيُّ ، الْمُعْتَصِدِ بِاللَّهِ "أَبِي الْفَتْحِ أَبِي بَكْرٍ" بِنِ الْإِمَامِ الْمُسْتَكْفِي بِاللَّهِ "أَبِي الرَّبِيعِ سُلَيْمَانَ" ابْنَ الْإِمَامِ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ "أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ" لِأَزَالِ شَرَفُهُ بِأَذْخَا ، وَعِزُّ نَيْبُهُ الشَّرِيفِ شَاخِحًا ، وَذِكْرُ مَنَاقِبِهِ الْعَالِيَةِ لِكُلِّ مَنَقِبَةٍ نَاسِحًا - صَدَاقًا جَمَلْتُهُ كَذَا وَكَذَا ، زَوَّجَهَا مِنْهُ بِذَلِكَ فَلَانٌ ، وَقَبِيلُهُ فَلَانٌ ؛ وَتَمَّ عَلَى بَرَكَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَحُسْنِ تَوْفِيقِهِ ، كَامِلَةً شُرُوطُهُ وَلَوْ أَوَازِمُهُ ، مُبَارَكَةً عَوْدُهُ وَنَمَائِمُهُ ، مَيْمُونَةً فَوَاتِحُهُ وَخَوَائِمُهُ ؛ مُفْتَتِحَةً بِطَيْبِ الْعَيْشِ أَزَاهِرُهُ مُفْتَرَّةً عَنِ [نُورِهِ] إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى كَمَا مَهْ .

الفصل الخامس

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فما يكتب عن العلماء وأهل الأدب مما جرت العادة بمراعاة الثرالمستجوع فيه ،
ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان)

الطرف الأول

(فما يكتب عن العلماء وأهل الأدب ، ثم هو على صنفين)

الصنف الأول

(الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ونحوها)

أما الإجازة بالفتيا ، فقد جرت العادة أنه إذا تأهل بعض أهل العلم للفتيا والتدريس -
أن يأذن له شيخه في أن يفتي ويدرس ، ويكتب له بذلك ، وجرت العادة أن يكون
ما يكتب في الغالب في قطع عريض ، إما في قرحة الشامي أو نحوها من البلدي ،
وتكون الكتابة بقلم الرقاع أسطراً متوالية ، بين كل سطرين نحو أصبع عريض .

وهذه نسخة إجازة بالفتيا والتدريس على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه
وأرضاه ، كتبت لي حين أجازني شيخنا العلامة سراج الدين أبو حفص عمر بن
أبي الحسن الشهير بأبي الملقن ، سقى الله تعالى عهده ، عند قدومه نجر الإسكندرية ،
وأنا مقيم به في شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة ، وكتب لي بذلك القاضي تاج
الدين بن غنوم موقع الحكم العزيز بالإسكندرية في درج ورق شامي في قطع الشامي
الكامل ، وسني يومئذ إحدى وعشرون سنة ، فضلاً من الله ونعمة .

وُسُخَّتْهَا بَعْدَ الْبَسْمَلَةِ الشَّرِيفَةِ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَفَعَ لِلْعُلَمَاءِ مِقْدَارًا ، وَأَجَزَلَ نِعْمَهُ عَلَيْهِمْ إِذْ أَعْلَى لَهُمْ مَنَارًا ، وَوَقَّقَ
بِسَوَاءِ الطَّرِيقِ مَنْ آقَدُوا بِهِمْ إِيْرَادًا ، وَإِصْدَارًا ، أَشْرَعَتْ هِمْمُهُمُ الْعَلِيَّةُ فِي حَابَةِ
السَّبَاقِ فَهِيَ لَا تُجَارَى ، وَتَحَلَّوْا بِالْمَفَاخِرِ جَهْرًا وَقَدْ عَجَزَ غَيْرُهُمْ أَنْ يَتَحَلَّى بِهَا إِسْرَارًا ،
أَبْرَزَ بِهِمْ فِي هَالَاتِ الْمَفَاخِرِ أَقْفَارًا ، وَأَزَالَ بِضْيَاءِ عُلُومِهِمْ رَيْبَ الشَّكِّ حَتَّىٰ عَادَ لَيْلُ
الْجَهَالَةِ نَهَارًا ، جَعَلَهُمْ لِدِينِهِ أَنْصَارًا ، وَصَيَّرَهُمْ نُجَبَةَ أَصْفِيَانِهِ إِذْ أَوْدَعَهُمْ مِنَ الْمَعَارِفِ
أَسْرَارًا ، وَأَخْتَصَّهُمْ بِكُونِهِمْ وَرَثَةَ أَنْبِيَائِهِ : وَنَاهَيْكَ بِهَا نَخَارًا .

أَحْمَدُهُ حَمْدٌ مِنْ هُدَىٰ إِلَى الْحَقِّ بِفَعْلِهِ شِعَارًا ، وَأَسْتَضَاءُ بِنُورِ الْهُدَىٰ فَلَجِبًا إِلَى
مَوْلَاهُ فِي حَالَتِي سِرِّهِ وَجَهْرِهِ أَفْقَارًا ، وَعَجَزَ عَنِ شُكْرٍ مَا أُسْدَىٰ إِلَيْهِ مِنَ النَّعْمِ لِمَا تَوَالَى
عَلَيْهِ وَبَلَّغًا مِذْرَابًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ تَصَدِيقًا وَإِقْرَارًا ،
وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ وَالْأَصْنَامُ قَدْ عُدَّتْ جِهَارًا ، وَالْكَفَّارُ قَدْ أَعْرَضُوا
عَنِ الْحَقِّ اسْتِجَارًا ، فِقَامَ بِأَمْرِ اللَّهِ أَنْتَبَارًا ، وَقَهَرَ مِنَ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ أَغْتِرَارًا ،
وَأَتَمَدَ بِضْيَاءِ نُورِهِ الْبَاطِلَ وَأَهْدَرَهُ إِهْدَارًا ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ صَلَاةً
تَزِيدُنَا فِي دِينِنَا اسْتِيبَارًا ، وَتَحُطُّ عَنَّا مِنْ نَقْلِ الذُّنُوبِ أَوْزَارًا ، وَتُبَوِّؤُنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ
تَعَالَىٰ فِي دَارِ الْخُلُودِ قَرَارًا .

أَمَا بَعْدُ ، فَقَدْ وَصَّحَ لِدَوَى الْأَبْصَارِ وَالْبَصَائِرِ ، وَأَتَضَّحَّ عِنْدَ ذَوَى الْأَسْرَارِ وَالسَّرَائِرِ ؛
وَأَسْتَقَرَّ عِنْدَ ذَوَى الْقُلُوبِ السَّالِمَةِ ، وَالْعُقُولِ الرَّابِحَةِ الْمُسْتَقِيمَةِ ؛ أَنْ مَنَزَلَةَ عِلْمِ
الشَّرِيعَةِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَىٰ أَعْلَى الْمَنَازِلِ ، وَفَضْلُهُ أَفْضَلُ الْمَآثِرِ وَأَثَرُ الْفَضَائِلِ ؛ وَخُصُوصًا
مَعْرِفَةُ تَفَاصِيلِ أَحْكَامِ أَعْمَالِ الْمُكَلَّفِينَ بِالشَّرِيعَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، الَّتِي مَنَ عَلِمَهَا وَعَمَلَهَا
وَعَلَّمَهَا فَقَدْ سَعَدَ السَّعَادَةَ الْأَبَدِيَّةَ ؛ إِذْ هِيَ الشَّرِيعَةُ الْجَامِعَةُ لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

النَّاسِخَةُ لِمَا خَالَفَهَا مِنَ الشَّرَائِعِ الْغَايِرَةِ ، الْبَاقِيَةُ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ وَعَيْدُ اللَّهِ وَكُلُّ شَرِيعَةٍ سِوَاهَا دَائِرَةٌ ؛ فَقَدْ أَعْظَمَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى مَنْ حَفِظَهَا عَلَى عِبَادِهِ الْمِنَّةَ ، إِذْ جَعَلَهُ وَقَايَةً لَهُمْ مِنْ مَهَالِكِ الْجَهْلِ وَجُنَّةً ، وَوَعَدَهُ أَنْ يَنْزِلَ فِي أَعْلَى مَنَازِلِ الْجَنَّةِ ، لِمَا شَهِدَتْ بِهِ نُصُوصُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ؛ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . فَنَبَّهَ عَلَى أَنَّ الْعِلْمَ أَقْوَى أَسْبَابِ الْعِبَادَةِ ، إِذْ خَصَّهُ بِهِ وَحَصَّهُ عَلَى أَنْ يَطْلُبَ مِنْهُ الزِّيَادَةَ . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ . فَتَنَّى بِذِكْرِهِمْ بَعْدَهُ ، لِكُونِهِمْ أَفْضَلَ الْخَلَائِقِ عِنْدَهُ . وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى اسْمُهُ ، وَتَقَدَّسَ عِلْمُهُ : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ . فَأَوْضَحَ بِذَلِكَ أَنَّ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ خَلْقِهِ الْعُلَمَاءُ ، إِذْ وَصَفَهُمْ وَخَصَّهُمْ بِأَنَّهُمْ الْخَائِفُونَ مِنْهُ الْأَتْقِيَاءُ . وَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ » . وَقَالَ أَيْضًا : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَتَمَسَّ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ » . وَقَالَ أَيْضًا : « أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَاعُونَةٌ مَلْعُونَةٌ مَا فِيهَا إِلَّا ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَمَا وَالَاهُ ، وَعَالِمٌ وَمُتَعَلِّمٌ » .

ولما كان فلانٌ - أدام الله تعالى تسديده وتوفيقيه ، ويسر إلى الخيرات طريقه - ممن شبَّ ونشأ في طلب العلم والفضيلة ، وتخلَّق بالأخلاق المرضية الجميلة الحليمة ؛ وصحب السادة من المشايخ والفقهاء ، والقادة من الأكابر والفضلاء ؛ واشتغل عليهم بالعلم الشريف اشتغالاً يرضى ، وإلى نيل السعادة - إن شاء الله تعالى - يفضى - استخار الله تعالى سيدنا وشيخنا وبركتنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العلامة ، الحبر الفهامة ؛ فريد دهره ، ونسيج وحده ، جمال العلماء ، أوحد الفضلاء ، عمدة الفقهاء والصلحاء ؛ سراج الدين ، مفتي الإسلام والمسلمين ؛ أبو حفص عمر ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ، الشيخ الإمام العالم ، العاقل ، الأوحد ، الكامل ، القدوة ، المرحوم نور الدين أبي الحسن علي ، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى ،

الشيخ الصالح، الزاهد، العابد، الخاشع، الناسك، القدوة، المرحوم شهاب الدين،
بركة الصالحين، أبي العباس أحمد، ابن سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى، الشيخ
الصالح، القدوة، العارف، المرحوم، شمس الدين، أبي عبد الله محمد الأنصاري
الشافعي، أدام الله تعالى النفع به وببركته، وأشركنا والمسلمين في صالح أديته،
بمحمد وآله وصحبه وعترته .

وأذن وأجاز لفلان المسمى فيه، أدام الله تعالى معاليه؛ أن يُدرّس مذهب
الإمام المجتهد المطلق العالم الربّاني، أبي عبد الله محمد بن إدريس المظلي، الشافعي،
رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثقله ومثواه؛ وأن يقرأ ما شاء من الكتب
المصنفة فيه، وأن يُفيد ذلك لطالبه؛ حيث حلّ وأقام، كيف ما شاء متى شاء
وأين شاء، وأن يُفتي من قصد استفتاءه خطأ ولفظاً، على مقتضى مذهبه الشريف
المشار إليه: لعلمه بدياته وأمانته، ومعرفته ودرأيته، وأهليته لذلك وكفائته .

فلتلق أيدى الله تعالى هذه الحلة الشريفة، وليترق بفضل الله تعالى ذروة هذه
المرتبة المنيفة؛ وليعلم قدر ما أنعم الله تعالى عليه، وأسدّى من الإحسان الوافر إليه؛
وليراقبه مراقبة من يعلم أطلّاعه على خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وليعامله معاملة
من يتحقق أنه يعلم ما يخفيه العبد وما يبديه في الورود والصدور؛ ولا يستكف
أن يقول فيما لا يعلم: لا أعلم: فذلك قول سعد قائله . وقد جاء: "جنة العالم لا أدري
فإن أخطأها أصيبت مقالتة" فالله تعالى يرزقنا وإياه التوفيق والتحقيق، ويسلك بنا
وبه أقرب طريق؛ ويهدينا إلى سواء السبيل، فهو حسبنا ونعم الوكيل .

وكتب في تاريخ كذا .

وكتب شيخنا الشيخ سراج الدين المشار إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالى
ما صورته :

ما نُسِبَ إلى في هذه الإجازة المباركة من الإذن لفلان - أدام الله تعالى النفع به ، وأجزئى كل خيرٍ بسببه ؛ بتدريس مذهب الإمام المظلي ، محمد بن إدريس الشافعي ، قدس الله روحه ، ونور ضريحه ؛ والإفتاء به لفظاً وخطاً - صحيح . فإنه ممن فاق أقران عصره بذكائه ، وبرع عليهم بالاستحضار وتحرير المنقول ووفائه .

وقد اعتنى وفقه الله تعالى وإيأى من جملة محفوظاته بـ "مختصر الجوامع" لشيخنا العلامة كمال الدين النشائي نعمده الله تعالى بقُرَّانه ، فاستحضر بحضرتي مواضع منه جمه ، وأزال بديع فصاحته جملة مدلهمه ؛ وأظهر من مشكلاته ما يعجز عنه اللبيب ، ومن أغاربه ما يقف عنده البارع الأريب .

فليتق الله حينئذ فيما يبيده ، وليتجر الصواب في لفظه وخطه وأبراق الله فيه ؛ فإنه موقعٌ عن الله تعالى فليحذر الزلل ، ومحاولة الخطأ والخلل ؛ وليستحضر ما اشتلت عليه من الحلاله ، فإن الله تعالى تولاها بنفسه حيث قال : (سَتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِكُمْ فِي الْكَلَالَةِ) .

وأجزت له مع ذلك أن يروي عنى ما لي من التأليف ، ومنها "جامع الجوامع" أعان الله على إكمالها ، وكذا شرح "صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري" . ومنها "البدر المنير" ، في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير" للإمام أبي القاسم الرافعي . وبه تكمل معرفة الفقيه ويصير محدثاً فقيهاً .

وأجزت له مع ذلك ما جاز لي وعن رواية بشرطه عند أهله ، زاده الله وإيأى من فضله . ومنها الكتب الستة : "البخاري" و "مسلم" و "أبو داود" و "الترمذي" و "النسائي" و "ابن ماجه" . والمسائيد : "مسند أحمد" و "مسند الشافعي" .

وغير ذلك .

وكان ذلك في تاريخ كذا . وكتب عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي ،
غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهد عليه جماعة من أهل العلم بآخره .

قلت : وتكون ألقاب المجاز على قدر رُتبتِه ، مثل أن يُكتب له : «الفقير إلى الله
تعالى ، الشيخ ، الإمام ، العالم ، العامل ، الأوحد ، الفاضل ، المفيد ، البارِع ، علم
المفيدين ، رُحلة القاصدين ، فلان الدين ، أبو فلان فلان بن فلان» (بحسب رُتب
آبائه) . وإنما أهملت ذكر الألقاب في هذه الإجازة ، من حيث إنه لا يليق بأحد
أن يذكر ألقاب نفسه في مُصنّف له ، لأنه يصير كأنه أثنى على نفسه .

وأما الإجازة بعراضة الكتب ، فقد جرت العادة أن بعض الطلبة إذا حفظ كتابا
في الفقه ، أو أصول الفقه ، أو النحو ، أو غير ذلك من الفنون ، يعرضه على مشايخ
العصر ، فيقطع الشيخ المعروف عليه ذلك الكتاب ، ويفتح منه أبوابا ومواضع ،
يستقرئها إياها من أي مكان أتفق ، فإن مضى فيها من غير توقّف ولا تلّغيم ، استدل
بحفظه تلك المواضع على حفظه لجميع الكتاب ، وكتب له بذلك كل من عرض
عليه ، في ورقٍ مربعٍ صغير ، يأتي كل منهم بقدر ما عنده من الملكة في الإنشاء ،
وما يناسب ذلك المقام من براعة الاستهلال ونحوها : فمن عال ، ومن هابط . وربما
خفف بعضهم فكتب : «وكذلك عرض على فلان» ، أو : «عرض على وكتبه
فلان» . إما رياسةً وتابيا عن شغل فكره وكد نفسه فيما يكتبه ، وإما معجزا عن
مُضاهاة من يكتب معه .

وقد آخرت أن أضع في هذا المحل ما وافق الصنعة ، وجرى على أسلوب البلاغة .
فمن ذلك ما كتب به الشيخ الإمام العلامة ، لسان العرب ، وحجة الأدب ، بدر
الدين محمد بن أبي بكر الخزومي المالكي ، للنجل النبيل الذي تنهى الألقاب ولا نهاية

لمناقبه، شهاب الدين أبي العباس أحمد ابن سيدنا الفقير إلى الله تعالى، ذي الأوصاف التي تكفل شبا الألسن عن حدها، شمس الدين أبي عبد الله محمد العمري الشافعي، حين عرض عليه "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني، و"شذور الذهب" للشيخ جمال الدين بن هشام، في رمضان سنة سبع عشرة وثمانمائة، وهو :

أما بعد حمد الله على كرمه الذي هو عمودنا في النجاة يوم العرض ونأهيك بها عمده، وسندنا الذي لا يزال لسان الذوق يروي حديث حلاوته عن صفوان بن عسال من طريق شهده، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي أحيا بروح سنته الشريفة كل من جاء ومن ذهب، وأعربت كلماته النفيسة عن عقود الجواهر و"شذور الذهب"، وعلى آله وصحبه الذين أحسنوا الرواية والدراية، وبنوا الأمر على أساس التقوى وأعربوا عن طرق الهداية، ما أنهل من أفق الكرم الحمدي كل عارض صيب، وتحتل الأسماع والأفواه من أخباره بنفاس الشذور البديعة وحلاوة الكلم الطيب - فقد عرض على الجناب العالي البارعي، الأوحدي، الألمعي، اللودعي، الشهابي، شهاب الدين، ثجبة التجباء، أوحده الألباء، تجل السادة العظام، سلاة الأعيان العلماء، أبو العباس أحمد ابن سيدنا المقر الكريم العالي، المولوي، العالمي، الفاضلي، البليغي، المفيد، الفريدي، المفوهي، الشمسي، العمري، أطاب الله حديثه، وجمع له بالإعراب عن علو الهمة قديم الفضل وحديثه - طائفة متفرقة من "عمدة الأحكام" للحافظ عبد الغني المقدسي، و"شذور الذهب" للعلامة جمال الدين بن هشام رحمة الله عليهما - عرضا قصرت دونه القرائح على طول جهدها، وكانت الألفاظ الموردة فيه لامة حرب الفئدة الباغية عليه فأحسن عند العرض في سردها، وزين أبقاه الله تلك الأما كن بطيب لحنه وإعراب لفظه، وأذن امتحانه فيها بأن جواهر الكتائب قد حصلت مجموعها في خزنة حفظه .

فَبَدَا هُوَ مِنْ حَافِظِ رَوَى حَدِيثَ فَضْلِهِ عَالِيَا ، وَتَلَا عَلَى الْأَسْمَاعِ مَا أَقْتَضَى
تَقْدِيمَهُ عَلَى الْأَقْرَانِ فَلِلَّهِ دَرُهُ مَقْدَمًا وَتَالِيَا ؛ وَسَارَ فِي حُكْمِ الْعَرْضِ عَلَى أَعْدَلِ طَرِيقٍ
وَنَاهَيْكَ بِالسَّيْرِ الْعُمَرِيَّةِ ، وَصَانَ مَنْطِقَهُ عَنِ خَالَ الْمَعَانِي وَكَيْفَ لَا ؟ وَقَدْ تَمَسَّكَ
بِطَرِيقَةِ وَالِدِهِ وَهِيَ "الْمَقْدَمَةُ الشَّمْسِيَّةُ" ؛ وَسَابَقَ أَقْرَانُهُ فَكَانَتْ لَهُ زُبْدَةُ التَّفْضِيلِ
فِي حَابَةِ السَّبَاقِ ، وَطَابَقَ بَيْنَ رَفْعِ شَأْنِهِ وَخَفْضِ شَأْنِيهِ وَلَا يُنْكَرُ لِمَنْ هُوَ مِنْ هَذَا
الْبَيْتِ حُسْنُ الطَّبَاقِ ؛ وَأَشْتَغَلَ فَلَمْ يَقَعِ التَّنَازُعُ فِي حُسْنِ دُخُولِهِ مِنْ بَابِ
الْإشْتِغَالِ ، وَنَصَبَ فِكْرَهُ لِتَحْصِيلِ الْعِلْمِ فَتَعَيَّنَ تَمْيِيزُهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ ؛ وَتَوَقَّدَتْ نَارُ ذَهْنِهِ
فَتَلَطَّى حَاسِدُهُ بِالْإلْتِهَابِ ، وَرُوِيَتْ أَحَادِيثُهُ بِاللِّغَةِ فِي الْعُلُوِّ إِلَى سَمَاءِ الْفَضْلِ وَلَا يَدَعُ
إِذَا رُوِيَتْ أَحَادِيثُ الشُّهَابِ ؛ وَافْتَخَرَ مِنَ وَالِدِهِ بِالْفَاضِلِ الَّذِي أَرْتَفَعَ فِي دِيْوَانِ
الْإِنْسَاءِ خَبْرَهُ ، وَهَزَّ الْمَعَاطِفَ بِتَوْقِيْعِهِ الَّذِي لَا يَزَالُ يُحَرِّرُهُ وَيُجَبِّرُهُ ؛ وَوَشَّى الْمَهَارِقَ
فَكَأَنَّهَا هِيَ رِيَاضُ قَدِ غَرَّدَ فِيهَا بِسَجْعِهِ ، وَنَحَّأَهَا بِإِنْسَانِهِ الَّذِي هُوَ عُمْدَةُ الْمُتَأَدِّبِينَ
فَلَا عَجَبَ فِي رَفْعِهِ ؛ وَنَظَّمَ بَدْيَانَهُ تَفَانِسَ الدَّرَرِ قَفَدَتْهَا بِالْعَيْنِ "صِيْحَاحُ الْجَوْهَرِيِّ" ،
وَفَتَحَ بِجَيْشِ بَلَاغَتِهِ مَعَاوِلَ الْمَعَانِي الْمُتَمَنِّعَةِ وَحَسْبُكَ بِالْفَتْحِ الْعُمَرِيُّ :

بَيَانُهُ السَّحْرُ قَدْ أَخْفَى مَعَاقِدَهُ * لَكِنْ أَرَانَا لِسِرِّ الْفَضْلِ إِنْسَاءَ
إِذَا أَرَادَ أَدَارَ الرَّاحِ مَنْطِقَهُ * نَظْمًا وَيُطْرَبُنَا بِالنَّثْرِ إِنْ شَاءَ !

وَاللَّهُ تَعَالَى يُبْهِجُ نَفْسَهُ بِمَا يُصْبِحُ بِهِ الْحَاسِدُ وَهُوَ مُكَمَّدٌ ، وَيُقِرُّ عَيْنَهُ بِهَذَا الْوَلَا
التَّجِيبِ حَتَّى لَا يَبْرَحَ يَقُولُ : أَشْكُرُ اللَّهَ وَأَحْمَدُ ؛ بِمُحَمَّدٍ وَآلِهِ .



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الدَّائِمِ ، لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ
أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدَ ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ "الْمِنْهَاجَ" فِي الْفِقْهِ لِلنَّوَوِيِّ ، فِي سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ
وَمِائَةَ ، وَهُوَ :

الحمد لله الذي أَوْضَحَ بِنَجْمِ الدِّينِ مِنْهَاجَ الفِقهِ وَأَثَرَهُ ، وَأَقْضَحَ لِسَانَهُ بِكُتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَأَثَرَهُ ، فَسَطَّعَتْ أُنُورُ شَهَابِهِ لِمَنْ أَسْتَنْبَطَهُ وَأَثَرَهُ ، مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهَهُ فِي الدِّينِ وَيَرْفَعُ مَنْارَهُ ؛ وَالصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ عَلَى أَسِيدِنَا مُحَمَّدٍ الْمُخْصُوصِ بِعَمُومِ الرِّسَالَةِ ، وَالْمَنْصُوصِ فَضْلَهُ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الدَّلَالَةِ ؛ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ نَجُومِ الْمُهْدَى ، وَشَهَبِ التَّمَّسِيِّ وَالْأَقِيدَا .

وبعد ، فقد عَرَضَ عَلَى الفَقِيهِ الفَاضِلِ تَجَلُّ الأَفْضَلِ ، وَسَلِيلِ الأَمَانِلِ ؛ ذُو الهِمَّةِ العَلِيَّةِ ، وَالْفِطْنَةِ الدِّكِيَّةِ ، وَالْفِطْرَةِ الزَّرِيكِيَّةِ ؛ نَجْمِ الدِّينِ ، أَبُو عبد الله مُحَمَّدُ بنِ فُلانٍ : نَفَعَ اللَّهُ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِوَالِدِهِ ، وَجَمَعَ لَهُ بَيْنَ طَارِفِ العِلْمِ وَتَالِدِهِ - مَوَاضِعَ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ "المِنْهَاجِ" فِي فِقْهِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ المُطَّلِبِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ ، تَأَلِيفَ الحَبْرِ العَلَامَةِ وَلِيِّ اللَّهِ أَبِي زَكَرِيَّا بنِ شَرَفِ بنِ مَرِي النَّوَوِيِّ ، سَقَى اللَّهُ تَعَالَى ثَرَاهُ ، وَجَعَلَ الحِنَّةَ مَأْوَاهُ ؛ دَلَّ حِفْظُهُ لَهَا عَلَى حِفْظِ الكِتَابِ ، كَمَا فَحَّحَ اللَّهُ لَهُ مَنَاجِحَ الخَيْرِ دَقَّةً وَجِلَّةً ، وَكَانَ العَرَضُ فِي يَوْمِ كَذَا .

وكتب علامة العصر الشيخ عز الدين بن جماعة ما صورته :

كذلك عَرَضَ عَلَى المَذْكُورِ بِاطْنِهَا عَرَضًا حَسَنًا ، مُحَرَّرًا مُهْدَبًا مُجَادًا مُتَقَنًا ؛ عَرَضَ مِنْ أَتَقِنَ حِفْظُهُ ، وَزَيْنٌ بِحَسَنِ الأَدَاءِ لَفْظُهُ ، وَأَجْزَلٌ لَهُ مِنْ عَيْنِ العَنَاءِ حِطُّهُ ؛ مَرَّ فِيهِ سُرُورُ الهِمْلَاجِ الوَسَاعِ ، فِي فَيْسِيحِ ذِي السَّبَاعِ . وَقَدْ دَلَّنِي ذَلِكَ مِنْهُ - نَفَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَنَفَعَ بِهِ ، وَوَصَلَ أسبابَ الخَيْرِ بِسَبَبِهِ ؛ عَلَى عُلُوِّ هِمَّتِهِ ، وَوُفُورِ أَرْيَحِيَّتِهِ ، وَتَوَقُّدِ فِكْرِهِ ، وَأَتَقَادِ فِطْنَتِهِ ؛ وَأَصْلُهُ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ عَرِيقُ :

سَيِّئَةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحَدَّثَةٍ * إِنَّ الخَلَائِقَ - فَاعِلَمَ - شَرُّهَا البِدْعُ !

وقد أذنت له أن يروي عني الكتاب المذكور، وجميع ما يجوز لي وعني روايته من مصنفاتي وغيرها من منظوم ومنثور، ومنقول ومعقول ومأثور؛ بشرطه المعتبر، عند أهل الأثر. وكتب فلان في تاريخ كذا .



ومن ذلك ما كتبت له من اسمه «محمد» ولقبه «شمس الدين» من أبناء بعض الإخوان :
وقد عرض عليّ «الأربعين حديثاً» للشيخ محيي الدين النووي رحمه الله، و«الورقات» في الأصول لإمام الحرمين، و«اللمحة البدرية» في النحو للشيخ أثير الدين أبي حيان دقّة واحدة، وهو لدون عشر سنين، وهو :

الحمد لله الذي أطلع من دراري الأفاضل في أفق النجاة شمساً، وأظهر من أفاضل الدراري ما يغض به المخالف طرفاً ويرفع به المخالف رأساً، وألحق بالأصل الكريم فرعه في النجاة فطاب جنّي وأعرق أصلاً وزكاً غرساً، وأبرز من ذوى الفطر السليمة من فاق بذكائه الأقران فأدرك العربية في لمحّه، وسما بفهمه الثاقب على الأمثال فأمسى وفهم «الورقات» لديه كالصفحة، ونحرق بكرم بدايته العادة بجاز الأربعين لدون العشر وأتى على ذلك بما يشهد له بالصحة، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي عمّت بركة اسمه الشريف سميّه ففاض منها بأوفر نصيب، وخصّ بإلهام التسمية به أولو الفضل والنهى فاسمى به إلا كريم ولا سمي به إلا نجيب، وعلى آله وصحبه الذين أينعت بهم روضة العلم وأزهرت، وأورقت شجرة المعارف وأثمرت .

وبعد، فقد عرض عليّ فلان مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمز فيها مرور الصبا، وجرى في ميدانها جرى الجواد فما حاد عن سنن الطريق ولا كجا .^(١)

يظهر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناسخ كما ترى .

وأما الإجازة بالمروريات على الاستدعاءات : -

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي رحمه الله على استدعاء كتب له به القاضي شهاب الدين أحمد الحنبلي خطيب بيت الآلهة ، وكتب الدست بالشام ، يطلب منه فيه الإجازة لنفسه ، وهو :

الحمد لله الذي إذا دُعِيَ أجاب ، وإذا أُنعم على الأديب بدوق أتى في نظمه ونثره بالعجاب ، وإذا وهب البليغ فطرة سائمة لم يكن على حجاجه حجاب .

نعمده على نعمه التي منها البلاغة ، وإتقان ما لصناعة الإنشاء من حُسن الصياغة ، وصيد أواميد المعاني التي من أعمل فكره في اقتناصها أو روى [أمن] رواغته ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة فطر الضمير على إخلاصها ، وجبل الفكر على اقتناء أدلتها القاطعة واقتناصها ، وجعلت وقاية لقائلها يوم يضيق على الخلاق فسيح عراضها ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أفصح من نطق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العربية بالنكت الحسان ، وحث على الخير وحض على الإحسان ؛ صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين رَوَوْا أقواله ، وبلغوا لمن لم يره سننه وأفعاله ، وعلموا أن هذه الشرعة المطهرة أذخرها الله تعالى له فلم تكن تصلح إلا له ؛ صلاة هامية الغفران ، نامية الرضوان ؛ ما أجاب مجيب لمن استدعى ، وعملت إن في المبتدأ نصبا ولم تُغير على الخبر رفعا ، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

وبعد ، فإن [علم] الرواية من محاسن الإسلام ، وخصائص الفضلاء الذين تحفُّق لهم ذوائب الطروس وتنتصب رماح الأعلام ؛ ولم تزل رغبة السلف تتوفر عليه ، وتُسِير أنامل إرشادهم للانام بالحث إليه . قيل للإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ما تشتهي ؟ فقال : سند عال ، وبيت خال . وما برح الأئمة الجبار يتحولون إلى أفاصي

الأقاليم في طلبه، ويحملون المشاقَّ والمتاعبَ فيه ويتجملون بسببه؛ فقد ارتحل الإمامُ الشافعيُّ رضى الله عنه وغيره إلى عبد الرزاق باليمن، وكان فيمن أخذ عنه ممن هو أحقُّ بالفضل عليه قمن؛ ولكنه فنَّ يحتاج إلى ذوقٍ يعاضدُ من لا يعانده، وأمرٌ لا يصبر عنه من ألفه وما يعلم الشوق إلا من يكادُه؛ فما عند من طلب الروايةَ أجلَّ من أبناء جنسه، ولا عند المفيدِ المفيدِ أحلى من قوله: حدَّثنا فلانٌ أو أشدنا فلانٌ لنفسه، ولكن:

مأكلٌ من طلب المعالي نافعًا * فيها ولا كلُّ الرجال خُولا!

ولما كان الشيخُ الإمامُ شهابُ الدين أبو العباس أحمدُ ابنُ الشيخ ... مَن نَظَم فودَّت الدررُ في أفلاكه لو آسقت، وكتبَ فرقم الطروسَ وشأها، وغشاها من زهرات الرياض ماغشاها؛ وحلَّ المترجمَ فسحر عقل كلِّ لبيبٍ وخاب لبه، ووقع على القصد فيه فكانتْه شىءٌ من الغيبِ خصَّ الله به قلبه، وأتى فيه بدائع ما تساوى ابنُ الصيرفيِّ ولا ابنُ عندها بحبه؛ وخطبَ فصَدع القلوب، وأجرى ذنوب المدامع من أهل الذنوب، وحَدَّر فكانت أسجاعه كالحنانِ إسحقٍ وسامعه يبكي بأجفان يعقوب؛ كأنما هو في حلة الخطابة بدر في غمامه، أو منبره غصنٌ وهو فوقه حمامه، أو بحرٌ وفضائله مثل أمواجه ودره يحكى كلامه؛ لو رآه "ابن نباتة" ما أورت بالفصاحة أعواده، أو "ابن المنير" مارقت بالبلاغة أبراده، أو "ابن تيمية" ما حظيت بالحدود أجداه؛ فأراد أن يشرف قدرى، ويعرف نكرى؛ فطلب الإجازة منى وأنا أحقُّ بالأخذ عنه، وأستدعى ذلك منى: وربَّ حاملٍ فقهٍ إلى من هو أفقه منه .

فَنَعَمْ قَدْ أَسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى وَأَجَزْتُ لَهُ مَا يَجُوزُ لِي تَسْمِيعُهُ ، وَذَكَرْتُ هُنَا شَيْئًا
مِنْ مَرْوِيَّاتِي وَأَشْيَاخِي رَحِمَهُمُ اللَّهُ وَذَكَرْتُ مُصَنَّفَاتِي :

إِجَازَةٌ قَاصِرَةٌ عَنِ كُلِّ شَيْءٍ * يَسِيرٌ مِنَ الرَّوَايَةِ فِي مَقَازِهِ :
لَمَنْ مَلَكَ الْفَضَائِلَ وَأَقْتَنَاهَا * وَجَازَ مَدَى الْعُلَى سَبَقًا وَحَازَهُ !



وَمِنْ ذَلِكَ مَا كَتَبَ بِهِ الشَّيْخُ الْعَلَّامَةُ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ الصَّائِغِ عَلَى اسْتِدْعَائِهِ
لِبَعْضٍ مِنْ سَأَلِهِ الْإِجَازَةَ .

أَقُولُ بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ الَّذِي لَا يُحِبُّ مِنْ اسْتَجْدِي كَرَمَهُ ، وَلَا يُحِبُّ مِنْ اسْتَدْعَى
نِعَمَهُ ، وَالصَّلَاةِ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَخِدْمَتِهِ وَمَا أَسْوَدَ مَدْمَتِهِ : (؟)

أَثَرْتُ الْجَوَائِبَ بِي إِذْ أَرَدْتُ جَوَابِي * وَعَظَّمْتَ خَطِيئِي إِذْ قَصَدْتَ خَطَائِي :
وَمَنْ أَنَا فِي الدُّنْيَا أُحِبُّ وَمَنْ أَنَا ! * أُحِيزُ؟ مَضَى الْأَشْيَاخُ تَحْتَ تُرَابِ !
عَجِيبٌ لَطَّابٍ لَدَيْنَا تَخَلَّفُوا * وَكَمْ قَدْ أَنَا نَا دَهْرُنَا بَعْجَابِ !
نَحْنُ إِلَى الْمَوْلُوحَةِ أَمْرٌ نَائٍ * عَرَبِنَاهُ بِالْعَذِيبِ عَذَابِ (١)

يَا أَخَانَا : إِنَّ بِيضَاعَتَنَا فِي الْعِلْمِ مُرْجَاهُ ، وَصِنَاعَتَنَا فِي الْوَقْتِ مُرْجَاهُ ، وَتَسْمِيعُ أَخْبَارِهِ
عَلِيلٌ ، وَأَدَبُ إِخْبَارِهِ قَلِيلٌ ؛ وَتَصَانِيفِي وَجُوهٌ أَكْثَرُهَا مُسَوَّدَةٌ ، وَأَمَالِي فِي تَبْيِضِهَا
لِقِصْرِ الْهَيْمِمِ مَمْتَدَةٌ ؛ سَأَلْتُ قَدِيمًا مِنْ بَعْضِ الْفَضَلَاءِ أَنْ أُعِدَّهَا ، فَكَتَبْتُ فِيهَا رِسَالَةً
لَأَعْرِفَ لَصَقْلَ الْأُذْهَانِ حَدَّهَا ؛ وَمَنْ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِتَصَانِيفِ أُخْرَى ، وَمَقَاطِيعَ إِنْ لَمْ
تَكُنْ كَالزُّهْرِ فَهِيَ كَالزُّهْرِ ؛ ثُمَّ عَدَّدْتُ نَيْفًا وَثَلَاثِينَ مُصَنَّفًا ، مِنْهَا "مَجْمَعُ الْفَرَائِدِ"
فِي سِتِّ عَشْرَةَ مَجْلَدًا . ثُمَّ أَنْشُدُ فِي آخِرِ ذَلِكَ :

(١) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَلَمْ نَهْتَدِ إِلَيْهِ مَعَ دَقَّةِ الْبَحْثِ .

(٢) فِي كَشْفِ الظُّلُونِ : تِسْعَةٌ عَشْرَ مَجْلَدًا .

وَلَقَدْ شَرَفْتَ قَدْرِي * بِنَفِيسٍ مِنْ هَدَايَا :
 بِنِظَامٍ شَنَّفَ السَّمْعَ * يَدْرُ كَالثَّنَائِيَا .
 فَارْوِمْنِي وَأَرْوِعْنِي * وَأَغْنِ عَنِ شَدِّ الْمَطَايَا ،
 وَأَنْتَقِ الْفَضْلَ وَحَصِّلْ ، * وَأَحْظِ مِنِّي بِمَزَايَا ،
 وَتَحَرَّ الصَّدَقَ وَأَعْلَمْ * أَنَّهُ خَيْرُ الْوَصَايَا !!!
 أجزت لك أن تروى هذه وغيرها عني ، ولك الفضل في قبول ذلك مني .

الصنف الثاني

(التقریضات التي تكتب على المصنّفات المصنّفة والقصائد المنظومة)

قد جرت العادة أنه إذا صنّف في فنٍّ من الفنون أو نظم شاعراً قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يكتب له أهل تلك الصناعة على كتابه أو قصيدته بالتقریض والمدح ، ويأتي كلٌّ منهم بما في وسعه من البلاغة في ذلك .

فمن ذلك ما كتب به الشيخ صلاح الدين الصفدي على مصنف وضعه الشيخ تاج الدين علي بن الدرهم الموصلي الشافعي في الاستدلال على أن البسمة من أول الفاتحة ، وهي :

وقفت على هذا التصنيف الذي وضعه هذا العلامة ، ونسبه في المذهب الشافعي أعلامه ، وأصبح ونسبته إليه أشهر علم وأبهر علامة ، فأقسم ما سام الروض حدائقه ، ولا شام أبو شامة بوارقه ، كل الأئمة تعترف بما فيه من الأدلة ، وكل التصانيف تقول أمامه : بسم الله ، ثم فيه من دليل لا يعارض بما ينقضه ، ولم فيه من حجة يكفل عنها الخصم لأن عقله على محك النقد يعرضه ، قد أيد ما ادعاه بالحديث والآثر ، ونقل مذهب كل إمام سبق وما عثر ، لقد سر الشافعي بنص

قوله الذي هدّبه ، وجعل أعلام مذهبه مذهبه ؛ وأتى فيه بِنَكْتِ تَطْرِبٍ من
أسرار الحَرْفِ ، وفوائد عُرِفَ بها ما بين ابن الدَّرْهِمِ وبين البُوَيْنِي من البَوْنِ
في تَفَاوُتِ الصَّرْفِ :

أَكْرِمَ بِهِ مُصَنَّفًا * فَاقَ تَصَانِيفَ الْوَرَى !
لَيْلُ الْمِدَادِ فِيهِ بِالْمَعْنَى الْمُنِيرِ أَقْرَأ !
كَمْ فِيهِ بَرْدٌ حُجَّةٍ * قَدْ حَاكَهُ مُحَرَّرًا ،
وَكَمْ دَلِيلُ سَيْفِهِ * إِذَا التَّقَى خَصْمًا فَرَى .
فَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِهِ * مُحَالَفٌ قَطُّ يَرَى !!



ومن ذلك ما كتب به المقرّ الشّهائي بن فضّل الله على قصيدة ميمية ، للشيخ
عُرس الدين خليل الصّفديّ المعروف بالصّلاح الصّفديّ ، مدح بها الأمير سيف
الدين أبلحى الدوادار الناصريّ ، في شهور سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وهي :

وقفت على هذه القصيدة التي أشرقت معانيها فكادت تُرى ، وتمكّنت قوا فيها
فاستمسك بها الأدب لما كانت الميمات فيها كالعرا ؛ فوجدتها مشتملة من البلاغة
بوزنها على البحر المحيط ، لطيفة لا تقاس بأمثالها من الكلام المرّكب لأنها من البسيط ؛
فنظرت إليها مكتسباً من بيانها سحر الحدق ، متعجباً من منشيها لغرس يسرع
الإثمار في الورق ؛ ثم فطنت إلى أنّ المدوح بها أعزّه الله تعالى سمحت ديمه فروضت
الطروس ، وبرحت مناقبه بما كان مصوناً في أخية النفوس ؛ وقد استوجب هذا
المادح عطف الله تعالى قلبه عليه من منأخه حظاً جزيلاً ، وحباً يقول به لمن قصد
المساواة به : لو كنت متخذاً خليلاً لا اتخذتُ فلاناً خليلاً :

مَدَّبَ الْمَلِكُ لَهُ * عَلَى الْعُلَى مَقَاعِدُ،
تَهَوَّى إِلَى جَنَابِهِ * الْقُصَادُ وَالْقَصَائِدُ!



قلتُ : وكتبتُ على قَصِيدَةٍ نظمها شرفُ الدين عيسى بن حجاج الشاعر المعروف بالعالية ، مدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وضمها أنواع البديع ، ضاهى بها بديعة الصفي الحلبي ، في شهر سنة آنتين وتسعين وسبعمائة ، ما صورته :

أما بعد حمد الله الذي أحلَّ سحرَ البيان ، وأقدر أهلَ البلاغة من بديع التخيُّل على ما يشهد بصحته العيان ؛ ودلَّ برائض أفكارهم صعاب الألفاظ فامتطوا من مُتون أحاسنها الجياد ، وأوضح لهم طرق الفصاحة فغدَّت لديهم - بحمد الله تعالى - سهلة القيادة ؛ وأحيى ميَّة الأدب بروح الأنفاس العيسوية وعمر بأنسها ربوعه الخالية ، وحى نفس الفضل في رُعة المساجلة أن تصل إليها فرازنة الدعاوى ولا غرو أن حماها العاليه ؛ والصلاة على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم أفصح من نطق بالضاد ، وأوتى جوامع الكلم فلن تحصر معاني كلامه الأعداد - فإني وقفتُ على البديعة البديعة التي نظمها الفاضل الأرفع ، واللودعي المصقع ؛ أديب الزمان ، وشاعر الأوان ؛ شرف الدين أبو الروح عيسى العالية - أعلى الله تعالى منار أدبه ورفعته على منأويه ، وبلغ به من قصب السبق ما يمتنع أن يراه على البعد مضاهيه - فأنفيتها الدرَّة الثينة غير أنها لا تُسام ، والخريدة المُحدرة إلا أنها لا يليق بها الاحتشام :

تروم احتشاماً سترلاً لآءٍ وجهها ! * ومن ذل لذات الحسن يحنى ويستر ؟ !

قد أخذت من الاحتشام معقلاً وحصناً لا يعنى ، وأنتبذت من حسادها مكاناً
قصياً فلا تحاف دركاً ولا تحشى :

وَلَمْ أَدِرْ - وَاللَّاتْفَاطُ مِنْهَا شَرِيفَةٌ - * إِلَى الْبَدْرِ تَسْمُو أُمُّ إِلَى الشَّمْسِ تَرْتَقِي؟!
أَرَادَ الْمُدْعَى بِلَوْغِ شَاوِهَا الْجَرَى فِي مِضَارِهَا فَقِيلَ: كَلَّا، وَرَأَى الْمُلْحِدُ فِي آيَاتِهَا
الْفَضَّ مِنْهَا عِنَادًا فَأَبَى اللَّهُ إِلَّا:

مَا إِنْ لَهَا فِي الْفَضْلِ مِثْلُ كَاتِنٍ! * وَبَيَانُهَا أَحْلَى الْبَيَانِ وَأَمْثَلُ!
فَأَهَسُوا فِي مُعَارَضَتِهَا غَيْرَ طَامِعِينَ، وَتَلَّتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُ بِلَاغَتِهَا: ﴿فَقَالَتْ أَعْنَاقُهُمْ
لَهَا خَاضِعِينَ﴾:

كَمْ جَدَلَتْ يَوْمَ الْوَعْنَى مِنْ جَنْدِلٍ * صَاحَتْ بِهِ فَمَا أَطَاقَ تَصَبُّرًا!
وَكَيْفَ لَا تَخْضَعُ لَهَا الْأَعْنَاقُ، وَتَدُلُّ لَهَا رِقَابُ الشُّعْرَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ وَهِيَ
الْبَيْتِمَةُ الَّتِي أُعْظِمَتِ الْأَفْهَامُ عَنْ مِثْلِهَا، وَالْفَرِيدَةُ الَّتِي أَعْتَرَفَ كُلُّ طَوِيلِ النَّجَادِ
بِالْقُصُورِ عَنْ وَصْلِهَا:

زَادَتْ عَلَيَّ، مَنْ ذَا يُطِيقُ وَصَالَهَا؟ * وَمَحَلُّهَا مِنْهُ الثَّرِيًّا أَقْرَبُ!

وَأَبَى بِذَلِكَ وَقَدْ أَخَذَتْ مِنَ الْحَاسِنِ بِزِمَامِهَا، وَأَحَاطَتْ مِنَ الطَّلَاوَةِ بِكَلِمَاتِهَا،
وَأَحَدَتْ رِيَاضَ الْأَدَبِ بِحَدَائِقِهَا، وَأَقْتَنَطَتْ مِنْ أَفْنَانِ الْفُنُونِ نِمْارَ مَعَانٍ تَلْدُ
لِنَظَرِهَا وَتَحْلُو لَذَائِقِهَا؟:

وَلَا تُعْرِغْ غَيْرَهَا سَمْعًا وَلَا نَظْرًا * فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ!
وَتَصَرَّفَتْ فِي جَمِيعِ الْعُلُومِ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى الْبَدِيعِ مَقْصُورَةً، وَشَرَفَتْ بِشَرَفِ
مُتَعَلِّقِهَا فَأَصْبَحَتْ بِالشَّرَفِ مَشْهُورَةً:

أَهَانَتِ الدَّرَّ حَقِّي مَالَهُ نَمْنٌ، * وَأَرْخَصَتِ قِيمَةَ الْأَمْثَالِ وَالْحُطْبَاءِ!

لَا جَرَمَ أَضْحَتْ أُمَّ الْقَصَائِدِ وَكَعْبَةَ الْقُصَادِ، وَمَحَطَّ الرَّحَالِ وَمَنْهَلِ الْوُرَادِ؛ فَأَرَبَتْ
فِي الشُّمْرَةِ عَلَى "الْمَثَلِ السَّائِرِ"، وَأَعْتَرَفَ بِفَضْلِهَا جَزَالَةَ الْهَادِي وَسُهُولَةَ الْخَاضِرِ:

فَلَا فَاضِلٍ فِي عَلِيَّهَا سَمْرٌ * إِنَّ الْحَدِيثَ عَنِ الْعَلِيَاءِ أَسْمَارُ!
فَأَعْجَبَ بِهَا مِنْ بَادِرَةٍ جَمَعَتْ بَيْنَ مُتَضَادَّيْنِ سُمْرٍ وَسَمْرٍ، وَقَرَّنتَ بَيْنَ مُتَبَاعِدَيْنِ زُهَيْرٍ
وَزَهْرٍ، وَجَادَتْ بِمُسْتَزْهِينِ رَوْضٍ وَنَهْرٍ؛ وَتَفَنَّنَتْ فِي أُسَالِيبِ الْكَلَامِ وَجَالَتْ،
وَطَاوَعَتْهَا يَدُ الْمَقَالِ فَقَالَتْ وَطَالَتْ؛ وَدَعَتْ فُرْسَانَ الْعَرِيَّةِ إِلَى الْمُبَارَاةِ فَتَكَسَّوْا،
وَتَحَقَّقَ الْمُفْلِقُونَ الْعِجْزَ عَنْ مُوَاخَاتِهَا وَلَوْ حَرَّصُوا:

فَأَعْرَبَ عَنْ كُلِّ الْمَعَانِي فَصِيحُهَا * بِمَا عَجَزَتْ عَنْهُ نِزَارٌ وَيَعْرُبُ!
إِنْ ذُكِرَتْ أَلْفَاظُهَا فَمَا الدَّرُّ الْمُنْتَوِرُ؟ أَوْ جُلِيَتْ مَعَانِيهَا أَنْجَلَتْ الرَّوْضَ الْمَهْطُورُ،
أَوْ أَعْتَبِرَ تَحْرِيرُوزْنِهَا فَاقِ الذَّهَبَ تَحْرِيرًا، أَوْ قُوْبِلَتْ قَوَائِمُهَا بِغَيْرِهَا زَكَّتْ تَوْفِيرًا وَسَمَتْ
تَوْفِيرًا؛ أَوْ تَعَزَّلَتْ أَسْكَمَتِ الْوُرُقَ فِي الْأَغْصَانِ، أَوْ أَمْتَدَحَتْ قَفَّتْ إِثْرَ «كَعْبٍ»
وَسَلَكَتْ سَبِيلَ «حَسَّانٍ»؛ فَإِطْنَابُهَا - لَفْصَاةً - لَا يَعْثُدُّ إِطْنَابًا، وَإِيجَازُهَا
- بِلَاغَتِهَا - يُمَدُّ عَلَى الْمَعَانِي مِنْ حُسْنِ السَّبْكِ أُطْنَابًا:

أَبْنُ لِي مَعَزَاهَا أَحَا الْفَهْمِ إِنَّمَا * إِلَى الْفَضْلِ تُعْزَى أَوْ إِلَى الْمَجْدِ تُنْسَبُ؟
هَذَا وَبِرَاعَةٍ مَطْلَعُهَا تَحْتُ عَلَى سَمَاعِ بَاقِيهَا شَغْفًا، وَبَدِيعُ مَخْلَصِهَا يَسْتَرِيقُ الْأَسْمَاعَ
لَطَافَةً وَيَسْتَرِيقُ الْقُلُوبَ كَلْفًا، وَحُسْنُ اخْتِمَامِهَا تَكَادُ النُّفُوسُ لِحَالَاةٍ مَقْطَعِهِ تَدُوبُ
عَلَيْهَا أَسْفَا:

لَهَا مِنْ بَرَاهِينِ الْبَيَانِ شَوَاهِدُ: * إِذَا الْفَضْلُ وَرَدَ وَالْمَعَالَى مَوَارِدُ!
وَبِالْجَمَلَةِ شَأْنُهَا الْجَمِيلَةِ لِأَنْحُصِي، وَجَمَائِلُهَا الْمَاثُورَةِ لَا تُعَدُّ وَلَا تُسْتَقْصَى؛ فَكَأَنَّهَا
«قُسْ بِنِ سَاعِدَةَ» يَأْتُمُّ بِفَصَاحَتِهَا، وَ«أَبْنُ الْمُقَفَّعِ» يَهْتَدِي بِهَدْيِهَا وَيُرْوَى عَنْ
بِلَاغَتِهَا؛ «وَأَمْرُؤُ الْقَيْسِ» يَقْتَنِسُ مِنْ صَنْعَةِ شِعْرِهَا، وَ«الْأَعْشَى» يَسْتَصِيءُ
بِطَلْعَةِ بَدْرِهَا؛ فَلَوْ رَأَاهَا «جَرِيرٌ» لَرَأَى أَنَّ نَظْمَهُ جَرِيرَةٌ أَقْرَبُوهَا، أَوْ سَمِعَهَا «الْفَرَزْدَقُ»

لعرف فضلها وتحقق شرفها ؛ أو بصرها « حبيب بن أوس » لأحب أن يكون من رواتها، أو أطلع عليها « المتني » لتخير بين جميل ذاتها وحسن أدواتها :

فلبصائر هادٍ من فضائلها * يهدي أولي الفضل إن ضلوا وإن حاروا !

ولا نطيل فبلغ القول فيها أن آيتها المحكمة ناسخة لما قبلها، وبرهانها القاطع قاض بأن لا تسمح قريحة أن تنسج على منوالها ولا تطمع شاعر أن يسلك سبيلها :

وآيتها الكبرى التي دلّ فضائها * على أن من لم يشهد الفضل جاحداً !

الطرف الثاني

(فيما يكتب عن القضاة، وهو على أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحكيمة ، وهي على مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تفتتح بخطبة مفتحة بـ « الحمد لله »)

ثم يقال : « أما بعد » ثم يقال : « ولما علمنا من حال فلان الفلاني كذا وكذا، أستخرنا الله تعالى وفوضنا إليه كذا وكذا، فليباشر ذلك » ويوص بما يناسب .

ثم يقال : « هذا عهدنا إليك، ومجئنا عند الله عليك، فأعلم هذا وأعمل به، وكتب ذلك عن الإذن الفلاني » .

وهذه نسخة تقليد :

الحمد لله الولي الحميد ، الفعال لما يريد ، نحمده على ما أولانا من إحسانه فهو المولى ونحن العبيد؛ وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة توصلنا إلى

جَنَّةٍ نَعِيمًا مُقِيمٍ ، وَتَقِينَا مِنْ نَارٍ عَذَابُهَا شَدِيدٌ أَلِيمٌ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ
النَّبِيُّ الْكَرِيمُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الْمَشْتَمَلِينَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالْقَلْبِ السَّلِيمِ ؛
وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإن مرتبة الحكم لا تُعطى إلا لأهلها ، والأفضية لا ينتصب لها إلا من
هو كفاء لها ؛ ومن هو مُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْأَمَانَةِ وَالصَّيَانَةِ ، وَالْعِفَّةِ وَالذَّيَانَةِ ؛ فَنُ
هذه صِفَتُهُ أَسْتَحَقُّ أَنْ يُوجَّهَ وَيُسْتَخْدَمَ ، وَيَتَرَقَّى وَيَتَقَدَّمَ .

وَلَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِ فُلَانٍ الْفُلَانِي الْأَوْصَافَ الْحَمِيدَةَ ، وَالْأَفْعَالَ السَّيِّدَةَ ؛ فَإِنَّهُ
قد حَوَى الْمَعْرِفَةَ وَالْعُلُومَ ، وَالْأَصْطِلَاحَ وَالرُّسُومَ ، وَجُمِعَتْ فِيهِ خِصَالٌ حَمَلْنَا عَلَى
أَسْتِنَانَتِهِ ، وَقَوَّيْنَا عَلَى نِيَابَتِهِ ؛ - أَسْتَخْرْنَا اللَّهَ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيُبَاشِرْ ذَلِكَ مُتَمَسِّكًا بِحَبْلِ اللَّهِ الْمُتِينِ ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلِيَجْتَهِدْ فِي إِقَامَةِ الدِّينِ وَفَضْلِ الْخِصُومَاتِ ، وَفِي النَّظَرِ فِي ذَوِي الْعَدَالَاتِ
وَالْتَّلِبَسِ بِالشَّهَادَاتِ وَإِقَامَةِ الْبَيِّنَاتِ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَدَالَةِ نَزَاهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ
مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ وَيُقَدِّمِهِ عَلَى أَقْرَانِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ خِلَافَ ذَلِكَ فَلْيُقِصِّصْهُ وَيُطَالِعْنَا
بِحَالِهِ . وَلْيَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ الْأَفْعَالَ الْمَرْضِيَّةَ ، وَفِي أَمْوَالِ
الْأَيْتَامِ يَصْرِفُ مِنْهَا اللَّوَاظِمَ الشَّرْعِيَّ ؛ فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا عَسَاهُ يَفْضُلُ
لَهُ مِنْهَا ، وَيَقْرُرُ الْفُرُوضَ ، وَيَزَوِّجُ الْخَالَيَاتِ مِنَ الْأَزْوَاجِ وَالْعَدَدِ وَالْأَوْلِيَاءِ ، مِنْ
الْأَزْوَاجِ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبُ لِدَلَالَتِهِ مِنْ يَعْلَمُ دِيَانَتَهُ ، وَيَتَحَقَّقُ أَمَانَتَهُ ، وَيَتَخَيَّرُ لِكِتَابَةِ
الصُّكُوكِ مِنْ لَا يَرْتَابُ بِصِحَّتِهِ ، وَلَا يَشْكُ فِي دِيَانَتِهِ وَخَبْرَتِهِ ؛ وَيَنْظُرُ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ ،
وَمَنْ عِنْدَهُ مِنَ الْمُسْتَخْدَمِينَ ؛ فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْحَمِيدَةِ فَلْيُجْرِهِ عَلَى عَادَتِهِ ،
وَلْيُبْقِهِ عَلَى خِدْمَتِهِ ؛ وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِخِلَافِ ذَلِكَ فَلْيَسْتَبْدِلْ بِهِ وَلْيُقِصِّصْهُ .

هذا عهدى إليك ، ومُحْتَجِي غَدًا عند الله عَلَيْكَ ، فاعلم هذا وأعمل به .
 وَكُتِبَ ذَلِكَ عَنِ الْإِنْفَنِ الْكَرِيمِ الْفُلَانِي وَهُوَ فِي مَحَلِّ وَلَايَتِهِ وَحُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ،
 وَهُوَ نَاقِدُ الْقَضَاءِ وَالْحُكْمِ مَاضِيهِمَا ، فِي التَّارِيخِ الْفُلَانِي . (ثم يَكْتُبُ الْحَاكِمُ عَلَامَتَهُ
 وَالتَّارِيخَ) وَحَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .



وهذه نُسخة تَقْلِيدٍ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْحَكَمِ الْعَدْلِ الْهَادِي عِبَادَهُ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ، الْحَاكِمِ الَّذِي لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ
 ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ، الْمُنِيبِ مِنْ قَبْدَمِ لَهُ
 الطَّاعَةَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ ، الرَّقِيبِ عَلَى مَا يَصْدُرُ مِنْ أَعْمَالِهِمْ
 فَلَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ
 مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ .

أَحْمَدُهُ عَلَى نِعْمَةِ الَّتِي تُثَشِّئُ السَّحَابَ الثَّقَالَ ، وَأَسْتَعِيدُهُ مِنْ نِقْمِهِ الَّتِي يُرْسِلُهَا
 فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ
 لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةً تُفِيدُ الْمُخْلِصَ بِهَا فِي الْإِقْرَارِ النَّجَاةَ يَوْمَ الْمَالِ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
 وَرَسُولُهُ الَّذِي نَعْتَهُ بِأَكْرَمِ الشِّيمِ وَأَشْرَفِ الْخِصَالِ ، وَعَرَفَهُ بِمَا يَجِبُ مِنْ عِبُودِيَّتِهِ فَقَالَ :
 ﴿ وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ) ،
 صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي الْأَقْوَالِ وَالْأَعْمَالِ ، وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعد ، فإن من حسنت سيرته ، وحمدت سيرته ، وعرف بورع وشهر بعفاف ،
 وديانة وخير وإنصاف ، وأضحى نزه النفس عن الأمور الدنية ، فقيهاً درياً بالأحكام
 الشرعية ، عارفاً بالأوضاع المرضية - استحق أن يوجه ويستخدم ، ويرقى ويتقدم ،

ولمّا علمنا من حال فلانِ الفلانيّ من الأوصاف الحَمِيدَةِ، والأفعال السَّيِّئَةِ -
 آسْتَحْرَنَّا اللهَ تَعَالَى وَفَوَّضْنَا إِلَيْهِ كَذَا وَكَذَا .

فَلْيَكُنْ مَتَمَسِّكًا مَعْتَصِمًا بِحَبْلِ اللهِ الْقَوِيِّ الْمُتِينِ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقْ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ
 لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلْيُبَاشِرْ مَا قَلَدْنَاهُ أَعَانَهُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَبِرَاعِ حُقُوقِ
 اللهُ تَعَالَى فِي السَّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ : فَإِنَّهُ مُعِينٌ مِنْ أَسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ، وَهَادِيٌّ مِنْ
 آسْتَرَشَدَهُ وَفَوَّضَ أُمُورَهُ إِلَيْهِ .

وَلْيَجْتَهِدْ فِي فَضْلِ الْأَحْكَامِ بَيْنَ الْمُتَنَازِعِينَ، وَالْمُسَاوَاةِ فِي الْعَدْلِ بَيْنَ الْمُتَحَاكِمِينَ؛
 قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿وَإِذَا حَكَّمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وَأَنْ يَثْبُتَ فِي الْخُصُومَاتِ، وَيَفْرِقَ بَيْنَ الْحَقَائِقِ وَالشُّبُهَاتِ ؛ وَيُنِصِفَ كُلَّ ظَالِمٍ
 مِنْ ظَالِمِهِ بِالشَّرِيعَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ ، لِيَكُونَ ذَلِكَ سَبَبًا لِلسَّعَادَةِ الْأَبَدِيَّةِ ؛ وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ
 الشُّهُودِ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ نَزْهًا ، وَإِلَى الْحَقِّ مُتَوَجِّهًا ؛ فَلْيُرَاعِهِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَيْرِ
 ذَلِكَ طَالَعْنَا بِجَاهِهِ . وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْجَوَامِعِ وَالْمَسَاجِدِ مُعْتَمِدًا فِي ذَلِكَ قَوْلَ اللهِ الْعَزِيزِ
 الْقَاهِرِ : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْإِيْتَامِ ، وَيَحْتَاظَ عَلَى مَا لَهُمْ مِنَ الْأَمْوَالِ ، وَيَفْعَلْ فِي ذَلِكَ عَلَى
 جَارِي عَادَةِ أَمْثَالِهِ مِنَ الْحُكَّامِ ؛ مِنْ نَفَقَةٍ وَكُسُوفَةٍ وَلِوَاظِمِ شَرِيعِيَّةِ ، فَمَنْ بَلَغَ مِنْهُمْ
 رَشِيدًا أَسْلَمَ إِلَيْهِ مَا فَضَّلَ مِنْ مَالِهِ بِالْبَيِّنَةِ الْمَرْضِيَّةِ ؛ وَيَقْرُرَ الْفُرُوضَ عَلَى مَقْتَضَى قَوْلِ
 اللهُ تَعَالَى : ﴿عَلَى الْمَوْسِعِ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدْرُهُ﴾ . وَيَزُوجِ النِّسْوَةَ الْخَالِيَةَ مِنَ الْعِدَدِ
 وَالْأَوْلِيَاءَ ، مِمَّنْ رَغِبَ فِيهِمْ مِنَ الْأَكْفَاءِ ؛ وَيَنْدُبْ لِدَلِكِ مَنْ يَعْلَمُ أَمَانَتَهُ وَخَبْرَتَهُ ،
 وَيَنْظُرَ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ : فَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمَأْثُورَةَ أَجْرَاهُ عَلَى عَادَتِهِ ،

وأبقاه على حُكْمِهِ وَخِدْمَتِهِ ؛ ومن كان منهم خِلافَ ذلك يُعِدُّهُ وَيُقْصِنُهُ ؛ وَيَسْتَبْدِلُ
به غيرَه لِيَبْقَى مَكَانَهُ وَفِي تَصَرُّفِهِ .

هذا عَهْدِي إِلَيْكَ ، وَحُجَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ عَلَيْكَ ، فَلتَعَلِّمْ ذلك وَتَعْمَلْ به
إِنْ شاءَ اللَّهُ تَعَالَى . (وَيُؤَرِّخُ ، وَيَكُونُ ذلك بِحِطِّ الْحَاكِمِ) وَيَكْتُبُ : « وَحَسْبُنَا اللَّهُ
وَنِعْمَ الْوَكِيلُ » وَيَتَوَجَّهُ بِعَلَامَتِهِ الْكَرِيمَةِ .



وهذه نسخة تقليد :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْفَضْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَاللُّطْفِ فِي الشَّدَّةِ وَالرِّخَاءِ ؛ الَّذِي مِنْ تَوَاضَعٍ إِلَيْهِ
رَفَعَهُ ، وَمِنْ أَطَاعِهِ نَفَعَهُ ، وَمِنْ أَخْلَصَ لَهُ فِي الْعِبَادَةِ أَمَالَ عَنْهُ كَيْدَ الشَّيْطَانِ وَدَفَعَهُ ؛
الَّذِي أَحَاطَ عَلَيْهِ بِالْمَوَارِدِ وَالْمَصَادِرِ ، وَأَسْتَوَتْ عِنْدَهُ أحوالُ الْأَوَائِلِ وَالْآخِرِ ،
وَأَطَّلَعَ عَلَى ضَمَائِرِ النُّفُوسِ وَلَا يَنْبَغِي لغيرِهِ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَى الضَّمَائِرِ ؛ الْخَافِضِ الرَّافِعِ ،
وَالْمُعْطَى الْمَانِعِ ؛ فَإِلَيْهِ الْأَمْرُ وَالتَّذْيِيرُ ، الْمُقْسِطِ الْجَامِعِ : (وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ
بِضَرْفٍ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسَكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) .

أحمدُه حمداً يَقْضِي لِلسَّعَادَةِ بِالتَّيْسِيرِ ، وَأشْكُرُهُ شُكْرًا يُسَهِّلُ مِنَ الْمَأْرَبِ الْعَسِيرِ ،
وَأشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ سَبَّحَانَهُ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ، وَأشْهَدُ
أَنْ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الَّذِي أَرْسَلَهُ بِالْهُدَى وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ، وَجَعَلَهُ لِلْأُمَّةِ خَيْرَ بَشِيرٍ
وَنَذِيرٍ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبَتِهِ شَهَادَةً يَحُلُّ الْمَخْلُصُونَ بِهَا جَنَّةً (يَحْمَلُونَ فِيهَا
مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ) .

أما بعدُ ، فَإِنَّ مَنْ كَانَ عَارِقًا بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ ، مُتَهَيِّئًا لِنَيْلِ دَرَجَاتِهَا الرَّيِّعَةِ ؛ مُسْتَعِدًّا
إِلَى بَيْتِ مَشْكَورٍ ، وَقَدِيرٍ مَوْفُورٍ ؛ قُلِّدَ الْأَحْكَامَ الدِّينِيَّةَ ، لِيَعْمَلَ فِيهَا بِالشَّرِيعَةِ الْمُحْمَدِيَّةِ .

وَمَا عَلَّمْنَا فُلَانًا بِنِ فُلَانٍ فُلَانِيًّا ، قَلْدَانَاهُ كَذَا وَكَذَا .

فَبَاشِرُ أَعَانِكَ اللَّهُ : مُحَافِظًا عَلَى تَقْوَى اللَّهِ الَّذِي إِلَيْهِ الْمَرْجِعُ وَالْمَصِيرُ ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وَأَسْتَشْعِرُ خِيفَةَ اللَّهِ وَأَجْعَلُهَا نُصَبَ عَيْنِكَ ، وَتَمَسَّكَ بِالْحَقِّ وَأَجْعَلُهُ حِجَابًا بَيْنَ النَّارِ وَبَيْنَكَ ، وَأَنْتَصِبُ لِلتَّفِيدِ الْأَحْكَامِ أَنْتَصَابَ مَنْ يُرَاقِبُ اللَّهَ وَيَحْشَاهُ ، وَحَاسِبِ نَفْسِكَ مُحَاسِبَةً مَنْ يَتَحَقَّقُ أَنَّهُ يَطَّلِعُ عَلَيْهِ وَيَرَاهُ ، وَأَبْذُلُ فِي إِنْصَافِ الْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ وَسُعَكَ ، وَرَحَّبُ لِلتَّحَاكِيمِ ذَرْعَكَ ، وَأَنْظُرُ فِي أَمْرِ النُّهُودِ وَحَدِّرْهُمْ أَنْ يَزُوعُوا عَنِ الْحَقِّ ، وَحَاسِبِهِمْ فِيمَا جَلَّ وَدَقَّ ، وَلَا تُرَخِّصْ لَهُمْ ، وَأَلْزِمِهِمْ أَنْ يَتَّخِذُوا الصَّدَقَ مَنَظِقَهُمْ ، وَأَنْهَهُمْ عَنِ التَّسَمُّحِ فِيهَا ، وَعَرِّفِهِمُ التَّحَرُّزَ عَمَّا يُؤَدِّي مِنَ التُّهْمَةِ وَالتَّطَرُّقَ إِلَيْهَا ، وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْمُتَصَرِّفِينَ بِيَابِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ نَظْرًا يُؤَدِّي إِلَى صَالِحِهِمْ ، وَلَا تُعَوِّلْ فِي النِّيَابَةِ عَنْكَ إِلَّا عَلَى مَنْ تَخْتَارُهُ وَتَرْتَضِيهِ ، وَلَا تُعْرَجْ إِلَى مَنْ هُوَ مُسْتَنَدٌ إِلَى غَايَةٍ وَلَا تَمَلْ إِلَيْهِ ، وَأَنْظُرْ فِي أَمْرِ الْأَحْبَاسِ نَظْرًا يَحْفَظُ أَصُولَهَا ، وَلَا تُرَاعِ فِي اسْتِخْلَاصِ مَا يَتَعَيَّنُ لَهَا كَبِيرًا وَلَا صَغِيرًا ، وَلَا تُعَامِلْ فِيهَا إِلَّا ذَوِي الْوَفَاءِ وَالْيَسَارِ ، وَأَرْفُضْ مَعَامِلَةَ مَنْ يَسْتَنِدُ إِلَى الْعُدْمِ وَالْإِعْسَارِ ، وَأَفْعَلْ مَا يَفْعَلُهُ مِثْلُكَ مِنَ الْحُكْمِ ، مِنْ إِنْشَاءِ الْعَدَالَةِ وَالْفَسْخِ وَالْإِنْكَاحِ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ قَلْدَانَاكَ هَذِهِ الْأَحْكَامَ ، فَإِنْ عَمِلْتَ فِيهَا بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى وَطَاعَتِهِ يُعِينِكَ عَلَى ذَلِكَ ، وَإِنْ عَمِلْتَ غَيْرَ ذَلِكَ فَأَنْتَ وَاللَّهُ هَالِكٌ ثُمَّ هَالِكٌ ، وَأَسْتَمِعُ نَصِيحَتِي ، وَأَفْعَلْ مَا تُبَرِّدُ بِهِ جِلْدَتَكَ وَجِلْدَتِي ، إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

(١) قُلْتُ : وَرُبَّمَا كُتِبَ التَّقْلِيدُ بِصِيغَةِ كِتَابٍ ، مِثْلُ أَنْ يُكْتَبَ إِلَى الَّذِي يَتَوَلَّى عَلَى قَدْرِ مَرْتَبَتِهِ ، مِنْ : « صَدَرَتْ هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » أَوْ : « هَذِهِ الْمَكَاتِبَةُ » ثُمَّ يُقَالُ :

(١) هذه هي المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان في الأصل .

«تَتَضَمَّنُ إِعْلَامَهُ أَنَّ الْمَجْلِسَ الْفُلَانِيَّ» بَلَقِيهِ، وَيُدْعَى لَهُ: «لَمَّا عَلِمْنَا مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا - أَسْتَحْرْنَا اللَّهُ تَعَالَى وَفَوَضْنَا إِلَيْهِ الْحُكْمَ وَالْقَضَاءَ بِمَكَانِ كَذَا، فَيُبَاشِرُ ذَلِكَ» عَلَى نَحْوِ مَا تَقَدَّمَ فِي التَّقْلِيدِ الَّذِي قَبْلَهُ .

الصنف الثاني

(إسجالاتُ العدالة)

قَدْ بَرَّتِ الْعَادَةُ أَنَّ أَبْنَاءَ الْعُلَمَاءِ وَالرُّؤَسَاءِ تَثْبُتُ عَدَالَتُهُمْ عَلَى الْحُكْمِ، وَيُسَجَّلُ لَهُمْ بِذَلِكَ، وَيُحْكَمُ الْحَاكِمُ بِعَدَالَةٍ مِنْ تَثْبُتِ عَدَالَتِهِ لَدَيْهِ، وَيُشْهَدُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، وَيَكْتُبُ لَهُ بِذَلِكَ فِي دَرَجِ عَرِيضٍ، إِمَّا فِي قِطْعِ فَرَخَةِ الشَّامِيِّ الْكَامِلَةِ، وَإِمَّا فِي نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الْوَرَقِ الْبَلَدِيِّ، وَتَكُونُ كِتَابَتُهُ بِقَلَمِ الرَّقَاعِ وَأَسْطُرُهُ مَتَوَالِيَةً، بَيْنَ كُلِّ سَطْرَيْنِ تَقْدِيرَ عَرَضٍ أَصْبَعٍ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ .

قُلْتُ: وَهَذِهِ نُسْخَةٌ سَجَّلَ أَنْشَأْتَهُ، كُتِبَ بِهِ لَوْلَدِي نَجْمِ الدِّينِ أَبِي الْفَتْحِ مُحَمَّدٍ، وَكُتِبَ لَهُ بِهَا عِنْدَ ثُبُوتِ عَدَالَتِهِ، عَلَى الشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ وَلِيِّ الدِّينِ أَحْمَدَ، ابْنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْحَافِظِ زَيْنِ الدِّينِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْعِرَاقِيِّ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِبَصْرَةَ وَالْقَاهِرَةِ الْمَحْرُوسَتَيْنِ، فِي شَهْرِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةَ وَثَمَانِمِائَةٍ، وَهِيَ:

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَطَّلَعَ نَجْمَ الْعَدَالَةِ مِنْ سَمَاءِ الْفَضَائِلِ فِي أَفْقِ مَعَالِيهَا، وَأَنَارَ بَدْرَارِي الْعُلَمَاءِ مِنْ حَنَادِسِ الْجِهَالَةِ مُدْهِمًا لِيَالِيهَا، وَكَلَّ عُقُودَ النَّجَابَةِ مِنْ نُجَبَاءِ الْأَبْنَاءِ بِأَعْلَى جَوَاهِرِهَا وَأَنْقَسَ لَهَا لِيَالِيهَا؛ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ شَهَادَةٌ تَرَفَّى قَائِلُهَا إِلَى أَرْفَعِ الدُّرَى، وَيَمْتَطِي مُنْتَعِلُهَا صَمُوعَ الثَّرْيَاءِ: وَإِنَّا لَنَرُجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرًا، وَأَشْهَدُ أَنْ مَجْدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ الْمَخْصُوصُ بِمَحَاسِنِ الشِّيمِ، وَالْمَوْصُوفُ بِكَرَمِ الْمَآثِرِ وَمَآثِرِ الْكَرَمِ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ تَمَسَّكُوا مِنْ عَمَرِ الدِّينِ بِالسَّبَبِ

الأقوى، وسلّكوا جادة الهداية فحصلوا من أقصى مغيّاتها على الغاية القُصوى؛
وسلّم تسليماً كثيراً .

وبعد، فلما كانت العدالةُ هي أسّ الشريعة وعمادها، ورُكْنُهَا الأعظم في الاستناد
إلى الصواب وسنادها؛ لا تُقبَل دونها شهادة ولا رواية، ولا يصحّ مع عدمها إسنادُ
أمرٍ ولا ولاية - فقد بُنيت الشريعة المطهّرة على أركانها، واعتمد الرواة في صحّة
الأخبار على أصولها وتعلقت الحُكَم في قبُول الشهادة بأحضانها؛ إذ هي الملكة
الحاملة على ملازمة التقوى، والحفيظة المانعة من الوقوع في هوة البدع المتمسكُ
بسببها الأقوى؛ والحكمة الثابتة عن الجمّاح إلى ارتكاب الكبائر، والعنان الصّارِفُ
عن الجنوح إلى الإصرار على الصّغائر؛ والزمام القائد إلى صلاح أعمال الظواهر
وسلامة عقائد الضمائر .

ولما كان مجلس القاضي الأجل، الفقيه، الفاضل، المشتغل، المحصل،
الأصيل، نجم الدين، سليل العلماء، أبو الفتح محمد بن فلان القلقشندى الفزارى،
الشافعى، خليفة الحُكم العزيز بالقاهرة المحروسة والدة، والحاكم بالعمل الفلانى
ومامعهما: أيد الله تعالى أحكامه، وأقرّ عينه بولده - هو الذى وُلِدَ على فراش الديانة،
وظهرت عليه فى الطفولة آثارها، ونشأ فى أحياء الصيانة، فرويت عنه بالسند
الصحيح أخبارها؛ وأرتضع ثدى العلم حين بزوغ نجمه، وغذيه مع لبان أمه فامتزج
بدمه ونجمه وعظمه؛ وأعلن مُنادى نَشَاتِهِ بجيمل الذّكر فأغنى فيه عن الاستخبار،
ولاحت عليه لوائح النجابة فلقى له بالكمال قبل أن يبلغ قر عمره زمن الإبدار؛
فلم يرد منهل التكليف إلا وقد تزّين من محاسن الفضائل بأكل زين، ولم يبلغ مبلغ
العلم حتى صار لوالده - والله الحمد - قرّة عين - رفعت قصةً مخبرة عن حاله فيها من
مضمون السؤال طلب الإذن الكريم بسماع بيّنة المذكور، وكتابة إسجال بعدالته .

فَسَمِلَهَا الْخَطُّ الْكَرِيمُ الْعَالِي ، الْمَوْلِيُّ ، الْقَاضِي ، الْإِمَامِيُّ ، الْعَالِمِيُّ ، الْعَامِلِيُّ ،
 الْعَلَامِيُّ ، الشَّيْخِيُّ ، الْمُحَدِّثِيُّ ، الْحَافِظِيُّ ، الْحَبْرِيُّ ، الْمُجْتَهِدِيُّ ، الْمُحَقِّقِيُّ ، الْمَدَقِّقِيُّ ،
 الْوَحِيدِيُّ ، الْفَرِيدِيُّ ، الْمُجَبِّ ، الْمُجَبِّ ، الْحَطِيبِيُّ ، الْبَلْبَعِيُّ ، الْحَاكِمِيُّ ، الْحَلَالِيُّ ،
 الْكَنَانِيُّ ، الْبُلْفِينِيُّ ، الشَّافِعِيُّ ؛ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ، النَّاطِرِيُّ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِالْأَبْيَانِ
 الْمَصْرِيَّةِ ، وَالْمَمَالِكِ الشَّرِيفَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ : أَدَامَ اللَّهُ تَعَالَى أَيَّامَهُ ، وَأَعَزَّ أَحْكَامَهُ ؛
 وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، وَأَسْبَغَ نِعْمَهُ فِي الدَّارَيْنِ عَلَيْهِ - لَسَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ،
 الشَّيْخِ الْإِمَامِ الْعَالِمِ ، الْحَافِظِ ، وَلِيِّ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحِدِ الْفَضْلَاءِ ،
 مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي زُرْعَةَ أَحْمَدَ بْنَ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى زَيْنِ الدِّينِ ،
 شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، قَاضِي الْمُسْلِمِينَ ، أَبِي الْفَضْلِ عَبْدِ الرَّحِيمِ ، ابْنِ سَيِّدِنَا الْعَبْدِ الْفَقِيرِ
 إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَدْرِ الدِّينِ ، شَرِيفِ الْعُلَمَاءِ ، أَوْحِدِ الْفَضْلَاءِ ، مُفْتِي الْمُسْلِمِينَ ،
 أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْحُسَيْنِ الْعِرَاقِيِّ الشَّافِعِيِّ ، خَلِيفَةِ الْحُكْمِ الْعَزِيزِ بِالْقَاهِرَةِ وَمِصْرَ
 الْمَحْرُوسَتَيْنِ ، وَالْحَاكِمِ بِالْأَعْمَالِ الْمُنُوفِيَّةِ ، وَمُفْتِي دَارِ الْعَدْلِ الشَّرِيفِ بِالْأَبْيَانِ الْمَصْرِيَّةِ :
 أَيَّدَ اللَّهُ تَعَالَى أَحْكَامَهُ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ بِالنَّظَرِ فِي ذَلِكَ عَلَى الْوَجْهِ الشَّرْعِيِّ .

فَإِذَا سَمِعَ سَيِّدِنَا الْعَبْدُ الْفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى الشَّيْخُ الْإِمَامُ ، الْعَالِمُ ، الْحَافِظُ ،
 وَلِيُّ الدِّينِ ، الْحَاكِمُ الْمَشَارُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى إِلَيْهِ - الْبَيْتَةَ بِتَرْكِيئِهِ ، وَصَرَّحَتْ
 لَهُ بِالشَّهَادَةِ بَعْدَالْتِهِ ، وَقَبِلَهَا الْقَبُولَ الشَّرْعِيَّ السَّائِعَ فِي مِثْلِهِ .

ثُمَّ أَشْهَدَ عَلَى نَفْسِهِ الْكَرِيمَةِ مِنْ حَضَرَ مَجْلِسِ حُكْمِهِ وَقَضَائِهِ ، وَهُوَ نَافِذُ الْقَضَاءِ
 وَالْحُكْمِ مَاضِيَهُمَا ، وَذَلِكَ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ يَوْمِ الْأَرْبَعَاءِ الْتَامِينَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ
 رَجَبِ الْفَرْدِ سَنَةِ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ - أَنَّهُ ثَبَّتَ عِنْدَهُ وَصَّحَّ لَدَيْهِ : أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْهِ -
 عَلَى الْوَضْعِ الْمَعْتَبَرِ الشَّرْعِيِّ ، وَالْقَانُونِ الْمَحْرَّرِ الْمُرْعَى ؛ بِالْبَيْتَةِ الْعَادِلَةِ الْمَرْضِيَّةِ ، الَّتِي

تثبت بمنها الحقوق الشرعية - عدالة القاضي الأجل، العدل، الرضى، نجم الدين محمد المسمى أعلاه : زاده الله تعالى توفيقا، وسهل له إلى الخير طريقا، وما آشتل عليه من صفاتها، وتحلى به من أدواتها، ثبوتا صحيحا معتبرا، مستوفيا شرائط محررا .
 وأنه - أيد الله تعالى أحكامه ، وسدد نقضه وإبرامه - حكم بعدالته ، وقبول شهادته ؛ حكما تاما وجرمه ، وقضى فيه قضاء أبرمه ؛ وأذن له - أيد الله تعالى أحكامه - في تحمّل الشهادة وأدائها، وبسط قلمه في سائر أنديةها وأرجائها ؛ وأجراه - أجرى الله تعالى الخيرات على يديه - مجرى أمثاله من العُدُول، ونظّمه في سلك الشهداء أهل القبول ؛ ونصّبه بين الناس شاهدا عدلا، إذ كان صالحا لذلك وأهلا .
 فليست بالشهادة قلمه، وليؤلف على شروط أدائها كلمه ؛ وليحمد الله تعالى على ما منحه من ملائمتها الجميلة ، وأثاله من الترقى لرتبتها الجلييلة ؛ وليتق الله تعالى في موارده ومصادره، وليسلك مسالك التقوى في أول أمره وآخره ؛ وليعلم أن من سلك الحق نجا، ومن يتق الله يجعل له مخرجا . أوزعه الله تعالى شكر هذه الرتبة العلية، والمنزلة السنية .

وتقدم أمر سيدنا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الإمام، العالم، الحافظ، ولي الدين، الحاكم المذكور، وقاه الله تعالى كل محذور ؛ بكتابة هذا الإسجال، فكتب عن إذنه الكريم، متضمنا لذلك مسؤولا فيه، مستوفيا شرائطه الشرعية .
 وأشهد على نفسه الكريمة بذلك في التاريخ المقدم ذكره بأعليه، المكتوب بخطه الكريم - شرفه الله تعالى، حسبنا الله ونعم الوكيل .

قلت : والعادة أن يعلم فيه الحاكم علامة تلو البسملة، ويكتب التاريخ في الوسط، والحسبة في الآخر، كل ذلك بخطه، ويشهد عليه فيه من يشهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم، كما في سائر الإسجلات الحكمة .

الصنف الثالث

(الكُتُبُ إِلَى التَّوَابِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا)

وَأَعْلَمُ أَنَّ الكُتُبَ الَّتِي تُكْتَبُ عَنِ القَضَاةِ أَلْفَظُهَا مَرْسَلَةً ، لِاجْتِوَحِ فِيهَا إِلَى فَنِّ
الْبَلَاغَةِ وَالسَّجْعِ إِلَّا فِي القَلِيلِ النَّادِرِ .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ بِهِ عَنْ قَاضِي القَضَاةِ نَحْرَ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ ، إِلَى الحُكَّامِ
بِالمَلِكَةِ ، وَهُوَ :

أَدَامَ اللهُ فَضَائِلَ الجَنَابَاتِ العَالِيَةِ وَالمَجَالِسِ العَالِيَةِ ، وَجَعَلَهُمْ قَادَةً يُقْتَدَى بِهِمْ
فِي القَوْلِ وَالعَمَلِ ، وَوِ
الْأَحْتِفَالِ مِنْ يَعْتَنِي بِأَمْرِهِ وَيُحْتَفَلُ ، وَلا سِيَّامَا ^(١١)
مِنْ سَارَتْ طَرِيقَةُ فَضْلِهِ المُنْتَلَى فِي الآفَاقِ سَيْرِ المَثَلِ ؛ وَلا زَالَ عَرَفُ مَعْرُوفِهِمْ عَلَى
دَوَىِ الفَضَائِلِ يُفُوحُ ، وَجِيَادِ جُودِهِمْ تَعْدُو فِي مَيْدَانِ الإِحْسَانِ وَتُرُوحُ ، وَنَيْلِ نَيْلِهِمْ
يَسْرَى إِلَى القُصَادِ فَيُحْمَدُ سِرَاهُ عِنْدَ الغُبُوقِ كَمَا يُحْمَدُ سِرَاهُ عِنْدَ الصُّبُوحِ .

هذه المكتوبة إليهم تُقْرِئُهُمْ سَلامًا أَلطَفَ مِنَ النِّسِيمِ ، وَتُهْدِي إِلَيْهِمْ ثَنَاءَ مِرْزَاجِ
كاتبه مِنْ تَسْنِيمِ ؛ وَتُبْدِي لَعْلَمِهِمُ الكَرِيمَةَ أَنَّ الجَنَابَ الكَرِيمَ ، العَالِيَّ ، الشَّيْخِيَّ ،
الإِمَامِيَّ ، الفَاضِلِيَّ ، البَارِعِيَّ ، الأَوْحِدِيَّ ، الأَكْمَلِيَّ ، البَلِيغِيَّ ، المَقْدَمِيَّ ، الخَطِيبِيَّ ،
البَهَائِيَّ ، أَوْحَدَ الفَضْلَاءِ ، نَحْرَ العُلَمَاءِ ، زَيْنَ الخَطْبَاءِ ، قِبْلَةَ الأَدْبَاءِ ، قُدُوةَ البُلَغَاءِ ،
صَفْوَةَ المُلُوكِ وَالسُّلَاطِينِ ، خَطِيبَ المَوْصِلِ - أَدَامَ اللهُ المَسْرَةَ بِهِ ، وَوَصَلَ الخَيْرَ
بِسَبَبِهِ ؛ وَنَفَعَ بِفَوَائِدِ فَضْلِهِ وَأَدَبِهِ - وَرَدَّ عَلَيْنَا بِطَرَابُلسِ المَحْرُوسَةِ ، فَخَصَلَتِ المَسْرَةُ
بِذَلِكَ الوُرُودِ ، وَتَجَدَّدَ بِخِدْمَتِهِ مَا تَقَدَّمَ مِنْ وَثِيقِ العُهُودِ ؛ وَأَبْدَى لَنَا مِنْ نَظَرِهِ الفَائِقِ
الرِّفِيقِ ، وَإِنْشَائِهِ المَغْنَى عَنِ نَسْوَةِ الرِّحِيقِ ، وَكِتَابَتِهِ الَّتِي هِيَ السَّحْرُ الحَلَالُ عَلَى

التَّحْقِيقَ ؛ مَا زَهَّ الْأَبْصَارَ وَشَفَّ الْأَسْمَاعَ ، وَقَطَعَ مِنْ قُرْسَانِ الْأَدَبِ أَسْبَابَ
الْأَطْعَامِ ؛ فَأَزَالَ عَنِ الْقَلْبِ الْكَيْبِ فِكْرًا ، وَأَحْجَلَ مِنَ الرَّوْضِ الْأَنْبِقِ زَهْرًا ،
وَأَحْمَلَ مِنَ الْمِسْكِ السَّحِيقِ عَطْرًا ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ النَّفِيسُ الَّذِي جُمِعَ فِيهِ قَدِيمُ
الْأَدَبِ وَحَدِيثُهُ ، وَالْجَلِيسُ الَّذِي لَا يُسَامُ كَلَامُهُ وَلَا يَمِلُ حَدِيثُهُ ؛ يَا لَهَّ أَيْبَا لَيْسَ فِيمَا
يُبْدِيهِ مِنَ الْأَدَبِ تَحْرِيفٌ وَلَا غَلْطٌ ، وَفَاضِلًا لَوْ لَمْ يَكُنْ بَحْرًا لَمَا كَانَ الدَّرُّ مِنْ فِيهِ
يُلْتَقَطُ ؛ يَمِينُهُ وَفِطْنَتُهُ الْكَرِيمَتَانِ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ، فَهَذِهِ إِنْ رَفَمَتْ طَرَسًا فُرُوحٌ وَرِيحَانٌ ،
أَوْ بَدَلَتْ رِيًّا فَعَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ؛ وَهَذِهِ إِنْ نَظَمْتَ شِعْرًا فَيَا قُوَّتُ وَمَرْجَانٌ ، أَوْ نَثَرْتَ
تَبْرًا فَتَمِينُ الدَّرِّ أَلْوَانٌ ؛ مَا بَرِحَ الْفَضْلَاءُ إِلَى لِقَائِهِ يُسَارِعُونَ ، وَحَقَّ لَهُمْ أَنْ يُسَارِعُوا
مِنْ أَبْوَابِ مَعْرُوفِهِ يَفْتَبِسُونَ ؛ وَكَيْفَ لَا ؟ وَهُوَ الشَّهَابُ السَّاطِعُ ، وَالْجَلِيلُ
الَّذِي لَمْ نَزَلْ تُسِيرَ إِلَيْهِ بِالْأَصَابِعِ ، وَالنَّيْلُ الَّذِي تَجْرَى لِفِرَاقِهِ مِنْ عُيُونِ اللَّيْبِ
الْمَدَامِعُ ، وَالتَّرْيِيلُ الَّذِي يُنْشِدُهُ الْعَارِفُ عِنْدَ وَدَاعِهِ :

* بَعَيْشِكَ خَبَرَنِي مَتَى أَنْتَ رَاجِعٌ *

يَعْرِفُ الْمُحْسِنُ إِحْسَانَهُ فَيُنْشِرُهُ مِنَ النَّوَاءِ لَوَاءً ، وَيُجِئُ فِي مَدْحِ صِفَاتِهِ
وَنُعُوتِهِ الْإِنْشَاءَ إِنْ شَاءَ ، وَيُجِئُ فِي ذَمِّ مُسْتَحِقِّ الذَّمِّ مِنْهُ الْمَهْجَاءَ ، فَأَكْرَمَ بِهِ مَدَاحًا
وَأَعْظَمَ بِهِ هَجَاءً ؛ الْعُلَمَاءُ لِحُضُورِهِ يَتَرَقَّبُونَ ، وَإِلَيْهِ يَتَقَرَّبُونَ ؛ وَالْفَضْلَاءُ بِفَضْلِهِ
يَعْتَرِفُونَ ، وَمَنْ بَحَّرَهُ يَعْتَرِفُونَ ؛ وَالْأُدَبَاءُ إِلَيْهِ يَسْتَدِقُّونَ ، وَمِنْهُ يَفْتَبِسُونَ ؛ وَالطَّلَبَةُ
بِأَذْيَالِ فَضْلِهِ يَتَمَسَّكُونَ ، وَبَنَشْرِ أَثْنَيْتِهِ يَتَمَسَّكُونَ ؛ وَإِخْوَانُهُ فِي اللَّهِ بِوُجُودِهِ
يَفْتَخِرُونَ ، وَإِلَى جُودِهِ يَفْتَقِرُونَ ؛ كُلُّمَا عَرَضَتْ لَهُمْ حَاجَةٌ تَمَسَّكُوا بِإِيثارِهِ ، وَكُلُّمَا
عَانَدَهُمُ الدَّهْرُ سَأَلُوهُ الْإِمْدَادَ بِأَنْصَارِهِ ؛ فَيَجُودُ فِي خِدْمَتِهِمْ بَيَانَ بَنَانِهِ ، وَيُجْرَدُ
فِي نُصْرَتِهِمْ سَيْفَ لِسَانِهِ .

ثم من قبل أن نبلِّغ منه الوَطرَ ، ومن دُونِ أن يَكْتَفِي منه السَّمْعُ والبَصَرُ ، عَرَفْنَا أَنه قَصَدَ التَّوَجُّهَ إِلَى البلادِ السَّاحِلِيَّةِ ، والأَعْمَالِ الطَّرَابُئِيَّةِ ؛ لِيُجْمَلَ عَلَى أَهْلِهَا مِنْ فِضَائِلِهِ البَاهِرَةِ البَاسِقَةِ ، وَألفاظِهِ التي هِيَ كالدَّرَرِ المُتَنَاسِقَةِ ؛ وَيُجْمَلُ عَرَّائِسَ الأَفْكارِ مِنْ أَفكارِهِ ، وَيُجْمَلُ عَرَّائِسَ الأَثْمَارِ مِنْ أَشجارِ عِلْمِهِ ، وَيُجْمَلُ البَدِيئَةَ البَدِيعَةَ ، وَالتَّوَاقِيَّ الحَبِيبَةَ المُطِيعَةَ .

فَلْيَتَقَدَّمِ الجَماعَةُ - أَيَدُهُمُ اللهُ تَعَالَى - بِإِكرامِهِ الأَهْلِ والأَصْحابِ ، وَتَلَقِّيهِ بِالبِشْرِ وَالتَّطَلُّقِ وَالتَّرحابِ ؛ وَإِحلالِهِ مِنْ الإِحسانِ مَحَلًّا سَمايَا ، وَإِنزالِهِ مِنْ الإِفْضالِ مَنزِلًا عَاليًا ؛ وَالأَعْتِئاءِ الوَافِرِ بِأَمْرِهِ ، وَاسْتِجْلابِ بَثِّ حَمْدِهِ وَشُكْرِهِ ؛ وَالتَّنْقِاطِ دَرَرِ فَوَائِدِهِ ، وَاسْتِسابِ عُمُرِ فَرَائِدِهِ ؛ وَالإِصْغَاءِ إِلَى المَنْشُورِ وَالمَنْظُومِ مِنْ أَقوالِهِ ، وَالتَّعَجُّبِ مِنْ حُسْنِ بَدَاهَتِهِ وَسُرْعَةِ ارْتِجَالِهِ .

وَلْيُحْتَفَلْ كُلَّ يَوْمٍ بِخِدْمَتِهِ غَايَةَ الإِحْتِفالِ ، وَيُعْتَنَّ بِأَمْرِهِ أَعْتناءً لا يُسَارِكُهُ تَقْصِيرٌ ولا إِهْمالٌ ؛ وَيُرْعَ لَهُ حَقُّ الضَّيْفِ الجَلِيلِ ، وَالقَّادِمِ الَّذِي إِذا رَحَلَ عَنْ بَلَدِهِ أبقَى لَهُ بِها الذِّكْرَ الجَمِيلَ ؛ وَيُسَاعَدُ عَلَى ما تَوَجَّهَ بِصَدَدِهِ كُلَّ ساعَةٍ يُعَوِّدُ نَفْعَها عَلَيْهِ ، وَيُنْفِقُ مِمَّا آتاهُ اللهُ وَيُحْسِنُ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْهِ .

وَنَحْنُ نُؤَكِّدُ عَلَى الجَماعَةِ - أَيَدُهُمُ اللهُ - فِي ذلكِ كُلِّ التَّأكِيدِ ، وَنُبالِغُ فِيهِ مُبالِغَةً ما عَلِيها مِنْ مَرِيدٍ ؛ وَنُحَدِّرُهُمْ مِنَ الإِهْمالِ وَالتَّسْوِيفِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَمِنْ مُقابَلَةِ جَنابِهِ الكَرِيمِ بِالتَّزْرِ الحَقِيرِ وَالقَدْرِ البَيسِرِ ؛ فَإِكرامُ هَذا الرَّجُلِ لَيْسَ كإِكرامِ مَنْ لَمْ يَسِرْ بِسَيرِهِ ، وَما هُوَ إِلا لِعَلمِهِ وَفَضْلِهِ وَخَيرِهِ ، وَقد قالَ الإِمَامُ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :
« وَليْسَ مِنْ يُكْرَمُ لِنَفْسِهِ كَالَّذِي يُكْرَمُ لغيرِهِ » .

فَلتَعْظُمُوهُ كُلَّ التَّعْظِيمِ وَتُنزِلُوهُ مَنزِلَةَ تَلِيقِ بِأَهْلِ الفَضْلِ والإِفْضالِ ، وَتَرَفُّعُوا لَهُ المَقامَ وَتُحَفِّظُوا لَهُ المَقالَ ؛ لِيُعَوِّدَ مُحَقِّقَ الأَمالِ مُبَلِّغَ المَقاصِدِ ، نَاشِرًا أَلوِيَةَ النِّشاءِ

والمحمد ، مَشْمُولًا بِجَمِيلِ الصَّلَاةِ وَالْعَائِدِ ؛ وَتَحْنُ مَتَظَرُونَ مَا يَرِدُ عَنْهُ مِنْ مَكَاتِبَاتِهِ
الكَرِيمَةِ بِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ مِنْ ... (١) ... الْحَسَنَةِ .

وَفِي هَمِيمِهِمُ الْعَلِيَّةِ ، وَمَكَارِمِهِمُ السَّنِيَّةِ ، مَا يُغْنِي عَنِ التَّأَكِيدِ بِسَبَبِهِ وَالْوَصِيَّةِ ؛
وَاللَّهُ تَعَالَى يُدِيمُ عَلَيْهِمْ سَائِعَ الْإِفْضَالِ وَالْإِنْعَامِ ، وَيَجْمَلُ بِوُجُودِهِمْ وَجُودَهُمُ الْأَحْكَامَ
وَالْحُكْمَ ؛ بِمَنَّةٍ وَكَرَمِهِ .

الصنف الرابع

(ما يُكْتَبُ فِي آفْتَاتِحَاتِ الْكُتُبِ)

فَمِنْ ذَلِكَ مَا يُكْتَبُ فِي أَوَائِلِ كُتُبِ الْأَوْقَافِ .

وهذه نسخة حُطْبَةِ فِي آبْتِدَاءِ كِتَابِ وَقْفٍ عَلَى مَسْجِدٍ ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ جَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّهُ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ ، وَنَاصِرِ الدِّينِ الْمُحَمَّدِيِّ
بَنِيْنًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ الْأَجْمَادِ ، وَمَشْرِفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِالْأَمِّمَةِ وَالْجَمْعَةِ
وَالْجَمَاعَاتِ مِنْ أَهْلِ الرَّشَادِ ، وَجَاعِلِ مِنْ أَرْتَضَاهُ مِنْ أَرْبَابِ سُنَّةِ نَبِيِّهِ الْمُخْتَارِ مِنْ
عِبَادِهِ الْعِبَادِ ، وَمُمَسِّرِ الْقُرْبَاتِ إِلَيْهِ لِأَهْلِ السَّدَادِ ، وَمُرِيدِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ
مِمَّنْ أَخْلَصَهُ بِالطَّاعَاتِ وَمَزِيدِ الْإِرْفَادِ ، وَمُفَضِّلِ الْأَوْقَافِ عَلَى أَفْضَلِ وُجُوهِ الْبِرِّ
مَنْ جَعَلَهُ لِخَيْرِ أَهْلًا بِالنَّفْعِ الْمُتَعَدِّيِّ وَكَثْرَةِ الْأَمْدَادِ ، وَمُعْظَمِ الْأَجْرِ لِمَنْ بَنَى بَيْتًا لِلَّهِ
بِنِيَّةِ خَلِيَّةٍ مِنَ الرِّيَاءِ وَالْعِنَادِ ، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " مَنْ بَنَى
مَسْجِدًا لِلَّهِ وَأَوْكَفَّ حَصِصَ قِطَاةٍ بَنَى اللَّهُ تَعَالَى لَهُ بِهِ قَصْرًا فِي الْجَنَّةِ " وَزَجُّوا مِنْ كَرَمِ اللَّهِ
الْأَزْدِيَادِ .

(١) بياض بالأصل ولعله : من المنازل الحسنة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُه على مَوَادِّ نِعَمِهِ التي جَلَّتْ عن التَّعَدَادِ ، وأشكُرُه شُكْرًا وافيًا وافرًا نجعله
ذخيرةً ليومِ التَّنَادِ ، وأسْتَمِدُّ من اللُّطْفِ لَوَازِمَ الفَضْلِ الخَفِيِّ وهو الكَرِيمُ الجَوَادُّ ،
وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له وأنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسوله الخاتِمُ الحاتِمُ على
حَوْضِهِ الوُرَادِ ، صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه ما أُصْنِيَ إلى الذِّكْرِ وأُجِيبَ كُلُّ دَاعٍ
من حاضِرٍ أو بَادِ .

وبعدُ ، فلمَّا كانتِ المَثُوبَاتُ مَضمُونَةً الأَجْرِ عندَ الكَرِيمِ ، والأَعْمَالُ متَعَدِّدَةً
في التَّقْدِيمِ ؛ وكان بُيَانُ المَسَاجِدِ وافرًا أجْرًا ، لمن أقامَ بواجِبِ تَيَانِ الظَّنِّ الجميلِ
وسَدَّدَ إلى الخيراتِ سَبِيلًا ، وقد قال تعالى : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِي بِـي . فليظنَّ
بِي خَيْرًا » . ورأى العُقَلَاءُ أَنَّ الأَوْقَافَ على المَسَاجِدِ والجَوَامِعِ من أنْفُسِ قَوَاعِدِ
الدِّينِ وأَعْلَى - فلذلك قيل في هذا الإِسْجَالِ المُبَارَكِ :

هذا ما وَقَفَهُ وَحَبَسَهُ ، وَسَبَّلَهُ وَأَبَدَهُ فلان . وَقَفَ وَحَبَسَ رَغْبَةً في مزيدِ الثَّوَابِ ،
وَرَجَاءً في تَهَوُّنِ تَهْوِيلِ يَوْمِ الحِسَابِ ، وَأَغْتِنَا مَا لِلأَجْرِ الجَزِيلِ من الكَرِيمِ الوَهَّابِ ؛
لقول الله تعالى في الآياتِ المَبْرُورَةِ : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ
أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ . وَقَفَ بِنَيْتِهِ خَالِصَهُ ، وَعَزِيمَتِهِ صَالِحَهُ ، وَنِيَّةَ صَادِقِهِ ؛ ما هو له
وفي مِلْكِهِ ، وَحَوْزِهِ وَبِيَدِهِ وَتَصَرَّفِهِ ، من غيرِ مُنَاطِرٍ له في ذلك ولا شَرِيكَ ،
(ثم يَذْكُرُ الوَقْفَ) .

الفصل السادس

في العُمَرَاتِ الَّتِي تَكْتُبُ لِلْحَاجِّ

وهذه نسخةُ عُمَرَةٍ اعتمَرها أبو بكر بن محمد الأنصاري الخزرجي ، عند مُجَاوَرَتِهِ بِمَكَّةَ الْمُشْرِفَةِ فِي سَنَةِ سَبْعٍ ، وَسَنَةِ ثَمَانٍ ، وَسَنَةِ تِسْعٍ ، وَسَنَةِ عَشْرٍ وَسَبْعِينَ ، لِلسُّلْطَانِ الْمَلِكِ النَّاصِرِ «مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُونَ» ، وَهِيَ :

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَأَمَّنَ مَنْ فِيهِ بِالْقَائِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ وَمَنْ هُوَ لِلْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرُ نَاصِرٍ ، وَجَعَلَهُ بَيْكَةً مُبَارَكًا ، وَوَضَعَ الْإِصْرَ بِمَنْ كَثُرَتْ مِنْهُ ، وَمَنْ سَلَفَهُ الْكَرِيمِ عَلَى الطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ الْأَوَاصِرِ ؛ وَعَقَدَ لِيَوَاءِ الْمَلِكِ بَخِيرِ مَلِكٍ وَهُوَ وَاحِدٌ فِي الْجُودِ أَلْفٌ فِي الْوَعَى : فِي حَالَتِهِ تُعَقَّدُ عَلَيْهِ الْخَنَاصِرُ ، وَأَطَابَ الْمُقَامَ فِي حَرَمِ اللَّهِ تَعَالَى وَحَرَمِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْ يَسْتَحِقُّ السُّلْطَنَةَ بِذَاتِهِ الشَّرِيفَةَ وَشَرَفِ الْعَنَاصِرِ ؛ وَسَهَّلَ الطَّرِيقَ ، إِلَى حَجِّ بَيْتِهِ الْعَتِيقِ ، مِنَ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ فِي دَوْلَةٍ مِنْ أَجْمَعَتِ الْقُلُوبُ عَلَى مَحَبَّتِهِ وَوَرِثَ الْمَلِكُ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، وَأَنْطَقَ الْأَلْسِنَةَ بِالِدَعَاءِ لَهُ مِنْ كُلِّ وَاقِدٍ إِلَى بَيْتِهِ الْحَرَامِ عَلَى آخْتِلَافِ لُغَاتِهِمْ وَأَهْتَرَّتْ لَوْصِفِ مَنَاقِبِهِ الْمَنَابِرِ .

أَحْمَدُهُ عَلَى مَا بَلَغَ مِنْ جَزِيلِ إِنْعَامِهِ ، وَأَشْكُرُهُ شُكْرًا أُسْتَرِيدُ بِهِ مِنْ فَضْلِهِ وَنَوَالِهِ وَإِكْرَامِهِ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ نِعْمَ الدَّخِيرَةُ لِصَاحِبِهَا يَوْمَ لِقَائِهِ وَعِنْدَ قِيَامِهِ ، وَأَقُولُهَا خَالِصًا مُخْلِصًا وَيَافُوزَ مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ ؛ وَأَشْهَدُ أَنْ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدَهُ وَرَسُولَهُ أَشْرَفَ مَبْعُوثٍ إِلَى الْحَقِّ دُعَى بَجَاءِ بِأَشْرَفِ مَلَّةٍ ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «عُمَرَةُ فِي رَمَضَانَ تَعْدِلُ حَجَّه» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَىٰ جَمِيعِ آلِهِ وَأَصْحَابِهِ

خُصُوصًا عَلَى خَلِيفَتِهِ فِي أُمَّتِهِ الْمُخْصُوصِ بِالسَّبْقِ وَالْمُؤَاذَرَةِ وَالتَّصَدِيقِ ، مَوْلَانَا
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؛ وَعَلَى مُظْهِرِ الْأَذَانِ وَمُصَدِّقِ الْخِطَابِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؛ وَعَلَى مَنْ جَمَعَ عَلَى الْأُمَّةِ آيَاتِ الْقُرْآنِ ، مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ
عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؛ وَعَلَى ابْنِ عَمِّهِ ، وَارِثِ عِلْمِهِ ؛ الْجَامِعِ لِجَمِيعِ الْمَأْتَرِ وَالْمُنَاقِبِ ،
مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ؛ وَعَلَى بَقِيَّةِ الْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةِ ، سَادَاتِ
الدُّنْيَا وَمُلُوكِ الْآخِرَةِ ؛ وَسَلَّمْ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكُ الْمَلِكِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْخَيْرُ بِيَدِهِ يُفِيضُهُ
عَلَى خَلْقِهِ فِي أَرْضِهِ وَبِلَادِهِ ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى بَعْبَادَهُ خَيْرًا نَصَرَ نَاصِرَهُمْ وَرَفَعَ
عَنْهُمْ الْعَلَا ، وَدَفَعَ عَنْهُمْ الْعِدَا ، وَوَلَّى عَلَيْهِمْ خِيَارَهُمْ ؛ فَيُقِيمُهُ مِنْ خَيْرِ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ
لِلنَّاسِ ، لِيُذْهِبَ عَنْهُمْ الضَّرَرَ وَيُزِيلَ عَنْهُمْ الْبَاسَ ؛ وَيَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ
الْمُنْكَرِ ، وَيُنْصِفُ الْمَظْلُومَ مِنَ الظَّالِمِ وَيَقِيمُ مَنَارَ الشَّرْعِ الْمُطَهَّرِ .

وَمَا كَانَ مَوْلَانَا السُّلْطَانُ الْأَعْظَمُ ، وَالشَّاهِنشَاهُ الْمُعْظَمُ ، الْمَلِكُ النَّاصِرُ - خَلَدَ اللَّهُ
سُلْطَانَهُ - قَدْ جَمَعَ فِي الْحَمْدِ بَيْنَ طَارِفٍ وَتَالِدٍ ، وَوَرِثَ الْمَلِكُ عَنْ أَشْرَفِ أَيْحٍ وَأَعْظَمِ
وَالِدٍ ؛ وَقَامَتْ عَلَى أَسْتِحْقَاقِهِ لِلسُّلْطَنَةِ الدَّلَائِلُ ، وَأَلْفَهُ سِرِيرُ الْمَلِكِ وَعَرَفَ فِيهِ مِنْ
وَالِدِهِ وَمَنْ أَحْيَاهُ - رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى - الشَّمَائِلُ ؛ فَهُوَ الْمَلِكُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ الْمَلِكُ بِهِ
أَهْلًا وَلَمْ يَزَلْ لَهُ أَهْلًا ، وَالسَّيِّدُ الَّذِي لَيْسَ حُلَّةَ الْفَخَّارِ فَلَمْ يَجِدْ لَهُ فِي السُّؤْدُودِ وَالْفَخَّارِ
مَثَلًا ، وَالْمَلِكُ الَّذِي مَا بَدَأَ لِرَأْيِهِ إِلَّا قَيْلٌ : بَحْرٌ طَمَى أَوْ بَدْرٌ تَجَلَّى ؛ وَالْمُؤَيَّدُ الَّذِي
حَصَّه اللَّهُ تَعَالَى بَعْلُوشَانَهُ وَأَرْبِقَانَهُ ، وَلَمْ يَرْضَ مَرَاقِدَ الْفَرَاقِدِ لَعْلِيَانِهِ ؛ وَالكَرِيمُ الَّذِي
سَادَ الْأَوَائِلَ وَالْأَوَاخِرَ ، وَأَضْفِيَتْ عَلَيْهِ حُلُّ الْمَفَاحِرِ ؛ وَالْمَنْصُورُ الَّذِي أُعْطِيَ عَلَى
الْأَعْدَاءِ قُوَّةَ نَصْرِهِ ، وَالنَّاصِرُ الَّذِي أَسْعَجَ مَجَالَ نَصْرِهِ فَأَخَذَ الْكُفَّارَ حَضْرًا ، وَحَكَمَتْ
سَيُوفُهُ الْقَوَاضِبُ فَوَضَعَتْ عَنِ الْأَوْلِيَاءِ إِضْرًا ؛ قَدْ حَصَّه اللَّهُ تَعَالَى بِالْعَزِّ وَالنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كرهه، وفضله على سائر ملوك الإسلام بالحجّ وزيارَةِ النبيّ صلى الله عليه وسلم
مرّة بعد مرّه، ومرّة أخرى إن شاء الله تعالى ومرّة ومرّه!!! كم سلك سنن
وأبده وأخيه - رحمهما الله تعالى - بالغزاة فكان له كلُّ مشهدٍ مذكور، وعُرفَ
تقدّمه وإقدامه فكان أعظم ناصرٍ وأشرف منصور؛ يحمده الله تعالى والناس عن
جميل ذبّه عن الإسلام وحميد فعله، وأستقلّ الجزيل فينبّل الجميل لمن أمّ أبوابه
الشريفة فلا يُستكثر هذا من مثله؛ ما حملت راياته الشريفة كنيبةً إلا نصرت،
ولا وقف بوجهه الكريم في دفع طائفة الكُفر إلا كسرت؛ ولا جهّز عساكره
المنصورة إلى قلعةٍ إلا نزل أهلها من صياصيمهم، ولا حاصروا ثغراً للكفار إلا أخذوا
بنواصيمهم؛ ولا سير سريةً لمواجهةٍ محاربٍ إلا ذلّ على رغبه، ولا نطق لسان الحمد
للجاهد أو سار الشاهد إلا وقف الحمد على قوله وأسمه؛ فاختره الله تعالى على علمٍ على
العالمين، وأجتهبه للدّبّ عن الإسلام والمسلمين؛ وجعله لسُلطانه وإرثنا، وفي الملك
مأكناً، وللقمرين ثالثاً؛ ولأموره سداداً، ولثغور بلاد الإسلام سداداً؛ وفوض إليه
القيام بمصالح الإسلام، والنظر في مصالح الخاصّ والعام؛ وعدق به أمور الممالك
والأملاك، وأطلع بسعادته أيمن البروج في أثبت الأفلاك؛ وحمى الإسلام
والمسلمين من كلِّ جانبٍ شرقاً وغرباً، وملاً بمهاتيه البلاد والعباد رعباً وحبّاً؛
وبسط في البسيطة حكمه وعدله، ونشر على الخلائق حلمه وفضله؛ وفرض طاعته
على جميع الأمم، وجعله سيّداً للملوك العرب والعجم؛ وأمن بمهاتيه كلَّ حاضرٍ وباد،
ونوم سُكّان الحرمين الشريفين من كنفه في أوطاٍ مهاد؛ وسكّن خواطر المجاورين
من جميع المخاوف، وصان بالمقام في مكة الطائف والعاكف؛ قد حسن مع الله
تعالى سيرةً وسيراً، ودلت أيامه الشريفة أنه خير ملكٍ أراد الله تعالى برعيته خيراً؛
وراعى الله فيما رعى، وسعى في مصالح الإسلام عالمًا أن ليس للإنسان إلا ماسعى.

قد مَلَأَ أَعْيُنَ الرَّاغِبِينَ بِالطَّمَانِينَةِ وَالْمُهْجُوعِ ، وَأَمَمَهُمْ فِي أَيَّامِهِ الشَّرِيفَةِ بِالرِّخَاءِ مِنْ
الْخَوْفِ وَالْجُوعِ ، وَجَمَعَ لَهُمْ بَيْنَ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَى ، وَسَهَّلَ لَهُمُ الدُّخُولَ إِلَى بَيْتِهِ
الْحَرَامِ بَرًّا وَبِحُرَابٍ ، وَفَتَحَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ - خَلَّدَ اللَّهُ تَعَالَى سُلْطَانَهُ - جَمِيعَ الْأَمْصَارِ ،
وَمَلَأَ مِنْ مَهَابَتِهِ جَمِيعَ الْأَقْطَارِ :

فسارت مَسِيرَ الشَّمْسِ فِي كُلِّ بَلَدَةٍ * وَهَبَتْ هُبُوبَ الرِّيحِ فِي الْقُرْبِ وَالْبُعْدِ !

فوجب على العالمين أن يدعوا لدولته الشريفة المباركة بطول البقاء، و[دوام] العلوِّ
والارتقاء، ووجب على كلِّ من الواصلين إلى بيته الحرام وحضرة قدسه، أن يتهلَّ
بالدعاء له قبل أن يدعو لنفسه، فكيف من هو مملوكه وابن مملوكه ووارث عبوديته،
ومن لم يزل هو ووالده وإخوته في صدقات والده الشهيد - رحمه الله تعالى - وعميم
نعمته؛ العبد الفقير إلى الله تعالى أبو بكر بن محمد بن المكرم الأنصاري الخزرجي،
فإنه لم يزل مدة أيامه مبتهلاً بصالح دعواته، متوسلاً إلى الله تعالى بدوام نصره
وطول حياته؛ طائفاً عند مقامه الشريف حول بيته الحرام، والمشاعر العظام .

وأحبُّ أن يُخَفِّهَ بأشرف العبادة فلم يجد أجلاً مقداراً ولا أعظم أجراً، من عمرة
يعتمرها عنه ويهدى ثوابها لصحائفه الشريفة ويزيد بذلك نفراً؛ فقام عنه بعمرتين
شريفتين أعتمرهما عنه في رمضان، مكنتين بإحراميهما وتلبيتيهما، وطوافيهما
وسعيهما؛ يتقرب بذلك إلى أبوابه الشريفة، ويسأل الله تعالى ويسأل صدقاته
الشريفة أن ينعم عليه بنصف معلوم صدقة عليه، وينصفه لأولاده؛ ليقضى بقية
عمره في الثلاثة المساجد، ويخصه بجزيل الدعاء من كلِّ راكع وساجد؛ وأن يكون
ذلك مستمراً عليه مدة حياته، وعلى ذريته ونسله وعقبه بعد وفاته؛ لتشمل
صدقات مولانا السلطان - خلد الله تعالى ملكه - الأحياء والأموات، ويطيب لغلمان

في أيامه الشريفة المات ، جعل الله تعالى مولانا السلطان وارث الأعمار ،
وأجرى بدوام أيامه الشريفة المقدار ، وجعل كلمة الملك باقية في عقبه ، وبلغه
من النصر والظفر والأجر غاية أرى به ، وجعل أيامه كلها مساراً وبشائر ، ودولته تسرُّ
النواظر ، وسعادته ليس لها آخر ، ويهنئه بما قد آتمه الله له من ملك والده الشهيد
رحمه الله تعالى :

[أُهَيْبِكَ] بِالْمُلْكِ يَا خَيْرَ مَنْ * أَجَارَ الْبَرِيَاءَ وَمَنْ مَارَهَا ،
وَمَنْ لَيْسَ لِلْأَرْضِ مَلِكٌ سِوَاهُ * تُمِيلُ لَهُ الْخَلْقُ أَبْصَارَهَا !
وَأَنْتَ الَّذِي تَمْلِكُ الْخَلَاقِينَ * ^(١) وَإِعْصَارَهَا ،
وَتَمْلِكُ سَبَبَ تَكْفُورِهَا * وَتَرْكَبُ بِالْحَيْشِ أَوْعَارَهَا ،
وَتَحْكُمُ فِي الْمَرْءِ حُكْمَ الْمُلُوكِ * وَتُنشِدُ فِي التَّخْتِ أَشْعَارَهَا ،
وَتَفْتَحُ بَغْدَادَ دَارَ السَّلَامِ * وَتَنْفِي بِمُلْكِكَ أَكْدَارَهَا ،
وَتَأْخُذُ بِالْعَسْكَرِ النَّاصِرِيِّ * قُصُورُ الْخِلَافَةِ أَوْتَارَهَا ،
وَيَأْمَنُ فِي ذَلِكَ الْعَالَمُونَ * وَتَحْمِي الْأُسُودَ وَأَوْكَارَهَا ،
وَتَبْقَى إِلَى أَنْ تَعَمَّ الْبِلَادَ * بِنِعْمِي تُتَابِعُ إِدْرَارَهَا ،
وَيَبْلُغُ مُلْكُكَ أَقْصَى الْبِلَادِ * وَتُجْرِي الْعِبَادَ وَأَوْطَارَهَا ،
وَيَنْظُمُ سِيرَتَكَ النَّاطِمُونَ * وَتُعْبِي مَفَاذِيكَ سُمَارَهَا ،

[والله يُقِيصُهُ] ^(١) بعدها دائماً ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده
ناصر الدنيا والدين ، إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الباب الثاني

من المقالة العاشرة في الهزليات^(١)

أعلم أنه ربما أعتنت الملوك ببعضه ، فاقترحت على كتابها إنشاء شيء من الأمور الهزلية ، فيحتاجون إلى الإتيان بها على وفق غرض ذلك الملك . كما وقع لمعين الدولة ابن بويه الديلمي في اقتراحه على أبي إسحق الصابي كتابة عهد بالتطفل ، لرجل كان عنده اسمه عليكا ، ينسب إلى التطفل ، ويسخر منه السلطان بسبب ذلك .

وهذه نسخة عهد بالتطفل ، التي أنشأها أبو إسحق الصابي لعليكا المذكور :

هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي ، حين استخلفه على إحياء سنته ، وأستتابه في حفظ رؤومه ، من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكفافها ، ويحجرى معها في سوادها وأطرافها ؛ لما توّسمه فيه من قلة الحياء ، وشدة اللقاء ؛ وكثرة اللقم ، وجودة الهضم ؛ وراه أهلاً له من سدّ مكانه ، والرفاهة المهملة التي فطن لها ، والرقاعة المطرحة التي أهتدى إليها ؛ والنعم العائدة على لا بسببها ببلاد الطعوم ، وخضب الجسوم ؛ ورداً على من أتسعت حاله ، وأقدره الله على غرائب المأكولات ، وأظفره ببدايع الطيبات ؛ أخذاً من ذلك كله بنصيب الشريك المناصف ، وضارياً فيه بسهم الخليط المفاوض ؛ ومستعملاً للدخل اللطيف عليه ، والمتوج العجيب إليه ؛ والأسباب التي ستشرح في مواضعها من أوامر هذا الكتاب ، ونستوفي الدلالة على ما فيها من رشادٍ وصواب ؛ وبالله التوفيق وعليه التعويل ، وهو حسبتنا ونعم الوكيل .

(١) ذكر المؤلف في بيان محتويات الكتاب في الجزء الأول (ص ٣٢) أن الباب الثاني في الهزليات يشتمل على فصلين : الفصل الأول فيما أعتنت الملوك ببعضه . الفصل الثاني في سائر أنواع الهزل ، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثاني ، فليتنبه .

أمره بتقوى الله التي هي الجانبُ العزيز، والحِرْزُ الحَرِيْزُ؛ والرُّكْنُ المَنِيع، والطُّودُ الرَّفِيع، والعِصْمَةُ الكَالِئَةُ، والحِجَّةُ الوَاقِيَةُ؛ والزَّادُ النَّافِعُ يومَ المَعَادِ، وحيثُ الأمثلةُ من الأزواد؛ وأن يَسْتَشْعِرَ خِيفَتَهُ في سِرِّهِ وَجْهَرِهِ، وَيُرَاقِبَهُ في قَوْلِهِ وَفِعْلِهِ؛ وَيَجْعَلَ رِضَاهُ مَطْلَبَهُ، وَثَوَابَهُ مَكْسَبَهُ، وَالقُرْبَةَ مِنْهُ أَرَبَهُ، وَالزَّانِي لِدَيْهِ غَرَضَهُ؛ وَلَا يُخَالَفَهُ في مَسَاعِدِ قَدَمِهِ، وَلَا يَتَعَرَّضُ عِنْدَهُ لِعَاقِبَةِ نَدَمِهِ؛ وَلَا يُقَدِّمَ عَلَيَّ مَا كَرِهَ وَأَنْكَرَ، وَلَا يَتَّقَاعَسَ عَمَّا أَحَبَّ وَأَمَرَ .

وأمره أن يتأدب بأدبه فيما يأتي ويذر، ويقف على حدوده فيما أباح وحظر؛ فإنه إذا كان ذلك هجيراً وديئنه، وجرى عليه منهاجه وسننه؛ تكفل الله له بالنجاح والصَّلاح، وأفضى به إلى الرِّشَادِ وَالقَلَّاحِ؛ وَأَطْفَرَهُ بِكُلِّ بَغِيَّةٍ، وَأَوْصَلَهُ إِلَى كُلِّ مَشِيَّةٍ؛ وَلَمْ يُجَلِّهِ مِنَ الفَوْزِ بِمَا يُرْصَدُ، وَالْحَوْزِ بِمَا يَقْصَدُ؛ بِذَلِكَ وَعَدَ، وَكَذَلِكَ يَفْعَلُ، وَمَا تَوَفَّقْنَا إِلَّا بِاللَّهِ، وَلَا مَرَجِعُنَا إِلَّا إِلَيْهِ .

وأمره أن يتأمل اسمَ التَّطْفِيلِ وَمَعْنَاهُ، وَيَعْرِفَ مَغْزَاهُ وَمَنْحَاهُ؛ وَيَتَصَفَّحَهُ تَصَفَّحَ البَاحِثِ عَنِ حَظِّهِ بِمُحْمُودِهِ، غَيْرِ القَائِلِ فِيهِ بِتَسْلِيمِهِ وَتَقَايِيدِهِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ قَدْ اسْتَقْبَحَهُ مِمَّنْ فَعَلَهُ، وَكَرِهَهُ لِمَنْ اسْتَعْمَلَهُ؛ وَنَسَبَهُ فِيهِ إِلَى الشَّرِّهِ وَالنَّهَمِ، وَحَمَلَهُ مِنْهُ عَلَى التَّفَهِّ وَالقَرَمِ؛ فَفَنَّهُمْ مِنْ غَلْطٍ فِي اسْتِدْلَالِهِ، فَأَسَاءَ فِي مَقَالِهِ؛ وَمِنْهُمْ مَنْ شَعَّ عَلَى مَالِهِ، فَدَافَعَ عَنْهُ بِأَحْتِيَالِهِ؛ وَكُلُّ الفَرِيقَيْنِ مَذْمُومٌ، وَجَمِيعُهُمَا مَلُومٌ؛ لَا يَتَعَلَّقَانِ بَعْدِيْرٍ وَاضِحٍ، وَلَا يَعْتَرِيَانِ مِنْ لِبَاسٍ فَاضِحٍ؛ وَمِنْهُمْ الطَّائِفَةُ الَّتِي تَرَى فِيهَا شَرِكَةَ العِنَانِ: فَهِيَ نَتَدَلُّهُ إِذَا كَانَ لَهَا، وَنَتَدَلُّ عَلَيْهِ إِذَا كَانَ لغيرها؛ وَتَرَى أَنَّ المِنَّةَ فِي المَطْعَمِ لِلهَاجِمِ الآكِلِ، وَفِي المَشْرَبِ لِلوَارِدِ الوَاعِلِ، وَهِيَ أَحَقُّ بِالحُرِّيَّةِ، وَأَحْلَقُ بِالحُرِّيَّةِ؛ وَأُحْرَى بِالمُرُوءَةِ، وَأَوْلَى بِالفُتُوَّةِ؛ وَقَدْ عَرَفْتَ بِالتَّطْفِيلِ، وَلَا عَارَ فِيهِ عِنْدَ ذَوِي التَّحْصِيلِ،

لأنه مُسْتَقٌّ من الطَّقَلِ وهو وَفَتِ الْمَسَاءِ ، وَأَوَانُ الْعِشَاءِ ؛ فلما كَثُرَ اسْتَعْمَلَ فِي صَدْرِ النَّهَارِ وَحَجَّزَهُ ، وَأَوَّلِهِ وَآخِرِهِ ؛ كما قِيلَ لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ : قَمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا الْقَمَرُ ، ولأبي بكرٍ وعُمَرَ : العُمَرَانِ وَأَحَدُهُمَا عُمَرُ ، وقد سَبَقَ إِمَامُنَا بَيَانُ رَحْمَةِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِلَى هَذَا الْأَمْرِ سَبَقًا أَوْجَبَ لَهُ حُلُودُ الذِّكْرِ ، فهو بَاقِي بَقَاءِ الدَّهْرِ ، وَمُتَجَدِّدٌ فِي كُلِّ عَصْرٍ ؛ وما نَعْرِفُ أَحَدًا نَالَ مِنَ الدُّنْيَا حَظًّا مِنْ حُطُوطِهَا فَبَقِيَ لَهُ مِنْهُ أَثَرٌ يَخْلِفُهُ ، وَصِيَّتْ يَسْتَبِدُّ بِهِ إِلَّا هُوَ وَحَدَهُ ، فَبَيَانَ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُذَكِّرُ بِتَطْفِيلِهِ كَمَا تُذَكِّرُ المُلُوكُ بِسَيْرِهَا ، فَمَنْ بَلَغَ إِلَى نِهَائِهِ ، أَوْ جَرَى إِلَى غَايَتِهِ ؛ سَعِدَ بِغَضَارَةِ عَيْشِهِ فِي يَوْمِهِ ، وَنَبَاهَةَ ذِكْرِهِ فِي غَدِهِ ؛ جعلنا الله جميعًا من السابقين إلى مَدَاهِ ، والمُدَّكُورِينَ كَذِكْرَاهِ .

وأمره أن يَعْتَمِدَ مَوَائِدَ الكِبَرَاءِ والعُظْمَاءِ بَغْزَايَاهِ ، وَسُمَطَ الْأَمْرَاءِ والوُزَرَاءِ بِسَرَايَاهِ ؛ فإنه يَطْفَرُ مِنْهَا بِالْغَنِيمَةِ البَارِدَةِ ، وَيَصِلُ عَلَيْهَا إِلَى الْغَرِيبَةِ النَّادِرَةِ ؛ وَإِذَا اسْتَقْرَأَهَا وَجَدَ فِيهَا مِنْ طَرَائِفِ الْأَلْوَانِ ، المُلْدَّةِ للسانِ ؛ وَبَدَائِعِ الطُّعُومِ ، السَّائِغَةِ فِي الحُلُقُومِ ؛ مَا لَا يَجِدُهُ عِنْدَ غَيْرِهِمْ ، وَلَا يَنَالُهُ إِلَّا لَدَيْهِمْ ؛ لِحَدِيقِ صِنَاعَتِهِمْ ، وَجُودَةِ أَدْوَانَتِهِمْ ، وَأَنْزِياجِ عَلَيْهِمْ ، وَكَثْرَةِ ذَاتِ بَيْنِهِمْ ؛ وَاللَّهُ يُوقِّرُ مِنْ ذَلِكَ حَظَّنَا ، وَيُسَدِّدُ نَحْوَهُ لِحَظَّنَا ؛ وَيُوضِّحُ عَلَيْهِ دَلِيلَنَا ، وَيُسَهِّلُ إِلَيْهِ سَبِيلَنَا .

وأمره أن يَتَّبِعَ مَا يَعْرِضُ لِمُوسِرَى التُّجَّارِ ، وَمُجَهِّزَى الْأَمْصَارِ ؛ مِنْ وَكِيْرَةِ الدَّارِ ، والعُرْسِ والإِعْذَارِ ؛ فَإِنَّهُمْ يُوسِّعُونَ عَلَى نَفُوسِهِمْ فِي النُّوَابِ ، بِحَسَبِ تَضْيِيقِهِمْ عَلَيْهَا فِي الرَّائِبِ ؛ وَرُبَّمَا صَبَرُوا عَلَى تَطْفِيلِ الْمُتَطَفِّلِينَ ، وَأَغَضُوا عَلَى تَهْجُمِ الوَاغِلِينَ ؛ لِيَتَحَدَّثُوا بِذَلِكَ فِي مَحَافِلِهِم الرَّذَلَةَ ، وَيَعُدُّوه فِي مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِم النَّذَلَ ؛ وَيَقُولُ قَائِلُهُمُ البَاحِجُ بِاتِّسَاعِ طَعَامِهِ ، المُبَاهِي بِكَثْرَةِ حُطَامِهِ ؛ : إِنِّي كُنْتُ أَرَى الوُجُوهَ الْغَرِيبَةَ فَأَطْعَمَهَا ، وَالْأَيْدِيَ الْمُتَدَّةَ فَأَمْلَأْتُهَا . وَهَذِهِ طَائِفَةٌ لَمْ تُرِدْ بِمَا فَعَلَتْهُ الْكِرْمَ وَالسَّعَةَ ،

وإنما أردت المن والسَّمْعَة ؛ فإذا آهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بُغْيَتِهِ
من إعلان قضيّتها، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها، إن شاء الله .

وأمره أن يُصادق قَهَارِمَةَ الدُّورِ ومُدَبِّرِيهَا، ويُرَافِقَ وكُلَّاءَ المَطَايِحِ وحَمَالِيهَا ؛ فإنهم
يَمْلِكُونَ من أصحابهم أزيمة مطاعمهم ومشاربهم ، ويضعونها بحيث يُجِبُونَ من أهل
مودّاتهم ومعارفهم ؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحدا من الناس خليلا من خلانها،
وأتخذته أخوا من إخوانها ؛ سَعِدَ بمرافقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، ومآربه
في جنباتها .

وأمره أن يتعهد أسواق المسوقين ، ومواسم المتبايعين ؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد
فيها، وأطعمته قد احتشد مشتريها ؛ أتبعها إلى المقصد بها ، وشيعها إلى المنزل
الحاوي لها ؛ وأستعلم ميقات الدغوه، ومن يحضرها من أهل النسيان والمروء ؛
فإنه لا يتخلو فيهم من عارف به يرأى وقت مصيره إليها ليتبعه ، ويكن له ليصحبه
ويدخل معه ؛ وإن خلا من ذلك اختلط بزمر الداخلين ، وعصب الراجلين ؛
فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب، ويخرج من سلطان البوايين والمجباب ؛ حتى
يحصّل حصولا قل ما حصل [عليه] أحد قبله فانصرف عنه إلا ضليعا من الطعام،
بريقا من المدام ؛ إن شاء الله .

وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنّيات والمغنّين ، ومواطن الأبلات (؟)
والمحتئين ؛ فإذا أتاه خبر جمع يضمهم ، ومادية تعثمهم ؛ ضرب إليها أعناق إبيله ،
وأنضى نحوها مطايا خيله ؛ وحمل عليها حملة الحوت الملتقم ، والثعبان الملتهم ؛
واللبيث الهاصر، والعقاب الكاسر ؛ إن شاء الله .

وأمره أن يتجنب مجامع العوام المقلين ، ومحافل الرعا المقتيرين ؛ وأن لا يتقل
إليها قدما، ولا يعفر لما كلفها قسا ؛ ولا يلق في عتب دورها كيسانانا، ولا يعد الرجل

منها لإنسانا، فإنها عَصَابَةٌ يَجْتَمِعُ لها ضَيْقُ النُّفُوسِ والأَحْلَامِ، وَقَلَّةُ الإِحْكَامِ والأَمْوَالِ؛
وفى التَّطْفِيلِ عليها إِخْخَافٌ بها يُوسَمُ، وإِزْرَاؤُهُ بِمُرُوءَةِ المُتَطَفِّلِ يُوصَمُ؛ والتَّجَنُّبُ لها
أُحْرَى، والأَزُورَارُ عنها أَجْحَى؛ إن شاء الله .

وأَمْرُهُ أَنْ يَحْزِرَ الخِوَانَ إِذَا وُضِعَ، والطَّعَامَ إِذَا نُقِلَ؛ حتَّى يَعْرِفَ بالحدسِ
والتَّقْرِيبِ، والبَحْثِ والتَّنْقِيبِ؛ عَدَدَ الألوانِ فى الكَثْرَةِ والقِلَّةِ، وَأَفْتِنَانَهَا فى الطَّيِّبِ
واللَّدَّةِ؛ فيُقَدِّرُ لِنَفْسِهِ أَنْ يَشْبَعَ مع آخِرِهَا، وَيَتَمَيَّ مِنْهَا عِنْدَ آتِهَاهَا؛ ولا يَقُوْتُهُ
النَّصِيبُ مِنْ كَثِيرِهَا وَقَلِيلِهَا، ولا يُحِطُّهُ الحِطُّ مِنْ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا . وَمَتَى أَحَسَّ بَقَلَّةِ
الطَّعَامِ، وَعَجَّزَهُ عَنِ الأَقْوَامِ؛ أَمَعَنَّ فى أَوَّلِهِ إِمْعَانَ الكَيْسِ فى سَعَتِهِ، الرِّشِيدِ فى أَمْرِهِ،
المَالِىَ لِبَطْنِهِ؛ مِنْ كُلِّ حارٍّ وَبارِدٍ، وَخَبِيثٍ وَطَيِّبٍ؛ فإنه إِذَا فَعَلَ ذلكَ سَلِمَ مِنْ
عَوَاقِبِ الأَحْمَارِ الذين يَكْفُونَ تَطَرُّفاً، وَيُقْلُونَ تَأَدُّباً؛ وَيُظَنُّونَ أَنَّ المادَّةَ تَبْلَغُهُمْ
فى آخِرِ أَمْرِهِمْ، وتَنْتَهَى بِهِمْ إلى غَايَةِ سَعِيهِمْ؛ فلا يَلْبَثُوا أَنْ يَجْعَلُوا تَجْمَلَةَ الوائِقِ،
وَيَنْقَلِبُوا بِحَسْرَةِ الخائِبِ؛ أَعَاذَنَا اللهُ مِنْ مِثْلِ مَقَامِهِمْ، وَعَصَمَنَا مِنْ شَقَاءِ جُدُودِهِمْ؛
إن شاء الله .

وأَمْرُهُ أَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ، وَيُقَالِطَ حِسَّهُ؛ وَيَضْرِبَ عَنِ كَثِيرٍ مِمَّا يَلْحَقُهُ صَفْحَا،
وَيَطْوَى دُونَهُ كَشْحَا، وَيَسْتَحْسِنُ الصَّمَمَ عَنِ الفَحْشَا؛ وَإِنْ أَتَتْهُ اللَّكْرَةُ فى حَلْقِهِ،
صَبَرَ عَلَيْهَا فى الوُصُولِ إلى حَقِّهِ؛ وَإِنْ وَقَعَتْ بِهِ الصَّفْعَةُ فى رَأْسِهِ، صَبَرَ عَلَيْهَا لمَوْقِعِ
أَضْرَاسِهِ؛ وَإِنْ لَقِيَهِ لَاقٍ بِالْجَفَاءِ، قَابَلَهُ بِاللُّطْفِ وَالصَّفَاءِ؛ إِذْ كَانَ قَدْ وَجَعَ الأَبْوَابَ،
وَخَالَطَ الأَسْبَابَ؛ وَجَلَسَ مع الحُضُورِ، وَأَمْتَرَجَ بِالْمُجْهُورِ؛ فلا بُدَّ أَنْ يَلْقَاهُ المُنْكَرُ
لأَمْرِهِ، وَيَمُرُّ بِهِ المُسْتَعْرَبُ لوجْهِهِ؛ فَإِنْ كَانَ حُرًّا حَيًّا أَمْسَكَ وَتَدَمَّمَ، وَإِنْ كَانَ فَظًّا
غَلِيظًا هَمَّهُمْ وَتَكَلَّمَ؛ وَتَجَنَّبَ عِنْدَ ذلكَ المُخَاشَنَةَ، وَأَسْتَعْمَلَ مع المُخَاطَبِ لَهُ المَلَائِنَةَ؛
لِيَبْرُدَ غَيْظَهُ، وَيَقْلَ حَدَّهُ؛ وَيَكْفُ غَرْبَهُ، وَيَأْمَنَ شَغْبَهُ؛ ثم إِذَا طَالَ المَدَى

تكررت الإلحاط عليه فعرف ، وَأَنْسَيْتِ النَّفْسُ بِهِ فَأَلْفٌ ؛ ونال من المحالِّ المُجْتَمَعِ عليها ، مَنَالٌ من حُشْمٍ وسئل الذَّهَابُ إليها .

وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهمٍ ودرأيه ، وَعَقْلٍ وَحَصَافَةٍ ؛ طَفَّلَ على وليمه ، لرجلٍ ذى حالٍ عظيمه ؛ فرمقته فيها من القوم العيون ، وَصُرِفَتْ بهم فيه الظنون ؛ فقال له قائلٌ منهم : من تكون أعزك الله ؟ فقال : أَنَا أَوَّلٌ من دُعِيَ إلى هذا الحق . قيل له : وكيف ذاك ونحن لا نعرفك ؟ فقال : إِذَا رَأَيْتُ صَاحِبَ الدَّارِ عَرَفْتَنِي وَعَرَفْتُهُ نَفْسِي . لِحَى به إليه ، فلما رآه بدأه بأن قال له : هَلْ قُلْتَ لَطَبَاخِكَ : أَن يَصْنَعَ طَعَامَكَ زَائِدًا على عدد الحاضرين ، ومقدار حاجة المدعوين ؛ قال : نعم ! قال : فَأَمَّا تلك الزيادة لى ولأمثالى ، وبها يُسْتَظْهَرُ لمن جَرَى مجراى ، وهى رِزْقٌ لنا أنزله الله على يدك وبك ، فقال له : كَرَامَةٌ وَرُحْبَا ، وَأَهْلًا وَقُرْبَا ؛ والله لا جالسٌ إلا مع عليّة الناس ووجوه الجلساء ، إِذْ أَطْرَفَتْ فى قَوْلِكَ ، وَتَقَنَّتْ فى فِعْلِكَ . فليكن ذلك الرجل إمامًا يُقْتَدَى به ، وَيُقْتَنَى طَرِيقُهُ ، إن شاء الله .

وأمره بأن يُكثِرَ من تعاهد الجوارِشِناَتِ المُتَقَدِّةِ للسُّدَدِ ، المُقَوِّية للمعد ؛ المُشَبِّهة للطعام ، المُسَمَّلة لسبيل الأنهضام ؛ فإنها عماد أمره وقوامه ، وبها أنظماهُ وألئناهُ ؛ إِذْ كانت تُعِينُ على عمَلِ الدَّعوتين ، وتُنهِضُ فى اليوم الواحد الأكلتين ؛ وهو يتناولها كذا كالكتاب الذى يَقُطُّ أَقْلَامَهُ ، والجُنْدَى الذى يَصْقُلُ حُسَامَهُ ؛ والصَّانِعِ الذى يُحَدِّدُ آلَتَهُ ، والمَآهِرِ الذى يُصَلِّحُ أَدَوَاتِهِ ، إن شاء الله .

هذا عهد عليك بن أحمد إليك ، وَحُجَّتْ لَكَ وَعَلَيْكَ ؛ لم يَأَلِكْ فيه إرشادًا وتوقيفا ، وَتَهْدِيًا وَتَقْيِفًا ؛ وَبَعَثًا وَتَبْصِيرًا ، وَحَثًّا وَتَدْكِيرًا ؛ فَكُنْ بأوامره مُؤَمَّرًا ، وَبِزَوَاجِرِهِ مُزْدَجِرًا ؛ وَلِرِسُومِهِ مُتَّبِعًا ، وَبِحِفْظِهَا مُضْطَّلِعًا ؛ إن شاء الله تعالى ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

الخاتمة

في ذكرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ،
وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

في الكلام على البريد، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مقدمات يحتاج الكاتبُ إلى معرفتها ، ويتعلَّقُ الغرضُ
من ذلك بثلاثة أمور

الأمر الأول

(معرفة معنى لفظ البريد لغةً وأصطلاحاً) .

أما معناه لغةً ، فالمراد منه مسافةٌ معلومةٌ مقدَّرةٌ بأثني عشر ميلاً ، واحتجَّ له
الجوهرى بقول مُزَرِّدٍ يمدح عرابة الأوسى :

فَدَتِكَ عَرَابَ الْيَوْمِ أُمِّي وَخَالَتِي ، * وَنَاقِي النَّاحِي إِلَيْكَ بَرِيدُهَا !

يُرِيدُ سَيْرُهَا فِي الْبَرِيدِ . وَقَدْ قَدَّرَهُ الْفُقَهَاءُ وَعُلَمَاءُ الْمَسَالِكِ وَالْمَمَالِكِ بِأَنَّهُ أَرْبَعَةٌ
فَرَسًا ، وَالْفَرَسُ ثَلَاثَةٌ أَمْيَالٍ ، وَالْمِيلُ ثَلَاثَةُ آلَافِ ذِرَاعٍ بِالْهَاشِمِيِّ ، وَهُوَ أَرْبَعَةٌ
وَعِشْرُونَ أَصْبُعًا ، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شَعِيرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ ، ظَهَرَ إِحْدَاهَا لِبَطْنِ الْأَنْحُرِ ،
وَالشَّعِيرَةُ سَبْعُ شَعْرَاتٍ مُعْتَرِضَاتٍ مِنْ ذَنْبٍ بَغْلٍ أَوْ يَرْدُونِ .

قال الجوهري : ويقال أيضا على البريد : المَرْتَبُ ، يقال : حُجِلَ فلانٌ على البريد .
قال : وَيُطَقُّ أيضا على الرسولِ بريدٌ .

ثم اختلف فيه فقيل : إنه عَرَبِيٌّ . وعلى هذا ذهب الخليل إلى أنه مُشْتَقٌّ من
بَرَدْتُ الحَديدَ إذا أرسلت ما يخرج منه . وقيل : من أَبْرَدْتُهُ إذا أرسلتَه . وقيل : من بَرَدَ
إذا تَبَّتْ ، لأنه يأتي بما تَسْتَقِرُّ عليه الأخبار ، يقال : * اليومَ يومَ باردٍ سَمومُهُ *
أى تَابَتْ .

وذهب آخرون إلى أنه فارسيٌّ معرَّبٌ . قال أبو السعادات بن الأثير في كتابه
”النهاية في غريب الحديث“ : وأصله بالفارسية بريدہ دم ، ومعناه مَقْصُوص
الذَّنب . وذلك أن ملوك الفرس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بَغْلًا في البريد قَصَّوا
ذنبه ، ليكون ذلك علامةً لكونه من بَعَالِ البريد . وأنشد الجوهري لأمرئ القيس :
على كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابِي مُعَاوِدٍ * بَرِيدِ السَّرِيِّ بِاللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرَبْرَا .

الأمم الثاني

(أول من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن)

أما في الجاهلية ، فقد ذكر في ”التعريف“ : أن البريد كان موجوداً في عهد
الأكاسرة من ملوك الفرس ، والقباصرة ملوك الروم . قال : ولكن لا أعرف هل
كان على البريد المحرر أو كانت مقاديره متفاوتة كما هو الآن ؟ . ثم قال : ولا أظن أنه
إلا على القدر المحذور ، إذ كانت حكمتهم تأبى إلا ذلك .

وأما في الإسلام فقد ذكر أبو هلال العسكري في كتابه ”الأوائل“ : أن أول من
وضعه في الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما . قال في ”التعريف“ :

وذلك حين استقرت له الخلافة، ومات أمير المؤمنين على رضى الله عنه، وسلم له ابنه الحسن عليه السلام، وخلا من المنازع، فوضع البريد لتسرع إليه أخبار بلاده من جميع أطرافها، فأمر بإحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم وعرفهم ما يريد، فوضعوا له البريد. قال: وقيل: إنما فعل ذلك زمن عبد الملك ابن مروان حين خلا وجهه من الخوارج عليه: كعمرو بن سعيد الأشدق، وعبد الله بن الزبير، ومضعب بن الزبير، والمختار بن أبي عبيد.

والذى ذكره العسكرى: أن عبد الملك إنما أحكمه. وذكّر عنه أنه قال لابن الدغيدغة: ولتيتك ما حصر بابي إلا أربعة: المؤذن، فإنه داعى الله تعالى فلا حجاب عليه. وطارق الليل، فشر ما أتى به ولو وجد خيراً لنام. والبريد، فتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه، فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة. والطعام إذا أدرك، فأتج الباب وأرفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول. ثم قال: ويذكر هذا الكلام عن زياد أيضاً.

قال في "التعريف": وكان الوليد بن عبد الملك يحمل عليه الفسيفساء وهى الفص المذهب من القسطنطينية إلى دمشق، حتى صفح منه حيطان المسجد الجامع بها، ومساجد مكة والمدينة والقدس.

قال: ثم لم يزل البريد قائماً، والعمل عليه دائماً، حتى أن لبناء الدولة المروانية أن يتنقض، ولحبها أن يتنكث، فأتقطع ما بين خراسان والعراق، لأنصراف الوجوه إلى الشيعة القائمة بالدولة العباسية. ودام الأمر على ذلك حتى أتقضت أيام مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية، وملك السفاح، ثم المنصور، ثم المهدي، والبريد لا يسد له سرج، ولا تلجم له دابة. ثم إن المهدي أغزى ابنه هرون الرشيد الروم، وأحب أن لا يزال على علم قريب من خبره، فرتب فيما بينه وبين

مُعَسَّكَرَ أَبِيهِ بَرْدًا كَانَتْ تَأْتِيهِ بِأَخْبَارِهِ، وَتُرِيهِ مُتَجَدِّدَاتِ أَيَّامِهِ . فَلَمَّا قَفَلَ الرَّشِيدُ قَطَعَ الْمَهْدِيُّ تِلْكَ الْبُرْدَ ، وَدَامَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا بَاقِي مَدَّتِهِ وَمُدَّةِ خِلَافَةِ مُوسَى الْهَادِي بَعْدَهُ . فَلَمَّا كَانَتْ خِلَافَةُ هُرُونَ الرَّشِيدِ ، ذَكَرَ يَوْمًا حُسْنَ صَنِيعِ أَبِيهِ فِي الْبُرْدِ الَّتِي جَعَلَهَا بَيْنَهُمَا ، فَقَالَ لَهُ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : لَوْ أَمَرَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ بِإِحْرَاءِ الْبَرِيدِ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ ، كَانَ صَلَاحًا لِلْمَلِكَةِ . فَأَمَرَهُ بِهِ فَفَرَّهَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَرَبَّهَ عَلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ أَيَّامَ بَنِي أُمَيَّةَ ، وَجَعَلَ الْبَغَالَ فِي الْمَرَازِكِ ، وَكَانَ لَا يُجَهِّزُ عَلَيْهِ إِلَّا الْخَلِيفَةُ أَوْ صَاحِبُ الْخَبَرِ ، ثُمَّ اسْتَمَرَّ عَلَى هَذَا . فَلَمَّا دَخَلَ الْمَأْمُونُ بِلَادَ الرُّومِ وَنَزَلَ عَلَى نَهْرِ الْبُرْدُونَ وَكَانَ الزَّمَانُ حَرًّا ، وَالْفُضْلُ صَيْفًا ، قَعَدَ عَلَى النَّهْرِ وَدَلَّى رِجْلَيْهِ فِيهِ وَشَرِبَ مَاءَهُ ، فَاسْتَعَذَبَهُ وَأَسْتَبْرَدَهُ وَأَسْتَطَابَهُ ، وَقَالَ لِمَنْ كَانَ مَعَهُ : مَا أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ؟ ، فَقَالَ كُلُّ رَجُلٍ بِرَأْيِهِ . فَقَالَ هُوَ : أَطْيَبُ مَا شَرِبَ عَلَيْهِ هَذَا الْمَاءُ رُطْبُ إِزَازَ ، فَقَالُوا لَهُ : يَعِيشُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْعِرَاقَ وَيَأْكُلُ مِنْ رُطْبِهَا الْإِزَازَ ، فَمَا اسْتَمْتَمُوا كَلَامَهُمْ حَتَّى أَقْبَلَتْ بَغَالُ الْبَرِيدِ تَحْمِلُ الْطَافًا فِيهَا رُطْبُ إِزَازَ ، فَأَتَى الْمَأْمُونُ بِهَا فَأَكَلَ مِنْهَا وَأَمْعَنَ وَشَرِبَ مِنْ ذَلِكَ الْمَاءِ . فَكَثُرَ تَعْجَبُ الْحَاضِرِينَ مِنْهُ لِسَعَادَتِهِ فِي أَنَّهُ لَمْ يَقُمْ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى بَلَغَ أُمْنِيَّتَهُ ، عَلَى مَا كَانَ يُظَنُّ مِنْ تَعَدُّرِهَا . فَلَمْ يَقُمْ الْمَأْمُونُ مِنْ مَقَامِهِ حَتَّى حُمِّيَ حَادَّةً كَانَتْ فِيهَا مَنِيَّتُهُ .

ثُمَّ قَطَعَ بَنُو بُوَيْهِ الْبَرِيدَ حِينَ عَلَوْا عَلَى الْخِلَافَةِ وَغَلَبُوا عَلَيْهَا ، لِيَخْفَى عَلَى الْخَلِيفَةِ مَا يَكُونُ مِنْ أَخْبَارِهِمْ وَحَرَكَاتِهِمْ أحيانًا قَصْدِهِمْ بَغْدَادَ ، وَكَانَ الْخَلِيفَةُ لَا يَزَالُ يَأْخُذُ بِهِمْ عَلَى بَغْتَةٍ .

ثُمَّ جَاءَتْ مَلُوكُ السَّلَاجِقَةِ عَلَى هَذَا ، وَأَهَمُّ مَلُوكِ الْإِسْلَامِ اِخْتِلَافُ ذَاتِ بَيْنِهِمْ وَتَنَازُعُهُمْ ، فَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ إِلَّا الرُّسُلُ عَلَى الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ ، فِي كُلِّ أَرْضٍ بِحَسَبِهَا .

فلما جاءت الدولة الزنكية أقامت لذلك النجاة ، وأعدت له النجيب المتخبة .
 ودام ذلك مدة زمانها ثم زمان نبي أيوب إلى انقراض دولتهم . وتبعها على ذلك
 أوائل الدولة التركية ، حتى صار الملك إلى المملد الظاهر بيبرس رحمه الله ، واجتمع له
 ملك مصر والشام وحلب إلى الفرات ، وأراد تجهيز دولته إلى دمشق فعين لها نائباً ،
 ووزيراً ، وقاضياً ، و كاتباً للإنشاء .

قال : وكان عمي الصحاب شرف الدين أبو محمد عبد الوهاب رحمه الله هو كاتب
 الإنشاء ، فلما مثل إليه ليودعه ، أوصاه وصايا كثيرة ، آكدتها مواصلته بالأخبار
 وما يتجدد من أخبار التتار والفرنج ، وقال له : إن قدرت أن لا تبينني كل ليلة إلا على
 خبر [ولا تصبني إلا على خبر] فافعل ، فعرض له بما كان عليه البريد في الزمان
 الأول وأيام الخلفاء ، وعرضه عليه فحسن موقعه منه وأمر به . قال عمي : فكنت أنا
 المقرر له قدامه وبين يديه . ثم ذكر أنه لم يزل باقياً على ذلك إلى أيامه . ثم قال :
 وهو جناح الإسلام الذي لا يحص ، وطرف قادمته التي لا تقص .

قلت : ولم يزل البريد بعد ذلك مستقراً بالديار المصرية والممالك الشامية إلى أن
 غشى البلاد الشامية تمرلنك صاحب ما وراء النهر ، وفتح دمشق وخرّبها وحرّقها
 في سنة أربع وثمانمائة ، فكان ذلك سبباً لحص جناح البريد وبطلانه من سائر
 الممالك الشامية . ثم سرى هذا السم إلى الديار المصرية فألحقها بالهمل ، ورماها
 بعد الحلى بالعطل ، فذهبت معالم البريد من مصر والشام ، وعقت آثاره ، وصار إذا
 عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ،
 ركب البريد على فرس له ، يسير بها الهويناً سير المسافر إلى المكان الذي يريد ،
 ثم يعود على هذه الصورة ، فيحصل بواسطة ذلك الإبطاء في الذهاب والإياب .

الأمير الثالث

(بيان معالم البريد)

إعلم أنه كان فيما تقدم في زمن الخلفاء للبريد شخص مخصوص يتولى أمره بتنفيذ ما يصدر وتلقى ما يرد، يُعبر عنه بـ «صاحب البريد». ومن تعرض إلى ذلك أبو جعفر النحاس في كتابه «صناعة الكتاب» في الكلام على أرباب الوظائف، وأشتقاق أسمائهم. وقد أشار إليه الجوهري في صحاحه أيضا فقال: ويقال أبرد صاحب البريد إلى الأمير فهو مُبرِدٌ يعني أرسل إليه البريد.

ثم قد تقدم في مقدمة الكتاب في الكلام على صاحب ديوان الإنشاء وماله التحدث عليه - أن صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المتولى لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار. وكان للبريد ألواح من فضة مخلدة بديوان الإنشاء تحت أمر كاتب السر بالأبواب السلطانية، منقوش على وجهي اللوح نقشا مُزدوجا ماصورته: «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وأوكره المشركون». ضرب بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر ماصورته: «عز لمولانا السلطان الملك الفلاني: فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلان، ابن مولانا السلطان الشهيد الملك الفلاني فلان، خلد الله ملكه». وفي ذلك اللوح ثقب معلق به شرابة من حريير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين، ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشرابة خلفه من فوق ثيابه. فإذا خرج بريدي إلى جهة من الجهات، أعطى لوحا من تلك الألواح، يعلقه في عنقه، على ما تقدم ذكره، ويذهب إلى جهة قصده، فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدي. وبواسطة

ذلك تُذَعِنُ لَهُ أَرْبَابُ الْمَرَآكِرِ بِتَسْلِيمِ خَيْلِ الْبَرِيدِ . وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّىٰ يَذْهَبَ
وَيَعُودَ ، فَيُعِيدُ ذَلِكَ اللَّوْحَ إِلَىٰ دِيْوَانِ الْإِنْشَاءِ .

وَكَذَلِكَ الْحُكْمُ فِي دَوَابِّ الْإِنْشَاءِ بِدِمَشْقَ وَحَلَبَ وَغَيْرَهُمَا مِنَ الْمَمَالِكِ الشَّامِيَّةِ ،
لَا يَخْتَلِفُ الْحُكْمُ فِي ذَلِكَ إِلَّا فِي الْكِتَابَةِ بِمَحَلِّ ضَرْبِ اللَّوْحِ . فَإِنْ كَانَ بِدِمَشْقَ
كُتِبَ : «ضَرِبَ بِالشَّامِ» . وَإِنْ كَانَ بِحَلَبَ كُتِبَ : «ضَرِبَ بِحَلَبَ الْمَحْرُوسَةِ»
وَكَذَلِكَ بَاقِي الْمَمَالِكِ .

الفصل الثاني

من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مرآكز البريد

وهي الأماكن التي تقف فيها خيّل البريد لتغيير خيّل البريديّة فيها فرساً بعد
فرس ، قال في "التعريف" : وليست على المقدار المقدّر في البريد المحرّر، بل هي
متفاوتة الأبعاد، إذ أبلّات الضرورة إلى ذلك : تارة لبعده ماء، وتارة للأنس بقريّة،
حتى إنك لترى في [هذه] ^(١) المرآكز البريد الواحد بقدر بريدين . ولو كانت على
التحجير [الذي عليه الأعمال] ^(١) لما كان تفاوت . وقد ذكر منها المقرّ الشهابي بن
فضّل الله رحمه الله في "التعريف" ما أربى في ذلك على المقصود وزاد، وهو بذلك
أدرى وأدرب . وهأنا أذكر ما ذكره ، موصّحاً لما يحتاج منه إلى التوضيح ، مع
الزيادة عليه وتقريب الترتيب .

ويشتمل على ستة مقاصد :

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٤) .

المقصود الأول

(في مَرَكْرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التي هي قَاعِدَةُ الْمَلِكِ ، وما يتفرع عنه من المَرَاكِرِ ، وما تَنْتَهِي إليه مَرَاكِرُ كُلِّ جِهَةٍ)

إِعلم أن الذي يتفرع عن مَرَكْرِ الْقَلْعَةِ ويتشعب منه أربع جهات ، وهي : جِهَةُ قُوصَ من الوجه القبلي وما يتصل بذلك من أسوان وما يليها من بلاد النوبة ، وعِيْدَابَ وما يليها من سواكن . وجِهَةُ الإسكندرية من الوجه البحري . وجِهَةُ دِمِيَّاطَ من الوجه البحري أيضا ، وما يتفرع عنها من جِهَةِ غَزَّةَ من البلاد الشامية .

فأما مَرَاكِرُ قُوصَ وما يليها : فمن مَرَكْرِ قَلْعَةِ الْجَبَلِ المحروسة ، ومنها إلى مَدِينَةِ الْحِيزَةِ ، وهي قَاعِدَةُ الأعمال الحيزية ، وقد تقدم الكلام عليها في الكلام على بلاد المملكة في المقالة الثانية . ثم منها إلى زاوية أم حسين ، وهي قرية من عمل الحيزة . قال في "التعريف" : والمركز الآن بمنية القائد وهي على القرب من زاوية أم حسين المذكورة ، ثم منها إلى ونا وهي بلدة من عمل البهنسي ، ثم منها إلى دهر ووط وهي بلدة من عمل البهنسي أيضا . ثم منها إلى أقلوسنا ، وهي بلدة من عمل الأشمونين .

ثم منها إلى منية بني خصيب ، وهي مدينة من عمل الأشمونين ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة الأشمونين ، وهي قَاعِدَةُ بلادها ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى ذرورة سربام وهي بلدة من عمل الأشمونين على فم الخليج اليوسفي الواصل من النيل إلى الفيوم ، وتعرف بذرورة الشريف ، إضافة إلى الشريف ناصر الدين محمد بن تغلب الذي كان عصي بها في زمن الظاهر بيبرس ، وسمت نفسه إلى الملك حتى كاده الظاهر وقبض عليه وشنقه بالإسكندرية ، وبها

(١) في معجم البلدان لياقوت : قَلُوسَنَا .

دِيَارُهُ وَقُصُورُهُ وَالْجَامِعُ الَّذِي أُنشِئَ بِهَا إِلَى الْآنَ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ مَنَقْلُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْمَنَقْلُوطِيَّةِ الَّتِي هِيَ أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطَانِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ أُسْيُوطَ ، وَهِيَ قَاعِدَةُ الْأَعْمَالِ الْأُسْيُوطِيَّةِ ، وَمَقَرُّ نَائِبِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ الْآنَ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى طِمَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ مِنْ عَمَلِ أُسْيُوطَ الْمَقْدَمَةِ الذَّكَرِ عَلَى ضَفَّةِ النَّيْلِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَرَاعَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ . قَالَ فِي "التعريف" :
 وَرُبَّمَا سُمِّيَتْ الْمَرَاعِجُ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بَلْسَبُورَةَ وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ إِنْجِيمَ أَيْضًا .
 قَالَ فِي "التعريف" : وَرُبَّمَا قِيلَ بَلْزَبُورَةَ بِإِبْدَالِ السَّيْنِ زَايَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى جَرَجَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنَ الْعَمَلِ الْمَذْكُورِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْبُلَيْنَةِ ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ ، وَيُقَالُ فِيهَا الْبُلَيْنَا بِإِبْدَالِ الْهَاءِ أَلْفَاً . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى هَوَا ، وَهِيَ بَلَدَةٌ مِنْ عَمَلِ قُوصَ أَيْضًا ، قَالَ فِي "التعريف" : وَيَلِيهَا الْكُومُ الْأَحْمَرُ ، وَهِيَ مِنْ خَاصِّ السُّلْطَانِ ، وَعِنْدَهُمَا يَنْقَطِعُ الرَّيْفُ فِي الْبَرِّ الْغَرْبِيِّ ، وَيَكُونُ الرَّمْلُ الْمُتَّصِلُ بِدَنْدَرِيٍّ وَيُسَمَّى حَانَ دَنْدَرِيٍّ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ مُسْتَوْفَى فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ . وَمِنْهَا إِلَى مَدِينَةِ قُوصَ قَاعِدَةَ الْأَعْمَالِ الْقُوصِيَّةِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي الْمَقَالَةِ الثَّانِيَةِ .

ثُمَّ مِنْ قُوصَ تَنْقَطِعُ مَرَاكِرُ الْبَرِيدِ ، وَيَتَشَعَّبُ الطَّرِيقُ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ وَبِلَادِ النَّوْبَةِ ، وَجِهَةِ عَيْدَابَ وَسَوَاكِنَ .

فَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى جِهَةِ أُسْوَانَ رَكِبَ الْهَجْنَ مِنْ قُوصَ إِلَى أُسْوَانَ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بِلَادِ النَّوْبَةِ .

وَمَنْ أَرَادَ الْمَسِيرَ إِلَى عَيْدَابَ سَارَ مِنْ قُوصَ إِلَى كِيَانَ فِقَطَّ عَلَى الْقُرْبِ مِنْ قُوصَ .

قُلْتُ : ثُمَّ يَسِيرُ فِي قَفَارٍ وَجِبَالٍ ، مِنْ كِيَانَ فِقَطَّ إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى لَيْطَةَ عَلَى مَرَحَلَةٍ مِنَ الْكِيَانَ ، بِهِ عَيْنٌ تَتَّبَعُ وَلَيْسَتْ جَارِيَةً ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى مَاءٍ يُسَمَّى الدَّرِيمِ عَلَى الْقُرْبِ

من معدن الزمرد ، به عين صغيرة يُسْتَقَى منها من الماء ما شاء الله ، وهي لا تزيد ولا تنقص . ثم منها إلى حميثة حيث قبر سيدي أبي الحسن الشاذلي ، وهناك عين ماء يُسْتَقَى منها . ثم منها إلى عيذاب ، وهي قرية صغيرة على ضفة بحر القلزم في الشمال إلى الغرب ، وعلى القرب منها عين يُسْتَقَى منها .

وتقدير جميع المسافة من الكيمان إلى عيذاب نحو عشرة أيام سير الأتقال . على أنه في "مسالك الأبصار" قد ذكر أن الطريق إلى عيذاب من شعبة على القرب من أسوان ، ثم يسير منها في بلاد عرب يُسمون بنى عامر إلى سواكن ، وهي قرية حاضرة البحر صاحبها من العرب ، وكتب السلطان تنهى إليه ، على ما تقدم ذكره في الكلام على المكاتبات .



وأما الإسكندرية فالمرآة الموصلة بها في طريقين :

الطريق الأولى : الآخذة على الجبل الغربي ويسمى طريق الحاجر . والمسير فيها من مركز القلعة المقدم ذكره إلى مدينة الجيزة . ثم منها إلى جزيرة القط ، وهي قرية من آخر عمل الجيزة من الجهة البحرية . ثم منها إلى وردان ، وهي قرية من عمل البحيرة . [ثم منها إلى الطرانة^(١) . ثم منها إلى طيلاس وهي بلدة من عمل البحيرة أيضا وتعرف بزاوية مبارك . قال في "التعريف" : وأهل تلك البلاد يقولون : أنبارك . ثم منها إلى مدينة دمنهور وتعرف بدمنهور الوحش ، وهي قاعدة أعمال البحيرة ، ومحل مقام نائب السلطنة بالوجه البحري ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى لوتين وهي قرية من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسكندرية .

الطريق الثانية : الآخذة في وسط العمران ، وتعرف بالوسطى .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهي من مركز القلعة إلى مدينة قُليوب قاعدة الأعمال القُليوبية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة منوف العليا ، وهي قاعدة الأعمال المنوفية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . ثم منها إلى مدينة المحلة المعروفة بالمحلة الكُبرى ، وهي قاعدة الأعمال الغربية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . وقد وهم في " التعريف " فساها محلة المرحوم بلدة من بلاد الغربية غيرها . ثم منها إلى النحريرية ، وهي مدينة من عمل الغربية . ثم منها إلى الإسكندرية .



وأما الطريق إلى دمياط وغزة ، فن مركز القلعة إلى سرياقوس ، وهي بلدة من ضواحي القاهرة ، وليس المركز في نفس البلد ، بل بالقرية المستجدة بجوار الخانقاه الناصرية التي أنشأها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون على القرب من سرياقوس . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا بالعش ، وكان طويل المدى في مكان منقطع ، وكانت البريدية لا تزال تتشكى منه ، فصالح بئله ، وحصل به الرفق لأمر لولم يكن منها إلا قرُبُه من الأسواق المجاورة للخانقاه الناصرية وما يوجد فيها ، وأئسه بما حولها [لكفى] . ثم منها إلى بئر البيضاء ، وهي مركز بريد منفرد ليس حوله ساكنون . ثم منها إلى مدينة بليس قاعدة الأعمال الشرقية ، وقد تقدم الكلام عليها في المقالة الثانية . قال في " التعريف " : وهي آخر المراكز السلطانية ، وهي التي تُسترى خيالها من الأموال السلطانية ويقام لها السواس وتصرف لها العلوفا . ثم منها إلى السعيدية . ثم من السعيدية إلى أشموم الرمان قاعدة بلاد الدقهلية والمرتاحية ، وقد تقدم ذكرها في المقالة الثانية . ومنها إلى دمياط ومن أراد غزة . وقد تقدم أن مدينة بليس هي آخر المراكز السلطانية . ثم السعيدية وما بعدها

إلى الخروبة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ الْبَرِيدِ بِهَا مَقْتَرَةٌ عَلَى عُرْبَانِ ذَوِي إِقْطَاعَاتٍ،
تَلِيهِمْ خَيْولٌ مُوظَّفَةٌ يَحْضُرُهَا أَرْبَابُهَا عِنْدَ هَلَالِ كُلِّ شَهْرٍ إِلَى الْمَرَكَزِ، وَتَسْتَعِيدُهَا
فِي آخِرِ الشَّهْرِ وَيَأْتِي غَيْرَهَا، وَمِنْ هُنَاكَ سُمِّيَتِ الشَّهَارَةُ . قَالَ فِي "التعريف":
وَعَلَيْهِمْ وَالْ مِنْ قِبَلِ السُّلْطَانِ يَسْتَعْرِضُ فِي رَأْسِ كُلِّ شَهْرٍ خَيْلَ أَصْحَابِ النَّوْبَةِ
وَيُدَوِّغُهَا بِالْدَّاعِجِ السُّلْطَانِيِّ . قَالَ : وَمَا دَامَتْ تَسْتَجِدُّ نَهْيَ قَائِمَةٍ ، وَمَتَى أَكْتَرَى
أَهْلُ نَوْبَةٍ مِنْ قَبْلِهِمْ فَسَدَّتِ الْمَرَكَزَ ، لِأَنَّ الشَّهْرَ لَا يَهْلُ وَفِي خَيْلِ الْمُنْسَلِخِ قُوَّةٌ ،
لَا سِيَّامًا وَالْعَرَبُ قَلِيلَةٌ الْعَلْفُ .

وأوَّلُ هَذِهِ الْمَرَكَزِ السَّعِيدِيَّةُ الْمَقْدَمُ ذِكْرُهَا ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْخَطَّارَةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَبْرِ
الْوَالِي . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ اسْتَجِدَّ بِهِ أُنْبِيَّةٌ وَأَسْوَأُ وَبَسَاتِينَ حَتَّى صَارَ
كَأَنَّهُ قَرْيَةٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الصَّالِحِيَّةِ ، وَهِيَ قَرْيَةٌ لَطِيفَةٌ . قَالَ فِي "التعريف" : وَهِيَ
آخِرُ مَعْمُورِ الدِّيَارِ الْمِصْرِيَّةِ ، ثُمَّ مِنْهَا إِلَى بئرِ عَفْرَى ، وَإِلَى هَذَا الْمَرْكَزِ يَجْلِبُ الْمَاءُ
مِنْ بئرٍ وَرَاءَهُ . وَمِنْهَا إِلَى الْقُصَيْرِ . قَالَ فِي "التعريف" : وَقَدْ كَانَ كَرِيمُ الدِّينِ وَكَيْلُ
الْخَاصِّ بَنَى بِهَا خَانًا وَمَسْجِدًا وَمِئذَنَةً ، وَعَمِلَ سَاقِيَّةً ، فَهَدَمَ ذَلِكَ كُلَّهُ ، وَلَمْ يَوْجَدْ لَهُ
مَنْ يَجِدُّهُ ، وَبَقِيَتِ الْمِئذَنَةُ خَاصَّةً ، وَرُتِبَ بِهَا زَيْتٌ لِلتَّنْوِيرِ . قَالَ : وَهَذَا الْقُصَيْرُ
يَقَارِبُ الْمَرْكَزَ الْقَدِيمَ الْمَعْرُوفَ بِالْعَاقُولَةِ الْمُقَارِبَ لِقَنْطَرَةِ الْجَسْرِ الْجَارِي تَحْتَهَا فَوَاضِلُ
مَاءِ النَّيْلِ أَوْ أَنَّ زِيَادَتَهُ إِذَا نَجَرَ إِلَى الرَّمْلِ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى حَبُوبَةٍ . قَالَ فِي "التعريف" :
وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ وَلَا بِنَاءٌ ، وَإِنَّمَا هِيَ مَوْقِفٌ يَقِفُ بِهِ خَيْلُ الْعَرَبِ الشَّهَارَةِ ، وَيُجْلِبُ
الْمَاءَ إِلَيْهَا مِنْ بئرٍ وَرَاءَهَا . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْغَرَابِيِّ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى قَطِيَا ، وَهِيَ قَرْيَةٌ
صَغِيرَةٌ بِهَا تَأْخُذُ الْمُرْتَبَاتِ السُّلْطَانِيَّةِ مِنَ التُّجَّارِ الْوَارِدِينَ إِلَى مِصْرَ وَالصَّادِرِينَ عَنْهَا ،

(١) الذي في التعريف : بئر غزى ، أنظر ص (١٩٠) .

وهناك رمل بالطريق يُختم في الليل ويحفظ ما حوله بالعربان ، حتى لا يمر أحدٌ لَيْلاً . فيكون من القاهرة إلى قطيا اثنا عشر بريداً . ثم منها إلى صبيحة نخلة مَعْن . قال في " التعريف " : ومن الناس من يَقْتَصِرُ على إحدى هذه الكلمات في تسميتها . ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى السَّوَادَةِ . قال في " التعريف " : وقد حُوِّلَتْ عن مكانها فصار المُسَافِرُ لا يحتاج إلى تعريجه إليها . ثم منها إلى الوَرَادَةِ ، قال في " التعريف " : وهى قريةٌ صغيرةٌ بها مَسْجِدٌ على قارعة الطريق ، بناه المَلِكُ الأشرفُ « خَلِيل » بن المنصور قلاوون تعمده الله برحمته ، حصل به الرِّقُّ بِمِيتِ السَّفَّارَةِ به . قال : وقد كان نَفَرُ الدِّينِ كاتبُ الممالك بنى إلى جانبِه خاناً فبيع بعده . ثم منها إلى بئر القَاضِي . قال في " التعريف " : والمدى بينهما بعيدٌ جداً يملهُ السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيشِ . قال في " التعريف " : وقد أحسن كَرِيمُ الدِّينِ رحمه الله بعملٍ ساقيةٍ سبيلٍ به وبناءِ خانٍ حصينٍ فيه يأوى إليه من ألباءِ المَسَاءِ ، وبنامٍ فيه آمناً من طوارق القَرَبِجِ . ثم منها إلى الخَرْبَةِ ، وبها ساقيةٌ وخانٌ ، بناهما نَفَرُ الدِّينِ كاتبُ الممالك ، حصل به من الرِّقِّ والأمن ما بالعَرِيشِ . قال في " التعريف " : وهذا آخر مراكز العرب الشهارة . ثم مما يليها خيلُ السلطان دَوَاتُ الإِصْطِبَلَاتِ والحدَمُ تُشْتَرَى بمال السلطان وتُغْلَفُ منه ، وأوتى الزَّعْفَةَ ، ثم منها إلى رَفْعٍ ، ثم منها إلى السَّلْقَةِ . قال في " التعريف " : وكان قبل هذا المَرْكَزِ بِيئْرُ ظَرْنَطَايِ حَيْثُ الجُمُيزُ ويسمى سَطْر . قال : وكان في تَقْلِهِ إلى السَّلْقَةِ المِصْلَحَةُ . ثم منها إلى الدَّارُومِ ، ثم منها إلى غَزَّةَ . يكون من قطيا إلى غَزَّةَ أحد عشر مَرَكْزاً .

المقصد الثاني

(في مراكز غزّة وما يتفرّع عنه من البلاد الشامية)

والذى يتفرّع عنه مراكز ثلاث جهات، وهى: الكرك، ودمشق، وصفد.

فأما الطريق إلى الكرك: فمن غزّة إلى ملاقس وهو مركز بريد، ثم منها إلى بلد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصافية، ثم منها إلى الكرك.

وأما مراكز دمشق: فمن غزّة إلى الحنين، وهو مركز بريد، ومنها إلى بيت دارس، والناس يقولون: تدارس، وبها خان بناه ناصر الدين خزندار تنكر. قال في "التعريف": وكان قديماً بياسور، وكان قريب المدى فقل وكان المصلحة في نقله، ثم منها إلى قطرى. قال في "التعريف": وهو مركز مستجد كان المشير به طاجار الدوادار الناصرى، وبه بئر سبيل وآثار له. قال: وقد حصل به رفق عظيم بعد ما بين [لُد وبيت دارس] أو ياسور، ثم منها إلى لُد، ثم منها إلى العوجاء. قال في "التعريف": وهى زوراء عن الطريق، ولو نقلت منه لكان أرفق، ثم منها إلى الطيرة. قال في "التعريف": وبها خان كان قد شرع في بنائه ناصر الدين دوادار تنكر ثم كمل بيد غيره. ثم منها إلى قاقون، ثم منها إلى فحمة [ثم منها إلى جينين]. قال في "التعريف": وهى على صفد، يعنى القيام به، وبه خان لطاجار الدوادار حسن البناء جليل النفع، ليس على الطريق أخص منه ولا أحصن، ولا أزيد نفعاً منه ولا أزين.

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١).

ومن أراد دِمَشْقَ وما يليها سَارَ من جِينِينَ إلى ذَرَعِينَ . قال في "التعريف" :
ومنها ينزل على عَيْنِ جَالُوتَ ، وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ حِصَلِ به أَعْظَمُ الرِّفْقِ والرَّاحَةِ من
العَقَبَةِ التي كان [يُسَلِّكُ] ^(١) عليها بين جِينِينَ وبيسَانَ مع طُولِ المَدَى . ثم منها إلى
بيسَانَ ، ثم منها إلى المَجَامِعِ . قال في "التعريف" : وهو مَرْكَزُ مُسْتَجِدِّ عِنْدَ جِسْرِ
سَامَةَ ، كُنْتُ أنا المَشِيرَ به في سنة إحدى وأربعين وسبعائة ، وحَصَلْ به الرِّفْقُ لِبُعْدِ
ما كان بين بيسَانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قَدِيمًا من بيسَانَ على طَبِيبَةِ آسَمِ ،
ثم إلى أَرَبَدَ ، وكانت غَايَةً في المَشَقَّةِ ، إذ كان المسافرُ ما بين بيسَانَ وطَبِيبَةِ آسَمِ يَحْتَاجُ
إلى حَوْضِ الشَّرِيعَةِ ، وبها معدية للفَارِسِ دون الفَرَسِ ، وإنما يَعْبُرُ فيها الفَرَسُ
سِبَاحَةً ، وكان في هذا من المَشَقَّةِ ما لا يوصف ، لا سِيمًا أيامَ زيادةِ الشَّرِيبَةِ وكَلْبِ
الْبَرْدِ : لِقَطْعِ المَاءِ ومُعَانَاةِ العِقَابِ التي لا يَشْقُهَا جَنَاحُ العُقَابِ . ولكن الأمير
الطنبغا كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله نَقَلَ هذه الطَّرِيقَ وجَعَلَهَا على القُصَيْرِ حيثُ هي اليومَ ،
ونَقَلَ المَرْكَزَ من الطَّبِيبَةِ إلى زحرين غَرِقَ بَعْضُ البَرِيدِيَّةِ الجَلِيلِينَ بالشَّرِيعَةِ . ثم من
المجامع المذكورة إلى زحر ، ثم منها إلى أَرَبَدَ ، ثم منها إلى طَفَسِ ، ثم منها إلى الجامع .
قال في "التعريف" : وكان قديمًا في المكان المسمى برأس الماء ، فلما ملكه الأميرُ
الكبيرُ تَكَرَّرَ كَافِلُ الشَّامِ رحمه الله نَقَلَ المَرْكَزَ منه إلى هذا الجامع ، فقَرَّبَ به المَدَى
فما بينه وبين طفس ، وكان بعيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصنمين ، ثم منها
إلى عَبَّابِ ، ثم منها إلى الكُسُوةِ ، ثم منها إلى دِمَشْقَ المحروسة .

وأما الطريق الموصلة إلى صَفَدَ : فمن جِينِينَ المَقْدَمِ ذِكْرُهَا إلى تَبْنِينَ ، ثم منها
إلى [حِطَّينِ] ^(١) وبها قبر شُعَيْبٍ عليه السلام ، ثم منها إلى صَفَدَ .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصود الثالث

(في ذكر مركز دِمَشْق وما يتفرعُ عنه من المراكز الموصلة
إلى حمص وحمّاة وحلب، وإلى الرّحبة، وإلى طرابلس، وإلى جعبر، ومِصْيَاف
ويروت وصيدا وبعلبك والكرك وأذرعَات)

أما طريق حلب : فقال في " التعريف " : من دِمَشْق إلى القُصَيْر . والذي
رأيتُه في بعض الدساتير أنه من دِمَشْق إلى خان لاجين ، ثم إلى القُصَيْر . قال
في " التعريف " : ثم من القُصَيْر إلى القَطِيفَة ، ثم منها إلى القَسْطَل . ورأيتُ
في الدُسْتور المذكور أن من القُصَيْر إلى خان الوالي ، ثم إلى خان العروس ، ثم إلى
القَسْطَل ، ثم منها إلى قارا ، ثم منها إلى بريج العطش ويقال فيه البزيج أيضا .
قال في " التعريف " : وقد كان مقطوع طريق ، وموضع خوف ، فبني به قاضي
القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد بن صصرى رحمه الله مسجداً وبركةً ، وأجرى
الماء إلى البركة من ملك كان له هناك وقفه على هذا السبيل ، فبدل الخوف أمناً ،
والوحشة أنساً ، أثابه الله على ذلك . ثم منها إلى الغسولة ، ثم منها إلى شمين ،
ثم منها إلى حمص ، ثم منها إلى الرستن ، ثم منها إلى حمّاة ، ثم منها إلى لطمين ،
ثم منها إلى طرابلس ، ثم منها إلى المعرة ، ثم منها إلى أنقراتا ، ثم منها إلى إياد ، ثم منها
إلى قنسرين ، ثم منها إلى حلب .

وأما طريق الرّحبة : فمن القَطِيفَة المقدّمة الذّكر إلى العطنة . قال في " التعريف " :
وليس بها مركز ، وإنما بها خان تُفرق به صدقة من الخبز والأحذية ونعال الدواب
إلى جليل ، ثم منها إلى المصنع ، ثم منها إلى القريتين ، ثم منها إلى الحسير ، ثم منها
إلى البيضاء ، ثم منها إلى تدمر ، ثم منها إلى أرك ، ثم منها إلى السخنة ، ثم منها إلى

قُبَابِقَبَ، ثم منها إلى كَوَائِلَ . قال في "التعريف" : وهو اليوم عُظْل . ثم منها إلى الرَّحْبَةِ وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُسَ : فمن الغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ [إلى القصب ، ثم منها إلى قَدَسَ] (١) إلى أَقْصَارِ، ثم منها إلى الشَّعْرَاءِ، ثم منها إلى عرقا، ثم منها إلى طَرَابُلُسَ .

وأما طريق جَعْبَرٍ وما يليها : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى سَلَمِيَّةَ ، ثم منها إلى بُغْيَدِيدَ، ثم منها إلى سُورِيَا، ثم منها إلى الحِصِّ، ثم منها إلى جَعْبَرِ، إلى عَيْنِ بَدَالِ، ثم منها إلى صِهْلَانَ، ثم منها إلى الخَابُورِ، ثم منها إلى رَأْسِ عَيْنِ .

وأما طريق مِصْيَافَ : فمن حِمَصِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرُ إلى مِصْيَافَ .

وأما طريقُ صَفَدَ : فمن دِمَشْقَ إلى بَرِيحِ الفلوسِ، ومنه إلى أُرَيْبَةَ، ومنها إلى لغران، ومنها إلى صَفَدَ .

وأما طريق بَيْرُوتَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ، ومنها إلى زُبْدَانَ، ومنها إلى الحُصَيْنِ، ومنها إلى بَيْرُوتَ .

وأما طريق صَيْدَاءَ : فمن دِمَشْقَ إلى خَانَ مِيسَلُونَ المُقَدِّمِ الذِّكْرِ، إلى جَزِيرَةَ صَيْدَاءَ، إلى كَرْكِ نُوحِ، ثم منه إلى بَعْلَبَكَّ . قال في "التعريف" : وآهلم أَنَّ من صَيْدَاءَ إلى بَيْرُوتَ قَدْرُ مَرَكْرَ .

وأما بَعْلَبَكَّ، فلها طريقان : إحداهما من خَانَ مِيسَلُونَ المُقَدِّمِ الذِّكْرِ إلى كَرْكِ نُوحِ إلى بَعْلَبَكَّ . والثانية من دِمَشْقَ إلى الزُّبْدَانِيِّ إلى بَعْلَبَكَّ .

ومن أراد من بَعْلَبَكَّ حِمَصَ، توجه منها إلى القَصَبِ، ثم إلى الغُسُولَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذِّكْرِ، وبعدها شَمْسِينَ، ثم حِمَصُ عَلَى ما تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٩٤) .

وأما طريق الكرك : فمن دمشق - في المراكز المذكورة في الوصول من غزّة إلى دمشق - على عكس ما تقدم ، إلى طفس ، ومنها إلى القنية ، ومنها إلى البرج الأبيض ، ومنها إلى حُسبان ، ومنها إلى [ديباج]^(١) ومنها إلى [اكرية] ومنها إلى الكرك .

وأما طريق أذرعات ، مَقَرِّ ولاية الولاية بالصفقة القبليّة : فمن طفس المقدمة الذّكر إلى أذرعات . قال في " التعريف " : فهذه جملة مراكز دمشق إلى كل جهة .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كلّ واحدة إلى ما يليها ، حتى يتوصّل المسافر على البريد إلى حيث أراد .

المقصد الرابع

(في مركز حلب وما يتفرّع عنه من المراكز الواصلة إلى البيرة وبهسنى وما يليهما ، وقلعة المسلمين المعروفة بقاعة الروم ، وآياس مدينة الفتوحات الجاهانية ، وجعبر)

فأما الطريق الموصّلة إلى البيرة : فمن حلب إلى الباب ، ثم منها إلى السّاجور ، ثم منها إلى كلناس^(٢) ، ثم منها إلى البيرة ، وهي في البرّ الشرقيّ من الفرات . قال في " التعريف " : وهي أجلّ تغورها^(٣) .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجلّ قلاع الاسلام ، وعقائل المعامل التي لم تفتزع على طول الأيام »

فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بهسني وما يليها : فمن حلب إلى السموقة ، ثم منها إلى سندرا ،
[ثم منها إلى بيت الفار ^(٢)] ثم منها إلى عيتاب ، ثم منها إلى بهسني .

ثم منها يُدخَل إلى جهة قيسارية والبلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وهي بلاد
الدروب . قال في "التعريف" : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ (يعني أهل هذه المملكة)
في هذا الحيرِ القريبِ إلينا منها : قيسارية ودرندة ، وإنما المستقرُّ المعروفُ أنَّ
آخرَ حدِّ الممالك الإسلامية من هذه الجهة - بهسني .

وأما طريق قلعة المسلمين وما يليها : فمن عيتاب المقدمة المذكور إليها ، وهي وسط
الفرات ، وهو خُلجانٌ دائرةٌ عليها . ثم من قلعة المسلمين إلى جسر الحجر ، ثم إلى
الكفتا ، وهي آخر الحدِّ من الطرفِ الآخر .

وأما طريق آياس : فمن حلب إلى أرحاب ، ثم منها إلى تيزين ، ثم منها إلى يغرا ،
ثم منها إلى بغراس ، قال في "التعريف" : وهي كانت آخر الحدِّ مما يلي بلاد
الأرمن . قال : وقد استَضَفْنَا نَحْنُ في هذا الحينِ ما استَضَفْنَا ، فصار من بغراس
إلى باياتس ، وهي أول جيل الأرمن ، ثم من باياس إلى آياس .

وأما طريق جعبر : فمن حلب إلى الجبول ، ثم منها إلى باليس ، ثم منها إلى جعبر .
قال في "التعريف" : هذه جملة مراكز حلب . أما بقايا القلاع ومقارِّ الولايات ،
فمن شُعبِ هذه الطرق ، أو من واحدةٍ إلى أخرى .

(١) في التعريف سندار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصود الخامس

(في مركز طرابلس وما يتفرع عنه من المراكز الموصلة إلى جهاتها)

فأما طريق اللاذقية: فمن طرابلس إلى مرقية، ثم منها إلى يلبناس، ثم منها إلى اللاذقية، ثم منها إلى صهيون، وهي قلعة جليلة كانت دار ملك. ثم منها إلى بلاطنس. قال في "التعريف": "ومن شاء فمن صهيون إلى برزيه، وهو حصن سمي باسم من عمره أو عرف بملكه، ومن شاء فمن بلاطنس إلى العليقة أول قلاع الدعوة مما يلي بلاطنس، ثم منها إلى الكهف، ثم منها إلى القدموس، ثم منها إلى الخوابي، ثم منها إلى الرصافة، ثم منها إلى مصيف. قال في "التعريف": فهذه جملة مراكز طرابلس. فأما مقار الولايات فمن واحدة إلى أخرى، ثم ذكر جميع مراكز البريد بالممالك المحروسة.

قال: فأما من أطراف ممالكنا إلى حضرة الأردو، حيث هو ملك بني هولوكو، فلهم مراكز تسمى خيل الأولاق وخيل الياق يحمل عليها، لا تشتري بمال السلطان ولا يكلف تمنها، وإنما هي على أهل تلك الأرض، نحو مراكز العرب في رمل مصر ونحو ذلك.

المقصود السادس

(في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة النبوية على ساكنها)

سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام، إذ كانت من

بئمة الطرق الموصلة إلى بعض أقطار المملكة)

وكما ضبطت تلك بالمراكز فقد ضبطت هذه بالمراحل. وعادة الحجاج أنهم يقطعون في كل يوم وليلة منها مرحلتين بسير الأتقال، ودبيب الأقدام، [ويقطعونها

كلها] في شهر، بما فيه من أيام الإقامة بالعقبة والينبع نحو ستة أيام . أما من يسافر على النجب مُحفًّا مع الحدِّ في السير فإنه يقطعها في نحو أحد عشر .

ثم أول مصيرهم من القاهرة إلى البركة المعروفة ببركة الحاج، ثم منها إلى البويب، ثم منها إلى الطليحات، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلى مرا كع موسى، ثم منها إلى عجرود، وبها بئر ومصنع ماء متسع يملأ منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منها إلى وادي القباب، وهو كثير الرمل . ثم منها إلى أول تيه بني إسرائيل، وهو وادي أفح متسع . ثم منها إلى العنق، ثم منها إلى نخل، وبها ماء طيب . ثم منها إلى جسد الحى، ثم منها إلى بئر بيدرا، ثم منها إلى تمد الحصا، ثم منها إلى ظهر العقبة، ثم منها إلى سطح العقبة، وهو عروق البغلة على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من حفائر . ثم منها إلى حفن على جانب طرف بحر القلزم، وفيها ماء طيب من الحفائر . ثم منها إلى عش الغراب، ثم منها إلى آحر الشرفة، ثم منها إلى مقارة شعيب، وبها ماء ومصنع . ثم منها إلى وادي عقان، ثم منها إلى ذات الرخيم، ثم منها إلى عيون القصب، وبه ماء نابغ وأجمه قصيب نابتة فيها . ثم منها إلى المويحة، وبها ماء في آبار . ثم منها إلى المدرج، ثم منها إلى ساهى مجاور بحر القلزم، وبها ماء ملح . ثم منها إلى الأتيلات، ثم منها إلى الأزهم، والناس يقولون: الأزهم باللام بدل النون، وبه آبارها ماء ردىء يطابق بطن من شربه، لا يسقى منه غالباً إلا الجمال، وهى نصف الطريق . ثم منها إلى رأس وادي عنتر . ثم منها إلى الوجه، وبه آبار قليلة الماء، وما هو داخل الوادى يعز الماء فيه غالباً ولا يوجد فيه إلا حفائر، ويقال : إنه إذا طلعت الشمس عليه نضب مأؤه، وفيه يقول بعض من حج من الشعراء وعز عليه وجود الماء فيه :

إذا قلَّ ماءُ الوجهِ "قلَّ حياؤه"، * ولا خير في "وجهه" بغير حياء!

ثم منه إلى المحاطب ، ثم منها إلى أكرا ، ثم منها إلى رأس القاع الصغير ، ثم منه إلى قبر القروي ، ثم منه إلى كلنخا ، ثم منها إلى آخر القاع الصغير ، ثم منه إلى الحوراء ، وبها ماء غير صالح . ثم منها إلى العقيق بضم العين تصغير عقيق بفتحها ، وهو مضيّق صعب . ثم منها إلى مغارة نبط ، وبها ماء عذب ليس بطريق الحجاز أطيب منه . ثم منها إلى وادي النور ، ثم منها إلى قبر أحمد الأعرج الدليل ، ثم منه إلى آخر وادي النور ، ثم منه إلى رأس السبع وعمرات ، ثم منها إلى دار البقر ، ثم منها إلى الينبع ، وهي النصف والرابع من الطريق ، وبها تقع الإقامة ثلاثة أيام أو نحوها ، وبها يودع الحجاج ما ثقل عليهم إلى حين العود ، ويستميرون منها مما يصل إليها من الديار المصرية في سفن بحر القلزم . ثم منها إلى المحاطب في الوعر . ثم منها إلى رأس وادي بدر ، وهي منزلة حسنة بها عيون تجري وحدائق . ثم منها إلى رأس قاع البروة ، ثم منه إلى وسط قاع البروة ، ثم منه إلى رابغ ، وهو مقابل الجحفة التي هي ميقات الإحرام لأهل مصر ، وبها يحرم الحجاج ولا يغشون الجحفة ، إذ قد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنقل حمى المدينة إليها بقوله : « وأتقل حمأها إلى الجحفة » فلو مر بها طائر لحم . ثم منها إلى قديد بضم القاف . ثم منه إلى عقبة السويق ، ثم منها إلى خلص ، وبه مصنع ماء . ثم منها إلى عسفان ، ثم منها إلى مدرج علي ، وهو كثير الوعر . ثم منه إلى بطن مر ، والعامّة يقولون : مرو ، بزيادة واو ، وبه عيون تجري وحدائق . ثم منه إلى مكة المشرفة شرفها الله تعالى وعظمها ، ثم من مكة إلى منى ، وبها ماء طيب من آبار تحفر ، ثم منها إلى المشعر الحرام والمزدلفة ، ثم منها إلى عرفة وهي الموقف ، وإليها ينتهي سفر الحجاج .

ثم العود في المنازل المتقدمة الذكر إلى وادي بدر على عكس ما تقدم .

الطريق إلى المدينة النبوية

(على ساكنها أفضل الصلاة والسلام)

من مِصْرَ فِي الْمَرَاكِحِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرُ ، إِلَى وَادِي بَدْرِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرُ ، إِلَى رَأْسِ
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، وَبِهِ عَيُونٌ تَجْرِي وَحَدَائِقُ وَأَشْجَارٌ . ثُمَّ مِنْهَا إِلَى وَادِي نَبِيِّ سَالِمٍ ،
ثُمَّ مِنْهُ إِلَى وَادِي الْغَزَالَةِ ، ثُمَّ مِنْهُ إِلَى الْفَرَشِ ، ثُمَّ مِنْهُ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ ، وَبِهَا مَاءٌ طَيِّبٌ .
ثُمَّ مِنْهَا إِلَى الْمَدِينَةِ الشَّرِيفَةِ النَّبَوِيَّةِ عَلَى سَاكِنِهَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ وَالتَّحِيَّةِ
وَالْأَكْرَامِ .

وَمِنْ شَاءَ ذَهَبَ إِلَيْهَا مِنَ الْيَنْبُعِ إِلَى رَأْسِ تَقَبِ عَلِيٍّ عِنْدَ طَرْفِ الْجَبَلِ ، ثُمَّ إِلَى
وَادِي الصَّفْرَاءِ ، ثُمَّ فِي الْمَرَاكِحِ الْمُتَقَدِّمَةِ الذَّكْرُ إِلَى الْمَدِينَةِ . وَهِيَ أَقْرَبُ الطَّرِيقَيْنِ
لِلذَّاهِبِ مِنْ مِصْرَ ، وَتِلْكَ أَقْرَبُ لِلْعَائِدِ مِنْ مَكَّةَ .

الباب الثاني

من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر أبراجها المقررة بطرق
الديار المصرية والبلاد الشامية، وفيه فصلان

الفصل الأول

في مطاراته

قد تقدم في الكلام على أوصاف الحمام - عند ذكر ما يحتاج إلى وصفه في أواخر
مقاصد المكاتبات من المقالة الرابعة - أنَّ الحمام اسم جنس يقع على هذا الحمام
المتعارف بين الناس، وعلى الحمام والدباسي والقماري والفواخت وغيرها، وأنَّ المتبادر
إلى فهم السامع عند ذكر الحمام هو هذا النوع المخصوص، وأنَّ أغلاه قيمة وأعلاه
رتبة الحمام الرسائلي، وهو الذي يتخذهُ الملوك لحمل المكاتبات، ويعبر عنه بـ«الهدى» .
وتقدم هناك الكلام على ذكر ألوانها على اختلافها، وعدد الرياش المعبرة فيها، وهي
رياش أجنحتها وأذناها، وبيان الفرق بين الذكر والأنثى، وصفة الطائر الفاره،
والفراصة في تجابته في حال صغره، والزمان والمكان اللاتين بالإفراخ، وما يجري
مجرى ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وصفه لبيان النجيب منه من غيره، فأغنى
عن ذكره هنا .

والمختص منه بهذا المكان ذكر الاعتناء بهذا الحمام، وأول من أهتم بشأنه،
واعتنى بأمره، ومن قام به من الملوك، ومسافات طيرانه، وما يجري هذا
النجسرى .

فأما الاعتناء به والأهتمامُ بسنّانه - فقد اعتنى به في القديم خلفاءُ بني العباس :
 كالمهديّ ثالث خلفائهم ، والنّاصير منهم . وتنافس فيه رؤساءُ الناس في العراق لاسيّما
 بالبصرة . فقد ذكر صاحبُ "الروض المعطار" أنهم تنافسوا في اقتنائه ، ولهجوا
 بذكره ، وبالغوا في أمّانه ، حتّى بلغ ثمن الطائر الفاره منها سبعمئة دينار . ثم قال :
 ويقال : إنّه بلغ ثمن طائرٍ منها جاء من خليج القسطنطينية ألف دينار . قال :
 وكانت تُباع بيضنا الطائر المشهور بالفراهة بعشرين ديناراً ، وأنه كان عندهم دقّاتُر
 بأنساب الحمام كأنساب العرب ، وأنه كان لا يمتنعُ الرجلُ الحليلُ ولا الفقيهُ
 ولا العدلُ من اتّخاذ الحمام ، والمنافسة فيه ، والإخبار عنها ، والوصف لآثرها ،
 والنّعت لمشهورها ، حتّى وجّه أهلُ البصرة إلى بكّار بن شيبة البكراني قاضي مصر ،
 (وكان في فضله وعقله ودينه وورعه على ما لم يكن عليه قاضٍ) بحمّاتٍ لهم مع
 ثقات ، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولّى إرسالها بنفسه ، ففعل . وكان الحمام عندهم
 متجرّاً من المتاجر ، لا يرون بذلك بأساً .

وذكر المقرّ الشهابي بن فضّل الله في "التعريف" أن الحمام أول ما نشأ بالديار
 المصرية والبلاد الشامية من الموصل ، وأنّ أول من اعتنى به من الملوك ^(١) [ونقله]
 من الموصل الشهيد نور الدين بن زنكي صاحب الشام رحمه الله ، في سنة خمس
 وستين وخمسة . وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، وبالغوا حتّى أفردوا له
 ديواناً وجرائد بأنساب الحمام . وصنّف فيه الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر كتاباً
 سماه : "تأمّم الحمام" .

قلت : وقد سبقه إلى التصنيف في ذلك - أبو الحسن بن ملاعب النوارس
 البغدادي ، فصنّف فيه كتاباً للنّاصير لدين الله الخليفة العباسي ببغداد ، وذكر فيه

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسماء أعضاء الطائر ورِياسه ، والوشوم التي تُوسم في كلِّ عضوٍ ، وألوان الطيور وما يُستحسن من صفاتها ، وكيفية إفراخها ، وبعْد المسافات التي أرسلت فيها ، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجري هذا المجرى . وأظنُّ أنَّ كتاب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر نتيجة عن مُقدمته .

وأما مسافات طيرانه ، فقد تقدّم أنَّ الطائر الذي يبع بألف دينارٍ طار من القسطنطينية إلى البصرة ، وأن الحمام أُرسِل من مصر إلى البصرة بحضرة القاضي بكارٍ قاضي مصر .

وذكر ابن سعيدي في كتابه "حيا المحل وجنى النحل" أنَّ العزيز ثانی خلفاء الفاطميين بمصر ، ذكر أوزيره يعقوب بن كلّس أنه ما رأى القراصية البعلبكية ، وأنه يحبُّ أن يراها . وكان بدمشق حمامٌ من مصر وبمصر حمامٌ من دمشق ، فكتب الوزير لوقتِهِ بطاقةً يأمر فيها من هوتحت أمره بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصري ، ويعلق في كلِّ طائرٍ حباتٍ من القراصية البعلبكية ، ويُرسلها إلى مصر ، ففعل ذلك ، فلم يمضِ النهارُ حتّى حضرت تلك الحمام بما علق عليها من القراصية ، فجمعه الوزير يعقوب بن كلّس وطلع به إلى العزيز في يومه ، فكان ذلك من أغرب الغرائب لديه .

وذكر أيضاً في كتابه "المغرب في حلّ المغرب" أنَّ الوزير البازوري المغربي ، وزير المستنصر بالله الفاطمي وجه الحمام من تونس من أفريقيا من بلاد المغرب فناء إلى مصر ، والعهدة عليه في ذلك .

الفصل الثاني

من الباب الثاني من الخاتمة في أبراج الحمام المقررة لإطارتها
بالديار المصرية والبلاد الشامية

وهي من القواعد والطرق، على ما تقدم في البريد .

أما في المسافات فإنها تختلف، فإن مطارات الحمام ربما زادت على مرارة
البريد .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل المحروسة
إلى جهات الديار المصرية

قال في "التعريف" : وأعلم أن الحمام قد أقطع تدرجيه من مصر إلى قوص
وأسوان وعيناب . وهذا ظاهر في أن الحمام كان يدرج إلى هذه الأماكن ،
ثم أهمل تدرجيه بعد ذلك . قال : ولم يبق منه الآن إلا ما هو من القاهرة إلى
الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى دمياط ، ومن القاهرة إلى السويس من طريق
الحاج ، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلًا بالشام .

قلت : وأهل هذه الأبراج كلها برج قلعة الجبل المحروسة ، ومنها التدرج إلى
سائر الجهات .

ثم لم يذكر في "التعريف" : الأبراج الموصلة إلى أسوان وعيناب والإسكندرية
ودمياط .

الأبراج الآخذة من قلعة الجبل إلى غزة

من بروج قلعة الجبل - إلى بلبيس ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى قطيا ،
ثم منها إلى الوردية ، ثم منها إلى غزة .

الأبراج الآخذة من غزّة وما يتفرّع عنها

إعلم أن الأبراج من غزّة تتشعبُ فيها مسارحُ الحمام إلى غيرِ جهةِ دمشق وإلى جهتها .

فأما غيرِ جهةِ دمشق ، فمن غزّة إلى بلد الخليل عليه السلام ، ومن غزّة إلى القدس الشريف ، ومن غزّة إلى نابلس .

وأما جهةُ الشام : فمن غزّة إلى لُد ، ومن لُد إلى قاقون ، ومن قاقون إلى جينين .
ومن جينين تتشعبُ المسارحُ إلى غيرِ جهةِ دمشق وإلى جهتها .

فأما ما إلى غيرِ جهةِ دمشق : فمن جينين إلى صفد . وأما ما إلى جهةِ دمشق :
فمن جينين إلى بيسان ، ومن بيسان إلى أربد ، ومن أربد إلى طفس ، ومن طفس إلى الصنمين ، ومن الصنمين إلى دمشق .

قال في "التعريف" : ومن كلِّ واحدٍ من هذه المراكز إلى ما جاور ذلك من المشاهير : مثل من بيسان إلى أذربعات مقرّ ولاية الولاية بالصفقة القبليّة ، ومن طفس إليها - لإشعار وإلى الولاية .

الأبراج الآخذة من دمشق وما يتفرّع عنها

تتشعبُ مسارحُ الحمام من دمشق إلى غيرِ جهةِ حلب ، وإلى جهتها .

فأما إلى غيرِ جهةِ حلب : فنسرح من دمشق إلى بعلبك ، ومن دمشق إلى القريتين .

وأما ما هو إلى جهةِ حلب : فنسرح من دمشق إلى قارا ، ثم من قارا إلى حصص^(١) ،

ثم من حصص إلى حماة ، ثم من حماة إلى المعرّة ، ثم من المعرّة إلى حلب .

(١) سماها في معجم البلدان : قارة بالهاء .

الأبراج الاخذة من حلب وما يتفرع عنها

برج الحمام من حلب إلى البيرة ، ومن حلب إلى قلعة المسلمين ، ومن حلب إلى هسنى . قال في " التعريف " : وإلى بقية [ماله شأن ^(١)] مما حوِّطها [ثم من القريتين إلى تدمر ، ومنها إلى السخنة ، ومنها إلى قباقب ، ومنها إلى الرجة . وقد تعطل الآن تدريج السخنة إلى قباقب ، وإنما صار يسوق ببطائق تدمر الواقعة بالسخنة منها إلى قباقب ، ثم يسرح على الجناح من قباقب إلى الرجة ^(١)] . قال :
وبما ذكرتم ذكر مرآة الحمام في سائر الممالك الإسلامية .

قلت : وقد تعطل تدريج الحمام الآن .

(٢) الزيادة من التعريف ليتم الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة في ذكر هُجْنِ التَّلْجِ والمَرَاكِبِ المُعَدَّةِ لِحَمْلِ التَّلْجِ الذي يَحْمَلُ
من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية،
وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول

في نقل التَّلْجِ

إِعلم أَنَّ ماءَ نَيْلِ مِصرٍ لما كان من الحَلَاوةِ واللِّطافةِ على ما لا يُساوِيهِ فيهِ نَهْرٌ من
الأنهار، على ما تقدّم ذِكرُهُ في الكلام على الديار المصرية في المقالة الثانية، مع شِدَّةِ
القَيْظِ بها في زَمَنِ الصَّيفِ، وسُخُونَةِ الهِواءِ الذي قد لا يَتَأَتَّى معه تَبْرِيدُ الماءِ، وكان
التَّلْجُ غيرَ موجودٍ بها، وكانت الملوِكُ قد آعتادت الرِّفاهِيَةَ مع أَقْندارِها على تَحْصِيلِ
الأشياء العَزيزةِ، ووَلُوعِهِم بِجَلْبِها من الأماكِنِ البعيدةِ - إِكْمالاً لِحالِ الرِّفاهِيَةِ،
وَإِظهاراً لأبْهةِ المُلْكِ - دَعاهم كَألِ الرِّفاهِيَةِ والأبْهةِ إلى جَلْبِ التَّلْجِ من الشام إلى
مِصرٍ: لتَبْرِيدِ الماءِ به في زَمَنِ الحَرِّ. على أَنَّ ذلك كان في غيرهم من الملوِكِ التي
لا تَلْجُ بِحاضرتهم .

وقد ذكر أبو هلال العسْكَرِيُّ في كتابه "الأوائل" أَنَّ أَوَّلَ من حَمَلَ إِلَيْهِ التَّلْجُ
الْحِجَّاجُ بنُ يُوْسُفَ بالعِراقِ . ثم لآعتناء مِلوِكِ مِصرٍ بالتَّلْجِ قَرَّروا له هُجْناً تَحْمَلُهُ في البَرِّ
وَسُفُنًا تَحْمَلُهُ في البَحْرِ، حتّى يَصَلَ إلى القلعة المحروسة .

الفصل الثاني

من الباب الثالث من الخاتمة في المراكب المعدّة لنقل الثلج من الشام
 قد ذكر في "التعريف" أنها كانت في أيام الملك الظاهر «بيبرس» تغمده الله
 برحمته ثلاث مراكب في السنة، لا تزيد على ذلك . قال : ودامت على أيام سلطاننا
 (يعني الملك الناصر «محمد بن قلاوون») في السلطنة الثالثة، وبقيت صدراً منها،
 ثم أخذت في الترييد إلى أن بلغت أحد عشر مركباً في مملكتي الشام وطرابلس،
 وربما زادت على ذلك . قال : وآخر عهدى بها من السبعة إلى الثمانية تطلب
 من الشام ولا تكلف طرابلس إلا المساعدة، وكل ذلك بحسب اختلاف الأوقات
 ودواعي الضرورات .

قال : والمراكب تأتي دميّاط في البحر، ثم يخرج الثلج في النيل إلى ساحل
 بولاق، فينقل منه على البغال السلطانية، ويحمل إلى الشرايخانة الشريفة، على
 ما تقدم ذكره .

وقد جرت العادة أن المراكب إذا سقرت سقر معها من يتدرّكها من ثلاثين
 لمداراتها . ثم الواصلون بها في البحر يعودون على البريد في البر .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من الخاتمة في الهجن المعدّة لنقل ذلك

قد ذكر في "التعريف" أنه مما حدث في الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون»
 وأستمر . وقد كان قبل ذلك لا يُحمل إلا في البحر خاصة . ثم ذكر أن هذه المراكب
 من دمشق إلى الصنمين، ثم منها إلى بانياس، ثم منها إلى أربد، ثم منها إلى بيسان،

ثم منها إلى جينين ، ثم منها إلى قاقون ، ثم منها إلى لُدّ ، ثم منها إلى غزّة ، ثم منها إلى العريش ، ثم منها إلى الورداء ، ثم منها إلى المطيب ، ثم منها إلى قطيا ، ثم منها إلى القصير ، ثم منها إلى الصالحية ، ثم منها إلى بلبيس ، ثم منها إلى القلعة .

قال : والمستقر في كل مركز ست هجين : خمسة للأحمال ، وهجين للهجان ، تكون كل نقلة خمسة أحمال . وهذه الهجن من الشام إلى العريش على المملكة الشامية ، خلا جينين فإنها على صفد . ومن الورداء إلى القلعة هجن من المناخات السلطانية ، والكلفة على مال مضر . ولا تستقر هذه الهجن بهذه المراكز إلا أوان حمل الثلج ، وهي : حزيان وشرين الثاني . وعدة نقلاته إحدى وسبعون نقلة ، متقارب مدد ما بينها ، ثم صار يزيد على ذلك . ويجهز مع كل نقلة بریدی يتداركه ، ويجهز معه ثلاث خير بجمله ومداراته ، يحمل على فرس بریدی ثان . قال : وأستقر في وقت أن يحمل الثلج على خيل الولاية .

وأعلم أن الثلج إذا وصل على المرآكب والهجن حتى آتته إلى القلعة ، نحر بالشرايحاناه السلطانية . قال في "التعريف" : ومد فتر أن يحمل من الثلج على الظهر ما يحمل ، أستقر منه خالص المشروب ، لأنه يصل أنظف وأمن عاقبة ، على أن المتسفرين يأخذون الحاشني منه بحضور أمير مجلس وشاد الشرايحاناه السلطانية ونحزائها . أما المنقول في البحر فلبا عدا ذلك . قال : وللمجهزين به من الخلع ورسوم الإنعام رسوم مستقره ، وعوائد مستمره .

قلت : وقد جرت العادة أن وأصل الثلج في كل نقلة في البر والبحر تكتب به رجعة من ديوان الإنشاء ، وهذا هو وجه تعلقه بديوان الإنشاء .

الباب الرابع

من الخاتمة في المناور والمحرقات ، وفيه فصلان

الفصل الأول

في المناور

قال في "التعريف" وهي مواضع يرفع النار في الليل والدخان في النهار .

وذلك أن مملكة إيران لما كانت بيد هولاكو من التتار، وكانت الحروب بينهم وبين أهل هذه المملكة، كان من جملة احتياط أهل هذه المملكة أن جعلوا أما كن مرتفعة من رؤوس الجبال تُوقد فيها النار ليلاً و[يثار] الدخان نهاراً، للإعلام بحركة التتار إذا قصدوا دخول البلاد لحرب أو إغارة . وهذه المناور تارة تكون على رؤوس الجبال ، وتارة تكون في أبنية عالية ، ومواضعها معروفة تعرف بها أكثر السفارة ، وهي من أقصى ثغور الإسلام كالبيرة والرحبة ، وإلى حضرة السلطان بقلعة الجبل ، حتى إن المتجدد بالفترات إن كان بكرة علم به عشاء ، وإن كان عشاء علم به بكرة . ولما يرفع من هذه النيران ، أو يدخن من هذا الدخان أدلة يعرف بها اختلاف حالات رؤية العدو والخبر به باختلاف حالاتها ، تارة في العدد ، وتارة في غير ذلك . وقد أُرصد في كل منور الديادب والنظارة ، لرؤية ما وراءهم وإبراء ما أمامهم ، ولهم على ذلك جوامع مقرررة كانت لا تزال دارة . قال : وكان ينور بمدينة عانة من تلك المملكة قوم من النصح بحجة أمير سوي التنوير، ويستريح عليهم أهل البلد حباً لملوكها، فترى ناره أو دخانه بحرية الروم وبالخرف أيضاً، ويرفع فيهما أوفى إحداهما فيرى^(١)

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كل منهما بواى الهيكل، ويرفع فيه فيرى [بالقناطر، ويرفع بالقناطر فيرى بالرحبة
وقاها الله، ويرفع بها فيرى فى كوائل، ويرفع فيها فيرى فى منظره قباقب، ويرفع
فيها فيرى فى حفير أسد الدين، ويرفع بها فيرى^(١) بالسحنة، ويرفع فيها فيرى بمنظره
أرك، ويرفع فيها فيرى بالبويب وهو قنطرة [بين أرك] وتدمر، ويرفع فيها فيرى
بمنظره تدمر، ويرفع فيها فيرى بمنظره البيضاء، ويرفع فيها فيرى بالحير، ويرفع فيها
فيرى بجليجل، ويرفع فيها فيرى بالقريتين، ويرفع فيها فيرى بالعطنة، ويرفع فيها فيرى
بذينة العقاب، ويرفع فيها فيرى بمذنة العروس، ويرفع فيها لما حولها، إنذارا للرايا
وضما للأطراف، ويرفع حول دمشق بالجبل المطل على برزة فيرى بالمانع، ويرفع به
فيرى بتل قرية الكتبية، ثم يرفع فيها فيرى بالطرة، ثم يرفع فيرى بجبل أربد ويجبل
عجلون، ثم يرفع بهما فيرى بجبل طيبة أسم، ثم يرفع بها فيرى بالمنور المعمول بازاء
النير الذى برأس الجبل المنحدرا إلى بيسان المعروف بعقبة البريد، لا عدول بطريق^(٢)
البريد الآن عنه، ويرى منه أطراف أعمال نابلس [نحو جبال أزيق وما حولها،
ويرفع من هذا المنور الذى برأس عقبة البريد فيرى بالجبل المعروف بقرية جينين،
ثم يرفع منه فيرى بجبل فحمة، ثم يرفع منه فيرى بشرفة قاقون، ثم يرفع منه فيرى
بأطراف أعمال نابلس] ويرى على قصد الطريق بذروة الجبل المصايب لمجدل بابا،
فيرفع منه فيرى بمركز ياسور المعدول بالبريد الآن عنه، ثم يرفع منه فيرى بالجبال
المطلّة على غزّة، ويرفع بغزّة على أعالي الحدب المعروف بحدب غزّة، ثم [الامتور]^(١) لا
إخبار بسان التتار إلا على الجناح والبريد .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ - ٢٠١) .

(٢) الذى فى التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فنتبه .

قال : ثم أعلم أن جميع ما ذكرناه مناوِرٌ تنتشعب إلى ما نخرج عن جادة الطريق إلى البلاد الآخذة على جنبِ جنوباً وشمالاً ، شرقاً وغرباً . أما منذُ أصلح الله بين الفِئتين ، وأمن جانبِ الجهتين ؛ فقد قلَّ بذلك الاحتفال ، وصُرفَ عن البال . وهذه المناوِرُ رؤسومٌ قد عفت ، وجسومٌ [أكلت شعلُ النارِ أرواحها] ^(١) فأنطفت .

على أنه قد نصَّ في "التعريف" على مناوِرِ طريقِ البيرة ، ومناوِرِ طريقِ الرِّحبة ، وهما من نفسِ المملكة .

قلت : وهذه المناوِرُ مأخوذةٌ عن ملوكِ الهند . فقد رأيتُ في بعضِ الكتبِ أن ببلادهم مناوِرَ على جبالٍ مرتفعةٍ ، ترى النارُ فيها على بُعدٍ أكثر من هذه .

على أن مرتبها بهذه المملكة أولاً أتى بحكمةٍ ملوكيةٍ لا تساوئُ مقدارا ، إذ قد ترقى في سرعة بلوغِ الأخبار إلى الغاية القصوى . وذلك أن البريدَ يأتي من سرعة الخبر بما لم يأت به غيره ، والحمّامُ يأتي من الخبرِ بما هو أسرعُ في البريد ، والمناوِرُ تأتي من الخبرِ بما هو أسرعُ من الحمّام . وناهيك أن يظهر عنوانُ الخبرِ في القرأتِ بمصر في مسافةِ يومٍ وليلةٍ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

الفصل الثانى

من الباب الرابع من الخاتمة فى المحرقات

قال فى "التعريف": وهى مواضع مما يلى بلادنا من حدّ الشرق داخلةً فى تلك المملكة (يعنى مملكة بنى هولاكو من التتار) يُجهز إليها رجالٌ فُتحِرُقُ زرعها، كأرض البقعة والثّرثار والقمينة، وباشرة، والهُتّاخ، ومشهد ابنِ عمّره، والمويّاح، وبلاد نينوى من برّ الموصل التى يقال، إن يؤسّ عليه السلام بعثَ إلى أهلها، والوادي، والميدان، والباب، والصومعة، والمرج المعروف ببني زيد، والمرج المحترق، ومنازل الأويراتية، وهى أطراف هذه المواضع إلى جبل الأكراد. وبلاد سنجان - المنطق والمنظرة والمزيدة، وتحت الجبال عند التليلات، وكذلك التارات، وأعلى جبل سنجان وما والى ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التتار أنهم لا يكفون علفه لحيّهم بل يكفونها إلى ما تئبت الأرض، فإذا كانت تلك الأرض مُحْصَبَةً سلكوها، وإذا كانت مُحْدَبَةً تَجَبَّوْهَا، وكانت أرض هذه البلاد المتقدمة الذّكر أرضاً مُحْصَبَةً، تقومُ بكفاية خيلِ القوم إذا قصدوا بلادنا، فإذا احرقوا زرعها ونباتها ضَعُفُوا عن قَصْدِ بلادنا وحصل بذلك جميع الرّفق، والدفع عن مباحة الأطراف ومهاجمة الثغور.

وكان طريقهم فى إحراقها أن يُجهّزوا إليهم الرجال ومعهم الثعالب الوحشية وكلاب الصيد، فيكفون عند أمماء النّصاح فى كهوف الجبال وبطن الأودية، ويرتقبون يوماً تكون ريحه عاصفةً وهوائه زعزع، تُعلق النار موقّنةً فى أذنان تلك الثعالب والكلاب، ثم تُطلق الثعالب، والكلاب فى أثرها وقد جوعت، لتجد

الثعالبُ في العَدْوِ ، وَالْكَلابُ في الطَّلَبِ ، فَتُحْرِقُ ما مَرَّتْ به من الزَّرْعِ وَالنَّبَاتِ ، وَتُعَلِّقُ الرِّيحُ النَّارَ مِنْهُ فِيمَا جَاوَرَهُ ، مع ما يُلقِيهِ الرَّجَالَةُ بِأَيْدِيهِمْ في اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ ، وَعِشَاءَ الأَيامِ الْمُعْتَمَةِ . وكان يُنْفَقُ في نَظِيرِ هذا الإِحراقِ من خزانة دِمَشقَ جُمْلٌ من الأموالِ . قال : وكان الأَهْتامُ بِذلك في أوَّلِ الأمرِ قَبْلَ أن يَفْطَنُوا بِقَصْدِ التَّحْرِيقِ ، ثم نَبَّهَهُمْ على ذلك أَهْلُ المُدَاجاةِ ، فَصاروا يَرِبْطونَ عليها الطُّرُقَ ، وَيُمسِكُونَ مِنْها بالأطرافِ ؛ وَقَتْلَ عَدِيدٍ من الرِّجالِ بِسَبَبِها ، وَأَحْرَقُوهم بِأَشَدِّ من نارِها .

وَذَكَرَ أَنَّ ما كان يُجْتَنَبُ تَحْرِيقُهُ - أرضَ الجِبَالِ ، من حيثُ إنْها بلادُ بَقِيَّةِ السَّلَفِ الصَّالِحِ من ذُرِّيَّةِ شيخِ الإسلامِ الإمامِ الكَبيرِ العارِفِ باللهِ «عَبْدِ القادِرِ الجَلِيلِيِّ» المعروفِ بِالْكِيلَانِيِّ ، نَفَعَ اللهُ تَعَالَى بِبِرْكَانِهِ ، لَتَعْظِيمِهِمْ من الجَهْتينِ ، مع ما لَمْ يَحْدُثْ مِنْهُنَّ مَلُوكًا من المَكائِنِ العَلِيَّةِ : لَقَدِيمِ سَلْفِهِمْ ، وَصَمِيمِ شَرَفِهِمْ ، وَلِمَا لِلإِسْلامِ وَأَهْلِهِ مِنْ إِسْعافِهِمْ بما تَصِلُ إِلَيْهِ القُدْرَةُ وَيَبْلُغُهُ الإِمْكانُ .

قُلْتُ : وَبِتَمَامِ القَوْلِ في هذا الطَّرَفِ قَدِ تَمَّ ما كُنْتُ أُحَاوِلُهُ مِنَ التَّأليفِ ، وَأَهْتَمُّ بِهِ مِنْ الجَمْعِ ، وَبِاللهِ التَّوفيقِ ، وَإِلَيْهِ الرَّغْبَةُ ؛ وَهُوَ حَسْبِي وَنِعْمَ الوَكِيلُ . وَأَعْلَمُ أَنَّ المَصنِّفاتِ تَتَفَاوَتُ في الحُظوظِ إِقبالًا وَإِدبارًا : فَمِنْ مَرَّغُوبٍ فِيهِ ، وَمَرَّغُوبٍ عَنْهُ ، وَمُتَوَسِّطٍ بَيْنَ ذلكِ . على أَنَّهُ قَلَّ أن يَنْفَقَ تَأليفٌ في حِياةِ مُؤَلِّفِهِ ، أَوْ يَرُوجَ تَصْنيفُهُ على القُرْبِ من زَمانِ مُصنِّفِهِ .

قالِ المَسعودِيُّ في كِتابِهِ «التَّنبيهِ والإِشْرافِ» وَقَدْ تَشَرَّكَ الخَواطِرُ ، وَتَتَّفَقَ الضَّمائرُ ؛ وَرُبَّمَا كانَ الآخِرُ أَحْسَنَ تَأليفًا ، وَأَمْتَنَ تَصْنيفًا ؛ لِحِكْمَةِ التَّجاربِ ، وَخَشْيَةِ التَّبَعِ ، وَالإِحْتِراسِ مِنْ مَوانِعِ المَضارِّ . وَمِنْ هاهُنَا صارَتِ العُلومُ نَاميَّةً ، غَيْرَ مُتَناهِيةً ، لِوُجودِ الآخِرِ ما لا يَجِدُهُ الأوَّلُ ، وَذلكِ إلى غَيْرِ غَايَةٍ مُحْصُورَةٍ ، وَلا نِهايةَ مُحَدُودَةٍ .

على أن من شيم كثير من الناس إطراء المتقدمين، وتعظيم كتب السالفين؛ ومدح الماضي، وذم الباقي؛ وإن كان في كتب المحذنين ما هو أعظم فائده، وأكثر عائده.

ثم حكى عن الجاحظ - على جلالته قدره - أنه قال: كنت أولف الكتاب الكثير المعاني، الحسن النظم، وأنسبه إلى نفسي، فلا أرى الاستماع تصغي إلي، ولا الإرادات تليق نحوه، ثم أولف ما هو أنقص منه رتبة، وأقل فائدة، وأحله عبد الله بن المقفع، أو سهل بن هرون، أو غيرهما من المتقدمين، ممن صارت أسماءهم في المصنفين، فيقبلون على كتبها، ويسارعون إلى نسخها، لا شيء إلا لنسبتها للتقدمين، ولما يدخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم، ومناقسته على المناقب التي عني بتشبيدها.

قال: وهذه طائفة لا يعابها كبار الناس، وإمّا العمل على أهل النظر والتأمل الذين أعطوا كل شيء حقه من القول، ووفوه قسطه من الحق؛ فلم يرفعوا المتقدم إذا كان ناقصاً، ولم يفضوا المتأخر إذا كان زائداً؛ فليمثل هؤلاء تصنف العاوم، وتدون الكتب.

وإذا كان هذا نقل المسعودي عن الجاحظ الذي هو رأس المصنفين، وعين أعيانهم، فما ظنك بغيره؟

لكنى أحمد الله تعالى على رواج سوق تاليفي، ونفاق سلعته، والمسارة إلى استكناهه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلبي التأليف والنسخ يتسابقان في ميدان الطرس إلى آكتابه، ومرتقب تجارته للاستنساخ يساهمهما في ارتقائه. فضلاً من الله ونعمة، (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم).

قال المؤلف : نَجَزْتُ تَأْلِيْفَهُ فِي الْيَوْمِ الْمُبَارِكِ ، يَوْمَ الْجُمُعَةِ الثَّامِنِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ شَوَّالٍ ، سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةٍ وَثَمَانِمِائَةٍ .

وُنَجَزَتْ هَذِهِ النُّسْخَةُ فِي يَوْمِ السَّبْتِ الْمُبَارِكِ التَّاسِعِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ صَفَرِ الْخَرِّ ، سَنَةِ تِسْعِ وَثَمَانِينَ وَثَمَانِمِائَةٍ .

فَرَّغَ مِنْهُ كِتَابَةٌ وَسِتَّةٌ قَبْلَهُ ، فَقِيرٌ رَحِمَهُ رَبُّهُ الْغَنِيِّ الْفَاتِحِ ، عَبْدُ الرَّزَّاقِ بْنُ عَبْدِ الْمُؤْمِنِ
أَبْنِ مُحَمَّدِ النَّاسِخِ الشَّافِعِيِّ ، نَزِيلُ الصَّالِحِيَّةِ النَّجْمِيَّةِ الْمَعْرُوفَةِ بِالسَّادَةِ الْحَنَابِلِيَّةِ ، بِنِطْ
بَيْنِ الْقَصْرَيْنِ : غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ ، وَسَتَرَ عَيْبَهُ ، وَخَتَمَ لَهُ وَلِلْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ ، آمِينَ

وَحَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ خَاتَمِ الْأَنْبِيَاءِ
وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ : سُبْحَانَ رَبِّكَ
رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فهرس

الجزء الرابع عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندي

صفحة

- الباب الرابع — من المقالة التاسعة في الهدن الواقعة بين ملوك
الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ... ٢
- الفصل الأول — في أصول لتعين على الكاتب معرفتها ،
وفيه ثلاثة أطراف ... ٢
- الطرف الأول — في بيان رتبها ومعناها وذكر ما يرادفها
من الألفاظ ... ٢
- » الثاني — في أصل وضعها ... ٤
- » الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته في كتابة الهدن ،
وفيه نوعان ... ٧
- النوع الأول — ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام
وأهل الكفر ... ٧
- » الثاني — ما تشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر
والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء
المسلمين ، وهي ضربان ... ٩
- الضرب الأول — الشروط العادية التي جرت العادة أن يقع الاتفاق
عليها بين الملوك في كتابة الهدن خلا ما تقدم ... ٩
- الضرب الثاني — مما يلزم الكاتب في كتابة الهدنة — تحرير
أوضاعها ، وترتيب قوانينها ، وإحكام معاقدها ١١
- الفصل الثاني — في صورة ما يكتب في المهادنات والسجلات ،
ومذاهب الكتاب في ذلك ، وفيه طرفان ... ١٦
- الطرف الأول — فيما يستبد ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم ،
وتخذ منه نسخ بالأبواب السلطانية ، وتدفع
منه نسخ إلى ملوك الكفر ، وذلك على النمطين ... ١٦

صفحة

- النمط الأول - ما يكتب في طرة الهدنة من أعلى الدرج... .. ١٦
- » الثاني - ما يكتب في متن الهدنة، وهو على نوعين ... ١٧
- النوع الأول - ما تكون الهدنة فيه من جانب واحد،
وفيه مذهبان ١٧
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذا ما هادن عليه» الخ ١٧
- » الثاني - أن تفتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» بعبدية ... ٢٦
- النوع الثاني - من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر -
أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتاب
ثلاثة مذاهب ٢٩
- المذهب الأول - أن تفتح الهدنة بلفظ: «هذه هدنة»
ونحو ذلك ٢٩
- الثاني - أن تفتح الهدنة بلفظ: «أستقرت الهدنة بين
فلان وفلان» الخ ٣١
- » الثالث - أن تفتح المهادنة بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» ٧١
- الطرف الثاني - فيما يشارك فيه ملوك الكفر ملوك الإسلام
في كتابة نسخ من دواوينهم... .. ٧٢
- الباب الخامس - من المقالة التاسعة في عقود الصلح الواقعة بين
ملكين مسلمين، وفيه فصلان ٧٩
- الفصل الأول - في أصول تعتمد في ذلك ٧٩
- » الثاني - فيما جرت العادة بكتابته بين الخلفاء وملوك
المسلمين على تعاقب الدول، مما يكتب في الطرة
والمتن، وفيه نودان ٨٤

صفحة

- النوع الأول — ما يكون العقد فيه من الجانبين ٨٤
- » الثاني — ما يكون العقد فيه من جانب واحد ،
- وفيه مذهبان ٩٧
- المذهب الأول — أن يفتح عقد الصلح بلفظ : «هذا» ٩٧
- » الثاني — أن يفتح عقد الصلح بخطبة مفتوحة بـ «الحمد لله»
- وربما كرر فيها التحميد ١٠٠
- الباب السادس — من المقالة التاسعة في الفسوخ الواردة على العقود
- السابقة ، وفيه فصلان ١٠٨
- الفصل الأول — الفسخ ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون
- الآخر ١٠٨
- » الثاني — المفاخنة ، وهي ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

المقالة العاشرة

- في فنون من الكتابة يتداولها الكتاب وتنافس في عملها ليس لها تعلق
- بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها ، وفيها بابان ١١٠
- الباب الأول — في الحديات ، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة
- فصول) ١١٠
- الفصل الأول — في المقامات ١١٠
- » الثاني — في الرسائل ، وهي على أصناف ١٣٨
- الصنف الأول — الرسائل المملوكية ، وهي على ضربين ١٣٩
- الضرب الأول — رسائل الغزو ، وهي أعظمها وأجلها ١٣٩
- » الثاني — « الصيّد ١٦٥
- الصنف الثاني — من الرسائل — ما يرد منها مورد المدح والتقرير ... ١٧٢

صفحة	
٢٠٤	الصفنف الثالث - من الرسائل - المفانرات
٢٤٠	» الرابع - » » الأسللة والأجوبة
٢٥١	» الخامس - » » ما تكتب به الحوااا والماجرنا
	الفصل الثالث - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
٢٨٢	فنا قءمنا البنءق
	» الرابع - من الباب الأول من المقالة العاشرة ،
٣٠٠	فنا الصءءقا ، وفنه طرفان
٣٠٠	الطرف الأول - فنا الصءءقا الملوكة وما فنا معناها
٣١١	» الثاني - فنا صءءقا الرؤساء والأعان وأولاءهم
	الفصل الخامس - من الباب الأول من المقالة العاشرة ففما ففكتب
	عن العلماء وأهل الأءب ، مما جرت العاءة
	بمراعاة النر المسجوع ففنه ، ومحاولة الفصاحة
٣٢٢	وبالبلاغة ، وفنه طرفان
	الطرف الأول - ففما ففكتب عن العلماء وأهل الأءب ،
٣٢٢	وهو على صنففن
	الصنف الأول - الإجازاا بالفتنا والتءرفس والروافة وعراضاا
٣٢٢	الكتب ، ونحوها
	» الثاني - التقرفضاا التي ففكتب على المصنفاا المصنفة
٣٣٥	والقصائء المنظومة
	الطرف الثاني - ففما ففكتب عن الفضاة ، وهو على أربعة
٣٤٠	أصناف
٣٤٠	الصنف الأول - الفقالء الففكفة
٣٤٦	» الثاني - إسبجالاا العءالة

صفحة

- الصفحة الثالث - الكتب إلى التواب وما في معناها ٣٥٠
 » الرابع - ما يكتب في افتتاحات الكتب ٣٥٣
 الفصل السادس - في العمرات التي تكتب للحاج ٣٥٥
 الباب الثاني - من المقالة العاشرة في الهزليات ٣٦٠

الخاتمة

- في ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب ... ٣٦٦
 الباب الأول - في الكلام على البريد، وفيه فصلان ٣٦٦
 الفصل الأول - في مقدمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق
 الغرض من ذلك بثلاثة أمور ٣٦٦
 الأمر الأول - معرفة معنى لفظ البريد لغة وأصطلاحاً ٣٦٦
 » الثاني - أقل من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ٣٦٧
 » الثالث - بيان معالم البريد ٣٧١
 الفصل الثاني - من الباب الأول من الخاتمة في ذكر مراكز
 البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ٣٧٢
 المقصد الأول - في مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التي
 هي قاعدة الملك، وما يتفرع عنه من المراكز،
 وما تنهى إليه مراكز كل جهة ٣٧٣
 » الثاني - في مراكز غزّة، وما يتفرع عنها من البلاد الشامية ٣٧٩
 » الثالث - في ذكر مركز دمشق وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨١
 » الرابع - في مركز حلب، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٣
 » الخامس - في مركز طرابلس، وما يتفرع عنه من المراكز ٣٨٥
 » السادس - في معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة
 المشرفة والمدينة المنورة ٣٨٥

صفحة

- الباب الثاني — من الخاتمة في مطارات الحمام الرسائلي، وذكر
أبراجها المقتررة بطرق الديار المصرية والبلاد
الشامية، وفيه فصلان... .. ٣٨٩
- الفصل الأول — في مطاراته ٣٨٩
- » الثاني — في أبراج الحمام المقتررة لاطارتها بالديار
المصرية، والبلاد الشامية ٣٩٢
- الباب الثالث — من الخاتمة في ذكر هجن الثلج، والمراكب المعدة
لحمل الثلج الذي يحمل من الشام إلى الأبواب
السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول ٣٩٥
- الفصل الأول — في نقل الثلج ٣٩٥
- » الثاني — في المراكب المعدة لنقل الثلج من الشام... .. ٣٩٦
- » الثالث — في الهجن المعدة لنقل ذلك... .. ٣٩٦
- الباب الرابع — من الخاتمة في المناور والمحرقات، وفيه فصلان ٣٩٨
- الفصل الأول — في المناور ٣٩٨
- » الثاني — في المحرقات ٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بقلم

حضرة الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربي بالقسم الأدبي

بالمطبعة الأميرية

كلمة

في التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمة مؤلفه

بسم الله الرحمن الرحيم

تَحْمَدُ اللهُ تَعَالَى عَلَى مَا مَنَحَ مِنَ الْإِعَانَةِ وَوَهَبَ مِنَ التَّيْسِيرِ، وَنَشْكُرُهُ عَلَى مَا أَوْلَى
مِنَ التَّوْفِيقِ فَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ، وَنُصَلِّي وَنُسَلِّمُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صُبْحِ الْهَدَايَةِ
وَشَهَائِمِ السَّاطِعِ، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ النَّجْوِمِ الثَّوَابِ وَالْبُدُورِ الطَّوَالِعِ .

وَبَعْدُ ، فَإِنَّ الْأُمَّمَ بَنَاتِهَا ، وَالشُّعُوبَ بَسِيْرَهَا وَأَخْبَارِهَا ؛ وَمِنَ الْأَعْظَمِ الْآثَارِ
قِيَمَهُ ، وَأَعَزَّرِهَا دِيَمَهُ ؛ مَا تُعْرَفُ بِوِاسِطَتِهِ نَتَائِجُ أَفْكَارِ الْقَادَةِ الْعُلَمَاءِ ، وَتَبَيَّنَ بِهِ
قِرَائِحُ الْجِهَادَةِ الْحُكْمَاءِ .

وَلَمْ تَزَلِ الْأُمَّمُ الرَّأْيِيَّةُ فِي سَالِفِ الدَّهْوَرِ وَإِلَى وَقْتِنَا الْحَاضِرِ تُعْنَى بِشَأْنِ عُلَمَائِهَا :
عَلَى اخْتِلَافِ مَذَاهِبِهِمْ ، وَتَبَايُنِ مَشَارِبِهِمْ ؛ وَتَحِلُّهُمْ مِنَ الْكِرَامَةِ وَالْإِجْلَالِ أَعْلَى
الدَّرَجَاتِ ، وَتَرْجِعُ فِي أَمْرِ مَعَاشِهَا وَمَعَادِهَا إِلَى آرَائِهِمُ السَّيِّدِيَّةِ ، وَأَفْكَارِهِمُ الرَّشِيدِيَّةِ ؛
وَتَعْمَلُ بِكُلِّ جُهْدِهَا فِي إِنْشَاءِ دُورِ الْكُتُبِ وَتَشْيِيدِهَا ، وَالْمُبَالَغَةِ فِي تَنْسِيقِهَا وَتَرْتِيبِهَا :
لِتَحْفَظَ فِيهَا دِفَاتِرَهُمْ وَطَوَامِيْرَهُمْ الَّتِي أُوْدِعُوْهَا ثَمَرَةَ أَفْكَارِهِمْ ، وَنَتِيْجَةَ بَحْوْثِهِمْ .

وَلَقَدْ أَخَذَتْ مِصْرُنَا الْعَزِيْزَةَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ تُسَابِقُ «الْبَصْرَةَ وَالْكُوفَةَ» فِي هَذَا
الْمَيْدَانِ الْعَظِيْمِ ، مَيْدَانِ التَّقَدُّمِ وَالْأَرْتِقَاءِ .

وسارت من بعدهما تهاض « بغداد » دار السلام، ومركز الملائنة العباسية
وكعبة العالم، وقبلة الآداب - مع ما كان يئذله الخلفاء لعلمائها من أنواع التحف،
ويقرغونه عليهم من بدر الأموال : حبا في نشر العلم وبلوغه إلى درجة الكمال .

ولم تكن في ذلك أقل حظا من الأندلس : جنة العالم وزينة الدنيا، حتى في أعظم
عصوها الذهبية المملوءة بالمعالي والمفانخر، يوم كانت تنشر على العالم ألية الحضارة،
وتتلو عليه آيات بينات من الهدى والفرقان .



وفتحت مضر ذراعها : مرحبة بكل وافد عليها من أهل العلم والأدب ،
خصوصا بعد أن طوحت يد الردى بمدن العراق وحواضر الأندلس ، ودارت عليها
الدوائر، وذهب كل ما كان لها من آثار العلم وأعمال المجد والحضارة . فوفد
علمائها على هذا البلد الأمين ووجدوا فيه ضائهم المنشودة وأمنيتهم الكبرى .

فأصبحت ميدانا واسعا يتسابق فيه طلاب العلوم والمعارف، وموردا عذبا يزدحم
عليه عشاق الآداب ومحبو الحكمة، وجنة زاخرة بأكار العلماء ونوابغ الحكماء .

وأصبح ملوكها وأمراءها ينظرون إلى العلم والعلماء بعين ماؤها الإعظام
والإجلال ، وأخذوا يساعدونهم ، ويبالغون في إكرامهم وإدراج النعم عليهم ،
ويشجعونهم على الإكثار من التأليف والتصنيف في العلوم المختلفة . وصاروا
لا يؤسسون مسجدا للصلاة ، ولا يبنون مدرسة أو معهدا من معاهد العلم إلا
ويشيدون في داخله خزانة كتب جامعة ، يودعونها الكثير من نفائس الأسفار
والمصنفات في كل فن ومطلب : ميلا منهم إلى نشر المعارف ، ورغبة في تخليد
الذكر وجميل الأثر .

وقد كان لخلفائها الفاطميين خزانة كُتُبٍ كُبرى ، كانت من أجل الخزانين
وأعظمها شأنًا عندهم ، وأكثرها جمعًا للكتب النفيسة من جميع العلوم والفنون .
يقال : إنّه لم يكن في جميع بلاد الإسلام دارُ كتبٍ أعظم من التي كانت بالقاهرة
في قصر الخلفاء الفاطميين .



ولم تزل الأمة المصرية الكريمة سائرة على هذا المنهج القويم : تردّ مناهل العلم
العذبة ، وتتعدّئى بالبانة الطيبة - حتى أصابها ما أصاب غيرها من الأمم الإسلامية ،
فتفرقت شيعًا وأحزابًا ، وأنصرفت عن الشؤون العامة ، وصار كل واحد لا هيا
بذاته لا يشعر إلا بنفسه التي بين جنبيه .

فقلّ الاحتفال بالعلم وأهله ، وأهملت العناية بدور الكتب وخزائن الأسفار
على كثرتها ، وأمتدت إليها يد الخيانة تعبت بنفائسها أنى شاءت بدون محاسب
أورقيي . وأستولى المغيرون على الديار المصرية على أنفيس ما كان مودعًا فيها من
الكتب والآثار ، ونقلوا منه إلى بلادهم وممالكهم ماشاء الله أن ينقلوا .

وهاهى اليوم تُتادى أهل مصر من وراء البحار ، وتُناجيهم بما كان لسأفهم
الناهض من آثار العمل ودلائل النبوغ .

وما بقى في تلك الدور والخزائن ، مما زهدت فيه نفوس الطامعين - صار رهنا عليها ،
لا تقع عليه الأبصار ، ولا يمر بفكر : كأنه كثر مدفون لم يهتد إليه بعد ، أو سجين حكم
عليه بالسجن الأبدى لا يجد لنفسه خلاصا .



تلك كانت حالة مِصر حيناً من الدهر كادت تذهب بكل ما بنى أهلها في الزمن
السابق من مجيد وأسسوا من قوة - لولا أن الله تعالى أراد بها خيراً ،
بفلس على أريكتها ذلك المصلح الكبير، والعصامي الشهير، مؤسس «مِصر الحديثة»
ساكن الجنان "محمد علي باشا" رأس العائلة العلوية الكريمة .

فإنه - نور الله صريحه - أعاد لهذه الأمة سالف مجدها، ونبه الأفكار بعد
طول رقادها، ونشر العلوم والمعارف بين أبنائها، وأرسل البعثات العلمية إلى
أشهر الجامعات بأوروبا : ليتعلموا أساليب التعليم الحديثة، ويهدوا إلى مصر
بفنون من التربية والتهديب تدعو إليها سنة التقدم والارتقاء .

وقرب إليه العلماء والأدباء ، وشجعهم على التأليف والتصنيف . ووصل
الليل بالنهار في سبيل إنقاذها وإسعادها، وأسّس المدارس، وشاد دور الصناعات
والمعامل في حواضر هذا القطر السعيد .

وأنشأ "المطبعة الأميرية الكبرى" ، وجهزها بكل ما يلزم لها من
الآلات والعدد ، حتى صارت من أرقى دور الطباعة في الشرق ، واختار
لها نوابغ العلماء وأساطين الكُتاب : ليقوموا بتصحيح ما يُطبع فيها . وإليها يرجع
الفضل الأكبر في تقوية النهضة العلمية في مِصر وغيرها من البلاد ، ونشر العلوم
والآداب العربية في جميع أنحاء العالم .



وجاء من بعده حفيده أبو الأشبال، المغفور له "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دار الكتب" بالقاهرة، وجمع فيها ما بقي من الكتب في خزائنها المتفرقة في الدور والمساجد . وأخذ الأمراء وغيرهم من كبار الأمة يتبرعون لها بما في دور كتبهم وخزائنها من نفائس المصنفات .

وأهتم بها بعده ولده طيب الذكر "محمد توفيق باشا" خديو مصر فوقف عليها ألفاً وثم نمانئة فدان من أجود أراضي القطر الزراعية، وجعلها إدارة مستقلة بعد أن كانت عالة على إدارة المكاتب، يُنفق عليها من الأوقاف المحبسة عليها .

وأمثلات خزائنها بنفائس الأسفار وجلات المؤلفات، من مصر وغيرها من سائر الممالك، بما كان يُنفق عن سعة وكرم نفيس في سبيل الحصول عليها .

وبها معرض كبير حوى كثيراً من المصاحف الشريفة والآثار النفيسة، والمؤلفات القديمة، والمخطوطات العربية والنقود القديمة في كل دولة من الدول الإسلامية .

وهي على أهل هذا القطر السعيد حسنة من أعظم الحسنات، وأثر خالد من الآثار الباقيات؛ ولها على العلم وأهله الأيدى التي لا تشكر، والمفاتيح التي تُذكر فتشكر؛ فقد أعدت للترددين إليها قاعة كبرى للمطالعة، وجهزتها بكل ما يلزم لراحتهم وسهيل أعمالهم - فأقبل عليها الطلاب والعلماء، والكتّاب والشعراء، والمنجمون والحكماء وغيرهم : يردون نيرها، ويؤلون وجوههم شطرها : على اختلاف لغاتهم، وتباين أجناسهم وطبقاتهم .

ولما أشرفَ عليها حضرةُ صاحبِ السعادة "أحمد حشمت باشا" وزيرُ المعارفِ الأسبقِ وجّه — حفظه الله — عِنايَتَه إلى تَنْظِيمِهَا تَنْظِيمًا يَكْفُلُ لَهَا التَّقَدُّمَ في طريقِ الإصلاحِ اللَّائِقِ بِمَكَاتِبِهَا : لتَأْتِيَ بِالثَّمَرَةِ الْمَطْلُوبَةِ مِنْهَا ، وَتَقُومَ بِالخِدْمَةِ الْوَاجِبَةِ عَلَيْهَا : وذلكَ بِنَشْرِ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ بَيْنَ طَبَقَاتِ الْأُمَّةِ ، وَطَبْعِ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ وَإِذَاعَتِهَا بَيْنَ أَسْبَائِهَا .

فأختار طائفة مما فيها من نفايس الأسفار ونوادر المؤلفات ، وخصوصاً المؤلفات المصرية ، وأمر بأن تُطَبَعِ في «القسم الأدبي» بالمطبعة الأميرية ، فتُشْرِقَ أنوارها على طلاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قُربٍ ومن بُعدٍ ؛ ضَمَّنَّا بِهَا أَنْ تَبْقَى مَقْصُورَةً عَلَى قَاعَاتِ الْمَطَالَعَةِ وَغُرَفِهَا ، لَا يَنْتَفِعُ بِهَا غَيْرُ فَرِيْقٍ مِنَ الْمُقِيمِينَ فِي مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ .

فكانَ أَجَلَ كِتَابِ ظَهَرَ مِنْ هَذِهِ الْكُتُبِ فِي سَمَاءِ الْأَدَابِ الْعَرَبِيَّةِ ، كِتَابُ :

”صبح الأعشى في كتابة الإنشا“

(للقلقشندي)

التعريف بهذا الكتاب

مهما أطال الكاتب في وصف هذا الكتاب ، وجود فكره ، وأجهد قلمه في التعريف به وبقيمه العلمية والأدبية - فانه لا يبلغ تعدد ما أودع فيه من الفوائد ، وأنطوى تحته من الدقائق .

فهو كتابٌ جليلُ القدر ، عظيمُ النفع ، كبيرُ الفائدة ، لم يُنسخ على منواله في عالم التأليف في فنون الأدب والكتابة . ولا نعدُّ مُبالغين إذا قلنا : إنه أنفُسُ كتابٍ أُلِّف في اللغة العربية وتاريخ آدابها .

كتابٌ بين لنا فيه القلقشندي مؤلفه - رحمه الله - حالة اللغة العربية الشريفة ، وكيف كانت في العصور الأولى قبل الإسلام ، إلى أن وصلت إلى ما وصلت إليه من الانتشار بعد أن صارت لغة القرآن الكريم ، لغة الشريعة الإسلامية السمحة والدين الحنيف ، تبعاً لانتشارهما في أكثر أنحاء الكرة الأرضية : في بلاد فارس وما وراء النهر ، في بلاد الروم ، في البلاد المصرية (وقاها الله) في بلاد أفريقية والمغرب الأقصى ، في بلاد الأندلس ، في بلاد الهند ، في بلاد الصين ، في بلاد كثيرة من أوروبا .

كتابٌ بين لنا فيه مؤلفه كيف زهت هذه اللغة الشريفة في عصور الخلفاء : من بنى أمية وبني العباس ، وغزرت مادتها ، واتسع نطاقها ، ودنا قطاعها : فصارت لغة العلم والحكمة ، لغة الأدب والشعر ، لغة القضاء والأحكام ، لغة الجدل والمناظرة . كما صارت لغة التأليف والتصنيف : في أحكام الدين ، وتهذيب النفوس ، وتنقيف العقول ، ونظام الملك والممالك ، وسياسة الأمم والشعوب . وعلوم الفلسفة ، والرياضة ، والنجوم ، والطب ، والكيمياء ، وما أشبهها .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْكِتَابَةُ الْعَرَبِيَّةَ فِي الْبِلَادِ وَالْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ
مِنْ دَرَجَاتِ الرَّفْعَةِ وَالْأَرْتِقَاءِ ، ثُمَّ مَا آلَتْ إِلَيْهِ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ الضَّعْفِ وَالْوَهْنِ ، تَبَعًا
لِضَعْفِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ : بِاسْتِيلَاءِ الْمُغِيرِينَ عَلَى بِلَادِ الْخُلَفَاءِ وَمَمَالِكِهِمْ ، مَنْ لَيْسُوا
مِنْ أَهْلِهَا فِي اللُّغَةِ ، أَوْ فِي اللُّغَةِ وَالدِّينِ . كَمَا بَيْنَ لَنَا طَبَقَاتِ الْكُتَّابِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ ،
وَمَا كَانَ لَهُمْ عِنْدَ الْمُلُوكِ مِنَ الرَّعَايَةِ وَعَظِيمِ الْأَحْتِرَامِ .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْإِسْلَامِيَّةِ وَشُرُوطَهَا وَرُسُومَهَا ، وَمَنْ وَلِيَهَا :
مِنْ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ وَمَرَكَزِ وَلَايَاتِهِمْ ، وَخُلَفَاءِ نَبِيِّ أُمَّيَّةَ بِالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ ، وَخُلَفَاءِ
بَنِي الْعَبَّاسِ بِبَغْدَادٍ وَمِصْرَ ، وَخُلَفَاءِ الْفَاتِمِيَّةِ بِالْبُلْدَانِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَمُدْعَى الْخِلَافَةِ
مِنْ بَقَايَا الْمُوَحِّدِينَ بِأَفْرِيقِيَّةِ .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ، وَمَا بَلَغَتْهُ مِنْ
دَرَجَاتِ الْمَجْدِ وَالْحَضَارَةِ ، وَحُدُودِهَا ، وَأَنْظِمَتَهَا ، وَرُسُومَهَا ، وَمَا أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ
مِنَ الْقَضَائِلِ وَالْمَحَاسِنِ ، وَالخَوَاصِّ وَالْعَجَائِبِ ، وَمَا بَهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ ، وَمَنْ وَلِيَهَا
مِنَ الْمُلُوكِ وَالسَّلَاطِينِ جَاهِلِيَّةً وَإِسْلَامًا .

كِتَابٌ بَيْنَ لَنَا فِيهِ مُؤَلَّفُهُ - وَهُوَ ذَلِكَ الْمِصْرِيُّ الصَّحِيمُ ، الَّذِي أَقْلَتْهُ أَرْضُ
مِصْرَ ، وَأُظْلَمَتْ سَمَاوُهَا ، وَشَرِبَ حَتَّى رَوَى مِنْ نِيلِهَا - الْبِلَادِ الْمِصْرِيَّةِ ، وَفَضَائِلِهَا
وَمَحَاسِنِهَا ، وَخَوَاصِّهَا وَعَجَائِبِهَا ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْآثَارِ الْقَدِيمَةِ . وَبَيْنَ نَهْرِ النَّيْلِ وَمَنْبَعِهِ
وَمَصْبِهِ ، وَزِيَادَتِهِ وَنَقْصِهِ ، وَمَقَابِلَيْسُهُ ، وَمَا يَنْتَهِي إِلَيْهِ فِي الزِّيَادَةِ ، وَمَا يَصِلُ إِلَيْهِ
فِي النَّقْصَانِ ، وَخُجَانِهِ الْمُنْتَرَعَةِ عَنْهُ ، وَجُسُورِهِ الْحَاسَةِ لِمَائِهِ . وَبَيْنَ بَحِيرَاتِهَا ،
وَجِبَالِهَا ، وَزُرُوعِهَا ، وَرِيَاحِينِهَا ، وَنَوَاحِيهَا ، وَمَوَاشِيهَا ، وَوُحُوشِهَا ، وَطُيُورِهَا .
وَبَيْنَ حُدُودِهَا ، وَأَبْتِدَاءِ عِمَارَتِهَا ، وَسَبَبِ تَسْمِيَّتِهَا بِمِصْرَ ، وَتَفَرُّعِ الْأَقَالِيمِ الَّتِي حَوْلَهَا

عَنا . وَبَينَ أَعْمالِها وَقواعِدِها القَدِيمَة ، وَمَبانِيها العَظِيمَة الباقِيَة على مُرورِ الأَزمانِ .
وَبَينَ قواعِدِها الحَدِيثَة وما اشْتَمَلَتْ عليه من مَحاسِنِ الأَبْنِيَة . وَبَينَ من وِليها من
المُلوكِ والسُّلاطينِ قَبْلَ الإِسلامِ وبعده . وَبَينَ تَرْتِيبِ أَحْوالِها ، وَمُعاهَلاتِها ،
وَتَقْودِها ، وَتَرْتِيبِ مَمْلَكَتِها ، وَوظائِفِ دَوْلِها القَدِيمَة والحَدِيثَة .

كُتِبَ دُونَ فِيهِ مَؤَلَّفَة عَدَّةٌ كُتِبَ أَدبِيَّةٌ نَفِيسَةٌ بِتامِها ، وَجَمَعَ فِيهِ كَثيراً مِمَّا تَفَرَّقَ
فِي غَيرِها مِنَ المَؤَلَّفاتِ .

وَرَتَّبَهُ على مُقَدِّمَة وَعَشْرَ مَقالاتٍ وَخاتِمَة ، بناها بالإِجمالِ على التَّعريفِ بِمُحِبَّةِ
دِيوانِ الإِنشاءِ وَأَصْلِ وَضَعِهِ فِي الإِسلامِ ، وَتَفَرَّقِهِ بَعْدَ ذلكِ فِي المَمالِكِ ، وَبَيانِ كِتابَةِ
الإِنشاءِ وَتَفْضِيلِها على سائِرِ أنواعِ الكِتابَةِ ، وَصِفاتِ الكُتابِ وَأَدابِهِم ، وَمدحِ
فُضلائِهِم وَذَمِّ حَمَقائِهِم .

وَمَعْرِفَةِ كُلِّ ما يَحتاجُ إِلَيهِ كاتِبُ الإِنشاءِ فِي الأُمورِ العِلْمِيَّةِ وَالعَمَلِيَّةِ : كَمَعْرِفَةِ المَوادِّ
اللازِمَةِ لِلنُّشْئِ : مِنَ الخَطِّ وَتَوابعِهِ وَلواحِقِهِ وَغَيرِ ذلكِ .

وَمَعْرِفَةِ المَسالِكِ وَالْمَمالِكِ (عِلْمِ تَقْويمِ البُلدانِ) : كَمَعْرِفَةِ شَكْلِ الأَرْضِ وَإِحاظَةِ
البَحْرِ بِها ، وَبَيانِ جِهاَتِها الأَرْبَعِ وما اشْتَمَلَتْ عَلَيهِ مِنَ الأقالِمِ السَّبْعَةِ الطَّبِيعِيَّةِ ،
وَبَيانِ مَوقِعِ الأقالِمِ العُرْفِيَّةِ مِنها ، وَذِكْرَ حُدُودِها الجامِعَة لها ، وما فِيها مِنَ الجِبالِ
والبِجارِ والأَنْهارِ ، والأقالِمِ وَالْمَمالِكِ وَالبُلدانِ ، وَمُلُوكِها فِي القَدِيمِ والحَدِيثِ
وما يَتَّبَعُ ذلكِ .

وَمَعْرِفَةِ الأُمورِ الَّتِي تَشْتَرِكُ فِيها أنواعُ المُكاتَباتِ وَالوِلاياتِ وَغَيرِها : مِنَ ذِكْرِ
الأَسْماءِ وَالكُنَى وَمَواضِعِ ذِكْرِها فِي المُكاتَباتِ ، وَذِكْرِ الألقابِ وَأَصْلِ وَضَعِها ،
وما كانَ يُلقَبُ بِهِ أَهلُ كُلِّ دَوْلَة إِلى زَمَنِها ، وَكَيْفِيَّةِ تَوزِيعِ الأَعْمالِ على كُتَّابِ

الإنشاء ، ومقادير قطع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قوانين الكتابة وأنظمتها .

ومعرفة المكتبات العامة وأصولها ومقاصدها ، في القديم والحديث ، ومصطلح المكتبات الدائرة بين كتاب الإسلام ، وكتب النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أهل الإسلام وغيرهم ، والكتب الصادرة عن الصحابة والخلفاء والملوك ومن في معناهم ، وبيان مذاهب الكتاب فيما تفتتح به المكتبات ، وما يُخاطب به أهل الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرفة الولايات وطبقاتها ، وما يتبعها من البيعات والعهود ، ومعناها ، والولايات الصادرة لأرباب المناصب : من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفة الوصايا الدينية وما يكتب فيها في القديم والحديث ، والمساحات والإطلاقات وما يكتب فيهما ، والطرخانيات وتحويل السنين ، والتوفيق بين السنين القمرية والشمسية ، وما يكتب في التذكرة التي يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعات وأصل وضعها في الشرع ، وما يكتب فيها في القديم والحديث ، وأقول من وضع ديوان الجيش في الإسلام .

ومعرفة الأيمان وما يقع به القسم ، والأيمان التي أقسم الله تعالى بها ، وما كان يخلف بها العرب في الجاهلية ، وما يقسم به أهل كل ملة ونحلة .

ومعرفة عقود الأمانات والصالح ، والهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فنونا كثيرة يتداولها الكتاب والأدباء ويتنافسون في عملها ، لا تعلق لها بديوان الإنشاء : كعمل المقامات ، والرسائل الملوكية المشتملة على الغزو

والصَّيْد ، ورسائل المَدْح والذَّم ، ورسائل المُفَاخِرَاتِ بين الأشياء ، والرسائل المُشْتَمَلَة على الأسئلة والأجوبة ، والرسائل المكتتبه بالحوادث والمآجريات وغيرها ، وكقدمات البندوق ، والصدقات الملوكية وغيرها ، والعمرات التي تكتب للحجاج ، وذکر نسخ من ذلك كله . وما يكتب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفتوى والتدريس والمرويات ، وما يكتب على الكتب المصنفة والقصائد من التقريظات ، وما يكتب عن القضاة : من التقاليد الحكيمة وإسجلات العدالة وغير ذلك .

وتكلم فيه على البريد وأول من وضعه في الجاهلية والإسلام ، وبيان معالمه ومرآكره ، ومطارات الحمام الرسائلي وأبراجه بالديار المصرية والبلاد الشامية ، ومرآكب الثلج والهجن المعدة لنقله ، والمناوير والمحرقات .

وذكر فيه كثيراً من الآيات القرآنية الشريفة والأحاديث النبوية الكريمة ، والأمثال والحكم العربية ، وأقوال الكثرين من أئمة اللغة والتفسير والحديث والفقهاء وعلوم العربية .

وأتى فيه على كثير من أسماء الكتب والفنون ، وكثير من أسماء مشاهير المؤلفين والعلماء والأدباء والكتّاب والشعراء .

وأورد فيه من أصول الصنعة في الكتابة ما يعني قارئه عن تصفح كثير من المؤلفات الأدبية وغيرها .

وضمنه شيئاً كثيراً يفوق الحصر من الرسائل البلغة لمشاهير الكتّاب وأهل الأدب في الشرق والغرب والقديم والحديث .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلاً من فصوله دون أن يحلّيه من غرر منشأته
لنفسه بالمعجب والمُطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .
فصار كتابه لذلك - كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسيّر للقرآن
والحدّث، وشرح للأمثال والحكم العربيّة، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة
المصريّة خاصة .

وعلى الجملة فهو كتابٌ مُتَمِّعٌ، ودائرةٌ معارفٍ أدبيّةٌ كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة
والذكاء، وطوبى الباع في هذا الفنّ الجليل فنّ كتابة الإنشاء، وقوّة التمكن في اللّغة
العربيّة وآدابها، وينطق بماله من كثرة الأطلاع على دقيقتها وجليلها .

وإنّ حسن نيّة مؤلّفه، واعتماده على فضل الله تعالى في النفع به - ساعداً على
حفظه إلى هذا الزمّن من أيدي العوادي، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال في خاتمة تأليفه لهذا الكتاب - تحدّثاً بنعمة الله عليه - بعد أن ذكر أن
المصنّفات تتفاوت في الحُظوظ إقبالاً وإدباراً: فن مرّغوب فيه، ومرّغوب عنه،
ومتوسّط بين ذلك، وأنه قلّ أن ينفق تأليف في حياة مؤلّفه، أو يروج تصنيّف على
القرب من زمان مصنّفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودي في كتابه
”التنبيه والإشراف“ عن الجاحظ . قال :

لكنّي أحمد الله تعالى على رواج سوقِ تألّيفي ونفاقِ سلّعتي، والمُساوغة إلى
استيْجابي قبل اتّضاء تأليفه، حتّى إنّ قلّمي التّأليف والنّسخ يتسابقان في ميدان
الطّرس إلى آكثتابه، ومرّتقب نجاّزه للاستنساخ يساهمهما في ارتقابه، فضلاً من
الله ونعمة : ﴿ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ .

ترجمة مؤلفه

أما مؤلفه "أبو العباس أحمد القلقشندي" رحمه الله تعالى، فقد ترجمه السخاوي في الجزء الأول من كتابه: "الضوء اللامع"، في أعيان القرن التاسع، فقال:

«هو أحمد بن علي بن أحمد بن عبد الله، الشهاب بن الجمال بن أبي اليمن القلقشندي، ثم القاهري الشافعي».

ولد سنة ست وخمسين وسبعمائة، واشتغل بالفقه وغيره، وسمع على ابن الشيخة، وكان أحد الفضلاء، ممن برع في الفقه والأدب وغيرهما. وكتب في الإنشاء، ونبأ في الحكم، وشرح قطعاً من "جامع المختصرات" بل شرع في نظمه.

وعمل "صبح الأعشى" في قوانين الإنشاء في أربع مجلدات، جمع فأوعى. وكان يستحضر أكثر ذلك مع "جامع المختصرات" و"الحاوي". وألف كتاباً في أنساب العرب. وكان فيه تواضع ومروءة وخير.

مات يوم السبت عاشر جمادى الآخرة سنة إحدى وعشرين وثمانمائة، وله خمس وستون سنة. ذكره المقرئ في "عقوده" والعيني وآخرون. وسمى المقرئ والده عبد الله وهو وهم.



وترجمه صاحب "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" فقال:

« شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد القلقشندى الشافعى ، نزيل القاهرة .
تفقه ومهر ، وتعالى الأدب ، وكتب فى الإنشاء ، وناب فى الحكم . وكان يستحضر
" الحاوى " ، وكتب شيئاً على " جامع المختصرات " . وصنف كتاباً حافلاً سماه
" صبح الأعشى " فى معرفة الإنشاء ، وكان مُسنِّدًا لأكثر ذلك ، وصنف غير ذلك .
وكان مفضلاً وقوراً فى الدولة إلى أن توفى ليلة السبت عاشر جمادى الآخرة ، عن
(١)
خمسة وستين سنة » .



وقد وقفنا على شيء من ترجمته وقت تصحيحنا لكتابه " صبح الأعشى " ، نوره
هنا ، إتماماً لفائدة ، فنقول :

ميلاده ونسبته

وُلِدَ الْمُؤَلَّفُ فى سنة ستِّ وخمسين وسبعمائة كما ذكره السخاوى فى " الضوء
اللامع " ببلدة يقال لها " قَلْقَشَنْدَة " من أعمال مديرية القليوبية بالديار
المصرية : من أصلٍ عربىٍّ صميم ، من بنى بدر بن فزارة من قبس عيلان .
وكان بنو فزارة وردوا مصر مع من وردوا من العرب ، أيام الفتح الإسلامى وبعده ،

(١) سماه صاحب " كشف الظنون " مرة بأحمد بن علي ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة
بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان " نهاية الأرب " للؤلؤ ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله
أبن سليمان بن إسماعيل القلقشندى ، الشهر بأبن أبي غدة .
ووجد مكتوباً على بعض أجزاء " صبح الأعشى " الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله
أبن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنَزَلُوا بِأَقْلِيمِ الْقَلْبُوبِيَّةِ ، وَاسْتَوْلَى بَنُو بَدْرِ مِنْهُمْ عَلَى أَجَلِّ بِلَادِهِ . وَكَانَتْ لَهُمُ الرَّاسَةُ
وَالغَلْبَةُ عَلَى جِيرَانِهِمْ مِنْ بَنِي عَمِّهِمْ بَنِي مَازِنِ بْنِ فَزَارَةَ . وَكَانَ بَقْلَقَشْنَدَةَ فِرْقَتَانِ :
فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي بَدْرِ وَفِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مَازِنِ ^(١) .

نَسْأَتُهُ وَتَرْبِيَتُهُ

وَنَسَأَ نَسَاءً حَسَنَةً ، وَتَرَبَّى تَرْبِيَةً عَامِيَةً صَحِيحَةً ، وَتَوَجَّهَ إِلَى نَعْرِ الإسْكَندَرِيَّةِ
وَأَقَامَ بِهِ مَدَّةً مِنْ عُمُرِهِ ، وَطَلَبَ الْعُلُومَ الشَّرْعِيَّةَ عَلَى مَشْهُورِي الْعِلْمَاءِ فِي عَصْرِهِ ،
وَأَشْتَغَلَ بِفُنُونِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَدَبِ حَتَّى اجْتَمَعَ لَهُ مِقْدَارٌ وَافِرٌ مِنْهَا . وَأَطَّلَعَ عَلَى كَثِيرٍ
مِنَ الْكُتُبِ وَالْأَسْفَارِ فِي مَخْتَلَفِ الْعُلُومِ وَالْفُنُونِ .

إِجَازَتُهُ بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ

وَفِي سَنَةِ ثَمَانٍ وَسَبْعِينَ وَسَبْعِينَ حِينَ كَانَ مُقِيمًا بِنَعْرِ الإسْكَندَرِيَّةِ أَجَازَهُ الشَّيْخُ
سِرَاحُ الدِّينِ أَبُو حَفْصِ عُمَرَ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ الشَّهِيرُ بَابِنِ الْمَلَقِّينِ - بِالْفُتْيَا وَالتَّدْرِيسِ -
عَلَى مَذْهَبِ الإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَمْ تَكُنْ سِنُهُ إِذْ ذَاكَ تَتَعَدَّى إِحْدَى
وَعِشْرِينَ سَنَةً ، كَمَا أَجَازَهُ بِأَنْ يَرُويَ عَنْهُ كُلُّ مَا لَهُ مِنَ التَّأْلِيفِ فِي الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ
وغيرِهِمَا ، وَأَنْ يَرُويَ كُلَّ مَا جَازَتْ لَهُ رِوَايَتُهُ بِشَرْطِهِ عِنْدَ أَهْلِهِ ، كَالْكَتُبِ الصَّحَاحِ
السِّتَّةِ ، وَمُسْنَدِ الشَّافِعِيِّ وَمُسْنَدِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَكُتِبَتْ هَذِهِ الإِجَازَةُ بِحَظِّ الْقَاضِي تَاجِ الدِّينِ بْنِ غَنُومٍ مَوْجِعَ المُكِّمِ العَسْرِيْنَ
بِمَدِينَةِ الإسْكَندَرِيَّةِ .

(١) أنظر "نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب" للؤلؤف (ص ١٥٠) .

تَصَدُّرُهُ لِلإِفَادَةِ

وجلس بعد ذلك للإفادة، فانتفع الكثيرون من فقهه وورعه وأمانته .
وعرّض عليه كثيرٌ من تلاميذه ما حفظوه من الكتب وغيرها في الفقه والأصول
وعلوم العربية، فأجازهم بما حفظوه منها .

التحاقُّه بديوان الإنشاء

وفي شهر سنة إحدى وتسعين وسبعمائة آلتحق بديوان الإنشاء بالأبواب
الساطانية بالديار المصرية، وأنشأ مقامةً في تقرّيط القاضي بدر الدين، بن القاضي
علاء الدين، بن القاضي محيي الدين، بن فضل الله : رئيس ديوان الإنشاء وقتئذ،
سمّاها "الكواكب الدرّية"، في المناقب البدرية^(١) بناها على التعريف بكتابة الإنشاء
وعلو قدرها، وعظم خطرها، وأنها الحرفة التي لا يليق بطالب العلم غيرها، والصناعة
التي لا يجوز له العدول عنها إلى مساواها، وضمنها كثيراً من أصول الصنعة في الكتابة
وفروعها . إلا أنها لإيجازها، مع ما أشتملت عليه من كثير المعاني - أحتاجت إلى
شرح وإف يكشف إشاراتها، ويوضّح عباراتها، فألف كتابه "صبح الأعشى"
وجعله كالشرح لها .

وفرغ من تأليفه في يوم الجمعة الثامن والعشرين من شهر شوال سنة أربع
عشرة وثمانمائة .

(١) ذكرت في الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيّمته في الكتابة والإنشاء

كانت كتابته وإنشاؤه كأنشاء أهل عصره وكتابتهم ، مبناها على التخيّل والنزاهة المحسّنة البديعية : من السجع والجناس والتورية وغيرها ، والغلو فيها ، على نحو ما كان من كتابة « القاضي الفاضل » و « ابن نباتة » والقاضي « شهاب الدين ابن فضل الله العمري » وأضرابهم . غير أنها كانت تبدو أخفّ روحاً وأعظم وضوحاً من كتابة أمثاله .

وإنّ من قرأ مقامته التي أنشأها عند ألتحائه بديوان الإنشاء ، عرّف ما كان عليه : من غزارة المادة ، وسلامة الذوق ، وقوة الذاكرة .

مؤلفاته

وله تأليف كثيرة ، منها :

كتاب «صبح الأعشى في كتابة الإنشاء» وهو هذا الكتاب .

وكتاب «صوّء الصبح المسفر وجنى الدّوح المثمر» وهو مختصر كتاب «صبح الأعشى» . طبع الجزء الأول منه في مطبعة الواعظ بالقاهرة

في سنة ١٣٢٤ هـ .

وكتاب «الغيوث الهوامع» ، في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع

في علم الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه .

وَكِتَابُ "نَهَايَةِ الْأَرْبِ"، فِي مَعْرِفَةِ قَبَائِلِ الْعَرَبِ" فِي الْأَنْسَابِ، أَلْفَهُ لِلْمَقَرِّ الْجَمَالِيِّ
يُوسُفَ الْأُمَوِيِّ^(١)، وَطُبِعَ فِي مَطْبَعَةِ الرِّيَاضِ بِمَدِينَةِ بَنْدَادِ (دَارِ السَّلَامِ) .

وَكِتَابُ "قَلَائِدِ الْجُمَانِ"، فِي قَبَائِلِ الْعُرَبَانِ" فِي أَنْسَابِ الْعَرَبِ أَيْضًا .^(٢)

وَلَهُ غَيْرُ ذَلِكَ رَسَائِلٌ كَثِيرَةٌ تَزِيدُ عَلَى الْمِائَةِ أَوْدَعَهَا كِتَابُهُ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" .



هَذَا : وَقَدْ أُسْنِدَ إِلَيْنَا تَصْحِيحُ كِتَابِهِ "صَبِيحُ الْأَعْشَى" الْمَطْبُوعِ عَلَى نَمَقَةِ
دَارِ الْكُتُبِ، بِالْقِسْمِ الْأَدَبِيِّ بِالْمَطْبَعَةِ الْأَمِيرِيَّةِ . فَتَمُنَّا نَحْوَهُ بِمَا يَسِبُ بِإِزَاءِ مُؤَلِّفِ
جَمِيلٍ مِثْلِهِ، وَابْتِهَدْنَا فِي تَهْدِيهِ وَتَنْقِيحِهِ بِقَدْرِ الطَّاقَةِ .

وَأَسْتَعْنَا عَلَى مَا وَجَدْنَاهُ بِأَصْلِهِ مِنَ التَّحْرِيفِ الْكَثِيرِ وَالتَّصْحِيحِ الْغَرِيبِ - زِيَادَةً
عَلَى مَا فِيهِ مِنَ الطَّمْسِ وَالسَّقَمِ فِي مَوَاضِعَ مِنْ بَعْضِ أَجْزَائِهِ - بِمُرَاجَعَةِ كَثِيرٍ مِنَ الْمُؤَلَّفَاتِ
فِي الْفُنُونِ الْمُخْتَلِفَةِ، وَنَسَخَ شَيْئًا مِنْ رَسَائِلِ الْكُتَابِ وَدَوَائِرِ الشُّعْرَاءِ وَأَهْلِ الْأَدَبِ،
بَاحِثِينَ فِيهَا عَنْ كُلِّ مَوْضُوعٍ تَكَلَّمَ عَنْهُ الْمُؤَلِّفُ أَوْ أَشَارَ إِلَيْهِ فِي كِتَابِهِ . وَمَتَى تَوَقَّفْنَا
فِي شَيْءٍ مِنْ مَسَائِلِهِ أَثْنَاءَ التَّصْحِيحِ : لَعَدَمِ وُضُوحِهِ، أَوْ لِأَنَّ يَدَ النَّاسِخِ مَسَّخَتْهُ،
أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ - رَجَعْنَا إِلَى تِلْكَ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ فَصَحَّحْنَاهُ مِنْهَا، مَعَ الْحَافِظَةِ التَّامَّةِ
عَلَى عِبَارَةِ الْأَصْلِ مَهْمَا بَلَغَتْ مِنَ السَّقَمِ . وَمَا لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ نِيهَا، أَبْقَيْنَاهُ عَلَى حَالِهِ،

(١) كما ذكر ذلك المؤلف في خطبته، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبي الجورد «بمر بن راشد»

أمير العربان في البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسبه صاحب "كشف الظنون" لوالد المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك في كتابه "نهاية الأرب" .

[وقد تصفحناه فلم نعر على ذلك] .

وَوَضَعْنَا بِجَانِبِهِ عِلْمًا تَدُلُّ عَلَى التَّوَقُّفِ ، وَوَكَلْنَا إِلَى فَهْمِ الْقَارِيِّ الْكَرِيمِ وَعَبَقْرِيَّتِهِ ،
نَاسِبِينَ كُلِّ إِصْلَاحٍ أَدْخَلْنَاهُ عَلَيْهِ إِلَى مَوْضِعِهِ مِنْ كُتُبِ الْمُرَاجَعَةِ .

وَقَدِّمْنَا أَكْثَرَ كَلِمَاتِهِ بِالشَّكْلِ ، مُعْتَمِدِينَ فِي ضَبْطِهَا عَلَى مَعَارِجِ اللُّغَةِ الْمَشْهُورَةِ ،
وَبَدَّلْنَا الْجُهْدَ فِي تَقْرِيْبِهِ إِلَى فَهْمِ الْقَارِيِّ ، بِوَضْعِ عِلَامَاتِ التَّرْقِيمِ بَيْنَ جُمْلِهِ وَأَجْزَائِهِ
عِبَارَاتِهِ .

وَمَيَّزْنَا مَا فِيهِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْكَرِيمَةِ ، وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ ، وَأَمْثَالِ
الْعَرَبِ وَحِكْمِهَا - بِعِلَامَاتٍ مُخْتَلَفَةٍ تُمَيِّزُهَا عَنْ سِوَاهَا .

وَوَشَّيْنَا أَكْثَرَ صَفَحَاتِهِ بِمَوَاقِفٍ شَرَحْنَا فِي بَعْضِهَا مَا يُوجَدُ فِي مَتْنِهِ مِنْ غَرِيبِ
اللُّغَةِ ، وَأَثَبْنَا فِيهَا أَسْمَاءَ كُلِّ الْكُتُبِ الَّتِي اعْتَمَدْنَا عَلَيْهَا عِنْدَ التَّصْحِيْحِ .

وَمَا هُوَ إِذًا نَقْدٌ لِحَضْرَاتِ قُرَّانِهِ الْكَرَامِ - مِنْ أَكْبَرِ الْكُتَّابِ وَأَسَاطِينِ اللُّغَةِ
وَالْأَدَبِ - فِي تَوْبِيهِ الْجَدِيدِ الَّذِي يَسِّرُ النَّظَرَ وَيَشْرَحُ الْخَطِيطَ ، مُعْتَدِّينَ إِلَى
حَضْرَاتِهِمْ فِيمَا يَقِفُونَ عَلَيْهِ مِنْ خَطِّ مُطْبَعِيٍّ وَقَعَ فِيهِ أَثْنَاءُ الطَّبْعِ وَلَمْ تَنْتَبِهْ لَهُ ،
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

وَقَفْنَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مَا يُجِبُّهُ وَيَرْضَاهُ ، وَأَعَانَنَا عَلَى مَشَاقِّ هَذِهِ الصَّنَاعَةِ ، وَوَهَبَنَا
مِنْ لَدُنْهِ الصَّبْرَ وَحُسْنَ الثَّبَاتِ ، فَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ۞

القاهرة في ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ يناير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهيم